تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الثالث والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أجرى السحاب، وهزم الأحزاب، ونصر الأحباب بريح وجنود لم يروها، وعلَّم الإنسان ما لم يعلموها، وأنزل القرآن تنويراً للصدور، وتزييناً للنحور، وجعله معجزة باقية علىٰ ممر الدهور، والصلاة والسلام علىٰ من أوتي جوامع الكلم، سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه ذوي النجدة والكرم، وعلىٰ من تبعهم إلى يوم الجزاء من العرب والعجم.

أما بعد: فإني لما تفرغت من تفسير الجزء الحادي والعشرين من القرآن الكريم.. تصديت لتفسير الجزء الثاني والعشرين منه، مستمداً من فيض من إذا أراد شيئاً هيَّأ له أسبابه، وفتح بيد التسهيل، والتيسير بابه، فهو المرجو في كل دعاء، والمأمول في كل رجاء، فقلت وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا
كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى
فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ
وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ
ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ
وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ
لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ
ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ
وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ
وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ

أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] زيادة عقابهن إذا أتين بفاحشة مبينة.. أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال، مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يوفقن إلى إنفاق ما يرزقن على وجه يكون لهن فيه عظيم الأجر والثواب، ولا يخشين من أجله العقاب، وفي الآخرة يرزقن ما لا يحد ولا يوصف من غير نكد ولا كدرٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر ما اختصَّ به أمهات المؤمنين من مضاعفة العذاب والثواب.. أردف ذلك بيان أن لهن مكانة على بقية النساء، ثم نهاهن عن رخامة الصوت، ولين الكلام إذا هن استقبلن أحداً، حتى لا يطمع فيهن من في قلبه نفاق، ثم أمرهن بالقرار في بيوتهن، ونهاهن عن إظهار محاسنهن، كما يفعل ذلك أهل الجاهلية الأولى، ثم أمرهن بأهم أركان الدين، وهو إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله فيما يأمر وينهى؛ لأنه تعالى أذهب الآثام عن أهل البيت، وطهرهن تطهيراً، ثم أمرهن بتعليم غيرهن القرآن، وما يسمعنه من النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ . . .﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمر نساء نبيه ﷺ بأشياء، ونهاهن عن أخرى.. ذكر هنا ما أعد

---

(١) المراغي.

للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده في الدار الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله - سبحانه - لما أمر نبيه ﷺ أن يخيِّر زوجاته بين البقاء معه والتسريح سراحاً جميلاً، وفهم من هذا أن الرسول ﷺ لا يريد ضرراً لغيره، فمن كان ميله إلى شيء مكنه منه، وترك حظ نفسه لحظ غيره.. ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الإنسان في كل شيء كما أعطي ذلك للزوجات، بل هناك أمور لا اختيار لمؤمن ولا مؤمنة فيها، وهي ما حكم الله فيه، فما أمر به فهو المتبع، وما أراد النبي ﷺ فهو الحق، ومن خالفهما.. فقد ضل ضلالاً مبيناً.

وعبارة أبي حيان هنا: ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر تلك الأوصاف السابقة من الإسلام فما بعده.. عقب ذلك بما صدر من بعض المسلمين؛ إذ أشار الرسول بأمر وقع منهم الإباء له، فأنكر عليهم؛ إذ طاعته ﷺ من طاعة الله تعالى، وأمره من أمره انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] ما ينبغي أن يكون عليه النبي ﷺ مع ربه من تقواه، وإخلاصه له في السر والعلن، وما ينبغي أن يكون عليه مع أهله وأقاربه من راحتهم، وإيثارهم على نفسه فيما يطلبون، كما يومىء إلى ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ...﴾ إلخ.. أرشد عباده إلى تعظيمه تعالى، وإجلاله بذكره، والتسبيح له بكرة وأصيلاً، فهو الذي يرحمهم، وملائكته يستغفرون لهم كي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وكان بعباده المؤمنين رحيماً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه الترمذي - وحسنه من طريق عكرمة - عن أم عمارة الأنصارية: أنها أتت النبي ﷺ، فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ إلخ.

---

(١) المراغي.　　(٢) لباب النقول

وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن شيبة، قال: سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن، كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر، وأنا أسرح رأسي، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول على المنبر: «يا أيها الناس، إن الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾».

وأخرج الطبراني بسند لا بأس به عن ابن عباس، قال: قالت النساء: يا رسول الله، ما باله يذكر المؤمنين، ولا يذكر المؤمنات؟، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال: خطب النبي ﷺ زينب، وهو يريدها لزيد بن حارثة، فظنت أنه يريدها لنفسه، فلما علمت أنه يريدها لزيد.. أبت، فأنزل الله قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ...﴾ الآية، فرضيت وسلمت.

وأخرج ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت، وقالت: أنا خير منه حسباً، فأنزل الله قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ...﴾ الآية كلها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن أنس أن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة.

وأخرج الحاكم عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو إلى رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش، فقال النبي ﷺ: «أمسك عليك أهلك»، فنزلت: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

وأخرج مسلم وأحمد والنسائي قال: لما انقضت عدة زينب.. قال رسول الله ﷺ لزيد: «اذهب فاذكرها عليّ»، فانطلق، فأخبرها فقالت: «ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ، فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ

أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس، وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل يتبع حجر نسائه، ثم أخبرته أن القوم قد خرجوا، فانطلق حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها[١]: ما أخرجه الترمذي عن عائشة قالت: لما تزوج النبي ﷺ زينب.. قالوا: تزوج حليلة ابنه، فأنزل الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه عبد بن حميد عن مجاهد قال: لما نزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾.. قال أبو بكر: يا رسول الله، ما أنزل الله عليك خيراً إلا أشركنا فيه، فنزلت: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ ويخضع ﴿مِنكُنَّ﴾ يا نساء النبي ﷺ ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ﴿وَ﴾ يقنت لـ﴿رسوله﴾ ﷺ؛ بترك النشوز وسوء الخلق، وطلب ما ليس عنده من متاع الدنيا ﴿وَتَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾؛ أي: مخلصاً لله سبحانه ﴿نُّؤْتِهَا﴾؛ أي: نعطها ﴿أَجْرَهَا﴾ وثوابها ﴿مَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: ضعفين، فتجزى حسنتهن بعشرين حسنة.

ومعنى إيتائهن الأجر مرتين: أنه يكون لهن من الأجر على الطاعة مثلا ما يستحقه غيرهن من النساء إذا فعلت تلك الطاعة، وفي هذا[٢] دليل قوي على أن معنى ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أنه يكون العذاب مرتين، لا ثلاثاً؛ لأن المراد إظهار شرفهن ومزيتهن في الطاعة والمعصية، تكون حسنتهن كحسنتين، وسيئتهن كسيئتين، ولو كانت سيئتهن كثلاث سيئات.. لم يناسب ذلك كون حسنتهن كحسنتين، فإن الله سبحانه أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهن مضاعفة تزيد على

---

(١) لباب النقول (٢) الشوكاني.

مضاعفة أجرهن.

فائدة: فإن قلت: لِمَ خص الله سبحانه نساء النبي ﷺ بتضعيف العقوبة على الذنب، والمثوبة على الطاعة؟

قلت: أما الأول: فلأنهن يشاهدن من الزواجر الرادعة عن الذنوب ما لا يشاهده غيرهن، ولأن في معصيتهن أذى لرسول الله ﷺ، وذنب من آذى رسول الله أعظم من ذنب غيره، وأما الثاني: فلأنهن أشرف من سائر النساء؛ لقربهن من رسول الله ﷺ، فكانت الطاعة منهن أشرف، كما أن المعصية منهن أقبح. اهـ «فتح الرحمن».

وقيل: معنى ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: مرة[1] على الطاعة والتقوى لله سبحانه، وأخرى على طلبهن رضاء رسول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ بالياء التحتية حملاً على لفظ ﴿مَن﴾ ﴿وَتَعْمَلْ﴾ بالتاء الفوقية حملاً على المعنى، و﴿نُّؤْتِهَآ﴾ بنون العظمة. وقرأ الجحدري والأسواري ويعقوب في رواية: ﴿ومن تقنت﴾ بتاء التأنيث حملاً على المعنى، وبها قرأ ابن عامر في رواية رواها أبو حاتم عن أبي جعفر وشيبة ونافع. وقرأ السلمي وابن وثاب وحمزة والكسائي بالتحتية في ثلاثتها ﴿يقنت﴾، ﴿يعمل﴾، ﴿يؤتها﴾.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾؛ أي: هيأنا. ﴿لَهَا﴾؛ أي: لمن يقنت منكن لله ورسوله في الجنة زيادة على أجرها المضاعف. ﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾؛ أي: رزقاً حسناً مرضياً، وفيه[3] إشارة إلى أنَّ الرزق الكريم في الحقيقة هو نعيم الجنة، فمن أراده يترك التنعم في الدنيا، وقال النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «إياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بمتنعمين» يعني: أن عباد الله الخلص لا يرضون نعيم الدنيا بدل نعيم الآخرة، فإن نعيم الدنيا فانٍ.

والمعنى: أي ومن تطع منكن الله ورسوله، وتعمل صالح الأعمال.. نضاعف لها الأجر والمثوبة لكرامتها علينا بوجودها في بيت النبوة، ومنزل الوحي، ونور

---

(١) أبو السعود. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

الحكمة، وعين الهداية، وهيأنا لها زيادةً على هذا الكرامة في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: فلأنها تكون مرموقة بعين الغبطة لدى نساء العالمين، منظوراً إليها نظرة المهابةِ والإجلال، وأما في الآخرة: فلها رفيع الدرجات، وعظيم المنازل عنده تعالى في جنات النعيم.

ثم أظهر سبحانه فضيلتهن على سائر النساء تصريحاً، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ﷺ؛ أي: يا أزواج النبي ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف، بسبب صحبة النبي ﷺ، فإن المضاف إلى الشريف شريف. قال الزجاج: لم يقل كواحدة من النساء؛ لأن أحداً نفي عام للمذكر والمؤنث، والواحد والجماعة، وقد يقال على ما ليس بآدمي، كما يقال: ليس فيها أحد، لا شاة ولا بعير.

ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد فقال: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ مخالفة حكم الله سبحانه، ورضى رسوله، فهو قيد خيريتهن، وبيان أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا باتصالهن بالنبي ﷺ.

والمعنى[1]: أنه يوجد فيكن من التمييز ما لا يوجد في غيركن، وهو كونكن أمهات المؤمنين، وزوجات خير المرسلين، ونزول القرآن فيكن. فكما أنه ﷺ ليس كأحد من الرجال، كما قال عليه السلام: «لست كأحدكم»، كذلك زوجاته اللاتي تشرفن به.

قال ابن عباس: يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، بل أنتن أكرم عليَّ، وثوابكن أعظم لديَّ. انتهى. وقد وقعت منهن - ولله الحمد - التقوى البينة، والإيمان الخالص، والمشي على طريقة الرسول ﷺ في حياته، وبعد مماته. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه؛ أي: إن اتقيتن.. فلستن كأحد من النساء. وقيل: إن جوابه: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ﴾، والأول أولى؛ لدلالة الجواب المحذوف على نفي المساواة التي يفيدها التشبيه، وعلى هذا: فجملة ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ﴾ مستأنفة؛ أي: فلا تخضعن ولا تلنَّ ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾ عند مخاطبة الناس؛ أي: لا

---

(١) البحر المحيط.

تجبن بقولكن قولاً خاضعاً ليناً، كما تفعله المريبات والمُطمعات من النساء الموسات، فإنه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة.

والخضوع[1]: التطامن والتواضع والسكون واللين في الكلام، والمرأة مندوبة إلى الغلظة والخشونة في المقالة إذا خاطبت الأجانب؛ لقطع الأطماع، فإذا أتى الرجل باب إنسان وهو غائب، فلا يجوز للمرأة أن تلين بالقول معه، وترقق الكلام له، فإنه يهيج الشهوة، ويورث الطمع، كما قال: ﴿فَيَطْمَعَ﴾ بالنصب، لوقوعه في جواب النهي؛ أي: فيطمع فيكن، ويقصد الزنا بكن ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾؛ أي: نفاق، أو محبة فجور، أو شهوة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَيَطْمَعَ﴾ بفتح الميم ونصب العين جواباً للنهي. وقرأ أبان بن عثمان وابن هرمز بالجزم عطفاً على محل فعل النهي، فكسرت العين للالتقاء الساكنين، نهين عن الخضوع بالقول، ونهي مريض القلب عن الطمع. كأنه قيل: لا تخضع فلا تطمع. وقراءة النصب أبلغ؛ لأنها تقتضي الخضوع بسبب الطمع، وقال أبو عمرو الداني: قرأ الأعرج وعيسى ﴿فَيطمِعَ﴾ بفتح الياء وكسر الميم، ونقلها ابن خالويه عن أبي السمال قال: وقد روي عن ابن محيصن وذكر أنَّ الأعرج - وهو ابن هرمز - قرأ: ﴿فيُطمِعَ﴾ بضم الياء وفتح العين وكسر الميم؛ أي: فيطمع هو؛ أي: الخضوع بالقول، و﴿ٱلَّذِى﴾: مفعول، أو ﴿ٱلَّذِى﴾ فاعل والمفعول محذوف؛ أي: فيطمع نفسه.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عند الناس بعيداً من التهمة والريبة والإطماع بجد وخشونة، لا بتكسر وتغنج، كما يفعله المخنث على سنن الشرع، لا ينكر منه سامعه شيئاً، ولا يطمع فيهن أهل الفسق والفجور بسببه، فالزنا من أسباب الهلاك المعنوي، كالموت من أسباب الهلاك الحسي، وسببه الملاينة في الكلام والمطاوعة.

والمعنى: أي يا نساء النبي، إذا استُقصيت النساء جماعة. . لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والكرامة.

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

والخلاصة: أنه لا يشبهكن أحد من النساء، ولا يلحقكن في الفضيلة والمنزلة أحد إذا اتقيتن؛ أي: إذا استقبلتن أحداً من الرجال، فلا ترققن الكلام، فيطمع في الخيانة من في قلبه فساد وريبة من فسق ونفاق، وقلن قولاً بعيداً عن الريبة، غير مطمع لأحد. وتفسير الاتقاء بهذا المعنى ـ أعني الاستقبال ـ أبلغ في مدحهن؛ إذ لم يعلق فضلهن على التقوى، ولا علّق نهيهن عن الخضوع بها؛ إذ هن متقيات لله في أنفسهن، والتعليق يقتضي بظاهره أنهن لسن متحليات بالتقوى، أمر[1] تعالى أن يكون الكلام خيراً، لا على وجه يظهر في القلب علاقة ما، كما كان الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال برخيم الصوت ولينه، مثل كلام المومسات. نهاهن عن ذلك، واتقى بمعنى: استقبل، معروف في اللغة، قال النابغة:

سَقَطَ ٱلنَّصِيْفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ وٱتَّقَتْنَا بِٱلْيَدِ

أي: استقبلتنا باليد. وقال في «الكشاف»: إن المعنى: إن أردتن التقوى، أو إن كنتن متقيات. اهـ.

وإجمال هذا[2]: خاطبن الأجانب بكلام لا ترخيم فيه للصوت، ولا تخاطبنهم كما تخاطبن الأزواج، ولما أمرهن بالقول المعروف.. أتبعه بذكر الفعل، فقال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي[3]: والزمنَ يا نساء النبي بيوتكن، واثبتنَ في مساكنكن، فلا تخرجن لغير حاجة. وقيل: هو أمر من الوقار؛ أي: كنَّ أهل وقار وسكون، والخطاب وإن كان لنساء النبي ﷺ، فقد دخل فيه غيرهن. روي أن سودة بنت زمعة رضي الله عنها من الأزواج المطهرة: ما خطت باب حجرتها لصلاة ولا لحج ولا لعمرة، حتى أخرجت جنازتها من بيتها في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقيل لها: لم لا تحجين ولا تعتمرين؟ فقالت: قيل لنا: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، وفي الحديث: «خير مساجد النساء قعر بيوتهن».

وأخرج الترمذي والبزار عن ابن مسعود: أنَّ النبي ﷺ قال: «إن المرأة عورة، فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون من رحمة ربها، وهي في

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

قعر بيتها».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وقِرن﴾ بكسر القاف من وقر يقر وقاراً إذا سكن، والأمر منه: قر بكسر القاف، وللنساء قرن مثل عدن وزن من وعد يعد، وأصله: أوقرن.

وقرأ نافع وعاصم وأبو جعفر: بفتح القاف، أمر من قر يقر بفتح القاف في المضارع من باب: علم، أصله: اقررن. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿واقرِرن﴾ بألف الوصل وكسر الراء الأولى، وسيأتي البحث عن تصريف كل قراءة في مبحثه إن شاء الله تعالى.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾؛ أي: ولا تبدين زينتكن ومحاسنكن للرجال ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: تبرجاً مثل تبرج نساء أهل الجاهلية الأولى؛ أي: إظهاراً مثل إظهار نساء أهل الجاهلية الأولى زينتها ومحاسنها للرجال، أو المعنى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾؛ أي: ولا تتبخترن في[2] مشيكن تبرجاً وتبختراً مثل تبرج وتبختر نساء أهل الجاهلية الأولى في مشيتها.

والتبرج[3]: أن تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره، مما تستدعي به شهوة الرجل. قال المبرد: هو مأخوذ من البرج بمعنى: السعة، يقال: في أسنانه برج: إذا كانت متفرقة، وقيل: التبرج: هو التبختر في المشي، وهذا ضعيف جداً، وقد اختلف[4] في المراد بالجاهلية الأولى، فقيل: ما بين آدم ونوح، وقيل: ما بين نوح وإدريس، وقيل: ما بين نوح وإبراهيم، وقيل: ما بين موسى وعيسى، والجاهلية الأخرى: ما بين عيسى ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ـ وقيل: الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى: جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام، وقال المبرد: الجاهلية الأولى، كما تقول: الجاهلية الجهلاء. قال: وكان نساء الجاهلية تظهر ما يقبح إظهاره، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخليلها، فينفرد خليلها بما فوق الإزار إلى أعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البيضاوي.
(٣) الشوكاني.
(٤) الشوكاني.

قال ابن عطية: والذي يظهر لي أنه أشار إلى الجاهلية التي لحقنها، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة؛ لأنهم كانوا لا غيرة عندهم، وليس المعنى: أن ثم جاهلية أخرى، كذا قال، وهو قول حسن. ويمكن أن يراد بالجاهلية الأخرى: ما يقع في الإسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل، فيكون المعنى: ولا تبرجن أيها المسلمات بعد إسلامكن تبرجاً مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتن عليها، وكان عليها من كان قبلكن؛ أي: لا تحدثن بأفعالكن وأقوالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل.

والحاصل: أن الله سبحانه أمرهن[1] بملازمة بيوتهن، ونهاهن عن التبرج. وأعلم تعالى أنه فعل الجاهلية الأولى، وكانت عائشة رضي الله عنها إذا قرأت هذه الآية بكت، حتى تبل خمارها، تتذكر خروجها أيام الجمل تطلب بدم عثمان. وقيل لسودة: لِمَ لا تحجين وتعتمرين، كما يفعل إخوانك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت، وأمرني الله تعالى أن أقر في بيتي، فما خرجت من باب حجرتها، حتى أخرجت جنازتها، كما مرَّ.

وبعد أن نهاهن عن الشر.. أمرهن بالخير فقال: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي أصل الطاعات البدنية ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي هي أشرف العبادات المالية؛ أي: إن كان لكن مال، كما في تفسير أبي الليث. ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في سائر الأوامر والنواهي، فهو تعميم بعد تخصيص، وقال بعضهم: أطعن الله في الفرائض، ورسوله في السنن.

والمعنى[2]: أي وأدين الصلاة على الوجه القيم المعتبر شرعاً، وأعطين زكاة أموالكن، كما أمركن الله. وخَصَّ هاتين العبادتين بالذكر لما لهما من كبير الآثار في طهارة النفس، وطهارة المال، وأطعن الله ورسوله فيما تأتين، وما تذرين، واجعلن نصب أعينكن اتباع الأوامر، وترك النواهي.

ثم ذكر السبب في هذه الأوامر والنواهي على وجه عام، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بتلك الأوامر والنواهي ﴿لِيُذْهِبَ﴾ ويزيل ﴿عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

أي: الذنب المدنس للأعراض ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: يا أهل بيت الرسول الكريم، والمراد بهم: من حواه بيت النبوة رجالاً ونساءً، وهذا تعليل مستأنف لأمرهن ونهيهن، ولذلك عمم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهن بقوله: ﴿عَنكُمُ﴾، وصرح بالمقصود حيث قال: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: إنما أوصاكن الله ـ سبحانه ـ بما أوصاكن من التقوى، وأن لا تخضعن بالقول، ومن قول المعروف، والسكون في البيوت، وعدم التبرج، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله؛ ليذهب عنكم الرجس أهل البيت. والمراد بالرجس: الإثم والذنب المدنسان للأعراض، الحاصلان بسبب ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه، فيدخل في ذلك كل ما ليس فيه لله رضاً، وانتصاب ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ على المدح، أو على حذف حرف النداء.

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ من الأرجاس والأدران ﴿تَطْهِيرًا﴾ كاملاً، وفي استعارة الرجس للمعصية، والترشيح لها بالتطهير، تنفيرٌ عنها بليغ، وزجر لفاعلها شديد.

والمعنى: أي إنما يريد الله بذلك ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت الرسول، ويطهركم من دنس الفسق والفجور الذي يعلق بأرباب الذنوب والمعاصي.

وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية[1]، فقال ابن عباس وعكرمة وعطاء والكلبي ومقاتل وسعيد بن جبير: إن أهل البيت المذكورين في الآية هن: زوجات النبي ﷺ خاصةً، قالوا: والمراد بالبيت: بيت النبي ﷺ، ومساكن زوجاته لقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾، وأيضاً السياق في الزوجات من قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾، وسيأتي بيان أسماء زوجاته ﷺ، وبيان ترتيبها في الزواج في الفصل الآتي.

وقال أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة، وروي عن الكلبي: أن أهل البيت المذكورين في الآية هم: علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة، ومن حججهم: الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للإناث، وهو قوله: ﴿عنكم وليطهركم﴾،

---

(١) الشوكاني.

ولو كان للنساء خاصة لقال: عنكن ويطهركن، وأجاب الأولون عن هذا: بأن التذكير باعتبار لفظ الأهل، كما قال سبحانه: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، وكما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك؟ يريد: زوجته أو زوجاته، فيقول: هم بخير.

وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين، فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات، ولعلي وفاطمة والحسن والحسين، أما الزوجات.. فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات كما قدمنا، ولكونهن الساكنات في بيوته ﷺ، النازلات في منازله، وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين.. فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك ما روي عن ابن عباس قال: شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة، فيقول: «السلام عليكم ورحمة الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم، الصلاة يرحمكم الله»، كلَّ يوم خمس مرات، وغير ذلك من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول.

وأهل البيت على هذا القول هم كل من كان ملازماً له ﷺ من الرجال والنساء والأزواج والإماء والأقارب، وكلما كان المرء منهم أقرب، وبالنبي ﷺ أخص وألزم.. كان بالإرادة أحق وأجدر، وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين، منهم: القرطبي وابن كثير وغيرهما. وقيل: المراد بالبيت: بيت النسب، فيشمل جميع بني هاشم.

ثم بين ما أنعم به عليهن من أنَّ بيوتهن مهابط الوحي بقوله: ﴿وَاذْكُرْنَ﴾ للناس بطريق العظة والتذكير ﴿مَا يُتْلَى﴾ ويقرأ ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ ومنازلكن ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ سبحانه القرآنية الدالة على العقائد الصحيحية ﴿وَ﴾ الدالة على ﴿الْحِكْمَةِ﴾؛ أي: على الحكم والأحكام الشرعية؛ أي: من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز، وبين كونه حكمة منطوية على فنون العلم والشرائع، وحمل قتادة الآيات على آيات القرآن، والحكمة على الحديث الذي هو محض حكمة، وقال مقاتل: المراد بالآيات والحكمة: أمره ونهيه في القرآن؛ أي[1]: واذكرن نعمة الله عليكن إذ جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله،

---

(١) المراغي.

وما ينزل على الرسول من أحكام الدين، ولم ينزل به قرآن، فاحمدن الله على ذلك، واشكرنه على جزيل فضله عليكن، أو اذكرنها وتفكرن فيها لتتعظن بمواعظ الله، أو اذكرنها للناس ليتعظوا بها، ويهتدوا بهداها، أو اذكرنها بالتلاوة لها لتحفظنها، ولا تتركن الاستكثار من التلاوة.

ولا يخفى ما في هذا من الحث على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه، كما لا يخفى ما في تسمية ما نزل عليه من الشرائع بالحكمة، إذ فيه الحكمة في صلاح المجتمع في معاشه ومعاده، فمن استمسك به رشد، ومن تركه ضل عن طريق الهدى، وسلك سبيل الردى، والتعرض[1] للتلاوة في البيوت دون النزول فيها مع أنه الأنسب؛ لكونها مهبط الوحي؛ لعمومها جميع الآيات، ووقوعها في كل البيوت، وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول، وعدم تعيين التالي ليعم تلاوة جبريل، وتلاوة النبي، وتلاوتهن، وتلاوة غيرهن تعلماً وتعليماً. قال في «الوسيط»: وهذا حث لهن على حفظ القرآن، والأخبار، ومذاكرتهن بها للإحاطة بحدود الشريعة. والخطاب وإن اختص بهن.. فغيرهن داخل فيه؛ لأن مبنى الشريعة على هذين: القرآن والسنة، وبهما يوقف على حدود الله ومفترضاته. انتهى.

ومن سنة القارىء[2] أن يقرأ القرآن كل يوم وليلة، كيلا ينساه، ولا يخرج عن صدره، فإن النسيان، وهو أن لا يمكنه القراءة من المصحف من الكبائر. ومن السنة أن يجعل المؤمن لبيته حظاً من القرآن، فيقرأ فيه منه ما تيسر له من حزبه، ففي الحديث: «إن في بيوتات المسلمين لمصابيح إلى العرش يعرفها مقربو ملائكة السموات السبع والأرضين السبع، يقولون: هذا النور من بيوتات المؤمنين التي يتلى فيها القرآن». ومن السنة أن يستمع القرآن أحياناً من الغير، وكان النبي ﷺ يستمع قراءة أبي، وابن مسعود رضي الله عنهما. وكان عمر رضي الله عنه يستمع قراءة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وكان حسن الصوت، واستماع القرآن في الصلاة فرض، وفي خارجها مستحب عند الجمهور، فعليك بالتذكير والتحفظ والاستماع.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وقرأ زيد بن علي: ﴿ما تتلى﴾ بتاء التأنيث، والجمهور: بالياء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ لَطِيفًا﴾؛ أي: ذا لطف بكن؛ إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته وشرائعه ﴿خَبِيرًا﴾ بكن؛ إذ اختاركن لرسوله أزواجاً أو لطيفاً بأوليائه، خبيراً بجميع خلقه، وجميع ما يصدر منهم من خير وشر، وطاعة ومعصية، فهو يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، أو بليغ اللطف والبر بخلقه كلهم؛ خبيراً؛ أي: بليغ العلم بالأشياء كلها، فيعلم ويدبر ما يصلح في الدين، ولذلك أمر ونهى، أو: يعلم من يصلح لنبوته، ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته.

روي: أن رجلاً تكلم في زين العابدين رضي الله عنه، وافترى عليه، فقال زين العابدين: إن كنت كما قلت: فأستغفر الله، وإن لم أكن نستغفر الله لك، فقام إليه الرجل، وقبل رأسه، وقال: جعلت فداءك، لست كما قلت، فاستغفر لي، قال: غفر الله لك، فقال الرجل: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

ولما نزل في نساء النبي ﷺ ما نزل.. قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شيء، ولو كان فينا خير لذكرنا، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ...﴾ الخ. فذكر لهن عشر مراتب مع الرجال، فمدحهن بها معهم:

الأولى: الإسلام، وهو الانقياد لأمر الله تعالى، فذكرها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾؛ أي: إن الداخلين في السلم بعد الحرب، المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والإناث. وفي «التأويلات النجمية»: المسلم: هو المستسلم للأحكام الأزلية بالطوع والرغبة، مسلماً نفسه إلى المجاهدة والمكابدة ومخالفة الهوى، وقد سلم المسلمون من لسانه ويده. وبدأ سبحانه بذكر الإسلام الذي هو مجرد الدخول في الدين، والانقياد له مع العمل، كما ثبت في الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ، لما سأله جبريل عن الإسلام قال: «هو أن تشهد أن لا إله إلا الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان».

ثم عطف على المسلمين ﴿وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ تشريفاً لهن بالذكر صريحاً، وهكذا فيما بعد، وإن كن داخلات في لفظ المسلمين والمؤمنين وغيرهما، والتذكير إنما هو لتغليب الذكور على الإناث، كما في جميع ما ورد في الكتاب العزيز من ذلك.

والثانية: الإيمان، وهو تصحيح الاعتقاد، وموافقة الباطن الظاهر، فذكرها بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أي: المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين، وهم من يؤمن بالله وملائكته و كتبه ورسوله والقدر خيره وشره، كما ثبت ذلك في الصحيح عن رسول الله ﷺ.

وفي «التأويلات النجمية» المؤمن[1]: من أمنه الناس، وقد أحيا الله قلبه أولاً بالعقل، ثم بالعلم، ثم بالفهم عن الله تعالى، ثم بنور الله تعالى، ثم بالتوحيد، ثم بالمعرفة، ثم أحياه بالله.

قال في «بحر العلوم»: ومراد أصحابنا باتحاد الإسلام والإيمان: أن الإسلام هو الخضوع والانقياد بمعنى: قبول ما جاء به النبي ﷺ من عند الله تعالى، والإذعان له، وذلك حقيقة التصديق. ولذلك لم يصح في الشرع أن يحكم على أحد أنه مسلم وليس بمؤمن، أو مؤمن وليس بمسلم، فلا يمتاز أحدهما عن الآخر، ولم يريدوا الاتحاد بحسب المفهوم؛ لأن الإيمان هو تصديق الله فيما أخبر من أوامره ونواهيه ومواعيده، والإسلام: هو الخضوع والانقياد لألوهيته، وهذا لا يحصل إلا بقبول الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والإذعان لذلك، فمن لم يقبل شيئاً من هذه الأربعة.. فقد كفر وليس بمسلم. انتهى.

وعبارة «فتح الرحمن»: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فإن قلت[2]: لِمَ عطف أحدهما على الآخر، مع أنهما متحدان شرعاً؟

قلت: ليسا بمتحدين مطلقاً، بل هما متحدان ماصدقاً لا مفهوماً أخذاً من الفرق بين الإسلام والإيمان الشرعيين؛ إذ الإسلام الشرعي: هو التلفظ بالشهادتين بشرط تصديق القلب بما جاء به النبي ﷺ، والإيمان الشرعي: عكس ذلك، ويكفي في العطف المقتضي للاختلاف اختلافهما مفهوماً، وإن اتحدا ماصدقاً. انتهت.

والثالثة: القنوت، وهو الطاعة، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾؛ أي: المداومين على الطاعات، القائمين بها من الفريقين، والقانت: العبد المطيع، وكذا القانتة، وقيل: المداوم على الطاعة والعبادة.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

وفي «التأويلات النجمية»: القنوت: استغراق الوجود في الطاعة والعبودية.

والرابعة: الصدق في الأقوال والأفعال، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في القول والعمل والنية، والصادق والصادقة: هما من يتكلم بالصدق، ويتجنب الكذب، وبقي بما عوهد عليه. وفي «التأويلات النجمية»: في عقودهم، ورعاية حدودهم، والصدق: نور أهدي لقلوب الصديقين بحسب قربهم من ربهم.

والخامسة: الصبر على ما أمر الله به، وفيما ساء وسر، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعات، وعن المعاصي، والصابر والصابرة: هما من يصبر عن الشهوات، وعلى مشاق التكليف. وفي «التأويلات»: على الخصال الحميدة، وعن الصفات الذميمة، وعند جريان القضاء، ونزول البلاء.

والسادسة: الخشوع في الصلاة، وهو أن لا يلتفت، وقيل: هو التواضع، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾؛ أي: المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم. والخاشع والخاشعة: هما المتواضعان لله، الخائفان منه، الخاضعان في عباداتهم لله تعالى. وفي «التأويلات»: الخشوع: إطراق السريرة عند توارد الحقيقة. انتهى. قال بعضهم: الخشوع: انقياد الباطن للحق، والخضوع: انقياد الظاهر له، وفي «القاموس»: الخشوع: الخضوع، أو هو في البدن، والخشوع: في الصوت.

والسابعة: الصدقة مما رزق الله، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما وجب في ما لهم، والمعطين للصدقات فرضاً أو نفلاً والمتصدِّق والمتصدِّقة: هما من تصدق من ماله بما أوجبه الله عليه، وقيل: ذلك أعم من صدقة الفرض والنفل، يقال: تصدق على الفقراء: إذا أعطاهم الصدقة، وهي العطية التي بها تبتغى المثوبة من الله تعالى. وفي «التأويلات»: والمتصدقين والمتصدقات بأموالهم وأعراضهم، حتى لا يكون لهم مع أحد خصومة فيما ينال منهم.

والثامنة: المحافظة على الصوم، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصوم المفروض، أو مطلق الصوم فرضاً أو نفلاً. وفي «المفردات»: الصوم في الأصل: الإمساك عن الفعل مطعماً كان أو كلاماً أو مشياً، وفي الشرع: إمساك المكلف بالنية من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود عن تناول الأطيبين، والاستمناء، والاستقاءة.

والتاسعة: العفة، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ فروجهن عن الحرام بالتعفف والتنزه، والاقتصار على الحلال، وحذف مفعول الثاني لدلالة المذكور عليه.

والعاشرة: كثرة الذكر، وذكرها بقول: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ﴾ ذكراً ﴿كَثِيرًا﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ الله كثيراً، فحذف المفعول، كما في الحافظات؛ لعلمه من المذكور. والذاكر والذاكرة: هما من يذكر الله سبحانه على أحواله، وفي ذكر الكثرة دليل على مشروعية الاستكثار من ذكر الله سبحانه بالقلب واللسان، والمراد بكثرة الذكر: أن لا ينساه على كل حال، لا الذكر بكثرة اللغات. وفي «التأويلات»: بجميع أجزاء[1] وجودهم الجسمانية والروحانية، بل بجميع ذرَّات المكونات، بل بالله ويجميع صفاته. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أدبار الصلوات، وغدواً وعشياً، وفي المضاجع، وكلما استيقظ من نومه، وكلما غدا وراح من منزله ذكر الله. انتهى.

والاشتغال بالعلم النافع وتلاوة القرآن والدعاء من الذكر. وفي الحديث: «من استيقظ من منامه، وأيقظ امرأته، فصليا جميعاً ركعتين.. كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». وعن مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سبق المفردون»، قالوا: يا رسول الله، وما المفردون؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

وقال عطاء بن أبي رباح[2]: من فوض أمره إلى الله.. فهو داخل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، ومن أقر بأن الله ربه، ومحمداً رسوله، ولم يخالف قلبه لسانه، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، ومن أطاع الله في الفرض، والرسول في السنة.. فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾، ومن صان قوله عن الكذب.. فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾، ومن صلى، فلم يعرف من عن يمينه وعن شماله.. فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾، ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم.. فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، ومن صام في كل شهر أيام البيض ـ وهي: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر ـ.. فهو

---

(١) روح البيان.　　(٢) الخازن.

داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾، ومن حفظ فرجه عما لا يحل.. فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾، ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها.. فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾.

وخبر ﴿إِنَّ﴾ في الجميع هو قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: هيأ الله سبحانه في الآخرة ﴿لَهُم﴾ لهؤلاء المذكورين بسبب ما عملوا من الطاعات العشر المذكورة، وجمعوا بينها. والعطف[1] بالواو بين الذكور والإناث، كالمسلمين والمسلمات، كالعطف بين الضدين؛ لاختلاف الجنسين، وأما عطف الزوجين على الزوجين، كعطف المؤمنين والمؤمنات على المسلمين والمسلمات، فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع؛ أي: عطفهما لتغاير الوصفين. ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لما اقترفوا من الصغائر؛ لأنهن مكفرات بما عملوا من الأعمال الصالحة. وفي «التأويلات»: هي نور من أنوار جماله، جعل مغفر الرأس روحهم، يعصمهم مما يقطعهم عن الله. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثواباً جزيلاً على طاعاتهم التي فعلوها من: الإسلام والإيمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والتصدق والصوم والعفاف والذكر، وهو الجنة. وقيل: سهولة العبادة، ودوام المعرفة اليوم، وتحقيق المسؤول، ونيل ما فوق المأمول غداً.

ووصف الأجر بالعظم[2]: للدلالة على أنه بالغ غاية المبالغ، ولا شيء أعظم من أجرٍ هو الجنة ونعيمها الدائم الذي لا ينقطع ولا ينفد. اللهم اغفر ذنوبنا، وأعظم أجورنا.

والحاصل: أن الله سبحانه ذكر الأوصاف[3] التي يستحق بها عباده أن يمحو عنهم زلاتهم، ويثيبهم بالنعيم المقيم عنده، وهي عشرة:

١ - إسلام الظاهر بالانقياد لأحكام الدين في القول والعمل.

٢ - إسلام الباطن بالتصديق التام، والإذعان لما فرض الدين من الأحكام، وهذا هو الإيمان.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

٣ ـ القنوت: وهو دوام العمل في هدوء وطمأنينة، كما قال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، وقال: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فالإسلام والانقياد: مرتبة تعقبها مرتبة الإذعان والتصديق، وينشأ عن مجموعهما القنوت والخشوع.

٤ ـ الصدق في الأقوال والأعمال، وهو علامة الإيمان، كما أن الكذب أمارة النفاق، فمن صدق نجا، وفي الحديث: «عليكم بالصدق، فإنه يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار».

٥ ـ الصبر على المكاره، وتحمل المشاق في أداء العبادات، وترك الشهوات.

٦ ـ الخشوع والتواضع لله تعالى بالقلب والجوارح ابتغاء ثوابه، وخوفاً من عقابه، كما جاء في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

٧ ـ التصدق بالمال، والإحسان إلى المحاويج الذين لا كسب لهم ولا كاسب، وقد ثبت في الصحيح: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» وفي حديث آخر: «والصدقة تطفىء الخطيئة، كما يطفىء الماء النار».

٨ ـ الصوم، فإنه نعم العون على كسر الشهوة، كما روى ابن ماجه من قوله ﷺ: «والصوم زكاة البدن»؛ أي: إنه يزكيه ويطهره من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً.

٩ ـ حفظ الفروج عن المحارم والآثام، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾.

١٠ ـ ذكر الله كثيراً بالألسنة والقلوب، كما سبقت أحاديثه:

فهؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف يمحو عنهم ذنوبهم، ويؤتيهم الأجر العظيم في جنات النعيم.

قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها

زواجها لزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وطلاقها منه، وزواجها لرسول الله ﷺ لإبطال عادة جاهلية، وهي إعطاء المتبنَّى حكم الابن في حرمة زواج امرأته بعد طلاقها.

روي: أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش بن رباب الأسدي بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب لمولاه زيد بن حارثة، وكانت زينب بيضاء جميلة، وزيد أسود أفطس، فأبت وقالت: أنا بنت عمتك يا رسول الله، وأرفع قريش، فلا أرضاه لنفسي، وكذلك أباه أخوها عبد الله بن جحش، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية؛ أي: ما صحَّ واستقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين، فدخل فيه عبد الله وأخته، ولفظ: ما كان، وما ينبغي، ونحوهما معناها: المنع والحظر من الشيء، والإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعاً، وقد يكون لما يمتنع عقلاً، كقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾.

﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ وحكما ﴿أَمْرًا﴾ من أمور الدين والدنيا، مثل نكاح زينب؛ أي: إذا قضى رسول الله، وحكم حكماً من الأحكام. وذكر(١) الله لتعظيم أمره، والإشعار بأن قضاءه ﷺ قضاء الله تعالى، كما أنَّ طاعته طاعة الله تعالى. ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: الاختيار ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ما شاءوا. والخيرة ـ بالكسر ـ: اسم مصدر من اختار بمعنى: الاختيار، والمعنى: أنه لا يحل لكل مؤمن ومؤمنة إذا قضى الله ورسوله قضاء أن يمتنعوا من قضائه، ويختاروا من أمرهم ما شاءوا، بل يجب(٢) عليهم أن يجعلوا اختيارهم تبعاً لاختياره ﷺ، ورأيهم تلواً لرأيه، فقالا: رضينا يا رسول الله، فأنكحها إياه، وساق عنه إليها مهرها، وإنما جمع الضمير في قوله: ﴿لَهُمُ﴾، و﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ لأن ﴿مؤمن﴾ و﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ وقعا في سياق النفي، فهما يعمان كل مؤمن ومؤمنة. وقال بعضهم(٣): الضمير الثاني للرسول؛ أي: من أمره، والجمع للتعظيم.

---

(١) روح البيان.

(٢) النسفي.

(٣) روح البيان.

والخلاصة: أنه لا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة أن يختارا أمراً قضى الرسول بغيره، وقال أبو حيان: الخيرة: مصدر من تخير على غير قياس، كالطيرة من تطير. وقرىء بسكون الياء، ذكره عيسى بن سليمان، وقرأ الحرميان[1] - نافع وابن كثير - والعربيان - أبو عمرو وابن عامر - وأبو جعفر وشيبة والأعرج وعيسى: ﴿أن تكون﴾ بتاء التأنيث؛ لكونه مسنداً إلى الخيرة، وهي مؤنثة لفظاً، وقرأ الكوفيون والحسن والأعمش والسلمي: ﴿أَن يَكُونَ﴾ بالياء التحتية، واختار هذه القراءة أبو عبيد؛ لأنه قد فرق بين الفعل وفاعله المؤنث بقوله: ﴿لَهُمُ﴾، مع كون التأنيث غير حقيقي. وعبارة «الشوكاني»: والخيرة: مصدر بمعنى الاختيار، وقرأ ابن السميقع: ﴿الخيرة﴾ بسكون الياء، والباقون بفتحها. انتهت.

ثم توعد سبحانه من لم يذعن لقضاء الله وقدره، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في أمر من الأمور، ويعمل برأيه. وفي «كشف الأسرار»: ومن يعص الله، فخالف الكتاب ورسوله، فخالف السنة ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ طريق الحق، وعدل عن الصراط المستقيم ﴿ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾؛ أي: بيّن الانحراف عن سنن الصواب؛ أي: ضلالاً ظاهراً واضحاً لا يخفى.

والمعنى[2]: أي ومن يعصِ الله ورسوله ويخالفهما فيما أمرا ونهيا.. فقد جار ومال عن قصد السبيل، وسلك غير طريق الهدى والرشاد، ونحو الآية قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن العبد ينبغي أن لا يكون له اختيار بغير ما اختاره الله، بل تكون خيرته فيما اختاره الله له، ولا يعترض على أحكامه الأزلية عند ظهورها له، بل له الاحتراز عن شر ما قضى الله قبل وقوعه، فإذا وقع الأمر.. فلا يخلو إما أن يكون موافقاً للشرع، أو يكون مخالفاً للشرع، فإن يكن موافقاً للشرع.. فلا يخلو؛ إما أن يكون موافقاً لطبعه، أو مخالفاً لطبعه، فإن يكن موافقاً لطبعه.. فهو نعمة من الله يجب عليه شكرها، وإن يكن مخالفاً لطبعه.. فيستقبله

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

بالصبر والتسليم والرضا، وإن يكن مخالفاً للشرع.. يجب عليه التوبة والاستغفار، والإنابة إلى الله تعالى من غير اعتراض على الله فيما قدر وقضى وحكم به، فإنه حكيم يفعل ما يشاء بحكمته، ويحكم ما يريد بعزته. انتهى.

ثم ذكر الله سبحانه نبيه بما وقع منه؛ ليزيده تثبيتاً على الحق، وليدفع عنه ما حاك في صدور ضعاف العقول، ومرضى القلوب فقال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾. روي[1] أنه لما نزلت الآية المتقدمة.. قالت زينب وأخوها عبد الله: رضينا يا رسول الله؛ أي: بنكاح زيد، فأنكحها عليه الصلاة والسلام إياه، وساق إليها مهرها عشرة دنانير وستين درهماً، وخماراً، وملحفة، ودرعاً، وإزاراً، وخمسين مداً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر، وبقيت بالنكاح معه مدةً، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام يوماً إلى بيت زيد لحاجة، فأبصر زينب، فأعجبه حسنها، فوقع في قلبه محبتها بلا اختيار منه، والعبد غير ملوم على مثله ما لم يقصد المأثم، ونظرة المفاجأة التي هي النظرة الأولى مباحة، فقال عليه الصلاة والسلام عند ذلك: «سبحان الله، يا مقلب القلوب ثبت قلبي» وانصرف، وذلك أن نفسه كانت تمتنع عنها قبل ذلك لا يريدها، ولو أرادها لخطبها، وسمعت زينب التسبيحة، فذكرتها لزيد بعد مجيئه، وكان غائباً ففطن، فأتى رسول الله ﷺ تلك الساعة، فقال: يا رسول الله، إني أريد أن أفارق صاحبتي، فقال: «ما لك، أرأيت منها شيئاً؟» قال: لا والله، ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم علي لشرفها، وتؤذيني بلسانها، فمنعه عليه الصلاة والسلام، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد قصة وقت قولك: ﴿لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالتوفيق للإسلام الذي هو أجل النعم، وللخدمة والصحبة، وهو زيد بن حارثة ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ يا محمد بحسن التربية والإعتاق والتبني له، وكان من سبي الجاهلية، اشتراه رسول الله ﷺ في الجاهلية، وأعتقه وتبناه، وهو أول من أسلم من الموالي، وكان ﷺ يحبه، ويحب ابنه أسامة، شهد بدراً والخندق والحديبية، واستخلفه النبي ﷺ على المدينة حين خرج إلى بني المصطلق، وخرج أميراً في سبع سرايا، وقتل يوم مؤتة ـ بضم الميم وبالهمزة ساكنة ـ: موضع معروف عند الكرك.

---

(١) روح البيان.

ومقول القول قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾؛ أي: أمسك على نكاحك ﴿زَوْجَكَ﴾ زينب، واتركها فيه ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ سبحانه في أمرها، ولا تطلقها ضراراً، أو تعللاً بتكبرها، ولا تعجل بطلاقها. ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾؛ أي: والحال أنك تضمر في قلبك وتستر الأمر الذي الله مظهره للناس، وهو نكاحها إن طلقها زيد. وقيل: حبها، وهو علم بأن زيداً سيطلقها وسينكحها، يعني: أنك تعلم بما أعلمتك أنها ستكون زوجتك، وأنت تخفي في نفسك هذا المعنى، والله يريد أن ينجز لك وعده، ويبدي أنها زوجتك بقوله: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، وكان من علامات أنها زوجته إلقاء محبتها في قلبه، وذلك بتحبيب الله تعالى، لا بمحبته بطبعه، وذلك ممدوح جداً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة»، وأنه لم يقل أحببت، ودواعي الأنبياء من قبيل الإذن الإلهي؛ إذ ليس للشيطان عليهم سبيل.

قال في «الأسئلة المقحمة»: قد أوحي إليه أن زيداً يطلقها، وأنت تزوج بها، فأخفى عن زيد سر ما أوحي إليه؛ لأن السر يتعلق بالمشيئة والإرادة، ولا يجب على الرسل الإخبار عن المشيئة والإرادة، وإنما يجب عليهم الإخبار والإعلام عن الأوامر والنواهي، لا عن المشيئة، كما أنه كان يقول لأبي لهب: آمن بالله، وقد علم أن الله أراد أن لا يؤمن أبو لهب، كما قال تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾؛ لأن ذلك الذي يتعلق بعذاب أبي لهب إنما هو من المشيئة والإرادة، فلا يجب على النبي إظهاره، ولا الإخبار عنه.

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: تستحييهم، أو[1] تخاف لومهم وتعييرهم لك به، بأن يقولوا: أمر مولاه بطلاق امرأته، ثم تزوجها. وفي «التأويلات النجمية»: أي: تخشى عليهم أن يقعوا في الفتنة بأن يخطر ببالهم نوع إنكار، أو اعتراض عليه، أو شك في نبوته، بأن النبي ﷺ من تنزه عن مثل هذا الميل، وتتبع الهوى، فيخرجهم عن الإيمان إلى الكفر، فكانت تلك الخشية إشفاقاً منه عليهم، ورحمة بهم أنهم لا يطيقون سماع هذه الحالة، ولا يقدرون على تحملها. ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ﴾؛ أي: والحال أن الله سبحانه أحق وأجدر وأولى ﴿أَن تَخْشَىٰهُ﴾ في كل حال، وتخاف منه،

(١) روح البيان.

وتستحييه.

وفي «كشف الأسرار»: إنما عوتب ﷺ على إخفاء ما أعلمه الله تعالى أنها ستكون زوجة له. قالت عائشة رضي الله عنها: لو كتم النبي ﷺ شيئاً من الوحي.. لكتم هذه الآية: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ الخ، وما نزل على رسول الله آية هي أشد عليه من هذه الآية.

وفي «التأويلات»: يشير إلى أن رعاية جانب الحق أحق من رعاية جانب الخلق؛ لأن لله تعالى في إبداء هذا الأمر، وإجراء هذا القضاء حكماً كثيرة، فالواجب على النبي ﷺ إذا عرض له أمران، في أحدهما رعاية جانب الحق، وفي الآخر رعاية جانب الخلق، أن يختار رعاية جانب الحق على الخلق، فإن للحق تعالى في إجراء حكم من أحكامه، وإصفاء أمر من أوامره حكماً كثيرة، كما قال تعالى في إجراء تزويج النبي ﷺ بزينب قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال القرطبي: وقد اختلف في تأويل هذه الآية، فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين منهم ابن جرير الطبري وغيره إلى أن النبي ﷺ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش، وهي في عصمة زيد بن حارثة، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد، فيتزوجها هو، ثم إن زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول، وعصيان أمر، وأذىً باللسان، وتعظماً بالشرف قال له: «اتق الله فيما تقول عنها، وأمسك عليك زوجك»، وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف. انتهى.

وحاصل معنى الآية: أي واذكر أيها الرسول حين قولك لمولاك الذي أنعم الله عليه فوفقه للإسلام، وأنعمته عليه بحسن تربيته وعتقه وتقريبه منك: أمسك عليك زوجك زينب، واتق الله في أمرها، ولا تطلّقها ضراراً، وتعللاً بتكبرها، وشموخاً بأنفها، فإن الطلاق يشنيها، وربما لا يجد بعدها خيراً منها، وأنت تعلم أن الطلاق لا بد منه، بما ألهمك الله أن تمتثل أمره بنفسك؛ لتكون أسوةً لمن معك، ولمن يأتي بعدك، وإنما غلبك في ذلك الحيرة، وخشية أن يقولوا: تزوج محمد مطلقة متبناه، فأنت تخفي في نفسك ما الله مبديه من الحكم الذي ألهمك، وتخاف من اعتراض الناس، والله الذي أمرك بهذا كله أحق وحده بأن تخشاه، فكان عليك أن

تمضي في الأمر قدماً؛ تعجيلاً لتنفيذ كلمته، وتقرير شرعه.

ثم زاد الأمر بياناً بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾؛ أي: تخفي في نفسك ذلك الأمر مخافة من الناس، فلما قضى زيد من زوجته زينب وطراً، ولم يبق له فيها حاجة، والمراد: قضى وبلغ وأتم وطره منها بنكاحها، والدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة، وتقاصرت همته عنها، وطلقها وانقضت عدتها.

وفي «التأويلات»[1]: أما وطر زيد منها في الصورة: استيفاء حظه منها بالنكاح، ووطره منها في المعنى: شهرته بين الخلق إلى قيام الساعة، بأن الله تعالى ذكره باسمه في القرآن، دون جميع الصحابة، وبأنه آثر النبي ﷺ على نفسه بإيثار زينب له.

وفي «الأسئلة المقحمة»: كيف طلق زيد زوجته بعد أن أمر الله ورسوله بإمساكه إياها؟

والجواب: ما هذا الأمر للوجوب واللزوم، وإنما هو للاستحسان.

﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ يا محمد؛ أي: جعلناها زوجة لك، هلال ذي القعدة سنة أربع من الهجرة على الصحيح، وهي بنت خمس وثلاثين سنة، والمراد: الأمر بتزويجها، أو جعلها زوجته بلا واسطة عقد، ولا تقدير صداق، ولا شيء مما يعتبر في النكاح في حق أمته؛ أي: زوجناكها، ولم نحوجك إلى وليٍّ يعقد لك عليها تشريفاً لك ولها.

ويؤيده ما روى أنس رضي الله عنه: أنها كانت تفخر على سائر أزواج النبي ﷺ، وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات، وهو من خصائصه ﷺ.

وروي أنها لما اعتدت.. قال رسول الله لزيد: «ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك، اخطب عليَّ زينب»، قال زيد: فانطلقت، فإذا هي تخمر عجينها، فقلت: يا زينب، أبشري، فإن رسول الله يخطبك، ففرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، فزوجها رسول الله ﷺ

---

(١) المراغي.

ودخل، وما أوْلَم على امرأة من نسائه ما أوْلَم عليها، ذبح شاة، وأطعم الناس الخبز واللحم، حتى امتد النهار، وجعل زيدٍ سفيراً في خطبتها ابتلاء عظيم له، وشاهد على قوة إيمانه، ورسوخه فيه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ بنون العظمة، وقرأ جعفر بن محمد وابن الحنفية وأخواه الحسن والحسين وأبوهم علي: ﴿زوجتكها﴾ بتاء الضمير للمتكلم، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ﴾؛ أي: زوجناكها كيلا يكون فيما بعد ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾؛ أي: ضيق ومشقة وذنب ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾؛ أي: في تزوج زوجات الذين دعوهم أبناء، والأدعياء: جمع دعي، وهو الذي يدعى ابناً من غير ولادة. ﴿إِذَا قَضَوْا۟﴾؛ أي: إذا قضى الأدعياء ﴿مِنْهُنَّ﴾؛ أي: من زوجاتهم ﴿وَطَرًا﴾؛ أي: حاجة؛ أي: إذا لم يبق لهم فيهن حاجة، وطلقوهن، وانقضت عدتهن، فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة.

وفيه[2] دليل على أن حكمه ﷺ وحكم الأمة سواء إلا ما خصه الدليل. قال الحسن: كانت العرب تظن أن حرمة المتبنَّى كحرمة الابن، فبيَّن الله تعالى أن حلائل الأدعياء غير محرمة على المتبني، وإن أصابوهن؛ أي: وطؤوهن، بخلاف ابن الصلب، فإن امرأته تحرم على أبيه بنفس العقد عليها، وكان النبي ﷺ قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال: زيد بن محمد، حتى نزل قوله سبحانه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾.

والمعنى: أي فلما قضى زيد منها حاجته وملها، ثم طلقها.. جعلناها زوجاً لك لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين، ولا يجدوا في أنفسهم حرجاً من أن يتزوجوا نساءً كنَّ من قبلُ أزواجاً لأدعيائهم.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما يريد تكوينه من الأمور ﴿مَفْعُولًا﴾؛ أي: مكوناً موجوداً في الخارج لا محالة، لا يمكن دفعه لأحد، ولو كان نبياً، كما كان تزويج زينب، وكانت كالعارية عند زيد؛ أي: كان قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ قضاءً ماضياً مفعولاً نافذاً لا محالة. قال بعضهم: في اعتقادنا أنَّ

---

(١) البحر المحيط.   (٢) روح البيان.

زينب بكر، كعائشة رضي الله عنهما؛ لأن زيداً كان يعرف أنها حق النبي ﷺ، فلم يمسها، وذلك مثل آسية وزليخا، ويكفينا أنَّ ميله ﷺ إليها كان أكثر من غيرها، ولم تلد أيضاً، وكانت عائشة تقول في حق زينب: هي التي كانت تساويني في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين، وأتقى لله، وأصدق في حديث، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة من زينب.

ماتت بالمدينة سنة عشرين، وصلى عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنها، ودفنت بالبقيع، ولها من العمر ثلاث وخمسون سنة، وأبدل الله منها لزيد جارية في الجنة، كما قال النبي ﷺ: «استقبلتني جارية لعساء، وقد أعجبتني، فقلت لها: يا جارية أنت لمن؟ قالت: لزيد بن حارثة». قوله: «استقبلتني»؛ أي: خرجت من الجنة، واستقبلته ﷺ بعد مجاوزة السماء السابعة ليلة المعراج، واللعس: لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلاً، وذلك مستملح، قاله في «الصحاح».

وأبدى السهيلي حكمة لذكر زيد باسمه في القرآن، هي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾، وصار يقال له: زيد بن حارثة، ولا يقال له: زيد بن محمد، ونزع عنه هذا التشريف، وعلم الله وحشته من ذلك.. شرَّفه بذكر اسمه في القرآن دون غيره من الصحابة، فصار اسمه يتلى في المحاريب، وزاد في الآية أن قال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: بالإيمان، فدلَّ على أنه من أهل الجنة، علم بذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى له رضي الله عنه.

ثم بيَّن الله سبحانه أنه لم يكن على رسول الله ﷺ حرج في هذا النكاح، فقال: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ ﷺ ﴿مِنْ﴾ زائدة لوقوعها بعد النفي ﴿حَرَجٍ﴾ اسم كان الناقصة؛ أي: ما صح ولا استقام في الحكمة أن يكون على النبي ﷺ حرج وضيق ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ وقسم وقدر له في علمه، كتزوج زينب؛ أي: ليس على النبي حرج وذنب ومنع فيما أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه، بعد فراقه إياها.

ثم بين أن الرسول ﷺ ليس بدعاً في الرسل فيما أباح له من الزوجات والسراري، فقال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على المصدرية بفعل محذوف مؤكد لما قبله من نفي الحرج؛ أي: سن الله سبحانه نفي الحرج سنةً؛ أي: جعله طريقة مسلوكة ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾؛ أي: مضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل النبي ﷺ من

الأنبياء؛ حيث وسع عليهم في باب النكاح وغيره، ولقد كان لداودٍ عليه الصلاة والسلام مئة امرأة، وثلاث مئة سرية، ولابنه سليمان عليه السلام ثلاث مئة امرأة، وسبع مئة سرية، فلك التوسعة في أمر النكاح مثل الأنبياء الماضين؛ أي: إن هذا هو السنن الأقدم في الأنبياء والأمم الماضية، أن ينالوا ما أحله الله لهم من أمر النكاح وغيره. أي: إن الله سن بك أيها الرسول سنة أسلافك من الأنبياء الذين مضوا من قبل فيما أباح لهم من الزوجات والسراري، فقد كان لسليمان وداود وغيرهما عدد كثير منهن، وفي هذا رد على اليهود الذين عابوه ﷺ وحاشاه بكثرة الأزواج.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: مأموره الذي قدره وحكمه وقضاه ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾؛ أي: قضاء مقضياً، وحكماً مبتوتاً كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو كقولهم: ظلٌّ ظليل، وليل أليل، في قصد التأكيد. قال مقاتل: أخبر الله أن أمر زينب كان من حكم الله وقدره. اهـ.

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى إذا قضى أمر نبي.. لم يجعل عليه في ذلك من حرج، ولا سبب نقصان، وإن كان في الظاهر سبب نقصان ما عند الخلق، والذي يجري على الأنبياء قضاء مبرم مبني على حكم كثيرة، وليس فيه خطأ، ولا غلط ولا عبث.

ثم وصف الذين خلوا بصفات الكمال والتقوى، وإخلاص العبادة له، وتبليغ رسالته، فقال: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، والموصول صفة للذين خلوا، أو في محل الرفع على إضمارهم، أو في محل النصب على تقدير: أمدح.

وقرأ عبد الله: ﴿الذين بلغوا﴾ جعله فعلاً ماضياً، وقرأ أبي ﴿رسالة الله﴾ على التوحيد، والجمهور: ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ جمعاً.

والمراد بالرسالة: ما يتعلق بالرسالة، وهي سفارة العبد بين الله، وبين ذوي الألباب من خلقه؛ أي: إيصال الخبر من الله إلى العباد؛ أي: الذين يوصلون ما أمروا بتبليغه إلى الخلق.

﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾؛ أي: يخافونه في كل ما يأتون ويذرون، لا سيما في أمر تبليغ الرسالة؛ حيث لا يقطعون منها حرفاً، ولا تأخذهم لومة لائم ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ﴾ في

تبليغ ما أمروا به ﴿أَحَدًا﴾ من خلقه؛ أي: تعيير أحدا، ولا لومه ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ سبحانه، وفي وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعريض[1] بما صدر عنه ﷺ من الاحتراز من لائمة الخلق بعد التصريح في قوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ...﴾ الآية. مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به إلى عباده، وخشيته في كل فعل وقول، ولا يخشون سواه، ولا يبالون بقول الناس، ولا بتعييرهم، بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه.

والمعنى[2]: أي هؤلاء الذين جعل محمد متبعاً سنتهم، وسالكاً سبيلهم، هم الذين يبلِّغون رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليهم، ويخافون الله في تركهم تبليغ ذلك، ولا يخافون سواه.

والخلاصة: كن من أولئك الرسل الكرام، ولا تخشَ أحداً غير ربك، فإنه يحميك ممن يريدك بسوءٍ، أو يمسك بأذى.

قال بعضهم: خشية الأنبياء من العتاب، وخشية الأولياء من الحجاب، وخشية عموم الخلق من العذاب. اهـ. وفي «الأسئلة المقحمة»: كيف قال سبحانه: ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ومعلوم أنهم خافوا غير الله، وقد خاف موسى عليه السلام حين قال: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وكذلك قال يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، وكذلك خاف نبينا ﷺ حين قيل له: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وكذلك أخبر الكتاب عن جماعة من الأنبياء أنهم خافوا أشياء غير الله؟

والجواب: أن معنى الآية: لا يعتقدون أنَّ شيئاً من المخلوقات يستقل بإضرارهم، ويستبد بإيذائهم دون إرادة الله ومشيئته؛ لما يعلمون أن الأمور كلها بقضاء الله وقدره، فأراد بالخوف هنا خوف العقيدة والعلم واليقين، لا خوف البشرية الذي هو من الطباع الخلقية، وخواص البشرية، ونتائج الحيوانية.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿حَسِيبًا﴾؛ أي: محاسباً لعباده على أعمالهم، فينبغي أن يحاسب العبد نفسه قبل محاسبة الله إياه، ولا يخاف غير الله، لا في أمر النكاح، ولا في غيره، إذا علم أن رضى الله وحكمه فيه.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

واعلم: أن السواك والتعطر والنكاح ونحوها من سنن الأنبياء عليهم السلام، وليس لنا عبادة شرعت من عهد آدم إلى الآن، ثم تستمر تلك العبادة في الجنة إلا الإيمان والنكاح، وقيل: المعنى: وكفى الله ناصراً ومعيناً وحافظاً لأعمال عباده، ومحاسباً لهم عليها، أو المعنى: وكفى بالله حاضراً في كل مكان،. يكفي عباده كل ما يخافونه. ولما تزوج النبي ﷺ زينب.. قال الناس: تزوج محمد امرأة ابنه، فأنزل الله سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾ ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم. والمختار: أنه لا يشترط في الإسلام معرفة أب النبي ﷺ واسم جده، بل يكفي فيه معرفة اسمه الشريف، كما في «هداية المريدين»، يقال: فلان محمود، إذا حمد، ومحمد: إذا كثرت خصاله المحمودة، كما في «المفردات». قال زكريا في «شرح المقدمة الجزرية»: هو البليغ في كونه محموداً، وهو الذي حمدت عقائده وأفعاله وأقواله وأخلاقه، سماه به جده عبد المطلب بإلهام من الله سبحانه في سابع ولادته، فقيل له: لِمَ سميت محمداً، وليس من أسماء آبائك ولا قومك؟ فقال: رجوت أن يحمد في السماء والأرض، وقد حقق الله رجاءَه وتفاؤله.

﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾؛ أي[1]: ليس بأب لزيد بن حارثة على الحقيقة حتى تحرم عليه زوجته، ولا هو أب لأحد لم يلده. قال الواحدي: قال المفسرون: لم يكن أبا أحد لم يلده، وقد ولد له من الذكور من خديجة ثلاثة: القاسم، والطيب، والطاهر، وماتوا صغاراً لم يبلغ أحد منهم الحلم، وولد له إبراهيم من مارية القبطية، ومات رضيعاً، وولد له من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، والثلاث الأول متن في حياته ﷺ، وماتت فاطمة بعد أن قبض ﷺ إلى الرفيق الأعلى بستة أشهر. قال القرطبي: ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلاً. قال: وأما الحسن والحسين، فكانا طفلين، ولم يكونا رجلين معاصرين له ﷺ.

ولا ينتقض عموم أحد في قوله: ﴿أَبَآ أَحَدٍ﴾ بكونه أباً للطاهر والقاسم وإبراهيم؛ لأنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال؛ لأن الرجل هو الذكر البالغ من بني آدم، ولو بلغوا لكانوا رجاله لا رجالهم، وكذا الحسن والحسين، كما مر آنفاً.

﴿وَلَٰكِن﴾ كان محمد ﷺ ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: رسولاً من رب العالمين إلى

---

(١) روح البيان.

كافة الثقلين ﴿و﴾ كان ﴿خاتم النبيين﴾؛ أي: وكان آخرهم الذي ختموا به.

والمعنى[1]: أي ما كان لك أن تخشى أحداً من الناس بزواج امرأة متبناك، لا ابنك، فإنك لست أباً لأحد من الناس، ولكنك رسول الله في تبليغ رسالته إلى الخلق، فأنت أب لكل فرد من الأمة فيما يرجع إلى التوقير والتعظيم ووجوب الشفقة عليهم، كما هو دأب كل رسول مع أمته.

وخلاصة ذلك: ليس محمد بأب لأحد منكم أبوة شرعية، يترتب عليها حرمة المصاهرة ونحوها، ولكنه أب للمؤمنين جميعاً فيما يجب عليهم من توقيره وإجلاله وتعظيمه، كما أن عليه أن يشفق عليهم، ويحرص على ما فيه خيرهم وفائدتهم في المعاش والمعاد، وما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وفي «فتح الرحمن»: قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ. هو[2] جواب سؤال مقدر تقديره: أمحمد أبو زيد بن حارثة؟.

فأجيب: بنفي الأعم المستلزم لنفي الأخص؛ إذ لو اقتصر على قوله: ما كان محمد أبا زيد، لقيل: وماذا يلزم منه، فقد كان للأنبياء أبناء، فجيء بنفي الأعم تمهيداً للاستدراك بأنه رسول الله، وخاتم النبيين

وإن قلتَ: كيف صح نفي الأبوة عنه، وكان أباً للطيب والطاهر والقاسم وإبراهيم؟

قلت: قد قيد النفي بقوله: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾؛ لأن إضافة الرجال إلى المخاطبين تخرج أبناءه؛ لأنهم رجاله لا رجالهم، ولأن المفهوم منهم بقرينة المقام الرجال البالغون، وأبناؤه ليسوا كذلك، إذ لو كان له ابن بالغ، لكان نبياً، فلا يكون هو خاتم النبيين.

فإن قلت: كيف قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وعيسى عليه السلام ينزل بعده وهو نبي؟

قلتُ: معنى كونه خاتم النبيين: أنه لا ينبأ أحد بعده، وعيسى نبي قبله، وحين ينزل كان عاملاً بشريعة محمد ﷺ.

---

(١) المراغي. (٢) فتح الرحمن.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ بتخفيف ﴿لكن﴾ ﴿رَّسُولَ﴾ على إضمار كان لدلالة كان المتقدمة عليه. قيل: أو على العطف على ﴿أَبَآ أَحَدٍ﴾، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو بالتشديد، والنصب على أنه اسم لكن، والخبر محذوف، تقديره: ولكن رسول الله وخاتم النبيين هو؛ أي: محمد ﷺ، وحذف خبر لكن وأخواتها جائز إذا دل عليه دليل، كقول الشاعر:

فَلَوْ كُنْتُ ظَبْياً مَا عَرَفْتَ قَرَابَتِيْ وَلَكِنَّ زِنْجِيًّا عَظِيْمَ ٱلْمَشَافِرِ

أي: أنت لا تعرف قرابتي، وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة بالتخفيف ورفع رسول الله وخاتم النبيين. أي: ولكن هو رسول الله. وقرأ الجمهور: ﴿وَخَاتِمَ﴾ بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم؛ أي: جاء آخرهم، وقرأ الحسن والشعبي وزيد بن علي والأعرج بخلاف عنه، وعاصم: بفتح التاء، بمعنى أنهم به ختموا، فهو كالخاتم والطابع لهم الذي يتختمون به، ويتزينون بكونه منهم، وقيل: كسر التاء وفتحها لغتان، قال أبو عبيد: الوجه الكسر، لأن التأويل أنه ختمهم، فهو خاتمهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الموجودات ﴿عَلِيمًا﴾؛ أي: عالماً. ومن جملة معلوماته هذه: الأحكام المذكورة هنا، وأنه لا نبي بعده، فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة، وكيف ينبغي لشأنه، ولا يعلم أحد سواه ذلك.

والخلاصة: أنه سبحانه يعلم من الأجدر بالبدء به من الأنبياء، ومن الأحق بأن يكون خاتمهم، ويعلم المصالح في ذلك، ونحو الآية قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية[2]: هي نص على أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده.. فلا رسول بطريق الأولى، والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ، فمن رحمة الله بالعباد إرسال محمد إليهم، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر الله في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة، عن: أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل من ادَّعى هذا

---

(١) البحر المحيط. (٢) ابن كثير.

المقام بعده كذاب أفاك دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى سبحانه على يدي الأسود العنسي باليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة، والأقوال الباردة.

ثم أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من ذكره بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير، وبكل ما هو ذكر لله تعالى، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله، وصدَّقوهما ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ في[1] جميع الأوقات ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، وفي عموم الأمكنة براً وبحراً، سهلاً وجبلاً، وفي كل الأحوال حضراً وسفراً، صحة وسقماً، سراً وعلانيةً، قياماً وقعوداً، وعلى الجنوب، وفي الطاعة بالإخلاص، وسؤال القبول والتوفيق، وفي المعصية بالامتناع منها، وبالتوبة والاستغفار، وفي النعمة بالشكر، وفي الشدة بالصبر، فإنه ليس للذكر حد معلوم كسائر الفرائض، ولا لتركه عذر مقبول إلا أن يكون المرء مغلوباً على عقله.

ثم إن ذكر الله، وإن كان يشمل الصلاة والتلاوة والدراسة ونحوها، إلا أن أفضل الأذكار: لا إله إلا الله، فالاشتغال به منفرداً، ومع الجماعة محافظاً على الآداب الظاهرة والباطنة ليس كالاشتغال بغيره.

وقال بعضهم: الأمر بالذكر الكثير إشارة إلى محبة الله تعالى، يعني: أحبوا الله؛ لأن النبي ﷺ قال: «من أحب شيئاً أكثر من ذكره». وقال مجاهد: الذكر الكثير: أن لا ينساه أبداً، وقال الكلبي: الذكر الكثير بالصلوات الخمس.

وقال مقاتل: هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال. ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾؛ أي: نزهوه تعالى عما لا يليق به ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: أول النهار وآخره، وقد يذكر الطرفان، ويفهم منهما الوسط، فيكون المراد: سبحوه في جميع الأوقات خصوصاً في الوقتين المذكورين المفضلين على سائر الأوقات؛ لكونهما مشهودين على ما دل قوله عليه الصلاة والسلام: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل

---

(١) روح البيان.

وملائكة بالنهار»، وتخصيصهما بالذكر لمزيد ثواب التسبيح فيهما، وخص التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ تنبيهاً على مزيد شرفه، وإنافة ثوابه على غيره من الأذكار، وقيل: أفرد التسبيح بالذكر من بين الأذكار؛ لكونه العمدة فيها من حيث إنه من باب التخلية.

وفي الحديث: «أربع لا يمسك عنهن جنب: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» فإذا قالها الجنب.. فالمحدث أولى، فلا منع من التسبيح على جميع الأحوال إلا أن الذكر على الوضوء والطهارة من آداب الرجال. وقيل: المراد بالتسبيح بكرة: صلاة الفجر، وبالتسبيح أصيلاً: صلاة المغرب، وقال قتادة وابن جرير: المراد: صلاة الغداة وصلاة العصر، وقال الكلبي: أما بكرة: فصلاة الفجر، وأما أصيلاً: فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

وقيل[1]: خص البكرة والأصيل بالذكر: لأن وقت البكرة وقت القيام من النوم، وهو يُعَدُّ كأنه حياة جديدة بعد موت، ووقت الأصيل: وقت الانتهاء من العمل اليومي، فيكون الذكر شكراً له على توفيقه لأداء الأعمال، والقيام بالسعي على الأرزاق، فلم يبق إلا السعي إلى ما يقربه من ربه بالعمل للآخرة.

ثم ذكر السبب في هذا الذكر والتسبيح، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: إن ربكم الذي تذكرونه الذكر الكثير، وتسبحونه بكرةً وأصيلاً هو الإله الذي يصلي عليكم، ويرحمكم، ويثني عليكم في الملأ الأعلى، ويعتني بكم بالرحمة والمغفرة والتزكية ﴿و﴾ تصلي عليكم ﴿ملائكته﴾؛ أي: تستغفر لكم ملائكته؛ أي: هو الذي يصلي عليكم، ويأمر ملائكته بالدعاء والاستغفار لكم، و﴿هُوَ﴾[2] معطوف على المستكن في ﴿يُصَلِّي﴾ لمكان الفصل المغني عن التأكيد بالمنفصل.

فالمراد بالصلاة: المعنى المجازي الشامل للرحمة والاستغفار، وهو الاعتناء بما فيه خيرهم، وصلاح أمرهم، فلا يجوز أن يراد بالصلاة أولاً الرحمة، والاستغفار ثانياً، فإن استعمال اللفظ الواحد في معنيين متغايرين مما لا مساغ له، بل على أن يراد بها معنى مجازي عام يكون كلا المعنيين فرداً له حقيقياً، وهو

---

(١) المراغي.　　(٢) روح البيان.

الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاح أمرهم، فإن كلاً من الرحمة والاستغفار فرد حقيقي له. اهـ «أبو السعود».

فالله يهديكم برحمته، والملائكة يستغفرون لكم، وفي هذا من التحريض على ذكره، والتسبيح له ما لا يخفى. واللام في قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ متعلق بـ﴿يُصَلِّي﴾؛ أي: يصلي عليكم ليخرجكم الله سبحانه بتلك الصلاة والعناية، وإنما لم يقل: ليخرجاكم؛ لئلا يكون للملائكة منة عليهم بالإخراج، ولأنهم لا يقدرون على ذلك؛ لأن الله هو الهادي في الحقيقة لا غير؛ أي: يعتني هو وملائكته بأموركم ليخرجكم ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: من ظلمات المعاصي ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: إلى نور الطاعات، ومن ظلمة الضلالة إلى نور الهدى، جمع الظلمات لتعدد أنواع الكفر، وأفرد الثاني لأن الإيمان شيء واحد لا تعدد فيه. اهـ شيخنا». أي: ليخرجكم بسبب رحمته، ودعاء الملائكة من ظلمات الجهل والشرك والمعصية والشك والضلالة والبشرية وصفاتها، إلى نور العلم والتوحيد والطاعة واليقين والهدى والروحانية وصفاتها.

ومعنى الآية[1]: تثبيت المؤمنين على الهداية، ودوامهم عليها؛ لأنهم كانوا وقت الخطاب على الهداية، ثم أخبر سبحانه برحمته للمؤمنين تأنيساً لهم، وتثبيتاً فقال: ﴿وَكَانَ﴾ سبحانه في الأزل قبل إيجاد الملائكة المقربين ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بكافتهم قبل وجدانهم العينية ﴿رَحِيمًا﴾، ولذلك فعل بهم ما فعل من الاعتناء بصلاحهم بالذات وبواسطة الملائكة، فلا تتغير رحمته بتغير أحوال من سعد في الأزل، وفي هذه الجملة تقرير لمضمون ما تقدمها.

والمعنى[2]: أي إنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، وكان رحيماً بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصَّرهم الطريق الذي حاد عنه سواهم من الدعاة إلى الكفر، وأما الآخرة: فإنه آمنهم من الفزع الأكبر، وأمر الملائكة أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة، والنجاة من النار، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾؛ أي: تحية المؤمنين من الله سبحانه يوم لقائهم له عند الموت، أو عند البعث، أو عند دخول الجنة هي: التسليم عليهم منه عز وجل.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وقيل: المراد: تحية بعضهم لبعض يوم يلقون ربهم: سلام، وذلك لأنه كان بالمؤمنين رحيماً، فلما شملتهم رحمته، وأمنوا من عقابه.. حيًّا بعضهم بعضاً سروراً واستبشاراً، والمعنى: سلامة لنا من عذاب النار.

قال الزجاج: المعنى: فيسلمهم الله من الآفات، ويبشرهم بالأمن من المخافات يوم يلقونه.

والإضافة[1] في ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، والضمير عائد على المؤمنين، والضمير في ﴿يَلْقَوْنَهُ﴾ عائد على الله سبحانه؛ أي: ما يحيون به يوم يلقون الله سبحانه عند الموت، أو عند البعث من القبور، أو عند دخول الجنة: سلام؛ أي: تسليم من الله تعالى عليهم تعظيماً لهم، أو تسليم من الملائكة بشارة لهم بالجنة، أو تكرمة لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، أو إخباراً بالسلامة من كل مكروه وآفة وشدة.

وقيل: الضمير في يلقونه راجع إلى ملك الموت، وهو الذي يحييهم، كما ورد أنه لا يقبض روح كل مؤمن إلا سلم عليه، وعن أنس رضي الله عنه: «إذا جاء ملك الموت إلى وليِّ الله سلَّم عليه، وسلامه عليه أن يقول: السلام عليك يا وليَّ الله، قم فاخرج من دارك التي خربتها إلى دارك التي عمرتها، فإذا لم يكن ولياً لله قال له: قم فاخرج من دارك التي عمرتها إلى دارك التي خربتها»...

قال بعضهم: عمارة الدنيا: بزرع الحبوب، وتكثير القوت، وجري الأنهار، وغرس الأشجار، ورفع أبنية الدور، وتزيين القصور، وعمارة الآخرة: بالأذكار، والأعمال، والأخلاق، والأحوال. اهـ.

﴿وَأَعَدَّ﴾ الله سبحانه ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للمؤمنين في الجنة، وهيأ لهم ﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾؛ أي: ثواباً حسناً دائماً مما تشتهيه أنفسهم، وتلذه أعينهم، وهو نعيم الجنة، وهو بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم عقيب بيان آثار رحمته الواصلة إليهم قبل ذلك. وإيثار الجملة الفعلية دون وأجرهم أجر كريم ونحوه؛ لمراعاة الفواصل، وفيه إشارة إلى سبق العناية الأزلية في حقهم؛ لأن في الإعداد تعريفاً بالإحسان السابق،

---

(١) روح البيان.

والأجر الكريم ما يكون سابقاً على العمل، بل يكون العمل من نتائج الكرم.

ثم هذه الآية من أكبر نعم الله على هذه الأمة، ومن أدل دليل على أفضليتها على سائر الأمم، والمعنى: أي[1]: وهيأ لهم ثواباً حسناً في الآخرة، يأتيهم بلا طلب بما يتمتعون به من لذات المآكل والمشارب والملابس والمساكن، في فسيح الجنات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الإعراب

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَقْنُتْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنكُنَّ﴾ حال من فاعل ﴿يَقْنُتْ﴾. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَقْنُتْ﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة، وذكر الضمير في ﴿مَن﴾ نظراً للفظ. ﴿وَتَعْمَلْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، معطوف على ﴿يَقْنُتْ﴾ وأنث الضمير هنا نظراً إلى معنى ﴿مَن﴾. ﴿صَـٰلِحًا﴾: مفعول به. ﴿نُّؤْتِهَآ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة. ﴿أَجْرَهَا﴾: مفعول ثانٍ لآتى؛ لأنه بمعنى: أعطى. ﴿مَرَّتَيْنِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لنيابته عن المصدر؛ لأنه بمعنى: إتياءتين، أو منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿نُّؤْتِهَآ﴾، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ﴾. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم، معطوف على ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ على كونها جواب ﴿من﴾ الشرطية. ﴿لَهَا﴾: متعلق بـ﴿أعتدنا﴾. ﴿رِزْقًا﴾: مفعول به. ﴿كَرِيمًا﴾: صفة ﴿رِزْقًا﴾.

﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾.

﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ﴾: منادى مضاف، معطوف بعاطف مقدَّر على المنادى السابق.

---

(١) المراغي.

﴿لَسۡتُنَّ﴾: فعل ناقص واسمه، مبني على السكون؛ لاتصاله بضمير رفع متحرك، والتاء ضمير لجماعة الإناث المخاطبات في محل الرفع اسمها، والنون علامة جمع الإناث. ﴿كَأَحَدٖ﴾: خبر ﴿لَسۡتُنَّ﴾. ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: صفة لـ﴿أحد﴾. وجملة ليس جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنِ﴾: حرف شرط. ﴿ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنِ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها مبني على السكون لاتصاله بضمير رفع، ومفعول التقوى محذوف، تقديره: إن اتقيتن الله، وجواب ﴿إِنِ﴾ الشرطية محذوف، تقديره: فإنكن أعظم أجراً من غيركن، وجملة ﴿إِنِ﴾ الشرطية مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتن أنكن لستن كأحد من النساء، وأردتن بيان ما هو اللائق لمنصبكن.. فأقول لكن: لا تخضعن. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَخۡضَعۡنَ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ويجوز أن تكون الفاء رابطة الجواب، وجملة ﴿لا تخضعن﴾ في محل جزم بـ﴿إِنِ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾، متعلق بـ﴿تَخۡضَعۡنَ﴾، أو حال من ضمير الفاعل؛ أي: لا تلن حال كونكن متلبسات بالقول.

﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

﴿فَيَطۡمَعَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية ﴿يطمع﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي. ﴿ٱلَّذِي﴾: فاعل. ﴿فِي قَلۡبِهِۦ﴾: خبر مقدم. ﴿مَرَضٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة الموصول، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك؛ لإصلاح المعنى تقديره: لا يكن منكن خضوع بالقول، فطمع الذي في قلبه مرض. ﴿وَقُلۡنَ﴾: الواو: عاطفة. ﴿قلن﴾: فعل أمر مبني على السكون، والنون: فاعل. ﴿قَوۡلٗا﴾: مفعول مطلق مبين للنوع. ﴿مَّعۡرُوفٗا﴾: صفة ﴿قَوۡلٗا﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ﴾.

﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ

﴿ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَقَرْنَ﴾: فعل أمر مبني على السكون، والنون: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قلن﴾. ﴿فِى بُيُوتِكُنَّ﴾: متعلق بـ﴿قرن﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَبَرَّجْنَ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، ونون النسوة في محل الرفع فاعل. ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: مفعول مطلق مبيِّن للنوع ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾: صفة للجاهلية، والجملة معطوفة على جملة ﴿قرن﴾. ﴿وَأَقِمْنَ﴾: فعل أمر مبني على السكون، والنون: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قرن﴾. ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به. ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ما قبله. ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ما قبله عطف عام على خاص. ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل جميع ما قبلها. ﴿لِيُذْهِبَ﴾ ﴿اللام﴾: لام كي. ﴿يذهب﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿عَنكُمُ﴾: متعلق بـ﴿يذهب﴾. ﴿ٱلرِّجْسَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: إنما يريد الله لإذهاب الرجس عنكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُرِيدُ﴾، واللام زائدة في المعنى؛ أي: إنما يريد الله إذهاب الرجس عنكم ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾: منصوب على الاختصاص؛ أي: أخصَّ أهل البيت، أو منصوب على أنه منادى مضاف حذف منه حرف النداء. ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به معطوف على ﴿يذهب﴾. ﴿تَطْهِيرًا﴾: مفعول مطلق.

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اذكرن﴾: فعل أمر مبني على السكون، والنون: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قرن﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿يُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل يعود على ﴿مَا﴾. ﴿فِى بُيُوتِكُنَّ﴾: متعلق بـ﴿يُتْلَىٰ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿مِنْ ءَايَٰتِ

﴿ٱللَّهِ﴾: حال من نائب فاعل ﴿يُتۡلَىٰ﴾. ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾: معطوف على ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿لَطِيفًا﴾: خبر أول لـ﴿كَانَ﴾. ﴿خَبِيرًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، وكذا قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ﴾: معطوفات على ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ على كونها اسماً لـ﴿إِنَّ﴾ المكسورة. ﴿فُرُوجَهُمۡ﴾: مفعول ﴿الحافظين﴾. ﴿وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ﴾: معطوفان على اسم ﴿إِنَّ﴾ المكسورة، ولفظ ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول ﴿الذاكرين﴾. ﴿كَثِيرٗا﴾: مفعول مطلق لـ﴿الذاكرين﴾؛ لأنه صفة مصدر محذوف، أي: ذكراً كثيراً. ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾: معطوف أيضاً على اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُم﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾. ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾: مفعول به لـ﴿أَعَدَّ﴾. ﴿وَأَجۡرًا﴾: معطوف على ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾. ﴿عَظِيمٗا﴾: صفة ﴿أَجۡرًا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِمُؤۡمِنٖ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها. ﴿وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾: معطوفة عليه. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿قَضَى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾. ﴿أَمۡرًا﴾: مفعول به لقضى،

﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿لَهُمُ﴾: خبر مقدم لـ﴿يَكُونَ﴾. ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾: اسم ﴿يَكُونَ﴾ مؤخر. ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾: حال من ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾، أو متعلق بـ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾، وتكون ﴿مِن﴾ بمعنى: في، وجملة ﴿يَكُونَ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم كان، والتقدير: ما كان كون الخيرة في أمرهم كائناً لمؤمن ولا مؤمنة وقت قضاء الله سبحانه، ورسوله ﷺ أمراً في شؤونهم، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لبيان قصة زينب بنت جحش، وزوجها زيد بن حارثة. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَعْصِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ الشرطية مجزوم بحذف حرف العلة. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف عليه. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ الشرطية. ﴿ضَلَٰلًا﴾: مفعول مطلق. ﴿مُّبِينًا﴾: صفته، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان. ﴿تَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿لِلَّذِىٓ﴾: متعلق بـ﴿تَقُولُ﴾، والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾، أو مستأنفة. ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾: معطوف على ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾. ﴿أَمْسِكْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على زيد بن حارثة، والجملة في محل نصب مقول ﴿تَقُولُ﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿أَمْسِكْ﴾، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: على نفسك. ﴿زَوْجَكَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿أَمْسَكَ﴾. ﴿وَتُخْفِى﴾: ﴿الواو﴾: حالية أو عاطفة. ﴿تخفي﴾: فعل مضارع، وفاعل

مستتر يعود على محمد. ﴿فِي نَفْسِكَ﴾: متعلق بـ﴿تخفي﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَقُولُ﴾، أو معطوفة على جملة ﴿تَقُولُ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تخفي﴾. ﴿ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول. ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾: فعل، وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تخفي﴾، أو معطوفة عليه. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿الله﴾: مبتدأ. ﴿أَحَقُّ﴾: خبره. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَخْشَىٰهُ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه بدل اشتمال من لفظ الجلالة، والتقدير: والله خشيته أحق وأولى من خشية الناس، أو منصوب بنزع الخافض المتعلق بـ﴿أَحَقُّ﴾، تقديره: والله أحق بخشيته من خشية الناس، وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿أَن تَخْشَىٰهُ﴾: مبتدأ، و﴿أَحَقُّ﴾: خبره مقدم عليه، والجملة خبر عن لفظ الجلالة، والجملة الاسمية على جميع التقادير حال من فاعل ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿لمّا﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿قَضَىٰ زَيْدٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مِّنْهَا﴾: متعلق بـ﴿قَضَىٰ﴾. ﴿وَطَرًا﴾: مفعول ﴿قَضَىٰ﴾. ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة جواب ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لمّا﴾ مستأنفة. ﴿لكي﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿كي﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿كي﴾. ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: خبر ﴿يَكُونَ﴾ مقدم على اسمها. ﴿حَرَجٌ﴾: اسم ﴿يَكُونَ﴾ مؤخر. ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿حَرَجٌ﴾، وجملة ﴿يَكُونَ﴾ مع ﴿كي﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ على أنه تعليل للتزويج؛ أي: زوجناكها لرفع حرج كائن على المؤمنين في حرمة أزواج أدعيائهم عليهم. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط. ﴿قَضَوْا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْهُنَّ﴾: متعلق بـ﴿قَضَوْا۟﴾. ﴿وَطَرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾. والظرف متعلق بـ﴿يَكُونَ﴾ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة معترضة، أو معطوفة على جملة ﴿لمّا﴾.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ

﴿أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿حَرَجٍ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور صفة ﴿حَرَجٍ﴾، وجملة ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: فرضه الله. ﴿له﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرَضَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة مسوقة لنفي الحرج في زواجه ﷺ بزينب. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: سن الله له ذلك؛ أي: كثرة النساء سنة الذين خلوا من قبل، أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: كسنة الله في الأنبياء الذين خلوا من قبل. ﴿فِي ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حالة كونها متبعة في الذين خلوا، وجملة ﴿خَلَوْا﴾ صلة الموصول. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ﴿خَلَوْا﴾. ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿قَدَرًا﴾: خبره. ﴿مَّقْدُورًا﴾: صفة لازمة له للتأكيد كيوم أيوم، وليل أليل، وظل ظليل. وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من الموصول الأول، أو صفة له، أو في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين ﴿يُبَلِّغُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مفعول به. ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿يُبَلِّغُونَ﴾. ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱللَّهَ﴾: مستثنى من ﴿أَحَدًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يخشون﴾. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل، والباء زائدة. ﴿حَسِيبًا﴾: حال أو تمييز، والجملة مستأنفة.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾.

﴿مَّا﴾: نافية. ﴿كَانَ مُحَمَّدٌ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿أَبَآ أَحَدٍ﴾: خبره منصوب بالألف. ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾: صفة لـ﴿أَحَدٍ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة، ﴿وَلَٰكِن﴾: الواو: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل لكونها مخففة. ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾: معطوف على ﴿أَبَآ أَحَدٍ﴾، ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: معطوف على ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، أو خبر

لكان المحذوفة لدلالة السابقة عليها؛ أي: ولكن كان رسول الله وخاتم النبيين. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمًا﴾. ﴿عَلِيمًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يـا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿ذِكْرًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لعامله. ﴿كَثِيرًا﴾: صفته. ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾. ﴿بُكْرَةً﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿سبحوه﴾. ﴿وَأَصِيلًا﴾: معطوف على ﴿بُكْرَةً﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر. ﴿يُصَلِّى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر صلة الموصول. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يُصَلِّى﴾، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالذكر والتسبيح. ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾: معطوف على الضمير المستكن في ﴿يُصَلِّى﴾. ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يخرجكم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿يخرج﴾، وكذا قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإخراجه إياكم من الظلمات إلى النور، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُصَلِّى﴾. ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾: ﴿وَكَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود على الله. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ﴿رَحِيمًا﴾. ﴿رَحِيمًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة. ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾: مبتدأ، والهاء: مضاف إليه، وهو مصدر مضاف إلى مفعوله؛ أي: يحيون يوم لقائه بسلام. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، وجملة ﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾ مضاف إليه للظرف، والظرف متعلق بمحذوف حال من ضمير الغائبين. ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لبيان ما أعد لهم في الآخرة، ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول به. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة ﴿أَجْرًا﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ قال الراغب: القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ والإعتاد: التهيئة من العتاد، وهو العدة. قال الراغب: الإعتاد: ادِّخار الشيء قبل الحاجة إليه كالإعداد، وقيل: أصله أعددنا، فأبدلت الدال تاء فراراً من توالي مثلين.

﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾ قال الراغب في «المفردات»: كل شيء يشرف في بابه، فإنه كريم.

﴿كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وأصل أحد: وحد بمعنى: الواحد، قلبت واوه همزةً على خلاف القياس، ثم وضع في النفي العام مستوياً فيه المذكر والمؤنث، والواحد والكثير، كما قاله الزمخشري. وفي «الإتقان»: قال أبو حاتم: أحد: اسم أكمل من الواحد، ألا ترى أنك إذا قلت: فلان لا يقوم له واحد جاز في المعنى أن يقوم له اثنان، بخلاف قولك: لا يقوم له أحد، وفي الأحد خصوصية ليست في الواحد، تقول: ليس في الدار أحد، فيكون قد شمل عموم المخلوقين من الدواب والطير الوحشي والأنسي، فيعم الناس وغيرهم، بخلاف قولك: ليس في الدار واحد، فإنه مخصوص بالآدميين دون غيرهم، قال: ويأتي الأحد في كلام العرب بمعنى الواحد، فيستعمل في الإثبات والنفي، نحو: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾؛ أي: واحد، و﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑤﴾، و﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، «ولا فضل لأحدٍ على أحد». وأحد: يستعمل في المذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بخلاف الواحد، فلا يقال: كواحد من النساء، بل كواحدة. قلت: ولهذا وصف به في قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ㊼﴾ بخلاف الواحد، والأحد: له جمع من لفظه، وهو الأحدون والآحاد، وليس للواحد جمع من لفظه، فلا يقال: واحدون، بل اثنان وثلاثة، والأحد ممتنع الدخول في الضرب والعدد والقسمة وفي شيء من الحساب بخلاف الواحد.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ والخضوع: التطامن والتواضع والسكون، والمرأة مأمورة بالغلظة في المقالة إذا خاطبت الأجانب.

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح القاف في المضارع بناء

على أنه من باب علم، وأصله: اقررن، نقلت حركة الراء الأولى إلى القاف، وحذفت لالتقاء الساكنين، ثم حذفت همزة الوصل استغناءً عنها بحركة القاف المنقولة من الراء، فصار: قرن، ووزنه الحالي: فَلْنَ، والأصل: افعلن، وقرأ الباقون ﴿قرن﴾ بكسر القاف لما أنه أمر من وقر يقر كوعد يعد وقاراً، إذا ثبت وسكن، وأصله: أوقرن، فحذفت الواو تخفيفاً، ثم الهمزة استغناءً عنها بحركة القاف، فصار: قرن، ووزنه الحالي: علن، أو من قر يقر بكسر القاف في المضارع؛ لأنه من باب ضرب، فأصله: اقررن، نقلت كسرة الراء إلى القاف، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، فاستغني عن همزة الوصل، فصار: قرن، ووزنه الحالي: فلن.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ بترك إحدى التاءين، وأصله: تتبرجن؛ أي: لا تتبخترن في مشيكن. وفي «القاموس»: تبرجت المرأة: أظهرت زينتها ومحاسنها للأجانب. انتهى.

قال الراغب: يقال: ثوب متبرج: صُوِّر عليه بروج، واعتبر حسنه، فقيل: تبرجت؛ أي: تشبهت به في إظهار الزينة والمحاسن للرجال؛ أي: مواضعها الحسنة، وأصل التبرج صعود البرج، وذلك أن من صعد البرج ظهر لمن نظر إليه، قاله أبو علي. انتهى. وقيل: تبرجت المرأة: ظهرت من برجها؛ أي: من قصرها، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، كما في «المفردات».

﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: هي حالة الجهل بالله، والوثنية في بلاد العرب قبل الإسلام، أو الزمن الذي تقدمه، وأصح ما قيل في الجاهلية: أنهما جاهليتان: أولى، وأخيرة. فالأولى: هي القديمة، ويقال لها: الجاهلية الجهلاء، وهي تمتد إلى أبعد الآماد، والجاهلية الأخيرة: تمتد من منتصف القرن الخامس الميلادي، وفي الجاهلية الأولى كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ، فتمشي في منتصف الطريق تعرض نفسها على الرجال، فنهين عن ذلك.

﴿الرِّجْسَ﴾ الرجس في الأصل: الشيء القذر، والمراد به هنا: الذنب المدنس للعرض، وعرض الرجل: جانبه الذي يصونه.

﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال الراغب: أهل الرجل: من يجمعه وإياهم نسب أو دين، أو

ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد وضيعة، فأهل الرجل في الأصل: من يجمعه وإياهم مسكن واحد، ثم تجوز به فقيل: أهل بيت الرجل لمن يجمعه وإياهم نسب، وتعورف في أسرة النبي ﷺ مطلقاً إذا قيل: أهل البيت، يعني: أهل البيت متعارف في آل النبي ﷺ من بني هاشم.

فصل في إجمال أسماء زوجاته ﷺ

قال ابن الكلبي: إن النبي ﷺ تزوج خمس عشرة امرأةً، ودخل بثلاث عشرة، وجمع بين إحدى عشرة، وتوفي عن تسع، وقد جمع أحمد المرزوقي هذه التسعة بقوله:

عَـائِـشَـةٌ وَحَـفْـصَـةٌ وَسَـوْدَهْ   صَـفِـيَّـةٌ مَـيْـمُـوْنَـةٌ وَرَمْـلَـهْ

هِـنْـدٌ وَزَيْـنَـبٌ كَـذَا جُـوَيْـرِيَّـهْ   لِـلْـمُـؤْمِـنِـيْـنَ أُمَّـهَـاتٌ مَـرْضِـيَّـهْ

١ ـ خديجة بنت خويلد، وكانت قبله تحت عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ومات عنها، وتزوجها بعده أبو هالة بن زرارة بن النباش التميمي، فولدت له هند، ثم مات عنها، وتزوجها بعده النبي ﷺ، فولدت له ثمانية: القاسم، والطيب، والطاهر، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة. فأما الذكور: فماتوا وهم صغار، وأمَّا الإناث فبلغن ونكحن وولدن، ولم يتزوج على خديجة أحداً، وكان موتها قبل الهجرة بثلاث سنين.

٢ و ٣ ـ سودة بنت زمعة، وقيل: عائشة، وكانت بنت ست سنين، فدخل بها في المدينة وهي ابنة تسع، ومات عنها وهي ابنة ثماني عشرة سنة، وماتت سنة ثمان وخمسين، وأما سودة: فكانت امرأة ثيباً، وكانت قبله عند السكران بن عمرو بن عبد شمس، ومات عنها، فخلف عليها رسول الله ﷺ، ودخل بها بمكة.

٤ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله تحت خميس بن حذافة السهمي، وكان بدرياً، وماتت بالمدينة في خلافة عثمان.

٥ ـ أم سلمة ابنة أبي أمية المخزومية، وكانت قبله تحت أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، شهد بدراً، وأصابته جراحة يوم أحد فمات عنها، فتزوجها

رسول الله ﷺ قبل الأحزاب.

٦ - زينب بنت خزيمة من بني عامر بن صعصعة، ويقال لها: أم المساكين، وتوفيت في حياته، ولم يمت غيرها وغير خديجة في حياته ﷺ، وكانت زينب قبله تحت الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب.

٧ - جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار الخزاعية من بني المصطلق، وكانت تحت مالك بن صفوان.

٨ - أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت قبله تحت عبيد الله بن جحش، وكانت من مهاجرة الحبشة، فتنصر ومات بها، فأرسل رسول الله ﷺ إلى النجاشي، فخطبها عليه وتزوجها، وهي بالحبشة، وساق النجاشي المهر لها عن رسول الله، وماتت في خلافة أخيها معاوية.

٩ - زينب بنت جحش، كما سبقت قصتها.

١٠ - صفية بنت حيي بن أخطب تزوجها الرسول ﷺ عام خيبر.

١١ - ميمونة ابنة الحارث الهلالية، وكانت قبله تحت عمير بن عمرو الثقفي، فمات عنها، وخلف عليها أبو زهير بن عبد العزى، ثم رسول الله ﷺ، وهي خالة ابن عباس وخالد بن الوليد.

١٢ - امرأة من بني كليب يقال لها: شاة بنت رفاعة، وقيل: سنا بنت الصلت، وقيل: ابنة الصلت بن حبيب، توفيت قبل أن يدخل بها، وقيل: الشنباء دخل بها، ومات ابنه إبراهيم فقالت: لو كان نبياً ما مات ولده فطلقها.

١٣ - غزية بنت جابر الكلابية، قال ابن الكلبي: غزية هي أم شريك، فلما قدمت على النبي، وأراد أن يخلو بها.. استعاذت منه، فردها.

١٤ - العالية ابنة ظبيان فجامعها، ثم فارقها.

١٥ - قتيلة بنت قيس، أخت الأشعث، فتوفي عنها قبل أن يدخل بها، فارتدت.

١٦ - فاطمة بنت الضحاك، وقيل: تزوج خولة ابنة الهذيل بن هبيرة، وليلى ابنة الحطيم عرضت نفسها عليه فتزوجها وفارقها.

قال ابن الكلبي: أما من خطب النبي ﷺ من النساء ولم ينكحها، فأم هانىء بنت أبي طالب، خطبها ولم يتزوجها. وضباعة ابنة عامر من بني قشير، وصفية بنت بشامة الأعور العنبري، وأم حبيبة ابنة عمه العباس، فوجد العباس أخاً له من الرضاعة فتركها، وجمرة بنت الحارث بن أبي حارثة خطبها، فقال أبوها: بها سوء، ولم يكن بها وجع، فرجع إليها فوجدها قد برصت.

وأما سراريه ﷺ فأربع:

الأولى: مارية ابنة شمعون القبطية، ولدت له إبراهيم.

والثانية: ريحانة ابنة زيد القرظية، وقيل: هي من بني النضير.

والثالثة: نفيسة، وهبتها له زينب بنت جحش.

والرابعة: أصابها في بعض السبي، ولم يعرف اسمها.

وفي «المواهب»: رواية أخرى يختلف فيها الأسماء بعض الاختلاف، ويطول بنا القول لو نقلناها، فليرجع إليها من شاء.

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ قال بعضهم: الخشوع: انقياد الباطن للحق، والخضوع: انقياد الظاهر له. وفي «القاموس»: الخشوع: الخضوع، أو هو في البدن، والخشوع في الصوت.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ وفي «المفردات»: الصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوع به، والزكاة للواجب. وقيل: يسمَّى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبه الصدق في فعله.

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ وفي «المفردات»: الفرج والفرجة: الشق بين الشيئين، كفرجة الحائط، والفرج: ما بين الرجلين، وكني به عن السوءة، وكثر حتى صار كالصريح فيه.

﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ - بالكسر -: اسم من الاختيار؛ أي: أن يختاروا.

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وإمساك الشيء: التعلق به وحفظه.

﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الإبداء: الإظهار. ﴿وَطَرًا﴾ قال في «القاموس»: الوطر محركة: الحاجة، أو حاجة لك فيها همٌّ وعناية، فإذا بلغتها.. فقد قضيت وطرك.

وفي «الوسيط»: معنى قضاء الوطر في اللغة: بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء. يقال: قضى منها وطراً: إذا بلغ ما أراد من حاجة فيها، ثم صار عبارة عن الطلاق؛ لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة. انتهى.

﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: ضيق وشدة. قال في «المفردات»: أصل الحرج: مجتمع الشجر، وتصور منه ضيق بينها، فقيل للضيق: حرج، وللإثم حرج.

﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ والأدعياء: جمع دعي، وهو الذي يُدَّعى ابناً من غير ولادة.

﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ﴾؛ أي: قسم الله له وقدر، من قولهم: فرض له في الديوان كذا، ومنه: فروض العساكر لأرزاقهم. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾: اسم موضوع موضع المصدر مؤكد لما قبله من نفي الحرج؛ أي: سن الله نفي الحرج سنة؛ أي: جعله طريقة مسلوكة.

﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾؛ أي: مضوا، قال في «المفردات»: الخلو: يستعمل في الزمان والمكان، لكن لما تصور في الزمان المضي.. فسر أهل اللغة قولهم: خلا الزمان بقولهم: مضى وذهب. انتهى. وقال بعضهم: الخلو في الحقيقة حال الزمان والمكان؛ لأن المراد خلوهما عما فيهما بموت ما فيهما. فافهم.

﴿رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ جمع: رسالة، والمراد: ما يتعلق بالرسالة، وهي سفارة العبد بين الله وبين ذوي الألباب من خلقه؛ أي: إيصال الخبر من الله إلى العبد.

﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ الرسول والمرسل بمعنى واحد، من: أرسلت فلاناً في رسالة، فهو مرسل ورسول. قال القهستاني: الرسول: فعول، مبالغة: مفعول بضم الميم وفتح العين بمعنى: ذي رسالة، اسم من الإرسال، وفعول هذا لم يأت إلا نادراً. واصطلاحاً: هو من بعث لتبليغ الأحكام ملكاً كان، أو إنساناً، بخلاف النبي فإنه مختص بالإنسان، وهذا الفرق هو المعول عليه. انتهى.

﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ والخاتم - بفتح التاء -: آلة الختم بمعنى ما يختم به، كالطابع بمعنى: ما يطبع به، والمعنى عليه: وكان آخرهم الذي ختموا به، وبكسرها: آخر الشيء؛ أي: كان خاتمهم؛ أي: فاعل الختم.

﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ والذكر: إحضار الشيء في القلب، أو في القول، وهو

ذكر عن نسيان، وهو حال العامة، أو إدامة الحضور والحفظ، وهو حال الخاصة؛ إذ ليس لهم نسيان أصلاً، وهم عند مذكورهم مطلقاً.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ قال في «المفردات»: السبح: المر السريع في الماء، أو في الهواء، والتسبيح: تنزيه الله، وأصله: المر السريع في عبادة الله، وجعل عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نية.

﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الظلمة: عدم النور، ويعبَّر بها عن الجهل والشرك والفسق ونحوها، كما يعبر بالنور عن أضدادها.

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، كما مر؛ أي: ما يحيون به، والتحية: الدعاء بالتعمير بأن يقال: حياك الله؛ أي: جعل لك حياة، ثم جعل كل دعاء تحية لكون جميعه غير خارج عن حصول الحياة، أو سبب حياة، إما لدنيا، وإما لآخرة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: كتبرج أهل الجاهلية، حذفت أداة التشبيه، ووجه الشبه، فصار بليغاً.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إفادة للتعميم، فإن إطاعة الله ورسوله تشمل كل ما تقدم من الأوامر والنواهي.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ حيث استعار الرجس الذي هو القذر للذنب، بجامع التدنيس في كل؛ لأن الذنب يدنس العرض والقلب، كما أن الرجس يدنس الثوب والبدن، وذكر الطهارة ترشيح.

ومنها: جعل التطهير ترشيحاً لمزيد التنفير عن المعاصي.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

ومنها: ذكر التلاوة في البيوت في قوله: ﴿مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ دون النزول فيها، مع أنه الأنسب لكونها مهبط الوحي لعمومها جميع الآيات، ووقوعها في كل البيوت، وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير، بخلاف النزول.

ومنها: عدم تعيين التالي ليعم تلاوة جبريل، وتلاوة النبي ﷺ، وتلاوتهن، وتلاوة غيرهن تعلماً وتعليماً.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ حذف المفعول لدلالة السابق عليه؛ أي: والحافظات فروجهن، وكذا يقال في: ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم﴾؛ حيث أتى بضمير الغائبين تغليباً للذكور على الإناث.

ومنها: التنكير لإفادة العموم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾؛ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ أي: ليس لواحد منهم أن يريد غير ما أراده الله ورسوله، فلما وقعا في سياق النفي.. كانا بمعنى كل مؤمن ومؤمنة. اهـ. «زاده».

ومنها: الطباق بين ﴿تخفي﴾، و﴿مُبْدِيهِ﴾، وبين ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ و﴿النُّورِ﴾؛ فإنه من المحسنات البديعية.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، وفيه التأكيد أيضاً؛ كظل ظليل، وليل أليل، ويوم أيوم، كما مر.

ومنها: جناس السلب في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وفيه أيضاً المجاز المرسل من إطلاق الطرفين، وإرادة الكل؛ أي: في جميع الأوقات.

ومنها: عطف الخاص في قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ على العام في قوله: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ إشعاراً بكون التسبيح هو العمدة في الأذكار من حيث إنه من باب التخلية.

ومنها: فن التلفيف في قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وهو أن يأتي بالجواب العام عن نوع من أنواع جنس تدعو الحاجة إلى بيانها كلها، فيعدل المجيب عن الجواب الخاص عما سئل عنه من تبيين ذلك النوع إلى جواب عام

يتضمن الإبانة عن الحكم المسؤول عنه، وعن غيره. مما تدعو الحاجة إلى بيانه، فإن قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ...﴾ إلخ. جواب عن سؤال مقدر، وهو قول قائل: أليس محمد أبا زيد بن حارثة؟ فأتى في الجواب بقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وكان مقتضى الجواب أن يقول: ما كان محمد أبا زيد، وكان يكفي أن يقول ذلك، ولكنه عدل عنه ترشيحاً للإخبار بأن محمداً ﷺ خاتم النبيين، ولا يتم هذا الترشيح إلا بنفي أبوته لأحد من الرجال، فإنه لا يكون خاتم النبيين إلا بشرط أن لا يكون له ولد قد بلغ، فلا يرد أن له الطاهر، والطيب، والقاسم؛ لأنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال.

ثم احتاط لذلك بقوله: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، فأضاف الرجال إليهم، لا إليه فالتف المعنى الخاص في المعنى العام، وأفاد نفي الأبوة الكلية لأحد من رجالهم، وانطوى في ذلك نفي الأبوة لزيد، ثم إن هناك تلفيفاً آخر، وهو قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾، فعدل عن لفظ نبي إلى لفظة رسول لزيادة المدح؛ لأن كل رسول نبي، ولا عكس، على أحد القولين، فهذا تلفيف بعد تلفيف.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا
مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ
أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ
طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا
جَمِيلًا (٤٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ
أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ
وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ
قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠) ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ
عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ
كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ
وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
رَّقِيبًا (٥٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ
نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ
كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا
فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ
ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا۟
شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ
إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا (٥٥) إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا (٥٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات

لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] تأديبه لنبيه ﷺ في ابتداء السورة، وذكر ما ينبغي أن يكون عليه مع أهله.. ذكر هنا ما ينبغي أن يكون عليه مع الخلق كافة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أدب نبيه بمكارم الأخلاق بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، وثنى بتذكيره بحسن معاملة أزواجه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾، وثلث بذكر معاملته لأمته بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا...﴾ الآية، وكان كلما ذكر للنبي مكرمة، وعلّمه أدباً.. ذكر للمؤمنين ما يناسبه، فأرشد المؤمنين فيما يتعلق بجانبه تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾﴾.. أرشدهم فيما يتعلق بما تحت أيديهم من الزوجات بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، وفيما يتعلق بمعاملتهم لنبيهم بقوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ...﴾ إلخ، وبقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه لما ذكر أنه لم يوجب على نبيه القسم لنسائه، وأمره بتخييرهن، فاخترن الله ورسوله.. أردف ذلك بذكر ما جازاهن به من تحريم غيرهن عليه، ومنعه من طلاقهن بقوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر حال النبي ﷺ مع أمته بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا﴾.. أردف ذلك ببيان حال المؤمنين مع النبي ﷺ إرشاداً إلى ما يجب عليهم في حقه من الاحترام، والتعظيم في خلوته، وفي الملأ، فأبان أنه يجب عدم إزعاجه إذا كان في الخلوة بقوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ...﴾ إلخ، وأنه يجب إجلاله إذا كان في الملأ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ...﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه لما ذكر أن نساء النبي لا يكلمن إلا من وراء حجاب..

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

أردف ذلك باستثناء بعض الأقارب، ونساء المؤمنين، والأرقاء لما في الاحتجاب عن هؤلاء من عظيم المشقة للحاجة إلى الاختلاط بهؤلاء كثيراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر وجوب احترام النبي ﷺ حال خلوته بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.. أردف ذلك ببيان ما له من احترام في الملأ الأعلى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾، وفي الملأ الأدنى بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية(١): ما أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه من طريق السدي عن أبي صالح عن ابن عباس عن أم هانىء بنت أبي طالب، قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه، فعذرني، فأنزل الله ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فلم أكن أحل له؛ لأني لم أهاجر.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح عن أم هانىء قالت: نزلت فيَّ هذه الآية: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أراد النبي ﷺ أن يتزوجني، فنهي عني؛ إذ لم أهاجر.

قوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً...﴾الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن سعد عن عكرمة قال: نزلت في أم شريك الدوسية.

وأخرج ابن سعد عن منير بن عبد الله الدؤلي أن أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية عرضت نفسها على النبي ﷺ، وكانت جميلة، فقبلها فقالت عائشة: ما في امرأةٍ حين تهب نفسها لرجل خير، قالت أم شريك: فأنا تلك، فسماها الله: مؤمنة، فقال: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾، فلما نزلت.. قالت عائشة: إن الله يسارع لك في هواك.

قوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية(٢): ما أخرجه

---

(١) المراغي.
(٢) البخاري.

الشيخان بسندهما عن عائشة قالت: كنت أغار على اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

وأخرج ابن سعد عن أبي رزين قال: همَّ رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه، فلما رأين ذلك.. جعلنه في حل من أنفسهم، يؤثر من يشاء على من يشاء، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ...﴾ سبب نزوله[1]: ما أخرجه ابن سعد عن عكرمة قال: خيَّر رسول الله ﷺ أزواجه، فاخترن الله ورسوله، فأنزل الله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[2] البخاري ومسلم عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: أولم النبي ﷺ حين بنى بزينب ابنة جحش، فأشبع الناس خبزاً ولحماً، ثم خرج إلى حجر أمهات المؤمنين، كما كان يصنع صبيحة بنائه، فيسلم عليهن، ويدعو لهن، ويسلِّمن عليه، ويدعون له، فلما رجع إلى بيته.. رأى رجلين جرى بهما الحديث، فلما رآهما.. رجع عن بيته، فلما رأى الرجلان رسول الله ﷺ رجع عن بيته وثبا مسرعين، فما أدري أنا أخبرته بخروجهما، أم أُخبِر، فرجع حتى دخل البيت، وأرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ...﴾ الآية.

وفي رواية عنهما عن أنس قال: لما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش.. دعا القوم، فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فأخذ كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، وقام من القوم من قام، وقعد ثلاثة، ثم انطلقوا، فجئت، فأخبرت النبي ﷺ: أنهم انطلقوا، فجاء حتى دخل، وذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، وأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

---

(١) لباب النقول.

(٢) البخاري ج ١٠ ص ١٤٩

وأخرج الترمذي، وحسنه عن أنس قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فأتى باب امرأة عرس بها، فإذا عندها قوم، فانطلق، ثم رجع وقد خرجوا، فدخل، فأرخىٰ بيني وبينه ستراً، فذكرته لأبي طلحة فقال: لئن كان كما تقول.. لينزِلنَّ في هذا شيء، فنزلت آية الحجاب.

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ في قعب، فمر عمر، فدعاه، فأكل، فأصابت إصبعه إصبعي، فقال: أوه، لو أُطاع فيكن.. ما رأتكن عين، فنزلت آية الحجاب.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رجل على النبي ﷺ، فأطال الجلوس، فخرج النبي ﷺ ثلاث مرات ليخرج، فلم يفعل، فدخل عمر، فرأى الكراهية في وجهه، فقال للرجل: لعلك آذيت النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «لقد قمت ثلاثاً لكي يتبعني، فلم يفعل»، فقال له عمر: يا رسول الله، لو اتخذت حجاباً، فإن نساءك لسن كسائر النساء، وذلك أطهر لقلوبهن، فنزلت آية الحجاب.

قال الحافظ ابن حجر: يمكن الجمع بأن ذلك وقع قبل قصة زينب، فلقربه منها.. أطلق نزول آية الحجاب بهذا السبب، ولا مانع من تعدد الأسباب.

وأخرج البخاري[(١)] بسنده عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، قالت: فلم يفعل، وكان أزواج النبي ﷺ يخرجن ليلاً إلى ليل قبل المناصع، فخرجت سودة بنت زمعة، وكانت امرأة طويلة، فرآها عمر بن الخطاب وهو في المجلس، فقال: عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله عز وجل آية الحجاب.

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا نهض إلى بيته.. بادروه، فأخذوا المجالس، فلا يعرف ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ولا يبسط يده إلى الطعام استحياءً منهم، فعوتبوا في ذلك فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ...﴾ الآية.

---

(١) البخاري.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: بلغ النبي ﷺ أن رجلاً يقول: لو قد توفي النبي ﷺ.. تزوجت فلانة من بعده، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

وأخرج عن ابن عباس قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده. قال سفيان: ذكروا أنها عائشة.

وأخرج عن السدي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أيحجبنا محمد عن بنات عمنا، ويتزوج نساءنا، لئن حدث به حدث.. لنتزوجن نساءه من بعده، فأُنزلت هذه الآية.

وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن عمرو بن حزم قال: نزلت في طلحة بن عبيد الله؛ لأنه قال: إذا توفي رسول الله ﷺ.. تزوجت عائشة.

قال الحافظ السيوطي: وقد كنت في وقفة شديدة من صحة هذا الخبر؛ لأن طلحة أحد العشرة المبشرين بالجنة، أجلُّ مقاماً من أن يصدر منه ذلك، حتى رأيتُ أنه رجل آخر شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبته، كما في «إنسان العيون».

وأخرج جويبر عن ابن عباس: أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي ﷺ، فكلمها وهو ابن عمها، فقال النبي ﷺ: «لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا»، فقال: يا رسول الله، إنها ابنة عمي، واللَّهِ ما قلت لها منكراً، ولا قالت لي. قال النبي ﷺ: «قد عرف ذلك، إنه ليس أحد أغير من الله، وإنه ليس أحد أغير مني»، ثم قال: يمنعني من كلام ابنة عمي، لأتزوجنها من بعده، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال ابن عباس: فأعتق ذلك الرجل رقبة، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله، وحج ماشياً توبة من كلمته.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ نداء كرامة وتعظيم؛ لأن الشريف ينادى باللقب الشريف، لا

---

(١) لباب النقول.

نداء علامة، مثل: يا آدم ونحوه.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ وبعثناك بعظمتنا إلى كافة الناس، وقوله: ﴿شَٰهِدٗا﴾ حال من كاف ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ أي: حالة كونك شاهداً على أمتك، تشهد لمن صدقك وآمن بك بالإيمان، وعلى من كذبك وكفر بك بالتكذيب، وهي[1] حال مقدَّرة، فالنبي ﷺ بعث متحملاً للشهادة في الدنيا، ويكون في الآخرة مؤدياً لما تحمله، ووقت الأداء متأخر عن وقت الإرسال، نحو: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، أي: مقدراً به الصيد غداً.

والمعنى: يا أيها النبي الكريم، إنا أرسلناك بعظمتنا مقدراً شهادتك على أمتك بتصديقهم وتكذيبهم، تؤديها يوم القيامة أداء مقبولاً قبول قول الشاهد العدل في الحكم. قال مجاهد: شاهداً على أمته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم.

﴿و﴾ حالة كونك ﴿مبشرا﴾ للمؤمنين بالجنة، وبما أعده لهم من جزيل الثواب وعظيم الأجر. ﴿و﴾ حالة كونك ﴿نذيرا﴾؛ أي: مخوفاً للكافرين والعصاة بالنار، وبما أعده لهم من عظيم العقاب. ﴿و﴾ حالة كونك ﴿داعيا إلى الله﴾؛ أي: داعياً لكافة الناس إلى توحيده سبحانه ودينه، وإلى الإيمان بكل ما جاء به، والعمل بما شرعه لهم. ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ أي: بأمره له بذلك وتقديره، لا برأيك واجتهادك، وهذا راجع[2] إلى قوله: داعياً فقط، وذلك كما إذا قال شخص: من يطع الملك يسعد، ومن يعصه يشقى، فيكون مبشراً ونذيراً، ولا يحتاج في ذلك إلى إذن من الملك، وأما إذا قال: تعالوا إلى سماطه، وأحضروا إلى خوانه، فيحتاج في ذلك إلى إذنه.

وقيل: معنى[3] ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ أي: بتيسيره وتسهيله، فأطلق الإذن، وأريد به التيسير مجازاً بعلاقة السببية، فإن التصرف في ملك الغير متعسر، فإذا أذن. تسهل وتيسر، وإنما لم يحمل الإذن على حقيقته، وهو الإعلام بإجازة الشيء، والرخصة فيه؛ لانفهامه من قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقيد به الدعوة إيذاناً بأنها

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.

أمر صعب لا يتأتى إلا بمعونة وإمداد من جانب قدسه، كيف لا، وهي صرف الوجوه عن سمت الخلق إلى الخلاق، وإدخال قلادة غير معهودة في الأعناق.

﴿و﴾ حالة كونك ﴿سراجا﴾؛ أي: مصباحاً ﴿مُّنِيرًا﴾؛ أي: مضيئاً في الظلام؛ أي: يستضاء به في ظلم الضلالة، كما يستضاء بالمصباح في الظلمة. ففي الكلام تشبيه بليغ، وقال الزجاج: ﴿وَسِرَاجًا﴾؛ أي: ذا سراج منير؛ أي: كتاب نير، وفي «الخازن»: سماه[1] سراجاً منيراً؛ لأنه جلا به ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير. وقيل: معناه: أمد الله بنور نبوته نور البصائر، كما يمد بنور السراج نور الأبصار، ووصفه بالإنارة؛ لأن من السرج ما لا يضيء إذا قل سليطه، ودقَّتْ فتيلته.

فإن قلت: لم سماه سراجاً، ولم يسمه شمساً، والشمس أشد إضاءة من السراج وأنور؟.

قلتُ: نور الشمس لا يمكن أن يؤخذ منه شيء، بخلاف نور السراج، فإنه يؤخذ منه أنوار كثيرة.

وعبارة «فتح الرحمن» هنا: فإن قلت[2]: كيف شبه الله تعالى نبيه ﷺ بالسراج، دون الشمس، مع أنها أتم؟.

قلتُ: المراد بالسراج هنا: الشمس، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، أو شبهه بالسراج؛ لأنه تفرع منه بهدايته جميع العلماء، كما يتفرع من السراج سرج لا تحصى، بخلاف الشمس.

واعلم: أن الله سبحانه وتعالى شبَّه نبينا محمداً ﷺ بالسراج لوجوه[3]:

منها: أنه يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية، كما يهتدى بالسراج المنير في الظلام إلى سمت المرام.

ومنها: أن السراج الواحد يوقد منه ألف سراج، ولا ينقص من نوره شيء.

---

(١) الخازن.

(٢) فتح الرحمن.

(٣) روح البيان.

ومنها: أنه ﷺ يضيء من جميع الجهات الكونية إلى جميع العوالم، كما أنَّ السراج يضيء من كل جانب، وأيضاً: يضيء لأمته كلهم، كالسراج لجميع الجهات إلا من عمي، مثل: أبي جهل، ومن تبعه على صفته، فإنه لا يستضيء بنوره، ولا يراه حقيقة، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

ومنها: أنه سماه سراجاً، ولم يسمه شمساً، ولا قمراً، ولا كوكباً؛ لأنه لا يوجد يوم القيامة شمس ولا قمر ولا كوكب، ولأن الشمس والقمر لا ينقلان من موضع إلى موضع بخلاف السراج، ألا ترى أنه تعالى نقله ـ عليه السلام ـ من مكة إلى المدينة.

ومعنى الآية[1]: أي يا أيها الرسول، إنا بعثناك شاهداً على من بُعثت إليهم، تراقب أحوالهم، وترى أعمالهم، وتتحمل الشهادة بما صدر منهم من تصديق وتكذيب، وسائر ما يفعلون من الهدى والضلال، وتؤدِّي ذلك يوم القيامة، وأرسلناك مبشراً لهم بالجنة إن صدقوك، وعملوا بما جئتهم به من عند ربك، ومنذراً لهم بالنار يدخلونها، فيعذَّبون فيها إن هم كذبوك، وخالفوا ما أمرتهم به، ونهيتهم عنه، وداعياً الخلق إلى الإقرار بوحدانيته تعالى، وسائر ما يجب له من صفات الكمال، وإلى عبادته ومراقبته في السر والعلن، وسراجاً منيراً يستضيء به الضالون في ظلمات الجهل والغواية، ويقتبس من نورك المهتدون، فيسلكون مناهج الرشد والسعادة.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على مقدر يقتضيه المقام، كأنه قال: فدبر أمور الناس، وراقب أحوالهم، وبشر المؤمنين بك، وبما جئت به بأن لهم من الله فضلاً كبيراً؛ أي: على مؤمني سائر الأمم في الرتبة والشرف، أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان. وروي أن الحسنة الواحدة في الأمم السالفة كانت بواحدة، وفي هذه الأمة بعشر أمثالها إلى ما لا نهاية له.

أو هو من عطف جملة على جملة، وهي المذكور سابقاً، ولا يمنع من ذلك الاختلاف بين الجملتين بالإخبار والإنشاء. أمره سبحانه بأن يبشِّرهم بأن لهم من الله

---

(١) المراغي.

فضلاً كبيراً على سائر الأمم، وقد بين ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وأخرج ابن جرير وعكرمة عن الحسن أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا: يا رسول الله، قد علمنا ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾.

ثم نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ من أهل المدينة. ومعناه: الدوام على عدم طاعتهم، أي[1]: دم واثبت على ما أنت عليه من مخالفتهم، وترك إطاعتهم، واتباعهم.

وفي «الإرشاد»: نُهي عن مداراتهم في أمر الدعوة، واستعمال لين الجانب في التبليغ، والمسامحة في الإنذار، كنى عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغةً في الزجر والتنفير عن المنهي عنه، بنظمه في سلكها، وتصويره بصورتها.

أي: لا تطعهم فيما يشيرون عليك به من المداهنة في الدين، وفي الآية تعريض لغيره من أمته؛ لأنه ﷺ معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه، ويشيرون به عليه، وقد تقدم تفسير هذه الآية في أول السورة ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾؛ أي: واترك المجازاة لهم على إيذائهم إياك، ومؤاخذتهم به؛ أي: دع أن تؤذيهم مجازاةً لهم على ما يفعلونه من الأذى لك، فهو مصدر مضاف إلى المفعول، أو المعنى: لا تبال بإيذائهم لك بسبب تصلبك في الدعوة والإنذار، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل، وهي منسوخة بآية السيف بالنظر إلى الكافر.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قسم رسول الله ﷺ قسمة، فقال رجل من الأنصار: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأخبر بذلك، فاحمر وجهه فقال: «رحم الله أخي موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وفي «التأويلات»: ﴿وَلَا تُطِعِ ...﴾ إلخ؛ أي: لا تتخلق بخلق من أخلاقهم، ولا توافق من أعرضنا عنه، وأغفلنا قلبه عن ذكرنا، وأضللناه من أهل الكفر والنفاق وأهل البدع والشقاق. ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ بالبحث والمناظرة على إبطالهم، فإنهم عن

---

(١) روح البيان.

سمع كلمات الحق لمعزولون، فتضيع أوقاتك، ويزيد إنكارهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في كل شؤونك، واعتمد عليه في أمورك خصوصاً في هذا الشأن، فإنه تعالى يكفيكهم، والعاقبة لك. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ سبحانه لمن استكفاه من جهة كونه ﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: موكولاً إليه الأمور في كل الأحوال، فهو فعيل بمعنى: المفعول، تمييز من فاعل كفى، وهو الله؛ إذ الباء صلة، والتقدير: وكفى الله من جهة الوكالة، فإن أهل الدارين لا يكفي كفاية الله فيما يحتاج إليه، فمن عرف أنه تعالى هو المتكفل بمصالح عباده، والكافي لهم في كل أمر.. اكتفى به في كل أمره، فلم يدبر معه، ولم يعتمد إلا عليه.

روي: أن الحجاج بن يوسف سمع ملبياً يلبي حول البيت، رافعاً صوته بالتلبية، وكان إذ ذاك بمكة فقال: عليَّ بالرجل، فأتي به إليه، فقال: ممن الرجل؟ قال: من المسلمين، فقال: ليس عن الإسلام سألتك، قال: فعمَّ سألت؟ قال: سألتك عن البلد، قال: من أهل اليمن، قال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ ـ يعني: أخاه ـ قال: تركته عظيماً جسيماً لباساً ركاباً خراجاً ولاجاً. قال: ليس عن هذا سألتك، قال: فعمَّ سألت؟ قال: سألتك عن سيرته، قال: تركته ظلوماً غشوماً، مطيعاً للمخلوق، عاصياً للخالق. فقال له الحجاج: ما حملك على هذا الكلام، وأنت تعلم مكانه مني؟ قال: أترى مكانه منك أعز مني بمكاني من الله، وأنا وافد بيته، مصدِّق نبيه، فسكت الحجاج، ولم يحسن جواباً، وانصرف الرجل من غير إذن، فتعلق بأستار الكعبة، وقال: اللهم بك أعوذ وبك ألوذ، اللهم فرجك القريب، ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة، فخلص من يد الحجاج بسبب توكله على الله في قوله الخشن، وبعدم إطاعته وانقياده للمخلوق.

ومعنى الآية: أي ولا تطع[1] يا محمد قول كل كافر ولا منافق في أمر الدعوة، وألن الجانب في التبليغ، وارفق في الإنذار، واصفح عن آذاهم، واصبر على ما ينالك منهم، وفوِّض أمورك إلى الله، وثقْ به، فإنه كافيك جميع من دونك حتى يأتيك أمره وقضاؤه، وهو حسبك في جميع أمورك، وكالؤك وراعيك.

---

(١) المراغي.

ولما ذكر سبحانه قصة زيد وطلاقه لزينب، وكان قد دخل بها، وخطبها النبي ﷺ بعد انقضاء عدتها، كما تقدم.. خاطب المؤمنين هنا مبيِّناً لهم حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل الدخول، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ﴾ وتزوجتم ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ وعقدتم عليهن عقد النكاح. قال في «بحر العلوم»: أصل النكاح: الوطء، ثم قيل للعقد نكاح مجازاً تسمية للسبب باسم المسبب، فإن العقد سبب الوطء المباح، وعليه قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾؛ أي: لا يتزوج. ونظيره تسمية النبات غيثاً في قوله: رعينا الغيث؛ لأنه سبب للنبات، والخمر إثماً؛ لأنها سبب لاكتساب الإثم. انتهى.

وفي «القاموس»: النكاح: الوطء والعقد. انتهى.

وخص المؤمنات[1] بالذكر مع أن هذا الحكم الذي في الآية يستوي فيه المؤمنات والكتابيات، تنبيهاً على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيّراً لنطفته، ويجتنب عن مصاحبة الفواسق، فما بال الكوافر. فالتي في سورة المائدة تعليم ما هو جائز غير محرم من نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، وهذه فيها تعليم ما هو أولى بالمؤمنين من نكاح المؤمنات، وقد قيل: الجنس يميل إلى الجنس. وفي «فتح الرحمن»: التقييد بالمؤمنات خرج مخرج الغالب، وإلا فالكتابيات مثلهن فيما ذكر في الآية. انتهى.

﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾؛ أي: أطلقتموهن من عقال النكاح، وفككتموهن من حبله ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ أي: من قبل أن تجامعوهن، فإن المس، أي: اللمس كنايةٌ عن الجماع.

وقرأ حمزة والكسائي[2]: ﴿تُماسوهن﴾ بضم التاء ومد الميم، وفائدة[3] الإتيان بـ﴿ثُمَّ﴾ إزاحة ما عسى يتوهم أن تراخي الطلاق ربما تمكن الإصابة معه، فيؤثر في العدة كما يؤثر في النسب، فلا تفاوت في الحكم بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح، وبين أن يطلقها وهي بعيدة منه.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

وفيه دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع؛ لأن الله تعالى رتب الطلاق على النكاح، كما قال بعضهم: إنما النكاح عقدة، والطلاق يحلها. فكيف تحل عقدة لم تعقد؟. فلو قال: متى تزوجت فلانة، أو كل امرأة أتزوجها.. فهي طالق، لم يقع عليه طلاق إذا تزوج. عند الشافعي وأحمد، وقال أبو حنيفة: يقع مطلقاً؛ لأنه تطليق عند وجود الشرط، إلا إذا زوجها فضولي، فإنها لم تطلق، كما في «المحيط». وقال مالك: إن عين امرأة بعينها، أو من قبيلة، أو من بلد، فتزوجها.. وقع الطلاق، وإن عمم فقال: كل امرأة أتزوجها من الناس كلهم لم يلزمه شيء.

والقول الصحيح الموافق لنص الكتاب والسنة: عدم وقوع الطلاق قبل النكاح، لحديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «جعل الله الطلاق بعد النكاح» وأخرجه البخاري في ترجمة باب بغير إسناد. ولحديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح».

ولحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «لا طلاق فيما لا تملك، ولا عتق فيما لا تملك، ولا بيع فيما لا تملك». أخرجه أبو داود والترمذي بمعناه.

ثم إن[1] حكم الخلوة التي يمكن معها المساس في حكم المساس عند أبي حنيفة وأصحابه. والخلوة الصحيحة: غلق الرجل الباب على منكوحته بلا مانع وطءٍ من الطرفين، وهو ثلاثة:

حسي: كمرض يمنع الوطأ، ورتق وهو: انسداد موضع الجماع، بحيث لا يستطاع.

وشرعي: كصوم رمضان دون صوم التطوع، والقضاء والنذر والكفارة على الصحيح؛ لعدم وجوب الكفارة بالإفساد، وكإحرام فرض أو نفل، فإن الجماع مع الإحرام يفسد النسك، ويوجب دماً مع القضاء.

وطبعي: كالحيض والنفاس؛ إذ الطباع السليمة تنفر منها، فإذا خلا بها في

(١) روح البيان.

محل خال عن غيرهما حتى عن الأعمى والنائم، بحيث أمنا من إطلاع غيرهما عليهما بلا إذنهما.. لزمه تمام المهر؛ لأنه في حكم الوطء، ولو كان خصياً، وهو مقطوع الأنثيين، أو عنيناً، وهو الذي لا يقدر على الجماع، وكذا لو كان مجبوباً، وهو مقطوع الذكر. وفرض الصلاة مانع كفرض الصوم للوعيد على تركها، والعُدَّة تجب بالخلوة، ولو مع المانع احتياطاً لتوهم شغل الماء، ولأنها حق الشرع والولد.

واعلم: أن الحيض والنفاس والرتق من الأعذار المخصوصة بالمرأة، وأما المرض والإحرام والصوم.. فتعتبر في كل من الرجل والمرأة، وتعد مانعاً بالنسبة إلى كليهما، كما في تفسير «أبي الليث».

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿عَلَيْهِنَّ﴾؛ أي: على المطلقات قبل الدخول ﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾؛ أي: أيام معدودة بالأشهر، أو بالأقراء، ينتظرن انقضاءها في زواجها للغير. وعدة المرأة: هي الأيام التي بانقضائها تحل للزوج. وجملة ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾؛ أي: تحسبونها، في محل الجر على أنها صفة ﴿عِدَّةٍ﴾؛ أي: تستوفون عددها، أو تعدونها وتحصونها بالأقراء إن كانت من ذوات الحيض، أو بالأشهر إن كانت آيسةً، وفي الإسناد إلى[1] الرجال دلالة على أنَّ العدة حقهم، كما أشعر به ﴿فَمَا لَكُمْ﴾.

فدلت الآية على أنه لا عدة على غير المدخول بها، وهذا من الأمر المجمع عليه، كما حكاه القرطبي؛ لبراءة رحمها من نطفة الغير، فإن شاءت تزوجت من يومها، وكذا إذا تيقن بفراغ رحم الأمة من ماء البائع، لم يستبرىء عند أبي يوسف. وقالا أي: الشافعي وأحمد: إذا ملك جارية، ولو كانت بكراً، أو مشتراة ممن لا يطأ أصلاً، مثل المرأة والصبي والعنين والمجبوب، أو شرعاً كالمحرم رضاعاً أو مصاهرة، أو نحو ذلك.. حرم عليه وطؤها ودواعيه، كالقبلة والمعانقة والنظر إلى فرجها بشهوة، أو غيرها حتى يستبرىء بحيضة، أي: يطلب براءة رحمها من الحمل.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ بتشديد الدال، افتعل من: العد؛ أي: تستوفون

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

عددها، من قولهم: عدَّ الدراهم فاعتدها؛ أي: استوفى عددها.

وقرأ ابن كثير في رواية عنه، وأهل مكة: بتخفيفها، وفي هذه القراءة وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى الأولى مأخوذة من الإعتداد؛ أي: تستوفون عددها، ولكنهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف.

والوجه الثاني: أن يكون المعنى: تعتَدُون فيها، والمراد بالإعتداء هذا: هو ما في قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾، فيكون الآية على القراءة الأخيرة: فما لكم عليهن من عدة تعتدون عليهن فيها بالمضارة. وقد أنكر ابن عطية صحة هذه القراءة عن ابن كثير، وقال: إن البزي غلط عليه.

وهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾، وبقوله: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾. وتخصص من هذه الآية المتوفى عنها زوجها، فإنه إذا مات بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها.. كان الموت كالدخول، فتعتد أربعة أشهر وعشراً.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾؛ أي: فأعطوهن المتعة، وهي: درع وخمار وملحفة، كذا قيل. وهو محمول على إيجاب المتعة إن لم يسم لها مهر عند العقد، وعلى استحبابها إن سمي ذلك، فإنه إن سمي المهر عنده، وطلق قبل الدخول، فالواجب نصفه دون المتعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾؛ أي: فالواجب عليكم نصف ما سميتم لهن من المهر.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾؛ أي: أخرجوهن من منازلكم؛ إذ ليس لكم عليهن من عدة ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾؛ أي: إخراجاً حسناً، أي: من غير ضرار ولا منع حق. وقيل: السراح الجميل: أن لا يطالبها بما كان قد أعطاها. وفي «كشف الأسرار»: معنى الجميل: أن لا يكون الطلاق جور الغضب، أو طاعة لغيره، وأن لا يكون ثلاثاً بتاً، أو لمنع صداق. انتهى. والمراد بالسراح هنا: الإخراج من المنازل كما سبق، ولا يصح تفسير السراح بالطلاق السني، لأنه إنما يتسنى في المدخول بها، والضمير لغير المدخول بها.

وفي «التأويلات النجمية»: وفي الآية إشارة إلى كرم الأخلاق، يعني: إذا نكحتم المؤمنات، ومالت قلوبهن إليكم، ثم آثرتم الفراق قبل الوصال، فكسرتم

قلوبهن، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها، فمتعوهن ليكون لهن عليكم تذكرةً في أيام الفرقة، وأوائلها إلى أن تتوطن نفوسهن على الفرقة، وسرحوهن سراحاً جميلاً، بأن لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير، ولا تستردوا منهن شيئاً تفضلتم به معهن، فلا تجمعوا عليها الفراق بالحال، والإضرار من جهة المال. انتهى.

وينبغي للمؤمن[1]: أن لا يؤذي أحداً بغير حق، ولو كلباً أو خنزيراً، ولا يظلم، ولو بشق تمرة، ولو وقع شيء من الأذى والجور.. يجب الاستحلال والإرضاء، ورأينا كثيراً من الناس في هذا الزمان يطلقون ضراراً، ويقعون في الإثم مراراً، ويخالعون على المال بعد الخصومات، كأنهم غافلون عما بعد الممات.

ومعنى الآية[2]: أي يا أيها الذين آمنوا إذا عقدتم على المؤمنات، وتزوجتموهن، ثم طلقتموهن من قبل المسيس، فلا عدة لكم عليهن بأيام يتربصن بها تستوفون عددها، ولكن اكسوهن كسوة تليق بحالهن إذا خرجن وانتقلن من بيت إلى آخر. ويختلف ذلك باختلاف البيئة والبلد الذي تعيش فيه المرأة، وأخرجوهن إخراجاً جميلاً، فهيئوا لهن من المركب والزاد وجميل المعاملة ما تقرّ به أعينهن، ويسر به أهلوهن، ليكون في ذلك بعض السلوة مما لحقهن من أذى بقطع العشرة التي كن ينتظرن دوامها، ومن الخروج من بيوت كن يرجون أن تكون هي المقام إلى أن يلاقين ربهن، أو تموت عنهن بعولتهن.

روى البخاري عن سهل بن سعد، وأبي أسيد ـ رضي الله عنهما ـ قالا: إن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أن دخلت عليه.. بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها، ويكسوها ثوبين رازقيين ـ ضَرْبٌ من الثياب مشهور في ذلك الحين ـ.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ...﴾ الآية، ذكر الله سبحانه في هذه الآية أنواع الأنكحة التي أحلها لرسوله ﷺ، وبدأ بأزواجه اللاتي قد أعطاهن أجورهن؛ أي: مهورهن، فقال: يا أيها النبي الكريم ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾؛ أي: أبحنا لك بعظمتنا ﴿أَزْوَٰجَكَ﴾؛ أي: نساءك ﴿ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ﴾هن، وأعطيت ﴿أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: مهورهن، عبَّر عن

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

المهر بالأجر؛ لأن المهر أجر على البضع؛ أي: على المباشرة به، وإيتاؤها؛ إما إعطاؤها معجلة، أو تسميتها في العقد، وأياً ما كان أجزأ.

واختلف[1] في معنى ﴿أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ فقال ابن زيد والضحاك: إن الله أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، فتكون الآية مبيحة له لجميع النساء ما عدا ذوات المحارم. وقال الجمهور: المراد: أحللنا لك أزواجك الكائنات عندك؛ لأنهن قد اخترنك على الدنيا وزينتها، وهذا هو الظاهر؛ لأن قوله: ﴿أَحْلَلْنَا﴾، و﴿ءَاتَيْتَ﴾ ماضيان، وتقييد الإحلال بإيتاء الأجور ليس لتوقف الحل عليه؛ لأنه يصح العقد بلا تسمية، ويجب مهر المثل مع الوطء، والمتعة مع عدمه، فكأنه لقصد الإرشاد إلى ما هو الأفضل. ففي[2] وصفهن بـ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ تنبيه على أن الله سبحانه اختار لنبيه ﷺ الأفضل والأولى؛ لأن إيتاء المهر أولى وأفضل من تأخيره؛ ليتقصى الزوج عن عهدة الدين، وشغل ذمته به، ولأن تأخيره يقتضي أنه يستمتع بها مجاناً دون عوض تسلمته، والتعجيل كان سنة السلف، لا يعرف منهم غيره.

والمعنى[3]: أي يا أيها النبي إنا أحللنا لك الأزواج اللاتي أعطيتهن مهورهن، وقد كان مهره ﷺ لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونصفاً؛ أي: خمس مئة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان، فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله، أربع مئة درهم.

﴿و﴾ أحللنا لك ﴿ما ملكت يمينك﴾ ويدك أي: السراري اللاتي دخلن في ملكك حالة كونها ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه، ورده ﴿عَلَيْكَ﴾ من الكفار بالغنيمة لنسائهم المأخوذات على وجه القهر والغلبة. وليس المراد بهذا القيد إخراج ما ملكه بغير الغنيمة، فإنه تحل له السرية المشتراة والموهوبة والمهداة، ولكنه إشارة إلى ما هو الأفضل والأطيب؛ لأنها إذا كانت مسبية، فملكها مما غنمه الله من أهل دار الحرب.. كانت أحل وأطيب مما تشترى من الجلب، فما سبي من دار الحرب قيل فيه: سبي طيبة، وممن له عهد قيل فيه: سبي خبيثة، وفيء الله لا يطلق إلا على الطيِّب.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

والمعنى: أي وأحللنا لك الإماء اللواتي سبيتهن فملكتهن بالسباء، وصرن لك من الفيء، بفتح الله عليك، وقد ملك صفية بنت حيي بن أخطب في سبي خيبر، ثم أعتقها، وجعل صداقها عتقها، وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق أعتقها، ثم تزوجها، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية أم إبراهيم، وكانتا من السراري.

وقال في «إنسان العيون»: إن سراريه ﷺ أربع: مارية القبطية أم سيدنا إبراهيم رضي الله عنه، وريحانة، وجاريةٌ وهبتها له - ﷺ - زينب بنت جحش، وأخرى اسمها: زليخا القرظية. انتهى.

وكون ريحانة بنت يزيد من بني النضير سرية أضبط على ما قاله العراقي[1]، وزوجة أثبت عند أهل العلم على ما قاله الحافظ الدمياطي. وأما صفية بنت حيي الهارونية من غنائم خيبر، وجويرية بنت الحارث بن أبي صوار الخزاعية المصطلقية، وإن كانتا من المسبيات، لكنه ﷺ أعتقهما، فتزوجهما، فهما من الأزواج لا من السراري على ما بيِّن في كتب السير، فالوجه أنَّ المعنى: مما أفاء الله؛ أي: أعاده عليك بمعنى: صيره لك، ورده لك بأي جهة كانت هديةً أو سبية.

﴿و﴾ أحللنا لك ﴿بنات عمك﴾ والبنت: مؤنث الابن، والعم: أخو الأب؛ أي: وأحللنا لك نساء قريش من أولاد عبد المطلب وأعمامه ﷺ اثنا عشر:

الحارث، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة، وحمزة، والمقوم - بفتح الواو المشددة وكسرها - والمغيرة، والعباس، وضرار، وأبو لهب، وقثم، ومصعب، ولم يسلم من أعمامه الذين أدركوا البعثة إلا حمزة والعباس.

وبنات أعمامه ﷺ: ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، وكانت تحت المقداد، وأم الحكيم بنت الزبير، وكانت تحت النضر بن الحارث، وأم هانيء بنت أبي طالب، اسمها: فاختة، وجمانة بنت أبي طالب، وأم حبيبة، وآمنة، وصفية بنات العباس بن عبد المطلب، وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب.

﴿و﴾ أحللنا لك ﴿بنات عماتك﴾ جمع عمة، والعمة: أخت الأب.

---

(١) روح البيان.

وعماته ﷺ ست:

أم حكيم، واسمها: البيضاء، وعاتكة، وبرة، وأروى، وأميمة، وصفية، ولم تسلم من عماته اللاتي أدركن البعثة من غير خلاف إلا صفية أم الزبير بن العوام، أسلمت وهاجرت، وماتت في خلافة عمر رضي الله عنه.

واختلف في إسلام عاتكة، وأروى، ولم يتزوج رسول الله ﷺ من بنات أعمامه ديناً، وأما بنات عماته ديناً.. فكانت عنده منهن زينب بنت جحش بن رباب؛ لأن أمها أميمة بنت عبد المطلب، كما في «التكملة».

﴿و﴾ أحللنا لك ﴿بنات خالك﴾والخال: أخ الأم. ﴿وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ﴾ جمع: خالة، والخالة: أخت الأم، والمراد: نساء بني زهرة، يعني أولاد عبد مناف بن زهرة، لا إخوة أمه، ولا أخواتها؛ لأن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ لم يكن لها أخ ولا أخت، فإذا لم يكن له ﷺ خال ولا خالة.. فالمراد بذلك: الخال والخالة عشيرة أمه؛ لأن بني زهرة يقولون: نحن أخوال النبي ﷺ؛ لأن أمه منهم، ولهذا قال ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «هذا خالي».

وإنما خص هؤلاء بالذكر تشريفاً لهن، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾، وإنما[1] أفرد العم والخال، وجمع العمات والخالات في الآية، وإن كان معنى الكل الجمع؛ لأن لفظ العم والخال لما كان يعطي المفرد معنى الجنس.. استغني فيه عن لفظ الجمع تخفيفاً للفظ، ولفظ العمة والخالة، وإن كان يعطي معنى الجنس.. ففيه الهاء، وهي تؤذن بالتحديد والإفراد، فوجب الجمع لذلك. ألا ترى أن المصدر إذا كان بغير هاء لم يجمع، وإذا حدد بالهاء جمع، هكذا ذكره الشيخ أبو علي رحمه الله. كذا في «التكملة».

وعبارة «فتح الرحمن» هنا[2]: وإنما أفراد العم والخال، وجمع العمات والخالات؛ لأن العم والخال بوزن مصدرين، وهما: الضم، والمال، والمصدر يستوي فيه المفرد والجمع، بخلاف العمة والخالة، ولا يرد على ذلك جمع العم والخال في قوله في النور: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

---

(١) روح البيان. (٢) فتح الرحمن.

﴿أَخْوَٰلِكُمْ﴾؛ لأنهما ليسا مصدرين حقيقة، فاعتبر هنا حقيقتهما، وثم شبههما.

وقوله: ﴿ٱلَّٰتِي﴾ صفة للبنات؛ أي: وأحللنا لك البنات المذكورة اللاتي ﴿هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾؛ أي: خرجن معك من مكة إلى المدينة، وفارقن أوطانهن، والمراد بالمعية[1]: المتابعة له ﷺ في المهاجرة، سواء وقعت قبله أو بعده أو معه، وتقييد البنات بكونها مهاجرات معه للإيذان بشرف الهجرة، وشرف من هاجر، وللتنبيه على الأليق والأفضل له ﷺ، فالهجرة وصفهن، لا بطريق التعليل كقوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾، ويحتمل تقييد الحل بذلك في حقه ﷺ خاصةً، وأن من هاجر معه منهن يحل له نكاحها، ومن لم تهاجر لم تحل، ويعضده قول أم هانيء بنت أبي طالب: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله هذه الآية، فلم أحل له؛ لأني لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء. وهم الذين أسلموا بعد الفتح، أطلقهم رسول الله ﷺ حين أخذهم، ولفائدة التقييد بالهجرة أعاد هنا ذكر بنات العم والعمات والخال والخالات، وإن كنَّ داخلات تحت عموم قوله تعالى عند ذكر المحرمات من النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، وأول بعضهم الهجرة في هذه الآية على الإسلام؛ أي: أسلمن معك، فدل ذلك على أنه لا يحل له نكاح غير المسلمة.

وقوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ بالنصب معطوف على مفعول ﴿أَحْلَلْنَا﴾؛ إذ ليس معناه إنشاء الإحلال الناجز، بل إعلام مطلق الإحلال المنتظم لما سبق ولحق، والمعنى: وأحللنا لك امرأة مؤمنة بالله مصدِّقة بالتوحيد. ﴿إِن وَهَبَتْ﴾ تلك المرأة ﴿نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ﷺ؛ أي: لك بغير صداق، والالتفات للإيذان بأن هذا الحكم مخصوص به لشرف نبوته، وأما من لم تكن مؤمنة.. فلا تحل لك بمجرد هبتها نفسها لك. والهبة: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض. والحرة لا تقبل الهبة، ولا البيع، ولا الشراء؛ إذ ليست بمملوكة، فمعناه: إن ملَّكته بضعها بلا مهر، بأي عبارة كانت من: الهبة، والصدقة، والتمليك، والبيع، والشراء، والنكاح، والتزويج، وكان من خصائصه ﷺ أن النكاح ينعقد في حقه بلفظ الهبة وغيرها من غير ولي ولا شهود ولا مهر؛ لقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) روح البيان.

ومعنى الشرط إن اتفق ذلك، أي: وجد اتفاقاً، ولكن ليس ذلك بواجب عليك بحيث يلزمك قبول ذلك، بل مقيَّد بإرادتك، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ ﷺ ﴿أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؛ أي: أن يجعلها منكوحة له، ويتملك بضعها بتلك الهبة لا بمهر ابتداءً وانتهاءً، وهذا شرط للشرط الأول في استيجاب الحل، فإن هبتها نفسها منه لا توجب له حلها إلا بإرادته نكاحها، فإنها جارية مجرى القبول.

وقيل[1]: إنه لم ينكح النبي ﷺ من الواهبات أنفسهن أحداً، ولم يكن عنده منهن شيء، وقيل: كان عنده منهن خولة بنت حكيم، كما في «صحيح البخاري» عن عائشة. وقال قتادة: هي ميمونة بنت الحارث، وقال الشعبي: هي زينب بنت خزيمة الأنصارية أم المساكين، وقيل غير ذلك.

ثم بين سبحانه أن هذا النوع من النكاح خاص برسول الله ﷺ، لا يحل لغيره من أمته فقال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ إما حال من فاعل ﴿وَهَبَتْ﴾، قاله الزجاج. أي: حالة كون تلك الواهبة خالصة لك، وخاصة بك. ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإحلال للمؤمنين إنما يتحقق بالمهر، أو بمهر المثل إن لم يسم عند العقد، ولا يتحقق بلا مهر أصلاً، أو مصدر مؤكد لعامله المحذوف كالكاذبة؛ أي: خلص لك إحلال المرأة المؤمنة الواهبة خالصةً؛ أي: خلوصاً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَٱمْرَأَةً﴾ بالنصب ﴿إِن وَهَبَتْ﴾ بكسر الهمزة؛ أي: أحللناها لك إن وهبت. وقرأ أبو حيوة: ﴿وامرأة مؤمنة﴾ بالرفع على الابتداء، والخبر محذوف؛ أي: أحللناها لك. وقرأ أبي والحسن والشعبي وعيسى وسلام: ﴿أن وهبت﴾ بفتح الهمزة على تقدير لام العلة؛ أي: لأن وهبت، أو على أنه بدل من امرأة بدل اشتمال، وذلك حكم في امرأة بعينها، فهو فعل ماض.

وقراءة الكسر استقبال في كل امرأة كانت تهب نفسها دون واحدة بعينها. وقرأ زيد بن علي: ﴿إذ وهبت﴾ ظرف لما مضى، فهو في امرأة بعينها. وقرأ الجمهور: ﴿خَالِصَةً﴾ بالنصب، فهو مصدر مؤكد كوعد الله، وصبغة الله؛ أي: أخلص لك إخلاصاً، فأحللنا لك خالصةً بمعنى خلوصاً، ويجيء المصدر على فاعل وفاعلة،

---

(١) الشوكاني.　　(٢) البحر المحيط.

وقال الزمخشري: والفاعل والفاعلة في المصادر عليَّ غير عزيزين، كالخارج، والقاعد، والعاقبة، والكاذبة. انتهى.

وليس كما ذكر، بل هما عزيزان، وقد تتأول هذه الألفاظ على أنها ليست مصادر، وقرىء بالرفع على أنها صفة لامرأة على قراءة من قرأ: ﴿امرأة﴾ بالرفع.

وقد أجمع[1] العلماء على أن هذا خاص بالنبي ﷺ، وأنه لا يجوز ولا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها، إلا ما روي عن أبي حنيفة وصاحبيه أنه يصح النكاح إذا وهبت، وأشهد هو على نفسه بمهر، وأما بدون مهر، فلا خلاف في أن ذلك خاص بالنبي، ولهذا قال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أوجبنا على المؤمنين ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾؛ أي: في حقهن من شرائط العقد وحقوقه، فإن ذلك حق عليهم مفروض، لا يحل لهم الإخلال به، ولا اقتداء برسول الله ﷺ فيما خصه الله به توسعة عليه، وتكريماً له، فلا يتزوجوا إلا أربعة بمهر وولي وشهود.

﴿و﴾ ما فرضنا عليهم في حق ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وأيديهم من الأحكام؛ أي: وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من كونهن ممن يجوز سبيه وحربه، لا ممن لا يجوز سبيه كالمعاهدين، وأهل الذمة.

وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ قال المفسرون: هذا يرجع إلى أول الآية؛ أي: أحللنا لك أزواجك، وما ملكت يمينك، والواهبة نفسها لك لكيلا يكون عليك حرج. فتكون اللام متعلقةً بـ﴿أَحْلَلْنَا﴾، وقيل: متعلقة بـ﴿خَالِصَةً﴾، والأول أولى. ولام كي دخلت على كي للتوكيد؛ أي: لئلا يكون عليك ضيق في أمر النكاح، فقوله: قد علمنا.. الخ اعتراض بين قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ وبين متعلَّقه، وهو ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، مقرر لما قبله من خلوص الإحلال المذكور لرسول الله ﷺ، وعدم تجاوزه للمؤمنين ببيان أنه قد فرض عليهم من شرائط العقد وحقوقه ما لم يفرض عليه ﷺ، تكرمة له، وتوسعة عليه.

أي: قد علمنا ما ينبغي أن يفرض عليهم في حق أزواجهن، ومملوكاتهم، وعلى أيّ حد، أو على أي صفة يحق أن يفرض عليهم، ففرضنا ما فرضنا على

---

(١) الشوكاني.

ذلك الوجه، وخصصناك ببعض الخصائص، كالنكاح بلا مهر وولي وشهود، ونحوها.

وفسروا المفروض في حق الأزواج بالمهر، والولي، والشهود، والنفقة، ووجوب القسم، والاقتصار على الحرائر الأربع، وفي حق المملوكات بكونهن ملكاً طيباً، بأن تكون من أهل الحرب، لا ملكاً خبيثاً، بأن تكون من أهل العهد.

وفي الحديث: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»؛ أي: احفظوا الصلوات الخمس، والمماليك بحسن القيام بما يحتاجون إليه من الطعام والكسوة وغيرها، وبغير تكليف على ما لا يطيقون من العمل، وترك التعذيب، قرنه عليه الصلاة والسلام بأمر الصلاة إشارةً إلى أن حقوق المماليك واجبة على السادات وجوب الصلوات.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾؛ أي: فيما يعسر التحرز عنه ﴿رَّحِيمًا﴾؛ أي: منعماً على عباده بالتوسعة في مظان الحرج، ونحوه؛ أي: يغفر الذنوب ويرحم العباد، ولذلك وسع الأمر ولم يضيقه.

﴿تُرْجِى﴾ وتؤخر يا محمد ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾؛ أي: من أزواجك، وتترك مضاجعتها من غير نظر إلى نوبة وقسم وعدل. ﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾ وتضم إليك ﴿مَن تَشَآءُ﴾ منهن، وتضاجعها من غير التفات إلى نوبة وقسمة أيضاً. فالاختيار بيديك في الصحبة بمن شئت، ولو أياماً زائدة على النوبة، وكذا في تركها، والمعنى: أي تؤخر وتترك مضاجعة من تشاء من أزواجك، وتضاجع من تشاء منهن، ولا يجب عليك قسم بينهن، بل الأمر في ذلك إليك، على أنه كان يقسم بينهن، وقد كان القسم واجباً عليه حتى نزلت هذه الآية، فارتفع الوجوب، وصار الخيار إليه، وذلك لأنه ﷺ بالنسبة إلى أمته نسبة السيد المطاع، أو المعنى: تطلّق من تشاء منهن، وتمسك من تشاء، أو المعنى: تترك تزوج من شئت من نساء أمتك، وتتزوج من شئت، كما في «بحر العلوم». وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، وسيأتي بيان ذلك.

وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص: ﴿تُرْجِى﴾ بياء ساكنة، والباقون: بهمزة مضمومة، وهما لغتان، يقال: أرجأت الأمر، وأرجيته، إذا أخرته.

و﴿مَنِ﴾ في قوله: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ مبتدأ بمعنى الذي، أو شرط نصب بقوله: ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾، وخبر المبتدأ، أو جواب الشرط على كلا التقديرين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾؛ أي: ومن ابتغيت وطلبت مضاجعتها حالة كونها ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ها، وتركتها، وطلقتها أولاً بالرجعة ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾؛ أي: فلا إثم ولا لوم ولا عتاب ولا ضيق ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد في شيء مما ذكر من الأمور الثلاثة.

والحاصل: أن الله سبحانه فوض الأمر إلى رسوله يصنع في زوجاته ما شاء من تقديم وتأخير، وعزل وإمساك، وضم من أرجأ، وإرجاء من ضمَّ إليه، وما شاء في أمرهن فعل، توسعةً عليه، ونفياً للحرج عنه.

والمعنى[1]: أي ومن دعوت إلى فراشك، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق، فلا ضيق عليك في ذلك.

والخلاصة: أنه لا ضير عليه إذا أراد إرجاع من طلَّقها من قبل، وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض، وهو إما أن يطلِّق، وإما أن يمسك، وإذا أمسك ضاجع أو ترك، وقسم أو لم يقسم، وإذا طلَّق؛ فإما أن لا يبتغي المعزولة، أو يبتغيها.

والجمهور على أن الآية نزلت في القسم بينهن، فإن التسوية في القسم كانت واجبة عليه ﷺ، فلما نزلت هذه الآية سقط عنه، وصار الاختيار إليه فيهن، وكان ذلك من خصائصه ﷺ.

ويروى: أن أزواجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما طلبن زيادة النفقة، ولباس الزينة.. هجرهن شهراً حتى نزلت آية التخيير، وروى ابن جرير عن أبي رزين قال: لما نزلت آية التخيير.. أشفقن أن يطلقهن، فقلن: يا رسول الله، اجعل لنا من مالك ومن نفسك ما شئت، ودعنا كما نحن، فنزلت هذه الآية، فأرجأ رسول الله ﷺ منهن خمساً أم حبيبة، وميمونة، وسودة، وصفية، وجويرية، فكان يقسم لهن ما شاء، وآوى إليه أربعاً: عائشة، وحفصة، وزينب، وأم سلمة، فكان يقسم بينهن سواء، ويروى أنه ﷺ لم يخرج أحداً منهن عن القسم، بل كان يسوي بينهن مع ما أطلق له وخيِّر فيه إلا سودة، فإنها رضيت بترك حقها من القسم، ووهبت ليلتها

---

(١) المراغي.

لعائشة، وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نسائك.

ثم بين السبب في الإيواء والإرجاء، وأنه كان ذلك في مصلحتهن، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من تفويض الأمر إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ وأقرب إلى ﴿أَن تَقَرَّ﴾ وتبرد ﴿أَعْيُنُهُنَّ﴾ وتطيب أنفسهن ﴿وَ﴾ إلى أن ﴿لَا يَحْزَنَّ﴾، ولا يتأسفن بما فعلت بهن من إيثار بعض على بعض.

﴿و﴾ إلى أن ﴿يرضين بما آتيتهن كلهن﴾؛ أي: ويرضين كلهن بما آتيتهن، وقسمت لهن من العدل بينهن تفضلاً وتكرماً منك، وقوله: ﴿كُلُّهُنَّۚ﴾ بالرفع تأكيد لفاعل ﴿يرضين﴾، وهو النون؛ أي: ذلك المذكور أقرب[1] إلى قرة عيونهن، وقلة حزنهن، ورضاهن جميعاً؛ لأنه حكم كلهن فيه سواء، ثم إن سويت بينهن.. وجدت ذلك تفضلاً منك، وإن رجحت بعضهن.. علمن أنه بحكم الله، فتطمئن به نفوسهن، ويذهب التنافس والتغاير، فرضين بذلك، فاخترنه على الشرط، ولذا قصره الله عليهن، وحرم عليه طلاقهن، والتزوج بسواهن، وجعلهن أمهات المؤمنين.

والمعنى: أي إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أيِّ ذلك فعلت، وأنت مع هذا تقسم لهن اختياراً منك، لا وجوباً عليك.. فرحن بذلك، واستبشرن به، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن، وتسويتك بينهن، وإنصافك لهن وعدلك بينهن.

والخلاصة: ذلك التفويض إلى مشيئتك أقرب إلى قرة عيونهن، وانتفاء حزنهن، ووجود رضاهن إذا علمن أن ذلك التفويض من عند الله تعالى، فحالة كل منهن كحالة الأخرى في ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ مبنياً للفاعل من: قرت العين، وقرأ ابن محيصن: ﴿تقر﴾ بضم التاء من: أقرر الرباعي، ونصب ﴿أعينهن﴾، وفاعله: ضمير المخاطب؛ أي: أنت. وقرىء: ﴿تقر﴾ مبنياً للمفعول، و﴿أعينهن﴾ بالرفع. وقرأ الجمهور: ﴿كُلُّهُنَّۚ﴾ بالرفع تأكيداً لفاعل ﴿يرضين﴾، وهو: النون. وقرأ أبو إياس

---

(١) روح البيان.

حوبة بن عائذ بالنصب تأكيداً لضمير النصب في ﴿ءَاتَيْتَهُنَّ﴾.

﴿وَاللَّهُ﴾ وحده ﴿يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من الضمائر والخواطر، فاجتهدوا في إحسانها، أو يعلم ما قلوبكم من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه، ومن الرضا بما دبَّر له في حقهن من تفويض الأمر إليه ﷺ.

روى أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني: القلب، وزيادة الحب لبعض دون بعض. وفي هذا[1] حث على تحسين ما في القلوب، ووعيد لمن لم يرضَ منهن بما دبر الله له من ذلك، وفوضه إلى مشيئته، وبعث على تواطىء قلوبهن، والتصافي بينهن، والتوافق على رضا رسول الله ﷺ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ بالسرائر كالظواهر، فيعلم ما تبدونه وما تخفونه ﴿حَلِيمًا﴾ على ذنب من أذنب، فلا يعاجل أهل الذنوب بالعقوبة، ليتوب منهم من شاء له أن يتوب، وينيب من ذنوبه من ينيب، فلا تغتروا بتأخيرها، فإنه إمهال لا إهمال.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ قرأ الجمهور: ﴿لَا يَحِلُّ﴾ بالياء التحتية للفصل بين الفعل وفاعله المؤنث؛ ولأن تأنيث الجمع غير حقيقي، وإذا جاز التذكير بغير فصل في قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ كان معه أجوز. وقرأ ابن كثير بالفوقية نظراً إلى كون الفاعل جمعاً؛ أي[2]: لا تحل لك واحدة من النساء، مسلمةً كانت أو كتابية، لما تقرر عندهم أن حرف التعريف إذا دخل على الجمع.. يبطل الجمعية، ويراد الجنس، وهو كالنكرة يخص في الإثبات، ويعم في النفي، كما إذا حلف لا يتزوج النساء، ولا يكلم الناس، أو لا يشتري العبيد، فإنه يحنث بالواحد؛ لأن اسم الجنس حقيقة فيه.

أي: لا تحل لك يا محمد واحدة من النساء ﴿مِنْ بَعْدُ﴾؛ أي: من بعد هؤلاء التسع اللاتي خيرتهن بين الدنيا والآخرة فاخترنك؛ لأنه نصابك من الأزواج، كما

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أن الأربع نصاب أمتك منهن، أو لا يحل لك النساء بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة منهن.. لم يحل له نكاح أخرى. ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ بحذف إحدى التاءين، والأصل: تتبدل. ﴿بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ﴾ مفعول ﴿تَبَدَّلَ﴾، و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد النفي تفيد استغراق جنس الأزواج بالتحريم؛ أي: ولا يحل لك أن تتبدل بهؤلاء التسع أزواجاً أخر بكلهن أو بعضهن، بأن تطلق واحدةً وتنكح مكانها أخرى.

أراد الله سبحانه وتعالى لهن كرامة وجزاء على ما اخترن رسول الله ﷺ والدار الآخرة، لا الدنيا وزينتها، ورضين بمراده، فقصر رسوله عليهن، ونهاه عن تطليقهن، والاستبدال بهن.

﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾؛ أي: حسن المبدلات وجمالهن؛ أي: لا يحل لك التبدل بأزواجك، ولو أعجبك حسن غيرهن ممن أردت أن تجعلها بدلاً من إحداهن، والواو[1] الداخلة على ﴿لو﴾ عاطفة لمدخولها على حال محذوفة قبلها، وكلمة ﴿لو﴾ في أمثال هذا الموقع لا يلاحظ لها جواب.

والمعنى: ولا يحل لك أن تستبدل بهن حال كونك لو لم يعجبك حسن الأزواج المستبدلة وجمالهن، ولو أعجبك حسنهن؛ أي: لا يحل لك الاستبدال حال عدم إعجاب حسنهن إياك، وحال إعجابه؛ أي: لا يحل لك على كل حال، ولو في هذه الحالة، فالمراد بـ﴿لو﴾ هنا: استقصاء الأحوال وتعميمها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المرأة التي أراد النبي ﷺ استبدالها هي: أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب، لما استشهد.. أراد رسول الله ﷺ أن يخطبها، فنهاه الله عن ذلك، فتركها، فتزوجها أبو بكر بإذن رسول الله ﷺ، فهي ممن أعجبه حسنهن. وفي «التكملة»: قيل: يريد حبابة أخت الأشعث بن قيس. انتهى.

وفي الحديث: «شارطت ربي أن لا أتزوج إلا من تكون معي في الجنة» فأسماء أو حبابة لم تكن أهلاً لرسول الله في الدنيا، ولم تستأهل أن تكون معه في مقامه في الجنة، فلذا صرفها الله عنه، فإنه تعالى لا ينظر إلى الصورة، بل إلى

---

(١) الشوكاني.

المعنى. وفي الحديث: «من نكح امرأة لمالها وجمالها.. حرم مالها وجمالها، ومن نكحها لدينها.. رزقه الله مالها وجمالها».

وقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ ويدك، استثناء من النساء؛ لأنه يتناول الأزواج والإماء، فإنه يحل له أن يتسرىٰ بهن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ملك بعد هؤلاء التسع: مارية القبطية، فولدت له ﷺ إبراهيم، ابنه ﷺ.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على أقوال[1]:

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة الحسن وابن سيرين وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وابن زيد وابن جرير: إنها محكمة، وإنه حرم على رسول الله ﷺ أن يتزوج على نسائه، مكافأة لهن بما فعلن من اختيار الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ بأمر الله له بذلك.

وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما حرم الله عليهن أن يتزوجن من بعده.. حرم عليه أن يتزوج غيرهن، وقال أبي بن كعب وعكرمة وأبو رزين: إن المعنى: لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التي سماها الله تعالى. قال القرطبي: وهو اختيار ابن جرير، وقيل: لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات؛ لأنهن لا يصح أن يتصفن بأنهن أمهات المؤمنين، وهذا القول فيه بعد؛ لأنه يكون التقدير: لا يحل لك النساء من بعد المسلمات، ولم يجر للمسلمات ذكر، وقيل: هذه الآية منسوخة بالسنّة، وبقوله سبحانه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، وبهذا قالت عائشة رضي الله عنها، وأم سلمة، وعلي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين، وهذا هو الراجح.

ويدل لهذا القول ما أخرجه ابن سعد وابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلَّ الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله سبحانه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ...﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود في «ناسخه»، والترمذي وصححه، والنسائي وابن جرير وابن المنذر، والحاكم

---

(١) المراغي.

وصححه، وابن مردويه والبيهقي من طريق عطاء عن عائشة قالت: لم يمت النبي ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء، إلا ذات محرم لقوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ الآية.

وقد اختلف العلماء أيضاً في تحليل الأمة الكافرة له ﷺ[1]:

القول الأول: أنها تحل للنبي ﷺ؛ لعموم هذه الآية، وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم.

والقول الثاني: أنها لا تحل له تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة، ويترجح القول الأول بعموم هذه الآية، وتعليل المنع بالتنزيه ضعيف، فلا تنزه عما أحله الله له، فإن ما أحله.. فهو طيب لا خبيث باعتبار ما يتعلق بأمور النكاح، لا باعتبار غير ذلك، فالمشركون نجس بنص القرآن، ويمكن ترجيح القول الثاني بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ فإنه نهي عام.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾؛ أي: حافظاً مهيمناً مطلعاً عليه، لا يخفى عليه شيء، ولا يفوته شيء، فتحفظوا ما أمركم به، ولا تتخطوا ما حد لكم. والرقيب في أسمائه تعالى: هو الذي لا يغفل ولا يذهل، ولا يجوز عليه ذلك، فلا يحتاج إلى مذكر ولا منبه، كما في «شرح الأسماء» للزورقي. وقد بسطت الكلام فيه في كتابي «هدية الأذكياء على طيبة الأسماء» فراجعه.

وإجمال معنى الآية[2]: أي لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتي في عصمتك اليوم كفاء اختيارهن الله ورسوله، وحسن صنيعهن في ذلك. ولا يحل لك أن تستبدل بهن أزواجاً أخرى غيرهن، بأن تطلق واحدة منهن، وتنكح بدلها أخرى، مهما كانت بارعة في الحسب والجمال، إلا ما ملكت يمينك منهن، وقد ملك بعدهن مارية القبطية، أهداها له المقوقس القبطي، فتسراها، وأولدها إبراهيم، ومات رضيعاً، وكان الله سبحانه حافظاً ومطلعاً على كل شيء، عليماً بالسر والنجوى، فاحذروا تجاوز حدوده، وتخطي حلاله إلى حرامه.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وقد تضمنت الآية الكريمة حكمين[1]:

١ ـ أن لا يتزوج عليه السلام غيرهن.

٢ ـ أن لا يستبدل بهن غيرهن.

وفي الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد زواجها، وقد روى أبو داود أن النبي ﷺ قال: «إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل».

وعن المغيرة بن شعبة قال: خطبت امرأة، فقال لي النبي ﷺ: «هل نظرت إليها»؟ قلت: لا، قال: «انظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما». أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن.

ثم أدب الله سبحانه عباده بآداب ينبغي أن يتخلقوا بها لما فيها من الحكم الاجتماعية، والمزايا العمرانية، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾؛ أي: حجرات النبي ﷺ في حال من الأحوال، وهذا[2] نهي عام لكل مؤمن أن يدخل بيوت رسول الله ﷺ إلا بإذن منه، وسبب النزول ما وقع من بعض الصحابة في وليمة زينب بنت جحش، كما سبق في أسباب النزول.

فإن قلت: إن الله أضاف البيوت هنا إلى النبي، وفيما سبق إلى الأزواج؛ حيث قال: ﴿مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ فبينهما معارضة؟

قلت: لا معارضة؛ لأن الإضافة فيما سبق إضافة سكن، وهنا إضافة ملك، كما يؤخذ من «الفتوحات».

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، وهو في موضع نصب على الحال؛ أي: إلا مصحوبين بالإذن، أو بنزع الخافض؛ أي: إلا بأن يؤذن لكم، أو منصوب على الظرفية؛ أي: إلا وقت أن يؤذن لكم.

أي[3]: لا تدخلوا بيوت النبي في حال من الأحوال إلا حال كونكم مأذوناً

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

لكم ومدعوين ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ ومأكول، وهو متعلق بـ﴿يُؤْذَنَ﴾ على تضمينه معنى يدعى؛ للإشعار بأنه لا يحسن الدخول على الطعام من غير دعوة، وإن أذن في الدخول، كما أشعر به قوله: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾، وهو حال من فاعل ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾ على أن الاستثناء وقع على الظرف والحال، كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا حال الإذن، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين إناه؛ أي: غير منتظرين إناه؛ أي: نضجه وإدراكه واستواءه وصلاحيته للأكل. والإناه ـ بكسر الهمزة وبالقصر ـ: مصدر سماعي، لأنى الطعام إذا أدرك من باب رمى، وفيه إشارة إلى حفظ الأدب في الاستئذان، ومراعاة الوقت، وإيجاب الاحترام.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ﴾ بالنصب على الحال، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿غير﴾ بالجر صفة لـ﴿طَعَامٍ﴾. وقال الزمخشري: وليس بالوجه؛ لأنه جرى على غير من هو له، فمن حق ضمير غير ما هو له أن يبرز فيقال: إلى طعام غير ناظرين إناه أنتم، كقوله: هند زيد ضاربته هي. انتهى. وحذف هذا الضمير جائز عند الكوفيين، وقرأ الجمهور: ﴿إِنَاهُ﴾ مفرداً، والأعمش: ﴿إناءه﴾ بمدة بعد النون.

والمعنى[2]: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تدخلوا بيوت نبيِّه ﷺ إلا أن تدعوا إلى طعام تطعمونه غير منتظرين إدراكه ونضجه.

وخلاصة ذلك: أنكم إذا دعيتم إلى وليمة في بيت النبي ﷺ. . فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أنَّ الطعام قد تم نضجه، وانتهى إعداده؛ إذ قبل ذلك يكون أهل البيت في شغل عنكم، وقد يلبسن ثياب البذلة، فلا يحسن أن تروهن وهن على هذه الحالة إلى أنه ربما بدا من إحداهن ما لا يحل النظر إليه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ استدراك من النهي عن الدخول بغير إذن، وفيه[3] دلالة بيِّنة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه؛ أي: ولكن إذا أذن لكم في الدخول، ودعيتم إلى الطعام، فادخلوا بيوته على وجوب الأدب، وحفظ أحكام تلك الجلسة.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ الطعام وأكلتم وتناولتموه.. فإن الطعم تناول الغذاء ﴿فَٱنتَشِرُوا۟﴾؛ أي: فاخرجوا من منزله، وتفرقوا واذهبوا حيث شئتم في الحال، ولا تمكثوا بعد الأكل والشرب. أمرهم سبحانه بالانتشار بعد الطعام، وهو التفرق، والمراد: الإلزام بالخروج من المنزل الذي وقعت الدعوة إليه عند انقضاء المقصود من الأكل.

وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ لطيفة، وهي[1]: أن في العادة إذا قيل لمن يعتاد دخول دار من غير إذن: لا تدخلها إلا بإذن.. يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلاً، ولا بالدعاء، قال: لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون، بل كونوا طائعين، إذا قيل لكم: لا تدخلوا فلا تدخلوا، وإذا قيل لكم: ادخلوا فادخلوا، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ يفيد الجواز، وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ يفيد الوجوب فليس تأكيداً، بل هو مفيد فائدة جديدة. اهـ «رازي».

والآية[2] خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه مخصوصة بهم وبأمثالهم، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بالإذن لغير الطعام، ولا اللبث بعد الطعام لأمر مهم، وليس كذلك، كما سيأتي.

﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ هو مجرور عطفاً على ناظرين؛ أي: غير مستأنسين، أو منصوب على الحالية بعامل مقدر؛ أي: ولا تدخلوا ولا تمكثوا مستأنسين بحديث بعضكم مع بعض، أو بحديث أهل البيت بالسمع له، نهوا أن يطيلوا الجلوس، ويستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدِّثه به، أو يستأنسوا بالحديث مع أزواج النبي ﷺ، واللام في قوله: ﴿لِحَدِيثٍ﴾ يحتمل أن تكون للعلة؛ أي: مستأنسين لأجل أن يحدث بعضكم بعضاً، وأن تكون المقوية للعامل؛ لأنه فرع؛ أي: لطلب اسم الفاعل للمفعول؛ أي: ولا مستأنسين حديث أهل البيت أو غيرهم، واستئناسه تسمعه. اهـ «سمين»، ويحتمل أن تكون بمعنى الباء، والأنس: ضد الوحشة والنفور، كما سيأتي.

---

(١) الفخر الرازي.

(٢) البيضاوي.

والمعنى[1]: أي ولكن إذا دعاكم الرسول ﷺ.. فادخلوا البيت الذي أذن لكم في دخوله، فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم إلى أكله.. فتفرقوا واخرجوا، ولا تمكثوا فيه لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة.

وقال الرازي في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ إما أن يكون فيه تقديم وتأخير، تقديره: ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم، فلا يكون منعاً من الدخول في غير وقت الطعام بغير إذن، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير، فيكون معناه: ولا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام، فيكون الإذن مشروطاً بكونه إلى طعام، فإن لم يؤذن إلى طعام.. فلا يجوز الدخول، فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام، فلا يجوز. فنقول: المراد هو الثاني؛ ليعم النهي عن الدخول، وأما كونه لا يجوز إلا بإذن إلى طعام.. فلما هو مذكور في سبب النزول: أن الخطاب مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام، ويدخلون من غير إذن، فمنعوا من الدخول في وقتهم بغير إذن.

وقال ابن عادل: الأولى أن يقال: المراد هو الثاني؛ لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل، وقوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ من باب التخصيص بالذكر، فلا يدل على نفي ما عداه، لا سيما إذا علم مثله، فإن من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه.. جاز دخوله بإذنه إلى غير طعام. انتهى.

والأولى في التعبير عن هذا المعنى الذي أراده أن يقال: قد دلت الأدلة على جواز دخول بيوته ﷺ بإذنه لغير الطعام، وذلك معلوم لا شك فيه، فقد كان الصحابة وغيرهم يستأذنون عليه لغير الطعام، فيأذن لهم، وذلك يوجب قصر هذه الآية على السبب الذين نزلت فيه، وهو القوم الذين كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه، وأمثالهم، فلا تدل على المنع من الدخول مع الإذن لغير ذلك، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بإذنه لغير الطعام، واللازم باطل، فالملزوم مثله.

قال ابن عطية: وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكِّر

---

(١) المراغي.

من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه، وكذلك إذا فرغوا منه.. جلسوا كذلك، فنهى الله المؤمنين عن ذلك في بيت النبي ﷺ، ودخل في النهي سائر المؤمنين، والتزم الناس أدب الله لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل، لا قبله لانتظار نضج الطعام.

وفي «التأويلات النجمية»: إذا انتهت حوائجكم فاخرجوا ولا تتغافلوا، ولا يمنعكم حسن خلقه من حسن الأدب، ولا يحملنكم فرط احتشامه على الإبرام عليه، وكان حسن خلقه جسرهم على المباسطة معه، حتى أنزل الله سبحانه هذه الآية.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ الاستئناس بعد الأكل الدال على اللبث، ﴿كَانَ﴾ في علم الله سبحانه ﴿يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ ﷺ؛ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله، وشغله فيما لا يعنيه، والأذى: هو كل ما يصل إلى الإنسان من ضرر، كما سيأتي.

وقيل: إن[1] الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ إلى الانتظار والاستئناس للحديث، وأشير إليهما بما يشار به إلى الواحد بتأويلهما بالمذكور، كما في قوله: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن ذلك المذكور من الأمرين كان يؤذي النبي ﷺ، ويلحق به الضرر؛ لأنهم يضيقون عليه المنزل، وعلى أهله، ويتحدثون بما لا يريده. قال الزجاج: كان النبي ﷺ يحتمل إطالتهم كرماً منه، فيصبر على الأذى في ذلك، فعلم الله ـ سبحانه ـ من يحضره الأدب حتى صار أدباً لهم، ولمن بعدهم.

﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾؛ أي: يستحيي أن يقول لكم قوموا أو اخرجوا ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ﴾ بيان ﴿ٱلْحَقِّ﴾ الذي هو الإخراج لكم؛ أي: لا يترك أن يبين لكم ما هو الحق، ولا يمتنع من بيانه وإظهاره، والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة، يعني: أن[2] إخراجكم حق، فينبغي أن لا يترك حياء، ولذلك لم يتركه الله ترك الحيي، وأمركم بالخروج، وكان ﷺ أشدَّ الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات إغضاءً، وهو التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته.

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

وهذا أدب أدَّب الله به الثقلاء، وعن عائشة رضي الله عنها: حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم، وقال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾، فينبغي للضيف أن لا يجعل نفسه ثقيلاً، بل يخفف الجلوس، وكذا حال العائد، فإن عيادة المرضى لحظة. قيل للأعمش: ما الذي أعمش عينيك؟ قال: النظر إلى الثقلاء، وقد قيل:

إِذَا دَخَلَ ٱلثَّقِيْلُ بِأَرْضِ قَوْمٍ فَمَا لِلسَّاكِنِيْنَ سِوَىٰ ٱلرَّحِيْلُ

وقيل: مجالسة الثقيل حمى الروح، وقيل لأنوشروان: ما بال الرجل يحمل الحمل الثقيل، ولا يحمل مجالسة الثقيل؟ قال: يحمل الحمل بجميع الأعضاء، والثقيل تنفرد به الروح. قيل: من حق العاقل الداخل على الكرام قلة الكلام، وسرعة القيام.

ومن علامة الأحمق الجلوس فوق القدر، والمجيء في غير الوقت، وقد قالوا: إذا أتى باب أخيه المسلم.. يستأذن ثلاثاً، ويقول في كل مرة: السلام عليكم يا أهل البيت، ثم يقول: أيدخل فلان، ويمكث بعد كل مرة مقدار ما يفرغ الآكل من أكله، ومقدار ما يفرغ المتوضؤ من وضوئه، والمصلي بأربع ركعات من صلاته، فإن أذن.. دخل، وخفف، وإلا رجع سالماً عن الحقد والعداوة، ولا يجب الاستئذان على من أرسل إليه صاحب البيت رسولاً، فيأتي بدعوته قال الحامي:

أَدِّبُوْا ٱلنَّفْسَ أَيُّهَا ٱلأَحْبَابُ طُرُقَ ٱلْعِشْقِ فَإِنَّ لَهَا آدَابُ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَيَسْتَحْيِۦ﴾ بيائين مع سكون الحاء، مضارع استحيا من باب استفعل، وقرأت فرقة: ﴿فيستحي﴾ بياء واحدة مع كسر الحاء مضارع استحا، وهي لغة تميم، وروي عن ابن كثير، واختلفوا في المحذوف منه، أعين الكلمة أم لامها؟ فإن كان العين.. فوزنها: يستفل، وإن كان اللام.. فوزنها: يستفع، والترجيح مذكور في كتب النحو.

والمعنى[2]: أي إن ذلك اللبث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذي النبي ﷺ؛ لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حوائجه إلى ما فيه من تضييق

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

المنزل على أهله، لكنه كان يستحيي من إخراجكم، ومنعكم مما يؤذيه، والله لم يترك الحق، وأمركم بالخروج، وفي هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم، إذا كان في ذلك أذى لرب البيت، ولو كان البيت غير بيت النبي ﷺ، فالتثقيل مذموم في كل مكان، محتقر صاحبه لدى كل إنسان، وعلى الجملة فللدعوة إلى المآدب نظم وآداب خاصة، أفردت بالتأليف، ولا سيما في العصر الحديث، وجعلوا التحلل منها، وترك اتباعها مما لا تسامح فيه.

ثم ذكر سبحانه أدباً آخر متعلقاً بنساء النبي ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾؛ أي: وإذا سألتم أيها المؤمنون أزواج النبي ﷺ، ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج ﴿مَتَاعًا﴾؛ أي: شيئاً تتمتعون وتنتفعون به من ماعون وغيره ﴿فَسْئَلُوهُنَّ﴾؛ أي: فاطلبوا منهن ذلك المتاع ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾؛ أي: من وراء ستر بينكم وبينهن.

أخرج البخاري وابن جرير وابن مردويه عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش في ذي القعدة، سنة خمس من الهجرة، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر، كما في «الصحيحين» عنه قال: وافقت ربي عز وجل في ثلاث قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب، وقلت: لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت كذلك.

ثم بين سبب ما تقدم بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، والإشارة[١] فيه إلى سؤال المتاع من وراء حجاب، وقيل: الإشارة إلى جميع ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول، وسؤال المتاع من وراء حجاب، والأول أولى بقرينة السياق. واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ أيها الرجال الأجانب، ﴿و﴾ أطهر لـ﴿قلوبهن﴾؛ أي: لقلوب النساء الأجنبيات؛ أي: أكثر تطهيراً لها من الخواطر النفسانية، والخيالات الشيطانية التي تعرض للرجال في أمر النساء،

---

(١) الشوكاني.

وللنساء في أمر الرجال، فإن كل واحد من الرجل والمرأة إذا لم يَرَ الآخر.. لم يقع في قلبه شيء.

قال في «كشف الأسرار»: نقلهم عن مألوف العادة إلى معروف الشريعة ومفروض العبادة، وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال، وبين أن البشر بشر، وإن كانوا من الصحابة، وأزواج النبي ﷺ، فلا يأمن أحد على نفسه من الرجال والنساء، ولهذا شدد الأمر في الشريعة بأن لا يخلو رجل بامرأة ليس بينهما محرمية كما قال ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة، فإن ثالثهما الشيطان»، وفي هذا أدب لكل مؤمن، وتحذير له من أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له، والمكالمة من دون حجاب لمن تحرم عليه.

والمعنى[١]: ذلك السؤال من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان ونزغاته؛ لأن العين رسول القلب، فإذا لم تر العين.. لم يشته القلب، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر، وعدم الفتنة حينئذ أظهر. وجاء في الأثر: «النظر سهم مسموم من سهام إبليس» إذ الرؤية سبب للتعلق والفتنة، ألا ترى إلى قول الشاعر:

وَٱلْـمَـرْءُ مَـا دَامَ ذَا عَـيْـنٍ يُـقَـلِّـبُـهَـا ... فِيْ أَعْيُنِ ٱلْعِيْنِ مَوْقُوْفٌ عَلَى ٱلْخَطَرِ

يَـسُـرُّ مُـقْـلَـتَـهُ مَـا سَـاءَ مُـهْـجَـتَـهُ ... لاَ مَـرْحَـباً بِـٱنْـتِـفَـاعٍ جَـاءَ بِـٱلـضَّـرَرِ

ولما ذكر ما ينبغي من الآداب حين دخول بيت الرسول.. أكده بما يحملهم على ملاطفته وحسن معاملته بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ﷺ أي أن تفعلوا في حياته ﷺ فعلاً يتأذى به بكرهه، كاللبث والاستئناس للحديث الذي كنتم تفعلونه، فإن الرسول يسعى لخيركم ومنفعتكم في دنياكم وآخرتكم فعليكم أن تقابلوا بالحسنى كفاء جليل أعماله.

أي: ما صح لكم[٢]، ولا استقام أن تؤذوه بشيء من الأشياء كائناً ما كان، ومن جملة ذلك دخول بيوته بغير إذن منه، واللبث فيها على غير الوجه الذي يريده، وتكليم نسائه من دون حجاب، ولما كان رسول الله ﷺ قد قصر عليهن.. قصرهن

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

الله عليه بقوله: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ﴾؛ أي: ولا كان لكم أن تتزوجوا أزواجه ﷺ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾؛ أي: من بعد مفارقته إياهن بموت أو طلاق ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: مدة حياتها زيادة في شرفه، وإظهاراً لعظمته وجلاله، ولأنهن أمهات المؤمنين، ولا يحل للأولاد نكاح الأمهات، ولأن في تزوجهن تركاً لمراعاة حرمته ﷺ، ويقال[1]: لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة، كما قال ﷺ: «شارطت ربي أن لا أتزوج إلا من يكون معي في الجنة»، ولو تزوجن.. لم يكنَّ معه في الجنة؛ لأن المرأة لآخر أزواجها.

والحاصل: أنه يجب على الأمَّة أن يعظِّموه ﷺ، ويوقروه في جميع الأحوال في حال حياته، وبعد وفاته، فإنه بقدر ازدياد تعظيمه وتوقيره في القلوب، يزداد نور الإيمان فيها.

ثم بين السبب فيما تقدم بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من إيذائه ﷺ، ونكاح أزواجه من بعده ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ـ سبحانه وتعالى ـ ذنباً ﴿عَظِيمًا﴾، وخطباً جليلاً، وأمراً خطيراً، لا يقادر قدره إلا الله تعالى.

ثم بالغ في الوعيد، فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ﴾ أيها المؤمنون وتظهروا على ألسنتكم ﴿شَيْـًٔا﴾ مما لا خير فيه كنكاحهن ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾؛ أي: تخفوا ذلك الشيء، وتكتموه في صدوركم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾؛ أي: بليغ العلم بظاهر كل شيء وباطنه، فيجازيكم بما صدر منكم من المعاصي البادية والخافية لا محالة، وعمم[2] ذلك ليدخل فيه نكاحهن وغيره؛ أي: يعلم كل شيء من الأشياء، ومن جملة ذلك ما تظهرونه في شأن أزواج رسوله، وما تكتمونه في صدوركم، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن إحاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها وشرها.

أي: إن ما تكنه ضمائركم، وتنطوي عليه سرائركم، فالله يعلمه؛ إذ لا تخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾، ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصي الظاهرة والباطنة، والكلام، وإن كان عاماً بظاهره، فالمقصود ما

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

يتعلق بزوجاته ﷺ.

وروي: أنه لما نزلت آية الحجاب.. قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله، أو نكلمهنَّ أيضاً ـ أي: كالأباعد ـ من وراء حجاب، فنزلت ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾، ورخص الدخول على نساء ذوات محارم بغير حجاب؛ أي: لا ذنب ولا إثم على أزواج النبي ﷺ ﴿فِي﴾ دخول ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾ عليهن، ونظرهم وكلامهم ورؤيتهم إياهن بلا حجاب، سواء كان الأب أباً من النسب، أم من الرضاع. ﴿وَلَا﴾ في دخول ﴿أَبْنَآئِهِنَّ﴾ عليهن، ونظرهم وكلامهم بلا حجاب، سواء كان الابن من النسب، أو من الرضاع. ﴿وَلَا﴾ في ﴿إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾؛ أي: لا إثم عليهن في ترك الحجاب عن هؤلاء الأصناف من الأقارب، فهؤلاء لا يجب على نساء رسول الله ﷺ، ولا على غيرهن من النساء الاحتجاب منهم، فهؤلاء ينظرون إلى الوجه والرأس والساقين والعضدين، ولا ينظرون إلى ظهرها، وبطنها، وفخذها، وأبيح النظر لهؤلاء لكثرة مداخلتهم عليهن، واحتياجهن إلى مداخلتهم، وإنما لم يذكر العم والخال؛ لأنهما بمنزلة الوالدين، ولذلك سمي العم أباً في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، أو لأنه يكره ترك الاحتجاب منهما مخافة أن يصفاهن لأبنائهما، وأبناؤهما غير محارم؛ لجواز النكاح بينهم، فكره لهما الرؤية. وهذا ضعيف جداً[1]، فإن تجويز وصف المرأة لمن تحل له ممكن من غيرهما ممن يجوز النظر إليهما، لا سيما أبناء الإخوة، وأبناء الأخوات، واللازم باطل، فالملزوم مثله.

وهكذا يستلزم أن لا يجوز للنساء الأجنبيات أن ينظرن إليها؛ لأنهن يصفنها لأزواجهن، واللازم باطل، فالملزوم مثله. وهكذا لا وجه لما قاله الشعبي وعكرمة: من أنه يكره للمرأة أن تضع خمارها عند عمها أو خالها، والأولى أن يقال: إنه سبحانه اقتصر ههنا على بعض ما ذكره من المحارم في سورة النور اكتفاءً بما تقدم، والمضاف إليه في قوله: ﴿وَلَا﴾ جناح عليهن في عدم الاحتجاب عن ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ واقع على أزواج النبي ﷺ؛ أي[2]: ولا جناح على زوجات النبي ﷺ في عدم الاحتجاب عن نسائهن؛ أي: عن النساء المسلمات، وإضافتهن لهن من

---

(١) الشوكاني. (٢) الفتوحات.

حيث المشاركة في الوصف، وهو الإسلام، وأما النساء الكافرات فيجب على أزواج النبي ﷺ الاحتجاب عنهن، كما يجب على سائر المسلمات؛ أي: ما عدا ما يبدو عند المهنة، أما هو.. فلا يجب على المسلمات حجبه وستره عن الكافرات. اهـ. شيخنا، وقيل: هو عام في المسلمات والكتابيات، وإنما قال: ولا نسائهن بالإضافة؛ لأنهن من أجناسهن.

﴿وَلَا﴾ جناح عليهن في عدم الاحتجاب عن ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ وأيديهن من العبيد والإماء؛ لما في الاحتجاب عن العبيد من المشقة؛ لأنهم يقومون بالخدمة عليهن، فيكون عبد المرأة محرماً لها، فيجوز(١) له الدخول عليها إذا كان عفيفاً، وأن ينظر إليها كالمحارم، وقد أباحت عائشة النظر لعبدها، وقالت لذكوان: إنك إذا وضعتني في القبر، وخرجت فأنت حر، وقيل: من الإماء خاصة، فيكون العبد حكمه حكم الأجنبي معها.

قال في «بحر العلوم»: وهو أقرب إلى التقوى؛ لأن عبد المرأة كالأجنبي خصياً كان أو فحلاً، وأين مثل عائشة؟ وأين مثل عبدها في العبيد؟ لا سيما في زماننا هذا. وهو قول أبي حنيفة، وعليه الجمهور، فلا يجوز لها الحج ولا السفر معه، وقد أجاز نظره إلى وجهها وكفيها إذا وجد الأمن من الشهوة، ولكن جواز النظر لا يوجب المحرمية، وقد سبق بعض ما يتعلق بالمقام في سورة النور، فارجع لعلك تجد السرور.

قوله: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ يا أزواج النبي ﷺ، وكذا سائر النساء المسلمات، معطوف على محذوف، تقديره: امتثلن ما أمرتن به من الاحتجاب، واتقين الله حتى لا يراكن غير هؤلاء ممن ذكر، وعليكن الاحتياط ما قدرتن، واخشين الله في السر والعلن، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، وهو يجازي على العمل خيراً أو شراً.

والخلاصة: أنّ الله شاهد عليكم عند اختلاء بعضكم ببعض، فخلوتكم مثل ملئكم، فاتقوه فيما تأتون وما تذرون، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ

---

(١) روح البيان.

شَيْءٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: مطلعاً لا تخفى عليه خافية من الأقوال والأفعال، ولا يتفاوت في علمه الأماكن والأوقات والأحوال.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير بالآية إلى تسكين قلوبهن بعد فطامهن عن مألوفات العادة، ونقلهن إلى معروف الشريعة، ومفروض العبادة، فمن عليهن وعلى أقربائهن بإنزاله هذه الرخصة؛ لأنه ما أخرجهن، وما خلَّى سبيل الاحتياط لهن مع ذلك فقال: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ فيهن، وفي غيرهن بحفظ الخواطر، وميل النفوس، وهمها. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أعمال النفوس، وأحوال القلوب ﴿شَهِيدًا﴾ حاضراً وناظراً إليها. قال أبو العباس الفاسي: الشهيد: هو الحاضر الذي لا يغيب عنه معلوم، ولا مرئي، ولا مسموع.

فائدة: وجملة الأزواج التي مات عنهن رسول الله ﷺ، وهي المرادة في هذه الآية تسع: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وصفية، وميمونة، وزينب، وجويرية، وقد نظمهن بعضهم فقال:

تُوُفِّيْ رَسُوْلُ اللَّهِ عَنْ تِسْعِ نِسْوَةٍ ... إِلَيْهِنَّ تُعْزَى الْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ
فَعَائِشَةٌ مَيْمُوْنَةٌ وَصَفِيَّةٌ ... وَحَفْصَةُ تَتْلُوْهُنَّ هِنْدٌ وَزَيْنَبُ
جُوَيْرِيَّةٌ مَعْ رَمْلَةٍ ثُمَّ سَوْدَةٌ ... ثَلاَثٌ وَسِتٌّ ذِكْرُهُنَّ لَيَعْذُبُ

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ محمد ﷺ؛ أي: يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره، ويهتمون بإظهار شرفه، وتعظيم شأنه، وذلك من الله تعالى بالرحمة، ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار، فقوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾ محمول على عموم المجاز؛ إذ لا يجوز إرادة معنيي المشترك معاً، فإنه لا عموم للمشترك مطلقاً؛ أي: سواء كان بين المعاني تنافٍ أم لا.

قال القهستاني: الصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن الإنس والجن: القيام والركوع والسجود والدعاء ونحوها، ومن الطير والهوام: التسبيح، والصلاة: اسم مصدر من التصلية، وكلاهما مستعمل بخلاف الصلاة بمعنى أداء الأركان، فإن مصدرها لم يستعمل، فلا يقال: صليت تصليةً، بل يقال: صليت صلاة.

وقال بعضهم: الصلاة من الله تعالى بمعنى الرحمة لغير النبي ﷺ، وبمعنى

التشريف بمزيد الكرامة للنبي، والرحمة عامة، والصلاة خاصة، كما دل العطف على التغاير في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، وقال بعضهم: صلوات الله على غير النبي رحمة، وعلى النبي ﷺ ثناء ومدحة، قولاً وتوفيق وتأييد فعلاً، وصلاة الملائكة على غير النبي ﷺ: استغفار، وعلى النبي: إظهار للفضيلة، والمدح قولاً، والنصرة والمعاونة فعلاً. وصلاة المؤمنين على غير النبي ﷺ: دعاء، وعلى النبي: طلب الشفاعة قولاً، واتباع السنة فعلاً.

وقال بعضهم: صلوات الله على النبي ﷺ تبليغه إلى المقام المحمود، وهو مقام الشفاعة لأمته، وصلوات الملائكة: دعاؤهم له بزيادة مرتبته، واستغفارهم لأمته، وصلوات الأمة: متابعتهم له، ومحبتهم إياه، والثناء عليه بالذكر الجميل.

وهذا التشريف الذي شرف الله به نبينا ﷺ أتم من تشريف آدم عليه السلام بأمر الملائكة بالسجود له؛ لأنه لا يجوز أن يكون الله تعالى مع الملائكة في هذا التشريف لآدم، وقد أخبر تعالى عن نفسه بالصلاة على النبي، ثم عن الملائكة، وما أحسن قول بعضهم:

يُصَلِّيْ عَلَيْهِ ٱللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ   بِهَذَا بَدَا لِلْعَالَمِيْنَ كَمَالُهُ

وقرأ الجمهور: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ بنصب الملائكة عطفاً على لفظ اسم ﴿إِنَّ﴾، وقرأ ابن عباس وعبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿وملائكتُه﴾ بالرفع عطفاً على محل اسم ﴿إِنَّ﴾، والضمير في قوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾ راجع إلى الله، وإلى الملائكة، وفيه تشريف للملائكة عظيم، حيث جعل الضمير لله ولهم واحداً، فلا يرد الاعتراض بما ثبت عنه ﷺ لما سمع قول الخطيب يقول: من يطع الله ورسوله.. فقد رشد، ومن يعصهما.. فقد غوى، فقال: «بئس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله». ووجه ذلك: أنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله سبحانه مع غيره في ضمير واحد، وهذا الحديث ثابت في «الصحيح». وثبت أيضاً في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ أمر منادياً ينادي يوم خيبر: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية. ولأهل العلم أبحاث في الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع ذكرها، والآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها لله ولملائكته واحداً، والتعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله في رسول الله ﷺ، ويجمع بينهما بحمل الذم لذلك الخطيب

الجامع بينهما على أنه ﷺ، فهم منه إرادة التسوية بين الله سبحانه وبين رسوله، فيختص المنع بمثل ذلك. وهذا أحسن ما قيل في الجمع، وقالت طائفة: في الآية حذف، والتقدير: إن الله يصلي، وملائكته يصلون، وعلى هذا القول فلا تكون الآية مما جمع فيه بين ذكر الله وذكر غيره في ضمير واحد.

ولا يرد أيضاً ما قيل: إن الصلاة من الله الرحمة، ومن ملائكته الدعاء، فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين في لفظ ﴿يُصَلُّونَ﴾. ويقال على القول الأول: إنه أريد بـ﴿يُصَلُّونَ﴾ معنى مجازي يعم المعنيين، كما مر، وذلك بأن يراد بقوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾ يهتمون بإظهار شرفه، أو يعظمون شأنه، أو يعتنون بأمره.

فإن قيل: إذا صلى الله وملائكته عليه، فأي حاجة به إلى صلاتنا؟

أجيب: بأن الصلاة عليه ليس لحاجته إليها، وإلا فلا حاجة به إلى صلاة الملائكة أيضاً، وإنما القصد بها تعظيمه ﷺ، وعود فائدتها علينا بالثواب والقرب منه ﷺ. اهـ. «خطيب».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿صَلُّوا۟﴾؛ أي: اعتنوا واهتموا أنتم أيضاً بالصلاة ﴿عَلَيْهِ﴾ ﷺ قولاً، واتباع سنته فعلاً، فإنكم أولى بذلك، وأحوج إليه؛ أي: صلوا عليه صلاة دائمة ﴿وَسَلِّمُوا۟﴾ عليه ﴿تَسْلِيمًا﴾ كاملاً بأن تقولوا: اللهم صل على محمد وسلم، أو ﷺ، أو تقولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.

وقيل: معنى ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ادعوا له بالرحمة المقرونة بالتعظيم، ومعنى ﴿سلموا﴾ عليه؛ أي: حيوه بتحية الإسلام، وقيل: معنى ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قولوا: اللهم صلِّ على محمد، ومعنى ﴿سلموا﴾ عليه؛ أي: قولوا: اللهم سلم على محمد، أو انقادوا لأمره وحكمه.

والذي يحصل به الامتثال لمطلق الأمر في هذه الآية هو أن يقول القائل: اللهم صل وسلم على رسولك، أو على محمد، أو على النبي، أو اللهم صلِّ على محمد وسلم. ومن أراد أن يصلي عليه ويسلم عليه بصفة من الصفات التي ورد التعليم بها، والإرشاد إليها، فذلك أكمل، وهي صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة المطهرة.

فمنها: حديث كعب بن عجرة قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ...﴾ الآية.. قلنا: يا رسول الله، قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد» متفق عليه.

ومنها: حديث طلحة بن عبيد الله قال: قلت: يا رسول الله، كيف الصلاة عليك؟ قال: «قل: اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد». أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأحمد والنسائي.

ومنها: حديث أبي حميد الساعدي: أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد» أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

وفي الأحاديث اختلاف، ففي بعضها على إبراهيم فقط، وفي بعضها بالجمع بينهما، كحديث طلحة المذكور، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً، وفي بعضها التقييد بالصلاة، كما في حديث أبي مسعود عند ابن خزيمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في «سننه»: أن رجلاً قال يا رسول الله، أما السلام عليكم.. فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا؟ الحديث.

وأخرج الشافعي في مسنده من حديث أبي هريرة مثله، وجميع التعليمات الواردة عنه ﷺ في الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه إلا النادر اليسير من الأحاديث، فينبغي للمصلي عليه أن يضم آله إليه في صلاته عليه، وقال بذلك جماعة من العلماء، ونقله إمام الحرمين والغزالي قولاً عن الشافعي، كما رواه عنهما ابن كثير في «تفسيره».

والمراد بآله: الأتقياء من أمته، فدخل فيه بنو هاشم، والأزواج المطهرة، وغيرهم جميعاً.

فإن قلت: أكد السلام بقوله: ﴿تَسْلِيمًا﴾؛ لأنه مصدر مؤكد لعامله، ولم يؤكد الصلاة؟

قلتُ: لم تؤكد الصلاة بالمصدر؛ لأنها مؤكدة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ. . .﴾ إلخ، وقيل: إنه من الاحتباك، فحذف عليه من أحدهما، والمصدر من الآخر.

فإن قلت: لِمَ خص السلام بالمؤمنين دون الله وملائكته، فخصهما بالصلاة؟

قلتُ: لما جاءت هذه الآية عقب ذكر ما يؤذي النبي، والأذية: إنما هي من البشر ناسب التخصيص بهم والتأكيد، وإليه الإشارة بما ذكر بعده؟

فإن قلت: لِمَ خص اللهم في الصلاة الواردة، ولم يقل: يا رب ويا رحمن صلِّ؟.

قلت: خص لفظ اللهم؛ لأنه اسم جامع دال على الألوهية وعلامة الإسلام في قوله: لا إله إلا الله، فناسب ذكره وقت الصلاة عليه ﷺ؛ لأنه ﷺ جامع لنعوت الكمال، مشتمل على أسرار الجمال والجلال.

فإن قلت: لم خص لفظ محمد فيها دون أحمد ومحمود؟

قلتُ: خص لفظ محمد من بين أسمائه؛ لأن معناه: المحمود مرة بعد أخرى، فناسب مقام المدح والثناء.

قال في «شرح الكشاف» وغيره: معنى قوله: اللهم صلِّ على محمد: اللهم عظمه في الدنيا بإعلاء دينه، وإعظام ذكره، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته، وتضعيف أجره ومثوبته، وإظهار فضله على الأولين والآخرين، وتقديمه على كافة الأنبياء والمرسلين، ومعنى سلم: اجعله يا رب سالماً من كل مكروه في الدنيا والآخرة.

ولما لم يكن حقيقة الثناء في وسعنا. . أمرنا أن نكل ذلك إليه تعالى، فالله يصلي ويسلم عليه بسؤالنا:

سَلاَمٌ مِنَ ٱلرَّحْمَنِ نَحْوَ جَنَابِهِ   لأَنَّ سَلاَمِي لاَ يَلِيقُ بِبَابِهِ

فإن قلت: فما الفائدة في الأمر بالصلاة؟

قلتُ: إظهار المحبة للصلاة، كما استحمد فقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إظهاراً

لمحبة الحمد مع أنه هو الحامد لنفسه في الحقيقة.

وفي «الفتوحات المكية»: إنما شرع السلام من المؤمنين؛ لأن مقام الأنبياء يعطي الاعتراض عليهم لأمرهم الناس بما يخالف أهواءهم، فكأن المؤمن يقول: يا رسول الله، أنت في أمان من اعتراض عليك في نفسي، وكذلك السلام على عباد الله الصالحين، فإنهم كذلك يأمرون الناس بما يخالف أهواءهم بحكم الإرث للأنبياء، وأما تسليمنا على أنفسنا، فإن فينا ما يقتضي الاعتراض واللوم منا علينا، فنلزم نفوسنا التسليم فيه لنا، ولا نعترض كما يقول الإنسان: قلت لنفسي كذا، فقالت: لا. ولم نقف على رواية عن النبي ﷺ في تشهده الذي كان يقوله في الصلاة، هل كان يقول مثلنا: «السلام عليك أيها النبي ﷺ»، أو كان يقول: السلام عليَّ، أو كان لا يقول شيئاً من ذلك، ويكتفي بقوله: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، فإن كان يقول مثل ما أمرنا.. نقول في ذلك وجهان:

أحدهما: أن يكون المسلَّم عليه هو الحق سبحانه، وهو مترجم عنه، كما جاء في سمع الله لمن حمده.

والوجه الثاني: أنه كان يقام في صلاته في مقام الملائكة مثلاً، ثم يخاطب نفسه من حيث المقام الذي أقيم فيه أيضاً من كونه نبياً، فيقول: «السلام عليك أيها النبي» فعل الأجنبي، فكأنه جرد من نفسه شخصاً آخر. انتهى كلام «الفتوحات».

وإن قيل: ظاهر[1] هذا الأمر بالصلاة والتسليم في الآية أن يقول القائل: صليت على محمد، وسلمت على محمد، أو الصلاة عليه، والسلام عليه فإن الله سبحانه أمر بإيقاع الصلاة والسلام عليه منا، فالامتثال هو أن يكون ذلك على ما ذكرنا، فكيف كان الامتثال لأمر الله لنا بذلك أن نقول: اللهم صل عليه وسلم عليه، بمقابلة أمر الله لنا بأمرنا له بأن يصلّي عليه ويُسلِّم عليه.

أجيب عنه: بأن هذه الصلاة والتسليم لما كانت شعاراً عظيماً للنبي ﷺ، وتشريفاً وتكريماً له.. وكلنا ذلك إلى الله عز وجل، وأرجعناه إليه، وهذا الجواب كما مر آنفاً ضعيف جداً، وأحسن ما يجاب به أن يقال: إن الصلاة والتسليم

---

(١) الشوكاني.

المأمور بهما في الآية هما أن نقول: اللهم صلِّ عليه وسلم، أو نحو ذلك مما يؤدي معناه، كما بيَّنه رسول الله ﷺ لنا، فاقتضى ذلك البيان في الأحاديث الكثيرة أن هذه هي الصلاة الشرعية.

وإن قيل: السلام[1] مخصوص بالحي، والنبي عليه السلام ميت، فكيف يصح السلام عليه؟

أجيب عنه: بأن المؤمن لا يموت حقيقة، وإن فارق روحه جسده، فالنبي عليه السلام مصون بدنه الشريف من التفسخ والانحلال في التراب، حي بالحياة البرزخية، ويدل عليه قوله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين، يبلغونني عن أمتي السلام»، ويؤخذ من هذا الحديث: أنه حي على الدوام في البرزخ الدنيوي؛ لأنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلِّم على النبي في ليل أو نهار.

فإن قلت: لم خص إبراهيم بالذكر في الصلاة، وشبه صلوات نبينا بصلاته؟

قلتُ: أمرنا بالصلاة على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم؛ لأنه حين تم بناء البيت.. دعوا للحجاج بالرحمة، فكافأناهم بذلك، وقال الإمام النيسابوري: لأنه سأل الله أن يبعث نبينا من ذرية إسماعيل فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، ولذا قال النبي ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم» فكافأه، وشكره، وأثنى عليه مع نفسه بالصلاة التي صلى الله عليه وملائكته. وأيضاً: أُمرنا بالصلاة على إبراهيم، لأن قبلتنا قبلته، ومناسكنا مناسكه، والكعبة بناؤه، وملته متبوعه للأمم، فأوجب الله على أمة محمد ثناءه، فلهذه المعاني خص إبراهيم بالذكر في الصلاة، وشبه صلاة نبينا بصلاته دون صلاة غيره، فاعرف.

فإن قلت: تشبيه الصلاة على محمد بالصلاة على إبراهيم يقتضي أفضلية إبراهيم على محمد عليهما الصلاة والسلام، فينافي قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»؟

قلت: التشبيه لم يقع بين الصلاة عليهما، بل بين الصلاة على آل محمد، والصلاة على إبراهيم وآله؛ لأن المعنى: اللهم صلِّ على محمد صلاة كاملة، وصلِّ

---

(١) روح البيان.

على آل محمد مثل الصلاة على إبراهيم وآله، فلا يشكل بكون المشبه به أقوى، كما هو المشهور ذكره «القهستاني، وقال في «الضياء المعنوي»: هذا تشبيه من حيث أصل الصلاة، لا من حيث المصلى عليه؛ لأن نبينا أفضل من إبراهيم، فمعناه: اللهم صلِّ على محمد بمقدار فضله وشرفه عندك، كما صليت على إبراهيم بقدر فضله وشرفه. وهذا كقوله تعالى: ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾؛ أي: اذكروا الله بقدر نعمه وآلائه عليكم، كما تذكرون آباءكم بقدر نعمهم عليكم، وتشبيه الشيء بالشيء يصح من وجه واحد، وإن كان لا يشبهه من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ من وجه واحد، وهو تخليقه عيسى من غير أب. انتهى.

ثم إن الآية الكريمة دلت على وجوب الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، واتفق العلماء على وجوبها، كما دلت عليه الآية، ثم إنهم[1] اختلفوا فقال قوم: تجب في العمر مرة، واعتمده الكرخي، وعليه أكثر العلماء، وقيل: تجب في كل صلاة في التشهد الأخير، وهو مذهب الشافعي، وإحدى الروايتين عن أحمد، وقيل: تجب كلما جرى ذكره على لسانه، أو سمعه من غيره، فاختاره الطحاوي من الحنفية، والحليمي من الشافعية، وهو ضعيف، والواجب اللهم صلِّ على محمد، وما زاد سنة.

وأما الصلاة عليه في التشهد الأخير: فسنة عند أبي حنيفة ومالك، وشرط لجواز الصلاة عند الشافعي، وركن عند أحمد، فتبطل الصلاة عندهما بتركها عمداً كان أو سهواً؛ لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يُصل عليَّ في صلاته. قالت الحنفية والمالكية: ذلك محمول على نفي الكمال، ولو كانت فريضةً لعلَّمها النبي ﷺ الأعرابي حين علَّمه أركان الصلاة.

وأما الصلاة على غير الأنبياء[2]: فتجوز تبعاً بأن يقول: اللهم صلِّ على محمد وعلى آله، ويكره استقلالاً وابتداءً كراهة تنزيه، كما هو الصحيح الذي عليه الأكثرون، فلا يقال: اللهم صلِّ على أبي بكر؛ لأن في العرف شعار ذكر الرسل، ومنه كره أن يقال: محمد عز وجل مع كونه عزيزاً جليلاً، ولتأديته إلى الاتهام

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

بالرفض؛ لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم.

وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقف مواقف التهم»، وأما السلام فهو في معنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب، فلا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: عليٌّ عليه السلام، كما تقول الروافض وتكتبه، وسواء في هذا الأحياء والأموات. وأما الحاضر فيخاطب به فيقال: السلام عليك أو عليكم، وسلام عليك أو عليكم. وهذا مجمع عليه، والسلام على الأموات عند الحضور في القبور من قبيل السلام على الحاضر.

وأما إفراد الصلاة عن ذكر السلام وعكسه، فقد اختلفت الروايات فيه: منهم من ذهب إلى عدم كراهته، فإن الواو في ﴿وَسَلِّمُوا۟﴾ لمطلق الجمع من غير دلالة على المعية، وعن إبراهيم النخعي: إن السلام؛ أي: قول الرجل: عليه السلام، يجزيء عن الصلاة على النبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ﴾، ولكن لا يقتصر على الصلاة، فإذا صلى أو كتبها.. أتبعها التسليم، ويستحب الترضي والترحم على الصحابة والتابعين، فمن بعدهم من العلماء والعباد وسائر الأخيار، فيقال: أبو بكر رضي الله عنه، أبو حنيفة رحمه الله، أو نحو ذلك، فليس رضي الله مخصوصاً بالصحابة، بل يقال فيهم: رحمه الله أيضاً، والأرجح في مثل لقمان ومريم والخضر والإسكندر المختلف في نبوته أن يقال: رضي الله عنه، أو عنها، ولو قال: عليه السلام، أو عليها السلام، فلا بأس به، ويقال: تخصيص علي بن أبي طالب بكرَّم الله وجهه من شعار الروافض.

وقال الإمام اليافعي في «تاريخه»(١): والذي أراه أن يفرَّق بين الصلاة، والسلام، والترضي، والترحم، والعفو، فالصلاة: مخصوصة على المذهب الصحيح بالأنبياء والملائكة، والترضي: مخصوص بالصحابة، والترحم: لمن دونهم، والعفو: للمذنبين، والسلام: مرتبة بين مرتبتي الصلاة والترضي، فحسن أن يكون لمن منزلته بين منزلتين، أعني: يقال لمن اختلف في نبوتهم، كلقمان، والخضر، وذي القرنين، لا لمن دونهم. ويكره أن يرمز للصلاة والسلام على النبي ﷺ في الخط بأن يقتصر من ذلك على الحرفين هكذا: عم، أو نحو ذلك كمن يكتب:

---

(١) روح البيان.

صلعم، يشير به إلى: ﷺ، ويكره حذف واحد من الصلاة والسلام، والاقتصار على أحدهما، وفي الحديث: «من صلى علي في كتاب.. لم تزل صلاته جاريةً له ما دام اسمي في ذلك الكتاب»، كما في «أنوار المشارق» لمفتي حلب.

وورد في فضائلها أحاديث كثيرة[1]:

منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي واحدة.. صلى الله عليه بها عشراً». أخرجه مسلم.

ومنها: حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى عليَّ صلاة واحدة.. صلى الله عليه بها عشراً، وحطت عنه عشر خطيئات، ورفعت له عشر درجات». أخرجه الترمذي.

ومنها: حديث أبي طلحة الأنصاري: أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشر في وجهه، فقلت: إنا لنرى البِشْر في وجهك، قال: «أتاني الملك، فقال: يا محمد، إن ربك يقول: أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشراً». أخرجه الترمذي أيضاً.

ومنها: حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكةً سياحين في الأرض، يبلغوني عن أمتي السلام». أخرجه الترمذي.

ومنها: حديث ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة. أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

ومنها: حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «البخيل الذي ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب صحيح.

ومنها: حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى، إذا صلى علينا أهل البيت.. فليقل: اللهم صلِّ على محمد النبي الأمي، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته، وأهل بيته، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد». أخرجه أبو داود.

---

(١) الخازن.

قال بعضهم: وفي الصلاة عليه ﷺ شكر على كونه أفضل الرسل، وكونهم خير الأمم، وأيضاً فيها إيجاب الشفاعة على ذمة ذلك الجناب، فإن الصلاة عليه ثمن الشفاعة، فإذا أدّوا الثمن في هذا اليوم يرجى أن يحرزوا المثمن يوم القيامة:

أَلاَ أَيُّهَا ٱلإِخْوانُ صَلُّوْا وَسَلِّمُوْا   عَلَىٰ ٱلْمُصْطَفَىٰ فِيْ كُلِّ وَقْتٍ وَسَاعَةِ
فَإِنَّ صَلاَةَ ٱلْهَاشِمِيِّ مُحَمَّدٍ   تُنَجِّيْ مِنَ ٱلأَهْوَالِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ

وبقدر صلواتهم عليه تحصل المعارفة بينهم وبينه، وعلامة المصلي: يوم القيامة أن يكون لسانه أبيض، وعلامة التارك: أن يكون لسانه أسود، وبهما تعرف الأمة يومئذ، وأيضاً فيها إثبات المحبة، ومن أحب شيئاً أكثر ذكره.

قال سهل بن عبد الله التستري: الصلاة على محمد ﷺ أفضل العبادات؛ لأن الله تولاها هو وملائكته، ثم أمر بها المؤمنين، وسائر العبادات ليس كذلك، يعني أنَّ الله تعالى أمر بسائر العبادات، ولم يفعله بنفسه، وقال الواسطي: صلِّ عليه بالأوتار، ولا تجعل له في قلبك مقداراً؛ أي: لا تجعل لصلواتك عليه مقداراً تظن أنك تقضي به من حقه شيئاً، بل بصلواتك عليه استجلاب رحمةً على نفسك به:

يَا مَنْ يُجِيْبُ دُعَا ٱلْمُضْطَرِّ فِيْ ٱلظُّلَمِ   يَا كَاشِفَ ٱلضُّرِّ وَٱلْبَلْوَىٰ مَعَ ٱلسَّقَمِ
شَفِّعْ نَبِيَّكَ فِيْ ذُلِّيْ وَمَسْكَنَتِيْ   وَاسْتُرْ فَإِنَّكَ ذُوْ فَضْلٍ وَذُوْ كَرَمِ

ثم إن للصلوات والتسليمات مواطن:

فمنها: أن يصلِّي عند سماع اسمه الشريف في الأذان.

ومنها: أن يصلِّي بعد سماع الأذان بأن يقول: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، فإنه عليه السلام وعد لقائله الشفاعة العظمى.

ومنها: أن يصلي عند ابتداء الوضوء، ثم يقول: بسم الله، وبعد الفراغ منه فإنه يفتح له أبواب الرحمة، وفي المرفوع: «لا وضوء لمن لم يصل على النبي ﷺ».

ومنها: أن يصلي عند دخول المسجد، ثم يقول: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وعند الخروج أيضاً، ثم يقول: اللهم افتح لي أبواب فضلك، واعصمني من الشيطان، وكذا عند المرور بالمساجد، ووقوع نظره عليها، ويصلي في التشهد

الأخير، وقبل: الدعاء وبعده، فإن الصلاة عليه مقبولة لا محالة، فيرجى أن يقبل الدعاء بين الصلاتين أيضاً.

ومنها: أن يصلي يوم الجمعة وليلته، فإن الجمعة سيد الأيام، ومخصوص بسيد الأنام، فللصلاة فيه مزية، وزيادة مثوبة وقربة ودرجة.

وفي الحديث: «إن أفضل أيامكم يوم الجمعة، خلق فيه آدم، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي». قيل: يا رسول الله، كيف تعرض عليك صلاتنا وقد رممت؛ أي: بليت؟ قال: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، وفي الحديث: «من صلَّى عليَّ يوم الجمعة ثمانين مرة.. غفرت له ذنوب ثمانين سنة، ومن صلَّى عليَّ كل يوم خمس مئة مرة.. لم يفتقر أبداً».

وقال بعضهم: إنَّ من صلَّى على النبي ﷺ ليلة الجمعة ثلاثة آلاف.. رأى في منامه ذلك الجناب العالي. ذكره علي الصفي في «الرشحات» ويصلي عند الركوب، فيقول: بسم الله، والله أكبر، وصلِّ على محمد خير البشر، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ويصلي في طريق مكة عند الذهاب إليها، وعند استلام الحجر يقول: اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، وسنة نبيك، ثم يصلي على النبي ﷺ، ويصلي على جبل الصفا والمروة، وبعد الفراغ من التلبية ووقت الوقوف عند المشعر الحرام، وفي طريق المدينة عند الذهاب إليها، وعند وقوع النظر عليها، وعند دخول الروضة المقدسة، وعند التوجه إلى القبر المقدس، ويصلي بين القبر والمنبر، ويكبر ويدعو ويصلِّي عند استماع ذكره عليه السلام، كما سبق، وكذا وقت ذكر اسمه الشريف، وكتابته، ويصلِّي عند ابتداء درس الحديث، والعلوم الدينية، وما يتعلق بها من الآلة، وعند تبليغ السنن فيقول: الحمد لله رب العالمين أكمل الحمد على كل حال، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد المرسلين، كلما ذكره الذاكرون، وكلما غفل عن ذكره الغافلون، اللهم صلِّ عليه، وعلى آله، وسائر النبيين، وآل كلٍّ، وسائر الصالحين، نهاية ما ينبغي أن يسلكه السالكون.

ويصلِّي عند ابتداء التذكير والعظة؛ أي: بعد الحمد والثناء؛ لأنه موطن تبليغ

العلم المروي عنه ﷺ، ووقت كفاية المهم، ورفع الهم، ووقت طلب المغفرة والكفارة، فإن الصلاة عليه محاء الذنوب، ووقت النوم والقيام منه، وحين دخول السوق لتربح تجارة آخرته، وحين المصافحة لأهل الإسلام، وحين افتتاح الطعام فيقول: اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، وطيِّب أرزاقنا، وحسِّن أخلاقنا، ويصلِّي عند اختتام الطعام، فيقول: الحمد لله الذي أطعمنا هذا، ورزقناه من غير حول منا ولا قوة، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتنزل البركات، اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد وسلم.

ويصلي عند قيامه من المجلس فيقول: صلى الله وملائكته على محمد، وعلى أنبيائه. فإنه كفارة اللهو واللغو الواقعين فيه. وفي خطبة النكاح فيقول: الحمد لله الذي أحل النكاح، وحرم السفاح، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعي إلى الله القادر الفتاح، وعلى آله وأصحابه ذوي الفلاح والنجاح.

ومن آداب المصلي أن يصلِّي على الطهارة، وأن يرفع صوته عند أداء الحديث، وأن يكون على المراقبة، وهو حضور القلب وطرد الغفلة، وأن يصحِّح نيَّته، وهو أن تكون صلاته امتثالاً لأمر الله تعالى، وطلباً لرضاه، وجلباً لشفاعة رسوله، وأن يستوي ظاهره وباطنه، فإن الذكر اللساني ترجمان الفكر الجناني، فلا بد من تطبيق أحدهما بالآخر، وإلا فمجرد الذكر اللساني من غير حضور القلب غير مفيد.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لأي، أو بدل منه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة على كونها جواب النداء. ﴿شَٰهِدٗا﴾: حال مقدرة من ضمير المفعول. ﴿وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا وَدَاعِيًا﴾: معطوفات على ﴿شَٰهِدٗا﴾.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿داعيا﴾. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في ﴿داعيا﴾. ﴿وَسِرَاجًا﴾: معطوف على ﴿شَٰهِدًا﴾. ﴿مُّنِيرًا﴾: صفة لـ﴿سراجا﴾. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة معطوفة على مقدر، تقديره: فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين. ﴿بِأَنَّ﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لَهُم﴾: خبر ﴿أن﴾ مقدم على اسمها. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿فَضْلًا﴾، و﴿فَضْلًا﴾: اسم ﴿أن﴾ مؤخر. ﴿كَبِيرًا﴾: صفة ﴿فَضْلًا﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بكون فضل كبير كائن من الله كائناً لهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿بَشِّرْ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُطِعِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿بَشِّرْ﴾. ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على جملة النهي قبله. ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: فعل وفاعل مستتر. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل و﴿الباء﴾: زائدة. ﴿وَكِيلًا﴾: تمييز، أو حال من الجلالة، والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لأي، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿نَكَحْتُمُ﴾. ﴿مِن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿طلقتم﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من قبل مسكم إياهن. ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: حال من ﴿عِدَّةٍ﴾. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿عِدَّةٍ﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ صفة لـ﴿عِدَّةٍ﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من

الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب النداء لا محل له من الإعراب. ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنها لا عدة لكم عليها، وأردتم بيان ما لهن عليكم.. فأقول لكم: متعوهن. ﴿متعوهن﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾: المقدرة مستأنفة. ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿متعوهن﴾. ﴿سَرَاحًا﴾: مفعول مطلق. ﴿جَمِيلًا﴾: صفة ﴿سَرَاحًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿النَّبِيُّ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿أَحْلَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ﴿أَحْلَلْنَا﴾. ﴿أَزْوَاجَكَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة على كونها جواب النداء. ﴿اللَّاتِي﴾: صفة لـ﴿أَزْوَاجَكَ﴾. ﴿آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول ثان، والأول محذوف، تقديره: آتيتهن أجورهن؛ لأن آتى هنا بمعنى: أعطى، والجملة صلة الموصول: ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿أَزْوَاجَكَ﴾. ﴿مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: وما ملكته يمينك. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور، حال من ﴿ما﴾ الموصولة، أو من العائد المحذوف. ﴿أَفَاءَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أَفَاءَ﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما أفاءه الله عليك.

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾: معطوفات على ﴿أَزْوَاجَكَ﴾. ﴿اللَّاتِي﴾: صفة للمذكورات في محل نصب. ﴿هَاجَرْنَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصولة. ﴿مَعَكَ﴾: متعلق بـ﴿هَاجَرْنَ﴾، ﴿وَامْرَأَةً﴾: معطوف على مفعول ﴿أَحْلَلْنَا﴾ ﴿مُؤْمِنَةً﴾: صفة لـ﴿امرأة﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿وَهَبَتْ﴾: فعل ماض

وفاعل مستتر يعود على ﴿امرأة﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿نَفْسَهَا﴾: مفعول به. ﴿لِلنَّبِيِّ﴾: متعلق بـ﴿وَهَبَتْ﴾، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إنْ وهبت نفسها للنبي أحللناها له، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَرَادَ النَّبِيُّ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَسْتَنكِحَهَا﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، وفاعله ضمير يعود على ﴿النَّبِيُّ﴾، والهاء: مفعول به، والسين والتاء فيه زائدتان، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أَرَادَ﴾، تقديره: إن أراد النبي نكاحها، وجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن أراد النبي ﷺ نكاحها أحللناها له، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب حال من ﴿النَّبِيُّ﴾، إنْ وهبت نفسها للنبي.. أحللناها له حالة كون النبي مريداً نكاحها. ﴿خَالِصَةً﴾: مصدر معمول لمحذوف، تقديره: خلص خالصة، خلص: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على النكاح بلفظ الهبة؛ أي: خلص النكاح بلفظ الهبة لك خلوصاً، واختص بك، ومجيء المصدر على وزن فاعلة كثير، كالكاذبة والعاقبة، واختار الزجاج وأبو البقاء أن يكون حالاً من امرأة؛ لتخصصها بصفة. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ﴿خَالِصَةً﴾. ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ضمير ﴿لَكَ﴾.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿عَلِمْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين الجار ﴿لِكَيْلَا﴾، ومتعلقه ﴿أَحْلَلْنَا﴾. ﴿فَرَضْنَا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ما فرضناه. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿فَرَضْنَا﴾. ﴿فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿فَرَضْنَا﴾ أيضاً. و﴿فِي﴾ بمعنى: الباء السببية. ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما ملكته أيمانهم. ﴿لِكَيْلَا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿كي﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿كي﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾: خبر

﴿يَكُونَ﴾ مقدم. ﴿حَرَجٌ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿يَكُونَ﴾ مع كي المصدرية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لعدم كون حرج عليك، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَحْلَلْنَا﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثانٍ لها، والجملة مستأنفة.

﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾.

﴿تُرْجِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تُرْجِى﴾. ﴿تَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من تشاء إرجاءه. ﴿مِنْهُنَّ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، معطوف على ﴿تُرْجِى﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿تؤوى﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تؤوى﴾. ﴿تَشَآءُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة صلة ﴿مَن﴾ والعائد محذوف تقديره: من تشاء إيواءه. ﴿وَمَنِ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، أو ﴿مَن﴾ شرطية في محل النصب مفعول مقدم. ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾: فعل وفاعل، صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، أو في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، والعائد محذوف. تقديره: ومن ابتغيته. ﴿مِمَّنْ﴾: جار ومجرور، حال من العائد المحذوف. ﴿عَزَلْتَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ممن عزلته، أو لا. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ، أو رابطة الجواب بالشرط. ﴿لا﴾: نافية للجنس تعمل عمل إن. ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْكَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لا﴾ النافية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجمل الاسمية مستأنفة، أو في محل الجزم جواب ﴿مَن﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿أَدْنَىٰٓ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب

ومصدر. ﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: إلى قرة أعينهن، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَدْنَىٰٓ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَحْزَنَّ﴾: فعل مضارع في محل النصب، معطوف على ﴿تقرَّ﴾ مبني بسكون على النون المدغمة في نون الإناث، لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل؛ أي: وذلك أقرب إلى قلة حزنهن. ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾: فعل وفاعل في محل النصب، معطوف على ﴿تَقَرَّ﴾؛ أي: وأقرب إلى رضائهن جميعاً. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يرضين﴾. ﴿ءَاتَيْتَهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: آتيتهن إياه، وهو المفعول الثاني لآتى؛ لأنه بمعنى: أعطى. ﴿كُلُّهُنَّ﴾: تأكيد لفاعل ﴿يرضين﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿مَا﴾: مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بواجب الحذف لوقوعه صلة لـ﴿مَا﴾الموصولة؛ أي: ما استقر في قلوبكم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره الأول. ﴿حَلِيمًا﴾: خبر ثانٍ له، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾، مؤكدة لها.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَحِلُّ﴾: فعل مضارع. ﴿لَكَ﴾: متعلق به. ﴿النِّسَاءُ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِنْ بَعْدُ﴾: حال من ﴿النِّسَاءُ﴾، وبني الظرف على الضم لقطعه عن الإضافة لفظاً لا معنى؛ أي: من بعد هؤلاء التسع المجتمعات في عصمتك. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَبَدَّلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، أصله: تتبدل، وفاعله، ضمير مستتر يعود على محمد. ﴿بِهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿تَبَدَّلَ﴾. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿أَزْوَاجٍ﴾: مفعول ﴿تَبَدَّلَ﴾، وجملة ﴿تَبَدَّلَ﴾ مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر معطوف على فاعل ﴿يَحِلُّ﴾ تقديره: لا يحل لك النساء من بعد، ولا تبدل أزواج أخر بهن. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على جملة محذوفة وقعت حالاً. ﴿لو﴾: حرف شرط مجردة عن الجواب. ﴿أَعْجَبَكَ﴾: فعل ماضٍ ومفعول به. ﴿حُسْنُهُنَّ﴾: فاعل، وجملة ﴿لَوْ﴾

معطوفة على جملة محذوفة وقعت حالاً من فاعل ﴿تَبَدَّلَ﴾، والتقدير: ولا يحل لك أن تتبدل بهن حال كونك لو لم يعجبك حسن الأزواج المستبدلة، ولو أعجبك حسنهن؛ أي: لا يحل لك الاستبدال حال عدم إعجاب حسنهن إياك، وحال إعجابه إياك؛ أي: لا يحل لك الاستبدال على كل حال، و﴿لو﴾ هنا غائية، لا جواب لها، يراد بها استقصاء الأحوال وتعميمها، كما مر في مبحث التفسير. قال الزمخشري: قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ في معنى الحال من الفاعل، وهو الضمير في ﴿تَبَدَّلَ﴾، لا من المفعول الذي هو ﴿مِنْ أَزْوَاجٍ﴾؛ لأنه متوغل في التنكير، وتقديره: مفروضاً إعجابك بهن. اهـ «كرخي». ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من ﴿النِّسَاءُ﴾، أو في محل الرفع على البدلية من ﴿كَفَرُوا﴾، أو في محل النصب على الاستثناء من ﴿أَزْوَاجٍ﴾. ﴿مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾: فعل وفاعل، صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: إلا ما ملكته يمينك. ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿رَقِيبًا﴾، و﴿رَقِيبًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة مؤكدة لما قبلها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، أو بدل منه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَدْخُلُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية ﴿بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾: مفعول به على التوسع، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُؤْذَنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور، في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُؤْذَنَ﴾. ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْذَنَ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء، ولكنه على تقدير مضاف، تقديره: لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ في حال من الأحوال إلا حالة الإذن لكم؛ أي: إلا حالة كونكم مأذوناً لكم. واختار الزمخشري أن يكون استثناء مفرغاً من أعم الظروف؛ أي: لا تدخلوها في وقت من الأوقات إلا وقت أن يؤذن لكم. ﴿غَيْرَ

﴿نَٰظِرِينَ﴾: حال من فاعل ﴿لَا تَدۡخُلُوا۟﴾، وقع الاستثناء على الظرف والحال معاً، كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين اهـ «سمين». ﴿إِنَىٰهُ﴾: مفعول ﴿نَٰظِرِينَ﴾ منصوب بفتحة مقدرة للتعذر؛ لأنه اسم مقصور. ﴿وَلَٰكِنۡ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان في محل النصب على الظرفية. ﴿دُعِيتُمۡ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿فَٱدۡخُلُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ وجوباً. ﴿ادخلوا﴾: فعل أمر وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جملة استدراكية معطوفة على جملة ﴿لَا تَدۡخُلُوا۟﴾.

﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾.

﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿طَعِمۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَٱنتَشِرُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾. ﴿انتشروا﴾: فعل أمر وفاعل جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ المذكورة قبلها. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ﴾: معطوف على ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾، وقيل: هو معطوف على حال مقدرة؛ أي: لا تدخلوها هاجمين، ولا مستأنسين، واختار الزمخشري وغيره أنه مجرور عطفاً على ﴿نَٰظِرِينَ﴾. ﴿لِحَدِيثٍۚ﴾: متعلق بـ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ﴾. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على اسم الاشارة. ﴿يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل النهي المذكور قبله. ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على النبي، معطوف على ﴿يُؤۡذِي﴾. ﴿مِنكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿يستحيي﴾، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: من إخراجكم. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَسۡتَحۡيِۦ﴾ خبر المبتدأ. ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾: متعلق بـ﴿لَا يَسۡتَحۡيِۦ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل

من الزمان. ﴿سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ وجوباً. ﴿اسألوهن﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: إياه. ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾: حال من ضمير الإناث، أو من واو الفاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ. ﴿أَطْهَرُ﴾: خبر. ﴿لِقُلُوبِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَطْهَرُ﴾. ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾: معطوف على ﴿قلوبكم﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَكُمْ﴾: خبرها مقدم. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً، والتقدير: وما كان إذاية رسول الله كائناً لكم، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: حال من ﴿أَزْوَٰجَهُۥ﴾، أو متعلق بـ﴿تَنكِحُوٓا۟﴾. ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿تَنكِحُوٓا۟﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من جملة ﴿أَن تُؤْذُوا۟﴾ تقديره: وما كان لكم إذاية رسول الله، ولا نكاح أزواجه من بعده أبداً. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على اسم الإشارة. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿عَظِيمًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿عَظِيمًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿تُبْدُوا شَيْئًا﴾: فعل مضارع وفاعل ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿تُخْفُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿تُبْدُوا﴾. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمًا﴾. و﴿عَلِيمًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ المكسورة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن المكسورة. ﴿جُنَاحَ﴾ في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: خبرها ﴿فِي آبَائِهِنَّ﴾: جار ومجرور، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿لَا﴾، أو حال من الضمير المستكن في خبر ﴿لَا﴾، وجملة ﴿لَا﴾ مستأنفة. ﴿وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ﴾: معطوفان على ﴿آبَائِهِنَّ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا﴾: معطوفات على ﴿آبَائِهِنَّ﴾. ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ولا ما ملكته أيمانهن.

﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، معطوف على محذوف تقديره: امتثلن ما أمرتن به، واتقين الله. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الله. ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿شَهِيدًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿وَمَلَائِكَتَهُ﴾: معطوف على لفظ الجلالة، وجملة ﴿يُصَلُّونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿عَلَى النَّبِيِّ﴾: متعلق بـ﴿يُصَلُّونَ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿يَا أَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء مستأنفة. ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿صَلُّوا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَسَلِّمُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿صَلُّوا﴾. ﴿تَسْلِيمًا﴾: مصدر مؤكد لعامله منصوب على المفعولية المطلقة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ الشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة. ﴿سِرَاجًا﴾ والسراج في الأصل: الشيء الزاهر بفتيلة. ﴿وَكِيلًا﴾: فعيل بمعنى المفعول؛ أي: موكولاً إليه الأمور في كل الأحوال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ قال في «بحر العلوم»: أصل النكاح: الوطء، ثم قيل للعقد: نكاح مجازاً تسمية للسبب باسم المسبب، فإن العقد سبب الوطء المباح، وعليه قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾؛ أي: لا يتزوج، كما سبق في مبحث التفسير. وفي «القاموس»: النكاح: الوطء والعقد. انتهى.

﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أصل الطلاق: التخلية من وثاق، يقال: أطلقت الناقة من عقالها وطلقها، وهي طالق وطلق بلا قيد. ومنه استعير طلقت، نحو: خليتها فهي طالق؛ أي: مخلاة عن حبالة النكاح.

﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾ العدة لغة: اسم مصدر من اعتد، وشرعاً: اسم لمدة تتربص فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها بطلاق أو وفاة. ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ بوزن تفتعلونها؛ إما من العدد، فالتاء عوض من الدال الأولى، وإما من الإعتداد، فالتاء حينئذ تاء الافتعال.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾؛ أي: أعطوهن المتعة، وهي قميص وخمار [ما تغطي به المرأة رأسها]، وملحفة [ما تلتحف به من قرنها إلى قدمها: ملاية].

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾؛ أي: أخرجوهن من منازلكم. ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾؛ أي: إخراجاً مشتملاً على لين الكلام خالياً من الأذى.

﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ وأصل الحل: حل العقدة، ومنه استعير قولهم: حل الشيء حلالاً، كما في «المفردات». والحلال: ضد الحرام. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ جمع: أجر، والأجر يقال فيما كان عن عقد وما يجري مجرى العقد، وهو ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً، وهو ههنا كناية عن المهر؛ أي: مهورهن؛ لأن المهر أجر على البضع؛ أي: على المباشرة.

﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ والفيء: مال راجع من الكفار إلى المسلمين بلا كلفة ولا مشقة ولا مقاتلة، كالجزية والخراج ومال المصالحة، سمي فيئاً تشبيهاً له

بالفيء، الذي هو الظل تنبيهاً على أن أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظل زائل، والغنيمة: ما نيل من أهل الحرب والشرك عنوة.

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ...﴾ إلخ. البنت والابنة: مؤنث الابن، والعم: أخ الأب، والعمة: أخته.

﴿الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ والمهاجرة في الأصل: مفارقة الغير، ومتاركته، استعملت في الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام.

﴿أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؛ أي: ينكحها، يقال: نكح واستنكح مثل: عجل واستعجل، وعجب واستعجب. قال النابغة:

وَهُمْ قَتَلُواْ ٱلطَّائِيَّ بِٱلْحِجْرِ عَنْوَةً أَبَا جَابِرٍ وَٱسْتَنْكَحُوْا أُمَّ جَابِرِ

وهو في اللغة بمعنى: الضم والجمع، ومنه: تناكحت الأشجار: إذا تمايلت وانضم بعضها إلى بعض. قال عمر بن ربيعة:

وٱسْتَنْكَحَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِيْنَ نَخَافُهُمْ وَرَمَىٰ ٱلْكَرَىٰ بَوَّابَهُمْ فَتَجَدَّلاَ

ويجوز أن يراد بالاستنكاح معنى طلب النكاح والرغبة فيه، والمعنى: أراد النبي أن يتملك بضعها بلا مهر.

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ﴾ قرىء: ﴿ترجيء﴾ مهموزاً وغير مهموز، كما سبق في مبحث القراءة، وهما لغتان بمعنى واحد؛ لأن الياء مبدل من الهمزة، والإرجاء التأخير، يقال: أرأجت الأمر، وأرجيته: إذا أخرته. وذكر في «القاموس»: في الهمزة: أرجأ الأمر: أخره، وترك الهمزة لغة، وفي الناقص: الإرجاء: التأخير.

﴿وَتُئْوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾؛ أي: تضم إليك، يقال: آواه إليه بالمد: ضمه إليه، وأوى مقصوراً؛ أي: ضمَّ إليه.

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾؛ أي: طلبت ردَّها إلى فراشك بعد أن عزلتها، وأسقطتها من القسمة. اهـ «خازن». وفي «القرطبي»: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ ابتغيت: طلبت، والابتغاء: الطلب، وعزلت: أزلت، والعزلة: الإزالة، والعزل: الترك والتبعيد.

﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ﴾ أصله من: القر بالضم، وهو: البرد، وللسرور دمعة قارة؛ أي: باردة، وللحزن دمعة حارة، أو من القرار؛ أي: تسكن أعينهن، ولا تطمح إلى

ما عاملتهن به. قال في «القاموس»: قرت عينه تقر بالكسر والفتح قرة ـ وتضم ـ وقروراً: بردت وانقطع بكاؤها، أو رأت ما كانت متشوقة إليه، وقر بالمكان يقر ـ بالكسر والفتح ـ قراراً: ثبت واستكن كاستقر.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ بالياء؛ لأن تأنيث الجمع غير حقيقي، ولوجود الفصل، وإذا جاز التذكير بغيره في قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾.. كان معه أجوز، والنساء والنسوان والنسوة ـ بالكسر ـ: جموع المرأة من غير لفظها؛ أي: لا تحل لك واحدة من النساء، مسلمة كانت أو كتابية لما تقرر أن حرف التعريف إذا دخل على الجمع يبطل الجمعية، ويراد الجنس، وهو كالنكرة يخص في الإثبات، ويعم في النفي، كما مر.

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ بحذف إحدى التاءين، والأصل: تتبدل من باب تفعل الخماسي، وبدل الشيء: الخلف عنه، وتبدَّله به وأبدله منه وبدَّله: اتخذه بدلاً، كما في «القاموس». قال الراغب: التبدل والإبدال والتبديل والاستبدال: جعل الشيء مكان آخر، وهو أعم من العوض، فإن العوض هو أن يصير لك الثاني بإعطاء الأول، والتبديل يقال للتغيير، وإن لم تأت ببدله. انتهى.

وقوله: ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ مفعول ﴿تَبَدَّلَ﴾، و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد النفي تفيد استغراق جنس الأزواج بالتحريم، والمعنى: ولا يحل لك أن تتبدل بهؤلاء التسع أزواجاً أخر بكلهن أو بعضهن، بأن تطلق واحدة، وتنكح مكانها أخرى.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾؛ أي: أوقعك في العجب. قال الراغب: العجب والتعجب: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، وقد يستعار للروق، فيقال: أعجبني كذا؛ أي: راقني، والحسن كون الشيء ملائماً للطبع، وأكثر ما يقال: الحسن بفتحتين في تعارف العامة في المستحسن بالبصر.

﴿رَّقِيبًا﴾ يقال: رقبته حفظته، والرقيب: الحافظ، وذلك إما لمراعاة رقبة المحفوظ، وإما لرفعه رقبته.

﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾؛ أي: نضجه وإدراكه، وهو بكسر الهمزة وبالقصر مصدر سماعي، لأنى الطعام يأني من باب رمى يرمي إنىً: إذا أدرك، وقياس مصدره: أني، كرمي، ولكنه لم يسمع، ولكن المسموع إناً بالكسر والقصر بوزن رضا. قال

في «المفردات: الإنا إذا كسر أوله قصر، وإذا فتح مد، وأنى الشيء يأني: قرب إناه، ومثله: آن يئين؛ أي: حان يحين. اهـ.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾؛ أي: تناولتم الطعام، فإن الطعم تناول الغذاء. ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ﴾ من الاستئناس، وهو ضد الوحشة والنفور، كما مر. والاستئناس: طلب الأنس بالحديث، تقول: استؤنست بحديثه؛ أي: طلبت الأنس والسرور به، وما بالدار من أنيس؛ أي: ليس بها أحد يؤانسك أو يسليك.

﴿الحديث﴾ الحديث: يستعمل في قليل الكلام وكثيره؛ لأنه يحدث شيئاً فشيئاً ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ والأذى: ما يصل إلى الإنسان من ضرر؛ إما في نفسه، أو في جسمه، أو فتياته دنيوياً كان أو أخروياً.

﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ من الحياء، والحياء: رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهته، أو ما يكون تركه خيراً من فعله. قال الراغب: الحياء: انقباض النفس عن القبائح، وتركه لذلك.

﴿مَتَٰعًا﴾ المتاع: الغرض والحاجة، كالماعون وغيره من أثاث البيت. ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾؛ أي: ستر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: توافق الفواصل في قوله: ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ ﴿عَلِيمًا حَلِيمًا﴾، ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ لأنه من المحسنات البديعية تزيد الكلام رونقاً وحسناً، وهو من خصائص القرآن الكريم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: بتيسيره وتسهيله، فأطلق الإذن، وأريد به التيسير مجازاً مرسلاً بعلاقة السببية؛ فإن التصرف في ملك الغير متعسر، فإذا أذن تسهل وتيسير، وإنما لم يحمل على حقيقته، وهو الإعلام بإجازة الشيء، والرخصة فيه لانفهامه من قوله: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، كما سبق.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾؛ أي: كالسراج في الاستضاءة

به؛ لأنه يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية، كما أن السراج الحسي، هو المصباح يستضاء به في ظلمات الليل، فحذف الأداة ووجه الشبه، وأصل هذا التشبيه: أنت يا محمد، كالسراج الوضاء في الهداية والإرشاد، حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه، فأصبح بليغاً على حد قولهم: عليٌّ أسد، ومحمد قمر.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿مبشرا﴾ و﴿نذيرا﴾.

ومنها: أنه وصف النبي ﷺ في هذه الآيات بنعوت خمسة، وقوبل كل منها بخطاب يناسبه خلا أنه لم يذكر مقابل الشاهد صريحاً، وهو الأمر بالمراقبة؛ ثقةً بظهور دلالة مقابلة المبشّر عليه، وهو الأمر بالتبشير حسبما ذكر فيما سبق، وقوبل النذير بالنهي عن مداراة الكفار والمنافقين، والمسامحة في إنذارهم، وقوبل الداعي إليه تعالى بإذنه بالأمر بالتوكل عليه من حيث إنه عبارة عن الاستعداد منه تعالى، والاستعانة به، وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى، فإن من أيده الله تعالى بالقوة القدسية، ورشحه بالنبوة، وجعله برهاناً نيراً يهدي الخلق من ظلمات الغي إلى نور الرشاد، حقيقٌ بأن يكتفى به عن كل ما سواه. اهـ «أبو السعود».

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ كنى بالنهي عن طاعتهم عن النهي عن مداراتهم في أمر الدعوة، وعن استعمال لين الجانب في التبليغ مبالغةً في الزجر والتنفير عن المنهي عنه. اهـ «أبو السعود».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لأن أصل النكاح الوطء، فأطلقه على عقد النكاح مجازاً مرسلاً تسميةً للسبب باسم المسبب، فإن العقد سبب الوطء المباح.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾؛ لأن الطلاق أصل في إطلاق الناقة من عقالها، ثم استعير لتخلية المرأة من حبالة النكاح.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ كنى عن الجماع بالمس، وهي من الكنايات المشهورة، ومن الآداب القرآنية؛ لأن القرآن يتحاشى الألفاظ البذيئة.

ومنها: إسناد العدة إلى الرجال في قوله: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ دلالةً على أن العدة حقهم، كما أشعر به قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾؛ لأن السراح

حقيقة في تسريح الماشية، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ﴾؛ لأن الحل أصل في حل العقدة في نحو الحبال، ثم استعير لجعل الشيء حلالاً مأذوناً فيه.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿أَزۡوَٰجَكَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾؛ لأنه كناية عن المهور.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: إن وهبت نفسها لك، والالتفات فيه للإيذان بأن هذا الحكم مخصوص به لشرف نبوته.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ فإنه اعتراض بين قوله: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞ﴾، وبين متعلقه وهو قوله: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾، أو قوله: ﴿أَحۡلَلۡنَا لَكَ﴾ لتقرير ما قبله وتأكيده.

ومنها: الطباق بين ﴿تُرۡجِي﴾، ﴿وَتُـٔۡوِيٓ﴾، وبين: ﴿ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ و﴿عَزَلۡتَ﴾، وبين ﴿ادخلو﴾ و﴿انتشروا﴾، وبين: ﴿تُبۡدُواْ﴾، و﴿تخفوا﴾.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾ لغرض الاعتناء بشأن التقوى.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾؛ لأنها لما أضيفت إليه تشرفت.

ومنها: الإتيان بالمصدر مع الفعل للتأكيد في قوله: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، وفيه أيضاً: جناس الاشتقاق.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، وهو أن يحذف من كل من المتقابلين نظير ما أثبته في الآخر؛ لأنه حذف من صلوا المصدر، ومن ﴿سلموا﴾ المتعلق؛ لأن أصل الكلام: صلوا عليه صلاةً، وسلموا عليه تسليماً، وهو من المحسنات البديعية.

وفي هذه الجملة تأكيدات اهتماماً بشأن الرسول ﷺ، أكد بـ﴿إِنَّ﴾ في قوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ اهتماماً بشأنه، وجاء بالجملة الاسمية إفادة للدوام، وكانت الجملة اسمية في صدرها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ فعلية في عجزها ﴿يُصَلُّونَ﴾ للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى على رسوله يتجدد وقتاً فوقتاً على الدوام، فتأمل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا
يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا
ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ
تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا
﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾
يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا
سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن
يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ
فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا
﴿٧٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما(١) أمر باحترام نبيه في بيته وفي الملأ.. نهى عن إيذاء الله بمخالفة أوامره، وارتكاب زواجره، وإيذاء رسوله بإلصاق عيب أو نقص به، ولما كان من أعظم أذى رسوله أذى من تابعه.. بين ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . . .﴾ الآية.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنَّ من يؤذي مؤمناً، فقد احتمل بهتاناً، وإثماً مبيناً زجراً لهم عن الإيذاء.. أمر النبي ﷺ بأن يأمر بعض المتأذِّين بفعل ما يدفع الإيذاء عنهم في الجملة، من التستر، والتميز بالزي، واللباس، حتى يبتعدوا عن الأذى بقدر المستطاع.

روي: أنه لما كانت الحرائر والإماء في المدينة يخرجن ليلاً لقضاء الحاجة في الغيطان، وبين النخيل بلا فارق بين الحرائر والإماء، وكان في المدينة فساق يتعرضون للإماء، وربما تعرضوا للحرائر، فإذا كلموا في ذلك.. قالوا: حسبناهن إماءً.. طلب من رسوله أن يأمر الحرائر أن يخالفن الإماء في الزي والتستر؛ ليتمايزن ويهبن، فلا يطمع فيهن طامع.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر حال هذه الفئات الثلاثة ـ أعني: المنافقين ومرضى القلوب، والمرجفين في الدنيا ـ وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون.. عطف على ذلك ذكر حالهم في الآخرة، فذكرهم بيوم القيامة، وبين ما يكون لهم في هذا اليوم العظيم.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] فيما سلف أن من يؤذي الله ورسوله يلعنه الله في الدنيا والآخرة، ولا شك أن هذا في الإيذاء الذي يؤدي إلى الكفر، وقد حصره الله في النفاق، ومرض القلب، والإرجاف على المسلمين.. أعقب ذلك بإيذاء دون ذلك لا يورث الكفر، كعدم الرضا بقسمة النبي ﷺ للفيء، ونهى الناس عنه أيضاً، وذكر أن بني إسرائيل قد آذوا موسى، ونسبوا إليه ما ليس فيه، فبرأه الله منه؛ لأنه ذو كرامة ومنزلة لديه، فلا يلحق به ما هو نقص فيه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما نهى عن إيذاء رسول الله ﷺ بقول أو

---

(١) المراغي.

فعل.. أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأقوال والأفعال التي تكون سبباً في الفوز والنجاة في الدار الآخرة، والقرب من الله سبحانه، والحظوة إليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين عظم شأن طاعة الله تعالى ورسوله، وأن من يراعيها.. فله الفوز العظيم، وأن من يتركها يستحق العذاب.. أردف عظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية، وأن حصولها عزيز شاق على النفوس، ثم بيان أن ما يصدر منهم من الطاعة، أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام إنما يكون بلا جبر ولا إلزام.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية. قال نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: نزل في عبد الله بن أبي وناسٍ معه حين قذفوا عائشة، فخطب النبي ﷺ، وقال: «من يعذرني من رجل يؤذيني، ويجمع في بيته من يؤذيني»، فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه البخاري عن عائشة قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب؛ لحاجتها، وكانت امرأةً جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفأت راجعة، ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عرق، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر: كذا وكذا. قالت: فأوحى الله إليه، ثم رفع عنه، وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أذن لكنَّ أن تخرجن لحاجتكن.

وأخرج ابن سعد في «الطبقات» عن أبي مالك قال: كان نساء النبي ﷺ

---

(١) لباب النقول.

يخرجن بالليل لحاجتهن، وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن، فيؤذين، فشكوا ذلك، فقيل ذلك للمنافقين، فقالوا: إنما نفعله بالإماء، فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ...﴾ الآية، ثم أخرج نحوه عن الحسن ومحمد بن كعب القرظي.

التفسير وأوجه القراءة

ولما ذكر الله سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم.. ذكر هنا الوعيد الشديد للذين يؤذونه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى[1] بفعل ما يكرهه، وارتكاب ما لا يرضاه بترك الإيمان به، ومخالفة أمره، ومتابعة هواهم، ونسبة الولد والشريك إليه تعالى، والإلحاد في أسمائه وصفاته، ونفي قدرته على الإعادة، وسب الدهر، ونحت التصاوير تشبيهاً بخلق الله تعالى. وقال ابن عباس[2] رضي الله عنهما: هم اليهود والنصارى والمشركون، فأما اليهود فقالوا: عزير ابن الله، ويد الله مغلولة، وقالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، وأما النصارى فقالوا: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة، وأما المشركون فقالوا: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: «كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي.. فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» أخرجه البخاري.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي أقلب الليل والنهار». متفق عليه.

معنى هذا الحديث: أنه كان من عادة العرب في الجاهلية أن يذموا الدهر، ويسبوه عند النوازل؛ لاعتقادهم أن الذي يصيبهم من أفعال الدهر، فقال الله تعالى: أنا الدهر؛ أي: أنا الذي أحل بهم النوازل، وأنا فاعل لذلك الذي تنسبونه إلى الدهر في زعمكم.

---

(١) روح البيان.	(٢) الخازن.

وقيل: هم أصحاب التصاوير. عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو شعيرة» متفق عليه.

وقيل: الكلام على حذف مضاف، والتقدير: إن الذين يؤذون أولياء الله، كما روي عن النبي ﷺ قال: «قال الله سبحانه وتعالى: من آذى لي ولياً.. فقد آذنته بالحرب»، وقال تعالى: «من أهان لي ولياً.. فقد بارزني بالمحاربة» فمعنى إذاية الله سبحانه: هو مخالفة أمر الله تعالى، وارتكاب معاصيه، ذكر ذلك على ما يتعارفه الناس بينهم؛ لأن الله تعالى منزه عن أن يلحقه أذى من أحد.

﴿و﴾ يؤذون ﴿رسوله﴾ محمداً ﷺ بقولهم: شاعر ساحر كاهن مجنون، وطعنهم في نكاح صفية الهارونية، وهو الأذى القولي، وكسر رباعيته، وشج وجهه الكريم يوم أحد، ورمي التراب عليه، ووضع القاذورات على ظهر النبوة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

ويجوز أن يكون المراد بإيذاء الله ورسوله[1]: إيذاء رسول الله خاصة بطريق الحقيقة، وذكر الله لتعظيمه، والإيذان بجلالة مقداره عنده تعالى. وأن إيذاءه ﷺ إيذاء له تعالى لما قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾؛ أي: فمن آذى رسوله.. فقد آذى الله.

﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: طردهم الله سبحانه وتعالى، وأبعدهم من رحمته ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئاً من رحمة الله، جعل ذلك اللعن في الدنيا والآخرة، لتشملهم اللعنة فيهما، بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم إلا واللعنة واقعة عليهم، ومصاحبة لهم.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ﴾؛ أي: هيأ لهم من ذلك ﴿عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ يصيبهم في الآخرة خاصةً؛ أي: نوعاً من العذاب يهانون فيه، فيذهب بعزهم وكبرهم.

قال في «التأويلات»: لما استحق المؤمنون بطاعة الرسول ﷺ، والصلاة عليه صلاة الله.. فكذلك الكافرون استحقوا بمخالفة الرسول وإيذائه لعنة الله، فلعنة

---

(١) روح البيان.

الدنيا هي الطرد عن جناب الله، والحرمان من الإيمان، ولعنة الآخرة: الخلود في النيران، والحرمان من الجنان، وهذا حقيقة قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

قال في «فتح الرحمن»: يحرم أذى النبي ﷺ بالقول والفعل بالاتفاق، واختلفوا في حكم من سبَّه ـ والعياذ بالله ـ من المسلمين، فقال أبو حنيفة والشافعي: هو كفر كالردة، يقتل ما لم يتب. وقال مالك وأحمد: ويقتل ولا تقبل توبته؛ لأن قتله من جهة الحد لا من جهة الكفر. وأما الكافر إذا سبه صريحاً بغير ما كفر به، من تكذيبه ونحوه، فقال أبو حنيفة: لا يقتل؛ لأن ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يؤدب ويعزر. وقال الشافعي: ينتقض عهده، فيخير الإمام فيه بين القتل والاسترقاق والمن والفداء، ولا يرد مأمنه؛ لأنه كافر لا أمان له، ولو لم يشترط عليه الكف عن ذلك، بخلاف ما إذا ذكره بسوء يعتقده ويتدين به، كتكذيب ونحوه، فإنه لا ينتقض عهده بذلك إلا باشتراط. وقال مالك وأحمد: يقتل ما لم يسلم. واختار جماعة من أئمة مذهب أحمد: أن سابَّه ﷺ يقتل بكل حال، منهم: الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وقال: هو الصحيح من المذهب. وحكم من سب سائر أنبياء الله وملائكته حكمُ من سب نبينا ﷺ، وأما من سب الله سبحانه وتعالى ـ والعياذ بالله ـ من المسلمين بغير الارتداد عن الإسلام، ومن الكفار بغير ما كفروا به من معتقدهم في عزير والمسيح ونحو ذلك، فحكمه حكم من سبَّ النبي ﷺ. نسأل الله العصمة والهداية، ونعوذ به من السهو والزلل والغواية، إنه الحافظ الرقيب.

ومعنى الآية(١): أن الذين يؤذون الله سبحانه، فيرتكبون ما حرمه من الكفر وسائر المعاصي، ومنهم اليهود الذين قالوا: يد الله مغلولة، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ويؤذون رسوله كالذين قالوا: هو شاعر، هو كاهن، هو مجنون، إلى نحو ذلك من مقالاتهم الشنيعة.. طردهم الله سبحانه في الدنيا والأخرة من رحمته، وأبعدهم من فضله في الدنيا، فجعلهم يتمادون في غيهم، ويدسون أنفسهم، ويستمرئون سبل الغواية والضلالة التي ترديهم في النار، وبئس

---

(١) المراغي.

القرار، وفي الآخرة، حيث يصلون ناراً تشوي الوجوه، وهيأ لهم في الآخرة عذاباً يؤلمهم، ويجعلهم في مقام الزراية والاحتقار والخزي والهوان.

ولما كان من أعظم أذى رسوله أذى من تابعه.. بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بوجه من وجوه الأذى؛ أي: يفعلون بهم ما يتأذون به من قول أو فعل ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾؛ أي: بغير جناية يستحقون بها الأذية، وتقييد أذاهم به بعد إطلاقه في الآية السابقة للإيذان بأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق، وأما أذى هؤلاء.. فقد يكون حقاً، وقد يكون غير حق، أما إذا كان بحق، كما إذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة، أو ضرب، فإن القصاص من الفاعل ليس من الأذية المحرمة على أيّ وجه كان، ما لم يجاوز ما شرعه الله، والآية عامة لكل أذى بغير حق في كل مؤمن ومؤمنة، فتشمل ما روي أن عمر رضي الله عنه خرج يوماً فرأى جارية مزينةً مائلة إلى الفجور، فضربها، فخرج أهلها، فآذوا عمر باللسان.

وما روي أن المنافقين كانوا يؤذون علياً رضي الله عنه، ويسمعونه ما لا خير فيه، وما سبق من قصة الإفك حيث اتهموا عائشة بصفوان السهمي رضي الله عنهما، وما روي أنَّ الزناة كانوا يتبعون النساء إذا برزن بالليل لطلب الماء، أو لقضاء حوائجهن، وكانوا لا يتعرضون إلا للإماء، ولكن ربما كان يقع منهم التعرض للحرائر أيضاً جهلاً، أو تجاهلاً لاتحاد الكل في الزي واللباس، حيث كانت تخرج الحرة والأمة في درع وخمار، وما سيأتي من أراجيف المرجفين، وغير ذلك مما يثقل على المؤمن.

ثم أخبر عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فقال: ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا﴾ واقترفوا، والاحتمال: مثل الاكتساب وزناً ومعنى، كما في «بحر العلوم». وقال بعضهم: تحملوا. ﴿بُهْتَانًا﴾؛ أي: افتراء وكذباً عليهم. ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾؛ أي: ذنباً ظاهراً واضحاً لا شك في كونه من البهتان والإثم.

واعلم: أن أذى المؤمنين قرن بأذى الرسول ﷺ، كما أن أذى الرسول قرن بأذى الله، ففيه إشارة إلى أن من آذى المؤمنين.. كان كمن آذى الرسول، ومن آذى الرسول.. كان كمن آذى الله تعالى، فكما أنَّ المؤذي لله وللرسول مستحق الطرد

واللعن في الدنيا والآخرة، فكذا المؤذي للمؤمن.

روي: أن رجلاً شتم علقمة رضي الله عنه، فقرأ هذه الآية. وعن عبد الرحمن بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج النبي ﷺ على أصحابه فقال: «رأيت الليلة عجباً، رأيتُ رجالاً يعلقون بألسنتهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا».

وفي الحديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» بأن لا يتعرض لهم بما حرم من دمائهم وأموالهم وأعراضهم، قدَّم اللسان في الذكر؛ لأن التعرض به أسرع وقوعاً وأكثر، وخص اليد بالذكر؛ لأن معظم الأفعال يكون بها. واعلم أن المؤمن إذا أوذي يلزم عليه أن لا يتأذى، بل يصبر، فإن له فيه الأجر، فالمؤذي لا يسعى في الحقيقة إلا في إيصال الأجر إلى من آذاه، ولذا ورد: «وأحسن إلى من أساء إليك»، وذلك لأن المسيء وإن كان مسيئاً في الشريعة، لكنه محسن في الحقيقة.

وروي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه «أيُّ الربا أربى عند الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىءٍ مسلم، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾».

والمعنى: أي إن الذين ينسبون إلى المؤمنين والمؤمنات ما لم يعملوه، وما هم منه براء قد اجترحوا كذباً فظيعاً، وأتوا أمراً إدًّا، وذنباً ظاهراً، ليس له ما يسوغه أو يقوم مقام العذر له.

ولما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذي رسوله والمؤمنين والمؤمنات من عباده.. أمر رسوله ﷺ بأن يأمر بعض من ناله الأذى ببعض ما يدفع ما يقع عليه منه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الكريم ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾؛ أي: نسائك، وكانت تسعاً حين توفي ﷺ، وهن: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة، وسودة، وزينب، وميمونة، وصفية، وجويرية، وقد سبق تفاصيلهن نسباً وأوصافاً وأحوالاً، وقد نظمها بعضهم بقوله:

تُوُفِّيْ رَسُوْلُ ٱللَّهِ عَنْ تِسْعِ نِسْوَةٍ إِلَيْهِنَّ تُعْزَىٰ ٱلْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ

فَـعَـائِـشَـةٌ مَـيْـمُـونَـةٌ وَصَـفِـيَّـةٌ   وَحَـفْـصَـةُ تَـتْـلُـوهُـنَّ هِـنْـدٌ وَزَيْـنَـبُ
جُـوَيْـرِيَّـةٌ مَـعْ رَمْـلَـةٍ ثُـمَّ سَـوْدَةٌ   ثَـلَاثٌ وَسِـتٌّ ذِكْـرُهُـنَّ لَـيَـعْـذُبُ

﴿وَبَنَاتِكَ﴾ وكانت ثمانياً، أربع صلبيات ولدتها خديجة، وهي: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة رضي الله عنهن، متن في حياته ﷺ إلا فاطمة، فإنها عاشت بعده ستة أشهر؛ وأربع ربائب ولدتها أم سلمة، وهي: برة، وسلمة، وعمرة، ودرة، رضي الله عنهن.

﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في المدينة ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ مقول القول.

والإدناء[1]: الإرخاء، من الدنو، وهو القرب. والجلباب: ثوب أوسع من الخمار دون الرداء تلويه المرأة على رأسها، وتبقي منه ما ترسله إلى صدرها، و﴿مِن﴾ للتبعيض؛ لأن المرأة ترخي بعض جلبابها، وتتلفع ببعض.

والمعنى: يرخين ويغطين بها وجوههن وأبدانهن وقت خروجهن من بيوتهن لحاجة، ولا يخرجن مكشوفات الوجوه والأبدان، كالإماء، حتى لا يتعرض لهن السفهاء ظناً بأنهن إماء. وعن السدي: تغطي إحدى عينيها، وشق وجهها، والشق الآخر إلا العين، وقال الحسن: تغطي نصف وجهها. وقال قتادة: تلويه فوق الجبين وتشده، ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت عيناها، لكنها تستر الصدر ومعظم الوجه.

قال ابن عباس: أمر نساء المؤمنين أن يغطِّين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحدةً ليعلم أنهن حرائر. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإدناء والتغطية والإرخاء ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ وأقرب إلى ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ فيتميزن عن الإماء والقينات اللاتي هن مواقع تعرض الزناة وأذاهم، كما ذكر في الآية السابقة، ويظهر للناس أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ من جهة أهل الفجور بالتعرض لهن، وليس المراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أن تعرف الواحدة منهن من هي، بل المراد أن يعرفن أنهن حرائر لا إماء؛ لأنهن قد لبسن لبسة تختص بالحرائر.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من التقصير في الستر،

---

(١) روح البيان.

وترك إدناء الجلابيب. ﴿رَّحِيمًا﴾ بهن أو بعباده؛ حيث يراعي مصالحهم حتى الجزئيات منها، أو غفوراً للمذنبين، رحيماً بهم بقبول توبتهم، فيدخلن في ذلك دخولاً أولياً.

قال أنس رضي الله عنه: مرت لعمر بن الخطاب جارية متقنعة، فعلاها بالدرة وقال: يا لكاع، تتشبهين بالحرائر، ألقي القناع. وفي الآية تنبيه لهنّ على حفظ أنفسهن، ورعاية حقوقهن بالتصاون والتعفف، وفيها إثبات زينتهن، وعزة قدرهن.

وقيل المعنى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التنبيه ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أن لهن قدراً ومنزلة وعزة في الحضرة ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بالأطماع الفاسدة، والأقوال الكاذبة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لهن بامتثال الأوامر ﴿رَّحِيمًا﴾ بهن بإعلاء درجاتهن، كما في «التأويلات النجمية».

واعلم: أنه فهم من الآية شيئان:

الأول: أن نساء ذلك الزمان كنَّ لا يخرجن لقضاء حوائجهن إلا ليلاً تستراً وتعففاً، وإذا خرجن نهاراً لضرورة.. يبالغن في التغطي، ورعاية الأدب والوقار، وغض البصر عن الرجال الأخيار والأشرار، ولا يخرجن إلا في ثياب دنيئة، فمن خرجت من بيتها متعطِّرة متبرِّجة؛ أي: مظهرة زينتها ومحاسنها للرجال.. فإن عليها ما على الزانية من الوزر، وعلامة المرأة الصالحة عند أهل الحقيقة أن يكون حسنها مخافة الله، وغناها القناعة، وحليها العفة؛ أي: التكفف عن الشرور والمفاسد، والاجتناب عن مواقع التهم.

والثاني: أن الدنيا لم تخل عن الفسق والفجور حتى في الصدر الأول، فرحم الله أمرأً غضَّ بصره عن أجنبية، فإن النظرة تزرع في القلب شهوة، وكفى بها فتنة. قال ابن سيرين رحمه الله: إني لأرى المرأة في منامي، فاعلم أنها لا تحل لي، فأصرف بصري عنها. فيجب على المرء أن لا يقرب امرأةً ذات عطر وطيب، ولا يمس يدها، ولا يكلمها، ولا يمازحها، ولا يلاطفها، ولا يخلو بها، فإن الشيطان يهيّج شهوته، ويوقعه في الفاحشة.

وفي الحديث: «من فاكه امرأةً لم تحل له، ولا يملكها.. حبس بكلِّ كلمةٍ ألف عام في النار، ومن التزم امرأةً حراماً ـ أي: اعتنقها ـ.. قرن مع الشيطان في سلسلة، ثم يؤمر به إلى النار» والعياذ بالله من دار البوار.

وعن رسول الله ﷺ: «لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد، خير له من أن يمس امرأة لا تحل له». رواه الطبراني والبيهقي، وهو حديث حسن.

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: كنَّا نغطي وجوهنا من الرجال. رواه الحاكم، وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

ومن صور الاختلاط المحرم: اختلاط البنات مع ابن العم، وابن العمة.

ومنها: اختلاط البنات مع ابن الخال وابن الخالة.

ومنها: الاختلاط مع أخ الزوج بالنسبة للزوجة.

ومنها: اختلاط أخوات الزوجة مع زوجها.

ومنها: اختلاط أخ المرأة من الرضاع مع أخوات أخته من الرضاع.

ومنها: خلوة خطيب الفتاة بالفتاة، وخروجه معها إلى السوق، وحديثه معها قبل العقد، وإنما جاز له النظر إليها بحضور وليها إذا عزم على الزاوج فقط، إلى غير ذلك من الصور التي تساهل فيها كثير من أهل عصرنا الفاسد.

وحاصل معنى الآية: أن الله سبحانه طلب من نبيه ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات، وبخاصة أزواجه وبناته، بأن يسدلن عليهن الجلابيب إذ خرجن من بيوتهن؛ ليتميزن عن الإماء. وعن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾.. خرج نساء الأنصار كأن رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها.

وإجمال ذلك: أن على المسلمة إذا خرجت من بيتها لحاجة أن تسدل عليها ملابسها، بحيث تغطي الجسم والرأس، ولا تبدي شيئاً من مواضع الفتنة، كالرأس والصدر والذراعين، ونحوها، ثم علل ذلك بقوله: ذلك التستر أقرب إلى معرفتهن بالعفة، فلا يتعرض لهن، ولا يلقين مكروهاً من أهل الريبة احتراماً لهن منهم، فإن المتبرجة مطموع فيها، منظور إليها نظرة سخرية واستهزاء، كما هو مشاهد في كل عصر ومصر، لا سيما في هذا العصر الذي انتشرت فيه الخلاعة، وكثر فيه الفسق والفجور، وكان الله سبحانه غفوراً لما عسى أن يكون قد صدر من الإخلال بالستر، كثير الرحمة لمن امتثل أمره معهن، فيثبه عظيم الثواب، ويجزيه الجزاء الأوفى.

ولما كان الأذى إنما يحصل من أهل النفاق ومن على شاكلتهم.. حذرهم بقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، واللام: موطئة للقسم؛ أي: وعزتي وجلالي لئن لم ينزجر ويمتنع المنافقون عما هم عليه من النفاق، وأحكامه الموجبة للإيذاء ﴿و﴾ لم ينته ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾؛ أي: ضعف إيمان، وقلة ثبات عليه، أو فجور من تزلزلهم في الدين، وما يستتبعه مما لا خير فيه، أو من فجورهم وميلهم إلى الزنا والفواحش ﴿و﴾ لم ينته ﴿المرجفون في المدينة﴾؛ أي: المخبرون في المدينة الأخبار الكاذبة المشوشة المضعفة لعزائم المسلمين في الجهاد، عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين، بأن يقولوا: انهزموا، وقتلوا، وأخذوا، وجرى عليهم كيت وكيت، وأتاكم العدو، وغير ذلك من الأراجيف المؤذية الموقعة لقلوب المسلمين في الاضطراب والإنكار والرعب ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ جواب القسم المحذوف؛ أي: لنحرضنك يا محمد بقتلهم، ولنأمرنك باستئصالهم؛ أي: لنسلطنك يا محمد على هؤلاء المنافقين الذين جمعوا بين النفاق ومرض القلوب وإرجاف المسليمن، فتستأصلهم بالقتل والتشريد والإجلاء بأمرنا لك بذلك.

قال القرطبي: أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد، والمعنى: إن المنافقين قد جمعوا بين النفاق ومرض القلوب والإرجاف على المسلمين، فهو على هذا من باب قوله:

إِلَىٰ ٱلْمَلِكِ ٱلْقَرْمِ وَٱبْنِ ٱلْهُمَامْ وَلَيْثِ ٱلْكَتِيبَةِ فِيْ ٱلْمُزْدَحَمْ

أي: إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة. وقال عكرمة وشهر بن حوشب: الذين في قلوبهم مرض هم الزناة.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾؛ أي: في المدينة، معطوف على جواب القسم، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول أعظم ما يصيبهم. وعبارة «الكشاف» هنا: إنما عطف بـ﴿ثُمَّ﴾؛ لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم من جميع ما أصيبوا به، فتراخت حاله عن الحال المعطوف عليه. اهـ يعني: أنها للتفاوت الرتبي، والدلالة على أن ما بعدها أبعد مما قبلها، وأعظم وأشد عندهن. اهـ «شهاب»؛ أي: لا يساكنونك في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: زماناً أو جواراً قليلاً ريثما - قدر ما - يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه، فيهلكوا إن لم ينتهوا،

وفي «بحر العلوم» ريثما يرتحلون بأنفسهم وعيالهم.

ومعنى الآية: والله لئن لم يكف أهل النفاق الذين يستسرون الكفر، ويظهرون الايمان، وأهل الريب الذين غلبتهم شهواتهم، وركنوا إلى الخلاعة والفجور، وأهل الإرجاف في المدينة الذين ينشرون الأخبار الملفقة الكاذبة التي فيها إظهار عورات المسلمين، وإبراز ما استكن من خفاياهم، كضعف جنودهم، وقلة سلاحهم، وكراعهم، ونحو ذلك مما في إظهاره مصلحة للعدو، وحضد لشوكة المسلمين.. لنسلطنك عليهم، وندعونك إلى قتالهم وإجلائهم عن البلاد، فلا يسكنون معك فيها إلا قليلاً، وتخلو المدينة منهم بالموت أو بالإخراج.

والخلاصة: أن الله سبحانه قد توعد أصنافاً ثلاثة من الناس بالقتال والقتل، أو النفي من البلاد، وهم:

١ - المنافقون الذين يؤذون الله سراً.

٢ - مَنْ في قلوبهم مرض، فيؤذون المؤمنين باتباع نسائهم.

٣ - المرجفون الذين يؤذون النبي ﷺ بنحو قولهم: غلب محمد، وسيخرج محمد من المدينة، وسيؤخذ أسيراً إلى نحو ذلك مما يراد به إظهار ضعف المؤمنين، وسخط الناس منهم.

وعبارة النسفي هنا: والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يؤلِّفون من أخبار السوء.. لنأمرنك بأن تفعل الأفعال التي تسؤهم، ثم بأن نضطرهم إلى طلب الجلاء من المدينة، وإلى أن لا يساكنوك فيها إلا زماناً قليلاً ريثما يرتحلون، فسُمِّي إغراء، وهو التحريش على سبيل المجاز.

ثم بيَّن مآل أمرهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، فقال: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ حال من مقدر حذف هو وعامله، تقديره: يخرجون منها حال كونهم مطرودين عن الرحمة والمدينة، أو حال من فاعل ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ على أن حرف الاستثناء داخل على الظرف والحال معاً؛ أي: لا يجاورنك إلا حال كونهم ملعونين، ولا[1] يجوز أن

(١) البيضاوي.

ينتصب بـ﴿أُخِذُوٓاْ وَقُتِّلُواْ﴾ الآتي؛ لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبلها.

أي: يخرجون منها حال كونهم ملعونين مطرودين ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾؛ أي: في أيِّ مكان وجدوا وأدركوا ﴿أُخِذُوٓاْ﴾؛ أي: مسكوا ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ والتشديد يدل على التكثير، وبه قرأ الجمهور. وقرأت فرقة بالتخفيف، فيكون ﴿تَقْتِيلًا﴾ مصدراً على غير قياس المصدر، يعني: الحكم فيهم: الأخذ والقتل على جهة الأمر، فما انتهوا عن ذلك، كما في تفسير «أبي الليث».

وقال محمد بن سيرين: فلم ينتهوا، ولم يغر الله بهم، والعفو عن الوعيد جائز لا يدخل في الخلف، كما في «كشف الأسرار» وقيل[1]: هذا دعاء عليهم بأن يأخذوا ويقتلوا تقتيلاً، وهو أولى. وقيل: معنى الآية: إنهم إن أصروا على النفاق.. لم يكن لهم مقامٌ بالمدينة إلا وهم مطردون.

والمعنى[2]: أي في ذلك الوقت القليل الذي يجاورونك فيه يكونون مطرودين من باب الله تعالى وبابك، وإذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة، ولا يجدون ملجأً، بل أينما يكونوا يطلبوا ويؤخذوا ويقتلوا تقتيلاً.

ثم بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا هو شرعة الله تعالى في أشباههم من قبل، فهو ليس ببدع فيهم، كما قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد حذف عامله وجوباً تقديره: سن الله سبحانه ذلك الحكم من لعن المنافقين، وأخْذِهم، وقتلهم أينما ثقفوا ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلكم أيها الأمة المحمدية؛ أي: سن الله ذلك في الأمم الماضية سنة، وجعله طريقة مسلوكةً من جهة الحكمة، وهي أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء وسَعَوا في توهين أمرهم بالإرجاف ونحوه أينما ثقفوا.

﴿وَلَن تَجِدَ﴾ يا محمد ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وعادته في خلقه ﴿تَبْدِيلًا﴾؛ أي: تغييراً أصلاً؛ أي: لا يبدِّلها لابتنائها على أساس الحكمة التي عليها يدور فلك التشريع، أو لا يقدر أحد على أن يبدلها؛ لأن ذلك مفعول له لا محالة، بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء في الخلف والسلف.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

والمعنى: أي إن سنته تعالى في المنافقين في كل زمان إذا استمروا في كفرهم وعنادهم، ولم يرجعوا عما هم عليه أن يسلط عليهم أهل الإيمان، فيذلوهم ويقهروهم، وهذه السنة لا تغير ولا تبدل؛ لابتنائها على الحكمة والمصلحة، ولا يقدر غيره على تغييرها. ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾؛ أي: عن وقت قيامها وحصولها، والساعة[1]: جزء من أجزاء الزمان، ويعبَّر بها عن القيامة تشبيهاً بذلك لسرعة حسابها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

كان المشركون يسألونه ﷺ عن ذلك استعجالاً بطريق الاستهزاء والتعنت والإنكار، واليهود امتحاناً لما أن الله تعالى عمّى وقتها؛ أي: أخفاه في التوراة وسائر الكتب، وقيل: السائلون عن الساعة هنا هم أولئك المنافقون والمرجفون لَمَّا توعدوا بالعذاب.. سألوا عن الساعة استبعاداً وتكذيباً.

﴿قُلْ﴾ يا محمد جواباً لهم ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾؛ أي: علم وقت مجيئها ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ سبحانه وتعالى، لا يطلع عليه ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، كما قال في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؛ أي: وأيُّ شيء يجعلك دارياً وعالماً بوقت قيامها، والاستفهام للإنكار المضمن معنى التعجب والنفي؛ أي: لا يعلمك بوقت مجيئها شيء أصلاً، فأنت لا تعرفه، وليس من شرط النبي أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله تعالى.

﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾؛ أي: قيامها ﴿تَكُونُ﴾ شيئاً ﴿قَرِيبًا﴾، وهو[2] خبر ﴿تَكُونُ﴾ على حذف موصوف؛ أي: شيئاً قريباً. وقيل: التقدير: قيام الساعة، فروعيت الساعة في تأنيث ﴿تَكُونُ﴾، وروعي المضاف المحذوف في تذكير ﴿قَرِيبًا﴾. وقيل: كثر استعمال قريباً استعمال الظروف، فهو ظرف في موضع الخبر. اهـ.

أو ﴿تَكُونَ﴾ تامة، والظاهر كما عليه الجماهير أن قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ جملة مستقلة، وقوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ جملة مستقلة أيضاً، فتأمل.

وفيه تهديد للمستعجلين، وإسكات للمتعنتين، والخطاب لرسول الله ﷺ لبيان أنها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها، وهو رسول الله.. فكيف بغيره من

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات.

الناس؟!

قالوا: مِنْ أشراط الساعة أن يقول الرجل: أفعل غداً، فإذا جاء غد.. خالف قولُه فعلَه، وأن ترفع الأسرار، وتوضع الأخيار، ويرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزنا والفجور، ورقص القينات، وشرب الخمور، ونحو ذلك من موت الفجأة، وعلو أصوات الفساق في المساجد.

والمعنى[1]: أي يكثر الناس هذا السؤال متى تقوم الساعة، فالمشركون يسألون عن ذلك استعجالاً لها على طريق التهكم والاستهزاء، والمنافقون يسألون سؤال المتعنت العالم بما يجيب به الرسول، واليهود يسألون سؤال امتحانٍ، واختبار ليعلموا أيجيب بمثل ما في التوراة من ردِّ أمرها إلى الله، أم يجيب بشيء آخر؟ فلقنه الله الجواب عن هذا بجعل ردِّ ذلك إليه، فقال: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ الذي أحاط علمه بكل شيء، ولم يطلع عليها ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً.

ثم أكد نفي علمها عن أحد غيره بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، وأيُّ شيءٍ يعلمك وقت مجيئها وقيامها؛ أي: لا يعلمك به أحد أبداً. ثم أخبر عن قرب وقوعها بقوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾؛ أي: لعلها توجد وتحقق بعد وقت قريب، ونحو الآية قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾، وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ﴾.

ثم بين حال السائلين عنها المنكرين لها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ به على الإطلاق، لا منكري الحشر، ولا معاندي الرسول فقط؛ أي: طردهم وأبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة، ولذلك يستهزئون بالحق الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه، والاهتمام بالاستعداد له. ﴿وَأَعَدَّ﴾؛ أي: هيأ ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للكافرين مع ذلك ﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً مسعورةً موقودةً شديدة الاتقاد، يقاسونها في الآخرة حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: مقدراً خلودهم ومكثهم في السعير ﴿أَبَدًاۖ﴾؛ أي: دائماً؛ أي: زمناً لا انقضاء، ولا نهاية، ولا آخر له. وأكَّد الخلود بالتأبيد والدوام مبالغةً في ذلك، وحالة كونهم ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يلي أمرهم،

---

(١) المراغي.

ويحفظهم من دخول العذاب من أول الأمر ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويخلصهم وينقذهم من العذاب بعد دخولها.

والمعنى[1]: أي إن الله أبعد الكافرين به من كل خير، وأقصاهم من كل رحمة، وأعد لهم في الآخرة ناراً تتقد وتتسعر ليصليهموها ماكثين فيها أبداً إلى غير نهاية.

ثم أيأسهم من وجود ما يدفع عنهم العذاب من الولي والنصير بقوله: ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ أي: لا يجدون حينئذ من يستنقذهم من السعير، وينجيهم من عذاب الله تعالى بشفاعة أو نصرة، كما هي الحال في الدنيا لدى الظلمة؛ إذ ربما وجد النصير والشفيع الذي يخلّص فيها من الورطات، ويدفع المصائب والنكبات.

وقوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ ظرف لقوله: ﴿لَا يَجِدُونَ﴾، وقيل: لـ﴿خَالِدِينَ﴾، وقيل: لـ﴿نَصِيرًا﴾، وقيل: لفعل مقدر، وهو: اذكر؛ أي: لا يجدون ولياً ولا نصيراً حين تصرف وتحول وجوههم في النار من جهة إلى جهة أخرى، كاللحم يشوى في النار، أو يطبخ في القدر، فيدور به الغليان من جهة إلى جهة، ومن حال إلى حال، أو يطرحون فيها منكوسين مقلوبين، وتخصيص الوجوه بالذكر للتعبير عن الكل، وهي الجملة بأشرف الأجزاء وأكرمها، ويقال: تحول وجوههم من الحسن إلى القبح، ومن حال البياض إلى حال السواد.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تُقَلَّبُ﴾ مبنياً للمفعول. وقرأ الحسن وعيسى وأبو جعفر الرؤاسي بفتح التاء؛ أي: ﴿تتقلب﴾، وحكاها ابن عطية عن أبي حيوة، وقال ابن خالويه عن أبي حيوة: ﴿نُقلِّب﴾ بالنون ﴿وجوههم﴾ بالنصب، وحكاها ابن عطية أيضاً عن أبي حيوة، وخارجة. زاد صاحب «اللوامح» أنها قراءة عيسى البصري. وقرأ عيسى الكوفي كذلك، إلا أن بدل النون تاء، وفاعل ﴿تقلب﴾ ضمير يعود على ﴿سعير﴾، أو على جهنم، أسند إليهما اتساعاً، وقراءة ابن أبي عبلة ﴿تتقلب﴾ بتائين.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ استئناف[1] بياني واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا يصنعون عند ذلك؟ فقيل: يقولون متحسرين على ما فاتهم: ﴿يَٰلَيْتَنَآ﴾؛ أي: يا هؤلاء ليتنا ﴿أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾؛ أي: نتمنى أن نطيع الله في دار الدنيا فيما أمرنا به، ونهانا عنه، فالمنادى محذوف كما قدرنا، ويجوز أن تكون ﴿يا﴾ لمجرد التنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبه ﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فيما دعانا إليه من الحق، فلن نبتلى بهذا العذاب، فتمنوا حين لا ينفعهم التمني؛ أي: ويقولون إذ ذاك على طريق التمني: ليتنا أطعنا الله في الدنيا، وأطعنا رسوله فيما جاءنا به من أمر ونهي، فما كنا نبتلى بهذا العذاب، بل كنا مع أهل الجنة في الجنة، فيا لها من حسرة وندامة ما أعظمها وأجلها:

نَـدِمَ ٱلْـبُـغَـاةُ وَلاَتَ سَـاعَـةُ مَـنْـدَمِ ... وَٱلْـبَـغْـيُ مَـرْتَـعُ مُـبْـتَـغِـيْـهِ وَخِـيْـمُ

ونحو الآية قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾، وقوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾.

وهذه الألف في[2] ﴿الرسولا﴾ والألف التي ستأتي في ﴿السبيلا﴾ هي الألف التي تقع في الفواصل، ويسميها النحاة: ألف الإطلاق؛ لمد الصوت بها؛ لأن أواخر آيات هذه السورة الألف، والعرب تحفظ هذا في خطبها وأشعارها.

ثم ذكر بعض معاذيرهم بإبقائهم التبعة على من أضلوهم من كبرائهم وسادتهم بقوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: وقال الأتباع من الكافرين، فهو معطوف على ﴿يَقُولُونَ﴾، والعدول[3] إلى صيغة الماضي للإشعار بأن قولهم هذا ليس مستمراً كقولهم السابق، ولا مسبباً عنه، بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضرباً من التشفِّي بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم في تلك الورطة، وإن علموا عدم قبوله في حق خلاصهم منها.

أي: يقولون يومئذ وهم في جهنم: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ أي: يا مالك أمرنا ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا﴾ وامتثلنا ﴿سَادَتَنَا﴾؛ أي: أئمتنا في الضلالة، يعنون: قادتهم ورؤساءهم الذين لقنوهم الكفر، وأمروهم به ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾؛ أي: عظماءنا منزلةً في الكفر والدنيا؛ أي:

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) أبو السعود.

وافقناهم فيما هم عليه من الكفر. والسادة: جمع سيد، وهو الإمام الذي يأمرهم بالكفر ويلقنهم، والكبراء: جمع كبير، وهو مقابل الصغير. والمراد: الكبير رتبةً وحالاً، والتعبير عنهم[1] بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار، وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾؛ أي: صرفونا عن طريق الإسلام والتوحيد بما زينوا لنا الكفر والشرك.

والمعنى: وقال الأتباع من الكفرة ـ وهم في جهنم ـ: ربنا إنا أطعنا أئمتنا في الضلالة، وكبراءنا في الشرك، فأضلونا السبيل، وأزالونا عن محجة الحق، وطريق الهدى من الإيمان بك، والإقرار بوحدانيتك، والإخلاص لطاعتك في الدنيا، وفي هذا إحالة الذنب على غيرهم، كما هي عادة المذنب يفعل ذلك، وهو يعلم أنه لا يجد به نفعاً.

وفي هذا[2]: زجر عن التقليد شديد، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا، والتحذير منه، والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله تعالى، ويقتدي به، وينصف من نفسه، لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم، ومزيد البلادة، وشدة التعصب.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿سَادَتَنَا﴾ جمعاً على وزن: فعلة، أصله: سودة، وهو شاذ في جمع فيعل، فإن جعلت جمع سائد قرب من القياس، وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة والسلمي وابن عامر والعامة في الجامع بالبصرة: ﴿ساداتنا﴾ على الجمع بالألف والتاء، وهو لا ينقاس.

قال في «بحر العلوم»: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص والكسائي ﴿وأطعنا الرسول فأضلونا السبيل﴾ بغير ألف في الوصل، وقرأ حمزة وأبو عمرو ويعقوب في الوقف أيضاً. والباقون: بالألف في الحالين تشبيهاً للفواصل بالقوافي، فإن زيادة الألف لإطلاق الصوت، وفائدتها الوقف. والدلالة على أنَّ الكلام قد انقطع، وأن ما بعده مستأنف، وأما حذفها: فهو القياس؛ أي: في الوصل والوقف.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

ثم ذكر أنهم يدعون ربهم على طريق التشفي ممن أوردهم هذا المورد الوخيم أن يضاعف لهم العذاب؛ إذ كانوا سبب ضلالهم ووقوعهم في بلواهم، وإن كانوا يعلمون أن ذلك لا يخلصهم مما هم فيه، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ أي: يا مالك أمرنا. تصدير الدعاء بالنداء المكرر للمبالغة في الجؤار، واستدعاء الإجابة ﴿ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: مثلي العذاب الذي أوتيناه؛ لأنهم ضلوا وأضلوا، فضعف لضلالهم في أنفسهم عن طريق الهداية، وضعف لإضلالهم غيرهم عنها ﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾؛ أي: واطردهم عن رحمتك ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾؛ أي: طرداً شديداً عظيماً، وأصل الكبير والعظيم أن يستعملا في الأعيان، ثم استعير للمعاني، كما هنا.

أي: ربنا عذبهم مثلي عذابنا الذي تعذبنا به، مثلاً على ضلالهم، ومثلاً على إضلالهم إيانا، واخزهم خزياً عظيماً، واطردهم من رحمتك.

وقرأ الجمهور: ﴿كَثِيرًا﴾ بالثاء المثلثة؛ أي: لعناً كثير العدد، عظيم القدر، شديد الموقع؛ أي: العنهم اللعن على إثر اللعن؛ أي: مرة بعد مرة، ويشهد للكثرة قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس لمناسبتها للسياق، وقرأ ابن مسعود وأصحابه وحذيفة بن اليمان وابن عامر وعاصم ويحيى بن وثاب والأعرج بخلاف عنه: ﴿كَبِيرًا﴾ بالياء الموحدة؛ أي: كبيراً في نفسه، شديداً عليهم ثقيل الموقع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَكُونُواْ﴾ في أن تؤذوا رسول الله ﷺ. قيل: نزلت في شأن زينب، وما سمع فيه من مقالة الناس، كما سبق. وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قسم النبي ﷺ قسماً، فقال رجل: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ عليه السلام، كقارون وأشياعه وغيرهم من سفهاء بني إسرائيل، هو قولهم: إنَّ به أدرة، أو برصاً، أو عيباً، وفيه تأديب للمؤمنين، وزجر لهم عن أن يدخلوا في شيء من الأمور التي تؤذي رسول الله ﷺ ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فأظهر الله سبحانه براءة موسى عليه السلام: ﴿مِمَّا قَالُواْ﴾ في حقه؛ أي: من مضمون ما قالوا، ومؤدّاه الذي هو الأمر المعيب، فإن البراءة تكون من العيب، لا

من القول، وإنما الكائن من القول التخلص. ﴿وَكَانَ﴾ موسى عليه السلام ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿وَجِيهًا﴾؛ أي: ذا جاهٍ ومنزلة ودرجة وقدر، فكيف يوصف بعيب ونقيصة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وجيهاً أي حَظِيًّا، لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، وفيه إشارة إلى أن موسى عليه السلام كان في الأزل عند الله مقضيّاً له بالوجاهة، فلا يكون غير وجيه بتعيير بني إسرائيل إياه، كما قيل:

إِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ يَا مَوْلَايَ مُطَّرَحاً فَعِنْدَ غَيْرِكَ مَحْمُوْلٌ عَلَىٰ ٱلْحِدَقِ

واختلفوا فيما أوذي به موسى[1]، فروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ينظر بعضهم إلى سوأ بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر. قال: فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، قال: فجمح - أسرع - موسى بأثره يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى، فقالوا: واللَّهِ ما بموسى من بأس، فقام الحجر حتى نظروا إليه. قال: فأخذ ثوبه، فطفق الحجر ضرباً». قال أبو هريرة: والله إن بالحجر ندباً - أثراً - ستة أو سبعة من ضرب موسى الحجر. أخرجه البخاري ومسلم.

قال في «إنسان العيون»: كان موسى عليه السلام إذا غضب يخرج شعر رأسه من قلنسوته، وربما اشتعلت قلنسوته ناراً لشدة غضبه، ولشدة غضبه لما فر الحجر بثوبه.. ضربه مع أنه لا إدراك له، ووُجِّه بأنه لما فرَّ.. صار كالدابة، والدابة إذا جمحت بصاحبها يؤدبها بالضرب. انتهى.

وقيل في إذاية موسى عليه السلام: إن قارون دفع إلى زانية مالاً عظيماً على أن تقول على رأس الملأ من بني إسرائيل: إني حامل من موسى بالزنا، فأظهر الله نزاهته عن ذلك، بأن أقرت الزانية بالمصانعة بينها وبين قارون، وفعل بقارون ما فعل من الخسف، كما فصِّل في سورة القصص.

ومعنى الآية[2]: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تؤذوا الرسول بقولٍ يكرهه، ولا بفعلٍ لا يحبه، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبيَّ الله، فرموه

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

بالعيب كذباً وباطلاً، فبرأه الله مما قالوه من الكذب والزور، بما أظهر من الأدلة على كذبهم، وكان موسى ذا وجاهة وكرامة عند ربه، لا يسأله شيئاً إلا أعطاه إياه.

ولم يعين[1] لنا الكتاب الكريم ما قالوا في موسى، ومن الخير أن لا نعينه حتى لا يكون رجماً بالغيب دون أن يكون عليه دليل. وقد اختلفوا فيه، أهو عيب في بدنه، كبرص وأدْره، أم هو عيب في خلقه؟ فقد روَوا أنَّ قارون حرَّض بغياً على قذفه بنفسها، فعصمه الله من كذبها، وقيل: إنهم اتهموه بقتل هارون لما خرج معه إلى الطور، ومات هناك، ثمَّ استبان لهم بعد أنه مات حتف أنفه.

روي عن عبد الله بن مسعود قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فاحمر وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى، فقد أوذي بأكثر من هذا، فصبر».

وروى أحمد عنه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «لا يبلِّغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فأني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» ومن هذا يتبين أن إيذاءه كان بالقدح في أعماله وتصرفاته، لا بالعيب في بدنه كما روي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ بالنون على الظرفية المجازية. وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة: ﴿وكان عبداً﴾ بالباء الموحدة من العبودية ﴿لله﴾: بلام الجر، و﴿عبداً﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿وَجِيهًا﴾ صفته. قال ابن خالويه: صليت خلف ابن شنبوذ في شهر رمضان، فسمعته يقرأ: ﴿وكان عبداً لله﴾ على قراءة ابن مسعود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا الله في رعاية حقوقه وحقوق عباده، فمن الأول: الامتثال لأمره، ومن الثاني: ترك الأذى، لا سيما في حق رسوله ﷺ وقولوا في أيِّ شأن من الشؤون ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ أي: قولاً مستقيماً عدلاً حقاً موافقاً للصواب. قال قتادة ومقاتل: يعني: قولوا قولاً سديداً في شأن زيد وزينب، ولا تنسبوا النبي ﷺ إلى ما لا يحل. وقال عكرمة: إن القول السديد لا إله إلا الله.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وقيل: هو الذي يوافق ظاهره باطنه. وقيل: هو ما أريد به وجه الله تعالى، دون غيره، وقيل: هو الإصلاح بين الناس.

والظاهر من الآية[1]: أنه أمرهم بأن يقولوا قولاً سديداً في جميع ما يأتونه ويذرونه، فلا يخص ذلك نوعاً دون نوع، وإن لم يكن في اللفظ ما يقتضي العموم، فالمقام يفيد هذا المعنى؛ لأنه أرشد سبحانه عباده إلى أن يقولوا قولاً يخالف قول أهل الأذى.

وقصةُ زينب، وبعثُهم على أن يسدِّدوا قولهم في كل باب؛ لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله.

حكي أن يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت ـ من أكابر علماء العربية ـ جلس يوماً مع المتوكل، فجاء المعتز والمؤيد ابنا المتوكل، فقال: أيما أحب إليك، ابناي أم الحسن والحسين؟ قال: واللَّهِ إن قنبراً خادم علي رضي الله عنه خير منك ومن ابنيك، فقال: سلوا لسانه من قفاه، ففعلوا، فمات في تلك الليلة، ومن العجب أنه أنشد قبل ذلك للمعتز والمؤيد، وكان يعلِّمها فقال:

يُصَابُ ٱلْفَتَىٰ مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ ... وَلَيْسَ يُصَابُ ٱلْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ ٱلرِّجْلِ

فَعَثْرَتُهُ فِيْ ٱلْقَوْلِ تُذْهِبُ رَأْسَهُ ... وَعَثْرَتُهُ فِيْ ٱلرِّجْلِ تَبْرَا عَلَىٰ مَهْلِ

ثم ذكر ما لهؤلاء الذين امتثلوا الأمر بالتقوى والقول السديد من الأجر، فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾؛ أي: يوفقكم للأعمال الصالحة، أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ أي: يجعلها مغفورة مكفرة باستقامتكم في القول والفعل، وفيه إشارة إلى أن من وفقه الله لصالح الأعمال، فذلك دليل على أنه مغفور له ذنوبه.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿و﴾ يطع ﴿رسوله﴾ محمداً ﷺ في الأوامر والنواهي التي من جملتها هذه التكليفات، والطاعة: هي موافقة الأمر، والمعصية: هي مخالفته ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ وظفر في الدارين، والفوز: الظفر بالمطلوب مع السلامة من المكروه ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ أي: عاش في الدنيا محموداً، وفي الآخرة

---

(١) الشوكاني.

مسعوداً، أو نجا من كل ما يخاف، ووصل إلى كل ما يرجو، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها.

وإجمال معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله أن تعصوه، فتستحقوا بذلك عقوبته، وقولوا في رسوله والمؤمنين قولاً قاصداً غير جائر، حقاً غير باطل، يوفقكم لصالح الأعمال، ويغفر لكم ذنوبكم، فلا يعاقبكم عليها، ومن يطع الله ورسوله، فيعمل بما أمره به، وينتهِ عما نهاه عنها، ويقل السديد من القول.. فقد ظفر بالمثوبة العظمى، والكرامة يوم العرض الأكبر.

والخلاصة: أنه سبحانه أمر المؤمنين بشيئين: الصدق في الأقوال، والخير في الأفعال. وبذلك يكونوا قد اتقوا الله وخافوا عقابه، ثم وعدهم على ذلك بأمرين:

١ - صلاح الأعمال؛ إذ بتقواه يصلح العمل، والعمل الصالح يرفع صاحبه إلى أعلى عليين، ويجعله يتمتع بالنعيم المقيم في الجنة خالداً فيها أبداً.

٢ - مغفرة الذنوب، وستر العيوب، والنجاة من العذاب العظيم.

ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما لأهل الطاعة من الخير بعد بيان ما لأهل المعصية من العذاب.. بيَّن عظم شأن التكاليف الشرعية، وصعوبة أمرها فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ...﴾ الآية. قال ابن عباس[1]: أراد بالأمانة: الطاعة والفرائض التي فرضها الله على عباده، عرضها على السموات والأرض والجبال على أنها إذا أدُّوها.. أثابهم، وإن ضيعوها.. عذبهم. وقال ابن مسعود: الأمانة: أداء الصلوات، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وصدق الحديث، وقضاء الدين، والعدل في المكيال والميزان، وأشد من هذا كله: الودائع. وقيل: جميع ما أمروا به ونهوا عنه. وقيل: هي الصوم، وغسل الجنابة، وما يخفى من الشرائع، كالنية في الأعمال.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أول ما خلق الله من الإنسان الفرج، وقال: هذه الأمانة استودعكها، فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له.

---

(١) الخازن.

وفي رواية عن ابن عباس: هي أمانات الناس، والوفاء بالعهود، فحقٌّ على كل مؤمن أن لا يغش مؤمناً ولا معاهداً في شيء، لا في قليل ولا كثير، فعرض الله تعالى هذه الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال، وهذا قول جماعة من التابعين، وأكثر السلف. فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة بما فيها؟ قلن: وما فيها؟ قال: إن أحسنتن.. جوزيتن، وإن عصيتن.. عوقبتن، قلن: لا يا رب، نحن مسخرات لأمرك، لا نريد ثواباً ولا عقاباً، وقلن ذلك خوفاً وخشيةً وتعظيماً لدين الله تعالى أن لا يقوموا بها لا معصية ولا مخالفة لأمره. وكان العرض عليهن تخييراً لا إلزاماً، لو ألزمهن لم يمتنعن من حملها. والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل، مطيعة لأمره، ساجدة له.

قال بعض أهل العلم: ركب الله تعالى فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة، حتى عقلن وأجبن بما أجبن. وقيل: المراد من العرض على السموات والأرض والجبال: هو العرض على أهلها من الملائكة دون أعيانها. والقول الأول أصح. وهو قول أكثر العلماء.

وقوله: ﴿إِنَّآ﴾ هذه النون[1] نون العظمة والكبرياء عند العلماء، فإن الملوك والعظماء يعبِّرون عن أنفسهم بصيغة الجمع، ونون الأسماء والصفات عند العرفاء. فإنها متعددة ومتكثرة ﴿عَرَضۡنَا﴾؛ أي: أظهرنا وأبرزنا ﴿ٱلۡأَمَانَةَ﴾؛ أي: التكاليف الشرعية ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ على أنَّ من أداها فله الثواب، ومن لم يؤدِّها.. فله العقاب. وكان هذا العرض عرض تخيير، لا عرض إلزام ﴿فَأَبَيۡنَ﴾؛ أي: فامتنعت السموات والأرض والجبال عن قبولها على هذا الشرط المذكور. والإباء: شدة الامتناع، فكل إباء، امتناع، وليس كل امتناع إباءً.

وأتى بضمير هذه كضمير الإناث؛ لأن جمع التكسير غير العاقل يجوز فيه ذلك، وإن كان مذكراً، وإنما ذكرنا ذلك لئلا يتوهم أن قد غلَّب المؤنث، وهو السموات على المذكر، وهو الجبال.

واعلم: أنه لم يكن إباؤهن كإباء إبليس في قوله تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ

---

(١) روح البيان.

﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، لأن السجود كان هناك فرضاً، وههنا الأمانة كانت عرضاً، والإباء هناك كان استكباراً، وههنا كان استصغاراً لقوله تعالى: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ أي: خفن من الأمانة أن لا يؤدينها. اهـ «فتوحات».

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ أي: وخفن من الأمانة وحملها، وقلن: يا رب، نحن مسخرات بأمرك، لا نريد ثواباً ولا عقاباً، ولم يكن هذا القول منهن من جهة المعصية والمخالفة، بل من جهة الخوف والخشية من أن لا يؤدين حقوقها، ويقعن في العذاب، ولو كان لهن استعداد ومعرفة بسعة الرحمة، واعتماد على الله تعالى لما أبين.

فإن قلت[1]: ما ذكر من السموات وغيرها جمادات، والجمادات لا إدراك لها، فما معنى عرض الأمانة عليها؟

قلت: للعلماء فيه قولان:

الأول: أنه محمول على الحقيقة، وهو الأنسب بمذهب أهل السنة؛ لأنهم لا يؤولون أمثال هذا، بل يحملونها على الحقيقة خلافاً للمعتزلة **وهو القول الثاني**.
وعلى تقدير الحقيقة فيه وجهان: أحدهما أدق من الآخر:

الوجه الأول: أن للجمادات حياةً حقانيةً دلَّ عليها كثير من الآيات، نحو قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾، وقوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ إلى غير ذلك.

والوجه الثاني: أن الله تعالى ركَّب العقل والفهم في الجمادات المذكورة عند عرض الأمانة، كما ركب العقل، وقبول الخطاب في النملة السليمانية، والهدهد، وغيرهما من الطيور والوحوش والسباع، بل وفي الحجر والشجر والتراب، فهن بهذا العقل والإدراك سمعن الخطاب، وأنطقهن الله بالجواب، حيث قال لهن: أتحملن هذه على أن يكون لكُنَّ الثواب والنعيم في الحفظ والأداء، والعقاب في

---

(١) روح البيان.

الغدر والخيانة.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: قبلها الإنسان عند عرض تلك الأمانة عليه، والمراد بالإنسان: الجنس، بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾؛ أي: تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية، ورخاوة القوة؛ لأن الحمل إنما يكون بالهمة، لا بالقوة.

وقال بعضهم: المراد بالإنسان: آدم عليه السلام. وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: مثِّلت الأمانة كالصخرة الملقاة، ودعيت السموات والأرض والجبال إليها، فلم يقربوا منها، وقالوا: لا نطيق حملها، وجاء آدم من غير أن يدعىٰ، وحرك الصخرة، وقال: لو أمرت بحملها لحملتها، فقلنا له: احمل، فحملها إلى ركبتيه، ثم وضعها، وقال: لو أردت أن ازداد لزدت، فقلنا له: احمل، فحملها إلى حقوه، ثم وضعها وقال: لو أردت أن ازداد لزدت، فقلنا له: احمل، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فأراد أن يضعها، فقال الله: مكانك، فإنها في عنقك، وعنق ذريتك إلى يوم القيامة.

﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الإنسان ﴿كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه بمعصية ربه؛ حيث لم يف، ولم يراع حقها. وقيل: المراد بظلمه لها: إتعابه إياها. ﴿جَهُولًا﴾ بكنه عاقبتها. وجملة ﴿إِنَّ﴾ اعتراض وُسِّط بين الحمل وغايته للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهد تحمله؛ أي: إنه كان مفرطاً في الظلم، مبالغاً في الجهل؛ أي: بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة، أو عهودهم يوم الأرواح، دون من عداهم من الذين لم يبدِّلوا فطرة الله، وجروا على ما اعترفوا بقولهم: بلى.

واللام في قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ - الذين ضيعوا الأمانة بعد ما قبلوها ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ - الذين خانوا في الأمانة بعدم قبولها رأساً - لامُ العاقبة متعلقة بـ﴿حملها﴾، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ معترضة؛ لأن التعذيب، وإن لم يكن غرضاً له من الحمل، لكان لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها.. أبرز في معرض الغرض، وهذا إشارة إلى الفريق الأول؛ أي: كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذِّب الله هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة، وخروجهم عن الطاعة بالكلية. قال في «بحر العلوم»: ويجوز أن تكون اللام علة لـ﴿عَرَضْنَا﴾؛ أي: عرضنا عليه ليظهر نفاق المنافقين، وإشراك

المشركين، فيعذبهما الله تعالى.

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الذين حفظوا الأمانة، وراعوا حقها. قال في «الإرشاد»: وهذا إشارة إلى الفريق الثاني؛ أي: كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله على هؤلاء من أفراده؛ أي: يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة، وتلافيهم فرط منهم من فرطات، قلما يخلو الإنسان عنها بحكم جبليته، وتداركهم لها بالتوبة والإنابة، أو عرضنا عليه ليظهر إيمان المؤمن، فيتوب الله عليه؛ أي: يعود عليه بالمغفرة والرحمة إن حصل منهم تقصير في بعض الطاعات.

وقرأ الأعمش[1]: ﴿فيتوب﴾ بالرفع على جعل العلة قاصرة على ما قبله، وذهب صاحب «اللوامح» أن الحسن قرأ: ﴿ويتوب﴾: بالرفع، ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة للمؤمنين من عباده إذا قصروا في شيء مما يجب عليهم، أو كان[2] غفوراً للظلوم، رحيماً على الجهول؛ لأن الله سبحانه وعد عباده بأنه يغفر الظلم جميعاً إلا الظلم العظيم الذي هو الشرك.

وإجمال الآية[3]: أي إنا لم نخلق السموات والأرض على عظم أجرامها، وقوة أسرها، مستعدةً لحمل التكاليف بتلقي الأوامر والنواهي، والتبصر في شؤون الدين والدنيا، ولكن خلقنا الإنسان على ضعف منَّته، وصغر جرمه مستعداً لتلقيها، والقيام بأعبائها، وهو مع ذلك قد غلبت عليه الانفعالات النفسية الداعية إلى الغضب، فكان ظلوماً لغيره، وركِّب فيه حب الشهوات، والميل إلى عدم التدبر في عواقب الأمور، ومن ثَمَّ كلفناه بتلك التكاليف لتكسر سورة تلك القوى، وتخفف من سلطانها عليه، ونكبت من جماحها حتى لا توقعه في مواقع الردى. ثم بين عاقبة تلك التكاليف، فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ...﴾ الخ. أي: وكان عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة أن يعذب من خانها وأبى الطاعة.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

والانقياد لها من المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، ويقبل توبة المؤمنين والمؤمنات إذا رجعوا إليه وأنابوا، لتلافيهم ما فرط منهم من الجهل، وعدم التبصر في العواقب، وتداركهم ذلك بالتوبة.

ثم علل قبوله لتوبتهم فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؛ أي: وكان ستاراً لذنوب عباده، كثير الرحمة بهم، ومن ثَمَّ قبل توبة من أناب إليه، ورجع إلى حظيرة قدسه، وأخلص له العمل، وتلافى ما فرّط منه من الزلات، وأثابه على طاعته بالفوز العظيم. نسألك اللهم أن تتوب علينا، وتغفر لنا ما فرط منا من الزلات، وتثيبنا بالفوز العظيم في الجنات، إنك سميع قريب مجيب الدعوات.

الإعراب

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعوله. ﴿وَرَسُولَهُ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة صلة الموصول. ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: متعلق بـ﴿لَعَنَهُمُ﴾. ﴿وَالْآخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿الدُّنْيَا﴾. ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿مُهِينًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾، وجملة ﴿أَعَدَّ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَعَنَهُمُ﴾. ﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾: معطوف على ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿بِغَيْرِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْذُونَ﴾ وهو مضاف، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه. ﴿اكْتَسَبُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بغير الذنب الذي اكتسبوه، أو ﴿مَا﴾ مصدرية، والجملة الفعلية صلته، والمصدر المنسبك منها مضاف إليه لـ﴿غير﴾؛ أي: بغير اكتسابهم وجرمهم. ﴿فَقَدِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ لما في المبتدأ من العموم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿احْتَمَلُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿بُهْتَانًا﴾: مفعول به. ﴿وَإِثْمًا﴾: معطوف على ﴿بُهْتَانًا﴾. ﴿مُبِينًا﴾: صفة. ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر

المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ. ﴿لِّأَزْوَٰجِكَ﴾: متعلق بـ﴿قُل﴾، وجملة القول جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوفان على ﴿أَزْوَٰجِكَ﴾. ﴿يُدْنِينَ﴾: فعل مضارع وفاعل؛ لأن النون ضمير النسوة. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿يُدْنِينَ﴾، أو حال مقدمة على صاحبها، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾، وقيل: هو مجزوم بلام الأمر المحذوفة؛ أي: ليدنين. ﴿مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿يُدْنِينَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُعْرَفْنَ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، ونون النسوة نائب فاعل، والمصدر المنسبك من الفعل مجرور بحرف جر محذوف تقديره: أي: ذلك أدنى وأقرب إلى معرفتهن. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية. ﴿يُؤْذَيْنَ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة، ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُعْرَفْنَ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان له، والجملة مستأنفة.

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿لَّئِن﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إنْ﴾: حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَنتَهِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الياء. ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾: فاعل. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: إن لم ينتهوا نغرينك بهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: متعلق بـ﴿مرجفون﴾. ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة

للقسم مؤكدة للأولى، وكُرِّرت لإفادة أن المذكور جواب القسم لتقدمه على الشرط، كما هو القاعدة عندهم. ﴿نغرينك﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب، وفاعله ضمير مستتر وجوباً، تقديره: نحن، يعود على الله، والكاف: مفعول به. ﴿بِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿نغرينك﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب وتراخ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُجَاوِرُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿نغرينك﴾. ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿يجاورون﴾، أو حال من فاعل ﴿يجاورون﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿قَلِيلًا﴾: ظرف زمان متعلق بـ﴿يجاورون﴾؛ لأنه صفة لزمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً، أو منصوب على المصدرية؛ لأنه صفة لمصدر محذوف. إلا جواراً قليلاً.

﴿مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿مَّلْعُونِينَۖ﴾: حال من فاعل ﴿يُجَاوِرُونَكَ﴾، أو حال من مقدر حذف هو وعامله. تقديره: ثم يخرجون ملعونين. ﴿أَيْنَمَا﴾: اسم شرط جازم يجزم فعلين، في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والظرف متعلق بالجواب ﴿ما﴾ زائدة زيدت لتأكيد معنى الكلام. ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿أين﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿أُخِذُواْ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة، ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿أين﴾ على كونه جواب الشرط لها، وجملة الشرط مستأنفة. ﴿وَقُتِّلُواْ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة، ونائب فاعل معطوف على ﴿أُخِذُواْ﴾. ﴿تَقْتِيلًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لعامله. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول مطلق مؤكد لعاملة المحذوف، تقديره: سنَّ الله ذلك الأخذ والقتل في الذين نافقوا من قبل. ﴿فِى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾، أو بعامله المحذوف. ﴿خَلَوْاْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿مِن قَبْلُۖ﴾: متعلق بـ﴿خَلَوْاْ﴾. ﴿وَلَن تَجِدَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لن تجد﴾: ناصب وفعل مضارع منصوب بـ﴿لَن﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد. ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تَبْدِيلًا﴾. و﴿تَبْدِيلًا﴾: مفعول به لـ﴿تَجِدَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿سن﴾ المحذوفة.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ﴾: فعل ومفعول به وفاعل. ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾: متعلق بـ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لحكاية حال المستهزئين من المشركين واليهود ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿عِلْمُهَا﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿مَا﴾: اسم استفهام للإنكار مبتدأ، وجملة ﴿يُدْرِيكَ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة؛ أي: أيُّ شيء مدر إياك وقت مجيئها؛ أي: لا تعلمه. ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾: ناصب واسمه. ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلسَّاعَةِۖ﴾ ﴿قَرِيبًا﴾: خبرها؛ أي: شيئاً قريباً، وجملة ﴿تَكُونُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لَعَلَّ﴾، وجملة ﴿لَعَلَّ﴾ في محل نصب مفعول ثانٍ لـ﴿يُدْرِيكَ﴾، والتقدير: وما يدريك قرب قيام الساعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿لَعَنَ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾. ﴿سَعِيرًا﴾: مفعول به. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿أَبَدًاۖ﴾ ظرف زمان متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أيضاً. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَجِدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول به. لـ﴿يَجِدُونَ﴾، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: معطوف على ﴿وَلِيًّا﴾، وجملة ﴿لَّا يَجِدُونَ﴾ حال ثانية من ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بـ﴿يَقُولُونَ﴾، أو بمحذوف، تقديره: اذكر، أو متعلق بـ﴿لَّا يَجِدُونَ﴾. ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليه. ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ﴿تُقَلَّبُ﴾. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو حال من ضمير ﴿وُجُوهُهُمْ﴾. ﴿يَٰلَيْتَنَآ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، والمنادى محذوف، تقديره: يا قوم، أو يا هؤلاء. ﴿ليتنا﴾: ناصب واسمه،

وجملة ﴿أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾ خبر ﴿ليت﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَطَعْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾: معطوف على ﴿سَادَتَنَا﴾، ﴿فَأَضَلُّونَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أضلونا﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿أَطَعْنَا﴾. ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾: مفعول ثان لـ﴿أضلونا﴾، وزيادة الألف لإطلاق الصوت، جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر، وفائدتها الوقف، والإشارة إلى أن الكلام قد انقطع. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء للتخفيف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿ءَاتِهِمْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول؛ لأنه بمعنى: أعطي. ﴿ضِعْفَيْنِ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿ءَاتِهِمْ﴾. ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: صفة لـ﴿ضِعْفَيْنِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، معطوف على ﴿ءَاتِهِمْ﴾. ﴿لَعْنًا﴾: مفعول مطلق. ﴿كَبِيرًا﴾: صفة ﴿لَعْنًا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿لَا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَكُونُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿كَٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تَكُونُوا۟﴾، وجملة ﴿تَكُونُوا۟﴾ جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿برأه الله﴾: فعل ماض ومفعول به وفاعل، معطوف على جملة ﴿ءَاذَوْا۟

﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿مِمَّآ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿برأ﴾، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، أو موصولة، ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما قالوه فيه، أو من مضمون قولهم: إن قلنا: إنها مصدرية. ﴿وَكَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه مستتر يعود على موسى. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿وَجِيهًا﴾. و﴿وَجِيهًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَقُولُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ٱتَّقُواْ﴾. ﴿قَوْلًا﴾: مفعول مطلق. ﴿سَدِيدًا﴾: صفة ﴿قَوْلًا﴾. ﴿يُصْلِحْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بالطلب السابق. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يُصْلِحْ﴾. ﴿أَعْمَٰلَكُمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيَغْفِرْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله تعالى، معطوف على جملة ﴿يُصْلِحْ﴾ ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿ذُنُوبَكُمْۗ﴾: مفعول به. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُطِعِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ الشرطية، مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿ٱللَّهَ﴾: لفظ الجلالة مفعول به. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف عليه. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿فَازَ﴾: فعل ماض، وفاعله مستتر في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. ﴿فَوْزًا﴾: مفعول مطلق. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة ﴿فَوْزًا﴾، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه ﴿عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة

في محل الرفع خبر ﴿إِنَّآ﴾، وجملة ﴿إِنَّآ﴾ مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿عَرَضۡنَا﴾. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾: معطوفان على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿فَأَبَيۡنَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أبين﴾: فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بضمير رفع متحرك، والنون فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَرَضۡنَا﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿يَحۡمِلۡنَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أبين﴾؛ أي: فأبين حملهن إياها. ﴿وَأَشۡفَقۡنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أشفقن﴾: فعل ماض وفاعل، مبني على السكون. ﴿مِنۡهَا﴾: متعلق بـ﴿أشفقن﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أبين﴾. ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة معطوفة على محذوف، تقديره: فعرضناها على الإنسان، وحملها الإنسان. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الإنسان. ﴿ظَلُومٗا﴾: خبرها الأول. ﴿جَهُولٗا﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾.

﴿لِّيُعَذِّبَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يعذب﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾: مفعول به ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾: معطوفات على ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتعذيب الله المنافقين الخ، الجار والمجرور متعلق بـ﴿حملها﴾، وقيل: بـ﴿عَرَضۡنَا﴾، واللام لام التعليل، أو لام العاقبة على الخلاف المار فيه. ﴿وَيَتُوبَ﴾: معطوف على ﴿يعذب﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَتُوبَ﴾. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿رَّحِيمٗا﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ﴾ يقال: آذى يؤذي أذى وأذيَّة وإذاية، ولا يقال: إيذاءً،

كما في «القاموس»، ولكن شاع بين أهل التصنيف استعماله، كما في «التنبيه» لابن كمال.

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ من الإدناء من الدنو، وهو القرب. والجلابيب: جمع جلباب. وفي «القاموس» وغيره: الجلباب، والجلبَّاب ـ بتشديد الباء ـ الأولى: ثوب أوسع من الخمار دون الرداء، تلويه المرأة على رأسها، وتبقي منه ما ترسله إلى صدرها، كما في «الكشاف».

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ الانتهاء: الانزجار عما نهي عنه. ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾ قال في «الأساس»: وأرجفوا في المدينة بكذا: إذا أخبروا به على أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم، وهذا من أراجيف الغواة، وتقول: إذا وقعت المخاويف كثرت الأراجيف. وجاء في غيره ما نصه: أرجف: خاض في الأخبار السيئة والفتن، قصد أن يهيج الناس، وأرجف القوم بالشيء وفيه: خاضوا فيه، وأرجفت الريح الشجر: حركته، وأرجفت الأرض بالبناء للمجهول: زلزلت، وأصل الإرجاف: التحريك، مأخوذ من الرجفة، وهي الزلزلة، ووصفت به الأخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة، وسمي البحر رجافاً لاضطرابه، ومنه قول الشاعر:

الْمُطْعِمُوْنَ ٱللَّحْمَ كُلَّ عَشِيَّةٍ   حَتَّىٰ تَغِيْبَ ٱلشَّمْسُ فِيْ ٱلرَّجَّافِ

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ يقال: غرى بكذا؛ أي: لهج به ولصق، وأصل ذلك من الغراء، وهو ما يلصق به الشي، وقد أغريت فلاناً بكذا إغراءً ألهجته به.

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ قال في «الأساس» و«اللسان»: لعنه أهله: طردوه وأبعدوه وهو لعين؛ أي: طريد، وقد لعن الله إبليس: طرده من الجنة، وأبعده من جوار الملائكة، ولعنت الكلب والذئب طردتهما، ويقال للذئب: اللعين، ولعنه وهو ملعَّن؛ أي: مكثر لعنه، وتلاعن القوم وتلعنوا والتعن فلان: لعن نفسه، ورجل لُعَنَةٌ ولُعْنَةٌ، كضُحَكَة وضُحْكَة، ولا تكن لعاناً طعاناً، ولاعن امرأته ولاعن القاضي بينهما: أوقع بينهما اللعان.

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾؛ أي: وجدوا وأدركوا. قال الراغب: الثقف الحذق في إدراك الشيء وفعله، يقال: ثقفت كذا: إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر، ثم قد تجوّز به، فاستعمل في الإدراك، وإن لم يكن معه ثقافة.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾؛ أي: القيامة؛ أي: عن وقت قيامها، والساعة في الأصل: جزء من أجزاء الزمان، ويعبَّر بها عن القيامة تشبيهاً بذلك لسرعة حسابها.

﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً مسعورة شديدة الاتقاد، يقال: سعر النار وأسعرها وسعرها: أوقدها.

﴿سَادَتَنَا﴾ جمع تكسير على وزن فعلة بفتحتين؛ لأن أصله سودة، وهو شائع في وصف لمذكر عاقل صحيح اللام، نحو كامل وكملة، وساحر وسحرة، وسافر وسفرة، وبارٌّ وبررة، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾، ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ فخرج بالوصف الاسم، نحو: واد وباز، وبالتذكير نحو: حائض وطالق، وبالعقل نحو: سابق ولاحق صفتي فرسين وبصحة اللام نحو: قاضٍ وغازٍ، فلا يجمع شيء من ذلك على فعلة بفتحتين باطرادٍ، وشذ في غير فاعل نحو: سيد وسادة، فوزنها: فعلة، ويجوز أن يكون جمعاً لسائد، نحو: فاجر وفجرة، وكافر وكفرة، وهو أقرب إلى القياس، كما رأيت على أنَّ صاحب «القاموس» لم يلتزم بالقاعدة، فقال: والسائد: السيد أو دونه، والجمع: سادة وسيايد.

وقرأ ابن عامر: ﴿ساداتنا﴾، فجمعه ثانياً بالألف والتاء، وهو غير مقيس أيضاً.

﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ جمع: كبير، وهو مقابل الصغير، والمراد: الكبير رتبةً وحالاً.

﴿فَأَضَلُّونَا﴾ يقال: أضله الطريق، وأضله عن الطريق بمعنىً واحد؛ أي: أخطأ به عنه.

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾ أصل البراءة: التفصِّي مما تكره مجاورته؛ أي: فأظهر براءة موسى عليه مما قالوا في حقه.

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ الوجيه: سيد القوم ذو الجاه والوجاهة. وفي «الوسيط»: وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه: إذا كان ذا جاه وقدر.

﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ مستقيماً مائلاً إلى الحق، من سد يسد سداداً من باب ضرب: صار صواباً ومستقيماً، فإنَّ السداد الاستقامة، يقال: سدد السهم نحو الرمية: إذا لم يعدل به عن سمتها، وخص القول الصدق بالذكر، وهو ما أريد به وجه الله ليس فيه شائبة غيرٍ وكذب أصلاً؛ لأنَّ التقوى صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل

أو ترك، فلا يدخل فيها.

﴿عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ يقال: عرض لي أمر كذا؛ أي: ظهر. وعرضت له الشيء: أظهرته وأبرزته إليه، وعرضت الشيء على البيع، وعرض الجند: إذا أمرهم عليه، ونظر ما حالهم. والأمانة: ضد الخيانة، والمراد بها هنا: التكاليف الشرعية، والأمور الدينية المرعية.

﴿فَأَبَيْنَ﴾؛ أي: امتنعن من حملها، والإباء: شدة الامتناع، كما مر في مبحث التفسير.

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ أي: خفن منها. قال في «المفردات»: الإشفاق: عناية مختلطة بخوف؛ لأن المشفق يحب المشفق عليه، ويخاف ما يلحقه، فإذا عدي بـ﴿من﴾ فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدِّي بـ﴿على﴾ فمعنى العناية فيه أظهر.

﴿ظَلُومًا﴾ والظلم: وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ومن هذا: ظلمت السقاء: إذا تناولته في غير وقته، ويسمى ذلك اللبن: الظلم، وظلمت الأرض: إذا حفرتها، ولم تكن موضعاً للحفر، وتلك الأرض يقال لها: المظلومة، والتراب الذي يخرج منها ظليم. والظلم يقال في مجاوزة الحد الذي يجري مجرى النقطة في الدائرة، ويقال فيما يكثر ويقل من التجاوز، ولذا تستعمل في الذنب الصغير والكبير، ولذا قيل لآدم في تقدمه: ظالم، وفي إبليس ظالم، وإن كان بين الظلمين بون بعيد.

قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة:

أحدها: بين الإنسان وبين الله سبحانه، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق.

والثاني: ظلم بينه وبين الناس.

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وهذه الثلاثة في الحقيقة للنفس، فإن الإنسان أول ما يهم بالظلم، فقد ظلم نفسه.

﴿جَهُولًا﴾ والجهل: خلو النفس من العلم، وهو على قسمين: ضعيف: وهو الجهل البسيط، وقوي: وهو الجهل المركب الذي لا يدري صاحبه أنه لا يدري، فيكون محروماً من التعلم، وكذا كان قوياً. وقال بعضهم: الإنسان ظلوم وجهول؛

أي: من شأنه الظلم والجهل، كما يقال: الماء طهور؛ أي: من شأنه الطهارة. واعلم أنَّ الظلومية والجهولية صفتا ذم عند أهل الظاهر؛ لأنهما في حق الخائنين في الأمانة، فمن وضع الغدر والخيانة موضع الوفاء والأداء.. فقد ظلم وجهل. اهـ «روح».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد بإن، وبفعلية الخبر في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ إلخ.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾، ﴿وَالْمُرْجِفُونَ﴾: هم من المنافقين، فعمم ثم خصص زيادة في التقبيح والتشنيع عليهم.

ومنها: التأكيد بالمصدر.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ لأنه في الأصل إلصاق الشيء بالشيء، فاستعير هنا للتسليط.

ومنها: الإتيان بالمصدر مع الفعل للتأكيد في قوله: ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾، وفيه أيضاً: جناس الاشتقاق.

ومنها: الإتيان بعنوان السيادة والكبر في قوله: ﴿سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ لتقوية الاعتذار، وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾؛ لأن الأصل في الكبير أن يستعمل في الأجرام، ثم استعير هنا للمعاني.

ومنها: التحسر والتفجع بطريق التمني في قوله: ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ فأطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: أجسامهم، وفيه أيضاً تخصيص الوجوه بالذكر؛ لأناقة الوجه على جميع الأعضاء، وهو مثابة المقابلة.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾، وفي قوله: ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ مثَّل للأمانة في ضخامتها وعظمها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل، بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال، وهي من القوة والشدة بأعلى المنازل.. لأبت عن حملها، وأشفقت منها، وهو تمثيل رائع لتهويل شأن الأمانة.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ﴾، وبين قوله: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾، وفي ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع: ردَّ العجز على الصدر؛ لأن بدء السورة كان في ذم المنافقين، وختامها كان في بيان سوء عاقبة المنافقين، فحسن الكلام.

ومنها: العدول إلى صيغة الماضي في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ مع كونه معطوفاً على يقولون قبله؛ للإشعار بأن قولهم ليس مستمراً، كقولهم السابق، بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضرباً من التشفي بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم في تلك الورطة.

ومنها: الالتفات من التكلم إلى الغيبة الذي هو الاسم الجليل في قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ﴾ لتهويل الخطب وتربية المهابة.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار ثانياً في قوله: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ﴾ لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين والمؤمنات توفية لكل من مقامي الوعيد والوعد حقه.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ بين الحمل وغايته للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

تنبيه: ذكر سبحانه في هذه السورة الكثير من شؤون الزوجية، وكيف تعامل الزوجات، وقد رأينا أن نذكر هنا مسألتين كثر الخوض فيهما من أرباب الأديان

الأخرى، ومن نابتة المسلمين الذين تعلموا في مدارسهم، وسمعوا كلام المبشرين، ظناً منهم أنهم وجدوا مغمزاً في الإسلام، وأصابوا هدفاً يصمي الدين، ويجعل معتنقيه مضغة في أفواه السامعين، وأنى لهم ذلك، وليتهم فكروا وتأملوا قبل أن يتكلموا:

أَرَىٰ ٱلْعَنْقَاءَ تَكْبُرُ أَنْ تُصَادَا ... فَعَانِدْ مَنْ تُطِيْقُ لَهُ عِنَادَا

١ ـ تعدد زوجاته ﷺ وكثرتهن، بينما لم يبحْ مثل ذلك لأمته.

٢ ـ إباحة تعدد الزوجات لعامة المسلمين، ومن ثم وجب علينا أن نميط اللثام عن الأسباب التي دعت إلى كل منهما.

أسباب تعدد زوجاته ﷺ

قبل أن ندخل في تفاصيل البحث نذكر لك أنَّ النبي ﷺ عاش مع خديجة خمساً وعشرين سنة، لم يتزوج سواها، وكانت سنه إذ ذاك ناهزت الخمسين، وكان قد تزوجها في شرخ شبابه؛ إذ كانت سنه وقتئذ خمساً وعشرين سنة، وكانت سنها أربعين، وعاشا معاً عيشاً هنيئاً، شعاره الإخلاص والوفاء، وكانت من أكبر أنصاره على الكفار الذين سخروا منه، وألحقوا به ضروباً شتى من الأذى، ولم يشأ أن يتزوج غيرها مع ما كان يبيحه له عرف قومه، بل ظل وفياً لها حتى توفيت، فحزن عليها حزناً شديداً، وسمي عام وفاتها: عام الحزن، ولم ينقطع عن ذكراها طوال حياته.

والآن حق علينا أن نذكر لك الأسباب التي حدت النبي ﷺ إلى التعدد، وهي قسمان: أسباب عامة، وأسباب خاصة.

الأسباب العامة

١ ـ إن رسالة النبي ﷺ عامة للرجال والنساء، ومن التشريع ما هو مشترك بين الرجل والمرأة، وما هو خاص بأحدهما، وكل يحتاج في تلقينه إلىٰ عدد ليس بالقليل؛ لتفرق المرسل إليهم، وكثرتهم، وقصر زمن حياة الرسول، وكثرة الأحكام وإلا لم يحصل التبليغ على الوجه الأتم. ومن الأحكام المتعلقة بالنساء ما تستحي المرأة أن تعرفه من الرجل، ويستحي الرجل من تبليغه للمرأة، ألا ترى إلى ما روي

عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت يزيد الأنصاري قالت للنبي ﷺ: كيف أغتسل من الحيض؟ قال: «خذي فرصة ممسكة ـ قطعة قطن ـ فتوضئي» قالها ثلاثاً، وهو في كل ذلك يقول: «سبحان الله» عند إعادتها السؤال، ثم أعرض عنها بوجهه استحياء، فأخذتها عائشة، وأخبرتها بما يريد النبي ﷺ.

ومن ثَمَّ وجب أن يتلقى الأحكام الخاصة بالنساء من الرسول ﷺ عدد كثير منهن، وهن يبلِّغن ذلك إلى النساء، ولا يصلح للتلقي عنه إلا أزواجه؛ لأنهن لهن خصائص تمكنهن من معرفة أغراض النبي ﷺ دون تأفُّف ولا استحياء، يرشد إلى ذلك قوله ﷺ: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» يريد عائشة رضي الله عنها والعرب تقول: امرأة حمراء؛ أي: بيضاء.

٢ ـ إن المصاهرة من أقوى عوامل التآلف والتناصر، كما هو مشاهد معروف، والدعوة في أول أمرها كانت في حاجة ماسة، إلى الإكثار من ذلك؛ لاجتذاب القبائل إليه، ومؤازرتهم له لذود عوادي الضالين، وكفِّ أذاهم عنه، ومن ثَمَّ كان أكثر زوجاته من قريش سيدة العرب.

٣ ـ إن المؤمنين كانوا يرون أنَّ أعظم شرف، وأمتن قربة إلى الله تعالى مصاهرتهم لنبيه، وقربهم منه، فمن ظفر بالمصاهرة.. فقد أدرك ما يرجو، ألا ترى أن عمر رضي الله عنه أسف جد الأسف حين فارق رسول الله ﷺ ابنته، وقال: لا يعبأ بعدها بعمر، ولم ينكشف عنه الهم حتى روجعت، وأنَّ علياً كرم الله وجهه على اتصاله برسول الله ﷺ من طريق النسب، وشرف اقترانه بالزهراء، رغب في أن يزوجه أخته أم هانىء بنت أبي طالب؛ ليتضاعف شرفه ولم يمنعها من ذلك إلا خوفها أن تقصِّر في القيام بحقوق الرسول مع خدمة أبنائها.

الأسباب الخاصة

١ ـ تزوج النبي ﷺ بعد خديجة سودة بنت زمعة أرملة السكران بن عمرو الذي أسلم، واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة هرباً من اضطهاد المشركين، ومات هناك، وأصبحت امرأته بلا معين، وهي أرمل رجل مات في سبيل الدفاع عن الحق، فتزوجها النبي ﷺ وفاء لرجل غادر الأهل والأوطان احتفاظاً بعقيدته، وقد شاركته هذه الزوجة في أهوال التغريب والنفي، وحماية لها من أهلها أن يفتنوها؛

لأنها مع زوجها على غير رغبتهم.

٢ ـ تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، وعمرها زهاء خمسين عاماً، وكان زواجه منها سبباً في دخول خالد بن الوليد في دين الله، وهو المجاهد الكبير، والبطل العظيم، وهو الذي غلب الروم على أمرهم فيما بعد، وله في الإسلام أيام غر محجلة إلى أن زواجها بالنبي ﷺ يسر لذوي قرباها وسيلة للعيش، فطعموا من جوع، وأمنوا من مخوف، وأثروا بعد فاقة.

٣ ـ تزوج جويرية، وكان أبوها الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق بن خزاعة، جمع قبل إسلامه جموعاً كثيرة لمحاربة النبي ﷺ، ولما التقى الجمعان عرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام فأبوه، فحاربهم حتى هزموا، ووقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها على سبع أواق من الذهب، فلم تر معيناً لها غير النبي ﷺ، فجاءت إليه، وأدلت بنسبها، وطلبت حريتها، فتذكر النبي ﷺ ما كان لأهلها مع العز والسؤدد، وما صاروا إليه بسوء التدبير والعناد، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ما عليها من نجوم، ثم تزوجها، فقال المسلمون بعد أن اقتسموا بني المصطلق: إن أصهار رسول الله لا يسترقون، وأعتقوا من بأيديهم من سبيهم، وعلى إثر ذلك أسلم بنو المصطلق شكراً لله على الحرية بعد ذل الكفر والأسر.

٤ ـ تزوج السيدة عائشة مكافأة لأبي بكر الصديق؛ إذ كان شديد التمسك برسول الله ﷺ، مولعاً بالتقرب منه، فكان ذلك قرة عين لها ولأبويها، وفخراً لذوي قرباها، وكان عبد الله بن الزبير ـ ابن أختها ـ يفاخر بني هاشم بذلك.

٥ ـ تزوج أم المؤمنين حفصة بنت عمر مكافأة لزوجها الذي توفي مجروحاً في وقعة بدر، وفي تلك الحقبة كانت السيدة رقية بنت الرسول ﷺ وزوج عثمان قد توفيت، فعرض عمر ابنته على عثمان، فأعرض عنها رغبة في أم كلثوم بضعة الرسول ﷺ؛ ليستديم له بذلك الشرف، فعز هذا على عمر، وأنفت نفسه، فشكاه إلى أبي بكر، فقال له: لعلها تتزوج من هو خير منه، ويتزوج من هي خير منها له. [يريد زواج عثمان بأم كلثوم، وزواج حفصة بالنبي ﷺ].

٦ ـ تزوج صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير، وكانت قد وقعت في السبي مع عشيرتها، فأراد النبي ﷺ أن يتزوجها رأفة بها؛ إذ ذلت بعد عزة،

واسترقت، وهي السيدة الشريفة عند أهلها، وتأليفاً لقومها حتى يدخلوا في كنف الإسلام، وينضووا تحت لوائه.

٧ ـ تزوَّج زينب بنت جحش الأسدية لإبطال عادة جاهلية كانت متأصلة عند العرب، وهي التبني، بتنزيل الدعيِّ منزلة الابن الحقيقيِّ، وإذ أراد الله سبحانه إبطال هذه العادة.. جعل رسوله ﷺ أسوةً حسنةً في هذا، فسعىٰ في تزويج زيد مولاه بعد أن أعتقه بزينب ذات الحسب والمجد، فأنفت هي وأخوها عبد الله، وأبت أن تكون زوجاً لدعيٍّ غير كفء، فنزل الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فرضيا بقضاء الله ورسوله، غير أنها كانت نافرة من هذا القران، مترفعة عن زيد، ضائقة به ذرعاً، فآثر فراقها، فسأل الرسول ﷺ الإذن في ذلك، فقال له: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، وأخفى في نفسه ما الله مبديه من تزوجه منها بعد زيد، وخشي أن يقول الناس: تزوج محمد من زوجة زيد ابنه، ولما لم يبق لزيد فيها شيء من الرغبة.. طلَّقها، فتزوجها النبي ﷺ إبطالاً لتلك العادة، وهي إعطاء المتبنىٰ حكم الابن، وقد تقدم تفصيل هذا في أثناء التفسير بشيء من البسط والإيضاح.

ومما سلف يستبين لك أن ما يتقوَّله غير المنصفين من الغربيين من أن النبي ﷺ خول لنفسه ميزة لم يعطها لأحد من أتباعه، لا وجه له من الصحة، فإن زواجه بأمهات المؤمنين كان لأغراضٍ اجتماعية اقتضتها الدعوة، ودعا إليها حب النصرة، ولا سيما إذا علم أنَّه لم يتزوج بكراً قط إلا عائشة، وأنه تزوج من أمهات من كن في سن الكهولة أو جاوزتها.

أسباب إباحة تعدد الزوجات في الإسلام

يجدر بذوي الحصافة في الرأي أن ينظروا إلى الأسباب التي دعت أن يبيح الإسلام تعدد الزوجات، دون أن ينقموا عليه ذلك، ويرموه بالقسوة، فإن في بعضها ما هو موجب للتعدد، لا مجيز له فحسب، وهاك أهم الأسباب:

١ ـ قد تصاب المرأة أحياناً بمرض مزمن، أو مرض معد يجعلها غير قادرة على القيام بواجبات الزوجية، فيضطر الرجل إلى أن يقترف ما ينافي الشرف والمروءة، ويغضب الله ورسوله إن لم يبح له أن يتزوج أخرىٰ.

٢ ـ دل الاستقراء على أن عدد النساء يربو على عدد الرجال، لما يعانيه هؤلاء من الأعمال الشاقة التي تنهك القوى، وتضوي الأجسام، ولا سيما الحروب الطاحنة، فإذا منع التعدد.. لا يجد بعض النساء أزواجاً يحصنونهن ويقومون بشؤونهن، فيكثر الفساد، ويلحق الأسر العار، وتعضهن الحياة بأنيابها.

٣ ـ حضت الشريعة الإسلامية على كثرة النسل؛ لتقوى شوكة الإسلام، وتعلو سطوته، وتنفذ كلمته، حتى ترهبه الأعداء، وتتقيه الأمم المناوئة له، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بإباحة تعدد الزوجات؛ لأن المنع مفض إلى تناقص النسل، ولا أدل على ذلك من أن عقلاء الأمم في الغرب أشفقوا على أممهم لما اعتراها من نقص في النسل بسبب منع التعدد من ناحية، وإحجام كثير من شبانهم عن الزواج، والاجتزاء بالسفاح فراراً من حقوق الزوجية، وأعباء الأولاد من ناحية أخرى، ومن ثَمَّ لجأ كثير من الدول الغربية إلى ارتباط بعضهم ببعض بالحلف والعهود والمواثيق، طلباً لنيل فائدة التكاثر، وبذلك تبقى لهم السيادة الدولية.

٤ ـ دل الإحصاء في كثير من البلاد الغربية على أنَّ حظر تعدد الزوجات أدى إلى كثرة الأولاد غير الشرعيين، مما حدا بعض المفكِّرين إلى النظر في توريثهم.

٥ ـ كان من نتائج منع التعدد انتشار كثير من الأمراض الفتاكة التي أصابت الرجال والنساء والأطفال، حتى عجز الطب عن مكافحتها، وتغلغل الداء، وعز الدواء، مما جعل بعض البلاد تسن القوانين التي تمنع عقد الزواج إلا بعد إحضار صك رسميٍّ بخلو الزوجين من الأمراض المعدية، والأمراض التي تجعل النسل ضعيفاً ضاوياً، لا يستطيع الكفاح في الحياة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة من أغراض ومقاصد

وجملة ما تضمنت هذه السورة:

١ ـ الأمر بتقوى الله سبحانه، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين.

٢ ـ وجوب اتباع ما ينزل به الوحي مع ضرب المثل لذلك.

٣ ـ إبطال العادة الجاهلية، وهي إعطاء المتبنى حكم الابن، وبيان أن الدين منه براء.

٤ ـ إبطال التوريث بالحلف، والتوريث بالهجرة، وإرجاع التوريث إلى الرحم والقرابة.

٥ ـ ذكر النعمة التي أنعم بها عليهم في وقعة الخندق بعد أن اشتدَّ بهم الخطب.

٦ ـ تخيير النبي نساءه بين شيئين: الفراق إذا أردن زينة الحياة الدنيا، والبقاء معه إذا أحببن الله ورسوله والدار الآخرة.

٧ ـ التشديد عليهن بمضاعفة العذاب إذا ارتكبن الفواحش، ونهيهن عن الخضوع في القول، وأمرهن بالقرار في البيوت، وتعليمهن كتاب الله وسنة رسوله، ونهيهن عن التبرج.

٨ ـ قصة زينب بنت جحش وزيد مولى رسول الله ﷺ.

٩ ـ ما أحل الله سبحانه لنبيه من النساء، وتحريم الزواج عليه بعد ذلك.

١٠ ـ النهي عن إيذاء المؤمنين للنبي ﷺ إذا دخلوا بيته لطعام ونحوه.

١١ ـ الأمر بكلام أمهات المؤمنين من وراء حجاب إذا طلب منهن شيء، إلا الآباء والأبناء والأرقاء.

١٢ ـ أمرهن بإرخاء الجلباب إذا خرجن لقضاء حاجة.

١٣ ـ تهديد المنافقين وضعاف الإيمان والمرجفين في المدينة.

١٤ ـ سؤال المشركين عن الساعة متى هي؟

١٥ ـ النهي عن إيذاء النبي ﷺ، حتى لا يكونوا كبني إسرائيل الذين آذوا موسى.

١٦ ـ عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة سبأ

سورة سبأ مكية، قال القرطبي: في قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ...﴾ الآية، فقالت فرقة: هي مكية، وقالت فرقة: هي مدنية.

وآيها: أربع وخمسون. وكلماتها: ثمان مئة وثلاث وثلاثون كلمة. وحروفها: ألف وخمس مئة واثنا عشر حرفاً.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة سبأ كلها محكمة إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ الآية، نسخها الله تعالى بآية السيف، وسميت سورة سبأ؛ لذكر قصة سبأ فيها.

المناسبة: ووجه اتصالها بما قبلها[(١)]:

١ ـ أن الصفات التي أجريت على الله في مفتتحها تشاكل الصفات التي نسبت إليه في مختتم السورة السالفة.

٢ ـ أنه في السورة السابقة ذكر سؤال الكفار عن الساعة استهزاءً، وهنا حكى عنهم إنكارها صريحاً، وطعنهم على من يقول البعث، وقال هنا ما لم يقله هناك.

وقال أبو حيان: وسبب نزولها: أن[(٢)] أبا سفيان قال لكفار مكة ـ لما سمعوا ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ ـ: إن محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت، ويخوِّفنا بالبعث، واللاتِ والعزى لا تأتينا الساعة أبداً، ولا نبعث، فقال الله: قل يا محمد ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾. قاله مقاتل.

وباقي السورة تهديد لهم وتخويف، ومن ذكر هذا السبب ظهرت المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

فضلها: وروي في فضلها[1]: أنه ﷺ قال: «من قرأ سورة سبأ.. لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً، ولكن لا أصل له صحيح، وسميت سورة سبأ لذكر قصة سبأ فيها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الخازن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا
يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧)
أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ
يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ
عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا
فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا
صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ
الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ
السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا
آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا
دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي
الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السورة التي قبلها، فلا عود ولا إعادة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

الآيات لما قبلها: أن الله[1] سبحانه وتعالى لما بيَّن أنَّ له الحمد في الآخرة على ما أسدى إلى عباده من النعم.. أردف ذلك ببيان أنَّ كثيراً منهم ينكرها أشد الإنكار، ويستهزء بمن يثبتها ويعتقد أنها ستكون، وقد بلغ من تهكمهم أنهم يستعجلون مجيئها ظناً منهم أنَّ هذه خيالات، بل أضغاث أحلام. وقد ذكر أنَّ مجيئها ضربة لا زب، لتجزى كل نفس بما تسعى من خير أو شر، ثم أعقب هذا ببيان أنَّ الناس فريقان: مؤمن بآيات ربه، يرى أنها الحق، وأنها تهدي إلى الصراط المستقيم، ومعاند جاحد بها، يسعى في إبطالها، ومآل أمره العذاب الأليم على ما دسَّ به نفسه من قبيح الخلال.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لمَّا[2] بين أنهم أنكروا الساعة، ورد عليهم ما قالوا، وأكده كل التأكيد، ثم ذكر ما يكون إذ ذاك من جزاء المؤمن بالثواب العظيم على ما عمل من صالح الأعمال، وجزاء الساعي في تكذيب الآيات بالتعذيب في الجحيم على ما دسَّ به نفسه من اجتراح المعاصي، وفاسد المعتقدات.. أردف ذلك بذكر مقال للكافرين ذكروه تهكماً واستهزاءً، ثم ذكر الدليل على صحة البعث بخلق السموات والأرض، ثم توعدهم على تكذيبهم بأشد الوعيد لعلهم يرجعون عن عنادهم، ويثوبون إلى رشادهم.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنَّ في خلق السموات والأرض آية لكل من أناب إلى الله تعالى ورجع إليه.. أردف ذلك بذكر بعض من أنابوا إلى ربهم، فأنعم عليهم بما آتاهم من الفضل المبين، ومن جملتهم: داود عليه السلام، فقد جمع الله له النبوة والملك والجنود ذوي العَدد والعُدد، ومنحه الصوت الرخيم، فكان إذا سبح تسبح معه الجبال الراسيات، وتقف له الطيور الراسيات، وعلمه سرد الدروع؛ لتكون عدة للمقاتلين، درءاً للمجاهدين.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما منَّ به على داود من النبوة والملك..

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

أردف ذلك بذكر ما تفضل به على ابنه سليمان من تسخير الريح، فتجري من الغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر، وإذابة النحاس على نحو ما كان لداود من إلانة الحديد، وتسخير الجن عملة بين يديه، يعملون له شتى المصنوعات، من قصور شامخات، وصور من نحاس، وجفان كبيرة كالأحواض، وقدور لا تتحرك لعظمها؛ إذ كل منهما أناب إلى ربه، وجال بفكره في ملكوت السموات والأرض، وكان من المؤمنين المخبتين الذين هم على ربهم يتوكلون.

وعبارة أبي حيان هنا[1]: مناسبة قصة داود وسليمان عليهما السلام لما قبلها: هي أن أولئك الكفار أنكروا البعث لاستحالته عندهم، فأخبروا بوقوع ما هو مستحيل في العادة مما لا يمكنهم إنكاره؛ إذ طفحت ببعضه أخبارهم وشعراؤهم على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى، من تأويب الجبال والطير مع داود، وإلانة الحديد، وهو الجرم المستعصي، وتسخير الريح لسليمان، وإسالة النحاس له، كما ألان الحديد لأبيه، وتسخير الجن فيما شاء من الأعمال الشاقة.

وقيل: لما ذكر من ينيب من عباده.. ذكر من جملتهم داود، كما قال: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾ وبيَّن ما آتاه الله على إنابته، فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾، وقيل: ذكر نعمته على داود وسليمان عليهما السلام احتجاجاً على ما منح محمداً ﷺ؛ أي: لا تستبعدوا هذا، فقد تفضلنا على عبيدنا قديماً بكذا وكذا. فلما فرغ التمثيل لمحمد ﷺ.. رجع إلى التمثيل لهم بسبأ، وما كان من هلاكهم بالكفر والعتو انتهى.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ بأقسامه الأربعة مستحق ﴿لِلَّهِ﴾ فلا تكون لغيره سبحانه. واعلم[2] أنَّ الألف واللام في الحمد؛ إما للجنس، أو للاستغراق، أو للعهد، وعلى كلٍّ منها، فاللام في ﴿لِلَّهِ﴾ إما للملك، أو للاستحقاق، أو للاختصاص، فهذه ثلاثة في الثلاثة الأولى بتسع احتمالات: والأولى منها كون الألف واللام للجنس، واللام

---

(١) البحر المحيط. (٢) سلم المعراج.

للاستحقاق؛ لأنه يلزم من استحقاق الجنس استحقاق الأفراد من باب الأولى، والمعنى حينئذ: جنس الحمد بجميع أفراده وأنواعه مستحق لله تعالى

فإن قلت: لِمَ اختيرت كلمة الحمد دون الشكر حيث لم يقل الشكر لله؟

قلت: اختيرت كلمة الحمد على الشكر؛ لأن الحمد يعم الفضائل والفواضل دون الشكر، فإنه يختص بالفواضل.

وإن قلتَ: لِمَ اختيرت كلمة الجلالة دون الرحمٰن وغيره من الأسماء، حيث لم يقل الحمد للرحمٰن مثلاً؟

قلتُ: اختيرت الجلالة دون سائر الأسماء والصفات لدلالتها على صفتي الجلال والجمال، وعلى استحقاقه الحمد لذاته؛ لئلا يتوهم اختصاصه بصفة دون أخرى؛ لأن تعليق الحكم بمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق. وقد بسطت الكلام على الحمدلة، وعلى الصور الجارية فيها إلى أن وصلت بمئة وثمانين صورة في بعض مؤلفاتي كـ«سلم المعراج على خطبة المنهاج»، و «فتح الملك العلام على عقيدة العوام»، فراجعه إن أردت الخوض فيها.

أي: جميع[1] أفراد المدح والثناء والشكر من كل حامد وشاكر ملك لله تعالى، ومخصوص به، لا شركة لأحد فيه؛ لأنه الخالق والمالك، كما قال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ خاصة خلقاً وملكاً وتصرفاً بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي[2]: جميع الموجودات، فإليه يرجع الحمد لا إلى غيره، وكل مخلوق أجرى عليه اسم المالك، فهو مملوك له تعالى في الحقيقة؛ لأن الزنجي لا يتغير عن لونه؛ لأن سمي كافوراً، والمراد: على نعمه الدنيوية، فإنَّ السموات والأرض وما فيهما خلقت لانتفاعنا، فكلها نعمة لنا ديناً ودنيا، فاكتفي بذكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذكر كون الحمد أيضاً فيها. وقد صرح في موضع آخر، كما قال: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، وهذا القول؛ أي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ إلخ، وإن كان حمداً لذاته بذاته، لكنه تعليم للعباد كيف يحمدونه، فكأنه قال: قولوا يا عبادي: الحمد لله... إلخ، إذا أردتم ثنائي وشكري.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي الحمد الكامل للمعبود المالك لجميع ما في السموات وما في الأرض، دون كل ما يعبدونه، ودون كل شيء سواه؛ إذ لا مالك لشيء من ذلك غيره.

والخلاصة: أن له عز وجل جميع ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً، وتصرفاً بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة.

وعبارة «الشوكاني» هنا: ومعنى[2]: ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي جميع ما هو فيها في ملكه، وتحت تصرفه، يفعل به ما يشاء، ويحكم فيه بما يريد، وكل نعمة واصلة إلى العبد، فهي مما خلقه له، ومنَّ به عليه، فحمده على ما في السموات والأرض هو حمد له على النعم التي أنعم بها على خلقه مما خلقه لهم.

ولما بيَّن أن الحمد الدنيوي من عباده الحامدين له مختص به.. بيَّن أن الحمد الأخروي مختص له كذلك، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾، فهو بيان لاختصاص الحمد الأخروي به تعالى إثر بيان اختصاص الدنيوي به على أن الجار؛ إما متعلق بنفس الحمد، أو بما يتعلق به الخبر من الاستقرار، وإطلاقه عن ذكر ما يشعر المحمود عليه ليعم النعم الأخروية، كما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾، وما يكون ذريعة إلى نيلها من النعم الدنيوية، كما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾؛ أي: لما جزاؤه هذا من الإيمان والعمل الصالح.

والمعنى: أن له سبحانه على الاختصاص حمد عباده الذين يحمدونه في الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة. وقد قيل[3]: يحمده أهل الجنة في ستة مواضع:

أحدها: حين نودي ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فإذا ميِّز المؤمنون من الكافرين يقول المؤمنون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كما قاله نوح عليه السلام حين أنجاه الله من قومه.

والثاني: حين جاوزوا الصراط قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

والثالث: حين دنوا إلى باب الجنة، واغتسلوا بماء الحياة، ونظروا إلى الجنة قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾.

والرابع: حين دخلوا الجنة، واستقبلتهم الملائكة بالتحية قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾.

والخامس: حين استقروا في منازلهم قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾.

والسادس: كلما فرغوا من الطعام قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

والفرق بين الحمدين مع كون نعمتي الدنيا والآخرة على طريق التفضل[1]: أن الأول: على نهج العبادة، والثاني: على وجه التلذذ، كما يتلذذ العطشان بالماء البارد لا على وجه الفرض والوجوب. وقد ورد في الخبر: «أنهم يلهمون التسبيح، كما يلهمون النفس» والمعنى: أنَّ الحمد في الدنيا عبادة، وفي الآخرة تلذذ وابتهاج؛ لأنه قد انقطع التكليف فيها.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدين والدنيا والآخرة، ودبَّرها حسبما تقتضيه الحكمة، وتستدعيه المصلحة ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾؛ أي: بليغ الخبرة والعلم ببواطن الأشياء ومكنوناتها.

ثم بيَّن كونه خبيراً بقوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا يَلِجُ﴾ ويدخل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من البذور والغيث، ينفذ في موضع، وينبع من آخر، ومن الكنوز والدفائن، والأموات، والحشرات، والهوام، ونحوها. وأيضاً: يعلم ما يدخل في أرض البشرية بواسطة الحواس الخمس، والأغذية الصالحة والفاسدة من الحلال والحرام، ﴿و﴾ يعلم ﴿ما يخرج منها﴾؛ أي: من الأرض، كالحيوان من حجره، والزرع والنبات، وماء العيون، والغازات، والمعادن التي مضى عليها آلاف السنين، ومخلفات الأمم ومصنوعاتهم؛ كمخلفات المصريين القدماء، ونقوش آشور وبابل، وعجائب أهل سبأ وصناعاتهم، مما استخرجه علماء العاديات من الأوروبيين في القرن الماضي، والعصر الحاضر، ولا يزالون كل يوم يكشفون جديداً يدل على أن

---

(١) روح البيان.

الشرق كان ذا مدنيَّة وحضارة لا يدانيها أعظم ما يوجد في الغرب الآن في أرقى ممالكه، وكالأموات عند الحشر ونحوها، وأيضاً: يعلم ما يخرج من أرض البشرية من الصفات المتولدة منها، والأعمال الحسنة والقبيحة.

﴿و﴾ يعلم ﴿ما ينزل من السماء﴾ كالملائكة، والكتب، والمقادير، والأرزاق، والبركات، والأمطار، والثلوج، والبرد، والأنداء، والشهب، والصواعق ونحوها.

وأيضاً: يعلم ما ينزل من سماء القلب من الفيوض الروحانية، والإلهامات الربانية.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَنزِلُ﴾ بفتح الياء وتخفيف الزاي مسنداً إلى ﴿مَا﴾. وقرأ علي بن أبي طالب والسلمي بضم الياء وتشديد الزاي مسنداً إلى الله سبحانه.

﴿و﴾ يعلم ﴿ما يعرج﴾ ويصعد ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في السماء، كالملائكة والأرواح الطاهرة، والأبخرة والأدخنة، والدعوات، وأعمال العباد، والطائرات والمطاود الجوية، وأيضاً: يعلم ما يعرج في سماء القلب من آثار الفجور والتقوى، وظلمة الضلالة، ونور الهدى. ولم[2] يقل: إليها؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى هو المنتهى لا السماء، ففي ذكر ﴿في﴾ إعلام بنفوذ الأعمال فيها، وصعودها منها إليه تعالى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الرَّحِيمُ﴾ للحامدين، ولمن تولاه ﴿الْغَفُورُ﴾ للمقصِّرين، ولذنوب أهل ولايته؛ أي: وهو مع كثرة نعمه، وسبوغ فضله، رحيمٌ بعباده، فلا يعاجل بعقوبة، غفورٌ لذنوب التائبين إليه، المتوكلين عليه.

فإذا كان الله متصفاً بالخلق والملك[3]، والتصرف والحكمة، والعلم والرحمة، والمغفرة، ونحوها من الصفات الجليلة.. فله الحمد المطلق، والحمد: هو الثناء على الجميل الاختياري من جهة التعظيم من نعمة وغيرها، كالعلم والكرم، وأما قولهم: الحمد لله على دين الإسلام، فمعناه: على تعليم الدين

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

وتوفيقه، والحمد القولي: هو حمد اللسان وثناؤه على الحق بما أثنى به نفسه على لسان أنبيائه، والحمد الفعلي هو الإتيان بالأعمال الصالحة البدنية ابتغاءً لوجه الله تعالى، والحمد الحاليُّ هو الاتصاف بالمعارف والأخلاق الإلهية، والحمد عند المحنة: الرضى عن الله فيما حكم به، وعند النعم: الشكر، فيقال في الضراء: الحمد لله على كل حال، نظراً إلى النعمة الباطنة دون الشكر لله خوفاً من زيادة المحنة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، والحمد على النعمة، كالروح للجسد، فلا بد من إحيائها، وأبلغ الكلمات في تعظيم صنع الله، وقضاء شكر نعمته: الحمد لله، ولذا جعلت زينةً لكل خطبة، وابتداءٍ لكل مدحة، وفاتحةً لكل ثناء، وفضيلةً لكل سورة، ابتدئت بها على غيرها. وفي الحديث: «كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله، فهو أجذم»؛ أي: أقطع فله الحمد قبل كل كلام بصفات الجلال والإكرام.

قال في «فتوح الحرمين»:

أَحْسَنُ مَا اهْتَمَّ بِهِ ذَوُوْ الْهِمَمِ ذِكْرٌ جَمِيْلٌ لِوَلِيِّ النِّعَمِ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد بهؤلاء القائلين: جنس الكفرة على الإطلاق، أو كفار مكة على الخصوص، ومعنى قوله: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أنها لا تأتي بحال من الأحوال إنكاراً منهم لوجودها، لا لمجرد إتيانها في حال تكلمهم، أو حال حياتهم، مع تحقق وجودها فيما بعد، وعبَّر عن القيامة بالساعة تشبيهاً لها بالساعة التي هي جزء من أجزاء الزمان؛ لسرعة حسابها. قال في «الإرشاد»: أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة، لا أنفسهم أو معاصرهم فقط، كما أرادوا بنفي إتيانها وجودها بالكلية، لا عدم حضورها مع تحققها في نفس الأمر، وإنما عبروا عنه بذلك؛ لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها، ولأن وجود الأمور الزمانية المستقبلة لا سيما أجزاء الزمان لا تكون إلا بالإتيان والحضور، وردَّ الله سبحانه عليهم، وأمر رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم، وإثبات لما نفوه من إتيان الساعة على معنى ليس الأمر إلا إتيانها ﴿وَرَبِّي﴾ الواو فيه للقسم، أتى به لتأكيد الإتيان؛ أي: أقسمت بربي، ومالك أمري ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الساعة ألبتة، وهو تأكيد لما قبله.

قرأ الجمهور[1]: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ بتاء التأنيث؛ أي: لتأتينكم الساعة التي أنكرتم مجيئها، وقرأ طلق المعلم عن أشياخه بياء الغيبة على معنى: ليأتينكم البعث؛ لأنه مقصودهم من نفي الساعة؛ أي: أنهم لا يبعثون، أو على معنى: ليأتينكم يوم القيامة، أو على إسناده إلى الله على معنى: ليأتينكم أمر عالم الغيب على حد قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾؛ أي: أمره، ويبعد أن يكون الضمير للساعة لأن إجراء المؤنث المجازي مجرى المذكر لا يكون إلا في الشعر نحو قوله:

وَلاَ أَرْضٌ أَبْــقَــلَ إِبْــقَــالَــهَــا

ثم بعد أن أكد الجواب بالقسم على البعث، أتبع القسم بقوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ وما بعده ليعلم أنَّ إتيانها من الغيب الذي تفرد به سبحانه وتعالى، وجاء القسم بقوله: ﴿وَرَبِّي﴾ مضافاً إلى الرسول ليدل على شدة القسم؛ إذ لم يأت به في الاسم المشترك بينه وبين من أنكر الساعة، وهو لفظ الله.

وقرأ نافع وابن عامر ورويس وسلام والجحدري وقعنب: ﴿عالم﴾ بالرفع على إضمار: هو، وجوز الحوفي وأبو البقاء أن يكون مبتدأ، والخبر ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾ وقال الحوفي: أو خبره محذوف؛ أي: عالم الغيب هو، وقرأ باقي السبعة: ﴿عَٰلِمِ﴾ بالجر على أنه بدل من ﴿رَبِّي﴾، أو نعت له. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي ﴿علام﴾ على المبالغة والخفض، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ تشديد للتأكيد بالقسم، كما مر، يريد[2] أن الساعة من الغيوب، والله عالم بكلها، والغيب: ما غاب عن الخلق على ما قال بعضهم: العلقة: غيب في النطفة، والمضغة: غيب في العلقة، والإنسان: غيب في هذا كله، والماء: غيب في الهواء، والنبات: غيب في الماء، والحيوان: غيب في النبات، والإنسان: غيب في هذا كله، والله سبحانه وتعالى قد أظهر من هذه الغيوب، وسيظهره بعد ما كان غيباً في التراب. وفائدة الأمر باليمين: أن لا يبقى للمعاندين عذرٌ أصلاً لما أنهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب، فضلاً عن اليمين الفاجرة، وإنما لم يصدقوه مكابرة، وهذا الكفر والتكذيب طبيعة النفوس الكاذبة المكذبة، فمن وكله الله بالخذلان إلى طبيعة نفسه.. لا يصدر منه إلا الإنكار، ومن نظره الله إلى قلبه بنظر العناية.. فلا يظهر

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

منه عند سماع قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ إلا الإقرار والنطق بالحق.

ومعنى قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ تعالى؛ أي: لا يبعد عن علمه، ولا يغيب، ولا يستتر عليه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: وزن نملة صغيرة، أو مقدار الهباء كائنة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، وفيه إشارة إلى علمه بالأرواح والأجسام ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ المثقال ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ منه. ورفعهما على الابتداء، فلا وقف عند ﴿أَكْبَرُ﴾، والخبر: قوله تعالى: ﴿إِلَّا﴾ هو مسطور ومثبت ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ المظهر لكل شيء، وإنما كتب جرياً على عادة المخاطبين، لا مخافة نسيان، وليعلم أنه لم يقع خللٌ وإن أتى عليه الدهر، والجملة مؤكِّدة لنفي العزوب، والمعنى: إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ الذي اشتمل على معلومات الله تعالى.

فإن قيل: فأيُّ حاجة إلى ذكر الأكبر، فإن مَنْ علم الأصغر من الذرة لا بدَّ وأن يعلم الأكبر؟

فالجواب: أن المراد من هذا الكلام بيان إثبات الأمور في الكتاب، فلو اقتصر على الأصغر.. لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر؛ لكونها محل النسيان، وأمَّا الأكبر.. فلا ينسى، فلا حاجة إلى إثباته فقال: الإثبات في الكتاب ليس كذلك، فإن الأكبر مكتوب فيه أيضاً. اهـ «كرخي».

وقرأ الجمهور(١): ﴿يَعْزُبُ﴾ بضم الزاي، وقرأ يحيى بن وثاب بكسرها، قال الفراء: والكسر أحبُّ إليَّ، وهما لغتان يقال: عزب يعزب بالضم، ويعزب بالكسر: إذا بعد وغاب. وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ برفع الراءين بالرفع على الابتداء، والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، كما مرَّ، أو على العطف على ﴿مِثْقَالُ﴾، ويكون ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ تأكيداً لما تضمن النفي في قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ تقديره: لكنه في كتاب مبين، وهو كناية عن ضبط الشيء والتحفظ به، فكأنه في كتاب وليس ثَمَّ كتاب حقيقة، وعلى التقدير الأول: الكتاب هو اللوح المحفوظ.

وقرأ قتادة والأعمش بفتح الراءين عطفاً على ﴿ذَرَّةٍ﴾ أو على أن ﴿لا﴾ هي لا

---

(١) البحر المحيط.

التبرئة التي يبنى اسمها على الفتح. وقرأ زيد بن علي: ﴿ولا أصغرِ من ذلك ولا أكبرِ﴾ بخفض الراءين بالكسرة، كأنه نوى مضافاً إليه محذوفاً، التقدير: ولا أصغره، ولا أكبره، ومن ذلك ليس متعلقاً بأفعل، بل هو بتبيين؛ لأنه لما حذف المضاف إليه أبهم لفظاً، فبينه بقوله: ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾.

قيل: قوله: ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارة إلى علمه بالأرواح، ﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى علمه بالأشباح، وكما أبرزهما من العدم إلى الوجود أولاً.. فكذلك يعيدهما ثانياً.

قيل: سبب نزول هذه الآية[1]: أن أبا سفيان قال لكفار مكة - لما سمعوا ﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ -: إن محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت، ويخوفنا بالبعث، واللاتِ والعزى لا تأتينا الساعة أبداً، ولا نبعث، فقال الله: قل يا محمد: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾، قاله مقاتل. وباقي السورة تهديد لهم وتخويف، ومن ذكر هذا السبب ظهرت به المناسبة بين هذه السورة، والسورة التي قبلها.

ومعنى الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ الخ: أي[2]: وقال الذين ستروا ما أرشدتهم إليه عقولهم من البراهين الدالة على قيام الساعة: إنه لا رجعة بعد هذه الدنيا، ولا بعث ولا حساب، إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما نحن بمبعوثين، وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم مؤكداً لهم بطلان ما يدعون: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾؛ أي: قل لهم إنها وربي لآتية لا ريب فيها.

وهذه الآية إحدى آياتٍ ثلاث أمر الله فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد حين أنكره من أنكر من أهل الشرك والعناد:

فإحداهن: في سورة يونس: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

وثانيتها: في سورة التغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

وثالثتها: ما هنا.

ثم وصف المولى نفسه بكامل العلم، وعظيم الإحاطة بالموجودات، مما يؤكِّد إمكان البعث، فقال: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ الخ؛ أي: إن وقت مجيئها لا يعلمه سوى علام الغيوب الذي لا يغيب عن علمه شيء في السموات، ولا في الأرض، من ذرة فما دونها، ولا ما فوقها، أين كانت، وأين ذهبت، فكل ذلك محفوظ في كتاب مبين، فالعظام وإن تلاشت، واللحوم وإن تفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت، وأين تفرقت، فيعيدها كما بدأها أول مرة، وهو بكل شيء عليم، ثم بيَّن الحكمة في إعادة الأجسام، وقيام الساعة بقوله:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، واللام[1] فيه علة لقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وبيان لما يقتضي إتيانها، فاللام للعلة عقلاً، وللمصلحة والحكمة شرعاً؛ أي: إتيان الساعة فائدته ومصلحته وحكمته: جزاء المؤمنين بالثواب، والكافرين بالعقاب. والإشارة بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ للموصول؛ أي: أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم؛ أي: لهم بسبب ذلك الإيمان والعمل الصالح مغفرة؛ أي: ستر ومحو لما صدر عنهم مما لا يخلو عنه البشر ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تعب فيه، ولا منَّ عليه، وهو الجنة، بخلاف رزق الدنيا، فإنه لا يأتي إلا بتسبب وتعب.

والمعنى[2]: أي يبعثهم الله سبحانه من قبورهم يوم القيامة ليثيب الذين آمنوا بالله، وعملوا بما أمرهم به، وانتهوا عما نهاهم عنه، وأولئك لهم مغفرة لذنوبهم من لدنه، وعيش هنيء في الجنة، لا تعب فيه، ولا منَّ عليه.

والخلاصة: أنَّ الحكمة تقتضي وجودها، وليس هناك مانع منها، فالعلم المحيط بالغيب موجود، فقد وجد المقتضي لوجودها، وارتفع المانع من إتيانها.

ثم ذكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند إتيان الساعة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾ واجتهدوا ﴿فِىٓ﴾ إبطال ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، وحججنا وأدلتنا التكوينية، أو التنزيلية المنزلة على الرسل بالرد والطعن فيها، وصدِّ الناس عن التصديق بها حالة كونهم ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾؛

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أي: ظانين ومقدِّرين أنهم يعجزوننا، ويفوتوننا؛ لأنهم حسبوا أن لا بعث ولا نشور، فيكون لهم ثواب وعقاب.

قال في «البحر»: ظانين في زعمهم وتقديرهم أنهم يفوتوننا، وأن كيدهم للإسلام يتم لهم.

قرأ الجمهور[1]: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مخففاً. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد ومجاهد وأبو عمرو والجحدري وأبو السمال: ﴿معجِّزين﴾ مثقلاً؛ أي: مثبطين للناس عن الإيمان بالآيات، مدخلين عليهم العجز في نشاطهم، وهذا هو معنى سعيهم في شأن الآيات، أو معجزين قدرة الله في زعمهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الساعون ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَذَابٌ﴾ عظيم ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾؛ أي: من سيء العذاب، فـ﴿مِن﴾ للبيان، ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة ﴿عَذَابٌ﴾؛ أي: شديد الإيلام. وفي «المفردات»: أصل الرجز: الاضطراب، وهو في الآية كالزلزلة، والظاهر[2] أن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾ مبتدأ، والخبر في الجملة الثانية، وهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وقيل: هو منصوب عطفاً على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، والمعنى عليه: أي وليجزي الذين سعوا في إبطال أدلتنا وحججنا عناداً منهم، وكفراً، وظنوا أنهم يسبقوننا بأنفسهم، فلا نقدر عليهم بشديد العذاب في جهنم، وبئس المهاد؛ لما اجترحوا من السيئات، ودسوا به أنفسهم من قبيح الأعمال.

وإجمال ذلك: أن الساعة آتية لا ريب فيها؛ لينعم السعداء المؤمنون، ويعذِّب الأشقياء الكافرون.

قرأ الجمهور: ﴿أليم﴾ بالجر صفة لـ﴿رِّجْزٍ﴾. وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم بالرفع صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، ونحو الآية قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم استشهد باعتراف أولي العلم ممن آمن من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار وأضرابهما بصحة ما أنزل إليه؛ ليرد به على أولئك الجهلة

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

الساعين في الآيات الذين أنكروا الساعة، فقال: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ مستأنف[1] مسوق للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات؛ أي: ويعلم أولو العلم من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن شايعهم من علماء الأمة، أو من آمن من علماء أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهما، والأول أظهر؛ لأن السورة مكية، كما في «التكملة».

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: النبوة والقرآن والحكمة، والموصول مع صلته مفعول أول لـ﴿يرى﴾. ﴿هو﴾ ضمير فصل يفيد التوكيد، كقوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. ﴿ٱلْحَقَّ﴾ بالنصب على أنه مفعول ثان لـ﴿يرى﴾، وبه قرأ الجمهور، وقرأ[2] ابن أبي عبلة بالرفع؛ جعل ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْحَقَّ﴾: خبره، والجملة في موضع المفعول الثاني لـ﴿يرى﴾، وهي لغة تميم، يجعلون ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ، قاله أبو عمر الجرمي.

وقوله: ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ عطف على ﴿ٱلْحَقَّ﴾، عطف فعل على اسم، كما في قوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾؛ أي: وقابضات، فكأنه قيل: ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك الحق، وهادياً ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ عند خلقه الذي هو التوحيد، والتوشح بلباس التقوى، وهذا يفيد رهبةً؛ لأن العزيز يكون ذا انتقام من المكذِّب، ورغبة؛ لأن الحميد يشكر على المصدِّق، والمراد: أنه يهدي إلى دين الله، وهو التوحيد.

ومعنى الآية[3]: أي وقال الجهلة المنكرون للبعث والحشر والحساب: إنه لا رجعة بعد هذه الدنيا، وقال العالمون من أهل الكتاب، ومن أصحاب رسول الله ﷺ، ومن يأتي من بعدهم من أمته: إن الذي أنزل إليك من ربك مثبتاً لقيام الساعة، ومجازاة كل عامل بما عمل من خير أو شر، هو الحق الذي لا شك فيه، وأنه هو الذي يرشد من اتبعه، وعمل به إلى سبيل الله الذي لا يغالب، ولا يمانع، وهو القاهر لكل شيء، والغالب له، وهو المحمود على جميع أفعاله وأقواله، وما أنزله

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

من شرع ودين.

وفي الآية: إيماء إلى أن دين الإسلام[1]، وتوحيد الملك العلام، هو الذي يتوصل به إلى عزة الدارين، وإلى القربة والوصلة والرؤية في مقام العين.

كما أن الكفر والتكذيب يتوصل به إلى المذمة والمذلة في الدنيا والآخرة، وإلى البعد والطرد والحجاب عما تعانيه القلوب الحاضرة، والوجوه الناظرة. قال بعض الكبار: يشير بالآية إلى الفلاسفة الذين يقولون: إن محمداً ﷺ كان حكيماً من حكماء العرب، وبالحكمة أخرج هذا الناموس الأكبر، يعنون: النبوة والشريعة، ويزعمون أن القرآن كلامه، أنشأه من تلقاء نفسه، يسعون في هذا المعنى مجاهدين جهداً تاماً في إبطال الحق، وإثبات الباطل، فلهم أسوأ الطرد والإبعاد؛ لأن القدح في النبوة ليس كالقدح في سائر الأمور، وأما الذين أوتوا العلم من عند الله تعالى موهبة منه، لا من عند الناس بالتكرار والبحث، فيعلمون أن النبوة والقرآن والحكمة هو الحق من ربهم، وإنما يرون هذه الحقيقة؛ لأنهم ينظرون بنور العلم الذي أوتوه من الحق تعالى، فإنَّ الحق لا يرى إلا بالحق، كما أن النور لا يرى إلا بالنور.

ولما كان يرى الحق بالحق.. كان الحق هادياً لأهل الحق وطالبيه إلى طريق الحق، وذلك قوله: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، فهو العزيز؛ لأنه لا يوجد إلا به، وبهدايته، والحميد؛ لأنه لا يرد الطالب بغير وجدان، كما قال: «ألا من طلبني وجدني». قال موسى عليه السلام: أين أجدك يا رب؟ قال: «يا موسى، إذا قصدت إليَّ فقد وصلت إليَّ» انتهى.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ منكري البعث، وهم كفار قريش، قالوا بطريق الاستهزاء مخاطباً بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون به النبي ﷺ، وإنما قصدوا بالتنكير الهزء والسخرية؛ أي: هل نرشدكم إلى رجل ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أي: يخبركم بأمر عجيب، ونبأ غريب، هو: ﴿أنكم إذا﴾ متم و﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ أي: وفرقت أجسادكم كل تفريق، وقطعتم كل تقطيع، وصرتم بعد موتكم رفاتاً وتراباً ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: تخلقون خلقاً جديداً وتبعثون من قبوركم أحياء،

(١) روح البيان.

وتعودون إلى الصور التي كنتم عليها أولاً، والخلق الجديد إشارة إلى النشأة الثانية.

والعامل في ﴿إِذَا﴾ محذوف دلَّ عليه ما بعده؛ أي: تنشأون خلقاً جديداً، ولا يعمل فيها مزقتم؛ لإضافتها إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا ينبئكم؛ لأن التنبئة لم تقع وقت التمزيق، بل تقدمت عليه،ولا جديد؛ لأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها.

قال هذا القول بعضهم لبعض؛ استهزاءً بما وعدهم الله على لسان رسوله من البعث، وأخرجوا الكلام مخرج التلهي به، والتضاحك مما يقوله من ذلك، كما يقول الرجل لمن يريد أن يعجبه: هل أدلك على قصة غريبة نادرة؛ لما كان البعث عندهم من المحال.. جعلوا من يخبر عن وقوعه في حيز من يتعجب منه، وأتوا باسمه عليه السلام نكرةً في قوله: هل ندلكم على رجل، وكان اسمه أشهر علم في قريش، بل في الدنيا، وإخباره بالبعث أشهر خبر؛ لأنهم أخرجوا ذلك مخرج الاستهزاء، والتحلي ببعض الأحاجي المعمولة للتلهي والتعمية، فلذلك نكروا اسمه، كما سبق.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ بالهمز والتشديد، وزيد بن علي بإبدال الهمزة ياءً محضةً، وحكى عنه الزمخشري: ﴿ينبئكم﴾ بالهمز من ﴿أنبأ﴾ ومعنى الآية: أي: وقال قريش بعضهم لبعض تعجباً واستهزاءً وتهكماً وإنكاراً: هل سمعتم برجل يقول: إنا إذا تقطعت أوصالنا، وتفرقت أبداننا، وبليت عظامنا.. نرجع كرةً أخرى أحياءً كما كنا، ونحاسب على أعمالنا، ثم نثاب على الإحسان إحساناً، ونجزى على اجتراح الآثام آلاماً بنار تلظى، تشوي الوجوه والأجسام.

وخلاصة ذلك: أنه يقول: إذا أكلتكم الأرض، وصرتم رفاتاً وعظاماً، وقطعتكم السباع والطير.. ستحيون وتبعثون، ثم تحاسبون على ما فرَّط منكم من صالح العمل وسيِّئه.

ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار أنهم رددوا ما وعدهم به رسول الله ﷺ من البعث بين أمرين، فقالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما قاله، وهذا أيضاً من كلام الكفار، وأصل[2] ﴿افترى﴾: أافترى بهمزة الاستفهام المفتوحة الداخلة على همزة

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

الوصل المكسورة للإنكار والتعجب، فحذفت همزة الوصل تخفيفاً مع عدم اللبس، والفرق بين الافتراء والكذب: أن الافتراء هو افتعال الكذب من قول نفسه، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه؛ أي: هل اختلق محمد على الله كذباً ﴿أَمْ﴾ لم يفترِ، بل ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾؛ أي: جنون يوهمه ذلك، ويلقيه على لسانه من غير قصد، والجنون: حائل بين النفس والعقل، وهذا حصر للخبر الكاذب بزعمهم في نوعيه، وهما: الكذب على عمد، وهو المعني بالافتراء، والكذب لا عن عمد، وهو المعني بالجنون، فيكون معنى ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾: أم لم يفترِ، فعبر عن عدم الافتراء بالجنة؛ لأن المجنون لا افتراء له؛ لأن الكذب عن عمد ولا عمد للمجنون، فالإخبار حال الجنة قسيم للافتراء الأخص، لا الكذب الأعم.

ثم رد عليهم سبحانه ما قالوه في رسوله، فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء كما زعموا، وهو مبرًّأ منهما، بل هؤلاء القائلون الكافرون بالحشر والنشر واقعون ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ في الآخرة ﴿و﴾ واقعون في الدنيا في ﴿ٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الصواب والهدى، بحيث لا يرجى الخلاص منه. ووصف الضلال بالبعد على الإسناد المجازي للمبالغة؛ إذ هو في الأصل وصف الضالِّ، لأنه الذي يتباعد عن المنهاج القويم، وكلما ازداد بعداً عنه.. كان أضل. وتقديم العذاب على ما يوجبه ويؤدي إليه، وهو الضلال للمسارعة إلى بيان ما يسوؤهم، وجعل العذاب والضلال محيطين بهم إحاطة الظرف بالمظروف؛ لأن أسباب العذاب معهم، فكأنهم في وسطه، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه على أنَّ علة ما اجترؤوا عليه كفرهم بالآخرة، وما فيها من فنون العقاب، ولولاه لما فعلوا ذلك خوفاً من غائلته.

وحاصل الآية[1]: إثبات الجنون الحقيقي لهم، فإن الغفلة عن الوقوع في العذاب وعن الضلال الموجب لذلك جنون أي جنون، واختلال عقل أي اختلال؛ إذ لو كان فهمهم وإدراكهم تاماً وكاملاً.. لفهموا حقيقة الحال، ولما اجترؤوا على سوء المقال.

قال بعضهم: كما أن الطفل الصغير يسبى إلى بعض البلاد، فينسى وطنه

---

(١) روح البيان.

الأصلي بحيث لو ذكر به لم يتذكر، كذلك نفس الإنسان القاسي قلبه، إن ذكر بالآخرة، وهو وطنه الأصلي لم يتذكر، ويكفر به، ويقول مستهزئاً ما يقول، ولا يتفكر أن أجزاءه كانت متفرقة حين كان هو ذرة أخرجت من صلب آدم، كيف جمع الله ذرات شخصه المتفرقة، وجعلها خلقاً جديداً، كذلك يجمع الله أجزاءه المتفرقة للبعث.

والمعنى[1]: أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل إنَّ محمداً هو البر الرشيد الذي جاء بالحق، وإنهم هم الكذبة الجهلة الأغبياء، الذين بلغوا الغاية في اختلال العقل، وأوغلوا في الضلال، وبعدوا عن الإدراك والفهم، وليس هذا إلا الجنون بعينه، وسيؤدي ذلك بهم إلى العذاب؛ إذ هم قد أنكروا حكمة الله في خلق العالم، وكذبوه في وعده ووعيده، وتعرضوا لسخطه.

ثم ذكرهم بما يعاينون مما يدلّ على كمال قدرته، وفيه تنبيه لهم إلى ما يحتمل أن يقع لهم من القوارع التي تهلكهم، وتهديد على ما اجترحوا من السيئات، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة فيه للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف[2]، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفعلوا ما فعلوا من المنكر المستتبع للعقوبة، فلم يروا ولم ينظروا ﴿إِلَىٰ مَا﴾ أحاط بهم من ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، وقدامهم ﴿و﴾ إلى ﴿ما﴾ أحاط بهم من ﴿خَلْفَهُم﴾ وورائهم حالة كون ما أحاط بهم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنهما أحاطا بهم من جميع جوانبهم، من أمامهم وخلفهم، ويمينهم وشمالهم، حيثما كانوا وساروا، بحيث لا مفر ولا مهرب لهم.

والمعنى: أنهم إذا نظروا.. رأوا السماء خلفهم وقدامهم، وكذلك إذا نظروا في الأرض.. رأوها خلفهم وقدامهم، فالسماء والأرض محيطتان بهم، فهو القادر على أن ينزل بهم ما شاء من العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسوله، وإنكارهم للبعث، فهذه الآية اشتملت على أمرين:

أحدهما: أن هذا الخلق الذي خلقه الله تعالى من السماء والأرض يدل على كمال القدرة على ما هو دونه من البعث، كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ﴾.

والأمر الآخر: التهديد لهم، بأن من خلق السماء والأرض على هذه الهيئة التي قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما.. قادرٌ على تعجيل العذاب لهم.

ومن المعلوم[1]: أن ما بين يدي الإنسان هو كل ما يقع نظره عليه من غير أن يحوِّل وجهه إليه، وما خلفه هو كل ما لا يقع نظره عليه، حتى يحوِّل وجهه إليه، فيعم الجهات كلها.

فإن قلت: هلا ذكر الأيمان والشمائل، كما ذكرهما في قوله في الأعراف: ﴿لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾؟

فالجواب: أنه وجد هنا ما يغني عن ذكرهما من لفظ العموم، والسماء والأرض، بخلاف ما هناك. اهـ «كرخي».

ثم بيَّن المحذور المتوقع من جهة السماء والأرض، فقال: ﴿إِن نَّشَأۡ﴾ جرياً على موجب جناياتهم ﴿نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: نغيبها من تحتهم، كما خسفناها بقارون وأشياعه ﴿أَوۡ﴾ إن نشأ ﴿نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا﴾ وقطعاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾، كما أسقطناها على أصحاب الأيكة؛ لأن ذلك بما ارتكبوه من الجرائم.

ومعنى إسقاط الكسف من السماء[2]: إسقاط قطع من النار، كما وقع لأصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب، كانوا أصحاب غياض ورياض وأشجار ملتفة؛ حيث أرسل الله تعالى عليهم حراً شديداً، فرأوا سحابةً، فجاؤا ليستظلوا تحتها، فأمطرت عليهم النار، فاحترقوا.

والمعنى[3]: أي أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالمعاد، الجاحدون للبعث بعد الممات، فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسمائي محيطة بهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، فيرتدعوا عن جهلهم، ويزدجروا عن تكذيبهم، حذر أن نأمر الأرض فتخسف بهم، أو نأمر السماء فتسقط عليهم كسفاً، فإنا إن نشأ أن نفعل ذلك بهم.. فعلنا، لكنا نؤخِّره لحلمنا وعفونا؛ أي: حيثما

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

كانوا.. فالسماء والأرض قد أحاطتا بهم، ولا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما، ولا يخرجوا من ملكوت الله فيهما.

وإجمال ذلك: أنه تعالى ذكرهم بأظهر شيء لديهم يعاينونه حيثما وجدوا، ولا يغيب عن أبصارهم حيثما ذهبوا، وفيه الدليل على قدرته على البعث والإحياء، فإن من قدر على خلق تلك الأجرام العظام.. لا تعجزه إعادة الأجسام، فهي إذا قيست بها.. كانت كأنها لا شيء، كما قال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾، وفي هذا ما لا يخفي من التنبيه إلى مزيد جهلهم المشار إليه بالضلال البعيد.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ﴾، و﴿نُسْقِطْ﴾ بنون العظمة في الثلاثة، وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب وعيسى والأعمش وابن مطرف: بالياء التحتية في الأفعال الثلاثة؛ أي: إن يشأ الله. وقرأ الكسائي وحده بإدغام الفاء في الباء في: ﴿نَخْسِف بِهِمُ﴾. قال أبو علي: وذلك لا يجوز؛ لأن الباء أضعف في الصوت من الفاء، فلا تدغم فيها، وإن كانت الباء تدغم في الفاء، نحو: اضرب فلاناً. وقال الزمخشري: وقرأ الكسائي: ﴿نَخْسِف بِهِمُ﴾ بالإدغام، وليست بقوية. انتهى.

قلت: والقراءة سنة متبعة، ويوجد فيها الفصيح والأفصح، وكل ذلك من تيسير الله تعالى القرآن للذكر، فلا التفات لقول أبي علي، ولا الزمخشري.

ثم ذكر ما هو كالعلة في الحثّ على الاستدلال بذلك ليزيح إنكارهم بالبعث، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إن فيما ذكر من السماء والأرض من حيث إحاطتهما بالناظر من جميع الجوانب، أو فيما تلي من الوحي الناطق بما ذكر ﴿لَأَيَةً﴾؛ أي: لدلالة واضحة تدل على قدرتنا على البعث بعد الموت ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾؛ أي: راجع إلى ربه، مطيع له في أمره ونهيه، فإن من شأنه الإنابة، والرجوع إلى الله، إذا تأمل فيهما، أو في الوحي المذكور.. ينزجر عن تعاطي القبيح، وينيب إليه تعالى.

والمعنى[2]: أي إن في النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن منيب إلى ربه على كمال قدرتنا على بعث الأجساد، ووقوع المعاد؛ لأن من

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

قدر على خلق هذه السموات على ارتفاعها واتساعها، وعلى هذه الأرض على انخفاضها وطولها وعرضها.. قادر على إعادة الأجسام، ونشر الرميم من العظام، كما قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

فإن قلت: لم قال هنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ بإفراد الآية، وقال فيما بعد: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ بجمعها، فما الفرق بين المقامين؟

قلت: إن ما هنا إشارة إلى إحياء الموتى، فناسبه الإفراد، وما بعد إشارة إلى سبأ قبيلة في البلاد، فصاروا فرقاً، فناسبه الجمع. اهـ «كرخي».

وفي الآية[١]: حثٌّ بليغ على التوبة والإنابة، وزجر عن الجرم والجناية، وأن العبد الخائف لا يأمن قهر الله طرفة عين، فإن الله قادر على كل شيء، يوصل اللطف والقهر من كل ذرة من ذرات العالم. قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: إذا صدق العبد في توبته.. صار منيباً؛ لأن الإنابة ثاني درجة التوبة. وقال أبو سعيد القرشي: المنيب: الراجع عن كل شيء يشغله عن الله إلى الله. وقال بعضهم: الإنابة: الرجوع منه إليه، لا من شيء غيره، فمن رجع من غيره إليه.. ضيع أحد طرفي الإنابة، والمنيب على الحقيقة: من لم يكن له مرجع سواه، ويرجع إليه من رجوعه، ثم يرجع من رجوع رجوعه، فيبقى شبحاً لا وصف له، قائماً بين يدي الحق، مستغرقاً في عين الجمع:

هَجَرْتُ ٱلْخَلْقَ كُلاً فِيْ هَوَاكَا   وَأَيْتَمْتُ ٱلْعِيَالَ لِكَيْ أَرَاكَا
فَلَوْ قَطَّعْتَنِيْ فِيْ ٱلْحُبِّ إِرْبَاً   لَمَا سَكَنَ ٱلْفُؤَادُ إِلَىٰ سِوَاكَا

وقال بعضهم: هجر النفس: مواصلة الحق، ومواصلة النفس: هجر الحق، ومن الله: الإيصال إلى مقام الوصال.

ثم ذكر سبحانه وتعالى من عباده المنيبين إليه: داود وسليمان، فقال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أعطينا داود عليه السلام ﴿مِنَّا﴾؛ أي: من

---

(١) روح البيان.

جهتنا بلا واسطة ﴿فَضْلًا﴾؛ أي: زيادة ودرجة؛ أي: نوعاً من الفضل على سائر الأنبياء مطلقاً، سواء كانوا أنبياء بني إسرائيل، أو غيرهم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، والفاضل من وجه، لا ينافي كونه مفضولاً من وجه آخر. وهذا الفضل الذي أعطي داود عليه السلام هو ما ذكر بعد من تأويب الجبال، وتسخير الطير، وإلانة الحديد، فإنه معجزة خاصة به، وهذا لا يقتضي انحصار فضله فيها، فإنه تعالى أعطاه الزبور، كما قال في مقام الامتنان والتفضل: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

قال في «التأويلات النجمية»: والفرق بين داود، وبين نبينا محمد ﷺ: أنه ذكر فضله في حق داود على صفة النكرة، وهي تدل على نوع من الفضل، وشيء منه، وهو الفيض الإلهي بلا واسطة، كما يدل عليه كلمة ﴿مِنَّا﴾، وقال في حق نبينا ﷺ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ والفضل الموصوف بالعظمة يدل على كمال الفضل، وكذا قوله: ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ لما أضاف الفضل إلى الله.. اشتمل على جميع أنواع الفضل. انتهى.

ويجوز أن يكون التنكير للتفخيم، و﴿مِنَّا﴾ لتأكيد فخامته الذاتية لفخامته الإضافية على أن يكون المفضل عليه غير الأنبياء، فالمعنى إذاً: ولقد آتينا داود بلا واسطة فضلاً عظيماً على سائر الناس، كالنبوة والعلم والقوة والملك والصوت الحسن، وغير ذلك.

وقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ مقول لقول محذوف هو بذل من آتينا؛ أي: ولقد آتينا داود منا فضلاً، وقلنا للجبال: يا جبال أوبي وسبحي مع داود إذا سبح، أو هو مقول لمصدر قول محذوف بدل من ﴿فَضْلًا﴾؛ أي: ولقد آتينا داود منا فضلاً، وقَوْلنا: يا جبال أوبي معه. والتأويب على معنيين:

أحدهما: الترجيع؛ لأنه من الأوب، وهو الرجوع.

والثاني: السير بالنهار كله. فالمعنى على الأول: رجِّعي معه التسبيح، وسبِّحي مرةً بعد مرة، وذلك بأن يخلق الله تعالى فيها صوتاً مثل صوته، كما خلق الكلام في شجرة موسى عليه السلام، فكان كلما سبَّح سمع من الجبال ما يسمع من المسبح، ويعقل معنى معجزةً له. قالوا: فمن ذلك الوقت يسمع الصدى من

الجبال، وهو ما يرده الجبال على المصوت فيه. والمعنى على الثاني: سيري معه حيث سار، ولعل[١] حكمة تخصيص الجبال بالتسبيح أو السير؛ لإنها على صور الرجال، كما دل عليه ثباتها، وقيل: معناه: كان إذا لحقه ملل أو فتور.. أسمعه الله تسبيح الجبال، فينشط له.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوِّبِى﴾ بفتح الهمزة وتشديد الواو على صيغة الأمر من التأويب، وهو: الترجيع، أو التسبيح، أو السير، أو النوح. وقرأ ابن عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق: بضم الهمزة، أمراً من: آب يؤوب: إذا رجع؛ أي: ارجعي معه. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ قرأه الجمهور بالنصب عطفاً على ﴿فَضْلًا﴾ على معنى: وسخرنا له الطير؛ لأن إيتاءَها إياه: تسخيرها له، فلا حاجة إلى إضماره، ولا إلى تقدير المضاف؛ أي: تسبيح الطير، كما في «الإرشاد»، أو عطفاً على محل: ﴿يَٰجِبَالُ﴾؛ لأنه منصوب تقديراً؛ إذ المعنى: نادينا الجبال والطير. وقال سيبويه وأبو عمرو بن العلاء: انتصابه بفعل مضمر على معنى: وسخرنا له الطير. وقال الزجاج والنحاس: يجوز أن يكون مفعولاً معه، كما تقول: استوى الماء والخشبة. وقال الكسائي: إنه معطوف على ﴿فَضْلًا﴾ لكن على تقدير مضاف محذوف؛ أي: آتيناه فضلاً، وتسبيح الطير.

وقرأ السلمي والأعرج ويعقوب وأبو نوفل وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم ومسلمة بن عبد الملك[٢]: بالرفع، عطفاً على لفظ «الجبال»، أو على المضمر في ﴿أَوِّبِى﴾ لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه.

نزَّل الجبال والطير منزلة العقلاء[٣]؛ حيث نوديت نداءهم؛ إذ ما من حيوان وجماد إلا وهو منقاد لمشيئته، ومطيع لأمره، فانظر؛ إذ من طبع الصخور الجمود، ومن طبع الطير النفور، ومع هذا قد وافقته عليه السلام، فأشد منها القاسية قلوبهم، الذين لا يوافقون ذكراً، ولا يطاوعون تسبيحاً، وينفرون من مجالس أهل الحق نفور الوحوش، بل يهجمون عليها بأقدام الإنكار، كأنهم الأعداء من الجيوش.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

قال المولى الجامي: وإنما كان تسبيح الجبال والطير لتسبيحه؛ لأنه لما قوي توجهه عليه السلام بروحه إلى معنى التسبيح والتحميد.. سرى ذلك إلى أعضائه وقواه، فإنها مظاهر روحه، ومنها إلى الجبال والطير فإنها صور أعضائه وقواه في الخارج، فلا جرم يسبحن لتسبيحه، وتعود فائدة تسبيحها إليه، يعني: لما كان تسبيحها ينشأ عن تسبيحه، لا جرم يكون ثوابه عائداً إليه، لا إليها؛ لعدم استحقاقها لذلك. انتهى.

وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ معطوف على ﴿ءَاتَيْنَا﴾؛ أي: ولقد جعلنا الحديد لداود ليناً في نفسه، كالشمع والعجين والمبلول، يصرفه في يده كيف يشاء، من غير إحماءٍ بنار، ولا ضربٍ بمطرقة، أو جعلنا الحديد بالنسبة إلى قوته التي آتيناها إياه ليناً، كالشمع بالنسبة إلى سائر قوى البشرية، وكان داود أوتي شدة قوة في الجسد، وإن لم يكن جسيماً، وهو أحد الوجهين لقوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ في سورة ص، وأمرناه بـ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ واصنع من الحديد لك، ولغيرك دروعاً ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾؛ أي: واسعات طويلات تامات، تغطي لابسها حتى تفضل عنه، فيجرها على الأرض، وتقيه شر الحرب. والأولى جعل ﴿أَنِ﴾ هنا مصدرية، حذف منها باء الجر، لا مفسرة، وهو عليه السلام أول من اتخذها، وكانت قبل ذلك صفائح حديد مضروبة ثقالاً على لابسها.

وقرىء: ﴿صابغات﴾ بالصاد بدلاً من السين، وتقدم أنها لغة في قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾. قال المفسرون: كان[1] داود عليه السلام حين ملك على بني إسرائيل يخرج متنكِّراً، فيسأل الناس: ما تقولون في داود؟ فيثنون عليه، فقيَّض الله له ملكاً في صورة آدميّ، فسأله على عادته، فقال له الملك: نعم الرجل لولا خصلة فيه، فسأله عنها، فقال: إنه يأكل ويطعم عياله من بيت المال، ولو أكل من عمل يده. لتمت فضائله، فعند ذلك سأل ربه أن يسبّب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلَّمه تعالى صنعة الدروع، فكان يعمل كل يوم درعاً ويبيعها بأربعة آلاف درهم، أو بستة آلاف، ينفق عليه وعلى عياله ألفين، ويتصدق بالباقي على فقراء بني إسرائيل.

وفي الحديث: «كان داود لا يأكل إلا من كسب يده»، وفي الآية دليل على

---

(١) روح البيان.

تعلم أهل الفضل الصنائع، فإن العمل بها لا ينقص بمرتبتهم، بل ذلك زيادة في فضلهم؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم، وفي الحديث: «إن خير ما أكل المرء من عمل يده».

﴿وَقَدِّرْ﴾؛ أي: واقتصد وتوسَّطْ ﴿فِي ٱلسَّرْدِ﴾؛ أي: في نسج الدروع بحيث تناسب مساميرها لحلقاتها؛ أي: لا تجعل مسمار الدرع دقيقاً فيقلقل، ولا غليظاً فيفصم الحلق، أو المعنى: توسط عند نسج الدروع في حلقاتها؛ أي: لا تعملها صغيرة، فتضعف، ولا يقوى الدرع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة، فتثقل على لابسها، أو المعنى: اجعل[1] كل حلقة مساوية لأختها، ضيقة، لا ينفذ منها السهم لغلظها، ولا تثقل حاملها، واجعل كلها بنسبة واحدة، وقدر واحد. أو المعنى: قدر وتوسط في سرد الدروع ونسجها، ولا تصرف جميع أوقاتك إلى نسج الدروع، بل اشتغل به مقدار ما تحصل به قوتك وحوائجك، وأما باقي الأوقات.. فاصرفه إلى عبادة ربك.

قال الرازي: أي إنك غير مأمور به أمر إيجاب، وإنما هو اكتساب، والكسب يكون بقدر الحاجة، وباقي الأيام والليالي للعبادة، فقدر في ذلك العمل، ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب، بل حصِّل فيه القوت فحسب. انتهى.

وهذا المعنى هو المناسب لما بعده، وهو قوله: ﴿وَٱعْمَلُواْ﴾ يا آل داود، خطاب له ولأهله لعموم التكليف، ويجوز أن يكون أمراً لداود فقط؛ شرفه الله بأن خاطبه خطاب الجمع. ﴿صَٰلِحًا﴾؛ أي: عملاً صالحاً خالصاً من الأغراض ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا أضيع عمل عامل منكم، فأجازيكم عليه، وهو تعليل للأمر، أو لوجوب الامتثال به، والبصير: هو المدرك لكل موجود برؤيته، ومن عرف أنه البصير.. راقبه في الحركات والسكنات، حتى لا يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره. وخاصية هذا الاسم وجود التوفيق، فمن قرأه قبل صلاة الجمعة مئة مرة.. فتح الله بصيرته، ووفَّقه لصالح القول والعمل، وإن كان الإنسان لا يخلو عن الخطأ.

---

(١) الصاوي.

وإجمال معنى الآية: وعزتي وجلالي لقد[1] أعطينا داود عليه السلام منّا نعماً ومنناً فقلنا للجبال وللطير: رجعي معه التسبيح، وردديه إذا سبح ذلك بأن نحمله عليه إذا تأمل عجائبها، فهي له مذكرات، كما يذكر المسبِّح مسبِّحاً آخر، وجعلنا الحديد في يده ليناً، يسهل تصويره وتصريفه كما يشاء، فيعمل منه الدروع وآلات الحرب على أتم النظم، وأحكم الأوضاع، فيجعل حلقاتها على قدر الحاجة، فلا هي بالضيقة فتضعف، ولا تؤدي وظيفتها لدى الكر والفر، والشد والجذب، ولا هي بالواسعة التي ربما ينال صاحبها من خلالها الأذى. وهذا تعليم من الله تعالى له في إجادة نسج الدروع.

قال قتادة: إن داود أول من عملها حلقاً، وكانت قبل ذلك صفائح، فكانت ثقالاً. واعمل يا داوود أنت وآلك بطاعة الله تعالى، فأجازيكم كفاء ما عملتم، ثم علل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: إني مراقب لكم، مطلع عليكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عليَّ شيء منها، وفي هذا ما لا يخفي من التنبيه والإغراء بإصلاح العمل، والإخلاص فيه.

ثم ذكر سبحانه ما أنعم به على ولده سليمان من النبوة والملك والجاه العظيم فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾؛ أي: وسخرنا لسليمان عليه السلام الريح، وهي ريح الصبا.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالنصب على تقدير: وسخرنا لسليمان الريح، كما قاله الزجاج. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه بالرفع على الابتداء والخبر، أي: والريح مسخرة لسليمان، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد، وقرأ الحسن وأبو حيوة وخالد بن إلياس: ﴿الرياح﴾ بالجمع.

﴿غُدُوُّهَا﴾؛ أي: جريها وسيرها بالغداة؛ أي: من لدن طلوع الشمس إلى زوالها، وهو وقت انتصاف النهار ﴿شَهْرٌ﴾؛ أي: مسيرة شهر؛ أي: مسير دواب الناس في شهر. ﴿وَرَوَاحُهَا﴾؛ أي: جريها وسيرها بالعشي؛ أي: من انتصاف النهار إلى الليل ﴿شَهْرٌ﴾؛ أي: مسيرة شهر، ومسافته، يعني: كانت تسير في يوم واحد

---

(١) المراغي.   (٢) البحر المحيط.

مسيرة شهرين للراكب المسرع، والجملة إما مستأنفة، أو حال من الريح. وعن الحسن: كان يغدو من دمشق مع جنوده على البساط، فيقيل باصطخر، وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع، واصطخر: بزنة فردوس بلدة من بلاد فارس بناها لسليمان صخر الجني المراد بقوله: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ ثم يروح من اصطخر، ويبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع، وكابل بضم الباء الموحدة: ناحية معروفة من بلاد الهند، وكان عليه السلام يتغدى بالري، ويتعشى بالسمرقند، والري: من مشاهير ديار الديلم بين قومس والجبال، والسمرقند: أعظم مدينة بما وراء النهر؛ أي: نهر جيحون.

قال مقاتل: كان ملك سليمان ما بين مصر وكابل. وقال بعضهم: جميع الأرض، وهو الموافق لما اشتهر عندهم من أنه ملك الدنيا كلها أربعة: اثنان من أهل الإسلام، وهما: الاسكندر وسليمان، واثنان من أهل الكفر، وهما: نمرود وبختنصر.

﴿وَأَسَلۡنَا﴾؛ أي: أذبنا وأجرينا ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لسليمان ﴿عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾؛ أي: عين النحاس المذاب أساله من معدنه، كما ألان الحديد لأبيه داود، فنبع منه نبوع الماء من الينبوع، ولذلك سمي عيناً. وكان ذلك باليمن بقرب صنعاء. وقال القرطبي: والظاهر أن الله جعل النحاس لسليمان في معدنه عيناً تسيل كعيون المياه دلالة على نبوته. اهـ. واصطناع الناس في النحاس بعد لينه وإذابته ـ ولو كانت بالنار ـ من آثار الكرامة التي أعطيها سليمان، ولولاها ما لان النحاس أصلاً؛ لأنه قبل سليمان لم يكن يلين أصلاً بنار ولا بغيرها اهـ «شيخنا».

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ﴾: خبر مقدم ﴿مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: مبتدأ مؤخر؛ أي: ومن يعمل بين يدي سليمان كائن من الجن. ويجوز أن يكون ﴿مَن يَعۡمَلُ﴾ منصوباً بفعل مقدر، و﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ متعلق بهذا المقدر، أو حال من ﴿مَن﴾ الموصولة، ويؤيد هذا الاحتمال ما في سورة صٓ من قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧﴾ فإنه منصوب بـ﴿سَخَّرۡنَا﴾ المصرح به. والتقدير: وسخرنا له من يعمل بين يديه وقدامه حال كونه من الجن، وقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ متعلق بـ﴿يَعۡمَلُ﴾؛ أي: يعمل له بإذن ربه؛ أي: بأمره كما ينبيء عنه قوله: ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا﴾؛ أي: ومن يعدل من الجن ويميل عما أمرناه به من طاعة سليمان ويعصه ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: ندخله في الآخرة عذاب النار المسعرة. وهذا ما عليه جمهور المفسرين. وقيل: نذقه في الدنيا من عذاب النار، وقال السدي: وكل الله تعالى بالجن ملكاً بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان.. ضربه بذلك السوط من حيث لا يراه ضربة أحرقته بالنار.

والمعنى: أي وسخرنا له من الجن من يبني له الأبنية وغيرها بقدرة ربه وتسخيره، ومن يخرج منهم عن طاعته.. نذقه عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة، وإنا لنوقن بصدق ما جاء به القرآن من استخدام سليمان للجن، ولا نعلم كيف كان يستخدمهم في أعماله، ولكن نشاهد آثار استخدامه لهم من المباني الشاهقة، والقصور العظيمة، والتماثيل البديعة.

ثم بيَّن سبحانه ما يعمله الجن لسليمان فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ﴾؛ أي: يعمل الجن لسليمان ﴿مَا يَشَآءُ﴾ سليمان ويريد ﴿مِن مَّحَـٰرِيبَ﴾ بيان لما يشاء، جمع: محراب، وهو البناء المرتفع الذي يرقى إليه بدرج، والقصر العالي. سمي محراباً؛ لأنه يذب عنه، ويحارب عليه تشبيهاً بمحراب المسجد؛ لأنه يحارب فيه الشيطان، كما سيأتي البحث عنه في مبحث مفردات اللغة.

والمعنى: يبنون له ما يشاء من قصور حصينة، ومساكن شريفة، سميت بذلك؛ لأنها يذب عنها، ويحارب عليها. قال المفسرون: فبنتِ الشياطين لسليمان تدمر على زنة تنصر، وهي بلدة بالشام، والأبنية العجيبة باليمن، وهي صرواح ومرواح وبينون وسلحين وهيذة وهنيذة وفلتوم وغمدان، ونحوها. وكلها خراب الآن، وعملوا له بيت المقدس في غاية الحسن والبهاء.

قصة بناء سليمان لبيت المقدس

وروي(1): أنه أراد داود عليه السلام بنيان بيت المقدس، فبناه مراراً، فلما فرغ منه تهدم، فشكا ذلك إلى الله تعالى، فأوحى الله إليه أن بيتي هذا لا يقوم على يدي من سفك الدماء، فقال داود: يا رب، ألم يكن ذلك في سبيلك؟ قال: بلى، ولكنهم أليسوا عبادي، فقال: يا رب، اجعل بنيانه على يدي من هو مني، فأوحى

---

(1) روح البيان.

الله تعالى إليه أن ابنك سليمان يبنيه، فإني أملِّكه بعدك، وأسلِّمه من سفك الدماء، وأقضي إتمامه على يده. وسبب هذا: أن الشفقة على خلق الله أحق بالرعاية من الغيرة في الله بإجراء الحدود المفضية إلى هلاكهم، ولكون إقامة هذه النشأة أولى من هدمها فرض الله في حق الكفار الجزية والصلح إبقاءً عليهم، ألا ترى من وجب عليه القصاص كيف شرع لولي الدم أخذ الفدية أو العفو، فإن أبى فحينئذ يقتل. ألا ترى سبحانه إذا كان أولياء الدم جماعة، فرضي واحد بالدية، أو عفا عن حقه، وباقي الأولياء لا يرون إلا القتل كيف يراعي من عفا، ويرجَّح على من لم يعفُ، فلا يقتل قصاصاً.

ثم نرجع إلى القصة: فصلوا فيه زماناً، وكان مولد سليمان بغزة، وملك بعد أبيه، وله اثنتا عشرة سنة، ولما كان في السنة الرابعة من ملكه في شهر أيار سنة تسع وثلاثين وخمس مئة لوفاة موسى عليه السلام.. ابتدأ سليمان في عمارة بيت المقدس وإتمامه حسبما تقدم وصية أبيه إليه، وجمع حكماء الإنس والجن، وعفاريت الأرض، وعظماء الشياطين، وجعل منهم فريقاً يبنون، وفريقاً يقطعون الصخور والعمد من معادن الرخام، وفريقاً يغوصون في البحر فيخرجون منه الدر والمرجان، وكان في الدر ما هو مثل بيضة النعامة والدجاجة، وبنى مدينة بيت المقدس، وجعلها اثني عشر ربضاً، وأنزل كل ربض منها سبطاً من أسباط بني إسرائيل، وكانوا اثني عشر سبطاً، ثم بنى المسجد الأقصى بالرخام الملون، وسقفه بألواح الجواهر الثمينة، ورصع سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت، وأنبت الله شجرتين عند باب الرحمة إحداهما: تنبت الذهب، والأخرى: تنبت الفضة، فكان كل يوم ينزع من كل واحدة مئتي رطل ذهباً وفضة، وفرش المسجد بلاطة من ذهب، وبلاطة من فضة، وبألواح الفيروزج، فلم يكن يومئذ بيتٌ أبهى ولا أنور من ذلك المسجد، كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر. وفرغ منه في السنة الحادية عشرة من ملكه، وكان ذلك بعد هبوط آدم من الجنة بأربعة آلاف سنة وأربع مئة وأربع عشرة سنة، وبين عمارة سليمان لمسجد بيت المقدس، والهجرة النبوية المحمدية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات ألفُ سنة وثمان مئة سنة، وقريب من سنتين.

ولما فرغ من بناء المسجد.. سأل الله تعالى ثلاثاً: حكماً يوافق حكمه،

وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وسأله أن لا يأتي إلى هذا المسجد أحد لا يريد إلا الصلاة فيه إلا خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه. قال النبي ﷺ: «نرجو أن يكون قد أعطاه إياه»، ولما رفع سليمان يده من البناء.. جمع الناس، فأخبرهم أنه مسجد لله تعالى، وهو سبحانه أمره ببناءه، وأن كل شيء فيه لله، ومن انتقص شيئاً منه فقد خان الله.

قال سعيد بن المسيب[1]: لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس.. تغلقت أبوابه، فعالجها سليمان، فلم تنفتح حتى قال في دعائه: بصلوات أبي داود، وافتح الأبواب، فتفتحت فوزع له سليمان عشر آلاف من قراء بني إسرائيل، خمسة آلاف بالليل، وخمسة آلاف بالنهار، فلا تأتي ساعة من ليل ولا نهار إلا والله يُعبد فيها، واستمر بيت المقدس على ما بناه سليمان أربع مئة سنة وثلاثاً وخمسين سنة، حتى قصده بختنصر، فخرب المدينة وهدمها، ونقض المسجد، وأخذ جميع ما كان فيه من الذهب والفضة والجواهر، وحمله إلى دار مملكته من أرض العراق، واستمر بيت المقدس خراباً سبعين سنة، ثم أهلك بختنصر ببعوضة دخلت دماغه، وذلك أنه من كبر الدماغ وانتفاخه.. فعل ما فعل من التخريب والقتل، فجازاه الله تعالى بتسليط أضعف الحيوان على دماغه.

﴿و﴾ يعملون له ما يشاء من ﴿تماثيل﴾ وصور الملائكة والأنبياء على صورة القائمين والراكعين والساجدين على ما اعتادوه، فإنها كانت تعمل حينئذ في المساجد من زجاج ونحاس ورخام ونحوها؛ ليراها الناس، ويعبدوا مثل عباداتهم. ويقال[2]: إن هذه التماثيل رجال من نحاس، وسأل ربه أن ينفخ فيه فيها الروح، ليقاتلوا في سبيل الله، ولا يعمل فيهم السلاح، وكان إسنفديار منهم، كما في تفسير «القرطبي».

وروي: أنهم عملوا أسدين في أسفل كرسيه، ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان ذراعيهما، فارتقى عليهما، وإذا قعد أظلهما النسران بأجنحتهما. اهـ. «قرطبي».

---

(١) روح البيان.

(٢) القرطبي.

فلما مات سليمان.. جاء إفريدون ليصعد الكرسي، ولم يدر كيف يصعد، فلما دنا منه ضربه الأسد على ساقه فكسر ساقه، ولم يجسر أحد بعده أن يدنو من ذلك الكرسي.

واعلم[1]: أن حرمة التصاوير شرع جديد، وكان اتخاذ الصور قبل هذه الأمة مباحاً، كما يدل عليه قوله ﷺ: «إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنو على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور»؛ أي: ليذكروا عبادتهم، فيجتهدوا في العبادة، وإنما حرِّم على هذه الأمة؛ لأن قوم رسولنا ﷺ كانوا يعبدون التماثيل؛ أي: الأصنام، فنهي عن الاشتغال بالتصوير، وأبغض الأشياء إلى الخواص ما عصي الله به.

وفي الحديث: «من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبداً»، وهذا يدل على أن تصوير ذي الروح حرام. قال بعضهم: هل هو كبيرة أو لا؟ فيه خلاف: فعند من جعل الكبيرة عبارة عما ورد الوعيد عليه من الشرع.. فهو كبيرة، وأما من جعل الكبيرة منحصرة في عدد محصور: فهذا ليس من جملته، فيكون الحديث محمولاً على المستحل، أو على استحقاق العذاب المؤبد، وأما تصوير ما لا روح له: فرخص فيه، وإن كان مكروهاً من حيث إنه اشتغال بما لا يعني.

﴿و﴾ يعملون له ما يشاء من ﴿جفان﴾ وقصاع عظيمة كائنة ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ والحياض الكبار، جمع: جفنة، وهي القصعة الكبيرة التي تشبع عدداً كثيراً. قيل: يجتمع على جفنة واحدة ألف رجل، فيأكلون منها، وكان لمطبخه كل يوم اثنا عشر ألف شاة، وألف بقرة، وكان له اثنا عشر ألف خبَّاز، واثنا عشر ألف طبَّاخ، يصلحون الطعان في تلك الجفان لكثرة القوم. قال في «الشرعة»: ولا بركة في القصاع الصغار، ولتكن قصعة الطعام من خزف أو خشب، فإنهما أقرب إلى التواضع، ويحرم الأكل في الذهب والفضة، وكذا الشرب منهما. والجوابي: جمع جابية، وهو الحوض الكبير الذي يجبى؛ أي: يجمع فيه الماء للإبل.

---

(١) روح البيان.

وقرأ ورش وأبو عمرو[1]: بإثبات الياء في الوصل دون الوقف، وابن كثير: بإثباتها وقفاً ووصلاً، والباقون: بالحذف وقفاً ووصلاً، وهو[2] الأصل اجتزاءً بالكسرة عن الياء، وإجراء الألف واللام مجرى ما عاقبها، وهو التنوين، وكما تحذف الياء مع التنوين.. تحذف مع ما عاقبه، وهو الألف واللام.

﴿و﴾ يعملون له ما يشاء من ﴿قدور راسيات﴾ جمع قدر، وهو اسم لما يُطبخ فيه اللحم، والراسيات: جمع راسية، من: رسا الشيء إذا ثبت؛ أي: وقدور ثابتات على الأثافي، لا تنزل عنها لعظمها، ولا تحرك عن أماكنها، وكان يصعد إليها بالسلالم، وكانت باليمن.

ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم؛ أي: سليمان وأهله فقال: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾، وهو مقول لقول محذوف. و﴿ءَالَ﴾: منصوب على النداء، والمراد به: سليمان؛ لأن هذا الكلام قد ورد في خلال قصته، وخطاب الجمع للتعظيم، أو أولاده، أو كل من ينفق عليه، أو كل من يتأتى منه الشكر من أمته، كما في «بحر العلوم».

والمعنى: أي وقلنا له، أولهم: اعملوا يا آل داود بطاعتي كالصلاة ونحوها، واعبدوني شكراً لما أعطيتكم من الفضل وسائر النعماء، فإنه لا بد من إظهار الشكر كظهور النعمة. وسميت الصلاة ونحوها شكراً؛ لسدها مسده. ف﴿شُكْرًا﴾: منصوب على العلة، أو منصوب على المصدرية لـ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾؛ لأن العمل للمنعم شكر له، فيكون مصدراً من غير لفظه، أو لفعل محذوف؛ أي: اشكروا شكراً، أو حال؛ أي: شاكرين أو مفعول به؛ أي: اعملوا شكراً، ومعناه: إنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً على طريق المشاكلة، وسميت الطاعة شكراً؛ لأنها من جملة أنواعه.

ثم بيَّن بعد أمرهم بالشكر أن الشاكرين له من عباده قليل، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾؛ أي: العامل بطاعتي، الشاكر لنعمتي قليل، وارتفاع القليل على أنه خبر مقدم، و﴿مِّنْ عِبَادِىَ﴾: صفة له، و﴿ٱلشَّكُورُ﴾: مبتدأ.

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

والمعنى: أي يعملون له ما يشاء من القصور الشامخة، والصور المختلفة من النحاس والزجاج والرخام ونحوها، والجفان الكبيرة التي تكفي لعشرات الناس، والقدور الثوابت في أماكنها التي لا تتحرك ولا تتحول لكبرها وعظمها، وقلنا لهم: اعملوا يا آل داود بطاعة الله شكراً له على نعمه التي أنعمها عليكم في الدين والدنيا.

روي: أن النبي ﷺ صعد المنبر، فتلا هذه الآية، ثم قال: «ثلاث من أوتيهن.. فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود» فقلنا: ما هُنَّ؟ فقال: «العدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية» أخرجه الترمذي. والشكر كما يكون بالفعل يكون بالقول، ويكون بالنية كما قال:

أَفَادَتْكُمُ ٱلنَّعْمَاءُ مِنِّيْ ثَلَاثَةً ... يَدِيْ وَلِسَانِيْ وَٱلضَّمِيْرَ ٱلْمُحَجَّبَا

أي: وقليل من عبادي من يطيعني شكراً لنعمتي، فيصرف ما أنعمت به عليه فيما يرضيني، وقد قيل: الشكور: من يرى عجزه عن الشكر، ونحو الآية قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفطر قدماه، فقلت له: أتصنع هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». أخرجه مسلم في «صحيحه».

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا﴾ وحكمنا ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على سليمان ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ وألزمناه إياه، وفصلناه به عن الدنيا ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾؛ أي: ما دل الجن وآل داود ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾؛ أي: على موت سليمان ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إلا هامة الأكل، وسوسة الخشب المسماة بالأرضة، وهي دويبة وسوسة تأكل الخشب، ويقال لها: السرقة، أضيفت إلى فعلها، وهو الأرض بمعنى الأكل، ولذا سميت الأرض مقابل السماء أرضاً، لأنها تأكل أجساد بني آدم، يقال: أرضت الأرضة الخشبة أرضاً إذا أكلتها، فأرضت أرضاً ما لم يسم فاعله، فهي مأروضة حالة كونها ﴿تَأْكُلُ﴾؛ أي: تلك الدابة ﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾؛ أي: منسأة سليمان؛ أي: تأكل عصاه التي كان متكئاً عليها من النسيء، وهو التأخير في الوقت؛ لأن العصا يؤخَّر بها الشيء عن الطريق مثلاً، ويزجر بها نحو الكلب ويطرد.

قيل[1]: إن ملك الموت أعلمه أنه بقي من حياته ساعة، فدعا الشياطين تجتمع حول محرابه، فلا ينظر أحد منهم إليه في صلاته إلا احترق، فمر واحد منهم، فلم يسمع صوته، ثم جمع فلم يسمع، فنظر فإذا هو قد خر ميتاً، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، ملك بعد موت أبيه وهو ابن ثلاثة عشرة سنة، فمدة ملكه أربعون سنة.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ وسقط سليمان ميتاً بعد سقوط عصاه من تحته ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾؛ أي: علمت الجن علماً يقينياً ينتفي عنده الشكوك والشبه بعد التباس الأمر عليهم. من تبينت الشيء: إذا علمته بعد التباسه عليك ﴿أَن﴾ مخففة؛ أي: أنهم ﴿لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾؛ أي: ما غاب عن حواسهم كما يزعمونه ﴿مَا لَبِثُوا﴾ وأقاموا ﴿فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾؛ أي: ذي الإهانة والخزي لهم، يعني الأشغال والتكاليف الشاقة، والأعمال الصعبة التي كانوا يعملونها لسليمان عليه السلام.

والحاصل: أنهم لو كان لهم علم بالغيب كما يزعمون.. لعلموا موت سليمان حين مات، ولما لبثوا بعده حولاً في تسخيره إلى أن خرَّ ميتاً، فلما وقع ما وقع علموا أنهم جاهلون، لا عالمون. ويجوز أن يؤخذ تبينت من: تبين الشيء: إذا ظهر وتجلى، فتكون أن مع ما بعدها بدل اشتمال من الجن، نحو: تبين زيد جهله؛ أي: ظهر للإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب.

وقال بعضهم: كانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى، فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق، فمر به شيطان، فلم يسمع صوته، ثم رجع، فلم يسمع صوته، فنظر فإذا سليمان قد خر ميتاً، ففتحوا عنه، فإذا العصا قد أكلتها الأرضة، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها في يوم وليلة مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة، وكانوا يعملون بين يديه، ويحسبونه حياً، ولو علموا أنه مات.. لما لبثوا في العذاب سنة، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام.. أتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين من الشراب.. سقيناك أطيب الشراب، ولكن ننقل إليك الماء والطين، فهم ينقلون ذلك لها حيث كانت، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. ألم ترَ إلى

---

(١) البحر المحيط.

الطين يكون في جوف الخشب، فهو ما يأتيها به الشياطين تشكراً لها.

قال القفال[1]: قد دلت هذه الآية على أن الجن لم يسخروا إلا لسليمان، وأنهم تخلصوا بعد موته من تلك الأعمال الشاقة، وإنما تهيَّأ لهم التسخير والعمل، لأن الله تعالى زاد في أجسامهم وقواهم، وغيَّر خلقهم عن خلق الجن الذين لا يرون، ولا يقدرون على شيء من هذه الأعمال الشاقة، مثل: نقل الأجسام الثقال ونحوه؛ لأن ذلك معجزة لسليمان عليه السلام.

قال أهل التاريخ: كان سليمان عليه السلام أبيض جسيماً وضيئاً، كثير الشعر، يلبس البياض، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، وكانت وفاته بعد فراغ بناء بيت المقدس بتسع وعشرين سنة. قال بعضهم: هذا هو الصحيح؛ أي: كون وفاته بعد الفراغ من البناء، لا قبله بسنة على ما زعم بعض أهل التفسير.

وفي «التأويلات النجمية»: تشير الآية إلى كمال قدرته وحكمته، وأنه هو الذي سخر الجن والإنس لمخلوق مثلهم، وهم الألوف الكثيرة، والوحوش والطيور.

ثم قضى عليه الموت، وجعلهم مسخرين لجثة بلا روح، وبحكمته جعل دابة الأرض حيواناً ضعيفاً مثَّلها دليلاً لهذه الألوف الكثيرة من الجن والإنس تدلهم بفعلها على علم ما لم يعلموا.

وفيه أيضاً إشارة إلى أنه تعالى جعل فيها سبباً لإيمان أمة عظيمة، وبيان حال الجن أنهم لا يعلمون الغيب، وفيه إشارة أخرى: أن نبيين من الأنبياء اتكأ عصوين، وهما: موسى وسليمان، فلما قال موسى: هي عصاي أتوكأ عليها.. قال ربه: ألقها، فلما ألقاها.. جعلها ثعباناً مبيناً، يعني: من اتكأ على غير فضل الله ورحمته يكون متكؤه ثعباناً، ولما اتكأ سليمان على عصاه في قيام ملكه بها، واستمسك بها.. بعث الله أضعف دابة وأخسها لإبطال متكئه ومتمسكه؛ ليعلم أن من قام بغيره زال بزواله، وأنَّ كل متمسك بغير الله طاغوت من الطواغيت ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ انتهى كلامه.

ومعنى الآية[2]: أي إنما لما قضينا على سليمان بالموت.. لم يدل الجن

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

على موته إلا الأرضة التي وقعت في عصاه من داخلها؛ إذ بينما هو متكىء عليها، وقد وافاه القضاء المحتوم.. انكسرت، فسقط على الأرض، واستبان للجن أنهم لا يعلمون الغيب، كما كانوا يزعمون، ولو علموه لما قاموا في الأعمال الشاقة التي كانوا يعملونها ظانين أنه حيٌّ.

والكتاب الكريم لم يحدِّد المدة التي قضاها سليمان وهو متوكىء على عصاه، حتى علم الجن بموته، وقد روى القصاصون أنها كانت سنة، ومثل هذا لا ينبغي الركون إليه، فليس من الجائز أنَّ خدم سليمان لا يتنبهون إلى القيام بواجباته المعيشية من مأكل ومشرب وملبس ونحوها يوماً كاملاً، دون أن يحادثوه في ذلك، ويطلبوا إليه القيام بخدمته، فالمعقول أن الأرضة بدأت العصا، وسليمان لم يتنبه لذلك، وبينما هو متوكىء عليها حانت منيته، وكانت الأرضة قد فعلت فعلها في العصا، فانكسرت، فخرَّ على الأرض، فعلمت الجن كذبها إذ كانت تدعي أنها تعلم الغيب؛ إذ لو علمته ما لبثت ترهق نفسها في شاقّ الأعمال التي كلفت بها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ بسكون الراء. وقرأ أبو المتوكل[2] وأبو الجوزاء وعاصم الجحدري: ﴿دابة الأرَض﴾ بفتح الراء. وقرأ نافع وأبو عمرو وجماعة: ﴿منساته﴾ بألفٍ محضة، وأصله: منسأته، أبدلت الهمزة ألفاً بدلاً غير قياسي. وقال أبو عمرو: أنا لا أهمزها؛ لأني لا أعرف لها اشتقاقاً، فإن كانت مما لا تهمز.. فقد احتطت، وإن كانت تهمز.. فقد يجوز لي ترك الهمزة فيما يهمز.

وقرأ ابن ذكوان وجماعة منهم: بكار والوليد أن ابن عتبة وابن مسلم: ﴿منسأْته﴾ بهمزة ساكنة، وهو من تسكين التحريك تخفيفاً، وليس بقياس، وضعَّف النحاة هذه القراءة؛ لأنه يلزم فيها أن يكون ما قبل تاء التأنيث ساكناً غير ألفاً. وقيل: قياسها: التخفيف بين بين، والراوي لم يضبط، وأنشد هارون بن موسى الأخفش الدمشقي شاهداً على سكون هذه القراءة قول الراجز:

صَرِيعُ خَمْرٍ قَامَ مِنْ وَكْأَتِهْ كَقَوْمَةِ ٱلشَّيْخِ إِلَىٰ مَنْسَأْتِهْ

وقرأ باقي السبعة بالهمزة مفتوحة. وقرىء بفتح الميم وتخفيف الهمزة قلباً

---

(١) البحر المحيط. (٢) زاد المسير.

وحذفاً، وقرىء على وزن مفعالة: منساءة. وقرأت فرقة منهم: عمر بن ثابت عن ابن جبير: مفصولة حرف جر ﴿من ساءته﴾ بجر التاء. قيل: ومعناه: من عصاه، يقال لها: ساة القوس وسيتها معاً، وهي يدها العليا والسفلى، سميت العصا ساة القوس على الاستعارة. وقرأ الجمهور: ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ مبنياً للفاعل. وقرأ ابن عباس فيما ذكر ابن خالويه ويعقوب بخلاف عنه ﴿تبينت﴾ مبنياً للمفعول، وعن ابن عباس وابن مسعود وأبي وعلي بن الحسن والضحاك قراءة في هذا الموضع مخالفة لسواد المصحف، ولما روي عنهم ذكرها المفسرون، أضرب عن ذكرها صفحاً على عادتنا في ترك نقلِ الشاذ الذي يخالف للسواد مخالفةً كثيرةً. ذكره أبو حيان.

الإعراب

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ، ﴿لِلَّهِ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِى﴾: نعت للجلالة. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿مَا﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾، والجملة الاسمية صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَلَهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿له﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ حال من الضمير المستكن في الخبر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر أول ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة، أو خبر ثالث لـ﴿هو﴾ مسوقة لتفصيل بعض ما يحيط به علمه تعالى من الأمور المتعلقة بمصالح العباد الدينية والدنيوية. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿يَلِجُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿يَلِجُ﴾. ﴿وَمَا يَخْرُجُ﴾: معطوف على ﴿مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يَخْرُجُ﴾. ﴿وَمَا يَنزِلُ﴾، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾: معطوفان على ﴿مَا يَلِجُ﴾ أيضاً. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلقان بـ﴿يَنزِلُ﴾. ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر أول.

﴿ٱلْغَفُورُ﴾: خبر ثانٍ له، والجملة مستأنفة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ﴾.

﴿وَقَالَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَأْتِينَا﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات النفي؛ أي: ليس الأمر إلا إتيانها. ﴿وَرَبِّى﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم: ﴿رَبِّى﴾: مقسم به مجرور بواو القسم أكد إيجاب النفي بما هو الغاية في التأكيد والتشديد، وهو القسم بالله عز وجل، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً. ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿تأتين﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وهو تأكيد ثالث، والكاف: مفعول به، وفاعله: ضمير يعود على الساعة، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب على كونها مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: صفة لـ﴿ربي﴾، أو بدل منه، ويجوز رفعه على كونه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وخبره جملة ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ وقد قرىء بهما كما مرَّ.

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿لَا يَعْزُبُ﴾: فعل مضارع. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به. ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: فاعل ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: حال من ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾. ﴿وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾، أو خبره على قراءة الرفع. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية ﴿أَصْغَرُ﴾ ـ بالرفع ـ: معطوف على ﴿مِثْقَالُ﴾. ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ﴿أَصْغَرُ﴾، ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾: معطوف على ﴿مِثْقَالُ﴾ أيضاً. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة وما عطف عليه تأكيداً للنفي في ﴿لَا يَعْزُبُ﴾؛ أي: لا يعزب عنه ما ذكر إلا حالة كونه في كتاب مبين. وفي «السمين»: قوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾، العامة على رفع أصغر وأكبر، وفيه وجهان:

أحدهما: الابتداء، وخبره ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾.

والثاني: العطف على ﴿مِثْقَالُ﴾، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ تأكيداً للنفي في ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ كأنه قال: لكنه في كتاب مبين، ويكون في محل الحال.

وقرأ قتادة والأعمش، ورويم عن أبي عمرو ونافع أيضاً، بفتح الراءين، وفيه وجهان:

أحدهما: أن ﴿لَآ﴾ هي لا التبرئة، بُني اسمها معها، والخبر قوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾.

والثاني: النسق على ﴿ذَرَّةٍ﴾ اهـ.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿لِّيَجْزِىَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يجزي﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لجزائه الذين، الجار والمجرور متعلق بتأتين، كأنه علة وبيان لما يقتضيه إتيانها، أو بقوله: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ فكأنه قال: يحصي ذلك ليجزي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به لـ﴿يجزي﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة مسوقة لبيان مآلهم. ﴿وَرِزْقٌ﴾: معطوف على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، ﴿كَرِيمٌ﴾: صفة ﴿وَرِزْقٌ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿الذين﴾: مبتدأ أول، وجملة ﴿سَعَوْ﴾ صلة الموصول. ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿سَعَوْ﴾، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: في إبطال آياتنا بالطعن فيها، أو وصفها بالسحر والشعر وغير ذلك. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: حال من فاعل ﴿سَعَوْ﴾. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثالث مؤخر. ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة ثانية لـ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة من المبتدأ الثالث وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني في محل الرفع خبر

للأول، وجملة الأول مستأنفة.

وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ﴾ يجوز فيه وجهان:

أظهرهما: أنه مبتدأ. و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وما بعده خبره.

والثاني: أنه عطف على ﴿الَّذِينَ﴾ قبله؛ أي: ويجزي الذين سعوا، ويكون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بعده مستأنفاً، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي قبله، وما في حيزه معترضاً بين المتعاطفين. اهـ. «سمين».

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيَرَى﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يرى﴾: فعل مضارع مرفوع، أو: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿يرى﴾: فعل مضارع منصوب معطوف على ﴿يجزي﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة أو معطوفة. ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿ٱلْعِلْمَ﴾: مفعول ثان لـ﴿أُوتُوا۟﴾ لأنه بمعنى: أعطوا، وجملة ﴿أُوتُوا۟﴾ صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿يرى﴾، لأنها قلبية، وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ صلة ﴿ٱلَّذِىٓ﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: حال من الضمير المستتر في ﴿أُنزِلَ﴾، أو متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل. ﴿ٱلْحَقَّ﴾ مفعول ثان لـ﴿يرى﴾. ﴿وَيَهْدِىٓ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يهدي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ متعلق به. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، وجملة ﴿يهدي﴾ في محل النصب معطوف على ﴿ٱلْحَقَّ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿يرى﴾ عطف فعل على اسم؛ لكونه في تأويل الاسم؛ أي: وهادياً، ويجوز أن تكون الواو حالية، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول؛ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ﴾ حرف استفهام. ﴿نَدُلُّكُمْ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿عَلَىٰ

﴿رَجُلٍ﴾: متعلق بـ﴿ندل﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على ﴿رَجُلٍ﴾، والجملة في محل الجر صفة ﴿رَجُلٍ﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿مُزِّقْتُمْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إذا مزقتم تبعثون وتحشرون خلقاً جديداً. والمعنى: أي: ينبئكم أنكم تبعثون وتحشرون وقت تمزقكم، ولا يجوز تعلق ﴿إِذَا﴾ بـ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾؛ لأن التنبئة لم تقع ذلك الوقت، ولا بـ﴿مُزِّقْتُمْ﴾؛ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا بـ﴿جَدِيدٍ﴾؛ لأن إن ولام الابتداء يمنعان ذلك؛ لأن لهما الصدارة، وأيضاً فالصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف. ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِي خَلْقٍ﴾: خبره، واللام: حرف ابتداء ﴿جَدِيدٍ﴾: صفة ﴿خَلْقٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ سادة مسد مفعولي ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ الثاني والثالث، وجملة ﴿إِذَا﴾ تكون معترضة بين الفعل والمفعول.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ⑧﴾.

يحتمل أن يكون هذا من تمام قول الكافرين، أولا؛ أي: من كلام القائلين: هل ندلكم، ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب للقائل: هل ندلكم؛ كأن القائل لما قال له: هل ندلكم على رجل؟ أجابه فقال: هو يفتري على الله كذباً... إلخ. اهـ «خطيب». ﴿أَفْتَرَىٰ﴾: ﴿الهمزة﴾ فيه للاستفهام التقريري، واستغني بها عن همزة الوصل في التوصل إلى النطق بالساكن. ﴿افترى﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على رجل. ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿افترى﴾. ﴿كَذِبًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَم﴾: حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام ﴿بِهِ﴾: خبر مقدم. ﴿جِنَّةٌ﴾: مبتدأ مؤخر؛ أي: جنون، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أفترى﴾. ﴿بَلِ﴾: حرف ابتداء وإضراب إبطالي. ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿بِالْآخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿فِي الْعَذَابِ﴾: خبر المبتدأ ﴿وَالضَّلَالِ﴾: عطف على ﴿الْعَذَابِ﴾. ﴿الْبَعِيدِ﴾: صفة لـ﴿الضلال﴾، والجمة الاسمية مستأنفة.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف يقتضيه المقام، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أعموا فلم يروا؟ أو: الهمزة مقدمة على حرف العطف، والأصل: فألم يروا، والجملة المحذوفة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿لم﴾: حرف جزم ونفي. ﴿يَرَوْا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾ ﴿إِلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يَرَوْا﴾. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾. ﴿خَلْفَهُم﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: حال من ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿نَّشَأْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿نَخْسِفْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِهِمُ﴾: متعلق بـ﴿نَخْسِفْ﴾. ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿أَوْ نُسْقِطْ﴾: فعل وفاعل مستتر، معطوف على ﴿نَخْسِفْ﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿نُسْقِطْ﴾. ﴿كِسَفًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة لـ﴿كِسَفًا﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَءَايَةً﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿آية﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آية﴾. ﴿مُّنِيبٍ﴾: صفة لـ﴿عَبْدٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿مِنَّا﴾: حال من ﴿فَضْلًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿فَضْلًا﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿ءَاتَيْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿يَٰجِبَالُ﴾: منادى نكرة مقصودة في محل النصب مبني على الضم، وجملة النداء مقول لقول محذوف، تقديره: وقلنا يا جبال. ﴿أَوِّبِى﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والياء: فاعل. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف متعلق بـ﴿أَوِّبِى﴾، والجملة الفعلية مقول لذلك القول المحذوف على

كونها جواب النداء. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾: بالنصب معطوف على محل ﴿يَٰجِبَالُ﴾، وقرىء بالرفع عطفاً على لفظه ﴿وَأَلَنَّا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿آتينا﴾. ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿ألنا﴾. ﴿ٱلْحَدِيدَ﴾: مفعول به لـ﴿ألنا﴾.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَنِ﴾: حرف مصدر ونصب ﴿ٱعْمَلْ﴾: فعل أمر في محل النصب بـ﴿أَنِ﴾ المصدرية مبني على السكون، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿دَاوُۥدَ﴾. ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾: صفة لمفعول محذوف، تقديره: دروعاً سابغات، والجملة الفعلية من ﴿أَنِ﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، متعلق بفعل محذوف، تقديره: وأمرنا بعمل دروع سابغات، والجملة المحذوفة معطوفة على ﴿ألنا له﴾. ﴿وَقَدِّرْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿ٱعْمَلْ﴾. ﴿فِى ٱلسَّرْدِ﴾: متعلق بـ﴿قدر﴾. ﴿وَٱعْمَلُوا۟﴾: فعل أمر وفاعل، مبني على حذف النون، والجملة مقول القول محذوف، تقديره: وقلنا له واعملوا، والقول المحذوف معطوف على أمرنا المحذوف. ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: عملاً صالحاً. ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: بما تعملونه ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية. ﴿لسليمان﴾: متعلق بمحذوف، تقديره: وسخرنا لسليمان. ﴿ٱلرِّيحَ﴾: بالنصب مفعول به لذلك الفعل المحذوف، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾، أو مستأنفة، وبالرفع: مبتدأ مؤخر، ولسليمان: خبر مقدم؛ أي: والريح مسخرة لسليمان، والجملة مستأنفة. ﴿غُدُوُّهَا﴾: مبتدأ. ﴿شَهْرٌ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلرِّيحَ﴾، أو مستأنفة، وجملة ﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ معطوفة على جملة ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾. ﴿وَأَسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على سخرنا المقدَّر. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿أسلنا﴾ ﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾: مفعول به. ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة لفعل محذوف معطوف على سخرنا

المقدَّر سابقاً. ﴿من الجن﴾: متعلق بالفعل المحذوف: ﴿من﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿سخرنا﴾ المقدر، والتقدير: وسخرنا له من الجن من يعمل، أو: ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ خبر مقدر، و﴿من﴾ الموصولة مبتدأ مؤخر. ﴿يَعْمَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَعْمَلُ﴾. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه حال من فاعل ﴿يَعْمَلُ﴾؛ أي: حالة كونه متلبساً بأمر ربه.

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَزِغْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنْهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يَزِغْ﴾. ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾: متعلق بـ﴿يَزِغْ﴾. ﴿نُذِقْهُ﴾ فعل ومفعول، مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ متعلق بـ﴿نُذِقْهُ﴾، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة سخرنا المقدر. ﴿يَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مفصلة لما قبلها. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما يشاؤه سليمان. ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ حال من مفعول ﴿يَشَآءُ﴾ المحذوف. ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾: معطوف على ﴿مَّحَٰرِيبَ﴾، وهما غير منصرفين لصيغة منتهى الجموع. ﴿وَجِفَانٍ﴾: معطوف على ﴿مَّحَٰرِيبَ﴾. ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿جفان﴾، وهو مجرور بكسرة مقدرة على الياء المحذوفة تبعاً لرسم المصحف العثماني منع من ظهورها الثقل؛ لأنه اسم منقوص. ﴿وَقُدُورٍ﴾ معطوف على ﴿مَّحَٰرِيبَ﴾. ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾: صفة ﴿قدور﴾. ﴿وَٱعْمَلُوا۟﴾: الواو: استئنافية. ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مقول لقول محذوف، تقديره: وقلنا له: اعملوا يا آل داود شكراً. ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾: منادى مضاف حذفه منه حرف النداء، وجملة النداء معترضة بين الفعل ومعموله ﴿شُكْرًا﴾: مفعول لأجله؛ أي: اعملوا صالحاً لأجل شكر الله، أو منصوب على المصدرية؛ أي: عمل شكر، فكأنه قال: اشكروا شكراً، أو على الحال؛ أي:

شاكرين الله. ﴿وَقَلِيلٌ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿قليل﴾: خبر مقدم. ﴿مِّنْ عِبَادِيَ﴾: صفة لـ﴿قليل﴾، أو حال من الضمير المستكن في ﴿قليل﴾. ﴿ٱلشَّكُورُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾، أو مستأنفة.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿لمّا﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿قَضَيْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿قَضَيْنَا﴾. ﴿ٱلْمَوْتَ﴾: مفعول به. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿دَلَّهُمْ﴾: فعل ماضٍ، ومفعول به. ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾: متعلقان به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾: فاعل، والجملة الفعلية جواب شرط لـ﴿لمّا﴾، وجملة ﴿لمّا﴾ مستأنفة. ﴿تَأْكُلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لمّا﴾: حرف شرط. ﴿خَرَّ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على سليمان، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾. ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لمّا﴾، وجملة ﴿لمّا﴾ معطوفة على جملة ﴿لمّا﴾ الأولى. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿لَّوْ﴾: حرف شرط. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان، وجملة كان فعل شرط لـ﴿لَّوْ﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَبِثُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْمُهِينِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لَّوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في محل النصب مفعول ﴿تبين﴾، والتقدير: علمت الجن عدم لبثهم في العذاب المهين، لو كان عندهم علم الغيب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: هو الثناء على الله بما هو أهله. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: هو الذي أحكم أمر الدارين، ودبره بحسب ما تقتضيه الحكمة. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ هو الذي يعلم

بواطن الأمور وخوافيها.

﴿يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يدخل فيها من الولوج، وهو الدخول في مضيق.

﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾؛ أي: يصعد. ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾؛ أي: يبعد. وفي «المصباح»: عزب الشي: من بابي: قتل وضرب: إذا غاب وخفي، ومعنى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: أي: لا يبعد عن علمه، والعازب: المتباعد في طلب الكلأ وعن أهله.

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ والمثقال: ما يوزن به، وهو من الثقل، وذلك اسم لكل صنج، كما في «المفردات». والذرة: النملة الصغيرة الحميراء، وما يرى في شعاع الشمس من ذرات الهواء؛ أي: وزن أصغر نملة، أو مقدار الهباء. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: رزق حسن لا تعب فيه، ولا منَّ عليه.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا﴾: وفي «المفردات» السعي: المشي السريع، وهو دون العدو، ويستعمل للجد في الأمر، خيراً كان أو شراً.

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾؛ أي: ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا؛ لأنهم حسبوا أن لا بعث ولا نشور، يقال: أعجزت فلاناً، وعاجزته: جعلته عاجزاً.

﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ الرجز بمعنى: القذر والشرك والأوثان، كما في قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ سماها رجزاً؛ لأنها تؤدي إلى العذاب، وكذا سمي كيد الشيطان رجزاً في قوله: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنه سبب العذاب، وفي «المفردات»: أصل الرجز: الاضطراب، وهو في الآية كالزلزلة، كما مرَّ، والرجز - بكسر الراء وضمها -: العذاب، أو سيئه، والإثم والذنب والقذر.

﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ الممزق مصدر ميمي بمعنى: التمزيق، وقياس كل ما زاد على الثلاث أن يجيء مصدره وزمانه ومكانه على زنة اسم مفعوله، ويجوز أن يكون ظرف مكان، قاله الزمخشري؛ أي: كل مكان تمزيق من القبور وبطون الوحش والطير. اهـ «خطيب». وأصل التمزيق: التفريق، يقال: مزَّق ثيابه؛ أي: فرقها، والمعنى: تنشئون خلقاً جديداً بعد أن تمزقت وتفرقت أجسادكم كل تمزيق وتفريق، بحيث تصير تراباً. اهـ «بيضاوي».

و﴿جَدِيدٍ﴾ فعيل بمعنى: فاعل عند البصريين، يقال: جَدَّ الشيء فهو جاد وجديد: كقل فهو قليل، وبمعنى: مفعول عند الكوفيين، يقال: جدَّ النساج الثوب:

إذا قطعه فهو جديد؛ أي: مقطوع. قال في «المفردات»: يقال: جددت الثوب: إذا قطعته على وجه الإصلاح، وثوب جديد أصله المقطوع، ثم جعل لكل ما أحدث إنشاؤه، والخلق الجديد: إشارة إلى النشأة الثانية، والجديدان: الليل والنهار.

﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾؛ أي: جنون. ﴿نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يقال: خسف به الأرض غاب به فيها، فالباء للتعدية ﴿أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا﴾ الكسف، كالقطع وزناً ومعنى، جمع: كسفة، كقطعة. قال في «المفردات»: ومعنى الكفة: القطعة من السحاب والقطن ونحو ذلك من الأجسام المتخلخلة، ومعنى إسقاط الكسف، من السماء: إسقاط قطع من النار، كما وقع لأصحاب الأيكة. ﴿لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ قال في «المفردات»: النوب: رجوع الشيء مرة بعد أخرى، والإنابة إلى الله: الرجوع إليه بالتوبة، وإخلاص العمل له.

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ فعل أمر من التأويب على قراءة العامة بفتح الهمزة وتشديد الواو، وهو الترجيع، وقيل: التسبيح بلغة الحبشة، والتضعيف يحتمل أن يكون للتكثير، واختار بعضهم أن يكون للتعدي، قال: لأنَّهم فسروه برجعي معه التسبيح، ولا دليل فيه؛ لأنه تفسير معنىً، أو أمر من الأوب على قراءة الحسن وابن عباس وقتادة وابن أبي إسحاق: ﴿أوبي﴾ بضم الهمزة وسكون الواو أمر من آب يؤوب؛ أي: ارجعي معه بالتسبيح. اهـ «سمين».

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾؛ أي: جعلنا الحديد ليناً له في نفسه، كالشمع والعجين من الإلانة، أصله: من اللين ضد الخشونة.

﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾؛ أي: دروعاً واسعات طويلات. قال في «القاموس»: سبغ الشيء سبوغاً: إذا طال إلى الأرض، وسبغت النعمة: إذا اتسعت، ودروع سابغة: تامة طويلة. انتهى. ومنه استعير إسباغ الوضوء، أو إسباغ النعمة، كما في «المفردات».

﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ والسرد في الأصل: خرز ما يخشن ويغلظ كخرز الجلد، ثم استعير لنظم الحديد ونسج الدروع، كما في «المفردات»، والمعنى: أي: اجعل النسج على قدر الحاجة.

﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ﴾ قال الراغب: الشهر: مدة معروفة مشهورة بإهلال الهلال، أو

باعتبار جزء من اثني عشر جزءاً من دوران الشمس من نقطة إلى تلك النقطة، والمشاهرة: المعاملة بالشهر، كما أن المسانهة والمياومة بالسنة واليوم.

﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ والقطر - بكسر العين -: النحاس المذاب.

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾؛ أي: ومن يعدل عن طاعة سليمان.

و﴿مَّحَٰرِيبَ﴾: جمع محراب، وهو في اللغة: كل موضع مرتفع، وقيل للذي يصلَّى فيه محراب؛ لأنه يجب أن يرفع ويعظَّم. وفي «البيضاوي»: من محاريب؛ أي أبنية مرتفعة، سميت بالمحاريب؛ لأنها يذب عنها ويحارب عليها. اهـ. وكتب عليها الشهاب قوله: أبنية مرتفعة، هذا أصل معنى المحراب، وسمي باسم صاحبه؛ لأنه يحارب غيره في حمايته، ثم نقل إلى الطاق التي يقف بحذائها الإمام، وهي مما أحدث في المساجد. وقيل للذي يصلَّى فيه محراب؛ لأنه يجب أن يرفع ويعظم. قال في «القاموس»: المحراب: الغرفة، وصدر البيت، وأكرم مواضعه، ومقام الإمام من المسجد، والموضع ينفرد به الملك فيتباعد من الناس. انتهى.

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ جمع تمثال، وهو الصورة المصورة، أو هو ما تصنعه وتصوره مشبهاً بخلق الله من ذوات الروح. روي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه، ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظلَّه النسران بأجنحتهما، كما مرَّ.

﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع: جفنة، وهي القصعة الكبيرة، فإن أعظم القصاع الجفنة، ثم القصعة تليها تشبع العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة، ثم الميكلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصحفة تشبع الرجل، فتفسير الجفان بالصحاف كما فعله البعض منظور فيه. والجفنة خصت بوعاء الأطعمة، كما في «المفردات».

﴿كَٱلْجَوَابِ﴾؛ أي: كالحياض الكبار، أصله: الجوابي بالياء، كالجواري جمع جابية من الجباية؛ لاجتماع الماء فيها، وهي من الصفات الغالبة كالدابة.

قال الراغب: يقال: جبيت الماء في الحوض: جمعته، والحوض الجامع له: جابية، ومنه استعير جبيت الخراج جباية.

﴿وَقُدُورٍ﴾ جمع: قدر بكسر القاف، وهو إناء يطبخ فيه اللحم ونحوه، كما في «المفردات».

﴿رَاسِيَٰتٍۚ﴾ جمع: راسية، من رسا الشيء يرسو: إذا ثبت، ولذلك سميت الجبال الرواسي. ﴿ٱلشَّكُورُ﴾: الباذل وسعه في الشكر، قد شغل قلبه ولسانه وجوارحه به اعترافاً واعتقاداً وعملاً.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾: القضاء الحكم، والفصل والموت: زوال القوة الحساسة.

﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾ المنسأة: مفعلة اسم آلة، وهي العصا؛ لأنه ينسأ بها؛ أي: يطرد ويؤخر كالمكنسة والمكسحة والمقصعة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تعريف طرفي الجملة في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لإفادة الحصر، ومعناه: لا يستحق الحمد الكامل إلا الله، أو لإفادة الاختصاص، ومعناه: جميع أفراد المدح والثناء والشكر من كل حامد مختص به سبحانه، لا شركة لأحد فيه؛ لأنه الخالق المالك، كما يدل عليه ما بعده.

ومنها: تقديم الخبر على المبتدأ لإفادة الحصر في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِۚ﴾، وفيه أيضاً إطلاق المحمود عليه ليعم النعم الأخروية كلها. اهـ «روح».

ومنها: الطباق بين ﴿يَلِجُ﴾، و﴿يَخْرُجُ﴾، وبين: ﴿يَنزِلُ﴾، و﴿يَعْرُجُ﴾، وبين: ﴿أَصْغَرُ﴾، و﴿أَكْبَرُ﴾.

ومنها: إفادة المبالغة بصيغتي فعيل وفعول في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

ومنها: المقابلة بين ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ...﴾ الآية، وبين ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ فقد جعل المغفرة والرزق الكريم جزاء المحسنين، وجعل العذاب والرجز الأليم جزاء المجرمين.

ومنها: الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ للاستهزاء والسخرية؛ لأن غرضهم بهذا الكلام الاستهزاء بالرسول والسخرية به.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ للإبهام والتجهيل، ولم يذكروا اسمه إمعاناً في التجهيل، كأنه إنسان مجهول.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ لما فيه من وصف الشيء بوصف فاعله؛ إذ البعد في الأصل وصف الضال؛ لأنه الذي يتباعد عن المنهاج القويم، وكلما ازداد بعداً منه كان أضلَّ.

ومنها: تقديم العذاب على ما يوجبه ويؤدي إليه، وهو الضلال للمسارعة إلى بيان ما يسوؤهم.

ومنها: جعل العذاب والضلال محيطين بهم إحاطة الظرف بالمظروف؛ لأن أسباب العذاب معهم، فكأنهم في وسط.

ومنها: وضع الموصول موضع ضميرهم في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ﴾ للتنبيه على أنَّ علة ما اجترؤوا عليه كفرهم بالآخرة، وما فيها من فنون العقاب، ولولاه لما فعلوا ذلك خوفاً من غائلته اهـ «روح».

ومنها: التنكير في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ لغرض التفخيم؛ أي: فضلاً عظيماً.

ومنها: تأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية في قوله: ﴿مِنَّا﴾ لما فيه من نسبة الفضل إلى الله سبحانه.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾؛ أي: مسيرة شهر.

ومنها: نداء غير العاقل في قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ تنزيلاً له منزلة العاقل.

ومنها: حذف الموصوف، وإقامة صفته مقامه تفخيماً لشأنه في قوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾؛ أي: دروعاً سابغات.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾، ﴿وَٱعْمَلُوا۟﴾، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾؛ لأن السرد في الأصل: خرز ما يخشن ويغلظ لخرز الجلد، ثم استعير لنظم الحديد، ونسج

الدروع، كما في «المفردات».

ومنها: الطباق بين ﴿غُدُوُّهَا وَرَوَاحُهَا﴾.

ومنها: التفصيل بعد الإجمال في قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ فإنه تفصيل لقوله: ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾، ويسمى: التشبيه المرسل المجمل؛ لذكر أداة التشبيه، وحذف وجه الشبه.

ومنها: تقديم المعمول على عامله لرعاية الفواصل في قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة فعول في قوله: ﴿مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ لإفادة المبالغة.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ فإنه جمع التأكيد بأن، وباسمية الجملة، وباللام.

ومنها: إضافة العام إلى الخاص في قوله: ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ إن قلنا: إن الأرض بفتح الراء جمع: أرضة؛ لأن الدابة أعم من الأرضة وغيرها من الدواب، كما في «الفتوحات».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال الشاكرين لنعمه، المنيبين إليه بذكر داود وسليمان.. أعقب ذلك بذكر ما حل بالكافرين بأنعمه، المعرضين عن ذكره وشكره، من عظيم العقاب بذكر قصة سبأ موعظةً لقريش، وتحذيراً لمن يكفر

(١) البحر المحيط.

بالنعم، ويعرض عن المنعم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه لما حكى ما أوتوا من النعم في مساكنهم، ثم كفرانهم بها، وما جوزوا به من الخراب والدمار.. قص علينا ما أعطوه من النعم في مسايرهم ومتاجرهم، ثم جحودهم بها، ثم ما حاق بهم بسبب ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[2] قصص سبأ، وما كان من أمرهم من اتباع الهوى والشيطان.. أردف ذلك الإخبار بأنهم صدقوا ظن إبليس فيهم، وفي أمثالهم ممن ركنوا إلى الغواية والضلال؛ إذ تسلط عليهم، وانقادوا إلى وسوسته، وبذا امتازوا من فريق المؤمنين الذين لا سلطان للشيطان عليهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر ما آتاه الشاكرين من أوليائه كداود وسليمان من النعم التي لا حصر لها، وما فعله بسبأ حين بطروا النعمة، وكذبوا الرسل.. أعقب ذلك بأمر رسوله ﷺ أن يقول للمشركين من قومه تهكماً بهم وتعجباً من حالهم: ادعوا آلهتكم الذين زعمتموهم شركاء لله، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بمن وصفنا أمرهم من إنعام أو انتقام، فإن لم يستطيعوا ذلك.. فاعلموا أنهم مبطلون.

ثم ذكر أن شأن المعبود أن يكون نافعاً للعباد، يخشى بطشه وسطوته، وهؤلاء ليس لهم شيء من ذلك؛ إذ لا تصرف لهم في شيء في السموات والأرض، لا استقلالاً، ولا شركةً، ولا هم معينون للخالق فيهما، ولا تنفع شفاعتهم لديه، فكيف تتقربون إليهم وتعبدونهم رجاء نفعهم بعد الذي علمتم من أمرهم؟!

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه بعد أن سلب عن شركائهم ملك شيء من الأكوان، وأثبت أن ذلك له وحده.. أمر نبيه أن يجعلهم يقرون بتفرده بالخلق

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

والرزق، وانفراده بالإلهية، وأن يخبر بأن أحد الفريقين الموحدين للرازق، والمشركين به الجماد مبطل، والآخر محق، وقد قام الدليل على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك، وأن يقول لهم: لا تؤاخذون بما نعمل، ولا نؤاخذ بما تعملون، وأن يقول لهم: إن ربنا هو الذي يحكم بيننا يوم القيامة، وهو الحكيم العليم بجلائل الأمور ودقائقها، وأن يقول لهم: أعلموني عما ألحقتم به من الشركاء، هل يخلقون، وهل يرزقون؟ كلا، بل الله هو الخالق الرازق الغالب على أمره، الحكيم في كل ما يفعل.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما أقام[1] الأدلة على التوحيد، وضرب لذلك الأمثال حتى لم يبق بعدها زيادة مستزيد.. شرع يذكر الرسالة، ويبين أنها عامة للناس جميعاً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فيحملهم ذلك على مخالفتك، ثم ذكر سؤال منكري البعث عن الساعة استهزاءً بها، ثم أعقب ذلك بالتهديد والوعيد لما يكون لهم فيها من شديد الأهوال.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآية: ما[2] أخرجه ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال: حدثني فلان أن فروة بن مُسَيْك الغُطَيْفِي قدم على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عز، وإني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام أفقاتلهم؟ فقال: ما أمرت فيهم بشيء بعد، فأنزلت هذه الآية ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ...﴾ الآيات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بوزن جبل[3]؛ أي: وعزتي وجلالي لقد كان لقبيلة سبأ، وهم أولاد سبأ بن يشجب ـ بالجيم ـ على ما في «القاموس» ـ بن يعرب بن

---

(١) المراغي.
(٢) لباب النقول.
(٣) روح البيان.

قحطان بن عامر، ـ وهو هود عليه السلام على ما قيل ـ ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. وسبأ: لقب عبد شمس بن يشجب، وإنما لقب به؛ لأنه أول من سبي، كما قاله السهيلي، وهو ـ أي: سبأ ـ يجمع قبائل اليمن، ويعرب بن قحطان: أول من تكلم العربية، فهوأبوعرب اليمن، يقال لهم: العرب العاربة، ويقال لمن تكلم بلغة إسماعيل: العرب المستعربة، وهي لغة أهل الحجاز، فعربية قحطان كانت قبل إسماعيل عليه السلام، وهو لا ينافي كون إسماعيل أول من تكلم بالعربية؛ لأنه أول من تكلم بالعربية البينة المحضة، وهي عربية قريش التي نزل بها القرآن، وكذا لا ينافي ما قيل: إن أول من تكلم بالعربية آدم في الجنة، فلما أهبط إلى الأرض تكلم بالسريانية، وجاء: من أحسن أن يتكلم بالعربية، فلا يتكلم بالفارسية.

واشتهر على ألسنة الناس أنه ﷺ قال: «أنا أفصح من نطق بالضاد». قال جمع من العلماء: لا أصل له، ومعناه صحيح؛ لأن المعنى: أنا أفصح العرب؛ لكونهم هم الذين ينطقون بالضاد، ولا توجد في غير لغتهم، كما في «إنسان العيون» لعلي بن برهان الدين الحلبي.

وعن[1] فروة بن مسيك المرادي قال: لما أنزل في سبأ ما أنزل.. قال رجل: يا رسول الله، وما سبأ، أأرض أم امرأة؟ قال: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا: فلخم وجذام وغسان وعاملة، وأما الذين تيامنوا: فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار». فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خثعم وبجيلة». أخرجه الترمذي مع زيادة، وقال: حديث حسن غريب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لِسَبَإٍ﴾ بالجر والتنوين على أنه اسم حي؛ أي: الحي الذين هم أولاد سبأ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿لسبأ﴾ ممنوع الصرف بتأويل القبيلة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، ويقوّي القراءة الأولى قوله: ﴿في مساكنهم﴾، ولو كان على تأويل القبيلة لقال: في مساكنها، فمما ورد على القراءة الأولى قول الشاعر:

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

ٱلْـــوَارِدُونَ وَتَـــيْـــمٌ فِـــيْ ذُرَىٰ سَـــبَـــأٍ   قَدْ عَـضَّ أَعْـنَـاقَـهَـا جِـلْـدُ ٱلْـجَـوَامِـيْـسِ

ومما ورد على القراءة الثانية قول الشاعر:

مِـنْ سَـبَـأَ ٱلْـحَـاضِـرِيْـنَ مَـأرِبُ إِذْ   يَـبْـنُـونَ مِـنْ دُوْنِ مَـسِـيْـلِـهِ ٱلْـعَـرِمَـا

وقرأ قنبل وأبو حيوة والجحدري ﴿لسبأ﴾ بإسكان الهمزة، وقرىء بقلبها ألفاً.

﴿فِى مَسْكَنِهِمْ﴾؛ أي: في[1] بلدهم الذي كانوا فيه باليمن، وهو مأرب كمنزل على ما في «القاموس»، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال، وهي المرادة بسبأ بلدة بلقيس في سورة النمل. قال السهيلي: مأرب: اسم ملك كان يملكهم، كما أنَّ كسرى: اسم لكل من ملك الفرس، وخاقان: اسم لكل من ملك الصين، وقيصر: اسم لكل من ملك الروم، وفرعون: لكل من ملك مصر، وتبع لكل من ملك الشحر واليمن وحضرموت، والنجاشي: لكل من ملك الحبشة.

وقيل: مأرب: اسم قصر كان لهم، ذكره المسعودي. قال في «إنسان العيون»: ويعرب قحطان، قيل له: أيمن؛ لأن هوداً عليه السلام قال له: أنت أيمن ولدي، وسمي اليمن يمناً بنزوله فيه.

وقرأ الجمهور: ﴿في مساكنهم﴾ على الجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم. ووجه الاختيار: أنها كانت لهم منازل كثيرة، ومساكن متعددة.

وقرأ حمزة وحفص بالإفراد مع فتح الكاف، وقرأ الكسائي: بالإفراد مع كسرها، وبهذه القراءة قرأ يحيى بن وثاب والأعمش، ووجه الإفراد: أنه مصدر يشمل القليل والكثير، أو اسم مكان وأريد به معنى الجمع، وهذه المساكن التي كانت لهم هي التي يقال لها الآن: مأرب.

﴿ءَايَةٌ﴾؛ أي: علامة ظاهرة دالة بملاحظة الأحوال السابقة واللاحقة لتلك القبيلة من الإعطاء والترفية بمقتضى اللطف، ثم من المنع والتخريب بموجب القهر؛ أي: علامة دالة على وجود الصانع المختار، وقدرته على كل ما يشاء من الأمور البديعة، ومجازاته للمحسن والمسيء، وما يعقلها إلا العالمون، وما يعتبرها إلا العاقلون.

---

(١) روح البيان.

﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من آية، والمراد بهما: جماعتان من البساتين، لا بستانان اثنان فقط. وقرأ ابن أبي عبلة[1]: ﴿جنتين﴾ بالنصب على أن ﴿آية﴾ اسم كان، و﴿جنتين﴾ الخبر، ووجه كون الجنتين آية: نبات الخمط والأثل والسدر مكان الأشجار المثمرة. وفي «القرطبي»: آية[2] دالة على قدرة الله تعالى، وعلى أن لهم خالقاً خلقهم، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر. اهـ.

وقد سبق قريباً أن قوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾ بالرفع بدل من ﴿ءَايَةٌ﴾ التي هي اسم كان بدل مثنى من مفرد؛ لأن هذا المفرد يصدق على المثنى؛ لأنهما لما تماثلتا في الدلالة، واتحدت جهتها فيهما.. صح جعلهما آيةً واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ واعتمد أبو حيان كون ﴿جَنَّتَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي جنتان؛ أي: بستانان. اهـ «كرخي». أي: جماعتان من البساتين.

جماعة ﴿عَن يَمِينٍ﴾؛ أي: عن يمين بلدتهم ووالديهم؛ لأن بلدتهم كانت في الوادي ﴿و﴾ جماعة عن ﴿ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: شمال واديهم، كل واحدة من تينك الجماعتين في تقاربها وتضامنها كأنهاجنة واحدة. اهـ «أبو السعود». وفي «القرطبي»: قال القشيري: ولم يرد جنتين اثنتين، بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة في كل جهة بساتين كثيرة؛ أي: كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار تستر الناس بظلالها. اهـ. أو المعنى[3]: بستانان، لكل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله، وفي «الشوكاني»: وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله، قد أحاطتا به من جهتيه، وكانت مساكنهم في الوادي، والآية: هي الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما، وعلى رأسها المكتل، فيمتلىء من أنواع الفواكه التي تتساقط من غير أن تمسها بيدها. وقال عبد الرحمن بن زيد: إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم: أنهم لم يروا فيها بعوضةً ولا ذباباً ولا برغوثاً ولا قملةً ولا عقرباً ولا حيةً، ولا غير ذلك من الهوام، وإذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل.. ماتت عند

---

(١) البحر المحيط.

(٢) القرطبي.

(٣) روح البيان.

رؤيتهم لبيوتهم.

وقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ مقول لقول محذوف؛ أي: قيل لهم على لسان نبيهم، أو على لسان الملائكة، أو بلسان الحال، ولم يكن ثَمَّ أمر، ولكن المراد: تمكينهم من تلك النعم. ويقال: كان سبأ ثلاث عشرة قرية، فبعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً، فقال لهم الأنبياء: كلوا من رزق ربكم؛ أي: مما رزقكم الله سبحانه من أنواع ثمار الجنتين ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ سبحانه على ما رزقكم منها باللسان والجنان والأركان، واعملوا بطاعته، واجتنبوا معاصيه.

وجملة قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما يوجب الشكر المأمور به؛ أي: بلدتكم[1] هذه بلدة طيبة؛ لكثرة أشجارها وثمارها، وقيل: معنى كونها طيبة: أنها لم تكن سبخة، بل لينة؛ حيث أخرجت الثمار الطيبة. وقيل: إنها طيبة الهواء والماء، كما قال الكاشفي. وفي «فتح الرحمن»: وطيبتها: أنها لم يكن بها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية، ولا غيرها من المؤذيات، وكان يمر بها الغريب وفي ثيابه القمل، فتموت كلها لطيب هوائها، ومن ثمة لم يكن بها آفات وأمراض أيضاً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت أطيب البلاد هواء وأخصبها.

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾؛ أي: وربكم الذي رزقكم ما فيها من الطيبات، وطلب منكم الشكر رب غفور لفرطات من يشكره وذنوبهم. قال مقاتل: المعنى: وربكم إن شكرتم فيما رزقكم رب غفور للذنوب، وقيل: إنما جمع لهم بين طيب البلدة والمغفرة للإشارة إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام.

وقرأ رويس بنصب الأربعة[2]. قال أحمد بن يحيى: التقدير: اسكنوا بلدة طيبة، واعبدوا رباً غفوراً، وقال الزمخشري: منصوب على المدح.

ومعنى الآية: أي وعزتي وجلالي، لقد كان أهل هذا الحي من ملوك اليمن في نعمة عظيمة، وسعة في الرزق، وكانت لهم حدائق غناء، وبساتين فيحاء عن يمين الوادي وشماله، وقد أرسل الله سبحانه إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزق

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

ربهم، ويشكروه بتوحيده وعبادته كفاء ما أنعم عليهم بهذه المنن، وأحسن إليهم بتلك النعم، فكانوا كذلك إلى حين، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل عليهم، كما ذكره بقوله: ﴿فَأَعۡرَضُواْ...﴾ إلخ؛ أي: ولما ذكر الله سبحانه ما كان من جانبه من الإحسان إليهم.. ذكر ما كان من جانبهم في مقابلته فقال: فأعرضوا؛ أي: عما جاء به إليهم أنبياؤهم، وكانوا ثلاثة عشر نبياً بعدد قراهم، فدعوهم إلى الله تعالى، وذكروهم نعمه، فكذبوهم وقالوا: ما نعرف لله نعمة علينا، فقولوا لربكم فليحبس عنا هذه النعمة إن استطاع.

والمعنى: أعرض أولاد سبأ عن الوفاء، وأقبلوا على الجفاء، وكفروا النعمة، وتعرَّضوا للنقمة، وضيعوا الشكر، فبدلوا وبُدِّل لهم الحال.

ثم بيَّن كيفية الانتقام منهم فقال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: فتحنا عليهم، وسلطنا عليهم ﴿سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾؛ أي: سيل السدّ؛ أي: ماء السيول التي اجتمعت في سدهم الذي سدوه بين الجبلين ليجتمع فيه جميع سيول اليمن، والسيل: الماء الذي يأتيك، ولم يصبك مطره، والعرم: السد الذي يحبس الماء ليعلوا على الأرض المرتفعة، قاله السدي. والمعنى: أرسلنا عليهم سيل السد.

وقال عطاء: العرم: اسم الوادي. وقال الزجاج: العرم: اسم الجرذ الذي نقب السد عليهم، وهو الذي يقال له: الخلد، فنسب إليه السيل لكونه سبب جريانه؛ لأن الله تعالى أرسل جرذاناً برية كان لها أنياب من حديد، لا يقرب منها هرة إلا قتلتها، فنقبت عليهم ذلك السدَّ، فغرقت جنانهم ومساكنهم، ويقال لذلك الجرذ: الخلد بالضم، لإقامته عند جحره، وهو الفأر الأعمى الذي لا يدرك إلا بالسمع. وقرأ عروة بن الورد: ﴿العرم﴾ بإسكان الراء مخفف العرم، كقولهم في الكَبِد: الكَبْد، ذكره في «البحر».

قال ابن عباس ووهب وغيرهما[1]: كان لهم سد بنته بلقيس، وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم، فأمرت بواديهم، فسد بالصخر والقار بين الجبلين، وجعلت لهم ثلاث أبواب بعضها فوق بعض، وبنت دونه بركة ضخمة، وجعلت فيها

(١) الخازن.

اثني عشر مخرجاً على عدة أنهارهم، يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء، وإذا استغنوا عنه سدوها، فإذا جاءهم المطر اجتمع عليهم ماء أودية اليمن، فاحتبس السيل من وراء السد، فأمرت بالباب الأعلى، ففتح فجرى ماؤه إلى البركة، فكانوا يسقون من الباب الأعلى، ثم من الثاني، ثم من الثالث الأسفل، فلا ينفد الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة، فكانت تقسمه بينهم على ذلك، فبقوا بعدها مدة، فلما طغوا وكفروا سلط الله عليهم جرذاً يسمى الخلد، فنقَّب السد من أسفله، فغرق الماء جنانهم، وأخرب أرضهم.

وقال وهب: رأوا فيما يزعمون ويجدون في علمهم أن الذي يخرب سدهم فأرة، فلم يتركوا فرجة بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة، فلما جاء زمان ما أراد الله تعالى بهم من التغريق.. أقبلت فيما يذكرون فأرة حمراء كبيرة إلى هرة من تلك الهرار، فساورتها حتى استأخرت الهرة عنها، فدخلت في الفرجة التي كانت عندها، فتغلغلت في السد، وحفرت حتى أوهنت المسيل، وهم لا يعلمون ذلك، فلما جاء السيل وجد خللاً، فدخل منه حتى اقتلع السد، وفاض الماء حتى علا أموالهم فغرقها، ودفن بيوتهم الرمل، فغرقوا ومزقوا كل ممزق حتى صاروا مثلاً عند العرب، يقولون: ذهبوا أيدي سبأ، وتفرقوا أيادي سبأ.

وقال السهيلي في كتاب «التعريف والأعلام»: كان الذي بني السدَّ سبأ بن يشجب، بناه بالرخام، وساق إليه سبعين وادياً، ومات قبل أن يستتمه، فأتم بعده. انتهى. وقال في «فتح الرحمن»: فأرسلنا عليهم السيل الذي لا يطاق، فخرب السد، وملأ ما بين الجبلين، وحمل الجنات وكثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفرار؛ أي: إلى الجبل، وأغرق أموالهم، فتفرقوا في البلاد، فصاروا مثلاً. انتهى. وقيل: الأوس والخزرج منهم.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم﴾؛ أي: عوضناهم ﴿بِجَنَّتَيْهِمْ﴾؛ أي: عن[1] جنتيهم المذكورتين، وآتيناهم بدلهما. والتبديل: جعل الشيء مكان آخر، والباء تدخل على المتروك على ما هي القاعدة المشهورة. ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ ثاني مفعولي ﴿بدلنا﴾؛ أي: أعطينا بدل

---

(١) روح البيان.

الجنتين المذكورتين لهم جنتين أخريين.

﴿ذَوَاتَىْ﴾: صفة لـ﴿جَنَّتَيْنِ﴾؛ أي: صاحبتي ﴿أُكُلٍ﴾ وثمر ﴿خَمْطٍ﴾؛ أي: مرّ، ويقال في الرفع: ذواتا بالألف، وهي تثنية: ذات، مؤنث: ذي، بمعنى: الصاحب، والأكل ـ بضم الكاف وسكونه ـ اسم لما يؤكل، والخمط: كل نبت أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله.

والمعنى: أهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة، والأنواع الحسنة، وأعطيناهم بدلهما جنتين صاحبتين ثمر مرٍّ.

وقرأ الجمهور بتنوين[1]: ﴿أُكُلٍ﴾ وعدم إضافته إلى ﴿خَمْطٍ﴾. وقرأ أبو عمرو: ﴿أكل﴾ ﴿خمط﴾ بالإضافة؛ أي: ثمر خمط على أن يكون الخمط كل شجر مر الثمر، أو كل شجر له شوك، أو هو الأراك على ما قاله البخاري. والأكل: ثمره. وقراءة الجمهور أولى من قراءة أبي عمرو، والخمط على قراءتهم نعت لـ﴿أكل﴾، أو بدل منه؛ لأن الأكل هو الخمط بعينه. وقال الأخفش: الإضافة أحسن في كلام العرب، مثل: ثوب خز، ودار آجر.

﴿و﴾ جنتين ذواتي ﴿أثل﴾ لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإن الأصل هو الطرفاء، أو شجر يشبهه أعظم منه طولاً، ولا ثمر له، الواحدة: أثلة، والجمع أثلاث، وقوله: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوف أيضاً على أكل؛ أي: وذواتي شيء قليل من سدر. وقرىء: ﴿أثلاً﴾ و﴿شيئاً﴾ بالنصب، حكاه الفضل بن إبراهيم عطفاً على ﴿جَنَّتَيْنِ﴾. ذكره أبو حيان.

قال البيضاوي[2]: وصف السدر بالقلة لما أن جناه وهو النبق مما يطيب أكله، ولذلك يغرس في البساتين. انتهى. فالسد: شجر النبق على مافي «القاموس». وقال أبو السعود: والصحيح أن السدر صنفان: صنف يؤكل من ثمره، وينتفع بورقه لغسل اليد، وصنف له ثمرة عفصة لا تؤكل أصلاً، وهو البري الذي يقال له: الضال. والمراد ههنا هو الثاني، فكان شجرهم من خير الشجر، فصيره الله من شر الشجر بسبب أعمالهم القبيحة. انتهى.

---

(١) البحر المحيط. (٢) البيضاوي.

والحاصل: أن الله سبحانه أهلك أشجارهم المثمرة، وأنبتت بدلها غير المثمرة.

ومعنى الآية[1]: أي فأعرضوا عن طاعة ربهم، وصدوا عن اتباع ما دعتهم إليه الرسل، فأرسل الله عليهم سيلا كثيراً ملأ الوادي، وكسر السد، وخرَّبه، وذهب بالجنان والبساتين وأهلك الحرث والنسل، ولم يبق منهم إلا شراذم قليلة تفرقت في البلاد، وبدلوا بتلك الجنان والبساتين التي سبق وصفها بساتين ليس فيها إلا بعض أشجار لا يؤبه بها، كالخمط والأثل وقليل من النبق.

ثم بيَّن سبب ذلك العقاب بقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم﴾ فالإشارة[2] بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى مصدر ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ فمحله النصب على أنه مصدر مؤكد له؛ أي: ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاء آخر، أو الإشارة إلى ماذكر من التبديل، فمحله النصب على أنه مفعول ثان له؛ أي: ذلك التبديل جزيناهم لا غيره ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾؛ أي: بسبب كفرانهم النعمة؛ حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانه ضدها، أو بسبب كفرهم بالرسل.

وفي هذه الآية: دليل على بعث الأنبياء بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فإنه روي أن الواقعة المذكورة كانت في الفترة التي بينهما، وما قيل من أنه لم يكن بينهما نبيٌّ يعني به: نبي ذو كتاب، كذا في «بحر العلوم»، فلا يشكل قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس بيني وبينه نبي»؛ أي: رسول مبعوث بشريعة مستقلة، بل كل من بعث كان مقرراً لشريعة عيسى عليه السلام.

والاستفهام في قوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ إنكاري بمعنى النفي؛ أي: وما نجازي هذا الجزاء الفظيع بسلب النعمة، ونزول النقمة ﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾؛ أي: إلا المبالغ في الكفران، أو في الكفر، وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها. والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعاً، وقال مجاهد: إن المؤمن يكفر عنه سيئاته، والكافر يجازي بكل عمل عمله.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يجازى﴾ بضم الياء وفتح الزاي ﴿الكفور﴾ رفعاً. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿نُجَٰزِيٓ﴾ بالنون وكسر الزاي، ﴿ٱلۡكَفُورَ﴾ بالنصب. وقرأ مسلم بن جندب: ﴿يجزى﴾ مبنياً للمفعول، ﴿الكفورُ﴾ رفعاً، وأكثر ما يستعمل الجزاء في الخير، والمجازاة في الشر، لكن في تقييدهما قد يقع كل واحد منهما موقع الآخر.

وفي الآية[2]: إشارة إلى أن المؤمن الشاكر يربط بشكره النعم الصورية، والمعنوية من الإيقان والتقوى والصدق والإخلاص والتوكل والأخلاق الحميدة، وغير الشاكرين يزيل بكفرانه هذه النعم، فيجد بدلها الفقر والكفر والنفاق والشك والأوصاف الذميمة. ألا ترى إلى حال بلعم، فإنه لم يشكر يوماً على نعمة الإيمان والتوفيق، فوقع فيما وقع، والعياذ بالله تعالى، فلما غرس أهل الكفر في بستان القلب والروح الأشجار الخبيثة.. لم يجدوا إلا الثمار الخبيثة، فما عوملوا إلا بما استوجبوه، وما حصدوا إلا بما زرعوا، وما وقعوا إلا في الحفرة التي حفروا، كما قيل: يداك أوكتا، وفوك نفخ.

وهذا مثل مشهور يضرب لمن يتحسر ويتضجر مما يرد عليه منه، يقال: أوكأ على سقائه: إذا شده بالوكاء، والوكاء: للقربة، وهو الخيط الذي يشد به فوها، وفي الحديث: «فمن وجد خيراً فليحمد الله ـ أي: الذي هو ينبوع الرحمة والخير ـ ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

فصل في سد مأرب ـ سد العرم

وصف هذا السد مؤرخو العرب في عصور مختلفة[3]، وأصدق من أجاد وصفه الهمداني في كتابه: «وصف جزيرة العرب» قال: في الجنوب الغربي من مأرب سلسلة جبال هي شعاب من جبل السراة الشهير، تمتد مئات الأميال نحو الشرق الشمالي، وبين هذه الجبال أودية تصب في واد كبير يعبِّر عنه العرب بالميزاب الشرقي، وهو أعظم أودية الشرق، وشعاب هذه المواضع وأوديتها إذا أمطرت السماء تجمعت فيها السيول، وانحدرت حتى تنتهي أخيراً إلى وادي آذنة،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وهو يعلو سطح البحر نحو (١١٠٠) متر، وتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالي حتى تنتهي إلى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات، وهو مضيق بين جبلين، يقال لكل منهما: بلن، أحدهما: بلن الأيمن، وثانيهما: بلن الأيسر، والمسافة بينهما ست مئة ذراع، يجري السيل الأكبر بينهما من الغرب الجنوبي إلى الشرق الشمالي في وادي آذنة.

وقد اختار السبئيُّون المضيق بين جبلي بلن، وبنوا في عرضه سوراً عظيماً عرف بسد مأرب، أو بسد العرم؛ لأنه لا أنهار عندهم، وإنما يستقي أهلها من السيول التي تتجمع من المطر، وقد كان يذهب أكثرها في الرمال، فإذا انقضى فصل المطر.. ظمئوا وجفت أغراسهم، وربما فاض المطر فسطا على المدن والقرى، فنالهم منه أذى كثير. وبين المضيق ومدينة مأرب متسع من الأرض، تبلغ مساحة ما يحيط به من الأرض من سفوح وجبال نحو (٣٠٠٠) ميل مربع، كانت صحراء جرداء قاحلة، فأصبحت بعد تدبير المياه بالسد غياضاً وبساتين على سفحي الجبلين، وهي المعبَّر عنها بالجنتين، الجنة اليمنى، والجنة اليسرى. اهـ بتصرف.

قال الأصفهاني: إن السد تهدم قبل الإسلام بنحو أربع مئة سنة، وقال ياقوت: إنه هدم في نحو القرن السادس للميلاد، وقال ابن خلدون: إنه تهدم في القرن الخامس للميلاد.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ معطوف على قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾، وهو[1] بيان لما أوتوا من النعم البادية في مسايرهم ومتاجرهم، بعد حكاية ما أوتوا من النعم الحاضرة في مساكنهم ومحاضرهم، وما فعلوا بها من الكفران، وما فعل بهم من الجزاء تكملة لقصتهم، وإنما لم يذكر الكل معاً لما في التثنية والتكرير من زيادة تنبيه وتذكير.

والمعنى[2]: وجعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم من فنون النعم ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين بلادهم اليمنية ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى﴾ الشامية ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالمياه والأشجار والثمار والخصب والسعة في العيش للأعلى والأدنى. والمراد بها هنا: فلسطين وأريحا

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وأردن ونحوها، والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمبارَك: ما فيه ذلك الخير.

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾؛ أي: قرى متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين أهلها، أو راكبة متن الطريق، ظاهرة للسابلة، غير بعيدة عن مسالكهم حتى تخفى عليهم، أو مرتفعة على الآكام، وهي أصح القرى.

وكان متجرهم من أرضهم التي هي مأرب إلى الشام، وكانوا يبيتون بقرية، ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا، وكانوا لا يحتاجون إلى زادٍ يحملونه من أرضهم إلى الشام، وقال الحسن: إن هذه القرى هي بين اليمن والشام، قيل: إنها كانت أربعة آلاف وسبع مئة قرية، وقيل: هي بين المدينة والشام، وقال المبرد: القرى الظاهرة: هي المعروفة، وإنما قيل لها: ظاهرة؛ لظهورها إذا خرجت من هذه ظهرت لك الأخرى، فكانت قرى ظاهرة؛ أي: معروفة، يقال: هذا أمر ظاهر؛ أي: معروف.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾؛ أي: وجعلنا مسافة السير بينها مقداراً معيناً واحداً؛ أي: جعلنا القرى في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء السبيل، وذلك نصف يوم. وقال الفراء: أي: جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل في قرية، والمبيت في أخرى إلى أن يصل إلى الشام. قيل: كان الغادي من قرية يقيل في الأخرى، والرائح منها يبيت في أخرى إلى أن يبلغ الشام، لا يحتاج إلى حمل ماء وزاد، ولا مبيت في أرض خالية، ولا يخاف من عدو ولا سبع، وكل ذلك كان تكميلاً لما أوتوا من أنواع النعماء، وتوفيراً لها في الحضر والسفر، وإنما يبالغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء، ولخوف الطريق، فإذا وجد الزاد والأمن.. لم يحمل نفسه المشقة، بل ينزل أينما أراد.

والحاصل: أن الله سبحانه عدد عليهم النعم، ثم ذكر ما نزل بهم من النقم، ثم عاد لتعديد بقية ما أنعم به عليهم مما هو خارج عن بلدهم من اتصال القرى بينهم وبين ما يريدون السفر إليه، ثم ذكر بعد ذلك تبديله بالمفاوز والبراري، كما سيأتي.

وقوله: ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك القرى الظاهرة على تقدير القول بلسان المقال أو الحال، فإنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه.. فكأنهم أمروا

بذلك، وأذن لهم فيه؛ أي: وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى لمصالحكم ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾؛ أي: متى شئتم من الليالي والأيام، أو مكنا لهم من السير فيها متى شاؤوا من الأيام والليالي؛ أي: سيروا فيها أي وقت شئتم حال كونكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من كل ما تكرهونه من الأعداء واللصوص والسباع بسبب كثرة الخلق، ومن الجوع والعطش بسبب عمارة المواضع، لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات، أو سيروا فيها آمنين، وإن تطاولت مدة سفركم، وامتدت ليالي وأياماً كثيرةً، أو سيروا فيها ليالي أعماركم وأيامها لا تلقون فيها إلا الأمن لكن لا على الحقيقة، بل على تنزيل تمكينهم من السير المذكور، وتسوية مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلة أمرهم بذلك.

وخلاصة ما ذكر[١]: أنهم كانوا في نعمة وغبطة وعيش هنيء رغد في بلاد مرضية، وأماكن آمنة، وقرى متواصلة مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، فالمسافر لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماءً وثمراً، فهو يقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في مسيرهم.

ثم ذكر أنهم بطروا وملوا تلك النعم، وآثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير، كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان السلوى والعسل، وقالوا: لو كان جني جناننا أبعد.. لكان أجدر أن نشتهيه، وسألوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً؛ ليركبوا فيها الرواحيل، ويتزودوا الأزواد، ويتطاولوا فيها على الفقراء، كما حكى سبحانه عنهم بقوله: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾ بيننا؛ أي: بين بلدنا ويمننا، و﴿بَيْنَ﴾ مقصد ﴿أَسْفَارِنَا﴾ وهو الشام؛ أي: اجعل بيننا وبين الشام مفاوز وفلوات لنركب فيها الرواحل، ونتزود الأزواد، فلما تمنوا ذلك عجل لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة، وجعلها بلقعاً لا يسمع فيها داع ولا مجيب ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث عرضوها للسخط والعذاب بالشرك، وترك الشكر، وعدم الاعتداد بالنعمة، وتكذيب الأنبياء.

وقرأ الجمهور من السبعة[٢]: ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على النداء. وقرؤوا أيضاً

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

﴿بَعِدْ﴾ بصيغة الطلب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وهشام عن ابن عامر: ﴿بعّد﴾ بتشديد العين على صيغة الطلب. وقرأ ابن السميفع: ﴿بعُد﴾ بضم العين فعلاً ماضياً، فيكون معنى هذه القراءة: الشكوى من بعد الأسفار. وقرأ أبو صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب: ﴿ربنا﴾ بالرفع على الابتداء والخبر. ﴿باعد﴾ بفتح العين على أنه فعل ماض، والمعنى: لقد باعد ربنا بين أسفارنا، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، واختارها أبو حاتم، قال: لأنهم ما طلبوا التبعيد، إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب الذي كان بينهم وبين الشام القرى المتواصلة بطراً وأشراً وكفراً للنعمة. وقرأ يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر: ﴿ربُّنا﴾ بالرفع ﴿بعَّد﴾ بفتح العين مشددة، فيكون معنى هذه القراءة: الشكوى بأن ربهم بعَّد بين أسفارهم مع كونها قريبة متصلة بالقرى والشجر والماء، فيكون هذا من جملة بطرهم. وقرأ أخو الحسن البصري كقراءة ابن السميقع السابقة آنفاً، مع رفع ﴿بينُ﴾ على أنه الفاعل، كما قيل في قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾. وروى الفراء والزجاج قراءة مثل هذه القراءة، لكن مع نصب ﴿بين﴾ على أنه ظرف، والتقدير: بعد سيرنا بين أسفارنا، وقرىء: ﴿بُعِّد﴾، وقرأ ابن يعمر: ﴿بين سفرنا﴾ بالإفراد، والجمهور بالجمع.

قال النحاس[(١)]: وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال إحداها أجود من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن أخبر عنهم أنهم دعو ربهم أن يبعد بين أسفارهم، فلما فعل ذلك بهم شكوا وتضرروا، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث كفروا بالله، وبطروا نعمته، وتعرضوا لنقمته ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾؛ أي: عظةً واعتباراً للناس، يتحدثون بهم ويتمثلون بهم.

أي: جعلنا أهل سبأ أخباراً وعظةً وعبرةً لمن بعدهم، بحيث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: فرقناهم في كل جهة من البلاد ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ أي: غاية[(٢)] التفريق وكامله، على أن الممزق مصدر، أو: كل مطرح ومكان تفريق، على أنه اسم مكان، وفي التعبير بالتمزيق

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالة على شدة التأثير والإيلام ما لا يخفى.

أي: مزقناهم تمزيقاً لا غاية وراءه، بحيث تضرب به الأمثال في كل فرقة ليس بعدها وصال، فيقال: تفرَّقوا أيدي سبأ؛ أي: تفرقوا تفرق أهل هذا المكان من كل جانب، وكانوا قبائل ولدهم سبأ، فتفرقوا في البلاد. قال الشعبي: فلحقت الأنصار بيثرب، وغسان بالشام. والأزد بِعُمَان، وخزاعة بتهامة، وقال الزمخشري[1]: غسان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بِعُمَان. وفي «التحرير»: وقع منهم قضاعة بمكة، وأسد بالبحرين، وخزاعة بتهامة.

وفي الحديث: أن سبأ أبو عشرة قبائل، فلما جاء السيل على مأرب، وهو اسم بلدهم.. تيامن منهم ست قبائل ـ أي: تبددت في بلاد اليمن ـ: كندة والأزد والسفر ومذحج وأنمار التي منها بجلية وخثعم، وطائفة قيل لها حجير، بقي عليها اسم الأب الأول، وتشاءمت أربعة: لخم وجذام وغسان وخزاعة، ومن هذه المتشائمة أولاد قيلة، وهم الأوس والخزرج، ومنها عاملة، وغير ذلك.

والمعنى[2]: أي فجعلناهم أحاديث للناس يسمرون بها، ويعتبرون بأمرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرَّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، وصاروا مضرب الأمثال، فيقال للقوم يتفرقون: تفرقوا أيدي سبأ، فنزل آل جفنة بن عمرو الشام، ونزل الأوس والخزرج يثرب، ونزل أسد السراة السراة، ونزلت أزد عمان عماناً، ثم أرسل الله على السَّدِّ السيل فهدَّمه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصتهم، وما فعل الله بهم ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمة، ودلالات واضحة، وعلامات كثيرة، وعبراً بليغة، وحججاً قاطعة على الوحدانية والقدرة. قال بعضهم: جمع الآيات؛ لأنهم صاروا فرقاً كثيرةً، كل منهم آية مستقلة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي ودواعي الهوى والشهوات، وعلى البلايا والمشاق والطاعات ﴿شَكُورٍ﴾ على النعم الإلهية في كل الأوقات والحالات، أو لكل مؤمن كامل؛ لأنَّ الإيمان نصف صبر ونصف شكر، أو لكل من هو كثير الصبر والشكر،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وخص الصبار الشكور؛ لأنهما المتفعان بالمواعظ والآيات.

والمعنى: أن في[1] ذلك الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب بعد النعمة والعافية عقوبة لهم على ما اجترحوه من الآثام لعبرة لكل عبد صبَّار على المصايب، شكور على النعم.

روى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن، إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، يؤجر المؤمن في كل شيء، حتى اللقمة يرفعها إلى في امرأته». وكان مطرِّف بن الشخير يقول: نعم العبد الصبَّار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

قال بعض أهل المعرفة: إن طلب الدنيا وشهواتها هو طلب البعد عن الله تعالى وعن جنابه، والميل إلى الدنيا والرغبة في شهواتها من خسة النفس، وركاكة العقل، وهو ظلم على النفس، فمن قطعته الدنيا عن جناب الله.. جعله الله عبرة لأهل الطلب، وأوقعه في وادي الهلاك، فلا بد من الصبر عن الدنيا وشهواتها، والشكر على نعمة العصمة وتوفيق العبودية، جعلنا الله وإياكم من الراغبين إليه، والمعتمدين عليه، وعصمنا من الرجوع عن طريقه، والضلال بعد إرشاده وتوفيقه، إنه الرحمن الذي بيده القلوب وتقليبها من حال إلى حال، وتصريفها كيف يشاء في الأيام والليالي.

واللام في قوله[2]: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ﴾ موطئة للقسم، وضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد إلى أهل سبأ لتقدم ذكرهم، والظاهر أنه راجع إلى الناس جميعاً، كما يشهد به ما بعده ﴿إِبْلِيسُ﴾ اللعين من: الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله ﴿ظَنَّهُۥ﴾؛ أي: ما ظنه بأهل سبأ من إغوائهم؛ أي: وعزتي وجلالي لقد وجد إبليس اللعين ظنه بأهل سبأ حين رأى انهماكهم في الشهوات صادقاً ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾؛ أي: اتبع أهل سبأ الشيطان في الشرك والمعصية ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إلا جماعة هم المؤمنون لم يتبعوه في أصل الدين، فـ﴿مِنَ﴾ بيانية، وتقليلهم بالإضافة إلى الكفار، أو تبعيضية؛

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أي: إلا فريقاً من فرق المؤمنين لم يتبعوه، وهم المخلصون. أو المعنى[1]: وجد ظنه ببني آدم صادقاً فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، وذلك أنه حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى إلى وسوسته قال: إن ذريته أضعف منه عزماً، ولذا قال: لأضلنهم. وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن إبليس لم يكن متيقناً أن يقدر على الإغواء والإضلال، بل كان ظاناً بنفسه أنه يقدر على إغواء من لم يطع الله ورسوله، فلما زين لهم الكفر والمعاصي، وكانوا مستعدين لقبولها حكمة الله في ذلك، وقبلوا منه بعض ما أمرهم به على وفق هواهم، وتابعوه بذلك.. صدق عليهم ظنه؛ أي: وجدهم كما ظن فيهم. اهـ.

ومعنى الآية[2]: أي ولقد ظن إبليس بهؤلاء الذي بدَّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط ـ عقوبة منا لهم ـ ظناً غير يقين أنهم يتبعونه ويطيعونه في معصية الله، وحين أغواهم وأطاعوه وعصوا ربهم.. تحقق صدق ظنه فيهم، إلا فريقاً من المؤمنين ثبتوا على طاعة الله ومعصية إبليس.

وقرأ ابن عباس وقتادة وطلحة والأعمش وزيد بن علي والكوفيون[3]: ﴿صَدَّقَ﴾ بتشديد الدال، وانتصب ﴿ظَنَّهُۥ﴾ على أنه مفعول بـ﴿صَدَّقَ﴾، والمعنى: وجد ظنه صادقاً؛ أي: ظن شيئاً، فوقع ما ظن. وقرأ باقي السبعة بالتخفيف، فانتصب ﴿ظَنَّهُۥ﴾ على المصدر، أي: يظن ظناً، أو على إسقاط الحرف؛ أي: في ظنه، أو على المفعول به، نحو قولهم: أخطأت ظني، وأصبت ظني، وظنه هذا كان حين قال: لأضلنَّهم ولأغوينهم، وهذا مما قاله ظناً منه، فصدق هذا الظن. وقرأ زيد بن علي والزهري وجعفر بن محمد وأبو الجهجاه الأعرابي من فصحاء العرب وبلال بن أبي برزة بنصب ﴿إبليس﴾ ورفع ﴿ظنه﴾ أسند الفعل إلى ظنه؛ لأنه ظن ظناً، فصار ظنه في الناس صادقاً، كأنه صدقه ظنه ولم يكذبه.

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿إبليس ظنه﴾ برفعهما فـ﴿ظَنَّهُۥ﴾ بدل من ﴿إبليس﴾ بدل اشتمال.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

ثم ذكر أنه ابتلاهم ليظهر حال المؤمنين من حال الشاكين في الآخرة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾؛ أي: لإبليس ﴿عَلَيْهِم﴾؛ أي: على بني آدم ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء، وإلا فهو ما سلَّ عليهم سيفاً، ولا ضربهم بعصى، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ متصل مفرغ من أعم العلل؛ أي: وما كان تلسيطنا إياه عليهم لعلة من العلل إلا لأجل أن نعلم ونميِّز ﴿مَن يُؤْمِنُ﴾ ويصدِّق ﴿بِـ﴾مجيء ﴿الآخرة﴾ مع ما فيها من الأهوال ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾؛ أي: ممن هو في شك في مجيئها، وقيل: الاستثناء فيه منقطع، والمعنى عليه: لا سلطان له عليهم، ولكن ابتليناهم بوسوسته، والمعنى على الأول: أي: ما كان له عليهم تسلط بحال من الأحوال، ولا لعلة من العلل إلا ليتميز من يؤمن بالآخرة، ومن لا يؤمن بها؛ لأنه سبحانه قد علم ذلك علماً أزلياً. وقال الفراء: المعنى: إلا لنعلم ذلك عندكم، وقيل: إلا لتعلموا أنتم، وقيل: ليعلم أولياءنا والملائكة، والأولى: حمل العلم هنا على التمييز والإظهار، كما ذكرنا. وقرأ الزهري: ﴿إلا ليعلم﴾ بضم الياء وفتح اللام مبنياً للمفعول.

ومعنى الآية[1]: أي وما كان لإبليس على هؤلاء القوم من حجة يضلهم بها، ولكنا أردنا ابتلاءهم واختبارهم به ليظهر حال من يؤمن بالآخرة، ويصدِّق بالثواب والعقاب، ممن هو منها في شك، فلا يوقن بمعاد، ولا يصدق بثواب، ولا عقاب. قال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصى، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه.

وخلاصة ذلك: لا سلطان لإبليس على قلوب الناس، ولكني أسلطه عليهم كما أسلِّط الذباب على العيون القذرة، والأوبئة على البلاد التي لم يراع أهلها شروط النظافة في مساكنهم وملابسهم ومآكلهم، ولا أفعل ذلك إلا لحكمة، فإذا حلَّ الوباء بأرض مات من لا قدرة له على مقاومة جراثيم الأمراض، وبقي من هو قادر على المقاومة، ولديه قوة المناعة، وهكذا وسوسة الشيطان يفرق الله بها بين الثابت العقيدة والمتزلزلها، ومن انقاد لها.. فلا يلومن إلا نفسه، وهو المذنب وحده، وهكذا جميع حوادث الدنيا من مصائب وآلام، يثبت لها ذوو العزيمة

(١) المراغي.

الصادقة، ولا يضطرب حين حلولها إلا الضعيف الذي ليس له جلد ولا صبر.

وعبارة «روح البيان» هنا: والمعنى[1]: وما كان تسلُّطه عليهم إلا ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزاً ممن هو في شك منها تعلقاً حالياً يترتب عليه الجزاء، فعلم الله قديم، وتعلقه حادث؛ إذ هو موقوف على وجود المكلف في عالم الشهادة، فلا يظن ظان بالله ظنّ السوء أن الله جلّ جلاله لم يكن عالماً بأهل الكفر وأهل الإيمان، وإنما سلّط عليهم إبليس ليعلم به المؤمن من الكافر، فإن الله بكمال قدرته وحكمته خلق أهل الكفر مستعدّاً للكفر، وخلق أهل الإيمان مستعدّاً للإيمان، كما قال عليه السلام: «خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً»، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، فالله تعالى كان عالماً بحال الفريقين قبل خلقهم، وهو الذي خلقهم على ما هم به وإنما سلط الله الشيطان على بني آدم لاستخراج جواهرهم من معادن الإنسانية، كما تسلط النار على المعادن لتخليص جوهرها، فإن كان الجوهر ذهباً فيخرج منه الذهب، وإن كان الجوهر نحاساً فيخرج منه النحاس، فلا تقدر أن تخرج من معدن النحاس الذهب والفضة، وهو ناري يستخرج جواهرهم من معادنهم بنفخة الوساوس، فلا يقدر أن يخرج من كل معدن إلا ما هو جوهره، وقال بعضهم: العلم هنا مجاز عن التمييز، المعنى: إلا لنميّز المؤمن بالآخرة من الشاكّ فيها، فعلَّل التسلّط بالعلم، والمراد: ما يلزمه انتهى.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المخلوقات، ﴿حَفِيظٌ﴾؛ أي: محافظ، والمعنى: أي[2]: وربك أيها الرسول حفيظ على أعمال هؤلاء الكفار وغيرهم، لا يعزب عن علمه شيء، وهو يجازيهم جميعاً يوم القيامة بما كسبوا في الدنيا من خير أو شر، فمن أخبت لله وأناب إليه.. لاقى من الثواب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن دسّ نفسه الأمّارة بالسوء، وانهمك في شهواته.. لاقى من سوء الجزاء كفاء أعماله ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (16)﴾.

---

(1) روح البيان.

(2) المراغي.

وقال بعضهم: الحفيظ[1]: هو الذي يحفظ كل شيء على ما هو به، والحفيظ من العباد: من يحفظ ما أمر بحفظه من الجوارح والشرائع والأمانات والودائع، ويحفظ دينه عن سطوة الغضب وخلابة الشهوة وخداع النفس وغرور الشيطان، فإنه على شفا جرف هار، وقد اكتفنته هذه الملكات المفضية إلى البوار، قال بعضهم: أسباب الحفظ: الجدّ والمواظبة، وترك المعاصي، واستعمال السواك، وتقليل النوم، وصلاة الليل، وقراءة القرآن نظراً وغير ذلك.

﴿قُلِ﴾ يا محمد للمشركين إظهاراً لبطلان ما هم عليه، وتبكيتاً لهم ﴿ادْعُوا﴾؛ أي: نادوا ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾؛ أي: زعمتموهم آلهة، ومفعولا ﴿زعم﴾ محذوفان لدلالة السياق عليهما، فحذف الأول وهو الضمير الراجع إلى الموصول تخفيفاً؛ لطول الموصول بصلته، والثاني - وهو آلهة - لقيام صفته، أعني: قوله: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ مقامه، والمعنى: ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله، فيما يهمكم من جلب نفع ودفع ضر لعلّهم يستجيبون لكم إن صحّ دعواكم.

أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك موبّخاً لهم، ومبيناً لهم سوء ما يصنعون: ادعوا هؤلاء الأصنام في مهام أموركم ليدفعوا الضرّ عنكم، أو يجلبوا النفع لكم لعلهم يستجيبون لكم، إن كان ذلك في مكنتهم، وبيدهم مقاليد أموركم، ثم أبان خطأهم، وعظيم جرمهم فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: هؤلاء الآلهة لا يملكون وزن نملة صغيرة، أو وزن هباء كائنة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خير وشر، ونفع وضرّ، فكيف يكونون آلهة يرجى منهم نفع، أو يخشى منهم ضرّ؛ أي: لا يقدرون فيهما أمراً ما من الأمور، فنفى عنهم ملك مثقال ذرّة، وإذا انتفى ملك الأحقر.. فملك الأعظم أولى، وذكر[2] السموات والأرض لقصد التعميم عرفاً، يعني: أن أهل العرف يعبّرون بهما عن جميع الموجودات، كما يعبّرون بالمهاجرين والأنصار عن جميع الجماعة، أو لأن آلهتهم بعضها سماويّة كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضية كالأصنام، أو لأنّ الأسباب القريبة للخير والشرّ سماوية وأرضية، ونحو الآية قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

﴿وَمَا لَهُمْ﴾؛ أي: لآلهتهم، ﴿فِيهِمَا﴾؛ أي: في السموات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾؛ أي: شركة مع الله لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرّفاً، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: وما لله سبحانه وتعالى ﴿مِنْهُم﴾؛ أي: من آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ أي: معين يعينه في تدبير أمورهما.

والمعنى[1]: أي ليس لآلهتهم في السموات والأرض مشاركة مع الله، لا بالخلق، ولا بالملك، ولا بالتصرف، وما لله سبحانه من تلك الآلهة معين يعينه على شيء من أمر السموات والأرض، ومن فيهما. ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾؛ أي: ولا تنفعهم شفاعتهم عنده تعالى، كما يزعمون، إذ لا شفاعة، ﴿عِندَهُۥٓ﴾ تعالى ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ أي: إلا لشافع أذن له أن يشفع، وهو لا يأذن لأحد من الشفعاء من الملائكة وغيرهم أن يشفع لهؤلاء الكافرين، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، والشفاعة لمثل هؤلاء لا تكون أبداً، والشفاعة: طلب الخير من الغير للغير، كما سيأتي في مبحث اللغة مبسوطاً.

والاستثناء في قوله[2]: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ استثناء مفرغ من أعمّ الأحوال؛ أي: لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلاّ كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة والنبيين وغيرهم من أهل العلم والعمل، ومعلوم أنّ هؤلاء لا يشفعون إلاّ لمن يستحق الشفاعة، لا للكافرين، ويجوز أن يكون المعنى: لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهّلين لها في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له؛ أي: لأجله، وفي شأنه من المستحقين للشفاعة من أهل الإيمان، وأما من عداهم من غير المستحقين لها كهؤلاء الكفرة.. فلا تنفعهم شفاعة شافع أصلاً، وإن فرض وقوعها وصدورها عن الشفعاء؛ إذ لم يأذن لهم في شفاعتهم، بل في شفاعة غيرهم من المؤمنين، فعلى هذا يثبت حرمانهم من شفاعة هؤلاء الشفعاء من الملائكة وغيرهم بمنطوق النصّ، ومن شفاعة الأصنام بمفهومه؛ إذ حين حرموها من جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين إليها، فلأن يحرموها من جهة العجزة عنها أولى.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَذِنَ﴾ بفتح الهمزة؛ أي: أذن الله سبحانه له؛ لأن اسمه مذكور قبل هذا، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: بضمها على البناء للمفعول،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

والآذن: هو الله سبحانه.

و﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾ غاية[1] لمحذوف يدل عليه قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فإنه يشعر بالاستئذان المستدعي الترقّب والانتظار للجواب، كأنه سئل: كيف يؤذن لهم؟ فقيل: يتربّصون في موقف الاستئذان والاستدعاء، ويتوقّفون على وَجَلٍ، وفزعٍ زماناً طويلاً، حتى إذا أزيل الفزع، وكشف الخوف عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن لهم، وظهرت لهم تباشير الإجابة، والمنعى: حتى إذا أزيل الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم من المؤمنين، وأما الكفرة: فهم عن موقف الاستشفاع بمعزل، وعن التفزيع عن قلوبهم بألف منزل.

﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: المشفوع لهم للشافعين؛ إذ هم المحتاجون إلى الإذن، والمهتمّون بأمره، ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: في شأن الإذن، ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: الشفعاء؛ لأنهم المباشرون للاستئذان بالذات، المتوسّطون بينهم وبينه تعالى بالشفاعة. ﴿ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: قال ربّنا القول الحق، وهو الإذن في الشفاعة للمستحقين لها.

قرأ الجمهور[2]: ﴿فُزِّعَ﴾ مبنياً للمفعول مشدّداً من الفزع؛ أي: أطير الفزع عن قلوبهم، وفعَّل يأتي لمعانٍ منها: الإزالة، وهذا منه نحو: قَرّدْتُ البعير؛ أي: أزلت القراد عنه، وقرأ ابن عامر وابن مسعود وابن عباس وطلحة وأبو المتوكل الناجي وابن السميفع: ﴿فَزَّع﴾ مبنياً لفاعل مشدّداً من الفزع أيضاً، والضمير الفاعل في فزع إن كان الضمير في ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ للملائكة، فهو الله، وإن كان للكفار.. فالضمير لمغويهم، وكلا هاتين بتشديد الزاي من التفزيع، وهو إزالة الفزع، وقرأ الحسن: ﴿فُزِع﴾ من الفزع بتخفيف الزاي مبنياً للمفعول، و﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ في موضع رفع به، كقولك: انطلق بزيد، وأبو المتوكل أيضاً وقتادة ومجاهد: ﴿فَزَّع﴾ مشدداً مبنياً للفاعل من التفزيع، وقرأ الحسن أيضاً كذلك، إلا أنه خفف الزاي، وقرأ عبد الله بن عمر والحسن أيضاً وأبو أيوب السختياني وقتادة أيضاً وأبو مجلز: ﴿فُرِّغ﴾ مشدّد الراء المهملة مبنياً للمفعول؛ أي: كشف عن قلوبهم الخوف، والفاعل هو الله، وقرأ ابن مسعود وعيسى: ﴿افرنقع عن قلوبهم﴾ بمعنى: انكشف

---

(١) روح البيان بتصرف.

(٢) البحر المحيط.

عنها، من الافرنقاع وهو التفرق، وقال الزمخشري: والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين، كما ركِّب قمطر من حروف القمط مع زياد الراء انتهى. فإن عنى الزمخشري أن العين من حروف الزيادة، وكذلك الراء، وهو ظاهر كلامه.. فليس بصحيح؛ لأن العين والراء ليستا من حروف الزيادة، وإن عني أنَّ الكلمة فيها حروف، وما ذكروا زائداً إلى ذلك العين والراء، كمادة فرقع وقمطر، فهو صحيح، ولولا إبهام ما قاله الزمخشري في هذه الكلمة لم أذكر هذه القراءة لمخالفتها سواد المصحف. ذكره أبو حيان.

ومعنى الآية[1]: أي يقف الناس منتظرين الإذن بالشفاعة، وَجِلِين، حتى إذا أذن للشافعين، وأزيل الفزع عن قلوب المنتظرين.. قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم في الإذن بالشفاعة؟ قالوا: قال ربنا القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى.

والخلاصة: أن الشفاعة لا تنفع في حال إلا لشافع أذن له فيها من النبيين، والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة، ويكون المشفوع له يستحق الشفاعة.

وقيل المعنى[2]: لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم فزعون اليوم، مطيعون لله دون الجمادات والشياطين، وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: معنى الآية: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين في الآخرة.. قالت لهم الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فأقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار.

ثمّ ذكر اعتراف الشفعاء بعظمة خالق الكون، وقصور كل ما سواه فقال: ﴿وَهُوَ﴾ جل شأنه: ﴿الْعَلِيُّ﴾ فوق خلقه بالقهر والاقتدار، فله أن يحكم في عباده بما يشاء، ويفعل ما يريد، لا معقّب لحكمه. ﴿الْكَبِيرُ﴾؛ أي: المتصف بالكبرياء في ذاته وصفاته، فهو الذي يُحتقر كل شيء في جنب كبريائه؛ أي: وهو سبحانه المنفرد بالعلوّ والكبرياء، لا يشاركه في ذلك أحد من خلقه، وليس لأحد منهم أن يتكلم إلا من بعد إذنه، وفي هذا تواضع منهم بعد أن رفع سبحانه أقدارهم بالإذن لهم في

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

الشفاعة، فهو من[1] تمام كلام الشفعاء، قالوه اعترافاً بغاية عظمة جناب العزة، وقصور شأن كل من سواه، وفيه أيضاً ثناء على الله، كما لا يخفى.

ثمّ أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يبكّت المشركين ويوبخهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي قومك ﴿قُلْ﴾ استفهام توبيخ وتبكيت؛ أي: قل لهم من ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بإنزال المطر ﴿و﴾ من ﴿الأرض﴾ بإخراج النبات؛ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين بربهم الأوثان والأصنام من يرزقكم من السموات بإنزال الغيث عليكم حياة لحروثكم، وصلاحاً لمعايشكم، وتسخير الشمس والقمر والنجوم لمنافعكم، ومن الأرض بإخراج أقواتكم، وأقوات أنعامكم؟ فإنْ هم قالوا: لا ندري.. فأجبهم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ يرزقكم؛ إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به عناداً مع علمهم بصحته، ولأنهم لو تفوهوا به لقيل لهم: فما لكم لا تعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق؟!

والمعنى[2]: أي فإن أجابوك، وقالوا: الله.. فذلك ظاهر، وإن لم يقولوا ذلك.. فقل: الله يرزق؛ إذ لا جواب سواه، وهذا إشارة إلى أن جر النفع ليس إلا به تعالى، ومنه تعالى، فإذن إن كنتم من الخواص فاعبدوه لعُلُوِّه وكبريائه، سواء دفع عنكم ضرراً أو لم يدفع، وسواء نفعكم بخير أو لم ينفع، فإن لم تكونوا كذلك.. فاعبدوه لدفع الضر، وجر النفع.

واعلم[3]: أنَّ الرزق قسمان: ظاهر، وهو الأقوات والأطعمة المتعلق بالأبدان، وباطن، وهو المعارف المتعلِّقة بالأرواح، وهذا أشرف القسمين، فإن ثمرته حياة الأبد، وثمرة الرزق الظاهر قوة إلى مدة قريبة الأبد، والله تعالى هو المتولي لخلق الرزقين، والمتفضل بالإيصال إلى كلا الفريقين، ولكنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

ثم أمره سبحانه أن يخبرهم بأنهم على ضلالة، لكن على وجه الإنصاف في الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى، ومن هو على الضلالة، فقال:

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

﴿وَإِنَّآ﴾؛ أي: أنا ومن اتبعني، ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ عطف على اسم إن، ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ من الله تعالى، ﴿أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بيِّن واضح، معناه[١]: ما نحن وأنتم علي أمر واحد، بل أحد الفريقين مهتدٍ، والآخر ضال، وهذا ليس على طريق الشك، بل على جهة الإلزام والإنصاف في الحجاج، كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق، وصاحبه كاذب، فالنبي ﷺ ومن اتبعه على الهدى، ومن خالفه في ضلال، فكذبهم من غير أن يصرِّح بالتكذيب، ومنه بيت حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب، وكان قد هجا رسول الله ﷺ قبل أن يسلم:

أَتَهْجُوْهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا ٱلْفِدَاءُ

وقيل: إن ﴿أَوْ﴾ بمعنى: الواو، على طريق النشر واللف المرتب.

ومعنى الآية: إنا لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين، واختلاف الحرفين[٢]؛ لأن الهادي كمن صعد مناراً ينظر منه الأشياء، ويتطلع عليها، أو يركب جواداً يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يرى شيئاً، ولا يدري أين يتوجه، أو متردٍّ في بئر عميق، لا يستطيع الخروج منها.

والمعنى[٣]: أي أن أحد الفريقين من الذين يوحِّدون الله الخالق الرازق ويخصّونه بالعبادة، والذين يعبدون الجمادات التي لا تقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر، لعلى أحد الأمرين: من الهدى والضلالة، ومعلوم لكل عاقل أنَّ من عبد الذي يخلق ويرزق، وينفع ويضرّ، هو الذي على الهدى، ومن عبد الذي لا يقدر على خلق ولا رزق، ولا نفع ولا ضرّ، هو الذي على الضلالة، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى، وهم المسلمون، وفريق الضلالة، وهم المشركون، على وجه أبلغ من التصريح، وهو الإيماء، وأوصل بالمجادل إلى الغرض مع قلة شغب الخصم، وفَلِّ شَوْكَتِهِ بالهويني.

ثم زاد في إنصافهم في المخاصمة، فأسند الإجرام إلى أنفسهم، والعمل للمخاطبين، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: أنتم ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ

---

(١) الخازن.

(٢) البيضاوي.

(٣) الشوكاني.

﴿أَجْرَمْنَا﴾؛ أي: عما فعلنا واكتسبنا من الذنوب، وارتكبنا من الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن، ﴿و﴾ نحن ﴿لا نسأل عما تعملون﴾ من الكفر والكبائر، بل كل مطالب بعمله، وكل زراع يحصد زرعه لا زرع غيره.

وهذا أبلغ في الإنصاف[1]، وأبعد من الجدل والاعتساف؛ حيث أسند فيه الإجرام، وإن أريد به الزلة وترك الأولى إلى أنفسهم مع كون أعمال المسلمين من البر الخالص، والطاعة المحضة، ومطلق العمل إلى المخاطبين، مع أن أعمالهم أكبر الكبائر والمعاصي المحضة، والمقصود: المهادنة والمتاركة، وقد نسخت هذه الآية وأمثالها بآية السيف، ونحو الآية قوله: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فإن قلتَ: لِمَ ترك كنتم هنا في قوله: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقد ذكره في غير هذا الموضع؟

قلتُ: تركه هنا؛ لأن قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وقع في مقابلة ﴿أَجْرَمْنَا﴾ في قوله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾، وضمير ﴿أَجْرَمْنَا﴾ للنبي ﷺ، والمراد غيره، وغيره صدر منه ذنب، فعبَّر عنه بالماضي، والمخاطب في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ الكفار، وكفرهم واقع في الحال، وفي المستقبل ظاهراً، فعبّر عنه بالمضارع، فلا يناسبه: كنتم، مع أن الخطاب في ذلك واقع في الدنيا، والخطاب في غيره نحو ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ واقع في الآخرة، فناسبه التعبير بكنتم. اهـ «فتح الرحمن».

ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم؛ إذ أمر رسوله أن يقول لهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفرة ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ بينكم ﴿رَبُّنَا﴾ يوم القيامة عند الحشر والحساب، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾؛ أي: يحكم ربنا، ﴿بَيْنَنَا﴾ وبينكم ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكم العدل، ويفصل بيننا وبينكم بعد ظهور حال كلٍّ منا ومنكم، بأن يدخل المحقين الجنة، والمبطلين النار. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْفَتَّاحُ﴾؛ أي: الحاكم بالحق، القاضي بالصواب، الفيصل في القضايا المنغلقة. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يقضي به، وبمن يقضي له وعليه، ولا يخفى عليه شيء من ذلك، كما لا يخفى عليه ما عدا ذلك،

---

(١) روح البيان.

وهذه الآية منسوخة أيضاً بآية السيف[1].

ومعنى الآية: أي قل لهم[2]: إن ربنا يوم القيامة يجمع بيننا حين الحشر والحساب، ثم يقضي بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور، وهناك يجزى كل عامل بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وقال الزروقي[3]: الفتاح: المتفضل بإظهار الخير والسعة على أثر ضيق، وانغلاق باب للأرواح والأشباح في الأمور الدنيوية والأخروية، وقال بعض المشايخ: الفتاح: من الفتح، وهو الإفراج عن الضيق، كالذي يفرّج تضايق الخصمين في الحق بحكمه، والذي يذهب ضيق النفس بخيره، وضيق الجهل بتعليمه، وضيق الفقر ببذله.

وقال الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ: الفتّاح: هو الذي بعنايته ينفتح كل منغلق وبهدايته ينكشف كل مشكل، فتارة يفتح الممالك لأنبيائه، ويخرجها من أيدي أعدائه، ويقول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، وتارة يرفع الحجاب عن قلوب أوليائه، ويفتح لهم الأبواب إلى ملكوت سمائه، وجمال كبريائه، ويقول: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾، ومن بيده مفاتيح الغيب ومفاتيح الرزق.. فبالأحرى أن يكون فتاحاً، وخاصية هذا الاسم تيسير الأمور، وتنوير القلوب، والتمكين من أسباب الفتح، فمن قرأه في إثر صلاة الفجر إحدى وسبعين مرة، ويده على صدره.. طهر قلبه، وتنور سره، وتيسير أمره، وفيه تيسير الرزق وغيره.

والعليم: مبالغة العالم، وهو من قام به العلم، ومن عرف أنه تعالى هو العالم

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

بكل شيء، راقبه في كل شيء، واكتفى بعلمه في كل شيء، فكان واثقاً به عند كل شيء، ومتوجهاً له بكل شيء. قال ابن عطاء الله: متى آلمك عدم إقبال الناس عليك، أو توجههم بالذم إليك.. فارجع إلى علم الله فيك، فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم. وخاصية هذا الاسم تحصيل العلم والمعرفة، فمن لازمه عرف الله حق معرفته على الوجه الذي يليق به تعالى.

ثم استفسر عن شبهتهم بعد إلزامهم الحجة تبكيتاً لهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَرُونِيَ﴾؛ أي: اعلموني، أو أبصروني الآلهة ﴿الذين ألحقتم﴾ وهم ﴿بِهِۦ﴾ سبحانه ﴿شُرَكَآءَ﴾ له تعالى، وهذه الرؤية[1] هي القلبية، فيكون ﴿شُرَكَآءَ﴾ هو المفعول الثالث؛ لأن الفعل تعدى بالهمزة إلى ثلاثة مفاعيل، الأول: الياء في ﴿أَرُونِيَ﴾، والثاني: الموصول، والثالث: ﴿شُرَكَآءَ﴾، وعائد الموصول محذوف؛ أي: ألحقتموهم، ويجوز أن تكون هي البصرية، وتعدى الفعل بالهمزة إلى اثنين، الأول: الياء، والثاني: الموصول، ويكون ﴿شُرَكَآءَ﴾ منتصباً على الحال.

والمقصود بأمرهم[2]: إراءة الأصنام، مع كونها بمرأى منه ﷺ: إظهار خطأهم العظيم، وإطلاعهم على بطلان رأيهم؛ أي: أرونيها لأنظر بأي صفة ألحقتموها بالله الذي ليس كمثله شيء، مع استحقاق العبادة، هل يخلقون، وهل يرزقون؟ وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم، ثم رد عليهم ما يدعونه من الشركاء، وأبطل ذلك فقال: ﴿كَلَّاۚ﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة؛ أي: ارتدعوا عن دعوى المشاركة، بل ﴿هُوَ﴾ سبحانه وحده، أو الشأن، كما في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المنفرد بالإلهية. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الموصوف بالعزة والغلبة القاهرة. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: الموصوف بالحكمة الباهرة، فأين شركاؤكم التي هي أخس الأشياء وأذلها من هذه الرتبة العالية.

ومعنى الآية[3]: أي ليس الأمر كما وصفتم، فلا نظير له تعالى، ولا ندَّ، بل هو الله الواحد الأحد، ذو العزة التي بها قهر كل شيء، وهو الحكيم في أفعاله

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وأقواله، وفيما شرع لهم من الدين الحق الذي يسعد من اعتنقه في حياتيه الأولى والآخرة.

قال بعضهم[1]: والتقرب باسم العزيز في التمسك بمعناه، وذلك يرفع الهمة عن الخلائق، فإن العز فيه، ومن ذكره أربعين يوماً في كل يوم أربعين مرة.. أعانه الله تعالى وأعزه، ولم يحوجه إلى أحد من خلقه، قال السهروردي: من قرأه سبعة أيام متواليات، كل يوم ألفاً.. أهلك خصمه، وإن ذكره في وجه العسكر سبعين مرة، ويشير إليهم بيده، فإنهم ينهزمون، والتقرب باسم الحكيم أن تراعى حكمته في الأمور كلها، فتجري عليها مقدماً ما جاء شرعاً، ثم عادة سلمت من معارض شرعي، وخاصية هذا الاسم دفع الدواهي، وفتح باب الحكمة، فمن أكثر ذكره صرف عنه ما يخشاه من الدواهي، وفتح له باب من الحكمة، والحكمة في حقنا إصابة الحق في القول والعمل، وفي حق الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، قال بعضهم: الحكمة تقال بالاشتراك على معنيين: الأول: كون الحكيم بحيث يعلم الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر، والثاني: كونه بحيث تصدر منه الأفعال المحكمة الجامعة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ أي: وما بعثناك يا محمد إلى قومك خاصة، بل ما أرسلناك ﴿إِلَّا﴾ بعثة، وإرسالة ﴿كَآفَّةً﴾؛ أي: عامة شاملة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ محيطة[2] بأحمرهم وأسودهم، وعربهم وعجمهم، من الكف بمعنى المنع؛ لأنها إذا عمتهم وشملتهم.. فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم، فانتصاب ﴿كَآفَّةً﴾ على أنها صفة لمصدر محذوف، والتاء للتأنيث، والجار متعلق بها، ويجوز أن تكون حالاً من الكاف، والتاء للمبالغة كتاء علامة؛ أي: ما أرسلناك في حال من الأحوال إلا حال كونك جامعاً لهم في الإبلاغ؛ لأن الكف يلزم الجمع، قال الراغب: وما أرسلناك إلا كافاً لهم عن المعاصي، والتاء فيه للمبالغة، انتهى. ولا يجوز أن يكون حالاً من ﴿الناس﴾، لامتناع تقدم الحال على صاحبها المجرور عند الجمهور، كامتناع تقدم المجرور على الجار، وذهب أبو علي وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون إلى جوازه، ومنه قول الشاعر:

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

إِذَا ٱلْمَرْءُ أَعْيَتْهُ ٱلسِّيَادَةُ نَاشِئاً ... فَمَطْلَبُهَا كَهْلاً عَلَيْهِ عَسِيْرُ

وقول الآخر:

تَسَلَّيْتُ طُرًّا عَنْكُمُ بَعْدَ بَيْنِكُمْ ... بِذِكْرَاكُمُ حَتَّىٰ كَأَنَّكُمُ عِنْدِيْ

وقول الآخر:

غَافِلاً تَعْرِضُ ٱلْمَنِيَّةُ لِلْمَرْ ... ءِ فَيُدْعَىٰ وَلَاتَ حَيْنَ إِبَاءِ

وممن رجح كونها حالاً من المجرور بعدها: ابن عطية، وقال: قدمت للاهتمام والتقوى.

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبيُّ يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة» متفق عليه.

وفي الحديث[1]: بيان الفضائل التي خص الله بها نبينا محمداً ﷺ دون سائر الأنبياء، وأنَّ هذه الخمسة لم تكن لأحد ممن كان قبله من الأنبياء، وفيه اختصاصه بالرسالة العامة لكافة الخلق الإنس والجن، وكان النبي قبله يبعث إلى قومه، أو إلى بلده خاصة، فعمت رسالة نبينا محمد ﷺ جميع الخلق، وهذه درجة خص بها دون سائر الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

وانتصاب ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ على الحال من الكاف في ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾؛ أي: وما أرسلناك إلا حالة كونك مبشراً لمن آمن بالجنة، وحالة كونك منذراً ومخوفاً لمن كفر بالنار.

ومعنى الآية[2]: أي وما أرسلناك إلى قومك خاصة، بل أرسلناك إلى الخلق جميعاً، عربهم وعجمهم أسودهم وأحمرهم، إنسهم وجنهم، مبشراً من أطاعني بالثواب العظيم، ومنذراً من عصاني بالعذاب الأليم، ونحو الآية قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما عند الله وما لهم من النفع في إرسال الرسل، فيحملهم جهلهم على الإصرار على ما هم عليه من الغيِّ والضلال، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وكرر ذكر الناس[1] تخصيصاً للجهل بنعمتي البشارة والنذارة، ونعمة الرسالة بهم، وأنهم هم الذين لا يعلمون فضل الله بذلك عليهم ولا يشكرونه، وذلك لأن العقل لا يستقل بإدراك جميع الأمور الدنيوية والدينية والأخروية، والتمييز بين المضار والمنافع، فاحتاج الناس إلى التبشير والإنذار، وبيان المشكلات من جهة أهل الوحي.

تتمة: وفي بعض الروايات من الحديث السابق آنفاً: «فضلت علي الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم»، وهي ما يكون ألفاظه قليلة، ومعانيه كثيرة، «ونصرت بالرعب» يعني: نصرني الله بإلقاء الخوف في قلوب أعدائي، «من مسيرة شهر بيني وبينهم»، وجعل الغاية شهراً؛ لأنه لم يكن بين بلده وبين أحد من أعدائه المحاربين له أكثر من شهر، «وأحلت لي الغنائم» يعني: أن من قبله من الأمم كانوا إذا غنموا الحيوانات.. تكون ملكاً للغانمين دون الأنبياء، فخص نبينا ﷺ بأخذ الخمس والصفي، وإذا غنموا غيرها من الأمتعة والأطعمة والأموال جمعوه، فتجيء نار بيضاء من السماء، فتحرقه حيث لا غلول، وخص هذه الأمة المرحومة بالقسمة بينهم، كأكل لحم القربان، فإن الله أحله لهم زيادة في أرزاقهم، ولم يحله لمن قبلهم من الأمم، «وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً» يعني: أباح الله لأمتي الصلاة حيث كانوا تخفيفاً لهم، وأباح التيمم بالتراب عند فقد الماء، ولم يبح الصلاة للأمم الماضية إلا في كنائسهم، ولم يجز التطهر لهم إلا بالماء، «وأرسلت إلى الخلق كافة»؛ أي: في زمنه وغيره ممن تقدم أو تأخر، بخلاف رسالة نوح عليه السلام، فإنها وإن كانت عامة لجميع أهل الأرض، لكنها خصت بزمانه، قال في

---

(١) روح البيان.

«إنسان العيون»: والخلق يشمل الإنس والجن، والملك والحيوانات والنبات والحجر.

﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: المشركون من فرط جهلهم، وغاية غيهم، وشدة تعنتهم وعنادهم مخاطبين لرسول الله ﷺ، والمؤمنين به بطريق الاستهزاء: ﴿مَتَىٰ﴾ يكون ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ المبشر به والمنذر عنه، يعنون: الجنة والنار. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى الوقوع والوجود.. فأخبرونا عن وقت وقوعه، ونحو الآية: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾، ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يجيبهم عن سؤالهم فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ مبتدأ وخبر؛ أي: وعد يوم، وهو يوم البعث مصدر ميمي، وجملة: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ﴾؛ أي: عن ذلك الميعاد المضروب لكم عند مفاجأته صفة لـ﴿الميعاد﴾ إن طلبتم التأخير، ﴿سَاعَةً﴾؛ أي: مقدار أقل قليل من الزمان.

﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه ساعة إن طلبتم الاستعجال، وفي هذا الجواب من المبالغة في التهديد ما لا يخفى؛ حيث جعل الاستئخار في الاستحالة كالاستقدام الممتنع عقلاً؛ أي لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال، ولا التقدم إليه بالاستعجال.

فإن قلت[1]: كيف انطبق هذا جواباً لسؤالهم، مع أنهم سألوا عن تعيين وقت الوعد؛ لأن: متى، سؤال عن الوقت المعين، ولا تعرض في الجواب لتعيين الوقت؟

قلت: وجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم: أن سؤالهم، وإن كان على صورة استعلام الوقت إلا أن مرادهم الإنكار والتعنت، والجواب المطابق لمثل هذا السؤال أن يجاب بطريق التهديد على تعنتهم وإنكارهم، وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم، فلا يستطيعون تأخر عنه ولا تقدماً عليه اهـ «زاده» بزيادة.

ومعنى الآية: أي قل لهم أيها الرسول[2]: إن لكم ميعاد يوم هو آتيكم لا محالة، لا تستأخرون عنه ساعة إذاجاء، فتنظروا للتوبة والإنابة، ولا تستقدمون قبله للعذاب؛ لأن الله جعل لكم أجلاً لا تعدونه.

---

(١) الفتوحات بتصرف.
(٢) المراغي.

والخلاصة: دعوا السؤال عن وقت مجيء الساعة، فإنه كائن لا محالة، وسلوا عن أحوال أنفسكم حين تكونون مبهوتين متحيرين من هول ما تشاهدون، فهذا أليق بكم، قيل[1]: هو يوم البعث، وهو السابق إلى الذهن، وقيل: وقت حضور الموت، وقيل: أراد يوم بدر؛ لأنه كان يوم عذابهم في الدنيا. أقوال، وعلى كل تقدير فهذه الإضافة للبيان، ويجوز في ﴿مِّيعَادُ﴾ أن يكون مصدراً مراداً به الوعد، وأن يكون اسم زمان، قال أبو عبيدة: الوعد والوعيد والميعاد بمعنى.

وقرأ الجمهور: ﴿مِّيعَادُ﴾ يوم بالإضافة، وقرأ ابن أبي عبلة واليزيدي: ﴿ميعاد يوماً﴾ بتنوينهما، قال الزمخشري: وأما نصب ﴿يوماً﴾ فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره: لكم ميعاد، أعني يوماً، وأريد يوماً صفته كيت وكيت، ويجوز أن يكون انتصابه على الظرف على حذف مضاف؛ أي: إنجاز وعد يوم من صفته كيت وكيت، وقرأ عيسى: ﴿ميعاد﴾ منوناً، و﴿يوم﴾: بالنصب من غير تنوين مضافاً إلى الجملة، واحتمل تخريجه على الظرف على حذف مضاف؛ أي: إنجاز وعد يوم كذا، واحتمل تخريج الزمخشري على التعظيم.

الإعراب

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، ﴿لِسَبَإٍ﴾: خبرها مقدم، ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾: حال من ﴿سبأ﴾؛ أي: حال كونهم في مسكنهم ﴿ءَايَةٌ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿كَانَ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿جَنَّتَانِ﴾: بدل من ﴿ءَايَةٌ﴾ بدل كل، أو خبر لمبتدأ محذوف، ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾: صفة لـ﴿جَنَّتَانِ﴾، ﴿كُلُوا۟﴾: فعل أمر وفاعل، ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كُلُوا۟﴾، والجملة في محل الرفع مقول لقول محذوف تقديره: وقيل لهم بلسان الحال، أو بلسان المقال: كلوا من رزق ربكم، ﴿وَٱشْكُرُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿كُلُوا۟﴾،

---

(١) الشوكاني.

﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿اشكروا﴾. ﴿بَلْدَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: بلدتكم بلدة طيبة، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿كُلُواْ﴾، ﴿طَيِّبَةٌ﴾: صفة لـ﴿بَلْدَةٌ﴾، ﴿وَرَبٌّ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، ﴿غَفُورٌ﴾: صفة لـ﴿رب﴾، والتقدير: وربكم رب غفور، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَأَعْرَضُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قيل لهم، وأردت بيان ما فعلوا بعد ذلك.. فأقول لك: أعرضوا، ﴿أعرضوا﴾: فعل ماض وفاعل، ومتعلقه محذوف تقديره: عن شكر ربهم، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿أرسلنا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة مفرعة على جملة ﴿أعرضوا﴾، ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول معطوف على ﴿أرسلنا﴾، ﴿بِجَنَّتَيْهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿بدلنا﴾، ﴿جَنَّتَيْنِ﴾: مفعول ثان لـ﴿بدلنا﴾، ﴿ذَوَاتَىْ﴾: صفة لـ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ منصوب بالياء؛ لأنه جمع ذات مؤنث، ﴿ذو﴾: بمعنى صاحب، ﴿أُكُلٍ﴾: مضاف إليه، ﴿خَمْطٍ﴾: صفة ﴿أُكُلٍ﴾، ﴿وَأَثْلٍ﴾: معطوف على ﴿أُكُلٍ﴾، ﴿وَشَىْءٍ﴾: معطوف عليه أيضاً، ﴿مِّن سِدْرٍ﴾: صفة أولى لـ﴿شَىْءٍ﴾، ﴿قَلِيلٍ﴾: صفة ثانية له، ﴿ذَٰلِكَ﴾: في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ مقدم عليه؛ لأنه ينصب مفعولين؛ أي: جزيناهم ذلك التبديل، ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة مستأنفة، ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: سببية متعلقة بـ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: بسبب كفرهم، ﴿وَهَلْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري بمعنى: النفي، ﴿نُجَٰزِىٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱلْكَفُورَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿بدلناهم﴾ عطف قصة على قصة، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف مضاف منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿جعلنا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى﴾: ظرف ومضاف إليه، معطوف على الظرف الأول، ﴿الَّتِي﴾ في محل الجر صفة لـ﴿الْقُرَى﴾، ﴿بَارَكْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿﴿قُرًى﴾: مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾، ﴿ظَاهِرَةً﴾: صفة لـ﴿قُرًى﴾، ﴿وَقَدَّرْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جعلنا﴾، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿الأرض﴾، أو متعلق بـ﴿السَّيْرَ﴾، و﴿السَّيْرَ﴾: مفعول به لـ﴿قدرنا﴾، ﴿سِيرُوا﴾: فعل أمر وفاعل، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿سِيرُوا﴾، ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾: منصوبان على الظرفية، متعلقان بـ﴿سِيرُوا﴾، ﴿آمِنِينَ﴾: حال من فاعل ﴿سِيرُوا﴾، وجملة ﴿سِيرُوا﴾ في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: وقلنا لهم سيروا، والقول المحذوف معطوف على ﴿قدرنا﴾.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾.

﴿فَقَالُوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على محذوف جواب لما المحذوفة، والتقدير: ولما بطروا النعمة، وطغوا، وسئموا الراحة، ولم يصبروا على العافية.. تمنوا طول الأسفار، والكد في المعيشة، فقالوا: ربنا باعد بين أسفارنا، كما يشير إليه كلام القرطبي. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء مقول ﴿قالوا﴾، ﴿بَاعِدْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ على كونها جواب النداء، ﴿بَيْنَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿بَاعِدْ﴾، ﴿أَسْفَارِنَا﴾: مضاف إليه، ﴿وَظَلَمُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قالوا﴾، ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾: مفعول به: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف على ﴿ظَلَمُوا﴾، ﴿أَحَادِيثَ﴾: مفعول ثان، ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿جعلناهم﴾، ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة لنيابته عن المصدر ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد، ﴿فِي ذَلِكَ﴾: خبر مقدم لها، ﴿لَآيَاتٍ﴾: اسمها مؤخر، واللام حرف ابتداء، ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾: صفة لـ﴿آيات﴾، ﴿شَكُورٍ﴾: صفة ﴿صَبَّارٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ

عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿صَدَّقَ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: متعلق به، ﴿إِبۡلِيسُ﴾: فاعل، ﴿ظَنَّهُۥ﴾: مفعول به، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿اتبعوه﴾: فعل ماض، وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿صَدَّقَ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿فَرِيقٗا﴾: منصوب على الاستثناء ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: صفة لـ﴿فَرِيقٗا﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو: حالية أو عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لَهُۥ﴾: خبر كان مقدم، ﴿عَلَيۡهِم﴾: حال من ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾: اسمها مؤخر، والجملة في محل النصب حال من إبليس، أو معطوفة على جملة القسم، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء متصل مفرغ من أعم العلل، تقديره: وما كان تسليطنا إياه عليهم لعلة من العلل إلا لأجل أن نعلم ونميز من يؤمن بآياتنا، ﴿لِنَعۡلَمَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿نعلم﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿نعلم﴾، ﴿يُؤۡمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يُؤۡمِنُ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿نعلم﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بمعلول محذوف تقديره: وما كان تسليطنا إياه عليهم إلا لعلمنا وتمييزنا من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، ﴿مِمَّنۡ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿نعلم﴾؛ لأنه متضمن معنى: نميز، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿مِنۡهَا﴾: حال من ﴿شَكّٖ﴾؛ لأنه في الأصل صفة لـ﴿شَكّٖ﴾. ﴿فِي شَكّٖ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول، ﴿وَرَبُّكَ﴾: مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾: متعلق بـ﴿حَفِيظٞ﴾، ﴿حَفِيظٞ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، مبني بسكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين، والجملة مستأنفة،

﴿ٱدۡعُواْ﴾: فعل أمر وفاعل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول، وجملة ﴿زَعَمۡتُم﴾: صلة الموصول، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، صفة للمفعول الثاني المحذوف، والمفعول الأول محذوف أيضاً تقديره: زعمتموهم آلهة كائنة من دون الله تعالى، فحذف الأول لطول الموصول بصلته، وحذف الثاني لقيام صفته، أعني دون الله مقامه، فإذن مفعولا زعم محذوفان جميعاً بسببين مختلفين. ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لبيان حال آلهتهم، أو حال من الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿يَمۡلِكُونَ﴾، أو صفة لـ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾، ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿لَهُمۡ﴾: خبر مقدم، ﴿فِيهِمَا﴾: حال من شرك؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿شِرۡكٖ﴾: مبتدأ مؤخر، واسم ﴿مَا﴾ على رأي من يجيز تقدم خبرها على اسمها، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿مِنۡهُم﴾: حال من ﴿ظَهِيرٖ﴾، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿ظَهِيرٖ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ أيضاً.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾.

﴿وَلَا تَنفَعُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لا تنفع الشفاعة﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿عِندَهُۥٓ﴾: متعلق بـ﴿تَنفَعُ﴾ أو حال من الشفاعة، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان المصير الذي لا تنفع فيه شفاعة الشافعين، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿لِمَنۡ﴾: متعلق بـ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، أو بـ﴿تَنفَعُ﴾، ﴿أَذِنَ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿أَذِنَ﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية لمحذوف يفهم من السياق، كأنه قيل: وكانوا يتربصون ويقفون خائفين وجلين تتقاوسهم المخاوف، وتتقاذفهم الشكوك، أيؤذن لهم أم لا؟ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿فُزِّعَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَن قُلُوبِهِمۡ﴾: جار ومجرور، في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿فُزِّعَ﴾، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة

﴿إِذَا﴾ الشرطية مع جوابها في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الجارة، والتقدير: يقفون خائفين منتظرين الإذن إلى قولهم: ماذا قال ربكم وقت إزالة الفزع عنهم، و﴿حَتَّىٰٓ﴾: متعلق بيقفون المحذوف، ﴿مَاذَا﴾: ﴿ما﴾: اسم استفهام مبتدأ، ﴿ذا﴾: اسم موصول خبره، ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ذا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما الذي قاله ربكم، والجملة الاسمية محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلْحَقَّ﴾: مقول لـ﴿قَالَ﴾ المحذوف بتضمينه معنى ذكر، تقديره: قال ربنا القول الحق، وهو الإذن في الشفاعة، وجملة ﴿قال﴾ المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ولك أن تعرب القول المحذوف مفعولاً مطلقاً لقال المحذوف، أو مفعولاً به؛ لأنه بمعنى: ذكر، و﴿ٱلْحَقَّ﴾: صفة له، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾: خبر أول، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿مَن﴾: اسم استفهام مبتدأ، وجملة ﴿يَرْزُقُكُم﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلق بـ﴿يَرْزُقُكُم﴾، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ خبره محذوف تقديره: الله يرزقنا وإياكم، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو الله، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿وَإِنَّآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنا﴾: ناصب واسمه، ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾: معطوف على اسم ﴿إن﴾، ﴿لَعَلَىٰ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿على هدى﴾: جار ومجرور، خبر ﴿إن﴾؛ أي: لكائنون على هدى، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿الله يرزقنا﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾، ﴿أَوْ فِي ضَلَٰلٍ﴾: معطوف على ﴿على هدى﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾، ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿عَمَّآ﴾: متعلق بـ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾، و﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية، ﴿أَجْرَمْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة

لـ﴿ما﴾ الموصولة، أو المصدرية، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿نُسْئَلُ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾، ﴿عَمَّآ﴾: متعلق بـ﴿نُسْئَلُ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، أو الموصولة، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿يَجْمَعُ﴾: فعل مضارع، ﴿بَيْنَنَا﴾: متعلق بـ﴿يَجْمَعُ﴾، ﴿رَبُّنَا﴾: فاعل ﴿يَجْمَعُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿يَفْتَحُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿يَجْمَعُ﴾، ﴿بَيْنَنَا﴾: متعلق بـ﴿يَفْتَحُ﴾، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿يَفْتَحُ﴾ أيضاً، ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّـاحُ﴾: مبتدأ وخبر أول، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿أَرُونِيَ﴾: فعل أمر والواو فاعل، والنون: للوقاية، والياء: مفعول به أول؛ لأنّ الرؤية علمية متعدية قبل النقل إلى اثنين، فلما جيء بهمزة النقل تعدت إلى ثلاثة مفاعيل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أَرُونِيَ﴾، والجملة ﴿أَلْحَقْتُم﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ألحقتموهم، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أَلْحَقْتُم﴾، ﴿شُرَكَآءَ﴾: مفعول ثالث لـ﴿أَرُونِيَ﴾، وجملة ﴿أَرُونِيَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ويجوز أن تكون الرؤية بصرية متعدية قبل النقل إلى واحد، فلما جيء بهمزة النقل.. تعدت لاثنين، أولهما: ياء المتكلم، والثاني: الموصول، ﴿شُرَكَآءَ﴾: حال من العائد المحذوف؛ أي: بصّروني الملحقين به حال كونهم شركاء له. ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر مبني على السكون، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء، ﴿هُوَ﴾: ضمير الشأن مبتدأ أول ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ثانٍ، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر أول له، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان له، وجملة المبتدأ الثاني مع خبره خبر للمبتدأ الأول، وجملة المتبدأ الأول مستأنفة، ولك أن تجعل ﴿هُوَ﴾ ضميراً عائداً على الله، وتعربه مبتدأ خبره ﴿ٱللَّهُ﴾، و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: صفتان للجلالة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿كَآفَّةً﴾: حال من الكاف في ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾، أو من الناس على رأي من يجيز تقدم الحال على الجار والمجرور، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: إرسالة كافة عامة للناس، ﴿لِّلنَّاسِ﴾ متعلقان بـ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: حالان من الكاف في ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ﴾: اسمها ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ خبرها، والجملة معطوفة على جملة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ عطف اسمية على فعلية.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مَتَىٰ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على السكون، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ مؤخر ﴿الْوَعْدُ﴾: بدل من اسم الإشارة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله، تقديره: إنْ كنتم صادقين فيما وعدتمونا.. فأخبرونا متى هو، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿يقولون﴾، ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿لَّكُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مصدر مضاف إلى الظرف، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق بـ﴿تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، ﴿سَاعَةً﴾: ظرف زمان متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿يَوْمٍ﴾، وجملة ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾: معطوفة على جملة ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ هو: سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، والمراد به هنا: القبيلة.

﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ والمسكن: موضع السكنى، وهو: مأرب، كمنزل من بلاد

اليمن، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام.

﴿ءَايَةٌ﴾؛ أي: علامة دالة على وجود الله ووحدانيته، وقدرته على إيجاد الغرائب والعجائب. ﴿جَنَّتَانِ﴾؛ أي: بستانان.

﴿عَن يَمِينٍ﴾ واليمين في الأصل: الجارحة، وهي أشرف الجوارح لقوتها، وبها تعرف من الشمال وتمتاز عنها. ﴿وَشِمَالٍ﴾: ضد اليمين. ﴿فَأَعْرَضُوا﴾؛ أي: انصرفوا عن شكر هذه النعم، يقال: أعرض: إذا أظهر عرضه؛ أي: ناحيته.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الإرسال: مقابل الإمساك، والتخلية، وترك المنع.

﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ السيل: أصله مصدر، كالسيلان بمعنى: فاض الوادي ماء، وجعل اسماً للماء الذي يأتيك ولم يصبك مطره، والعرم: من العرامة، وهي الشدة والصعوبة، يقال: عَرَم، كنصر وضرب وكرم وعلم عرامةً وعراماً بالضم، فهو عارم وعرم: إذا اشتد، وعرم الرجل إذا شرس خلقه؛ أي: ساء وصعب، وأضاف السيل إلى العرم؛ أي: الصعب، وهو من آضافة الموصوف إلى صفته، بمعنى: سيل المطر العرم، أو الأمر العرم، وقيل: العرم بفتح أوله وكسر ثانية، جمع: عرمة، كذلك مثل كلم وكلمة، وهي الحجارة المركومة، كخزّان أسوان في وادي النيل لحجز المياه جنوبيّ النيل، وقيل: اسم للجرذ؛ أي: الخلد: نوع من الفئران، وقيل: المطر الشديد، وقيل: اسم للوادي، وقيل: غير ذلك من الأقوال المتلاطمة، ولن تجد كلمة اختلف فيها المفسرون كهذه الكلمة، واختار الجلال منها أن يكون العرم جمع عرمة، وهو ما يمسك الماء من بناء وغيره إلى وقت حاجته، وهذا ما نعبّر عنه اليوم بالسدود، وهو أولى ما تفسَّر به الآية، وقد يحدث تصدّع السدود وانهيارها بأسباب مختلفة.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم﴾ والتبديل: جعل الشيء مكان آخر، والباء تدخل على المتروك، كما هو القاعدة المشهورة.

﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ مثنى: ذوات أو ذات، ولفظ ذوات مفرد؛ لأن أصله: ذوية، فالواو عين الكلمة والياء لامها؛ لأنه مؤنث ذو وذو أصله: ذوي، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها.. قلبت الفاً، فصار: ذوا، ثم حذفت الواو تخفيفاً، فعندما يراد تثنيته يجوز أن ينظر إلى لفظه الآن، فيقال: ذاتان، ويجوز أن ينظر إلى أصله،

فيقال: ذواتان. هذا، وذات: مؤنث ذو، ومثناها: ذواتان، والجمع: ذوات، ويعرب المؤنث والمثنى والجمع إعراب نظيره من الأسماء المفردة والمثناة والمجموعة.

﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بضمتين وبضم، فسكون: الثمر أو ما يؤكل، والخمط: المر والحامض، يقال: خمر خمطة؛ أي: حامضة، ولبن خمط؛ أي: متغيِّر، وفي «المختار»: الخمط: ضرب من الأراك له حمل يؤكل، وعن أبي عبيدة: كل شجر ذي شوك، وقال الزجاج: كل نبت أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله. اهـ.

﴿وَأَثْلٍ﴾ الأثلة: السمرة، وقيل: شجر من العضاة طويلة مستقيمة الخشبة تعمل منها القصاع والأقداح، فوقعت مجازاً في قولهم: نحت أثلته إذا تنقصته، وفلان لا تنحت أثلته، ولفلان أثلة مال؛ أي: أصل مال، ثم قالوا: أثلت مالاً وتأثلته، وشرف مؤثل وأثيل، وقيل: الأثل: الطرفاء، وهو المعروف في مصر بالأتل، وفي اللغة الأرمية: غاترا، قال الفراء: يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً، ومنه اتخذ منبر رسول الله ﷺ، وورقه كورق الطرفاء، والواحدة: أثلة، والجمع: أثلال، كما مر وفي الأرمية: بربرس.

﴿مِّن سِدْرٍ﴾ السدر: شجر النبق يطيب أكله، ولذا يغرس في البساتين، وقيل: إن السدر صنفان، صنف يؤكل ثمره، وينتفع بورقه في غسل الأيدي، وصنف له ثمرة غضة لا تؤكل أصلاً، وهو الضال في الأرمية: قرقر غبروا.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ قال في «القاموس»: ﴿هَلْ﴾: كلمة استفهام، وقد يكون بمعنى الجحد وكفر النعمة، وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها.

﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى﴾: جمع قرية، والقرية: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس، بلدة كانت أو غيرها. ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمبارك: ما فيه ذلك الخير.

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أصل ظهر الشيء: أن يحصل على ظهر الأرض فلا يخفى، وبطن الشيء: أن يحصل في بطنان الأرض فيخفى، ثم صار مستعملاً في كل ما برز للبصر والبصيرة. ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ والسير: المضي في الأرض.

﴿ءَامِنِينَ﴾ أصل الأمن: طمأنينة النفس، وزوال الخوف.

﴿بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ المباعدة والبعاد: مصدران لباعد، والأسفار: جمع سفر، والسفر: خلاف الحضر، وهو في الأصل كشف الغطاء، وسفر الرجل فهو سافر وسافر: خص بالمفاعلة اعتباراً بأن الإنسان قد سفر عن المكان، والمكان سفر عنه، ومن لفظ السفر اشتقت السفرة لطعام السفر، ولما يوضع فيه من الجلد المستدير. وقال بعضهم: وسمي السفر سفراً؛ لأنه يسفر؛ أي: يكشف عن أخلاق الرجال، ويستخرج دعاوي النفوس ودفائنها.

﴿أَحَادِيثَ﴾ جمع: أحدوثة، وهي ما يتحدث به على سبيل التلهي والاستغراب، وتقديره في العربية: ذوي أحاديث، قال ابن الكمال: الأحاديث مبني على واحده المستعمل، وهو الحديث، كأنهم جمعوا حديثاً على أحدثة، ثم جمعوا الجمع على الأحاديث، وفي «القاموس»: الأحاديث: جمع حديث بمعنى الخبر. ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾؛ أي: فرقناهم كل تفريق؛ أي: فرقناهم تفريقاً لا يتوقع بعده عود اتصال.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ الصبار: كثير الصبر عن الشهوات ودواعي الهوى وعلى مشاقّ الطاعات، والشكور: كثير الشكران على النعم، وهما من صيغ المبالغة.

﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ﴾ وإبليس: مشتق من الإبلاس، وهو الحزن المعترض من شدة اليأس، كما في «المفردات»: أبلس: يئس وتحير، ومنه: إبليس، أو هو أعجمي. انتهى.

﴿ظَنَّهُۥ﴾ والظن: هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ومظنة الشيء - بكسر الظاء -: موضع يظن فيه وجوده.

﴿إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الفريق: الجماعة المنفردة عن الناس.

﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾؛ أي: وجد ظنه فيهم صادقاً؛ لانهماكهم في الشهوات، واستفراغ الجهد في اللذات.

﴿مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ السلطان: القهر والغلبة، ومنه: السلطان لمن له ذلك.

﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ﴾ العلم: إدراك الشيء بحقيقته، والعالم في وصف الله تعالى هو الذي لا يخفى عليه شيء.

﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾: والشك: اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما.

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾؛ أي: محافظ عليه، فإن فعيلاً ومفاعلاً صيغتان متآخيتان في إفادة المبالغة، وقيل: معناه: أي: وكيل قائم على شؤون خلقه.

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ قال في «القاموس»: الزعم - مثلثة -: القول الحق، والباطل، والكذب، وأكثر ما يقال فيما يشكّ فيه، وفي «المفردات»: الزعم: حكاية قول يكون مظنة الكذب، ولهذا جاء في القرآن في كل موضع ذمَّ القائلين به.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ وهي طلب العفو أو الفضل للغير من الغير، يعني: أن الشافع شفيع للمشفوع له في طلب نجاته، أو زيادة ثوابه، ولذا لا تطلق الشفاعة على دعاء الرجل لنفسه، وأما دعاء الأمة للنبي ﷺ، وسؤالهم له مقام الوسيلة، فلا يطلق عليه الشفاعة؛ إما لاشتراط العلو في الشفيع، وإما لاشتراط العجز في المشفوع له، وكلاهما منتفٍ ههنا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ والتفزيع: إزالة الفزع، وهو انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الجزع، ولذا لا يقال: فزعت من الله، كما يقال: خفت منه، وفي «الأساس»: وفزَّع عن قلبه: كشف الفزع عنه، فالتضعيف هنا للسلب، كما يقال: قرّدت البعير: أزلت قراده.

﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ الإجرام: فعل الجرم، والجرم - بالضم -: الذنب، وأصله: القطع، واستعير لكل اكتساب مكروه، كما في «المفردات».

﴿أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾؛ أي: أعلموني بالدليل وجه الشركة. ﴿كَلَّا﴾: كلمة للزجر عن كلام، أو فعل صدر من المخاطب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين لفظ ﴿يَمِينٍ﴾ و﴿وَشِمَالٍ﴾، وبين ﴿بشير﴾ و﴿نَذِيرٍ﴾، وبين ﴿تَسْتَقْدِمُونَ﴾ و﴿تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في

مقابلته، فقد سمي البدل جنتين للمشاكلة، وإلا فالخمط والأثل والضال ليس بجنة.

ومنها: التهكم بهم في قوله: ﴿جَنَّتَيْنِ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ﴾ فإن كلمة ﴿سِيرُواْ﴾ مشتقة من السير.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ إلماعاً إلى قصر أسفارهم، فقد كانت قصيرة؛ لأنهم يرتعون في بحبوحة من العيش، ورغد منه، لا يحتاجون إلى مواصلة الكد، وتجشم عناء الأسفار للحصول على ما يرفه عيشهم.

ومنها: التذييل في قوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ فإنه تذييل لقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾، وهو هنا أن تكون الجملة الثانية متوقفة على الأولى في إفادة المراد؛ أي: وهل يجازى ذلك الجزاء المخصوص، ومضمون الجملة الأولى أن آل سبأ جزاهم الله تعالى بكفرهم، ومضمون الثانية أن ذلك العقاب المخصوص لا يقع إلا للكفور، وفرق بين قولنا: جزيته بسبب كذا، وبين قولنا: ولا يجزى ذلك الجزاء إلا من كان بذلك السبب، ولتغايرهما يصح أن يجعل الثاني علة للأول، ولكن اختلاف مفهومهما لا ينافي تأكيد أحدهما بالآخر للزوم معنى.

ومنها: مقابلة الإيمان بالشك في قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ إيذاناً بأن أدنى مرتبة الكفر يوقع في الورطة.

ومنها: جعل الشك ظرفاً له، وتقديم صلته عليه، والعدول إلى كلمة ﴿مِنْ﴾ مع أنه يتعدى بفي؛ للمبالغة والإشعار بشدته، وأنه لا يرجى زواله.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾؛ لأن فعيلاً من صيغ المبالغة.

ومنها: فن الفرائد في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، وهو أن يأتي المتكلم في كلامه بلفظة تتنزل منزلة الفريدة من حب العقد، وهي الجوهرة التي لا نظير لها، بحيث لو سقطت من الكلام لم يسد غيرها مسدَّها، وفي لفظة: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ من غرابة الفصاحة ما لا مزيد عليه.

ومنها: التعجيز بدعاء الجماد الذي لا يسمع ولا يحس في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: التوبيخ والتبكيت في قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: حذف الخبر لدلالة السياق عليه في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: قل الله الخالق الرازق للعباد، ودلَّ على المحذوف سياق الآية.

ومنها: المبالغة بذكر صيغ المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ لأن فعالاً وفعولاً وفعيلاً من أوزان المبالغة.

ومنها: الاستدراج في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وهو فن يعتبر من البلاغة محورها الذي تدور عليه؛ لأنه يستدرج الخصم ويضطره إلى الإذعان والتسليم، والعزوف عن المكابرة واللجاج، فإنه لما ألزمهم الحجة خاطبهم بالكلام المنصف الذي يقول من سمعه المخاطب به: قد أنصفك صاحبك، كقول الرجل لصاحبه: أنا وأنت أحدنا لكاذب، وأبرزه في صورة الإبهام لأجل الإنصاف في الكلام.

ومنها: المخالفة بين حرفي الجر في قوله: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإنه إنما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل؛ لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركض به حيث شاء، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه، لا يدري أين يتوجه، وهذا معنى دقيق قلّما يراعى مثله في الكلام، وكثيراً ما سمعنا إذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتب صديقه على أمر من الأمور، فيقول له: أنت على ضلالك القديم، كما أعهدك، فيأتي بعلى في موضع: في، وإن كان هذا جائزاً، إلا أن استعمال في هنا أولى لما أشرنا إليه، والاستعارة التصريحية واضحة.

ومنها: الأمر في قوله: ﴿أَرُونِيَ﴾ أمرهم بإراءته الأصنام مع كونها بمرأى منه إظهاراً لخطئهم، وإطلاعهم على بطلان رأيهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ لأن الإجرام في الأصل: القطع ثم استعير لكل اكتساب مكروه.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

يَعۡلَمُونَ﴾ تخصيصاً للجهل بنعمتي البشارة والنذارة، ونعمة الرسالة بهم.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ
ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ
لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ
عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ
ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ
وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى
قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا
وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا
فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا
مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ
لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ
ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ
ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله[1] سبحانه لما ذكر الأصول الثلاثة، وهو: التوحيد والرسالة والحشر، وكانوا كافرين بها جميعاً.. ذكر شأن جماعة من المشركين جاهروا بإنكار القرآن، وبكل كتاب سبقه من الكتب السماوية السالفة، ويستتبع ذلك أنهم لا يؤمنون بما جاء فيها من البعث والحشر والحساب والجزاء، ثم ذكر ما سيكون من الحوار بين الضالين ومضليهم من الكفار، وما يسرونه من

---

(١) المراغي.

الحسرة والندامة، حين يرون العذاب، ثم أعقبه بذكر ما سيحيق بهم من الإهانة بوضع الأغلال في الأعناق، وأن هذا جزاء لهم على ما عملوا من سيء الأعمال، وما دسوا به أنفسهم من قبيح الخلال.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر قول المشركين لرسوله: لن نؤمن بهذا القرآن، ولا بالذي بين يديه، بعد أن طال به الأمد في دعوتهم حتى لحقه من ذلك الغم الكثير، كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.. سلاه على ما ابتلي به من مخالفة مترفي قومه له، وعداوتهم إياه بالتأسي بمن قبله من الرسل، فهو ليس بدعاً من بينهم، فما من نبي بعث في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤها، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾، ثم ذكر حجتهم بأنهم لا حاجة لهم إلى الإيمان به، فما هم فيه من مال وولد برهان ساطع على محبة الله إياهم، فرد عليهم بأن بسط الرزق وتقتيره، كما يكون للبر.. يكون للفاجر؛ لأن ذلك مرتبط بسنن طبيعية، وأسباب قدرها سبحانه في هذه الحياة، فمن أحسن استعمالها استفاد منها، ثم ذكر أن المتقين يمتّعون إذ ذاك بغرف الجنان، وهم في أمن ودعة، وأن الذين يصدون عن سبيل الله في نار جهنم يصلونها أبداً، ثم وعد المنفقين في سبيل الله بالإخلاف، وأوعد الممسكين بالإتلاف.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[(١)] أنَّ حال النبي ﷺ مع قومه ليس بدعاً بين الرسل، فحاله معهم كحال من تقدمه منهم مع أقوامهم، فكلهم كذبوا، وكلهم أوذوا في سبيل الله، ثم أعقب ذلك بأن ردّ عليهم بأن كثرة الأموال والأولاد لا صلة لها بمحبة الله تعالى، ولا سخطه.. أردف ذلك ما يكون من حالهم يوم القيامة من التقريع والتأنيب بسؤال الملائكة لمعبوداتهم أمامهم: هل هؤلاء كانوا يعبدونكم؟ فيجيبون: بأنهم كانوا يعبدون الشياطين بوسوستهم لهم، ثم بيَّن أنهم في ذلك اليوم لا يقع لهم نفع ممن كانوا يرجون من الأوثان والأصنام، ويقال لهم على طريق

(١) المراغي.

التوبيخ والتهكم: ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ...﴾ الآيات، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سفيان عن عاصم عن ابن رزين قال: كان رجلان شريكان، خرج أحدهما إلى الشام، وبقي الآخر، فلما بعث النبي ﷺ.. كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل، فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم، فترك تجارته، ثم أتى صاحبه، فقال: دلني عليه، وكان يقرأ بعض الكتب، فأتى النبي ﷺ، فقال: إلام تدعو فقال: إلى كذا وكذا، فقال: أشهد أنك رسول الله، فقال: وما علمك بذلك؟ فقال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾، فأرسل إليه النبي ﷺ: أن الله قد أنزل تصديق ما قلت.

التفسير وأوجه القراءة

ثمّ ذكر سبحانه طرفاً من قبائح الكفار، ونوعاً من أنواع كفرهم، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: كفار قريش، ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الذي ينزل على محمد ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: ولا بما نزل قبله من الكتب القديمة الدالة على البعث، كالتوراة والإنجيل.

والمعنى[2]: أي وقال قوم من مشركي العرب: لن نؤمن بهذا القرآن، ولا بالكتب التي سبقته، ولا بما اشتملت عليه من أمور الغيب التي تتصل بالآخرة من بعث وحساب وجزاء.

روي: أن كفار مكة سألوا أهل الكاتب عن وصف الرسول ﷺ، فأخبروهم أنهم يجدون صفته في كتبهم، فأغضبهم ذلك، وقالوا ما قالوا.

---

(١) لباب النقول.

(٢) المراغي.

ثم ذكر ما يكون من حوار بين ضاليهم ومضليهم حين الوقوف بين يدي الملك الديان للحساب والجزاء، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد، أو يا من يليق بالخطاب ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المنكرون للبعث؛ لأنهم ظلموا بأن وضعوا الإنكار موضع الإقرار ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي[1]: محبوسون في موقف المحاسبة على أطراف أناملهم، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لو رأيت ذلك.. لرأيت أمراً فظيعاً شنيعاً تقصر العبارة عن تصويره، وإنما دخلت ﴿لَوْ﴾ على المضارع مع أنها للشرط في الماضي؛ لتنزيله منزلة الماضي، لأن المترقب في أخبار الله تعالى، كالماضي المقطوع به في تحقق وقوعه، أو لاستحضار صورة الرؤية ليشاهدها المخاطب. ﴿يَرْجِعُ﴾ ويردُّ، من رجع رجعاً بمعنى: ردَّ. ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾؛ أي: حالة كونهم يتحاورون، ويتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب، بعد أن كانوا في الدنيا متناصرين متحابّين.

وفي «السمين»[2] قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: مفعول ﴿تَرَىٰٓ﴾، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفان للعلم؛ أي: ولو ترى يا محمد حال الظالمين وقت وقوفهم عند ربهم، راجعاً بعضهم إلى بعض القول.. لرأيت حالاً فظيعةً، وأمراً منكراً، وجملة ﴿يَرْجِعُ﴾ حال من ضمير ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ والقول منصوب بـ﴿يَرْجِعُ﴾؛ لأنه يتعدى قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾، وجملة قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ تفسير لقوله: ﴿يَرْجِعُ﴾، فلا محل له من الإعراب، أو بدل منه؛ أي: حالة كون الاتباع الذين عدوا ضعفاء وقهروا يقولون: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ أي: للرؤساء الذين بالغوا في الكبر والتعظم عن عبادة الله تعالى، وقبول قوله المنزل على أنبيائه، واستتبعوا الضعفاء في الغي والضلال: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ موجودون؛ أي: لولا إضلالكم وصدكم إيانا عن الإيمان، ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله؛ أي: أنتم منعتمونا من الإيمان واتّباع الرسول.

ومعنى الآية[3]: أي ولو ترى أيها الرسول حال أولئك الكافرين، وما هم فيه من مهانة وذلة، يحاور بعضهم بعضاً، ويتلاومون على ما كان بينهم من سوء

---

(١) روح البيان.
(٢) الفتوحات.
(٣) المراغي.

الأعمال، والسبب فيما أوقعهم في هذا النكال والوبال.. لرأيت العجب العجاب، والمنظر المخزي الذي يستكين منه المرء خجلاً، ثم فصل ذلك الحوار، فقال: يقول الأتباع للذين استكبروا في الدنيا، واستتبعوهم في الغيّ والضلال: لولا أنتم أيها السادة صددتمونا عن الهدى.. لكنا مؤمنين بما جاء به الرسول، ثم حكى سبحانه رد الرؤساء عليهم بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ وهو واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الذين استكبروا؟ فقيل: قال الرؤساء الذين استكبروا عن الإيمان ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ منكرين لكونهم الصادين لهم عن الإيمان، مثبتين ذلك لأنفسهم؛ أي: للمستضعفين ﴿أَنَحۡنُ﴾ معاشر الرؤساء ﴿صَدَدۡنَٰكُمۡ﴾؛ أي: منعناكم وصرفناكم أيها الأتباع ﴿عَنِ ٱلۡهُدَىٰ﴾ والإيمان ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم﴾ الهدى، قال العمادي: وإنما وقعت ﴿إِذۡ﴾ مضافاً إليها، وإن كانت من الظروف اللازمة للظرفية، لأنه يتوسع في الزمان ما لا يتوسع في غيره، فأضيف إليه الزمان. اهـ. وقيل: إن ﴿إِذۡ﴾ هنا بمعنى: أن المصدرية؛ أي: لم نصدكم عنه، كقولك: ما أنا قلت هذا، تريد: لم أقله، مع أنه مقول لغيري، فإن دخول همزة الاستفهام الإنكاري على الضمير يفيد نفي الفعل عن المتكلم، وثبوته لغيره، كما قال: ﴿بَلۡ كُنتُم﴾ أنتم ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾؛ أي: راسخين في الإجرام والإشراك، فبسبب ذلك صددتم أنفسكم عن الإيمان، وآثرتم التقليد، وفي هذا تنبيه للكفار على أن طاعة بعضهم لبعض في الدنيا تصير سبب عداوة في الآخرة، وتبرىء بعضهم من بعض، قال أبو السعود: فأنكروا كونهم الصادين لهم عن الإيمان، وأثبتوا أنهم هم الصادون لأنفسهم بسبب كونهم راسخين في الإجرام. اهـ.

والمعنى: أي قال الذين استكبروا في الدنيا، وصاروا رؤساء في الكفر والضلالة للذين استضعفوا، فكانوا أتباعاً لأهل الضلال منهم: أنحن منعناكم من اتباع الحق بعد أن جاءكم من عند الله تعالى، بل أنتم منعتم أنفسكم حظها بإجرامكم وإيثاركم الكفر على الإيمان.

والخلاصة: أننا لم نحل بينكم وبين الإيمان لو صممتم على الدخول فيه، بل كنتم مجرمين، فمنعكم إيثاركم الكفر على الإيمان من اتباع الهدى، ثم حكي ردّ المستضعفين على قول المستكبرين بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ عطف على الجملة الاستئنافية.

فإن قلت[1]: لِمَ عطف هنا، وترك العطف فيما سبق؟

قلت: لأنّ الذين استضعفوا مرَّ أولاً كلامهم، فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين، فعطف على كلامهم الأول، اهـ «كشاف». أي: قال الذين استضعفوا ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ رداً لما أجابوا به عليهم، ودفعاً لما نسبوه إليهم من صدهم لأنفسهم: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إضراب على إضرابهم، وإبطال له؛ أي: لم يكن إجرامنا الصاد لنا، بل مكركم لنا ليلاً ونهاراً هو الصاد لنا، والمكر[2]: صرف الغير عما يقصده بحيلة؛ أي: بل صدّنا مكركم بنا في الليل والنهار، وحملكم إيانا على الشرك والأوزار، فحذف المضاف إليه، وأقيم الظرف مقامه اتساعاً، يعني: في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين مجازاً.

والمعنى: أنَّ المستكبرين لما أنكروا أن يكونوا السبب، وأثبتوا أن ذلك باختيارهم.. كر عليهم المستضعفون بقولهم: بل مكر الليل والنهار، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنهم قالوا: بل من جهة مكركم لنا ليلاً ونهاراً، أو حملكم إيانا على الشرك، واتخاذ الأنداد، اهـ «عمادي».

وقرأ قتادة ويحيى بن يعمر[3]: ﴿بل مكرٌ﴾ بالتنوين، ﴿الليلَ والنهارَ﴾ بالنصب على الظرفية، والتقدير: بل مكر كائن في الليل والنهار، وقرأ سعيد بن جبير بن محمد وأبو رزين وابن يعمر أيضاً: ﴿مكَرٌّ﴾ بفتح الكاف وتشديد الراء مضافاً مرفوعاً بمعنى: الكرور من كر يكر إذا جاء وذهب، ومعناه: كرور الليل والنهار واختلافهما، ومقصودهم الإحالة على طول الأمل، والاغترار بالأيام مع أمر هؤلاء الرؤساء بالكفر بالله تعالى، وقرأ ابن جبير أيضاً وطلحة وراشد هذا من التابعين ممن صحح المصاحف بأمر الحجاج: كذلك، إلا أنهم نصبوا الراء على الظرف، وناصبه فعل مضمر؛ أي: صددتمونا مكر الليل والنهار؛ أي: في مكرهما، ومعناه: دائماً.

وقوله: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾ ظرف للمكر؛ أي: بل صدَّنا مكركم الدائم في الليل

---

(١) الكشاف.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

والنهار وقت أمركم إيانا، ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بوحدانيته، ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ﴾ سبحانه ﴿أَندَادًا﴾؛ أي: أشباهاً وأمثالاً، والمعنى: أي: وقال الأتباع للرؤساء في الضلال: صدَّنا مكركم بنا، وخداعكم في الليل والنهار حين كنتم تأمروننا أن نكفر بالله، ونجعل له أمثالاً وأشباهاً في العبادة.

وإجمال ذلك: ما صدَّنا إلا مكركم أيها الرؤساء بالليل والنهار، حتى أزلتمونا عن عبادة الله، فأنتم كنتم تغروننا وتنموننا وتخيروننا أننا على الهدى، وأنا على شيء، وكل ذلك باطل وكذب، ثم ذكر مآل أمرهم وسوء عاقبتهم، فقال: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ والضمير فيه راجع إلى الفريقين؛ أي: وأضمر كل من الفريقين المستكبرين والمستضعفين الندامة والحسرة على ما فرط منهم في الدنيا من الكفر وأخفوها عن غيرهم، أو أخفاها كل منهم عن الآخر مخافة الشماتة، ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: حين رأوا العذاب وعاينوه؛ إذ هم بهتوا مما عاينوا، فلم يستطيعوا أن ينطقوا ببنت شفة.

والخلاصة: أنهم ندموا على ما فرّطوا من طاعة الله في الدنيا حين شاهدوا عذابه الذي أعدّه لهم، وقيل: المعنى: أضمر الفريقان الندامة على ما فعلا من الضلال والإضلال حين ما نفعتهم الندامة، وأخفاها كل منهما عن الآخر مخافة التعيير، أو المعنى: أظهروا الندامة، فإنه من الأضداد، يكون تارة بمعنى الإخفاء، وتارةً بمعنى: الإظهار؛ إذ الهمزة تصلح للإثبات والسلب، كما في أشكيته، وهو المناسب لحالهم، ومنه قول أمرىء القيس:

تَـجَـاوَزْتُ أَحْـرَاسـاً وَأَهْـوَالَ مَـعْـشَـرٍ عَـلَـيَّ حِـرَاصٌ لَـوْ يُـسِـرُّونَ مُـقْـتَـلِـيْ

وقيل: معنى أسرّوا الندامة: تبينت الندامة في أسرة وجوههم. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ﴾: جمع غل، وهو: قيد وطوق من حديد يجمع اليد إلى العنق، كما سيأتي؛ أي: ونجعل الأغلال يوم القيامة، ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالحق لما جاءهم في الدنيا حين دخلوا النار في الآخرة من التابعين والمتبوعين، وإيراد المستقبل بلفظ الماضي من جهة تحقيق وقوعه، كما سيأتي في مبحث البلاغة إن شاء الله تعالى، والإظهار لمزيد الذم، أو للكفار على العموم، فيدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولياً؛ أي: وجعلنا أغلال الحديد في أعناق هؤلاء في النار، ثم ذكر أنه لا

جزاء لأمثالهم إلا هذا، فقال: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ والاستفهام للإنكار؛ أي: ما يجزى الذين كفروا من التابعين والمتبوعين، ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلا جزاء ما كانوا يعملون في الدنيا من الكفر والمعاصي، أو إلا بما كانوا يعملونه، على نزع الخافض، فلما قيدوا أنفسهم في الدنيا، ومنعوها من الإيمان بتسويلات الشيطان الجني والإنسي.. جُوزوا في الآخرة بالقيد؛ أي: وما يفعل ذلك بهم إلا جزاءً لما اجترحوا من الكفر والآثام. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وقد قالوا في أمثالهم: إنك لا تجني من الشوك العنب.

ولما قص الله سبحانه حال من تقدم من الكفار.. أتبعه بما فيه التسلية لرسوله، وبيان أنَّ كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمر في الأعصر الأول، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ وبعثنا، ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى، وبلدة من البلدان. قال في «كشف الأسرار»: القرية: المصر تقري أهلها وتجمعهم. ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ أي: نبياً ينذر أهلها ويحذرهم عقاب الله، وجملة قوله: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ في محل النصب على الحال؛ أي: إلا قال رؤساء تلك القرية المتكبرون المتنعمون بالدنيا؛ أي: إلا قال رؤساؤها وأغنياؤها وجبابرتها وقادة الشر فيها لرسلهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم﴾ على زعمكم من التوحيد والإيمان، ﴿كَافِرُونَ﴾؛ أي: منكرون على مقابلة الجمع بالجمع، وهذه الآية جاءت لتسلية رسول الله ﷺ؛ أي: يا محمد[١] هذه سيرة أغنياء الأمم الماضية، فلا يهمنّك أمر أكابر قومك، فتخصيص المتنعمين بالتكذيب مع اشتراك الكل فيه؛ إما لأنهم المتبوعون، أو لأنّ الداعي الأعظم إلى التكذيب والإنكار هو التنعم المستتبع للاستكبار.

ومعنى الآية[٢]: أي وما بعثنا إلى أهل قرية نذيراً ينذرهم بأسنا أن ينزل بهم على معصيتهم إيانا، إلا قال كبراؤها وأولوا النعمة والثروة فيها: إنا لا نؤمن بما بعثتم به من التوحيد والبراءة من الآلهة والأنداد، وليس في ذلك من عجب، فإن المنغمسين في الشهوات يحملهم التكبر والتفاخر بزينة الحياة الدنيا على النفور من الكمال الروحي، ومن تثقيف النفوس بالإيمان والحكمة، فالضدان لا يجتمعان، انغماس في الشهوة، وعلم وحكمة وثروة مادية وثروة روحية. ثم ذكر تفاخرهم بما

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

هم فيه بسطة العيش وكثرة الولد، وأن ذلك سيكون سبب نجاتهم من العذاب في الآخرة بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: الكفار المترفون للفقراء المؤمنين، فخراً بزخارف الدنيا، وبما هو فتنة لهم. ﴿نَحْنُ﴾ معاشر الأغنياء. ﴿أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ منكم في الدنيا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ في الآخرة على تقدير وقوعها؛ لأن المكرم في الدنيا لا يهان في الآخرة.

أي: وقال المستكبرون في كل قرية أرسلنا فيها نذيراً: إنا ذوو عدد عديد من الأولاد وكثرة الأموال، فنحن لا نعذب؛ لأن ذلك دليل على محبة الله لنا وعنايته بنا، مرادهم: أن الله فضلنا عليكم بالأولاد والأموال في الدنيا، وذلك يدل على أنه قد رضي ما نحن عليه من الدين، وما نحن بمعذبين في الآخرة بعد إحسانه إلينا في الدنيا، ورضاه عنا. هيهات هيهات إنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً، وأخطؤوا في القياس: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

وخلاصة آرائهم: نحن في نعمة لا تشوبها نقمة، وذلك دليل على كرامتنا عند الله ورضاه عنا؛ إذ لو كان ما نحن فيه من الشرك وغيره مما تدعونا إلى تركه مخالفاً لما يرضيه.. لما كنا فيما نحن فيه من نعمة وبسطة في العيش، وكثرة الأولاد، فرد الله عليهم مقالتهم آمراً رسوله أن يبين لهم خطأهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد رداً عليهم. ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ويوسعه، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه له، ويوسعه عليه من مؤمن وكافر. ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيق على من يشاء أن يقدره، ويضيقه عليه من مؤمن وكافر حسب اقتضاء مشيئته المبنية على الحكم البالغة، فلا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعقاب اللذين مناطهما الطاعة وعدمها، فليس في التوسيع دلالة على الإكرام، كما أنه ليس في التضييق دلالة على الإهانة، وفي الحديث: «الدنيا عرض حاضر، يأكل منها بر وفاجر، والآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قاهر».

والمعنى: قل لهم أيها الرسول: إن ربي يبسط الرزق من معاش ورياش في الدنيا لمن يشاء من خلقه، ويضيّق على من يشاء، لا لمحبة فيمن بسط له ذلك، ولا لخير فيه، ولا لزلفى استحق بها ذلك، ولا لبغض منه لمن قدر عليه، ولا لمقت منه له، ولكنه يفعل ذلك لسنن وضعها لكسب المال، في هذه الحياة، فمن سلك سبيلها وصل إلى ما يبغي، ومن أخطأها وضل.. لم ينل شيئاً من حظوظها، ولا رابطة بين الثراء ومحبة الله. ألا ترى أنه ربما وسع سبحانه على العاصي، وضيَّق على

المطيع، وربما عكس الأمر، وقد يوسِّع على المطيع والعاصي تارةً، ويضيِّق عليهما أخرى، يفعل كل ذلك بحسب ما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة التي قد نعلمها، وربما خفي علينا أمرها، ولو كان البسط دليل الإكرام والرضا. . لاختص به المطيع، ولو كان التضييق دليل الإهانة. . لاختص به العاصي، ومن ثَمَّ جاء قوله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما أعطي الكافر منها شيئاً»؛ أي: فهو سبحانه قد يرزق الكافر والعاصي استدراجاً له، وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير، توفيراً لأجره، وليس مجرد بسط الرزق لمن بسطه له يدل على أنه قد رضي عنه، ورضي عمله، ولا قبضه عمن قبضه عنه يدل على أنه لم يرضه، ولا رضي عمله، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مثل هذا من الغلط البين، أو المغالطة الواضحة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم أهل الغفلة والخذلان، ومن جملة هؤلاء الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ حكمة البسط والقدر، فيزعمون أنَّ مدار البسط هو الشرف والكرامة، ومدار القدر هو الذل والهوان، ولا يدرون أن الأول كثيراً ما يكون بطريق الاستدراك، والثاني بطريق الابتلاء، ورفع الدرجات حتى تحير بعضهم واعترض على الله في البسط لأناس، والتضييق منه على آخرين، ومن ثم قال ابن الراوندي:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوْقَا
هَذَا ٱلَّذِيْ تَرَكَ ٱلأَوْهَامَ حَائِرَةً وَصَيَّرَ ٱلْعَالِمَ ٱلنِّحْرِيْرَ زِنْدِيْقَا

ثم بيَّن سبحانه لعباده أن الزلفى عنده ليست بكثرة المال والولد، بل بالتقوى وصالح العمل، فقال: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم﴾ وهذا الكلام مستأنف من جهته تعالى مبالغة في تحقيق الحق؛ أي: وما قناطير أموالكم وما جموع أولادكم أيها الناس ﴿بِٱلَّتِي﴾؛ أي: بالخصال التي، فإن[1] الجمع المكسر عقلاؤه، وغير عقلائه، سواء في حكم التأنيث، أو بالخصلة التي، فيكون تأنيث الموصول باعتبار تأنيث الصفة المحذوفة، ويجوز في غير القرآن باللتين وباللاتي وباللواتي وبالذين بالنسبة

(١) روح البيان.

للأولاد خاصةً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِالَّتِي﴾، فإن جمع التكسير من العقلاء وغيرهم يجوز أن يعامل معاملة المفردة المؤنثة، وقرأ الحسن: ﴿باللاتي﴾ جمعاً، وهو أيضاً راجع للأموال والأولاد، وقرىء ﴿بالذي﴾. و﴿زُلْفَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ مفعول مطلق معنوي لتقربكم منصوب به؛ أي: وليست أموالكم، ولا أولادكم بالخصلة التي تقربكم عندنا تقريباً، بل الذي يقربكم إلينا التقوى والعمل الصالح، وقرأ الضحاك: ﴿زلفًا﴾ بفتح اللام وتنوين الفاء، جمع: زلفة، وهي القربة. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناء من مفعول ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾؛ أي: وما الأموال والأولاد تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي أنفق أمواله في سبيل الله، وعلم أولاده الخير، وربَّاهم على الصلاح والطاعة. وقال أبو حيان: والظاهر أنه استثناء منقطع، وهو منصوب على الاستثناء؛ أي: لكن من آمن وعمل صالحاً، فإيمانه وعمله يقربانه، والإشارة بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى ﴿مَنْ﴾، والجمع باعتبار معناها، أي: فأولئك المؤمنون العاملون ثابت ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ على أن الجار والمجرور خبر لما بعده، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وإضافة الجزاء إلى الضعف من إضافة المصدر إلى المفعول، أصله: فأولئك لهم أن يجازوا الضعف؛ أي: تضعيف الأعمال، ثم جزاء الضعف، ثم جزاء الضعف، ومعناه: أن يضاعف لهم الواحدة من حسناتهم عشراً، فما فوقها إلى سبع مئة إلى ما لا يحصي، أو من إضافة الموصوف إلى صفته، والمعنى عليه: فأولئك لهم الجزاء المضاعف. ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾؛ أي: بسبب ما عملوا من الصالحات، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي في غرفات الجنة، وهي قصورها ومنازلها الرفيعة، ﴿ءَامِنُونَ﴾ من جميع ما يكرهون من المصائب والآفات، كالموت والهرم والمرض والعدو وغير ذلك.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ على الإضافة، أضيف فيه المصدر إلى المفعول، وقرأ قتادة والزهري ويعقوب ونصر بن عاصم: برفعهما؛ ﴿جزاء الضعف﴾ على أن الضعف بدل من ﴿جزاء﴾، وروي عن يعقوب: أنه قرأ ﴿جزاء﴾ بالنصب منوناً، ﴿والضعف﴾ بالرفع على تقدير فأولئك لهم الضعف جزاء، أي حال

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

كونه جزاء، وقرأ الجمهور: ﴿فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ بالجمع مضموم الراء، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة وخلف: ﴿في الغرفة﴾ بالإفراد لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾.

ومعنى الآية(١): أي وما أموالكم التي تفتخرون بها على الناس، ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم بالتي تقربكم منا، لكن من آمن وعمل صالحاً، فإيمانهم وعملهم يقربانهم مني، وأولئك أضاعف لهم ثواب أعمالهم، فأجازيهم بالحسنة عشر أمثالها، أو أكثر إلى سبع مئة ضعف، وهم في غرفات الجنات آمنون من كل خوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه. روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها»، فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام». وفي الآية إشارة إلى أنه لا تستحق الزلفى عند الله بالمال والأولاد مما زين للناس حبه، وحب غير الله يوجب البعد عن الله، فالأولى للعاقل أن يأخذ الباقي ويترك الفاني. ولما ذكر سبحانه حال المؤمنين.. ذكر حال الكافرين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ وهم كفار قريش، ﴿يَسْعَوْنَ﴾ ويبادرون، ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ القرآنية، بالرد والطعن فيها، ويجتهدون في إبطالها حال كونهم ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾؛ أي: ظانين أنهم يعجزوننا ويفوتوننا، فلا يكون لهم مؤاخذة بمقابلة ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المجتهدون في إبطال آياتنا ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: في عذاب جهنم ﴿مُحْضَرُونَ﴾ تحضرهم الزبانية إليها، لا يجدون عنها محيصاً؛ أي: مدخلون في العذاب، مخلدون فيه، لا يغيبون عنه، ولا ينفعهم ما اعتمدوا عليه من الشفعاء.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لأولئك المفتخرين بالأموال والأولاد: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ويوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ البسط له ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: يوسعه عليه تارة، ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾؛ أي: يضيقه عليه تارة أخرى ابتلاءً وحكمةً، فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين، وما سبق في شخصين، فلا تكرار؛ أي: بل فيه تقرير؛ لأن التوسع والتقتير ليسا لكرامة ولا هوان، فإنه لو كان كذلك لم يتصف بهما شخص واحد. اهـ «شهاب». وقيل: «تكرار لما تقدم لقصد التأكيد للحجة والدفع لما قاله الكفرة،

---

(١) المراغي.

وقيل: ما هنا في المؤمن وما سبق في الكافر، وقيل: ذكره توطئة لما بعده، والمعنى: قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له، فلا تخشوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة، بمعنى: الذي مبتدأ، خبره قوله: ﴿فَهُوَ﴾، سبحانه ﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ لكم أو شرطية، بمعنى: أيُّ شيء نصب بقوله: أنفقتم، ومن شيء بيان له، وجواب الشرط فهو يخلفه، والمعنى: والذي، أو أي شيء أنفقتموه وصرفتم في طاعة الله تعالى، وطريق الخير والبر، وقيل: المعنى: وما أنفقتم على أنفسكم، أو على عيالكم، أو تصدقتم به، فالله تعالى يعطي خلفاً وعوضاً منه؛ إما في الدنيا بالمال، أو بالقناعة التي هي كنز لا يفنى، وإما في الآخرة بالثواب والنعيم، أو فيهما جميعاً، فلا تخشوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله تعالى، وتعرضوا لألطاف الله عاجلاً أو آجلاً. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وأفضلهم؛ أي: خير من يعطي ويرزق؛ لأن كل من رزق غيره من سلطان يرزق جنده، أو سيد يرزق مملوكه، أو رجل يرزق عياله، فهو من رزق الله تعالى، أجراه الله على أيدي هؤلاء، وهو الرازق الحقيقي الذي لا رازق سواه، فإن رزق العباد بعضهم بعضاً إنما هو بتيسير الله وتقديره، وليسوا برازقين على الحقيقة، ومن أخرج من العباد إلى غيره شيئاً مما رزقه الله.. فهو إنما تصرف في رزق الله له، فاستحق بما خرج منه الثواب عليه المضاعف لامتثاله لأمر الله، وإنفاقه فيما أمره الله تعالى.

ومعنى الآية: أي قل لهم أيها الرسول: إن ربي يوسع الرزق على من يشاء من عباده حيناً، ويضيقه عليه حيناً آخر، فلا تخشوا الفقر، وأنفقوا في سبيله، وتقربوا إليه بأموالكم لتنالكم نفحة من رحمته، وما أنفقتم من شيء فيما أمركم به ربكم، وأباحه لكم.. فهو يخلفه عليكم، ويعوضكم بدلاً منه في الدنيا وفي الآخرة ثواباً كل خلف دونه.

وفي الحديث: «أنفق بلالاً، ولا تخشى من ذي العرش إقلالاً» وعن مجاهد أنه خصه بالآخرة؛ إذ قال: «إذا كان لأحدٍ شيء فيلقتصد»، ويتأول هذه الآية: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ فإن الرزق مقسوم، ولعل ما قسم له منه قليل، وهو ينفق نفقة الموسع عليه. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فترزقون من حيث لا تحتسبون، ولا رازق غيره. روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم

يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

والظرف في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ منصوب باذكر مقدراً، أو متصل بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾؛ أي: ولو تراهم أيضاً يوم نحشرهم جميعاً للحساب العابد والمعبود، والمستكبر والمستضعف؛ أي: واذكر يا محمد لقومك يوم يحشر الله؛ أي: يجمع المستكبرين والمستضعفين، وما كانوا يعبدون من دون الله حال كونهم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين لا يشذ منهم أحد ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ سبحانه ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ توبيخاً للمشركين العابدين، وإقناطاً لهم من شفاعتهم، كم زعموا، وقرأ الجمهور: ﴿نحشرهم﴾، ﴿نقول﴾ بالنون فيهما، وحفص بالياء، ذكره أبو حيان.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار ﴿إِيَّاكُمْ﴾ يا ملائكتي ﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ في الدنيا، وهذا استفهام تقريع وتقرير للكفار، و﴿إِيَّاكُمْ﴾ منصوب بـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، وتخصيص الملائكة مع أنَّ بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين والأصنام؛ لأنهم أشرف معبودات المشركين. ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: الملائكة متنزهين عن ذلك، وهو استئناف بياني، ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك عن الشرك﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾؛ أي: أنت الذي نواليه ونطيعه ونعبده ﴿مِن دُونِهِم﴾؛ أي: من دون المشركين ما اتخذناهم عابدين، ولا توليناهم، وليس لنا غيرك ولياً، أي: نحن نتولاك ولا نتولاهم، فبيَّنوا بإثبات موالاة الله، ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم، ثم أضربوا عن ذلك، ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟﴾؛ أي: بل كان هؤلاء المشركون في الدنيا من جهلهم وغواياتهم، ﴿يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾؛ أي: الشياطين؛ حيث أطاعوهم في عبادة غير الله تعالى، وقيل: كانوا يتمثلون لهم ويتخيلون أنهم الملائكة فيعبدونهم، وعبَّر عن الشياطين بالجن؛ لاستتارهم عن الحواس، ولذا أطلقه بعضهم على الملائكة أيضاً، وجزم الكرماني: بأنهم عبدوا الجن كما عبدوا الشياطين، فإذاً الكلام على ظاهره، فلا حاجة إلى التأويل. ﴿أَكْثَرُهُم﴾؛ أي: أكثر المشركين، قيل: الأكثر[1] ههنا بمعنى الكل، والضمير للمشركين، كما هو الظاهر من السياق؛ أي: كل المشركين، وقال بعضهم: الضمير للإنس، والأكثر على معناه؛ أي: أكثر الإنس،

---

(١) روح البيان.

وقيل: المعنى: أكثر المشركين بالجن، ﴿بِهِم﴾؛ أي: بالجن، وبقولهم الكذب: الملائكة بنات الله، ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾؛ أي: مصدقون ومتابعون، ويغترون بما يلقون إليهم من أنهم يشفعون لهم، وعبارة أبي حيان هنا: وإذا هم قد عبدوا الجن.. فما وجه قولهم: أكثرهم بهم مؤمنون، ولم يقولوا جميعهم، وقد أخبروا أنهم كانوا يعبدون الجن؟

والجواب: أنهم لم يدَّعوا الإحاطة؛ إذ قد يكون في الكفار من لم يطلع عليهم الملائكة، أو أنهم حكموا على الأكثر بإيمانهم بالجن، لأن الإيمان من عمل القلب، فلم يذكروا الإطلاع على جميع أعمال قلوبهم؛ لأن ذلك لله تعالى. اهـ.

ومعنى الآية: أي واذكر أيها الرسول لقومك يوم يحشر ربك العابدين المستكبرين منهم، والمستضعفين مع المعبودين من الملائكة وغيرهم، ثم تسأل الملائكة: أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، وهذا سؤال وجّه إلى الملائكة ظاهراً، والمراد منه: تقريع المشركين، وتيئيسهم مما علقوا عليه أطماعهم من شفاعتهم لهم، فهو وارد على نهج قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى براء مما وجه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، ولكن جاء ليقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا، فيكون توبيخهم أشد، وتعييرهم أبلغ، وخجلهم أعظم. ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قالت الملائكة: تعاليت ربنا وتقدست عن أن يكون معك إله، نحن عبيدك، نتبرأ إليك من هؤلاء، وأنت الذي نواليه دونهم، فلا موالاة بيننا وبينهم.

والخلاصة: أننا برآء من عبادتهم والرضا بهم، ثم بيَّن أنهم ما عبدوهم على الحقيقة بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾؛ أي: بل هم كانوا يعبدون الشياطين؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وأضلوهم، وأكثر المشركين مؤمنون بالجن، مصدقون لهم فيما يقولون؛ إذ كانوا يعبدون غير الله بوسوستهم، ويستغيثون بهم في قضاء حاجاتهم، كما هو مشهور لدى أرباب العزائم والسحرة.

ولما أبطل تمسكهم بهم بعد تقريعهم وتأنيبهم.. زادهم أسى وحسرة، فقال: ﴿فَالْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم الحشر، والفاء: ليست لترتيب ما بعدها من الحكم على جواب

الملائكة، فإنه محقق، أجابوا بذلك أم لا، بل لترتيب الإخبار به عليه: اهـ «أبو السعود».

أي: فهي للترتيب الذكري، والأظهر كونها استئنافية. ﴿لَا يَمْلِكُ﴾؛ أي: لا يقدر. ﴿بَعْضُكُمْ﴾ يعني: المعبودين. ﴿لِبَعْضٍ﴾ يعني: العابدين، ﴿نَّفْعًا﴾ بالشفاعة وإدخال الجنة. ﴿وَلَا ضَرًّا﴾؛ أي: ضرراً بالتعذيب، أو دفع ضرر؛ إذ الأمر فيه كله لله؛ لأن الدار دار جزاء، ولا يجازي الخلق أحدٌ غير الله. قال في «الإرشاد»: تقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الإطلاق؛ لانعقاد رجائهم على تحقيق النفع يومئذ، وهذا الكلام من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزه والتبري مما نسب إليهم الكفرة، يخاطبون على رؤوس الأشهاد إظهاراً لعجزهم، وقصورهم عند عبدتهم، وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية.

وقوله: ﴿وَنَقُولُ﴾ معطوف على قوله[1]: لا يملك؛ أي: واليوم نقول، ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالكفر والتكذيب، فوضعوهما موضع الإيمان والتصديق، وقيل[2]: عطف على ﴿يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، لا على ﴿يَمْلِكُ﴾ كما قيل؛ لأنه مما يقال يوم القيامة خطاباً للملائكة مترتباً على جوابهم المحكي، وهذا حكاية لرسول الله ﷺ لما سيقال للعبدة يومئذ، إثر حكاية ما سيقال للملائكة.

﴿ذُوقُوا۟﴾ وباشروا وادخلوا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهَا﴾؛ أي: بتلك النار، متعلق بقوله: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وتصرون على القول بأنها غير كائنة، فقد وردتموها، وبطل ظنكم ودعواكم.

ومعنى الآية: أي فاليوم لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه من الأوثان، والأنداد الذين ادخرتم عبادتهم لشدائدكم وكروبكم؛ لأن الأمر في ذلك اليوم لله الواحد القهار، لا يملك أحد فيه منفعةً لأحد، ولا مضرةً له، ونقول للمشركين تهكماً بهم: ذوقوا عذاب النار التي كنتم تكذبون بها في دنياكم، فها أنتم أولاء قد وردتموها، وسمعتم شهيقها وزفيرها، وليس الخُبْرُ كالخَبَرِ، ولا السماع كالمعانية، فعضوا بنان الندم أسى وحسرة على ما قدمتم في دنياكم، فجنيتم صابه وعلقمه في

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

أخراكم.

فإن قلت[1]: وقع الموصول هنا وصفاً للمضاف إليه الذي هو النار، وفي السجدة وقع وصفاً للمضاف إليه الذي هو النار، وفي السجدة وقع وصفاً للمضاف الذي هو العذاب؛ حيث قال هناك: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، فما الفرق بين الموضعين؟

قلتُ: الفرق بينهما: أنهم ثمة كانوا ملابسين للعذاب، كما صرح به في النظم؛ حيث قال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، فوصف لهم ما لابسوه، وما هنا عند رؤيتهم النار عقب الحشر، فوصف لهم ما عاينوه، وكونه هنا وصفاً للمضاف على أن تأنيثه مكتسب تكلف. اهـ «شهاب».

الإعراب

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾.

﴿وَقَالَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿لَن نُّؤۡمِنَ﴾: ناصب وفعل مضارع منصوب بـ﴿لَن﴾، وفاعله ضمير يعود على الذين كفروا، أعني: المتكلمين ﴿بِهَٰذَا﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، بدل منه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها، ﴿بِٱلَّذِي﴾: معطوف على قوله: ﴿بِهَٰذَا﴾. ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف وقع صلة الموصول. ﴿وَلَوۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: شرطية ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، أو على أيِّ مخاطب، ومفعول ﴿تَرَىٰٓ﴾، وجواب ﴿لو﴾ الشرطية محذوفان، تقديره: ولو ترى يا محمد حال الظالمين وقت وقوفهم عند ربهم.. لرأيت أمراً فظيعاً، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) الشهاب.

﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذِ﴾ الظرفية، ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿مَوۡقُوفُونَ﴾، ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾: متعلق بـ﴿يَرۡجِعُ﴾، ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾: مفعول ﴿يَرۡجِعُ﴾؛ لأنه يتعدى كما مر، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير ﴿مَوۡقُوفُونَ﴾، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مفسرة لـ﴿يَرۡجِعُ﴾، فلا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ من الفعل ونائب فاعله صلة الموصول، ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَقُولُ﴾، ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿لَوۡلَآ﴾: حرف امتناع لوجود ﴿أَنتُمۡ﴾: مبتدأ والخبر محذوف وجوباً، تقديره: موجودون ﴿لَكُنَّا﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوۡلَآ﴾ ﴿كنا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: جواب ﴿لَوۡلَآ﴾، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب شرط غير جازم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، استئنافاً بيانياً، ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق بـ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿أَنَحۡنُ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿نَحۡنُ﴾: مبتدأ، ﴿صَدَدۡنَٰكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿عَنِ ٱلۡهُدَىٰ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿بَعۡدَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، والظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ ﴿بَعۡدَ﴾: مضاف توسعاً في الظروف، ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل الجر مضاف إليه مبني على السكون، وقيل: ﴿إِذۡ﴾ هنا بمعنى: أن المصدرية، وهو مفهوم تفيسر الزمخشري. ﴿جَآءَكُم﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذۡ﴾ ﴿بَلۡ﴾: حرف إضراب للإضراب الإبطالي، ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ المذكور أولاً، وجملة ﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب، ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ﴾: مبتدأ، خبره محذوف، ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ﴿ٱلَّيْلِ﴾، والتقدير: مكر الليل والنهار صدنا، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: سبب كفرنا مكر الليل والنهار؛ أي: مكركم في الليل والنهار، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ﴾، ﴿تَأْمُرُونَنَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، ﴿أَن نَّكْفُرَ﴾ ناصب ومنصوب وفاعل مستتر، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع مدخولها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر، محذوف متعلق بـ﴿تَأْمُرُونَنَآ﴾، تقديره: إذ تأمروننا بكفرنا بالله سبحانه، ﴿وَنَجْعَلَ﴾: معطوف على ﴿نَّكْفُرَ﴾، ﴿لَهُۥ﴾ حال من ﴿أَندَادًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿أَندَادًا﴾: مفعول ﴿نجعل﴾، ويجوز أن يكون الجار والمجرور في محل المفعول الثاني و﴿أَندَادًا﴾ مفعول أول.

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَأَسَرُّوا۟﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو حالية، ﴿أسروا الندامة﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، أو حال من ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى: حين، متعلق بـ﴿أسروا﴾، ﴿رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿جعلنا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري، ﴿يُجْزَوْنَ﴾: فعل مضارع ونائب فاعل، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر واستثناء مفرغ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿يُجْزَوْنَ﴾، والجملة الفعلية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿نَّذِيرٍ﴾: مفعول به، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ﴿قَرْيَةٍ﴾، وسوَّغ مجيء الحال من النكرة: وقوعها في معرض النفي ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿بِمَآ﴾: متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾، ﴿أُرْسِلْتُم﴾: فعل مغير الصيغة، ونائب فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أُرْسِلْتُم﴾، وهو العائد على ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿كَٰفِرُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿أَمْوَٰلًا﴾: تمييز محول عن المتبدأ، منصوب باسم التفضيل، ﴿وَأَوْلَٰدًا﴾: معطوف على ﴿أَمْوَٰلًا﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: حجازية، ﴿نَحْنُ﴾: اسمها ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾: خبرها، والباء زائدة، وجملة ﴿مَا﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿رَبِّى﴾: اسم ﴿إنّ﴾، ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿لِمَن﴾: متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: لمن يشاء البسط له، وجملة ﴿وَيَقْدِرُ﴾ معطوف على جملة ﴿يَبْسُطُ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية، ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ خبرها، والجملة الاستدراكية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾ أو حال من فاعل ﴿يَبْسُطُ﴾، والرابط محذوف تقديره: ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة بسطه وقبضه.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: حجازية، ﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾: اسمها، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾: معطوف على﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾، ﴿بِٱلَّتِى﴾: الباء: زائدة، ﴿التي﴾: اسم موصول في محل النصب خبر ﴿مَا﴾ الحجازية، والجملة مستأنفة ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿عِندَنَا﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿زُلْفَىٰٓ﴾. و﴿زُلْفَىٰٓ﴾: مفعول مطلق معنوي منصوب بـ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع، لأن الخطاب للكفار، و﴿مَنْ ءَامَنَ﴾: ليس منتظماً في سلكهم، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول، في محل النصب على الاستثناء، ويجوز أن يعرب ﴿مَنْ﴾: مبتدأ، وما بعده الخبر؛ لأن الاستثناء منقطع، وإلا بمعنى: لكن، ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، والجملة صلة الموصول، ﴿وَعَمِلَ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنَ﴾، ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، أو مفعول مطلق؛ أي: عملاً صالحاً، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية إن قلنا: إن ﴿مَنْ﴾ منصوب على الاستثناء، ﴿أولئك﴾: مبتدأ أول، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾: مبتدأ ثان مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول مع خبره في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية؛ أي: وإنما استثنينا من آمن لكون جزاء الضعف لهم، وإن قلنا: إن ﴿إلا﴾ بمعنى: لكن فـ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾: مبتدأ أول، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثانٍ، ﴿والفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ لما في المبتدأ من معنى الشرط، ﴿بِمَا﴾ متعلق بجزاء، و﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة، وجملة ﴿عَمِلُواْ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: بما عملوه، أو صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿ءَامِنُونَ﴾، و﴿ءَامِنُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله: لهم جزاء الضعف.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول، ﴿يَسْعَوْنَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿يَسْعَوْنَ﴾، ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: حال من فاعل ﴿يَسْعَوْنَ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثانٍ، ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ متعلق بـ﴿مُحْضَرُونَ﴾،

و﴿مُحْضَرُونَ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر الأول، وجملة الأول مستأنفة. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ رَبِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿لِمَنْ﴾: متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿يَشَاءُ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾: حال من العائد المحذوف، ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾: معطوف على ﴿يَبْسُطُ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿أَنْفَقْتُمْ﴾، أو موصولة في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة قوله: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾، كما أشرنا إليه في مبحث التفسير، ﴿أَنْفَقْتُمْ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿ما﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾: حال من ﴿مَا﴾ الشرطية، أو من العائد المحذوف إن كانت موصولة، ﴿فَهُوَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية إن كانت شرطية، أو رابطة الخبر بالمبتدأ إن كانت موصولة، ﴿هو﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُخْلِفُهُ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة، أو الجملة في محل الرفع خبر ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يوم يحشرهم، ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من مفعول ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يحشر﴾، ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَقُولُ﴾، ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي، ﴿هؤلاء﴾: مبتدأ، ﴿إِيَّاكُمْ﴾: مفعول به مقدم لـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْبُدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة،

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، وجملة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿مِن دُونِهِمۖ﴾: حال من ضمير المتكلمين في ﴿وَلِيُّنَا﴾؛ أي: حالة كوننا مجاوزين إياهم، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿أَكْثَرُهُم﴾: مبتدأ، ﴿بِهِم﴾: متعلق بما بعده، ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ أيضاً.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿اليوم﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَمْلِكُ﴾، ﴿لاَ﴾: نافية، ﴿يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لِبَعْضٍ﴾: متعلق بـ﴿نَّفْعًا﴾، و﴿نَّفْعًا﴾: مفعول به، ﴿وَلَا ضَرًّا﴾: معطوف على ﴿نَّفْعًا﴾، ﴿وَنَقُولُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿نقول﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾، وقيل: معطوف على قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ كما مرَّ في مبحث التفسير، ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿نقول﴾، ﴿ظَلَمُواْ﴾: صلة الموصول، ﴿ذُوقُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول ﴿نقول﴾، ﴿ٱلَّتِي﴾: صفة لـ﴿ٱلنَّارِ﴾، ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مَّوْقُوفُونَ﴾؛ أي: محبوسون في موقف الحساب، جمع: موقوف، اسم مفعول من وقف الثلاثي المتعدي، وفي «المصباح»: وقفت الدابة تقف وقفاً ووقوفاً: سكنت ووقفتها أنا يتعدى، ولا يتعدى، ووقفت الرجل عن الشيء وقفاً: منعته عنه، اهـ، وبابه: وعد، كما في «المختار».

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾؛ أي: عدوا ضعفاء، وقهروا، واستفعل هنا بمعنى: الفعل المجرد، وفي ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ للمبالغة في معنى الثلاثي؛ أي: بالغوا في

الكبر والتعظم عن عبادة الله سبحانه وتعالى.

﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة. اهـ «روح». والحيلة: ما يتوصل به إلى المقصود بطريق خفي. اهـ «قسطلاني».

﴿أَندَادًا﴾ جمع: ند، كأضداد جمع ضد، والند: المثل والشبه.

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ الندامة: التحسر في أمر فائت.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ﴾ جمع غل، قال القهستاني: الغل: الطوق من حديد، الجامع لليد إلى العنق، المانع عن تحرك الرأس. انتهى، وهو معتاد بين الظلمة، قال الفقيه: إنه في زماننا جرت العادة بذلك، إذا خيف من الإباق، كما في الكبرى، ولا يكره أن يجعل قيداً في رجل عبده؛ لأنه سنة المسلمين في السفهاء، وأهل الفساد، فلا يكره في العبد؛ إذ فيه تحرز من إباقه وصيانة لماله، وحل ربطه بالحبل ونحوه. اهـ من «روح البيان».

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ قال في «كشف الأسرار»: القرية: المصر تقري أهلها وتجمعهم، كما سبق. اهـ.

﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ المترف: كمكرم: المتنعم والموسع العيش والنعمة، من الترفة بالضم، وهو التوسع في النعمة يقال: أترفه: نعمه، وأترفته النعمة: أطغته..

﴿تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ الزلفى: مصدر من معنى العامل؛ إذ التقدير: تقربكم قربى، والزلفى والزلفة، والقربى والقربة بمعنى واحد. وقال الأخفش: زلفى: اسم مصدر، كأنه قال: بالتي تقربكم عندنا تقريباً، وقرأ الضحاك: ﴿زلفا﴾ بضم الزاي وفتح اللام على أنها جمع زلفة كقربة وقرب جمع المصدر، لاختلاف أنواعه. اهـ «سمين».

﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ مصدر مضاف إلى مفعوله؛ أي: أن يجازيهم الله الضعف، أو من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: لهم الجزاء المضاعف. ﴿فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ﴾ جمع غرفة، وهي البيت فوق البناء، يعني: كل بناء يكون علواً فوق سفل.

﴿يَسْعَوْنَ﴾ من سعى إذا جد واجتهد في الشيء.

﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ من المعاجزة، والمفاعلة ليست على بابها؛ أي: ظانين ومعتقدين

عجزنا عن أخذهم.

﴿مُحْضَرُونَ﴾ اسم مفعول من الإحضار.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ يقال: نفق الشيء مضى ونفد؛ إما بالبيع نحو نفق البيع نفاقاً، وإما بالموت نحو نفقت الدابة نفوقاً، وإما بالغناء نحو نفقت الدراهم تنفق وأنفقتها.

﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ يقال: أخلف الله له وعليه: إذا أبدل له ما ذهب عنه. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وأورد على هذا وعلى نظائره ابن عبد السلام في أماليه، كما نقله السيوطي في شرح السنن: أنه لا بد من مشاركة المفضل للمفضل عليه في أصل الفعل حقيقةً لا صورة.

وأجيب بأن الرازقين بمعنى الموصلين للرزق والواهبين له بجعله حقيقة في هذا، كما صرح به الراغب؛ حيث قال: الرزق: العطاء الجاري، والرازق يقال لخالق الرزق ومعطيه، فيقال رازق لغيره تعالى، ولا يقال لغير الله تعالى رزاق، ولا حاجة إلى ما قيل من أنه من عموم المجاز، أو من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه. اهـ «شهاب».

فائدة: وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أنه خير المنفقين؛ لأن خيرية المنفق بقدر خيرية النفقة، فما ينفق كل منفق في النفقة.. فهو فانٍ، وما ينفق الله من نفقة ليخلفه بها فهي باقية، والباقيات خير من الفانيات انتهى.

قال في «بحر العلوم»: لما كان إقامة مصالح العباد من أجل الطاعات وأشرف العبادات؛ لأنها من وظيفة الأنبياء والصالحين.. دلهم الله سبحانه في الآية على طرف منها حثاً عليها، كما قال ﷺ، حثاً لأمته عليها: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله، قال العسكري: هذا على التوسع والمجاز، كأن الله تعالى لما كان المتضمّن لأرزاق العباد والكافل بها.. كان الخلق كالعيال له.

وفي الحديث: «إن لله أملاكاً خلقهم كيف يشاء، وصورهم على ما يشاء تحت عرشه، ألهمهم أن ينادوا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في كل يوم مرتين: ألا من وسع على عياله وجيرانه.. وسع الله عليه في الدنيا والآخرة، ألا من ضيَّق.. ضيق الله عليه، ألا إن الله قد أعطاكم لنفقة درهم على عيالكم خير من سبعين قنطاراً

ـ والقنطار كجبل أحد وزناً ـ أنفقوا ولا تخشوا ولا تضيقوا ولا تقتروا وليكن أكثر نفقتكم يوم الجمعة».

وفي الحديث: «كل معروف صدقة، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة، وما وقى به الرجل عرضه كتب له به صدقة»، ومعنى كل معروف صدقة: أن الإنفاق لا ينحصر في المال، بل يتناول كل بر من الأموال والأقوال والأفعال والعلوم والمعارف، وإنفاق العلوم والمعارف أفضل وأشرف؛ لأن نفع الأموال للأجساد، ونفع العلوم والمعارف للقلوب والأرواح، ومعنى ما وقي به عرضه: ما أعطى الشاعر وذا اللسان المتقىٰ.

وفي الحديث: «ينادي مناد كل ليلة: لا دواء للموت، وينادي آخر: ابنوا للخراب، وينادي منادٍ: هب للمنفق خلفاً وينادي مناد: هب للممسك تلفاً».

وفي الحديث: «يؤجر ابن آدم في نفقته كلها إلا شيئاً وضعه في الماء والطين» قال القنوي، في شرح هذا الحديث؛ وهذا الحديث ـ وإن كان من حيث الصيغة مطلقاً ـ فالأحوال والقرائن تخصصه، وذلك أن بناء المساجد في الرباطات ومواضع العبادات يؤجر الباني لها عليها بلا خلاف، فالمراد بالمذكور هنا إنما هو البناء الذي لم يقصد صاحبه إلا التنزه والانفساح والاستراحة والرياء والسمعة، وإذا كان كذلك فمطمح همة الباني ومقصده لا يتجاوز هذا العالم، فلا يكون لبنائه ثمرة، ولا نتيجة في الآخرة؛ لأنه لم يقصد بما فعله أمراً وراء هذه الدار، فأفعاله أعراض زائلة لا موجب لتعدِّيها من هنا إلى الآخرة، فلا إثمار لها، فلا أجر. انتهى.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: مضاف لمفعوله؛ أي: متولي أمورنا، والولي: خلاف العدو.

﴿ذُوقُواْ﴾ الذوق في الأصل، وإن كان فيما يقل تناوله كالأكل، لا فيما يكثر تناوله، إلا أنه مستصلح للكثير، كما هنا.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنه حذف فيه

جواب لو الشرطية.

ومنها: الإجمال في قوله: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾، ثم التفسير في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ إلى آخره.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾؛ أي: لم نصدّكم.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، و﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾؛ لأن الإجرام حقيقة في قطع الأجسام، ثم استعير لاكتساب كل مكروه وسوء.

ومنها: التعبير عما في المستقبل بلفظ الماضي في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ إشارةً إلى تحقق وقوعه.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لما فيه من إسناد ما للفاعل إلى ظرفه، نحو: نهاره صائم، وليله قائم، وليل ماكر.

ومنها: التعبير بالماضي عما في المستقبل في قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾، وفي قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ﴾ إشارةً إلى تحقق وقوعه؛ لأن المعنى: ونجعل الأغلال يوم القيامة في أعناق الذين كفروا.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حيث لم يقل في أعناقهم؛ للتنويه بذمهم، والتنبيه على موجب أغلالهم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾؛ أي: في أهل قرية.

ومنها: مقابلة الجمع بالجمع في قوله: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿يَبْسُطُ وَيَقْدِرُ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ مبالغة في تحقيق الحق وتقرير ما سبق، وكان مقتضى السياق: وما أموالهم... إلخ.

ومنها: المقابلة بين عاقبة الأبرار والفجار في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ

صَٰلِحًا﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾.

ومنها: التكرار لغرض التأكيد على ما قيل في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ الخ.

ومنها: أسلوب التقريع والتوبيخ في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ الخطاب للملائكة تقريعاً للمشركين.

ومنها: تقديم المفعول على عامله في قوله: ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ لرعاية الفاصلة، ولأنه أبلغ في الخطاب، ولو أتى بالضمير متصلاً كان التركيب يعبدونكم، ولم تكن فاصلة.

ومنها: الإضافة للتشريف قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿نَّفْعًا﴾، و﴿ضَرًّا﴾ في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه في قوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه، أي: ما أموالكم بالتي تقربكم، ولا أولادكم بالذين يقربونكم عندنا.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ
وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾
وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ
أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ
﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ
إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ
إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ
بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن المشركين هم أهل النار يوم القيامة، وأنه يقال لهم يومئذ: ذوقوا عذابها الذي كنتم به تكذبون.. أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا هذا العذاب، وهو صدهم عن دعوة رسول الله ﷺ بقولهم في القرآن: إنه إفك مفترى، وأنه سحر واضح لا شك فيه، وقد كان فيما حل بالأمم قبلهم مزدجر لهم لو أرادوا، فقد بلغوا من القوة ما بلغوا، وحين أرسل إليهم الرسل كذبوهم، فأخذوا أخذ عزيز مقتدر، ثم أنذرهم سوء عاقبة ما هم فيه، وأوصاهم، بأن يشمروا عن ساعد الجد طلباً للحق، متفرقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً، ثم يتفكروا ليعلموا أن صاحبهم ليس بالمجنون، بل هو نذير لهم يخوفهم بأس الله وعذابه الشديد يوم القيامة، وقد كان لهم من حاله ما يرغبهم في دعوته، فهو لا يطلب منهم أجراً، ولا يريد منهم جزاء، وإنما مثوبته عند ربه المطلع على كل شيء، ثم أبان لهم أن الحق قد وضح، وجاءت أعلام الشريعة. كفلق الصبح نوراً وضياءً، ولا

بقاء للباطل، ولا قرار له إذا ظهر نور الحق: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه، لما أبطل شبههم، ورد عليهم بما لم يبقَ بعده مستزاد لمستزيد.. هددهم بشديد العقاب إن هم أصروا على عنادهم واستكبارهم، ثم ذكر أنهم حين معاينة العذاب يقولون: آمنا بالرسول، وأنى لهم ذلك، وقد فات الأوان، وقد كان ذلك في مكنتهم في دار الدنيا لو أرادوا، أما الآن فإن ذلك لا يجديهم فتيلاً ولا قطميراً من جراء ما كانوا فيه من شك مريب في الحياة الأولى، وتلك سنة الله في أشباههم من قبل.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾؛ أي: وإذا قرئت بلسان رسولنا محمد ﷺ. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: على مشركي مكة. ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ القرآنية الناطقة بحقيقة التوحيد وبطلان الشرك حالة كونها، ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾؛ أي: واضحات الدلالات، ظاهرات المعاني ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال كفار مكة مشيرين إلى النبي ﷺ: ﴿مَا هَٰذَا﴾ التالي لها ﴿إِلَّا رَجُلٞ﴾ حقير لا يعبأ بكلامه، تنكيره للتهكم والتلهي، وإلا فرسول الله ﷺ كان علماً مشهوراً بينهم. ﴿يُرِيدُ﴾ ويقصد ﴿أَن يَصُدَّكُمۡ﴾ ويمنعكم ويصرفكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ وأسلافكم من الأصنام منذ أزمنة متطاولة، فيستتبعكم بما يستبدعه من غير أن يكون هناك دين إلهي، وإضافة[1] الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم لتحريك عرق العصبية منهم مبالغةً في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد.

والمعنى[2]: وإذا تتلى على المشركين آيات الكتاب الكريم دالة على التوحيد وبطلان الشرك.. قالوا: إن هذا الرجل يريد أن يلفتكم عن الدين الحق دين الآباء والأجداد، ليجعلكم من أتباعه دون أن يكون له حجة على ما يدَّعي، وبرهان يدل على صحة ما يسلك من سبيل، ثم زادوا إنكارهم توكيداً، وأيأسوا الرسول من الطمع في إيمانهم ﴿وَقَالُواْ﴾ ثانياً: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ القرآن الذي يدعي محمد أنه وحي من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

عند ربه ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾؛ أي: كذب محض، وكلام مصروف عن وجهه لعدم مطابقة ما فيه من التوحيد والبعث الواقع ﴿مُّفْتَرًى﴾؛ أي: مختلف من عند نفسه وقد نسبه إلى ربه ترويجاً للدعوة، واجتلاباً لقلوب الكافة، والافتراء: الكذب عمداً، قالوه عناداً ومكابرةً، وإلا فقد قال كبيرهم عتبة بن ربيعة: واللَّهِ ما هو شعر ولا كهانة ولا سحر.

ثم شددوا في الإنكار، فجعلوه سحراً بيِّناً لا شك فيه عندهم، كما حكي عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ثالثاً: ﴿لِلْحَقِّ﴾؛ أي: للقرآن؛ أي: في شأنه على أن العطف لاختلاف العنوان، بأن يراد بالأول وهو قولهم: ﴿إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ معناه، وبالثاني وهو قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ نظمه المعجز، وقيل: إن طائفة منهم قالوا: إنه إفك، وطائفة قالوا: إنه سحر، وقيل: المراد بالحق هنا: التوحيد، وأمور الإسلام، وقيل: المراد بالذين كفروا المذكور أولاً: جميع الكفار؛ لأن إنكار القرآن والمعجزة كان متفقاً عليه بين أهل الكتاب والمشركين، وبالثاني المشركون؛ لأنهم أنكروا التوحيد على القول بأن المراد بالحق: التوحيد؛ أي: وقال الذين كفروا للحق والقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: حينما جاءهم من الله تعالى، ومعنى التوقع في ﴿لَمَّا﴾: أنهم كذبوا به وجحدوه على البديهة ساعة أتاهم، وأول ما سمعوه قبل التدبر والتأمل. ﴿إِنْ﴾ بمعنى ما النافية؛ أي ما ﴿هَٰذَآ﴾ القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: خيال ظاهر سحريته لا شبهة فيه.

والمعنى على القول: بأن المراد بالحق التوحيد والشرائع؛ أي[1]: وقال المشركون لما جاء به النبي ﷺ من عند ربه مشتملاً على الهدى والشرائع التي وجهتهم في حياتهم الاجتماعية ونظم المعيشة وجهة جديدة، تكون بها سعادتهم في معاشهم ومعادهم، وغيَّرت الطريق التي ورثوها عن الآباء والأجداد: ما هذا إلا سحر مبين لا خفاء فيه عندنا، وقد أعمى أبصارنا، وأضلَّ أحلامنا، فلم نستطيع أن ندفعه بكل سبيل، ولا يزال يلج القلوب ويقتحمها، ويداخل النفوس ويستحوذ عليها، ونحن في حيرة لا نجد طريقاً للتغلب عليه بالوسائل التي نعرفها، وهي بين أيدينا.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: أنهم نفوا أن يكون وحياً من عند ربه، وجعلوه إما كلاماً مفترى جاء به لترويج دعوته، وإما سحراً فعله ليخلب به العقل، ويصد الناس عن الدين الحق الذي ورثوه من الآباء والأجداد.

فرد الله سبحانه عليهم منكراً دعواهم أن دينهم هو الدين الحق، بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ أي: مشركي العرب. ﴿مِّن كُتُبٍ﴾؛ أي: كتباً، فإن ﴿مِن﴾ الاستغراقية داخلة على المفعول للتأكيد؛ أي: وما أعطينا كفار مكة كتباً دالةً على صحة الإشراك ﴿يَدْرُسُونَهَا﴾؛ أي: يقرؤونها، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾، وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾، وفي إيراد الكتب بصيغة الجمع تنبيه على أنه لا بد لمثل تلك من نظائر الأدلة. والدرس: قراءة الكتاب مع التدبر فيه، كما سيأتي في مبحث اللغة، وقرأ الجمهور: ﴿يدرسونها﴾ مضارع درس الثلاثي من باب نصر، وقرأ أبو حيوة: بفتح الدال وشدها وكسر الراء مضارع ادرس افتعل من الدرس، ومعناه: يتدارسونها، وعن أبي حيوة أيضاً: يدرسونها من التدريس، وهو تكرير الدرس، ذكره أبو حيان. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى مشركي مكة ﴿قَبْلَكَ﴾ يا محمد ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ أي: رسول يدعوهم إلى الإشراك، وينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا.

وإذا انتفت الكتب الدالة على الإشراك[1]، والرسول الجائي به، فمن أين لهم هذه الشبهة، وهذا في غاية تجهيلهم وتسفيه رأيهم، اهـ «بيضاوي». فالمنفي إنما هو وصف الكتب المذكورة، ووصف النذير المذكور لا أصل الكتب، ولا أصل إرسال الرسول.

وهناك تفيسر آخر ذكره الشهاب حاصله[2]: أن المنفي أصل الكتب، وأصل إرسال الرسل، وذلك لأن العرب كانوا في فترة؛ إذ لم يبعث لهم نبي بعد إسماعيل، وقد انقضت رسالته بموته.

وحاصل المعنى على هذا: أنه لا عذر لهم في الشرك، ولا في عدم تصديقك، بخلاف أهل الكتاب، فإن لهم نوع عذر؛ لأن لهم ديناً وكتاباً، فيشق

---

(١) بيضاوي. (٢) الشهاب.

عليهم تركهما، ويحتجون على عدم المتابعة بأن نبيهم حذرهم ترك دينهم، وإن كان هذا احتجاجاً باطلاً اهـ. شيخنا.

ومعنى الآية: أي إن الدين الصحيح إنما يأتي بوحي من عند الله، وبكتاب ينزل على الرسول، ليبلِّغه للناس، ويبين لهم فيه ما جاء به من الشرائع والآداب والفضائل التي تكون بها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، وهم أمة أمية لم يأتهم كتاب قبل القرآن، ولم يبعث إليهم رسول قبل محمد، فمن أين أتاهم أن الدين الحق هو الذي يرشد إلى صحة الإشراك بالله، وينفي توحيد الخالق، حتى يكون لهم معذرة فيما يدعون، وحجة على صحة ما يعتقدون، ولا يخفى ما في هذا من التهكم بهم، والتجهيل لهم.

وبعد أن بشر وأنذر وأبان بالحجة والبرهان ما كان فيه المقنع لهم - لو كانوايعقلون - سلك بهم سبيل التهديد والوعيد، وضرب لهم المثل بالأمم التي كانت قبلهم وسلكت سبيلهم، ولم تجدها الآيات والنذر، فحل بها بأس الله، وأتاها العذاب من حيث لا تحتسب، فقال: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ أي: من قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية، والقرون المتقدمة، كما كذبك قومك من قريش. ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾؛ أي: وما بلغ كفار مكة، وما وصلوا ﴿مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ أي: عشر ما أعطينا أولئك المتقدمين من قوة الأجسام، وكثرة الأموال والأولاد، وطول الأعمال، فأهلكهم الله تعالى كعاد وثمود، فالمعشار: بمعنى العشر، كالمرباع بمعنى: الربع، وقيل: الضمير في ﴿بَلَغُواْ﴾ لكفار الأمم الماضية، والمعنى عليه: وما بلغ أولئك المتقدمون عشر ما آتينا هؤلاء المكذبين لك من البينات والهدى، والأول أولى، وقيل: إن المعنى: ما بلغ من قبلهم معشار ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى والعلم والحجة والبرهان؛ أي: وما بلغ الذين من قبلهم من الأمم معشار ما أعطينا قوم محمد ﷺ من البيان والبرهان، فإن محمداً أفضل من جميع الرسل وأفصح، وبرهانه أوفى، وبيانه أشفى، وكتابه أكمل من سائر الكتب وأوضح، ثم إن المتقدمين لما كذَّبوا الكتب والرسل.. أنكر عليهم، وكيف لا أنكر على هؤلاء الأمة، وقد كذبوا بأفصح الرسل وأوضح السبل. اهـ «المراح». ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾ معطوف على ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ على طريق التفسير والتفصيل، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ إلخ، وما بينهما حال، أو اعتراض، اهـ «أبو

السعود». وعبارة «البيضاوي»: ولا تكرير؛ لأن الأول للتكثير، والثاني: للتكذيب. انتهت.

وعبارة «الشوكاني»: والأولى أن يكون من عطف الخاص على العام؛ لأن التكذيب الأول لما حذف منه المتعلق للتكذيب.. أفاد العموم، فمعناه: كذبوا الكتب المنزلة، والرسل المرسلة، والمعجزات الواضحة، وتكذيب الرسل أخص منه، وإن كان مستلزماً له، فقد روعيت الدلالة اللفظية، لا الدلالة الالتزامية. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ معطوف على محذوف، قدَّره البيضاوي بقوله: فحين كذبوا رسلي.. جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، فكيف كان نكيري لهم؛ أي: إنكاري عليهم؛ أي: هو واقع موقعه، فهو في غاية العدل، خالٍ عن الجور والظلم، فأي شيء خطر هؤلاء، بجنب أولئك، فليحذروا من مثل ذلك بتصديق محمد ﷺ، والنكير: اسم مصدر بمعنى الإنكار؛ أي: إنكار المنكر وإزالته بالعقوبة في الدنيا، جعل تدميرهم إنكاراً تنزيلاً للفعل منزلة القول، كما في قول الشاعر:

وَنَشْتُمُ بِالْأَفْعَالِ لاَ بِالتَّكَلُّمِ

اهـ «شهاب».

قال أبو حيان(١): ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ تعظيم للأمر، وليست استفهاماً مجرداً، وفيه تهديد لقريش؛ أي: إنهم معرضون لنكير مثله، والنكير: مصدر كالإنكار، وهو من المصادر التي جاءت على وزن فعيل، والفعل على وزن أفعل، كالنذير والعذير من أنذر وأعذر، وحذفت الياء من نكير تخفيفاً؛ لأن الكسرة أجزأت عنها.

ومعنى الآية(٢): أي ولقد كان فيمن قبلهم من الأمم البائدة، والقرون الخالية كقوم نوح وعاد وثمود، وقد بلغوا من القوة والبأس ما لم يبلغوا معشاره، فكذبوا رسلي حين أرسلوا إليهم، فحل بهم النكال والوبال، ودمروا تدميراً، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، وإنهم ليشاهدون آثارهم في حلهم وترحالهم، في غدوهم ورواحهم، كما قال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك.

والخلاصة: أن فيما حل بمن قبلهم من المثلات نكالاً لهم على تكذيبهم رسلهم لعبرة لهم لو كانوا يعقلون، ثم أطال لهم الحبل، ومد لهم الباع، وأنصفهم في الخصومة فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين، ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾؛ أي: ما أذكركم وما أنصح لكم إلا بخصلة واحدة هي ﴿أَن تَقُومُواْ﴾ من مجلس رسول الله ﷺ، وتتفرقوا من مجمعكم عنده، فالقيام على حقيقته بمعنى القيام على الرجلين ضد الجلوس، ويجوز أن يكون بمعنى القيام بالأمر، والاهتمام بطلب الحق، والمعنى: إنما أعظكم بخصلة واحدة إن فعلتموها أصبتم الحق، وتخلصتم إليه، وهي أن تقوموا. ﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: لوجه الله تعالى، وطلب رضاه خالصاً، لا لحمية ولا عصبية ولا للمراء والرياء والتقليد، بل لطلب ظهور الحق حال كونكم متفرقين ﴿مَثۡنَىٰ﴾؛ أي: اثنين اثنين ﴿وَ﴾ متفرقين ﴿فرادى﴾؛ أي: فرداً فرداً واحداً واحداً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ معطوف على ﴿تَقُومُواْ﴾؛ أي: ثم تتدبروا وتتأملوا في أمر محمد ﷺ، وما جاء به، فتعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾؛ أي: من جنون يحمله على دعوى النبوة العامة، كما ظننتم، وفائدة التقييد[1] بالاثنين والفرادى: أن الاثنين إذا التجأا إلى الله تعالى، وبحثا طلباً للحق مع الإنصاف.. هُدِيا إليه، وكذا الواحد إذ تفكر في نفسه مجرداً عن الهوى بخلاف كثرة الجمع، فإنه يقل فيها الإنصاف غالباً، ويكثر الخلاف، ويثور غبار الغضب، ولا يسمع إلا نصرة المذهب.

وفي تقديم ﴿مَثۡنَىٰ﴾ إيذان بأنه أرفق وأقرب من الاطمئنان، فإن الاثنين إذا قعدا بطريق المشاورة في شأن الرسول ﷺ وصحة نبوته، من غير هوى وعصبية، وعرض كل منهما محصول فكره على الآخر.. أدى النظر الصحيح إلى التصديق، ويحصل العلم على العلم. قال الشاعر:

إِذَا ٱجْتَمَعُوا جَاؤُوا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ   فَيَزْدَادُ بَعْضُ ٱلْقَوْمِ مِنْ بَعْضِهِمْ عِلْمَا

وأما الفرد[2]: فيفكر في نفسه أيضاً بعدل ونصفة، هل رأينا في هذا الرجل

---

(١) روح البيان.   (٢) الخازن.

جنوناً قط، أو جربنا عليه كذباً قط، وقد علمتم أن محمداً ﷺ ما به من جنة، بل قد علمتم أنه من أرجح قريش عقلاً، وأوزنهم حلماً، وأحدهم ذهناً، وأرصنهم رأياً، وأصدقهم قولاً، وأزكاهم نفساً، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به، وإذا علمتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بآية، وإذا جاء بها تبين أنه نبي نذير مبين، صادق فيما جاء به، وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾؛ أي: في السموات والأرض، فتعلموا أن خالقهما واحد لا شريك له، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، اهـ من «الخازن».

والمعنى[1]: أي قل لهم يا محمد: إني أرشدكم أيها القوم، وأنصح لكم أن لا تبادروا بالتكذيب عناداً واستكباراً، بل اتئدوا وتفكروا ملياً فيما دعوتكم إليه، وجدّوا واجتهدوا في طلب الحق خالصاً؛ إما واحداً فواحداً، وإما اثنين فاثنين، لعلكم تصلون إلى الحق، وتهتدون إلى قصد السبيل، وتكونون قد أنصفتم الحقيقة، وأمطتم الحجب التي غشّت أبصاركم، ورانت على قلوبكم، فلم تجعل للحق منفذاً.

وإنما طلب إليهم التفكر، وهم متفرقون اثنين اثنين، أو واحداً فواحداً؛ لأنّ في الازدحام تهويش الخاطر، والمنع من إطالة التفكير، وتخليط الكلام، وقلة الإنصاف، وفيما يشاهد كل يوم من الاضطراب، وتبلبل الأفكار في الجماعات الكثيرة حين الجدل والخصومة، ما يؤيد صدق هذا، ثم أبان لهم أن نتيجة الفكر ستؤدي بهم إلى أن يعترفوا بما يرشد إليه النظر الصحيح، فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ إذ ما جاء به من ذلك الأمر العظيم الذي فيه سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم لا يتصدّى لادعائه إلا أحد رجلين؛ إما مجنون لا يبالي بافتضاحه حين مطالبته بالبرهان وظهور عجزه، وإما نبيّ مؤيد من عند الله بالمجعزات الدالة على صدقه، وإنكم قد علمتم أن محمداً أرجح الناس عقلاً، وأصدق الناس قولاً، وأزكاهم نفساً، وأجمعهم للكمال النفسي والعقلي، فوجب عليكم أن تصدّقوه في دعوته، وقد قرنها بالمعجزات الدالة على ذلك، وفي التعبير بصاحبكم إيماء إلى أنه معروف لهم، مشهور لديهم، فهو قد نشأ بين ظهرانيهم، وعلموا ما له من صفات الفضل

---

(١) المراغي.

والنبل وكرم الخلال، مما لم يتهيأ لأحد من أترابه ولداته.

وإذا استبان بالدليل أنّه ليس بالمجنون في كل ما يقول ويدّعي.. اتضح أنه صادق، كما قال سبحانه: ﴿إِنْ﴾؛ أي: ما ﴿هُوَ﴾؛ أي: صاحبكم ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾؛ أي: مخوّف لكم بلسان ينطق بالحق، ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: قدام عذاب الآخرة، إن عصيتموه؛ لأنه مبعوث في نسم الساعة؛ أي: أوّلها وقربها، وذلك لأنّ النسم النفس، ومن قرب منك يصل إليك نفسه، وقيل: المعنى: أي[1]: ما محمد إلا رسول مخوف لكم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب قبل عذاب شديد في الآخرة إن لم تؤمنوا به؛ أي: ما هذا الرسول بالكاذب، بل هو نذير لكم بعقاب الله حين تقدمون عليه لكفركم به وعصيانكم أمره، وإنما جعل إنذاره بين يدي عذاب شديد؛ لأنّ محمداً ﷺ مبعوث قرب الساعة، كما جاء في الحديث: «بعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت لتسبقني».

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «يا صباحاه»، فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ما لك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبّحكم أو يمسيكم، أما كنتم تصدّقوني» قالوا: بلى، قال ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

ولما نفى عن رسوله الجنون، وأثبت له النبوّة.. أمر الله سبحانه رسوله أن يخبرهم أنه لم يكن له غرض في الدنيا، ولا رغبة فيها، حتى تنقطع عندهم الشكوك، ويرتفع الريب، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَا﴾؛ أي: أيُّ شيء ﴿سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: من جُعْلٍ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد: نفي السؤال بالكلية؛ أي: لا أسألكم على إنذاركم أجراً، كقول من قال لمن لم يعطه شيئاً: إن أعطيتني شيئاً.. فخذه، وقال بعضهم: لما نزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.. قال عليه السلام لمشركي مكة: «لا تؤذوني في قرابتي»، فكفوا عن ذلك، فلما سبّ آلهتهم.. قالوا لم ينصفنا يسألنا أن لا نؤذيه في قرابته، وهو يؤذينا بذكر آلهتنا بسوء، فنزل: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾

---

(١) المراح.

إن شئتم آذوهم، وإن شئتم امتنعوا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الأجر: المودّة في القربى، وقال قتادة: فهو لكم؛ أي: ثمرته وثوابه، لأني سألتكم صلة الرحم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ قرأ ابن كثير[1] وحمزة والكسائي بإسكان الياء؛ أي: ما أجر تبليغي وثوابه ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره، لأني أطلب ثواب الله تعالى لا عرض الدنيا، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: مطلع يعلم صدقي وخلوص نيتي، وفيه إشارة إلى أنه من شرط دعوة الخلق إلى الله أن تكون خالصة لوجه الله، لا يشوبها طمع في الدنيا دون الآخرة، قال الإمام الزروقي: الشهيد: هو الحاضر الذي لا يغيب عنه معلوم ولا مرئيّ ولا مسموع.

ومعنى الآية: أي قل لهم يا محمد: إني لا أريد منكم أجراً ولا عطاءً على أداء رسالة ربي إليك، ونصحي لكم، وأمري بعبادته، إنما أطلب ثواب ذلك من الله تعالى، وهو العليم بجميع الأشياء، فيعلم صدقي وخلوص نيتي، وإذا علم أن الذي حمله على ركوب الصعاب واقتحام الأخطار ليس أمراً دنيوياً.. ثبت أن الذي حفزه عليها هو أمر الله تعالى له، وقد صدع به: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ وبهذا ثبت أنه نبيّ، ولما استبان أنه ليس بالمجنون، ولا هو بطالب الدنيا.. عُلِم أن الذي جاء به هبط إليه من السماء، وقذف به الوحي إليه، وأمره أن يبلغه إليهم، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن أنكر التوحيد والرسالة: ﴿إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ﴾ ويرمي ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالوحي على من يشاء من عباده؛ أي: يلقي الوحي وينزله على من يجتبيه من عباده، فالاجتباء ليس لعلة، والاصطفاء ليس لحيلة، والمعنى: أنه يبيّن الحجة ويظهرها للناس على ألسن رسله، أو المعنى: يرمي بالحق الباطل فيدمغه ويزيله.

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ قرأ الجمهور[2]: ﴿عَلَّٰمُ﴾ بالرفع، والظاهر: أنه خبر ثانٍ لـ﴿أَنِ﴾، وقيل: خبر لمبتدأ محذوف، وقيل: بل من الضمير المستكن في ﴿يَقْذِفُ﴾، وقرأ عيسى بن عمرو ابن أبي إسحاق وزيد بن علي وابن أبي عبلة وأبو حيوة وحرب عن طلحة: بالنصب نعتاً لاسم ﴿إِن﴾، أو بدلاً منه، أو على المدح، قال الفراء: والرفع في مثل هذا أكثر، كقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

---

(١) البيضاوي.

(٢) البحر المحيط.

وقرىء: ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ بالحركات الثلاث في الغين، إما بالضم، فجمع: غيب، والغيب: هو الأمر الذي غاب عن خلقه، وأما الكسر: فكذلك استثقلوا ضمتين والواو، فكسروا الغين لتناسب الكسر مع الياء، والضمة التي على الياء مع الواو، وأما بالفتح: ففعول للمبالغة، كالصبور والشكور، وهو الأمر الذي غاب وخفي جدّاً.

أي: عالم[1] بكل ما غاب عن خلقه في السموات والأرض، قولاً كان أو فعلاً أو غيرهما، وفي «التأويلات»: إنما ذكر الغيوب بلفظ الجمع؛ لأنه عالم بغيب كل أحد، وهو ما في ضمير كل أحد، وأنه تعالى عالم بما يكون في ضمير أولاد كل أحد إلى يوم القيامة، وإنما قال علاّم بلفظ المبالغة ليتناول علم معلومات الغيوب في الحالات المختلفة كما هي بلا تغيّر في العلم عند تغير المعلومات من حال إلى حال، بحيث لا يشغله شأن حال عن حال.

والمعنى: أي قل يا محمد لمن أنكر التوحيد ورسالة الأنبياء والبعث: إنّ ربّي يلقي الوحي وينزله على قلب من يجتبيه من عباده، وهو العليم بمن يصطفيهم، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وقد يكون المعنى كما روي عن ابن عباس: إنّ ربي يقذف الباطل بالحق؛ أي: يورده عليه، حتى يبطله ويزيل آثاره، ويشيع الحق في الآفاق، ولا يخفى ما في هذا من عدة بإظهار الإسلام ونشره بين الناس، وتبلُّج نوره في الكون، ونحوه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ ثمّ أكد ما سلف بأمر رسوله ﷺ أن يخبر قومه بأنّ الإسلام سيعلو على سائر الأديان، وأن غيره سيضمحل ويزول، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الإسلام والتوحيد، وزال الشرك وذهب ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ الجديد من الإبداء، بمعنى الابتداء والاستئناف؛ أي: وما يظهر الباطل الجديد الذي لم يسبق ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ الباطل القديم الذي سبق بعد ذهابه من الإعادة بمعنى العود؛ أي: وما يعود الباطل القديم الذي اتصف به المشركون أولاً؛ أي: ذهب الباطل ذهاباً لم يبقَ منه إقبال ولا إدبار، ولا إبداء ولا إعادة.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: زال الشرك وذهب، بحيث لم يبقَ أثره أصلاً، مأخوذ من هلاك الحي، فإنه إذا هلك لم يبقَ له إبداء ولا إعادة، فجعل مثلاً في الهلاك بالكلية، وقيل: الباطل هو إبليس، والمعنى: لا يخلق إبليس أحداً ابتداءً، ولا يبعثه، إذا مات إعادةً، وقيل: الباطل هو الأصنام؛ أي: لا تخلق أحداً ابتداءً، ولا تعيد بعثاً للأموات.

روى ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ دخل مكة، وحول الكعبة ثلاث مئة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾».

والمعنى: أي قل[2]: جاء الإسلام، ورفعت رايته، وعلا ذكره، وذهب الباطل، فلم تبقَ منه بقيّة تبدىء شيئاً أو تعيده، وأصله في هلاك الحيّ، فإنه إذا هلك لم يبق له إبداءٌ؛ أي: فعل أمر ابتداء ولا إعادة؛ أي: فعله ثانياً، وأنشدوا لعبيد بن الأبرص.

أَقْــفَــرَ مِــنْ أَهْــلِــهِ عُــبَــيْــدُ ... فَــٱلْــيَــوْمَ لاَ يُــبْــدِيْ وَلاَ يُــعِــيْــدُ

ولما سدَّ عليهم مسالك القول.. لم يبقَ إلا أن يقولوا عناداً: إنه قد عرض له ما أضلّه عن محجة الصواب، فأمر رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الطريق الحق ـ كما تزعمون وتقولون. لقد ضللتَ حين تركت دين آبائك ـ ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾؛ أي: فإن وبال ضلالي وعقابه عليها؛ لأنه سببها؛ إذ هي الحاملة عليه بالذات، والأمارة بالسوء، وبهذا الاعتبار قوبل الشرطية بقوله: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى الطريق الحق ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ﴾؛ أي: فبسبب ما يوحي إليَّ ربي من الحكمة والبيان، فإن الاهتداء بتوفيقه وهدايته.

وفيه[3]: إشارة إلى أنّ منشأ الضلالة نفس الإنسان، فإذ أوكلت النفس إلى

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

طبعها لا يتولد منها إلا الضلالة، وإن الهداية من مواهب الحق سبحانه، ليست النفس منشأها، ولذلك قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ قول كل مهتدٍ وضالٍ، وإن بالغ في إخفائه ﴿قَرِيبٌ﴾ منّي ومنكم. يعلم الهدى والضلالة، وقال بعضهم: سميع بمنطق كل ناطق، قريب لكل شيء، وإن كان بعيداً، وقرأ الجمهور: ﴿ضَلَلْتُ﴾ بفتح اللام، وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب: بكسر اللام، وهي لغة أهل العالية، والمعنى: أي: قل أيها الرسول لقومك: إن ضللت عن الهدى، وسلكت غير طريق الحق، فإنما ضرر ذلك على نفسي، وإن استقمت على الحق.. فبوحي الله إليَّ، وتوفيقه للاستقامة على محجّة الحق، وطريق الهدى، إنه سميع لما أقول وتقولون، ويجازي كلاً بما يستحق، قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً».

والخلاصة: أنّ الخير كله من الله، وفيما أنزله عليَّ من الوحي والحق المبين، ثم ذكر سبحانه حالاً من أحوال الكفار، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد، أو يا من يفهم الخطاب، ويليق به ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾؛ أي: حين يفزع الكفار ويخافون مما نزل بهم، قيل[1]: المراد: فزعهم عند نزول الموت بهم، وقال الحسن: هو فزعهم في القبور من الصيحة، وقال قتادة: هو فزعهم إذا خرجوا من قبورهم، وقال السدي: هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة، فلم يستطيعوا فراراً، ولا رجوعاً إلى التوبة، وقال ابن مغفّل: هو فزعهم إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة، وقال سعيد بن جبير: هو فزعهم من الخسف الذي يخسف بهم في البيداء، فيبقى رجل منهم، فيخبر الناس بما لقي أصحابه فيفزعون.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ ثمانين ألفاً - وهم السفيانيّ وقومه - يخرجون في آخر الزمان، فيقصدون بالكعبة ليخرّبوها، فإذا دخلوا البيداء، وهي أرض ملساء بين الحرمين - كما في «القاموس» - خسف بهم، فلا ينجو منهم إلاّ

(١) الشوكاني.

السري الذي يخبر عنهم، وهو جهينة، فلذلك قيل: عند جهينة الخبر اليقين، وعبَّر بالماضي[1] في قوله: ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾؛ لأن المستقبل بالنسبة إلى الله تعالى كالماضي في تحقّقه، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: ولو ترى يا محمد حالهم وقت فزعهم من الموت، أو من عذاب الله، أو من الخسف بهم في البيداء.. لرأيت أمراً هائلاً.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لهم من عذاب الله، ولا نجاة بهرب، أو بتحصن، ويدركهم ما فزعوا منه ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من ظهر الأرض إلى بطنها، أو من الموقف إلى النار، أو من صحراء بدر إلى قليبها؛ أي: بئرها القديمة، أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم، وحيث كانوا، فهم قريب من الله، والجملة معطوفة على فزعوا؛ أي: ولو ترى يا محمد إذ يفزع الكفار، فلا يفوتني أحد منهم، ويؤخذون من مكان قريب.. لرأيت أمراً فظيعاً، وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ مبنياً على الفتح، و﴿أُخِذُواْ﴾ فعلاً ماضياً، والظاهر: عطفه على ﴿فَزِعُواْ﴾، وقيل: على ﴿فَلَا فَوْتَ﴾؛ لأن معناه: فلا يفوتوا وأخذوا، وقرأ عبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه وطلحة: ﴿فلا فوت﴾، و﴿أخذ﴾ مصدرين منوّنين، وقرأ أبيّ: ﴿فلا فوت﴾ مبنياً، و﴿أخذ﴾ مصدراً منوّناً، ومن رفع ﴿أخذ﴾.. فخبر مبتدأ؛ أي: وحالهما أخذ، أو مبتدأ؛ أي: وهناك أخذ، ذكره أبو حيان؛ أي: ولو رأيت أيها الرسول هؤلاء المكذبين حين يفزعون مما رأوا من العذاب الشديد.. لرأيت من الأمر ما يعجز القول عن وصفه، فهم لا يمكنون من الهرب، ولا يفوتون ذلك العذاب، ولا يجدون ملجأ ولا مأوى يبتعدون فيه، ويؤخذون حين الفزع من مكان قريب؛ أي: من الموقف إلى النار، ولم يمكّنوا أن يُمْعِنوا في الهرب.

وفي «الفتوحات»: وقوله: ﴿وَأُخِذُواْ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾ الثلاثة معطوفة على ﴿فَزِعُوٓاْ﴾، والأربعة بمعنى الاستقبال، وعبّر فيها بالماضي لتحقق الوقوع. اهـ «شيخنا». ﴿وَقَالُوٓاْ﴾؛ أي: ويقول الكفار عند معاينة العذاب في

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

الآخرة: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: بمحمد ﷺ؛ لأنه مرّ ذكره في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ فلا يلزم الإضمار قبل الذكر، وقيل: الضمير عائد على الله، وقيل: على العذاب، وقيل: على القرآن، والأول أولى. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾؛ أي: وكيف يمكن لهم ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾؛ أي: التناول السهل؛ أي: وكيف يمكن لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً. ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ فإنّ الإيمان إنما هو في حيّز التكليف، وهي الدنيا، وقد بعد عنهم بارتحالهم إلى الآخرة، وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بالإيمان بعد ما فات عنهم وبعد بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة - وهي غاية رمية حجر - كتناوله من مقدار ذراع في الاستحالة، ﴿وَأَنَّىٰ﴾ هنا للاستفهام الاستبعادي.

والتناوش: التناول السهل، وقال ابن عباس: التناوش: الرجوع إلى الدنيا، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ بالواو، وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وأبو بكر: بالهمزة، ويجوز أن يكونا مادّتين إحداهما النون والواو والشين، والأخرى النون والهمزة والشين، وسيأتي البحث عنه في المفردات.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: بمحمد، أو بالعذاب الشديد الذي أنذرهم إيّاه، ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل ذلك اليوم في وقت التكليف في محل نصب على الحال من فاعل ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: وقالوا آمنا به، والحال أنهم قد كفروا بما آمنوا به الآن من قبل هذا الوقت، وذلك حال كونهم في الدنيا.

يعني: تابوا وقد أغلقت الأبواب، وندموا وقد تقطعت الأسباب، فليس إلا الخسران والندم والعذاب والألم.

فَخَلِّ سَبِيْلَ ٱلْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبُكَا   فَلَيْسَ لأَيَّامِ ٱلصَّفَاءِ رُجُوْعُ

أي: لا يقدر الإنسان على شيء إذا مات وصار إلى تحت الأرض، كما كان يقدر إذا كان فوق الأرض وهو حيّ، والمعنى: أي: وقالوا حين إذ أخذوا: آمنّا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكيف يمكن لهم ذلك ويقبل منهم، وقد صاروا بعيدين عن قبول الإيمان؛ إذ هذه الدار ليست أهلاً لقبول التكاليف من الإيمان بالله والعمل الصالح، والحال أنهم قد كفروا به من قبل ذلك اليوم في الدنيا، وجملة قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إمّا معطوف على ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ﴾ على حكاية الحال الماضية؛ أي: والحال أنهم قد كانوا يتكلّمون بالغيب، أو بالشيء الغائب، يقولون: لا بعث

ولا حساب ولا جنة ولا نار. ﴿مِن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ﴾ من الصدق، أو عن الحق والصواب، أو أنهم قد كانوا يرجمون بالظن الكاذب، ويتكلمون بما لم يظهر لهم في حق الرسول من المطاعن، أو العذاب من قطع القول بنفيه، كما قالوا: وما نحن بمعذبين ﴿مِن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ﴾؛ أي: من جهة بعيدة عن حاله ﷺ؛ حيث ينسبونه إلى الشعر والسحر والكهانة والكذب، ولعله تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد، لا مجال للظن في لحوقه، فالباء في ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بمعنى: في؛ أي: في محل غائب عن نظرهم، أو للملابسة. اهـ «شهاب».

وإما معطوف على ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: ويقولون: آمنّا به، ويقذفون بالغيب الخ، بناء على أنه تمثيل لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيّعوه من الإيمان في الدنيا.

وقيل: هو مستأنف؛ أي: يتلفظون بكلمة الإيمان حين لا ينفع نفساً إيمانها، فمثّلت حالهم في طلبهم تحصيل ما عطّلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم: آمنّا في الآخرة، وذلك مطلب مستبعد بحال من يقذف شيئاً من مكان بعيد، لا مجال للنظر في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه، لكونه غائباً عنه بعيداً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَيَقۡذِفُونَ﴾ مبنياً للفاعل على حكاية حال ماضية، وقرأ مجاهد وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو: «ويقذفون» مبنياً للمفعول، قال مجاهد: ويرجمهم بما يكرهون من السماء، وقال الزمخشري: أي: يأتيهم به؛ أي: بالغيب شياطينهم، ويلقّنونهم إياه، وقيل: يرمون في النار، وقال أبو الفضل الرازي: يرمون بالغيب من حيث لا يعلمون، ومعناه: يجازون بسوء أعمالهم، ولا علم لهم بما أتاهم. ﴿وَحِيلَ﴾؛ أي: حجز ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أي أوقعت الحيلولة والمنع بين هؤلاء الكفار ﴿وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ ويحبّون من نفع الإيمان يومئذ، والنجاة به من النار، والفوز بالجنة، وقيل: حيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم، أو حيل بينهم وما يشتهون من الرجوع إلى الدنيا، كما حكي عنهم بقوله: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾. ﴿كَمَا فُعِلَ﴾ ذلك المنع والحيلولة ﴿بِأَشۡيَاعِهِم﴾؛ أي: بمن

---

(١) البحر المحيط.

اتصف بصفاتهم؛ أي: بأمثالهم ونظرائهم وأشباههم ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾؛ أي: من قبلهم من كفار الأمم الماضية.

وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكِّۭ﴾ وتهمة مما وجب الإيمان واليقين به، كالتوحيد والبعث ونزول العذاب على تقدير الإصرار، تعليل لما قبله. ﴿مُّرِيبِۭ﴾ صفة لشك؛ أي: موقع لهم ذلك الشك في الريبة والتهمة من أمر الرسل والبعث والجنة والنار،[1] من: أرابه إذا أوقعه في الريبة، أو ذي ريبة من أراب الرجل إذا صار ذا ريبة، ودخل فيها، وكلاهما مجاز في الإسناد، إلا أن بينهما فرقاً وهو أن المريب من الأول منقول ممن يصلح أن يكون مريباً من الأشخاص والأعيان إلى المعنى، وهو الشك، أي: يكون صفة من أوقع في الريب حقيقة، وقد جعل في الآية صفة نفس الشك الذي هو معنى من المعاني، والمريب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك؛ أي: إنهم كانوا في شكّ ذي شكّ، كما تقول: شعر شاعر، وعجب عجيب، وإنما الشاعر في الحقيقة صاحب الشعر، وإنما أسند الشاعرية إلى الشعر للمبالغة، وإذا كان حال الكفرة الشك في الدنيا.. فلا ينفعهم اليقين في الآخرة؛ لأنه حاصل بعد معاينة العذاب، والخروج من موطن التكليف، وقد ذمّوا في هذه الآيات بالشكّ والكفر والرجم بالغيب.

والمعنى[2]: أي وحجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً، كما قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ ثم بين أن هذه سنة الله في أمثالهم ممن كذبوا الرسل من قبلهم، فقال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ﴾؛ أي: فعلنا بهم كما فعلنا بالأمم الماضية التي كذّبت رسلها، فتمنوا حين رأوا بأس الله أن لو آمنوا، ولكن لم يقبل منهم، ثم علّل عدم قبول إيمانهم حينئذ بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكِّۭ مُّرِيبِۭ﴾؛ أي: لأنهم كانوا في الدار الأولى شاكين فيما أخبرت به الرسل من البعث والجزاء، وقد تغلغل الشكّ في قلوبهم حين صاروا لا يطمئنّون إلى شيء مما جاءوا به، وفي[3]

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) النسفي.

هذا ردٌّ على من زعم أن الله لا يعذب على الشك، والله أعلم.

الإعراب

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾.

﴿وَإِذَا﴾: الواو: استئنافية ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمّن معنى الشرط، ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغيّرالصيغة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿تُتْلَىٰ﴾، ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: نائب فاعل لـ﴿تُتْلَىٰ﴾، ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: حال من ﴿ءَايَٰتُنَا﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والتالي هو النبي عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية مستأنفة لا محل لها من الأعراب ﴿مَا﴾ نافية، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿رَجُلٌ﴾: خبر المبتدأ والجملة في محل نصب مقول قالوا، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾: صفة للرجل، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَصُدَّكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود إلى ﴿رَجُلٍ﴾، و﴿أَن﴾ المصدرية مع ما في حيّزها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يُرِيدُ﴾؛ أي: يريد صدّكم، ﴿عَمَّآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَصُدَّكُمْ﴾. ﴿كَانَ﴾: زائدة، أو شأنية، أو ناقصة، ويضمر لها ضمير يعود على الآباء، والمسألة حينئذ من باب التنازع، وأعمل الثاني لقربه، ولو أعمل الأول لقال: يعبدونه، ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ على القول الأخير، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، ﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالُوا۟﴾ الأول، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿إِفْكٌ﴾: خبر، ﴿مُّفْتَرًى﴾: صفة ﴿إِفْكٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ما قبله، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿لِلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾، ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى: حين، متعلق بـ﴿قَالَ﴾،

﴿جَآءَهُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الحقّ﴾، والجملة الفعلية في محل الجرّ مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾، ﴿إِن﴾: نافية مهملة، ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر، ﴿سِحۡرٞ﴾: خبر، ﴿مُّبِينٞ﴾: صفة ﴿سِحۡرٞ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَآ﴾: الواو: عاطفة، أو حالية، ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿ءَاتَيۡنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿كُتُبٖ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿ءَاتَيۡنَٰهُم﴾، وجملة ﴿يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾: صفة لـ﴿كُتُبٖ﴾، وجملة ﴿ءَاتَيۡنَٰهُم﴾ إما معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالَ﴾، ﴿وَمَآ﴾: الواو: عاطفة، ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ءَاتَيۡنَٰهُم﴾، ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾. ﴿قَبۡلَكَ﴾: حال من ﴿نَّذِيرٖ﴾، أو متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾. ﴿مِّن نَّذِيرٖ﴾ مفعول ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، و﴿مِن﴾: زائدة.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾.

﴿وَكَذَّبَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿كذب الذين﴾: فعل وفاعل، معطوف على قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أو مستأنفة، ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: جار ومجرور، صلة الموصول، ﴿وَمَآ﴾: الواو: حالية، ﴿ما﴾ نافية. ﴿بَلَغُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِعۡشَارَ﴾: مفعول به، ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ صلة الموصول، والعائد، محذوف تقديره: ما آتيناهموه، وجملة ﴿بَلَغُواْ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿كذب﴾، ولكنها حالة سببيّة، ﴿فَكَذَّبُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفسيرية ﴿كذبوا رسلي﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ عطف تفسير، ﴿فَكَيۡفَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فحين كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير، فكيف كان نكير، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿كيف﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجّبي في محل النصب خبر كان مقدم عليها وجوباً، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿نَكِيرِ﴾: اسمها مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، ﴿نَكِيرِ﴾: مضاف، وياء المتكلم المحذوفة في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة.

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر، ﴿أَعِظُكُم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَقُومُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾ ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تَقُومُواْ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور على كونه عطف بيان من ﴿واحدة﴾، أو بدل منها، أو مرفوع على كونه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي قيامكم لله مثنى وفرادي، ﴿مَثْنَىٰ﴾: حال من فاعل ﴿تَقُومُواْ﴾، ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾: معطوف عليه؛ أي: حالة كونكم اثنين اثنين، وفرداً فرداً، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿تَقُومُواْ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿بِصَاحِبِكُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿جِنَّةٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾ معلقة عنها بـ﴿مَا﴾ النافية، ولكنها على إسقاط في، كما في «الشهاب»، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿نَذِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، ﴿لَّكُم﴾: متعلق بـ﴿نَذِيرٌ﴾، ﴿بَيْنَ﴾: منصوب على الظرفية الاعتبارية، وهو مضاف ﴿يَدَيْ﴾ مضاف إليه مجرور بالياء، وهو مضاف ﴿عَذَابٍ﴾: مضاف إليه ﴿شَدِيدٍ﴾: صفة عذاب، والظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿نَذِيرٌ﴾.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿مَا﴾: اسم شرط في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿سَأَلْتُكُم﴾ مقدَّم عليه، ﴿سَأَلْتُكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، في محل الجزم بـ﴿مَا﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾: حال من ﴿مَا﴾ الشرطية ﴿فَهُوَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَا﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَا﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿أَجْرِيَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾،

﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿شَهِيدٌ﴾، و﴿شَهِيدٌ﴾ خبر، والجملة معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ رَبِّي﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقْذِفُ﴾ خبره، ﴿بِالْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿يَقْذِفُ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿عَلَّامُ﴾: خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف، ﴿الْغُيُوبِ﴾: مضاف إليه. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾، ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾: معطوف على ﴿يُبْدِئُ﴾.

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجلمة مستأنفة، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿ضَلَلْتُ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿إنما﴾: حرف مكفوف وكاف، ﴿أَضِلُّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿عَلَىٰ نَفْسِي﴾: متعلق بـ﴿أَضِلُّ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، وهي في قوة بنفسي، فيصح مقابلتها مع ما بعدها، ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾: الواو: عاطفة، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿اهْتَدَيْتُ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَبِمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية، أو موصولة في محل الجر بالباء، ﴿يُوحِي﴾: فعل مضارع، ﴿إِلَيَّ﴾: متعلق بـ﴿يُوحِي﴾، ﴿رَبِّي﴾: فاعل ﴿يُوحِي﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، أو الموصولة، والتقدير على الأول: فبسبب إيحاء ربّي إليّ، وعلى الثاني: فبسبب الذي يوحيه إليّ ربي، الجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف معلوم مما قبله، تقديره: فاهتدائي كائن بسبب إيحاء ربّي إليّ، أو

بسبب الذي يوحيه إلي ربي، والجلمة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿سَمِيعٌ﴾: خبره الأول، ﴿قَرِيبٌ﴾: خبره الثاني، وجلمة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، أو على أيِّ مخاطب، و﴿تَرَىٰٓ﴾: بصرية مفعولها محذوف ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ﴿تَرَىٰٓ﴾ ﴿فَزِعُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: ولو ترى حالهم وقت فزعهم.. لرأيت أمراً عظيماً مذهلاً، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة مسوقة لتقرير حال الكفار عند فزعهم، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿لا﴾: نافية للجنس، ﴿فَوْتَ﴾: في محل النصب، وخبرها محذوف، تقدير: فلا فوت كائن لهم، والجملة في محل الجرّ معطوفة على جملة ﴿فَزِعُوا۟﴾، أو مستأنفة، ﴿وَأُخِذُوا۟﴾ فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿فَزِعُوا۟﴾، ﴿مِن مَّكَانٍ﴾: متعلق بـ﴿أخذوا﴾، ﴿قَرِيبٌ﴾: صفة ﴿مكان﴾، ﴿وَقَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿فَزِعُوا۟﴾، ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿وَأَنَّىٰ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿أنى﴾: اسم استفهام للاستفهام الاستبعاديّ، بمعنى: من أين، أو: كيف، في محل الرفع خبر مقدم، ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾، ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مِن مَّكَانٍۭ﴾: متعلق بـ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾، ﴿بَعِيدٍ﴾: صفة ﴿مَّكَانٍۭ﴾، والجملة الاسمية جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿كَفَرُوا۟﴾، ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿كَفَرُوا۟﴾، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾: فعل

وفاعل، معطوف على ﴿قد كفروا﴾ بناءً على أنها حكاية حال ماضية؛ أي: وقد كانوا يقذفون بالغيب، ﴿بِالْغَيْبِ﴾: متعلق بـ﴿يقذفون﴾، ﴿مِن مَّكَانٍ﴾ متعلق به أيضاً، ﴿بَعِيدٍ﴾: صفة مكان، ﴿وَحِيلَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿حيل﴾: فعل ماضٍ مغيّر الصيغة على وزن قيل وبيع، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ﴿بين﴾: في محل النصب على الظرفية، مبنيّ على الفتح لإضافته إلى المبني، وهو مضاف، والهاء مضاف إليه، والظرف في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿حيل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَقَالُوٓاْ﴾، ﴿وَبَيْنَ مَا﴾: ظرف ومضاف إليه، معطوف على الظرف الأول، ﴿يَشْتَهُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف؛ أي: وبين ما يشتهونه ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿فُعِلَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿فُعِلَ﴾، وجملة ﴿فُعِلَ﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف معمول لفعل محذوف، تقديره: فعلنا بهم فعلاً مثل فعلنا بأشياعهم، ويحتمل كون ﴿ما﴾ موصولة بمعنى: الذي ﴿فُعِلَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والتقدير: فعلنا بهم فعلاً مثل الفعل الذي فعل بأشياعهم، والجملة المحذوفة مستأنفة: ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿أشياعهم﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِي شَكٍّ﴾: خبره، ﴿مُّرِيبٍ﴾: صفة ﴿شَكٍّ﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ الإفك: أشد الكذب، والكذب: ما خالف الواقع. ﴿مُّفْتَرًى﴾: المنسوب إلى الله تعالى، فهو تأسيس، لا تأكيد. ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ والسحر: من سحر يسحر، إذا خدع أحداً، وجعله مدهوشاً متحيراً، وهذا إنما يكون بأن يفعل الساحر شيئاً يعجز عن فعله وإدراكه المسحور عليه، كما في «شرح الأمالي».

وفي «الفتوحات المكية»: السحر: مأخوذ من السحر، وهو ما بين الفجر الأول والفجر الثاني، واختلاطه وحقيقته اختلاط الضوء والظلمة، فما هو بليل لما خالطه من ضوء الصبح، ولا هو بنهار بعدم طلوع الشمس للأبصار، فكذلك ما فعله

السحرة، ما هو باطل محقق، فيكون عدماً، فإن العين أدركت أمراً ما لا تشك فيه، ولا هو حق محض، فيكون له وجود في عينه، فإنه ليس هو في نفسه كما تشهده العين، ويظنه الرائي. انتهى. قال الشيخ الشعراني في «الكبريت الأحمر»: هو كلام نفيس، ما سمعنا مثله قط.

﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ والدرس: قراءة الكتاب بإمعان النظر فيه طلباً لدرك معناه، والتدريس: تكرير الدرس، قال الراغب في «المفردات»: درس الشيء، معناه: بقي أثره، وبقاء الأثر يقتضي انمحاءه في نفسه، ولذلك فسر الدروس بالانمحاء، وكذا درس الكتاب، ودرست العلم: تناولت أثره بالحفظ، ولما كان تناول ذلك بمداومة القراءة.. عبر عن إدامة القراءة بالدرس.

﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قال في «القاموس»: والعشير: جزء من عشرة، كالمعشار والعشر، وتابعه من نقل عنه كالمنجد وغيره، وقال في «الكشاف»: والمعشار: كالمرباع، وهما: العشر والربع، وعبارة «البحر»: المعشار: مفعال من العشر، ولم يبقَ على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره، وغير المرباع، ومعناهما: العشر والربع، وقال قوم: المعشار: عشر العشر، وقال الماوردي: المعشار هنا: هو عشر العشير، والعشير: هو عشر العشر، فيكون جزءاً من ألف، قال: وهو الأظهر؛ لأن المراد به المبالغة في التقليل، قال الشوكاني: مراعاة المبالغة في التقليل لا يسوغ لأجلها الخروج عن المعنى العربي، وقال الجوهري: معشار الشيء: عشره، كما قاله صاحب «القاموس»، وهذا هو المعنى المعروف المعتبر هنا. ﴿نَكِيرِ﴾ والنكير: مصدر كالإنكار، وهو من المصادر التي جاءت على وزن فعيل، والفعل على وزن أفعال كالنذير والعذير من أنذر وأعذر، ذكره في «البحر».

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ الوعظ: زجر يقترن به تخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والعظة والموعظة الاسم. اهـ.

﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ قال الراغب: الفرد: الذي لا يختلط به غيره، فهم أعم من الوتر، وأخص من الواحد، وجمعه: فرادى. انتهى. وفي «المختار»: الفرد: الوتر، وجمعه: أفراد، وفرادى بالضم على غير القياس، كأنه جمع فردان.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ التفكر: طلب المعنى بالقلب. ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾؛ أي: جنون.

﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: جعل ﴿يَقْذِفُ﴾ القذف: الرمي البعيد بنحو الحجارة والسهم، ويستعار لمعنى الإلقاء. ﴿يُبْدِئُ﴾ يقال: أبدأ الشيء: فعله ابتداءً، وأعاده فعله ثانياً. ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ الفوت: بعد الشيء عن الإنسان، بحيث يتعذر إدراكه. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ والفزع: انقباض ونفار من الأمر المهول المخيف. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ التناوش بالواو: التناول السهل لشيء قريب، من النوش، يقال: تناوش وتناول إذا مد يده إلى شيء يصل إليه، ومن همزه فإنه أبدل من الواو همزة لانضمامه، نحو: أقتت في وقتت، وفي «المصباح»: ناشه نوشاً من باب قال: تناوله، والتناوش: التناول، يهمز ولا يهمز، وتناوشوا بالرماح: تطاعنوا بها. اهـ قال ابن السكيت: يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ولحيته: ناشه ينوشه نوشاً، ومنه: المناوشة في القتال، وذلك إذا تدانى الفريقان، وأنشدوا لغيلان بن حريث في وصف الإبل.

فَهْيَ تَنُوشُ ٱلْحَوْضَ نَوْشاً مِنْ عُلاَ ... نَوْشاً بِهِ تَقْطَعُ أَجْوَازَ ٱلْفَلاَ

يريد أنها عالية الأجسام طويلة الأعناق.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: يرجمون بالظنون التي لا علم لهم بها، والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يستيقنه: هو يقذف بالغيب. ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾؛ أي: بأشباههم ونظرائهم، جمع شيع، وشيع جمع شيعة فالأشياع جمع الجمع، كما في «القرطبي» وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيع.

﴿فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾؛ أي: موقع في الريبة والظنة، يقال: أراب الرجل؛ أي: صار ذا ريبة، فهو مريب، ومن قال: هو من الريب الذي هو الشك والتهمة، قال: يقال شك مريب، كما يقال: عجب عجيب، وشعر شاعر في التأكيد. اهـ «قرطبي».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التنكير في قوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ للتهكم والتلهي.

ومنها: إضافة الآباء إلى ضمير المخاطبين، لا إلى أنفسهم في قوله: ﴿عَمَّا كَانَ

﴿يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إظهاراً للغضب عليهم، ودلالة على أن هذا القول لا يجترىء عليه إلا المتمادون في الكفر، المنهمكون في الغي والباطل، وكان التركيب أن يقال: وقالوا؛ لتقدم المرجع، وفيه تكرار الفعل، وهو قولهم دلالة على الإنكار عليهم.

ومنها: زيادة ﴿مِن﴾ الاستغراقية في قوله: ﴿مِّن كُتُبٍ﴾ لتأكيد النفي.

ومنها: إيراد ﴿كُتُبٍ﴾ بصيغة الجمع تنبيهاً على أنه لا بد لمثل تلك الشبهة من نظائر الأدلة.

ومنها: الطباق بين ﴿مَثۡنَىٰ﴾ ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ فهو طباق بديع أُتي به احترازاً من القيام جماعة؛ لأن في الاجتماع تشويشاً للخواطر.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ استعار لفظ اليدين لما يكون من الأهوال والشدائد أمام الإنسان.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ فإنه كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره؛ لأنه إذا هلك لم يكن له إبداء ولا إعادة.

ومنها: التعبير بالماضي عن المستقبل في قوله: ﴿إِذۡ فَزِعُواْ﴾؛ لأن المستقبل بالنسبة إلى الله تعالى كالماضي في تحققه.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ شبه طلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة، كما يتناوله الآخر من مقياس ذراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه في الاستحالة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية أيضاً في قوله: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ تقريرها: أنه شبه حالهم في ذلك؛ أي: في قولهم آمنا به؛ حيث لا ينفعهم الإيمان، بحال من رمى شيئاً من مكان بعيد، وهو لا يراه، فإنه لا يتوهم إصابته، ولا لحوقه لخفائه عنه، وغاية بعده.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية حيث استعار القذف بمعنى رمي الحجارة والحصى؛ لإلقائهم القول الكاذب، وظنهم الفاسد.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿يقذفون﴾ حيث عبر عن الماضي بلفظ المضارع.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿مُّرِيبٍ﴾ لما فيه من الإسناد إلى الشيء ما لصاحبه؛ لأن الريب صفة للشاك، فأسند إلى الشك إسناداً مجازياً لقصد المبالغة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

جملة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من حكم وأحكام

اشتملت هذه السورة على الأمور التالية:

١ ـ حمد الله سبحانه وتعالى، والثناء عليه بما هو أهله.

٢ ـ مقال المشركين في إنكار البعث، والرد عليهم بأنه آتٍ لا شك فيه.

٣ ـ الاستهزاء بالرسول، وحكمهم عليه بأنه إما مفتري، وإما مجنون.

٤ ـ النعم التي آتاها سبحانه داود وسليمان عليهما السلام.

٥ ـ ما كان لسبأ من النعم، ثم زوالها لكفرانهم بها، واتباعهم وسوسة الشيطان.

٦ ـ النعي على المشركين لعبادتهم الأوثان والأصنام مع بيان أنها لا تفيدهم يوم القيامة شيئاً.

٧ ـ الحجاج والجدل بين الأتباع والمتبوعين من الكافرين يوم القيامة، وإلقاء كل منهما التبعة على الآخر.

٨ ـ بيان أن المترفين في كل أمة هم أعداء الرسل لاعتزازهم بأموالهم وأولادهم، واعتقادهم أنهم ما آتاهم ربهم ذلك إلا لرضاه عنهم، ثم رده سبحانه عليهم.

٩ ـ سؤال الملائكة أمام المشركين بأنهم هل طلبوا منهم عبادتهم ليكون في ردهم ما يكفي في تبكيتهم.

١٠ ـ مقال المشركين عند سماع القرآن، وادعاؤهم أنه ليس بوحي من عند الله تعالى، بل الداعي مفتر ليصد الناس عن دين الإباء والأجداد.

١١ ـ عظتهم بما حل بمن قبلهم من الأمم.

١٢ ـ أمرهم بالتأمل والتدبر في الأدلة التي أمامهم لعلهم يرعوون عن غيهم.

١٣ ـ إثبات أن الرسول نذير مبين لا مفتر ولا مجنون.

١٤ ـ كون الرسول لا يطلب أجراً على دعوته، بل أجره على الله سبحانه وتعالى.

١٥ ـ طلب المشركين يوم القيامة أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسول ويعملوا صالح الأعمال، ثم الرد عليهم بأن ذلك قد فات أوانه، وأن لا سبيل إلى تحقيقه[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا قد انتهى تفسير سورة سبأ بتوفيقه سبحانه وتيسيره، في منتصف ليلة السبت المبارك الثالثة عشر من شهر الله المحرم من شهور سنة أربع عشرة وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

ولما فرغت منها.. تفرغت لتفسير سورة الملائكة بقدر طاقتي مع كثرة العوائق والمعائق والعوانق، وأسأل الله سبحانه وتعالى صرف العوارض والحواجز عني، والتيسير والتسهيل لأوضح المسالك، والتوفيق لما هو المعنى لكتابه في الواقع، إنه الكريم الجواد، والهادي إلى سبيل الرشاد، والموفق لطريق الصواب والسداد، والمسؤول لكل مأمول، والمرجو لفتح أبواب القبول، ونسأله أن يختم أعمالنا بالصالحات، وأعمارنا بالشهادات، وأن يجعل مآبنا إلى فراديس الجنات آمين آمين يا رب العالمين.

سورة فاطر

سورة فاطر، وتسمى سورة الملائكة أيضاً، مكية، نزلت بعد سورة الفرقان، قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج البخاري وابن الضريس وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: أنزلت سورة فاطر بمكة.

وعدد آياتها: خمس وأربعون آية، **وعدد كلماتها**: تسع مئة وسبع وتسعون كلمة، **وعدد حروفها**: ثلاثة آلاف ومئة وثلاثون حرفاً.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة الملائكة جميعها محكم إلا قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ الآية (٢٣) نسخ معناها، لا لفظها بآية السيف. انتهى.

المناسبة: ومناسبة هذه السورة للسورة التي قبلها[١]: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر في آخر سابقتها هلاك المشركين، وإنزالهم منازل العذاب.. لزم المؤمنين حمده تعالى وشكره، كما جاء في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

وعبارة أبي حيان هنا[٢]: مناسبة هذه السورة للسورة التي قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر في آخر السورة التي قبلها هلاك المشركين أعداء المؤمنين، وإنزالهم منازل العذاب.. تعين على المؤمنين حمده تعالى وشكره لنعمائه، ووصفه بعظيم آلائه، كما في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾، وقال أيضاً عند قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾، فأول هذه السورة تتصل بآخر السابقة؛ لأن قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب، ولما ذكر حالهم ذكر حال المؤمنين وبشّرهم بإرسال الملائكة إليهم مبشرين، وأنه يفتح لهم أبواب الرحمة. انتهى.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

فضلها: ومن فضائلها: ما روي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن ادخل من أي باب شئت».

التسمية: سميت بسورة فاطر أو بسورة الملائكة لذكرهما فيها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ
فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا
يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ
خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ
فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٞ مِّن قَبْلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (٥) إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ
لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (٦) ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم
مَّغْفِرَةٞ وَأَجْرٞ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن
يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ
سَحَابٗا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ
ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٞ
شَدِيدٞۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجٗاۚ وَمَا
تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (١١) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن
كُلّٖ تَأْكُلُونَ لَحْمٗا طَرِيّٗا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةٗ تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
كُلّٞ يَجْرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا
يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٖ (١٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بالقدرة الكاملة والإرادة النافذة.. أيد ذلك بما

يشاهده كل أحد في نفسه من الضيق حيناً، والسعة حيناً آخر، مع العجز عن دفع البؤس إن وجد، وجلب النعمة لو أراد.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين أنه وحده هو المنعم بما يشاهده كل أحد في نفسه.. أمر بذكر نعمه بالاعتراف بها والشكر لها.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر الأصل الأول وهو التوحيد.. ثنى بذكر الأصل الثاني وهو الرسالة، وسلى رسوله على تكذيب قومه له بأنه ليس ببدع بين الرسل، فقد كذب كثير منهم قبله، فعليه أن يتأسى بهم ويصبر على أذاهم، ثم ذكر الأصل الثالث، وهو البعث والنشور مع بيان أنه حق لا شك فيه، وأنه لا ينبغي أن يقبلوا فيه وساوس الشيطان، فإنه عدو لبني آدم، ولا يرشدهم إلا إلى الذنوب والآثام التي توصلهم إلى عذاب النار وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين أن الشيطان يضل أتباعه ويدعوهم إلى النار.. ذكر هنا أن حزب الشيطان لهم العذاب الشديد، وأن حزب الله لهم المغفرة والأجر الكبير، ثم بين أن الضلال والهداية بيد الله بحسب ما يعلم من الاستعداد وصفاء النفوس وقبول الهداية، أو تدسيتها وارتكابها الأجرام والمعاصي، فلا تحزن على ما ترى من ضلال قومك واتباعهم لوساوس الشيطان، والله عليم بحالهم، وسيجازيهم بما يستحقون.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها(١): أن الله سبحانه لما ذكر أن الكافرين لهم عذاب شديد يوم القيامة، وأن الذين يعملون الصالحات لهم أجر كبير عند ربهم في ذلك اليوم.. أردف ذلك ببيان أن هذا اليوم لا ريب فيه، وضرب المثل الذي يدل على تحققه لا محالة، ثم ذكر أن من يريد العزة.. فليطع الله ورسوله، ولا يتعزز بعبادة

---

(١) المراغي.

الأصنام والأوثان، كما أخبر الله عنهم: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾، وأن العمل الطيب يرفع إلى الله ويحفظ لديه، ويجازي عليه، ثم أعقب ذلك بأن من يمكر بالمؤمنين ويريد خداعهم.. فالله يفسد عليه تدبيره ويجازيه بما عمل شر الجزاء، وبعد أن ذكر دليل البعث بما يشاهد في الآفاق من دلائل القدرة.. ذكردليلاً عليه بما يرى في الأنفس من اختلاف أطوارها، فقد كانت تراباً، ثم نطفة، ثم وضعت في الأرحام إلى أن صارت بشراً سوياً، ومنها ما يمد في عمرها، ومنها ما يخترم قبل ذلك، كما تدل عليه المشاهدة، وكل ذلك يسير على الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر الأدلة على إثبات البعث، وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الغيث عليها.. أردف هذا بذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم قدرته بخلقه الأشياء المتحدة في الجنس المختلفة في المنافع، فهذا ماء عذب زلال يجري في الأقاليم والأمصار والبراري والقفار، يسقي منه الإنسان والحيوان، وينبت النبات الذي فيه غذاء لهما، وهذا ماء ملح أجاج تسير فيه السفن الكبار، ويستخرج منه اللؤلؤ والمرجان، ومن كل منهما تأكل لحماً طرياً فيه لذة للآكلين، وهذان ليل ونهار ضياء وظلام، يدخل أحدهما في الآخر، فأخذ هذا من طول ذاك، ويزيد هذا في قصر ذاك، فيعتدلان، ثم يتقارضان صيفاً وشتاءً، وسخر الشمس والقمر والنجوم الثوابت والسيارات بمقدار معين، وعلى نهج ثابت لا يتغير، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم.

أما ما تدعون من دونه من الأصنام والأوثان.. فلا يملكون شروى نقير، ولا يسمعون لكم دعاءً، ولا يستجيبون لدعوة، ويوم القيامة يتبرؤون منكم إذا دعوتموهم واستشفعتم بهم، ولا ينبئك بهذا إلا الخبير، وهو ربك العليم بما كان وما سيكون.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: أنزلت هذه الآية

(١) لباب النقول ببعض زيادة.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ حيث قال النبي ﷺ: «اللهم أعز دينك بأحد العمرين: عمر بن الخطاب، أو بأبي جهل عمرو بن هشام» فهدى الله سبحانه عمر رضي الله عنه، وأضل أبا جهل لعنه الله تعالى، ففيهما أنزلت.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: كل المحامد مختصة بالله تعالى لا تتجاوز منه إلى غيره، وهو إن كان في الحقيقة حمداً لله لذاته بذاته، لكنه تعليم للعباد كيف يحمدونه، وبهذا الاعتبار تكون الجملة مقولاً لقول محذوف تقديره: قولوا يا عبادي عند ثنائي: الحمد لله، والشكر له على نعمه.

وهذه السورة[1] ختام السور المفتتحة بالحمد التي فصلت فيها النعم الأربع التي هي أمهات النعم المجموعة في الفاتحة، وهي الإيجاد الأول، ثم الإبقاء الأول، ثم الإيجاد الثاني المشار إليه بسورة سبأ، ثم الإبقاء الثاني الذي هو أنهاها وأحكمها، وهو الختام المشار إليه بهذه السورة المفتتحة الابتداء. اهـ «خطيب».

واعلم[2]: أن الحمد يتعلق بالنعمة والمحنة؛ إذ تحت كل محنة منحة، فمن النعمة العطاس، وذلك لأنه سبب لانفتاح المسام؛ أي: ثقب الجسد، واندفاع الأبخرة المحتبسة عن الدماغ الذي فيه قوة التذكر والتفكر، فهو بحران الرأس، كما أن العرق بحران بدن المريض، ولذا أوجب الشارع الحمد للعاطس. قال ابن عباس رضي الله عنهما: من سبق العطاس بالحمد لله وقي وجع الرأس والأضراس، ومن المحنة التجشي. وفي الحديث: «من عطس أو تجشأ فقال: الحمد لله على كل حال.. دفع الله بها عنه سبعين داءً أهونها الجذام». والتجشي: تنفس المعدة، وذلك لأن التجشي إنما يتولد من امتلاء المعدة من الطعام، فهو من المصائب في الدين خصوصاً إذا وقع حال الصلاة، ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول عند كل مصيبة «الحمد لله على كل حال».

ثم رتب الحمد على نعمة الإيجاد أولاً؛ إذ لا غاية وراءها؛ إذ كل كمال مبنيٌّ عليها فقال: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مبدعهما ومخترعهما وخالقهما ابتداءً

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

من غير مثال سبق من الفطر بفتح الفاء بمعنى: الشق، أو الشق طولاً، كما ذهب إليه الراغب، كأنه شق العدم بإخراجهما منه. وقيل: المعنى: شاقهما لنزول الأرواح من السماء، وخروج الأجساد من الأرض، كما في «البحر». وأما الفطر بكسرها: فهو ترك الصوم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما كنت أدري ما فاطر السموات حتى اختصم إلي أعرابيان في بئر فقال: أحدهما أنا فطرتها؛ أي: ابتدأت حفرها.

والمقصود من هذا: أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم.. فهو قادر على الإعادة. وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَاطِرِ﴾ على صيغة اسم الفاعل، وقرأ الزهري والضحاك: ﴿فطر﴾ على صيغة الفعل الماضي فعلى القراءة الأولى نعت للاسم الجليل؛ لأن إضافته محضة لكونه بمعنى الماضي، فتفيد التعريف، ومن جعلها غير محضة جعله بدلاً منه، وهو قليل في المشتق، ومثله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إضافته محضة أيضاً على أنه نعت آخر للاسم الجليل، ورسلاً منصوب بفعل مقدر، لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل عند البصريين، وجوز الكسائي عمله، أو منصوب بـ﴿جَاعِلِ﴾؛ لأن اسم الفاعل بمعنى الماضي، وإن كان لا يعمل عند البصريين إلا معرفاً باللام إلا أنه بالإضافة أشبه المعرف باللام فعمل عمله، وأما على أن إضافته غير محضة فهو منصوب بـ﴿جَاعِلِ﴾ بلا خلاف.

والمعنى: أي مصير الملائكة وسائط بينه تعالى وبين أنبيائه والصالحين من عباده، يبلِّغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام، والرؤيا الصادقة. أو بينه تعالى وبين خلقه؛ حيث يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه. وقال بعضهم: الإلقاء إما صحيح أو فاسد، فالصحيح إلٰهي رباني متعلق بالعلوم والمعارف أو ملكي روحاني، وهو الباعث على الطاعة وعلى كل ما فيه صلاح، ويسمى إلهاماً. والفاسد نفساني، وهو ما فيه حظ النفس، ويسمى هاجساً أو شيطاني، وهو ما يدعو إلى معصية، ويسمىٰ وسواساً.

والمراد بالملائكة: بعضهم لا كلهم، جبرائيل، وإسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، والحفظة المتعاقبون، والملائكة المسددون حكام العدل، وغيرهم

---

(١) الشوكاني.

كالملك الذي أرسله الله تعالى إلى الأعمى والأبرص والأقرع.

وقرأ الجمهور: ﴿جَاعِلِ﴾ بصيغة اسم الفاعل مجروراً. وقرأ الحسن: ﴿جاعل﴾ بالرفع والإضافة؛ أي: هو جاعل، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿جاعل﴾: بالرفع بغير تنوين. ﴿الملائكة﴾: نصباً حذف التنوين لالتقاء الساكنين، وقرأ ابن يعمر وخليد بن نشيط: ﴿جعل﴾ فعلاً ماضياً (الملائكة) نصباً، وذلك بعد قراءته فاطر بألف والجر، كقراءة من قرأ: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنا﴾، وقرأ الحسن وحميد بن قيس: ﴿رسلا﴾ بإسكان العين، وهي لغة تميم. وقال الزمخشري: وقرىء: ﴿الحمد لله الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة﴾ فمن قرأ: ﴿فطر﴾ و﴿جعل﴾.. فينبغي أن تكون هذه الجمل إخباراً من العبدإلى ما أسداه إلينا من النعم، كما تقول: الفضل لزيد أحسن إلينا بكذا، خولنا كذا، يكون ذلك جهة بيان لفعله الجميل، كذلك يكون في قوله: ﴿فطر﴾ جعل؛ لأن في ذلك نعماً لا تحصى، ومن قرأ: ﴿فاطر﴾ ﴿جاعل﴾.. فالأظهر أنهما اسما فاعل بمعنى المضي، فيكون صفة للجلالة.

﴿أُوْلِيَ أَجْنِحَةٍ﴾ صفة لرسلاً؛ أي: أصحاب أجنحة ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ صفات لأجنحة، فهي مخفوضة بالفتحة الملفوظة، أو المقدرة؛ لأنها غير مصروفة للعدل والصفة؛ أي: جاعل الملائكة رسلاً أصحاب أجنحة اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة؛ أي: ذوي أجنحة متعددة متفاوتة في العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون أو يسرعون بها، فإن ما بين السماء والأرض، وكذا ما بين السموات مسيرة خمس مئة سنة، وهم يقطعونها في بعض الأحيان في وقت واحد.

ففي تعداد الأجنحة[١] إشارة إلى كمالية استعداد بعض الملائكة على بعض، وتفاوت أقدارهم وقواهم عند الله تعالى. والمعنى: إن من الملائكة خلقاً لكل منهم جناحان، وخلقاً لكل منهم ثلاثة، وخلقاً آخر لكل منهم أربعة. وعبارة النسفي هنا: والمعنى[٢]: إن الملائكة طائفة، أجنحتهم اثنان اثنان؛ أي: لكل واحد منهم جناحان، وطائفة أجنحتهم ثلاثة ثلاثة، ولعلَّ الثالث يكون في وسط الظهر بين

---

(١) روح البيان. (٢) النسفي.

الجناحين، يمدهما بقوة، وطائفة أجنحتهم أربعة أربعة. انتهى. وقال البيضاوي: ولعله لم يرد خصوصية الأعداد المذكورة ونفي ما زاد عليها؛ لما روي أنه ﷺ رأى جبرائيل ليلة المعراج وله ست مئة جناح، منها اثنان يبلغان من المشرق إلى المغرب، وفي هذا رمز إلى قوة استعداده الروحي، وقربه من الملأ الأعلى، وسرعة تنفيذه ما يؤمر به.

وذكر السهيلي: أن المراد بالأجنحة في حق الملائكة صفة ملكية، وقوة روحانية، وليست كأجنحة الطير، ولا ينافي ذلك وصف كل جناح منها أنه يسد ما بين المشرق والمغرب. هذا كلامه، كما في «إنسان العيون». وقال إسماعيل البروسوي: لا يجوز[١] العدول عن الظاهر مع إمكان الحمل على الحقيقة. وقد تظاهرت الروايات الدالة على إثبات الأجنحة للملائكة، وإن لم تكن كأجنحة الطير من حيث إن الله تعالى باين بين صور المخلوقات والملائكة، وإن كانوا روحانيين، لكن لهم أجسام لطيفة، فلا يمنع أن يكون للأجسام أجنحة جسمانية، كما لا يمنع أن يكون للأرواح أجنحة روحانية نورانية، كما ثبت لجعفر الطيار رضي الله عنه.

والحاصل: أن المناسب لحال العلويين أن يكونوا طائرين، كما أن المناسب لحال السفليين أن يكونوا سائرين، ومن أمعن النظر في خلق الأرض والجو.. عرف ذلك، ويؤيد ما قلنا إن البراق، وإن كان في صورة البغل في الجملة، لكنه لما كان علوياً.. أثبت له الجناح، نعم إن الأجنحة من قبيل الإشارة إلى القوة الملكية، والإشارة لا تنافي العبارة هذا.

وقيل: لم يجمع الله سبحانه في الأرض لشيء من خلقه بين الأجنحة والقرون والخراطيم والقوائم إلا لأضعف خلقه، وهو البعوض.

وجملة قوله: ﴿يَزِيدُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فِي الْخَلْقِ﴾؛ أي: في أي خلق كان من الملائكة وغيرهم، فاللام للجنس، والخلق بمعنى: المخلوق ﴿مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: كل ما يشاء أن يزيده بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الأمور التي لا يحيط بها الوصف مستأنفة مقررة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة.

فليس تفاوت أحوال الملائكة في عدد الأجنحة[٢]، وكذا تفاوت أحوال

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

غيرهم في بعض الأمور تستدعيه ذواتهم، بل ذلك من أحكام المشيئة ومقتضيات الحكم.

فالآية متناولة لزيادات الصور والمعاني، فمن الأولى حسن الصورة خصوصاً الوجه، قيل: ما بعث الله نبياً إلا حسن الشكل، وكان نبينا ﷺ أملح الناس، ومنها ملاحة العينين واعتدال الصورة وسهولة اللسان وطلاقته وقوة البطش والشَّعر الحسن والصوت الحسن، وكان نبينا ﷺ طيب النغمة، وفي الحديث: «للَّهُ أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب قينة إلى قينته» أي: من استماع مالك جارية مغنية أريد هنا المغنية، وفي الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم»؛ أي: أظهروا زينته بحسن أصواتكم، وإلا فجلَّ كلام الخالق أن يزينه صوت مخلوق، ورخص تحسين الصوت به والتطريب ما لم يتغير المعنى بزيادة أو نقصان في الحروف، ومنها حسن الخط، وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: «الخط الحسن يزيد الحق وضحاً»؟ وهو بالفتح: الضوء والبياض، وفي الحديث: «عليكم بحسن الخط، فإنه من مفاتيح الرزق». وقال البروسوي: حسن الخط مما يرغب فيه الناس في جميع البلاد، فاستكمال صنعة الكتابة من الكمالات البشرية، وإن كانت من الزيادات لا من المقاصد، وقد يتعيش بعض الفقراء بمنافع قلمه، ولا يحتاج إلى الغير، فتكون المنة لله على كل حال.

ومن الثانية كمال العقل، وجزالة الرأي، وجراءة القلب، وسماحة النفس، وغير ذلك من الزيادات المحمودة، كعلو الهمة؛ أي: التعلق بالمولى لا بالدنيا والعقبى. أو المعنى[1]: يزيد في خلق الأجنحة ما يشاء، كما يزيد في أرجل الحيوان ما يشاء، حتى لقد تبلغ فوق العشرين أحياناً. وهكذا يزيد في تفاوت العقول والنفوس والقوى المادية والمعنوية، كما قيل:

وَٱلنَّـاسُ أَلْـفٌ مِـنْـهُـمُ كَـوَاحِـدِ ... وَوَاحِـدٌ كَـٱلأَلْـفِ إِنْ أَمْـرٌ عَـنَـا

وجملة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممكن ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: بليغ القدرة تعليل لما قبلها من أنه يزيد في الخلق ما يشاء، فإن شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء

(١) المراغي.

مما يوجب قدرته على أن يزيد كل ما يشاؤه إيجاباً بيناً، ومن الأشياء الإنقاذ من الشهوات، والإخراج من الغفلات، والإدخال في دائرة العلم والشهود الذي هو من باب الزيادات، فمن استعجز القدرة الإلهية فقد كفر. والمعنى: فيزيد كل ما هو أهل للزيادة، وما هو مستعد لها حسية كانت أو معنوية، فلا يمنع عليه فعل شيء أراد لما له من القدرة والسلطان على كل شيء.

و﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ﴾ شرطية في محل النصب بـ﴿يَفْتَحِ﴾؛ أي: أيُّ شيء يفتح الله سبحانه ﴿لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾؛ أي: من خزائن رحمته، أية رحمة كانت من نعمة وصحة وعلم وحكمة ورزق ومطر إلى غير ذلك ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾؛ أي: لتلك الرحمة؛ أي: لا أحد من المخلوقات يقدر على إمساك تلك الرحمة، وحبسها عمن فتحت له، فإنه لا مانع لما أعطاه. وفي «الإرشاد»: عبر عن إرسالها بالفتح إيذاناً بأنها أنفس الخزائن، وأعزها منالاً، وتنكيرها للإشاعة والإبهام. قيل: الفتح ضربان[1]:

الأول: فتح إلهي، وهو النصرة بالوصول إلى العلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة، ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾، وقوله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾.

والثاني: فتح دنيوي، وهو النصرة في الوصول إلى اللذات البدنية. وذلك قوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾، وقوله: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾؛ أي: وأيّ شيء يمسكه الله سبحانه من رحمته ويحبسه ويمنعه ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾؛ أي: لا أحد من الموجودات يقدر على إرساله وإعطائه، فإنه لا معطي لما منعه، فهو سبحانه المعطي المانع، القابض الباسط، لا معطي سواه، ولا منعم غيره، واختلاف الضميرين بالتأنيث في الأول، والتذكير في الثاني لما أن مرجع الأول مفسر بالرحمة، ومرجع الثاني مطلق في كل ما يمسكه من رحمته وغضبه. ففي التفسير الأول وتقييده بالرحمة إيذان بأن رحمته سبقت غضبه؛ أي:

---

(١) روح البيان.

في التعلق، وإلا فهما صفتان لله تعالى لا تسبق إحداهما على الأخرى في ذاتهما.
﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ سبحانه؛ أي: فلا مرسل له من بعد إمساكه ومنعه كقوله: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: من بعد إضلال الله إياه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب على كل ما يشاء من الأمور التي من جملتها الفتح والإمساك، فلا أحد ينازعه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يفعل ما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة. وفي «الخازن»: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فيما أمسك ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أي: فيما أرسل.

ومعنى الآية[1]: مفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده سبحانه وتعالى، فما يعطِ من خير.. فلا يستطيع أحد منعه ولا إمساكه، وأيُّ خير يمسكه.. فلا يبسطه ولا يفتحه لهم فاتح؛ لأن الأمور كلها بيده تعالى، ومنها البذل والعطاء، والمنع والإمساك، وهو الغالب على كل ما يشاء من الأمور التي منها الفتح والإمساك. وهو الحكيم الذي يفعل كل ما يفعل بحسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة. وفي الآية عظة للناس بالإقبال إلى ربهم، والتوجه إليه في قضاء حوائجهم، والتوكل عليه في جميع مآربهم، والإعراض عما سواه من جميع خلقه.

ونحو الآية قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾. روى أحمد عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا انصرف من الصلاة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»، وهو بالفتح: الحظ، والإقبال في الدنيا؛ أي: لا ينفع الفتى المحظوظ حظه في الدنيا منك؛ أي: عندك، وإنما ينفعه العمل والطاعة.

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده، اللهم ربّنا لك الحمد ملء السماء والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد أحق

---

(١) المراغي.

ما قال العبد، وكلُّنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

وعن معاذ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «لا تزال يد الله مبسوطة على هذه الأمة ما لم يرفق خيارهم بشرارهم، ويعظم برّهم فاجرهم، ويعن قرّاؤهم أمراءهم على معصية الله، فإذا فعلوا نزع الله يده عنهم».

وأخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس قال: أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتهن فما أبالي ما أصبح عليه وأمسي:

١ ـ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

٢ ـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

٣ ـ ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

٤ ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

فعلى العاقل أن يجتهد حتى يأتي رزقه الصوري والمعنوي بلا جهد ولا مشقة ولا تعب، اللهم افتح لنا خير الباب، وارزقنا مما رزقت أولي الألباب، إنك مفتِّح الأبواب.

ثم أمر الله سبحانه عباده أن يذكروا نعمه الفائضة عليهم التي لا تعد ولا تحصى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عامة، فاللام للجنس، أو يا أهل مكة خاصّة، فاللام للعهد ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾ بلسانكم وجنانكم وجوارحكم. ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: إنعامه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إن جعلت النعمة مصدراً، أو منة الله حال كونها كائنة عليكم إن جعلت اسماً؛ أي: راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها. وتخصيص العبادة والطاعة بمعطيها سواء كانت نعمة خارجة كالمال والجاه، أو نعمة بدنيّة كالصحة والقوة، أو نعمة نفسية كالعقل والفطنة، ومعنى أمرهم بالذكر لها: هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها وطلب المزيد منها، ورسمت[1] لفظة ﴿نِعْمَتَ﴾ بالتاء المبسوطة في أحد عشر موضعاً من القرآن، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي

---

(١) روح البيان.

ويعقوب ولمّا كان ذكر النعمة مؤدّياً إلى ذكر المنعم قال بطريق الاستفهام الإنكاري: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: هل خالق مغاير له تعالى موجود؛ أي: لا خالق سواه على أنّ ﴿خَٰلِقٍ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، زيدت عليه ﴿مِنْ﴾ تأكيداً للعموم. و﴿غير الله﴾ نعت له باعتبار محله، كما أنه نعت له في قراءة الجر باعتبار لفظه.

وقرأ ابن وثاب وشقيق وأبو جعفر وزيد بن علي وحمزة والكسائي[1] ﴿غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ بالخفض نعتاً على اللفظ، و﴿مِنْ خَٰلِقٍ﴾ مبتدأ و﴿يَرْزُقُكُم﴾ جوّزوا أن يكون خبراً للمبتدأ، وأن يكون صفته، وأن يكون مستأنفاً، والخبر على هذين الوجهين محذوف، تقديره: لكم. وقرأ شيبة وعيسى والحسن وباقي السبعة: ﴿غَيْرُ﴾ بالرفع، وجوزوا أن يكون نعتاً على الموضع، كما كان على الجر نعتاً على اللفظ، وهذا الوجه أظهر لتوافق القراءتين فيه، وأن يكون خبراً للمبتدأ، وأن يكون فاعلاً باسم الفاعل الذي هو خالق؛ لأنه قد اعتمد على أداة الاستفهام، فحسن أعماله كقولك، أقائم زيد في أحد وجهيه. وقرأ الفضل بن إبراهيم النحوي: ﴿غيرَ﴾ بالنصب على الاستثناء والخبر إمّا ﴿يَرْزُقُكُم﴾ وإما محذوف، و﴿يَرْزُقُكُم﴾ مستأنف، أو صفة أخرى لـ﴿خَٰلِقُ﴾، وفي «روح البيان»: وجملة[2] ﴿يَرْزُقُكُم﴾ كلام مستأنف لا محل له من الإعراب، ولا مساغ لكونه صفة أخرى لـ﴿خَٰلِقُ﴾؛ لأنّ معناه حينئذ نفي وجود خالق موصوف بوصفي المغايرة والرازقية معاً من غير تعرض لنفي وجود ما اتصف بالمغايرة فقط، ولا لكونه خبراً للمبتدأ؛ لأن معناه نفي رازقية خالق مغاير له تعالى من غير تعرّض لنفي وجوده رأساً مع أنّه المراد حتماً. والمعنى: يرزقكم سبحانه وتعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿و﴾ من ﴿الأرض﴾ بالنبات.

وفائدة هذا التعريف: أنه إذا عرف أنه لا رازق سواه.. لم يعلّق قلبه بأحدٍ في طلب شيء، ولا يتذلّل للإنفاق لمخلوق، وكما لا يرى رزقه من مخلوق لا يراه من نفسه أيضاً، فيتخلّص من ظلمات تدبيره واحتياله، وتوهّم شيء من أمثاله وأشكاله، ويستريح بشهود تقديره تعالى.

وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مستأنفة لتقرير النفي المستفاد من الاستفهام؛ أي: لا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

معبود بحق في الوجود إلا هو سبحانه وتعالى عمّا يقولون علواً كبيراً، وإذا تبيّن تفرّده تعالى بالألوهية والخالقية والرّازقيّة ﴿فَأَنَّىٰ﴾؛ أي: فمن أي وجه، وبأي حجة ﴿تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: تصرفون عن التوحيد إلى الشرك، وعن عبادته إلى عبادة الأوثان، وكيف تصرفون، فالفاء لترتيب إنكار عدولهم عن الحق إلى الباطل على ما قبلها.

قال الزجاج: أي من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله والبعث، وأنتم مقرّون بأنّ الله خلقكم ورزقكم. وفي «الفتوحات»: ﴿فَأَنَّىٰ﴾ هنا بمعنى: كيف؛ أي: من أيٍّ وجه، ومن أي حالة، وبأي سبب تعبدون غيره، فغيره ليس فيه وصف يقتضي أن تصرفوا لعبادته، فإنه لا يقدر على خلق، ولا على رزق، ولا على غيرهما. اهـ شيخنا.

ومعنى الآية: يا أيها الناس راعوا نعم الله تعالى واحفظوها بمعرفة حقها، والاعتراف بها، وخصوا خالقها بالعبادة والطاعة، فهو الذي بيده أرزاقكم وأقواتكم، فإلى أيّ وجه تصرفون عنه بعد أن استبان الحق ووضح السبيل.

والخلاصة: احفظوا نعم الله تعالى، وأدّوا حقها، ولا تشركوا به سواه من الأصنام والأوثان بعد وضوح الدليل وسطوع البرهان.

ثمّ سلّى الله سبحانه رسوله ﷺ فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ ليتأسّى بمن قبله من الأنبياء، ويتسلّى عن تكذيب كفار العرب؛ أي: وإن استمر المشركون على أن يكذّبوك يا محمد فيما بلّغت إليهم فلا تحزن واصبر. ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ أولوا شأن خطير، وذوو عدد كثير، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ فصبروا وظفروا. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ من الرجع، وهو الرد؛ أي: تردّ إليه عواقبها، فيجازي كل صابر على صبره، وكل مكذّب على تكذيبه. وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى تسلية الرسول ﷺ وأولياء أمته وتسهيل الصبر على الأذيّة إذا علم أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثل ما استقبله، وأنهم لمّا صبروا لله كفاهم، علم أنه يكفيه بسلوك سبيلهم والاقتداء بهم. وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن محيصن وحميد والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وخلف[1]: ﴿ترجع﴾

---

(١) الشوكاني.

بفتح الفوقية على البناء للفاعل، وقرأ الباقون بضمها على البناء للمفعول.

والمعنى: أي وإن استمر قومك يا محمد على تكذيبك فيما بلّغته إليهم من الحق المبين بعد أن أقمت لهم الحجج، وضربت الأمثال فتأسى بمن سبقك من الرسل، فقد صبروا على ما أوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدّل لكلماتنا، وإلى الله مرجع أمرك وأمرهم، فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب. ثمّ ذكر أن البعث آت لا ريب فيه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عامة، أو يا كفار مكة خاصة. ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه إياكم بالبعث والجزاء، وإخباره لكم بالحساب والعقاب والجنة والنار ﴿حَقٌّۖ﴾؛ أي: ثابت لا محالة لا خلف فيه.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير سبحانه إلى أنّ كل ما وعد به الله من الثواب والعقاب والدرجات في الجنة والدركات في النار والقربات في أعلى علّيّين، وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر، والبعد إلى أسفل سافلين حق، وصدق لا كذب فيه، فإذا علم ذلك استعدّ للموت قبل نزول الفوت، ولم يهتم للرزق، ولم يتهم الرب في كفاية الشغل ونشط في استكثار الطاعة ورضي بالمقسوم. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: لا تمنعنكم زينة الحياة الدنيا، وزخارفها، وشهواتها عن التزوّد للآخرة؛ بأن يذهلكم التمتع بها عن طلب الآخرة، والسعي لها، وتقطعكم زينتها وشهواتها عن الرياضات والمجاهدات وترك الأوطان ومفارقة الإخوان في طريق الطلب، والمراد: نهيهم عن الاغترار بها، وإن توجّه النهي صورة إليها. وفي بعض الأثار: «يا ابن آدم، لا يغرنك طول المهلة، فإنما يعجل بالأخذ من يخاف الفوت» قال سعيد بن جبير: غرور الحياة الدنيا: أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾؛ أي: لا يخدعنكم أيها الناس ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بسعة كرمه وعفوه. ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ بفتح الغين؛ أي: الشيطان المبالغ في الغرور والخداع؛ بأن يمنّيكم المغفرة مع الإصرار على المعصية، فيقول لكم: إن الله يتجاوز عنكم ويغفر لكم لفضلكم، أو لسعة رحمته لكم.

وفي «المفردات»: الغرور ـ بالفتح ـ كل ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسّر بالشيطان، إذ هو أخبث الغاوين، وبالدنيا، لما قيل الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ.

والمعنى[1]: ولا يغرنكم أيها الناس بالله الشيطان المبالغ في الغرور؛ بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعاصي، قائلاً: اعملوا ما شئتم إنّ الله غفور يغفر الذنوب جميعاً، وإنه غني عن عبادتكم وتعذيبكم، فإنّ ذلك وإن أمكن، لكن تناول الذنوب بهذا التوقّع من قبيل تناول السم اعتماداً على دفع الطبيعة. فالله تعالى، وإن كان أكرم الأكرمين مع أهل الكرم، لكنّه شديد العقاب مع أهل العذاب. وقرأ الجمهور[2]: بفتح الغين، وفسّره ابن عباس رضي الله عنه بالشيطان. وقرأ أبو حيوة وأبو السمال ومحمد بن السميقع: بضمّ الغين، جمع: غار مثل: قاعد وقعود، أو مصدر كقوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، وعليه فالكلام على حذف مضاف؛ أي: صاحب الغرور والخداع، وهو الشيطان، يقال: غرّه غروراً كلزمه لزوماً ونهكه نهوكاً.

ومعنى الآية[3]: أي إن وعد الله بالحشر والجزاء حق لا شكّ فيه، فلا تغرنّكم الحياة الدنيا، فيذهلنكم التمتع بمتاعها، ولا يلهينكم التلهي بزخارفها عن تدارك ما ينفعكم يوم حلول الميعاد اتباعاً لوساوس الشيطان.

والخلاصة: أنّكم لا تغتروا بالحياة الدنيا، وتتركوا فعل ما أمرتم به، وتفعلوا ما نهيتم عنه. ثمّ ذكر العلة في عدم الاغترار بالشيطان فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ﴾ يا بني آدم لا لغيركم ﴿عَدُوٌّ﴾ عظيم عداوة قديمة بما فعل بأبيكم ما فعل لا تكاد تزول، أو معلن عداوته لكم بوسوسته. ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بمخالفتكم له في عقائدكم وأفعالكم، وكونكم على حذر منه في جميع أحوالكم؛ أي: فعادوه أنتم أشدّ العداوة بطاعة ربكم، وخالفوه فيما أمركم به من معصية الله، وكذّبوه فيما يغرنكم به، فلا تكفي[4] العداوة باللسان فقط، بل يجب أن تكون بالقلب والجوارح جميعاً، ولا يقوى المرء على عداوته إلاّ بملازمة الذّكر ودوام الاستعانة بالربّ، فإنّ من هجم عليه كلاب الرّاعي يشكل عليه دفعها إلاّ أن ينادي الراعي، فإنه يطردها بكلمة منه. ثمّ بيّن لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم فقال: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ﴾ الشيطان ﴿حِزْبَهُۥ﴾؛ أي أشياعه وجماعته وأتباعه المطيعين له إلى معاصي الله سبحانه. ﴿لِيَكُونُواْ﴾؛ أي:

---

(1) روح البيان.
(2) البحر المحيط.
(3) المراغي.
(4) روح البيان.

لأجل أن يكون حزبه ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: من أصحاب النار المسعرة المتقدة عليهم خالدين فيها معه؛ أي: ما غرضه من دعوة شيعته إلى اتباع الهوى، والركون إلى لذّات الدنيا إلا إضلالهم وإلقاؤهم في العذاب الدائم من حيث لا يشعرون. وفي «التأويلات»: حزبه المعرضون عن الله المشتغلون بغير الله. قال في «الإرشاد»: هذا تقرير لعداوته، وتحذير من طاعته بالتنبيه على أنّ غرضه في دعوة شيعته إلى اتباع الهوى، والركون إلى ملاذ الدنيا ليس تحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيويّة، كما هو مقصد المتحابّين في الدنيا عند سعي بعضهم في حاجة بعض، بل هو توريطهم وإلقائهم في العذاب المخلّد من حيث لا يحتسبون. انتهى. ثمّ كشف الغطاء فبنى الأمر كله على الإيمان وتركه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: ثبتوا على الكفر بما وجب الإيمان به، وأصرّوا عليه. ﴿لَهُمۡ﴾ بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان ﴿عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ معجّل ومؤجّل[1]، فمعجّله: تفرقة قلوبهم، وانسداد بصائرهم، وخساسة همّتهم، حتى إنهم يرضون بأن يكون معبودهم الأصنام والهوى والدنيا والشيطان، ومؤجّله: عذاب الآخرة، وهو ممّا لا يخفى شدّته وصعوبته، ومحل الموصول الرفع على الابتداء، والخبر جملة قوله: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾.

والمعنى: أي الذين كفروا بالله ورسوله لهم عذاب شديد في النّار من جراء كفرهم، وإجابتهم دعوة الشيطان، واتباعهم خطواته. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: ثبتوا على الإيمان واليقين. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الطاعات الخالصة لله تحصيلاً لزيادة نور الإيمان. ﴿لَهُم﴾ بسبب إيمانهم، وعملهم الصالح الذي من جملته عداوة الشيطان ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة، وهي في المعجل ستر ذنوبهم، ولولا ذلك لافتضحوا، وفي المؤجّل محوها من ديوانهم، ولولا ذلك لهلكوا. ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ لا غاية له، وهو اليوم سهولة العبادة، ودوام المعرفة، وما يناله في قلبه من زوائد اليقين وخصائص الأحوال، وأنواع المواهب، وفي الآخرة: تحقيق المسؤول، ونيل ما فوق المأمول.

والمعنى: أي والذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم به، وانتهوا عمّا نهاهم عنه لهم مغفرة من الله لذنوبهم، وأجر كبير كفاء ما ملؤوا به قلوبهم من عامر

(١) روح البيان.

الإيمان، وأخبتوا لربهم بصالح الأعمال، والهمزة في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف. والفاء عاطفة على ذلك المحذوف و﴿من﴾ اسم موصول في محل الرفع على الابتداء، والخبر محذوف، والتقدير: أيتساوى الفريقان بعد تباين عاقبتهما، فيكون من زيّن وحسّن له عمله السيء، ؛ أي: زينه له الشيطان. ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾؛ أي: فظنّه جميلاً وأضلّه الله، كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح، وهداه الله سبحانه؛ أي: لا يكون مثله دلّ على الخبر المحذوف قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾ الخ، فهو تقرير له، وتحقيق للحق ببيان أن الكل بمشيئة الله تعالى، والفاء فيه لتعليل النفي المستفاد من الاستفهام، أي لا يكون مثله، لأنّ الله سبحانه يضلّ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يضله لاستحسانه الضلال وصرف اختياره إليه، فيردّه إلى أسفل سافلين. ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ أن يهديه لصرف اختياره إلى الهدى، فيرفعه إلى أعلى عليين، والفاء في قوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾ ولا تمت ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: على المزين لهم؛ أي: بسببهم، ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾؛ أي: لأجل حسرتك واغتمامك بعدم إيمانهم للإفصاح، وذهاب النفس كناية عن الموت، وحسرات جمع: حسرة، وهي شدّة الحزن على ما فات، والندم عليه، كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، وجمعه للدلالة على تضاعف اغتمامه ﷺ على أحوالهم، أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر، و﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ صلة ﴿تذهب﴾، كما يقال: هلك عليه حباً، ومات عليه حزناً، ولا يجوز أن يتعلّق بحسرات؛ لأنّ المصدر لا تتقدّم عليه صلته.

والمعنى[1]: إذا عرفت أنّ الكل بمشيئة الله تعالى، وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك: لا تهلك نفسك للحسرات على غيّهم، وإصرارهم، والغموم على تكذيبهم وإنكارهم، فقد بذلت لهم النصح، وخرجت عن عهدة التبليغ، فلا مشقة لك من بعد، وإنما المشقّة عليهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم سقطوا عن عينك، ومن سقط عن عينك، فقد سقط عن عين الله، فلا يوجد أحد يرحمه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمُۢ﴾؛ أي: بليغ العلم. ﴿بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾؛ أي: بما يفعلون من القبائح، فيجازيهم عليها جزاءً قبيحاً، فإنّهم وإن استحسنوا القبائح

(١) روح البيان.

لقصور نظرهم، فالقبيح لا يكون حسناً أبداً.

والجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنه من الوعيد الشديد. واعلم أنّ الكافر يتوهم أن عمله حسن، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، ثمّ الراغب في الدنيا يجمع حلالها وحرامها، ولا يتفكّر في زوالها، ولا في ارتحاله عنها قبل كمالها، فقد زيّن له سوء عمله.

والمعنى: أي فلا تأسف على عدم إيمانهم وعدم إجابتهم دعوتك، فإنّ الله حكيم في قدره، فهو يضل من يضل من عباده، ويهدي من يشاء، لما في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام باستعداد النفوس؛ إما بإخباتها لربها، وإنابتها إليه، وميلها إلى صالح العمل، وإما بتدسيتها وحبها لاجتراح السيئات، وارتكاب الموبقات، ونحو الآية قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾، ثمّ هدّد الكافرين على قبيح أعمالهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾؛ أي: إن الله عليم بما يصنعون من القبائح، فيجازيهم عليه بما يستحقون، وفي هذا وعيد تهد منه الجبال، وتدك منه الأرض دكاً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فمن زين﴾ مبنياً للمفعول ﴿سُوٓءُ﴾ بالرفع، وقرأ عبيد بن عمير: ﴿زيّن له سوء﴾ مبنياً للفاعل، ونصب ﴿سوء﴾، وعنه أيضاً: ﴿أسوأ﴾ على وزن أفعل منصوباً، وأسوأ عمله هو الشرك، وقرأ طلحة: ﴿أمن زين له سوء عمله﴾ بغير فاء. قال صاحب «اللوامح»: للاستخبار بمعنى العامة للتقرير، ويجوز أن يكون بمعنى: حرف النداء، فحذف التمام كما حذف من المشهور الجواب انتهى، ومعنى بالجواب: خبر المبتدأ، وبالتمام: ما يؤدي لأجله؛ أي: يا من زين له سوء عمله تفكر وارجع إلى الله، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. وقرأ الجمهور: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾ مبنياً للفاعل من ذهب، و﴿نَفۡسُكَ﴾ فاعل. وقرأ أبو جعفر وقتادة وعيسى والأشهب وشيبة وأبو حيوة وحميد والأعمش وابن محيصن: ﴿تُذْهِبْ﴾ من أذهب مسنداً لضمير المخاطب ﴿نَفْسَكَ﴾ بالنصب، ورويت عن نافع.

ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه، وعظيم قدرته؛ ليتفكّروا في

---

(١) البحر المحيط.

ذلك وليعتبروا به فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ وحده، مبتدأ خبره قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير وابن محيصن والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي: ﴿الريح﴾ بالإفراد؛ أي: والإله الذي يستحق منكم العبادة هو الذي أوجد الرياح، وأنشأها من العدم، فهبو بها دليل ظاهر على الفاعل المختار، وذلك لأنّ الهواء قد يسكن وقد يتحرك، وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى الشمال، وفي حركاته المختلفة قد ينشيء السحاب، وقد لا ينشيء، فهذه الاختلافات دليل على تسخير مدبّر ومؤثر مقدّر.

والمراد بالرياح هنا[2]: الجنوب والشمال والصبا، فإنها رياح الرحمة لا الدّبور، فإنها رياح العذاب، أما الجنوب فريح تخالف الشمال، مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا، وأما الشمال بالفتح ويكسر مهبها بين مطلع الشمس وبنات النعش، أو من مطلع الشمس إلى مسقط النسر الطائر، ولا تكاد تهب ليلاً، وأمّا الصبا: فمهبها من جانب المشرق إذا استوى الليل والنهار، سميت بها لأنها تصبو إليها النفوس؛ أي: تميل، ويقال لها: القبول أيضاً بالفتح؛ لأنها تقابل الدبور، أو لأنها تقابل باب الكعبة، أو لأن النفس تقبلها. ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾؛ أي: تهيّجه وتحركه من حيث هو، وتنشره وترفعه بين السماء والأرض لإنزال المطر؛ لأنه مزيد ثار الغبار إذا هاج وانتشر ساطعاً، والسحاب جسم يملأه الله ماء كما شاء.

وصيغة المضارع مع مضيّ أرسل وسقنا؛ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة، ولأن المراد بيان أحداثها لتلك الخاصيّة، ولذلك أسند إليها. ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾؛ أي: السحاب، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: فساقه؛ أي: ساق الله سبحانه ذلك السحاب وأجراه ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾؛ أي: إلى مكان لا نبات فيه؛ لأنه هو الذي يحتاج إلى الماء، وقال: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ التفاتا من الغيبة إلى التكلم دلالة على زيادة اختصاصه به تعالى، وإنّ الكل منه، والوسائط أسباب.

وقال أبو عبيدة: مقتضاه: فتسوقه؛ لأنه قال أولاً: فتثير سحاباً، قيل: النكتة في التعبير بالماضيين بعد المضارع الدلالة على التحقق. اهـ. وقال: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

بالتنكير قصداً به إلى بعض البلاد الميتة، وهي بلاد الذين تبعّدوا عن مظانّ الماء. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص[1]: ﴿مَيِّتٍ﴾ بتشديد الياء، والباقون بتخفيفها. قال المبرّد: ميْت وميّت واحد، وقال هذا قول البصريين وأنشد:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

﴿فَأَحْيَيْنَا﴾ الفاءات[2] الثلاثة للسببيّة، فإن ما قبل كل واحدة منها سبب لمدخولها غير أن الأولى دخلت على السبب بخلاف الأخيرتين، فإنهما دخلتا على المسبَّب، ﴿بِهِ﴾؛ أي: بالمطر النازل من السحاب المدلول عليه بالسحاب، فإنّ بينهما تلازماً في الذهن، كما في الخارج، أو بالسحاب فإنه سبب السبب. ﴿الْأَرْضَ﴾ بإنبات ما ينبت فيها. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: بعد يبسها؛ أي: صيَّرناها خضراء بالنبات بعد خلوّها منه، وأسند[3] الله تعالى الإرسال إلى الغائب والسوق، والإحياء إلى المتكلم؛ لأنّ في الأول تعريفاً بالفعل العجيب، وهو الإرسال والإثارة، وفي الثاني تذكيراً بالنعمة، فإن كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء.

والكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ في حيّز الرفع على الخبريَّة؛ أي: مثل ذلك الإحياء الذي تشاهدونه إحياء الموتى، وإخراجهم من القبور يوم الحشر في صحة المقدوريّة وسهولة التأتّي من غير تفاوت بينهما أصلاً سوى الإلف في الأوَّل دون الثاني، فالآية احتجاج على الكفرة في إنكارهم البعث حيث دلّهم على مثال يعاينونه غير ما مرّةٍ.

وقال بعضهم[4]: معنى ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾: أي: في كيفية الإحياء، فكما أنَّ إحياء الأرض بالماء كذلك إحياء الموتى بالماء، كما روي أنّ الله تعالى يرسل من تحت العرش ماء كمنّي الرجال، فينبت به الأجساد كنبات البقل، ثم يأمر إسرافيل فيأخذ الصور فينفخ نفخة ثانية، فتخرج الأرواح من ثقب الصور كأمثال النحل، وقد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله: ليرجعنّ كل روح إلى جسده، فتدخل

---

(١) البيضاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.
(٤) روح البيان.

الأرواح في الأرض إلى الأجساد ثمّ تدخل في الخياشيم فتمشي في الأجساد مشي السمّ في اللديغ، ثمّ تنشق الأرض، فيخرجون حفاة عراة، والله أعلم.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ ويودّ ويطلب ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ والشرف والمنعة. ﴿فـ﴾ليطلبها من عنده تعالى بلزوم طاعته وتقواه، لا من عند غيره فإنه ﴿لله﴾ وحده لا لغيره ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ والمنعة حال كونها ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة؛ أي: عزة الدنيا والآخرة، لا يملك غيره شيئاً منها، فاستغنى عن ذكر الجواب بذكر دليله إيذاناً بأن اختصاص العزة به تعالى موجب لتخصيص طلبها به تعالى، ونظيره قولك: من أراد العلم فهو عند العلماء؛ أي: فليطلبه من عندهم؛ لأن الشيء لا يطلب إلا من عند صاحبه ومالكه، فقد أقمت الدليل مقام المدلول.

فإن قلت: قد أثبت العزة في آية أخرى لله ولرسوله وللمؤمنين، وهنا خصّها بالله سبحانه، فبينهما معارضة؟.

قلت: يجمع بينهما أن عز الربوبيّة والإلهيّة لله تعالى وصفاً، وهذا هو المراد هنا، وعزّ الرسول والمؤمنين له تعالى فعلاً ومنّةً وفضلاً، فإذاً العزة لله جميعاً، فعزة الرسول والمؤمنين أثر عزة الربوبية، وقال الزمخشري: لا تنافي بينهما؛ لأنّ العزة في الحقيقة لله بالذات، وللرسول بواسطة قربه من الله، وللمؤمنين بواسطة الرسول، فالمحكوم عليه أوّلاً غير المحكوم عليه ثانياً، قيل: معنى هذا الكلام: من كان يريد أن يعلم من له العزة فلله العزة جميعاً؛ أي: العزة كلها مختصة بالله، عزة الدنيا، وعزة الآخرة، وقيل: من كان يريد العزة فليتعزّز بطاعة الله فقال: فهو دعاء، إلى طاعة من له العزة؛ أي: فليطلب العزة من عند الله تعالى بطاعته وتقواه، وذلك أن الكافرين كانوا يتعزّزون بالأصنام، كما قال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾، وأنّ الذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطاة قلوبهم كانوا يتعزّزون بالمشركين، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ فبيّن أن لا عزة إلا لله ولرسوله ولأوليائه المؤمنين. اهـ. «خازن» بتصرف. وفي «القرطبي»: ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبّه ذوي الأقدار والهمم من أين تنال العزة، ومن أين تستحق، فتكون الألف واللام للاستغراق، وهذا هو المفهوم من هذه الآية.

وقال الشوكاني: والظاهر في معنى الآية: أي: من كان يريد العزة ويطلبها فليطلبها من الله عز وجل، فلله العزة جميعاً ليس لغيره منها شيء، فتشمل الآية كل من طلب العزة، ويكون المقصود بها التنبيه لذوي الأقدار والهمم من أين تنال العزة، ومن أيّ جهة تطلب. اهـ.

﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره فقط من الملائكة الموكّلين بأعمال العباد ﴿يَصْعَدُ﴾ ويعرج ويعلو ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الذي يطلب به العزة، ومعنى صعوده إليه: قبوله له، أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف، وخص الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه، وهو يتناول كل كلام يتّصف بكونه طيباً من ذكر الله، وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، وتلاوة، وغير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد، أو بالتحميد والتمجيد، وقيل: معنى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾: أي: إلى سمائه، ومحل قبوله، وحيث يكتب الأعمال المقبولة، كما قال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾، وقال الخليل عليه السلام: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: ذاهب إلى الشام الذي أمرني بالذهاب إليه.

فالظاهر أنّ الكتبة يصعدون بصحيفة إلى حيث أمر الله أن توضع، أو يصعد هو؛ أي: الكلم الطيب بنفسه، فلا حاجة إلى هذه التأويلات، قال بعضهم: بعض الأعمال ينتهي إلى سدرة المنتهى، وبعضها يتعدّى إلى الجنة، وبعضها إلى العرش، وبعضها يتجاوز العرش إلى عالم المثال، وقد يتعدى من عالم المثال إلى اللوح، ثمّ إلى المقام القلمي، ثمّ إلى العماء، وذلك بحسب تفاوت مراتب العمّال في الصدق والإخلاص، وصحة التصوّر والشهود والعيان. انتهى. ولكن لا نقل في ذلك كله، وهو إلى الخرافات أقرب، والأسلم عدم تأويل الآية، كما أشرنا إليه آنفاً. ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾؛ أي: يرفع الكلم الطيب ويحقّقه ويقوّيه، ولا ينال الدرجات العالية إلا به؛ إذ الكلم الطيب لا ينفع مع العصيان، فإنّ الأعمال كالمراقي له، وقول بلا عمل كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر، وهذا المعنى هو الظاهر هنا كما في «الإرشاد»، وقال به الحسن وشهر بن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وغيرهم، ومعناه، أنه لا يقبل الكلم إلا مع العمل الصالح، وقيل: إن فاعل ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ هو الكلم الطيب، ومفعوله: العمل الصالح، ويؤيده قراءة نصب العمل، ومعناه: أنّ العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان، وقيل: إن فاعل

﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ يعود إلى الله عز وجل.

والمعنى: إن الله يرفع العمل الصالح إليه ويقبله، كما سيأتي عن قتادة، وقال ابن عطية هذا أرجح الأقوال.. وقيل: العمل الصالح يرفع صاحبه ويشرفه، قاله ابن عباس، وقال قتادة: المعنى: إن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه؛ أي: يقبله، فيكون قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ على هذا مبتدأ خبره جملة ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾، وكذا على قول من قال يرفع صاحبه.

وقال أبو حيان: ويجوز[1] أن يكون العمل معطوفاً على الكلم الطيب؛ أي: يصعدان إلى الله، و﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ استئناف إخبار؛ أي: يرفعهما الله تعالى ويقبلهما، ووحّد الضمير لاشتراكهما في الصعود، والضمير قد يجري مجرى اسم الإشارة، فيكون لفظه مفرداً.

وصلاح العمل بالإخلاص فيه[2]، وما كان كذلك قبله الله وأثاب عليه، وما لا إخلاص فيه فلا ثواب عليه، بل عليه العقاب، فالصلاة والزكاة وأعمال البر إذا فعلت مراءاة للناس لا يتقبّلها الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ وروي عن ابن عباس أنه قال: الكلم الطيب: ذكر الله، والعمل الصالح: أداء فرائضه. وعن الحسن وقتادة: لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، من قال وأحسن.. قبل الله منه.

والخلاصة: أنّ القول إذا لم يصحبه عمل لا يقبل، وأنشدوا:

لاَ تَرْضَ مِنْ رَجُلٍ حَلاَوَةَ قَوْلِهِ ... حَتَّىٰ يُزَيِّنَ مَا يَقُوْلُ فِعَالُ
وَإِذَا وَزَنْتَ فِعَالَهُ بِمَقَالِهِ ... فَتَوَازَنَا فَإِخَالُ ذَاكَ جَمَالُ

وقال ابن المقفع: قول بلا عمل كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر، كما سبق. وقرأ الجمهور[3]: ﴿يَصْعَدُ﴾ من صعد الثلاثي، و﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ بالرفع على الفاعلية، وقرأ علي وابن مسعود والسلميّ وإبراهيم: ﴿يصعد﴾ من أصعد الرباعي ﴿الكلم الطيب﴾ بالنصب على المفعولية، وقرأ الضحاك على البناء

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

للمفعول، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْكَلِمُ﴾، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿الكلام﴾، وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ بالرفع على العطف، أو على الابتداء، وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال.

وبعد أن ذكر أنّ العمل الصالح يصعد إلى الله.. ذكر أن المرائين لا يتقبّل منهم عمل، ولهم عذاب شديد عند ربهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وانتصاب[1] ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على أنها صفة لمصدر محذوف، فإنّ يمكر لازم لا ينصب المفعول به؛ أي: يمكرون المكرات السيئات، أو مفعول به على التضمين؛ أي: يعملون السيئات، وهي مكرات قريش بالنبيّ ﷺ في دار الندوة، وتداروهم الرّأي في إحدى الثلاث التي هي الإثبات، والقتل، والإخراج، كما حكى الله سبحانه عنهم في سورة الأنفال بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾. ﴿لَهُمْ﴾ بسبب مكراتهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: بالغ نهاية الشدّة في الدنيا والآخرة لا يدرك غايته، ولا يبالي بما يمكرون به ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا بالنّبي ﷺ.

وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم[2] للإيذان بكمال تميّزهم بما هم فيه من الشرّ والفساد عن سائر المفسدين، واشتهارهم بذلك ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ثانٍ لا ضمير منفصل لعدم شرطه، خاصةً دون مكر الله بهم، وفي «الإرشاد»: لا من مكروا به. ﴿يَبُورُ﴾؛ أي: يهلك ويفسد ويبطل، فإنّ البوار فرط الكساد كما سيأتي. ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد، كما قيل: كسد حتى فسد، عبَّر بالبوار عن الهلاك والفساد.

ولقد أبارهم الله تعالى إبارة بعد إبارة مكراتهم؛ حيث أخرجهم من مكة، وقتلهم، وأثبتهم في قليب بدر، فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقه ﷺ بواحدة منهنّ ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ فللمكر السيء قوم أشقياء غاية أمرهم الهلاك، وللكلم الطيّب والعمل الصالح قوم سعداء، نهاية شأنهم النجاة. قال مجاهد وشهر بن حوشب: المراد بالآية: أصحاب الرياء.

ومعنى الآية[3]: أي والذين يمكرون المكر السيء بالمسلمين بأن يعملوا كل

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

ما يكون سبباً في ضعف الإسلام، والحط من قدره، حتى يمحى أثره من الوجود، كما فعلت قريش في دار الندوة؛ إذ تدارست الرّأي في شأن النبي ﷺ بحبسه، أو قتله، أو إجلائه من مكة، لهم العذاب الشديد يوم القيامة، ومكر هؤلاء المفسدين يظهر زيفه عن قريب لأولي البصائر، فإنه ما أسرّ أحد سريرة إلاّ أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وما أسرّ أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر، فالمرائي لا يروج أمره، ولا يتّفق إلا على غبيّ. أمّا المؤمنون المتفرسون.. فلا يروج ذلك عليهم، بل ينكشف عن قريب، ويجازون عليه أشد الخزي والهوان.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير سبحانه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلى الذين يظهرون الحسنات بالمكر، ويخفون السيئات من العقائد الفاسدة ليحسبهم الخلق من الصالحين الصادقين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ﴾، وشدة عذابهم في تضعيف عذابهم، فإنهم يعذّبون بالسيئات التي يخفونها، ويضاعف لهم العذاب بمكرهم في إظهار الحسنات دون حقيقتها، كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ أي: مكرهم يبوّرهم ويهلكهم. انتهى. ثمّ ذكر سبحانه دليلاً آخر على صحة البعث والنشور بما يُرى في الأنفس، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَلَقَكُم﴾ يا بني آدم ابتداء خلقاً إجمالياً في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام ﴿مِّن تُرَابٍ﴾، وقال قتادة: يعني آدم، والتقدير على هذا: والله خلق أباكم الأول، وأصلكم الذي ترجعون إليه من تراب، فالكلام حينئذ على حذف مضاف. وقال بعضهم: من تراب تقبرون وتدفنون فيه؛ أي: خلقكم من تراب لتكونوا متواضعين كالتراب. وفي الحديث: «إن الله جعل الأرض ذلولا تمشون في مناكبها، وخلق بني آدم من التراب ليذلهم بذلك، فأبوا إلاّ نخوةً واستكباراً، ولن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر».

﴿ثُمَّ﴾ خلقكم خلقاً تفصيلياً. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ لتكونوا قابلين لكل كمال، كالماء الذي هو سرّ الحياة ومبدأ العناصر الأربعة، والنطفة هو الماء الصافي الخارج من بين الصلب والتّرائب، كما سيأتي. وقال بعضهم: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ يعني: آدم، وهو أصل البشر ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أخرجها من ظهر آبائكم بالتناسل والتوالد.

وفي «التأويلات»: يشير سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى أنه خلقكم من

أسفل المخلوقات، وهي النطفة؛ لأن التراب نزل دركة المركبية، ثم دركة النباتية، ثم دركة الحيوانية، ثم دركة الإنسانية، ثم دركة النطفة، فهي أسفل سافلي المخلوقات، وهي آخر خلق خلقه الله تعالى من أصناف المخلوقات، كما أن أعلى الشجرة آخر شيء يخلقه الله، وهو البذر الذي يصلح أن توجد منه الشجرة، فالبذر آخر صنف خلق من أصناف أجزاء الشجرة.

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ﴾ سبحانه ﴿أَزْوَاجًا﴾؛ أي: أصنافاً، أحمر وأبيض وأسود، أو ذكراناً وإناثاً، وعن قتادة: جعل بعضكم زوجاً لبعض، فالذكر زوج الأنثى، وفي «التأويلات» يشير إلى ازدواج الروح والقالب فالروح من أعلى مراتب القرب، والقالب من أسفل دركات البعد، فبكمال القدرة والحكمة جمع بين أقرب الأقربين، وأبعد الأبعدين، ورتب للقالب في ظاهره الحواس الخمس، وفي باطنه القوى البشرية، ورتب للروح المدركات الروحانية، ليكون بالروح والقالب مدركاً لعوالم الغيب والشهادة كلها، وعالماً بما فيها خلافة عن حضرة الربوبية عالم الغيب والشهادة. انتهى. ﴿وَمَا﴾ نافية ﴿تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ﴾ من حوامل حملاً، و﴿مِن﴾ مزيدة في الفاعل لاستغراق النفي وتأكيده، والأنثى خلاف الذكر ﴿وَلَا تَضَعُ﴾؛ أي: لا تلد أنثى من حوامل ولداً في حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حال كونها متلبسة ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ تعالى، تابعةً لمشيئته، قال في «بحر العلوم»: بعلمه في موضع الحال، والمعنى: ما يحدث شيء من حمل حامل، ولا وضع واضع إلا وهو عالم به، يعلم مكان الحمل ووضعه وأيامه وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة وغير ذلك، فلا يخرج شيء عن علمه وتدبيره.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ ﴿ما﴾: نافية، والتعمير إطالة العمر، والمعمر من أطيل عمره، ويقال للمعمر؛ ابن الليالي، وقوله: ﴿مِن مُّعَمَّرٍ﴾؛ أي: من أحد، و﴿مِن﴾ زائدة لتأكيد النفي، كما في من أنثى.

وسمي معمراً باعتبار مصيره[1]، يعني: هو من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه، والمعنى: وما يمد في عمر أحد وما يطول، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ والضمير راجع إلى المعمر، والنقصان من عمر المعمر محال، فهو من التسامح في العبارة

(١) روح البيان.

ثقة بفهم السامع، فيراد من ضمير المعمر ما من شأنه أن يعمر على الاستخدام. والمعنى: وما يمد في عمر أحد، ولا ينقص من عمر أحد، لكن لا معنى لا ينقص من عمره بعد كونه زائداً، بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصاً. ﴿إِلَّا﴾ وهو مثبت ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ عظيم ولوح محفوظ، أو في علم الله، أو في صحيفة كل إنسان.

واعلم: أن الزيادة والنقصان في الآية بالنسبة إلى عمرين كما عرفت، وإلا فمذهب أكثر المتكلمين وعليه الجمهور أن العمر يعني: عمر شخص لا يزيد ولا ينقص، وقيل: الزيادة والنقص في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبت في اللوح، مثل أن يكتب فيه: إن حج فلان فعمره ستون، وإلا فأربعون، فإذا حج فقد بلغ الستين، وقد عمر، وإذا لم يحج فلا يجاوز الأربعين، فقد نقص من عمره الذي هو الغاية وهو الستون، وكذا إن تصدق، أو وصل الرحم فعمره ثمانون، وإلا فخمسون، وإليه أشار النبي ﷺ بقوله: «الصدقة والصلة تعمران الديار، وتزيدان في الأعمار».

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما[١]: وما يعمر من معمر إلا كتب عمره كم هو سنة، وكم هو شهراً، وكم هو يوماً، وكم هو ساعةً، ثم يكتب في كتاب آخر نقص من عمره يوم، نقص من عمره شهر، نقص سنة، حتى يستوفي أجله. وقال ابن جبير أيضاً: فما مضى من أجله فهو النقصان، وما يستقبله فهو الذي يعمره، فالهاء على هذا للمعمر، وعن سعيد أيضاً: يكتب عمره كذا وكذا سنةً، ثم يكتب أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، حتى يأتي إلى آخره.

وعن قتادة: المعمر: من بلغ ستين سنة، والمنقوص من عمره: من يموت قبل الستين سنة. وقيل: إن الله كتب عمر الإنسان مئة سنة إن أطاع، وتسعين إن عصى، فأيُّهما بلغ فهو كتاب، وهذا مثل قول النبي ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره ـ أي: يؤخر في عمره ـ فليصل رحمه».

والضمير على هذا يرجع إلى المعمَّر. وقيل: المعنى: وما يعمر من معمر؛ أي: هرم، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا في كتاب؛ أي: بقضاء من الله

---

(١) الفتوحات.

عز وجل، وروي معناه عن الضحاك، فالضمير في عمره يرجع إلى معمر آخر غير الأول على حد: عنده درهم ونصفه؛ أي: نصف درهم آخر.

وقرأ الجمهور[(١)]: ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ بضم الياء وفتح القاف مبنياً للمفعول. وقرأ يعقوب وسلاّم وعبد الوارث وهارون كلاهما عن أبي عمرو: ﴿ولا يَنقُص﴾ بفتح الياء وضم القاف مبنياً للفاعل. وقرأ الحسن[(٢)] والأعرج والزهري: ﴿من عمْره﴾ بسكون الميم، وقرأ الباقون: بضمها، وهما لغتان، كالسحت والسحت، والنكر والنكر، والعمر: اسم لمدة عمارة البدن بالحياة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الخلق وما بعده، أو إن كتابة الأعمال والآجال ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَسِيرٌ﴾ غير متعذر عليه، بل هو يسير لا يتعذر عليه منها شيء ولا يعسر لاستغنائه عن الأسباب، فكذلك البعث. اهـ. «قرطبي». وفي «بحر العلوم»: إن ذلك إشارة إلى أن الزيادة والنقص على الله يسير، لا يمنعه منه مانع، ولا يحتاج فيه إلى أحد، ولا يعزب عنه كثير ولا قليل، ولا كبير ولا صغير.

ومعنى الآية: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ...﴾ الخ؛ أي[(٣)]: واللَّهُ خلق الناس من النطفة، والنطفة من الغذاء، والغذاء ينتهي آخراً إلى الماء والتراب، فهم من تراب صار نطفة، ثم جعلهم أصنافاً ذكراناً وإناثاً بقدر معلوم؛ بحيث يكاد الفريقان يستويان عدداً، ولو لم يكن كذلك لفني الإنسان والحيوان؛ إذ حفظ النوع لا يتم إلا بتلك المساواة على وجه التقريب، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾؛ أي: ولا تحمل الأنثى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لا يخفى عليه، ولو لم يكن كذلك لم يتم التوازن في العدد بين الزوجين، فيفنى الإنسان والحيوان، ونحو الآية قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ...﴾ إلخ؛ أي: لا أحد يقضى له بطول العمر

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

إلا وهو بالغ ما قدر له، لا يزيد ذلك ولا ينقص منه، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له في الكتاب الذي كتب له، وذلك لحفظ الموازين في الأرض حتى ينتظم العمران، ولو لم يكن على هذا النحو لاختلط الحابل بالنابل، وساء حال الكون؛ إذ يكثر الناس، وتزدحم الأرض، ويشتد الكرب، ومن ثَمّ تفاوتت الأعمار في جميع الأمصار، وكانت بمقدار، واعتدل النظام بالمرض والموت والوباء والحرب.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ النظام البديع للعالم هين على الله؛ لعلمه الشامل وعدم خفاء شيء عليه.

ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من بديع صنعه وعجيب قدرته فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ العذب والملح، وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر. إنما سُمي[1] العذب بحراً؛ لكونه مع الملح، كما يقال للشمس والقمر: قمران بالتغليب. قال في «إخوان الصفا»: فإن قيل: ما البحار؟ يقال: هي مستنقعات على وجه الأرض، حاصرة للمياه المجتمعة فيها. ﴿هَٰذَا﴾ البحر ﴿عَذْبٌ﴾؛ أي: طيب حال. ﴿فُرَاتٌ﴾؛ أي: بليغ عذوبته وحلاوته بحيث يكسر العطش. ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾؛ أي: سهل، انحدار مائه في الحلق لعذوبته، فإن العذب لكونه ملائماً للطبع تجذبه القوة الجاذبة بسهولة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَائِغٌ﴾ اسم فاعل من ساغ، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿سيغ﴾ على وزن فيعل؛ كميت، وجاء كذلك عن أبي عمرو وعاصم، وقرأ عيسى أيضاً: ﴿سيغ﴾ مخففاً من المشدد كميت مخفف ميت. ﴿وَهَٰذَا﴾ البحر الآخر ﴿مِلْحٌ﴾؛ أي: ذو ملوحة، وهي طعم الملح؛ أي: طعمه كطعم الملح، وقرأ الجمهور: ﴿مِلْحٌ﴾، وقرأ أبو نهيك وطلحة بفتح الميم وكسر اللام، وقال أبو الفضل الرازي: وهي لغة شاذة، ويجوز أن يكون مقصوراً من: مالح، فحذف الألف تخفيفاً، وقد يقال: ماء ملح في الشذوذ، وفي المستعمل: مملوح.

﴿أُجَاجٌ﴾؛ أي: شديد ملوحته، بحيث يحرق الحلق بملوحته، وهو نقيض

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

الفرات. قال في «خريدة العجائب»: الحكمة في كون ماء البحر ملحاً أجاجاً لا يذاق ولا يساغ؛ لئلا ينتن من تقادم الدهور والأزمان، وعلى ممر الأحقاب والأحيان، فيهلك من نتنه العالم الأرضي، ولو كان عذباً لكان كذلك، ألا ترى العين التي ينظر الإنسان بها إلى الأرض والسماء والعالم والألواح، وهي شحمة مغمورة في الدمع، وهو ماء مالح، والشحم لا يصان إلا بالملح، فكان الدمع مالحاً لذلك المعنى انتهى. وأما الأنهار العظيمة العذبة فلجريانها دائماً لم يتغير طعمها ورائحتها، فإن التغير إنما يحصل من الوقوف في مكان؛ أي: وما يعتدل البحران فيستويان، أحدهما عذب سائغ شرابه يجري في الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، وثانيهما ملح ساكن تسير فيه السفن الكبار. ﴿وَمِن كُلٍّ﴾؛ أي: ومن كل واحد من البحرين المختلفين طعماً ﴿تَأْكُلُونَ﴾ أيها الناس ﴿لَحْمًا﴾ ﴿طَرِيًّا﴾؛ أي: غضاً جديداً من الطراوة، وهي الرطوبة، وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل، وصف السمك بالطراوة لتسارع الفساد إليه، فيسارع إلى أكله طرياً؛ أي: ومن كل البحار تأكلون السمك الغض الطري فضلاً من الله سبحانه ومنة.

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾؛ أي[1]: من المالح خاصة، ولم يقل منه؛ لأنه معلوم. ﴿حِلْيَةً﴾؛ أي: زينة؛ أي: لؤلؤاً ومرجاناً، وفي «الأسئلة المقحمة»: أراد بالحلية اللآلىء، واللآلىء إنما تخرج من ملح أجاج، لا من عذب فرات، فكيف أضافها إلى البحرين؟.

والجواب: قد قيل إن اللآلىء تخرج من عذب فرات، وفي الملح عيون من ماء عذب ينعقد فيه اللؤلؤ والمرجان. انتهى.

قال في «الخريدة»: اللؤلؤ يتكوَّن في بحر الهند وفارس، والمرجان ينبت في البحر كالشجر، وإذا كلس المرجان عقد الزئبق، فمنه أبيض، ومنه أحمر، ومنه أسود، وهو يقوي العين كحلاً، وينشف رطوبتها. ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾؛ أي: تلبس تلك الحلية نساؤكم، ولما كان تزينهن بها لأجل الرجال فكأنها زينتهم ولباسهم، ولذا أسند إليهم، وقيل: معنى تلبسونها[2]: تلبسون كل شيء منها بحسبه، كالخاتم في

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

الإصبع، والسوار في الذراع، والقلادة في العنق، والخلخال في الرجل، ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف والدرع ونحوهما. ﴿وَتَرَى﴾ يا من يتأتى منه الرؤية ﴿ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: أي: السفن ﴿فِيهِ﴾ في كل منهما، وإفراد[1] ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق، وما لحق؛ لأن الخطاب لكل أحدٍ يتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط. ﴿مَوَاخِرَ﴾؛ أي: شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة. ﴿لِتَبْتَغُواْ﴾ واللام متعلق بمواخر، أو متعلق بمحذوف؛ أي: لتطلبوا بركوبها. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: من فضل الله سبحانه ورزقه بالنقلة فيها، قال مجاهد: ابتغاء الفضل: هو التجارة في البحر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة. قال في «بحر العلوم»: ابتغاء الفضل: التجارة، وهي أعظم أسباب سعة الرزق وزيادته، كما قال النبي ﷺ: «تسعة أعشار رزق أمتي في البيع والشراء».

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ولتشكروا الله سبحانه على ما أنعم عليكم به من ذلك الفضل، وحرف الترجي للإيذان بكونه مرضياً عنده تعالى. وفي «بحر العلوم»: وكي تعرفوا نعم الله فتقوموا بحقها، ولا سيما أنه جعل المهالك سبباً لوجود المنافع وحصول المعايش.

واعلم: أنه تعالى ذكر هذه الآية دلالة على قدرته، وبياناً لنعمته، وقال بعضم: ضرب البحر العذب والملح مثلاً للمؤمن والكافر، فكما لا يستوي البحران في الطعم، فكذا المؤمن والكافر لا يستويان، ولا الكفر والإيمان، فقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ الخ إما استطراد في صفة البحرين، وما فيهما من النعم والمنافع، أو تفصيل للأجاج على الكافر من حيث إنه يشارك العذب في منافع كثيرة، كالسمك وجري الفلك ونحوهما، والكافر خلا من المنافع بالكلية على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾.

ومعنى الآية: أي وتستخرجون[2] الدر والمرجان من الملح الأجاج، ومن العذب الفرات، وتجري السفن في كل منهما تشقه شقاً بحيازيها حين جريها مقبلة مدبرة حاملة أقواتكم كيف شئتم، وتذهبون فيها إن أردتم.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

ولما كان بين الفلك في البحر، والشمس والقمر في مدارهما مناسبة، فإن كلاً منهما سارح في تلك العوالم الشاسعة.. أردفه بذكر الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، فقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾ ويدخله ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: يدخل الله سبحانه الليل في النهار بإضافة بعض أجزاء الليل إلى النهار، فينقص الأول ويزيد الثاني، كما في فصل الربيع والصيف. ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ بإضافة بعض أجزاء النهار إلى الليل، كما في فصل الخريف والشتاء.

والمعنى[1]: يدخل بعض ساعات أحدهما في الآخر حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة، والناقص تسعاً. و﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾؛ أي: ذلل ضوء الشمس والقمر لبني آدم. وفي «بحر العلوم»: معنى تسخير الشمس والقمر: تصييرهما نافعين للناس، حيث يعلمون بمسيرهما عدد السنين والحساب. انتهى. ومنه[2] يعلم حكمة الإيلاج، فإنه بحركة النَّيِّرين تختلف الأوقات، وتظهر الفصول الأربعة التي تتعلق بها المصالح، والأمور المهمة، ثم قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ﴾ عطف على ﴿يُولِجُ﴾، واختلافهما صيغةً لما أن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدِّد حيناً فحيناً، وأما تسخير النَّيِّرين.. فلا تعدد فيه، وإنما المتعدِّد والمتجدِّد آثاره، وقد أشير إليه بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل واحد من الشمس والقمر ﴿يَجۡرِي﴾؛ أي: بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتعددة حسب تعدد أيام السنة جرياً مستمراً. ﴿لِأَجَلٍ﴾؛ أي: إلى وقت ﴿مُّسَمًّى﴾؛ أي: معين قدره الله تعالى لجريانهما، وهو يوم القيامة، فحينئذ ينقطع جريهما.

وقال بعضهم: كل يجري إلى أقصى منازلهما في الغروب؛ لأنهما يغربان كل ليلة في موضع، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما، فجريانهما عبارة عن حركتيهما الخاصتين بهما في فلكيهما، والأجل المسمى: عبارة عن منتهى دوريتهما، ومدة الجريان للشمس سنة، وللقمر شهر، فإذا كان آخر السنة ينتهي جري الشمس، وإذا كان آخر الشهر ينتهي جري القمر، قال في «البحر»: والمعنى في التحقيق يجري لإدراك أجلٍ على أن الجري مختص بإدراك أجل.

ولما ذكر[3] أشياء كثيرة تدل على قدرته الباهرة من إرسال الرياح، والإيجاد

(١) النسفي. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

من تراب، وما عطف عليه، وإيلاج الليل في النهار، وتسخير الشمس والقمر.. أشار إلى أن المتصف بهذه الأفعال الغريبة هو الله، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة إشارة تجوّز، فإن الأصل في الإشارة أن تكون إلى محسوس ويستحيل إحساسه تعالى بالحواس، وأشار[1] إليه إشارة بعيد مع أنه أقرب من كل قريب للإيذان بغاية العظمة؛ أي: ذلك العظيم الشأن الذي أبدع هذه الصنائع البديعة ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر؛ أي: المعبود بحق في الوجود ﴿رَبُّكُمْ﴾؛ أي: مالككم أيها المخلوقات خبر ثانٍ، ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ خبر ثالث؛ أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية والمالكية لما في السموات والأرض، فاعرفوه ووحدوه وأطيعوا أمره، ويجوز أن يكون قوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ جملةً مستقلة في مقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾؛ أي: تعبدون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: حال كونكم متجاوزين الله وعبادته ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾؛ أي: ما يقدرون أن ينفعوكم مقدار القطمير فضلاً عن هذه المنافع العظيمة العجيبة المذكورة سابقاً.

وقرأ الجمهور: ﴿تَدْعُونَ﴾ بتاء الخطاب، وعيسى وسلام ويعقوب بياء الغيبة، ذكره في «البحر المحيط». والقطمير: هو القشرة البيضاء الرقيقة الملتفة على النواة كاللفافة لها. وقيل: هو القمع الذي في رأس التمرة، وقيل: قشر الثوم وأياً كان هو مثل في القلة والحقارة، كالنقير الذي هو النقرة، والنكتة في ظهر النواة، ومنه ينبت النخل والفتيل الذي في شق النواة على هيئة الخيط المفتول، ثم بيّن سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله تعالى بأنهم لا ينفعون ولا يضرون. فقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: الأصنام للإعانة وكشف الضر، ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنهم جماد، والجماد ليس من شأنه السماع ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ على سبيل الفرض والتقدير. ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾؛ أي: ما أجابوا لكم؛ لأنهم لا لسان لهم، ما أجابوكم لمطلبكم لعجزهم عن النفع بالكلية، فإن من لا يملك نفع نفسه كيف يملك نفع غيره، وقيل[2]: لو جعلنا لهم سماعاً وحياةً فسمعوا دعاءكم.. لكانوا أطوع لله منكم، ولم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتموه إليه من الكفر.

والخلاصة: كيف تعبدون من لا ينفع ولا يضر، وتدعون من بيده النفع

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

والضر، وهو الذي ذرأكم في الأرض، وإليه تحشرون؟

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾؛ أي: يجحدون بإشراككم لهم، وبعبادتكم إياهم، ويتبرؤون منها بقولهم: ما كنتم إيانا تعبدون. وإنما[1] جيء بضمير العقلاء؛ لأن عبدتهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلاً وغباوةً، ولأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والسمع، ويجوز أن يراد كل معبود من دون الله من الملائكة والجن والإنس والأصنام، فغلَّب غير الأصنام عليها، كما في «بحر العلوم»، ويجوز[2] أن يرجع قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وما بعده إلى من يعقل فقط ممن عبدهم الكفار، وهم الملائكة والجن والشياطين، والمعنى: أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم، ويحتمل[3] أن يكون قوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ بما يظهر هنالك من جمودها وبطئها عند حركة كل ناطق، ومدافعة كل محتجٍّ فيجيء هذا على طريق التجوز، كقول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَىٰ رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاطِقٍ ... تُخَاطِبُنِيْ آثَارُهُ وأُخَاطِبُهْ
وَأَسْقِيْهِ حَتَّىٰ كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُنِيْ أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

والمعنى: أي وهم يوم القيامة يتبرؤون منكم، ويقولون: ما كنتم إيانا تعبدون، بل كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وما زيَّنته لكم شياطينكم، ونحو الآية قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾.

ثم أكد صدق ما حكاه عنهم من أحوالهم بقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾؛ أي: لا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير أخبرك به، وهو الحق سبحانه فإنه الخبير بكنه الأمور دون سائر المخبرين، والمراد: تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم، ونفي ما يدّعون لهم من الإلهية.

والخلاصة: ولا يخبرك يا محمد عن أمر هذه الآلهة، وعن عبدتها يوم القيامة إلا ذو خبرة بأمرها وأمرهم، وهو الله الذي لا يخفى عليه شيء كان، أو سيكون في

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

مستأنف الأزمان. وقال في «التجريد»: يحتمل وجهين:

الأول: أن يكون ذلك خطاباً للرسول لما أخبر بأن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذّب عابده، وهو أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله عنه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾؛ أي: يكفرون بهم يوم القيامة، وهذا القول مع كون المخبر عنه أمراً عجيباً هو كما قال؛ لأن المخبر عنه خبير.

والثاني: أن يكون خطاباً ليس مختصاً بأحد؛ أي: هذا الذي ذكر هو كما ذكر لا ينبئك أيها السامع كائناً من كنت مثل خبير.

قال الزروقي: الخبير: هو العليم بدقائق الأمور لا يتوصَّل إليها غيره إلا بالاختيار والاحتيال، وقال الغزالي: هو الذي لا يعزب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرةً ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها.

وحظ العبد من ذلك أن يكون خبيراً لما يجري في بدنه وقلبه من الغش والخيانة والتطوف حول العاجلة، وإضمار الشر وإظهار الخير، والتجمل بإظهار الإخلاص والإفلاس عنه، ولا يكون خبيراً بمثل هذه الخفايا إلا بإظهار التوحيد وإخفائه وتحقيقه، والوصول إلى الله بالإعراض عن الشرك، وما يكون متعلق العلاقة والميل، وذلك أن التعلق بما سوى الله تعالى لا يفيد شيئاً من الجلب والسلب، فإنه كله مخلوق، والمخلوق عاجز، وليست القدرة إلا لله تعالى، فوجب توحيده والعبادة له والتعلق به.

الإعراب

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾: صفة للجلالة، ومضاف إليه، وهو من إضافة الوصف إلى مفعوله إضافة محضة؛ لأنه بمعنى الماضي، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على السموات، ﴿جَاعِلِ﴾: صفة ثانية للجلالة وهو مضاف ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾: مضاف إليه إضافة محضة أيضاً من إضافة الوصف إلى

مفعوله الأول، ﴿رُسُلًا﴾: مفعول ثانٍ له على مذهب الكسائي من جواز إعمال الوصف مطلقاً، وإذا كان جاعل بمعنى خالق.. كان ﴿رُسُلًا﴾ حالاً مقدرة، ﴿أُوْلِي﴾: صفة رسلاً منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿أَجْنِحَةٍ﴾: مضاف إليه ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: صفات لـ﴿أَجْنِحَةٍ﴾، الأول مجرور بفتحة مقدرة للتعذر نيابة عن الكسرة؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف الوصف والعدل التحقيقي؛ لأنه معدول عن العدد المكرر، ومثله: ثلاث ورباع، إلا أنهما مخفوضان بالفتحة الظاهرة. ﴿يَزِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿فِي الْخَلْقِ﴾: متعلق بـ﴿يَزِيدُ﴾، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿يَزِيدُ﴾، وجملة ﴿يَزِيدُ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿يَشَاءُ﴾ فعل مضارع مرفوع والفاعل يعود على الله، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

﴿مَا﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول به مقدم لـ﴿يَفْتَحِ﴾، ﴿يَفْتَحِ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿مَا﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿يَفْتَحِ﴾، ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾: حال من ﴿مَا﴾ الشرطية، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿لَا﴾: نافية للجنس، ﴿مُمْسِكَ﴾: اسمها ﴿لَهَا﴾ خبرها، وجملة ﴿لَا﴾ في محل الجزم بـ﴿مَا﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَا﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وما﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول به مقدم. لـ﴿يُمْسِكْ﴾، ﴿يُمْسِكْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بما الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط، ﴿لا﴾: نافية للجنس ﴿مُرْسِلَ﴾: اسمها ﴿لَهُ﴾: خبرها ﴿مِن بَعْدِهِ﴾: جار مجرور حال من ضمير ﴿لَهُ﴾؛ أي: حالة كونه كائناً من بعده إمساكه، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿ما﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿ما﴾ معطوفة على جملة ﴿مَا﴾ الأولى، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿الْعَزِيزُ﴾: خبر أول، ﴿الْحَكِيمُ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ماقبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: بدل من أي، أو عطف بيان له، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱللَّهِ﴾: لفظ جلالة مضاف إليه، ﴿عَلَيۡكُمۡۚ﴾: متعلق بـ﴿نِعۡمَتَ﴾؛ لأنها بمعنى الإنعام، وإذا كانت بمعنى المنعم به تعلق الجار والمجرور بمحذوف على أنه حال منه، ﴿هَلۡ﴾: حرف استفهام للاستفهام التوبيخي الإنكاري، ﴿مِنۡ﴾: حرف جر زائد، ﴿خَٰلِقٍ﴾: مبتدأ، ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾: صفة لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ على المحل أو اللفظ، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: هل من خالق غير الله موجود، وجملة ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ إما حال من الضمير المستكن في خبر المبتدأ، أو مستأنفة، أو هي الخبر، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿يَرۡزُقُكُم﴾، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿لَآ﴾: نافية للجنس، ﴿إِلَٰهَ﴾: اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف تقديره: لا إله موجود، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَۖ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع بدل من المستكن في خبر ﴿لَآ﴾، وجملة ﴿لَآ﴾ مستأنفة، مسوقة لتقرير النفي المستفاد مما قبله، ﴿فَأَنَّىٰ﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿أنى﴾: اسم استفهام بمعنى كيف في محل النصب حال من مرفوع ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾، و﴿تُؤۡفَكُونَ﴾: فعل مضارع ونائب فاعل مرفوع بثبات النون، والجملة مستأنفة.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾: فعل مضارع وفاعل ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿فَقَدۡ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط وجوباً لكونه مقروناً بقد، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿كُذِّبَتۡ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، والتاء لتأنيث نائب الفاعل. ﴿رُسُلٞ﴾: نائب فاعل لـ﴿كذب﴾، ﴿مِّن قَبۡلِكَۚ﴾: صفة لـ﴿رُسُلٞ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَإِلَى﴾: الواو:

استئنافية، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿تُرْجَعُ﴾، ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية متسأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، أي: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: بدل من أي، وجملة النداء مستأنفة، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه ﴿حَقٌّ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة على كونها جواب النداء، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن وعد الله حق، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول: لا تغرنكم الحياة الدنيا، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بلا الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والكاف: مفعول به. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: فاعل، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول الجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿لا﴾ ناهية ﴿يَغُرَّنَّكُم﴾: فعل مضارع ومفعول به، في محل الجزم بلا الناهية. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يغرن﴾، ﴿ٱلْغَرُورُ﴾: فاعل، وهو من صيغ المبالغة كالصبور والشكور، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾ و﴿عَدُوٌّ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿فَٱتَّخِذُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنه عدو لكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: اتخذوه عدواً ﴿اتخذوه﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول أول ﴿عَدُوًّا﴾: مفعول ثان له، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِنَّمَا﴾: مكفوف وكاف ﴿يَدْعُوا۟﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، ﴿حِزْبَهُۥ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها ﴿لِيَكُونُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، وتعليل، ﴿يكونوا﴾: فعل ناقص واسمه منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: جار ومجرور مضاف إليه متعلق بمحذوف خبر ﴿يكونوا﴾، وجملة ﴿يكونوا﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَدْعُوا۟﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلته ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿شَدِيدٌۖ﴾: صفته، والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة، ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من الواو في ﴿لِيَكُونُواْ﴾ أو صفة لـ﴿حِزْبَهُۥ﴾، فيكون موضعه النصب، كما يجوز أن يكون محله الجر على أنه بدل من ﴿أَصْحَٰبِ﴾ أو أنه نعت لأصحاب، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة له، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: عطف على ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: مبتدأ ثانٍ مؤخر، ﴿وَأَجْرٌ﴾: معطوف على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، ﴿كَبِيرٌ﴾: صفة لـ﴿أجر﴾، وجملة المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول معطوف على جملة الموصول الأول.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَفَمَن﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماضٍ، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿زُيِّنَ﴾، ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿فَرَءَاهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿رأى﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، والهاء: مفعول أول لـ﴿رأى﴾، و﴿حَسَنًاۖ﴾: مفعول ثانٍ؛ أي لأنها قلبية، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿زُيِّنَ﴾، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: كمن هداه الله تعالى، والجملة الاسمية معطوفة على جملة محذوفة، والتقدير: هل الفريقان متساويان، فمن زين له سوء عمله كمن هداه الله، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلة؛ لتعليل النفي المستفاد من الاستفهام؛ أي: لا يكون مثله؛ لأن الله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، وجملة ﴿يُضِلُّ﴾ خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بمعلول محذوف؛ أي: لا يكون مثله لإضلال الله من يشاء، وهدايته من يشاء، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يُضِلُّ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة الموصول.

﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَيَهْدِى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يُضِلُّ﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يهدي﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة الموصول، ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأردت بيان ما هو الأفصح لك.. فأقول لك: ﴿لا تذهب﴾: ﴿لا﴾: ناهية جازمة ﴿تَذْهَبْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿نَفْسُكَ﴾: فاعل، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿تَذْهَبْ﴾، ﴿حَسَرَٰتٍ﴾: مفعول لأجله، والمعنى: فلا تهلك نفسك للحسرات، وقال المبرد: إنها تمييز، وقال الزمخشري: يجوز أن يكون حالاً من ﴿نَفْسُكَ﴾ كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبره ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌۢ﴾، وجملة ﴿يَصْنَعُونَ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ⑨﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿فَتُثِيرُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿تثير﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلَ﴾، والعائد مقدر؛ أي: فتثير بقدرته. ﴿سَحَابًا﴾: مفعول به ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿تثير﴾، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾: متعلق بـ﴿سقنا﴾، ﴿مَّيِّتٍ﴾: صفة ﴿بَلَدٍ﴾، ﴿فَأَحْيَيْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أحيينا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿سقنا﴾، ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿أحيينا﴾، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به، ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْأَرْضَ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلنُّشُورُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ⑩﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أوهما، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿فَلِلَّهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً ﴿لله﴾: خبر مقدم ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾، والجملة في محل الجزم جواب ﴿مَن﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة؛ وقال بعضهم: الجملة تعليل للجواب المحذوف، والتقدير من كان يريد العزة فليطلبها عند الله بطاعته؛ لأن العزة جميعاً لله تعالى، ﴿إِلَيْهِ﴾: جار مجرور متعلق بـ﴿يَصْعَدُ﴾، ﴿يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْكَلِمُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الجلالة، ﴿وَٱلْعَمَلُ﴾: مبتدأ ﴿ٱلصَّٰلِحُ﴾: صفته، وجملة ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾: خبر ﴿العمل﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلْكَلِمُ﴾، وفاعل ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ ضمير مستتر يعود على ﴿العمل﴾، وضمير المفعول يعود على ﴿ٱلْكَلِمُ﴾؛ أي: العمل الصالح يرفع الكلم، وقيل: الفاعل ضمير الله، فتعود هاء المفعول على العمل، والجملة الاسمية حينئذ مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: استئنافية، ﴿الذين﴾: مبتدأ أول، ﴿يَمْكُرُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: صفة لمفعول مطلق محذوف؛ أي: المكرات السيئات، أو مفعول به على تضمين ﴿يَمْكُرُونَ﴾ بمعنى: يكتسبون، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثانٍ مؤخر ﴿شَدِيدٌ﴾ صفته، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة، ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول ومضاف إليه، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ثانٍ، ولا يجوز كونه ضمير فصل لعدم توفر شروطه الستة بكون ما بعده جملة فعلية، وجملة ﴿يَبُورُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني خبر للأول، معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ⑪﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿خَلَقَكُم﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿مِّن تُرَابٍ﴾: متعلق بـ﴿خلق﴾، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾: معطوف على قوله: ﴿مِن تُرَابٍ﴾، ﴿ثُمَّ

﴿جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله ومفعولان، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَكُم﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿تَحْمِلُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿أُنثَىٰ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾: عطف فعلية على اسمية، ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿أُنثَىٰ﴾: معطوف على ﴿تَحْمِلُ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾: حال من فاعل ﴿تَضَعُ﴾؛ أي: إلا حالة كونها متلبسة بعلمه تعالى. ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿يُعَمَّرُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿مُّعَمَّرٍ﴾: نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾، ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾: جار ومجرور صفة لنائب فاعل محذوف تقديره ولا ينقص شيء من عمره والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَمَا يُعَمَّرُ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾: جار ومجرور حال من نائب فاعل ﴿يُعَمَّرُ﴾ و﴿يُنقَصُ﴾؛ أي: ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: إلا حال كون زيادة عمره ونقصانه كائنين في كتاب. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسمها ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَسِيرٌ﴾، و﴿يَسِيرٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: الواو: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ﴾: مبتدأ، وخبر، ﴿فُرَاتٌ﴾: خبر ثان، أو صفة لـ﴿عَذْبٌ﴾، ﴿سَآئِغٌ﴾: خبر ثالث، ﴿شَرَابُهُۥ﴾: فاعل سائغ؛ لأنه صفة مشبهة؛ أي: تسهل انحداره، ويجوز أن يكون ﴿سَآئِغٌ﴾: خبراً مقدماً، ﴿شَرَابُهُۥ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صفة ثانية لـ﴿عَذْبٌ﴾، وجملة قوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ﴾ في محل النصب حال من البحران، ﴿وَهَٰذَا﴾: مبتدأ ﴿مِلْحٌ﴾: خبر ﴿أُجَاجٌ﴾: صفة له، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ﴾. ﴿وَمِن﴾: الواو: إما عاطفة، والجملة بمثابة التتمة والتكميل للتمثيل، أو استئنافية، فتكون الجملة مستأنفة استطرادية. ﴿من كلٌّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَأْكُلُونَ﴾، وهنا صفة محذوفة لـ﴿كُلٍّ﴾؛ أي: ومن كل منهما، ﴿تَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة إما معطوفة

على جملة قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾، أو مستأنفة، ﴿لَحْمًا﴾: مفعول به، ﴿طَرِيًّا﴾: صفة له ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿تَأْكُلُونَ﴾، ﴿حِلْيَةً﴾: مفعول به، ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صفة لـ﴿حِلْيَةً﴾، ﴿وَتَرَى﴾: الواو: عاطفة ﴿ترى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على أيِّ مخاطب، ﴿ٱلْفُلْكَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَأْكُلُونَ﴾. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿مَوَاخِرَ﴾، أو بـ﴿ترى﴾، ﴿مَوَاخِرَ﴾ حال من ﴿ٱلْفُلْكَ﴾؛ لأن الرؤية هنا بصرية ﴿لِتَبْتَغُوا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تبتغوا﴾: فعل مضارع وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لابتغائكم ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، الجار والمجرور متعلق بـ﴿مَوَاخِرَ﴾، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تبتغوا﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: لعل حرف نصب وتعليل، والكاف: اسمها، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ معطوفة على جملة ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ عطف على علة أو مستأنفة.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

﴿يُولِجُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿ٱلَّيْلَ﴾: مفعول به، ﴿فِى ٱلنَّهَارِ﴾ متعلق بـ﴿يُولِجُ﴾، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَكُم﴾، وجملة ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿يُولِجُ﴾، ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾: معطوف على ﴿ٱلشَّمْسَ﴾، ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَجْرِى﴾: خبره، ﴿لِأَجَلٍ﴾: متعلق بـ﴿يَجْرِى﴾. ﴿مُّسَمًّى﴾: نعت لـ﴿أَجَلٍ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الشمس والقمر.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر أول ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر ثان ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ثالث

لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، وجملة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ مستأنفة، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: استئنافية، أو حالية ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿تَدۡعُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: حال من فاعل ﴿تَدۡعُونَ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَمۡلِكُونَ﴾: فعل وفاعل خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿مِن﴾: حرف جر زائد، ﴿قِطۡمِيرٍ﴾: مفعول به، والجملة الاسمية مستأنفة، أو حال من الضمير المستكن في قوله: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم، ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾: الواو: عاطفة، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿سمعوا﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ﴾: فعل وفاعل، و﴿ما﴾: نافية، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: الواو: عاطفة ﴿يوم القيامة﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَكۡفُرُونَ﴾، ﴿يَكۡفُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾: متعلق بـ﴿يَكۡفُرُونَ﴾، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يُنَبِّئُكَ﴾: فعل مضارع ومفعول به ﴿مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، والأحسن أن يكون الخطاب عاماً؛ أي: أيها السامع كائناً من كنت، كما مرَّ.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أصل الفطر بفتح الفاء: الشق مطلقاً، وقيل: الشق طولاً يقال: فطر الشيء إذا أوجده على غير مثال سابق، وبابه نصر، كما في «المختار»: كأنه شقَّ العدم بإخراجهما منه، وأما الفطر بكسر الفاء فترك الصوم.

﴿رُسُلًا﴾ والرسل: جمع رسول بمعنى المرسل؛ أي: مصيرهم وسائط بينه وبين أنبيائه.

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ أولو بمعنى: أصحاب، اسم جمع لذو، كما أن أولاء اسم جمع لذا، وإنما كتبت الواو بعد الألف في حالتي الجر والنصب لئلا يلتبس بإلى الجارة، وإنما كتبوه في الرفع حملاً عليهما، والأجنحة: جمع جناح، وهو للطائر

بمنزلة اليد للإنسان.

﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ﴾ والفتح في الأصل: إزالة الإغلاق، وفي العرف: الظفر، ولما كان سبباً للإرسال والإطلاق استعير له بقرينة لا مرسل له مكان الفاتح.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فكيف تصرفون عن التوحيد إلى الشرك من الأفك بالفتح، وهو: الصرف، يقال: ما أفكك عن كذا؛ أي: ما صرفك عنه، وقيل: هو من الإفك - بالكسر -، وهو الكذب، وفي «المختار»: والأفك - بالفتح - مصدر أفكه؛ أي: قلبه وصرفه عن الشيء، وبابه ضرب، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾. ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ من الرجع بمعنى الرد؛ أي: ترد إليه عواقبها.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الغَرور - بفتح الغين المعجمة - فعول من أوزان المبالغة، كالشكور والصبور، وفي «المفردات»: الغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، سمي به هنا الشيطان؛ لأنه لا نهاية لغروره.

﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؛ أي: عظيم؛ لأن عداوته عامة قديمة، والعموم يفهم من قوله: ﴿لَكُمْ﴾ حيث لم يخص ببعض دون بعض، والقدم يفهم من اسمية الجملة الدالة على الاستمرار اهـ. «كرخي».

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ والذهاب المضي، وذهاب النفس كناية عن الموت، كما سيأتي في البلاغة.

﴿وَاللَّهُ الَّذِىٓ أَرْسَلَ الرِّيَٰحَ﴾والإرسال في القرآن على معنيين:

الأول: بمعنى البعثة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

والثاني: بمعنى الإطلاق والتسخير، كما في قوله تعالى: ﴿أَرْسَلَ الرِّيَٰحَ﴾ وفي «المفردات»: الإرسال يقال في الإنسان وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكون ذلك للتسخير كإرسال الريح والمطر، وقد يكون ببعث من له اختيار نحو إرسال الرسل، وقد يكون ذلك بالتخلية وترك المنع نحو: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَٰطِينَ عَلَى الْكَٰفِرِينَ﴾ والإرسال يقابل الإمساك.

و﴿الرِّيَٰحَ﴾: جمع ريح بمعنى الهواء المتحرك، أصله روح، ولذا يجمع على أرواح، وأما أرياح قياساً على رياح فخطأ.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾؛ أي: تهيجه وتنشره بين السماء والأرض لإنزال المطر، فإنه مزيد ثار الغبار إذا هاج وانتشر ساطعاً كما مر.

والسحاب: جسم يملؤه الله تعالى ماء كما شاء، وقيل: بخار يرتفع من البحار والأرض فيصيب الجبال فيستمسك ويناله البرد، فيصير ماء وينزل، وأصل السحب الجر كسحب الذيل والإنسان على الوجه، ومنه السحاب لجره الماء.

﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ والبلد: المكان المحدود المتأثر باجتماع قطانه وإقامتهم فيه، ولاعتبار الأثر، قيل: بجلده بلد؛ أي: أثر، والبلد الميت هو الذي لا نبت فيه قد اغبر من القحط.

قال الراغب: الموت يقال بإزاء القوة النامية الموجودة في النبات.

وفي «المصباح»: البلد يذكر ويؤنث، والبلدة البلد، وتطلق البلد والبلدة على كل موضع من الأرض عامراً كان أو خلاءً، وفي التنزيل: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾؛ أي: إلى أرض ليس بها نبات ولا مرعى، فيخرج ذلك بالمطر فترعاه أنعامهم، فأطلق الموت على عدم النبات والمرعى، وأطلق الحياة على وجودهما، وميت وميت بمعنى واحد، قاله محمد بن يزيد وأنشد:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَٱسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا ٱلْمَيْتُ مَيِّتُ ٱلأَحْيَاءِ

إِنَّمَا ٱلْمَيْتُ مَنْ يَعِيشُ كَئِيبَاً ... كَاسِفَاً بَالُهُ قَلِيلَ ٱلرَّجَاءِ

ويرى بعضهم: أن الميت بالتخفيف هو الذي مات، والميت بالتشديد والمائت هو الذي لم يمت بعد، وأنشد:

وَمَنْ يَكُ ذَا رُوحٍ فَذَلِكَ مَيِّتُ ... وَمَا المَيْتُ إِلاَّ مَنْ إِلَى القَبْرِ يُحْمَلُ

والمراد أنه لا نبات فيه.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ والنشور إحياء الأموات يقال: نشر الله الميت وأنشره؛ أي: أحياه.

﴿يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾؛ أي: الشرف والمنعة، قال الراغب: العز حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم أرض عزاز؛ أي: صلبة.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ والصعود: الذهاب في المكان العالي، استعير لما

يصل من العبد إلى الله، كما استعير النزول لما يصل من الله إلى العبد، والكلم بكسر اللام: اسم جنس؛ لأنه يدل على الماهية من حيث هي هي، وليس بجمع خلافاً لصاحب «القاموس»، ولغيره من النحاة؛ لأنه يجوز تذكير ضميره، والجمع يغلب عليه التأنيث ولا اسم جمع؛ لأن له واحداً من لفظه، والغالب على اسم الجمع خلاف ذلك، وواحده كلمة، والكلمة فيها ثلاث لغات كلمة بفتح الكاف وكسر اللام، وكلمة بكسر الكاف وسكون اللام، وكلمة بفتح الكاف وسكون اللام، وفي «الروح»: والكلم بكسر اللام: اسم جنس كنمر ونمرة، كما ذهب إليه الجمهور، ولذا وصف بالمذكر، لا جمع كلمة، كما ذهب إليه البعض.

وأصل الطيب: الذي به يطلب العزة، والكلم الطيب: هو التوحيد أو الذكر أو قراءة القرآن، وصعوده إلى الله قبوله، والعمل الصالح هو ما كان بإخلاص.

﴿يَرْفَعُهُۥ﴾؛ أي: يقبله، والرفع يقال تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرها، وتارة في البناء إذا طولته، وتارة في الذكر إذا نوهته، وتارة في المنزلة إذا شرفتها، كما في «المفردات». ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾؛ أي: يعملون على وجه المكر والخديعة. ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: المكرات السيئات كأن يراؤوا المؤمنين في أعمالهم يوهمونهم أنهم في طاعة الله.

وأصل المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة، وفي «القاموس»: المكر: الخديعة والمكرات بفتحات جمع مكرة بسكون الكاف، وهي المرة من المكر الذي هو الحيلة والخديعة. اهـ. شيخنا. وقيل: المراد بالمكر هنا الرياء في الأعمال اهـ «قرطبي» ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ أي: يهلك ويفسد ويبطل ولا يتم لهم، يقال: بار يبور بوراً وبواراً: هلك، وبارت السوق أو السلعة: كسدت وبار العمل: بطل، وبارت الأرض: لم تزرع وبوّر الأرض تركها أو صيرها بائرة، وأباره: أهلكه.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ والنطفة: هي الماء الصافي الخارج من بين الصلب والترائب قل أو كثر. ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ والأنثى خلاف الذكر، ويقالان في الأصل اعتباراً بالفرجين، كما في «المفردات».

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ والمعمر: من أطيل عمره، والعمر: اسم لمدة عمارة البدن بالحياة ﴿وما يستوى البحران﴾ أصل البحر: كل مكان واسع جامع للماء

الكثير، ويقال للمتوسع في العلم: بحر.

وفي «القاموس»: البحر: الماء الكثير عذباً أو ملحاً، وقال بعضهم: البحر في الأصل يقال للملح دون العذب، فقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ...﴾ الخ. إنما سمي العذب بحراً لكونه مع الملح، كما يقال للشمس والقمر: قمران.

﴿هَٰذَا عَذْبٌ﴾؛ أي: حلو لذيذ طعمه، ﴿فُرَاتٌ﴾؛ أي: كاسر للعطش، مزيل له، وقيل: فرات فعال يقال للواحد والجمع، وفي «القاموس»: وفرت الماء، ككرم فروتة إذا عذب، ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾؛ أي: سهل انحداره لخلوه مما تعافه النفس، يقال: ساغ الشراب: سهل مدخله، والشراب ما يشرب، والمراد هنا: الماء.

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ﴾؛ أي: ذو ملوحة وحرارة.

﴿أُجَاجٌ﴾؛ أي: شديد الملوحة والحرارة، وفي «القاموس»: وأج الماء أجوجاً بالضم يأجج كيسمع ويضرب وينصر إذا اشتدت ملوحته، وتقول: هجير أجاج للشمس فيه مجاج، وهو لعاب الشمس، وماء أجاج يحرق بملوحته. ﴿مَوَاخِرَ﴾؛ أي: شواق للماء حين جريانها، يقال: سفينة ماخرة: إذا جرت تشق الماء مع صوت، والجمع: المواخر، كما في «المفردات».

﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾ القطمير: القشرة البيضاء الرقيقة التي تكون بين التمرة والنواة، وقيل: هي النكتة في ظهرها، واعلم أن في النواة أربعة أشياء يضرب بها المثل في القلة الفتيل، وهو ما في شق النواة، والقطمير وهو اللفافة المذكورة، والنقير وهو ما في ظهرها، والشفروق وهو ما بين القمع والنواة، وقال الجوهري: ويقال: هو النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة، وكلها مذكور في القرآن إلا الأخير، كما ذكرناه في أوائل الكتاب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن

﴿رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ شبه فيه إرسال النعم بفتح الخزائن للإعطاء، واستعير الفتح للإرسال لكونه ـ أي: الفتح ـ سبباً للإرسال، واشتق منه: يفتح بمعنى: يرسل على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، وكذلك في قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ شبه حبس النعم بالإمساك لكونه سببه، فاستعير الإمساك للمنع.

ومنها: التعبير عن الإرسال بالفتح إيذاناً بأنها أنفس الخزائن وأعزها منالاً، كأنما هي أبواب مؤصدة لا يفتح مغالقها إلا الله سبحانه من صنوف النعم وضروب الآلاء، كالرزق والمطر والصحة والأمن في الأوطان، وغير ذلك مما لا يحصى عدده.

ومنها: تنكير ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ إفادة للإشاعة والإيهام لتندرج في مطاويها ضروب النعم، كما تقدم؛ أي: أي شيء يفتح الله من خزائن رحمته أي رحمة كانت من نعمة وصحة وعلم وحكمة.

ومنها: الطباق بين ﴿يَفْتَحِ﴾ و﴿يُمْسِكْ﴾، وكذلك بين ﴿يُضِلُّ﴾ ﴿وَيَهْدِى﴾، وبين ﴿تَحْمِلُ﴾ و﴿تَضَعُ﴾.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ و﴿كُذِّبَتْ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

ومنها: المقابلة بين جزاء الأبرار والفجار في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لأنها من المحسنات البديعية اللفظية.

ومنها: حذف الخبر لدلالة السياق عليه في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ حذف منه الخبر؛ أي: كمن لم يزين له سوء عمله، ودل على هذا المحذوف قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ...﴾ الخ.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾؛ لأن ذهاب النفس كناية عن موتها؛ لأن النفس إذا ذهبت هلك الإنسان.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ لما فيه من الإسناد إلى السبب، والمثير حقيقة هو الله تعالى.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ بين ماضيين. ﴿أَرْسَلَ فَسُقْنَٰهُ﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة، ولأن المراد بيان إحداثها لتلك الخاصية، ولذلك أسند إليها.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿أَرْسَلَ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾، وقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا﴾ دلالة على زيادة اختصاصه به تعالى، وأن الكل منه والوسائط أسباب.

ومنها: تنكير بلد في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ إشارة إلى أن المقصود بعض البلاد الميتة؛ وهي بلاد الذين تبعدوا عن مظان الماء.

ومنها: التشبيه المرسل في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ لوجود الأداة؛ أي: كمثل إحياء الموات نشور الأموات في صحة المقدورية، أو كيفية الإحياء.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾؛ لأن الصعود الذهاب في المكان العالي، استعير لما يصل من العبد إلى الله، كما مر.

ومنها: المجاز الإسنادي في قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، ففيه مجاز في المسند، ومجاز في الإسناد، فالصعود مجاز عن العلم؛ لأن الصعود صفة من صفات الأجرام، والكلم معلوم، فأسند الفعل للمفعول به.

ومنها: وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد عن سائر المفسدين والتخصيص واشتهارهم بذلك.

ومنها: الإتيان بضمير ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ إفادة للحصر والتخصيص كما مرت الإشارة إليه في مبحث التفسير.

ومنها: المجاز الأول في قوله: ﴿مِن مُّعَمَّرٍ﴾ لأن تسميته معمراً باعتبار مصيره، فهو من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه.

ومنها: الاستخدام في قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ وهو ذكر الشيء بمعنى، وعود الضمير إليه بمعنى آخر، وهو من المحسنات البديعية؛ لأن المعنى لا ينقص من عمر أحد، لكن لا على معنى لا ينقص من عمره بعد كونه زائداً، بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصاً.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ...﴾ إلخ. وهو تركيب استعمل في غير ما وضع له علاقة المشابهة، وليس فيه ذكر للمشبه ولا لأداة التشبيه، فقد مثَّل الله سبحانه للمؤمن والكافر بالبحرين، ثم فضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك البحر العذب في منافع من السمك واللؤلؤ، وجري الفلك بما ينفع الناس، والكافر خالٍ من النفع، ويقال: إن المؤمن والكافر - وإن اشتركا في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة - لا يتساويان في الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الأصلية.

ومنها: الاستطراد بقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ...﴾ إلى آخر الآية، فإن المقصود من الآية تشبيه المؤمن والكافر بالبحرين، فذكر منافع البحرين يسمى استطراداً، وهو ذكر الشيء في غير موضعه لمناسبة بينه وبين ذلك الموضع.

ومنها: الإتيان بحرف الترجي في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ للإيذان بكونه مرضيًّا عنده تعالى.

ومنها: التجوز في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ لأن الأصل في الإشارة أن تكون إلى محسوس، ويستحيل إحساسه تعالى بالحواس.

ومنها: الإشارة إليه بإشارة البعيد في قوله ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مع كونه سبحانه أقرب من حبل الوريد للإيذان بغاية العظمة له تعالى؛ أي: تنزيلاً للبعد الرتبي منزلة البعد الحسي.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن
تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم
بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى
ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ
وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ
أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ
ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ
وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ
تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾
وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ
﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ
سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ
إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا
فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أن ملك السموات والأرض له،

(١) المراغي.

وأن ما يدعون من دونه من الأصنام والأوثان لا يملك شيئاً، ولا يجلب نفعاً، ولا يدفع ضراً.. أعقب لهذا بما هو فذلكة لما تقدم، وكالنتيجة له بأنه لا افتقار إلا إليه تعالى، ولا اتكال إليه إلا عليه، وهو الذي تجب عبادته وحده؛ لأن النفع والضر بيده، لا شريك له، ثم بيَّن أنه يوم القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا تستطيع دفع ضر عنها، ولو كانت ذات قرابة منها، ثم أرشد إلى أن البشارة والإنذار إنما تجدي نفعاً من يخشى الله ويخاف عقابه، وأن من يتزكى فنفع ذلك عائد إليه، وإلى الله عاقبة الأمور كلها، ومردها إليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين طريق الهدى وطريق الضلالة، وذكر أن المستعد للإيمان قد اهتدى بهدى النذير، والجاحد المعاند قسا قلبه، ولم يستفد من هديه.. ضرب مثلاً به تنجلي حالهما، ثم ذكر أن الهداية بيد الله يمنحها من يشاء، وأن هؤلاء المشركيين كالموتى لا يسمعون نصيحة، ولا يهتدون بعظة، وأن الله سبحانه لم يترك أمة سدى، بل أرسل الرسل، فمنهم من أجاب دعوة الداعي ونجا، ومنهم من استكبر وعصى وكانت عاقبته الوبال والنكال في الدنيا، والنار في العقبى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر دلائل وحدانيته، وعظيم قدرته التي أعرض عنها المشركون عناداً واستكباراً.. أردف ذلك ذكر ما يرونه من المشاهدات الكونية المختلفة الأشكال والألوان، لعل ذلك يعيد إليهم أحلامهم، وينبه عقولهم إلى الاعتبار بما يرون ويشاهدون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بيَّن أن العلماء هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه.. أردف ذلك بذكر حال العالمين بكتاب الله تعالى، العاملين بما فرض فيه من أحكام كإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة في السر والعلن، وأبان أن هؤلاء يرجون ثواباً من ربهم كفاء أعمالهم، بل أضعاف ذلك فضلاً من ربهم ورحمة، ويطمعون في غفران زلاتهم؛ لأنه الغفور الشكور لهم على ما أحسنوا من عمل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم أجرهم، أكد هذا وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق، وهو مصدق لما بين يديه من الكتب، فتاليه مستحق لهذا الأجر والثواب، ثم قسم هؤلاء الذين أورثوا الكتاب أقساماً ثلاثة، ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ثم ذكر جزاء هؤلاء السابقين، وأنهم يدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار، وأنهم يحلون فيها أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير، ويقولون حينئذ: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور، ويقولون: إنه أحلنا داراً لا نصب فيها ولا تعب.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهم أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي نزل فيه﴿﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه البيهقي في البعث وابن أبي حاتم من طريق نفيع بن الحارث عن عبد الله بن أبي أوفى قال: قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن النوم مما يقر الله به أعيننا في الدنيا، فهل في الجنة من نوم، قال: «إن النوم شريك الموت، وليس في الجنة موت»، قال: فما راحتهم؟ فأعظم ذلك رسول الله ﷺ، وقال: «ليس فيها لغوب، كل أمرهم راحة» فنزلت: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

ثم ذكر سبحانه افتقار خلقه إليه ومزيد حاجتهم إلى فضله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الخطاب فيه عام لا خصوص أهل مكة، كما هو الغالب في الآيات المكية، أو خاص بهم؛ لأن الموضوع فيهم، ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾؛ أي: المحتاجون ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه الاحتياج[3] الكثير الشديد في أنفسكم، وفيما يعرض لكم من أمر مهم، أو

---

(١) المراغي.
(٢) لباب النقول.
(٣) روح البيان.

خطب ملم، فإن كل حادثٍ مفتقر إلى خالقه ليبديه وينشأه أولاً، ويديمه ويبقيه ثانياً، ثم الإنسان محتاج إلى الرزق، ونحوه من المنافع في الدنيا مع دفع المكاره والعوارض، وإلى المغفرة ونحوها في العقبى، فهو محتاج في ذاته وصفاته وأفعاله إلى كرم الله تعالى وفضله. وإنما[1] خاطب الناس بذلك، وإن كان كل ما سوى الله فقيراً إليه؛ لأن الناس هم الذي يدّعون الغنى ونسبوه لأنفسهم، قال بعضهم[2]: إن الله سبحانه ما شرف شيئاً من المخلوقات بتشريف خطاب أنتم الفقراء إلى الله حتى الملائكة المقربين، سوى الإنسان، وذلك أن افتقار المخلوقات إلى أفعال الله تعالى من حيث الخلق ونحوه، وافتقار الإنسان إلى ذات الله وصفاته، فجميع المخلوقات وإن كانت محتاجة إلى الله تعالى لكن الاحتياج الحقيقي إلى ذات الله وصفاته مختص بالإنسان من بينها، كمثل سلطان له رعية، وهو صاحب جمال، فيكون افتقار جميع رعاياه إلى خزائنه وممالكه، ويكون افتقار عشاقه إلى عين ذاته وصفاته، فيكون غنى كل مفتقر بما يفتقر إليه، فغنى الرعية يكون بالمال والملك، وغنى العاشق يكون بمعشوقه. انتهى.

قال ذو النون[3]: الخلق محتاجون إليه تعالى في كل نفس وخطرة ولحظة، وكيف لا ووجودهم وبقاؤهم به. والفقراء[4]: جمع فقير: والفقير: من صيغ المبالغة كالمفتقر بمعنى ذي الاحتياج الكثير والشديد، والفقر: وجود الحاجة الضرورية، وفقد ما يحتاج إليه وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم، فإنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب، وإن افتقار سائر المخلوقات بالنسبة إلى فقرهم كالعدم.

والمعنى[5]: يا أيها الناس أنتم أشد الخلق افتقاراً إلى الله تعالى، واحتياجاً إليه في أنفسكم وعيالكم وأموالكم، وفيما يعرض لكم من سائر الأمور، فلا غنى لكم عنه طرفة عين، ولا أقل من ذلك، ومن هنا قول الصديق رضي الله عنه: من عرف نفسه عرف ربه. أي: من عرف نفسه بالفقر والذل والعجز والمسكنة عرف ربه

---

(1) الصاوي.
(2) روح البيان.
(3) النسفي.
(4) روح البيان.
(5) الصاوي.

بالغنى والعز والقدرة والكمال؛ أي: أنتم مفتقرون إليه تعالى في كل حالة، في حالة الفقر والغنى والضعف والقوة والذل والعز، فالعبد مفتقر لربه في أي حالة كان بها ذلك العبد. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ عن الأشياء كلها المستغني على الإطلاق، فكل أحد يحتاج إليه تعالى؛ لأن أحداً لا يقدر أن يصلح أمره إلا بالأعوان؛ لأن الأمير ما لم يكن له خدم وأعوان لا يقدر على الإمارة، وكذا التاجر يحتاج إلى المكارين، والله الغني عن الأعوان وغيرها. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: المحمود بكل لسان، المنعم على جميع الموجودات حتى استحق عليهم الحمد على نعمته العامة وفضله الشامل، فالله هو الغني المغني الحميد.

وفي «النسفي»: ولم يسمهم[١] بالفقراء للتحقير، بل للتعريض على الاستغناء، ولهذا وصف نفسه بالغني الذي هو مطعم الأغنياء، وذكر الحميد بعده ليدل به على أنه الغني النافع بغناء خلقه، والجواد المنعم عليهم؛ إذ ليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم.

قال سهل: لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى، ولهم بالفقر، فمن ادعى الغنى حجب عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه، فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسر إليه، ومنقطعاً عن الغير إليه حتى تكون عبوديته محضة، فالعبودية هي الذل والخضوع، وعلامته: أن لا يسأل من أحد. وقال الواسطي: من استغنى بالله لا يفتقر، ومن تعزز بالله لا يذل. وقال الحسيني: على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غنياً بالله، وكلما ازداد افتقاراً ازداد غنى، وقال يحيى: الفقر خير للعبد من الغنى؛ لأن المذلة في الفقر، والكبر في الغنى، والرجوع إلى الله بالتواضع والذلة خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال، وقيل: صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله في كل شيء، والفقر إليه في كل شيء، والرجوع إليه في كل شيء، وقال الشبلي: الفقر يجر البلاء، وبلاؤه كله عز. انتهى من «النسفي».

ومعنى الآية[٢]: أنتم أيها العباد أولو الحاجة والفقر إلى خالقكم ورازقكم، فإياه فاعبدوا، وإلى رضاه فسارعوا، وهو الغني عن عبادتكم وعن غيرها، وهو المحمود على نعمه، فكل نعمة بكم وبسواكم فهي منه، فله الحمد والشكر على

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

كل حال.

والخلاصة: أنتم في حاجة إليه، وهو ذو الغنى وحده لا شريك له، والمحمود في جميع ما يقول ويفعل، ويشرِّع لكم ولغيركم من الأحكام، ثم أرشد إلى غناه وقدرته الكاملة بقوله: ﴿إِن يَشَأْ﴾ الله سبحانه وتعالى؛ إذهابكم عن وجه الأرض، ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ عنها ويعدمكم كما قدر على إيجادكم وبقائكم ﴿وَيَأْتِ﴾؛ وينشىء ﴿بِخَلْقٍ﴾؛ أي: بمخلوق ﴿جَدِيدٍ﴾ مكانكم وبدلكم ليسوا على صفتكم، بل مستمرون على الطاعة، فيكون الخلق من جنسهم، وهو الآدمي، أو يأت بعالم آخر غير ما تعرفونه، فيكون من غير جنسهم.

وعلى كلا التقديرين فيه إظهار الغضب للناس الناسين، وتخويف لهم على سرفهم ومعاصيهم.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإذهاب بهم، والإتيان بآخرين ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه متعلق بقوله: ﴿بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: بمتعذر ولا صعب ولا مستعسر، بل هو هين عليه يسير؛ لشمول قدرته على كل مقدور، ولذلك يقدر على الشيء وضده، فإذا قال لشيء: كن.. كان من غير توقف ولا امتناع، وقد أهلك القرون الماضية، واستخلف الآخرين إلى أن جاء نوبة قريش، فناداهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وبيَّن أنهم محتاجون إليه احتياجاً كلياً، وهو غني عنهم وعن عبادتهم، ومع ذلك دعاهم إلى ما فيه سعادتهم وفوزهم، وهو الإيمان والطاعة، وهم مع احتياجهم لا يجيبونه، فاستحقوا الهلاك، ولم يبقَ إلا المشيئة[1].

ثم إنه تعالى شاء هلاكهم لإصرارهم، فهلك بعضهم في بدر، وبعضهم في غيره من المعارك، وخلق مكانهم من يطيعونه تعالى فيما أمرهم به ونهاهم عنه، ويستحقون بذلك فضله ورحمته، واستمر الإفناء والإيجاد إلى يومنا هذا، لكن لا على الاستعجال، بل على الإمهال، فإنه تعالى صبور لا يؤاخذ العصاة على العجلة، ويؤخر العقوبة ليرجع التائب ويقلع المصر. ففي الآية وعظ وزجر لجميع الأجناس من الملوك ومن دونهم، فمن أهمل أمر الجهاد.. لم يجد المهرب من

---

(١) روح البيان.

بطش رب العباد، ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. جعل نفسه عرضة للهلاك والخطر، وعلى هذا فقس. فينبغي للعاقل المكلف أن يعبد الله تعالى ويخافه، ولا يجترىء على ما يخالفه رضاه، ولا يكون أسوأ من الجمادات مع أن الإنسان أشرف المخلوقات.

وعبارة «النسفي» هنا: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ كلكم إلى العدم، فإن غناه بذاته لا بكم في القدم، ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو بدون حمدكم حميد، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ الإنشاء والإفناء ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: بممتنع، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ويخلق بعدكم من يعبده ولا يشرك به شيئاً. انتهى.

ومعنى الآية[1]: إن يشأ ربكم أن يهلككم أهلككم؛ لأنه هو الذي أنشأكم من غير حاجة به إليكم، ويأتِ بخلق سواكم يطيعونه ويأتمرون بأمره، وينتهون عما نهاهم عنه، وما ذلك بصعب على الله الخالق لجميع عباده، بل هو يسير هين عليه، وليس بخافٍ ما في هذا من تهديد ووعيد وزجر وتأنيب، ثم أخبر عن أحوال يوم القيامة وأهوالها وشدائدها بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾؛ أي: ولا تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾؛ أي: نفس آثمة، وكذا غيرها يوم القيامة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: إثم نفس أخرى بحيث تتعرى منه المحمول عنها، بل إنما تحمل كل منهما وزرها الذي اكتسبته، بخلاف الحال في الدنيا، فإن الجبابرة يأخذون الولي بالولي، والجار بالجار.

ولا تعارض هذه الآية قوله تعالى[2]: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ لأنهم إنما حملوا أثقال ضلالهم مع أثقال إضلالهم، وكلاهما أوزارهم ليس فيها شيء من أوزار غيرهم، ألا ترى كيف كذبهم في قولهم: ﴿ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾، ومثل هذا حديث: «من سن سنة سيئة.. فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». فإن الذي سن السنة السيئة إنما حمل وزر سنة السيئة، لا وزر من عمل بها، وقد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفىً في محلها، ومنه يعلم وجه تحميل ذنوب المظلومين يوم القيامة على الظالمين، فإن المحمول في الحقيقة جزاء الظلم، وإن كان يحصل في الظاهر تخفيف حمل المظلوم، ولا يجري إلا في الذنب المتعدي، وفي الآية إشارة إلى أن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

لله تعالى في خلق كل واحدٍ من الخلق سراً مخصوصاً به، وله مع كل واحد شأن آخر، فكل مطالب بما حمل، كما أن كل بذر ينبت بنبات قد أودع فيه، ولا يطالب بنبات بذر آخر؛ لأنه لا يحمل إلا ما حمل عليه، كما في «التأويلات النجمية».

وإنما قال[1]: ﴿وَازِرَةٌ﴾، ولم يقل: ولا تزر نفس وزر أخرى؛ لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهنّ واحدة إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها. ﴿وَإِن تَدْعُ﴾ مضارع أسند إلى الغائبة؛ أي: ولو دعت نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾؛ أي: نفس أثقلتها الأوزار، وهي تقع على المذكر والمؤنث، والمفعول محذوف؛ أي: أحداً، فالثقل: الإثم، سمي به لأنه يثقل صاحبه يوم القيامة، ويثبطه عن الثواب في الدنيا، ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الذي عليها من الذنوب ليحمل بعضها قيل: في الأثقال في الظاهر، كالشيء المحمول على الظهر حمل بالكسر، وفي الأثقال المحمول في الباطن كالولد في البطن حمل بالفتح، كما في «المفردات».

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ﴾؛ أي: من حملها ﴿شَيْءٌ﴾ قليل ولا كثير؛ أي: لم تجب لحمل شيء منه. ﴿وَلَوْ﴾ للوصل[2]؛ أي: للغاية ﴿كَانَ﴾؛ أي: المدعو المفهوم من الدعوة، وترك ذكره ليشمل كل مدعو ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾؛ أي: ذا قرابة من الداعي كالأب والأم والولد والأخ ونحو ذلك؛ إذ لكل واحد منهم يومئذ شأن يغنيه، وحمل يعجزه، وقيل: التقدير: ولو كان الداعي ذا قربى، والمعنيان حسنان. اهـ «جمل».

ففي هذا دليل على أنه تعالى لا يؤاخذ بالذنب إلا جانيه، وأن الاستغاثة بالأقربين غير نافعة لغير المتقين، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يلقى الأب والأم ابنه فيقول: يا بني، احمل عني بعض ذنوبي، فيقول: لا أستطيع، حسبي ما عليَّ، وكذا يتعلق الرجل بزوجته فيقول لها: إني كنت لك زوجاً في الدنيا، فيثني عليها خيراً، فيقول: قد احتجت إلى مثقال ذرةٍ من حسناتك، لعلي أنجو بها مما ترين، فتقول: ما أيسر ما طلبت، ولكن لا أطيق، إني أخاف مثل ما تخوفت.

فإن قلت[3]: ما الفرق بين معنى قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ومعنى:

---

(١) النسفي.
(٢) روح البيان.
(٣) النسفي.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾؟

قلتُ: إن الأول دال على عدل الله في حكمه، وأن لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها، والثاني: في بيان أنه لا غياث يومئذ حتى إن نفساً قد أثقلتها الأوزار لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب. ولم تغث، وإن كان المدعو بعض قرابتها.

قال في «الإشارة»: هذه الآية نفي للتحمل اختياراً، والأولى نفي له إجباراً، وفيه من[1] الإشارة أن الطاعة نور، والعصيان ظلمة، فإذا اتصف جوهر الإنسان بصفة النور، أو بصفة الظلمة.. لا تنقل تلك الصفة من جوهره إلى جوهر إنسان آخر أياً كان، ألا ترى أن كل أحد عند الصراط يمشي في نوره لا يتجاوز منه إلى غيره شيء، وكذا من غيره إليه.

ومعنى الآية[2]: وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى إلى حمل شيء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانت قريبةً لها في النسب، فكيف بغيرها مما لا قرابة بينها وبين الداعية لها، وقرأ الجمهور[3]: ﴿لَا يُحْمَلْ﴾ بالياء مبنياً للمفعول، وأبو السمال عن طلحة وإبراهيم بن زاذان عن الكسائي بفتح التاء من فوق وكسر الميم، وتقتضي هذه القراءة نصب شيء، كما اقتضت قراءة الجمهور رفعه، وفاعل ﴿تحمل﴾ ضمير عائد على مفعول ﴿تَدْعُ﴾ المحذوف؛ أي: وإن تدع مثقلة نفساً أخرى إلى حملها.. لم تحمل منه شيئاً، وقرىء: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ على أن ﴿كَانَ﴾ تامة؛ أي: ولو حضر، آنذاك ذو قربى، ودعته لم يحمل منه شيئاً مثل قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾، ونحو الآية قوله: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾، ثم سلى رسوله ﷺ عدم قبولهم دعوته وإصرارهم على عنادهم، فقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ يا محمد بهذه الإنذارات، والإنذار: الإبلاغ مع التخويف ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾؛ أي: يخافون

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

﴿رَبَّهُم﴾ حال كونهم ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: غائبين عن عذابه وأحكام الآخرة، أو غائبين عن الناس في خلواتهم، فهو حال من الفاعل، أو حال كون ذلك العذاب غائباً عنهم، فهو حال من المفعول.

قال الزجاج: تأويله: إنَّ إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم، فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾، وقوله ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾، ومعنى ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أنهم احتفلوا بأمرها، ولم يشتغلوا عنها بشيء مما يلهيهم؛ أي: راعوها، كما ينبغي، وجعلوها مناراً منصوباً، وعلماً مرفوعاً، قال في «كشف الأسرار»: وغاير بين اللفظين؛ لأن أوقات الخشية دائمة، وأوقات الصلاة معينة منقضية، والمعنى: إنما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل التمرد والفساد، وإن كنت نذيراً للخلق كلهم، وخص الخشية والصلاة بالذكر؛ لأنهما أصلا الأعمال الحسنة الظاهرة والباطنة؛ أما الصلاة.. فإنها عماد الدين، وأما الخشية فإنها شعار اليقين، وإنما يخشى المرء بقدر علمه بالله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فقلب لم يكن عالماً خاشياً يكون ميتاً، لا يؤثِّر فيه الإنذار، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، ومع هذا جعل تأثير الإنذار مشروطاً بشرط آخر، وهو إقامة الصلاة، وأمارة خشية قلبه بالغيب محافظة الصلاة في الشهادة، وفي الحديث: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة».

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ وتطهر من أوضار[1] الأوزار والمعاصي بالتأثر من هذه الإنذارات، وأصلح حاله بفعل الطاعات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ﴾ ويتطهر ﴿لـ﴾ غرض ﴿نفسه﴾ لاقتصار نفعه عليها، كما أن من تدنس بها لا يتدنس إلا عليها، وقيل: المعنى: ومن يعطي الزكاة.. فإنما ثوابه لنفسه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ فعلاً ماضياً ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ﴾ فعلاً مضارعاً من تزكى، وقرأ العباس عن أبي عمرو: ﴿ومن يزكى فإنما يزكى﴾ بالياء من تحت وشد الزاي فيهما، هما مضارعان أصلهما: ومن يتزكى، أدغمت التاء في الزاي، كما أدغمت في الذال في قوله: ﴿يذكرون﴾، وقرأ ابن مسعود وطلحة: ﴿ومن ازكى﴾

---

(١) **أوضار: أوساخ.**
(٢) البحر المحيط.

بإدغام التاء في الزاي، واجتلاب همزة الوصل في الابتداء، وطلحة أيضاً، فإنما يزكى بإدغام التاء في الزاي. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: الرجوع للمجازاة، لا إلى غيره استقلالاً ولا اشتراكاً، فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء.

ومعنى الآية: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ...﴾ الخ؛ أي[1]: إنما يجدي النصح والإنذار لدى من يخشون الله سبحانه، ويخافون شديد عقابه يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك، بل لإيمانهم بما أتيت به، وتصديقهم لك فيما أنبأت به عن ربك، فهؤلاء هم الذين ينفعهم إنذارك ويتعظون بمواعظك، لا من طبع الله على قلوبهم، فهم لا يفقهون إلى أنهم يؤدون الصلاة المفروضة عليهم، ويقيمونها على ما رسمه الدين، فهي التي تطهر قلوبهم، وتقربهم من ربهم حين مناجاتهم له، كما جاء في الحديث: أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والخلاصة: أنه إنما ينفع إنذارك وتخويفك من يخشى بأس الله وشديد عقابه، دون من عداهم من أهل التمرد والعناد، ثم حثَّ على الأعمال الصالحة، وأبان أن فائدتها عائدة إليهم، فقال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ الخ؛ أي: ومن يتطهر من أدناس الشرك وأوضار الذنوب والمعاصي.. فنفع ذلك عائد إليه، كما أن من يتدسى بالذنوب والآثام.. فضرر ذلك راجع إليه، وإلى الله سبحانه مصير كلِّ عامل، وهو مجازيه بما قدم من خير أو شر على ما جنى وأثل لنفسه.

والحاصل[2]: أن الله سبحانه ذكر أولاً أنه لا يحمل أحد ذنب أحد، ثم ذكر ثانياً أن المذنب إن دعا غيره، ولو كان من قرابته إلى حمل شيء من ذنوبه لا يحمل، ثم ذكر ثالثاً أن ثواب الطاعة مختص بفاعلها ليس لغيره منه شيء، ثم ضرب مثلاً للمؤمن والكافر، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾؛ أي: المسلوب حاسة البصر ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ أي: الذي له ملكة البصر، فشبه الكافر بالأعمى، والمؤمن بالبصير. فإن المؤمن[3] من أبصر طريق الفوز والنجاة وسلكه، بخلاف الكافر، فكما لا يستوي الأعمى والبصير من حيث الحس الظاهري؛ إذ لا بصر للأعمى..

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن من حيث الإدراك الباطني، ولا بصيرة للكافر، بل الكافر أسوأ حالاً من الأعمى المدرك للحق؛ إذ لا اعتبار بحاسة البصر لاشتراكها بين جميع الحيوانات. ﴿وَلَا﴾ لتأكيد نفي الاستواء، ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ جمع ظلمة، وهي عدم النور، ﴿وَلَا﴾ للتأكيد أيضاً ﴿ٱلنُّورُ﴾، وهو الضوء المنتشر المعين للأبصار، وهذا تمثيل للباطل والحق، فالكافر في ظلمة الكفر والشرك والجهل والعصيان والبطلان لا يبصر اليمين من الشمال، فلا يرجى له الخلاص من المهالك بحال، والمؤمن في نور التوحيد والإخلاص والعلم والطاعة والحقانية بيده الشموع والأنوار أينما سار؛ أي: ولا تستوي الظلمات والنور. وجمع الظلمات مع إفراد النور لتعدد فنون الباطل، واتحاد الحق، يعني أن الحق واحد، وهو التوحيد.

فالموحد لا يعبد إلا الله تعالى، وأما الباطل فطرقه كثيرة، وهي وجوه الإشراك، فمن عابد للكواكب، ومن عابد للنار، ومن عابد للأصنام، ومن عابد للشمس، ومن عابد للملائكة، إلى غير ذلك، فالظلمات كلها لا تجد فيها ما يساوي ذلك النور الواحد.

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: شدة حر الشمس، قال الأخفش[1]: و﴿لا﴾ في قوله: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ زائدةٌ، والتقدير: وما يستوي الظلمات والنور، ولا الظل والحرور، والحرور: شدة حر الشمس، قال الأخفش: والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسموم يكون بالليل، وقيل: عكسه، وقال رؤبة بن العجاج: الحرور يكون بالليل خاصة، والسموم يكون بالنهار خاصة، وقال الفراء: السموم لا يكون إلا بالنهار، والحرور يكون فيهما. قال النحاس: وهذا أصح، وقال قطرب: الحرور: الحر، والظل: البرد، والمعنى: أنه لا يستوي الظل الذي لا حر فيه ولا أذى، والحر الذي يؤذي، قيل: أراد الثواب والعقاب، وسمي الحر حروراً مبالغة في شدة الحر؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وقال الكلبي: أراد بالظل الجنة، وبالحرور النار، وقال عطاء: يعني: ظل الليل وشمس النهار، وقيل: يعني الراحة والشدة.

وإنما قدم الأعمى على البصير[2]، والظلمات على النور، والظل على الحرور

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

ليتطابق فواصل الآي، والمعنى: كما لا يستوي الظل والحرارة من حيث إن في الظل استراحة للنفس، وفي الحرارة مشقة وألماً، كذلك لا يستوي ما للمؤمن من الجنة التي فيها ظل وراحة، وما للكافر من النار التي فيها حرارة شديدة، وأفرد[1] الأعمى والبصير؛ لأنه قابل الجنس بالجنس؛ إذ قد يوجد في أفراد العميان ما يساوي به بعض أفراد البصراء، كأعمى عنده من الذكاء ما يساوي به البصير البليد، فالتفاوت بين الجنسين مقطوع به لا بين الأفراد.

ثم ذكر سبحانه تمثيلاً آخر للمؤمن والكافر، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ﴾ بنور الإيمان، ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ بأمراض الشرك والجهل، وهذا التمثيل أبلغ من الأول، ولذلك كرر الفعل معه، وأوثرت صيغة الجمع في الطرفين تحقيقاً للتباين بين أفراد الفريقين، فالتفاوت بينهما أكثر؛ إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حياً، فذكر أن الأموات لا يساوون الأحياء، سواء قابلت الجنس بالجنس، أم قابلت الفرد بالفرد.

والحي[2]: ما به القوة الحساسة، والميت: ما زال عنه ذلك، وجه التمثيل أن المؤمن منتفع بحياته؛ إذ ظاهره ذكر، وباطنه فكر دون الكافر؛ إذ ظاهره عاطل وباطنه باطل، وقال بعض العلماء: هو تمثيل للعلماء والجهال، وتشبيه الجهلة بالأموات شائع، ومنه قوله:

لاَ تُعْجِبَنَّ ٱلْجَهُولَ حُلَّتُهُ　　فَإِنَّهُ ٱلْمَيْتُ ثَوْبُهُ كَفَنُ

لأن الحياة المعتبرة هي حياة الأرواح والقلوب، وذلك بالحكم والمعارف، ولا عبرة بحياة الأجساد بدونها لاشتراك البهائم، قال قتادة: هذه الأمور كلها أمثال؛ أي: كما لا تستوي هذه الأشياء.. كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، ولا في المواضع كلها لتأكيد معنى النفي، والفرق[3] بين الواوات فيها أن بعضها ضمت شفعاً إلى شفع، وبعضها وتراً إلى وتر.

والمعنى[4]: أي وما يستوي الأعمى عن دين الله الذي ابتعث به نبيه ﷺ، والبصير الذي قد أبصر فيه رشده فاتبع محمداً ﷺ، وصدقه، وقبل عن الله ما ابتعثه

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) النسفي.
(٤) المراغي.

به، وما تستوي ظلمات الكفر ونور الإيمان، ولا الثواب والعقاب، ثم ضرب مثلاً آخر لهما بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ...﴾ إلخ؛ أي: وما يستوى أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة كتابه وتنزيله، وأموات القلوب بغلبة الكفر عليها حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه، ولا تفرّق بين الهدى والضلال، وكل هذه أمثال ضربها الله سبحانه للمؤمن والإيمان، والكافر والكفر.

ونحو الآية قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، وقوله: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

والخلاصة: أن المؤمن بصير سميع نيِّر القلب، يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يتقربه الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأصم يمشي في ظلمات لا خروج له منها، فهو يتيه في غيه، وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى حرور وسموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم.

ثم بيَّن أن الهداية والتوفيق بيده سبحانه وحده، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿يُسْمِعُ﴾ كلامه إسماع فهم واتّعاظ، وذلك بإحياء القلب. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يسمعه من أوليائه الذين خلقهم لجنته، ووفَّقهم لطاعته، فينتفع بإنذارك، ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد، ﴿بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾؛ أي[1]: بمفهم من هو مثل الميت الذي في القبور، شبَّه الله سبحانه الكفار بالموتى في عدم التأثر بدعوته ﷺ؛ أي: فكما لا يسمع أصحاب القبور ولا يجيبون.. كذلك الكفار لا يسمعون ولا يقبلون الحق.

وقرأ الجمهور[2]: بتنوين ﴿مسمع﴾ وقطعه عن الإضافة، وقرأ الحسن والأشهب وعيسى الثقفي وعمرو بن ميمون: بإضافته، والمعنى: إن الله يهدي من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها بخلق الاستعداد فيه للهداية، ثم ضرب مثلاً لهؤلاء المشركين، وجعلهم كالأموات لا يسمعون فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ﴾ الخ؛ أي: فكما لا تقدر أن تسمع من في القبور كتاب الله فتهديهم به إلى سبيل الرشاد.. لا

---

(١) المراح. (٢) البحر والشوكاني.

تقدر أن تنفع بمواعظ الله وحججه من كان ميت القلب، لا يستطيع فهم كتابه ومعرفة مغازي الدين وأسراره.

والخلاصة: كما لا ينتفع الأموات بعد أن صاروا إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم، ثم بين عمل الرسول ووظيفته فقال: ﴿إِنْ أَنتَ﴾؛ أي: ما أنت يا محمد ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾؛ أي: رسول منذر بالنار والعقاب ومخوف، وأما الإسماع البتة فليس من وظائفك ولا حيلة لك إليه في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى. والمعنى: أي: ما أنت إلا رسول منذر عقاب الله لهؤلاء المشركين الذين طبع على قلوبهم، ولم تكلَّف هدايتهم وقبولهم ما جئتهم به، فإن ذلك بيده تعالى لا بيدك ولا بيد غيرك، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجيبوا لك.

تنبيه: قوله[1]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ وغير ذلك لتمييز مقام الألوهية عن مقام النبوة كيلا يشتبها على الأمة فيضلوا عن سبيل الله، كما ضل بعض الأمم السالفة، فقال بعضهم: عزير ابن الله، وقال بعضهم: المسيح ابن الله، وذلك من كمال رحمته لهذه الأمة وحسن توفيقه.

قال بعضهم: فإن قلت: إنه قد ثبت أنه ﷺ أمر يوم بدر بطرح أجساد الكفار في القليب، ثم ناداهم بأسمائهم، وقال: «هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً، فإني وجدت ما وعدني الله حقاً؟». فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ فقال النبي ﷺ: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً» فهذا الخبر يقتضي أن النبي ﷺ أسمع من في القليب، وهم موتى، فيعارض هذه الآية، فما وجه الجمع بينهما؟

قلتُ: يحمل الخبر على أن الله تعالى أحيى أهل القليب حينئذ حتى سمعوا كلام رسول الله ﷺ توبيخاً لهم، وتصغيراً ونقمة وحسرة، وإلا فالميت من حيث هو ميت ليس من شأنه السماع، فقد أسمع الرسول ﷺ بإسماع الله تعالى، وإلا فليس

---

(١) روح البيان.

من شأن أحد الإسماع، كما أنه ليس من شأن الميت السماع، وظهر من هذا الجواب أنه لا معارضة بين الآية والحديث، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أنتم بأسمع...» إلخ، يدل على أن الأرواح أسمع من الأجساد مع الأرواح لزوال حجاب الحس وانخراقه، والله أعلم.

ثم بيَّن سبحانه أنه ليس نذيراً من تلقاء نفسه، بل بإذن ربه وإرادته، وأنه ما جاء إلا بالحق، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إما حال من الفاعل؛ أي: حال كوننا محقين، أو من المفعول؛ أي: حال كونك محقاً، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: إرسالاً متلبساً بالحق، وهذا أولى لشموله الأولين في المعنى؛ أي: وأرسلناك بالدين الحق الذي هو الإسلام، أو بالقرآن حال كونك، ﴿بَشِيرًا﴾؛ أي: مبشراً للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾؛ أي: منذراً للكافرين بالنار.

والمعنى: أي إنا أرسلناك أيها الرسول بالإيمان بي وحدي، وبالشرائع التي فرضتها على عبادي مبشراً بالجنة من صدقك، وقبل منك ما جئت به من عندي ومنذراً بعقاب من كذبك ورد عليك ما أوحيت به إليك، ثم بيَّن فضله سبحانه على عباده ورحمته بهم، وأنه لم يتركهم دون أن يبين لهم طريق الهدى والضلال، فقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي: ما من أمة من الأمم السالفة وأهل عصر من الأعصار الماضية ﴿إِلَّا خَلَا﴾ ومضى ومر ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الأمة ﴿نَذِيرٌ﴾ من نبي أو عالم ينذرهم من عذاب الله تعالى، والاكتفاء بالإنذار؛ لأنه هو المقصود الأهم من البعثة.

قال في «الكواشي»: وأما فترة عيسى فلم يزل فيها من هو على دينه، وداع إلى الإيمان. وفي «كشف الأسرار: والآية تدل على أن كل وقت لا يخلو من حجة خبرية، وأن أول الناس آدم، وكان مبعوثاً إلى أولاده، ثم لم يخل بعده زمان من صادق مبلغ عن الله، أو آمر يقوم مقامه في البلاغ والأداء حين الفترة، وقد قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ لا يؤمر ولا ينهى.

فإن قيل[1]: كيف يجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ

---

(١) روح البيان.

ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾؟

قلت: معنى الآية: ما من أمةٍ من الأمم الماضية إلا وقد أرسلت إليهم رسولاً ينذرهم على كفرهم، ويبشرهم على إيمانهم؛ أي: سوى أمتك التي بعثناك إليهم، يدل على ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾، وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾.

وقيل: يجمع بينهما بأن المراد من هذه الآية المذكورة هنا: ما من أمة هلكوا بعذاب الاستئصال إلا بعد أن أقيم عليهم الحجة بإرسال الرسول بالإعذار والإنذار. انتهى ما في «كشف الأسرار». هذا الثاني هو أنسب بالتوفيق بين الآيتين، يدل عليه ما بعده من قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ الخ، وإلا فلا يخفى أن أهل الفترة ما جاءهم نذير على ما نطق به قوله تعالى: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾، ويدل عليه أيضاً أن كل أمة أنذرت من الأمم، ولم تقبل.. استؤصلت، فكل أمة مكذبة معذبة بنوع من العذاب، وتمام التوفيق بين الآيتين في سورة يسٓ إن شاء الله تعالى.

والمعنى: وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

ثم سلى رسوله ﷺ على ما يلاقيه من قومه من الإصرار على العناد والتكذيب، وأبان له أنه ليس ببدع من بين الرسل، فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾؛ أي: وإن يكذبوك أيها الرسول مشركو قومك، فلا تبتئس بما يفعلون، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية رسلهم، والحال أنه قد ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الباهرة والأدلة القاطعة، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾؛ أي: وبالكتب التي فيها مواعظ، كزبور داود، وصحف إبراهيم وموسى وشيث وإدريس. ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ﴾ والمراد به: الجنس الصادق بالمتعدد ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾ صفة للكتاب؛ أي: وبالكتب المنيرة؛ أي: التي توضح وتبين الأحكام والشرائع كالتوراة والإنجيل، والمراد بالبينات: المعجزات الظاهرة الدالة على صدق دعواهم وصحة نبوتهم، وبالزبر: الكتب التي فيها المواعظ والأمثال والحكم، وبالكتاب المنير: الكتب المظهرة

للحق، الموضحة لما يحتاج إليه من الأحكام والشرائع والدلائل والوعد والوعيد؛ أي[1]: جاءتهم على إرادة التفصيل دون الجمع؛ أي: بعض هذه المذكورات جاءت بعض المكذبين، وبعضها بعضهم، لا أن الجميع جاءت كلاً منهم، وعبارة «النسفي» هنا: ولما كانت[2] هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً، وإن كان بعضها في جميعهم وهي البينات، وبعضها في بعضهم، وهي الزبر والكتاب، وفيه مسلاة لرسول الله ﷺ، قال أبو حيان: وإعادة حرف الجر هنا في العطف في الأخيرين هو على سبيل التأكيد، ذكره في سورة آل عمران، وبعد أن سلاه ﷺ هدد من خالفوه وعصوه بمثل ما فعل بمن قبلهم من الماضين فقال: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ﴾ بأنواع العذاب، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: ثبتوا على الكفر وداوموا عليه، وضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة، والإشعار بعلية الأخذ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: إنكاري بالعقوبة، وتغييري عليهم؛ أي: هو واقع موقعه، وقرأ ورش عن نافع وشيبة بإثبات الياء في ﴿نَكِيرِ﴾ وصلاً لا وقفاً.

وقال ابن الشيخ: الاستفهام فيه للتقرير المضمن للتعجب، فإنه ﷺ شدة الله عليهم، فحسن الاستفهام على هذا الوجه في مقابلة التسلية، يحذِّر كفار هذه الأمة بمثل عذاب الأمم المكذبة المتقدمة، والعاقل من وعظ بغيره.

والمعنى[3]: أي وبعد أن أتاهم الرسل بما أتوهم فكذبوهم فيما جاؤوهم به.. أخذتهم بالعقاب والنكال، فانظر كيف كان شديد عقابي بهم، وإنكاري عليهم، فإن تمادى قومك وأصروا على إنكارهم واستمروا في عمايتهم.. حل بهم مثل ما حلَّ بأولئك، فتلك سنة الله لا تبديل لها ولا تغيير، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ ولا يخفى ما في هذا من شدة التهديد والوعيد.

ووجه التسلي[4]: أنه ﷺ كان يحزن عليهم، وقد نهى الله عن الحزن بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لأنهم كانوا غير مستعدين لما دعوا إليه من الإيمان والطاعة، فتوقع ذلك منهم كتوقع الجوهرية من الحجر القاسي مع أن الحزن للحق

---

(١) روح البيان.
(٢) النسفي.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

لا يضيع.

قال بعضهم: لا يخفى أن أجر كل نبي في التبليغ يكون على قدر ما ناله من المشقة الحاصلة له من المخالفين، وعلى قدر ما يقاسيه منهم، وكل من رد رسالة نبي ولم يؤمن بها أصلاً، فإن لذلك النبي أجر المصيبة، وللمصاب أجر على الله سبحانه بعدد من رد رسالته من أمته بلغوا ما بلغوا، وقس على هذا حال الولي الوارث الداعي إلى الله على بصيرة.

ثم ذكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته الباهرة، وخلقاً من مخلوقاته البديعة فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والاستفهام فيه تقريري[1]، والرؤية قلبية، والخطاب فيه لرسول الله ﷺ؛ أي: ألم تعلم يا محمد، يعني: قد علمت، أو لكل من يصلح له؛ أي: ألم تعلم يا محمد ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَنزَلَ﴾ بقدرته وحكمته ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: من الجهة العلوية سماءً أو سحاباً ﴿مَاءً﴾؛ أي: مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾؛ أي: بذلك الماء، والالتفات من الغيبة إلى التكلم لإظهار كمال الاعتناء بفعل الإخراج لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة، ولأن الرجوع إلى نون العظمة أهيب في العبارة. ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ جمع ثمرة، وهي اسم لكل ما يطعم من أحمال الشجر، ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ وصف سببي للثمرات، والمراد بالألوان: الأجناس والأصناف والهيئات؛ أي: مختلفاً أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها، أو أصنافها على أن كلاً منها ذو أصناف مختلفة كالعنب، فإن أصنافه تزيد على خمسين وكالتمر فإن أصنافه تزيد على مئة وكالذرة فإن أصنافها تزيد على مئة، أو هيئاتها من الصفرة والحمرة والخضرة والبياض والسواد وغيرها.

وقرأ الجمهور: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ على حد اختلف ألوانها، وقرأ زيد بن علي: ﴿مختلفة ألوانها﴾ على حد اختلفت ألوانها، وجمع التكسير يجوز فيه أن تلحق التاء فيه، وأن لا تلحق، يقول سبحانه: منبهاً إلى كمال قدرته: ألم تشاهد[2] أيها الرائي أنا خلقنا الأشياء المختلفة من الشيء الواحد، فأنزلنا من السماء ماءً، وأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها وطعومها وروائحها، كما هو مشاهد من ألوان الثمار من أصفر إلى أحمر إلى أخضر إلى نحو ذلك.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ونحو الآية قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ متبدأ وخبر، ولكنه على حذف مضاف، والجدد: جمع جدة بالضم بمعنى الطريقة التي يخالف لونها ما يليها، سواء كانت في الجبل أو في غيره، والخطة في ظهر الحمار تخالف لونه، ولما لم يصح الحكم على نفس الجدد بأنها من الجبال.. احتيج إلى تقدير المضاف؛ أي: أن من الجبال ما هو ذو جدد؛ أي: صاحب خطط وطرائق متلونة يخالف لونها لون الجبل، فيؤول المعنى إلى أن من الجبال ما هو مختلف ألوانه؛ لأن بيض صفة جدد، وحمر عطف على بيض، فتلا عليه السلام القرائن الثلاث، فإن ما قبلها ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾، وما بعدها ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾؛ أي: منهم بعض مختلف ألوانه، فلا بد في القرينة المتوسطة بينهما من ارتكاب الحذف، فيقال: ومن الجبال ما هو مختلف ألوانه ليؤول المعنى إلى ما ذكر فيحصل تناسب القرائن.

وقرأ الجمهور: ﴿جُدَدٌۢ﴾ بضم الجيم وفتح الدال، وقرأ الزهري: بضمهما، جمع: جديدة، وروي عنه أنه قرأ بفتحهما، وردها أبو حاتم، وصححها غيره. ﴿بِيضٌ﴾ جمع: أبيض صفة جدد، ﴿وَحُمْرٌ﴾ جمع: أحمر، معطوف على بيض، ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾؛ أي: ألوان تلك الجدد البيض والحمر بالشدة والضعف، فقوله: بيض وحمر، وإن كان صفة لجدد، إلا أن قوله: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ صفة لكل واحدة من الجدد البيض والحور، بمعنى أن بياض كل واحدة من الجدد البيض، وكذا حمرة الجدد الحمر يتفاوتان بالشدة والضعف، فرب أبيض أشد بياضاً من أبيض آخر، وكذلك رب أحمر أشد حمرةً من أحمر آخر، فنفس البياض مختلف، وكذا نفس الحمرة، فلذلك جمع لفظ ألوان مضافاً إلى ضمير كل واحد من البيض والحمر، فيكون كل واحد منهما من قبيل الكلي المشكك، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ صفة ثالثة لجدد، فيكون ضمير ألوانها للجدد، فيكون تأكيداً لقوله: ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾، ويكون اختلاف ألوان الجدد بأن يكون بعضها أبيض، وبعضها أحمر، فتكون الجدد كلها على لونين بياض وحمرة إلا أنه عبر عن اللونين بألوان لكثرة كل واحد منهما باعتبار محاله، كذا في «حواشي ابن الشيخ». قال

بعضهم: من شاهد جبال ديار العرب في طريق الحج وغيرها.. وجد هذه الأقسام كلها، فإنها وجدوها مختلفة متلونة انتهى. وقوله: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ معطوف على ﴿بِيضٌ﴾، فيكون من تفاصيل الجدد، والصفات القائمة بها كالبيض والحمر، كأنه قيل: ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود غرابيب؛ أي: شديدة السواد كالغراب، وإنما وسط الاختلاف؛ لأنه علم من الوصف بالغرابيب أنه ليس في الأسود اختلاف اللون بالشدة والضعف، ويجوز أن يكون غرابيب عطفاً على جدد، فلا يكون داخلاً في تفاصيل الجدد، بل يكون قسيمها، كأنه قيل: ومن الجبال مخطط ذو جدد، ومنها ما هو على لون واحد وهو السواد.

فالغرض من الآية: إما بيان اختلاف ألوان طرائق الجبال، كاختلاف ألوان الثمرات، فترى الطرائق الجبلية من البعيد منها بيض ومنها حمر ومنها سود، وإما بيان اختلاف ألوان الجبال نفسها، وكل منها أثر دال على القدرة الكاملة، كذا في «حواشي ابن الشيخ».

والغرابيب: جمع غربيب، كعفاريت وعفريت، يقال: أسود غربيب؛ أي: شديد السواد الذي يشبه لون الغراب، وكذا يقال: أسود حالك، كما يقال: أصفر فاقع، وأبيض يقق محركةً، وأحمر قانٍ لخالص الصفرة وشديد البياض والحمرة. وفي الحديث: «إن الله يبغض الشيخ الغربيب». يعني: الذي يخضب بالسواد، كما في تفسير «القرطبي» أو الذي يشيب كما في «المقاصد الحسنة»، والسود: جمع أسود، وفي «أبي السعود»: قوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ إيراد هاتين الجملتين اسميتين مع مشاركتهما للفعلية قبلهما في الاستشهاد بمضمون كل على تباين الناس في الأحوال لما أنَّ اختلاف الجبال والناس والدواب والأنعام فيما ذكر من الألوان أمر مستمر، فعبر عنه بما يدل على الاستمرار، وأما إخراج الثمرات المختلفة فأمر حادث، فعبر عنه بما يدل على الحدوث، ولما كان فيه نوع خفاء علق الرؤية به بطريق الاستفهام التقريري بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما، فإنها مشاهدة غنية عن التأمّل، فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية، فتدبر. انتهى منه.

فإن قلت[1]: إذا كان الغربيب تأكيداً للأسود، كالفاقع مثلاً للأصفر.. ينبغي

---

(١) روح البيان.

أن يقال: وسود غرابيب بتقديم السود؛ إذ من حق التأكيد أن يتبع المؤكد، ولا يتقدم عليه.

قلت: الغرابيب: تأكيد لمضمر يفسِّره ما بعده، والتقدير: سود غرابيب سود، فالتأكيد إذاً متأخر عن المؤكد، وفي الإضمار، ثم الإظهار مزيد تأكيد لما فيه من التكرار، وهذا أصوب من كون السود بدلاً من الغرابيب، كما ذهب إليه الأكثر حتى صاحب «القاموس»، كما قال: وأما غرابيب سود.. فبدل، لأن تأكيد الألوان لا يتقدم، وقيل هو على التقديم والتأخير؛ أي: سود غرابيب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: ومن بني آدم ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ جمع دابة، وهي ما يدب على الأرض من الحيوان، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: جمع نعم محركة، وقد يسكن عينه: الإبل والبقر والضأن والمعز دون غيرها من الدواب، وقوله: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ صفة لموصوف محذوف؛ أي: ومن هذه المذكورات صنف أو نوع أو بعض مختلف ألوانه، كاختلاف ألوان الثمرات والجبال بأن يكون أبيض وأحمر وأسود وأخضر وأصفر، ولم يقل هنا ألوانها؛ لأن الضمير يعود إلى البعض الدال عليه من التبعيضية في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وإنما ذكر سبحانه اختلاف الألوان في هذه الأشياء؛ لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله تعالى وبديع صنعه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ مشدد الباء، والزهري بتخفيفها؛ كراهية التضعيف؛ إذ فيه التقاء الساكنين، كما همز بعضهم ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فراراً من التقاء الساكنين، فحذف هنا آخر المضعفين، وحرّك أول الساكنين، وقرأ ابن السميقع: ﴿ألوانها﴾. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تمّ الكلام عليه، وهو وصف لمصدر محذوف مؤكّد تشبيهي، تقديره: مختلف ألوانه اختلافاً كائناً كذلك؛ أي: كاختلاف الثمار والجبال.

ولما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وعدَّد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس، وما يستدل به عليه، وعلى صفاته.. أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ﴾ سبحانه ويخافه ﴿مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ به الذين علموه بصفاته، فعظموه[2]؛ إذ شرط الخشية معرفة المخشي، والعلم بصفاته

---

(١) البحر المحيط. (٢) البيضاوي.

وأفعاله، فمن كان أعلم به كان أخشى منه، ولذلك قال النبي ﷺ: «إني أخشاكم لله وأتقاكم له»، وفي آخر: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية»، ومن كان علمه به أقل كان آمن، ولهذا أتبعه ذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته، وهو كلام مستأنف.

وفي «الإرشاد»: هو تتمة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بتعيين من يخشاه من الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم على معنى[1]: إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به، وبما يليق به من صفاته الجليلة، وأفعاله الجميلة، وعلى كل تقدير فهو سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشية، وهم العلماء به وبعظيم قدرته، قال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل، وقال مسروق: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار جهلاً، فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله.. فليس بعالم. وقال الشعبي: العالم من خاف الله وتقديم[2] المخشي وهو المفعول للاختصاص وحصر الفاعلية؛ أي: لا يخشى الله من بين عباده إلا العلماء، ولو أخر لانعكس الأمر، وصار المعنى: لا يخشون إلا الله، وبينهما تغاير، ففي الأول بيان أن الخاشين هم العلماء دون غيرهم، وفي الثاني بيان أن المخشي منه هو الله دون غيره.

وقرأ الجمهور: بنصب الجلالة ورفع العلماء، وقرأ أبو حنيفة وعمر بن عبد العزيز وابن سيرين: برفع الجلالة ونصب العلماء على أن الخشية استعارة للتعظيم، فإن المعظَّم يكون مهيباً، فالمعنى عليه: إنما يعظم الله سبحانه من بين جميع عباده العلماء، كما يعظِّم المهيب المخشي من الرجال بين الناس، وهذه القراءة ـ وإن كانت شاذة ـ لكنها مفيدة جداً، وجعل عبد الله بن عمر الخشية بمعنى الاختيار؛ أي: إنما يختار الله من بين عباده العلماء، وعلى كل من القراءتين في هذه الآية للعلماء منقبة عظيمة وخصلة حميدة.

والمعنى[3]: أي إنما يخاف الله فيتقي عقابه بطاعته العالمون بعظيم قدرته على ما يشاء من الأشياء، وأنه يفعل ما يريد؛ لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

معصيته، فخافه ورهبه خشية أن يعاقبه، وقد أثر عن ابن عباس أنه قال: العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً، وأحلّ حلاله وحرَّم حرامه وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسبه بعمله. وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغِب فيما رغَّب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الآية.

وعن عائشة رضي الله عنها: صنع رسول الله ﷺ شيئاً، فرخّص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخطب فحمد الله، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية» أخرجه البخاري ومسلم. ثم بيَّن سبب خشيتهم منه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ في انتقامه ممن كفر به ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب من آمن به وأطاعه، فهو قادر على عقوبة العصاة وقهرهم، وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم، ومن حق المعاقب والمثيب أن يخشى.

قيل[1]: الخشية: تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل يكون تارةً بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل، فعلى المؤمن أن يجتهد في تحصيل العلم بالله حتى يكون أخشى الناس، فبقدر مراتب العلم تكون مراتب الخوف والخشية وروي عن النبي ﷺ: أنه سئل: يا رسول الله، أينا أعلم؟ قال: «أخشاكم لله سبحانه وتعالى، إنما يخشى الله من عباده العلماء»، قال: يا رسول الله، فأيُّ الأصحاب أفضل؟ قال: «من إذا ذكرت الله.. أعانك، وإذا نسيت.. ذكّرك»، قالوا: فأيّ الأصحاب شر؟ قال: «الذي إذا ذكرت لم يعنك، وإذا نسيت لم يذكرك»، قالوا: فأيُّ الناس شرٌّ؟ قال: «اللهم اغفر للعلماء، العالم إذا فسد فسد الناس». كذا في «تفسير أبي الليث». نسأل الله سبحانه أن يجعلنا عاملين محقّقين، وفي الخوف والخشية صادقين ومحقّين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: يداومون على تلاوة القرآن، ويعملون بما فيه؛ إذ لا تنفع التلاوة بدون العمل، والتلاوة[2]: القراءة متتابعة، والقراءة أعم كالدراسة والأوراد الموظّفة، والقراءة منها، لكن التهجّي وتعليم الصبيان لا يعد قراءة، ولذا قالوا: لا يكره التهجّي للجنب والحائض

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والنفساء بالقرآن؛ لأنه لا يعد قارئاً، وكذا لا يكره لهم التعليم للصبيان وغيرهم حرفاً حرفاً، وكلمةً كلمةً مع القطع بين كل كلمتين، وقيل: معنى ﴿يَتْلُونَ﴾ يتّبعون كتاب الله، من قولهم: تلاه إذا اتبعه؛ لأن التلاوة بلا عمل لا نفع فيها، وقد ورد: «رب قارىء للقرآن والقرآن يلعنه».

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة؛ أي: أدّوها بآدابها وشرائطها وأركانها في أوقاتها، وغاير بين الجملتين بالاستقبال والمضي؛ لأن أوقات التلاوة أعم بخلاف أوقات الصلاة، وكذا أوقات الزكاة المدلول عليها بقوله: ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾ في وجوه البرّ ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ وأعطيناهم ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وهي ضد السر؛ أي: إنفاق سر وعلانية، أو ذوي سرّ وعلانية بمعنى مسرّين ومعلنين؛ أي: أنفقوا كيفما أمكن لهم من غير قصد إليهما، فيه حثّ على الإنفاق كيفما تهيّأ، فإن تهيّأ سراً فهو أفضل، وإلا فعلانية، ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء، فإن ترك الخير مخافة أن يقال فيه إنه مراءٍ هو عين الرياء، ويمكن أن يراد بالسر صدقة النفل، بالعلانية صدقة الفرض، وفيه أيضاً حثّ على الإنفاق في جميع الأوقات.

وجملة ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: يقصدون ويطلبون، ﴿تِجَٰرَةً﴾؛ أي: مثوبة ﴿لَّن تَبُورَ﴾ صفة لتجارة؛ أي: لن تبطل ولن تخسر ولن تهلك؛ أي: يأملون من ربهم، ويطلبون منه بأعمالهم المذكورة مثوبة مدّخرة لا تبطل ولا تحبط. قال في «الإرشاد»: وأتى بقوله: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران؛ لأنه اشتراء باقٍ بفانٍ، والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة قطعية بحصول رجائهم، وقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ متعلق بـ﴿يَرْجُونَ﴾[1]، أو بـ﴿لَّن تَبُورَ﴾ على معنى أنه ينتفي عنها الكساد، وتنفق عند الله ليوفيهم بحسب أعمالهم وخلوص نياتهم ﴿أُجُورَهُمْ﴾؛ أي: أجور أعمالهم من التلاوة والإقامة والإنفاق، فلا وقف على لن تبور أي لن تكسد لأجل أن يعطيهم أجور أعمالهم الصالحة وافية كاملة، أو متعلق بمحذوف دل عليه السياق؛ أي: فعلوا ذلك ليوفيهم أجور أعمالهم، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ أي: من جوده وكرمه وخزائن رحمته ما يشاء مما لم يخطر ببالهم عند العمل، ولم يستحقوا له، بل هو كرم محض، ومن

---

(١) البحر المحيط.

فضله يوم القيامة نصبهم في مقام الشفاعة ليشفعوا فيمن وجبت لهم النار من الأقرباء وغيرهم.

وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ تعليل[1] لما قبله من التوفية والزيادة؛ أي: غفور لفرطاتهم وفي «بحر العلوم»: ستَّار لكل ما صدر منهم مما من شأنه أن يستر، محاه له عن قلوبهم، وعن ديوان الحفظة. ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتهم؛ أي: مجازيهم عليها ومثيب لهم، وقيل[2]: إن هذه الجملة هي خبر إن في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ مع تقدير رابط؛ أي: غفور لهم، وتكون جملة ﴿يَرْجُونَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿أنفقوا﴾، والأول أولى.

وفي «التأويلات النجمية»: غفور يغفر تقصيرهم في العبودية، شكور يشكر سعيهم مع التقصير بفضل الربوبية.

وحاصل معنى الآية: أن الذين يتبعون كتاب الله تعالى، ويعملون بما فرض فيه من فرائض، فيؤدون الصلاة المفروضة لمواقيتها على ما رسمه الدين بإخلاص وخشية من ربهم، ويتصدقون مما أعطاهم من الأموال سراً وعلانية بلا بسط ولا إسراف، هؤلاء قد عاملوا ربهم راجين ربح تجارتهم بنيلهم عظيم ثوابه كفاء ما قدّموا من عمل مع الإخبات والإنابة إليه، ويبتغون فضلاً منه ورحمة فوق ذلك، وغفراناً لما فرط من زلاّتهم، وما اجترحوا من سيئاتهم، فالله هو الغفور لما فرط من المطيعين من الزلات، الشكور لطاعاتهم، فمجازيهم عليها الجزاء الأوفى، ونحو الآية قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

قال أبو الليث: الشكر على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: الشكر ممن دونه يكون بالطاعة وترك مخالفته.

والوجه الثاني: الشكر ممن هو شكله يكون بالجزاء والمكافأة.

والوجه الثالث: الشكر ممن فوقه يكون رضى منه باليسير، كما قال بعضهم الشكور: هو المجازي بالخير الكثير على العمل اليسير، والمعطي بالعمل في أيام

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

معدودة نعماً في الآخرة غير مجذوذة، ومن عرف أنه الشكور شكر نعمته، وآثر طاعته، وطلب رحمته، وشهد منته. قال الغزالي: وأحسن وجوه الشكر لنعم الله أن لا يستعملها في معاصيه، بل في طاعته.

﴿وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن، فـ﴿مِنَ﴾ للتبيين، أو هو اللوح المحفوظ، فـ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، وجملة قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: الصدق لا كذب فيه، ولا شكّ خبر الموصول حال كونه ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾؛ أي: موافقاً لما قبله من الكتب السماوية المنزّلة على الأنبياء في العقائد وأصول الأحكام، وهو حال مؤكدة؛ أي: أحقه مصدقاً؛ لأنَّ حقيّته لا تنفكّ عن هذا التصديق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَخَبِيرُۢ﴾؛ أي: محيط ببواطن أمورهم ﴿بَصِيرٞ﴾؛ أي: عالم بظواهرها، وقدّم الجار والمجرور لرعاية الفاصلة التي على حرف الراء، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوّة.. لم يوح إليك مثل هذا الحق المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب، يعرف صدقها منه، وتقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة في ذلك العلم والإحاطة هي الأمور الروحانية.

المعنى[1]: أي إن القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد هو الحق من ربك، وعليك وعلى أمتك أن تعمل به، وتتبّع ما فيه دون غيره من الكتب التي أوحيت إلى غيرك، وهو مصدق لما مضى بين يديه مما أنزل إلى الرسل من قبله، فصار إماماً لها، إن الله سبحانه خبير بأحوال عباده بصير بما يصلح لهم، فيشرّع لهم من الأحكام ما يناسب أحوال الناس في كل زمان ومكان، ويرسل من الرسل من هو حقيق بتبليغ ذلك للناس ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ للترتيب والتأخير؛ أي: بعدما أوحينا إليك، أو بعد كتب الأولين، كما دلّ ما قبله على كل منهما، وسئل سفيان الثوري على ماذا عطف بقوله: ﴿ثُمَّ﴾؟ قال: على إرادة الأزل، والأمر المقضي؛ أي: بعدما أردنا في الأزل. ﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: ملكنا بعظمتنا ملكاً تاماً، وأعطينا هذا القرآن عطاءً لا رجوع فيه. ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ المفعول الأول لـ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ الموصول، والمفعول الثاني ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وإنما قدّم المفعول الثاني لقصد التشريف والتعظيم للكتاب.

---

(١) المراغي.

والمعنى[1]: ثم أورثنا الذين اصطفيناهم واخترناهم من عبادنا هذا الكتاب الذي هو القرآن؛ أي: قضينا وقدّرنا في سابق علمنا بأن نورّث العلماء من أمتك يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك، ومعنى اصطفائهم: اختيارهم واستخلاصهم، ولا شكّ أنّ علماء هذه الأمة من الصحابة، فمن بعدهم قد شرّفهم الله تعالى على سائر العباد، وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء، سيّد ولد آدم، قال مقاتل: يعني قرآن محمد جعلناه ينتهي إلى الذين اصطفينا من عبادنا، وقيل: إن المعنى: أورثناه من الأمم السالفة؛ أي: أخرناه عنهم، وأعطيناه الذين اصطفينا، والأول أولى.

وهذه الأمة اصطفاهم الله تعالى على سائر الأمم، كما اصطفى رسولهم على جميع الرسل، وكتابهم على كل الكتب، وهذا الإيراث للمجموع لا يقتضي الاختصاص بمن يحفظ جميع القرآن، بل يشمل من يحفظ منه جزءاً، ولو أنه الفاتحة، فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يكن واحد منهم يحفظ جميع القرآن، ونحن على القطع بأنهم مصطفون.

ولما كانت الوراثة بالسبب والنسب، وكان السبب جنساً واحداً، كالزوجية، وهما صاحبا الفرض، وكان النسب من جنسين: الأصول كالآباء والأمهات، والفروع كل ما يتولّد من الأصول كالأولاد والأخوة والأخوات وأولادهم والأعمام وأولادهم، وهم صاحب فرض وعصبية، فصار مجموع الورثة ثلاثة أصناف: صنف صاحب الفرض بالسبب، وصنف صاحب الفرض بالنسب، وصنف صاحب الباقي وهم العصبة، كذلك الورثة ههنا ثلاثة أقسام، كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ﴾؛ أي: فمن الذين اصطفينا من عبادنا ﴿ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بما عمل من الصغائر؛ لأن عمل الصغائر لا ينافي الاصطفاء، ولا يمنع صاحبه من دخول الجنة مع الذين يدخلون الجنة، يحلون فيها من أساور من ذهب إلى آخر ما سيأتي، ووجه كونه ظالماً لنفسه أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له، فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات.. لكان لنفسه فيها من الثواب حظاً عظيماً، وهذا القول هو الراجح، وقد روي هذا القول عن عمر وعثمان وابن مسعود وأبي الدرداء وعائشة،

---

(١) روح البيان.

وقيل: الظالم لنفسه هو صاحب الكبائر، وقيل: هو المقصّر في العمل بالكتاب.

واعلم[1]: أن الظلم ثلاثة أقسام: ظلم بين الإنسان وبين الله، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، وظلم بينه وبين الناس، وظلم بينه وبين نفسه، وهو المراد بما في هذه الآية كما في «المفردات». وتقديم الظالم في الذكر لا يدل على تقديمه في الدرجة لقوله تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، كما في «الأسئلة المقحمة»، وقال بعضهم: قدم الظالم لكثرة الفاسقين، ولأن الظلم بمعنى الجهل، والركوب إلى الهوى مقتضى الجبلة، والاقتصاد والسبق عارضان، وقال أبو الليث: الحكمة في تقديم الظالم وتأخير السابق كي لا يعجب السابق بنفسه، ولا ييأس الظالم من رحمة الله.

وقال القشيري: في الإرث يبدأ بصاحب الفرض، وإن قلّ نصيبه، فكذا ههنا بدأ بالظالم، ونصيبه أقل من نصيب الآخرين، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾؛ أي: متوسط في العمل بالكتاب في أغلب الأوقات، ولا يخلو من خلط شيء أو متوسط في أمر الدين، بحيث لا يميل إلى جانب الإفراط، ولا إلى جانب التفريط، وهذا من أهل الجنة ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ﴾؛أي: متقدم إلى ثواب الله وجنته ورحمته ﴿بِالْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: بالأعمال الصالحة، بضم التعليم والإرشاد إلى العلم والعمل ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: بإرادته وتوفيقه، جعله في «كشف الأسرار» متعلقاً بالأصناف الثلاثة على معنى ظلم الظالم، وقصد المقتصد، وسبق السابق بعلم الله تعالى، والظاهر تعلقه بالسابق، كما ذهب إليه أجلاء المفسرين على معنى بتيسيره وتوفيقه وتمكينه من فعل الخير، لا باستقلاله، وفيه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها قال القشيري: كأنه قال: يا ظالم ارفع رأسك، فإنك وإن ظلمت فما ظلمت إلا نفسك، ويا سابق اخفض فإنك وإن سبقت فما سبقت إلا بتوفيقي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَابِقٌ﴾ على صيغة اسم الفاعل، وقرأ أبو عمران الحوفي وعمر بن أبي شجاع ويعقوب في رواية والقراءة عن أبي عمرو: ﴿سبَّاق﴾ على صيغة المبالغة، وقيل: المراد بالطوائف الثلاث: التالي للقرآن تلاوة مجرّدة، والقارىء له العامل به، والقارىء العامل بما فيه والمعلم له، وقال الحسن:

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الظالم: الذي رجحت سيئاته على حسناته، والمقتصد: الذي استوت حسناته وسيئاته، والسابق: من رجحت حسناته على سيئاته، وقيل: من ظاهره خير من باطنه، ومن استوى ظاهره وباطنه، ومن باطنه خير من ظاهره، أو من أسلم بعد فتح مكة، ومن أسلم بعد الهجرة قبل الفتح، ومن أسلم قبل الهجرة.

والمعنى[1]: أي أوحينا إليك القرآن، ثمّ أورثناه من اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة التي هي خير الأمم بشهادة الكتاب: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

وجعلناهم أقساماً ثلاثة: ظالم لنفسه مفرِّط في فعل بعض الواجبات، مرتكب لبعض المحرمات، مقتصد مؤدٌّ للواجبات، تارك للمحرمات، تقع منه تارة بعض الهفوات، وحيناً يترك بعض المستحسنات، سابقٌ بالخيرات بإذن الله، يقوم بأداء الواجبات والمستحبات، ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

والخلاصة: أن الأمة في العمل أقسام ثلاثة: مقصّر في العمل بالكتاب، مسرف على نفسه، ومتردّد بين العمل به ومخالفته، ومتقدم إلى ثواب الله تعالى بعمل الخيرات وصالح الأعمال بتيسير الله وتوفيقه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ السبق بالخيرات ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا يقادر قدره، والمن العظيم من الله الكبير، لا ينال إلا بتوفيقه، أو[2] ذلك الإيراث والاصطفاء، فيكون بالنظر إلى جميع المؤمنين من الأمة، وكونه فضلاً؛ لأن القرآن أفضل الكتب الإلهية، وهذه الأمة المرحومة أفضل جميع الأمم السابقة، وفي «التأويلات النجمية»: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الذي ذكر من الظالم مع السابق في الإيراث والاصطفاء ودخول الجنة، ومن دقائق حكمته أنه تعالى ما قال في هذه المعرض الفضل العظيم؛ لأن الفضل العظيم في حق الظالم أن يجمعه مع السابق في الفضل والمقام، كما جمعه معه في الذكر انتهى.

وبعد أن ذكر سبحانه أحوال السابقين.. بيَّن جزاءهم ومآلهم بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: بساتين استقرار وثبات وإقامة بلا رحيل؛ لأنه لا سبب للرحيل عنها، وهو إما بدل من الفضل الكبير؛ لأنه لما كان هو السبب في نيل الثواب.. نزّل منزلة المسبب، وعلى هذا فتكون جملة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ مستأنفة أو مبتدأ خبره قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾؛ أي: هؤلاء الثلاثة أصناف يدخلون جنات عدن، ومن دخلها لم يخرج

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

منها، وهذا هو الأولى بالترجيح، أو الضمير للسابق فقط، وجمعه لأن المراد بالسابق الجنس، وعلى هذا فتخصيص حال السابقين ومآلهم بالذكر، والسكوت عن الفريقين الآخرين وإن لم يدل على حرمانهما من دخول الجنة مطلقاً لكن فيه تحذير لهما من التقصير، وتحريض على السعي في إدراك شؤون السابقين.

والأول هو الأصح، وعليه عامة أهل العلم، كما في «كشف الأسرار» قال أبو الليث: في تفسير أول الآية وآخرها دليل على أنّ الأصناف الثلاثة كلهم مؤمنون يدخلون الجنة، فأما أول الآية فقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ فأخبر أنه أعطى الكتاب لهؤلاء الثلاث، وأما آخر الآية فقوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾؛ إذ لم يقل: يدخلانها. وفي «التأويلات النجمية»: لما ذكرهم أصنافاً ثلاثة رتّبها، ولما ذكر حديث الجنة والتنعّم والتزيّن فيها.. ذكرهم على الجمع، فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ الآية، نبَّه على أنّ دخولهم الجنة لا باستحقاق بل بفضله، وليس في الفضل تميّز فيمايتعلق بالنعمة دون ما يتعلق بالمنعم.

وقرأ الجمهور: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو: ﴿يدخلونها﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ زر بن حبيش والزهري ﴿جنة﴾ على الإفراد، والجمهور: ﴿جَنَّٰتُ﴾ بالجمع.

﴿يُحَلَّوْنَ﴾ خبر ثان، أو حال مقدرة؛ أي: يلبسون على سبيل التزيُّن والتحلي نساءً ورجالاً ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنات ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِن﴾ الأولى تبعيضية، والثانية بيانية؛ أي: يحلون بعض أساور كائنة من ذهب؛ لأنه أفضل من سائر أفرادها، والأساور جمع أسورة جمع سوار، كما سيأتي. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب معطوف على محل من أساور، واللؤلؤ: الدر؛ أي: ويحلون لؤلؤاً.

وقرأ الجمهور: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ بضم الياء وفتح الحاء وشدّ اللام مبنياً للمفعول، وقرىء بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف اللام من حليت المرأة، فهي حال إذا لبست الحليّ، وقرأ عاصم ونافع: ﴿لؤلؤا﴾ بالنصب عطفاً على محل ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، والباقون: بالجر عطفاً على ﴿ذَهَبٍ﴾.

وقال في «بحر العلوم»: معطوف على ﴿ذَهَبٍ﴾ فإنهم يسوّرون بالجنسين: أساور من ذهب، ومن لؤلؤ، وذلك على الله يسير، وكم من أمر من أمور الآخرة

يخالف أمور الدنيا، وهذا منها.

﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾؛ أي: ما يلبسون ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنات ﴿حَرِيرٌ﴾ لا كحرير الدنيا، فإنه لا يوجد من معناه في الدنيا إلا الاسم. والمعنى: أي: بساتين إقامة يدخلها هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب، واصطفيناهم من عبادنا يوم القيامة، ويحلون فيها أسورة من ذهب ولآلىء، ويكون لباسهم فيها حريراً. ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: ويقولون عند دخولهم الجنة حمداً لربهم على ما صنع بهم، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الإحاطة بأوصاف الكمال لمن له تمام القدرة، ﴿الَّذِي أَذْهَبَ﴾؛ أي: أزال ﴿عَنَّا﴾ بدخولنا الجنة، ﴿الْحَزَنَ﴾؛ أي: جنس الحزن والغم والهمّ، سواء كان حزن الدنيا، أو حزن الآخرة من همّ المعاش وحزن زوال النعم والجوع والعطش وخوف السلطان ودغدغة التحاسد والتباغض وحزن الأعراض والآفات ووسوسة إبليس والسيئات وردّ الطاعات وسوء العاقبة والموت وأهوال يوم القيامة والنار والمرور على الصراط، وغير ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿الْحَزَنَ﴾ بفتحتين، وقرأ جناح بن حُبيش: بضم الحاء وسكون الزاي: أي: ويقولون حينئذ: الحمد لله الذي أذهب عنا الخوف من كل ما نحذر، وأراحنا مما كنا نتخوّف من هموم الدنيا والآخرة، ثم ذكر السبب في ذهاب الحزن عنهم فقال: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ لذنوب المذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين. روي عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، ولا في نشورهم، وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور». رواه البغوي بسنده.

والخلاصة: أنه أذهب عنهم الحزن من خوف العاقبة، ومن أجل المعاش والوساوس، ولما ذكر سرورهم وكرامتهم بتحليتهم بالحلي، وإدخالهم الجنات.. ذكر سرورهم ببقائهم فيها، وأعلمهم بدوامها فقال: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾؛ أي: أنزلنا ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ والدوام التي يقام فيها أبداً، ولا ينتقل عنها، ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ ورحمته وإحسانه من غير أن يوجبه شيء من جهتنا. والمعنى[1]: ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾ المحسن إلينا

(١) روح البيان.

مع إساءتنا ﴿لَغَفُورٌ﴾ للمذنبين، فيبالغ في ستر ذنوبهم الخارج عن الحصر ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين، فيبالغ في إثابتهم، فإن الشكر من الله: الإثابة والجزاء الوفاق. وفي «التأويلات النجمية»: غفور للظالم لنفسه، شكور للمقتصد والسابق، وإنما قدم ما للظالم رفقاً بهم لضعف أحوالهم. انتهى.

ثمّ وصفوا الله بوصف آخر هو شكر له فقالوا: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا﴾ وأنزلنا ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ مفعول ثان لـ﴿أحلّ﴾، وليست بظرف، لأنها محدودة مختصة، والمقامة مصدر ميمي بمعنى الإقامة؛ أي: دار الإقامة التي لا انتقال عنها أبداً، فلا يريد النازل بها ارتحالاً منها، ولا يراد به ذلك ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: من إنعامه وتفضله من غير أن يوجبه شيء من قبلنا من الأعمال، فإن الحسنات فضل منه أيضاً، فلا واجب عليه.

وذلك أن دخول الجنة بالفضل والرحمة، واقتسام الدرجات بالأعمال والحسنات هذا مخلوق تحت رق مخلوق مثله لا يستحق على سيده عوضاً لخدمته، فكيف الظن بمن له الملك على الإطلاق، أيستحق من يعبده عوضاً على عبادته تعالى الله سبحانه عما تقول المعتزلة من الإيجاب. ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾؛ أي: حالة كوننا لا يصيبنا ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في دار الإقامة في وقت من الأوقات ﴿نَصَبٌ﴾؛ أي: تعب بدن ولا وجع، كما في الدنيا. ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾؛ أي: كلال وفتور وضعف ناشىء من تعب؛ إذ لا تكليف فيها ولا كد، وإذا أرادوا أن يروه سبحانه لا يحتاجون إلى قطع مسافة وانتظار وقت، بل هم في غرفهم يلقون فيها تحية وسلاماً، وإذا رأوه لا يحتاجون إلى تحديق مقلة في جهة يرونه، كما هم بلا كيفية.

والتصريح بنفي الثاني مع استلزام نفي الأول له، وتكرير الفعل للمبالغة في بيان انتفاء كل منهما.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لُغُوبٌ﴾ بضم اللام، وعلي بن أبي طالب وأبو عبد الرحمن السلمي: بفتحها.

والمعنى: أي إنَّ ربنا لغفور شكور؛ لأنه أنزلنا الجنة التي لا تحول عنها ولا

---

(١) البحر المحيط.

نقلة، ولا يصيبنا فيها نصب ولا وجع ولا إعياء ولا فتور.

والخلاصة: أنهم أتعبوا أنفسهم في العبادة في دار الدنيا، فاستراحوا راحة دائمة في الآخرة، كما قالوا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ وقيل للربيع بن خيثمة وقد كان يقوم ليله ويصوم نهاره: أتعبت نفسك، فقال: راحتها أطلب.

الإعراب

﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿النَّاسُ﴾: بدل من أيّ، أو عطف بيان له، وجملة النداء مستأنفة، ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: متعلق بالفقراء؛ لأنه جمع فقير، وفقير صفة مشبهة، ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿الْغَنِيُّ﴾: خبر أول، ﴿الْحَمِيدُ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة، ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم ﴿يَشَأْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَيَأْتِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾، ﴿بِخَلْقٍ﴾: متعلق بـ﴿يأت﴾، ﴿جَدِيدٍ﴾: صفة لـ﴿خلق﴾، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾: الواو: عاطفة ﴿ما﴾: حجازية، ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسمها، ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿عزيز﴾، ﴿بِعَزِيزٍ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة ﴿عزيز﴾: خبر ﴿ما﴾ الحجازية، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية ﴿لا﴾: نافية، ﴿تَزِرُ﴾: فعل مضارع، ﴿وَازِرَةٌ﴾: فاعل، أو صفة لفاعل محذوف؛ أي: نفس وازرة، ﴿وِزْرَ﴾: مفعول به، ﴿أُخْرَىٰ﴾: مضاف إليه، ﴿وَإِن﴾: الواو: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿تَدْعُ﴾: فعل مضارع

مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مُثْقَلَةٌ﴾: فاعل، ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَدْعُ﴾ ومفعول ﴿تَدْعُ﴾ محذوف للعلم؛ أي: أحداً من الناس، ﴿لَا﴾: نافية ﴿يُحْمَلْ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿مِنْهُ﴾: حال من ﴿شَيْءٌ﴾. ﴿شَيْءٌ﴾: نائب فاعل، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾. ﴿وَلَوْ﴾ الواو: عاطفة على جملة محذوفة وقعت حالاً، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على معلوم من السياق تقديره: ولو كان المدعو ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾: خبر كان منصوب بالألف، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: ولو كان المدعو ذا قربى.. لا يحمل منها شيئاً وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة محذوفة وقعت حالاً من مفعول ﴿تَدْعُ﴾ المحذوف، والتقدير: ولو كان المدعو غير قربى لا يحمل منه شيء، ولو كان ذا قربى.. لا يحمل منه شيء، والمعنى: لا يحمل منها المدعو شيئاً من حملها: حالة كونه غير قريب لها، وحالة كونه قريباً لها، وقد مرَّ أمثال ذلك في أوائل الكتاب فراجعها.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ حرف كاف ومكفوف، ﴿تُنذِرُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَخْشَوْنَ﴾ صلتهم، ﴿رَبَّهُم﴾: مفعول به لـ﴿يَخْشَوْنَ﴾. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَخْشَوْنَ﴾؛ أي: يخشون ربهم غائبين عن عذابه، أو من المفعول؛ أي: يخشون عذابه غائباً عنهم، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يَخْشَوْنَ﴾، ﴿وَمَن﴾: الواو: استئنافية، ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿تَزَكَّىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب ﴿إنما﴾: كافة ومكفوفة، ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾: ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ على أنه تعليل له، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾: معطوف عليه، والجملة مستأنفة مسوقة لضرب المثل للمؤمن والكافر، والتنافي بينهما في الذات والوصف والمستقر في الآخرة، ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها، ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾، ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾: معطوف على الظلمات، و﴿لا﴾: زائدة لتأكيد النفي، ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة لتأكيد النفي، ﴿ٱلظِّلُّ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾، ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾: معطوف على ﴿ٱلظِّلُّ﴾، ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾، ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَحْيَآءُ﴾، و﴿لا﴾: زائدة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿يُسْمِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يُسْمِعُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُۖ﴾ صلتها، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية حجازية، ﴿أَنتَ﴾: في محل الرفع اسمها، ﴿بِمُسْمِعٍ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة ﴿مسمع﴾: خبرها منصوب، والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿مسمع﴾. ﴿فِي ٱلْقُبُورِ﴾: متعلق بمحذوف صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿نَذِيرٌ﴾: خبر ﴿أَنتَ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من الفاعل؛ أي: محقين، أو من المفعول؛ أي: محقاً، أو نعت لمصدر محذوف؛ أي: إرسالاً متلبساً بالحق. ﴿بَشِيرًا﴾: حال من المفعول، ﴿وَنَذِيرًاۚ﴾: معطوف عليه. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿أُمَّةٍ﴾: مبتدأ ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿خَلَا﴾: فعل ماض، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خَلَا﴾، ﴿نَذِيرٌ﴾: فاعل ﴿خَلَا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾: فعل مضارع وفاعل ومفعول، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف تقديره: فاصبر على تكذيبهم، ولا تتأسف عليه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مع جوابها مستأنفة، ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية للجواب المحذوف، أو رابطة الجواب، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، والجملة الفعلية في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل الجواب المحذوف، أو هي الجواب، ﴿جَآءَتْهُمْ﴾: فعل ومفعول به، ﴿رُسُلُهُم﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الموصول على تقدير: قد، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿رُسُلُهُم﴾، أو متعلق بـ﴿جَآءَتْهُمْ﴾، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ﴾: معطوفان على البينات بإعادة الجار، ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾: صفة لـ﴿الكتاب﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول. ﴿فَكَيْفَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿كيف﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي، في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها وجوباً ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿نَكِيرِ﴾: اسمها مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة لرعاية الفاصلة، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم ونفي ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، أو على كل من يصلح للخطاب، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدم من ذكر اختلاف أحوال الناس، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَنزَلَ﴾: خبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾ سادة مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾ لأنها قلبية، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به لـ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أخرجنا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿أَنزَلَ﴾ على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم، ﴿بِهِۦ﴾:

متعلق بـ﴿أخرجنا﴾، ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾: مفعول ﴿أخرجنا﴾، ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾: صفة لـ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾، ولكنها سببية، ولذلك لم يؤنث لأنه أسند إلى جمع تكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث، ﴿أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾: فاعل لـ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾، ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة ﴿من الجبال﴾: خبر مقدم، ﴿جُدَدُۢ﴾: مبتدأ مؤخر، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: ومن الجبال ذو جدد وطرق بيض وحمر، والجملة الاسمية مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿أَنَّ﴾، فكأنه قال: ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، وأنه من الجبال ذو جدد بيض الخ. ﴿بِيضٞ﴾: صفة لـ﴿جُدَدُۢ﴾، ﴿وَحُمۡرٞ﴾: معطوف عليه، ﴿مُّخۡتَلِفٌ﴾: صفة لـ﴿جُدَدُۢ﴾ أيضاً، ﴿أَلۡوَٰنُهَا﴾: فاعل مختلف، ﴿وَغَرَابِيبُ﴾: معطوف على ﴿جُدَدُۢ﴾، ﴿سُودٞ﴾: بدل من ﴿غرابيب﴾، وجعله الزمخشري معطوفاً على ﴿بِيضٞ﴾، و﴿غرابيب﴾: صفة له مقدمة عليه مبالغة في التأكيد، فكأنه قيل: ومن الجبال جدد بيض وحمر وسود غرابيب؛ أي: شبيه بالغراب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمِنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من الناس﴾: خبر مقدم، ﴿وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: معطوفان على ﴿ٱلنَّاسِ﴾، ﴿مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾: صفة لمبتدأ مؤخر محذوف تقديره: صنف مختلف ألوانه كائن من الناس والدواب، ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾: فعل مختلف، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف تقديره: مختلف ألوانه اختلافاً كائناً كذلك؛ أي: كاختلاف ألوان الجبال، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يَخۡشَى ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول به مقدم على فاعله لإفادة الحصر، ﴿مِنۡ عِبَادِهِ﴾: حال من ﴿ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، و﴿ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول له، ﴿غَفُورٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول

به، صلة الموصول، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يَتْلُونَ﴾، ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَتْلُونَ﴾. ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ﴿أنفقوا﴾، ﴿رَزَقْنَـٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: رزقناهموه، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: منصوبان بنزع الخافض؛ أي: في السر والعلانية، أو على الحالية، أو على المفعولية المطلقة، ﴿يَرْجُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿تِجَـٰرَةً﴾: مفعول به، جملة ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿لَّن﴾: حرف نصب، ﴿تَبُورَ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿تِجَـٰرَةً﴾، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿تِجَـٰرَةً﴾، ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يوفيهم﴾: فعل مضارع ومفعول به أول وفاعل مستتر يعود على الله منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿أُجُورَهُمْ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿لَّن تَبُورَ﴾، على معنى أنها لن تكسد لأجل أن يوفيهم أجور أعمالهم الصالحة، وقيل: متعلق بمحذوف دل عليه السياق تقديره: فعلوا ذلك ليوفيهم أجورهم، ﴿وَيَزِيدَهُم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾، ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿يزيد﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول له، ﴿شَكُورٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها من التوفية والزيادة.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِىٓ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الذي﴾: مبتدأ ﴿أَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: أوحيناه، ﴿مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: حال من العائد المحذوف، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبر، والجملة مستأنفة، ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾. ﴿لِّمَا﴾: متعلق بـ﴿مُصَدِّقًا﴾، ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ﴿ما﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿لَخَبِيرٌ﴾، ﴿لَخَبِيرٌ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿خبيرٌ﴾: خبر أول لـ﴿إن﴾، ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخٍ، ﴿أَوْرَثْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثانٍ قدّم لشرفه، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿أَوْرَثْنَا﴾، والجملة معطوفة على محذوف معلوم من السياق تقديره: أوحينا إليك هذا الكتاب، ثم أورثناه الذين اصطفينا. ﴿ٱصْطَفَيْنَا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: اصطفيناهم. ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾: حال من الموصول، أو من العائد المحذوف، ﴿فَمِنْهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت إيراثنا إياهم، وأردت بيان تفاصيلهم.. فأقول لك: ﴿منهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿ظَالِمٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿ظَالِمٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَمِنْهُم﴾: خبر مقدم، ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿وَمِنْهُم﴾: خبر مقدم ﴿سَابِقٌۢ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿سَابِقٌۢ﴾، أو متعلق به، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْفَضْلُ﴾: خبر، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: صفة له، والجملة مستأنفة.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿جَنَّٰتُ﴾: مبتدأ، ﴿عَدْنٍ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾: خبر، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، أو ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: بدل من ﴿ٱلْفَضْلُ﴾، وجملة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ حال من ﴿جَنَّٰتُ﴾، ﴿يُحَلَّوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية خبر ثان لـ﴿جَنَّٰتُ﴾، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿أَسَاوِرَ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، ﴿مِن ذَهَبٍ﴾: صفة لـ﴿أَسَاوِرَ﴾، ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾: معطوف على محل ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِيهَا﴾: حال من ضمير الغائبين، ﴿حَرِيرٌ﴾: خبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُحَلَّوْنَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾: والتقدير: جنات

يدخلونها، ويقولون فيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة للجلالة ﴿أَذْهَبَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، صلة الموصول، ﴿عَنَّا﴾: متعلق بـ﴿أَذْهَبَ﴾، ﴿ٱلْحَزَنَ﴾: مفعول به ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَغَفُورٌ﴾: خبر أول لها، واللام: حرف ابتداء، ﴿شَكُورٌ﴾: خبر ثانٍ، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿ٱلْحَمْدُ﴾.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱلَّذِىٓ﴾: بدل من الموصول الأول، أو نعت ثانٍ للجلالة ﴿أَحَلَّنَا﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، صلة الموصول، ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿أَحَلَّنَا﴾ ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أَحَلَّنَا﴾، ﴿لَآ﴾: نافية، ﴿يَمَسُّنَا﴾: فعل ومفعول به، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿يَمَسُّنَا﴾، ﴿نَصَبٌ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿أَحَلَّنَا﴾ الأول، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا﴾: فعل ومفعول به، ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، ﴿لُغُوبٌ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الفقراء: جمع فقير، كالفقائر جمع: فقيرة، والفقير: المكسور الفقار، والفقر ذكره في «تاج المصادر» في باب ضرب، وجعله في «القاموس»: من حدِّ كرم، وقال الراغب في «المفردات»: يقال: افتقر فهو مفتقر وفقير، ولا يكاد يقال فقر، وإن كان القياس يقتضيه، انتهى. وفهم من هذا أن الفقير صيغة مبالغة، كالمفتقر بمعنى ذي الاحتياج الكثير الشديد، والفقر: وجود الحاجة الضرورية، وفقد ما يحتاج إليه.

﴿مُثْقَلَةٌ﴾ والمثقلة: النفس التي أثقلتها الذنوب والأوزار، قال الراغب: الثقل والخفة متقابلان، وكل ما يترجح عما يوزن به أو يقدر به يقال: هو ثقيل، وأصله في الأجسام، ثم يقال في المعاني: أثقله الغرم والوزر. انتهى.. فالثقل هنا: الإثم، سمي به لأنه يثقل صاحبه يوم القيامة، ويثبِّطه عن الثواب في الدنيا.

﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ قيل: في الأثقال المحمولة في الظاهر، كالشيء المحمول على الظهر، حمل بالكسر، وفي الأثقال المحمولة في الباطن، كالولد في البطن حمل

بالفتح، كما في «المفردات». وفي «المصباح»: الحمل بالكسر ما يحمل على الظهر ونحوه، والجمع أحمال وحمول، وحملت المتاع حملاً من باب ضرب، فأنا حامل، والأنثى حاملة بالتاء؛ لأنها صفة مشتركة، وفي «المختار»: قال ابن السكيت: الحمل بالفتح ما كان في البطن، أو على رأس شجرة، والحمل ـ بالكسر ـ: ما كان على ظهر أو رأس، قال الأزهري: وهذا هو الصواب، وهو قول الأصمعي.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾ يقال: وزر يزر كوعد يعد من الباب الثاني وزراً بالفتح والكسر، وزر يوزر من الرابع حمل، والوزر الإثم والثقل.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ والإنذار: الإبلاغ مع التخويف. ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ والأعمى: فاقد حاسة البصر، والبصير ضده.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ﴾: جمع ظلمة، وهي عدم النور. ﴿وَلَا النُّورُ﴾: وهو الضوء المنتشر المعين للأبصار. ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ قال الراغب: يقال لكل موضع لا تصل إليه الشمس ظل، ولا يقال الفيء إلا لما زال عنه الشمس، ويعبر بالظل عن العز والمنعة، وعن الرفاهية انتهى. والحرور: فعول من الحر غلب على السموم، وهي الريح الحارة التي تؤثر تأثير الشمس تكون غالباً بالنهار.

وعبارة «الزمخشري»: الحرور: السموم إلا أن السموم يكون بالنهار، والحرور بالليل والنهار، وقيل: بالنهار خاصة، وفي «المصباح»: الحر بالفتح خلاف البرد، يقال: حر اليوم والطعام يحر من باب تعب وحر حروراً من بابي قعد وضرب لغة، والاسم الحرارة، فهو حار، وحرت النار تحر من باب تعب توقدت وأسعرت، والحرة بالفتح: أرض ذات حجارة سود، والجمع: حرار، مثل: كلبة وكلاب، والحرور وزان رسول: الريح الحارة.

قال الفراء: تكون ليلاً ونهاراً، قال أبو عبيدة: أخبرنا رؤبة أن الحرور بالنهار، والسموم بالليل. وقال أبو عمرو بن العلاء: الحرور والسموم بالليل والنهار، والحرور مؤنثة، وعبارة «القاموس»: والحرور: الريح الحارة بالليل، وقد تكون بالنهار، وحر الشمس والحر الدائم والنار. انتهى.

فائدة: قال الزمخشري: فإن قلت ﴿لا﴾ المقرونة بواو العطف ما هي؟.

قلت: إذا وقعت الواو في النفي.. قرنت بها لتأكيد معنى النفي، انتهى.

وقد كررت ﴿لا﴾ هنا خمس مرات اثنين في الأولى ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠﴾، واثنين في الثانية ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ٢١﴾، وواحدة في الثالثة ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، فالزيادة في عبارتهم شاملة لأصل زيادتها كالأولى من الجملة الأولى، ولتكريرها كالثانية منها. اهـ شيخنا. والحي: من به القوة الحساسة، والميت: من زال عنه ذلك.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ جمع: قبر، وهو مقر الميت، يقال: قبرته جعلته في القبر.

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ الأمة: الجماعة الكثيرة، وتقال لكل أهل عصر، والمراد بها هنا: أهل العصر، فإن قيل: كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد لم يرسل إليها رسول ينذرها؟

أجيب: بأن آثار النذارة إذا كانت باقية لم تخلُ من نذير إلى أن تندرس، وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث محمداً ﷺ. اهـ «خطيب» و «خازن».

وهذا يقتضي أن أهل الفترة مكلفون لبقاء آثار الرسل المتقدمة فيهم. تأمل فالمسألة خلافية.

﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ قال الراغب: الخلاء: المكان الذي لا ساتر فيه من بناء وساكن وغيرهما، والخلو يستعمل في الزمان والمكان، لكن لما تصور في الزمان المضي.. فسر أهل اللغة قولهم خلا الزمان بقولهم: مضىٰ وذهب انتهى.

﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: جمع زبور بمعنى المكتوب من: زبرت الكتاب كتبته كتابة غليظة، وكل كتاب غليظ الكتابة يقال له زبور، كما في «المفردات». ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ جمع ثمرة، وهي اسم لكل ما يطعم من أحمال الشجر. ﴿جُدَدٌۢ﴾ - بالضم والفتح -: جمع جدة بالضم، وهي الطرق المختلفة الألوان في الجبل وغيره، كما مر.

﴿غرابيب﴾ جمع غربيب كعفاريت جمع عفريت، وهو شديد السواد، يقال: أسود غربيب، وأبيض يقق، وأصفر فاقع، وأحمر قان، وفي الحديث: «إن الله يبغض الشيخ الغربيب» يعني: الذي يخضب بالسواد. وقال امرؤ القيس في وصف فرسه:

الـعَـيْـنُ طَـامِـحَـةٌ والـيَـدُ سَـابِـحَـةٌ والـرِّجْـلُ لأَفِـحَـةٌ والـوَجْـهُ غِـرْبِـيـبُ

﴿سُودٌ﴾ جمع أسود، ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ جمع دابة، وهي ما يدب على الأرض من الحيوان، وغلب على ما يركب من الخيل والبغال والحمير، ويقع على المذكر. ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: جمع نعم محركة، وقد يسكن عينه: الإبل والبقر والضأن والمعز دون غيرها، فالخيل والبغال والحمير خارجة عن الأنعام.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ والعلانية: ضد السر، وهي الإظهار، وأكثر ما يقال ذلك في المعاني دون الأعيان، يقال: أعلنته فعلن؛ أي: أظهرته فظهر.

﴿تِجَٰرَةً﴾ والتجارة في العرف: تقليب المال لغرض الربح، والمراد من التجارة هنا: المعاملة مع الله لنيل الثواب، والتاجر الذي يبيع ويشتري وعمله التجارة وهي التصرف في رأس المال طالباً للربح، وليس في كلامهم تاء بعدها جيم غير هذه اللفظة، وأما تجاه فأصله وجاه وتجوب، فالتاء فيه للمضارعة.

﴿لَّن تَبُورَ﴾: البوار: فرط الكساد، والوصف منه: بائر، ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد.. عبر بالبوار عن الهلاك مطلقاً، ومن الهلاك المعنوي ما في قولهم: خذوا الطريق ولو دارت، وتزوجوا البكر ولو بارت، واسكنوا المدن ولو جارت. ﴿أُجُورَهُمْ﴾ جمع أجر، والأجر ثواب العمل.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال الراغب: الوراثة: انتقال قينة إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد، وسمي بذلك المنتقل عن الميت، ويقال لكل من حصل له شيء من غير تعب: قد ورث كذا انتهى.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ والاصطفاء في الأصل: تناول صفو الشيء وخالصه.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾؛ أي: عامل به تارة، ومخالف له أخرى، وإنما قال مقتصد بصيغة الافتعال؛ لأن ترك الإنسان للظلم في غاية الصعوبة.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ﴾؛ أي: متقدم إلى ثواب الله سبحانه، راجع دخول جنته، وأصل السبق: التقدم في السير، ويستعار لإحراز الفضل كما هنا.

﴿بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: بسبب ما يعمل من الخيرات والأعمال الصالحة، والخير كل ما يرغب فيه الكل، كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع، وضده: الشر.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ والأساور: جمع أسورة، وهو جمع سوار على وزن كتاب وغراب معرب «دستواره». ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ واللؤلؤ: الدر، سمي بذلك لتلألئه ولمعانه. ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ واللباس: اسم لما يلبس.

﴿حَرِيرٌ﴾: والحرير من الثياب: ما رق، كما في «المفردات»، وثوب يكون سداه ولحمته إبريسماً، وإن كان في الأصل الإبريسم المطبوخ، كما في «القهستاني»، ويحرم لبسه على الرجال دون النساء إلا في الحرب، كما هو مبسوط في علم الفروع.

﴿الْحَزَنَ﴾: الحزن ـ بفتحتين ـ والحزن ـ بالضم والسكون ـ واحد، وهو: خشونة الأرض، وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم، وضده الفرح. وقيل: الحزن ـ بالتحريك ـ: الخوف من محذور يقع في المستقبل.

﴿أَحَلَّنَا﴾؛ أي: أنزلنا يقال: حلت إذا نزلت من حل الأحمال عند النزول، ثم جرِّد استعماله للنزول فقيل: حل حلولاً وأحله غيره، والمحلة: مكان النزول، كما في «المفردات».

﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿أحل﴾، وليست بظرف؛ لأنها محدودة مختصة، فلو كان ظرفاً لتعدى إليه الفعل بفي، والمقامة ـ بالضم ـ: مصدر ميمي، تقول: أقام يقيم إقامة ومقامة. ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾ المس، كاللمس، وقد يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى. ﴿نَصَبٌ﴾؛ أي: تعب وكد بالأشغال.

﴿لُغُوبٌ﴾؛ أي: ضعف وملالة عن كثرة الأشغال، والفرق بين النصب واللغوب: أن النصب نفس المشقة والكلفة، واللغوب: ما يحدث منه من الفتور والضعف للجوارح. قال أبو حيان: هو لازم من تعب البدن، فهي الجديرة لعمري بأن يقال فيها:

عَلْيَاءُ لاَ تَنْزِلُ ٱلأَحْزَانُ سَاحَتَهَا ... لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

وفي «القاموس»: نصب كفرح: أعيا، وفي «المختار»: ونصب تعب، وبابه: طرب.

﴿لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب، وفي «القاموس»: لغب لغباً ولغوباً، كمنع وسمع وكرم: أعيا أشد الإعياء، وفي «المختار»: اللغوب ـ بضمتين ـ: التعب والإعياء،

وبابه: دخل، ولَغِب بالكسر لغوباً لغةٌ ضعيفة، فظاهر ما ورد في كتب اللغة أنهما متفقان في المعنى، ولكن الزمخشري فرَّق بينهما تفريقاً دقيقاً، فقال: فإن قلت: ما الفرق بين النصب واللغوب؟ قلت: النصب: التعب والمشقة التي تصيب المتنصِّب للأمر المزاول له، وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب، فالنصب نفس المشقة والكلفة، واللغوب نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تعريف الفقراء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ للمبالغة في فقرهم، كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء فقط، وأن افتقار غيرهم بالنسبة إلى فقرهم كالعدم.

ومنها: الطباق بين ﴿يذهب﴾ و﴿وَيَأْتِ﴾، بين ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، و﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ و﴿ٱلنُّورُ﴾، و﴿ٱلظِّلُّ﴾ و﴿ٱلْحَرُورُ﴾، و﴿ٱلْأَحْيَآءُ﴾ و﴿ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، وبين: ﴿نذيراً﴾ و﴿بَشِيرًا﴾، وبين ﴿سِرًّا﴾ و﴿علانية﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿تَزِرُ﴾ و﴿وَازِرَةٌ﴾ و﴿وِزْرَ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وبين ﴿حِمْلِهَا﴾ و﴿يُحْمَلْ﴾ في قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ الآية، شبه الكافر بالأعمى، والمؤمن بالبصير بجامع ظلام الطريق، وعدم الاهتداء على الكافر، ووضوح الرؤية، والاهتداء للمؤمن، ثم استعار المشبه به ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ للكافر، واستعار ﴿البصير﴾ للمؤمن بطريق الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: تكرار ﴿لا﴾ في قوله: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ مبالغة في تأكيد النفي.

ومنها: تقديم الأعمى على البصير، والظلمات على النور، والظل على الحرور لتتطابق فواصل الآي.

ومنها: إيثار صيغة الجمع في الطرفين في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾ تحقيقاً للتباين بين أفراد الفريقين.

ومنها: الاستعارة المرشحة في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ مثل المصرين على الكفر بالأموات، ورشح له بذكر القبور، وترشيح الاستعارة اقترانها بما يلائم المستعار منه، شبه تعالى من طبع على قلبه بالموتى في عدم القدرة على الإجابة، فكما لا يسمع أصحاب القبور ولا يجيبون، كذلك الكفار لا يسمعون ولا يقبلون الحق.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ لكون الإنذار هو المقصود الأهم من البعثة.

ومنها: إعادة الجار في المعطوف في قوله: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ﴾ لإفادة التأكيد.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ﴾ لذمهم بما في حيز الصلة، والإشعار بعلية الأخذ.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة في: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ﴾ لإظهار كمال الاعتناء بفعل الإخراج لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة، ولأن الرجوع إلى نون العظمة أهيب في العبارة.

ومنها: التدبيج في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ والتدبيج: أن يذكر المتكلم ألوانا يقصد الكناية بها والتورية بذكرها عن أشياء من وصف أو مدح أو هجاء أو غير ذلك من الفنون، وقد أراد الله سبحانه بذلك الكناية عن المشتبه من الطرق إلى آخر ما ذكروه هنا.

ومنها: العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فأورد هاتين الجملتين اسميتين مع مشاركتهما للفعلية قبلهما في الاستشهاد بمضمون كل على تباين الناس في الأحوال لما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والأنعام فيما ذكر من الألوان أمر مستمر، فعبر عنه بما يدل على

الاستمرار، وأما إخراج الثمرات المختلفة.. فأمر حادث، فعبر عنه بما يدل على الحدوث، ولما كان فيه نوع خفاء علّق الرؤية به بطريق الاستفهام التقريري، بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما، فإنها مشاهدة غنية عن التأمل، فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فتدبر، كما مر ذلك عن «أبي السعود».

ومنها: التقديم والتأخير لغرض الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فقصر الخشية على العلماء قصر صفة على موصوف، فكأنه قيل: إن الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم، أما إذا قدمت الفاعل.. فإن المعنى ينقلب إلى أنهم لا يخشون إلا الله، فيكون قصر موصوف على صفة، وهما معنيان مختلفان كما يبدو للمتأمل.

ومنها: مغايرة الأسلوب من الاستقبال في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ إلى المضي في قوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للدلالة على أن أوقات التلاوة أعم بخلاف أوقات الصلاة، وكذا أوقات الزكاة المدلول عليها بقوله: ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية المرشحة في قوله: ﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ استعار التجارة للمعاملة مع الله تعالى لنيل ثوابه، وشبَّهها بالتجارة الدنيوية، وهي المعاملة مع الخلق بالبيع والشراء لغرض الربح بجامع الاكتساب في كلٍّ، ثم رشّحها بقوله: ﴿لَّن تَبُورَ﴾.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ لمرعاة الفاصلة التي على حرف الراء.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ شبه إعطاء الكتاب إياهم من غير كد ولا تعب في وصوله إليهم بتوريث الوارث، وفيه أيضاً تقديم المفعول الثاني على المفعول الأول لشرفه وعظم قدره، وفي هذه الآية أيضاً من البلاغة الجمع ثم التقسيم، وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر في حكم، ثم يقسم ما جمعه، فجمع العباد هنا في إيراثهم الكتاب، ثم فصلهم بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ إلخ.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿عِبَادِنَا﴾.

ومنها: التعبير عن المستقبل بالماضي في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي:

ويقولون عند دخول الجنة: الحمد لله للدلالة على التحقق والوقوع.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] بيَّن ما لعباده الذين أورثوا الكتاب من النعمة في دار السرور.. أردف ذلك بذكر ما لأضدادهم من النقمة زيادة في سرورهم بما قاسوا في الدنيا من تكبرهم عليهم، وفخارهم بما أوتوا من نعيم زائد وجور لا يدوم. وعبارة أبي حيان[2]: لما ذكر حال المؤمنين ومقرهم.. ذكر حال

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

الكافرين، وهذا يدل على أن أولئك الثلاثة هم في الجنة، والذين كفروا هم مقابلوهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لماذكر فيما سلف أنه ليس للظالمين من ينصرهم، ويدفع العذاب عنهم.. أردف ذلك ببيان أنه محيط بالأشياء علماً، فلو كان لهم نصير في وقت ما.. لعلمه، إلا أنه تعالى لما نفى النصير على سبيل الاستمرار، وكان ذلك مظنة أن يقال: كيف يخلدون في العذاب، وقد ظلموا في أيام معدودات.. أعقب ذلك بذكر أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم، وأنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد، فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بيَّن[1] أنه هو الذي استخلفهم في الأرض.. أكد هذا بأمره ﷺ أن يقول لهم ما يضطرهم إلى الاعتراف بوحدانيته، وعدم إشراك غيره معه.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر تكذيبهم للتوحيد بإشراكهم الأوثان والأصنام، وبَكَّتهم على هذا أشد التبكيت، وضرب لهم الأمثال ليبين لهم سخف عقولهم وقبح معتقداتهم.. أردف ذلك بذكر إنكارهم للرسالة بعد أن كانوا مترقبين لها ناعين على أهل الكتاب تكذيب بعضهم بعضاً، فقالت اليهود: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء، ثم هددهم بأن عاقبتهم ستكون الهلاك الذي لا محيص عنه، وتلك سنة الله سبحانه في الأولين من قبلهم، وسنته لا تبديل فيها ولا تحويل.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه[2] لما هدد المشركين بجريان سنته فيهم بإهلاكهم، كما أهلك المكذبين من قبلهم.. نبَّههم إلى ذلك بما يشاهدونه من

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

آثارهم في رحلاتهم للتجارة في الشام والعراق واليمن، فقد خلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد وكثرة المال والولد، وما أغنى ذلك عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره؛ لأنه لا يعجزه شيء إذا أراده.

ثم ذكر حلمه بعباده، وأنه لو أخذهم بما اجترحوا من السيئات ما ترك على ظهر الأرض إنساناً يدبّ على وجهها، لكنّه أخر عقابهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم ويوفي كل عامل جزاء عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهو البصير بحال عباده.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال أنه بلغه أن قريشاً كانت تقول: لو أن الله بعث منّا نبياً.. ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها، ولا أسمع لنبيّها، ولا أشد تمسكاً بكتابها منا، فأنزل الله سبحانه قوله: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾، وقوله: ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾، وكانت اليهود تستفتح به على النصارى فيقولون: إنّا نجد نبيًّا يخرج.

التفسير وأوجه القراءة

ولمّا فرغ سبحانه وتعالى من ذكر جزاء عباده الصالحين.. ذكر جزاء عباده الطالحين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: جحدوا بوجود الله سبحانه، أو كفروا بوحدته ﴿لَهُمْ﴾ بمقابلة كفرهم الذي هو أكبر الكبائر وأقبح القبائح، ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي لا تشبه ناراً، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: لا يحكم عليهم بموت ثان، ﴿فَيَمُوتُوا﴾ ويستريحوا من العذاب، ونصبه بأن مضمرة في جواب النفي ﴿وَلَا

---

(١) لباب النقول.

﴿يُخَفَّفُ﴾؛ أي: لا يهوّن ولا يقلّل ولا يرفع، ﴿عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾؛ أي: من ﴿عذاب جهنم طرفة عين﴾، بل كلما خبت.. زيد استعارها، كما قال في آية أخرى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، وهذه الآية هي مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾، وقوله: ﴿عَنْهُم﴾ نائب مناب الفاعل، و﴿مِّنْ عَذَابِهَا﴾ في موضع النصب، أو بالعكس، وإن كانت ﴿مِنْ﴾ زائدة يتعيّن له الرفع ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع، ﴿نَجْزِي﴾ في الآخرة، ﴿كُلَّ كَفُورٍ﴾؛ أي: كل من هو مبالغ في الكفر، أو في الكفران، لا جزاء أخفّ وأدنى منه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَيَمُوتُوا﴾ بالنصب جواباً للنفي، وقرأ عيسى بن عمر والحسن: ﴿فيموتون﴾ بإثبات النون، قال أبو عثمان المازني: على العطف على ﴿يقضى﴾، وقال ابن عطية: هي قراءة ضعيفة، ولا وجه لهذا التضعيف، بل هي كقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾؛ أي: فلا يعتذرون، قال ابن عطية: وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿ولا يخففْ﴾ بإسكان الفاء، شبّه المنفصل بالمتصل، كقوله: فاليوم أشرب غير مستحقب.

وقرأ الجمهور: ﴿نَجْزِي كُلَّ﴾ مبنياً للفاعل، ونصب ﴿كل﴾ وقرأ أبو عمرو وأبو حاتم عن نافع بالياء مبنياً للمفعول ورفع ﴿كل﴾.

والمعنى[2]: أي والذين ستروا ما تدل عليه العقول من شموس الآيات وأنوار الدلالات، لهم نار جهنم، لا يحكم عليهم فيها بموت ثانٍ فيستريحوا من الآلام، ولا يخفّف عنهم العذاب فيها، بل كلّما خبت زيد سعيرها، ونحو الآية قوله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧)﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥)﴾، وقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾، وقوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)﴾.

ثم بيَّن أن هذا جزاء كل كافر بنعمة ربه جاحد بوحدانيته، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾؛ أي: وهكذا نكافىء كل جاحد لآلاء الله منكر لرسله، فندخله نار جهنم بما قدّم في الدنيا من سيئات عمله.

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: الكفار، ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾؛ أي: يصيحون ويستغيثون، ﴿فِيهَا﴾؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

أي: في نار جهنم، ويدعون ويتضرّعون ويقولون: يا ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا﴾ من هذه النار، وخلّصنا من عذابها، وردّنا إلى الدنيا، ﴿نَعۡمَلۡ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف، ويصح كونه صفة لمحذوف؛ أي: شيئاً صالحاً؛ أي: نؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية، وذلك لأنّ قبول الأعمال مبنيّ على الإيمان، ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ في الدنيا؛ أي: غير الذي عملناه في الدنيا أولاً، قيدوا العمل الصالح بهذا الوصف إشعاراً بأنهم كانوا يحسبون ما فعلوه صالحاً، والآن تبيّن خلافه؛ إذ كان هوًى وطبعاً ومخالفةً، وللتحسّر على ما عملوه من غير الأعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأنّ أعمالهم في الدنيا كانت غير صالحة؛ أي: وهم يستغيثون ويضجّون في النار يقولون ربّنا أخرجنا منها، وأعدنا إلى دار الدنيا.. نطعك ونعمل غير الذي كنا نعمل من معصيتك، وقد علم منهم أنه لو ردّهم إلى هذه الدار.. لعادوا إلى ما نهوا عنه، فأجاب الله سبحانه عليهم بقول: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ ونمهلكم يا معشر الكفار في الدنيا، ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾؛ أي: بقدر ما يتّعظ فيه، ﴿مَن تَذَكَّرَ﴾؛ أي: من أراد أن يتعظ ويؤمن، والهمزة فيه[1] للاستفهام التقريري المضمّن للتوبيخ، داخلة على محذوف يقتضيه المقام، والواو عاطفة على ذلك المحذوف والتعمير إطالة العمر، والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، و﴿مَّا﴾ نكرة موصوفة، أو مصدر يراد به الزمان، كقولك: أتيك غروب الشمس. والتقدير: ألم نعطكم مهلة، ولم نعمركم عمراً أو تعميراً أو وقتاً وزمناً يتذكر فيه من تذكر؛ أي: يتمكن فيه من التذكر والتفكر من أراد التذكر والتفكر في شأنه وإصلاح حاله، وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المطاولة أعظم، وهذا الزمن قيل: هو ستون سنة، قاله جماعة من الصحابة، وقيل: أربعون سنة، قاله الحسن ومسروق وغيرهما، وقيل: ثماني عشرة سنة، قاله عطاء وقتادة.

وقرأ الأعمش[2]: ﴿ما يذكّر فيه﴾ بالإدغام من اذكر بالإدغام، واجتلاب همة الوصل ملفوظاً بها في الدرج.

يعني: أنه إذا بلغ حدّ البلوغ يفتح الله له نظر العقل، فيلزم حينئذ على المكلف أن ينظر بنظر العقل إلى المصنوعات، فيعرف صانعها ويوحّده ويطيعه، وإذا بلغ إلى

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الثماني عشرة، أو العشرين، أو ما فوق ذلك يتأكد التكليف، ويلزم الحجة أشدّ من الأول، وفي الحديث: «أعذر الله إلى امرىء أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة»؛ أي: أزال عذره، ولم يبق له موضعاً للاعتذار؛ حيث أمهله طول هذه المدة، ولم يعتذر؛ لأن الستين قريب معترك المنايا، وهو زمن الإنابة والخشوع وترقب المنية ولقاء الله تعالى، ولعل سرّ تعيين ستين ما قاله النبي ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجاوز ذلك» رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، فإذا بلغ الستين وجاوزها.. كانت السبعون آخر زمان التذكُّر؛ لأن ما بعدها زمان الهرم.

وكل جماعة من الصحابة فمن بعدهم إذا بلغ أربعين سنة، أو رأى شيباً.. بالغ في الاجتهاد، وطوى الفراش، وأقبل على قيام الليل، وأقلَّ معاشرة الناس، ولا فرق في ذلك بين الأربعين فما دونها؛ لأن الأجل مكتوم لا يدري متى يحل، أيقظنا الله وإياكم من رقدة الغافلين، والمعنى[1]: عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفعون بالحق لانتفعتم به مدة عمركم، ونحو الآية حكاية عنهم: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.

والخلاصة: أنه تعالى لا يجيبكم إلى ما طلبتم؛ لأنكم كنتم عصاة، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾؛ أي: وجاءكم الرسول ومعه كاتب الله ينذركم بالعقاب إن خالفتم أمره وتركتم طاعته.

والخلاصة: أنه احتج عليهم بأمرين: طول العمر، وإرسال الرسل.

قوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ معطوف[2] على الجملة الاستفهامية؛ لأنه في معنى: قد عمرناكم، وجاءكم النذير من حيث إن همزة الإنكار إذا دخلت على حرف النفي أفادت التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢...﴾ الخ؛ لأنه في معنى: قد شرحنا إلخ.

والمراد بالنذير: رسول الله ﷺ، وعليه جمهور المفسرين، كما قاله الواحدي، وقيل المراد: أيُّ رسولٍ كان؛ لأن الكلام مع الكفار على الإطلاق، وقيل ما معه من القرآن. وقيل: كمال العقل؛ لأنه فارق بين الخير والشر، أو موت الأقارب

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

والجيران والإخوان، وقيل: الشيب، والمعنى عليه: أولم نعمّركم حتى شبتم، وفيه أن مجيء الشيب ليس بعام للجميع عموم ما قبله، وفي الأثر: ما من شعرة تبيضّ إلا قالت لأختها: استعدّي فقد قرب الموت، وقيل: غير ذلك.

قيل: أول من شاب من ولد آدم عليه السلام إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال: ما هذا يا رب؟ قال: هذا وقار في الدنيا، ونور في الآخرة، فقال: ربّ زدني من نورك ووقارك. وفي الحديث: «إن الله سبحانه يبغض الشيخ الغربيب»؛ أي: الذي لا يشيب، كما في «المقاصد الحسنة».

وقيل: أول من صلع من البشر آدم عليه السلام؛ لطوله أثّر فيه حر الشمس؛ لأن طوله كان ستين ذراعاً، والفاء في قوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم قطع أعذاركم بما ذكر من التعمير ومجيء النذير، وأردتم بيان ما تستحقّون.. فأقول لكم: ذوقوا عذاب جهنم؛ لأنكم لم تعتبروا ولم تتعظوا، فأنتم الظالمون، ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ اليوم، ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله تعالى، والفاء في قوله: ﴿فَمَا﴾ للتعليل؛ أي: فذوقوا العذاب؛ لأنه ليس للظالمين أنفسهم بالكفر والشرك ناصر يدفع عنهم العذاب، وفيه إشارة إلى أنهم كانوا في الدنيا نائمين، ولذا لم يذوقوا الألم، فلمّا ماتوا وبعثوا وتيقّظوا تيقّظاً تاماً.. ذاقوا العذاب وأدركوه.

والمعنى: أي فذوقوا عذاب النار جزاء مخالفتكم للأنبياء في حياتكم الدنيا، ولن تجدوا لكم ناصراً ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والسلاسل والأغلال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه، ﴿عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي عالم ما غاب في السموات والأرض عن العباد، وما شوهد لهم؛ أي: يختص بالله سبحانه علم كل شيء غاب عن العباد فيهما، وخفي عليهم، فكيف يخفى عليه أحوالهم، وأنهم لو ردوا إلى الدنيا.. لعادوا لما نهوا عنه؛ أي: أنه تعالى عالم بكل شيء، ومن ذلك أعمالكم لا تخفى عليه منها خافية، فلو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾.

قرأ الجمهور(١): ﴿عَٰلِمُ غَيْبِ﴾ بإضافة عالم إلى غيب، وقرأ جناح بن

---

(١) البحر المحيط.

حبيش: ﴿عالم﴾ منوّناً ﴿غيب﴾ بالنصب، وقيل: المعنى: أي[1] إن الله عالم ما تخفون أيها المشركون في أنفسكم، وما تضمرون، وما ستنوون أن تفعلوه، وما هو غائب عن أبصاركم في السموات والأرض، فاتّقوه أن يطّلع عليكم وأنتم تضمرون الكيد لرسوله، وتريدون إطفاء دينه، وتنصرون آلهتكم التي لا تنفعكم شيئاً يوم القيامة، والمعنى الأول أولى بالسياق، وفي هذا إيماءٌ إلى أنه لو مدّ أعمارهم لم يرجعوا عن الكفر أبداً، فلا مطمع في صلاحهم، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبلها؛ أي: لأنه عليم بما تكنّه السرائر وما تنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بما عمل؛ أي: لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى من كل شيء.. علم ما فوقها بالأولى، وقيل: هذه الجملة مفسّرة للجملة الأولى.

ولم يقل: ذوات الصدور[2]؛ لإرادة الجنس، وذات: تأنيث ذي بمعنى: صاحب، والمعنى: عليم بالمضمرات صاحبة الصدور؛ أي: القلوب، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه، وجعلت الخواطر القائمة بالقلب صاحبة له بملازمتها وحلولها، كما يقال للّبن ذو الإناء، ولولد المرأة وهو جنين: ذو بطنها، فالإضافة لأدنى ملابسة.

وفي «التأويلات النجمية»: أي عالم بإخلاص المخلصين وصدق الصادقين، وهما من غيب سموات القلوب، وعالم بنفاق المنافقين وجحد الجاحدين، وهما من غيب أرض النفوس انتهى. ثم ذكر ما هو سبب آخر لعلمه بالغيب قال: ﴿هُوَ﴾؛ أي: الله سبحانه، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي[3]: جعلكم أمة خالفة لمن قبلها، قال قتادة: خلفاً بعد خلف، وقرناً بعد قرن، والخلف هو التالي للمتقدم، وقيل: جعلكم خلفاءه في أرضه.

والخلائف[4]: جمع خليفة، وأما خلفاء فجمع خليف، كما سيأتي، وكلاهما بمعنى المستخلف؛ أي: جعلكم خلفاء في أرضه ممن كان قبلكم من الأمم،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة، ومن خلافتهم أن الله تعالى استخلفهم في خلق كثير من الأشياء كالخبز، فإنه تعالى يخلق الحنطة بالاستقلال، والإنسان بخلافته يطحنها ويخبزها، وكالثوب فإنه تعالى يخلق القطن والإنسان بخلافته، يغزله وينسج منه الثوب، وهلمّ جراً؛ أي[1]: هو الذي ألقى إليكم مقاليد التصرّف، والانتفاع بما في الأرض لتشكروه بالتوحيد والطاعة. ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم نعمة الخلافة بأن يخالف أمر مستخلفه، ولا ينقاد لأحكامه ويتّبع هواه ﴿فَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿كُفْرُهُۥ﴾؛ أي: وبال كفره، وجزاؤه: هو الطرد واللعن والنار، لا يتعدّاه إلى غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾؛ أي: إلا بغضاً وغضباً؛ أي: كلما استمروا في كفرهم أبغضهم ربهم وغضب عليهم ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ أي: نقصاً وهلاكاً؛ أي: وكلما اطمأنّوا إلى كفرهم خسروا أنفسهم يوم القيامة، وحق عليهم هو العذاب، والمعنى. أن الكفر لا ينفع عند الله تعالى؛ حيث لا يزيدهم إلا المقت، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يزيدهم إلا الخسار. والتكرير[2]: للتنبيه إلى اقتضاء الكفر لكل من الأمرين القبيحين: البغض، والخسران على سبيل الاستقلال والأصالة، والتنكير للتعظيم؛ أي: مقتاً عظيماً ليس وراءه خزي وصغار، وخساراً عظيماً ليس بعده شرٌّ وتبارٌ، ثم أمره سبحانه أن يوبّخهم ويبكّتهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد تبكيتاً لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾؛ أي: عن آلهتكم وأصنامكم، والإضافة إليهم؛ حيث لم يقل شركائي؛ لأنهم جعلوهم شركاء الله، وزعموا ذلك من غير أن يكون له أصل ما أصلاً، ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾؛ أي: تعبدون، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حال كونكم متجاوزين دعاء الله وعبادته؛ أي[3]: أخبروني عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهةً وعبدتموهم من دون الله تعالى، وجملة ﴿أَرُونِى﴾ - أي: أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أيَّ جزءٍ من أجزاء الأرض استبدّوا بخلقه دون الله - بدل من ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ بدل اشتمال، والمعنى: أخبروني عن شركائكم، أروني أيَّ شيء خلقوا من الأرض، وإنما فسّرنا الرؤية بالإخبار؛ لأنّ الرؤية والعلم سبب الإخبار،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

فاستعمل الإراءة في الإخبار، والمراد من الاستفهام في قوله: ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟﴾ الإنكار؛ أي: نفي ذلك، وقيل: إن الفعلان، وهما: أرأيتم وأروني من باب التنازع، وقد أعمل الثاني على ما هو اختيار البصريين، فإن: أرأيتم يطلب: ماذا خلقوا مفعولاً ثانياً، وأروني يطلبه أيضاً معلقاً له.

والمعنى[1]: أي أخبروني أيها المشركون عن شركائكم الذين تدعونهم من دون الله من الأصنام والأوثان، أروني أيَّ جزءٍ من الأرض، أو من الأناس والحيوان خلقوا حتى يستحقّوا الإلهية، والشركة.

والخلاصة: أعلمتم هذه الآلهة ما هي، وعلى أيِّ حال هي، فإن كنتم تعلمون أنها عاجزة، فكيف تعبدونها؟ وإن كنتم توهّمتم فيها القدرة، فأروني أثرها؟

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: بل ألهم شركة مع الله في خلق السموات أو ملكها أو التصرف فيها؛ ليستحقّوا بذلك شركة ذاتية في الألوهية، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: بل أعطينا الشركاء وأنزلنا عليهم، ويجوز أن يكون الضمير للمشركين، ويكون فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة. ﴿كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنا اتخذناهم شركاء، ﴿فَهُمْ﴾؛ أي: الشركاء أو المشركون، ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب بأنّ لهم شركة جعلية.

وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة وأبو عمرو وابن كثير وحفص وأبان عن عاصم[2]: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ بالإفراد، وباقي السبعة بالجمع، قال مقاتل: يقول تعالى: هل أعطينا كفار مكة كتاباً فهم على بيان منه بأنّ مع الله شريكاً.

وخلاصة ما تقدم[3]: أخبروني عمّن تعبدونهم من دون الله هل استبدُّوا بخلق شيء من الأرض حتى يعبدوا كعبادة الله، أو لهم شركة معه في خلق السموات، وآتيناهم برهاناً بهذه الشركة.

والخلاصة: أنّ عبادة هؤلاء؛ إما بدليل من العقل، ولا عقل يحكم بعبادة من لا يخلق شيئاً، وإما بدليل من النقل، وإنّا لم نؤت المشركين كتاباً فيه الأمر بعبادة

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

هؤلاء، وبعد أن نفى ما نفى من الحجج.. أضرب عن ذلك، وبيَّن أن الذي حملهم على الشرك هو تقرير السلف للخلف، وإضلال الرؤساء للأتباع، وقولهم لهم: إن هؤلاء شفعاء يشفعون لكم عند الله إذا أنتم عبدتموهم، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿بَلْ إِن﴾ نافية؛ أي: ما ﴿يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنفسهم بالشرك ﴿بَعْضُهُم﴾ وهم الرؤساء والأشراف، ﴿بَعْضًا﴾؛ أي: لبعض، وهم الأتباع، ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: إلا باطلاً لا أصل له، كما يفعله الرؤساء والقادة من المواعيد لأتباعهم؛ أي[1]: ما يعد بعضهم بعضاً إلا غروراً يغرونهم به ويزيّنونه لهم، وهو الأباطيل التي تغرّ، ولا حقيقة لها، وذلك قولهم: إن هذا الآلهة تنفعهم وتقرّبهم إلى الله، وتشفع لهم عنده، وهو تغرير محض، يسفّه بذلك آراءهم، وينبئهم على ذميم أحوالهم وأفعالهم، وخسّة هممهم، ونقصان عقولهم بإعراضهم عن الله، وإقبالهم على ما سواه؛ أي[2]: بل ما يعد الأسلاف للأخلاف، والرؤساء للسفلة في الدنيا بأن شركاءهم تقربهم إلى الله تعالى، وبأنها تشفع لهم في الآخرة، فتضر وتنفع، إلا باطلاً، وقيل: إن الشياطين تعد المشركين بذلك، وقيل: المراد بالوعد الذي يعد بعضهم بعضاً هو أنهم ينصرون على المسلمين ويغلبونهم، فعلى العاقل أن يصحّح التوحيد ويحقّقه، ولا يرى الفاعل والخالق إلا الله سبحانه وتعالى، ولما أبان حقارة الأصنام.. أرشد إلى عظمته تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: يحفظهما ويمنعهما من ﴿أَن تَزُولَا﴾ وتسقطا وتقعا.

أي[3]: إن الله سبحانه يمنع السموات أن تضطرب وتتحرَّك وتنتقل عن أماكنها، فترتفع أو تستخفض، ويمنع الأرض من مثل ذلك، ويحفظهما برباطٍ خاص، وهو ما يسمّيه العلماء نظام الجاذبية، فجميع العوالم من الأرض والقمر والشمس والسيارات الأخرى تجري في مدارات خاصة بهذا النظام الذي وضع لها، ولولا ذلك لتحطّمت هذه الكرات المشاهدة، وزالت عن أماكنها، لكنها به ثبتت في مواضعها، واستقرّت في مداراتها.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن زالت السموات والأرض عن مقرّهما

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

ومركزهما على سبيل الفرض، أو بتخليتهما، كما يكون يوم القيامة، ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾؛ أي: ما يمسكها ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِۦٓ﴾ تعالى؛ أي: ما يقدر أحد على إمساكهما وإعادتهما إلى محلهما ومكانهما من بعده تعالى؛ أي: ما يقدر أحد غيره تعالى على ذلك، أو المعنى: وإن أشرفتا على الزوال ما استطاع أحد غيره تعالى أن يمسكهما ويمنعهما عن السقوط.

والخلاصة: أنه لا يقدر على دوامهما وبقائهما على هذا الوضع إلا اللطيف الخبير، ونحو الآية قوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ حَلِيمًا﴾ غير معاجل بالعقوبة التي تستوجبها جنايات الكفار حيث أمسكهما، وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدّ العظيم كلمة الشرك، ﴿غَفُورًا﴾ لمن رجع عن كلمة الكفر، وقال بالوحدانية، تعليل لما قبلها من إمساكه تعالى للسموات والأرض؛ أي: ومن ثَمَّ حلم على المشركين، وغفر لمن تاب منهم على عظيم جرمهم المقتضي تعجيل العقوبة لهم.

والخلاصة: أنه يحلم وينظر ويؤجل، ولا يعجّل، ويستر ويغفر.

وفي «شرح الأسماء» للإمام الغزالي رحمه الله تعالى: الحليم: هو الذي يشاهد معصية العصاة، ويرى مخالفة الأمر، ثم لا يستفزّه غضب، ولا يعتريه غيظ، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش. انتهى.
والفرق بين الحليم والصبور: أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصبور، كما يأمنها في صفة الحليم؛ يعني: أن الصبور يشعر بأنه يعاقب في الأخرة بخلاف الحليم، كما في «المفاتيح». ولعل هذا بالنسبة إلى المؤمنين دون الكفار، فعلى العاقل أن يتخلَّق بهذا الاسم بأن يصفح عن الجنايات، ويسامح في المعاملات، بل يجازي الإساءة بالإحسان، فإنه من كمالات الإنسان.

واعلم: أنّ التوحيد سبب لنظام العالم بأسره، ألا ترى أنه لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله؛ أي: لا يوجد من يوحّد توحيداً حقيقياً، فإنه إذا انقرض أهل هذا التوحيد، وانتقل الأمر من الظهور إلى البطون.. يزول العالم، وينتقض أجزاؤه؛ لأنه إذاً يكون كجسد بلا روح، والروح إذا فارق الجسد يتسارع إلى الجسد البلى والفساد.

ويروى أنّ آخر مولود في النوع الإنساني يكون بالصّين، فيسري بعد ولادته العقم في الرجال والنساء، ويدعوهم إلى الله تعالى، فلا يجاب في هذه الدعوة، فإذا قبضه الله، وقبض مؤمني زمانه.. وبقي من بقي مثل البهائم، لا يَحِلُّون حلالاً، ولا يحرّمون حراماً، فعليهم تقوم الساعة، وتخرّب الدنيا، وينتقل الأمر إلى الآخرة.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾؛ أي: أقسم وحلف مشركوا مكة، ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ إما منصوب على المصدرية؛ أي: أغلظ أيمانهم وأشدّها وأوكدها، أو مصدر واقع موقع الحال؛ أي: جاهدين ومبالغين في أيمانهم، والجهد بالفتح: بلوغ الغاية في الاجتهاد، وأما بالضم.. فهو الطاقة، والأيمان: جمع يمين، واليمين في الحلف مستعار من اليمين بمعنى اليد اعتباراً بما يفعل المحالف والمعاهد عنده. قال الراغب: أي: حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم. انتهى، وكان أهل الجاهلية يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك، وكانوا يحلفون بالله، ويسمّونه جهد اليمين، وعبارة «الصاوي» هنا: وإنما كان الحلف بالله غاية أيمانهم؛ لأنهم كانوا يحلفون بآبائهم وأصنامهم، فإذا أرادوا التأكيد والتشديد.. حلفوا بالله، وهي اليمين المغلّظة، كما قال النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللَّهِ لِلْمَرْءِ مَطْلَبُ

أي: كما أن الله تعالى أعلى المطالب، كذلك الحلف به أعلى الأحلاف روي أن قريشاً بلغهم قبل مبعث النبي ﷺ أنَّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذبوهم، وحلفت قريش: واللهِ ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾؛ أي: واللهِ لئن جاء قريشاً نبيٌّ منذر مخوّف من عذاب الله ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾؛ أي: قريش ﴿أَهْدَىٰ﴾؛ أي: أطوع وأصوب ديناً، ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؛ أي[1]: من كل من اليهود والنصارى وغيرهم؛ لأن ﴿إِحْدَى﴾ شائعة، والأمم جمع، فليس المراد إحدى الأمتين اليهود والنصارى فقط، ولم يقل من الأمم بدون إحدى؛ لأنه لو قال لجاز أن يراد بعض الأمم وأنّث ﴿إِحْدَى﴾ لكون أمة مؤنثة.

والمعنى[2]: أي وأقسم المشركون بالله أغلظ الأيمان، وبالغوا فيها أشد

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

المبالغة، لئن جاءهم من الله رسول ينذرهم بأسه.. ليكوننّ أسلك لطريق الحق، وأشد قبولاً له من أيّ أمة من الأمم التي قد خلت من قبلهم، أو المعنى: فواللهِ لئن أتانا رسول لنكوننّ أهدى من إحدى الأمم؛ أي: من الأمة التي يقال فيها هي إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة، كما يقال للدّاهية العظيمة: هي إحدى الدواهي.

والخلاصة: من إحدى الأمم على العموم، أو من الأمة التي يقال لها: إحدى الأمم تفضيلاً لها، ولا ينافي عموم ما هنا قوله في أواخر سورة الأنعام: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾؛ أي: اليهود والنصارى، ثم قوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾؛ أي: إلى الحق؛ لأن[1] تخصيص الطائفتين وكتابيهما هناك إنما هو لاشتهارهما بين الأمم، واشتهارهما فيما بين الكتب السماوية.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾؛ أي: نذير أفضل الكل، وأشرف الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾؛ أي: ما زاد قريشاً ذلك النذير أو مجيئه. ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾؛ أي: إلا تباعداً عن الحق والهدى، وهرباً منه، وفيه إشعار بأن[2] المثبت أصل النفور؛ لكونهم جاهليّة لم يأتهم نذير من عهد إسماعيل، وإسناد الزيادة إليه مجاز؛ لأنه هو السبب في أن زادوا في أنفسهم نفوراً. ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدل من ﴿نُفُورًا﴾، أو مفعول له؛ أي: ما زادهم إلا عتوّاً وتكبّراً عن الإيمان به، أو ما زادهم إلا نفوراً لأجل الاستكبار والعتوّ، قال في «بحر العلوم»: الاستكبار والتكبّر، كالاستعظام والتعظّم لفظاً ومعنى. انتهى. قال بعضهم: إن الله تعالى قد أنشأك من الأرض، فلا ينبغي لك أن تعلو على أمك، ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ معطوف على ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾، أو على ﴿نُفُورًا﴾، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، كمسجد الجامع، وصلاة الأولى، وأصله: أن مكروا المكر السيء، فحذف الموصوف استغناء بوصفه، ثم بدل أن مع الفعل بالمصدر، ثم أضيف اتساعاً، وقال الراغب: المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان: محمود، وهو أن يتحرّى بذلك فعل جميل، وعلى ذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، ومذموم، وهو

---

(١) روح البيان.
(٢) الصاوي.

أن يتحرّى به فعل قبيح. انتهى. ومنه ما في هذه الآية، ولذا وُصف بالسيء.

والمعنى: ما زادهم إلا المكر السيىء في دفع أمره ﷺ، وفي قتله وإهلاكه، ومعنى الآية؛ أي[1]: ولكن حين جاءهم الرسول انعكست الآية، فما زادهم مجيئه إلا بعداً عن الإيمان بالله، وانصرافاً عن الحق، واستكباراً عن اتباع آياته، ومكروا بالناس مكراً سيئاً، فصدّوهم عن سبيله.

والخلاصة: أنه قد تبين أن لا عهد لهم مع ادّعائهم أنهم أوفى الناس، ولا صدق لهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق، وصار مثلهم مثل الإبل التي نفرت من ربها فضلت عن الطريق، فدعاها صاحبها، فازدادت بدعائه نفرة، وصارت بحيث يتعذّر أو يتعسّر ردّها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ بكسر همزة السيىء، وقرأ الأعمش وحمزة بإسكانها وصلاً، فإما إجراءً للوصل مجرى الوقف، وإما إسكاناً لتوالي الحركات، وإجراءً للمنفصل مجرى المتّصل، وقد غلّط كثير من النحاة هذه القراءة؛ ونزَّهوا الأعمش على جلالته أن يقرأ بها، قالوا: وإنما يقف بالسكون، فغلط من روى عنه أنه كان يقرأ بالسكون وصلاً، وتوجيه هذه القراءة ممكن بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف، كما في قول الشاعر:

فَٱلْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبِ ... إِثْماً مِنَ ٱللَّهِ وَلاَ وَاغِلِ

بسكون الباء من أشرب، ومثله قراءة من قرأ: ﴿وما يشعرْكم﴾ بسكون الراء، ومثل ذلك قراءة أبي عمرو: ﴿إلى بارئكم﴾ بسكون الهمزة، وغير ذلك كثير في كلامهم، قال أبو على الفارسي: هذا على إجراء الوصل مجرى الوقف، وروي عن ابن كثير: ﴿ومكر السئْي﴾ بهمزة ساكنة بعد السين وياء بعدها مكسورة، وهو مقلوب السيىء المخفّف من السيىء، كما قال الشاعر:

وَلاَ يُجْزُوْنَ مِنْ حَسَنٍ بِسَئْيٍ ... وَلاَ يُجْزُوْنَ مِنْ غِلْظٍ بِلِيْنِ

وقرأ ابن مسعود: ﴿ومكراً سيئاً﴾ عطف نكرة على نكرة، ثم بيّن أن عاقبة مكرهم عادت عليهم بالوبال بقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾؛ أي: لا يحيط، ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط والشوكاني.

ولا ينزل وباله. ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهو الماكر، وقد حاق بهم يوم بدر؛ أي: ولا يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم، وقُرِئ[1]: ﴿يُحِيقُ﴾ بضم الياء ﴿المكرَ السيءَ﴾ بالنصب؛ أي: ولا يحيق الله المكر السيىء إلا بأهله، روي الزهري أن النبي ﷺ قال: «لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً، فإن الله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ولا تبغوا، ولا تعينوا باغياً، فإن الله سبحانه يقول ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ولا تنكثوا، ولا تعينوا ناكثاً، فإن الله يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾».

وقد وقع مثل هذا في كلام العرب، فقد قالوا: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً والعبرة في الأمور بالعواقب. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

قال أبو عبد الله الرازي: فإن قلت[2]: كثيراً ما نرى الماكر يفيده مكره، ويغلب خصمه بالمكر، والآية تدل على عدم ذلك؟

فالجواب: من وجوه:

أحدها: أنّ المكر في الآية هو المكر بالرسول ﷺ من العزم على القتل والإخراج، ولا يحيق إلا بهم؛ حيث قتلوا ببدر.

وثانيها: أنه عام، وهو الأصح، فإنه صلى الله عليه وسلم نهى عن المكر، وقال: «لا تمكروا، ولا تعينوا ماكراً، فإنه تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾» فعلى هذا يكون ذلك الممكور به أهلاً، فلا يريد نقضاً.

وثالثها: أن الأمور بعواقبها، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر، ففي الحقيقة هو الفائز، والماكر هو الهالك. انتهى.

ثم هدّدهم بأن يحل بهم مثل ما أحلّ بمن قبلهم من العذاب فقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ النظر هنا بمعنى الانتظار، والاستفهام فيه إنكاريّ؛ أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون، ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إلا عادة الله سبحانه في الأولين؛ أي: في الأمم المتقدّمة بتعذيب مكذّبيهم وما كريهم؛ بأن ينزل بهؤلاء العذاب، كما نزل بأولئك. والفاء في قوله: ﴿فَلَن﴾ لتعليل[3] ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب من

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الفخر الرازي.

مجيئه، فجعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم؛ أي: فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك بعد تكذيبك إلا أن أنزل بهم من العذاب على شركهم بي وتكذيبهم رسولي، مثل ما أنزلت بمن قبلهم من أمثالهم الذين كذَّبوا رسلهم؛ لأنه لن ﴿تَجِدَ﴾ أيها المخاطب، أو يا محمد ﴿لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، وعادته في تعذيب الأمم المكذّبة. ﴿تَبْدِيلًا﴾؛ أي: تغييراً بأن يضع موضع العذاب الرحمة والعفو، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾؛ أي: نقلاً عن المستحق إلى غيره؛ بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم؛ أي: وهذه سنة الله في كل مكذب، فلا تغيّر ولا تبدّل، ولن يجعل الرحمة موضع العذاب، ولن يحوّل العذاب من نفس إلى أخرى، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما بالطريق البرهاني، وتخصيص كل منهما بنفي مستقل لتأكيد انتفائهما.

وفي «الفتوحات»: إن قلت[1]: التبديل: تغيير الشيء عمّا كان عليه مع بقاء مادّته، والتحويل: نقله من مكان إلى آخر، فكيف قال ذلك مع أنّ سنة الله لا تبدّل ولا تحوّل؟

قلتُ: أراد بالأول أنّ العذاب لا يبدّل بغيره، وبالثاني أنه لايحوّل عن مستحقّه إلى غيره، وجمع بينهما هنا تتميماً لتهديد المسيىء؛ لقبح مكره في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ اهـ «كرخي».

وفي الآية[2] تنبيه على أنّ فروع الشرائع وإن اختلفت صورها، فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدّل، وهو تطهير النفس وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى وجواره، كما في «المفردات». والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للاستفهام الإنكاري، أو التقريري، وهو الظاهر من دخول همزة الاستفهام على حرف النفي، وعبارة «الصاوي» هنا: والاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، ونفي النفي: إثبات.

والمعنى: بل ساروا في الأرض، ومرُّوا على ديار قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وغيره، فنظروا آثار ديارهم. انتهى. وهي داخلة على محذوف يقتضيه

(١) روح البيان.
(٢) الفتوحات.
(٣) روح البيان.

السياق، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقعد مشركوا مكة في مساكنهم، ولم يسيروا، ولم يذهبوا في نواحي الأرض إلى جانب الشام واليمن والعراق للتجارة. ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ ويعرفوا بمشاهدة آثار ديار الأمم الماضية العاتية، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: على أي حالة كان أخذهم، فإنهم هلكوا، لما كذبوا الرسل، وآثار هلاكهم باقية في ديارهم ﴿وَكَانُوٓاْ﴾؛ أي: والحال أنّ الذين من قبلهم كعاد وثمود وسبأ كانوا ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وأطول منهم أعماراً، وأكثر منهم أموالاً، فما نفعهم طول المدى، وما أغنى عنهم شدة القوى، وكثرة الغنى، وتقدم الكلام على نظير هذه الجملة في سورة الروم، وهناك قال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ استئناف إخبار عما كانوا عليه، وهنا قال: وكانوا؛ أي: وقد كانوا، فالجملة حال، فهما مقصدان ذكره أبو حيان.

وهذه الجملة مسوقة[1] لتقرير معنى ما قبلها، وتأكيده؛ أي: أقعدوا ولم يسيروا في الأرض، فينظروا ما أنزلنا بعاد وثمود ومدين وأمثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل، فإن ذلك هو من سنة الله في المكذبين التي لا تبدل ولا تحول، وآثار عذابهم، وما أنزل الله بهم موجودةٌ في مساكنهم، ظاهرة في منازلهم، والحال وآثار أولئك قد كانوا أشد منهم قوة جسم، وأطول أعماراً، وأكثر أموالاً، وأكبر أبداناً.

والخلاصة: أقعد هؤلاء المشركون بالله في مساكنهم، ولم يسيروا في الأرض التي أهلكنا فيها أهلها بكفرهم بنا، وتكذيبهم رسلنا أثناء رحلاتهم التي يسلكونها إلى طريق الشام في تجاراتهم، فينظروا على أي حالة كان أخذهم، ألم نهلكهم ونخرب مساكنهم، ونجعلهم مثلاً لمن بعدهم، فيتعظوا لهم، ويزدجروا عما هم عليه من الشرك بعبادتهم الآلهة من الأوثان والأصنام.

ثم بين أنهم إذا صاروا على تمردهم وعنادهم.. فهم لا يفلتون من عقابه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ تقرير لما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السابقة، واللام[2] و﴿من﴾ لتأكيد النفي المستفاد من ﴿ما﴾ والمعنى: استحال من كل الوجوه أن يعجز الله سبحانه شيء ويسبقه ويفوته ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا﴾ تأكيد آخر لـ﴿ما﴾ النافية، ففي الكلام ثلاث تأكيدات ﴿في الأرض﴾؛ أي: ما كان ليسبقه

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

ويفوته شيء من الأشياء كائناً ما كان فيهما، ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه، ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾؛ أي: بليغ العلم بكل شيء في العالم مما وجد ويوجد ﴿قديراً﴾؛ أي: بليغ القدرة على كل ممكن، ولذلك علم بجميع أعمالهم السيئة، فعاقبهم بموجبها، فمن كان قادراً على معاقبة من قبلهم كان قادراً على معاقبتهم إذا كانت أعمالهم مثل أعمالهم، أي: إنه تعالى عليم بمن يستحق أن تعجل له العقوبة، ومن قد تاب وأناب إلى ربه، ورجع عن ضلالته، قدير على الانتقام ممن شاء منهم، وعلى توفيق من أراد بالإيمان.

والإشارة في الآية أنه ما خاب له تعالى وليٌّ، ولا ربح له عدوٌّ فقد وسع لأوليائه فضلاً كثيراً، ودمرَّ على أعدائه تدميراً، وسبب الفضل والولاية هو التوحيد، كما أن سبب القهر والعداوة هو الشرك، وأن الله تعالى أمهل عباده، ولم يأخذهم بغتة، ليروا أن العفو والإحسان أحب إليه من الأخذ والانتقام، وليعلموا شفقته وبره وكرمه، وأن رحمته سبقت غضبه. ولما كان المشركون يستعجلون بالوعيد استهزاء، فيقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ...﴾بيَّن أنه لا يعاجلهم بالعقوبة على ما كسبوا لعلّهم يُنيبون أو ينيب بعضهم إلى ربه، ويؤوب إلى رشده فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿ٱلنَّاسَ﴾ جميعاً، ويعاقبهم ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب، وعملوا من الخطايا، ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾؛ أي: على ظهر الأرض ووجهها، والكناية راجعة إلى الأرض، وإن لم يسبق لها ذكر؛ لكونها مفهومة من المقام، وقال أبو حيان: وتقدَّم الكلام على نظير هذه الآية في سورة النحل، وقال هناك: ﴿عَلَيْهَا﴾، وهنا قال: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾، والضمير عائد على الأرض، إلا أن هناك يدل عليه سياق الكلام، وهنا يمكن أن يعود على ملفوظ به، وهو قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال هناك: ﴿بِظُلْمِهِم﴾ وقال هنا: ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ انتهى. وفي «الجمل» وهنا قال: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ استعارة من ظهر الدابة دلالة على التمكن والتقلب عليها، والمقام هنا يناسب ذلك؛ لأنه حث على السير للنظر والاعتبار، والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار كتابه.

فإن قيل: كيف يقال لما عليه الخلق وجه الأرض وظهر الأرض، مع أن الظهر مقابل الوجه، فهو من قبيل إطلاق الضدين على شيء واحد؟.

قلتُ: صح ذلك باعتبارين: فإنه يقال لظاهرها: ظهر الأرض من حيث أن

الأرض كالدابة الحاملة الأثقال، ويقال له: وجه الأرض؛ لكون الظاهر منها كالوجه للحيوان، وأن غيره كالبطن، وهو الباطن منها اهـ «زاده».

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: من نسمة تدب عليها كائنة ما كانت، سواء كانت من بني آدم؛ لأنهم المكلفون المجازون، ويعضده ما بعد الآية، أو من غيرهم أيضاً، فإن شؤم معاصي المكلفين يلحق الدواب في الصحارىٰ، والطيور في الهواء بالقحط ونحوه، ولذا يقال من أذنب ذنباً، فجميع الخلق ـ من الإنس والدواب والوحوش والطيور والذر ـ خصماؤه يوم القيامة، وقد أهلك الله في زمان نوح عليه السلام جميع الحيوانات إلا ما كان منها في السفينة، وذلك بشؤم المشركين وسببهم، وقال بعض الأئمة: ليس معناه أن البهيمة تؤخذ بذنب ابن آدم، ولكنها خلقت لابن آدم، فلا معنى لإبقائها بعد إفناء من خلقت له.

والمعنى: أي ولو يعاقب الله الناس ويكافئهم بما عملوا من الذنوب واجترحوا من الآثام.. ما ترك على ظهر الأرض نسمة تدب؛ لشؤم المعاصي التي يفتنون فيها: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ أي: يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقت معين معلوم عند الله تعالى، حدده لأخذهم، لا يقصرون دونه، ولا يتجاوزونه إذا بلغوه، فللعذاب أجل، والله لا يؤاخذ الناس بنفس الظلم، فإن الإنسان ظلوم جهول، وإنما يؤاخذ بالإصرار على المعاصي، وحصول يأس الناس عن إيمانهم، فإذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك الله المكذبين، ولو أخذهم بنفس الظلم.. لكان كل يوم إهلاك ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: وقت هلاكهم، وأخذهم، ومجازاتهم، وهو يوم القيامة، أو يوم لا يوجد في الخلق من يؤمن، أو يوم القتل والأسر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى يجازيهم بما عملوا من خير أو شر؛ لأن الله تعالى ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ لا يخفى عليه شيء من أمرهم، دقَّ أو جل، ظهر أو بطن. وجملة ﴿إن﴾ تعليل للجواب المحذوف، كما قدرناه، وهو العامل في إذا، لا جاء، كما توهّمه الشوكاني؛ لأن القاعدة عندهم: أن إذا خافضة لشرطها منصوبة بجوابها.

ثم إن البصير هو المدرك لكل موجود برؤيته، وخاصية هذا الاسم وجودز التوفيق عند ذكره، فمن قرأه قبل صلاة الجمعة مئة مرة فتح الله بصيرته، ووفقه لصالح القول والعمل، نسأل الله سبحانه أن يفتح بصيرتنا إلى جانب اللاهوت،

ويأخذنا عن التعلق بعالم الناسوت، ويختمنا بالخير، ويجعلنا ممن أتاه بقلب سليم.

الإعراب

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿الذين﴾ مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة له، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿الذين﴾، وجملة ﴿الذين﴾ معطوفة على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ ﴿لَا﴾: نافية ﴿يُقْضَىٰ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُقْضَىٰ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثانٍ للموصول، أو حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾ ﴿فَيَمُوتُوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية ﴿يموتوا﴾: فعل مضارع، وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النفي، وعلامة نصبه حذف النون، والجملة مع أن المضمرة في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكون قضاء عليهم، فموتهم، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لا﴾: نافية ﴿يُخَفَّفُ﴾ فعل مضارع مغيَّر الصيغة ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور نائب فاعل لـ﴿يُخَفَّفُ﴾ ﴿مِّنْ عَذَابِهَا﴾: متعلق بـ﴿يخفف﴾، ويجوز العكس، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿يُقْضَىٰ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف ﴿نَجْزِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله ﴿كُلَّ كَفُورٍ﴾: مفعول به، والتقدير: نجزي كل كفور جزاء كائناً كالجزاء المذكور، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾؛ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، ﴿فِيهَا﴾؛ متعلق بـ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ ﴿رَبَّنَا﴾؛ منادى مضاف، وجملة النداء مقول لقول محذوف وقع تفسيراً لـ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ تقديره؛ وهم يصطرخون فيها يقولون في صراخهم؛ ربنا إلخ، ﴿أَخْرِجْنَا﴾: فعل أمر، معناه الدعاء، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، و﴿نا﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف على كونها

جواب النداء، ﴿نَعۡمَلۡ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بالطلب السابق، والجملة في محل النصب مقول القول على كونها جواب الطلب ﴿صَٰلِحًا﴾: صفة أولى لمصدر محذوف؛ أي: عملاً صالحاً، أو لمفعول به محذوف؛ أي: شيئاً صالحاً ﴿غَيۡرَ﴾: صفة ثانية على كلا التقديرين، وصحَّ الوصف به مع كونه مضافاً إلى المعرفة لعدم تعرفه بالإضافة؛ لأنه من الأسماء المتوغلة في الإبهام ﴿غَيۡرَ﴾ مضاف، ﴿ٱلَّذِي﴾: مضاف إليه ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿نَعۡمَلۡ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: كنا نعمله

﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾.

﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري لدخولها على حرف النفي داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم نمهلكم ولم نعمركم، بل أمهلناكم وعمرناكم، والجملة المحذوفة مقول لقول محذوف تقديره: فيقال لهم: ألم نمهلكم ولم نعمركم، والقول المحذوف معطوف على القول المحذوف عند قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ ﴿لم نعمركم﴾: ﴿لم﴾: حرف جزم ﴿نُعَمِّرۡكُم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿ما﴾: نكرة موصوفة بمعنى عمراً أو زمناً في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿نُعَمِّرۡكُم﴾، أو ظرف متعلق به ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: فعل مضارع ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل لـ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ صفة لـ﴿ما﴾ ﴿تذكر﴾: فعل ماضٍ وفاعل مستتر صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَجَآءَكُمُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿جاءكم﴾: فعل ومفعول. ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ فعل ماضٍ ومفعول به وفاعل معطوف على قوله: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾؛ لأن معناه إخبار لكون الاستفهام فيه تقريرياً؛ أي: قد أمهلناكم وعمرناكم وجاءكم النذير، فلا عذر لكم، ﴿فَذُوقُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم تعميرنا إياكم، ومجيء النذير لكم، وأردتم بيان ما هو المستحق لكم.. فأقول لكم: ذوقوا. ﴿ذوقوا﴾: فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، والمفعول محذوف تقديره: فذوقوا نار جهنم، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مقول للقول

المحذوف ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية ﴿ما﴾ نافية ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾: خبر مقدم ﴿مِن﴾: زائدة ﴿نَّصِيرٍ﴾: مبتدأ مؤخر، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ حجازية عند من يجوّز تقديم خبرها على اسمها، إذا كان ظرفاً، والجملة الاسمية في محل النصب مقول للقول المحذوف على كونها معلّلة للأمر بالذوق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿عَٰلِمُ﴾ خبره ﴿غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مضاف إليه ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبره ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها من علمه غيب السموات والأرض. ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، ومفعولان، والجملة صلة الموصول ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾، أو صفة له ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم جعلنا إياكم خلائف في الأرض، وأردتم بيان عاقبتكم، فأقول لكم: ﴿من﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، فاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ الشرطية ﴿فَعَلَيْهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً ﴿عليه﴾: خبر مقدم ﴿كُفْرُهُۥ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعل ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مَقْتًا﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿يَزِيدُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الشرطية ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر ﴿خَسَارًا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، وكررت للتوكيد، ولزيادة التقرير على رسوخ الكفر في نفوسهم، واقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهائلين، وهما: المقت والخسار.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ورأى هنا بصرية تتعدى لمفعول واحد بلا همز، ولاثنين بالهمز، كما هنا، وهي بمعنى: أخبروني ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾: مفعول أول لأرى، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾: صفة لـ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: تدعونهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تَدْعُونَ﴾ ﴿أَرُونِي﴾: فعل أمر وفاعل ونون وقاية ومفعول أول، والجملة معترضة، وأعربها الزمخشري بدلاً من ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ ﴿مَاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿خَلَقُوا۟﴾ خبره؛ أي: أي شيء خلقوه، أو ﴿ما﴾ اسم استفهام مبتدأ، ﴿ذا﴾ اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبر لـ﴿ما﴾، وجملة ﴿خَلَقُوا۟﴾ صلة لذا الموصولة؛ أي: ما الذي خلقوه، والاستفهام فيه إنكاري ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿خَلَقُوا۟﴾، والجملة الاستفهامية في محل النصب مفعول ثانٍ؛ إما لـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، وإما لـ﴿أَرُونِي﴾، فالمسألة من باب التنازع، أو مفعول ثانٍ لـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وجملة ﴿أَرُونِي﴾ اعتراضية ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾: ﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري أضرب بها عن الاستفهام الإنكاري إلى استفهام آخر ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿شِرْكٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿شِرْكٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: ﴿أَمْ﴾: منقطعة أيضاً تفسر ببل، وهمزة الاستفهام ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿كِتَٰبًا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة الإضرابية في محل النصب معطوفة على ما قبلها ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿هم﴾: مبتدأ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ خبره ﴿مِّنْهُ﴾: صفة لـ﴿بَيِّنَتٍ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء ﴿إِنْ﴾: نافية ﴿يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾ ﴿بَعْضُهُم﴾: بدل من ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدل بعض من كل ﴿بَعْضًا﴾: مفعول به لـ﴿يَعِدُ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿غُرُورًا﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿يَعِدُ﴾، أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: إلا بغرور، أو صفة لمصدر محذوف، أي: إلا وعداً باطلاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَزُولَاۚ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية، وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية مع ما في حيزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، أي: عن زوالها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُمۡسِكُ﴾؛ لأنه بمعنى يمنع ويحفظ، أو منصوب على أنه بدل اشتمال من ﴿السماوات﴾ ﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة واللام موطئة للقسم ﴿أَنْ﴾: حرف شرط جازم ﴿زَالَتَآ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها ﴿إِنْ﴾ نافية ﴿أَمۡسَكَهُمَا﴾: فعل ماض ومفعول به ﴿مِن﴾: زائدة ﴿أَحَدٖ﴾: فاعل ﴿أمسك﴾ ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾: جار ومجرور حال من أحد، أو صفة له، وعلى هذا يكون المعنى أحد غيره تعالى، وجملة ﴿إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دلّ عليه جواب القسم على حد قول ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَىٰ اجتماعِ شَرْطٍ وقَسَم   جَوابَ ما أخَّرْتَ فهُوْ مُلْتَزَم

وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله ﴿حَلِيمًا﴾: خبر أول لها ﴿غَفُورٗا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢﴾.

﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أقسموا﴾ ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: منصوب على المصدرية، أو على الحال؛ أي: جاهدين ﴿لئن﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾: فعل ومفعول وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها﴿لَّيَكُونُنَّ﴾:

﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى ﴿يكونن﴾: فعل مضارع ناقص مرفوع لعدم اتصاله بنون التوكيد لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، و﴿الواو﴾ المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع اسمها، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب، أصله: ليكونونن، كما سيأتي ﴿أَهْدَىٰ﴾: خبر ﴿يكون﴾ ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَهْدَىٰ﴾، وجملة ﴿يكون﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مقول لقول محذوف، تقديره: وأقسموا بالله جهد أيمانهم قائلين لئن جاءهم نذير،وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف تقديره: إن جاءهم نذير يكونوا أهدى من إحدى الأمم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين القسم وجوابه ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿ما﴾: نافية ﴿زَادَهُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿نَذِيرٌ﴾ ومفعول به أول ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿نُفُورًا﴾: مفعول ثانٍ لزاد، والجملة الفعلية جواب ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لمّا﴾ معطوفة على جملة قوله: وأقسموا.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾: مفعول لأجله؛ أي: لأجل الاستكبار، أو بدل من ﴿نُفُورًا﴾، أو حال من مفعول ﴿زَادَهُمْ﴾، أي: حال كونهم مستكبرين ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾: معطوف على ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾، أو على ﴿نفوراً﴾، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، والأصل: المكر السيء أو أن هناك موصوفاً محذوفاً؛ أي: مكر العمل السيء ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿لا﴾: نافية ﴿يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ﴾: فعل وفاعل ﴿ٱلسَّيِّئُ﴾ صفته ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿بِأَهْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَحِيقُ﴾، والجملة في محل النصب حال من مكر السيء أو مستأنفة.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

﴿فَهَلْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت هؤلاء المشركين، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك: هل

ينظرون ﴿هل﴾: حرف للاستفهام الإنكاري ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: مفعول به، وهو مصدر مضاف إلى مفعوله؛ أي: سنة الله في الأولين، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿فَلَن﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية ﴿لن﴾: حرف نصب ﴿تَجِدَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر منصوب بـ﴿لن﴾، ﴿لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾: مجرور باللام، وهو مصدر مضاف إلى فاعله؛ لأنه تعالى سنّها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَبْدِيلًا﴾ و﴿تَبْدِيلًا﴾: مفعول ﴿تَجِدَ﴾؛ لأنه من وجد الضالة، بمعنى: أصاب، والجملة الفعلية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية ﴿وَلَن تَجِدَ﴾: فعل وناصب وفاعل مستتر ﴿لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تَحْوِيلًا﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقعدوا في منازلهم ولم يسيروا، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿يَسِيرُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ينظروا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَسِيرُوا۟﴾ ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر كان مقدم للزومه الصدارة ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول ﴿ينظروا﴾ معلقة عنها باسم الاستفهام ﴿وَكَانُوٓا۟﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿كانوا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿أَشَدَّ﴾: خبره ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بـ﴿أَشَدَّ﴾ ﴿قُوَّةً﴾: تمييز منصوب باسم التفضيل، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب حال من الذين ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿مَا﴾: نافية ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿لِيُعْجِزَهُۥ﴾ ﴿اللام﴾: حرف نفي وجحود ﴿يعجز﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، و﴿الهاء﴾ مفعول به ﴿مِن﴾: زائدة ﴿شَىْءٍ﴾: فاعل ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صفة لـ﴿شَىْءٍ﴾ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجملة يعجز صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام

تقديره: وما كان الله لإعجاز شيء إياه، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر كان، ولكن اللام بمعنى الباء، والتقدير: وما كان الله موصوفاً بإعجاز شيء في السمٰوات والأرض إياه، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير ما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السابقة ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على الله ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول لها ﴿قَدِيرًا﴾: خبر ثانٍ، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يُؤَاخِذُ﴾ ﴿كَسَبُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: بما كسبوه، ويحتمل كون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: بكسبهم ﴿ما﴾ نافية ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَرَكَ﴾ ﴿مِن﴾: زائدة ﴿دَآبَّةٍ﴾: مفعول ﴿تَرَكَ﴾، وجملة ﴿تَرَكَ﴾ جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾، ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: متعلق بـ﴿يؤخر﴾ ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة ﴿لِأَجَلٍ﴾، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية ﴿فَإِذَا جَآءَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، وجوابه محذوف تقديره: فيجازيهم على أعمالهم، والفاء رابطة الجواب، وجملة إذا معطوفة على الجملة الاستدراكية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على الله ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿بَصِيرًا﴾ ﴿بَصِيرًا﴾: خبر كان، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الجواب المحذوف.

﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾: أي: يصيحون أشد الصياح للاستغاثة، أصله: يصترخون بوزن يفتعلون من الاصطراخ، والاسطراخ: افتعال من الصراخ، وهو الصياح بجهد وشدة، دخلت الطاء فيه للمبالغة كدخولها في الاصطبار والاصطفاء والاصطناع والاصطياد جرياً على القاعدة المشهورة عند الصرفيين: أن الفعل المبدوء بأحد أحرف الإطباق، وهي: الصاد والضاد والطاء والظاء، إذا صيغ منه على وزن افتعل، وما يتصرف منه.. أبدلت تاء الافتعال طاء مثال ذلك: الأفعال: صلح ضرب طرد ظلم، إذا بنينا منها صيغة افتعل.. قلنا على القياس: اصتلح اضترب اطترد اظتلم، ولتخفيف اللفظ أبدلت التاء طاء، والمجانسة بينهما ظاهرة، فنقلت إلى اصطلح اضطرب اطرد اظطلم، ويجوز في نحو: اظطلم وجهان آخران: اظّلَم اطلَّم.

﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ والتعمير: إطالة العمر، والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، كما سبق.

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ هو المعتقدات والظنون التي في النفوس.

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة، وهو الذي يقوم بما كان قائماً به سلفه، وأما خلفاء فجمع خليف، وكلاهما بمعنى المستخلف بصيغة اسم المفعول.

﴿مَقۡتٗاۖ﴾؛ أي: بغضاً واحتقاراً، قال الراغب: المقت: البغض الشديد لمن يراه متعاطياً لقبيح اهـ.

﴿خَسَارٗا﴾؛ أي: خسارة، فالعمر كرأس المال إذا اشترى به صاحبه رضا الله تعالى ربح، وإذا اشترى سخطه خسر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: يحفظهما بقدرته، فإن الإمساك ضد الإرسال، وهو التعلق بالشيء وحفظه ﴿أَن تَزُولَاۚ﴾؛ أي: تضطربا وتنتقلا من أماكنهما، والزوال: الذهاب، وهو يقال في كل شيء قد كان ثابتاً قبل، أي: كراهة زوالهما عن أماكنهما، فإن الممكن حال بقائه لا بد له من حافظ.

﴿حَلِيمًا﴾ والحلم: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب، كما في «المفردات».

﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ أقسم: حلف، أصله: من القسامة، وهي أيمان تقسم على أولياء المقتول، ثم صار اسماً لكل حلف، كما في «المفردات».

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: غاية اجتهادهم فيها، قال الفراء: للجهد بالفتح من قولك اجهد جهدك؛ أي: ابلغ غايتك، والجهد بالضم الطاقة، وعند غير الفراء كلاهما بمعنى الطاقة اهـ «زاده». وإنما كان القسم بالله غاية أيمانهم؛ لأنهم كانوا يحلفون بآبائهم وأصنامهم، فإذا اشتد عليهم الحال، وأرادوا تحقيق الحق.. حلفوا بالله.

﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ بضم النون الأولى مضارع، اتصل به واو الجماعة، ولم تباشره نون التوكيد، أصله: ليكونونن بثلاث نونات، أولاها نون الرفع، حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، وواو الجماعة لالتقاء الساكنين، وهو معرب مرفوع بثبوت النون لعدم مباشرته بنون التوكيد لوجود الفاصل، وهو واو الجماعة.

﴿نُفُورًا﴾؛ أي: تباعداً عن الحق والهدى.

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾، الاستكبار: التكبر، كالاستعظام بمعنى التعظم. ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ قال الراغب: المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة، كما مر عنه ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾ قال في «القاموس»: حاق به يحيق حيقاً وحيوقاً وحيقاناً: أحاط به، كأحاق وحاق بهم العذاب: أحاط ونزل، كما في «المختار»، والحيق: ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله، أي: ولا يصيب ولا ينزل. ﴿يَنظُرُونَ﴾ النظر هنا بمعنى الانتظار ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ والسنة: الطريقة، وسنة النبي: طريقته التي كان يتحراها، وسنة الله: طريقة حكمته. ﴿تَبْدِيلًا﴾ بوضع الرحمة موضع العذاب. ﴿تَحْوِيلًا﴾ بأن ينقل عذابه من المكذبين إلى غيرهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع.

فمنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾.

ومنها: المبالغة في نحو ﴿كَفُورٍ﴾ و﴿شكور﴾ ونحو: ﴿حَلِيمًا﴾ ﴿عَلِيمًا﴾ ﴿قَدِيرًا﴾؛ فإنها من صيغ المبالغة.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾؛ لأن همزة الإنكار إذا دخلت على حرف النفي أفادت التقرير، لأنه في معنى: عمرناكم، نظيره قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؛ لأنه في معنى: قد شرحنا صدرك، ولا تغتر بما ذكره أكثر المفسرين هنا من أن الاستفهام إنكاري؛ لأنه غير صواب، والله أعلم.

ومنها: التهكُّم في قوله: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ مثل قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: خطرات القلوب، ففيه إسناد ما للحال إلى المحل؛ لأن الصدور محل القلوب، فالإضافة فيه لأدنى ملابسة.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ لزيادة التشنيع والتقبيح على من كفر بالله تعالى، وللتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والأصالة.

ومنها: التنكير للتعظيم في كل من الأمرين؛ أي: مقتاً عظيماً ليس وراءه خزي وصغار، وخساراً عظيماً ليس وراءه شرٌّ وتبار.

ومنها: الاستفهام الإنكاري للتوبيخ في قوله: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾، وكذلك قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ لأنه كناية عن حفظهما؛ لأن الإمساك في الأصل: التعلق بالشيء، فكنى به عن الحفظ.

ومنها: ائتلاف اللفظ مع المعنى في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، وهو أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضاً، ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها غير لائقة بمكانها؛ لأنه كانت هنا جميع الألفاظ المجاورة للقسم كلها من المستعمل المتداول فيه.

ومنها: إرسال المثل في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ قال كعب الأحبار لابن عباس في التوراة: من حفر حفرة لأخيه وقع فيه، فقال له ابن عباس: إنا وجدنا هذا في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾؛ لأن إسناد الزيادة للنذير مجاز مرسل؛ لأنه سبب في ذلك كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ اهـ «سمين».

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ لأن همزة الإنكار دخلت على حرف النفي، فأفادت التقرير؛ لأن نفي النفي إثبات، كما مر، فصار المعنى: قد ساروا ونظروا.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ لأن اللام في ﴿لِيُعْجِزَهُ﴾، و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لتأكيد النفي المستفاد من ﴿ما﴾، وكذا ﴿لا﴾ في قوله: ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ تأكيد آخر لـ﴿ما﴾ النافية، ففي الكلام ثلاث تأكيدات.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ فقد شبه الأرض بالدابة التي يركب الإنسان عليها، ويحمل عليها أنواع الأثقال، ثم حذف المشبه به وهو الدابة، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الظهر على طريقة الاستعارة المكنية.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من حكم وأحكام

وجملة ما تضمنته هذه السورة:

١ ـ الأدلة على قدرة الله سبحانه بإبداعه للكون، وأنه المنعم المتفضل.

٢ ـ تذكير الناس بالنعم ليشكروها.

٣ ـ تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ بذكر قصص المكذبين الأنبياء والمرسلين.

٤ ـ نداء الناس عامة بأن يتحلو بالفضائل، ويتخلوا عن الرذائل، ولا يتبعوا خطوات الشيطان، وينظروا فيما أبدع الرحمن من الآيات في الأرض والسموات.

٥ ـ ضرب الأمثال لما سلف من القسمين، وإيضاح الطائفتين المؤمنة والكافرة.

٦ ـ تقسيم المؤمنين إلى علماء محققين وصالحين متقين، ثم تقسيمهم من حيث العمل أقساماً ثلاثة.

٧ ـ وصف عاقبة الكافرين والمؤمنين، وما يلقاه كل منهما يوم القيامة[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة فاطر، في اليوم الثاني من شهر صفر المبارك قبيل الظهر من الشهور المنسلكة في سلك سنة أربع عشرة وأربع مئة وألف ٢/ ٢/ ١٤١٤ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، نسأل الله الكريم الرحيم لطفه ورحمته وعفوه العميم وعافيته الدائمة في الدنيا والدين لنا ولأحبابنا ولإخواننا المسلمين، آمين يا رب آمين، بحرمة كتابك الكريم.

سورة يس

سورة يس سورة مكية، قال القرطبي: بالإجماع إلا أن فرقة قالت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ نزلت في بني سلمة من الأنصار، حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله ﷺ، وليس زعماً صحيحاً، وسيأتي بيان ذلك، وقيل: إلا قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ . . . ٱللَّهُ﴾ الآية.

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: سورة يس نزلت بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله.

تسميتها: وسميت هذه السورة سورة يس؛ لأن الله سبحانه افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وتسمى أيضاً القلب والدافعة والقاضية والمعمِّمة.

وآيها: ثلاث وثمانون آية، وكلماتها: سبع مئة وتسع وعشرون كلمة، وحروفها: ثلاثة آلاف حرف.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال ابن حزم: سورة يس كلها محكمة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

مناسبتها لما قبلها:

١ ـ أنه لما ذكر في السورة السالفة قوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾، وقد أعرضوا عنه وكذبوه.. افتتح هذه السورة بالقسم بصحة رسالته، وأنه على صراط مستقيم؛ لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم.

٢ ـ أنه قال فيما قبلها: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وقال في هذه: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، وقال: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ﴾، وورد في فضلها أحاديث كثيرة:

فمنها: ما روي عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤا يس على موتاكم».

ومنها: ما ذكر الآجري من حديث أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: «ما من ميت يقرأ عليه يس إلا هوّن الله عليه».

ومنها: ما في مسند الدارمي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر الله له في تلك الليلة». أخرجه أبو نعيم الحافظ.

ومنها: ما روى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بها قراءة القرآن عشر مرات».

ومنها: ما روي عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «إن في القرآن لسورة تشفع لقارئها، وتغفر لمستمعها، ألا وهي سورة يس تدعى في التوراة: المعممة»، قيل: يا رسول الله، وما المعممة؟ قال: «تعم صاحبها بخير الدنيا، وتدفع عنه أهوال الآخرة، وتدعى أيضاً: الدافعة والقاضية»، قيل: يا رسول الله، وكيف ذلك؟ قال: تدفع عن صاحبها كل سوء، وتقضي له كل حاجة».

ومنها[1]: ما روى الدارمي عن شهر بن حوشب قال: قال ابن عباس: من قرأ يس حين أصبح يعطى يسر يومه حتى يمسي، ومن قرأها في صدر ليلة أعطي يسر ليلته حتى يصبح.

ومنها: ما روى الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن، فلا يقرؤون شيئاً سوى طه ويس»، وعن أبي جعفر قال: من وجد في قلبه قسوة فليكتب يس في جام؛ أي: إناء بزعفران، ثم يشربه.

ومنها: ما روى الثعلبي عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل مقبرة، فقرأ سورة يس.. خفف العذاب عن أهلها ذلك اليوم، وكان له بعدد من فيها حسنات» وقال يحيى بن أبي كثير: إن من قرأ سورة يس ليلاً لم يزل في فرح حتى يصبح، ومن قرأها حين يصبح لم يزل في فرح حتى يمسي، وقد حدثني بهذا

---

(١) القرطبي.

من جربها، ذكره الثعلبي وابن عطية، وقال ابن عطية: ويصدق ذلك التجربة، اهـ «قرطبي».

وفي «البيضاوي»: عن ابن عباس[1]: أنه ﷺ قال: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس، من قرأها يريد بها وجه الله غفر له، وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن عشر مرات، وأيما مسلم قرىء عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس.. نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً، يصلون عليه، ويستغفرون له، ويشهدون غسله، ويتبعون جنازته، ويصلون عليه، ويشهدون دفنه، وأيما مسلم قرأ سورة يس وهو في سكرات الموت.. لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان بشربة من الجنة، فيشربها وهو على فراشه، فيقبض روحه وهو ريان، ويمكث في قبره وهو ريان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان. اهـ.

ومنها: «يس لما قرئت له».

قلت: وورد في فضلها أحاديث كثيرة ذكرت أكثرها هنا، وأغلبها أحاديث فيها مقال، وفيها موضوعات، وإنما ذكرتها استئناساً بها في فضل هذه السورة الكريمة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البيضاوي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ
ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ
إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ
ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا
ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾
قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ
يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى
فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى
شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ
﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ
﴿٢٧﴾﴾.

المناسبة

قد سبق لك بيان وجه المناسبة بين آخر السورة السابقة وأول هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن هؤلاء المشركين قد ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون.. أردف ذلك بذكر مَثَلٍ لقوم حالهم كحالهم في الغلو في الكفر والإصرار على التكذيب والاستكبار على الرسل، وصم الآذان عن سماع الوعظ

والإرشاد، وهم أهل قرية أنطاكية ببلاد الشام، فقد كان قصصهم مع رسل الله، كقصص قومك معك في العناد والاستكبار والعتو والطغيان[1].

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات[2]: ما أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يقرأ في السجدة، فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش، حتى قاموا ليأخذوه، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم، وإذا بهم عمي لا يبصرون، فجاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: ننشدك الله والرحم يا محمد، فدعا حتى ذهب عنهم فنزلت: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: فلم يؤمن من ذلك النفر أحد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿يُبْصِرُونَ﴾ فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو أين هو أين هو؟ ولا يبصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري: قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾ الآية، فقال النبي ﷺ: «إن آثاركم تكتب، فلا تنتقلوا» وأخرج الطبراني عن ابن عباس مثله، قال الحافظ ابن كثير: وفي هذا الحديث غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية، والسورة بكمالها مكية، قلت: فلا وجه لقوله؛ لأنه إذا ثبت أن هذه الآية نزلت بمكة، فلا مانع من نزولها مرتين، وإن لم يثبت نزولها بمكة، فقد تكون السورة مكية إلا آية، كما هو معروف، والله أعلم.

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

قوله ﴿يسٓ ۝١﴾ قرأ الجمهور[1]: بسكون النون مظهرة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص وقالون وورش: بإدغام النون في الواو الذي بعدها، وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق بفتح النون، وقال الزجاج: النصب على أنه مفعول لفعل مقدر، كأنه قال: اتل يس، وهذا على مذهب سيبويه، أنه اسم للسورة، أو على البناء، وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق أيضاً والسمال ونصر بن عاصم: بكسرها على البناء أيضاً كجير، وقرأ الكلبي وهارون الأعور ومحمد بن السميقع: بضم النون على البناء كمنذ وحيث وقط، وقيل: على أنها خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذه يس، ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث، وقال الكلبي: هي بلغة طيء، يا إنسان، وقيل: الحركة لالتقاء الساكنين، الفتح لطلب الخفة كأين وكيف، والضم كحيث، والكسر على أصل التقاء الساكنين كأمسِ.

وإذا قيل إنه قسم.. فيجوز أن يكون معرباً بالنصب على ما قاله أبو حاتم، والرفع على الابتداء نحو: أمانة الله لأقومن، والجر على إضمار حرف الجر، وهو جائز عند الكوفيين، وعبارة[2] ابن الجوزي هنا: وقرأ الحسن وأبو الجوزاء: ﴿يسٓ ۝١﴾ بفتح الياء وكسر النون، وقرأ أبو المتوكل الناجي وأبو رجاء وابن أبي عبلة بفتح الياء والنون جميعاً، وقرأ أبو حصين الأسدي بكسر الياء وإظهار النون. قال الزجاج: والذي عند أهل العربية أن هذا بمنزلة افتتاح السور، وبعض العرب يسن، والقرآن بفتح النون، وهذا جائز في العربية لوجهين:

أحدهما: أن يس اسم للسورة، فكأنه قال: اتل يس، وهو على وزن هابيل وقابيل لا ينصرف.

والثاني: فتح لالتقاء الساكنين، والتسكين أجود؛ لأنه حرف هجاء. انتهى.

وقال صاحب «الروح»: ﴿يسٓ ۝١﴾ إما مسرود[3] على نمط التعديد، فلا حظ له من الإعراب أو اسم للسورة، وعليه الأكثر، فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ

---

(١) البحر المحيط بتصرف.
(٢) زاد المسير.
(٣) روح البيان.

محذوف؛ أي: هذه يس، أو النصب على أنه مفعول لفعل محذوف؛ أي: اقرأ يس، ويؤيِّد كونه اسم السورة قوله ﷺ: «إن الله تعالى قرأ طه ويس قبل أن خلق آدم بألفي عام، فإذا سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا، وطوبى لألسن تتكلم بهذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا».

قال الشوكاني[1]: واختلف في معنى هذه اللفظة، فقيل: معناها يا رجل، أو يا إنسان، قال ابن الأنباري: الوقف على يس حسن لمن قال هو افتتاح للسورة، ومن قال معناه: يا رجل، أو يا إنسان.. لم يقف عليه، وقال سعيد بن جبير وغيره: هو اسم من أسماء محمد ﷺ دليله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ قال السيد الحموي:

يَا نَفْسُ لا تَمْحَضِيْ بِٱلْودِّ جَاهِدَةً عَلَىٰ ٱلْمَوَدَّةِ إلاَّ آلَ يَاسِيْنَا

ومنه قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ أي: على آل محمد، وسيأتي في الصافات ما المراد بآل ياسين، قال الواحدي: قال ابن عباس والمفسرون: يريد يا إنسان؛ يعني: محمداً ﷺ، وقال أبو بكر الوراق: معناه: يا سيد البشر، وقال مالك: هو اسم من أسماء الله تعالى، روى ذلك عنه أشهب، وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق: أن معناه: يا سيد، وقال كعب: هو قسم أقسم الله به، وقالت فرقة[2]: ﴿يا﴾ حرف نداء، والسين مقامة مقام إنسان، انتزع منه حرف فأقيم مقامه، ورجح الزجاج: أن معناه يا محمد، وقال البقلي: أقسم بيد القدرة الأزلية وسناء الربوبية.

واختلفوا هل هو عربي، أو غير عربي؟: فقال سعيد بن جبير وعكرمة: حبشي، وقال الكلبي: سرياني، تكلَّمت به العرب.. فصار من لغتهم، وقال الشعبي: هو بلغة طيء، وقال الحسن: هو بلغة كلب، وذهب قوم[3] إلى أن الله تعالى لم يجعل لأحد سبيلاً إلى إدراك معاني الحروف المقطعة في أوائل السور، وقالوا: إن الله تعالى منفرد بعلمها، ونحن نؤمن بأنها من جملة القرآن العظيم،

---

(١) فتح القدير.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

ونكل علمها إليه تعالى ونقرأها تعبداً وامتثالاً لأمر الله تعالى، وتعظيماً لكلامه، وإن لم نفهم منها ما نفهمه من سائر الآيات، وهذا القول هو الأصح الأسلم الذي عليه أكثر السلف.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ بالجر على أنه مقسم به ابتداء، والواو فيه واو القسم؛ أي: أقسم بالقرآن الحكيم، وقيل: الواو للعطف على يس إن جعل يس مقسماً به؛ أي: أقسم بيس، وبالقرآن الحكيم، قال النقاش: لم يقسم الله سبحانه لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا لمحمد ﷺ تعظيماً له وتمجيداً، فقال في «إنسان العيون». من خصائصه عليه السلام أن الله تعالى أقسم على رسالته بقوله: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾. اهـ.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾؛ أي: الحاكم، كالعليم بمعنى العالم، فإنه يحكم بما فيه من الأحكام، فهو فعيل بمعنى: فاعل، أو المحكم المصفى من التناقض والعيب ومن التغير بوجه ما، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وهو الذي أحكم نظمه وأسلوبه، وأتقن معناه وفحواه، فهو فعيل بمعنى مفعل، كما تقول: عقدت العسل، فهو عقيد؛ أي: معقد، أو[1] ذي الحكمة؛ أي: المتضمن لها والمشتمل عليها، فإنه منبع كل حكمة، ومعدن كل عظة، فيكون بمعنى النسب مثل تامر بمعنى ذي تمر، أو هو من قبيل وصف الكلام بصفة المتكلم به؛ أي: الحكيم قائله.

﴿إِنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل، ويا أفضل الكل، وهو خطاب المواجهة بعد شرف القسم به، وهو مع قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جواب للقسم، والجملة لرد إنكار الكفرة بقولهم في حقه ﷺ لست مرسلاً، وما أرسل الله إلينا رسولا.

قال في «بحر العلوم»: هو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب بين المرسل به والمرسل إليه اللذين: أحدهما: المقسم به المنزل، والآخر المقسم عليه، المنزل إليه. انتهى.

وهذه الشهادة منه تعالى من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

---

(١) روح البيان.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ متعلق بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، والمعنى: أي: إنك يا محمد لمن المرسلين الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة، وهي التوحيد والاستقامة في الأمور كلها، قال ابن الجوزي: وأحسن[1] ما قيل في العربية أن يكون ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، ويكون قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ خبراً ثانياً لها، فيكون المعنى: إنك لمن المرسلين، إنك على صراط مستقيم. اهـ. ويجوز أن يكون على صراط مستقيم حالاً من الضمير المستكن في خبر ﴿إنّ﴾، والمعنى: أي: أقسم بالقرآن المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنك أيها الرسول لمن المرسلين الذين هم على دين قويم، وشرع مستقيم موصل إلى الجنة والرضى.

فإن قلت[2]: أيُّ حاجة إلى قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾، ومن المعلوم أن الرسل لا يكونون إلا على صراط مستقيم؟

قلتُ: فائدته وصف الشرع بالاستقامة صريحاً، وإن دل عليه لمن المرسلين التزاماً، فجمع بين الوصفين في نظام واحد، كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت استقامته، وقد نكره ليدل له على أنه أرسل من بين الصراط على صراط مستقيم لا يوازيه صراط، ولا يكتنه وصفه في الاستقامة، فالتنكير للتفخيم، كما سيأتي.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر وشيبة والحسن والأعرج والأعمش: برفع اللام على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا القرآن هو تنزيل العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه؛ أي: منزل منه سبحانه وتعالى، عبَّر عن المنزل بالمصدر مبالغةً حتى كأنه نفس التنزيل، ويجوز أن يكون خبراً لقوله: يس إن جعل اسماً للسورة؛ أي: سورة يس منزَّل من العزيز الرحيم، لا مختلق من عند محمد ﷺ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وطلحة والأشهب وعيسى بخلاف عنهما: بالنصب؛ إما على المصدرية؛ أي: نزَّل الله ذلك تنزيلاً من العزيز الرحيم، أو على المدح؛ أي: أمدح تنزيل العزيز الرحيم؛ أي: أمدح كتاباً منزلاً من العزيز الرحيم، وقرأ[3] أبو حيوة وأبي بن كعب وأبو رزين وأبو العالية

---

(١) زاد المسير.

(٢) روح البيان.

(٣) زاد المسير.

والجحدري وأبو جعفر يزيد بن القعقاع: بالجر على أنه نعت للقرآن؛ لأنه بمعنى المنزل، أو بدل منه، وعبر عنه بالمصدر، كما تقول العرب: هذا الدرهم ضرب الأمير؛ أي: مضروبه لكمال عراقته في كونه منزلاً من عند الله تعالى، فكأنه نفس التنزيل كما مر آنفاً.

والعزيز[1]: هو الغالب على جميع المقدورات، المتكبِّر الغني عن طاعة المطيعين، المنتقم ممن خالفه، ولم يصدق القرآن، وخاصية هذا الاسم وجود الغنى والعز صورة أو حقيقة أو معنى، فمن ذكره أربعين يوماً في كل يوم أربعين مرة.. أعانه الله تعالى وأعزه، فلم يحوجه إلى أحدٍ من خلقه، والرحيم: هو المتفضل على عباده المؤمنين بإنزال القرآن ليوقظهم من نوم الغفلة، ونعاس النسيان، وخاصية هذا الاسم رقة القلب والرحمة للمخلوقين، فمن دوامه كل يوم مئة مرة.. كان له ذلك، ومن خاف الوقوع في مكروه.. ذكره وقرينه وهو اسم الرحمن.

قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ متعلق بـ﴿تَنزِيلَ﴾؛ أي: نزل عليك القرآن لتنذر، أو بفعل مقدر يدل عليه من المرسلين؛ أي: أرسلناك لتنذر؛ أي: لتخوف بالقرآن، ﴿قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ ﴿مَّآ﴾: نافية، والجملة صفة مبينة لغاية احتياجهم إلى الإنذار، والمعنى: لتنذر قوماً غير منذر آباؤهم الأقربون؛ لتطاول مدة الفترة، ولم يكونوا من أهل الكتاب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يعني: العرب، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ويجوز أن تكون ﴿مَّآ﴾ موصولة، أو موصوفة على أن تكون الجملة مفعولاً ثانياً ﴿لتنذر﴾ بحذف العائد، والمعنى: لتنذر قوماً العذاب الذي أنذره آباؤهم، أو لتنذر قوماً عذاباً أنذره آباؤهم الأبعدون في زمن إسماعيل عليه السلام، وإنما وصف الآباء في التفسير الأول بالأقربين، وفي الثاني بالأبعدين؛ لئلا يلزم أن يكونوا منذرين وغير منذرين، فآباؤهم الأقدمون آتاهم النذير لا محالة، بخلاف آبائهم الأدنين، وهم قريش، فيكون ذلك بمعنى قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾، ويجوز أن تكون ﴿مَّآ﴾ مصدرية، فتكون نعتاً لمصدر مؤكد؛ أي: لتنذر قوماً إنذاراً كائناً مثل إنذار آبائهم الأقدمين من العذاب، ﴿فَهُمْ﴾؛

---

(١) روح البيان.

أي[1]: القوم وآباؤهم الأقربون، ﴿غَٰفِلُونَ﴾ عن أمر الآخرة، جاحدون لها، إن قلنا: إن ﴿مَآ﴾ نافية، أو فهؤلاء القوم غافلون عما أنذر به آباؤهم الأقدمون لامتداد المدرة إن قلنا إن ﴿مَآ﴾ موصولة، أو موصوفة.

وعبارة «الشوكاني» قوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[2] متعلق بنفي الإنذار على الوجه الأول؛ أي: لم ينذر آباؤهم فهم بسبب ذلك غافلون، وعلى الأوجه الأخيرة متعلق بقوله ﴿لِتُنذِرَ﴾؛ أي: فهم غافلون عما أنذرنا به آباءهم، وقد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المعنى على النفي، وهو الظاهر من النظم لترتيب فهم غافلون على ما قبله.

وعبارة «الروح»: قوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ متعلّق[3] بنفي الإنذار مترتب عليه، والضمير للفريقين: القوم والآباء؛ أي: لم ينذر آباؤهم فهم جميعاً لأجله غافلون عن الإيمان والرشد، وحجج التوحيد وأدلة البعث، والفاء داخلة على الحكم المسبَّب عما قبله، فالنفي المتقدِّم سبب له؛ يعني: أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم، ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ رداً لتعليل إنذاره، فالضمير للقوم خاصة؛ أي: فهم غافلون عما أنذر به آباؤهم الأقدمون؛ لامتداد المدة، فالفاء داخلة على سبب الحكم المتقدم.

والمعنى[4]: أي إنا أرسلناك لتنذر العرب الذين لم يأتهم نذير من قبلك، فهم في غفلة عن معرفة الشرائع التي فيها سعادة البشر، وإصلاح المجتمع، وذكرهم وحدهم هنا؛ لأن الخطاب كان معهم، وهذا لا يمنع أنه مرسل إلى الناس كافة، كما قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، واللام في قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: موطئة للقسم؛ أي: لقد حقت كلمة العذاب العاجل ووجبت ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾؛ أي: على أكثر أهل مكة، كأبي جهل وأصحابه، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: في علم الله تعالى، وقتلوا يوم بدر على الكفر؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد وجب وثبت قضاؤنا بالعذاب على أكثر أهل مكة، أو أكثر الكفار

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

على الإطلاق، أو أكثر كفار العرب، أو أكثر القوم الذين تنذرهم، وهم أهل مكة، وهم من مات على الكفر وأصر عليه أول حياته، فيتفرع قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على ما قبله؛ أي: لا يؤمنون بإنذارك إياهم، والفاء داخلة على الحكم المسبب عما قبله؛ أي: لأن الله تعالى قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر والموت عليه، وذهب الجمهور[1]: إلى أن المراد بهذا القول قوله تعالى لإبليس عند قوله: لأغوينهم أجمعين: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾، وهو المعنيُّ بقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وهذا القول لما تعلق بمن تبع إبليس من الجن والإنس، وكان أكثر أهل مكة ممن علم الله منهم الإصرار على اتباعه، واختيار الكفر إلى أن يموتوا.. كانوا ممن وجب وثبت عليهم مضمون هذا القول، لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يقتضيه، بل بسبب إصرارهم الاختياري على الكفر والإنكار، وعدم تأثرهم من التذكير والإنذار، ولما كان مناط ثبوت القول وتحققه عليهم إصرارهم على الكفر إلى الموت.. كان قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ متفرعاً في الحقيقة على ذلك، لا على ثبوت القول، وفُهِم من قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ أن أهل السعادة أقل، وإنما كان أهل السعادة أقل؛ لأن المقصود من الإيجاد ظهور الخليفة من العباد، وهو يحصل بواحدٍ مع أن الواحد على الحق، هو السواد الأعظم في الحقيقة.

فمن آمن فقد أعلى الدين، ومن أعلاه فقد تعرض لعلوه وعزه عند الله تعالى، ومن كفر.. فقد أراد إطفاء نور الله، والله متم نوره، ولما قال المشركون يوم أحد: أعل هبل، أعل هبل.. أذلهم الله وهبلهم، وهو صنم كان يعبد في الجاهلية، وهو الحجر الذي يطأه الناس في العتبة السفلى من باب بني شيبة، وهو الآن مكبوب على وجهه، وبلط الملوك فوقه البلاط، فإن كنت تفهم مثل هذه الأسرار، وإلا فاسكت، والله تعالى حكيم يضع الأمور كلها في مواضعها، فكل ما ظهر في العالم فهو حكمة وضعه في محله، لكن لا بد من الإنكار لما أنكره الشارع فإياك والغلط.

ومعنى الآية[2]: وعزتي وجلالي لقد وجب العقاب على أكثرهم؛ لأنه سبحانه سجل عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون به ولا يصدقون برسوله، لما علم من

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

خبث نفوسهم، وسوء استعدادهم، فلا تعمر قلوبهم بالإيمان، ولا تخبت لله في أيِّ زمان، ثم ضرب لهم مثلاً، فقال: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿جَعَلْنَا﴾؛ أي: خلقنا، أو صيرنا، ﴿فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾؛ أي: في أعناق أكثر أهل مكة، جمع: عنق، ﴿أَغْلَالًا﴾ ثقالاً عظيمة، جمع: غل، وهو ما يشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد، سواء كان من الحديد أو غيره، وقال القهستاني: الغل: الطوق من حديد، الجامع لليد إلى العنق، المانع من تحرك الرأس. اهـ. والفاء[1] في قوله: ﴿فَهِىَ﴾ للنتيجة، أو التعقيب؛ أي: فالأغلال منتهية، ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو مجتمع اللحيين؛ أي: فالأغلال لعظمها وضخامتها منتهية إلى أذقانهم، بحيث لا يتمكَّن المغلول معها من تحرك الرأس والالتفات، ووجه وصول الغل إلى الذقن، هو إما كونه غليظاً عريضاً يملأ ما بين الصدر والذقن، فلا جرم يصل إلى الذقن، ويرفع الرأس إلى فوق، وإما كون طوق الغل الذي يجمع اليدين إلى العنق، بحيث يكون في ملتقى طرفين تحت الذقن حلقة يدخل فيها رأس العمود الواصل بين ذلك الطوق وبين قيد اليد خارجاً عن الحلقة إلى الذقن، فلا يخلِّيه يحرِّك رأسه. ﴿فَهُم﴾؛ أي: أكثر أهل مكة بسبب ذلك ﴿مُّقْمَحُونَ﴾؛ أي: رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم، فإن الإقماح رفع الرأس إلى فوق مع غض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه، وقمح قموحاً عند رفع رأسه عند الحوض بعد الشرب؛ إما لارتوائه، أو لبرودة الماء، أو لكراهة طعمه، قال بعضهم: لفظ الآية - وإن كان ماضياً - لكنه إشارة إلى ما يفعل بهم في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ الآية، ولهذا قال الفقهاء: كره جعل الغل في عنق عبده؛ لأنه عقوبة أهل النار، قال الفقيه: إن في زماننا جرت العادة بذلك إذا خيف من الإباق، بخلاف التقييد، فإنه غير مكروه؛ لأنه سنة المسلمين في المتمردين.

هذا والجمهور[2] على أن الآية تمثيل لحال الأكثر في تصميمهم على الكفر، وعدم امتناعهم منه، وعدم التفاتهم إلى الحق، وعدم انعطاف أعناقهم، نحوه: بحال الذين غلت أعناقهم، فوصلت الأغلال إلى أذقانهم، وبقوا رافعين رؤوسهم، غاضين أبصارهم، فهم أيضاً لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

يطأطئون رؤوسهم له، ولا يكادون يرون الحق، أو ينظرون إلى جهته.

قال أبو حيان: والظاهر[1] أن قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ هو حقيقة لا استعارة، لما أخبر تعالى أنهم لا يؤمنون.. أخبر عن شيء من أحوالهم في الآخرة إذا دخلوا النار. انتهى. وقرأ ابن عباس[2]: ﴿إنا جعلنا في أيمانهم أغلالا﴾ قال الزجاج: أي: في أيديهم، قال النحاس: وهذه القراءة تفسير، ولا يقرأ بما خالف المصحف، قال: وفي الكلام حذف على قراءة الجماعة، التقدير: إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالاً، فهي إلى الأذقان، فلفظ ﴿هي﴾ كناية عن الأيدي، لا عن الأعناق، والعرب تحذف مثل هذا، ونظيره: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾؛ أي: والبرد؛ لأن الغل إذا كان في العنق.. فلا بد أن يكون في اليد، ولا سيما وقد قال الله تعالى: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، فقد علم أنه يراد به الأيدي، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قرأ: ﴿إنا جعلنا في أيديهم أغلالا﴾، وعن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿إنا جعلنا في أيمانهم أغلالا﴾، كما روي سابقاً عن قراءة ابن عباس.

ومعنى الآية: أي إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً، فهي واصلة إلى الأذقان ملصقة بها، فهم من جراء ذلك مقمحون؛ أي: مرفوعو الرؤوس؛ إذ أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود خارجاً من الحلقة إلى الذقن، فلا يمكنه من أن يطأطىء رأسه، فلا يزال مقمحاً.

والمراد: منعناهم بموانع عن الإيمان تشبه ما ذكر، فهم غاضوا أبصارهم، لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطؤون رؤوسهم له، ثم أكد ما سبق، وزاده بياناً وتفصيلاً، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ لهم مع ما ذكر سابقاً؛ أي: خلقنا لهم من كمال غضبنا عليهم وصيرنا، ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: من قدامهم ﴿سَدًّا﴾ عظيماً؛ أي: حاجزاً يحجزهم عن الإبصار، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: من ورائهم ﴿سَدًّا﴾ عظيماً.

وقرأ عبد الله وعكرمة والنخعي وابن وثاب وطلحة وحمزة والكسائي وابن كثير وحفص[3]: ﴿سَدًّا﴾ بفتح السين في الموضعين، وقرأ الجمهور: بالضم، وكلاهما

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

لغتان بمعنى، أي منعناهم عن الإيمان بموانع، فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان، كالمضروب أمامه وخلفه بالأسداد، ومن هذا المعنى في الآية قول الشاعر:

وَمِنَ ٱلْحَوَادِثِ لاَ أَبَالَكَ أَنَّنِي ضُرِبَتْ عَلَيَّ ٱلأَرْضُ بِٱلأَسْدَادِ
لاَ أَهْتَدِيْ فِيْهَا لِمَوْضِعِ تَلْعَةٍ بَيْنَ ٱلْعُذَيْبِ وَبَيْنَ أَرْضِ مُرَادِ

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: غطينا أبصارهم، وجعلنا عليها غشاوة، فالكلام على حذف مضاف، ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك، ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: لا يقدرون على إبصار شيء، والفاء[1] داخلة على الحكم المسبب عما قبله؛ لأن من أحاطه السد من جميع جوانبه لا يبصر شيئاً؛ إذ الظاهر أن المراد ليس جهتي القدام والخلف فقط، بل يعم جميع الجهات، إلا أن جهة القدام لما كانت أشرف الجهات وأظهرها، وجهة الخلف كانت ضدها.. خُصت بالذكر. قال الفراء[2]: فألبسنا أبصارهم غشاوة؛ أي: عمي فهم لا يبصرون سبيل الهدى، وكذا قال قتادة: إنَّ المعنى: لا يبصرون الهدى، وقال السدي: لا يبصرون محمداً ﷺ حين ائتمروا على قتله، وقال الضحاك وجعلنا من بين أيديهم سداً؛ أي: في الدنيا، ومن خلفهم؛ أي: في الآخرة، فأغشيناهم فهم لا يبصرون؛ أي: عموا عن البعث، وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا، وقيل: ما بين أيديهم: الآخرة، وما خلفهم: الدنيا.

وقرأ الجمهور: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ بالغين المعجمة؛ أي: غطينا أبصارهم، فهو على حذف مضاف، كما مر، وقرأ ابن عباس وعمر بن عبد العزيز وابن يعمر وعكرمة والنخعي وابن سيرين والحسن وأبو رجاء وزيد بن علي ويزيد البربري ويزيد بن المهلب وأبوحنيفة وابن مقسم: ﴿فَأَعْشَيْنَٰهُمْ﴾ بالعين المهملة، من العشاء، وهو ضعف البصر؛ أي: جعلنا عليها غشاوة، ومنه ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

والآية إما تتمّة للتمثيل وتكميل له؛ أي: تكميل؛ أي: وجعلنا مع ما ذكر من

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم سداً كذلك، فغطينا بهما أبصارهم، فهم بسبب ذلك لا يقدرون على إبصار شيء ما أصلاً، وإما تمثيل مستقل، فإن ما ذكر من جعلهم حصورين بين سدين هائلين قد غطّينا بهما أبصارهم بحيث لا يبصرون شيئاً قطعاً كافٍ في الكشف عن فظاعة حالهم، وكونهم محبوسين في مطمورة الغيّ والجهالات، محرومين من النظر في الأدلّة والآيات.

قال الإمام[1]: المانع من النظر في الآيات والدلائل قسمان: قسم يمنع من النظر في الآيات التي في أنفسهم، فشبّه ذلك بالغل الذي يجعل صاحبه مقمحاً لا يرى نفسه، ولا يقع بصره على بدنه، وقسم يمنع من النظر في آيات الآفاق، فشبّه بالسد المحيط، فإن المحاط بالسد لا يقع نظره على الآفاق، فلا تتبيّن له الآيات التي في الآفاق، كما أن المقمح لا تتبيّن له الآيات التي في الأنفس، فمن ابتلى بهما حرم من النظر بالكلية؛ لأن الدلائل والآيات مع كثرتها منحصرة فيهما، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ مع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الخ. إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله تعالى في الأنفس والآفاق.

وقيل[2]: نزلت هذه الآيات في أبي جهل بن هشام، وصاحبيه المخزوميين، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي.. ليرضخن رأسه بحجر، فلما رآه يصلي ذهب إليه فرفع حجراً ليرميه، فلما أومأ إليه.. رجفت يداه إلى عنقه، والتصق الحجر بيده إلى عنقه، فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى، قال الوليد بن المغيرة: أنا أرضخ رأسه، فأتاه وهو يصلي على حالته ليرميه بالحجر، فأعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه، قال: واللهِ ما رأيته، ولقد سمعت صوته، فقال الرجل الثالث: واللهِ لأشدخنَّ رأسه، ثم أخذ الحجر وانطلق، فرجع القهقرى ينكص على عقبيه، حتى خرّ على قفاه مغشيًّا عليه، فقيل له: ما شأنك؟ قال: شأني عظيم، رأيت الرجل، فلما دنوت منه.. فإذا فحل يخطر بذنبه ما رأيت قط فحلاً أعظم منه حال بيني وبينه، فواللاتِ والعزى لو دنوت منه.. لأكلني، فأنزل الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم

(١) روح البيان.
(٢) المراح.

مُقۡمَحُونَ ﴿٨﴾﴾؛ أي: إنا جمعنا أيمانهم إلى الأذقان حين أرادوا أن يرجموا النبي ﷺ بالحجارة، وهو في الصلاة، فها هم مغلولون من كل خير محرومون. ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا﴾ الخ؛ أي: وجعلنا من أمامهم ستراً حيث أرادوا أن يرجموا النبي ﷺ بالحجارة، وهو في الصلاة، فلم يبصروا النبي ﷺ، ومن خلفهم سدًّا، حتى لا يبصروا أصحابه، فغطَّينا أبصارهم فهم لا يبصرون النبي ﷺ، فيؤذوه، ومعنى الآية: أي[1]: إنه زيّن لهم سوء أعمالهم، وأعجبوا بأنفسهم، واستكبروا عن اتباع الرسول، وشمخوا بأنوفهم، ولم يخضعوا لما جاءهم به، وصدوا أبواب النظر عما ينفعهم، ولم يقبلوا شيئاً سوى ما هم عليه، فما مثلهم إلا مثل من أحاط به سدان من الأمام والخلف، فحجباه عن النظر، فهو لا يبصر شيئاً.

والخلاصة: أنهم محبوسون في سجن الجهالة، ممنوعون عن النظر في دلائل الأنفس ودلائل الكون، محرومون عن التأمل فيما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية، والتفكر في العواقب المستقبلة، ثم ذكر فذلكة لما تقدم فقال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: على أكثر أهل مكة ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾؛ أي: مستو[2] عند أكثر أهل مكة إنذارك إياهم وعدمه؛ لأن قوله: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ وإن كانت جملة فعلية استفهامية، لكنه في معنى مصدر مضاف إلى الفاعل، فصح الإخبار عنه، فقد هجر فيه جانب اللفظ، ونظر إلى المعنى، ومنه: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. وهمزة الاستفهام وأم لتقرير معنى الاستواء والتأكيد، فإن معنى الاستفهام منسلخ منهما رأساً بتجريدهما عنه لمجرد الاستواء، كما جرِّد حرف النداء عن الطلب لمجرد التخصيص في قولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة. فكما أن هذا جرى على صورة النداء، وليس بنداء، كذلك: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ جرى على صورة الاستفهام، وليس باستفهام. وقوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: لا يؤمن أكثر أهل مكة، استئناف مؤكد لما قبله مبيِّن لما فيه من إجمال ما فيه الاستوار.

والمعنى[3]: أي وسواء على هؤلاء الذين حق عليهم القول إنذارك إياهم وتركه، فإنه قد طبع الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون؛ إذ قد خبثت نفوسهم، وساء

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

استعدادهم، وغشيت أبصارهم، فلا تقدر على النظر في الدلائل المشاهدة، ولا تستطيع التأمل في جمال الكون، كما قال البوصيري:

قَدْ تُنْكِرُ ٱلْعَيْنُ ضَوْءَ ٱلشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ ٱلْفَمُ طَعْمَ ٱلْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

قال الزجاج: أي من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار، إنما ينفع الإنذار من ذكر في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ الخ؛ أي: ولما بيَّن سبحانه كون الإنذار عندهم كعدمه.. عقبه ببيان من يؤثر فيه الإنذار، فقال: إنما تنذر؛ أي[1]: ما ينفع إنذارك يا محمد إلا ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآن بالتأمل فيه، أو الوعظ والتذكير، ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان، ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ سبحانه، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: خاف عقابه تعالى، والحال أنه غائب عن العقاب، على أنه حال من الفاعل، أو والحال أن العقاب غائب عنه، أي: قبل نزول العذاب وحلوله على أنه حال من المفعول، أو حال كونه غائباً عن عيون الناس في خلواته، ولم يغتر برحمته، فإنه منتقم قهّار، كما أنه رحيم غفار، وكيف يؤمن سخطه وعذابه بعد أن قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾، ومن كان نعمته بسبب رحمته أكثر، فالخوف منه أتمّ مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة، فظهر وجه ذكر الرحمن مع الخشية، مع أن الظاهر أن يذكر معها ما ينبىء عن القهر ﴿فَبَشِّرْهُ﴾؛ أي: فبشر من ابتع الذكر وخشي الرحمن، ووحّد الضمير مراعاة للفظ ﴿مَنْ﴾، ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة لذنوبه، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: حسن مرضي لأعماله الصالحة، لا يقادر قدره، وهو الجنة وما فيها مما أعدّه الله تعالى لعباده الجامعين بين اتباع ذكره وخشيته.

والفاء في قوله[2]: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ لترتيب البشارة، أو الأمر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية. يقول الفقير: رتّب التبشير بمثنّى على مثنّى، فالتأمل في القرآن، أو التأثر من الوعظ يؤدي إلى الإيمان المؤدي إلى المغفرة؛ لأن الله تعالى يغفر ما دون الشرك لمن يشاء، والخشية تؤدي إلى الحسنات المؤدية إلى الأجر الكريم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ومعنى الآية[3]: أي إنما ينفع إنذارك من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه من

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

الأحكام، وخشي عقاب الله تعالى قبل حلوله، ومعاينة أهواله، فإنه سبحانه عظيم الرحمة، أليم العذاب، كما قال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾. فبشِّر هذا الذي اتبع أحكام الدين، وخاف العقاب بمغفرة ما فرط منه من الزلاّت، وأجرٍ كريم، ونعيم مقيم لا يستطاع وصفه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾.

ولما ذكر سبحانه وتعالى الرسالة، وهي أحد الأصول الثلاثة التي بها يصير المكلف مؤمناً.. ذكر الحشر، وهو أحد الأصول الثلاثة، والثالث هو التوحيد، فقال: ﴿إِنَّا﴾ من مقام كمال قدرتنا، والجمع للتعظيم ولكثرة الصفات، وقال بعضهم: جمع الضمير لما في إحياء الموتى من حظ الملائكة، وينافيه الحصر الدالة عليه قوله: ﴿نَحْنُ﴾ قال في «البحر»: كرّر الضمير لتكرير التأكيد، ﴿نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: نبعثهم بعد مماتهم، ونجازيهم على حسب أعمالهم، فيظهر حينئذ كمال الإكرام، والانتقام للمبشّرين والمنذرين من الأنام، وقال الحسن والضحاك: أي: نحييهم بالإيمان بعد الجهل، والأول أولى، وقد أطلق النبي ﷺ لفظ الموتى على كل غنيٍّ مترف، وسلطان جائر، وذلك في قوله ﷺ: «أربع يمتن القلب: الذنب على الذنب، وكثرة مصاحبة النساء وحديثهن، وملاحاة الأحمق تقول له، ويقول لك، ومجالسة الموتى» قيل: يا رسول الله، وما مجالسة الموتى؟ قال: «كل غني مترف، وسلطان جائر».

وفي «التأويلات النجمية»: نحيي قلوباً ماتت بالقسوة بما نمطر عليها من صوب الإقبال والزلفة انتهى. فالإحياء إذاً مجاز عن الهداية، ﴿نكتب﴾؛ أي: نحفظ ونثبت في اللوح المحفوظ، يدل عليه آخر الآية، أو يكتب رسلنا، وهم الكرام الكاتبون، وإنما أسند إليه تعالى ترهيباً، ولأنه الآمر به، ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾؛ أي: ما أسلفوا من خير أو شر، وإنما[1] أخر الكتابة مع أنها مقدمة على الإحياء؛ لأنها ليست مقصودة لذاتها، وإنما تكون مقصودةً لأمر الإحياء، ولولا الإحياء والإعادة لما ظهر للكتابة فائدة أصلاً، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾؛ أي: ونكتب آثارهم؛ أي: ما أبقوه من

---

(١) روح البيان.

الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت، كمن سنّ سنة حسنة، وكعلم علّموه، أو كتاب ألفوه، أو حبيس وقفوه، أو بناء شيء من المساجد والرباطات والقناطر، أو من السيئات التي تبقى بعد موت فاعلها، كوظيفة وظّفها بعض الظلمة على المسلمين مسانهة أو مشاهرة، كخراج وغرامة ومكوس وعشور، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم وشيء فيه صد عن ذكر الله تعالى من ألحان وملاهي ونحوها، قال مجاهد وابن زيد: ونظيره قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: بما قدم من أعماله، وأخَّر من آثاره، فعلى العدول أن يرفعوا الأحداث التي فيها ضرر بيِّن للناس في دينهم ودنياهم، وإلا فالراضي كالفاعل، وكلٌّ مجزي بعمله.

وقرأ الجمهور(١): ﴿وَنَكْتُبُ﴾ على البناء للفاعل، وقرأ زر ومسروق: على البناء للمفعول، وقيل: المراد بالآية: آثار المشائين إلى المساجد، وبه قال جماعة من الصحابة والتابعين. قال النحاس: وهو أولى ما قيل في الآية؛ لأنها نزلت في ذلك، كما مر في أسباب النزول، ويجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية، لا بخصوص سببها، وعمومها يقتضي كتب جميع آثار الخير والشر، والله تعالى لا يترك الجزاء على الخطى، سواء كانت في حسنة، أو في سيئة.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء كائناً ما كان، سواء كان ما يصنعه الإنسان، أو غيره، وهو منصوب بفعل مضمر يفسّره قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾؛ أي: ضبطناه وبينّاه وكتبناه وحفظناه وعددناه وأثبتناه ﴿فِي إِمَامٍ﴾؛ أي: أصل عظيم الشأن. ﴿مُبِينٍ﴾؛ أي: مظهر لجميع الأشياء مما كان، وما سيكون، وهو اللوح المحفوظ، سمِّي إماماً؛ لأنه يؤتم به ويتبع، وقالت فرقة: أراد صحائف الأعمال، وفي ذكر الإحصاء ترغيب وترهيب، فإن المحصي لم يصح منه الغفلة في حال من الأحوال، فعلى العاقل أن يراقب نفسه في كل وقت ونفس وحركة وسكتة.

وقرأ الجمهور(٢): ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ بنصب ﴿كل﴾ على الاشتغال، وقرأ أبو السمال: بالرفع على الابتداء.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

ومعنى الآية[1]: أي إنا نحن نحيي الموتى جميعاً من قبورهم يوم القيامة، ونكتب ما أسلفوا من عمل، وتركوا من أثر حسن بعدهم، كعلم علموه، أو حبيس في سبيل الله وقفوه، أو مستشفى لنفع الأمة أنشؤوه، أو أثر سيء كغرس الأحقاد والأضغان، وترتيب مبادىء الشر، والعدوان بين الأنام. روى ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سنّ سنة حسنة.. فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سنّ سنة سيئة كان عليها وزرها ووزر من عمل بها من بعده، لا ينقص من أوزارهم شيئاً، ثم تلا: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَٰرَهُمْ﴾». والمراد من الكتابة ذلك مجازاتهم عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ثم ذكر أن الضبط والإحصاء لا يخص أعمال بني آدم، بل يتناول جميع الأشياء، فقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: وبينّا كل شيء، وحفظناه في أصل عظيم يؤتم به ويُتبع ولا يخالف، وهو علمنا الأزلي القديم الذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها، ونحو الآية قوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله: ﴿خَٰمِدُونَ﴾، يشير[2] إلى أصناف ألطافه مع أحبائه، وأنواع قهره مع أعدائه، أمر الله تعالى سيد المرسلين ﷺ بإنذار مشركي مكة بتذكيرهم قصة أصحاب القرية، ليتحترزوا عن أن يحل بهم ما نزل بكفار أهل القرية.

قال في «الإرشاد»: ضرب المثل يستعمل على وجهين:

الأول: في تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها، والمعنى عليه: واجعل يا محمد أصحاب القرية مثلاً وشبهاً لأهل مكة في الغلو في الكفر، والإصرار على تكذيب الرسل؛ أي: طبّق حالهم بحالهم؛ أي: شبه حالهم بحالهم على أن ﴿مَّثَلًا﴾ مفعول ثانٍ، و﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مفعوله الأول، أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والثاني: في ذكر حالة غريبة، وبيانها للناس من غير قصدٍ إلى تطبيقها بنظيرة لها، والمعنى عليه: واذكر لهم وبيِّن لهم قصة هي في الغرابة كالمثل، فقوله: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾؛ أي: مثل أصحاب القرية على تقدير المضاف كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وهذا المقدر بدل من الملفوظ، أو بيان له.

وقوله: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بدل من أصحاب القرية بدل الاشتمال لاشتمال الظروف على ما حل فيها، كأنه قيل: واجعل وقت مجيء المرسلين مثلاً، أو بدل من المضاف المقدر، كأنه قيل: واذكر لهم وقت مجيء المرسلين، وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية. والمعنى: أي[1]: واجعل يا محمد أصحاب قرية أنطاكية مثلاً وشبهاً لهؤلاء المكذبين لك من أهل مكة؛ إذ أصروا على تكذيب الرسل الذين أرسلوا إليهم، كما أصر قومك على تكذيبك عناداً واستكباراً، والمشهور لدى المفسرين، ومنهم: قتادة وغيره: أن الرسل هم رسل عيسى عليه السلام من الحواريين، بعثهم إلى أهل أنطاكية، وكان منهم ما قصه الله علينا في كتابه، ويرى ابن عباس، واختاره كثير من أجلة العلماء أن الرسل هم رسل الله تعالى، أرسلهم ردءاً لعيسى عليه السلام، مقرِّرين لشريعته، كهارون لموسى عليه السلام، ويؤيد هذا القول:

١ - قولهم: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

٢ - أنهم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

٣ - أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، فقد كانوا أول أهل مدينة آمنت بالمسيح، ومن ثم كانت إحدى المدن الأربع اللاتي فيهم بطارقة النصارى، وهن: القدس وأنطاكية والاسكندرية ورومية؛ لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم ووطده، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البطريق من رومية إليها.

واسم هذه القرية كما ذكرنا أولاً أنطاكية من قرى الروم، بفتح[2] الهمزة وكسرها وسكون النون وكسر الكاف وفتح الياء المخففة، قاعدة بلاد يقال لها:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

العواصم، وهي ذات عين، وسور عظيم من صخر، داخله خمسة أجبل، دورها اثنا عشر ميلاً، كما في «القاموس» ويقال: أنتاكية بالتاء بدل الطاء، وهو المسموع من لسان الملك في قصة ذكرت في «مشارق الأشواق»، قال الإمام السهيلي: نسبت أنطاكية إلى أنطقيس، وهو اسم الذي بناها، ثم غيِّرت، وكانت أنطاكية إحدى المدن الأربع التي يكون فيها بطارقة النصارى، وهي أنطاكية والقدس والاسكندرية ورومية، ثم بعدها قسطنطينية. قال في «خريدة العجائب»: رومية الكبرى: مدينة عظيمة في داخلها كنيسة عظيمة، طولها ثلاث مئة ذراع، وأركانها من نحاس مفرغ مغطّى كلها بالنحاس الأصفر، وبها أيضاً كنيسة بنيت على هيئة المقدس، وبها ألف حمام، وألف فندق، وهو الخان، ورومية أكبر من أن يحاط بوصفها ومحاسنها، وهي للروم مثل مدينة فرانسة للإفرنج، كرسي ملكهم ومجتمع أمرهم، وبيت ديانتهم، وفتحها من أشراط الساعة.

ذكر القصة في ذلك

قال العلماء بأخبار الأنبياء[1]: بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى أهل أنطاكية، فلما قربا من المدينة.. رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب النجار صاحب يس، فسلما عليه، فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ فقالا: رسولا عيسى عليه السلام، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، فقال الشيخ لهما: أمعكما آية؟ قالا: نعم، نشفي المريض، ونبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى، قال الشيخ: إن لي ابناً مريضاً منذ سنين، قالا: فانطلق بنا نطلع على حاله، فأتى بهما إلى منزله، فمسحا ابنه، فقام في الوقت بإذن الله تعالى صحيحاً، ففشا الخبر في المدينة، وشفى الله تعالى على أيديهما كثيراً من المرضى، وكان لهم ملك يعبد الأصنام، اسمه: أنطيخا، وكان من ملوك الروم، فانتهى خبرهما إليه، فدعا بهما، وقال: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى عليه السلام، قال: وفيم جئتما؟ قالا: ندعوك من عبادة ما لا يسمع ويبصر، فقال: وهل لنا إله دون آلهتنا؟ قال: نعم، الذي أوجدك وآلهتك، قال لهما: قوما حتى انظر في أمركما، فتبعهما الناس، فأخذوهما

(١) الخازن.

وضربوهما، وقال وهب: بعث عيسى عليه السلام هذين الرجلين إلى أنطاكية، فأتياها، فلم يصلا إلى ملكها، وطالت مدة مقامهما، فخرج الملك ذات يوم فكبّرا وذكرا الله تعالى، فغضب الملك، وأمر بهما فحبسا، وجلد كل واحد منهما مئة جلدة، فلما كُذِّبا وضربا بعث عيسى عليه السلام رأس الحواريين: شمعون الصفي على أثرهما ليبصرهما، فدخل شمعون البلد متنكراً، فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به، فرفعوا خبره إلى الملك، فدعاه وأنس به وأكرمه ورضي عشرته، فقال للملك ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين في السجن، وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك، فهل كلمتهما، وسمعت قولهما؟ فقال: حال الغضب بيني وبين ذلك، قال: فإنَّ رأيي أيها الملك أن تدعوهما حتى تطلع على ما عندهما، فدعاهما الملك، فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى ههنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء، وليس له شريك، فقال لهما شمعون: فصفاه وأوجزا، قالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فقال شمعون: وما آيتكما؟ قالا: ما تتمنّاه، فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموس العينين، وموضع عينيه كالجبهة، فما زالا يدعوان ربهما حتى انشقّ موضع البصر، فأخذا بندقتين من طين، فوضعاهما في حدقتيه، فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك، فقال شمعون للملك: إن أنت سألت إلهك حتى يصنع لك مثل هذا كان الشرف لك ولإلهك، فقال له الملك: ليس لي عنك سرٌّ مكتوم، فإن الهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، وكان شمعون يدخل مع الملك على الصنم، ويصلي ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم، فقال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما الذي تعبدانه على إحياء ميت آمنا به وبكما، قالا: إلهنا قادر على كل شيء، فقال الملك: إن ههنا ميتاً قد مات منذ سبعة أيام ابن دهقان، وأنا أخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه، وكان غائباً، فجاؤوا بالميت، وقد تغيّر وأروح، فجعلا يدعوان ربهما علانية وشمعون يدعو ربه سرًّا، فقام الميت، وقال: إني ميت منذ سبعة أيام، ووجدت مشركاً، فادخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذّركم ما أنتم عليه، فآمنوا بالله، ثم قال: فتحت أبواب السماء، فنظرت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: ومن الثلاثة؟ قال: شمعون وهذان، وأشار بيده إلى صاحبيه، فعجب الملك من ذلك، فلما علم شمعون أنَّ قوله قد أثر في الملك.. أخبره بالحال ودعاه، فآمن الملك، وآمن معه قوم، وكفر آخرون،

قيل: بل كفر الملك، وأجمع على قتل الرسل هو وقومه، فبلغ ذلك حبيباً، وهو على باب المدينة، فجاء يسعى إليهم يذكِّرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى؛ أي: واذكر لهم وقت إرسالنا اثنين إلى أصحاب القرية، واسمهما: يحيى ويونس، وقيل: صادق ومصدوق، وقيل: غير ذلك، ونسبة إرسالهما إليه تعالى بناءً على أنَّه بأمره تعالى، فكانت الرسل رسل الله، ويؤيِّده[1] مسألة فقهية، وهي أن وكيل الوكيل بإذن الموكل بأن قال الموكل له: اعمل برأيك يكون وكيلاً للموكل، لا للوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه، وينعزل إذا عزله الموكل الأول، ويجوز أن يكون اللهُ أرسلهم بعد رفع عيسى إلى السماء، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ مرتب على محذوف؛ أي: فأتياهم فدعواهم إلى الحق فكذبوهما في الرسالة بلا تراخ وتأمل، وضربوهما وحبسوهما كما سبق، ﴿فَعَزَّزْنَا﴾؛ أي: قويناهما، فحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه، ولأن القصد ذكر المعزوزبه، وبيان تدبيره اللطيف الذي به عزّ الحق وذلَّ الباطل.

قرأ الجمهور بالتشديد، وقرأ أبو بكر عن عاصم والحسن وأبو حيوة والمفضل وأبان: بتخفيف الزاي، قال الجوهري: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ يخفف ويشدد؛ أي: قوينا وشددنا، فالقراءتان على هذا بمعنًى، وقيل: التخفيف بمعنى: غلبنا وقهرنا، ومنه: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾، والتشديد بمعنى: قوّينا وكثرنا، ﴿بِثَالِثٍ﴾ هو شمعون الصفار، قاله ابن عباس، ويقال له: شمعون الصخرة أيضاً رئيس الحواريين، وقد كان خليفة عيسى عليه السلام بعد رفعه إلى السماء، وقال كعب ووهب: اسمه شلوم، وقيل: يونس.

قال في «التكملة»: اختلف في المرسلين الثلاثة، فقيل: كانوا أنبياء رسلاً، أرسلهم الله تعالى، وقيل: كانوا من الحواريين أرسلهم عيسى بن مريم إلى أهل القرية المذكورة، ولكن لما كان إرساله إياهم عن أمره.. أضاف الإرسال إليه. انتهى. علم منه أن الحواريين لم يكونوا أنبياء لا في زمان عيسى ولا بعد رفعه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «ليس بيني وبينه نبي»؛ أي: بين عيسى عليه السلام، وإن احتمل أن يكون المراد: النبي الذي يأتي بشريعة مستقلة، وهو لا ينافي وجود النبي

---

(١) روح البيان.

المقرر للشريعة المتقدمة.

وقرأ عبد الله: ﴿بالثالث﴾ بالألف واللام، و﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال الثلاثة جميعاً: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ مؤكدين كلامهم لسبق الإنكار، لما أن تكذيبهما تكذيب للثالث لاتحاد كلمتهم؛ أي: وجاؤوا بكلامهم هذا مؤكداً لسبق التكذيب للاثنين، والتكذيب لهما تكذيب للثالث؛ لأنهم أرسلوا جميعاً بشيء واحد، وهو الدعاء إلى الله عز وجل، وهذه الجملة[1] مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في سؤال مقدر، كأنه قيل: ما قال هؤلاء الرسل بعد التعزيز لهم بثالث؟

ومعنى الآية[2]: أي واذكر لهم حين أرسلنا إلى أهل القرية رسولين من عندنا، فأسرعوا في تكذيبهما، فقويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث، فقالوا لأهل القرية إنا إليكم مرسلون من ربكم الذي خلقكم بأن تخلصوا له العبادة، وتتبرّؤوا مما تعبدون من الألهة والأصنام، والمشهور: إن الرسولين الأولين كانا: يوحنا وبولس، والرسول الثالث: شمعون، ثم ذكر شبهةً كثيراً ما تمسك بها المكذبون للرسل من الأمم الماضية، ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال أهل أنطاكية الذين لم يؤمنوا مخاطبين للرسل الثلاثة، وهذه الجملة أيضاً مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فما قال لهم أهل أنطاكية؟ فقيل: قالوا: ﴿مَآ أَنتُمۡ﴾ أيها الثلاثة، ﴿إِلَّا بَشَرٞ﴾؛ أي: آدمي ﴿مِّثۡلُنَا﴾؛ أي: مشاركون لنا في البشرية، فليس لكم مزية علينا تختصون بها، وهذا من قبيل قصر القلب، فالمخاطبون وهم الرسل لم يكونوا جاهلين بكونهم بشراً، ولا منكرين لذلك، لكنهم نزّلوا منزلة المنكرين لاعتقاد الكفار أن الرسول لا يكون بشراً، فنزلوهم منزلة المنكرين للبشرية لما اعتقدوا التنافي بين الرسالة والبشرية، فقلبوا هذا الحكم وعكسوه، وقالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا؛ أي: أنتم مقصورون على البشرية، ليس لكم وصف الرسالة التي تدّعونها، فلا فضل لكم علينا يقتضي اختصاصكم بالرسالة دوننا، ولو أرسل الرحمن إلى البشر رسلاً.. لجعلهم من جنس أفضل منهم، وهم الملائكة على زعمهم، وهذا الموضع قد بسط الكلام فيه في كتب البلاغة فراجعها.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ من وحي سماوي، ومن رسول يبلّغه، فكيف صرتم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

رسلاً، وكيف يجب علينا طاعتكم، وهو تتمّة الكلام المذكور؛ لأنه يستلزم الإنكار أيضاً؛ أي: ما أنزل شيئاً مما تدّعونه ويدعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل وأتباعهم وفي قولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ إيماء إلى أنهم يعترفون بالألوهية لكنهم ينكرون الرسالة ويتوسلون بالأصنام. ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾؛ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ في دعوى رسالته، فأجابوهم بإثبات رسالتهم بكلام مؤكّد تأكيداً بليغاً لتكرر الإنكار من أهل أنطاكية حيث: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾؛ وإن كذبتمونا. فأكّدوا الجواب بالقسم الذي يفهم من قولهم: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾، وبإن وباللام؛ أي: استشهدوا بعلم الله، وهو يجري مجرى القسم في التوكيد مع ما فيه من تحذيرهم معارضة علم الله، وزادوا اللام لما شهدوا منهم من شدة الإنكار، ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ﴾؛ أي: من جهة ربنا، ﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ أي: إلا تبليغ رسالته تبليغاً ظاهراً واضحاً مبيناً بالآيات الشاهدة بالصحة، فإنه لا بدّ للدعوى من البينة، وقد خرجنا من عهدته فلا مؤاخذة لنا بعد ذلك من جهة ربنا، وليس في وسعنا إجباركم على الإيمان، ولا أن نوقع في قلوبكم العلم بصدقنا، فإن آمنتم وإلا فينزل العذاب عليكم، وفيه تعريض لهم بأن إنكارهم للحق ليس لخفاء حاله وصحته، بل هو مبني على محض العناد والحمية الجاهلية.

وهذه الجملة مستأنفة كالتي قبلها، وكذلك قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ لما ضاقت عليهم الحيل، ولم يبقَ لهم علل وحجج، ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ فإنها مستأنفة جواباً عن سؤال مقدَّر؛ أي إنا تشاءمنا بكم جرياً على ديدن الجهلة؛ حيث كانوا يتمنون بكل ما يوافق شهواتهم، وإن كان مستجلباً لكل شرٍّ ووبال، ويتشاءمون بكل ما لا يوافقها، وإن كان مستتبعاً لسعادة الدارين، وقال النقشبندي: قد تشاءمنا بقدومكم؛ إذ منذ قدمتم إلى ديارنا ما نزل القطر علينا، وما أصابنا هذا الشر إلا من قبلكم، أخرجوا من بيننا، واخرجوا إلى أوطانكم سالمين، وانتهوا عن دعوتكم، ولا تتفوّهوا بها بعد، قيل: أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم الرسل، وكان ﷺ يحب التفاؤل، ويكره التطيُّر، والفرق بينهما[1]: أن الفأل إنما هو من طريق حسن الظن بالله، والتطير إنما هو من طريق الاتكال على شيء سواه.

---

(١) روح البيان.

وفي الخبر: لما توجه النبي ﷺ نحو المدينة.. لقي بريدة بن أسلم، فقال: «من أنت يا فتى»؟ قال: بريدة، فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر فقال: «برد أمرنا وصلح»؛ أي: سهل، ثم قال عليه السلام: «ابن من أنت يا فتى؟» قال: ابن أسلم، فقال النبي عليه السلام لأبي بكر رضي الله عنه: «سلمنا من كيدهم».

وفي الفقه: لو صاحت الهامة أو طير آخر، فقال رجل: يموت المريض، يكفر، ولو خرج إلى السفر ورجع فقال: ارجع لصياح العقعق، كفر عند البعض وفي الحديث: «ليس عبد إلا سيدخل في قلبه الطيرة، فإذا أحسَّ بذلك.. فليقل: أنا عبد الله، ما شاء الله لا قوّة إلا بالله، لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يذهب بالسيئات إلا الله، أشهد أن الله على كل شيء قدير، ثم يمضي بوجهه»؛ أي: يمر إلى جهة حاجته، قالوا: من تطير تطيراً منهياً عنه حتى منعه مما يريده من حاجته، فإنه قد يصيبه ما يكرهه، كما في «عقد الدر».

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟﴾؛ أي: والله لئن لم تمتنعوا عن مقالتكم هذه، ولم تسكتوا عنا ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾؛ أي: لنرمينكم بالحجارة؛ أي: لئن لم تتركوا هذه الدعوى، وتعرضوا عن هذه المقالة.. لنرجمنكم بالحجارة. ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾؛ أي: وليصيبنّكم، ﴿مِّنَّا﴾؛ أي: من جهتنا، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: عذاب شديد وجيع فظيع؛ أي: لا نكتفي برجمكم بحجر أو حجرين، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت، وهذا العذاب الأليم، أو ليمسنكم بسبب الرجم منا عذاب مؤلم. قال الفراء: عامة ما في القرآن من الرجم المراد به: القتل: وقال قتادة هو على بابه من الرجم بالحجارة، قيل: ومعنى العذاب: القتل: وقيل: الشتم، وقيل: هو التعذيب المؤلم من غير تقييد بنوع خاص، وهذا هو الظاهر. وفسر بعضهم الرجم بالشتم، فيكون المعنى: لا نكتفي بالشتم، بل يكون شتمنا مؤدياً إلى الضرب والإيلام الحسي.

والمعنى[1]: أي إنا تشاءمنا من تبليغكم ودعوتكم، فقد افتتن بعض القوم بكم، وتفرقت كلمتنا، وانفرط عقد وحدتنا، ولئن لم تنتهوا عن بث هذه الدعوة بيننا لنرجمنكم بالحجارة رجماً، ولنمثلن بكم شر التمثيل، أو لنعذبنكم عذاباً شديداً، وأنتم أحياء.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: إنّا إما أن نقتلكم أو نلقينكم في غيابات السجون، وننكل بكم تنكيلاً عظيماً، ثم أجاب عليهم الرسل دفعاً لما زعموه من التطير بهم، فـ﴿قَالُوا﴾؛ أي: المرسلون لأهل أنطاكية، ﴿طَائِرُكُم﴾؛ أي: سبب شؤمكم، ﴿مَّعَكُمْ﴾؛ أي: من جهة أنفسكم لازم في أعناقكم، لا من قبلنا، وليس هو من شؤمنا؛ أي: سوء حالكم وشدتكم، وإصابة الضرر بكم من الله بسببكم، وهو سوء اعتقادكم، وقبح أعمالكم، فالطائر بمعنى ما يتشاءم به مطلقاً، قال الفراء: طائركم؛ أي: رزقكم وعملكم، وبه قال قتادة، وقال أبو حيان؛ أي: حظكم، وما صار لكم من خير أو شر معكم؛ أي: من أفعالكم ليس هو من أجلنا، بل بكفركم؛ أي: قالوا لهم: سبب شؤمكم من أفعالكم، لا من قبلنا كما تزعمون، فأنتم أشركتم بالله سواه، وأولعتم بالمعاصي، واجترحتم السيئات، أما نحن فلا شؤم من قبلنا، فإنا لا ندعوا إلا إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، والإنابة إليه، وفي ذلك منتهى اليمن والبركة.

وقرأ الجمهور[(١)]: ﴿طَائِرُكُم﴾ على وزن اسم الفاعل، وقرأ الحسن وابن هرمز وعمرو بن عبيد وزر بن حبيش: ﴿طيركم﴾ بياء ساكنة بعد الطاء، وقرأ الحسن فيما نقل: ﴿اطيركم﴾ مصدر؛ اطير الذي أصله: تطير، فأدغمت التاء في الطاء، فاجتلبت همزة الوصل في الماضي والمصدر، وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ بهمزتين همزة الاستفهام التوبيخي، وهمزة إن الشرطية، وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه؛ أي: هل إن وعظتم بما فيه سعادتكم، وخوفتم.. تطيرتم أو توعدتم بالرجم والتعذيب؟

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضراب[(٢)] عما تقضيه الشرطية من كون التذكير سبباً للشؤوم، أو مصحّحاً للتوعيد؛ أي: ليس الأمر كذلك، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في العصيان والتجاوز فيه عن الحد، فلذلك أتاكم الشؤم أو في الظلم والعدوان، ولذلك توعدتم وتشاءمتم بمن يجب إكرامه والتبرك به، وهؤلاء القوم في الحقيقة هم النفس وصفاتها، فإنها أسرفت في موافقة الطبع ومخالفة الحق، فكل من كان في يد مثل هذه النفس.. فهو لا يبالي بالوقوع في المهالك،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

ولا يزال يدعو الناس إلى ما سلكه من شر المسالك، وكل من تخلص عنها وزكاها.. أفلح هو ومن تبعه، ولذا وعظ الأنبياء، وذكَّروا ونبَّهوا الناس على خطئهم وإسرافهم، وردوهم عن طريقة أسلافهم، ولكن الذكرى إنما تنفع المؤمنين.

والمعنى[١]: أي أمن جرّاء أنا ذكرناكم وأمرناكم بعبادة الله مخلصين له الدين.. تقابلونا بمثل هذا الوعيد، بل أنتم قوم ديدنكم الإسراف، ومجاوزة الحد في الطغيان، ومن ثَمَّ جاءكم الشؤم، ولا دخل لرسل الله في ذلك.

والخلاصة: أنتم قوم مسرفون في ضلالتكم، متمادون في غيِّكم، تتشاءمون بمن يجب التبرك بهم من هداة الدين، فقد جعلتم أسباب السعادة أسباباً للشقاء، ولا يخفى ما في ذلك من شديد التوبيخ وعظيم التهديد، والتنبيه إلى سوء صنيعهم بحرمانهم من الخيرات، ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم[٢]: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ بهمزتين، الأولى همزة الاستفهام التوبيخي، والثانية همزة إن الشرطية، فحققها الكوفيون، وابن عامر، وسهلها باقي السبعة، وقرأ زر بن حبيش وابن السميقع: بهمزتين مفتوحتين ﴿أأن﴾ وهي قراءة أبي جعفر وطلحة، إلا أنهما لينا الثانية بين بين، وقرأ الماجشون، وهو أبو سلمة يوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سلمة المدني: بهمزة واحدة مفتوحة، والحسن بهاء مكسورة، وأبو عمرو في رواية، وزر أيضاً: بمدة قبل الهمزة المفتوحة، استثقل اجتماعهما ففصل بينهما بألف. وقرأ أبو جعفر أيضاً والحسن أيضاً وقتادة وعيسى الهمداني والأعمش: ﴿أين﴾ بهمزة مفتوحة وياء ساكنة ونون مفتوحة، ظرف مكان، وروي هذا عن عيسى الثقفي أيضاً، فالقراءة الأولى على معنى: هل إن ذكرتم تتطيرون؟ بجعل المحذوف مصب الاستفهام على مذهب سيبويه، وبجعله للشرط على مذهب يونس، فإن قدرته مضارعاً كان مجزوماً، والقراءة الثانية على معنى: ألِئن ذُكِّرتم تطيرتم، فإن مفعول من أجله، وكذلك الهمزة الواحدة المفتوحة، والتي بمدة قبل الهمزة المفتوحة، وقراءة الهمزة المكسورة

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وحدها، فحرف شرط بمعنى الإخبار؛ أي: إن ذكِّرتم تطيَّرتم، والقراءة الأخيرة: ﴿أين﴾ فيها ظرف مكان، أداة الشرط حذف جزاؤه للدلالة عليه، تقديره: أين ذكرتم صحبكم طائركم، ويدل عليه قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ ومن جوَّز تقديم الجزاء على الشرط وهم الكوفيون وأبو زيد المبرد.. يجوز أن يكون الجواب: طائركم معكم، وكان أصله: أين ذكرتم فطائركم معكم، فلما قدم حذفت الفاء.

وقرأ الجمهور: ﴿ذُكِّرْتُم﴾ بتشديد الكاف، وأبو جعفر وخالد بن إلياس وطلحة والحسن وقتادة وأبو حيوة والأعمش من طريق زائدة والأصمعي عن نافع بتخفيفها.

ثم أبان أن الحق لا يعدم نصيراً، وأن الله يقيِّض له من يدافع عنه فقال: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي: من أبعد جوانب أنطاكية، ﴿رَجُلٌ﴾ عظيمُ الشأن، قويُّ الأيمان، فيه[1] إشارة إلى رجولية الجائي وجلادته، وتنكيره لتعظيم شأنه، لا لكونه رجلاً منكوراً غير معلوم، فإنه معلوم عند الله تعالى، وكان منزله عند أقصى باب المدينة، وفي مجيئه من أقصى المدينة بيان لكون الرسل أتوا بالبلاغ المبين حتى بلغت دعوتهم إلى أقصى المدينة، حيث آمن الرجل، وكان دور السور اثني عشر ميلاً؛ أي: فلما سمع خبر الرسل مع القوم جاء حالة كونه ﴿يَسْعَىٰ﴾؛ أي: يسرع في مشيه، فإن السعي: المشي السريع، وهو دون العدو، كما في «المفردات».

فإن قلت[2]: لِمَ قدَّم هنا ﴿مِنْ أَقْصَا﴾ على ﴿رَجُلٌ﴾، وأخره عنه في سورة القصص؟.

قلت: خالف بين الموضعين بالتقديم والتأخير تفنناً في البلاغة، وهو من المحسنات البديعية اللفظية، وذلك الرجل هو حبيب بن موسى النجار المشهور عند العلماء بصاحب يس، وفي بعض التواريخ كان من نسل الإسكندر الرومي، وإنما سمي حبيب النجار؛ لأنه كان نجاراً ينحت الأصنام وغيرها. وقيل: كان إسكافاً، وقيل: كان قصاراً، ويمكن أن يكون جامعاً لهذه الصنائع، وقيل: هو حبيب بن

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط بتصرف.

إسرائيل النجار، قيل: كان مجذوماً، فمنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، عَبَد الأصنام سبعين سنة، يدعوهم لكشف ضره، فلما دعاه الرسل إلى عبادة الله تعالى.. قال: هل من آية؟ قالوا: نعم، ندعو ربنا القادر يفرّج عنك ما بك، فقال: إن هذا لعجيب، لي سبعون سنةً أدعو هذه الآلهة، فلم تستطع، يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا: نعم، ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئاً، ولا تضر، فآمن، ودعوا ربهم، فكشف الله ما به كأن لم يكن به بأس، فأقبل على التكسب، فإذا تكسب.. تصدق بنصف كسبه، والنصف الآخر لنفسه وعياله، فلما همَّ قومه بقتل الرسل.. جاءهم يسعى، فـ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ﴾ هؤلاء ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ المبعوثين إليكم بالحق، وهذه الجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فما قال عندما جاء ساعياً، ووصل إلى المجمع، ورآهم مجتمعين على الرسل قاصدين قتلهم؟ فقيل: قال: يا قوم، أصله: يا قومي، خاطبهم بيا قومي لتأليف قلوبهم، واستمالتها نحو قبول نصيحته، وللإشارة إلى أنه لا يريد بهم إلا الخير، وأنه غير متهم بإرادة السوء بهم، قال بعضهم: وكان مشهوراً بينهم بالورع واعتدال الأخلاق، وفي قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تعرض لعنوان رسالتهم حثاً لهم على اتباعهم.

ثم أكد ذلك وكرره فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ﴾؛ أي: من لا يسألونكم ﴿أَجۡرًا﴾ وجعلاً على ما جاؤكم به من الهدى؛ أي: لا يطلبون منكم أجرةً ومالاً على النصح لكم، وتبليغ الرسالة إليكم. ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم مهتدون في أنفسهم إلى خير الدين والدنيا، والمهتدي إلى طريق الحق الموصل إلى هذا الخير إذا لم يكن متهماً في الدعوة.. يجب اتباعه، وإن لم يكن رسولاً، فكيف وهم ورسل ومهتدون؟! ومن قال: الإيغال هو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتمّ المعنى بدونها.. تكون الآية عنده مثالاً له؛ لأن قوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ مما يتم المعنى بدونه؛ لأن الرسول مهتدٍ لا محالة إلا أن فيه زيادة حثٍّ على اتباع الرسل، وترغيب فيه، فقوله: ﴿مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ بدل من المرسلين معمول لاتبعوا الأول، والثاني: تأكيد لفظي للأول، نظير قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ﴾ هذا عند بعض النحويين، وأما عند جمهورهم فلا يجوز أن يعرب بدلاً إذا صُرِّح بالعامل الرافع أو الناصب. قال في «الإرشاد»: تكرير للتأكيد وللتوسل به إلى وصفهم بما يرغِّبهم في اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوي الاهتداء إلى خير الدنيا والدين.

انتهى. وفيه ذم للمتشيخة المزوِّرين الذين يجمعون بتلبيساتهم أموالاً كثيرةً من الضعفاء الحمقى، السائلين، نحو أباطيلهم، ودليل على نقص من يأخذ أجراً على شيء من أفعال الشرع التي هي لازمة له، كالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى.

والمعنى[١]: أي وجاء من أطراف المدينة رجل يعدو مسرعاً لينصح قومه حين بلغه أنهم عقدوا النية على قتل الرسل، فتقدم للذب عنهم ابتغاء وجه الله ونيل ثوابه، قال: يا قوم، اتبعوا رسول الله الذين لا يطلبون منكم أجراً على تبليغهم، ولا يطلبون علواً في الأرض ولا فساداً، وهم سالكون طريق الهداية التي توصل إلى سعادة الدارين

روي: أن هذا الرجل يسمى حبيباً، وكان نجاراً، قال ابن أبي ليلى: سباقوا الأمم ثلاثة، لم يكفروا قط طرفة عين: علي بن أبي طالب، وصاحب يس، ومؤمن آل فرعون. ورواه الزمخشري حديثاً، وقال ابن كثير: إنه حديث منكر لا أصل له، ثم أبان أنه ما اختار لهم إلا ما اختاره لنفسه، فقال: ﴿وَمَا لِيَ﴾؛ أي: وأيُّ شيء ثبت لي، وأي عذر ومانع عرض لي في كوني ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ الإله ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ وخلقني وطهرني من كتم العدل، ورباني بأنواع اللطف والكرم، وهذا تلطف منه في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح؛ حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره؛ أي: أيُّ مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني؛ أي: لا مانع له من ذلك، فالاستفهام إنكاري.

قرأ غير حمزة[٢]: بفتح الياء، وقرأ حمزة بإسكانها، ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه، بل أرادهم بكلامه فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، ولم يقل: وإليه أرجع، وفيه مبالغة في التهديد؛ أي: إليه تعالى لا إلى غيره تردون أيها القوم بعد البعث للمجازاة والمحاسبة.

---

(١) المراغي.

(٢) البيضاوي.

فإن قلت[1]: كيف أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع الذي هو البعث إليهم مع علمه بأن الله فطرهم وإياه، وإليه يرجع هو وهم، فلم يقل: الذي فطرنا وإليه نرجع، أو: فطركم وإليه ترجعون؟.

قلت: لأن الخلق والإيجاد نعمة من الله تعالى، توجب الشكر، والبعث بعد الموت للجزاء وعيد من الله يوجب الزجر، فأضاف ما يقتضي الشكر إلى نفسه؛ لأنه أليق بإيمانه، وما يقتضي الزجر إليهم؛ لأنه أليق بكفرهم.

والمعنى: أي وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني، وإليه المرجع للجزاء يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي هذا تقريع لهم بتركهم عبادة الخالق، وعبادة غيره، وتهديد بتخويفهم بالرجوع إلى شديد العقاب، ثم أعاد التوبيخ مرةً أخرى، وساق الكلام المساق الأول، وهو إبراز الكلام في صورة النصيحة لنفسه فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾؛ أي: أأعبد ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ تعالى، ﴿ءَالِهَةً﴾ آلهة لا تملك من الأمر شيئاً، وهي الأصنام، وهو إنكار ونفي لاتخاذ الآلهة على الإطلاق؛ أي: لا أتخذ من دون الذي فطرني آلهة باطلة لا تنفعني ولا تضرني، فجعل الإنكار متوجهاً إلى نفسه، وهم المرادون به؛ أي: لا أتخذ من دون الله آلهة وأعبدها، وأترك عبادة من يستحق العبادة، وهو الذي فطرني، ثم بيَّن حال هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله سبحانه إنكاراً عليهم، وبياناً لضلال عقولهم وقصور إدراكهم فقال: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ وقرأ طلحة بن مصرف ﴿إن يزدني﴾ بفتح الياء؛ أي: إن أرادني الرحمن بضرر؛ أي: إن أراد الرحمن أن يصيبني بسوء ومكروه ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى﴾؛ أي: لا تدفع عني، ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾؛ أي: شفاعة تلك الآلهة، ﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر؛ أي: لا تنفعني شيئاً من النفع، إذ لا شفاعة لهم فتنتفع، فنصب ﴿شَيْـًٔا﴾ على المصدرية، وقوله: ﴿لَّا تُغْنِ﴾ جواب الشرط، والجملة الشرطية مستأنفة لا محل لها من الإعراب، ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾؛ أي: لا يخلِّصونني من ذلك الضرر والمكروه بالنصرة والمظاهرة، وهو عطف على ﴿لَّا تُغْنِ﴾، وعلامة الجزم فيه حذف نون الإعراب؛ لأن أصله لا ينقذونني، وهو تعميم بعد تخصيص مبالغةً بهما في عزهم وانتفاء قدرتهم.

---

(١) فتح الرحمن.

قال الإمام السهيلي: ذكروا أن حبيباً كان به داء الجذام، فدعا له الحواري فشفي، فلذلك قال: إن يردن الرحمن. الخ انتهى. وقال بعضهم: إن المريض كان ابنه إلا أن يقال: لا مانع من ابتلاء كليهما، أو أن مرض ابنه في حكم مرض نفسه، فلذا أضاف الضر إلى نفسه، ويحتمل أن الضر ضر القوم؛ لأنه روي شفاء كثير من مرضاهم على يدي الرسل، فأضافه حبيب إلى نفسه على طريقة ما قبله من الاستمالة، وتعريفاً للإحسان بهم بطريق اللطف، ﴿إِنِّيٓ إِذًا﴾؛ أي: إذا اتخذت من دونه آلهة، ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لفي خسران واضح، فإن إشراك ما ليس من شأنه النفع، ولا دفع الضر بالخالق المقتدر الذي لا قادر غيره، ولا خير إلا خيره ضلالٌ بيِّن، لا يخفى على أحدٍ ممن له تمييز في الجملة، وهذا تعريض بضلالهم كما سبق.

ثم التفت إلى الرسل، وخاطبهم مصرِّحاً بإيمانه، منيباً إلى ربه فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي أرسلكم، ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾؛ أي: فاسمعوا كلامي من الإيمان، فاشهدوا لي بذلك عند ربي، قال المفسرون: أراد قومه قتله، فأقبل هو على المرسلين فقال: إني آمنت بربكم أيها الرسل، فاسمعوا إيماني، واشهدوا لي به، وقيل: إنه خاطب بهذا الكلام قومه لما أرادوا قتله تصلباً في الدين، وتشدداً في الحق، فلما قال هذا القول وصرَّح بالإيمان.. وثبوا عليه فقتلوه؛ وقيل: وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه، وقيل: حرقوه، وقيل: حفروا له حفيرة وألقوه فيها، وقيل: إنهم لم يقتلوه، بل رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة، وبه قال الحسن، وقيل: نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه، وروي أنه لما قال ذلك.. وثبوا عليه وثبةَ رجلٍ واحد، فقتلوه، ولم يجد من يدافع عنه، قال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به كذلك حتى فارق الحياة، والمعنى: على أنه خطاب لقومه: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم وربَّاكم بأنواع النعم، وإنما قال: بربكم، ولم يقل: آمنت بربي؛ ليعلموا أن ربهم هو الذي يعبده هو فيعبدوا ربهم، ولو قال: إني آمنت بربي، لعلهم يقولون: أنت تعبد ربك، ونحن نعبد ربنا، وهو آلهتهم. ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾؛ أي: أجيبوني في وعظي ونصحي، واقبلوا قولي، كما يقال: سمع لمن حمده؛ أي: قبله، فالخطاب للكفرة، شافههم بذلك إظهاراً للتصلب في الدين، وعدم المبالاة بالقتل.

وإضافة الربِّ إلى ضميرهم لتحقيق الحق، والتنبيه على بطلان ما هم عليه من اتخاذ الأصنام أرباباً، كما في «الإرشاد». وإنما أكَّده إظهاراً لصدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط.

ثم ذكر مآل أمره، وما قاله حين وجد النعيم والكرامة، فقال: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾؛ أي: قيل لحبيب النجار من جهة الرب جل جلاله حين قتلوه: ادخل الجنة إكراماً له بدخولها حينئذ، كما هي سنة الله سبحانه في عباده الشهداء، وقيل: معناه: البشرى بدخول الجنة، وأنه من أهلها، يدخلها بعد البعث، لا أنه أمر بدخولها في الحال؛ لأن الجزاء بعد البعث، وعلى قول من قال: إنه رفع إلى السماء ولم يقتل.. يكون المعنى: أنهم لما أرادوا قتله.. نجاه الله من القتل، وقيل له: ادخل الجنة.

وإنما لم يقل: قيل له بزيادة لفظة: له؛ لأن الغرض بيان مقول، لا المقول له؛ لظهوره وللمبالغة في المسارعة إلى بيانه، والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر نشأ عن حكاية حاله ومقاله، كأنه قيل: كيف كان بقاؤه عند ربه بعد ذلك التصلب في دينه، والتسخي بروحه لوجهه تعالى، فقيل: قيل له: ادخل الجنة، وكذا قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ الخ مستأنف واقع في جواب سؤال مقدَّر نشأ من حكاية حاله، كأنه قيل: فماذا قال عند نيله تلك الكرامة السنية؟ فقيل: قال متمنياً علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة من الكفر، والدخول في الإيمان والطاعة، جرياً على سنن الصالحين في كظم الغيظ، والترحم على الأعداء، وليعلموا أنهم على خفاء عظيم في أمره، وأنه كان على الحق، وأن عداوتهم لم تكسبه إلا سعادة؛ أي: فلما دخل الجنة وشاهدها قال حبيب النجار: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي﴾ ﴿يا﴾ في مثل هذا المقام لمجرد التنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبه؛ أي: انتبه أيها المخاطب، أتمنى أن قومي ﴿يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ ﴿ما﴾: إما موصولة، والباء صلة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: أتمنى علم قومي بالأمر الذي بسببه غفر لي ربي ذنوبي، وهو الإيمان به والطاعة أو: مصدرية، والباء: صلة العلم أيضاً؛ أي: أتمنى علم قومي بغفران ربي لذنوبي، أو استفهامية وردت على الأصل، وهو أن لا تحذف الألف بدخول الجار عليها، والباء: صلة غفر على هذا الوجه؛ أي: أتمنى علم قومي بأيِّ شيء غفر لي ربي ذنوبي، يريد تفخيم شأن المهاجرة عن ملتهم،

والمصابرة على أذيتهم لإعزاز الدين حتى قُتل.

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾؛ أي: من المنعمين في الجنة، وإن كان على النصف؛ إذ تمامه إنما يكون بعد تعلق الروح بالجسد يوم القيامة. وفي الحديث المرفوع: «نصح قومه حياً وميتاً»، وهكذا[1] ينبغي للمؤمن أن يكون ناصحاً للناس، لا يلتفت إلى تعصُّبهم وتمردهم، ويستوي حاله في الرضى والغضب. قال حمدون القصار: لا يسقط عن النفس رؤية الخلق بحال، ولو سقط عنها في وقت لسقط في المشهد الأعلى في الحضرة، ألا تراه في وقت دخول الجنة يقول: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ يحدِّث نفسه، إذ ذاك.

وقرىء[2]: من ﴿المكرمين﴾ مشدد الراء مفتوح الكاف، وقرأ الجمهور: بإسكان الكاف وتخفيف الراء.

ومعنى الآية: أي قال الله سبحانه له: ادخل الجنة كفاء ما قدمت من عمل، وأسلفت من إحسان، فلما دخلها وعاين ما أكرمه الله به لإيمانه وصبره.. قال: يا ليت قومي يعلمون بما أنا فيه من نعيم وخير عميم لإيماني بربي، وتصديقي برسله، وصبري على أذى قومي، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب المثوبة مثله بالتوبة عن الكفر، والدخول في حظيرة الإيمان والطاعة، اتباعاً لسنن أولياء الله الذي يكظمون الغيظ، ويترحمون على الأعداء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نصح قومه حياً بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وبعد مماته بقوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

الإعراب

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿يسٓ ﴿١﴾﴾: إن قلنا إنه علم على السورة.. فهو إما خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذه يس، والخبر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة ظاهرة في آخره على قراءة الرفع،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

ولم ينون؛ لأنه اسم لا ينصرف للعلمية والتأنيث المعنوي، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره: يس هذا محلها، أو مفعول لفعل محذوف على قراءة النصب تقديره: اقرأ يس، أو مجرور بحرف قسم محذوف على قراءة الجر. وإن قلنا إنه من الحروف المقطعة التي وقعت فواتح السور.. فلا توصف بإعراب ولا بناء؛ لأنهما فرع عن إدراك المعنى، ومعناها: لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾: الواو: حرف جر وقسم، ﴿القرآن﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: صفة له، الجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: أقسم بالقرآن الحكيم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: جار ومجرور خبره، واللام حرف ابتداء وتوكيد، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: جار ومجرور خبر ثانٍ لـ﴿إنّ﴾، ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾، ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالاً من الضمير المستكن في خبر ﴿إنّ﴾، وأجاز الزمخشري أن يتعلق بالمرسلين؛ أي: من الذين أرسلوا على طريقةٍ مستقيمة، ولا بأس بهذا الإعراب.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ﴾: بالنصب مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: نزل العزيز الرحيم القرآن تنزيلاً، أو منصوب على المدح بفعل محذوف تقديره: أمدح تنزيل العزيز الرحيم، وبالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو تنزيل العزيز، وبالجر بدل من ﴿يسٓ ۝١﴾، أو صفة له؛ لأنه بمعنى منزَّل. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: مضاف إليه، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، ﴿لِتُنذِرَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تنذر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَنزِيلَ﴾؛ أي: نزلت عليك لإنذارك قوماً، أو متعلق بمعنى قوله: من المرسلين؛ أي: أرسلت لإنذارك قوماً، ﴿مَّآ﴾: نافية، ﴿أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، ويجوز أن تكون ﴿مَّآ﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب على أنها مفعول ثان لـ﴿تنذر﴾، وجملة ﴿أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ صلة لها، أو صفة لها، والعائد أو الرابط

محذوف تقديره: لتنذر قوماً العذاب الذي أنذره آباؤهم، أو عذاباً أنذره آباؤهم، ويجوز أن تكون مصدرية؛ أي: لتنذر قوماً إنذار آبائهم، ويجوز أن تكون زائدةً، وتكون جملة ﴿أُنذِرَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، ففي ﴿مَّآ﴾ أربعة أوجهٍ من الإعراب. ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿غَٰفِلُونَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب، معطوف على جملة ﴿أنذر﴾ على كونها صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، ﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿حَقَّ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة الجواب.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿جَعَلْنَا﴾ خبره، ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿أَغْلَٰلًا﴾: مفعول أول لها، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتمثيل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم عن غيهم، ﴿فَهِىَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿هي﴾: مبتدأ، ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: مجموعة أو مرفوعة إلى الأذقان، والجملة الاسمية معطوفة مفرعة على جملة ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿فَهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿هم﴾: مبتدأ ﴿مُّقْمَحُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾ الأول، ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿سَدًّا﴾: مفعول أول له، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: معطوف على ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿سَدًّا﴾: معطوف على ﴿سَدًّا﴾ الأول، ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿أغشيناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أغشينا﴾.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَسَوَآءٌ﴾: الواو: استئنافية، ﴿سواء﴾: خبر مقدم، ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿سواء﴾؛ لأنه بمعنى: مستوٍ. ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾: ﴿الهمزة﴾: حرف استفهام وتسوية، ﴿أنذرتهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿أَمۡ﴾: حرف عطف معادل لهمزة التسوية، ﴿لَمۡ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تُنذِرۡهُمۡ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على جملة ﴿أنذرتهم﴾، وجملة ﴿أنذرتهم﴾ في تأويل مصدر من غير سابك لإصلاح المعنى، أو بسابك هو همزة التسوية، مرفوع على كونه مبتدأ لـ﴿سواء﴾ تقديره: وإنذارك إياهم وعدم إنذارك إياهم سواء؛ أي: مستويان، والجملة مستأنفة، ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مؤكدة لما قبلها، أو حال مؤكدة له، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿تُنذِرُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تُنذِرُ﴾، ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿ٱتَّبَعَ﴾. ﴿بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾: حال من فاعل ﴿خشي﴾، أو من مفعوله، ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر تقديره: إذا عرفت إنما الإنذار لمن اتبع الذكر، وأردت بيان عاقبته.. فأقول لك: بشره، ﴿بشره﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿بِمَغۡفِرَةٖ﴾: متعلق به، ﴿وَأَجۡرٖ﴾: معطوف على ﴿مغفرة﴾، ﴿كَرِيمٍ﴾: صفة ﴿أجر﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿نَحۡنُ﴾: مبتدأ، ﴿نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، ﴿وَنَكۡتُبُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿نُحۡيِ﴾، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿نكتب﴾، وجملة ﴿قَدَّمُواْ﴾: صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما قدموه ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾: معطوف على ﴿مَا﴾، ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾: الواو: استئنافية، ﴿كل شيء﴾: منصوب بفعل مضمر وجوباً يفسره ما بعده على سبيل الاشتغال تقديره:

وأحصينا كل شيء أحصيناه، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، ﴿فِيٓ إِمَامٍ﴾: متعلق بـ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿إِمَامٍ﴾. ﴿وَٱضْرِبْ﴾: الواو: استئنافية، ﴿اضرب﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَّثَلًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مَّثَلًا﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿اضرب﴾؛ لأنه بمعنى: اجعل ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾: مفعول أول له، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية بدل اشتمال من ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾، ﴿جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى بدل تفصيل من مجمل، وهو يدخل في نطاق بدل المطابق، أو بدل الكل من الكل، ﴿أَرْسَلْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱثْنَيْنِ﴾: مفعول به لـ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، وجملة ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، ﴿فَعَزَّزْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كذبوهما﴾، ﴿بِثَالِثٍ﴾: متعلق بـ﴿عززنا﴾، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿عززنا﴾، ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿إِلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿مُّرْسَلُونَ﴾، و﴿مُّرْسَلُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿بَشَرٌ﴾: خبر أنتم، ﴿مِّثْلُنَا﴾: صفة ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، والخطاب فيه للرسل الثلاثة، ﴿وَمَآ﴾: الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فعل وفاعل، ﴿مِن﴾: زائدة ﴿شَيْءٍ﴾: مفعول ﴿أَنزَلَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، معطوف على جملة قوله: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ﴾ ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، وجملة ﴿تَكْذِبُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿رَبُّنَا﴾: مبتدأ، وجملة

﴿يَعۡلَمُ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿مرسلون﴾، ﴿لَمُرۡسَلُونَ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب سادة مسد مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾، ﴿وَمَآ﴾: الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿عَلَيۡنَآ﴾: خبر مقدم، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: صفة ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿رَبُّنَا﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿تَطَيَّرۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِكُمۡۖ﴾: متعلق به، وجملة ﴿تَطَيَّرۡنَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿لَئِن﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿لَّمۡ﴾: حرف جزم، ﴿تَنتَهُواْ﴾: فعل مضارع وفاعل، مجزوم بـ﴿لَّمۡ﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دلَّ عليه جواب القسم، تقديره: نرجمكم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها معترضة، ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى، ﴿نرجمن﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والكاف مفعول به، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾: الواو: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، ﴿يمسن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح، والنون للتوكيد، والكاف مفعول به، ﴿مِّنَّا﴾: متعلق بـ﴿يمسن﴾، ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل، ﴿أَلِيمٞ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿طَٰٓئِرُكُم﴾: مبتدأ، ﴿مَّعَكُمۡۚ﴾: ظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿أَئِن﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي، ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿ذُكِّرۡتُمۚ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة ونائب فاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، والقاعدة عند سيبويه: أنه إذا اجتمع شرط واستفهام.. يجاب الاستفهام ويحذف جواب الشرط، والتقدير عنده: أإن ذكرتم تتطيرون وتوعدون، وذهب غيره إلى إجابة الشرط، والتقدير

عندهم: أإن ذكرتم تتطيروا بالجزم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف ابتداء وإضراب، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿قَوْمٌ﴾: خبر، ﴿مُّسْرِفُونَ﴾: صفة ﴿قَوْمٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَجَآءَ﴾: الواو: عاطفة أو استئنافية، ﴿جاء﴾: فعل ماض، ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾: متعلق بـ﴿جاء﴾، ﴿رَجُلٌ﴾ فاعل، وجملة ﴿يَسْعَىٰ﴾ صفة لـ﴿رَجُلٌ﴾، أو حال منه لوصفه بصفة محذوفة معلومة من السياق؛ أي: رجل عظيم الشأن عند الله، والجملة الفعلية مستأنفة، أو معطوفة على الجمل التي قبلها، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على رجل، والجملة مستأنفة، ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية توكيد للجملة التي قبلها، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يَسْـَٔلُكُمْ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ ومفعول أول، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَهُم﴾: الواو: حالية، ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿مُّهْتَدُونَ﴾: خبر ﴿هم﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يسأل﴾، والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿لِىَ﴾: جار ومجرور في محل الرفع خبر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾، ﴿لَآ﴾: نافية، ﴿أَعْبُدُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ياء المتكلم، ﴿فَطَرَنِى﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَإِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، و﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل مغيَّر الصيغة ونائب فاعل، معطوف على ﴿فَطَرَنِى﴾.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ءَأَتَّخِذُ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿أتخذ﴾: فعل مضارع وفاعل

مستتر، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أتخذ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿ءَالِهَةً﴾: مفعول أول له، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿يُرِدۡنِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إِنۡ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسر نون الوقاية مفعول به، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: فاعل، ﴿بِضُرّٖ﴾: متعلق بـ﴿يُرِدۡنِ﴾، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿تُغۡنِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إِنۡ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ﴿عَنِّي﴾ متعلق بـ﴿تُغۡنِ﴾، ﴿شَفَٰعَتُهُمۡ﴾: فاعل ﴿تُغۡنِ﴾، ﴿شَيۡـٔٗا﴾: مفعول مطلق، أو مفعول به، وجملة ﴿إِنۡ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة ﴿لا﴾: نافية، ﴿يُنقِذُونِ﴾: فعل مضارع وفاعل، معطوف على ﴿تُغۡنِ﴾ مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، وعلامة جزمه حذف النون، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسر نون الوقاية مفعول به، لأن أصله: ينقذونني.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿إِذٗا﴾: حرف جواب وجزاء لا عمل لها لفقد شرطها، ﴿لَّفِي﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿في ضلال﴾: جار ومجرور خبر إن، ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿ضَلَٰلٖ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿ءَامَنتُ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿اسمعوا﴾: فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسر نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنتُ﴾، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة، ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، وإن شئت قلت: ﴿ٱدۡخُلِ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، ﴿ٱلۡجَنَّةَۖ﴾: ظرف مكان متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿رَجُلٞ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿يَٰلَيۡتَ﴾ ﴿يا﴾: حرف تنبيه، أو حرف نداء، والمنادى محذوف تقديره: يا هؤلاء، ﴿ليت قومي﴾: ناصب

واسمه، وجملة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة، ﴿غَفَرَ﴾: فعل ماض، ﴿لِي﴾: متعلق به، ﴿رَبِّي﴾: فاعل ﴿غَفَرَ﴾، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: بغفران ربي لي، أو بالسبب الذي غفر به ربي ذنوبي، وهو الإيمان، وقال الفراء: ويجوز جعلها استفهامية؛ يعني: بأي شيء غفر لي ربي؟ ورد عليه بأنها لو كانت استفهامية.. لحذفت ألفها، كما هو القاعدة عند دخول الجار عليها، وأجيب عنه: بأن حذفها أغلبي لا اطرادي، والمشهور أن إثبات الألف في ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جر مختص بضرورة الشعر نحو قوله:

عَلَىٰ مَا قَامَ يَشْتُمُنِيْ لَئِيْمُ   كَخِنْزِيْرٍ تَمَرَّغَ فِيْ رَمَادِ

وحذفها هو المعروف في الكلام نحو قوله:

عَلَامَ يَقُوْلُ الرُّمْحُ يُثْقِلُ كَاهِلِيْ   إِذَا أَنَا لَمْ أَطْعَنْ إِذَا ٱلْخَيْلُ كَرَّتِ

﴿وَجَعَلَنِي﴾: الواو: عاطفة، ﴿جعلني﴾: فعل وفاعل مستتر ونون وقاية ومفعول أول ﴿مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جعلني﴾ على أنه مفعول ثانٍ لـ﴿جعل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿غَفَرَ لِي﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يسٓ ۝١﴾ تقدم الكلام في نظائره من الحروف المقطعة في أوائل السور، وأن الرأي الراجح فيها أنها حروف تنبيه، نحو: ألا ويا، وينطق بأسمائها فيقال: ياسين. روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: يس؛ أي: يا إنسان بلغة طيء.

﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ أي: ذو الحكمة، يقال: قصيدة حكيمة؛ أي: ذات حكمة، يقال: حكم الرجل من باب كرم؛ أي: صار حكيماً، ومنه قول النابغة:

وَٱحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ ٱلْحَيِّ إِذْ نَظَرَتْ   إِلَىٰ حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ ٱلثَّمَدِ

وأحكمته التجارب: جعلته حكيماً، وقال آخر:

وَقَصِيْدَةٍ تَأْتِيْ ٱلْمُلُوْكَ حَكِيْمَةٍ   قَدْ قُلْتُهَا، لِيُقَالَ: مَنْ ذَا قَالَهَا؟

وعبارة «الكرخي»: الحكيم: فعيل بمعنى: مفعل، كقولهم: عقدت العسل فهو

عقيد بمعنى: معقد، وليس بمعنى مفعول، كشيطان رجيم بمعنى: مرجوم، وليس هو في الآية كذلك؛ لأنه إنما يقال محكوم به ونحو ذلك، ولا بمعنى: فاعل؛ أي: حاكم؛ لأن الحاكم الحقيقي هو الله تعالى، فظهر بذلك أن القرآن محكوم فيه لا حاكم، وأن الحاكم المطلق هو الله تعالى، أو على معنى النسب؛ أي: ذي الحكم؛ لأنه دليل ناطق بالحكمة بطريق الاستعارة، أو المتصف بها على الإسناد المجازي.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ من الإرسال، والإرسال قد يكون للتسخير، كإرسال الريح والمطر، وقد يكون بمعنى بعث من له اختيار، نحو إرسال الرسل، كما في «المفردات».

﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾؛ أي: متصفون بالغفلة، والغفلة: ذهاب المعنى عن النفس، والنسيان: ذهابه عنها بعد حضوره. قال بعضهم: الغفلة: نوم القلب، فلا تعتبر حركة اللسان إذا كان القلب نائماً، ولا يضر سكوته إذا كان متيقظاً، ومعنى التيقظ: أن يشهده تعالى حافظاً له رقيباً عليه قائماً بمصالحه.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾؛ أي: ثبت ووجب، والقول الحكم والقضاء الأزلي. ﴿أَغْلَالًا﴾: جمع غل بضم الغين، وهو القيد الذي يوضع في اليد، وقد تشد به اليد إلى العنق، وفي «المفردات»: أصل الغلل: تدرع الشيء وتوسُّطه، ومنه: الغلل للماء الجاري، مختص بما يقيد به، فيجعل الأعضاء وسطه، وغل فلان: قيد به، وقيل للبخيل: هو مغلول اليد.

﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن بفتح الذال والقاف وبكسر الذال وبفتح القاف ومجتمع اللحيين من أسفلهما.

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ جمع: مقمح، والمقمح: الذي يرفع رأسه، ويغض بصره من الإقماح، يقال: قمح البعير فهو قامح إذا رفع رأسه بعد الشرب لارتوائه، أو لبرودة الماء، أو لكراهة طعمه، كما مرَّ، وفي «المختار» الإقماح: رفع الرأس، وغض البصر، يقال: أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعاً من ضيقه. اهـ. وفي «القاموس»: وأقمح الغل الأسير: إذا ترك رأسه مرفوعاً لضيقه.

﴿سَدًّا﴾ السد ـ بفتح السين وضمها ـ: الحاجز بين الشيئين والجبل، والجمع: أسداد. قال علي بن أبي طالب: وضرب على قلبه بالأسداد؛ أي: سدت

عليه الطرق، وعميت عليه المذاهب.

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: أغشينا أبصارهم؛ أي: غطيناهم، وجعلنا عليها غشاوة عن أن تطمح إلى مرئي. ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾؛ أي: عقابه، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: قبل حلوله ومعاينة أهواله. ﴿نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ والإحياء: جعل الشيء حياً ذا حس وحركة، والميت: من أخرج روحه.

﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾؛ أي: أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة. ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾؛ أي: ما أبقوه بعدهم من الحسنات، كعلم علموه، أو كتاب ألفوه أو بناء في سبيل الله بنوه، أو من السيئات، كغرس بذور الضلالات بين الناس.

﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ قال ابن الشيخ: أصل الإحصاء: العد، ثم استعير للبيان والحفظ؛ لأن العد يكون لأجلهما، وفي «المفردات»: الإحصاء: التحصيل بالعدد، يقال: أحصيت كذا، وذلك من لفظ الحصي، واستعمال ذلك فيه؛ لأنهم كانوا يعتمدون عليه في العد اعتمادنا فيه على الأصابع.

﴿فِىٓ إِمَامٍ﴾؛ أي: أصلٍ يؤتم به، قال الراغب: الإمام المؤتم به إنساناً كان يقتدى بقوله وبفعله، أو كتاباً أو غير ذلك، محقاً كان أو مبطلاً، وجمعه: أئمة.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ القرية ـ بفتح القاف وكسرها ـ: الضيعة، والمصر الجامع، وجمع الناس، والجمع: قرًى، وقرىء بضم القاف وكسرها، والنسبة إليها: قروي وقريّ، والمراد بها هنا: أنطاكية كما سبق.

﴿فعززناهما﴾؛ أي: قويناهما وشددناهما، يقال: عزز المطر الأرض إذا لبدها وسددها، وأرض عزاز؛ أي: صلبة، وتعزز اللحم: اشتد وعز، كأنه حصل في عزاز يصعب الوصول إليه.

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: التبليغ الواضح الظاهر للرسالة. ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: تشاءمنا، والتطير: التشاؤم، وأصله: من الطير إذا طار إلى جهة اليسار تشاءموا به، وأصل التطير: التفاؤل بالطير، فإنهم يزعمون أن الطائر السانح ـ أي: الذي طار إلى جهة اليمين ـ سببٌ للخير، والبارح ـ أي: الذي طار إلى جهة اليسار ـ سبب للشر، ثم استعمل في كل ما يتشاءم به، طيراً كان أو غيره.

﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ وفي «المختار»: طائر الإنسان: عمله الذي قلّده، والطير

أيضاً الاسم من التطير، ومنه قولهم: لا طير إلا طير الله، كما يقال: لا أمر إلا أمر الله، وقال ابن السكيت يقال: طائر الله لا طائرك، ولا تقل: طير الله، وتطيَّر من الشيء وبالشيء، والاسم: الطيرة بوزن عنبة، وهي ما يتشاءم به من الفأل الرديء. ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ والضر: اسم لكل سوء ومكروه يتضرر به. ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ من الإنقاذ، وهو: التخليص من المخاوف والمكاره.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ لردِّ إنكار الكفرة بقولهم في حقه ﷺ: لست مرسلاً، وما أرسل الله إلينا رسولاً، فإنه أكد بالقسم، وبإن، وباللام، وباسمية الجملة؛ لأن المقام مقام الإنكار.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ فإنه شبَّه حال الكفار في امتناعهم من الهدى والإيمان بمن غلت يده إلى عنقه بالسلاسل والأغلال، فأصبح رأسه مرفوعاً لا يستطيع خفضاً له ولا التفاتاً على طريقة الاستعارة التمثيلية.

ومنها: القلب في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾؛ إذ حقيقة الكلام: جعلنا أعناقهم في الأغلال، وقال ثعلب: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ إن المعنى: اسلكوا فيه سلسلة؛ أي: أدخلوا في عنقه سلسلة.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿أَغْلَٰلًا﴾ مبالغة في تعظيمها وتهويل أمرها.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ الآية، فقد شبههم بمن أحاط بهم سدان هائلان، فغطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في وهدة الجهالة، ممنوعون من النظر في الآيات والدلائل، أو كأنهم وقد حرموا نعمة التفكير في القرون الخالية والأمم الماضية، والتأمل في مغاب الآتية والعواقب المستقبلية، قد أحيطوا بسدٍّ من أمامهم، وسد من

ورائهم، فهم في ظلمة داكنة لا تختلج العين من جانبها بقبس، وتتوسم بصيصاً من أمل.

ومنها: تكرير الضمير في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لزيادة التأكيد.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾؛ لأنه استعار الإحصاء بمعنى العد للإحصاء بمعنى البيان بجامع الضبط في كل، فاشتق من الإحصاء بمعنى البيان، أحصينا بمعنى: بينا على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ فقد حذف مفعول ﴿فَعَزَّزْنَا﴾، والتقدير: فعززهما بثالث.

ومنها: التأكيدات في قوله: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ الآيات، ففي هذه الآيات يبدو التأكيد بأروع صورة للخبر، فقال أولاً: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فأورد الكلام ابتدائي الخبر، ثم قال: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، فأكده بمؤكدين، وهو: إن، واسمية الجملة، فأورد الكلام طلبياً، ثم قال: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، فترقى في التأكيد بثلاثة، وهي: إن، واللام، واسمية الجملة، فأورد الكلام إنكاري الخبر جواباً عن إنكارهم، قيل: وفي قوله: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ تأكيد رابع، وهو إجراء الكلام مجرى القسم في التأكيد به، وفي أنه يجاب بما يجاب به القسم، وفي هذه الآية ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام، فإن ذكر الرسالة مهد لذكر البلاغ والبيان.

ومنها: قصر القلب في قوله: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فالمخاطبون وهم الرسل لم يكونوا جاهلين بكونهم بشراً ولا منكرين لذلك، لكنهم نزّلوا منزلة المنكرين لاعتقاد الكفار أن الرسول لا يكون بشراً، فنزلوهم منزلة المنكرين للبشرية لما اعتقدوا التنافي بين الرسالة والبشرية، فقلبوا هذا الحكم وعكسوه وقالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا؛ أي: أنتم مقصورون على البشرية، ليس لكم وصف الرسالة التي تدعونها، فلا فضل لكم علينا يقتضي اختصاصكم بالرسالة دوننا، ولو أرسل الرحمن إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أفضل منهم، وهم الملائكة على زعمهم.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾.

ومنها: الجناس الناقص في ﴿نَحۡنُ نُحۡيِ﴾ لتغير بعض الحروف.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ و﴿لَمُرۡسَلُونَ﴾، وبين ﴿تَطَيَّرۡنَا﴾ و﴿طَٰٓئِرُكُم﴾.

ومنها: الإطناب بتكرار الفعل في قوله: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٢١﴾.

ومنها: الإيغال في قوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، الإيغال عندهم: هو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها؛ لأن قوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ مما يتم المعنى بدونه؛ لأن الرسل مهتدون لا محالة، إلا أن فيه زيادة حث على اتباع الرسل وترغيب فيه.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، وفائدته: أن في انتقاله من مخاطبتهم ومناصحتهم إلى التكلم تلطفاً بهم من جهة، ووعيداً لهم من جهة ثانية، فقد صرف الكلام أولاً إلى نفسه، وأراهم أنه لا يختار لهم إلا ما يختاره لنفسه، ثم التفت إلى مخاطبتهم ثانياً مقرعاً مهدداً بالعواقب التي تنتظرهم، ثم عاد أخيراً إلى التلطف في النصيحة؛ لأن ذلك أدخل في إمحاض النصح؛ حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، وقد وضع قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني، وإليه أرجع.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾.

ومنها: الحذف لدلالة السياق عليه في قوله: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾، والتقدير: فلما أشهر إيمانه.. قتلوه، فقيل له: ادخل الجنة.

ومنها: ائتلاف الفواصل في هذه الآي، وهو من خصائص القرآن لما فيه من روعة البيان، وحسن الوقع على السمع، وهو كثير في القرآن.

فائدة: من محاسن القرآن الكريم وبلاغته الخارقة الإيجاز في القصص والأنباء، والإشارة إلى روحها وسردها؛ لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار،

ولهذا لم يذكر في القصة اسم البلدة، ولا اسم الشخص الذي دعاهم إلى الله تعالى، ولا أسماء الرسل الكرام؛ لأن كل ذلك ليس هو الهدف من القصة، وقس على هذا سائر قصص القرآن.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أجل وأعز وأكرم وأعلم، والحمد لله على إحسانه وإنعامه، وصلِّ وسلم ربنا على محمد وآله الطيبين الأخيار، وصحبه الكرام الأبرار، وأتباعهم إلى يوم العرض على الجبار[1].

* * *

(١) وإلى هنا وقفت الأقلام في تفسير هذا الجزء من الكتاب الكريم، وكان الفراغ منه بمكة المكرمة جوار المسجد الحرام في حي المسفلة في حارة الرشد في أوائل الليلة التاسعة من شهر صفر المبارك من شهور سنة ألف وأربع مئة وأربع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، ٩/ ٢/ ١٤١٤هـ، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، آمين آمين يا رب آمين.
تم المجلد الثالث والعشرون، ويليه المجلد الرابع والعشرون، وأوله قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ...﴾ الآية.

شعرٌ

الْـعَـبْـدُ ذُوْ ضَـجَـرٍ وَٱلـرَّبُّ ذُوْ قَـدَرٍ وَٱلـدَّهْـرُ ذُوْ دُوَلٍ وَٱلـرِّزْقُ مَـقْـسُـوْمُ
وَٱلْـخَيْرُ أَجْـمَعُ فِيْمَا ٱخْتَارَ خَالِقُنَا وَفِـيْ ٱخْـتِـيَـارِ سِـوَاهُ ٱلـلَّـوْمُ وَٱلـشُّـوَمُ

آخرُ

أَلاَ إِنَّـمَـا ٱلـدُّنْـيَـا كَـظِـلٍّ سَـحَـابَـةٍ أَظَلَّـتْـكَ يَـوْماً ثُـمَّ عَـنْـكَ ٱضْـمَـحَـلَّـتِ
فَـلاَ تَـكُ فَـرْحـانـاً بِـهَـا حِـيْـنَ أَقْـبَـلَـتْ وَلاَ تَـكُ جَـزْعَـانـاً بِـهَـا حِـيْـنَ وَلَّـتِ

آخرُ

بِـــلاَدُ ٱلـــلَّـــهُ وَاسِـــعَـــةٌ فَـــضَـــاءٌ وَرِزْقُ ٱلـلَّـهِ فِـيْ ٱلـدُّنْـيَـا فَـسِـيْـحُ
فَـقُـلْ لِـلْـقَـاعِـدِيْـنَ عَـلَـىٰ هَـوَانٍ إِذَا ضَـاقَـتْ بِـكُـمْ أَرْضٌ فَـسِـيْـحُـوْا

آخرُ

إِذَا رَأَيْـــتَ لَـــحِـــيْـــنَـــا كُـــنْ سَـــاتِـــراً وَحَـــلِـــيْـــمَـــا
يَـــا مَـــنْ يُـــعَـــيِّـــبُ شَـــرْحِـــيْ لِـــمْ لاَ تَـــمُـــرُّ كَـــرِيْـــمَـــا

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة
محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي
المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة
الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي
خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي
مكة المكرمة

المجلد الرابع والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر

ٱلسَّبَاقَ ٱلسَّبَاقَ قَوْلاً وَفِعْلاً   حَذِّرِ ٱلنَّفْسَ حَسْرَةَ ٱلْمَسْبُوقِ

آخرُ

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَٱلْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ   وَلَيْتَكَ تَرْضَىٰ وَٱلأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ ٱلَّذِيْ بَيْنِيْ وَبَيْنَكَ عَامِرٌ   وَبَيْنِيْ وَبَيْنَ ٱلْعَالَمِيْنَ خَرَابُ

آخرُ

رَأَيْتُ أَخَا ٱلدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ ثَاوِيَا   أخا سَفَرٍ يُسْرَىٰ بِهِ وَهُوَ لاَ يَدْرِي

آخرُ

وَمَا ٱلْمَرْءُ إِلاَّ كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ   يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

آخرُ

ٱلْمَوْتُ كَأْسٌ وَكُلُّ ٱلنَّاسِ شَارِبُهُ   وَٱلْقَبْرُ بَابٌ وَكُلُّ ٱلنَّاسِ دَاخِلُهُ

آخرُ

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَبَيْتِ   نَسْجُهُ مِنْ عَنْكَبُوتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، جل على الإنعام، فسبحانه ذا الجلال والإكرام على ما منَّ به علينا من الفضل الجسيم، لا سيما تفسير كتابه الكريم، والصلاة والسلام على أفضل الأنام سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه الكرام، ومن حذا حذوهم إلى يوم القيام.

أما بعد: فلما استدبرت من تفسير الجزء الثاني والعشرين من القرآن الكريم.. استقبلت تفسير الجزء الثالث والعشرين منه، طالباً منه سبحانه المعونة والسلامة، والتوفيق والهداية لأصوب الطريق، فيما أنا بصدده من تفسير كتابه، فهو المرجو في كل دعاء، ومنه حصول كل رجاء، فقلت: وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ
إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا
جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ
﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ
وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ
وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ
كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ
﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ

إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن
كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ
﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن
كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ الآيات، تقدم أن قلنا غير ما مرة، أنَّ تقسيم الكتاب الكريم إلى الأجزاء الثلاثين، لوحظ فيه العد اللفظي، لا الاتصال المعنوي، إذ كثيراً ما تكون بداءة الجزء في أثناء القصة الواحدة، كما هنا، فإنه بعد أن بيّن حال الناصح الشهيد، ودخوله الجنة.. أردف ذلك ذكر حال المتخلفين المخالفين له، ثم ذكر سُنة الله في أمثالهم من العذاب الدنيوي، ثم هم يردون إلى ربهم فيعذبهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما بيّن أن العباد كلهم محضرون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قدموا من عمل.. أردف ذلك بما يدل على أن البعث ممكن وليس بمستحيل، وآية ذلك أن الأرض الميتة إذا نزل عليها المطر تحيا، وتنبت من كل زوج بهيج، ثم ذكر أنه كان يجب عليهم شكران هذه النعم بعبادة خالقها، وترك عبادة غيره مما لا يجديهم نفعاً، ولا يدفع عنهم ضراً.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما استدل على إمكان البعث والنشور بأحوال

---

(١) المراغي.

الأرض وما يطرأ عليها من تغير، مما هو دليل القدرة الشاملة.. أردف ذلك بذكر أحوال الأزمنة من اختلاف الليل والنهار، وجريان الشمس والقمر، والأجرام السماوية، وهي مخلوقات عظيمة تحت قبضته يتصرف فيها بعظيم سلطانه.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر على سبيل المنّة على عباده أنه أحيا الأرض، وهي مكان الحيوان.. أردف ذلك بذكر نعمة أخرى على الإنسان، وهي أنه جعل له طريقاً يتخذه في البحر، ويسير فيه كما يسير في البر، جلبا لأرزاقه وتحصيلاً لأقواته من أقاصي البلاد في أنحاء المعمورة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر أنهم أعرضوا عن النظر في الآيات التي يشاهدونها في الآفاق.. أردف ذلك بذكر إعراضهم عن الآيات المنزّلة من عند ربهم، مما فيه تحذيرهم، بأن يحل بهم من المثلات مثل ما حل بمن قبلهم، ثم أعقبه بذمهم على ترك الشفقة على خلق الله تعالى، إذ قيل لهم: أنفقوا فلم يفعلوا.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمرهم بتقوى الله، وخوّفهم أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات.. أعقب هذا بذكر إنكارهم ليوم البعث، واستعجالهم له، استهزاءً به وسخريةً منه، ثم أتبعه ببيان أنه حق لا شك فيه، وأنه سيأتيهم بغتةً من حيث لا يشعرون، وإذ ذاك يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعي، ثم ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور، حين يرون العذاب، ويقولون: من أخرجنا من قبورها، فيجابون: بأن ربكم هو الذي قدر هذا، ووعدكم به على ألسنة رسله، وسيوفي كل عامل جزاء عمله.

التفسير وأوجه القراءة

فلما قُتل حبيب النجار، غضب الله عز وجل له، فعجّل لهم العقوبة، فأمر

جبرائيل عليه السلام، فصاح بهم صيحة واحدةً، فماتوا عن آخرهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: على قوم حبيب النجار، وهم أهل أنطاكية. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد قتلهم له، أو من بعد رفع الله له إلى السموات على الاختلاف السابق. ﴿مِن جُندٍ﴾ وعسكر ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولم نرسل عليهم جنداً من الأرض، لإهلاكهم وللانتقام منهم؛ أي: لم نحتج إلى إرسال جنود من السماء لإهلاكهم، كما وقع ذلك للنبي ﷺ يوم بدر، من إرسال الملائكة لنصرته وحرب أعدائه، بل كفينا أمرهم بصيحة ملك. ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾؛ أي: وما صح واستقام في قضائنا وحكمتنا أن ننزل لإهلاك قومه جنداً من السماء، لسبق قضائنا وقدرنا، بأن إهلاكهم بالصيحة لا بإنزال الجند، فإنا جعلنا لكل شيء سبباً يخصه، حيث أهلكنا بعض الأمم بالحاصب، وبعضهم بالصيحة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالإغراق، وجعلنا إنزال الجند من السماء من خصائصك في الانتصار من قومك.

وفي الآية: استحقار لأهل أنطاكية ولإهلاكهم، حيث اكتفى في استئصالهم بما يتوسل به إلى زجر، نحو الطيور والوحوش، من صيحة عبد واحد مأمور، وإيماء إلى تفخيم شأن الرسول ﷺ؛ لأنه إذا كان أدنى صيحة ملك واحد، كافياً في إهلاك جماعة كثيرة، ظهر أن إنزال الجنود من السماء يوم بدر والخندق لم يكن إلا تعظيماً لشأنه، وإجلالاً لقدره، لا لاحتياج الملائكة إلى المظاهرة والمعاونة.

فإن قيل: كما لم ينزل عليهم جنداً من السماء، لم يرسل إليهم جنداً من الأرض أيضاً، فما فائدة قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟

فالجواب: أنه ليس للاحتراز، بل لبيان أن النازل عليهم من السماء لم يكن إلا صيحةً واحدة أهلكتهم بأسرهم؛ أي: ليسوا بأحقّاء بأن ننزل لإهلاكهم جنداً من السماء، بل أهلكناهم بصيحة واحدة، كما يفيده قوله: ﴿إِن كَانَتْ﴾؛ أي: ما كانت الأخذة أو العقوبة على أهل أنطاكية ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح بها جبرائيل، فأهلكهم قال المفسرون: أخذ جبرائيل بعضادتي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة، فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حسّ، كالنار إذا انطفأت، وهو معنى قوله:

﴿فَإِذَا﴾ هم؛ أي: أهل أنطاكية ﴿خَـٰمِدُونَ﴾ أي: قوم خامدون؛ أي: ميتون لا يسمع لهم حسّ، ولا يشاهد لهم حركة، شبّهوا بالنار الخامدة رمزاً إلى أن الحي كالنار الساطعة في الحركة والالتهاب، والميت كالرماد، يقال: خمدت النار إذا سكن لهبها ولم ينطفىء جمرها، وهمدت إذا طفىء جمرها قال في «الكواشي»: لم يقل: هامدون وإن كان أبلغ لبقاء أجسادهم بعد هلاكهم. و﴿إذا﴾ فجائية[1]؛ أي: فاجأهم الخمود إثر الصيحة، لم يتأخر ووقعت[2] الصيحة في اليوم الثالث من قتل حبيب والرسل، أو في اليوم الذي قتلوهم فيه. وفي رواية، في الساعة التي عادوا فيها بعد قتلهم إلى منازلهم فرحين مستبشرين، وإنما عجّل الله عقوبتهم، غضباً لأوليائه الشهداء، ولم يذكر لنا الكتاب الكريم، كيف كانت الصيحة، ولا كيف نزل بهم العذاب. وتفصيل ذلك لا يعنينا، فالعبرة تحصل بدون بيانه، إذ المراد: انتقام الله وعذابه لمن كذب أولياءه على أي نحو كان ذلك العذاب. نسأل الله سبحانه أن يحفظنا من موجبات غضبه وسخطه وعذابه.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿صَيْحَةً﴾ بالنصب، على أن (كان) ناقصة، واسمها ضمير يعود إلى ما يفهم من السياق، كما قدمنا. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والأعرج ومعاذ القارىء ﴿صيحةٌ﴾ بالرفع على أنّ (كان) تامة؛ أي: ما حدثت أو ما وقعت إلا صيحة واحدة. وكان الأصل أن لا يلحق التاء؛ لأنه إذا كان الفعل مسنداً إلى ما بعد إلا من المؤنث لم تلحق العلامة للتأنيث، فيقال: ما قام إلا هند، ولا يجوز (ما قامت إلا هند) عند أصحابنا إلا في الشعر. وجوّزه بعضهم في الكلام على قلّة، ومثله قراءة الحسن، ومالك بن دينار، وأبي رجاء، والجحدري، وقتادة، وأبي حيوة، وابن أبي عبلة، وأبي بحرية ﴿لا ترى إلا مساكنهم﴾ بالتاء. والقراءة المشهورة ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾ بالياء، فأنكر أبو حاتم، وكثير من النحويين هذه القراءة، أعني: قراءة الرفع، بسبب لحوق تاء التأنيث في قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً﴾. قال أبو حاتم: فلو كان كما قرأ أبو جعفر.. لقال: إن

---

(1) البحر المحيط.
(2) روح البيان.
(3) البحر المحيط والشوكاني.

كان إلا صيحة. وقدّر الزجاج هذه القراءة بقوله: إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة، وقدّرها غيره: ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة، وقرأ عبد الله بن مسعود: إن كانت إلا زقية واحدة. والزقية: الصيحة. قال النحاس: وهذا مخالف للمصحف.

﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ يا ندامة ﴿عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ المصرين على العناد تعالي، فهذا أوانك ووقت ظهورك، فهذه من الأحوال التي حقّها أن تحضري فيها، وهي ما دل عليه قوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، فإن المستهزئين بالناصحين الذين نيطت بنصائحهم سعادة الدارين، أحقاء بأن يتحسروا ويتحسّر عليهم المتحسرون، وقد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين. والمراد[١] بالعباد هنا: مكذبو الرسل؛ أي: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة، إذا عاينوا العذاب على تكذيبهم رسل الله ومخالفة أوامره.

ثم بيّن سبب الحسرة والندامة، فقال: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ...﴾ الخ؛ أي: ما جاءهم رسول إلا استهزؤوا به، وكذبوه، وجحدوا ما أرسل به من الحق.

والخلاصة: أن المستهزئين بالناصحين المخلصين، المنوط بنصحهم خير الدارين، جديرون أن يتحسروا على أنفسهم، إذ فوّتوا عليها السعادة الأبدية، وعرّضوها لعذاب مقيم، وكأنه قيل: يا حسرة احضري فهذه شدة لا سبيل للخلاص منها.

وقرأ الجمهور[٢]: بنصب ﴿حسرةً﴾ على كونها مشابهة بالمنادى المضاف في طولها، بما تعلق بها من الجار والمجرور، فكأنه نادى الحسرة وقال لها: هذا أوانك فاحضري، وقيل: إنها منصوبة على المصدرية، والمنادى محذوف والتقدير: يا هؤلاء تحسروا حسرة على العباد المكذبين للرسل حين جاؤوهم فاستهزؤوهم، وقرأ أبي، وابن عباس، وعلي بن الحسين، والضحاك، ومجاهد

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط والشوكاني بتصرف.

والحسن ﴿يا حسرةَ العباد﴾ بالإضافة إما إلى الفاعل أو إلى المفعول، فيجوز أن تكون الحسرة منهم على ما فاتهم، ويجوز أن تكون الحسرة من غيرهم عليهم، لما فاتهم من اتباع الرسل حين أحضروا للعذاب، وطباع البشر تتأثر عند معاينة عذاب غيرهم، وتتحسر عليهم أو من الملائكة، وقرأ أبو الزناد، وابن هرمز، ومسلم بن جندب، وعكرمة ﴿يا حسره على العباد﴾ بسكون الهاء إجراء للوصل مجرى الوقف، وقال ابن خالويه: ﴿يا حسرةَ على العباد﴾ بغير تنوين، قاله ابن عباس، اهـ. ووجهه: أنه اجتزأ بالفتحة عن الألف التي هي بدل من ياء المتكلم في النداء، كما اجتزأ بالكسرة على الياء فيه، وقد قرىء ﴿يا حسرتا﴾ بالألف؛ أي: يا حسرتي، ويكون من الله على طريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه على أنفسهم، شبّه استعظام الله سبحانه لجنايتهم على أنفسهم، بتحسر الإنسان على غيره، لأجل ما فاته من الدولة العظمى، من حيث أن ذلك التحسر يستلزم استعظام ما أصاب ذلك الغير، والإنكار على ارتكابه، والوقوع فيه.

وجملة قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ...﴾ إلخ، مستأنفة مسوقة لبيان ما كانوا عليه من تكذيب الرسل والاستهزاء بهم، وأن ذلك هو سبب التحسر عليهم، وفي «بحر العلوم»: قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ إلخ، حكاية حال ماضية مستمرة؛ أي: كانوا في الدنيا على الاستمرار يستهزئون بمن يأتيهم من الرسول من غاية الكبر، ويستحقرون، ويستنكفون عن قبول دينه ودعوته، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه له.

ولما بيّن حال الأولين نبه الحاضرين، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وعيد للمشركين في مكة بمثل عذاب الأمم الماضية، ليعتبروا ويرجعوا عن الشرك. والاستفهام للتقرير؛ أي: قد رأوا كثرة إهلاكنا، وكم في قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ خبرية؛ أي: ألم يعلم أهل مكة كثرة إهلاكنا من قبلهم، من المذكورين آنفاً، ومن غيرهم بشؤم تكذيبهم. وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ معلّق عن العمل فيما بعده؛ لأن ﴿كَمْ﴾ لا يعمل فيها ما قبلها، خبرية كانت كما هنا، أو استفهامية، خلا أن معناه نافذ في الجملة، كما نفذ في قولك: ألم تر إن زيداً لمنطلق. وإن لم يعمل

في لفظه، فالجملة منصوبة المحل بـ﴿يروا﴾.

وقوله: ﴿أَنَّهُمْ﴾؛ أي: المهلكين من القرون ﴿إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى أهل مكة ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ بدل من ﴿أهلكنا﴾ على المعنى؛ أي[١]: ألم يعلموا كثرة إهلاكنا القرون الماضية والأمم السالفة كونهم؛ أي: الهالكين غير راجعين إليهم؛ أي: إلى هؤلاء المشركين؛ أي: أهلكوا إهلاكاً لا رجوع لهم من بعده في الدنيا؛ أي: أفلا يعتبرون، ولم لا ينتبهون، فكما أنهم مضوا وانقرضوا إلى حيث لم يعودوا إلى ما كانوا، فكذلك هؤلاء سيهلكون وينقرضون إثرهم ثم لا يعودون، وقال بعضهم: ألم يروا أن خروجهم من الدنيا، ليس كخروج أحدهم من منزله إلى السوق، أو إلى بلد آخر، ثم عودته إلى منزله عند إتمام مصلحته هناك، بل هو مفارق من الدنيا أبداً، فكونهم غير راجعين إليهم عبارة عن هلاكهم بالكلية، ويجوز أن يكون المعنى: أن الباقين لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة؛ أي: أهلكناهم وقطعنا نسلهم، والإهلاك مع قطع النسل أتم وأعم، وقال أبو حيان: والذي تقتضيه صناعة العربية أن ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ معمول لمحذوف دل عليه السياق، تقديره: قضينا أو حكمنا أنهم إليهم لا يرجعون، ولا يصح إبداله مما قبله لفظاً ولا معنىً وقرأ ابن عباس، والحسن ﴿إنهم﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف وقطع الجملة عما قبلها من جهة الإعراب، ودل ذلك على أن قراءة الفتح مقطوعة عن ما قبلها من جهة الإعراب، لتتفق القراءتان ولا تختلفان، وقرأ عبد الله ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، و﴿أَنَّهُمْ﴾ على هذا بدل اشتمال مما قبله، اهـ «البحر».

والمعنى[٢]: أي ألم يعتبروا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل: كعاد، وثمود. وأنهم لا رجعة لهم إلى الدنيا، كما تعتقد الدهرية جهلاً منهم، بأنهم يعودون إليها كما كانوا، وهذه الآية ترد قول أهل الرجعة[٣]؛ أي: من يزعم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

أن من الخلق من يرجع إلى الدنيا قبل القيامة بعد الموت، كما حكي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه قيل له: إن قوماً يزعمون أن علياً رضي الله عنه مبعوث قبل يوم القيامة، فقال ابن عباس: بئس القوم نحن، إذا نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه؛ أي: لو كان راجعاً إلى الدنيا لكان حياً، والحي لا تنكح نساؤه، ولا يقسم ميراثه، كما قال الفقهاء إذا بلغ إلى المرأة وفاة زوجها، فاعتدت وتزوجت وولدت، ثم جاء زوجها الأول فهي امرأته؛ لأنها كانت منكوحته، ولم يعترض شيء من أسباب الفرقة، فبقيت على النكاح السابق، ولكن لا يقربها حتى تنقضي عدتها من النكاح الثاني.

ويجب إكفار الروافض في قولهم: بأن علياً وأصحابه يرجعون إلى الدنيا، فينتقمون من أعدائهم، ويملؤون الأرض قسطاً كما ملئت جَوْراً، وذلك القول مخالف للنص.

وبعد أن ذكر أنه أهلكهم وبيّن طريق ذلك، أعقب هذا بأن لهم حساباً وعقاباً، فقال: ﴿وَإِن﴾ نافية أو مخففة ﴿كُلٌّ﴾ تنوينه عوض عن المضاف إليه ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد بمعنى: إلا على القول: بأن ﴿إِنْ﴾: نافية، وبالتخفيف على أن اللام هي الفارقة، و﴿مَا﴾: زائدة على القول: بأن ﴿إِنْ﴾: مخففة من الثقيلة. ﴿جَمِيعٌ﴾ فعيل بمعنى مفعول، جمع بين كل وجميع؛ لأن الكل يفيد الإحاطة دون الاجتماع، والجميع يفيد أن المحشر يجمعهم، ولدينا بمعنى عندنا، ظرف لجميع أو لـ﴿مُحْضَرُونَ﴾ والمعنى على التشديد: وما كل الخلائق إلا مجموعون لدينا، محضرون عندنا للحساب والجزاء، وعلى التخفيف. وإنه كل الخلائق لمجموعون عندنا، محضرون لدينا للحساب والجزاء.

وهذه الآية[1]: بيان لرجوع الكل إلى المحشر، بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا، وأن من مات ترك على حاله، ولو لم يكن بعد الموت بعث وجمع وحبس وعقاب وحساب، لكان الموت راحة للميت، ولكنه يبعث ويسأل، فيكرم

(١) روح البيان.

المؤمن، والمخلص، والصالح والعادل، ويهان الكافر، والمنافق، والمرائي والفاسق، والظالم. فيفرح من يفرح، ويتحسر من يتحسر، فللعباد موضع التحسر إن لم يتحسروا اليوم.

وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر[1]: بتشديد ﴿لَّمَّا﴾، وباقي السبعة بتخفيفها، فمن شددها كانت عنده بمعنى إلا، و﴿إِن﴾ نافية، ومن خفف ﴿لما﴾ جعل ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، واللام في ﴿لَّمَّا﴾ فارقة، و﴿مَا﴾ زائدة.

فائدة: وقال[2] أبو عبد الله الرازي في كون لما بمعنى: إلا معنى مناسب، وهو أن ﴿لَّمَّا﴾ كأنها حرفا نفي جميعاً، وهما: لم وما، فتأكد النفي، وإلا كأنها حرفا نفي: «إن ولا»، فاستُعمل أحدهما مكان الآخر، انتهى. والمعنى؛ أي: وإن جميع الأمم ماضيها، وحاضرها، وآتيها ستحضر يوم القيامة بين يدي الله، فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة له، وما أحسن قوله:

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكْنَا ... لَكَانَ ٱلْمَوْتُ رَاحَةَ كُلِّ حَيٍّ
وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا ... وَنُسْأَلُ بَعْدَهَا عَنْ كُلِّ شَيٍّ

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

والخلاصة: أن الناس يجمعون للحساب والجزاء، ويوفى كل عامل جزاء عمله من خير أو شر.

ثم ذكر سبحانه البرهان على التوحيد، والحشر مع تعداد النعم وتذكيرها، فقال: ﴿وَءَايَةٌ﴾؛ أي: علامة عظيمة، ودلالة واضحة على البعث والجمع والإحضار، وهو خبر مقدم للاهتمام به، وقوله: ﴿لَّهُمُ﴾؛ أي: لأهل مكة، إما متعلق بآية؛ لأنها بمعنى: العلامة أو بمضمر هو صفة لها، والمبتدأ قوله: ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ أي: اليابسة الجامدة، قرأ أهل المدينة[3]: ﴿الميّتة﴾ بالتشديد،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الفخر الرازي.
(٣) الشوكاني.

وخففها الباقون، وجملة قوله: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ مستأنفة مبينة لكيفية كون الأرض الميتة آية، كأن قائلاً قال: كيف تكون آية؟ فقال: أحييناها، والإحياء في الحقيقة: إعطاء الحياة، وهي صفة تقتضي الحس والحركة، والمعنى هٰهنا: هيجنا القوى النامية فيها، وأحدثنا نضارتها بأنواع النباتات في وقت الربيع، بإنزل الماء من بحر الحياة، وكذلك النشور، فإنا نحيي الأبدان البالية المتلاشية في الأجداث، بإنزال رشحات من بحر الجود، فنعيدهم أحياء كما أبدعناهم أولاً من العدم.

وبدأ في تفصيل الآيات بالأرض[1]؛ لأنها مستقرهم حركةً، وسكوناً، حياةً وموتاً، فنبههم الله سبحانه بهذا، على إحياء الموتى، وذكرهم نعمه وكمال قدرته، فإنه سبحانه أحيا الأرض بالنبات، وأخرج منها الحبوب التي يأكلونها، ويتغذون بها. وهو معنى قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾؛ أي: من الأرض ﴿حَبًّا﴾ وبزراً. والحب هو الذي يطحن، والبزر الذي يعصر منه الدهن، وهو جمع حبة، والمراد: جنس الحبوب التي تصلح قواماً للناس من الأرز، والذرة، والحنطة، والشعير، وغيرها. ﴿فَمِنْهُ﴾؛ أي: فمن ذلك الحب ﴿يَأْكُلُونَ﴾ تقديم[2] الصلة ليس لحصر جنس المأكول في الحب، حتى يلزم أن لا يؤكل غيره، بل هو لحصر معظم المأكول فيه، ولبيان أنه أكثر ما يقوم به المعاش، فإن الحب معظم ما يؤكل، ويعاش به، ومنه صلاح الإنس حتى إذا قل قل.. الصلاح، وكثر الضر والصياح، وإذا فُقد.. فُقد النجاح بإخلال الأشباح ولأمر ما قال النبي ﷺ: «أكرموا الخبز فإن الله أكرمه، فمن أكرم الخبز أكرمه الله».

قال في شرعة الإسلام: ويكرم الخبز بأقصى ما يمكن، فإنه يعمل في كل لقمة يأكلها الإنسان من الخبز ثلاث مئة وستون صانعاً. أولهم: ميكائيل الذي يكيل الماء من خزانة الرحمة، ثم الملائكة التي تزجر السحاب والشمس والقمر والأفلاك، وملائكة الهواء، ودواب الأرض، وآخرهم الخباز. ومن إكرام الخبز: أن تُلتقط الكسرة من الأرض، وإن قلت، فيأكلها تعظيماً لنعمة الله تعالى. وفي الحديث: «من أكل ما يسقط من المائدة.. عاش في وسعة، وعوفي في ولده،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وولد ولده، من الحمق». ويقال: إن التقاط الفتات مهور الحور العين، ولا يضع القصعة على الخبز، ولا غيرها، إلا ما يؤكل به من الإدام، ويكره مسح الأصابع والسكين بالخبز، إلا إذا أكله بعده، وكذا يكره وضع الخبز جنب القصعة لتستوي، وكذا يكره أكل وجه الخبز أو جوفه، ورمي باقيه لما في كل ذلك من الاستخفاف بالخبز، والاستخفاف بالخبز يورث الغلاء والقحط، كذا في شرح «النقاية والعوارف».

ومعنى الآية[1]: أي ومن الأدلة على قدرتنا على البعث: إحياء الأرض الهامدة التي لا نبات فيها، بإنزالنا الماء عليها، فتهتز، وتربو، وتنبت نباتاً مختلفاً ألوانه وأشكاله، وتخرج حباً هو قوت لكم ولأنعامكم، وبه قوام حياتكم.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: وخلقنا في الأرض ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين مملوءة ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ جمع نخلة ﴿وَأَعْنَٰبٍ﴾ جمع عنب؛ أي: من أنواع النخل والعنب، ولذلك جمعاً دون الحب، فإن الدال على الجنس مشعر بالاختلاف، ولا كذلك الدال على الأنواع. وخصهما بالذكر لأنهما أعلى الثمار، وأنفعها للعباد.

فإن قلت[2]: لِمَ ذكر النخيل دون التمور حتى يطابق الحب والأعناب في كونها مأكولة، لأن التمور والحب والأعناب كلها مأكولة دون النخيل؟

قلت: ذكر النخيل لاختصاص شجرها بمزيد النفع، وآثار الصنع. وذلك لأنها أول شجرة استقرت على وجه الأرض، وهي عمتنا لأنها خلقت من فضل طينة آدم عليه السلام على ما قيل وهي تشبه الإنسان، من حيث استقامة قدها وطولها. وامتياز ذكرها من بين النبات، واختصاصها باللقاح، ورائحة طلعها كرائحة المني، ولطلعها غلاف كالمشيمة التي يكون الولد فيها، ولو قطعت رأسها ماتت كما قالوا: أقرب الجماد إلى النبات المرجان، لأنه ينبت في البحر كالنبات، ويكون له أغصان. وأقرب النبات إلى الحيوان النخل، لأنها تموت بقطع رأسها، ولا تثمر بدون اللقاح، كما ذكر. وأقرب الحيوان إلى الإنسان

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الفرس، ويرى المنامات كبني آدم. ولو أصاب النخلة آفة هلكت، والجمار من النخلة كالمخ من الإنسان. وإذا تقارب ذكورها وإناثها حملت حملاً كثيراً؛ لأنها تستأنس بالمجاورة.

ومن خواص النخلة: أن مضغ خوصها يقطع رائحة الثوم، وكذا رائحة الخمر. وأما العنب فقد جاء في بعض الكتب المنزلة «أتكفرون بي وأنا خالق العنب». وله خواص كثيرة، وكذا الزبيب. وروي: أنه أهدي إلى النبي ﷺ الزبيب، فقال: «بسم الله، كلوا نعم الطعام الزبيب يشد العصب، ويذهب الوصب، ويطفىء الغضب، ويرضي الرب ويطيب النكهة، ويذهب البلغم، ويصفي اللون». وماء الكرم الذي يتقاطر من قضبانها بعد كسحها ينفع للجرب شرباً، ويسقى للمشغوف بالخمر بعد شربه الخمر، من غير علمه، فيبغض الخمر قطعاً.

وأول من استخرج الخمر جمشيد الملك، فإنه توجه مرة إلى الصيد فرأى في بعض الجبال كرمة، وعليها عنب، فظنها من السموم، فأمر بحملها حتى يجربها، ويطعم العنب لمن يستحق القتل، فتكسرت حباته فعصروها، وجعلوا ماءها في ظرف، فما عاد الملك إلى قصره إلا وقد تخمر العصير، فأحضر رجلاً وجب عليه القتل، فسقاه من ذلك، فشربه بكرهٍ ومشقةٍ ونام نومة ثقيلة ثم انتبه، وقال: اسقوني منه فسقوه أيضاً مراراً، فلم يحدث فيه إلا السرور والطرب، فسقوه غيره وغيره، فذكروا أنهم انبسطوا بعدما شربوه، ووجدوا سروراً وطرباً، فشرب الملك فأعجبه، ثم أمر بغرسه في سائر البلاد. وكانت الخمر حلالاً في الأمم السالفة، فحرمها الله تعالى علينا، لأنها مفتاح لكل شر، وجالبة لكل سوء وضر، ومميتة للقلب، ومسخطة للرب.

وقد قيل: خير خلكم خل خمركم. وذلك لأن انقلاب الخمر إلى الخل مرضاة للرب. وفيه خواص كثيرة. وأكثر الناس السعال والتنحنح في مجلس معاوية، فأمر بشرب خل الخمر. والخل ورد فيه «نعم الإدام»، وقد تعيش به كثير من السلف الكرام، نسأل الله القناعة على الدوام.

﴿وَفَجَّرْنَا﴾؛ أي: شققنا وأسلنا ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾؛ أي: بعضاً من ماء العيون. فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو ﴿مِنْ﴾ زائدة، و﴿ٱلْعُيُونِ﴾ مفعول به على رأي من جوز زيادتها في الإثبات. وهو الأخفش، ومن وافقه. وقرأ الجمهور ﴿فجّرنا﴾: بالتشديد. وقرأ جناح بن حبيش بالتخفيف. والفجر، والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى.

واعلم[1]: أن تفجير الأنهار والعيون في البلاد، رحمة من الله تعالى، إذ حياة كل شيء من الماء، وللبساتين منه النضارة والنماء. والعيون إما جارية وإما غير جارية، والجارية غير الأنهار، إذ هي أكثر وأوسع من العيون، ومنبعها غير معلوم غالباً كالنيل المبارك، حيث لم يوجد رأسه. وغير الجارية هي الآبار.

واللام في قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿جعلنا﴾، وتأخيره عن تفجير العيون لأنه من مبادىء الأثمار، والضمير في ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ يعود إلى المذكور من الجنات والنخيل؛ أي: وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب، ورتبنا مبادىء إثمارها ليأكلوا من ثمر ما ذكر من الجنات والنخيل والأعناب، ويواظبوا على الشكر أداء لحقوقنا. ففيه إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة. وقيل: الضمير راجع إلى ماء العيون؛ لأن الثمر منه، قاله الجرجاني. وقيل: الضمير لله على طريقة الالتفات، والإضافة إليه، لأن الثمر بخلقه كما في «البيضاوي». وقرأ الجمهور[2]: ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ بفتح الثاء والميم. وقرأ حمزة، والكسائي، وطلحة، وابن وثاب بضمهما. وقرأ الأعمش بضم الثاء، وإسكان الميم.

وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ معطوف على ﴿ثَمَرِهِۦ﴾؛ أي: ليأكلوا من ثمره، ويأكلوا من الذي عملته أيديهم. وهو ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما، وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن ما موصولة. وقيل: ﴿مَا﴾: نافية، والمعنى: والحال أنه لم تعمل ذلك الثمر، ولم تصنعه أيديهم؛ لأن الثمر وجد بخلق الله تعالى لا بفعلهم، ومحل الجملة حينئذ النصب على الحال. ويؤيد الأول

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

قراءة ﴿وما عملت﴾ بلا هاء، فإن حذف العائد من الصلة أحسن من الحذف من غيرها. والأيدي في قوله: ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن القوة، لأن أقوى جوارح الإنسان في العمل يده، فصار ذكر اليد غالباً في الكناية، ومثله ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ بالضمير، فإن كانت ﴿مَا﴾ موصولة فالضمير عائد عليها، وإن كانت نافية فالضمير عائد على الثمر. وقرأ طلحة، وعيسى وحمزة، والكسائي، وأبو بكر بغير ضمير. ومفعول ﴿عملت﴾ على كلا التقديرين محذوف. وجوز في هذه القراءة أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: وعمل أيديهم، وهو مصدر أريد به المعمول، فيعود إلى معنى الموصول.

والمعنى[2]: أي وأنشأنا في هذه الأرض التي أحييناها، بساتين من نخيل وأعناب، وجعلنا فيها أنهاراً سارحة، في أمكنة تنشر فيها، ليأكلوا من ثمر الجنات، ومما عملت أيديهم مما غرسوا وزرعوا.

ولما عدد سبحانه هذه النعم.. حض على الشكر، فقال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: أفلا يشكرون خالق هذه النعم، على ما تفضل به عليهم، من نعم لا تعد ولا تحصى. وهو إنكار واستقباح لعدم شكرهم النعم المعدودة. والهمزة فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير[3]: أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرونها بالتوحيد والتقديس والتحميد، فيرجعون عن عبادة غير الله تعالى. وفي ذلك استدلال على وحدانية الله تعالى، وتعداد للنعم. فالأرض مكان لهم لا بد لهم منها، فهي نعمة، ثم إحياؤها بالنبات نعمة ثانية، فإنها تصير أنزه، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة، فإن قوتهم يصير في مكانهم، ثم جعل الجنان فيها نعمة رابعة؛ لأن الأرض تنبت الحب في كل سنة. وكل ذلك مفيد إلى بيان إحياء الموتى. فيقول الله تعالى: كما فعلنا في موات الأرض كذلك نفعل في الأموات

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

في الأرض، فنحييهم ونعطيهم ما لا بد لهم منه في بقائهم من الأعضاء المحتاج إليها وقواها كالعين، والأذن وغير ذلك. ونزيد له ما هو زينة كالعقل الكامل والإدراك الشامل، فكأنه تعالى قال: نحيي الموتىٰ إحياءً تاماً، كما أحييت الأرض إحياءً تاماً.

وجملة قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ مستأنفة، مسوقة لتنزيهه سبحانه عما وقع منهم، من ترك الشكر لنعمه المذكورة، والتعجب من إخلالهم بذلك. فالمعنى: تنزه بذاته عن كل ما لا يليق مما فعلوه، اهـ «أبو السعود». وفي «القرطبي»: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ تنزه[1] نفسه سبحانه عن قول الكفار، إذ عبدوا غيره، مع ما رأوا من نعمه وآثار قدرته. وفيه تقدير معنى الأمر. والمعنى: سبحوا أيها العباد ربكم، الذي خلق وأوجد الأزواج، والأصناف، والأنواع كلها جميعاً. ونزهوه عما لا يليق به من الإشراك، فإنه سبحانه انفرد بخلق هذه الأزواج، فأفردوه بالعبادة والطاعة، ولا تجعلوا له شريكاً مما لا يخلق، ولا ينفع، ولا يضر. وقيل: فيه معنى التعجب. والمعنى: عجباً لهؤلاء الكفرة في كفرهم، وإعراضهم عن شكر الذي خلق الأزواج كلها، مع ما يشاهدونه من هذه الآيات. وفي الغالب من تعجب من شيء قال: سبحان الله. والأزواج: الأصناف والأنواع، فكل زوج صنف؛ لأنه مختلف في الألوان كألوان العنب، فمنه أبيض، وأسود، وأحمر وكذلك ألوان الرطب. وفي الطعوم: كالرمان، فمنه حامض، وحال، ومر. وفي «الأشكال»: كالمربع، والمدور، والمثلث، والطويل، والعريض. وفي الصغر والكبر. فمعنى ازدواجها: اختلافها فيما ذكر.

وقوله: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من نجم، وشجر، ومعدن بيان للأزواج، وكذا ما بعده بيان له. والمراد: كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة وغيرها.

وخلق الأزواج ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: الذكور والإناث وخلق الأزواج ﴿مِمَّا

---

(١) القرطبي.

لاَ يَعْلَمُونَ﴾ من أصناف[1] خلقه في البر، والبحر، والسماء والأرض. ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر، ويعلمه الملائكة، ويجوز أن لا يعلمه مخلوق. ويقال: دواب البحر والبر، ألف صنف لا يعلم الناس أكثرها. فبين الأزواج بهذه الأمور الثلاثة، التي لا يخرج عنها شيء من أصناف المخلوقات، وغيره تعالى، لم يخلق شيئاً منها. وإنما ذكر[2] الله تعالى كون الكل مخلوقاً، لينزه الله تعالى عن الشريك. فإن المخلوق لا يصلح شريكاً للخالق، والتوحيد الحقيقي، لا يحصل إلا بالاعتراف بأن لا إله إلا الله، فلا تشركوا بالله شيئاً، مما تعلمون ومما لا تعلمون.

قال في «بحر العلوم»: ويجوز أن يكون معنى ﴿مما لا يعلمون﴾: مما لا يدركون كنهه مما خلق من الأشياء كالثواب والعقاب، كما قال ﷺ: «أربع لا تدرك غايتها: شرور النفس، وخداع إبليس، وثواب أهل الجنة، وعقاب أهل النار». ومنه الروح، فإنه ما بلغنا أن الله تعالى أطلعَ أحداً على حقيقة الروح. وفي الآية[3] إشارة إلى أنه ما من مخلوق إلا وقد خلق شفعاً، إذ الفردية من أخص أوصاف الربوبية، كما قال عبد العزيز المكي رحمه الله تعالى: خلق الأزواج كلها، ليستدل بذلك، إلى أن خالق الأشياء منزه عن الزوج، وإلى أن في كل شيء دليلاً على وجوده تعالى، ووحدته، وكمال قدرته. قال أبو العتاهية:

فَيَا عَجَباً كَيْفَ يَعْصِي ٱلْإِلٰـهَ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ ٱلْجَاحِدُ
وَلِلَّهِ فِيْ كُلِّ تَحْرِيْكَةٍ ... وَتَسْكِيْنَةٍ أَبَداً شَاهِدُ
وَفِيْ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

ومعنى الآية[4]: أي تنزيهاً لمن خلق هذه الأنواع كلها من الزرع والثمار ومختلف النبات، وخلق من أولادهم ذكوراً وإناثاً، وخلق مما لا يعلمون من الأشياء، التي لم يطلعهم عليها، ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفتها تفصيلاً، بل

---

(١) القرطبي.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

علمهم ذلك بطريق الإجمال بنحو قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ليستدلوا بذلك على عظمة الخالق، وسعة ملكه، وجلالة قدره.

والخلاصة: تنزه ربنا خالق هذا الخلق العظيم، من نبات وحيوان وإنسان، وخالق، ما لا نعلم مما لا ندرك كنهه ولا نعلم حقيقته عن كل نقص لا يليق بجليل عظمته. وفيه الدليل على عظيم قدرته، وواسع ملكه.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾؛ أي: علامة عظيمة لأهل مكة على كمال قدرتنا. وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿ٱلَّيْلُ﴾ المظلم، كأنه قيل: كيف كان آية؟ فقيل: ﴿نَسْلَخُ﴾ ونزيل، وننزع، ونكشط ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من الليل ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ المضيء؛ أي: نزيل ضوء النهار ونكشفه عن مكان الليل، ونلقي ظله بحيث لا يبقي معه شيء من ضوئه، الذي هو شعاع الشمس في الهواء. مستعار من السلخ، وهي إزالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال، وإن غلب في الاستعمال تعليقه بالجلد، يقال: سلخت الإهاب بمعنى أخرجتها عنه. قال المرزوقي: دلت الآية على أن الليل قبل النهار؛ لأن المسلوخ منه يكون قبل المسلوخ، كما أن المعطي قبل العطاء.

﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾؛ أي: داخلون في الظلام مفاجأة، فإن ﴿إِذَا﴾ للمفاجأة؛ أي: ليس لهم بعد ذلك أمر سوى الدخول فيه. وفيه رمز إلى أن الأصل هو الظلمة، والنور عارض متداخل في الهواء، فإذا خرج منه أظلم. فعلى هذا المعنى، كان الواقع عقيب إذهاب الضوء عن مواضع ظلمة الليل هو ظهور الظلمة، كما كان الواقع عقيب سلخ الإهاب هو ظهور المسلوخ. وأما على معنى الإخراج فالواقع بعده هو الإبصار دون الإظلام، والمقام حينئذ مقام أن يقال: فإذا هم مبصرون، لكن لما كان الليل زمان ترح وألم وعدم إبصار، والنهار وقت فرح وسرور وإبصار، جعل الليل كأنه يفاجِئُهم عقيب إخراج النهار من الليل بلا مهلة، إذ زمان السرور ليس فيه مهلة حكماً، وإن كان ممتداً، بخلاف زمان الغم، فإنه كان فيه المهلة، وإن كان قصيراً، كما قيل: سَنة الوصل سِنة، وسِنة الهجر سَنة. ولبعضهم:

وَيَوْمُ لاَ أَرَاكَ كَأَلْفِ شَهْرِ   وَشَهْرٌ لاَ أَرَاكَ كَأَلْفِ عَامِ

وقال آخر:

مِحَنُ ٱلزَّمَانِ كَثِيرَةٌ لاَ تَنْقَضِي وَسُرُورُهُ يَأْتِيكَ كَٱلأَعْيَادِ

ومعنى الآية: أي ومن آيات قدرته تعالى الدالة على إمكان البعث والحشر والنشر، وعلى قدرته على فعل كل ما يشاء: الليل ينزع عنه النهار، فتأتي الظلمة، ويذهب النهار. فإذا الخلق قد صاروا في ظلمة بمجيء الليل، الذي كان الضياء ساتراً له. وفي الضياء سرور، ولذة، وراحة للنفس، وسعي على الرزق. وفي زواله وحشة، وانقباض تشعر بألمه النفوس، كما أن فيه تركاً للعمل الذي به قوام الحياة. ومن ثم جعل الآية ظهور الليل، ولم يجعلها مجيء النهار، والآية تحصل بكل منهما.

والخلاصة: أن تعاقب الليل والنهار على ظهر البسيطة، من أكبر الأدلة على قدرة المولى سبحانه، وفيه عبرة لمن يعي ويفهم. وإن البعث والنشور من أيسر الأمور عليه سبحانه.

وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ معطوف على الليل؛ أي: وآية لهم الشمس المضيئة المشرقة على صحائف الكائنات، كأنه قيل: كيف كانت آية؟ فقيل: هي تجري أو حال كونها جارية، وسائرة إلى مستقر لها. ويجوز أن تكون الواو ابتدائية، ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ مبتدأ، وما بعدها الخبر، ويكون الكلام مستأنفاً مشتملاً على ذكر آية مستقلة. وقوله: لمستقر لها فيه وجوه:

الأول: أن الكلام في ﴿لِمُسْتَقَرٍّ﴾ للتعليل، والمستقر: اسم مكان؛ أي: تجري لبلوغ مستقر وحد معين، ينتهي إليه دورها في آخر السنة. فشُبه بمستقر المسافر إذا قطع سيره.

والثاني: أن اللام بمعنى إلى، والمستقر كبد السماء؛ أي: وسطها، والمعنى: تجري إلى أن تبلغ إلى وسط السماء، وتستقر فيه. شُبه بطء حركتها فيه بالوقفة والاستقرار، وإلا فلا استقرار لها حقيقةً. كما قال في «المفردات» الزوال يقال في شيء قد كان ثابتاً، ومعلوم أن لا ثبات للشمس، فكيف يقال

زوال الشمس؟ فالجواب: قالوه لاعتقادهم في الظهيرة، أن لها ثباتاً في كبد السماء.

والثالث: أن اللام لام العاقبة، والمستقر مصدر ميمي؛ أي: تجري بحيث يترتب على جريها استقرارها في كل برج من البروج الاثني عشرة، على نهج مخصوص، بأن تستقر في كل برج شهراً، ويأخذ الليل من النهار في نصف الحول، والنهار من الليل في النصف الآخر منه، وتبلغ نهاية ارتفاعها في الصيف، ونهاية انحطاطها في الشتاء. ويترتب عليه اختلاف الفصول الأربعة، وتهيئة أسباب معاش الأرضيات، وتربيتها.

والرابع: لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب، فإن لها في دورها ثلاث مئة وستين مشرقاً ومغرباً، تطلع كل يوم من مطلع، وتغرب من مغرب، ثم لا تعود إليها إلى العام القابل. فالمستقر اسم زمان؛ أي: تجري إلى زمان استقرارها، وانقطاع حركتها عند خراب العالم، أو إلى وقت قرارها وتغير حالها بالطلوع من مغربها. وهذا القول هو الراجح، لما روى أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس، فلما غابت الشمس، قال النبي ﷺ: يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ فقلت: الله ورسوله أعلم، فقال: تذهب تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد، ولا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها. فذلك قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾. والمعنى المفهوم من الحديث تنتهي في سيرها لمستقر لها، فتقف فيه ولا تنتقل عنه. ومستقرها هو مكان تحت العرش، تسجد فيه كل ليلة عند غروبها، فتستمر ساجدة فيه طول الليل، فعند طلوع النهار يؤذن لها في أن تطلع من مطلعها أولاً، فإذا كان آخر الزمان لا يؤذن لها في الطلوع من المشرق، بل يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من المغرب. وهذا هو الصحيح الواضح، اهـ «فتوحات».

قال إمام الحرمين، وغيره من الفضلاء: لا خلاف أن الشمس تغرب عند قوم وتطلع عند قوم آخرين، والليل يطول عند قوم ويقصر عند قوم آخرين. وعند

خط الاستواء يكون الليل والنهار مستويين أبداً. والأرض مدورة مسيرة خمس مئة عام، كأنها نصف كرة مدورة، فيكون وسطها أرفع. وحول الأرض البحر الأعظم، المحيط فيه ماء غليظ منتن، لا تجري فيه المراكب، وحول هذا البحر جبل قاف، خُلق من زمرد أخضر، والسماء مقببة عليه، ومنه خضرتها.

وقرىء[1]: ﴿إلى مستقر لها﴾. وقرأ عبد الله، وابن عباس، وعكرمة، وعطاء بن رباح، وزين العابدين، وابنه الباقر، والصادق بن الباقر، وابن أبي عبدة ﴿لا مستقرَّ لها﴾ نفياً مبنياً على الفتح، فيقتضي انتفاء كل مستقر. وذلك في الدنيا؛ أي: هي تجري دائماً فيها لا تستقر. وقرأ ابن أبي عبلة ﴿لا مستقرٌّ لها﴾ برفع مستقر، وتنويه على إعمال ﴿لا﴾ عمل ﴿ليس﴾، نحو قول الشاعر:

تـعـز فـلا شـيء عـلـى الأرض بـاقـيـاً ولا وزر مـمـا قـضـى الله واقـيـاً

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري البديع، المنطوي على الحكم العجيبة التي تتحير في فهمها العقول والأفهام ﴿تَقْدِيرُ﴾ وتدبير ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾؛ أي: المحيط علمه بكل معلوم، وتقدير الله الأشياء أن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص حسبما اقتضته الحكمة البالغة.

وقيل معنى الآية: أي والشمس تجري حول مركز مدارها الثابت، الذي تسير حوله بحسب وضعها النجمي. فقد ثبت أن لها حركةً رحويةً حول هذا المركز، تقدر بمئتي ميل في الثانية الواحدة. وهذا الوضع العجيب من تقدير العزيز القاهر لعباده، القابض على زمام مخلوقاته، العليم بأحوالها، الذي لا تخفى عليه خافية من أمرها.

﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنصب، بإضمار فعل يفسره قوله: ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ كما في زيداً ضربته، فهو من باب الاشتغال، يجوز فيه النصب والرفع. قرأ بالرفع نافع، وابن كثير، وأبو عمرو وابن محيصن، والحسن بخلاف عنه، والرفع يكون على الابتداء، وما بعده خبر. وقرأ الباقون: بالنصب على الاشتغال، والتقدير: وقدرنا

---

(١) البحر المحيط.

القمر قدرناه، والقمر مفعول أول لقدرنا. وقوله: ﴿مَنَازِلَ﴾ مفعول ثان له، لأن ﴿قدرنا﴾ بمعنى: صيرنا، فيتعدى إلى مفعولين؛ أي: صيّرنا القمر وعيّنا له منازل، ومواضع من الأبراج ينزل فيها كل ليلة. ويجوز انتصاب ﴿مَنَازِلَ﴾ على الظرفية، والكلام حينئذ على حذف مضاف؛ أي: وقدرنا سير القمر في منازل من الأبراج، أو على الحال؛ أي: وقدرنا سيره حال كونه ذا منازل ومواضع ينزل فيها.

وتلك المنازل معروفة عند العرب. وهي ثمان وعشرون، ينزل القمر كل ليلة، في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو، لا بتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين. ثم يتقوس، ويدق، ويستتر ليلتين، إن كان الشهر ثلاثين أو ليلة، إن كان تسعاً وعشرين. وهذه[1] المنازل، هي مواقع النجوم، التي نسبت إليها العرب الأنواء، المستمطرة أربعة عشر منها شامية، وأربعة عشر منها يمانية. أولها: الشرطين، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرقة، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك وهو آخر الشامية. والغفر، والزبانان، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، والسعد الذابح، والسعد البلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، ومقدم الدلو، ومؤخر الدلو، والحوت وهو آخر اليمانية. وهذه المنازل مقسومة على الاثني عشر برجاً، كما استوفينا الكلام عليها في أوائل سورة يونس.

فإذا كان في آخر منازله دق، واصفر، واستقوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ وصار في التقوس ﴿كَٱلْعُرْجُونِ﴾؛ أي: مثل العذق ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾؛ أي: العتيق الذي مر عليه حول. قال الزجاج: العرجون: هو عود العذق، الذي فيه الشماريخ اليابس المنحني، شبه به الهلال إذا انحنى وتقوس. والعذق بالكسر في النخل، بمنزلة العنقود في الكرم. وقال ابن الشيخ: حتى صار القمر في آخر الشهر وأول الشهر

---

(١) روح البيان.

الثاني في دقته، واستقواسه، واصفراره كالعرجون القديم. فالعرجون إذا قدم، وعتق.. دق وتقوس، واصفر. شبه به القمر في آخر الشهر في هذه الوجوه الثلاثة؛ أي: في عين الناظر، وإن كان في الحقيقة عظيماً بنفسه. فالعرجون عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة. والشماريخ، جمع شمراخ أو شمروخ: ما عليه البسر من العيدان الصغار. والقديم: ما تقادم عهده بحكم العادة، ولا يشترط في إطلاق لفظ القديم عليه مدة بعينها، إذ يقال لبعض الأشياء: قديم وإن لم يمض عليه حول. وقيل: أقل هذا القديم الحول.

واعلم: أنه قد صح أن دور هذه الأمة، هو الدور القمري العربي، الذي حسابه مبني على الشهر تاماً كان أو ناقصاً، لا الدور الشمسي الذي هو مبني حسابه على الأيام فلا يكون ناقصاً. وقد صام ﷺ ثمانية أو تسعة رمضانات، خمس منها كانت تسعاً وعشرين يوماً، والباقي ثلاثين. وقد قال ﷺ: «شهرا عيد لا ينقصان»؛ أي: حكمهما إذا كانا تسعاً وعشرين، مثل حكمهما، إذا كانا ثلاثين في الفضل والثواب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿العرجون﴾ بضم العين والجيم. وقرأ سليمان التيمي: بكسر العين وفتح الجيم. وهما لغتان. والمعنى؛ أي: وجعلنا لسير القمر منازل، وهي ثمانية وعشرون منزلة، ينزل في كل واحد منها ليلة واحدة، ثم يستتر ليلتين أو ليلة، إذا نقص الشهر، فإذا كان في آخر منازله دق وتقوس حتى صار كالعرجون القديم، والعذق العتيق الذي عليه الشماريخ.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ﴾ مبتدأ، والخبر ما بعده؛ لأنه لا يجوز أن تعمل ﴿لا﴾ في المعرفة ﴿يَنۢبَغِي﴾ ويتيسر، ويمكن ﴿لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾؛ أي[2]: لا يصح، ولا يمكن، ولا يسهل للشمس أن تدرك القمر في سرعة سيره، وتنزل في المنزل الذي فيه القمر؛ لأن لكل واحد منهما سلطاناً على انفراده، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر، فيذهب سلطانه إلى أن يأذن الله سبحانه بالقيامة، فتطلع

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

الشمس من مغربها.

أو المعنى[1]: لا يمكن للشمس أن تلحق القمر في سرعة سيره. فإن القمر أسرع سيراً، حيث يقطع فلكه ويدور في منازله الثماني والعشرين في شهر واحد، بخلاف الشمس فإنها أبطأ منه، حيث لا تقطع فلكها ولا تدور في تلك المنازل المقسومة على الاثني عشر برجاً إلا في سنة. فيكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يوماً، فهي لا تدرك القمر في سرعة سيره، فإنه تعالى جعل سيرها أبطأ من سير القمر. وأسرع من سير زحل، وهو كوكب في السماء السابعة. وذلك لأن الشمس كاملة النور، فلو كانت بطيئة السير لدامت زماناً كثيراً في مسامتةِ شيء واحد فتحرقه، ولو كانت سريعة السير.. لما حصل لها لبث في بقعة واحدة، بقدر ما يخرج النبات من الأرض والأوراق والثمار من الأشجار، وبقدر ما ينضج الثمار والحبوب، ويجف. فلو أدركت القمر في سرعة سيره، لكان في شهر واحد صيف وشتاء، فيختل بذلك أحكام الفصول، وتكون النبات وتعيش الحيوان.

ويجوز أن يكون المعنى: ليس للشمس أن تدرك القمر في آثاره ومنافعه مع قوة نورها وإشراقها. فإن لكل واحد منهما آثاراً ومنافع تخصه، وليس للآخر أن يدركه فيها كما قالوا: الثمرة تنضجها الشمس، ويلونها القمر، ويعطيها الطعم الكوكب. وقالوا: إن سهيلاً، وهو كوكب يمني يُعطي الحجر اللون الأحمر، فيصير عقيقاً.

ويجوز أن يكون المعنى: ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: في مكانه. فإن القمر في السماء الدنيا، والشمس في السماء الرابعة؛ فهي لا تدركه في مكانه ولا يجتمعان في موضع واحد. قال النحاس: وأحسن ما قيل في معناه: وأبينه أن سير القمر سير سريع، والشمس لا تدركه في السير. وأما قوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع لخراب الدنيا. ويأتي في سورة القيامة، أن

---

(١) روح البيان.

جمعهما علامة لانقضاء الدنيا، وقيام الساعة.

والمعنى[1]: أي لا يصح للشمس ولا يسهل عليها أن تُدرك القمر في سرعة سيره؛ لأن الشمس تجري في اليوم مقدار درجة، والقمر يسير في اليوم مقدار ـ ١٣ـ ثلاث عشرة درجة، ولأن لكل منهما مداراً خاصاً لا يجتمع مع الآخر فيه.

﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾؛ أي: ولا الليل سابق انقضاء النهار، فلا يأتي الليل في أثناء النهار، كأن يأتي وقت الظهر، ولكن يعاقبه ويناوبه ويجيء كل واحد منهما في وقته ولا يسبق صاحبه؛ أي: هما[2] يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته. وقيل معناه: لا يدخل أحدهما في سلطان الآخر، فلا تطلع الشمس بالليل ولا يطلع القمر بالنهار، وله ضوء، فإذا اجتمعا وأدرك أحدهما صاحبه قامت القيامة. وقيل معناه: إن الشمس لا تجتمع مع القمر في فلك واحد، ولا يتصل ليل بليل، لا يكون بينهما نهار فاصل. وقرأ عمارة بن عقيل الخطفي: ﴿سابق﴾ بغير تنوين، ﴿النهار﴾ بالنصب، وحذف التنوين فيه لالتقاء الساكنين. وقيل[3]: المراد بالليل والنهار آيتاهما، وهما النيران، وبسبق الليل سبق القمر إلى سلطان الشمس في محو نورها. فيكون التركيب عكساً للأول، فالمعنى: لا يصح للقمر أيضاً أن يطلع في وقت ظهور سلطان الشمس وضوئها، بحيث يغلب نورها ويصير الزمان كله ليلاً، بل هما يسيران الدهر على نظامهما، ولا يدخل أحدهما على الآخر، ولا يجتمعان إلا عند إبطال الله هذا التدبير، ونقض هذا التأليف، وتطلع الشمس من مغربها، ويجتمع معها القمر.

فإن قلت: إذا كان هذا التركيب عكس ما ذكر قبله كان المناسب أن يقال ولا الليل مدرك النهار.

قلت: إيراد السبق مكان الإدراك لأنه الملائم لسرعة سير القمر.

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.

﴿وَكُلٌّ﴾ والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه، الذي هو الضمير العائد إلى الشمس والقمر؛ أي: وكلهم؛ أي: وكل من الشموس والأقمار. والجمع باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مطلعهما، فإنَّ اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما في الذات، أو العائد إلى الكوكب فإن ذكرهما مشعر بها. ﴿فِي فَلَكٍ﴾ مخصوص معين من الأفلاك السبعة. والفلك: مجرى الكواكب ومسيرها، وتسميته بذلك لكونه كالفلك؛ أي: فلك المغزل. وقال الشوكاني: والفلك: هو الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة. والخلاف في كون السماء مبسوطةً أو مستديرة معروف. والجار والمجرور متعلق بـ﴿يَسْبَحُونَ﴾؛ أي: كل من الشموس والأقمار أو كل من الكواكب السيارة يسيرون في فلك خاص به، وهو سماء الدنيا للقمر، والرابعة للشمس. والمعنى: يسيرون بانبساط وسهولة، لا مزاحم لهم سير السابح في سطح الماء. وجوز التعبير عنهم بضمير العقلاء، نسبة السباحة التي هي من أوصاف العقلاء إليهم.

فائدة: قال في «فتح الرحمٰن»: إن قلت: كيف نفى الله تعالى الإدراك للقمر عن الشمس، دون عكسه في قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾؟

قلت: لأن سير القمر أسرع؛ لأنه يقطع فلكه في شهر، والشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة، فكانت جديرةً بأن توصف بنفي الإدراك لبطء سيرها، والقمر خليقاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره.

ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعاً آخر مما امتن به على عباده من النعم، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾؛ أي: علامة عظيمة لأهل مكة، أو لكفار العرب أو للكفار على الإطلاق، الكائنين في عصر محمد عليه السلام، على كمال قدرتنا. وهو خبر مقدم لقوله: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: أنا حملنا أولادهم الكبار الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: في السفينة. وهو هٰهنا مفرد بدليل وصفه بقوله: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ أي: المملوء منهم ومن غيرهم أو المعنى: حملنا صبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم. وتخصيص الذرية بمعنى الضعفاء الذين يستصحبونهم في سفر البحر، مع أن تسخير البحر والفلك نعمة في حق أنفسهم أيضاً، لما أنِ

استقرارهم في السفن أشق، واستمساكهم فيها أعجب. وقيل: الضمير في ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يرجع إلى القرون الماضية، والمعنى: أن الله حمل ذرية القرون الماضية في الفلك المشحون، فالضميران مختلفان. وقيل: الذرية: الآباء والأجداد، والفلك هو سفينة نوح، أي: إن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح. وعبارة «الخازن» حمل آباءهم الأقدمين، في أصلاب الذين كانوا في السفينة، فكانوا ذرية لهم. وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلتَ: الذرية اسم للأولاد، والمحمول في سفينة نوح آباء المذكورين، لا أولادهم.

قلتُ: الذرية من أسماء الأضداد عند كثير، تطلق على الآباء والأولاد، والمراد هنا: الفريقان، فمعناه: حملنا آباءهم وأولادهم؛ لأنهم كانوا في ظهور آبائهم المحمولين ظاهراً، انتهى. قال الواحدي: والذرية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد؛ لأنها من الذرء بمعنى الخلق، فيصلح الاسم للأصل والنسل. وقيل: الذرية: النطف الكائنة في بطون النساء وشبه البطون بالفلك المشحون. والراجح: القول الثاني ثم الأول ثم الثالث.

وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ يرجع إلى العباد المذكور في قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾؛ لأنه قال بعد ذلك: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾، ثم قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فكأنه قال: وآية للعباد، أنا حملنا ذرية العباد، وهذا قول حسن؛ لأنه لا يلزم عليه اختلاف الضميرين.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾؛ أي: وآية لهم أنا خلقنا لهم ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؛ أي: مما يماثل الفلك، ويشابهه ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾؛ أي: ما يركبونه. قال مجاهد، وقتادة، وجماعة من أهل التفسير: هي الإبل، خلقها لهم للركوب في البر، مثل السفن المركوبة في البحر، والعرب تسمي الإبل سفائن البر. وعلى هذا، فتعريف الفلك للجنس؛ لأن المقصود من الآية: الاحتجاج على أهل مكة، ببيان صحة البعث وإمكانه. استدل عليهم أولاً بإحياء الأرض الميتة، وجعلها سبباً لتعيّشهم، ثم استدل عليهم بتسخير الرياح والبحار والسفن الجارية فيها، على وجهه، يتوسلون بها إلى تجارات البحر، ويستصحبون من يهمهم حمله من النساء والصبيان. كما قال

تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وقيل: تعريفه للعهد الخارجي، والمراد: فلك نوح عليه السلام، المذكور في قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، فيكون المعنى: أنا حملنا ذريتهم؛ أي: أولادهم إلى يوم القيامة، في ذلك الفلك المشحون منهم، ومن سائر الحيوانات التي تعيش في الماء، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل ولا عقب. وخلقنا لهم من مثله؛ أي: مما يماثل ذلك الفلك في صورته وشكله من السفن والزوارق والبواخر، قاله الحسن، والضحاك، وأبو مالك. قال النحاس: وهذا أصح؛ لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس.

فإن قلت[1]: فعلى هذا لِمَ لَمْ يقل: حملناهم وذريتهم مع أن أنفسهم محمولون أيضاً؟

قلت: إشارة إلى أن نعمة التخليص عامة لهم ولأولادهم إلى يوم القيامة. ولو قيل: حملناهم لكان امتناناً بمجرد تخليص أنفسهم من الغرق، وجعل السفن مخلوقة لله تعالى مع كونها من مصنوعات العباد، ليس لمجرد كونها صنعتهم بإقدار الله تعالى وإلهامه، بل لمزيد اختصاص أهلها بقدرته تعالى وحكمته، حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾. والتعبير عن ملابستهم بهذه السفن بالركوب؛ لأنها باختيارهم، كما أن التعبير عن ملابسة ذريتهم، بفلك نوح، بالحمل، لكونها بغير شعور منهم واختيار. وأما قوله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فبطريق التغليب.

وجعل بعضهم المعنى الثاني أظهر؛ لأنه إذا أريد بمثل الفلك: الإبل لكان قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ إلخ، فاصلاً بين متصلين، لأن قوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ متصل بالفلك. واعتذر عنه في الإرشاد بأن حديث خلق الإبل في خلال الآية بطريق الاستطراد، لكمال التماثل بين الإبل والفلك، فكأنها نوع منه.

والمعنى: ومن آيات[2] قدرته الدالة على رحمته بعباده، أن جعل أولادهم يركبون السفن الموقرة، بسائر السلع التي ينقلونها من بلد إلى آخر، ليستفيدوا مما

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

تحمله من الأقوات وسائر حوائجهم المعيشية، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل، ولا عقب من بعده.

ونحو الآية قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: وخلقنا من مثل تلك السفن البحرية، سفناً برية، وهي الإبل التي تسير في الصحاري، كما قال شاعرهم:

سَفَائِنُ بَرٍّ وَٱلسَّرَابُ بِحَارُهَا

ونحوها قطر السكك الحديدية، والسيارات والسفن الهوائية من مطاود، وطائرات تسير في الجو حاملة للناس السلع المختلفة. والذخائر الحربية، ومن جراء هذا لم يعين الكتاب الكريم، ما يركبون لما سيظهر في عالم الوجود، مما هو مخبأ في صحيفة الغيب. وهذا من إعجاز الكتاب الكريم. ونحو الآية: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

ثم ذكر لطفه بعباده حين ركوبهم تلك السفن، فقال: ﴿وَإِن نَّشَأْ﴾ إغراقهم ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ في اليم مع ما حملناهم فيه من الفلك. وهذا من تمام الآية التي امتن بها عليهم. ووجه الامتنان أنه لم يغرقهم في لجج البحار مع قدرته على ذلك. والضمير[1] يرجع إما إلى أصحاب الذرية أو إلى الذرية أو إلى الجميع على اختلاف الأقوال. وتعليق الإغراق بمحض المشيئة. إشعار بأنه قد تكامل ما يوجب هلاكهم من معاصيهم، ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به. ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾؛ أي: فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق، ويدفعه عنهم قبل وقوعه ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾؛ أي: ينجون منه بعد وقوعه، ولا يخلّصون. يقال: أنقذه واستنقذه إذا خلّصه من ورطة ومكروه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث المتقدم، والغاية المتأخرة؛ أي: لا يغاثون، ولا ينقذون لشيء من الأشياء، إلا لرحمة عظيمة ناشئة من قبلنا داعية إلى الإغاثة والإنقاذ، كذا قال

(١) الشوكاني.

الكسائي، والزجاج، وغيرهما. وقيل: هو استثناء منقطع؛ أي: لكن يغاثون وينقذون لرحمة منا. وقيل: هو منصوب على المصدرية بفعل مقدر؛ أي: إلا أن يرحموا رحمة منا. (و) انتصاب ﴿متاعاً﴾ بالعطف على ﴿رَحْمَةً﴾؛ أي: لا يغاثون، ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلا لرحمة منا، وتمتيع منا لهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى زمان قدر لآجالهم، أو إلا أن يرحمهم الله، ويمتعهم إلى انقضاء آجالهم.

وفي الآية رد على ما زعم الطبيعي، من أن السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة، وأن المجوف لا يرسب الماء. فقال تعالى في رده: ليس الأمر كذلك، بل لو شاء الله تعالى إغراقهم، لأغرقهم، وليس ذلك بمقتضى الطبيعة، وإلا لما طرأ عليها آفة ورسوب.

وفيها الإشارة إلى أن المنعم عليه، ينبغي أن لا يأمن في حال النعمة عذاب الله تعالى. فإن كفار الأمم السالفة، أمنوا من بطشه تعالى، فأخذوا من حيث لا يشعرون، فكيف يأمن أهل مكة، وأهل السفينة؟! لكن لا يعرفون قدر النعمة إلا بعد تحولها عنهم. ولا قدر العافية إلا بعد الابتلاء بمصيبة، فلا بد من مقابلة النعمة بالشكر والعطاء بالطاعة والاجتهاد في طريق التوحيد والمعرفة. فإن المقصود من الإمهال هو تدارك الحال.

والمعنى: أي وإن نشأ إغراقهم في الماء مع ما حملته السفن والزوارق، فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق، وينجيهم من الموت، ولكن رحمة منا بهم وتمتيعاً لهم إلى حين، بلذات الحياة الدنيا أبقيناهم، وحفظناهم من الغرق. وإلى هذا أشار بقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: لكفار مكة بطريق الإنذار ﴿اتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: ما قبلكم من العقوبات النازلة على الأمم الماضية الذين كذبوا رسلهم، واحذروا من أن ينزل بكم مثلها، إن لم تؤمنوا. جُعلت الوقائع الماضية باعتبار تقدمها عليهم، كأنها بين أيديهم. ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾؛ أي: وما بعدكم من العذاب المعد لكم في الآخرة بعد هلاككم. جعلت أحوال الآخرة باعتبار أنها تكون بعد

هلاكهم كأنها خلفهم. أو المعنى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: ما أمامكم من أمر الآخرة، فاعملوا لها، فإنهم مستقبلون لها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أمر الدنيا، فلا تغتروا بها، فإنهم تاركون لها. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: ما مضى من الذنوب ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾؛ أي: ما بقي منها. وقيل غير ذلك. وما قدمناه أولى؛ لأن الله تعالى خوّف الكفار بشيئين:

أحدهما: العقوبات النازلة على الأمم الماضية.

والثاني: عذاب الآخرة.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إما حال من واو ﴿اتَّقُوا﴾؛ أي: اتقوا حالة كونكم راجين أن ترحموا، أو غاية لهم؛ أي: اتقوا كي ترحموا فتنجوا من ذلك، لما عرفتم أن مناط النجاة، ليس إلا رحمة الله. وجواب ﴿إذا﴾ محذوف؛ أي: أعرضوا عن الموعظة، حسبما اعتادوه، وتمرنوا عليه، وزادوا مكابرة وعناداً، كما دلت عليه الآية الثانية، أعني: قوله: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

﴿وَمَا﴾ نافية ﴿تَأْتِيهِم﴾ تنزل إليهم ﴿مِنْ﴾: مزيدة لتأكيد العموم ﴿ءَايَةٍ﴾ تنزيلية، كائنة ﴿مِنْ﴾ تبعيضية ﴿ءَايَاتِ رَبِّهِمْ﴾ التي من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل، من بدائع صنع الله، وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها، والإيمان بها ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا﴾ متعلق بقوله: ﴿مُعْرِضِينَ﴾ والجملة حال من مفعول ﴿تأتي﴾، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال؛ أي[1]: وما تأتيهم آية من آيات ربهم، في حال من الأحوال، إلا حال إعراضهم عنها، على وجه التكذيب والاستهزاء. ويجوز أن يراد بالآيات: ما يعم الآيات التنزيلية والتكوينية، فالمراد بإتيانهم: ما يعم نزول الوحي، وظهور تلك الأمور لهم. والمعنى: ما يظهر لهم آية من الآيات الشاهدة بوحدانيته تعالى، وتفرده بالألوهية، إلا كانوا تاركين النظر الصحيح فيها، المؤدي إلى الإيمان به تعالى. فكل ما في الكون فهو مركز صفة من صفاته تعالى، وسر من أسرار ذاته.

---

(١) روح البيان.

ومعنى الآيتين[1]: أي وإذا قيل لهؤلاء المكذبين بما نزل الله من الآيات: احذروا ما مضى بين أيديكم من نقم الله، ومثلاته التي حلت بمن قبلكم من الأمم، وخافوا أن يحل بكم مثلها من جراء شرككم وتكذيبكم لرسوله، وما خلفكم؛ أي: وما بعد هلاككم مما أنتم قادمون عليه إن متم على كفركم الذي أنتم عليه، لعل ربكم يرحمكم ويغفر لكم ما اجترحتم من السيئات.. أعرضوا ونكصوا على أعقابهم مستكبرين. ثم بين أن الإعراض ديدنهم، وليس ببدع منهم، فقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم..﴾ إلخ؛ أي: وما تجيء هؤلاء المشركين حجة من حجج الله، الدالة على توحيده وتصديق رسوله، إلا بادروا بتكذيبها، وأعرضوا عنها، وتركوا النظر الصحيح المؤدي إلى الإيمان به ومعرفة صدق رسوله.

الخلاصة: أنه ما ظهرت لهم آية من الآيات الناطقة، ببدائع صنع الله، وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها إلا أعرضوا عنها مكذبين مستهزئين، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث في صدقها، والاستدلال بها على وحدانيته وصدق رسوله.

وبعد أن ذكر إعراضهم عن الخالق.. بيَّن قسوتهم على المخلوقين، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: للكافرين بطريق النصيحة ﴿أَنفِقُوا﴾ على المحتاجين ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ تعالى؛ أي: بعض ما أعطاكم بطريق التفضل والإنعام من أنواع الأموال. فإن ذلك مما يرد البلاء، ويدفع المكاره؛ أي[2]: تصدقوا على الفقراء مما أعطاكم الله، وأنعم به عليكم من الأموال. قال الحسن: يعني: اليهود أمروا بإطعام الفقراء. وقال مقاتل: إن المؤمنين قالوا لكفار قريش: أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه لله من أموالكم من الحرث والأنعام كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾، فكان جوابهم ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالصانع تعالى. قيل: هم زنادقة، كانوا بمكة. والزنديق: من لا يعتقد إلهاً، ولا بعثاً، ولا حرمة شيء من الأشياء

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ استهزاء بهم، وتهكماً بهم، وبما كانوا عليه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى، حيث كانوا يقولون: لو شاء الله لأغنى فلاناً، ولو شاء الله لأعزه، ولو شاء الله لكان كذا وكذا. وإنما حُمل على التهكم، لأن المعطلة ينكرون الصانع، فلا يكون جوابهم المذكور عن اعتقاد وجد. ﴿أَنُطْعِمُ﴾ من أموالنا حسبما تعظوننا؛ أي: لا نطعم، فإن الهمزة للإنكار. ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه إطعامه ﴿أَطْعَمَهُۥٓ﴾؛ أي: رزقه على زعمكم. وقد كانوا سمعوا المسلمين يقولون: إن الرازق هو الله، وأنه يغني من يشاء ويفقر من يشاء، فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمسلمين، وقالوا: نحن نوافق مشيئة الله، فلا نُطعم من لم يطعمه الله. وهذا غلط منهم، ومكابرة، ومجادلة بالباطل. فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه، وأفقر بعضاً، وأمر الغني أن يطعم الفقير، وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة. وقوله: ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ هو وإن كان كلاماً صحيحاً في نفسه، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله أو إنكار جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة الله، كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلاً.

وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وخطأ بيّن واضح، ظاهر من تمام كلام الكفار. والمعنى: أنكم أيها المؤمنون في سؤال المال، وأمرنا بإطعام الفقراء، أو في اتباعكم محمداً وترك ما نحن عليه، لفي ضلال وخطأ في غاية الوضوح والظهور. وقيل: هو مستأنف من كلام الله تعالى، جواباً ورداً لهذه المقالة، التي قالها الكفار. قال القشيري، والماوردي: إن الآية نزلت في قوم من الزنادقة، وقد كان في كفار قريش وغيرهم، من سائر العرب قوم يتزندقون، فلا يؤمنون بالصانع، فقالوا هذه المقالة استهزاء بالمسلمين، ومناقضة لهم. وحكى نحو هذا القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والمعنى[١]: أي وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج

---

(١) المراغي.

من المسلمين. . قالوا لمن طلب منهم ذلك: لو شاء الله لأغناهم، وأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم.

وفي قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ترغيب في الإنفاق على نهج قوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، وتنبيه إلى عظيم جرمهم في ترك الامتثال للأمر، وذم لهم على ترك الشفقة على عباد الله. وإجمال ذلك: أنهم لم يعظموا الخالق، ولم يشفقوا على المخلوق.

ثم ذكر أنهم على شحهم وبخلهم عابوا الأمر بالإنفاق، ووصفوه بالضلال البين الذي لا شبهة فيه، فقال: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: ما أنتم أيها المؤمنون في قيلكم لنا: أنفقوا مما رزقكم الله على مساكينكم إلا في جور بيّن، وبُعد عن سبيل الرشاد لمن تأمل وتدبر.

وهذا معذرة البخلاء في كل عصر ومصر، إذ تراهم دائماً يقولون: لا نُعطي مَنْ حرمه الله. وتلك قربة منهم؛ لأن الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضاً ابتلاء منه لعباده، ولأسباب وحكمة نحن لا نعلمها؛ لا بخلاً منه وشحاً. وأمره الأغنياء بالإنفاق على الفقراء، ليس لحاجة منه إلى مالهم بل ليبلوهم، ويرى أيمتثلون الأمر ويؤدون الواجب، أم ينكصون على أعقابهم ويولون مدبرين. . وفي الحديث «لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم، ولو شاء لجعلكم فقراء لا غني فيكم، ولكنه ابتلى بعضكم ببعض لينظر كيف عطف الغني، وكيف صبر الفقير». وهذه الآية ناطقة بترك شفقتهم على خلق الله. وجملة التكاليف ترجع إلى أمرين: التعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله. وهم قد تركوا الأمرين جميعاً. وقد تمسك البخلاء الآن بما تمسكوا به حيث يقولون: لا نعطي من حرم الله، ولو شاء لأغناه. نعم لو كان هذا الكلام صادراً عن يقين وشهود وعيان لكان مفيداً، بل توحيداً محضاً يدور عليه كمال الإيمان، ولكنهم سلكوا طريق التقليد والإنكار والعناد ومن لم يهد الله فما له من هاد.

وكان لقمان يقول إذا مر بالأغنياء: يا أهل النعيم لا تنسوا النعيم الأكبر وإذا مر بالفقراء يقول: إياكم أن تغبنوا مرتين. وعن علي ـ رضي الله عنه ـ إن

المال حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام، قال الفضيل ـ رحمه الله ـ: من أراد عز الآخرة، فليكن مجلسه مع المساكين. نسأل الله تعالى فضله الكثير، ولطفه الوفير. فإنه مسبب الأسباب، ومنه فتح الباب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: أهل مكة لرسول الله ﷺ، والمؤمنين إنكاراً واستبعاداً ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بقيام الساعة والحساب والجزاء؛ أي: متى يقع هذا الموعود، الذي تعدوننا به من العذاب والقيامة، والمصير إلى الجنة أو النار. أقريب أم بعيد؟ أي: متى إنجاز هذا الوعد، وإلا فالوعد بالبعث كان واقعاً لا منتظراً، أو أراد بالوعد الموعود. ومعنى طلب القرب في لفظة ﴿هَٰذَا﴾ إما بطريق الاستهزاء والتهكم وإما باعتبار قرب العهد بالوعد. قال في «كشف الأسرار»: إنما ذكروا بلفظ الوعد الذي يكون في الخير غالباً، دون الوعيد، لأنهم زعموا أن لهم الحسنى عند الله، إن كان الوعد حقاً. يقول الفقير: هذا إنما يتمشى في المشركين دون المعطلة، وقد سبق أنهم زنادقة كانوا بمكة. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعدوننا به وتقولونه، فبينوا لنا وقت وقوعه. وهذا[1] الاستعجال بهجوم الساعة، والاستبطاء لقيام القيامة إنما وقع تكذيباً للدعوة، وإنكاراً للحشر والنشر؛ لأنهم قالوا ذلك استهزاءً منهم، وسخريةً بالمؤمنين، ولو كان تصديقاً وإقراراً واستخلاصاً من هذا السجن، وشوقاً إلى الله تعالى، ولقائه.. لنفعهم جداً، ولما قامت عليهم القيامة عند الموت، كما لا تقوم على المؤمنين، بل يكون الموت لهم عيداً وسروراً.

ومعنى الآية[2]: أي ويقولون استهزاءً وإنكاراً: متى يحصل هذا البعث، الذي تهددوننا به تارة تصريحاً، وأخرى تلويحاً، إن كنتم صادقين فيما تقولون وتعدون. والخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين، من قبل أنهم كانوا يتلون عليهم الآيات الدالة عليه، الآمرة بالإيمان به.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

فأجابهم ربهم بقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ والنظر هنا، بمعنى: الانتظار؛ أي: ما ينتظر كفار مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ لا تحتاج إلى ثانية. هي النفخة الأولى، التي هي نفخة الصعق والموت، ينفخها إسرافيل في الصور. ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ مفاجأةً، وتصل إلى جميع أهل الأرض والسموات. وجملة قوله: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ في محل النصب على الحال من مفعول ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾؛ أي: والحال أنهم يتخاصمون فيما بينهم، ويتنازعون في تجاراتهم ومعاملاتهم ويشتغلون بأمور دنياهم حتى تقوم الساعة وهم في غفلة عنها.

فإن قلت: هم[1] ما كانوا منتظرين، بل كانوا جازمين بعدم الساعة والصيحة؟

قلت: نعم إلا أنهم جعلوا منتظرين، نظراً إلى ظاهر قولهم: متى يقع هذا الوعد؛ لأن من قال: متى يقع الشيء الفلاني، يفهم من كلامه أنه ينتظر وقوعه.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: تهيج الساعة والرجلان يتبايعان قد نشرا أثوابهما فلا يطويانها، والرجل يلوط حوضه فلا يسقي منه، والرجل قد انصرف بلبن لقحته فلا يطعمه، والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يأكلها. ثم تلا: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

والمعنى: أي ما ينتظرون بحلول العذاب إلا نفخة واحدة في الصور، بها يموت أهل الأرض جميعاً، تأخذهم بغتة وهم يتنازعون في أمور معايشهم، لا يخطر ببالهم مجيؤها. ونحو الآية قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقرأ أبي[2]: ﴿يختصمون﴾ على الأصل. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والأعرج، وشبل، وهشام، وابن فنطنطين بإدغام التاء في الصاد، ونقل حركتها إلى الخاء، وأبو عمرو أيضاً. وقالون بإخفاء فتحة الخاء وتشديد الصاد، وعنهما إسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصم الثلاثي، والمفعول محذوف؛

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

أي: يخصم بعضهم بعضاً، وباقي السبعة بكسر الخاء، وشد الصاد. وفرقة بكسر الياء اتباعاً لكسرة الخاء وشد الصاد.

فإن قلت: الصيحة المذكورة هنا مكررة مع الصيحة التي سبقت في قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قلت: لا تكرار؛ لأن السابقة هي صيحة جبرائيل، لا هلاك أهل أنطاكية مدينة الروم، والمذكورة هنا هي صيحة إسرافيل، حين ينفخ في الصور نفخة الصعق، النفخة الأولى.

ثم بين سبحانه سرعة حدوثها، وأنها كلمح البصر، أو هي أقرب فقال: (فـ)حينئذٍ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ أي: لا يقدرون ﴿تَوْصِيَةً﴾؛ أي: إيصاء في شيء من أمورهم إذ كانت فيما بين أيديهم؛ أي: لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بماله وما عليه، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة والإقلاع عن المعاصي، بل يموتون في أسواقهم ومزارعهم ومواضعهم. قال ابن الشيخ[1]: لا يستطيعون توصية ما، ولو كانت بكلمة يسيرة، فإذا لم يقدروا عليها يكونون أعجز عما يحتاجون فيه إلى زمان طويل، من أداء الواجبات، ورد المظالم، ونحوها؛ لأن القول أيسر من الفعل، فإذا عجزوا عن أيسر ما يكون من القول، تبين أن الساعة لا تمهلهم بشيء ما. واختار الوصية من جنس الكلمات، لكونها أهم بالنسبة إلى المحتضر، فالعاجز عنها يكون أعجز عن غيرها. ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: لا يستطيعون توصية إلى أهليهم إن كانوا بين أهلهم، ولا يرجعون إلى أهلهم ومنازلهم إن كانوا في خارج أبوابهم، بل تبغتهم الصيحة، فيموتون حيث ما كانوا.

والمعنى[2]: أي فلا يستطيعون أن يوصوا في أموالهم أحداً. إذ لا يمهلون بذلك، ولا يستطيع من كان منهم خارجاً من أهله أن يرجع إليهم، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا، ويرجعون إلى ربهم. واعلم: أن الموت يدرك

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الإنسان سريعاً، والإنسان لا يدرك كل الأماني. فعلى العبد أن يتدارك الحال بقصر الآمال. وقرأ ابن محيصن ﴿يرجعون﴾ بضم الياء وفتح الجيم.

ومن السنة[1]: حسن الوصية عند الموت، وإن كان الذي يوصي عند الموت كالذي يقسم ماله عند التشبع. ومن مات بغير وصية، لم يؤذن له في الكلام في البرزخ إلى يوم القيامة، ويتزاور الأموات، ويتحدثون وهو ساكت فيقولون: إنه مات بغير وصية، فيوصي بثلث ماله. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الضرار في الوصية من الكبائر، جعلنا الله وإياكم من المتداركين لحالهم، والمتفكرين في مآلهم، والمكثرين من صالح الأعمال، والمنتقلين من الدنيا إلى الآخرة على أحسن الأقوال.

ثم بين أنهم بعد أن يموتوا ينفخ في الصور النفخة الثانية نفخة البعث من القبور، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾؛ أي: ينفخ في الصور. وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع. والنفخ: نفخ الريح في الشيء. وقرأ الجمهور ﴿ٱلصُّورِ﴾ بإسكان الواو. وفيه وجهان:

أحدهما: أنه القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وفيه بعدد كل روح ثقبة هي مقامه. والمعنى حينئذٍ: ونفخ في القرن نفخاً، هو سبب لحياة الموتى.

وثانيهما: أنه جمع صورة كصوف جمع صوفة، ويؤيد هذا الوجه قراءة الأعرج ﴿ونفخ في الصوَر﴾ بفتح الواو. فالمعنى عليه: ونفخ في الصور الأرواح، وذلك أيضاً بنفخ القرن.

والمراد: النفخة الثانية، التي يحيي الله بها كل ميت، لا النفخة الأولى التي يميت الله بها كل حي. وبينهما أربعون سنة، تبقى الأرض على حالها مستريحة بعدما مر بها من الأهوال العظام والزلازل، وتمطر سماؤها، وتجري مياهها، وتطعم أشجارها، ولا حي على ظهرها من المخلوقات، فإذا مضى بين النفختين أربعون عاماً، أمطر الله من تحت العرش ماءً غليظاً، كمني الرجال، يقال له: ماء

(١) روح البيان.

الحيوان، فتنبت أجسامهم كما ينبت البقل، وتأكل الأرض ابن آدم إلا عجب الذنب، فإنه يبقي مثل عين الجرادة، لا يدركه الطرف، فينشأ الخلق من ذلك، وتركب عليه أجزاؤه كالهباء في شعاع الشمس. فإذا تكاملت الأجساد، يحيي الله تعالى إسرافيل، فينفخ في الصور، فيطير كل روح إلى جسده، ثم ينشق عنه القبر.

﴿فَإِذَا هُم﴾ بغتة من غير لبث؛ أي: الكفار، كما دل عليه ما بعد الآية ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ أي: من القبور. فإن قيل: أين يكون في ذلك الوقت الأجداث، وقد زلزلت الصيحة الجبال؟ أجيب: بأن الله تعالى، يجمع أجزاء كل ميت في الموضع الذي أُقبر فيه، فيخرج من ذلك الموضع. وهو جدثه. وقرأ الجمهور ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ بالثاء المثلثة. وقرىء ﴿من الأجداف﴾ بالفاء بدل الثاء، وهما لغتان، واللغة الفصيحة بالثاء المثلثة. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: دعوة ربهم، ومالك أمرهم على الإطلاق. وهي دعوة إسرافيل للنشور، أو إلى موقف ربهم الذي أعد للحساب والجزاء. وقد صح أن بيت المقدس هي أرض المحشر والمنشر. وكل من الجارين متعلق بقوله: ﴿يَنسِلُونَ﴾ كما دل عليه قوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾؛ أي: يسرعون بطريق الإجبار دون الاختيار، لقوله تعالى: ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿يَنسِلُونَ﴾ بكسر السين، وابن أبي إسحاق وأبو عمرو بخلاف عنه بضمها. وإذا المفاجأة بعد قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ إشارة إلى كمال قدرته تعالى، وإلى أن مراده لا يتخلف عن إرادته زماناً، حيث حكم بأن النسلان وهو سرعة المشي، وشدة العدو يتحقق في وقت النفخ، لا يتخلف عنه مع أن النسلان لا يكون إلا بعد مراتب. وهي جمع الأجزاء المتفرقة، والعظام المتفتتة، وتركيبها، وإحياؤها وقيام الحي ثم نسلانه.

فإن قلت: قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، وقال هٰهنا: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والقيام غير النسلان، وقد صدر كل واحد منهما في موضعه بـ(إذا) الفجائية، فيلزم أن يكونا معاً؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن القيام لا ينافي المشي السريع، لأن الماشي قائم، ولا ينافي النظر أيضاً.

والثاني: أن الأمور المتعاقبة التي لا يتخلل بينها زمان ومهلة تجعل كأنها واقعة في زمان واحد، كما إذا قيل: مقبل مدبر.

والمعنى: أي ونفخ في الصور نفخة ثانية للبعث، والنشور، والخروج. فإذا هم جميعاً يسرعون للقاء ربهم للحساب والجزاء. ونحو الآية قوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ثم ذكر، أنهم يعجبون حين يرون أنفسهم قد خرجوا من قبورهم للبعث، كما حكي عنهم بقوله: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: الكفار في ابتداء بعثهم من القبور، منادين لويلهم، وهلاكهم من شدة ما غشيهم من أمر القيامة ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ ويا هلاكنا، احضر إلينا لنتعجب منك، فهذا أوانك ووقت مجيئك. فويل: منادى مضاف إلى ضمير المتكلمين، وهو كلمة عذاب وبلاء، كما أن كلمة ويح كلمة رحمة. ويحتمل كون المنادى محذوفاً؛ أي: قالوا: يا قومنا انظروا هلاكنا وتعجبوا منه. قال ابن الأنباري. الوقف على ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ وقف حسن. ثم يبتدىء الكلام بقوله: ﴿مَنْۢ﴾ استفهام استخباري وتعجب ﴿بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ كان حفص يقف على ﴿مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ وقفة لطيفة دون قطع نفس، لئلا يتوهم أن اسم الإشارة صفة لـ ﴿مرقدنا﴾، ثم يبتدىء ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ على أنها جملة مستأنفة. ويقال لهذه الوقفة: وقفة السكت. وهي قطع الصوت مقداراً أخصر من زمان النفس.

أي: من أقامنا، وأيقظنا من رقادنا ونومنا إن قلنا: إن المرقد مصدر، أو من مكاننا الذي كنا فيه راقدين إن قلنا. إنه اسم مكان. ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول، وما داخلهم من الفزع أنهم كانوا نياماً. قال في «الأسئلة المقحمة»: إن قيل: أخبر الكفار، بأنهم كانوا في القبر قبل البعث، في حال الرقاد، وهذا يرد عذاب القبر؟

قلت: إنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياماً، أو أن الله تعالى يرفع

عنهم العذاب بين النفختين، فكأنهم يرقدون في قبورهم كالمريض يجد خفة ما، فينسلخ عن الحس بالمنام. فإذا بعثوا بعد النفخة الآخرة، وعاينوا القيامة دعوا بالويل. ويؤيد هذا الجواب قوله ﷺ: «بين النفختين أربعون سنة، وليس بينهما قضاء، ولا رحمة ولا عذاب إلا ما شاء ربك». أو أن الكفار إذا عاينوا جهنم، وأنواع عذابها، وافتضحوا على رؤوس الأشهاد، وصار عذاب القبر في جنبها كالنوم قالوا: من بعثنا من مرقدنا. وذلك أن عذاب القبر روحاني فقط. وأما عذاب يوم القيامة، فجثماني وروحاني، وهو أشد من الروحاني فقط.

قرأ الجمهور: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾. وقرأ ابن أبي ليلى ﴿يا ويلتنا﴾ بتاء التأنيث وعنه أيضاً ﴿يا ويلتي﴾ بالتاء بعدها ألف بدل من ياء الإضافة. وقرأ الجمهور: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾ بفتح ميم ﴿مَنۢ﴾ على الاستفهام. وقرأ ابن عباس، والضحاك، وأبو نهيك بكسر الميم على أنها حرف جر. ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب، وعلى هذه القراءة تكون ﴿مِنۢ﴾ متعلقة بالويل. وقرأ الجمهور: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾. وفي قراءة أبي ﴿من أهبنا﴾ من هب من نومه إذا انتبه. وأنشد ثعلب على هذه القراءة:

وَعَاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُوْمُنِيْ ... وَلَمْ يَعْتَمِدْنِيْ قَبْلَ ذَاكَ عَذُوْلُ

وقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف؛ أي: هذا البعث هو الذي وعدكموه الرحمٰن في الدنيا وأنتم قلتم: متى هذا الوعد إنكاراً. ﴿وَصَدَقَ﴾ في أخباره ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ فقد حق عليكم، ونزل بكم. وهو جواب من جهة الملائكة أو من جهة المؤمنين. عدل به عن سنن سؤال الكفار تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه، وتنبيهاً على أن الذي يهمهم هو السؤال عن نفس البعث، ماذا هو؟ دون الباعث، كأنهم قالوا: بعثكم الرحمٰن الذي وعدكم ذلك في كتبه، وأرسل إليكم الرسل، فصدقوكم فيه، وليس بالبعث الذي تتوهمونه. وهو بعث النائم من مرقده، حتى تسألوا عن الباعث. وإنما هذا هو البعث الأكبر ذو الأفزاع والأهوال. وفي «فتح الرحمٰن»، قوله: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا...﴾ إلخ، إذا قلت: قولهم ذلك، سؤال عن الباعث، فكيف طابقه الجواب بقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ...﴾ إلخ؟

قلت: معناه بعثكم الرحمٰن الذي وعدكم بالبعث، وأخبركم به الرسول، وإنما جيء به على هذه الطريقة، تبكيتاً لهم وتوبيخاً. وقيل: هو من كلام الكفرة، يجيب به بعضهم على بعض. قال بالأول الفرّاء، وبالثاني مجاهد. وقال قتادة: هي من قول الله سبحانه. قال الزجاج: ويجوز أن يكون هذا إشارة إلى المرقد صفة له، ثم استأنف ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ويضمر الخبر حق؛ أي: ما وعد الرحمٰن حق عليكم.

﴿إِن كَانَتۡ﴾؛ أي: ما كانت تلك النفخة الثانية المذكورة ﴿إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ لا ثانية لها، صاحها إسرافيل بنفخه في الصور. وقيل: صيحة البعث هو قول إسرافيل على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، والأعضاء المتمزقة، والشعور المنتشرة، إن الله المصور الخالق، يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، فاجتمعوا وهلموا إلى العرض، وإلى جبار الجبابرة. قال بعضهم: إن هذا القول، ليس غير النفخ في الحقيقة، فيجوز أن يكون المراد من أحدهما هو المراد من الآخر، أو بأن يقال ذلك أثناء النفخ، بحيث يحصل هو والنفخ معاً، إذ ليس من ضرورة التكلم على الوجه المعتاد، حتى يحصل التنافي بينهما.

﴿فَإِذَا هُمۡ﴾ بغتة من غير لبث ما طرفة عين. و﴿هُمۡ﴾ مبتدأ، خبره قوله: ﴿جَمِيعٞ﴾؛ أي: مجموعون. وقوله: ﴿لَّدَيۡنَا﴾؛ أي: عندنا، متعلق بقوله: ﴿مُّحۡضَرُونَ﴾ للفصل والحساب؛ أي: فإذا هم مفاجأة مجموعون في المحشر، محضرون لدينا بسرعة للحساب والجزاء. وفيه من تهوين أمر البعث والحشر، والإيذان باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفى، كما هو عسير على الخلق يسير على الله تعالى، لعدم احتياجه إلى مزاولة الأسباب، ومعالجة الآلات كالخلق، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون.

والمعنى: أي ما كانت إعادتهم إحياء بعد مماتهم إلا نفخة واحدة، فإذا هم مجتمعون لدينا، قد أُحضروا للعرض والحساب لم يتخلف منهم أحد. ونحو الآية: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ

إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

ثم بين ما يكون في ذلك اليوم من الحساب بالعدل والقسطاس، فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: فيقال للكفار حين يرون العذاب المعد لهم: اليوم؛ أي: يوم القيامة، وهو منصوب بقوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس برة كانت أو فاجرة ﴿شَيْـًٔا﴾ نصب على المصدرية؛ أي: شيئاً من الظلم بنقص الثواب أو زيادة العقاب، أو على أنه مفعول به ثان؛ أي: لا تظلم شيئاً مما تستحقه ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ أيها الكفار ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من الكفر، والمعاصي، والأوزار. فالكلام على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما، كأنهما شيء واحد، أو إلا بما كنتم تعملونه؛ أي: بسببه أو في مقابلته.

فقوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ ليأمن المؤمن. وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ إلخ لييأس الكافر. فإن قلت: ما الفائدة في إيثار طريق الخطاب عند الإشارة إلى يأس المجرم، والعدول عن الخطاب عند الإشارة إلى أمان المؤمن؟

فالجواب: أن قوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ يفيد العموم. وهو المقصود في هذا المقام، فإنه تعالى لا يظلم أحداً مؤمناً كان أو مجرماً. وأما قوله: ﴿لا تجزون﴾ فإنه يختص بالكافر، فإنه تعالى يجزي المؤمن بما لم يعمله من جهة الوراثة، ومن جهة الاختصاص الإلهي، فإنه تعالى، يختص برحمته من يشاء من المؤمنين، بعد جزاء أعمالهم فيوفيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله أضعافاً مضاعفة.

أي: ففي هذا اليوم الرهيب، يوم القيامة، لا تبخس نفس جزاء ما عملت من خير أو شر، ولا يحمل عليها وزر غيرها، بل توفى كل نفس أجر ما عملت من صالح، ولا تعاقب إلا بما اكتسبت من طالح جزاءً وفاقاً لما عملت في الدنيا.

وهذا حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب، المعد لهم تحقيقاً للحق، وتقريعاً لهم، وتوبيخاً عليهم.

الإعراب

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ الواو: استئنافية، ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أَنزَلْنَا﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿قَوْمِهِۦ﴾، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿جُندٍ﴾: مفعول به، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة لـ﴿جُندٍ﴾ أو متعلق بـ﴿أَنزَلْنَا﴾. والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لاحتقار أمرهم. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُنزِلِينَ﴾: خبره. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنزَلْنَا﴾: معللة لها؛ أي: لأن عادتنا المستمرة في الأزمنة الماضية، قبل زمن محمد ﷺ، أنا لم ننزل ملائكة لإهلاك الكفار، بل نهلكهم بغير الملائكة. ﴿إِن﴾ نافية، ﴿كَانَتْ﴾ فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على العقوبة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿صَيْحَةً﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة ﴿صَيْحَةً﴾؛ أي: ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة. وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إذا﴾: حرف فجأة، ﴿هُمْ خَٰمِدُونَ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿يَٰحَسْرَةً﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿حسرة﴾: منادى شبيه بالمضاف؛ لأنه اتصل به شيء من تمام معناه، منصوب، وعلامة نصبه فتحة ظاهرة، ﴿عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ متعلق بـ﴿حسرة﴾. وجواب النداء محذوف، تقديره: احضري فهذا أوانك. ويحتمل كون المنادى محذوفاً، و﴿حسرة﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف؛ أي: يا هؤلاء تحسروا حسرة على العباد. جملة النداء مستأنفة. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَأْتِيهِم﴾: فعل، ومفعول به، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿رَّسُولٍ﴾: فاعل يأتي. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل التحسر عليهم. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء من أعم

الأحوال، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب على الحال، من الهاء في ﴿يَأْتِيهِم﴾؛ أي: ما يأتيهم رسول في حال من الأحوال؛ إلا حال كونهم مستهزئين إياه. ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري، ﴿لَمْ﴾ حرف نفي وجزم، ﴿يَرَوْا﴾ فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿لم﴾. والجملة مستأنفة. ﴿كَمْ﴾ خبرية بمعنى عدد كثير، في محل النصب، مفعول مقدم لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾؛ لأنها مما يلزم الصدارة، ﴿أَهْلَكْنَا﴾ فعل وفاعل، ﴿قَبْلَهُم﴾: متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾. والجملة الفعلية في محل النصب، سادة مسد مفعولي ﴿يَرَوْا﴾؛ لأنها قلبية معلقة بكم عن العمل فيما بعدها. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ حال من ﴿كَمْ﴾، ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يَرْجِعُونَ﴾، وجملة ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب، على كونه بدلاً من معنى ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ والتقدير: ألم يروا إهلاكنا كثيراً من القرون، كونهم غير راجعين إليهم أو على كونه معمولاً لفعل محذوف، دل عليه السياق؛ أي: وقضينا وحكمنا عدم رجوعهم إليهم. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: نافية، ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، ﴿لَّمَّا﴾ حرف بمعنى: إلا التي للحصر، ﴿جَمِيعٌ﴾ خبر أول لكل، ﴿لَّدَيْنَا﴾ متعلق به؛ لأنه بمعنى مجموعون أو بمحضرون، و﴿مُحْضَرُونَ﴾ خبر ثان للمبتدأ؛ أي: وما كل الخلائق إلا مجموعون عندنا، محضرون لدينا للحساب والجزاء. والجملة معطوفة على جملة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أو مستأنفة.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَءَايَةٌ﴾ الواو: استئنافية، ﴿آيةٌ﴾ خبر مقدم، ﴿لَّهُمُ﴾ صفة لـ﴿آية﴾، ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ صفة لـ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ وجملة ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ حال من الضمير المستكن في الميتة، أو صفة ثانية لـ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، لأن أل فيها جنسية فهي بمنزلة النكرات. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿أحيينا﴾، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿أخرجنا﴾، ﴿حَبًّا﴾ مفعول به، ﴿فَمِنْهُ﴾ الفاء: استئنافية، ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بـ﴿يَأْكُلُونَ﴾، و﴿يَأْكُلُونَ﴾ فعل وفاعل. والجملة

مستأنفة. ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿أحيينا﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿جعلنا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له إن قلنا: إن ﴿جَعَلْنَا﴾ من أفعال التصيير، ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مفعول به أول على التقدير المذكور، ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿وَأَعْنَٰبٍ﴾ معطوف على ﴿نَّخِيلٍ﴾، ﴿وَفَجَّرْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿أحيينا﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿فجرنا﴾، ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ صفة لمفعول ﴿فجرنا﴾ المحذوف، تقديره: وفجرنا فيها ينابيع كائنات من العيون. ﴿لِيَأْكُلُوا۟﴾ اللام، حرف جر وتعليل، ﴿يأكلوا﴾ فعل وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يأكلوا﴾. والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جعلنا﴾؛ أي: وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب لأكلهم من ثمره؛ أي: من ثمر المذكور من النخيل والأعناب. ﴿وَمَا﴾ موصولة أو موصوفة، معطوفة على ثمره، ﴿عَمِلَتْهُ﴾ فعل ومفعول، ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ فاعل. والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ويصح كونها مصدرية؛ أي: ومن عمل أيديهم كالدبس والعصير. قال الزمخشري: ويصح أن تكون ﴿مَا﴾: نافية، وتكون الجملة الفعلية حينئذ حالاً من الثمر. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيرون تلك النعم، فلا يشكرون الله عليها؟! ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَشْكُرُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ذلك المقدر.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبحوا الله سبحاناً، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿سُبْحَٰنَ﴾: مضاف، ﴿ٱلَّذِى﴾: مضاف إليه، ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة صلة الموصول. ﴿كُلَّهَا﴾ توكيد للأزواج، ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور، حال من الأزواج، ﴿تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ فعل، وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: مما تنبته الأرض. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ جار ومجرور، معطوف

على الجار والمجرور في قوله: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾، وكذا قوله: ﴿وَمِمَّا﴾ معطوف عليه، وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَءَايَةٞ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ءَايَةٞ﴾ خبر مقدم، ﴿لَّهُمُ﴾ صفة لآية، ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ ﴿نَسۡلَخُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿مِنۡهُ﴾ متعلق بـ﴿نَسۡلَخُ﴾، ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ مفعول به. والجملة الفعلية مستأنفة في محل النصب، حال من الضمير المستكن في الخبر العائد إلى الليل، ولكنها حالة سببية. ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إذا﴾ فجائية، ﴿هُم مُّظۡلِمُونَ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة معطوفة على جملة ﴿نَسۡلَخُ﴾: عطف اسمية على فعلية. ﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَجۡرِي﴾: خبره، ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ﴾ متعلق بـ﴿تَجۡرِي﴾، ﴿لَّهَاۚ﴾ صفة لـ﴿مستقر﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾. ويجوز أن يكون ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾ معطوفاً على الأرض، وجملة ﴿تَجۡرِي﴾ حال من الشمس. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، ﴿تَقۡدِيرُ﴾ خبره، ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ مضاف إليه، ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ صفة لـ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾ بالنصب منصوب على الاشتغال بفعل مضمر، يفسره المذكور بعده، تقديره: وقدرنا القمر، وجملة ﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب. ﴿مَنَازِلَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿قدرنا﴾ المقدر؛ أي: قدرنا سير القمر في منازل من الأبراج، أو حال من القمر، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: حال كونه ذا منازل، أو مفعول ثان لقدرنا؛ أي: صيّرناه منازل، وبالرفع معطوف على المبتدأ المذكور قبله على أنه مبتدأ، خبره جملة ﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿عَادَ﴾: فعل ناقص واسمه ضمير يعود على القمر، ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ﴾ ﴿الكاف﴾ اسم بمعنى مثل، في محل النصب خبر عاد، ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ﴾:

مضاف إليه للكاف، ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ صفة لـ﴿العرجون﴾؛ أي: حتى صار مثل العرجون القديم. والجملة الفعلية في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى؛ أي: إلى عوده مثل العرجون القديم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿قدرنا﴾، ﴿لَا﴾ نافية ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَنۢبَغِى﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿لَهَآ﴾ متعلق بـ﴿يَنۢبَغِى﴾، ﴿أَن﴾ حرف نصب، ﴿تُدْرِكَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الشمس، منصوب بأن المصدرية ﴿ٱلْقَمَرَ﴾ مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر، مرفوع على الفاعلية لينبغي؛ أي: لا ينبغي لها إدراكها القمر. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿ٱلَّيْلُ﴾: مبتدأ، ﴿سَابِقُ﴾: خبره، ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ مضاف إليه. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ﴾. ﴿وَكُلٌّ﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة قصد العموم؛ ولأن التنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف؛ أي: كل واحد من الشمس والقمر والنجوم والكواكب ﴿فِى فَلَكٍ﴾ متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ خبر المبتدأ، وعبّر عنها بالواو التي للعقلاء، تنزيلاً لها منزلتهم. والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَءَايَةٌ﴾ (الواو): عاطفة، ﴿ءَايَةٌ﴾ خبر مقدم، ﴿لَّهُمْ﴾ صفة له، ﴿أَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ متعلق بـ﴿حملنا﴾، ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْفُلْكِ﴾، وجملة ﴿حَمَلْنَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء؛ أي: وحملنا ذريتهم في الفلك المشحون آية لهم. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾. ﴿وَخَلَقْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿حَمَلْنَا﴾، ﴿لَهُم﴾ متعلق بـ﴿خلقنا﴾، ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ حال من المفعول المؤخر، وهو ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿خَلَقْنَا﴾، وجملة ﴿يَرْكَبُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما يركبونه. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إِن﴾ حرف شرط، ﴿نَّشَأْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، مجزوم

بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿فَلَا صَرِيخَ﴾ (الفاء): عاطفة، ﴿لَا﴾ نافية للجنس تعمل عمل ﴿إِنَّ﴾، ﴿صَرِيخَ﴾ في محل النصب اسمها، ﴿لَهُمْ﴾ خبرها. وجملة ﴿لَا﴾ معطوفة على جملة الجواب. واختار ابن عطية كون الفاء: استئنافية، ففيه قطع الكلام عما قبله. ﴿وَلَا هُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾، نافية مهملة، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿يُنقَذُونَ﴾ فعل مغير، ونائب فاعل في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ من أعم العلل، ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول لأجله، منصوب بـ﴿يُنقَذُونَ﴾، ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ﴿رَحْمَةً﴾، ﴿وَمَتَاعًا﴾ معطوف على رحمة، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ متعلق بـ﴿متاعاً﴾ أو صفة له، وتقدير الكلام؛ أي: لا يغاثون، ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلا لرحمة منا، وتمتيع منا لهم. وسبق بسط الكلام على هذا في مبحث التفسير فراجعه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمُ﴾ متعلق بـ﴿قِيلَ﴾. ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ...﴾ إلى آخر الآية نائب فاعل، محكي لـ﴿قِيلَ﴾. وجملة ﴿قِيلَ﴾ في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونه فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، وجوابه محذوف دل عليه ما سيأتي تقديره: أعرضوا عنه. وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. وإن شئت قلت: ﴿اتَّقُوا﴾ فعل أمر، وفاعل، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به، وجملة ﴿اتَّقُوا﴾ في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه صلة لما الموصولة، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ معطوف على ما بين أيديكم، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾ حرف نصب وتعليل أو ترجّ، والكاف اسمها، وجملة ﴿تُرْحَمُونَ﴾ خبرها. وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب حال من واو اتقوا؛ أي: اتقوا حالة كونكم راجين أن ترحموا، أو تعليل للأمر بالتقوى؛ أي: اتقوا كي ترحموا فتنجوا من ذلك، كما سبق هناك ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾ نافية،

﴿تَأْتِيهِم﴾: فعل، ومفعول به، ﴿مِّنْ﴾ زائدة، ﴿ءَايَةٍ﴾: فاعل، ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه صفة لـ﴿ءَايَةٍ﴾. والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿عَنْهَا﴾ متعلق بما بعده، ﴿مُعْرِضِينَ﴾: خبر. ﴿كان﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب، حال من مفعول تأتي، والتقدير: وما تأتيهم آية من آيات ربهم، في حال من الأحوال إلا حالة كونهم معرضين عنها.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به، ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾. والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. وإن شئت قلت: ﴿أَنفِقُوا۟﴾ فعل أمر، وفاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لقيل، ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ﴿أَنفِقُوا۟﴾. ﴿رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل، ومفعول أول، وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما رزقكم الله إياه. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾. ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل، وفاعل، صلة الموصول، ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ فعل، وفاعل، صلة الموصول، ﴿أَنُطْعِمُ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري، ﴿نطعم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على المتكلمين من الكفار، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿نطعم﴾، وجملة ﴿نطعم﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قَالَ﴾ الذين كفروا، ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ فعل مضارع، وفاعل، فعل لـ(لو)، ﴿أَطْعَمَهُۥٓ﴾ فعل، ومفعول، وفاعل مستتر يعود على الله جواب ﴿لَّوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ خبر المبتدأ، ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة ضلال، الجار والمجرور خبر

المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿يقولون﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿مَتَىٰ﴾ اسم استفهام عن الزمان، في محل النصب على الظرفية، متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْوَعْدُ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان له. والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنتم صادقين فيما تدّعون، فبيّنوا لنا وقت وقوعه ومجيئه. وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿يقولون﴾.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿صَيْحَةً﴾: مفعول به، ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة له، ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة الفعلية في محل النصب. صفة ثانية لصيحة، أو حال منها لوصفها بواحدة. ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَخِصِّمُونَ﴾: خبره. والجملة الاسمية في محل النصب. حال من مفعول ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾، ﴿فَلَا﴾ (الفاء): عاطفة، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة معطوفة مفرعة على جملة ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾. ﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يَرْجِعُونَ﴾، و﴿يَرْجِعُونَ﴾: معطوفة على جملة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَنُفِخَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿نفخ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾: جار ومجرور نائب فاعل. والجملة مستأنفة. ﴿فَإِذَا﴾ (الفاء): عاطفة، ﴿إذا﴾ فجائية، ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ متعلق بـ﴿يَنسِلُونَ﴾، و﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾

متعلق بـ﴿يَنسِلُونَ﴾ أيضاً، وجملة ﴿يَنسِلُونَ﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوف على جملة ﴿نفخ﴾. ﴿قَالُواْ﴾ فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿ويلنا﴾: منادى مضاف. وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مَنۢ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿بَعَثَنَا﴾: فعل، ومفعول، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنۢ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿مَنۢ﴾: الاستفهامية، وجملة ﴿مَنۢ﴾ الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾: متعلق بـ(بعثنا)، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: قالت الملائكة أو المؤمنون: هذا البعث ما وعد الرحمٰن، وجملة القول المحذوف، مستأنفة. ﴿وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: هذا ما وعده الرحمٰن إياكم. ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، والعائد محذوف؛ أي: وصدق المرسلون في إخباره إياكم.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِن﴾ نافية ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على النفخة؛ أي: ما كانت النفخة المذكورة سابقاً، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿صَيْحَةً﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة لـ﴿صَيْحَةً﴾، وجملة كانت مستأنفة. ﴿فَإِذَا﴾ (الفاء): عاطفة، ﴿إذا﴾: فجائية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿جَمِيعٌ﴾ خبر أول، ﴿لَّدَيْنَا﴾ متعلق بـ﴿مُحْضَرُونَ﴾، و﴿مُحْضَرُونَ﴾: خبر ثان. والجملة معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ (الفاء): استئنافية، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف متعلق بـ﴿تُظْلَمُ﴾، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ فعل، ونائب فاعل. والجملة مستأنفة. ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول مطلق، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ فعل، ونائب فاعل، معطوف على ﴿لَا تُظْلَمُ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب. مفعول ثان لـ﴿تُجْزَوْنَ﴾، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره. وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مِن جُندٍ﴾ الجند: العسكر، واحده جندي، والمراد بهم هنا: الجند من الملائكة؛ لأنهم جند الله الأكبر. ﴿خَامِدُونَ﴾ والخمود: انطفاء النار، والمقصود به هنا: الموت. ﴿يَا حَسْرَةً﴾ والحسرة على ما قال الراغب: الغم على ما فات، والندم عليه، كأن المتحسر انحسرت عنه قواه من فرط الإعياء. ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ جمع قرن، والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد.

﴿وَفَجَّرْنَا﴾ الفجر: شق الشيء شقاً واسعاً، كما في «المفردات». قال بعضهم: التفجير كالتفتيح لفظاً ومعنىً، وبناء التفعيل للتكثير. ﴿فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ جمع عين، وهي في الأصل: الجارحة. ويقال لمنبع الماء: عين، تشبيهاً بها في الهيئة، وفي سيلان الماء منها، ومن عين الماء اشتق ماء معين؛ أي: ظاهر للعيون. ومعنى ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾: من ماء العيون، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي﴾ سبحان: علم للتسبيح، الذي هو التبعيد عن السوء اعتقاداً وقولاً؛ أي: اعتقاد البعد عنه، والحكم به. فإن العلم كما يكون علماً للأشخاص، كزيد وعمرو، وللأجناس كأسامة.. يكون للمعاني أيضاً. لكن علم الأعيان لا يضاف، وهذا لا يجوز بغير إضافة كما في الآية، أقيم مقام المصدر، وبيّن مفعوله بإضافته إليه. ﴿الْأَزْوَاجَ﴾: جمع زوج، وهو ضد الفرد، ويقال للأنواع: أزواج؛ لأن كل نوع زوج بقسيمه. وفي ﴿سُبْحَانَ﴾ استعظام ما في حيِّز الصلة، من بدائع آثار قدرته، وروائع نعمائه الموجبة للشكر، وتخصيص العبادة به. والتعجب من إخلال الكفرة بذلك، والحالة هذه، فإن التنزيه لا ينافي التعجب. والمعنى: أسبح الذي أوجد الأصناف والأنواع سبحانه؛ أي: أنزهه عما لا يليق به عقداً وعملاً تنزيهاً خاصاً به، حقيقاً بشأنه. فهو حكم منه تعالى بتنزهه، وبراءته عن كل ما لا يليق به، كما فعله الكفار من الشرك وما تركوه من الشكر، وتلقين للمؤمنين أن يقولوه، ويعتقدوا مضمونه، ولا يخلُّوا به ولا يغفلوا عنه. وقال بعضهم: ﴿سُبْحَانَ﴾ مصدر كغفران أريد به: التنزه التام، والتباعد

الكلي عن السوء على أن تكون الجملة إخباراً من الله بالتنزه. والمعنى: تنزه تعالى بذاته عن كل ما لا يليق به تنزهاً خاصاً. ومن هو خالق الأصناف والأنواع كيف يجوز أن يشرك به ما لا يخلق شيئاً؟، بل هو مخلوق عاجز .اهـ من «الروح».

﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أصل السلخ: كشط الجلد عن الشاة ونحوها، واستُعمل هنا في كشف الضوء من مكان الليل، وملقى ظله. ومعنى ﴿نَسْلَخُ﴾: نفصل، يقال: سلخ جلد الشاة إذا كشطه عنها، وأزاله. وفي معاجم اللغة: سلخ يسلخ من باب نصر وفتح سلخاً، وسلخ الخروف كشط جلده، وسلخت المرأة درعها نزعته، وسلخت الحية انكشفت عن سلختها، وسلخها قشرها. فاستعير السلخ هنا لإزالة الضوء، وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله.

﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾؛ أي: حول مستقر لها، وهو مركز مدارها. تقدير العزيز والتقدير: تبيين كمية الشيء. وتقدير الله الأشياء على وجهين:

أحدهما: بإعطاء القدرة.

والثاني: أن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص حسبما اقتضته الحكمة.

﴿مَنَازِلَ﴾: جمع منزل، وهو المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة. ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾؛ أي: صار في أواخر سيره، وقربه من الشمس. ﴿كَٱلْعُرْجُونِ﴾ في رأي العين. والعرجون: هو العود الذي عليه الشماريخ، فإذا أتي عليه الحول تقوّس، ودقّ، واصفرّ. قال أعشى بني قيس:

شَـرَقَ ٱلْـمِـسْـكِ وَٱلْـعَـبِـيْـرِ بِـهَـا ... فَـهْـيَ صَـفْـرَاءُ كَـعُـرْجُـوْنِ ٱلْـقَـمَـرْ

والعرجون: بضم العين، ويقال له أيضاً: العرجد، والعرجد بتشديد الدال، أصل العذق الذي يعوج ويبقى على النخل يابساً بعد أن تقطع عنه الشماريخ، والجمع عراجين. وقال الزجاج: هو فعلون من الانعراج، وهو الانعطاف، والاعوجاج. والشماريخ جمع شمراخ، والشمراخ كالشمروخ بالضم: عيدان

العنقود، الذي عليه الرطب، وما يجمعه مما فوقه يسمى العذق بكسر العين، كذا في «المصباح». وفيه العذق بكسر العين الكباسة، والكباسة: عنقود النخل، اهـ.

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾؛ أي: لا يتيسر لها ﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾؛ أي: أن تجتمع معه في وقت واحد، فتداخله وتطمس نوره؛ لأن لكل منهما دورة خاصة في فلكه. وقوله: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾ هو أبلغ من (لا ينبغي للشمس)، كما أن، أنت لا تكذب، بتقديم المسند إليه، آكد من، لا تكذب أنت لاشتمال الأول على تكرر الإسناد. ففي ذكر حرف النفي مع الشمس دون الفعل، دلالة على أن الشمس مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها، وقدّر لها. وينبغي من الانفعال، وثلاثيه بغي يبغي بمعنى طلب، وأما استعمال انبغي ماضياً فقليل. قال في «كشف الأسرار»: يقال: بغيت الشيء فانبغى لي، أي: استسهلته فتسهل لي، وطلبته فتيسر لي. والمعنى: لا الشمس يصح لها ويتسهل ﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾؛ أي: تجتمع معه في وقت واحد، فتداخله وتطمس نوره؛ لأن لكل منهما دورة خاصة في فلكه. كما مر آنفاً.

﴿فِى فَلَكٍ﴾؛ أي: في جنس فلك، كقولهم: كساهم الأمير حلة يريدون: كساهم هذا الجنس. والفلك: مجرى الكواكب ومسيرها، وتسميته بذلك لكونه كالفلك، كما في «المفردات».

﴿يَسۡبَحُونَ﴾ السبح: المر السريع في الماء أو في الهواء، واستُعير لمر النجوم في الفلك، كما في «المفردات». وقال في «كشف الأسرار»: السبح: الانبساط في السير، كالسباحة في الماء، وكل من انبسط في شيء فقد سبح فيه. قال الحسن: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ يدورون. وقال ابن عباس في فلكة مثل فلكة المغزل.

﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ الذرية أصلها: صغار الأولاد، ثم استعملت في الصغار والكبار، ويقع على الواحد والجمع، وأصله الجمع. وهي من ذرأ الله الخلق، فتُركت همزته نحو: برية من برأ. قال في «القاموس»: ذرأ كجعل: خلق، وذرأ الشيءُ: كثُر، ومنه الذرية ـ مثلثةً ـ لنسل الثقلين، انتهى.

﴿فِى ٱلۡفُلۡكِ﴾؛ أي: السفينة ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾؛ أي: المملوء. ومع ذلك نجّاه الله

من الغرق، فهذا الوصف له دخل في الامتنان. وكانت السفينة مملوءة بالحيوان؛ لأنه جعلها ثلاث طبقات. السفلي: وضع فيها السباع والهوام، والوسطي: وضع فيها الدواب والأنعام، والعليا: وضع فيها الآدميين والطير، اهـ شيخنا.
والشحناء: عداوة امتلأت منها النفوس، كما في «المفردات» وهو اسم مفعول من شحن السفينة إذا ملأها، وأتم جهازها كله. ويقال: بينهما شحناء؛ أي: عداوة، وهو مشاحن لأخيه، ويقال للشيء الشديد الحموضة: إنه ليشحن الذباب؛ أي: يطرده، وبابه فتح إذا كان بمعنى الملء، وإذا كان بمعنى الطرد فهو من باب فتح ونصر، يقال: شحنت الكلاب؛ أي: أبعدت الطرد ولم تصد شيئاً، وإذا كان بمعنى الحقد فهو من باب تعب.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ الغرق: الرسوب في الماء. ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الصريخ فعيل بمعنى: مفعل؛ أي: مصرخ، وهو المغيث، ويُطلق أيضاً على الصارخ؛ أي: المستغيث، فهو من الأضداد، ويكون مصدراً بمعنى الإغاثة. وكل منهما مراد هنا. وفي «الأساس»: وصرخ يصرخ صراخاً وصريخاً وهو صارخ وصريخ. والصراخ: صوت المستغيث، وصوت المغيث إذا صرخ بقومه للإغاثة.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: متى يتحقق ويجيىء ما وعدنا به. والوعد يستعمل في الخير والشر والنفع والضر، والوعيد في الشر خاصة. والوعد هنا يتضمن الأمرين؛ لأنه وعد بالقيامة. وجزاء العباد إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ من النظر بمعنى الانتظار، كما سبق. ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ والصيحة: رفع الصوت. ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ والأخذ: حوز الشيء، وتحصيله. وذلك تارة بالتناول نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، وتارة بالقهر نحو: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾. ويقال: أخذته الحمَّى، ويعبر عن الأسير بالمأخوذ والأخيذ.

﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الخاء وكسر الصاد المشددة. أصله: يختصمون، فقلبت التاء صاداً، ثم أسكنت وأدغمت في الصاد الثانية، ثم كُسرت الخاء لالتقاء الساكنين، فصار ﴿يَخِصِّمُونَ﴾، وماضيه خصّم، أصله: اختصم، فنُقلت حركة التاء إلى الخاء ثم قُلبت؛ أي: التاء صاداً وأدغمت في الصاد،

وحُذفت همزة الوصل للاستغناء عنها بتحريك الخاء، فوقع الإعلال في الماضي كما وقع في مضارعه.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الاستطاعة: استفعال من الطوع، وذلك وجود ما يصير به الفعل متأتياً. ﴿تَوْصِيَةً﴾ مصدر وصّى توصية كزكّى تزكية، لأن فعله من المضعف المعتل. والوصية اسم مصدر من الإيصاء، يقال: وصّيت الشيء بالشيء إذا وصلته به، ويسمى إلزام شيء من مال أو نفقة بعد الموت بالوصية؛ لأنه لما أوصى به؛ أي: أوجب وألزم وصل ما كان من أمر حياته بما بعده من أمر مماته.

﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ الأهل: يفسر بالأزواج والأولاد، وبالعبيد والإماء. والأقارب، وبالأصحاب، وبالمجموع، كما في شرح المشارق لابن الملك. قال الراغب: أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب، وعُبّر بأهل الرجل عن امرأته.

﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ أي: القبور، جمع جدث كفرس وأفراس، محركةً وهو القبر، كما في «القاموس». وقرىء شاذاً ﴿من الأجداف﴾ بالفاء، وهي لغة في الأجداث يقال: جدث وجدف بمعنى.

﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ هو القرن أو ما يسمى اليوم البوق، وهو شيء مجوّف مستطيل، يُنفخ فيه ويزمر ويُجمع على أبواق وبيقان وبوقان. قال أبو الفتح بن جنيّ: عاب على أبي الطيب من لا خبرة له بكلام العرب، جمع بوق على بوقات في قوله:

إِذَا كَانَ بَعْضُ ٱلنَّاسِ سَيْفَاً لِدَوْلَةٍ   فَفِيْ ٱلنَّاسِ بُوْقَاتٌ لَهَا وَطُبُوْلُ

والقياس يعضده، إذ له نظائر كثيرة مثل: حمام وحمامات، وسرادق وسرادقات وجواب وجوابات، وهو كثير في جمع ما لا يعقل من المذكر.

﴿يَنسِلُونَ﴾؛ أي: يعدون بكسر السين وضمها، يقال: نسل الذئب ينسل من باب ضرب يضرب، وقيل: ينسل بالضم أيضاً، وهو الإسراع في المشي. وفي القاموس: نسل ينسل وينسل بكسر السين وضمها نسلاً ونسلاً ونسلاناً في مشيه أسرع. ومنه: قول امرىء القيس:

فَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّيْ خَلِيْقَةٌ فَسُلِّيْ ثِيَابِيْ مِنْ ثِيَابِكِ تُنْسَلِ

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق بين ﴿أَنزَلْنَا﴾ و﴿مُنزِلِينَ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ شبههم بالنار الخامدة، التي صارت رماداً على حد قول لبيد:

وَمَا ٱلْمَرْءُ إِلاَّ كَٱلشِّهَابِ وَضَوْئِهِ يَحُوْرُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

شُبهوا بالنار الخامدة رمزاً إلى أن الحي كالنار الساطعة في الحركة والالتهاب، والميت كالرماد.

ومنها: حكاية حال ماضية مستمرة في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾؛ أي: كانوا في الدنيا على الاستمرار يستهزئون بمن يأتيهم من الرسول من غاية الكبر.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾.

ومنها: التنكير للتفخيم والتعظيم في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾؛ أي: آية عظيمة باهرة على قدرة الله.

ومنها: الطباق بين الموت والإحياء في قوله: ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن الأيدي كناية عن القوة؛ لأن أقوى جوارح الإنسان في العمل يده، فصار ذكر اليد غالباً في الكناية. ومثله قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

ومنها: فن التناسب في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ الآية، وهو أن يأتي المتكلم في أول كلامه بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه، لكونه مجملاً يحتاج إلى التفصيل. فقد أجمل الأزواج أولاً، ثم فصله بما بعده، فأحسن التفصيل والترتيب. فقد قدم سبحانه النبات، وانتقل على طريق

البلاغة إلى الأعلى، فثنى بأشرف الحيوان، وهو الإنسان، ليستلزم ذكره بقية الحيوان، ثم ثلّث بقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ فانتقل من الخصوص إلى العموم، ليندرج تحت العموم. فسبحان منزل القرآن على ما فيه من بديع البيان.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ شبّه إزالة ضوء النهار، وانكشاف ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة، بجامع الإزالة والتعرية في كل. فكما أن الشاة تتعرى حين يُسلخ إهابها كذلك الليل إذا انسلخ عنه النهار زال ضوء، وبدت ظلمته الحالكة. واستعار اسم السلخ للإزالة والإخراج، واشتق منه ﴿نَسْلَخُ﴾ بمعنى نخرج منه النهار على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

وفيه من المحسنات أيضاً الطبقات بين الليل والنهار في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾.

ومنها: في هذه الآية أيضاً التوشيح، وهو أن يكون في أول الكلام، معنى إذا عُلم عُلمت منه القافية، إن كان شعراً، أو السجع إن كان نثراً، أو الفاصلة إن كان آيةً. فإن من كان حافظاً للسورة، متفطناً إلى أن مقاطع آيها النون المردفة، وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل، علم أن الفاصلة تكون مظلمون؛ لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم؛ أي: دخل في الظلمات ما دامت تلك الحال.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ فإنه شبه الهلال بالعرجون في الدقة، والتقوس والاصفرار؛ أي: في رأي العين لا في المقدار. ووجه الشبه مركب من ثلاثة أشياء، ولما لم يُذكر سُمي مجملاً.

ومنها: تقديم المسند إليه لتقوية الحكم المنفي في قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ فإنه أبلغ من أن يقال: لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر، وآكد في إفادة أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها. فإن قولك: أنت لا تكذب، بتقديم المسند إليه، أبلغ من قولك: لا تكذب، فإنه أشد في نفي الكذب من العبارة الثانية. كما مر.

ومنها: تنزيل غير العقلاء منزلتهم في قوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بدل يسبح. فقد عبر عن الشمس، والقمر، والكواكب، بضمير جمع المذكر تنزيلاً لها منزلة العقلاء. والذي سوّغ ذلك وصفهم بالسباحة؛ لأنها من صفات العقلاء.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ فإنه استعار المر السريع في الماء، لمر النجوم في الفلك، المعبر عنه عرفاً بالدوران.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ فقد استعار الرقاد للموت، والجامع بينهما عدم ظهور الفعل في كل؛ لأن كلا من النائم والميت لا يظهر فيه فعل. والمراد: الفعل الاختياري المعتد به، فلا يرد أن النائم يصدر منه فعل. وإنما قلنا: إنها أصلية؛ لأن المرقد مصدر ميمي، كما تقدم. وأما إذا جعلناه اسم مكان فتكون الاستعارة تبعية.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: تقول لهم الملائكة أو المؤمنون: هذا ما وعدكم به الرحمٰن.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري الذي يراد به التهكم في قوله: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿تَوْصِيَةً﴾ لغرض التعميم؛ أي: في شيء من أمورهم.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ للدلالة على تحقق الوقوع.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ
مُتَّكِـُٔونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ
أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٩) ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟
تَعْقِلُونَ (٦٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)
ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَآءُ
لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ
مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ
(٦٨) وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا
وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٠) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا
مَٰلِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ
(٧٣) وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ
مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا
خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ
وَهِىَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن
يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ (٥٥)...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما بيّن أنّ ذلك اليوم كائن لا

---

(١) المراغي.

محالة، وأنه سيأتي بغتةً من حيث لا يشعر به أحد، فما هو إلا صيحة واحدة، فإذا الناس خارجون من قبورهم ينسلون. . أردف ذلك ببيان ما أعده للمحسن والمسيء في هذا اليوم، من ثواب وعقاب، ليكون في ذلك ترغيب في صالح الأعمال، وترهيب من فعل الفجور، واجتراح السيئات.

قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ . . . الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر ما للمحسنين من نعيم، واجتماع بالمحبين والإخوان والأزواج في الجنات. . أعقبه بذكر حال المجرمين، وأنهم في ذلك اليوم يطلب منهم التفرق، وابتعاد بعضهم من بعض. فيكون لهم عذابان: عذاب النار، وعذاب الوحدة. ولا عذاب فوق هذا.

ثم أردف هذا، بأنه قد كان لهم مندوحة من كل هذا، بما أرسل إليهم من الرسل، الذين بلّغوهم أوامر ربهم ونواهيه. ومنها: نهيهم عن اتباع خطوات الشيطان، وعن اتباعه فيما يوسوس به. ثم ذكر: أنه كان لهم فيمن قبلهم من العظات، ما فيه مزدجر لهم لو تذكروا، لكنهم اتبعوا وساوسه، فحل بهم من النكال والوبال ما رأوا آثاره بأعينهم في الدنيا. وفيه دليل على ما سيكون لهم في العقبى. ثم ذكر مآل أمرهم، وأنهم سيصلون نار جهنم، خالدين فيها أبداً بما اكتسبت أيديهم. وهم في هذا اليوم، لا ينطقون ببنت شفة، ولا تُقبل منهم معذرة، بل تتكلم أيديهم بما عملت، وتشهد أرجلهم بما اكتسبت. ثم ذكر: أنه رحمةٌ منه بعباده، لم يشأ أن يعاقبهم في الدنيا شديد العقوبات، فلم يشأ أن يذهب أبصارهم حتى لو أرادوا الاستباق، وسلوك الطريق الذي اعتادوا سلوكه، ما قدروا ولا أبصروا، ولم يشأ أن يمسخ صورهم، ويجعلهم كالقردة والخنازير، حتى لو أرادوا الذهاب إلى مقاصدهم ما استطاعوا، ولو أرادوا الرجوع ما قدروا. ثم دفع معذرة أخرى ربما احتجوا بها. وهي أن ما عمروه قليل، ولو طال عمرهم لأحسنوا العمل، واهتدوا إلى الحق. فرد ذلك عليهم بأنهم كلما عمروا في السن ضعفوا عن العمل، وقد عُمروا مقدار ما يتمكنون به من البحث والإدراك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، ولكن ذلك ما

كفاهم. فهم مهما طالت أعمارهم لا يجديهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ . . .﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه، لما ذكر أمر الوحدانية في قوله: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾، وذكر أمر البعث في قوله: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾. . ذكر هنا الأصل الثالث، وهو الرسالة في هاتين الآيتين.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما[1] ذكر الأدلة على الأصول الثلاثة الوحدانية، والحشر، والرسالة. . أعاد الكلام في الوحدانية، وذكر بعض دلائلها.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر أنهم كفروا بأنعم الله عليهم، وأنكروها. . أردف ذلك ببيان أنهم زادوا في ضلالهم، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم، كما قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾. وفي الحقيقة أنها لا هي ناصرة ولا منصورة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ . . .﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف الدلائل على عظيم قدرته، ووجوب عبادته، وبطلان إشراكهم به، بعد أن عاينوا فيما بين أيديهم، ما يوجب التوحيد والإقرار بالبعث. . أردف ذلك ذكر حجة من أنفسهم، دالة على قدرته تعالى، ومبطلة لإنكارهم له. ثم ذكر أن بعض خلقه استبعدوا البعث، ونسوا بدء أمرهم وكيف خلقوا، وقالوا: كيف ترجع الحياة إلى هذه العظام النخرة. فأجابهم عن شبهتهم: بأن الذي أنشأها أول مرة من العدم، هو الذي يحييها، وهو العليم بتفاصيل أجزائها، مهما وزّعت وتفرّقت. ثم ذكر لهم دليلاً آخر يرفع هذا الاستبعاد، وهو: أن من قدر على

(١) المراغي.

إحداث النار من الشجر الأخضر، مع ما فيه من الماء.. قادر على إعادة الحياة إلى ما كان غضاً طرياً، ثم يبس وبلي، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان، وفيه الدليل على قدرته، وهو خلق السموات والأرض، ثم أعقب ذلك بما هو كالنتيجة لما سلف، وفيه بطلان لإنكارهم. فأبان أن كل شيء هين عليه، فما هو إلا بقول: ﴿كُن﴾ ﴿فَيَكُونُ﴾. تنزه ربنا ذو الملك والملكوت عن كل ما يقول المشركون. فإليه يرجع جميع الخلق للحساب والجزاء.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات: ما أخرجه مجاهد، وعكرمة، وعروة بن الزبير، وقتادة أن أبي بن خلف، جاء إلى رسول الله ﷺ في يده عظم رميم، وهو يُفَتِّتُهُ بيده ويذروه في الهواء، ويقول: أتزعم يا محمد، أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار». ثم نزلت هذه الآيات من سورة يٓس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ...﴾ إلى آخرهن.

التفسير وأوجه القراءة

ولما ذكر الله سبحانه حال الكافرين.. أتبعه بحكاية حال عباده الصالحين، وجعله من جملة ما يقال للكفار يومئذ، ويخاطبون به زيادة لحسرتهم، وتكميلاً لجزعهم، وتتميماً لما نزل بهم من البلاء، وما شاهدوه من الشقاء. فإذا رأوا ما أعده الله لهم من أنواع العذاب، وما أعده لأوليائه من أنواع النعيم.. بلغ ذلك من قلوبهم مبلغاً عظيماً، وزاد في ضيق صدورهم زيادة لا يقادر قدرها، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة مستقرون ﴿فِى شُغُلٍ﴾ عظيم الشأن، خبر أول لـ﴿إِنَّ﴾، والمراد بالشغل هنا: الشأن الذي يصد المرء عما سواه من شؤونه، لإيجابه كمال المسرة والبهجة؛ أي: لكائنون في شغل عظيم بما هم فيه من اللذات، التي هي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، عن الاهتمام بأمر الكفار، ومصيرهم إلى النار، وإن كانوا من أقربائهم.

وقوله: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾؛ أي: متنعمون بنعيم مقيم، فائزون بملك كبير دائم. ويجوز أن يكون ﴿فَٰكِهُونَ﴾ هو الخبر، و﴿فِى شُغُلٍ﴾ متعلق به، في محل النصب على الحال؛ أي: متلذذون في شغل، فشغلهم شغل التلذذ لا شغل فيه تعب كشغل أهل الدنيا.

والتعبير عن حالهم هذه، بالجملة الاسمية قبل تحققها، تنزيل للمترقب المتوقع منزلة الواقع، للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها، وزيادة مساءة المخاطبين بذلك. وهم الكفار. والأولى عدم تخصيص الشغل بشيء معين. ثم إن الشغل فُسِّر على وجوه بحسب اقتضاء مقام البيان ذلك، منها افتضاض الأبكار. وفي الحديث: «إن الرجل ليعطى قوة مئة رجل، في الأكل والشرب والجماع»، فقال رجل من أهل الكتاب: إن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة، فقال النبي ﷺ: «يفيض من جسد أحدهم، عرق مثل المسك الأذفر، فيضمر بذلك بطنه». وفي الحديث: «إن أحدهم ليفتض في الغداة الواحدة مئة عذراء». قال عكرمة: فتكون الشهوة في أخراهن كالشهوة في أولاهن، وكلما افتضها رجعت على حالها عذراء، ولا تجد وجع الافتضاض أصلاً كما في الدنيا. وجاء رجل فقال: يا رسول الله، أَنُفْضي إلى نسائنا في الجنة كما نفضي إليهن في الدنيا؟ قال: «والذي نفسي بيده، إن المؤمن ليفضي في اليوم الواحد، إلى ألف عذراء».

وفي «الفتوحات المكية»: ولذة الجماع هناك، تضاعف على لذة جماع أهل الدنيا أضعافاً مضاعفةً، فيجد كل من الرجل والمرأة لذة لا يُقدر قدرها، لو وجداها في الدنيا غشي عليهما من شدة حلاوتها، لكن تلك اللذة إنما تكون بخروج ريح إذ لا مني هناك كالدنيا، كما صرحت به الأحاديث، فيخرج من كل من الزوجين ريح، كرائحة المسك، وليس لأهل الجنة أدبار مطلقاً، لأن الدبر إنما خلق في الدنيا مخرجاً للغائط ولا غائط هناك. ولولا أن ذكر الرجل أو فرج المرأة يحتاج إليه في جماعهم، لما كان وُجد في الجنة فرج لعدم البول فيها. ونعيم أهل الجنة، والراحة فيها مطلقة إلا راحة النوم، فليس عندهم من نعيم راحته شيء؛ لأنهم لا ينامون.

ومنها: سماع الأصوات الطيبة، والنغمات اللذيذة. ثم إنه ليس في الجنة سماع المزامير والأوتار، بل سماع القرآن، وسماع أصوات الأبكار المغنية، والأوراق، والأشجار، ونحو ذلك. وروي: أن في الجنة أشجاراً عليها أجراس من فضة، فإذا أراد أهل الجنة السماع، يهب الله ريحاً من تحت العرش، فتقع في تلك الأشجار، فتحرك تلك الأجراس بأصوات، لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً.

ومنها: التزاور، وفي الحديث: «إن أهل الجنة يزورون ربهم في كل يوم جمعة، في رحال الكافور، وأقربهم منه مجلساً، أسرعهم إليه يوم الجمعة وأبكرهم غدوا». وروي: «أنهم إذا نظروا إلى الله، نسوا نعيم الجنة».

ومنها: شغلهم عما فيه أهل النار على الإطلاق، وشغلهم عن أهاليهم في النار لا يهمهم، ولا يبالون بهم، ولا يذكرونهم كي لا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم. وقيل: ضيافة الله، وأفرد الشغل ملحوظاً فيه النعيم. وهو واحد من حيث هو نعيم، ذكره أبو حيان.

والظاهر[1]: أن المراد بالشغل ما هم فيه من فنون الملاذ، التي تلهيهم عما عداها بالكلية؛ أي: شغل كان كما مر. وفي الآية إشارة إلى أن أهل النار، لا نعيم لهم من الطعام، والشراب، والنكاح، وغيرها. وفي «تذكرة القرطبي»: أن بعض العصاة، ينامون في النار إلى وقت خروجهم منها، ويكون عذابهم نفس دخولهم في النار. فإنه عار عظيم وذل كبير، ألا ترى: أن من حبس في السجن، كان هو عذاباً له بالنسبة إلى مرتبته، وإن لم يعذب بالضرب والقيد ونحوهما. ثم إنا نقول: والعلم عند الله؛ لأنه ليس له مستند، ولا أصل أثر فيه.

وقرأ الكوفيون، وابن عامر[2]: ﴿شُغُل﴾ بضمتين. وقرأ الحرميان: ابن كثير ونافع، وأبو عمرو: بضم الشين وسكون الغين. وهما لغتان، كما قال الفرّاء. وقرأ مجاهد، وأبو السمّال، وابن هبيرة، فيما نقل ابن خالويه عنه: بفتحتين.

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط والشوكاني.

وقرأ يزيد النحوي، وابن هبيرة فيما نقل أبو الفضل الرازي: بفتح الشين وإسكان الغين. وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَكِهُونَ﴾ بالألف بالرفع على أنه خبر ﴿أَنَّ﴾. وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وأبو حيوة، وأبو رجاء، وشيبة، وقتادة، ومجاهد، ويحيى بن صبيح، ونافع في رواية: بغير ألف. قال الفراء: هما لغتان كالفاره والفره، والحاذر والحذر. وقال الكسائي، وأبو عبيدة: الفاكه ذو الفاكهة مثل: تامر ولابن، والفكه المتفكه والمتنعم. وقال قتادة: الفكهون: المعجبون. وقال أبو زيد: يقال: رجل فكه إذا كان طيب النفس ضحوكاً. وقال مجاهد، والضحاك كما قال قتادة. وقال السدي: كما قال الكسائي. وفي «البحر»: ﴿فكهون﴾ بغير ألف، معناه: فرحون طربون، انتهى. وقرأ طلحة، والأعمش: ﴿فاكهين﴾ بالألف وبالياء، نصباً على الحال، و﴿فِي شُغُلٍ﴾ هو الخبر. وقرىء ﴿فكهين﴾ بغير ألف وبالياء. وقرىء ﴿فكُهون﴾ بضم الكاف يقال: رجل فكه وفكه.

ومعنى الآية: أي إن من يدخل الجنة يتمتع بنعيمها ولذاتها، ويكون بذلك في شغل عما سواه، إذ يرى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فأنى له أن يفكر فيما سواه؟. وهو بذلك، فرح مستبشر، ضحوك السن هادىء النفس، لا يرى شيئاً يغمه، أو ينغص عليه حبوره وسروره.

ثم ذكر ما يكمل به تفكههم، ويزيد في سرورهم فقال: ﴿هُمْ...﴾ الخ، استئناف، مسوق لبيان كيفية شغلهم، وتفكههم، وتكميلها بما يزيدهم بهجة وسروراً من شركة أزواجهم لهم، فيما هم فيه من الشغل والفكاهة. و﴿هُمْ﴾ مبتدأ، والضمير لأصحاب الجنة. ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ عطف عليه. والمراد: نساؤهم اللاتي كن لهم في الدنيا، أو الحور العين أو أخلاؤهم، كما في قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾. ويجوز أن يكون الكل مراداً.

فقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ إشارة[2] إلى عدم الوحشة؛ لأن المنفرد يتوحش إذا لم يكن له جليس من معارفه، وإن كان في أقصى المراتب. والجاران في قوله: ﴿فِي

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) روح البيان.

ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلق بقوله: ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ وهو خبر المبتدأ قُدّما عليه لرعاية الفواصل. ويجوز أن يكون ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ خبراً، ومتكئون على الأرائك خبراً ثانياً. والظلال: جمع ظل أو ظلة، وهو الستر الذي يسترك من الشمس. والأرائك: السرر في الحجال، كما سيأتي بسطه. والاتكاء: الاعتماد على الشيء؛ أي: معتمدون في ظلال على السرر في الحجال. والاتكاء على السرر دليل التنعيم والفراغ.

فإن قلت: كيف يكون أهل الجنة في ظلال، والظل إنما يكون حيث تكون الشمس، وهم لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً؟.

قلت: المراد بالظل هناك: ظل أشجار الجنة من نور العرش، لئلا يبهر أبصار أهل الجنة. فإنه أعظم وأقوى من نور الشمس، وقيل: من نور قناديل العرش. كذا في حواشي ابن الشيخ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ بكسر الظاء وبالألف، جمع ظل كذئب، وذئاب. وقرأ ابن مسعود، وعبيد بن عمير، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿في ظلل﴾ بضم الظاء من غير ألف، جمع ظلة. وعلى القراءتين فالمراد: الفرش والستور، التي تظلل كالخيام والحجال. وقرأ عبد الله ﴿متكئين﴾ بالنصب على الحال.

ومعنى الآية[2]: أي هم وأزواجهم في ظل لا يضحون لشمس، لأنه لا شمس فيها. وألذ شيء لدى العربي أن يرى مكاناً فيه ظل ظليل وأنهار جارية، وأشجار مورقة وهم فيها متكِئون على السرر التي عليها الحجال (الناموسيات). وهذا منتهى ما تسمو إليه النفوس من لذة، لدى من نزل عليه التنزيل.

وقال الإمام في سورة النساء: إن بلاد العرب كانت في غاية الحرارة، فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة. وهذا المعنى جعلوه كناية عن الراحة. قال النبي ﷺ: «السلطان ظل الله في الأرض».

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وبعد أن ذكر ما لهم فيها من مجالس الأنس، ذكر ما يتمتعون به من مآكل، ومشارب، ولذات جسمانية وروحية. فقال: ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لأصحاب الجنة ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه. وهذه[1] الجملة، مسوقة لبيان ما يتمتعون به في الجنة، من المآكل والمشارب، ويتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحية، بعد بيان ما لهم فيها من مجالس الأنس، ومحافل القدس تكميلاً لبيان كيفية ما هم فيه من الشغل والبهجة. والفاكهة: الثمار كلها. والمعنى: لهم في الجنة غاية مناهم فاكهة كثيرة، من كل نوع من أنواع الفواكه، عظيمة لا توصف جمالاً وبهجة، وكمالاً ولذةً، كما روي: أن الرمانة منها تشبع السكن، وهو أهل الدار. والتفاحة تنفتق عن حوراء عيناء. وكل ما هو من نعيم الجنة، فإنما يشارك نعيم الدنيا في الاسم دون الصفة. وفيه إشارة إلى أن لا جوع في الجنة؛ لأن التفكه لا يكون لدفع ألم الجوع.

وجملة قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾؛ أي: يطلبون. معطوفة على الجملة السابقة، وعدم الاكتفاء بعطف ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ لئلا يتوهم كون ﴿مَا﴾ عبارة عن توابع الفاكهة وتتماتها. و﴿مَا﴾ عبارة عن مدعو عظيم الشأن، معين، أو مبهم. و﴿يَدَّعُونَ﴾ أصله: يدتعيون على وزن يفتعلون، من الدعاء بمعنى الإتيان بالدعوى، لا من الادعاء بمعنى التمني، كما سيأتي.

والمعنى: ولهم ما يدعون الله سبحانه به، لأنفسهم من مدعو عظيم الشأن، أو كل ما يدعون به كائناً ما كان، من أسباب البهجة وموجبات السرور. قال ابن الشيخ؛ أي: ما يصح أن يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب، كما قال الإمام: ليس معناه: أنهم يدعون لأنفسهم شيئاً، فيستجاب لهم بعد الطلب بل معناه: لهم ذلك، فلا حاجة إلى الدعاء، كما إذا سألك أحد شيئاً، فقلت: لك ذلك، وإن لم تطلبه. ويجيء الادعاء بمعنى: التمني من قولهم: ادع علي ما شئت، بمعنى: تمنه علي. فالمعنى عليه: ولهم ما يتمنونه. وقرىء[2] ﴿يَدْعُون﴾ بالتخفيف،

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

ومعناها واضح.

ومعنى الآية: أي لهم فيها من الفواكه ما لذ وطاب، مما تقربه أعينهم وتسر به نفوسهم، كما هو شأن المترفين المنعمين في الدنيا. ولهم فوق ذلك كل ما يتمنون، وتشتاق إليه نفوسهم.

ثم فسر ذلك الذي يدعون بقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدل من ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ كأنه قيل: ولهم سلام وتحية. يقال لهم: ﴿قَوْلًا﴾ كائناً ﴿مِّن﴾ جهة ﴿رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾؛ أي[1]: يسلم عليهم من جهته تعالى، بواسطة الملك أو بدونها، مبالغة في تعظيمهم. فـ﴿قولاً﴾ مصدر مؤكد لفعل هو صفة لـ﴿سَلَٰمٌ﴾، وما بعده من الجار متعلق بمضمر هو صفة له. والأوجه: أن ينتصب ﴿قَوْلًا﴾ على الاختصاص؛ أي: بتقدير أعني، فإن المقام مقام المدح، من حيث إن هذا القول صادر من رب رحيم، فكان جديراً بأن يعظم أمره.

والمعنى: أي ذلك الذي يتمنونه هو التسليم من الله عليهم تعظيماً لهم. وهذا السلام يكون بوساطة الملائكة، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾، أو بدونها، مبالغةً في تعظيمهم وفي الحديث: «بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾، فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم، ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم» رواه البغوي بسنده عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ.

والسلام أمان من كل مكروه، ونيل لكل محبوب. وذلك منتهى درجات النعيم الروحي والجسماني، الذي تصبو إليه النفوس في دنياها وآخرتها. فكأن هذا إجمال لما تقدم من اللذات، التي فصلت فيما سلف.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن سلامه ـ تبارك وتعالى ـ كان قولاً

---

(١) روح البيان.

منه بلا واسطة، وأكده بقوله: ﴿رَّبٍّ﴾ ليعلم أنه ليس بسلام على لسان سفير، وقوله: ﴿رَّحِيمٍ﴾. فالرحمة في تلك الحالة، أن يرزقهم الرؤية حال ما يسلم عليهم، ليكمل لهم النعمة.

وفي «حقائق البقلي»: سلام الله أزلي إلى الأبد، غير منقطع عن عباده الصادقين في الدنيا والآخرة، لكن في الجنة يرفع عن آذانهم جميع الحجب، فيسمعون سلامه، وينظرون إلى وجهه كفاحاً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سَلَٰمٌ﴾ بالرفع على أنه بدل من ﴿مَا﴾ وخبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو سلام، كما سيأتي في مبحثه. وقرأ أبي، وعبد الله، وعيسى والقنوي ﴿سلاماً﴾ بالنصب على المصدر. وقال الزمخشري: نصب على الحال؛ أي: لهم مرادهم خالصاً. وقرأ محمد بن كعب القرظي (سِلْم) بكسر السين وسكون اللام، ومعناه: سلام. وقال أبو الفضل الرازي: مسالم لهم؛ أي: ذلك مسالم.

﴿وَٱمْتَٰزُواْ﴾؛ أي: اعتزلوا، وانفردوا، وتميزوا ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم. وهو يوم القيامة، والفصل والجزاء من المؤمنين الصالحين. وكونوا على حدة ﴿أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: أيها المشركون؛ أي[2]: ويقال للمشركين: انفردوا اليوم أيها المجرمون عن المؤمنين، حين يسار بهم إلى الجنة. إذ لا دواء لألمكم، ولا شفاء لسقمكم.

وقال داود بن الجراح: يمتاز المسلمون من المجرمين، إلا أصحاب الأهواء، فإنهم يكونون مع المجرمين. وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبدة الأوثان فرقة.

وقيل: إن لكل كافر في النار بيتاً، فيدخل ذلك البيت، ويردم بابه، فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى ولا يرى. وهو على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

بالإخوان، وعذاب الفرقة عن القرناء، والأصحاب من أسوأ العذاب وأشد العقاب، قاله قتادة. فعلى هذا القول يمتاز بعضهم عن بعض. ودل التعبير[1] بالامتياز، على أنه حين يحشر الناس يختلط المؤمن والكافر، والمخلص والمنافق. ثم يمتاز أحد الفريقين عن الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤)﴾. وهو عطف قصة سوء حال هؤلاء وكيفية عقابهم على قصة حسن أولئك ووصف ثوابهم. وكان تغيير الأسلوب لتخييل كمال التباين بين الفريقين، وحاليهما. ويجوز أن يكون معطوفاً على مضمر، ينساق إليه حكاية حال أهل الجنة، كأنه قيل بعد بيان كونهم في شغل عظيم الشأن، وفوزهم بنعيم مقيم، يقصر عنه البيان، فليقروا بذلك عينا، وامتازوا عنهم اليوم أيها المجرمون إلى مصيركم، فكونوا في السعير، وفنون عذابها ولهبها بدل الجنة لهم، وألوان نعمها وطربها.

والمعنى[2]: فارقوا المؤمنين أيها المجرمون، وادخلوا مساكنكم من النار. فلم يبق لكم اجتماع بالمؤمنين أبداً. ونحو الآية قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤)﴾، وقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)﴾.

ولما أمروا بالامتياز، وشخصت منهم الأبصار، وكلحت الوجوه، وتنكست الرؤوس، قال سبحانه موبخاً لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: ألم أوصكم ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ بما نصبت من الأدلة، ومنحت من العقول، وبعثت من الرسل، وأنزلت من الكتب، بياناً للطريق الموصل إلى النجاة بـ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾؛ أي: بأن تتركوا طاعة الشيطان، فيما يوسوس به إليكم من معصيتي، ومخالفة أمري. وهذا من جملة[3] ما يقال لهم يوم القيامة، بطريق التقريع والتوبيخ، والإلزام والتبكيت،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

بين الأمر بالامتياز، وبين الأمر بدخول جهنم بقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ الخ. والعهد: الوصية، والتقديم بأمر فيه خير ومنفعة. والمراد ههنا: ما كلفهم الله تعالى به، على ألسنة الرسل، من الأوامر والنواهي، التي من جملتها، قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وغيرها من الآيات الكريمة، الواردة في هذا المعنى. والمراد ببني آدم: المجرمون. وقيل: المراد بالعهد: الميثاق المأخوذ عليهم، حين أخرجوا من ظهر آدم عليه السلام.

و﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ إما مفسرة للعهد[1]، الذي فيه معنى القول بالأمر والنهي، أو مصدرية حذف منها الجار؛ أي: ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان. والمراد بعبادة الشيطان. عبادة غير الله؛ لأن الشيطان لا يعبده أحد، ولم يرد عن أحد أنه عبد الشيطان، إلا أنه عبر عن عبادة غير الله بعبادة الشيطان، لوقوعها بأمر الشيطان، وتزيينه، والانقياد فيما سوله، ودعا إليه بوسوسته. فسمي إطاعة الشيطان، والانقياد له عبادة له، تشبيهاً لها بالعبادة، من حيث إن كل واحد منهما ينبىء عن التعظيم والإجلال، ولزيادة التحذير والتنفير عنها، ولوقوعها في مقابلة عبادته تعالى، قال ابن عباس: من أطاع شيئاً فقد عبده. دل عليه قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَعْهَدْ﴾ بفتح الهمزة والهاء. وقرأ طلحة، والهذيل بن شرحبيل الكوفي بكسر الهمزة، قاله «صاحب اللوامح»، وقال: لغة تميم، وهذا الكسر في النون والتاء أكثر من بين حروف المضارعة، يعني: نعهد وتعهد. وقال ابن عطية: وقرأ الهذيل بن وثاب ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ﴾ بكسر الميم والهمزة، وفتح الهاء. وهي على لغة من كسر أول المضارع، سوى الياء. وروي عن ابن وثاب ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ﴾ بكسر الهاء، يقال: عهد يعهد، انتهى.

ثم علل النهي عن عبادة الشيطان، وقبول وسوسته بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي:

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

لأن الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: عدو ظاهر العداوة لكم، يريد أن يصدكم عما جبلتم عليه من الفطرة، وكلفتم به من الخدمة. ووجه عداوة إبليس لبني آدم: أنه تعالى، لما أكرم آدم عليه السلام.. عاداه إبليس حسداً. والعاقل لا يقبل من عدوه، وإن كان ما يلقيه إليه خيراً إذ لا أمن من مكره. فإن ضربة الناصح، خير من تحية العدو.

قال بعضهم[١]: اعلم أن عداوة إبليس لبني آدم، أشد من معاداته لأبيهم آدم عليه السلام. وذلك أن بني آدم، خلقوا من ماء والماء منافر للنار، وأما آدم فجمع بينه وبين إبليس اليبس الذي في التراب، فبين التراب والنار جامع، ولهذا صدّقه، لما أقسم له بالله أنه لناصح، وما صدقه الأبناء، لكونه لهم ضداً من جميع الوجوه. فبهذا كانت عداوة الأبناء، أشد من عداوة الأب. ولما كان العدو محجوباً عن إدراك الأبصار، جعل الله لنا علامات في القلب، من طريق الشرع، نعرفه بها، تقوم لنا مقام البصر، فنتحفظ بتلك العلامة من إلقائه ووسوسته، وإعانة الله لنا عليه بكلمة الاستعاذة.

وفي «التأويلات النجمية»: في الآية[٢] إشارة إلى كمال رأفته تعالى، وغاية مكرمته في حق بني آدم. إذ يعاتبهم معاتبة الحبيب للحبيب، ومناصحة الصديق للصديق، وأنه تعالى يكرمهم ويجلهم عن أن يعبدوا الشيطان لكمال رتبتهم، واختصاص قربتهم بالحضرة، وغاية ذلة الشيطان، وطرده ولعنه من الحضرة. وسماه عدواً لهم وله، وسمى بني آدم الأولياء والأحباب. وخاطب المجرمين منهم كالمعتذر الناصح لهم بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ ألم أنصح لكم، ألم أخبركم عن خيانة الشيطان وعداوته لكم، وأنكم أعز من أن تعبدوا مثله ملعوناً مهيناً.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ وحدي، وأطيعوني فيما أمرتكم به، وانتهوا عما نهيتكم عنه؛ لأن مثلكم يستحق لعبادة مثلي، فإني أنا العزيز الغفور، وإني خلقتكم

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

لعبادتي، وخلقت المخلوقات لمنافعكم، وعززتكم وأكرمتكم، بأن أسجدت لكم ملائكتي المقربين، وعبادي المكرمين، وهو عطف على ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا﴾ و﴿أَنِ﴾ فيه كما هي فيه؛ أي: وحدوني بالعبادة، ولا تشركوا بها أحداً. وتقديم النهي على الأمر، لما أن حق التخلية التقدم على التحلية، وليتصل به قوله تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ التوحيد الذي أمرتكم به. فإنه إشارة إلى عبادته تعالى، التي هي عبارة عن التوحيد والإسلام. ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: قويم لا اعوجاج فيه، موصل إلى النجاة والجنة، لكنكم سلكتم غيره، فوقعتم في مزالق الضلال، وترديتم في مهاوي الردى. والتنكير فيه للتفخيم، كما سيأتي. وفي قوله: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ﴾ إشارة إلى أن الإنسان مار في الدنيا لا مقيم فيها.

وبعد أن نبههم إلى أنهم نقضوا العهد، وبّخهم على عدم اتعاظهم بغيرهم، ممن أوقعهم الشيطان في المهالك، وكانت عاقبتهم، ما يرون من سوء المتقلب في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾ جواب قسم محذوف، والخطاب لبني آدم. وفي «الإرشاد»: الجملة مستأنفة، مسوقة لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع، ببيان أن جناياتهم ليست بنقض العهد فقط، بل بعدم الاتعاظ بما شاهدوا من العقوبات، النازلة على الأمم الخالية، بسبب طاعتهم للشيطان. والخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار مكة، خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم.

أي: وعزتي وجلالي لقد صد الشيطان منكم يا بني آدم ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾؛ أي: خلقاً كثيراً عن طاعتي، وإفرادي بالألوهية، فاتخذوا من دوني آلهة يعبدونها. وقرأ نافع، وعاصم[1]: ﴿جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام. وهي قراءة أبي حيوة، وسهيل، وأبي جعفر، وشيبة، وأبي رجاء، والحسن بخلاف عنه. وقرأ العربيان - أبو عمرو وابن عامر - والهذيل بن شرحبيل: بضم الجيم وإسكان الباء. وباقي السبعة: بضمها وتخفيف اللام. والحسن بن أبي

(١) البحر المحيط.

إسحاق، والزهري، وابن هرمز، وعبد الله بن عبيد بن عمير، وحفص بن حميد بضمتين وتشديد. والأشهب العقيلي، واليماني وحماد بن مسلمة عن عاصم: بكسر الجيم وسكون الباء. والأعمش ﴿جبلاً﴾ بكسرتين وتخفيف اللام. وقرىء ﴿جبلاً﴾ بكسر الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام، جمع جبلة نحو: فطرة وفطر. فهذه سبع لغات قرىء بها. وأبينها القراءة الأولى، والدليل على ذلك، أنهم قد قرؤوا جميعاً ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، فيكون جبلاً جمع جبلة، واشتقاق الكل من جبل الله الخلق؛ أي: خلقهم. وقرأ علي بن أبي طالب، وبعض الخراسانيين: ﴿جيلاً﴾ بكسر الجيم بعدها ياء آخر الحروف، واحد الأجيال. والجبل بالباء الموحدة: الأمة العظيمة، وقال الضحاك: أقله عشرة آلاف. ولما تصور[1] من الجبل العظم، قيل للجماعة العظيمة، جبل تشبيهاً لها بالجبل في العظم. وإسناد الإضلال إلى الشيطان مجاز عقلي، علاقته السببية.

والمعنى: والله لقد أضل الشيطان منكم خلقاً كثيراً، يعني: صار سبباً لضلالهم عن ذلك الصراط المستقيم، الذي أمرتكم بالثبات عليه. فأصابهم لأجل ذلك، ما أصابهم من العقوبات الهائلة، التي ملأت الآفاق أخبارها، وبقيت مدى الدهر آثارها.

وقال بعضهم: وكيف تعبدون الشيطان، وتنقادون لأمره، مع أنه قد أضل منكم يا بني آدم، جماعة متعددة من بني نوعكم، فانحرفوا بإضلاله عن سواء السبيل، فحرموا من الجنة الموعودة لهم.

فائدة[2]: واعلم: أنه إذا جاءك شخص، يأمرك بشيء.. فانظر، إما أن يكون ذلك موافقاً لأمر الله أو لا، فإن لم يكن موافقاً له فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به. فإن أطعته فقد عبدت الشيطان. وإن دعتك نفسك إلى فعل شيء، فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع أولا، فإن لم يكن مأذوناً فيه، فنفسك هي الشيطان، أو معها الشيطان يدعوك، فإن اتبعته فقد عبدته. ثم إن

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

الشيطان يأمر أولاً بمخالفة الله ظاهراً، فمن أطاعه فقد عبده، ومن لم يطعه فيقول له: اعبد الله كي لا تهان، وليرتفع شأنك عند الناس، وينتفع بك إخوانك. فإن أجاب إليه فقد عبده.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟﴾ للاستفهام التوبيخي[1]، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم، فلم تكونوا تعقلون، أنها لضلالهم وطاعتهم إبليس، أو فلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً، حتى ترتدعوا عما كانوا عليه، كيلا يحيق بكم العقاب. وقرأ الجمهور: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ بتاء الخطاب. وقرأ طلحة، وعيسى بياء الغيبة عائداً على جبل. وفي «كشف الأسرار»: هو استفهام تقريع على تركهم الانتفاع بالعقل، مع أنه نور يستضاء به.

ثم اعلم[2]: أن الجاهل الأحمق، والضال المطلق في يد الشيطان، يقوده حيث يشاء، ولو علم حقيقة الحال، وعقل أن الله الملك المتعال، واهتدى إلى طريق التوحيد، الطاعة، ولحفظه الله من تلك الساعة. فإن التوحيد حصنه الحصين، ومن دخل فيه أمن من مكر العدو المهين، ومن خرج عنه طالباً للنجاة، أدركه الهلاك ومات في يد الآفات، ومن أهمل نفسه فلم يتحرك لشيء، كان كمجنون لا يعرف شمساً من فيء. فنسأل الله الاشتغال بطاعته واستيعاب الأوقات بعبادته، وطرد الشيطان بأنوار الخدمة وقهر النفس بأنواع الهمة.

وبعد أن أنبوا ووبخوا بما سلف، خوطبوا بما يزيدهم حسرةً وألماً، فقيل لهم من جهة الملائكة: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ النار المسعرة هي ﴿جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تُوعَدُونَ﴾ بها على ألسنة الرسل والمبلغين عنهم. إذ أنتم اتبعتم وساوس الشيطان، وعصيتم الرحمٰن، وعبدتم من دونه الأصنام والأوثان، واجترحتم الفسوق والعصيان.

ثم أمرهم أمر إهانة، وتحقير لهم، بقوله: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: ادخلوا في

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

هذا اليوم، الحاضر نار جهنم، وقاسوا حرها وفنون عذابها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفركم المستمر في الدنيا، وجحودكم بها، وتكذيبكم إياها، بعد أن نبهتم فلم تتنبهوا، وأوقظتم فلم تستيقظوا. وفي ذكر اليوم، ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم. يعني: أن أيام لذاتكم قد مضت، ومن هذا الوقت واليوم وقت عذابكم.

وخلاصة ذلك[1]: أنه قد ذكر ما يوجب الحزن والأسى من وجوه ثلاثة:

١ ـ أنه أمرهم أمر تنكيل وإهانة بقوله: ﴿اصْلَوْهَا﴾ نحو قوله لفرعون: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

٢ ـ أنه ذكر لفظ اليوم، الذي يدل على أن العذاب حاضر، وأن لذاتهم قد مضت، وبقي العذاب اليوم.

٣ ـ أن قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يومىء إلى أن هناك نعمة، قد كانت، فكفروا بها، وحياء الكفور من المنعم أشد ألماً، وأعظم مضاضةً، كما قيل:

أَلَيْسَ بِكَافٍ لِذِيْ هِمَّةٍ   حَيَاءُ الْمُسِيْءِ مِنَ الْمُحْسِنِ

ثم بين أنهم في هذا اليوم، لا يستطيعون دفاعاً عن أنفسهم، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم. فقال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي: ففي هذا اليوم يعني: يوم القيامة نمنع أفواههم من النطق، ونفعل بها ما لا يمكنهم معه أن يتكلموا، فتصير أفواههم كأنها مختومة، فتعترف جوارحهم بما صدر منها من الذنوب، كما قال: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ باستنطاقنا ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَكْسِبُونَ﴾ من الذنوب والمعاصي والمراد[2]: جميع الجوارح، لا أن كل عضو يعترف بما صدر منه فقط. قال بعضهم: لما قيل لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ جحدوا، وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، وما عبدنا من دونك من شيء، وما أطعنا الشيطان في شيء من المنكرات. فيُختم على أفواههم وتعترف جوارحهم بمعاصيهم.

---

(١) المراغي.   (٢) روح البيان.

والختم لازم للكفار أبداً. أما في الدنيا فعلى قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وأما في الآخرة، فعلى أفواههم، في الوقت الذي كان الختم على قلوبهم، كان قولهم بأفواههم كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ فلما خُتم على أفواههم أيضاً، لزم أن يكون قولهم بأعضائهم لأن الإنسان لا يملك غير القلب واللسان والأعضاء، فإذا لم يبق القلب واللسان تعين الجوارح والأركان. وفي الكلام، التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم.

وقرىء[1] ﴿اليوم يُختم على قلوبهم﴾ مبنياً للمفعول، والنائب الجار والمجرور بعده. وقُرىء ﴿وتتكلم أيديهم﴾ بتاءين. وقرأ الجمهور ﴿تكلمنا﴾ و﴿تشهد﴾. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿ولِتكلمنا ولِتشهد﴾ بلام كي. وقُرىء ﴿ولْتكلمنا أيديهم ولْتشهد أرجلهم﴾ بلام الأمر، والجزم على أن الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة.

وقيل: سبب الختم على أفواههم، ليعرفهم أهل الموقف. وقيل: خُتم على أفواههم، لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم؛ لأن شهادة غير الناطق أبلغ في الحجة من شهادة الناطق، لخروجه مخرج الإعجاز. وقيل: ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم في معاصي الله، صارت شهوداً عليهم، فلا ينبغي لأحد أن يلتفت إلى ما سوى الله تعالى، ويصحب أحداً غير الله لئلا يفتضح ثمة بسبب صحبته. ولقد أجاد من قال:

كُنْ مِنَ ٱلْخَلْقِ جَانِبَاً   وَٱرْضَ بِٱللَّهِ صَاحِبَا
قَلِّبِ ٱلْخَلْقَ كَيْفَ شِئْـ   ـتَ تَجِدْهُ عَقَارِبَا

وجعل[2] ما تنطق به الأيدي كلاماً وإقراراً، لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصي. وجعل نُطق الأرجل شهادة؛ لأنها حاضرة عند كل معصية، وكلام الفاعل إقرار، وكلام الحاضر شهادة. وهذا باعتبار الغالب، وإلا فالأرجل قد

---

(١) البحر المحيط.   (٢) الشوكاني.

تكون مباشرة للمعصية، كما تكون الأيدي مباشرةً لها.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن الغالب على الأفواه الكذب، كما قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾. والغالب على الأعضاء الصدق. ويوم القيامة، يوم يسأل الصادقين عن صدقهم، فلا يسأل الأفواه، فإنها كثيرة الكذب، ويسأل الأعضاء، فإنها كثيرة الصدق، فتشهد بالحق. أما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مبيدة لهم، وأما العصاة من المؤمنين الموحدين، فقد تشهد عليهم أعضاؤهم بالعصيان، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضاً بالإحسان. قيل[1]: أول عظم من الإنسان، ينطق يوم يُختم على الأفواه، فخذه من رجله اليسرى وكفها، كما جاء في الحديث.

ومعنى الآية: أي ففي هذا اليوم، يُنكر الكافرون ما اجترحوا في الدنيا من الشرور والآثام، ويحلفون أنهم ما فعلوا. كما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. فيختم على أفواههم، فلا تنطق ببنت شفة، ويستنطق جوارحهم، بما اجترحت من الفسوق والعصيان، الذي لم يتوبوا عنه.

ثم بين سبحانه، أنه قادر على إذهاب الأبصار، كما أنه قادر على إذهاب البصائر، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ أن نطمس على أعينهم، ونمحو نور أبصارهم. و﴿لو﴾ للمضي إن دخل على المضارع، ولذا لا يجزمه؛ أي: ولو أردنا عقوبة المشركين من أهل مكة في الدنيا.. ﴿لَطَمَسْنَا﴾؛ أي: لجعلنا الطمس والمحو ﴿عَلَىٰ﴾ مواضع ﴿أَعْيُنِهِمْ﴾ ولضربنا عليهم، وأزلنا أثرها، بحيث لا يبقى لها أثر، ولا يبدو لها شق ولا جفن، وتصير مطموسة ممسوحة، كسائر أعضاهم ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ معطوف على ﴿طمسنا﴾؛ أي: فبادروا إلى الطريق الواسع الذي اعتادوا سلوكه فراراً من الطمس والعقوبة ليجوزوه، ويمضوا فيه. ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: فكيف يبصرون الطريق، ويُحسنون سلوكه ولا أبصار لهم؟! أي: لا يُبصرون لأن ﴿أنى﴾ بمعنى كيف، وكيف هنا إنكار فتفيد النفي. والمراد[2]: إن في قدرتنا

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

إزالة نعمة البصر عنهم، فيصيروا عمياً، لا يقدرون الى التردد في الطريق لمصالحهم، ولكن أبقينا عليهم نعمة البصر، فضلاً وكرماً، فحقهم أن يشكروا عليها، ولا يكفروا. وهذا تهديد لأهل مكة بالطمس، فإن الله قادر على ذلك، كما فعل بقوم لوط حين كذبوه، وراودوه عن ضيفه. وإجمال المراد[1]: ولو شئنا لأذهبنا أحداقهم، فلو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق، الذي اعتادوا سلوكه.. لم يستطيعوا ذلك. وفي «الخازن»: والمعنى[2]: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، وتركناهم عمياً يترددون، فكيف يبصرون الطريق حينئذ. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: لو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم، فأعميناهم عن غيّهم، وحوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى، فأبصروا رشدهم، فأنى يبصرون، ولم نفعل ذلك بهم، انتهى.

وقرأ الجمهور: ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ﴾ فعلاً ماضياً، معطوفاً على ﴿لَطَمَسۡنَا﴾. وهو على الفرض والتقدير. وقرأ عيسى بن عمر ﴿فاستبقوا﴾ على الأمر. وهو على إضمار القول؛ أي: فيقال لهم: استبقوا الصراط. وهذا على سبيل التعجيز. إذ لا يمكنهم الاستباق مع طمس الأعين.

ثم زاد في تهديدهم وتوبيخهم، وبيان أنه قادر على منعهم من الحركة، فقال: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ﴾؛ أي: ولو أردنا أن نمسخهم، ونحول صورهم الأصلية، ونسقطهم[3] عن رتبة التكليف ودرجة الاعتبار ﴿لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾ لغيرنا وحولنا صورهم، بأن جعلناها قردةً وخنازير، كما فعلنا بقوم داود عليه السلام، أو بأن جعلناهم حجارة ومدرة. وهذا أشد من الأول وأقبح، لأن الأول خروج عن رتبة الإنسانية إلى الحيوانية، وهذا عن الحيوانية إلى الجمادية، التي ليس لها شعور أصلاً وقطعاً ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾؛ أي: في مكانهم ومنزلهم الذي هم فيه قعود. وقال بعضهم: معنى ﴿لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾؛ أي: لأقعدناهم على أرجلهم

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.

وأزمناهم، انتهى. ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾؛ أي: فلم يقدروا ﴿مُضِيّٗا﴾؛ أي: ذهاباً وإقبالاً إلى جانب أمامهم ﴿وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾؛ أي: ولم يقدروا رجوعاً وإدباراً إلى جهة خلفهم. فوضع الفعل موضع المصدر لمراعاة الفاصلة. قال الحسن: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أن يمضوا أمامهم، ولا يرجعوا وراءهم وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر. وقيل: المعنى: لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم. وقيل: لمسخناهم في المكان، الذي فعلوا فيه المعصية.

والمعنى(١): أي ولو نشاء لمسخناهم مسخاً يحل بهم في منازلهم، لا يقدرون أن يفروا منه بإقبال ولا إدبار.

وحاصل معنى الآيتين(٢): ولو نشاء عقوبتهم، بما ذكر من الطمس والمسخ، جرياً على موجب جناياتهم، المستدعية لها لفعلنا، ولكنا لم نشأها جرياً على سنن الرحمة، والحكمة، الداعيتين إلى إمهالهم زماناً إلى أن يتوبوا، ويؤمنوا، ويشكروا النعمة، أو إلى أن يتولد منهم من يتصف بذلك.

وقرأ الجمهور(٣): ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ بالإفراد. وقرأ الحسن، والسلمي، وزر بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم ﴿مكاناتهم﴾ بالجمع. وقرأ الجمهور: ﴿مُضِيّٗا﴾ بضم الميم. وقرأ أبو حيوة، وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي: بكسرها إتباعاً لحركة الضاد. وقُرىء ﴿مضياً﴾ بفتحها، فيكون من المصادر التي جاءت على فعيل، كالرسيم والوجيف.

ثم شرع يقطع معذرةً لهم، ربما احتجوا بها. وهي قولهم: أنهم لو عمروا لأحسنوا العمل. فقال: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ﴾؛ أي: ومن نطل عمره في الدنيا ﴿نُنَكِّسۡهُ﴾ ونقلبه ﴿فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ والشكل والصورة؛ أي: نغير خلقه، ونجعله على عكس ما كان عليه أولاً، من القوة والطراوة، ونرده إلى أرذل العمر، شبه الصبي في أول الخلق. والمعنى: نقلبه في شكله، ونجعله على عكس ما خلقناه أولاً،

---

(١) الفتوحات.

(٢) أبو السعود.

(٣) البحر المحيط والشوكاني.

فلا يزال يتزايد ضعفه، وتتناقص قوته، وتنتقض بنيته، ويتغير شكله وصورته، حتى يعود على حالة شبيهة بحال الصبي، في ضعف الجسد، وقلة العقل، والخلو عن الفهم والإدراك. وفي الحديث: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك». وفي هذا كله، دليل على أن من فعل هذه الأفاعيل، قادر على أن يطمس، ويفعل بهم ما أراد. وقرأ الجمهور: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ مشدداً؛ أي: بضم النون الأولى، وفتح الثانية، وكسر الكاف مشددة. وقرأ عاصم، وحمزة مخففاً؛ أي: بفتح النون الأولى، وسكون الثانية، وضم الكاف مخففة.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: أيرون ذلك التنكيس، فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ما ذكر من الطمس والمسخ فإنه مشتمل عليهما وزيادة، غير أنه على تدرج، وأن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما.

وقرأ نافع، وابن ذكوان، وأبو عمرو في رواية عباس[1]: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بتاء الخطاب. وباقي السبعة بياء الغيبة؛ أي: أفلا يعقلون، أنهم كلما تقدمت بهم السن، ضعفوا، وعجزوا عن العمل، فلو عُمروا أكثر مما عمروا، ما ازدادوا إلا ضعفاً، فلا يستطيعون أن يُصلحوا ما أفسدوا في شبابهم. وقد عمرناهم مقدار ما يتمكنون من البحث، والتفكير، والتروي في عواقب الأمور ومصايرها، فلم يفعلوا وجاءتهم النذر فلم يهتدوا فمهما، طالت أعمارهم فلن يفيدهم ذلك، ولن يُصلح من حالهم قليلاً ولا كثيراً. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾.

ولما قال كفار مكة: إن القرآن شعر، وإن محمداً شاعر.. رد الله سبحانه

---

(١) البحر المحيط.

عليهم، بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾؛ أي: وما علمنا محمداً ﷺ ﴿ٱلشِّعْرَ﴾ وليس القرآن بشعر. وهذا رد وإبطال لما كانوا يقولونه في حقه ﷺ، من أنه شاعر، وما يقوله شعر.

والظاهر في الرد أن يقال[1]: إنه ليس بشاعر، وأن ما يتلوه عليهم ليس بشعر، إلا أن عدم كونه شاعراً، لما كان ملزوماً لعدم كون معلمه، علمه الشعر، نُفي اللازم وأريد نفي الملزوم بطريق الكناية، التي هي أبلغ من التصريح. والشعر لغة: العلم الدقيق، واصطلاحاً: كلام مقفى، موزون على سبيل القصد والاختيار بأجزاء تفاعيل بحور العروضيين الستة عشر، فخرج بالقصد والاختيار ما كان وزنه اتفاقياً، كآيات شريفة، اتفق جريان الوزن فيها، نحو قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾، وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾، وقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. وكلمات نبوية، جاء الوزن فيها اتفاقاً، من غير قصد إليه وعزم عليه، نحو قوله ﷺ حين عثر في بعض الغزوات، فأصاب إصبعه حجر فدميت:

هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دُمِيْتِ   وَفِيْ سَبِيْلِ ٱللَّهِ مَا لَقِيْتِ

وقوله يوم حنين حين نزل، ودعا، واستنصر أو يوم فتح مكة:

أَنَا ٱلنَّبِيُّ لاَ كَذِبْ   أَنَا ٱبْنُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبْ

وقوله يوم الخندق:

بِٱسْمِ ٱلإِلٰهِ وَبِهِ بَدَيْنَا   وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقَيْنَا

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾؛ أي: وما كان الشعر يليق به ﷺ ولا يصلح له. وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير المعنى، لمراعاة اللفظ والوزن. فالشارع يكون اللفظ منه تبعاً للمعنى، والشاعر يكون المعنى منه تبعاً للفظ. لأنه يقصد لفظاً يستقيم به وزن الشعر أو قافيته، فيحتاج إلى التحيل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ. ولو صدر من النبي ﷺ كلام موزون مقفى، كما ذكر آنفاً لا يكون شعراً لعدم قصده اللفظ، وإنما قصد المعنى، فجاء على تلك الألفاظ.

---

(١) روح البيان.

ومعنى قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾؛ أي: وما علمنا محمداً ﷺ الشعر، بتعليم القرآن على معنى: أن القرآن ليس بشعر. فإن الشعر كلام متكلف موضوع، ومقال مزخرف مصنوع، منسوج على منوال الوزن والقافية، مبني على خيالات وأوهام واهية. فأين ذلك من التنزيل الجليل، الخطر، المنزه عن مماثلة كلام البشر، المشحون بفنون الحكم والأحكام الباهرة، الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة. ومن أين اشتبه عليهم الشؤون، واختلط بهم الظنون، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

وفي الآية إشارة إلى أن النبي ﷺ معلم من عند الله تعالى؛ لأنه سبحانه علمه علوم الأولين والآخرين، وما علمه الشعر؛ لأن الشعر قرآن إبليس وكلامه؛ لأنه قال: رب اجعل لي قرآناً، قال تعالى قرأنك الشعر. واعلم: أن الشعر محل للإجمال واللغز والتورية؛ أي: وما رمزنا لمحمد ﷺ شيئاً، ولا ألغزنا، ولا خاطبناه بشيءٍ، ونحن نريد شيئاً، ولا أجملنا له الخطاب، حيث لم يفهم، انتهى.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ إلى أن كل أقوال، وأعمال، وأحوال تجري على العباد في الظاهر والباطن، كلها تجري بتعليم الحق تعالى، حتى الحرف والصنائع. وذلك سر قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾. وتعليمه الصنائع لعباده على ضربين: بواسطة وبغير واسطة. وأما بالواسطة: فبتعليم بعضهم بعضاً، وأما بغير الواسطة، فكما علم داود عليه السلام، صنعة اللبوس. وكل حرفة وصنعة يعلمها الإنسان، من قريحته، بغير تعليم أحد، فهي من هذا القبيل، انتهى.

ومعنى قوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾؛ أي: وما يصح لمحمد الشعر، ولا يتسهل ولا يتسخر، ولا يتأتى له لو طلبه؛ أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر، لم يتأت له، ولم يكن لسانه يجري به إلا منكسراً عن وزنه، بتقديم وتأخير أو نحو ذلك، كما جعلناه أمياً لا يهتدي للخط، ولا يحسنه، ولا يحسن قراءة ما كتبه غيره، لتكون الحجة أثبت، وشبهة المرتابين في حقية رسالته أدحض. فإنه لو كان

شاعراً لدخلت الشبهة على كثير من الناس، في أن ما جاء به بقوله من عند نفسه؛ لأنه شاعر صناعته نظم الكلام.

﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾؛ أي: إلا تذكير، وعظة، وإرشاد من الله سبحانه وتعالى، للإنس والجن. كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾. ﴿وَقُرْءَانٌ﴾؛ أي: كتاب سماوي، جامع للأحكام ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: بين كونه كذلك، وأنه ليس من كلام البشر، أو فارق بين الحق والباطل، يُقرأ في المحاريب، ويُتلى في المعابد، ويُنال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين. فكم بينه وبين ما قالوا. فعطف[1] القرآن على الذكر من عطف الشيء على أحد أوصافه. فإن القرآن ليس مجرد الوعظ، بل هو مشتمل على المواعظ والأحكام ونحوها، فلا تكرار.

﴿لِّيُنذِرَ﴾؛ أي: القرآن أو محمد ﷺ، كما يدل عليه قراءة من قرأ بتاء الخطاب. وهو متعلق بقوله: ﴿وَقُرْءَانٌ﴾ أو بمحذوف دل عليه قوله: ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: إلا ذكر أُنزل لينذر، ويخوف القرآن أو محمد به ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ من الثقلين؛ أي: عاقلاً فهيماً يميز المصلحة من المفسدة، ويستخدم قلبه فيما خُلق له، ولا يضيعه فيما لا يعنيه. فإن الغافل بمنزلة الميت. وجعل العقل والفهم للقلب، بمنزلة الحياة للبدن، من حيث إن منافع القلب منوطة بالعقل، كما أن منافع البدن منوطة بالحياة.

وفيه إشارة، إلى أن كل قلب، تكون حياته بنور الله وروح منه، يفيده الإنذار، ويتأثر به. وأمارة تأثره الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الآخرة والمولى. وقال بعضهم: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾؛ أي: مؤمناً في علم الله. فإن الحياة الأبدية بالإيمان، يعني: أن إيمان من كان مؤمناً في علم الله، بمنزلة الحياة للبدن. لكونه سبباً للحياة الأبدية.

وتخصيص الإنذار بمن كان حي القلب، مع أنه عام له، ولمن كان ميت

---

(١) روح البيان.

القلب؛ لأنه المنتفع به. ثم الإنذار صفة النبي ﷺ في الحقيقة. وقرأ[1] نافع، وابن عامر ﴿لتنذر﴾ بتاء الخطاب للرسول ﷺ. وقرأ باقي السبعة: بياء الغيبة، فاحتمل أن يعود على الرسول، واحتمل أن يعود على القرآن.

والمعنى[2]: أي وما القرآن إلا مواعظ من ربنا، يُرشد بها عباده إلى ما فيه نفعهم وهدايتهم في معاشهم ومعادهم، نزل من الملأ الأعلى وليس من كلام البشر. فقد تحدى المخالفين أن يأتوا بمثله؛ فما استطاعوا، فلجؤوا إلى السيف والسنان، وتركوا المقاولة بالحجة والبرهان. ثم ذكر من ينتفع به فقال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾؛ أي: لينتفع بنذارته من كان حي القلب، مستنير البصيرة، يعرف مواقع الهدى والرشاد، فيسترشد بهديه، وليس له من صوارف الهوى ما يصده عن اتباع الحق، ولا من نوازع الاستكبار والإعراض، ما يكون حائلاً بينه وبين الهدى. فهو يتواثب على الإقرار بالحق، إذا لاح له بريق من نوره، فتمتلىء جوانبه إشراقاً وضياءً، ويخر له مذعناً مستسلماً. وكأن طائفاً من السماء نزل عليه فأثلج صدره، وألان قلبه، فاطمأن له وركن إليه. وذلك من رزقه الله التوفيق والهداية، وكتب له الفوز والسعادة.

وبعدئذٍ بيَّن عاقبة من أعرض عنه، فقال: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: ويجب القضاء من الله تعالى، وتجب كلمة العذاب. وهي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: على المصرين على الكفر به تعالى، الذين هم كأنهم أموات، لخلوهم من النفوس الحساسة اليقظة، التي دأبها اتباع الحق ومخالفة الهوى؛ لأنه إذا انتفت الريبة إلا المعاندة فيحق القول عليهم. وفي إيرادهم في مقابلة ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ إشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة، وأحكامها، التي هي المعرفة، أموات في الحقيقة، كالجنين ما لم ينفخ فيه الروح. فالمعرفة تؤدي إلى الإيمان والإسلام والإحسان التي لا يموت أهلها، بل ينتقل من مكان إلى مكان.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ للاستفهام التقريري للتعجيب خلافاً لما قاله

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

بعضهم هنا، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والواو عاطفة على ذلك المقدر، والضمير للمشركين من أهل مكة، والتقدير: ألم يتفكر أهل مكة ولم يعلموا علماً يقينياً هو في حكم المعاينة؛ أي: قد رأوا وعلموا (أنا) نحن بمقتضى جودنا وكرمنا ﴿خَلَقْنَا﴾ وأوجدنا ﴿لَهُم﴾؛ أي: لأجلهم وانتفاعهم ﴿مما عملت﴾ه ﴿أَيْدِينَآ﴾؛ أي: مما تولينا إحداثه بيدنا، لم يشاركنا فيه غيرنا، بمعاونة وتسبب؛ أي: مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا شركة. وإسناد العمل إلى الأيدي مبالغة في الاختصاص والتفرد بالخلق، كما يقول الواحد منا: عملته بيدي للدلالة على تفرده بعمله. وقال في «الأسئلة المقحمة»: الأيدي هنا صلة، وهو كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، ومذهب العرب الكناية باليد، والوجه عن الجملة، انتهى. والجمع في الأيدي للتعظيم، كأنه قال: مما عملته يدنا. واليد صفة ثابتة لله سبحانه وتعالى، نثبته ونعتقده، لا نمثله ولا نكيفه. و﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الذي، وحذف العائد لطول الصلة. ويجوز أن تكون مصدرية. ﴿أَنْعَٰمًا﴾ مفعول ﴿خَلَقْنَا﴾، أخّره جمعاً بينه وبين أحكامه، المتفرعة عليه بقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا﴾ إلخ. جمع نعم. وهي الماشية الراعية. وهي: الإبل والبقر والغنم؛ أي: الضأن والمعز مما في سيره نعومة؛ أي: لين، ولا يدخل فهيا الخيل، والبغال، والحمر لشدة وطئها الأرض. وخُص بالذكر من بين سائر ما خلق الله من المعادن، والنبات، والحيوان غير الأنعام لما فيها من بدائع الفطرة، كما في الإبل، وكثرة المنافع كما في البقر والغنم.

والفاء في قوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ للتفريع، و(الفاء) التفريعية هي التي كان ما قبلها علة لما بعدها، عكس التعليلية، أي: فلأجل خلقنا إياها لمنافعهم، هم لتلك الأنعام مالكون ملك التصرف بتمليكنا إياهم، وهم متصرفون فيها بالاستقلال، يختصون بالانتفاع بها، لا يزاحمهم في ذلك غيرهم.

ومعنى الآية[1]: أي أولم يشاهد هؤلاء المشركون بالله الأصنام والأوثان أنا

---

(١) المراغي.

خلقنا لهم بقدرتنا وإرادتنا بلا معين ولا ظهير أنعاماً من الإبل والبقر والغنم، يصرفونها كما شاؤوا بالقهر والغلبة. فهي ذليلة منقادة لهم. فالجارية الصغيرة إن شاءت أناخت البازل الكبير، وإن شاءت ساقته وصرفته كما تريد. قال العباس بن مرداس:

وَتَضْرِبُهُ ٱلْوَلِيْدَةُ بِٱلْهَرَاوِيْ فَلاَ غَيْرٌ لَدَيْهِ وَلاَ نَكِيْرُ

ثم ذكر منافعها، فقال: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا﴾؛ أي[1]: وصيرنا تلك الأنعام ذليلة منقادة ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المشركين وغيرهم، بحيث لا تستعصي عليهم في شيء مما يريدون بها، من الركوب والسوق إلى ما شاؤوا، والذبح مع كمال قوتها وقدرتها. فهو نعمة من النعم الظاهرة، ولهذا ألزم الله الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبح بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ لتفريع أحكام التذليل عليه، و﴿مِنْ﴾ تبعيضية، والركوب - بفتح الراء - بمعنى: المركوب كالحلوب بمعنى: المحلوب؛ أي: فلأجل تذليلنا إياها لهم، كان بعض منها مركوبهم؛ أي: معظم منافعها الركوب، وقطع المسافات، وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمات الركوب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿رَكُوبُهُمْ﴾ بفتح الراء، وهو فعول بمعنى مفعول. وقرأ أبي، وعائشة ﴿ركوبتهم﴾ بالتاء، وهي فعولة بمعنى: مفعولة. والركوب والركوبة واحد، مثل الحلوب والحلوبة، والحمول والحمولة. وقال أبو عبيدة: الركوبة للواحد والجماعة، والركوب لا يكون إلا للجماعة. وقرأ الحسن، والأعمش، وابن السميفع، وأبو الرهسم: ﴿فمنها رُكوبهم﴾ بضم الراء وبغير تاء، فيقدّر مضاف؛ أي: فمنها ذو ركوبهم، أو فمن منافعها ركوبهم. وزعم أبو حاتم: أنه لا يجوز ﴿فمنها رُكوبهم﴾ بضم الراء؛ لأنه مصدر بمعنى: كون الإنسان على ظهر حيوان أو غيره، والمقصود هنا: المركوب. وأجاز ذلك الفرّاء، كما يقال: فمنها أكلهم، ومنها شربهم.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾؛ أي: وبعض منها يأكلون لحمه وشحمه، كالغنم يعني: لا تصلح للركوب، بل للأكل فقط. وليس المراد: أن المركوبة منها كالإبل، لا تؤكل فإنها كما تركب تؤكل.

والمعنى: أي وسخرنا لهم هذه الأنعام، فمنها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليها الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار، ومنها: ما ينحرون فيأكلون لحومها وينتفعون بدهنها.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الأنعام المركوبة والمأكولة ﴿مَنَافِعُ﴾ أخر غير الركوب والأكل كالجلود، والأصواف، والأوبار، والأشعار، والنسائل؛ أي: النتائج، والحراثة بالثيران. وأجمل المنافع هنا، وفصلها في سورة النحل في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الآية، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللبن، جمع مشروب، جمعه باعتبار أنواع النعم، أو باعتبار هيآت اللبن؛ لأن منه الحليب، والحامض، والخاثر، والجبن، والأقط، والزبد، والسمن.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: أيشاهدون هذه النعم التي يتنعمون بها، فلا يشكرون المنعم بها، بأن يوحدوه، ولا يشركوا به في العبادة، فقد تولى المنعم إحداث تلك النعم، ليكون إحداثها ذريعة إلى أن يشكروها، فجعلوها وسيلة إلى الكفران.

والمعنى: أي ولهم فيها منافع أخرى، غير الركوب والأكل منها، كالجلود والأصواف والأوبار والأشعار والحراثة وإدارة المنجنون (الساقية)، ولهم منها مشارب من ألبانها. ثم حثهم على الشكر على هذه النعم وتوحيد صانعها، فقال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمتي عليهم، وإحساني إليهم بطاعتي، وإفرادي بالألوهية والعبادة، وترك وساوس الشيطان بعبادة الأصنام، والأوثان.

ثم ذكر سبحانه جهلهم واغترارهم، ووضعهم كفران النعمة مكان شكرها. فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾؛ أي: واتخذ هؤلاء المشركون مع هذه الوجوه من الإحسان ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين الله، المتفرد بالقدرة المتفضل بالنعمة

﴿ءَالِهَةً﴾؛ أي: معبودات من الأصنام، وأشركوها به تعالى في العبادة ﴿لَّعَلَّهُمْ﴾؛ أي: لعل المشركين ﴿يُنصَرُونَ﴾؛ أي: رجاء أن ينصروا من جهة آلهتهم، فيما أصابهم من الأمور، أو ليشفعوا لهم في الآخرة.

وجملة قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ مستأنفة، مسوقة لبيان بطلان ما رجوه منها، وأملوه من نفعها. وجمعهم بالواو والنون جمع العقلاء، بناء على زعم المشركين أنهم ينفعون ويضرون ويعقلون؛ أي: لا تستطيع تلك الآلهة على نصر المشركين، ولا تقدر على نفعهم في أمر ما. ﴿وَهُمْ﴾ المشركون ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لآلهتهم ﴿جُندٌ﴾؛ أي: عسكر ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ إثرهم في النار؛ أي: يشيعون عند مساقهم إلى النار، ليجعلوا وقوداً لها. قال الكواشي: روي: أنه يؤتى بكل معبود من دون الله، ومعه أتباعه كأنهم جنده فيحضرون في النار، هذا لمن أمر بعبادة نفسه، أو كان جماداً، انتهى.

وقيل المعنى: ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المشركون لآلهتهم بمنزلة الجند، فهم قائمون بين أيديهم كالعبيد، ويخدمونها، ويغضبون لها في الدنيا. قال الحسن: يمنعون منهم، ويدفعون عنهم. وقال الزجاج: ينتصرون للأصنام، وهي لا تستطيع نصرهم. وقيل المعنى: يعبدون الآلهة، ويقومون بها. فهم لهم بمنزلة الجند. هذه[1] الأقوال على جعل ضميرهم للمشركين، وضمير ﴿لَهُمْ﴾ للآلهة. وقيل: و﴿هُمْ﴾؛ أي: الآلهة ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للمشركين جند محضرون معهم في النار، ليكونوا وقوداً لهم، فلا يدفع بعضهم عن بعض. وقيل: معناه: وهذه الأصنام لهؤلاء المشركين، جند الله عليهم في جهنم؛ لأنهم يلعنونهم، ويتبرؤون منهم. وقيل المعنى: إن الكفار يعتقدون أن الأصنام جند لهم، يحضرون يوم القيامة لإعانتهم.

والمعنى[2]: أي واتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة، يعبدونهم طمعاً في نصرتهم، ودفع العذاب عنهم، وتقريبهم إلى الله زلفى. ثم بيّن بطلان آرائهم،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وخيبة رجائهم، وانعكاس تدبيرهم. فقال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إلخ؛ أي: لا تقدر هذه الآلهة على نصر عابديها. فهي أضعف من ذلك، وأحقر، ولا تقدر على الاستنصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء؛ لأنها جماد لا تسمع، ولا تعقل. ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ﴾؛ أي: والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهم لا يسوقون إليهم خيراً ولا يدفعون عنهم ضراً.

والخلاصة: أنّ العابدين وهم المشركون، كالجند لحمايتهم والذب عنهم في الدنيا، والمعبودون يوم القيامة، لا يستطيعون أن يقدموا لهم معونة، ولا يدفعون عنهم مضرة.

ثم سلّى رسوله على ما يلقاه من قومه من الأذى، بنحو قولهم: هو شاعر، وهو كاهن، وهو ساحر إلى نحو ذلك، من مقالاتهم التي كانوا يجابهون بها الرسول إرادة تحقيره وإهانته. فقال: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ والفاء: فيه فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا سمعت قولهم في الله: أن له شريكاً وولداً، وفيك: إنك كاذب شاعر، وتألمت من إيذائهم وجفائهم وأردت بيان ما هو الأصلح لك، والأكثر أجراً.. فأقول لك: لا يحزنك قولهم؛ أي: لا يهمنك قولهم في الله بالإلحاد والشرك، وفيك بالتكذيب والتهجين، وتسل بإحاطة علمي بجميع أحوالهم. فـ ﴿إنا نعلم ما يسرون﴾؛ أي: جميع ما يضمرون في صدورهم من العقائد الفاسدة، ومن العداوة لك، والبغضاء ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: وجميع ما يظهرون بألسنتهم من كلمات الشرك، والكفر بالله، والإنكار للرسالة. فنجازيهم على جميع جناياتهم الخافية والبادية.

قال ابن الشيخ[1]: والفاء في قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ جزائية؛ أي: إذا سمعت قولهم في الله: أن له شريكاً وولداً، وفيك: أنك كاذب شاعر، وتألمت من إيذائهم وجفائهم، فتسل بإحاطة علمي بجميع أحوالهم، وبأني أجازيهم على تكذيبهم إياك وإشراكهم بي. وقرأ الجمهور: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ بفتح الياء وضم

(١) روح البيان.

الزاي، وهي لغة قريش. وقرأ نافع: بضم الياء وكسر الزاي. وهي لغة بني تميم. وهما لغتان، يقال: حزنه وأحزنه.

والمعنى[1]: أي فلا يحزنك أيها الرسول، قول هؤلاء المشركين من قومك: إنك شاعر، وما جئتنا به شعر، ولا تكذيبهم بآيات الله وجحودهم نبوتك. ثم ذكر أنه، سيجازيهم على ما يضمرون في أنفسهم، ويتفوهون بألسنتهم. فقال: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: إنا نعلم أن الذي يدعوهم إلى قول ذلك، إنما هو الحسد، وأنهم يعقدون أن الذي جئتهم به ليس بشعر، ولا يشبه الشعر، وأنك لست بكذاب.

والخلاصة: أنّا نعلم ما يسرون من معرفتهم، حقيقة ما تدعوهم إليه، وما يعلنون من جحود ذلك بألسنتهم علانية، وسنجزيهم وصفهم، ونعاملهم بما يستحقون، يوم يجدون جليل أعمالهم وحقيرها حاضراً لديهم. وجملة قوله: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تعليل لما قبله من النهي عن الحزن. فإن علمه سبحانه بما يسرون وما يعلنون، مستلزم للمجازاة لهم بذلك، وأن جميع ما صدر منهم، لا يعزب عنه، سواء كان خافياً أو بادياً سراً أو جهراً مظهراً أو مضمراً وتقديم[2] السر على العلن، إما للمبالغة في بيان شمول علمه تعالى، لجميع المعلومات، كأن علمه تعالى، بما يسرون، أقدم منه بما يعلنون، مع استوائهما في الحقيقة. فإن علمه تعالى، بمعلوماته، ليس بطريق حصول صورها، بل وجود كل شيء في نفسه عُلم بالنسبة إليه تعالى. وفي هذا المعنى، لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة. وإما لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن، إذ ما من شيء يُعلن إلا وهو. أو مبادية مضمر في القلب قبل ذلك، فتعلق علمه بحالته الأولى، متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقةً.

وفي الآية: إشارة إلى أن كلام الأعداء، الصادر من العداوة والحسد، جدير بأن يُحزن قلوب الأنبياء، مع كمال قوتهم، وأنهم ومتابعيهم مأمورون بعدم

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الالتفات، وتطييب القلوب في مقاساة الشدائد في الله، بأن لها ثمرات كريمة عند الله تعالى. وإذا علم العبد، أن ألمه آت من الحق، هان عليه ما يقاسه، لا سيما إذا كان في الله، كما في «التأويلات النجمية». قال بعضهم: ليخفف ألم البلاء، علمك بأن الله هو المبتلي.

قال في «برهان القرآن» قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ﴾ هنا، وفي يونس: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ تشابها[1] في الوقف على لفظة ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في السورتين؛ لأن الوقف عليه لازم. و﴿إِنَّ﴾ فيهما مكسورة في الابتداء لا في الحكاية، ومحكي القول فيهما محذوف. ولا يجوز الوصل؛ لأن النبي ﷺ منزه عن أن يخاطب بذلك، انتهى.

وجملة قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مستأنفة[2] مسوقة لبيان إقامة الحجة، على من أنكر البعث، وللتعجيب من جهله. فإن مشاهدة خلقهم في أنفسهم، على هذه الصفة من البداية إلى النهاية.. مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم، على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام، وردها كما كانت، والإنسان المذكور في الآية، المراد به جنس الإنسان، كما في قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ ولا وجه لتخصيصه بإنسان معين، كما قيل: إنه عبد الله بن أبي، وأنه قيل له ذلك لما أنكر البعث. وقال الحسن: هو أمية بن خلف. وقال سعيد بن جبير: هو العاص بن وائل السهمي. وقال قتادة، ومجاهد: هو أبي بن خلف الجمحي، فإن أحد هؤلاء وإن كان سبباً للنزول، فمعنى الآية: خطاب الإنسان من حيث هو لا إنسان معين، ويدخل من كان سبباً للنزول تحت جنس الإنسان دخولاً أولياً. والنطفة هي اليسير من الماء. وقيل: هي الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ للاستفهام التقريري المضمن للتعجب، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والواو: عاطفة على ذلك المقدر، والرؤية قلبية،

---

(١) برهان القرآن.
(٢) الشوكاني.

والتقدير: ألم يتفكر الإنسان، المنكر للبعث، أياً كان، ولم يعلم علماً يقينياً، أنا خلقناه من نطفة. وفي «الإرشاد»: وإيراد الإنسان موضع المضمر؛ لأن مدار الاستفهام متعلق بأحواله، من حيث هو إنسان، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾.

﴿فَإِذَا هُوَ﴾؛ أي: الإنسان ﴿خَصِيمٌ﴾؛ أي: شديد الخصومة والجدال بالباطل. ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: مظهر الجدال في خصومته أو مظهر للحجة. والجملة الاسمية[1] معطوفة على الجملة المنفية، داخلة في حيز الاستفهام والتعجيب كأنه قيل: أولم ير أنا خلقناه من أخس الأشياء، وأمهنها ففاجأ خصومتنا في أمر، يشهد بصحته، وتحققه مبدأ فطرته شهادةً بينة. فهذا حال الإنسان الجاهل الغافل. ونعم ما قيل:

أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
أُعَلِّمُهُ الْقَوَافِيَ كُلَّ حِينٍ فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

وما قيل:

لَقَدْ رَبَّيْتُ جَرْواً طُولَ عُمْرِي فَلَمَّا صَارَ كَلْباً عَضَّ رِجْلِي

قال السمرقندي: العامل في ﴿إذا﴾ المفاجأة معنى المفاجأة، وهو عامل لا يظهر، استغني عن إظهاره بقوة ما فيها من الدلالة، عليه، ولا يقع بعدها إلا الجملة المركبة من المبتدأ والخبر. وهو في المعنى فاعل؛ لأن معنى ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: فاجأه خصومة بينة، كما أن معنى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فاجأهم قنوطهم أو مفعول؛ أي: فاجأ الخصومة، وفاجؤوا القنوط. يعني: خاصم خالقه مخاصمة ظاهرةً، وقنطوا من الرحمة.

والمعنى[2]: أي أو لا يستدل من أنكر البعث بسهولة المبدأ، على سهولة الإعادة. فإن من بدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، ثم جعله بشراً سوياً يخاصم ربه، فيما قال إني فاعل، فيقول: من يحيي العظام وهي رميم إنكاراً منه

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

لقدرته على إحيائها، قادر على إعادته بعد موته وحسابه وجزائه على أعماله.

والخلاصة: أنه تعالى خلق للإنسان ما خلق من النعم ليشكر، فكفر وجحد المنعم والنعم. وخلقه من نطفة قذرة، ليكون متذللاً فطغى وبغى وتجبر وخاصم ربه، واستبعد البعث والإعادة.

وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ معطوف[1] على الجملة الفجائية؛ أي: ففاجأ خصومتنا وضرب لنا مثلاً؛ أي: أورد في شأننا قصة عجيبة في نفس الأمر. وهي في الغرابة والبعد عن العقول كالمثل، وهي إنكار إحيائنا العظام ونفي قدرتنا عليه. قال ابن الشيخ: المثل يستعار للأمر العجيب تشبيهاً له في الغرابة بالمثل العرفي، الذي هو القول السائر، ولا شك أن نفي قدرة الله سبحانه على البعث، مع أنه من جملة الممكنات، وأنه تعالى على كل شيء قدير، من أعجب العجائب. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ عطف على ﴿ضرب﴾، داخل في حيز الاستفهام والتعجيب أو حال بتقدير ﴿قد﴾. وهو مضاف إلى المفعول؛ أي: نسي خلقنا إياه من النطفة القذرة؛ أي: ترك التفكر في بدء خلقه ليدله ذلك على قدرته على البعث. فإنه لا فرق بينهما من حيث إن كلاً منهما إحياء مواتٍ وجماد. وقرأ زيد بن علي ﴿ونسي خالقه﴾ اسم فاعل، والجمهور ﴿خَلْقَهُۥ﴾؛ أي: نشأته، مصدراً.

وقوله: ﴿قَالَ﴾؛ أي: الإنسان، كلام مستأنف، واقع في جواب سؤال مقدر، نشأ عن حكاية ضرب المثل، كأنه قيل: أي مثل ضرب أو ماذا قال؟ فقيل: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ منكراً له أشد النكير، مؤكداً له بقوله: ﴿وَهِىَ رَمِيمٌ﴾؛ أي: بالية أشد البلى بعيدة من الحياة غاية البعد حيث لا جلد عليها، ولا لحم، ولا عروق، ولا أعصاب.

وهذا[2] الاستفهام للإنكار؛ لأنه قاس قدرة الله سبحانه على قدرة العبد فأنكر أن الله تعالى، يحيي العظام البالية، حيث لم يكن ذلك في مقدور البشر،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

وعدم تأنيث الرميم، مع وقوعه خبراً للمؤنثة، حيث لم يقل: وهي رميمة، لأنه اسم لما بلي من العظام، غير صفة كالرفات والرمة. والأولى: أن يقال: إنه فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث، كما قيل في جريح وقتيل.

ومعنى الآية: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾؛ أي: وذكر أمراً عجيباً ينفي به قدرتنا على إحياء الخلق، فـ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ ونسي خلقنا له، أفلم يكن نطفة فجعلناه خلقاً سوياً ناطقاً. ولا شك أن من فعل ذلك، لا يعجزه أن يعيد الأموات أحياءً، والعظام الرميم بشراً كهيئتهم التي كانوا عليها قبل الفناء.

وإجمال ذلك: أن بعض المشركين استبعدوا إعادة الله، ذي القدرة العظيمة، التي خلقت السموات والأرض، للأجساد والعظام الرميم، ونسوا أنفسهم، وأنه تعالى خلقهم من العدم، فكيف هم بعد هذا، يستبعدون أو يجحدون.

ونحو الآية، حكايةً عن المشركين قوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾، وقوله أيضاً، على طريق الحكاية: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

ثم أمر الله سبحانه، نبيه ﷺ، أن يجيبهم عن استبعادهم ويبكتهم بتذكيرهم بما نسوه من حقيقة أمرهم، وخلقهم من العدم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، تبكيتاً لذلك الإنسان، المنكر للبعث، بتذكير ما نسيه من الفطرة، الدالة على حقيقة الحال. ﴿يُحْيِيهَا﴾؛ أي: يحيي تلك العظام الخالق ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾؛ أي: خلقها وأوجدها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: في أول مرة ولم تكن شيئاً، ومن قدر على النشأة الأولى، قدر على النشأة الثانية. فإن قدرته كما هي لاستحالة التغير فيها، والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها. وهو من النصوص القاطعة، الناطقة بحشر الأجساد، استدلالاً بالابتداء على الإعادة. وفيه رد على من لم يقل به، وتكذيب له.

﴿وَهُوَ﴾؛ أي: الله المنشىء سبحانه ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾؛ أي: مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، ولا يخرج عن علمه خارج كائناً ما كان، يعلم تفاصيل المخلوقات بعلمه وكيفية خلقها. فيعلم أجزاء الأشخاص المتفتتة المتفرقة في المشارق والمغارب، والتي بعضها في أبدان السباع، وبعضها في جدران الرباع، أصولها وفروعها وأوضاع بعضها من بعض، من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق، فيعيد كلاً من ذلك، على النمط السابق، مع القوى التي كانت قبل.

وقد استدل أبو حنيفة[١]، وبعض أصحاب الشافعي، بهذه الآية، على أن العظام، مما تحله الحياة. وقال الشافعي: لا تحله الحياة، وأن المراد بقوله: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾؛ أي: من يحيي أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف، ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر.

وعبارة الروح هنا: وقد تمسك[٢] بظاهر الآية الكريمة من أثبت للعظم حياة، وبنى عليه الحكم بنجاسة عظم الميت. وهو الشافعي، ومالك، وأحمد. وأما أصحابنا الحنفية، فلا يقولون بنجاسته كالشعر، ويقولون: المراد بإحياء العظام: ردها إلى ما كانت عليه من الغضاضة والرطوبة في بدن حي حساس. واختلفوا في الآدمي هل يتنجس بالموت؟. فقال أبو حنيفة: يتنجس؛ لأنه دموي، إلا أنه يطهر بالغسل كرامة له، وتكره الصلاة عليه في المسجد. وقال الشافعي، وأحمد: لا يتنجس به، ولا تكره الصلاة عليه فيه. وعن مالك خلاف، والأظهر عنه: الطهارة، وأما الصلاة عليه في المسجد فالمشهور من مذهبه كراهتها، كقول أبي حنيفة، انتهى. انظر ما بين عبارة الشوكاني، وعبارة البروسوي من التناقض فيما قاله الشافعي. والصواب ما في البروسوي.

والمعنى[٣]: أي قل أيها الرسول لهذا المشرك القائل لك: من يحيي العظام وهي رميم: يحييها الذي ابتدع خلقها أول مرة ولم تكن شيئاً، وهو العليم

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

بالعظام، وأين تفرقت في سائر أقطار الأرض، وأين ذهبت؟، لا يخفى عليه شيء من أمر خلقه، فهو يعيده على النمط السابق والأوضاع التي كان عليها مع قواه السالفة.

ثم ذكر دليلاً ثانياً يرفع استبعادهم، ويبطل إنكارهم. فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وخلق ﴿لَكُم﴾؛ أي: لمنفعتكم ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾؛ أي: الرطب ﴿نَارًا﴾ محرقة، بدل من الموصول الأول، وعدم الاكتفاء بعطف الصلة للتأكيد، ولتفاوتهما في كيفية الدلالة؛ أي: الذي خلق لأجلكم ومنفعتكم من الشجر الرطب الندي، كالمرخ والعفار ناراً محرقة. فنبه[1] سبحانه، على وحدانيته، ودل على قدرته على إحياء الموات بما يشاهدونه، من إخراج النار المحرقة، من العود الندي الرطب. وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ، والشجر المعروف بالعفار، إذا قُطع عودان وضُرب أحدهما على الآخر، انقدحت منهما النار، وهما أخضران. قيل: المرخ هو الذكر، والعفار هو الأنثى. ويسمى الأول الزند، والثاني الزندة. والمرخ[2] بالخاء المعجمة: شجر سريع الورى. والعفار بالعين المهملة كسحاب: شجر معروف تقدح منه النار. قال الحكماء: لكل شجر نار إلا العناب. فمن ذلك يدق القصار الثوب عليه، ويُتخذ منه المطرقة، والعرب تتخذ زنودها من المرخ والعفار، وهما موجودان في أغلب المواضع من بوادي العرب، يقطع الرجل منهما غصنين كالمسواكين، وهما أخضران يقطر منهما الماء، فيُسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتنقدح النار بإذن الله تعالى. وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم﴾ أيها المشركون ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من الشجر الأخضر، متعلق بـ﴿تُوقِدُونَ﴾. و﴿إذا﴾ للمفاجأة؛ أي: تشتعلون النار وتقدحونها من ذلك الشجر، لا تشكون في أنها نار تخرج منه، كذلك لا تشكون في أن الله يحيي الموتى، ويخرجهم من القبور للسؤال والجزاء من الثواب والعقاب. فإن من قدر على إحداث النار، وإخراجها من الشجر الأخضر، مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفية، كان أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً فطرأ عليه اليبوسة

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

والبلى. وعُلم منه أن الله تعالى، جامع الأضداد، ألا ترى: أنه جمع الماء والنار في الشجر، فلا الماء يطفىء النار، ولا النار تحرق الشجر.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْأَخْضَرِ﴾ اعتباراً باللفظ. وقرىء ﴿الخضراء﴾ اعتباراً بالمعنى. وقد تقرر، أنه يجوز تذكير اسم الجنس وتأنيثه كما في قوله تعالى: ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وقوله: ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. فبنو تميم ونجد يذكرونه، وأهل الحجاز يؤنثونه إلا نادراً.

والمعنى[1]: أي وهو الذي بدأ خلق الشجر من ماء، حتى صار أخضر ناضراً، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار، ومن فعل ذلك، فهو قادر على ما يريد، لا يمنعه شيء. إذ من أحدث النار في الشجر الأخضر على ما فيه من المائية المضادة للاحتراق، فهو أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً، فيبس وبلي.

ثم ذكر بعد ذلك بدليل ثالث على قدرته، أعجب من سابقيه، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ﴾ الهمزة[2] فيه للإنكار، وإنكار النفي إيجاب، فصار الاستفهام تقريرياً، كما هو القاعدة عندهم، خلافاً لمن تغافل عنها، فجعل الاستفهام في أمثال هذه المواضع إنكارياً. داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والواو عاطفة على ذلك المقدر. فهمزة الاستفهام، وإن دخلت على حرف العطف ظاهراً، لكنها في التحقيق، داخلة على كلمة النفي قصداً، إلى إثبات القدرة له وتقريرها.

والمعنى: أليس القادر المقتدر، الذي أنشأ الأناسي أول مرة، وأليس الذي جعل لهم من الشجر الأخضر ناراً، وأليس ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: الأجرام العلوية وما فيها ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: الأجرام السفلية وما عليها مع كبر جرمهما وعظيم شأنهما ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ في تقدير النصب؛ لأنه خبر ليس؛ أي: قادراً ﴿عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ﴾ في الآخرة ﴿مِثْلَهُم﴾؛ أي: مثل الأناسي في الصغر والحقارة بالنسبة إليهما، ويعيدهم أحياءً كما كانوا. فإن بديهة العقل قاضية بأن من قدر على

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

خلقهما فهو على خلق الأناسي أقدر، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾. أو مثلهم في أصول الذات وصفاتها، وهو المعاد، فإن المعاد مثل الأول في الاشتمال على الأجزاء الأصلية والصفات المشخصة، وإن غايره في بعض العوارض؛ لأن أهل الجنة جرد مرد، وإن الجهنمي ضرسه مثل أحد وغير ذلك. وقال بعضهم: لفظ ﴿مثل﴾ في قوله: ﴿مِثْلَهُمْ﴾ مقحم كقولك مثل يجود؛ أي: على أن يخلقهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ بباء الجر، داخلة على اسم الفاعل. وقرأ الجحدري، وابن أبي إسحاق، والأعرج، وسلام بن المنذر، وأبو يعقوب الحضرمي ﴿يقدر﴾ فعلاً مضارعاً.

وقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ جواب من جهته تعالى، وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكاري من تقرير ما بعد النفي، وإيذان بتعين الجواب بهذا نطقوا به، أو تلعثموا فيه مخافة الإلزام. قال ابن الشيخ: هي مختصة بإيجاب النفي المتقدم ونقضه، فهي هٰهنا لنقض النفي الذي بعد الاستفهام؛ أي: بلى إنه قادر، كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾؛ أي: بلى أنت ربنا.

وقوله: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ معطوف على ما يفيده الإيجاب؛ أي: بلى وهو قادر على أن يخلق مثلهم، وهو المبالغ في الخلق والعلم كماً وكيفاً، على أكمل وجه وأتمه. وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ بصيغة المبالغة لكثرة مخلوقاته. وقرأ الحسن، والجحدري، ومالك بن دينار، وزيد بن علي ﴿وهو الخالق﴾ بصيغة اسم الفاعل. وقال بعضهم معنى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ العليم؛ أي: كثير المخلوقات والمعلومات، يخلق خلقاً بعد خلق، ويعلم جميع الخلق.

وذكر البرهان الرشيدي: أن صفات الله تعالى، التي على صيغة المبالغة كلها مجاز؛ لأنها موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها؛ لأن المبالغة أن يثبت للشيء أكثر مما له، وصفاته تعالى متناهية في الكمال، لا يمكن المبالغة فيها، وأيضاً

---

(١) البحر المحيط.

فالمبالغة تكون في صفات تفيد الزيادة والنقصان، وصفات الله منزهة عن ذلك. واستحسنه الشيخ تقي الدين السبكي.

وقال الزركشي في «البرهان»: التحقيق: أن صيغة المبالغة قسمان:

أحدهما: ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل.

والثاني: بحسب زيادة المفعولات. ولا شك أن تعددها لا يوجب للفعل زيادة، إذ الفعل الواقع قد يقع على جماعة متعددين. وعلى هذا القسم تنزل صفات الله، وارتفع الإشكال. ولهذا قال بعضهم، في حكيم، معنى المبالغة فيه، تكرار حكمه بالنسبة إلى الشرائع. وقال في «الكشاف»: المبالغة في «التواب» للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده، أو لأنه بليغ في قبول التوبة، ينزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه.

ثم ذكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته، وتيسر المبدأ والإعادة عليه فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾؛ أي: إنما شأنه سبحانه وتعالى: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: إذا تعلقت إرادته بوجود شيء من الأشياء ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الشيء ﴿كُن﴾؛ أي: احدث، واحصل ﴿فَيَكُونُ﴾؛ أي: فيحدث، ويحصل من غير توقف على شيء آخر أصلاً. قرأ الجمهور: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالرفع، بناءً على أنه في تقدير فهو يكون فتعطف الجملة الاسمية على الجملة الاسمية المتقدمة، وهي قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾. وقرأ الكسائي: بالنصب عطفاً على ﴿يَقُولَ﴾.

والمعنى: أي إنما شأنه تعالى في إيجاد الأشياء، أن يقول لما يريد إيجاده: تكوّن فيتكوّن، ويحدث فوراً بلا تأخير، ولا افتقار إلى مزاولة عمل، ولا استعمال آلة.

وبعد أن أثبت لنفسه القدرة التامة، والسلطة العامة، نزّه نفسه عما وصفوه به، وعجّب السامعين مما قالوه. فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ والفاء، فيه: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا تقرر ما يوجب تنزهه تعالى وتنزيهه أكمل إيجاب من الشؤون

المذكورة كالإنشاء والإحياء، وأن إرادته لا تتخلف عن مراده ونحو ذلك، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: نزهوا الإله ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ﴾؛ أي: تحت يده وقبضته ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: ملك كل شيء، وضبطه وتصرفه عما وصفوه تعالى به من العجز، وتعجبوا مما قالوه في شأنه تعالى من النقصان. ونزهوا الذي ﴿إليه﴾ لا إلى غيره. إذ لا مالك سواه على الإطلاق ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تردون بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم. وهو وعد للمقرين، ووعيد للمنكرين؛ لأن الخطاب عام للمؤمنين والكافرين.

وقرأ الجمهور: ﴿مَلَكُوتُ﴾. وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف، وإبراهيم التيمي ﴿ملكة﴾ بزنة شجرة. وقرىء ﴿مملكة﴾ بزنة مفعلة. وقرىء ﴿ملك﴾. والملكوت أبلغ من الجميع. وقرأ الجمهور: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالفوقية على الخطاب مبنياً للمفعول. وقرأ السلمي، وزر بن حبيش، وأصحاب بن مسعود بالتحتية على الغيبة مبنياً للمفعول أيضاً. وقرأ زيد بن علي على البناء للفاعل.

الإعراب

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، ﴿فِى شُغُلٍ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ الثاني، ﴿فَٰكِهُونَ﴾: خبرها الأول. ويجوز العكس. ويجوز أن يتعلق ﴿فِى شُغُلٍ﴾ بـ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أو في محل نصب على الحال. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لبيان أحوال الجنة، وتقريرها، إغاظة للكفار وتقريعاً وزيادة في ندامتهم وحسرتهم. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾: معطوف على هم، ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾: خبر المبتدأ؛ أي: لا تصيبهم الشمس لانعدامها بالكلية. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: متعلق بـ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، و﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، خبر ثان لـ﴿هُمْ﴾. ويجوز أن يكون ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾: حالاً من المبتدأ على رأي سيبويه. والجملة الاسمية مستأنفة، استئنافاً بيانياً، مسوقة لبيان كيفية شغلهم.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿لَهُمْ﴾، خبر مقدم، ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال، من ضمير الغائبين، ﴿فَٰكِهَةٌ﴾: مبتدأ، مؤخر. والجملة مستأنفة. ﴿وَلَهُم﴾: خبر مقدم، و﴿مَّا﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ويجوز أن تكون ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة أو مصدرية، وجملة ﴿يَدَّعُونَ﴾: صلة لـ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد محذوف، تقديره: يدعونه. ﴿سَلَٰمٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو؛ أي: ما يدعون سلام. ﴿قَوْلًا﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف؛ أي: يقال قولاً، وجملة القول المحذوف صفة لسلام. ﴿مِّن رَّبٍّ﴾: صفة لـ﴿قَوْلًا﴾، ﴿رَّحِيمٍ﴾ صفة لـ﴿رَّبٍّ﴾. وجملة ﴿سَلَٰمٌ﴾ مع مبتدئه المحذوف بدل من ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ أو مستأنفة. أو ﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ، خبره جملة القول المحذوف الناصب لـ﴿قَوْلًا﴾، وسوغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء؛ أي: سلام، يقال لهم: قولاً من رب رحيم. وقيل: تقديره: سلام عليكم، حال كونه قولاً من رب رحيم. وقيل: إنه مبتدأ، وخبره ﴿مِّن رَّبٍّ﴾، و﴿قَوْلًا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة، وهو مع عامله معترض بين المبتدأ والخبر.

﴿وَامْتَٰزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَامْتَٰزُوا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿امتازوا﴾: فعل أمر، وفاعل، مبني على حذف النون، ﴿الْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق به. والجملة في محل النصب. مقول لقول محذوف؛ أي: يقول الله لهم امتازوا اليوم؛ أي: انفردوا عن المؤمنين. وجملة القول المحذوف مستأنفة. ﴿أَيُّهَا﴾ ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء، ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة، ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ بدل من؛ أي: على اللفظ. وجملة النداء أيضاً مقول للقول المحذوف. ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، المضمن للتوبيخ والتبكيت ﴿لَمْ﴾: حرف جزم، ﴿أَعْهَدْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بـ﴿لم﴾ والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف؛ أي: يقول الله لهم أيضاً: ألم أعهد إليكم.

و﴿إِلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿أَعۡهَدۡ﴾، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾: منادى مضاف منصوب بالياء. وجملة النداء في محل النصب، مقول للقول المحذوف. ﴿أَن﴾: مفسرة؛ لأنها وقعت بعد جملة، فيها معنى القول دون حروفه، ﴿لَّا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَعۡبُدُواْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مجزوم بلا الناهية، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾: مفعول به. والجملة الفعلية جملة مفسرة، لا محل لها من الإعراب. ويجوز أن تكون ﴿أَن﴾: مصدرية، فتكون هي ومدخولها في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: ألم أعهد إليكم يا بني آدم ترك عبادة الشيطان؛ أي: بترك عبادته. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَكُمۡ﴾ متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾، و﴿عَدُوٌّ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، ﴿مُّبِينٞ﴾ صفة ﴿عَدُوٌّ﴾. وجملة ﴿إِنّ﴾ في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف، على كونها معللة للنهي المذكور قبلها. ﴿وَأَنِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ﴾، ﴿أَن﴾ مفسرة أو مصدرية، ﴿ٱعۡبُدُونِيۚ﴾ فعل أمر، وفاعل، ونون وقاية، ومفعول به، مبني على حذف النون. والجملة إما مفسرة أو في محل جر بحرف جر محذوف؛ أي: بعبادتي. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿صِرَٰطٞ﴾: خبره، ﴿مُّسۡتَقِيمٞ﴾: صفة. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول للقول المحذوف، على كونها معللة لأمر المذكور قبلها.

﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَضَلَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، ﴿مِنكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿أضل﴾، ﴿جِبِلّٗا﴾: مفعول به، ﴿كَثِيرًاۖ﴾: صفة لـ﴿جِبِلّٗا﴾. والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿أَفَلَمۡ﴾ الهمزة فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المقدر، تقديره: أتشاهدون آثار عقوباتهم، فلم تكونوا تعقلون. والجملة المحذوفة جملة استفهامية، لا محل لها من الإعراب. ﴿لَمۡ﴾: حرف جزم، ﴿تَكُونُواْ﴾ فعل مضارع ناقص واسمه مجزوم بـ﴿لَمۡ﴾، وجملة ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ خبره. وجملة ﴿تَكُونُواْ﴾: معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، مسوقة لمجابهتهم المصير الهائل، الذي يصيرون إليه، بعد أن بلغ الغاية في تقريعهم وتوبيخهم. ﴿ٱلَّتِي﴾: صفة لـ﴿جَهَنَّمُ﴾، ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾: من الفعل المغير، ونائب فاعله في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول. ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول، ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: ظرف متعلق به. والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ أيضاً، والباء حرف جر وسبب، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿كُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ خبره. وجملة ﴿كَانَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء؛ أي: بسبب كفركم، ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿نختم﴾، ﴿نَخۡتِمُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود على الله، ﴿عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿نَخۡتِمُ﴾ أيضاً. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَتُكَلِّمُنَآ﴾: الواو عاطفة، ﴿تكلمنا﴾: فعل مضارع، ومفعول به، ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾: فاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿نَخۡتِمُ﴾. ﴿وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تكلمنا﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تشهد﴾، و﴿مَا﴾: مصدرية أو موصولة، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية أو موصولة؛ أي: بكسبهم، أو بالذي يكسبونه.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لَوۡ﴾: حرف شرط، ﴿نَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾. ﴿لَطَمَسۡنَا﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لَوۡ﴾، ﴿طمسنا﴾: فعل، وفاعل، والجملة جواب شرط لـ﴿لو﴾، وجملة ﴿لَوۡ﴾ مستأنفة أو معطوفة على ﴿نَخۡتِمُ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿طمسنا﴾، ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿استبقوا﴾ فعل ماض، وفاعل معطوف على ﴿طمسنا﴾، ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: مفعول به على التوسع؛ لأنه ظرف مكان أو

منصوب بنزع الخافض؛ أي: إلى الصراط، ﴿فَأَنَّىٰ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿أنى﴾: اسم استفهام بمعنى: كيف، في محل نصب على الحال، ﴿يُبْصِرُونَ﴾: فعل، وفاعل معطوف على ﴿استبقوا﴾. والاستفهام هنا معناه النفي؛ أي: لا يبصرون. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط، ﴿نَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر. والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، ﴿مسخناهم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من مفعول ﴿مسخناهم﴾. وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾ الأولى. ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿مسخناهم﴾. ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر، من غير سابك لإصلاح المعنى، معطوف على ﴿مُضِيًّا﴾، والتقدير: فما استطاعوا مضياً ولا رجوعاً.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به مجزوم بمن الشرطية على كونها فعل شرط لمن الشرطية. ﴿نُنَكِّسْهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به مجزوم بمن الشرطية على كونه جواباً لها. وجملة ﴿مَنْ﴾: الشرطية مستأنفة. ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾: متعلق بننكسه، ﴿أَفَلَا﴾ الهمزة فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَعْقِلُونَ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ذلك المقدر، والتقدير: أيرون ذلك التنكيس فلا يعقلون، والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا﴾: الواو استئنافية، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾: فعل، وفاعل ومفعولان. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: الواو عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَنۢبَغِى﴾ فعل مضارع، وفاعل

مستتر يعود على الشعر، ﴿لَهُۥٓ﴾ متعلق بينبغي. والجملة معطوفة على جملة ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ذِكْرٌ﴾: خبر، ﴿وَقُرْءَانٌ﴾: معطوف عليه، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة قرآن. والجملة مستأنفة. ﴿لِّيُنذِرَ﴾ اللام حرف جر وتعليل، ﴿ينذر﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد أو على القرآن. والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإنذاره من كان حيا، الجار والمجرور متعلق بمحذوف معلوم من السياق، تقديره: أرسل أي: محمد لإنذاره أو أُنزل القرآن لإنذاره. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول لينذر، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿حَيًّا﴾: خبره، وجملة كان صلة لمن الموصولة. ﴿وَيَحِقَّ﴾ فعل مضارع، معطوف على ينذر، ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: فاعل، ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق بيحق، ﴿أَوَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والواو عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: ألم يتفكروا ولم يروا، ﴿يَرَوْا۟﴾: فعل، وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿خَلَقْنَا﴾ فعل، وفاعل، ﴿لَهُم﴾ متعلق بـ﴿خَلَقْنَا﴾، وجملة ﴿خَلَقْنَا﴾ في محل الرفع خبر أن، وجملة ﴿أنّ﴾ سادة مسد مفعولي رأى. وجملة الرؤية معطوفة على تلك الجملة المحذوفة. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور حال من ﴿أَنْعَٰمًا﴾، ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ فعل، وفاعل، صلة لما الموصولة، والعائد محذوف تقديره: مما عملته أيدينا، ﴿أَنْعَٰمًا﴾ مفعول خلقنا، ﴿فَهُمْ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع، ﴿لَهَآ﴾ متعلق بمالكون، و﴿مَٰلِكُونَ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة مفرّعة على جملة ﴿خَلَقْنَا﴾.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿ذللنا﴾. والجملة

معطوفة على جملة ﴿خَلَقْنَا﴾. ﴿فَمِنْهَا﴾: الفاء: عاطفة تفريعية، ﴿مِنْهَا﴾: خبر مقدم، ﴿رَكُوبُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة معطوفة مفرّعة على جملة ﴿ذللنا﴾. ﴿وَمِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يَأْكُلُونَ﴾، وجملة ﴿يَأْكُلُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ عطف فعلية على اسمية. ﴿وَلَهُمْ﴾ الواو عاطفة، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿فِيهَا﴾: حال من ﴿مَنَافِعُ﴾، و﴿مَنَافِعُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ معطوف عليه. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ ﴿أَفَلَا﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: أيشاهدون تلك النعم، فلا يشكرون المنعم عليها. والجملة المقدرة، جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿لَا﴾: نافية، وجملة ﴿يَشْكُرُونَ﴾: معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اتخذوا﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿اتخذوا﴾، ﴿ءَالِهَةً﴾ مفعول أول لـ﴿اتخذوا﴾. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يُنصَرُونَ﴾ من الفعل المغير، ونائب فاعله في محل الرفع، خبره. وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿اتخذوا﴾؛ أي: حالة كونهم راجين النصر من آلهتهم. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿نَصْرَهُمْ﴾ مفعول به، ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿لَهُمْ﴾ حال من جند؛ لأنه كان في الأصل صفة له، ﴿جُندٌ﴾ خبرهم، ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ خبر ثان لهم أو نعت لـ﴿جند﴾. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ أو من ضمير ﴿نَصْرَهُمْ﴾. ﴿فَلَا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا سمعت قولهم في الله وفيك، وأردت بيان ما هو الأكثر لك أجراً وأرفع لك درجةً فأقول لك. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿يَحْزُنكَ﴾: فعل مضارع، ومفعول به، مجزوم بلا الناهية، ﴿قَوْلُهُمْ﴾ فاعل. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿نَعْلَمُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به

لـ﴿نَعۡلَمُ﴾، وجملة ﴿يُسِرُّونَ﴾ صلة لما الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما يسرونه، ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ معطوف على ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَ﴾: الهمزة: فيه للاستفهام التقريري المضمن للتعجب، داخلة على مقدر يقتضيه السياق، والواو عاطفة على ذلك المقدر. والجملة المقدرة مستأنفة. ﴿لَمۡ﴾ حرف جزم، ﴿يَرَ﴾ فعل مضارع، مجزوم بلم، ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: فاعل. والجملة معطوفة على تلك المقدرة. ﴿أَنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ خبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في محل النصب، سادة مسد مفعولي ﴿يرى﴾. ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾ متعلق بـ﴿خلقنا﴾، ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إِذَا﴾ فجائية، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿خَصِيمٞ﴾ خبر، ﴿مُّبِينٞ﴾ صفة خصيم. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿خَلَقۡنَا﴾؛ لأنه في تأويل خلقناه من نطفة ففاجأ خصومتنا.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠﴾.

﴿وَضَرَبَ﴾ (الواو): عاطفة، ﴿ضرب﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الإنسان، ﴿لَنَا﴾ متعلق بـ﴿ضرب﴾، ﴿مَثَلٗا﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على جملة إذا الفجائية؛ لأنها في تأويل الفعل، كما مر. ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ضرب، ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الإنسان. والجملة مستأنفة. ﴿مَن﴾ اسم استفهام في محل الرفع، مبتدأ، ﴿يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، والجملة خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب مقول قال. ﴿وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من العظام. ﴿قُلۡ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿يُحۡيِيهَا﴾ فعل، ومفعول، ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ فاعل. والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿أَنشَأَهَآ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به،

والجملة صلة الموصول، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ﴿أنشأ﴾، ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ، ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل أنشأ. ﴿الَّذِى﴾ بدل من الموصول الأول، ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، والجملة صلة الموصول، ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور في موضع المفعول الثاني، ﴿مِّنَ الشَّجَرِ﴾ حال من ﴿نَارًا﴾؛ لأنه في الأصل صفة نار، ﴿الْأَخْضَرِ﴾ صفة لـ﴿الشَّجَرِ﴾ ﴿نَارًا﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾ وجملة ﴿جَعَلَ﴾ صلة الموصول، ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إذا﴾ حرف فجأة، ﴿أَنتُم﴾ مبتدأ، ﴿مِّنْهُ﴾ متعلق بـ﴿تُوقِدُونَ﴾، وجملة ﴿تُوقِدُونَ﴾ خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾؛ لأنه في تأويل ففاجأتم الإيقاد.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

﴿أَوَلَيْسَ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والواو: عاطفة على ذلك المقدر، ﴿ليس الذي﴾: فعل ناقص، واسمه، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ صلة الموصول، ﴿بِقَادِرٍ﴾ خبر ﴿ليس﴾، والباء: زائدة. وجملة ﴿ليس﴾ معطوفة على تلك المقدرة، والجملة المقدرة مستأنفة. ﴿عَلَىٰٓ أَن﴾ متعلق بقادر، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَخْلُقَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿مِثْلَهُم﴾ مفعول ﴿يَخْلُقَ﴾، وجملة ﴿يَخْلُقَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾، تقديره: بقادر على خلق مثلهم. ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب لإثبات النفي، والواو: عاطفة على ما يفيده الإيجاب؛ أي: بلى هو قادر على ذلك. والجملة المحذوفة، جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿الْعَلِيمُ﴾ خبر ثان. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُۥ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة، ﴿أَمْرُهُۥ﴾ مبتدأ، ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من

الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿يَقُولَ﴾، ﴿أَرَادَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به. والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَآ﴾، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يَقُولَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود على الله، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ﴿يَقُولَ﴾. والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية، تقديره: إنما أمره قوله لشيء: كن وقت إرادة إيجاده. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿كُن﴾ فعل أمر، تام بمعنى أحدث، وفاعله ضمير يعود على الشيء. والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولَ﴾. ﴿فَيَكُونُ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿يكون﴾: فعل مضارع تام، وفاعله ضمير يعود على الشيء. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فهو يكون. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾. وقرىء بالنصب عطفاً على ﴿يَقُولَ﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا تقرر ما يوجب تنزهه تعالى وتنزيهه عما لا يليق به، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: سبحان الله.. إلخ. وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿سُبْحَٰنَ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبحوا الذي بيده ملكوت كل شيء سبحاناً؛ أي: نزّهوه تنزيهاً. وجملة ﴿سُبْحَٰنَ﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿سُبْحَٰنَ﴾ مضاف، ﴿ٱلَّذِى﴾ مضاف إليه، ﴿بِيَدِهِۦ﴾: خبر مقدم، ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر مضاف إليه. والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، و﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل، ونائب فاعل، معطوف على جملة الصلة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِى شُغُلٍ﴾ بسكون الغين وضمها، وقد قرىء بهما. وفي «القاموس»: الشغل بالضم وبضمتين، وبالفتح وبفتحتين: ضد الفراغ، وجمعه أشغال وشغول، وشغله كمنعه شغلاً ويضم، وأشغله لغة جيدة أو قليلة أو رديئة، واشتغل به وشُغل

كعُني، ويقال منه ما أشغله وهو شاذ؛ لأنه لا يتعجب من المجهول. وأنكر شارح «القاموس» أشغل، وقال: لا يُعرف نقله عن أحد من أئمة اللغة. قال في «المفردات» الشغُل بضم الغين وسكونها: العارض الذي يُذهل الإنسان. وفي «الإرشاد»: والشغل: هو الشأن الذي يصد المرء، ويشغله عما سواه من شؤونه، لكونه أهم عنده من الكل، إما لإيجابه كمال المسرة والبهجة، أو كمال المساءة والغم. والمراد هنا: هو الأول. وما فيه من التنكير والإبهام للإيذان بارتفاعه عن رتبة البيان، والمراد به: ما هم فيه من فنون الملاذ، التي تلهيهم عما عداها بالكلية، كما فصّلناه في مبحث التفسير.

﴿فَٰكِهُونَ﴾؛ أي: ناعمون أو متلذذون في النعمة، من الفكاهة بالضم. وهي التمتع والتلذذ، مأخوذ من الفاكهة. قال الجوهري في صحاحه: الفكاهة بالضم: المزاح، والفكاهة بالفتح: مصدر فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيب العيش فرحاناً ذا نشاط من التنعم. فإذا فسرنا قوله: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ بأنهم ناعمون كانت من الفكاهة بالفتح. وفي «القاموس»: الفاكهة: الثمر كله، وقول مخرج التمر والعنب والرمان منها مستدلاً بقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ باطل مردود. والفاكهاني: بائعها، وكخجل آكلها، والفاكه صاحبها، وفكههم تفكيهاً أتاهم بها، والفاكهة: النخلة المعجبة واسم الحلواء، وفكههم بملح الكلام تفكيهاً أطرفهم بها، والاسم الفكيهة والفكاهة بالضم. وقال أبو زيد: الفاكه: الطيب النفس، الضحوك.

﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ والمراد: نساءهم اللاتي كن لهم في الدنيا، أو الحور العين. ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظل كشعاب جمع شعب. والظل: ضد الضح، أو جمع ظلة، كقباب جمع قبة. وهو الستر الذي يسترك من الشمس. وقال في «المفردات»: ويعبر بالظل عن العز والمنعة، وعن الرفاهة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾؛ أي: في عزة ومنعة. وأظلني فلان؛ أي: حرسني، وجعلني في ظله؛ أي: في عزه ومنعته، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ كناية عن نضارة العيش، انتهى.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة، وهي كسفينة سرير في حجلة، والحجلة محركة موضع يزين بالثياب والستور للعروس، كما في «القاموس». وقيل: الفرش الكائن في الحجلة، بفتحتين أو بسكون الجيم مع ضم الحاء، وقيل مع كسرها، والمراد: نحو قبة تعلق على السرير، وتزين به العروس. ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ من الاتكاء، وهو الاعتماد.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾؛ أي: يطلبون مضارع ادعى بوزن افتعل الشيء إذا فعله لنفسه من دعا يدعو بمعنى طلب. وقد أشرب هنا معنى التمني، ومن مجيء الادعاء بمعنى التمني، كما قال في «تاج المصادر» قولهم: ادع علي ما شئت، بمعنى: تمنه علي. والمعنى هنا: ولهم ما يتمنونه من ربهم. وأصل ﴿يَدَّعُونَ﴾ يدتعيون على وزن يفتعلون، استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى ما قبلها، فحُذفت الياء لالتقاء الساكنين، فصار يدتعون، ثم أبدلت التاء دالاً وأُدغمت الدال في الدال فصار يدعون، اهـ زاده. وقيل: افتعل بمعنى تفاعل؛ أي: ما يتداعونه.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: انفردوا، وابتعدوا عن المؤمنين. يقال: مازه عنه يميزه ميزاً؛ أي: عزله ونحاه. فامتاز والتمييز: الفصل بين المتشابهات. ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ والعهد: الوصية، وعرض ما فيه خير ومنفعة. ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ وعبادة الشيطان كناية عن عبادة غير الله تعالى، من الآلهة الباطلة، وأُضيفت إلى الشيطان، لأنه الآمر بها، والمزين لها.

﴿جِبِلًّا﴾ والجبل: الجماعة العظيمة من الخلق، أقلها عشرة آلاف، والكثير الذي لا يُحصيه إلا الله تعالى. ويقال فيه: جبلاً بكسر الجيم والباء وتشديد اللام كسجل، وجبلاً بضم الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام، وجبلاً بكسر وسكون الباء. وهذه اللغات في الجبل بمعنى الخلق.

﴿ٱصْلَوْهَا﴾؛ أي: ذوقوا حرها. يقال: صلى اللحم كرمى يصليه صليا شواه وألقاه في النار، وصلى النار قاسى حرها، وأصله: اصليوها، فأعل كاخشوا. وهو أمر تنكيل وإهانة.

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ والختم على الأفواه يراد به: المنع من الكلام. والأفواه جمع فم، وأصل فم فوه بالفتح. وهو مذهب سيبويه والبصريين كثوب وأثواب، حذفت الهاء حذفاً على غير قياس لخفائها، ثم الواو لاعتدالها، ثم أبدل الواو المحذوفة ميماً لتجانسهما؛ لأنهما من حروف الشفة، فصار فم. فلما أضيف رد إلى أصله ذهاباً به مذهب أخواته من الأسماء. وقال الفراء: جمع فوه بالضم كسوق وأسواق، اهـ من «الروح».

﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ طمس الشيء: إزالة أثره بالكلية. يقال: طمسته؛ أي: محوته، واستأصلت أثره كما في «القاموس». ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ الاستباق افتعال من السبق. والصراط من السبيل: ما لا التواء فيه، بل يكون على سبيل القصد؛ أي: ابتدروا إلى الطريق المألوف لهم.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ المسخ تحويل الصورة إلى ما هو أقبح منها، سواء كان ذلك التحويل، بقلبها إلى صورة البهيمية، مع بقاء الصورة الحيوانية، أو بقلبها حجراً ونحوه من الجمادات، بإبطال القوى الحيوانية. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾؛ أي: في أماكنهم حيث يجترحون القبائح، والمكانة، بمعنى: المكان، إلا أن المكانة أخص، كالمقامة والمقام. ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ أصله: مضوي بزنة فعول، قلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء، وكُسرت الضاد قبل الياء لتسلم الياء. ومن قرأ ﴿مضيا﴾ بكسر الميم، فإنما كسرها اتباعاً للضاد.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾؛ أي: ومن نطل عمره في الدنيا. والعمر: مدة عمارة البدن بالروح. ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ من التنكيس، وهو أبلغ من النكس، والنكس أشهر. وهو قلب الشيء على رأسه، ومنه: نكس الولد إذا خرج رجله قبل رأسه. والنكس في المرض: أن يعود في مرضه بعد إفاقته. والنكس في الخلق: الرد إلى أرذل العمر.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ قال الراغب: يقال: شعرت أصبت الشعر، ومنه استُعير شعرت كذا؛ أي: علمت علما في الدقة كإصابة الشعر. وسمي الشاعر شاعراً لفطنته ودقة معرفته. يقال: شعر به كنصر وكرم علم به، وفطن له، وعقله. وفي

«القاموس»: الشعر غُلِّب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية، وإن كان كل علم شعراً. والجمع أشعار، انتهى. والشعر: ضرب من ضروب الكلام، ذو وزن خاص، ينتهي كل بيت منه بحرف خاص يسمى قافية. وهو يسير مع العواطف والأهواء، ولا يتبع ما يمليه العقل والمنطق الصحيح. ومن ثم كان مستقر الأكاذيب والمبالغات في الأهاجي، والمدائح، والتفاخر، والتنافر. فإذا غضب الشاعر أقذع في القول، وبالغ في الذم، وضرب بالحقيقة عرض الحائط، ولا يرى في ذلك ضيراً، وإذا هو استرضي بعد قليل رفع من هجاه إلى السماكين، وأدخله في زمرة العظماء الشجعان، أو الكرماء الأجواد إلى نحو هذا، مما تراه في شعر الهجائين المداحين، حتى لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا: أعذب الشعر أكذبه. والقرآن الكريم آداب، وأخلاق، وحكم، وأحكام وتشريع. فيه سعادة البشر في دنياهم ودينهم، وآخرتهم فرادى وجماعات، فحاشى أن يكون شعراً ولا كهانةً ولا سحراً.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ البغاء: الطلب، والانبغاء انفعال منه. يقال: بغيته؛ أي: طلبته فانطلب. ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ العمل: كل فعل من الحيوان يقصد. فهو أخص من الفعل. قال الراغب: الأيدي جمع يد بمعنى الجارحة، خص لفظ اليد لقصورنا، إذ هي أجل الجوارح التي يتولى بها الفعل فيما بيننا. ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا﴾ وفي «المفردات»: الذل: ما كان عن قهر، والذل ما كان بعد تصعب وشماس من غير قهر، وذلت الدابة بعد شماس ذلاً، وهي ذلول ليست بصعب.

﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ﴾ والركوب بفتح الراء بمعنى: المركوب كالحلوب بمعنى: المحلوب، والركوب بالضم: كون الإنسان على ظهر حيوان. وقد يُستعمل في السفينة والسيارة وغيرهما؛ أي: مركوب كان. والراكب اختص في التعارف بممتطي البعير. ﴿وَمَشَارِبُۚ﴾ جمع مَشرب بالفتح مصدر أو مكان. والظاهر أن المراد به: ضروعها، اهـ شيخنا. والشرب: تناول كل مائع ماءً كان أو غيره.

﴿خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ والخصيم: المبالغ في الجدل والخصومة إلى أقصى الغاية أو هو فعيل بمعنى فاعل؛ أي: مخاصم مجادل. والخصومة: الجدل. قال في

«القاموس»: خاصمه مخاصمة وخصومة فخصمه يخصمه غلبه، وهو شاذ؛ لأن فاعلته ففعلته يرد يفعل منه إلى الضم إن لم تكن عينه حرف حلق. فإنه بالفتح كفاخره ففخره يفخره.

﴿وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ والرميم كالرمة، والرفات العظم البالي؛ أي: بالية. وفي «المختار»: رم بالفتح يرم رمة بالكسر فيهما إذا بلي، وبابه ضرب، فهو اسم لا صفة ولذلك لم يؤنث، وقد وقع خبر المؤنث، ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول. وإيضاح هذا الكلام: أن فعيلاً بمعنى فاعل، لا تلحق التاء في مؤنثه إلا إذا بقيت وصفيته، وما هنا انسلخ عنها وغلبت عليه الاسمية؛ أي: صار بالغلبة اسماً لما بلي من العظام.

﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ والشجر من النبت ما له ساق. والخضرة أحد الألوان بين البياض والسواد، وهو إلى السواد أقرب. فلهذا سمي الأسود أخضر، والأخضر أسود. وقيل: سواد العراق للموضع الذي تكثر فيه الخضرة، ووصف الشجر بالأخضر دون الخضراء نظراً إلى اللفظ، فإن لفظ الشجر مذكر، ومعناه مؤنث؛ لأنه جمع شجرة كثمر وثمرة، والجمع مؤنث لكونه بمعنى الجماعة.

﴿بَلَىٰ﴾ كلمة جواب كنعم، تأتي بعد كلام منفي. وفي «المفردات»: بلى جواب استفهام مقترن بنفي، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾. ونعم يقال في الاستفهام المجرد نحو: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ ولا يقال ههنا بلى. فإذا قيل: ما عندي شيء فقلت: بلى، فهو رد لكلامه، فإذا قلت: نعم فإقرار منك. انتهى.

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الملكوت، والرحموت، والرهبوت، والجبروت مصادر. زيدت الواو والتاء فيها للمبالغة في الملك، والرحمة، والرهبة، والجبر. قال في «المفردات»: الملكوت مختص بملك الله تعالى. والملك ضبط الشيء، والتصرف فيه بالأمر والنهي. والعرب تقول: جبروتي خير من رحموتي.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التنوين للتفخيم في قوله: ﴿فِى شُغُلٍ﴾؛ أي: في شغل عظيم الشأن.

ومنها: التعبير بالجملة الاسمية في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ عن حالهم هذه، قبل تحققها، تنزيلاً للمترقب المتوقع منزلة الواقع، للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها، ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك. وهم الكفار.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ فالأول سلب، والآخر إيجاب.

ومنها: التنوين في ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ للتفخيم.

ومنها: تقديم النهي في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ على الأمر في قوله: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ رعاية للقاعدة عندهم، من تقديم التخلية على التحلية، وليتصل به قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

ومنها: تقديم الجارين على متعلقهما في قوله: ﴿فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ لمراعاة الفواصل.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ حيث أن الإضلال من الشيطان لكونه سبب ضلالهم.

ومنها: الالتفات من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ الخ إلى الغيبة في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ للإيذان بأن ذكر أحوالهم القبيحة استدعي أن يعرض عنهم، ويحكي أحوالهم الفظيعة لغيرهم مع ما فيه من الإيماء إلى أن ذلك من مقتضيات الختم؛ لأن الخطاب لتلقي الجواب، وقد انقطع بالكلية.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾، وفي قوله:

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، وأمثال ذلك.

منها: الطباق بين ﴿مُضِيًّا﴾ ﴿يَرْجِعُونَ﴾.

ومنها: وضع الفعل موضع المصدر في قوله: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ لمراعاة الفاصلة؛ لأن الأصل مضيا ولا رجوعاً.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾؛ لأنه كناية عن نفي كونه شاعراً، فنفى اللازم الذي هو تعليم الشعر وأراد نفي الملزوم الذي هو كونه شاعراً، بطريق الكناية، التي هي أبلغ من التصريح.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ الآية، قابل بين الإنذار والإعذار، وبين المؤمنين والكفار في قوله: ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وهو من ألطف العبارة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ الأنعام تُخلق ولا تُعمل، ولكن شبّه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمراً بيديه، ويصنعه بنفسه. واستعار لفظ العمل للخلق، بطريقة الاستعارة التمثيلية.

ومنها: ذكر العام بعد الخاص في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ بعد قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ الآية. وفائدته تفخيم النعمة، وتعظيم المنة.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾؛ أي: كالجند في الخدمة والدفاع، حُذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، فأصبح بليغاً.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله: ﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾، وفي قوله: ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ لأنه صيغة مبالغة من الملك، ومعناه: الملك الواسع التام مثل: الرحموت، والرهبوت، والجبروت.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ حيث استعار المثل الذي هو القول السائر للأمر العجيب تشبيهاً له في الغرابة بالمثل العرفي الذي هو القول السائر.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فشبه سرعة تأثير قدرته تعالى، ونفاذها في الأشياء، بأمر المطاع، من غير توقف ولا امتناع. فإذا أراد شيئاً وجد من غير إبطاء ولا تأخير. وهو من لطائف الاستعارة، وعبارة الروح: وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى، فيما أراده بأمر الآمر، المطاع للمأمور المطيع، في سرعة حصول المأمور به، من غير توقف على شيء ما، وهو قول أبي منصور الماتريدي، لأنه قال: لا وجه لحمل الكلام على الحقيقة، إذ ليس هناك قول ولا آمر ولا مأمور.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا وقفت الأقلام في كتابة ما أردنا إيراده على سورة يّس من التفسير والتأويل في تاريخ ٢٥/ ٢/ ١٤١٤، في صباح يوم الجمعة، بعيد صلاة الفجر، اليوم الخامس والعشرين من شهر صفر المبارك من شهور، سنة ألف وأربع مئة وأربع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلوات، وأتم الصِلات، وأزكى التحيات، وعلى آله وأصحابه، وجميع الأمّات.

اللهم يا ذا الجلال والإكرام، كما أعنتنا على كتابة ما مضى فأكرمنا بإتمام ما بقي من كتابة تفسير كتابك الكريم، خالصاً مخلصاً لوجهك الكريم، مع النفع التام به إلى يوم القيامة، لي ولجميع المسلمين، آمين يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

أهم مقاصد هذه السورة

١ ـ بيان أن محمداً ﷺ، رسول من عند الله حقاً، وأنه نذير للأميين وغيرهم.

٢ ـ المنذرون من النبي ﷺ صنفان: صنف ميؤوس من صلاحه، وآخر قد سعى لفلاحه.

٣ ـ أعمال الفريقين تحصى عليهم، فتحفظ أخبارهم، وتكتب آثارهم.

٤ ـ ضرب المثل لهم بأهل أنطاكية، إذ كذبوا الناصح لهم وقتلوه، فدخلوا النار، ودخل الجنة بما قدم من إيمان وعمل صالح وهداية وإرشاد.

٥ ـ الدليل الطبيعي والعقلي على البعث.

٦ ـ تبيان قدرة الله ووحدانيته وعلمه ورحمته الشاملة.

٧ ـ جزاء الجاحدين على كفرانهم أنعم الله عليهم، وسرعة أخذهم، وندمهم حين معاينة العذاب.

٨ ـ الجنة ونعيمها وما أعد للمؤمنين فيها.

٩ ـ توبيخ الكافرين على اتباعهم همزات الشياطين.

١٠ ـ قدرته تعالى على مسخهم في الدنيا وطمسهم.

١١ ـ الانتفاع بالأنعام في المأكل والمشرب والملبس.

١٢ ـ إثبات البعث بما أقامه من أدلة في الآفاق والأنفس.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة الصافات

سورة الصافات مكية قال القرطبي في قول الجميع، وأخرج ابن الضريس، وابن النحاس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: نزلت بمكة.

وهي[1] مئة واثنتان وثمانون آية، وثمان مئة وستون كلمة، وثلاث آلاف وثمان مئة وستة أو تسعة وعشرون حرفاً.

تسميتها: وسميت[2] باسم أول كلمة منها، من باب تسمية الشيء باسم بعضه على حكم عادته سبحانه وتعالى في كتابه الكريم.

فضلها: ومن فضائلها ما أخرجه[3] النسائي والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال: كان رسول الله يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. قال ابن كثير: تفرد به النسائي، وأخرج ابن أبي داود في فضائل القرآن، وابن النجار في تاريخه من طريق نهشل بن سعد الورداني، عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس والصافات يوم الجمعة، ثم سأل الله، أعطاه سؤله»، وأخرج أبو نعيم في «الدلائل»، والسلفي في «الطيوريات» عن ابن عباس: أن النبي ﷺ لما سأله ملوك حضرموت، عند قدومهم عليه، أن يقرأ عليهم شيئاً مما أنزل الله قرأ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١﴾ حتى بلغ ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ الحديث. وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ والصافات أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل جن وشيطان، وتباعدت عنه مردة الجن والشياطين، وبرىء من الشرك، وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين».

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها من وجوه[4]:

---

(١) الخازن.
(٢) الصاوي.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

١ ـ أن فيها تفصيل أحوال القرون الغابرة، التي أشير إليها إجمالاً في السورة السابقة في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

٢ ـ أن فيها تفصيل أحوال المؤمنين، وأحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة، مما أشير إليه إجمالاً في السورة قبلها.

٣ ـ المشاكلة بين أولها وآخر سابقتها، ذاك أنه ذكر فيما قبلها قدرته تعالى على المعاد وإحياء الموتى، وعلل ذلك بأنه منشئهم، وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء كان. وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك. وهو وحدانيته تعالى، إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجاداً وإعداماً إلا إذا كان المريد واحداً، كما يشير إلى ذلك قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

وعبارة أبي حيان هنا: مناسبة أول هذه السورة لآخر يس[1]: أنه تعالى لما ذكر المعاد وقدرته على إحياء الموتى، وأنه هو منشئهم، وإذا تعلقت إرادته بشيء كان.. ذكر تعالى هنا وحدانيته. إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة وجوداً وعدماً إلا بكون المريد واحداً. وتقدم الكلام على ذلك في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

الناسخ والمنسوخ فيها: ذكر أبو عبد الله محمد بن حزم في كتابه «الناسخ والمنسوخ» سورة الصافات كلها محكم إلا أربع آيات:

الأولى والثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾، نسختا بآية السيف.

الثالثة والرابعة: قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾، نسختا أيضاً بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤)
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦)
وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨)
دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ
أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا
ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ
زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ
إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ
مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)
قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ
عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
(٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ
(٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ
لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)
أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ
(٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا
يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩)﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا...﴾ الآيات، افتتح سبحانه هذه

السورة بإثبات وجود الخالق ووحدانيته وعلمه وقدرته بذكر خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلق المشارق والمغارب، وهنا أثبت الحشر، والنشر، وقيام الساعة، ببيان أن من خلق هذه العوالم، التي هي أصعب في الخلق منكم، فهو قادر على إعادة الحياة فيكم بالأولى، كما جاء في السورة السابقة: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾، وجاء في قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] فيما سلف إنكارهم للبعث في الدنيا، وشديد إصرارهم على عدم حدوثه.. أردف هذا، ببيان أنهم يوم القيامة يرجعون على أنفسهم بالملامة، إذا عاينوا أهوال هذا اليوم، ويعترفون بأنهم كانوا في ضلال مبين، ويندمون على ما فرّطوا في جنب الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين فيما سلف، أن الكافرين يندمون يوم القيامة، على ما فرط منهم، من العناد والتكذيب للبعث، حيث لا يجدي الندم.. أردف هذا بذكر أنهم يتلاومون فيما بينهم حينئذ، ويتخاصم الأتباع والرؤساء، فيلقي الأولون تبعة ضلالهم على الآخرين، فيجيبونهم بأن التبعة عليكم أنفسكم دوننا، إذ كنتم قوماً ضالين بطبيعة حالكم، وما ألزمناكم بشيء مما كنتم تعبدون، أو تعتقدون، بل تمنينا لكم من الخير ما تمنينا لأنفسنا، فاتبعتمونا دون قسر ولا جبر منا لكم. ثم أعقبه بذكر ما أوقعهم في هذا الذل والهوان، فبين أنهم قد كانوا في الدنيا إذا سمعوا كلمة التوحيد، أعرضوا عنها استكباراً، وقالوا: أنترك دين آبائنا اتباعاً لقول شاعر مجنون. ثم رد عليهم مقالهم بأنه ليس بالمجنون، ولا هو بالشاعر، بل جاء بما هو الحق، الذي لا محيص عن تصديقه، وهو التوحيد الذي جاء به المرسلون كافة.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف حوار الأتباع والرؤساء من أهل الضلال، وإلقاء كل منهما تبعة ما وقعوا فيه من الهلاك على الآخرين.. بيّن هنا أن لا فائدة من مثل هذا الخصام والجدل. فإن العذاب واقع بكم لا محالة، جزاء ما قدمتم من عمل. ثم أردفه ما يلقاه عباده المخلصون من النعيم المقيم، واللذات التي قصها علينا في تلك الآية، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

التفسير وأوجه القراءة

والواو في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ للقسم. والصافات[1]: جمع صافة بمعنى جماعة صافة، فالصافات بمعنى الجماعات الصافات. ولو قيل: والصافين وما بعدها بالتذكير لم يحتمل الجماعات. والصف: أن يجعل الشيء على خط مستقيم، كالناس لأداء الصلاة أو الحرب أو الأشجار في الغرس.

وقوله: ﴿صَفًّا﴾ مصدر مؤكد لما قبله؛ أي: صفاً بديعاً. أقسم الله سبحانه، بالملائكة الذين يصفون للعبادة في السماء، ويتراصون في الصف؛ أي: بطوائف الملائكة الفاعلات للصفوف على أن المراد: إيقاع نفس الفعل من غير قصد إلى المفعول، واللاتي يقفن صفاً صفاً، في مقام العبودية والطاعة، أو الصافات أنفسها؛ أي: الناظمات لها في سلك الصفوف، بقيامها في مواقف الطاعة ومنازل الخدمة. وفي الآية[2] بيان شرف الملائكة حيث أقسم بهم، وفضل الصفوف. وقد صح أن الشيطان يقف في فرجة الصف، فلا بد من التلاصق والانضمام والاجتماع ظاهراً وباطناً.

والفاء في ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ وما بعده للعطف، والترتيب الرتبي، أو الوجودي كما سيأتي. وقوله: ﴿زَجْرًا﴾ مصدر مؤكد لما قبله. والزجر: الصرف عن الشيء بتخويف؛ أي: فأقسمت بالملائكة الذين يزجرون السحاب زجراً، ويؤلفونه

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ويسوقونه إلى البلد الذي لا مطر فيه، أو الذين يزجرون العباد عن المعاصي، أو الشيطان عن الوسوسة والإغواء، وعن استراق السمع زجراً بليغاً. وقوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ معطوف أيضاً على ما قبله. وقوله: ﴿ذِكۡرًا﴾ مفعول ﴿التاليات﴾؛ أي: فأقسمت بالملائكة الذين يتلون ذكراً عظيم الشأن، من آيات الله وكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، وغيرهما من التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد، أو المراد بالمذكورات: نفوس العلماء، العمال، الصافات أنفسها في صفوف الجماعات، وأقدامها في الصلاة الزاجرات بالمواعظ، والنصائح التاليات، آيات الدارسات شرائعه وأحكامه، أو طوائف الغزاة، الصافات أنفسهم في مواطن الحرب، كأنهم بنيان مرصوص، أو طوائف قوادهم، الصافات لهم فيها الزاجرات الخيل للجهاد سوقاً، والعدو في المعارك طرداً، التاليات آيات الله وذكره وتسبيحه في تضاعيف ذلك، لا يشغلهم عن الذكر مقابلة العدو. وذلك لكمال شهودهم وحضورهم مع الله. وفي الحديث: «ثلاثة أصوات يباهي الله بهن الملائكة: الأذان، والتكبير في سبيل الله، ورفع الصوت بالتلبية».

وهذه الصفات إن أجريت على الكل فعطفها بالفاء، للدلالة على ترتيبها في الفضل، إما بكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة، فيكون من باب الترقي، أو على العكس، فيكون من باب التدلي. وإن أجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة، فهو للدلالة على ترتيب الموصوفات في مراتب الفضل، بمعنى: أن طوائف الصافات ذوات فضل، والزاجرات أفضل، والتاليات أبهر فضلاً أو على العكس. وفي تفسير الشيخ وغيره: وجاء بالفاء، للدلالة على أن القسم بمجموع المذكورات. وفي «الصاوي»[1]: الفاء للترتيب في الوجود الخارجي؛ لأن مبدأ الصلاة الاصطفاف، ثم يعقبه زجر النفس، ثم يعقبه التلاوة، وهكذا. ويحتمل أنها للترتيب في المزايا، ثم هو إما باعتبار الترقي، فالصافات ذوات فضل، فالزاجرات أفضل، فالتاليات أكثر فضلاً أو باعتبار التدلي، فالصافات أعلى ثم الزاجرات ثم التاليات، وكل صحيح، انتهى.

---

(١) الصاوي.

والمعنى: أي أقسمت لكم يا بني آدم، أو يا أهل مكة ﴿بالصافات﴾؛ أي[1]: بالملائكة الناظمات لأنفسها في سلك الصفوف، بقيامها في مقاماتها المعلومة أو الصافات أقدامها في السماء، لأداء العبادات أو الباسطات أجنحتها في الهواء، واقفة حتى يأمرها الله تعالى بما يريد. ﴿صَفًّا﴾ بديعاً. ﴿فَالزَّٰجِرَٰتِ﴾؛ أي: فأقسمت لكم بالملائكة التي تزجر السحاب؛ أي: يأتون بها من موضع إلى موضع، أو الزاجرات لبني آدم عن المعاصي، بالإلهامات، أو الزاجرات للشياطين عن التعرض لبني آدم بالشر والإيذاء، وعن استراق السمع. ﴿زَجْرًا﴾ بليغاً. ﴿فَالتَّٰلِيَٰتِ﴾؛ أي: فأقسمت لكم بالملائكة، التي تتلو الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، وغيرها من التسبيح، والتقديس، والتحميد، والتمجيد.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾ يا أهل مكة ـ فإن الآية[2] نزلت فيهم إذ كانوا يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ ـ أو يا بني آدم؛ أي: أقسمت لكم بهذه المذكورات، على أن إلهكم ومعبودكم الذي يستحق منكم العبادة ﴿لواحد﴾ لا شريك له، فلا تتخذوا آلهة من الأصنام والدنيا والهوى والشيطان. إذ لو لم يكن واحداً لاختل هذا الاصطفاف، والزجر، والتلاوة. وفي «الصاوي»: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ الواو[3]: حرف جر وقسم، ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ مقسم به مجرور بواو القسم، وما بعده عطف عليه، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ جواب القسم، وهو المقسم عليه. والمعنى: وحق الصافات وحق الزاجرات وحق التاليات. وإنما خص ما ذكر لعظم قدرها عنده تعالى. ولا يعكر عليه ما ورد من النهي عن الحلف بغير الله تعالى، لأن النهي للمخلوق حذراً من تعظيم غير الله، وأما هو سبحانه وتعالى، فيقسم ببعض مخلوقاته للتعظيم كقوله: والشمس والليل والضحى والنجم، وغير ذلك.

فإن قلت: ما الحكمة في ذكر القسم هنا، لأنه إن كان المقصود المؤمنين، فلا حاجة إليه؛ لأنهم مصدقون ولو من غير قسم. وإن كان المقصود الكفار، فلا

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) الصاوي.

حاجة إليه أيضاً، لأنهم غير مصدقين على كل حال؟

قلت: إن الحكمة في القسم، تأكيد الأدلة التي تقدم تفصيلها في سورة يس، ليزداد الذين آمنوا إيماناً ويزداد الكافرون بعداً وطرداً. أو الحكمة فيه تعظيم المقسم به، وإظهار شرفه، وتأكيد المقسم عليه على ما هو المألوف في كلامهم. وقد أنزل القرآن على لغتهم، وعلى أسلوبهم في محاوراتهم. وقيل: تقدير الكلام فيها وفي أمثالها: ورب الصافات، ورب الشمس، ورب الضحى، ورب التين والزيتون، ورب الذاريات، ورب النجم إلى غير ذلك.

وقرأ ابن مسعود[1]، ومسروق، والأعمش، وأبو عمرو، وحمزة بإدغام التاء من الصافات والزاجرات والتاليات في صاد ﴿صَفًّا﴾ وزاي ﴿زَجْرًا﴾ وذال ذكراً وكذلك فعلا في ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ①﴾، وفي ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ بخلاف عن خلاد في الأخيرين. وهذه القراءة قد أنكرها أحمد بن حنبل لما سمعها. وقرأ الباقون بإظهار جميع ذلك.

قال أبو مسلم الأصفهاني: لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة؛ لأنها مشعرة بالتأنيث، والملائكة مبرؤون عن هذه الصفة. وأجيب عنه بوجهين:

الأول: أن الصفات المذكورة جمع الجمع، فإنه يقال جماعة صافة، ثم يُجمع على صافات.

الثاني: أنهم مبرؤون عن التأنيث المعنوي، وأما التأنيث اللفظي فلا وكيف وهم يسمون بالملائكة، مع أن علامة التأنيث حاصلة، انتهى.

قال الغزالي، رحمه الله سبحانه: الواحد في أسمائه تعالى هو الذي لا يتجزأ ولا يثنى، وهو سبحانه الواحد المطلق أزلاً وأبداً، وخاصية هذا الاسم، إخراج الكون من القلب، فمن قرأه ألف مرة خرج الخلائق من قلبه، فكُفِيَ خوف الخلق. وهو أصل كل بلاء في الدنيا والآخرة. وسمع النبي ﷺ رجلاً يقول في

---

(١) الفتوحات.

دعائه: «اللهم إني أسألك باسمك الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»، فقال: سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى. قال السهروردي: يذكره من توالت عليه الأفكار الرديئة فتذهب عنه. وإن قرأه الخائف من السلطان بعد صلاة الظهر، خمس مئة مرة فإنه يأمن ويُفرَّج همه، ويصدقه أعداؤه، انتهى.

وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خبر ثان ﴿لأن﴾؛ أي: مالك السموات والأرض، ومالك ما بينهما من الموجودات، ومربيها، ومبلغها إلى كمالاتها ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾؛ أي: مشارق الشمس، وهي ثلاث مئة وستون مشرقا، تشرق كل يوم من مشرق منها، وبحسبها تختلف المغارب، ولذلك اكتفى بذكرها على حد ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾. وإنما اقتصر على المشارق ولم يعكس؛ لأن نفعه أعم من الغروب. يعني: إذا كانت المشارق بهذا العدد، تكون المغارب أيضاً بهذا العدد، فتغرب في كل يوم من مغرب منها. وأما قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما. وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أراد به الجهة، فالمشرق جهة والمغرب جهة.

وإعادة[1] الرب في المشارق لغاية ظهور آثار الربوبية فيها، وتجددها كل يوم كما ذكر آنفاً.

والخلاصة: هو رب جميع الموجودات، وربوبيته لذاته، لا لنفع يعود إليه، بخلاف تربية الخلق. والربوبية بمعنى الخالقية والمالكية، ونحوهما عامة، وبمعنى التربية خاصة بكل نوع بحسبه، فهو تعالى مربي الأشباح بأنواع نعمه، ومربي الأرواح بلطائف كرمه. والرب عنوان الأدعية، فلا بد للداعي من استحضاره لساناً وقلباً، حتى يستجاب في دعائه: اللهم ربنا إنك أنت الواحد وحدة حقيقية، ذاتية، لا انقسام لك فيها، فاجعل توحيدنا توحيداً حقانياً ذاتياً سرياً لا مجازية فيه، وإنك أنت الرب الكريم الرحيم، فكما أنك ربنا وخالقنا، فكذا مربينا

---

(١) روح البيان.

ومولانا، فاجعلنا في تقلبات أنواع نعمك، شاغلين بك فارغين عن غيرك، وأوصل إلينا من كل خيرك.

فإن قلت[1]: لم جمع هنا ﴿ٱلْمَشَـٰرِقِ﴾ وحذف مقابله، وثنّاه في الرحمٰن، وجمعه في المعارج، وأفرده في المزمل مع ذكر مقابله في الثلاثة؟.

قلت: لأن القرآن نزل على المعهود من أساليب كلام العرب وفنونه. ومنها: الإجمال والتفصيل، والذكر والحذف، والجمع والتثنية، والإفراد باعتبارات مختلفة. فأفرد وأجمل في المزمل بقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، لأنه أراد بهما: الجهة، فالمشرق جهة والمغرب جهة. وجمع وفصّل في المعارج بقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ﴾؛ لأنه أراد جميع مشارق السنة ومغاربها، وهي تزيد على سبع مئة. وثنّى وفصّل في الرحمٰن، لأنه أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربهما. وجمع وحذف هنا بقوله: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ﴾، لأنه أراد جميع مشارق السنة، واقتصر عليه لدلالته على المحذوف، وخص ما هنا بالجمع، موافقة للجموع أول السورة، وبالحذف مناسبة للزينة في قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾. إذ الزينة إنما تكون غالباً بالضياء والنور، وهما ينشآن من المشرق لا من المغرب. وخص ما في الرحمٰن بالتثنية، موافقة للتثنية في ﴿يَسْجُدَانِ﴾، وفي ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وبذكر المتقابلين مقابلةً، لبسط صفاته تعالى وإنعامه. ثم خص ما في المعارج بالجمع، موافقةً للجمع قبله وبعده، وبذكر المتقابلين موافقةً لكثرة التأكيد في القسم وجوابه. وخص ما في المزمل بالإفراد موافقةً لما قبله من إفراد ذكر النبي ﷺ، وما بعده من إفراد ذكر الله تعالى، وبذكر المتقابلين موافقة للحصر في قوله: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ولبسط أوامر الله تعالى لنبيه ﷺ.

وإجمال المعنى[2]: أنه سبحانه أقسم بملائكته الذين كملت أرواحهم،

---

(١) فتح الرحمٰن.
(٢) المراغي.

وتجردوا لعبادته، يسبحونه الليل والنهار لا يفترون، ويحضون الناس على فعل الخير، ويدفعون عنهم وسوسة الشيطان، ويتلون آياته على أنبيائه، حين نزولهم بالوحي إن ربكم لواحد، وهو رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق والمغارب.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: القربى منكم من الأرض، وأما بالنسبة إلى العرش فهي البعدى منه. والدنيا: تأنيث الأدنى بمعنى الأقرب ﴿بِزِينَةٍ﴾ عجيبة بديعة ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بالجر بدل من الزينة، على أن المراد بها: الاسم؛ أي: ما يزان به، لا المصدر. والتقدير: بعد طرح المبدل منه: إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب، فإن الكواكب في أنفسها زينة عظيمة، فإنها في أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِزِينَةِ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بإضافة زينة إلى الكواكب. والمعنى: زيناها بتزيين الكواكب؛ أي: بحسنها. وقرأ ابن مسعود، ومسروق بخلاف عنه. وأبو زرعة، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، والنخعي، وحمزة بتنوين ﴿زينة﴾، وخفض ﴿الكواكب﴾ على أنها بدل من الزينة، كما مر آنفاً. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه، وابن وثّاب، ومسروق بخلاف عنهما. والأعمش، وطلحة ﴿بزينةٍ﴾ منوناً ونصب ﴿الكواكبَ﴾ على أن الزينة مصدر، وفاعله محذوف، والتقدير: بأن الله زيّن الكواكب، بكونها مضيئة حسنة في أنفسها، أو تكون الكواكب منصوبة بإضمار أعني، أو بدلاً من السماء بدل اشتمال. وقرأ زيد بن علي، وابن عباس، وابن مسعود بتنوين ﴿زينة﴾، ورفع ﴿الكواكب﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: بزينة هي الكواكب. فإن قلت: لم خص سماء الدنيا بزينة الكواكب، مع أن بقية السموات مزينة بذلك.

قلت: لأنا إنما نرى سماء الدنيا دون غيرها.

وفي الآية[2]: إشارة إلى أن الزينة التي تدرك بالبصر يعرفها الخاصة

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.

(٢) روح البيان.

والعامة، وإلى الزينة التي يختص بمعرفتها الخاصة، وذلك إحكامها وسيرها. والكواكب معلقة في السماء كالقناديل، أو مكوكبة عليها كالمسامير على الأبواب والصناديق. وكون الكواكب زينة للسماء الدنيا، لا يقتضي كونها مركوزة في السماء الدنيا، ولا ينافي كون بعضها مركوزة فيما فوقها من السموات؛ لأن السموات إذا كانت شفافة وأجراماً صافية، فالكواكب سواء كانت في السماء الدنيا أو في سموات أخرى، فهي لا بد وأن تظهر في السماء الدنيا، وتلوح منها. فتكون سماء الدنيا مزينة بالكواكب.

والحاصل: أن المراد هو التزيين في رأي العين، سواء كانت أصول الزينة سماء الدنيا أو في غيرها. وهذا مبني على ما ذهب إليه أهل الهيئة، من أن الثوابت مركوزة في الفلك الثامن وما عدا القمر في الستة المتوسطة، وإن لم يثبت ذلك بنقل، فحقيقة ذلك عند الله تعالى.

وانتصاب[1] ﴿حفظاً﴾ على المصدرية بإضمار فعل؛ أي: حفظناها حفظاً أو على أنه مفعول لأجله؛ أي: زيناها بالكواكب للحفظ أو بالعطف على محل ﴿زينة﴾، كأنه قال: إنا خلقنا الكواكب زينة للمساء، وحفظاً لها ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ﴾ برمي الشهب المنقضة منها إليه ﴿مَّارِدٍ﴾؛ أي: عال على الله، خارج عن الطاعة، متعرّ عن الخير من قولهم: شجر أمرد إذا تعرى من الورق. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

والمعنى[2]: أي إنا جعلنا الكواكب والنجوم زينة في السماء القريبة منكم، بما لها من البهجة والجمال وتناسب الأشكال وحسن الأوضاع، ولا سيما لدى الدارسين لنظامها، المفكرين في حسابها، إذ يرون أن السيارات منها متناسبة المسافات، بحيث يكون كل سيار بعيداً من الشمس، ضعف بُعد الكواكب الذي قبله. ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾؛ أي: وحفظنا السماء أن يتطاول، لدرك جمالها، وفهم محاسن نظامها، الجهال والشياطين، المتمردون من الجن

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

والإنس، لأنهم غافلون عن آياتنا، معرضون عن التفكر في عظمتها، فالعيون مفتحة ولكن لا تبصر الجمال، ولا تفكر فيه حتى تعتبر بما فيه.

وكانت الشياطين[١] أولاً لا يحجبون عن السموات كلها، وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها فيلقونها على الكهنة. فلما ولد عيسى عليه السلام، مُنعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد ﷺ مُنعوا من السموات كلها. فما منهم أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب. وهو الشعلة من النار فلا يخطئه أبداً، فمنهم من يقتله، ومنهم من يحرق وجهه، ومنهم من يخبله فيصير غولاً يضل الناس في البراري.

وقوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾؛ أي: الشياطين، ولا يُصغون ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كلام[٢] مستأنف، مسوق لبيان حال الشياطين، بعد بيان حفظ السماء منهم، مع التنبيه على كيفية الحفظ، وما يعتريهم في أثناء ذلك من العذاب. والملأ الأعلى: الملائكة أو أشرافهم أو الكتبة وصفوا بالعلو لسكونهم في السموات العلى، والجن والإنس هم الملأ الأسفل، لأنهم سكان الأرض.

والمعنى: لا يتطلبون السماء والإصغاء إلى الملائكة الملكوتية. وقيل: إن جملة ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ صفة لكل شيطان. وقيل: جواب عن سؤال مقدر، كأنه قيل: فما كان حالهم بعد حفظ السماء عنهم؟ فقال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

وقرأ الجمهور[٣]: ﴿يسْمَعون﴾ بسكون السين وتخفيف الميم، وعدّاه بإلى لتضمنه معنى الإصغاء. وقرأ ابن عباس بخلاف عنه. وابن وثّاب، وعبد الله بن مسلم، وطلحة، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وحفص، وعاصم في رواية حفص ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ بتشديد السين والميم بمعنى لا يتسمعون. والقراءة الأولى تدل على انتفاء سماعهم دون استماعهم، والقراءة الثانية تدل على انتفائهما. وفي

---

(١) الصاوي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

معنى القراءة الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾. قال مجاهد: كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون. واختار أبو عبيدة القراءة الثانية، قال: لأن العرب لا تكاد تقول: سمعت إليه، وتقول: تسمعت إليه. وظاهر[1] الأحاديث أنهم يتسمعون حتى الآن لكنهم لا يسمعون، وإن سمع أحد منهم شيئاً لم يُفلِت حرساً وشهباً من وقت بعثة رسول الله ﷺ.

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾؛ أي: يُرجمون، ويُرمون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانب السماء، ومن كل جهة يصعدون بالشهب، إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع. والمرجوم بها هي التي يراها الناس تنقض، وليست بالكواكب الجارية في السماء؛ لأن تلك لا تُرى حركتها، وهذه الراجمة نَرى حركتها لقربها منا. وقرأ محبوب عن أبي عمرو ﴿ويقذفون﴾ مبنياً للفاعل، وهي قراءة غير مطابقة لما هو المراد من النظم القرآني.

وانتصاب ﴿دُحُورًا﴾ على أنه مفعول لأجله. والدحور: الطرد والإبعاد؛ أي: يُقذفون لأجل الطرد والإبعاد عن السماء أو على الحال؛ أي: يقذفون حال كونهم مدحورين مطرودين أو مصدر ليقذفون؛ لأنه متضمن معنى الطرد؛ أي: ويدحرون من كل جانب دحوراً، ويقذفون من كل جهة قذفاً. وقيل: هو جمع داحر، نحو: قاعد وقعود، فيكون حالاً أيضاً. وقرأ الجمهور: ﴿دُحُورًا﴾ بضم الدال. وقرأ علي، والسلمي، وابن أبي عبلة، ويعقوب الحضرمي، والطبراني عن رجاله عن أبي جعفر ﴿دحورا﴾ بنصب الدال أي: قذفاً دحوراً بنصب الدال. ويجوز أن يكون مصدراً كالقبول والولوع إلا أن هذه ألفاظ ذكر أنها محصورة.

واختلف[2]، هل كان هذا الرمي لهم بالشهب، قبل المبعث أو بعده؟ فقال بالأول طائفة، وبالآخر آخرون. وقالت طائفة، بالجمع بين القولين: إن الشياطين لم تكن ترمى قبل المبعث رمياً يقطعها عن السمع، ولكن كانت ترمى وقتاً ولا ترمى وقتاً آخر، وترمى من جانب ولا ترمى من جانب آخر. ثم بعد المبعث،

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

رميت في كل وقت ومن كل جانب حتى صارت لا تقدر على استراق شيء من السمع إلا من اختطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب.

فإن قلت: تقدم[1] أن الكواكب ثابتة في السماء أو في العرش زينة، ومقتضى كونها رجوماً للشياطين أنها تنفصل وتزول، فكيف الجمع بين ذلك؟.

أجيب: بأنه ليس المراد: أن الشياطين بذات الكواكب ترمى، بل تنفصل منها شهب تنزل على الشياطين والكواكب باقية بحالها.

إن قلت: إذا كان الشياطين خلقوا من النار فكيف يحترقون؟

أجيب: بأن الأقوى يحرق الأضعف، كالحديد يقطع بعضه بعضاً.

إن قلت: إذا كان الشيطان يعلم أنه لا يصل لمقصوده بل يصاب، فكيف يعود مرة أخرى؟.

أجيب: بأنه يرجو وصوله لمقصوده وسلامته، كراكب البحر، فإنه يشاهد الغرق المرة بعد المرة، ويعود طمعاً في السلامة.

وقيل معنى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي[2]: إن كثيراً من أولئك الجهّال، والشياطين محبوسون في هذه الأرض غائبة أبصارهم عن الملأ الأعلى، لا يفهمون رموز هذه الحياة وعجائبها، ولا ترقى نفوسهم إلى التطلع إلى تلك العوالم العليا، والتأمل في إدراك أسرارها، والبحث في سر عظمتها. ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾؛ أي: وقد قذفتهم شهواتهم وطردتهم من كل جانب، فهم تائهون في سكراتهم، تتخطفهم الأهواء والمطامع والعداوات. فلا يبصرون ذلك الجمال الذي يُشرف للحكماء، ويبهر أنظار العلماء، ويتجلى للنفوس الصافية ويسحرها بعظمته. وهم ما زالوا يدأبون على معرفة هذا السر، حتى ذاقوا حلاوته، فخروا ركعاً سجداً مذهولين من ذلك الجمال والجلال.

﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: وللشياطين في الآخرة غير ما في الدنيا، من عذاب الرمي بالشهب. ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ أي: عذاب دائم غير منقطع، من وصب الأمر وصوباً

---

(١) الصاوي. (٢) المراغي.

إذا دام. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب الدائم. وقال السدي، وأبو صالح، والكلبي: هو الموجع الذي يصل وجعه إلى القلب.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناء[1] من واو ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾، و﴿من﴾ بدل من الواو. والخطف: اختلاس كلام الملائكة مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة؛ أي: لا يسمع جماعة الشياطين إلى الملأ الأعلى، إلا الشيطان الذي خطف؛ أي: اختلس الخطفة؛ أي: المرة الواحدة. يعني: كلمة واحدة من كلام الملائكة. ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾؛ أي: أتبع ذلك المختلس، ولحقه ﴿شِهَابٌ﴾؛ أي: شعلة نار ساطعة، والمراد هنا: ما يرى منقضاً من السماء. ﴿ثَاقِبٌ﴾؛ أي: مضيء غاية الإضاءة، يثقب بإضاءته ونوره ما يقع عليه؛ أي: كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين إذا صعدوا لاستراق السمع.

والمعنى[2]: لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي اختلس الكلمة الواحدة، من كلام الملائكة على وجه المسارقة، فلحقه شهاب مضيء يحرقه، أو يخبله أو يجرحه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ جالس في نفر من أصحابه، إذ رمي بنجم فاستنار، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية»؟ فقالوا: يموت عظيم أو يولد عظيم، فقال: «إنه لا يرمى لموت أحد، ولا لحياته، ولكن الله إذا قضى أمراً، يسبحه حملة العرش وأهل السماء السابعة يقولون؛ أي: ـ أهل السماء السابعة لحملة العرش ـ: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، فيستخبر أهل كل سماء أهل سماء، حتى ينتهي الخبر إلى السماء الدنيا، فيتخطف الجن فيرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يزيدون فيه ويكذبون، فما ظهر صدقه فهو من قسم ما سُمع من الملائكة، وما ظهر كذبه فهو من قسم ما قالوه». قيل: كان ذلك في الجاهلية أيضاً، لكن غُلِّظ المنع، وشُدد حين بعث النبي ﷺ.

قيل: هيئة استراقهم، أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء الدنيا،

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

فيسمع من فوقهم الكلام، فيلقيه إلى من تحته ثم هو يلقيه إلى الآخر، حتى إلى الكاهن. فيُرمون بالكوكب فلا يُخطىء أبداً، فمنهم من يحرق بعض أعضائه وأجزائه، ومنهم من يُفسد عقله، ومنهم من يجرحه، كما مر. وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيه، وربما ألقاه قبل أن يدركه. ولأجل أن يصيبهم مرة ويسلمون أخرى لا يرتدعون عن الاستراق بالكلية كراكب البحر للتجارة، فإنه قد يصيبه الموج وقد لا يصيبه، فلذا يعود إلى ركوب البحر رجاء السلامة. ولا يقال: إن الشيطان من النار فلا يحترق؛ لأنه ليس من النار الصرف، كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص، مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها، كما مر كل ذلك.

ثم إن المراد بالشهاب: شعلة نار تنفصل من النجم، لا أنه النجم نفسه، لأنه قار في الفلك على حاله. وقالت الفلاسفة: إن الشهب إنما هي أجزاء نارية، تحصل في الجو عند ارتفاع الأبخرة المتصاعدة، واتصالها بالنار التي دون الفلك، انتهى. وقال بعض كبار أهل المعرفة: لولا الأثير ـ الركن من النار ـ الذي هو بين السماء والأرض ما كان حيوان ولا نبات ولا معدن في الأرض، لشدة البرد الذي في السماء الدنيا. فهو؛ أي: الأثير يسخن العالم لتسري فيه الحياة، بتقدير العزيز العليم. وهذا الأثير الذي هو ركن النار متصل بالهواء، والهواء حار رطب، ولما في الهواء من الرطوبة، إذا اتصل بهذا الأثير أثّر فيه، لتحركه اشتعالاً في بعض أجزاء الهواء الرطبة، فبدت الكواكب ذوات الأذناب، لأنها هواء محترق لا مشتعل، وهي سريعة الاندفاع. وإن أردت تحقيق هذا، فانظر إلى شرر النار، إذا ضرب الهواء النار بالمروحة، يتطاير منها شرر مثل الخيوط في رأى العين، ثم تنطفىء كذلك هذه الكواكب المنقضة. وقد جعلها الله رجوماً للشياطين الذين هم كفار الجن، كما قال الله تعالى. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

يقول الفقير[1]: كلام هذا البعض، يفيد حدوث بعض الكواكب ذوات

---

(١) روح البيان.

الأذناب، من التحريك المذكور، وهي الكواكب المنقضة، سواء كانت ذوات أذناب أو لا، وهذا لا ينافي ارتكاز الكواكب الغير الحادثة في أفلاكها أو تعليقها في السماء، أو بأيدي الملائكة كالقناديل المعلقة في المساجد، أو كونها ثقباً في السماء، أو عروقاً نيرة من الشمس على ما ذهب إلى كل منها طائفة من أهل الظاهر والحقيقة. قال قتادة: جعل الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك، فقد تكلف ما لا علم به، اهـ من «روح البيان».

وقرأ الجمهور[١] ﴿خَطِفَ﴾ ثلاثياً بكسر الطاء. وقرأ الحسن، وقتادة بكسر الخاء والطاء مشددة. قال أبو حاتم: ويقال: هي لغة بكر بن وائل، وتميم بن مرة. وقرىء ﴿خَطّف﴾ بفتح الخاء وكسر الطاء مشددة، ونسبها ابن خالويه إلى الحسن، وقتادة، وعيسى. وعن الحسن أيضاً التخفيف. وأصله في هاتين القراءتين اختطف، ففي الأولى لما سكنت التاء للإدغام والخاء ساكنة كسرت لالتقاء الساكنين، فذهبت ألف الوصل وكسرت الطاء اتباعاً لحركة الخاء. وعن ابن عباس ﴿خِطِف﴾ بكسر الخاء والطاء مخففة، أتبع حركة الخاء لحركة الطاء، كما قالوا: نعم. وقرىء ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ مخففاً ومشدداً.

وقيل في تفسير معنى الآية على نهج ما سبق: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ أي[٢]: وأولئك لهم عذاب دائم، لتقصيرهم عن البحث في سر عظمة هذا الكون، والوصول بذلك إلى عظمة خالقه وبديع قدرته. ثم بيّن من وفّقهم الله تعالى، وأنعم عليهم ممن ظفروا بالمعرفة فقال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾؛ أي: إلا من لاحت له بارقة من ذلك الجمال، وعنَّت له سانحة منه، فتخطفت بصيرته كالشهاب الثاقب، فحن إلى مثلها وصبت نفسه إلى أختها، وهام بذلك الملكوت العظيم باحثاً عن سر عظمته ومعرفة كنه جماله. وهم من اصطفاهم الله تعالى من عباده، وآتاهم الحكمة من لدنه، وأيدهم بروح من عنده.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وهم أنبياؤه، وأولياؤه الذين أنعم عليهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

والخلاصة: أن الدنيا بيت فرشه الأرض، وسقفه السماء، وسراجه الكواكب، والبيوت الرفيعة العماد العظيمة البناء، كما تزين بالأنوار تزين بالنقوش التي تكسبها لألاء وبهجة في عيون الناظرين، ولكن لن يصل إلى إدراك تلك المحاسن إلا الملائكة الصافون، والأنبياء، والعلماء المخلصون. أما الجهال، والشياطين المتمردون من الجن والإنس فأولئك عن معرفة محاسنها غافلون. فلقد يعيش المرء منهم، ويموت وهو لاه عن درك هذا الجمال. إذ لا ينال العلم إلا عاشقوه، وقد تبدو لهم أحياناً بارقة من محاسن هذا الجمال، فتخطف بصائرهم كالشهاب الثاقب، فيخطفون منها خطفةً يتبعها قبس من ذلك النور يضيء قلوبهم، وينير ألبابهم. فيكونون ممن كتب الله لهم السعادة، وقيَّض لهم التوفيق والهداية، وممن اصطفاهم ربهم برضوانه والفوز بنعيمه. وقد نحونا بهذا التفسير نحواً آخر يخالف ما في كثير من التفاسير، إذ أنهم قالوا: إن خطف الخطفة كان من الشيطان حين أراد أن يسترق السمع ويأخذ أخبار السماء، فأتبعه شهاب ثاقب فأحرقه ولم يستطع أخذ شيء منها، وعصم الله وحيه وكتابه، اهـ.

قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ خطاب للنبي ﷺ، والضمير لمشركي مكة المنكرين للبعث. والمراد[1] بالاستفتاء هنا: الاستخبار كما في قوله تعالى في قصة أهل الكهف: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾، وليس المراد سؤال الاستفهام بل التوبيخ. والمعنى: فاستخبر يا محمد مشركي مكة، توبيخاً لهم، واسألهم سؤال محاجة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ وأقوى أجساماً، وأعظم أعضاء، وأحكم خلقة، وأمتن بنية، أو أصعب على الخالق خلقاً، أو أشق إيجاداً ﴿أَم مَّنْ﴾؛ أي: أم الذي ﴿خَلَقْنَآ﴾ هم من السموات والأرض وما بينهما من الملائكة، والمشارق، والمغارب، والكواكب، والشهب الثواقب، والشياطين المردة؛ أي: أأنتم أشد خلقاً من هؤلاء المذكورين، أم أشد منكم خلقاً. و﴿مَّنْ﴾ لتغليب العقلاء على

(١) روح البيان.

غيرهم. قال الزجاج[1]: المعنى: فاسألهم سؤال تقرير أهم أشد خلقاً؛ أي: أحكم صنعة أم من خلقنا قبلهم من الأمم السالفة، يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بالتكذيب فما الذي يؤمنهم من العذاب.

ثم ذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾؛ أي: خلقنا أصلهم، وهو آدم، وهم من نسله ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾؛ أي: لاصق يلصق ويعلق باليد، لا رمل فيه. والباء في ﴿لَّازِبٍ﴾ بدل من الميم، والأصل: لازم مثل: بكة ومكة، كما في كشف الأسرار. واللازب: الثابت كما يقال: صار الشيء ضربة لازب، ومنه: قول النابغة:

لاَ تَحْسَبُوْنَ ٱلْخَيْرَ لاَ شَرَّ بَعْدَهُ وَلاَ تَحْسَبُوْنَ ٱلشَّرَّ ضَرْبَةَ لاَزِبِ

والمراد من الآية[2]: إثبات المعاد، ورد استحالتهم إياه. وتقريره: إن استحالة المعاد، إما لعدم قابلية المادة، ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب، الحاصل من ضم الجزء المائي إلى الجزء الأرضي، وهما باقيان قابلان الانضمام بعد. وإما لعدم قدرة الفاعل، وهو باطل. فإن من قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة.. قادر على ما لا يعتد به، بالإضافة إليها، وهو خلق الإنسان وإعادته سيما، ومن الطين اللازب بدأهم، وقدرته ذاتية لا تتغير. فهي بالنسبة إلى جميع المخلوقات على السواء.

والمعنى في الآية: أن هؤلاء كيف يستبعدون المعاد، وهم مخلوقون من هذا الخلق الضعيف، ولم ينكره من هو مخلوق خلقاً أقوى منهم. وأعظم وأكمل وأتم.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ بتشديد الميم، وهي أم المتصلة. وقرأ الأعمش ﴿أمن﴾ بتخفيف الميم دون ﴿أَمْ﴾ استفهاماً ثانياً تقريرياً أيضاً، فهما جملتان مستقلتان في التقرير على قراءته. و﴿مَن﴾: مبتدأ، والخبر محذوف،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

تقديره: أشد، فعلى أم من هو تقرير واحد، ونظيره: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾. قيل: وقرىء ﴿لازم﴾ و﴿لاتب﴾، ولا أدري من قرأ بذلك. واللاتب: الثابت. قال الأصمعي: واللاتب: اللاصق مثل: اللازب. وفي مصحف عبد الله: ﴿أم من عددنا﴾، وهو تفسير لمن خلقنا؛ أي: من عددنا من الصافات وما بعدها من المخلوقين.

ومعنى الآية[1]: أي سل يا محمد هؤلاء المنكرين للبعث؛ أي أصعب إيجاداً أهم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة؟. والسؤال للتوبيخ والتبكيت، فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد منهم خلقاً؛ أي: وإذاً فكيف ينكرون البعث وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا؟ فأين هم بالنسبة لهذه العوالم التي خلقناها؟. ثم زاد الأمر بياناً، وأوضح هذا التفاوت، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾؛ أي: إنا خلقنا أباهم آدم من طين رخو ملتصق بعضه ببعض. وفي هذا شهادة عليهم بالضعف، والرخاوة دون الصلابة والقوة، فأين هم من كواكب السماء وعالم الملائكة، وتلك العوالم المشرقة، وإذا قدرنا أن نخلق تلك العوالم العظيمة، فهل يعجزنا أن نعيد ما هو مخلوق من طين، لا يصلح للحياة إلا بإشراق الأنوار عليه، ووصول الآثار من العوالم الأخرى إليه.

ثم أضرب سبحانه عن الكلام السابق، إلى خطاب الرسول ﷺ بقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا محمد من قدرة الله سبحانه ﴿و﴾ هم ﴿يسخرون﴾ منك بسبب تعجبك، أو ويسخرون منك بما تقوله، من إثبات المعاد. وفي «المفردات»: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من إنكارهم البعث لشدة تحققك بمعرفته، ويسخرون بجهلهم. قال سعدي المفتي: وهذا إضراب عن الأمر بالاستفتاء؛ أي: لا تستفتهم فإنهم معاندون ومكابرون لا ينفع فيهم الاستفتاء، وانظر إلى تفاوت حالك وحالهم، أنت تعجب من قدرة الله تعالى، على خلق هذه الخلائق العظيمة، ومن قدرته

---

(١) المراغي.

على الإعادة، وإنكارهم للبعث، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث. وقال قتادة: عجب نبي الله ﷺ من هذا القرآن، حين أنزل، وضلال بني آدم. وذلك أن النبي ﷺ كان يظن، أن كل من يسمع القرآن يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن، فسخروا منه، ولم يؤمنوا، عجب من ذلك النبي ﷺ. فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾. والسخرية: الاستهزاء، والعجب والتعجب: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء.

والخلاصة: إن قلوبهم غلف، فلا تنظر فيما حولها من البراهين، والآيات الدالة على البعث، ولا تقدر أن تنفذ إلى الإيقان به. فحالهم عجب، ويحق لك أن تكثر التعجب منها، فلقد بلغ من عنادهم وإصرارهم على إنكارهم أن يسخروا من مقالك ومن اهتمامك بإقناعهم في وجوب تسليمهم بالبعث والاعتقاد بحصوله.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿عَجِبْتَ﴾ بفتح التاء على الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: بل عجبت يا محمد، من قدرة الله، على هذه الخلائق العظيمة، وهم يسخرون منك ومن تعجبك، ومما تريهم من آثار قدرة الله، أو عجبت من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث، أو عجبت من إعراضهم عن الحق وعماهم من الهدى، وأن يكونوا كافرين مع ما جئتهم به من عند الله تعالى. وقرأ حمزة، والكسائي، وابن سعدان، وابن مقسم بتاء المتكلم. ورويت عن علي وعبد الله، وابن عباس، والنخعي، وابن وثاب، وطلحة، وشقيق، والأعمش، وأنكر شريح القاضي هذه القراءة، وقال: الله لا يعجب. فقال إبراهيم: كان شريح معجباً بعلمه، وعبد الله أعلم منه يعني: عبد الله بن مسعود. والظاهر: أن ضمير المتكلم هو لله تعالى، والعجب لا يجوز على الله تعالى؛ لأنه روعة تعتري المتعجب من الشيء. قال الحسن بن الفضل[٢]: التعجب من الله إنكار الشيء، وتعظيمه. ومعنى ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾؛ أي: استعظمت كفرهم وإنكارهم البعث، وسخطت منه. وقال علي بن

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

سليمان: معنى القراءتين واحد، والتقدير: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بل عجبت من إنكاركم البعث، مع قيام البراهين الدالة عليه؛ لأن النبي ﷺ مخاطب بالقرآن. قال النحاس: وهذا قول حسن، وإضمار القول كثير. قال القاضي زكريا[1] قوله: ﴿بل عجبتُ ويسخرون﴾ بضم التاء على قراءة حمزة والكسائي. فإن قلت: ما وجهه، مع أن التعجب، روعة تعتري الإنسان عن استعظام الشيء، والله منزه عنها؟.

قلت: أراد بالتعجب: الاستعظام، وهو جائز على الله تعالى، أو معناه: قل يا محمد: بل عجبت. وفي الذي تعجب قولان:

أحدهما: كفرهم بالقرآن.

والثاني: إنكارهم البعث، انتهى.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟﴾؛ أي: ودأبهم المستمر، أنهم إذا وُعظوا بشيء من المواعظ ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾؛ أي: لا يتعظون. قال سعيد بن المسيب؛ أي: إذا ذكر لهم ما حل بالمكذبين ممن كان قبلهم أعرضوا عنه، ولم يتدبروا، انتهى. وفيه إشارة إلى أنهم نسوا الله غاية النسيان، بحيث لا يذكرونه إذا ذكروا. يعني: بالله تعالى لا يتذكرون.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ أي: معجزة تدل على صدق القائل بالبعث. والسين، والتاء في قوله: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ للمبالغة والتأكيد؛ أي: يبالغون في السخرية والاستهزاء. أو للطلب على أصله؛ أي: يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها. ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا الخارق الذي تأتينا به ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: إلا سحر واضح، ظاهر سحريته. وفيه إشارة إلى أن أهل الإنكار إذا رأوا رجلاً يكون آية من آيات الله سبحانه يسخرون منه، ويعرضون عن الإيمان به، ويقولون لما يأتي به: إن هذا إلا سحر مبين، لانسداد بصائرهم عن رؤية حقيقة الحال، بغطاء الإنكار ونسبة أهل الهدى إلى الضلال.

---

(١) فتح الرحمٰن.

وحاصل معنى الآيات[1]: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: وهم لقسوة قلوبهم إذا وعظوا لا تنفعهم العظة؛ لأنه قد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فماذا تفيد العبر أو تجدي الذكرى مع قوم هذه حالهم. ثم بالغ في ذمهم وشديد غفلتهم عن النظر في دلائل الحق فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: وإذا أقيمت لهم الأدلة والمعجزات التي تُرشد إلى صدق من يعظهم، ويذكرهم بأيام الله، نادى بعضهم بعضاً، متضاحكين مستهزئين: هلموا وانظروا إلى ما يفعله هذا الساحر، الذي يخلب ألبابنا، ويسلب عقولنا، ويريد أن يصدنا عما كان يعبد آباؤنا. وهذا ما أشار إليه حاكياً قولهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: وقالوا: ما هذا الذي يأتينا به الفينة بعد الفينة، مما يدعي أنه أدلة ظاهرة على صدق ما يدعيه، إلا ألاعيب ساحر، وخدعة أريب ماهر يريد أن يلفتنا عما كان يعبد آباؤنا، وما هي من دلائل الحق في شيء، فإياكم أن تخدعوا بها، وترجعوا عن الدين الحق، الذي عليه آباؤكم، وقد مرت عليه القرون ونحن له متبعون.

ثم خصصوا بعض ما ينكرون مما يدعيه من الحشر والبعث، فقالوا: ﴿إئذا﴾؛ أي: أنبعث إذا ﴿مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾؛ أي: وكان بعض أجزائنا تراباً وبعضها عظاماً. وتقديم[2] التراب لأنه منقلب عن الأجزاء البالية، فالعامل في ﴿إذا﴾ هو ما دل عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وهو أنبعث لا نفس مبعوثون لتوسط ما يمنع من عمله فيه؛ أي: لا نُبعث، فإن الهمزة فيه للإنكار الذي يراد به: النفي. وتقديم الظرف لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إلى حالة منافية له غاية المنافاة. وهذا[3] الإنكار منهم للبعث هو السبب الذي لأجله كذبوا الرسل وما نزل عليهم، واستهزؤوا بما جاؤوا به من المعجزات. والهمزة في قوله: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري أيضاً، والواو للعطف، و﴿ءَابَآؤُنَا﴾ مبتدأ، خبره محذوف عند سيبويه؛ أي: و﴿ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ أي: الأقدمون أيضاً مبعوثون؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

لا يبعثون. ومرادهم زيادة الاستبعاد، بناء على أنهم أقدم، فبعثهم أبعد على زعمهم.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ بفتح الواو على أن الواو حرف عطف، دخلت عليه همزة الاستفهام. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، وابن عامر، ونافع في رواية قالون بسكون الواو على أن ﴿أَوْ﴾ هي العاطفة. وفي «فتح الرحمٰن»: ختم الآية هنا بقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وختم التي بعدها بقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؛ أي: لمجزيون ومحاسبون، لأن الأولى في حق المنكرين للبعث، والثانية في حق المنكرين للجزاء، وإن كان كل منهما مستلزماً للآخر، انتهى.

ومعنى الآية: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا...﴾ إلخ؛ أي[1]: إنا لو تقبلنا منه بعض ما يقول، وإن كان فيه ما يدهش العقول، لا نتقبل منه تلك المقالة. وهي إحياء العظام النخرة، والأجسام التي صارت تراباً إن هذا إلا إحدى الكبر، فلا ينبغي أن نوجه النظر إلى مثل هذه الآراء التي لا يقبلها العقل، ولا يصل إلى مثلها الفكر. ثم زادوا في استبعادهم وتعظيم تعجبهم، فقالوا: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ⑰﴾؛ أي: أيبعث آباؤنا الأولون أيضاً. وهذا أغرب؛ لأن أباءهم أقدم منهم، فبعثهم أشد غرابة وأكثر استبعاداً.

وبعد أن حكى عنهم هذه الشبهة.. أجاب عنها بقوله ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول تبكيتاً لهم ﴿نَعَمْ﴾ تبعثون يوم القيامة، بعدما تصيرون تراباً وعظاماً ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: والحال أنكم صاغرون أذلاء أمام القدرة البالغة. ونحو الآية قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. و﴿نَعَمْ﴾[2] بفتحتين، يقع في جواب الاستخبار، المجرد من النفي، ورد الكلام الذي بعد حرف الاستفهام. والخطاب لهم ولآبائهم على التغليب. والدخور: أشد الصغار، والذلة. والجملة حال من فاعل ما دل عليه نعم؛ أي: كلكم مبعوثون، والحال أنكم صاغرون، ذليلون على زعم منكم.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ثم ذكر سبحانه، أن بعثهم يقع بزجرة واحدة، فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ الضمير للقصة، أو البعثة المفهومة مما قبلها؛ أي: إنما قصة البعث أو البعثة ﴿زَجْرَةٌ﴾؛ أي: صيحة ﴿وَاحِدَةٌ﴾ من إسرافيل بنفخه في الصور عند البعث، لا تحتاج إلى الأخرى. و﴿هِيَ﴾ إما ضمير مبهم، يفسره خبره، أو ضمير البعثة المذكورة في ضمن ﴿نَعَمْ﴾؛ لأن المعنى: نعم مبعوثون. والجملة جواب شرط مضمر، أو تعليل لنهي مقدر؛ أي: إذا أمر الله بالبعث، فإنما هي إلخ، أو لا تستصعبوه فإنما هي إلخ. والزجرة: الصيحة، كما سيأتي. وهي النفخة الثانية. ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ إذا للمفاجأة، والضمير للمشركين. وفي بعض التفاسير للخلائق كلهم؛ أي: فإذا هم قائمون من مراقدهم أحياء ﴿يَنظُرُونَ﴾ حيارى إلى ما كانوا يوعدون به من قيام الساعة، أو يبصرون كما كانوا، أو ينتظرون ما يفعل بهم من الحساب والجزاء.

﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: قال أولئك المبعوثون، لما عاينوا البعث الذي كانوا يكذبون به في الدنيا: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾؛ أي: يا هلاكنا احضر إلينا لنتعجب منك، فهذا أوان حضورك. وصيغة الماضي في ﴿قَالُوا﴾ للدلالة على التحقق والتقرر. وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ تعليل لدعائهم بالويل على أنفسهم، بطريق الاستئناف؛ أي: هذا اليوم، هو اليوم الذي نجازى فيه بأعمالنا، من الكفر والتكذيب للرسل. وإنما علموا ذلك، لأنهم كانوا يسمعون في الدنيا أنهم يبعثون ويحاسبون ويجازون بأعمالهم، فلما شاهدوا البعث، أيقنوا بما بعده أيضاً. فتقول الملائكة لهم بطريق التوبيخ والتقريع: ﴿هَٰذَا﴾ اليوم الحاضر هو ﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ والقضاء بين الخلائق، أو يوم الفرق بين فريقي الهدي والضلال. ﴿الَّذِي كُنتُم﴾ على الاستمرار ﴿بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: تكذبون به، وتقولون: إنه كذب ليس له أصل أبداً. وتقديم الجار لرعاية الفاصلة.

والمعنى[1]: أي وقال المنكرون للبعث في الدنيا، حين رأوا العذاب لنا: الويل والهلاك، فقد حل ميعاد الجزاء، وسنجازى بما قدمنا من عمل، كما وعدنا

---

(١) المراغي.

بذلك على ألسنة الرسل، فكذبناهم، وسخرنا منهم، وأنكرنا صدق ما قالوا. ثم أقبل بعضهم على بعض يتناجون، ويقولون: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ...﴾ إلخ؛ أي: هذا اليوم، هو اليوم الذي يمتاز فيه المحسن، بما قدم من عمل، عن المسيء الذي دسّى نفسه، بما ران على قلبه من الفسوق والعصيان، ومخالفة أوامر الملك الديّان، وينال كل منهما جزاء ما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فيدخل الأول جنات النعيم على فرش بطائنها من استبرق، ويدخل الثاني في سقر ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

فيقول الله تعالى للملائكة: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالشرك، واجمعوهم. والمراد بالظالمين: المشركين من بني آدم. ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾؛ أي: أشباههم من أهل الشرك، والكفر، والنفاق، والعصيان عابد الصنم مع عبدته، وعابد الكواكب مع عبدتها، واليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، والمجوس مع المجوس، وغيرهم من أهل الملل المختلفة. ويجوز أن يكون المراد بالأزواج: نساءهم اللاتي على دينهم، أو قرناءهم من الشياطين، كل كافر مع شيطانه في سلسلة. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، من الأصنام والشياطين ونحوها، زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم.

وهذا[1] العموم المستفاد من ﴿مَا﴾ الموصولة، فإنها عبارة عن المعبودين لا عن العابدين، كما قيل مخصوص لأن من طوائف الكفار من عبد المسيح، ومنهم من عبد الملائكة، فيخرجون بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾. ووجه حشر الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل، هو زيادة التبكيت لعابديها، وتخجيلهم، وإظهار أنها لا تنفع ولا تضر. ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾؛ أي: فاهدوا أيها الملائكة الظالمين وأزواجهم ومعبوديهم، وسوقوهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ودلوهم عليها؛ أي: عرّفوهم طريق جهنم، ووجهوهم إليها. وفي هذا تهكم بهم. ويقال: الظالم في الآية عام على من ظلم نفسه وغيره، فيحشر كل

---

(١) الشوكاني.

ظالم، مع من كان معيناً له، أهل الخمر مع أهل الخمر، وأهل الزنا مع أهل الزنا، وأهل الربا مع أهل الربا، وغيرهم كل مع مصاحبه.

ومعنى الآية[1]: أي ويقال للملائكة: احشروا الظالمين من كل مكان إلى موقف الحساب، مع أشباههم وأمثالهم، فاجعلوا ذوي المعاصي المتشابهة بعضهم مع بعض، فاجعلوا الزناة معاً، والآكلين لحوم الناس والناهشين لأعراضهم كذلك، واجعلوا عابدي الأصنام ومعبوديهم من الأوثان والأصنام معاً، ليكون في ذلك زيادة لهم في الحسرة، وعظيم التخجيل على ما أتوه من عظيم الشرك، وكبير المعصية. ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم ودلوهم عليها. وفي هذا زيادة في النكاية بهم. والازدراء بشأنهم. إذ كانوا في الدنيا يزدرون المؤمنين ويتقحمونهم. ﴿وَقِفُوهُمْ﴾؛ أي: قفوا أيها الملائكة المشركين، واحبسوهم للحساب، ثم سوقوهم إلى النار بعد ذلك. وجملة قوله: ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ عن أعمالهم، وأقوالهم، وأفعالهم تعليل للجملة الأولى. وقال الضحاك: عن خطاياهم. وقيل: عن لا إله إلا الله. وقيل: عن ظلم العباد. وقرأ الجمهور: بكسر همزة ﴿إِنَّ﴾. وقرأ عيسى بن عمر بفتحها. قال الكسائي: أي: لأنهم أو بأنهم؛ أي: واحبسوهم أيها الملائكة في الموقف، حتى يسألوا عما كسبت أيديهم، واجترحوا من المعاصي والآثام، وعن تلك العقائد الزائغة التي زينها لهم الشيطان، فأضلهم عن سواء السبيل.

وقولوا أيها الملائكة للمشركين عند ذلك: ﴿مَا لَكُمْ﴾؛ أي: أي شيء ثبت لكم أيها المشركون حالة كونكم ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾؛ أي: لا ينصر بعضكم بعضاً بالتخليص من العذاب، كما كنتم تزعمون في الدنيا، كما قال أبو جهل يوم بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾. وجملة ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾ حال من معنى الفعل في ﴿مَا لَكُمْ﴾؛ أي: ما تصنعون حال كونكم غير متناصرين، ومعناه: ما سبب عدم تناصركم، ولأي شيء لا ينصر بعضكم بعضاً، وقد كنتم في الدنيا تزعمون أنكم تتناصرون.

---

(١) المراغي.

وقرىء ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾ بتاء واحدة، وبتاءين، وبإدغام إحداهما في الأخرى. وتأخير هذا السؤال إلى ذلك الوقت، لأنه وقت تنجّز العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة، وحالة انقطاع الرجاء منها بالكلية. فالتوبيخ والتقريع حينئذ أشد وقعاً وتأثيراً وفي الأثر: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن خمس: عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله مم كسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به». وقد جاء في الآثار: «إن مذاكرة العلم ساعة خير من إحياء الليلة». خصوصاً إذا كان مما يتعلق بالله ويقل أهله في هذا الزمان، وانقطعت مذاكرته عن اللسان، لانقطاع ذوق الجنان وانسداد البصيرة. والعياذ بالله من الخذلان والحرمان.

والخلاصة: إن الأمر بهدايتهم إلى الجحيم، إنما يكون بعد إقامة الحجج عليهم، وقطع أعذارهم بعد حسابهم.

ثم أضرب سبحانه، عما تقدم إلى بيان الحالة التي هم عليها هنالك، فقال: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: فيقول الله سبحانه: بل هم في هذا اليوم الرهيب ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾؛ أي: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه، ذليلون خاضعون بالاضطرار لظهور عجزهم. إذ قد سدت أمامهم وجوه الحيل، وعجزوا عن الوصول إلى السلام من أي طريق يلتمسونها، فلا فائدة في المنازعة، ولا سبيل إلى الجدل والمخاصمة. فأسلم بعضهم بعضاً إلى الهلكة وخذله عن عجز، فكل مستسلم صاحبه غير منتصر له، كقوم متحابين انكسرت سفينتهم، فوقعوا في البحر، فأسلم كل واحد منهم صاحبه إلى الهلكة لعجزه عن تنجية نفسه فضلاً عن غيره، بخلاف حال المتحابين في الله سبحانه. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾؛ أي: بعض الكفار بوجهه. وهم الأتباع أو الكفرة. والإقبال ضد الإدبار ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هم الرؤساء أو القرناء حال كونهم ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ ويتخاصمون؛ أي: يسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ، بطريق الخصومة والجدال، كأنه قيل: كيف يتساءلون؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: الأتباع للرؤساء أو الكفرة للقرناء ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الرؤساء أو القرناء ﴿كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: بالقوة والإجبار. فـ﴿عن﴾ بمعنى الباء، واليمين بمعنى القوة كقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾؛ أي: بالقوة،

فتجبروننا على الغي والضلال فاتبعناكم خوفاً منكم بسبب القهر والقوة. وعبر[1] عن القوة باليمين بمعنى الجارحة؛ لأن أكثر الأعمال تزاول بها، أو كنتم تأتوننا عن اليمين؛ أي: عن الناحية التي كان منها الحق، فتصرفوننا عنها، كما في «المفردات». أو تأتوننا عن الجهة التي كنا نأمنكم منها، لحلفكم أنكم على الحق، فصدقناكم فأنتم أضللتمونا، كما في «فتح الرحمٰن» فاليمين إذاً بمعنى الحلف؛ أي: تأتوننا بالأيمان التي كنتم تحلفونها فوثقنا بها. والأول أوفق للجواب الآتي، كما في «الإرشاد». أو كنتم تأتوننا عن اليمين التي نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك عن جهة النصح، والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين، وتسميه السانح.

والمعنى[2]: أي وأقبل التابعون من الكفار على رؤسائهم المضلين لهم، يسأل بعضهم بعضاً سؤال تقريع وتعنيف، على طريق الجدل والخصومة، إذ أيقنوا أنهم هالكون لا محالة، وأنهم صائرون إلى عذاب دائم في النار. فألقى الأتباع مسؤولية ما هم فيه على رؤسائهم في الكفر والضلال، ورد الرؤساء عليهم حجتهم بما جاء في الآية بعد.

ثم فصل طريق التساؤل، وكيف يحدث. فقال: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾؛ أي: قال الأتباع لرؤساء الضلال والكفر: إنكم كنتم تمنعوننا عن فعل الخير، وتصدوننا عن سلوك طريقه، وترغّبوننا فيما تديّنون به وتعتقدونه. ومن ثم أضللتمونا، وأوقعتمونا في الهلاك الذي نحن صائرون إليه لا محالة. فرد الرؤساء عليهم، وأجابوهم بجوابين:

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف بياني، كأنه قيل: فماذا قال الرؤساء أو القرناء؟ فقيل: قالوا: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لم نمنعكم نحن من الإيمان بالقوة والقهر أو بغير ذلك، بل لم تؤمنوا باختياركم، وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه، وآثرتم الكفر عليه؛ أي: فردوا عليهم منكرين إضلالهم إياهم، قالوا: إننا ما أضللناكم بل أنتم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

كنتم بطبيعة أنفسكم مستعدين للكفر، بما دسيتم به أنفسكم، من أفعال الشرك والمعاصي. إذ كنتم تشركون بالله سواه من الأوثان والأصنام، وترتكبون من أنواع الفجور وما كان سبباً في الطبع على القلوب والأفئدة حتى لم تعرفوا للحق سبيلاً ولا للخير طريقاً.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾؛ أي: من قهر وتسلط نسلب به اختياركم. والسلاطة: التمكن من القهر، ومنه: السلطان: بمعنى الغالب والقاهر. والسلطان يطلق على السلاطة أيضاً، ومنه: ما في هذه الآية ونظائرها ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾؛ أي: مختارين للطغيان مصرين عليه. والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان.

والمعنى[1]: أي إننا على فرض إضلالكم وتزيين الكفر لكم، لم نجبركم عليه، ولم نسلبكم اختياركم. فقلوبكم كانت محبة لما تفعلون، مسرورة مما تأتون وما تذرون، مائلة إلى الكفر والعصيان، تواقة للسير على سننه واتباع طريقته. فما كان منا إلا أن دعوناكم لتؤمنوا بما اخترناه لأنفسنا، وزيّنه الشيطان لنا، ووسوس به إلينا، فلبيتم دعوتنا سراعاً، وسرتم فيما نحن فيه سائرون، إذ كنتم لذلك مستعدين ولمثله محبين، فما كان منا إلا الدعوة، وكانت منكم الإجابة باختياركم لا جبراً لكم.

ثم ذكروا نتيجة لما تقدم، فقالوا: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾؛ أي: لزم وثبت علينا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ وقضاؤه بتعذيبنا، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾. ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾؛ أي: العذاب الذي ورد به الوعيد.

والمعنى: أي ولأجل أنا بطبعنا، كنا قوماً طاغين، وللكفر وتدسية أنفسنا مستعدين، وعن الإيمان بربنا معرضين، ثبت علينا وعيده، بأنا ذائقوا العذاب لا محالة، إذ كان من عدله أن يجازي كل نفس بما كسبت، ويثيبها بما عملت. وهو الخبير بها، وبما اجترحت. وهذا جزاء لا محيص عنه، وهو نتيجة حتمية لما

---

(١) المراغي.

فعلنا باختيارنا، واقتضاه استعدادنا، فلا يلومنَّ كل منا إلا نفسه، ولا يلم بعضنا بعضاً، ولا داعي إلى الجدل والخصام وشد النكير، فلا يُجنى من الشوك العنب، ولا يعقب الضلال إلا النار عدلاً من ربنا، كما وعد بذلك على ألسنة رسله، وكنا بذلك عالمين، ولكنا كنا عن الخير معرضين، وعن اتباعه مستكبرين ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾؛ أي: فدعوناكم إلى الغي والضلال، دعوة غير ملجئة، فاستجبتم لنا باختياركم الغي على الرشد ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾؛ أي: ثابتين على الغواية، فلا عتب علينا في تعرضنا لإغوائكم بتلك المرتبة من الدعوة، لتكونوا أمثالنا في الغواية؛ أي: إنه لم يكن منا في شأنكم إلا حبنا أن تكونوا مثلنا. وهو غير ملزم لكم، وإنما أضركم سوء اختياركم، وقبح استعدادكم. وهو الذي جعل مصيركم ما تشاهدون من العذاب، الذي وعدتم به على ألسنة الرسل.

وبعد أن ذكر حالهم.. أعقبه بذكر العذاب الذي سيحل بهم جميعاً، رؤساء ومرؤوسين. فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: فإن الأتباع والمتبوعين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يتساءلون، وهو يوم القيامة ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ متعلق بقوله: ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ حسبما كانوا مشتركين في الغواية؛ أي: فإن الفريقين المتسائلين حينئذ مشتركون في العذاب لا محالة، كما اشتركوا في الضلال والغواية وإن كان المغوون أشد عذاباً، لأنهم تحملوا أوزارهم وأوزاراً مثل أوزار من أضلوهم، كما ثبت في الحديث. وقد تقدم ذكره مراراً.

ثم ذكر سبحانه، أن هذا عدل منه على مقتضى سننه، فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الفعل البديع الذي تقتضيه الحكمة التشريعية. وهو الجمع بين الضالين والمضلين في العذاب. ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المتناهين في الإجرام. وهم المشركون، كما يعرب عنه التعليل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ بطريق الدعوة والتلقين بأن يقال لهم: قولوا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: يتكبرون، ويتعظمون عن القول بهذه الكلمة المشرّفة. ومحل ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ النصب على أنه خبر كان، أو الرفع على أنه خبر إن، وكان ملغاة.

والمعنى: أي إن مثل ذلك الجزاء العظيم نفعل بالمشركين، وفاقاً لما

تقتضيه الحكمة، ويوجبه العدل بين العباد. فيعطي كل عامل جزاء ما قدمت يداه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ثم فصل بعض ما استحقوا لأجله العذاب، فقال: إنهم كانوا إذا لقنوا كلمة التوحيد نفروا منها، وأعرضوا عن قبولها، وصعروا خدودهم أنفة وكبرا أن يسمعوا مثلها.

واعلم: أنه وقع ذكر ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في القرآن في موضعين:

أحدهما: في هذه السورة.

والثاني: في سورة القتال في قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وليس في القرآن لهما ثالث.

ثم ذكروا السبب الذي لأجله امتنعوا من استجابة دعوته، فيما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: المشركون بعضهم لبعض. والهمزة في قوله: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ للاستفهام الإنكاري؛ أي: ما نحن بتاركي عبادة آلهتنا وهي الأصنام. ﴿لِشَاعِرٖ﴾؛ أي: لأجل قول شاعر ﴿مَّجۡنُونِۭ﴾؛ أي: مغلوب على عقله، يعنون محمداً ﷺ؛ أي: أنترك عبادة الآلهة التي ورثناها عن آبائنا كابراً عن كابر، ونستمع لقول شاعر يخلط ويهذي. فمثله لا يستمع لكلامه، ولا يصغي إلى قوله.

ولقد كذبوا في ذلك حيث جنّنوه وشعّروه، وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً، وأحسنهم رأياً، وأشدهم قولاً، وأعلاهم كعباً في المآثر والفضائل كلها، وأطولهم باعاً في العلوم والمعارف بأسرها. ويشهد بذلك خطبة أبي طالب في تزويج خديجة الكبرى في محضر بني هاشم، ورؤساء مضر على ما سبق في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ . . .﴾ الآية.

وقد جمعوا في كلامهم هنا بين إنكار الوحدانية وإنكار الرسالة. فإنكار الأولى في استكبارهم حين سماع كلمة التوحيد، وإنكار الثانية في قولهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾.

ثم كذبهم سبحانه، فيما قالوا، فقال: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: ليس الأمر على ما قالوه من الشعر والجنون، بل جاء محمد ﷺ بالحق. وهو التوحيد.

﴿وَصَدَّقَ﴾؛ أي: محمد ﷺ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قبله جميعاً في مجيئهم بذلك. فما جاء به هو الذي أجمع عليه كافة الرسل، فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة؟.

والمعنى: أي أنه ﷺ جاء بالحق الذي لا شك فيه، وهو التوحيد الذي يثبته العقل، ويؤيده البرهان، وبمثله جاء الأنبياء السابقون. فهو لم يكن بدعاً من بين الرسل، بل سار على شاكلتهم، واتبع نهجهم. فكيف يكون من هذه حاله شاعراً أو مجنوناً؟!.

وقرأ عبد الله[1]: ﴿وصدق﴾ بالتخفيف، ﴿المرسلون﴾ بالواو رفعا؛ أي: وصدق المرسلون في التبشير به، وفي أنه يأتي آخرهم.

﴿إِنَّكُمْ﴾ بما فعلتم من الإشراك وتكذيب الرسول والاستكبار ﴿لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الغضب عليهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لذائقو العذاب﴾ بحذف النون للإضافة، وأبو السمال وأبان عن ثعلبة عن عاصم بحذفها لالتقاء لام التعريف ونصب العذاب، كما حذف بعضهم التنوين لذلك في قراءة من قرأ ﴿أحد الله﴾. ونقل ابن عطية عن أبي السمال: أنه قرأ ﴿لذائق﴾ منوّناً، ﴿العذاب﴾ بالنصب. ويخرّج على أن التقدير: جمع، وإلا لم يتطابق المفرد وضمير الجمع في ﴿إِنَّكُمْ﴾. وأنشد سيبويه في مثل هذه القراءة بالحذف للنون، والنصب للعذاب قول الشاعر:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ ... وَلاَ ذَاكِرِ ٱللَّهَ إِلاَّ قَلِيْلاَ

وقرىء ﴿لذائقون﴾ بالنون ﴿العذاب﴾ بالنصب. والمعنى؛ أي: إنكم أيها الكفار المجرمون لتذوقون العذاب الأليم، الذي لا تنفك أوجاعه عنكم، وما هو أبداً بمزايلكم.

ثم بيّن العلة في لحوقه بهم، فقال: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ﴾ أيها الكفرة ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلا جزاء ما كنتم تعملونه من السيئات، أو إلا بما كنتم تعملونه

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

منها؛ أي: وما ينالكم من العذاب إنما هو نتيجة ما قدمتم من عمل وأسلفتم من معصية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

قال ابن الشيخ[1]: ولما كان المقام مظنة أن يقال: كيف يليق بالكريم الرحيم المتعالي، عن النفع والضر أن يعذب عباده؟ أجاب عنه بقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ...﴾ إلخ. وتقريره: أن الحكمة تقتضي الأمر بالخير والطاعة، والنهي عن القبيح والمعصية، ولا يكمل المقصود من الأمر والنهي إلا بالترغيب في الثواب والترهيب بالعقاب. ولما وقع الإخبار بذلك، وجب تحقيقه صوناً للكلام عن الكذب. فلهذا السبب وقعوا في العذاب، انتهى. فعلى العاقل: أن يحذر من يوم القيامة وجزائه، فينتقل من الإنكار إلى الإقرار، ومن الشك إلى اليقين، ومن الكبر إلى التواضع، ومن الباطل إلى الحق، ومن الفاني إلى الباقي، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص.

وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما علامة المؤمن؟ قال: أربع: أن يطهر قلبه من الكبر والعداوة، وأن يطهر لسانه من الكذب والغيبة، وأن يطهر قلبه من الرياء والسمعة، وأن يطهر جوفه من الحرام والشبهة. وأعظم الكبر أن يتكبر عن قول: لا إله إلا الله الذي هو أساس الإيمان، وخير الأذكار.

وبعد أن أبان حال المجرمين، ذكر حال عباد الله المؤمنين العاملين، وما يلاقونه من الجزاء والنعيم. فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ استثناء منقطع من ضمير ﴿ذائقون﴾، وما بينهما اعتراض، جيء به مسارعةً إلى تحقيق الحق، ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم، لا من جهة غيرهم أصلاً، ولكون الاستثناء منقطعاً و«إلا» بمعنى لكن.

قال في «كشف الأسرار»: تم الكلام ههنا؛ أي: عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. والمعنى: إنكم لذائقوا العذاب الأليم، لكن عباد الله المخلصين لا يذوقونه.

---

(١) روح البيان.

قرأ أهل المدينة والكوفة[1]: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفتح اللام، جمع مخلص بصيغة اسم المفعول، وهو من أخلصه الله واصطفاه لدينه وعبادته، واختاره لجناب حضرته كقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۖ﴾؛ أي: اصطفاهم الله تعالى، فلهم سلامة من الأزل إلى الأبد. وقرأ الباقون: بكسر اللام جمع مخلص على صيغة اسم الفاعل، وهو من أخلص عبادته لله تعالى، ولم يشرك بعبادته أحداً كقوله تعالى: ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾. وحقيقة[2] الفرق بينهما على ما قال بعضهم: إن الصادق والمخلص بالكسر من باب واحد، وهو من تخلص من شوائب الصفات النفسانية مطلقاً. والصديق والمخلص بالفتح من باب واحد، وهو من تخلص من شوائب الغيرية أيضاً. والثاني أوسع فلكاً، وأكثر إحاطة. فكل صديق ومخلص بالفتح صادق ومخلص بالكسر من غير عكس. فرحم الله حفصاً حيث قرأ بالفتح حيثما وقع في القرآن.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المخلصين، وهو كلام مستأنف. فكأن[3] سائلاً سأل ما لهؤلاء المخلصين من الأجر والثواب؟ فقيل: أولئك الممتازون عمن عداهم بالإضافة والإخلاص ﴿لَهُمۡ﴾ بمقابلة إخلاصهم في العبودية ﴿رِزۡقٞ﴾ لا يدانيه رزق، ولا يحيط به وصف على ما يفيده التنكير. والرزق اسم لما يسوقه الله إلى الحيوان فيأكله، كما سيأتي. ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة، ونحوها من نعوت الكمال.

والظاهر: أن معناه: معلوم وجوداً وقدراً وحسناً ولذة وطيباً ووقتاً بكرة وعشياً، أو دواماً كل وقت اشتهوه. فإن فيه فراغ الخاطر. وإنما يضطرب أهل الدنيا في حق الرزق، لكون أرزاقهم غير معلومة لهم كما في الجنة. ﴿فَوَٰكِهُۖ﴾ بدل من ﴿رِزۡقٞ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو فواكه، وهو الظاهر، جمع فاكهة. وهي الثمار كلها رطبها ويابسها. وتخصيصها بالذكر لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه؛ أي: ما يؤكل بمجرد التلذذ دون الاقتيات؛ لأنهم مستغنون عن القوت

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

لكون خلقتهم على حالة تقتضي البقاء، فهي محكمة محفوظة من التحلل المحوج إلى البدل، بخلاف خلقة أهل الدنيا فإنها على حالة تقتضي الفناء، فهي ضعيفة محتاجة إلى ما يحصل به القوام. وقال بعضهم: خصها بالذكر؛ لأن الفواكه من أتباع سائر الأطعمة، فذكرها مغن عن ذكر غيرها.

يقول الفقير[1]: والظاهر أن الاقتصار على الفواكه للترغيب والتشويق من حيث إنه لا يوجد في أغلب ديار العرب خصوصاً في الحجاز أنواع الفواكه. وجملة قوله: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿لهم﴾؛ أي: معظمون عنده تعالى، برفع درجاتهم عنده، وسماع كلامه ولقائه في الجنة، لا يلحقهم هوان. وذلك أعظم المثوبات وأليقها بأولي الهمم. وقال بعضهم: لما فصل خصائص رزقهم بيَّن أن ذلك الرزق، يصل إليهم بالتعظيم والإكرام. لأن مجرد المطعوم من غير إعزاز وإكرام يليق بالبهائم. وقرأ الجمهور[2] ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ بتخفيف الراء. وقرأ ابن مقسم ﴿مكرمون﴾ بفتح الراء مشدداً.

ومعنى الآية: أي لكن عباد الله، الذين أخلصوا له العمل، وأنابوا إليه أولئك لهم جنات يتمتعون فيها بكل ما لذ وطاب، فيتمتعون بلذيذ الفواكه ذات الطعم الجميل، والرائحة الشذية، وتأتيهم وهم مكرمون. كما تقدم للملوك المترفين وذوي اليسار في الدنيا. وفي ذلك إيماء إلى أن ما يأكلونه في الجنة، إنما هو للتفكه والتلذذ لا للتقوّت، كما مر، لأنهم في غنى عنه لعدم تحلل شيء من أجسامهم بالحرارة الغريزية، حتى يحتاجوا إلى بدل منه. وما جاء في قوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)﴾ فهو بيان لأنواع ما يأكلون.

ثم بيَّن المكان الذي يأتيهم فيه الرزق، وذكر حالهم إذ ذاك. فقال: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يجوز أن يتعلق بـ﴿مُّكْرَمُونَ﴾، وأن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون حالاً. والنعيم: النعمة؛ أي: في جنات ليس فيها إلا النعيم. فالإضافة للاختصاص، والظرف يقرر محل الرزق والإكرام. وقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يحتمل أن

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

يكون حالاً، وأن يكون خبراً ثالثاً، جمع سرير. وهو الذي يُجلس عليه من السرور إذ كان كذلك لأولي النعمة. ويجوز أن يتعلق ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ بقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾؛ أي: حال كونهم متقابلين على سرر. وهو حال من الضمير في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾. والتقابل وهو أن ينظر بعضهم وجه بعض أتم للسرور والأنس. وقيل: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرّة بهم. ثم أن استئناس بعضهم برؤية بعض صفة الأبرار، فإن من صفة الأحرار أن لا يستأنسوا إلا بمولاهم. وقرأ الجمهور ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ بضم الراء. وقرأ أبو السمال بفتحها. وهي لغة بعض تميم وكلب، يفتحون ما كان جمعاً على فعل من المضعف إذا كان اسماً.

والمعنى: أي إنهم يأتيهم ذلك الرزق وهم في جنات النعيم جالسين على سرر متقابلين ليأنس بعضهم ببعض، ويتمتعوا بطيب الحديث. وفي ذلك لذة روحية لا يدركها إلا ذوو النهى وأرباب الحجا.

وبعد أن ذكر صفة مأكل المخلصين ومسكنهم ذكر صفة شربهم، فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ استئناف مبني على ما نشأ عن حكاية تكامل مجالس أنسهم؛ أي: يدار عليهم وهم على سرر ﴿بِكَأْسٍ﴾؛ أي: بإناء فيه خمر[1]. فإن الكأس يُطلق على الزجاجة ما دام فيها خمر، وإلا فهو قدح وإناء. ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ صفة كأس؛ أي: كائنة من شراب معين؛ أي: ظاهر للعين أو من نهر معين؛ أي: جار على وجه أرض الجنة. فإن في الجنة أنهاراً جارية من خمر، كأنها جارية من ماء.

وفي الآية إشارة إلى أن قوماً شربوا، ومشربهم الشراب بالكأس، والشراب معين محسوس، وقوماً شربوا، ومشربهم الحب، والحب مغيب مستور، وقوماً شربوا، ومشربهم المحبوب هو سر مكنون.

نَسِيْمُ ٱلْحُبِّ يُحْيِيْكُمْ رَحِيْقُ ٱلْحُبِّ يُلْهِيْكُمْ
مِنَ ٱلْمَحْبُوْبِ يَأْتِيْكُمْ إِلَىٰ ٱلْمَحْبُوْبِ يُنْهِيْكُمْ

والمعنى[2]: أي وكما يتمتعون بطيب المأكل، يتمتعون بجيد الشراب،

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

تتميماً للنعمة، كما هو حال العظماء في الدنيا، فيؤتى لهم بصنوف الخمور على سبيل السعة والكثرة، كأنها تؤخذ من نهر جار، فلا تقتير ولا بخل، بل كلما طلبوا وجدوا. وفي ذلك إشارة إلى أنها رقيقة لطيفة، وأنها ليست كخمر الدنيا تداس بالأقدام، كما قال شاعرهم:

وَشَمُولَةٍ مِنْ عَهْدِ عَادٍ قَدْ غَدَتْ صَرْعَىٰ تُدَاسُ بِأَرْجُلِ ٱلْعُصَّارِ
لاَنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ ٱنْتَشَوْا فَتَمَكَّنَتْ مِنْهُمْ فَصَاحَتْ فِيهِمُ بِٱلثَّارِ

وقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ ممنوع من الصرف لألف التأنيث؛ أي: يطاف عليهم بكأس بيضاء لوناً أشد من لون اللبن، والخمر البيضاء لم تر في الدنيا، ولن تُرى. وهذا من جملة: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وبيضاء تأنيث أبيض، صفة ثانية أيضاً لكأس، وكذا قوله: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ صفة ثالثة له؛ أي: لذيذة لكل من يشرب منها. ووصفها[1] بلذة - الذي هو مصدر - إما للمبالغة؛ أي: كأس لذيذة عذبة شهية طيبة، صارت في لذتها كأنها نفس اللذة، أو لأنها تأنيث اللذ بمعنى اللذيذ. وصفها باللذة بياناً لمخالفتها لخمور الدنيا لانقطاع اللذة من خمور الدنيا كلها رأساً بالكلية.

والمعنى[2]: أي يطاف عليهم بكأس لونها مشرق حسن بهي، لا كخمر الدنيا ذات المنظر البشع واللون الأسود أو الأصفر أو الذي فيه كدورة إلى نحو ذلك مما ينفّر الطبع السليم. وهي لذيذة الطعم كما هي طيبة اللون وطيبة الريح. وقد وصفوا خمر الدنيا بالصفرة، كما قال أبو نواس:

صَفْرَاءُ لاَ تَنْزِلُ الأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

وجاء وصفها بالحمرة قبل المزج والصفرة بعده، كما قال الآخر:

وَحَمْرَاءُ قَبْلَ ٱلْمَزْجِ صَفْرَاءُ بَعْدَهُ أَتَتْ فِيْ ثِيَابِيْ نَرْجِسٍ وَشَقَائِقِ
حَكَتْ وَجْنَةَ ٱلْمَحْبُوْبِ صِرْفَاً فَسُلِّطُوْا عَلَيْهَا مِزَاجاً فَٱكْتَسَتْ لَوْنَ عَاشِقِ

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

ثم زاد في مدحها، وامتيازها عن خمر الدنيا فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾؛ أي: ليس في تلك الكأس غول. قال ابن عباس، وقتادة: هو صداع في الرأس. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وابن زيد: وجع في البطن، انتهى. ولكن لفظ الغول يشمل جميع أنواع المفاسد الناشئة من شرب الخمر، فينتفي جميعها من صداع وسكر ومغص وخمار؛ أي[1]: هي لا تؤثر في الأجسام كما تؤثر خمور الدنيا، فلا تصدع الرأس ولا تفسد العقل بالسكر، كما يكون في خمر الدنيا، كما قال:

فَمَا زَالَتِ ٱلْكَأْسُ تَغْتَالُنَا وَتَذْهَبُ بِٱلأَوَّلِ ٱلأَوَّلِ

والخلاصة: أنه ليس فيها شيء من أنواع المفاسد التي تكون حين شرب الخمر في الدنيا. فهي لا تحدث صداعاً، ولا خماراً، ولا سكراً، ولا عَرْبدةً، ولا نحو ذلك، مما هو لازم لخمور الدنيا. وجملة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ من المبتدأ والخبر صفة رابعة لكأس أيضاً، وبطل عمل لا، وتكررت لتقدم خبرها.

﴿وَلَا هُمْ﴾؛ أي: المخلصون ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن خمر الجنة ﴿يُنزَفُونَ﴾؛ أي: يسكرون، من نزف الشارب فهو نزيف إذا ذهب عقله من السكر.

قرأ الحرميان[2]: نافع وابن كثير، والعربيان: أبو عمر وابن عامر ﴿ينزفون﴾ بضم الياء وفتح الزاي هنا، وفي الواقعة مبنياً للمفعول، من نزف الثلاثي، يقال: نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله من السكر. وقرأ حمزة، والكسائي بضم الياء وكسر الزاي فيهما، من أنزف الرباعي، يقال: أنزف الرجل إذا سكر وذهب عقله أو نفد شرابه. وقرأ عاصم: بفتحها هنا، وكسرها في الواقعة. وقرأ ابن أبي إسحاق بفتح الياء وكسر الزاي. وقرأ طلحة بفتح الياء وضم الزاي.

ثم إنه[3] أفرد هذا بالنفي مع اندراجه فيما قبله من نفي الغول عنها لما أنه من معظم مفاسد الخمر، كأنه جنس برأسه.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

والمعنى: لا فيها نوع من أنواع الفساد من مغص؛ أي: وجع في البطن أو صداع أو حمى أو عربدة؛ أي: سوء خلق. والمعربد مؤذ نديمه في سكره، اهـ «قاموس»، أي: لا لغو فيها ولا تأثيم ولا هم يسكرون. وفي «بحر العلوم»: وبالجملة ففي خمر الدنيا أنواع من الفساد من السكر، وذهاب العقل، ووقوع العداوة والبغضاء والصداع والخسارة في الدين والدنيا، حتى جُعل شاربها كعابد الوثن ومن القيء والبول، وكثيراً ما تكون سبباً للقتال والضراب والزنى، وقتل النفس، بغير حق، كما شُوهد من أهلها، ولا شيء من ذلك كله في خمر الجنة. قال بعضهم: جميع البلاء والارتكابات ليس إلا لكثافتنا. فلولا هذه الكثافة، لما عرض لنا الأمراض، والأوجاع، ولم يصدر منا ما يقبح في العقول والأوضاع. ألا ترى: أنه لا مرض في عالم الآخرة، ولا شيء مما يتعلق بالكثافة، ولكن معرفة الله تعالى لا تحصل لو لم تكن تلك الكثافة، فهي مدار الترقي والتنزل. ولذلك لا يكون للملائكة ترقّ وتدل، فهم على خلقتهم وجبلتهم الأصلية.

ثم ذكر محاسن زوجاتهم، ليكون في ذلك تتميم لبيان ما آتاهم ربهم من النعم. فقال: ﴿وَعِندَهُمْ﴾؛ أي: عند المخلصين ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ أي: حور قصرن أبصارهن على أزواجهن، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم، ولا يبغين بهم بدلاً لحسنهم عندهنَّ ولعفتهنَّ. ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء بمعنى واسعة الأعين. وهو صفة بعد صفة لموصول، ترك ذكره للعلم به؛ أي: حور قاصرات الطرف حسان الأعين وعظامها واسعات العيون في جمال.

ثم زاد بياناً في وصف جمالهن بما شبههن به، فقال: ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾؛ أي: تلك القاصرات ﴿بَيْضٌ﴾ بفتح الباء وسكون الياء، جمع بيضة، سمي البيض لبياضه والمراد به هنا: بيض النعام. ﴿مَّكْنُونٌ﴾؛ أي: مصون مستور تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار، فيكون لونها أبيض في صفرة؛ أي: لم تنله الأيدي، فإن ما مسته الأيدي يكون متدنساً ويقال: هذا من أحسن ألوان النساء. وهو أن تكون المرأة بيضاء مشوبة بصفرة، والعرب تشبه المرأة ببيض النعامة، وتسميهن بيضات الخدور. وهذا عند العرب، وإلا فأحسنها عند العجم والروم الأبيض المشرب

بحمرة، اهـ «قارى». قال المبرد: وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة: كأنه بيض النعام المغطى بالريش. وقيل: ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾ المصون عن الكسر؛ أي: إنهن عذارى. وقيل: المراد بالبيض: اللؤلؤ كما في قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾. والأول أولى. وإنما قال: ﴿مَّكْنُونٌ﴾ ولم يقل مكنونات؛ لأنه وصف البيض باعتبار اللفظ. وقال الطبري: أولى الأقاويل: أن يقال: إن البيض هي الجلدة التي في داخل القشرة قبل أن يمسها شيء؛ لأنه مكنون. يعني: هو البيض أول ما ينحى عنه قشره.

والمعنى: أي إنهن في بياض يشوبه قليل من الصفرة كالبيض المستور في الأعشاش الذي لم تمسه الأيدي، ولم يعله الغبار. وهذا اللون مما تهيم به العرب. فقد شبهت النساء ببيضات الخدور، كما قال امرء القيس:

وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لاَ يُرَامُ خِبَاؤُهَا ... تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجِلِ

يقول الفقير: ذكر الله تعالى في هذه الآيات ما كان لذة الجسم ولذة الروح. أما لذة الجسم التنعم بالفواكه، وأنواع النعم، والخمر التي لم يكن عند العرب أحب منها، والتمتع بالأزواج الحسان. وأما لذة الروح فالسرور الحاصل من الإكرام والأنس الحاصل من صحبة الإخوان، والانبساط الحاصل من النظر إلى وجوه الحسان. وفي الحديث: «ثلاث يجلين البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن». قال ابن عباس رضي الله عنهما: والإثمد عند النوم. نسأل الله سبحانه أن يجلي أبصارنا وبصائرنا، ويبارك لنا في أعمارنا، وأن يجعل خير أعمالنا خواتمها، آمين.

الإعراب

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿الصَّافَّاتِ﴾ مقسم به، مجرور

بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بالصافات. والجملة المحذوفة مستأنفة و﴿الصافات﴾ اسم فاعل يعمل عمل الفعل، وفاعله ضمير مستتر يعود على الملائكة، والمفعول محذوف تقديره: والصافات نفوسهن. ﴿صَفًّا﴾ مفعول مطلق مؤكد لما قبله. ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ الفاء عاطفة، ﴿الزاجرات﴾: معطوف على الصافات، ﴿زَجْرًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لما قبله، ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿التاليات﴾: معطوف على الصافات، ﴿ذِكْرًا﴾ مفعول به للتاليات، ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَوَٰحِدٌ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿واحد﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: بدل من واحد أو خبر ثان لـ﴿إن﴾، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على المسوات، ﴿وَمَا﴾ اسم موصول، معطوف على السموات، ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ظرف مضاف متعلق بمحذوف صلة لما، ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾: معطوف على رب السموات، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿زَيَّنَّا﴾ فعل، وفاعل، ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ مفعول به، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة للسماء، ﴿بِزِينَةٍ﴾ متعلق بـ﴿زَيَّنَّا﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بدل من زينة أو عطف بيان له. ﴿وَحِفْظًا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة لفعل محذوف معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾، ﴿حفظاً﴾ مفعول مطلق لذلك المحذوف مؤكد له، والتقدير: وحفظناها حفظاً، والفعل المحذوف معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾، ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿حفظنا﴾، ﴿مَّارِدٍ﴾ صفة لـ﴿شَيْطَٰنٍ﴾.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿لَّا﴾ نافية، ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾: متعلق بـ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾، ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَلَإِ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾: فعل، ونائب فاعل، معطوف على ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾، ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يقذفون﴾، ﴿دُحُورًا﴾: مفعول لأجله منصوب بـ﴿يقذفون﴾؛ أي: يقذفون للدحور والطرد أو على الحال؛ أي: يقذفون مدحورين أو مفعول مطلق

معنوي. ﴿وَلَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿وَاصِبٌ﴾ صفة لـ﴿عذاب﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿يقذفون﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر واستثناء، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع، بدل من واو ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾، أو في محل النصب على الاستثناء، ﴿خَطِفَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، صلة ﴿مَنْ﴾: الموصولة، ﴿الْخَطْفَةَ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿أتبعه﴾: فعل، ومفعول به مقدم، ﴿شِهَابٌ﴾ فاعل مؤخر، ﴿ثَاقِبٌ﴾ صفة شهاب. والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿خَطِفَ﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم وإنكارهم للمعاد، وأردت أن تبكتهم وترد عليهم في أمر إثبات المعاد فأقول لك: استفتهم. ﴿استفت﴾: فعل أمر، مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على محمد، والهاء مفعول به. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿أَهُمْ﴾: الهمزة حرف استفهام لطلب تعيين أحد الأمرين، و﴿هُمْ﴾: مبتدأ، و﴿أَشَدُّ﴾ خبر، ﴿خَلْقًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل. والجملة الاسمية جملة إنشائية، مسوقة لبيان الاستفتاء وتفسيره، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَم﴾ حرف عطف، وهي هنا متصلة لمعادلتها بهمزة الاستفهام، ﴿مَّنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على هم، ﴿خَلَقْنَا﴾ فعل، وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: أم من خلقناهم. وفي قراءة تخفيف ﴿أمن﴾ الهمزة للاستفهام، ﴿مَّنْ﴾ مبتدأ، ﴿خَلَقْنَا﴾: صلة من الموصولة، والخبر محذوف، تقديره: أمن خلقناهم أشد. فهما جملتان مستقلتان. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿خَلَقْنَاهُم﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿مِّن طِينٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بخلقناهم، ﴿لَّازِبٍ﴾:

صفة ﴿طِينٍ﴾. وناهيك بهذا دليلاً على ضعفهم، وأن من كان شأنه هذا لا ينبغي له أن يتكبر ويتطاول. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب، ﴿عَجِبْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على مقدر دل عليه الاستفهام؛ أي: هم لا يقرون، ولا يثبتون المعاد بل عجبت أنت يا محمد ﷺ من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة، وأثبت المعاد. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾: فعل وفاعل، والواو حالية، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: وهم يسخرون. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿عَجِبْتَ﴾. ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾: الواو عاطفة، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿ذُكِّرُوا﴾ فعل ونائب فاعل والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَذْكُرُونَ﴾: فعل وفاعل، جواب إذا، لا محل لها من الإعراب. وجملة إذا معطوفة على جملة ﴿يسخرون﴾. ﴿وَإِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿رَأَوْا ءَايَةً﴾: فعل وفاعل ومفعول به؛ لأن رأى بصرية. والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إذا﴾، وجملة ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ جوابه، وجملة إذا معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾: الأولى. ﴿وَقَالُوٓا﴾: فعل وفاعل، معطوف على يستسخرون، ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿سِحْرٌ﴾: خبر المبتدأ، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿سِحْرٌ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَءِذَا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على مقدر معلوم مما سيأتي تقديره: أنبعث. والجملة المقدرة في محل النصب مقول قالوا. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بالفعل المقدر، ﴿مِتْنَا﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾؛ أي: أنبعث وقت موتنا وكوننا تراباً. ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، معطوف على متنا، ﴿وَعِظَٰمًا﴾: معطوف على تراباً، ﴿أَءِنَّا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري مؤكدة للأولى، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿مبعوثون﴾:

خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول قالوا. ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري مؤكدة للأولى، والواو: عاطفة ﴿ءَابَآؤُنَا﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ صفة، وخبر المبتدأ محذوف؛ أي: أو آباؤنا مبعوثون. والجملة الاسمية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ والجملة مستأنفة. ﴿نَعَمْ﴾ حرف جواب قائم مقام المجاب به؛ أي: نعم تبعثون. ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿دَٰخِرُونَ﴾: خبره. والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿مبعوثون﴾: المقدر. ﴿فَإِنَّمَا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت إنكارهم للبعث، وأردت بيان حقيقة البعث.. فأقول لك إنما هي زجرة. ﴿إنما﴾: أداة حصر، ﴿هِىَ زَجْرَةٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿وَٰحِدَةٌ﴾: صفة ﴿زَجْرَةٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إذا﴾ فجائية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ الواو استئنافية، ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾: على كونها جواب النداء. ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾: ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾، ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول. ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول به. والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقول الله سبحانه للملائكة: احشروا الذين ظلموا. والجملة المحذوفة مستأنفة. وجملة ﴿ظَلَمُوا۟﴾ صلة الموصول، ومفعول ﴿ظَلَمُوا۟﴾ محذوف، تقديره:

أنفسهم. ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾: معطوف على الموصول أو مفعول معه، ﴿وَمَا﴾: اسم موصول معطوف على الموصول أو مفعول معه، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْبُدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانُوا﴾: صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿يَعْبُدُونَ﴾؛ أي: حال كونهم مجاوزين الله في عبادتهم. ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿اهدوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ٱحْشُرُوا﴾. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اهدوهم﴾، ﴿وَقِفُوهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، معطوف على ﴿اهدوهم﴾. ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل الأمر قبلها. ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾: خبره. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم: ما لكم. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تَنَاصَرُونَ﴾: فعل، وفاعل. والجملة في محل النصب حال من كاف المخاطبين. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب، ﴿هُمُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: متعلق بما بعده، ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾: خبرهم. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿أقبل بعضهم﴾: فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق بأقبل، وجملة ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ في محل النصب حال من الفاعل والمجرور. ﴿قَالُوٓا﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كُنتُمْ﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل النصب مقول قالوا. ﴿تَأْتُونَنَا﴾: فعل، وفاعل، وفعول به. والجملة الفعلية في

محل النصب خبر كان ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿تَأْتُونَنَا﴾: أي حالة كونكم أقوياء إن فسرنا اليمين بالقوة والقهر أو مقسمين حالفين إن فسرنا اليمين بالحلف. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿بَل﴾ حرف إضراب للإضراب الإبطالي، ﴿لَّمْ﴾ حرف جزم ونفي، ﴿تَكُونُواْ﴾: فعل مضارع ناقص واسمه، ﴿مُؤْمِنِينَ﴾: خبره. والجملة في محل النصب مقول قالوا. ﴿وَمَا﴾ الواو عاطفة، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لَنَا﴾ خبرها مقدم، ﴿عَلَيْكُم﴾ حال من سلطان، و﴿مِّن﴾ زائدة، ﴿سُلْطَٰنٍۭ﴾: اسم كان مؤخر، وجملة كان في محل النصب معطوفة على جملة الإضراب على كونها مقول قالوا. ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب للإضراب الإبطالي، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿قَوْمًا﴾: خبره، ﴿طَٰغِينَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمًا﴾. والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَحَقَّ﴾ الفاء: عاطفة تفريعية، ﴿حق﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق به، ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾: فاعل، ومضاف إليه. والجملة معطوفة على جملة الإضراب. ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ ناصب واسمه، واللام: حرف ابتداء، ﴿ذائقون﴾: خبره. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿أغويناكم﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على حق، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿غَٰوِينَ﴾: خبره. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما جرى بين الأتباع والرؤساء من المخاصمة، وأردت بيان مصائرهم وعواقبهم فأقول لك: إنهم. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿يوم﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بمحذوف حال من ضمير الغائبين، ﴿يومَ﴾: مضاف، ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل الجر مضاف إليه، مبني بسكون مقدر، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة؛ أي: يوم إذ يتساءلون ويتلاومون. ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾: متعلق بـ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ و﴿مُشْتَرِكُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّهُمْ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾ ناصب

واسمه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف مقدم على فعله، تقديره: إنا نفعل بالمجرمين فعلاً كائناً كذلك. ﴿نَفْعَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾: متعلق به، وجملة ﴿نَفْعَلُ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانُوٓا۟﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق به، ونائب فاعله جملة محذوفة، تقديرها: إذا قيل لهم: قولوا: لا إله إلا الله. وجملة ﴿قِيلَ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بـ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾. وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مقول قول محذوف تقديره: قولوا ﴿قولوا﴾: فعل أمر وفاعل. والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾. وإن شئت قلت: ﴿قولوا﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿لَآ﴾: نافية للجنس تعمل عمل ﴿إِنَّ﴾، ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب، اسمها، وخبر ﴿لَا﴾ محذوف، تقديره: لا إله موجود إلا الله، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱللَّهُ﴾ بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَا﴾، وجملة ﴿لَا﴾: في محل النصب مقول للقول المحذوف. وجملة ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾. ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿تاركوا آلهتنا﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، ومضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿يقولون﴾، ﴿لِشَاعِرٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تاركوا﴾، ﴿مَّجْنُونٍۭ﴾: صفة لـ﴿شاعر﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء للإضراب الإبطالي، ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَصَدَّقَ

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على جاء، ﴿إِنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، ومضاف إليه، واللام حرف ابتداء، ﴿ٱلْأَلِيمِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿تُجْزَوْنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿تُجْزَوْنَ﴾، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿كَانَ﴾: صلة ﴿مَا﴾: الموصولة، والعائد محذوف تقديره: تعملونه. ويحتمل كون ﴿مَا﴾ مصدرية، والكلام حينئذ على حذف مضاف، والتقدير: وما تجزون إلا جزاء عملكم.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع بمعنى لكن، ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾: مستثنى من الواو في ﴿تُجْزَوْنَ﴾، ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: صفة لعباد الله، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿رِزْقٌ﴾: مبتدأ ثان مؤخر، ﴿مَّعْلُومٌ﴾: صفة ﴿رِزْقٌ﴾، وجملة المبتدأ الثاني في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة. ﴿فَوَٰكِهُ﴾: بدل أو عطف بيان لـ﴿رِزْقٌ﴾ بدل كل من كل، ﴿وَهُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو حالية، ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿مُّكْرَمُونَ﴾: خبره. والجملة إما معطوفة على جملة ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾: أو حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾. ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ أو خبر ثان لهم أو في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿مُّكْرَمُونَ﴾. ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ متعلق بـ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور قبله أعني: ﴿فِى جَنَّٰتِ﴾، وكذا ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: حال من الضمير المستكن فيه، ﴿يُطَافُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِم﴾ متعلق به، ﴿بِكَأْسٍ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل. والجملة الفعلية صفة

لـ﴿مكرمون﴾ أو حال من الضمير في ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾: أو جملة مستأنفة. ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾: جار ومجرور صفة لكأس، ﴿بَيْضَآءَ﴾: صفة ثانية لكأس، ﴿لَذَّةٍ﴾ صفة ثالثة له، وصفت بالمصدر مبالغة أو على حذف مضاف؛ أي: ذات لذة. ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ متعلقان بـ﴿لَذَّةٍ﴾ ﴿لَا﴾: نافية ملغاة لتكررها، ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم، ﴿غَوْلٌ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة في محل الجر صفة رابعة لكأس. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها، ﴿هُمْ عَنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يُنزَفُونَ﴾، وجملة ﴿يُنزَفُونَ﴾: من الفعل المغير، ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَعِندَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿عندهم﴾: ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿ٱلطَّرْفِ﴾: مضاف إليه مرفوع المحل، على أن ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾: صفة مشبهة، أو منصوب المحل على أن ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ اسم فاعل. و﴿عِينٌ﴾: صفة لـ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾. والجملة الاسمية في محل الرفع، معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾. ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾: ناصب واسمه، ﴿بَيْضٌ﴾: خبره، ﴿مَّكْنُونٌ﴾ صفة ﴿بَيْضٌ﴾، وجملة ﴿كأن﴾: في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾: هم جماعة الملائكة، يقفون صفوفاً لكل واحد منهم، مرتبة معينة في الشرف والفضيلة. ﴿صَفًّا﴾: والصف: أن يجعل الشيء على خط مستقيم، كالناس والأشجار. تقول: صففت القوم، من باب رد، فاصطفوا إذا أقمتهم على خط مستقيم، لأداء الصلاة أو لأجل الحرب. ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢﴾: أصل الزجر: الدفع عن الشيء بتسلط وصياح، ثم استعمل في السوق والحث على الشيء، وفي المنع والنهي. والمراد بها هنا: الملائكة؛ لأن لهم تأثيراً في قلوب بني آدم بزجرهم عن المعاصي وإلهامهم فعل الخير. يقال: زجرت البعير إذا حثثته ليمضي، وزجرت فلاناً عن سوء فانزجر؛ أي: نهيته فانتهى فزجر البعير كالحث له، وزجر الإنسان كالنهي. وفي «كشف الأسرار»: الزجر: الصرف عن الشيء بتخويف. وفي «المفردات»: الزجر: الطرد بصوت، ثم يُستعمل في الطرد

تارةً، وفي الصوت أخرى.

﴿لَوَٰحِدٌ﴾؛ أي: لا ثاني له سبحانه. وفي «المفردات» الوحدة: الانفراد. والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثم يُطلق على كل موجود، حتى إنه ما من عدد إلا ويصح وصفه، فيقال: عشرة واحدة، ومئة واحدة. فالواحد لفظ مشترك، يُستعمل في خمسة أوجه:

الأول: ما كان واحداً في الجنس أو في النوع كقولنا: الإنسان والفرس واحد في الجنس، وزيد وعمرو واحد في النوع.

والثاني: ما كان واحداً بالاتصال، إما من حيث الخلقة كقولك: شخص واحد، وإما من حيث الصناعة كقولك: حرفة واحدة.

والثالث: ما كان واحداً لعدم نظيره. إما في الخلقة كقولك: الشمس واحدة، وإما في دعوى الفضيلة كقولك: فلان واحد دهره، وكقولك: هو نسيج وحده.

والرابع: ما كان واحداً لامتناع التجزي فيه، إما لصغره كالهباء، وإما لصلابته كالماس.

والخامس: للمبتدأ إما لمبدأ العدد، كقولك: واحد اثنين، وإما لمبدأ الخط كقولك: النقطة الواحدة. والوحدة في كلها عارضة، فإذا وصف الله عز وجل بالواحد فمعناه: هو الذي لا يصح التجزي، ولا التكثر. ولصعوبة هذه الوحدة قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، انتهى.

﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ مؤنث الأدنى؛ أي: قرب السموات من أهل الأرض. ﴿مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾؛ أي: متعر عن الخير، متجرد عنه من قولهم: شجر أمرد إذا تعرى من الورق، ومنه: الأمرد لتجرده عن الشعر، والمارد والمريد بمعنى واحد، وهو المتعري عن كل خير. وفي «المختار»: مرد من باب ظرف، فهو مارد ومريد، وهو العاتي.

﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ أصل ﴿يسمعون﴾: يتسمعون، فأدغمت التاء في السين بعد تسكينها وقلبها سيناً من التسمع، وتعديته بإلى لتضمنه معنى الإصغاء. ﴿إِلَى الْمَلَإِ﴾ والملأ: جماعة يجتمعون على رأي واحد، فيملؤون العيون رواءً، والنفوس جلالة وبهاء. والملأ الأعلى هم الملائكة أو أشرافهم، كما مر. ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ القذف: الرمي البعيد، لاعتبار البعد فيه قيل: منزل قذف وقذيف، وقذفته بحجر رميت إليه حجراً، ومنه: قذفوه بالفجور؛ أي: رموه. ﴿دُحُورًا﴾ مصدر دحره إذا طرده وأبعده، وبابه خضع، يقال: دحره دحراً ودحوراً إذا طرده. ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ أي: دائم غير منقطع، من وصب الأمر وصوبا إذا دام. وفي «المختار»: وصب الشيء يصب بالكسر وصوباً دام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾، انتهى. قال في «المفردات» الوصب: السقم اللازم.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ والخطف: الاختلاس بسرعة. والمراد هنا: اختلاس الكلام؛ أي: كلام الملائكة مسارقة. ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ في «المختار»: تبعه من باب طرب إذا مشى خلفه أو مر به فمضى معه، وكذا اتبعه وهو افتعل، وأتبعه على أفعل. وقال الأخفش: تبعه وأتبعه بمعنى مثل: ردفه وأردفه، ومنه: قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾. قال ابن الكمال: الفرق بين أتبعه وتبعه أنه يقال: أتبعه إتباعاً إذا طلب الثاني اللحوق بالأول، وتبعه تبعاً إذا مر به ومضى معه. ﴿شِهَابٌ﴾ والشهاب: الشعلة الساطعة من النار الموقدة. وفي «القاموس»: الشهاب ككتاب شعلة من نار ساطعة، انتهى. والمراد هنا: ما يُرى منقضّاً من السماء. ﴿ثَاقِبٌ﴾ قال في «المفردات»: الثاقب: النيِّر المضيء، يثقب بنوره وإضاءته ما يقع عليه، انتهى؛ أي: مضيء في الغاية، كأنه يثقب الجو بضوئه، يُرجم به الشياطين إذا صعدوا لاستراق السمع.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ والفتيا والفتوى: الجواب عما يشكل من الأحكام. يقال: استفتيته فأفتاني بكذا. قال بعضهم: الفتوى من الفتي، وهو الشاب القوي، وسمي الفتوى فتوى؛ لأن المفتي يقوي السائل في جواب الحادثة، وجمعه

فتاوى، بالفتح والكسر، والمراد بالاستفتاء هنا: الاستخبار، يقال: استفتى فلاناً إذا استخبره، وسأله من أمر يريد علمه.

﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾؛ أي: أصعب خلقاً، وأشد إيجاداً. ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ قال في «المفردات»؛ اللازب: الثابت الشديد الثبوت، ويعبر باللازب عن الواجب، فيقال: ضربة لازب، اهـ. والباء بدل من الميم، والأصل لازم مثل: بكة ومكة، يقال: لزب يلزب لزوباً من باب دخل اشتد وثبت، ولزب به لصق، ولزب يلزب لزباً من باب تعب، ولزب يلزب لزباً ولزوباً من باب كرم الطين لزق وصلب، ولزب الشيء دخل بعضه في بعض. واللازب اسم فاعل: الثابت، يقال: صار الأمر ضربة لازب؛ أي: صار لازماً ثابتاً.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ والسخرية: الاستهزاء والعجب والتعجب حالة تَعْرُضُ للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، ولهذا قال بعض الحكماء: العجب: ما يُعرف سببه، ولهذا قيل: لا يصح على الله التعجب. إذ هو علام الغيوب لا تخفى عليه خافية. ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ والسين والتاء للمبالغة والتأكيد؛ أي: يبالغون في السخرية والاستهزاء أو للطلب على أصله؛ أي: يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها.

قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ إلخ، أصله: أنبعث إذا متنا. فبدّلوا الفعلية بالاسمية وقدّموا الظرف، وكرّروا الهمزة مبالغة في الإنكار وإشعاراً بأن البعث مستنكر في نفسه، وفي هذه الحالة أشد استنكاراً، اهـ «بيضاوي». ﴿نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾؛ أي: صاغرون. وكلمة ﴿نَعَمْ﴾ بفتحتين: تقع في جواب الاستخبار المجرد من النفي، ورد الكلام الذي بعد حرف الاستفهام. والخطاب لهم ولآبائهم على التغليب. والدخور: أشد الصغار والذلة، يقال: دخر يدخر من باب فتح، ودخر يدخر من باب تعب دخراً ودخوراً؛ أي: ذل وصغر، ويقال: أدخرته فدخر؛ أي: أذللته فذل.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ والزجرة: الصيحة، من زجر الراعي غنمه، أو إبله إذا صاح عليها. وهي النفخة الثانية. ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ قال الزجاج: الويل: كلمة يقولها

القائل وقت الهلكة. ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ والدين: الجزاء كما جاء في قولهم: كما تدين تدان. ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾؛ أي: الفرق بين المحسن والمسيء، وتمييز كل منهما عن الآخر. ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ أي: اجمعوا، الحشر يأتي بمعنى البعث، وبمعنى الجمع والسوق، وهو المراد هٰهنا دون الأول، كما لا يخفى.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أمر من وقفه وقفاً بمعنى حبسه، لا من وقف وقوفاً بمعنى دام قائماً. فالأول متعد، والثاني لازم. والمعنى: احبسوا المشركين أيها الملائكة عند الصراط. ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾ من الاستسلام، يقال: استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع، وأصله: طلب السلامة، ويلزمه الانقياد عرفاً. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ يقال: أقبل عليه بوجهه، وهو ضد الإدبار. ﴿مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾؛ أي: قهر وتسلط. والسلاطة: التمكن من القهر، يقال: سلطه فتسلط، ومنه: سمي السلطان بمعنى الغالب والقاهر، كما مر.

﴿رِزْقٌ﴾ والرزق اسم لما يسوقه الله تعالى، إلى الحيوان، فيأكله. قال أحمد بن رسلان في زبده:

يَـرْزُقُ مَـنْ يَـشَـاءُ وَمَـنْ شَـاءَ أَحْـرَمَـا   وَٱلـرِّزْقُ مَـا يَـنْـفَـعُ وَلَـوْ مُـحَـرَّمَـا

﴿فَوَٰكِهُ﴾ جمع فاكهة، وهي كل ما يتفكه به؛ أي: يتنعم بأكله من الثمار كلها رطبها ويابسها. ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير، وهو الذي يجلس عليه من السرور، إذ كان كذلك لأولي النعمة. وسرير الميت يشبه به في الصورة، وللتفاؤل بالسرور الذي يلحق بالميت برجوعه إلى الله، وخلاصه من السجن المشار إليه بقوله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن». ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ من التقابل، وهو أن ينظر بعضهم وجه بعض. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ والطواف: الدوران حول الشيء، وكذا الإطافة كما قال في «التهذيب». ﴿بِكَأْسٍ﴾ والكأس يطلق على الزجاجة، ما دام فيها خمر، وإلا فهو قدح وإناء، وتسمى الخمر نفسها كأساً. قال الأعشى:

وَكَـأْسٍ شَـرِبْـتُ عَـلَـىٰ لَـذَّةٍ   وَأُخْـرَىٰ تَـدَاوَيْـتُ مِـنْـهَـا بِـهَـا
لِـكَـيْ يَـعْـلَـمَ ٱلـنَّـاسُ أَنِّـي ٱمْـرُؤٌ   أَتَـيْـتُ ٱلْـمَـعِـيْـشَـةَ مِـنْ بَـابِـهَـا

والكأس مؤنثة بدليل ضميرها وصفتها، وتُجمع على كؤوس وأكؤس وكاسات وكئاس. ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ قال أبو حيان: اسم فاعل من معن بضم العين كشريف من شرف؛ أي: من شراب معين، أو نهر معين ظاهر للعيون، أو خارج من العيون. وهو صفة للماء، من عان الماء، إذا نبع وُصف به خمر الجنة؛ لأنها تجري كالماء. ومعنى ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾؛ أي: بخمر من نهر جار على وجه الأرض. ﴿بَيْضَآءَ﴾؛ أي: ذات بياض. ﴿لَذَّةٍ﴾؛ أي: ذات لذة أو هي تأنيث اللذ، يقال: لذ الشيء فهو لذ ولذيذ كقولك: رجل طب؛ أي: طبيب. فاللذ وصف، واللذة مؤنثة. وهي اسم للكيفية القائمة بالنفس، واسم للشيء اللذيذ.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ والغول اسم بمعنى الغائلة، يُطلق على كل أذية ومضرة. والغول أيضاً ما يغتال العقول، يقال: غاله يغوله غولاً إذا أفسده، ويقال: غالته الخمر شربها فذهبت بعقله أو بصحة بدنه. والغول مصدر، وهو الصداع، والسكر، وبُعد المسافة، والمشقة، وما انهبط من الأرض، والتراب الكثير. ويقال: غاله الشيء إذا أخذه من حيث لم يدر، وأهلكه من حيث لا يحس به. ومنه سمي السعلاة غولا بالضم. والسعلاة: سحرة الجن، كما سبق في سورة الحجر. وفي «بحر العلوم»؛ ومنه الغول الذي يراه بعض الناس في البوادي ولا يكذبه ولا ينكره إلا المعتزلة من جمبع أصناف الناس، حتى جعلوه من كذبات العرب، مع أنه يشهد بصحته قوله ﷺ: «إذا تغولت الغيلان فنادوا بالأذان»، انتهى.

﴿يُنزَفُونَ﴾ بالبناء للمجهول، من نزف الشارب إذا ذهب عقله، ويقال للسكران: نزيف ومنزوف، ويقال للمطعون: نزف فمات إذا خرج دمه كله. وفي «المفردات»: نزف الماء، نزحه كله من البئر شيئاً بعد شيء، ونزف دمه ودمعه؛ أي: نزح كله، ومنه قيل: سكران نزف؛ أي: نزف فمه بسكره. وقرىء ﴿ينزفون﴾ بالسكر من قولهم: أنزف القوم إذا نزف ماء بئرهم، انتهى.

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ أي: حابسات الأعين على أزواجهن لا ينظرن إلى

غيرهم، من القصر بمعنى الحبس والمنع. وطرف العين: جفنه. والطرف: تحريك الجفن، وعُبر به عن النظر؛ لأن تحريك الجفن يلازمه النظر. ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء بمعنى واسعة العين، وهي التي اتسع شقها سعةً غير مفرطة. وأصل ﴿عِينٌ﴾ فُعل بالضم نظير حمر، كسرت الفاء لتسلم الياء كما في بيض جمع بيضاء وأبيض. قال في «المفردات»: يقال للبقر الوحشي: عيناء وأعين لحسن عينه، وشُبّه بها الإنسان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإتيان بأسلوب القسم في قوله: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ﴾ إلخ، إظهاراً لشرف المقسم به، وتأكيداً للمقسم عليه، على ما هو المألوف في كلامهم. وقد أنزل القرآن على لغتهم، وعلى أسلوبهم في محاوراتهم.

ومنها: التأكيد بأن، واللام في قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ ومقتضى الكلام يقتضيه لإنكار المخاطبين الوحدانية.

ومنها: إعادة لفظ الرب في قوله: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ لما فيها من غاية ظهور آثار الربوبية، وتجددها كل يوم، فإنها ثلاث مئة وستون مشرقاً.

ومنها: الاكتفاء بالمشارق عن ذكر المغارب، على حد قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾. واقتُصر على المشارق ولم يُعكس؛ لأن شروق الشمس سابق على غروبها، وأيضاً فالشروق أبلغ في النعمة، وأكثر نفعاً من الغروب.

ومنها: جمع المشارق موافقةً للجموع أول السورة.

منها: تخصيص المشارق بالذّكر مناسبة للزينة في قوله: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ إذ هي إنما تكون غالباً بالضياء والنور، وهما ينشآن من المشرق لا من المغرب.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿زينا، وزينة﴾.

ومنها: مراعاة الفواصل في قوله: ﴿شهاب ثاقب، وعذاب واصب، وطين لازب﴾؛ لأنها من المحسنات البديعية.

ومنها: الجناس بين ﴿خَطِفَ﴾ و﴿ٱلْخَطْفَةَ﴾، وبين ﴿أغويناكم﴾ و﴿غَٰوِينَ﴾.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وردت الهداية بطريق التهكم؛ لأن الهداية تكون إلى طريق النعيم لا الجحيم.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾؛ لأن السخرية في مقابلة التعجب.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ لأن الأصل فيه: إذا قيل لهم قولوا لا إله إلا الله، فحُذف لدلالة السياق عليه.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ فإن فيه تغليب العقلاء على غيرهم، حيث عبّر بمن التي للعاقل.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ و﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا﴾ للدلالة على تحقق وقوعه. وفيه أيضاً نداء غير العاقل لشدة الدهشة والحيرة.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: إنهم لذائقوا العذاب، فقد التفت من الغيبة إلى الخطاب لمجابهتهم بالغضب، لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم؛ لأن الغضب عليهم بلغ أقصى الغاية.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ كني بذلك عن الحور العين، لأنهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

ومنها: القصر في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ فهو من قصر المسند إليه على المسند يعني: عدم الغول مقصور على الاتصاف بفي، إذ خمور الجنة لا تتجاوز

الاتصاف بفي كخمور الدنيا، اهـ من «الروح».

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ حذف منه وجه الشبه فأصبح مجملاً، وذكر الأداة فصار مرسلاً، والمراد بالبيض: بيض النعام، وأول من شبه المرأة بالبيضة امرؤ القيس بقوله:

وَبَـيْـضَـةِ خِـدْرٍ لاَ يُـرَامُ خِـبَـاؤُهَـا   تَـمَـتَّـعْـتُ مِـنَ لَـهْـوٍ بِـهَـا غَـيْـرَ مُـعْـجِـلِ

والنساء يشبهن بالبيض من ثلاثة أوجه:

أحدها: بالصحة والسلامة عن الطمث، ومنه: قول الفرزدق:

خَـرَجْـنَ إِلَـيَّ لَـمْ يَـطْـمِـثْـهُـنَّ قَـبْـلِـيْ   وَهُـنَّ أَصَـحُّ مِـنْ بَـيْـضِ ٱلْـحَـمَـامِ

والثاني: في الصيانة والستر، لأن الطائر يصون بيضه ويحصنه.

والثالث: في صفاء اللون ونقائه؛ لأن البيض يكون صافي اللون نقيّه إذا كان تحت الطائر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ
لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ
فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ
(٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠)
لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ
(٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ
مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ
(٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ
الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ
الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩)
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) ۞ وَإِنَّ مِن
شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا
آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ
(٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ
عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨)
وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر(١) حال أهل الجنة وما يتمتعون

---

(١) المراغي.

به من النعيم المقيم، ثم ذكر سرورهم وحبورهم في المآكل، والمشارب، وجميل المساكن، والأزواج الحسان.. بيّن هنا أنهم لخلوّ بالهم من المشاغل وطيب نفوسهم، يسمر بعضهم مع بعض، ويتحادثون فيما كانوا فيه في الدنيا مع أخلائهم، من شتى الشؤون مع اختلاف الأهواء، حتى ليقص بعضهم على بعض أن خليله كاد يوقعه في الهلاك، لولا لطف ربه به، وقد كان مآله أن صار في سواء الجحيم، ثم ذكر نعمة ربه عليه، بسبب ما كان يدين به في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما وصف[1] ثواب أهل الجنة، وذكر ما يتمتعون به من مآكل، ووصف الجنة، ورغّب فيها بقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أتبع ذلك بذكر جزاء أهل النار، وما يلاقون فيها من العذاب اللازب، الذي لا يجدون عنه محيصاً، وهو عذاب في مآكلهم ومشاربهم وأماكنهم، جزاء ما دسوا به أنفسهم من سيء الأعمال، وما قلدوا فيه آباءهم بلا حجة ولا برهان، من الكفر بالله. وعبادة الأصنام والأوثان.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن المشركين يهرعون على آثار آبائهم الأولين، دون نظر ولا تدبر.. أردفه ما يوجب التسلية لرسوله ﷺ، على كفرهم وتكذيبهم، بأن كثيراً من الأمم قبلهم، قد أرسل إليهم الرسل فكذبوا بهم، وكانت عاقبتهم الدمار والهلاك، ونجّى الله المؤمنين ونصرهم، فليكن لك فيهم أسوة، ولا تبخع نفسك عليهم حسرات، إن عليك إلا البلاغ.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ معطوف[2] على ﴿يُطَافُ﴾؛ أي: يطاف على عباد الله المخلصين في الجنة بشراب، فيشربون فيتحدثون على الشراب، كما هو عادة الشربة في الدنيا، فيُقبل بعضهم على بعض حال كونهم

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

يتساءلون عن الفضائل، والمعارف، وعما جرى عليهم ولهم في الدنيا. فالتعبير عنهم بصيغة الماضي للتأكيد، والدلالة على تحقق الوقوع حتماً. وفي الآية، إشارة إلى أن أهل الجنة، هم الذين كانوا ممن لم يُقبلوا على الله بالكلية، وإن كانوا مؤمنين موحدين، وإلا كانوا في مقعد صدق مع المقربين. ولا تكرار في هذه والجملة مع ما سبق من نظيرها؛ لأن تلك في بيان حال الكفرة. وهذه في بيان حال أصحاب الجنة.

والمعنى[1]: أي يطاف عليهم بكأس من معين، فيشربون ويتحادثون على الشراب، وما ألذ الحديث لدى الأخلاء، إذ ذاك كما أفصح عن ذلك شاعرهم:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ ٱللَّذَّاتِ إِلاَّ ... مُحَادَثَةُ ٱلْكِرَام عَلَىٰ الشَّرَابِ

وَلَثْمُكَ وَجْنَتَيْ قَمَرٍ مُنِيْرٍ ... يَجُوْلُ بِوَجْهِهِ مَاءُ ٱلشَّبَابِ

والحديث ذو شجون، فهم يتحادثون في شتى الفضائل والمعارف، وفيما سلف لهم من شؤون الدنيا، وأحلى تذكراً، ما فات حين رفاهية الحال، وفراغ البال واطمئنان النفس وخلوها من المخاوف العاجلة والآجلة.

ثم فصّل هذا التساؤل وبيّنه، فقال: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من العباد المخلصين في تضاعيف محاوراتهم، وأثناء مكالماتهم ﴿إِنِّى كَانَ لِى﴾ في الدنيا ﴿قَرِينٌ﴾؛ أي: مصاحب وجليس، كافر بالبعث، منكر له، كما يدل عليه قوله: ﴿يَقُولُ﴾ لي على طريقة التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان والتصديق بالبعث ﴿أَءِنَّكَ﴾ أيها المؤمن ﴿لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾؛ أي: لمن المعتقدين بالبعث والمقرين الجزاء. وهذا[2] الاستفهام من القرين، لتوبيخ ذلك المؤمن، وتبكيته بإيمانه، وتصديقه بما وعد الله به من البعث، وكان هذا القول منه في الدنيا.

ثم ذكر ما يدل على الاستبعاد للبعث عنده، وفي زعمه. فقال: ﴿أَ﴾ ندان ونجازى ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾؛ أي: هل نحن مجزيون

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

بأعمالنا، ومحاسبون بعد أن صرنا تراباً وعظاماً. والاستفهام للإنكار. جمع مدين، من الدين بمعنى: الجزاء، ومنه: كما تدين تدان؛ أي: أئنا نحن لمبعوثون ومجزيون؛ أي: لا نبعث ولا نجازى.

قرأ الجمهور[1]: ﴿لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بتخفيف الصاد من التصديق؛ أي: لمن المصدقين بالبعث. وقرىء بتشديدها، ولا أدري من قرأ بها، وهو بعيد؛ لأنها من التصدق لا من التصديق. ويمكن تأويلها: بأنه أنكر عليه التصدق بماله لطلب الثواب، وعلل ذلك باستبعاد البعث. وقد اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة، فقرأ نافع الأولى، والثانية بالاستفهام بهمزة، والثالثة بكسر الألف من غير استفهام. ووافقه الكسائي؛ إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين، وابن عامر الأولى والثالثة بهمزتين، والثانية بكسر الألف من غير استفهام، والباقون بالاستفهام في جميعها، ثم اختلفوا، فابن كثير يستفهم بهمزةٍ واحدةٍ غير مطولة، وبعده ساكنة خفيفة، وأبو عمرو مطولة، وعاصم وحمزة بهمزتين.

وقد مضت قصتهما في سورة الكهف، والاختلاف في اسميهما. قال قرة بن ثعلبة النهراني[2]: كانا شريكين في بني إسرائيل بثمانية آلاف درهم، أحدهما يعبد الله، واسمه يهوذا، ويقصر في التجارة والنظر، والآخر وهو كافر اسمه نطروس، كان مقبلاً على ماله، فانفصل من شريكه لتقصيره، فكلما اشترى داراً أو جاريةً أو بستاناً ونحوه، عرضه على المؤمن وفخر عليه، فيتصدق المؤمن بنحو من ذلك ليشتري به في الجنة، فكان من أمرهما في الآخرة، ما قصه الله في كتابه في سورة الكهف. وقال الزمخشري[3]: نزلت في رجل، تصدق بماله لوجه الله تعالى، فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه، فقال: وأين مالك؟ فقال: تصدقت به ليعوّضني الله تعالى في الآخرة خيراً منه. فقال: أإنك لمن المصدقين بيوم الدين، أو لمن المتصدقين لطلب ثواب الله تعالى، والله لا أعطيك شيئاً.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط مع زيادة من المراح.
(٣) الكشاف.

﴿قَالَ﴾ ذلك الرجل، الذي هو من أهل الجنة لجلسائه فيها، بعدما حكى لهم، ما قال له قرينه في الدنيا: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين، الذي قال لي تلك المقالة، كيف منزلته في النار؟. ولما كان قرينه ينكر البعث علم أنه في النار. قال ابن الأعرابي: والاستفهام هنا هو بمعنى الأمر؛ أي: اطلعوا، وقيل: القائل هو الله سبحانه، وقيل: الملائكة. والأول أولى، فقال له جلساؤه: أنت أعرف به منا، فاطلع أنت، فذهب ذلك المؤمن إلى بعض أطراف الجنة، فاطلع، عندها إلى النار، فرآه؛ أي: فرأى ذلك الرجل المؤمن قرينه، في سواء الجحيم؛ أي: في وسط النار. قال الزجاج: سواء كل شيء وسطه، وسمي وسط الشيء سواء لاستواء المسافة منه إلى جميع الجوانب. وقال ابن عباس: في الجنة كوى ينظر منها أهلها إلى أهل النار، ويناظرونهم؛ لأن لهم في توبيخ أهل النار لذةً وسروراً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾ بتشديد الطاء المفتوحة، وفتح النون، ﴿فاطلع﴾ فعلاً ماضياً، وقرأ أبو عمرو في رواية حسين الجعفي: ﴿مطلعون﴾ بإسكان الطاء وفتح النون، ﴿فأطلع﴾ بضم الهمزة وسكون الطاء وكسر اللام، فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول، وهي قراءة ابن عباس، وابن محيصن، وعمار بن أبي عمار، وأبي سراج، وقرىء ﴿فاطلع﴾ مشدداً مضارعاً، منصوباً على جواب الاستفهام. وقرىء ﴿مطلعون﴾ بالتخفيف، ﴿فأطلع﴾ مخففاً فعلاً ماضياً. وقرىء ﴿فأطلع﴾ مخففاً مضارعاً منصوباً. وقرأ أبو البرهشيم، وعمار بن أبي عمار، فيما ذكره خلف عن عمار: ﴿مطلعون﴾ بتخفيف الطاء وكسر النون، ﴿فأطلع﴾ ماضياً مبنياً للمفعول. وأورد هذه القراءة أبو حاتم وغيره لجمعها بين نون الجمع وياء المتكلم، والوجه ﴿مطلعي﴾ كما قال: أو مخرجي هم. وقال الزمخشري: يريد مطلعون إياي، فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله: هم الفاعلون للخير والآمرونه. أو يقال: إن كسر النون في الجمع لغة، وإن كان لا يقع إلا في الشعر.

وحاصل معنى الآيات[2]: أي قال قائل من أهل الجنة: إني كان لي قرين

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

في الدنيا، يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة، ويستنكره أشد الاستنكار، ويقول متعجباً: أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً، أئنا لمحاسبون، بعد ذلك على أعمالنا وما قدمته أيدينا، ألا إن ذلك لا يدخل في باب الإمكان، ولا يقبله عاقل فأجدر بمن يصدق بمثل هذا أن يعد من البله والمجانين الذين لا ينبغي مخاطبتهم ولا الدخول معهم في باب الجدل والخصام. فهم ساقطون من درجة الاعتبار لدى العقلاء والمنصفين.. وبعد أن ذكر مقالته لأهل الجنة، أراد أن يؤكد لهم صدق ما قال، ويريهم ما آل إليه أمره من دخول النار فـ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾؛ أي: قال لجلسائه من أهل الجنة ليزيدهم سروراً على أن عصمهم الله تعالى من مثل حاله، ووفقّهم إلى العمل بما أرشد إليه أنبياءه، هل تودون أن تروا عاقبة ذلك القرين، وكيف خذله الله تعالى، وأوقعه في الهلكة؟.

واعلم: أنه لا ينبغي لنا أن نخوض في بيان كيفية الاطلاع، إذ ذاك مع شاسع المسافات واختلاف مراتب أهل الجنة وأهل النار، فإن ذلك من أمور الغيب، التي يجب أن نؤمن بها دون بحث في شأنها، ولا نقص ولا زيادة فيها.

فاطلع ذلك المؤمن إلى أهل النار، فرأى قرينه في وسطها، يتلظى بحرها وشديد لهبها، ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل المؤمن، مخاطباً لقرينه، متشمتاً به حين رآه على صورة قبيحة، وقال خليل العصري: رآه تبدلت حالته، فلولا ما عرّفه الله به، لم يعرفه، فقال له عند ذلك: ﴿تَاللَّهِ﴾؛ أي: أقسمت لك بالله المنتقم ﴿إِنْ﴾؛ أي: إن الشأن ﴿كِدتَّ﴾؛ أي: قاربت ﴿لَتُرْدِينِ﴾؛ أي: لتهلكني بالإغواء. والردى: الهلاك، والإرداء: الإهلاك، أصله: ترديني بياء المتكلم، فحذفت اكتفاء بالكسرة، كما سيأتي؛ أي: إن الشأن، قاربت لتهلكني بدعائك إياي، إلى إنكار البعث والقيامة، وقرىء[1]: ﴿لتغوين﴾؛ أي: لتضلني عن الدين، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ علي بهدايتي إلى الحق، وعصمتي من الباطل ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾؛ أي: من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك، وفي «التأويلات

---

(١) البيضاوي والمراح.

النجمية»: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾؛ أي: حفظه وعصمته وهدايته ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معكم فيما كنتم فيه من الضلالة في البداية، وفيما أنتم فيه من العذاب والبعد في النهاية.

وإنما أخبر الله تعالى عن هذه الحالة قبل وقوعها، ليعلم أن غيبة الأشياء وحضورها عند الله سبحانه سواء، لا يزيد حضورها في علم الله تعالى شيئاً، ولا ينقص غيبتها من علمه شيئاً، سواء في علمه وجودها وعدمها، بل كانت المعدومات في علمه موجودة.

وقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾﴾ رجوع إلى محاورة جلسائه في الجنة، بعد إتمام الكلام مع قرينه، سروراً بفضل الله العظيم، والنعيم المقيم، فإن تذكر الخلود في الجنة لذة عظيمة، والهمزة فيه للاستفهام التقريري، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، وفيها معنى التعجب، والفاء عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: أنحن مخلدون، منعمون في الجنة، فما نحن بميتين؛ أي: بمن شأنه الموت ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ التي كانت في الدنيا، وهي متناولة لما في القبر بعد الإحياء للسؤال؛ أي: لا نموت في الجنة أبداً، سوى موتتنا الأولى في الدنيا، ونصبها على المصدر من اسم الفاعل يعني: إنه مستثنى مفرّغ معرب، على حسب العوامل، منصوب بميتين، كما ينصب المصدر بالفعل المذكور قبله في مثل قولك: ما ضربت زيداً إلا ضربة واحدة، فكأنه قيل: وما نحن نموت موتة إلى موتتنا الأولى. وقيل: نصبها على الاستثناء المنقطع، بمعنى؛ لكن الموتة الأولى قد كانت في الدنيا. وقيل: ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى بعد وسوى، وقرأ زيد بن علي ﴿وما نحن بمائتين﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ كالكفار، فإن النجاة من العذاب أيضاً نعمة جليلة، مستوجبة للتحدث بها، كما أن العذاب محنة عظيمة، مستدعية لتمني الموت كل ساعة. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «الموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده».

والمعنى[1]: أي يقول لهم: أنحن مخلدون منعمون، فما نحن بميتين ولا

---

(١) المراغي.

بمعذبين إلا موتتنا الأولى بخلاف الكفار، فإنهم يموتون مثلنا، ثم في جهنم يتمنون الموت كل ساعة، ولا يخفى ما في ذلك من سوء الحال، وقيل لحكيم: ما شر من الموت؟ قال: الذي يُتمنى معه الموت.

والخلاصة: أن المؤمن غبط نفسه، بما أعطاه الله من الخلد في الجنة، والإقامة في دار الكرامة، بلا موت فيها ولا عذاب.

وعلم أهل الجنة أنهم لا يموتون فيها، حصل لهم من إخبار الأنبياء لهم في الدنيا بذلك، وبما ذكر في كتابه، نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، وفي نفي العذاب عنهم إيماء إلى استمرار النعيم، وعدم خوف زواله، فإن خوف الزوال نوع من العذاب، كما قال:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا حَيَاةً هَنِيَّةً ... فَلَا تَتَّخِذْ شَيْئاً تَخَافُ لَهُ فَقْدَا

وإلى نفي الهرم واختلال القوى، لأنه ضرب من العذاب أيضاً.

ثم زاد في تأنيب قرينه وزيادة حسرته، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الأمر العظيم، الذي نحن فيه من النعمة والخلود والأمن من العذاب ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والظفر الجسيم، والسعادة الأبدية، والسلامة السرمدية؛ أي: لهو السعادة والظفر بكل المراد، إذ الدنيا وما فيها تحتقر دونه، كما تحتقر القطرة من البحر المحيط، والحبة من البيدر الكبير، وقرىء ﴿أإن هذا لهو الفوز﴾ بزيادة همزة الاستفهام، قاله في المراح.

والمعنى(١): أي إن هذا الأمر العظيم، والنعيم المقيم، والخلود الدائم الذي نحن فيه، لهو الفوز العظيم، الذي لا يقادر قدره، ولا يمكن الإحاطة بوصفه.

وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾؛ أي: لنيل هذا المرام الجليل من تمام كلامه؛ أي: لنيل مثل هذا العطاء، يجب أن يعمل العاملون، ويجتهد

---

(١) الشوكاني.

المجتهدون، فإن هذه هي التجارة الرابحة، لا للحظوظ الدنيوية السريعة الانقطاع، المشوبة بفنون الآلام والبلايا والصداع، فإنها صفقة خاسرة نعيمها منقطع، وخيرها زائل، وصاحبها عن قريب منها راحل، وقيل[١]: إن هذا من كلامه سبحانه وتعالى، فهو ترغيب في طلب ثواب الله بطاعته، ويقال: المعنى حينئذ: فليحتمل المحتملون الأذى؛ لأنه قد حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات، كما قال بعضهم:

حُفَّتِ ٱلْجَنَّةُ بِمَكْرُوْهَاتِنَا وَحُفَّتِ ٱلنِّيْرَانُ مِنْ شَهَوَاتِنَا

يعني: جُعلت الجنة محفوفةً بالأشياء التي كانت مكروهة لنا، وجُعلت النار محاطة بالأشياء التي هي محبوبة لنا، فما بين المرء وبين الجنة حجاب إلا المكاره، وهو حجاب عظيم صعب خرقه، وما بين النار وبينه حجاب إلا الشهوات، وهو حجاب حقير سهل لأهله، والعياذ بالله سبحانه، من الإقبال على الشهوات، والإدبار عن الكرامات في الجنات، وقيل: من قول الملائكة، والأول أولى.

والهمزة في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ للاستفهام التقريري. والمراد[٢]: حمل الكفار على إقرار مدخولها، وذلك إشارة إلى نعيم الجنة، وهو مبتدأ، خبره ﴿خَيْرٌ﴾ وهو وارد على سبيل التهكم والاستهزاء بهم، وانتصاب ﴿نُّزُلًا﴾ على التمييز أو على الحالية، وهو ما يهيأ من الطعام النفيس للقادم؛ أي: الضيف ومنه: إنزال الأجناد لأرزاقهم؛ أي: أنعيم الجنة، ورزقها المعلوم للمؤمنين خير طعاماً ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؛ أي: ثمرها الذي كان طعام أهل النار، فأيهما خير في كونهما نزلا، والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق، مرة كريهة الرائحة، تكون بتهامة يعرفها المشركون، سميت بها الشجرة الموصوفة بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ ...﴾ إلخ، والإضافة فيها من إضافة المسمى إلى الاسم، واختلف[٣] فيها، هل هي من شجر الدنيا، التي يعرفها العرب، أم لا؟ على قولين:

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

أحدهما: أنها معروفة من شجر الدنيا، فقال قطرب: إنها شجرة مرة، تكون بتهامة، من أخبث الشجر، وقال غيره: هو كل نبات قاتل، فعلى هذا، ففي الكلام استعارة.

والقول الثاني: أنها عبارة عن أطعمة كريهة في النار، وفي ذكره ﴿نُزُلًا﴾ دلالة على أن ما ذكره من النعيم لأهل الجنة، بمنزلة ما يُعد ويرفع للنازل، ولهم وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام، وكذلك الزقوم لأهل النار.

والمعنى: أهذا الرزق المعلوم الذي أعطيته لأهل الجنة، كرامة مني لهم خير، أم ما أوعدت به أهل النار، من الزقوم المر البشع.

والحاصل: أن الله سبحانه، أمر رسوله أن يورد ذلك على كفار قومه، ليصير ذلك زاجراً لهم عن الكفر والمعاصي، وهذا ضرب من التهكم والسخرية بهم، وهو أسلوب كثير الورود في القرآن الكريم.

قال قتادة: لما ذكر الله سبحانه هذه الشجرة، افتتن بها الكفار، فقالوا: كيف تكون في النار شجرة؟، فأنزل الله سبحانه ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾؛ أي: إنا جعلنا تلك الشجرة ابتلاء، واختباراً للكافرين. فهم حين سمعوا أنها في النار قالوا: كيف يكون ذلك، والنار تحرق الشجر، مع أن هذا ليس بالعجيب ولا بالمستحيل، فإن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار وينعم فيها كحيات جهنم مثلاً فهو أقدر على خلق الشجر فيها، وحفظه من الاحتراق.

وقيل المعنى[1]: أنا جعلناها فتنة؛ أي: عذاباً لهم في الآخرة، فإن الفتن تأتي بمعنى الإحراق، وابتلاءً لهم في الدنيا حيث فتنوا وضلوا عن الحق بسببها، فإن الفاتن قد يطلق على المضل عن الحق، فإن الكفار لما سمعوا كون هذه الشجرة في النار، فتنوا به في دينهم، وتوسلوا به إلى الطعن في القرآن، والنبوة والتمادي في الكفر.

---

(١) روح البيان.

ثم بيَّن سبحانه أوصاف هذه الشجرة، رداً على منكريها، فقال: ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: إن هذه الشجرة الموسومة بالزقوم ﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ﴾؛ أي: تنبت ﴿فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: في قعر جهنم وأسفلها، فمنبعها في قعرها، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها، ولما كان أصل عنصرها النار لم تحرق بها كسائر الأشجار، ألا ترى، أن السمك لما تولد في الماء لم يغرق، بخلاف ما لم يتولد فيه.

ولعل[1] هذا رد على ابن الزبعرى وصناديد قريش، وتجهيل لهم حيث قال ابن الزبعرى لهم: إن محمداً يخوفنا بالزقوم، والزقوم بلسان البربر، الزبد والتمر، فأدخلهم أبو جهل بيته وقال: يا جارية زقمينا، فأتتهم بالزبد والتمر، فقال استهزاءً: تزقموا فهذا ما توعدكم به محمد، فقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: فليس الزقوم ما فهم هؤلاء الجهلة الضلال.

﴿طَلْعُهَا﴾؛ أي: حملها وثمرها الذي يخرج منها ويطلع، مستعار من طلع النخلة، لمشاركته له في الشكل والطلع كما سيأتي: شيء يخرج من النخل، كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود، قالوا أول الثمر: طلع ثم خلال، ثم بلح، ثم بسر، ثم رطب، ثم تمر، اهـ أبو السعود. ﴿كَأَنَّهُۥ﴾؛ أي: كأن ذلك الطلع وثمره في تناهي قبحه وشناعة منظره ﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾؛ لأن صورة الشيطان أقبح الصور، وأكرهها في طباع الناس وعقائدهم، ومن ثمة إذا وصفوا شيئاً بغاية القبح والكراهة قالوا: كأنه شيطان وإن لم يروه، فتشبيه الطلع برؤوس الشياطين، تشبيه بالمخيّل كتشبيه الفائق في الحسن بالملك، قال تعالى حكاية: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وفيه إشارة، إلى أن من كان ههنا معلوماته في قبح صفات الشياطين، يكون هناك مكافأته في قبح صورة الشياطين.

والمعنى[2]: أي إن ثمرها في قبح منظره، وكراهة رؤيته، كأنه رؤوس الشياطين، والعرب تتخيل رأس الشيطان صورة بشعة، لا تعدلها صورة أخرى، فيقولون لمن يسمونه بالقبح المتناهي: كأن وجهه وجه شيطان، وكأن رأسه رأس

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

شيطان، ألا ترى إلى امرىء القيس، وقد سلك هذا السبيل، ونهج هذا النهج، فقال:

أَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فشبه سنان الرمح بأنياب الغول، ولم يرها، فشبه المحسوس بالمتخيل وإن كان غير مرئي، للدلالة على أنه غاية في القبح، وعلى العكس من هذا، تراهم يشبهون الصورة الحسنة بالملك، من قبل أنهم اعتقدوا فيه، أنه خير محض لا شر فيه، فارتسم في خيالهم بأبهى صورة، وعلى هذا جاء قوله تعالى حكاية عن صواحبات يوسف عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وقال الزجاج والفراء[1]: الشياطين حيات هائلة، قبيحة المنظر، لها رؤوس وأعراف، جمع عرف بضم العين، وهو شعر تحت الرأس، وهي من أقبح الحيات وأخبثها، وأخفها جسماً. وقيل: إن رؤوس الشياطين اسم لنبت قبيح، معروف باليمن، بناحية يقال لها: الأستن، ويقال له: الشيطان، قال النحاس: وليس ذلك معروفاً عند العرب، وقيل: هو شجر خشن منتن، مر، منكر الصورة، يسمى ثمره رؤوس الشيطان، يوجد بين مكة واليمن.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: الكفار ﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: من شجرة الزقوم، أو من طلعها، والتأنيث لاكتساب الطلع التأنيث من إضافته إلى الشجرة، ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا﴾؛ أي: من شجرة الزقوم ﴿ٱلْبُطُونَ﴾؛ أي: بطونهم، والمالىء اسم فاعل، من ملأ الإناء ماءً كما سيأتي، والبطون: جمع بطن، وهو خلاف الظهر، وذلك لغلبة الجوع عليهم، أو أنهم يكرهون على أكلها حتى تمتلىء بطونهم، فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة وفاكهتهم، ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ﴾ بعد الأكل منها ﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي[2]: على الشجرة التي ملؤوا منها بطونهم بعد ما شبعوا منها، وغلبهم العطش، وطال استسقاؤهم كما ينبىء عنه كلمة ﴿ثُمَّ﴾ فتكون للتراخي الزماني، ويجوز أن تكون للرتبي، من حيث إن كراهة شرابهم وبشاعته، لما كانت أشد

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

وأقوى بالنسبة إلى كراهة طعامهم، كان شرابهم أبعد من طعامهم من حيث الرتبة، فيكونون جامعين بين أكل الطعام الكريه البشع، وشرب الشراب الأكره الأبشع، ﴿لَشَوْبًا﴾؛ أي: لشراباً مخلوطاً ممزوجاً ﴿مِّنْ﴾ دم وصديد بماء ﴿حَمِيمٍ﴾؛ أي: متناه في الحرارة، والشوب: الخلط، قال الفراء: يقال: شاب طعامه وشرابه، إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوباً وشبابة، والحميم: الحار الذي قد انتهى حره؛ أي: إن لهم شراباً من دم أو قيح أسود، أو صديد ممزوجاً مشوباً بماء حار، غاية الحرارة يقطع أمعاءهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿شوبا﴾ بفتح الشين، وقرأ شيبان النحوي: بالضم، قال الزجاج: الفتح للمصدر، والضم للاسم، يعني: أنه فعل بمعنى مفعول كالنقض بمعنى المنقوض.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما ملؤوا بطونهم منها، وشربوا عليها شوباً من حميم ﴿إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾؛ أي: مصيرهم ومنقلبهم ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾؛ أي: إلى[2] دركاتها أو إلى نفسها، فإن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولها، وقيل: الجحيم خارج عنها لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾، يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم من الجحيم إلى شجرة الزقوم، فيأكلون منها إلى أن يمتلئوا، ثم يسقون من الحميم، ثم يردون إلى الجحيم، كما يرد الإبل عن موارد الماء، ويؤيده قراءة ابن مسعود ﴿ثم إن مقيلهم﴾، وفي الحديث: «يا أيها الناس اتقوا الله، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت، لأمرت على أهل الدنيا معيشتها، فكيف بمن هو طعامه وشرابه، وليس له طعام غيره»، وقرأ ابن مسعود ﴿ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم﴾.

وقال أبو حيان[3]: ولما كان الأكل يعقبه ملء البطن، كان العطف بالفاء في قوله: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾، ولما كان الشرب يكثر تراخيه عن الأكل، أتى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط بتصرف.

بثم، المفيدة للتراخي والمهلة، في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾، ولما ذهب بهم من منازلهم، التي أسكنوها في النار، إلى شجرة الزقوم للأكل والتملؤ منها، والسقي من الحميم، وتراخي رجوعهم إلى منازلهم، أتى بـ﴿ثم﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ للدلالة على ذلك؛ لأن الرجوع يدل على الانتقال في وقت الأكل والشرب إلى مكان غير مكانهما.

وحاصل معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ إلى آخر الآيات الثلاث؛ أي: فإنهم[1] ليأكلون من ثمرها، فيملؤون بطونهم منه، وإن كانوا يعرفون مرارة طعمه، ونهاية نتنه، وبشاعة رائحته، ولكن ماذا يعملون، وقد غلب عليهم الجوع، والمضطر يركب الصعب والذلول، ويستروح من الضر بما يقاربه فيه، وبعد أن وصف طعامهم وبيَّن شناعته، أردفه ذكر شرابهم ووصفه بما هو أبشع وأشنع، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾؛ أي: ثم إنهم بعد أن يشبعوا ويغلبهم العطش، يستغيثون منه، فيغاثون بماء كالمهل، قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم، شوى لحوم وجوههم، وإذا شربوه قطع أمعاءهم، ثم ذكر أنهم بعد هذا وذاك، لا مأوى لهم إلا نار جهنم، وبئس المصير، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾؛ أي: ثم إن مصيرهم بعد المأكل والمشرب لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فهم تارة في هذه، وتارة في تلك.

والخلاصة: أنهم يؤخذون من منازلهم في الجحيم، وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم، فيأكلون إلى أن تمتلىء بطونهم، ثم يسقون الحميم، ثم يرجعون إلى تلك الدركات.

ثم علل استحاقهم للوقوع، في تلك الشدائد، بتقليد الآباء في الدين بلا دليل يستمسكون به، فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾﴾؛ أي: وإنما استحقوا هذا العذاب الشديد؛ لأنهم أي: لأن أصحاب الزقوم وجدوا آباءهم ضالين،

---

(١) المراغي.

مخطئين في نفس الأمر، عن الهدى وطلب الحق، ليس لهم ما يصلح شبهة، فضلاً عن صلاحية الدليل، فقلدوهم في ضلالاتهم وجهالاتهم، ﴿فَهُمْ﴾؛ أي: الكافرون الظالمون بسبب تقليدهم آباءهم ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾؛ أي: على آثار الآباء وأعقابهم ﴿يُهْرَعُونَ﴾؛ أي: يسرعون من غير أن يتدبروا أنهم على الحق، أو لا، مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل، والإهراع: الإسراع الشديد، كأنهم يزعجون ويحثون حثاً على الإسراع على آثارهم.

والمعنى: يتبعون آباءهم في سرعة، كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم، وفي هذا دليل، على أن التقليد شؤم على المقلد، وعلى من يتبعه، فالإنسان لا سعادة له إلا بالنظر، والبحث في الحقائق الدنيوية والأخروية، ولو لم يكن في القرآن آية، غير هذه في ذم التقليد، لكفت.

﴿وَلَقَدْ﴾ جواب قسم محذوف؛ أي: وعزتي وجلالي لقد ﴿ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل قومك قريش ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم السابقة، أضلهم إبليس، ولم يذكر لأن في الكلام دليلاً، فاكتفي بالإشارة.

والمعنى: أي ولقد ضل قبل قريش كثير من الأمم الماضية، فعبدوا مع الله تعالى آلهة أخرى، كما فعل قوم إبراهيم، وقوم هود، وقوم صالح.

ثم ذكر رحمته بعباده، وأنه لا يؤاخذهم إلا بعد إنذار، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أرسلنا في أولئك الأولين رسلاً أولي عدد كثير، ذوي شأن خطير، بيَّنوا لهم بطلان ما هم عليه، وأنذروهم عاقبته الوخيمة، وأوضحوا لهم الحق. فلم يُنجح ذلك فيهم، ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد، أو أيها المخاطب ﴿كَيْفَ كَانَ﴾؛ أي: أي حالة كانت ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ أي: آخر أمر الذين أنذروا من عذاب الله تعالى، فلم يلتفتوا إلى الإنذار، ولم يرفعوا له رأساً من الدمار والهلاك، فقد دمرهم الله تعالى، ونجى المؤمنين ونصرهم.

والخطاب[1]: إما للرسول، أو لكل أحد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم،

---

(١) روح البيان.

وسماع أخبارهم، وحيث كان المعنى: أنهم أهلكوا إهلاكاً فظيعاً، استثني منهم المخلصين بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان، والعمل بموجب الإنذار، واصطفاهم بالقرب والرضا. يعني: أنهم نجوا مما أهلك به كفار الأمم الماضية. وقرىء[1] ﴿المخلصين﴾ بكسر اللام؛ أي: الذين أخلصوا لله طاعاتهم، ولم يشوبوها بشيء مما يغيرها؛ أي: لكن عباد الله الذين أخلصهم الله بتوفيقهم للإيمان والعمل بأوامر دينه أنجاهم من عذابه. ففازوا بالنعيم المقيم، في جنات عرضها السموات والأرض.

وفي الآية[2]: تسلية لرسول الله ﷺ ببيان أنه تعالى، أرسل قبله رسلاً إلى الأمم الماضية، فأنذروهم بسوء عاقبة الكفر والضلال، فكذبهم قومهم ولم ينتهوا بالإنذار، وأصروا على الكفر والضلال، فصبر الرسل على أذاهم، واستمروا على دعوتهم إلى الله تعالى، فاقتد بهم، وما عليك إلا البلاغ، ثم إن عاقبة الإصرار الهلاك، وغاية الصبر النجاة والفوز بالمراد، فعلى العاقل تصحيح العمل بالإخلاص، وتصحيح القلب بالتصفية.

قال الواسطي: مدار العبودية على ستة أشياء: التعظيم، والحياء، والخوف، والرجاء، والمحبة، والهيبة، فمن ذكر التعظيم يهيج الإخلاص، ومن ذكر الحياء يكون العبد على خطرات قلبه حافظاً، ومن ذكر الخوف يتوب العبد من الذنوب ويأمن من المهالك، ومن ذكر الرجاء يسارع إلى الطاعات، ومن ذكر المحبة يصفو له الأعمال، ومن ذكر الهيبة يدع التملك والاختيار، ويكون في إرادته تابعاً لإرادة الله تعالى، ولا يقول إلا سمعنا وأطعنا، ومن الله سبحانه التوفيق، بطريق التحقيق، وقد ذكر الله سبحانه، في هذه السورة ست قصص من قصص الأنبياء:

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

الأولى منها: قصص نوح عليه السلام

ولما ذكر سبحانه، أنه أرسل في الأمم الماضية منذرين، وحسن عاقبة المنذرين بالكسر، وسوء خاتمة المنذرين، بالفتح ذكر تفصيل ما أجمله، فقال: ﴿وَلَقَدْ﴾ جواب قسم محذوف؛ أي: وعزتي وجلالي لقد ﴿نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ عليه السلام، ودعا واستنصر بنا على كفار قومه، لما بالغوا في إيذائه وهموا بقتله، حين دعاهم إلى الدين الحق. ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ له نحن إذ لبينا نداءه، وأهلكنا من كذب به من قومه، والنداء: الدعاء بقرينة ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾.

والمعنى[1]: وبالله لقد دعانا نوح، وهو أول المرسلين حين يئس من إيمان قومه، بعدما دعاهم إليه أحقاباً ودهوراً، فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً، فأجبناه أحسن الإجابة، حيث أوصلناه إلى مراده من نصرته على أعدائه، والانتقام منهم بأبلغ ما يكون، فوالله لنعم المجيبون نحن، فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه، والجمع دليل العظمة والكبرياء.

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى في بيتي فمر بهذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ قال: «صدقت ربنا أنت أقرب من دُعي، وأقرب من بُغي، فنعم المدعو، ونعم المُعطي، ونعم المسؤول، ونعم المولى، أنت ربنا، ونعم النصير».

ثم بيَّن سبحانه، أن الإنعام حصل في الإجابة من وجوه:

١ - ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾، أي: ونجينا نوحاً ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾؛ أي: وأهل دينه، وهم من آمن معه، وكانوا ثمانين، ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والغرق العميم، وقيل: من أذى قومه دهراً طويلاً، ومن كل ما يكربه ويسوؤه، والكرب: الغم الشديد كما سيأتي في مبحث اللغة.

٢ - ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ ونسله ﴿هُمُ﴾ فحسب ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ في الدنيا دون غيرهم،

---

(١) روح البيان.

كما يُشعر به ضمير الفصل، وذلك لأن الله سبحانه، أهلك الكفرة بدعائه، ولم يبق منهم باقية، ومن كان معه في السفينة من المؤمنين، ماتوا كما قيل، ولم يبق إلا أولاده، وقد رُوي: أنه مات كل من كان معه في السفينة، غير أبنائه وأزواجهم، وهم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة، قال قتادة: إنهم كلهم من ذرية نوح، وكان له ثلاثة أولاد: سام، وحام، ويافث. فسام أبو العرب، وفارس، والروم، واليهود، والنصارى، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب، وكنعان، والسند، والهند، والنوبة، والزنج، والحبشة، والقبط، والبربر، وغيرهم. ويافث أبو الترك، والخزر، والصقالب، ويأجوج ومأجوج، وما هنالك.

وهذا هو المشهور على ألسنة المؤرخين[1]، وليس في القرآن ولا في السنة نص قاطع على شيء من هذا، كما أنه ليس في القرآن ما يشير إلى عموم دعوته لأهل الأرض قاطبةً، ولا أن الغرق عم الأرض جميعاً، وأن ما تفيده الآية من جعل ذريته هم الباقون، إنما هو بالنسبة لذرية من معه في السفينة، وذلك لا يستلزم عدم بقاء ذرية من لم يكن معه، وقد كان في بعض الأقطار الشاسعة، من لم تبلغهم الدعوة، فلم يستوجبوا الغرق، كأهل الصين وغيرهم من البلاد النائية.

٣ - ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: على نوح، وأبقينا له ثناءً حسناً وذكراً جميلاً، ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾؛ أي: فيمن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة، ثم ذكر سبحانه، أنه سلم عليه ليقتدى به، فلا يذكره أحد بسوء، فقال: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾؛ أي: وقلنا له: عليك السلام في الملائكة، والإنس، والجن، وعلى هذا التفسير المتروك محذوف، كما قدرنا: والسلام من الله تعالى، وقيل: المتروك نفس قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾؛ أي: تركنا هذا الكلام بعينه في الآخرين، وارتفاعه على الحكاية كقولك: قرأت سورة أنزلناها، فلم ينتصب السلام، لأن الحكاية لا تغير عن وجهها. والمعنى: يسلمون عليه تسليماً، ويدعون له على الدوام أمةً بعد أمة. وقوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ على هذا المعنى بدل من قوله: ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ لكونه

(١) المراغي.

أدل منه على الشمول والاستغراق، لدخول الملائكة والثقلين فيه. والمراد[1]: الدعاء بثبات هذه التحية واستمرارها أبداً في العالمين، من الملائكة والثقلين جميعاً. وفي «تفسير القرطبي»: جاءت الحية والعقرب لدخول السفينة، فقال نوح: لا أحملكما لأنكما سبب الضر والبلاء، فقالا: احملنا، فنحن نضمن لك أن لا نضر أحداً ذكرك، فمن قرأ حين يخاف مضرتهما ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ لم يضراه، ذكره القشيري.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير بهذا إلى أن المستحق لسلام الله، هو نوح روح الإنسان؛ لأنه ما جاء أن الله سلم على شيء من العالمين غير الإنسان، كما قال تعالى ليلة المعراج: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فقال عليه السلام: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، وما قال: وعلى ملائكتك المقربين. وإنما كان اختصاص الإنسان بسلام من بين العالمين؛ لأنه حامل الأمانة الثقيلة التي أعرض عنها غيره، فكان أحوج شيءٍ إلى سلام الله، ليعبر بالأمانة على الصراط المستقيم، الذي هو أدق من الشعرة، وأحد من السيف، ولهذا قال النبي ﷺ: «تكون دعوة الرسل حينئذٍ، رب سلم سلم». وهل سمعت أن يكون لغير الإنسان العبور على الصراط، وإنما اختصوا بالعبور على الصراط؛ لأنهم يؤدون الأمانة إلى أهلها. وهو الله تعالى، فلا بد من العبور على صراط الله، الموصل إليه لأداء الأمانة، وقرأ ابن مسعود[2] ﴿سلاما﴾ منصوباً بتركنا.

ثم علل ما فعله به، بأنه جزاء على إحسانه فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ الكاف متعلق بما بعدها؛ أي: مثل ذلك الجزاء الكامل، من إجابة الدعاء، وإبقاء الذرية، والذكر الجميل، وتسليم العالمين أبداً، ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: الكاملين في الإحسان والإخلاص، لا جزاءً أدنى منه، فهو تعليل لما فُعل بنوح، من الكرامات السنية، بأنه مجازاة على إحسانه، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ تعليل لكونه من المحسنين، بخلوص عبوديته وكمال إيمانه، وفيه إظهار لجلالة قدر الإيمان وأصالة أمره، وترغيب في تحصيله والثبات عليه، وفي «كشف

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

الأسرار»: خص[1] الإيمان بالذكر، والنبوة أشرف منه، بياناً لشرف المؤمنين، لا لشرف نوح، كما يقال: إن محمداً ﷺ من بني هاشم. قال عباس بن عطاء: أدنى منازل المرسلين أعلى مراتب النبيين، وأدنى مراتب النبيين أعلى مراتب الصديقين، وأدنى مراتب الصديقين أعلى مراتب المؤمنين.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾ بالطوفان ﴿الْآخَرِينَ﴾؛ أي: المغايرين لنوح وأهله، وهم كفار قومه أجمعين، ولم نُبق لهم عيناً ولا أثراً، وهو معطوف على ﴿نَجَّيْنَاهُ﴾، وأتى بـ﴿ثم﴾ لما بين الإنجاء والإغراق من التفاوت الرتبي، وكذا إذا كان عطفاً على ﴿تركنا﴾، وليس للتراخي؛ لأن كلاً من الإنجاء والإبقاء إنما هو بعد الإغراق دون العكس، كما يقتضيه التراخي.

والثانية منها: قصص إبراهيم عليه السلام

ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم، وبيّن أنه ممن شايع نوحاً فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ﴾؛ أي: وإن ممن شايع نوحاً وتابعه ووافقه في أصول الدين والدعوة إلى الله سبحانه، وإلى توحيده والإيمان به ﴿لَإِبْرَاهِيمَ﴾ وإن اختلفت فروع شريعتهما، ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق كلي أو أكثري. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أي: وإن من أهل دينه وعلى سننه أو ممن شايعه ووافقه على التصلب في دين الله، ومصابرة المكذبين، وما كان بينهما إلا نبيان هود وصالح فقط، والذين قبل نوح ثلاثة: إدريس، وشيث، وآدم، فجملة ﴿مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ﴾ من الأنبياء ستة، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وست مئة وأربعون سنة، قال الأصمعي: الشيعة: الأعوان، وهو مأخوذ من الشياع، وهو الحطب الصغار الذي يوقد مع الكبار حتى يستوقد، وفي بعض التفاسير أن الهاء في ﴿شِيعَتِهِ﴾ عائد على محمد ﷺ، وإن كان غير مذكور.

والمعنى عليه: وإن من شيعة محمد ﷺ لإبراهيم، فإبراهيم وإن كان سابقاً في الصورة، لكنه متابع لرسول الله ﷺ في الحقيقة، ولذا اعترف بفضله، ومدح

---

(١) روح البيان.

دينه، ودعا فيه حيث قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ كذا قال الفراء والكلبي وغيرهما، ولا يخفى ما في هذا من الضعف والمخالفة للسياق.

والظرف في قوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ منصوب بفعل محذوف، تقديره: اذكر يا محمد لقومك قصةً إذ أقبل إبراهيم إلى طاعة ربه بقلب خالص من الشرك والشك. وقيل: من الغل، والغش، والحقد، والحسد يحب للناس ما يحب لنفسه، وقيل: خالص من جميع آفات القلوب، وقيل: سليم من العلائق بما في الكونين، ومعنى مجيئه به ربه: إخلاصه له، كأنه جاء به متحضناً إياه بطريق التمثيل، وإلا فليس القلب مما ينقل من مكان إلى مكان حتى يُجاء به، وفي الشوكاني: ومعنى مجيئه إلى ربه يحتمل وجهين:

أحدهما: عند دعائه إلى توحيده وطاعته.

والثاني: عند إلقائه في النار. وقيل: الظرف متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة؛ أي: تابعه إذ جاء ربه بقلب سليم، واعترضه أبو حيان بلزوم الفصل بينه وبين معموله بأجنبي، وهو قوله: ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وبلزوم عمل ما قبل اللام الابتدائية فيما بعدها، وأجيب: بأنه يُتوسع في الظروف ما لا يُتوسع في غيرها.

ومعنى قوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ...﴾ إلخ؛ أي[1]: وإنّ ممن سار على نهج نوح، وسلك طريقه في اعتقاد التوحيد والبعث، والتصلب في دين الله، ومصابرة المكذبين، إبراهيم الخليل، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ...﴾ إلخ؛ أي: إذا أخلص قلبه لربه، وجعله خالياً من كل شؤون الحياة الدنيا، فلا غش لديه، ولا حقد، ولا شيء مما يشينه من العقائد الزائفة، والصفات القبيحة.

ثم فصّل ما سلف، فقال: ﴿إِذْ قَالَ﴾ والظرف بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، أو متعلق بـ﴿سليم﴾؛ أي: اذكر إذ قال، أو جاء ربه بقلب سليم حين قال: ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر بن باعر بن ناحور بن فالغ بن صالح بن أرفخشد بن سام بن نوح ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ وكانوا عبدة الأصنام ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ؛ أي: أي شيء

---

(١) المراغي.

تعبدون؛ أي: حين قال لأبيه آزر وقومه الكفار، منكراً عليهم عبادة الأصنام والأوثان؛ أي: شيء تعبدون، إذ لا ينبغي لعاقل، أن يركن إلى مثل هذه المعبودات، التي لا تضر ولا تنفع.

ثم بيَّن الإنكار وفسّره بقوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري. والإفك[1]: أسوأ الكذب، وهو لا يثبت ويضطرب، ومنه: ائتفكت بهم الأرض. وانتصاب ﴿إفكا﴾ على أنه مفعول لأجله، و﴿ءَالِهَةً﴾ مفعول به لـ ﴿تريدون﴾. فقدم المفعول على الفعل للعناية، ثم المفعول له على المفعول به؛ لأن الأهم مكافحتهم بأنهم على إفك آلهتهم، وباطل شركهم؛ أي: أتريدون آلهةً من دون الله، تعبدونها إفكاً وكذباً، دون أن تركنوا في ذلك إلى دليل، من نص ولا تأييد من نقل، إن هذا منكم إلا خبال وخطل في الرأي، وقيل: انتصاب ﴿إفكاً﴾ على أنه مفعول به لـ﴿تريدون﴾، و﴿ءَالِهَةً﴾ بدل منه جعلها نفس الإفك مبالغةً. وهذه أولى من الوجه الأول. وقيل: انتصابه على الحال من فاعل ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ أي: أتريدون آلهة آفكين أو ذوي إفك.

﴿فَمَا﴾ مبتدأ، خبره ﴿ظَنُّكُم﴾؛ أي: فأي شيء ظنكم واعتقادكم ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؛ أي: أتظنون أن يغفل عنكم أو لا يؤاخذكم بما كسبت أيديكم؛ أي: لا ظن فكيف القطع. فالاستفهام للإنكار، وهو تحذير مثل: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾. أو المعنى[2]: أتظنون أنه من جنس هذه الأجسام، حتى جعلتموها مساوية له في المعبودية، أو أنه جوّز جعل هذه الجمادات مشاركة له في المعبودية، ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً﴾ واحدة ﴿فِى ٱلنُّجُومِ﴾ جمع نجم، وهو الكوكب الطالع؛ أي: في علمها وحسابها، إذ لو نظر إلى النجوم أنفسها لقال: إلى النجوم، وكان القوم يتعاطون علم النجوم، فعاملهم من حيث كانوا لئلا ينكروا عليه، واعتذر عن التخلف عن عيدهم؛ أي: عن الخروج إلى معبدهم ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾؛ أي: سقيم القلب مما تفعلون أو سقيم فيما مضى أو سقيم في المستقبل سقماً أموت به أو سقيم سقماً خفياً مما هو موجود في

(١) روح البيان.　　(٢) المراح.

الحال، إذ كان الإنسان لا ينفك من خلل يعتريه، وإن كان لا يحس به، كما ذكره في «المفردات». ففي كلامه تعريض وتورية. وقال ابن عطاء[1]: إني سقيم من مخالفتكم وعبادتكم الأصنام أو بصدد الموت. فإن من في عنقه الموت سقيم. وقد فوجىء رجل فاجتمع عليه الناس وقالوا: مات، وهو صحيح فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه؟. وأياً ما كان فلم يقل إبراهيم إلا عن تأول. فإن العارف لا يقع في انتهاك الحرمة أبداً. وكان ذلك من إبراهيم لذب عن دينه، وتوسل إلى إلزام قومه.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة: أن العرب تقول للشخص إذا تفكر وأطال الفكر: نظر في النجوم. والمعنى هنا: فأطال إبراهيم الفكر فيما هو فيه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾؛ أي[2]: أحس بخروج مزاجي عن حال الاعتدال، ولا أرى في نفسي خفة ونشاطاً، وكان مقصده من قولته هذه، أن لا يخرج معهم في يوم عيدهم، حين طلبوا منه الخروج، لينفذ ما عزم عليه من كسر أصنامهم، وإعلان الحرب عليهم، في عبادتهم للأوثان والأصنام، ولم يكن لهم علم بما بيَّت عليه النية، ولا دليل على أنه لم يكن صادقاً فيما يقول، إذ من يعزم على تنفيذ أمر ذي بال، يخاف منه الخطر على نفسه، أن يكون مهموماً مغموماً مفكراً في عاقبة ما يعمل.

وكان القوم يتطيرون من المريض[3]، فلما سمعوا من إبراهيم ذلك، هربوا منه إلى معبدهم، وتركوه في بيت الأصنام فريداً ليس معه أحد، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾؛ أي: فتول قومه، وأعرضوا وتفرقوا عن إبراهيم ﴿مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: هاربين مخافة العدوى؛ أي: السراية، وتركوه في مكانه.

فائدة: قال عز الدين بن عبد السلام: الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً. فالكذب فيه حرام فإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

ذلك المقصود مباحاً وواجب إن كان ذلك المقصود واجباً، فهذا ضابطه، انتهى.
وفي «الأسئلة المقحمة»: ومن الناس من يجوّز الكذب في الحروب لأجل المكيدة والخداع، وإرضاء الزوجة، والإصلاح بين المتهاجرين، والصحيح: أنه لا يجوز الكذب أيضاً في هذه المواضع؛ لأن الكذب في نفسه قبيح، والقبيح في نفسه لا يصير حسناً باختلاف الصور والأحوال، وإنما يجوز في هذه المواضع بتأويل وتعريض لا بطريق التصريح، مثاله نحو قول الرجل لزوجته إذا كان لا يحبها: كيف لا أحبك وأنت حلالي وزوجتي وقد صحبتك. فأما إذا قال صريحاً: بأني أحبك وهو يبغضها، فيكون كذباً محضاً، ولا رخصة فيه.

وفي «فتح الرحمٰن» قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ لم يقل: إلى النجوم مع أن النظر إنما يتعدى بإلى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾؛ لأن ﴿فِي﴾ بمعنى إلى كما في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، أو أن النظر هنا بمعنى الفكر، وهو يتعدى بفي، كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. فصار المعنى هنا: ففكر في علم النجوم. فإن قلت: لم لم يجز النظر في علم النجوم كما جاز لإبراهيم؟.

قلت: إذا كان الناظر فيه كإبراهيم في أن الله أراه ملكوت السموات والأرض، جاز له النظر فيه.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾؛ أي: ذهب إبراهيم إلى آلهتهم وأصنامهم في خفية، وأصله: الميل بحيلة من روغة الثعلب، وهو ذهابه في خفية وحيلة ﴿فَقَالَ﴾ إبراهيم للأصنام استهزاءً وسخريةً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أيتها الأصنام من الطعام الذي يصنعونه لكم، وخاطبها كما يخاطب من يعقل، لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة، وكانوا يضعون الطعام عند الأصنام لتحصل لهم البركة بسببها، ويأكلوه إذا رجعوا من عيدهم، وقيل: تركوه للسدنة، وقيل: إن إبراهيم هو الذي قرب إليها الطعام مستهزئاً بها، والاستفهام في قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ للتهكم بهم؛ أي: أي مانع ثبت لكم غير ناطقين بجوابي ﴿فَرَاغَ﴾ إبراهيم؛ أي: مال مستعلياً ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حال كونه يضربهم ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: ضرباً حاصلاً باليد اليمنى. فانتصابه على أنه مصدر مؤكد، لفعل محذوف، أو مصدر لراغ؛ لأنه بمعنى ضرب أو على

الحالية؛ أي: أقبل عليهم مستخفياً حال كونه ضارباً باليمين. فالمصدر بمعنى الفاعل؛ أي: ضرباً شديداً قوياً. وذلك لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما، وقوة الآلة تقتضي قوة الفعل وشدته. وقيل: ضرباً بالقوة والمتانة. وعلى ذلك مدار تسمية الحلف باليمين؛ لأنه يقوّي الكلام ويؤكده. وقيل: ضرباً بسبب الحلف، وهو قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾.

ومعنى الآيات: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ إلخ؛ أي: فذهب مستخفياً إلى أصنامهم التي يعبدونها، وقال لها استهزاءً: ألا تأكلون من الطعام الذي يقدم إليكم، وكانوا يصنعون في أيام أعيادهم طعاماً لدى هذه الأصنام لتبارك فيه. وقال أيضاً: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾؛ أي: أي شيء منعكم الإجابة عن سؤالي، ومراده بذلك: التهكم بهم، واحتقار شأنهم، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾؛ أي: فاتجه إليهم يضربهم بقوة وشدة، حتى تركهم جذاذاً إلا كبيرهم، كما تقدم في سورة الأنبياء، فلما رجعوا من عيدهم إلى بيت الأصنام، وجدوها مكسورة، فسألوا عن الفاعل، فظنوا أن إبراهيم عليه السلام، فعله، فقيل: فائتوا به. ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟﴾؛ أي: توجه المأمورون بإحضاره ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى إبراهيم، قال ابن الشيخ: قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يجوز أن يتعلق بما قبله وبما بعده، وقوله: ﴿يَزِفُّونَ﴾ حال من واو ﴿أقبلوا﴾؛ أي: حال كونهم يسرعون من زفيف النعام، وهو ابتداء عدوها، فقالوا له: نحن نعبدها وأنت تكسرها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَزِفُّونَ﴾ بفتح الياء من زف إذا أسرع، أو من زفاف العروس، وهو التمهل في المشية، إذ كانوا في طمأنينة أن ينال أصنامهم شيء لعزتهم، وقرأ مجاهد، وعبد الله بن يزيد، والضحاك، ويحيى بن عبد الرحمٰن المقري، وابن أبي عبلة ﴿يزفون﴾ مضارع زف بمعنى أسرع. وقال الكسائي والفراء: لا نعرفها بمعنى زف. وقرأ حمزة، ومجاهد أيضاً، وابن وثّاب، والأعمش ﴿يزفون﴾ بضم الياء من أزف الرباعي، دخل في الزفيف؛ أي: الإسراع، فهي للتعدي، قاله الأصمعي، وقرىء ﴿يزفون﴾ مبنياً للمفعول. وقرىء

---

(١) البحر المحيط.

﴿يزفون﴾ كيرمون بسكون الزاي من زفاه إذا حداه، فكان بعضهم يزفو بعضاً لتسارعهم إليه. وحكى الثعلبي عن الحسن، ومجاهد، وابن السميفع: أنهم قرؤوا ﴿يرفون﴾ بالراء المهملة، وهي ركض بين المشي والعدو.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام؛ أي: بعدما أتوا به، وجرى بينهم وبينه من المحاورات، ما نطق به قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾؛ أي: قال لهم حال كونه يؤنبهم ويعيِّبهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ بهمزة الاستفهام الإنكاري ﴿ما تنحتون﴾ه من الأصنام. فما موصولة؛ أي: أتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها، وتبرونها، وتصلحونها. والنحت: النجر والبري، يقال: نحته ينحته بالكسر نحتاً إذا براه والنحاتة: البراية، وجملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿تَعْبُدُونَ﴾ مؤكدة للإنكار والتوبيخ، أي: والحال أنه تعالى خلقكم، والخالق هو الحقيق بالعبادة دون المخلوق. ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: وخلق ما تعملونه من الأصنام وغيرها، فإن[1] جواهر أصنامهم ومادتها بخلقه تعالى، وشكلُها وإن كان بفعلهم، لكنه بإقدار الله تعالى إياهم عليه، وخلقُه ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعي والعدد والأسباب، فلم يلزم أن يكون الشيء مخلوقاً لله ومعمولاً لهم. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية؛ أي: خلقكم وخلق عملكم. ولكن جعلها موصولةً أولى بالمقام وأوفق بسياق الكلام. وظهر من فحوى الآية: أن الأفعال مخلوقة لله تعالى، مكتسبة للعباد، حسبما قالته أهل السنة والجماعة، وبالاكتساب يتعلق الثواب والعقاب.

والمعنى: أي قال لهم: أتعبدون من دون الله تعالى، أصناماً أنتم تنحتونها بأيديكم، فما تحدثون فيه الصنعة بأيديكم، تجعلونه معبوداً لكم، أفلا عاقل منكم، ينهاكم عن مثل هذا، والله خلقكم، وخلق تلك الأصنام التي تعملونها بأيديكم، والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق، لا جرم أن عبادتكم لها خطأ عظيم، وإثم كبير.

---

(١) روح البيان.

ولما أورد عليهم إبراهيم هذه الحجة القوية، التي لم يستطيعوا دفعها، عدلوا عن الحجاج إلى الإيذاء واستعمال القوة، فتشاوروا فيما بينهم، واتفقوا على أن يبنوا له حائطاً من حجارة، ويملؤوه حطباً ويضرموه، ثم يلقوه فيه. فـ﴿قالوا﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ﴾؛ أي: لإبراهيم؛ أي: لأجل الانتقام منه لآلهتكم ﴿بُنْيَـٰنًا﴾ رفيعاً عريضاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ابنوا حائطاً من حجر، طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، وملؤوه حطباً، وأشعلوه ناراً، واطرحوه فيها كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: فارموه في النار الشديدة الاتقاد والالتهاب. واللام فيه عوض عن المضاف إليه؛ أي: في جحيم ذلك البنيان.

وقال السهيلي في «التعريف»: قائل هذه المقالة لهم فيما ذكر الطبري، اسمه الهيزن، رجل من أعراب فارس، وهم الترك، وهو الذي في الحديث: «بينا رجل يمشي في حلة، يتبختر فيها فخسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

ثم ألقوه فيها، ونجاه الله منها، وجعلها برداً وسلاماً، وهو معنى قوله: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾؛ أي: شراً، وهو أن يحرقوه بالنار عليه السلام؛ أي: لما قهرهم بالحجة، وألقمهم الحجر قصدوا أن يكيدوا به ويحتالوا لا هلاكه كما كاد أصنامهم بكسره إياهم، لئلا يظهر للعامة عجزهم. ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾؛ أي: الأذلين بإبطال كيدهم، وجعله في نحورهم، وجعله برهاناً نيراً على علوّ شأنه عليه السلام، بجعل النار عليه برداً وسلاماً على ما سبق تفصيل هذه القصة في سورة الأنبياء؛ أي: إن إبراهيم في وقت المحاجة، حصلت له الغلبة، وعندما ألقوه في النار، صرف الله عنه ضرر النار، فصار هو الغالب عليهم.

فإن قلت[1]: لم ابتلاه الله تعالى بالنار في نفسه؟.

قلت: لأن كل إنسان يخاف بالطبع من ظهور صفة القهر، كما قيل لموسى

---

(١) روح البيان.

عليه السلام: ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾. فأراه تعالى أن النار لا تضر شيئاً إلا بإذن الله تعالى، وإن ظهرت بصورة القهر وصفته. وكذلك أظهر الجمع بين المتضادين، بجعلها برداً وسلاماً. وفيه معجزة قاهرة لأعدائه، فإنهم كانوا يعبدون النار والشمس والنجوم، ويعتقدون وصف الربوبية لها، فأراهم الحق تعالى، أنها لا تضر إلا بإذن الله تعالى.

وقد ورد في الخبر: أن النمرود لما شاهد النار، كانت على إبراهيم برداً وسلاماً قال: إن ربك لعظيم نتقرب إليه بقرابين. فذبح تقرباً إليه آلافاً كثيرة، فلم ينفعه لإصراره على اعتقاده وعمله وسوء حاله.

وبعد أن يئس من إيمانهم، أراد مفارقتهم والهجرة من بينهم، كما أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم بعدما أنجاه الله تعالى من النار، قاله لمن فارقه من قومه، فيكون ذلك توبيخاً لهم، أو لمن هاجر معه من أهله، فيكون ذلك ترغيباً لهم. ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾؛ أي: مهاجر من أرض قومي، الذين فعلوا ما فعلوا، تعصباً للأصنام، وكفراً بالله، وتكذيباً لرسله؛ أي: مهاجر من أرض حران، أو من بابل، أو قرية بين البصرة والكوفة، يقال لها: هرمز بحره ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ أي: إلى حيث أمرني ربي بالمهاجرة إليه. وهو الشام، أو إلى حيث أتجرد فيه لعبادته تعالى؛ أي: موضع كان، فإن الذهاب إلى ذات الرب محال، إذ ليس في جهة من الأرض.

وفي «بحر العلوم»: ولعله أمره الله تعالى، بأن يهجر دار الكفر، ويذهب إلى موضع، يقدر فيه على زيارة الصخرة التي هي قبلته، وعلى عمارة المسجد الحرام، أو هي القرية التي دفن فيها، كما أمر نبينا ﷺ، بالهجرة من مكة إلى المدينة. وفي بعض التواريخ: دُفن إبراهيم بأرض فلسطين، وهي بكسر الفاء وفتح اللام وسكون السين المهملة؛ البلاد التي بين الشام وأرض مصر، منها: الرملة، وغزة، وعسقلان، وغيرها. ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: سيرشدني إلى مقصدي الذي أردت، وهو الشام أو إلى موضع يكون فيه صلاح ديني، أو سيثبتني على هداي ويزيدني هدى. وبتّ القول بذلك لسبق الوعد بذلك، أو لفرط توكله على ربه،

أو للبناء على عادته تعالى معه، ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام، حيث قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، ولذلك أتى بصيغة التوقع.

وهذه[1] الآية أصل في الهجرة، من ديار الكفر إلى أرض، يتمكن فيها من إقامة وظائف الدين والطاعة. وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام، هاجر مع لوط وصار إلى الأرض المقدسة. ولما هاجر من وطنه، ودخل الأرض المقدسة، طلب الولد، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ ولداً صالحاً ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: بعض الكاملين في الصلاح، يعينني على الدعوة والطاعة، ويؤنسني في الغربة، هكذا قال[2] المفسرون، وعللوا ذلك، بأن الهبة قد غلب معناها في الولد، فتحمل عليه عند الإطلاق، وإذا وردت مقيدةً، حملت على ما قيدت به، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ وعلى فرض أنها لم تغلب في طلب الولد فقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ على لسان الملائكة ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾؛ أي: ذي حلم، وحلم؛ أي: بلوغ. يدل على أنه ما أراد بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ إلا الولد، والغلام[3]: من جاوز العشر، وأما من دونها فصبي، كما قاله بعض أهل اللغة كما سيأتي، والحليم: من لا يعجل في الأمور، ويتحمل المشاق، ولا يضطرب عند إصابة المكروه، ولا يحركه الغضب بسهولة، ولقد جمع فيه ثلاث بشارات: بشارة أنه غلام، وأنه يبلغ أوان الحلم فإن الصبي لا يوصف بالحلم، وأنه يكون حليماً، وأي حلم يعادل حلمه، حين عرض عليه أبوه الذبح، وهو مراهق فاستسلم.

روي: أن إبراهيم عليه السلام، لما جعل الله النار عليه برداً وسلاماً، وأهلك عدوه النمرود، وتزوج بسارة، وكانت أحسن النساء وجهاً، وكانت تشبه حواء في حسنها، عزم الانتقال من أرض بابل إلى الشام، فلما دخل الأرض المقدسة، دعا ربه أن يرزقه الولد، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾؛ أي: رب هب لي أولاداً مطيعين، يعينونني على الدعوة، ويؤنسونني في الغربة، ويكونون عوضاً من قومي وعشيرتي الذين فارقتهم، فاستجاب ربه دعاءه، فقال:

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح العجائب.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ على لسان الملائكة ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾؛ أي: بمولود ذكر يبلغ الحلم، ويكون حليماً، وقد استفيد بلوغه من وصفه بالحلم؛ لأنه لازم لتلك السن، إذ قلما يوجد في الصبيان سعة الصدر، وحسن الصبر، والإغضاء عن كل أمر. وهذا[1] الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق، باتفاق العلماء من أهل الكتاب والمسلمين، بل جاء النص في التوراة على أن إسماعيل، ولد لإبراهيم وسنه ست وثمانون سنة، وولد له إسحاق، وعمره تسع وتسعون سنة، وأي حلم مثل حلمه، عرض عليه أبوه، وهو مراهق أن يذبحه فقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فما ظنك به بعد بلوغه؟ وما نعت الله سبحانه، نبياً من الأنبياء بالحلم غير إبراهيم، وابنه إسماعيل عليهما السلام.

فإن قلت[2]: لم ختم هنا الآية بـ﴿حَلِيمٍ﴾، وفي الحجر والذاريات بـ﴿عَلِيمٍ﴾؟.

قلتُ: ختم في ذينك بـ﴿عَلِيمٍ﴾ إشعاراً بشرف العلم، وختم هنا بـ﴿حَلِيمٍ﴾ لمناسبة حلم الغلام، لوعده بالصبر في جوابه، لسؤال أبيه في ذبحه، حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

الإعراب

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَأَقْبَلَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿أقبل بعضهم﴾: فعل، وفاعل، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق بـ﴿أقبل﴾ والجملة معطوفة على ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب، حال من الفاعل، ومن المجرور. ﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾: فعل، وفاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة لـ﴿قَآئِلٌ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّى﴾: ناصب

(١) المراغي. (٢) فتح الرحمٰن.

واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، ﴿لِي﴾ خبرها مقدم، ﴿قَرِينٌ﴾: اسمها مؤخر. وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿قَرِينٌ﴾، والجملة صفة لـ﴿قرين﴾، ﴿أَءِنَّكَ﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي، ﴿إنك﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ خبره، واللام حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف دل عليه ما بعده، تقديره: أندان ونجازى، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بالفعل المحذوف، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُ﴾ أو مفعول لـ﴿ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾؛ أي: لمن المصدقين المداناة والمجازاة وقت موتنا... إلخ، ﴿مِتْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذا﴾؛ أي: أندان وقت موتنا، ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الخفض، معطوف على متنا، ﴿وَعِظَٰمًا﴾: معطوف على ﴿تُرَابًا﴾، ﴿أَءِنَّا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، مؤكدة للأولى، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمَدِينُونَ﴾: خبره، واللام حرف ابتداء، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لـ﴿يَقُولُ﴾، على كونها مفسرة للمحذوفة، أو مفعول لـ﴿ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على المؤمن القائل، والجملة مستأنفة. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام بمعنى الأمر، كأنه قال: اطلعوا كما مر في مبحث التفسير. ﴿أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ الفاء عاطفة، ﴿اطلع﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على القائل المؤمن، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾. ﴿فَرَءَاهُ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿رآه﴾: فعل ماض، ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على القائل المذكور، والجملة معطوفة على جملة ﴿اطلع﴾، ورآى هنا بصرية. ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ جار ومجرور

ومضاف إليه، متعلق بـ﴿رآى﴾، ﴿قَالَ﴾ فعل وفاعل مستتر، يعود على القائل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿تَاللَّهِ﴾ التاء: حرف جر وقسم، ولفظ الجلالة مقسم به مجرور بتاء القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً، تقديره: أقسم بالله، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً؛ أي: إنه، ﴿كِدتَّ﴾ فعل ناقص واسمه؛ لأنه من أفعال المقاربة. ﴿لَتُرْدِينِ﴾ اللام: حرف ابتداء، فارقة بين النافية والمخففة. ﴿تردين﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمة مقدرة، منع من ظهورها الثقل؛ لأنه فعل معتل بالياء، وفاعله ضمير مستتر يعود على القرين، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسر نون الوقاية، ولرعاية الفاصلة في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كاد﴾، وجملة ﴿كاد﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ المخففة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَوْلَا﴾: الواو عاطفة، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾: مبتدأ، ومضاف إليه، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: موجودة. ﴿لَكُنتُ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾، ﴿كنت﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ المخففة على كونها جواب القسم.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَفَمَا نَحْنُ﴾: الهمزة للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف، تقديره: أنحن مخلدون منعمون، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿مَا﴾: نافية حجازية. ﴿نَحْنُ﴾ في محل الرفع اسمها. ﴿بِمَيِّتِينَ﴾ خبرها، والباء زائدة، وجملة ﴿مَا﴾: الحجازية معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿مَوْتَتَنَا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بميتين. ﴿الْأُولَىٰ﴾: صفة لـ﴿مَوْتَتَنَا﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: حجازية. ﴿نَحْنُ﴾: اسمها. ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ خبرها، وجملة ﴿مَا﴾ معطوفة على جملة ما الأولى.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَهُوَ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة لـ﴿ٱلْفَوْزُ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يعمل﴾. ﴿فَلْيَعْمَلِ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حال أهل الجنة، وأردت بيان ما ينبغي لكل عامل، فأقول لك، واللام: لام الأمر، مبني على السكون لسبقه بالفاء. ﴿يعمل﴾ فعل مضارع، مجزوم بلام الأمر، ﴿ٱلْعَٰمِلُونَ﴾: فاعل مرفوع بالواو. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿أَذَٰلِكَ﴾: الهمزة: فيه للاستفهام التقريري؛ لأن المراد من الكلام: حمل الكفار على الإقرار بمدخولها، لا كما قاله بعضهم من أنها للإنكار. ﴿ذلك﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾ خبره، ﴿نُّزُلًا﴾ تمييز لخير، أو حال من الضمير المستكن في الخبر، ﴿أَمْ﴾: عاطفة متصلة. ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾: معطوف على ذلك. والجملة الاسمية في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: قل لهم يا محمد، على سبيل التقرير: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا...﴾ الخ. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول، ﴿فِتْنَةً﴾ مفعول ثان، ﴿لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ صفة لـ﴿فِتْنَةً﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿إِنَّهَا﴾ ناصب واسمه، ﴿شَجَرَةٌ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿تَخْرُجُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على شجرة. ﴿فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ متعلق بـ﴿تَخْرُجُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ﴿شجرة﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿طَلْعُهَا﴾ مبتدأ، ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ خبر كأن، ومضاف إليه، وجملة التشبيه في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿شجرة﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الفاء عاطفة، ﴿إنهم﴾ ناصب واسمه، ﴿لَآكِلُونَ﴾ خبره مرفوع بالواو، واللام حرف ابتداء، ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ﴿آكلون﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى. ﴿فَمَالِئُونَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿مالئون﴾ معطوف على ﴿آكلون﴾، ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ﴿مالئون﴾، ﴿الْبُطُونَ﴾ مفعول لـ﴿مالئون﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لَهُمْ﴾ خبرها مقدم، ﴿عَلَيْهَا﴾: حال من ﴿شوبا﴾، ﴿لَشَوْبًا﴾ اسمها مؤخر، واللام: حرف ابتداء، ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ صفة ﴿لَشَوْبًا﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، ﴿إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ خبره، واللام حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ المذكورة قبلها. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَلْفَوْا﴾ فعل ماض، وفاعل، وهي من أخوات ظن تنصب مفعولين. ﴿آبَاءَهُمْ﴾ مفعول أول، ﴿ضَالِّينَ﴾ مفعول ثان. وجملة ألفى في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل رجوعهم إلى الجحيم. ﴿فَهُمْ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يُهْرَعُونَ﴾. ﴿يُهْرَعُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، والواو: نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿ألفى﴾. ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿ضَلَّ﴾ فعل ماض، ﴿قَبْلَهُمْ﴾ متعلق بـ﴿ضل﴾. أو حال مما بعده، ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾: فاعل، ومضاف إليه. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل، وفاعل، ﴿فِيهِم﴾ متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿مُّنذِرِينَ﴾ مفعول به. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم قبلها. ﴿فَانظُرْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنا أرسلنا

إليهم منذرين، وأردت معرفة عاقبتهم فأقول لك: انظر كيف إلخ. ﴿انظر﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، أو على أي مخاطب، ﴿كَيۡفَ﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجبي، في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها وجوباً، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ اسمها، ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب، مفعول ﴿انظر﴾، معلق عنها باسم الاستفهام. وجملة ﴿انظر﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء بمعنى لكن؛ لأن الاستثناء منقطع. ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ صفة له.

﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ٧٥ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ٧٧﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾ الواو: استئنافية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق. ﴿نَادَىٰنَا﴾: فعل، ومفعول. ﴿نُوحٞ﴾: فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿فَلَنِعۡمَ﴾ الفاء: عاطفة، واللام: موطئة للقسم. ﴿نِعۡمَ﴾ فعل ماض لإنشاء المدح. ﴿ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ فاعل نِعْمَ، والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: نحن وجملة ﴿نِعۡمَ﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم الثاني، معطوفة على جملة القسم الأول. ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على نادانا، ﴿وَأَهۡلَهُۥ﴾ معطوف على ضمير المفعول أو مفعول معه، ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ﴾ متعلق بـ﴿نجينا﴾. ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾. ﴿وَجَعَلۡنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿نَجَّيۡنَٰهُ﴾. ﴿ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾. ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، لا محل لها من الإعراب، ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾ مفعول ثان لـ﴿جعلنا﴾.

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨١ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٨٢ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣﴾.

﴿وَتَرَكۡنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿تركنا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿نَجَّيۡنَٰهُ﴾. ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور صفة لمفعول ﴿تركنا﴾

المحذوف، تقديره: وتركنا ثناء كائناً عليه، ﴿فِي ٱلْآخِرِينَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تركنا﴾ على أنه مفعول ثان له، ﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة ما فيه من معنى الدعاء. ﴿عَلَىٰ نُوحٍ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب، بدل من مفعول ﴿تركنا﴾ المحذوف على أنها مفسرة له. ﴿فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿فِي ٱلْآخِرِينَ﴾. وفي «السمين»: قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾: مبتدأ وخبر، وفيه أوجه:

أحدها: : أنه مفسر لـ﴿تركنا﴾.

والثاني: أنه مفسر لمفعوله؛ أي: تركنا عليه شيئاً، وهو هذا الكلام، وقيل: ثم قول مقدر؛ أي: فقلنا: سلام. وقيل: ضمّن تركنا معنى قلنا، وقيل: سُلّط تركنا على ما بعده. وقال الزمخشري: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ هذه الكلمة، وهي: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾. يعني: يسلمون عليه تسليماً، ويدعون له. وهو من الكلام المحكي، كقولك: سورة أنزلناها. وهذا الذي قاله قول الكوفيين جعلوا الجملة في محل نصب مفعولاً بتركنا، لا أنه ضمّن معنى القول، بل هو على معناه، بخلاف الوجه الذي قبله، وهو أيضاً من أقوالهم، اهـ من «الفتوحات». ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: جزاء كائناً كذلك المذكور. ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل مجازاة نوح بتلك الكرامة السامية، وهي خلود ذكره وتسليم العالمين عليه أبد الدهر. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ خبره، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ صفة لـ﴿عِبَادِنَا﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ. ﴿أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، معطوف على ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾. ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ فالترتيب حقيقي؛ لأن نجاتهم حصلت قبل غرق الباقين، ولكن بينهما تراخ. ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة عطف قصة ثانية على القصة الأولى، أو استئنافية ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ اسمها مؤخر، واللام حرف ابتداء. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ أو مستأنفة.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف ما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر يا محمد ﷺ لقومك قصة حين جاء إبراهيم. ﴿جَآءَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿رَبَّهُۥ﴾ مفعول به. ﴿بِقَلْبٍ﴾ متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، ﴿سَلِيمٍ﴾ صفة قلب، ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، وجملة ﴿قَالَ﴾ في محل الجر مضاف إليه، ﴿لِأَبِيهِ﴾ متعلق بـ﴿قَالَ﴾، ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ معطوف على أبيه. ﴿مَاذَا﴾ اسم استفهام مركب في محل النصب، مفعول مقدم لـ﴿تَعْبُدُونَ﴾ أو ﴿مَا﴾ مبتدأ، ﴿ذا﴾ اسم موصول خبره، وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾ صلة لذا الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: ما الذي تعبدونه، والجملة الفعلية أو الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَئِفْكًا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي. ﴿إفكا﴾ مفعول من أجله، منصوب بـ﴿تُرِيدُونَ﴾. ﴿ءَالِهَةً﴾ مفعول به لـ﴿تُرِيدُونَ﴾. ﴿دُونَ ٱللَّهِ﴾ ظرف متعلق بـ﴿تُرِيدُونَ﴾. و﴿تُرِيدُونَ﴾: فعل، وفاعل. والجملة الفعلية مستأنفة، وقدمت معمولات الفعل عليه اهتماماً بها. وقيل: ﴿إفكا﴾: مفعول به لـ﴿تُرِيدُونَ﴾، ﴿ءَالِهَةً﴾: بدل منه، جعلها نفس الإفك مبالغة، فأبدلها منه وفسره بها. وقيل: ﴿إفكا﴾: حال من فاعل ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ أي: أتريدون آلهة من دون الله آفكين أو ذوي إفك. ﴿فَمَا﴾ الفاء عاطفة، ﴿مَا﴾: اسم استفهام للإنكار والتوبيخ في محل الرفع مبتدأ. أي: ليس لكم سبب ولا عذر يحملكم على الظن. ﴿ظَنُّكُم﴾ خبر المبتدأ، ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلق بظنكم. والجملة الاسمية معطوفة على الفعلية قبلها.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَنَظَرَ﴾: الفاء: استئنافية. ﴿نظر﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم. والجملة مستأنفة. ﴿نَظْرَةً﴾ مفعول مطلق. ﴿فِى ٱلنُّجُومِ﴾ متعلق بنظر. ﴿فَقَالَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على نظر.

﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ناصب واسمه وخبره. والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَتَوَلَّوْا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿تولوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على قال. ﴿عَنْهُ﴾ متعلق بـ﴿تولوا﴾، ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حال من الواو في ﴿تولوا﴾، ﴿فَرَاغَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿راغ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، معطوف على تولوا، ﴿إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿راغ﴾، ﴿فَقَالَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على راغ. ﴿أَلَا﴾ الهمزة: للاستفهام السخري ﴿لا﴾: نافية، وجملة ﴿تَأْكُلُونَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مَا﴾: اسم استفهام مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾ خبره. والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالَ﴾ المحذوف، والتقدير، فقال: ألا تأكلون فلم ينطقوا فقال: ما لكم لا تنطقون. وجملة ﴿لَا تَنطِقُونَ﴾ في محل النصب حال من كاف المخاطبين. ﴿فَرَاغَ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: فلم يجيبوا، ﴿راغ﴾: فعل ماض، وفاعل، معطوف على ذلك المحذوف. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿راغ﴾ ﴿ضَرْبًا﴾ مصدر واقع موقع الحال؛ أي: فراغ عليهم ضارباً أو مصدر لفعل مقدر؛ أي: يضرب ضرباً. والجملة في محل النصب على الحال. و﴿بِالْيَمِينِ﴾ متعلق بضرباً أو بعامله المحذوف. ﴿فَأَقْبَلُوٓا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿أقبلوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على راغ، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أقبلوا﴾، ويجوز تعلقه بما بعده، وجملة ﴿يَزِفُّونَ﴾: حال من فاعل ﴿أقبلوا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر. والجملة مستأنفة. ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب، مقول قال. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَنْحِتُونَ﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره: ما تنحتونه. ﴿وَاللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿خَلَقَكُمْ﴾ خبره. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَعْبُدُونَ﴾. ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾: ما: اسم موصول، معطوف على كاف ﴿خَلَقَكُمْ﴾، أو ﴿مَا﴾: مصدرية، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: وما تعملونه أو لـ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: وعملكم.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿ٱبْنُوا۟﴾: فعل أمر، والواو فاعل، مقول لـ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ﴿ٱبْنُوا۟﴾، ﴿بُنْيَٰنًا﴾: مفعول به. ﴿فَأَلْقُوهُ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿ألقوه﴾: فعل أمر، والواو فاعل، والهاء مفعول به. والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿ٱبْنُوا۟﴾. ﴿فِى ٱلْجَحِيمِ﴾: متعلق بـ﴿ألقوه﴾، ﴿فَأَرَادُوا۟﴾ الفاء: عاطفة. ﴿أرادوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على قالوا. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أرادوا﴾، ﴿كَيْدًا﴾ مفعول به. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول أول. ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾: مفعول ثان. والجملة معطوفة على جملة ﴿أرادوا﴾. ﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، والجملة معطوفة على محذوف، تقديره: فخرج من النار سالماً، وقال: إني ذاهب. ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. والجملة في محل النصب مقول قال، ﴿إِلَىٰ رَبِّى﴾ متعلق بـ﴿ذَاهِبٌ﴾، ﴿سَيَهْدِينِ﴾: السين حرف استقبال، ﴿يهدين﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمة مقدرة منع من ظهورها الثقل؛ لأنه فعل معتل بالياء، وفاعله ضمير يعود على الله، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة للفاصلة، أو اجتزاء عنها بكسر نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قال﴾. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿هَبْ﴾ فعل دعاء مبني على السكون، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، ﴿لِى﴾ متعلق بـ﴿هَبْ﴾، ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: صفة لمفعول محذوف؛ أي: ولداً من الصالحين، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: فاستجبنا له فبشرناه. ﴿بشَّرناه﴾ فعل، وفاعل ومفعول به، ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ متعلق بـ﴿بشرناه﴾، ﴿حَلِيمٍ﴾ صفة لـ﴿غلام﴾. والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ من باب تفاعل، يدل على المشاركة من الجانبين، كما هو صريح لفظ السياق. ﴿قَرِينٌ﴾؛ أي: خليل، وصاحب، وجليس. ﴿لَمَدِينُونَ﴾؛

أي: لمجزيون، جمع مدين، كمبيع من الدين، بكسر الدال بمعنى الجزاء، يقال: دانه يدينه بمعنى: جزاه، نظير باعه يبيعه. ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾؛ أي: مشرفون فناظرون إلى أهل النار، من اطلع بمعنى استشرف من باب افتعل. ﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: في وسط جهنم. وسمي وسط الشيء، سواء لاستواء المسافة منه، إلى جميع الجوانب، كما مر. ﴿كِدتَّ﴾؛ أي: قاربت. ﴿لَتُرْدِينِ﴾ لتهلكني بالإغواء. والردى: الهلاك، والإرداء: الإهلاك. أصله: لترديني بياء المتكلم، فحذفت اكتفاء بكسر نون الوقاية ولرعاية الفاصفة. ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ من الإحضار، وهو لا يستعمل إلا في الشر، كما في كشف الأسرار؛ أي: لمن المساقين إلى العذاب.

﴿نُّزُلًا﴾ النزل بضمتين أو بضم النون وسكون الزاي: المنزل، وما يهيأ للضيف من الطعام، والجمع أنزال والنزل أيضاً بضمتين: الطعام ذو البركة، والقوم النازلون، وريع ما يزرع ونماؤه، والعطاء، والفضل، والزيادة. ومنه قولهم: العسل ليس من أنزال الأرض؛ أي: من ريعها، وما يحصل منها.

﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ وفي «المفردات»: شجرة الزقوم، عبارة عن أطعمة كريهة في النار، ومنه: استعير زقم فلان، وتزقّم إذا ابتلع شيئاً كريهاً. قال في «القاموس»: الزقّم: اللقم، والتزقم: التلقم، وأزقمه فازدقمه أبلعه فابتلعه، والزقوم كتنور: الزبد بالتمر، وشجرة بجهنم، ونبات بالبادية له زهر ياسميني الشكل، وطعام أهل النار، وفي «الخازن»: والزقوم: ثمر شجرة خبيثة مرة كريهة الطعم، يكره أهل النار على تناولها، فهم يتزقمونه على أشد كراهية. وقيل: هي شجرة تكون بأرض تهامة من أخبث الشجر. ﴿طَلْعُهَا﴾؛ أي: حملها وثمرها، والطلع في الحقيقة اسم لثمر النخيل في أول بروزه، فإطلاقه على ثمر هذه الشجرة مجاز بالاستعارة، كما سيأتي في مبحث البلاغة. والطلع من النخل شيء يخرج منه، كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود، وما يبدو من ثمرته في أول ظهورها. ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ جمع مالىء اسم فاعل من ملأ المهموز. والملء: حشو الإناء لا يحتمل الزيادة عليه، يقال: ملأ الإناء ماءً يملؤه فهو مالىء ومملوء، والبطون جمع بطن، وهو خلاف الظهر في كل شيء.

﴿لَشَوْبًا﴾ والشوب: الخلط، وهو بفتح الشين مصدر على أصله، وقيل: يراد به: اسم المفعول، ويدل على قراءة بعضهم ﴿لشوبا﴾ بالضم. قال الزجاج: المفتوح مصدر، والمضموم اسم بمعنى: المشوب كالنقض بمعنى: المنقوض، والفعل منه شابه يشوبه، من باب قال إذا خلطه فهو الخلط. ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ والحميم: الماء الحار الذي قد انتهى حره، وهو المقصود، هنا، ويطلق على الماء البارد، فهو من الأضداد.

﴿أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ﴾؛ أي: وجدوا من الإلفاء، وهو الوجدان. ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾؛ أي: آثار الآباء، جمع أثر. ﴿يُهْرَعُونَ﴾؛ أي: يسرعون إسراعاً شديداً. والإهراع: الإسراع الشديد، كأنهم يزعجون ويحثون حثاً على الإسراع على آثارهم. وفي «المصباح»: هرع وأهرع بالبناء للمفعول فيهما؛ إذا أُعجل، اهـ. ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ﴾ والكرب: الغم الشديد، والكربة كالغمة. وأصل ذلك من كرب الأرض، وهو قلبها بالحفر، فالغم يثير النفس إثارة ذلك، ويصح أن يكون الكرب من كربت الشمس إذا دنت للمغيب.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ في «المختار»: الشيعة: أتباع الرجل وأنصاره. وفي «المصباح»: الشيعة: الأتباع والأنصار، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، ثم صارت الشيعة اسماً لجماعة مخصوصة، والجمع: شيع مثل: سدرة وسدر، والأشياع جمع الجمع، انتهى. مأخوذ من الشياع، وهو الحطب الصغار الذي يوقد به الكبار حتى تستوقد، اهـ «قرطبي». وفي «الأساس»: شيعته يوم رحيله، وشايعتك على كذا تابعتك عليه، وتشايعوا على الأمر، وهو شيعته وشيعه وأشياعه، وهذا الغلام شيع أخيه، إذا ولد بعده، وآتيك غداً أو شيعه. قال الشاعر:

قَالَ الخَلِيطُ غَدَاً تَصُدُّ عَنَّا ... أو شِيَعَه أَفَلاَ تُشَيِّعَنَا

وأقمت عنده شهراً أو شيع شهر، وكان معه مئة رجل، أو شيع ذلك، ونزلوا موضع كذا، أو شيعه، وشاع الحديث والسر، وأشاعه صاحبه، ورجل مشياع مذياع، وشاع في رأسه الشيب، وشاعكم الله تعالى بالسلام، وشاعكم

السلام. قال الشاعر:

أَلاَ يَـا نَـخْـلَـةً فِـيْ ذَاتِ عِـرْقٍ   بُـرُوْدُ الـظِّـلِّ شَـاعَـكُـمُ ٱلـسَّـلاَمُ

لمحة عن الشيعة: وقول صاحب «المصباح»: اسم لجماعة مخصوصة، أراد الشيعة، أقدم الفرق الإسلامية، وقد ظهروا بمذهبهم السياسي في آخر عصر عثمان ـ رضي الله عنه ـ، ونما وترعرع في عهد علي ـ رضي الله عنه ـ، وقوام هذا المذهب: أن الإمامة ليست من المصالح العامة، التي تفوّض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين، وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفالها وتفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويجب أن يكون معصوماً عن الكبائر والصغائر، وأن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، كان هو الخليفة المختار من النبي ﷺ، وأنه أفضل الصحابة، ولها فرق كثيرة يرجع إليها في «كتاب الملل والنحل» للشهرستاني وكتاب «الفصل في الملل والنحل» لابن حزم.

﴿أَئِفْكًا﴾ الإفك: أسوأ الكذب. ﴿فِي ٱلنُّجُومِ﴾ جمع نجم، وهو الكوكب الطالع. وفي «القرطبي»: فنظر إلى نجم طالع فقال: إن هذا يطلع مع سقمي. وكان علم النجوم مستعملاً عندهم، منظوراً فيه، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وأراهم معتقدهم عذراً لنفسه، وذلك أنهم أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إلى نظر في النجوم.

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ قال في «المفردات»: السَّقَمُ والسُّقْمُ: المرض المختص بالبدن، والمرض قد يكون في البدن وفي القلب. ﴿فَرَاغَ﴾ قال في «القاموس»: راغ الرجل والثعلب روغاً وروغاناً، مال وحاد إلى الشيء في خفية؛ أي: فذهب خفية إلى أصنامهم. وأصل الروغ والروغان: الميل. قال شاعرهم:

وَيُـرِيْـكَ مِـنْ طَـرَفِ ٱلـلِّـسَـانِ حَـلاَوَةً   وَيَـرُوْغُ عَـنْـكَ كَـمَـا يَـرُوْغُ ٱلـثَّـعْـلَـبُ

وفي «المختار»: راغ الثعلب من باب قال وروغاناً بفتحتين، والاسم منه الرواغ بالفتح. ﴿ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: بالقوة والشدة. ﴿يَزِفُّونَ﴾؛ أي: يسرعون، من زف النعام زفيفاً إذا أسرع. ويزفون بضم الياء، من أزف إذا دخل في الزفيف

أو من أزفه إذا حمله على الزفيف؛ أي: يزف بعضهم بعضاً. وفي «المفردات»: أصل الزفيف في هبوب الريح وسرعة النعامة، التي تخلط الطيران بالمشي، وزفزف النعام إذا أسرع. ﴿مَا تَنۡحِتُونَ﴾ والنحت: نجر الشجر والخشب ونحوهما من الأجسام. ففي «المختار»: نحته براه، وبابه ضرب وقطع أيضاً نقله الأزهري، والنحاتة: البراية.

﴿فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾ من الجحمة، وهي شدة التأجج والالتهاب. ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ والكيد: ضرب من الاحتيال كما في «المفردات». ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ والغلام: الطارّ الشاربُ، والكهل ضده، أو من حين يولد إلى أن يشيب كما في «القاموس». وقال بعض أهل اللغة: الغلام من جاوز العشر، وأما من دونها فصبي. ﴿حليم﴾ والحليم من لا يعجل في الأمور، كما سبق.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتماً.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿فاطلع، ومطلعون﴾.

ومنها: التعبير بالماضي في قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ﴾ لإفادة التحقق والوقوع.

ومنها: الجمع بين المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٠﴾ أكده بإن وبضمير الفصل وباللام وباسمية الجملة إفادةً، لفخامة تلك النعمة وعظمها. إذ الدنيا وما فيها تحتقر دونها، كما تحتقر القطرة من البحر المحيط، والحبة من البيدر الكبير.

ومنها: القصر في قوله: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ٦١﴾؛ أي: لا لغيره من الحظوظ الدنيوية السريعة الانقطاع.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾؛ لأن في التعبير بـ﴿خَيۡرٌ﴾ تهكماً بهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿طَلۡعُهَا﴾؛ لأن الطلع حقيقة في أول ما يخرج من ثمر النخل، فاستعير لما يخرج من شجرة الزقوم، بجامع الطلوع والبروز في كل.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾. فتشبيه طلعها برؤوس الشياطين في الشناعة والقبح، تشبيه بالمخيل، كتشبيه الفائق في الحسن بالملك، في نحو قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فيما حكى الله سبحانه، عن صواحبات يوسف عليه السلام.

فمنها: الإتيان بصيغة الجمع في قوله: ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ للدلالة على العظمة والكبرياء.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿مُّنذِرِينَ﴾ و﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾؛ لأن المراد بالأول: الرسل، وبالثاني: الأمم.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ كني به عن الثناء الحسن الجميل.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾؛ لأنه حذف منه المفعول به؛ أي: ثناء حسناً.

ومنها: مراعاة الفواصل في قوله: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ إلخ؛ لأنه من المحسنات البديعية، وهو من خصائص القرآن.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ شبه إقباله على ربه مخلصاً بقلبه، بمن قدم على الملك بتحفة ثمينة جميلة، ففاز بالرضى والقبول.

منها: تقديم المعمولات على العامل في قوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ لإظهار العناية والاهتمام بها.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿ٱبْنُوا۟﴾ ﴿بُنْيَٰنًا﴾، وبين ﴿فَنَظَرَ﴾ ﴿نَظْرَةً﴾.

ومنها: فن الرمز والإيماء في قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾. وهو أن يريد المتكلم إخفاء أمر ما في كلامه، فيرمز في ضمنه رمزاً إما تعمية للمخاطب، وتبرئة لنفسه، وتنصلاً من التبعة، وإما ليهتدى بواسطته إلى طريق استخراج ما أخفاه في كلامه، وقد كان قوم إبراهيم نجّامين، فأوهمهم أنه استدل بأمارة في علم التنجيم على أنه يسقم، فقال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾؛ أي: مشارف للسقم، وهو الطاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى، فقال ذلك ليوجسوا خوفاً، ويتفرقوا عنه، فهربوا منه إلى عيدهم، وتركوه في بيت الأصنام، ليس معه أحد ففعل بالأصنام ما فعل، وقد يوهم ظاهر الكلام، أنه ارتكب بذلك جريرة الكذب، والأنبياء معصومون عنه، والصحيح: أن الكذب حرام، إلا إذا عرّض عنه، وورّى. ولقد نوى إبراهيم أن من في عنقه الموت سقيم.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾. فقد انطوت هذه البشارة الموجزة على ثلاث: أن الولد ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه يكون حليماً. وأي حلم أدل على ذلك من حلمه، حين عرض عليه أبوه الذبح، فلم يضطرب، ولم يتخاذل، ولم يعترض على مشيئة أبيه، بل قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ثم استسلم لذلك، ولم يكن ليدور له في خلد، أن الله سيفديه، وسيهيىء له كبش الفداء.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ
يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦)
وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ
وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ (١١٣) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
(١١٤) وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيْنَٰهُمَا
ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١١٩) سَلَٰمٌ
عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنَّ
إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ
(١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٢٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ
(١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا
عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ
ٱلْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ
إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦)
وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما قال[1]: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾.. أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به،

---

(١) المراغي.

وبلوغه سن المراهقة بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾. إذ هو لا يقدر على الكد والعمل إلا بعد بلوغ هذه السن، ثم أتبعه بقص الرؤيا عليه، وإطاعته في تنفيذ ما أُمر به، وصبره عليه، ولما حان موعد التنفيذ، كبّه على وجهه للذبح، فأوحى إليه ربه أنه فداه بذبح عظيم، ثم بشره بإسحاق نبياً من الصالحين، وبارك عليه وعلى إسحاق، وأنه سيكون من ذريتهما من هو محسن فاعل للخيرات، ومنهم من هو ظالم لنفسه مجترح للسيئات.

التفسير وأوجه القراءة

والظرف في قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ الغلام ﴿مَعَهُ﴾؛ أي: مع إبراهيم، متعلق بقوله: ﴿ٱلسَّعْىَ﴾. وجاز[1] التعلق به؛ لأنه ظرف فيكفيه رائحة من الفعل، لا ببلغ لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي، ولم يكن معاً كذا في «بحر العلوم». والفاء فيه فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنّا بشرناه بغلام حليم، وأردت بيان عاقبته فأقول لك: لما بلغ الغلام أوان أن يسعى مع إبراهيم في أشغاله وحوائجه ومصالحه، وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم للغلام، وهذا جواب الشرط ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تصغير شفقة ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ قرباناً لله تعالى؛ أي: أرى هذه الصورة بعينها، أو ما هذه عبارته وتأويله؛ أي: قال إبراهيم لابنه لما بلغ معه ذلك المبلغ: إني رأيت في المنام هذه الرؤيا. قال مقاتل: رأى إبراهيم ذلك ثلاث ليال متتابعات. قال قتادة: رؤيا الأنبياء حق إذا رأوا شيئاً فعلوه. وقيل: إنه[2] رأى ليلة التروية، كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح، روَّى في ذلك من الصباح إلى الرواح، أمن الله تعالى هذا الحلم، أم من الشيطان، فمن ثمة سُمّي يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله تعالى، فمن ثمة سمي يوم عرفة، ثم رأى في الليلة الثالثة مثل ذلك، فهم بنحره، فسمي اليوم يوم النحر.

﴿فَٱنظُرْ﴾ يا بني ﴿مَاذَا﴾ منصوب بقوله: ﴿تَرَىٰ﴾ من الرأي فيما ألقيت

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

إليك. سأله عما يبديه قلبه ورأيه أي شيء هو؟ هل هو الإمضاء أو التوقف؟. فقوله: ﴿تَرَىٰ﴾ من الرأي الذي يخطر بالبال، لا من رؤية العين.

قال العلماء بالسير وأخبار الماضين[1]: لما دعا إبراهيم ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾، وبشر به قال: هو إذاً لله ذبيح. فلما ولد وبلغ معه السعي قيل له: أوف بنذرك. هذا هو السبب في أمر الله تعالى إياه بالذبح، فقال للغلام: انطلق نقرب لله قرباناً، فأخذ سكيناً وحبلاً، وانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال، فقال الغلام: يا أبت أين قربانك؟ فقال: يا بني، إني أرى في المنام أني أذبحك، فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر... إلخ.

فإن قلت: لِمَ شاوره في أمر قد علم أنه حتم من الله تعالى، وما الحكمة في ذلك؟.

قلتُ: لَمْ يشاوره ليرجع إلى رأيه، وإنما شاوره ليعلم ما عنده، فيما نزل به من بلاء الله تعالى، وليعلم صبره على أمر الله، وعزيمته على طاعته، ويثبت قدمه، ويصبِّره إن جزع، ويراجع نفسه، ويوطنها، ويلقي البلاء، وهو كالمستأنس، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى، قبل نزوله، وتكون سنة في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فُرّط منه ذلك.

فإن قلت: لم كان ذلك في المنام دون اليقظة، وما الحكمة في ذلك؟.

قلت: إن هذا الأمر كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح، فورد في المنام كالتوطئة له، ثم تأكد حال النوم بأحوال اليقظة، فإذا تظاهرت الحالتان، كان ذلك أقوى في الدلالة. ورؤيا الأنبياء وحي وحق. وفي أسئلة الحكم: لِمَ أمر الله تعالى إبراهيم بذبح ولده في المنام، ورؤيا الأنبياء حق، وقتل الإنسان بغير حق من أعظم الكبائر؟. قيل: أمره في المنام دون اليقظة؛ لأنه ليس شيء أبغض إلى الله من قتل المؤمن، وقيل: ليُعلم أن رؤيا الأنبياء، ويقظتهم سواء في وجوب العمل به.

---

(١) الخازن.

وقرأ الجمهور: ﴿تَرَىٰ﴾ بفتح التاء والراء. وقرأ عبد الله، والأسود بن يزيد، وابن وثّاب، وطلحة، والأعمش، ومجاهد، وحمزة، والكسائي بضم التاء وكسر الراء. وقرأ الضحاك، والأعمش أيضاً بضم التاء وفتح الراء، فالأول: من الرأي، والثاني: ماذا ترينه وما تبديه لأنظر فيه، والثالث: ما الذي يخيّل إليك ويوقع في قلبك.

والمعنى(١): أي لما كبر وترعرع، وصار يذهب مع أبيه، ويسعى في أشغاله وقضاء حوائجه قال له: يا بني إني رأيت في المنام أني أذبحك، فما رأيك؟، وقد قص عليه ذلك، ليعلم ما عنده فيما نزل به، من بلاء الله، فيثبّت قدمه إن جزع، وليوطّن نفسه على الذبح، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى.

ثم بيّن أنه كان سميعاً مطيعاً منقاداً لما طلب منه بقوله: ﴿قَالَ﴾ الغلام ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ أي: يا أبي ويا والدي. ولما كان خطاب الأب يا بنيّ، على سبيل الترحم والشفقة، قال هو: يا أبت على سبيل التعظيم والتوقير ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ به من الذبح. فحُذف الجار أولاً على القاعدة المطردة، ثم حذف العائد إلى الموصول بعد انقلابه منصوباً بإيصاله إلى الفعل أو حذفا دفعةً. أو المعنى: افعل أمرك على إرادة المأمور به. والإضافة إلى المأمور. وصيغة(٢) المضارع حيث لم يقل: ما أمرت للدلالة على أن الأمر متعلق به، متوجه إليه، مستمر إلى حين الامتثال به. وفي «البيضاوي»: وإنما ذكر بلفظ المضارع. لتكرار الرؤيا، انتهى. ولعله فهم من كلامه، أنه رأى ذبحه مأموراً به، ولذا قال: ﴿مَا تُؤْمَرُ﴾؛ أي: قال الغلام لأبيه: افعل ما أمرت به. قال ابن إسحاق وغيره: لما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه: يا بني خذ الحبل والمدية، وانطلق إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في الشعب، أخبره بما أمره الله به، فقال: افعل ما تؤمر.

والمعنى(٣): أي قال الغلام: يا أبت سميعاً دعوت، ومن مجيب طلبت،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وإلى راض ببلاء الله وقضائه توجهت، فما عليك إلا أن تفعل ما تؤمر به، وما عليّ إلا الانقياد، وامتثال الأمر. وعلى الله المثوبة، وهو حسبي، ونعم الوكيل، ولما خاطبه بقوله: يا بني، على سبيل الترحم، أجابه بقوله: يا أبت، على سبيل التوقير والتعظيم، وفوّض الأمر إليه حيث استشاره، وأن الواجب عليه إمضاء ما رآه.

ثم أكد امتثاله للأمر بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ يا أبي ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى صبري ﴿مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ على قضاء الله تعالى وبلائه، أو من الصابرين على الذبح. فاستعان بالله في الصبر على بلائه، حيث قال: إن شاء الله. ومن أسند المشيئة إلى الله تعالى، والتجأ إليه لم يعطب. قال الذبيح[1]: ﴿مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أدخل نفسه في عداد الصابرين، فرق عليه وموسى عليه السلام تفرد بنفسه، حيث قال للخضر: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، فخرج، والتفويض أسلم من التفرد، وأوفق لتحصيل المرام، ولما كان إسماعيل في مقام التسليم، والتفويض إلى الله تعالى، وقف وصبر، ولما كان في صورة المتعلم، ومن شأن المتعلم، أن يتعرض لأستاذه فيما لم يفهمه، خرج ولم يصبر، وقال بعضهم: ظاهر موسى تعرض، وباطنه تسليم أيضاً؛ لأنه إنما اعترض على الخضر بغيرة الشرع.

والمعنى: أي سأصبر على القضاء، واحتمل هذه اللأواء غير ضجر ولا برم بما قضي وقدّر، وقد صدق فيما وعد، وبر في الطاعة لتنفيذ ما طلب منه، ومن ثم قال سبحانه في شأنه، مادحاً له: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾.

ثم ذكر طريق تنفيذ الرؤيا، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾؛ أي: استسلما لأمر الله، وأطاعاه، وإنقادا له؛ أي: استسلم إبراهيم وابنه لأمر الله، وانقادا، وخضعا له. وعن قتادة: معنى ﴿أَسْلَمَا﴾؛ أي: أسلم إبراهيم ابنه وإسماعيل نفسه.

وقرأ الجمهور: ﴿أَسْلَمَا﴾. وقرأ عبد الله، وعلي، وابن عباس، ومجاهد،

---

(١) روح البيان.

والضحاك، وجعفر بن محمد، والأعمش، والثوري ﴿سلّما﴾؛ أي: فوّضا أمرهما إليه تعالى في قضائه وقدره، وروى عن ابن عباس: أنه قرأ ﴿استسلما﴾ ثلاث قراءات يقال: سلم لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد.

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾؛ أي: أسقط إبراهيم الغلام، وأوقعه على جبينه على الأرض. والجبين: أحد جانبي الجبهة، فللوجه جبينان، والجبهة بينهما. قال في «القاموس»: تلّه: صرعه، وألقاه على عنقه وحده، والجبين: أحد جانبي الجبهة، فللوجه فوق الصدغ جبينان، عن يمين الجبهة وشمالها. قال الراغب: أصل التل: المكان المرتفع، والتليل: العنق، وتلّه للجبين: أسقطه على التل أو على تليله؛ أي: عنقه. وقال غيره: صرعه على شقه، فوقع جبينه على الأرض لمباشرة الأمر بصبر وجلد ليرضيا الرحمن، ويحزنا الشيطان. وكان ذلك عند الصخرة التي بأصل جبل ثبير أو في الموضع المشرف على مسجد منى، أو في المنحر الذي يُنحر فيه اليوم عند الجمار، أو في مكة عند المقام، وقيل: بالشام، وروي: أن إبليس عرض لإبراهيم عند جمرة العقبة، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى، وعزم على الذبح، ومنه شُرع رمي الجمرات في الحج، فهو من واجبات الحج، يجب بتركه الفدية باتفاق الأئمة.

قال في «التأويلات النجمية»: ومن دقة النظر في رعاية آداب العبودية في حفظ حق الربوبية في القصة: أن إسماعيل، أمر أباه أن يشد يديه ورجليه، لئلا يضطرب إذا مسه ألم الذبح فيعاتب، ثم لما هم بذبحه قال: افتح القيد عني، فإني أخشى أن أعاتب، فيقال لي: أمشدود اليد حبيبي يطيعني. ولقد قيل في المعنى:

وَلَوْ بِيَدِ ٱلْحَبِيْبِ سُقِيْتُ سُمًّا لَكَانَ ٱلسُّمُّ مِنْ يَدِهِ يَطِيْبُ

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾؛ أي: ونودي إبراهيم من جانب الجبل ﴿أَن﴾ مفسرة لمفعول ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ المقدر؛ أي: ناديناه بلفظ هو قولنا ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾

بالعزم على الإتيان بالمأمور به، وترتيب مقدماته. وفي «شرح الفصوص» للمولى الجامي: معناه؛ أي: حققت الصورة المرئية، وجعلتها صادقة مطابقة للصورة الحسية الخارجية بالإقدام على الذبح، والتعرض لمقدماته. وقد قيل: إنه أمر السكين، بقوته على حلقه مراراً، فلم يقطع، ثم وضع السكين على قفاه، فانقلب السكين، فعند ذلك وقع النداء.

والمعنى: أي ناداه من خلفه ملك من قبله تعالى: أن قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، فقد بان امتثالك للأمر، وصبرك على القضاء. وقال القرطبي: قال أهل السنة: إن نفس النسخ لم يقع، ولو وقع لم يتصور رفعه. فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل؛ لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء. قال: ومعنى ﴿صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾: فعلت ما أمكنك ثم امتنعت لما منعناك. هذا أصح ما قيل في هذا الباب.

وقد اختلف في جواب ﴿لما﴾ ماذا هو؟ فقيل: هو محذوف[1] إيذاناً بعدم وفاء التعبير بتفاصيله، كأنه قيل: كان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان، من استبشارهما وشكرهما لله تعالى، على ما أنعم به عليهما من رفع البلاء، بعد حلوله، والتوفيق لما لم يوفّق أحد لمثله، وإظهار فضلهما بذلك على العالمين، مع إحراز الثواب العظيم، إلى غير ذلك، هكذا قال البصريون، وقال الكوفيون: الجواب: هو ناديناه، والواو زائدة مقحمة، واعترض عليهم النحاس: بأن الواو من حروف المعاني، ولا يجوز أن تزاد، وقال الأخفش: الجواب: وتلّه للجبين، والواو زائدة، وروي هذا أيضاً عن الكوفيين، واعتراض النحاس يرد عليه كما ورد على الأول.

وقرأ زيد بن علي ﴿وناديناه﴾ قد صدقت بحذف ﴿أن﴾. وقرىء ﴿صدّقت﴾ بتخفيف الدال. وقرأ فيّاض ﴿الريا﴾ بكسر الراء والإدغام.

وقوله: ﴿إِنَّا﴾ نحن ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما جزينا إبراهيم وابنه بتفريج الكرب

---

(١) روح البيان.

﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: نجزي كل محسن، بامتثال الأمر، تعليل لتفريج تلك الكربة عنهما بإحسانهما، قال مقاتل: جزاه الله سبحانه، بإحسانه في طاعته، العفو عن ذبح ابنه.

والمعنى[1]: أي إنا كما عفونا عن ذبحه لولده، بعد استبانة إخلاصه في عمله حين أعد العدة، ولم تتغلب عليه عاطفة البنوة، فرضي بتنفيذ القضاء منقاداً صاغراً، نجزي كل محسن على طاعته، ونوفيه من الجزاء ما هو له أهل، وبمثله جدير.

ثم ذكر عظيم صبره على امتثال أمر ربه، مع ما فيه من كبير المشقة في مجرى العادة، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذبح المأمور به ﴿لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: لهو الابتلاء البيّن الظاهر، والذي يتميز فيه المخلص من غيره، أو إن هذا لهو المحنة البينة الصعوبة، التي لا محنة أصعب منها، والمعنى؛ أي: إن هذا الذي كان، لهو محنة أيما محنة، واختبار لعباده لا يعدله اختبار، ولله سبحانه أن يبتلي من شاء من عباده بما شاء من التكاليف، قد تخفى علينا أسرارها وحكمها، وهو العليم بها، وبما لأجله شرعها.

وقيل المعنى: إن هذا الفداء الآتي لهو النعمة الظاهرة، حيث سلم الله ولده من الذبح، وفداه بالكبش، يقال: أبلاه الله إبلاء وبلاء إذا أنعم عليه، والأول أولى، وإن كان الابتلاء يستعمل في الاختبار بالخير والشر، ولكن المناسب للمقام المعنى الأول، فقال أبو زيد: هذا في البلاء الذي نزل به، في أن يذبح ولده، قال: وهذا من البلاء المكروه.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾؛ أي: وفدينا إسماعيل ﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: بمذبوح عظيم الشأن، متقبل عند الله تعالى. قيل: معناه: بكبش سمين اسمه جرير، وهو الكبش الذي تقرب به هابيل إلى الله تعالى، فقبله، وكان في الجنة يرعى، حتى فدى الله تعالى به إسماعيل، وقال السدي: نودي إبراهيم فالتفت، فإذا هو بكبش أملح

---

(١) المراغي.

انحط من الجبل، فقام عند إبراهيم، فأخذه فذبحه، ثم اعتنق ابنه، وقال: يا بني اليوم وهبت لي. وروي: أنه لما ذبحه قال جبرائيل: الله أكبر الله أكبر، فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر، فقال إبراهيم: الله أكبر ولله الحمد، فبقي ذلك سنة في الإسلام. والفادي في الحقيقة هو إبراهيم. وإنما قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾؛ لأن الله هو المعطي له، والآمر به على التجوز في الفداء أو الإسناد.

وقيل المعنى: وفديناه بوعل أُهبط عليه من جبل ثبير، قاله الحسن البصري، فإنه قال: ما فُدي إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير، فذبحه إبراهيم فداءً عن ابنه. قال الزجاج: قد قيل: إنه فدي بوعل، والوعل: التيس الجبلي.

ومعنى الآية: جعلنا الذبح فداءً له، وخلصناه به من الذبح، لكن ولا علينا أن نزيد على ما جاء به الكتاب، ومكان نزوله لا يهم في بيان هذه المنة التي امتن بها عليه، والذبح بالكسر: اسم للمذبوح، وجمعه ذبوح كالطحن اسم للمطحون، وبالفتح: المصدر، ومعنى ﴿عَظِيمٍ﴾: عظيم القدر، ولم يرد عظم الجثة، وإنما عظم قدره لأنه فُدي به نبي ابن نبي، وأي نبي من نسله سيد المرسلين. وقيل معنى ﴿عَظِيمٍ﴾؛ أي: عظيم الجثة سمين، وهي السنة في الأضاحي، كما قال النبي ﷺ: «عظّموا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم».

ثم ذكر أنه منَّ عليه بمنة أخرى، فقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: على إبراهيم؛ أي: أبقينا له ذكراً حسناً، وثناءً جميلاً ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: في الأمم المتأخرة التي تأتي بعده إلى يوم القيامة، فصار محبباً بين الناس جميعاً من كل ملة ومذهب، فاليهود يجلّونه، والنصارى يعظمونه، والمسلمون يبجّلونه، والمشركون يحترمونه، ويقولون: إنا على ملة أبينا إبراهيم. وذلك استجابة لدعوته حين قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾.

ثم ذكر أنه منَّ عليه بمنة ثالثة، فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾؛ أي: وقلنا له: عليك السلام في الملائكة، والإنس والجن. أو[١] المعنى؛ أي: تركنا على

---

(١) المراح.

إبراهيم في الباقين من الأمم هذا الكلام بعينه، كما سبق في قصة نوح.

والمعنى: أثبت الله التسليم على إبراهيم، وأدامه في الآخرين، فيسلمون عليه؛ أي: يدعون له بثبوت هذه التحية.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذكره الجميل فيما بين الأمم ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالثناء الحسن. فالكاف[1] متعلقة بما بعدها. وذلك إشارة إلى بقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم، لا إلى ما أشير إليه فيما سبق، فلا تكرار؛ أي: مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي المنقادين لأوامرنا، لا جزاءً أدنى منه، يعني أن إبراهيم من المحسنين، وما فعلناه مما ذكر مجازاة على إحسانه. ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن إبراهيم ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الراسخين في الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان. وفي «التأويلات النجمية» أي من عبادنا المخلصين، لا من عباد الدنيا، والهوى، والسوى. وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلت: لم قال هنا: كذلك نجزي المحسنين بحذف إنا، وأثبته في آخر غيرها من القصص؟

قلت: حذفه في قصة إبراهيم اختصاراً واكتفاءً بذكره له قبل في قصته بقوله: وناديناه أن يا إبراهيم الآية، مع أن ما بعد قصته كان من تكملتها، وهو قوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ بخلاف سائر القصص، انتهى.

ثم أعقب ذلك بنعمة رابعة، وهي نعمة الولد، فقال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾؛ أي: إبراهيم، والتبشير: هو الإخبار بما يظهر سروراً في المخبر به. ﴿بِإِسْحَٰقَ﴾ من سارة رضي الله عنها حال كونه ﴿نَبِيًّا﴾ أي: مقضياً بنبوته، مقدراً كونه ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: بشرنا إبراهيم بولد يولد له، ويصير نبياً بعد أن يبلغ السن التي يتأهل فيها لذلك، وانتصاب ﴿نَبِيًّا﴾ على الحال، وهي حال مقدرة، والأولى[2] أن يقال: إن من فسَّر الذبيح بإسحاق جعل البشارة هنا خاصة بنبوته، ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة، فإن وجود ذي الحال ليس بشرط، وإنما الشرط المقارنة للفعل. وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه، وإيماء إلى أنه

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

الغاية لها، لتضمنها معنى الكمال، والتكميل بالفعل على الإطلاق. و﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كما يجوز أن يكون صفة لـ﴿نبياً﴾ يجوز أن يكون حالاً من الضمير المستتر فيه، فتكون أحوالاً متداخلةً. وفي «التأويلات النجمية»: ﴿نَبِيًّا﴾؛ أي: ملهماً من الحق تعالى، كما قال بعضهم: حدثني قلبي عن ربي: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: من المستعدين لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة، انتهى.

والمعنى: أي وآتينا إبراهيم إسحاق، ومننا بنعمة النبوة له، وللكثير من حفدته كفاء امتثاله أمرنا، وصبره على بلوانا.

﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء من بني إسرائيل، وغيرهم كأيوب وشعيب، أو[1] أفضنا عليهما بركات الدنيا والآخرة، فكثَّرنا نسلهما، وجعلنا منه أنبياءَ ورسلاً، وطلبنا من المسلمين في صلواتهم أن يدعوا لهم بالبركة، فيقولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾؛ أي: ومن ذرية إبراهيم وإسحاق ﴿مُحۡسِنٞ﴾ في عمله أو لنفسه بالإيمان والطاعة ﴿وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿مُبِينٞ﴾؛ أي: ظاهر ظلمه. وفيه تنبيه على أن الظلم في أولادهما وذريتهما لا يعود عليهما بعيب ولا نقيصة، وأن المرء يجازى بما صدر من نفسه طاعة أو معصية، لا بما صدر من أصله وفرعه، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾. وأن النسب لا تأثير له في الصلاح، والفساد والطاعة والعصيان فقد يلد الصالح العاصي، والمؤمن الكافر، وبالعكس، ولو كان ذلك بالطبيعة لم يتغير، ولم يتخلف. فإن اليهود والنصارى وإن كانوا من ولد إسحاق فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال المبين، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل، فقد ماتوا على الشرك، إلا من أنقذه الله بالإسلام.

أَتَفْخَرُ بِٱتِّصَالِكَ مِنْ عَلِيٍّ   وَأَصْلُ ٱلْبَوْلَةِ ٱلْمَاءُ ٱلْقَرَاحُ

(١) المراغي.

وَلَـيْـسَ بِـنَـافِـعٍ نَـسَـبٌ زَكِـيٌّ   تُـدَنِّـسُـهُ صَـنَـائِـعُـكَ ٱلْـقِـبَـاحُ

وقال بعضهم:

وَمَـا يَـنْـفَـعُ ٱلأَصْـلُ مِـنْ هَـاشِـمٍ   إِذَا كَـانَـتِ ٱلـنَّـفْـسُ مِـنْ بَـاهِـلَـهْ

وباهلة: قبيلة عرفوا بالدناءة؛ لأنهم كانوا يأكلون بقية الطعام مرة ثانية، ويأكلون نقيّ عظام الميتة، وفي المثل: ذهب الناس إلا النسناس، وهم الذين يتشبهون بالناس وليسوا بالناس، أو هم خلق في صورة الناس. فعلى العاقل ترك الاغترار بالأنساب والأحساب، والاجتهاد فيما ينفعه يوم الحساب.

والمعنى: أي ومن ذريتهما من أحسن في عمله، فآمن بربه، وامتثل أوامره واجتنب نواهيه، ومنهم من ظلم نفسه، ودسّاها بالكفر والفسوق والمعاصي.

والخلاصة: أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال، وأن الظلم في الأعقاب لا يعود إلى الأصول بنقيصة ولا عيب عليهم في شيء منه، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

تتمة: مَنِ الذبيح، أإسحاق أم إسماعيل؟ ليس في هذه المسألة دليل قاطع من سنة صحيحة ولا خبر متواتر، بل روايات منقولة عن بعض أهل الكتاب، وعن جماعة من الصحابة والتابعين، ومن ثم حدث الخلاف فيها:

أولاً: فمن قائل: إنه إسحاق، ويؤيده:

١ ـ ما روي عن يوسف عليه السلام: أنه قال لفرعون مصر في وجهه: أترغب عن أن تأكل معي، وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله.

٢ ـ ما روي عن أبي الأحوص قال: افتخر رجل عند ابن مسعود، فقال: أنا فلان بن فلان بن الأشياخ الكرام، فقال ابن مسعود: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله.

٣ ـ ما حكاه البغوي عن عمر، وعلي، وابن مسعود، والعباس: أنه

إسحاق. ولكعب الأحبار ضلع في هذه الأخبار وأمثالها التي تلقاها المسلمون منه، وكان يحدث بها عن الكتب القديمة وهي جامعة بين الغث والسمين، ثقةً بأن عمر رضي الله عنه قد استمع منه. ومن ثم احتاج الثقات إلى تمحيصها، وعزل جيدها من بهرجها، وصحيحها من سقيمها.

ثانياً: ومن قائل: إنه إسماعيل، وهو الذي يساوقه صحيح النظر، ونصوص القرآن. ويؤيده:

١ ـ رواية ذلك عن ابن عباس، فقد روى عطاء ابن أبي رباح عنه أنه قال: المفدي هو إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود.،

٢ ـ روى مجاهد عن ابن عمر أنه قال الذبيح إسماعيل.

٣ ـ أن ابن إسحاق قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: إن الذي أمر الله بذبحه من ابني إبراهيم هو إسماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، فإنه بعد أن فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، فلم يكن يأمره بذبح إسحاق، وله فيه من الموعد ما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل، قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً.

وعلى الجملة: فظاهر نظم الآية والروايات التي يروونها، يؤيد أنه إسماعيل، ولكن اليهود حسدوا العرب، على أن يكون أباهم هو الذي كان من أمر الله فيه ما كان، ومن الفضل الذي ذكره الله له لصبره، لما أمر به، فجحدوا ذلك، وزعموا أنه إسحاق؛ لأنه أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً مطيعاً لربه.

القصة الثالثة: قصة موسى وهارون عليهما السلام

ولما فرغ الله سبحانه، من ذكر إنجاء الذبيح من الذبح، وما منّ عليه بعد ذلك من النبوة.. ذكر ما منّ به على موسى وهارون. فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أنعمنا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿و﴾ أخيه الشقيق ﴿هارون﴾ بن

عمران، وهو أكبر من موسى سناً بالنبوة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ وهم المؤمنون من بني إسرائيل؛ أي: خلّصناهم ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ﴾ والبلاء ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: الشديد. والمراد بالكرب العظيم: هو ما كانوا فيه من استعباد فرعون وقومه إياهم، وما كان يصيبهم من جهته من البلاء، وقيل هو الغرق الذي أهلك به فرعون وقومه، والأول أولى.

ولما كانت التنجية عبارة عن التخليص من المكروه، وهي لا تقتضي الغلبة أتبعها بقوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: ونصرنا موسى وهارون وقومهما على أعدائهم، وأيّدناهم عليهم ﴿فَكَانُوا۟﴾ بسبب نصرنا إياهم ﴿هُمُ﴾ فحسب ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ على أعدائهم فرعون وقومه القبطيين، غلبةً لا غاية وراءها بعد أن كان قومهما في أسرهم وقسرهم مقهورين تحت أيديهم.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى، فصَّل النعم التي أنعم بها على موسى وهارون وقومهما.

فقال أولاً: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾؛ أي ومن آمن معهما من الكرب العظيم الذي كانوا فيه بإساءة فرعون وقومه إليهم من قتل الأبناء، واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس المهن والصناعات، ومعاملتهم معاملة العبيد والأرقاء إلى ضروب أخرى، من المهانة والمذلة، التي لولا الفهم لها، لكانت كافية في انقراضهم، ولكنهم شعب لا يأبى الخضوع والاستكانة متى وُجد في ذلك السبيل لجمع المال، وحيازته، والتمتع بلذات الدنيا.

وقال ثانياً: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾؛ أي: ونصرناهم على أعدائهم، فغلبوهم، وملكوا أرضهم وأموالهم، وما كانوا قد جمعوه طوال حياتهم، فكانوا أصحاب الصولة، والسلطان، والدولة، والرفعة.

وقال ثالثاً: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا﴾؛ أي: وأعطينا موسى وهارون بعد التنجية المذكورة ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾؛ أي: الكتاب الجلي الواضح المتناهي في البيان، والتفصيل لما يحتاج إليه البشر في مصالح الدين والدنيا، وهو التوراة، فإنه كتاب مشتمل على جميع العلوم التي يحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا، كما قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقال رابعاً: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُمَا﴾ بذلك الكتاب ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي: الموصل إلى الحق والصواب، بما فيه من تفاصيل الشرائع، وتفاريع الأحكام.

وقال خامساً: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: أبقينا لهما ذكراً حسناً، وثناءً جميلاً ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾؛ أي: فيمن بعدهم من الأمم. وهذا ما تصبو إليه النفوس. قال شاعرهم:

وَإِنَّمَا ٱلْمَرْءُ حَدِيْثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيْثاً حَسَناً لِمَنْ وَعَىٰ

وقال الآخر:

الذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِيْ

فهم يسلمون عليهما، ويقولون: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ ويدعون لهما دعاء دائماً إلى يوم الدين، ولا شيء أدعى إلى سعادة الحياة من الطمأنينة وهدوء البال، كما ورد في الحديث: «من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، فكأنما حيزت الدنيا له بحذافيرها».

ثم ذكر سبب هذه النعم، فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا الجزاء الكامل ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين هما من جملتهم، لا جزاء قاصراً عنه ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ يشير إلى[1] أن طريق الإحسان هو الإيمان. فالإيمان هو مرتبة الغيب، والإحسان هو مرتبة المشاهدة. ولما كان الإيمان ينشأ عن المعرفة كان الأصل معرفة الله، والجري على مقتضى العلم.

القصة الرابعة: قصة إلياس عليه السلام

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ إلى بني إسرائيل. قال ابن جرير: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى عليهما السلام.

---

(١) روح البيان.

فهو إسرائيلي من سبط هارون.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِلْيَاسَ﴾ بهمزة مكسورة مقطوعة. وقرأ ابن ذكوان بوصلها، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، ويحيى بن وثّاب ﴿وإن إدريس لمن المرسلين﴾. وقرأ أبيّ ﴿وإن إيليس﴾ بهمزة مكسورة، ثمّ تحتية ساكنة، ثمّ لام مكسورة، ثم تحتية ساكنة، ثم سين مهملة مفتوحة.

وحاصل قصته: كما قال محمد بن إسحاق، وعلماء السير والأخبار: لما[2] قبض الله عز وجل، حزقيل النبي عليه السلام، عظمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد والشرك، ونصبوا الأصنام، وعبدوها من دون الله عز وجل، فبعث الله عز وجل إليهم إلياس نبياً، وكان أنبياء يبعثون من بعد موسى عليه السلام في بني إسرائيل، بتجديد ما نسوا من أحكام التوراة. وكان يوشع لما فتح الشام، قسمها على بني إسرائيل، وإن سبطاً منهم حصل في قسمته بعلبك ونواحيها، وهم الذين بعث إليهم إلياس، وعليهم يومئذ ملك اسمه آجب، وكان قد أضل قومه، وجبرهم على عبادة الأصنام، وكان له صنم من ذهب، طوله عشرون ذراعاً، وله أربعة أوجه، اسمه بعل. وكانوا قد فتنوا به، وعظّموه، وجعلوا له أربع مئة سادن، وجعلوهم أنبياء. فكان الشيطان يدخل في جوف بعل، ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها عنه، ويبلغونها الناس. وهم أهل بعلبك، وكان إلياس يدعوهم إلى عبادة الله عز وجل، وهم لا يسمعون له، ولا يؤمنون به إلا ما كان من أمر الملك، فإنه آمن به وصدقه. فكان إلياس يقوم بأمره، ويسدده، ويرشده، وكان للملك امرأة جبارة، اسمها أربيل، وكانت قتالة للأنبياء والصالحين، يقال: إنها هي التي قتلت يحيى بن زكريا، وقد تزوجت سبعةً من ملوك بني إسرائيل، وقتلتهم كلهم غيلة، إنها ولدت سبعين ولداً. وكان يستخلفها على ملكه إذا غاب، فغضبت من رجل مؤمن اسمه مزدكي له جنينة تصغير جنة، كان يتعيّش منها في جنب

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.

قصرها، فحسدته، فأخذتها وقتلته، فبعث الله سبحانه وتعالى إلياس إلى الملك وزوجته، وأمره أن يخبرهما أن الله عز وجل قد غضب لوليّه، حين قُتل ظلماً، وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صنيعهما، ويردا الجنينة على ورثة المقتول.. أهلكهما في جوف الجنينة، ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها، ولا يتمتعان فيها إلا قليلاً، فجاء إلياس، فأخبر الملك بما أوحى الله إليه في أمره، وأمر امرأته، والجنينة. فلما سمع الملك ذلك غضب، واشتد غضبه عليه، وقال: يا إلياس، والله ما أرى ما تدعونا إليه إلا باطلاً، وهمَّ بتعذيب إلياس وقتله. فلما أحس إلياس بالشر رفضه وخرج عنه هارباً، ورجع الملك إلى عبادة بعل، ولحق إلياس بشواهق الجبال، فكان يأوي إلى الشعاب والكهوف، فبقي سبع سنين على ذلك خائفاً مستخفياً، يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر، وهم في طلبه، وقد وضعوا عليه العيون، والله يستره منهم. فلما طال الأمر على إلياس، وسكنى الكهوف في الجبال، وطال عصيان قومه ضاق بذلك ذرعاً، فأوحى الله تعالى إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهود: يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه، ألست أميني على وحي، وحجتي في أرضي، وصفوتي من خلقي، سلني أعطك، فإني ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم، قال: يا رب تميتني وتلحقني بآبائي، فإني قد مللت بني إسرائيل، وملّوني، فأوحى الله تعالى إليه يا إلياس ما هذا باليوم الذي أعرّي منك الأرض وأهلها، وإنما صلاحها وقوامها بك وبأشباهك، وإن كنتم قليلاً سلني أعطك. فقال إلياس: إن لم تمتني فأعطني ثأري من بني إسرائيل، قال الله عز وجل: وأي شيء تريد أن أعطيك؟ قال: تملكني خزائن السماء سبع سنين، فلا تسير عليهم سحابة إلا بدعوتي، ولا تمطر عليهم قطرة إلا بشفاعتي، فإنه لا يذلهم إلا ذاك. قال الله عز وجل: يا إلياس أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين. قال: فست سنين، قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك، قال: فخمس سنين، قال: أنا أرحم بخلقي، ولكن أعطيك ثأرك ثلاث سنين، أجعل خزائن المطر بيدك، قال إلياس: فبأي شيء أعيش يا رب؟ قال: أسخّر لك جيشاً من الطير ينقل لك طعامك وشرابك من الريف، والأرض التي لم تقحط. قال إلياس: قد رضيت، فأمسك الله عز وجل عنهم المطر، حتى هلكت الماشية والهوام والشجر، وجهد

الناس جهداً شديداً، وإلياس على حاله مستخفياً من قومه، يوضع له الرزق حيث كان، وقد عرف قومه ذلك.

قال ابن عباس: أصاب بني إسرائيل ثلاث سنين القحط، فمر إلياس بعجوز، فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: نعم شيء من دقيق وزيت قليل، قال: فدعا به ودعا فيه بالبركة، ومسه حتى ملأ جرابها دقيقاً، وملأ خوابيها زيتاً، فلما رأوا ذلك عندها قالوا: من أين لك هذا؟ قالت: مر بي رجل من حاله كذا، وكذا، فوصفته بصفته فعرفوه، وقالوا: ذلك إلياس، فطلبوه، فوجدوه، فهرب منهم، ثم إنه آوى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل، ولها ابن يقال له: اليسع بن أخطوب، به ضر، فآوته وأخفت أمره، فدعا لابنها فعوفي من الضر الذي كان به، واتبع اليسع الياس، وآمن به، وصدّقه، ولزمه، وذهب معه حيثما ذهب، وكان إلياس قد كبر، وأسنّ، واليسع غلام شاب. ثم إن الله تعالى أوحى إلى الياس: أنك قد أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعص الله من البهائم، والدواب، والطير، والهوام، والشجر بحبس المطر، فيزعمون أن الياس قال يا رب دعني أكن أنا الذي أدعو لهم بالفرج مما هم فيه من البلاء، لعلهم يرجعون عما هم فيه، وينزعون عن عبادة غيرك، فقيل له: نعم. فجاء إلياس إلى بني إسرائيل، فقال: إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً، وهلكت البهائم والدواب والطير والهوام والشجر بخطاياكم، وإنكم على باطل، فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم، فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل، فنزعتم ودعوت الله تعالى، ففرّج عنكم ما أنتم فيه من البلاء، فقالوا: يا الياس أنصفت، فخرجوا بأوثانهم ودعوها، فلم تفرِّج عنهم ما كانوا فيه من البلاء، فقالوا: إنا قد أهلكنا فادع الله لنا، فدعا إلياس ومعه اليسع بالفرج، فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون، فأقبلت نحوهم وطبّقت الآفاق، ثم أرسل الله عز وجل عليهم المطر، وأغاثهم، وحييت بلادهم، فلما كشف الله تعالى عنهم الضر نقضوا العهد، ولم ينزعوا عن كفرهم، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه، فلما رأى ذلك إلياس دعا ربه عز وجل أن يريحه منهم، فقيل له فيما يزعمون: انظر يوم كذا، وكذا، فاخرج إلى موضع

كذا، فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه، فخرج إلياس ومعه اليسع حتى إذا كان بالموضع الذي أمر به، أقبل فرس من نار، وقيل: لونه كالنار حتى وقف بين يدي إلياس، فوثب عليه، فانطلق به الفرس، فناداه اليسع يا إلياس ما تأمرني؟ فقذف إليه إلياس بكسائه من الجو الأعلى، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل، وكان ذلك آخر العهد به. ورفع الله تعالى إلياس من بين أظهرهم، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وكساه الريش، فصار إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً. وسلط الله عز وجل على آجب الملك وقومه عدواً لهم، فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى رهقهم. فقتل آجب وامرأته أربيل في الجنينة التي اغتصبتها امرأة الملك من ذلك المؤمن، فلم تزل جثّتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما، ورمَّت عظامهما. ونبأ الله سبحانه وتعالى اليسع، وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، وأوحى إليه، وأيّده، فآمنت به بنو إسرائيل، وكانوا يعظّمونه وحكم الله تعالى فيهم قائم، إلى أن فارقهم اليسع.

روى السدي عن يحيى بن عبد العزيز عن أبي روّاد قال: إلياس والخضر يصومان رمضان ببيت المقدس، ويوافيان الموسم في كل عام، وقيل: إن إلياس موكل بالفيافي، والخضر موكل بالبحار. فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

والظرف في قوله: ﴿إِذْ قَالَ﴾ متعلق[١] بمحذوف، تقديره: اذكر يا محمد لقومك قصة وقت قوله ﴿لِقَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وتخافون عذاب الله تعالى، ونقمته إن خالفتم أمره. و﴿أَلَا﴾ بالتخفيف حرف عرض، وهو الطلب برفق ولين. وقيل: إن الهمزة في ﴿أَلَا﴾ للاستفهام، و﴿لَا﴾ نافية، ويكون الاستفهام بمعنى الأمر؛ أي: اتقوا الله. وقيل: الظرف متعلق بالمرسلين. والأول أولى. والهمزة في قوله ﴿أَتَدْعُونَ﴾؛ أي: أتعبدون ﴿بَعْلًا﴾؛ أي: صنماً. للإنكار؛ أي: لا تعبدوه، ولا تطلبوا منه الخير، فالبعل اسم صنم كان لأهل بك من

(١) روح البيان.

الشام، وهو البلد المعروف اليوم ببعلبك، وكان من ذهب، طوله عشرون ذراعاً كما مر في القصة.

أي: أتعبدون صنماً عملتموه رباً ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾؛ أي: وتتركون عبادة أحسن من يقال له خالق. ثم إن الخلق حقيقة في الاختراع والإنشاء والإبداع، ويستعمل أيضاً بمعنى التقدير والتصوير، وهو المراد به ههنا؛ لأن الخلق، بمعنى: الاختراع لا يتصور من غير الله تعالى، حتى يكون هو أحسنهم. والمعنى: أحسن المصورين أو أحسن الخالقين لو وجدوا.

وانتصاب الاسم الشريف في قوله: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ على أنه بدل من ﴿أَحْسَنَ﴾ هذا على[1] قراءة حمزة، والكسائي، والربيع بن خيثم، وابن أبي إسحاق، ويحيى بن وثاب، والأعمش. فإنهم قرؤوا بنصب الاسمين. وقيل: النصب على المدح. وقيل: على عطف البيان. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع بالرفع. قال أبو حاتم: بمعنى هو الله ربكم. قال النحاس، وأولى ما قيل: إنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف. وحكي عن الأخفش: أن الرفع أولى وأحسن. قال ابن الأنباري: من رفع أو نصب لم يقف على ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ على جهة التمام؛ لأن الله مترجم عن أحسن الخالقين على الوجهين جميعاً. والمعنى: إنه خالقكم وخالق من قبلكم، فهو الذي تحق له العبادة.

وقوله: ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ معطوف على ﴿رَبَّكُمْ﴾ على كلا الوجهين. والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم، للإشعار ببطلان آرائهم أيضاً ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: إلياس. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: فإن قومه بسبب تكذيبهم إياه ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: لمدخلون في النار والعذاب، لا يغيبون منها، ولا يخفف عنهم كقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفاً. وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ استثناء متصل من فاعل ﴿كذبوه﴾. فيه دلالة على أن من قومه من

(١) الشوكاني.

لم يكذبه، ولم يحضر في العذاب، وهم الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان، والعمل بموجب الدعوة والإرشاد.

والمعنى: أي إلا قوماً منهم أخلصوا العمل لله، وأنابوا إليه، فأولئك يجزون الجزاء الأوفى على ما أسلفوا من عمل صالح، وقدموا من ذخر طيب.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: وأبقينا على إلياس ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي: هذا الكلام بعينه، فيدعون له، ويثنون عليه إلى يوم القيامة. وهو لغة[1] في إلياس كسيناء في سينين، فإن كلا من طور سيناء وطور سينين بمعنى الآخر، زيد في أحدهما الياء والنون، فكذا إلياس وإلياسين. وقرىء بإضافة ﴿آل﴾ إلى ﴿ياسين﴾؛ لأنهما في المصحف مفصولان. فيكون ياسين أبا إلياس، والآل هو نفس إلياس. وقرأ[2] زيد بن علي، ونافع، وابن عامر ﴿على آل ياسين﴾، وزعموا أن ﴿آل﴾ مفصولة في المصحف، و﴿ياسين﴾ اسم لإلياس. قيل: اسم لأبي إلياس؛ لأنه إلياس بن ياسين، وآل ياسين هو ابنه إلياس. وقرأ باقي السبعة ﴿على إلياسين﴾ بهمزة مكسورة؛ أي: إلياسيين. جمع المنسوبين إلى إلياس معه، فسلم عليهم. وهذا يدل على أن من قومه من كان تبعه على الدين، وكل واحد ممن نُسب إليه كأنه إلياس، فلما جمعت خففت ياء النسبة بحذف إحداهما كراهة التضعيف، فالتقى ساكنان الياء فيه وحرف العلة الذي للجمع، فحذفت لالتقائهما كما الأشعرون في جمع أشعري، والأعجمون في جمع أعجمي. وحكى أبو عمرو: أن منادياً نادى يوم الكلاب هلك اليزيديون، وقال الزمخشري: لو كان جمعا لعرّف بالألف واللام. وقرأ أبو جعفر، والحسن ﴿على الياسين﴾ بوصل الألف على أنه جمع يراد به: إلياس وقومه المؤمنون، وحذفت ياء النسب كما قالوا: الأشعرون، والألف واللام دخلت على الجمع، واسمه على هذا ياس. وقرأ ابن مسعود، ومن ذكر معه أنه قرأ إدريس ﴿سلام على إدراسين﴾. قال ابن جني: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً، فياسين،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

وإلياس، وإلياسين واحد.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا الجزاء الكامل ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إحساناً مطلقاً، ومن جملتهم إلياس ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن إلياس. لا شبهة في أن الضمير لإلياس، فيكون إلياس وإلياسين شخصاً واحداً، وليس إلياسين جمع إلياس، كما دل عليه من قبله من قوله: سلام على نوح، وسلام على إبراهيم، وسلام على موسى وهارون ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: الراسخين في الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان.

القصة الخامسة: قصة لوط عليه السلام

﴿وَإِنَّ لُوطًا﴾ هو لوط بن هاران أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قومه، وهم أهل سدوم بالدال المهملة. فكذبوه وأرادوا إهلاكه، فقال: رب نجني وأهلي مما يعملون، فنجاه الله وأهله. فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾ والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر، ولا يصح تعلقه بالمرسلين؛ لأنه لم يرسل وقت تنجيته؛ أي: اذكر يا محمد لقومك قصة وقت تنجيتنا إياه ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾؛ أي: أهل بيته يعني: ابنتيه: زاعورا، ورينا ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لما قبله ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾؛ أي: إلا[1] امرأته الخائنة واهلة الكافرة. وكان نكاح الوثنيات، والإقامة عليهن جائزاً في شريعته. وسميت المرأة المسنة عجوزاً لعجزها عن كثير من الأمور، كما في «المفردات». ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ صفة لـ﴿عجوزا﴾؛ أي: إلا عجوزا مقدراً غبورها في الباقين في العذاب والهلاك، وهم قومه، فلا بد من تقدير «مقدراً»؛ لأن الغبور لم يكن صفتها وقت تنجيتهم. وقيل للباقي: غابر تصوراً، بتخلف الغبار عن الذي يعدو، فيخلفه أو في الماضين الهالكين، وقيل للماضي: غابر تصوراً لمضي الغبار عن الأرض. ﴿ثُمَّ﴾ بعد تنجيتهم ﴿دَمَّرْنَا﴾؛ أي: أهلكنا ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾؛ أي: من بقي بعد لوط وابنتيه بالإئتفاك بهم، وإمطار الحجارة عليهم، فإنه تعالى لم يرض بالإئتفاك حتى أتبعه مطر من حجارة.

---

(١) روح البيان.

وجعلنا محلاتهم من الأرض بحيرةً ذات ماء رديء الطعم، منتن الريح. ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾؛ أي: على قربات ديار قوم لوط المهلكين ومنازلهم سدوم، وعموراً، وصبوراً، ودادوما في متاجركم إلى الشام، وتشاهدون آثار هلاكهم. فإن سدوم أعظم قراهم في طريق الشام، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾. وقوله: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تمرون﴾؛ أي: حال كونكم داخلين في الصباح. ﴿و﴾ ملتبسين ﴿بالليل﴾؛ أي: مساءً. ولعلها وقعت بقرب منزل يمر به المرتحل عنه صباحاً، والقاصد له مساء. ويجوز أن يكون المعنى: نهاراً وليلاً، على أن يعمم المرور للأوقات كلها من الليل والنهار، ولا يخصص بوقتي الصباح والمساء.

والمعنى: أي وإنكم لتمرون عليهم، وأنتم مسافرون إلى الشام حين الصباح، أو أول الليل، فترون آثار ديارهم التي عفت وأصبحت خراباً يباباً، لا أنيس فيها، ولا جليس، ولا ديار، ولا نافخ نار.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير؛ أي: أفتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به، وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فإن من قدر على إهلاك أهل سدوم، واستئصالهم بسبب كفرهم وتكذيبهم، كان قادراً على إهلاك كفار مكة، واستئصالهم لاتحاد السبب ورجحانه؛ لأنهم أكفر من هؤلاء، وأكذب كما يشهد به قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾. وكان النبي ﷺ يقول لأبي جهل: «إن هذا أعتى على الله من فرعون». فعلى العاقل: أن يعتبر، ويؤمن بوحدانية الحق، ويرجع إلى أبواب فضله وكرمه ورحمته، ويؤدب عجوز نفسه الأمارة، ويحملها على التسليم والامتثال كي لا تهلك مع أهل القهر والجلال.

القصة السادسة: قصة يونس عليه السلام

﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾ بن متى بالتشديد، وهو اسم أبيه أو أمه. وفي «كشف الأسرار»: اسم أبيه متى، واسم أمه تنجيس. كان يونس من أولاد هود عليه

السلام، كما في «أنوار المشارق». وهو ذو النون، وصاحب الحوت؛ لأنه التقمهُ.

وأما ذو النون المصري من أولياء هذه الأمة. فقيل: إنما سمي به لأنه ركب سفينة مع جماعة، فقد واحدٌ منهم ياقوتاً فلم يجده، فآل رأيهم إلى أن هذا الرجل الغريب قد سرقه، فعوتب عليه، فأنكر الشيخ فحلف، فلم يصدقوه، بل أصروا على أنه ليس إلا فيه، فلما اضطر توجه ساعة، فأتى جميع الحوت من البحر في فيها يواقيت. فلما رأوا ذلك اعتذروا عن فعلتهم، فقام وذهب إلى البحر، ولم يغرق بإذن الله تعالى. فسُمي ذا النون.

﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى بقية ثمود. وهم أهل نينوى بكسر النون الأولى وفتح الثانية. وقيل: بضمها قرية على شاطىء دجلة في أرض الموصل. ولما بُعث إليهم دعاهم إلى التوحيد أربعين سنة، وكانوا يعبدون الأصنام، فكذبوه وأصروا على ذلك، فخرج من بين أظهرهم، وأوعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث أو بعد أربعين ليلة. ثم إن قومه لما أتاهم أمارات العذاب، بأن أطبقت السماء غيماً أسود يدخن دخاناً شديداً، ثم يهبط حتى يُغشى مدينتهم، حتى إذا صار بينهم وبين العذاب قدر ميل، أخلصوا الله تعالى بالدعاء والتضرع، بأن فرقوا بين الأمهات والأطفال، وبين الأتن والجحوش، وبين البقر والعجول، وبين الإبل والفصلان، وبين الضأن والحملان، وبين الخيل والأفلاء، ولبسوا المسوح، ثم خرجوا إلى الصحراء متضرعين ومستغفرين حتى ارتفع الضجيج إلى السماء، فصرف الله عنهم العذاب، وقبل توبتهم. ويونس ينتظر هلاكهم، فلما أمسى سأل محتطباً مر بقومه كيف كان حالهم؟ فقال: هم سالمون وبخير وعافية وحدثه بما صنعوا، فقال: لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم، وخرج من ديارهم مستنكفاً خجلاً منهم، ولم ينتظر الوحي، وتوجه إلى جانب البحر، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾. والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد قصة وقت إباقه؛ أي: هربه، ولا يصح تعلقه بالمرسلين؛ لأنه لم يُرسل إذا أبق. وأصله: الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه بطريق

المجاز تصويراً لقبحه، فإنه عبد الله فكيف يفر بغير الإذن وإلى أين يفر والله محيط به، وقد صح أنه لا يُقبل فرض الآبق ولا نفله حتى يرجع، فإذا كان الأدنى مأخوذاً بزلة فكيف الأعلى؟.

﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ أي: إلى السفينة المملوءة من الناس، والدواب، والمتاع. ويقال: إلى الفلك المجهز الذي فُرغ من جهازه. رُوي: أن يونس لما دخل السفينة، وتوسطت البحر احتبست عن الجري، ووقفت، وكان ذلك بدجلة؛ لأنه أُرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل. فقال الملاحون: هنا عبد أبق من سيده، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها عبد آبق لا تجري. وقال الإمام: فقال الملاحون: إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل في السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر. وقال التجار: قد جربنا مثل هذا، فإذا رأينا نقترع فمن خرج سهمه نرميه في البحر، لأن غرق الواحد خير من غرق الكل. فاقترعوا ثلاث مرات، فخرجت القرعة على يونس في كل مرة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾؛ أي: فتساهموا. فساهم يونس واقترع؛ أي: خرجت عليه القرعة. والمفهوم من تفسير الكاشفي: أن الضمير في ﴿ساهم﴾ إلى يونس. والسهم: ما يُرمى به من القداح ونحوه. وقيل: الضمير إلى القوم، والمعنى: فقارع أهل الفلك من الآبق، وألقوا السهام على وجه القرعة، فخرجت قرعة الرمي على يونس ﴿فَكَانَ﴾ يونس ﴿مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾؛ أي: فصار من المغلوبين. وأصل المدحض: المزلق: عن مقام الظفر والغَلبة. ومنه قول الشاعر:

قَتَلْنَا ٱلْمُدْحِضِيْنَ بِكُلِّ فَجٍّ فَقَدْ قَرَّتْ بِقَتْلِهِمُ ٱلْعُيُوْنُ

أي: قتلنا المغلوبين.

ولما خرجت القرعة على يونس قال: أنا العبد الآبق، أو يا هؤلاء أنا والله العاصي، فتلفف في كسائه، ثم قام على رأس السفينة، فرمى بنفسه في البحر. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾؛ أي: فابتلعه الحوت العظيم. وقال في «كشف الأسرار»: فصادفه حوت جاء من قبل اليمن، فابتلعه فسفل به إلى قرار الأرضين حتى سمع تسبيح الحصى. وقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ حال من مفعول ﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾؛ أي: داخل في

الملامة. ومعنى دخوله في الملامة: كونه يلام سواء استحق اللوم أم لا، أو آت بما يلام عليه، فيكون المليم بمعنى من يستحق اللوم سواء لاموه أم لا، يقال: ألام الرجل إذا أتى بما يلام عليه أو يلوم نفسه. فالهمزة على هذا للتعدية، لا على التقديرين. وقيل: المليم: المعيب، يقال: ألام الرجل إذا عمل شيئاً صار به معيباً. قال سعيد بن جبير: لما استهموا جاء حوت إلى السفينة فاغراً فاه، ينتظر أمر ربه حتى إذا ألقى نفسه في الماء أخذه الحوت، رُوي: أن الله تعالى أوحى إلى السمكة أني لم أجعله لك رزقاً، ولكن جعلت بطنك له وعاء، فلا تكسري منه عظماً، ولا تقطعي منه وصلاً. فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة، كما دل عليه كونه منبوذاً على الساحل، وهو سقيم.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ﴾؛ أي: يونس ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ في بطن الحوت، وهو قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أو من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح مدة عمره، وعن سهل: من القائمين بحقوق الله تعالى، قبل البلاء ذكراً أو صلاة أو غيرهما. ﴿لَلَبِثَ﴾ يونس ﴿فِى بَطْنِهِۦٓ﴾؛ أي: في بطن الحوت وجوفه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: إلى يوم يُبعث الخلائق، وهو يوم القيامة؛ أي: لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم البعث. وقيل: للبث في بطنه حياً.

واختلف[1] المفسرون في كم أقام في بطن الحوت؟. فقال السدي، ومقاتل بن سليمان، والكلبي: أربعين يوماً، وقال الضحاك: عشرين يوماً، وقال عطاء: سبعة أيام، وقال مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام، وقيل: ساعة واحدة قال في «كشف الأسرار»: فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: يبقى هو والحوت إلى يوم البعث.

والثاني: يموت الحوت ويبقى هو في بطنه.

والثالث: يموتان ثم يحشر يونس من بطنه، فيكون بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة، فلم يلبث فيه لكونه من المسبحين.

---

(١) الشوكاني.

وفيه[1]: حث على إكثار الذكر، وتعظيم لشأنه، وإشارة إلى أن خلاص يونس القلب إذا التقمه حوت النفس لا يكون إلا بملازمة ذكر الله تعالى، ومن أقبل عليه في السراء أخذ بيده عند الضراء. والعمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، وإذا صرع يجد متكأً.

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «سبح يونس في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: ربنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة، فقال تعالى: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في يوم وليلة عمل صالح، قال: نعم. فشفعوا له، فأمر الحوت فقذفه بالساحل في أرض نِصّبين» وهي بلدة قاعدة ديار ربيعة. وذلك قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾.

وحاصل المعنى[2]: أي وإن يونس لرسول من ربه إلى قومه أهل نينوى بالموصل، حين هرب إلى الفلك المملوء بغير إذن ربه، فقارع أهل الفلك فكان من المغلوبين في القرعة؛ أي: فاقترعوا فخرجت القرعة عليه، فقال: أنا الآبق، وألقى نفسه في الماء، فالتقمه الحوت. وهو فاعل ما يلام عليه من الهجرة بغير إذن ربه. وقد كان عليه أن يصبر على أذى قومه كما صبر أولو العزم من الرسل، فلولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً، والمسبحين بحمده طوال عمره للبث ميتاً في بطنه إلى يوم البعث. إذ كان يهضم كبقية أنواع الطعام، ويتحول إلى غذاء له كسائر أنواع الأغذية التي يأكلها.

﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾؛ أي: فألقينا يونس من بطن الحوت ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾؛ أي: بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبت؛ أي: أمرنا الحوت، وحملناه على لفظه، ونبذه، ورميه بالمكان الخالي ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾؛ أي: والحال أن يونس عليل البدن من أجل ما ناله في بطن الحوت من ضعف بدنه، فصار كبدن الطفل ساعة يولد، لا قوة له، أو بلي لحمه ونتف شعره، حتى صار كالفرخ ليس عليه شعر وريش،

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

ورق عظمه وضعف، بحيث لا يطيق حر الشمس، وهبوب الرياح.

أي[1]: فجعلنا الحوت يلقيه في مكان خال لا نبات فيه ولا شجر، وهو عليل الجسم، سقيم النفس لما لحقه من الغم مما حدث من قومه معه إذ أعرضوا عن دعوته، ولم يصدقوه فيما جاء به. وقد كان يرجو لهم الخير والسعادة في دنياهم وآخرتهم، ولما وجد من شدة وجهد في ابتلاع الحوت له.

ثم بيَّن لطفه به، ورعايته له حتى لا يتعرض لحر الشمس، ولا لزمهرير البرد. فقال: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾؛ أي: فوقه مظللة عليه ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾؛ أي: من قرع، يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به، فهو موضوع لمفهوم كلي متناول للقرع، والبطيخ، والقثاء، والقند، والحنظل، ونحوها، مما كان ورقه كله منبسطاً على وجه الأرض، ولم يقم على ساق، واحدته يقطينة، أُطلق هنا على القرع استعمالاً للعام في بعض جزئياته. وقال في «القاموس»: اليقطين: ما لا ساق له من النبات ونحوه، وبهاء القرعة الرطبة، انتهى. قال ابن الشيخ: ولعل[2] إطلاق اسم الشجرة على القرع، مع أن الشجر في كلامهم اسم لكل نبات يقوم على ساقه، ولا ينبسط على وجه الأرض مبني على أنه تعالى أنبت عليه شجرةً، عريشاً لما نبت تحتها من القرع، بحيث استولى القرع على جميع أغصانها، حتى صارت كأنها شجرة من يقطين. وكان هذا الإنبات كالمعجزة ليونس، فاستظل بظلها، وغطته بأوراقها عن الذباب، فإنه لا يقع عليها كما يقع على سائر العشب، وكان يونس حين لفظه البحر، متغيراً يؤلمه الذباب، فسترته الشجرة بورقها، قيل لرسول الله ﷺ: إنك تحب القرع، قال: أجل، هي شجرة أخي يونس. وروي: أنه تعالى قيّض له أروية وهي الأنثى من الوعل، تروح عليه بكرةً وعشية، فيشرب من لبنها حتى اشتد لحمه، ونبت شعره، وعادت قوته.

والمعنى: أي[3] فأنبتنا حواليه شجرة من موز يتغطى بورقها، ويستظل

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

بأغصانها، فتقيه لفح الشمس، ووهجها، وبرد الصحراء، وشديد حرها. وكذلك يأكل من ثمارها، فتغنيه من طلب الغذاء من أي جهة أخرى. قيل: تخصيص القرع؛ لأنه يجمع الظل، ولين الملمس، وكبر الورق، وإن الذباب لا يقربه.

ثم ذكر أنه لما شُفي من سقمه، ونجا من الهلاك، ورضي ربه عنه عاد إلى قومه ليُتم دعوته، ويبلِّغ رسالته، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ﴾؛ أي: يونس مرة أخرى ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ هم قومه الذين هرب منهم. وقيل المراد: إرساله السابق، وهو إرساله إليهم قبل أن يخرج من بينهم، والتقمه الحوت. أخبر أولاً بأنه من المرسلين على الإطلاق، ثم أخبر بأنه قد أرسل إلى مئة ألف جمة. وكان توسيط تذكير وقت هربه إلى الفلك وما بعده بينهما لتذكير سببه. وهو ما جرى بينه وبين قومه من إنذاره إياهم عذاب الله، وتعيينه لوقت حلوله، وتعللهم، وتعليقهم لإيمانهم بظهور أماراته. ليعلم أن إيمانهم الذي سيحكى بعد، لم يكن عقيب الإرسال كما هو المتبادر من ترتيب الإيمان عليه بالفاء.

واختلف[1] أهل العلم، هل كان قد أرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر، أو لم يرسل إلا بعد ذلك؟. والراجح: أنه كان رسولاً قبل أن يذهب إلى البحر، كما يدل عليه ما تقدم في سورة يونس، وبقي مستمراً على الرسالة. وهذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدم نبوته ورسالته.

والمعنى[2]: وكنا أرسلناه إلى مئة ألف. فلما خرج من بطن الحوت أُمر أن يرجع إليهم ثانياً؛ أي: وأرسلناه إلى قوم عددهم مئة ألف. ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه: ويزيدون على ذلك، فـ﴿أو﴾ عنده بمعنى الواو. وقيل معناه: بل يزيدون، فـ﴿أو﴾ بمعنى بل. وقيل: ﴿أَوْ﴾ على أصلها، ومعناها: من الشك. والمعنى: أو يزيدون في تقدير الرائي إذا رآهم. قال: هؤلاء مئة ألف أو يزيدون على ذلك، فالشك على تقدير المخلوقين. إذ الشك على الله محال. والأصح هو قول ابن عباس الأول. والمعنى عليه: وأرسلناه إلى قوم عدادهم مئة ألف، وإلى

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

قوم يزيدون على ذلك. وأما الزيادة فقال ابن عباس: كانت عشرين ألفاً، ويعضده ما روى عن أبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ قال: يزيدون عشرين ألفاً، أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن. وقيل: يزيدون بضعاً وثلاثين ألفاً. وقيل: سبعين ألفاً. والمقصود من هذا الكلام على جميع التقادير: وصفهم بالكثرة.

وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلت: ﴿أَوْ﴾ للشك[1] وهو على الله محال.

قلت: ﴿أَوْ﴾ بمعنى: بل، أو بمعنى الواو، أو المعنى: أو يزيدون في نظرهم، فالشك إنما دخل في قول المخلوقين، انتهى. وقرأ جعفر بن محمد ﴿ويزيدون﴾ بدون ألف الشك.

﴿فآمنوا﴾؛ أي: بعدما شاهدوا علائم حلول العذاب إيماناً خالصاً ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بالحياة الدنيا، وأبقيناهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالهم، ومنتهى أعمارهم. وهذا كناية عن رد العذاب عنهم، وصرف العقوبة.

والمعنى: أي[2] فأرسلناه مرة أخرى إلى هؤلاء القوم، وقد كانوا مئة ألف بل يزيدون، فاستقامت حالهم، وآمنوا به؛ لأنه بعد أن خرج من بين أظهرهم رأوا أنهم قد أخطؤوا، وأنهم إذا لم يتبعوا رسولهم هلكوا كما حدث لمن قبلهم من الأمم. فلما عاد إليهم، ودعاهم إلى ربه لبوا الدعوة طائعين منقادين لأمر الله ونهيه، فمتعناهم في هذه الحياة حتى انقضت آجالهم، وهلكوا فيمن هلك.

فائدة: ها هنا مسألتان[3]:

١ ـ أن القرآن الكريم لم يبين لنا مم أبق، ولو كان في بيانه فائدة لذكرها.

٢ ـ أنه لم يذكر مدة لبثه في بطن الحوت، وتعيين زمن معين يحتاج إلى نقل صحيح، ولم يؤثر ذلك وأياً كان، فبقاؤه حياً في بطن الحوت مدة قليلة، أو

---

(١) فتح الرحمٰن.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

كثيرة، معجزة لذلك النبي الكريم.

وصارت[1] قصة يونس آخر القصص، لما فيها من ذكر عدم الصبر على الأذى والإباق. ولعل عدم ختم هذه القصة وقصة لوط بما ختم به سائر القصص، من ذكر سلام وما يتبعه للتفرقة بينهما، وبين أرباب الشرائع الكبار، وأولي العزم من الرسل، أو اكتفاءً بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة، قاله البيضاوي. وقال بعضهم: وجهه أن إلياس ويونس سواء في أن كلاً منهما ليسا من أرباب الشرائع الكبار، وأولي العزم من الرسل، فلا بد لتخصيص أحدهما بالسلام من وجه، وأن التسليم المذكور في آخر السورة شامل لكل من ذكر هنا، ومن لم يذكر، فحينئذ كان الظاهر أن يقتصر على ذكر سلام نوح ونحوه، ثم يعمم عليهم، وعلى غيرهم، ممن لم يكن في درجتهم.

روي: أن يونس عليه السلام نام يوماً تحت الشجرة، فاستيقظ وقد يبست، فخرج من ذلك العراء ومر بجانب مدينة نينوى، فرأى هنالك غلاماً يرعى الغنم، فقال له: من أنت يا غلام؟ فقال: من قوم يونس، قال: فإذا رجعت إليهم فاقرأ عليهم مني السلام، وأخبرهم أنك لقيت يونس ورأيته، فقال الغلام: إن تكن يونس فقد تعلم أن من يحدث، ولم يكن له بينة قتلوه، وكان في شرعهم أن من كذب قتل، فمن يشهد لي، فقال له يونس: تشهد لك هذه الشجرة وهذه البقعة، فقال الغلام ليونس: مرهما بذلك، فقال لهما: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم. فرجع الغلام إلى قومه، فأتى الملك فقال: إني لقيت يونس وهو يقرأ عليكم السلام، فأمر الملك أن يقتل، فقال: إن لي بينة، فأرسل معه جماعة فانتهوا إلى الشجرة والبقعة، فقال لهما الغلام: أنشدكما الله عز وجل؛ أي: أسألكما بالله تعالى، هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم. فرجع القوم مذعورين، فأتوا الملك فحدثوه بما رأوا، فتناول الملك يد الغلام، فأجلسه في منزله، فقال له: أنت أحق مني بهذا المقام والملك، فأقام بهم الغلام أربعين سنة.

---

(١) روح البيان.

وروي في بعض التفاسير: أن قومه آمنوا، فسألوه أن يرجع إليهم، فأبى يونس، لأن النبي إذا هاجر لم يرجع إليهم مقيماً فيهم. وروي: أنه لما استيقظ فوجد أنه قد يبست الشجرة، فأصابته الشمس حزن كذلك حزناً شديداً، فجعل يبكي فبعث الله إليه جبرائيل وقال: قل له: أتحزن على شجرة لم تخلقها أنت ولم تنبتها ولم تربها؟ وأنا الذي خلقت مئة ألف من الناس أو يزيدون، تريد مني أن أستأصلهم في ساعة واحدة وقد تابوا، وتبت عليهم، فأين رحمتي يا يونس؟ وأنا أرحم الراحمين.

الإعراب

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت دعاءَهُ لنا، وتبشيرنا إياه وأردت بيان عاقبة الولد.. فأقول لك: لما بلغ. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم، في محل نصب على الظرفية الزمانية ﴿بَلَغَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الغلام. والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، في محل جر بالإضافة. ﴿مَعَهُ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف حال من فاعل بلغ؛ أي: حالة كون الغلام مصاحباً لأبيه، ﴿ٱلسَّعْىَ﴾: مفعول به، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم. والجملة جواب لما، لا محل لها من الإعراب، وجملة لما في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿يَٰبُنَىَّ﴾: ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿بني﴾: منادى، مضاف إلى ياء المتكلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه، ﴿أَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿فِى ٱلْمَنَامِ﴾: متعلق بـ﴿أَرَىٰ﴾. وجملة ﴿أَرَىٰ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنِّىٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَذْبَحُكَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به. وجملة أذبح في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾: مع معموليها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿أَرَىٰ﴾، والتقدير: إني أرى في المنام ذبحي إياك. ﴿فَٱنظُرْ﴾: الفاء: عاطفة

﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على الغلام. والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مَاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿تَرَىٰ﴾، ﴿تَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الغلام. وجملة ﴿تَرَىٰ﴾ في محل النصب مفعول به لـ﴿أنظر﴾، معلق عنها لفظاً. و﴿تَرَىٰ﴾ هنا من الرأي، لا من رؤية العين ولا المتعدية إلى مفعولين. وإن شئت، ﴿مَا﴾: اسم استفهام مبتدأ، و﴿ذا﴾ اسم موصول خبر ﴿مَا﴾، وجملة ﴿تَرَىٰ﴾ صلة ذا الموصولة. والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مفعول به لـ﴿أنظر﴾.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الغلام، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أبت﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المعوّض عنها تاء التأنيث، وجملة النداء في محل النصب مقول قال. ﴿ٱفْعَلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به لـ﴿ٱفْعَلْ﴾. وجملة افعل في محل النصب مقول قال، ﴿تُؤْمَرُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل مستتر. والجملة صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما تؤمر به. ﴿سَتَجِدُنِىٓ﴾: السين حرف استقبال، ﴿تجد﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل النصب مفعول أول لتجد، ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ متعلق بـ﴿وجد﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. والجملة الفعلية في محل النصب مقول قال. ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ فاعل شاء، ومفعول شاء محذوف تقديره: إن شاء الله صبري، وجواب إن الشرطية محذوف، تقديره: إن شاء الله صبري ستجدني من الصابرين. وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية معترضة، لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين الفعل ومعموله.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قال إبراهيم وما قال الغلام، وأردت بيان عاقبتهما.. فأقول لك: لما أسلما. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية، ﴿أَسْلَمَا﴾: فعل ماض، والألف فاعل. والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، في محل جر بالإضافة. ﴿وَتَلَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿تله﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم، والهاء ضمير عائد على الغلام في محل النصب مفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَسْلَمَا﴾: على كونها فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿لِلْجَبِينِ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف حال من ضمير المفعول في ﴿تله﴾: أو متعلق بـ﴿تل﴾، ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿أَسْلَمَا﴾، وجواب لما الشرطية محذوف تقديره: ظهر صبرهما، أو أجزلنا لهما أجرهما، أو كان ما كان مما تنطق به الحال. وقال الكوفيون والأخفش: الجواب: وتله للجبين بزيادة الواو. وقيل: وناديناه بزيادة الواو أيضاً، والأول أرجح. ﴿أَن﴾ مفسرة؛ لأن النداء فيه معنى القول دون حروفه، ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء مفسرة لنادينا المذكور، ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿صَدَّقْتَ﴾ فعل وفاعل، ﴿ٱلرُّءْيَآ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية جملة مفسرة للنداء المذكور، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف مقدم على عامله، ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: جملة مفسرة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُوَ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفة لـ﴿لبلاء﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة مفسرة لـ﴿ناديناه﴾، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، معطوف على جواب لما المذكور، أو المحذوف على الخلاف المار فيه. ﴿بِذِبْحٍ﴾ متعلق بـ﴿فديناه﴾، ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة لـ﴿ذبح﴾، ﴿وَتَرَكْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على جملة ﴿لما﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿تركنا﴾ ومفعول ﴿تركنا﴾ محذوف. ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ صفة لذلك المحذوف، والتقدير: وتركنا له ثناء حسناً كائناً في الآخرين. ﴿سَلَـٰمٌ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ خبره. والجملة الاسمية

في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: وقلنا سلام على إبراهيم.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، مقدم على عامله. ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، والتقدير: نجزي المحسنين جزاءً كائناً كذلك الجزاء المذكور. ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿عِبَادِ﴾: مضاف. ﴿نا﴾: مضاف إليه، ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: صفة لـ﴿عِبَادِنَا﴾، ﴿وَبَشَّرْنَاهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿بشرنا﴾ الأولى. ﴿بِإِسْحَاقَ﴾ متعلق بـ﴿بشرناه﴾. ﴿نَبِيًّا﴾: حال من ﴿إِسْحَاقَ﴾. ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾: صفة لـ﴿نَبِيًّا﴾ أو حال ثانية. ﴿وَبَارَكْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ متعلقان بـ﴿باركنا﴾. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾: خبر مقدم. ﴿مُحْسِنٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَظَالِمٌ﴾: معطوف عليه. ﴿لِّنَفْسِهِ﴾: متعلق بـ﴿ظالم﴾، ﴿مُبِينٌ﴾: صفة لـ﴿ظالم﴾. والجملة مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿مَنَنَّا﴾: فعل، وفاعل جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم مستأنفة. ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ﴾: متعلق بـ﴿مَنَنَّا﴾، ﴿وَهَارُونَ﴾: معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا﴾: فعل وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿مَنَنَّا﴾، ﴿وَقَوْمَهُمَا﴾: معطوف على ضمير ﴿هما﴾، ﴿مِنَ الْكَرْبِ﴾: متعلق بـ﴿نجيناهما﴾، ﴿الْعَظِيمِ﴾ صفة لـ﴿الكرب﴾، ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿مَنَنَّا﴾، ﴿فَكَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، معطوف على ﴿نصرناهم﴾، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل ﴿الْغَالِبِينَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعولان، معطوف على ﴿مَنَنَّا﴾، ﴿الْمُسْتَبِينَ﴾: صفة

لـ﴿الكتاب﴾، ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول أول، معطوف على ﴿مَنَنَّا﴾، ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: مفعول ثان لـ﴿آتينا﴾، ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ صفة لـ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، ﴿وَتَرَكْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿مَنَنَّا﴾، ﴿عَلَيْهِمَا﴾ متعلق بـ﴿تركنا﴾، ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ صفة لمفعول ﴿تركنا﴾ المحذوف؛ أي: وتركنا لهما ثناء حسناً كائناً في الآخرين. ﴿سَلَٰمٌ﴾. مبتدأ ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ﴾: خبر. ﴿وَهَٰرُونَ﴾: معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾. والجملة مقول لقول محذوف؛ أي: وقلنا سلام على موسى وهارون.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف مقدم على عامله، ﴿نَجْزِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: مفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنا؛ أي: إنا مجازو، المؤمنين جزاء كائناً كذلك الجزاء المذكور ﴿إِنَّهُمَا﴾ ناصب واسمه، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ صفة لـ﴿العباد﴾، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة قصة على قصة. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿إِلْيَاسَ﴾ اسمها، ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ خبرها، واللام حرف ابتداء. والجملة مستأنفة أو معطوفة على ما سبق من القصص.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد قصة وقت قول إلياس لقومه، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِلْيَاسَ﴾. والجملة في محل الجر مضاف لـ﴿إِذْ﴾، ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ متعلق بـ﴿قَالَ﴾، ﴿أَلَا﴾ حرف عرض، مبني على السكون. وقيل: الهمزة للاستفهام الأمري.

﴿لَّا﴾: نافية. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف، تقديره: عذاب الله. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول قال. ﴿أَتَدْعُونَ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَتَذَرُونَ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تدعون﴾، ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، ﴿اللَّهَ﴾: بالنصب بدل من أحسن الخالقين، ﴿رَبَّكُمْ﴾ بدل من لفظ الجلالة، ﴿وَرَبَّ آبَائِكُمُ﴾: معطوف على ربكم، ﴿الْأَوَّلِينَ﴾: صفة لـ﴿آبَائِكُمُ﴾. فالكلمات الثلاث منصوبة. وقرىء بالرفع على أنها أخبار لمبتدأ محذوف؛ أي: هو الله، أو ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، و﴿رَبُّكُمْ﴾: خبره. والجملة الاسمية بدل من ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾. ﴿وَرَبَّ آبَائِكُمُ﴾: معطوف على ﴿رَبَّكُمْ﴾، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿كذبوه﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة معطوفة على جملة قال. ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت دعوته إياهم إلى الإيمان، وتكذيبهم له وأردت بيان عاقبة أمرهم فأقول لك ﴿إنهم﴾ ناصب واسمه ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾: خبره، واللام: حرف ابتداء. والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ منصوب على الاستثناء من فاعل ﴿كذبوا﴾، ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾: نعت لعباد الله، ﴿وَتَرَكْنَا﴾: فعل، وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. والجملة مستأنفة. ومفعول ﴿تركنا﴾ محذوف؛ أي: ثناء حسناً ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾: صفة لذلك المحذوف، ﴿سَلَامٌ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾: خبر. والجملة الاسمية مقول لقول محذوف، تقديره: وقلنا سلام على إلياسين. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف، مقدم على عامله، وجملة ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ خبره، ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: صفة لـ﴿العباد﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥)﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ الواو: استئنافية أو عاطفة قصة على قصة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لُوطًا﴾: اسمها، ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، واللام: حرف ابتداء. والجملة مستأنفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: اذكر. ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ معطوف على ضمير ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لما قبله، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿عَجُوزًا﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ صفة ﴿عَجُوزًا﴾.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للترتيب مع التراخي. ﴿دَمَّرْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾، ﴿ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾: مفعول به، ﴿وَإِنَّكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿إِنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿تمرون﴾: فعل، وفاعل، ﴿عَلَيْهِم﴾ متعلق بـ﴿تمرون﴾، ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تمرون﴾. وهو من أصبح التامة. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِنَّ لُوطًا﴾ أو مستأنفة ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿بالليل﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف، معطوف على مصبحين على كونه حالاً من فاعل ﴿تمرون﴾؛ أي: وملتبسين بالليل. ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر معلوم من المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ذلك المقدر، والتقدير: أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به، وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ الواو: عاطفة قصة على قصة أو استئنافية، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿يُونُسَ﴾: اسمها، ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: خبرها، واللام: حرف ابتداء. والجملة

مستأنفة. أو معطوفة على ما سبق من القصص. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر يا محمد لقومك قصة وقت إباقه. ﴿أَبَقَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على يونس. والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾ متعلق بـ﴿أَبَقَ﴾، ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْفُلْكِ﴾. ﴿فَسَاهَمَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿ساهم﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على يونس. والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَبَقَ﴾. ﴿فَكَانَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على يونس، ﴿مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوف على جملة ﴿ساهم﴾. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾: الفاء: عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فألقوه في البحر، فالتقمه الحوت. والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾، ﴿التقمه﴾: فعل، ومفعول، ﴿ٱلْحُوتُ﴾: فاعل. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هو مليم﴾: مبتدأ وخبر. والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿التقمه﴾.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿فَلَوْلَآ﴾ الفاء: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿أَنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على يونس. ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف وجوباً، تقديره: فلولا كونه من المسبحين موجود، ﴿لَلَبِثَ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾، ﴿لبث﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على يونس، ﴿فِى بَطْنِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿لبث﴾، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ﴾: جار ومجرور، متعلق بلبث أيضاً، ﴿يُبْعَثُونَ﴾: فعل مضارع، مغيّر الصيغة، ونائب فاعل. والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمِ﴾، وجملة ﴿لبث﴾ جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة.

﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ

إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿فَنَبَذْنَـٰهُ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف، تقديره: أمرنا الحوت بنبذه فنبذناه. ﴿نبذناه﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ متعلق بـ﴿نبذنا﴾، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هو سقيم﴾: مبتدأ وخبر. والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿نبذناه﴾. ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوفة على ﴿نبذنا﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿أنبتنا﴾، ﴿شَجَرَةً﴾: مفعول به، ﴿مِّن يَقْطِينٍ﴾: صفة لـ﴿شَجَرَةً﴾، ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، معطوف على ﴿أنبتنا﴾، ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أرسلنا﴾. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف بمعنى الواو. ﴿يَزِيدُونَ﴾: فعل، وفاعل، صفة لموصوف محذوف، تقديره: وإلى عدد يزيدون على ذلك، ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾: الفاء: عاطفة، ﴿آمنوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على أرسلناه، ﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿متعناهم﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على آمنوا، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ متعلق بـ﴿متعناهم﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾؛ أي: فلما بلغ السن التي تساعده على أن يسعى معه في أعماله، وحاجات المعيشة. ﴿أَسْلَمَا﴾؛ أي: استسلما، وانقادا لأمر الله تعالى. يقال: سلم لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد. قرىء بهن جميعاً، كما مر. ﴿وَتَلَّهُ﴾؛ أي: كبه على وجهه. ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾؛ أي: صرعه، وأسقطه، فوقع أحد جنبيه على الأرض، تواضعاً على مباشرة الأمر بصبر، وجلد. وفي «المصباح»: والجبين: جانب الجبهة من محاذاة النزعة إلى الصدغ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها، قاله الأزهري، وابن فارس، وغيرهما فتكون الجبهة بين جبينين، وجمعه جبن بضمتين مثل: بريد وبرد، وأجبنة مثل أسلحة. وفي «القاموس»: تله تلا من باب قتل، فهو متلول وتليل أو ألقاه على عنقه وخده. قال الراغب: أصل التل: المكان المرتفع، والتليل: العنق وتله للجبين: أسقطه على التل أو على تليله.

﴿صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ﴾؛ أي: حققت ما طلب منك. ﴿لَهُوَ الْبَلَٰٓؤُا الْمُبِينُ﴾؛ أي: الاختبار البيّن الذي يتميز فيه المخلص من غيره. ﴿بِذِبْحٍ﴾؛ أي: بحيوان يذبح، وهو كبش، قرّبه هابيل، فذبحه إبراهيم فداءً لولده، وقد بقي قرناه معلقين على الكعبة إلى أن احترق البيت في زمن ابن الزبير. قال الشعبي: رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة. وقال ابن عباس والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام، وأن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد يبس، اهـ الخازن. ومن المعلوم المقرر، أن كل ما هو من الجنة لا تؤثر فيه النار، فلم يطبخ لحم الكبش، بل أكلته السباع والطيور، تأمل.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾: من التبشير، وهو الإخبار بما يظهر سروراً في المخبر به، ومنه: تباشير الصبح لما ظهر من أوائل ضوئه. ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: أفضنا البركات عليه. ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ المنان في صفة الله تعالى، المعطي ابتداء من غير أن يطلب عوضاً. يقال: منّ عليه منّا إذا أعطاه شيئاً، ومنّ عليه منّة إذا أعد نعمته عليه، وامتن وهو مذموم من الخلق، لا من الحق كما قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿الْكِتَٰبَ الْمُسْتَبِينَ﴾؛ أي: البليغ المتناهي في البيان. فاستبان مبالغة بان بمعنى: ظهر ووضح، وجعل الكتاب بالغاً في بيانه من حيث إنه لكماله في بيان الأحكام، وتمييز الحلال عن الحرام، كأنه يطلب من نفسه أن يبيّنها، ويحمل نفسه على ذلك. وقيل: هذه السين كهي في قوله: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾. فإن بان، واستبان، وتبين واحد نحو: عجل، واستعجل، وتعجل. فيكون معناه: الكتاب المبين.

﴿بَعْلًا﴾ والبعل هو الذكر من الزوجين. ولما تصور من الرجل استعلاء على المرأة، فجُعل سائسها والقائم عليها شُبّه كل مستعل على غيره به، فسُمّي باسمه، فسمى العرب معبودهم الذي يتقربون به إلى الله: بعلا لاعتقادهم ذلك. فالبعل اسم صنم كان لأهل بك من الشام، وهو البلد المعروف اليوم ببعلبك، وكان من ذهب طوله عشرون ذراعاً، كما مر. وفي «تاج العروس»: قال الأزهري: هما

اسمان جُعلاً اسماً واحداً لمدينة بالشام، والنسبة إليها بعلي أو بكي على ما ذُكر في عبد شمس.

﴿وَتَذَرُونَ﴾؛ أي: تتركون. وسمعنا عمن له نصاب في العربية أن كلمتي ذر ودع أمران في معنى الترك، إلا أن ﴿دع﴾ أمر للمخاطب بترك الشيء قبل العلم به، و﴿ذر﴾ أمر له بتركه بعدما علمه. وروي: أن بعض الأئمة سأل الإمام الرازي عن قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ لم لم يقل: وتدعون أحسن الخالقين، وهذا أقرب من الفصاحة للمجانسة؟ فقال الإمام: لأنهم اتخذوا الأصنام آلهةً، وتركوا الله بعد ما علموا أن الله ربهم ورب آبائهم الأولين استكباراً. فكذلك قيل لهم: ﴿وَتَذَرُونَ﴾ ولم يقل: وتدعون، هذا. وقد أمات العرب ماضي دع وذر، ومصدرهما ولكن روي في الحديث: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات»؛ أي: عن تركهم الجمعات. وقال في «القاموس»: ودعه؛ أي: اتركه، أصله: ودع كوضع، وقد أميت ماضيه، وإنما يقال في ماضيه: تركه، وجاء في الشعر ودعه، وهو مودوع. وقرئ شاذاً ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ﴾، وهي قراءته ﷺ. وقال الجوهري: ولا يقال وادع، وينافيه وروده في الشعر والقراءة إلا أن يحمل قولهم: «وقد أميت ماضيه» على قلة الاستعمال. فهو شاذ استعمالاً، صحيح قياساً.

﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفاً. ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ العجوز: المرأة المسنة، سميت عجوزاً لعجزها عن كثير من الأمور، كما في «المفردات».

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ التدمير: إدخال الهلاك على الشيء؛ أي: أهلكنا. ﴿أَبَقَ﴾؛ أي: هرب من قومه بغير إذن ربه. وأصل الإباق: هرب العبد من سيده، ولكن أطلق هنا على يونس على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، أو على طريق المجاز المرسل، والعلاقة هي استعمال المقيد في المطلق، وفي «المصباح»: أبق العبد أبقاً من بابي تعب وقتل في لغة، والأكثر من باب ضرب إذا هرب من سيده من غير خوف ولا كد. والإباق بالكسر اسم منه، فهو آبق، والجمع أباق، مثل:

كافر وكفار.

﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ أي: المملوء بالأحمال، يقال: شحن السفينة ملأها كما في «القاموس». ﴿فَسَاهَمَ﴾؛ أي: فقارع من في الفلك؛ أي: عمل قرعة. والسهم: ما يرمى من القداح ونحوه. والمعنى: فقارع أهل الفلك عن الآبق، وألقوا السهام على وجه القرعة.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾؛ أي: فصار من المغلوبين بالقرعة، وأصله: المزلق عن مقام الظفر والغلبة. قال في «القاموس»: دحضت رجله زلقت، والشمس زالت دحوضاً بطلت، انتهى. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾ الالتقام: الابتلاع، يقال: لقمت اللقمة، والتقمتها إذا ابتلعتها؛ أي: فابتلعه الحوت العظيم. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: داخل في الملامة، يقال: ألام فلان إذا فعل ما يلام عليه. وفي «المصباح»: لامه لوماً من باب قال عذله، فهو ملوم على النقص. والفاعل لائم، والجمع لوم مثل: راكع وركع، وألامه بالألف لغة، فهو ملام، والفاعل مليم، والاسم الملامة، والجمع ملاوم، واللائمة مثل الملامة، وألام الرجل إذا فعل ما يستحق عليه اللوم، وتلوّم تلوّماً مكث.

﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ النبذ: إلقاء الشيء، وطرحه لقلة الاعتداد به. ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾؛ أي: بالمكان الخالي لا شجر فيه ولا شيء يغطيه، وهو مشتق من العري. وهو عدم السترة، شبهت الأرض الجرد بذلك لعدم استتارها بشيء. والعراء بالقصر: الناحية، ومنه: اعتراه؛ أي: قصد عراه. وعبارة «القاموس»: العراء: الفضاء لا يُستتر فيه بشيء، وجمعه أعراء، وأعرى سار فيه وأقام.

﴿مِّن يَقْطِينٍ﴾؛ أي: دباء القرع العسلي المعروف الآن. وقيل: الموز. وهو أظهر، لأن أوراقه أعرض. قال في القاموس: اليقطين: ما لا ساق له من النبات ونحوه، وبهاء القرعة الرطبة. وعبارة الزمخشري: واليقطين: كل ما ينبسط على وجه الأرض، ولا يقوم على ساق كشجرة البطيخ، والقثاء، والحنظل. وهو يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به. وقيل: هو الدباء. وإنما خص القرع لأنه يجمع بين برد الظل، ولين الملمس، وكبر الورق، وأن الذباب لا يقربه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ حيث لم يقل: ما أمرت، للدلالة أن الأمر متعلق به، متوجه إليه، مستمر إلى حين الامتثال به.

ومنها: الطباق بين ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ﴾، وبين ﴿مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿بَعْلًا﴾؛ لأن البعل في الأصل: الذكر من الزوجين، شبه كل مستعل على غيره به، فسمي به على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾. شبه خروجه بغير إذن ربه بإباق العبد من سيده، ثم اشتق منه أبق بمعنى خرج بغير إذن ربه، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، أو على طريق المجاز المرسل، والعلاقة هي استعمال المقيد في المطلق.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ لما فيه من إسناد الفعل إلى الآمر لكونه سببه؛ لأن المنادى جبرائيل.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ إشعاراً بفخامة الأمر. لأنه أكده بـ﴿أنّ﴾، وبضمير الفصل، وباللام، وباسمية الجملة.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾؛ لأنه كناية عن الثناء الحسن والذكر الجميل.

ومنها: الإسناد المجازي، في قوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾؛ لأنه من قبيل إسناد الفعل إلى السبب الحامل على الفعل.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ لأنه كناية عن رد العذاب

عنهم، وصرف العقوبة.

ومنها: استعمال العام بمعنى الخاص في قوله: ﴿يَقْطِينٍ﴾؛ لأن اليقطين في الأصل: كل ما لا ساق له، فأطلق هنا على القرع فقط استعمالاً للعام في بعض جزئياته.

ومنها: الاستعارة التصريحية التحقيقية في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾؛ لأنه استعير ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ من معناه الحقيقي، وهو الطريق المستوي للدين الحق، وهو ملة الإسلام. وهذا أمر تحقق عقلاً، فقد نقل اللفظ إلى أمر معلوم.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾.

ومنها: الزيادة، والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ
﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى
ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ
هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾
وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ
بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ
رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما(١) أمر رسوله ﷺ في صدر هذه السورة بتبكيت قريش، وتوبيخهم على إنكارهم للبعث مع قيام الأدلة، وتظاهرها على وجوده، ثم ساق الكثير منها مما لا يمكن رده ولا جحده، ثم أعقبه بذكر ما سيلقونه من العذاب حينئذ، واستثنى منهم عباد الله المخلصين، وبيّن ما يلقونه من النعيم، ثم عطف على هذا أنه قد ضل قبلهم أكثر الأولين، وأنه أرسل إليهم منذرين، ثم أورد قصص بعض الأنبياء، تفصيلاً متضمناً وصفهم بالفضل والعبودية له عز وجل.. أمره هنا أيضاً بالتشديد عليهم ثانياً بطريق الاستفتاء عن وجه القسمة الجائرة التي عملوها، وهي جعل البنات لله، وجعل البنين لأنفسهم بقولهم: الملائكة بنات الله. ثم بالتقريع

---

(١) المراغي.

ثالثاً على استهانتهم الملائكة بجعلهم إناثاً، ثم أبطل كلاً من هذين بالحجة، التي لا يجد العاقل محيصاً عن التصديق بها والإذعان لها.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أثبت فساد آراء المشركين ومذهبهم.. أتبع ذلك بما نبه به، إلى أن هؤلاء المشركين، لا يقدرون على حمل أحد على الضلال، إلا إذا كان مستعداً له، وقد سبق في حكم الله تعالى، أنه من أهل النار، وأنه لا محالة واقع فيها. ثم حكى اعتراف الملائكة بالعبودية تنبيهاً إلى فساد قول من ادعى، أنهم أولاد الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما هدد[1] المشركين بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.. أردفه بما يقوي قلب رسوله ﷺ بوعده بالنصر، والتأييد، كما جاء في آية أخرى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخبره جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: أنزلت هذه الآية في ثلاثة أحياء من قريش: سليم وخزاعة وجهينة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ...﴾ سبب نزوله: ما أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» عن مجاهد قال: قال كبار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سراة الجن. فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك، قال: كان الناس يصلون متبددين، فأنزل الله:

---

(١) المراغي.

(٢) لباب النقول.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥﴾ الآية. فأمرهم أن يصفوا.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ سبب نزوله: ما أخرجه جويبر عن ابن عباس، قال: قالوا: يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به، عجله لنا. فنزلت: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦﴾ الآية، صحيح على شرط الشيخين.

التفسير وأوجه القراءة

ولما كانت قريش، وقبائل من العرب، يزعمون أن الملائكة بنات الله، أمر الله سبحانه رسوله ﷺ باستفتائهم على طريقة التوبيخ والتقريع. فقال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ يا محمد؛ أي: استخبر يا محمد هؤلاء المشركين، وسلهم. والفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الله سبحانه موصوفاً بنعوت الكمال، والعظمة والجلال متفرداً بالخلق والربوبية، وجميع الأنبياء مقرين بالعبودية، داعين للعبيد إلى حقيقة التنزيه والتوحيد، وأردت توبيخ هؤلاء المشركين وتقريعهم على زعمهم الفاسد، فأقول لك: استخبرهم على سبيل التوبيخ والتجهيل؛ أي: سل قريشاً وبعض طوائف العرب نحو: جهينة، وبني سلمة، وخزاعة، وبني مليح. فإنهم كانوا يقولون: إن الله تعالى تزوج من الجن، فخرجت منها الملائكة، فهم بنات الله. ولذا يسترهن عن العيون، فأثبتوا الأولاد لله تعالى، ثم زعموا أنها من جنس الإناث لا من جنس الذكور، وقسموا القسمة الباطلة، حيث جعلوا الإناث لله تعالى، وجعلوا الذكور لأنفسهم. فإنهم كانوا يفتخرون بذكور الأولاد، ويستنكفون من البنات، ولذا كانوا يقتلونهن، ويدفنونهن حياءً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾ الآية. ومن[1] هنا أنه: من رأى في المنام أنه اسود وجهه، فإنه يولد له بنت.

وفي «الكشاف» قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ معطوف[2] على مثله في أول السورة؛ أي: على قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ وإن تباعدت المسافة بينهما، أمر رسول الله ﷺ باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً، ثم ساق الكلام

---

(١) روح البيان.
(٢) الزمخشري.

موصولاً بعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى، التي قسموها، حيث جعلوا لله تعالى الإناث، ولأنفسهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات الله مع كراهتهم الشديدة لهن، ووأدهم، واستنكافهم عن ذكرهن. وهذا العطف الذي قاله الزمخشري بعيد.

أي: سلهم يا محمد ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾ اللاتي هي أوضع الجنسين ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ الذين هم أرفعهما. وفيه تفضيل لأنفسهم على ربهم، وذلك مما لا يقول به من له أدنى شيء من العقل، وارتكبوا[1] في زعمهم ثلاثة أنواع من الكفر: التجسيم؛ لأن الولادة مختصة بالأجسام، وتفضيل أنفسهم حيث نسبوا أرفع الجنسين لهم وغيره لله تعالى، واستهانتهم بمن هو مكرم عند الله تعالى، حيث أنثوهم، وهم الملائكة بدأ أولاً بتوبيخهم على تفضيل أنفسهم بقوله: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾، وعدل عن قوله: ألربكم إلى ما قاله، لما في ترك الإضافة إليهم من تخسيسهم وشرف نبيه بالإضافة إليه.

والمعنى[2]: أي سل يا محمد قريشاً مؤنباً لها، ومقرعاً على ضعف أحلامها، وسفاهة عقولها: ألربي البنات، ولكم البنون؟ فمن أين جاءكم هذا التقسيم، وإلام تستندون؟. وإنكم لتكرهون البنات، وتبغضونها أشد البغض، كما جاء في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم...﴾ الآية. وفيه إشارة إلى كمال جهالة الإنسان، وضلالته. إذا وُكل إلى نفسه الخسيسة، وخُلي إلى طبيعته الركيكة، أنه يظن بربه ورب العالمين نقائص لا يستحقها أدنى عاقل، بل غافل من أهل الدنيا.

ثم زاد في توبيخهم وتقريعهم، فقال: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ جمع أنثى ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم حاضرون، خلقنا إياهم إناثاً، فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه في التبكيت، والتهكم بهم، ويجوز أن تكون[3] ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكاري، وأن تكون متصلة معادلة

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) زاده.

للهمزة، كأن المستفهم يدعي ثبوت أحد الأمرين عندهم، ويطلب تعيينه منهم قائلاً: أي هذين الأمرين تدعونه، اهـ «زاده».

والمعنى على الأول: أي بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق، وأبعدهم من صفات الأجسام ورذائل الطبائع إناثاً، والأنوثة من أخس صفات الحيوان. ولو قيل لأدناهم: فيك أنوثة لتمزقت نفسه من الغيظ لقائله، ففي جعلهم الملائكة إناثاً استهانة شديدة بهم.

أي: كيف جعلوهم إناثاً وهم لم يحضروا عند خلقنا لهم. وهذا كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾. فبيَّن سبحانه، أن مثل ذلك لا يُعلم إلا بالمشاهدة، ولم يشهدوا، ولا دل دليل على قولهم من السمع، ولا هو مما يدرك بالعقل، حتى ينسبوا إدراكه إلى عقولهم.

وهذا[1] ترق في التوبيخ لهم على هذه المقالة، إذ أن ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة أو النقل، ولا سبيل إلى معرفته بالعقل حتى يقوم الدليل، والبرهان على صحته، والنقل الصحيح الذي يؤيد ما تدعون لا يوجد، فلم تبق إلا المشاهدة، وهذه لم تحصل.

ثم بيَّن فساد منشأ هذه العقيدة الزائفة، فقال: ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ﴿إِنَّهُم﴾؛ أي: إن هؤلاء المشركين ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾، أي: من أجل كذبهم الأسوأ. وهو متعلق بقوله: ﴿لَيَقُولُونَ﴾ ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾: فعل، وفاعل. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يتدينون به من قولهم: ذلك كذباً بيّناً لا ريب فيه. قرأ الجمهور: ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ فعلاً ماضياً، مسنداً إلى الله سبحانه. وقرىء[2] بإضافة ﴿وَلَدَ﴾ إلى ﴿اللَّهُ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: يقولون الملائكة ولد الله. وولد فعل بمعنى مفعول، يستوي فيه الواحد، والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، والقليل والكثير. وفيه[3] تجسيم له تعالى، وتجويز الفناء عليه؛ لأن الولادة مختصة بالأجسام القابلة للكون

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

والفساد. يعني: انتبهوا، واعلموا أن مبنى مذهبهم الفاسد ليس إلا الإفك الصريح، والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل قطعي أو شبهة دليل. فإنه تعالى لم يلد ولم يولد.

ثم كرر سبحانه تقريعهم وتوبيخهم، ونقض الدعوى من أساسها مبيناً أن العقل لا يتقبلها. فقال: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنها للاستفهام الإنكاري الاستبعادي، دخلت على ألف الافتعال، أصله: أاصطفى، فحذفت همزة الافتعال التي هي همزة الوصل استغناءً بهمزة الاستفهام، والاصطفاء: أخذ صفوة الشيء لنفسه؛ أي: أتقولون: إنه تعالى اختار البنات على البنين مع نقصانهن رضىً بالأخس الأدنى؛ أي: أي شيء يحمله على أن يختار البنات، ويترك البنين. والعرف، والعادة، والمنطق السليم شاهد صدق على غير هذا. ونحو الآية قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾. وقرأ[1] نافع في رواية عنه، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش بهمزة وصل مكسورة تثبت ابتداء وتسقط درجاً، ويكون الاستفهام منوياً، قاله الفراء. وحُذف حرفه للعلم به من المقام، أو على أن ﴿أَصْطَفَى﴾ وما بعده بدل من الجملة المحكية بالقول، وعلى تقدير عدم الاستفهام والبدل، فقد حكى جماعة من المحققين، منهم: الفراء أن التوبيخ يكون باستفهام وبغير استفهام، كما في قوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾. وقيل: هو على إضمار القول.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾؛ أي: أي[2] شيء ثبت لكم في هذه الدعوى ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ على الغني عن العالمين بهذا الحكم، تقضي ببطلانه بديهة العقول، ارتدعوا عنه، فإنه جور. قال ابن الشيخ: هاتان جملتان استفهاميتان، ليس لأحدهما تعلق بالأخرى من حيث الإعراب. استفهم أولاً عما استقر لهم، وثبت استفهام إنكار، ثم استفهم استفهام تعجب من حكمهم هذا الحكم الفاسد، وهو أن يكون أحسن

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

الجنسين لأنفسهم، وأخسهما لربهم.

والمعنى: أي شيء ثبت لكم، كيف تحكمون لله بالبنات، وهو القسم الذي تكرهون، ولكم بالبنين، وهو القسم الذي تحبونه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ بحذف إحدى التاءين من تتذكرون. والهمزة فيه للتوبيخ، داخلة على محذوف يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتلاحظون ذلك الحكم فلا تتذكرون بطلانه، فترجعوا عنه، فإنه مركوز في عقل ذكي وغبي. وقرأ طلحة بن مصرف[1]: ﴿تَذْكُرُونَ﴾ بسكون الذال وضم الكاف.

ثم انتقل إلى تبكيت آخر، فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ﴾؛ أي: بل ألكم ﴿سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ وحجة واضحة ظاهرة، نزلت عليكم من السماء، بأن الملائكة بنات الله، ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من سند حسي أو عقلي. وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلي ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الناطق بصحة دعواكم، فالباء: للتعدية، أو فأتوا بحجتكم الواضحة على هذا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولونه. فإذا لم ينزل عليكم كتاب سماوي فيه ذكر ذلك الحكم، فلم تصرون على الكذب، ولا يخفى ما في هذه الآيات من الدلالة على السخط العظيم والإنكار الشديد لأقاويلهم، وتسفيه أحلامهم مع الاستهزاء بهم والتعجيب من جهلهم.

ثم التفت من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب، وسقوطهم عن درجة الخطاب، واقتضاء حالهم أن يُعرض عنهم ويحكي جناياتهم لآخرين، فقال ﴿وَجَعَلُوا﴾؛ أي: وجعل هؤلاء المشركون ﴿بَيْنَهُ﴾ تعالى ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾؛ أي: الملائكة. وسُموا جنة لاجتنانهم واستتارهم عن الأبصار ﴿نَسَبًا﴾؛ أي: مشاكلة، ومناسبة. فقالوا: الملائكة بنات الله، والنسب، والنسبة اشتراك من جهة الأبوين، وذلك ضربان: نسب بالطول كالاشتراك بين الآباء والأبناء، ونسب بالعرض كالنسبة بين الأخوة وبني العم، ويقال: فلان نسيب فلان؛ أي: قريبه.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى[1]: وجعل المشركون بما قالوا نسبة بين الله، وبين الملائكة، وأثبتوا بذلك جنسية جامعة له تعالى، وللملائكة. وقال مجاهد، والسدي، ومقاتل: إن القائل بذلك كنانة، وخزاعة. قالوا: إن الله سبحانه خطب إلى سادات الجن، فزوّجوه من سروات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن. وفي ذكر الله الملائكة، بهذا الاسم في هذا الموضع إشارة إلى أن من صفته الاجتنان، وهو من صفات الأجرام، لا يصلح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك، وفيه إشارة أيضاً إلى جنة الإنسان، وقصور نظر عقله من كمال أحدية الله، وجلال صمديته، إذا وُكل إلى نفسه في معرفة ذات الله، وصفاته، فيقيس ذاته على ذاته، وصفاته على صفاته، فيُثبت له نسباً كما له نسب، ويثبت له زوجةً وولداً كما له زوجة وولد. وهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

ثم إن هذا أعني: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ﴾ إلخ، عبارة عن قولهم: الملائكة بنات الله. وإنما أُعيد ذكره تمهيداً لما يعقبه من قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد علمت الجنة؛ أي: الملائكة التي عظموها بأن جعلوا بينها وبينه تعالى نسباً. ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن هؤلاء الكفرة ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ النار معذبون بها، لا يغيبون عنها لكذبهم وافترائهم في ذلك، والمراد به. المبالغة في التكذيب ببيان أن الذي يدعي هؤلاء المشركون لهم تلك النسبة، ويعلمون أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال، يكذبون في ذلك، ويحكمون بأنهم معذبون لأجله حكماً مؤكداً.

والمعنى: أي ولقد علمت الملائكة الذين ادعى المشركون، أن بينه تعالى، وبينهم نسباً أن هؤلاء المشركين محضرون إلى النار، ومعذبون فيها لكذبهم وافترائهم في قيلهم. وقيل: علمت الجنة أنهم أنفسهم يحضرون للحساب، والأول أولى؛ لأن الإحضار إذا أطلق فالمراد به: العذاب كما مر.

---

(١) روح البيان.

ثم إن الله سبحانه نزّه نفسه عما قالوه من الكذب، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾؛ أي: تنزه الله تعالى تنزهاً لائقاً بجنابه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ به من الولد، والنسب. أو نزهوه تنزيهاً عن ذلك أو ما أبعد، وما أنزه من هؤلاء خلقه وعبيده عما يضاف إليه من ذلك. فهو تعجب من كلمتهم الحمقاء، وجعلتهم العوجاء. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ استثناء منقطع[1] من الواو في ﴿يَصِفُونَ﴾؛ أي: يصفه هؤلاء بذلك، ولكن المخلصين الذين أخلصهم الله بلطفه من ألواث الشكوك والشبهات، ووفقهم للجريان بموجب اللب برآء من أن يصفوه به. وجعل أبو السعود قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ بتقدير قول معطوف على علمت الجنة تقديره ولقد علمت الملائكة أن المشركين لمعذبون لقولهم ذلك، وقالوا: سبحان الله عما يصفون به من الولد والنسب، لكن عباد الله المخلصين، الذين نحن من جملتهم، برآء من ذلك الوصف، بل نصفه بصفات العلى، فيكون المستثنى أيضاً من كلام الملائكة، وقد قرىء ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام وكسرها، ومعناهما من بيناه قريباً، وقيل: هو استثناء من المحضرين؛ أي: إنهم يحضرون النار إلا من أخلص. فيكون متصلاً لا منقطعاً. وعلى هذا تكون جملة التسبيح معترضة.

ثم خاطب الكفار على العموم، أو كفار مكة على الخصوص، فقال: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون. عود إلى خطابهم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ومعبوديكم. وهم الشياطين الذين أغووهم ﴿مَا أَنتُمْ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، و﴿أَنتُمْ﴾ خطاب لهم ولمعبوديهم تغليباً للمخاطب على الغائب ﴿عَلَيْهِ﴾ الضمير عائد لله، و﴿عَلَيْ﴾ متعلقة بقوله: ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ جمع فاتن. والفاتن هنا: بمعنى المضل والمفسد، يقال: فتن فلان على فلان امرأته؛ أي: أفسدها عليه وأضلها حاملاً إياها على عصيان زوجها، فعدّى الفاتن بعلى لتضمينه معنى الحمل والبعث. ومفعول ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ محذوف.

والمعنى[2]: ما أنتم بفاتنين أحداً من عباده؛ أي: بمضلين ومفسدين بحمله

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

على المعصية والخلاف. ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ منهم؛ أي: داخلها لعلمه تعالى بأنه يصر على الكفر بسوء اختياره، ويصير من أهل النار لا محالة، فيضلون بتقدير الله من قدّر الله أن يكون من أهل النار، وأما المخلصون منهم فإنهم بمعزل عن إفسادهم وإضلالهم، فهم لا جرم برآء من أن يفتنوا بكم، ويسلكوا مسلككم في وصفه تعالى بما وصفتموه به.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿صَالِ﴾ بكسر اللام، لأنه منقوص مضاف، حُذفت الياء لالتقاء الساكين، وحُمل على لفظ ﴿مَنْ﴾، وأفرد كما أفرد ﴿هُوَ﴾. وقرأ الحسن وابن أبي عبلة ﴿صالوا الجحيم﴾ بضم اللام مع واو بعدها. وروي عنهما: أنهما قرأا بضم اللام بدون واو. فأما مع الواو فعلى أنه جمع سلامة بالواو، حملاً على معنى ﴿مَنْ﴾، وحُذفت نون الجمع للإضافة. وأما بدون الواو، فيحتمل أن يكون جمعاً وإنما حذفت الواو خطاً كما حُذفت لفظاً، ويحتمل أن يكون مفرداً، وحقه على هذا كسر اللام.

والمعنى[2]: أن الكفار وما يعبدونه لا يقدرون على إضلال أحدٍ من عباد الله إلا من هو من أهل النار، وهم المصرون على الكفر، وإنما يصر على الكفر من سبق القضاء عليه بالشقاوة، وأنه ممن يصلى النار؛ أي: يدخلها، فهو لا محالة يكبكب فيها. قال لبيد بن ربيعة:

أَحْمَدُ ٱللَّهَ فَلاَ نِدَّ لَهُ ... بِيَدَيْهِ ٱلْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلْ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ ٱلْخَيْرِ ٱهْتَدَىٰ ... نَاعِمَ ٱلْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلْ

واحتج[3] أهل السنة والجماعة بهذه الآية وهي قوله: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ إلخ، على أنه لا تأثير لإلقاء الشيطان ووسوسته، ولا لأحوال معبودهم في وقوع الفتنة، وإنما المؤثر هو قضاء الله، وتقديره، وحكمه بالشقاوة، ولا يلزم منه الجبر،

---

(١) الشوكاني والبحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

وعدم لوم الضال والمضل بما كسبا، لما أشير إليه، من أنهم لا يقدرون على إضلال أحد، إلا إضلال من علم الله منه اختيار الكفر، والإصرار عليه. وعلم الله، وتقديره، وقضاؤه فعلاً من أفعال المكلفين، لا ينافي اختيار العبد، وكسبه.

قوله: ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ حكاية اعتراف الملائكة للرد على عبدتهم، كأنه قيل: ويقول الملائكة الذين جعلتموهم بنات الله، وعبدتموهم بناءً على ما زعمتم، من أن بينهم وبينه تعالى مناسبةً، وجنسية جامعةً. وما منا أحد؛ أي: وما أحد كائن منا معشر الملائكة ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ في السموات، يعبد الله فيه، لا يتجاوزه. وفي «السمين»: في هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أن ﴿مِنَّآ﴾ صفة لموصوف محذوف هو مبتدأ، والخبر الجملة من قوله: ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ تقديره: ما أحد منا إلا له مقام معلوم. وحذف المبتدأ مع ﴿مِّن﴾ جيد فصيح.

والثاني: أن المبتدأ محذوف أيضاً، و﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ صفة حذف موصوفها، والخبر على هذا هو الجار المتقدم، والتقدير: وما منا أحد إلا له مقام معلوم، انتهى. وقيل: التقدير: وما منا إلا من له مقام معلوم. يعني[1]: أن جبرائيل قال للنبي ﷺ: وما منا معشر الملائكة ملك إلا له مقام معلوم؛ أي: مرتبة، ومنزلة، ووظيفة لا يتعداها. فمنا الموكل بالأرزاق، ومنا الموكل بالآجال، ومنا الموكل بإنزال الوحي، ومنا راكع لا يقيم صلبه، ومنا ساجد لا يرفع رأسه خضوعاً لعظمته، وخضوعاً لهيبته، وتواضعاً لجلاله، ولكل منزلتُه من العبادة، والتقريب، والتشريف.

ففي الآية تنبيه على فساد قول المشركين: إنهم أولاد الله؛ لأن مبالغتهم في إظهار العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية، فكيف يكون بينه تعالى وبينهم جنسية؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما في السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلي أو يسبح، بل والعالم مشحون بالأرواح، فليس فيه موضع بيت ولا

---

(١) الخازن.

زاوية إلا وهو معمور بما لا يعلمه إلا الله. ولذا أمر النبي ﷺ، بالتستر في الخلوة، وأن لا يجامع الرجل امرأته عريانين.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ في مواقف الطاعة، ومواطن الخدمة، قال قتادة: هم الملائكة صفوا أقدامهم، وقال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض، قيل[1]: إن المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية، وليس يصطف أحد من أهل الملل في صلاتهم غير المسلمين، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾؛ أي: المنزهون لله تعالى، المقدسون له عما أضافه إليه المشركون. وقيل: المصلون. وقيل: المراد بقولهم: ﴿ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ مجموع التسبيح باللسان، وبالصلاة. والمقصود أن هذه الصفات هي صفات الملائكة، وليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات الله سبحانه. ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ هذا رجوع إلى الإخبار عن المشركين. و﴿إن﴾ هي المخففة من الثقيلة، وضمير الشأن محذوف، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. وفي الإتيان بإن المخففة، واللام إشارة إلى أنهم كانوا يقولون ما قالوه مؤكدين جادين، فكم بين أول أمرهم وآخره.

والمعنى: وإن الشأن كانت قريش تقول قبل المبعث المحمدي إذا عُيروا بالجهل: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾؛ أي: كتاباً من كتب الأولين من التوراة والإنجيل ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾؛ أي: لأخلصنا العبادة لله، ولما خالفنا كما خالفوا. والفاء في قوله: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ عاطفة على محذوف تقديره: فجاءهم ذكر؛ أي ذكر سيد الأذكار، وكتاب مهيمن على سائر الكتب والأسفار. وهو القرآن الكريم فكفروا به، وأنكروه، وقالوا في حقه وفي حق من أنزل عليه ما قالوا. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: عاقبة كفرهم، وغائلته من المغلوبية في الدنيا والعذاب الأليم في العقبى. وهو وعيد لهم وتهديد.

قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ جملة مستأنفة مقررة للوعيد. قرأ الجمهور

---

(١) روح البيان.

بالإفراد. وقرأ الضحاك بالجمع، انتهى من البحر. والمراد بالكلمة[١]: ما وعدهم الله تعالى من النصر والظفر على الكفار. قال مقاتل: عنى بالكلمة قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾. وقال الفراء: سبقت كلمتنا بالسعادة لهم. والأولى تفسير هذه الكلمة بما هو مذكور هنا. فإنه قال: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ إلخ، ثم إن السبق والتقدم الموقوف على الزمان إنما هو بالنسبة إلى الإنسان، وإلا فالأمر بالإضافة إلى الله كائن على ما كان؛ أي: وعزتي وجلالي لقد سبقت، وتقدمت في الأزل، أو كتبت في اللوح المحفوظ كلمتنا؛ أي: وعدنا على ما لنا من العظمة. ﴿لِعِبَادِنَا﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة في كل حركة وسكون ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: الذين زدناهم على شرف الإخلاص في العبودية شرف الرسالة.

ثم فسر ذلك الوعد بطريق الاستئناف، فقال: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن عبادنا المذكورين ﴿لَهُمُ﴾ خاصة ﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾ فمن نصرناه فلا يُغلب، كما أن من خذلناه لا يُنصر. ثم عمم فقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ وحزبنا من المرسلين، وأتباعهم المؤمنين ﴿لَهُمُ﴾؛ أي: لا غيرهم ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ على أعدائهم في الدنيا والآخرة. قال الشيباني: جاء هنا بالجمع مع كون المسند إليه مفرد اللفظ، من أجل أنه رأس آية. ووصفهم[٢] بالغلبة لا ينافيه انهزامهم في بعض المواطن، وغلبة الكفار لهم، فإن الغالب في كل موطن هو انتصارهم على الأعداء وغلبتهم لهم، فخرج الكلام الغالب، فالحكم للغالب، والنادر كالمعدوم، والمغلوبية قد تكون لعارض لمخالفة أمر القائد، والطمع في الدنيا، والعجب، والغرور بكثرة العدة والعدد، على أن العاقبة المحمودة لهم على كل حال، وفي كل موطن كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم أمر الله سبحانه رسوله بالإعراض عنهم، والإغماض عما يصدر منهم من الجهالات والضلالات، فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ والفاء فيه فاء الفصيحة؛ لأنها

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا علمت أن النصرة والغلبة لك ولأتباعك، وأردت بيان ما هو الأصلح لك: فأقول لك: تول عنهم؛ أي: أعرض عن كفار مكة، واصبر على أذاهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى مضي زمن معلوم عند الله، ومدة يسيرة تؤمر بعدها بجهادهم. فكان ﷺ أول الأمر مأموراً بالتبليغ والإنذار، والصبر على أذى الكفار، تأليفاً لهم، ثم أُمر بالجهاد في السنة الثانية من الهجرة، وهي مدة الكف عن القتال، قال السدي ومجاهد: حتى نأمرك بالقتال. وقيل: إلى يوم بدر. وقيل: إلى يوم فتح مكة، فالآية محكمة لا منسوخة بآية القتال، وقيل: الآية منسوخة بآية السيف. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ يا محمد، وانظر إليهم على أسوأ حال وأفظع نكال، حل بهم من القتل والأسر، والمراد بالأمر بإبصارهم: الإيذان بغاية قربه، كأنه بين يديه يبصره في الوقت، وإلا فمتعلق الإبصار لم يكن حاضراً عند الأمر ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما يقع بهم. و﴿سوف﴾ للوعيد، لا للتبعيد، أو فسوف يبصرون ما قضينا لك من التأييد، والنصرة، والثواب في الآخرة، أو انظر إليهم إذا عُذبوا، فسوف يبصرون ما أنكروا، أو أعلمهم فسوف يعلمون.

والمعنى[1]: أي وانظر وارتقب ما يحل بهم من العذاب والنكال، بمخالفتك وتكذيبك، وسوف يبصرون انتشار دينك، وإقبال الناس عليه أفواجاً زرافات ووحداناً، مصداقاً لوعده بقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾. وفي «التأويلات النجمية»: فسوف يبصرون جزاء ما عملوا من الخير والشر، انتهى. و﴿سوف﴾ للوعيد، ليتوبوا ويؤمنوا دون التبعيد؛ لأن تبعيد الشيء المحذر منه كالمنافي لإرادة التخويف به. ولما نزل قوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قالوا استعجالاً، واستهزاء لفرط جهلهم: متى هذا؟ فنزل قوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦﴾ والهمزة[2]: للاستفهام الإنكاري التعجبي، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير؛ أي: أبعد هذا التكرير من الوعيد ينكرون

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

عذابنا، فيستعجلون به. ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب الموعود ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾؛ أي: بفنائهم، وقربهم، وحضرتهم، كأنه جيش قد هزمهم، فأناخ بفنائهم بغتة. ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ أي: قبح وبئس صباح الكافرين، الذين أُنذروا بعذابنا، وكذبوا به فلم يؤمنوا، والمخصوص بالذم: صباحهم، واللام فيه: للجنس. فإن أفعال المدح والذم تقتضي الشيوع، والإبهام، والتفصيل، فلا يجوز أن تكون للعهد، والصباح: مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب، ولما كثرت منهم الإغارة في الصباح سموها صباحاً وإن وقعت ليلاً.

وقرأ عبد الله: ﴿فبئس﴾. قال الزجاج: وكان عذاب هؤلاء بالقتل. قيل: المراد به: نزول رسول الله ﷺ بساحتهم يوم فتح مكة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نزل﴾ مبنياً للفاعل.

وقرأ عبد الله بن مسعود على البناء للمفعول، والجار والمجرور قائم مقام الفاعل، وعن أنس رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ غزا خيبر، فلما دخل القرية قال: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، قالها ثلاث مرات». متفق عليه.

ثم كرر سبحانه ذكر ما تقدم، تأكيداً لوعيد العذاب، فقال: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرض عنهم يا محمد ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾. وقيل: المراد من الآية الأولى: ذكر أحوالهم في الدنيا، وهذه ذكر أحوالهم في الآخرة. فعلى هذا القول يزول التكرار. ﴿وَأَبْصِرْ﴾ العذاب إذا نزل بهم ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما سيحل بهم من فنون العذاب.

وهذا[2]: تسلية لرسوله ﷺ إثر تسلية، وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد مع ما في إطلاق الفعلين عن المفعول، من الإيذان بأن ما يبصره عليه السلام، من فنون المسار، وما يبصرون من أنواع المضار، لا يحيط به الوصف والبيان، وفي «البرهان»: حذف الضمير من الثاني اكتفاء بالأول.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

والمعنى: أي وأعرض أيها الرسول عن هؤلاء المشركين، وخلهم وفريتهم على ربهم، إلى أن يأذن بهلاكهم، وانظر إليهم فسوف يرون ما يحل بهم من عقابنا حين لا تنفعهم التوبة.

ثم ختم سبحانه السورة، بخاتمة شريفة جامعة، لتنزيهه تعالى عما لا يليق به، مع وصف نفسه بصفات الكمال، ومدحه للرسل الكرام، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ﴾ يا محمد. خطاب للنبي ﷺ، والإضافة فيه للتشريف، وقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ بدل من الأول ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: نزّه يا محمد[1] من هو مربيك، ومكملك، ومالك العزة والغلبة والقوة على الإطلاق، عما يصفه المشركون به مما لا يليق بجناب كبريائه من الأولاد، والأزواج، والشركاء، وغير ذلك من الأشياء، التي من جملتها ترك نصرتك عليهم، كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب، قال في «بحر العلوم»: أضاف الرب إلى العزة لاختصاصه بها، كأنه قيل: ذي العزة كقولك: صاحب صدق لاختصاصه بالصدق، فلا عزة إلا له سبحانه، على أن العزة ذاتية، أو لمن أعزه من الأنبياء وغيرهم، فالعزة حادثة كائنة بين خلقه، وهي وإن كانت صفة قائمة بغيره تعالى، إلا أنها مملوكة له مختصة به، يضعها حيث يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾. وفيه إشعار بالسلوب والإضافات، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾. وذلك أن قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ إشارة إلى السلوب كالجلال، فإن كلا منهما يفيد ما أفاد الآخرة في قولنا: سبحان ربنا عن الشريك والشبيه، وجل ربنا عنهما، وقوله: ﴿رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ إشارة إلى الإضافات كالإكرام، وإنما قدم السلب على الإضافة، لأن السلوب كافية فيها ذاته، من حيث هو هو، بخلاف الإضافات، فإنه لا بد في تحققها من غيره؛ لأن الإضافة لا توجد إلا عند وجود المضافين.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ كلمة مشتملة على سلب النقص والعيب عن ذات الله وصفاته، فما كان من أسمائه سلباً فهو مندرج

---

(١) روح البيان.

تحت هذه الكلمة، كالقدوس: وهو الطاهر من كل عيب، والسلام: وهو الذي سلم من كل آفة، فنفينا بسبحان الله كل عيب عقلناه، وكل نقص فهمناه.

ثم إن المرسلين لما كانوا وسائط بين الله، وبين عباده، نبه على علو شأنهم بقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ﴾؛ أي: وسلامة، ونجاة من كل المكاره، وفوز بجميع المآرب، كائن ﴿عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين يبلّغون رسالات الله إلى الأمم، ويبيّنون لهم ما يحتاجون إليه من الأمور الدينية والدنيوية، أولهم آدم، وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام، فهو تعميم للرسل، بالتسليم بعد تخصيص بعضهم فيما سبق؛ لأن تخصيص كل واحد بالذكر يطول.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: على هلاك الأعداء، ونصرة الأنبياء، وقيل: الغرض من ذلك: تعليم المؤمنين أن يقولوه، ولا يخلّوا به، ولا يغفلوا عنه، لما روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى، من الأجر يوم القيامة، فليكن أخر كلامه إذا قام من مجلسه ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٢)﴾. وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ غير مرة، ولا مرتين، يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٢)﴾.

والمعنى: أي تنزيهاً لربك أيها الرسول، رب القوة والغلبة، عما يصفه به هؤلاء المفترون، من مشركي قريش من نحو قولهم: ولد الله، وقولهم: الملائكة بنات الله، وأمنة من الله سبحانه للمرسلين، الذين أرسلهم إلى أممهم من العذاب الأكبر، ومن أن ينالهم مكروه من قبله تعالى، والحمد لله رب الثقلين، الجن والإنس، خالصاً له دون من سواه؛ لأن كل نعمة لعباده، فهي منه.

الإعراب

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ (١٥٠)﴾.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ الفاء: عاطفة، عطفت هذه الجملة على قوله في أول السورة: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾، وإن بعد المدى، قال البيضاوي: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾: معطوف على مثله في أول السورة، فأمر أولاً باستفتائهم عن وجه إنكار البعث، وساق الكلام في تقريره، جارياً لما يلائمه من القصص، موصولاً بعضها ببعض، ثم أمر باستفتائهم عن وجه القسمة، حيث جعلوا لله البنات، ولأنفسهم البنين في قولهم: الملائكة بنات الله، وإن شئت قلت: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الله موصوفاً بصفات الكمال، وأردت توبيخ هؤلاء المشركين على زعمهم الفاسد.. فأقول لك: استفتهم على سبيل التوبيخ. ﴿استفتهم﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة أو الجملة معطوفة على ما تقدم في أول السورة. ﴿أَلِرَبِّكَ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، ﴿لربك﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْبَنَاتُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿استفتهم﴾؛ لأنه بمعنى: اسألهم. و﴿لَهُمُ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْبَنُونَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف معادلة للهمزة؛ كأن المستَفْهم يدّعي ثبوت أحد الأمرين، ويطلب تعيينه منهم قائلاً: أي هذين الأمرين تدعونه. ﴿خَلَقْنَا﴾: فعل، وفاعل، ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ مفعول به. ﴿إِنَٰثًا﴾: حال من الملائكة. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾. ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿شَٰهِدُونَ﴾: خبر، والجملة في محل النصب حال من الملائكة أيضاً، ولكنها حال سببية، والرابط مقدر، تقديره: أم خلقنا الملائكة إناثاً، والحال أنهم شاهدون خلقهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه واستفتاح، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يقولون﴾ ﴿لَيَقُولُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿يقولون﴾: خبر

﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لإبطال مذهبهم الفاسد، ببيان أنه إفك صريح، لا دليل يدعمه. ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿إِنَّهُم﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿كاذبون﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿يقولون﴾. ﴿أَصْطَفَى﴾ الهمزة المفتوحة، للاستفهام الإنكاري، استُغني بها عن همزة الوصل، في التوصل إلى النطق بالساكن. ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على الله، ومفعول به، ﴿عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾، متعلق بـ﴿أَصْطَفَى﴾ بتضمينه معنى أفضل. وجملة الاستفهام، جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا﴾ اسم استفهام على وجه الإنكار في محل الرفع مبتدأ، و﴿لَكُمْ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجبي في محل النصب على الحال من فاعل ﴿تَحْكُمُونَ﴾ أو على المفعولية المطلقة، والتقدير: أي حكم تحكمون. و﴿تَحْكُمُونَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة أيضاً. فليس لإحدى الجملتين تعلق بالأخرى، كما مر. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتغفلون عن الحقائق فلا تذكرون. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: فعل، وفاعل معطوف على تلك المحذوفة. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف بمعنى: بل، وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿سُلْطَٰنٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿سُلْطَٰنٌ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾.

﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿فَأْتُوا۟﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت افتراءهم فيما يقولون، وأردت الزام الحجة لهم.. فأقول لك: قل لهم: ائتوا بكتابكم. ﴿ائتوا﴾: فعل أمر، وفاعل. ﴿بِكِتَٰبِكُمْ﴾: متعلق به. والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿أنْ﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم

بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجوابها معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم صادقين فائتوا بكتابكم، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿وَجَعَلُوا﴾ فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بَيْنَهُ﴾: ظرف، متعلق بـ﴿جعلوا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿جعلوا﴾. ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾: ظرف ومضاف إليه، معطوف على الظرف الأول. ﴿نَسَبًا﴾ مفعول أول لـ﴿جعل﴾، ﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب على الحال من الجنة. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿محضرون﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب، سادة مسد مفعولي ﴿علم﴾.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤)﴾.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبحوا الله سبحاناً، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سُبْحَانَ﴾، وجملة ﴿يَصِفُونَ﴾: صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: عما يصفونه به، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾: استثناء منقطع من المحضرين، كأنهم ليسوا من جنسهم، ويحتمل أن يكون استثناء من فاعل ﴿جعلوا﴾ أو من فاعل ﴿يَصِفُونَ﴾؛ أي: لكن عباد الله المخلصين ناجون. ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ صفة ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾: ﴿الواو﴾: واو المعية، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب على أنه مفعول معه، وقد سدت مسد خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: إنكم وآلهتكم قرناء، لا تزالوان تعبدونها على حد قولهم: كل رجل وضيعته؛ أي: مقترنان. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿مَا﴾: نافية أو حجازية. ﴿أَنْتُمْ﴾: اسمها، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿فاتنين﴾، ﴿بِفَاتِنِينَ﴾: خبر ﴿مَا﴾، والباء: زائدة. والجملة مستأنفة. ويجوز أن تكون جملة ﴿مَا﴾: الحجازية خبر ﴿إِنَّ﴾: على أن ﴿الواو﴾: عاطفة لا معية في قوله: ﴿وَمَا

تَعۡبُدُونَ﴾. ومفعول ﴿فاتنين﴾: محذوف؛ أي: أحداً. والمعنى: ما أنتم ولا معبودكم بفاتنين؛ أي: مفسدين عليه تعالى أحداً من عباده. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء من مفعول فاتنين المحذوف. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿صَالِ﴾: خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، وقد أفرد حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾: كما أفرد لفظ ﴿هُوَ﴾، كذلك ﴿الْجَحِيمِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿مِنَّآ﴾: خبر مقدم، والمبتدأ محذوف أقيمت صفته مقامه، والتقدير: وما كائن منا أحد إلا له مقام معلوم ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿مَقَامٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مَّعۡلُومٌ﴾: صفة ﴿مَقَامٌ﴾. والجملة الاسمية صفة للمبتدأ المحذوف. وما كائن منا إلا أحد موصوف بكون مقام معلوم له على حد قوله:

أَنَا ٱبْنُ جَلاَ وَطَلاَّعِ ٱلثَّنَايَا مَتَىٰ أَضَعِ ٱلْعِمَامَةَ تَعْرِفُوْنِيْ

ويجوز أن تكون ﴿مِنَّآ﴾: صفة لمحذوف هو المبتدأ، والخبر جملة ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾؛ أي: وما أحد كائن منا، إلا له مقام معلوم. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿مَقَامٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مَّعۡلُومٌ﴾: صفة ﴿مَقَامٌ﴾، والجملة خبر لذلك المحذوف.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَنَحۡنُ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿نَحۡنُ﴾: مبتدأ أو ضمير فصل، و﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾: خبر ﴿نَحۡنُ﴾، وجملة ﴿نَحۡنُ﴾: خبر ﴿إِنَّا﴾: أو ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾: خبر ﴿إِنَّا﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾. ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ معطوف أيضاً على الآية السابقة، ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِن﴾: مخففة من الثقيلة مهملة، أو اسمها ضمير الشأن، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لَيَقُولُونَ﴾: اللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿يقولون﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل

الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ المخففة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ المخففة معطوفة على ما قبلها. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب، ﴿عِندَنَا﴾: ظرف، ومضاف إليه، خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها، ﴿ذِكْرًا﴾ اسمها مؤخر. ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ صفة لـ﴿ذِكْرًا﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر، مرفوع على كونه فاعلاً لفعل محذوف بعد ﴿لَوْ﴾ الشرطية؛ لأن ﴿لَوْ﴾: الشرطية، لا يليها إلا الفعل، والتقدير: لو ثبت كون ذكر من الأولين عندنا. ﴿لَكُنَّا﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ خبره، ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ صفة لعباد الله، وجملة ﴿كَانَ﴾: جواب لـ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾. ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف، تقديره: فجاءهم ذكر أي ذكر ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾. ﴿كفروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿كفروا﴾، ﴿فَسَوْفَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس للاستقبال البعيد، ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿كفروا﴾.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿لِعِبَادِنَا﴾: متعلق بـ﴿سَبَقَتْ﴾. ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ صفة لـ﴿عبادنا﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَهُمُ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ جملة مفسرة لـ﴿كَلِمَتُنَا﴾، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿جُندَنَا﴾ اسمها، ﴿لَهُمُ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ المذكورة قبلها.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن النصر، والغلبة، والعاقبة لك، وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك: تول عنهم. ﴿تول﴾: فعل أمر، مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تول﴾، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تول﴾ أيضاً. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ومفعول به. معطوف على تول، ﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس. ﴿يُبْصِرُونَ﴾: فعل، وفاعل، والمفعول محذوف، تقديره: ما يحيق بهم جزاء كفرهم. والجملة معطوفة على جملة ﴿أبصرهم﴾ عطف إخبار على إنشاء. ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التعجبي، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أبعد هذا التكرير من الوعيد، ينكرون عذابنا، فيستعجلون به. ﴿بعذابنا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾، ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت هذا الوعيد المكرر لهم، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك إذا نزل. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿نَزَلَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على العذاب، ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿نزل﴾. والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَسَاءَ﴾ الفاء: رابطة لجواب إذا وجوباً لكون الجواب جملة جامدية، ﴿ساء﴾ فعل ماض لإنشاء الذم، ﴿صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فاعل، ومضاف إليه، والجملة جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: صباحهم، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَتَوَلَّ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على نظيرتها السابقة آنفاً. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: متعلق بـ﴿تول﴾ أيضاً. ﴿وَأَبْصِرْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ،

معطوف على ﴿تول﴾، وحذف المفعول اختصاراً لدلالة الأول عليه، ﴿فَسَوْفَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿سوف يبصرون﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿أبصر﴾.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبح ربك سبحاناً، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّكَ﴾: مضاف إليه، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾: بدل من ربك، بدل كل من كل. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سُبْحَٰنَ﴾، وجملة ﴿يَصِفُونَ﴾: صفة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: يصفونه به. ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿سلام﴾: مبتدأ، سوغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء به، ﴿عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: خبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ عطف إخبار على إنشاء؛ لأنه في معنى الإنشاء. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، معطوف على ما قبله، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة للجلالة أو بدل منه، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ من الاستفتاء، وهو طلب الفتوى، والفتوى، وكذا الفتيا: الجواب عما أشكل من الأحكام، يقال: استفتيته فأفتاني بكذا، والمراد بالاستفتاء هنا: الاستخبار. ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ الإناث ككتاب، جمع الأنثى، من أنث أنوثةً إذا ضعف، والألف في الأنثى، ألف التأنيث المقصورة، فلذلك لا يُصرف. ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ والإفك: أسوأ الكذب، وأقبحه، وأشده عقوبة. ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾ بفتح الهمزة على أنها همزة الاستفهام الإنكاري، دخلت على ألف الافتعال، أصله أاصطفى، فحذفت همزة الافتعال التي هي همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام. وأصل ﴿أَصْطَفَى﴾: اصتفى من الصفوة، قلبت تاء الافتعال طاء، لوقوعها بعد حرف الإطباق. والاصطفاء: أخذ صفوة الشيء لنفسه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ بحذف إحدى التاءين لثقل توالي المثلين، أصله: تتذكرون، إحداهما تاء المضارعة، والأخرى تاء المطاوعة.

﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ الجِنة بكسر الجيم: جماعة الجن، والملائكة أيضاً كما في «القاموس»، والمراد هنا: الملائكة، وسموا جنة لاجتنانهم، واستتارهم عن الأبصار، ومنه: سمي الجنين، وهو المستور في بطن الأم، والجنون، لأنه خفاء العقل، والجنة بالضم: الترس، لأنه يجن صاحبه، ويستره. والجنة بالفتح، لأنها كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض. فمن له اجتنان عن الأعين.. فهو جنس يندرج تحته الملائكة، والجن المعروف. قالوا: الجن واحد، ولكن من خبث من الجن، ومرد، وكان شراً فهو شيطان. ومن طهر منهم، ونسك، وكان خيراً فهو ملك. قال الراغب: يقال الجن على وجهين:

أحدهما: للروحانيين المستترة عن الحواس كلها، بإزاء الإنس، فعلى هذا يدخل فيه الملائكة والشياطين، فكل ملائكة جن، وليس كل جن ملائكة.

وقيل الثاني: بل الجن بعض الروحانيين. وذلك أن الروحانيين ثلاثة أقسام: أخيار وهم الملائكة، وأشرار وهم الشياطين، وأوساط فهم أخيار وأشرار وهم الجن. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

﴿نَسَبًا﴾ النسب، والنسبة: اشتراك من جهة الأبوين، وذلك ضربان:

نسب بالطول: كالاشتراك بين الآباء والأبناء.

ونسب بالعرض: كالنسبة بين الإخوة وبني العم. وقيل: فلان نسيب فلان؛ أي: قريبه.

﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ والفاتن هنا بمعنى: المضل والمفسد، يقال: فتن فلان على فلان امرأته؛ أي: أفسدها عليه، وأضلها حاملاً لها على عصيان زوجها، فعُدّي الفاتن بعلى لتضمينه معنى الحمل والبعث.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ صال بالكسر أصله: صالي على وزن فاعل

من الصلي، وهو الدخول في النار، يقال: صلي فلان النار يصلي صلياً من الباب الرابع، دخل فيها واحترق، فأعلّ كقاض، فترفعه بضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، فلما أضيف إلى الجحيم سقط التنوين، وأفرد حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾. والمعنى: داخل النار، ومعذب فيها.

﴿كَلِمَتُنَا﴾؛ أي: وعدنا. ﴿لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾؛ أي: الغالبون في الحرب، وغيرها. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾؛ أي: أتباع رسلنا. والجند: العسكر. وفي المصباح: الجند: الأنصار، والأعوان، والجمع أجناد، وجنود، والواحد جندي، فالياء للوحدة مثل: روم رومي، وجند بفتحتين: بلد باليمن، اهـ.

﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ قال الراغب: الساحة: المكان الواسع، ومنه: ساحة الدار، والسائح: الماء الجاري في الساحة، وساح فلان في الأرض مر مر السائح، ورجل سائح وسياح. وفي «حواشي ابن الشيخ»: الساحة: الفناء الخالي من الأبنية، وفناء الدار بالكسر ما امتد من جوانبها معداً لمصالحها، وجمعها سوح، فألفها منقلبة عن واو، فتصغر على سويحة. وفي «المصباح»: الفناء بوزن كتاب: الوصيد، وهو سعة أمام الدار وقيل: ما امتد من جوانبه، اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿الْبَنَاتِ﴾ ﴿الْبَنِينَ﴾.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾. وكان مقتضى السياق أن يقال: وجعلتم للإيذان بانقطاعهم عن درجة الخطاب، واقتضاء حالهم أن يُعرض عنهم، وتحكى جناياتهم لآخرين كما في «الكرخي».

ومنها: تتابع الاستفهامات، وتكراره في قوله: ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾، وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ وقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ للتقريع والتوبيخ.

ومنها: جمع المؤكدات لتحقيق المعنى، وتقريره في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾. فقد أكدت كل من الجملتين بأن، وباللام، وباسمية الجملة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾. فقد شبه العذاب النازل بهم، بعدما أنذروا به، فلم يبالوا الإنذار، وأصموا آذانهم عنه بجيش، أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم، فلم يكترثوا لإنذاره، ولم يتخذوا الأهبة والاحتياط حتى اجتاحهم جيش العدو، ففي الضمير المستتر في ﴿نَزَلَ﴾ استعارة بالكناية. والنزول: تخييل، كما في «البيضاوي».

ومنها: إقامة الظاهر مقام المضمر في قوله: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقال: فساء صباحهم.

ومنها: حذف مفعول ﴿أبصر﴾ الثاني إما اختصاراً لدلالة الأول عليه، وإما اقتصاراً، اهـ «سمين».

ومنها: إضافة رب إلى العزة في قوله: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ لاختصاصه بها، كأنه قيل: ذي العزة كما تقول: صاحب صدق لاختصاصه به.

ومنها: تعميم الرسل بالتسليم بعد تخصيص بعضهم في قوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما حوته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

١ ـ التوحيد، ودليله في الآفاق والأنفس.

٢ ـ خلق السموات والأرض، ووصفه سبحانه لذلك.

٣ ـ إنكار المشركين للبعث، وما يتبع ذلك من محاورة أهل الجنة لأهل النار، وهم يطلعون عليهم.

٤ ـ وصف الجنة، ونعيمها.

٥ ـ قصص بعض الأنبياء: كنوح، وإبراهيم، وإسماعيل.

٦ ـ دفع فرية قالها المشركون، وتوبيخهم عليها، إذ قالوا: الملائكة بنات الله.

٧ ـ تنزيه الله عن ذلك.

٨ ـ بيان أن المشركين لا يفتنون إلا ذوي الأحلام الضعيفة، المستعدة للإضلال.

٩ ـ وصف الملائكة بأنهم صافون مسبحون.

١٠ ـ مدح المرسلين، وسلام الله عليهم.

١١ ـ حمد الله، وثناؤه على نفسه، بأنه رب العزة، ورب الخلق أجمعين.

والله أعلم

* * *

سورة صٓ

سورة صٓ مكية، قال القرطبي عند الجميع. ويقال لها: سورة داود عليه السلام. وآيها ست، وقيل: ثمان وثمانون آية. وكلماتها: سبع مئة واثنتان وثلاثون كلمة. وحروفها: ثلاثة آلاف وسبعة وستون حرفاً، وقيل: تسعة وتسعون.

التسمية: واسمها: سورة صٓ، ويقال لها: سورة داود لذكر قصة داود فيها، وسميت سورة صٓ، وهو حرف من حروف الهجاء، إشارة إلى فضل هذا الكتاب المعجز، الذي تحدى الله به الأولين والآخرين، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال محمد بن حزم ـ رحمه الله ـ: سورة صٓ كلها محكم إلا آيتين:

أولهما: قوله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ الآية (٧٠) نسخت بآية السيف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ الآية (٨٨)، نسخت أيضاً بآية السيف.

فضلها: ومن فضائلها: ما روي[١] عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة صٓ.. كان له بوزن كل جبل سخّره الله لداود عشر حسنات، وعصمه أن يصر على ذنب صغير أو كبير». ولكن فيه مقال.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[٢]: أنها جاءت كالمتممة لها من وجهين:

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

١ ـ أنه ذكر فيها من قصص الأنبياء، ما لم يذكر في تلك كداود، وسليمان.

٢ ـ أنه بعد أن حكى فيما قبلها عن الكفار، أنهم قالوا: لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين، وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم.. بدأ عز اسمه هذه السورة بالقرآن ذي الذكر، وفصّل ما أجمله هناك من كفرهم.

وقال أبو حيان[١]: مناسبة هذه السورة لآخر ما قبلها، أنه لما ذكر عن الكفار، أنهم كانوا يقولون: لو أن عندنا ذكراً من الأولين؛ لأخلصوا العبادة لله، وأخبر أنهم أتاهم الذكر فكفروا به.. بدأ في هذه السورة بالقسم بالقرآن؛ لأنه الذكر الذي جاءهم، وأخبر عنهم أنهم كافرون، وأنهم في تعزز مشاقة للرسول الذي جاء به، ثم ذكر من أهلك من القرون، التي شاقّت الرسل ليتعظوا.

والله أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ (٢) كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن
قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ (٣) وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ (٤)
أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ (٥) وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ
هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ (٧) أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ
بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ (٨) أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ
(٩) أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ (١٠) جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ
مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ (١١) كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ
لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا
صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ (١٥) وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (١٦) ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا
يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ
(١٨) وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ (١٩) وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ (٢٠) ۞
وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ (٢١) إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ
خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَآ
أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ
بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ (٢٤) فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ
وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ (٢٥) يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ
بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا
نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ (٢٦)﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة، وآخر السابقة آنفاً.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما

قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنهم إنما توانوا، وتكاسلوا عن النظر والاستدلال، لأنهم لم ينزل بهم العذاب.. بيّن في هذه الآيات أن أقوام الأنبياء الماضين، كانوا كذلك حتى حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وفي هذا، تخويف لأولئك الكافرين، الذين كذبوا الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما تقدم، أن القوم إنما تعجبوا لشبهات تتعلق بالتوحيد، والنبوات، والمعاد.. فأشار إلى الأولى بقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، وإلى الثانية بقولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾. أشار هنا إلى الثالثة بقوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ سخريةً وتهكماً حين سمعوا بالمعاد، وأن هناك داراً أخرى يحاسبون فيها، ويجازون على ما يعملون، ثم أمر رسوله بالصبر على أذى المشركين، وعلى ما يقولون في شأنه من أنه شاعر، وأنه مفتر كذاب.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما أمر رسوله، بالصبر على أذى المشركين.. أردف ذلك، ذكر قصص بعض الأنبياء الذين حدث لهم من المشاق والأذى، مثل ما حدث له، فصبروا حتى فرّج الله تعالى عنهم، وأحسن عاقبتهم، ترغيباً له في الصبر وإيذاناً ببلوغه ما يريد، كما كان ذلك عاقبة من قبله.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه(١)، لما مدح داود، وأثنى عليه بما سلف.. أردف ذلك، ذكر نبأٍ عجيب من أنبائه، مشوقاً إليه السامع، ومعجباً له.

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما قص علينا قصص داود عليه السلام، والخصمين.. أردف ذلك، ببيان أنه فوّض إلى داود خلافة الأرض، وأوصاه بالحكم بين الناس

---

(١) المراغي.

بالحق، وعدم اتباع الهوى، حتى لا يضل عن سبيل الله، ثم ذكر أن من ضل عن سبيله فله شديد العذاب، وسوء المنقلب، إذ قد نسي يوم الحساب والجزاء.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات: ما أخرجه[1] ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقال: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث إليه. فجاء النبي ﷺ، فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، فخشي أبو جهل أن يجلس إلى أبي طالب ويكون أرق عليه، فوثب، فجلس في ذلك المجلس، فلم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك، يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول، قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ، فقال: يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية، ففزعوا لكلمته، ولقوله فقال القوم كلمة واحدة: نعم وأبيك لنعطينكها وعشراً، قالوا: فما هي؟ قال: لا إله إلا الله، فقاموا فزعين، ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾. فنزل فيهم: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿صٓ﴾ تقدم[2] الكلام في مثل هذا مراراً، وقلنا: إن هذه حروف يراد بها

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

تنبيه المخاطب، للإصغاء إلى ما يراد بعده من الكلام لأهميته. نحو: ألا ويا. وينطق بأسمائها فيقال: صاد بالسكون.

وقال الشوكاني: وقد اختُلف في معنى «صاد»، فقال الضحاك: معناه: صدق الله، وقال عطاء: صدق محمد ﷺ. وقال سعيد بن جبير: هو بحر يُحيي الله به الموتى بين النفختين. وقال محمد بن كعب: هو مفتاح اسم الله، صادق الوعد، صانع المصنوعات، صبور على ذنوب عباده، الصمد لحوائج عباده. وقال قتادة: هو اسم من أسماء الله تعالى، وروي عنه: أنه قال: هو اسم من أسماء القرآن. وقال مجاهد: هو فاتحة السورة، وقيل: هو مما استأثر الله بعلمه، وهذا هو الحق كما قدمنا في فاتحة سورة البقرة، قيل: وهو إما اسم للحروف مسروداً على نمط التعبد، أو اسم للسورة أو خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب بإضمار اذكر أو اقرأ.

وقرأ الجمهور[(١)]: ﴿صاد﴾ بسكون الدال، كسائر حروف التهجي في أوائل السور، فإنها ساكنة الأواخر على الوقف، وقرأ أبي بن كعب، والحسن، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم، وابن أبي عبلة، وأبو السمال «صاد» بكسر الدال من غير تنوين، والظاهر: أنه كسر لالتقاء الساكنين، وهو حرف من حروف المعجم، نحو: قَ، ونون. وقال الحسن: هو أمر من صادى يصادي إذا عارض والمعنى: صاد القرآن بعملك؛ أي: عارضه بعملك، وقابله فاعمل به، ومنه: الصدى، وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الصلبة، الخالية من الأجسام. وهذا حكاه النحاس عن الحسن البصري، وقال: إنه فسر قراءته هذه بهذا. وعنه: أن المعنى: أتله، وتعرض لقراءته، وعنه أيضاً: صاديت بمعنى: حادثت؛ أي: حادث. وهو قريب من القول الأول. وقرأ عيسى بن عمر، ومحبوب عن أبي عمر، وفرقة ﴿صاد﴾ بفتح الدال، والفتح لالتقاء الساكنين، طلباً للتخفيف، وكذا قرأ: ﴿قاف، ونون﴾ بفتح الفاء والنون، وقيل: انتصب على أنه مقسم به، حذف

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.

منه خرف القسم، نحوه: قوله: ألله لأفعلن، وهو اسم للسورة، وامتنع من الصرف للعلمية والتأنيث. وقيل: نُصب على الإغراء. وقيل: معناه: صاد محمد ﷺ قلوب الخلق، واستمالها حتى آمنوا به. وروي عن ابن أبي إسحاق أيضاً. أنه قرأ ﴿صادٍ﴾، بالكسر والتنوين، تشبيهاً لهذا الحرف بما هو غير متمكن من الأصوات. وقرأ هارون الأعور، وابن السميقع: ﴿صادُ﴾، بالضم من غير تنوين على البناء، نحو: منذ، وحيث، فجملة القراءات في ﴿صٓ﴾ خمس. والجمهور على السكون. قال ابن جرير الطبري: والصواب من القراءة في ذلك عندنا السكون؛ لأن ذلك القراءة التي جاء بها قرّاء الأمصار مستفيضة فيهم، وأنها حروف هجاء لأسماء المسميات، فيعربن إعراب الأسماء والأدوات الأصوات، فيسلك بهن مسالكهن، فتأويلها إذا كانت كذلك تأويل نظائرها التي تقدم بيانها فيما مضى، اهـ.

والواو في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ هي واو القسم. والإقسام بالقرآن فيه تنبيه على شرف قدره، وعلو منزلته. وفي المراد[1] بالذكر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الشرف؛ أي: والقرآن صاحب الشرف، والعظمة، والمنزلة كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: شرفكم؛ أي: أن من آمن به له شرف في الدارين، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والسدي.

والثاني: البيان؛ أي: والقرآن صاحب البيان؛ أي: الذي يبين ما يحتاج إليه في الدين من العقائد والأحكام، قاله قتادة.

والثالث: التذكير، والموعظة؛ أي: القرآن صاحب الموعظة والتذكير لمن اتعظ، قاله الضحاك، ورجح الطبري القول الثالث، وهو أنه بمعنى التذكير. قال: لأن الله تعالى أتبع ذلك قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾، فكان معلوماً بذلك، أنه إنما أخبر عن القرآن، أنه أنزله ذكراً لعباده ذكرهم به، وأن الكفار من الإيمان به في عزة وشقاق، اهـ. وقال ابن كثير: إن في هذا القرآن

---

(١) زاد المير.

لذكرى لمن يتذكر، وعبرةً لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾؛ أي: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾؛ أي: ومخالفة له، ومعاندة، ومفارقة، اهـ.

وقولنا: والواو في قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ للقسم إن جعل[1] ﴿صٓ﴾ اسماً للحرف ومذكوراً للتحدي أو للرمز بكلام، مثل: صدق محمد ﷺ، أو اسماً للسورة خبراً لمحذوف؛ أي: هذه السورة ﴿صٓ﴾، وللعطف إن جعل مقسماً به؛ أي: أقسمت بـ﴿صٓ﴾ وبالقرآن ذي الذكر، والجواب محذوف دل عليه ما في ﴿صٓ﴾ من الدلالة على التحدي، والتقدير؛ أي: أقسمت بـ﴿صٓ﴾ وبالقرآن ذي الذكر أنه لمعجز، أو الواجب العمل به، أو إن محمداً ﷺ لصادق. «وفي الشوكاني»: واختُلف في جواب هذا القسم ما هو؟. فقال الزجاج، والكسائي، والكوفيون، غير الفراء: إن الجواب قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾. وقال الفراء: لا نجده مستقيماً لتأخره جداً عن قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾. ورجح هو، وثعلب: أن الجواب قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾. ومعناه: لكم أهلكنا، فلما طال الكلام حذفت اللام، ومثله قوله: «والشمس وضحاها قد أفلح». فإن المعنى: لقد أفلح، غير أنه لما اعترض بينهما كلام تبعه قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾. وقال الأخفش: الجواب هو قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾. وقيل: الجواب هو صاد؛ لأن معناه: حق وثبت إرسالك أقسمت بالقرآن، أو حق واجب اتباعك أقسمت بالقرآن. أو المعنى: والقرآن ذي الذكر لقد صدق محمد ﷺ كقولك: وجب والله نزل والله، ذكره ابن الأنباري. وروي أيضاً عن ثعلب، والفراء. وهو مبني على أن جواب القسم، يجوز تقدمه، وهو ضعيف جداً. وقيل: الجواب محذوف، تقديره: أقسمت بالقرآن ذي الذكر ما الأمر كما يزعم الكفار. ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾، ذكره جماعة من المفسرين، وإلى نحوه ذهب قتادة. وهو الذي رجحه الطبري في تفسيره. وقال ابن عطية: والقول بالحذف أولى. وقيل: إن قوله: ﴿صٓ﴾ مقسم به، وعلى هذا القول تكون

---

(١) البيضاوي.

الواو في ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ للعطف عليه كما مر.

ومعنى الآية: أي أقسم[1] بالقرآن ذي الشرف والرفعة إنه لمعجز، وإن محمداً ﷺ لصادق فيما يدعيه من النبوة، وإنه مرسل من ربه إلى الأسود والأحمر، وإن كتابه لمنزل من عنده تعالى.

ولما كان الإقسام بالقرآن دالاً على صدقه، وأنه حق، وأنه ليس بمحل للريب.. قال سبحانه مبيناً للسبب الحقيقي في كفرهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلخ إضراب، وانتقال من قضية إلى أخرى. بيّن به سبب قولهم بتعدد الآلهة؛ أي: ليس الحامل لهم عليه الدليل، بل مجرد الحمية، والخصام، والشقاق، اهـ شيخنا. وكأنه قال: لا ريب فيه قطعاً، ولم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه، بل هم ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ عن قبول الحق؛ أي: في تكبر، وتجبر، وأنفة، وحمية جاهلية. وقرأ عمرو بن العاص، وأبو رزين، وابن يعمر، وعاصم الجحدري، ومحبوب عن أبي عمرو، وحماد بن الزبرقان، وسورة عن الكسائي، وميمون بن أبي جعفر ﴿في غرة﴾ بغين معجمة، وراء غير معجمة؛ أي: في غفلة عن قبول الحق ﴿وَشِقَاقٍ﴾؛ أي: مخالفة للحق، ومعاندة له، وامتناع عن قبوله، وعداوة عظيمة لرسوله ﷺ.

والمعنى: أي إن الذين كفروا من أهل مكة، لم يكفروا بهذا القرآن، لعدم وجدانهم فيه، ما يُصلح حالهم في دينهم ودنياهم، بل كذبوا به لاستكبارهم عن اتباع الحق، ومشاقتهم لرسوله ﷺ وحرصهم على مخالفته.

ثم حذرهم، وخوّفهم ما أهلك به الأمم قبلهم حين كذبوا رسلهم، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ ﴿كَمْ﴾ هي الخبرية الدالة على عدد كثير، وهي في محل نصب بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ على أنها مفعول به. و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ لابتداء الغاية. وقوله: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييز لكم الخبرية. والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد.

والمعنى: أهلكنا كثيراً من القرون الخالية، والأمم الماضية الذين كانوا

---

(١) المراغي.

أمنع من هؤلاء، وأشد قوة، وأكثر أموالاً بسبب تكذيبهم رسلهم واستكبارهم عن قبول الحق.

﴿فَنَادَوا﴾؛ أي: فدعوا، واستغاثوا بنا عند نزول بأسنا، وحلول نقمتنا، وعقوبتنا، أو تابوا، واستغفروا عند نزول العذاب بهم لينجوا من ذلك، ﴿و﴾ الحال أنه ﴿لات﴾ الحين، والزمن ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾؛ أي: زمن فرار، وفوت من عذابنا. وجملة ﴿لات﴾ حال من ضمير ﴿نادوا﴾؛ أي: نادوا واستغاثوا طلباً للنجاة، والحال أنه ليس الحين، والوقت حين مناص؛ أي: وقت فرار، وفوت، ونجاة من عذابنا لكونه حالة اليأس. فقوله: ﴿لات﴾: هي[1] لا المشبهة بليس، زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد، كما زيدت على رب وثم، وخصت[2] بنفي الأحيان، ولم يبرزوا إلا أحد معموليها اسمها أو خبرها. والأكثر حذف اسمها. وفي بعض التفاسير: ﴿لات﴾ بمعنى: ليس بلغة أهل اليمن، انتهى. والوقف عليها بالتاء عند الزجاج، وأبي علي، وعند الكسائي. نحو: قاعدة، وضاربة. وعند أبي عبيد على ﴿لا﴾، ثم يُبتدأ ﴿تحين مناص﴾، لأنه عنده أن هذه التاء تُزاد مع حين، فيقال: كان هذا تحين كان ذاك كذا.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ بفتح التاء، ونصب النون. وعلى قول سيبويه عملت عمل ليس، واسمها محذوف تقديره: ولات الحين حين فوات، ولا فرار. وعلى قول الأخفش يكون ﴿حِينَ﴾ اسم ﴿لات﴾، عملت عمل إن، نصبت الاسم ورفعت الخبر، والخبر محذوف تقديره: ولات حين مناص لهم. وقرأ أبو السمال ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ بضم التاء، ورفع النون. فعلى قول سيبويه ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ اسم ﴿لات﴾، والخبر محذوف. وعلى قول الأخفش مبتدأ، والخبر محذوف، وقرأ عيسى بن عمر ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ بكسر التاء، وجر النون. والذي ظهر لي في تخريج هذه القراءة الشاذة في جر ما بعد ﴿لات﴾ أن الجر هو على إضمار

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

﴿مِن﴾. كأنه قال: لات من حين مناص، كما جروا بها في قولهم: على كم جذع بيتك؛ أي: من جذع على أصح القولين، وكما قالوا: لا رجل جزاه الله خيراً. وقرأ عيسى أيضاً ﴿وَلَاتَ﴾ بكسر التاء، و﴿حِينَ﴾ بنصب النون، وتقدم تخريج نصب ﴿حين ولات﴾، روي فيها فتح التاء وضمها وكسرها.

والمعنى[1]: أي وكثير من الأمم قبلهم أهلكناهم، فاستغاثوا حين حل بهم العذاب، فلم يُغن ذلك عنهم شيئاً، فقد فات الأوان، وحل البأس، فليس الوقت وقت فرار وهرب من العقاب، ونحو الآية قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَٱرْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَعَجِبُوٓا﴾؛ أي: عجب كفار أهل مكة، الذين وصفهم الله تعالى، بأنهم في عزة وشقاق من ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: رسول ينذرهم، ويخوفهم من عذاب الله، إن استمروا على الكفر من جنسهم، بل أدون منهم في الرياسة الدنيوية، والمال على معنى: أنهم عدوا ذلك خارجاً عن احتمال الوقوع، وأنكروه أشد الإنكار، لا أنهم اعتقدوا وقوعه، وتعجبوا منه، قالوا: إن محمداً مساو لنا في الخلقة الظاهرة، والأخلاق الباطنة، والنسب، والشكل، والصورة فكيف يُعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي، ولم يتعجبوا من أن تكون المنحوتات آلهة، وهذه مناقضة ظاهرة.

فلما تحيروا في شأن النبي ﷺ، نسبوه إلى السحر والكذب، كما قال حكايةً عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر غضباً عليهم، وإيذاناً بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولونه، إلا المتوغلون في الكفر والفسوق ﴿هَٰذَا﴾ الرجل الذي يدّعي النبوة والرسالة ﴿سَٰحِرٌ﴾ فيما يُظهره من الخوارق ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يُسنده إلى الله من الإرسال، والإنزال. ولم يقل: كاذب لرعاية

---

(١) المراغي.

الفواصل، ولأن الكذب على الله ليس كالكذب على غيره، ولكثرة الكذب في زعمهم، فإنه يتعلق بكل آية من الآيات القرآنية، بخلاف إظهار الخوارق، فإنه قليل بالنسبة إليه. هكذا لاح لي هذا المقام.

ثم أنكروا ما جاء به ﷺ من التوحيد، وما نفاه من الشركاء لله. فقالوا: ﴿أَجَعَلَ﴾ محمد ﷺ ﴿ٱلْآلِهَةَ﴾ وصيّرها ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ وقصرها على الله سبحانه. والهمزة[1] فيه للإنكار، والاستبعاد. والآلهة: جمع إله، وحقه أن لا يجمع، إذ لا معبود في الحقيقة سواه تعالى، لكن العرب لاعتقادهم أن هٰهنا معبودات جمعوه، فقالوا: آلهة. و﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ مفعول ثان لجعل؛ لأنه بمعنى صيَّر؛ أي: صيرهم إلٰهاً واحداً في زعمه، وقوله: لا في فعله؛ لأن جعل الأمور المتعددة شيئاً واحداً بحسب الفعل محال؛ أي: أصيَّر محمد ﷺ بزعمه الآلهة إلهاً واحداً بأن نفى الألوهية عنهم، وقصرها على واحد؟ أيسعنا، ويكفينا إله واحد في حوائجنا كما يقول محمد ﷺ، ولم يعلموا أنهم جعلوا الإله الواحد آلهة. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ القول الصادر من محمد ﷺ، وهو التوحيد ﴿لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾؛ أي: لأمر بليغ في العجب، لأنه خلاف ما اتفق عليه آباؤنا إلى هذا الآن. والعُجاب بمعنى العجيب، كما سيأتي وهو الأمر الذي يتعجب منه كالعجب، إلا أن العجيب أبلغ منه، والعُجّاب بالتشديد أبلغ من العجاب بالتخفيف.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿عُجَابٌ﴾ مخففاً، وهو صيغة مبالغة كرجل طوال وسراع في طويل وسريع. وقرأ علي، والسلمي، وعيسى بن عمر، وابن مقسم ﴿عُجَّابٌ﴾ مشدداً، وقالوا: رجل عجّاب، وطعام طيّاب. وهو أبلغ من فعال المخفف.

وفي «فتح الرحمٰن»: قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ قاله هنا بالواو، وفي ﴿قٓ﴾ بالفاء حيث قال: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾؛ لأن ما هناك أشد اتصالاً منه هنا؛ لأن ما هنا متصل بما قبله اتصالاً معنوياً فقط، وهو أنهم عجبوا من مجيء المنذر، وقالوا: هذا ساحر

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

كذاب. وما في ﴿قٓ﴾ متصل بما قبله اتصالاً لفظياً ومعنوياً، وهو أنهم عجبوا عقب الإخبار عنهم بأنهم عجبوا، فقالوا: هذا شيء عجيب. فناسب فيه ذكر الفاء دون ما هنا، انتهى.

وحاصل معنى قوله: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم...﴾ إلى آخر الآيتين؛ أي: وما[1] كان أشد تعجبهم حين جاءهم بشر مثلهم يدّعي النبوة، ويدعو إلى الله، وليس له من الصفات الباطنة والظاهرة في زعمهم، ما يجعله يمتاز عنهم، ويختص بهذا المنصب، وتلك المنزلة الرفيعة. ومن ثم قالوا: ما هو إلا خدّاع كذّاب فيما ينسبه إلى الله من الأوامر والنواهي. ثم ذكر شبهتهم في إثبات كذبه من وجوه ثلاثة:

١ - ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا...﴾ إلخ؛ أي: أزعم أن المعبود إله واحد لا إله إلا هو. وقد أنكروا ذلك، وتعجبوا من ترك الشرك بالله، من أجل أنهم تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان، وأُشربته قلوبهم، فلما دعاهم إلى محو ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك، وتعجبوا منه، وقالوا: إن آباءهم على كثرتهم ورجاحة عقولهم، لا يُعقل أن يكونوا جاهلين مبطلين، ويكون محمد ﷺ وحده محقاً صادقاً. ولا شك أن هذا استبعاد فحسب، ولا مستند له من عقل ولا نقل.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾. وقد قدمنا في مبحث الأسباب، سبب نزول هذه الآية.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: وذهب الأشراف من قريش، وهم خمسة وعشرون نفراً عن مجلس أبي طالب. بعدما أسكتهم رسول الله ﷺ بالجواب الحاضر، وشاهدوا تصلبه ﷺ في الدين، وعزيمته على أن يُظهره على الدين كله، ويئسوا مما كانوا يرجونه، بتوسط أبي طالب من المصالحة، على الوجه المذكور

---

(١) المراغي.

فيما روي عن ابن عباس، كما سبق: أنه لما أسلم[1] عمر فرح به المسلمون فرحاً شديداً، وشق ذلك على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون نفراً من صناديدهم، ومشوا إلى أبي طالب، وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء، فجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ، وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال، فلا تمل كل الميل على قومك، فقال ﷺ: ماذا يسألونني؟ قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا، وندعك وإلهك، فقال ﷺ: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أتعطونني أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟. قالوا: نعم. فقال: قولوا: لا إله إلا الله فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ كيف يكفينا إله واحد في حوائجنا كما يقول محمد ﷺ؟. إن هذا لشيء عجاب. وانطلق الملأ، والرؤساء. منهم: عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث عن مجلس أبي طالب.

﴿أَنِ﴾ مفسرة للمقول المدلول عليه بالانطلاق؛ لأن الانطلاق عن مجلس التقاول لا يخلو عن القول؛ أي: وانطلق الملأ منهم، حالة كونهم يقول بعضهم لبعض على وجه النصيحة: ﴿ٱمْشُوا۟﴾ أي: سيروا على طريقتكم، وامضوا. وليس المراد بالمشي: المتعارف، بل الاستمرار على الشيء، اهـ كرخي. فلا فائدة في مكالمة هذا الرجل. وحكى المهدوي: أن قائلها عقبة بن أبي معيط. وقال الزمخشري: ويجوز أنهم قالوا: امشوا؛ أي: اكثروا، واجتمعوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها، ومنه: الماشية للتفاؤل، انتهى.

قلت: وهذا بعيد من السياق. وقرأ ابن أبي عبلة بحذف ﴿أَنِ﴾ من قوله: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: اذهبوا. ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾؛ أي: واثبتوا على عبادة آلهتكم، متحملين لما تسمعونه في حقها من القدح.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن الكفار إذا تراضوا فيما بينهم بالصبر

---

(١) المراح.

على آلهتهم فالمؤمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم، والاستقامة في دينهم، بل الطالب الصادق، والعاشق الوامق أولى بالصبر والثبات على قدم الصدق، في طلب المحبوب المعشوق.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ تعليل للأمر بالصبر، ولوجوب الامتثال به؛ أي: إن هذا الذي شاهدناه من محمد ﷺ من أمر التوحيد، ونفي آلهتنا، وإبطال أمرنا ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ من جهته ﷺ إمضاؤه، وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه، لا قول يقال من طرف اللسان، أو أمر يرجى فيه المسامحة بشفاعة أو امتناع، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله عن رأيه، بواسطة أبي طالب، وشفاعته، وحسبكم أن لا تمنعوا من عبادة آلهتكم بالكلية، فاصبروا عليها، وتحملوا ما تسمعونه في حقها من القدح، وسوء المقالة، هذا ما ذهب إليه أبو السعود في «الإرشاد».

وقال في «تفسير الجلالين»: إن هذا لأمر يراد بنا، ومكر يُمكر علينا، وقال سعدي المفتي: وسنح بالبال، أنه يجوز أن يكون المراد، أن دينكم لشيء يستحق أن يطلب، ويعض عليه بالنواجذ، فيكون ترغيباً وتعليلاً للأمر السابق. وقال «صاحب الروح»: ويجوز أن يكون المعنى: إن الصبر والثبات على عبادة الآلهة التي هي الدين القديم يراد منكم، فإنه أقوى ما يُدفع به أمر محمد ﷺ، كما قالوا: نتربص به ريب المنون، فيكون موافقاً لقرينه في الإشارة إلى المذكور فيما قبله. أو إن شأن محمد ﷺ، لشيء يراد دفعه، وإطفاء نائرته بأي وجه كان، قبل أن يعلو ويشيع، كما دل عليه اجتماعهم على مكره ﷺ مراراً، فأبى الله إلا أن يُتم نوره.

ومعنى الآية[1]: أي وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب، بعد ما بكَّتهم رسول الله ﷺ، وشاهدوا تصلبه في الدين، ويئسوا مما كانوا يرجون منه بوساطة عمه، يتحاورون بما جرى، ويقلبون وجوه الرأي فيما يفعلون، ويقولون:

---

(١) المراغي.

اثبتوا على عبادتها متحملين القدح فيها والغض من شأنها والاستهزاء بأمرها، ثم عللوا الأمر بالصبر، بما شاهدوا من تصلبه ﷺ، فقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾؛ أي: إن هذا لأمر عظيم، يريد محمد ﷺ إمضاءه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه، لا قول يقال من طرف اللسان، أو يرجى فيه المسامحة بشفاعة إنسان، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم، واصبروا على عبادة آلهتكم.

ثم ذكروا أيضاً ما ظنوا أن فيه إبطالاً لدعواه، فقالوا:

٢ - ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ وهي ملة النصارى، فإنهم يقولون بالتثليث، ويزعمون أنه الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام، وحاشاه وإنما خصوا النصرانية؛ لأنها آخر الأديان المعروفة لديهم من أديان أهل الكتاب، وقوله: ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ ظرف لغو لـ﴿سمعنا﴾.

وقيل المعنى: ما سمعنا بهذا الذي يقوله محمد ﷺ، من التوحيد في الملة الآخرة؛ أي: في الملة التي أدركنا عليها آباءنا، وهي ملة قريش ودينهم الذي هم عليه. فإنها متأخرة عما تقدم عليها من الأديان والملل. وفيه إشارة إلى ركون الجهال إلى التقليد والعادة، وما وجدوا عليه أسلافهم من الضلال وأخطاء طريق العبادة. والملة كالدين اسم لما شرع الله تعالى لعباده، على لسان أنبيائه، ليتوصلوا به إلى ثواب الله. فإطلاق كل منهما على طريقة المشركين، مجاز مبني على التشبيه، كما سيأتي.

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم: ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى: ما أي: ما ﴿هَٰذَا﴾ الذي يقوله محمد ﷺ من التوحيد ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾؛ أي: كذب اختلقه من عند نفسه لا حقيقة له، وليس له مستند من دين سماوي، ولا من عقل فيما يزعمون.

ثم أخذوا ينكرون اختصاص محمد ﷺ بالوحي، وهو مثلهم، أو أدون منهم في الشرف والرياسة فيما يزعمون، فقالوا:

٣ - ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على محمد ﷺ ﴿ٱلذِّكْرُ﴾؛ أي: القرآن، والوحي ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾؛ أي: دوننا، والاستفهام فيه للإنكار، والاستبعاد؛ أي: كيف يكون

ذلك ونحن رؤساء الناس، وأشرافهم، وأكبرهم سناً، وأكثرهم أموالاً وأعواناً، وأحقاء بكل منصب شريف؟. ومرادهم: إنكار كون القرآن ذكراً، منزلاً من الله تعالى، وأمثال هذه المقالات الباطلة، دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد، على اختصاصه ﷺ بشرف النبوة من بينهم، وحرمانهم منه، وقصر النظر على متاع الدنيا، وغلطوا في القصر، والقياس.

أما الأول: فلأن الشرف الحقيقي، إنما هو بالفضائل النفسانية دون الخارجية.

وأما الثاني: فلأن قياس نفسه ﷺ بأنفسهم فاسد. إذ هو روح الأرواح، وسيد الخليقة، فأنى يكون هو مثلهم؟. وأما الصورة الإنسانية فميراث عام من آدم عليه السلام، لا تفاوت فيما بين شخص وشخص، نعم، وجهه ﷺ كان يلوح منه أنوار الجمال، بحيث لم يوجد مثله فيما بين الرجال.

فإن قلت: لم قال هنا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ بلفظ ﴿أَءُنزِلَ﴾؟ وقال: في سورة القمر: ﴿أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾ بلفظ ﴿ألقي﴾؟. فما الفرق بين الموضعين؟

قلت: فما هنا حكاية عن كفار قريش، فناسب التعبير بـ﴿أنزل﴾ لوقوعه إنكاراً لما قرأه النبي ﷺ عليهم، من قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾. وما في القمر حكاية عن قوم صالح، وكانت الأنبياء تلقي إليهم صحفاً مكتوبة، فناسب التعبير بـ﴿ألقي﴾. وقدم الجار والمجرور على الذكر هنا، موافقة لما قرأه النبي ﷺ على المنكرين، وعكس في القمر جرياً على الأصل، من تقديم المفعول بلا واسطة على المفعول بواسطة، اهـ من «فتح الرحمٰن».

والمعنى[(١)]: أي إنه من البعيد أن يختص محمد ﷺ، من بيننا، بإنزال القرآن عليه، وفينا ذو الجاه والشرف والرياسة والكياسة. كما حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. ثم نعى عليهم

---

(١) المراغي.

تعرضهم لهذا التفضيل، وإعطاء النبوة لمن يريدون فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾. فهذا منهم دليل على الجهل، وقلة العظة.

ثم ذكر أن سبب الاستبعاد هو الشك في أمر القرآن، وميلهم إلى التقليد فقال: ﴿بَلْ هُمْ﴾؛ أي: كفار قريش ﴿فِي شَكٍّ﴾ وريب ﴿مِّن ذِكْرِي﴾؛ أي: من القرآن الذي أنزلت على رسولي، أو من الوحي إليه يرتابون فيه لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه، وإهمالهم للأدلة، الدالة على أنه حق منزل من عند الله تعالى. والإخبار بأنهم في شك، يقتضي كذبهم في قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَٰقٌ﴾. وليس في عقيدتهم ما يجزمونه، فهم مذبذبون بين الأوهام، ينسبونه تارةً إلى السحر، وأخرى إلى الاختلاق.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أن القرآن قديم؛ لأنه سماه الذكر ثم أضافه إلى نفسه، ولا خفاء بأن ذكره قديم؛ لأن الذكر المحدث يكون مسبوقاً بالنسيان، وهو تعالى منزه عنه.

أي: بل هم في شك، من تلك الدلائل التي لو تأملوا فيها، لزال هذا الشك عنهم، إذ هي دالة بأنفسها على صحة نبوته، ولكنهم حين تركوا النظر والاستدلال، لم يصلوا إلى الحق في أمره.

ثم ذكر: أن سبب هذا الشك، هو الحسد لمجيء النبوة إليه من بينهم، وسيزول حين مجيء العذاب، فقال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾؛ أي: بل السبب في شكهم، أنهم لم يذوقوا عذابي، فاغتروا بطول المهلة، ولو ذاقوا عذابي على ما هم عليه من الشرك والشك.. لصدقوا ما جئت به من القرآن، ولم يشكوا فيه.

والخلاصة: أنهم لا يصدقون إلا أن يمسهم العذاب، فيضطروا حينئذ إلى التصديق بذكري. وفي ذكر ﴿لَّمَّا﴾[2] دلالة على أن ذوقهم العذاب على شرف الوقوع؛ لأنها للتوقع؛ أي: بل لم يذوقوا بعد عذابي، فإذا ذاقوه تبين لهم حقيقة

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

الحال. وفيه تهديد لهم؛ أي: سيذوقون عذابي فيلجئهم إلى تصديق الذكر حين لا ينفع التصديق. وفيه إشارة إلى أنهم مستغرقون في بحر عذاب الطرد والبعد، ونار القطيعة، لكنهم عن ذوق العذاب بمعزل، لغلبة الحواس إلى أن يكون يوم تبلى السرائر. فتغلب السرائر على الصور، والبصائر على البصر، فيقال لهم: ذوقوا العذاب يعني: كنتم معذبين وما كنتم ذائقي العذاب. فالمعنى: لو ذاقوا عذابي، ووجدوا ألمه لما أقدموا على الجحود، دل على هذا قوله ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

ثم أنكر عليهم استبعاد نبوة محمد ﷺ، وطلبهم نبوة غيره من صناديد قريش، فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ ﴿أَمْ﴾[1] منقطعة تقدر ببل وبهمزة الإنكار. والخزائن: جمع خزانة بالكسر بمعنى المخزن والمستودع؛ أي: بل أعندهم مفاتيح خزائن رحمة ربك يا محمد، ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يغالب ﴿الْوَهَّابِ﴾؛ أي: المعطي بغير حساب، أو الذي له أن يهب كل ما يشاء لمن يشاء، يتصرفون فيها حسبما يشاؤون، حتى يصيبوا بها من شاؤوا، ويصرفوها عمن شاؤوا، ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم، فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم. والمعنى: أن النبوة عطية من الله تعالى يتفضل بها على من يشاء من عباده، لا مانع له.

والمعنى: أي بل أيملكون خزائن رحمة الله، القهار لخلقه الكثير المواهب لهم، المصيب بها مواقعها، فيتصرفوا فيها بحسب ما يريدون، ويمنحوها من يشاؤون ويصرفوها عمن لا يحبون، ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم. فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم.

والخلاصة: أن أمر النبوة ليس بأيديهم، بل بيد العليم بكل شيء ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. ونحو الآية قوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

---

(١) روح البيان.

ثم ارتقى إلى ما هو أشد في الإنكار، فأمرهم أمر تهكم بارتقاء الأسباب. فقال: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: بل ألهم ملك هذه الأشياء، حتى يعطوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا، ويعترضوا على إعطاء الله سبحانه ما شاء لمن شاء. وقوله: ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جواب شرط محذوف؛ أي: إن كان لهم ملك ذلك فليصعدوا في الأسباب، والطرق التي توصلهم إلى السماء، أو إلى العرش، حتى يحكموا بما يريدون من عطاء ومنع، ويدبروا أمر العوالم بما يشتهون، أو فليصعدوا ويمنعوا الملائكة من نزولهم بالوحي على محمد ﷺ، والأسباب: أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها، قاله مجاهد، وقتادة. ومنه: قول زهير:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ ٱلْمَنَايَا يَنَلْنَهُ وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ ٱلسَّمَاءِ بِسُلَّمِ

قال الربيع بن أنس: الأسباب: أدق من الشعر، وأشد من الحديد، ولكن لا تُرى.

والمعنى: أي بل ألهم ملك هذه الأجرام العلوية، والأجرام السفلية حتى يتكلموا في الشؤون الغيبية، ويفكروا في التدابير الإلهية التي يستأثر بها رب العزة والكبرياء، فإن كان الأمر كما يزعمون، فليصعدوا في المعارج والمناهج، التي يُتوصل بها إلى العرش، حتى يستووا عليه، ويدبروا أمر العالم، ويُنزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون، حتى يُظن صدق دعواهم، إذ لا سبيل إلى التصرف فيه إلا بذلك. وفيه من التهكم بهم ما لا غاية وراءه.

والخلاصة[1]: أنه ليس لهم شيء من ذلك، فلا سبيل لهم إلى توزيع رحمة الله تعالى، بحسب ما يريدون، وإعطاء النبوة لمن يشاؤون. فذلك من شؤونه تعالى، فهو الذي يُفضل من يشاء من عباده على من يشاء.

ثم وعد سبحانه، نبيه بالنصر والغلبة عليهم، فقال: ﴿جُندٌ﴾ هو جمع معد للحرب ﴿مَا﴾ مزيدة للتقليل والتحقير، نحو: أكلت شيئاً ما ﴿هُنَالِكَ﴾ مركب من

---

(١) المراغي.

ثلاث كلمات[1]:

إحداها: ﴿هنا﴾: وهو اسم إشارة للمكان القريب.

والثانية: اللام وهي للتأكيد.

والثالثة: الكاف وهي للخطاب. قالوا واللام فيها كاللام في ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الدلالة على بعد المشار إليه. فجند خبر مبتدأ محذوف، و﴿مَا﴾: زائدة أو صفة لـ﴿جند﴾، و﴿هُنَالِكَ﴾: ظرف ﴿مَهْزُومٌ﴾؛ أي: مغلوب مكسور. وهو صفة ثانية لـ﴿جند﴾. و﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ صفة ثالثة لـ﴿جند﴾؛ أي: هم[2] جند حقيرون ضعيفون من المتحزبين على رسول الله ﷺ سيصيرون منهزمين في الموضع الذي ذكروا فيه تلك الكلمات، وذلك الموضع هو مكة، وذلك الانهزام يوم فتح مكة، فكيف يكونون مالكي السموات والأرض وما بينهما؟. ومن أين لهم التصرف في الأمور الربانية.

والمعنى[3]: أي هؤلاء الذين يقولون هذه المقالة، ويوزعون رحمة ربك، بحسب أهوائهم هم جند كثير من الكفار المتحزبين على المؤمنين، مغلوبون في الوقائع التي ستكون بينك وبينهم، وستنتصر عليهم، كما حدث في بدر وغيرها. فأنى لهم تدبير الأمور الغيبية، والتصرف في الخزائن الربانية؟. وهذا خبر من الله تعالى لنبيه ﷺ، وهو بمكة، ولم يكن له يومئذ جند أنه سيهزم جند المشركين، فجاء تأويله يوم بدر وغيره من المواقع، وهذا من أعظم المعجزات، وأدل الدلائل على نبوة محمد ﷺ، وصدق كتابه، وأنه من عند الله تعالى لا من عند البشر، وهذا الكلام متصل بما تقدم وهو قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾. هم جند من الأحزاب مهزومون، فلا تحزن لعزتهم وشقاقهم، فإني أسلب عزهم، وأهزم جمعهم، وقد وقع ذلك، ولله الحمد في يوم بدر، وفيما بعده من مواطن الله تعالى.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

ثم ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات الآتية: ستة أقوام من الذين كذبوا رسلهم، وما آل إليه أمرهم لتكون ذكرى لأولئك المكذبين من قومه، فيرعووا عن غيهم، ويثوبوا إلى رشدهم. فقال:

١ - ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل قومك يا محمد. وهم قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وأنّث الفعل باعتبار المعنى. لأنهم بمعنى: أمة، وطائفة، وجماعة؛ أي: كذبوا نوحاً رسلهم وقد دعاهم إلى الله وتوحيده ألف سنة إلا خمسين عاماً. وقالوا: إنه مجنون، وهزؤوا به. وكلما ألحف في الدعوة، زادوا عتواً وعناداً. فدعا ربه، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾. فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. ونجى الله نوحاً، ومن آمن معه، كما قال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤)﴾.

٢ - ﴿وَ﴾ كذبت أيضاً قبلهم ﴿عاد﴾ وهم قوم هود رسولهم هوداً، فكذبوه، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، كما قال في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)﴾ الآيات.

٣ - ﴿وَ﴾ كذب ﴿فرعون﴾ وقومه رسولهم موسى بن عمران. وقد بعث الله إليهم موسى، وأيده بآياته التسع، فأصر على الجحود والعناد، وبغى، وتجبر، وقال: أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ونجى موسى وقومه بني إسرائيل، كما قال في سورة يونس: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ الآيات. وقوله: ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾؛ أي: صاحب الأوتاد صفة لـ﴿فرعون﴾، جمع وتد بفتح الواو وكسر التاء بزنة كتف، وهو ما غرز في الأرض أو الحائط من خشب، قال المفسرون: لقب بذلك؛ لأنه كانت له أوتاد يعذب بها الناس، وذلك أنه كان إذا غضب على أحد ينصب أربع خشب في الهواء، وكان يمد يدي المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الأربع، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً من حديد، ويتركه في الهواء حتى يموت، وقال مجاهد: كان يمد

المعذب مستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض، ويشد رجليه ويديه ورأسه على الأرض بالأوتاد. وقال السدي: ويرسل عليه العقارب والحيات. وقال بعضهم: وهذا المعنى أنسب لما ذكروه في قصة آسية، امرأة فرعون، في سورة التحريم، من أنها لما آمنت بموسى عليه السلام، أوتد لها فرعون بأوتاد في يديها ورجليها، كما سيأتي هناك. وقيل: المراد بالأوتاد: الجموع، والجنود الكثير، سموا بذلك، لأنهم كانوا يقوون أمره، ويشدون سلطانه كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه، فالكلام خارج مخرج الاستعارة، على هذا القول قال ابن قتيبة: العرب تقول: هم في عز ثابت الأوتاد، وملك ثابت الأوتاد، يريدون ملكاً دائماً شديداً؛ لأنه استقام له الأمر أربع مئة سنة من غير منازع. ويكفي دليلاً على كثرة جموع فرعون: أنه قال في حق بني إسرائيل: إن هؤلاء لشرذمة قليلون، مع أنهم كانوا ينيفون على ست مئة ألف مقاتل سوى الصغير والشيخ، ووجه تخصيص هذه الاستعارة: أن أكثر بيوت العرب كانت خياماً، وثباتها بالأوتاد.

٤ - ﴿و﴾ كذبت قبلهم ﴿ثمود﴾ وهم قوم صالح رسولهم صالحاً عليه السلام، أرسل الله سبحانه إليهم صالحاً، وكانت الناقة له آيةً، فكذبوه، فعقروها. فأرسل عليهم صاعقة، فأهلكتهم، وجعلتهم كهشيم المحتظر، كما ذكر في سورة القمر قصتهم. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

٥ - ﴿و﴾ كذبت قبلهم ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾ رسولهم لوطاً عليه السلام، فكذبوه، فأرسل الله عليهم حاصباً، كا ذكره في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾. قال مجاهد: كانوا أربع مئة ألف بيت، في كل بيت عشرة. وقال عطاء: ما من أحد من الأنبياء، إلا ويقوم معه يوم القيامة قوم من أمته، إلا لوطاً فإنه يقوم وحده. كما في «كشف الأسرار».

٦ - ﴿و﴾ كذبت قبلهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾؛ أي: أصحاب الغيضة رسولهم شعيباً، وهم قوم شعيب. أرسله الله إليهم فكذبوه، فأهلكهم كما ذكرهم في سورة الحجر: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾. والأيكة: الشجر

الملتف بعضه على بعض لكثرته. قيل: نسبوا إلى الأيكة لأنهم كانوا يسكنونها. وقيل: هي اسم بلد لهم. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ بدل[1] من الطوائف المذكورة؛ أي: كذب أولئك المذكورون المتحزبون؛ أي: المجتمعون على تكذيب أنبيائهم ورسلهم الذين أرسلوا إليهم، أو المعنى: أولئك المذكورون من الأمم هم الأحزاب، الذين تحزبوا على تكذيب أنبيائهم، كما تحزب على تكذيبك قومك. ولكن هؤلاء الذين قصهم الله علينا من الأمم السالفة، هم أكثر منهم عدداً، وأقوى أبداناً، وأوسع أموالاً وأعماراً. ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف؛ أي: هؤلاء الذين تحزبوا على الرسل، كالأحزاب الذين تحزبوا عليك.

وقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ كلام مستأنف جيء به تهديداً لما يعقبه. و﴿إِنَّ﴾: نافية. والمعنى: ما كان حزب من أولئك الأحزاب، إلا كذب جميع الرسل؛ لأنه تكذيب الحزب لرسوله المرسل إليه، تكذيب لجميع الرسل. أو المعنى[2]: ما كل حزب وجماعة من أولئك الأحزاب، إلا كذب رسوله على نهج مقابلة الجمع بالجمع، لتدل على انقسام الآحاد على الآحاد، كما في قولك: ركب القوم دوابهم. والاستثناء مفرّغ من[3] أعم الأحكام في حيز المبتدأ؛ أي: ما كل واحد منهم محكوم عليه بحكم، إلا محكوماً عليه بأنه كذب الرسل. أو من[4] أعم الأحوال؛ أي: ما كل أحد من الأحزاب في جميع أحواله، إلا وقع منه تكذيب الرسل. ويجوز[5] أن يكون قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾: مبتدأ، وقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾: خبره محذوف الرابط. والمعنى: أولئك الأحزاب ما كل واحد منهم إلا كذب الرسل. ﴿فَحَقَّ﴾؛ ثبت، ووقع، ووجب

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.
(٥) روح البيان.

على كل منهم ﴿عقابِ﴾ي الذي كانت جناياتهم، توجبه من أصناف العقوبات المفصلة في مواقعها، فأهلك الله قوم نوح بالغرق والطوفان، وقوم هود بالريح، وفرعون وقومه بالغرق، وقوم صالح بالصيحة، وقوم لوط بالخسف، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة.

والمعنى: أي إن كل هذه الأمم الخالية، والقرون الماضية وقد كانوا أشد من قومك هؤلاء، أهل مكة، كذبوا أنبياءهم، فحل بهم العذاب، فكيف بهؤلاء الضعفاء، إذا نزل بهم ما لا قبل لهم به من عذابي؟. وفي الآية زجر وتخويف للسامعين. وقرأ يعقوب[1]: ﴿عقابي﴾ بإثبات الياء، وحذفها الباقون مطابقة لرؤوس الآي.

وفي «فتح الرحمٰن»[2]: ختم أواخر آياته هنا، بما قبل آخره ألف، وآيات قوله في ﴿قٓ﴾: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ بما قبل آخره ياء، أو واو، موافقةً لبقية فواصل السورتين، انتهى.

ثم بيّن عقاب كفار قريش إثر بيان عقاب أضرابهم، فقال: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الإشارة إلى كفار مكة بهؤلاء تحقير لشأنهم، وتهوين لأمرهم، أي: وما ينتظر هؤلاء الكفرة، من أهل مكة، الذين هم أمثال أولئك الطوائف المذكورة المهلكة في الكفر والتكذيب ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخة الثانية؛ أي: ليس بينهم وبين حلول ما أُعد لهم من العقاب الفظيع إلا هي، حيث أُخرت عقوبتهم إلى الآخرة لما أن تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه، والنبي ﷺ بين أظهرهم خارج عن السنة الإلهية: المبنية على الحكم الباهرة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

ثم إن[3] الانتظار يحتمل أن يكون حقيقةً أو استهزاءً، فهم وإن كانوا ليسوا بمنتظرين، لأن تأتيهم الصيحة إلا أنهم جُعلوا منتظرين لها تنبيهاً على قربها منهم،

---

(١) الشوكاني.

(٢) فتح الرحمٰن.

(٣) روح البيان.

فإن الرجل إنما ينتظر الشيء، ويمد طرفه إليه مترقباً في كل آن حضوره، إذا كان الشيء في غاية القرب منه.

وجملة قوله: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ صفة ثانية لـ﴿صَيْحَةً﴾. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿مِن فُوَاقٍ﴾ بضم الفاء. وقرأ الباقون: بفتحها. وهما لغتان فيه؛ أي: ما للصيحة من توقف وتأخر مقدار فواق إذا جاءت. ففي الكلام حذف، والفواق بالضم كغراب، ويُفتح كما في «القاموس»: ما بين حلبتي الحالب من الزمن؛ لأن الناقة تحلب أولاً. ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل، لإدرار اللبن، ثم تُحلب ثانية. يعني: إذا جاء وقت الصيحة، لم تستأخر هذا القدر من الزمان، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾. فالفواق: عبارة عن الزمان اليسير. وفي الحديث: «من اعتكف قدر فواق، فكأنما أعتق رقبة من ولد إسماعيل». وفي الحديث: «من قاتل في سبيل الله، فواق ناقة وجبت له الجنة».

﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: قال كفار مكة بطريق الاستهزاء والسخرية عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة. والقائل[1]: النضر بن الحرث بن علقمة بن كندة الخزاعي، وأضرابه، وكان النضر من شياطينهم، ونزل في شأنه في القرآن بضع عشرة آيةً، وهو الذي قال: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿رَبَّنَا﴾ وتصدير دعائهم بالنداء للإمعان في الاستهزاء، كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال. ﴿عَجِّل لَّنَا﴾، أي: أسرع لنا ﴿قِطَّنَا﴾؛ أي: نصيبنا، وحظنا من العذاب ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: قبل يوم المحاسبة، وهو يوم القيامة على ما زعمه محمد ﷺ، والقط في الأصل: القطعة من الشيء، والمراد هنا: النصيب والحظ؛ لأنه قطعة من الشيء مفرزة، فالمعنى: عجّل لنا قسطنا، وحظنا، ونصيبنا من العذاب الذي توعدنا به محمد ﷺ، ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحة المذكورة، ويقال لصيحة الجائزة أيضاً: قط؛ لأنها قطعة من القرطاس. فالمعنى عليه: عجّل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها.

---

(١) روح البيان.

قال سهل بن عبد الله التستري رحمة الله عليه: لا يتمنى الموت إلا ثلاثة: رجل جاهل بما بعد الموت، أو رجل يفر من أقدار الله تعالى، أو مشتاق محب لقاء الله تعالى، انتهى. وقال إسماعيل بن أبي خالد[1]: المعنى: عجل لنا أرزاقنا، وبه قال سعيد بن جبير. ومعنى الآية: سؤالهم لربهم أن يعجل لهم نصيبهم، وحظهم من العذاب. وهو مثل قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾، وقال السدي: سألوا ربهم أن يمثل لهم منازلهم من الجنة، ليعلموا حقيقة ما يوعدون به.

ومعنى الآية: أي وقالوا استهزاء وسخرية حين سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة: ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدتنا به، ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحة.

ولما بلغ الكفار في السفاهة على رسول الله ﷺ الغاية، إذ قالوا: إنه ساحر كذاب، وقالوا: ربنا عجل لنا قطنا.. أمره الله سبحانه وتعالى بالصبر على سفاهتهم، فقال: ﴿ٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: على ما يقوله كفار قومك لك مما تكره من مقالاتهم الباطلة، التي من جملتها، قولهم في تعجيل العذاب: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا...﴾ إلخ. فإنا ممتحنوك بالمكاره، كما امتحنا سائر من أرسلنا من قبلك، ثم عاجلوا الظفر لك على من كذبك وشاقك سنتنا في الرسل، الذين أرسلناهم إلى عبادنا من قبلك، وهذه الآية منسوخة بآية السيف.

ثم شرع في ذكر قصص لجملة من الأنبياء: كداود، وسليمان، وأيوب، وغيرهم، والقصد به تسليته ﷺ؛ أي: اذكر ما حصل لهم من المشاق والمحن، فصبروا حتى فرّج الله عنهم، فصارت عاقبتهم أحسن عاقبة، فكذلك أنت تصبر، ويؤول أمرك إلى أحسن مآل، اهـ «نهر».

قصص داود عليه السلام

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد من الذكر القلبي؛ أي: تذكر بقلبك، أو من الذكر

---

(١) الشوكاني.

اللساني؛ أي: واذكر لقومك قصة داود؛ أي: وتذكر يا محمد ﴿عَبْدَنَا﴾ المخصوص بعنايتنا القديمة ﴿دَاوُدَ﴾ بن ايشا، من سبط يهودا بن يعقوب عليه السلام، بينه وبين موسى عليه السلام، خمس مئة وتسع وستون سنة، وقام بشريعة موسى، وعاش مئة سنة. ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾؛ أي: صاحب القوة في الدين القائم بمشاقه وتكاليفه. وفي «الكواشي»: ويجوز أن يراد القوة في الجسد والدين، انتهى.

والمعنى: اذكر قصته، فإنك تجد فيها ما تتسلى به؛ أي: تذكر قصته ومن نفسك عن أن تترك ما كُلفت به من مصابرتهم، وتحمل أذاهم، لئلا يلقاك من المعاتبة مثل ما وقع لداود .اهـ «أبو السعود».

واعلم: أنه تعالى ذكر أولاً قوة داود في أمر الدين، ثم زلته بحسب القضاء الأزلي، ثم توبته بحسب العناية السابقة، وأمره ﷺ بتذكر حاله، وقوته في باب الطاعة، ليتقوى على الصبر، ولا يزل عن مقام استقامته، وتمكينه كما زل قدم داود، فظهرت المناسبة بين المسندين، واتضح وجه عطف و﴿اذكر﴾ على ﴿ٱصْبِرْ﴾.

وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل لكونه ذا الأيد، من الأوب، وهو الرجوع؛ أي: وإنما وصفناه بالقوة في الدين؛ لأنه كان رجاعاً إلى الله ومرضاته سبحانه؛ أي: رجاعاً عن كل ما يكره الله إلى ما يحب الله سبحانه وتعالى، فهو تعليل لكونه ذا الأيد، ودليل على أن المراد به: القوة في أمر الدين، وما يتعلق بالعبادة لا قوة البدن؛ لأن كونه راجعاً إلى مرضاة الله تعالى، لا يستلزم كونه قويّ البدن. وقد روي: أنه لم يكن جسيماً كسائر الأنبياء، بل قصير القامة، وأكثر القوى البدنية كان فيمن زاده الله بسطةً في جسمه.

وفي «التأويلات النجمية»: تشير الآية إلى كماليته في العبودية، بأنه لم يكن عبد الدنيا، ولا عبد الآخرة، وإنما كان عبدنا خالصاً مخلصاً، وله قوة في العبودية ظاهراً وباطناً، فأما قوته ظاهراً، فبأنه قتل جالوت، وكثيراً من جنوده بثلاثة أحجار رماها عليهم، وأما قوته في الباطن، فلأنه كان أواباً، وقد سرت أوابيته في الجبال والطير، فكانت تؤوب معه، انتهى. ومن قوة عبادته كان يصوم

يوماً، ويفطر يوماً، وكان ينام النصف الأول من الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه.

ومعنى الآية: أي واذكر يا محمد لقومك، قصة عبدنا داود ذي القوة في الطاعة، والفقه في الدين، فقد كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر.

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ولا يفر إذا لاقى». وإنما كان هذا النوع أحب، لأن النفس إذا نامت الثلثين من الليل تكون أخف، وأنشط في العبادة، وقيل معناه: ذو القوة في الملك. وإنه كان رجاعاً إلى الله تعالى في جميع شؤونه، فكان كلما ذكر، ذنبه، أو خطر على باله، استغفر الله تعالى، قال النبي ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مئة مرة»، وأخرج البخاري في تاريخه عن أبي الدرداء، قال: كان النبي ﷺ، إذا ذكر داود، وحدّث عنه، قال: «كان أعبد البشر»، وأخرج الديلمي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: إني أعبد من داود».

ثم عدد سبحانه نعمه عليه، فقال:

١ - ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾؛ أي: ذللناها مع داود، و﴿مع﴾ متعلق بالتسخير، وإيثارها على اللام لكون تسخير الجبال له عليه السلام، لم يكن بطريق تفويض التصرف فيها إليه، كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام، لكون سيرها معه، بطريق التبعية له، والاقتداء به، فتكون ﴿مع﴾ على حالها، ويجوز أن تكون ﴿مع﴾ متعلقة بما بعدها، وهو قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾. وجملة التسبيح، حال من الجبال؛ أي: حالة كون الجبال يقدسن الله سبحانه مع داود، وينزهنه عما لا يليق به من النقائص، وفي هذا، بيان ما أعطاه الله تعالى، من البرهان والمعجزة، وهو

---

(١) روح البيان.

تسبيح الجبال معه، ولم يقل: مسبحات، للدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال، قال في «كشف الأسرار»: كان داود يسمع، ويفهم تسبيح الجبال على وجه تخصيصه به، كرامةً له، ومعجزة، انتهى. واختلفوا في كيفية التسبيح، فقيل: بصوت يتمثل له، وهو بعيد، وقيل: بلسان الحال، وهو أبعد. وقيل: بخلق الله في جسم الجبل، حياة وعقلاً وقدرة ونطقاً، فحينئذ يسبح الله معه، كما يسبح الأحياء العقلاء، وهذا قول أهل الظاهر. وقال مقاتل: كان داود، إذا ذكر الله، ذكرت الجبال معه. انتهى. والظاهر: أن تسبيح الجبال مع داود على حقيقته، لكن لما كان على كيفية مخصوصة، وسماعه على وجه مخصوص، خارج عن العقول.. كان من معجزات داود عليه السلام وكراماته، وقد سبق مراراً تحقيق هذا المقام بما لا مزيد عليه.

وقوله: ﴿بِالْعَشِيِّ﴾؛ أي: في آخر النهار ﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾؛ أي: في أول النهار. متعلق بـ﴿يُسَبِّحْنَ﴾. ووقت الإشراق حين تشرق الشمس؛ أي: تضيء ويصفو شعاعها، وهو وقت الضحى، وأما شروقها فطلوعها، يقال: شرقت الشمس، ولما تشرق، فكان داود يسبح عقب صلاته، عند طلوع الشمس، وعند غروبها، وقوله: ﴿وَالطَّيْرَ﴾ معطوف على ﴿الْجِبَالَ﴾. وقوله: ﴿مَحْشُورَةً﴾ حال من الطير، والعامل فيه ﴿سَخَّرْنَا﴾؛ أي: وسخرنا الطير معه، حال كونها محشورة، مجموعة إليه من كل جانب، وناحية، وكانت الملائكة تحشر إليه ما امتنع عليه منها، كما في «كشف الأسرار»: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان داود، إذا سبح، جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبحت، وذلك حشرها. وقيل: كانت تجمعها الريح إليه، وإنما لم يراع المطابقة بين الحالين، بأن يقال: والطير يحشرن؛ لأن الحشر جملةً أدل على القدرة منه، متدرجاً كما يفهم من لفظ المضارع، وليس مراداً، لأنه لم يرد أنها تحشر شيئاً فشيئاً، إذ حاشرها، هو الله تعالى، فحشرها جملة واحدة، أدل على القدرة، ذكره أبو حيان.

﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل واحد من الجبال والطير ﴿لَّهُۥ﴾؛ أي: لأجل داود؛ أي: لأجل تسبيحه. فهو على حذف المضاف. ﴿أَوَّابٌ﴾؛ أي: رجاع إلى التسبيح، إذا

سبح، سبحت الجبال، والطير معه، ووضع الأواب موضع المسبح؛ لأنها كانت ترجع التسبيح، والمرجع رجّاع؛ لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع، والفرق بينه وبين ما قبله وهو ﴿يُسَبِّحْنَ﴾: أن ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يدل على الموافقة في التسبيح، وهذا يدل على المداومة عليها، وقيل: الضمير في ﴿لَّهُۥٓ﴾ لله؛ أي: كل من داود، والجبال، والطير، لله أواب، أي: مسبح لله، مرجع التسبيح له. وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ بنصبهما كما مر بيان وجهه، وقرأ ابن أبي عبلة، والجحدري ﴿وَٱلطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ﴾ برفعهما مبتدأ وخبراً.

روي: أن الله تعالى لم يعط أحداً من خلقه ما أعطى داود، من حسن الصوت، فلما وصل إلى الجبال ألحان داود، تحركت من لذة السماع، فوافقته في الذكر والتسبيح، ولما سمعت الطيور نغماته، صفرت بصفير التنزيه والتقديس، ولما أصغت الوحوش إلى صوته، دنت منه حتى كانت تؤخذ بأعناقها، فقبل الكل فيض المعرفة، والحالة بحسب الاستعداد، ألا ترى إلى الهدهد، والبلبل، والقمري، والحمامة، ونحوها، فالتأثر، والحركة، والبكاء، ونحوها، ليست من خواص الإنسان فقط، بل إذا نظرت بنظر الحقيقة، وجدتها في الحيوانات، بل في الجمادات أيضاً، لكونها أحياءً بالحياة الحقيقة.

قال بعضهم[2]: سبحت الجبال، وكذا الطير، لتسبيح داود، ليكون له عملها؛ لأن تسبيحها، لما كان لتسبيحه منتشأ منه، لا جرم، يكون ثوابه عائداً إليه، لا إليها، لعدم استحقاقها لذلك، بخلاف الإنسان فإنه إذا وافقه إنسان آخر في ذكره وتسبيحه، أو عمل بقوله.. يكون له مثل ثواب ذكره وتسبيحه، لأحيائه وإيقاظه له، فهو صيده وأحق به، وتخصيص العشي والإشراق لما فيهما من زيادة ظهور أنوار قدرته، وآثار بركة عظمته، ولأن وقت الإشراق، وقت إقبال المخلوقات إلى طلب الأرزاق والمعاش، ووقت العشي، وقت إقبال المصلين إلى المناجاة، وعرض الحاجات على رب البريات.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي إنه تعالى، سخر الجبال تسبح معه حين إشراق الشمس، وآخر النهار، وتسبيحها معه، تقديسها لله سبحانه بحال، تليق بها، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر، يدل على اختصاصهما بمزيد شرف العبادة فيهما، فإن لفضيلة الأزمنة والأمكنة أثراً، في فضيلة ما يقع فيهما من العبادات، وسخرنا له الطير، حال كونها محبوسة في الهواء، تسبح بتسبيحه، فإذا مر به الطير وهو سابح في الهواء، وسمعه يترنم بقراءة الزبور.. يقف ويسبح معه.

وفي هذا إيماء إلى ما لداود من حسن الترتيل، والصوت المتقبل، الذي يعجب منه الحيوان الأعجم، فما بالك بالإنسان؟!. ثم أكد ما سلف من تسخيرها له فقال: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي: كل من الجبال، والطير، مرجاع إلى أمره، يسبح تبعاً له.

٢ - ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾؛ أي: قوينا ملكه بكثرة الجنود، وبسطة الثراء والهيبة، ونفوذ الكلمة، والنصر على الأعداء، قيل: كان أربعون ألفاً لابسي درع يحرسونه، فإذا أصبح قيل: ارجعوا، فقد رضي عنكم نبي الله، وكان نبينا ﷺ يحرس أيضاً، إلى نزول قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ومن ذلك أخذ السلاطين الحرس في السفر والحضر، فلا يزالون يحرسونهم في الليالي، ولهم أجر في ذلك، وقرأ الجمهور: ﴿وَشَدَدْنَا﴾ مخففاً. والحسن، وابن أبي عبلة بشد الدال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه ادعى رجل على آخر بقرة، وعجز عن إقامة البينة، فأوحى الله تعالى، إلى داود عليه السلام: أن اقتل المدعي إليه. فأعلم الرجل فقال: صدقت يا نبي الله، إن الله لم يأخذني بهذا الذنب، ولكن إني قتلت أبا هذا الرجل غيلة، فقتله داود، فقال الناس: إن أذنب أحد ذنباً أظهره الله عليه فقتله، فهابوه وعظمت هيبته في القلوب، والغِيلة بالكسر: هو أن يخدع شخصاً، فيذهب به إلى موضع، فإذا صار إليه قتله.

٣ - ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: وأعطينا داود عليه السلام الحكمة؛ أي:

---

(١) المراغي.

العلم النافع، والإتقان للعمل. فهو لا يقدم على عمل، إلا إذا عرف موارده، ومصادره مباديه، وغاياته على نحو ما قال الشاعر:

قَدِّرْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ ٱلْخَطْوِ مَوْضِعَهَا   فَمَنْ عَلاَ زَلَقاً عَنْ غِرَّةٍ زَلَجَا

أو العلم للأشياء على ما هي عليه، والعمل بمقتضاه، إن كان متعلقاً بكيفية العمل، واعلم: أن الحكمة نوعان:

أحدهما: الحكمة المنطوق بها، وهي علم الشريعة.

والثاني: الحكمة المسكوت عنها، وهي أسرار الحقيقة التي لا يطلع عليها عوام العلماء، على ما ينبغي، فيضرهم أو يهلكهم، كما روي: أن رسول الله ﷺ كان يجتاز في بعض سكك المدينة مع أصحابه، فأقسمت عليه امرأة أن يدخلوا منزلها، فدخلوه فرأوا ناراً موقدة، وأولاد المرأة يلعبون حولها، فقالت: يا نبي الله، الله أرحم بعباده، أم أنا بأولادي؟ فقال النبي ﷺ: «بل الله أرحم، فإنه أرحم الراحمين». فقالت: يا رسول الله، أتُراني أحب أن ألقي ولدي في النار؟ فقال: «لا» فقالت: فكيف يُلقي الله عبيده فيها، وهو أرحم الراحمين بهم؟. قال الراوي: فبكى رسول الله ﷺ، فقال: «هكذا أوحي إلي».

٤ ـ ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾؛ أي: الخطاب الفاصل بين الحق والباطل، والكلام المبين للحق، أو الخطاب المفصول؛ أي: الكلام الملخص المبين الذي ينبه المخاطب على المرام من غير إلباس، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والفصل إما بمعنى الفاعل أو المفعول أو الإفصاح، والبيان في الخطاب والكلام؛ أي: البيان بحقيقة الأمر، وقطع القضايا والأحكام باليقين من غير ارتياب، ولا شك، ولا توقف، فيكون بمعنى فصل الخصام بتبيين الحق وتمييزه من الباطل، والفصل على حقيقته، وأريد بالخطاب: المخاصمة لاشتمالها عليه.

والمعنى[1]: أي وألهمناه حسن الفصل في الخصومات بما يستبين به وجه الحق بلا جنف، ولا ميل مع الهوى، وهذا يحتاج إلى فضل كبير في العلم،

---

(١) المراغي.

ومزيد في الحلم، وتفهم أحوال الخصوم، ورباطة الجأش، وعظيم الصبر، والذكن الذي لا يتوافر لكثير من الناس.

وقال الشعبي[1]: ﴿فصل الخطاب﴾ هو قوله: أما بعد. وهو أول من قال: أما بعد، فإن من تكلم في الأمر الذي له شأن.. يفتتح بذكر الله، وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له.. فصل بينه وبين ذكر الله بقوله: أما بعد.

قضية من قضاياه التي حكم فيها

ولما مدح الله سبحانه وتعالى داود عليه السلام، بما تقدم ذكره.. أردف ذلك بذكر هذه القصة الآتية، لما فيها من الأخبار العجيبة، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ وجاءك، ووصلك يا محمد ﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾؛ أي: خبر تحاكم الخصم، وترافعهم إلى داود عليه السلام، والاستفهام هنا معناه: التعجب، والتشويق، إلى استماع ما في حيزه، للإيذان بأنه من الأخبار البديعة، التي حقها أن لا تخفى على أحد. والنبأ: الخبر العظيم الشأن. والخصم بمعنى: المخاصم، وأصل المخاصمة: أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر، بضم الخاء؛ أي: بجانبه، ولما كان الخصم في الأصل، مصدراً متساوياً إفراده، وجمعه أطلق على الجمع في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟﴾؛ أي: إذ تسور الخصوم، وصعدوا أعلى سور الحصن، وحائطه، ونزلوا منه، ودخلوا ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾؛ أي: ودخلوا بعد نزولهم من فوق السور البيت، الذي كان داود يجلس فيه، ويشتغل بعبادة ربه، يقال: تسور المكان، إذا علا سوره، وسور المدينة: حائطها المحيط بها، وقد يطلق على حائط مرتفع، وهو المراد هنا. والمراد من المحراب: البيت الذي كان داود عليه السلام، يدخل فيه، ويشتغل بطاعة ربه، قيل: كان ذلك البيت غرفة، وسمي ذلك البيت محراباً، لاشتماله على المحراب، على طريقة تسمية الشيء بأشرف أجزائه، و﴿إِذْ﴾ متعلقة بمحذوف، وهو التحاكم الذي قدرنا أولاً؛ أي: هل أتاك نبأ تحاكم الخصم، إذ تسوروا المحراب؛ أي: تصعدوا سور الغرفة، ونزلوا إليه.

---

(١) النسفي.

والمراد بالخصم المتسورين: جبرائيل، وميكائيل بمن معهما من الملائكة على صورة المدعي، والمدعى عليه، والشهود، والمزكين من بني آدم.

﴿إِذْ دَخَلُوا﴾؛ أي: الخصوم ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على داود. والظرف بدل من الظرف الأول. ﴿فَفَزِعَ﴾ داود، وخاف ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من المتسورين عليه، وإنما فزع منهم، لأنهم أتوه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم، ودخلوا عليه بغير إذنه، ولم يدخلوا من الباب الذي يدخل منه الناس، لأنه كان مغلقاً، ودخلوا عليه، وهو يتعبد في البيت بغتة من فوق؛ أي: من غير الباب على خلاف العادة. قال ابن الأعرابي: وكان محراب داود من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يرتقي إليه إدمي بحيلة.

وفيه[1] إشارة إلى كمال ضعف البشرية، مع أنه كان أقوى الأقوياء، إذ فزع منهم، ولعل فزع داود، كان لاطلاع روحه على أنه تنبيه له، وعتاب فيما سلف منه، كما سيأتي.

وجملة قوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قالوا لداود حين فزع منهم؟؛ أي: فلما رأوه فزعاً، قالوا إزالة لفزعه، وخوفه: لا تخف منا. قال في «التأويلات النجمية»: يشير إلى أنه لا تخف من صورة أحوالنا، فإنا جئنا لتحكم بيننا بالحق، ولكن خف من حقيقة أحوالنا. فإنها كشف أحوالك، التي جرت بينك وبين خصمك أوريا.

وارتفاع ﴿خَصْمَانِ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: نحن فريقان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصماً تجوزاً.

والحاصل: أنه أطلق لفظ الخصم فيما سبق على الجمع بدليل ﴿تسورا﴾، وهنا بلفظ التثنية. لما ذكرنا أولاً من أن لفظ الخصم يحتمل المفرد، والمثنى، والمجموع، وهو جائز؛ أي: وثني هنا بتأويل الفريق، وهم وإن لم يكونوا فريقين بل شخصين اثنين، بدليل أن هذا أخي، الآية، لكن جعل مصاحب الخصم

---

(١) روح البيان.

خصماً، فكانا بمن معهما فريقين من الخصوم، فحصل الانطباق بين صيغة التثنية في قوله: ﴿خَصْمَانِ﴾، وبين ما مر من إرادة الجمع، وقرأ أبو يزيد الجراد عن الكسائي ﴿خصمان﴾ بكسر الخاء.

وقوله: ﴿بَغَىٰ﴾ واعتدى ﴿بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هو على سبيل الفرض والتقدير، وعلى سبيل التعريض لداود، لا على تحقيق البغي من أحدهما، فلا يلزم الكذب، إذ الملائكة منزهون عنه، فلا يحتاج إلى ما قيل: إن المتخاصمين كانا لصين دخلا عليه للسرقة، فلما رآهما اخترعا الدعوى، كما في «شرح المقاصد» ﴿فَٱحْكُم﴾ يا داود ﴿بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾؛ أي: ولا تجر في الحكومة. وهو تأكيد للأمر بالحكم بالحق. والمقصود من الأمر والنهي الاستعطاف. ﴿وَٱهْدِنَآ﴾؛ أي: وأرشدنا يا داود ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾؛ أي: إلى الصراط السوي، والطريق الحق، واحملنا عليه بزجر الباغي عما سلكه من طريق الجور، وإرشاده إلى منهاج العدل.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ مفكوكاً من أشط الرباعي. وقرأ أبو رجاء، وابن أبي عبلة، وقتادة، والحسن، وأبو حيوة ﴿تشطط﴾ من شط الثلاثي. وقرأ قتادة أيضاً: ﴿تشط﴾ مدغماً من أشط الرباعي. وقرأ زيد: ﴿تشاطط﴾ بضم التاء، وبالألف، على وزن تفاعل مفكوكاً. وعن قتادة أيضاً: ﴿تشطط﴾ من شطط المضعف، ذكره أبو حيان في «البحر».

والمعنى[1]: أي هل علمت ذلك النبأ العجيب، نبأ الجماعة الذين تسلقوا سور غرفة داود، ودخلوا عليه وهو مشتغل بعبادة ربه، في غير وقت جلوسه للحكم، وحين رآهم فزع منهم، ظناً منه أنهم جاؤوا لاغتياله، إذ كان منفرداً في محرابه للعبادة، فقالوا له: لا تخف منا، نحن اثنان جار بعضنا على بعض، فاحكم بيننا حكماً عادلاً، ولا تجر، واهدنا إلى الطريق السوي، ولا تشطط في الحكومة.

ثم فصلوا موضع الخصومة، فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾ الحاضر معي

---

(١) المراغي.

﴿أَخِي﴾ في الدين أو في الصحبة، والتعرض لذلك، تمهيد لبيان كمال قبح ما فعل به صاحبه، وقال أبو حيان[1]: والأخوة هنا مستعارة، إذ هما ملكان، لكنهما لما ظهرا في سورة إنسانين تكلما بالأخوة، ومجازها أنها أخوة في الدين، والإيمان، أو على معنى الصحبة، والمرافقة، أو على معنى الشركة والخلطة، لقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾، وكل واحدة من هذه الأخوات تقتضي منع الاعتداء، ويندب إلى العدل، والقائل منهما هذا الكلام، هو المدعي منهما. و﴿أخي﴾ عطف بيان عند ابن عطية، وبدل أو خبر ﴿لإن﴾ عند الزمخشري.

﴿لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ﴾ قرأ الجمهور: ﴿تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ﴾ بكسر التاء فيهما، وقرأ الحسن، وزيد بن علي: بفتحها. وقرأ الجمهور: ﴿نَعۡجَةٗ﴾ بفتح النون، والحسن، وابن هرمز: بكسر النون، وهي لغة لبعض بني تميم، وهي لغة شاذة، والنعجة: هي الأنثى من الضأن، وقد يكنى بها عن المرأة. قال الواحدي: النعجة: البقرة الوحشية، والعرب تكني عن المرأة بها، وتشبه النساء بالنعاج، والكناية[2] والتعريض أبلغ في المقصود، وهو التوبيخ، فإن حصول العلم بالمعرض به يحتاج إلى تأمل، فإذا تأمله، واتضح قبحه.. كان ذلك أوقع في نفسه، وأجلب لخجالته وحيائه.

وعني بهذا داود؛ لأنه كان له تسع وتسعون امرأة، وعنى بقوله: «ولي نعجة واحدة» أوريا زوج المرأة التي أراد أن يتزوجها داود، كما سيأتي بيان ذلك، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿ولي﴾ بفتح الياء، والباقون بإسكانها على الأصل. ﴿فَقَالَ﴾ الأخ لي: ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾؛ أي: أكفلني هذه النعجة الواحدة؛ أي: ضمها لي إلى ما عندي، وأنزل لي عنها حتى أكفلها، وأضمها إلى ما عندي، وأصير بعلاً لها، قال ابن كيسان: اجعلها كفلي ونصيبي بالتنازل عنها، وفي «الروح»: أي ملكنيها، وحقيقته؛ أي: اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، والكافل؛ هو الذي يعولها وينفق عليها وعزني أي غلبني في الخطاب أي: في مخاطبته، ومحاورته إياي، محاجة بأن جاء بحجاج، لم أقدر على رده، وعن ابن عباس

---

(١) البحر المحيط.   (٢) روح البيان.

ـ رضي الله عنهما ـ: كان أعز مني، وأقوى على مخاطبتي، لأنه كان الملك، فالمعنى: كان أقدر على الخطاب لعزة ملكه، كما في الوسيط، أو غلبني بعزه، وسلطانه، أو أراد[1] خطيب المرأة؛ أي: خطبها هو وخطبتها أنا، وعزني في الخطاب؛ أي: غلبني في خطبتها حيث زوجها دوني، وقرأ أبو حيوة، وطلحة ﴿وعزني﴾ بتخفيف الزاي. قال أبو الفتح: حذف الزاي الواحدة تخفيفاً. وقرأ[2] ابن مسعود، وعبيد بن عمير، وأبو وائل، ومسروق، والضحاك، والحسن: ﴿وعازني في الخطاب﴾ بألف وتشديد الزاي؛ أي: غالبني من المعازة، وهي المغالبة.

والمعنى: أي إن أخي هذا يملك تسعاً وتسعين نعجة، ولي نعجة واحدة، فقال: ملكنيها، وغلبني في المحاجة، فجاء بحجج لم أطق لها رداً، ولا دفعاً. قال أبو حيان: والظاهر، إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها، من كونها أنثى الضأن، ولا يكنى بها عن المرأة، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك؛ لأن ذلك الإخبار، كان صادراً من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة، والفرض لها من غير تلبس بشيء منها، فمثلوا بقصة رجل له نعجة، ولخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمة المائة، فطمع في نعجة خليطه، وأراد انتزاعها منه، وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾، وهذا التصوير، والتمثيل أبلغ في المقصود، وأدل على المراد انتهى.

ثم ذكر سبحانه حكم داود في الواقعة بقوله: ﴿قَالَ﴾ داود بعد اعتراف المدعى عليه، أو على تقدير صدق المدعي، وإلا فالمسارعة إلى تصديق أحد الخصمين، قبل سماع كلام الآخر لا وجه له، وفي الحديث: «إذا جلس إليك الخصمان، فلا تقض لأحدهما، حتى تسمع من الآخر»، وقيل[3]: الكلام على تقدير أي: لئن كان ما تقول، لقد ظلمك. وقيل: ثم حذف؛ أي: فأقر المدعى عليه، فقال: لقد ظلمك، ولكنه لم يحك في القرآن اعتراف المدعى عليه، لأنه

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني. (٣) البحر المحيط.

معلوم من الشرائع كلها، إذ لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدعى عليه؛ أي: قال داود للمدعي: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ أخوك. جواب قسم محذوف، قصد به ـ عليه السلام ـ المبالغة في إنكار فعل صاحبه، وتهجن طمعه، في نعجة من ليس له غيرها، مع أن له قطيعاً منها؛ أي: والله لقد ظلمك أخوك ﴿بِسُؤَالِ﴾ إضافة ﴿نَعْجَتِكَ﴾ الواحدة ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ التسع والتسعين. والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله، وتعديته إلى مفعول آخر بـ﴿إلى﴾ لتضمنه معنى الإضافة والضم، كأنه قيل: بضم نعجتك إلى نعاجه على وجه السؤال والطلب. قال النحاس: ويقال: إن خطيئة داود هي قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾؛ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبَّت، وفي هذا إشارة، إلى أن الظلم في الحقيقة من شيم النفوس، فإن وجدت ذا عفة، فالعلة كما قال يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ الآية، فالنفوس جُبلت على الظلم، والبغي، وسائر الصفات الذميمة، ولو كانت نفوس الأنبياء عليهم السلام، كذا في «التأويلات النجمية»، يقول الفقير: هذا بالنسبة إلى أصل النفوس وحقيقتها، وإلا فنفوس الأنبياء مطمئنة، لا أمارة، كما مر بسط الكلام على ذلك، في سورة يوسف.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾؛ أي: الشركاء الذين خلطوا أموالهم، جمع خليط كظريف وظرفاء، والخلطة: الشركة، وقد غلبت في الماشية ﴿لَيَبْغِى﴾؛ أي: ليتعدى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ويظلمه غير مراع لحق الصحبة والشركة، وهذا من كلام داود، يدل على أن زمانه كان فيه الظلم والاعتداء كثيراً، وقرىء ﴿ليبغي﴾ بفتح الياء، على تقدير حذف النون الخفيفة، وأصله: ليبغين كقوله: إضرب عنك الهموم طارقها. يريد اضربن. ويكون على هذا القراءة، على تقدير قسم محذوف، ذلك القسم وجوابه خبر لـ﴿إن﴾. وعلى قراءة الجمهور يكون: ﴿لَيَبْغِى﴾ خبراً لـ﴿إن﴾. وقرىء ﴿ليبغ﴾ بحذف الياء كقوله: محمد تفد نفسك كل نفس؛ أي: تفدى على أحد القولين. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ منهم. فإنهم يجتنبون عن البغي، والعدوان ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾؛ أي: وهم قليل، فهم مبتدأ، و﴿قليل﴾ خبره قدم عليه للاهتمام به، وإنما أفرد تشبيهاً بفعيل، بمعنى مفعول. و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد القلة، أو للإبهام أو التعجب من قلة الموصوفين بالإيمان، وصالح العمل. ﴿وَظَنَّ

دَاوُۥدُ﴾؛ أي: علم وأيقن داود ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ و﴿مَا﴾ كافة زائدة؛ أي: علم داود أنا فتناه، واختبرناه بهذه الواقعة؛ لأنها جارية مجرى الامتحان. والظن هنا مستعار للعلم الاستدلالي لما بينهما من المشابهة، يعني: أن الظن الغالب لما كان يقارب العلم استُعير له، فالظن يقين، لكنه ليس بيقين عيان، فلا يقال فيه: إلا العلم.

والمعنى[1]: وعلم داود بما جرى في مجلس الحكومة، إنما فعلنا به الفتنة والامتحان لا غير، بتوجيه الحصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى ما يغايره من الأفعال، فتنبه لذلك ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لذنبه إثر ما علم أن ما صدر منه ذنب، كما استغفر آدم عليه السلام بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ إلخ، وموسى عليه السلام بقوله: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾، وغيرهما من الأنبياء الكرام، على ما بُيّن في موضعه.

والمعنى: أنه عند ما تخاصما إليه، وقال ما قال، علم عند ذلك أنه المراد، وأن مقصودهما التعريض به، وبصاحبه الذي أراد أن ينزل له عن امرأته، قال الواحدي: قال المفسرون: فلما قضى داود بينهما، نظر أحدهما إلى صاحبه، فضحك، فعند ذلك علم داود بما أراداه. ورأى أنهما تحولا إلى صورتهما، وذهبا، وعرجا نحو السماء بمرأى منه، وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه، فعلم داود أنه إنما عُني به.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَتَنَّٰهُ﴾ بتخفيف التاء، وتشديد النون. وقرأ عمر بن الخطاب، وأبو رجاء، والحسن: بخلاف عنه، بتشديد التاء والنون جميعاً مبالغة، وقرأ الضحاك ﴿أفتناه﴾ كقوله: لئن فتنتني لهي بالأمس أفتنت. وقرأ قتادة، وأبو عمرو في رواية، وعبيد بن عمير، وابن السميقع: ﴿افتناه﴾ بتخفيفهما، والألف ضمير الخصمين.

وقد اختلف المفسرون في ذنب داود، الذي استغفر له، وتاب منه على أقوال:

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

منها: ما روي[1]: أن جماعة من الأعداء، طمعوا في أن يقتلوا نبي الله، داود عليه السلام، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه، ويشغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم، وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً يمنعونه منهم، فخافوا فوضعوا كذباً، فقالوا: ﴿خَصْمَانِ﴾؛ أي: نحن فريقان إلى آخر القصة. فعلم عليه السلام غرضهم، فهمّ أن ينتقم منهم، فاستغفر ربه مما هم به من الانتقام منهم. وقيل: إن دخولهم على داود كان فتنة له، إلا أنه عليه السلام، استغفر لذلك الداخل، العازم على قتله.

ومنها: أن أوريا بن حنانا، كان قد خطب امرأة، اسمها نشابع بنت شايع، فأجابوه، ثم خطبها داود، في حال غيبة أوريا في غزواته، فزوجت نفسها منه عليه السلام لجلالته، فعُوتب على ذلك، وعلى هذا القول فمعنى ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾؛ أي: غلبني في خطبة امرأة.

ومنها: ما قيل: كان أهل زمان داود عليه السلام، يسأل بعضهم بعضاً أن يطلق له امرأته، حتى يتزوجها إذا أعجبته، وكان داود عليه السلام، ما زاد على قوله لأوريا: انزل لي عن امرأتك. وذلك أنه وقع بصره على تلك المرأة من غير قصد، فأحبها، ومال قلبه إليها، فسأل زوجها النزول عنها، فاستحيا أن يرده، ففعل فتزوجها، وهي أم سليمان عليه السلام، وكانت من أجمل النساء، وكان ذلك جائزاً في شريعته، معتاداً فيما بين الناس غير مخل بالمروءة، وعلى هذا فمعنى ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾: انزل لي عن تلك النعجة الواحدة، وأعطنيها، فعوتب داود بشيئين:

أحدهما: خطبته على خطبة أخيه المؤمن.

والثاني: إظهار الحرص على التزوج مع كثرة نسائه، وهذا وإن كان جائزاً في شريعته، إلا أنه لا يليق بجنابه عليه السلام. فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

---

(١) المراح.

ومنها: ما قيل: إن ذنب داود الذي استغفر منه، ليس بسبب أوريا وامرأته، وإنما هو بسبب قوله لأحد الخصمين: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾. فلما كان هذا الحكم مخالفاً للصواب، اشتغل بالاستغفار والتوبة، فثبت بهذه الوجوه نزاهة داود عليه السلام، مما نُسب إليه من الكبائر، وإنما يلزم في حقه ترك الأفضل والأولى، والله أعلم.

وقال البيضاوي: وما قيل: إنه أرسل أوريا إلى الجهاد مراراً، وأمر أن يتقدم حتى قتل، فتزوجها يعني: امرأته، هراء وافتراء، اهـ. وقال الخازن في «تفسيره»: اعلم: أن من خصه الله بنبوته، وأكرمه برسالته، وشرّفه على كثير من خلقه، وائتمنه على وحيه، وجعله واسطة بينه وبين خلقه.. لا يليق أن ينسب إليه، ما لو نسب إلى آحاد الناس، لاستنكف أن يحدث عنه، فكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام الأنبياء، والصفوة الأمناء ذلك؟! اهـ. قال الخازن: وقال الإمام فخر الدين الرازي:

حاصل القصة: يرجع إلى أمرين: إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق، وإلى الطمع في زوجته. قال: وكلاهما منكر عظيم، فلا يليق بعاقل، أن يُظن بداود عليه السلام هذا، اهـ.

وحاصل معنى قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ إلخ؛ أي: وإن كثيراً ممن يتعاملون معاً، يجور بعضهم على بعض حين التعامل كما قال المتنبي:

وَٱلظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ ٱلنُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ... ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لاَ يَظْلِمُ

إلا من يخافون ربهم، ويؤمنون به، ويعملون صالح الأعمال. فإن نفوسهم تعزف عن الظلم، وترعوي خشيةً من خالقها، وما أقل هؤلاء عدداً، وأندرهم وجوداً، كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

ثم ذكر أن داود، كان قد ظن أنهما قد جاءا للاغتيال، ثم تبين له غير ما كان قد ظن. فقال: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: وظن أن دخولهما

عليه في ذلك الوقت، ومن تلك الجهة ابتلاء من الله تعالى، لأجل أن يغتالوه، فلم يقع ما كان قد ظنه، فاستغفر ربه من ذلك الظن، إذ لم يقع ما كان قد ظنه.

﴿وَخَرَّ﴾؛ أي: سقط داود حال كونه ﴿رَاكِعًا﴾؛ أي: ساجداً على تسمية السجود ركوعاً؛ لأنه مبدؤه، لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع، وفي كل من الركوع والسجود التحني والخضوع، وبه[1] استشهد أبو حنيفة، وأصحابه في سجدة التلاوة، على أن الركوع يقوم مقام السجود، أو المعنى: خر للسجود راكعاً؛ أي: مصلياً إطلاقاً للجزء وإرادة للكل، كأنه أحرم بركعتي الاستغفار. والدليل على الأول؛ أي: على أن الركوع هٰهنا بمعنى السجود، ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن النبي ﷺ، كان يقول في سجدة صٓ وسجدة الشكر: «اللهم اكتب لي عندك بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع عني بها وزراً، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود سجدته» وقيل[2]: بل كان ركوعهم سجوداً. وقيل: بل كان سجودهم ركوعاً.

﴿وَأَنَابَ﴾؛ أي: ورجع داود إلى ربه؛ أي: رجوع بالتوبة من جميع المخالفات، التي هي الزلات، وما كان من قبيل ترك الأولى والأفضل. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن النبي ﷺ سجد في صٓ، وقال: «سجدها داود توبة، ونسجدها شكراً».

وهذه السجدة[3] من عزائم السجود عند أبي حنيفة، ومالك - رحمهما الله تعالى - وكل منهما على أصله. فأبو حنيفة يقول: هي واجبة، ومالك يقول: هي فضيلة، وعند الشافعي، وأحمد سجدة شكر، تستحب في غير الصلاة، فلو سجد بها في الصلاة بطلت عندهما، كما في «فتح الرحمٰن».

ثم أخبر سبحانه، أنه قبل استغفاره، وتوبته بقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ﴾؛ أي: لداود ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذنب الذي استغفر منه، وكان ذلك في شهر ذي الحجة، كما في «بحر العلوم». وروي: أنه عليه السلام، بقي في سجوده أربعين يوماً وليلة، لا يرفع

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

رأسه إلا لصلاة مكتوبة، أو لما لا بد منه، ولا يرقأ دمعه، حتى نبت منه العشب حول رأسه، ولا يشرب ماء إلا ثلثاه دمع، وجهد نفسه راغباً إلى الله في العفو عنه، حتى كاد يهلك، واشتغل بذلك عن الملك، حتى وثبت ابن له، يقال له: إيشا على ملكه، فاجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل. فلما نزلت توبته بعد الأربعين، وغُفر له حاربه، فهزمه، وقد قال نبينا ﷺ: «إذا بُويع لخليفتين»؛ أي: لأحدهما أولاً، وللآخر بعده «فاقتلوا الآخر منهما». لأنه كالباغي. هذا إذا لم يندفع إلا بقتله.

قال ابن الأنباري: الوقف على قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ تام، ثم يبتدىء الكلام بقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾؛ أي: لداود ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾؛ أي: لقربة وكرامة بعد المغفرة، كما وقع لآدم عليه السلام. ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾؛ أي: ومآباً حسناً؛ أي: مرجعاً طيباً. هو الجنة. وفي «كشف الأسرار»: يعني الجنة هي مآب الأنبياء، والأولياء.

ولما تمم الله سبحانه، قصة داود، أردفها ببيان تفويض أمر خلافة الأرض إليه. والجملة مقولة لقول مقدر معطوف على ﴿غفرنا﴾؛ أي: فغفرنا له ذلك، وقلنا له: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا﴾ استخلفناك على الأرض أو ﴿جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. والخلافة[1]: النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف. وعلى هذا الوجه الأخير، استخلف الله أولياءه في الأرض، إذ الوجوه الأول محال في حق الله تعالى، فالخليفة عبارة عن الملك النافذ الحكم، وهو من كان طريقته وحكومته على طريقة النبي وحكومته، والسلطان أعم، والخلافة في خصوص مرتبة الإمامة أيضاً أعم.

والمعنى: استخلفناك على الملك في الأرض، والحكم فيما بين أهلها؛ أي: جعلناك أهل تصرف نافذ الحكم في الأرض، كمن يستخلفه بعض السلاطين

(١) روح البيان.

على بعض البلاد، ويُملكه عليها، وكانت النبوة قبل داود في سبطه، والمُلك في سبط آخر، فأعطاهما الله تعالى داود عليه السلام، فكان يدبر أمر العباد بأمره تعالى، وفيه دليل بيّن على أن حاله عليه السلام، بعد التوبة، كما كان قبلها لم يتغير قط، بل زادت اصطفائيته كما قال في حق آدم عليه السلام: «ثم اجتباه ربه، فتاب عليه وهدى».

والمعنى[1]: أي يا داود إنا استخلفناك في الأرض، وجعلناك نافذ الحكم بين الرعية، لك الملك والسلطان، وعليهم السمع والطاعة، لا يخالفون لك أمراً، ولا يقيمون في وجهك عصا.

ثم ذكر ما يستتبع ذلك، فقال: ﴿فَٱحۡكُم﴾؛ أي: فافصل الخصومة الواقعة ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالحكم العدل المنزل من عندي، والذي شرعته لعبادي لما فيه من المصلحة لهم في الدنيا والآخرة، وبه يكون الحاكم عادلاً لا جائراً؛ لأن الأحكام[2] إذا كانت مطابقةً للشريعة الحقّية الإلهية، انتظمت مصالح العالم، واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه، أما إذا كانت أحكام السلطان القاهر على وفق هواه، ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق، فإنه يجعل الرعية فداءً لنفسه، وذلك يُفضي إلى تخريب العالم، ووقوع الهرج والمرج في الخلق، وذلك يُفضي إلى هلاك الملك.

ثم أكد ما سلف بالنهي عن ضده، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ﴾ يا داود ﴿ٱلۡهَوَىٰ﴾؛ أي: ما تهواه النفس، وتشتهيه في الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا، قال بعضهم: وهذا يؤيد ما قيل: إن ذنب داود الهم الذي هم به حين نظر إلى امرأة أوريا، وهو أن يجعلها تحت نكاحه، أو ما قيل: إن ذنبه المبادرة إلى تصديق المدعي، وتظليم الآخر قبل مسألته. وفي هذا إرشاد لما يقتضيه منصب النبوة، وتنبيه لمن هو دونه لسلوك هذا الطريق القويم.

ثم بين سوء عاقبة ذلك، فقال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ بالنصب على أنه

(١) المراغي. (٢) المراح.

جواب النهي؛ أي: فيكون الهوى أو اتباعك للهوى سبباً لضلالك عن دلائله، التي نصبها على الحق تكويناً وتشريعاً. قال بعضهم: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أي: ما يخطر لك في حكمك من غير وحي مني ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن الطريق الذي أُوحي بها إلى رسل الله تعالى، انتهى.

فإن قلت[1]: كيف يكون اتباع الهوى سبباً للضلال؟.

قلت: لأن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية، فيشغل عن طلب السعادات الروحانية، التي هي الباقيات الصالحات، فمن ضل عن سبيل الله، الذي هو اتباع الدلائل المنصوبة على الحق، أو اتباع الحق في الأمور، وقع في سبيل الشيطان، بل في حفرة النيران والحرمان.

ويجوز[2] أن يكون الفعل في ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ مجزوماً بالعطف على النهي، وإنما حرّك لالتقاء الساكنين، فعلى الوجه الأول أعني: النصب يكون المنهي عنه الجمع بينهما. وعلى الوجه الثاني، يكون النهي عن كل واحد منهما على حدة.

والمعنى[3]: أي فيكون اتباعك للهوى سبباً في الضلال عن الدلائل التي نُصبت، والأعلام التي وُضعت للإرشاد، إلى سبل السلام بإصلاح حال المجتمع في دينه ودنياه. وتهذيبه حتى يسلك طريق الحق بينه وبين ربه، وبينه وبين الناس.

ثم بيَّن غائلة الضلال، ووخامة عاقبته. فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعليل للنهي عن اتباع الهوى، والوقوع في الضلال ببيان غائلته، وإظهار ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في موضع الإضمار للإيذان بكمال شناعة الضلال عنه، كما سيأتي في مبحث البلاغة. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾؛ أي: أليم والباء في ﴿بِمَا نَسُواْ﴾ للسببية أو تعليلية. ومعنى النسيان: الترك. ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ مفعول لنسوا؛ أي: لهم عذاب أليم، بسبب نسيانهم يوم الحساب والمجازاة، وترك العمل له، قال الزجاج؛ أي: بتركهم العمل لذلك اليوم، صاروا بمنزلة الناسين، وإن كانوا ينذرون ويذكرون. وقال عكرمة، والسدي: في الآية تقديم، وتأخير، والتقدير:

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

ولهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا؛ أي: تركوا القضاء بالعدل، والأول أولى، ولما كان[1] الضلال عن سبيل الله مستلزماً لنسيان يوم الحساب، كان كل منهما سبباً، وعلة لثبوت العذاب الشديد. وتأدب سبحانه وتعالى مع داود؛ أي: وقَّره وعظَّمه حيث لم يُسند الضلال إليه بأن يقول: فلئن ضللت عن سبيلي، فلك عذاب شديد، لما هو مقتضى الظاهر، بل أسنده إلى الجماعة الغائبين، الذين داود عليه السلام، واحد منهم.

والمعنى: أي إن الذين يتركون الحق، ويضلون عن سبيل معالمه لهم، من الله العذاب الشديد يوم الحساب، لنسيانهم ما في ذلك اليوم من الأهوال، وأن الله سيحاسب كل نفس بما كسبت، فمن دسَّى نفسه، وسلك بها سبيل المعاصي.. فقد حق عليه العذاب، الذي كتبه على العاصين، جزاءً وفاقاً على أعمالهم التي كسبوها بأيديهم، فإن تذكر يوم الحساب يقتضي ملازمة الحق، ومخالفة الهوى.

الإعراب

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾.

﴿صٓۚ﴾ إن قلنا: إنه علم للسورة، ففيه سبعة أوجه من الإعراب، كما هو معلوم في أسماء التراجم. والأول منها: أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه سورة ﴿صٓۚ﴾. والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً. وإن قلنا: إنه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.. فليس موصوفاً بإعراب، ولا بناء؛ لأن الإعراب والبناء فرع عن إدراك المعنى، ومعناه غير معلوم لنا. ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿القرآنِ﴾: مقسم به، مجرور بواو القسم. ﴿ذِي

---

(١) روح البيان.

﴿الذِّكْرِ﴾: صفة لـ﴿القرآن﴾ مجرور بالياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم، محذوف وجوباً، تقديره: أُقسم بالقرآن. وجوابه محذوف، قدّره الحوفيّ: لقد جاءكم الحق. وقال ابن عطية: تقديره: ما الأمر كما تزعمون يا أهل مكة، وقال الزمخشري: تقديره: إن هذا القرآن لمعجز. وجملة القسم مستأنفة. ﴿بَلِ﴾: حرف عطف وإضراب انتقالي، ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلته. ﴿فِي عِزَّةٍ﴾: خبر المبتدأ. ﴿وَشِقَاقٍ﴾: معطوف على ﴿عِزَّةٍ﴾. والجملة الاسمية معطوفة على جملة القسم. ﴿كَمْ﴾: خبرية، بمعنى عدد كثير، في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن قَبْلِهِم﴾: متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾: تمييز ﴿كَمْ﴾ الخبرية، ﴿فَنَادَوا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿نادوا﴾: فعل، وفاعل، والجملة معطوفة على ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿وَلَاتَ﴾: الواو حالية، ﴿لات﴾: حرف نفي تعمل عمل ليس، ترفع الاسم وتنصب الخبر، واسمها محذوف، تقديره: ولات الحين ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾خبرها منصوب. والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نادوا﴾: والرابط مقدر تقديره: فنادوا بالفرار، والحال أنه ليس الحين حين فرار لهم. ﴿وَعَجِبُوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على نادوا، ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿جَاءَهُم﴾: فعل ماض في محل النصب بأن المصدرية، والهاء ضمير الغائبين في محل النصب مفعول به، ﴿مُّنذِرٌ﴾: فاعل جاء، ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة ﴿مُّنذِرٌ﴾. وجملة ﴿جَاءَهُم﴾: مع أن المصدرية في تأويل مصدر، مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: عجبوا من مجيء منذر منهم، والجار المحذوف متعلق بـ﴿عجبوا﴾. ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ما قبله، ﴿هَٰذَا سَاحِرٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿كَذَّابٌ﴾: خبر ثان أو نعت لـ﴿سَاحِرٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ﴾: الهمزة للاستفهام التعجبي؛ أي: تعجبوا من هذا الحصر؛ لأنهم قاسوا الغائب على الشاهد جهلاً منهم، وارتطاماً منهم بسوء الغفلة. ﴿جعل﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ. ﴿الْآلِهَةَ﴾ مفعول أول، ﴿إِلَٰهًا﴾ مفعول ثان، ﴿وَاحِدًا﴾ صفة لـ﴿إِلَٰهًا﴾. والجملة الفعلية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ناصب واسمه.

﴿لَشَيْءٌ﴾: اللام حرف ابتداء. ﴿شيء﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿عُجَابٌ﴾: صفة ﴿شيء﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل التعجب المفهوم مما قبلها.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَانطَلَقَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿انطلق الملأ﴾: فعل، وفاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾: حال من الملأ، والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لتقرير تآمرهم بعد انصرافهم، من مجلس اجتماعهم عند أبي طالب. ﴿أَنِ﴾: مصدرية؛ أي: بأن امشوا، وعند إضمار القول تسقط ﴿أن﴾. أو مفسرة لانطلقوا؛ لأنه متضمن معنى القول. ﴿امْشُوا﴾: فعل أمر، وفاعل في محل النصب بأن المصدرية، وأن المصدرية مع مدخولها منصوبة بنزع الخافض، المتعلق بقول محذوف؛ أي: وانطلق الملأ منهم قائلين: بأن امشوا، أو انطلق الملأ منهم قائلين: ﴿امْشُوا﴾. ﴿وَاصْبِرُوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿امْشُوا﴾، ﴿عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿اصبروا﴾، ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ناصب واسمه ﴿لَشَيْءٌ﴾: خبره، واللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالصبر، وجملة ﴿يُرَادُ﴾: صفة ﴿لَشَيْءٌ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل، وفاعل، ﴿بِهَٰذَا﴾: متعلق بـ﴿سَمِعْنَا﴾، والإشارة إلى التوحيد الذي يدعو إليه محمد ﷺ. ﴿فِي الْمِلَّةِ﴾: جار ومجرور، حال من اسم الإشارة، ﴿الْآخِرَةِ﴾: نعت لـ﴿الْمِلَّةِ﴾، والمراد بها: ملة عيسى. ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿اخْتِلَاقٌ﴾: خبر لهذا؛ أي: افتعال ومحض كذب. والجملة مستأنفة. ﴿أَأُنزِلَ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿أنزل﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أنزل﴾، ﴿الذِّكْرُ﴾: نائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن بَيْنِنَا﴾: جار ومجرور، حال من ضمير عليه، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب انتقالي عن مقدر، فكأنه قال: إنكارهم للذكر ليس عن علم، بل هم في شك. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿فِي شَكٍّ﴾: خبره. والجملة جملة إضرابية، لا محل لها من الإعراب، أو معطوفة على ذلك المقدر. ﴿مِّن ذِكْرِي﴾: متعلق بـ﴿شَكٍّ﴾، ﴿بَل﴾: حرف للإضراب الانتقالي أيضاً. ﴿لَّمَّا﴾: حرف نفي وجزم بمعنى: لم،

﴿يَذُوقُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمَّا﴾، والواو فاعل، و﴿عَذَابِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، المحذوفة لمراعاة الفواصل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب شكهم؛ أي: سببه أنهم لم يذوقوا العذاب، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن، وآمنوا به.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: حرف عطف منقطعة بمعنى: بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري، ﴿عِندَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿خَزَآئِنُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾: مضاف إليه، ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾: صفتان لـ﴿رَبِّكَ﴾. والجملة جملة إنشائية، معطوفة على الجمل التي قبلها أو مستأنفة. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف منقطعة بمعنى: بل، وهمزة الاستفهام أيضاً، ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم، ﴿مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَمَا﴾: معطوف عليه أيضاً، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿فَلْيَرْتَقُوا﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إن زعموا ذلك، وأردت تبكيتهم، فقل لهم: ارتقوا في الأسباب؛ أي: اصعدوا في المعارج الموصلة إلى العرش حتى تستووا عليه. واللاَّم: لام الأمر، ﴿يرتقوا﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، والواو فاعل، ﴿فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾: متعلق بـ﴿يرتقوا﴾. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿جُندٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم جند، ﴿مَّا﴾: نكرة تامة، صفة أولى لجند على سبيل التحقير؛ أي: هم جند حقير. فإن ﴿مَّا﴾ إذا كانت صفة تستعمل للتعظيم أو التحقير، والثاني هو المراد هنا، ولك أن تعربها زائدة. ﴿هُنَالِكَ﴾ ﴿هنا﴾: اسم إشارة يشار به إلى المكان في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على السكون، لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، و﴿اللام﴾: لبعد المشار إليه، والكاف حرف دال على الخطاب، والظرف متعلق بـ﴿مَهْزُومٌ﴾، و﴿مَهْزُومٌ﴾: صفة ثانية لـ﴿جُندٌ﴾، ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾: صفة ثالثة لـ﴿جُندٌ﴾؛ أي: هم جند حقير مهزوم هنالك؛ أي: في مكة يوم الفتح، أو في بدر كائن من الأحزاب المتحزبة

على محاربة رسول الله ﷺ. والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان عاقبتهم. واختلف المعربون في إعراب هذه الآية اختلافاً كثيراً؛ لأنها تحتمل عدة أوجه، ذكرنا أهمها، وأوضحها، وأسهلها على المبتدىء خوف الإطالة.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَـٰئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥)﴾.

﴿كَذَّبَتْ﴾: فعل ماض، ﴿قَبْلَهُمْ﴾: ظرف متعلق به. ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾: فاعل. ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾: معطوفان عليه. ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾: صفة لـ﴿فرعون﴾، مرفوع بالواو المحذوفة، لالتقاء الساكنين. والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير أحوال الطغاة، وبيان مصائر العتاة. ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ﴾: معطوفات أيضاً على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾. ﴿أُولَـٰئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿الْأَحْزَابُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الرفع، بدل من الفاعل، وما عطف عليه، ولك أن تجعل اسم الإشارة بدلاً مما قبله، و﴿الْأَحْزَابُ﴾: بدل منه. ﴿إِن﴾: نافية، لا عمل لها لانتقاض النفي بإلا، ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾: فعل ماض، وفاعل يعود على كل، ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿فَحَقَّ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿حقَّ﴾: فعل ماض، ﴿عِقَابِ﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه، الضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة، لمراعاة الفواصل، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَنظُرُ هَـٰؤُلَاءِ﴾: فعل، وفاعل. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿صَيْحَةً﴾: مفعول به، ﴿وَاحِدَةً﴾ صفة لـ﴿صَيْحَةً﴾. والجملة مستأنفة: مسوقة لتقرير عقاب كفار مكة، بعد بيان عقاب من سبقوهم في الغواية. ﴿مَّا﴾: نافية حجازية أو تميمية، ﴿لَهَا﴾: خبر مقدم، ﴿مِن﴾: حرف جر زائد. ﴿فَوَاقٍ﴾: اسم ما مؤخر أو مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية في محل النصب، صفة الثانية لـ﴿صَيْحَةً﴾.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لسرد أنماط من تمحلهم واستهزائهم، بعد أن نزل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ...﴾ الآية. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿عَجِّل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على الله ﴿لَّنَا﴾ متعلقان به. ﴿قِطَّنَا﴾: مفعول به، ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿عجل﴾. والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾: على كونها جواب النداء. ﴿ٱصْبِرْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: متعلق بـ﴿اصبر﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾: صلة لما الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: على ما يقولونه. ﴿وَٱذْكُرْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱصْبِرْ﴾. ﴿عَبْدَنَا﴾ مفعول به. ﴿دَاوُۥدَ﴾: بدل من عبدنا، ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾: صفة لـ﴿دَاوُۥدَ﴾، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: ناصب واسمه، وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل كونه من أصحاب الأيد. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل قوته في الدين، وكونه رجاعاً إلى مرضاته تعالى، ﴿مَعَهُۥ﴾: حال من الجبال، أو متعلق بـ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، ﴿يُسَبِّحْنَ﴾: فعل، وفاعل، والمفعول محذوف لعلمه؛ أي: يسبحن الله تعالى، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الجبال. ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾: متعلق بـ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾: معطوف على ﴿العشي﴾، ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾: معطوف على الجبال، أو مفعول به لفعل محذوف، دل عليه ما قبله؛ أي: سخرنا الطير معه، ﴿مَحْشُورَةً﴾: حال من الطير، ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وسوّغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم، ﴿لَّهُۥٓ﴾: متعلق بـ﴿أَوَّابٌ﴾، و﴿أَوَّابٌ﴾: خبر ﴿كُلٌّ﴾. والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد ما قبلها. ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿سَخَّرْنَا﴾، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعولان، معطوف على سخرنا أيضاً، ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾: معطوف على الحكمة.

﴿۞ وَهَلْ أَتَنٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَهَلْ أَتَنٰكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿هل﴾: حرف استفهام للاستفهام التعجبي، ﴿أَتَنٰكَ﴾: فعل ماض، ومفعول به، ﴿نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾: فاعل، ومضاف إليه. والجملة مستأنفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بمضاف محذوف تقديره: نبأ تخاصم الخصم إلى داود وقت تسورهم المحراب، ﴿تَسَوَّرُواْ﴾: فعل، وفاعل، ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: مفعول به. والجملة في محل الجر مضاف لـ﴿إِذْ﴾. ﴿إِذْ﴾: بدل من ﴿إِذْ﴾: الأولى، وجملة ﴿دَخَلُواْ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، ﴿عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾: متعلق بـ﴿دَخَلُواْ﴾، ﴿فَفَزِعَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿فزع﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على داود، ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿فزع﴾. والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة ﴿دَخَلُواْ﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَخَفْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود ﴿عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾. والجملة في محل النصب مقول قالوا. ﴿خَصْمَانِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: نحن خصمان، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا﴾: فعل، وفاعل، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق بـ﴿بَغَىٰ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع صفة خصمان. ﴿فَٱحْكُم﴾: الفاء: الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت نحن خصمان، وأردت النصيحة لنا.. فأقول لك احكم. ﴿احكم﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿دَاوُۥدَ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بَيْنَنَا﴾: ظرف مضاف، متعلق بـ﴿احكم﴾، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿احكم﴾: أو حال من فاعل ﴿احكم﴾، ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُشْطِطْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿دَاوُۥدَ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿احكم﴾، مؤكدة لها. ﴿وَٱهْدِنَآ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿احكم﴾، ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أهدنا﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾ ناصب واسمه ﴿أَخِى﴾ بدل من هذا، أو خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿تِسۡعٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الابتدائية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ أو خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان الخصومة على كونها، مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿وَتِسۡعُونَ﴾: معطوف على تسع، ﴿نَعۡجَةً﴾: تمييز للعدد قبله منصوب به، ﴿وَلِىَ﴾: خبر مقدم، ﴿نَعۡجَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ صفة ﴿نَعۡجَةٌ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿فَقَالَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الأخ. والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على الأخ، ونون وقاية، ومفعولان. والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿وَعَزَّنِى﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿عزني﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الأخ، ونون وقاية، ومفعول به، ﴿فِى ٱلۡخِطَابِ﴾: متعلق بـ﴿عزني﴾. والجملة معطوفة على جملة «قال». ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على داود. والجملة مستأنفة. ﴿لَقَدۡ﴾: اللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ظَلَمَكَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الأخ، ومفعول به، والجملة جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب، مقول قال. ﴿بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ظَلَمَكَ﴾، ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف تقديره: ليضمها إلى نعاجه.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِى بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن كثيرا﴾: ناصب واسمه، ﴿مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾: صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾، ﴿لَيَبۡغِى﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿يبغي بعضهم﴾: فعل، وفاعل، ﴿عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾: متعلق بـ﴿يبغي﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر

﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة جواب القسم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿الَّذِينَ﴾: مستثنى متصل من الخلطاء، في محل النصب على الاستثناء، مبني على الفتح، ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل، وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿وَقَلِيلٌ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قليل﴾: خبر مقدم، ﴿مَا﴾: زائدة لتأكيد القلة، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة في محل النصب حال من المستثنى. ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: قال الملكان: قضى الرجل على نفسه، فتنبه وظن داود ﴿أَنَّمَا﴾: ﴿أنّ﴾: حرف نصب ومصدر، ولكنها كفت عن العمل بما، ﴿مَا﴾: كافة لكفها، ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿فَتَنَّاهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، وجملة (أنما) مع مدخولها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿ظَنَّ﴾؛ أي: فتنتنا إياه. ﴿فَاسْتَغْفَرَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿استغفر﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على داود، ﴿رَبَّهُ﴾: مفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿ظَنَّ﴾. ﴿وَخَرَّ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿استغفر﴾، ﴿رَاكِعًا﴾: حال من فاعل خر، ﴿وَأَنَابَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على خر، ﴿فَغَفَرْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على استغفر، ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿غفرنا﴾، ﴿ذَلِكَ﴾: مفعول به. ﴿وَإِنَّ لَهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنّ﴾: حرف نصب، ﴿لَهُ﴾: خبر ﴿إنّ﴾: مقدم على اسمها، ﴿عِندَنَا﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من زلفى، ﴿لَزُلْفَى﴾: اللام حرف ابتداء، ﴿زلفى﴾: اسم ﴿إنّ﴾: مؤخر، والتقدير: وإنّ زلفى عندنا لكائن له، ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾: معطوف على زلفى. وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿غفرنا﴾: عطف اسمية على فعلية.

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

﴿يَا دَاوُدُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿جَعَلْنَاكَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به أول، ﴿خَلِيفَةً﴾: مفعول ثان، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صفة لـ﴿خَلِيفَةً﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾،

وجملة ﴿إِنَّ﴾: جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿فَٱحۡكُم﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدم تقديره: إذا عرفت، جعلنا إياك خليفة في الأرض، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: احكم بين الناس. ﴿احكم﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿احكم﴾، ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: حال من فاعل ﴿احكم﴾. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَتَّبِعِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بلا الناهية، ﴿ٱلۡهَوَىٰ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿احكم﴾. ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الفاء: عاطفة سببية، ﴿يضلك﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الهوى، ومفعول به، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يضلك﴾. والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر، معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك، لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن اتباعك الهوى فإضلاله الناس عن سبيل الله. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يَضِلُّونَ﴾: فعل، وفاعل صلة الموصول، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَضِلُّونَ﴾، ﴿لَهُمۡ﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿شَدِيدُۢ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي عن اتباع الهوى. ﴿بِمَا﴾: الباء: حرف جر وسبب، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿نَسُواْ﴾: فعل ماض، وفاعل، ﴿يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾: مفعول به. والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾: المصدرية، ﴿مَا﴾: مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب نسيانهم يوم الحساب، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر المبتدأ أعني قوله: ﴿لَهُمۡ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ والذكر: الشرف، والنباهة، أو الذكرى والموعظة، أو ذكر ما يحتاج إليه في أمر الدين، من الشرائع والأحكام وغيرها، من أقاصيص الأنبياء،

وأخبار الأمم الماضية، والوعد، والوعيد، اهـ.

﴿فِي عِزَّةٍ﴾: قال الراغب: العزة: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب ويمدح بالعزة تارة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنها الدائمة الباقية، وهي العزة الحقيقية، ويذم بها أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾؛ لأن العزة التي هي التعزز والاستكبار، وهي في الحقيقة ذل، وقد تستعار للحمية، والأنفة المذمومة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾. انتهى.

﴿وَشِقَاقٍ﴾؛ أي: مخالفة لله ولرسوله، وعداوة لهما من قولهم: فلان في شق صاحبه. ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد.

﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ في «الوسيط»: والمناص: المنجأ؛ أي: النجاة والفوت عن الخصم، على أنه مفعل من ناصه ينوصه إذا فاته، أريد به: المصدر، ويقال: ناص ينوص؛ أي: هرب، ويقال؛ أي: تأخر. ومنه: ناص قرنه؛ أي: تأخر عنه حيناً. وفي «المفردات»: ناص إلى كذا التجأ إليه، وناص عنه تنحى ينوص نوصاً، والمناص: الملجأ، انتهى. وفي «المختار»: النوص: التأخر. يقال: ناص عن قرنه؛ أي: فر وراغ، وبابه قال: ومناصاً أيضاً. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾؛ أي: ليس وقت تأخر وفرار. والمناص أيضاً: المنحى، والمفر، اهـ. وقال النحاس: ويقال: ناص ينوص إذا تقدم، فعلى هذا يكون من الأضداد، اهـ «قرطبي». وأما ﴿لات﴾ فأصلها: لا، النافية، ثم زيدت عليها التاء لتأنيث اللفظ، أو للمبالغة في معناه، وخصت بنفي الأحيان، وزيادة التاء هنا أحسن منها، في ثُمَّت، ورُبَّت. لأن ﴿لَا﴾ محمولة على ليس، وليس تتصل بها التاء، ومن ثم لم تتصل بلا المحمولة على ﴿إن﴾. وهي كلمتان عند الجمهور ﴿لَا﴾: النافية، وتاء التأنيث. وحركت لالتقاء الساكنين.

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ﴾ جمع إله، وحقه أن لا يجمع، إذ لا معبود في الحقيقة سواه تعالى، لكن العرب لاعتقادهم أن هٰهنا معبودات جمعوه، فقالوا: آلهة، ﴿لَشَيْءٌ

﴿عُجَابٌ﴾ العجاب بمعنى: العجيب. وهو الأمر الذي يتعجب منه كالعجب، إلا أن العجيب أبلغ منه، والعجاب بالتشديد، أبلغ من العجاب بالتخفيف. مثل: كبار في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾، فإنه أبلغ من الكبار بالتخفيف. والمعنى: بليغ في العجب.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ الانطلاق: الذهاب. والملأ: الأشراف لا مطلق الجماعة. ويقال لهم: ملأ، لأنهم إذا حضروا مجلساً، ملأت العيون وجاهتهم، والقلوب مهابتهم.

فائدة: جميع القراء يكسرون النون في الوصل، من أن امشوا والهمزة في الابتداء من امشوا، اهـ خطيب. ﴿فِي الْمِلَّةِ﴾ والملة كالدين: اسم لما شرع الله لعباده، على ألسنة الأنبياء، ليتوصلوا به إلى ثواب الله وجواره. فإطلاق كل منهما في طريقة المشركين مجاز، مبني على التشبيه.

﴿خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ والخزائن: جمع خزانة، بكسر الخاء بمعنى: المخزن كما مر. ﴿فِي الْأَسْبَابِ﴾ جمع سبب. قال الراغب: السبب: الحبل الذي يصعد به النخل، وسمي كل ما يتوصل به إلى شيء سبباً، انتهى. والمعنى: فليصعدوا في المعارج والطرق، التي يتوصل بها إلى الاستيلاء على العرش، قاله مجاهد، وقتادة، وقيل: المراد بالأسباب: السموات، لأنها أسباب الحوادث السفلية. وقيل: أبوابها، انتهى «أبو السعود».

﴿جُندٌ﴾ الجند: العسكر المعد للحرب. ﴿مَّهْزُومٌ﴾ والهزم: الكسر، يقال: هزم العدو كسرهم، وغلبهم، والاسم الهزيمة، وهزَمَه يهزمه فانهزم غمزه بيده، فصارت فيه حفرة، كما في «القاموس». ﴿مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ جمع حزب، والحزب: جماعة فيه غلظ، كما في «المفردات». وهم المجتمعون لإيذاء محمد ﷺ، وكسر شوكته، وإبطال دينه.

﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾ جمع وتد محركة، وبكسر التاء، وهو ما غُرز في الأرض أو الحائط من خشب. يقال: وتد يتد، من باب وعد إذا دق، وغرز الوتد في

الأرض أو في الحائط، وفيه لغات: فتح الواو، وكسر التاء وهي الفصحى، وبفتحتين، وود بإدغام التاء في الدال، بوزن وج، اهـ «سمين». وفي «المصباح»: الوتد بكسر التاء، في لغة أهل الحجاز، وهي الفصحى، وجمعه أوتاد، وفتح التاء لغة، وأهل نجد يُسكنون التاء، فيدغمون بعد القلب فيبقى ود، ووتدت الوتد أتده وتداً، من باب وعد أثبته بحائط أو بالأرض، وأوتدته بالألف لغة، انتهى.

﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ قال الراغب: الأيك: شجر ملتف، وأصحاب الأيكة؛ أي: الغيضة، قيل: نسبوا إلى غيضة كانوا يسكنونها، وقيل: اسم بلد، كما في «المفردات»، وهم قوم شعيب، كما مر.

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ والفواق، بالضم: كغراب، ويُفتح كما في «القاموس»: ما بين حلبتي الحالب من الوقت، ورضعتي الرضيع من أفاق المريض إذا رجع إلى صحته، وأفاقت الناقة ساعة ليرجع اللبن إلى ضرعها، يقال: أفاقت الناقة تفيق إفاقة، رجعت، واجتمعت الفيقة في ضرعها. والفيقة: اللبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتين، ويُجمع على أفواق، وأما أفاويق فجمع الجمع، ويقال: ناقة مفيق ومفيقة، وقيل: ﴿فَوَاقٍ﴾ بالفتح: الإفاقة، والاستراحة كالجواب من أجاب، قاله المؤرخان: السدوسي، والفراء، ومن المفسرين: ابن زيد، والسدي. وأما المضمون فاسم لا مصدر. والمشهور: أنهما بمعنى واحد مقصاص الشعر وقصاصه، اهـ «سمين». وفي «المختار»: الفواق: الزمن الذي بين الحلبتين؛ لأنها تحلب ثم تترك ساعة يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب، يقال: ما أقام عنده إلا فواقاً. وفي الحديث: «العيادة قدر فواق ناقة». وقوله تعالى: ﴿مِن فَوَاقٍ﴾ يقرأ بالفتح، والضم؛ أي: ما لها من نظرة، وراحة، وإفاقة، اهـ.

﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾؛ أي: نصيبنا، وحظنا. والقط: القطعة من الشيء، من قط الشيء إذا قطعه، ومنه: قط القلم، والمعنى: قطعة مما وعدتنا به، ولهذا يطلق على الصحيفة والصك قط، لأنها قطعتان يقطعان، وقيل للجائزة أيضاً: قط، لأنها قطعة من العطية، ويجمع على قطوط مثل: حمل وحمول، وعلى قططة مثل: قرد وقردة، وفي القلة: على أقططة وأقطاط مثل: قدح وأقدحة وأقداح، اهـ

«سمين». قال الراغب: أصل القط: الشيء المقطوع عرضاً، كما أن القد هو المقطوع طولاً.

﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ الأيد بوزن البيع، مفرد. وهو مصدر، وليس جمع يد. وفي المصباح: آد الرجل يئيد أيداً وإياداً بكسر الهمزة مثل: باع يبيع بيعاً، إذا اشتد وقويَ، فهو أيد بوزن سيد وهين، ومنه قولهم: أيدك الله تأييداً اهـ «مصباح».

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ من الأوب. وهو الرجوع؛ أي: رجاع إلى الله، ومرضاته، من قولهم: آب إذا رجع. قال عبيد بن الأبرص:

وَكُلُّ ذِيْ غَيْبَةٍ يَؤُوْبُ   وَغَائِبُ ٱلْمَوْتِ لاَ يَؤُوْبُ

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ جمع طائر، كركب وراكب، وهو كل ذي جناح يسبح في الهواء. ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ ﴿هل﴾ هنا كلمة يراد منها: التعجيب، والتشويق إلى سماع ما يرد بعدها. ﴿نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾ والنبأ: الخبر العظيم الشأن. والخصم: جماعة المخاصمين، ويستعمل للمفرد والجمع مذكراً ومؤنثاً. قال الشاعر:

وخصم عضاب ينفضون لحاهم   كنفض البراذين العراب المخاليا

﴿تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾؛ أي: قصدوا سوره، ونزلوا من أعلاه. والسور: الحائط المرتفع. وجمع الضمير في ﴿تَسَوَّرُواْ﴾؛ لأن الخصم بمعنى المخاصم، والمنازع، وقد يقع للاثنين، والجمع، والمؤنث، فيقال: هما خصم، وهم خصم، وهي خصم؛ لأنه مصدر في أصله، وقد تقدم له نظير، وهو ضيف في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾. والمحراب: الغرفة التي كان يتعبد فيها، ويشتغل بطاعة ربه.

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ والفزع: انقباض، ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف. وهو من جنس الجزع. ولا يقال: فزعت من الله كما يقال: خفت منه.

﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾؛ أي: ولا تجر. وهو بضم التاء، وسكون الشين، وكسر الطاء الأولى من أشطط يشطط إذا تجاوز الحد. قال أبو عبيدة: شططت في الحكم، وأشططت فيه إذا جرت فيه. فهو مما اتفق فيه فعل وأفعل. ﴿نَعْجَةً﴾ النعجة:

الأنثى من المعز، وقد يكنى بها عن المرأة. ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾؛ أي: اجعلني كافلها، والمراد: ملكنيها. وفي «المختار»: كفل عنه بالمال لغريمه، وأكفله المال ضمنه إياه، وكفله إياه بالتخفيف، فكفل هو من باب نصر ودخل، وكفّله إياه تكفيلاً مثله.

﴿وَعَزَّنِى﴾؛ أي: وغلبني. وفي المثل: من عز بز، أي: من غلب سلب. وفي «المختار»: وعز عليه غلبه، وبابه: رد، والاسم: العزة، وهي الغلبة، والقوة. وعزه في الخطاب، وعازه؛ أي: غلبه. ﴿فِى ٱلْخِطَابِ﴾؛ أي: في مخاطبته إياي، ومحاجته. إذ قد أتى بحجاج لم أستطع رده، الخلطاء الشركاء خلطوا أمر الواحد خلطاً، وأوردت معاجم اللغة للخليط عدة معان. منها: المخالط، والمشارك، والقوم الذين أمرهم واحد، والزوج، والجار والصاحب، وخليط الرجل مخالطه، كالجليس بمعنى المجالس.

﴿فَتَنَّٰهُ﴾؛ أي: ابتليناه. ﴿خر﴾؛ أي: سقط. ﴿رَاكِعًا﴾؛ أي: ساجداً قال الشاعر:

فَخَرَّ عَلَىٰ وَجْهِهِ رَاكِعَا وَتَابَ إِلَىٰ ٱللَّهِ مِنْ كُلِّ ذَنْبْ

﴿وَأَنَابَ﴾؛ أي: رجع إلى ربه. والزلفى: القرب من الله، والإزلاف: التقريب والازدلاف: الاقتراب، ومنه: سميت المزدلفة لقربها من الموقف. اهـ من «الروح».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾؛ لأن القرن حقيقة في مئة عام مثلاً، والإهلاك لأهله، ففيه إطلاق الظرف وإرادة المظروف.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بدل. وقالوا

تسجيلاً عليهم، بهذا الوصف القبيح، وإشعاراً بأن كفرهم جسرهم على هذا القول، لما تقرر عندهم، من أن نسبة أمر إلى المشتق يفيد علّيّة المأخذ.

ومنها: الإشارة إلى كفار مكة بهؤلاء في قوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تحقيراً لشأنهم، وتهويناً لأمرهم.

ومنها: صيغة المبالغة في كل من ﴿كذاب، العزيز، الوهاب، أواب﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾؛ لأن السبب في الأصل: الحبل، استعير لمعارج السموات، وطرقها أو أبوابها.

ومنها: المجاز المبني على التشبيه في قوله: ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ لأن الملة حقيقة فيما شرع الله لعباده على يد الأنبياء. فإطلاق كل منهما على طريقة المشركين مجاز، كما في «الروح».

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ لزيادة التعجب، والإنكار. أكده بـ﴿إنّ﴾، وباللام، وباسمية الجملة.

ومنها: زيادة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ للدلالة على القلة والتحقير.

ومنها: الاستعارة البليغة في قوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾. شبه ملك فرعون في ثباته ورسوخه بخيمة عظيمة، شُدت أطنابها بالأوتاد لتثبت، وترسخ، ولا تقتلعها الرياح، ثم استعيرت له استعارة بالكناية، وأثبت له لوازم المشبه به. وهو الأوتاد، تخييلاً، ووجه تخصيص هذه الاستعارة، أن أكثر بيوت العرب كانت خياماً، وثباتها بالأوتاد، ويجوز أن يكون المعنى: ذو الجموع الكثيرة، سموا بذلك لأنهم يشدون البلاد والملك، ويشد بعضهم بعضاً كالوتد يشد البناء، والخباء، فتكون الأوتاد استعارة تصريحية.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾.

ومنها: تصدير الدعاء بالنداء في قوله: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ للإمعان في الاستهزاء، والسخرية كأنهم يدعون ذلك، بكمال الرغبة والابتهال.

ومنها: العدول عن الاسمية إلى الفعلية في قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ حيث لم يقل: مسبحات للدلالة على تجدد التسبيح، وحدوثه شيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال، وكأن السامع حاضر تلك الحال، يسمع تسبيحها.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾؛ لأن المراد بهما: المساء، والصباح.

ومنها: أسلوب التشويق، والتعجيب في قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾؛ لأن المراد بالاستفهام هنا: التشويق والتعجيب، كما مر.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾؛ لأن النعجة في الأصل: الأنثى من الضأن، فصارت هنا كناية عن المرأة.

ومنها: أسلوب الإطناب في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلخ.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾؛ أي: مصلياً، إذ فسر الركوع بالصلاة، لما فيه من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إيذاناً بكمال شناعة الضلال عنه.

ومنها: توافق الفواصل، مراعاة لرؤوس الآيات مثل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾، ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾، ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ
(٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
(٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩) وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ
الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ
عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا
سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ
بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ
وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ
عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)
ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي
الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)
وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ
(٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ
(٤٨) هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ
فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ۞ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ
الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] ذكر أن الذين يضلون عن سبيل الله، لهم العذاب الشديد يوم الحساب، لظنهم أنه ليس بكائن.. أعقب هذا ببيان أن هذا اليوم آت لا ريب فيه؛ لأنه سبحانه، لم يخلق الخلق عبثاً، بل خلقهم لعبادته

---

(١) المراغي.

وتوحيده، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيعين، ويعذب الكافرين، ثم أردف ذلك، ببيان فضل القرآن، الذي أنزله على رسوله هادياً للناس، ومنقذاً لهم من الضلالة إلى الهدى، فإذا هم تدبروا آياته، واتعظوا بعظاتها.. سعدوا في الدارين، وبلغوا السماكين، وكانوا سادة العالم أجمع.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبي ﷺ، فوصفوه بأنه ساحر كذاب، وقالوا استهزاء: ربنا عجل لنا قطنا.. أمره بالصبر على أذاهم لوجهين:

أحدهما: إن المتقين من الأنبياء قبله صبروا على كثير من المكاره، فعليه أن يقتدي بهم، ويجعلهم أسوة لَهُ.

وثانيهما: ما ذكره في هذه الآيات والتي بعدها، من أن من أطاع الله، كان له من الثواب كذا وكذا، ومن خالفه، كان له من العقاب كذا وكذا، وكل ذلك مما يوجب الصبر على الأذى حين تبليغ الرسالة، وعلى ما يلاقيه من المكاره.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات، جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من أمر البعث، والحساب، أي: ما خلقنا هذه الأشياء خلقاً ﴿بَٰطِلًاۚ﴾؛ أي: عبثا خارجاً عن الحكمة الباهرة، بل[2] خلقناها للدلالة على قدرتنا، وليكون مداراً للعلم والعمل، ومذكراً للآخرة وما فيها من الحساب والجزاء، فإن الدنيا لا تخلو عن الصفو والكدر، وكل منهما يفصح عما في الآخرة من الراحة والخطر، وأيضاً ليكون مرآة يشاهد فيها المؤمنون الذين ينظرون بنور الله، شواهد صفات الجمال والجلال، فانتصاب ﴿بَٰطِلًاۚ﴾ إما على المصدرية؛ أي: خلقاً

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

باطلاً، أو على الحالية؛ أي[1]: ذوي باطل، بمعنى مبطلين عابثين، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾، أو على أنه مفعول لأجله؛ أي: للعبث واللهو، بل للحكمة.

والمعنى: أي وما أوجدنا السماء، وما فيها من زينة ومنافع للناس، والأرض، وما فيها من فوائد في ظاهرها، وباطنها لهم، وما بينهما مما يعلمون، وما لا يعلمون لهواً ولعباً، بل خلقناها مشتملة على حكم باهرة، وأسرار بالغة، ومصالح جمة، فقد خلقناها للعمل فيها بطاعتنا، والانتهاء إلى أمرنا ونهينا، فإنا لن نترك الناس سدًى، بل سنعيدهم بعد موتهم إلى حياة أخرى يحاسبون فيها على النقير، والقطمير، والقليل، والكثير، ثم يلقون الجزاء على ما كسبت أيديهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم بيّن أن هذا الظن الفاسد، قد ظنه الذين كفروا بالله تعالى، وجحدوا آياته. فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: كونه خلقاً باطلاً خالياً عن الغاية، والحكمة الباهرة. ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي[2]: مظنون كفار مكة، فإنهم وإن كانوا مقرين بأن الله هو الخالق، لكن لما اعتقدوا بأن الجزاء الذي هو علة خلق العالم باطل، لزمهم أن يظنوا أن المعلول باطل، ويعتقدوا ذلك؛ أي: أنهم يظنون أن هذه الأشياء خلقت لا لغرض، ويقولون: إنه لا قيامة، ولا بعث، ولا حساب، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلاً.

والفاء في قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت كون مظنونهم هذا، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك: الهلاك كل الهلاك، أو شدة الهلاك حاصل ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ خبر لويل. ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ﴿مِن﴾: تعليلية، مفيدة لعلية النار، لثبوت الويل لهم صريحاً، بعد الإشعار بعلية ما يؤدي إليها من ظنهم وكفرهم؛ أي: فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم

---

(١) البيضاوي.

(٢) روح البيان.

وكفرهم، فلا بد من رؤية الحق حقاً، والباطل باطلاً، وتدارك زاد اليوم؛ أي: يوم الجزاء ظاهراً وباطناً، ليحصل الخلاص والنجاة، والنعيم واللذات في أعلى الدرجات.

ثم بيّن سبحانه[1]، أن مقتضى عدله وحكمته، أن لا يساوي بين الذين أحسنوا بالحسنى، والذين اجترحوا السيئات، ودسوا أنفسهم بكبير الآثام، والذنوب. فقال ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إنا نعطى في الآخرة كما تعطون على تقدير وقوعها، فنزلت الآية. و﴿أَمْ﴾ فيه منقطعة، تقدر ببل التي للإضراب الانتقالي، وبهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أنجعل الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وعملوا بفرائضه، كالمفسدين في الأرض بالشرك والمعاصي؛ أي[2]: لا نجعلهم سواء. فلو بطل البعث والجزاء، كما يظن الكفار، لاستوت عند الله، حال من أصلح، ومن أفسد، ومن سوّى بينهما كان سفيهاً، والله تعالى منزه عن السفه، فإنما بالإيمان، والعمل الصالح يرفع المؤمنين ويرد الكافرين إلى أسفل سافلين.

ثم أضرب سبحانه إضراباً آخر، وانتقل عن الأول إلى ما هو أوضح استحالة منه، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾؛ أي: بل أنجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين، والمنافقين، والمنهمكين في معاصي الله سبحانه، من المسلمين؛ أي: لا نجعلهم مثلهم. وقيل[3]: إن الفجار هنا خاص بالكافرين. وقيل: المراد بالمتقين: الصحابة. ولا وجه للتخصيص بغير مخصص، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقال ابن عباس: الآية عامة في جميع المسلمين والكافرين. وقيل: في جماعة من المؤمنين والكافرين معينين بارزوا يوم بدر علياً، وحمزة، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم، وعتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة، ووصف كلا بما ناسبه .اهـ من «البحر».

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

أي[1]: كما لا نجعل[2] أهل الإيمان والعمل الصالح، الذين هم مظاهر صفات لطفنا وجمالنا، كالمفسدين الذين هم مظاهر صفات قهرنا وجلالنا، كذلك لا نجعل أهل التقوى كالفجار، والفجور: شق سر الديانة، أنكر التسوية أولاً بين أهل الإيمان والشرك، ثم بين أهل التقوى والهوى يعني: من المؤمنين، وهو المناسب لمقام التهديد، والوعيد كي يخاف من الله تعالى، كل صنف بحسب مرتبته، ويجوز أن يكون تكرير الإنكار الأول باعتبار وصفين آخرين، يمنعان التسوية من الحكيم الرحيم.

واعلم[3]: أن الله تعالى، سوّى بين الفريقين في التمتع بالحياة الدنيا، بل الكفار أوفر حظاً من المؤمنين؛ لأن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، لكن الله جعل الدار الآخرة، للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وهم المؤمنون المخلصون، المنقادون لله ولأمره، وإنما لم يجازه في هذه الدار، لسعة رحمته، وضيق هذه الدار، فلذا أخر الجزاءَ إلى الدار الآخرة، فإذا ترقى الإنسان من الهوى إلى الهدى، ومن الفجور إلى التقوى.. أخذ الأجر بالكيل الأوفى.

والمعنى[4]: أي بل أنجعل من آمنوا بربهم، واعتقدوا أنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا شريك له في ملكه، وأصلحوا أعمالهم، فأدوا ما يجب للخلق والخالق، وائتمروا بما أمر به ربهم على لسان أنبيائه، وانتهوا عما نُهوا عنه، فلم يدسوا أنفسهم بفعل شيء من كبائر الآثام، خوفاً من يوم، تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، ولا تُقبل الشفاعة ولا الفداء من أحد إلا لمن أذن له الله، كمن كفروا به، وعاثوا في الأرض فساداً، وهاموا فيها على وجوههم، لا دين يمنعهم، ولا زاجر يردعهم، إذ هم ينكرون الجزاء، والحساب، والإعادة بعد الموتة الأولى، ويقولون: ما هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، فأنى لمثل هؤلاء أن يرعووا عن غي، أو يكفوا عن معصية؟ بل هم جهد استطاعتهم يحصلون على اللذات، ويجترحون السيئات بما وسوس إليهم به

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

الشيطان، أن لا حلال، ولا حرام، ولا جنة، ولا نار، فما هذه إلا أساطير الأولين، وإذا كان هذا حقاً، واقتضته الحكمة، وأوجبته العدالة، فلا بد من دار أخرى يجازى فيها المطيع، ويثاب على ما عمل، ويعاقب فيها العاصي، على ما دنس به نفسه من شرك بربه، واجتراح للإثم، والعصيان، ومخالفة أمر الواحد الديان. والعقول السليمة، والفطر الصحيحة، ترشد إلى هذا، وتؤيده، وتدل عليه، وتثبته، فإنا نرى الظالم الباغي، قد يزداد في دنياه مالاً وولداً، ويتمتع بصنوف اللذات من الدور، والقصور، والفراش الوثير، والسكن في الجنات، ويركب فاره الخيول المطهمة، والمراكب الفاخرة، ويشار إليه بالبنان، بينما نرى المطيع لربه المظلوم من بني جنسه، قد يعيش عيش الكفاف، ولا يجد ما يقيم به أوده، ويسد به مخمصته، أفيكون من حكمة الحكيم العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرة، أن يترك الناس سدًى، يفعلون ما شاؤوا بلا حساب ولا عقاب، أو ينتصف للمظالم من الظالم، ويُرجع الحق إلى صاحبه، وربما لا يحصل هذا في الدنيا، فلا بد من دار أخرى، يكون فيها العدل، والإنصاف، والكيل بالقسط، والميزان، وتلك هي الدار التي وعد بها الرحمٰن، على ألسنة رسله الكرام، صدق ربنا، وإن وعده لحق، وإن هذا اليوم آت لا شك فيه، لتُجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم.

ولما كان القرآن، هو الذي يرشد إلى مثل هذه المقاصد الشريفة، والمآخذ العقلية الصحيحة، وكان منبع السعادات والخيرات.. وصفه أولاً، ثم بيّن المصلحة، فقال: ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، وهو عبارة عن القرآن؛ أي: هذا كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد. صفة لكتاب ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ خبر ثان للمبتدأ المحذوف، ولا يجوز أن يكون صفة أخرى لكتاب، لما تقرر عندهم، من أنه لا يجوز تأخير الوصف الصريح، عن غير الصريح، وقد جوزه بعض النحاة، قرأ الجمهور: ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ بالرفع على الصفة لـ﴿كتاب﴾، وقرىء ﴿مباركا﴾ بالنصب على الحال اللازمة، والتقدير؛ أي: هذا القرآن الذي نتلوه عليك يا محمد، كتاب أنزلناه إليك، كثير المنفعة ديناً ودنيا، لمن آمن به، وعمل بأحكامه، وحقائقه، وإشاراته، فإن البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمبارك ما فيه ذلك الخير.

﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلناه ليتفكروا في آياته بالفكر السليم، فيعرفوا ما يُتّبع ظاهرها من المعاني الفائقة، والتأويلات اللائقة؛ أي: ليتفكروا في معاني آياته، ويتأملوا فيها، وفي الآية دليل على أن الله سبحانه، إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة، بدون تدبر. وقرأ الجمهور[1]: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ بياء الغيبة وشد الدال، وأصله: ﴿ليتدبروا﴾. وقرأ علي رضي الله عنه بهذا الأصل. وقرأ أبو جعفر، وشيبة ﴿لتدبروا﴾ بتاء الخطاب، وتخفيف الدال، وجاء كذلك عن عاصم، والكسائي بخلاف عنهما، والأصل: لتتدبروا بتاءين، فحذفت إحداهما على الخلاف الذي فيها، أهي تاء المضارعة، أم التاء التي تليها؟.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: وليتعظ به أصحاب العقول الخالصة عن شوب الوهم. عمم[2] التدبر لعموم العلماء، وخص التذكر بخصوص للعقلاء؛ لأن التدبر للفهم، والتذكر لوقوع الإجلال، والخشية الخاص بأكابر أهل العلم.

فعلم[3] أن المقصود من كلام الحق التفكر، والتذكر والاتعاظ به، لا حفظ الألفاظ فقط، وكان الصحابة يكتفون ببعض السور القرآنية، ويشتغلون بالعمل بها، فإن المقصود من القرآن العمل به.

والمعنى[4]: أي أنزلنا إليك هذا الكتاب، النافع للناس، المرشد لهم، إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في دينهم ودنياهم، الجامع لوجوه المصالح، ليتدبرها أولوا الحجا، الذين قد أنار الله بصائرهم، فاهتدوا بهديه، وسلكوا في أعمالهم ما أرشد إليه، وتذكروا مواعظه وزواجره، واعتبروا بمن قبلهم، فارعووا عن مخالفته، حتى لا يحل بهم مثل ما حل بالغابرين، ويستأصلهم كما استأصل السابقين، ممن بغوا في الأرض فساداً، وما تدبره بحسن تلاوته، وجودة ترتيله، بل بالعمل بما فيه، واتباع أوامره ونواهيه، ومن ثم قال الحسن البصري: قد قرأ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

القرآن عبيد وصبيان، لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه، وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن، فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء، ولا الورعة لا أكثر الله في الناس من مثل هؤلاء، فمن[1] اقتفى بظاهر المتلو، كان مثله، كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نتوج لا يستولدها قال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «تعوّذوا بالله من فخر القراء، فإنهم أشد فخراً من الجبابرة». ولا أحد أبغض إلى رسول الله ﷺ، من قارىء متكبر. وعن علي رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من دار الحزن، فإنها إذا فتحت، استجارت منها جهنم سبعين مرة، أعدها الله للقراء المرائين بأعمالهم، وإن شر القراء لمن يزور الأمراء». وفي سلسلة الذهب للمولى الجامي رحمه الله تعالى: رب تال، يفوه بالقرآن، وهو يُفضي به إلى الخذلان.

قصص سليمان حين عُرض عليه الصافنات الجياد

ثم أخبر سبحانه، بأن من جملة نعمه على داود، أنه وهب له سليمان ولداً، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَۚ﴾؛ أي: وآتينا داود ابناً يسمى سليمان من[2] المرأة التي أخذها من أوريا. والهبة[3]: عطاء الواهب بطريق الإنعام والإحسان لا بطريق العوض والجزاء، الموافق لأعمال الموهوب له. فسليمان النعمة التامة على داود؛ لأن الخلافة الظاهرة الإلهية، قد كملت لداود، وظهرت أكمليتها في سليمان، وكذا على العالمين لما وصل منه إليهم من آثار اللطف والرحمة، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: أولادنا من مواهب الله، ثم قرأ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾.

وروي: أن داود عليه السلام، عاش مئة سنة، ومات يوم السبت فجأة،

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

ويوم السبت لهم، كيوم الجمعة لنا، أتاه ملك الموت وهو يصعد في محرابه؛ أي: الغرفة، وينزل، وقال: جئت لأقبض روحك، فقال: دعني حتى أنزل وأرتقي، فقال: ما لي إلى ذلك سبيل، نفدت الأيام، والشهور، والسنون، والآثار، والأرزاق، فما أنت بمؤثر بعدها، فسجد داود على مرقاة من الدرج، فقبض نفسه على تلك الحال، وموت الفجأة رحمة للصالحين، وتخفيف ورفق بهم، إذ هم المنقطعون المستعدون، فلا يحتاجون إلى الإيصاء، وتجديد التوبة، ورد المظالم بخلاف غيرهم، ولذا كان من آثار غضب الله على الفاسقين، وأوصى داود لابنه سليمان بالخلافة.

ثم مدح الله سبحانه، وأثنى عليه فقال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ والمخصوص بالمدح محذوف؛ أي: نعم العبد هو؛ أي: سليمان لصلاحية استعداده للكمال النوعي الإنساني. وهو مقام النبوة والخلافة. وقيل: إن المدح هنا بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ هو لداود. والأول أولى. وجملة ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل لما قبلها من المدح. والأواب: الرجاع إلى الله بالتوبة، كما تقدم بيانه، أي: إن سليمان رجاع إلى الله سبحانه، بإخلاص العبودية، بلا علة دنيوية ولا أخروية، أو رجاع إلى الله في جميع الأحوال، في النعمة بالشكر، وفي المحنة بالصبر.

والمعنى: أي ما أحقه بالمدح والثناء؛ لأنه كان كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى ربه في أكثر الأوقات، وفي كثير من المهمات اعتقاداً منه، بأن كل شيء من الخير، لا يتم إلا بإعانته وتوفيقه.

ثم ذكر حالاً من أحواله، التي تستحق الإطراء والثناء، فقال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قرّب إليه، وأظهر له ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾؛ أي: في آخر النهار ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾؛ أي: الخيول القائمة على ثلاثة قوائم، جاعلة طرف حافر، الرابعة على الأرض لنشاطها ﴿ٱلْجِيَادُ﴾؛ أي: السريعة الجري والعدو، والظرف متعلق بمحذوف؛ أي: اذكر يا محمد لقومك، ما صدر عن سليمان حين عرضت عليه الجياد الصافنات، من العصر إلى آخر النهار لينظر إليها، ويتعرف أحوالها مقدار صلاحيتها للقيام بالمهام، التي توكل إليها حين الغزو وغيره، وقد وصفها

بالصفون والجودة ليجمع لها بين وصفين ممدوحين واقفة وجارية، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها. وقيل: وصفها بالصفون لأنه لا يكون في الهجن، بل يكون في العراب الخلَّص. والصافنات: جمع صافن. قال الزجاج: الصافن هو الذي يقف على إحدى اليدين، ويرفع الأخرى، ويجعل على الأرض طرف الحافر منها، حتى كأنه يقوم على ثلاث: وهي الرجلان، وإحدى اليدين، وقد يفعل بإحدى رجليه، وهي علامة الفراهة، والجياد: جمع جواد، يقال للفرس إذا كان شديد العدو، وقيل: إنها الطوال الأعناق، من الجيد، وهو العنق.

قيل: كانت مئة فرس، وقيل: ألفاً، وقيل: كانت عشرين ألفاً، وقيل: كانت عشرين فرساً، وقيل: إنها خرجت له من البحر، وكانت لها أجنحة. روي: أن سليمان عليه السلام، غزا أهل دمشق ونصيبين، وهي قاعدة ديار ربيعة، فأصاب ألف فرس عربي، أو أصابها أبوه من العمالقة، فاستخلف عنه فيها؛ لأنها من مال المصالح، وعلى كل تقدير قعد سليمان يوماً، بعدما صلى الظهر على كرسيه، وكان يريد جهاداً، فاستعرض تلك الأفراس؛ أي: طلب عرضها عليه، فلم تزل تعرض عليه، وهو ينظر إليها، ويتعجب من حسنها حتى غربت الشمس، وغفل عن صلاة العصر، وكانت فرضاً عليه، كما في «كشف الأسرار»، وعن ورد: كان له وقتئذ من الذكر، وتهيبه قومه فلم يعلموه، فاغتم لما فاته بسبب السهو والنسيان، فاستردها، فعقرها تقرباً إلى الله، وطلباً لمرضاته على أن يكون العقر قربة في تلك الشريعة، ولذا لم ينكر عليه، أو مباحاً في ذلك اليوم، وإنما أراد بذلك: الاستهانة بمال الدنيا، لمكان فريضة الله، كما قاله أبو الليث. فلم يكن من قبيل تعذيب الحيوان، فلما عقرها لله تعالى، أبدله الله خيراً منها، وأسرع. وهي الريح تجري بأمره حيث شاء.

﴿فَقَالَ﴾ سليمان: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ﴾؛ أي: آثرت ﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾؛ أي: حب الخيل ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾؛ أي: على ذكر ربي يعني: صلاة العصر، قاله عليه السلام عند غروب الشمس اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة، وندماً

عليه، وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها، والتعقيب بالفاء باعتبار أواخر العرض المستمر دون ابتدائه، والتأكيد للدلالة على أن اعترافه وندمه عن صميم القلب، لا لتحقيق مضمون الخبر، وأصل ﴿أَحْبَبْتُ﴾ أن يُعدى بعلى؛ لأنه بمعنى: آثرت، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، وكل من أحب شيئاً فقد آثره، لكن لما أُنيب مناب أنبت، وضمن معناه، عدى تعديته بعن، و﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ مفعوله؛ أي: مفعول به لأنبت المضمن، والذي أُنيب مناب الذكر، هو الاطلاع على أحوال الخيل، لا حب الخيل، إلا أنه عُدّي الفعل إلى حب الخيل، للدلالة على غاية محبته لها، والخير: المال الكثير، والمراد به: الخيل التي شغلته عليه السلام.

ومعنى الآية: أنبت حب الخيل؛ أي: جعلته نائباً عن ذكر ربي، ووضعته موضعه، وكان يجب لمثلي، أن يشتغل بذكر ربه، وطاعته.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ الشمس، واستترت ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾؛ أي: بما يحجبها عن الأبصار، وهو مغربها، قال قتادة، وكعب: الحجاب: جبل أخضر محيط بالخلائق، وهو جبل قاف، وقيل: هو جبل دون قاف، بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه، اهـ «خازن». وسمي الليل حجاباً، لأنه يستر ما فيه، والضمير في ﴿تَوَارَتْ﴾ للشمس، وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشي عليها، إذ لا شيء يتوارى حينئذ غيرها. و﴿حَتَّىٰ﴾ متعلقة بقوله: ﴿أَحْبَبْتُ﴾، وغاية له باعتبار استمرار المحبة، ودوامها حسب استمرار العرض.

والمعنى: أنبت حب الخير عن ذكر ربي، واستمر ذلك حتى توارت؛ أي: غربت الشمس، تشبيهاً لغروبها في مغربها، بتواري الجارية المخبأة بحجابها؛ أي: المستترة بخبائها وخدرها. وقيل: الضمير في ﴿تَوَارَتْ﴾ للصافنات؛ أي: حتى توارت بحجاب الليل؛ أي: بظلامه؛ لأن ظلام الليل يستر كل شيء.

وقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ من تمام مقالة سليمان، والخطاب لأهل العرض من قومه؛ أي: أعيدوا تلك الخيل علي، والفاء في قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ عاطفة على مقدر يقتضيه السياق، و﴿طفق﴾ من أفعال الشروع بمعنى:

أخذ، وشرع. ومسحته بالسيف كناية عن الضرب. والسوق: جمع ساق كدور ودار، والسوق: ما بين الكعبين: كعب الركبة، وكعب القدم، والتقدير: فردوها عليه، فأخذ يمسح بالسيف مسحاً سوقها وأعناقها؛ أي: يقطع أعناقها، ويعرقب رجلها؛ أي: هو وأصحابه، أو يذبح بعضها، ويعرقب بعضها إزالة للعلاقات، ورفعاً للحجاب الحائل بينه وبين الحق سبحانه، واستغفاراً وإنابةً إليه بالترك والتجريد، وفي الآية إشارة إلى أن حب غير الله شاغل عن الله، وموجب للحجاب، وأن كل محبوب سوى الله إذا حجبك عن الله لحظة، يلزمك أن تعالجه بسيف نفي لا إله إلا الله. قال الحسن: إن سليمان، لما شغله عرض الخيل، حتى فاتته صلاة العصر، غضب لله، وقال: ردوها علي؛ أي: أعيدوها إلي. وقيل: الضمير في ﴿رُدُّوهَا﴾ يعود إلى الشمس، ويكون ذلك معجزة له، والخطاب للملائكة الموكلين بالشمس، يعني: ردوا الشمس، فردوها إلى موضع وقت صلاة العصر، حتى صلى العصر في وقتها.

وقال الإمام في «تفسيره»: الصواب أن يقال: إن رباط الخيل، كان مندوباً إليه في دينهم، كما هو مندوب إليه في شرعنا، ثم إن سليمان عليه السلام، احتاج إلى الغزو، فجلس على كرسيه، وأمر بإحضار الخيل، وأمر بإجرائها، وذكر أني لا أجريها لأجل الدنيا وحظ النفس، وإنما أجريها وأحبها، لأمر الله تعالى، وتقوية دينه، وهو المراد من قوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾، ثم إنه أمر بإجرائها وتسييرها، حتى توارت بالحجاب؛ أي: غابت عن بصره، فإنه كان له ميدان واسع، مستدير، يسابق فيه بين الخيل، حتى تتوارى عنه، وتغيب عن عينه، ثم أنه أمر الرائضين بأن يردوها، فردوا تلك الخيل إليه. فلما عادت إليه، طفق يمسح سوقها وأعناقها؛ أي: بيده حباً لها، وتشريفاً وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعوان، في قهر الأعداء، وإعلاء الدين، وهو قول الزهري، وابن كيسان وليس فيه نسبة شيء من المنكرات إلى سليمان عليه السلام، فهو أحق بالقبول عند أولي الأفهام، وقال ابن جرير الطبري[1] (٢٣/١٥٦): حدثني علي حدثنا أبو

---

(١) الطبري.

صالح قال: حدثني معاوية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾. يقول: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حباً لها، وقال الطبري: وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية؛ لأن نبي الله عليه السلام، لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة يعني ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف ويهلك مالاً من أمواله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها، اهـ.

وخلاصة معنى الآية على هذا القول[١]: أن سليمان احتياطاً للغزو، أراد أن يعرف قوة خيوله، التي تتكون منها قوة الفرسان، فجلس وأمر بإحضارها وإجرائها أمامه، وقال: إني ما أحببتها للدنيا ولذاتها، وإنما أحببتها لأمر الله، وتقوية دينه، حتى إذا ما أجريت وغابت عن بصره، أمر راكضيها بأن يردوها إليه، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها سروراً بها، وامتحاناً لأجزاء أجسامها، ليعرف مابها فربما يكون فيها من عيوب قد تخفى، فتكون سبباً في عدم أدائها مهمتها على الوجه المرضي.

وقال الشوكاني: وقد اختلف[٢] المفسرون في تفسير هذه الآية، فقال قوم: المراد بالمسح: قطع أعناقها وعراقيبها بالسيف، وقال آخرون منهم: الزهري، وقتادة: إن المراد بالمسح: كشف الغبار عن سوقها وأعناقها، وإزالته عنها، حباً لها وتشريفاً لها، والقول الأول أولى بسياق الكلام، فإنه ذكر أنه آثرها على ذكر ربه، حتى فاتته صلاة العصر، ثم أمرهم بردها عليه، ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك، وما صده عن عبادة ربه، وشغله عن القيام بما فرضه الله عليه، ولا يناسب هذا، أن يكون الغرض من ردها عليه، هو كشف الغبار عن سوقها، وأعناقها بالمسح عليها بيده، أو بثوبه، ولا متمسك لمن قال: إن إفساد المال، لا يصدر عن النبي، فإن هذا مجرد استبعاد، باعتبار ما هو المتقرر في شرعنا، مع جواز أن يكون في شرع سليمان، أن مثل هذا مباح، على أن إفساد المال

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

المنهي عنه في شرعنا، إنما هو مجرد إضاعته لغير غرض صحيح، وأما لغرض صحيح، فقد جاز مثله في شرعنا، كما وقع منه ﷺ، من إكفاء القدور، التي طبخت من الغنيمة قبل القسمة، ولهذا نظائر كثيرة في الشريعة، ومن ذلك ما وقع من الصحابة، من إحراق طعام المحتكر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَسْحًا﴾، وزيد بن علي: ﴿مساحاً﴾ على وزن قتال، وقرأ الجمهور: ﴿بِالسُّوقِ﴾ بغير همز على وزن فعل، وهو جمع ساق كدار ودور، وقرأ ابن كثير: ﴿بالسؤق﴾ بالهمز. وقال أبو علي: هي لغة ضعيفة، وليست ضعيفة؛ لأن أبا حَيَّةَ النميري، كان يهمز كل واو قبلها ضمة، سماعاً، وكان ينشد:

حب المؤقد بن أبي مؤسى

وجاءت هذه القراءة على هذه اللغة، وقرأ ابن محيصن، وأبو عمران الجوني: ﴿بالسؤوق﴾ بوزن الرؤوس، رواهما بكار عن قنبل، وقرأ زيد بن علي ﴿بالساق﴾ مفرداً اكتفي به عن الجمع لأمن اللبس.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد ابتلينا سليمان، واختبرناه[2] بمرض عضال ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾؛ أي: طرحناه ﴿عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ وسرير ملكه حال كونه ﴿جَسَدًا﴾؛ أي: جسماً ضعيفاً، لشدة وطأته عليه، والعرب تقول في الضعيف: إنه لحم على وضم، وجسم بلا روح. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾؛ أي: رجع سليمان بعد إلى حاله الأولى، واستقامت له الأمور كما كان، وما روي من قصص الخاتم، والشيطان، وعبادة الوثن في بيت سليمان، فذلك من أباطيل اليهود، دسوها على المسلمين، وأبى قبولها العلماء الراسخون، ومن ثم قال الحافظ بن كثير: وقد رويت هذه القصة، مطولة عن جماعة من السلف رحمهم الله تعالى كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين. وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب، انتهى.

---

(١) البحر المحيط بتصرف وزيادة من زاد المسير.

(٢) المراغي.

وهذه هي التي سنذكرها بعد.

وعبارة «الخازن» هنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ بن داود عليهما السلام؛ أي[1]: اختبرناه، وابتليناه، بسلب ملكه عنه، وكان سبب ذلك ما ذكر عن وهب بن منبه قال: سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر، يقال لها: صيدون، وبها ملك عظيم الشأن، ولم يكن للناس إليه سبيل لمكانه في البحر، وكان الله تعالى، قد آتى سليمان في ملكه سلطاناً، لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر، إنما يركب إليه الريح، فخرج إلى تلك المدينة، تحمله الريح على ظهر الماء، حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها، وسبى ما فيها، وأصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك، يقال لها: جرادة، لم ير مثلها حسناً وجمالاً، فاصطفاها لنفسه، ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت على جفاء منها وقلة فقه، وأحبها حباً لم يحبه شيئاً من نسائه، وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها، ولا يرقأ دمعها، فشق ذلك على سليمان، فقال لها: ويحك ما هذا الحزن الذي لا يذهب، والدمع الذي لا يرقأ؟ قالت: إني أذكر أبي، وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه، فيحزنني ذلك، فقال سليمان: فقد أبدلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه، وسلطاناً أعظم من سلطانه، وهداك إلى الإسلام، وهو خير من ذلك، قالت: إن ذلك كذلك، ولكني إذا ذكرته أصابني ما تراه من الحزن، فلو أنك أمرت الشياطين، فصوروا ليَ صورته في داري التي أنا فيها، أراها بكرة وعشياً، لرجوت أن يُذهب ذلك حزني، وأن يسلي عني بعض ما أجد في نفسي، فأمر سليمان الشياطين، فقال: مثّلوا لها صورة أبيها في دارها، حتى لا تُنكر منه شيئاً، فمثّلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه؛ إلا أنه لا روح فيه، فعمدت إليه حين صنعوه، فألبسته ثياباً مثل ثيابه التي كان يلبسها، ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها، تغدوا إليه في ولائدها، فتسجد له، ويسجدن معها كما كانت تصنع في ملكه، وتروح في كل عشية بمثل ذلك، وسليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحاً، وبلغ ذلك آصف بن برخيا، وكان صديقاً، وكان لا يُرد عن

(١) الخازن.

أبواب سليمان؛ أي: ساعة أراد دخول شيء من بيوته، دخل حاضراً كان سليمان أو غائباً، فأتاه فقال: يا نبي الله كبر سني، ورق عظمي، ونفد عمري، وقد حان مني الذهاب، وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت، أذكر فيه من مضى من أنبياء الله تعالى، وأُثني عليهم بعلمي فيهم، وأُعلّم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمرهم، فقال: افعل. فجمع له سليمان الناس، فقام فيهم خطيباً، فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى، وأثنى على كل نبي بما فيه، وذكر ما فضّله الله تعالى به، حتى انتهى إلى سليمان، فقال: ما كان أحكمك في صغرك، وأورعك في صغرك، وأفضلك في صغرك، وأحكم أمرك في صغرك، وأبعدك عن كل ما يكره الله تعالى في صغرك، ثم انصرف فوجد سليمان في نفسه من ذلك، حتى مليء غضباً، فلما دخل سليمان داره دعاه فقال: يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى، فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم، وعلى كل حال من أمرهم، فلما ذكرتني جعلت تثني علي خيراً في صغري، وسكت عما سوى ذلك من أمري في كبري، فما الذي أحدثت في آخر عمري؟. فقال آصف: إن غير الله يُعبد في دارك منذ أربعين صباحاً، في هوى امرأة، فقال سليمان: في داري؟ قال: في دارك، قال: فإنا لله وإنا إليه راجعون، قد عرفت أنك ما قلت الذي قلت إلا عن شيء بلغك، ثم رجع سليمان إلى داره فكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة وولائدها، ثم أمر بثياب الظهيرة فأُتي بها، وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبكار، ولا ينسجها إلا الأبكار، ولا يغسلها إلا الأبكار، لم تمسها يد امرأة قد رأت الدم، فلبسها، ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده، وأمر برماد، ففرش له، ثم أقبل تائباً إلى الله تعالى، حتى جلس على ذلك الرماد، وتمعك به في ثيابه تذللاً إلى الله تعالى، وتضرعاً إليه يبكي، ويدعو، ويستغفر مما كان في داره، فلم يزل كذلك يومه حتى أمسى، ثم رجع إلى داره، وكانت له أم ولد، يقال لها: أمينة، كان إذا دخل الخلاء، أو أراد إصابة امرأة من نسائه، وضع خاتمه عندها حتى يتطهر، وكان لا يمس خاتمه إلا وهو طاهر، وكان ملكه في خاتمه، فوضعه يوماً عندها، ثم دخل مذهبه، فأتاها شيطان اسمه صخر المارد، في صورة سليمان، لا تُنكر منه شيئاً، فقال: خاتمي أمينة، فتناولته إياه، فجعله في يده، ثم

خرج حتى جلس على سرير سليمان، وعكفت عليه الطير والوحش والجن والإنس، وخرج سليمان، فأتى أمينة وقد تغيرت حالته، وهيئته عند كل من رآه، فقال: يا أمينة خاتمي، قالت: من أنت؟ قال: سليمان بن داود، فقالت: كذبت قد جاء سليمان وأخذ خاتمه، وهو جالس على سرير ملكه، فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته فخرج، فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل، فيقول: أنا سليمان بن داود، فيحثون عليه التراب، ويقولون: انظروا إلى هذا المجنون أي شيء يقول، يزعم أنه سليمان، فلما رأى سليمان ذلك، عمد إلى البحر، فكان ينقل الحيتان لأصحاب السوق، ويعطونه كل يوم سمكتين، فإذا أمسى باع إحدى سمكتيه بأرغفة، ويشوي الأخرى فيأكلها، فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدة ما كان يُعبد الوثن في داره، ثم إن آصف وعظماء بني إسرائيل، أنكروا حكم عدو الله الشيطان في تلك المدة، فقال آصف: يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيتم؟ قالوا: نعم، فقال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه، فأسألهن هل أنكرن من خاصة أمره، ما أنكرنا في عامة الناس وعلانيتهم؟ فدخل على نسائه، فقال: ويحكن هل أنكرتن من ابن داود ما أنكرنا؟ فقلن: أشد ما يدع امرأة في دمها، ولا يغتسل من الجنابة، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الحسن: ما كان الله سبحانه وتعالى، ليسلط الشيطان على نساء نبيه عليه السلام، قال وهب: ثم إن آصف خرج على بني إسرائيل، فقال: ما في الخاصة أشد مما في العامة، فلما مضى أربعون صباحاً، طار الشيطان عن مجلسه، ثم مر بالبحر، فقذف الخاتم فيه، فبلعته سمكة، فأخذها بعض الصيادين، وقد عمل له سليمان صدر يومه، فلما أمسى أعطاه سمكتيه، فباع سليمان إحداهما بأرغفة، وبقّر بطن الأخرى ليشويها، فاستقبله خاتمه في جوفها، فأخذه وجعله في يده، ووقع لله ساجداً، وعكفت عليه الطير والجن، وأقبل الناس عليه، وعرف الذي كان دخل عليه، لما كان أُحدث في داره، فرجع إلى ملكه، وأظهر التوبة من ذنبه، وأمر الشياطين أن يأتوه بصخر، فطلبوه حتى أخذوه، فأُتي به، فأدخله في جوف صخرة، وسُد عليه بأخرى، ثم أوثقها بالحديد والرصاص، ثم أمر به، فقذفوه في البحر، فعلى هذا الجسد الذي أُلقي

على كرسيه صخر سمي به، وهو جسم لا روح فيه؛ لأنه كان متمثلاً بما لم يكن كذلك، والخطيئة تغافله عن حال أهله؛ لأن اتخاذ التماثيل كان جائزاً حينئذ، والسجود للصورة بغير علمه لا يضره.

وقيل في سبب فتنة سليمان عليه السلام: إن جرادة كانت أبر نسائه عنده، وكان يأتمنها على خاتمه، فقالت له يوماً: إن أخي بينه وبين فلان خصومة، فأحب أن تقضي له، فقال: نعم، ولم يفعل، فابتلي بقوله: نعم، وذكروا نحو ما تقدم، وقيل: إن سليمان لما افتتن سقط الخاتم من يده، فأعاده في يده فسقط، وكان فيه ملكه، فأيقن سليمان بالفتنة، فأتاه آصف، فقال: إنك مفتون بذلك، والخاتم لا يتماسك في يدك، ففر إلى الله تائباً، فإني أقوم مقامك، وأسير بسيرتك إلى أن يتوب الله عليك، ففر سليمان إلى الله تعالى تائباً، وأعطى آصف الخاتم، فوضعه في يده، فثبت في يده، فأقام آصف في ملك سليمان بسيرته، أربعة عشر يوماً، إلى أن رد الله تعالى على سليمان ملكه، وتاب عليه، فرجع إلى ملكه، وجلس على سريره، وأعاد الخاتم في يده، فثبت، فهو؛ أي: آصف الجسد الذي أُلقي على كرسيه.

وروي عن سعيد بن المسيب قال: احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام، فأوحى الله تعالى إليه، احتجبت عن الناس ثلاثة أيام، فلم تنظر في أمور عبادي، فابتلاه الله تعالى، وذكر نحو ما تقدم من حديث الخاتم، وأخذ الشيطان إياه، قال القاضي عياض، وغيره من المحققين: لا يصح ما نقله الأخباريون من تشبيه الشيطان به، وتسليطه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه، وإن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الله تعالى الأنبياء من مثل هذا، والذي ذهب إليه المحققون، أن سبب فتنته، ما أخرجاه في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة، كلهن تأتي بفارس، يجاهد في سبيل الله تعالى، فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله تعالى، فلم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن جميعاً، فلم تحمل منه إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، وايم الله الذي نفسي

بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون، وفي رواية: لأطوفن بمئة امرأة، فقال له الملك: قل: إن شاء الله، فلم يقل، ونسي، قال العلماء: والشق: هو الجسد الذي ألقي على كرسيه، وهي عقوبته، ومحنته؛ لأنه لم يستثن، لما استغرقه من الحرص، وغلب عليه من التمني، وقيل: نسي أن يستثني، كما صح في الحديث، لينفذ أمر الله، ومراده فيه، وقيل: إن المراد بالجسد، الذي ألقي على كرسيه: أنه وُلد له ولد، فاجتمعت الشياطين، وقال بعضهم: لبعض: إن عاش له ولد لم ننفك من البلاء، فسبيلنا أن نقتل ولده أو نخبله، فعلم بذلك سليمان، فأمر السحاب، فحمله، فكان يربيه في السحاب خوفاً من الشياطين، فبينما هو مشتغل في بعض مهماته إذ ألقي ذلك الولد ميتاً على كرسيه، فعاتبه الله تعالى على خوفه من الشياطين، ولم يتوكل عليه في ذلك، فتنبه لخطئه، فاستغفر ربه. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾؛ أي: رجع إلى ملكه بعد الأربعين يوماً. وقيل: أناب إلى الاستغفار. وهو قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾؛ أي: سأل ربه المغفرة، فقال: رب اغفر لي؛ أي: قال سليمان وهو بدل من ﴿أَنَابَ﴾، وتفسير له: رب اغفر لي ما صدر مني، من الزلة التي لا تليق بشأني. وتقديم[1] الاستغفار على استيهاب الملك الآتي، لمزيد اهتمامه بأمر الدين، وجرياً على عادة الأنبياء عليهم السلام والصالحين، في تقديم الاستغفار على السؤال، ولكون ذلك أدخل في الإجابة.

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى﴾؛ أي: لا يكون، ولا يحصل ﴿لِأَحَدٍ﴾ من الخلق ﴿مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ إلي يوم القيامة. وقيل[2]: لا تسلبنيه في باقي عمري، وتعطيه غيري كما سلبته مني فيما مضى من عمري، وقرأ الجمهور[3]: ﴿مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ بسكون الياء، ونافع، وأبو عمر بفتح الياء.

وذلك[4] بأن يكون الظهور به بالفعل في عالم الشهادة، في الأمور العامة والخاصة مختصاً بي. وهو الغاية التي يمكنه بلوغها، دل على هذا المعنى قوله

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) النسفي.
(٤) روح البيان.

ﷺ: «إن عفريتاً من الجن، تفلّت عليّ البارحة، ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد، حتى تنظروا إليه كلكم، ويلعب به ولدان أهل المدينة، فذكرت دعوة أخي سليمان: رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، فرددته خاسئاً»؛ أي: ذليلاً مطروداً، لم يظفر بي، ولم يغلب على صلاتي، فدل على أن الملك الذي آتاه الله سليمان، ولم يؤت أحداً غيره من بعده، هو الظهور بعموم التصرف في عالم الشهادة لا التمكن منه، فإن ذلك مما آتاه الله غيره من الكمل نبياً كان أو ولياً. ألا ترى: أن نبينا ﷺ قال: «فأمكنني الله منه»؛ أي: من العفريت، فعلمنا أن الله تعالى، قد وهب التصرف فيه، بما شاء من الربط وغيره، ثم إن الله تعالى ذكره، فتذكر دعوة سليمان، فتأدب معه كمال التأدب، حيث لم يظهر بالتصرف في الخصوص.. فكيف في العموم؟. فرد الله ذلك العفريت، ببركة هذا التأدب خاسئاً عن الظفر به، وكان في وجود سليمان عليه السلام، قابلية السلطنة العامة، ولهذا ألهمه الله تعالى، أن يسأل الملك المخصوص به، فلم يكن سؤاله للبخل، والحسد، والحرص على الاستبداد بالنعمة والرغبة فيها، كما توهمه الجهلة.

وعبارة «الخازن» هنا: فإن قلت: قول سليمان: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓ﴾ مشعر بالحسد، والحرص على الدنيا.

قلت: لم يقل ذلك حرصاً على طلب الدنيا ولا نفاسة بها، ولكن كان قصده في ذلك، أن لا يسلط عليه الشيطان مرة أخرى، وهذا على قول من قال: إن الشيطان استولى على ملكه، وقيل: سأل ذلك ليكون علماً وآية لنبوته، ومعجزة دالة على رسالته، ودلالة على قبول توبته، حيث أجاب الله تعالى دعاءه، ورد ملكه إليه، وزاده فيه، وقيل: غير ذلك.

وعبارة «فتح الرحمٰن»: إن قلت: كيف[1] قال سليمان ذلك، مع أنه يشبه الحسد والبخل بنعم الله تعالى على عباده، بما لا يضر سليمان؟.

---

(١) فتح الرحمٰن.

قلت: المراد، لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني في حياتي، كما فعل الشيطان الذي لبس خاتمي، وجلس على كرسيي، أو أن الله تعالى، علم أنه لا يقوم غيره مقامه، بمصالح ذلك المكان، واقتضت حكمته تعالى تخصيصه به، فألهمه سؤاله، انتهى.

ثم علل المغفرة والهبة معاً، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ يا إلٰهي ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾؛ أي: الكثير المواهب والعطاء، فأجب طلبي، وحقق رجائي، فإن قيل[1]: قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ هل يتناول النبي ﷺ أم لا؟ قلنا: أما بالصورة فيتناول، ولكن لعلو همته وكمال قدره لا لعدم استحقاقه؛ لأنه عُرض عليه ﷺ ملك أعظم من ملكه، فلم يقبله، وقال: الفقر فخري. وأما بالمعنى: فلم يتناول النبي ﷺ؛ لأنه قال: «فضلت على الأنبياء بست» يعني: على جميع الأنبياء، ولا خفاء في أن سليمان عليه السلام، ما بلغ درجة واحد من أولي العزم من الرسل، مع اختصاصه بصورة الملك منهم، وهم معه مفضولون بست فضائل من النبي ﷺ.

ثم أخبر سبحانه، بأنه أجاب دعاءه، ووفقه لتحصيل ما أراد، وعدد نعمه عليه. فقال:

١ - ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ﴾؛ أي: فذللنا لطاعة سليمان إجابة لدعوته ﴿ٱلرِّيحَ﴾. قال أبو عمرو: إنها ريح الصبا؛ أي: جعلناها مطيعة له، لا تخالفه إجابة لدعوته، فعاد أمره عليه السلام، على ما كان عليه قبل الفتنة، فيكون ذلك مسبباً عن إنابته إلى ربه.

وفيه: إشارة إلى أن سليمان، لما فعل بالصافنات الجياد. ما فعل في سبيل الله، عوّضه الله مركباً مثل الريح، كان غدوها شهراً، ورواحها شهراً. كما في «التأويلات النجمية». وقد سبق أيضاً من «كشف الأسرار»: قال البقلي، رحمه الله: كان سليمان عليه السلام، من فرط حبه جمال الحق، يحب أن ينظر إلى صنائعه، وممالكه ساعة، فساعة من الشرق إلى الغرب، حتى يدرك عجائب ملكه

---

(١) روح البيان.

وملكوته، فسخر الله له الريح، وأجراها بمراده، وهذا جزاء صبره في ترك حظوظ نفسه.

وقوله: ﴿تَجْرِي﴾ وتهب ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: بأمر سليمان. بيان لتسخيرها له. وقوله: ﴿رُخَآءً﴾ حال من ضمير ﴿تَجْرِي﴾؛ أي: حالة كون تلك الريح، لينة الهبوب، طيبة لا عاصفة تزعزع، ولا ينافي[1] هذا قوله في آية أخرى ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ لأن المراد: أنها في قوة العاصفة ولا تعصف. وقيل: إنها كانت تارة رخاء، وتارة عاصفة على ما يريده سليمان، ويشتهيه، وهذا أولى في الجمع بين الآيتين، أو المعنى: لينة في أثناء سيرها عاصفة في أوله.

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ ظرف لـ ﴿تجري﴾؛ أي: تجري إلى حيث قصد وأراد من النواحي والأطراف. واعلم: أن المراد بقوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: جريان الريح بمجرد أمره من غير جمعية خاطر، ولا همة قلب، فهو الذي جعل الله من الملك، الذي لا ينبغي لأحد من بعده، لا مجرد التسخير، فإن الله تعالى، سخر لنا أيضاً ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، ولكن إنما تفعل أجرام العالم لهمم النفوس، إذا أقيمت في مقام الجمعية، فهذا التسخير عن أمر الله، لا عن أمرنا، كحال سليمان عليه السلام، والمعنى؛ أي: فذللنا لطاعته إجابة لدعوته الريح، تجري لينةً طائعة له، لا تمتنع عليه إلى أي جهة قصد.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وقتادة، وأبو جعفر: ﴿الرياح﴾ بالجمع، وهو أعم لعظم ملك سليمان، وإن كان المفرد بمعنى الجمع لكونه اسم جنس.

٢ - ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ معطوف على الريح ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ بدل من الشياطين، وهو مبالغة بأن اسم فاعل من بنى، وكانوا يعملون له عليه السلام، ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان، كالجواب وقدور راسيات، كما سبق في سورة سبأ، ويبنون له الأبنية الرفيعة بدمشق واليمن، ومن بنائهم: بيت المقدس واصطخر

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

وهي من بلاد فارس، تنسب إلى صخر الجنّي، المراد بقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾. ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ معطوف على ﴿بَنَّآءٍ﴾. مبالغة غائص. اسم فاعل من غاص الماء يغوص غوصاً؛ أي: يغوصون في الماء، ويستخرجون له من البحر الدرر، والجواهر، والحلي، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر.

والمعنى: أي وذللنا لأمره البنائين من الشياطين والغواصين في البحار، منهم يسخرهم فيما يريد من الأعمال، فإذا أراد بناء العمائر والقصور، أو الحصون والقناطر، أنجزوها له في الزمن القصير، وإذا أحب استخراج اللؤلؤ والمرجان من البحار، لجعلهما حلية لمن في قصوره لبوا طلبه سراعاً.

٣ - ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ معطوف على ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾، داخل في حكم البدل؛ أي: وسخرنا له شياطين آخرين، مخالفين أمره ليصفدهم في الأصفاد، وقوله: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ بصيغة اسم المفعول، من التفعيل، صفة لـ﴿آخرين﴾ من قرّنت الشيء بالشيء؛ أي: وصلته به، وشدد العين للمبالغة والكثرة، ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ متعلق بمقرنين، جمع صفد محركة، وهو القيد من الحديد، ويسمى الأغلال، والسلاسل.

ومعنى الآية: وسخرنا له شياطين آخرين لا يبنون، ولا يغوصون، فقرنهم، وأوثقهم في الأصفاد، والسلاسل، والأغلال من الحديد، لكفهم عن الشر والفساد.

وخلاصة ما سلف[1]: أن سليمان قد استعمل الشياطين في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص في الماء، ومن لم يطع أمره، وضعه في السلاسل والأغلال، كفاً لشره، وعقاباً له، وعبرة لغيره، فإن قيل: إن[2] هذه الآية، تدل على أن الشياطين لها قوة عظيمة، قدروا بها على تلك الأبنية العظيمة، التي لا يقدر عليها البشر، وقدروا على الغوص في البحار، واستخراج جواهرها، وأنى يمكن

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

تقييدهم وتصفيدهم بالأغلال والأصفاد؟. وفيه إشكال، وهو أن هذه الشياطين، إما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة، فإن كانت كثيفة، وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة، إذ لو جاز أن لا يراهم مع كثافة أجسادهم، لجاز أن يكون بحضرتنا جبال عالية، وأصوات هائلة لا نراها، ولا نسمعها، وذلك سفسطة، وإن كانت أجسادهم لطيفة، واللطافة تنافي الصلابة، فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفاً بالقوة الشديدة، بحيث يقدر بها على ما لا يقدر عليه البشر؛ لأن الجسم اللطيف، يكون ضعيف القوام، تتمزق أجزاؤه بأدنى المدافعة، فلا يطيق تحمل الأشياء الثقيلة، ومزاولة الأعمال الشاقة، وأيضاً لا يمكن تقييده بالأصفاد والأغلال، قلنا: إن أجسادهم لطيفة، ولكن شفافة، ولطافتها لا تنافي صلابتها، بمعنى الامتناع من التفرق، فلكونها لطيفة لا تُرى، ولكونها صلبة يمكن تقييدها، وتحملها الأشياء الثقيلة ومزاولتها الأعمال الشاقة، ولو سلم أن اللطافة تنافي الصلابة، إلا أنا، لا نسلم أن اللطيف الذي لا صلابة له، يمتنع أن يتحمل الأشياء الثقيلة، ويقدر على الأعمال الشاقة، ألا ترى: أن الرياح العاصفة تفعل أفعالاً عجيبة، لا تقدر عليها جماعة من الناس.

وفي «الأسئلة المقحمة»: الجن أجسام مؤلفة، وأشخاص ممثلة، ولا دليل يقضي بأن تلك الأجسام لطيفة أو كثيفة، بل يجوز أن تكون لطيفة، وأن تكون كثيفة، وإنما لا نراهم لا للطافتهم كما يزعمه المعتزلة، ولكن لأن الله تعالى لم يخلق فينا إدراكاً لهم، انتهى.

والحق أن يقال(١): إنا لا نعلم حقيقة تلك القيود، ولا كيف تكون العقوبة، كما لا نعلم كيف يشتغل الشياطين، وكيف يبنون أو يغوصون؟. فكل ذلك في عالم لا ندرك شيئاً من أحواله، فعلينا أن نؤمن، بأن سليمان لعظم ملكه، لم يكتف بتسخير الإنس في أعماله، بل سخر معهم الجن، فيما يصعب عليهم، ونتقبل هذا كما قصه القرآن، دون دخول في التفاصيل خوفاً من الزلل الذي لا

---

(١) المراغي.

تؤمن مغبته، ولا نصل أخيراً إلى معرفة الحق فيه، ولنكتف بذلك، فالعبرة به ماثلة ولا نتزيد فيه.

روي[1]: أن الله تعالى أجاب دعاء سليمان، بأن سخر له ما لم يسخره لأحد من الملوك، وهو الرياح، والشياطين، والطير، وسخر له من الملوك، ما لم يتيسر لغيره مثل ذلك، فإنه روي: أنه ورث ملك أبيه داود، في عصر كيخسرو بن سياوش، وسار من الشام إلى العراق، فبلغ خبره إلى كيخسرو، فهرب إلى خراسان، فلم يلبث إلا قليلاً حتى هلك، ثم سار إلى مرو ثم سار إلى بلاد الترك فوغل فيها، ثم جاز بلاد الصين، ثم عطف إلى أن وافى بلاد فارس، فنزلها أياماً، ثم عاد إلى الشام، ثم أمر ببناء بيت المقدس، فلما فرغ منه سار إلى تهامة، ثم إلى صنعاء، وكان من حديثه مع صاحبة صنعاء، وهي بلقيس، ما ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم. وغزا بلاد المغرب، والأندلس، وطنجة وإفرنجة، ونواحيها.

ثم ذكر سبحانه، أنه أباح له أن يتصرف في كل هذا الملك الواسع، كما شاء، دون رقيب ولا حسيب. فقال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ وهو معمول لقول محذوف؛ أي[2]: فسخرنا له جميع ما ذكر، وقلنا له: هذا الذي أعطيناك من الملك العظيم والبسطة، والتسلط على ما لم يتسلط عليه غيرك، عطاؤنا الخاص بك، الذي لا يقدر عليه غيرنا. ﴿فَٱمْنُنْ﴾؛ أي: فأعط منه من شئت من قولهم: من عليه مناً إذا أنعم عليه. ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾؛ أي: وامنع منه من شئت. و﴿أَوْ﴾ هنا للإباحة. وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال من المستكن في الأمر؛ أي: حالة كونك غير محاسب على منّه وإحسانه، ومنعه وإمساكه، لا حرج عليك فيما أعطيت، وفيما أمسكت، لتفويض التصرف فيه إليك على الإطلاق. وقيل[3]: الإشارة إلى تسخير الشياطين، والمراد بالمن والإمساك: إطلاقهم أو إبقائهم في القيد. وفي «المفردات»: قيل: تصرف فيه تصرف من لا يحاسب؛ أي: تناول كما تحب في

---

(1) روح البيان.

(2) روح البيان.

(3) البيضاوي.

وقت ما تحب، وعلى ما تحب، وأنفقه كذلك، انتهى. قال الحسن. ما أنعم الله على أحد نعمة، إلا كان عليه تبعة إلا سليمان. فإن أعطى أجر عليه، وإن لم يُعط لم يكن عليه تبعة وإثم. وهذا مما خُص به، والتبعة: ما يترتب على الشيء من المضرة، وكل حق يجب للمظلوم على الظالم بمقابلة ظلمه عليه، قال بعض المحققين: كان سؤال سليمان ذلك عن أمر ربه، والطلب إذا وقع عن الأمر الإلهي كان امتثال أمر وعبادة، فللطالب الأجر التام على طلبه، من غير تبعة حساب ولا عقاب، فهذا الملك والعطاء، لا ينقصه من ملك آخرته شيئاً، ولا يحاسب عليه أصلاً، كما يقع لغيره، وأما ما روي: أن سليمان آخر الأنبياء دخولاً الجنة لمكان ملكه، فعلى تقدير صحته، لا ينافي الاستواء بهم في درجات الجنة، ومطلق التأخر في الدخول لا يستلزم الحساب.

وقد روي: أن الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمس مئة سنة، ويجوز أن يكون بغير حساب حالاً من العطاء؛ أي: هذا عطاؤنا ملتبساً بغير حساب، لغاية كثرته، كما يقال للشيء الكثير: هذا لا يحيط به حساب أو صلة له، وما بينهما اعتراض على التقديرين.

وبعد[1] أن ذكر ما أوتيه من نعم الدنيا، التي يحار العقل في إدراكها أبان ما له في الآخرة عند ربه، من مقام كريم وجنات نعيم، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾؛ أي: لسليمان عليه السلام ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾؛ أي: لقربى في الآخرة مع ما له من الملك العظيم في الدنيا ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾؛ أي: وحسن مرجع، وهو الجنة؛ أي: وإن له في الآخرة لقربى وكرامة لدينا، فنبوّئه جنات النعيم، ونؤتيه الإجلال والتعظيم، فهو كما كان سعيداً في الدنيا، يكون سعيداً في الآخرة، ويفوز برضا ربه وعظيم كرامته. جعلنا الله ممن كتبت له السعادة في الدنيا، والكرامة، والمثوبة لديه في جنات النعيم، وجملة ﴿إن﴾ حال من الضمير في ﴿سَخَّرْنَا﴾؛ أي: أعدنا له الملك، والحال أن منزلته عندنا، لم تزل بزوال الملك، ولم تتغير بتغيره، بل

---

(١) المراغي.

وقع له امتحان ظاهري فقط، ورتبته على ما هي عليه، اهـ شيخنا.

وختم سبحانه وتعالى قصته، بما ذكر في قصة والده، وهو قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ دفعاً لما يتوهم من نقصان درجاتهما في الآخرة، بسبب ما أوتيا في الدنيا من الملك العظيم، والتسخير العجيب.

وقرأ الجمهور: ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لَزُلْفَىٰ﴾. وقرأ الحسن، وابن أبي عبلة بالرفع، ويقفان على ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ ويبتدآن ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وهو مبتدأ خبره محذوف تقديره: وحسن مآب كائن له، وعلى قراءة الجمهور ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ اسم ﴿إن﴾، والخبر ﴿لَهُۥ﴾، والعامل في عند الخبر كما سيأتي، وفي الحديث: «أرأيتم ما أعطي سليمان بن داود من ملكه، فإن ذلك لم يزده إلا تخشعاً، ما كان يرفع بصره إلى السماء تخشعاً لربه». ولذا وجد الزلفى وحسن المرجع، فطوبى له، حيث كان فقيراً في صورة الغني. روي: أن سليمان عليه السلام، فتن بعدما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة، ثم انتقل إلى حسن مآب.

قصص أيوب عليه السلام

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد لقومك، أو تذكر بقلبك، ليكون أسوة لك، فهو معطوف على ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾، وعدم تصدير قصة سليمان بهذا العنوان، لكمال الاتصال بينه وبين داود، حتى كأن قصتهما قصة واحدة. ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾؛ أي: قصة عبدنا أيوب بن آموى بن رازخ بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وأمه من أولاد لوط بن هاران، وزوجته رحمة بنت أفرائيم بن يوسف عليه السلام، أو ليّا بنت يعقوب عليه السلام، ولذا قال في «كشف الأسرار»: كان أيوب في زمان يعقوب. أو ماخير بنت ميشا بن يوسف. والأول أشهر الأقاويل. قال القرطبي: لم يؤمن بأيوب إلا ثلاثة نفر، وعمره ثلاث وتسعون، وقوله: ﴿أَيُّوبَ﴾ عطف بيان للعبد. وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدل اشتمال من ﴿عَبْدَنَآ﴾؛ أي: واذكر إذ دعا أيوب ربه، وتضرع إليه بلسان الاضطرار، والافتقار ﴿أَنِّى﴾؛ أي: بأني ﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾؛ أي: أصابني

﴿بِنُصْبٍ﴾؛ أي: ضر وبلاء ﴿وَعَذَابٍ﴾؛ أي: إيجاع وألم شديد. فعطفه على النصب من عطل المسبب على السبب. وقرأ الجمهور: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الهمزة على أنه حكاية لكلامه الذي نادى ربه به، ولو لم يحكه لقال: إنه مسه. لأنه غائب. وقرأ عيسى بن عمر: بكسرها على إضمار القول، وأسند المس إلى الشيطان، قال الزمخشري: لما كانت وسوسته إليه، وطاعته له فيما وسوس، سبباً فيما مسه الله به من النصب والعذاب، نسب إليه، وقد راع الأدب في ذلك، حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله، ولا يقدر عليه أحد إلا هو.

والمعنى: واذكر يا محمد لقومك، صبر أيوب حين نادى ربه، وقال: رب إني أصبت بالمرض، وتفرق الأهل، وضياع الولد. ولا يناسب مناصب الأنبياء ما ذكره الزمخشري، من أن أيوب، كانت منه طاعة للشيطان فيما وسوس به، وأن ذلك، كان سبباً لما مسه الله به من النصب والعذاب.

وقرأ الجمهور: ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضم النون وسكون الصاد، قيل: جمع نصب كوثن ووثن، وأسد وأُسد. وقيل: هو لغة في النصب نحو: رشد ورشد، وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع، وشيبة، ونافع في رواية عنه، وأبو عمارة في حفص، والجعفي، وأبو معاذ عن نافع بضمتين، ورويت هذه القراءة عن الحسن. وقرأ زيد بن علي، والحسن في رواية، والسدي، وابن أبي عبلة، ويعقوب، والجحدري بفتحتين، وقرأ أبو حيوة، ويعقوب في رواية، وهُبيرة عن حفص بفتح النون وسكون الصاد، وهذه القراءات كلها بمعنًى واحد، وإنما اختلفت القراءات باختلاف اللغات، وقال أبو عبيدة: إن النَّصَبَ ـ بفتحتين ـ: التعب والإعياء. وعلى بقية القراءات: الشر والبلاء.

ومعنى قوله: ﴿وَعَذَابٍ﴾؛ أي: ألم. قال قتادة، ومقاتل: النصب في الجسد والعذاب في المال، قال النحاس: وفيه بعد كذا قال. والأولى تفسير النصب بالمعنى اللغوي، وهو التعب والإعياء، وتفسير العذاب بما يصدق عليه مسمى العذاب، وهو الألم، وكلاهما راجع إلى البدن.

وليس هذا المذكور هنا تمام دعائه عليه السلام، بل من جملته قوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فاكتفي ههنا عن ذكره، بما في سورة الأنبياء، كما ترك هناك ذكر الشيطان، ثقة بما ذكره هنا، فإن قلت: لا قدرة للشيطان البتة على إيقاع الناس في الأمراض، والأسقام، لأنه لو قدر على ذلك لسعى في إهلاك الأنبياء، والأولياء، والعلماء، والصالحين، فهو لا يقدر أن يضر أحداً إلا بطريق إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة، فما معنى إسناد المس إليه؟

قلت: إن الذي أصابه، لم يصبه إلا من الله تعالى، إلا أنه أسنده إلى الشيطان، لسؤال الشيطان منه تعالى، أن يمسه الله تعالى بذلك الضر، امتحاناً لصبره، ففي إسناده إليه دون الله تعالى، مراعاة للأدب كما مر آنفاً، وقيل: إنه لما عمل بوسوسته، عوقب على ذلك بذلك النصب والعذاب، فنسبه إليه، فقد قيل: إنه أعجب بكثرة ماله، وقيل: استغاثه مظلوم فلم يغثه، وقيل: إنه قال ذلك؛ لأن الشيطان وسوس إلى أتباعه، فرفضوه، وأخرجوه من ديارهم، وقيل المراد به: ما كان يوسوسه الشيطان إليه حال مرضه وابتلائه، من تحسين الجزع، وعدم الصبر على المصيبة، وقيل غير ذلك. والله أعلم.

روي: أن أيوب عليه السلام، كان له أموال كثيرة من صنوف مختلفة، وهو مع ذلك كله، كان مواظباً على طاعة الله، محسناً للفقراء واليتامى، وأرباب الحاجات، فحسده إبليس لذلك، وقال: إنه يذهب بالدنيا والآخرة، فقال: إلهي عبدك أيوب قد أنعمت عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ولو ابتليته بنزع النعمة والعافية لتغير عن حاله، فقال تعالى: إني أعلم منه أن يعبدني ويحمدني على كل حال، فقال إبليس: يا رب سلطني عليه، وعلى أولاده وأمواله.

وقوله: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ مقول لقول محذوف، معطوف على مقدر تقديره: واذكر يا محمد، إذ نادى أيوب ربه فاستجبنا له، وقلنا له على لسان جبرائيل، حين انقضاء مدة بلائه: اركض، واضرب برجلك وقدمك الأرض، وهي أرض الجابية بلد في الشام من أقطاع أبي تمام، فضربها، فنبعت عين ماء، فقلنا له: ﴿هَٰذَا﴾ الماء النابع ﴿مُغْتَسَلٌۢ﴾؛ أي: ماء يُغتسل به ﴿بَارِدٌ﴾ فاغتسل به،

فباغتسالك به يبرأ ظاهرك مما به ﴿وَشَرَابٌ﴾ تشرب منه، فيبرأ باطنك مما به، والواو لتأكيد الصفة بالموصوف والظاهر[١]: أن المشار إليه كان واحداً، والعين التي نبعت له عينان شرب من إحداهما، واغتسل من الأخرى، وقيل: ضرب برجله اليمنى، فنبعت عين حارة، فاغتسل بها، وباليسرى فنبعت باردة فشرب منها، وهذا مخالف لظاهر قوله: ﴿مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ﴾، فإنه يدل على أنه ماء واحد، وقال الحسن: ركض برجله، فنبعت عين ماء، فاغتسل منها، ثم مشى نحواً من أربعين ذراعاً، ثم ركض برجله، فنبعت عين ماء فشرب منها، قيل: والجمهور على أنه ركض ركضتين، فنبعت له عينان شرب من إحداهما، واغتسل من الأخرى، والجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شتت منهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: مكث في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات لم يغمض فيهن، ولم ينقلب من جنب إلى جنب، كما في زهرة الرياض. ولا نعلم[٢] على وجه التحقيق، قدر الزمن الذي لحقه فيه الضر، ولا نوع هذا الضر، إذ القرآن لم يصرح بهذا، ولكنا نعلم على وجه، لا يقبل الشك أنه لم يصب بأذى ينفّر منه الناس، ويمنعهم من لقائه والجلوس معه؛ لأن ذلك شرط من شروط النبوة، كما أنّا نعلم من وصف الدواء الآتي الذي أوحى الله تعالى به إليه، أنه من الأمراض الجلدية التي تشفيها المياه المعدنية أو الكبريتية، كما أشار إلى ذلك بقوله واصفاً الدواء: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: حرك الأرض برجلك، واضربها بها يخرج ينبوع من الماء تغتسل منه وتشرب، فتبرأ مما أنت فيه من المرض.

وفي هذا[٣]: إيماء إلى نوع المرض، الذي كان به، وأنه من الأمراض الجلدية غير المعدية كالأكزيما، والحكة، ونحوهما مما يتعب الجسم، ويؤذيه أشد الإيذاء، لكنه ليس بقتال، وكلما تقدم الطب، أمكن للطبيب أن يبين نوع هذا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

المرض على وجه التقريب، لا على وجه التحديد، كما أن في ذلك إيماء، إلى أن الماء كان من المياه الكبريتية، ذات الفائدة الناجحة في تلك الأمراض. وهي كما تفيد بالاستعمال الظاهري تفيد بالشرب أيضاً، كما نرى في العيون التي في البلاد، التي أنشئت فيها الحمامات في أوروبا ومصر والحبشة وغيرها، واستُعملت مصحات للأمراض الجلدية والأمراض الباطنية، كمياه فيشي، وسويسرا، وحلوان، وكوسم، وعرر من الحبشة.

وكما دفع عنه سبحانه الضر، إجابة لدعائه، أجاب دعاءه في أهله وولده، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ معطوف[1] على مقدر؛ أي: فاغتسل وشرب، فكشفنا بذلك ما به من ضر، كما في سورة الأنبياء، ووهبنا له أهله، وكانوا ثلاثة عشر، روى الحسن: أن الله تعالى، أحياهم بعد هلاكهم؛ أي: بما ذكر من أن إبليس هدّم عليهم البناء فماتوا. ﴿و﴾ وهبنا له ﴿مثلهم معهم﴾ عطف على ﴿أَهْلَهُۥ﴾. فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل؛ أي: زاده على ما كان قبل البلاء، فكانوا مثلي ما كانوا من قبل ابتلائه، وانتصاب قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مفعولان لأجله؛ أي: ووهبناهم له لأجل رحمة عظيمة عليه من عندنا، ولتذكير أصحاب العقول السليمة بذلك، ليصبروا على الشدائد كما صبر، ويلجؤوا إلى الله تعالى، فيما ينزل بهم، كما لجأ هو إليه، ليفعل بهم مثل ما فعل به من حسن العاقبة.

والمعنى[2]: أي وجمعنا له أهله بعد التفرق والتشتت، وأكثرنا نسلهم حتى صاروا ضعف ما كانوا عليه رحمة منا، وتذكرة لأصحاب العقول السليمة، لتعتبر وتعلم أن رحمة الله قريب من المحسنين، وأن من العسر يسراً، وأن الإنسان لا يقنط من الفرج بعد الشدة:

عَسَىٰ فَرَجٌ يَأْتِيْ بِهِ ٱللَّهُ إِنَّهُ ... لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِيْ خَلِيْقَتِهِ أَمْرُ

ولم يذكر لنا الكتاب الكريم، ماذا كانت حاله في ماله؟، فنُمسك عن

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الكلام كما أمسك.

ثم ذكر أنه رخص له سبحانه في تحلة يمينه، فقال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ معطوف[1] على ﴿ارْكُضْ﴾ أو على ﴿وهبنا﴾ بتقدير: وقلنا خذ بيدك إلخ. والأول أقرب لفظاً، وهذا أنسب معنى، فإن الحاجة إلى هذا الأمر لا تمس إلا بعد الصحة؛ أي: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾؛ أي: ملء كفك من حشيش، أو عيدان، أو ريحان أو عثكال نخل بشماريخه ﴿فَاضْرِب بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الضغث زوجك، وبر في يمينك ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ فيها، فإن البر يتحقق بذلك، فأخذ ضغثاً، فضربها به ضربة واحدة، يقال: حنث في يمينه إذا لم يف بها، وكان[2] حلف في مرضه ليضربن امرأته مئة سوط إذا برأ. فحلل يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه، وهذه الرخصة باقية إلى يوم القيامة، ويجب أن يصيب المضروب كل واحدةٍ من المئة. والسبب في يمينه، أنها أبطأت عليه ذاهبةً في حاجة، وقيل: باعت ذؤابتيها برغيفين، إذ لم تجد شيئاً، وكان أيوب يتعلق بهما إذا أراد القيام، وقيل: غير ذلك، وهذا الذي ذكرنا أليق بالمقام، والضغث: عثكال النخل بشماريخه، وقال الواحدي: الضغث ملء الكف من الشجر، والحشيش، والشماريخ.

فإن قلت[3]: لم قال الله سبحانه، لأيوب عليه السلام: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾، وقال لمحمد ﷺ: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾؟.

قلت: لأن كفارة اليمين لم تكن لأحد قبلنا، بل هي لنا، مما أكرم الله به هذه الأمة، بدليل قوله تعالى: ﴿لكم﴾، كذا في «أسئلة الحكم»، وفي كلام بعض المفسرين: لعل التكفير لم يجز في شرعهم، أو أن الأفضل الوفاء به، انتهى.

والمعنى[4]: أي وخذ حزمة صغيرة من ريحان، أو كلأ أو عثكال نخل، فاضرب بها، فيكون ذلك تحلة ليمينك التي حلفتها، والكتاب الكريم لم يبين لنا

---

(1) الإرشاد.
(2) النسفي.
(3) روح البيان.
(4) المراغي.

علام حلف، وعلى من حلف. ويذكر الرواة: أنه حلف على زوجته رحمة، بنت أفراثيم، وقد كانت ذهبت لحاجة، فأبطأت عليه، فحلف ليضربنها إن برىء مئة ضربة. فرخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة، ويضربها بها، وبذا يتحقق البر في يمينه رحمة به، وبها لحسن خدمتها له، وقيامها بواجباته المنزلية أثناء مرضه.

وفي هذا مخرج، وفرج لمن اتقى الله، وأناب إليه، ولهذا قال عز اسمه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ﴾؛ أي: وجدنا أيوب، وعلمناه ﴿صَابِرًا﴾ على ما أصابه في النفس، والأهل، والمال من البلاء الذي ابتليناه، فإنه ابتلي بالداء العظيم في جسده، وذهاب ماله، وأهله، وولده، فصبر على ذلك، وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن أيوب عليه السلام، لم يكن ليجد نفسه صابراً، لولا أنا وجدناه؛ أي: جعلناه صابراً. يدل على هذا المعنى، قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: هو الذي صبرك وإن لم تكن تصبر، انتهى.

رُوي[١]: أنه بلغ أمر أيوب عليه السلام، إلى أن لم يبق منه إلا القلب، واللسان، فجاءت دودة إلى القلب فعضته، وأخرى إلى السان فعضته، فعند ذلك دعا أيوب، فوقعت دودة في الماء، فصار علقاً، وأخرى في البر، فصار نحلاً يخرج منه العسل، وفي «زهرة الرياض»: أنه بقي على بدنه أربعة من الديدان: واحد طار ووقع على شجرة الفرصاد فصار دود القز، وواحد وقع في الماء فصار علقاً، وواحد وقع في الحبوب فصار سوساً، والرابع طار ووقع في الجبال والأشجار فصار نحلاً، وهذا بعدما كشف الله عنه.

﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوب، وحسن ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل[٢] لمدحه؛ أي: إنما قيل فيه: نعم العبد؛ لأنه رجاع إلى الله تعالى، لا إلى الأسباب، مقبل بجملة وجوده إلى طاعته، أو رجّاع إلى الحضرة في طلب الصبر على البلاء والرضى بالقضاء، ولقد سوى الله سبحانه وتعالى، بين عبديه اللذين، أحدهما: أنعم عليه فشكر، والآخر: ابتلي فصبر، حيث أثنى عليهما ثناءً واحداً، فقال في وصف سليمان:

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وفي وصف أيوب كذلك، ولم يلزم من الأوابية الذنب، لأن بلاء أيوب، كان من قبيل الامتحان.

والمعنى: أي[1] إنا وجدنا أيوب صابراً على ما أصابه في النفس والأهل والمال، من أذى، فجازيناه بما فرّج كربته وأذهب لوعته، وليس في الشكوى إلى الله إخلال بالصبر، وليس فيه شيء من الجزع، فهو كتمني العافية وطلب الشفاء، وقد روي أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة: اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت، وكان يقول في مناجاته: إلٰهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يلهني ما ملكت يميني، ولم آكل إلا ومعي يتيم، ولم أبت شبعان ولا كاسياً ومعي جائع أو عريان.

فإن قلت[2]: كيف وصف الله تعالى أيوب عليه السلام بالصبر، مع أن الصبر ترك الشكوى من ألم البلوى، وهو قد شكا بقوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، وقوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾؟.

قلت: الشكوى إلى الله تعالى لا ينافي الصبر، ولا تسمى جزعاً لما فيها من الجهاد والخضوع والعبودية لله تعالى، والافتقار إليه، ويؤيده قول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، وقولهم: الصبر ترك الشكوى؛ أي: إلى العباد، أو أنه عليه السلام، طلب الشفاء من الله تعالى، بعد ما لم يبق منه إلا قلبه ولسانه، خيفة على قومه، أن يفتنهم الشيطان، ويوسوس إليهم، أنه لو كان نبياً لما ابتلي بما هو فيه، ولكشف الله ضره إذا دعاه.

ويروى: أن الله تعالى لما أذهب عن أيوب ما كان فيه من الأذى، أنزل عليه ثوبين أبيضين من السماء، فاتزر بأحدهما، وارتدى بالآخر، ثم مشى إلى منزله، فأقبلت سحابة، فسحت في أندر قمحه ذهباً حتى امتلأ، وأقبلت سحابة

---

(١) المراغي.

(٢) فتح الرحمٰن.

أخرى إلى أندر شعيره، فسحت فيه ورقاً حتى امتلأ، وشكر الله خدمة زوجته، فردها إلى شبابها، وجمالها.

قصص: إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا محمد، أو تذكّر ﴿عِبَٰدَنَآ﴾؛ أي: صبر عبادنا المخصوصين من أهل العناية ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ بن إسحاق ليكونوا لك قدوة في الصبر، فإبراهيم ألقي في النار فصبر، وإسحاق أضجع للذبح فصبر على قول، ويعقوب ابتلي بفقد ولده وذهاب بصره فصبر. ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾؛ أي: أصحاب القوى في الأعمال الظاهرة، والأفعال الدينية ﴿و﴾ أولي ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾؛ أي: أصحاب الفكر الباطنة والمعارف الإلهية، والأيدي: جمع يد بمعنى: القوة، والتمكن من الأعمال الظاهرة، والأبصار: جمع بصر بمعنى: البصيرة، وهي القوة التي يتمكن بها الإنسان من إدراك المعقولات، والمعنى: أصحاب القوة في الطاعة، والبصيرة في أمور الدين.

وكأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة[(١)]، ولا يجاهدون في الله، ولا يتفكرون أفكار ذوي الديانات، في حكم الزمنى، الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم، والمسلوبي العقول الذين لا استبصار لهم، وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة، والتأمل مع كونهم متمكنين منهما.

قال ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)]: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾؛ أي: أولي القوة في طاعة الله تعالى. ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾؛ أي: في المعرفة بالله تعالى، وقيل: المراد باليد. أكثر الأعمال، وبالبصر: أقوى الإدراكات، فعبّر بهما عن العمل باليد، وعن الإدراك بالبصر، وللإنسان قوتان عالمية، وعاملية، وأشرف ما يصدر عن القوة

(١) النسفي.
(٢) الخازن.

العالمية معرفة الله تعالى، وأشرف ما يصدر عن القوة العاملية طاعته وعبادته، فعبر عن هاتين القوتين بالأيدي، والأبصار.

وقرأ ابن عباس وابن كثير وأهل مكة[1] ﴿عَبْدَنَا﴾ على الإفراد، و﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ بدل منه أو عطف بيان، وقرأ الجمهور: ﴿عِبَٰدَنَآ﴾: بالجمع، وما بعده من الثلاثة، بدل أو عطف بيان، وقرأ الجمهور: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي﴾ بالياء. وقرأ عبد الله، والحسن، وعيسى، والأعمش: ﴿ٱلْأَيْدِ﴾ بغير ياء، فقيل: يراد به: الأيدي حذفت منه الياء اجتزاء بالكسرة عنها، ولما كانت ﴿أل﴾ تعاقب التنوين حذفت الياء معها، كما حذفت مع التنوين، وهذا تخريج لا يسوغ؛ لأن حذف هذه الياء مع وجود ﴿أل﴾ ذكره سيبويه في الضرورات. وقرىء ﴿الأيادي﴾ جمع الجمع كأوطف وأواطف.

والمعنى: أي واذكر صبر عبادنا، الذين شرفناهم بطاعتنا، وقويناهم على العمل لما يرضينا، وآتيناهم البصيرة في الدين، والفقه في أسراره، والعمل النافع فيه.

ثم علل ما وصفهم به من فاضل الصفات، وجليل المدح بقوله: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾؛ أي: إنا جعلناهم خالصين بخصلة خالصة عظيمة الشأن، لا شوب فيها ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ مصدر، بمعنى التذكر، مضاف إلى مفعوله، وهو خبر مبتدأ محذوف، والجملة صفة لـ﴿خالصة﴾، والتقدير: إنا خصصناهم بخصلة خالصة لنا، هي تذكرهم للدار الآخرة دائماً، ولا هم لهم غيرها، وإطلاق الدار يعني مراداً بها الدار الآخرة، للإشعار بأنها الدار في الحقيقة، وإنما الدنيا معبر.

فإن قيل[2]: كيف يكونون خالصين لله تعالى، وهم مستغرقون في الطاعة، وفيما هو سبب لها، وهو تذكر الآخرة؟.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

قلت: إن استغراقهم في الطاعة، إنما هو لاستغراقهم في الشوق إلى لقاء الله، ولما لم يكن ذلك إلا في الآخرة، استغرقوا في تذكرها، وفي «التأويلات النجمية»: إنا صفيناهم عن شوب صفات النفوس، وكدورة الأنانية، وجعلناهم لنا خالصين بالمحبة الحقيقية، ليس لغيرنا فيهم نصيب، ولا يميلون إلى الغير بالمحبة العارضة، لا إلى أنفسهم، ولا إلى غيرهم، بسبب خصلة خالصة غير مشوبة بهمٍّ آخر، هي ذكرى الدار الباقية، والمقر الأصلي؛ أي: استخلصناهم لوجهنا بسبب تذكرهم لعالم القدس، وإعراضهم عن معدن الرجس، مستشرقين لأنواره، لا التفات لهم إلى الدنيا، وظلماتها أصلاً، انتهى.

وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والأعرج، ونافع، وهشام[1]: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بغير تنوين أضيفت إلى ﴿ذِكْرَى﴾. وقرأ باقي السبعة بالتنوين، و﴿ذِكْرَى﴾ بدل من ﴿بِخَالِصَةٍ﴾. وقرأ الأعمش، وطلحة ﴿بخالصتهم﴾.

والمعنى: أي إنا جعلناهم خالصين لطاعتنا، عاملين بأوامرنا ونواهينا، لاتصافهم بخصلة جليلة الشأن، لا يساويها غيرها من الخصال، وهي تذكرهم الدار الآخرة، فهي مطمح أنظارهم، ومطرح أفكارهم في كل ما يأتون، وما يذرون، ليفوزوا بلقاء ربهم، وينالوا رضوانه في جنات النعيم.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾؛ أي: لمن المختارين في الدنيا بالنبوة والإسلام ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ عند الله يوم القيامة.

والمعنى[2]: أي وإنهم لمن المختارين، الذين جبلت نفوسهم على الخير فلا تطمح إلى الأذى، ولا تميل إلى التباغض والتحاسد، ولا ترتكب الشرور والآثام.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ﴾ بن إبراهيم عليهما السلام، وإنما فصل ذكره عن ذكر أبيه

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

وأخيه، للإشعار بعراقته في الصبر، الذي هو المقصود بالتذكر، وذلك لأنه، أسلم نفسه للذبح في سبيل الله، أو ليكون أكثر تعظيماً، فإنه جد أفضل الأنبياء والمرسلين. ﴿و﴾ اذكر ﴿اليسع﴾ هو ابن أخطوب من العجوز، استخلفه إلياس ـ عليه السلام ـ على بني إسرائيل، ثم استُنبىء، ودخلت اللام على العلم، لكونه منكراً، بسبب طرو الاشتراك عليه، فعرّف باللام العهدية على إرادة اليسع الفلاني، مثل قول الشاعر:

رَأَيْتُ ٱلْوَلِيْدَ بْنَ ٱلْيَزِيْدِ مُبَارَكَاً

أو هي زائدة، وقرأ حمزة، والكسائي: بتشديد اللام وسكون الياء.

﴿و﴾ اذكر ﴿ذا الكفل﴾ هو ابن عم يسع، أو بشر بن أيوب عليه السلام، بعث بعد أبيه إلى قوم في الشام. واختلف في نبوته، والأكثرون على أنه نبي لذكره في سلك الأنبياء، واختلف أيضاً أنه إلياس أو يوشع أو زكريا أو غيرهم؟. وإنما لقّب بذي الكفل؛ لأنه فرّ إليه مئة نبي من بني إسرائيل من القتل، فآواهم وكفلهم بمعنى: أطعمهم وكساهم وكتمهم من الأعداء.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: وكل[1] من المتقدمين من داود إلى هنا ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾؛ أي: من المشهورين بالخيرية؛ أي: ممن اختاره الله للنبوة، واصطفاه من خلقه، وهذه الآيات تعزية، وتسلية للرسول ﷺ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إذا اجتهدوا في الطاعات، وقاسوا الشدائد والآفات، وصبروا على البلايا والأذيات من أعدائهم، مع أنهم مفضولون، فالنبي ﷺ أولى بذلك لكونه أفضل منهم، والأفضل يقاسي ما لا يقاسي المفضول، إذ به تتم رتبته، وتظهر رفعته، والأخيار: جمع خيِّر أو خير على التخفيف، كأموات جمع ميِّت أو ميْت.

﴿هَٰذَا﴾ المذكور من الآيات الناطقة، بمناقب الأنبياء ﴿ذِكْرٌ﴾؛ أي: شرف لهم، وذكر جميل يذكرون به أبداً، كما يقول: يموت الرجل ويبقى اسمه وذكره، ويموت الفرس ويبقى ميدانه.

---

(١) المراح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذا ذكر من مضى من الأنبياء، وفي «التأويلات النجمية»: ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: القرآن فيه ذكر ما كان، وذكر الأنبياء وقصصهم، لتعتبر بهم، وتقتدي بهم، وهذا أسلوب يذكر للانتقال من كلام إلى آخر. كما يقول الجاحظ في كتبه: فهذا باب، ثم يشرع في باب آخر، ويقول الكاتب، إذا فرغ من فصل من كتابه، وأراد الشروع في آخر: هذا، وكان كيت وكيت، وعلى هذا جاء قوله: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ كما سيأتي بعد.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الله لا ما سواه، وذلك، لأن جنات عدن مقام أهل الخصوص ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ومرجع في الآخرة، مع ما لهم في الدنيا من الثناء الجميل، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: مآباً حسناً، والمآب: المرجع. والمعنى: أنهم يرجعون في الآخرة إلى مغفرة الله، ورضوانه، ونعيم جنته.

ثم بيّن حسن المرجع، فقال: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ عطف بيان لحسن مآب، وأصل العدن في اللغة: الإقامة، ثم صار علماً بالغلبة على تلك الجنة، وقيل: هو اسم لقصر في الجنة.

قرأ الجمهور[1]: ﴿جَنَّٰتِ﴾ بالنصب بدلاً من ﴿حسن مآب﴾، سواء كان جنات معرفة أو نكرة؛ لأن المعرفة تبدل من النكرة وبالعكس، ويجوز أن يكون ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ عطف بيان إن كانت نكرة، ولا يجوز ذلك فيها، إن كانت معرفة على مذهب جمهور النحاة، وقد جوزه بعضهم، ويجوز أن يكون نصب ﴿جَنَّٰتِ﴾ بإضمار فعل تقديره: سيدخلون جنات. وقرأ زيد بن علي، وعبد الله بن رفيع، وأبو حيوة ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً﴾ برفع التائين مبتدأ وخبرا، أو كل منهما خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو جنات عدن هي مفتحة.

---

(١) الشوكاني.

وقوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ حال من ﴿جَنَّٰتِ﴾. والعامل[1] فيها ما في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من معنى الفعل. والأبواب مرتفعة باسم المفعول، كقوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾. والرابط بين الحال وصاحبها ضمير مقدر، إذ الأصل: أبوابها. وقيل: إن ارتفاع ﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ على البدل من الضمير في ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ العائد على ﴿جَنَّٰتِ﴾، وبه قال أبو علي الفارسي؛ أي: مفتحة هي الأبواب.

والمعنى[2]: أي حال كون تلك الجنات، مفتحة لهم الأبواب منها؛ أي: إذا وصلوا إليها، وجدوها مفتوحة الأبواب، لا يحتاجون إلى فتح بمعاناة، ولا يلحقهم ذل الحجاب، ولا كلفة الاستئذان، تستقبلهم الملائكة بالتبجيل والترحيب والإكرام، يقولون: سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار، وقيل: هذا مثل ما تقول: متى جئتني وجدت بابي مفتوحاً، لا تمنع من الدخول، فإن قيل: ما فائدة العدول عن الفتح إلى التفتح؟.

قلنا: المبالغة، وليست لكثرة الأبواب بل لعظمها، كما ورد من المبالغة في سعتها، وكثرة الداخلين، ويحتمل أن يكون للإشارة، إلى أن أسباب فتحها عظيمة شديدة، لأن الجنة قد حفت بالمكاره على وجه، لما رآها جبرائيل مع عظمة نعيمها قال: يا رب أنى هذه لا يدخلها أحد.

وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ حال من ضمير ﴿لَهُمُ﴾، والعامل فيه ﴿مُّفَتَّحَةً﴾؛ أي: حال كونهم، جالسين فيها جلسة المتنعمين للراحة. ولا شك أن الاتكاء على الأرائك دليل التنعم، ثم استأنفه لبيان حالهم في الجنات، فقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: يسألون، ويطلبون في الجنات ﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾؛ أي: بألوان متنوعة متكثرة، وهي ما يؤكل للذة لا للغذاء، والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان، بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ، دون التغذي، فإنه لتحصيل بدل المتحلل، ولا تحلل فيها. ﴿وَشَرَابٍ﴾؛ أي: ويدعون فيها أيضاً بشراب كثير؛ أي:

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

ألوانه. فحذف ﴿كثير﴾ لدلالة الأول عليه، ففيه اكتفاء، ويقال: نطق القرآن بعشرة أشربة في الجنة منها: الخمر الجارية من العيون وفي الأنهار، ومنها: العسل واللبن وغيرهما. ولا شك أن الأذواق المعنوية في الدنيا متنوعة، ومقتضاه تنوع التجليات الواقعة في الجنة، سواء كانت تجليات شرابية أو غيرها.

والمعنى[1]: أي والمآب الحسن، هو جنات استقرار وإقامة، وأبوابها فتحت إكراماً لهم، وفي هذا إيماء إلى وصفها بالسعة، وقرة العيون فيها، ومشاهدة أحوالها التي تسر الناظرين، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم ذكر سبحانه ما يدل على مقدار أمنهم فيها، وتنعمهم بنعيمها، فقال: متكئين فيها يدعون فيها بألوان كثيرة من الفاكهة والشراب وهم متكئون على الأرائك، وإنما[2] خص الشراب، والفاكهة من بين ما يتنعم به فيها؛ لأن بلاد العرب قليلة الفواكه والأشربة، فالنفس إليها أشوق، وفي ذكرها أرغب، كما أن في ذلك إيماء، إلى أن مطاعمهم لمحض التفكه، والتلذذ دون التغذي؛ لأنه إنما يكون لتحصيل بدل المتحلل، ولا تحلل فيها كما مر قريباً.

وبعد أن وصف المسكن، والمأكول، والمشروب وصف الأزواج، فقال: ﴿وَعِندَهُمْ﴾؛ أي: وعند المتقين في الجنة أزواج ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ وحابسات النظر عليهم؛ أي: زوجات قصرن طرفهن؛ أي: نظرهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم. قال في «كشف الأسرار»: هذا كقولهم: فلانة عند فلان؛ أي: زوجته ﴿أَتْرَابٌ﴾؛ أي[3]: متحدات في السن أو متساويات في الحسن، قال مجاهد: معنى أتراب: إنهن متواخيات لا يتباغضن، ولا يتغايرن، وقيل: أتراب للأزواج؛ أي: أقران لهم، والأتراب: جمع ترب، كما سيأتي، واشتقاقه من التراب؛ لأنه يمسهن في وقت واحد، لاتحاد مولدهن.

والمعنى: لدات أقران ينشأن معاً، تشبيهاً في التساوي، والتماثل بالترائب

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

التي هي ضلوع الصدر، ولوقوعهن على الأرض معاً، يمسهن التراب في وقت واحد.

قال في «كشف الأسرار»: لدات مستويات في السن، لا عجوز فيهن، ولا صبية، وقال بعضهم: لدات لأزواجهن؛ أي: هن في سن أزواجهن لا أصغر ولا أكبر، وفيه أن رغبة الرجل فيمن هي دونه في السن أتم، وأنه كان التحاب بين الأقران أرسخ، فلا يكون كونهن لدات لأزواجهن صفة مدح في حقهن.

وفي الخبر الصحيح: «يدخل أهل الجنة الجنة، جرداً مرداً، مكهلين أبناء ثلاث وثلاثين سنة، لكل رجل منهم زوجتان، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من ورائها».

والمعنى: أي وعندهم نساء ذوات خفر، قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن، وهن متساويات في السن والجمال، يحب بعضهن بعضاً. وفي ذلك راحة عظيمة للأزواج، إذ في تباغض الضرائر النصب، والتعب والهم الكثير للزوج، ولهن.

وتقول لهم الملائكة: ﴿هَٰذَا﴾ المذكور من الثواب والنعيم ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ به أيها المتقون في الدنيا على لسان نبيكم ﷺ. ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾؛ أي: لأجل وقوع يوم الحساب، وهو يوم القيامة؛ أي: لأجل وقوع الحساب والجزاء في يوم القيامة، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء. وقال بعضهم: ويحتمل أن يكون التقدير: هذا ما توعدون بوقوعه في يوم الحساب والجزاء، واللام بمعنى: في الظرفية.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ بتاء الخطاب التفاتاً. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، ويعقوب ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ بياء الغيبة، إذ قبله ﴿وَعِندَهُمْ﴾ واختار هذه القراءة أبو عبيدة، وأبو حاتم لقوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فإنه خبر.

---

(١) الشوكاني.

والمعنى[1]: أي هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة، هو ما وعد الله سبحانه به عباده، يصيرون إليه بعد نشورهم، وقيامهم من قبورهم.

ثم أخبر بأن نعيم الجنة دائم، لا يزول ولا ينقطع، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكرناه من أنواع النعم والكرامات ﴿لَرِزْقُنَا﴾؛ أي: عطاؤنا أعطيناكموه. ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾؛ أي: ليس له انقطاع أبداً، وفناء، وزوال؛ أي: إن هذا النعيم، وتلك الكرامة لعطاء دائم غير مجذوذ ولا منقطع، ونحو الآية قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾، وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير منقطع ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾. قال ابن عباس[2] رضي الله عنهما: ليس لشيء نفاد، ما أكل من ثمارها خلف مكانه مثله، وما أكل من حيوانها وطيرها عاد مكانه حياً.

وفي «التأويلات النجمية»: وبقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ يشير إلى أن هذه الجنات بهذه الصفات مفتوحة لهم الأبواب، وأبواب الجنة بعضها مفتوحة إلى الخلق، وبعضها مفتوحة إلى الخالق لا يُغلق عليهم واحد منها، فيدخلون من باب الخلق، وينتفعون بما أعد لهم فيها، ثم يخرجون من باب الخالق، وينزلون في مقعد صدق عند مليك مقتدر، لا يقيدهم نعيم الجنة ليكونوا من أهل الجنة، كما لم يقيدهم نعيم الدنيا، ليكونوا من أهل النار، بل أخلصهم من حبس الدارين، ومتعهم بنزول المنزلين، وجعلهم من أهل الله، وخاصته. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾؛ أي: هذا ما رزقناهم في الأزل، فلا نفاد له إلى الأبد، انتهى.

فعلى العاقل: الإعراض عن اللذات الفانية، والإقبال على الأذواق الباقية، فالفناء يوصل إلى البقاء، كما أن الفقر يوصل إلى الغنى. ولكل احتياج استغناء.

إِذَا شَابَ ٱلْغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي وَهَيْهَاتَ ٱلْغُرَابُ مَتَىٰ يَشِيبُ

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

عَسَىٰ ٱلْكَرْبُ ٱلَّذِيْ أَمْسَيْتُ فِيْهِ يَكُوْنُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيْبُ

الإعراب

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿خَلَقْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوف عليه، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب معطوف على السماء. ﴿بَيْنَهُمَآ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صلة لما، ﴿بَٰطِلًا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: خلقاً باطلاً. ويجوز أن يكون حالاً من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾؛ أي: مبطلين أو ذوي باطل، والجملة مستأنفة، مسوقة لتقرير مضمون ما تقدم من أمر البعث والحساب والجزاء. ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: خلقها باطلاً لا لحكمة مبتدأ، ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ﴾ خبر، ومضاف إليه، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلته، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ظنهم ذلك، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك: ويل للذين كفروا. ﴿ويل﴾ مبتدأ، ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبره، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة للموصول. ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ صفة لـ﴿ويل﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى: بل التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الإنكار، ﴿نَجْعَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول أول لنجعل، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ﴾: الكاف اسم بمعنى مثل، في محل النصب مفعول ثان لـ﴿نجعل﴾، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بالمفسدين، ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى: بل

الإضرابية، وهمزة الإنكار أيضاً. ﴿نَجْعَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾: مفعول أول، ﴿كَٱلْفُجَّارِ﴾: الكاف اسم بمعنى: مثل في محل النصب مفعول ثان لـ﴿نَجْعَلُ﴾. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا القرآن كتاب أنزلناه إليك، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: صفة أولى لكتاب، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ صفة ثانية له، ومنعه بعضهم بحجة، أن النعت غير الصريح، لا يتقدم على النعت الصريح، فهو عندهم خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف، وقرأ ﴿مباركا﴾: بالنصب على الحال اللازمة، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾: اللام: حرف جر وتعليل، ﴿يدبروا﴾: فعل، وفاعل، منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل جوازاً، ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلناه لتدبرهم آياته. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام حرف جر وتعليل، ﴿يتذكر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً، بعد لام كي، ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: فاعل، ومضاف إليه مرفوع بالواو؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولتذكر أولي الألباب، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿وهبنا﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِدَاوُۥدَ﴾: متعلق بـ﴿وهبنا﴾، ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾: مفعول به، ﴿نِعْمَ﴾: فعل ماض لإنشاء المدح، ﴿ٱلْعَبْدُ﴾: فاعله، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: هو. والجملة الفعلية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَوَّابٌ﴾: خبره. والجملة الاسمية مسوقة لتعليل جملة المدح. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ﴿أَوَّابٌ﴾ أو بـ﴿نِعْمَ﴾ أو بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد، قصة إذ عرض عليه. ﴿عُرِضَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِ﴾

متعلق به، ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾: حال من الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾، أو من ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾، ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾: نائب فاعل لعرض، ﴿ٱلْجِيَادُ﴾: صفة لـ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾. والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَقَالَ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿عُرِضَ﴾. ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَحْبَبْتُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. و﴿أَحْبَبْتُ﴾: ليست جارية على معناها الأصلي، وإنما هي متضمنة معنى فعل، يتعدى بعلى، وهي بمعنى: آثرت. ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾: مفعول به لذلك الفعل، أو مفعول مطلق، ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَحْبَبْتُ﴾، و﴿عَن﴾: بمعنى على، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية بمعنى: إلى ﴿تَوَارَتْ﴾: فعل ماض في محل النصب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على الشمس، أو على الخيل، ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾: متعلق بـ﴿تَوَارَتْ﴾. والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى؛ أي: إلى مواراتها بالحجاب، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أحببت﴾؛ أي: شغلت عن ذكر ربي إلى مواراتها بالحجاب. ﴿رُدُّوهَا﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول، والجملة مقول لقول محذوف؛ أي: قال: ردوها علي. و﴿عَلَيَّ﴾: متعلق بردوها، ﴿فَطَفِقَ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: فردوها عليه، ﴿طفق﴾: فعل ماض من أفعال الشروع، يعمل عمل كان، واسمها ضمير يعود على سليمان، ﴿مَسْحًۢا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: يمسح مسحاً، والجملة المحذوفة في محل النصب خبر ﴿طفق﴾، وجملة ﴿طفق﴾ معطوفة على الجملة المقدرة. ﴿بِٱلسُّوقِ﴾: متعلق بـ﴿مَسْحًۢا﴾، ﴿وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ معطوف على السوق، ﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿فَتَنَّا﴾: فعل، وفاعل،

﴿سُلَيۡمَٰنَ﴾: مفعول به، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿فَتَنَّا﴾، ﴿عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ﴾ متعلق بـ﴿ألقينا﴾، ﴿جَسَدٗا﴾: مفعول به ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿أَنَابَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿ألقينا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيۡمَٰنَ﴾، والجملة مستأنفة، مسوقة لتفسير الإنابة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱغۡفِرۡ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر. ﴿لِي﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَهَبۡ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿ٱغۡفِرۡ﴾، ﴿لِي﴾: متعلق بـ﴿يهب﴾، ﴿مُلۡكٗا﴾: مفعول به، ﴿لَّا﴾: نافية ﴿يَنۢبَغِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُلۡكٗا﴾، والجملة في محل النصب، صفة لـ﴿ملكا﴾. ﴿لِأَحَدٖ﴾: متعلق بـ﴿يَنۢبَغِي﴾، ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾: جار ومجرور صفة ﴿لِأَحَدٖ﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَنتَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل الدعاء.

﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَسَخَّرۡنَا﴾: الفاء: عاطفة على محذوف يفهم من السياق؛ أي: فاستجبنا له دعاءه وأعدنا له هذا الملك السليب، وسخرنا. ﴿سَخَّرۡنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ذلك المحذوف. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ﴿سخرنا﴾، ﴿ٱلرِّيحَ﴾: مفعول به. ﴿تَجۡرِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الريح، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلرِّيحَ﴾. ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَجۡرِي﴾، ﴿رُخَآءً﴾: حال من الضمير في ﴿تَجۡرِي﴾. ﴿حَيۡثُ﴾: في محل النصب على الظرفية المكانية، متعلق بـ﴿تجري﴾ أو بـ﴿سخرنا﴾. ﴿أَصَابَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيۡمَٰنَ﴾،

والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾، ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾: معطوف على الريح، ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾: بدل من الشياطين، بدل تفصيل من مجمل. ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ معطوف على بناء، ﴿وَءَاخَرِينَ﴾: معطوف على ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾، أدخل معه في حكم البدل، ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: نعت ﴿لآخرين﴾، ﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ متعلق بـ﴿مُقَرَّنِينَ﴾. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿عَطَآؤُنَا﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول، لقول محذوف تقديره: وقلنا له: هذا عطاؤنا. ﴿فَٱمْنُنْ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿امنن﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾، والجملة الطلبية معطوفة على الجملة الاسمية، على كونها مقولاً للقول المحذوف. ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ ﴿أو﴾: حرف عطف وتخيير، وجملة ﴿أَمْسِكْ﴾: معطوفة على جملة ﴿امنن﴾. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: متعلق بـ﴿عطاؤنا﴾: أو متعلق بـ﴿امنن﴾، أو ﴿أَمْسِكْ﴾، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف حال، من الضمير المستتر في الفعلين، أعني: امنن أو أمسك؛ أي: حال كونك غير محاسب عليه. ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ان﴾: حرف نصب، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم لـ﴿أن﴾، ﴿عِندَنَا﴾: حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إنّ﴾، ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ اللام: حرف ابتداء. ﴿زلفى﴾. اسم ﴿إن﴾، ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: معطوف على زلفى، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اذكر﴾: فعل، وفاعل مستتر، ﴿عَبْدَنَا﴾: مفعول به، ﴿أَيُّوبَ﴾: بدل منه أو عطف بيان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾، ولم يذكر ذلك في قصة سليمان، لكمال الاتصال بين سليمان وداود، كأن قصتهما واحدة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، بدل اشتمال من أيوب، ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿أَنِّى﴾: ناصب واسمه، ﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، ﴿بِنُصْبٍ﴾ متعلق به، ﴿وَعَذَابٍ﴾: معطوف

على نصب، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ واسمها في محل النصب بنزع الخافض؛ أي: بأني مسني الشيطان، وجملة قوله: ﴿ارْكُضْ﴾: مقول لقول محذوف تقديره: وقيل له: اركض برجلك. ﴿ارْكُضْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿أَيُّوبَ﴾، ﴿بِرِجْلِكَ﴾: متعلق بـ﴿ارْكُضْ﴾، ومفعول ﴿ارْكُضْ﴾ محذوف تقديره الأرض. ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لذلك القول المحذوف. ﴿بَارِدٌ﴾: صفة لـ﴿مُغْتَسَلٌ﴾، ﴿وَشَرَابٌ﴾ معطوف على ﴿مُغْتَسَلٌ﴾، ﴿وَوَهَبْنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف، يتقضيه السياق تقديره: فاغتسل وشرب، فكشفنا بذلك ما به من ضر، ومسحنا به ما ألم به من أوصاب، ووهبنا له، إلخ. ﴿وهبنا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ذلك المقدر، ﴿لَهُ﴾ متعلق بـ﴿وهبنا﴾، ﴿أَهْلَهُ﴾: مفعول به. ﴿وَمِثْلَهُم﴾: معطوف على أهله. ﴿مَّعَهُمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من المثل؛ أي: حال كونه كائناً معهم، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول لأجله. ﴿مِّنَّا﴾: صفة لـ﴿رَحْمَةً﴾، ﴿وَذِكْرَى﴾: معطوف على ﴿رَحْمَةً﴾، ﴿لِأُوْلِي﴾، صفة لـ﴿ذكرى﴾. ﴿الْأَلْبَابِ﴾: مضاف إليه، ﴿وَخُذْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿ارْكُضْ﴾، ﴿بِيَدِكَ﴾: متعلق بـ﴿خذ﴾، ﴿ضِغْثًا﴾ مفعول به، ﴿فَاضْرِب﴾ الفاء: عاطفة، ﴿اضرب﴾: فعل، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿خذ﴾، ﴿بِّهِ﴾ متعلق بـ﴿اضرب﴾، والمفعول محذوف؛ أي: امرأتك. ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: ناهية، جازمة، ﴿تَحْنَثْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بلا الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿اضرب﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾: فعل، وفاعل، ومفعولان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾: فعل، وفاعل، والمخصوص بالمدح محذوف؛ أي: هو، والجملة الفعلية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل المدح.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ
ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا
الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ

ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اذكر عبادنا﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾، ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: بدل من عبادنا، أو عطف بيان له. ﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾: معطوفان على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، ﴿أُو۟لِى﴾: صفة للثلاثة، ﴿ٱلْأَيْدِى﴾: مضاف إليه، مجرور بكسرة مقدرة على الياء المحذوف، اجتزاء عنها بكسرة الدال؛ لأنه اسم منقوص. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَيْدِى﴾. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما وصفوا به من علو الرتبة، وسموها بالعلم والعمل. ﴿بِخَالِصَةٍ﴾: متعلق بـ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾، والباء، إما للسببية، إن كان ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ بمعنى: جعلناهم خالصين، وإما للتعدية، إن كان أخلصناهم، بمعنى: خصصناهم، و﴿خالصة﴾ صفة لموصوف محذوف؛ أي: بخصلة خالصة. ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾: إما خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي ذكرى الدار، أو بدل من خالصة، ﴿ذِكْرَى﴾: مضاف، ﴿ٱلدَّارِ﴾: مضاف إليه، فهي من إضافة المصدر إلى المفعول؛ أي: ذكرهم الدار الآخرة. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾: الواو عاطفة، ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿عِندَنَا﴾: حال من اسم ﴿إنّ﴾، ﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿من المصطفين﴾: خبر ﴿إنّ﴾، ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾: صفة له، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى. ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ﴾: فعل، وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾، ﴿وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾: معطوفان على إسماعيل، ﴿وَكُلٌّ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وسوّغ الابتداء به، قصد العموم ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من الثلاثة المذكورة قبله. ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، مسوقة للإيذان بانتهاء ما تقدم، والشروع في موضوع آخر. ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إنّ﴾: حرف نصب ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: خبر ﴿إن﴾ مقدم على اسمها، ﴿لَحُسْنَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿حسن﴾: اسمها مؤخر، ﴿مَـَٔابٍ﴾: مضاف إليه، من إضافة الصفة إلى الموصوف، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: بدل، أو عطف بيان لحسن مآب، ﴿مُّفَتَّحَةً﴾: حال من جنات عدن، والعامل فيها ما في المتقين، من معنى

الفعل، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق بـ﴿مُّفَتَّحَةً﴾، ﴿الْأَبْوَابُ﴾: نائب فاعل لـ﴿مُّفَتَّحَةً﴾؛ لأنه اسم مفعول من فتّح المضعف.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الهاء في ﴿لَهُمُ﴾، والعامل فيها مفتحة، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، وجملة ﴿يَدْعُونَ﴾: إما مستأنفة لبيان حالهم، أو حال من الهاء المذكور، أو من الضمير المستكن في ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، ﴿فِيهَا﴾: حال من فاعل يدعون؛ أي: حال كونهم فيها. ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾: متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾، ﴿كَثِيرَةٍ﴾: صفة لـ﴿فاكهة﴾، ﴿وَشَرَابٍ﴾: معطوف على فاكهة، ﴿وَعِندَهُمْ﴾: عاطفة، ﴿عِندَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَتْرَابٌ﴾: صفة لـ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر ﴿تُوعَدُونَ﴾: فعل، ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: هذا ما توعدونه. ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾: متعلق بـ﴿تُوعَدُونَ﴾، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف؛ أي: وتقول لهم الملائكة: هذا ما توعدون ليوم الحساب. واللام: فيه للتعليل؛ أي: لأجل يوم الحساب. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَرِزْقُنَا﴾ اللام: حرف ابتداء، و﴿رزقنا﴾: خبر ﴿إن﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿مَا﴾: نافية حجازية، أو تميمية. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿نَّفَادٍ﴾: مبتدأ مؤخر، أو اسم ما مؤخر، والجملة في محل النصب حال من ﴿رزقنا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿بَٰطِلًا﴾؛ أي: عبثاً، ولعباً. ﴿فَوَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك. ﴿كَالْفُجَّارِ﴾ من الفجر، وهو شق الشيء شقاً واسعاً، والفجور: شق سر الديانة. ﴿مُبَٰرَكٌ﴾؛ أي: كثير المنافع الدينية والدنيوية، فإن البركة ثبوت الخير الإلٰهي في الشيء، والمبارك ما فيه ذلك الخير. ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا﴾ أصله: يتدبروا فأدغمت التاء في الدال، بعد قلبها

دالاً؛ أي: ليتفكروا في آياته بالفكر السليم، فإن التدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور، والتفكر: تصرف القلب في معاني الأشياء، لدرك المطلوب. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾؛ أي: ليتعظ. ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ جع لب، وهو العقل، وقد يجمع على ألب، ويفك إدغامه في ضرورة الشعر. قال الكميت:

إِلَيْكُمْ ذَوِيْ آلِ النَّبِيِّ تَطَلَّعَتْ نَوَازِعُ مِنْ قَلْبِيْ ظِمَاءٌ وَأَلْبُبُ

﴿إِذْ عُرِضَ﴾ يقال: عرض له أمر كذا إذا ظهر، وعرضته له؛ أي: أظهرته، وعرضَ الجند إذا أمرهم بالعرض عليه ونظر ما حالهم. ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ جمع صافن لا صافنة؛ لأنه لذكور الخيل. وصفة المذكر الذي لا يعقل، يجمع هذا الجمع مطرداً، كما عرف في النحو، والصفن: الجمع بين الشيئين ضاماً بعضهما إلى بعض، يقال: صفن الفرس قوائمه، إذا قام على ثلاث وثنى الرابعة؛ أي: قلب أحد حوافره، وقام على طرف سنبك يد أو رجل، والسنبك: طرف مقدم الحافر، وهو من الصفات المحمودة في الخيل، لا يكاد يتفق إلا في العربي الخالص، وقد صفن الفرس من باب جلس، والصافن من الناس الذي يصف قدميه، وجمعه صفون كما في «المختار»، وعبارة الزمخشري: الصفون لا يكاد يوجد في الهجن، وإنما هو في العراب الخلص، وقيل: وصفها بالصفون، والجودة ليجمع ما بين الوصفين المحمودين واقفةً وجارية، يعني: إذا وقفت كانت ساكنةً مطمئنةً في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً، في جريها.

﴿ٱلْجِيَادُ﴾: جمع جواد، وهو السابق أو جمع جود، وهو الذي يسرع في جريه تشبيهاً له بالمطر الجود، قال في «القاموس»: الجواد: السخي، والجمع: الأجواد. والجيّد ضد الرديء. والجمع: الجياد، وقيل: الجواد: هو الفرس الذي يجود عند الركض؛ أي العدو. وفي أدب الكاتب لابن قتيبة: ويقال للفرس: عتيق، وجواد، وكريم، ويقال للبرذون، والبغل، والحمار: فاره.

والسوابق من الخيل: أولها: السابق. ثم: المصلي، وذلك لأن رأسه عند صلا السابق، ثم الثالث والرابع، كذلك إلى التاسع والعاشر: السكيت، ويقال أيضاً: السكيت مشدداً، فما جاء بعد ذلك لم يعتد به. والفسكل الذي يجيء في

الحلبة آخر الليل، هذا ما أورده ابن قتيبة. وقد سموا. الثالث: المتلي؛ لأنه يُتلي الثاني، وسموا. الرابع: التالي، وسموا. الخامس: المرتاح، وسموا. السادس: العاطف، وسموا. السابع: المؤمل، وسموا. الثامن: الحظي، وسموا. التاسع: اللطيم.

﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ والخير: المال الكثير، والمراد به: الخيل التي شغلته عليه السلام، لأنها مال. ﴿مَسۡحَۢا﴾ المسح: القطع. وفي «المختار»: ومسحه بالسيف قطعه. والجمهور: على أن المراد به هنا: القطع من قولهم: مسح علاوته؛ أي: ضرب عنقه، وقطع رأسه، والعلاوة بالكسر: أعلى الرأس أو العنق. قال في «المفردات»: مسحته بالسيف كناية عن الضرب. ﴿بِٱلسُّوقِ﴾ والسوق: جمع ساق كدور ودار. والساق: ما بين الكعبين: كعب الركبة وكعب القدم. ومن غريب أمر الساق، أن له العديد من المعاني، فأولها، وهو المراد هنا: أنه ما بين الكعب والركبة مؤنث، وجمعه: سوق، وسيقان، وأسوق، وساق الشجر: جذعها، ومن معانيه: ساق الحمام والغراب نباتان، وساق حر ذكر القماري، ويقال: كشف الأمر عن ساقه؛ أي: اشتد وعظم، وقامت الحرب على ساق؛ أي: اشتدت وولدت المرأة ثلاثة بنين، على ساق واحدة؛ أي: بعضهم في إثر بعض لا جارية بينهم، والحديث في هذه المادة يطول، فنحيل القارىء إلى المعاجم. ﴿وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ جمع: عنق.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ الفتنة: الاختبار والابتلاء؛ أي: ابتليناه بسلب ملكه، وكان ملكه مرتباً في لبس خاتمه، فإذا لبسه سخرت له الجن، والإنس، والرياح، وغيرها، وإذا نزعه زال عنه الملك، اهـ شيخنا. وكان خاتمه من الجنة، نزل به آدم كما نزل بعصى موسى، والحجر الأسود المسمى باليمين، وبعود البخور، وبأوراق التين ساتراً عورته بها. وقد نظم الخمسة بعضهم في قوله:

وَآدَمُ مَعَهُ أُنْزِلَ الْعُوْدُ وَالْعَصَا ... لِمُوْسَىٰ مِنَ الآسِ النَّبَاتِ الْمُكَرَّمِ
وَأَوْرَاقُ تِيْنٍ وَالْيَمِيْنُ بِمَكَّةٍ ... وَخَتْمُ سُلَيْمَانَ النَّبِيِّ الْمُعَظَّمِ

اهـ شيخنا. وفي «القرطبي»: قال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: «كان نقش خاتم سليمان بن داود، لا إله إلا الله، محمد رسول الله» اهـ.

﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ الإلقاء: الطرح. ﴿عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ الكرسي اسم لما يقعد عليه، والمراد: سريره المشهور. ﴿جَسَدًا﴾ قال في «المفردات»: الجسد: الجسم، لكنه أخص. قال الخليل: لا يقال الجسد لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه، وأيضاً فإن الجسد، يقال لما له لون، والجسم: يقال لما لا يبين له لون كالماء والهواء، وقال في «أنوار المشارق»: الفرق بين الجسد والبدن أن: الأول: يعم لذي الروح وغيره، ويتناول الرأس والشوى. والثاني: مخصوص بذي الروح، ولا يتناولهما.

﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ﴾؛ أي: لا تنتقل إلى غيري. ﴿رُخَآءً﴾؛ أي: لينة طيبة لا تزعزع. والرخاء: الريح اللينة من قولهم: شيء رخو كما في «المفردات». وفي «الفتوحات المكية»: أن الهواء، لا يسمى ريحاً إلا إذا تحرك، وتموج، فإن اشتدت حركته كان زعزعاً، وإن لم تشتد كان رخاء، وهو ذو روح يعقل كسائر أجزاء العالم، وهبوبه تسبيحه تجري به الجواري، ويطفأ به السراج، وتشتعل به النار، وتتحرك المياه والأشجار، ويموج البحر، وتزلزل الأرض، ويزجي السحاب. انتهى.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾؛ أي: أراد، وقصد في لغة حمير وهجر. وفي «القاموس»: الإصابة: القصد؛ أي: حيث قصد، وأراد من النواحي والأطراف، وقد حكى الزجاج عن العرب، أنها تقول: أصاب الصواب فأخطأ الجواب. قال الشاعر:

أَصَابَ ٱلْكَلَامَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ ... فَأَخْطَأَ ٱلْجَوَابَ لَدَىٰ ٱلْمُفَصَّلْ

﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ وهو مبالغة بأن اسم الفاعل من بنى. وكانوا يعملون له ـ عليه السلام ـ ما يشاء. ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ مبالغة غائص، اسم فاعل من غاص يغوص غوصاً. وهو الدخول تحت الماء، وإخراج شيء منه. ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ جمع مقرَّن اسم مفعول من قرَّن المضعف، يقال: قرَّنتُ البعيرين إذا جمعت بينهما، وقرَّنت على التكثير

كما في الآية. وقال ابن الشيخ: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: صفة لآخرين، وهو اسم مفعول من باب التفعيل، منقول من قرنت الشيء بالشيء؛ أي: وصلته به، وشُدد العين للمبالغة، والكثرة.

﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾؛ أي: الأغلال، جمع صفد محركاً، وهو القيد. وفي «المختار»: صفده شده وأوثقه من باب ضرب، وكذا صفّده تصفيداً، والصفد بفتحتين، والصفاد بالكسر: ما يوثق به الأسير من قد، وقيد، وغُل، والأصفاد: القيود، واحدها صفد بالتحريك. قال عمرو بن كلثوم:

فَـآبُـوْا بِـٱلـنِّـهَـابِ وَبِـٱلـسَّـبَـايَـا ... وَأُبْـنَـا بِـٱلْـمُـلُـوْكِ مُـصَـفَّـدِيْـنَـا

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ وهو ابن عيصو بن إسحاق، فليس من بني إسرائيل؛ لأنهم من نسل يعقوب، وهو ابن العيص أخي يعقوب. والذي في «القاموس»: أن عيصو بن إسحاق بواو بعد الصاد، بوزن بيعوا أمراً بالبيع للجماعة، اهـ. وفي «التحبير»: أيوب هو ابن موص بن رُعبل بن عيص بن إسحاق، وعاش ثلاثاً وستين سنة، وكانت مدة بلائه سبع سنين، اهـ. وقيل: كانت عشراً. وقيل: ثمانية عشر، وقيل: أربعين، اهـ.

﴿بِنُصْبٍ﴾ النصب بضم فسكون، وبفتح فسكون، وبضمتين: الداء، والبلاء، قيل: جمع نصب كأسد وأسد، وقيل: هو لغة في النصب. ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ الركض: الضرب، والدفع القوي بالرجل، فمتى نُسب إلى الراكب، فهو إغراء مركوبه، وحثه للعدو، نحو: ركضت الفرسَ. ومتى نُسب إلى الماشي فوطىء الأرض، كما في الآية، كذا قاله الراكب. والرجل: القدم أو من أصل الفخذ إلى رؤوس الأصابع. ﴿مُغْتَسَلٌ﴾ والمغتسل: هو المكان الذي يُغتسل فيه، والماء الذي يُغتسل به، والاغتسال: غسل البدن. وغسلتُ الشيء غسلاً، أسلتُ عليه الماء، فأزلتُ درنه. ﴿وَشَرَابٌ﴾ والشراب: هو ما يشرب، ويُتناول من كل مائع ماءً كان، أو غيره.

﴿ضِغْثًا﴾ والضغث: الحزمة الصغيرة من الحشيش، والقضبان، ونحوه. وفي

«القاموس»: والضغث بالكسر: قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس، واضطغثه: احتطبه. وفي «المفردات»: الضغث: قبضة ريحان أو حشيش. وبه شُبِّه الأحلام المختلطة التي لا يتبين حقائقها، انتهى. وأضغاث أحلام: رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها.

﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ يقال: حنث في يمينه إذا لم يف بها. وقال بعضهم: الحنث: الإثم. ويُطلق على فعل ما حلف على تركه، وترك ما حلف على فعله، من حيث إن كل واحد منهما سبب له.

﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِى﴾؛ أي: ذوي الأيدي. جمع يد بمعنى: الجارحة في الأصل. أريد بها: القوة مجازاً بمعونة المقام. وذلك لكونها سبب التقوي على أكثر الأعمال، وبها يحصل البطش، والقهر، ولم تُجمع القوة لكونها مصدراً يتناول الكثير. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ جمع بصر، حُمل على بصر القلب، ويسمى البصيرة، وهي القوة التي يتمكن بها الإنسان، من إدراك المعقولات. قال في «المفردات»: البصر يقال للجارحة الناظرة، وللقوة التي فيها، ويقال لقوة القلب المدركة: بصيرة، وبصر، ولا يكاد يقال للجارحة: بصيرة، وجمع البصر أبصار، وجمع البصيرة بصائر.

﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ بفتح الفاء والنون، جمع مصطفى، أصله: مصطفيين بالياءين، وبكسر الأولى. ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع خير كشر، وأشرار، على أنه اسم تفضيل، أو خيِّر بالتشديد، أو خير بالتخفيف، كأموات، جمع ميت أو ميت.

﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾ والفاكهة: هي كل ما يؤكل للتلذذ، لا للغذاء. ﴿أَتْرَابٌ﴾ أسنانهن واحدة، بنات ثلاث وثلاثين سنة، جمع ترب بالكسر، وهي اللدة؛ أي: من ولد معك، والهاء في اللدة، عوض عن الواو الذاهبة من أوله؛ لأنه من الولادة نظير عدة من الوعد. ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ قال في «المفردات»: النفاد: الفناء.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم، للإشعار بعلية الصلة، لاستحقاق الويل.

ومنها: المقابلة بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار في قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾. وهذه من ألطف أنواع البديع.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ للدلالة على أن اعترافه، وندمه عن صميم القلب، لا لتحقيق مضمون الخبر.

ومنها: إضمار ضمير الشمس في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ من غير سبق ذكرها، لدلالة العشي عليها، إذ لا شيء يتوارى حينئذ غيرها.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾. كني عن العقر والذبح بالمسح، وهي كناية بليغة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾. قال في «بحر العلوم»: والأقرب أن المراد: تمثيل كفهم ومنعهم عن الشرور، بالتقرين في الصفد، يعني: أن قولهم لا يمكن تقييدهم بالأصفاد، والأغلال، حقيقة مسلم، ولكن ليس الكلام محمولاً على حقيقته؛ لأنهم لما كانوا مسخرين مذللين لطاعته عليه السلام - بتسخير الله إياهم له - كان قادراً على كفهم عن الإضرار بالخلق، فشُبّه كفهم عن ذلك بالتقرين في الأصفاد، فأطلق على الكف المذكور لفظ التقرين استعارة أصلية، ثم اشتُق من التقرين - يعني: المعنى المجازي - لفظ مقرنين بمعنى: ممنوعين عن الشرور. والإضرار استعارة تبعية، انتهى.

ومنها: الطباق بين ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾؛ لأنهما بمعنى: أعط من شئت، وامنع من شئت.

ومنها: مراعاة الأدب في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾. أسند الضرر إلى الشيطان أدباً، والخير والشر بيد الله تعالى.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾. استعار الأيدي للقوة في العبادة، والأبصار للبصيرة في الدين. وفيه أيضاً فن التعرض، بأن من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله، خليق بالتوبيخ وأسوأ المذام.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ﴾.

ومنها: الاقتصار على الفاكهة في قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ إيذاناً بأن مطاعمهم هناك ليست للتغذي، وإقامة الجسم، ولكن لمحض اللذة والتفكه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ
وَغَسَّاقٞ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ
(٥٩) قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ (٦٠) قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ
عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ (٦١) وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ (٦٢) أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ
زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ (٦٤) قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ
ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ (٦٦) قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمۡ
عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ
(٧٠) إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ (٧١) فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ
سَٰجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ (٧٣) إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٧٤) قَالَ
يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ
خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ (٧٦) قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ
(٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ
(٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ
(٨٤) لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٨٥) قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ (٨٧) وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ (٨٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله[1] سبحانه لما وصف ثواب المتقين أولاً.. أردفه بوصف عقاب الطاغين، ليكون ذلك متمماً له، فيأتي الوعيد عقب الوعد، والترهيب إثر الترغيب، فيكون المرء بين رجاء في الثواب، وخوف من العقاب، فيزداد في الطاعة، وينأى عن المعصية، وتلك وسيلة التهذيب، والتأديب التي ترقى بها

(١) المراغي.

النفوس إلى سبيل الكمال، في دنياها وآخرتها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر في أول السورة، أن محمداً ﷺ دعا إلى التوحيد، وأثبت أنه نبي، ودعا إلى الحشر والنشر، فقابلوه بالسفاهة، وقالوا: إنه ساحر كذاب، ثم صبّره على ذلك، وقص عليه من قصص الأنبياء، قبله ما يكون سلوة له في الصبر على الأذى، ثم أردف ذلك بذكر ثواب أهل الجنة، وعذاب أهل النار.. عاد هنا إلى تقرير هذه المطالب، التي ذكرها أول السورة، وهي تقرير التوحيد، والنبوة، والبعث.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا...﴾ الآيات، قد سلف[1] ذكر هذه القصة في سور البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، كما ذكرت هنا، والعبرة منها النهي عن الحسد، والكبر؛ لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسببهما، والكفار إنما نازعوا محمداً ﷺ بسببهما، وكرر ذكرها ليكون زاجراً لهم عنهما، والمواعظ، والنصائح باب من أبواب التكرير، للمبالغة في النصح والإرشاد.

التفسير وأوجه القراءة

﴿هَٰذَا﴾ قال الزجاج: خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الأمر في حق المؤمنين، هذا الذي ذكرناه. فيوقف على هذا، قال ابن الأنباري: وهذا وقف حسن، ثم يُبتدىء، ويجوز أن يكون مبتدأ محذوف الخبر؛ أي: هذا المذكور للمؤمنين، وكلاهما من فصل الخطاب، وقال ابن الأثير: ﴿هَٰذَا﴾ في هذا المقام من الفصل، الذي هو خير من الوصل، وهي علاقة وكيدة بين الخروج من الكلام إلى كلام آخر، وقال بعضهم[2]: هذا من قبيل، ما إذا فرغ الكاتب من فصل، وأراد الشروع في فصل آخر، منفصل عما قبله، قال: ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: احفظ ما كان كيت وكيت، وانتظر إلى ما يجيىء.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى؛ أي: هذا الذي تقدم، هو ما يكون جزاء للمؤمنين، كفاء ما قدموا من أعمال صالحة.

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾؛ أي: وإن للذين طغوا على الله، وكذبوا الرسل؛ أي: وإن للكافرين الخارجين عن طاعة الله تعالى، المكذبين لرسله ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ وأقبح مرجع في الآخرة وشر منقلب ينقلبون إليه، ثم بين ذلك فقال ﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل من ﴿شر مآب﴾، أو عطف بيان له أو منصوب بأعني. وقوله: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال من المستكن في ﴿لِلطَّٰغِينَ﴾؛ أي: حال كونهم يدخلونها، ويجدون حرها يوم القيامة، ولكن اليوم مهدوا لأنفسهم. ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ أي: قبح الفراش لهم جهنم، والمهد، والمهاد: الفراش، مستعار من فراش النائم، إذ لا مهاد في جهنم، ولا استراحة، وإنما مهادها نار، وغواشيها نار، كما قال في آية أخرى ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ أي: فراش من تحتهم. و﴿مِن﴾ تجريدية. ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾؛ أي: أغطية.

والمعنى: أي هم يدخلون جهنم، ويقاسون شديد حرها، فبئس شراباً هي.

ثم أمرهم أمر تهكم وسخرية، بذوق هذا العذاب. فقال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾؛ أي: ليذوقوا هذا العذاب، والذوق: وجود الطعم بالفم، وأصله في القليل، لكنه يصلح للكثير الذي يقال له: الأكل، وكثر استعماله في العذاب تهكماً.

وارتفاع ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ على أنهما خبران لمبتدأ محذوف؛ أي: ذلك العذاب حميم؛ أي: ماء حار بلغ نهاية الحرارة، ﴿وَغَسَّاقٌ﴾؛ أي: قيح وصديد يسيل من أهل النار، وقيل: هذا في موضع رفع بالابتداء، و﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ خبران له، فيكون الكلام على التقديم والتأخير، فتقدير الآية: حميم وغساق فليذوقوه، قاله الفراء والزجاج، والحميم: الماء الذي انتهى حره، والغساق: ما يسيل من جلد أهل النار من القيح والصديد، كما مر آنفاً. وفي «القاموس»: الغساق: الماء البارد المنتن، لو قطرت منه قطرة في المشرق، لنتنت أهل المغرب، ولو قُطرت قطرة في المغرب، لنتنت أهل المشرق، وقال الحسن: هو عذاب لا يعلمه إلا الله، إن ناساً أخفوا لله طاعة، فأخفى لهم ثواباً في قوله:

﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ﴾، وأخفوا معصية، فأخفى لهم عقوبة، وقيل: هو مستنقع في جهنم، يسيل إليه سم كل ذي سم من عقرب وحية، يُغمس فيه الآدمي، فيسقط جلده ولحمه عن العظام، وقيل: هو ما يسيل من فروج النساء الزواني، ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم، وفي «التأويلات النجمية»: ﴿هَٰذَا﴾ الذي مهدوا اليوم ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾ يوم القيامة، يعني: قد حصلوا اليوم معنى صورته ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ يوم القيامة، ولكن مذاقهم، بحيث لا يجدون ألم عذاب، ما حصلوه بسوء أعمالهم، فليذوقوه يوم القيامة، انتهى. فإذا تنعم المؤمنون بالفاكهة، والشراب.. تعذب الكافرون بالحميم والغساق، وقال مجاهد، ومقاتل: الغساق: هو الثلج البارد، الذي قد انتهى برده. وتفسير الغساق بالبارد، أنسب بما تقتضيه لغة العرب، ومنه قول الشاعر:

إِذَا مَا تَذَكَّرْتَ الْحَيَاةَ وَطِيبَهَا إِلَيَّ جَرَىٰ دَمْعٌ مِنَ اللَّيْلِ غَاسِقُ

أي: بارد. وأنسب أيضاً بمقابلة الحميم.

والخلاصة: أي لهم في جهنم ماء حار، يشوي الوجوه، وماء بارد، لا يُستطاع شربه لبرودته.

وقرأ ابن أبي إسحاق، وقتادة، وابن وثاب، وطلحة، وحمزة، والكسائي، وحفص، والفضل، وابن سعدان، وهارون عن أبي عمرو: ﴿غساق﴾ بتشديد السين. وقرأ باقي السبعة: بتخفيف السين، وهما لغتان بمعنى واحد، كما قال الأخفش. وقيل: معناهما مختلف. فمن خفف، فهو اسم مثل: عذاب، وجواب، وصواب، ومن شدد قال: هو اسم فاعل للمبالغة، نحو: ضراب، وقتال.

ثم زاد في التهديد، وبالغ في الوعيد. فقال: ﴿و﴾ عذاب ﴿آخر﴾ أو مذوق آخر. وهو مبتدأ خبره ﴿مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾؛ أي: كائن لهم من شكل الحميم، والغساق المذكورين، ومثلها في الشدة والفظاعة، وقوله: ﴿أَزۡوَٰجٌ﴾ صفة ﴿وَءَاخَرُ﴾. ومعنى ﴿أَزۡوَٰجٌ﴾؛ أي: أجناس، وأنواع، وأشباه؛ أي: وعذاب آخر ذو ضروب، وأجناس كثيرة، كائن لهم من شكل الحميم والغساق المذكورين، ومثلهما في الشدة والفظاعة.

وحاصل معنى الآية[1]: أن لأهل النار حميماً وغساقاً، وأنواعاً أخر من العذاب، من مثل الحميم والغساق في الشدة والفظاعة، وفي «التأويلات النجمية»؛ أي: فنون أخر، مثل ذلك العذاب، كائن لهم، يشير به إلى أن لكل نوع من المعاصي، نوعاً آخر من العذاب، كما أن كل بذر يزرعونه يكون له ثمرة تناسب البذر.

والمعنى[2]: أي ليس الأمر مقصوراً على هذا فحسب، بل لهم فيها أشباه، وأمثال من مثله فظاعةً وشدةً، كالزقوم، والسموم، والزمهرير.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وءاخر﴾ على الإفراد. فقيل: مبتدأ خبره محذوف تقديره: ولهم عذاب آخر، وقيل: خبره الجملة بعده؛ لأن قوله: ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ مبتدأ، و﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾: خبره، والجملة خبر ﴿ءاخر﴾، وقيل: خبره ﴿أَزْوَٰجٌ﴾، و﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾: في موضع الصفة، وجاز أن يخبر بالجمع عن الواحد، من حيث هو درجات، ورتب من العذاب، أو سمي كل جزء من ذلك الآخر، باسم الكل. وقرأ الحسن، ومجاهد، والجحدري، وابن جبير، وعيسى، وأبو عمرو: ﴿وأخر﴾ بضم الهمزة على الجمع، وهو مبتدأ، و﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ في موضع الصفة، و﴿أَزْوَٰجٌ﴾: خبره؛ أي: ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق، ومثله في الشدة والفظاعة أزواج وأجناس كثيرة. وأنكر[4] أبو عمرو على الجمهور قراءتهم بالإفراد ﴿وَءَاخَرُ﴾ مفرداً مذكراً لقوله: ﴿أَزْوَٰجٌ﴾. وأنكر عاصم الجحدري قراءة أبي عمرو، وقال: لو كانت كما قرأ لقال: من شكلها. وقرأ مجاهد: ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ بكسر الشين، والجمهور بفتحها، وهما لغتان بمعنى: المثل، والضرب.

وقال خزنة جهنم لرؤساء الكفار في أتباعهم، إذا دخلوا النار: ﴿هَٰذَا﴾ الجم الغفير ﴿فَوْجٌ﴾ وجمع ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ وداخل ﴿مَّعَكُمْ﴾ في النار؛ أي[5] هذا جمع

---

(1) الشوكاني.
(2) المراغي.
(3) البحر المحيط.
(4) الشوكاني.
(5) روح البيان.

كثيف، قد دخل معكم النار، كما كانوا قد دخلوا معكم في الضلال.

والمعنى: يقول الخزنة لرؤساء الطاغين، إذا دخلوا النار مشيرين إلى الأتباع الذين أضلوهم: ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: الأتباع فوج، وجمع تبعكم في دخول النار بالاضطرار، كما كانوا قد تبعوكم في الكفر والضلالة بالاختيار، فانظروا إلى أتباعكم لم يحصل بينكم وبينهم تناصر، وانقطعت مودتكم، وصارت عداوة، قيل: يضرب الزبانية المتبوعين، والأتباع معاً بالمقامع، فيسقطون في النار خوفاً من تلك المقامع. فذلك هو الاقتحام.

أي: وهذا حكاية لقول الملائكة، الذين هم خزنة النار، وذلك أن القادة، والرؤساء إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة: هذا فوج، يعنون: الأتباع ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾؛ أي: داخل ومدفوع معكم إلى النار.

وقوله: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ من قول القادة والرؤساء، لما قالت لهم الخزنة ذلك قالوا؛ أي: الرؤساء والقادة في شأن الأتباع: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾؛ أي: لا اتسعت منازلهم في النار.

والمعنى: لا كرامة لهم، وجملة[1] ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دعائية، لا محل لها من الإعراب أو صفة للفوج أو حال منه، أو بتقدير القول؛ أي: مقولاً في حقهم: لا مرحبا بهم. وقيل: إنها من تمام قول الخزنة، والأول أولى كما يدل عليه جواب الأتباع الآتي.

وجملة ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾؛ أي: داخلون فيها، كما دخلنا فيها تعليل من جهة القائلين؛ أي: إنهم صالوا النار كما صليناها، ومستحقون لها كما استحققناها. أو تعليل من جهة الخزنة، لاستحقاقهم الدعاء عليهم؛ أي: داخلون النار بأعمالهم السيئة، وباستحقاقهم.

وقوله: ﴿لَا مَرْحَبًا﴾ مصدر[2] بمعنى: الرحب، وهو السعة. و﴿بِهِمْ﴾ بيان

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

للمدعو عليهم، وانتصابه على أنه مفعول به لفعل مقدر؛ أي: لا يصادفون رحباً وسعةً، أو لا يأتون رحب عيش، ولا وسعة مسكن، ولا غيره.

وحاصله: لا كرامة لهم، أو على المصدر؛ أي: لا رحبهم عيشهم. ومنزلهم رحباً بل ضاق عليهم، يقول الرجل لمن يدعوه: مرحباً؛ أي: أتيت رحباً من البلاد، وأتيت واسعاً وخيراً كثيراً قاله الكاشفي. وقال غيره: يُقصد به: إكرام الداخل، وإظهار المسرة بدخوله، ثم يدخل عليه كلمة ﴿لَا﴾ في دعاء السوء.

وفي بعض شروح الحديث: التكلم بكلمة ﴿مَرْحَبًا﴾ سنة اقتداءً بالنبي ﷺ، حيث قال: مرحباً يا أم هانىء حين ذهبت إلى رسول الله عام الفتح. وهي بنت أبي طالب، أسلمت يوم الفتح، ومن أبواب الكعبة باب يسمى باب أم هانىء، لكون بيتها في جانب ذلك الباب، وقد صح أنه ﷺ، قد عُرج به من بيتها.

وقال أبو حيان: والظاهر[1]: أن قوله: هذا فوج مقتحم معكم، من قول رؤسائهم بعضهم لبعض. والفوج: الجمع الكثير، وهم الأتباع، ثم دعوا عليهم بقولهم: لا مرحباً بهم؛ لأن الرئيس إذا رأى الخسيس قد قُرن معه في العذاب.. ساءه ذلك حيث وقع التساوي في العذاب، ولم يكن هو السالم من العذاب وأتباعه في العذاب.

والحاصل: أن الله سبحانه، بعدما وصف مساكنهم ومشاربهم، حكى ما يتناجون به، ويقوله بعضهم لبعض؛ أي: هم يتلاعنون، ويتكاذبون. فتقول الطائفة التي دخلت قبل الأخرى، حين تُقبل التي بعدها مع الخزنة والزبانية: هذا جمع كثيف داخل معكم، فلا مرحباً بهم. قال ابن عباس في تفسير الآية: إن القادة إذا دخلوا النار، ثم دخل بعدهم الأتباع، تقول الخزنة للقادة: هذا فوج داخل النار معكم، فيقول السادة: لا مرحباً بهم، والمراد بذلك الدعاء عليهم. قال النابغة:

لاَ مَرْحَبَاً بِغَدٍ وَلاَ أَهْلاً بِهِ ... إِنْ كَانَ تَفْرِيْقُ ٱلأَحِبَّةِ فِيْ غَدِ

ثم علل استيجاب الدعاء عليهم بقوله: إنهم صالوا النار؛ أي[2]: إنهم

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

ذائقوا حر النار مثلكم. وهذا كلام من المتبوعين والرؤساء الذين أغووهم، وأدخلوهم في الكفر، وحينئذ يرد عليهم الداخلون من الأتباع، ويقولون لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾؛ أي: قال الأتباع، وهم الفوج المقتحم للنار عند سماع ما قال الرؤساء في حقهم، أو قالت الخزنة؛ أي: قالوا لأولئك الرؤساء: بل أنتم أحق منا بما قلتم: لا مرحباً بكم؛ أي: لا كرامة لكم، فإنكم ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ وأغويتمونا، ودعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾؛ أي: قبح المستقر والمنزل لنا، ولكم، والمخصوص بالذم: النار، وهذا كلام يراد به: التشفي منهم؛ لأنه مشترك بينهم، خاطبوا[1] الرؤساء مع أن الظاهر: أن يقولوا بطريق الاعتذار إلى الخزنة: بل هم لا مرحباً بهم، قصداً منهم إلى إظهار صدقهم بالمخاصمة مع الرؤساء، والتحاكم إلى الخزنة طمعاً في قضائهم، بتخفيف عذابهم، أو تضعيف عذاب خصمائهم؛ أي: بل أنتم أيها الرؤساء، أحق بما قيل لنا من جهة الخزنة، لإغوائكم إيانا مع ضلالكم في أنفسكم.

وقوله: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ تعليل لأحقيتهم بذلك؛ أي: أنتم قدمتم العذاب أو الصلي لنا، وأوقعتمونا فيه، بتقديم ما يؤدي إليه من العقائد الزائغة، والأعمال السيئة، وتزيينها في أعيننا، وإغرائنا عليها، لا أنا باشرنا من تلقاء أنفسنا، وذلك أن سبب عذاب الأتباع، هو تلك العقائد والأعمال، والرؤساء لم يقدموها، بل الذين قدموها هم الأتباع باختيارهم إياها، واتصافهم بها، والذي قدمه الرؤساء لهم، ما يحملهم عليها من الإغواء والإغراء عليها، وهذا القدر من السببية، كاف لنا ولكم في إسناد تقديم العذاب، أو الصلي إلى الرؤساء. ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾؛ أي: فبئس المقر جهنم، قصدوا بذمها جناية الرؤساء عليهم.

ثم حكى عن الأتباع أيضاً: أنهم أردفوا هذا القول بقول آخر، وهو: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: الأتباع معرضين عن خصومتهم متضرعين إلى الله، داعين على رؤساء الضلال: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ العذاب أو الصلي ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي

---

(١) روح البيان.

﴿النَّارِ﴾؛ أي: فزده في النار عذاباً ذا ضعف. والضعف: بأن يزيد عليه مثله. و﴿مَنْ﴾ يجوز أن تكون شرطية، و﴿فَزِدْهُ﴾ جوابها، وأن تكون موصولة بمعنى: الذي مرفوعة المحل على الابتداء، والخبر ﴿فَزِدْهُ﴾. والفاء: زائدة لتضمن المبتدأ معنى الشرط، و﴿ضِعْفًا﴾ صفة لـ﴿عَذَابًا﴾ بمعنى: مضاعفاً، ﴿وَفِي النَّارِ﴾ ظرف لـ﴿زده﴾ أو نعت لـ﴿عَذَابًا﴾.

والمعنى: أي قال الأتباع دعاء على الرؤساء: ربنا، آت من قدم لنا هذا العذاب، عذاباً مضاعفاً في النار، للضلال، وعذاباً للإضلال. كما ورد في الحديث: «من سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها». ونحو الآية قوله: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: العذاب الضعف: هو الحيات، والأفاعي، وذلك المضل آذى روح من أضله في الدنيا، فسلط الله عليه المؤذي في الآخرة؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعلى العاقل إصلاح الباطن وتزكيته من الأخلاق الذميمة والأوصاف القبيحة، وإصلاح الظاهر وتحليته عن الأقوال الشنيعة، والأعمال الفظيعة، ولا يغتر بالقرناء السوء، فإنهم منقطعون غداً من كل خلة ومودة، ولا ينفع لأحد إلا القلب السليم، والعلم النافع، والعمل الصالح، اللهم اجعلنا من أهل المحبة والرحبة، ولا تجعلنا من أهل السخط والغضب.

وبعد أن ذكر حديثهم عن أحبابهم في الدنيا، حكى حديثهم عن أعدائهم فيها، فقال: ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: وقال المشركون بعضهم لبعض، على سبيل التعجب والتحسر، إذا افتقدوا المؤمنين ولم يجدوهم في النار: ﴿مَا لَنَا﴾؛ أي: ما بالنا وشأننا. و﴿مَا﴾ استفهامية مبتدأ، و﴿لَنَا﴾ خبره، وهو مثل قوله: ﴿مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ في أن الاستفهام محمول على التعجب، لا على حقيقته، إذ لا معنى لاستفهام العاقل عن نفسه، والفعل المنفي في قوله: ﴿لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ حال من ضمير ﴿لَنَا﴾؛ أي: أي شيء ثبت لنا، حال كوننا غير رائين رجالاً ﴿كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَعُدُّهُم﴾ ونظنهم ﴿مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ والأراذل الذين لا خير فيهم، ولا جدوى،

جمع شر، وهو الذي يرغب عنه الكل، يعنون: فقراء المسلمين كانوا يسترذلونهم، ويسخرون منهم مثل: صهيب الرومي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وخباب، وعمار ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهم من صعاليك المهاجرين، الذين كانوا يقولون لهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾، سموهم أشرار، إما بمعنى الأراذل والسفلة الذين لا خير فيهم، ولا جدوى، كما يقال: هذا من شر المتاع، أو لأنهم كانوا على خلاف دينهم، فكانوا عندهم أشراراً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريدون أصحاب محمد ﷺ، يقول أبو جهل وأضرابه: أين بلال، أين صهيب، أين عمار، أولئك في الفردوس، واعجباً لأبي جهل، مسكين أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكفر هو. قال:

وَنُوْرَاً أَضَاءَ ٱلأَرْضَ شَرْقَاً وَمَغْرِبَا وَمَوْضِعُ رِجْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلِمُ

ثم سألوا عن السبب في عدم رؤيتهم، فقالوا: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ بقطع[1] الهمزة على أنها استفهام، والأصل: أاتخذناهم، حذفت همزة الوصل، للاستغناء عنها بهمزة الاستفهام. و﴿سِخۡرِيًّا﴾ بضم السين وكسرها مصدر سخره، زيد فيه ياء النسبة للمبالغة؛ لأن في ياء النسبة زيادة قوة في الفعل، كما قيل: الخصوصية في الخصوص. قالوه إنكاراً على أنفسهم، ولوماً لها في الاستسخار منهم. فمعنى الاستفهام: الإنكار، والتوبيخ، والتعنيف، واللوم؛ أي: ألأجل أنا قد اتخذناهم في الدنيا سخرياً، ولم يكونوا كذلك لم يدخلوا النار. ﴿أم﴾ هم معنا في النار، ولكن ﴿زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ومالت، ولم تقع عليهم أبصارنا. و﴿أَمۡ﴾ متصلة معادلة ﴿لاتخذناهم﴾، وفي هذا إنكار على أنفسهم، وتأنيب لها على استسخارهم منهم في الدنيا.

والخلاصة[2]: أن الكفار حين دخلوا النار، ونظروا في جوانبها، ولم يروا المؤمنين، الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا تناجوا، وقالوا: ما بالنا؟ لا نرى

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الذين كنا نتخذهم في الدنيا سخرياً، ألم يدخلوا النار معنا، أم دخلوها ولكن زاغت عنهم أبصارنا، ولم ترهم.

وقرأ النحويان[1] ـ أبو عمرو والكسائي ـ وحمزة ﴿اتخذناهم﴾ وصلاً. فقال أبو حاتم، والزمخشري، وابن عطية: صفة لـ﴿رجالاً﴾. قال الزمخشري: مثل قوله: ﴿نعدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾. وقال ابن الأنباري: حال؛ أي: وقد اتخذناهم. وقرأ أبو جعفر، والأعرج، الحسن، وقتادة، وباقي السبعة: بهمزة الاستفهام، لتقرير أنفسهم على هذا، على جهة التوبيخ لها، والأسف؛ أي: اتخذناهم سخرياً ولم يكونوا كذلك، وقرأ عبد الله، وأصحابه، ومجاهد، والضحاك، وأبو جعفر، وشيبة، والأعرج، ونافع، وحمزة، والكسائي: ﴿سخريا﴾ بضم السين ومعناها، من السخرة والاستخدام. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وعيسى، وابن محيصن، وباقي السبعة بكسر السين، ومعناها المشهور من السخر، وهو الهزء. قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء، ومن ضم جعله من التسخير.

ثم بيّن أن هذا التناجي، سيكون يوم القيامة، وأنه حق لا مرية فيه، فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي حدثناك عنه، أيها الرسول من تخاصم أهل النار بعضهم لبعض، ولعن بعضهم بعضاً ﴿لَحَقٌّ﴾؛ أي: لواقع ثابت في الدار الآخرة، لا يتخلف البتة. هو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والجملة بيان لذلك، وقيل: بيان لحق، وقيل: بدل منه، وقيل: بدل من محل ﴿ذَٰلِكَ﴾، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وهذا على قراءة الجمهور، برفع ﴿تَخَاصُمُ﴾.

والمعنى: أن ذلك الذي حكاه الله عنهم لحق، لا بد أن يتكلموا به، وهو تخاصم أهل النار فيها، وما قالته الرؤساء للاتباع، وما قالته الأتباع لهم.

وقرأ الجمهور: ﴿تَخَاصُمُ﴾ بالرفع مضافاً إلى ﴿أَهْلِ﴾. وقرأ ابن أبي عبلة، ﴿تخاصمَ أهل﴾ بنصب الميم وجر ﴿أهل﴾ على أنه بدل من ﴿ذَٰلِكَ﴾ أو بإضمار أعني، وقرأ ابن السميقع ﴿تَخاصَم﴾ فعلاً ماضياً، ﴿أَهْلِ﴾: فاعل، فتكون جملة

(١) البحر المحيط.

مستأنفة، وسمى الله تعالى، تلك المفاوضة التي جرت بين رؤساء الكفار، وأتباعهم تخاصماً؛ لأن قولهم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾، وقول الأتباع: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ هو من باب الخصومة، فسمي التفاوض كله تخاصماً، لاستعماله عليه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ـ ﷺ ـ لمشركي مكة: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾؛ أي: مخوف بعذاب الله تعالى لمن عصى. أنذركم، وأحذركم عذابه على كفركم ومعاصيكم، وقل أيضاً: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ في الوجود موجود ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشركة، والكثرة؛ أي: لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فلا ملجأ، ولا مفر إلا إليه، يعني: من عرف أنه الواحد، أفرد قلبه له، فكان واحداً به، وقد فسر قوله عليه السلام: «إن الله وتر يحب الوتر» يعني: القلب المنفرد له. ومن خاصية هذا الاسم: أن من قرأه ألف مرة، خرج الخلائق من قلبه. وما أحسن قول بعضهم:

إِذَا كَانَ مَا تَهْوَاهُ فِيْ ٱلْحُسْنِ وَاحِدَاً　　فَكُنْ وَاحِدَاً فِيْ ٱلْحُبِّ إِنْ كُنْتَ تَهْوَاهُ

﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكل شيء سواه، ومن الأشياء آلهتهم، فهو يغلبهم، فكيف تكون له شركاء، وأيضاً يقهر العباد بذنوبهم، ومعاصيهم. وقال بعضهم: القهار الذي له الغلبة التامة، على ظاهر كل أمر وباطنه، ومن عرف قهره لعباده، نسي مراد نفسه لمراده، فكان له، وبه، لا لأحد سواه، وخاصية هذا الاسم إذهاب الدنيا، وعظمة ما سوى الله تعالى عن القلب، ومن أكثر ذكره، ظهرت له آثار القهر على عدوه. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات؛ أي: مالك جميع العوالم، فكيف يتوهم أن يكون له شريك؟ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالبه مغالب في أمر من أموره، وأيضاً العزيز بالانتقام من المجرمين، فالعزة لله تعالى، وبه التعزز أيضاً. قال الشيخ أبو العباس المرسي ـ رحمه الله ـ: والله ما رأيت العز، إلا في رفع الهمة عن المخلوقين، وخاصية هذا الاسم: أن من ذكره أربعين يوماً، في كل يوم أربعين مرة.. أعانه الله، وأعزه، فلم يحوجه لأحد من خلقه. ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾؛ أي: المبالغ في المغفرة، والستر، والمحو، لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، قال بعضهم: الغفار: كثير المغفرة لعباده، والمغفرة: الستر على الذنوب، وعدم

المؤاخذة بها، وما جاء على فعال، فمشعر بترداد الفعل، وخاصية هذا الاسم: وجود المغفرة، فمن ذكره إثر صلاة الجمعة مئة مرة، ظهرت له آثار المغفرة. وقد قال رسول الله ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب». وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا تضوّر من الليل، قال: «لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السموات والأرض وما بينهما، العزيز الغفار». ومعنى تضوّر: تلوّى إذا قام من النوم.

ومعنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾؛ أي: قل[1] أيها الرسول لمشركي مكة: إنما أنا نذير، مرسل من ربي، لأحذركم مخالفة أوامره، حتى لا يحل بكم من العقاب، مثل ما حل بالأمم قبلكم، كعاد، وثمود، ولست بالساحر، ولا بالكذاب ولا بالمسيطر الجبار، على نحو ما جاء في قوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، وبعد أن ذكر وظيفة الرسول، ذكر ما يبلّغه للناس، فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إلخ؛ أي: إنه لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وهو الذي قهر كل شيء، وغلبه بعزته وجبروته، وهو مالك السموات والأرض وما بينهما، وهو الذي يغلب ولا يغلب، ويغفر الذنوب لمن يشاء من عباده، إذا تاب جلّت أو حقرت.

ثم توعدهم على مخالفته، وترك العمل به، وأمر رسوله أن يجلي لهم حقيقة وظيفته، ليرعووا عن غيهم، ويتوبوا إلى رشدهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿هُوَ﴾؛ أي[2]: هذا القرآن، وما أنبئكم به من أمر التوحيد، والنبوة، وأخبار القيامة، والحشر، والجنة، والنار، وغيرها. ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ وشأن عظيم؛ لأنه كلام الرب القديم، وارد من جانبه الكريم، يدل على صدقي في دعوى النبوة، والنبأ: كل ما أخبر النبي ﷺ عن الله تعالى، ولا يستعمل إلا في خبر، ذي فائدة عظيمة.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وقال أبو حيان[1]: الضمير في قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا﴾ يعود على ما أخبر النبي ﷺ، من كونه رسولاً منذراً، داعياً إلى الله تعالى، وأنه تعالى هو المنفرد بالألوهية، المتصف بتلك الأوصاف، من الوحدانية، والقهر، وملك العالم، وعزته، وغفرانه، وهو خبر عظيم، لا يُعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة. وقال ابن عباس: النبأ العظيم: القرآن الكريم، وقال الحسن: يوم القيامة، وقيل: قصص آدم، والإنباء به من غير سماع من أحد، وقال صاحب التحرير: سياق الآية وظاهرها: أنه يريد بقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧﴾ ما قصه الله تعالى من مناظرة أهل النار، ومقاولة الأتباع مع الرؤساء؛ لأنه من أحوال البعث، وكانت قريش تنكر البعث، والحساب، والعقاب، وهم عن ذلك معرضون.

وجملة قوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ لا تتفكرون فيه، وتعدونه كذباً لغاية ضلالتكم وغاية جهالتكم، فلذا لا تؤمنون به مع عظمته، وكونه موجباً للإقبال الكلي عليه، وتلقيه بحسن القبول، فالتصديق فيه نجاة، والكذب فيه هلكة، توبيخ لهم، وتقريع لكونهم أعرضوا عنه.

والمعنى[2]: أي قل لهم يا محمد: إن ما أنبأتكم به، من كوني رسولاً منذراً، ومن أن الله واحد لا شريك له، خبر عظيم الفائدة لكم، فهو ينقذكم مما أنتم فيه من الضلال، لكنكم معرضون عنه، لا تفكرون فيه، لتماديكم في الغفلة، وفي هذا تنبيه إلى ما هم فيه من الخطأ، علَّهم يرجعون عن غيهم.

ثم ذكر من الأدلة ما يرشد إلى نبوته، فقال: ﴿مَا كَانَ لِيَ﴾ قرأ حفص عن عاصم بفتح الياء، والباقون بإسكانها. وهو كلام مستأنف، مسوق لتقرير أنه نبأ عظيم؛ أي: ما كان لي فيما سبق ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي[3]: علم ما بوجه من الوجوه، على ما يفيده حرف الاستغراق ﴿بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: بحال الملأ الأعلى، وهم الملائكة، وآدم عليهم السلام، وإبليس عليه اللعنة، سموا بالملأ الأعلى؛ لأنهم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

كانوا في السماء وقت التقاول ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: بحالهم وقت اختصامهم، ورجوع بعضهم إلى بعض، في الكلام في شأن آدم، فإن إخباره عن تقاول الملائكة، وما جرى بينهم من قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ حين قال الله لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ على ما ورد في الكتب المتقدمة، من غير سماع ومطالعة كتاب، لا يتصور إلا بالوحي؛ أي: فلو لم يكن لي نبوة، ما أخبرتكم عن اختصامهم. و﴿إِذْ﴾ متعلق بالحال المحذوف، الذي يقتضيه المقام. إذ المراد: نفي علمه بحالهم لا بذواتهم، والحال يشمل الأقوال الجارية فيما بينهم، والأفعال أيضاً، من سجود الملائكة، واستكبار إبليس وكفره، وقيل[١]: إن الضمير في ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ عائد إلى قريش. يعني: قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، والمعنى: ما كان لي علم بالملائكة، إذ تختصم فيهم قريش. والأول أولى.

والخلاصة: أي ولولا الوحي، ما كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى، يعني في شأن آدم عليه السلام، وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه.

ثم أكد نبوته بقوله: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾؛ أي: ما يوحى إلي من حال الملأ الأعلى، وغيره من الأمور المغيبة ﴿إِلَّا أَنَّمَا﴾ بفتح الهمزة، على تقدير لام التعليل؛ أي: إلا لأنما ﴿أَنَا نَذِيرٌ﴾؛ أي: نبي منذر من العذاب، من جهته تعالى ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر النذارة، والنبوة بالدلائل الواضحة، عبر عن النبي بالنذير؛ لأنه صفته، وخصص النذير مع أنه بشير أيضاً؛ لأن المقام يقتضي ذلك، وجملة قوله: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ إلخ، معترضة بين اختصامهم المجمل، وبين تفصيله بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾، قال الفراء، المعنى: ما يوحى إلي إلا أنني نذير مبين، أبيّن لكم ما تأتون من الفرائض، والسنن، وما تدعون من الحرام والمعصية.

وقرأ الجمهور[٢]: بفتح همزة ﴿أَنَّمَا﴾ على أنها وما في حيزها في محل

---

(١) الشوكاني.　　(٢) الشوكاني.

رفع، لقيامها مقام الفاعل؛ أي: ما يوحى إلي إلا الإنذار، أو إلا كوني نذيراً مبيناً، أو في محل نصب، أو جر بعد إسقاط لام العلة، والقائم مقام الفاعل على هذا الجار والمجرور، وقرأ أبو جعفر بكسر الهمزة، لأن في الوحي معنى القول، وهي القائمة مقام الفاعل، على سبيل الحكاية، كأنه قيل: ما يوحى إلي إلا هذه الجملة المتضمنة لهذا الإخبار، وهو أن أقول لكم: إنما أنا نذير مبين.

ولما ذكر سبحانه، خصومة الملائكة، إجمالاً فيما تقدم ذكرها هنا، تفصيلاً فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ﴿إِذْ﴾: هي بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ لاشتمال ما في حيز هذه على الخصومة، وقيل: هي منصوبة بإضمار ﴿اذكر﴾، والأول أولى، إذا كانت خصومة الملائكة في شأن من يُستخلف في الأرض. وأما إذا كانت في غير ذلك مما تقدم ذكره، فالثاني أولى.

فإن قلت[1]: كيف يجوز أن يقال: إن الملائكة اختصموا بهذا القول، والمخاصمة مع الله تعالى كفر؟.

قلت: لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشبه المخاصمة والمناظرة، والمشابهة تجوز إطلاق اسم المشبه به على المشبه، فحسن إطلاق المخاصمة على المقاولة الواقعة هناك.

فإن قلت: إن الاختصام المذكور سابقاً، مسند إلى الملأ الأعلى، وواقع فيما بينهم، وما وقع في جملة البدل هو التقاول الواقع بين الله تعالى، وبينهم، لأنه تعالى، هو الذي قال لهم وقالوا له، فكيف تجعل هذه الجملة بدلاً من قوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ مبيناً ومشتملاً له؟.

قلت: حيث كان تكليمه تعالى إياهم بواسطة الملك، صح إسناد الاختصام إلى الله تعالى، لكونه سبباً آمراً. وقد سبق المراد بالملائكة في سورة الحجر، فارجع.

---

(١) روح البيان.

﴿إِنِّي خَالِقٌ﴾ فيما سيأتي من الزمن ﴿بَشَرًا﴾؛ أي: إنساناً بادي البشر؛ أي: ظاهر الجلد، ليس على جلده صوف ولا شعر، ولا وبر، ولا ريش، ولا قشر، فإن قيل[1]: كيف صح أن يقول لهم: إني خالق بشراً، وما عرفوا البشر، ولا عهدوا به قبل؟.

أجيب: بأنه يمكن أنه يكون قال لهم: إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت، ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم، اهـ «خطيب». ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ أي: من تراب مبلول. متعلق بمحذوف، هو صفة لـ﴿بَشَرًا﴾، أو بخالق ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾؛ أي: صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية، أو سوّيت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه، كما في الجنين الذي أتى عليه أربعة أشهر. فلا بد لنفخ الروح من هذه التسوية البتة. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾؛ أي: من الروح الذي أملكه، ولا يملكه غيري. وقيل: هو تمثيل لإضافة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها؛ لأن النفخ: إجراء الريح إلى تجويف جسم صلح لإمساكها والامتلاء بها، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، والمعنى حينئذ: فإذا أكملت استعداده، وأفضت عليه، ما يحيى به من الروح التي هي من أمري، وإضافته إلى نفسه لشرفه وطهارته، أو على سبيل التعظيم؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم، كما في بيت الله، وناقة الله.. ﴿فَقَعُوا﴾؛ أي: فاسقطوا ﴿لَهُ﴾؛ أي: لذلك البشر؛ أي: لتكريمه أمر من وقع، يقع حال كونكم ﴿سَاجِدِينَ﴾ لاستحقاقه الخلافة، وهذا السجود من باب التحية والتكريم، فإنه لا يجوز السجود لغير الله تعالى، على وجه العبادة، لا في هذه الأمة، ولا في الأمم السابقة، وإنما شاع بطريق التحية للمتقدمين. ثم أبطله الإسلام، وفيه دليل على أن المأمور به، ليس مجرد انحناء كما قيل، وكذا في قوله: ﴿سَاجِدِينَ﴾ فإن حقيقة السجود: وضع الجبهة على الأرض.

وقال بعضهم: نفخ الروح عندي، عبارة عن إظهارها في محلها، وعبر عنه بالنفخ؛ لأن البدن بعد ظهور الروح فيه، يكون كالمنفوخ المرتفع الممتلىء، ألا

---

(١) خطيب.

ترى إلى أن الميت يبقى بعد مفارقة الروح كالخشب اليابس، ثم في إضافة الروح، إشارة إلى تقديم روح آدم على أرواح الملائكة وغيرها؛ لأن المضاف إلى القديم قديم، وإن كان جسد بعض الأشياء متقدماً على جسده.

قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ في الكلام حذف، تدل عليه الفاء، والتقدير: فخلقه فسواه، فنفخ فيه الروح، فسجد الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يبق منهم أحد، إلا سجد ﴿أَجْمَعُونَ﴾ بطريق المعية، بحيث لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن أحد. فالأول: لقصد الإحاطة، والثاني: لقصد الاجتماع، قال في «الكشاف»: فأفادا معاً، أنهم سجدوا عن آخرهم، ما بقي منهم ملك إلا سجد، وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد، غير متفرقين في أوقات، وقيل: إنه أكد بتأكيدين، للمبالغة في التعميم. ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فإنه لم يسجد، والاستثناء متصل؛ لأنه كان من الملائكة فعلاً، ومن الجن نوعاً، ولذلك تناوله أمرهم، وكان اسم إبليس قبل أن يبلس من رحمة الله تعالى، عزازيل والحارث، وكنيته: أبو كردوس وأبو مرة، كأنه سئل كيف ترك السجود، هل كان ذلك للتروي والتأمل، أو غير ذلك؟ فقيل: ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ وتعظم عن السجود لآدم. وسببه أنه كان أعور، فما رأى آثار أنوار التجلي على آدم عليه السلام. وقيل: الاستثناء منقطع على ما هو الظاهر من عدم دخوله فيهم؛ أي: لكن إبليس ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ وأنف من السجود جهلاً منه، بأنه طاعة لله تعالى ﴿و﴾ كان استكباره استكبار كفر، فلذلك ﴿كان من الكافرين﴾؛ أي[1]: صار منهم بمخالفته لأمر الله، واستكباره عن طاعته، أو كان من الكافرين في علم الله سبحانه، أزلاً بالذات، وفي الخارج أبداً باستقباح أمر الله. ولذا كانت شقاوته ذاتية لا عارضية، وسعادته في البين عارضية لا ذاتية، فالعبرة لما هو بالذات، وذلك لا يزول لا لما هو بالعرض، إذ ذاك يزول.

أي[2]: صار من الكافرين، بإبائه عن أمر الله، بعد أن كان مسلماً عابداً لله سبحانه مع الملائكة، نحو ثمانين ألف سنة، وطاف بالبيت أربعة عشر ألف عام،

---

(١) روح البيان.
(٢) الفتوحات.

على ما قيل، اهـ شيخنا.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس مشافهة، حين امتنع من السجود: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾؛ أي: يا خبيث، وهذه مشافهة لا تدل على إكرام إبليس، إذ يخاطب السيد عبده بطريق الغضب، وتمامه في سورة الحجر. ﴿مَا﴾ استفهامية؛ أي: أي شيء ﴿مَنَعَكَ﴾ من ﴿أَن تَسۡجُدَ﴾؛ أي: أي شيء دعاك إلى ترك السجود ﴿لِمَا﴾؛ أي: لمن ﴿خَلَقۡتُ﴾ وأوجدت ﴿بِيَدَيَّۖ﴾؛ أي خصصته بخلقي إياه بيدي كرامة له؛ أي: خلقته بذاتي، من غير توسط أب وأم، فذكر اليد لنفي توهم التجوز؛ أي: لتحقيق إضافة خلقه إليه تعالى، والتثنية في اليد، لما في خلقه من مزيد القدرة، واختلاف الفعل، فإن طينته خمّرت أربعين صباحاً، وكان خلقه مخالفاً لسائر أبناء جنسه، المتكونة من نطفة الأبوين، أو من نطفة الأم مميزاً عنهم، ببديع صنعه تعالى.

﴿أستكبرت﴾؛ أي: أتكبرت عن السجود لآدم من غير استحقاق التكبر، بقطع الألف، أصله: أاستكبرت، أدخلت همزة الاستفهام للتوبيخ، والإنكار على همزة الوصل، فحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام، وبقيت همزة الاستفهام مفتوحة. ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾؛ أي: من المستحقين للتفوق والعلو، ويحتمل أن يكون المراد بالعالين: الملائكة المهيَّمين، الذين ما أُمروا بالسجود لآدم، لاستغراقهم في شهود الحق، وهم الأرواح المجردة.

والمعنى(١): أتركت السجود لاستكبارك الحادث، أم لاستكبارك القديم المستمر؟. لكن جواب إبليس بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ لا يطابقه؛ لأنه أجاب: بأنه إنما ترك السجود، لكونه خيراً منه، وعالياً بالنسبة إليه، وبيّن ذلك بأن أصله من النار، وأصل آدم من الطين، والنار أشرف من الطين؛ لأن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية، والنار أقرب العناصر من الفلك، والأرض أبعدها منه، وأيضاً النار لطيفة نورانية، والأرض كثيفة ظلمانية، واللطافة والنورانية خير من الكثافة والظلمانية، اهـ «زاده».

---

(١) زادة.

وقرأ الجحدري ﴿لما خلقت﴾ بفتح اللام وتشديد الميم، على أنها ظرف بمعنى: حين، كما قال أبو علي الفارسي، وقرأ: ﴿بيدي﴾ على الإفراد. وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِيَدَيَّ﴾ على التثنية، وقُرأ ﴿بيدي﴾ كقراءة ﴿بمصرخي﴾، وقال تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ بهمزة الاستفهام، فأم متصلة عادلت الهمزة، والاستفهام للتوبيخ والتقريع، وقرأ ابن كثير في رواية عنه، وأهل مكة بألف وصل، ويجوز أن يكون الاستفهام مراداً، فيوافق القراءة الأولى. كما في قول الشاعر:

تَـرُوْحُ مِـنَ ٱلْـحَـيِّ أَمْ تَـبْـتَـكِـرْ

وقول الآخر:

بِسَبْعٍ رَمَيْنَ ٱلْجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِيَا

ويحتمل أن يكون إخباراً محضاً، من غير إرادة للاستفهام، فتكون ﴿أَمْ﴾ منقطعة. والمعنى: استكبرت عن السجود الذي أمرت به، بل أ﴿كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾.

وجملة قوله: ﴿قَالَ﴾ إبليس إبداء للمانع: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾؛ أي: أفضل من آدم، مستأنفة، واقعة في جواب سؤال مقدر، وفي ضمن كلامه هذا: أن سجود الفاضل للمفضول لا يحسن؛ أي: ولو كنت مساوياً له في الشرف، لكان يقبح أن أسجد له، فكيف وأنا خير منه؟.

ثم بيّن وجه الخيرية منه بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ نسب خلقه إلَى النار باعتبار الجزء الغالب، إذ الشيطان مخلوق من نار وهواء. ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ نسب خلقه إلى الطين، باعتبار الجزء الغالب أيضاً، إذ آدم مخلوق من العناصر الأربعة.

والمعنى[2]: لو كان آدم مخلوقاً من نار، لما سجدت له؛ لأنه مثلي، فكيف أسجد لمن هو دوني؟؛ لأنه من طين، والنار تغلب الطين وتأكله، فلا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

يحسن أن يسجد الفاضل للمفضول، فكيف يحسن أن يؤمر، ظن أن ذلك شرف له، ولم يعلم أن الشرف يُكتسب بطاعة الله تعالى، ولقد أخطأ اللعين، حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر، وزل عما من جهة الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وما من جهة الصورة، كما نبه عليه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾. وما من جهة الغاية، وهو ملاك الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾، ولذلك أمر الملائكة بسجوده، حين ظهر لهم، أنه أعلم منهم، بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض، وأن له خواص ليست لغيره.

ومراده: أن النار أقرب إلى الأشرف الذي هو الفلك. وهي خليفة الشمس والقمر في الإضاءة والحرارة، وهي ألطف من الأرض، وهي مشرقة، وهي شبيه الروح، وأشرف الأعضاء القلبُ والروحُ، وهما على طبيعة النار، وكل جسم أشبه النار، كالذهب والياقوت فهو أشرف، والشمس أشرف الأجسام، وهي تشبه النار في الطبع والصورة، وأيضاً لم يتم المزاج إلا بالحرارة، ومآل كل هذه إلى أن أصله خير فهو خير. وهذا ممنوع، ولذا قال من قال:

أَتَفْخَرَ بِٱتِّصَالِكَ مِنْ عَلِيٍّ   وَأَصْلُ ٱلْبَوْلَةِ ٱلْمَاءُ ٱلْقَرَاحُ
وَلَيْسَ بِنَافِعٍ نَسَبٌ زَكِيٌّ   تُدَنِّسُهُ صَنَائِعُكَ ٱلْقِبَاحُ

فيجوز أن يكون أصل أحد الشيئين أفضل، وينضم إليه ما يقتضي مرجوحيته، كما في إبليس، فإنه قد انضم إلى أصله عوارض رديئة، كالكبر والحسد والعجب والعصيان، فاقتضت اللعنة عليه، وأمر آدم عليه السلام بالعكس.

وقال في «آكام المرجان»: اعلم أن هذه الشبهة التي ذكرها إبليس، إنما ذكرها على سبيل التعنت، وإلا فامتناعه عن السجود لآدم، إنما كان عن كبر وكفر، ومجرد إباء وحسد، ومع ذلك فما أبداه من الشبهة فهو داحض؛ أي: باطل؛ لأنه رتب على ذلك، أنه خير من آدم، لكونه خُلق من نار، وآدم خلق من طين، ورتب على هذا، أنه لا يحسن منه الخضوع، لمن هو دونه، وهذا باطل من وجوه:

الأول: أن النار طبعها الفساد، وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب، فإنه إذا وُضع القوت فيه، أخرجه أضعاف ما وُضع فيه، بخلاف النار، فإنها آكلة لا تبقي ولا تذر.

والثاني: أن النار طبعها الخفة، والطيش، والحدة، والتراب طبعه الرزانة، والسكون، والثبات.

والثالث: أن التراب يتكون فيه، ومنه أرزاق الحيوانات وأقواتهم، ولباس العباد وزينتهم، وآلات معايشهم ومساكنهم، والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك.

والرابع: أن التراب ضروري للحيوان، لا يستغني عنه البتة، ولا عما يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان مطلقاً، وقد يستغني عنها الإنسان أياماً وشهوراً، فلا تدعوه إليها ضرورة.

الخامس: أن النار لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به، يكون حاملاً، والتراب لا يفتقر إلى حامل، فالتراب أكمل منها، لغناه وافتقارها.

والسادس: أن النار مفتقرة إلى التراب، وليس بالتراب فقر إليها، فإن المحل الذي تقوم به النار، لا يكون إلا متكوناً من التراب أو فيه، فهي المفتقرة إلى التراب، وهو الغني عنها.

والسابع: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار، وهو ضعيف تتلاعب به الأهوية، فيميل معها كيفما مالت، ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره، ولما كانت المادة الآدمية هي التراب، وهو قوي لا يذهب مع الهواء أينما ذهب، فهو قهر هواه، وأسره، ورجع إلى ربه فاجتباه، فكان الهواء الذي مع المادة الآدمية عارضاً سريع الزوال، فزال، فكان الثبات والرزانة أصلاً له، فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس من ذلك، فعاد كل منهما إلى أصله وعنصره، آدم إلى أصله الطيب الشريف، واللعين إلى أصله الرديء الخبيث.

والثامن: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة من الطبخ والتسخين والاستضاءة بها، فالشر كامن فيها لا يصدها عنه، إلا قسرها وحبسها، ولولا

القاصر والحابس لها، لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب، فالخير والبركة كامن فيه، كلما أثير وقُلب ظهر خيره وبركته وثمرته. فأين أحدهما من الآخر، إلى آخر ما ذكره من الوجوه الكثيرة، التي تُدحض شبهه.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى، بقهره وعزته ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ الفاء فيه فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا خالفت أمري وأبيت من السجود لآدم، وأردت بيان ما هو الجزاء لك.. فأقول لك: اخرج يا إبليس ﴿مِنۡهَا﴾؛ أي: من[1] الجنة، وقيل: من السماء، وقيل: من زمرة الملائكة، وهو المراد بالأمر بالهبوط، لا الهبوط من السماء، كما قال البيضاوي، فإن وسوسته لآدم، كانت بعد هذا الطرد، قال بعضهم: عظم جناية إبليس يقتضي هبوطه من السماء إلى الأرض، لا التوقف فيها إلى زمان الوسوسة. وأما أمر الوسوسة، فيجوز أن يكون بطريق الصعود إلى السماء؛ ابتلاء من الله تعالى، ودخوله الجنة، وهو في السماء، ليس بأهون من دخوله وهو في الأرض، إذ هو ممنوع من الدخول مطلقاً، سواء كان في الأرض أو في السماء، إلا بطريق الامتحان.

وفي «الكرخي»: وقيل: اخرج[2] من الخلقة التي كنت عليها أولاً، وانسلخ منها؛ لأنه كان يفتخر بخلقته، فغيّر الله خلقته، فاسود بعدما كان أبيض، وقبح بعدما كان حسناً، وأظلم بعد ما كان نورانياً، وفي «تحفة العارفين» ما نصه: وكان إبليس رئيساً على اثني عشر ألف ملك، وكان له جناحان من زمرد أخضر، فلما طُرد غيرت صورته، وجعله الله منكوساً على مثال الخنازير: ووجهه كالقردة، وهو شيخ أعور كوسج، وفي لحيته سبع شعرات، مثل شعر الفرس، وعيناه مشقوقتان في طول وجهه، وأنيابه خارجة كأنياب الخنازير، ورأسه كرأس البعير، وصدره كسنام الجمل الكبير، وشفتاه كشفتي الثور، ومنخاراه مفتوحتان مثل: كوز الحجام، اهـ. ولكنها من الإسرائيليات التي لا أصل لها، وإنما نقلناها، لأنه أحق بهذه الصفات القبيحة.

---

(١) روح البيان.   (٢) الفتوحات.

وقوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ تعليل للأمر بالخروج؛ أي: مطرود عن كل خير وكرامة، فإن من يطرد يرجم بالحجارة، إهانة له، أو شيطان يرجم بالشهب السماوية، أو الأثيرية. وإلى الثاني ذهب بعض أهل الحقائق.

فإن قلت[1]: إذا كان الرجم بمعنى الطرد، وكذلك اللعنة، لزم التكرار فما الفرق؟.

قلت: الفرق يحصل بحمل الرجم على الطرد من الجنة، أو السماء، وبحمل اللعنة على معنى الطرد من الرحمة، فيكون أبلغ، ويحصل الفرق، ويزول التكرار، اهـ «خازن».

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾؛ أي: إبعادي عن الرحمة، فإن اللعن: طرد، أو إبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاع عن قبول فيضه وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره.

وتقييدها[2] بالإضافة مع إطلاقها في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ لما أن لعنة اللاعنين من الملائكة، والثقلين أيضاً من جهته تعالى، وأنهم يدعون عليه بلعنة الله، وإبعاده من الرحمة، قال بعضهم: اللعنة المطلقة أيضاً هي لعنة الله تعالى؛ لأن اللام عوض عن المضاف إليه، فمآل الآيتين واحد. ويجوز أن يكون المعنى: وإن عليك لعنتي على ألسنة عبادي يلعنونك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: إلى يوم الجزاء والعقوبة.

قال زكريا[3]: قال سبحانه في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ بتعريف الجنس، ليناسب ما قبله من التعبير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾، وقال هنا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ بالإضافة ليناسب ما قبله من قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، انتهى.

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) متشابه القرآن.

فإن قلت[1]: كلمة ﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاء الغاية، فتقتضي انقضاء اللعنة، عنه، عند مجيء يوم الدين، مع أنها لا تنقطع؟.

قلت: معناه: أن اللعنة باقية عليه في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة، زيد له على اللعنة من العذاب، بحيث تنسى اللعنة بذلك، فكأنها انقطعت عنده.

قال بعضهم: ولا يلزم[2] من هذا التوقيت، انقطاع اللعنة عنه في الآخرة، إذ من كان ملعوناً مدة الدنيا، ولم يشم رائحة الرحمة في وقتها، كان ملعوناً أبدياً في الآخرة، ولم يجد أثر الرحمة فيها، لكونها ليست وقت الرحمة للكافر، وقد عُلم خلوده في النار بالنص، وكذا اللعنة، كما قال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مع ما ينضم إليه من عذاب آخر، ينسى عنده اللعنة، والعياذ بالله تعالى.

وجملة قوله: ﴿قَالَ﴾ إبليس اللعين: ﴿رَبِّ﴾؛ أي: يا ربي إلخ، مستأنفة كما تقدم فيما قبلها، والفاء في قوله: ﴿فَأَنظِرْنِىٓ﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا جعلتني رجيماً، مطروداً عن رحمتك، وأردت بيان سؤلي منك.. فأقول لك: يا ربي أمهلني ولا تُمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ من قبورهم للجزاء، وهو يوم القيامة، يعني: آدم وذريته؛ أي: إلى يوم يبعث آدم وذريته من القبور، للجزاء بعد فنائهم، وأراد بدعائه أن يجد فسحة لإغوائهم، ويأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية، إذ لا موت بعد يوم البعث، فلم يُجب، ولم يُوصل إلى مراده. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ أي: من جملة الذين أُخرت آجالهم أزلاً، بحسب الحكمة كالملائكة ونحوهم. والفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا سألتني الإنظار، وأردت بيان ما أنظرته لك.. فأقول لك: إنك من الممهلين ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ عندي، لا عند غيري؛ أي: إلى اليوم[3] الذي قدرته، وعينته لفناء

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

الخلائق، وهو وقت النفخة الأولى، لا إلى وقت البعث، الذي هو المسؤول له، قال في «آكام المرجان»: ظاهر القرآن يدل على أن إبليس غير مخصوص بالإنظار، وأما ولده وقبيله، فلم يقم دليل على أنهم منظرون معه، وقال بعضهم: الشياطين يتوالدون ولا يموتون إلى وقت النفخة الأولى، بخلاف الجن، يتوالدون ويموتون، ويحتمل أن بعض الجن أيضاً، منظرون، كما أن بعض الإنس منظرون، كالخضر عليه السلام، وفيه: أن الظاهر: أن يموت الخضر وأمثاله حين يموت المؤمنون، ولا يبقى منهم أحد. وذلك قبل الساعة بكثير من الزمان.

ثم إن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ﴾ إلخ، إخبار من الله تعالى، بالإنظار المقدر أزلاً، لا إنشاء، لإنظار خاص به قد وقع إجابةً لدعائه، وكان استنظاره طلباً لتأخير الموت، لا لتأخير العقوبة. هكذا في «الإرشاد». وقال بعضهم: ولا شك أن الله تعالى، استجاب دعاء إبليس، ليكون طول بقائه في الدنيا، أجراً له في مقابلة طول عبادته قبل لعنه، ودعاء الكافر مستجاب في أمور الدنيا، فلا مانع أن يكون إنظاره بطريق الإنشاء، يدل عليه ترتيبه على دعائه الحادث.

﴿قَالَ﴾ إبليس عليه ما يستحق ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ والباء فيه للقسم؛ أي: فأقسم بعزتك؛ أي: بقهرك وسلطانك، ولا ينافيه قوله تعالى، حكاية عنه: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾؛ لأن إغواءه إياه، أثر من آثار قدره وعزته، وحكم من أحكام قهره وسلطنته. ولهذه النكتة الخفية ورد الحلف هنا بالعزة، مع أن الصفات اللائقة للحلف كثير. وفي «التأويلات النجمية»: ثم إن إبليس لتمام شقاوته قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ إلخ، ولو عرف عزته، لما أقسم بها على مخالفته، ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ لأضلنّ ذرية آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: لأحملنهم على الغي والضلال، ولأكونن سبباً لغوايتهم وضلالهم بتزيين المعاصي لهم، وإدخال الشكوك والشبهات فيهم، ثم صدق حيث استثنى، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ بفتح اللام؛ أي: الذين أخلصتهم واصطفيتهم لطاعتك، وعصمتهم من الشيطان، وقرىء بالكسر على صيغة اسم الفاعل؛ أي: الذين أخلصوا أعمالهم وقلوبهم لله تعالى، من غير شائبة الرياء، قال بعضهم: العبد المخلص، هو الذي يكون سره بينه وبين ربه،

بحيث لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله، ثم لا شك أن من العباد عباداً، إذ رأى الشيطان أثر سلطنة ولايتهم، وعزة أحوالهم، يذوب كما يذوب الملح في الإناء، ولا يبقى له حيل، ولا يطيق أن يمكر بهم، بل ينسى في رؤيتهم جميع مكرياته، ولا يطيق أن يرمي إليهم من أسهم وسوسته، بل مكرُهُ محيط به، لا بأهل الحق، وهكذا حال ورثة الشيطان من المنكرين المفسدين، مع أهل الله تعالى، فإنهم محفوظون عما سوى الله تعالى مطلقاً.

وجملة قوله: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها؛ أي: قال الله تعالى: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ إلخ. الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا حلفت بصفتي على إغوائهم، ثم أغويتهم، لتكون باراً في قسمك، وأردت بيان عاقبتك وعاقبتهم.. فأقول لك: الحق، بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف؛ أي: فالحق قسمي، على أن الحق اسم من أسماء الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾، أو نقيض الباطل، عظمه الله تعالى بإقسامه به، ويحتمل أن يكون التقدير: فالحق مني، كما قال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ بالنصب على أنه مفعول لأقول، قدم عليه للقصر؛ أي: لا أقول إلا الحق. وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾؛ أي: من جنسك من الشيطان، والجملة جواب القسم، وجملة ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ معترضة بين القسم وجوابه، ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ في الغواية والضلال بسوء اختياره ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من ذرية آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للكاف وما عطف عليه؛ أي: لأملأنها من المتبوعين والأتباع أجمعين، لا أترك أحداً منهم. وفي «التأويلات النجمية»: ولما كان تجاسره في مخاطبته الحق، حيث أصر على الخلاف، وأقسم عليه أقبح وأولى في استحقاق اللعنة، من امتناعه السجود لآدم، قال فالحق إلخ، انتهى. فعلى العاقل أن يتأدب بالآداب الحسنة، قولاً وفعلاً، ولا يتجاسر على الله تعالى أصلاً، ولا يتبع خطوات الشيطان، حتى لا يرد معه النار.

وقرأ الجمهور: ﴿فَٱلْحَقَّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ بنصبهما، أما الأول فمقسم به، حذف منه الحرف كقولهم: أمانة الله لأقومن، والمقسم عليه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ ﴿وَٱلْحَقَّ

﴿أَقُولُ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه، أو هما منصوبان على الإغراء؛ أي: إلزموا الحق، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، والأعمش برفعهما، فرفع الأول على ما تقدم، ورفع الثاني بالابتداء، والخبر الجملة المذكورة بعده، والرابط محذوف، وقرأ ابن السميقع، وطلحة بن مصرف، والحسن، وعيسى، وعبد الرحمٰن ابن أبي حماد، عن أبي بكر بجرهما. ويخرّج على أن الأول، مجرور بواو القسم، محذوفة، تقديره: فوالحق، و﴿الحق﴾ معطوف عليه، كما تقول: والله والله لأقومن ﴿أَقُولُ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه، وقرأ مجاهد، والأعمش بخلاف عنهما، وأبان بن تغلب، وطلحة في رواية، وحمزة، وعاصم عن المفضل، وخلف وعيسى: برفع الأول، ونصب الثاني. وتقدم إعرابهما.

وخلاصة هذه القصة[(١)]: أن الله سبحانه، أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام، أنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، وأمرهم بالسجود له، متى فرغ من خلقه، وتسويته إجلالاً وإعظاماً له. فامتثل الملائكة كلهم ذلك، إلا إبليس، فلم يكن منهم جنساً، بل كان من الجن، فخانه طبعه، فاستنكف عن السجود له، وخاصم ربه، وادعى أنه خير من آدم؛ لأنه مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين، والنار خير من الطين في زعمه، وقد خالف بذلك أمر ربه، فكفر به، فأبعده وطرده من باب رحمته وحضرة قدسه، مذموماً مدحوراً، فسأل النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة، تمرد وطغى، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾. فقال تعالى: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

ثم أمر الله سبحانه رسوله، أن يخبرهم: بأنه إنما يريد بالدعوة إلى الله تعالى، امتثال أمره، لا عرض الدنيا الزائل، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾؛ أي: ما أطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على

---

(١) المراغي.

القرآن الذي أتيتكم به، أو على تبليغ الوحي، وأداء الرسالة، أو على الدعاء إلى الله على العموم، فيشمل القرآن وغيره من الوحي. ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ تعطونيه عليه أو جُعل تجعلونه لي من مال دنيوي، ولكن أعلمكم بغير أجر، وذلك لأن من شرط العبودية الخالصة، أن لا يُراد عليها الجزاء، ولا الشكور، فمن قطع رأس كافر في دار الحرب، أو أسره وأحضره عند رئيس العسكر، فيُعطي له مالاً، فقد فعله للأجر، لا لله تعالى، وعلى هذه جميع ما يتعلق به الأعراض الفاسدة.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾؛ أي[1]: من المتصنعين بما ليسوا من أهله، على ما عرفتم من حالي حتى أنتحل النبوة؛ أي: أدعيها لنفسي كاذباً، وأتقول القرآن من تلقاء نفسي، وكل من قال شيئاً من تلقاء نفسه، فقد تكلف له؛ أي[2]: من الحاملين للمشقة في التشريع على الناس؛ أي: إن هذا الذي أدعوكم إليه، دين لا يحتاج في معرفة صحته، إلى التكلفات الكثيرة، بل هو دين يشهد العقل بصحته، فإني أدعوكم:

أولاً: إلى الإقرار بوجود الله سبحانه، ثم أدعوكم:

ثانياً: إلى تنزيهه تعالى، عن كل ما لا يليق به، ثم أدعوكم:

ثالثاً: إلى الإقرار بكونه تعالى، موصوفاً بكمال العلم، والقدرة والحكمة والرحمة، ثم أدعوكم:

رابعاً: إلى الإقرار بكونه تعالى، منزهاً عن الشركاء، ثم أدعوكم:

خامساً: إلى الامتناع عن عبادة الأوثان، ثم أدعوكم:

سادساً: إلى تعظيم الملائكة والأنبياء، ثم أدعوكم:

سابعاً: إلى الإقرار بالبعث والقيامة، ثم أدعوكم:

ثامناً: إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة. فهذه الأصول الثمانية هي الأصول المعتبرة في دين الله تعالى، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه

(١) روح البيان. (٢) المراح.

الأصول الثمانية، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة، التي أدعو الخلق إليها، بل كل عقل سليم يشهد بصحتها وبُعدها عن الفساد، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هذا القرآن، أو الوحي، أو ما أدعوكم إليه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾؛ أي: عظة من الله تعالى، أو شرف وذكر باق ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: للثقلين كافة.

وعن مسروق قال: دخلنا على ابن مسعود فقال: يا أيها الناس، من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم، أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم. قال الله تعالى، لنبيه ﷺ: «قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين»، متفق عليه. وهذا لفظ البخاري.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾؛ أي: وعزة الله وجلاله، لتعلمن أيها المشركون ﴿نَبَأَهُ﴾؛ أي: نبأ هذا القرآن؛ أي: ما أنبأ به من الوعد، والوعيد، وغيرها أو صحة خبره، وأنه الحق والصدق ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾؛ أي: بعد الموت، أو يوم القيامة، حين لا ينفع العلم. وفيه تهديد. وقال الكلبي: من بقي عَلِمَ ذلك حين ظهر وعلا، ومن مات علِمَه بعد الموت. وقال الحسن بن آدم: عند الموت يأتيك الخبر اليقين، فينبغي للمؤمن، أن يكون بحيث لو كشف الحجاب، ما ازداد يقيناً. ومن كلام علي - رضي الله عنه -: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، وختم السورة بالذكر، كما افتتحها بالذكر. والله الموفق.

الإعراب

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿هَٰذَا﴾: ﴿ها﴾ حرف تنبيه. ﴿ذَا﴾: اسم إشارة، يشار به في محل الرفع مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: هذا العذاب المذكور فيما بعد للكفار. ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لِلطَّاغِينَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها، ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾: اللام: حرف ابتداء ﴿شر مآب﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿هَٰذَا﴾. ﴿جَهَنَّمَ﴾: بدل من شر مآب، أو عطف بيان

له، ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من جهنم. ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن مآبهم جهنم، وأردت بيان ما يقال فيها عند التعجب.. فأقول لك: بئس المهاد. ﴿بئس﴾: فعل ماض لإنشاء الذم. ﴿الْمِهَادُ﴾: فاعل، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي؛ أي: جهنم. وجملة ﴿بئس﴾ إنشائية، لا محل لها من الإعراب.

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ خبراه، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾: الفاء: اعتراضية، واللام: لام أمر وجزم مبني على السكون، ﴿يذوقوه﴾: فعل، وفاعل مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف النون، والهاء مفعول به. والجملة الفعلية معترضة، لا محل لها من الإعراب، لوقوعها بين المبتدأ والخبر. ﴿وَآخَرُ﴾ معطوف على حميم، ﴿مِن شَكْلِهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آخر﴾، و﴿أَزْوَاجٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي أزواج، والجملة الاسمية في محل الرفع صفة للثلاثة، أو أزواج صفة للثلاثة، أعني: حميم وغساق وآخر. ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب، مقول لقول محذوف تقديره: ويقال لهم عند دخولهم النار: هذا فوج. ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ صفة لـ﴿فَوْجٌ﴾، ﴿مَّعَكُمْ﴾: ظرف، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة ثانية لـ﴿فوج﴾، أو حال من الضمير في ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ أو من ﴿فَوْجٌ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿مَرْحَبًا﴾: مفعول لفعل محذوف تقديره: لا أتيتم مرحباً، أو لاسمعتم مرحباً، والجملة مستأنفة، مسوقة للدعاء عليهم بضيق المكان، أو حالية من فوج؛ أي: هذا فوج مقتحم معكم، مقولاً لهم: لا مرحباً بهم. ﴿بِهِمْ﴾ متعلقان بـ﴿مَرْحَبًا﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿صَالُوا النَّارِ﴾: خبر، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿قَالُوا﴾: فعل، وفاعل، والضمير يعود على الأتباع، والجملة مستأنفة، ﴿بَلْ﴾: حرف

إضراب، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿مَرْحَبًا﴾: مفعول لفعل محذوف، تقديره: لا أتيتم ولا وجدتم مرحباً؛ أي: مكاناً واسعاً، والجملة المحذوفة مقول لقول محذوف، هو خبر المبتدأ، والتقدير: قالوا بل أنتم مقول فيكم: لا مرحباً بكم، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿بِكُمْ﴾ متعلقان بـ﴿مَرْحَبًا﴾ ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾: فعل ماض، والتاء فاعل، والميم علامة الجمع، والواو حرف زائد لإشباع ضمة الميم، والهاء مفعول به، ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور، متعلق بقدم، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿فَبِئْسَ﴾ الفاء: عاطفة أو استئنافية، ﴿بئس القرار﴾: فعل وفاعل، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: فبئس القرار هي؛ أي: النار. وجملة ﴿بئس﴾: معطوفة على جملة قوله ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قالوا﴾ أو مستأنفة.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿قَدَّمَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، صلة من الموصولة، ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَدَّمَ﴾، ﴿هَٰذَا﴾: مفعول ﴿قَدَّمَ﴾، ﴿فَزِدْهُ﴾: الفاء: رابطة الخبر بالمبتدأ، لما في الموصول من رائحة الشرط، ﴿زده﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول ثان لـ﴿زده﴾، ﴿ضِعْفًا﴾: صفة لـ﴿عَذَابًا﴾؛ أي: مضاعفاً ﴿فِي النَّارِ﴾: متعلق بـ﴿زده﴾ أو صفة ثانية لـ﴿عَذَابًا﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿قَالُوا﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَقَالُوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿قَالُوا﴾ الأول، والضمير يعود لكفار مكة، كأبي جهل وأضرابه. ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور خبره، والجملة الاسمية في

محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿نَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الكفار. ﴿رِجَالًا﴾: مفعول به؛ لأن رأى هنا بصرية، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من ضمير المتكلمين في ﴿لَنَا﴾. ﴿كُنَّا﴾: فعل ماض ناقص واسمه، والجملة صفة لـ﴿رِجَالًا﴾. ﴿نَعُدُّهُم﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر. ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ متعلق بـ﴿نَعُدُّهُم﴾، وجملة ﴿نَعُدُّهُم﴾: في محل النصب خبر ﴿كُنَّا﴾. ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول أول لـ﴿اتخذنا﴾، والهمزة للاستفهام التوبيخي التعجبي، وهمزة الوصل سقطت استغناء عنها. ﴿سِخْرِيًّا﴾: مفعول ثان لـ﴿اتخذنا﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف، متصل بقوله: ﴿مَا لَنَا﴾. ﴿زَاغَتْ﴾: فعل ماض. ﴿عَنْهُمُ﴾: متعلق بـ﴿زَاغَتْ﴾. ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَا لَنَا﴾. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَحَقٌّ﴾: خبر، واللام حرف ابتداء، ﴿تَخَاصُمُ﴾: بدل من حق، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو تخاصم أهل النار، وجملة المبتدأ المحذوف، وخبره مفسرة لاسم الإشارة. ﴿تَخَاصُمُ﴾: مضاف، ﴿أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿مُنذِرٌ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر المبتدأ. ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾: صفتان للجلالة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: نعت للجلالة، أو بدل منه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على السموات. ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: معطوف أيضاً على السموات. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾: صفتان أيضاً لرب السموات.

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿نَبَؤٌا﴾: خبره، ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة لـ﴿نَبَؤٌا﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق بما بعده. ﴿مُعْرِضُونَ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الرفع، صفة ثانية لـ﴿نَبَؤٌا﴾. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، ﴿لِيَ﴾: خبرها مقدم على اسمها. ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿عِلْمٍ﴾: اسمها مؤخر، ﴿بِالْمَلَإِ﴾: متعلق بـ﴿علم﴾، ﴿الْأَعْلَىٰ﴾: صفة لـ﴿الملأ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة على كونها مقولا لـ﴿قل﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى، متعلق بـ﴿عِلْمٍ﴾ أيضاً، وجملة ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾ ﴿إِن﴾: نافية، ﴿يُوحَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿إِلَيَّ﴾: متعلق به، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿أَنَّمَا﴾: كاف ومكفوف، ﴿أَنَا﴾: مبتدأ، ﴿نَذِيرٌ﴾: خبره، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿نَذِيرٌ﴾، والجملة الاسمية صلة ﴿أن﴾ المكفوفة، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر، مرفوع على كونه نائب فاعل، لـ﴿يوحى﴾؛ أي: ما يوحى إلي إلا الإنذار، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى، بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، أو متعلق بـ﴿اذكر﴾ محذوفاً، ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾: فعل، وفاعل، ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾، متعلق بـ﴿قال﴾، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿إِنِّي خَالِقٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿بَشَرًا﴾: مفعول به لـ﴿خَالِقٌ﴾. ﴿مِّن طِينٍ﴾: صفة لـ﴿بَشَرًا﴾، أو متعلق بـ﴿خَالِقٌ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَإِذَا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، متعلق بالجواب الآتي، ﴿سَوَّيْتُهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿وَنَفَخْتُ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿سويت﴾، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿نفخت﴾ ﴿مِن رُّوحِي﴾: متعلق بـ﴿نفخت﴾ أيضاً، ﴿فَقَعُوا﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. ﴿قعوا﴾: فعل أمر، وفاعل مبني على حذف النون. ﴿لَهُ﴾: متعلق

بـ﴿سَٰجِدِينَ﴾، و﴿سَٰجِدِينَ﴾: حال من فاعل ﴿قعوا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَسَجَدَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿سجد الملائكة﴾: فعل، وفاعل، ﴿كُلُّهُمْ﴾: توكيد أول للملائكة، ﴿أَجْمَعُونَ﴾: توكيد ثان له، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، ﴿إِبْلِيسَ﴾: منصوب على الاستثناء المتصل أو المنقطع. ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان كيفية إبائه من السجود، وجملة ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: معطوفة على جملة ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: خبرها.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ﴾: منادى مفرد العلم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿مَنَعَكَ﴾: فعل، ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر لما الاستفهامية، أي: أي شيء مانع إياك من السجود، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تَسْجُدَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿لِمَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَسْجُدَ﴾، وجملة ﴿تَسْجُدَ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر، منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿تسجد﴾؛ أي: أي شيء منعك السجود. ﴿خَلَقْتُ﴾: فعل، وفاعل، ﴿بِيَدَيَّ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿لما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: لما خلقته بيدي. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، وهمزة الوصل سقطت استغناء عنها. ﴿استكبرت﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَمْ﴾: عاطفة متصلة، ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾: خبره، والجملة

معطوفة على جملة ﴿اسْتَكْبَرْتَ﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿خَلَقْتَنِي﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، ونون وقاية، ﴿مِن نَّارٍ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: على كونها مفسرة للخيرية. ﴿وَخَلَقْتَهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به معطوف على ﴿خَلَقْتَنِي﴾، ﴿مِن طِينٍ﴾: متعلق بـ﴿خلقته﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَاخْرُجْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا خالفت أمري، وأبيت من السجود لآدم، وأردت بيان ما هو الجزاء لك.. فأقول لك: اخرج. ﴿اخرج﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿اخرج﴾، والجملة الفعلية مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول لـ﴿قال﴾. ﴿فَإِنَّكَ﴾: الفاء: تعليلية، ﴿إنك رجيم﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معللة للأمر بالخروج. ﴿وَإِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿عَلَيْكَ﴾: خبرها مقدم على اسمها، ﴿لَعْنَتِي﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَاخْرُجْ﴾، أو على جملة قوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من ﴿لَعْنَتِي﴾؛ أي: حال كونها مستمرة إلى يوم الدين.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَنظِرْنِي﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا جعلتني رجيماً مطروداً عن رحمتك، وأردت بيان سؤلي منك.. فأقول لك: يا رب أنظرني. ﴿أنظرني﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على الله، والنون للوقاية، والياء مفعول به، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب

مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يُبْعَثُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، والواو نائب عن الفاعل، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَإِنَّكَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا سألتني الإنظار، وأردت بيان ما أنظرته لك، فأقول لك: إنك من المنظرين. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بالمنظرين، ﴿ٱلْمَعْلُومِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْوَقْتِ﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: ﴿إذا﴾ أنظرتني، وأردت ثأري منهم، فأقول لك: بعزتك. الباء: حرف جر وقسم، ﴿عزتك﴾: مقسم به، مجرور بباء القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف جوازاً، تقديره: أقسم بعزتك. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ اللام: موطئة للقسم. ﴿أغوين﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿إِبْلِيسَ﴾، والنون حرف توكيد، والهاء مفعول به، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد للضمير المنصوب، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿عِبَادَكَ﴾: مستثنى من ضمير الغائبين. ﴿مِنْهُمُ﴾: حال من عبادك ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، صفة لـ﴿عبادك﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَٱلْحَقُّ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿الحق﴾: مبتدأ، خبره محذوف تقديره: قسمي. والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَٱلْحَقَّ﴾: مفعول مقدم لـ﴿أَقُولُ﴾، ﴿أَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر

يعود على الله، والجملة معترضة بين القسم وجوابه، ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ اللام: موطئة للقسم. ﴿أملأن﴾ فعل مضارع، مبني على الفتح، وفاعله ضمير يعود على الله، والنون للتوكيد، ﴿جَهَنَّمَ﴾: مفعول به، ﴿مِنكَ﴾: متعلق بـ﴿أملأن﴾، ﴿وَمِمَّن﴾: معطوف على ﴿مِنكَ﴾، وجملة ﴿تَبِعَكَ﴾: صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، وجملة ﴿أملأن﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿تَبِعَكَ﴾، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد للضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ أو للكاف في ﴿مِنكَ﴾ وما عطف عليه.

﴿قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿أَسْئَلُكُمْ﴾: فعل مضارع، ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور، حال من أجر؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿أَجْرٍ﴾: مفعول ثان لـ﴿أسأل﴾. والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿أَنَا﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾: خبره أو ﴿مَا﴾: حجازية. ﴿أَنَا﴾: اسمها، ﴿مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾: خبرها، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا أَسْئَلُكُمْ﴾: على كونها مقولا لـ﴿قُلْ﴾ أو في محل النصب حال من فاعل ﴿أَسْئَلُكُمْ﴾. ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرّغ. ﴿ذِكْرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ متعلق بذكر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام: موطئة للقسم ﴿تعلمنّ﴾: فعل مضارع مرفوع؛ لأن نون التوكيد لم تباشره، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة أيضاً، لالتقاء الساكنين، فاعل والنون نون التوكيد الثقيلة، ﴿نَبَأَهُ﴾: مفعول به، ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ منصوب على الظرفية ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿تعلمن﴾؛ لأن علم هنا عرفانية، ويجوز أن تكون على بابها، فيكون المفعول الثاني ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾. والجملة الفعلية جواب القسم، لا

محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿مَآ أَسْئَلُكُمْ﴾: على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾: هم الكفار الذين تجاوزوا حدود الله تعالى، وكذبوا رسله، من الطغيان. قال الراغب: الطغيان: تجاوز الحد في العصيان. ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المهاد: كالفراش وزناً ومعنى. ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ والذوق: وجود الطعم بالفم، وأصله في القليل، لكنه يصلح للكثير الذي يقال له: الأكل، وكثر استعماله في العذاب تهكماً. ﴿حَمِيمٌ﴾: وهو الماء الذي انتهى حره. ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ وهو ما يغسق، ويسيل من صديد أهل النار، من غسقت العين إذا سال دمعها، وفي «القاموس»: الغساق كسحاب وشداد: البارد المنتن. ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾؛ أي: من مثل المذوق في الشدة والفظاعة. ﴿أَزْوَٰجٌ﴾؛ أي: أجناس؛ لأنه يجوز أن يكون ضروباً. ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ الفوج: الجماعة، والقطيع من الناس، وأفاج: أسرع، وعدا، وند. قال الراغب: الفوج: الجماعة المارة المسرعة، وهو مفرد اللفظ، ولذا قيل: مقتحم لا مقتحمون. ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ من الاقتحام، وهو الدخول في الشيء بشدة، والقحمة: الشدة. قال في «القاموس»: قحم في الأمر كنصر قحوماً، إذا رمى بنفسه فيه فجأة، بلا روية.

﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ مصدر بمعنى الرحب، وهو السعة. و﴿بِهِمْ﴾: بيان للمدعو، وانتصابه على أنه مفعول به، لفعل مقدر؛ أي: لا يصادفون رحباً وسعة، أو لا يأتون رحب عيش، ولا سعة مسكن ولا غيره.

وحاصله: لا كرامة لهم، أو على المصدر؛ أي: لا رحبهم عيشهم، ومنزلهم رحباً بل ضاق عليهم، يقول الرجل لمن يدعوه: مرحباً؛ أي: أتيت رحباً من البلاد، وأتيت واسعاً وخيراً كثيراً. قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا مرحباً؛ أي: لا رحبت عليك الأرض، ولا اتسعت.

﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ قال الراغب: الضعف من الأسماء المتضاعفة،

التي يقتضي وجود أحدها وجود الآخر: كالضعف، والزوج، وهو تركب قدرين مساويين، ويختص بالعدد، فإذا قيل: ضعفت الشيء وضاعفته؛ أي: ضممت إليه مثله فصاعداً فمعنى ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾؛ أي: عذاباً مضاعفاً؛ أي: ذا ضعف، بأن يزيد عليه مثله، ويكون ضعفين؛ أي: مثلين، فإن ضعف الشيء، وضعفيه: مثلاه.

﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾؛ أي: من الأراذل الذين لا خير فيهم، جمع شر، وهو الذي يرغب عنه الكل، كما أن الخير هو الذي يرغب فيه الكل. ﴿سِخْرِيًّا﴾ بضم السين وكسرها مصدر سخره. قال في «القاموس»: سخر؛ أي: هزىء كاستسخر، والاسم: السخرية والسخري، ويكسر، انتهى، زيد فيه ياء النسب للمبالغة؛ لأن في ياء النسبة، زيادة قوة في الفعل، كما قيل: الخصوصية في الخصوص، فالسخري أقوى من السخر.

واعلم: أن النسب يحدث في الاسم تغييرات:

الأول: زيادة ياء النسب في آخره، وهذه الياء المشددة حرف، بمنزلة تاء التأنيث، لا موضع لها من الإعراب.

الثاني: كسر ما قبلها.

والثالث: جعل الياء منتهى الاسم، وإنما تطرق التغيير في اللفظ لتغيير المعنى، ألا ترى: أنك إذا نسبت إلى علم، استحال إلى نكرة، بحيث تدخله أداة التعريف كالتثنية والجمع، وصار صفة بمنزلة المشتق بعد الجمود، ويُرفع الاسم بعده على الفاعلية. إما مظهراً أو مضمراً، تقول: مررت برجل تميمي أبوه، وآخر هاشمي جده، وإذا نسبت إلى المصدر، زادته قوة، كما في قولك: سخرياً.

﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يقال: زاغ؛ أي: مال عن الاستقامة، وزاغ البصر كل. ﴿تَخَاصُمُ﴾ والتخاصم: مخاصمة بعضهم بعضاً، ومدافعة كل منهم عن الآخر. ﴿بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ قال الراغب: الملأ: الجماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رواءً، والنفوس جلالةً وبهاء.

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أمر من وقع يقع وقوعاً، والأمر: قع؛ أي: اسقطوا له ساجدين: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾؛ أي: ما صرفك، وصدك. ﴿مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾؛ أي: المستحقين للترفع عن طاعة الله تعالى، المتعالين عن ذلك. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾؛ أي: مرجوم، ومطرود من كل خير. ﴿لَعْنَتِيٓ﴾؛ أي: طردي. ﴿أنظرني﴾ الإنظار: الإمهال، والتأخير؛ أي: أمهلني. ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ أي: من الممهلين. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾؛ أي: لأضلنهم. ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ أي: الذين أخلصتهم للعبادة. ﴿مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾؛ أي: المدعين معرفة ما ليس عندهم، والتكلف في الأصل: التعسف في طلب الشيء، الذي لا يقتضيه العقل. وفي «المفردات»: تكلف الشيء: ما يفعله الإنسان بإظهار كلفة، مع مشقة تناوله في تعاطيه. وصارت الكلفة في التعارف اسماً للمشقة، والتكلف: اسم لما يفعل بمشقة، أو بتصنع أو تشيع، ولذلك صار التكليف ضربين:

الأول: محموداً، وهو ما يتحراه الإنسان، لتوصل به إلى أن يصير الفعل الذي يتعاطاه سهلاً عليه.

والثاني: ما يكون مذموماً، وإياه عني بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أصله: لتعلمونن، حُذفت نون الرفع، لتوالي الأمثال، وواو الفاعل لالتقاء الساكنين.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآية ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ لأنه مستعار من فراش النائم، إذ لا مهاد في جهنم، ولا استراحة.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾؛ لأن الذوق في الأصل: وجود الطعم بالفم.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ومنها: تخصيص الإنذار، مع أنه بشير أيضاً في قوله: ﴿أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾؛ لأن المقام يقتضي ذلك.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾. حيث شبه إضافة ما به الحياة بالفعل، على المادة القابلة لها، بإجراء الريح في جوف جسم، صلح لإمساكها، والامتلاء بها؛ لأنه ليس ثمة نفخ ولا منفوخ.

ومنها: إضافة الروح إلى نفسه سبحانه، في قوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ إظهاراً لشرفه وطهارته أو تعظيماً له؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم، كما في: ناقة الله، وبيت الله.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿ساجدين، فسجد﴾ في قوله: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

ومنها: الإضافة للتخصيص في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ إظهاراً لشدة السخط، والغضب عليه.

ومنها: نسبة الإغواء إليه في قوله: ﴿لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾. لكونه سبباً لغوايتهم.

منها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾؛ لأن تقديم المعمول على عامله يفيد القصر.

ومنها: مراعاة الفواصل، وهو من خصائص القرآن في قوله: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾، حيث شبه تقاولهم وما يدور بينهم من حوار، ويتبادلونه من سؤال وجواب، بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من العبر والمواعظ

١ ـ حلف المشركين، وإعراضهم عن الحق، مع ضرب المثل لهم، بالأمم الماضية، التي حادت عن الحق فهلكت.

٢ ـ إنكارهم للوحدانية.

٣ ـ إنكارهم لنبوة محمد ﷺ.

٤ ـ إنكارهم للبعث والحساب.

٥ ـ قصص داود، وسليمان، وأيوب، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام.

٦ ـ وصف نعيم أهل الجنة.

٧ ـ وصف عذاب أهل النار، وتلاعن بعضهم بعضاً، وسؤالهم عن المؤمنين لِمَ لَمْ يروهم في النار؟.

٨ ـ قصص آدم، عليه السلام.

٩ ـ قسم إبليس ليغوين بني آدم أجمعين، إلا عباد الله المخلصين.

١٠ ـ أمر الله سبحانه، نبيه ﷺ، أن يقول للمشركين: ما أطلب منكم أجراً على تبليغ رسالتي، ولا أنا بالذي يدعي علم شيء، هو لا يعرفه.

١١ ـ أن القرآن أنزل للثقلين كافة.

١٢ ـ أن المشركين بعد موتهم يعلمون حقيقة أمره(١).

والله أعلم

* * *

---

(١) هنا وقفت الأقلام على هذه السورة في تاريخ سنة: ٨/٥/١٤١٤هـ.

سورة الزمر

ويقال لها: سورة الغرف، مكية في قول الحسن، وعكرمة، وجابر بن زيد، ومجاهد، وقتادة، وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الزمر بمكة. وأخرج النحاس في ناسخه عنه قال: نزلت بمكة سورة الزمر، سوى ثلاث آيات، نزلت بالمدينة في وحشي، قاتل حمزة ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الثلاث آيات. وقال آخرون: إلى سبع آيات من قوله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ...﴾ إلى آخر السبع.

وآياتها: اثنتان أو خمس وسبعون آية.

وكلماتها: ألف ومئة واثنتان وسبعون كلمة.

وحروفها: أربعة آلاف وتسع مئة وثمانية أحرف.

التسمية: سميت سورة الزمر؛ لأن الله تعالى، ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة، وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصغار.

المناسبة: ومناسبتها لآخر ما قبلها[١]: أنه ختم السورة قبلها بقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، وبدأ هنا: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾. ذكره أبو حيان.

وعبارة المراغي هنا: ووجه اتصالها بما قبلها[٢]:

١ - أنه وصف القرآن في آخر سورة صٓ بقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، ووصفه هنا بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

٢ ـ أنه ذكر في ﴿صٓ﴾، أحوال الخلق من المبدأ إلى المعاد، وذكر هنا مثله، إلى نحو ذلك من وجوه الربط، تظهر بالتأمل، اهـ.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة الزمر كلها محكم، إلا[١] سبع آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، نسخت بآية السيف.

والثانية: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾، نسخت بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، نسخت بآية السيف.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، نسخ معناها بآية السيف.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ نسخت بآية السيف.

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، نسخ معناها بآية السيف.

والسابعة: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾، نسخت بآية السيف، انتهى.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه[٢] النسائي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم، حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر. وأخرجه الترمذي عنها بلفظ: «كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر، وبني إسرائيل».

---

(١) الناسخ والمنسوخ. (٢) الشوكاني.

وروي[1] من حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر آخر الزمر، فتحرك المنبر مرتين وفيه ضعف. وعن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الزمر، لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة، وأعطاه الله ثواب الخائفين» وفيه مقال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البيضاوي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ
ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا
نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ
مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ
ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى
ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾
۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟
إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ
يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى
﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ
بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما أبان أنه منزه عن الولد بكونه إلهاً قهاراً، وأن كل المخلوقات في قبضته وسلطانه.. أردف ذلك، بما يدل على كمال قدرته بآياته، التي أوجدها في الأكوان، وفي خلق الإنسان، فبسط سلطانه على الشمس والقمر، وذللهما، وجعلهما يجريان في ذلك الملكوت، الذي لا يعلم مداه إلا هو، كما خلق الإنسان الأول، وجعل له زوجاً من جنسه، وخلق ثمانية أزواج من الحيوان، ذكر وأنثى، فكانت نواة التناسل في هذه الأنواع، فهل بعد هذا، يجد العاقل معدلاً عن الاعتراف بربوبيته، وعظيم قدرته؟.

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أقام[2] الأدلة على وحدانيته تعالى، وذكر أن المشركين عبدة الأصنام، لا دليل لهم على عبادتها، وكأن عقولهم قد ذهبت حين عبدوها.. أعقب ذلك، ببيان أنه هو الغني، عما سواه من المخلوقات، فهو لا يريد بعبادته جر منفعة، ولا دفع مضرة، ولكنه لا يرضى الكفر لعباده، بل يرضى لهم الشكر، وأن كل نفس مطالبة بما عملت، وبعدئذٍ تُرد إلى عالم الغيب والشهادة، فيجازيها بما كسبت، ثم أتبعه بذكر تناقض المشركين فيما يفعلون، فإذا أصابهم الضر، رجعوا في طلب دفعه إلى الله تعالى، وإذا ذهب عنهم، عادوا إلى عبادة الأوثان، وقد كان العقل يقضي، وقد علموا أنه لا يدفع الضر سواه، أن يعبدوه في جميع الحالات، ثم أمر رسوله، أن يقول لهم متهكماً موبخاً: تمتعوا بكفركم قليلاً، ثم مصيركم إلى النار، وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما أبان صفات المشركين الضالين، وذكر تقلقلهم واضطرابهم في العبادة، إذ يرجعون إليه في وقت الشدة، ويعودون إلى الأوثان

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

حين الرخاء.. أردفه ذكر أحوال المؤمنين، القانتين، الذين لا يعتمدون إلا على ربهم، ولا ينيبون إلا إليه، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما نفى المساواة، بين من يعلم ومن لا يعلم.. أردفه أمر رسوله، أن ينصح المؤمنين بجملة نصائح:

١ ـ تقوى الله وطاعته، لما في ذلك من جزيل الفوائد، فإذا تعذرت طاعته في بلد، تحولوا عنه إلى بلد آخر، يتمكنون فيه من الاشتغال بالعبادة والطاعة، كما فعل كثير من الأنبياء، ولهم كفاء ذلك أجر بغير حساب، فلا يقدر بمكيال، ولا ميزان.

٢ ـ أنه أمر بعبادة الله وحده، مخلصاً له الدين، وقد قال كفار قريش للنبي ﷺ: ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به، ألا تنظر إلى ملة أبيك إبراهيم، وجدك، وسادات قومك، يعبدون اللات والعزى، فأنزل الله سبحانه الآية، وأمره أن يكون أول المسلمين، وفي ذلك تنبيه، إلى كونه رسولاً من عند الله، واجب الطاعة.

٣ ـ أنه أمر أن يقول لهم: إني أخاف عذاب يوم القيامة إن عصيته، وفي ذلك إيماء إلى زجر غيره عن المعاصي.

٤ ـ أنه أمر أن يذكر لهم، أن الخاسر هو الذي يخسر نفسه، ويخسر أهله؛ لأنهم إن كانوا من أهل النار، فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة، فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده أبداً.

٥ ـ وصف النار، وأنها تحيط بهم من كل جانب، وهذا من أفظع أنواع العذاب، التي يخوّف بها عباده.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ...﴾ الآية، سبب[1]

---

(١) لباب النقول.

نزولها: ما أخرجه جويبر عن ابن عباس قال: إنها نزلت في ثلاثة أحياء: عامر، وكنانة، وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون: الملائكة بناته، فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ...﴾ الآية، سبب نزولها ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: إنها نزلت في عثمان بن عفان، وأخرج ابن سعد، عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: نزلت في عمار بن ياسر، وأخرج ابن جويبر، عن ابن عباس، قال: نزلت في ابن مسعود، وعمار بن ياسر، وسالم مولى أبي حذيفة، وأخرج جويبر عن عكرمة قال: نزلت في عمار بن ياسر.

التفسير وأوجه القراءة

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي[1]: القرآن، وخصوصاً منه هذه السورة الشريفة، وهو مبتدأ، خبره قوله: كائن ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ في حكمه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في تدبيره، لا من غيره. كما يقول المشركون: إن محمداً ﷺ، تقوله من تلقاء نفسه، وإلى هذا ذهب الزجاج، وقيل معناه: تنزيل الكتاب من الله، فاستمعوا له، واعملوا به، فهو كتاب عزيز، نزل من رب عزيز، على عبد عزيز، بلسان ملك عزيز، في شأن أمة عزيزة، والتعرض لوصفي العزة والحكمة، للإيذان بظهور أثريهما في الكتاب بجريان أحكامه، ونفاذ أوامره، ونواهيه، من غير مدافع ولا ممانع، وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة، وفي «فتح الرحمٰن»: العزيز في قدرته، الحكيم في إبداعه.

وأجاز[2] الفراء، والكسائي: النصب على أنه مفعول به، لفعل مقدر؛ أي: اتبعوا أو اقرؤوا تنزل الكتاب. وقال الفراء: ويجوز نصبه على الإغراء؛ أي: إلزموا.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ شروع[1] في بيان شأن المنزل إليه، وما يجب عليه إثر بيان شأن المنزل، وكونه من عند الله تعالى، فلا تكرار في إظهار الكتاب في موضع الإضمار لتعظيمه، ومزيد الاعتناء بشأنه، والباء[2]: إما متعلق بالإنزال؛ أي: بسبب الحق وإثباته وإظهاره، وإما بمحذوف هو حال من نون العظمة؛ أي: أنزلناه إليك حال كوننا محقين في ذلك، أو حال من الكتاب؛ أي: أنزلناه حال كونه ملتبساً بالحق والصواب؛ أي: كل ما فيه من إثبات التوحيد، والنبوة، والمعاد، وأنواع التكاليف حق، لا ريب فيه، موجب للعمل حتماً.

وفي «التأويلات النجمية»: أي من الحق نزل، وبالحق نزل، وعلى الحق نزل. قال في «برهان القرآن»: كل موضع خاطب الله فيه النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ ففيه تكليف، وإذا خاطبه بقوله: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾ ففيه تخفيف، ألا ترى إلى ما في أول السورة ﴿إِلَيۡكَ﴾ فكلفه الإخلاص في العبودية، وإلى ما في آخرها ﴿عَلَيۡكَ﴾ فختم الآية بقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: لست بمسؤول عنهم، فخفف عنه ذلك، انتهى.

والمعنى[3]: أي هذا الكتاب العظيم، منزل من عنده تعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾، وبعد أن بيّن شأن المنزل، وأنه من عند الله تعالى، ذكر ما اشتمل عليه ذلك المنزل، من الحق والعدل، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: إنا أنزلنا إليك القرآن أيها الرسول، آمراً بالحق، والعدل الواجب اتباعهما، والعمل بهما.

ثم أمر رسوله بعبادته، والإخلاص له. فقال: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾ حال كونك ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ﴾ سبحانه ﴿ٱلدِّينَ﴾ والعمل والطاعة؛ أي: فاعبده تعالى، ممحضاً له

---

(1) روح البيان.

(2) روح البيان.

(3) المراغي.

العبادة، من شوائب الشرك والرياء، بحسب ما أنزل في تضاعيف كتابه على لسان نبيه، من تخصيصه وحده بالعبادة، وأنه لا ند له ولا شريك.

والفاء في قوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾. فاء: الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أيها الرسول الكريم، أنا أنزلنا إليك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: اعبد الله مخلصاً له الدين، والإخلاص: أن يقصد العبد بنيته، وعمله إلى خالقه، لا يجعل ذلك لغرض من الأغراض. والدين: العبادة، والطاعة، ورأسها: توحيد الله، وأنه لا شريك له. وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلدِّينَ﴾ بالنصب على أنه مفعول ﴿مُخۡلِصًا﴾، وقرأ ابن أبي عبلة برفعه، على أنه فاعل، بمخلصاً، على طريقة الإسناد المجازي كشعر شاعر، وقال الزمخشري: وحق من رفعه أن يقرأ ﴿مخلَصاً﴾ بفتح اللام كقوله: ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾، حتى يطابق قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾، والخالص، والمخلص واحد، وفي الآية دليل على وجوب النية، وإخلاصها عن الشوائب؛ لأن الإخلاص من الأمور القلبية، التي لا تكون إلا بأعمال القلب، وقد جاءت السنة الصحيحة: «أن ملاك الأمر في الأقوال والأفعال: النية»، كما في حديث: «إنما الأعمال بالنيات»، وحديث: «لا قول، ولا عمل إلا بنية».

ثم أكد هذا الأمر بقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ ألا: حرف استفتاح وتنبيه؛ أي: انتبهوا من غفلتكم أيها العباد، واعلموا أن لله سبحانه، لا لغيره، الدين الخالص من شوائب الشرك، والعبادة الخالصة من شوائب الرياء، لا شركة لأحد معه فيها؛ لأن كل ما دونه ملكه، وعلى المملوك طاعة مالكه، وفي «الكواشي»: ألا لله الدين الخالص من الهوى، والشك، والشرك، فيتقرب به إليه رحمة، لا أن له حاجة إلى إخلاص عبادته. وفي «التأويلات النجمية»: الدين الخالص: ما يكون جملته لله، وما للعبد فيه نصيب، والمخلص: من خلّصه الله من حبس الوجود، بجوده لا بجهده.

---

(١) البحر المحيط.

وعن الحسن: الدين الخالص: الإسلام، لأن غيره من الأديان ليس بخالص من الشرك، فليس بدين الله الذي أمر به. فالله تعالى لا يقبل إلا دين الإسلام، وفي حديث رواه الحسن عن أبي هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله ﷺ، إني أتصدق بالشيء، وأصنع الشيء أريد به وجه الله تعالى، وثناء الناس، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد ﷺ بيده، لا يقبل الله شيئاً شورك فيه»، ثم تلا: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

وبعد أن أبان سبحانه، أن رأس العبادة الإخلاص لله، أعقب ذلك بذم طريق المشركين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عبارة عن المشركين. ومحله الرفع على الابتداء، وخبره قوله الآتي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ يعني عبدوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ تعالى؛ أي: حال كونهم متجاوزين الله، وعبادته ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أرباباً وأوثاناً كالملائكة، وعيسى، وعزير، والأصنام، ولم يخلصوا العبادة لله تعالى، بل شابوها بعبادة غيره حال كونهم قائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾؛ أي: الأولياء لشيء من الأشياء ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾؛ أي: تقريباً، فهو مصدر مؤكد على غير لفظ العامل، ملاق له في المعنى، وكانوا إذا سئلوا عمن خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فإذا قيل لهم: لم تعبدون الأصنام؟ قالوا: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله تعالى.

والحاصل: أن الموصول مبتدأ، خبره جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، وجملة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ إلخ، في محل النصب على الحال، بتقدير القول، والاستثناء مفرّغ من أعم الأشياء.

والمعنى: والذين عبدوا من دونه تعالى أوثاناً، ولم يخلصوا العبادة لله بل شابوها بعبادة غيره قائلين: ما نعبدهم لشيء من الأشياء، إلا ليقربونا إلى الله تقريباً، ويشفعوا لنا عنده، وقرىء ﴿ما نعبدكم إلا لتقربونا﴾ حكاية لما خاطبوا به آلهتهم، ذكره في «المراح».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ خبر الموصول، كما مر؛ أي: إن الله يحكم يوم القيامة، بين المتخذين غير المخلصين، وبين خصمائهم المخلصين للدين، وقد

حذف لدلالة الحال عليه. ﴿فِي مَا﴾؛ أي: في الدين الذي ﴿هُمْ﴾؛ أي: الفريقان ﴿فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالتوحيد والإشراك، وادعى كل فريق صحة ما انتحله وأخذه، وحكمه تعالى في ذلك، إدخال الموحدين الجنة، والمشركين النار، فالضمير للفريقين. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِي﴾؛ أي: لا يوفق الاهتداء إلى الحق الذي هو طريق النجاة من المكروه، والفوز بالمطلوب ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾؛ أي: راسخ في الكذب ﴿كَفَّارٌ﴾؛ أي: مبالغ في الكفر، فإنهما فاقدان للبصيرة غير قابلين للاهتداء، لتغييرهما الفطرة الأصلية، بالتمرن في الكفر والضلالة، قال في «الوسيط»: هذا فيمن سبق عليه القضاء، بحرمان الهداية، فلا يهتدي إلى الصدق والإيمان البتة، وكذبهم قولهم في بعض أوليائهم: بنات الله وولده، وقولهم: إن الآلهة تشفع لهم، وتقربهم إلى الله، وكفرهم عبادتهم تلك الأولياء، وكفرانهم النعمة بنسيان المنعم الحقيقي.

وقرأ أنس بن مالك، والجحدري، والحسن، والأعرج، وابن يعمر ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ بصيغة فعال فيهما. وقرأ زيد بن علي: ﴿من هو كذوب كفور﴾ بصيغة فعول فيهما.

وحاصل معنى الآية: أي والذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم، يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله منزلة، ويشفعوا لنا عنده في حاجتنا، ومن حديث عبادتهم للأصنام: أنهم جعلوا تماثيل الكواكب، والملائكة والأنبياء، والصالحين الذين مضوا، وعبدوها باعتبار أنها رمز إليها، وقالوا: إن الإلٰه الأعظم، أجلّ من أن يعبده البشر مباشرة، فنحن نعبد هذه الآلهة، وهي تعبد الإلٰه الأعظم، وهذه شبهة تمسك بها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءت الرسل مفندة لها، ماحيةً لها من الأذهان العالقة بها، موجهة العقول إلى إفراد الله وحده بالعبادة، قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾.

قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم: من ربكم، ومن خالقكم، ومن خلق

السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء؟ قالوا: الله. فيقال لهم: فلم تعبدونهم؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده، فرد الله عليهم بقوله في سورة الأحقاف: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ﴾. ثم هددهم، وبيّن لهم عاقبة ما يفعلون، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، وبين خصومهم، وهم المحقون فيما اختلفوا فيه من التوحيد، والإشراك يوم القيامة، ويجازي كلاً بما هو أهل له، فيدخل المخلصين الموحدين الجنة، ويدخل المشركين النار، ثم بيّن نتيجة الحكم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾؛ أي: إن الله لا يرشد إلى الحق، ولا يوفق له، من هو كاذب مفتر عليه، بزعمه أن له ولداً، وأن له نداً، وأن الأوثان تشفع لديه إلى غير ذلك، من الترهات والأباطيل، التي لا يقبلها العقل، ولا تجد لها مستنداً من نقل.

ثم فصل ما كذبوا فيه، فقال: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ولا ينبغي له ذلك كما زعم المشركون، بأن الله اتخذ ولداً ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾؛ أي: لاتخذ واختار ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾؛ أي: من جنس مخلوقاته ﴿مَا يَشَآءُ﴾ ويريد، ولم يخص مريم، ولا عيسى، ولا عزير بذلك، ولخلق جنساً آخر، أعز وأكرم مما خلق، واتخذه ولداً لكنه لا يفعله لامتناعه، والممتنع لا تتعلق به القدرة والإرادة، وإنما أمره اصطفاء من شاء من عباده وتقريبهم منه، وقد فعل ذلك بالملائكة وبعض الناس، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾. ولذا وضع الاصطفاء مكان الاتخاذ.

ثم نزه سبحانه نفسه، عن أن يكون له ولد، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهاً له عن ذلك، وهو مصدر من سبح إذا بعد؛ أي: تنزه تعالى عن ذلك الاتخاذ، وعما نسبوا إليه من الأولاد، والأولياء، وعلم للتسبيح مقول على ألسنة العباد؛ أي: أسبحه تسبيحاً لائقاً به، أو سبحوه تسبيحاً حقيقاً بشأنه ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، خبره ﴿ٱللَّهُ﴾ المتصف بالألوهية ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا ثاني له، والولد ثاني والده، وجنسه، وشبهه، وفي «بحر العلوم»: ﴿واحد﴾؛ أي: موجود جل عن التركيب والمماثلة، ذاتاً وصفةً. فلا يكون له ولد؛ لأنه يماثل الوالد في الذات

والصفات. ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ الذي بقهاريته لا يقبل الجنس، والشبه بنوع ما. وفي «الإرشاد»: قهار لكل الكائنات، كيف يتصور أن يتخذ من الأشياء الفانية ما يقوم مقامه؟.

والمعنى: أي تقدس أن يكون له ولد، فإنه هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، وكل ما سواه مفتقر إليه، وهو الغني عما سواه، قهر الأشياء فدانت له، وتسلط على المخلوقات بقدرته. فذلت له تعالى، عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ولما نزه تعالى نفسه، ووصف ذاته بالوحدة، والقهر، ذكر ما دل على ذلك، من اختراع العالم العلوي والسفلي بالحق، وتكوير الليل والنهار، وتسخير النيرين، وجريهما على نظام واحد، واتساق أمرهما على ما أراد إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة، فقال: ﴿خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وما بينهما من الموجودات، حال كونها ملتبسة ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ والصواب، مشتملة على الحكم والمصالح، لا باطلاً وعبثاً، ومن كان هذا الخلق العظيم خلقه، استحال أن يكون له شريك، أو صاحبة أو ولد.

ثم بيّن كيفية تصرفه في السموات والأرض، فقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ﴾؛ أي: يلف ظلام الليل على ضوء النهار ويغطيه به فيجيء النهار ويذهب الليل، والمعنى: يُغشي كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس على الملابس. وقيل المعنى: يكوِّر الليل؛ أي: يضم بعض ساعاته على النهار، فيطول النهار كما في نهار الصيف، ويكوّر النهار؛ أي: يضم بعض ساعاته على الليل، فيطول الليل كما في ليل الشتاء، والتكوير في اللغة[1]: طرح الشيء بعضه على بعض، يقال: كوّر المتاع إذا ألقى بعضه على بعض، ومنه: كوّر العمامة، فمعنى تكوير الليل على النهار: تغشيته إياه حتى يذهب ضوؤه، ومعنى تكوير النهار على الليل: تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾، هكذا قال قتادة وغيره، وقال الضحاك؛ أي: يلقي هذا

---

(١) الشوكاني.

على هذا، وهذا على هذا، وهو مقارب للقول الأول، وقيل معنى الآية: أن ما نقص من الليل دخل في النهار، وما نقص من النهار دخل في الليل، وهو معنى قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾، أو يجعل كلاً منهما كاراً على صاحبه كروراً، متتابعاً تتابع أكوار العمامة بعضها على بعض، وفي التكوير المذكور في الآية إشارة إلى جريان الشمس والقمر في مطالعهما، وانتقاص الليل والنهار، وازديادهما. قال الرازي: إن النور والظلمة عسكران عظيمان، وفي كل يوم يغلب هذا ذاك وذاك هذا.

ومعنى الآية[1]: أي خلق هذا العالم العلوي، على ما فيه من بديع الصنع، من شموس وأقمار، تكوّن الليل والنهار، والعالم السفلي، المشتمل على المواليد الثلاثة، من حيوان ونبات وجماد، وسخر كل ما فيه ظاهراً وباطناً، لانتفاع الإنسان في سبل معايشه، إذا استعمل عقله، واستخدم فكره في استنباط مرافقه، خلقهما على أكمل وجه وأبدع نظام، قائمين على الحق والصواب والحكم والمصالح، وبعد أن أبان أنه خلقهما ذكر سبيل تصرفه فيهما، فقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ إلخ؛ أي: يغشي كلاً منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس، أو يجعلهما في تتابعهما، أشبه بتتابع أكوار العمامة، بعضها على بعض، ألا ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها، وهي مكوّرة، فأخذ النهار الحادث من مقابلتها للشمس، يسير من الشرق إلى الغرب، ويلف حولها طاوياً الليل، والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طاوياً النهار، فالأرض كالرأس، والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار العمامة، ويلتفان متتابعين حولها، وفي[2] هذا إيماء إلى كروية الأرض أولاً، وإلى دورانها حول نفسها ثانياً. فتكوير الأرض ظاهر الآية، ودورانها أتى تابعاً بالرمز والإشارة.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾؛ أي: جعلهما، وهما وسيلتا الليل والنهار، منقادين لأمره تعالى بالطلوع والغروب لمنافع العباد، فأكثر منافع العباد مرتبطة بهما.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

ثم بيّن كيفية هذا التسخير فقال: ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي﴾ ويسير في فلكه وبروجه ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾؛ أي: إلى مدة معينة، هي منتهى دورته، في كل يوم، أو في كل شهر، أو إلى مدة انتهاء حركته، وانقطاع سيره بتصرم الدنيا، وهو يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، وفي الحديث: وكل بالشمس سبعة أملاك، يرمونها بالثلج، ولولا ذلك ما أصابت شيئاً إلا أحرقته.

ثم ذيل الكلام بالجملة الآتية، ترغيباً في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص له، والتحذير من الكفر والمعاصي. فقال: ﴿أَلَا﴾؛ أي: انتبهوا، واعلموا ﴿هُوَ﴾ سبحانه وحده ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على كل شيء، فيقدر على عقاب العصاة، والانتقام منهم. ﴿الْغَفَّارُ﴾؛ أي: المبالغ في المغفرة، ولذلك لا يعاجل بالعقوبة، وسلب ما في هذه الصنائع البديعة، من آثار الرحمة، وعموم المنفعة.

والمعنى: أي انتبهوا أيها العباد، واعلموا أن الله الذي فعل هذه الأفعال، وأنعم على خلقه بهذه النعم، هو القادر على الانتقام ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين، ولا يخفى ما في هذا، من الدلالة على كمال قدرته تعالى، وكمال رحمته، فهو القهار ذو القوة المتين، الغفار لذنوب التائبين.

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ﴿الْغَفَّارُ﴾[1]: هو الذي أظهر الجميل، وستر القبيح، والذنوب من جملة القبائح، التي سترها بإسبال الستر عليها في الدنيا، والتجاوز عن عقوبتها في الآخرة، والغفر هو الستر:

الأول: ستره على عبده، أن جعل مقابح بدنه، التي تستقبحها الأعين، مستورةً في باطنه، مغطاةً بجمال ظاهره، فكم بين باطن العبد، وظاهره في النظافة والقذارة، وفي القبح والجمال، فانظر ما الذي أظهره، وما **الذي** ستره.

والثاني: أن يجعل مستقر خواطره المذمومة، وإرادته القبيحة سر قلبه، حتى لا يطّلع أحد على سر قلبه، ولو انكشف للخلق، ما يخطر بباله في مجاري وسواسه، وما ينطوي عليه ضميره من الغش والخيانة، وسوء الظن بالناس

(١) روح البيان.

لمقتوه، بل سعوا في تلف روحه وإهلاكه، فانظر كيف ستر عن غيره أسراره وعوارفه؟.

والثالث: مغفرة ذنوبه التي كان يستحق الافتضاح بها، على ملأ من الخلق، وقد وعد أن يُبدل من سيئاته حسنات، ليستر مقابح ذنوبه، بثواب حسناته، إذا مات على الإيمان، وحظ العبد من هذا الاسم، أن يستر من غيره ما يحب أن يستر منه، وقد قال النبي ﷺ: «من ستر على مؤمن عورته، ستر الله عورته يوم القيامة». والمغتاب، والمتجسس، والمكافىء على الإساءة بمعزل عن هذا الوصف، وإنما المتصف به من لا يُفشي من خلق الله، إلا أحسن ما فيهم، ولا ينفك مخلوق عن كمال، ونقص، وعن قبح وحسن، فمن تغافل عن المقابح، وذكر المحاسن، فهو ذو نصيب من هذا الاسم والوصف، كما روي عن عيسى عليه السلام: أنه مر مع الحواريين بكلب ميت، قد غلب نتنه، فقالوا: ما أنتن هذه الجيفة؟ فقال عيسى عليه السلام: ما أحسن بياض أسنهانها، تنبيهاً على أن الذي ينبغي أن يذكر من كل شيء، ما هو أحسنه.

وبعد أن ذكر الدلائل التي بثها في العالم العلوي.. أردفها ذكر الدلائل التي أودعها في العالم السفلي، وبدأها بخلق الإنسان؛ لأنه أعجب ما فيه، لما فيه من العقل، وقبوله الأمانة الإلهية، ولله در من قال:

وَتَزْعُمُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغِيْرُ ... وَفِيْكَ ٱنْطَوَىٰ ٱلْعَالَمُ ٱلأَكْبَرُ

﴿خَلَقَكُم﴾ الله سبحانه وتعالى، أيها الناس جميعاً، على اختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي نفس آدم، عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾؛ أي: خلق ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من جنس تلك النفس الواحدة، أو من قصيراها، وهي الضلع التي تلي الخاصرة، أو آخر الأضلاع من جهة اليسار ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء. و﴿ثُمَّ﴾ عطف على محذوف، هو صفة لنفس؛ أي: خلقكم من نفس واحدة خلقها، ثم جعل منها زوجها فشفعها، وذلك فإن ظاهر الآية يفيد أن خلق حواء بعد خلق ذرية آدم، وليس كذلك. وفيه إشارة إلى أن الله تعالى، خلق الإنسان من نفس واحدة هي الروح، وخلق منها زوجها، وهو القلب، فإنه خُلق من الروح كما خُلقت

حواء، من ضلع آدم عليه السلام، فالله تعالى متفرد بهذا الخلق مطلقاً، فينبغي أن يُعرف ويُعبد بلا إشراك به.

والمعنى: أي خلقكم سبحانه، على اختلاف ألسنتكم، وألوانكم، من نفس واحدة، وهي آدم، ثم جعل من جنسها زوجها، وهي حواء. والتعبير بالجعل دون الخلق، مع العطف بثم، للدلالة على أن خلق حواء، من ضلع آدم، أدخل في كونه آية دالة على كمال القدرة؛ لأن خلق آدم، هو على عادة الله، المستمرة في خلقه، وخلقها على الصفة المذكورة، لم تجر به عادة، لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها.

ثم ثنى بخلق الحيوان، فقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾؛ أي: قضى، وقسم لكم. فإن قضاياه تعالى وقسمه توصف بالنزول من السماء، حيث تكتب في اللوح المحفوظ، وقيل: عبر بالإنزال لما يروى: أنه خلقها في الجنة ثم أنزلها، فيكون الإنزال حقيقةً. أو أحدث لكم، وأنشأ بأسباب نازلةٍ من السماء: كالأمطار، وأشعة الكواكب. وهذا كقوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾. ولم ينزل اللباس نفسه، ولكن أنزل الماء الذي هو سبب القطن والصوف، واللباس منهما. ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذكراً، وأنثى، وهي الإبل، والبقر، والضأن، والمعز. والأنعام: جمع نعم بفتحتين، وهي جماعة الإبل في الأصل، لا واحد لها من لفظها. قال ابن الشيخ في أول المائدة: الأنعام مخصوص بالأنواع الأربعة. وهي الإبل، والبقر، والضأن، والمعز. ويقال لها: الأزواج الثمانية؛ لأن ذكر كل واحد من هذه الأنواع زوج بأنثاه، وأنثاه زوج بذكره، فيكون مجموع الأزواج ثمانية بهذا الاعتبار، من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، والخيل، والبغال، والحمير خارجة من الأنعام.

وخصت[1] هذه الأنواع الأربعة بالذكر، لكثرة الانتفاع بها من اللحم، والجلد، والشعر، والوبر. وفي «التأويلات النجمية»: وأنزل لكم من الأنعام

(١) روح البيان.

ثمانية أزواج؛ أي: خلق فيكم من صفات الأنعام ثماني صفات، وهي الأكل والشرب، والتغوط والتبول، والشهوة والحرص، والشره والغضب، وأصل جميع هذه الصفات، الصفتان الاثنتان: الشهوة والعضب، فإنه لا بد لكل حيوان من هاتين الصفتين، لبقاء وجوده بهما، فبالشهوة يجلب المنافع إلى نفسه، وبالغضب يدفع المضرات.

ثم ذكر سبيل خلق ما ذكر، من الأناسي والأنعام، فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى، أيها الناس ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؛ أي: في أرحامهن ﴿خَلْقًا﴾ كائناً ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾؛ أي: خلقاً مدرجاً حيواناً، سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً، من بعد عظام عارية، من بعد مضغ مخلقة، من بعد مضغ غير مخلقة، من بعد علقة من بعد نطفة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ قاله قتادة والسدي. وقال ابن زيد: خلقكم خلقاً في بطون أمهاتكم، من بعد خلقكم في ظهر آدم، عليه السلام. وقوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ متعلق بقوله: يخلقكم وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، قاله مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك. وقال سعيد بن جبير: ظلمة المشيمة، وظلمة الرحم، وظلمة الليل. وقال أبو عبيدة: ظلمة صلب الرجل، وظلمة بطن المرأة، وظلمة الرحم، والخلق في بطون الأمهات. حالة مشتركة بين الإنسان والحيوان. وإنما قال: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ لتغليب من يعقل، ولشرف الإنسان على سائر الخلق، والمشيمة بفتح الميم: محل الولد؛ أي: الجلد الرقيق المشتمل على الجنين.

والمعنى: أي يبتدىء خلقكم أيها الناس، في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق. فيكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يكون عظماً وعصباً، ثم يكون لحماً، وينفخ فيه الروح، فيصير خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾؛ أي: في ظلمات أغشية ثلاثة، جعلها المولى سبحانه وقاية، للولد، وحفظاً له من التعفن.

وقرأ عيسى، وطلحة: ﴿يخلقكم﴾ بإدغام القاف في الكاف، وقرأ حمزة: ﴿أمهاتكم﴾ بكسر بالهمزة، والميم، وقرأ الكسائي: بكسر الهمزة، وفتح الميم،

وقرأ الباقون: بضم الهمزة، وفتح الميم.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إليه سبحانه وتعالى، باعتبار أفعاله المذكورة، ومحله الرفع على الابتداء؛ أي: ذلكم العظيم الشأن الذي عُدَّت أفعاله ﴿ٱللَّهُ﴾ المعبود بحق، خبر المبتدأ، وقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبر آخر له؛ أي: مربيكم فيما ذكر من الأطوار، وفيما بعدها، ومالكم المستحق لتخصيص العبادة به، وفي «التأويلات النجمية»؛ أي: أنا خلقتكم، وأنا صورتكم، وأنا الذي أسبغت عليكم أنعامي، وخصصتكم بجميع إكرامي، وغرقتكم في بحار أفضالي، وعرّفتكم استحقاق شهود جمالي وجلالي، وهديتكم إلى توحيدي، وأدعوكم إلى وحدانيتي، فما لكم لا تنطقون إلي بالكلية؟ وما لكم لا تطلبون مني ولا تطلبونني وقد بشرتكم بقولي: ألا من طلبني وجدني، ومن كان لي كنت له، ومن كنت له يكون له ما كان لي، انتهى. ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة، ليس لغيره شركة في ذلك بوجه من الوجوه، وهو خبر ثالث، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر رابع؛ أي: لا معبود إلا هو، كما أنه لا مقصود إلا هو ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؛ أي: فكيف تنصرفون عن عبادته، وتنقلبون عنها إلى عبادة غيره، ومن أي وجه تصرفون، وتردون عن ملازمة بابه، بالعبودية إلى باب عاجز مثلكم من الخلق؛ أي: كيف تصرفون، وتعدلون عن عبادته تعالى، إلى عبادة الأوثان، مع وفور موجباتها ودواعيها، وانتفاء الصارف عنها بالكلية إلى عبادة غيره.

والخلاصة: كيف تعبدون معه تعالى سواه؟ أين ذهبت عقولكم، وكيف ضاعت أحلامكم؟!.

ولما ذكر الله سبحانه النعم، التي أنعم بها على عباده، وبيّن لهم من بديع صنعه وعجيب فعله، ما يوجب على كل عاقل أن يؤمن به.. عقّبه بقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾ به تعالى، بعد مشاهدة ما ذكر من فنون نعمائه، ومعرفة شؤونه العظيمة، الموجبة للإيمان والشكر، والخطاب لأهل مكة، كما في «الوسيط»، والظاهر: التعميم لكل الناس، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ وعن جميع العالمين؛ أي: فاعلموا أنه

تعالى، غني عن إيمانكم وشكركم؛ أي: غير محتاج إليكم، ولا إلى إيمانكم، ولا إلى عبادتكم له، فإنه الغني المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿وَ﴾ مع كون كفر الكافر لا يضره، كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن، فهو أيضاً ﴿لا يرضى لعباده﴾؛ أي: لأحد من عباده ﴿ٱلۡكُفۡرَۖ﴾؛ أي: لا يحبه، ولا يأمر به، وإن تعلقت به إرادته تعالى من بعضهم؛ أي: عدم رضاه بكفر عباده، لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة عليهم، لا لتضرره تعالى به، وإنما قال: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ ولم يقل: لكم، لتعميم الحكم للمؤمنين والكافرين، وتعليله بكونهم عباده.

واعلم[1]: أن الرضا ترك السخط، والله تعالى لا يترك السخط في حق الكافر؛ لأنه لسخطه عليه أعد له جهنم، ولا يلزم منه عدم الإرادة، إذ ليس في الإرادة ما في الرضا من نوع استحسان، فالله تعالى مريد الخير والشر، ولكن لا يرضى بالكفر والفسوق، فإن الرضا إنما يتعلق بالحسن من الأفعال دون القبيح، وعليه أهل السنة، وكذا أهل الاعتزال، وفي «الخازن»: الرضا عبارة عن مدح الشيء، والثناء عليه بفعله، والله تعالى لا يمدح الكفر، ولا يُثني عليه، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد، وقد لا يرضى به، ولا يمدح عليه، وقد بان الفرق بين الإرادة والرضا، انتهى.

والمعنى: أي لا يُحب لعباده الكفر، ولا يأمر به؛ لأنه مانع من ارتقاء النفوس البشرية، بجعلها ذليلة خاضعة للأرباب المتعددة والمعبودات الحقيرة، من الخشب والنصب، وممن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

ثم لما ذكر سبحانه: أنه لا يرضى لعباده الكفر، بيّن أنه يرضى لهم الشكر، فقال: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾؛ أي: وإن تؤمنوا به تعالى، وتوحدوه، يدل عليه، ذكره في مقابلة الكفر. ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾؛ أي: يرض الشكر، ويحبه عنكم، ويثيبكم عليه، وإنما رضي لهم سبحانه الشكر؛ لأنه سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة، ولأنه على مقتضى السنن القويم والصراط المستقيم العادل، كما قال: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ

---

(١) روح البيان.

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة[1]: ﴿يرضه﴾ بضم الهاء مختلسة، وقرأ أبو عمرو، وحمزة في بعض الروايات ساكنة الهاء للتخفيف، وقرأ نافع في بعض الروايات، وابن عامر، والكسائي، وابن ذكوان، والدوري مضمومة الهاء مشبعة.

ثم ذكر سبحانه: أن كل إنسان يوم القيامة يجازى بما قدم من عمل، ولا يضيره عمل غيره، فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾؛ أي: لا تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾؛ أي: نفس حاملة للوزر والإثم ﴿وِزْرَ﴾؛ أي: حمل، وذنب نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾؛ أي: غيرها، وهذا بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلاً؛ أي: ولا تحمل أي نفس أوزار نفس أخرى، بل كل مطالب بعمل نفسه خيراً كان أو شراً.

ثم بيَّن أن جزاء المرء في الآخرة، وفق ما عمل في الدنيا، فقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾؛ أي: ثم بعد موتكم إلى خالقكم، لا إلى غيره ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم بالبعث بعد الموت ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فيخبركم عند ذلك ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تعملونـ﴾ـه من خير وشر، فيجازيكم على ذلك ثواباً وعقاباً، وفيه تهديد شديد.

وفي تفسير «أبي السعود» في غير هذا الموضع: عبّر[2] عن إظهاره التنبئة، لما بينهما من الملابسة، في أنهما سببان للعلم، تنبيهاً على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه، غافلين عن سوء عاقبته؛ أي: يظهر لكم على رؤوس الأشهاد، ويعلمكم أي شيء شنيع كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار، ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء، انتهى.

وحاصل المعنى[3]: أي ثم بعد موتكم، مصيركم يوم القيامة إلى خالقكم، البصير بأمركم العليم بالسر والنجوى، فيخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا، إذ لا

---

(١) المراح.
(٢) أبو السعود.
(٣) المراغي.

تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، ثم يجازى المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاحذروا أن تلقوا ربكم، وقد عملتم في الدنيا ما لا يرضاه، فتهلكوا.

ثم بيَّن أن هذه المجازاة، ليست بالعسيرة عليه سبحانه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى، ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بخطرات القلوب، فضلاً عن غيرها، وهذا تعليل للتنبئة؛ أي: مبالغ في العلم بمضمرات القلوب، فكيف بالأعمال الظاهرة؟ وأصله: عليم بمضمرات صاحبة الصدور، وهي القلب؛ أي: إنه تعالى محيي جميع أعمالكم حتى ما تضمره صدوركم، مما لا تدركه أعينكم، فكيف بما رأته العيون، وأدركته الأبصار؟ وفي الآية دليل على أن ضرر الكفر والطغيان يعود إلى نفس الكافر، كما أن نفع الشكر والإيمان يعود إلى نفس الشاكر، والله غني عن العالمين، كما في الأحاديث القدسية: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ـ أي: على تقوى أتقى قلب رجل ـ ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم.. ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»، وفي آخر الحديث: «فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». جعلنا الله وإياكم من عباده الصالحين، الصادقين المخلصين في الأقوال والأفعال والأحوال، دون الفاسقين الكاذبين المرائين، آمين يا من يقبل اليسير ويعطي الكثير.

ثم بيَّن سبحانه شأن الكافر بالنسبة إلى ربه، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: أصاب الإنسان، ووصل إليه ﴿ضُرٌّ﴾؛ أي: سوء حال أي ضر كان، من مرض أو فقر أو خوف ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ في كشف ذلك الضر، حال كونه ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾؛ أي: راجعاً إليه تعالى، مستغيثاً به في دفع ما نزل به، تاركاً لما كان يدعون، ويستغيث به من ميت أو حي أو صنم أو غير ذلك، والإنابة إلى الله: الرجوع إليه بالتوبة، وإخلاص العمل له. والنوب: رجوع الشيء مرة بعد أخرى، وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ

كَفَّارٌ﴾. وفيه[1] إشارة، إلى أن من طبيعة الإنسان، أنه إذا مسه ضرب خشع وخضع وإلى ربه فزع، وتملق بين يديه وتضرع. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ وأعطاه ﴿نِعْمَةً﴾ عظيمة صادرة ﴿مِّنْهُ﴾ تعالى، حاصلةً من جنابه، وأزال عنه ضره، وكفاه أمره، وأصلح باله، وأحسن حاله ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه عنه ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل أن يخوله ما خوله، كقوله تعالى: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾، وقيل: نسي الدعاء الذي كان يتضرع به، وتركه. أو نسي ربه الذي كان يدعوه، ويتضرع إليه إما بناء على أن ﴿مَا﴾ بمعنى: من كان في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ③﴾، وإما إيذاناً بأن نسيانه، بلغ إلى حيث لا يعرف مدعوه ما هو، فضلاً عن أن يعرفه من هو، فيعود إلى رأس كفرانه، وينهمك في كبائر عصيانه، ويشرك بمعبوده، ويصر على جحوده، وذلك لكون دعائه المحسوس معلولاً بالضر الممسوس، لا ناشئاً عن الشوق إلى الله المأنوس. وهو معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ ذلك الإنسان ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه ﴿أَندَادًا﴾؛ أي: شركاء من الأصنام أو غيرها يستغيث بها، ويعبدها ﴿لِّيُضِلَّ﴾ الناس بذلك ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تعالى؛ أي: عن طريق الله التي هي الإسلام والتوحيد.

وقرأ الجمهور: ﴿لِّيُضِلَّ﴾ بضم الياء؛ أي: ما اكتفى بضلال نفسه حتى جعل غيره يضل. وقرأ[2] ابن كثير، وأبو عمرو، وعيسى: بفتحها.

ثم أمر الله سبحانه، رسوله ﷺ، أن يهدد من كان متصفاً بتلك الصفة، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد تهديداً لذلك الضال المضل، وبياناً لحاله ومآله: ﴿تَمَتَّعْ﴾؛ أي: عش في الدنيا ﴿بِكُفْرِكَ﴾؛ أي: في كفرك، واستمتع بزخارفها تمتعاً ﴿قَلِيلًا﴾ فمتاع الدنيا قليل وإن طالت، فهو صفة لمصدر محذوف، أو زماناً قليلاً، فهو صفة زمان محذوف، فالأمر بالتمتع للتهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾.

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

ثـم عـلـل ذلـك بـقـولـه: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ فـي الآخـرة؛ أي: مـن ملازميها، والمعذبين فيها على الدوام، وهو تعليل لقلة التمتع، وفيه من الإقناط من النجاة ما لا يخفى كأنه قيل: وإذ قد أبيت قبول ما أمرت به، من الإيمان والطاعة، فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته.

والمعنى[١]: أي وإذا أصاب الكافر بلاء في جسده، أو شدة في معيشته، أو خوف على حياته.. استغاث بربه الذي خلقه، ورغب إليه في كشف ما نزل به، تائباً إليه مما كان عليه من قبل ذلك من الكفر به، وإشراك الآلهة والأوثان في عبادته، ثم إذا منحه نعمة منه فأزال ما به من ضر، وأبدله بالسقم صحة وبالشدة رخاء.. ترك دعاءه الذي كان يدعوه من قبل، أن يكشف ما كان به من ضر، فجعل لله شركاء، وأضل الناس، ومنعهم من توحيده والإقرار به، والدخول في الإسلام له، ثم أوعده، وهدده فقال: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا...﴾ إلخ؛ أي: قل أيها[٢] الرسول لمن فعل ذلك: تمتع بما أنت فيه من زخرف الدنيا ولذاتها، منصرفاً عن النظر إلى أدلة التوحيد، التي أوجدها الله سبحانه في الأكوان، وجعلها في نفس الإنسان زمناً قليلاً إلى أن تستوفي أجلك، وتأتيك منيتك، ثم أنت بعد ذلك من أصحاب النار المخلدين فيها أبداً.

ثم لما ذكر سبحانه صفات المشركين، وتمسكهم بغير الله عند اندفاع المكروهات عنهم.. ذكر صفات المؤمنين، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ إلخ، وهذا إلى آخره، من تمام الكلام المأمور به رسول الله ﷺ، و﴿أمن﴾ بالتشديد، على أن أصله: أم من هو قانت، وهي إما متصلة حذف معادلها، والمعنى: قل له يا محمد: أأنت أيها المشرك أحسن حالاً ومآلاً، أم من هو قانت وعابد لربه، قائم بأداء الطاعات ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ودائب على وظائف العبادات في ساعات الليل أوله، وآخره، ووسطه التي تكون فيها العبادة أشق على النفوس، وأبعد عن

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

الرياء، فتكون أقرب إلى القبول، وقوله: ﴿سَاجِدًا﴾ حال[1] من ضمير ﴿قَٰنِتٌ﴾؛ أي: حال كونه ساجداً في صلاته ﴿وَقَآئِمًا﴾ فيها، وتقديم السجود على القيام، لكونه أدخل في معنى العبادة، والواو للجمع بين الصفتين، فالمعنى: ﴿قَٰنِتٌ﴾؛ أي: قائم طويل القيام في الصلاة، كما يشعر به ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ لأنه إذا قام في ساعات الليل، فقد أطال القيام بخلاف من قام في جزء من الليل، والمراد بالسجود والقيام: الصلاة، عبّر عنها بهما لكونهما أعظم أركانها، والاستفهام على كونها متصلة للتقرير. ولا شك أن الجواب لا يحتاج إلى بيان، وإما منقطعة فتقدّر ببل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري، والمعنى: بل أمن هو قانت مطيع لربه ساجداً وقائماً كالكافر المقول له: تمتع بكفرك قليلاً؛ أي: لا يستويان، بل هو في الجنة والكافر في النار.

وقرأ ابن كثير ونافع، وحمزة، والأعمش، وعيسى، وشيبة، والحسن في رواية[2]: ﴿أَمَنْ﴾ بتخفيف الميم، والظاهر: أن الهمزة لاستفهام التقرير، ومقابله محذوف لفهم المعنى، والتقدير: أهذا القانت خير، أم الكافر المخاطب بقوله: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ﴾، ويدل عليه قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾، وقرأ باقي السبعة، والحسن، وقتادة، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿أَمَّنۡ﴾ بتشديد الميم، وهي ﴿أم﴾ أدغمت ميمها في ميم ﴿من﴾، فاحتملت ﴿أم﴾ أن تكون متصلة ومعادلها محذوف قبلها، تقديره: أهذا الكافر خير، أم من هو قانت، واحتملت أن تكون منقطعة تقدر ببل والهمزة، والتقدير: بل أم من هو قانت صفته كذا، كمن ليس كذلك. وقرأ الجمهور ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ بالنصب على الحال، والضحاك برفعهما إما على النعت لقانت، وإما على أنه خبر بعد خبر.

وقوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ حال أخرى[3] على الترادف، أو التداخل أو استئناف، كأنه قيل: ما باله يفعل القنوت في الصلاة؟ فقيل: هو يحذر عذاب الآخرة لإيمانه بالبعث. ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾؛ أي: المغفرة أو الجنة، لا أنه يحذر

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط كالكافر؛ أي: حالة كونه يخاف عذاب الآخرة ويرجو جنة ربه، فينجو مما يخافه ويفوز بما يرجوه، ودلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمة ربه لعمله، ويخاف عذابه لتقصيره في عمله، ثم الرجاء إذا جاوز حده يكون آمناً، والخوف إذا جاوز حده يكون يائساً، وكل منهما كفر، فوجب أن يعتدل كما قال ﷺ: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا»، وما اجتمعا في قلب رجل إلا فاز.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ، أن يقول لهم قولاً آخر، يتبين به الحق من الباطل، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد بياناً للحق، وتنبيهاً على شرف العلم والعمل: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأعمال، فيعملون بموجب علمهم، كالقانت المذكور ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما ذكر، فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم، كالكافر المذكور، أو الذين[1] يعلمون أن ما وعد الله به من البعث والثواب والعقاب حق، والذين لا يعلمون ذلك، أو الذين يعلمون ما أنزل الله على رسله والذين لا يعلمون ذلك، أو المراد: العلماء، والجهال، ومعلوم عند كل من له عقل، أنه لا استواء بين العلم والجهل، ولا بين العالم والجاهل، وقال الزجاج؛ أي: كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي. وقيل: المراد بالذين يعلمون: هم العاملون بعلمهم، فإنهم المنتفعون به؛ لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم، والاستفهام فيه للتنبيه على كون الأولين في أعلى معارج الخير، وكون الآخرين في أقصى مدارج الشر، وفي «بحر العلوم»: الفعل منزل منزلة اللازم، ولم يقدر له مفعول؛ لأن المقدر كالمذكور. والمعنى: لا يستوي من يوجد فيه حقيقة العلم ومن لم يوجد.

وعبارة المراغي هنا[2]: أي قل أيها الرسول لقومك: هل يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعة ربهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم إياه من عقاب، والذين لا يعلمون ذلك؟ فهم يخبطون خبط عشواء، لا يرجون بحسن

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أعمالهم خيراً، ولا يخافون من سيئها شراً، وجاء هذا الكلام بأسلوب الاستفهام، للدلالة على أن الأولين بلغوا أعلى معارج الخير، وأن الآخرين درجوا في دركات الشر، ولا يخفى ذلك على منصف ولا مكابر.

ثم بيّن أن ما سلف إنما يفهمه كل ذي لب، فأمثال هؤلاء على قلوبهم غشاوة لا يفقهون موعظة، ولا تنفع فيهم التذكرة، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتعظ، ويتدبر، ويتفكر ﴿أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾؛ أي أصحاب العقول الكاملة، السالمة من الشك والشرك، وهم المؤمنون، لا الكفار، وقرىء: ﴿يذكر﴾ بإدغام تاء ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ في الذال، وهذا كلام[1] مستقل، غير داخل في الكلام المأمور به، وارد من جهته تعالى؛ أي: إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة، أصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل والوهم، وهؤلاء بمعزل عن ذلك، قيل: قضية اللب الاتعاظ بالآيات، ومن لم يتعظ فكأنه لا لب له، ومَثَلهُ مَثَلُ البهائم.

والخلاصة: أنه إنما يعلم الفرق بين هذا وذاك، من له لب وعقل يتدبر به، وقيل لبعض العلماء[2]: إنكم تقولون: العلم أفضل من المال، ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك؛ ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء، فأجاب: بأن هذا أيضاً يدل على فضيلة العلم. لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه، والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فتركوه.

ولما نفى الله سبحانه المساواة، بين من يعلم ومن لا يعلم، وبيّن أنه إنما يتذكر أولو الألباب.. أمر رسوله ﷺ بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه، والإيمان به. فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لعبادي المؤمنين: ﴿يَٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وصدقوا بتوحيد الله ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ بامتثال مأموراته، واجتناب منهياته، وإخلاص الإيمان له، ونفي الشركاء عنه؛ أي: قل لهم: قولي هذا بعينه؛ أي:

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

قل لهم: ربكم يقول: أطيعوا ربكم في الصغير والكبير من الأمور، وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة، فإنه أصله: يا عبادي بالياء، حذفت اكتفاءً بالكسرة.

والمعنى: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: دوموا، واثبتوا على تقوى ربكم؛ لأن بالإيمان حصلت التقوى عن الكفر والشرك، أو اتقوا عذابه وغضبه باكتساب طاعته، واجتناب معصيته، أو اتقوا به عما سواه، حتى تخلصوا من نار القطيعة، وتفوزوا بوصاله ونعيم جماله.

ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتقوى، بيّن لهم ما في هذه التقوى من الفوائد، فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾؛ أي: للذين عملوا الأعمال الحسنة على وجه الإخلاص. خبر مقدم ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بأحسنوا ﴿حَسَنَةٌ﴾ عظيمة ومثوبة كبيرة في الآخرة، لا يعرف كنهها، مبتدأ مؤخر. وهي الجنة، والشهود؛ لأن جزاء الإحسان الإحسان، والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك، فالمحسن هو المشاهد، وبمشاهدة الله يغيب ما سوى الله تعالى، فلا يبقى إلا هو، وذلك حقيقة الإخلاص، وأما غير المحسن، فعلى خطر لبقائه مع ما سوى الله تعالى، فلا يأمن من الشرك والرياء القبيح، ومن كان عمله قبيحاً لم يكن جزاؤه حسناً، وقيل: ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ على أنه بيان لمكانها، فيكون المعنى: للذين أحسنوا في العمل حسنة في الدنيا بالصحة، والعافية، والظفر، والغنيمة، والأول أولى.

وحاصل المعنى: أي لمن أحسن في هذه الدار، وعمل صالح الأعمال، وزكى نفسه فيها، حسنة من صحة وعافية، ونجاح في الأعمال، التي يزاولها كفاء ما يتحلى به، من تمسك بآداب الدين واتباع فضائله، وحسنة في الآخرة، فيتمتع بجنات النعيم ورضوان الله عنه ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات، والإحسان في وطنه، أرشد الله سبحانه، من كان كذلك إلى الهجرة من مكة إلى المدينة،

وصبّرهم على مفارقة الأوطان، فقال: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمن[1] تعسر عليه التوفر على التقوى، والإحسان في وطنه.. فليهاجر إلى حيث يتمكن فيه من ذلك، كما هو سنة الأنبياء، والمرسلين، والصالحين، فإنه لا عذر لهُ في التفريط أصلاً؛ أي: إنكم إذا لم تتمكنوا من التوفر على الإحسان والتقوى، وصرف الهمم إلى العبادة في البلد الذي أنتم فيه، فتحولوا عنه إلى بلاد تستطيعون فيها ذلك، واجعلوا أسوتكم الأنبياء والصالحين، فقد فعل كثير منهم ذلك، وفيه حث على الهجرة من البلد الذي يظهر فيه المعاصي، وقد ورد: «إن من فر بدينه من أرض إلى أرض وجبت له الجنة»، وإنما قال: «بدينه» احترازاً عن الفرار بسبب الدنيا ولأجلها، خصوصاً إذا كان المهاجر إليه أعصى من المهاجر منه، وقيل المراد بالأرض هنا: أرض الجنة، رغّبهم في سعتها وسعة نعيمها، كما في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾. والأول أولى.

ثم ذكر ما لهم من رفيع المنزلة، وعظيم الأجر على ذلك. فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى﴾ ويعطى ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ الذين صبروا على دينهم فلم يتركوه للأذى، وحافظوا على حدوده، ولم يفرطوا في مراعاة حقوقه، لما اعتراهم في ذلك من فنون الآلام، والبلايا التي من جملتها مهاجرة الأهل، ومفارقة الأوطان، والمعنى: يعطون ﴿أَجْرَهُم﴾ بمقابلة ما كابدوا من الصبر ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بحيث لا يحصى، ولا يحصر؛ أي: يوفيهم الله، ويعطيهم أجرهم وافياً كاملاً في مقابلة صبرهم بغير حساب؛ أي[2]: بما لا يقدر على حصره حاصر، ولا يستطيع حسابه حاسب. قال عطاء: بما لا يهتدي إليه عقل، ولا وصف، وقال مقاتل: أجرهم الجنة، وأرزاقهم فيها بغير حساب.

والحاصل: أن الآية تدل[3] على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له؛ لأن كل شيء يدخل تحت الحساب فهو متناه، وما كان لا يدخل تحت الحساب

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

فهو غير متناه، وهذه فضيلة عظيمة، ومثوبة جليلة تقتضي أن على كل راغب في ثواب الله تعالى، وطامع فيما عنده من الخير، أن يتوفر على الصبر، ويُزم نفسه بزمامه، ويقيدها بقيده، فإن الجزع لا يرد قضاء قد نزل ولا يجلب خيراً قد سلب، ولا يدفع مكروهاً قد وقع، وإذا تصور العاقل هذا حق تصوره، وتعقله حق تعقله، علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم، وظفر بهذا الجزاء الخطير، وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى، ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره، ولا يُبلغ مداه، فضُم إلى مصيبته مصيبةً أخرى، ولم يظفر بغير الجزع، وفي الحديث: «أنه تُنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج، فيوفون بها أجورهم، ولا تنصب لأهل البلاء، بل يصب عليهم الأجر صباً، حتى يتمنى أهل المعافاة في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل». وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال: سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: «أد الفرائض تكن من أعبد الناس، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس، يا بني إن في الجنة شجرة يقال لها: شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان، ولا يُنشر لهم ديوان، يُصب عليهم الأجر صباً». ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وسئل النبي ﷺ أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه». فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه ذا رقة هُوّن عليه، فما زال كذلك حتى يمشي على الأرض كمن ليس له ذنب، وقال ﷺ: «إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله.. ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبر على ذلك حتى يُبلغه المنزلة التي سبقت له من الله»، وإن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله عز وجل، إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي، فله الرضى، ومن سخط فله السخط، وقال يوسف بن الحسين: ليس بصابر من يتجرع المصيبة، ويبدي فيها الكراهة، بل الصابر من يتلذذ بصبره، حتى يبلغ به إلى مقام الرضا.

وروى مقاتل: أن كفار قريش، قالوا للنبي ﷺ: ما يحملك على الذي أتيتنا به، ألا تنظر إلى ملة آبائك وسادات قومك، يعبدون اللات والعزى، فتأخذ بتلك

الملة. فقال تعالى له: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﷺ لهؤلاء المشركين: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ من جانبه تعالى بـ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ سبحانه، وحده، حال كوني ﴿مُخْلِصًا لَهُ﴾ تعالى ﴿الدِّينَ﴾؛ أي: العبادة من الشرك والرياء، بأن يكون المقصود من العبادة هو المعبود بالحق، لا غير.

والمعنى[1]: أي قل أيها الرسول لمشركي قومك: إن الله سبحانه، أمرني أن أعبده مفرداً له الطاعة، دون كل ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد، وفي هذا نعي لهم، على تماديهم في عبادة الأوثان، والكلام عليه من وادي قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة.

﴿وَأُمِرْتُ﴾ بذلك ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة؛ أي: لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة؛ لأن السبق في الدين، إنما هو بالإخلاص فيه، فمن أخلص عد سابقاً، فإذا كان الرسول، متصفاً بالإخلاص قبل إخلاص أمته.. فقد سبقهم في الدارين، إذ لا يُدرك المسبوق مرتبة السابق، ألا ترى إلى الأصحاب مع من جاء بعدهم، والظاهر[2]: أن اللام زائدة، فيكون كقوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، فالمعنى: وأمرت أن أكون أول من أسلم من أهل زماني؛ لأن كل نبي يتقدم أهل زمانه في الإسلام والدعاء إلى خلاف دين الآباء، وإن كان قبله مسلمون، قال بعضهم: الإخلاص: أن يكون جميع الحركات في السر والعلن لله تعالى وحده، لا يمازجه شيء.

وقال الزمخشري: فإن قلت[3]: كيف عطف ﴿أُمِرْتُ﴾ على ﴿أُمِرْتُ﴾ وهما واحد؟.

قلت: ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما، وذلك أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء، والأمر به لتحرز به قصب السبق في الدين شيء آخر، وإذا اختلف وجها الشيء وصفتاه، ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين، انتهى.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الكشاف.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي قومك: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وخالفته بترك الإخلاص، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: أخاف من عذاب يوم القيامة، وهو يوم عظيم، لعظمة ما فيه من الدواهي والأهوال، بحسب عظم المعصية وسوء الحال، وفيه زجر عن المعصية بطريق المبالغة؛ لأنه عليه السلام، مع جلالة قدره، إذا خاف على تقدير العصيان، فغيره من الأمة أولى بذلك الخوف.

قال أكثر المفسرين[1]: المعنى إني أخاف إن عصيت ربي، بإجابة المشركين إلى ما دعوني إليه، من عبادة غير الله عذاب يوم القيامة، عظيم الشأن والأهوال، وقال أبو حمزة اليماني، وابن المسيّب: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، وفي هذه الآية دليل على أن الأمر للوجوب؛ لأن قبله ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾، فالمراد: عصيان هذا الأمر، وفي هذا من التعريض بهم ما لا يخفى.

ثم كرر الأمر مرة أخرى، بالإخلاص في الطاعة، للتهديد والوعيد، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿ٱللَّهَ﴾ سبحانه، نصب بقوله: ﴿أَعْبُدُ﴾ على ما أمرت به لا غيره، لا استقلالاً، ولا اشتراكاً، والتقديم مشعر بالاختصاص حالة كوني ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ وعبادتي من كل شائبة شرك، وشك، ورياء، وسمعة.

فإن قلت[2]: ما فائدة التكرار في قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ⑪﴾، وفي قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ⑭﴾؟.

قلت: هذا ليس بتكرار؛ لأن:

الأول: الإخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى، بالإتيان بالعبادة والإخلاص.

والثاني: أنه إخبار بأنه أمر أن يخص الله تعالى، وحده بالعبادة، ولا يعبد

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

أحداً غيره، مخلصاً له دينه؛ لأن قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ لا يفيد الحصر، وقوله: ﴿ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ يفيد الحصر. والمعنى: الله أعبد ولا أعبد أحداً غيره.

والحاصل: أنه سبحانه أمر رسوله ﷺ[1]:

أولاً: بأن يخبرهم بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فيها.

وثانياً: بأن يخبرهم بأنه مأمور، بأن يكون أول من أسلم وأطاع وانقاد.

وثالثاً: بأن يخبرهم بخوفه من العذاب، على تقدير العصيان.

ورابعاً: بأن يخبرهم، بأنه امتثل الأمر وانقاد وعبد الله تعالى، وأخلص له الدين، على أبلغ وجه وآكده، إظهاراً لتصلبه في الدين، وحسماً لأطماعهم الفارغة، وتمهيداً لتهديدهم بقوله: ﴿فَٱعْبُدُوا...﴾ إلخ؛ أي: قد امتثلت أنا ما أمرت به، فاعبدوا يا معشر المشركين ﴿مَا شِئْتُم﴾ قال في «الإرشاد»: وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى، كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه، أمروا به كي يحل بهم العقاب.

ولما قال المشركون: خسرت يا محمد، حيث خالفت دين آبائك، قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: الكاملين في الخسران، الذي هو عبارة عن إضاعة ما يهمه، وإتلاف ما لا بد منه، هم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فالجملة من الموصول، والصلة خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ﴾ بالضلال واختيار الكفر لها؛ أي: أضاعوها، وأتلفوها إتلاف البضاعة، فقوله: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول ﴿خَسِرُوٓا﴾. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالضلال، واختيار الكفر لهم أيضاً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يوم يدخلون النار بدل الجنة، حيث عرّضوهما للعذاب السرمدي، وأوقعوهما في هلكة لا هلكة وراءها. ﴿أَلَا﴾ انتبهوا، واستمعوا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخسران ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الظاهر الجلي، حيث استبدلوا بالجنة ناراً، وبالدرجات دركات، كما في «كشف الأسرار»، وفي «التأويلات النجمية»: الخاسر في الحقيقة، من خسر دنياه بمتابعة

---

(١) أبو السعود.

الهوى، وخسر عقباه بارتكاب ما نهى عنه، وخسر مولاه بتولي غيره.

والمعنى[1]: أي قل لهم أيها الرسول: إن الخسران الذي لا خسران بعده، هو خسران النفس، وإضاعتها بالضلال، وخسران الأتباع الذين أضلوهم، وأوقعوهم في العذاب السرمدي يوم القيامة، إذ أوقعوهم في هلكة ما بعدها هلكة، ألا هو الخسران المبين، الظاهر لكمال هوله، وفظاعة شأنه.

ثم فصل ذلك الخسران، وبينه بعد إبهامه، تهويلاً وتعظيماً لأمره فقال: ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم، والضمير للخاسرين ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ حال من ﴿ظُلَلٌ﴾ وهو مبتدأ مؤخر ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ صفة لـ﴿ظلل﴾، والظلل: جمع ظلة كغرف وغرفة، كما سيأتي، وهي في الأصل: سحابة تظل، والمراد هنا[2]: طباق وسرادقات من النار ودخانها، وسميت النار ظلة لغلظها وكثافتها، ولأنها تمنع من النظر إلى ما فوقهم، والمعنى: للخاسرين ظلل وطبقات من النار، ودركات كثيرة متراكبة بعضها فوق بعض، حال كون تلك الظلل من فوقهم ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ﴾ أيضاً ﴿ظُلَلٌ﴾ والمراد: إحاطة النار بهم من جميع جوانبهم، كما قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، وقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾.

والمعنى: أي لهم من فوقهم أطباق من النار، تلتهب عليهم، ومن تحتهم ظلل؛ أي: أطباق من النار، وسمي ما تحتهم ظللاً لأنها تظلل من تحتها من أهل النار؛ لأن طبقات النار، كان في كل طبقة منها طائفة من طوائف الكفار، كما قال السدي: هي لمن تحتهم ظلل، وهكذا حتى ينتهي إلى القعر والدرك الأسفل، الذي هو للمنافقين. فالظلل لمن تحتهم، وهي فرش لهم، وكما قال في «الأسئلة المقحمة»: كيف يسمى ما هو الأسفل ظللاً والظلل ما يكون فوقاً؟

والجواب: لأنها تظلل من تحتها.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وفي[1] ذلك إشعار بشدة حالهم في النار، وتهكم بهم؛ لأن الظلة إنما هي للاستظلال والتبرد، خصوصاً في الأراضي الحارة كأرض الحجاز، فإذا كانت من النار نفسها كانت أحر، ومن تحتها أغم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الفظيع هو الذي ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِهِۦ﴾ بذلك العذاب ﴿عِبَادَهُۥ﴾ في القرآن ليؤمنوا، ويحذرهم إياه بآيات الوعيد، ليجتنبوا ما يوقعهم فيه، وفي «الوسيط»: يخوف الله به عباده المؤمنين، يعني: أن ما ذكر من العذاب معد للكفار، وهو تخويف للمؤمنين ليخافوه، فيتقوه بالطاعة والتوحيد، وهو معنى قوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ بحذف الياء، وأصله يا عبادي بالياء ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي؛ أي: اتقوا هذه المعاصي، الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار. ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين[2]: أن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم، وقيل: هو للكفار وأهل المعاصي، وقيل: هو عام للمسلمين والكفار. وهذه عظة من الله تعالى، بالغة منطوية على غاية اللطف والرحمة، وفيه إشارة، إلى أن الله تعالى، خلق جهنم سوطاً يسوق به عباده إلى الجنة، إذ ليس تحت الوجود إلا ما هو مشتمل على الحكمة والمصلحة، فمن خاف بتخويف الله تعالى إياه، من هذا الخسران.. فهو عبده عبداً حقيقياً، ومستأهل لشرف الإضافة إليه.

ومعنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾؛ أي[3]: إنما يقص عليكم ربكم خبر ما سيكون، لا محالة، ليزدجر عباده عن المحارم والآثام، ومعنى قوله: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾؛ أي: يا عبادي بالغوا في الخوف والحذر والتقوى، ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي. وهذه منة منه تعالى، منطوية على نهاية اللطف والرحمة.

الإعراب

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿تَنزِيلُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: نعتان للجلالة، ويجوز أن يكون ﴿تَنزِيلُ﴾: خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا تنزيل الكتاب؛ أي: هذا القرآن هو الكتاب المنزل، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بالمصدر، أو بمحذوف خبر بعد خبر. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل، وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من الفاعل؛ أي: ملتبسين بالحق، أو من المفعول؛ أي: ملتبساً بالحق. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت إنزالنا عليك الكتاب، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول: اعبد الله مخلصاً له الدين. ﴿اعبد الله﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مُخْلِصًا﴾: حال من فاعل اعبد، ﴿لَّهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصًا﴾، و﴿ٱلدِّينَ﴾: مفعول ﴿مُخْلِصًا﴾

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح وتنبيه، ﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلدِّينُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْخَالِصُ﴾: صفة لـ﴿ٱلدِّينُ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، مقررة لما قبلها. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: مفعول ثان لـ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾، أو حال من الفاعل، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول أول، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿نَعْبُدُهُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، هو خبر المبتدأ، والتقدير: والذين اتخذوا من دونه أولياء، يقولون ما نعبدهم، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: اللام: لام

كي، ﴿يقربونا﴾: فعل مضارع، وفاعل، ومفعول به منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأن أصله: يقربوننا. والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: إلا لتقريبهم إيانا إلى الله سبحانه، الجار والمجرور متعلق بنعبدهم، والاستثناء من أعم الأحوال؛ أي: ما نعبدهم لحال من الأحوال إلا لتقريبهم إيانا إلى الله تعالى. ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ مصدر مؤكد، ليقربونا من غير لفظه، ولكنه ملاق لعامله في المعنى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَحْكُمُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ متعلق بـ﴿يَحْكُمُ﴾، ﴿فِى مَا﴾: متعلق بـ﴿يَحْكُمُ﴾ أيضاً، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾، وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ خبرهم، والجملة الاسمية صلة ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَهْدِى﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول، في محل النصب مفعول ﴿يَهْدِى﴾، ﴿هُوَ كَٰذِبٌ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿كَفَّارٌ﴾ خبر ثان، والجملة الاسمية صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة.

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾.

﴿لَّوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَتَّخِذَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، منصوب بأن المصدرية ﴿وَلَدًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها، في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أَرَادَ﴾، تقديره: لو أراد الله سبحانه، اتخاذه ولداً لنفسه. ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لَّوْ﴾، ﴿اصطفى﴾: فعل، وفاعل مستتر، يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ﴿اصطفى﴾، وجملة ﴿اصطفى﴾ جواب ﴿لَّوْ﴾: الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿يَخْلُقُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر

يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، والعائد محذوف تقديره: مما يخلقه. ﴿مَا يَشَآءُ﴾: ﴿ما﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿اصطفى﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما يشاؤه، ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبحوه سبحاناً، أو أسبحه سبحاناً. والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾: نعتان للجلالة، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوف على السموات، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من الفاعل أو من المفعول، ﴿يُكَوِّرُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿ٱلَّيْلَ﴾: مفعول به، ﴿عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾: متعلق بـ﴿يُكَوِّرُ﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾، أو مستأنفة مسوقة لبيان كيفية تصرفه. ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ معطوفة على نظيرتها. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾: معطوف على الشمس. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة قصد العموم، وجملة ﴿يَجْرِى﴾: خبره، ﴿لِأَجَلٍ﴾ متعلق بـ﴿يَجْرِى﴾، ﴿مُّسَمًّى﴾: نعت ﴿لِأَجَلٍ﴾. والجملة الإسمية مستأنفة. ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح، ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿ٱلْغَفَّـٰرُ﴾: خبر ثان. والجملة الإسمية مستأنفة.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿خَلَقَكُم﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿مِّن نَّفْسٍ﴾ متعلق بخلق، ﴿وَٰحِدَةٍ﴾: صفة ﴿نَّفْسٍ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، وسيأتي سر العطف بها في البلاغة. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿خَلَقَكُم﴾، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿زَوْجَهَا﴾: مفعول به، ﴿وَأَنزَلَ﴾: معطوف على خلقكم، ﴿لَكُم﴾ حال من ثمانية أزواج، ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾

متعلق بـ﴿أنزل﴾، ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾: مفعول به. ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة مستأنفة أو حال من فاعل ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾. ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾، ﴿خَلْقًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: صفة لـ﴿خَلْقًا﴾ أو متعلق بـ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾، فيكون المصدر لمجرد التأكيد. ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ جار ومجرور، بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، أو متعلق بـ﴿خلق﴾ المجرور قبله، ﴿ثَلَٰثٍ﴾: صفة ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر أول، والجملة مستأنفة. ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر ثان، ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع، خبر ثالث لاسم الإشارة، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر رابع له، وقد تقدم إعراب كلمة الشهادة مفصلاً مراراً، فلا حاجة إلى إعادته. ﴿فَأَنَّىٰ﴾: الفاء: استئنافية. ﴿أنى﴾: اسم استفهام بمعنى كيف، في محل النصب على الحال، مبني على السكون، والعامل فيه ﴿تُصْرَفُونَ﴾، ﴿تُصْرَفُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل. والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ⑦﴾.

﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿تَكْفُرُوا۟﴾: فعل، وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿غَنِىٌّ﴾: خبره. ﴿عَنكُمْ﴾: متعلق به، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَرْضَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿لِعِبَادِهِ﴾ متعلق بـ﴿يَرْضَىٰ﴾، ﴿ٱلْكُفْرَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من الضمير المستكن في ﴿غَنِىٌّ﴾. ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾: فعل، وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها،

﴿يَرۡضَهُ﴾: فعل مضارع، ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. ﴿لَكُمۡۗ﴾ متعلقان به ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَزِرُ﴾: فعل مضارع، ﴿وَازِرَةٞ﴾: فاعل ﴿وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾. خبر مقدم، ﴿مَّرۡجِعُكُمۡ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: الفاء: عاطفة، ﴿ينبئكم﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على الجملة الاسمية قبلها، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿ينبئكم﴾، ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعۡمَلُونَۚ﴾ خبره، وجملة كان صلة لما الموصولة. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿عَلِيمُۢ﴾: خبره، ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ متعلق بـ﴿عَلِيمُۢ﴾. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: فعل، ومفعول به. ﴿ضُرّٞ﴾: فاعل، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة. ﴿مُنِيبًا﴾: حال من فاعل ﴿دَعَا﴾، ﴿إِلَيۡهِ﴾: متعلق بـ﴿مُنِيبًا﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿خَوَّلَهُۥ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إِذَا﴾. ﴿نِعۡمَةٗ﴾: مفعول ثان، ﴿مِّنۡهُ﴾: صفة لـ﴿نِعۡمَةٗ﴾، ﴿نَسِيَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الإنسان، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ الأولى. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول نسي. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على

الإنسان. ﴿يَدْعُوٓاْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿يَدْعُوٓاْ﴾، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق به أيضاً، أو حال من فاعل ﴿يَدْعُوٓاْ﴾، وجملة ﴿يَدْعُوٓاْ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ويصح أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية؛ أي: نسي كونه داعياً. ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على الإنسان، معطوف على ﴿نَسِيَ﴾، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿جعل﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿أَندَادًا﴾: مفعول أول لـ﴿جعل﴾، ﴿لِّيُضِلَّ﴾: اللام لام كي، ﴿يضل﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على الإنسان، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يضل﴾، وجملة ﴿لِّيُضِلَّ﴾: في تأويل مصدر مجرور باللام، ومفعول الإضلال محذوف؛ أي: لإضلاله الناس، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جعل﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿تَمَتَّعْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على الإنسان، والجملة في محل النصب، مقول لـ﴿قُلْ﴾، ﴿بِكُفْرِكَ﴾ متعلق بـ﴿تَمَتَّعْ﴾ أو حال من فاعل تمتع؛ أي: ملتبساً بكفرك، ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: تمتعاً قليلاً، أو زمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ﴾: خبره، ﴿ٱلنَّارِ﴾ مضاف إليه، وجملة إن مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾.

﴿أَمَّنْ﴾ ﴿أم﴾: متصلة، ومعادلها محذوف، ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، وخبر ﴿مَن﴾ الموصولة محذوف والتقدير: أهذا الكافر خير، أم الذي هو قانت خير، أو منقطعة، بمعنى: بل، وهمزة الاستفهام الإنكاري. و﴿مَن﴾: مبتدأ، والخبر محذوف أيضاً، تقديره: بل أمن هو قانت كهذا الكافر لا، والجملة مستأنفة. ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿قَٰنِتٌ﴾، ﴿سَاجِدًا﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿قَٰنِتٌ﴾، ﴿وَقَآئِمًا﴾: معطوف على ﴿سَاجِدًا﴾، وجملة ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾: حال ثالثة، وجملة ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾: عطف على جملة ﴿يَحْذَرُ﴾.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ

﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري، ﴿يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة مقول لـ﴿قُلْ﴾، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾: صلة الموصول، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: صلة الموصول، والاستفهام إنكاري؛ أي: لا يستويان، وفي الآية تنزيل المتعدي منزلة القاصر. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: فعل مضارع، ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: فاعل، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰعِبَادِ﴾: منادى مضاف. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للمنادي وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾: على كونها جواب النداء. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، وجملة ﴿أَحْسَنُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿فِى هَٰذِهِ﴾: متعلق بـ﴿أَحْسَنُوا۟﴾، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: بدل من اسم الإشارة. ﴿حَسَنَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل، ﴿أَجْرَهُم﴾: مفعول به ثان، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال من الأجر، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿أُمِرْتُ﴾: فعل مغير، ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ والتقدير: إني مأمور، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿أَعْبُدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾،

وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به، وجملة ﴿أَنْ﴾: المصدرية مع صلتها، في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: أمرت بعبادة الله تعالى، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أُمِرْتُ﴾. ﴿مُخْلِصًا﴾ حال من فاعل ﴿أَعْبُدَ﴾. ﴿لَّهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصًا﴾. ﴿ٱلدِّينَ﴾: مفعول به لـ﴿مُخْلِصًا﴾. ﴿وَأُمِرْتُ﴾: فعل، ونائب فاعل، معطوف على أمرت الأول، ﴿لِأَنْ أَكُونَ﴾: اللام: حرف جر بمعنى الباء، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب، ﴿أَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص، منصوب بـ﴿أن﴾، واسمها ضمير يعود على محمد ﷺ، ﴿أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ خبرها، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: وأمرت بكوني أول المسلمين من هذه الأمة. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَخَافُ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿عَصَيْتُ﴾: فعل، وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجوابها محذوف تقديره: إن عصيت ربي، أخاف عذابه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين الفعل ومفعوله على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾، ﴿عَذَابَ﴾: مفعول أخاف، ﴿يَوْمٍ﴾: مضاف إليه، ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة ﴿يَوْمٍ﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول مقدم، ﴿أَعْبُدُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مُخْلِصًا﴾: حال من فاعل أعبد، ﴿لَّهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصًا﴾، ﴿دِينِى﴾: مفعول ﴿مُخْلِصًا﴾، ومضاف إليه. ﴿فَٱعْبُدُوا۟﴾: الفاء: عاطفة، أو فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم عبادتي الله، وأردتم بيان ما أقول لكم.. فأقول لكم: اعبدوا. ﴿أعبدوا﴾: فعل أمر، وفاعل مبني على حذف النون. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعوله، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب

مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿شِئْتُم﴾: فعل، وفاعل صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما شئتموه. ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: جار ومجرور، حال من العائد المحذوف. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به صلة الموصول. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾: معطوف على أنفسهم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ أو حال من أهليهم، يعني: أزواجهم وخدمهم. ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْخُسْرَانُ﴾: خبر، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: صفة لـ﴿الخسران﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾: حال من ﴿ظُلَلٌ﴾، و﴿ظُلَلٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ صفة لـ﴿ظُلَلٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ﴾: خبر مقدم، ﴿ظُلَلٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية قبلها. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ﴾ فعل، وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يُخَوِّفُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر عن اسم الإشارة، والجملة الاسمية مستأنفة، أو في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿عِبَادَهُۥ﴾ مفعول به لـ﴿يُخَوِّفُ﴾، ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿عباد﴾: منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بالكسرة، وجملة النداء إما مستأنفة أو مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَٱتَّقُونِ﴾: الفاء: زائدة لتأكيد الربط بين النداء وجوابه، ﴿اتقون﴾: فعل أمر، وفاعل مبني على حذف النون، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، أو في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ ﴿ألا﴾[1]: من حروف التنبيه، وهي: ها، وألا،

---

(١) درويش.

وأما، والفرق بين أما، وألا: أن أما: للحال أو للماضي، وألا: للاستقبال، تقول: أما إن زيداً عاقل، تريد أنه عاقل في الحال، ولا تقول: ألا، وتقول: ألا إن زيداً لا يخاف؛ أي: في المستقبل، ولا تقول: أما، والفرق بينهما وبين ها، أنهما لا يدخلان إلا أول الكلام على الجملة بخلاف ها، فتدخل على الضمير وأسماء الإشارة، وإن لم تكن في أول الكلام، وتدخل أما على القسم كثيراً، وألا كثيراً على النداء، إذا تقرر هذا، فهل تكون هنا للاستقبال، مع أن كون الدين لله هو في كل زمان؟ والجواب: أن المراد هنا الاستقبال، بالنسبة لمن يعتنقون الدين الخالص على أنهما يتعاوران؛ أي: تأتي ألا لمجرد الاستفتاح، ولا يكون التنبيه مقصوداً.

﴿زُلْفَىٰٓ﴾؛ أي: تقريباً. فهو مصدر مؤكد على غير لفظ العامل، ملاق له في المعنى. وعبارة «السمين»: زُلفى مصدر مؤكد على غير العامل، ولكنه ملاق لعامله في المعنى، والتقدير: ليزلفوننا زلفى؛ أي: ليقربونا قربى، وجوز أبو البقاء أن يكون حالاً مؤكدة، انتهى.

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ﴾ التكوير في الأصل: اللف، واللي، من كار العمامة على رأسه، وكورها، وفي تكويرهما أوجه، كما قاله الزمخشري:

١ ـ جعلهما خلفة، يذهب هذا ويغشي مكانه هذا، فكأنما ألبسه، ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس.

٢ ـ كون كل منهما يغيّب الآخر إذا طرأ عليه، فشُبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر، لُف عليه ما غيّبه من مطامح الأبصار.

٣ ـ إن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً، فشُبه ذلك، بتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض، وهو أوفق للاشتقاق، من أشياء قد ذُكرت، وقال الراغب: كور الشيء: إدارته، وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة، وقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ إشارة إلى جريان الشمس في مطالعها وانتقاص الليل والنهار، وازديادهما، اهـ.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ إن قلت: كيف[1] عطف بـ﴿ثم﴾ مع أن خلق حواء من آدم سابق على خلقنا منه؟ أجيب: بأن ﴿ثُمَّ﴾ هنا للترتيب في الإخبار، لا في الإيجاد، أو المعطوف متعلق بمعنى واحد، فـ﴿ثم﴾ عاطفة لا على ﴿خَلَقَكُمْ﴾، فمعناه: خلقكم من نفس أفردت بالإيجاد، ثم شفعت بزوج، أو هو معطوف على ﴿خَلَقَكُمْ﴾ لكن المراد بـ﴿خلقهم﴾: خلقهم يوم أخذ الميثاق دفعةً، لا على هذا الخلق الذي هم فيه الآن بالتوالد والتناسل، وذلك لأن الله تعالى، خلق آدم عليه السلام ثم أخرج أولاده من ظهره كالذر، وأخذ عليهم الميثاق، ثم ردهم إلى ظهره ثم خلق منه حواء، اهـ كرخي.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ مصدر[2] من سبح إذا بعد؛ أي: تنزه تعالى بالذات عن ذلك الاتخاذ، وعما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء، وعلم للتسبيح مقول على ألسنة العباد؛ أي: أسبحه تسبيحاً لائقاً به، أو سبحوه تسبيحاً حقيقاً بشأنه.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ويقال لها: الأزواج الثمانية؛ لأن ذكر كل واحد من هذه الأنواع زوج بأنثاه، وأنثاه زوج بذكره، فيكون مجموع الأزواج ثمانية بهذا الاعتبار، من الضأن: اثنين، ومن المعز: اثنين، ومن الإبل: اثنين، ومن البقر: اثنين. والخيل، والبغال، والحمير خارجة من الأنعام، قال في «بحر العلوم»: الواحد إذا كان وحده فهو فرد، وإذا كان معه غيره من جنسه، سمي كل واحد منهما زوجاً، فهما زوجان، بدليل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾، وعند الحساب: الزوج خلاف الفرد، كالأربعة والثمانية في خلاف الثلاثة والسبعة.

﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾؛ أي: في أرحامهن. جمع أم، زيدت الهاء فيه كما زيدت في أهراق من أراق. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؛ أي: فكيف تصرفون، وتردون عن ملازمة بابه بالعبودية، إلى باب عاجز مثلكم من الخلق. ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أصله: يرضاه على أن الضمير عائد إلى الشكر، حذف الألف علامة للجزم. وهو باختلاس ضمة الهاء، عند أهل المدينة وعاصم وحمزة، وبإسكان الهاء، عند أبي

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.

عمرو، وبإشباع ضمة الهاء عند الباقين. لأنها صارت بخلاف الألف موصولة بمتحرك.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والوزر: الحمل الثقيل، ووزره: حمله، والمعنى: ولا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى من الذنب والمعصية. ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ قال الراغب: المس يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى، والضر يقابل بالسراء والنعماء، والضرر بالنفع.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ من التخول، وهو التعهد؛ أي: المحافظة والمراعاة؛ أي: جعله خائل مال من قولهم: فلان خائل ماله إذا كان متعهداً له حسن القيام به. ومن شأن الغني الجواد، أن يراعي أحوال الفقراء. أو من الخول، وهو الافتخار؛ لأن الغني يكون متكبراً طويل الذيل؛ أي: جعله يخول؛ أي: يختال ويفتخر بالنعمة.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ جمع ند، وهو يقال لما يشارك في الجوهر فقط، كما في «المفردات»، وقال في «بحر العلوم»: هو المثل المخالف؛ أي: أمثالاً يعتقد أنها قادرة على مخالفة الله سبحانه، ومضادته.

﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التوحيد، والسبيل من الطرق ما هو معتاد السلوك، استعير للتوحيد، لأنه موصل إلى الله تعالى ورضاه، قرىء: ﴿لِّيَضِلَّ﴾ بفتح الياء؛ أي: ليزداد ضلالاً أو يثبت عليه، وإلا فأصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور، واللام: لام العاقبة، فإن النتيجة قد تكون غرضاً في الفعل، وقد تكون غير غرض، والضلال والإضلال ليسا بغرضين، بل نتيجة الجعل وعاقبته.

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ جمع إني بكسر الهمزة والقصر كمعي وأمعاء، اهـ شيخنا. وفي «المصباح»: الآناء على أفعال هي الأوقات، وفي واحدها لغتان: أنى مثل: معى بكسر الهمزة والقصر، وأنى بفتح الهمزة والنون، وهو الساعة، وقيل: مفردها إنْيٌ وإنْوٌ، بكسر الهمزة وسكون النون فيهما، يقال: مضى أنوان وأنيان من الليل؛ أي: ساعتان.

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي «بحر العلوم»: الفعل منزل منزلة اللازم، ولم يقدر له مفعول؛ لأن المقدر كالمذكور كما سبق، والمعنى: لا يستوي من يوجد فيه حقيقة العلم ومن لا يوجد.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم﴾ قال في «المفردات»: توفيةُ الشيء: بذلُه وافياً كاملاً، واستيفاؤه: تناوله وافياً. والمعنى: يعطون أجرهم وافياً بمقابلة ما كابدوا من العسر.

﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾؛ أي: الكاملين في الخسران الذي هو عبارة عن إضاعة ما يهمه، وإتلاف ما لا بد منه. وفي «المفردات»: الخسران: انتقاص رأس المال، يستعمل في المال، والجاه، والصحة، والسلامة، والعقل، والإيمان، والثواب، وهو الذي جعل الله سبحانه الخسران. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ أصله: أهلين لهم، فحذفت النون للإضافة، واللام للتخفيف، جمع أهل، وأهل الرجل: عشيرته، وذوو قرابته، كما في «القاموس». ويفسر بالأزواج، والأولاد، والعبيد والإماء، وبالأقارب، وبالأصحاب، وبالمجموع كما في «شرح المشارق لابن الملك».

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ والظلل: جمع ظلة كغرف جمع غرفة، وهي سحابة، تظل، وشيء كهيئة الصفة، وفي «كشف الأسرار»: الظلة: ما أظلك من فوقك.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾؛ أي[1]: أصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل، والوهم، وفي «المفردات»: الألباب: جمع لب، واللب: العقل الخالص من الشوائب، وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من قواه، كاللباب من الشيء، وقيل: هو ما زكا من العقل، فكل لب عقل، وليس كل عقل لباً، ولذا علّق الله سبحانه الأحكام، التي لا تدركه إلا العقول الذكية، بأولي الألباب، نحو قوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، ونحو ذلك من الآيات، انتهى.

---

(١) روح البيان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ بعد قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ لتعظيمه، ومزيد الاعتناء بشأنه، ولا تكرار فيه؛ لأن الأول في بيان شأن المنزل، وكونه من عند الله، وهذا في بيان شأن المنزل إليه، وما يجب عليه.

ومنها: الإتيان بـ﴿ألا﴾ التي للتنبيه والاستفتاح في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ إشعاراً بأهمية ما بعدها، وطلباً للإصغاء إليه.

ومنها: التأكيد بالمصدر الملاقي لعامله في المعنى في قوله: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾؛ أي: قربى.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ لأن الأصل يحكم بينهم وبين المسلمين، فحذف المقابل إيجازاً للكلام، أو اكتفاء بالمذكور.

ومنها: الطباق بين ﴿تكفروا، وتشكروا﴾ وبين ﴿يرجو، ويحذر﴾ وبين ﴿فوقهم، وتحتهم﴾ وبين ﴿ضر، ونعمة﴾.

ومنها: أسلوب التدريج في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾. فإنه عبر[(١)] عن الأزواج بالإنزال؛ لأنها تكونت بالنبات، والنبات بالماء المنزل، وهذا يسمى التدريج، ومنه: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ الآية.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف، لدلالة السياق عليه، في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ

---

(١) الفتوحات.

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: كمن هو كافر جاحد بربه.

ومنها: الأمر بالذي يراد به التهديد في قوله: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ﴾، وفيه إشعار بأن الكفر نوع تشبه لا سند له، وإقناط للكافرين من التمتع في الآخرة، ولذلك علله بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة، اهـ «بيضاوي».

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ﴾؛ أي: لا يستوي القانت والكافر.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾؛ لأن السبيل حقيقة في الطريق المعتاد سلوكه، فاستعير للتوحيد بجامع الإيصال إلى المقصود في كل؛ لأن التوحيد موصل إلى الله تعالى، وإلى رضاه، كما أن السبيل الحقيقي يوصل إلى المقصد.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. والإضافة للملك، والخلق في قوله: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾.

ومنها: التهويل في قوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ففيه تهويل زاجر، فقد جعل الجملة مستأنفة، وصدرها بحرف التنبيه، ووسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرّف الخسران كأنه مما تعورف أمره، واشتهر هوله، ووصفه بالمبين، فجعل خسرانهم غايةً في الفظاعة ونهاية في الشناعة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ
يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ
حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا
غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا
ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ
عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ
الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن
يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ
مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ
وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر وعيده(١) لعبدة الأصنام.. أردف ذلك بوعد من اجتنبوا عبادتها، وابتعدوا عن الشرك، ليكون الوعد مقترناً بالوعيد، ويحصل بذلك كمال الترغيب والترهيب.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ الآية، مناسبة

---

(١) المراغي.

هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة فيها، ومزيد الشوق إليها.. أعقب ذلك بذكر صفات للدنيا، توجب النفرة منها، كسرعة زوالها وتقضيها وشيكاً تحذيراً من الاغترار بزهرتها، والركون إلى لذتها. فمثّل حالها بحال نبات، يُسقى بماء المطر، فيخرج به زرع مختلف الأصناف والأنواع، وبعد قليل تراه يجف ويصير فتاتاً متكسراً. فما أسرع زواله، وأيسر تقضّيه.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بالغ في ذكر ما يدل على وجوب الإقبال على طاعته سبحانه، والإعراض عن الدنيا.. أردف ذلك ببيان أنه لا ينتفع بهذا إلا من شرح الله صدره، ونوّر قلبه، وأشعر نفسه حب العمل به، ثم أعقبه بذكر أن من أضله الله، فلا هادي له، وأن من يتقي بيديه المخاوف، صيانة لوجهه عن النار، ليس حاله كحال من هو آمن، لا يفكر في مآل أمره، وعاقبة عمله. وبعدئذٍ، ذكر أن هؤلاء المشركين، ليسوا بدعاً في الأمم، فلقد كذب كثير قبلهم، فأتاهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون، فأصيبوا في الدنيا بالذل، والصغار، والقتل، والخسف، ولعذاب الآخرة أشد نكالاً ووبالاً، ثم ذكر أن القرآن قد ضرب الأمثال للناس، بلسان عربي مبين، لعلهم يرعوون، ويزدجرون.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر الحكمة في ضرب الأمثال للناس، وهي أن تكون عظة، وذكرى لهم، ليتقوا ربهم، ويرعووا عن غيّهم وضلالهم.. أردفه بذكر مثل يرشد إلى فساد مذهب المشركين، وقبح طريقتهم، ووضوح بطلانها، ثم أعقبه ببيان أن الناس جميعاً سيموتون، ثم يعرضون على ربهم، وهناك يستبين المحق والمبطل، والضال والمهتدي، فلا داعي إلى الجدل والخلاف بينك وبينهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ...﴾ الآية،

سبب نزولها[1]: ما أخرجه جويبر، بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ...﴾ الآية، أتى رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي سبعة مماليك، وإني قد أعتقت لكل باب منها مملوكاً، فنزلت فيه هذه الآية: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّٰغُوتَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم، أن هذه الآية نزلت في ثلاثة نفر، كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله، زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّٰغُوتَ﴾ والشياطين، وابتعدوا عنها، وتحرجوا ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتمال من الشيطان، فإن عبادة غير الله عبادة للشيطان، إذ هو الآمر بها، والمزين لها. قال في «كشف الأسرار»: كل من عبد شيئاً غير الله فهو طاغ، ومعبوده طاغوت. وفي «التأويلات النجمية»: طاغوت كل أحد نفسه، وإنما يجتنب الطاغوت من خالف هواه، وعانق رضى مولاه، ورجع إليه بالخروج عما سواه بالكلية، وقرأ الحسن: ﴿الطواغيت﴾ جمعاً. وفي «القاموس»: الطاغوت: اللات، والعزى، والكاهن، والشيطان، وكل رأس ضلال، والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ومردة أهل الكتاب، انتهى. وقال سهل[2]: الطاغوت: الدنيا، وأصلها الجهل، وفرعها المآكل والمشارب، وزينتها التفاخر، وثمرتها المعاصي، وميراثها القسوة والعقوبة، ويستعمل لفظ الطاغوت في الواحد والجمع، كما يفهم من «القاموس». قال في «بحر العلوم»: وفي قوله: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ إشارة، إلى أن المراد بالطاغوت ههنا الجمع.

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ سبحانه، وأقبلوا عليه معرضين عما سواه إقبالاً كلياً، قال في «البحر»: واعلم أن المراد باجتناب الطاغوت: الكفر بها، وبالإنابة إلى الله:

---

(١) لباب النقول. (٢) روح البيان.

الإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾. وقدم اجتناب الطاغوت على الإنابة إلى الله، كما قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله، على وفق كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، حيث قُدم نفي وجود الإلهية على إثبات الألوهية لله تعالى، فقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتمال من الطاغوت، وقوله: ﴿وَأَنَابُوا﴾ معطوف على ﴿اجْتَنَبُوا﴾.

وجملة ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ خبر المبتدأ؛ أي[1]: والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت، ورجعوا إلى عبادة الله تعالى، وأقبلوا عليه معرضين عما سواه، لهم البشرى في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فالثناء عليهم بصالح أعمالهم، وعند نزول الموت، وعندالوضع في القبر، وأما في الآخرة فعند الخروج من القبر، وعند الوقوف للحساب، وعند جواز الصراط، وعند دخول الجنة، وفي الجنة، ففي كل موقف من هذه المواقف، تحصل لهم البشارة بنوع من الخير، والراحة، والروح، والريحان، وقيل: لهم البشرى بالثواب والرضوان الأكبر على ألسنة الرسل، بالوحي في الدنيا، أو على ألسنة الملائكة عند حضور الموت، وحين يحشرون، وبعد ذلك، وقال بعضهم: لهم البشرى بأنهم من أهل الهداية والفضل من الله، وهي الكرامة الكبرى.

والمعنى[2]: أي والذين اجتنبوا عبادة الأصنام، وأقبلوا إلى ربهم معرضين عما سواه، لهم البشرى، بالثواب العظيم من الله تعالى، على ألسنة رسله حين الموت، وحين يحشرون من قبورهم للحساب.

ثم مدحهم، بأنهم نقّاد في الدين، يميزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ والأصل عبادي بالياء، فحذفت ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ الحق من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾؛ أي: محكمه، ويعملون به؛ أي: فبشر يا محمد عبادي الذين اجتنبوا عبادة

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

الطاغوت، وأنابوا إلى ربهم، وسمعوا القول فاتبعوا أولاه بالقبول، بالنعيم المقيم في جنات النعيم، وفيه[١] تصريح بكون التبشير من لسان الرسول ﷺ، وهو تبشير في الدنيا، وأما تبشير الملك فتبشير في الآخرة، كما قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾، وبالجملة فتبشير الآخرة مرتب على تبشير الدنيا. فمن استأهل الثاني استأهل الأول.

قال السدي[٢]: يتبعون أحسن ما يؤمرون به، فيعملون بما فيه، وقيل: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح، فيتحدث بالحسن، وينكف عن القبح فلا يتحدث، وقيل: يستمعون القرآن وغيره، فيتبعون القرآن، وقيل: يستمعون الرخص والعزائم فيتبعون العزائم ويتركون الرخص، وقيل: يأخذون بالعفو، ويتركون العقوبة، وقيل: إن الآية نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمٰن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، حين جاؤوا إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فسألوه فأخبرهم بإيمانه، فآمنوا، حكاه المهدوي في «التكملة». فيكون المعنى: يستمعون القول من أبي بكر، فيتبعون أحسنه، وهو قول: «لا إله إلا الله».

وفي «كشف الأسرار»: مثال هذا[٣] الأحسن في الدين أن ولي القتيل، إذا طالب بالدم فهو حسن، وإذا عفا ورضي بالدية فهو أحسن، ومن جزى السيئة بالسيئة مثلها فهو حسن، وإن عفا وغفر فهو أحسن، وإن وزن أو كال فهو حسن، وإن أرجح فهو أحسن، وإن اتزن وعدل فهو حسن، وإن طفف على نفسه فهو أحسن، وإن رد السلام فقال: وعليكم السلام فهو حسن، وإن قال عليكم السلام ورحمة الله فهو أحسن، وإن حج راكباً فهو حسن، وإن فعله راجلاً فهو أحسن، وإن غسل أعضاءه في الوضوء مرة مرة فهو حسن، وإن غسلها ثلاثاً ثلاثاً فهو أحسن، وإن جزى من ظلمه بمثل مظلمته فهو حسن، وإن جازاه بحسنة فهو

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

أحسن، وإن سجد أو ركع ساكتاً فهو جائز، وإن فعلهما مسبحاً فهو أحسن. ونظير هذه الآية قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَاۚ﴾، وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، انتهى ما في «الكشف».

وهذا[1] معنى ما قال بعضهم: يستمعون قول الله فيتبعون أحسنه، ويعملون بأفضله، وهو ما في القرآن من عفو، وصفح، واحتمال على أذى، ونحو ذلك، فالقرآن كله حسن، وإنما الأحسن بالنسبة إلى الآخذ والعامل، قال السيوطي رحمه الله في «الإتقان»[2]: اختلف الناس، هل في القرآن شيء أفضل من شيء؟. فذهب الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله، وبعض الأئمة الأعلام إلى المنع؛ لأن الجميع كلام الله تعالى، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه، وذهب آخرون من المحققين، وهو الحق: كلام الله في الله أفضل من كلامه في غيره، فـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أفضل من ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾؛ لأن فيه فضيلة الذكر، وهو كلام الله، وفضيلة المذكور، وهو اسم ذاته وتوحيده وصفاته الإيجابية والسلبية، وسورة ﴿تَبَّتْ﴾ فيها فضيلة الذكر فقط، وهو كلام الله تعالى، والأخبار الواردة في فضائل القرآن، وتخصيص بعض السور والآيات بالفضل، وكثرة الثواب في تلاوتها لا تُحصى.

قال الإمام الغزالي في «جوهر القرآن»[3]: كيف يكون بعض الآيات والسور أشرف من بعض، مع أن الكل كلام الله؟ فاعلم نوّرك الله بنور البصيرة، وقلّد صاحب الرسالة عليه السلام. فهو الذي أُنزل عليه القرآن، وقال: «﴿يسٓ ۝١﴾ قلب القرآن، وفاتحة الكتاب أفضل سور القرآن، وآية الكرسي سيدة القرآن و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن». ومن توقف في تعديل الآيات، أول قوله ﷺ، أفضل سورة وأعظم سورة، أراد في الأجر والثواب. لا أن بعض القرآن أفضل من بعض، فالكل في فضل الكلام واحد، والتفاوت في الأجر لا في كلام

---

(١) روح البيان.

(٢) الاتقان في علوم القرآن.

(٣) جواهر القرآن.

الله، من حيث هو كلام الله القديم، القائم بذاته.

واعلم[1]: أن استماع القول عند العارفين، يجري في كل الأشياء. فالحق تعالى، يتكلم بكل لسان من العرش إلى الثرى، ولا يتحقق بحقيقة سماعه، إلا أهل الحقيقة، وعلامة سماعهم انقيادهم إلى كل عمل مقرب إلى الله من جهة التكليف، المتوجه على الأذن، من أمر أو نهي، كسماعه للعلم والذكر والثناء على الحق تعالى، والموعظة الحسنة، والقول الحسن، والتصامم عن سماع الغيبة والبهتان، والسوء من القول، والخوض في آيات الله، والرفث، والجدل، وسماع القيان، وكل محرم وملاهٍ حجرَ الشارع عليه سماعه، فإذا كان كذلك كان مفتوح الأذن إلى الله تعالى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالمحاسن الجميلة، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه للدين الحق، والاتصاف بمحاسنه؛ أي: هؤلاء الموصوفون بما ذكرهم، الذين وفقهم الله تعالى للرشاد وإصابة الصواب، لا الذين يعرضون عن سماع الحق، ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون ﴿هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة التي لا تطيع الهوى، ولا يغلبها الوهم، المستحقون للهداية لا غيرهم، فتختار خير الأمرين في دينها ودنياها.

وفي الكلام[2]: دلالة على أن الهداية تحصل بفضل الله تعالى، وقبول النفس لها، يعني: أن لكسب العبد مدخلاً فيها بحسب جري العادة، وفيه إشارة إلى أن أولئك القوم، هم الذين عبروا عن قشور الأشياء، ووصلوا إلى لباب حقائقها.

ثم بيّن أضداد المذكورين أولاً، وسجل عليهم الحرمان من الهداية، فقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾ ووجب ﴿عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ وقضاؤه ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تُنقِذُ﴾ وتخرج ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ وهذا بيان لأحوال عبدة الطاغوت بعد بيان أحوال

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

المجتنبين عنها، والهمزة للاستفهام الإنكاري[1] داخلة على محذوف دل عليه السياق، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿مَنْ﴾ شرطية و﴿حَقَّ﴾ بمعنى: وجب، وثبت، وكلمة العذاب قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾، وكررت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار، والفاء فيه فاء الجزاء، ثم وضع موضع الضمير ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد، والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب، بمنزلة الواقع في النار، وأن اجتهاده ﷺ في دعائهم إلى الإيمان سعي في إنقاذهم من النار؛ أي: تخليصهم، فإن الإنقاذ: التخليص من الورطة، كما في «المفردات».

والمعنى: أأنت يا محمد مالك أمر الناس، فمن حق وثبت عليه من الكفار عدلاً في علم الله تعالى، كلمة العذاب، فأنت تنقذه من النار بهدايتك ودعوتك؛ أي: لا تقدر أن تهديه، وتنقذه من النار، فالآية جملة واحدة من شرط وجزاء، وفيه[2] إشارة إلى، أن من حق عليه في القسمة الأولى، أن يكون مظهراً لصفات قهره إلى الأبد لا تنفعه شفاعة الشافعين، ولا يُخرجه من جهنم وسخط الله وطرده وبعده جميع الأنبياء والمرسلين، وإنما الشفاعة للمؤمنين بدليل قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

ومعنى الآية[3]: التسلية لرسول الله ﷺ؛ لأنه كان حريصاً على إيمان قومه، فأعلمه الله تعالى، أن من سبق عليه القضاء وحقت عليه كلمة الله، لا يقدر رسول الله ﷺ أن ينقذه من النار، بأن يجعله مؤمناً، قال عطاء: يريد: أبا لهب، وولده، ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان، وفي الآية تنزيل لمن يستحق العذاب منزلة من قد صار فيه، وتنزيل دعائه إلى الإيمان، منزلة الإخراج له من عذاب النار.

والمعنى[4]: أي أأنت مالك شؤون الناس ومصرف أمورهم، فمن حقت

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

عليه كلمة العذاب لعدم أهليته للكمال، وتدسيته نفسه بولوغها في الآثام والمعاصي، فأنت تنقذه من النار، كلا ليس أمرهم إليك بل أمرهم إلى ربهم، يجازيهم بحكمته وعدله.

ولما ذكر سبحانه فيما سبق، أن لأهل الشقاوة ظللاً من النار من فوقهم، ومن تحتهم ظللاً، استدرك عنهم من كان من أهل السعادة، فقال: ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ اليوم باجتنابهم عن الشرك والمعاصي، والزلات، والشهوات، وعبادة الهوى، والركون إلى غير المولى سبحانه، فقد أنقذهم الله تعالى في القسمة الأولى، من أن يحق عليهم كلمة العذاب، وحق لهم أن يكونوا مظهر صفات لطفه، وفضله إلى الأبد، بأن يكون ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ﴾؛ أي: عُلالي متفاوتة بحسب مقاماتهم في التقوى، جمع غرفة، وهي عُلّيّة من البناء، وسمي منازل الجنة غرفاً، كما في «المفردات»، لعلوها وارتفاعها ﴿مِّن فَوۡقِهَا﴾؛ أي: من فوق تلك الغرف ﴿غُرَفٞ﴾؛ أي: عُلالي أخر؛ أي: لهم عُلالي ومنازل بعضها فوق بعض، بيّن[1] أن لهم درجات عالية في جنات النعيم، بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة في الجحيم ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ تلك الغرف، الموصوفة بناء المنازل على الأرض الرصانة والإحكام، وإن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة إليها. وفي «بحر العلوم»: ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ بنيت من زبرجد وياقوت ودر، وغير ذلك من الجواهر، وفيه إشارة بأنها مبنية بأيدي أعمال العاملين، وأحوال السالكين ﴿تَجۡرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾؛ أي: من تحت تلك الغرف المنخفضة والمرتفعة ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الأربعة من غير تفاوت بين العلو والسفل، وفي ذلك كمال لبهجتها، وزيادة لرونقها، وانتصاب ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ على المصدرية المؤكدة لمضمون الجملة قبلها؛ لأن قوله: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ﴾ في معنى الوعد؛ أي: وعدهم الله سبحانه تلك الغرف والمنازل وعداً، وجملة قوله: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ مقررة للوعد؛ أي: لا يخلف الله ما وعد الفريقين من الخير والشر، والخلف: نقض العهد، وهو على الله محال، والميعاد بمعنى الوعد.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: أي لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه، واجتناب محارمه لهم في الجنة غرف؛ أي: طباق فوق طباق، مبنيات محكمات تجري من تحتها الأنهار الأربعة، الجارية في الجنة الماء، واللبن، والخمر، والعسل المصفى، ثم أكد حصول ذلك لهم بقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾؛ أي: وعد الله هؤلاء المتقين بذلك، ووعده الحق، فهو لا يخلف ما وعدهم، بل يفي بوعده.

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراؤون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراؤون الكوكب الدرّي، الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم»، فقالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» متفق عليه. قوله: «الغابر»؛ أي: الباقي في ناحية المشرق أو المغرب.

وفي الآية دقيقة شريفة[2]: وهي أنه تعالى، لم يذكر في آيات الوعيد البتة، مثل هذا التأكيد، وذلك يدل على أن جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد، أما قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ ليس تصريحاً بجانب الوعيد، بل هو كلام عام، يتناول الوعد والوعيد، فثبت أن ترجيح الوعد حق، خلافاً للمعتزلة.

ولما ذكر سبحانه الآخرة، ووصفها بوصف يوجب الرغبة فيها والشوق إليها.. أتبعه بذكر الدنيا، ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها، والنفرة منها، فذكر تمثيلاً لها في سرعة زوالها، وقرب اضمحلالها، مع ما في ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرته الباهرة، وصنعه البديع، فقال: ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾؛ أي: ألم تعلم يا محمد، أو أيها المخاطب، أو ألم تر أيها الناظر، والاستفهام فيه تقريريّ، والرؤية إما بصرية أو قلبية، والخطاب إما للنبي ﷺ أو عام، وهو أولى؛ أي: ألم تعلم أيها المخاطب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

السحاب ﴿مَآءً﴾؛ أي: مطراً ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾؛ أي: فسلك ذلك الماء، وأدخله في الأرض؛ أي: أدخل ذلك الماء النازل من السماء في الأرض، وأسكنه فيها، وجعله ﴿يَنَٰبِيعَ﴾؛ أي: عيوناً، وركاياً، ومجاري كائنات ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالعروق في الأجساد. قال الشعبي: كل ماء في الأرض فمنَ السماء نزل. والمعنى[1]: أدخل الماء النازل من السماء في الأرض، وجعله فيها عيوناً جارية، أو جعله في ينابيع؛ أي: في أمكنة ينبع منها الماء، فهو على الوجه الثاني منصوب بنزع الخافض، قال مقاتل: فجعله عيوناً، وركاياً في الأرض. ونصب ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ إما على الظرفية، أو على الحال، أو على أنه مفعول ثان، لجعل المقدر.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾؛ أي: يخرج بذلك الماء من الأرض، وكلمة[2] ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة، أو الزمان ﴿زَرْعًا﴾؛ أي: نباتاً ﴿مُّخْتَلِفًا﴾؛ أي: متنوعاً ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾؛ أي: صفاته، وكيفياته من الطعوم والروائح، من أصفر وأخضر وأبيض وأحمر وأغبر وأسود، من المر والحالي والطيِّب، وغيره، قال في «المفردات»: اللون معروف، وينطوي على الأبيض، والأسود، وغيرهما، وقد يعبر بالألوان عن الأجناس والأنواع؛ أي: مختلفاً أجناسه من بر، وشعير، وأرز، وذرة، أو أنواعه كأنواع الحنطة، والشعير، والذرة. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ذلك الزرع النابت بالماء، وييبس، يقال: هاج النبت إذا تم جفافه؛ لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور من منبته. ﴿فَتَرَىٰهُ﴾؛ أي: فتبصر أيها المخاطب ذلك النبت من يبسه ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد خضرته، ونضرته؛ أي: تراه ذا صفرة، والصفرة: لون بين البياض والسواد، كما سيأتي في مبحث اللغة، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾؛ أي: يجعل الله سبحانه ذلك النبت اليابس ﴿حُطَٰمًا﴾؛ أي: فتاتاً متكسراً، كأن لم يغن بالأمس، يقال: تحطم العود إذا تفتت من اليبس، ولكون هذه الحالة من الآثار القوية، عُلّقت بجعل الله تعالى كالإخراج، وعبّر هنا بلفظ ﴿يَجْعَلُهُۥ﴾، وفي الحديد بلفظ (يكون) موافقةً في كل منهما لما قبله، اهـ من «فتح الرحمٰن».

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾ بالرفع عطفاً على ما قبله، وقرأ أبو بشر: بالنصب بإضمار ﴿أَن﴾، ولا وجه لذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور مفصلاً ﴿لَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: لتذكيراً عظيماً ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: لأصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل، وتنبيهاً لهم على حقيقة الحال، يتذكرون بذلك، أن حال الحياة الدنيا في سرعة التقضي والإنصرام، كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام، فلا يغترون ببهجتها، ولا يفتنون بفتنها.

قال في «كشف الأسرار»: الإشارة في هذه إلى أن الإنسان يكون طفلاً، ثم شاباً ثم كهلاً، ثم شيخاً ثم يصير إلى أرذل العمر، ثم آخره يحترم، ويقال: إن الزرع ما لم يؤخذ منه الحب الذي هو المقصود منه، لا يكون له قيمة، كذلك الإنسان ما لم يخل من نفسه، لا يكون له قدر ولا قيمة، انتهى.

فالمعنى[2]: إنك أيها الرسول لتشاهد الماء، وقد نزل من السماء، فجرى عيوناً في الأرض، فسُقيت به أنواع مختلفة، من النبات من بر إلى شعير إلى أرز إلى نحو ذلك، ثم نضجت وجفت وصارت مصفرة بعد خضرة ونضرة، ثم صارت فتاتاً متكسرةً، فما أشبه حال الدنيا بحالها، فهي سريعة التقضي، وشيكة الزوال، فليعتبر بذلك أولو الحجا، وليعلموا أن الدنيا كسوق قام ثم انفض، ولا يغتروا ببهجتها، ولا يفتنوا بزخرفها، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

ثم لما ذكر سبحانه، أن في ذلك لذكرى لأولي الألباب، ذكر شرح الصدر للإسلام؛ لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به، فقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ والهمزة[3] فيه للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف دل عليه

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

السياق، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿مَنْ﴾ شرطية، جوابها قوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أو موصولة خبرها محذوف، دل عليه قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ﴾. والتقدير: أكل الناس سواء، فمن وسّع الله صدره للإسلام فقبله، واهتدى بهديه ﴿فَهُوَ﴾ بسبب ذلك الشرح ﴿عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختياره، فصار في ظلمات الضلالة، وبليات الجهالة، والمراد بشرح الصدر: خلقه متسع الصدر مستعداً للإسلام، فبقي على الفطرة الأصلية، ولم يتغير بالعوارض المكتسبة القادمة فيها، فهو بسبب ذلك، مستقر على نور عظيم من ربه، والمراد بالنور: اللطف الإلهي الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية، والتوفيق للاهتداء بها إلى الحق؛ أي: كمن قسا قلبه، وحُرِّج صدره، بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره، واستولت عليه ظلمات الغي، والضلالة، فأعرض عن تلك الآيات بالكلية، حتى لا يتذكر بها، ولا يغتنمها كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾. يعني ليس من هو على نور، كمن هو على ظلمة، فلا يستويان كما لا يستوي النور والظلمة، والعلم والجهل.

واعلم[1]: أنه لا نور ولا سعادة لمسلم، إلا بالعلم والمعرفة، ولكل واحد من المؤمنين معرفة تختص به، وإنما تتفاوت درجاتهم بحسب تفاوت معارفهم، والإيمان والمعارف أنوار، فمنهم من يضيء نوره جميع الجهات، ومنهم من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه، فإيمان آحاد العوام نوره كنور الشمع، وبعضهم نوره كنور السراج، وإيمان الصديقين نوره كنور القمر، والنجوم على تفاوتها، وأما الأنبياء فنور إيمانهم كنور الشمس وأزيد، فكما ينكشف في نورها كل الآفاق مع اتساعها، ولا ينكشف في نور الشمع إلا زاوية ضيقة من البيت، كذلك يتفاوت انشراح الصدور بالمعارف، وانكشاف سعة الملكوت لقلوب المؤمنين، ولهذا جاء في الحديث: أنه يقال يوم القيامة: أخرجوا من النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ونصف مثقال، وربع مثقال، ففيه تنبيه على تفاوت درجات الإيمان،

---

(١) روح البيان.

وبقدره تظهر الأنوار يوم القيامة في المواقف، خصوصاً عند المرور على الصراط.

والمعنى[١]: أي أفمن دخل نور الإسلام قلبه، وانشرح صدره له، لما رأى فيه من البدائع والعجائب، المهيئة للحكمة الممهدة لقبول الحق، والموصلة إلى الرشاد، كمن طبع على قلبه لغفلته وجهالته، وقد روي: أن علامة ذلك الانشراح الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل حلول الموت.

والخلاصة: هل يستوي من أنار الله بصيرته، ومن هو قاسي القلب بعيد عن الحق؟. ونحو الآية قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود، قال: تلا النبي ﷺ هذه الآية، فقلنا: يا نبي الله، كيف انشراح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب، انشرح وانفسح»، قلنا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت». وأخرج الترمذي عن ابن عمر، أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأحسنهم له استعداداً، وإذا دخل النور في القلب انفسح واستوسع»، فقالوا: ما آية ذلك يا نبي الله؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت».

ثم ذكر ما يدل على المحذوف الذي قدّر في الجملة السابقة، فقال: ﴿فَوَيْلٌ﴾ شديد، وهلاك عظيم، وخسران مبين، كائن وثابت ﴿لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾؛ أي: للذين قست، وغلظت قلوبهم ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: من أجل ذكره الذي حقه أن تنشرح له الصدور، وتطمئن به القلوب؛ أي: إذا ذكر الله تعالى عندهم، وآياته اشمأزوا من أجله، وازدادت قلوبهم قساوة، كقوله تعالى:

---

(١) المراغي.

﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾.

فإن قلت[1]: كيف يقسو القلب عن ذكر الله، وهو سبب لحصول النور والهداية؟.

قلت: إنهم كلما تُلي ذكر الله على الذين يكذبون به.. قست قلوبهم عن الإيمان به، قيل: إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر، كدرة العنصر بعيدة عن قبول الحق، فإن سماعها لذكر الله لا يزيدها إلا قسوة، وكدورة، كحر الشمس، يلين الشمع ويعقد الملح، فكذلك القرآن يلين المؤمنين عند سماعه، ولا يزيد الكافرين إلا قسوةً، قال مالك بن دينار: ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة، وقرىء ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: فويل للذين غلظت قلوبهم عن قبول ذكر الله، وقال الزجاج، والفراء: ﴿مِنْ﴾ في القراءة المشهورة بمعنى، عن أي: عن ذكر الله، يقال: أتخمت عن طعام: أكلته، ومن طعام أكلته، وهذا الأخير أوضح، وأولى، كما قاله الشوكاني، وقال الله سبحانه وتعالى، لموسى عليه السلام في مناجاته: يا موسى لا تُطل في الدنيا أملك فيقسو قلبك، والقلب القاسي مني بعيد، وكن خلق الثياب، جديد القلب، تخف على أهل الأرض، وتُعرف في أهل السماء، وفي الحديث: تورث القسوة في القلب ثلاث خصال حب الطعام، وحب النوم، وحب الراحة. وفي الحديث أيضاً: «أفضلكم عند الله أطولكم جوعاً وتفكراً، وأبغضكم إلى الله كل أكول شروب نؤوم، كلوا واشربوا في أنصاف البطون، فإنه جزء من النبوة».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء الموصوفون، بما ذكر من قساوة القلب ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ بعيد عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر كونه ضلالاً للناظر بأدنى نظر.

واعلم[2]: أنّ الآية عامة فيمن شرح صدره للإسلام، بخلق الإيمان فيه، وقيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأبي لهب، وولده، فحمزة وعلي ممن شرح الله صدرهما للإسلام، وأبو لهب

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

وولده من الذين قست قلوبهم، فالرحمة للمشروح صدره، والغضب للقاسي قلبه.

ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز، فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ هو القرآن الكريم الذي لا نهاية لحسنه، ولا غاية لجمال نظمه وملاحة معانيه، وهو أحسن مما نُزل على جميع الأنبياء والمرسلين، وأكمله وأكثره أحكاماً، وأيضاً أحسن الحديث لفصاحته وإعجازه، وأيضاً لأنه كلام الله، وهو قديم، وكلام غيره مخلوق محدث، وأيضاً لكونه صدقاً كله إلى غير ذلك، سمي حديثاً لأن النبي ﷺ كان يحدث به قومه، ويخبرهم بما ينزل عليه منه، فلا يدل على حدوث القرآن، فإن الحديث في عرف العامة: الخبر، والكلام. والمعنى: إن فيه مندوحةً عن سائر الأحاديث، وعبر بنزل دون أنزل إشعاراً بأنه متكرر النزول بحسب الوقائع.

﴿كِتَابًا﴾ بدل من ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، ويحتمل أن يكون حالاً منه ﴿مُتَشَابِهًا﴾ معانيه في الصحة، والحسن، والإحكام، والابتناء على الحق والصدق، واستتباع منافع الخلق في المعاد والمعاش، وتناسب ألفاظه في الفصاحة، وتجاوب نظمه في الإعجاز، وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة، وقال قتادة: يشبه بعضه بعضاً في الآي، والحروف، وقيل: يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه. ﴿مَثَانِيَ﴾ صفة أخرى لكتاباً؛ أي: تثنى فيه القصص، وتتكرر فيه المواعظُ والأحكام، وقيل: يثنى في التلاوة، فلا يمل سامعه، ولا يسأم قارئه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَثَانِيَ﴾ بفتح الياء، وهشام، وابن عامر، وأبو بشر بسكون الياء، فاحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف، واحتمل أن يكون منصوباً، وسكنت الياء على قول من سكن الياء، في كل الأحوال، لانكسار ما قبلها استثقالاً للحركة عليها، ووصف[2] الواحد، وهو الكتاب بالجمع، وهو المثاني باعتبار تفاصيله، كما يقال: القرآن سور وآيات، والإنسان عروق وعظام وأعصاب، وهو جمع مثنى بضم الميم وتشديد النون، بمعنى مردد ومكرر، لما

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

ثني من قصصه، وأنبائه، وأحكامه، وأوامره، ونواهيه، ووعده، ووعيده، ومواعظه، أو لأنه ثني في التلاوة فلا يمل، كما جاء في نعته: لا يخلق على كثرة التردد؛ أي: لا يزول رونقه، ولذة قراءته، واستماعه من كثرة ترداده على ألسنة التالين، وتكراره على آذان المستمعين، وأذهان المتفكرين، على خلاف ما عليه كلام المخلوق، وفي القصيدة البردية:

فَلا تُعَدُّ وَلاَ تُحْصَىٰ عَجَائِبُهَا وَلاَ تُسَامُ عَلَىٰ ٱلإِكْثَارِ بِٱلسَّأَمِ

أي: لا تقابل آيات القرآن مع الإكثار بالملال.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾؛ أي: تتقبض، وتتجمع؛ أي: تضطرب، وترتعد ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من استماعه ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ ويخافون ﴿رَبَّهُمْ﴾؛ أي: عذابه عند استماع وعيده، كلام مستأنف، مسوق لبيان آثاره الظاهرة في سامعيه، بعد بيان أوصافه في نفسه، وتقرير كونه أحسن الحديث، يقال: اقشعر جلده: أخذته قشعريرة؛ أي: رعدة، كما في «القاموس». والجلد: قشر البدن كما في «المفردات». وقال بعضهم: أصل الاقشعرار تغير، كالرعدة يحدث في جلد الإنسان عند الوجل والخوف. وفي «الإرشاد»: الاقشعرار: التقبض. يقال: اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضاً شديداً، وتركيبه من القشع، وهو الأديم اليابس، قد ضم إليه الراء ليكون باعثاً ودالاً على معنى زاد، يقال: اقشعر جلده ووقف شعره إذا عرض له خوف شديد، من منكر حائل وهمه بغتةً.

والمراد: إما بيان إفراط خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير، أو بيان حصول تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق، وهو الظاهر، إذ هو موجود عند الخشية محسوس يدركه الإنسان من نفسه، وهو يحصل من التأثر القلبي فلا ينكر.

والمعنى: إنهم إذا سمعوا بالقرآن، وقوارع آيات وعيده أصابتهم هيبة وخشية، تقشعر منها جلودهم؛ أي: يعلوها قشعريرة ورعدة.

﴿ثُمَّ﴾ إذا ذكروا رحمة الله سبحانه، وعموم مغفرته عند سماع وعده ﴿تَلِينُ

﴿جُلُودُهُمْ﴾؛ أي: لانت أبدانهم ﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: نفوسهم ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، واللين: ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخلق ولغيره من المعاني، والجلود: عبارة عن الأبدان والقلوب عن النفوس؛ أي: ثم إذا ذكروا رحمة الله، وعموم مغفرته لانت أبدانهم، واطمأنت قلوبهم إلى ذكر الله ووعده للمؤمنين، وزال عنها ما كان بها من الخشية، والقشعريرة، بسبب سماع وعيده، بأن تبدلت خشيتهم رجاء، ورهبتهم رغبة، وتعدية اللين بـ﴿إلى﴾ لتضمنه معنى السكون والاطمئنان، كأنه قيل: تسكن وتطمئن إلى ذكر الله، لينة غير منقبضة، راجية غير خاشعة، أو تلين ساكنة مطمئنة إلى ذكر الله، على أن المتضمن بالكسر يقع حالاً من المتضمن بالفتح، وإنما أطلق ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ولم يصرح بالرحمة إيذاناً بأنها أول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى.

فإن قلت[1]: لِمَ ذكرت الجلود وحدها أولاً، ثم قرنت بها القلوب ثانياً؟.

قلت: لتقدم الخشية التي هي من عوارض القلوب، فكأنه قيل: تقشعر جلودهم من آيات الوعيد، وتخشى قلوبهم من أول وهلة، فإذا ذكروا الله، ومبنى أمره على الرأفة والرحمة، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم، والقشعريرة ليناً في جلودهم، فالجملتان إشارة إلى الخوف والرجاء أو القبض والبسط.

والمعنى[2]: أي الله أنزل أحسن الحديث قرآناً كريماً يشبه بعضه بعضاً، في الصدق والبيان والوعظ والحكمة، كما تتشابه أجزاء الماء والهواء، وأجزاء النبات والزهر، تثني وتردد قصصه وأنباءه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده إذا تليت منه آيات العذاب اقشعرت الجلود، ووجلت القلوب، وإذا تليت آيات الرحمة والوعد لانت الجلود، وسكنت القلوب، واطمأنت النفوس، قال الزجاج: إذا ذكرت آيات العذاب، اقشعرت جلود الخائفين لله، وقال العباس بن عبد المطلب: قال النبي ﷺ: «من اقشعر جلده من خشية الله، تحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»، وقال ابن عمر: وقد رأى ساقطاً من

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

سماع القرآن فقال: إنا لنخشى الله، وما نسقط هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم، وقالت أسماء بنت أبي بكر: كان أصحاب رسول الله ﷺ تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم عند سماع القرآن، قيل لها: إن قوماً اليوم إذا سمعوا القرآن، خر أحدهم مغشياً عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وقال ابن سيرين: بيننا وبين هؤلاء الذين يصرعون عند قراءة القرآن، أن يُجعل أحدهم على حائطٍ باسطاً رجليه، ثم يُقرأ عليه القرآن كله، فإن رمى بنفسه فهو صادق والإشارة في قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الكتاب الموصوف بتلك الصفات، و﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ خبره؛ أي: ذلك الكتاب الذي شُرح أحواله هدى الله سبحانه ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الكتاب ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه من المؤمنين المتقين كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لصرف مقدوره إلى الاهتداء، بتأمله فيما في تضاعيفه من الشواهد الخفية، ودلائل كونه من عند الله تعالى، أو إلى ذينك الوصفين من الاقشعرار واللين؛ أي: ذلك المذكور أثر هداية الله تعالى؛ أي: ذلك الخوف من عذاب الله، والرجاء في رحمته علامة هداية الله، وتوفيقه للإيمان.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يخلق فيه الضلالة لصرف قدرته إلى مباديها، وإعراضه عما يرشده إلى الحق بالكلية، وعدم تأثره بوعده ووعيده أصلاً ﴿فَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الضال ﴿مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحق، ويخلصه من ورطة الضلال. وفي «التأويلات النجمية»: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بأن يكله إلى نفسه وعقله، ويحرمه من الإيمان بالأنبياء ومتابعتهم، وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ هَادٍ﴾ بغير ياء. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن بالياء.

والهمزة[1] في قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف معلوم من السياق، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿مَنْ﴾ موصولة، والخبر محذوف، والتقدير: أكل الناس سواء، فمن شأنه وهو الكافر أن يتقي نفسه، ويحفظها بوجهه الذي هو أشرف أعضائه. ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي:

---

(١) روح البيان.

العذاب السيء الشديد ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لكون يده التي بها كان في الدنيا يتقي المكاره، والمخاوف مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن من العذاب لا يعتريه مكروه، ولا يحتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه؛ أي: لا يستويان، فإن الأول في النار، والثاني في الجنة، قال الزجاج: المعنى: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب، كمن يدخل الجنة، قال عطاء، وابن زيد: يُرمى به مكتوفاً في النار، فأول شيء تمس النار منه وجهه، وقال مجاهد: يجر على وجهه في النار، وقال الأخفش: المعنى: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب أفضل أمّن سعد.

ثم ذكر ما ينال الكفار والعاصين، من الإهانة في ذلك اليوم. فقال: ﴿وَقِيلَ﴾ تهكماً واستهزاءً ﴿لِلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: تقول الخزنة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي: ﴿ذُوقُواْ﴾؛ أي: باشروا ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾؛ أي: وبال ما كسبت في الدنيا، ودسيتم به أنفسكم، حتى أوقعتموها في الهاوية النار الحامية، وجملة ﴿قِيلَ﴾ معطوفة على جملة ﴿يَتَّقِى﴾، وصيغة الماضي للدلالة على التحقيق، ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم، والإشعار بعلة الأمر في قوله: ﴿ذُوقُواْ﴾.

وعبارة «المراح» هنا: وتقدير[1] الكلام: أكل الناس سواء، فمن يجعل وجهه قائماً مقام الدرقة، يقي به نفسه العذاب الشديد يوم القيامة، وتقول لهم خزنة النار: ذوقوا عذاب ما كنتم تكسبونه في الدنيا، كمن هو آمن من العذاب؛ أي: لا يستويان.

قيل[2]: يلقى الكافر في النار مغلولة يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة من كبريت، مثل الجبل العظيم، فتشتعل النار فيها وهي في عنقه، فحرها على وجهه، لا يطيق دفعها عنه، للأغلال التي في يديه وعنقه، قيل: نزلت هذه الآية في أبي جهل، وأضرابه.

ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار، فقال: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) المراح. (٢) المراح.

﴿قَبۡلِهِمۡ﴾؛ أي: من قبل الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ، من الأمم السابقة؛ أي: كذبوا أنبياءهم كما كذبك قومك ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ المقدر لكل أمة منهم ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ أي: من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم إتيان العذاب والشر، منها بيناهم آمنون رافهون، إذ فوجئوا من مأمنهم. فمعنى: من حيث لا يشعرون آتاهم العذاب، وهم آمنون في أنفسهم غافلون عن العذاب، وقيل: معناه: لا يعرفون له مدفعاً ولا مرداً. وفي «التأويلات النجمية»؛ أي: أتاهم العذاب في صورة الصحة والنعمة، والسرور وهم لا يشعرون أنه العذاب، وأشد العذاب ما يكون غير متوقع ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أذاق الله سبحانه، الذين من قبلهم ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾؛ أي: الذل والهوان والصغار، يعني: أحسوا به إحساس الذائق المطعوم ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بيان لمكان إذاقة الخزي، وذلك الخزي كالمسخ، والخسف، والغرق، والقتل، والسبي، والإجلاء، ونحو ذلك من فنون النكال، وهو العذاب الأدنى ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المعد لهم ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ وأشد وأنكى من عذاب الدنيا، لعظمه ودوامه ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: لو كانوا ممن يعلم الأشياء، ويتفكر فيها، ويعمل بمقتضى علمه، لعلموا[1] ذلك، واعتبروا به، وما عصوا الله ورسوله، وخلصوا أنفسهم من العذاب، فعلى العاقل أن يرجع إلى ربه بالتوبة والإنابة، كي يتخلص من عذاب الدنيا والآخرة، وعبارة «أبي السعود»: لو كانوا يصدقون، ويوقنون بعذاب الآخرة، ما كذبوا رسلهم في الدنيا، اهـ. وعن الشبلي ـ رحمه الله ـ قال: قرأت أربعة آلاف حديث، ثم اخترت منها واحداً، وعملت به، وخليت ما سواه، لأني تأملته فوجدت خلاصي ونجاتي فيه، وكان علم الأولين والآخرين مندرجاً فيه، وذلك أن رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه: «اعمل لدنياك بقدر مقامك فيها، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للنار بقدر صبرك عليها»، فإذا كان الصبر على النار غير ممكن للإنسان الضعيف.. فليسلك طريق النجاة، المبعدة عن النار، الموصلة إلى الجنات، وأعلى الدرجات.

---

(١) روح البيان.

ثم بيَّن أن فيما قصه القرآن عليهم من الأمثال، والمواعظ، عبرةً لهم لو كانوا يعقلون، فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد بيّنا، وأوضحنا ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: لأهل مكة، والمراد[1] بالناس: أهل مكة، كما في «الوسيط»، ويُعضّده ما قاله بعضهم: من أن الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في كل ما وقع في القرآن لأهل مكة، والظاهر: التعميم لهم، ولمن جاء بعدهم إلى يوم القيامة؛ أي: أوضحنا وبيّنا لهم ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الكريم الحكيم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: كل صفة غريبة عجيبة، هي في غرابتها وحسنها كالمثل السائر، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كقصة الأولين وقصة المبعوثين يوم القيامة، وغير ذلك. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ به، ويتعظون وقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: نزل بلغة العرب، حال مؤكدة من ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ على أن مدار التأكيد هو الوصف؛ أي: المؤكد في الحقيقة هو الوصف، ومفهومه. وبعضهم جعل القرآن توطئة للحال التي هي عربياً، والحال الموطئة اسم جامد، موصوف بصفة هي الحال في الحقيقة، ويجوز أن ينتصب على المدح؛ أي: أريد بهذا القرآن قرآناً عربياً ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾؛ أي: لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه، ولا تناقض، ولا عيب، ولا خلل، والفرق[2] بينه بالفتح وبينه بالكسر: أن كل ما ينتصب كالحائط، والجدار، والعود فهو عوج بفتح العين، وكل ما كان في المعاني والأعيان الغير المنتصبة فهو بكسرها، ولذا قال أهل التفسير: لم يقل مستقيماً أو غير معوج مع أنه أخصر لفائدتين:

إحداهما: نفي أن يكون فيه عوج ما بوجه من الوجوه لما قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾.

والثانية: أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان، وقيل: غير ذي لبس، وقيل: غير ذي لحن، وقيل: غير ذي شك. كما قال الشاعر:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِيْنٌ غَيْرُ ذِيْ عِوَجٍ ... مِنَ ٱلإِلٰهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوْبِ

---

(١) روح البيان.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غير ذي عوج؛ أي: غير مخلوق، وذلك لأن كونه مقروءاً بالألسنة، ومسموعاً بالآذان، ومكتوباً في الأوراق، ومحفوظاً في الصدور لا يقتضي مخلوقيته، إذ المراد: كلام الله القديم القائم بذاته. وفي حقائق البقلي: قرآناً قديماً ظهر من الحق على لسان حبيبه، لا يتغير بتغير الزمان، ولا يرهقه غبار الحدثان، لا تعوجه الحروف، ولا تحيط به الظروف، وفي «بحر الحقائق»: صراطاً مستقيماً إلى حضرتنا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لكي يتقوا بالقرآن عما نهاهم الله تعالى، علة أخرى مترتبة على الأولى، فإن المصلحة في ضرب الأمثال هو التذكر والاتعاظ بها أولاً، ثم تحصيل التقوى، والمعنى: لعلهم يعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على حدود الله تعالى في القرآن، والاعتبار بأمثاله.

والمعنى: وعزتي وجلالي، قد بينا[1] لهؤلاء المشركين بالله، أمثال القرون الخالية، تخويفاً لهم، وتحذيراً ليتعظوا، ويزدجروا، ويقلعوا عما هم عليه، مقيمون من الكفر بربهم، بكلام عربي لا لبس فيه، ولا اختلاف ليفهموا ما فيه من مواعظ، ويعتبروا بما فيه من حكم، فيتقوا ما حذرهم فيه من بأسه وسطوته، وينيبوا إليه، ويفردوه بالعبادة، ويتبرؤوا من الآلهة والأنداد.

ثم أورد سبحانه مثلاً من تلك الأمثال، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾؛ أي: بيَّن الله تمثيل حالةٍ عجيبة، بأخرى مثلها، ثم بيَّن المثل، فقال: ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ والمراد[2] بضرب المثل هنا: تطبيق حالةٍ عجيبة بأخرى مثلها، كما مر في أوائل سورة يس. و﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثان لضرب، و﴿رَّجُلًا﴾ مفعوله الأول، أخر عن الثاني للتشويق إليه، وليتصل به ما هو من تتمته التي هي العمدة في التمثيل. و﴿فيه﴾ خبر مقدم لقوله: ﴿شُرَكَاءُ﴾، والجملة في حيز النصب على الوصفية لرجلاً، ومعنى ﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾؛ أي: مختلفون عسروا الأخلاق سيئوها. والمعنى: جعل الله تعالى للمشرك مثلاً، حسبما يقود إليه مذهبه من ادعاء كل من معبوديه

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

عبوديته، عبداً يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه، ويتعاورونه في مهماتهم المتباينة في تحسره، وتوزع قلبه. ﴿وَرَجُلًا﴾؛ أي: وجعل للموحد مثلاً رجلاً ﴿سَلَمًا﴾؛ أي: خالصاً ﴿لِّرَجُلٍ﴾ فردٍ وسيدٍ واحدٍ، ليس لغيره عليه سبيل أصلاً، فالتنكير في كل منهما للإفراد؛ أي: فرداً من الأشخاص لفرد من الأشخاص، والسلم: بفتحتين وكقتل وفسق مصدر من سلم له كذا؛ أي: خلص له واختص به كما سيأتي، وُصف به مبالغةً كرجل عدل؛ أي: سالماً أو ذُو سلامة واختصاص به، والرجل ذكر من بني آدم جاوز حد الصغر، وتخصيص الرجل لأنه أنطق، وأفطن وأعرف لما يجرى عليه من الضر والنفع، لأن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك.

والاستفهامُ في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ للإنكار؛ أي: ما يستوي الرجلان المذكوران المشترك والمختص ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: من جهة الصفة والحال، نصب على التمييز، والوحدة حيث لم يقل: مثلين لبيان الجنس وإرادته، فيُعم؛ أي: هل يستوي حالهما وصفاتهما، يعني: لا يستويان.

والحاصل: أن الكافر كالعبد الأول، في كونه حيران متفرق البال؛ لأنه يعبد آلهة مختلفة؛ أي: أصناماً لا يجيء منها خير، بل يكون سبباً لوقوعه في أسفل سافلين، كما أن العبد يخدم ملاكاً متعاسرين، مختلفي الأهوية، لا يصل إليه منهم منفعة أصلاً. والمؤمن كالعبد الثاني، في انضباط أحواله واجتماع باله، حيث يعبد رباً واحداً يوصله إلى أعلى عليين، كما أن العبد يخدم سيداً واحداً يرضى عنه، ويصل إليه بالعطاء الجزيل.

وقرأ عبد الله، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والزهري، والحسن بخلاف عنه، والجحدري، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب[1]: ﴿سالما﴾ بالألف وكسر اللام، اسم فاعل من سلم؛ أي: خالصاً عن الشركة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وقرأ الأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو رجاء، وطلحة، والحسن: بخلاف عنه، وباقي السبعة ﴿سلما﴾ بفتح السين وسكون

(١) البحر المحيط.

اللام، وهذه أيضاً مصدر وُصف به، مبالغة في الخلوص من الشركة، وقُرىء ﴿ورجل سالم﴾ برفعهما، وقال الزمخشري؛ أي: وهناك رجل سالم لرجل، انتهى. فجعل الخبر ﴿هناك﴾، وقُرىء ﴿هل يستويان مثلين﴾، فطابق حال الرجلين، ذكره أبو حيان.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حيث خصمهم، كما قال مقاتل؛ أي: قطعهم بالخصومة، وغلبهم، وأظهر الحجة عليهم، ببيان عدم الاستواء بطريق ضرب المثل، وقال الشوكاني: وجملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تقرير لما قبلها، من نفي الاستواء، وللإيذان للموحدين، بما في توحيدهم لله من النعمة العظيمة، المستحقة لتخصيص الحمد به.

ثم أضرب سبحانه، عن نفي الاستواء، المفهوم من الاستفهام الإنكاري، إلى بيان أن أكثر الناس، وهم المشركون، لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره، فيبقون في ورطة الشرك، والضلال من فرط جهلهم، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ وهم المشركون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ عدم استوائهما مع ظهوره، ووضوحه لفرط جهالتهم، أو لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره، فيشركوا به سواه.

وعبارة «المراح» في معنى الآية: أي[1]: واضرب يا أشرف الرسل لقومك مثلاً، وقل لهم: ما تقولون في رجل مملوك، قد اشترك فيه شركاء بينهم تنازع، فكل واحد منهم يدعي أنه عبده، فهم يتجاذبونه في حوائجهم، وهو متحير في أمره، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون، وإذا احتاج في مهم إليهم، فكل واحد منهم يرده إلى الآخر، فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيهم أولى بأن يُطلب رضاه، وأيهم يعينه في حاجاته، فهو بهذا السبب يلقى منهم التعب العظيم، وفي رجل آخر له مخدوم واحد، يخدمه على سبيل الإخلاص، وذلك السيد يعينه على حاجاته، فإن أطاعه عرف له، وإن أخطأ صفح عن خطئه، فأي هذين العبدين أحسن حالاً، وأحمد شأناً، وأقل تعباً؟ وهذا مثل ضربه الله للكافر، الذي يعبد

---

(١) المراح.

آلهةً شتى، والمؤمن الذي يعبد الله وحده، انتهى. وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؛ أي: هل تستوي صفتاهما، وحالاهما؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: بعد أن بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد، وثبت أن لا إله إلا هو ثبت أن الحمد لله لا لغيره ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾؛ أي: أكثر الناس لا يعلمون اختصاص الحمد بالله، فيشركوا به غيره.

وفي الآية[1]: إشارة إلى بيان عدم الاستواء، بين الذي يتجاذبه شغل الدنيا، وشغل العيال، وغير ذلك من الأشياء المختلفة، والخواطر المتفرقة، وبين الذي هو خالص لله، ليس للخلق فيه نصيب، ولا للدنيا نصيب. وهو من الآخرة غريب، وإلى الله قريب منيب.

والحاصل: أن الراغب في الدنيا شغلته أمور مختلفة، فلا يتفرغ لعبادة ربه، وإذا كان في العبادة يكون قلبه مشغولاً بالدنيا، والزاهد قد تفرّغ من جميع أشغال الدنيا، فهو يعبد ربه خوفاً وطمعاً، والعارف قد تفرغ من الكونين، فهو يعبد ربه شوقاً إلى لقائه، فلا استواء بين البطّالين والطالبين، وبين المنقطعين والواصلين الحمد لله، والثناء له خاصةً. فعلى العاقل الرجوع إلى الله، والعمل بما في القرآن، والاعتبار بأمثاله حتى يكون من الذين يعلمون حقيقة الحال.

ولما لم يلتفتوا إلى الحق، ولم ينتفعوا بضرب المثل.. أخبر سبحانه بأن مصير الجميع إلى الله تعالى، وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه تعالى، وهو الحاكم العادل، وهناك يتميز المحق من المبطل، فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿مَيِّتٌ﴾؛ أي: ستموت لا محالة ﴿وَإِنَّهُم﴾؛ أي: وكفار مكة الذين يتربصون بك الموت ﴿مَّيِّتُونَ﴾؛ أي: سيموتون؛ أي: إنكم جميعاً بصدد الموت، والموت يعمكم، ولا معنى للتربص والشماتة، بل هو عين الجهالة.

وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بالتشديد، وهي تُشعر بالثبوت واللزوم كالحي، وقرأ ابن محيصن، وابن الزبير، وابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، واليماني، وابن غوث، وابن أبي عبلة ﴿مائت ومائتون﴾. وهي تُشعر

(١) روح البيان.

بحدوث الصفة. قال الفراء والكسائي: الميت بالتشديد: من لم يمت وسيموت، والميت بالتخفيف: من قد مات وفارقته الروح، قال قتادة: نُعيت إلى النبي ﷺ نفسه، ونُعيت إليهم أنفسهم. ووجه هذا الإخبار الإعلام للصحابة بأنه ﷺ سيموت، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت، مع كونه توطئةً وتمهيداً لما بعده، حيث قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾؛ أي: إنك، وإياهم على تغليب ضمير المخاطب، على ضمير الغائب. وأكد بـ﴿إن﴾ وإن كان الاختصام مما لا يُنكر، لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ في إنكار الاختصام لانهماكهم في الغفلة عنه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: عند مالك أمركم ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: تخاصمهم يا محمد، فتحتج أنت عليهم، بأنك بلغتهم ما أرسلت به إليهم من الأحكام والمواعظ، واجتهدت في الدعوة إلى الحق، حق الاجتهاد، وهم قد لجوا في المكابرة والعناد، ويعتذرون بما لا طائل تحته، وبما لا يدفع عنهم لوماً ولا تقريعاً، ويقول التابعون للرؤساء: أطعناكم فأضللتمونا، ويقول السادة: أغوانا الشيطان، وآباؤنا الأولون، وفي «بحر العلوم»: الوجه الوجيه: أن يراد الاختصام العام، وأن يخاصم الناس بعضهم بعضاً، مؤمناً أو كافراً، فيما جرى بينهم في الدنيا بدلائل:

منها: قوله ﷺ: «أول من يختصم يوم القيامة الرجل والمرأة، والله ما يتكلم لسانها، ولكن يداها تشهدان، ورجلاها عليها بما كانت تعيّب لزوجها، وتشهد عليه يداه ورجلاه بما كان يؤذيها».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «من كان عنده مظلمة لأخيه، من عرض أو مال، فليتحلله اليوم قبل أن لا يكون دينار، ولا درهم، إن كان له عمل صالح، أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات، أُخذ من سيئات صاحبه فحُمّلت عليه»، رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال رسول الله ﷺ: «إن المفلس، من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطُرحت

عليه، ثم طُرح في النار»، أخرجه مسلم.

فإن قلت: قال في آيةٍ أخرى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾، وبينهما معارضة.

قلت: إن في يوم القيامة ساعات كثيرة، وأحوالها مختلفة، مرة يختصمون، ومرة لا يختصمون، كما أنه قال: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾. يعني: في حال يتساءلون، وفي حال لا يتساءلون، وكما أنه قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾، وفي موضع آخر ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾، ونحو هذا كثير في القرآن.

فائدة: قال ابن مسعود رضي الله عنه: لما دنا فراق رسول الله ﷺ، جمعنا في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها ثم نظر إلينا، فدمعت عيناه، وقال: «مرحباً بكم، حياكم الله، رحمكم الله، أوصيكم بتقوى الله وطاعته، قد دنا الفراق، وحان المنقلب إلى الله تعالى، وإلى سدرة المنتهى، وجنة المأوى، يغسلني رجال أهل بيتي، ويكفنوني في ثيابي هذه إن شاؤوا، أو في حلة يمانية، فإذا غسلتموني وكفنتموني، ضعوني على سريري في بيتي هذا، على شفير لحدي، ثم اخرجوا عني ساعة، فأول من يصلي عليّ، حبيبي جبرائيل، ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنودهم، ثم ادخلوا عليّ فوجاً فوجاً، فصلوا عليّ»، فلما سمعوا فراقه صاحوا وبكوا، وقالوا: يا رسول الله، أنت رسول ربنا، وشمع جمعنا، وبرهان أمرنا، إذا ذهبت عنا فإلى من نرجع في أمورنا؟ قال: «تركتكم على المحجة البيضاء»؛ أي: على الطريق الواضح «ليلها كنهارها»؛ أي: في الوضوح «ولا يزيغ بعدها إلا هالك، وتركت لكم واعظين، ناطقاً وصامتاً، فالناطق القرآن، والصامت الموت، فإذا أشكل عليكم أمر، فارجعوا إلى القرآن والسنّة، وإذا قست قلوبكم، فليّنوها بالاعتبار في أحوال الموت»، فمرض رسول الله ﷺ من يومه ذلك، من صداع عرض له، وكان مريضاً ثمانية عشر يوماً، يعوده الناس، ثم مات يوم الإثنين، ما بعثه الله فيه، فغسله علي رضي الله عنه وصب الماء ـ أي: ماء بئر غرس ـ الفضل بن عباس رضي الله عنهما، ودفنوه ليلة الأربعاء وسط الليل، وقيل: ليلة الثلاثاء في حجرة

عائشة رضي الله عنها. وفي الحديث: «من أصيب بمصيبة، فليذكر مصيبته بي، فإنها أفظع المصائب». وأنشد بعضهم:

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
وَإِذَا ٱعْتَرَتْكَ وَسَاوِسٌ بِمُصِيبَةٍ فَٱذْكُرْ مُصَابَكَ بِٱلنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

الإعراب

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ⑰﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿اجْتَنَبُوا﴾: صلة الموصول. ﴿الطَّاغُوتَ﴾: مفعول به. ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿يَعْبُدُوهَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، منصوب بأن المصدرية، والجملة في تأويل مصدر، منصوب على أنه بدل اشتمال، من ﴿الطَّاغُوتَ﴾، تقديره: والذين اجتنبوا الطاغوت عبادتها. ﴿وَأَنَابُوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على الصلة ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أنابوا﴾، ﴿لَهُمُ﴾: خبر مقدم، ﴿الْبُشْرَىٰ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع، خبر المبتدأ أعني: الموصول، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَبَشِّرْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت يا محمد ثبوت البشرى لهم، وأردت تبليغ البشارة إليهم.. فأقول لك: بشر عبادي؛ أي: بلّغ بشارتي إليهم. ﴿بشر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿عِبَادِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه، فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة، اتباعاً لرسم المصحف، وهو مضاف، والياء المحذوفة مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ⑱﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: في محل النصب صفة لـ﴿عِبَادِ﴾. ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به صلة الموصول، ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾: الفاء: عاطفة. ﴿يتبعون

أحسنه﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به معطوف على الصلة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾: فعل، ومفعول به، وفاعل، والجملة صلة الموصول والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمۡ﴾: ضمير فصل، ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾.

﴿أَفَمَنۡ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أأنت مالك أمرهم، فمن حق عليه كلمة العذاب، فأنت تنقذه، والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، والأظهر في ﴿مَنۡ﴾ كونها شرطية في محل رفع بالابتداء، والخبر الجواب الآتي، أو فعل الشرط، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿حَقَّ﴾: فعل ماض، في محل الجزم بـ﴿مَنۡ﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق بحق، ﴿كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾: فاعل، وذكّر الفعل لوجود الفاصل، أو لكون الفاعل مؤنثاً مجازياً، ﴿أَفَأَنتَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، كررت لتأكيد الأولى، لطول الفصل، والفاء رابطة لجواب الشرط وجوباً، لكون الجواب جملة اسمية، ﴿أَنتَ﴾ مبتدأ، ﴿تُنقِذُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنۡ﴾ الشرطية، معطوفة على تلك الجملة المحذوفة، والآية جملة واحدة، مركبة من شرط وجواب، معطوفة على جملة محذوفة. ﴿مَن﴾: من اسم موصول في محل النصب، مفعول تنقذ، ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾: جار ومجرور صلة من الموصولة، وهو إظهار في مقام الإضمار، والأصل: فأنت تنقذه من النار. ﴿لَٰكِنِ﴾: حرف عطف وإضراب، بمعنى بل، وليست للاستدراك؛ لأنه لم يسبقها نفي، فالكلام إضراب

من موضوع إلى موضوع مغاير للأول. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾: فعل، وفاعل، صلة الموصول، ﴿رَبَّهُمۡ﴾: مفعول به، ﴿لَهُمۡ﴾: خبر مقدم، ﴿غُرَفٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل الرفع خبر عن الموصول، وجملة الموصول، معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿مِّن فَوۡقِهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿غُرَفٞ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾: صفة غرف، والجملة في محل الرفع، صفة لـ﴿غُرَفٞ﴾ الأولى، ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾: صفة لـ﴿غُرَفٞ﴾ الثانية، وجملة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾: صفة ثانية لـ﴿غُرَفٞ﴾ أو حال من ﴿غُرَفٞ﴾. ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾: مصدر مؤكد لفعل محذوف، دل عليه قوله: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ﴾؛ لأنه في معنى: وعدهم الله ذلك، والجملة المحذوفة مستأنفة، مسوقة لتأكيد ما قبلها. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُخۡلِفُ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب حال من لفظ الجلالة، لوجود شرط مجيء الحال، من المضاف إليه.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَلَمۡ﴾: الهمزة فيه للاستفهام التقريري، ﴿لَمۡ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، أو أي مخاطب، والجملة مستأنفة مسوقة لتمثيل الحياة الدنيا، وسرعة زوالها. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَنزَلَ﴾: خبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي تر، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿مَآءٗ﴾: مفعول به، ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿سلكه﴾: فعل، وفاعل يعود على الله، ومفعول به، معطوف على أنزل، ﴿يَنَٰبِيعَ﴾: حال من مفعول سلكه. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق بـ﴿سلك﴾ أو منصوب بنزع الخافض، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: صفة له، على أنه اسم مكان. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿يُخۡرِجُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على سلكه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يُخۡرِجُ﴾، ﴿زَرۡعٗا﴾: مفعول به، ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾ صفة ﴿زَرۡعٗا﴾، ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾: فاعل، مختلفاً، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿يَهِيجُ﴾: فعل مضارع، وفاعل

مستتر يعود على زرع، معطوف على ﴿يُخْرِجُ﴾، ﴿فَتَرَىٰهُ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿تراه﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿يَهِيجُ﴾، ﴿مُصْفَرًّا﴾: حال من الضمير، لأن الرؤية بصرية. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿يَجْعَلُهُۥ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول، ﴿حُطَٰمًا﴾: مفعول ثان، معطوف على تراه، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لها، ﴿لَذِكْرَىٰ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿ذكرى﴾: اسمها مؤخر، ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ذكرى﴾؛ لأنه بمعنى التذكرة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف معلوم من السياق، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير أكل الناس سواء، فمن شرح الله صدره إلخ، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع، مبتدأ، ﴿شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿لِلْإِسْلَٰمِ﴾: متعلق بـ﴿شَرَحَ﴾، ﴿فَهُوَ﴾: الفاء، عاطفة، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة، أعني: ﴿شَرَحَ﴾. ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: صفة لـ﴿نُورٍ﴾، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: كمن قسا قلبه، وحرج صدره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿فَوَيْلٌ﴾: الفاء: استئنافية، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت عدم استوائهما، وأردت بيان حكم القاسي.. فأقول لك: ويل للقاسية قلوبهم. ﴿ويل﴾: مبتدأ، سوّغ الابتداء به ما فيه من معنى الدعاء، ﴿لِّلْقَٰسِيَةِ﴾ خبر المبتدأ. ﴿قُلُوبُهُم﴾: فاعل القاسية، ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿القاسية﴾، ﴿مِن﴾: إما للتعليل؛ أي: من أجل ذكره. وقيل: ﴿مِن﴾ بمعنى: عن، والمعنى: غلظت عن قبول الذكر، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، أو مستأنفة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: خبر. ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة

﴿ضَلَٰلٍ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ (٢٣)﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿كِتَٰبٗا﴾ بدل من أحسن الحديث، ويجوز أن يكون حالاً منه. ﴿مُّتَشَٰبِهٗا﴾: صفة لـ﴿كِتَٰبٗا﴾، ﴿مَّثَانِيَ﴾: صفة ثانية له، ﴿تَقۡشَعِرُّ﴾: فعل مضارع، ﴿مِنۡهُ﴾: متعلق به، ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب، صفة ثالثة لـ﴿كِتَٰبٗا﴾. ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمۡ﴾: فعل، وفاعل، معطوف على تقشعر، و﴿قُلُوبُهُمۡ﴾: معطوف على جلودهم، ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَلِينُ﴾، ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة. ﴿يَهۡدِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من لفظ الجلالة، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول ﴿يَهۡدِي﴾، وجملة ﴿يَشَآءُۚ﴾: صلة من الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاؤه. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جواب الشرط، أو الجواب أو هما، ﴿يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿فَمَا﴾: الفاء: رابطة الجواب، ﴿مَا﴾: نافية، أو حجازية، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، أو خبر ﴿مَا﴾: مقدم على اسمها، ﴿مِنۡ﴾: زائدة، ﴿هَادٍ﴾: مبتدأ مؤخر أو اسمها مؤخر. والجملة الاسمية في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، والجملة الشرطية مستأنفة.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

﴿أَفَمَن﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة

على ذلك المحذوف، والتقدير: أكل الناس سواء، فمن يتقي بوجهه إلخ. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ﴾: صلة الموصول، ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: مفعول به، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: ظرف، متعلق بـ﴿يَتَّقِي﴾، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: كمن أمن من العذاب، والجملة الاسمية معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾: الواو: عاطفة، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لِلظَّـٰلِمِينَ﴾: متعلق به، ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَتَّقِي﴾، ويصح أن تكون جملة ﴿قِيلَ﴾: حالاً من فاعل ﴿يَتَّقِي﴾، وإن شئت قلت: ﴿ذُوقُوا۟﴾: فعل، وفاعل، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، ولكنه على تقدير مضاف، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾، وجملة ﴿كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، ﴿فَأَتَىٰهُمُ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿أتاهم العذاب﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، معطوف على كذّب، ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أتى﴾، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حيث﴾، ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض، ومفعول أول مقدم على الفاعل، وفاعل مؤخر، ﴿ٱلْخِزْىَ﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿أتاهم﴾. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾: متعلق بـ﴿أذاقهم﴾، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة ﴿وَلَعَذَابُ﴾ الواو: استئنافية، اللام: حرف ابتداء، ﴿عذاب الآخرة﴾: مبتدأ، ﴿أَكْبَرُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على مقدر تقديره: وهذا هو العذاب الأدنى. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط، وجملة ﴿كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾: فعل شرط لـ﴿لو﴾، وجوابه محذوف تقديره: لو كانوا يعلمون شدة عذاب الآخرة.. لآمنوا بالله ورسوله، وجملة ﴿لَوْ﴾: الشرطية مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿ضَرَبْنَا﴾: فعل، وفاعل، ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بـ﴿ضَرَبْنَا﴾ على أنه مفعول ثان لـ﴿ضَرَبْنَا﴾؛ لأنه بمعنى: جعلنا وبيّنا. ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾: حال من كل مثل، أو متعلق بـ﴿ضَرَبْنَا﴾، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿كُلِّ مَثَلٍ﴾: مفعول أول لـ﴿ضَرَبْنَا﴾ أو ﴿مِن﴾: أصلية صفة لمفعول أول محذوف، تقديره: مثلاً كائناً من كل مثل، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿لَّعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه وجملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿قُرْءَانًا﴾: حال موطئة من القرآن؛ لأنها ذُكرت توطئةً للنعت بالمشتق، لما كانت جامدة، والاعتماد فيها على الصفة. ﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة لـ﴿قُرْءَانًا﴾، ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾: صفة ثانية لـ﴿قُرْءَانًا﴾، ومضاف إليه. ﴿لَّعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿مَثَلًا﴾: مفعول ثان لـ﴿ضَرَبَ﴾؛ لأنه بمعنى: جعل. ﴿رَّجُلًا﴾: مفعوله الأول أخر عن الثاني، للتشويق إليه، وليتصل به، ما هو من تتمته، التي هي العمدة في التمثيل. ﴿فِيهِ﴾: خبر مقدم. ﴿شُرَكَآءُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾: صفة لـ﴿شُرَكَآءُ﴾، والجملة الاسمية صفة لـ﴿رَّجُلًا﴾. ﴿وَرَجُلًا﴾: معطوف على ﴿رَّجُلًا﴾. ﴿سَلَمًا﴾: صفة ﴿رَّجُلًا﴾، نعت بالمصدر على سبيل المبالغة على حد: مررت برجل عدل. ﴿لِّرَجُلٍ﴾: متعلق بـ﴿سَلَمًا﴾، ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري، ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾: فعل، وفاعل، ﴿مَثَلًا﴾: تمييز محول عن الفاعل؛ أي: هل يستوي مثلهما؟. والجملة الفعلية، جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ

وخبر، والجملة الاسمية معترضة؛ لأن قوله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: إضراب انتقالي، مرتبط بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب، ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مَيِّتٌ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: ناصب واسمه، وخبره، معطوف على ما قبله. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للترتيب مع التراخي. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾، ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من اسم ﴿إنّ﴾، أو من فاعل ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾: أو متعلق بـ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾، وجملة ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ والطاغوت: يطلق على الواحد والجمع، كما في «المختار»، ويذكر ويؤنث كما في «المصباح». قال الأخفش: الطاغوت: جمع ويجوز أن يكون مفردة مؤنثة؛ أي: تباعدوا عن الطاغوت، وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها، وقال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان. وقال الضحاك والسدي: هي الأوثان، وقيل: إنه الكاهن، وقيل: إنه اسم أعجمي مثل: طالوت، وجالوت، وهاروت، وماروت. وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطغيان، وعبارة الروح: قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ من الاجتناب، وهو الابتعاد يقال: اجتنبه إذا بعد عنه، والطاغوت: البالغ أقصى غاية الطغيان، وهو تجاوز الحد في العصيان، فلعوت من الطغيان بتقديم اللام على العين، لأن أصله: طغيوت، بُني للمبالغة كالرحموت والعظموت، ثم وصف به للمبالغة في النعت، كأن عين الشيطان طغيان؛ لأن المراد به هو الشيطان، وتاؤه زائدة دون التأنيث، كما قال في «كشف الأسرار»: التاء ليست بأصلية، هي في الطاغوت كهي في الملكوت والجبروت، واللاهوت والناسوت والرحموت والرهبوت. قال

الراغب: هو عبارة عن كل متعد، وكل معبود من دون الله. وفي «القاموس»: الطاغوت: اللات، والعزى، والكاهن، والشيطان، وكل رأس ضلال، والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ومردة أهل الكتاب، وقال في «كشف الأسرار»: كل من عبد شيئاً غير الله فهو طاغ، ومعبوده طاغوت. وفي «التأويلات النجمية»: طاغوت كل أحد نفسه، وإنما يتجنب الطاغوت من خالف هواه، وعانق رضى مولاه، ورجع إليه بالخروج عما سواه، رجوعاً كلياً.

﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ جمع غرفة، وهي علية من البناء، وسمي منازل الجنة غرفا، كما في «المفردات».

﴿فَسَلَكَهُ﴾؛ أي: أدخله ﴿يَنَابِيعَ﴾ وفي زاده: الينابيع: جمع ينبوع، وهو إما الموضع الذي يجري فيه الماء من خلال الأرض، أو نفس الماء الجاري، والينبوع يفعول من نبع الماء إذا خرج، وسال. ومضارعه: ينبع بالحركات الثلاث في عين المضارع، فإن كان الينبوع بمعنى المنبع، كان نصب ينابيع على المصدر؛ أي: سلكه سلوكاً في ينابيع، وأدخله إدخالاً فيها، على أن يكون ﴿يَنَابِيعَ﴾ ظرفاً للمصدر المحذوف، فلما أقيم مقام المصدر، جعل انتصابه على المصدر، وإن كان بمعنى النابع كان انتصابه على الحال؛ أي: نابعات، اهـ. وفي «المختار»: نبع الماء إذا خرج، وبابه: قطع، ودخل، ونبع ينبع نبعاناً بفتح الباء لغة أيضاً، والينبوع: عين الماء، ومنه: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾. والجمع ينابيع، اهـ. فما يقوله العامة وهو نبع مولد غير معروف، وإنما النبع مصدر، وشجر تتخذ منه السهام والقسي، يقال: فزعوا النبع بالنبع؛ أي: تلاقوا، وتطاعنوا، وما رأيت أصلب منه نبعاً؛ أي: أشد منه.

﴿زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾؛ أي: من أصفر، وأحمر، وأخضر، وأبيض، وشمل لفظ الزرع جميع ما يستنبت من مقتات وغيره، والزرع في الأصل: مصدر بمعنى الإنبات، عُبّر به عن المزروع؛ أي: مزروعاً. ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾؛ أي: زالت خضرته، ونضارته، اهـ من «النهر». ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾؛ أي: ييبس، ويتم جفافه؛ لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور وينتشر عن منابته، ويذهب. وفي «المختار»: وهاج

النبت يهيج هياجاً بالكسر وهيجاً وهيجاناً: يبس. وفي المصباح: وهاج البقل يهيج: اصفر. ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ قال الراغب: الصفرة: لون من الألوان التي بين السواد والبياض، وهي إلى البياض أقرب، ولذلك قد يعبر بها عن السواد. ﴿حُطَٰمًا﴾؛ أي: فتاتاً. وفي «المصباح»: حطم الشيء حطماً من باب تعب، فهو حطم إذا تكسر، ويقال للدابة إذا أسنّت: حطمة، ويتعدى بالحركة فيقال: حطمته حطماً من باب ضرب فانحطم، وحطمته بالتشديد مبالغة، وتحطم العود إذا تفتت من اليبس.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ وأصل الشرح: بسط اللحم، ونحوه. يقال: شرحت اللحم، وشرحته. ومنه: شرح الصدر بنور إلٰهي وسكينة من جهته وروح، كما في «المفردات». وشرح الصدر للإسلام: الفرح به، والطمأنينة إليه، والنور البصيرة، والهدى.

﴿لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ والقسوة: جمود، وصلابة في القلب. يقال: قلب قاسٍ؛ أي: لا يرق ولا يلين، وأصله من حجر قاسٍ، والمقاساة: معالجة ذلك.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال في «المفردات»: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع، أو الوحي في يقظته أو منامه، يقال له: حديث، وفي عرف العامة: الخبر والكلام، وأحسنيته لفصاحته وإعجازه. ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾؛ أي: يشبه بعضه بعضاً في الحسن، والإحكام.

﴿مَّثَانِيَ﴾ جمع مثنى بضم الميم وفتح الثاء والنون المشددة على خلاف القياس. إذ قياسه مثنيات. أو جمع مثنى بالفتح مخففاً. وعلى الأول فهو من التثنية بمعنى التكرير والإعادة، وعلى الثاني مفعل بفتح الميم وإسكان الفاء من التثنية بمعنى التكرير أيضاً، بحذف الزوائد، أو جمع مثنى بضم الميم وإسكان الثاء وفتح النون، من أثنى الرباعي؛ أي: مثني عليه بالبلاغة والفصاحة حتى قال بعضهم لبعض: ألا سجدت لفصاحته، ويجوز أن يكون بكسر النون؛ أي: مثن عليّ بما هو أهله من صفاته العظمى، وفي «المفردات»: وسمي سور القرآن مثاني، لأنها تثنى على مرور الأيام، وتكرر، فلا تدرس ولا تنقطع دروس سائر

الأشياء التي تضمحل وتبطل على مرور الأيام، وإنما تدرس الأوراق، كما روي أن عثمان رضي الله عنه حرق مصحفين لكثرة قراءته فيهما. ويصح أن يقال للقرآن: مثاني لما يثنى ويتجدد حالاً فحالاً من فوائده، كما جاء في نعته، ولا تنقضي عجائبه، ويجوز أن يكون ذلك من الثناء، تنبيهاً على أنه أبداً يظهر منه، ما يدعو إلى الثناء عليه، وعلى من يتلوه ويعلمه، ويعمل به، وعلى هذا الوجه وصفه بالكرم في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾، وبالمجد في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١﴾. قال ابن بحر: لما كان القرآن مخالفاً لنظم البشر، ونثرهم حول أسماءه، بخلاف ما سموا به كلامهم على الجملة والتفصيل، فسمى جملته قرآناً، كما سموا ديواناً، وكما قالوا: قصيدةٌ وخطبةٌ ورسالةٌ، قال: سورة، وكما قالوا: بيت قال: آية، وكما سميت الأبيات لاتفاق أواخرها قوافي سمى الله القرآن لاتفاق خواتيم الآي فيه مثاني.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾؛ أي: تضطرب، وتتحرك، وتشمئز. يقال: اقشعر جلده: أخذته قشعريرة؛ أي: رعدة، كما في «القاموس»، والجلد: قشر البدن، كما في «المفردات»، ويقال: اقشعر جلده إذا تقبّض، وتجمع من الخوف، ووقف شعره كما مر، والمصدر: الاقشعرار، والقشعريرة أيضاً، ووزن اقشعر افعلل، ووزن القشعريرة: فَعْلَليلة، اهـ «سمين».

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾ يقال: اتقى فلان بكذا، إذا جعله وقايةً لنفسه، والتركيب يدل على دفع شيء عن شيء يضره. ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ تقدم معنى العوج في الكهف، وأن العوج بالكسر مختص بالمعاني دون الأعيان، والسر فيه فارجع إليه هناك، وقيل: المراد بالعوج: الشك، واللبس. قال:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِيْنٌ غَيْرُ ذِيْ عِوَجٍ ... مِنَ الإِلٰهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوْبِ

﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾؛ أي: متنازعون مختلفون. قال الزمخشري: التشاكس، والتشاخس: الاختلاف. تقول: تشاكست أحواله، وتشاخست أسبابه، وفي «المختار»: رجل شكس بوزن فلس؛ أي: صعب الخلق، وقوم شُكس بوزن قُفل، وبابه: سلم. وحكى الفراء: رجل شكس بكسر الكاف، وهو القياسُ. وفي

«الصحاح»: رجل شكس بالتسكين؛ أي: صعب الخلق، وقوم شكس مثل: رجل صدق وقوم صدق، وقد شكس بالكسر من باب سلم شكاسة. وفي «السمين»: والتشاكس: التخالف، وأصله سوء الخلق، وعسره. وهو سبب التخالف، والتشاجر. وفي «القرطبي» ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ من شكس يشكس شكساً، بوزن قُفل، فهو شكس مثل: عسر يعسر عسراً فهو عسر. يقال: رجل شكس، وشرس، وضرس.

﴿وَرَجُلًا﴾ والرجل: ذكر من بني آدم جاوز حد الصغر. ﴿سَلَمًا﴾ بفتحتين، وكقتل، وكفسق: مصدر من سلم له من كذا. ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ وضَرْبُ المثل: تشبيه حال عجيبة بأخرى، وجعلها مثلاً لها. ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ قال الفراء: الميت بالتشديد: من لم يمت وسيموت، والميت بالتخفيف: من فارقته الروح. ولذلك لم يخفف في الآية. قال الخليل: أنشد أبو عمرو:

إنْ تَسْأَلْنِي تُفْسِيْرَ مَيْتٍ وَمَيِّتٍ فَدُونَكَ قَدْ فَسَّرْتُ إِن كُنْتَ تَعْقِلُ
فَمَنْ كَانَ ذَا رُوْحٍ فَذَلِكَ مَيِّتٌ وَمَا ٱلْمَيْتُ إلاَّ مَنْ إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ يُحْمَلُ

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المبالغة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾، ففي تشبيه الشيطان بالطاغوت، وجوه ثلاثة من المبالغة.

١ ـ تسميته بالمصدر، كأنه نفس الطغيان.

٢ ـ بناؤه على فعلوت، وهي صيغة مبالغة كالرحموت، وهي الرحمة الواسعة، والملكوت، وهو الملك الواسع.

٣ ـ تقديم لامه على عينه، ليفيد اختصاصه بهذه التسمية.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾. فوضع الظاهر

موضع ضميرهم، تشريفاً لهم بالإضافة، ودلالة على أن مدار اتصافهم بالاجتناب والإنابة: كونهم نقاداً في الدين، يميزون الحق من الباطل، ويؤثرون الأفضل فالأفضل، اهـ من «الإرشاد».

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أوقع الظاهر وهو ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ موقع المضمر؛ لأن حقه: أفأنت تنقذه، وفيه أيضاً مجاز مرسل، علاقته السببية، فقد أطلق المسبب وأراد السبب؛ لأن الضلال سبب لدخول النار، والمعنى: أفأنت تهديه بدعائك له إلى الإيمان، فتنقذه من النار، وفيه أيضاً تكرير همزة الاستفهام الإنكاري، فالأولى لإفادته، والثانية لتأكيده لطول الكلام، ولولا طوله لم يجز الإتيان بها؛ لأنه لا يصلح في العربية أن يؤتى بألف الاستفهام في اسم الشرط، وبأخرى في الجزاء، وقيل: الاتقاء بالوجه، كناية عن عدم ما يتقي به، إذ الاتقاء بالوجه لا وجه له على حد قوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم

ومنها: الإتيان بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للدلالة على تحقق وقوع القول، وفيه أيضاً وضع الظاهر موضع المضمر، تسجيلاً عليهم بالظلم، والإشعار بعلة الأمر في قوله: ﴿ذُوقُواْ...﴾ إلخ، اهـ «أبو السعود».

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعًا﴾ لاستحضار الصورة الماضية.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ لدلالة السياق عليه حذف خبره، تقديره: كمن طبع الله على قلبه. وفيها أيضاً الاستفهام الإنكاري.

ومنها: وصف الواحد بالجمع في قوله: ﴿مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ﴾. فإنه وصف الواحد وهو الكتاب بالجمع، وهو المثاني باعتبار تفاصيله؛ لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل، فإنه يقال: القرآن أسباع، وأخماس، وسور، وآيات، وأقاصيص وأحكام، ومواعظ مكررات، كما مر.

وفائدة التكرير: فيه ترسيخ الكلام في الأذهان، فإن النفوس تمل عادة من الوعظ والتنبيه، وتسأم النصيحة بادىء الأمر، ففي تكرير النصح والموعظة تعويد لها على استساغة ذلك، والعمل به، وقد ثبت: أن رسول الله ﷺ كان يكرر عليهم ما يعظ وينصح به، ثلاثاً وسبعاً أحياناً، ليركز ذلك في نفوسهم، والمعلم النابه لا يفتأ يردد ما يلقيه على طلابه من دروس، حتى يصبح مستساغاً إليهم، هشاً في نفوسهم، بعد أن كان صعباً ممجوجاً.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ﴾؛ لأن الذوق إنما يكون في المطعوم الحالي، فعبر عن إيصال الصغار والعذاب إليهم بالإذاقة، تهكماً بهم.

ومنها: ضرب المثل في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ...﴾ الآية. وهو نوع من التشبيه، فقد شبه حال من يعبد آلهة شتى بمملوك اشترك فيه شركاء، شجر بينهم خلاف شديد وخصام مبين، وهم يتجاذبونه، ويتعاورونه في شتى آرابهم، ومتباين أهوائهم، فهو يقف متحيراً لا يدري لأيهم ينحاز؟، ولأيهم ينصاع، وأيهم أجدر بأن يطيعه؟. وحال من يعبد إلهاً واحداً، فهو متوفر على خدمته، يلبي كل حاجاته، ويصيخ سمعاً لكل ما ينتدبه إليه، ويطلبه منه.

ومنها: تنكير ﴿رجل﴾ في الموضعين للإفراد؛ أي: فرداً من الأشخاص لفرد من الأشخاص.

ومنها: تخصيص الرجل؛ لأنه أفطن لما يجرى عليه من الضر والنفع؛ لأن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾.

ومنها: الاعتراض بجملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإن جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ اعتراضية، لاعتراضها بين الكلامين، المرتبط أحدهما بالآخر، فإن قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إضراب انتقالي، مرتبط بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، فإنه انتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور، إلى بيان أن أكثرهم لا يعلمون ذلك، مع كمال ظهوره، فيبقون

في ورطة الشرك والضلال، لفرط جهالتهم.

ومنها: التمهيد بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾، فإنه تمهيد لما يعقبه من الخصام يوم القيامة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

(١) وكان الفراغ من تسويد هذا المجلد، أوائل ليلة الخميس، الإثني عشر من شهر الجمادي الثانية، من شهور سنة ألف وأربع مئة، وأربعة عشر سنة ١٢/ ٦/ ١٤١٤هـ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، بحول الله تعالى وتيسيره. ويتلوه المجلد الخامس والعشرون بتوفيقه، وأوله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، نسأل الله سبحانه الإعانة على التمام والإكمال، كما أعان على الابتداء والافتتاح، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، دائماً إلى يوم الدين، آمين.

شعرٌ

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَبَيْتٍ نَسْجُهُ مِنْ عَنْكَبُوتْ
وَكُلُّ ذِيْ غَيْبَةٍ يَؤُوْبُ وَغَائِبُ ٱلْمَوْتَ لاِ يَؤُوْبُ
إِذَا رَأَيْتَ لَحِيْنَا كُنْ سَاتِراً حَلِيْمَا
يَا مَنْ يُقَبِّحُ سَطْرِيْ لِمْ لاَ تَمُرُّ كَرِيْمَا

آخرُ

الْعَبْدُ ذُوْ ضَجَرٍ وَٱلرَّبُّ ذُوْ قَدَرٍ وَٱلدَّهْرُ ذُوْ دُوَلٍ وَٱلرِّزْقُ مَقْسُوْمُ
وَٱلْخَيْرُ أَجْمَعُ فِيْمَا ٱخْتَارَ خَالِقُنَا وَفِيْ ٱخْتِيَارِ سِوَاهُ ٱللَّوْمُ وَٱلشُّوْمُ

آخرُ

رَأَيْتُ أَخَا ٱلدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ ثَاوِيَا أَخَا سَفَرٍ يُسْرَىٰ بِهِ وَهْوَ لاَ يَدْرِيْ

آخرُ

ٱلسَّبَاقَ ٱلسَّبَاقَ قَوْلاً وَفِعْلاً حَذِرِ ٱلنَّفْسَ حَسْرَةَ ٱلْمَسْبُوْقِ

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الخامس والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الكبير المتعال، واسع الكرم والجود والفضل والنَّوال، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، ذو الجلال والإكرام، وأشهد أن سيّدنا محمداً عبده ورسوله، المرسل رحمةً للأنام، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان عليه، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الكرام، والتابعين لهم وكل من تمسّك بدين الهدى والسلام، واهتدى بهدي القرآن.

أمّا بعد: فلما فرغت من تفسير الجزء الثالث والعشرين من القرآن الكريم بمعونة الله سبحانه وتعالى.. تفرغت للشروع في تفسير الجزء الرابع والعشرين منه، قاصداً الشروع فيه بتوفيق الله سبحانه وتعالىٰ، فقلت مستمداً من الله تعالى التوفيق والهداية لأصوب الطرق وأرجح الأقاويل في تفسير كتابه، وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ

شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه(١) لما ذكر فيما سلف بعض هنات المشركين، وبعض قبائحهم، وأعقبه بمثل يشرح حالهم.. أردف ذلك بنوع آخر منها، وهو أنَّهم يكذبون فيثبتون لله ولداً، ويثبتون له شركاء، ويكذبون القائل المحقّ، فيكذبون محمداً ﷺ بعد قيام الأدلة القاطعة على صدقه، وبعد أن ذكر وعيد هؤلاء، أعقبه بوعد الذي جاء بالصدق ووعد المصدّقين له، فذكر أن الله يؤتيهم من فضله الثواب، ويمنع عنهم العقاب.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف أنه يؤتي المؤمنين ما يشاؤون في الجنة، ويكفّر سيئاتهم.. أردف ذلك ببيان أنه يكفيهم في الدنيا ما أهمّهم، ولا يضرهم ما يخوّفونهم به من غضب الأوثان والأصنام، فإن الأمور كلها بيده تعالى، فمن يضلله فلا هادي له، ومن يهده فلا مضلّ له، وهو ذو العزّة المنتقم الجبّار.

---

(١) المراغي.

ثم ذكر أن قول المشركين يخالف فعلهم، فحين تسألهم من خلق السموات والأرض يقولون: الله، وهم مع ذلك يعبدون غيره، ثمّ سألهم سؤال تعجيز: هل ما تعبدونه من صنم أو وثن يستطيع أن يكشف ضرًّا أراده الله بأحدٍ، أو يمنع خيراً قدّره الله لأحد؟ إذاً فالله حسبي وعليه أتوكّل.

وبعد أن أعيت رسوله الحيلة في أمرهم، أمره الله سبحانه أن يقول لهم: اعملوا كما تشاؤون، وعلى نحو ما تحبّون، إنّي عامل على طريقتي، ويوم الحساب ترون المحقّ من المبطل، ومن سيحلّ به العذاب المقيم الذي سيخزيه يوم يقوم الناس لربّ العالمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر محاجّة الرسول ﷺ إياهم بالأدلّة القاطعة، والبراهين الساطعة على وحدانيته تعالى[1].. سلاّه على إصرارهم على الكفر الذي كان يعظم عليه وقعه، كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ وأزال عن قلبه الخوف، فأعلمه أنه أنزل عليه الكتاب بالحق، وأنّه ليس عليه إلاّ إبلاغه، فمن اهتدى فنفع ذلك عائد إليه، ومن ضلّ فضير ضلاله عليه، وما وكل عليهم ليجبرهم على الهدىٰ.

ثمّ ذكر أنّه تعالى يقبض الأرواح حين انقضاء آجالها، ويقطع صلتها بها، ظاهراً وباطناً، أو ظاهراً فقط حين النوم، فيمسك الأولى ولا يردّها إلى البدن، ويرسل الثانية إلى البدن حين اليقظة، وفي ذلك دلائل على القدرة لمن يتفكر ويتدبر.

ثُمّ أبان أنّ هذه الأصنام التي اتخذت شفعاء لا تملك لنفسها شيئاً، ولا تعقل شيئاً، فكيف تشفع؟ وبعدئذ ذكر مقابحهم ومعايبهم، وأنه إذا قيل: لا إله إلاّ الله وحده.. ظهرت آثار النفرة في وجوههم، وإذا ذكرت الأصنام.. ظهرت علامات الفرح والسرور فيها، وهذا منتهى الجهل والحمق الشديد.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر حبَّ المشركين للشرك، ونفرتهم من التوحيد.. أمر رسوله ﷺ بالالتجاء إليه، لما قاساه في أمر دعوتهم من شديد مكابرتهم وعنادهم، تسلية له ﷺ، وبياناً بأنّ سعيه مشكور، وجدّه معلوم لديه، وتعليماً لعباده أن يلجؤوا إليه حين الشدّة، ويدعوه بأسمائه الحسنى.

ثمّ ذكر أحوالهم يوم القيامة حين يرون الشدائد والأهوال، وما ينتظرهم من العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا...﴾ الآيات، مناسبة هذه لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حكىٰ عن المشركين بعض هنواتهم الفاسدة.. حكى عنهم هناةً أخرىٰ، هي: أنهم حين الوقوع في الضرّ من فقر وضرّ يفزعون إلى الله تعالى، ويلجؤون إليه، علماً منهم أنه لا دافع له إلاّ هو، وإذا نالتهم بعض النعم من فضله.. زعموا أنّ ذلك بكسبهم وحسن صنيعهم وجميل تدبيرهم، وفي الحقيقة أنّ ما أُوتوه إنما هو فتنة لهم، واختبار لحالهم، ليعلم أيشكرون علىٰ ما حباهم به من النعم أم يكفرون؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك، وما هذه المقالة ببدع منهم، بل قالها كثير قبلهم، فلم ينفعهم ذلك شيئاً.

ثمَّ ذكر أن بسط الرزق وتقتيره بيد الله، يبسطه تارةً ويقبضه أخرىٰ، وليس ذلك لسعة الحيلة وحسن التدبير وحدهما، فإنا نرى كثيراً من العقلاء وأرباب التدبير للمال وحسن تصريفه في ضيق شديد، وكثيراً من الجهلاء والحمقىٰ في بحبوحة من العيش، ورغد عظيم منه.

أسباب النزول

قول تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه عبد الرزاق عن معمر، قال لي رجل: قالوا للنبيّ ﷺ: لتكفّنّ عن شتم آلهتنا أو لنأمرنّها فلتخيلنك، فنزلت: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر عن مجاهد: أنها نزلت في قراءة النبي ﷺ سورة النجم عند الكعبة، وفرحهم عند ذكر الآلهة.

التفسير وأوجه القراءة

ثمّ بيّن سبحانه وتعالى، حال كل فريق من المختصمين، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ و(الفاء): فاء الفصيحة؛ أو استئنافية، والاستفهام فيه، للإنكار، والتقدير: إذا عرفت أنه يقع التخاصم بين المحق والمبطل يوم القيامة، وأردت بيان حالهما.. فأقول لك: لا أحد أشدّ ظلماً من الكاذبين، وأقبح افتراءً من المفترين ممن كذب على الله سبحانه، فزعم أنّ له ولداً أو شريكاً أو صاحبةً، وفي «بحر العلوم»: فيه دلالة بينة على أنّ الاختصام واقعٌ يوم القيامة بين الظالمين والمظلومين.

والمعنى: أظلم كل ظالم من الكاذبين من افترى على الله سبحانه، بأن أضاف إليه الشرك والولد. ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ والحق؛ أي: بالأمر الذي هو عين الحقّ ونفس الصدق، وهو كل ما جاء به النبي ﷺ من التوحيد، والأوامر والنواهي والبعث والنشور والثواب والعقاب. ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ ذلك الصدق على لسان الرسول ﷺ؛ أي: فاجأه بالتكذيب ساعة مجيئه، وأوّل ما سمعه من غير تدبّر فيه ولا تأمّل.

والمعنى: أي لا أحد من الكاذبين يبلغ ظلمهُ ظلم من افترى على الله الكذب، فجعل معه آلهة أخرىٰ، أو ادَّعىٰ أنّ الملائكة بنات الله، وهو أيضاً كذّب بالحق الذي جاء به رسوله ﷺ، من دعاء الناس إلى التوحيد، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع، ونهيهم عن محرّماته، وإخبارهم بالبعث والنشور، وفي قوله: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ بيان بأنهم كذّبوا به من غير وقفة ولا إعمال روية في التمييز بين الحقّ والباطل، كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون.

وبعد أن ذكر حالهم.. أردفه بذكر وعيدهم على طريق الاستفهام الإنكاري، فقال: ﴿أَلَيْسَ﴾ لهؤلاء المفترين على الله سبحانه، المكذبين بالصدق حين جاءهم، ﴿فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾؛ أي: منزل ومسكن في نار جهنم، وقوله: ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ إظهار في مقام الإضمار.

والاستفهام[1] في ﴿أَلَيْسَ﴾ إنكاري، وإنكار النفي نفي له، ونفي النفي إثبات.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: إن جهنّم منزل ومقام للكاذبين المكذبين، المذكورين وغيرهم من الكفار، جزاءً لكفرهم وتكذيبهم.

ثمَّ ذكر سبحانه فريق المؤمنين المصدِّقين، فقال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ مبتدأ، والموصول عبارة عن رسول الله ﷺ ومن تبعه من المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فإنّ المراد موسى عليه السلام وقومه، وخبر المبتدأ: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصدق والتصديق، ﴿هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: المنعوتون بالتقوىٰ التي هي أجلُّ الرغائب وعنوان النجاة، فقال الإمام السهيلي[1] رحمه الله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ رسول الله ﷺ، والذي صدّق به، أبو بكر الصديق، وقال مجاهد: الذي جاء بالصدق: رسول الله ﷺ، والذي صدّق به عليُّ بن أبي طالب، وقال السدي: الذي جاء بالصدق: جبريل، والذي صدّق به: رسول الله ﷺ، وقال قتادة ومقاتل وابن زيد: الذي جاء بالصدق: النبيُّ ﷺ، والذي صدّق به: المؤمنون، وقال النخعيّ: الذي جاء بالصدق وصدّق به هم المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة، وقيل: إنّ ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله، وأرشد إلي ما شرعه لعباده، واختار هذا القول ابن جرير، وهو الذي اختاره من هذه الأقوال، ويؤيده قراءة ابن مسعود: والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به ولفظ ﴿ٱلَّذِى﴾ كما وقع في قراءة الجمهور، وإن كان مفرداً فمعناه: الجمع؛ لأنّه يراد به الجنس، كما يفيده قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

ودلّت الآية[2] على أنّ النبي ﷺ يصدّق أيضاً بما جاء به من عند الله، ويتلقّاه بالقبول، كما قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ ومن هنا قال بعضهم: إن النبي ﷺ مرسل إلى نفسه أيضاً، وقرأ أبو صالح: ﴿وصدَقَ به﴾ مخفّفاً؛ أي: صدق به الناس.

ثمّ ذكر سبحانه ما لهؤلاء الصادقين المصدّقين في الآخرة، بقوله: ﴿لَهُم﴾؛ أي: لهؤلاء المتقين بمقابلة محاسن أعمالهم في الدنيا. ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ في الآخرة مدّخراً لهم، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: كل ما يشاؤونه من جلب المنافع، ودفع المضارّ في الآخرة لا في الجنة فقط، لما أنّ بعض ما يشاؤونه من تكفير السيئات، والأمن

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

من الفزع الأكبر، وسائر أهوال يوم القيامة، إنما يقع قبل دخول الجنّة، ويقال أجمع العبارات لنعيم الجنة قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ وأجمع العبارات لعذاب الآخرة قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾.

وفي «التأويلات النَّجمية»: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ لأنهم تقرّبوا إلى الله تعالىٰ بالاتّقاء به عما سواه، فأوجب الله سبحانه في ذمة كرمه أن يتقرّب إليهم بإعطاء ما يشاؤون من عنده، بحسب حسن استعدادهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: حصول ما يشاؤونه، وهو مبتدأ، خبره: ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: ثواب الذين أحسنوا أعمالهم، بأن عملوها على مشاهدة الحق، وقد ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أن: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه.. فإنه يراك».

ثم بين سبحانه ما هو الغاية مما لهم عند ربهم، فقال: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ويستر، ﴿عَنْهُمْ أَسْوَأَ﴾ وأقبح وأفحش العمل ﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، من الذنوب والسيئات، فإن ذلك هو أعظم ما يرجونه من دفع الضرر عنهم؛ لأنَّ الله سبحانه إذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم.. غفر لهم ما دونه بطريق الأولىٰ، و(اللام)[1]: إما متعلقة بـ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ يعني الذين أحسنوا رجاء أن يكفّر الله عنهم، أو بالجزاء؛ يعنيْ جزاهم كي يكفّر عنهم، كذا في «كشف الأسرار». وقال أبو السعود ـ رحمه الله ـ: (اللام): متعلق بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾، باعتبار فحواه الذي هو الوعد؛ أي: وعدهم الله تعالى جميع ما يشاؤونه من زوال المضار وحصول المسارّ؛ ليكفر عنهم بموجب الوعد أسوأ الذي عملوا، دفعاً لمضارّهم، أو بمحذوف تقديره: يسّر لهم ذلك ليكفر.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، والظاهر أنه اسم تفضيل، وقيل: إنّ أفعل هنا ليس للتفضيل، وهو كقولك: الأشجّ أعدل بني مروان؛ أي: عادل، فكذلك هذا؛ أي: سيّىء الذي عملوا، ويدل علىٰ هذا التأويل قراءة ابن مقسم وحامد بن يحيى عن ابن كثير: ﴿أسواء﴾ هنا وفي حم السجدة بألف بين الواو والهمزة بزنة أجمال، جمع سوء، ولا تفضيل فيه.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

والمعنى[١]: لهم من الكرامة عند ربهم ما تشتهيه أنفسهم، وتقرّ به أعينهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وذلك جزاء من أحسن عملاً، فأخلص لربّه في السرّ والنجوىٰ، وراقبه في أقواله وأفعاله، وعلم أنه محاسب على النقير والقطمير والجليل والحقير. ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا﴾ وذلك أعظم ما يرجونه من دفع الضرّ عنهم، والنفس: إذا علمت زوال المكروه عنها.. كان لها في ذلك سرور ولذّة تعدل السرور واللذة بجلب المنافع لها.

ولما ذكر سبحانه ما يدلّ على دفع المضارّ عنهم.. ذكر ما يدلّ على جلب أعظم المنافع إليهم، فقال: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾؛ أي: ويعطيهم ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: على حسن ما كانوا يعملونه؛ أي: ويثيبهم بمحاسن أعمالهم ولا يجزيهم بمساوئها، فهو معطوف على ﴿يكفر﴾، والظاهر: أنّ الأسوأ والأحسن بمعنى السيىء والحسن، فأفعل التفضيل ليس[٢] على بابه، فبهذا الاعتبار عمّ الأسوأ جميع معاصيهم، والأحسن جميع حسناتهم، ولولا هذا التأويل.. لاقتضى النظم أنه يكفّر عنهم أقبح السيئات فقط، ويجزيهم على أفضل الحسنات فقط، هذا مراده، والله أعلم بمعاني كتابه. اهـ شيخنا، وقال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء، وقدّم تكفير السيئات على إعطاء الثواب؛ لأنّ دفع المضارّ أهمُّ من جلب المسارّ، وفي ذكر تكفير الأسوأ؛ إشارة إلى استعظامهم للمعصية مطلقاً، لشدّة خوفهم من الله تعالى، وإلى أنّ الحسن الذي يعملونه هو الأحسن عند الله تعالى لحسن إخلاصهم فيه.

واعلم[٣]: أنّ سبب التكفير والأجر الأحسن هو الصدق، وهو من المواهب لا من المكاسب في الحقيقة، وإن كان حصول أثره منوطاً بفعل العبد، ويجري في القول والفعل والوعد والعزم.

والصدق: وديعة الله في عباده، ليس للنفس فيه نصيب؛ لأنّ الصدق سبيل إلى الحق، وأبىٰ الله أن يكون لصاحب النفس إليه سبيل.

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات. (٣) روح البيان.

قال النبي ﷺ لمعاذ - رضي الله عنه -: «يا معاذ، أخلص دينك يكفك القليل من العمل». ولما قالت قريش: لئن لم تنته يا محمد عن تعييب آلهتنا.. لنسلّطنّها عليك فتصيبك بخبل وتعتريك بسوء.. أنزل الله سبحانه قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾.

قرأ الجمهور[1]: ﴿عَبْدَهُۥ﴾، بالإفراد، والمراد به: النبي ﷺ، أو الجنس، ويدخل فيه رسول الله ﷺ دخولاً أوّليًا، وقرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر ومجاهد وابن وثّاب وطلحة والأعمش: ﴿عباده﴾ بالجمع والمراد بهم: الأنبياء أو المؤمنون أو الجميع، واختار أبو عبيد قراءة الجمهور؛ لقوله عقبه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾. وقرىء ﴿بكافي عبده﴾ على الإضافة، و﴿يكافي عباده﴾ مع نصب ﴿عباده﴾، بصيغة المضارع.

والهمزة فيه للاستفهام التقريري؛ لأنّه أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفادت معنى إثبات الكفاية وتقريرها، وكونها للتقرير معناه: طلب الإقرار بما بعد النفي، وكونها للنفي معناه: نفي النفي الذي دخل عليه، ونفي النفي إثبات، فمآل المعنيين واحد، اهـ «كرخي». والكفاية: ما فيه سدّ الخلّة وبلوغ المراد في الأمر؛ أي: هو تعالى كافٍ عبده محمداً ﷺ أمر من يعاديه، وناصره عليه، وفيه تسلية له ﷺ.

وقيل: المراد بالعبد والعباد: ما يعمّ المسلم والكافر، قال الجرجاني: إنّ الله كاف عبده المؤمن، وعبده الكافر، هذا بالثواب، وهذا بالعقاب اهـ.

والمعنى[2]: أي الله وحده هو الذي يدفع عن عباده الآفات، ويزيل عنهم المصائب والويلات، ويعطيهم جميع المشتهيات، والمراد أنه يكفي من عبَدَه، وتوكّل عليه، وأتى بالكلام على طريق الإنكار للإشارة إلى كفايته تعالى على أبلغ وجه، كأنها من الظهور بحيث لا يتيسّر لأحد أن ينكرها.

ثمّ رتّب على ذلك ما هو كالنتيجة لما سلف، فقال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾؛ أي: يخوفك المشركون يا محمد، ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: بالأوثان التي اتخذوها آلهة من دون الله تعالى، ويقولون: إنّك تعيبها، وإنها لتصيبك بسوء كالهلاك أو

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الجنون أو فساد الأعضاء، وقال بعض المفسرين: إنّ هذه الآية؛ أعني: قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ نزلت مرة في حق النبي ﷺ، ومرة في شأن خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ كسورة الفاتحة حيث نزلت مرةً بمكة ومرةً بالمدينة.

أي[1]: ويخوّفك المشركون بغير الله تعالى من الأوثان والأصنام عبثاً وباطلاً، لأنّ كل نفع أو ضرّ فلا يصل إلاّ بإرادته تعالىٰ، وقد روي أنهم خوّفوا النبي ﷺ مضرّة الأوثان، فقالوا: أتسبّ آلهتنا، لئن لم تكفّ عن ذكرها.. لتخبلنّك أو تصيبنّك بسوءٍ، وقال قتادة: مشىٰ خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس، فقال له سادنها: أحذّركها يا خالد، فإن لها شدّة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس، وفي الآية إيماء إلى أنّه سبحانه يكفي نبيّه ﷺ دينه ودنياه، ويكفي أتباعه أيضاً ويكفيهم شرّ الكافرين، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُۚ﴾، وقوله تعالى: حكايةً عن إبراهيم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾. ثم بيّن شديد جهلهم لتوعّدهم بما لا يضرّ ولا ينفع فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾؛ أي: ومن يجعله الله ضالاً عن الطريق القويم والفهم المستقيم، حتىٰ غفل عن كفايته تعالى وعصمته للنبي ﷺ، وخوفه بما لا ينفع ولا يضرّ أصلاً. ﴿فَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الضالّ ﴿مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى خير ما، ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ سبحانه؛ أي: ومن يرشده إلى الصراط المستقيم ﴿فَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الهادي ﴿مِن مُّضِلٍّۗ﴾ يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يخلّ بسلوكه طريق الهدىٰ، إذ لا رادّ لفعله. ولا معارض لإرادته.

والمعنى: أي ومن يضلله الله لتدسيته نفسه، وحبّه للإثم والفسوق ومعصية الرسول.. فما له من هاد يهديه إلى الرشاد، ويخلّصه من الضلال ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ﴾؛ أي: ومن يوفّقه الله إلى أسباب السعادة بتزكية نفسه، وتحبيبها إلى صالح العمل.. فلا مضلّ له يصرفه عن مقصده، أو يصيبه بسوء يغيّر سلوكه، إذ لا معقّب لحكمه، ولا معارض لإرادته.

وفي «التأويلات النجمية»: فيه إشارة إلى أن رؤية الخير والشر من غير الله تعالى ضلالة، والتخويف بمن دون الله غاية الجهالة.

---

(١) المراغي.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: بغالب منيع يعزّ من يعبده ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ من أعدائه لأوليائه.. للتقرير[1]؛ لأنّ الاستفهام إذا دخل على النفي.. أفاد تحقيقاً وتقريراً، كما مرّ.

والمعنى: أنَّ الله عزيز لا يغالب، ومنيع لا ينازع ولا يمانع، وذو انتقام وعقوبة ينتقم من عصاته بما يصبّه عليهم من عذابه، وما ينزله بهم من سوط عقابه، فهو الذي لا يضام من استند إلى جنابه، أو لجأ إلى بابه.

ثمّ أقام الدليل على غفلتهم وشديد جهلهم في عبادتهم للأصنام والأوثان، مع تفرّده تعالى بالخالقية لكل شيء، وعدم خلقها شيئاً، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا محمد؛ أي: وعزّتي وجلالي، لئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين الذين يخوّفونك بآلهتهم، فقلت لهم: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: من اخترع هذين الجنسين المعبّر عنهما بالعالم.. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء الكفرة في الجواب خلقهنّ ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ لوضوح الدليل على اختصاصه بالخالقية. و﴿اللام﴾ الأولى: توطئة وتمهيد للقسم، والثانية تأكيد له، وهو سادّ مسدّ جوابين.

وفي هذا[2] أعظم دليل على أنّهم كانوا في غفلة شديدة، وجهالة عظيمة؛ لأنهم إذا علموا أنَّ الخالق لهم ولما يعبدون من دون الله هو الله سبحانه فكيف استَحْيَنَتْ عقولهم عبادة غير خالق الكل وتشريك مخلوق مع خالقه في العبادة؟ وقد كانوا يذكرون بحسن العقول، وكمال الإدراك، والفطنة التامّة، ولكنهم لمّا قلدوا أسلافهم، وأحسنوا الظنّ بهم.. هجروا ما يقتضيه العقل، وعملوا بما هو محض الجهل. وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى إنّ الإيمان الفطري مركوز في جبلة الإنسان من يوم الميثاق، إذ أشهدهم الله على أنفسهم، فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾. وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»، فلا يزال يوجد في الإنسان وإن كان كافراً أثر ذلك الإقرار، ولكنّه غير نافع إلاّ مع الإيمان الكسبيّ بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاؤوا به. انتهى.

---

(١) روح البيان.　　(٢) الشوكاني.

ثمّ أمر الله سبحانه رسوله أن يبكّتهم ويوبّخهم بعد هذا الاعتراف، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد تبكيتاً وتوبيخاً لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾؛ أي: أخبروني، جعل الرؤية وهو العلم الذي هو سبب الإخبار مجازاً عن الإخبار، ﴿مَا تَدْعُونَ﴾؛ أي: تعبدون، و﴿مَا﴾: عبارة عن الآلهة، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ والضرّ: سوء الحال أيّاً كان، من مرض وضيق معيشة وشدّة وبلاء، و﴿الهمزة﴾ في ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾: للاستفهام الإنكاريّ، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفكّرتم ما أقررتم به فرأيتم... إلخ.

والظاهر(١): أن ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا لم يكن خالق سواه تعالى.. فأخبروني عن آلهتكم التي تعبدونها، أنّه إن أرادني الله بضرّ.. هل هن كاشفات ضُرّه، ﴿أَوْ﴾ أنه إن ﴿أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾؛ أي: بنفع من صحةٍ أو غنىً أو غير ذلك من المنافع، ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: أخبروني عن آلهتكم هذه، هل تقدر على كشف ما أراده الله بي من الضر، أو منع ما أراده الله لي من الخير، وإذا لم تكن لها قدرة على شيء.. فلا ينبغي التعويل عليها، ولا الكدُّ في عبادتها، بل نعبد الإله القادر الذي تكون عبادته كافية في جلب السرّاء ودفع الضراء، والضرّ: سوء الحال أيًّا كان من مرضٍ وضيق معيشةٍ وشدةٍ؛ والكشف: الإظهار والإزالة ورفع شيء عما يواريه ويغطيه.

وحاصل المعنى(٢): أي إذا حققتم وأيقنتم أنّ خالق العالم العلويّ والسفلي هو الله تعالى.. فأخبروني أنّ آلهتكم إن أرادني الله بضرّ هل هنّ يكشفن عنّي ذلك الضرر والبلاء ويدفعنه عنّي؛ أي: لا تقدر على دفعه وإزالته، أو أرادني برحمة ونفعٍ من المنافع، هل هنّ ممسكات رحمته فيمنعنها عنّي؟ أي: لا تقدر على إمساك تلك الرحمة ومنعها، وتعليق إرادة الضُّرِّ والرحمة بنفسه ﷺ للردّ في نحورهم، حيث كانوا خوّفوه مضرّة الأوثان، ولما فيه من الإيذان بإمحاض النصح، وإنما قال: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ و﴿مُمْسِكَٰتُ﴾ إبانةً لكمال ضعفها، وإشعاراً بأنوثتها، كما قال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ وهم كانوا يصفونها بالأنوثة، مثل العزى

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

واللات ومناة، فكأنه قال: كيف أشركتم به تعالى هذه الأشياء الجماديّة البعيدة من الحياة والعلم والقدرة والقوّة والتمكّن من الخلق؟ هلاّ استحييتم من ذلك؟ وجواب هذا الاستخبار محذوف، تقديره: فإنهم سيقولون لا تقدر على شيء من ذلك.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ و﴿مُمۡسِكَٰتُ﴾ على الإضافة، وقرأ شيبة والأعرج وعمرو بن عبيد وعيسى بخلاف عنه وأبو عمرو وأبو بكر: بتنوينهما، ونصب ما بعدهما، واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة أبي عمرو؛ لأنّ ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ اسم فاعل في معنى الاستقبال، وما كان كذلك فتنوينه أجود، وبها قرأ الحسن وعاصم.

قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية.. سألهم النبيّ ﷺ فسكتوا، وقال غيره: قالوا لا تدفع شيئاً من قدر الله، ولكنها تشفع، فنزل قوله: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهم ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾؛ أي: الله كافيّ في جميع أموري من جلب نفع أو دفع ضرّ، فلا أخاف شيئاً من أصنامكم التي تخوّفونني بها ﴿عَلَيۡهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره أصلاً ﴿يَتَوَكَّلُ﴾ ويعتمد ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ أي: المعتمدون لعلمهم بأنّ ما سواه تحت ملكوته تعالى، وفيه إشارة إلى أن من تحول عن الكافي إلى غير الكافي.. لم يتمّ أمره، فلا بدّ من التوكّل على رب العباد، والتسليم له والانقياد، وفي الحديث: «من أحبّ أن يكون أقوى الناس.. فليتوكّل على الله، ومن أحبّ أن يكون أغنى الناس.. فليكن بما في يد الله عزّ وجلّ أوثق منه بما في يديه، ومن أحبّ أن يكون أكرم الناس.. فليتق الله عزّ وجلّ.

وفي الحديث الصحيح: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت.. فاسأل الله، وإذا استعنت.. فاستعن بالله، واعلم أنّ الناس لو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك.. لم يضرُّوك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك.. لم ينفعوك، رفعت الأقلام، وجفّت الصحف، واعلم أنَّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسرا».

---

(١) البحر المحيط.

ونحو الآية قول هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ حين قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾. فالعصمة من الله تعالى.

حكي: أنّ سفينة مولى رسول الله ﷺ، أخطأ الجيش بأرض الروم، وأسر، فانطلق هارباً يلتمس الجيش، فإذا بأسدٍ فقال له: يا أبا الحارث، أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ، فكان مرادي كيت وكيت، فأقبل الأسد يتبصبص حتى قام إلى جنبه، فركب عليه، فكان كلما سمع صوتاً أهوىٰ إليه فلم يزل كذلك حتى بلغ الجيش، ثمّ رجع الأسد.

وفيه إشارات:

منها: أن الحيوان المفترس لا يقدر على الإضرار إذا كان المرء في عصمة الله، فكيف الجماد؟

ومنها: أنَّ طاعة الله تعالى والتوكل عليه سبب النجاة من المهالك.

ومنها: أنَّ الاستشفاع برسول الله والتقرب إليه بالإيمان والتوحيد والعمل بسنّته، يهدي إلى سواء الصراط، كما هدىٰ سفينة ـ رضي الله عنه ـ.
فعلى العاقل إخلاص التوحيد، والإعراض عمّا سواه تعالى، فإنّه تعالى كاف لعبده في كل حال من الأحوال، وفي كل أمر من الأمور.

ولمَّا أورد عليهم الحجة التي لا دافع لها.. أمر رسوله أن يقول لهم على وجه التهديد بقوله: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ي ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ أي: على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة التي تمكنتم فيها، فإن[1] المكانة تستعار من العين للمعنى، كما استعير هنا، وحيث: للزمان مع كونهما للمكان. وقرأ أبو بكر: ﴿مكاناتكم﴾ بالجمع. ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ على مكانتي وحالتي التي أنا عليها، وتمكنت منها، ولا يزيد حالي إلا قوةً ونصرةً وحذف ذلك للعلم به مما قبله. ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ﴾ بسوء أعماله، و﴿مَن﴾ مفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾. ﴿عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ ويذلّه

---

(١) روح البيان.

ويهينه في الدنيا، فيظهر عند ذلك أنّه المبطل، وخصمه المحقّ. والمراد بهذا العذاب، عذاب الدنيا، وما حلّ بهم من القتل والأسر والقهر والذلّة وخزي أعدائه، دليل على غلبته، فقد نصره الله سبحانه، وعذَّب أعداءه، وأخزاهم يوم بدر.

ثم ذكر عذاب الآخرة فقال: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ينزل عليه من أفعاله من الحلول بمعنى النزول، ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: دائم إلى الأبد، لا يفارقه ولا ينقطع عنه، وهو عذاب النار.

يعني: أنتم الهالكون؛ بسبب كونكم على البطلان، ونحن الناجون؛ بسبب كوننا على الحق، فسوف ينكشف ربحنا وخسرانكم، وسوف تظهر زيادتنا ونقصانكم، وسوف يغالبكم الله، ولا جواب لكم، ويعذّبكم ولا شفيع لكم، ويدمّر عليكم ولا صريخ.

والمعنى[1]: اعملوا على ما أنتم تعتقدون في أنفسكم من القوّة والشدّة واجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم، فإنّي عامل أيضاً في تقرير ديني، والسعي في نشره بين الناس، فسوف تعلمون أنّ العذاب والخزي في الدنيا يصيبني أو يصيبكم، فيظهر حينئذ أيُّنا المبطل، أنا أو أنتم، ويحل علي العذاب المقيم الدائم في الآخرة أو عليكم.

ثمّ لمّا كان يعظم على رسول الله ﷺ إصرارهم على الكفر.. أخبره بأنه لم يكلّف إلاّ بالبيان، لا بأنه يهدي من ضلّ فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: لأجل نفعهم واهتدائهم به، فإنه مناط لمصالحهم في المعاش والمعاد، وفيه بيان ما كُلّفوا به، و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إما حال من فاعل ﴿أَنزَلْنَآ﴾؛ أي: حال كوننا محقّين في إنزاله، أو من مفعوله؛ أي: حال كون ذلك الكتاب متلبساً بالحق والصدق؛ أي: كل ما فيه حقٌّ وصواب لا ريب فيه، موجب للعمل به حتماً. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بأن عمل بما فيه ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: إنما نفع به نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بأن لم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لما أن وبال ضلاله مقصور عليها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: بمكلف بهدايتهم مخاطب، بل ليس عليك إلا البلاغ،

---

(١) المراغي.

وقد فعلت؛ أي: وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى، وما وظيفتك إلا البلاغ، وقد بلّغت أيّ بلاغ، وفي «فتح الرحمن» قوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ قاله هنا بحذف فإنما يهتدي المذكور في يونس والإسراء، اكتفاءً بما ذكره بقوله قبل: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ انتهى.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أنّ القرآن مذكّر جوار الحق للناس الذين نسوا الله وجواره، فمن تذكّر بتذكيره، واتّعظ بوعظه، واهتدى بهدايته.. كانت فوائد الهداية راجعةً إلى نفسه، بأن تنوّرت بنور الهداية، فانمحى عنها آثار ظلمات صفاتها الحيوانيّة السبعية الشيطانية الموجبة لدخول النار. ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فإنه يوكله إلى نفسه وطبيعته، فتغلب عليه الصفات الذميمة، فيكون حطب النار. ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد عليهم بوكيل تحفظهم من النار، إذا كان في استعدادهم الوقوع فيها.

وحاصل معنى الآية[2]: إنّا أنزلنا إليك يا محمد القرآن بالحقّ؛ لتبلّغه للإنس والجنّ مبشّراً برحمة الله، ومنذراً بعقابه، وفيه مناط مصالحهم في معاشهم ومعادهم، والهادي لهم إلى الصراط المستقيم. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فمن عمل بما فيه واتّبعه.. فإنما بغى الخير لنفسه، إذ أكسبها رضا خالقها، وفاز بالجنة ونجا من النار. ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ أي: ومن حاد عن البيان الذي بيناه لك، فضل عن المحجة.. فإنما يجور على نفسه، وإليها يسوق العطب والهلاك؛ لأنّه يكسبها سخط الله، وأليم عقابه في دركات الجحيم. ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ أيـها الـرسـول ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: برقيب على من أرسلت عليهم ترقب أعمالهم، وتحفظ عليهم أفعالهم، إنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب، ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ وقـولـه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وهذه الآيات منسوخة بآية السيف[3]، فقد أمر الله رسوله ﷺ بعد هذا أن يقاتلهم حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ويعملوا بأحكام الإسلام.

ثمّ ذكر سبحانه وتعالى نوعاً من أنواع قدرته البالغة، وصنعته العجيبة، فقال:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾؛ أي[1]: يقبض الأرواح الإنسانية عن الأبدان، بأن يقطع تعلّقها عنها، وتصرُّفها فيها ظاهراً وباطناً، وذلك عند الموت، فيزول الحسّ والحركة عن الأبدان، وتبقى كالخشب اليابس، ويذهب العقل والإيمان والمعرفة مع الأرواح؛ أي: يقبض الأنفس التي بها الحياة، والأنفس التي بها الإدراك جميعاً.

﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: حين موت أبدانها وأجسادها، فالكلام على حذف مضاف، كما في «الوسيط». والموت: زوال القوّة الحسّاسة. كما أنّ الحياة وجود هذه القوة، ومنه سمِّي الحيوان حيواناً، ومبدأ هذه القوّة هو الروح الحيواني، الذي محلّه الدماغ، كما أنّ محلّ الروح الإنساني القلب الصنوبري، ولا يلزم من ذلك تحيزه فيه، وإن كانت الأرواح البشرية متحيزة عند أهل السنة، ثمّ إنّ الإنسان ما دام حيّاً فهو إنسان بالحقيقة، فإذا مات.. فهو إنسان بالمجاز؛ لأنَّ إنسانيته في الحقيقة إنما كانت بتعلُّق الروح الإنسانيّ وقد فارقه. ﴿و﴾ يتوفى الأنفس ﴿التي لم تمت﴾؛ أي: ويقبض الأرواح المدركة التي لم تمت أجسادها. ﴿فِي مَنَامِهَا﴾؛ أي: حين نومها، بأن يقطع تعلُّقها عن الأبدان، وتصرّفها فيها ظاهراً وباطناً، فالنائم يتنفّس ويتحرّك ببقاء الروح الحيوانيّ، ولا يعقل ولا يميّز بزوال الروح الإنساني. وقوله: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: فيمسك الله الأنفس التي قضى وحكم عليها موت أجسادها عنده، ولا يردُّها إلى أجسادها، وذلك الإمساك إنما هو في عالم البرزخ، التي تكون الأرواح فيه بعد المفارقة من النشأة الدنيويّة، وهو غير البرزخ بين الأرواح المجرّدة والأجسام التي قبل النشأة الدنيويّة، ويسمّى عالم المثال؛ أي: يمسك أنفس الإماتة عنده، ولا يردها إلى البدن، وأسند القبض إليه تعالى؛ لأنّه الآمر للملائكة القابضين، وفي «زهرة الرياض» التوفي من الله تعالى: الأمر بخروج الروح من البدن، ولو اجتمعت الملائكة.. لم يقدروا على إخراجها، فالله يأمرها بالخروج، كما أمرها بالدخول، ومن الملائكة المعالجة.

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ...﴾ إلخ، راجع إلى قوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي

(١) روح البيان.

مَنَامِهَاۖ﴾؛ أي: ويرسل أنفس الإدراك، وهي النائمة إلى أبدانها عند اليقظة، والنّزول من عالم المثال المقيّد، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ أي: إلى وقت معلوم، وهو الوقت المضروب لموتها، وهو غاية لجنس الإرسال؛ أي: لا لشخصه، حتى يرد لزوم أن لا يقع نوم بعد اليقظة الأولى، فتوفي الأنفس في حال النوم بإزالة الإدراك، وخلق الغفلة، والآفة في محل الإدراك، وتوفيها في حالة النوم بخلق الموت، وإزالة الحس بالكلية، فيمسك التي قضى عليها الموت، بأن لا يخلق فيها الإدراك، ويرسل الأخرى بأن يعيد إليها الإحساس، اهـ «جمل».

وقرأ الجمهور: ﴿قَضَىٰ عَلَيۡهَا﴾ مبنيًا للفاعل، ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾ نصباً، وقرأ ابن وثاب والأعمش وطلحة وعيسىٰ وحمزة والكسائي: مبنياً للمفعول، ﴿الموتُ﴾ رفعاً.

وعبارة النسفي هنا: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ وتوفّيها: إماتتها. ، وهو: أن يسلب ما هي به حيّة حسّاسة درّاكة. ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾؛ أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها؛ أي: يتوفّاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى، حيث لا يميِّزون ولا يتصرفون، كما أنّ الموتى كذلك، ومنه قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ ﴿فَيُمۡسِكُ﴾ الأنفس ﴿ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ الحقيقيّ؛ أي: لا يردُّها في وقتها حيّةً. ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ النائمة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ أي: إلى وقت ضربه لموتها، وقيل: ﴿يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾؛ أي: يستوفيها ويقبضها، وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة، ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، وهي أنفس التميز.

قالوا: فالتي تتوفّى في المنام، هي نفس التمييز لا نفس الحياة، إذْ لو زالت. . زال معها النفَس، بفتح الفاء، والنائم يتنفس، ولكل إنسان نفسان، إحداهما: نفس الحياة، وهي التي تفارقه عند الموت، والأخرى: نفس التمييز، وهي التي تفارقه إذا نام، اهـ.

وقال سعيد بن جبير: إنّ الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف.

وعبارة المراغي: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾؛ أي[1]: الله هو الذي

---

(١) المراغي.

يقبض الأنفس حين انقضاء آجالها بالموت، ويقطع تعلّقها بالأجساد تعلق المتصرّف فيه، ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾؛ أي: ويتوفى الأنفس التي لم يحضر أجلها، فيقبضها من التصرّف في الأجساد مع بقاء الأرواح متصلة بها. ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ فلا يردّها إلى الأجساد، ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾؛ أي: ويرسل النائمة إلى الأجساد حين اليقظة إلى أجل مسمى، وهو وقت الموت.

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: «إنّ في ابن آدم نفساً وروحاً، بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي هي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النفَس ـ بفتح الفاء والتحرُّك ـ فيتوفيان عند الموت، وتتوفى النفس وحدها حين النوم.

وأخرج أحمد والبخاريّ وأبو داود وابن أبي شيبة عن أبي قتادة: أنّ النبي ﷺ قال لهم ليلة الوادي: «إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء، وردّها عليكم حين شاء».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من توفي الأنفس مائتة ونائمة، وإمساكها وإرسالها إلى أجل مسمّى. ﴿لَآيَاتٍ﴾ عجيبة، دالّة على كمال قدرته تعالى، وحكمته وشمول رحمته ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفية تعلق الأرواح بالأبدان، وتوفيها(١) عنها تارةً بالكلية، كما عند الموت وإمساكها باقية بعد الموت لا تفنى بفناء الأبدان، وأخرى عن ظواهرها فقط، كما عند النوم، وإرسالها حيناً بعد حين إلى انقضاء آجالها، وانقطاع أنفاسها؛ أي: لآيات عظيمة دالة على قدرته لقوم يُجيلون فيه أفكارهم فيعتبرون.

ثمّ أنكر سبحانه على المشركين اتخاذ الأصنام شفعاء، فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ فـ﴿أَمِ﴾ منقطعة تقدر ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: أبل اتخذ هؤلاء المشركون من أهل مكة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: من دون إذنه تعالى ﴿شُفَعَاءَ﴾ تشفع لهم عنده تعالى في جلب منفعة أو دفع مضرّة، هي الأصنام، جمع شفيع، وهو من يطلب الخير من الغير للغير.

---

(١) روح البيان.

وإجمال المعنى: أنّه لا ينبغي لهم ذلك إذ لا يخطر على بال عاقل فائدة لهذا، ومن ثم أمر رسوله ﷺ أن يتهكم بهم، ويحمقهم على ما يفعلون، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول ﴿أَ﴾ تتخّذونهم شفعاء كما تزعمون، ﴿ولو كانوا لا يملكون﴾ لكم ﴿شَيْئًا﴾ من حوائجكم ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم، فـ﴿الهمزة﴾[1]: لإنكار الواقع واستقباحه. والتوبيخ عليه، دالة على محذوف كما قدّرنا، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أيشفعون ولو كانوا إلخ، وجواب ﴿لو﴾: محذوف، تقديره: تتخذونهم؛ أي: وإن كانوا بهذه المنزلة تتخذونهم شفعاء.

ومعنى[2] ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾: أنهم غير مالكين لشيء من الأشياء، وتدخل الشفاعة في ذلك دخولاً أولياً، ولا يعقلون شيئاً من الأشياء؛ لأنها جمادات لا عقل لها، وجمعهم بالواو والنون جمع العقلاء؛ لاعتقاد الكفار فيهم أنهم يعقلون.

والمعنى: قل لهم يا محمد: أفتتخذون الأصنام شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلونه، فضلاً عن أن يملكوا الشفاعة عند الله سبحانه، ويعقلوا أنكم تعبدونهم.

وفي «التأويلات النجمية» يشير إلى أن اتخاذ الأشياء للعبادة أو للشفاعة بالهوى والطبع، لا بأمر الله تعالى ووفق الشرع يكون ضلالةً على ضلالة، وأن المقبول من العبادة والشفاعة ما يكون بأمر الله ومتابعة نبيّه ﷺ على وفق الشرع.

ثم أمر سبحانه رسوله أن يخبرهم أن الشفاعة لله وحده، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، بعد تبكيتهم وتجهيلهم بما ذكر تحقيقاً للحق؛ ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه، لا لغيره ﴿الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ نصب على الحال من الشفاعة، فليس لأحد منها شيء إلا أن يكون بإذنه لمن ارتضى، كما في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ وأكد الشفاعة بما يؤكد به الاثنان فصاعداً؛ لأنها مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة.

والخلاصة[3]: أنه تعالى مالك الشفاعة كلها، لا يستطيع أحد أن يشفع لديه

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

إلا أن يكون المشفوع له مرتضى، والشفيع مأذوناً له، وكلاهما مفقود ههنا. قال البقلي: بين أنه تعالى، مرجع الكل: الشافع والمشفوع فيه، حتى يرجع العبد العارف إليه بالكلّية، ولا يلتفت إلى أحد سواه، فلا يصل إليه أحد إلا به تعالى.

ونِعْمَ ما قالت رابعة العدوية ـ رحمها الله تعالى ـ: محبّة الله تعالى ما أبقت محبة غيره، ومحبّة الرسول ﷺ مندرجة في محبة الله تعالى.

وفي «فتح الرحمن»: إن قلت: كيف قال ذلك مع أن للأنبياء والعلماء والشهداء والأطفال شفاعة؟

قلت: معناه: أن أحداً لا يملكها إلا بتحليلها من الله تعالى، كما قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

ثمّ بين العلة في أن الشفاعة جميعاً له تعالى، فقال: ﴿لَّهُۥ﴾ تعالى وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: له السلطان في السموات والأرض، وكل من فيهما ملك له، ومنه ما تعبدون من دونه، فاعبدوا مالك الملك كله، الذي لا يتصرّف أحد في شيء منه إلاّ بإذنه ورضاه، وفيه إشارة[1] إلى أن الله تعالى هو المالك حقيقةً، فإن ما سواه عبد ولا ملك للعبد، ولو ملّكه مولاه، وإنما هو عارية عنده، والعارية مردودة إلى مالكها. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ تعالى لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة؛ أي: إليه مصيركم بعد البعث لا إلى أحد سواه، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، فيفعل يومئذ ما يريد، وهو معاقبكم على إشراككم به سواه، إن أنتم متم على هذه الحال.

وفي «الكواشي»: يحصي أعمالكم، ثم إلى حسابه ترجعون؛ أي: تردّون فيجازيكم، فاحذروا سخطه، واتّقوا عذابه، فيا ربح الموحّدين يومئذ، ويا خسارة المشركين.

وخلاصة ذلك: اعبدوا من يقدر على نفعكم في الدنيا، وعلى ضرّكم فيها، وفي الآخرة بعد مماتكم يجازيكم بما قدّمتم من عمل خيراً كان أو شرًّا، ولا يخفى ما في هذا من التهديد والوعيد، الذي تقشعر منه الجلود خشيةً.

واعلم: أن افتخار الخلق في الدنيا بعشرة، ولا ينفع ذلك يوم القيامة:

---

(١) روح البيان.

الأول: المال، فلو نفع المال لأحدٍ.. لنفع قارون، قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

والثاني: الولد، فلو نفع الولد لأحد.. لنفع إبراهيم عليه السلام أباه آزر، قال تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾.

والثالث: الجمال، فلو نفع الجمال.. لنفع أهل الروم؛ لأنّ لهم تسعة أعشار الجمال، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

والرابع: الشفاعة، فلو نفعت الشفاعة.. لنفع الرسول ﷺ من أحبّ إيمانه، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ كأنه قال: أنت شفيعي في الجنايات، لا شريكي في الهدايات.

والخامس: الحيلة، فلو نفعت الحيلة.. لنفع الكفار مكرهم، قال تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

والسادس: الفصاحة، فلو نفعت الفصاحة.. لنفعت العرب، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

والسابع: العزّ، فلو نفع العزّ.. لنفع أبا جهل، قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

والثامن: الأصدقاء، فلو نفع الأصدقاء.. لنفعوا الفسّاق، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

والتاسع: الأتباع، فلو نفع التبع.. لنفع الرؤساء، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾.

والعاشر: الحسب، فلو نفع الحسب.. لنفع يعقوب اليهود؛ لأنهم أولاد يعقوب، قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

فإذا عرفت هذه الأمور المذكورة.. فارجع يا أخي إلى الله تعالى من الأسباب الغير النافعة، وذلك بكمال الإيمان والتقوى.

ثم ذكر سبحانه هفوة من هفواتهم التي تصدر منهم، وتدل على غفلة عظيمة، وتناقض بين الاعتراف بالألوهية، والإنكار لها، فقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه

حال كونه ﴿وَحْدَهُ﴾؛ أي: منفرداً، دون آلهة المشركين، وانتصاب ﴿وَحْدَهُ﴾ على الحال عند يونس، وعلى المصدر عند الخليل وسيبويه، والعامل في ﴿إِذَا﴾: جوابها، وهو قوله: ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾؛ أي: انقبضت ونفرت وذعرت وأنكرت ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: قلوب الذين لا يصدّقون بيوم القيامة. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ أي: من الله تعالى؛ يعني الأوثان فرادى، أو مع ذكر الله. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: يفرحون ويظهر في وجوههم البشر، وهو أثر السرور لفرط افتتانهم بها ونسيانهم الحق، والاشمئزاز[1]: أن يمتلىء القلب غيظاً وغماً، ينقبض عنهما أديم الوجه، كما يرى في وجه العابس المحزون، وهو غاية ما يمكن من الانقباض، ففيه مبالغة في بيان حالهم القبيحة، والاستبشار: أن يمتلىء القلب سروراً، فتنبسط له بشرة الوجه، وهو غاية ما يمكن من الانبساط، ففيه مبالغة أيضاً في بيان حالهم القبيحة، والعامل في ﴿إِذَا﴾ الشرطية: هو العامل في ﴿إِذَا﴾ المفاجأة على القول بأنها ظرف، تقديره: وقت ذكر الذين من دونه، فاجَؤُوا وقت الاستبشار.

والمعنى[2]: أي إنه إذا قيل: لا إله في الكون إلا الله وحده.. نفرت قلوب أولئك المشركين، الذين لا يؤمنون بالبعث والمعاد بعد الموت، وإذا ذكرت الآلهة التي يدعونها من دون الله تعالى، فقيل: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجىٰ.. استبشروا وفرحوا لفرط افتتانهم بهنّ، ونسيانهم حق الله تعالى.

قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ في الآية: ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾: قست ونفرت قلوب هؤلاء الأربعة الذين لا يؤمنون بالآخرة، أبو جهل بن هشام والوليد بن عتبة وصفوان وأبي بن خلف، ونحو الآية قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

واعلم[3]: أن هؤلاء المشركين كأمثال الصبيان، فكما أنهم يفرحون بالأفراس الطينية، والأسود الخشبية، وبمذاكرة ما هو لهو ولعب، فكذا أهل الأوثان، لكون نظرهم مقصوراً على الصور والأشباح، فكل قلب لا يعرف الله، فإنه لا يأنس بذكر الله، ولا يسكن إليه، ولا يفرح به، فلا يكون مسكن الحق.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

قال السيد الألوسي في «تفسيره» ناعياً حال المسلمين اليوم: وقد رأينا[1] كثيراً من الناس على نحو هذه الصفة، التي وصف الله تعالى بها المشركين، يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم، ويطلبون منهم، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم، توافق أهواءهم ومعتقداتهم فيهم، ويعظمون من يحكم لهم ذلك، وينقبضون من ذكر الله تعالى وحده، ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه عز وجل، وسرد ما يدل على عظمته وجلاله، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة، وينسبونه إلى ما يكره، وقد قلت يوماً لرجل يستغيث في شدة ببعض الأموات، وينادي: يا فلان أغثني، فقلت له: قل يا الله، فقد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فغضب وبلغني أنّه قال: فلان منكر على الأولياء، وسمعت من بعضهم أنه قال: الولي أسرع إجابةً من الله عز وجل، وهذا من الكفر بمكان، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان. انتهى.

فعلى العاقل أن لا ينقطع عن الذكر، ويستبشر به، فالله تعالى معه معينه، ولما لم يقبل المتمردون من الكفار ما جاءهم به النبي ﷺ من الدعاء إلى الخير، وصمموا على كفرهم.. أمره الله سبحانه أن يرد الأمر إليه، فقال: ﴿قُلِ﴾ يا محمد: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ والميم فيه عوض عن حرف النداء، والمعنى: قل يا محمد: يا الله يا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نصب بالنداء؛ أي: يا خالق السموات والأرض على أسلوب بديع ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: يا عالم كل ما غاب عن العباد وكل ما شهدوه؛ أي: التجىء يا محمد إليه تعالى بالدعاء حين تحيّرت في أمر الدعوة، وضجرت من شدة شكيمتهم في المكابرة والعناد، فإنه القادر على الأشياء بجملتها، والعالم بأحوالها برمتها. ﴿أَنتَ﴾ وحدك ﴿تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾؛ أي: بيني وبين قومي، وكذا بين سائر العباد ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: فيما يختلفون فيه من أمر الدين؛ أي: تحكم حكماً يسلمه كل مكابر، ويخضع له كل معاند، وهو العذاب الدنيوي أو الأخروي، والثاني أنسب بما بعد الآية.

والمعنى: أي قل يا محمد: يا الله، يا مبدع السموات والأرض، ويا عالم ما غاب عنّا، وما تشهده العيون والأبصار، أنت تحكم بين عبادك، فتفصل بينهم

---

(١) الألوسي.

بالحق يوم تجمعهم لفصل القضاء فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا، من القول فيك، وفي عظمتك وسلطانك، فتقضي بيننا وبين المشركين الذين إذا ذكر الله وحده.. اشمأزت قلوبهم، وإذا ذكر من دونه.. استبشروا وفرحوا، فتجازي المحسن بإحسانه، وتعاقب المسيء بإساءَتِهِ، فإنه بذلك يظهر من هو المحق ومن هو المبطل، ويرتفع عنده خلاف المختلفين، وتخاصم المتخاصمين.

أخرج مسلم وأبو داود والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل.. افتتح صلاته: «اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

ثمّ لما حكى الله سبحانه عن الكفار ما حكاه من الاشمئزاز عند ذكر الله، والاستبشار عند ذكر الأصنام.. ذكر ما يدل على شدة عذابهم، وعظيم عقوبتهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الأموال والذخائر حال كونه ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ﴿مَا﴾ الموصولة؛ أي[1]: لو أن لهم جميع ما في الدنيا من الأموال والذخائر. ﴿و﴾ ملكوا ﴿مثله﴾؛ أي: مثل ما في الأرض، ﴿مَعَهُۥ﴾؛ أي: مع ما في الأرض ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: لجعلوا كل ذلك فداءً لأنفسهم. ﴿مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: من العذاب الشديد المعد لهم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لكن لا مال يوم القيامة، ولو كان لم يقبل الافتداء به، وهذا وعيد شديد، وإقناط لهم من الخلاص، والظرف متعلق بـ﴿افتدوا﴾، كما في «الجمل».

وفي «التأويلات النجمية»: يشير سبحانه إلى أن هذه الجملة لا تقبل يوم القيامة لدفع العذاب، واليوم ههنا تقبل ذرّة من الخير، ولقمة من الصدقة، وكلمة من التوبة والاستغفار، كما أنهم لو تابوا وبكوا في الآخرة بالدماء.. لا يرحم بكاؤهم، وبدمعة واحدة اليوم يمحى كثيرٌ من ذنوبهم.

والمعنى[2]: أي ولو أن هؤلاء المشركين ملكوا كل ما في الأرض من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

الأموال، وملكوا مثله معه، وقيل ذلك منهم يوم القيامة.. لافتدوا به أنفسهم من أهوال ذلك العذاب الشديد، الذي سيعذبون به، وقد تقدم إيضاح هذا في سورة آل عمران.

﴿وَبَدَا لَهُم﴾؛ أي: وظهر لهم في ذلك اليوم الرهيب ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ سبحانه وفنون العقوبات. ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا﴾ في الدنيا. ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾ به ويظنونه؛ أي: بدا لهم يوم القيامة من فنون العذاب، ما لم يكن في حسابهم وظنهم في الدنيا أنه نازل بهم يومئذ؛ أي: وظهر لهم من عذاب الله، الذي أعدّه لهم ما لم يكن في حسبانهم، ولم يحدّثوا به أنفسهم، وفي هذا وعيد عظيم لهم، وتهديد بالغ غايةً لا غاية وراءها، قال مجاهد: عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات، فإذا هي سيئات، وعن سفيان الثوري: أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء من هذه الآية. ﴿وَبَدَا لَهُم﴾؛ أي: ظهر لهم في ذلك اليوم حين تعرض عليهم صحائف أعمالهم. ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ في الدنيا؛ أي: ظهر لهم جميع ما اجترحوه من السيئات، وارتكبوه من الآثام، وعلموا أنهم مجازون على النقير والقطمير ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: نزل وأصاب وأحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: وبال استهزائهم، وجزاء مكرهم، وكانوا يستهزئون بالكتاب، ويسخرون من المسلمين، ويهزؤون بالبعث والعذاب، ونحو ذلك؛ أي: أحاط بهم العذاب من كل الجوانب، وأيقنوا أنهم مواقعوه لا محالة؛ لاستهزائهم بما كانوا ينذرهم به الرسول ﷺ.

قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ المراد بالإنسان هنا[1]: الجنس، باعتبار بعض أفراده أو غالبها، وقيل: المراد به: الكفار فقط، والأول أولى، ولا يمنع حمله على الجنس خصوص سببِه؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ وفاءً بحق النظم القرآني، ووفاءً بمدلوله، و﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنّ المشركين ليشمئزّون عن ذكر الله وحده، ويستبشرون بذكر الآلهة، وأردت بيان حالهم فيما إذا أصابهم الضر.. فأقول لك. إن شأن غالب نوع الإنسان أنه إذا مسه ﴿ضُرٌّ﴾ من مرض أو فقر أو غيرهما، ﴿دَعَانَا﴾ وتضرع إلينا في رفعه ودفعه؛ أي: دعوا لدفعه من اشمأزوا عن ذكره، وهو الله سبحانه وتعالى، فيا

---

(١) الشوكاني.

عجباً لحالهم مع الله سبحانه لمناقضتهم وتعكيسهم في التسبب، حيث جعلوا الكفر سبباً في الالتجاء إلى الله، بأن أقاموه مقام الإيمان مع أن الواجب أن يجعل الإيمان سبباً فيه، وإنما أتى هنا بـ﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ﴾، وعطف بـ﴿الواو﴾ في أول السورة في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ لأن ما هنا كلام مرتب على ما قبله؛ لأنّه ترتب على قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾ إلخ، وأما ما في أول السورة فلم يترتب على ما قبله، وإنما هو ذكر كلامٍ اقتضى عطفه على ما قبله بالواو لمناسبة ما قبله.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ﴾؛ أي: أعطيناه ﴿نِعْمَةً﴾ صادرة ﴿مِّنَّا﴾ تفضلاً وإحساناً، فإن التخويل مختص بما كان بطريق التفضل، لا يطلق على ما أعطي بطريق الجزاء، أي: إذا أعطيناه مالاً أو عافيةً في البدن تفضلاً منا ﴿قَالَ﴾ ذلك الإنسان ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾؛ أي: إنما أوتيت هذه النعمة والضمير للنعمة، إن قلنا ﴿ما﴾ كافة في ﴿إِنَّمَا﴾ وتذكير[1] الضمير: نظراً لكونها بمعنى الفضل أو الإنعام أو الشيء، أو لـ﴿ما﴾ إن قلنا إنها موصولة، والأول أولى. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾؛ أي: بسبب علم مني بوجوه المكاسب، أو على علم مني بأني سأعطاه، لما لي من الفضل والاستحقاق، أو على علم من الله سبحانه باستحقاقي وبفضلي، أو ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾؛ أي: على خير علمه الله مني، فإن كانت النعمة سعةً في المال.. قال: إنما حصل هذا بكسبي واجتهادي، وإن كات صحةً.. قال: إنما حصلت هذه الصحة بسبب العلاج الفلاني، وقوله: ﴿بَلْ هِىَ﴾؛ أي: تلك النعمة ﴿فِتْنَةٌ﴾ ومحنة وابتلاء لذلك الإنسان، أيشكر أم يكفر، رد لما قاله ذلك الإنسان، أي: ليس ذلك الذي أعطيناك لما ذكرت، بل هو محنة لك، واختبار لحالك أتشكر أم تكفر، قال الفراء: أنّث الضمير في قوله: ﴿هِىَ﴾؛ لتأنيث الفتنة، ولو قال: بل هو فتنة.. لجاز، وقال النحاس: بل عطيته فتنة، وقيل: تأنيث الضمير: باعتبار لفظ الفتنة، وتذكير الأوّل في قوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ باعتبار معناها ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: أكثر الناس وهم الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ التخويل والإعطاء والبسط استدراج وامتحان.

والمعنى[2]: أي إن أمر المشرك عجيب، يدعو إلى الدهشة والحيرة، فإذا هو

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أصيب بضر من فقر أو مرض.. جأر إلى الله، واستعان به لكشف ذلك الضرّ عنه، وإذا تغيرت الحال، ونال شيئاً من الرخاء، أو زال عنه ما به من العلة.. قال: إنما أوتيت هذا لعلمي بوجوه المكاسب، وجدّي واجتهادي، أو لذهابي إلى الأطباء واهتمامي بالعلاج، فلم أدخر دواء نافعاً إلا بذلت نفيس المال للحصول عليه.

وهذا منه تناقض عجيب، ففي الحال الأولى يستغيث بربه، وفي الحال الثانية ينسب السلامة إلى نفسه، ويقطع صلتها عن المنعم بها، الذي أوجدها وأرادها، وفي الحق أن ما أعطيه من النعم، إنما هو فتنة واختبار لحاله، أيشكر أم يكفر، أيطيع أم يعصي، ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ذلك استدراج من الله، وامتحان لهم، ومن ثم يقولون ما يقولون، ويدعون من الدعاء ما لا يفقهون.

ثم بين أن هذه مقالة ليست وليدة أفكارهم، بل سبقهم بها كثير ممن قبلهم، فقال: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾؛ أي: قد قال[1]: تلك الكلمة أو الجملة، وهي قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: قد قال الذين من قبل قومك يا محمد مثل هذه المقالة، وهم قارون وقومه، حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ وهم راضون به؛ يعني لما رضي قوم قارون بمقالته.. جمعوا معه، وقال بعضهم: يجوز أن يكون المراد بالذين من قبلهم: جميع من تقدمنا من الخيار والشرار، فيجوز أن يوجد في الأمم المتقدمة من يقول تلك الكلمة غير قارون أيضاً، ممن أبطرته النعمة، واغترّ بظاهرها. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾؛ أي: فما دفع عن أولئك القائلين من الأمم المتقدمة. ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا، ويجمعون منه شيئاً من عذاب الله تعالى؛ يعني أن النعمة لم تدفع عنهم النقمة والعذاب ولم ينفعهم ذلك، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾: نافية، كما فسرناها، وأن تكون استفهامية؛ أي: أيّ شيء أغنى عنهم ذلك.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوٓا۟﴾؛ أي: جزاء سيئات كسبهم، أو أصابهم سيئات هي جزاء كسبهم، وسمّي الجزاء سيئات؛ لوقوعه في مقابلة سيئاتهم، فهو من باب المشاكلة، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ففيه رمز إلى أن جميع أعمالهم من قبيل السيئات.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: أنهم ظنوا أن ما آتيناهم لكرامتهم علينا، ولم يكن كذلك؛ لأنهم وقعوا في العذاب ولم تنفعهم أموالهم، وهذا كما قال اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

والمعنى[1]: أي قد زعم مثل هذا الزعم، وادعى مثل هذه الدعوى كثير ممن سبقهم من الأمم، فلم يغن عنهم شيئاً ما كانوا يكسبون من متاع الدنيا، ويجمعون من حطامها، حين جاءهم أمر ربهم على تكذيبهم رسله، واستهزائهم بهم.

ثم بين ما سلف بقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوٓاْ﴾؛ أي: فحل بهم جزاء سيئات ما كسبوا من الأعمال، فعوجلوا بالخزي في الدنيا، كالخسف الذي لحق قارون، والصاعقة التي نزلت بقوم لوط، وسيصيبهم النكال الدائم في الآخرة، ثم أوعد سبحانه مشركي قومه ﷺ على ما سينالهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بالشرك ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين المعاصرين لك يا محمد؛ أي: أفرطوا في الظلم والعتو، و﴿مِنْ﴾ للبيان، أو للتبعيض. ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾؛ أي: سيحل بهم، ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ من الكفر والمعاصي، كما أصاب أولئك، و﴿السين﴾: للتأكيد، وقد أصابهم في الدنيا ما أصابهم من القحط والقتل والأسر والقهر؛ أي: والذين كفروا بالله من قومك، وظلموا أنفسهم سيصيبهم أيضاً وبال السيئات التي اكتسبوها، كما أصاب الذين من قبلهم، فأصابهم القحط سبع سنين متوالية، وقتل صناديدهم يوم بدر، وأسر منهم العدد الكثير. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله تعالى؛ أي: وما هم بفائتين الله هرباً يوم القيامة، بل مرجعهم إليه، ويصنع بهم ما شاء من العقوبة؛ يعني يدركهم العذاب، ولا ينجون منه بالهرب.

ثم أقام سبحانه الدليل على عظيم قدرته، وبديع حكمته، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ و﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف معلوم من السياق، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير[2]: أقالوا تلك الكلمة؛ يعني قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾؛ أي: أقالوا ذلك ولم يعلموا، أو أغفلوا عن فضل الله ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ويوسّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يوسّع عليه، ليختبره أيشكر أم يكفر. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرزق ويقبضه عمن يشاء القبض

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

عنه، ويضيّقه عليه، ليمتحنه أيصبر أم يقنط؛ أي: يبسط ويقبض من غير أن يكون لأحد مدخل ما في ذلك، حيث حبس عنهم الرزق سبع سنين، ثم بسط لهم سبعاً، روي: أنهم أكلوا في سني القحط الجيف والجلود والعظام والعلهز، وهو: الوبر: بأن يخلط الدم بأوبار الإبل، ويشوى على النار، وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدخان من الجوع، فلم ينفعهم ذلك، حيث أصرّوا على الكفر والعناد.

والمعنى(١): أي أو لم ير هؤلاء المشركون أن الله هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء تارةً، ويضيق على من يريد أخرى، كما يشاهد من اختلاف الناس في سعة الرزق وضيقه، وليس ذلك لجهل في الكاسب أو علم لديه، فربما كان العاقل القادر ضيق الرزق، والجاهل أو المريض ذا سعةٍ وبسطةٍ في المال.

فائدة: ويرد بهذه الآية على من يرى الغنى من الكيس، والفقر من العجز، أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «أتدري لم رزقت الأحمق» قال: يا رب لا، قال: «ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال، فالكل بيد الله تعالى» ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ وبه ظهر فساد قول ابن الراوندي:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ ... وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوْقَا

هَذَا ٱلَّذِيْ تَرَكَ ٱلأَوْهَامَ حَائِرَةً ... وَصَيَّرَ ٱلْعَالِمَ ٱلنِّحْرِيْرَ زِنْدِيْقَا

أي: كافراً نافياً للصانع العدل الحكيم، قائلاً: لو كان له الوجود.. لما كان الأمر كذلك، ولقد أحسن من قال:

كَمْ مِنْ أَدِيْبٍ فَهِمٍ عَقْلُهُ ... مُسْتَكْمِلِ ٱلْعَقْلِ مُقِلٌّ عَدِيْمِ

وَمِنْ جَهُوْلٍ مُكْثِرٍ مَالُهُ ... ذَلِكَ تَقْدِيْرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيْمِ

يعني: أن من نظر إلى التقدير.. علم أن الأمور الجارية على أهل العالم كلها على وفق الحكمة، وعلى مقتضى المصلحة، ففيه إرشاد إلى إثبات الصانع الحكيم، لا إلى نفي وجوده. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من البسط والقبض ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ دالةً على أن الحوادث كافةً من الله تعالى بوسطٍ عاديٍّ، أو غيره؛ أي: لدلالات ﴿لِقَوۡمٍ

---

(١) المراغي.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالله تعالى، ويقرّون بوحدانيته، وهم الذين يعلمون أن الذي يفعل ذلك هو الله لا سواه، وإنما خص المؤمنين بذلك؛ لأنهم المنتفعون بالآيات، المتفكّرون فيها، والمستدلون بها على مدلولاتها.

الإعراب

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَمَنْ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، أو فصيحة، كما مر في بحث التفسير. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ومعناه النفي؛ أي: لا أحد ﴿أَظْلَمُ﴾ خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿مِمَّن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾. ﴿كَذَبَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿كَذَبَ﴾، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾: معطوف على ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، في محل النصب على الظرفية، مبني على السكون، والظرف: متعلق بـ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿جَآءَهُۥٓ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الصدق، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿أَلَيْسَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للإستفهام التقريري. ﴿ليس﴾ فعل ماض ناقص، ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾: خبرها مقدم على اسمها. ﴿مَثْوًى﴾: اسمها مؤخر. ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾: صفة لـ﴿مَثْوًى﴾، أو متعلق بـ﴿مَثْوًى﴾؛ لأنه اسم مكان من ثوى؛ أي: أقام، وجملة ﴿ليس﴾: جملة استئنافية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِى﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱلَّذِى﴾: مبتدأ، وجملة ﴿جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾: صلة الموصول. ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ معطوف على الصلة و﴿ٱلَّذِى﴾: جنس، المراد به بالنسبة للصلة الأولى: محمد ﷺ، وبالنسبة للصلة الثانية: المؤمنون، ولذلك روعي معنى: ﴿ٱلَّذِى﴾ في: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾: خبر ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾. وجملة المبتدأ الثاني مع خبره: خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول: مستأنفة. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّا﴾: اسم موصول

في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: خبر ثان لـ﴿ٱلَّذِى﴾. ﴿يَشَآءُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة والعائد: محذوف، تقديره: لهم ما يشاؤونه ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من العائد المحذوف؛ أي: لهم ما يشاؤونه حال كونه مدّخراً لهم عند ربهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية: حال ثانية من العائد المذكور؛ أي: حال كون ذلك جزاء المحسنين.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿لِيُكَفِّرَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل. ﴿يكفر الله﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾ الجار والمجرور: متعلق بمحذوف تقديره: يسر لهم ذلك لتكفير الله عنهم، أو متعلق بـ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ و﴿اللام﴾: للعاقبة؛ أي: الذين أحسنوا؛ لتكون عاقبتهم التكفير ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يكفر﴾، ﴿أَسْوَأَ﴾ مفعول به. ﴿ٱلَّذِى﴾ مضاف إليه. ﴿عَمِلُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة وليس المراد هنا باسم التفضيل معناه على بابه، وإنما هي من إضافة الشيء إلى بعضه من غير تفضيل. ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى﴾ عطف على ما تقدم ﴿أَجْرَهُم﴾ مفعول به ثانٍ لـ﴿يجزي﴾، وجملة ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: صلة الموصول، والعائد: محذوف تقديره: بأحسن الذي كانوا يعملونه، واسم التفضيل في قوله: ﴿أَسْوَأَ﴾ و﴿أَحْسَنَ﴾: ليس على بابه، لئلا يلزم علينا أنه يكفّر عنهم أقبح السيئات فقط، ويجزيهم أفضل الحسنات فقط، كما مرّ في بحث التفسير.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَلَيْسَ﴾: ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام التقريري. ﴿ليس الله﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِكَافٍ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة، ﴿كاف﴾: خبر ﴿ليس﴾، ﴿عَبْدَهُۥ﴾: مفعول ﴿كاف﴾، والمراد به: النبي ﷺ أو الجنس عامة، كما مر، وجملة ﴿ليس﴾: إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، أو استئنافية.

﴿يخوفونك﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿بِٱلَّذِينَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب حال من ﴿عَبْدَهُۥ﴾: إن كان المراد به النبي ﷺ، والمعنى: أليس الله كافيك حال تخويفهم إيّاك، أو مستأنفة مسوقة لتفنيد ما يعمدون إليه من التخويف بالأصنام، إن كان المراد بالعبد الجنس. ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: جار ومجرور، صلة ﴿الذين﴾. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُضْلِلِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط، ﴿مَا﴾ تميمية، أو حجازية. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم أو خبر ﴿مَا﴾ مقدم. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿هَادٍ﴾: مبتدأ مؤخر، أو اسمها مؤخر، والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَهْدِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿ما﴾: حجازية، ﴿لَهُۥ﴾: خبرها مقدم، ﴿مِنْ﴾ زائدة، ﴿مُّضِلٍّ﴾: اسمها مؤخر، والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى. ﴿أَلَيْسَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿ليس الله﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِعَزِيزٍ﴾: خبر ﴿ليس﴾: و(الباء) زائدة ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ صفة لـ﴿عزيز﴾ تابع لِلَفْظِهِ وجملة ﴿ليس﴾ جملة استئنافية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿سَأَلْتَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام، في محل الرفع مبتدأ. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿مَنْ﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية: في محل النصب مفعول ثان لـ﴿سأل﴾ المعلقة عن العمل فيه بالاستفهام. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾

و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، مؤكدة للأولى. ﴿يقولُن﴾: فعل مضارع معرب لعدم مباشرة نون التوكيد له مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة؛ لتوالي الأمثال، و واو الجماعة المحذوفة للالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الله، أو مبتدأ والخبر: محذوف؛ أي: الله خلقها، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: وجملة ﴿يقولن﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابها: مستأنفة، وجواب الشرط: محذوف، دلّ عليه جواب القسم، جرياً على القاعدة المشهورة فيما إذا اجتمع شرط وقسم، والتقدير: إن سألتهم من خلق السموات والأرض.. يقولوا: الله، وجملة الشرط: معترضة بين القسم وجوابه. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ـ صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلم ـ، والجملة: مستأنفة. ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾: ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام التوبيخي، و﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا لم يكن خالق سواه تعالى.. فأقول لكم: أخبروني عن آلهتكم التي تعبدونها، أنه إن أرادني الله بضرّ إلخ. ﴿رأيتم﴾: فعل وفاعل، بمعنى أخبروني. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿رأيتم﴾. ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل وصلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد: محذوف تقديره: ما تدعونه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من العائد المحذوف، وجملة ﴿أرأيتم﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ويجوز أن تكون ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفكّرتم ما أقررتم به، فرأيتم ما تدعون من دون الله... إلخ.

﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾

﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم ﴿أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ونون وقاية، ومفعول به في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿بِضُرٍّ﴾: متعلق بـ﴿أَرَادَنِيَ﴾، وجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية: محذوف، تقديره: إن أرادني الله بضر.. فهل يكشفن عني ضرّه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معترضة بين الفعل ومفعوله، لا محل لها من الإعراب. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام، ﴿هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية: في محل النصب مفعول ثان لـ﴿رأيتم﴾ علق عنها بالاستفهام،

﴿أَوۡ أَرَادَنِي﴾: فعل وفاعل مستتر ونون وقاية ومفعول به معطوف على ﴿أَرَادَنِيَ﴾ الأول. ﴿بِرَحۡمَةٍ﴾: متعلق بـ﴿أَرَادَنِيَ﴾. ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦ﴾: مبتدأ وخبر في محل النصب معطوف على ﴿هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ على كونها مفعولاً ثانياً لـ﴿رأيتم﴾. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿حَسۡبِيَ﴾ مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر، أو بالعكس، والجملة: مقول لـ﴿قُلۡ﴾، و﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق بـ﴿يَتَوَكَّلُ﴾. ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾: فعل مضارع وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة الاسمية.

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾: حال من فاعل ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿فَسَوۡفَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس. ﴿تَعۡلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، وجملة العلم: معطوفة على جملة ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾: على كونها مقولاً لـ﴿قُلۡ﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾. ﴿يَأۡتِيهِ عَذَابٞ﴾: فعل ومفعول وفاعل صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿يُخۡزِيهِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به صفة لـ﴿عذابٌ﴾. ﴿وَيَحِلُّ﴾: فعل مضارع. ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق بـ﴿يحلُّ﴾، ﴿عَذَابٞ﴾: فاعل. ﴿مُّقِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٞ﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿يَأۡتِيهِ﴾ على كونها صلة ﴿مَن﴾ الموصولة.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنزَلۡنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيۡكَ﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: مفعول به، ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلۡنَآ﴾، ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: حال من فاعل ﴿أَنزَلۡنَآ﴾؛ أي: حالة كوننا متلبسين بالحق، أو من المفعول؛ أي: حالة كونه متلبساً

بالحق، وجملة ﴿أَنزَلْنَا﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة، ﴿فَمَنِ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿اهْتَدَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿لنفسه﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهدايته لنفسه، والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿إن﴾. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط على الخلاف السابق. ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾، على كونه فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب جوازاً، ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿يَضِلُّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق بـ﴿يَضِلُّ﴾، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وإنما جزمت المضارع المحل لا اللفظ؛ مشاكلة للماضي الواقع شرطاً، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية حجازية، ﴿أَنتَ﴾: في محل الرفع اسمها. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿وكيل﴾، و﴿بِوَكِيلٍ﴾: خبر لـ﴿ما﴾ الحجازية منصوب بفتحة مقدرة، و﴿الباء﴾: زائدة، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ على كونها جواباً لـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، وجمع ضمير ﴿عَلَيْهِم﴾ نظراً لمعنى ﴿مَنْ﴾ الشرطية.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهُ﴾، ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾: متعلق بـ﴿يَتَوَفَّى﴾ ﴿وَالَّتِي﴾: معطوف على ﴿الْأَنفُسَ﴾، وجملة ﴿لَمْ تَمُتْ﴾: صلة التي الموصولة. ﴿فِي مَنَامِهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتَوَفَّى﴾ والمعنى: الله يتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها؛ أي: يتوفّاها حين تنام. ﴿فَيُمْسِكُ﴾. ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿يمسك﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود

على ﴿اللَّهِ﴾. ﴿الَّتِي﴾: مفعول به لـ﴿يمسك﴾. ﴿قَضَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهِ﴾. ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿قَضَىٰ﴾. ﴿الْمَوْتَ﴾: مفعول به لـ﴿قَضَىٰ﴾ وجملة ﴿قَضَىٰ﴾: صلة الموصول. ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿يمسك﴾. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ متعلق بـ﴿يرسل﴾ أو بـ﴿يمسك﴾. ﴿مُسَمًّى﴾: نعت لـ﴿أجل﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لها. ﴿لَآيَاتٍ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿آيات﴾: اسمها مؤخر. ﴿لِقَوْمٍ﴾: صفة ﴿لَآيَاتٍ﴾ وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَمِ﴾: منقطعة، بمعنى بل الإضرابية، وهمزةِ الاستفهام الانكاري. ﴿اتَّخَذُوا﴾: فعل ماض وفاعل. ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق به على كونه مفعولاً ثانياً له ﴿شُفَعَاءَ﴾: مفعول أول له، والجملة: مستأنفة. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة ﴿أَوَلَوْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، تقديره: أيشفعون، ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لو﴾: حرف شرط مهمل، بمعنى قد. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، أو مفعول مطلق، كما مر مراراً. ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾: معطوف على ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾. و﴿لو﴾: مهملة لا جواب لها؛ أي: أيشفعون حال كونهم لا يملكون شيئاً ولا يعقلون شيئاً، ويجوز أن تكون ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿لو﴾ على معناها، وجوابها، محذوف، تقديره: تتخذونهم شفعاء، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿لِّلَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿الشَّفَاعَةُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿الشَّفَاعَةُ﴾ على رأي سيبويه، أو

من الضمير المستقر في الخبر على مذهب الجمهور، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لَّهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مُلْكُ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب وتراخ، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، و﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على محذوف معلوم من السياق، تقديره: يتصرف فيكم في الدنيا كيف يشاء، ثم إليه ترجعون في الآخرة. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿وَحْدَهُ﴾: حال من الجلالة؛ أي: حالة كونه منفرداً في الذكر دون الشركاء، ومنصوب على المصدر عند الخليل وسيبويه؛ أي: ذُكر ذِكْر انفراد، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾: فعل ماض. ﴿قُلُوبُ﴾: فاعل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية: جواب ﴿إِذَا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾: مستأنفة، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: صلة الموصول. ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿ذُكِرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ونائب فاعل، فعل شرط لـ﴿إِذَا﴾. ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: جار ومجرور، صلة الموصول، ﴿إِذَا﴾: فجائية، خلف عن ﴿الفاء﴾ الرابطة، حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾: معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ الأولى.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: منادى مفرد العلم في محل النصب على المفعولية، مبني على الضم، والميم المشددة: عوض عن حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: منادى ثان، حذف منه حرف النداء، مضاف إلى ما بعده، منصوب؛ أي: يا فاطر السموات، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وجملة النداء: معطوفة بعاطف مقدر على جملة النداء الأول، على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾، وهناك أعاريب أخرى، سيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى. وكذلك ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ

﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، معطوف على النداء الأول ومضاف إليه. ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَحۡكُمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾: متعلق بـ﴿تَحۡكُمُ﴾، ﴿فِي مَا﴾: متعلق بـ﴿تَحۡكُمُ﴾ أيضاً. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾: خبر ﴿كَانُواْ﴾، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾، وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة.

فائدة في ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: مذهب الخليل وسيبويه: أن هذا الاسم لا يوصف؛ لأنه صار عندهم مع الميم بمنزلة الصوت؛ أي: غير متمكّن في الاستعمال. وذهب المبرد والزجاج: إلى جواز وصفه بمرفوع على اللفظ، ومنصوب على المحل، وجعل ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: صفة له. قال أبو حيان: والصحيح مذهب سيبويه؛ لأنه لم يسمع مثل اللهم الرحمن الرحيم ارحمنا، والآية ونحوها محتملة للنداء. وقال ابن هشام: وإنما قال في ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إنه على تقدير (يا)، ولم يجعله صفة على المحل؛ لأنّ عنده أن اسم الله سبحانه وتعالى لما اتصلت به الميم المعوّضة عن حرف النداء.. أشبه الأصوات، فلم يجز نعته؛ أي: فقد صار مثل هلا، إذ الميم بمنزلة صوت مضموم إلى اسم الله، مع بقائهما على معنييهما.

﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم لـ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿ظَلَمُواْ﴾: صلة الموصول، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب، اسم ﴿أَنَّ﴾ مؤخر عن خبرها. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿جَمِيعٗا﴾: حال من اسم ﴿أَنَّ﴾، ﴿وَمِثۡلَهُۥ﴾: معطوف على ﴿مَا﴾، ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿مثله﴾؛ أي: حال كون ذلك المثل منضماً إلى ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لفعل محذوف، هو فعل شرط لـ﴿لو﴾، تقديره: ولو ثبت كون ما في الأرض للذين ظلموا، ومثله معه.. لافتدوا به من سوء

العذاب. ﴿لَافْتَدَوْا﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿افتدوا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿افتدوا﴾. و﴿مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾: متعلق به أيضاً. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق به أيضاً، أو حال من فاعل ﴿افتدوا﴾؛ أي: حال كونهم في ذلك اليوم العصيب، والجملة الفعلية: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية؛ مستأنفة. ﴿وَبَدَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿بدا﴾: فعل ماض، ﴿لَهُم﴾: متعلق به، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿بدا﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية: معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿لَمْ يَكُونُوا۟﴾: جازم وفعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾: في محل النصب خبر ﴿يَكُونُوا۟﴾؛ أي: لم يكونوا محتسبين، وجملة ﴿يَكُونُوا۟﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَبَدَا﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا﴾: فاعل، ومضاف إليه، والجملة الفعلية: معطوفة على ما قبلها، ولك أن تجعل الكلامين مستأنفاً مسوقاً لإبراز وعيدهم في أبلغ ما يكون الوعيد والتهديد. ﴿كَسَبُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: سيئات ما كسبوه. ﴿وَحَاقَ﴾: فعل ماض، معطوف على ﴿بدا﴾، ﴿بِهِم﴾: متعلق بـ﴿حاق﴾، ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿حاق﴾. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: خبر ﴿كَانُوا۟﴾، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾: صلة الموصول.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن المشركين ليشمأزّون عن ذكر الله وحده، ويستبشرون بذكر آلهتهم، وأردت بيان حالهم فيما إذا أصابهم الضرّ.. فأقول لك: إن شأن غالب نوع الإنسان، أنّه إذا مسّه ضرّ إلخ. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿مَسَّ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: مفعول به. ﴿ضُرٌّ﴾: فاعل، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿دَعَانَا﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الإنسان، والجملة الفعلية: جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا

المقدرة: مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً﴾: فعل وفاعل، ومفعولان. ﴿مِّنَّا﴾: صفة لـ﴿نِعْمَةً﴾، والجملة الفعلية، في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾، والظرف: متعلق بالجواب. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة: جواب ﴿إِذَا﴾ وجملة ﴿إِذَا﴾: معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ الأولى. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل ومفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من تاء المتكلم في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾، حالة كوني عالماً أني سأعطاه، لما أتمتع به من جدارةٍ واستحقاق. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب للإضراب الانتقالي. ﴿هِىَ فِتْنَةٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاستدراكية: معطوفة على الجملة الإضرابية، ويصح أن تكون حالية.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿قَالَهَا﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، و﴿الهاء﴾: عائدة على مقالتهم، وهي ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾، لأنها كلمة. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: صلة الموصول، والجملة الفعلية: مستأنفة. ﴿فَمَآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿أَغْنَىٰ﴾: فعل ماض. ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به ﴿مَّا﴾: فاعل، والجملة الفعلية: معطوفة على جملة ﴿قَدْ قَالَهَا﴾. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أصابهم﴾: فعل ومفعول ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾: فاعل، و﴿مَا﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾. ﴿كَسَبُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد: محذوف؛ أي سيئات ما كسبوه. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿ظَلَمُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: جار ومجرور حال من واو ﴿ظَلَمُوا۟﴾. ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾: فعل ومفعول به، ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾: فاعل. و﴿مَا﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية، في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾، وجملة ﴿كَسَبُوا۟﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿ما﴾: نافية حجازية. ﴿هُم﴾: اسمها. ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾:

خبرها، و﴿الباء﴾: زائدة، والجملة: في محل النصب حال من مفعول ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أقالوها ولم يعلموا؟ والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿لم يعلموا﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة: على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: خبره. وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَيَقْدِرُ﴾: معطوفة على جملة ﴿يَبْسُطُ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدّم. ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿لِّقَوْمٍ﴾ صفة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾. وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أصله: مثوي بوزن مفعل، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، مشتق من ثوى بالمكان: إذا أقام به، يثوى ثوياً وثواءً، مثل مضى يمضي مضياً ومضاءً، ولو كان من أثوى الرباعي.. لكان مثوىً بضم الميم، وهذا يدل على أن ثوى هي اللغة الفصحىٰ.

وحكى أبو عبيدة: أثوى، اهـ «قرطبي» بزيادةٍ. ومعنى المثوى: المقام والمستقر.

والمعنى: أنّ جهنم منزل ومقام للكاذبين المكذبين المذكورين وغيرهم من الكفار جزاءً لكفرهم وتكذيبهم.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؛ أي: يكفيه وعيد المشركين وكيدهم، والكفاية: ما فيه سد الخلة، وبلوغ المراد في الأمر.

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ مكانتكم: اسم مكان من مادة كان، ووزنه

مفعلة، أصله: مكونة نقلت حركة الواو إلى الكاف، ثم أبدلت ألفاً؛ لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن، وقيل: إن الميم أصلية، فهي من مادّة مكن وعليه فهو مصدر ميمي.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ أصله. يتوفي، قلبت ياؤه ألفاً؛ لتحركها بعد فتح.

﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ أصله: تموت بوزن تفعل، نقلت حركة الواو إلى الميم، فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مد، ثم دخل الجازم على الفعل فسكن آخره، فصار اللفظ تموت، فالتقى ساكنان، فحذفت الواو، فوزنه تفل، ويقال توفاه الله: قبض روحه، كما في «القاموس». والأنفس: جمع نفس بسكون الفاء، وهي النفس الناطقة المسماة عند أهل الشرع بالروح الإضافي الإنساني السلطاني فسميت نفساً باعتبار تعلقها بالبدن، وانصياعها بأحكامه، والتلبس بغواشيه، وروحاً باعتبار تجردها في نفسها، ورجوعها إلى الله تعالى، فالنفس: ناسوتية سفلية، والروح: لاهوتية علوية.

﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ والموت: زوال القوة الحساسة، كما أن الحياة وجود هذه القوة، ومنه سمي الحيوان حيواناً، ومبدأ هذه القوة هو الروح الحيواني، الذي محله الدماغ، كما أن محل الروح الإنساني القلب الصنوبري، ولا يلزم من ذلك تحيزه فيه، وإن كانت الأرواح البشرية متحيزة عند أهل السنة. اهـ من «الروح».

والمنام والنوم واحد، وهو استرخاء أعصاب الدماغ برطبات البخار الصاعد إليه، وقيل: النوم: هو أن يتوفى الله النفس من غير موت، كما في الآية، وقيل: النوم: موت خفيف، والموت: نوم ثقيل، وهذه التعريفات كلها صحيح بنظرات مختلفة. اهـ. منه ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ إمساك الشيء: التعلق به وحفظه، والقضاء: الحكم.

﴿شُفَعَآءَ﴾ جمع شفيع، والشفع: ضم الشيء إلى مثله، والشفاعة: الانضمام إلى آخر مسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى رتبةً إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة يوم القيامة.

﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ من الشمز، والشمز: نفور النفس مما تكره، وتَشمّز وجهه:

تقبض، والاشمئزاز؛ هو أن يمتلىء القلب غيظاً وغماً، ينقبض منه أديم الوجه، وهو غاية ما يمكن من الانقباض، ففيه مبالغة في بيان حالهم القبيحة، كما مر.

﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: يفرحون ويظهر في وجوههم البشر، وهو أثر السرور لفرط افتتانهم بها، ونسيانهم الحق، والاستبشار: هو أن يمتلىء القلب سروراً حتى تنبسط له بشرة الوجه، ويتهلل، ففيه مبالغة أيضاً في بيان حالهم القبيحة.

﴿لَافْتَدَوْا﴾ أصله: لافتديوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، يقال افتدى: إذا بذل المال عن نفسه، فإن الفداء: حفظ الإنسان من النائبة بما يبذله عنه؛ أي: لجعلوا كل ذلك فديةً لأنفسهم من العذاب الشديد، لكن لا مال يوم القيامة، كما مر.

﴿وَبَدَا لَهُم﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: بدو، بوزن فعل، قلبت واوه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ فيه من مباحث الصرف الادغام، أصله: مسس، أدغمت السين في السين. ﴿دَعَانَا﴾ أصله: دعونا، قلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ أصله: أؤتي، أبدلت الهمزة الثانية واواً حرف مد مجانساً لحركة الأولى، وسكنت الياء، فصارت حرف مد لتطرفها إثر كسرة.

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: محنة وابتلاء له، أيشكر أم يكفر، تقول فتنت الذهب: إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته وتختبره.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُم﴾ أصله: أغني بوزن أفعل؛ لأنه رباعي، فقلبت الياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أصله: فأصوبهم، بوزن أفعل، نقلت حركة الواو إلى الصاد، ثم قلبت ألفاً؛ لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن.

﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: سيصوبهم، نقلت حركة الواو إلى الصاد، فسكنت إثر كسرة، ثم قلبت ياءً حرف مد، وقوله:

﴿سَيِّئَاتُ﴾ أصله سوءات بوزن فيعلات، قلبت الواو ياء، وأدغمت فيها الياء، لما اجتمعتا، وسبقت إحداهما ساكنةً.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين قوله: ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾.

ومنها: الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في صلة الموصول الثاني؛ أعني قوله: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دون الأول، أعني قوله: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيئة، كذا في «الإرشاد».

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ حيث أدخل همزة الإنكار على كلمة النفي. فأفادت معنى إثبات الكفاية وتقريرها، فصار الاستفهام تقريرياً، وكذا الحكم في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ وبين قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يُضْلِلِ﴾ و﴿مُّضِلٍّ﴾ وقوله: ﴿يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ و﴿هاد﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿بِضُرٍّ﴾ وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ﴾، وفي قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وقوله: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ حيث جعل الرؤية، وهو العلم الذي هو سبب الإخبار مجازاً عن الإخبار، كما في «الروح».

ومنها: التهديد في قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ لأنه أمر تهديد.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ حيث استعار اسم

المكان للحال، فشبهت الحال بالمكان القارّ فيه، ووجه الشبه: ثباتهم في تلك الحال ثبات المتمكن في مكانه.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿إِنِّى عَامِلٌ ۖ﴾؛ أي: على مكانتي.

ومنها: المجاز في الإسناد في قوله: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: مقيم فيه صاحبه، كما في «الشهاب».

ومنها: الطباق بين الإمساك والإرسال في قوله: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ...﴾.

ومنها: المقابلة الرائعة في قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ...﴾ الآية. فقد قابل بين الله والأصنام، وبين السرور والإشمئزاز.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾. وكذلك بين الغيب والشهادة في قوله: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن
كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ
حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي
فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ
وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا
يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَّهُ
مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ
اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ
عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ
فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ
وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا
يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ
وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ
مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)
وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] أوعد الكافرين فيما سلف أردفه بذكر رحمته وفضله على عباده المؤمنين، بغفران ذنوبهم إذا هم تابوا وأنابوا إليه، وأخلصوا له العمل، ليكون في ذلك مطمع لهؤلاء الضالين، ومنبهة لهم من ضلالهم.

وعبارة «أبي حيان» هنا[2]: ومناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما شدّد على الكفار، وذكر ما أعدّ لهم من العذاب، وأنهم لو كان لأحدهم ما في الأرض ومثله معه.. لافتدى به من عذاب الله.. ذكر ما في إحسانه من غفران الذنوب، إذا آمن العبد ورجع إلى الله، وكثيراً تأتي آيات الرحمة مع آيات النقمة، ليرجو العبد ويخاف، وهذه الآية عامة في كل كافر يتوب، ومؤمن عاص يتوب، تمحو الذنب توبته، وقال عبد الله وعليّ وابن عمر: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أوعد المشركين فيما سلف بما سيكون لهم من الأهوال يوم القيامة، ووعد المتقين بما يمنحهم من الفوز والنعيم في ذلك اليوم.. أردف ذلك ذكر حالٍ لكل منهما تبدو للعيان، ويشاهدها كل إنسان يوم العرض والحساب.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[3] بسط الوعد والوعيد يوم القيامة لأهل التوحيد وأهل الشرك.. عاد إلى ذكر دلائل الألوهية والوحدانية، ثم انتقل إلى النعي على الكافرين في أمرهم لرسوله بعبادة الأوثان والأصنام، ثم بين أن الأنبياء جميعاً أوحي إليهم أن لا يعبدوا إلا الله وحده، وأن لا يشركوا به سواه، وأنهم إن فعلوا غير ذلك.. حبطت أعمالهم وكانوا من الخاسرين، ثم كرر النعي عليهم مرةً أخرى، بأنهم لم يعرفوا الله حق معرفته، إذ لو عرفوه.. لما جعلوا هذه المخلوقات الخسيسة مشاركةً له في العبودية.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر عظمته، بأنه خالق كل شيء وهو الوكيل على كل شيء، وبيده مقاليد السموات والأرض.. أردف ذلك بذكر دلائل أخرى، تدل على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، فذكر مقدمات يوم القيامة، من نفخ الصور النفخة الأولى، التي يموت بها أهل الأرض جميعاً، ثم النفخة الثانية، التي يقوم بها الناس جميعاً من قبورهم، ثم ذكر الفصل بينهم للجزاء والحساب، فتوفى كل نفس جزاءً ما عملت من خير أو شر، وهو سبحانه العليم بأفعالهم جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أحوال يوم القيامة على سبيل الإجمال، بقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.. فصل ذلك، فذكر ما يحل بالأشقياء من الأهوال، وما يلقونه من التأنيب والتوبيخ من خزنة جهنم على طريق السؤال والجواب التهكمي، وهو أشد وقعاً على الأبي العيوف، الذي تأبى نفسه الهوان والاحتقار.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ. . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه(١) لما ذكر أحوال الأشقياء، وما يلاقونه يوم القيامة من الأهوال.. أردفها بذكر أحوال السعداء، وما يلاقونه إذ ذاك من النعيم، وما يقال لهم وما يقولون، ثم أخبر بأن ملائكته محدقون حول العرش، يسبّحون بحمد ربهم، ويعظّمونه، وينزّهونه عن النقائص، وأنه سيقضي بين الخلائق بالعدل، وأن أولئك المتقين سيقولون: الحمد لله رب العالمين، على ما تفضّل به علينا وأنعم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ. . .﴾ الآية، سبب نزولها(٢): ما تقدم في سورة الفرقان من حديث الشيخين، وما أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أنزلت هذه الآية في مشركي أهل مكة.

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

وأخرج الحاكم والطبراني عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنا نقول ما لمفتتن توبة إذا ترك دينه بعد إسلامه ومعرفته، فلما قدم رسول الله ﷺالمدينة.. أنزل فيهم ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟...﴾ الآية.

وأخرج الطبراني بسند فيه ضعف، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي قاتل حمزة، يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه: كيف تدعوني، وأنت تزعم أن من قتل، أو زنى، أو أشرك.. ﴿يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ وأنا صنعت ذلك، فهل تجد لي من رخصة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الآية. فقال وحشي: هذا شرط شديد، فلعلّي لا أقدر على هذا، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فقال وحشيّ: هذا أرى بعده مشيئة، فلا أدري أيغفر لي أم لا، فهل غير هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ...﴾ الآية. فقال وحشي: هذا نعم فأسلم.

قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ ...﴾ الآية، سيأتي سبب نزولها في سورة الكافرون، وأخرج البيهقي في «الدلائل» عن الحسن البصري قال. قال المشركون للنبي ﷺ: أتضلل آباءك وأجدادك يا محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: مر يهودي بالنبي ﷺ، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم: إذا وضع الله السموات على ذه، والأرضين على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ...﴾ الآية. والحديث في «الصحيح» بلفظ: فتلا، دون فأنزل.

وأخرج أحمد بسنده، عن علقمة عن عبد الله قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أنَّ الله عزّ وجل يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على أصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ والحديث رجاله رجال الصحيح.

وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس قال: لما نزلت آية: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.. قالوا: يا رسول الله، هذا الكرسي هكذا، فكيف العرش، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية. قال الحافظ السيوطي في «الإتقان» ج ١ ص ٣٤: الحديث في «الصحيح» بلفظ: فتلا رسول الله ﷺ وهو أصوب، فإنَّ الآية مكية.

وأقول: لفظ تلا، الواقع في «الصحيح»: لا ينافي أنها نزلت، ثم تلاها الرسول ﷺ، وأما كونها مكيةً، فإن ثبت نزولها؛ أعني هذه الآية بمكة.. فلا مانع من نزولها مرتين، وإن لم يثبت نزولها بمكة بالسند الصحيح.. فقد تكون السورة مكية، إلا آية. والله أعلم.

التفسير وأوجه القراءة

ولما ذكر سبحانه ما ذكره من الوعيد.. عقّبة بذكر سعة رحمته، وعظيم مغفرته، وأمر رسوله ﷺ أن يبشرهم بذلك، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، تبشيراً لعبادي بسعة رحمتي: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾ وأفرطوا وجاوزوا الحد في الجناية. ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالانهماك في المعاصي، وارتكاب الكبائر والفواحش: ﴿لَا تَقْنَطُواْ﴾ ولا تيأسوا ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ومغفرته، فهو يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب إليه، ولجأ إلى جنابه، وإن كثرت ذنوبه، وكانت كزبد البحر.

وقرأ الجمهور: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ بإثبات الياء وصلاً ووقفاً. وروى أبو بكر عن عاصم: أنه يقف بغير ياء، وقرأ الجمهور: ﴿تَقْنَطُواْ﴾ بفتح النون، وقرأ أبو عمرو والكسائي: بكسرها، وتعدية[1] الإسراف بـ﴿عَلَىٰ﴾؛ لتضمين معنى الجناية، قال البيضاوي ومن وافقه: إضافة العبادة تخصّصه بالمؤمن على ما هو عرف القرآن، يقول الفقير: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ينادى على خلافه؛ لأن العباد فسر هناك ببختنصر وقومه، وكانوا كفاراً بالاتفاق، إلا أن يدعى الفرق بين الإضافة بالواسطة وبغيرها، وقال في «الوسيط»: المفسرون كلهم قالوا: إن هذه الآية نزلت في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس والزنا ومعاداة النبي ﷺ والقتال معه،

(١) روح البيان.

فأنزل الله هذه الآية، ورآها أصحابه من أوسع الآيات في مغفرة الذنوب. انتهى. وعلى كل تقدير، فخصوص السبب لا ينافي عموم اللفظ، فدخل فيه كل مسرف.

واعلم(١): أن هذه الآية أرجى آيةٍ في كتاب الله سبحانه؛ لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه، لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين، من باب الأولى، وبفحوى الخطاب.

وبعد أن نهاهم عن القنوط.. أخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه، فيحل الرجاء مكانه، وجاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يخالج القلب عند سماعه ظن، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾؛ أي: أفراد جنس الذنوب حال كونها، ﴿جَمِيعًا﴾ فالألف واللام فيه: لاستغراق أفراد الجنس؛ أي: إن الله سبحانه يغفر كل ذنب، كائناً ما كان، إلا ما أخرجه النص القرآني، وهو الشرك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

فيا لها من بشارةٍ ترتاح لها قلوب المؤمنين، المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في رجائه، الخالعين ثياب القنوط، البعيدين عن سوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده، المتوجهين إليه في طلب العفو، الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم.

ثم ذكر علة ذلك، فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ بمحو ما يوجب العقاب عمن تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالتفضّل بالثواب له؛ أي: كثير المغفرة والرحمة، عظيمهما وبليغهما واسعهما، وصيغة(٢) المبالغة: راجعة إلى كثرة الذنوب، وكثرة المغفور والمرحوم.

فمن أبى هذا الفضل العظيم، والعطاء الجسيم، وظن أن تقْنيط عباد الله، وتَأْيِيْسهم من رحمته، أولى بهم مما بشرهم الله به.. فقد ركب أعظم الشطط، وغلط أقبح الغلط، فإن التبشير هو الذي جاءت به نصوص الكتاب، وهو المسلك

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

الذي سلكه رسول الله ﷺ، كما صح عنه من قوله: «يسروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا».

وروى أحمد عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ: قال: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية»: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك، فسكت رسول الله ﷺ، ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرات.

وروى أحمد أيضاً عن عمرو بن عنبسة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء إلى النبي ﷺ شيخ كبير، يتوكأ على عصاً له، فقال: يا رسول الله، إن لي غدراتٍ وفجرات، فهل يغفر لي؟ فقال ﷺ: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله»؟ قال: بلى، وأشهد أنه رسول الله، فقال ﷺ: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك».

وروى البخاري عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن ناساً من أهل الشرك، كانوا قد قتلوا وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ ونزل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا...﴾ الآية.

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، والإخلاص في العمل، ولا يقنطنّ عبد من رحمة الله، فإن باب الرحمة واسع، كما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.

وروى الطبراني من طريق الشعبي عن سنيد بن شكل، أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آيةٍ في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وإن أجمع آيةٍ في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾، وإن أكثر آيةٍ في القرآن فرجاً في سورة الغرف: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ وإن أشد آيةٍ في كتاب الله تفويضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ فقال له مسروق: صدقت.

فإن قلت[1]: حمل هذه الآية على ظاهرها يكون إغراء بالمعاصي، وإطلاقاً في الإقدام عليها، وذلك لا يمكن.

قلت: المراد منها: على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنّه لا مخلص له من العذاب، فإن من اعتقد ذلك.. فهو قانط من رحمة الله تعالى، إذ لا أحد من العصاة إلا ومتى تاب.. زال عقابه، وصار من أهل المغفرة والرحمة، فمعنى أن الله يغفر الذنوب جميعاً؛ أي: إذا تاب، وصحت التوبة.. غفرت ذنوبه، ومن مات قبل أن يتوب.. فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فإن شاء.. غفر له، وعفا عنه، وإن شاء.. عذّبه بقدر ذنوبه، ثم يدخله الجنة بفضله ورحمته، فالتوبة واجبة على كل أحد، وخوف العذاب مطلوب، فلعل الله تعالى يغفر مطلقاً، ولعله يعذّب ثم يعفو بعد ذلك، والله أعلم.

قال الشوكاني[2]: وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين، من تقيد هذه الآية بالتوبة، وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين، وزعموا أنهم قالوا ذلك: للجمع بين الآيات.. فهو جمع بين الضب والنون، وبين الملاح والحادي، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة.. لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ انتهى.

وقال البروسوي في «الروح»: واعلم[3]: أن أهل السنة لم يشترطوا التوبة في غفران الذنوب مطلقاً؛ أي: سواء كانت كبائر أو صغائر، سوى الشرك. ودل عليه آثار كثيرة.

روي: أن الله تعالى يقول يوم القيامة لبعض عصاة المؤمنين: «سترتها عليك في الدنيا»؛ أي: الذنوب «وأنا أغفرها لك اليوم» فهذا وأمثاله يدل على المغفرة بلا توبة. والفرق بين الشرك وسائر المعصية: هو أن الكافر لا يطلب العفو والمغفرة

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

لمعاصيه، اهـ.

وبعد أن وعد سبحانه بالمغفرة أمر بشيئين:

١ـ الإنابة إليه بقوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ يا عبادي وارجعوا ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ سبحانه، بالتوبة من المعاصي ﴿وَأَسۡلِمُواْ﴾؛ أي: أخلصوا العمل ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لوجهه طلباً لمرضاته، فإن السالم بمعنى الخالص، ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا تمنعون من عذاب الله إن لم تتوبوا قبل نزوله، والظاهر من آخر الآية: أن الخطاب للكفار، فالمعنى: فارجعوا أيها الناس من الشرك إلى الايمان، وأخلصوا له تعالى التوحيد.

وفي «الأسئلة المقحمة»: الفرق بين التوبة والإنابة: أن التائب يرجع إلى الله تعالى خوفاً من العقوبة، والمنيب يرجع حياءً منه، وشوقاً إليه، قال إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ: إذا صدق العبد في توبته.. صار منيباً؛ لأن الإنابة ثاني درجة التوبة.

وفي «التأويلات النجمية»: التوبة لأهل البداية، وهي الرجوع من المعصية إلى الطاعة، والأوبة للمتوسط، وهي الرجوع من الدنيا إلى الآخرة، والإنابة لأهل النهاية، وهي الرجوع مما سوى الله إلى الله، بالفناء في الله تعالى، وقال الجنيد رحمه الله: معنى أنيبوا إلى الله: انقطعوا عن الكل بالكلية، فما يرجع إلينا بالحقيقة أحد، ولا للغير عليه أثر، وللأكوان على سره خطر، ومن كان لنا كان حراً مما سوانا. اهـ.

والظاهر: أن الله سبحانه جمع لعباده بين التبشير العظيم، والأمر بالإنابة إليه، والإخلاص له، والاستسلام لأمره والخضوع لحكمه.

والمعنى[1]: أيها الناس، أنيبوا إلى ربكم بالتوبة، وارجعوا إليه بالطاعة، واستجيبوا إلى ما دعاكم إليه من توحيده، وإفراده بالألوهية، قبل أن يأتيكم العذاب، ثم لا تجدوا نصيراً ولا معيناً من عذابه النازل بكم.

٢ـ اتباع الأحسن بقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾؛ أي: أحكم

(١) المراغي.

ومحكم ما أنزل إليكم ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾ سبحانه، دون منسوخه ومتشابهه، أو عزائمه دون رخصه.

وقيل: العفو دون الانتقام، وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية، وقال الحسن: الزموا طاعته، واجتنبوا معصيته، فإن الذي أنزل عليكم من ثلاثة أوجه، ذكر القبيح لتجتنبوه، وذكر الأحسن لتؤثروه، وذكر الأوسط لئلا يكون عليكم جناح في الإقبال عليه، أو الإعراض عنه، وهو المباحات.

وفي «فتح الرحمن»[1]: إن قلت: كيف قال: ذلك مع أن القرآن كله حسن؟.

قلت: معناه أحسن وحي، أو أحسن كتاب أنزل إليكم، وهو القرآن كله، أو أحسن القرآن آياته المحكمات، أو آياته التي تضمنت أمر طاعة، أو إحسان انتهى. أي: واتبعوا ما أمركم به ربكم في تنزيله، واجتنبوا ما نهاكم عنه فيه ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: البلاء والعقوبة ﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة، ويجوز أن يكون المراد بالعذاب الآتي بغتة هو الموت؛ لأنه مفتاح العذاب الأخروي، وطريقه، ومتصل به ﴿وَأَنتُمْ﴾ لغفلتكم؛ أي: والحال أنكم لغفلتكم ﴿لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لا تدركون بالحواس مجيئه؛ لتتداركوا وتتأهّبوا؛ أي: من قبل أن يفاجئكم العذاب وأنتم غافلون عنه، لا تشعرون به، وقيل[2]: أراد أنهم يموتون بغتة فيقعون في العذاب، والأول أولى؛ لأنّ الذي يأتيهم بغتة هو العذاب في الدنيا بالقتل والأسر والقهر والخوف والجدب، لا عذاب الآخرة ولا الموت؛ لأنه لم يسند الإتيان إليه، ولما خوّفهم بالعذاب.. ذكر علّة ذلك فقال:

٥٦ - ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ مفعول لأجله[3] للأفعال السابقة، التي هي الإنابة والإخلاص واتباع القرآن، والتنكير في ﴿نَفْسٌ﴾؛ لأن القائل بعض الأنفس، أو للتكثير والتعميم؛ ليشيع في كل النفوس.

والمعنى: افعلوا ما ذكر من المأمورات؛ يعني أمرتكم به كراهية أن تقول كل

---

(١) فتح الرحمن.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

نفس أو بعض الأنفس ﴿يَحَسْرَتَىٰ﴾ بالألف بدلاً من ياء الإضافة؛ إذ أصله يا حسرتي، تقول العرب: يا حسرتي يا لهفي، ويا حسرتا ويا لهفا، ويا حسرتاي ويا لهفاي، بالجمع بين العوضين، تقول هذه الكلمة في نداء الاستغاثة، كما في «كشف الأسرار» والحسرة: الغم على ما فاته، والندم عليه، كأنه انحسر الجهل عنه، الذي حمله على ما ارتكبه، وقال بعضهم الحسرة: أن تأسف النفس أسفاً تبقى منه حسيرة؛ أي: منقطعة.

والمعنى: يا حسرتي ويا ندامتي احضري، فهذا أوان حضورك لأتعجب منك.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَحَسْرَتَىٰ﴾ بالألف بدلاً من الياء المضاف إليها، والأصل: يا حسرتي، وقرأ أبو جعفر: ﴿ياحسرتي﴾ بالياء على الأصل، وقرأ ابن كثير: ﴿ياحسرتاه﴾ بهاء السكت وقفاً.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾؛ أي: على تفريطي وتقصيري، فـ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في جانبه وحقه، وهو طاعته وإقامة حقّه، وسلوك طريقه، وقيل في أمره، وحدّه الذي حده لنا. ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ ﴿إِنْ﴾ هي[2] المخففة، و﴿اللام﴾: هي الفارقة، والسخر: الاستهزاء، ومحل الجملة: النصب على الحال، والمعنى: فرطت، والحال أني كنت في الدنيا من المستهزئين بدين الله، وأهله، قال قتادة: لم يكفهم ما ضيعوا من طاعة الله تعالى، حتى سخروا بأهل طاعته.

والخلاصة[3]: بادروا إلى العمل، واحذروا أن تقول بعض الأنفس يا حسرتا على تقصيري في طاعة الله، وسخريتي واستهزائي بدين الله وكتابه وبرسوله وبالمؤمنين.

٢- ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ نفس ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ بالإرشاد إلى الحق، ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والمعاصي.

والمعنى: أي أو تقول لو أن الله أرشدني إلى دينه وطاعته.. لكنت ممن اتقى

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

الله، فترك الشرك والمعاصي، وفي الخبر: «ما من أحد من أهل النار يدخل النار حتى يرى مقعده من الجنة، فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيكون عليه حسرةً، وهذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة، ويتعلّلون به من العلل الباطلة، كما في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ فهي كلمة حق يريدون بها باطلاً.

٣ - ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ نفس ﴿حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ عياناً ومشاهدةً ﴿لَوْ﴾ للتمني ﴿أَنَّ لِى كَرَّةً﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ﴾ بالنصب في جواب التمني؛ أي: أتمنى كون كرة ورجعة لى إلى الدنيا، فكوني ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل.

وخلاصة ذلك: أنّ هذا المقصر تحسر على التفريط في الطاعة، وفقد الهداية، ثم تمنى الرجعة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فات، وكلمة أو في مواضعها للدلالة على أنها لا تخلو النفس عن هذه الأقوال، تحيراً وتعللاً بما لا طائل تحته، وندماً حيث لا ينفع الندم، وقيل: إن قوماً يقولون هذا، وقوماً يقولون ذاك.

فأجابها سبحانه بقوله: ﴿بَلَىٰ...﴾ إلخ.

فإن قلت[(١)]: كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ مختصة بإيجاب النفي، ولا نفي في واحدة من تلك المقالات.

قلت: إنها رد للثانية، وكلمة ﴿لَوْ﴾ تتضمن النفي؛ لأنها لامتناع الثاني لامتناع الأول؛ أي: لو أن الله هداني.. لكنت من المتقين، ولكن ما هداني، فقال تعالى: بلى قد هديتك.

﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ التنزيلية القرآنية، وهي سبب الهداية، وفصله عن قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ لما أن تقديمه على الثالث يفرّق القرائن الثلاث التي دخلها أَوْ﴾، وتأخير ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى...﴾ إلخ. يخل بالترتيب الوجوديّ؛ لأنه يتحسر بالتفريط عند تطاير الكتب، ثم يتعلل بفقد الهداية عند مشاهدة أحوال المتقين واغتباطهم، ثم يتمنّى الرجعة عند الاطلاع على النار، ورؤية العذاب، وتذكير[(٢)]

---

(١) روح البيان.

الخطاب في قوله: ﴿جَآءَتۡكَ﴾ و﴿كذبت﴾ و﴿استكبرت﴾ و﴿كنت﴾ باعتبار معنى النفس، وهو الإنسان؛ لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث، قال المبرّد: تقول العرب: نفس واحد؛ أي: إنسان واحد، وبفتح التاء في هذه المواضع قرأ الجمهور، وقرأ الجحدري وأبو حيوة ويحيى بن يعمر والزعفراني وابن مقسم ومسعود بن صالح والشافعي عن ابن كثير ومحمد بن عيسى باختياره ونصير والعبسي: بكسرها في جميعها، وهي قراءة أبي بكر الصديق وابنته عائشة وأم سلمة، ورويت عن ابن كثير، وروت القراءتين أم سلمة عن النبي ﷺ، وقرأ الحسن والأعرج والأعمش: ﴿جَأَتْكَ﴾ بالهمزة من غير مد، وهو مقلوب من ﴿جاءتك﴾، قدمت لام الكلمة وأخرت العين، فسقطت الألف، كما سقطت في رمت ﴿فَكَذَّبۡتَ بِهَا﴾؛ أي: قلت: إنها ليست من عند الله تعالى ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾؛ أي: تعظمت عن الإيمان بها ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ والجاحدين بها.

والمعنى[1]: أي إنه لا فائدة في شيء من تلك المقالات، فقد جاءتك آياتي في الدنيا على لسان رسولي الذي أرسلته إليك، وفي كتابي الذي يتلوه عليك، ويذكّرك بما فيه من وعد ووعيد، وتبشير وإنذار، فكذبت بها واستكبرت عن قبولها، وكنت ممن يعمل عمل الكافرين، ويستنّ بسنّتهم، ويتّبع مناهجهم.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ من الأنبياء ومعجزاتهم، والكتب وحكمها ومواعظها وأسرارها وحقائقها ودقائقها وإشاراتها ﴿فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ عن اتباعها، والقيام بشرائطها ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: كافري النعمة، بما أنعم الله به عليك من نعمة وجود الأنبياء، وإنزال الكتب، وإظهار المعجزات.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ لرب العالمين ﴿تَرَى﴾ وتبصر أو تعلم يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه، كاتخاذ الولد والصاحبة والشريك حال كونهم ﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ لما أحاط بهم من العذاب، وشاهدوه من غضب الله ونقمته، وقوله: ﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾: متبدأ وخبر، والجملة: حال[2] قد اكتفي فيها بالضمير عن الواو، على أن الرؤية بصرية، أو مفعول ثان لها على أنها

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

عرفانية.

والمعنى: تراهم يا محمد، أو أيها المخاطب حال كونهم مسوّدي الوجوه، أو تراهم مسوّدي الوجوه بما ينالهم من الشدة، أو بما يتخيّل من ظلمة الجهل والكفر سواداً مخالفاً لسائر أنواع السواد، هو سواد يدل على الجهل بالله، والكفر به، والكذب عليه.

وقرىء ﴿وجوههم مسودة﴾ بنصبهما فـ﴿وجوههم﴾: بدل بعض من كل، و قرأ أبي: ﴿أجوههم﴾ بإبدال الواو همزة.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن يوم القيامة تكون الوجوه بلون القلب، فالقلوب الكاذبة لما كانت مسودة بسواد الكذب، وظلمة الكفر.. تلونت وجوههم بلون القلوب. انتهى.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾؛ أي: مقام ومنزل، ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة، للتقرير؛ أي: لهم مقام ومنزل في نار جهنم، خالدين مخلدين فيها أبد الآباد، وهو إشارة إلى قوله: ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ﴾. والكبر: هو بطر الحق، وغمط الناس، كما ثبت في الحديث الصحيح.

ومعنى الآية[1]: أي وترى أيها الرسول يوم القيامة وجوه الذين كذبوا على الله، فزعموا أن له ولداً، وأن له شريكاً، وعبدوا آلهةً من دونه، مجللةً بالسواد، لما أحاط بها من الكآبة والحزن الذي علاها، والغم الذي لحقها.

ثم علل هذا وأكده بقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ أي: أليست النار كافيةً لهم سجناً وموئلاً، ولهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق، وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ وسلم: «يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذر، يلحقهم الصغار، حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم».

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى من عذاب جهنم ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي حال كونهم متلبسين ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وظفرهم بالمطلوب الذي هو النعيم المقيم، والمفازة[2]: مصدر ميمي بمعنى الفوز، كما سيأتي، والفوز: الظفر

---

(١) المراغي.

بالمطلوب مع السلامة من المكروه، و﴿الباء﴾: متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول، مفيدة لمفازة تنجيتهم من العذاب لنيل الثواب؛ أي: ينجيهم الله سبحانه من مثوى المتكبرين، حال كونهم متلبسين بفوزهم بمطلوبهم الذي هو الجنة.

وروي عن النبي ﷺ تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «يحشر الله مع كل امرىءٍ عمله، فيكون عمل المؤمن معه في أحسن صورة وأطيب ريح، فكلما كان رعب أو خوف.. قال له: لا ترع، فما أنت بالمراد به، ولا أنت المعني به، فإذا كثر ذلك عليه.. قال: فما أحسنك، فمن أنت؟ فيقول: أما تعرفني، أنا عملك الصالح، حملتني على ثقلي، فوالله لأحملنك ولأدفعنّ عنك، فهي التي قال الله: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ثم بين هذه المفازة بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والجملة: حال أخرى من الموصول، مفيدة لكون نجاتهم وفوزهم بالجنة غير مسبوقة بمساس العذاب والحزن؛ أي: ينجيهم الله سبحانه من مثوىٰ المتكبرين، حال كونهم متلبسين بفوزهم بمطلوبهم الذي هو الجنة، وحالة كونهم غير مسبوقين بمساس السوء والعذاب في أبدانهم، وبمساس الحزن والغمّ في قلوبهم أي: لا يمسهم[(١)] أذى جهنم، ولا يحزنون على ما فاتهم من مآب الدنيا، إذ هم قد صاروا إلى ما هو خير منه؛ نعيم مقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار، ورضوان من الله أكبر.

وخلاصة ذلك: أنهم أمِنوا من كل فزع، وبعدوا من كل شرّ، وفازوا بكل خير ومسرة.

وقرأ الجمهور[(٢)]: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ على الإفراد، والسلمي والحسن والأعرج والأعمش وحمزة والكسائي وأبو بكر: على الجمع، من حيث إن النجاة أنواع والأسباب مختلفة، وقال أبو علي: المصادر تجمع إذا اختلفت أجناسها، كقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾، وقال الفراء: كلا القراءتين صواب، تقول قد تبين أمر الناس، وأمور الناس.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومبدع كل مخلوق من خير وشر، وإيمان وكفر، لكن لا بالجبر، بل بمباشرة الكاسب لأسبابها.

قال في «التأويلات النجمية»: دخل أفعال العباد وأكسابهم في هذه الجملة، ولا يدخل هو وكلامه فيها؛ لأن المخاطب لا يدخل تحت الخطاب، ولأنه تعالى يخلق الأشياء بكلامه، وهو كلمة ﴿كن﴾ الموجودة في الدنيا والآخرة، كائناً ما كان، من غير فرق بين شيء وشيء.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولى التصرف فيه كيفما يشاء؛ أي: الأشياء كلها موكولة إليه تعالى، فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير مشارك له، والوكيل[1]: هو القائم على الأمر، الزعيم بإكماله، والله تعالى هو المستكفل بمصالح عباده، والكافي لهم في كل أمر، ومن عرف أنه الوكيل.. اكتفى به في كل أمره، فلم يدبر معه، ولم يعتمد إلا عليه.

وخاصية هذا الاسم: نفي الجوائح والمصائب، فمن خاف ريحاً أو صاعقة أو نحوهما فليكثر من ذكره، فإنه يصرف عنه، ويفتح له أبواب الخير والرزق.

والمعنى: أي وهو سبحانه القائم على كل الأشياء، يتولاها بحراسته وحفظه بحسب ما تقتضيه المصلحة، فهي محتاجة إليه في بقائها، كما هي محتاجة إليه في وجودها.

ثم فصل ذلك بعض التفصيل، فقال: ﴿لَّهُۥ﴾ سبحانه وحده لا لغيره ﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جمع مقليد، أو مقلاد، كما سيأتي. وهو المفتاح؛ أي: له تعالى وحده مفاتيح خزائن العالم العلوي والسفلي، لا يتمكن من التصرف فيها غيره؛ أي: هو حافظ الخزائن ومدبّرها ومالك مفاتيحها، فله التصرف في كل شيء مخزون فيها.

والخلاصة: هو القادر عليهما، والحافظ لهما.

وقال قتادة ومقاتل: له مفاتيح السموات والأرض، بالرزق والرحمة، وقال الكلبي: له خزائن السموات بالمطر، وخزائن الأرض بالنبات، وروي أنه سأل

---

(١) روح البيان.

عثمان ـ رضي الله عنه ـ رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فقال: «يا عثمان، ما سألني عنها أحد قبلك، مقاليد السموات والأرض: «لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير».

والمعنى على هذا: إن لِلّه هذه الكلمات، يوحد بها ويمجد بها، وهي مفاتيح خير السموات والأرض، من تكلم بها.. أصابَهُ خيرهما، أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ـ سبحانه ـ التنزيلية والتكوينية، المنصوبة في الآفاق والأنفس، الناطقة بكونه تعالى خالقاً للأشياء كلها، وكونه مالكاً مقاليد السموات والأرض بأسرها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خسراناً[1] لا خسران وراءه؛ لأنهم اختاروا العقوبة على الثواب، وفتحوا أبواب نفوسهم بمفتاح الكفر والنفاق، نسأل الله سبحانه أن يجعلنا ممن ربحت تجارته، لا ممن خسرت صفقته.

قال البيضاوي[2]: وهذا كلام متصل بقوله: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ وما بينهما: اعتراض للدلالة على أنه مهيمن على العباد، مطلع على أفعالهم، مجاز عليها، وتغيير النظم للأشعار بأن العمدة في فلاح المؤمنين فضل الله، وفي هلاك الكافرين بأن خسروا أنفسهم، وللتصريح بالوعد، والتعريض بالوعيد قضية للكرم، أو بما يليه، والمراد بآيات الله، دلائل قدرته واستبداده بأمر السموات والأرض، أو كلمات توحيده وتمجيده، وتخصيص الخسار بهم؛ لأن غيرهم ذو حظ من الرحمة والثواب. انتهى.

والهمزة في قوله: ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري[3] التوبيخي، داخلة على محذوف، كنظائره فيما سبق، و﴿الفاء﴾: عاطفة على المحذوف، و﴿غيرَ الله﴾: منصوب بـ﴿أَعْبُدُ﴾، و﴿أَعْبُدُ﴾: معمول لـ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ على تقدير أن المصدرية، فلما حذفت.. بطل عملها،

---

(١) روح البيان. (٢) البيضاوي. (٣) الشوكاني.

والتقدير: قل يا محمد لمشركي قومك، الداعين لك إلى عبادة الأصنام، القائلين لك: هو دين آبائك: أتدعونني إلى عبادة الأصنام بعد مشاهدة هذه الآيات، وتأمرونني أن أعبد غير الله أيها الجاهلون، ويجوز أن يكون ﴿غير﴾ منصوباً بفعل مقدر؛ أي: فتلزمونني غير الله؛ أي: عبادة غير الله، أو أعبد غير الله أعبد، ويجوز أن يكون ﴿غير﴾ منصوباً بـ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾، و﴿أَعْبُدُ﴾ بدل اشتمال منه، وأن مضمرة معه أيضاً، أمره الله سبحانه أن يقول هذا للكفار، لما دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام، وقالوا: هو دين آبائك.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ بإدغام النون في نون الوقاية، وسكون الياء وفتحها ابن كثير، وقرأ ابن عامر: ﴿تأمرونني﴾ بنونين على الأصل. ونافع: ﴿تأمروني﴾ بنون واحدة مكسورة وفتح الياء، قال ابن عطية: وهذا على حذف النون الواحدة، وهي الموطئة لياء المتكلم، ولا يجوز حذف النون الأولى، وهو لحن؛ لأنها علامة رفع الفعل. انتهى. وفي المسألة خلاف: منهم من يقول: المحذوفة نون الرفع، ومنهم من يقول: نون الوقاية، وليس بلحن؛ لأن التركيب متفق عليه. والخلاف جرى في أيهما حذف، ونختار أنها نون الرفع، ولما كان الأمر بعبادة غير الله لا يصدر إلا من غبي جاهل.. ناداهم بالوصف المقتضي ذلك، فقال: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾.

والمعنى[2]: أي قل أيها الرسول الكريم لمشركي قومك، الداعين لك إلى عبادة الأصنام، والقائلين لك: هو دين آبائك: أفتأمروني أيها الجاهلون بعد مشاهدتي الآيات الدالة على تفرده سبحانه وتعالى بالألوهية، أن أعبد غيره، والعبادة لا تصلح لشيء سواه.

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطَؤُون عقبه؛ أي: يغطون دعوته ويزيلونها، وقالوا: هذا لك يا محمد، وتكف عن شتم آلهتنا، ولا تذكرها بسوء، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فنزل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى آخر السورة، ونزل: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

إلى قوله: ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وعنه أيضاً: أن المشركين من جهلهم، دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، وهم يعبدون معه إلهه.

ثم بين أنه حذّر وأنذر عباده من الشرك، بلسان جميع الأنبياء، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أيها الرسول ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام.

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ فرضاً، وإفراد[1] الخطاب، باعتبار كل واحد من الأنبياء، كأنه قيل: أوحي إليك وإلى كل واحد من الأنبياء هذا الكلام، وهو: لئن أشركت ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؛ أي: ليبطلن ثواب عملك، وإن كنت كريماً علي. ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ في صفقتك، بسبب حبوط عملك، و﴿اللام﴾: الأولى: موطئة للقسم، والأخريان: للجواب، وهو كلام وارد على طريقة الفرض، لتهييج الرسل، وإقناط الكفرة، والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره، فكيف بمن عداه؟! وعطف الخسران على الحبوط من عطف المسبب على السبب، قال التفتازاني: فالمخاطب هو النبي ﷺ، وعدم إشراكه مقطوع به، لكن جيء بلفظ الماضي إبرازاً للإشراك في معرض الحاصل على سبيل الفرض والتقدير، تعريضاً لمن صدر عنهم الإشراك، بأنه قد حبطت أعمالهم، وكانوا من الخاسرين.

وقال في «كشف الأسرار»: هذا خطاب مع الرسول ﷺ، والمراد به غيره، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذا أدب من الله لنبيه ﷺ، وتهديد لغيره؛ لأن الله تعالى قد عصمه من الشرك، ومداهنة الكفار، قال في «فتح الرحمن»: إن قلت: كيف قال ذلك مع أن الموحى إليهم جمع، ولما أوحى إلى من قبله لم يكن في الوحي إليهم خطابه؟. قلت: معناه: ولقد أوحي إلى كل واحد منك ومنهم: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾، أو فيه إضمار نائب الفاعل، تقديره: ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك التوحيد، ثم ابتدأ فقال: و﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾، أو فيه تقديم وتأخير، تقديره: ولقد أوحي إليك: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ وكذلك أوحي إلى الذين من قبلك اهـ «فتح الرحمن».

---

(١) روح البيان.

وقال الشوكاني: هذا الكلام[1] من باب التعريض لغير الرسل؛ لأن الله سبحانه قد عصمهم من الشرك، ووجه إيراده على هذا الوجه: التحذير والإنذار للعباد من الشرك؛ لأنه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير.. فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: ولقد أوحي إليك: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ وأوحي إلى الذين من قبلك كذلك، قال مقاتل؛ أي: أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد، والتوحيد: محذوف، ثم قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ يا محمد ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وهو خطاب للنبي ﷺ خاصة. انتهى.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن الإنسان ولو كان نبياً، لئن وكل إلى نفسه.. ليفتحن بمفتاح الشرك والرياء أبواب خزائن قهر الله على نفسه، وليحبطن عمله، بأن يلاحظ غير الله بنظر المحبة، ويثبت معه في الإبداع سواه.

ومعنى الآية[2]: أي ولقد نزل عليك الوحي من ربك، بأنه إذا حصل منك إشراك به، بعبادة صنم أو وثن.. ليبطلنّ كل عمل لك من أعمال الخير، كصلة رحم وبر ببائس فقير، ولا تنالنَّ به ثواباً ولا جزاءً، ولتكونن ممن خسروا حظوظهم في الدنيا والآخرة، وأوحي إلى الرسل من قبلك بمثل هذا.

وقرأ الجمهور: ﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾ بالبناء للفاعل ﴿عَمَلُكَ﴾ رفع به، وقرىء: ﴿ليُحبِطن﴾ بضم الياء من أحبط علمه ﴿عملَك﴾ بالنصب؛ أي: ليحبطن الله عملك، أو الإشراك عملك، وقرىء ﴿لنُحبطن﴾ بالنون ﴿عملك﴾ بالنصب، فاحذر أن تشرك بالله شيئاً، فتهلك، وهذا كلام سيق على سبيل الفرض والتقدير، لتهييج المخاطب المعصوم، وللإيذان بشناعة الإشراك وقبحه، حتى لينهى عنه من لا يكاد يفعله، فكيف بغيره؟ والحكم بحبوط عمل المشرك في الآخرة، مقيّد بما إذا مات وهو كذلك، بدليل قوله في الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

ثم رد عليهم ما أمروه به من عبادة الأصنام، وأمره بعبادته وحده، فقال: ﴿بَلِ

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ و﴿الفاء﴾ فيه واقعة في جواب الشرط المحذوف، تقديره: لا تعبد ما أمرك الكفار بعبادته، بل إن عبدت فاعبد الله دون ما سواه من الأنداد والأوثان، فحذف الشرط، وأقيم المفعول مقامه، ووجه الرد: ما يفيده التقديم من القصر، قال الزجاج: و﴿الفاء﴾ في ﴿فَٱعْبُدْ﴾ للمجازاة، وقال الأخفش: زائدة، وقال عطاء ومقاتل: معنى ﴿فَٱعْبُدْ﴾: وحد؛ لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده. ﴿وَكُن﴾ يا محمد ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ربك على إنعامه عليك بما هداك إليه من التوحيد والعبادة والدعاء إلى دينه، وكذا النبوة والرسالة الحاصلتان بفضله وكرمه، لا بسعيك وعملك.

وقرأ عيسى: ﴿بل اللهُ﴾ بالرفع، والجمهور: بالنصب.

واعلم: أن الشكر على ثلاث درجات[1]:

الأولى: الشكر على المحابِّ، وقد شاركت المسلمين في هذا الشكر اليهود والنصارى والمجوس.

والثانية: الشكر على المكارِهِ، وهذا الشاكر أول من يدعى إلى الجنة؛ لأن الجنة حفت بالمكاره.

والثالثة: أن لا يشهد غير المنعم، فلا يشهد النعمة ولا الشدة، وهذا الشهود والتلذذ به أعلى اللذات؛ لأنه في مقام السر، فالعاقل يجتهد في الإقبال على الله والتوجه إليه، من غير التفات إلى يمين وشمال.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ أي: ما عظموه سبحانه وتعالى حق تعظيمه، حيث جعلوا له شريكاً، وأمروا رسوله ﷺ بأن يكون مثلهم في الشرك، قال أبو حيان؛ أي: ما عظموه حق تعظيمه، وما قدروه في أنفسهم حق تقديره؛ إذ أشركوا معه غيره، وساووا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدره، ولما[2] كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته، وقدّره في نفسه حق تقديره، وعظمه حق تعظيمه. قيل: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾.

---

(١) روح البيان. (٢) النسفي.

وقرأ الأعمش[1]: ﴿حق قدَره﴾ بفتح الدال، وقرأ الحسن وعيسى وأبو نوفل وأبو حيوة: ﴿وما قدَّروا﴾ بتشديد الدال، ﴿حق قدره﴾ بفتح الدال؛ أي: ما عظموه حقيقة تعظيمه، والضمير في ﴿قَدَرُواْ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: إلى كفار قريش، كانت هذه الآية كلها محاورةً لهم، وردًّا عليهم، وقيل: نزلت في قوم من اليهود تكلموا في صفات الله وجلاله، فألحدوا وجسموا، وجاؤوا بكل تخليط.

روى البخاري عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد: إنا نجد في كتابنا أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية.

وأخرج الشيخان والنسائي وابن ماجه في جماعة آخرين عن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ: قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهو يقول هكذا بيده يحركها، يقبل بها ويدبر، يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم، فرجف برسول الله ﷺ المنبر، حتى قلنا: ليَخِرَّنَّ به.

وفي «التأويلات النجمية»[2]: ما عرفوا الله حق معرفته، وما وصفوه حق وصفه، وما عظموه حق تعظيمه، فمن وصفه بتمثيل أو جنح إلى تعطيل. فقد حاد عن الألسنة المثلى، وانحرف عن الطريقة الحسنى، وصفوا الحق بالأعضاء، وتوهّموا في نعته الأجزاء، فـ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾. انتهى.

ثم نبههم سبحانه على عظمته وجلالة شأنه، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا﴾: حال لفظاً، وتأكيد معنى، ولذا قال أهل التفسير: تأكيد الأرض بالجميع؛ لأن المراد بها: الأرضون السبع، أو جميع أبعاضها البادية والغائرة؛ أي: الظاهرة وغير

---

(١) البحر المحيط.
(٢) التأويلات النجمية.

الظاهرة من باطنها وظاهرها ووسطها، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾: مبتدأ، خبره، قوله: ﴿قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والجملة الاسمية: حال من لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ما قدروا الله وعظموه حق قدره وعظمته؛ أي: ما عظموه التعظيم اللائق به تعالى، حيث عبدوا معه غيره، حالة كون جميع الأرض مقبوضة، ومملوكة يوم القيامة؛ أي: في ملكه[1] وتصرّفه من غير منازع، يتصرف فيها تصرف الملاك في ملكهم، وأنها؛ أي: جميع الأرضين، وإن عظمن.. فما هنّ بالنسبة إلى قدرته تعالى، إلا قبضة واحدة، ففيه تنبيه على غاية عظمته، وكمال قدرته، وحقارة الأفعال العظام بالنسبة إلى قدرته، ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه على طريقة التمثيل والتخييل، من غير اعتبار القبضة حقيقةً ولا مجازاً على ما في «الإرشاد» ونحوه.

وقيل: القبضة[2] المرة من القبض بالكف، والكلام حينئذ على حذف مضاف.

والمعنى: والأرضون جميعاً قبضته؛ أي: ذوات قبضته يقبضهنّ قبضة واحدة؛ يعني أن الأرضين مع عظمهن وبسطهنّ، لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته، كأنه يقبضها قبضة واحدة بكف واحد، وإذا أريد معنى القبضة فظاهر؛ لأن المعنى أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة؛ أي: ما عظموه حق تعظيمه، والحال أنه متصف بهذه الصفة، الدالة على كمال القدرة، التي هي غاية العظمة والجلال، فالأرض مع سعتها وبسطها في قبضة الرحمن يوم القيامة.

وقرأ الجمهور: برفع ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ على أنها خبر المبتدأ، وقرأ الحسن: بنصبها، ووجهه ابن خالويه بأنه على الظرفية؛ أي في قبضته، وقدم الأرض لمباشرتهم لها ومعرفتهم بحقيقتها، ولما كان في دار الدنيا من يدعي الملك والقهر والعظمة والقدرة دون دار الآخرة فالأمر فيها لله وحده ظاهراً وباطناً.. قال ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اهـ «خطيب».

وفي «القرطبي»: إنما خص يوم القيامة بالذكر، وإن كانت قدرته عامة وشاملة لدار الدنيا أيضاً؛ لأن الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾. انتهى.

---

(١) روح البيان. (٢) النسفي.

وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ مبتدأ ﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾ خبره ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾؛ أي: مجموعات وملفوفات ومدرجات بيمينه تعالى يوم القيامة؛ أي: والسموات على سعتها وعظمها مطويات بيمينه، من طويت الشيء طياً؛ أي: أدرجته إدراجاً.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ما السموات السبع والأرضون السبع في يد الله، إلا كخردلة في يد أحدكم.

والمعنى: أن الأرض جميعاً تحت ملكه يوم القيامة، يتصرف فيها كيف يشاء، ولا يتصرف فيها سواه، والسموات مطويات طي السجل للكتب، بقدرته التي لا يتعاصى معها شيء، وفي هذا رمز إلى أن ما يشركونه معه في الأرض أو في السماء مقهور تحت سلطانه جل شأنه، روى البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض».

وقال سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه، فتفسيره تلاوته، والسكوت عليه، وقال ابن كثير: وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

وقال بعضهم: المعنى: والأرض جميعاً قبضته تعالى، يقبضها بشماله يوم القيامة، والسموات مطويات يطويها بيمينه، بدليل مقابلة السماء بالأرض، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقبض الله السموات بيمينه، والأرضين بيده الأخرى، ثم يهزهن ويقول: أنا الملك أين ملوك الأرض». وفيه إشعار بإطلاق اسم الشمال على اليد الأخرى، وهما صفتان ثابتتان لله تعالى، نثبتهما ونعتقدهما بلا تكييف ولا تمثيل، وخص يوم القيامة بالذكر، وإن كانت قدرته شاملة؛ لأن الدعاوى تنقطع فيه، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ كما مر. وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾ بالرفع، على أنها خبر المبتدأ، والجملة في محل نصب على الحال، كالتي قبلها، وقرأ عيسى والجحدري؛ بنصب ﴿مطويات﴾،

---

(١) البحر المحيط.

ووجه ذلك: أن ﴿السموات﴾ معطوفة على ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾، وتكون ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ خبراً عن ﴿الأرضُ﴾ ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وتكون ﴿مطوياتٍ﴾ حالاً أو تكون ﴿مطويات﴾ منصوبة بفعل مقدر، و﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ الخبر.

ثم نزه سبحانه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهاً له تعالى عن كل ما ينسبونه إليه من الصاحبة والولد، ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: وترفع عن شركة ما يشركونه به من المعبودات التي يعبدونها ويجعلونها شركاء له، مع هذه القدرة العظيمة، والحكمة الباهرة، أي: ما أبعد وما أعلى من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم، أو عما يشركونه به من الشركاء، فما على الأول مصدرية، وعلى الثاني موصولة.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾؛ أي: نفخ إسرافيل في الصور النفخة الأولى، التي هي للإماتة، فالمراد بها: النخفة الأولى، بقرينة النفخة الآتية، التي هي للبعث، والنفخ: نفخ الريح في الشيء، يقال: نفخ بفمه: أخرج منه الريح.

والنفخ في القرآن على خمسة أوجه[1]:

الأول: نفخ جبرائيل عليه السلام في جيب مريم عليها السلام، كما قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾؛ أي: نفخ جبرائيل في الجيب بأمرنا، فسبحان من أحبل رحم امرأة، وأوجد فيها ولداً بنفخ جبرائيل.

والثاني: نفخ عيسى عليه السلام في الطين، كما قال تعالى: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو الخفاش، فسبحان من حول الطين طيراً بنفخ عيسى عليه السلام.

والثالث: نفخ الله تعالى في طين آدم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾؛ أي: أمرت الروح بالدخول فيه، والتعلق به، فسبحان من أنطق لحماً، وأبصر شحماً، وأسمع عظماً، وأحيا جسداً بروح منه.

والرابع: نفخ ذي القرنين الحديد في النار، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾الآية، فسبحان من حول قطعة حديد ناراً بنفخ ذي القرنين.

---

(١) روح البيان.

والخامس: نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ فسبحان من أخرج الأرواح من الأبدان بنفخ واحد، كما يطفأ السراج بنفخ واحد، وتوقد النار بنفخ واحد، وسبحان من ردّ الأرواح إلى الأبدان بنفخ واحد، وهذا كله دليل على قدرته التامة العامة.

والصور: قرن من نور، ألقمه الله تعالى إسرافيل، وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى، وله جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، والعرش على كاهله، وإن قدميه قد خرجتا من الأرض السفلى، حتى بعدتا عنها مسيرة مائة عام، على ما رواه وهب، وعظم دائرة القرن، مثل ما بين السماء والأرض، وفي «الدرة الفاخرة» للإمام الغزالي: الصور: قرن من نور، له أربع عشرة دائرة، الدائرة الواحدة كاستدارة السماء والأرض، فيه ثقب بعدد أرواح الخلائق، وباقي ما يتعلق بالنفخ والصور قد سبق في سورة الكهف والنمل، فارجع.

وقرأ الجمهور[1]: الصور، بسكون الواو، وقرأ قتادة وزيد بن علي: بفتحها، جمع صورة، قال ابن عطية: والصور هنا: القرن، ولا يتصور هنا غير هذا المعنى، ومن يقول: الصور: جمع صورة، فإنما يتوجه قوله في نفخة البعث، انتهى.

﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خرّ[2] وسقط ومات جميع من في السموات السبع، وجميع من في الأرضين السبعة؛ أي: خروا أمواتاً من الفزع وشدة الصوت.

وقرىء: ﴿فصُعق﴾ بضم الصاد، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ متصل وهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام، فإنهم يموتون من بعد، قال السدي: وضم بعضهم إليهم ثمانية من حملة العرش، فيكون المجموع اثني عشر ملكاً، وآخرهم موتاً ملك الموت، وروى النقاش: أنه جبريل، كما جاء في الخبر: «إن الله تعالى يقول حينئذ: يا ملك الموت، خذ نفس إسرافيل، ثم يقول من بقي، فيقول: بقي جبريل وميكائيل وملك الموت، فيقول خذ نفس ميكائيل، حتى يبقى ملك الموت وجبرائيل، فيقول تعالى: مت يا ملك الموت، فيموت، ثم

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

يقول يا جبرائيل من بقي، فيقول: تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، وجهك الدائم الباقي وجبرائيل الميت الفاني، فيقول: يا جبرائيل لا بد من موتك، فيقع ساجداً يخفق بجناحيه، فيموت، فلا يبقى في الملك والملكوت حي من إنس وجن، وملك وغيرهم، إلا الله الواحد القهار».

وقال بعض المفسرين: المستثنى الحور والولدان وخزنة الجنة والنار وما فيهما؛ لأنهما وما فيهما خلقاً للبقاء، والموت لقهر المكلّفين، ونقلهم من دار إلى دار، ولا تكليف على أهل الجنة، فتركوا على حالهم بلا موت، وهذا الخطاب بالصعق: متعلق بعالم الدنيا، والجنة والنار عالمان بانفرادهما، خلقا للبقاء، فهما بمعزل عما خلق للفناء، فلم يدخل أهلهما في الآية، فتكون آية الاستثناء مفسرة لقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وغيرهما من الآيات، فلا تناقض. انتهى.

قلت: وليس في القرآن ولا في صحيح الأخبار ما يدل على تعيين من استثناهم الله تعالى من الصعق والفزع، ومن ثم قال قتادة: لا ندري من هم.

فإن قلت[1]: فما الفرق بين الصعق الذي في هذه الآية، وبين الفزع الذي في آية النمل، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾؟

قلت: لا شك أن الصعق بمعنى الموت غير الفزع، وكذا بمعنى الغشي، إذ ليس كل من له فزع مغشياً عليه، هذا ما تيسر لي في هذا المقام، والله أعلم بأسرار كتابه.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾؛ أي: في الصور نفخة ﴿أُخْرَىٰ﴾؛ أي: غير الأولى، وهي النفخة الثانية، وهي نفخة البعث، ﴿فَإِذَا هُمْ﴾؛ أي: جميع الخلائق ﴿قِيَامٌ﴾ جمع قائم؛ أي[2]: قائمون من قبورهم على أرجلهم أو متوقفون، فالقيام بمعنى الوقوف والجمود في مكانهم لتحيرهم ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ أي يقلبون أبصارهم في الجوانب كالمبهوتين أو ينتظرون ماذا يُفعلُ بهم وقيل: ينظرون إلى السماء، كيف غيرت،

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وإلى الأرض كيف بدلت، وإلى الداعي كيف يدعوهم إلى الحساب، وإلى الآباء والأمهات كيف ذهبت شفقتهم عنهم، واشتغلوا بأنفسهم، وإلى خصمائهم ماذا يفعلون بهم.

وقرأ الجمهور: ﴿قِيَامٌ﴾ بالرفع على أنه خبر و﴿يَنظُرُونَ﴾، في محل النصب على الحال وقرأ زيد بن علي بالنصب على أنه حال، والخبر ﴿يَنظُرُونَ﴾ والعامل في الحال ما عمل في ﴿إِذَا﴾ الفجائية، قال الكسائي: كما تقول: خرجت فإذا زيد جالساً.

قال في «المدارك»[1]: دلت الآية على أن النفخة اثنتان، الأولى: للموت والثانية: للبعث، والجمهور على أنها ثلاث، الأولى للفزع، كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾، والثانية: للموت، والثالثة: للإعادة، انتهى. فإن كانت النفخة اثنتين يكون معنى ﴿فَصَعِقَ﴾: خروا أمواتاً، وإن كانت ثلاثاً يكون معناه: مغشياً عليهم، فتكون هذه النفخة؛ أي: الثالثة بعد نفخة الإحياء يوم القيامة، كما ذهب إليه البعض، هذا والذي[2] يظهر من «خريدة العجائب» أن نفخة الفزع هي أول النفخات، فإنه إذا وقعت أشراط الساعة، ومضت.. أمر الله صاحب الصور أن ينفخ نفخة الفزع، ويديمها ويطولها فلا يبرح كذا عاماً يزداد الصوت كل يوم شدةً، فيفزع الخلائق، وينحازون إلى أمهات الأمصار، وتعطل الرعاة السوائم، وتأتي الوحوش والسباع، وهي مذعورة من هول الصيحة، فتختلط بالناس، ويؤول الأمر إلى تغير الأرض والسماء عما هما عليه، وبين نفخة الفزع والنفخة الثانية أربعون سنة، ثم تقع النفخة الثانية والثالثة، وبينهما أربعون سنة، أو شهراً أو يوماً أو ساعة.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون، قالوا: أربعون يوماً» قال أبو هريرة: أبيت، قالوا: أربعون شهراً، قال أبو هريرة: أبيت، قالوا: أربعون سنةً، قال: أبيت، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون، كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظم واحد، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة، متفق عليه.

---

(١) النسفي.
(٢) روح البيان.

قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ: اختلف الناس في أمد المدة التي بين النفختين، فاستقر جمهورهم على أنها أربعون سنة، وحدّثني من لا أشك في علمه: أن أمد ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لأنه من أسرار الربوبية، فإذا أراد الله إحياء الخلق يفتح خزانة من خزائن العرش، فيها بحر الحياة، فتمطر به الأرض، فإذا هو كمنيّ الرجال، بعد أن كانت عطشى فتحيى وتهتز، ولا يزال المطر عليها حتى يعمها، ويكون الماء فوقها أربعين ذراعاً، فإذا الأجسام تنبت من عجب الذنب، وهو أول ما يخلق من الإنسان، بدىء منه، ومنه يعود، وهو عظم على قدر الحمصة، وليس له مخ، فإذا نبت كما نبت البقل.. تشتبك بعضها في بعض، فإذا رأس هذا على منكب هذا، ويد هذا على جنب هذا، وفخذ هذا على حجر، هذا لكثرة البشر، والصبي صبي والكهل كهل، والشيخ شيخ، والشاب شابّ، ثم تهب ريح من تحت العرش، فيها نار، فتنسف ذلك عن الأرض وتبقى الأرض بارزة مستوية، كأنها صحيفة واحدة، ثم يحيي الله سبحانه إسرافيل، فينفخ في الصور من صخرة بيت المقدس، فتخرج الأرواح لها دوي كدوي النحل، فتملأ الخافقين، ثم تذهب كل نفس إلى جثتها بإعلام الله تعالى، حتى الوحش والطير وكل ذي روح، فإذا الكل قيام ينظرون، ثم يفعل بهم ما يشاء سبحانه وتعالى.

قلت: ولكن ليس فيما نقلنا من ذلك نص صريح، ولاحديث صحيح، كأنه من الإسرائيليات. والله أعلم.

﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾؛ أي: صارت عَرَجَات القيامة مشرقةً ومضيئةً، وذلك حين ينزل الله إلى كرسيه لفصل القضاء بين عباده؛ أي: أضاءت إضاءةً عظيمةً، حتى تميل إلى الحمرة، والمراد بالأرض: الأرض الجديدة التي يوجدها الله تعالى ذلك الوقت، ليحشر الناس عليها، وليس المراد بها أرض الدنيا؛ لقوله: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾؛ أي: عدل ربها؛ أي: بما أقام فيها من العدل، استعير له النور؛ لأنه يزين البقاع، ويظهر الحقوق، كما يسمى الظلم ظلمةً، وفي الحديث: «الظلم ظلمات يوم القيامة» يعني شدائده؛ يعني الظلم سبب لشدائد صاحبه، ولكون المراد بالنور العدل، أضيف الاسم الجليل إلى ضمير الأرض، فإن تلك الإضافة إنما تحسن إذا أريد به تزين الأرض بما ينشر فيها من الحكم والعدل، أو المعنى: أشرقت بنورٍ خلقه الله في الأرض يوم القيامة، بلا توسط أجسام مضيئة، كما في

الدنيا، يعني: يشرق بذلك النور وجه الأرض المبدلة، بلا شمس ولا قمر ولا غيرهما من الأجرام المنيرة، ولكون المعنى ذلك أضيف النور إلى الاسم الجليل، وفي الحديث الصحيح: «يحشر الناس على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس بها علم لأحد».

قرأ الجمهور: ﴿أشرقت﴾ مبنياً للفاعل؛ أي: أضاءت، وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعبيد بن عمير: على البناء للمفعول، من شرقت بالضوء: تشرق إذا امتلأت به.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ أي: وضع الكتاب للحساب والجزاء، من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه، أو صحائف الأعمال في أيدي العمال في الأيمان والشمائل، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله، واكتفي باسم الجنس عن الجمع، إذ لكل أحد كتاب على حدة، وقيل: المعنى: وضع الكتاب في الأرض بعد ما كان في السماء، قال بعضهم: هذا على إطلاقه غير صحيح؛ لأن كتاب الأبرار في عليين، وكتاب الفجار في سجين، فالذي في السماء يوضع في الأرض حتى اللوح المحفوظ، وأما ما في الأرض فعلى حاله.

﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ أي: جيء بهم إلى الموقف، فسئلوا عمّا أجابتهم به أممهم، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد ﷺ، كما في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وقيل: الشهداء للأمم، وعليهم من الحفظة والمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ وقيل: المراد بالشهداء: الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة لمن ذب عن دين الله تعالى، وفيه[1] إشارة إلى أن النبيين والشهداء إذا دعوا للقضاء والحكومة والمحاسبة فكيف يكون حال الأمم، وأهل المعاصي والذنوب.

﴿وَقُضِىَ﴾؛ أي: حكم ﴿بَيْنَهُم﴾؛ أي: بين العباد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم لا ينقصون من ثوابهم، ولا يزاد على ما يستحقونه من عقابهم؛ أي: لا يظلمون بنقص ثواب، وزيادة عقاب على ما جرى به

---

(١) روح البيان.

الوعد والوعيد، وكما فتح الآية بإثبات العدل.. ختمها بنفي الظلم، فقال ﴿وَوُفِّيَتْ﴾؛ أي: وفرت وأعطيت ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس المكلفة ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾؛ أي: جزاء ما عملت من الخير والشر، والطاعة والمعصية. ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ منهم ومن الشهداء ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا، لا يحتاج إلى كاتب ولا حاسب وشاهد، إذ هو خالق الأفعال، فلا يفوته شيء من أفعالهم، وإنما ﴿وضع الكتاب وجيءَ بالنبيين والشهداء﴾؛ لتكميل الحجة، وقطع المعذرة، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا كان يوم القيامة.. بدّل الله الأرض غير الأرض، وزاد في عرضها وطولها كذا وكذا، فإذا استقر عليها أقدام الخلائق، برهم وفاجرهم أسمعهم الله تعالى كلامه، يقول: «إن كتابي كانوا يكتبون ما أظهرتم، ولم يكن لهم علم بما أسررتم، فأنا عالم بما أظهرتم وبما أسررتم، ومحاسبكم اليوم على ما أظهرتم وعلى ما أسررتم، ثم أغفر لمن أشاء منكم».

ثم ذكر سبحانه تفصيل ما ذكره من توفية كل نفس ما كسبت فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مع إمامهم ومعبوداتهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿زُمَرًا﴾؛ أي: جماعة جماعةً متفرقةً بعضها إثر بعض؛ أي: سيقوا إليها بعد إقامة الحساب بأمر يسير من قبلنا، وذلك بالعنف والإهانة، حال كونهم أفواجاً متفرقة بعضها في إثر بعض، مترتبةً حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة، وتتلقاهم جهنم بالعبوسة، كما تلقوا الأوامر والنواهي والآمرين والناهين بمثل ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾؛ أي: جاؤوا جهنم وقربوا إليها، و﴿حَتَّىٰٓ﴾ هذه[1] هي الابتدائية، التي تبتدِىء الجمل بعدها كما في «أبي السعود»، وجواب ﴿إذا﴾ قوله: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾؛ أي: فتحت أبواب جهنم السبعة؛ ليدخلوها، كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ وفائدة[2] إغلاقها إلى وقت مجيئهم: تهويل شأنها، وإيقاد حرّها، قال في «أسئلة الحكم»: أهل النار يجدونها مغلقة الأبواب، كما هي حال السجون في الدنيا، فيقفون هنالك، حتى يفتح لهم إهانةً وتوبيخاً.

يقول الفقير: هذا من قبيل العذاب الروحاني، وهو أشد من العذاب الجسماني، فليس وقوفهم عند الأبواب أولى لهم من تعجيل العذاب، يؤيده أن

---

(١) الارشاد. (٢) روح البيان.

الكافر حين يطول قيامه في شدة وزحمة وهول، يقول: يا رب أرحني ولو كان بالنار، وفيه إشارة إلى الأوصاف الذميمة النفسانية السبعة، وهي الكبر والبخل والحرص والشهوة والحسد والغضب والحقد، فإنها أبواب جهنم، وكل من يدخل فيها لا بدّ له من أن يدخل من باب من أبوابها، فلا بد من تزكيتها وتخلية النفس عنها. ﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾؛ أي: للذين كفروا ﴿خَزَنَتُهَآ﴾؛ أي: خزنة جهنم وزبانيتها وحرّاسها تقريعاً، وتوبيخاً لهم، وزيادة في الإيلام والتوجيع، واحدها خازن، وهو حافظ الخزانة وما فيها، والمراد: حفظة جهنم وزبانيتها، وهم الملائكة الموكّلون بتعذيب أهلها ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها الكفرة ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم، آدميون مثلكم؛ ليسهل عليكم مراجعتهم وفهم كلامهم. وقرىء: ﴿نذر﴾، كما في «المراح» ﴿يَتْلُونَ﴾؛ أي: يتلو أولئك الرسل، ويقرؤون ﴿عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ التي أنزلها عليهم؛ لتبليغها إليكم ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾؛ أي: يخوفونكم ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ أي: لقاء وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار، لا يوم القيامة، وذلك لأن الإضافة اللامية تفيد الاختصاص، ولا اختصاص ليوم القيامة بالكفار، وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضاً في أوقات الشدة، فلذلك حمل على الوقت.

وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع، من حيث أنهم علّلوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب، فأجابوا بالاعتراف، ولم يقدروا على الجدل الذي كانوا يتعلّلون به في الدنيا؛ لانكشاف الأمر وظهوره، ولهذا ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد أتونا، وتلوا علينا، وأنذرونا، فأقرّوا في وقت لا ينفعهم الإقرار والاعتراف ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ﴾ ووجبت ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ وهي قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ وقد كنا ممن تبع إبليس، فكذبنا الرسل، وقلنا ما نزل الله من شيء، إن أنتم إلا تكذبون.

ومعنى الآية: أي وسيق الكافرون بربهم، المشركون به الأصنام والأوثان، إلى جهنم سوقاً عنيفاً، أفواجاً متفرقةً بعضها في إثر بعض، بحسب ترتب طبقاتهم في الضلال والشرِّ، بزجرٍ وتهديدٍ ووعيدٍ، كما يساق المجرمون في الدنيا إلى السجون جماعاتٍ جماعات، مع الإهانة والتحقير على ضروب شتى، ونحو الآية قوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: يدفعون إليها دفعاً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾؛ أي: حتى إذا وصلوا إليها.. فتحت لهم

أبوابها سريعاً؛ ليدخلوها، كأبواب السجون، لا تزال مغلقة حتى يأتي أرباب الجرائم، الذين يسجنون فيها، فتفتح؛ ليدخلوها، فإذا دخلوها.. أغلقت عليهم.

ثم ذكر سؤال الخزنة لهم على طريق التوبيخ والإهانة، فقال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ إلخ؛ أي: ألم يأتكم رسل من جنسكم، تفهمون ما ينبئونكم به من طاعة ربكم، والاعتراف بوحدانيته، وترك الشرك به، ويسهل عليكم مراجعتهم حين يقيمون عليكم الحجج والبراهين، مبينين صدق ما دعوكم إليه، وينذرونكم أهوال هذا اليوم، فأجابوهم معترفين، ولم يقدروا على الجدل الذي كانوا يتعللون به في الدنيا، لوضوح السبل أمامهم، ولا سبيل حينئذ إلى الإنكار والجحود، قالوا: بلى، قد أتانا رسل ربنا، فأنذرونا وأقاموا الحجج والبراهين، ولكنا كذبناهم وخالفناهم، لما سبق لنا من الشقوة والضلالة، فعدلنا بسوء اختيارنا عن الحق إلى الباطل، وفعلنا الشر دون الخير، وعبدنا ما لا يضر ولا ينفع، وتركنا عبادة الواحد القهار، ونحو الآية قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾.

وبعد أن اعترفوا هذا الاعتراف ﴿قِيلَ﴾ لهم؛ أي: قالت لهم الملائكة الموكلون بعذابهم ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ التي قد فتحت لكم، فتدخلوها حالة كونكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين فيها أبدا؛ أي: مقدراً خلودكم فيها مدة لا نهاية لها، ولا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها.

وفيه[1]: إشارة إلى أن الحكمة الإلهية اقتضت إظهاراً لصفة القهر، أن يخلق النار، ويخلق لها أهلاً، كما أنه تعالى خلق الجنة، وخلق لها أهلاً، إظهاراً لصفة اللطف، فلهذه الحكمة قيل: في الأزل قهراً وقسراً: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، وهي الصفات الذميمة السبع التي مرّ ذكرها، خالدين فيها، بحيث لا يمكن الخروج من هذه الصفات الذميمة بتبديلها، كما يخرج المتقون منها. ﴿فَبِئْسَ﴾ وقبح ﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ أي: منزل المتكبرين عن الإيمان والطاعة والحق، والمخصوص بالذم

---

(١) روح البيان.

محذوف وجوباً، تقديره: بئس مثواهم جهنم.

والمعنى: أي فبئس المصير، وبئس المقيل لكم، بسبب تكبّركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيّركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

و﴿اللام﴾: فيه للجنس، ولا يقدح ما فيه من الإشعار بأن كون مثواهم جهنم، لتكبرهم عن الحق، مع أن دخولهم النار بسبق كلمة العذاب عليهم، فإنها إنما حقت عليهم بناءً على تكبرهم وكفرهم، فتكبرهم وسائر مقابحهم مسببة عن ذلك السبق، وفيه[1] إشارة إلى أن العصاة صنفان، صنف منهم متكبرون، وهم المصرون متابعو إبليس، فلهم الخلود في النار، وصنف منهم متواضعون، وهم التائبون متابعو آدم، فلهم النجاة، وبهذا الدليل ثبت أن ليس ذنب أكبر بعد الشرك من الكبر، بل الشرك أيضاً يتولد من الكبر، كما قال تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ولما ذكر فيما تقدم حال الذين كفروا وسوقهم إلى جهنم.. ذكر هنا حال المتقين، وسوقهم إلى الجنة، فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: ساقتهم الملائكة سوق إعزاز وتشريف وتكريم بلا تعب ولا نصب، بل بروح وطرب للإسراع إلى دار الكرامة، وذلك قبل الحساب، أو بعده يسيراً أو شديداً، وهو الموافق لما قبل الآية من قوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ حال كونهم ﴿زُمَرًا﴾؛ أي: جماعات متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل وعلو الطبقة، والمراد: المتقون عن الشرك، فهؤلاء عوام أهل الجنة، وفوق هؤلاء من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وفوقهم من قال فيهم: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾.

والمعنى[2]: أي وسيق المتقون إلى الجنة جماعة إثر جماعة على النجائب، وفوداً إلى الجنة، المقربون فالأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كل طائفة منهم مع من يشاكلهم، الأنبياء مع الأنبياء، والصدّيقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

والمراد بالسوق هنا: الإسراع بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يكرم من الوافدين على بعض الملوك، وبالسوق المتقدم: طردهم إلى العذاب والهوان، كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس أو القتل، فشتان ما بين السوقين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وقرأ الكوفيون: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ بالتخفيف؛ أي: والحال أنه قد فتحت أبوابها الثمانية قبل مجيئهم؛ لئلا يصيبهم وصب الانتظار، مع أن دار الفرح والسرور لا تغلق للأضياف والوافدين باب الكرم، فـ﴿الواو﴾: واو الحال، وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف دل عليه السياق، والتقدير؛ أي: حتى إذا وصلوا إليها، وقد فتحت لهم أبوابها قبل مجيئهم، كما تفتح الخدم باب المنزل للضيف قبل قدومه، وتقف منتظرةً حضوره فرحاً بمقدمه،

فرحوا بما أفاء الله به عليهم من النعيم، وبما شاهدوا مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فإن قلت[1]: يرد على كون أبواب الجنان مفتحةً لهم قبل مجيئهم إليها، قوله ﷺ: «أنا أول من يستفتح باب الجنة».

قلت: قد حصل الفتح المقدم على الوصول بدعوته ﷺ الاستفتاح، ولو لم يكن دعاؤه قد سبق.. لما فتحت، ثم تبقى الأبواب بدعائه مفتوحةً ببركة دعائه المقدم على ذلك، وفي الحديث: «أنا أول من يقرع باب الجنة، والجنة محرمة على جميع الأمم، حتى أدخلها أنا وأمتي، الأول فالأول».

وقيل: تقدير الجواب: حتى إذا جاؤوها، وقد فتحت أبوابها.. كان ما كان مما يقصر عنه البيان.

وفي «الخازن»: فإن قلت[2]: قال في أهل النار: ﴿فُتِحَتۡ﴾ بغير واو، وهنا زاد حرف ﴿الواو﴾ فما الفرق بين الموضعين؟

قلت: فيه وجوه:

أحدها: أنها زائدة عند الأخفش والكوفيين، وهو خطأ عند البصريين؛ لأن

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن. بزيادة وتصرف.

الواو من حروف المعاني، فلا تزاد عندهم، وزيدت الواو على القول بزيادتها للإيذان بأنها كانت مفتحةً قبل مجيئهم إليها، وحذفت الواو في الآية الأولى؛ لبيان أن أبواب جهنم كانت مغلقة قبل مجيئهم إليها، والحكمة في ذلك: أن الجنة إذا جاؤوها، ووجدوا أبوابها مفتحة.. حصل لهم السرور والفرح بذلك، وأهل النار إذا رأوها مغلقة.. كان ذلك نوع ذل وهوان لهم.

والثاني: أنها واو الحال، بتقدير: قد؛ أي: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها فرحوا بها، كما مر في حلنا.

والثالث: أنها واو الثمانية، زيدت هنا لبيان أن أبواب الجنة ثمانية، ونقصت فيما سبق؛ لأن أبواب جهنم سبعة، والعرب تعطف فيما فوق السبعة، تقول ستة سبعة وثمانية وتسعة، وفيه أن واو الثمانية غير مطردة مقصورة على السماع. فإن قلت: على هذا إن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ شرط، فأين جوابه؟

قلت: فيه وجوه:

أحدها: أنه محذوف، والمقصود أن يدل على أنه بلغ من الكمال إلى حيث لا يمكن ذكره، ولا يحتاج إلى ذكره.

والثاني: أن الجواب هو قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بجعل ﴿الواو﴾ فيه زائدةً.

والثالث: الجواب محذوف دل عليه قوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ والتقدير: حتى إذا جاؤوها، وفتحت أبوابها، وقال لهم خزنتها: سلام عليكم، طبتم فادخلوها خالدين، دخلوها، فحذف دخلوها لدلالة الكلام عليه.

قلت: والأوضح الأخصر: أن تكون ﴿الواو﴾ في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ عاطفة على جواب محذوف، دل عليه السياق، والتقدير: حتى إذا جاؤوها فرحوا بمجرد رؤيتها، وفتحت لهم أبوابها ازدياداً في سرورهم، وقال لهم خزنتها: سلام عليكم إلخ. تكرمةً لهم، والله أعلم بمراده في كتابه.

فائدة: في ذكر أحاديث مناسبة للآية:

منها: ما روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم أحد يتوضأ، فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد عبده ورسوله.. إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء» أخرجه مسلم وغيره.

وروي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة».

وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب، منها: باب يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون». وقد ثبت كون أبواب الجنة ثمانية بالأحاديث الصحيحة، منها: ما ذكر آنفاً، ومنها: قوله ﷺ: «إن للجنة لثمانية أبواب، ما منها بابان إلا بينهما يسير الراكب سبعين عاماً، وما بين كل مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة». وفي رواية: «كما بين مكة وبصرى». وكون أبواب جهنم سبعة فمذكور بقوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين، فقال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾؛ أي: للمتقين عند دخولهم الجنة ﴿خَزَنَتُهَآ﴾؛ أي: حفظة الجنة، رضوان وغيره من الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ من جميع المكاره والآلام، فلا يعتريكم مكروه، وهذا لعوام أهل الجنة، وأما خواصهم، فيقول الله لهم: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾. فإن السلام في الجنة من وجوه:

فالسلام الأول: وإن كان سلام الله، ولكن بالواسطة.

والثاني: سلام خاص بلا واسطة بعد دخولهم الجنة ﴿طِبْتُمْ﴾ نفساً بما أتيح لكم من النعيم المقيم، وقد يكون المعنى: طبتم في الدنيا، فلم تدنسوا أنفسكم بالشرك والمعاصي، وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم ﴿فَٱدْخُلُوهَا﴾؛ أي: الجنة حالة كونكم ﴿خَٰلِدِينَ﴾ فيها؛ أي: ماكثين فيها أبداً، لا زوال ولا فناء ولا تحول عنها.

و﴿الفاء﴾: للدلالة على أن طيبهم سبب لدخولهم وخلودهم، سواء كان طيباً بعفو أو بتعذيب، إذ كل منهما مطهر، وإنما طهر ظاهرهم؛ لحسن إقرارهم

وأعمالهم البدنية، وباطنهم؛ لحسن نياتهم وعقائدهم.

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إذا سيقوا إلى الجنة فإذا انتهوا إليها.. وجدوا عند بابها شجرة، يخرج من تحتها عينان، فيغتسل المؤمن من أحدهما فيطهر ظاهره، ويشرب من الأخرى فيطهر باطنه، وتتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة، يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: وقال المؤمنون إذا عاينوا ذلك النعيم المقيم، والعطاء العظيم في الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ بالبعث والثواب بالجنة؛ أي: صدقنا وأعطانا ما وعدنا به على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا بذلك في الدنيا، وقالوا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ وقالوا:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ معطوف على الصلة؛ أي[1]: أورثنا وأعطانا أرض الجنة، يريدون المكان الذي استقروا فيه من أرض الجنة، على الاستعارة، وإيراثها: إعطاؤها وتمليكها، مخلفةً عليهم من أعمالهم، أو تمكينهم من التصرف فيما فيها تمكين الوارث فيما يرثه، كأنها صارت من غيرهم إليهم، فملكوها وتصرفوا فيها، وقيل: إنهم ورثوا الأرض التي كانت لأهل النار، لو كانوا مؤمنين، قاله أكثر المفسرين، وقيل: إنها أرض الدنيا، وعلى هذا: ففي الكلام تقديم وتأخير، وقيل: أورثنا من آدم؛ لأنها كانت في أول الأمر له لقوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ فلما عادت إلى أولاده.. كان ذلك إرثاً لهم منه. اهـ شيخنا. حالة كوننا ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ ونتخذ ﴿مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ منازل ﴿حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾؛ أي: يتبوأ كل واحد منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة، لا من جنة غيره، على أن فيها مقاماتٍ معنوية، لا يتمانع واردوها، كما قال في «التفسير الكبير»: قال حكماء الإسلام: الجنة نوعان: جسمانية، وروحانية، فالجنات الجسمانية: لا تحتمل المشاركة، وأما الروحانية: فحصولها لواحد لا يمنع حصولها لآخر، انتهى.

وقيل: معنى ﴿حَيۡثُ يَشَآءُ﴾ أن أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة قبل الأمم،

---

(١) روح البيان.

فينزلون فيها حيث شاؤوا؛ أي: يتخير كل واحد منهم أين ينزل تكرمةً له، وإن كان لا يختار إلا ما قسم له، وأما بقية الأمم، فيدخلون بعد أمة محمد ﷺ، فينزلون فيما فضل عنهم، اهـ «خازن» و «خطيب».

والمعنى[1]: أي وجعلنا نتصرف في أرض الجنة تصرف الوارث فيما يرث، فنتخذ منها مباءةً ومسكناً حيث شئنا، قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ﴾ وحسن ﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾؛ أي ثواب المطيعين في الدنيا الجنة في العقبى، وقيل: من تمام قول أهل الجنة، والمعنى عليه؛ أي: فنعم الأجر أجرنا على عملنا، وثوابنا الذي أعطيتنا، والمخصوص بالمدح الجنة.

ولما ذكر سبحانه وتعالى ما أعطيه المؤمنون من الدرجات.. أتبعه بذكر أهل الكرامات الذين لا شاغل لهم عن العبادات، وبيان مستقرهم في الجنة، وهم الملائكة، فقال صارفاً الخطاب لأشرف الخلق، لأنه لا يقوم بحق هذه الرؤية غيره: ﴿وَتَرَى﴾ يا محمد في ذلك اليوم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾؛ أي: القائمين بجميع ما عليهم من الحقوق، حالة كونهم ﴿حَآفِّينَ﴾؛ أي: محدقين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: حوله، و﴿مِنْ﴾: مزيدة، أو لابتداء الحفوف، يقال: حفوا حوله حفوفاً: طافوا به واستداروا حوله، ومنه الآية؛ أي: تراهم يا محمد أو أيها المخاطب، الملائكة حالة كونهم محيطين بجوانب العرش، التي يمكن الحفوف بها، فيسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتمجيد والتقديس، وإدخال ﴿مِنْ﴾: يفهم أنهم مع كثرتهم إلى حد لا يحصيه إلا الله، لا يملؤون حوله، وهذا أولى من قول البيضاوي: إن ﴿مِنْ﴾ زائدة. اهـ «خطيب»؛ أي: فهي ابتدائية، كما حكاه البيضاوي أيضاً، حالة كونهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الجملة: حال ثانية، أو مقيدة[2] للأولى؛ أي: ينزهونه تعالى عما لا يليق به حال كونهم متلبسين بحمده، ذاكرين له بوصفي جلاله وإكرامه، تلذذاً به، يعني: يقولون: سبحان الله وبحمده، تلذذاً لا تعبداً وتكليفاً؛ لأن التكليف يزول في ذلك اليوم، وذلك يشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التسبيح، وأفهم أن منتهى درجات العلّيين، ولذاتهم، الاستغراق في صفاته تعالى، اهـ «كرخي».

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي ترى يا محمد، أو أيها الرائي، الملائكة محيطين بجوانب العرش، قائمين بجميع ما يطلب منهم، فيسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتقديس، ويصلون حول العرش شكراً لربهم، وتنزيهاً له عن كل نقص. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾؛ أي: حكم بين العباد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل، بإدخال بعضهم الجنة، وبعضهم النار، أعاذنا الله منها، أو بين الملائكة، بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم في درجاتهم، والأول أولى.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: على ما قضى بيننا بالحق، وأنزل كلا منا منزلته التي هي حقه، والقائلون[2]: هم المؤمنون، حمدوا الله على قضائه بينهم، وبين أهل النار بالحق، وقيل: القائلون: هم الملائكة، حمدوا الله تعالى على عدله في الحكم، وقضائه بين عباده بالحق، والمقصود من هذا الإبهام: التنبيه على أن خاتمة كلام العقلاء في الثناء على حضرة ذي الجلال والكبرياء، ليس إلا أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين.

والمعنى: أي وختمت خاتمة القضاء بينهم، بالشكر للذي بدأ خلقهم، وصورهم فأحسن صورهم، ومن له ملك السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، التي لا يعلم عددها إلا هو، وقد بدأ سبحانه هذه الآية بالحمد، وختمها بالحمد للتنبيه إلى تحميده، في بداية كل أمر ونهايته.

وقال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وعلم مما ذكر: أنهم يقدمون التسبيح على التحميد، فالتسبيح: عبارة عن إقرارهم بكونه تعالى موصوفاً بصفات الإكرام، ثم إن جوانب العرش ملاصقة لجوانب الجنة، فالمؤمنون والملائكة يصيرون متوافقين على الاستغراق في تحميد الله تعالى وتمجيده وتسبيحه، فكان ذلك سبباً لمزيد التذاذهم، والله تعالى أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ـ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم ـ، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان: أن الإنابة مطلوبة؛ لأن الفسحة عظيمة للمسرف. ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المفتوحة، وقرىء ﴿يا عباد﴾ بحذفها. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت لـ﴿عبادي﴾. ﴿أَسْرَفُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أَسْرَفُوا۟﴾ ﴿لَا﴾: ناهية. ﴿تَقْنَطُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تَقْنَطُوا۟﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب وقول ﴿قُلْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ومفعول به، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل النهي عن القنوط. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، أو مبتدأ ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ خبران لـ﴿إن﴾ أو لـ﴿هو﴾، والجملة: خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل غفران الله الذنوب جميعاً. ﴿وَأَنِيبُوٓا۟﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أنيبوا﴾، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾. ﴿وَأَسْلِمُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَأَنِيبُوٓا۟﴾، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿أسلموا﴾. ﴿مِن قَبْلِ﴾: جار ومجرور حال من واو الفاعل في الفعلين، ﴿أن﴾ حرف مصدر ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية وجملة ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من قبل إتيان العذاب إياكم. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع التراخي. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تُنصَرُونَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ﴾: على كونها مضافاً إليه للظرف؛ أي: من قبل إتيان العذاب إياكم، ثم عدم نصركم.

﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اتبعوا﴾: فعل أمر وفاعل معطوف على ﴿أنيبوا﴾. ﴿أَحۡسَنَ﴾: مفعول به، وهو مضاف و﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿مَآ﴾ ﴿إِلَيۡكُم﴾: متعلق به ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾: متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾ أيضاً، والجملة: صلة لـ﴿مَآ﴾ الموصولة. ﴿مِّن قَبۡلِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿اتبعوا﴾، وجملة ﴿أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾: في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه. ﴿بَغۡتَةٗ﴾: حال من ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾؛ أي: باغتاً. ﴿وَأَنتُمۡ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أنتم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا تَشۡعُرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من ضمير المخاطبين.

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧﴾

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ﴾: فعل وفاعل، منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، والجملة: في تأويل مصدر منصوب على أنه مفعول لأجله، ولكنه على تقدير مضاف، والتقدير: واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم، كراهية قول نفس، أو مخافة قول نفس. ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿حسرتا﴾: منادى مضاف، منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، المنقلبة ألفاً للتخفيف ﴿حسرة﴾ مضاف، وياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف؛ في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء: في محل النصب مقول لـ﴿تَقُولَ﴾. ﴿عَلَىٰ﴾ حرف جر ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿فَرَّطتُ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿فَرَّطتُ﴾، وجملة ﴿فَرَّطتُ﴾: صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰ﴾ تقديره: على تفريطي في جنب الله، الجار والمجرور: متعلق بـ﴿حسرتى﴾. ﴿وَإِن كُنتُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن، تقديره: وإنه ﴿كُنتُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿من الساخرين﴾: جار ومجرور خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة: في محل النصب حال من فاعل ﴿فَرَّطتُ﴾؛ أي: حال كوني من الخاسرين. ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿تَقُولَ﴾: معطوف على ﴿تَقُولَ﴾ الأول، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، وفاعله: ضمير مستتر يعود على ﴿نَفۡسٞ﴾. ﴿لَوۡ﴾: حرف شرط. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿هَدَىٰنِي﴾: فعل وفاعل مستتر

ونون وقاية ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾: : في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف، وقع شرطاً لـ﴿لَوْ﴾ الشرطية، والتقدير: لو ثبت هداية الله إياي. . ﴿لَكُنتُ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية. ﴿كنت﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿تَقُولَ﴾.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿أَوْ تَقُولَ﴾: معطوف على ﴿تَقُولَ﴾ الأول ﴿حِينَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ﴿تَقُولَ﴾، ﴿تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ورأى هنا: بصرية، تتعدى لمفعول واحد، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حِينَ﴾. ﴿لَوْ﴾ حرف تمنٍّ، ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب، ﴿لِي﴾: خبرها مقدم على اسمها. ﴿كَرَّةً﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لفعل محذوف، تقديره: أتمنى كون كرة لي إلى الدنيا. ﴿فَأَكُونَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد ﴿الفاء﴾ العاطفة على اسم خالص؛ لأنها عطفت مصدراً مؤولاً على اسم خالص، واسمها: ضمير يعود على ﴿نَفْسٌ﴾. ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: خبرها، وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر معطوف على ﴿كَرَّةً﴾؛ أي: لو أن لي كرة فكوني من المحسنين، أو ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية ﴿أَكُونَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿الفاء﴾ السببية الواقعة في جواب التمني، وجملة ﴿أَكُونَ﴾: في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: أتمنى كون كرة لي، فكوني من المحسنين. والفرق بين الوجهين: أنه على الأول يكون من جملة المتمني، ويكون إضمار ﴿أَنْ﴾ جائزاً، لا واجباً، وعلى الثاني: يكون مترتباً على التمني، ويكون إضمار ﴿أَنْ﴾ واجباً. اهـ شيخنا. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة الفعلية: جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَكَذَّبْتَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كذبت﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جَآءَتْكَ﴾. ﴿بِهَا﴾: متعلق

به. ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كذبت﴾، ﴿وَكُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: معطوفة على جملة ﴿كذبت﴾.

فائدة: ألف الفصل تزاد بعد واو الجماعة، مخافة التباسها بواو النسق، مثل: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾، ومثل ﴿كَفَرُواْ﴾، و﴿رُدُّوٓاْ﴾ ألا ترى أنهم لو لم يدخلوا الألف بعد الواو، ثم اتصلت بكلام بعدها.. ظنّ القارىء أنها كفر، ورد، فحيزت الواو لما قبلها بألف الوصل، ولما فعلوا ذلك في الأفعال التي تنقطع واوها من الحروف قبلها، نحو ساروا، وجاؤوا فعلوا ذلك في الأفعال التي تتصل واوها بالحروف قبلها. نحو كانوا وباتوا؛ ليكون حكم هذه الواو في كل موضع حكماً واحداً، اهـ «إعراب القرآن».

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَيَوۡمَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: ظرف زمان متعلق بـ﴿تَرَى﴾. ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على محمد، أو على أي مخاطب، ومفعول به، والجملة الفعلية: مستأنفة. ﴿كَذَبُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿كَذَبُواْ﴾. ﴿وُجُوهُهُم﴾: مبتدأ. ﴿مُّسۡوَدَّةٌ﴾: خبر، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من الموصول. ﴿أَلَيۡسَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري؛ لأنها دخلت على النفي، ونفي النفي: إثبات، فصار تقريرياً. ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾: خبر ﴿ليس﴾: مقدم. ﴿مَثۡوٗى﴾: اسمها مؤخر. ﴿لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾: صفة لـ﴿مَثۡوٗى﴾، وجملة ﴿ليس﴾: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، مسوقة لتعليل اسوداد وجوههم، كأنه قال: لأن لهم في جهنم مقراً ومقاماً. اهـ شيخنا.

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَيُنَجِّي﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: مستأنفة. ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿ينجّي﴾، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة الفعلية: مفسرة للمفازة، لا محل لها من الإعراب، كأنه قيل: ما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسهم السوء. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ وجملة

﴿يَحْزَنُونَ﴾: خبره، والجملة: معطوفة على جملة ﴿لَا يَمَسُّهُمُ﴾ على كونها مفسرة، ويمكن أن تكون حالاً من الذين اتقوا، و﴿الواو﴾: حينئذ واو الحال، وأجاز الزمخشري أن تكون مستأنفة.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿وَكِيلٌ﴾، و﴿وَكِيلٌ﴾: خبر ﴿هُوَ﴾، والجملة: مستأنفة ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم. ﴿مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾، والجملة مستأنفة أيضاً. ﴿وَالَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الذين﴾: مبتدأ أول، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلة الموصول، ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿كَفَرُوا﴾. ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ ثان، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿الْخَاسِرُونَ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المتبدأ الثاني، مع خبره: خبر المبتدأ الأول، وجملة المبتدأ الأول مع خبره معطوفة على جملة قوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عطف أحد المتقابلين على الآخر، ولا يمنع من هذا العطف كون المعطوف جملةً اسمية، والمعطوف عليه جملة فعليه.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: قل يا محمد، لمشركي قومك: أتدعونني إلى عبادة آلهتهكم، فتأمرونني أن أعبد غير الله ﴿غيرَ اللهِ﴾: مفعول مقدم لـ﴿أَعْبُدُ﴾، ﴿تَأْمُرُونِّي﴾: فعل وفاعل ونون وقاية ومفعول به مرفوع، وعلامة رفعة النون المدغمة في نون الوقاية، والجملة الفعلية: معطوفة على تلك المحذوفة، على كونها معترضة بين الفعل ومفعوله، والجملة المحذوفة: مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿أَعْبُدُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، وجملة ﴿أَعْبُدُ﴾: في تأويل مصدر بأن المصدرية المقدرة، منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿تَأْمُرُونِّي﴾، والتقدير: أتدعونني إلى عبادة آلهتكم، فتأمرونني عبادة غير الله سبحانه. ﴿أَيُّهَا﴾: ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة،

و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾: أو بدل منه، أو عطف بيان له، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب، أعرضنا عنها خوفاً للإطالة.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أُوحِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب الفاعل، وقيل: نائب الفاعل محذوف، يدل عليه سياق الكلام؛ أي: أوحي إليك التوحيد. ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ﴿إِلَيْكَ﴾. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: صلة الموصول، والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿لَئِنْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، مبني على الفتح. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿أَشْرَكْتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: يحبط عملك، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم موكدة للأولى. ﴿يحبطنَّ﴾: فعل مضارع في محل الرفع؛ لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، ونون التوكيد: حرف لا محل له من الإعراب. ﴿عَمَلُكَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وهذا القسم مع جوابه: جواب للقسم الأول. ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿تكوننَّ﴾: فعل مضارع ناقص في محل الرفع؛ لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير مستتر يعود على محمد. ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: خبرها، وجملة ﴿تكوننَّ﴾: معطوفة على جملة ﴿يحبطنَّ﴾.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿بَلِ﴾: حرف عطف وإضراب، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول لفعل محذوف. ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب الشرط المحذوف، تقديره: لا تعبد ما أمرك الكفار

بعبادته، بل إن عبدت فاعبد الله دون ما سواه من الأنداد والأوثان، ﴿اعبد﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، مبني على السكون، والجملة الفعلية: في محل الجزم بالشرط المحذوف، وجملة الشرط: معطوفة على جملة النهي المحذوف، كما قدرناه آنفاً، وقال الأخفش: ﴿الفاء﴾: زائدة، كما مر البسط فيه في مبحث التفسير. ﴿وَكُن﴾: فعل أمر ناقص معطوف على ﴿اعبد﴾، واسمه: ضمير مستتر يعود على محمد، ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: خبره.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: ما علموا كنهه، وما عرفوه حق معرفته. ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿الأرض﴾: مبتدأ، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿الأرض﴾ ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾: خبر المبتدأ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: متعلق بـ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من لفظ الجلالة؛ أي: ما عظموه حق عظمته، والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة. ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾: مبتدأ، ﴿مَطْوِيَّٰتُۢ﴾: خبر ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿مَطْوِيَّٰتُۢ﴾ والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، تقديره: أسبحه سبحاناً، وجملة التسبيح: مستأنفة. ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعله: ضمير مستتر يعود على الله. ﴿عَمَّا﴾: متعلق بـ﴿تعالى﴾، والجملة: معطوفة على جملة التسبيح، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: عما يشركونه به، أو لـ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: عن إشراكهم.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَنُفِخَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿نفخ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿فَصَعِقَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿صعق﴾: فعل ماض. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع

فاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿نفخ﴾. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد: محذوف؛ أي: إلا من شاء الله بقاءَهُ. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿نُفِخَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿نُفِخَ﴾. ﴿أُخْرَىٰ﴾: نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿نفخ في الصور﴾. ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: حرف فجأة، مبني على السكون. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿قِيَامٌ﴾: خبر، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾: خبر ثان أو صفة لـ﴿قِيَامٌ﴾، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ عطف اسمية على فعلية؛ لأنها في تأويل الفعل؛ أي: ثم نفخ فيه أخرى، ففاجأهم القيام من قبورهم.

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِآْيءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَأَشْرَقَتِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أشرقتِ الأرضُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ثُمَّ نُفِخَ﴾، ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أشرقت﴾ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وضع الكتاب﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿أشرقت﴾، ﴿وَجِآْيءَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: نائب فاعل، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية: معطوفة على ما قبلها. ﴿وَقُضِيَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿قضي﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿قضي﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قضي﴾، ويجوز العكس، ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَوُفِّيَتْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وُفّيَتْ كلُّ نَفْسٍ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿قضي﴾، ﴿مَا﴾: اسم موصول بمعنى الذي، في محل النصب مفعول ثان لـ﴿وُفّيَتْ﴾، وجملة ﴿عَمِلَتْ﴾: صلته، والعائد: محذوف؛ أي: جزاء ما عملته، ولك أن تجعل ﴿مَا﴾: مصدرية؛ أي: عملهم، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر،

و﴿الواو﴾: حالية، أو عاطفة، والجملة في محل النصب حال من ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: وفى الله تعالى جزاء عمل كل نفس حال كونه عالماً بما عملت، أو معطوفة على جملة ﴿وُفِّيَتْ﴾، ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾؛ وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.

﴿وَسِيقَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿سِيْقَ الَّذِيْنَ﴾: فعل ونائب فاعل، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلة الموصول. ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾: متعلق بسيق. ﴿زُمَرًا﴾: حال من الموصول، والجملة الفعلية: معطوفة على جملة ﴿وُفِّيَتْ﴾ مسوقة لتفصيل توفية الحقوق. ﴿حَتَّى﴾ ابتدائية، أو حرف جر وغاية، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَاءُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الخفض مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة: جواب ﴿إِذَا﴾، لا محل لها من الإعراب، والظرف: متعلق بالجواب، وجملة ﴿إِذَا﴾: مستأنفة، أو مجرورة بـ﴿حَتَّى﴾ والجار والمجرور: متعلق بـ﴿سيق﴾؛ أي: وسيق الذين كفروا إلى جهنم، إلى فتح أبوابها وقت مجيئهم إياها، والأول أولى.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)﴾.

﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، ﴿خَزَنَتُهَا﴾: فاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿فُتِحَتْ﴾. ﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ﴿يَأْتِكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به مجزوم بـ﴿لَمْ﴾. ﴿رُسُلٌ﴾: فاعل ﴿مِنْكُمْ﴾: صفة لـ﴿رُسُلٌ﴾، والجملة الاستفهامية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿يَتْلُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿رُسُلٌ﴾، ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف على ﴿يَتْلُونَ﴾، ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه. ﴿هَذَا﴾: نعت لـ﴿يَوْمِكُمْ﴾ أو بدل منه أو عطف بيان له. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة:

مستأنفة. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات النفي؛ أي: بلى أتونا وتلوا علينا. ﴿وَلَٰكِنْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على الجواب المحذوف، ﴿لَكِن﴾: حرف استدراك مهملة. ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾: فعل وفاعل معطوف على الجواب المحذوف. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ﴿حَقَّتْ﴾. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿ٱدْخُلُوٓا۟...﴾ إلى آخر الآية. نائب فاعل محكي ومقول له، والجملة: مستأنفة، وإن شئت قلت: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟﴾: فعل أمر وفاعل، ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾: مفعول به، على السعة، والجملة: في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال مقدرة من فاعل ﴿ٱدْخُلُوٓا۟﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿فَبِئْسَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿بئس﴾: فعل ماض لإنشاء الذم. ﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والمخصوص بالذم، محذوف، تقديره: هي، وجملة الذم: مستأنفة.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿سيق﴾ الأول، ﴿ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾: متعلق بـ﴿سيق﴾، ﴿زُمَرًا﴾: حال من فاعل ﴿ٱتَّقَوْا۟﴾ وجملة ﴿ٱتَّقَوْا۟﴾: صلة الموصول، ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء، أو حرف جر وغاية ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان متعلق بالجواب المحذوف. ﴿جَآءُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾: فعل مغير ونائب فاعل، معطوف على ﴿جَآءُوهَا﴾، وجواب ﴿إِذَا﴾: محذوف دلالةً على أنه شيء لا يكتنه ولا يحيط به الوصف، تقديره: حتى إذا جاؤوها، وفتحت أبوابها.. رأوا بهجتها، وجملة ﴿إِذَا﴾: مستأنفة، أو مجرورة بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بمعنى إلى، والتقدير: وسيق الذين اتقوا إلى الجنة، إلى رؤيتهم بهجتها وقت مجيئها، وفتح أبوابها، والجار والمجرور: متعلق بـ﴿سِيقَ﴾، ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، ﴿خَزَنَتُهَآ﴾: فاعل والجملة: معطوفة على جواب ﴿إِذَا﴾ المحذوف، وقيل: ﴿الواو﴾: في ﴿وَفُتِحَتْ﴾: زائدة في جواب ﴿إذا﴾.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿سَلَٰمٌ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبره، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿طِبْتُمْ﴾: فعل ماض وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَٱدْخُلُوهَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿ادخلوها﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿طِبْتُمْ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من فاعل ﴿ادخلوا﴾. ﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على مقدر، تقديره: فدخلوها وقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للجلالة. ﴿صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ومفعولان، والجملة: صلة الموصول، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعولان معطوف على ﴿صَدَقَنَا﴾. ﴿نَتَبَوَّأُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة: في محل النصب حال من مفعول ﴿وَأَوْرَثَنَا﴾ الأول. ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿حيث﴾ المذكورة بعده. ﴿حَيْثُ﴾: ظرف مكان متعلق بـ﴿نَتَبَوَّأُ﴾، أو مفعول به لـ﴿نَتَبَوَّأُ﴾؛ أي: نتبوأ أيَّ مكان شئناً حال كونه من الجنة، ﴿نَشَآءُ﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة والفاعل مستتر تقديره نحن والجملة في محل جر بالإضافة. ﴿فَنِعْمَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿نعم﴾: فعل ماض من أفعال المدح ﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾: فاعل، والجملة: مستأنفة، والمخصوص بالمدح: محذوف، تقديره: هي أي الجنة في محل رفع مبتدأ وجملة ﴿نعم﴾ في محل رفع خبر؛ أي: الجنة.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَتَرَى﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ترى الملائكة﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: مستأنفة، و﴿ترى﴾ بصرية. ﴿حَآفِّينَ﴾: حال من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حَآفِّينَ﴾، وجملة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: حال ثانية من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، ﴿وَقُضِىَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿قضي﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف نائب عن الفاعل أو متعلق بـ﴿قضي﴾، ونائب الفاعل: مصدر مفهوم من الفعل؛ أي: قضي القضاء. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من المصدر المحذوف الواقع نائب فاعل، ولك أن تعلق الظرف بـ﴿قضي﴾. و﴿بِٱلْحَقِّ﴾: نائب فاعل، وجملة ﴿قضي﴾: معطوفة على جملة ﴿ترى﴾، أو مستأنفة، ﴿وَقِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

نائب فاعل محكي لـ﴿قيل﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿قضي﴾ وإن شئت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مبتدأ أو خبر ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صفة للجلالة، والجملة الاسمية في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ الإسراف: تجاوز الحد في كل ما يفعله المرء، وكثر استعماله في إنفاق المال وتبذيره، والمراد هنا: الإفراط في المعاصي. قال الراغب: السرف: تجاوز الحد في كل ما يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: يتناول الإسراف في الأموال وفي غيرها. انتهى.

﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾؛ أي: لا تيأسوا، من قنط يقنط بكسر النون، من باب جلس، وبفتحها من باب طرب وسلم، وقرىء: بضمها شاذاً من باب دخل، وفي «المختار»: القنوط: اليأس، وبابه: جلس ودخل وطرب وسَلم، فهو قنوط وقنط وقانط. اهـ. وفي «المفردات»: القنوط: اليأس من الخير. ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ والرحمة من الله: الإنعام والإعطاء والتفضل.

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ من الإنابة، وهو: الرجوع إلى الله بالطاعة، فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: أنوبوا، نقلت حركة الواو إلى النون فسكنت الواو إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مد فصار ﴿أنيبوا﴾. ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ من الإسلام وهو: الانقياد والإخلاص له.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ صيغة المبالغة فيهما راجعة إلى كثرة الذنوب، وكثرة المغفور والمرحوم. اهـ من «الروح». ﴿أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وهو القرآن، فإن ما أنزل إلينا من ربنا كتب كثيرة، أحسنها القرآن. اهـ. شيخنا.

﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ بالألف بدلاً عن ياء المتكلم، إذ أصله: يا حسرتي، تقول العرب: يا حسرتي يا لهفي، ويا حسرتا ويا لهفا، ويا حسرتاي ويا لهفاي، بالجمع بين العوض والمعوّض، تقول هذه الكلمة في نداء الاستغاثة، كما في «كشف الأسرار». وقد أوضحنا إعراب هذه الكلمة أي إيضاح في رسالتنا «هدية أولي العلم

والإنصاف في إعراب المنادى المضاف» فراجعها إن شئت. والحسرة: الغم على ما فاته، والندم عليه، كأنه انحسر الجهل عنه الذي حمله على ما ارتكبه، وقال بعضهم: الحسرة: أن تأسف النفس أسفاً، تبقى منه حسيراً؛ أي: منقطعةً، وقال الخازن: الحسرة: الاغتمام والحزن على ما فات. اهـ.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ قال الراغب: الإفراط: أن يسرف في التقدم، والتفريط: أن يقصر فيما هو المراد، فإن الفرط المتقدم.

﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في عبادته وطاعته، والجنب والجانب: كلاهما بمعنى جهة الشيء المحسوسة، وإطلاق الجنب على الطاعة مجاز بالاستعارة، كما سيأتي في مبحثه إن شاء الله تعالى، يقال هو في جنب فلان وفي جانبه؛ أي: في جهته وناحيته، ثم اتسع فيه، فقيل: فرط في جنبه؛ أي: في حقه، اهـ «سمين». وقال الراغب: أصل الجنب: الجارحة، جمعه جنوب، ثم استعير في الناحية التي تليها، كاستعارة سائر الجوارح لذلك، نحو اليمين والشمال، وقوله: ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في أمره وحده الذي حده لنا. ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾؛ أي: من المستهزين بدين الله تعالى وأهله. ﴿كَرَّةً﴾؛ أي: رجعةً إلى الدنيا، يقال: كر عليه عطف، وعنه رجع، والكرة: المرة والحملة، كما في «القاموس».

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ المفازة: إما مصدر ميمي أو اسم مكان، وعلى كل حال أصله مفوزة، بوزن مفعلة، نقلت حركة الواو إلى الفاء، ثم قلبت ألفاً؛ لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن، فصار مفازة.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾؛ أي: قيم بالحفظ والحراسة، فيتولى التصرف بحسب الحكمة والمصلحة.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ أي: مفاتيح، لفظ فارسي معرب، واحده إقليد، معرب إكليد، وهو في الفارسي بمعنى: المفتاح في العربي، وإن كان شائعاً بين الناس بمعنى الفعل، جمع جمعاً شاذاً، كالمذاكير، جمع ذكر، وإلا فحقه أن يجمع على أقاليد، وهو إما جمع مقلاد بوزن مفعال، فالياء فيه: منقلبة عن الألف في المفرد، أو جمع مقليد، ولا قلب فيه، أو لا واحد له من لفظه، كأساطير وأخواته، ويقال أيضاً: إقليد وأقاليد.

﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ في «المصباح»: حبط العمل يحبط، من باب تعب، حبطاً بالسكون وحبوطاً: فسد وهدر، وحبط يحبط من باب ضرب لغةً، وقرىء بها في الشواذ، وحبط دم فلان حبطاً، من باب تعب: هدر، وأحبطت العمل والدم بالألف: أهدرته. اهـ.

﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ أصله: تأمرونني، بإظهار النونين، ثم أدغمت أولاهما، وهي علم الرفع في الثانية، وهو للوقاية، وقد قرأ ابن عامر: على الأصل؛ أي: بإظهارهما، ونافع: بحذف الثانية، فإنها تحذف كثيراً.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ القدر: التعظيم، كما في «القاموس». فالمعنى: ما عظموا الله حق تعظيمه، حيث جعلوا له شريكاً، ويقال: قدر الشيء قدره: من التقدير، كما في «المختار». وقال الراغب في «المفردات»: ما عرفوا كنهه.

﴿قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ القبضة: المرة من القبض؛ أطلقت بمعنى القبضة، وهي: المقدار المقبوض بالكف، تسميةً بالمصدر، أو بتقدير ذات قبضته، وفي «المفردات»: القبض: التناول بجميع الكف، نحو قبض السيف وغيره، ويستعار القبض لتحصيل الشيء، وإن لم يكن فيه مراعاة الكف، كقولك: قبضت الدار من فلان؛ أي: حزتها.

﴿مَطْوِيَّٰتُۢ﴾: جمع مطوية، اسم مفعول من طوى الثلاثي، أصله: مطوُيات، اجتمعت الواو الثانية والياء، وسبقت إحداهما ساكنة، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت في الياء، ثم كسرت الواو، مناسبة الياء. ﴿فَصَعِقَ﴾ يقال: صعق الرجل: إذا فزع فأغمي عليه، وربما مات منه، ثم استعمل في الموت كثيراً، كما في «المشارق». ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ والكتاب في الأصل: اسم للصحيفة مع المكتوب فيه.

﴿قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أصله: قوام، قلبت الواو ياءً؛ لوقوعها بعد كسرة وقبل ألف. ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أصلة جيء بوزن فعل، مبني للمجهول، استثقلت الكسرة على الياء حيث ينتقل من ضمة إلى كسرة، فحذفت حركة الياء فسكنت، ثم حركت الفاء بالكسر؛ لمناسبة الياء، فقيل جيء؛ لأن الياء صارت حرف مدّ لما سكنت إثر كسرة. ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ جمع شهيد، ككرماء جمع كريم، وشرفاء جمع شريف.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ وأصل ﴿سيق﴾: سوق بوزن فعل، مبني للمجهول، استثقلت الكسرة على الواو فنقلت إلى فاء الكلمة فسكنت الواو بعد كسرة، فقلبت ياءً حرف مد، والسوق: الحث على السير بعنف وإزعاج، علامةً على الإهانة والاحتقار، والزمر: الأفواج المتفرقة بعضها في إثر بعض، والزمر: جمع زمرة، وهي الجمع القليل، ومنه قيل شاة زمرة: قليلة الشعر، واشتقاقها من الزمر؛ وهو الصوت، إذ الجماعة لا تخلو عنه. ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ واحدهم خازن، نحو سدنة وسادن.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ أصله: طيب، بوزن فعل من باب باع، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، ثم أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك، فصار اللفظ: طابتم، فالتقي الساكنان فحذفت الألف فصار طبتم، فاحتيج إلى معرفة عين الفعل الحذوفة، هل هي واو أو ياء؟ فحذفت حركة الفاء، وعوض عنها شكلة مجانسة لتلك العين المحذوفا، التي هي ياء، والمجانس لها هو الكسرة، فقيل ﴿طِبۡتُمۡ﴾ بوزن فلتم، بكسر الفاء. ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ يقال بوأت له مكاناً: سويته وهيأته.

﴿حَآفِّينَ﴾؛ أي: محدقين محيطين بالعرش، مصطفين بحافته وجوانبه. اهـ «خازن». وعبارة السمين: قوله: حافين: جمع حاف، وهو المحدث بالشيء، من حففت بالشيء: إذا أحطت به، وهو مأخوذ من الحفاف وهو الجانب، وقال الفراء، وتبعه الزمخشري: لا واحد لـ﴿حَآفِّينَ﴾ من لفظه، وكأنهما رأيا أن الواحد لا يكون حافاً، إذ الحفوف هو الإحداق بالشيء والإحاطة به، وهذا لا يتحقق إلا في جمع. اهـ. وأصله: حاففين، أدغمت عينه في لامه، فقيل: حافين.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

واعلم: أنه قال علماء البيان: اشتمل قوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ على سبعة فنون من علمي البيان والبديع، نلخصها فيما يأتي.

١ ـ إقباله تعالى على عباده، وفي ذلك منتهى الاطمئنان لهم، لمحو ما سبق

من الذنوب والأوضار، والإشعار بأن أمامهم مندوحة من الوقت لاستدراك ما فرّط، ورأب ما انصدع.

٢ ـ نداؤهم، وفي ذلك من التودد إليهم، والتلطف بهم ما يهيب بذوي المسكة من العقول منهم إلى المبادرة بالإنابة، والرجوع بالتوبة.

٣ ـ إضافتهم إليه إضافة تشريف لهم.

٤ ـ إضافة الرحمة إلى لفظ الجلالة، الجامع لجميع الأسماء والصفات، إشعاراً بأنها هي الأصل في معاملته لعباده.

٥ ـ إعادة الظاهر بلفظه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾.

٦ ـ الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ لتخصيص الرحمة بالاسم الكريم، والأصل لا تقنطوا من رحمتي.

٧ ـ الاتيان بالجملة المعرّفة الطرفين، المؤكدة بأن وضمير الفصل والصفتين الموضوعتين للمبالغة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهذه سبعة فنون كاملة في آية واحدة.

ومنها: إطلاق الخاص، وإرادة العام في قوله: ﴿أَسۡرَفُواْ﴾ لأن الإسراف في الأصل: خاص بالإفراط في صرف المال، والمراد: ما يعم الإسراف في الأموال وغيرها.

ومنها: إطلاق العموم بمعنى الخصوص في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾؛ لأن الشرك ليس بداخل في الآية.

ومنها: التنكير لإفادة التقليل في قوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ﴾ لأن المراد بها بعض الأنفس، وهي الكافر؛ لأنها التي تقول ذلك، وقيل للتكثير والتعميم؛ ليشيع في كل النفوس.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ حيث شبهت الطاعة بالجنب بمعنى الجهة المحسوسة، بجامع تعلق كل بصاحبه، فالطاعة

لها تعلق بالله، كما أن الجهة لها تعلق بصاحبها.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مفاتيح خيراتهما، ومعادن بركاتهما، فشبّه الخيرات والبركات بخزائن، واستعار لها لفظ المقاليد بمعنى المفاتيح.

ومعنى الآية: خزائن رحمته وفضله بيده سبحانه.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ مثّل عظمته وكمال قدرته، وحقارة الأجرام العظام، التي تتحير فيها الأوهام بالنسبة لقدرته تعالى بمن قبض شيئاً عظيماً بكفه، وطوى السموات بيمينه، بطريق الاستعارة التمثيلية، قال في «تلخيص البيان»: وفي الآية استعارة، ومعنى ذلك أن الأرض في مقدوره، كالذي يقبض عليه القابض، فتستولي عليه كفه، ويحوزه ملكه ولا يشاركه غيره، والسموات مجموعات في ملكه، مضمومات بيمينه.

ومنها: توافق الفواصل في الحرف الأخير، وهو نهاية في الروعة والجمال، في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ومنها: الاتيان بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ إشعاراً بتحقق وقوعه.

ومنها: تقديم المعمول على عامله؛ لإفادة القصر في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾.

ومنها: عطف المسبب على السبب في قوله: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فإن عطف الخسران على الحبوط، من عطف المسبب على السبب.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ فإنه شبه العدل بالنور، بجامع الإظهار في كل، فإن العدل يظهر الحقوق، كما أن النور يظهر ما خفي في الظلام، فاستعار اسم المشبّه به للمشبه على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: إبهام القائل في قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾؛ لتهويل المقول.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

* * *

مجمل موضوعات هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١- وصف الكتاب الكريم.

٢- الأمر بعبادة الله وحده، والنعي على المشركين في عبادتهم للأوثان والأصنام.

٣- إقامة الأدلة على وحدانية الله.

٤- طبيعة المشرك في السرّاء والضراء.

٥- ضرب الأمثال في القرآن، وفائدة ذلك.

٦- تمني المشركين الفداء حين يرون العذاب.

٧- الوعد بغفران ذنوب من أسرفوا على أنفسهم إذا تابوا.

٨- ما يرى على وجوه أهل النار من الكآبة والحزن.

٩- ذكر أحوال يوم القيامة.

١٠- وصف ذهاب أهل النار إلى المحشر، وما يشاهدونه من الأهوال.

١١- وصف ذهاب أهل الجنة وما يشاهدونه فيها من النعيم المقيم.

١٢- بعد فصل القضاء يقول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة غافر

سورة غافر، وتسمى سورة المؤمن وسورة الطول، مكية نزلت بعد الزمر قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة، وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين نزلتا بالمدينة، وهما قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والتي بعدها، وقال الزجاج: وذكر أن الحواميم كلها نزلت بمكة. وآيها: خمس وثمانون، وقيل: اثنتان وثمانون آية. وكلماتها: ألف ومئة وتسع وتسعون. وحروفها: أربعة آلاف وتسع مئة وستون حرفاً.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة المؤمن كلها محكم، غير آيتين:

أولاهما: قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ الآية (٥٥). نسخ الأمر بالصبر بآية السيف.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ الآية (٧٧)، نسخت أيضاً بآية السيف، انتهى.

تسميتها: سميت سورة غافر؛ لأن الله سبحانه ذكر هذا الوصف الجليل، الذي هو من صفات الله الحسنى في مطلع السورة الكريمة ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرجل المؤمن: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾. وتسمى سورة المؤمن لذكر قصة مؤمن آل فرعون فيها.

المناسبة لما قبلها:

١ـ أنه[1] ذكر في سابقتها ما يؤول إليه حال الكافر وحال المؤمن، وذكر هنا أنه غافر الذنب؛ ليكون ذلك استدعاءً للكافر إلى الإيمان، والإقلاع عن الكفر.

٢ـ أنه ذكر في كل منهما أحوال يوم القيامة، وأحوال الكفار فيه، وهم في

---

(١) المراغي.

المحشر، وهم في النار.

وقال أبو حيان[1]: مناسبة أول هذه السورة لآخر الزمر: أنه تعالى لما ذكر ما يؤول إليه حال الكافرين وحال المؤمنين.. ذكر هنا أنه تعالى غافر الذنب وقابل التوب؛ ليكون ذلك استدعاءً للكافر إلى الإيمان، وإلى الإقلاع عما هو فيه، وأن باب التوبة مفتوح، وذكر شدة عقابه وصيرورة العالم كلهم إليه؛ ليرتدع عما هو فيه، وأن رجوعه إلى ربه فيجازيه بما يعمل من خير أو شر. انتهى.

فضلها: ومن فضائلها:

ما أخرجه[2] محمد بن نصر وابن مردويه عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني الراءات إلى الطواسين مكان الإنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضّلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي».

وأخرج أبو عبيد في «فضائله» عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: إن لكل شيء لباباً، وإن لباب القرآن آل حم.

وأخرج أبو عبيد وابن الضريس وابن المنذر والحاكم والبيهقي في «الشعب» عن ابن مسعود قال: الحواميم ديباج القرآن.

وأخرج أبو عبيد ومحمد بن نصر وابن المنذر عنه قال: إذا وقعت في آل حم.. وقعت في روضات دمثات، أتأنق فيهن.

وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلميّ عن أنس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحواميم ديباج القرآن».

وأخرج البيهقي في «الشعب» عن خليل بن مرة أن رسول الله ﷺ قال: الحواميم سبع، وأبواب النار سبع، تجيء كل حم منها تقف على باب من هذه الأبواب، تقول: اللهم، لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرؤني».

وأخرج أبو عبيد وابن سعد ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي في

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

«الشعب» عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم المؤمن إلى ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وآية الكرسي حين يصبح.. حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي.. حفظ بهما حتى يصبح.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال[١]: إن مثل صاحب القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً، فمر بأثر غيث، فبينما هو يسير فيه ويتعجّب منه؛ إذ هبط على روضات دمثات، فقال: عجبت من الغيث الأول، فهذا أعجب منه وأعجب، فقيل له: إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن، وإن مثل هذه الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن، وقال سعيد بن ابن إبراهيم: كل آل حم تسمى العرائس.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لكل شيء ثمرة، وإن ثمرة القرآن ذوات حم، هن روضات حسان مخصبات متجاورات، فمن أحبّ أن يرتع في رياض الجنة.. فليقرأ الحواميم».

وعنه أيضاً: «مثل الحواميم. في القرآن، كمثل الحبرات في الثياب». ذكرهما الثعلبيّ، اهـ «قرطبي». وقال الجوهري وأبو عبيد: وآل حم سور في القرآن، فأما قول العامة: الحواميم فليس من كلام العرب، وقال أبو عبيد: الحواميم سور في القرآن على غير قياس، قال: والأولى أن تجمع بذوات حم.

فتلخص من مجموع هذه الأخبار[٢]: أن هذه السور السبع تسمى الحواميم، وتسمى آل حم، وتسمى ذوات حم، فلها جموع ثلاثة، خلافاً لمن أنكر الأول منها. تأمل.

وقال محمد بن القاسم الأنباري[٣]: العرب تقول: وقع في الحواميم وفي آل حميم، أنشد أبو عبيدة:

حَلَفْتُ بِٱلسَّبْعِ ٱللَّوَاتِي طُوِّلَتْ ... وَبِمِئِيْنَ بَعْدَهَا قَدْ أُمِئِيَتْ
وَبِمَثَانٍ ثُنِّيَتْ فَكُرِّرَتْ ... وَبِٱلطَّوَاسِيْنِ ٱللَّوَاتِي ثُلِّثَتْ
وَبِٱلْحَوَامِيْمِ ٱللَّوَاتِي سُبِّعَتْ ... وَبِٱلْمُفَصَّلِ ٱللَّوَاتِي فُصِّلَتْ

---

(١) الخازن.
(٢) الفتوحات.
(٣) زاد المسير.

فمن قال وقع في آل حميم.. جعل حاميم اسماً لكلهن، ومن قال: وقع في الحواميم جعل حم، كأنه حرف واحد بمنزلة قابيل وهابيل، وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي: قال: من الخطأ أن تقول: قرأت الحواميم، وليس من كلام العرب، والصواب أن تقول: قرأت آل حاميم.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ
ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ
أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾
وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ
حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ
رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ
عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ
﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ
فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن
سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ
ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن
يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ
يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا
ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ
مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ
يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞
أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ
وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت
تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

المناسبة

لقد قدمنا لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة وآخر سابقتها، وأما قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ الآيات، فمناستبها لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] بين أن القرآن كتاب أنزله لهداية الناس، وسعادتهم في دنياهم وآخرتهم، إذا هم عملوا بهديه.. ذكر أحوال من يجادل فيه لغرض إبطاله، وإخفاء نوره، ثم أرشد رسوله أن لا يغتر بأحوال أولئك المجادلين، وتركهم سالمين في أبدانهم وأموالهم، يتصرفون في البلاد للتجارة لسعة الرزق، والتمتع بزخرف الدنيا، فإنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما فعل بأمثالهم من الأمم الماضية، ممن كذبوا رسلهم، فحل بهم البوار في الدنيا، وسينزل بهم النكال في الآخرة، في جهنم وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أبان ما أظهره المشركون للمؤمنين من العداوة ومجادلتهم للرسل بالباطل؛ لإطفاء نور دعوتهم.. أردف ذلك ببيان أن أشرف المخلوقات، وهم الملائكة الذين يحملون العرش، والحافون حول العرش، يحبون المؤمنين، ويطلبون لهم ولآبائهم وأزواجهم وذريّاتهم المغفرة من ربهم، فلا تبال أيها الرسول بهؤلاء المشركين، ولا تقم لهم وزناً، وكفاك نصرة حملة العرش والحافين حوله.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها[2]: أنه تعالى لما ذكر جدال الكفار في آيات الله وعصيانهم.. ذكر طاعة هؤلاء المصطفين من خلقه، وهم حملة العرش ومن حوله، وهم الحافون به من الملائكة. انتهى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف أحوال المشركين المجادلين في آيات الله.. أردف ذلك ببيان أنهم يوم القيامة يعترفون بذنوبهم، وباستحقاقهم ما سيحل بهم من النكال والوبال، ويسألون الرجوع

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

إلى الدنيا ليتلافوا ما فرط منهم، وبعد أن هددهم أعقب ذلك بما يدل على كمال قدرته وحكمته، بإظهاره للآيات، وإنزاله للأرزاق، وأنه أرفع الموجودات، لأنه مستغن عن كل ما سواه، وكل ما سواه محتاج إليه، وأنه ينزل الوحي على من يشاء من عباده؛ لينذر بالعذاب يوم الحساب والجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه لما ذكر فيما سلف أن الأنبياء ينذرون الناس بيوم التلاق.. أعقب ذلك بذكر أوصاف هائلة، تصطك منها المسامع، وتشيب من هولها الولدان لهذا اليوم المهيب.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه لما بالغ في تخويف الكفار بعذاب الآخرة.. أردفه بتخويفهم بعذاب الدنيا، فطلب إليهم أن ينظروا إلى من قبلهم، ممن كانوا أشد منهم قوة، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، إذ كذبوا رسلهم حين جاؤوهم بالبينات.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[١]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي عن أبي مالك: أنها نزلت في الحارث بن قيس السهمي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حمٓ ①﴾: اسم[٢] للسورة، ومحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: هذه السورة مسماة بحم، نزلت منزلة الحاضر المشار إليه؛ لكونها على شرف الذكر والحضور.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حمٓ اسم الله الأعظم، وعنه قال: ﴿حمٓ ①﴾ اسم الله الأعظم، وعنه قال: ﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ ①﴾ و﴿نٓ﴾: حروف، اسمه الرحمن مقطعة، وقيل الحاء: افتتاح أسمائه حليم وحميد وحي وحكيم وحنَّان،

---

(١) لباب النقول. (٢) روح البيان.

والميم: افتتاح أسمائه ملك ومجيد ومنان، وقيل: ﴿حمٓ ۝١﴾ معناه: حم بضم الحاء؛ أي: قضي وبين ما هو كائن إلى يوم القيامة.

وقرأ الجمهور[1]: بفتح الحاء مشبعاً، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: بإمالته إمالةً محضةً، وقرأ أبو عمرو ونافع في رواية ورش: بإمالته بين بين، وقرأ الجمهور: ﴿حمٓ ۝١﴾ بسكون الميم، كسائر الحروف المقطعة، وقرأ الزهري: بضمها، على أنه خبر مبتدأ مضمر، أو مبتدأ، والخبر ما بعده، وقرأ عيسى بن عمر الثقفي: بفتحها، على أنه منصوب بفعل مقدر؛ أي: اقرأ حم، وإنما منعت من الصرف للعلمية والتأنيث، أو للعلمية وشبه العجمة، وذلك أنه ليس في الأوزان العربية وزن فاعيل، بخلاف الأعجمية، نحو قابيل وهابيل، أو على أنها حركة بناء تخفيفاً، كأين وكيف، وعلة البناء فيه: الشبه الوضعي، وقرأ أبو السمال: بكسرها لالتقاء الساكنين، أو بتقدير القسم، وقرأ الجمهور: بوصل الحاء بالميم، وقرأ أبو جعفر؛ بقطعها.

وعبارة «المراغي» هنا: ﴿حمٓ ۝١﴾ تقدم الكلام في أمثال هذه الحروف المقطعة في أوائل السور بما يغني عن إعادته هنا، وقد اخترنا هناك أن أحسن الآراء في ذلك: أنها كلمات يراد بها التنبيه في أول الكلام، نحو ﴿ألا﴾ و﴿يا﴾ وينطق بأسمائها، فيقال: حاميم بتفخيم الألف وتسكين الميم، ويجمع على حواميم وحواميمات، وأنكر ذلك الجوالقي والحريري وابن الجوزي، وقالوا: لا يقال ذلك، بل يقال: آل حم، ويؤيد ذلك أن صاحب «الصحاح»: نقل عن الفراء أن قول العامة: الحواميم ليس من كلام العرب، وحديث ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ وقد تقدم: إذا وقعت في آل حم.. فقد وقعت في روضات دمثات، أتأنق فيهن، وعلى هذا قول الكميت بن زيد في الهاشميات:

وَجَدْنَا لَكُمْ فِيْ آلِ حَم آيَةً تَأَوَّلَهَا مِنَّا تَقِيٌّ وَمُعْرِبُ

يريد بذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. انتهى.

وقال الشوكاني: وقد اختلف في معناه، فقيل هو اسم من أسماء الله تعالى،

---

(١) الشوكاني.

وقيل: اسم من أسماء القرآن، وقال الضحاك والكسائي: معناه قضي ووقع ما هو كائن إلى يوم القيامة. وجعلاه بمعنى حم؛ أي: قضي ووقع، وقيل: معناه حم أمر الله؛ أي: قرب نصره لأوليائه، وانتقامه من أعدائه، وهذا تكلف لا موجب له، وتعسف لا مُلجِىء إليه، والحق أن هذه الفاتحة لهذه السورة وأمثالها من المتشابه الذي استأثر الله سبحانه بعلم معناه، كما قدمنا تحقيقه في أول سورة البقرة. انتهى.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو خبر لـ﴿حمٓ ①﴾ على تقدير أنه مبتدأ؛ أي: سورة حم الكتاب المنزل ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ إلخ. فالمصدر بمعنى اسم المفعول، أو خبر لمبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ وخبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ والمصدر على معناه، وهذا أولى الوجوه؛ أي: تنزيل هذا الكتاب الكريم كائن من الله تعالى، لا كما يقول الكفار ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب القاهر على ما أراد ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بكل المعلومات، ولعل تخصيص هذين الوصفين لما في القرآن من الإعجاز وأنواع العلم الدالين على القدرة الكاملة والعلم البالغ، وفي «فتح الرحمن»: العزيز الذي لا مثل له، العليم بكل المعلومات، أو الكثير العلم بخلقه، وبما يقولونه ويفعلونه.

والمعنى: أي هذا القرآن تنزيل من الله الغالب، القاهر في ملكه، الكثير العلم بخلقه وبما يقولون وما يفعلون، وفي هذا إيماء إلى أنه ليس بمتقول ولا مما يجوز أن يكذب به ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ صفة أخرى للجلالة، والإضافة حقيقيّة؛ لأنه لم يرد به زمان مخصوص؛ لأن صفات الله تعالى أزلية منزهة عن التجدد والتقيد بزمان دون زمان، وإن كان تعلقها حادثاً بحسب حدوث المتعلقات كالذنب في هذا المقام، واسم الفاعل يجوز أن يراد به الاستمرار، بخلاف الصفة المشبهة، والغافر: الساتر، والذنب: الإثم، يستعمل في كل فعل يضرّ في عقباه، اعتباراً بذنب الشيء؛ أي: آخره، ولم يقل: غافر الذنوب بالجمع، إرادةً للجنس، كما في الحمد لله.

والمعنى: ساتر جميع الذنوب، صغائرها وكبائرها، بتوبة وبدونها، ولا يفضح صاحبها يوم القيامة، كما يقتضيه مقام المدح العظيم ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ والقابل في الأصل: هو الذي يستقبل الدلو من البئر فيأخذها، والقابلة: التي تقبل الولد عند الولادة، والتوب مصدر، كالتوبة: وهو ترك الذنوب على أحد الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه، إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت، وأقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا

الثالث هو التوبة، والتوبة في الشرع: هي ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربعة.. فقد كملت شرائط التوبة، فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الدين، والاستغفار: عبارة عن طلب المغفرة بعد رؤية قبح المعصية والإعراض عنها، فالتوبة مقدمة على الاستغفار، والاستغفار لا يكون توبة بالإجماع، ما لم يقل معه: تبت وأسأت ولا أعود إليه أبداً، فاغفر لي يا رب.

وتوسيط الواو بين الغافر والقابل؛ لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة في موصوف واحد بالنسبة إلى طائفة هي طائفة المذنبين التائبين، فالمغفرة بمحو الذنوب بالتوبة، والقبول بجعل تلك التوبة طاعة مقبولاً يثاب عليها، فقبول التوبة كناية عن أنه تعالى يكتب تلك التوبة للتائب طاعة من الطاعات، وإلا لما قبلها؛ لأنه لا يقبل إلا ما كان طاعة، أو لتغاير الوصفين، إذ ربما يتوهم الاتحاد، بأن يذكر الثاني لمجرد الإيضاح والتفسير، أو لتغاير موقع الفعلين ومتعلقهما؛ لأن الغفر: هو الستر مع بقاء الذنب، وذلك لمن لم يتب من أصحاب الكبائر، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والقبول بالنسبة إلى التائبين عنها.

وفي «الأسئلة المقحمة»: قدم المغفرة على التوبة؛ رداً على المعتزلة، ليعلم أنه تعالى ربما يغفر من غير توبة ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: مشدد العقاب لمن مات على الشرك، فهو اسم فاعل، كما قبله، فصح جعله نعتاً للمعرفة، حيث يراد به الدوام والثبوت، وليس بصفة مشبهة، حتى تكون الإضافة لفظية، بأن يكون من إضافة الصفة إلى فاعلها، ولئن سلم.. فالمراد الشديد عقابه باللام فحذفت للازدواج مع ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ في الخلو عن الألف واللام ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾؛ أي: صاحب الفضل والإحسان على من آمن به بترك العقاب المستحق، وذي الغنى على من لم يؤمن به، والطول بالفتح: الفضل، يقال: لفَلان على فلان طول؛ أي: زيادة وفضل، وأصل هذه الكلمة من الطول الذي هو خلاف القصر؛ لأنه إذا كان طويلاً.. ففيه كمال وزيادة، كما أنه إذا كان قصيراً.. ففيه قصور ونقصان، وسمي الغني أيضاً طولاً، لأنه ينال به من المرادات ما لا ينال عند الفقر، كما أنه بالطول ينال ما لا ينال بالقصر، كذا في «تفسير الإمام» في سورة النساء، والمراد هنا:

الفضل بترك العقاب المستحق، وإيراد صفة واحدة في جانب الغضب بين صفات الرحمة: دليل سبقها ورجحانها.

والمعنى: أي وهو سبحانه الإله الذي يغفر ما سلف من الذنوب، ويقبل التوبة في مستأنف الأزمنة لمن تاب وخضع، وهو شديد العقاب لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعثا عن أوامر الله وبغى، المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والنعم، التي لا يطيقون القيام بشكرها، ولا شكر واحدة منها، كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

وذكر: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾؛ لترغيب عباده العاصين، وذكر: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لترهيبهم، وفي مجموع هذا الحث على فعل المراد من تنزيل الكتاب، وهو التوحيد والإيمان بالبعث، والإخلاص لله في العمل، والإقبال عليه، وقد جمع القرآن هذين الوصفين في مواضع كثيرة منه، كقوله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ ليبقى العبد بين الخوف والرجاء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه، فيجب الإقبال الكلي على طاعته في أوامره ونواهيه ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى فحسب، لا إلى غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع والمآب؛ أي: رجوع الخلق إليه سبحانه في الآخرة، فيجازي كلا من المطيع والعاصي.

ثم لما ذكر أن القرآن كتاب الله، أنزله ليهتدى به في الدين.. ذكر أحوال من يجادل فيه بقصد إبطاله، فقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما يخاصم وينازع في دفع آيات الله وإبطالها. وتكذيبها؛ أي: ما يخاصم في آيات الله تعالى التنزيلية، أو التكوينية بالطعن فيها، بأن يقول في حقها سحراً أو شعراً أو أساطير الأولين أو نحو ذلك، وباستعمال المقدمات الباطلة لإدحاضه وإزالته وإبطاله، لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ فحمل المطلق هنا على المقيد هناك، وأريد بالجدال المذكور هنا: الجدال بالباطل، أما الجدال لاستيضاح الحق ورفع اللبس، والبحث عن الراجح والمرجوح، وعن المحكم والمتشابه، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم بالجدال إلى المحكم.. فهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون، ومن أفضل الطاعات، كالجهاد في سبيل الله تعالى.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بها، وأما الذين آمنوا.. فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها، فضلاً عن الطعن فيها، ولما حكم سبحانه وتعالى على المجادلين في آيات الله بالكفر.. نهى رسوله ﷺ عن أن يغتر بشيء من حظوظهم الدنيوية، فقال: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ يا محمد ﴿تَقَلُّبُهُمْ﴾؛ أي: تنقلهم ﴿في البلاد﴾ للتجارات النافقة، والمكاسب المربحة، سالمين غانمين بمراداتهم، فإنهم يمهلون ولا يهملون، و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾: واقعة في جواب شرط محذوف، والغرة: غفلة في اليقظة، والتقلب: التنقل في البلاد والتصرف فيها بالتجارة.

والمعنى: فإذا علمت يا محمد أنهم محكوم عليهم بالكفر.. فلا يغررك إمهالهم وإقبالهم في دنياهم، وتقلبهم في بلاد الشام واليمن للتجارات المربحة، وهي رحلة الشتاء والصيف.

وقرأ الجمهور: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ بالفك، وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير: ﴿فلا يغرك﴾ بالإدغام مفتوح الراء، وهي لغة تميم.

ومعنى الآية: أي ما يخاصم في القرآن بالطعن فيه وتكذيبه، كقولهم مرة: أنه شعر، وأخرى: أنه سحر، وثالثة: أنه أساطير الأولين، إلى أشباه ذلك من سخيف المقال، إلا الذين جحدوا به وأعرضوا عن الحق مع ظهوره، وهذا النوع من الجدل هو المذموم، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «لا تماروا في القرآن، فإن المراء فيه كفر». أما الجدل لتقرير الحق، وإيضاح الملتبس، وكشف المعضل، واستنباط المعاني، ورد أهل الزيغ بها، ورفع اللبس، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن.. فهو وظيفة الأنبياء، ومنه قوله تعالى عن قوم نوح لنوح ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: هاجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، فسمعت أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج يعرف في وجهه الغضب فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب». رواه مسلم.

وقال أبو العالية: آيتان ما أشدهما علي ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

ولما حكم سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر.. نهى رسوله ﷺ أن

ولما حكم سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر.. نهى رسوله ﷺ أن يغتر بشيء من حظوظهم الدنيوية، فقال: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾؛ أي: فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة النافعة في البلاد، وما يحصلون عليه من المكاسب في رحلة الشتاء في اليمن، ورحلة الصيف في الشام، ثم يرجعون سالمين غانمين، فإنهم معاقبون عما قليل، وهم وإن أمهلوا.. فإنهم لا يهملون، قال الزجاج: لا يغررك سلامتهم بعد كفرهم، فإن عاقبتهم الهلاك.

وقال في «عين المعاني»: فلا يغررك أيها المغرور، والمراد غيره ﷺ خطاب للمقلدين من المسلمين. انتهى.

وفي هذا تسلية له ﷺ، ووعيد لهم، ثم قال مسلياً رسول الله ﷺ على تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوةً في سلفه الأنبياء، فإن أقوامهم كذبوهم، وما آمن منهم إلا قليل، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ﴾؛ أي: القبائل من الكفار الذين تحزبوا على الرسل وعادوهم وحاربوهم ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد قوم نوح، مثل عاد وثمود وأضرابهم، وبدأ بقوم نوح إذ كان أول رسول في الأرض؛ أي: لأن آدم إنما أرسل إلى أولاده.

أي: كذبت[1] قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب، فحلت بهم نقمتنا بعد بلوغ أمدهم، كما هي سنتنا في أمثالهم من المكذبين، كعاد وثمود ومن بعدهم، وكانوا في جدلهم على مثل الذي عليه قومك. ﴿وَهَمَّتْ﴾؛ أي: قصدت وعزمت ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من تلك الأمم المكذبة أن يوقعوا الشر ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ الذي أرسل إليهم، والهم كما سيأتي: تصميم القلب على فعل شيء قبل أن يفعل من خير أو شر، قال في «الأسئلة المقحمة»: لم يقل: برسولها؛ لأنه أراد بالأمة ههنا الرجال دون النساء، وبذلك فسروه، وقال في «عين المعاني»: برسولهم تغليب للرجال ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾؛ أي: ليأسروه ويحبسوه فيعذبوه أو يقتلوه، من الأخذ بمعنى الأسر.

وفيه[2]: إشارة إلى أن كل عصر يكون فيه صاحب ولاية لا بد له من أرباب

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

الجحود والإنكار وأهل الاعتراض، كما كانوا في عهد كل نبي ورسول، وقال قتادة والسدي: ليقتلوه، والأخذ قد يرد بمعنى الإهلاك، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ والعرب تسمي الأسير الأخيذ.

وقرأ الجمهور: ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾، وقرأ عبد الله: ﴿برسولها﴾، عاد الضمير إلى لفظ أمة.

والمعنى: أي وحرصت كل أمة على تعذيب رسولهم بحبسه وإصابة ما أرادوا منه ﴿وَجَٰدَلُوا﴾؛ أي: وخاصموا رسولهم ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ من القول الذي لا أصل ولا حقيقة له أصلاً. قال في «فتح الرحمن»: الباطل: ما كان فائت المعنى من كل وجه، مع وجود الصورة، إما لانعدام الأهلية، أو لانعدام المحلية، كبيع الخمر وبيع الصبي، انتهى. ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: ليزيلوا بذلك الباطل، الحق الذي لا محيد عنه، كما فعل هؤلاء المشركون من قومك؛ أي: وخاصموا رسولهم بالباطل، بإيراد الشبه التي لا حقيقة لها، كقولهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ليبطلوا به الحق الذي جاء به من عند الله تعالى، وليطفئوا النور الذي أوتيه.

قال يحيى بن سلام: جادلوا الأنبياء بالشرك؛ ليبطلوا الإيمان ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك جزاء لهمّهم بالأخذ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ أي: عقابي الذي عاقبتهم به، فإن آثار دمارهم ترونها حين تمرون على ديارهم عبرة للناظرين، ولآخذنّ هؤلاء أيضاً لاتحادهم في الطريقة، واشتراكهم في الجريمة.

والاستفهام فيه[1] استفهام تعجيب من استئصالهم، واستعظام لما حل بهم، وليس استفهاماً عن كيفية عقابهم، واجتزأ بالكسر عن ياء الإضافة؛ لأنها فاصلة، والأصل: عقابي.

والمعنى[2]: فأهلكتهم واستأصلت شأفتهم، فلم أبق منهم دياراً ولا نافخ نار، وصاروا كأمس الدابر، وإنكم لتمرون على ديارهم مصبحين وممسين، كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ وهكذا سأفعل بقومك إن هم أصروا على الكفر والجدل في آيات الله، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الأمم المكذبة، المتحزبة على رسلهم، المجادلة بالباطل لإدحاض الحق به.. وجب أيضاً ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من قومك؛ أي: كفروا ربك، وتحزبوا عليك، وهموا بما لم ينالوا، فالموصول عبارة عن كفار قومه ﷺ، وهم قريش، لا عن الأمم المهلكة.

وقوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في حيز النصب بحذف لام التعليل، وإيصال الفعل؛ أي: كذلك حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من قومك؛ لأنهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها، التي هي عذاب النار، وملازموها أبداً لكونهم كفاراً معاندين، متحزبين على الرسول ﷺ، كدأب من قبلهم من الأمم المهلكة، فهم لسائر فنون العقوبات أشد استحقاقاً، وأحق استيجاباً، فعلة واحدة تجمعهم، وهي أنهم أصحاب النار.

والمعنى(١): أي وكما حق على الأمم التي كذبت رسلها، وقصصت عليك خبرها، أن يحل بها عقابي.. وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك؛ لأن الأسباب واحدة، والعلة متحدة، وهي كفرهم وعنادهم للحق، واهتمامهم بإطفاء نور الله الذي بثّه في الأرجاء، لإصلاح نظم العالم وسعادته في دينه ودنياه، وارتقاء النفوس البشرية، والسمو بها عن الاستخذاء إلى شجر أو حجر أو حيوان، طمعاً في خير يرجى منه، وشفاعة تنفع عند الله تعالى.

وقيل: هو؛ أعني قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في محل الرفع على أنه بدل من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدل الكل.

والمعنى عليه: أي مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة المهلكة كونهم من أصحاب النار؛ أي: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بعذاب الاستئصال، كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار في الآخرة، فالتشبيه واقع بين حالتيهم، والجامع للطرفين: إيجاب العذاب، ومحل الكاف على كلا التقديرين، النصب، على أنه نعت لمصدر محذوف، وفي الآية إشارة إلى أن الإصرار مؤد إلى الأخذ والانتقام في الدنيا والآخرة، فعلى العاقل أن يرجع إلى الله، ويتوب ويتعظ بغيره، قبل أن يتعظ الغير به، عصمنا الله تعالى وإياكم من أسباب سخطه.

---

(١) روح البيان.

به، عصمنا الله تعالى وإياكم من أسباب سخطه.

وفي مصحف عبد الله[1]: ﴿وكذلك سبقت﴾ وهو تفسير معنى، لا قراءة، وقرأ ابن هرمز وشيبة وابن القعقاع ونافع وابن عامر: ﴿كلمات﴾ على الجمع، وأبو رجاء وقتادة وباقي السبعة: على الإفراد.

ثم ذكر أحوال حملة العرش ومن حوله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ والموصول: مبتدأ، ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾: معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ﴾: وخبر المبتدأ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ وهذا هو الظاهر، وقيل: يجوز أن تكون من في محل نصب عطفاً على ﴿ٱلۡعَرۡشَ﴾، والأول أولى. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل، متلبسين بحمده على نعمائه التي لا تتناهى ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: بربهم إيماناً حقيقاً بحالهم، والتصريح به مع إغناء ما قبله عن ذكره؛ لإظهار فضيلة الإيمان، وإبراز شرف أهله، وقد قيل: أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف.

وقال بعضهم[2]: أشار بالإيمان إلى أنهم في مرتبة الإدراك بالبصائر، محجوبون عن إدراكه تعالى بالأبصار، كحال البشر ما داموا في موطن الدنيا، وأما في الجنة.. فقيل: لا يراه الملائكة، وقيل: يراه منهم جبريل خاصة مرةً واحدة،ويراه المؤمنون من البشر في الدنيا بالبصائر، وفي الآخرة بالأبصار؛ لأن قوله ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ قد استثني منه المؤمنون، فبقي على عمومه في الملائكة والجن، وذلك لأن استعداد الرؤية إنما هو لمؤمني البشر؛ لكمالهم الجامع ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استغفارهم: شفاعتهم وحملهم على التوبة، وإلهامهم ما يوجب المغفرة، وفيه إشعار بأنهم يطلعون على ذنوب بني آدم، وتنبيه على أن المشاركة في الإيمان توجب النصح والشفقة، وإن تخالفت الأجناس، لأنها أقوى المناسبات وأتمها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ﴾.

وقال أبو حيان: فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾، ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون؟

قلت: فائدته: إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه، كما وصف

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك. انتهى.

والمعنى[١]: إن الملائكة الذين يحملون عرش ربهم، والملائكة الذين هم حوله، ينزهون الله تعالى متلبسين بحمده على نعمه، ويقرون بأن لا إله إلا هو، ولا يستكبرون عن عبادته، ويسألون أن يغفر لمن أقروا بمثل ما أقروا به، من توحيد الله، والبراءة من كل معبود سواه.

ونحن نؤمن بما جاء في الكتاب الكريم، من حمل الملائكة للعرش، ولا نبحث عن كيفيته، ولا عن عدد الحاملين له، فإن ذلك من الشؤون التي لم يفصلها لنا الكتاب ولا السنة المتواترة، فنكل أمر علمها إلى ربنا، وعلينا التسليم بما جاء في كتابه، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الحمل يراد به التدبير والحفظ، وأن الحفيف والطواف بالعرش يراد به القرب من ذي العرش سبحانه، ومكانة الملائكة لديه وتوسطهم في نفاذ أمره.

ثم بين سبحانه كيفية استغفارهم للمؤمنين، فقال حاكياً عنهم: ﴿رَبَّنَا﴾ فهو على[٢] تقدير القول على أنه بيان لاستغفارهم؛ أي: يقولون: ربنا، أو على أنه حال؛ أي: يستغفرون للذين آمنوا قائلين: ربنا ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ نصب كل من ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ على التمييز المحول عن الفاعل؛ أي: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء من خلقك، والمراد: أن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك يحيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، وتقديم الرحمة على العلم، وإن كان العلم أشمل وأقدم تعلقاً من الرحمة؛ لأنها المقصودة بالذات ها هنا، وفي «عين المعاني»: ملأت كل شيء نعمةً وعلماً به، قال بعضهم: دخل في عموم الآية الشيطان ونحوه؛ لأن كل موجود له رحمة دنيوية ألبتة، وأقلها الوجود، وللشيطان إنظار إلى يوم الدين، ويكون من الرحمة الدنيوية إلى غير ذلك. ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾؛ أي: تمسكوا بدينك بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. و﴿الفاء﴾ فيه: لترتيب الدعاء على ما قبلها من سعة الرحمة والعلم، فما بعد ﴿الفاء﴾ مسبب عن كل واحد من الرحمة والعلم، إذ المعنى: فاغفر للذين علمت منهم التوبة من

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الكفر والمعاصي، واتباع سبيل الإيمان والطاعة.

وفيه: إشارة إلى أن الملائكة لا يستغفرون إلا لمن تاب ورجع عن اتباع الهوى، واتبع بصدق الطلب وصفاء النية سبيل الحق تعالى. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: واحفظهم من عذاب جهنم، وهو تصريح بعد إشعار للتأكيد، وذلك لأن معنى الغفران: إسقاط العذاب، وفيه إشارة إلى أنه بمجرد التوبة لا تحصل النجاة، فلا بدّ من الثبات عليها، وتخليص العمل من شوب الرياء والسمعة، وتصفية القلب عن الأهواء والبدع.

والمعنى[1]: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا، وأقلعوا عن ذنوبهم، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات، وترك المنكرات، واجعل بينهم وبين عذاب الجحيم وقاية، بأن تلزمهم الاستقامة، وتتم نعمتك عليهم، فإنك وعدت من كان كذلك بالبعد عن هذا العذاب، ولا يبدل القول لديك، قال مطرف بن عبد الله: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان، وتلا هذه الآية.

قيل[2]: هذا الاستغفار في مقابلة قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فلما صدر هذا منهم أولاً.. تداركوه بالاستغفار لمن تكلموا فيهم، وهو كالتنبيه لغيرهم، على أنه يجب على من تكلم في أحد بشيء يكرهه، أن يستغفر له، وعلى كل مَنْ آذى غيره، أن يَجْبُرَهُ بإيصال نفع إليه، ذكره في «المراح».

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ عطف على ﴿وَقِهِمْ﴾ وتوسيط النداء بينهما للمبالغة في الجؤار، وهو رفع الصوت بالدعاء والتضرع والاستغاثة ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؛ أي: بساتين إقامةٍ وخلودٍ ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ إياها، وقد وعد الله تعالى بأن يدخل من قال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، جنات عدن، إما ابتداءً، أو بعد أن يعذبهم بقدر عصيانهم.

وروي: أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال لكعب الأحبار: ما جنات عدن؟ قال: قصور من ذهب في الجنة، يدخلها النبيون وأئمة العدل، فعلى هذا

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.

يكون ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: موضع أهل الخصوص لا أهل العموم، ومثلها: الفردوس، إذ لكل مقام عمل يخص به، فإذا كان العمل أخص وأرفع.. كان المقام أرقى وأعلى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿جَنَّٰتِ﴾ جمعاً، وزيد بن علي والأعمش ﴿جنة عدن﴾ بالإفراد، وكذا في مصحف عبد الله.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ في محل النصب عطفاً على الضمير في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾.

والمعنى: وأدخل معهم من صلح من هؤلاء صلاحاً مصححاً لدخول الجنة في الجملة، وإن كان دون صلاح أصولهم، وذلك ليتم سرورهم، ويتضاعف ابتهاجهم، وفيه إشارة إلى أن بركة الرجل التائب تصل إلى آبائه وأزواجه وذرياته؛ لينالوا بها الجنة ونعيمها.

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿صلح﴾ بضم اللام، يقال: صلح فهو صليح، وصلح فهو صالح، وقرأ عيسى: ﴿وذريتهم﴾ بالإفراد، والجمهور: بالجمع.

والمعنى[2]: أي ربنا وأدخلهم الجنات التي وعدتهم إياها على ألسنة رسلك، وأدخل معهم في الجنة الصالحين من الآباء والأزواج والذرية؛ لتقر بهم أعينهم، فإن الاجتماع بالأهل والعشيرة في موضع السرور، يكون أكمل للبهجة وأتم للأنس.

قال سعيد بن جبير: يدخل المؤمن الجنة فيقول: يا رب، أين أبي وجدي وأمي، وأين ولدي وولد ولدي. وأين زوجاتي؟ فيقال: إنهم لم يعملوا كعملك، فيقول: يا رب كنت أعمل لي ولهم؟ فيقال: أدخلوهم الجنة، ثم تلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ ويقرب من هذه الآية قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة.. نودي في أطفال المسلمين: أن اخرجوا من قبوركم، فيخرجون من قبورهم، فينادى فيهم: أن امضوا إلى الجنة زمراً، فيقولون: يا ربنا، ووالدينا معنا، فينادى فيهم الثانية: أن امضوا إلى الجنة زمراً، فيقولون: ووالدينا معنا، فيتبسم

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

الرب تعالى، فيقول: ووالديكم معكم، فيثب كل طفل إلى أبويه، فيأخذون بأيديهم، فيدخلونهم الجنة، فهم أعرف بآبائهم وأمهاتهم يومئذ من أولادكم الذين في بيوتكم».

﴿إِنَّكَ﴾ يا ربنا ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور ما ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة الباهرة، من الأمور التي من جملتها إنجاز الوعد والوفاء به ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي[1]: واحفظهم عما يسوؤهم يوم القيامة، وادفع عنهم العقوبات؛ لأن جزاء سيئة سيئة، فتسميتها سيئة. إما لأن السيئة اسم للملزوم، وهو الأعمال السيئة، فأطلق على اللازم، وهو جزاؤها، أو المعنى: قهم جزاء السيئات، على حذف المضاف، على أن ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بمعنى الأعمال السيئة، وهو تعميم بعد تخصيص، لقوله: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أو عذاب القبر وموقف القيامة والحساب والسؤال والصراط ونحوها، أو مخصوص بمن صلح من الأتباع، والأول دعاء للأصول، قال أبو السعود: والضمير في ﴿وَقِهِمْ﴾: راجع للمعطوف، وهو الآباء والأزواج والذرية.

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: ومن تصرف عنه سوء عاقبة ما ارتكب من السيئات ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ ونجيته من عذابك؛ لأن[2] المعافى من العذاب مرحوم، ويجوز أن يكون المراد بـ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الأولى: المعاصي في الدنيا، فمعنى قوله: ﴿وَمَن تَقِ...﴾ إلخ؛ أي: ومن تقه المعاصي في الدنيا.. فقد رحمته في الآخرة، كأنهم طلبوا لهم السبب بعد ما سألوا المسبب ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المذكور من الرحمة والوقاية ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أجمل منه، والظفر الجسيم الذي لا مطمع وراءه لطامع؛ إذ وجدوا بأعمال منقطعة نعيماً لا ينقطع، وبأفعال قليلة ملكاً لا تصل العقول إلى كنه جلاله.

ولما ذكر سبحانه حال أصحاب النار، وأنها حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم أصحاب النار.. ذكر أحوالهم بعد دخول النار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسله ﴿يُنَادَوْنَ﴾؛ أي: تناديهم الملائكة، وهم خزنة جهنم من مكان بعيد، تنبيهاً على بعدهم عن الحق: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ جواب قسم محذوف، والمقت: البغض

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

الشديد لمن يراه متعاطياً لقبيح، والبغض: نفار النفس من الشيء، ترغب عنه، وهو ضد الحب، وهو انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه، ومقت الله: غضبه وسخطه، وهو مصدر مضاف إلى فاعله، وحذف مفعوله؛ لدلالة المقت الثاني عليه، والمعنى: والله لمقت الله أنفسكم الأمارة بالسوء ﴿أَكْبَرُ﴾ وأشد ﴿مِن مَّقْتِكُمْ﴾ وبغضكم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ الأمارة بالسوء، وذلك أن الكفار يمقتون في جهنم أنفسهم الأمارة بالسوء، التي وقعوا بها فيما وقعوا فيه من العذاب المخلد باتباع هواها؛ أي: يغضبون عليها حتى يأكلوا أناملهم، ويبغضونها أشد البغض، وينكرونها أشد الإنكار، ويظهرون ذلك على رؤوس الأشهاد، فعند ذلك تناديهم الملائكة من مكان بعيد.

والظرف في قوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ في الدنيا من جهة الأنبياء ﴿إِلَى الْإِيمَانِ﴾ فتأبون قبوله ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ بالله تعالى وتوحيده، اتباعاً لأنفسكم، ومسارعة إلى هواها.. متعلق بالمقت الأول، ولا يقدح فيه وجود الخبر في «العين»؛ لأنَّ في الظروف اتساعاً.

والمعنى: إن الذين كفروا تناديهم الملائكة يوم القيامة، وهم يتلظون النار، ويذوقون العذاب، فيمقتون أنفسهم، ويبغضونها أشد البغض، بسبب ما أسلفوا من سيء الأعمال التي كانت سبب دخولهم في النار، والله إن مقت الله إياكم في الدنيا حين تدعون إلى الإيمان، فتكفرون، أشد من مقتكم أنفسكم اليوم، وأنتم على هذه الحال.

وقال الأخفش: ﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾: لام الابتداء، دخلت على معمول خبر ﴿إِنَّ﴾. وقيل: الظرف في قوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾: متعلق بمحذوف، تقديره: اذكروا إذ تدعون في الدنيا.

والخلاصة(1): **إن مقت الله لأهل الضلال** حين عرض عليهم **الإيمان في الدنيا** فتركوه، وأبو أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذابه يوم القيامة. قاله قتادة ومجاهد والحسن البصري وابن جرير.

---

(1) المراغي.

ثم ذكر ما يقولونه حين ينادون بهذا النداء، فقال: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قالت الكفرة حين خوطبوا بهذا الخطاب: ﴿رَبَّنَا﴾؛ أي: يا ربنا ويا مالك أمرنا ﴿أَمَتَّنَا﴾ إماتتين ﴿اثْنَتَيْنِ﴾؛ أي: جعلتنا نطفاً لا حياة لنا في أصلاب آبائنا، وجعلتنا أمواتاً بانقضاء آجالنا ﴿وَأَحْيَيْتَنَا﴾ إحياءَتين ﴿اثْنَتَيْنِ﴾؛ أي: إحياءةً بنفخ الروح فينا في بطن أمهاتنا، وإحياءةً بالبعث من قبورنا، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾. ووجه هذا القول: أن الموت قد يطلق على عادم الحياة من الأصل، ولا يلزم منه أن لا عذاب في القبر، ولا حياة ولا موت، فإنهم إنما لم يذكروها؛ لأن حياة القبر ليست كحياة الدنيا، ولا كحياة الآخرة، كما في «الأسئلة المقحمة». وقد ذهب إلى هذا المعنى جمهور السلف.

وقيل المعنى[1]: أمتنا إماتتين اثنتين: مرةً بقبض أرواحنا، ومرةً بعد ما سألنا منكر ونكير في القبور، وأحيَيتنا إحياءَتين اثنتين مرة عند سؤال منكر ونكير في القبور ومرةً عند البعث، وهذا أنسب بحالهم، فإنَّ مقصودهم تعديد أوقات البلاء، وهي أربعة: الموتة الأولى، والحياة في القبر، والموتة الثانية، والحياة في القيامة، فهذه الأربعة أوقات المحنة، فأما الحياة في الدنيا، فليست من أقسام أوقات البلاء، فلهذا السبب لم يذكروها.

وقال ابن زيد: المراد بالآية: أنهم خلقهم في ظهر آدم، واستخرجهم وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم أحياهم في الدنيا ثم أماتهم.

وحاصل المعنى على القول الأول: أي قالوا: ربنا خلقتنا أمواتاً، وأمتنا حين انقضاء آجالنا، وأحييتنا أولاً بنفخ الأرواح فينا، ونحن في الأرحام، وأحييتنا بإعادة أرواحنا إلى أبداننا حين البعث. نقله ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنهما ـ، وجعلوا ذلك نظير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا...﴾ الآية.

ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد أن صاروا في النار بما كذبوا به في الدنيا، فقال حاكياً عنهم: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ التي أسلفناها في الدنيا من تكذيب الرسل،

---

(١) المراح.

والإشراك بالله وترك توحيده، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقدمة لقولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ لنا من النار ورجوع لنا إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾؛ أي: من طريق؛ أي: فهل أنت معيدنا إلى الدنيا لنعمل غير الذي كنا نعمل؟ فإنك قادر على ذلك، وهذا أسلوب يستعمل في التخاطب حين اليأس، قالوه تحيراً أو تعللاً: عسى أن يتاح لهم الفرج، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ وقوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ فما كان جوابهم عما طلبوا إلا الرفض البات مع ذكر السبب، فقال: ﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي أنتم فيه من العذاب، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿بِأَنَّهُۥ﴾؛ أي: بسبب أن الشأن ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ﴾ في الدنيا؛ أي: عبد ﴿وَحْدَهُۥ﴾ أي: حال كونه منفرداً، فهو في موضع الحال من الجلالة.. ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده؛ أي: ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب كائن بسبب أنه إذا دعي الله في الدنيا وحده دون غيره.. كفرتم به وتركتم توحيده ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ غيره من الأصنام أو غيرها ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ بالإشراك به، وتجيبوا الداعي إليه، فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار، وهذه الجملة علة لمحذوف، تقديره: فأجيبوا بأنه لا سبيل إلى رجوعكم إلى الدنيا، ولا إلى خروجكم من النار؛ لأن طباعكم لا تقبل الحق بل تنفيه؛ لأنكم كنتم فيها إذا دعي الله وحده.. كفرتم وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصةً، وإن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله، فأنتم هكذا تكونون لو رددتم إلى الدنيا، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

ثم ذكر ما ترتب على أعمالهم التي عملوها وما ضرّوا بها إلا أنفسهم، فقال: ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ حينئذ ﴿لِلَّهِ﴾ وحده دون غيره الذي لا يحكم إلا الحق، وهو الذي حكم عليكم بالخلود في النار وعدم الخروج منها ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾؛ أي: المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته ولا في صفاته ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ الذي كبر عن أن يكون له مثل أو صاحبة أو ولد أو شريك، إذ ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وقد حكم بأنه لا مغفرة للمشرك ولا نهاية لعقوبته، فلا سبيل لكم إلى الخروج من النار أبداً، إذ أشركتم به سواه.

وكأن الحرورية أخذوا قولهم: لا حكم إلا لله من هذه الآية[1]، وقيل للخوارج: حرورية؛ لتجليتهم بحروراء واجتماعهم فيها، وهي كحلولاء، وقد تقصر، قرية بالكوفة، والخوارج: قوم من زهاد الكوفة خرجوا عن طاعة علي ـ رضي الله عنه ـ عند التحكيم بينه وبين معاوية، وذلك أنه لما طالت محاربة على ومعاوية. . اتفق الفريقان على التحكيم إلى أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ في أمر الخلافة، وعلي ـ رضي الله عنه ـ ارتضى بما يريانه، فقال القوم المذكور: إن الحكم إلا لله، فقال علي ـ رضي الله عنه ـ: كلمة حق أريد بها باطل، وكانوا اثني عشر ألف رجل أنكروا الخلافة، واجتمعوا ونصبوا راية الخلاف، وسفكوا الدماء وقطعوا السبيل، فخرج إليهم علي ـ رضي الله عنه ـ وأمرهم بالرجوع فأبوا إلا القتال فقاتلهم بالنهروان، هي كزعفران، بليدة قديمة بالقرب من بغداد، فقتلهم واستأصلهم ولم ينج منهم إلا قليل، وهم الذي قال ﷺ في حقهم: «يخرج قوم من أمتي في آخر الزمان، يحقر أحدكم صلاته في جنب صلاتهم، وصومه في جنب صومهم، ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم».

والحاصل: أن الخوارج من الفرق الضالة لفسادهم في الاعتقاد، وبإنكار الحق وفساد الاعتقاد، ساء حال أكثر العباد في أكثر البلاد، خصوصاً في هذه الأعصار، فعلى العاقل أن يجيب دعوة الله ودعوة رسوله قولاً وعملاً وحالاً واعتقاداً، حتى يفوز بالمرام، ويدخل دار السلام، ولا يكون كالذين أرادوا أن يتداركوا الحال بعد مضي الفرصة.

ثم ذكر سبحانه ما يدل على كبريائه وعظمته، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾؛ أي: دلائل قدرته وشواهد وحدته في الأنفس والآفاق، رعايةً لمصالح أديانكم، وفيه إشارة إلى أن ليس للإنسان أن يرى ببصيرته حقائق الأشياء، إلا بإراءة الحق تعالى إياه.

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾؛ أي: سبب رزق، وهو المطر مراعاةً لمصالح أبدانكم، فإن آيات الحق بالنسبة إلى حياة الأديان بمنزلة الأرزاق بالنسبة إلى حياة

(١) روح البيان.

الأبدان.

والمعنى: أي هو الذي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في العالم العلويّ والسفلي من الآيات العظام، الدالة على كمال خالقها وقدرة مبدعها وتفرّده بالألوهية، كما قال:

وفـــي كـــلِّ شـــيءٍ لـــهُ آيـــةٌ   تـــدلُّ عـــلـــى أنَّـــه واحـــدُ

ثم خصص من هذه الآيات ما هم في أشد الحاجة إليه، وهو المطر فقال: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ﴾؛ أي: وهو الذي ينزل لكم المطر الذي يخرج به من الزرع والثمار ما تشاهدونه مما هو مختلف الألوان والطعوم والروائح والأشكال، مما أبدعته يد القدرة ووشته بأبدع الحلي والمناظر.

وقرأ الجمهور: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالتشديد من نزل المضاعف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: بالتخفيف، من أنزل الرباعي.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتعظ ويعتبر بتلك الآيات الباهرة، فيستدل بها على التوحيد وصدق الوعد والوعيد ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ ويرجع إلى طاعة الله وتوحيده عن الإنكار به، ويتفكَّر فيما أودعه في تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة، ونعمته الشاملة، الظاهرة والباطنة، الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى، ومن ليس كذلك وهو المعاند، فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ.

والخلاصة: أن دلائل التوحيد مركوزة في العقول، لا يحجبها إلا الاشتغال بعبادة غير الله، فإذا أناب العبد إلى ربه.. زال الغِطاء وظفر بالفوز، وظهرت له سبيل النجاة.

ولما ذكر ما نصبه من الأدلة على التوحيد.. أمر عباده بدعائه وإخلاص الدين له، فقال: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ والفاء: فيه للإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن التذكر خاص بمن ينيب، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم فأقول لكم: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه أيها المؤمنون، واعبدوه وحده حال كونكم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: مخلصين له دينكم وطاعتكم وعبادتكم التي أمركم بها، من الشرك، والالتفات إلى ما سواه بموجب إنابتكم إليه، وإيمانكم به، وخالفوا

المشركين في مسلكهم ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إخلاصكم وغاظهم إنابتكم إلى ربكم، ولا تلتفتوا إلى كراهتهم لذلك، ودعوهم يموتوا بغيظهم ويهلكوا بحسرتهم.

وقد ثبت في «الصحيح» عن عبد الله بن الزبير ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون».

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء قلب غافل لاهٍ».

وبعد أن ذكر من صفات كبريائه إظهاره للآيات وإنزاله للأرزاق.. ذكر ثلاث صفات أخرى تدل على جلاله وعظمته، فقال:

١ـ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾؛ أي: هو سبحانه أرفع الموجودات وأعظمها شأناً؛ لأن كل شيء محتاج إليه، وهو مستغن عما عداه، وأنه أزلي أبدي، ليس لوجوده أول ولا آخر، وأنه العالم بكل شيء.

٢ـ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وارتفاع رفيع الدرجات على أنه خبر ثان عن المبتدأ المتقدم؛ أي: هو الذي يريكم آياته وهو رفيع الدرجات، وكذلك قوله:

٣ـ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خبر ثالث، ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف، والرفيع: صفة مشبهة، أضيفت إلى فاعلها بعد النقل إلى فعل بالضم، كما هو المشهور، وتفسيره بالرافع؛ ليكون من إضافة اسم الفاعل إلى المفعول، بعيد في الاستعمال كما في «الإرشاد».

والمعنى: رفيع الصفات والأفعال عن كل ما لا يليق به ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ العظيم أي: مالك العرش وخالقه ومدبره، فهو مستول على عالم الأجسام، وأعظمها العرش، كما هو مستول على عالم الأرواح، وهي مسخرة له، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ وذلك يقتضي علو شأنه وعظم سلطانه، ومن كان كذلك.. فهو الذي يحق له العبادة ويجب له الإخلاص، وجملة قوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ في محل رفع على أنها خبر رابع للمبتدأ المتقدم، أو هي خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو سبحانه وتعالى يلقي الوحي بقضائه وإرادته ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ الذين يصطفيهم لرسالته، وتبليغ أحكامه إلى من يريد من خلقه، وسمي الوحي روحاً؛ لأن القلوب تحيا به من موت الكفر، كما تحيا الأبدان بالروح.

والمعنى[1]: ينزل الوحي الجاري من القلوب منزلة الروح من الأجساد، فكما أن الروح سبب لحياة الأجسام، كذلك الوحي سبب لحياة القلوب، فإن حياة القلوب إنما هي بالمعارف الإلهية الحاصلة بالوحي، فاستعير الروح للوحي؛ لأنه يحيى به القلب بخروجه من الجهل والحيرة إلى المعرفة والطمأنينة، وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يُلْقِى﴾، و﴿مِنْ﴾ بمعنى الباء، أو لابتداء الغاية، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف على أنه حال من الروح؛ أي: حال كونه ناشئاً، ومبتدأ من أمره تعالى.

وقوله: ﴿لِيُنذِرَ﴾: غاية للإلقاء؛ أي: لينذر الله تعالى، أو الملقى عليه أو الروح، والإنذار: دعوة إبلاغ مع تخويف.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لِيُنذِرَ﴾ مبنياً للفاعل ونصب اليوم، والفاعل: هو الله سبحانه، أو الرسول، أو من يشاء، والمنذر به: محذوف تقديره: لينذر العذاب الواقع ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ وقرأ أبي وجماعة: كذلك، إلا أنهم رفعوا ﴿يَوْمَ﴾ على الفاعلية مجازاً، وقرأ اليماني فيما ذكر صاحب «اللوامح»: ﴿لِيُنذَر﴾ مبنياً للمفعول، ﴿يَوْمُ ٱلتَّلَاقِ﴾ بالرفع، وقرأ ابن عباس والحسن واليماني: فيما ذكر ابن خالويه ﴿لتنذر﴾ بالتاء، فقالوا: الفاعل: ضمير الروح؛ لأنها تؤنث أو فيه ضمير المخاطب وهو الرسول، وقرىء: ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ و﴿ٱلتَّنَادِ﴾ بياء وبغير ياء، و﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾: هو يوم القيامة، سمي بذلك؛ لأنه تتلاقى فيه الأرواح والأجساد، وأهل السموات وأهل الأرض، والعابدون والمعبودون، والعاملون والأعمال، والأولون والأخرون، والظالمون والمظلومون، وأهل النار مع الزبانية.

---

(١) **روح البيان.**

(٢) **البحر المحيط.**

والمعنى: لينذر الله سبحانه، أو الرسول الموحى إليه الناس العذاب يوم القيامة.

وقوله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾؛ أي: لينذر الرسول الناس عذاب يوم هم خارجون من قبورهم، أو ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء؛ لكون الأرض يومئذ مستويةً، ولا عليهم ثياب، إنما هم عراة مكشوفون كما في الحديث: «يحشرون حفاةً عراةً غرلاً»؛ أي: لينذر الناس عذاب يوم يلتقي فيه العابدون والمعبودون يوم هم ظاهرون، لا يكنهم شيء ولا يسترهم شيء ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أعيانهم وأعمالهم الجلية والخفية السابقة واللاحقة ﴿شَيْءٌۚ﴾ ما مع كثرتهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ وكانوا في الدنيا يتوهمون أنهم إذا استتروا بالحيطان والحجب.. فإن الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم، فهم يومئذ لا يتوّهمون ذلك أصلاً، وهذه الجملة مستأنفة، مبنية لبروزهم، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير ﴿بَٰرِزُونَۖ﴾ ويجوز أن تكون خبراً ثانياً للمبتدأ؛ أي: لا يخفى عليه سبحانه شيء منهم، ولا من أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فيعلم ما فعله كل منهم، فيجازيه بحسب ما قدمت يداه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم ذكر ما يقال عند بروز الخلق للحساب والجزاء فقال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ﴾ يعني: يوم القيامة، جملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا يقال عند بروز الخلائق في ذلك اليوم؟ فقيل: يقال: لمن الملك اليوم؛ يعني يوم القيامة، فلا يجيبه أحد، فيجيب تعالى نفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ وقيل: ينادي مناد: لمن الملك اليوم؟ فيجيب ذلك المنادي بعينه ويقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أو يجيبه أهل المحشر مؤمنهم وكافرهم؛ لحصول العلم الضروري بالوحدانية للكافر أيضاً، لكن الكافر يقوله صغاراً وهواناً وعلى سبيل التحسر والندامة، والمؤمن ابتهاجاً وتلذذاً.

وهذا يسمى سؤال التقرير، فإن قلت: كيف خص ذلك بيوم مخصوص، والملك لله في جميع الأيام والأوقات.

قلت: هو وإن كان لله في جميع الأيام، إلا أنه سبحانه ملك عباده في الدنيا،

ثم تكون دعاويهم منقطعة يوم القيامة، لا يدعي مدع مُلكاً ومِلكاً يومئذ، ولذا قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾.

والمعنى على الأول: أي يقول الرب تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا يجيبه أحد، فيجيب سبحانه، فيقول: ﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: هو ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، الذي لا مثل له ولا ند ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ لكل شيء سواه بقدرته، الغالب بعزته.

وبعد أن ذكر صفات قهره في ذلك اليوم.. أردفها ببيان صفات عدله وفضله، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ من تمام الجواب على القول: بأن المجيب هو الله سبحانه، وأما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم أو بعضهم، فهو مستأنف لبيان ما يقوله الله سبحانه بعد جوابهم؛ أي: يقول الله سبحانه في هذا اليوم الرهيب: تجزى كل نفس من النفوس المكلفة، برةً أو فاجرةً بما كسبت من خير أو شر، لا ظلم اليوم على أحد منهم بنقص ثواب، أو زيادة عذاب.

والمعنى: أي اليوم يثاب كل عامل بعمله فيلاقي أجره، ففاعل الخير يجزى الخير، وفاعل الشر يجزى بما يستحق، ولا يبخس أحد ما استوجبه من أجر عمله في الدنيا، فينقص منه إن كان محسناً، ولا يحمل على مسيء إثم ذنب لم يعمله.

روى مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، فيما يحكيه عن ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظّالموا» إلى أن قال: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً.. فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك.. فلا يلومن إلا نفسه».

ثم بين سبحانه أنه يصل إلى الخلق في ذلك اليوم ما يستحقون بلا إبطاءٍ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى سريع حسابه لعباده على أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، لإحاطة علمه بكل شيء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، ويصل إليهم ما يستحقونه سريعاً، فالجملة: تعليل لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ﴾ إلخ. فإن كون ذلك اليوم بعينه يوم التلاق ويوم البروز، ربما يوهم استبعاد وقوع الكل فيه.

أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: يجمع الله الخلق كلهم يوم القيامة بصعيد واحد، بأرض بيضاء، كأنها سبيكة فضة، لم يعصَ الله فيها قط، فأول ما يتكلم أن ينادي مناد: ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْحِسَابِ﴾، ونحو الآية قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾. وقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾؛ أي: وخوف يا محمد مشركي قومك ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾؛ أي: عذاب يوم القيامة، ليقلعوا عن قبيح أعمالهم وذميم معتقداتهم التي يستحقون عليها شديد العذاب و﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾: منصوب على أنه مفعول به لـ﴿أنذرهم﴾؛ لأنه المنذر به، و﴿ٱلْـَٔازِفَةِ﴾: فاعلة من أزف الأمر على وزن علم، إذا قرب، والمراد: القيامة، ولذا أنث، ونظيره: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: قربت القيامة، وسميت بالآزفة؛ لأزوفها، وهو القرب؛ لأن كل آت قريب، وإن استبعد اليائس أمده.

وفي الحديث: «بعثت أنا والساعة كهاتين، إن كادت لتسبقني» والإشارة بهاتين: إلى السباسة والوسطى؛ يعني أن ما بيني وبين الساعة بالنسبة إلى ما مضى من الزمان، مقدار فضل الوسطى على السبابة، شبه القرب الزماني بالقرب المساحي؛ لتصوير غاية قرب الساعة.

وجملة قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ فإن القلوب ترتفع عن أماكنها من شدة الفزع، فتكون عند الحناجر، جمع حنجرة، وهي: الحلقوم؛ أي: وأنذرهم يوم الآزفة، إذ تزول القلوب عن أماكنها، وترتفع من شدة الفزع إلى الحلقوم، فتلتصق بها، فلا تعود إلى أماكنها، فيستروحوا ويتنفّسوا ولا تخرج فيستريحوا بالموت، وقيل: ينتفخ السحر؛ أي: الرئة؛ خوفاً، فيرتفع القلب إلى الحنجرة حال كون أصحاب تلك القلوب ﴿كَٰظِمِينَ﴾؛ أي: مغمومين يتردد الغيظ في أجوافهم، فلا يمكنهم أن ينطقوا ويظهروا خوفهم، فهو حال من أصحاب القلوب على المعنى، إذ الأصل إذ قلوبهم لدى حناجرهم، بناء على أن التعريف اللامي بدل من التعريف الإضافي، يقال: كظم غيظه: إذا ردّ غضبه وحبسه في نفسه بالصبر وعدم إظهار الأثر.

والمعنى: حال كونهم كاظمين صابرين على الغم والكربة، ساكتين حال

امتلائهم بهما؛ يعني لا يمكنهم أن ينطقوا ويصرّحوا بما عندهم من الحزن والخوف من شدة الكربة وغلبة الغمّ عليهم، فقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾: تقرير للخوف الشديد، وقوله: ﴿كَٰظِمِينَ﴾: تقرير للعجز عن الكلام، فإن الملهوف إذا قدر على الكلام، وبث الشكوى.. حصل له نوع خفة وسكون، وإذا لم يقدر عظم اضطرابه واشتدّ حاله.

والخلاصة: أن ذلك اليوم يعظم فيه الخوف، حتى يخيل أن القلوب قد شخصت من الصدور، وتعلقت بالحلوق، فيرومون ردّها إلى مواضعها من صدورهم، فلا هي ترجع، ولا هي تخرج من أبدانهم، فيموتوا.

ثم بين أنه لا ينفع الكافرين في ذلك اليوم أحد، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: ما للكافرين في ذلك اليوم ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: قريب مشفق ﴿وَلَا﴾ من ﴿شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾؛ أي[1]: ولا من شفيع مشفع على معنى نفي الشفاعة والطاعة معاً، وعلى أن يطاع مجاز عن يجاب وتقبل شفاعته؛ لأن المطيع في الحقيقة يكون أسفل حالاً من المطاع، وليس في الوجود من هو أعلى حالاً من الله تعالى، حتى يكون مطاعاً له تعالى، وفي الآية بيان أن لا شفاعة في حق الكفار؛ لأنها وردت في ذمهم، وإنما قال: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ موضع للكافرين، وإن كان أعم منهم ومن غيرهم من العصاة بحسب الظاهر، تسجيلاً لهم بالظلم، ودلالة على اختصاص انتفاء كل واحد من الحميم والشفيع المشفع بهم، فثبت أن لعصاة المسلمين حميماً وشفيعاً، وهو النبيُّ ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين والأولياء المقربين والملائكة أجمعين.

والمعنى[2]: أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله قريب ينفعهم، ولا شفيع تقبل شفاعته لهم، بل تقطّعت بهم الأسباب من كل خير.

ثم وصف سبحانه شمول علمه بكل شيء وإن كان في غاية الخفاء، فقال: ﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾؛ أي: النظرة الخائنة للأعين، وإسناد الخيانة إلى النظرة مجاز؛ لأن الخائن هو الناظر، أو المعنى: يعلم سبحانه خائنة الأعين؛ أي: خيانة الأعين واستراقها النظر على أنها مصدر كالعافية، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: خيانة منهم، والخيانة: مخالفة الحق، بنقض العهد في السر، ونقيضها الأمانة، والمراد هنا: استراق النظر إلى غير المَحْرم، كفعل أهل الريب والنظرة الثانية إليه.

وفي الخبر: «يا ابن آدم، لك النظرة الأولى معفوة» لوقوعها مفاجأةً دون الثانية، لكونها مقارنة للقصد وهي منْ قبيل زنى النظر، وذلك لأن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، والنظرة تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنةً.

والمعنى: أي يعلم ربكم ما خانت أعين عباده، وما نظرت به إلى ما لا يحل، كما يفعل أهل الريب.

قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: في الآية هي الرجل يكون في القوم، فتمر بهم المرأة، فيريهم أنه يغض بصره عنها، وإذا غضوا.. نظر إليها، وإذا نظروا.. غض بصره عنها، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها. أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر.

وقال الشوكاني: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾[1]: هي مسارقة النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، وهذه الجملة خبر آخر لقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾؛ قال المؤرخ: فيه تقديم وتأخير؛ أي: يعلم الأعين الخائنة، وقال قتادة: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾: الغمز بالعين فيما لا يحب الله، وقال الضحاك: هو قول الإنسان: ما رأيت وقد رأى، ورأيت وما رأى، وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة، والأول: أولى، وبه قال مجاهد. اهـ.

﴿و﴾ يعلم سبحانه ﴿ما تخفي الصدور﴾ والقلوب من الضمائر وتسره من معاصي الله؛ أي: لا يخفى عليه شيء من أمورهم، حتى ما يحدّثون به أنفسهم، وتضمره قلوبهم خيراً كان أو شراً، فقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ في قوة التعليل للأمر بالإنذار.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿يَقْضِى﴾؛ أي: يحكم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالصدق والعدل في حق كل محسن ومسيء، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير أو شر، ففيه تشديد لخوف المكلف.

والمعنى[2]: أي والله يحكم بالعدل في الذي خانته الأعين بنظرها، وأخفته

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الصدور من النوايا، فيجزي الذين أغمضوا أبصارهم وصرفوها عن محارمه حذار الموقف بين يديه بالحسنى، ويجزي الذين رددوا النظر وعزمت قلوبهم على مواقعة الفواحش جزاءهم الذي أوعدهم به في دار الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾؛ أي: يعبدونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى، وهم الأصنام والأوثان ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾؛ لأنهم لا يعلمون شيئاً، ولا يقدرون على شيء. وفي «الإرشاد»: هذا تهكم بهم؛ لأن الجماد لا يقال في حقه: يقضي ولا يقضي.

والمعنى: أي والأوثان والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون من قومك، لا يقضون بشيء؛ لأنهم لا يعلمون شيئاً ولا يقدرون على شيء، فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَدْعُونَ﴾ بياء الغيبة؛ لتناسب ضمائر الغيبة قيل: يعني: يدعو الظالمون، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم، وقرأ نافع وشيبة وهشام: بالفوقية على الخطاب لهم؛ أي: قل لهم يا محمد والذين تدعون من دونه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وأفعالهم، فلا يخفى عليه من المسموعات والمبصرات خافية؛ أي: إنه تعالى هو السميع لما تنطق به الألسنة، البصير بما تفعلون من الأفعال، وهو محيط بكل شيء ومحصيه عليكم، فيجازيكم عليه جميعاً يوم الجزاء، ولا يخفى ما في هذا من الوعيد لهم على ما يقولون ويفعلون، والتعريض بحال ما يدعون من دون الله تعالى، وهذا تقرير[2] لعلمه تعالى بخائنة الأعين، وقضائه بالحق، فإن من يسمع ما يقولون ويبصر ما يفعلون، إذا قضى.. قضى بالحق، ووعيد لهم على ما يفعلون ويقولون، وتعريض بحال ما يدعون من دونه، فإنهم عارون عن التلبس بهاتين الصفتين، فكيف يكونون معبودين؟

ثم إنه لما بالغ في تخويف الكفار بأحوال الآخرة.. أردفه بالتخويف بأحوال الدنيا، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ و﴿الهمزة﴾: فيه: للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفلوا عن شدة

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

بأس الله، ولم يسيروا في نواحي الأرض وأرجائها ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ يجوز أن يكون مجزوماً بالعطف على ﴿يَسِيرُواْ﴾ وأن يكون منصوباً على أنه جواب الاستفهام ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ أي: كيف كان حال من قبلهم، ومآلهم من الأمم المكذبة لرسلهم، كعاد وثمود وأضرابهم، وكانت ديارهم ممر تجار قريش ﴿كَانُوٓاْ﴾؛ أي: كان الذين من قبلهم ﴿هُمۡ أَشَدَّ﴾ وأكثر ﴿مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: من مشركي مكة ﴿قُوَّةٗ﴾؛ أي: قدرةً وتمكناً من التصرفات.

وإنما[1] جيء بضمير الفصل مع أن حقه التوسط بين معرفتين كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ لمضاهاة أفعل من للمعرفة في امتناع دخول اللام عليه.

وقرأ الجمهور: ﴿أَشَدَّ مِنۡهُمۡ﴾ بالغيبة، وقرأ ابن عامر ﴿أشد منكم﴾ على الالتفات.

﴿و﴾ أكثر ﴿آثارا في الأرض﴾ مثل: القلاع الحصينة والمدن المتينة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه؛ أي: عاقبهم وأهلكهم ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾؛ أي: بسبب كفرهم وتكذيبهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾؛ أي: للأمم المكذبة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من عذاب الله تعالى ﴿مِن وَاقٖ﴾ يقيهم وحافظ يحفظهم ودافع يدفع عنهم العذاب. وقرأ ابن كثير: ﴿واقي﴾ بالياء في الوقف. ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من الأخذ ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات أو بالأحكام الظاهرة والحجج الواضحة ﴿فَكَفَرُواْ﴾ بما جاؤوهم به وكذّبوا رسلهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ تعالى أخذاً عاجلاً ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿قَوِيّٞ﴾؛ أي: متمكن مما يريد غاية التمكن ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لأهل الشرك، لا يعتبر عقاب دون عقابه، فهؤلاء المشركون من أهل مكة قد شاهدوا مصارعهم وآثار هلاكهم، فبأي وجه أمنوا أن يصيبهم مثل ما أصابهم من العذاب، أو المعنى: أنه قوي على الانتقام من الأعداء للأولياء، شديد العقاب في الانتقام من الأعداء. وفي «فتح الرحمن»: قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم...﴾ الآية. فإن قلت: لم قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾ بضمير الجمع، وفي التغابن: بإفراده، حيث قال هناك: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا...﴾ الآية؟

---

(1) روح البيان.

قلت: جمع الضمير هنا؛ موافقة لما قبله في قوله: ﴿كَانُوٓاْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ وأفرده ثم؛ لأنه ضمير الشأن، زيد توصلاً إلى دخول ﴿أن﴾ على ﴿كان﴾.

والحاصل: أن الله سبحانه[1] حذّر هؤلاء المشركين مما حل بمن قبلهم من الأمم التي كانت أقوى منهم وأعظم آثاراً، كعاد وثمود، والسعيد من وعظ بغيره، فقال واعظاً ومذكّراً: ألم يسر هؤلاء المشركون بالله في البلاد، فيروا عاقبة الذي كانوا من قبلهم من الأمم ممن سلكوا سبيلهم في الكفر وتكذيب الرسل، وقد كانوا أشدّ منهم بطشاً، وأبقى في الأرض أثراً، فلم تنفعهم شدة قواهم وعظيم آثارهم إذ جاء أمر الله، فأخذوا بما أجرموا من المعاصي، واكتسبوا من الآثام، فأبيدوا جميعاً، وصارت مساكنهم خاويةً بما ظلموا، وما كان لهم من عذاب الله من حافظ يدفعه عنهم.

فائدة: وفي «شرح الأسماء» للزورقي: القوي هو الذي لا يلحقه ضعف في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا يمسّه نصب ولا تعب، ولا يدركه قصور ولا عجز في نقض ولا إبرام، ومن عرف أن الله تعالى هو القوي.. رجع إليه عن حوله وقوّته، وخاصيته: ظهور القوة في الوجود، فما تلاه ذو همة ضعيفة إلا وجد القوة، ولا ذو جسم ضعيف إلا كان له ذلك، ولو ذكره مظلوم بقصد إهلاك الظالم ألف مرة.. كان له ذلك، وكفي أمره.

الإعراب

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾ تقدم القول في إعراب فواتح السور، وأيسر ما فيها: أنها خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه السورة حم؛ أي: مسماة بـ﴿حمٓ ۝١﴾، والخبر؛ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة، منع من ظهورها اشتغال المحل بسكون الوقف على قراءة السكون، أو ضمة ظاهرة في آخره على قراءة الزهري، والجملة: مستأنفة

---

(١) المراغي.

استئنافاً نحوياً. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، خبره، والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: صفة أولى للجلالة. ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾: صفة ثانية لها. ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾: صفة ثالثة. ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾: معطوف على ﴿غَافِرِ﴾. فإن قلت: لم زيدت الواو في هذه الصفة دون باقيها؟ قلت: زيدت هنا لإفادة الجمع بين رحمتي: مغفرة الذنب وقبول التوب. ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: صفة رابعة. ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾: صفة خامسة. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿إِلَٰهَ﴾: اسمها، وخبرها: محذوف، تقديره: موجود. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَ﴾: بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾، والجملة الاسمية: مستأنفة، أو حال لازمة من لفظ الجلالة. ﴿إِلَيْهِ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: في محل النصب حال من ضمير ﴿هُوَ﴾، أو مستأنفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يُجَٰدِلُ﴾ فعل مضارع. ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة: مستأنفة، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن المجادلين في آيات الله كفار.. فلا يغررك إمهالهم وتقلبهم في أسفارهم للتجارة المربحة، فإنهم مأخوذون بكفرهم. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَغْرُرْكَ﴾: فعل مضارع ومفعول به، مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿تَقَلُّبُهُمْ﴾: فاعل. ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾: متعلق بـ﴿تَقَلُّبُهُمْ﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ﴾: فعل ماض. ﴿قَبْلَهُمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾. ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾: فاعل. ﴿وَٱلْأَحْزَابُ﴾: معطوف على ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: حال من ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾، والجملة الفعلية: مستأنفة. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَذَّبَتْ﴾. ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿همت﴾. ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يأخذوه﴾: فعل وفاعل ومفعول به منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور: متعلق بـ﴿همت﴾؛ أي: وهمت كل أمة برسولها إيقاعه

في الشر لأخذهم إياه وقتله. ﴿وَجَٰدَلُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿همت﴾ ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: متعلق بـ﴿جادلوا﴾. ﴿لِيُدْحِضُوا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يدحضوا﴾: فعل مضارع وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿يدحضوا﴾. ﴿ٱلْحَقَّ﴾: مفعول به، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿جادلوا﴾؛ أي: جادلوا بالباطل لدحضهم الحق بالباطل. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أخذتهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿جادلوا﴾، ﴿فَكَيْفَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كيف﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر كان مقدم عليها وجوباً. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عِقَابِ﴾: اسم كان مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة؛ اجتزاء عنها بالكسرة، وهو مضاف وياء المتكلم المحذوفة في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾: معطوفة على جملة ﴿أخذتهم﴾. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: حقاً مثل ما حق قضاءه، وحكمه بالتعذيب على الأمم المكذبة المذكورة ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿حَقَّتْ﴾، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلة الموصول. ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مرفوع على كونه بدلاً من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: بدل كل من كل؛ أي: حق على الذين كفروا كونهم من أصحاب النار.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ صلة الموصول. ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾: معطوف على الموصول، ﴿حَوْلَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، وجملة ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿يُسَبِّحُونَ﴾؛ أي: ملابسين بحمده تعالى. ﴿وَيُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يؤمنون﴾، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف

منصوب حذف منه حرف النداء للتخفيف، وجملة النداء: في محل النصب مقول لقول محذوف، وقع حالاً من فاعل ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ أي: حال كونهم قائلين ﴿رَبَّنَا﴾، ﴿وَسِعْتَ﴾: فعل وفاعل، ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: مفعول به. ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾: تمييزان محولان من فاعل ﴿وَسِعْتَ﴾؛ أي: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف. ﴿فَاغْفِرْ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كانت رحمتك واسعةً، وعلمك واسعاً.. فنقول لك: ﴿اغفر﴾، (اغفر): فعل دعاء وفاعل مستتر، ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق به، والجملة الدعائية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: في محل النصب مقول للقول المحذوف، وجملة ﴿تَابُوا﴾: صلة الموصول. ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿تَابُوا﴾، ﴿وَقِهِمْ﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر ومفعول به أول معطوف على ﴿فَاغْفِرْ﴾. ﴿عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾: مفعول ثان.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨)﴾.

﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، كرره للمبالغة في الجؤار. ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول أول. ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾: مفعول ثان، والجملة: معطوفة على جملة ﴿قِهِمْ﴾ ﴿الَّتِي﴾: صفة لـ﴿جَنَّاتِ﴾. ﴿وَعَدْتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة ﴿الَّتِي﴾، والعائد: محذوف، تقديره: إياها. ﴿وَمَنْ﴾، في قوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ضمير ﴿أدخِلْهُم﴾ أو على ضمير ﴿وَعَدْتَهُمْ﴾ والأول: أرجح، كما قاله الفراء. ﴿صَلَحَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾، صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿مِنْ آبَائِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿صَلَحَ﴾. ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾: معطوفان على ﴿آبَائِهِمْ﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَنْتَ﴾: ضمير فصل. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول للقول المحذوف.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر ومفعولان معطوف على ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿تَقِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿مَنِ﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: مفعول به. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿تَقِ﴾. ﴿يَوْمَ﴾: مضاف. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل الجر مضاف إليه، مبني بسكون مقدر، منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿رَحِمْتَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿مَنِ﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية: مقول للقول المحذوف. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: خبر. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على ما قبلها، على كونها مقولاً للقول المحذوف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿يُنَادَوْنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، أو لام قسم. ﴿مقت الله﴾: مبتدأ، ومضاف إليه، وهو من إضافة المصدر لفاعله، والمعفول به محذوف؛ أي: إياكم. ﴿أَكْبَرُ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِن مَّقْتِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَكْبَرُ﴾ ﴿أَنفُسَكُمْ﴾: مفعول ﴿مَّقْتِكُمْ﴾: وهو من إضافة المصدر إلى فاعله، والجملة الاسمية: في محل النصب مفعول ثان لـ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أو جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: في محل النصب مفعول ثان لـ﴿يُنَادَوْنَ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ﴿مقت الله﴾. ﴿تُدْعَوْنَ﴾: فعل مضارع ونائب فاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾: متعلق بـ﴿تُدْعَوْنَ﴾. ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿تكفرون﴾: فعل وفاعل

معطوف على ﴿تُدْعَوْنَ﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَمَتَّنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول قالوا على كونها جواب النداء. ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه مما ناب فيه العدد عن المصدر؛ أي: إماتتين اثنتين. ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة أيضاً؛ أي: إحياءتين اثنتين. ﴿فَٱعْتَرَفْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿اعترفنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أحييتنا﴾، ﴿بِذُنُوبِنَا﴾: متعلق به. ﴿فَهَلْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿هل﴾: حرف استفهام. ﴿إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾: خبر مقدم. ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾: ﴿من﴾ حرف جر زائد. ﴿سَبِيلٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿اعترفنا﴾ على كونها مقول ﴿قَالُواْ﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُم﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة: مستأنفة. ﴿أنه﴾: ناصب واسمه، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿دُعِىَ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض ونائب فاعل، ﴿وَحْدَهُۥ﴾: حال من الجلالة، والجملة الفعلة: في محل الجر مضاف إليه، على كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿كَفَرْتُمْ﴾: جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾: من فعل شرطها وجوابها: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾: وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، والتقدير: ذلكم كائن بسبب كفرانكم توحيد الله تعالى وقت دعائه. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿يُشْرَكْ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط له. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُشْرَكْ﴾، ﴿تُؤْمِنُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾، ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة؛ لأن هذا الكلام من جملة ما يقال لهم. ﴿الحكم﴾: مبتدأ. ﴿لِلَّهِ﴾: خبره، ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾: صفتان للجلالة، والجملة معطوفة على جملة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ...﴾ إلخ؛ لأنها من جملة ما يقال لهم في الآخرة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ

﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر. ﴿يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾: فعل وفاعل ومفعولان؛ لأنه من رأي البصرية، تعدى بالهمزة إلى مفعولين، والجملة: صلة الموصول، والجملة الاسمية: مستأنفة مسوقة لتعليل كون الحكم لله تعالى. ﴿وَيُنَزِّلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على الموصول، والجملة: معطوفة على جملة ﴿يُرِيكُمۡ﴾. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿ينزل﴾ وكذلك ﴿لَكُم﴾. ﴿رِزۡقٗاۚ﴾: مفعول به. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: فعل مضارع. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاسمية أو حال من ضمير المخاطبين، وجملة ﴿يُنِيبُ﴾: صلة الموصول، ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن التذكر خاص بمن ينيب، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم ﴿ادعوا الله﴾. ﴿ادعو الله﴾: فعل وفاعل ولفظ الجلالة مفعول به. ﴿مُخۡلِصِينَ﴾: حال من فاعل ﴿ادعوا﴾. ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخۡلِصِينَ﴾. ﴿ٱلدِّينَ﴾: مفعول ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿وَلَوۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾: فعل وفاعل ومفعوله محذوف، تقديره: إخلاصكم أو دعوتكم، والجملة: فعل شرط لـ﴿لو﴾ وجوابها محذوف دل عليه السياق، تقديره: ولو كره الكافرون فادعوه: وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: معطوفة على جملة شرط محذوف، تقديرها: إن رضي الكافرون دعوتكم.. فادعوه وإن كره الكافرون.. فادعوه والجملة المحذوفة: في محل النصب حال من فاعل: فادعوا؛ أي: ﴿فَادۡعُوهُ﴾ حال كونكم سواء عليكم رضاؤهم وكراهتهم. ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو سبحانه رفيع الدرجات، والجملة: مستأنفة. ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾ خبر ثالث ﴿يُلۡقِي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿ٱلرُّوحَ﴾: مفعول به، والمراد بـ﴿ٱلرُّوحَ﴾ هنا: الوحي ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾: حال من ﴿ٱلرُّوحَ﴾؛ أي: حال كونه ناشئاً ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾. ﴿عَلَىٰ مَن﴾: متعلق بـ﴿يُلۡقِي﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: على من يشاؤه

﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: حال من العائد المحذوف. ﴿لِيُنذِرَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿ينذر﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، أو على الرسول، ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾: مفعول به على التوسع ومضاف إليه، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾ تقديره: لإنذاره الناس عذاب ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾. والجار والمجرور: متعلق بـ﴿يُلْقِى﴾.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾: بدل كل من كل منصوب على المفعولية. ﴿هُم بَٰرِزُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية: في محل الجر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَخْفَىٰ﴾: فعل مضارع. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿مِنْهُمْ﴾: حال من ﴿شَىْءٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿شَىْءٌ﴾: فاعل ﴿يَخْفَىٰ﴾. والجملة الفعلية: في محل النصب حال من ضمير ﴿بَٰرِزُونَ﴾. ﴿لِّمَنِ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر. ﴿من﴾: اسم استفهام في محل الجر بـ﴿اللام﴾ الجار والمجرور: خبر مقدم. ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ والجملة من المبتدأ والخبر: في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: يقول الرب سبحانه لهم ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ وجملة القول المحذوف: مستأنفة، أو حال من الجلالة؛ أي: لا يخفي على الله منهم شيء حال كون الله قائلاً لهم: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ ﴿لِلَّهِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الملك كائن لله سبحانه. ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾: صفتان للجلالة، والجملة الاسمية: مقول لقول محذوف، تقديره: ويقول الرب أيضاً في الجواب: الملك ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ وجملة القول المحذوف: معطوفة على القول المحذوف قبله، وقال الزمخشري: ينادي منادٍ فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيجيبه أهل المحشر: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿تُجْزَىٰ﴾، ﴿تُجْزَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية من تتمة المقول للقول المحذوف سابقاً. ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: موصولة أو مصدرية، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُجْزَىٰ﴾. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: بما كسبته أو لـ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: بكسبها، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: جزاء ما

كسبته. ﴿لَا﴾: نافية للجنس. ﴿ظُلْمَ﴾: اسمها. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف خبر ﴿لَا﴾، تقديره: لا ظلم كائن اليوم، وجملة ﴿لَا﴾: من اسمها وخبرها من تتمة القول المحذوف. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل عدم الظلم؛ أي: إنه تعالى لا يشغله حساب عن حساب، فهو سريع في حسابه، عادل في حكمه.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿أنذرهم﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول أول. ﴿يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية: مستأنفة. ﴿إِذِ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾: بدل كل من كل. ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾: مبتدأ ﴿لَدَى﴾: منصوب على الظرفية بفتحة مقدرة. ﴿ٱلْحَنَاجِرِ﴾: مضاف إليه، والظرف: متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: إذ القلوب مرتفعة لدى الحناجر، والجملة الاسمية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذِ﴾، ﴿كَٰظِمِينَ﴾: حال من الضمير المستكن في الخبر، وعوملت ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ في جمعها بالياء والنون معاملة أصحابها؛ أي: حال كون أصحابها ﴿كَٰظِمِينَ﴾. ﴿مَا﴾: نافية، تميمية أو حجازية. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: خبر مقدم أو خبر لـ﴿مَا﴾ الحجازية مقدم على اسمها. ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿حَمِيمٍ﴾: مبتدأ مؤخر أو اسمها مؤخر. ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾: معطوف على ﴿حَمِيمٍ﴾ وجملة ﴿يُطَاعُ﴾: صفة لـ﴿شَفِيعٍ﴾ والجملة الاسمية: في محل النصب حال من أصحاب ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ أيضاً، وقوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ أي: حالة كونهم عادمي ﴿حَمِيمٍ﴾ ينفعهم وعادمي ﴿شَفِيعٍ﴾ يقبل في حقهم.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾: مفعول به، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: الأعين الخائنة، والجملة الفعلية: خبر رابع للمبتدأ المحذوف الذي أخبر عنه بـ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ وما بعده، أو هو خبر من أخبار ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾ أو حال لازمة من ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. ﴿وَمَا﴾: اسم

موصول في محل النصب معطوف على ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾. ﴿تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: تخفيه الصدور ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية. ﴿اللهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَقۡضِي﴾: خبره. ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾: متعلق بـ﴿يَقۡضِي﴾ أو حال من فاعل ﴿يَقۡضِي﴾. والجملة الاسمية مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿يَعۡلَمُ﴾ عطف اسمية على فعلية. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَدۡعُونَ﴾: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: يدعونهم. ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَدۡعُونَ﴾، وجملة ﴿لَا يَقۡضُونَ﴾: خبر المبتدأ. ﴿بِشَيۡءٍۗ﴾: متعلق بـ﴿يَقۡضُونَ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾: خبران لـ﴿إِنَّ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١﴾.

﴿أَوَلَمۡ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفلوا عن انتقام الله سبحانه من الأمم المكذبة للرسل، ولم يسيروا في الأرض، والجملة المحذوفة، جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿لَمۡ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَسِيرُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمۡ﴾، و﴿الواو﴾: فاعل ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق به. ﴿فَيَنظُرُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿ينظروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَسِيرُواْ﴾. ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل النصب ساد مسد مفعول ﴿ينظروا﴾: معلق عنها باسم الاستفهام. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كَانُواْ﴾: وجملة ﴿كَانَ﴾: صلة الموصول. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿هُمۡ﴾ ضمير فصل ﴿أَشَدَّ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿مِنۡهُمۡ﴾ متعلق بـ﴿أَشَدَّ﴾، ﴿قُوَّةٗ﴾: تمييز محول عن اسم ﴿كَانَ﴾، ﴿وَءَاثَارٗا﴾: معطوف على ﴿قُوَّةٗ﴾. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: صفة لـ﴿آثارا﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة، وجاز دخول ضمير الفصل بين معرفة ونكرة، وهو لا يقع إلا بين معرفتين؛ لأن النكرة هنا وهي ﴿أَشَدَّ﴾ بمثابة المعرفة من حيث امتناع دخول أل عليها؛ لأن اسم التفضيل

المقرون بـ﴿مِنَ﴾ لا تدخل عليه أل. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أخذهم الله﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿كَانُوٓاْ﴾. ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿أخذهم﴾ ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَهُم﴾: خبر كان مقدم. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿وَاقٖ﴾. ﴿مِن﴾: زائدة ﴿وَاقٖ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿كَانَ﴾: معطوفة على جملة ﴿أخذ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿أنهم﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَت﴾: فعل ناقص واسمها ضمير يعود على الرسل. ﴿تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم﴾: فعل ومفعول به وفاعل. ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿تَّأۡتِيهِمۡ﴾ والجملة الفعلية: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر مجرور بالياء، والتقدير: ذلك الأخذ والعذاب كائن بسبب إتيان رسلهم بالبينات وكفرهم بها. ﴿فَكَفَرُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كفروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَانَت﴾. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾: معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿إِنَّهُۥ قَوِيّٞ﴾: ناصب واسمه وخبره الأول، ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ والغافر: الساتر، والذنب: الإثم، يستعمل في كل فعل يضرّ في عقباه، اعتباراً بذنب الشيء؛ أي: آخره.

﴿قابل التوب﴾ والقابل: هو الذي يستقبل الدلو من البئر فيأخذها، والقابلة: التي تقبل الولد عند الولادة، وقبلتُ عذره وتوبته وغير ذلك، والتوب: مصدر، كالتوبة وهو ترك الذنب على أحد الوجوه كما مر. وفي «المختار»: التوبة: الرجوع عن الذنب، وبابه: قال، يقال: تاب يتوب توباً وتوبة أيضاً، وقال الأخفش: والتوب: جمع توبة، كدوم ودومة، اهـ.

﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ والطول: الفضل والزيادة والإنعام الواسع، وفي «الصحاح»: والطول بالفتح: المن، يقال منه: طال يطول ـ من باب قال ـ إذا امتن عليه. وقال

الماوردي: الفرق بين المن والفضل: أن المن عفو عن ذنب، والتفضل إحسان غير مستحق، والطَّول: مأخوذ من الطَّول، كأنه طال بإنعامه على غيره، وقيل: لأنه طالت مدة إنعامه. اهـ.

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المرجع، وأصله: المصير، بوزن المفعل بكسر العين؛ لأنه من يفعِل المكسور العين، نقلت حركة الياء إلى الصاد فسكنت إثر كسرة فصارت حرف مد.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله: من جدلت الحبل، أحكمت فتله، فإن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه.

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ والغرة: غفلة في اليقظة، قال في «المفردات»: التقلب: التصرف، وقال الراغب: البلد: المكان المحدود، المتأثر باجتماع قطانه وإقامتهم فيه، وجمعه: بلاد وبلدان.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ قصدت، والهم: عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل من خير أو شر.

﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ من الأخذ بمعنى الأسر، والأخيذ: الأسير؛ أي: ليأسروه ويحبسوه. كما مر.

﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: ليزيلوا الحق. ﴿حَقَّتْ﴾؛ أي: وجبت. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: حكمه بالإهلاك. ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أمر من وقى يقي وقايةً، وهي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، وفيه إعلالان، حذف فاء الكلمة وهي الواو، إذ قياس مضارعه: يوقي، حذفت الواو التي هي فاء الكلمة؛ لوقوعها بين عدوّتَيها الياء والكسرة، وحذف لام الكلمة؛ لبناء الأمر على ما يجزم به مضارعه، فلم يبق إلا عين الكلمة. ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أصله: توقي، حذفت فاء الكلمة التي هي الواو للعلة السابقة، ثم حذفت لام الكلمة وهي الياء للجازم، فلم يبق من الكلمة إلا عينها فصار الفعل على وزن «تع».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ﴾ من المناداة، وهي وكذا النداء: الدعوة ورفع الصوت، أصله: ينادیون، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقىٰ ساكنان،

فحذفت الألف دالة عليها.

﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ والمقت: البغض الشديد لمن يراه متعاطياً لقبيح، والبغض: نفار النفس من الشيء ترغب عنه، وهو ضد الحب، وهو انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه، ومقت الله: غضبه وسخطه، وهو مصدر مضاف إلى فاعله، وحذف مفعوله؛ أي: مقت الله أنفسكم الأمارة بالسوء. ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أصله: تدعوون، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين.

﴿أَمَتَّنَا﴾ من أمات الرباعي، أصله: أموت، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار أمات، ثم أسند الفعل إلى تاء الفاعل فسكن آخره، وهو التاء لام الكلمة، فالتقىٰ ساكنان: الألف وآخر الفعل، فحذفت الألف لبقاء دالها، فصار أمتْنا، فأدغمت التاء الأولى التي هي لام الكلمة في تاء الفاعل فصارت ﴿أَمَتَّنَا﴾.

﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: دعو، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة.

﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ أصله: العليو، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما ساكنةً فقلبت الواو ياءً وأدغمت فيها الياء.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: ينوب، نقلت حركة الواو إلى النون فسكنت الواو إثر كسرة فقلبت ياءً حرف مد. ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ والرفيع: إما صفة مشبهة أضيفت إلى فاعلها بعد النقل إلى فعل بالضم، كما هو المشهور بمعنى عظيم الصفات، أو صيغة مبالغة محولة عن اسم الفاعل، فيصح فيه الوجهان. كما في «السمين».

﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ التلاقي: مصدر تلاقى الخماسي، وقياسه: أن يكون ما قبل آخره مضموماً، لكنه كسر لمناسبة الياء. ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ يقال: برز بروزاً: خرج إلى البراز؛ أي: الفضاء، كتبرز وظهر بعد الخفاء كبرز بالكسر. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أصله: تجزى، بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾ هو يوم القيامة، سميت بذلك لأزوفها؛ أي: لقربها من أزف الرحيل؛ أي: قرب. وفي «المصباح»: أزف الرحيل أزفاً من باب تعب وأزوفاً: دنا وقرب، وأزفت الآزفة: القيامة. وفي «الأساس»: أزف الرحيل: دنا وعجل، ومنه

أقبل يمشي الأزفى بوزن الجمزى، وكأنه من الوزيف، و﴿الهمزة﴾: بدل عن واو. وفي «الروح»: الآزفة فاعلة من أزف الأمر على وزن علم: إذا قرب، والمراد: القيامة، ولذا أنث، ونظيره: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾؛ أي: قربت القيامة، وسميت بالآزفة لأزوفها، وهو القرب؛ لأن كل آت قريب، وإن استبعد اليائس أمده.

﴿لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ جمع حنجرة، وهي الحلقوم، وفي «القاموس»: والحنجور: السِقط الصغير، وقارورة للذريرة، والحلقوم كالحنجرة، والحناجر جمعه. ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ يقال: كظم غيظه؛ أي: رد غضبه وحبسه في نفسه بالصبر وعدم إظهار الأثر. ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: يطوع، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن.

﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: خاونة؛ لأنه من خان يخون، واوي العين، قلبت الواو في الوصف همزةً حملاً له في الإعلال على فعله خان، حيث أعل بقلب الواو عينه ألفاً لتحركها بعد فتح، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: أصله يدعوون بواوين: الأولى لام الكلمة، والثانية واو الجماعة، فاستثقلت الضمة على الواو لام الكلمة فحذفت، فلما سكنت.. التقى ساكنان، فحذفت لام الكلمة وبقيت واو الجماعة، فوزنه يَفعون. ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍۗ﴾ أصله: يقضيون، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فلما سكنت.. التقى ساكنان فحذفت الياء، ثم ضمت الضاد لمناسبة الواو.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿ٱلذَّنۢبِ﴾ و﴿ٱلتَّوْبِ﴾، وبين ﴿أَمَتَّنَا﴾ ﴿وَأَحْيَيْتَنَا﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

ومنها: المقابلة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ۚ﴾ فقد قابل بين التوحيد والإشراك، والكفر والإيمان.

ومنها: إيراد ﴿إِذَا﴾ وصيغتي الماضي في الشرطية الأولى، و﴿إِنَّ﴾ وصيغتي المضارع في الشرطية الثانية؛ للدلالة على كمال سوء حالهم، كما في «أبي السعود».

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم...﴾ إلخ. في كلا الفعلين للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل واستمرارهما، كما في «أبي السعود».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ فإنه من إطلاق المسبب وإرادة السبب؛ لأنه أطلق الرزق وأراد المطر؛ لأن الماء سبب في جميع الرزق.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ فإنه كناية عن الوحي؛ لأنه كالروح للجسد، فهو مجاز مرسل، علاقته: السببية، وجعله الزمخشري استعارة تصريحية، وليس ببعيد.

ومنها: الإسجال بغير مغالطة في قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ وهو فن طريف من فنون البلاغة، وهو أن يقصد المتكلم غرضاً من ممدوح، فيأتي بألفاظ تقرر بلوغه ذلك الغرض إسجالاً منه على الممدوح به، وبيان ذلك: أن يذكر شرطاً يلزم من وقوعه وقوع ذلك الغرض، ثم يخبر بوقوعه وإن لم يكن قد وقع بعد ليقع المشروط، اهـ «درويش».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾؛ لأن المراد بالإماتتين الإثنتين: خلقهم أمواتاً أولاً، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم ثانياً، وقد أوضح ذلك بقوله في آية أخرى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ففي تسمية خلقهم أمواتاً إماتة مجاز مرسل؛ لأنه باعتبار ما كان، اهـ «درويش».

ومنها: الاستفهام بمعنى اليأس في قوله تعالى: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ ففي هذا الاستفهام يأس مقنط، واستحالة مفرطة، كأنهم لفرط ما يكابدونه يتمنون الخروج من هذا الأسى المطبق من الهول المستحكم.

ومنها: تنكير ﴿خُرُوجٍ﴾ للدلالة على أي خروج كان، سواء أكان سريعاً أم بطيئاً، وإنما يقولون ذلك تعللاً وتحيراً.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ لتجسيد الهول في ذلك اليوم الذي تكون فيه مشارفتهم للنار، فعند ذلك ترفع قلوبهم عن مقارها فتلصق بحناجرهم، فلا هي تخرج فيموتوا ويستريحوا، ولا هي ترجع إلى مواطنها فيتنفسوا الصعداء ويتروّحوا، ولكنها معترضة كالشَّجا.

ومنها: عكس الظاهر في قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ إذ لا شفيع لهم أصلاً، فضلاً عن أن يكون مطاعاً، وكان الظاهر أن يقال: ولا يطاع فيهم شفيع.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾؛ لأن إسناد الخيانة إلى النظرة مجاز؛ لأن الخائن هو الناظر.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾؛ لأن هذا تهكم بهم؛ لأن الجماد لا يقال فيه: يقضي ولا يقضي.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟...﴾ إلخ. وفيه تهديد للمشركين بذكر عاقبة من كانوا قبلهم من الأمم المكذبة للرسل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات

لما قبلها: أن الله سبحانه لما سلى[1] رسوله ﷺ بذكر عاقبة الكفار الذين كذبوا الرسل قبله، بمشاهدة آثارهم.. سلاه أيضاً بذكر قصص موسى مع فرعون مع ما أوتي من الحجج الباهرة، كذبه فرعون وقومه، وأمروا بقتل أبناء بني إسرائيل، وأمر فرعون بقتل موسى خوفاً أن يبدل دينهم، أو يعيث في الأرض فساداً، فتعوذ موسى بربه ورب بني إسرائيل من كل جبار متكبر، لا يؤمن بالجزاء والحساب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن ذلك المؤمن لما سمع رأي فرعون في موسى، وتصميمه على قتله، وإقامة البراهين على صحة رأيه، وأنه لا سبيل إلى العدول عن ذلك.. أعاد النصح مرةً أخرى لقومه، لعلهم يرعوون عن غيهم، ويتوبون إلى رشدهم، فذكرهم بأس الله سبحانه وسننه في المكذبين للرسل، وضرب لهم الأمثال بما حل بالأحزاب من قبلهم، كقوم نوح وعاد وثمود، ثم ذكرهم بأهوال يوم القيامة، يوم لا عاصم من عذاب الله، ثم أعقب ذلك بتذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف من قبل، من تكذيبهم برسالته ورسالة من بعده، فأحل الله بهم من البأس ما صاروا به مثلاً في الأخرين، وكأن لسان حاله يقول: هاأناذا قد أسمعت ونصحت فما قصرت، والأمر إليكم فيما تفعلون. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف تكبر فرعون وجبروته.. أبان هنا أنه بلغ من عتوِّه وتمرده وافترائه في تكذيب موسى - عليه الصلاة والسلام - أن أمر وزيره هامان أن يبني له قصراً شامخاً من الآجر؛ ليصعد به إلى السماء ليطلع إلى إله موسى - عليه الصلاة والسلام -، ومقصده من ذلك الاستهزاء به، ونفي رسالته، وأكد ذلك بالتصريح بقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ ثم أرشد إلى أن هذا وأمثاله صنيع المكذبين الضالين، وأن عاقبة تكذيبهم الهلاك والخسران.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ... فِرْعَوْنَ﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما حكى[2] عن موسى أنه ما زاد حين سمع مقالة فرعون الداعية إلى قتله على أن استعاذ بالله من شره.. أردف ذلك ببيان أن الله

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

قيض له من يدافع عنه من آل فرعون أنفسهم، ويذب عنه على أكمل الوجوه وأحسنها، ويبالغ في تسكين تلك الفتنة، ويجتهد في إزالة ذلك الشر.

التفسير وأوجه القراءة

ثم ذكر سبحانه قصة موسى وفرعون ليعتبروا بها، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي لقد أرسلنا موسى بن عمران حال كونه متلبساً ومؤيداً ﴿بِآيَاتِنَا﴾ وهي المعجزات التسع ﴿و﴾ بـ﴿سلطان مبين﴾؛ أي: وبحجةٍ قاهرةٍ ظاهرة واضحة، وهي العصا، وأفردها بالذكر مع اندراجها تحت الآيات، تفخيماً لشأنها، فهو من قبيل عطف الخاص على العام.

وقيل[1]: هو التوراة. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أعظم عمالقة مصر ﴿وَهَامَانَ﴾ وزيره وخصهما بالذكر؛ لأن الإرسال إليهما إرسال إلى القوم؛ لكونهم تحت تصرف الملك والوزير تابعين لهما، والناس على دين ملوكهم. ﴿وَقَارُونَ﴾ ابن عم موسى، خصه[2] بالذكر؛ لكونه بمنزلة الملك من حيث كثرة أمواله وكنوزه، ولا شك أن الإرسال إلى قارون متأخر عن الإرسال إلى فرعون وهامان، لأنه كان إسرائيلياً ابن عم موسى، مؤمناً في الأوائل، أعلم بني إسرائيل، حافظاً للتوارة، ثم تغير حاله بسبب الغنى، فنافق كالسامري، فصار ملحقاً بفرعون وهامان في الكفر والهلاك، فاحفظ هذا ﴿فَقَالُوا﴾؛ أي: قال هؤلاء الثلاثة وأتباعهم في حق ما أظهره موسى من المعجزات خصوصاً في أمر العصا: إنه ﴿سَاحِرٌ﴾ وقالوا فيما ادعاه عليه السلام من رسالة رب العالمين: إنه ﴿كَذَّابٌ﴾ والكذاب: الذي عادته الكذب، بأن يكذب مرة بعد أخرى، ولم يقولوا: سحار؛ لأنهم كانوا يزعمون أنه ساحر، وأن سحرتهم أسحرُ منه، كما قالوا: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، وبيان عاقبة من هو أشد من قريش، بطشاً، وأقربهم زماناً، ولما عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة.. لجؤوا إلى استعمال القوة، كما هو دأب المحجوج المغلوب على أمره، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ موسى ﴿بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهو ما ظهر على يده من المعجزات القاهرة

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

﴿قَالُوا﴾ لاستكمال شقاوتهم ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾؛ أي: تابعوه في الإيمان والتوحيد، والقائل فرعون وذوو الرأي من قومه، أو فرعون وحده؛ لأنه بمنزلة الكل، كما قال: سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾؛ أي: أبقوا بناتهم أحياءً لخدماتنا فلا تقتلوهن.

والمعنى[1]: أعيدوا عليهم القتل، وذلك أنه قد أمر بالقتل قُبيل ولادة موسى عليه السلام بإخبار المنجمين بقرب ولادته، ففعله زماناً طويلاً ثم كف عنه؛ مخافة أن تفنى بنو إسرائيل، وتقع الأعمال الشاقة على القبط، فلمابعث موسى وأحسّ فرعون بنبوته.. أعاد القتل غيظاً وحنقاً، ظناً منهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملك فرعون على يده.

قال قتادة: هذا قتل غير القتل الأول، لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى، فلما بعث الله موسى.. أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبةً لهم، فكان يأمر بقتل الذكور وترك الإناث ليمتنعوا من الإيمان، ولئلا يكثر جمعهم ويشتدّ عضدهم بالذكور من أولادهم، لكن الله شغلهم عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب، كالضفادع والقمل والدم والطوفان إلى أن خرج بنو إسرائيل من مصر، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ فرعون وقومه أو غيرهم؛ أي[2]: وما مكرهم وسوء صنيعهم بالأنبياء والمؤمنين ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾؛ أي: في ضياع وبطلان وخسران لا يغني عنهم شيئاً، وينفذ عليهم لا محالة القدر المقدور والقضاء المحتوم.

وفي «التأويلات النجمية»: عزم على إهلاك موسى وقومه، واستعان على ذلك بجنده وخيله ورجله، إتماماً لاستحقاقهم العذاب، ولكن من حفظ الحق تعالى كان كما قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾؛ أي: في ازدياد ضلالتهم بربهم، يشير إلى أن من حفر بئراً لولي من أوليائه.. ما يقع فيه إلا حافره، وبذلك أجرى الحق سنته. انتهى.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي وما مكر الكافرين وقصدهم وهو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب سدًى وباطلاً، فالناس لا يمتنعون من الإيمان، وإن فعل بهم ما فعل، وأن القدر المقدور لا محالة نافذ، والقضاء المحتوم لا بد واقع، والنصر حليف المؤمنين، كما وعد في كتابه المكنون ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾.

والخلاصة: أن ما أظهروه من الإبراق والإرعاد سيضمحل لا محالة، ويذهب هباءً أمام تلك القوة القاهرة، وسيكون النصر للمتقين.

ثم ذكر أنه ما كفاهم قتل البنين واستحياء البنات من بني إسرائيل، بل أرادوا أن يجتثوا هذه الشجرة من أصلها، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ اللعين لملئه: ﴿ذَرُونِيٓ﴾؛ أي: اتركوني ﴿أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ إنما قال هذه لأنه كان في خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى؛ مخافة أن ينزل بهم العذاب، أو كانوا يكفونه عن قتله؛ تهويناً لأمره، واستصغاراً لشأنه؛ أي: اتركوني أقتله ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾ الذي يزعم أنه أرسله إلينا، فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك؛ أي: لا يهولنكم شأنه؛ لأنه لا رب له حقيقة، بل أنا ربكم الأعلى، وكان إذا هم بقتله.. كفوه، وقالوا له: ليس هذا بالذي يخاف منه، وهو أضعف من ذلك شأناً، وما هو إلا ساحر يصاوله ساحر مثله، وإنك إن قتلته.. أدخلت الشبهة في نفوس الناس، واعتقدوا أنك عجزت عن مقابلة الحجة بالحجة، وما يزالون به هكذا يحاورونه ويداورونه حتى يكف عن قتله.

وربما يكون قد قال ذلك تمويهاً على قومه، وإيهاماً أن حاشيته هم الذين يكفونه عن قتله، وما يكفّه عن ذلك إلا ما في نفسه من هول الفزع الذي استحوذ عليه، كما يرشد إلى ذلك قوله: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾ فإن ظاهره الاستعانة به بدعائه ربه سبحانه، كما يقال: ادع ناصرك فإني منتقم منك، وباطنه أن فرائصه كانت ترتعد من دعائه ربه، فلهذا تكلم بما تكلم به، مظهراً أنه لا يبالي بدعائه ربه، كما يقول القائل ذروني أفعل كذا وما كان فليكن.

---

(١) المراغي.

ثم ذكر العلة التي لأجلها أراد أن يقتله، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾؛ أي: أن يغير ما أنتم عليه من الدين الذي هو عبارة عن عبادة فرعون وعبادة الأصنام لتقربهم إليه، ويدخلكم في دينه الذي هو عبادة الله وحده ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: في أرض مصر ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾؛ أي: يوقع بين الناس ما يفسد دنياهم من التخالف والتجارب والتهارج، إن لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية.

فمعنى[1]: ﴿أو﴾ وقوع أحد الشيئين، جَعَلَ اللعين ظهور ما دعا إليه موسى - عليه الصلاة والسلام - وانتشاره في الأرض واهتداء الناس به فساداً، وليس الفساد إلا ما هو عليه هو ومن تابعه، وبدأ فرعون بذكر الدين أولاً لأنّ حبّ الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم اهـ. «خطيب» وفي الآية إشارة إلى أن فرعون من عمى قلبه ظن أن الله يذره أن يقتل موسى بحوله وقوّته، أو يذره قومه، ولم يعلم أن الله يهلكه ويهلك قومه، وينجي موسى وقومه، وقد خاف من تبديل الدين أو الفساد في الأرض، ولم يخف هلاك نفسه وهلاك قومه وفساد حالهم في الدارين.

والمعنى: أي[2] إني أخاف أن يفسد موسى عليكم أمر دينكم الذي أنتم عليه من عبادة غير الله سبحانه، ويدخلكم في دينه الذي هو عبادة الله وحده، أو يوقع بين الناس الخلاف والفتنة، إذ يجتمع إليه الهمل الشرد، ويكثرون من الخصومات والمنازعات وإثارة القلاقل والاضطرابات، فتتعطل المزارع والمتاجر، وتعدم المكاسب.

والخلاصة: أنه يقول: إنّي أخاف أن يفسد عليكم أمر دينكم بالتبديل، أو يفسد عليكم أمر دنياكم بالتعطيل، وهما أمران أحلاهما مر.

وقرأ الكوفيون ويعقوب[3]: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ﴾ بأو التي للإبهام وترديد الخوف بين تبديل الدين وظهور الفساد، وقرأ باقي السبعة ﴿وأن يظهر﴾ بدون ألف، على معنى وقوع الأمرين جميعاً، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: بفتح الياء من ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، وقرأ أنس بن مالك وابن المسيب ومجاهد وقتادة وأبو رجاء والحسن

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) البحر والشوكاني.

والجحدري ونافع وأبو عمرو وحفص: ﴿يُظْهِرَ﴾ بضم الياء وكسر الهاء، من أظهر الرباعي، وفاعله: ضمير ﴿مُوسَىٰ﴾ و﴿ٱلْفَسَادَ﴾: منصوب على أنه مفعول به، وقرأ باقي السبعة والأعرج والأعمش وابن وثاب وعيسى: ﴿يَظْهَر﴾ بفتح الياء والهاء من ظهر الثلاثي، مبنياً للفاعل ورفع ﴿الفساد﴾ على الفاعلية، وقرأ زيد بن علي: ﴿يُظهَر﴾ بضم الياء وفتح الهاء، مبنياً للمفعول ﴿الفساد﴾ رفعاً على النيابة عن الفاعل، وقرأ مجاهد: ﴿يظّهّر﴾ بشد الظاء والهاء ﴿الفساد﴾ رفعاً.

ولما سمع موسى عليه السلام بمقالة فرعون.. استعاذ بالله من شر كل متكبر عن الإيمان به منكر بالبعث والنشور، فصانه من كل بلية، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام لقومه حين سمع بما يقوله اللعين من حديث قتله عليه السلام: ﴿إِنِّى عُذْتُ﴾ واستجرت ﴿بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾.

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي هنا وفي الدخان[1]: ﴿عذتُّ﴾ بإدغام الذال في التاء، وقرأ الباقون: بالإظهار، وخص[2] اسم الرب؛ لأن المطلوب هو الحفظ والتربية، وإضافته إليه وإليهم للحث على موافقته في العياذ به تعالى، والتوكل عليه، فإن في تظاهر النفوس تأثيراً قوياً. في استجلاب الإجابة، وهو السبب الأصلي في اجتماع الناس لأداء الصلوات الخمس والجمعة والأعياد والاستسقاء ونحوها.

﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ أي: من شر كل متعظم عن الإيمان بالله سبحانه، والتكبر: تعاظم الإنسان في نفسه مع حقارته. ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ والجزاء صفة لما قبله، عقب به لأن طبع المتكبر القاسي وشأنه إبطال الحق، وتحقير الخلق، لكنه قد ينزجر إذا كان مقرًّا بالجزاء، وخائفاً من الحساب، وأما إذا اجتمع التكبر والتكذيب بالبعث.. كان أظلم وأطغى، فلا عظيمة إلا ارتكبها، فيكون بالاستعاذة أولى وأحرى.

وصدر[3] الكلام بـ﴿إِنِّ﴾ تأكيداً وإشعاراً على أن السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله تعالى، والمسلم إذا قال عند القراءة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساس شياطين الجن، فكذلك إذا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) البيضاوي.

قال: أعوذ بالله عند توجه الآفات والمخافات، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات من شياطين الإنس.

والمعنى[1]: أي إني استجرت بالله ربي وربكم، واستعصمت به من شر كل مستكبر لا يذعن للحق، ولا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه الخلائق، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بما أساء، وإنما خص الاستعاذة بمن جمع بين الاستكبار والتكذيب بالجزاء؛ لأنهما عنوان قلة المبالاة بالعواقب، وعنوان الجرأة على الله وعلى عباده، فمن لم يؤمن بيوم الحساب.. لم يكن للثواب على الإحسان راجياً، ولا من العقاب على الإساءة وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفاً، وإنما لم يسم فرعون باسمه، بل ذكره بوصف يعمه وغيره من جبابرة أركانه وغيرهم؛ لتعميم الاستعاذة والإشعار بعلة القساوة والجرأة على الله، وهي التكبر وما يليه من عدم الإيمان بالبعث، وإنما قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ ولم يقل منه سلوكاً لطريق التعريض، وتحاشياً مما قد يعرض له من الأذى إذا هو سمع كلامه، فهو واف بالغرض، ومبين للعلة التي لأجلها أبى واستكبر.

فائدة: سئل أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ أي ذنب أخوف على سلب الإيمان؟ قال: ترك الشكر على الإيمان، وترك خوف الخاتمة، وظلم العباد، فإن من كان فيه هذه الخصال الثلاث.. فالأغلب أن يخرج من الدنيا كافراً إلا من أدركته السعادة.

وفي الخبر: «إن الله سخر الريح لسليمان عليه السلام فحملته وقومه على السرير، حتى سمعوا كلام أهل السماء، فقال ملك ـ لآخر إلى جنبه ـ: لو علم الله في قلب سليمان مثقال ذرة من كبر.. لأسفله في الأرض مقدار مارفعه مِنَ الأرض إلى السماء».

وفي الحديث: «ما من أحد إلا وفي رأسه سلسلتان: إحداهما إلى السماء السابعة، والأخرى إلى الأرض السابعة، فإذا تواضع.. رفعه الله بالسلسلة التي في السماء السابعة، وإذا تكبر.. وضعه الله بالسلسلة التي في الأرض السابعة» فالمتكبر

---

(١) المراغي.

أياً كان مقهور لا محالة، كما يقال[1]: إن أول ما خلق درة بيضاء، فنظر إليها بالهيبة فذابت وصارت ماء، وارتفع زبدها، فخلق الله منه الأرض فافتخرت الأرض وقالت: من مثلي، فخلق الله الجبال فجعلها أوتاداً في الأرض، فقهر الأرض بالجبال، فتكبرت الجبال فخلق الحديد، وقهر الجبال به، فتكبر الحديد فقهره بالنار، فتكبرت النار فخلق الماء فقهرها به، فتكبر الماء فخلق السحاب، ففرق الماء في الدنيا فتكبر السحاب فخلق الرياح، ففرقت السحاب فتكبرت الرياح، فخلق الآدمي حتى جعل لنفسه بيتاً وكناً من الحر والبرد والرياح، فتكبر الآدمي فخلق النوم فقهره به، فتكبر النوم فخلق المرض فقهره به، فتكبر المرض فخلق الموت فقهره به، فتكبر الموت فقهره بالذبح يوم القيامة، حيث يذبح بين الجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ يعني إذا ذبح الموت.. فالقاهر فوق الكل هو الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ ثم إن الكبر من أشد صفات النفس الأمارة بالسوء، فلا بد من إزالته

ولما استعاذ موسى عليه السلام بالله، واعتمد على فضله ورحمته.. فلا جرم صانه الله تعالى من كل بلية، وأوصله إلى كل أمنية، وقيض له إنساناً أجنبياً، حتى ذب عنه بأحسن الوجوه في تسكين تلك الفتنة، كما حكى الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ كائن ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ فهو صفة ثانية لـ﴿رَجُلٌ﴾ وقوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾: صفة ثالثة، قدم الأول؛ أعني مؤمن، لكونه أشرف الأوصاف، ثم الثاني لئلا يتوهم خلاف المقصود، وذلك لأنه لو أخر عن ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾.. لتوهم أن ﴿من﴾ صلته، فلم يفهم أن ذلك الرجل كان من آل فرعون، وآل الرجل خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين، وكان ذلك الرجل المؤمن من أقارب فرعون؛ أي: ابن عمه، وهو منذر موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، كما سبق في سورة القصص، واسمه شمعان بالشين المعجمة بوزن سلمان، وهو أصح ما قيل فيه، قاله الإمام السهيلي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿رَجُلٌ﴾ بضم الجيم، وقرأ عيسى وعبد الوارث وعبيد بن عقيل، وحمزة بن القاسم عن أبي عمرو: بسكون الجيم، وهي لغة تميم ونجد،

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وقرىء: بكسر الجيم، وفي «تاريخ الطبري»: اسمه جبر، وقيل: حبيب النجار، وهو الذي عمل تابوت موسى حين أرادت أمه أن تلقيه في اليم، وهو غير حبيب النجار صاحب يس، وقيل: خربيل بن نوحائيل أو حزقيل، ويدل عليه قوله ﷺ: «سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: حزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وحبيب النجار صاحب ياسين، وعلي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ وهو ـ رضي الله عنه ـ أفضلهم» كما في «إنسان العيون» نقلاً عن «العرائس».

وقال ابن الشيخ في «حواشيه»: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل يس، ومؤمن آل فرعون، والثالث: أبو بكر الصديق وهو أفضلهم» انتهى. وقال صاحب «روح البيان»: يمكن أن يقال لا مخالفة بين هاتين الروايتين لما أن المراد تفضيل أبي بكر في الصديقية، وتفضيل علي في السبق، وعدم صدور الكفر عنه، ولو لحظةً، فأفضلية كل منهما من جهة أخرى.

ثم إن الروايتين دلتا على كون ذلك الرجل قبطياً، لا إسرائيلياً، وأيضاً أن فرعون أصغى إلى كلامه واستمع منه، ولو كان إسرائيلياً لكان عدواً له، ولم يكن ليصغي إليه.

قال في «التكملة»: فإن قلت: الآل قد يستعمل في غير القرابة بدليل قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ ولم يرد إلا كل من كان على دينه من ذوي قرابته وغيرهم؟

فالجواب: أن هذا الرجل لم يكن من أهل دين فرعون وإنما كان مؤمناً، فإذا لم يكن من أهل دينه.. فلم يبق لوصفه بأنه من آله إلا أن يكون من عشيرته. انتهى، وقيل: كان إسرائيلياً ابن عم قارون، أو أبوه من آل فرعون وأمه من بني إسرائيل، وقيل: كان عربياً موحداً ينافقهم لأجل المصلحة، ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾؛ أي: يستره ويخفيه من فرعون وملئه، لا خوفاً بل ليكون كلامه بمحل من القبول، وقيل: خوفاً، وكان قد آمن بعد مجيء موسى أو قبله بمئة سنة، وكتمه، فلما بلغه خبر قصد فرعون بموسى.. قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾؛ أي: أتقصدون قتله ظلماً بلا دليل، والاستفهام إنكاري، ﴿أَن يَقُولَ﴾؛ أي: لأن يقول أو كراهة أن يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾

وحده لا شريك له، وهو في موضع نصب بنزع الخافض، والحصر مستفاد من تعريف طرفي الجملة، مثل: صديقي زيد لا غير ﴿و﴾ الحال أنه ﴿قد جاءكم بالبينات﴾ والمعجزات الظاهرة الواضحة التي شاهدتموها ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لم يقل من ربه، لأنهم إذا سمعوا أنه جاءهم بالبينات من ربهم.. دعاهم ذلك إلى التأمل في أمره، والاعتراف به وترك المكابرة معه؛ لأن ما كان من قِبَلِ رَبِّ الجميع يجب اتباعه وإنصاف مبلغه.

وعن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -: حدثني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ، قال: أقبل عقبة بن أبي معيط، ورسول الله يصلي عند الكعبة، أو لقيه في الطواف، فأخذ بمجامع ردائه ﷺ، فلوى ثوبه على عنقه وخنقه خنقاً شديداً، وقال له: أنت الذي تنهانا عما يعبد آباؤنا، فقال النبي ﷺ: «أنا ذاك»، فأقبل أبو بكر - رضي الله عنه - فأخذ بمنكبيه ﷺ والتزمه من ورائه، ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ رافعاً صوته، وعيناه تسفحان دمعاً أي: تجريان حتى أرسلوه، أخرج البخاري بمعناه. وفيه بيان أن ما تولى أبو بكر من رسول الله كان أشد مما تولاه الرجل المؤمن من موسى، لأنه كان يظهر إيمانه، وكان بمجمع طغاة قريش، وحكى ابن عطية في «تفسيره» عن أبيه: أنه سمع أبا الفضل بن الجوهري على المنبر، وقد سئل أن يتكلم في شيء من فضائل الصحابة - رضي الله عنهم - فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه، فقال:

عَنِ ٱلْمَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِٱلْمُقَارَنِ يَقْتَدِيْ

ماذا ترون من قوم قرنهم الله تعالى بنبيه، وخصهم بمشاهدته، وتلقى الروح عنه؟ وقد أثنى الله تعالى على رجل مؤمن من آل فرعون كتم إيمانه وأَسرَّهُ، فجعله في كتابه، وأثبت ذكره في المصاحف لكلام قاله في مجلس من مجالس الكفر، وأين هو من عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -! إذ جرد سيفه بمكة وقال: والله لا أعبد الله سراً بعد اليوم، فكان ما كان من ظهور الدين بسيفه.

والمعنى[1]: أي وقال رجل من آل فرعون بكتم إيمانه منهم، خوفاً على

(١) المراغي.

نفسه: أينبغي لكم أن تقتلوا رجلاً ما زاد على أن قال: ربي الله، وقد جاءكم بشواهد دالة على صدقه، ومثل هذه المقالة لا تستدعي قتلاً، ولا تستحق عقوبةً، فاستمع فرعون لكلامه، وأصغى لمقاله، وتوقف عن قتله.

وخلاصة ذلك: أترتكبون هذه الفعلة، القبيحة الشنعاء وهي قتل النفس المحرمة من غير روية ولا تأمل ولا اطلاع على سبب يوجب قتله، وما لكم علة في ارتكابها إلا كلمة الحق، وهي قوله: ربي الله، ثم أخذهم الرجل المؤمن بالاحتجاج من باب الاحتياط، بإيراده في صورة الاحتمال من الظن بعد القطع يكون قتله منكراً، فقال: ﴿وَإِن يَكُ﴾ الرجل الذي تريدون قتله ﴿كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطاه وبال كذبه وضرره، فيحتاج في دفعه إلى قتله؛ يعني: أن الكاذب إنما يقتل إذا تعدى ضرر كذبه إلى غيره، كالزنديق الذي يدعو الناس إلى زندقته، والمبتدع الذي يدعو الناس إلى بدعته، وهذا لا يقدر على أن يحمل الناس على قبول ما أظهره من الدين، لكون طباع الناس آبية عن قبوله، ولقدرتكم على منعه من إظهار مقالته ودينه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ في قوله فكذبتموه وقصدتم له بسوء ﴿يُصِبْكُم﴾ ويحل بكم ﴿بَعْضُ﴾ العذاب ﴿الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ ويخبركم بوقوعه عليكم، وهو عذاب الدنيا، فكان الأولى على كلا التقديرين إبقاءه حياً.

والحاصل: أن المقصود بيان أنه لا حاجة إلى قتله، بل يكفيكم أن تعرضوا عنه، وأن تمنعوه عن إظهار دينه.

أي[1]: إن لم يصبكم كله فلا أقل من إصابة بعضه، وفي بعض ذلك كفاية لهلاكهم، فذكر البعض ليوجب الكل، لا أن البعض هو الكل، وحذفت النون من يكن في الموضعين؛ تخفيفاً لكثرة الاستعمال، كما قاله سيبويه، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف وعدم التعصب، ولذلك قدم من شِقَّي الترديد كونه كاذباً، وصرح بإصابة البعض دون الجميع، مع أن الرسول صادق في جميع ما يقوله، وإنما الذي يصيب بعض ما يعده دون بعض هم الكهان والمنجمون، ويجوز أن يكون المعنى: يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا، وهو بعض ما يعدهم، لأنه كان يتوعدهم بعذاب الدنيا والآخرة، كأنه خوّفهم بما هو ظهر احتمالاً عندهم. وفي «عين المعاني»:

(١) روح البيان.

لأنه وعد النجاة بالإيمان والهلاك بالكفر، وقد يكون البعض بمعنى الكل، كما في قوله:

قَدْ يُدَرِكُ ٱلْمُتَأَنِّيْ بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُوْنُ مَعَ ٱلْمُسْتَعْجِلِ ٱلزَّلَلُ

وقول الآخر:

إِنَّ الأُمُوْرَ إِذَا ٱلأَحْدَاثُ دَبَّرَهَا دُوْنَ ٱلشُّيُوْخِ تَرَىٰ فِيْ بَعْضِهَا خَلَلاَ

وكما في قوله تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾؛ أي: جميعه، وفي قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: بكلها، كما في «كشف الأسرار» وقال أبو الليث: ﴿بَعْضُ﴾ هنا: صلة يريدُ يُصِبْكم الذي يعدكم.

وعبارة «فتح الرحمن» هنا: وإن قلت: كيف قال المؤمن ذلك في حق موسى عليه السلام، مع أنه صادق عنده وفي الواقع، ويلزم منه أن يصيبهم جميع ما وعدهم لا بعضه فقط؟.

قلت: كلمة ﴿بَعْضُ﴾: صلة، أو هي بمعنى كل، كما قيل به في البيتين السابقين وفي الآيتين، أو ذكر البعض تنزلاً وتلطفاً بهم، مبالغاً في نصحهم، لئلا يتهموه بميل ومحاباة، أو هي باقية على معناها، لأنه وعدهم على كفرهم الهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فهلاكهم في الدنيا بعض ما وعدهم به.

والمعنى: أي إن كان كاذباً في قيله: أن الله أرسله إليكم ليأمركم بعبادته، وترك دينكم الذي أنتم عليه.. فإنما إثم كذبه عليه دونكم، وإن يك صادقاً في قيله ذلك.. أصابكم الذي أوعدكم به من العقوبة على مقامكم على الدين الذي أنتم عليه مقيمون، فلا حاجة بكم إلى قتله فتسخطوا ربكم سخطين: سخطاً على الكفر، وسخطاً على قتل رسوله، وفي قوله: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ مبالغة في التحذير، فإنه إذ حذرهم من بعض العذاب.. أفاد أنه مهلك مخوف، فما بال كله إلى ما فيه من الإنصاف وإظهار عدم التعصب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وهذا من تمام كلام الرجل المؤمن، والمسرف: هو الذي يتجاوز الحد في المعصية، أو هو السفاك للدم بغير حق، والكذاب: هو الذي يكذب مرةً بعد أخرى، وقيل: هو الكذاب على الله سبحانه، لأن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره، وهو احتجاج آخر ذو وجهين:

أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذاباً.. لما هداه الله تعالى إلى البينات، ولما أيده بتلك المعجزات.

وثانيهما: أنه إن كان كذلك.. خذله الله تعالى وأهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله، ولعله أراهم وهو عاكف على المعنى الأول لتلين شكيمتهم، وقد عرّض به لفرعون، لأنه ﴿مُسْرِفٌ﴾ حيث قتل الأبناء بلا جرم ﴿كَذَّابٌ﴾ حيث ادعى الألوهية، لا يهديه الله سبيل الصواب، ومنهاج النجاة، بل يفضحه ويهدم أمره، ولما أقام مؤمن آل فرعون أنواع الدلائل على أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى.. خوفهم في ذلك بعذاب الله تعالى فقال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ أي: يا قومي ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ﴾ والسلطان ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ حال كونكم ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ أي غالبين عالين على بني إسرائيل والعامل في الحال وفي قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ما تعلق به لكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أرض مصر، لا يقاومكم أحد في هذا الوقت، ومعنى الظهور: الاستعلاء على الناس والغلبة عليهم.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ ويمنعنا ويحفظنا ﴿مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من سطوته وأخذه وعذابه، ويحول بيننا وبينه ﴿إِن جَآءَنَا﴾ وحل بنا، وفي هذا[1] تحذير منه لهم من نقمة الله بهم، وإنزال عذابه عليهم، والاستفهام فيه: إنكاري؛ أي: لا ناصر لنا؛ أي: فلا تفسدوا أمركم، ولا تتعرضوا لبأس الله بقتله، فإنه إن جاءنا.. لم يمنعنا منه أحد.

وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض إليهم خاصةً، ونظم نفسه في سلكهم فيما يسوؤُهم من مجيء بأس الله سبحانه؛ تطييباً لقلوبهم، وإيذاناً بأنه ناصح لهم، ساع في تحصيل ما يجديهم، ودفع ما يرديهم سعيه في حق نفسه، ليتأثروا بنصحه.

ولما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصح.. جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة والرعاية بمكان مكين، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكاً يكون فيه جلب النفع لهم، ودفع الضر عنهم، كما حكى سبحانه عنه بقوله: ﴿قَالَ

---

(١) روح البيان.

﴿فِرْعَوْنُ﴾ بعدما سمع نصحه، إضراباً عن المجادلة ﴿مَآ أُرِيكُمْ﴾؛ أي: ما أشير عليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وأستصوبه من قتله، قطعاً لمادة الفتنة ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وطريق الصواب، فهو من الرأي، ويجوز أن يكون من الرؤية بمعنى العلم؛ أي: لا أعلمكم إلا ما أعلم، ولا أسر عنكم خلاف ما أظهره، ولقد كذب حيث كان مستشعراً للخوف الشديد، ولكنه كان يظهر الجلادة وعدم المبالاة، ولولاه لما استشار أحداً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلرَّشَادِ﴾ بتخفيف الشين، وقرأ معاذ بن جبل: بتشديدها، على أنه صيغة مبالغة، كضراب، وقال النحاس: هي لحن ولا وجه لذلك، وقال أبو الفتح: هو اسم فاعل في بنية مبالغة من الفعل الثلاثي، يقال: رشد فهو رشّاد كعبّاد من عبد، وقال الزمخشري: أو من رشد، كعلام من علم.

والمعنى[2]: أي قال فرعون مجيباً هذا المؤمن الناهي عن قتل موسى: لا أشير عليكم برأي سوى ما ذكرته، من وجوب قتله حسماً للفتنة، وإني لأرى أن هذا هو سبيل الرشاد والصلاح، ولا أعدُّ غير هذا صواباً.

ثم كرر ذلك الرجل المؤمن تذكيرهم، وحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم، فقال الله حاكياً عنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ من آل فرعون، مخاطباً لقومه واعظاً لهم.

وفي الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»، وذلك من أجل علة الخوف والقهر، ولأن الجهاد بالحجة والبرهان أكبر من الجهاد بالسيف والسنان ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ في تكذيب موسى عليه السلام، والتعرض له بسوء، كالقتل والأذى ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ أي: مثل عذاب أيام الأمم الماضية، يعني وقائعهم العظيمة، وعقوباتهم الهائلة، على طريق ذكر المحل وإرادة الحال.

فإن قلت: الظاهر أن يقال: مثل أيام الأحزاب، إذ لكل حزب يوم على حدة.

قلت: جمع الأحزاب مع تفسيره بالطوائف المختلفة المتباينة الأزمان

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

والأماكن، أغنىٰ عن جمع اليوم، إذ بذلك ارتفع الالتباس، وتبين أن المراد الأيام لا اليوم الواحد، ثم فسر الأحزاب فقال: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ بدل من المثل الأول، والمراد بالدأب واليوم واحد، إذ المعنى: إني أخاف عليكم مثل حال قوم نوح وشأنهم في العذاب، حيث أغرقوا بالطوفان الذي استأصل كل ما على وجه الأرض؛ أي: أخاف عليكم مثل عذاب قوم نوح ﴿و﴾ مثل عذاب ﴿عاد﴾ قوم هود، حيث أهلكوا بريح صرصر عاتية ﴿و﴾ مثل عذاب ﴿ثمود﴾ قوم صالح، حيث أهلكوا بالصيحة الطاغية ﴿و﴾ مثل عذاب الأقوام ﴿الذين﴾ كانوا ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد هؤلاء المذكورين من كفار الأمم المكذبة لرسلها، كقوم لوط وشعيب عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام.

والحاصل: أن حزقيل خوفهم بعذاب معجل في الدنيا.

والمعنى: أي وقال ذلك المؤمن ناصحاً لقومه: يا قوم إني أخاف عليكم إن كذبتم موسى، وتعرضتم له بسوء أن يحل بكم مثل ما حل بالذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية وكذبوهم، كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم، فقد نزل بهم من بأس الله وعذابه ما لم يجدوا له واقياً ولا عاصماً، وهذه سنة الله في المكذبين جميعاً، فحذار حذار أيها القوم، إني لكم ناصح أمين، وما أهلكهم إلا بسوء أفعالهم، وعظيم ما اجترحوا من الآثام والمعاصي، وما ظلمهم الله سبحانه ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فلا يهلكهم قبل ثبوت الحجة عليهم، ولا يعاقبهم بغير ذنب، ولا يخلي الظالم منهم بغير انتقام؛ أي: وما أهلك الله سبحانه هذه الأمم المذكورة ظلماً لهم بغير جرم اجترموه، بل أهلكهم بإجرامهم وكفرهم وتكذيبهم رسله، بعد أن جاؤوهم بالبينات، فأنفذ فيهم قدره وحكمه، وأحلّ بهم وعيده وانتقامه، حيث استأصلهم وقطع دابرهم كالأمس الدابر.

وبعد أن خوفهم العذاب الدنيوي، خوفهم العذاب الأخروي فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: عذاب يوم التناد، وهو يوم القيامة، لما فيه من العذاب على المصرين والمؤذين للرسل والأنبياء، فهو منصوب على المفعولية به، ولكنه على حذف مضاف كما قدرنا، سمي يوم التناد؛ لأنه ينادي فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة، كقولهم: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ﴾ أو يتصايحون بالويل

والثبور، بنحو قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أو يتنادى أصحاب الجنة وأصحاب النار: أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا من الجنة والنعيم المقيم حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم من عذاب النار حقاً؟ قالوا: نعم، ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء، أو مما رزقكم الله.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلتَّنَادِ﴾ بتخفيف الدال وحذف الياء، والأصل: التنادي، وهو التفاعل من النداء، يقال: تنادى القوم؛ أي: نادى بعضهم بعضاً، وقرأ الحسن وابن السميفع ويعقوب وابن كثير ومجاهد: بإثبات الياء على الأصل، وقرأ ابن عباس والضحَّاك وعكرمة: بتشديد الدال؛ أي: يوم فرار بعضهم من بعض، قال بعض أهل اللغة: هو لحن؛ لأنه من ند ينِدّ: إذا مرّ على وجهه هارباً، قال النحاس: وهذا غلط، والقراءة حسنةٌ على معنى التنافي، قال الضحاك: معناه: أنهم إذا سمعوا بزفير جهنم.. ندّوا هرباً فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾.

والمعنى على قراءة الجمهور: يوم ينادي بعضهم بعضاً، أو ينادي أهل النار أهل الجنة، وأهل الجنة أهل النار، أو ينادى فيه بسعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء، أو يوم ينادى فيه: كل أناس بإمامهم، ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ بدل من يوم التناد، أي: إني أخاف عليكم عذاب يوم يولّي بعضكم بعضاً دبره، حال كونكم ﴿مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: منصرفين من الموقف إلى النار، أو فارّين منها، لأنهم إذ سمعوا زفير النار.. ندّوا هاربين، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكةُ صفوفاً، فبينما هم يموج بعضهم في بعض.. إذا سمعوا منادياً: أقبلوا إلى الحساب، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، وحال كونكم ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ﴾؛ أي: ما لكم من عاصم يعصمكم من عذابه تعالى، ويحفظكم في فراركم حتى تعذَّبوا في النار، والجملة: حال أخرى من ضمير ﴿تُوَلُّونَ﴾.

---

(١) الشوكاني.

والمعنى: أي إني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة، حين ينادي بعضكم بعضاً ليستغيث به من شدّة الهول، أو حين ينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا: نعم، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء، أو مما رزقكم الله، قالوا: إن الله حرّمهما على الكافرين يوم تولّون مدبرين هرباً من زفير النار وشهيقها، فلا يُجْديكم ذلك شيئاً، ولا تجدون من يعصمكم من العذاب فتردّون إليه، ونالكم منه ما قدّر لكم وكتب عليكم.

ولما يئس الرجال المؤمن من إيمانهم.. نبّه إلى شدّة ضلالتهم وعظيم جهالتهم، فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ومن يخذله الله ولا يلهمه رشده ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى طريق النجاة، ويوفّقه إلى الخلاص، وفي هذا إيماء إلى أنه يئس من قبولهم نصحه.

وفي الآيات(١): إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى إذا شاء بكمال قدرته إظهاراً لفضله ومنته، يخرج الحيّ من الميّت، كما أخرج من آل فرعون مؤمناً حيّاً قلبه بالإيمان، من بين كفارٍ أموات قلوبهم بالكفر، ليتحقق قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ وإذا شاء إظهاراً لعزته وجبروته يعمي ويصمّ الملوك، والعقلاء مثل: فرعون وقومه، لئلاّ يبصروا آيات الله الظاهرة، ولا يسمعوا الحجج الباهرة، مثل: ما ناصحهم بها مؤمن آل فرعون ليتحقّق قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي...﴾ الآية. كما في «التأويلات النجمية».

وأسند الإضلال إلى الله تعالى؛ لأنه خالق الضلالة، وإنما الشيطان ونحوه من الوسائط، فالجاهل يرى القلم مسخّراً للكاتب، والعارف أنه مسخر في يده لله تعالى؛ لأنه خالق الكاتب والقلم وكذا فعل الكاتب.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ إشارة(٢) إلى أنّ التوفيق والاختيار للواحد القهار، فلو كان لآدم.. لاختار قابيل، ولو كان لنوح.. لاختار كنعان، ولو كان لإبراهيم.. لاختار آزر، ولو كان لموسى.. لاختار فرعون، ولو كان لمحمد ﷺ..

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

لاختار عمّه أبا طالب.

ويقال: سبعة أمور عامة، وسبعة في جنبها خاصة، الأمر عام والتوفيق خاص، والنهي عام والعصمة خاص، والدعوة عام والهداية خاص، والموت عام والبشارة خاص، والحشر يوم القيامة عام والسعادة خاص، وورود النار عام والنجاة منها خاص، والخلق عام والاختيار خاص؛ يعني: ليس كل من خلقه الله تعالى اختاره، بل خص منه قوماً، وكذا خلق أموراً وأشياء فخصّ منها البعض ببعض الخواص.

ثم العجب أنّ مثل موسى عليه السلام يكون وسط قومه لا يهتدون به، وذلك لأنّ صاحب المُرة لا يجد حلاوة العسل، والضرير لا يرى الشمس، وليس ذلك إلا من سوء المِزاج وفساد الحال وفقدان الاستعداد.

ثم قال مؤمن آل فرعون موبّخاً لهم بأنهم ورثوا التكذيب بالرسل من آبائهم الأولين، وأسلافهم الغابرين ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ﴾؛ أي: وعزة الله وجلاله لقد جاءكم يا أهل مصر ﴿يُوسُفُ﴾ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، وكان قد أقام فيهم نبياً عشرين سنةً، وقيل: المراد بيوسف هنا: يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب، وحكى النقاش عن الضحاك: أن الله بعث إليهم رسولاً من الجن، يقال له: يوسف، والأول أولى.

أي: ولقد جاء أيها القبطيون آباءكم الأقدمين يوسف بن يعقوب ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل موسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحة التي من جملتها تعبير الرؤيا وشهادة الطفل على براءة ذمته، وقد كان بعث إلى القبط قبل موسى بعد موت الملك، وكان فرعون موسى قد أدرك أيام يوسف بن يعقوب، فعاش إلى زمانه، وذلك لأنّ فرعون موسى قد عُمّر أكثر من أربع مئة سنة.

وكان[1] بين إبراهيم وموسى تسع مئة سنة على ما رواه ابن قتيبة في كتابه «المعارف»، فيجوز أن يكون بين يوسف وموسى مدة عمر فرعون تقريباً، فيكون الخطاب لفرعون، وجُمع لأنّ المجيء إليه بمنزلة المجيء إلى قومه، وإلا فأهل

(١) روح البيان.

عصر موسى لم يروا يوسف بن يعقوب، والأظهر أنه على نسبة أحوال الآباء إلى الأبناء، وتوبيخ المعاصرين بحال الماضين ﴿فَمَا زِلْتُمْ﴾؛ أي: فما برحتم مستمرين ﴿فِي شَكٍّ﴾ وريب ﴿مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾؛ أي: في حقية الذي جاءكم به من الدين الحق، الذي هو التوحيد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ ومات يوسف ﴿قُلْتُمْ﴾ ضمًّا إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعده ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد موت يوسف ﴿رَسُولًا﴾ أصلاً فكفرتم به في حياته، وكفرتم بمن بعده من الرسل بعد موته، وظنوا أنَّ ذلك لا يحدد عليهم الحجة، وقرىء[1]: ﴿ألن يبعث﴾ بإدخال همزة الاستفهام على حرف النفي، كأن بعضهم يقرر بعضاً على نفي البعثة.

والمعنى[2]: أي ولقد جاء آباءَكم يوسفُ من قبل موسى بالآيات الواضحات، والمعجزات الباهرات، فلم يزالوا في ريب من أمره، وشك من صدقه، فلم يؤمنوا به، حتى إذا مات قالوا: لن يبعث الله رسولاً من بعده يدعو إليه، ويحذّر بأسه، ويخوّف من عقابه، فالتكذيب متوارث، والعناد قديم، والريب دأب آبائِكم الغابرين، وقد نسب تكذيب الآباء إليهم لما تقدم من أنّ الأمم متكافلة فيما بينها، فينسب ما حدث من بعضها إلى جميعها إذا تواطؤوا واتفقوا عليه، كما جاء في قصص ثمود حين كذب قدار فعقر الناقة، فنسب التكذيب والعقر إلى ثمود جميعها، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾. وقد قالوا هذه المقالة على سبيل التشهّي والتمنّي من غير حجة ولا برهان، ليكون لهم أساس في تكذيب من بعده، وليس إقراراً منهم برسالته، بل هو ضمّ إلى الشك في رسالته التكذيب برسالة من بعده.

وفي الآية[3]: إشارة إلى أنَّ في الإنسان ظلوميةً وجهوليةً لو خلّي وطبعه.. لا يؤمن بنبّي من أنبياء الله ولا بمعجزاتهم أنها آيات الحق تعالى، وهذه طبيعة المتقدّمين والمتأخرين منهم، وإنما المهتدي من يهديه الله تعالى بفضله وكرمه، ومن إنكارهم الطبعيّ: أنهم ما آمنوا بنبوّة يوسف، فلما هلك.. أنكروا أن يكون بعده رسول الله، وذلك من زيادة شقاوة الكافرين، كما أن من كمال سعادة المؤمنين أن

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

يؤمنوا بالأنبياء قبل نبيهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: أضلالاً مثل ذلك الإضلال الفظيع الواقع لهم ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ويصد عن سبيل الحق وقصد السبيل ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ منهمك في المعاصي متجاوز الحد فيها، مستكثر منها ﴿مُّرْتَابٌ﴾ شاك في وحدانيته ووعده ووعيده؛ لغلبة الوهم عليه وانهماكه في التقليد.

والموصول في قوله[1]: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: بدل من ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والجمع باعتبار معناها؛ إذ لا يريد مسرفاً واحداً بل كل مسرف، أو عطف بيان لها، أو في محل نصب بإضمار أعني، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين، أو مبتدأ وخبره ﴿يَطْبَعُ﴾. والمراد بالمجادلة: ردّ الآيات والطعن فيها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾؛ أي: بغير حجة وبرهان صالحة للتمسك بها ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ صفة لسلطان ﴿كَبُرَ﴾؛ أي: عظم من هو مسرف مرتاب أو الجدال، ففاعله: ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾. وقيل: ضمير يعود على الجدال المفهوم من يجادلون، وهذا أولى كما في «الشوكاني»؛ أي: عظم الجدال ﴿مَقْتًا﴾؛ أي: من جهة البغض الشديد والنفور القوي ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، متعلق بـ﴿كَبُرَ﴾ وكذلك قوله: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يمقتهم الذين آمنوا بذلك الجدال، قيل: هذا من كلام الرجل المؤمن، يحتمل أن يراد به التعجب، وأن يراد به الذم كبئس، وقيل: ابتداء كلام من الله سبحانه.

والمعنى[2]: أي إنّ هؤلاء المسرفين المرتابين هم الذين يخاصمون في حجج الله التي أتتهم بها رسله ليدحضوها بالباطل من الحجج التي لا مستساغ لها من عقل ولا نقل، فيتمسّكون بتقليد الآباء والأجداد ويتمسَّكون بترّهات الأباطيل التي لا يتقبلها ذوو الحصافة والرأي، كبر ذلك الجدال بغضاً لدى الله والمؤمنين، فمقت الله إياهم يكون بما يستتبعه من سوء العذاب، ومقت المؤمنين تظهر آثاره في هجرهم إياهم، والاحتراس من التعامل معهم، وعدم الركون إليهم في الدين والدنيا.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

ثم بيَّن أنّ هذه سنة الله فيهم وفي أمثالهم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما طبع الله سبحانه على قلوب المسرفين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم وختم عليها ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه، ويختم ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ﴾ شخص ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ عن الإيمان ﴿جَبَّارٍ﴾ عن قبول الحق والهدى، فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والمجادلة بالباطل.

أي[1]: يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين الذين أبو أن يوحدوا الله تعالى ويصدقوا رسله، واستعظموا عن اتباع الحق، فيصدر عنهم أمثال ما ذكر من الإسراف وغيره مما مرّ قريباً.

قال صاحب «الروح»: واعلم[2]: أنّ الطابع هو الله تعالى، والمطبوع هو القلب، وسبب الطبع هو التكبّر والجبارية، وحكمه أن لا يخرج من القلب ما فيه من الكفر والنفاق والزيغ والضلال، فلا يدخل فيه ما في الخارج من الإيمان والإخلاص والسداد والهدى، وهو أعظم عقوبة من الله سبحانه، فعلى العاقل أن يتشبّث بالأسباب المؤدّية إلى شرح الصدر لا إلى طبع القلب، قال إبراهيم الخوَّاص: ـ رحمه الله ـ: دواء القلب خمسة: قراءة القرآن بالتدبّر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرّع إلى الله عند السحر، ومجالسة الصالحين.

وقرأ الجمهور[3]: بإضافة ﴿قَلْبِ﴾ إلى ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم، وعليها ففي الكلام حذف تقديره: كذلك يطبع الله على كل قلب كل شخص متكبر جبار، فحذف كل الثاني لدلالة الأول عليه.

والمعنى: أنه سبحانه يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين.

وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وابن ذكوان عن أهل الشام، والأعرج بخلاف عنه: بتنوين ﴿قلب﴾ على أنّ ﴿متكبّر﴾ صفة له فيكون القلب مراداً به الجملة، ونسب التكبر إلى القلب؛ لأنه هو الذي يتكبَّر وسائر الأعضاء تبع له، ولهذا قال النبي ﷺ: «إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

الجسد كله ألا وهي القلب». وقال مقاتل: المتكبّر: المعاند في تعظيم أمر الله تعالى، والجبّار: المسلّط على خلق الله، وقال قتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق.

قال في «الكواشي»: وكل على كلا القراءتين لعموم الطبع جميع القلب لا لعموم جميع القلوب. انتهى. وقرأ ابن مسعود: (على قلب كل متكبر). وفي الآية ذم للمتكبر والجبار، وقال ﷺ: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذرّ يطأهم الناس لهوانهم على الله» وذلك لأنّ الصورة المناسبة لحال المتكبر الجبار صورة الذر، كما لا يخفى على أهل القلب.

ثمّ لمّا سمع فرعون هذا.. رجع إلى تكبّره وتجبّره، معرضاً عن الموعظة، نافراً من قبولها ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ اللعين لوزيره، قصداً إلى صعود السموات لغاية تكبره وتجبره: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى﴾ أمر من بنى يبني بناء، ﴿صَرْحًا﴾؛ أي: قصراً مشيداً بالآجر؛ أي: بناء عالياً رفيعاً مكشوفاً ظاهراً لا يخفى على الناظرين، وإن بعد من الآجر وهو الطوب المحروق، كما قال في سورة القصص: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ ولهذا كره الآجر في القبور، كما في «عين المعاني»؛ أي: لأنّ فرعون أول من اتخذه.

قال في «كشف الأسرار»: كان هامان وزير فرعون، ولم يكن من القبط ولا من بني إسرائيل؛ يقال: إنه لم يغرق مع فرعون وعاش بعده زماناً شقياً محزوناً يتكفف الناس. ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ﴾ وأصعد من ذلك الصرح ﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ والطرق العلوية ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: طرقها وأبوابها، وهو بيان للأسباب؛ لأن الشيء إذا أبهم ثم فسّر.. كان أوقع في النفوس، وأنشد الأخفش عند تفسيره للآية بيت زهير:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ ٱلْمَنَايَا يَنَلْنَهُ   وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ ٱلسَّمَاءِ بِسُلَّمِ

وقيل: أسباب السموات: الأمور التي يستمسك بها، وفي «فتح الرحمن»: فإن قلت: ما فائدة التكرار هنا؟.

قلت: فائدته: أنه إذا أبهم ثم أوضح.. كان تفخيماً لشأنه، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات.. أبهمها ثم أوضحها. اهـ.

﴿فأطلع﴾ وأنظر ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بفتح الهمزة ونصب العين على جواب الترجي، وقرأ الجمهور ﴿فأطلع﴾ بالرفع عطفاً على ﴿أبلغ﴾، فهو على هذا داخل

في حيّز الترجي، وقرأ الأعرج والسلمي وعيسى بن عمر وحفص وأبو حيوة وزيد بن علي والزعفراني وابن مقسم ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالنصب على جواب الترجي، كما قاله أبو عبيد وغيره، أو على جواب الأمر في قوله: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ نظير قوله:

يَا نَاقُ سِيْرِيْ عَنَقاً فَسِيْحَا إِلَىٰ سُلَيْمَانَ فَنَسْتَرِيْحَا

قال النحاس: ومعنى النصب خلاف معنى الرفع، لأنّ معنى النصب متى بلغت الأسباب اطلعت، ومعنى الرفع ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ ولعلي أطلع بذلك، وفي هذا دليل على أنّ فرعون كان بمكان من الجهل عظيم، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جدّاً ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾؛ أي: أظن موسى ﴿كَٰذِبًا﴾ في ادعائه بأن له إلٰهاً، أو فيما يدّعيه من الرسالة.

يقول الفقير: لم يقل: كذّاباً، كما قال عند إرساله إليه لأن القائل هنا هو فرعون وحده وحيث قال كذّاب. رجعت المبالغة إلى فرعون وهامان وقارون، فافهم.

والمعنى: أي وقال فرعون بعد سماعه عظة المؤمن، وتحذيره له من بأس الله إذا كذب بموسى وقتله: يا هامان، ابن لي قصراً منيفاً عالي الذرا، رفيع العماد، علّني أبلغ أبواب السماء وطرقها، حتى إذا وصلت إليها.. رأيت إله موسى، ولا يريد بذلك إلا الاستهزاء والتهكُّم وتكذيب دعوى الرسالة من رب السموات والأرض.

والخلاصة: أن هذا نفي لرسالته من عند ربه، ثم أكّد هذا النفي الضمني بالتصريح به بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ فيما يقول ويدعي من أنّ له في السماء رباً أرسله إلينا، وقد قال هذا[1] تمويهاً وتلبيساً على قومه، توصلاً بذلك إلى بقائهم على الكفر، وإلا فهو يعلم أنّ الإله ليس في السماء فحسب، وكأنه يقول: لو كان الإله موجوداً لكان له محل، ومحله إما الأرض، وإما السماء، ولم نره في الأرض فإذاً هو في السماء، والسماء لا يتوصّل إليها إلا بسلّم، فيجب أن يبني الصرح لنصل إليه.

---

(١) روح البيان.

ثم بين السبب الذي دعاه إلى ما صنع، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ومثل ذلك التزيين البليغ المفرط ﴿زُيِّنَ﴾ وحسّن ﴿لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ أي: عمله السيىء فانهمك فيه انهماكاً بليغاً لا يرعوي عنه بحال ﴿وَصُدَّ﴾؛ أي: صرف فرعون ومنع ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾؛ أي: عن سبيل الرشاد، والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى، وبالتوسط هو الشيطان، ولذا قال في آية أخرى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ وهذا عند أهل السنة، وأما عند المعتزلة فالمزيّن والصاد هو الشيطان.

أي[1]: ومثل ذلك التزيين المذكور من بناء الصلاح والإطلاع إلى إله موسى، زيّن الشيطان لفرعون عمله السيىء من الشرك والتكذيب، فتمادى في غيّه واستمرّ في طغيانه، ولم يرعو عنه بحال، وصدّ عن سبيل الرساد بأمثال هذه التمويهات والشبهات، وما كان ذلك إلا بسوء استعداده وتدسيته نفسه، والسير بها قدماً في شهواتها، دون أن يكون لها وازع يصدها عن غيّها، ويثوب بها إلى رشدها.

والنفسُ كالطِّفلِ إنْ تهمِلْهُ شبَّ على ... حُبِّ الرضاعِ وإنْ تفطِمْهُ ينفطِمِ

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَصُدَّ﴾ بفتح الصاد والدال؛ أي: صد فرعون الناس عن السبيل، وقرأ الكوفيون: ﴿وصدَّ﴾ بضم الصاد مبنياً للمفعول، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم، ولعل وجه الاختيار لها منهما كونها مطابقة لما أجمعوا عليه في ﴿زُيِّنَ﴾ من البناء للمفعول، وقرأ يحيى بن وثّاب وعلقمة: ﴿صِدّ﴾ بكسر الصاد وقرأ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن بن أبي بكرة بفتح الصاد وضم الدال منوّناً على أنه مصدر معطوف على ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ أي: زين له الشيطان سوء العمل والصدّ.

ثم ذكر عاقبة مكره وتدليسه وأنه ذاهب سدىً، وأنّ الله ناصرٌ أولياءَهُ ومهلكٌ أعداءَهُ، متبّرٌما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ﴾ واحتياله الذي يحتال به ليطلع على إله موسى ﴿إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾؛ أي: إلا في خسار وهلاك وذهاب مال؛ لأنها نفقة تذهب باطلاً سُدىً، دون أن يصل إليه شيء مما أراده من القضاء على دعوة موسى، فالنصر في العاقبة له ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

ثم إنّ ذلك الرجل المؤمن أعاد التذكير والتحذير، كما حكى الله عنه بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ الرجل ﴿ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ من آل فرعون ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ فيما دلَلْتكم عليه، أصله: يا قومي اتبعوني ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾؛ أي: أدلُّكم سبيلاً يصل إلى المقصود والرشد، والرشاد: الاهتداء لمصالح الدين والدنيا، وفيه تعريض بأن ما سلكه فرعون وقومه سبيل الغيّ والضلال، وفيه إشارة إلى أن الهداية مودعة في اتباع الأنبياء والأولياء، وللوليّ أن يهدي سبيل الرشاد بتبعيّة النبي عليه السلام، كما يهدي النبي إليه؛ أي: اقتدوا بي في الدين، أهدكم سبيل الرشاد وهو الجنة.

وقرأ معاذ بن جبل[1]: ﴿الرشّاد﴾ بتشديد الشين، كما تقدم قريباً الكلام على هذه القراءة، والرد على من جعلها في كلام فرعون، ووقع في المصحف ﴿اتبعون﴾ بدون ياء، كذلك قرأ أبو عمرو ونافع: بحذفها في الوقف، وإثباتها في الوصل، وقرأ يعقوب وابن كثير: بإثباتها وصلاً ووقفاً، وقرأ الباقون: بحذفها وصلاً ووقفاً، فمن أثبتها فعلى ما هو الأصل، ومن حذفها فلكونها حذفت في المصحف.

والمعنى[2]: أي يا قوم إن اتبعتموني فقبلتم منّي ما أقول لكم.. سلكتم الطريق الذي به ترشدون باتباعكم دين الله الذي ابتعث به موسى، ثم زهّدهم في الدنيا التي قد آثروها على الآخرة، فصدّوا عن التصديق برسول الله فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ يتمتّع بها أياماً، ثم تنقطع وتزول؛ أي: تمتّع يسيرٌ وانتفاعٌ قليل لسرعة زوالها؛ لأنَّ الدنيا بأسرها ساعة، فكيف عمر إنسان واحدٍ، قال محمد بن علي الترمذي - رحمه الله -: لم تزل الدنيا مذمومة في الأمم السالفة عند العقلاء منهم، ولم يزل طالبوها مهانين عند الحكماء الماضية، وما قام داع في أُمة إلا حذّر متابعة الدنيا وجمعها والحب لها، ألا ترى إلى مؤمن آل فرعون كيف قال: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، كأنهم قالوا: وما سبيل الرشاد؟، فقال: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ...﴾ إلخ. يعني: لن تصل إلى سبيل الرشاد وفي قلبك محبّة للدنيا وطلب لها ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾؛ أي: الاستقرار؛ لكونها دائمة لا تنقطع ومستمرّة لا تزول لخلودها ودوام ما فيها، فالدائم خير من المنقضي، قال بعض العارفين: لو كانت الدنيا ذهباً فانياً، والآخرة خزفاً باقياً.. لكانت الآخرة خيراً من

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الدنيا، فكيف والدنيا خزفٌ فانٍ، والآخرة ذهب باقٍ.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ نام على حصير، فقام وقد أثر في جسده، فقال ابن مسعود: يا رسول الله لو أمرتنا أن نبسط لك لنفعل، فقال: «ما لي وللدنيا، وما أنا والدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثمّ راح وتركها» وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا...﴾ الآية. قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة، وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الحياة الدنيا متاع، وليس من متاعها شيء أفضل من المرأة الصالحة، التي إذا نظرت إليها.. سرّتك، وإذا غبت عنها.. حفظتك في نفسها ومالها». وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبي ﷺ قال: «يا بنيّ أكثر ذكر الموت، فإنك إذا أكثرت ذكر الموت.. زهدت في الدنيا، ورغبت في الآخرة، وإنّ الآخرة دار قرار، والدنيا غرّارة، والمغرور من اغْترّ بها.

والمعنى(١): أي يا قوم ما هذا النعيم الذي عجّل لكم في هذه الحياة الدنيا إلا قليل المدى، تستمتعون به إلى أجل أنتم بالغوه ثم تموتون، وإن الآخرة هي دار الاستقرار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها، ولا ظعن عنها إلى غيرها، وفيها إما نعيم مقيمٌ وإما عذاب أليم.

ثم بيّن كيف تحصل المجازاة في الآخرة، وأشار إلى أنّ جانب الرحمة فيها غالب على جانب العقاب، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ في هذه الدار الدنيا ﴿سَيِّئَةً﴾؛ أي: معصيةً من المعاصي كائنةً ما كانت ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ ولا يعذب إلا بقدرها، عدلاً من الله سبحانه، فخلود الكافرين في النار مثل لكفره ولو ساعةً لأبديّة اعتقاده، وأما المؤمن العاصي فعقابه منقطع، إذ ليس على عزم أن يبقى مصرّاً على المعصية.

والظاهر: شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة، وقيل: هي خاصة بالشرك، ولا وجه لذلك، وفي الآية دليل على أنّ الجنايات سواء كانت في النفوس

---

(١) المراغي.

أو الأعضاء أو الأموال تغرم بأمثالها، والزائد على الأمثال غير مشروع ﴿وَمَنْ عَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ وهو[1] كل ما طلب به رضى الله تعالى أيّ عملٍ كان من الأعمال المشروعة، سواء كان ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ﴾ كان من ﴿أُنثَىٰ﴾ ذكرهما ترغيباً لهما في الصالحات ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أنه ﴿مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبما جاءت به رسله جعل العمل عمدة، والإيمان حالاً للإيذان بأنه لا عبرة بالعمل بدون الإيمان، إذ الأحوال مشروطة على ما تقرّر في علم الأصول ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا بين العمل الصالح والإيمان ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ حالة كونهم ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا﴾؛ أي: يُعطَون فيها من نعيمها ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بغير تقدير وموازنة بعملهم، بل أضعافاً مضاعفة، فضلاً من الله ورحمة.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: مما لم يكن في حساب العبد أن يرزق مثله، قال مقاتل: يقول لا تبعة عليهم فيما يعطون في الجنة من الخير، وقيل: العمل الصالح هو لا إله إلا الله، وقرأ أبو رجاء وشيبة والأعمش والأخوان ـ حمزة والكسائي ـ والصاحبان نافع وابن عامر وحفص[2]: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بفتح الياء مبنياً للفاعل، وباقي السبعة ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن ويعقوب وأبو بكر عن عاصم والأعرج والحسن وأبو جعفر وعيسى: بضمها مبنياً للمفعول.

والمعنى: أي من عمل في دار الدنيا معصية من المعاصي، كائنةً ما كانت فلا يعذب إلا بقدرها من غير مضاعفة للعقاب، ومن عمل بطاعة الله وائتمر بأمره وانتهى عمّا نهى عنه، ذكراً كان أو أنثى وهو مؤمن بربّه، مصدق بأنبيائه ورسله.. فأولئك يدخلون الجنة، ويمتعون بنعيمها بلا تقدير ولا موازنة للعمل، بل يجازون أضعافاً مضاعفةً بلا انقضاء ولا نفاد.

الإعراب

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مُوسَىٰ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية، جواب لقسم محذوف، تقديره: والله لقد أرسلنا موسى، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿مُوسَىٰ﴾؛ أي: حالة كونه مؤيّداً بآياتنا التكوينية والتنزيلية ﴿وَسُلْطَـٰنٍ﴾: معطوف على ﴿آياتنا﴾ ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿وَسُلْطَـٰنٍ﴾. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ﴿وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾: معطوفان على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وكل من الثلاثة مجرور بالفتحة، لأنها من الأسماء الأعجمية. ﴿فَقَالُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾: خبران لمبتدأ محذوف؛ أي: هو ساحر كذاب، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية. ﴿جَآءَهُم﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ومفعول به، والجملة: فعل شرط لـ﴿لما﴾ في محل جر بالإضافة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق بجاءهم. ﴿مِنْ عِندِنَا﴾: متعلق بمحذوف حال من الحق. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل جواب ﴿لما﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾: مستأنفة. ﴿ٱقْتُلُوٓا۟﴾: فعل أمر وفاعل، ﴿أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مَعَهُۥ﴾ ظرف متعلق بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ٱقْتُلُوٓا۟﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿مَا﴾: نافية ﴿كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، وهو إظهار في مقام الإضمار؛ أي: وما كيدهم بموسى عليه السلام. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرّغ. ﴿فِى ضَلَـٰلٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُوا۟﴾ والرابط اسم الظاهر القائم مقام الضمير؛ لأنّ الأصل أن يقال: وما كيدهم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالُوا۟﴾ ﴿ذَرُونِىٓ﴾: فعل أمر وفاعل، ونون وقاية، ومفعول به، والجملة: في محل النصب

مقول قال. ﴿أَقْتُلْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، مجزوم بالطلب السابق. ﴿مُوسَىٰ﴾: مفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلْيَدْعُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿واللام﴾: حرف جزم وطلب. ﴿يدع﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿رَبَّهُۥٓ﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ذَرُونِيٓ﴾، والمقصود بالأمر هنا: التعجيز بزعمه. ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَخَافُ﴾: من الفعل المضارع، والفاعل المستتر: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾، على كونها مسوقة لتعليل القتل ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يُبَدِّلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿دِينَكُمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إني أخاف تبديله دينكم الذي أنتم عليه، ﴿أَوْ﴾ حرف عطف. ﴿أَن يُظْهِرَ﴾: معطوف على ﴿أَن يُبَدِّلَ﴾، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿يُظْهِرَ﴾. ﴿ٱلْفَسَادَ﴾: مفعول ﴿يُظْهِرَ﴾، والتقدير: أو إظهاره الفساد في الأرض.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿قال موسى﴾: فعل وفاعل معطوف على قالوا أيضاً. ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿عُذْتُ﴾: فعل وفاعل في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِرَبِّى﴾ متعلق بـ﴿عُذْتُ﴾، ﴿وَرَبِّكُم﴾: معطوف على ﴿ربي﴾. ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿عُذْتُ﴾ وجملة ﴿لَّا يُؤْمِنُ﴾: صفة لـ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾. ﴿بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ متعلق بـ﴿يُؤْمِنُ﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قال رجل﴾: فعل وفاعل. ﴿مُّؤْمِنٌ﴾: صفة أولى لـ﴿رَجُلٌ﴾. ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ نعت ثان له. ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿رَجُلٌ﴾ ومفعوله، والجملة: في محل الرفع صفة ثالثة

لـ﴿رَجُلٌ﴾، وجملة ﴿قال﴾: مستأنفة مسوقة لإيراد الحل الملائم للعقدة القصصية بعد أن عاذ موسى بربه ليكفيه شر هذا اللعين. ﴿أَتَقْتُلُونَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿تقتلون رجلاً﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول قال ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَقُولَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿رَجُلًا﴾ والجملة الفعلية مع أن المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً لأجله؛ أي: أتقتلونه لأجل قوله: ﴿رَبِّيَ﴾: مبتدأ، ﴿اللَّهُ﴾: خبره أو بالعكس والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولَ﴾، ﴿وَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَاءَكُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: متعلق بـ: جاء. ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: حال من ﴿البينات﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب حال من ﴿رَجُلًا﴾ فإن قيل: هو نكرة.. فالجواب: أنه في حيز الاستفهام، وكل ما سَوّغ الابتداء بالنكرة سوغ انتصاب الحال منها، ويجوز أن يكون حالاً من فاعل ﴿يَقُولَ﴾. اهـ «سمين».

﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَكُ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، وعلامة جزمه السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف، واسمها: ضمير مستتر يعود على ﴿رَجُلًا﴾. ﴿كَاذِبًا﴾: خبرها. ﴿فَعَلَيْهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿عليه﴾: خبر مقدم. ﴿كَذِبُهُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل الجزم جواب ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿أَتَقْتُلُونَ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾ ﴿وَإِن يَكُ﴾: جازم ومجزوم. ﴿صَادِقًا﴾: خبر ﴿يَكُ﴾. ﴿يُصِبْكُم﴾: فعل مضارع ومفعول به مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿بَعْضُ الَّذِي﴾: فاعل ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى، وجملة ﴿يَعِدُكُمْ﴾: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: يعدكموه، ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَهْدِي﴾: خبره وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَهْدِي﴾. ﴿هُوَ مُسْرِفٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿كَذَّابٌ﴾: خبر ثان،

والجملة الاسمية: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَٰقَوْمِ﴾: ﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿قوم﴾: منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، وجملة النداء، في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، لأنه من تتمة كلام الرجل المؤمن. ﴿لَكُمُ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بما تعلق به الخبر. ﴿ظَٰهِرِينَ﴾: حال من الضمير في ﴿لَكُمُ﴾ والعامل فيها وفي اليوم ما تعلق به لكم. اهـ «سمين». ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿ظَٰهِرِينَ﴾؛ أي: غالبين في الأرض، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردت النصيحة لكم.. فأقول لكم ﴿من ينصرنا من بأس الله﴾. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَنصُرُنَا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَنصُرُنَا﴾، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ويصح أن تكون ﴿الفاء﴾: عاطفة ما بعدها على جملة قوله: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وإن طال الفصل، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿جَآءَنَا﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الـ﴿بَأْسِ﴾ ومفعول به، والجملة: في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجوابها معلوم مما قبلها، تقديره: إن جاءنا بأس الله فمن ينصرنا منه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أُرِيكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول أول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أُرِيكُمْ﴾. والجملة الفعلية: في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَرَىٰ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والجملة: صلة لـ﴿مَآ﴾الموصولة والعائد: محذوف، تقديره: إلا ما أراه لنفسي. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَهْدِيكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾: مفعول ثان لـ﴿أَهْدِيكُمْ﴾ والجملة الفعلية: في محل

النصب معطوفة على جملة ﴿مَآ أُرِيكُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قال الذي﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾، وجملة ﴿ءَامَنَ﴾: صلة الموصول، وجملة النداء. في قوله﴿يَٰقَوْمِ﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَخَافُ﴾: خبره. ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿أَخَافُ﴾، ﴿مِّثْلَ﴾: مفعول به لـ﴿أَخَافُ﴾. ﴿مِّثْلَ﴾: مضاف. ﴿يَوْمِ﴾: مضاف إليه. ﴿يَوْمِ﴾: مضاف. ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾: مضاف إليه، وكثرة الإضافة لا تخرج الكلام عن الفصاحة، لورودها في الكتاب والسنة. ﴿مِّثْلَ﴾: بدل عن ﴿مِّثْلَ﴾ الأول، أو عطف بيان له وهو مضاف، ﴿دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ مضاف إليه. ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾: معطوفان على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل الجر معطوف على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ أيضاً. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية: ﴿ٱللَّهِ﴾ اسمها، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾: خبرها، ﴿ظُلْمًا﴾: مفعول به لـ﴿يُرِيدُ﴾. ﴿لِّلْعِبَادِ﴾: متعلق بـ ﴿ظُلْمًا﴾ وجملة ﴿ما﴾ الحجازية: معطوفة على جملة ﴿يَٰقَوْمِ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾: معطوف على جملة النداء الأول، ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَخَافُ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾ ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَخَافُ﴾ ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾: مفعول به لـ﴿أَخَافُ﴾. ﴿يَوْمَ﴾: مضاف، ﴿ٱلتَّنَادِ﴾: مضاف إليه مجرور بالمضاف، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء المحذوفة تبعاً لرسم المصحف، منع من ظهورها الثقل؛ لأنه اسم منقوص. ﴿يَوْمَ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ﴾ الأول. ﴿تُوَلُّونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بثبات النون. ﴿مُدْبِرِينَ﴾: حال من فاعل ﴿تُوَلُّونَ﴾، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿مَا﴾: نافية حجازية. ﴿لَكُم﴾: خبرها مقدم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿عَاصِمٍ﴾ ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿عَاصِمٍ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿مَا﴾ الحجازية: في محل النصب

حال ثانية من فاعل ﴿تُوَلُّونَ﴾، ولك أن تهمل ﴿مَا﴾؛ لتقدم خبرها، ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يُضْلِلِ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة. ﴿ما﴾: تميمية أو حجازية. ﴿لَهُ﴾: خبرها مقدم أو خبر مقدم ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿هَادٍ﴾: اسمها مؤخر أو مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾: فعل ماض ومفعول به وفاعل، والجملة: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة أو معطوفة على ما قبلها. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور حال من ﴿يُوسُفُ﴾؛ أي: من قبل موسى، فبناء الظرف على الضم؛ لأن المضاف إليه منوي معناه ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: متعلق بـ﴿جَاءَكُمْ﴾ ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿زِلْتُمْ﴾: فعل ماض ناقص و﴿التاء﴾: اسمها. ﴿فِي شَكٍّ﴾: خبرها، وجملة ﴿زال﴾ معطوفة على جملة ﴿جَاءَكُمْ﴾ ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿شَكٍّ﴾ وجملة ﴿جَاءَكُم﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿جَاءَكُم﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية لقوله: ﴿ما زلتم﴾، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿هَلَكَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿يُوسُفُ﴾. والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب. ﴿قُلْتُمْ﴾: فعل وفاعل جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها: في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰ﴾ تقديره: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ إلى قولكم وقت هلاكه: ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾: الجار والمجرور صفة ثانية لـ﴿شَكٍّ﴾ أو متعلق بـ﴿زال﴾ ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ﴾ ناصب وفعل وفاعل ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ جار ومجرور حال من ﴿رَسُولًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿رَسُولًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول

﴿قُلْتُمْ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يُضِلُّ﴾. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾: خبرانِ لَهُ، والجملة الاسمية: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والتقدير: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾: إضلالاً مثل الإضلال الفظيع الواقع لفرعون وقومه، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾، ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾: متعلق به أيضاً، وجملة ﴿أَتَىٰهُمْ﴾: في محل الجر صفة لـ﴿سُلْطَٰنٍ﴾. ﴿كَبُرَ﴾: فعل ماض دال على التعجب والاستعظام لجدالهم، وفاعله: ضمير مستتر يعود على المصدر المفهوم من ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾. ﴿مَقْتًا﴾: تمييز محول عن الفاعل؛ أي: كبر مقت جدالهم؛ أي: المقت المرتب على جدالهم. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿كَبُرَ﴾، ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وجملة ﴿كَبُرَ﴾: من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر المبتدأ، والتقدير: الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، كبر جدالهم وعظم عند الله وعند الذين آمنوا من جهة كونه ممقوتاً، والجملة الاسمية: مستأنفة؛ لأنه ابتداء كلام من الله تعالى. قال أبو حيان في «النهر»: والأولى في إعراب هذا الكلام أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وخبره ﴿كَبُرَ﴾ والفاعل: ضمير المصدر المفهوم من ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾، وهذه الصفة موجودة في فرعون وقومه، ويكون الواعظ لهم قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب لحسن مجاورته لهم واستجلاب قلوبهم، وهنا أوجه عن الإعراب، أوصلها بعضهم إلى عشرة لا طائل تحتها، وأولاها بالذكور، وأقربها إلى المعقول ما ذكرناه، وقال أبو البقاء: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ فيه أوجه:

أحدها: أن يكون خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين، وهم يرجع على قوله: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، لأنه في معنى الجمع.

والثاني: أن يكون مبتدأ، والخبر ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ والعائد: محذوف؛ أي: على كل قلب متكبر منهم. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الأمر كذلك، وما بينهما معترض.

الثالث: أن يكون الخبر ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾؛ أي: كبر قولهم مقتاً.

والرابع: أن يكون الخبر محذوفاً؛ أي: معاندون، ونحو ذلك.

والخامس: أن يكون منصوباً بإضمار أعني. وقال الزمخشري: الذين يجادلون بدل من ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ نظراً لمعنى مَنْ لا للفظ بها، لأنها جمع في المعنى لأنه لا يريد مسرفاً واحداً، فكأنه قال: كل مسرف، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: طبعاً مثل ذلك الطبع. ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلق بـ﴿يطبع﴾، ﴿كُلِّ﴾: مضاف. ﴿قَلْبِ﴾: مضاف إليه. ﴿قَلْبِ﴾: مضاف. ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾: مضاف إليه. ﴿جَبَّارٍ﴾: صفة ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ أو ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ على تنوين ﴿قَلْبٍ﴾ صفة أولى له، ﴿جَبَّارٍ﴾: صفة ثانية له.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قال فرعون﴾: فعل وفاعل معطوف على الجمل التي قبلها، أو مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾: منادى مفرد العلم في محل النصب مبني على الضم، وجملة النداء، في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱبْنِ﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله: ضمير مستتر يعود على ﴿هامان﴾، تقديره: أنت، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء. ﴿لِي﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿صَرْحًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليه. ﴿صَرْحًا﴾: مفعول به، ﴿لَّعَلِّيٓ﴾: ناصب واسمها، وجملة ﴿أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾: خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: بدل من الأسباب بدل كل من كل، وفائدة الإبدال: أن الشيء إذا أبهم ثم أوضح.. كان تفخيماً لشأنه، وهذا هو مراد فرعون. ﴿فَأَطَّلِعَ﴾: بالنصب ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية. ﴿أطلعَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿الفاء﴾ السببية

الواقعة في جواب الأمر، وهو ﴿ٱبۡنِ﴾ أو في جواب الترجي وهو ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ وفاعله: ضمير مستتر يعود على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ تقديره: أنا، والجملة الفعلية، صلة أن المضمرة وأن مع صلتها: في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: ليكن بناؤك صرحاً لي فاطلاعي إلى إله موسى، أو ليكن بلوغي الأسباب أسباب السموات، فاطلاعي على إله موسى، وقرىء ﴿فأطلع﴾ بالرفع، على أن ﴿الفاء﴾: عاطفة مجردة عن معنى السبب على ﴿أَبۡلُغُ﴾ فهو داخل في حيز الترجي، ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أطلع﴾ ﴿وَإِنِّي﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إني﴾: ناصب واسمه، ﴿لَأَظُنُّهُۥ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿أظنه﴾: فعل مضارع ناسخ، وفاعل مستتر، ومفعول أول. ﴿كَٰذِبٗا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: معطوفة على جملة ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: ﴿الكاف﴾: صفة لمصدر محذوف تقديره: تزييناً مثل ذلك التزيين المذكور؛ أي: كتزيين القول المذكور له، ﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لِفِرۡعَوۡنَ﴾: متعلق به، ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: نائب فاعل لـ﴿زُيِّنَ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَصُدَّ﴾: فعل ماض مغير الصيغة معطوف على ﴿زُيِّنَ﴾، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ متعلق بـ﴿صُدَّ﴾ ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو حالية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿فِي تَبَابٖ﴾: خبر المبتدأ، والجملة، معطوفة على جملة ﴿زُيِّنَ﴾: أو حال من نائب فاعل ﴿زُيِّنَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾، ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر صلة ﴿ٱلَّذِي﴾ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿النون﴾: للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية: في محل النصب مفعول به، وقرىء: بإثباتها وحذفها وصلاً ووقفاً، هذا بالنظر للفظ، وأما في الرسم فهي محذوفة لا غير، لأنها من ياءات الزوائد، والجملة

الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء. ﴿أَهْدِكُمْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الياء، وفاعله: ضمير مستتر وجوباً، تقديره: أنا و﴿الكاف﴾: مفعول به، ﴿سَبِيلَ﴾: مفعول به ثان أو منصوب بنزع الخافض، ﴿الرَّشَادِ﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية: جملة جوابية لا محل لها من الإعراب، ولكنها في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ الْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، بمعنى ما النافية وإلا المثبتة، ﴿هَٰذِهِ﴾: مبتدأ. ﴿الْحَيَوٰةُ﴾ بدل، ﴿الدُّنْيَا﴾: نعت ﴿الْحَيَوٰةُ﴾ ﴿مَتَٰعٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إنّ﴾: حرف نصب. ﴿الْءَاخِرَةَ﴾: اسمها ﴿هِيَ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ. ﴿دَارُ الْقَرَارِ﴾: خبر ﴿إنّ﴾ أو خبر ﴿هِيَ﴾، والجملة خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾: في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قال﴾، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿عَمِلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿سَيِّئَةً﴾: مفعول به ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية جوازاً. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يُجْزَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير مستتر تقديره: هو يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مِثْلَهَا﴾: مفعول ثان لـ﴿يُجْزَىٰٓ﴾ والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿ومن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفه. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿عَمِلَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، أو نعت لمصدر محذوف؛ أي: عملاً صالحاً. ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾: حال من فاعل ﴿عَمِلَ﴾. ﴿أَوْ أُنثَىٰ﴾: معطوف على ﴿ذَكَرٍ﴾. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل

النصب حال من فاعل ﴿عَمِلَ﴾. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً. ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى. ﴿يُرْزَقُونَ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿واو﴾: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ أو متعلق به ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لمفعول به محذوف، تقديره: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ رزقاً واسعاً بلا حساب ولا تبعة، وجملة ﴿يُرْزَقُونَ﴾: في محل النصب حال من ﴿واو﴾ ﴿يَدْخُلُونَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَسُلْطَٰنٍ﴾ والسلطان: الحجة والبرهان. ﴿فِرْعَوْنَ﴾: ملك القبط بالديار المصرية. ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾: وزيره. ﴿وَقَٰرُونَ﴾: كان أكثر الناس في زمانه تجارةً ومالاً. ﴿كَذَّابٌ﴾ والكذاب: هو الذي عادته الكذب، بأن يكذب مرةً بعد أخرى، ولم يقولوا: سحار؛ لأنهم كانوا يزعمون أنه ساحر، وأن سحرتهم أسحر منه، كما قالوا: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ كما مر في مبحث التفسير.

﴿أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾: ﴿الهمزة﴾: فيه مبدلة من واو أصله أبناو أبدلت الواو همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿واستحيوا﴾: أصله استحييوا: أمر من استحيي من باب استفعل، ومضارعه: يستحييون استثقلت الضمة على الياء الثانية، فنقلت إلى الأولى بعد سلب حركتها، ثم حذفت الياء الثانية لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة؛ لأنها لما سلبت حركتها.. سكنت فوزنه استفعوا.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى﴾ من عاذ يعوذ، كقال يقول، أصله: عوذ، قلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، فصار عاذ، كقال، ثم لما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك.. سكن آخره، فالتقى ساكنان: الألف والذال الساكنة، فحذفت الألف ثم سلبت حركة الفاء وعوض عنها شكلة مجانسة للعين المحذوفة التي هي الواو، والمجانس لها هو الضمة، فقيل: عذت بوزن فلت بضم الفاء، والعوذ: الالتجاء إلى الغير والتعلق به.

﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ أي: اتركوني، يقال: ذره؛ أي: دعه، يذره تركاً ولا

تقل وذراً، وأصله: وذره يذره، كوسعه يسعه، لكن ما نطقوا بماضيه ولا بمصدره ولا باسم الفاعل كما في «القاموس».

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ والرجل المؤمن: هو ابن عم فرعون، وولي عهده وصاحب شرطته، وهو الذي نجا مع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهو المراد بقوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾. ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وآل الرجل، خاصته الذي يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين، واسمه: شمعان، بالمعجمة على وزن سلمان، كما مر. وأصله: أهل أبدلت الهاء همزةً توصلاً لإبدالها ألفاً، ثم أبدلت ألفاً حرف مد مجانساً لحركة الهمزة المفتوحة قبلها، وقيل: إن أصله أول، قلبت الواو همزةً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

قال الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ مبيناً الخلاف في كلمة آل:

فـإبـدالُـهُ مـن هَـمـزةٍ هـاءُ اصْـلُـهـا   وقد قالَ بعضُ النَّاسِ مِنْ واوٍ ابْدِلا

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهي الشواهد الدالة على صدقه. ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾: ﴿يَكُ﴾: مضارع كان، وأصله: يكون بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى الكاف فسكنت إثر ضم فصارت حرف مد، ولما دخل الجازم ﴿إِنْ﴾ الشرطية على الفعل.. سكن آخره فصار اللفظ يكونْ، فالتقى ساكنان فحذفت الواو لذلك، ثم حذفت النون أيضاً حذفاً غير مطرد، كما ذكره في «الخلاصة» بقوله:

وَمِـنْ مُـضَـارِعٍ لِـكَـانَ مُـنْـجَـزِمْ   تُـحْـذَفُ نُـوْنٌ وَهُـوَ حَـذْفٌ مَـا ٱلْـتُـزِمْ

﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ المسرف: المقيم على المعاصي المستكثر منها، والكذاب: المفتري. ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ هو يوم القيامة، تَسَمَّىٰ بذلك لأن الناس ينادي فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة. قال أمية بن أبي الصلت:

وَبَـثَّ ٱلْـخَـلْـقَ فِـيْـهَـا إِذْ دَحَـاهَـا   فَـهُـمْ سُـكَّـانُـهَـا حَـتَّـىٰ ٱلـتَّـنَـادِ

وأصله: يوم التنادي بالياء، على أنه مصدر تنادى القوم بعضهم بعضاً تنادياً بضم الدال، ثم كسر لأجل مناسبة الياء المحذوفة لتناسب الفواصل، وأصل هذه الياء واو من الندوة، وهو مكان الالتقاء. ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ أصله: توليون استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان فحذفت الياء وضمت اللام لمناسبة الواو.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ الدأب: العادة المستمر عليها والشأن. ﴿فَمَا زِلْتُمْ﴾ من زال يزال، كخاف يخاف أصل زال: زول، كخاف أصله: خوف قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح ثم لما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك، سكن آخره فالتقى ساكنان: الألف وآخر الفعل، فحذفت الألف فصار اللفظ: زلتم فحذفت حركة الفاء، ونقلت إليه شكلة العين المحذوفة، وهي الكسرة لأن ماضيه من باب فعل بكسر العين، فقيل ﴿زِلْتُمْ﴾ بوزن فِلتم.

﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أصله: يضال نقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد فسكنت، فأدغمت في اللام الثانية. ﴿مُّرْتَابٌ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: مرتيب بصيغة اسم الفاعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿صَرْحًا﴾ والصرح: القصر الشامخ المنيف. وفي «المصباح»: الصرح بيت واحد يبنى مفرداً طويلاً ضخماً. وفي «الكشاف»: الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر، وإن بعد اشتقوه من صرح الشيء بالتشديد إذا ظهر، فإنه يكون لازماً أيضاً، وفي «السمين» في سورة النمل: الصرح: القصر أو صحن الدار أو بلاط يتخذ من زجاج، وأصله: من التصريح، وهو: الكشف. اهـ.

وهذه المادة عجيبة في مدلولها، لإنها تدل في جميع مشتقاتها على الظهور والإبانة، قالوا: لبن صريح: إذا ذهبت رغوته وخلص، وعربي صريح، من عرب صرحاء غير هجناء، ونسب صريح، وكأس صراح: لم تمزج، وصرحت الخمرة: ذهب عنها الزبد، ولقيته مصارحةً؛ أي: مجاهرةً، وصرح النهار: ذهب سحابه وأضاءت شمسه، وصرح بما في نفسه وبنى صرحاً وصروحاً وقعد في صرحة داره؛ أي: في ساحتها.

﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾: جمع سبب، وهو ما يتوصل به إلى شيء من حبل وسلم وطريق، والمراد هنا: الأبواب، قال زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنَلْنَهُ ... وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

والسبب أيضاً: من مقطعات الشعر حرف متحرك وحرف ساكن، أو حرفان متحركان، والأول يسمى خفيفاً، والثاني ثقيلاً. ﴿إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ والتباب: الخسران والهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾. ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أصله:

فأطتلع، أبدلت تاء الافتعال طاءً وأدغمت فيها الطاء. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ أصله: أظننه بوزن أفعله، نقلت حركة النون الأولى إلى الظاء فسكنت فأدغمت في الثانية. ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ والرشد والرشاد: الاهتداء لمصالح الدنيا والدين. ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ والمتاع: اسم مصدر من تمتّع بمعنىٰ المتعة، وهي التمتع والانتفاع، لا بمعنى السلعة؛ لأنّ وقوعه خبراً عن الحياة الدنيا يمنع منه. اهـ من «الروح».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ تفخيماً لشأن الخاص.

ومنها: تخصيص فرعون وهامان بالذكر؛ لأنّ الإرسال إليهما إرسال إلى القوم كلهم.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿كَذَّابٌ﴾، وفي قوله: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

ومنها: المقابلة بين القتل والاستحياء في قوله: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾.

ومنها: إطلاق الجمع على الواحد في قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟﴾ لأنّ القائل هو فرعون وحده؛ لأنه بمنزلة الكل، كما في قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ إشعاراً بعلة الحكم، وذمًّا لهم بالكفر، وحق العبارة أن يقال: وما كيدهم.

ومنها: الاعتراض بهذه الجملة في تضاعيف ما حكي عنهم من الأباطيل للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهروه، وإضمحلاله بالمرة، اهـ «أبو السعود».

ومنها: الإتيان بلام الأمر في قوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ للتعجيز؛ لأنه أمر تعجيز بزعمه أنّ موسى لا يمنعه ربّه منه.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ وقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾.

ومنها: إعادة النكرة نكرة في قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ بعد قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ لأنّ المراد بالنكرة الثانية غير الأولى، لأنّ المراد بالأولى شمعان ابن عمّ فرعون، وبالثانية موسى جرياً على القاعدة المشهورة عندهم المذكورة في قول بعضهم:

ثُمَّ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُشْتَهَرَهْ إِذَا أَتَتْ نَكِرَةٌ مُكَرَّرَهْ
تَغَايَرَتْ وَإِنْ يُعَرَّفْ ثَانِي تَوَافَقَا كَذَا ٱلْمُعَرَّفَانِ

ومنها: الحصر المستفاد من تعريف طرفي الجملة في قوله: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ مثل: صديقي زيد لا غير.

ومنها: الإتيان بضمير المخاطبين في قوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ حيث لم يقل من ربه، تهييجاً لهم على التأمل في أمره، والاعتراف به، وترك المكابرة معه؛ لأنّ ما كان من قبل رب الجميع يجب اتباعه، وإنصاف مبلغه. اهـ من «الروح».

ومنها: التعريض في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ لأنه عرّض به لفرعون؛ لأنه ﴿مُسْرِفٌ﴾ حيث قتل الأبناء بلا جرم ﴿كَذَّابٌ﴾ حيث ادّعى الألوهية، لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة، بل يفضحه ويهدم أمره.

ومنها: الإجمال ثم التفصيل في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ...﴾ إلخ.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ﴾، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ﴾.

ومنها: الإسناد العقلي في قوله: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى﴾ لما فيه من إسناد ما للعَمَلَةِ إلى الآمر.

ومنها: الإبهام ثم الإيضاح في قوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لأنّ في إبهامها أولاً، ثم إيضاحها تفخيماً لشأنها، وتشويقاً للسامع إلى معرفتها.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ فقد قابل بين الدنيا والآخرة، وهي من المحسنات البديعية.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿مَتَٰعٞ﴾ إفادة للتقليل.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فإن فيها تعريضاً بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغي والضلال.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ﴾، وقوله: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا :

﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ
بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ
إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾
فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا
وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ
فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ
ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ
تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا
لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ
مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ
وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي
سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ
إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ
خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ
صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ
ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن[1] هذا المؤمن لما رأى تمادي قومه في تمردهم وطغيانهم.. أعاد إليهم النصح مرةً أخرى، فدعاهم أولاً إلى قبول هذا الدين الذي هو سبيل الخير والرشاد، ثم بيّن لهم حقارة الدنيا وعظم شأن الآخرة، وأنها هي الدار التي لا زوال لها، ثم ذكر أنه يدعوهم إلى الإيمان بالله، الذي يوجب النجاة والدخول في الجنات، وهم يدعونه إلى الكفر الذي يوجب الدخول في النار، ثم أردف هذا ببيان أنْ الأصنام لا تستجاب لها دعوه، فلا فلائدة في عبادتها، ومردُّ الناس جميعاً إلى الله العليم بكل الأشياء، وهو الذي يجازي كل نفس بما كسبت، وأن المسرفين في المعاصي هم أصحاب النار، ثم ختم نصحه بتحذيرهم من بأس الله، وتفويض أمره إلى الله الذي يدفع عنه كل سوء يراد به، ثم أخبر سبحانه بأنه استجاب دعاءه فوقاه السوء الذي دبّروه له، وحفظه مما أرادوه به من اغتياله، وأحاط بآل فرعون سوء العذاب فغرقوا في البحر، ويوم القيامة يكون لهم أشد العذاب في النار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر في أول السورة أنه لا يجادل في آيات الله إلا القوم الكافرون، ثم ردّ على أولئك المبطلين المجادلين، تسليةً لرسوله، وتصبيراً له على تحمل أذى قومه.. أردف ذلك وعده له بالنصرة على أعدائه في الدنيا والآخرة، وتلك سنة الله تعالى، فهو ينصر الأنبياء والرسل، ويقيّض لهم من ينصرهم على أعدائهم، ويملأ قلوبهم بنور اليقين، ويلهمهم أنّ النصرة لهم آخراً مهما تقلبت بهم الأمور.

وعبارة أبي حيان هنا قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه لما ذكر[2] ما حل بآل فرعون، واستطرد من ذلك إلى ذكر شيء من أحوال الكفار في الآخرة.. عاد إلى ذكر ما منح رسوله موسى عليه

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ تأنيساً لمحد ﷺ، وتذكيراً لما كانت العرب تعرفه من قصة موسى عليه السلام. انتهى.

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله[1] سبحانه لما ذكر[2] فيما سلف أنهم يجادلون في آيات الله بغير سلطان، وكان من جدلهم أنهم ينكرون البعث، ويعتقدون استحالته، ويعملون أَقْبسة وَهْميّة وقضايا جَدلية، كقولهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ وقولهم: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.. ذكر هنا برهاناً يؤيد إمكان حدوثه، ويبعد عن أذهانهم استحالته، وهو خلقه للسموات والأرض ابتداءً على عِظم أجرامهما، ومن قدر على ذلك.. فهو قادر على إعادتكم، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أثبت أن يوم القيامة حق، وكان المرء لا ينتفع فيه إلاّ بطاعة الله، والتضرع له، وأشرف أنواع الطاعات الدعاء؛ أي العبادة لا جرم، أمر الله تعالى بها في هذه الآية، ولما كانت العبادة لا تنفع إلا إذا أقيمت الأدلة على وجود المعبود.. ذكر من ذلك تعاقب الليل والنهار، وخلق السموات والأرض، وخلق الإنسان في أحسن صورة، ورزقه من الطيبات.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها[3]: ما أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، قال السيوطي بسند صحيح عن أبي العالية: إن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: إن الدجال يكون منّا في آخر الزمان، ويكون من أمره كذا وكذا، فعظّموا أمره وقالوا: نصنع كذا وكذا، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾، قال: لا يبلغ الذي يقول: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فأمر نبيّه

---

(١) المراغي. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

أن يتعوّذ من فتنة الدجال، لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الدجال. وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في الآية. قال: هم اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ قال عظمة قريش.

التفسير وأوجه القراءة

ثم كرّر ذلك المؤمن دعاءَهم إلى الله، وصرّح بإيمانه، ولم يسلك المسالك المتقدمة، من إبهامه لهم أنه منهم، وأنه إنما تصدى لتذكيرهم، كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى، كما يقول الرجل المحب لقومه تحذيراً لهم من الوقوع فيما يخاف عليهم من مواضع الهلكة، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ﴾ الاستفهام فيه: للتوبيخ المضمن للتعجب؛ أي: أي شيء ثبت لي من المصالح حال كوني ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾؛ أي: إلى الإيمان الذي يوجب لكم النجاة من النار، شفقةً عليكم، واعترافاً بحقكم. ﴿و﴾ أيّ شيء ثبت لكم من المصالح في أنكم ﴿تدعونني إلى﴾ الكفر الذي يوجب لي الهلاك في ﴿ٱلنَّارِ﴾. وفي «روح البيان» قوله: ﴿أَدْعُوكُمْ﴾ في موضع[1] الحال من المنويّ في الخير، وتدعونني عطف عليه، ومدار التعجب دعوتهم إياه إلى النار لا دعوته إياهم إلى النجاة، كأنه قيل: أخبروني كيف هذا الحال، أدعوكم إلى الخير وتدعونني إلى الشر، وقال بعضهم: معنى ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ﴾ ما لكم أدعوكم. إلخ. فهو من قبيل ما لي أراك حزيناً؟ أي: ما لك تكون حزيناً؟

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: لِمَ جاء بالواو في النداء الأول والثالث دون الثاني؟.

قلت: لأنّ الثاني داخل في كلام هو بيان للمجمل وتفسير له، فأعطي الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو، وأما الثالث: فداخل على كلام ليس بتلك المثابة. اهـ «سمين». وعبارة الكرخي: ترك العطف في النداء الثاني؛ لأنه تفصيل لإجمال الأول، وهنا عطف لأنه ليس بتلك المثابة؛ لأنه كلام مباين للأول والثاني،

---

(١) روح البيان. (٢) الكشاف.

فحسن إيراد الواو العاطفة فيه. اهـ.

والمعنى: أي أخبروني كيف أنتم وما حالكم أدعوكم إلى النجاة من عذاب الله بإيمانكم بالله، وإجابة رسوله، وتصديق ما جاء به من عند ربه، وتدعونني إلى عمل أهل النار بما تريدون مني من الشرك؟

ثم فسّر الدعوتين على سبيل اللف والنشر المشوّش بقوله: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ أي: بوحدانيته ﴿و﴾ لـ﴿أشرك به﴾ سبحانه ﴿مَا﴾؛ أي: مخلوقاً ﴿لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: ليس لي علم بشركته مع الله في المعبودية، وقيل: علم بربوبيته، والمراد: نفي المعلوم رأساً، وهو المعبود، فضلاً عن عبادته.

وهذه الجملة[1]: بدل من ﴿تَدْعُونَنِي﴾ الأول على جهة البيان والتعليل لها والدعاء، كالهداية في التعدية بإلى واللام، وأتي في قوله: ﴿تَدْعُونَنِي﴾ بجملة فعلية؛ ليدل على أن دعوتهم باطلة لا ثبوت لها، وأتي في قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ﴾ إلخ. بجملةٍ اسمية؛ ليدل على ثبوت دعوته وتقويتها. اهـ «سمين».

أي: وأنا أدعوكم ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿الْعَزِيزِ﴾ في انتقامه ممن أشرك به، وإلى عبادة ﴿الْغَفَّٰرِ﴾ لذنب من آمنَ بِهِ؛ أي: أدعوكم إلى الإيمان بالعزيز الذي لم يكن له كفواً أحد، وأما المخلوقات فبعضها أكفاء بعض، وأيضاً إلى القادر على تعذيب المشركين به، الغفار لمن تاب ورجع إليه، القادر على غفران ذنوب المذنبين.

والمعنى: أي تدعونني إلى الكفر بالله والإشراك به في عبادته ما لم يقم دليل على ألوهيته، وأنا أدعوكم إلى من استجمع صفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة والعلم والإرادة والتمكن من المجازاة، والقدرة على التعذيب والغفران.

ثم أكّد ما سلف بقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ ﴿لا﴾: كلمة[2] نفي ورد لما ادعوه وزعموه من الكفر والإشراك، و﴿جَرَمَ﴾: فعل ماض بمعنى حق: وثبت، وفاعله: قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى عبادته وإشراكه من الأوثان والأصنام ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ للناس ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ إلى عبادته ﴿وَلَا﴾ استجابة دعوة أحدٍ لها ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ للشفاعة.

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

والمعنى: لا أكفر بالله ولا أشرك به ما ليس لي به علم، لأنه قد حق ووجب وثبت عدم دعوة آلهتكم إلى عبادة نفسها أصلاً، ومن حق المعبود أن يدعو الناس إلى عبادته بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهذا الشأن منتفٍ عن الأصنام بالكلية، لأنها في الدنيا جمادات لا تستطيع دعاء غيرها، وفي الآخرة إذا أنشأها الله حيواناً ناطقاً.. تتبرأ من عبدتها. أو المعنى: حتى وثبت عدم استجابة دعوة أحد من الناس لها؛ أي: ليس لها استجابة دعوة أحد من الناس، لا في الدنيا بالبقاء والصحة والغنى ونحوها، ولا في الآخرة بالنجاة ورفعة الدرجات وغيرهما، كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ فكيف تكون الأصنام ربًّا وليس لها قدرة على إجابة دعاء الداعين، ومن شأن الرب استجابة الدعوات وقضاء الحاجات.

وقيل: ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى: كسب وفاعله: مستكن فيه؛ أي: لا أكفر بالله ولا أشرك به شيئاً لدعوتكم إيّاي إلى ذلك، بل كسب ذلك الدعاء إلى الكفر والإشراك، وأفاد وأثبت بطلان دعوته؛ أي: بطلان دعوة المدعو إليه بمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته؛ كأنه قيل: إنكم تزعمون أن دعاءكم إلى الإشراك يبعثني على الإقبال عليه، وأنه سبب الإعراض وظهور بطلانه، وقال: ﴿جَرَمَ﴾: فعل من الجرم، وهو القطع، كما أن بد من لا بد، فعل من التبديد، وهو التفريق.

والمعنى: لا قطع؛ أي: لا انقطاع لبطلان ألوهية الأصنام؛ أي: لا ينقطع في وقت ما فينقلب حقاً، فيكون ﴿جَرَمَ﴾ اسم لا مبنياً على الفتح لا فعلاً ماضياً، كما هو على الوجهين الأولين.

وفي «القاموس»: ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: لا بدّ أو حقاً أو لا محالة، أو هذا أصله، ثم كثر حتى تحول إلى معنى القسم، فلذلك يجاب عنه باللام فيقال: لا جرم لآتينّك. انتهى. وفي «المختار»: وقولهم لا جرم، قال الفراء: هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة، فجرَت على ذلك وكثرت، حتى تحولت إلى معنى القسم، وصارت بمنزلة حقًّا، فلذلك يجاب عنه باللام كما يجاب بها عن القسم، ألا تراهم يقولون: لا جرم لآتينك. اهـ.

والخلاصة: حقاً إن ما تدعونني إليه من الأصنام لا يجب دعوة من يدعوه،

فهو لا ينفع ولا يضرّ في الدنيا ولا في الآخرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ﴾؛ أي: مرجعنا ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: بالموت ومفارقة الأرواحِ الأجسادَ: معطوف على قوله: ﴿إنما تدعونني﴾ داخل في حكمه، وكذا قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: المجاوزين الحدّ في الضلال والطغيان، كالإشراك وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ملازموها وخالدون فيها.

والمعنى: وحق أن مرجعنا ومصيرنا إليه سبحانه بالموت أولاً، وبالبعث آخراً، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير أو شر، وحق أن المسرفين؛ أي: المستكبرين من معاصي الله هم أصحاب النار، قال قتادة وابن سيرين: يعني المشركين، وقال مجاهد والشعبيُّ: هم السفهاء السفّاكون للدماء بغير حقها، الذين ركبوا أهواءَهم ودسّوا أنفسهم بصنوف المعاصي، ثم ختم نصحه بكلمة فيها تحذير ووعيد لهم؛ ليتفكروا في عاقبة أمرهم لعلهم يرعوون عن غيهم، فقال: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾؛ أي: فسيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصائح وتعلمون أني قد بالغت في نصحكم وتذكيركم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد، فتندمون حيث لا ينفع الندم، وفي هذا الإبهام من التهديدوالتخويف ما لا يخفي.

ثمّ ابتدأ كلاماً آخر يبيِّن به اطمئنانه إلى ما يجري به القدر، ويخبئه له الغيب، كما هو دأب المؤمنين الصادقين، فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ﴾؛ أي: أرد أمري وشأني ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وأسلمه إليه وأتوكل عليه ليعصمني من كل سوء، قاله؛ لما أنهم كانوا توعّدوه بالقتل. قال مقاتل: هرب هذا المؤمن إلى الجبل، فطلبوه فلم يقدروا عليه، وقيل[1]: القائل هو موسى عليه السلام، والأول أولى.

وحقيقة التفويض: تعطيل الإرادة في تدبير الله تعالى، كما في «عين المعاني»: وكمال التفويض أن لا يرى لنفسه ولا للخلق جميعاً قدرةً على النفع والضرّ، كما في «عرائس» البقلي: قال بعضهم: التفويض قبل نزول القضاء، والتسليم بعد نزوله.

ثم ذكر ما هو كالعلة لذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يعلم المحق من المبطل، فيحرس من يلوذ به من المكاره ويتوكل عليه؛

---

(١) الشوكاني.

أي: إن الله سبحانه خبير بهم، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال لسوء استعداده وتدسيته نفسه، وله الحجة الدامغة، والحكمة البالغة، والقدرة النافذة.

ودلت الآية[1]: على أن الله تعالى مطلع على العباد وأحوالهم، فلا بد من تصحيح الحال ومراقبة الأحوال، وروي أنّ نبيًّا من الأنبياء كان يتعبّد في جبل وكان في قرية عين جارية، فجاز بها فارس، وشرب منها ونسي عندها صرّة فيها ألف دينار، فجاء آخر فأخذ الصرة، ثم جاء رجل فقير على ظهره حزمة حطب، فشرب واستلقى ليستريح، فرجع الفارس لطلب الصرة فلم يرها، فأخذ الفقير فطلبها منه فلم يجدها عنده، فعذبه حتى قتله، فقال ذلك النبي: إلهي، ما هذا أخذ الصرة، بل أخذها ظالم آخر، وسلّطت هذا الظالم عليه حتى قتله، فأوحى الله تعالى إليه أن اشتغل بعبادتك، فليس معرفة مثل هذا من شأنك، إن هذا الفقير قد قتل أبا الفارس، فمكّنته من القصاص، وأنّ أبا الفارس قد كان أخذ ألف دينار من مال آخذ الصرة فرددته إليه من تركته، ذكره الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ.

ثم أخبر سبحانه أنه قد كانت النصرة له والهلاك لعدوة، فقال: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: فوّض ذلك المؤمن أمره إلى الله تعالى، فوقاه الله تعالى؛ أي: حفظه الله سبحانه وتعالى ﴿سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾؛ أي: حفظه الله تعالى من شدائد مكرهم، وما همُّوا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم؛ أي: حفظه الله مما أرادوا به من المكر السيىء في الدنيا، إذ نجّاه مع موسى عليه السلام، وفي الآخرة بإدخاله دار النعيم. ﴿وَحَاقَ﴾؛ أي: أحاط ونزل بـ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وقومه ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: العذاب السيء في الدنيا بالغرق في اليمّ.

والمراد بآل فرعون: فرعون وقومه، وترك التصريح به[2] للاستغناء بذكرهم عن ذكره؛ لكونه أولى منهم بذلك من حيث كونه متبوعاً لهم، ورئيساً ضالاً، أو المراد بآل فرعون: نفسه، والأول أولى، وفي هذا إيماء إلى أنهم قصدوا بالسوء، وقد روي عن ابن عباس أنه لما ظهر إيمانه.. قصد فرعون قتله فهرب ونجا، وهذا عذا بهم في الدنيا.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

ثم بيَّن عذابهم في البرزخ بقوله: ﴿ٱلنَّارُ﴾؛ أي: نار جهنم، وهو مبتدأ، خبره: ﴿يُعْرَضُونَ﴾؛ أي: يعرض فرعون وآله ﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي: على النار، ومعنى عرضهم على النار: إحراق أرواحهم وتعذيبهم بها ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾؛ أي: في أول النهار وآخره، وذكر الوقتين: إما للتخصيص، وإما فيما بينهما، فالله تعالى أعلم بحالهم إما أن يعذَّبوا بجنس آخر، أو بنفس عنهم، وإما للتأييد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ أي: على الدوام، فارتفاع ﴿ٱلنَّارِ﴾[1] على أنها بدل من ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وقيل: على أنها خبر مبتدإٍ محذوف، أو مبتدأ، خبره: ﴿يُعْرَضُونَ﴾ كما مر، ويقوي هذا الوجه قراءة من نصب، وهي على تقدير فعل يفسره ﴿يُعْرَضُونَ﴾ من حيث المعنى؛ أي: يدخلون النار، يعرضون عليها، أو على الاختصاص، وأجاز الفراء الخفض على البدل من ﴿ٱلْعَذَابِ﴾.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود، يعرضون على النار مرتين، فيقال: يا آل فرعون هذه داركم، قال ابن الشيخ في «حواشيه»: وهذا يؤذن بأنّ العرض ليس بمعنى التعذيب والإحراق بل بمعنى الإظهار والإبراز، وأنّ الكلام على القلب، كما في قولهم: عرضت الناقة على الحوض، فإن أصلح: عرضت الحوض على الناقة بسوقها إليه، وإيرادها عليه[2]، فكذا هنا أصل الكلام: تعرض عليهم؛ أي: على أرواحهم، بأن يساق الطير التي أرواحهم فيها؛ أي: في أجوافها إلى النار، وفي الحديث: إن أحدكم إذا مات.. عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنة.. فمن الجنة، وإن كان من أهل النار.. فمن النار، يقال: هذا مقعدك حين يبعثك الله يوم القيامة. أخرجه البخاري ومسلم.

يقول الفقير: أما كون أرواحهم في أجواف طير سود.. فليس المراد ظرفية الأجواف للأرواح حتى لا يلزم التناسخ، بل هو تصوير لصور أرواحهم البرزخية، وأما العرض بمعنى الإظهار.. فلا يقتضي عدم التعذيب، فكل روح إما معذَّب أو منعم، وللتعذيب والتنعيم مراتب، ولأمر ما ذكر الله تعالى عرض أرواح آل فرعون على النار، فإنّ عرضها ليس كعرض سائر الأرواح الخبيثة.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

وهذا العرض ما دامت الدنيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وتعود الأرواح إلى الأبدان، يقال للملائكة: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: فرعون وقومه ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ وأغلظه؛ أي: عذاب جهنم، فإنه أشد مما كانوا فيه، فإنه للروح والجسد جميعاً، وهو أشد مما كان للروح فقط، كما في البرزخ، وذلك أن الأرواح بعد الموت ليس لها نعيم ولا عذاب حسي جسماني، ولكن ذلك نعيم أو عذاب معنوي روحاني، حتى تبعث أجسادها فترد إليها، فتعذب عنه ذلك حساً ومعنًى أو تنعم.

ويجوز أن المعنى[1]: أدخلوا آل فرعون أشد عذاب جهنم، فإن عذابها ألوان بعضها أشد من بعض، وفي الحديث: «أهون أهل النار عذاباً رجل في رجليه نعلان من نار، يغلي منهما دماغه».

ومعنى الآية[2]: أي تعرض أرواحهم من حين موتهم إلى قيام الساعة على النار بالغداة والعشي، وينفس عنهم فيما بين ذلك، ويدوم هذا إلى يوم القيامة، وحينئذ يقال لخزنة جهنم: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنَّارُ﴾.

قال بعض العلماء: وفي الآية دليل على عذاب القبر، ويؤيده ما رواه البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات.. عرض عليه مقعده بالغداة والعشي»... الحديث. كما مر ثم قرأ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

قال العلماء[3]: عذاب القبر هو عذاب البرزخ، أضيف إلى القبر؛ لأنه الغالب، وإلا فكل ميت أراد الله تعذيبه ناله ما أراد به، قبر أو لم يقبر، بأن صلب أو غرق في البحر، أو أحرق حتى صار رماداً، وذري في الجو، قال إمام الحرمين: من تفرقت أجزاؤه يخلق الله الحياة في بعضها أو كلها، ويوجه السؤال عليها، ومحل العذاب والنعيم؛ أي: في القبر هو: الروح والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة، قال اليافعي: وتختص الأرواح دون الأجساد بالنعيم والعذاب ما دامت في علّيين أو سجين، وفي القبر يشترك الروح والجسد.

قال الفقيه أبو الليث: الصحيح عندي أن يقر الإنسان بعذاب القبر ولا يشتغل بكيفيته، وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ما أحسن محسن مسلم أو كافر..

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

إلا أثابه الله» قلنا يا رسول الله: ما إثابة الكافر؟ قال: «المال والولد والصحة وأشباه ذلك» قلنا: وما إثابته في الآخرة؟ قال: «عذاباً دون العذاب» وقرأ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقد أثبت علماء الأرواح حديثاً[1]: نعيم الروح وعذابها، وشبهوا ذلك بما يراه النائم حين نومه، فقد نرى نائمين في سرير واحد، يقوم أحدهمامذعوراً كئيباً وجلاً مما شاهد في نومه بينما نرى الثاني مستبشراً فرحاً بما لاقى من المسرة والنعيم، فيروي أنه كان في حديقةً غناء، وشاهد كذا وكذا مما فيها من بهجة وبهاء وجمال ورواء.

وقرأ الأعرج وأبو جعفر وشيبة والأعمش وابن وثاب وطلحة ونافع وحمزة والكسائي وحفص[2]: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ أمراً للخزنة، من أدخل الرباعي، وهو على تقدير القول كما ذكرنا، وقرأ علي والحسن وقتادة وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر: ﴿ادخلوا﴾ بهمزة وصل من دخل الثلاثي، أمراً لآل فرعون بالدخول، بتقدير حرف النداء؛ أي: ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب.

والظرف في قوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ متعلق[3] بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك وقت محاجة ومخاصمة أهل النار في النار، سواء كانوا آل فرعون أو غيرهم، وهذا ابتداء قصص لا يختص بآل فرعون، ثم شرح مخاصمتهم بقوله: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ منهم في القدر والمنزلة والحال في الدنيا ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ عن الانقياد للأنبياء والاتباع لهم، أي: أظهروا الكبر باطلاً، وهم رؤساؤهم، ولذا لم يقل الكبراء؛ لأنه ليس الكبرياء صفتهم في نفس الأمر ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَبَعًا﴾؛ أي: أتباعاً في كل حال خصوصاً فيما دعوتمونا إليه من الشرك والتكذيب، جمع تابع، كخدم جمع خادم، كما سيأتي البحث عنه في المفردات. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ ونافعون لنا اليوم ودافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾؛ أي: بعضاً وجزءاً ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ باتباعنا إياكم، فقد كنا في الدنيا ندفع المؤونة عنكم، يقال: ما يغني عنك هذا؛ أي: ما يجزيك وينفعك، و﴿نَصِيبًا﴾: منصوب بمضمر يدل عليه ﴿مُّغْنُونَ﴾ فإن أغنى إذا عدي بكلمة عن.. لا يتعدى إلى مفعول آخر

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

بنفسه، كما سيأتي. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾؛ أي: تكبروا وتعظموا عن الإيمان، وهم القادة للسفلة ﴿إِنَّا كُلٌّ﴾؛ أي: كلنا نحن وأنتم، وبهذا صح وقوعه مبتدأً خبره: ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في النار، فكيف نغني عنكم، ولو قدرنا.. لأغنينا عن أنفسنا.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كُلٌّ﴾ بالرفع على الابتداء، وخبره: ﴿فِيهَآ﴾ والجملة: خبر ﴿إِنَّ﴾ وقرأ ابن السميقع وعيسى بن عمر ﴿إنا كلاً﴾ بنصب كل. قال الزمخشري وابن عطية: على التوكيد لاسم ﴿إن﴾ وهو معرفة، والتنوين عوض عن المضاف إليه، فكأنه قال: إنا كلنا فيها، وخبر ﴿إن﴾ هو ﴿فِيهَآ﴾. قال أبو حيان: والذي أختاره في هذه القراءة: أن ﴿كلا﴾: بدل من اسم ﴿إن﴾ لأن ﴿كلاً﴾ يتصرف فيها بالابتداء ونواسخه، فكأنه قال: إنّ كلاً فيها، وقيل: حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إن﴾ أعني فيها؛ أي: إنا كائنون فيها، حال كوننا كلاً.

ومعنى الآية[2]: أي واذكر أيها الرسول لقومك وقت حجاج أهل النار وتخاصمهم وهم في النار، فيقول الأتباع للقادة السادة: إنا أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، فتكبرتم على الناس بنا، فهل تقدرون أن تحملوا عنا قسطاً من العذاب فتخففوه عنا؟ فقد كنا نسارع إلى محبتكم في الدنيا، ومن قبلكم جاءنا العذاب، ولولا أنتم.. لكنا مؤمنين، ومقصدهم من هذا المقال: تخجيلهم وإيلام قلوبهم، وإلا فهم يعلمون أنهم لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، فرد عليهم أولئك الرؤساء بما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ الخ؛ أي: قال: رؤساؤهم الذي أبو الانقياد للأنبياء: إنا جميعاً واقعون في العذاب، فلو قدرنا على إزالته عن أنفسنا.. لدفعناه عنكم.

وخلاصة مقالهم: إنا وأنتم في العذاب سواء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿قَدْ حَكَمَ﴾ وقضى ﴿بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ بماهية[3] كل أحد، فأدخل المؤمنين الجنة على تفاوتهم في الدركات، والكافرين النار على طبقاتهم في الدرجات، ولا معقب لحكمه؛ أي: حكم بينهم بفصل قضائه، فلا

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

يؤاخذ أحداً بذنب غيره، وكل منا كافر وكل منا يستحق العقاب، ولا يغني أحد عن أحد شيئاً.

ولما يئس الأتباع من المتبوعين.. رجعوا إلى خزنة جهنم يطلبون منهم الدعاء، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾ من الضعفاء والمستكبرين جميعاً لما ذاقوا شدة العذاب، وضاقت حيلهم. ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: للقوام بتعذيب أهل النار، جمع خازن من الخزن وهو: حفظ الشيء في الخزانة، ثم يعبر به عن كل حفظ، كحفظ السر ونحوه، ووضع ﴿جَهَنَّمَ﴾ موضع الضمير؛ للتهويل والتفظيع، وهي اسم لنار الله الموقدة: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ شافعين لنا ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾؛ أي: في مقدار يومٍ واحدٍ من أيام الدنيا ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: شيئاً منه، فقوله: ﴿يَوْمًا﴾: ظرف لـ﴿يُخَفِّفْ﴾ ومفعوله: محذوف و﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾: بيان لذلك المحذوف، واقتصارهم[1] في الاستدعاء على تخفيف قدر يسير من العذاب في مقدار قصير من الزمان دون رفعه رأساً، أو تخفيف قدر كثير منه في زمان مديد لعلمهم بعدم كونه في حيز الإمكان.

والمعنى[2]: أي وقال أهل جهنم لخدمها وقوامها مستغيثين بهم من عظيم ما هم فيه من البلاء، رجاء أن يجدوا لديهم فرجاً من ذلك الكرب الذي هم فيه: ادعوا ربكم أن يخفف عنا مقدار يوم شيئاً من العذاب.

فرد عليهم الخزنة موبخين لهم على سوء ما كانوا يصنعون مما استحقوا عليه شديد العذاب، فـ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: الخزنة لهم بعد مدة ﴿أَوَلَمْ تَكُ﴾: ﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام التوبيخي التقريعي، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: ألم تنبهوا على هذا ولم تك ﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ في الدنيا على الاستمرار ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالحجج الواضحة الدالة على سوء عاقبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصي، أرادوا بذلك إلزامهم وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء، وتعطيل أسباب الإجابة؛ أي: أو ما جاءتكم الرسل بالحجج على توحيد الله لتؤمنوا به، وتبرؤوا مما دونه من الآلهة، فأجابوهم فـ﴿قَالُوا۟﴾ أي الكفرة في جواب الخزنة ﴿بَلَىٰ﴾ أي أتونا بها فكذبناهم كما في سورة المُلك أي قالوا أتونا بها فكذبناهم ولم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

نؤمن بهم ولا بما جاؤوا به من البينات الواضحة والبراهين الساطعة وحينئذ، تهكم بهم خزنة جهنم فـ﴿قَالُواْ﴾ لهم: إذا كان الأمر كذلك. ﴿فَٱدْعُواْ﴾ أنتم بأنفسكم، فإن الدعاء لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره منا، ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء إطماعهم في الإجابة، بل إقناطهم منها، وإظهار حقيقتهم حسبما صرحوا به في قولهم ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأنفسهم، فالمصدر مضاف لفاعله، أو وما دعاء غيرهم لهم بتخفيف العذاب عنهم، فالمصدر مضاف إلى مفعوله ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: إلا في ضياع وبطلان لا يجاب، لأنهم دعوا في غير وقته.

والمعنى[1]: أي قالوا لهم؛ أي: قالت الخزنة لهم: إذا كان الأمر كما ذكرتم.. فادعوا أنتم وحدكم، فإنا لا نعدو لمن كفر بالله، وكذب رسله، وإن دعاءكم لا يفيدكم شيئاً، فما هو إلا في خسران وتبار، وسواء دعوتم أو لم تدعوا، فإنه لا يستجاب لكم، ولا يخفف عنكم.

روى الترمذي وغيره، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: يلقى على أهل النار الجوع، حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون منه، فيغاثون بالضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع، فيأكلون لا يغني عنهم شيئاً، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، فيغصون به، فيذكرون أنهم كانوا في الدنيا يجيزون الغصص بالماء، فيستغيثون بالشراب فيرفع لهم الحميم بالكلاليب، فإذا دنا من وجوههم.. شواها، فإذا وقع في بطونهم.. قطع أمعاءهم وما في بطونهم، فيستغيثون بالملائكة يقولون: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فيجيبونهم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

وقد اختلف العلماء[2] في أنه هل يجوز أن يقال: يستجاب دعاء الكافرين فمنعه الجمهور لقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ ولأن الكافر لا يدعو الله، لأنه لا يعرفه، لأنه وإن أقر به لما وصفه بما لا يليق به نقض إقراره، وما روي في الحديث: «إن دعوة المظلوم وإن كان كافراً تستجاب». فمحمول على كفران النعمة، وجوزه بعضهم لقوله تعالى حكايةً عن إبليس: ﴿رب أنظرني﴾؛ أي: أمهلني ولا تمتني سريعاً، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ فهذه إجابة لدعائه.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

فإذا ثبت أن الله تعالى يجيب الدعوات، لا ما سواه من الأصنام ونحوها.. فلا بد من توحيده، وإخلاص الطاعة والعبادة له، وعرض الافتقار إليه، إذ لا ينفع الغير لا في الدنيا ولا في الآخرة، جعلنا الله سبحانه وإياكم من التابعين للهدى، المحفوظين من الهوى، آمين.

وجملة قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾: مستأنفة من جهته تعالى، والإتيان بالنون دلالةً على استحقاقه العظمة، أو باعتبار الصفات أو المظاهر، والنصر: العون؛ أي: نجعلهم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم، والموصول في قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: معطوف على ﴿رُسُلَنَا﴾؛ أي: لننصر رسلنا وننصر الذين آمنوا معهم واتبعوهم ﴿في الحياة الدنيا﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي وغير ذلك من العقوبات، ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق لهم من صورة المغلوبية امتحاناً، إذ العبرة إنما هي بالعقوبات وغالب الأمر، وأيضاً ما يقع في بعض الأحيان من الانهزام إنما كان يعارض كمخالفة أمر القائد، كما في غزوة أحد، وكطلب الدنيا والعجب والغرور كما في بعض وقائع المؤمنين، وأيضاً أن الله تعالى ينتقم من الأعداء ولو بعد حين، كما بعد الموت؛ ألا ترى أن الله انتقم ليحيى عليه السلام بعد استشهاده من بني إسرائيل، بتسليط بختنصر عليهم حتى قُتل منهم سبعون ألفاً.

والظاهر[1] في دفع التعارض بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ وبين قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ما قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والحسن ـ رحمه الله تعالى ـ من أنه: لم يقتل من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، وكل من أمر بقتال نصر كما في «تفسير القرطبي» في سورة البقرة، وكان زكريا ويحيى وشعيب ونحوهم عليهم السلام ممن لم يؤمر بقتال ﴿و﴾ ننصرهم ﴿يوم يقومُ الأشهاد﴾ وهو يوم القيامة؛ أي: لننصرنهم في الدنيا والآخرة، وعبّر عن يوم القيامة بذلك للاشعار بكيفية النصرة، وإنها تكون عند جمع الأولين والآخرين بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب، وهم الملائكة والمؤمنون من أمة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

---

(١) روح البيان.

وقرأ الجمهور: ﴿يَقُومُ﴾ بالياء، وابن هرمز وإسماعيل والمنقري عن أبي عمرو: بتاء تأنيث الجماعة. ذكره أبو حيان. قال الزجاج: الأشهاد: جمع شاهد مثل: صاحب وأصحاب. قال النحاس: ليس لباب فاعل أن يجمع على أفعال، ولكن ما جاء منه مسموعاً أدي على ما سمع و لا يقاس عليه، فهو على هذا جمع شهيد مثل: شريف وأشراف.

والمعنى(١): أي إنا لنجعل رسلنا هم الغالبين لأعدائهم، القاهرين لهم، وننصر معهم من آمن بهم في الحياة الدنيا، إما بإعلائهم على من كذبوهم كما فعلنا بداود وسليمان فأعطيناهما من الملك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكما فعلنا بمحمد ﷺ بإظهاره على من كذبه من قومه، وإما بانتقامنا ممن حادهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل، كما فعلنا بنوح وقومه، من إغراقهم وإنجائه، وكما فعلنا بموسى وفرعون وقومه، إذ أهلكناهم غرقاً ونجينا موسى ومن آمن معه من بني إسرائيل، وإما بانتقامنا منهم بعد وفاة رسلنا، كما نصرنا شعيباً بعد مهلكِه، بتسليطنا على من قَتلهُ مَنْ سلطنا حتى انتصرنا بهم ممن قَتله.

وكذلك ننصرهم عليهم يوم القيامة يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والأنبياء والمؤمنين على الأمم المكذبة لرسلها بالشهادة، بأن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، وأن الأمم قد كذبتهم، فيجازيهم الله بأعمالهم، فيدخلهم الجنة ويكرمهم بكراماته، ويجازي الكفار بأعمالهم، فيلعنهم ويدخلهم النار، وهو معنى قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدل من اليوم الأول، والمعذرة: مصدر ميمي بمعنى العذر؛ أي: يوم لا ينفع الظالمين عذرهم عن كفرهم لو اعتذروا في بعض الأوقات؛ لأن معذرتهم باطلة، فيقال لهم: اخسؤُوا ولا تكلمون، ويجوز أن يكون عدم نفع المعذرة لأنه لا يؤذن لهم فيعتذرون، فيكون من نفي المقيد والقيد لا معذرة ولا نفع يومئذ، وفي «عرائس البيان» ظلمهم عدولهم عن الحق إلى الخلق، واعتذارهم في الآخرة لا في الدنيا.

وقرأ الجمهور: ﴿تنفع﴾ بالفوقية، وقرأنافع والكوفيون بالتحتية، والكل جائز

---

(١) المراغي.

في اللغة. ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾؛ أي: البعد عن الرحمة ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: الدار السيء، والمقر الفظيع، وهي جهنم بخلاف المؤمنين العارفين، فإنهم تنفعهم معذرتهم لتنصلهم، فلهم من الله الرحمة ولهم حسن الدار، وإنما قال: ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[1]: فإن جهنم حرها شديد، وقعرها بعيد، وحليها حديد، وشرابها صديد، وكلامها هل من مزيد، وأسوأ الظالمين المشركون كما قال تعالى حكايةً عن لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ وأسوأ المشركين المنافقون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لاستهزائهم بالمؤمنين.

فليحذر العاقل عن الظلم سواء كان لنفسه بالإشراك والمعصية، أو لغيره بكسر العرض وأخذ المال ونحوهما، وليتذكر الإنسان يوماً يقول فيه الظالمون: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾. وروي أن أهل النار يبكون بكاءً شديداً حتى الدم، فيقول مالك: ما أحسن هذا البكاء لو كان في الدنيا.

فعلم: أنه لا تنفع المعذرة والبكاء في الآخرة، فليتدارك العاقل تقصيره في الدنيا بالندامة والصلاح والتقوى، ليستريح في الآخرة، ويصل إلى الدرجات العلى، مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، فمن أراد اللحوق بزمرتهم فليكن على حالهم وسيرتهم، فإن الله ينصرهم في دنياهم وآخرتهم، فإن طاعة الله وطاعة الرسول توصل العبد إلى المراد وإلى حيز القبول.

والمعنى[2]: أي إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم، لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل، كما حكى سبحانه عنهم من قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ ﴿وَلَهُمُ﴾ في هذا اليوم طرد من رحمة الله تعالى، ولهم شر ما في الآخرة من العذاب الأليم، والقرار في سواء الجحيم.

ولما بين سبحانه أنه ينصر الأنبياء والمرسلين في الدنيا والآخرة.. ذكر نوعاً

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

من تلك النصرة في الدنيا فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي فقد أعطينا بمحض فضلنا ﴿مُوسَى﴾ بن عمران ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: ما يهتدي به من الضلالة إلى الحق من المعجزات والصحف والشرائع والتوراة ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: وأبقينا في بني إسرائيل من بعد موت موسى من الهدى المذكور ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة فإن معجزاته انقرضت بموته.

والإيراث[1]: ميراث الدين، والمراد بالكتاب: التوراة، ولما كان الإيراث الحقيقي إنما يتعلق بالمال.. تعذّر حمله على معناه هنا، فأريد به الترك مجازاً، إشعاراً بأن ميراث الأنبياء ليس إلا العلم والكتاب في باب الدين.

والمعنى: وتركنا عليهم من بعد موسى التوراة، إذ سائر ما اهتدى به في أمر الدين قد ارتفع بموت موسى عليه السلام، وبقيت فيهم التوراة، وتوارثوها خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، وقيل: المراد بالكتاب سائر الكتب المنزلة على أنبياء بني إسرائيل بعد موت موسى من الزبور والإنجيل.

وقوله: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾: منصوبان على أنه مفعولان لأجله؛ أي: أورثناهم الكتاب لأجل هدايتهم من الضلالة إلى الحق، ولأجل البيان لهم أحكام شريعتهم وعظةً وتذكرةً ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: لأصحاب العقول السليمة، العاملين بما في تضاعيف ذلك الكتاب دون الذين لا يعقلون، أو حالان من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ على أنهما مصدران بمعنى اسم الفاعل؛ أي: أبقينا فيهم الكتاب حال كونه هادياً لهم من الضلالة والجهالة، وحال كونه مذكراً وواعظاً لأصحاب العقول الكاملة منهم.

والفرق بين الهدى والذكر[2]: أن الهدى ما يكون دليلاً على شيء آخر، وليس من شرطه أن يذكر شيئاً آخر كان معلوماً ثم صار منسياً، وأما الذكرى فليس من ذلك، وكتب الأنبياء مشتملة على هذين القسمين، فإن بعضها دلائل في أنفسها، وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة.

والمعنى[3]: أي ولقد أعطينا موسى من المعجزات والشرائع ما يهتدي به

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

الناس في الدنيا والآخرة، وأنزلنا عليه التوراة هدى لقومه، فتوارثوها خلفاً عن سلف، وصارت هدايةً لهم، وتذكرةً لأصحاب العقول السليمة، التي بعدت من شوائب التقليد والوهم.

وبعد أن بين سبحانه أنه ينصر رسله والمؤمنين، وضرب لذلك مثلاً بحال موسى.. خاطب نبيه محمداً ﷺ بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ وهذا كلام مرتب على قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ إلخ جملة معترضة سيقت للبيان والتأكيد لنصرة الرسل، و﴿الفاء﴾ فيه: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا سمعت يا محمد ما وعدت به من نصرة الرسل، وما فعلناه بموسى، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: اصبر على ما أصابك من أذية المشركين، فهو غير منسوخ بآية السيف، إذ الصبر محمود في كل المواطن، وقال الكلبي: نسخ هذا بآية السيف ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه إياك بالنصرة، وظهور الإسلام على الأديان كلها، وفتح مكة ونحوها ﴿حَقٌّ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلاً، واستشهد بحال موسى وفرعون ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ تداركاً لما فرط منك من ترك الأولى في بعض الأحيان، فإنه تعالى كافيك في نصرة دينك وإظهاره على الدين كله، وفي «عين المعاني»: واستغفر من ذنب إن كان منك، وقيل: هذا تعبد من الله لرسوله؛ ليزيد به درجة، لأنه قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أو ليصير ذلك سنة لمن بعده، وفي «عرائس البقلي»: واستغفر لما جرى على قلبك من أحكام البشرية. اهـ. وقيل: المراد ذنب أمتك، فهو على حذف مضاف. وقيل المراد: الصغائر عند من يجوزها على الأنبياء. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: ودم على اعتقاد تنزيه ربك عن كل ما لا يليق به، حال كونك متلبساً بحمده بلسانك، أو المعنى: دم على قولك: سبحانه الله وبحمده ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾؛ أي: في آخر النهار وأوله. وقيل المراد: صل في الوقتين: صلاة العصر وصلاة الفجر: قاله الحسن وقتادة، وقيل: هما صلاتان: ركعتان غدوة وركعتان عشية، وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس.

فالمقصود من ذكر العشي والإبكار: الدلالة على المداومة عليهما في جميع الأوقات، بناءً على أن الإبكار عبارة: عن أول النهار إلى نصفه، والعشي عبارة: عن نصف النهار إلى أول النهار من اليوم الثاني، فيدخل فيهما كل الأوقات.

والمعنى[1]: أي فاصبر أيها الرسول لأمر ربك، وبلغ قومك ومن أمرت بإبلاغه ما أنزل إليك، وأيقن بأن الله منجز وعده، وناصرك وناصر من صدقك وآمن بك على من كذبك، وأنكر ما جئت به من عند ربك، وسل غفران ذنبك وعفوه عنك، وصلّ شكراً له طرفي النهار كما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾.

وقد يكون المراد من ذلك المواظبة على ذكر الله، وأن لا يفتر اللسان عنه، ولا يغفل القلب، حتى يدخل في زمرة الملائكة الذين قال سبحانه في وصفهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ولما ابتدأ سبحانه بالرد على الذين يجادلون في آيات الله، واتصل الكلام بعضه ببعض، على النسق المتقدم.. نبه هنا إلى السبب الذي يحملهم على تلك المجادلة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ ويخاصمون ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ويجحدون بها ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ وحجة قاهرة ﴿أَتَىٰهُمۡ﴾ في ذلك من جهته تعالى؛ أي: جادلوا في ردها بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهته تعالى، وتقييد[2] المجادلة بذلك مع استحالة إتيانه؛ للإيذان بأن التكلم في أمر الدين لا بد من استناده إلى سلطان مبين البتة ﴿إِنَّ﴾: نافية ﴿فِي صُدُورِهِمۡ﴾؛ أي: في قلوبهم، عبر بالصدر عن القلب؛ لكونه موضع القلب ﴿إِلَّا كِبۡرٞ﴾ وحسد، وفي الحصر إشعار بأن قلوبهم قد خلت عن كل شيء سوى الكبر؛ أي: ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق، وتعظم عن التكبر والتعليم، أو إلا إرادة الرياسة والتقدم على النبي والمؤمنين، أو إلا إرادة أن تكون النبوة لهم دونك يا محمد، حسداً وبغياً، ولذلك يجادلون فيها، لأن فيها موقع جدال ما، أو أن لهم شيئاً يتوهم أن يصلح مداراً لمجادلتهم في الجملة، واعتبرت الإرادة في هذين الوجهين؛ لأن نفي الرياسة والنبوة ليستا في قلوبهم. وجملة قوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾: صفة ﴿كِبۡرٞ﴾ فالضمير راجع إلى الكبر، بتقدير مضاف؛ أي: ما هم ببالغي مقتضى كبرهم، وهو دفع الآيات، فإني أنشر أنوارها في الآفاق، وأعلي قدرك، أو ما هم بمدركي مقتضى ذلك الكبر، وهو ما أرادوه من الرياسة والنبوة، وقال ابن قتيبة: المعنى: إن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

في صدورهم إلا كبر؛ أي: تكبر على محمد ﷺ، وطمع أن يغلبوه وما هم ببالغي ذلك.

والمعنى[1]: أي إن الذين يخاصمونك أيها الرسول فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات بغير حجة، وهم المشركون أو اليهود، ما يحملهم على هذا الجدال إلا كبر في صدورهم يمنعهم عن اتباعك، وعن قبول الحق الذي جئتهم به، إذ لو سلموا بنبوّتك.. لزمهم أن يكونوا تحت لوائك، وطوع أمرك ونهيك، لأن النبوة ملك ورياسة، وهم في صدورهم كبر لا يرضون معه أن يكونوا في خدمتك، وما هم ببالغي موجب الكبر، وهو دفع الرياسة والنبوة عنك، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وليس ذلك بالذي يدرك بالأماني.

والخلاصة: أنه ما يحملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر والحسد لك، وما هم ببالغي إرادتهم فيه، فإن الله قد أذلّهم.

قال المفسرون: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ الآية، وإن نزل في مشركي مكة، لكنه عام لكل مجادل مبطل، فإن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

ثم أمر رسوله أن يستعيذ من هؤلاء المجادلين المستكبرين، فيقيه من أذاهم وشرهم، ويكلؤه ويحفظه منهم، فقال: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ يا محمد ﴿بِٱللَّهِ﴾ سبحانه والتجىء إليه من شرهم وكيدهم وبَغيهمْ عليك، واطلب السلامة منه من كيد كل من يحسدك ويبغي عليك ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ لأفعالهم، لا تخفى عليه من ذلك خافية.

وقيل[2]: المجادلون هم اليهود كما مرت الإشارة إليه، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: لست صاحبنا المذكور في التوراة، بل هو المسيح بن داود، يريدون أن الدجال يخرج في آخر الزمان، ويبلغ سلطانه البر والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله تعالى، فيرجع إلينا الملك، فسمى الله تمنيهم ذلك كبراً، ونفى أن يبلغوا متمنّاهم، فإن الدجال وإن كان يخرج في آخر الزمان، لكنه

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

ومن تبعه من اليهود يقتلهم عيسى والمؤمنون، بحيث لا ينجو منهم واحد، فمعنى قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: من فتنة الدجال، فإنه ليس فتنة أعظم من فتنة الدجال.

وقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تحقيق للحق وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه، وهو أمر البعث؛ أي: لخلق السموات والأرض ابتداءً من غير مثال سابق مع عظمهن ﴿أَكْبَرُ﴾؛ أي: أعظم في النفوس، وأجل في الصدور ﴿مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ مرةً ثانيةً، وهي الإعادة لعظم أجرامهما واستقرارهما من غير عمد وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب، فمن قدر على خلق الأعظم الأقوى بلا أصل ولا مادة.. وجب أن يقدر على خلق الأذل الأضعف من الأصل والمادة بطريق الأولى، فكيف يقرون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون الخلق الجديد يوم البعث؟ وقد جرت العادة في مزاولة الأفعال أن علاج الشيء الكبير أشقّ من علاج الشيء الصغير، فمن قدر على ذلك.. قدر على ما دونه، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ وقال أيضاً: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الإعادة أهون من البداية، لقصورهم في النظر والتأمل، لفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم؛ أي: ولكن هؤلاء المشركين لا يتدبّرون هذه الحجة ولا يتأملونها، ولا يعلمون أنّ الله سبحانه لا يعجزه شيء.

قال أبو العالية: المعنى: لخلق السموات والأرض أعظم من خلق الدجال حين عظّمته اليهود، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعني اليهود الذين يخاصمون في أمر الدجال.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في الدجال

وعن هشام بن عروة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة، خلق أكبر من الدجال» أخرجه مسلم، معناه: أكبر فتنةً، وأعظم شوكة من الدجال.

وعن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أن النبي ﷺ ذكر الدجال فقال: «إنه

أعور العين اليمنى، كأنها عنبة طافية» متفق عليه. ولأبي داود والترمذي عنه قال: قام النبي ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: إني أنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذر قومه، لقد أنذر نوح قومه، لكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه، تعلمون أنه أعور، وأنّ الله ليس بأعور.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر» متفق عليه. وفي رواية لمسلم: «بين عينيه كافر، ثم تهجّي ك ف ر، يقرؤه كل مسلم».

وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت: كان رسول الله ﷺ في بيتي، فذكر الدجال فقال: «إن بين يديه ثلاث سنين: سنة تمسك السماء ثلث قطرها، والأرض ثلث نباتها، والثانية تمسك السماء ثلثي قطرها، والأرض ثلثي نباتها، والثالث تمسك السماء قطرها، والأرض نباتها كله، فلا تبقى ذات ظلف ولا ضرس من البهائم إلا هلكت، ومن أشد فتنته أنه يأتي الأعرابي فيقول: أرأيت إن أحييت لك إبلك، ألست تعلم أني ربك، قال: فيقول: بلى، فيتمثل له الشيطان نحو إبله كأحسن ما تكون ضروعاً، وأعظمه أسمنةً، ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه، فيقول: أرأيت إن أحييت لك أخاك وأباك.. ألست تعلم أني ربك، فيقول: بلى، فيتمثل له الشيطان نحو أخيه ونحو أبيه» قالت: ثم خرج رسول الله ﷺ لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغمّ مما حدّثهم، قالت: وأخذ بلحمتي الباب فقال: «مه يا أسماء» فقلت: يا رسول الله، لقد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال، قال: «إن يخرج وأنا حي.. فأنا حجيجُه، وإلا فإن ربي خليفتي على كل مؤمن» قالت أسماء: فقلت: يا رسول الله، والله. إنا لنعجن عجيناً فما نخبزه حتى نجوع، فكيف بالمؤمنين يومئذ؟ قال: «يجزيهم ما يجزي أهل السماء من التسبيح والتقديس» وفي رواية عنها قالت: قال النبي ﷺ: «يمكث الدجّال في الأرض أربعين سنةً، السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كاضطرام السعفة في النار» هذا حديث أخرجه البغوي بسنده، والذي جاء في «صحيح مسلم» قال: قلنا: يا رسول الله، ما لبثه في الأرض قال: «أربعون يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم هذه» قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم كسنة، أتكفينا صلاة يوم، قال: «لا، أقدروا

له قدرة» قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض، قال: «كالغيث استذرته الريح» وفي رواية أبي داود عنه: «فمن أدركه منكم.. فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، فإنها جواركم من فتنته» وفيه: «ثم ينزل عيسى عليه السلام عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق، فيدركه عند باب لد فيقتله».

وعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن مع الدجال إذا خرج ماءً وناراً، فأما الذي يرى الناس أنه نار.. فماء بارد، والذي يرى الناس أنه ماء فنار محرقة، فمن أدرك ذلك منكم.. فليقع في الذي يرى أنه نار، فإنه ماء عذب بارد». متفق عليه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أحدّثكم حديثاً عن الدجال ما حدَّث به نبي قومه، إنه أعور، وإنه يجيء بمثال الجنة والنار، فالتي يقول: إنها الجنة هي النار، وإني أنذركم كما أنذر نوح قومه». متفق عليه.

وعن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال: ما سأل أحد رسول الله ﷺ عن الدجال ما سألته، وإنه قال لي: «ما يضرّك» قلت: إنهم يقولون: إن معه جبل خبر ونهر وماء، قال: «هو أهون على الله من ذلك». متفق عليه. وسيأتي تفسير هذه الجملة الأخيرة إن شاء الله تعالى.

وعن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من سمع الدجال.. فليتأ منه، فوالله إنّ الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات» أو قال: «لما يبعث به من الشبهات» أخرجه أبو داود.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس نقب من نقابها إلا عليه الملائكة صافّين يحرسونها، فينزل السبخة، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل كافر ومنافق» متفق عليه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي المسيح من قبل المشرق وهمته المدينة، حتى ينزل مدبر أحد، ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام وهناك يهلك» أخرجه مسلم.

وعن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال:

«الدجال يخرج بأرض بالمشرق، يقال لها: خراسان، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً، عليهم الطيالسة» أخرجه مسلم.

وعن مجمع بن جارية الأنصاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقتل ابن مريم الدجال بباب لد» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وقال النواوي ـ رحمه الله تعالى ـ: قال القاضي عياض: هذه الأحاديث التي وردت في قصة الدجال حجة للمذاهب الحق في صحة وجوده، وأنه شخص بعينه عورٌ، ابتلى الله تعالى به عباده، فأقدره على أشياء من المقدورات، من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا، والخصب معه وجنته وناره، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، ويقع كل ذلك بقدرة الله تعالى وفتنته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره، ويبطل أمره، ويقتله عيسى بن مريم عليه السلام، ويثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء، خلافاً لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة، وخلافاً للجبائي المعتزلي وموافقيه من الجهمية وغيرهم، في أنه صحيح الوجود، ولكن الأشياء التي يأتي بها زعموا أنها مخاريق وخيالات لا حقائق لها، وزعموا أنها لو كانت حقاً.. لضاهت معجزات الأنبياء، وهذا غلط من جميعهم؛ لأنه لم يدّع النبوة، فيكون ما معه كالتصديق له، وإنما يدعي الربوبية، وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله، ووجود دلائل الحدوث فيه، ونقص صورته، وعجزه عن إزالة العور الذي في عينه، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه، ولهذا الدلائل لا يغترّ بها إلا عوام من الناس لشدة الحاجة والفاقة، رغبةً في سد الرمق، أو خوفاً من فتنته، لأنّ فتنته عظيمةٌ جداً، تدهش العقول وتحير الألباب، ولهذا حذّرت الأنبياء من فتنته، فأما أهل التوفيق فلا يغترون به ولا يخدعون بما معه؛ لما سبق لهم من العلم بحاله، ولهذا يقول له الذي يقتله ثم يحييه: ما ازددت فيك إلا بصيرةً.

قوله في حديث المغيرة بن شعبة: قلت يا رسول الله: إنهم يقولون: إنّ معه

جبل خبز ونهر ماء، قال: «هو أهون على الله من ذلك» معناه: هذا أهون على الله تعالى من أن يجعل ما خلقه الله عزّ وجل على يده مضلاً للمؤمنين، ومشككاً لقلوبهم، بل إنما جعله الله له ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وتثبت الحجة على الكافرين والمنافقين، وليس معناه: أنه ليس معه شيء من ذلك، لأنه ثبت في الحديث أنَّ معه ماءً وناراً، فماؤه نار، وناره ماء بارد. والله سبحانه وتعالى أعلم. انتهى من «الخازن».

ولمّا ذكر سبحانه الجدال بالباطل.. ذكر مثالاً للباطل والحق، وأنهما لا يستويان، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾؛ أي: المشرك الجاهل الغافل ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ أي: الموحد العالم المستبصر، والمراد بالأعمى: من عمي قلبه عن رؤية الآيات والاستدلال بها، والبصير: من أبصرها، قال الشاعر:

أَيُّهَا ٱلْمُنْكِحَ ٱلثُّرَيَّا سُهَيْلاً ... عَمْرُكَ ٱللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا ٱسْتَقَلَّتْ ... وَسُهَيْلٌ إِذَا ٱسْتَقَلَّ يَمَانِي

أي: فكما لا تساوي بينهما فكذلك لا تساوي بين المؤمن والكافر، والعالم والجاهل، وقدَّم الأعمى على البصير في نفي التساوي؛ لمناسبة ما قبله من نفي النظر والتأمل، وفي «السمين»: وقدم الأعمى مع كونه أخسّ الوصفين؛ لمجيئه بعد صفة الذم في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿و﴾ ما يستوي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُواْ﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقدمهم على المسيء لمجاورة البصير ولشرفهم عليه ﴿وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾؛ أي: ولا الذين كفروا بالله ورسوله وعملوا السيئات، والمسيء[1]: اسم جنس يعم المسيئين.

والمعنى: وما يستوي المحسن والمسيء؛ أي: الصالح والطالح، فلا بد أن يكون لهم حالة أخرى، يظهر فيها ما بين الفريقين من التفاوت، وهي فيما بعد البعث وهو احتجاج آخر على حقيقة البعث والجزاء، وزيادة ﴿لَا﴾ في المسيء؛ لتأكيد النفي لطول الكلام بالصلة بعد قسم المؤمنين، ولأنّ المقصود نفي مساواته للمحسن، لأنه كما لا يساوي المحسن المسيء فيما يستحقه المسيء من المهانة

---

(١) روح البيان.

والحقارة، كذلك لا يساوي المسيء المحسن فيما يستحقه المحسن من الفضل والكرامة.

والعاطف في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطف الموصول بما عطف عليه على الأعمى والبصير، مع أنَّ المجموع؛ أي: مجموع الغافل والمستبصر هو مجموع المسيء والمحسن، لتغاير الوصفين؛ يعني: أن المقصود في الأولين إلى العلم، فإن العمى والبصيرة في القلب، وفي الأخيرين إلى العمل، لأن الإيمان والأعمال في الجوارح، وإلا ففي الحقيقة المراد بالبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات واحد، وبالأعمى والمسيىء واحد، ويجوز أن يراد الدلالة بالصراحة والتمثيل على أن يتحد الوصفان في المقصود، بأن يكون المراد بالأولين أيضاً: المحسن والمسيىء، فالصراحة بالنسبة إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء، والتمثيل بالنسبة إلى ما قبله، فإن الأعمى والبصير من قبيل التمثيل. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿مَا﴾: زائدة لتأكيد معنى القلة، و﴿قَلِيلًا﴾: مفعول مطلق على أنه صفة لموصوف محذوف؛ أي: تتذكرون تذكراً قليلاً أيها الكفار المجادلون؛ يعني: وإن كنتم تعلمون أن التبصر خير من الغفلة، ولا يستويان، وكذا العمل الصالح خير من العمل الفاسد، لكنكم لا تتذكرون إلا تذكراً قليلاً، أو لا تتذكرون أصلاً، فإنه قد يعبّر بقلة الشيء عن عدمه، مثل: أن يقال: فلان قليل الحياء، أي: لا حياء له.

وقرأ الجمهور والأعرج والحسن وأبو جعفر وشيبة[1]: ﴿يتذكرون﴾ بالتحتية على الغيبة، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم للمناسبة؛ لأنّ ما قبلها وما بعدها على الغيبة لا على الخطاب، وقرأ قتادة وطلحة وأبو عبد الرحمن وعيسى والكوفيون ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات، وفائدة الالتفات في مقام التوبيخ: هو إظهار العنف الشديد، والإنكار البليغ. كما سيأتي في مبحث البلاغة إن شاء الله تعالى.

ومعنى الآية[2]: أي وما يستوي الكافر الذي لا يتأمل حجج الله بعينيه، فيتدبرها ويعتبر بها، فيعلم وحدانيته، وقدرته على خلق ما يشاء، ويؤمن بذلك ويصدق به، والمؤمن الذي يرى بعينيه تلك الحجج فيتفكّر فيها ويتعظ بها، ويعلم ما

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

تدل عليه من توحيده، وعظيم سلطانه، وقدرته على خلق الأشياء جميعها، صغيرها وكبيرها، وقد ضرب لهما مثل الأعمى والبصير، ليستبين ذلك الفارق على أتم وجه وأعظم تفصيل، فما الأمثال إلا وسائل للإيضاح، تبيّن للناس المعقولات وهي لابسة ثوب المحسوسات، فيتضح ما أنْبَهَم منها، وخفي من أمرها، كما قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ إلخ؛ أي: وكذلك لا يستوي المؤمنون المطيعون لربهم، والعاصون المخالفون لأمره، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: ما أقل ما تتذكرون حجج الله، فتعتبرون بها وتتعظون، ولو تذكرتم واعتبرتم.. لعرفتم خطأ ما أنتم عليه مقيمون، من إنكاركم قدرة الله على إحياء من فني من خلقه، وإعادته لحياة أخرى غير هذه الحياة.

ولمّا قرّر الدليل على إمكان وجود يوم القيامة والبعث والنشر.. أردفه الإخبار بأنه واقع لا محالة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾؛ أي: إنّ القيامة، ومر وجه التسمية بها مراراً ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾ أكّد؛ باللام[1] لأنّ المخاطبين هم الكفار، وجرّد في سورة طه حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾؛ لكون المخبَر ليس بشاك في الخبر. كذا في «برهان القرآن» ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ أي: لا شك في مجيئها لوضوح شواهدها، ومنها ما ذكر بقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ إلخ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ يعني الكفار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يصدقون بها لقصور أنظارهم على الظواهر، وقوة الفهم بالمحسوسات، وهذا الكفر والتكذيب طبيعة النفوس، إلا من عصمه الله تعالى، ونظر إلى قلبه بنظر العناية.

والمعنى[2]: أي إن يوم القيامة الذي يحيي الله فيه الموتى للثواب والعقاب لآت لا شك فيه، فأيقنوا بمجيئه، وإنكم مبعوثون من بعد مماتكم، ومجازون بأعمالكم، فتوبوا إلى ربكم، واشكروا له جزيل إنعامه، ليدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبداً، وفيها ترون ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

على قلب بشر، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بمجيئه، ومن ثم ركبوا رؤوسهم، وعاثوا في الأرض فساداً، واجترحوا السيئات دون خوف الرقيب الحسيب.

ثمّ لما بيّن سبحانه أنّ قيام الساعة حق لا شك فيه ولا شبهة.. أرشد عباده إلى ما هو الوسيلة إلى السعادة في دار الخلود، فأمر رسوله ﷺ أن يحكي عنه ما أمره بإبلاغه، وهو قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ أيها الناس ﴿ادْعُونِي﴾؛ أي: وحّدوني واعبدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ أي: أثبكم بقرينة قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾؛ أي: يتعظمون عن طاعتي أو توحيدي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ يوم القيامة حال كونهم ﴿دَاخِرِينَ﴾؛ أي: صاغرين ذليلين، ﴿وإن﴾: فسر الدعاء بالسؤال بجلب النفع، ودفع الضر كان الاستبكار الصارف عنه منزّلاً منزلة الاستكبار عن العبادة، فأقيم الثاني مقام الأول للمبالغة، أو المراد بالعبادة: الدعاء، فإنه من أفضل أبوابها، فأطلق العام على الخاص، ففيه مجاز مرسل، والأول[1] أولى؛ لأنّ الدعاء في أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو العبادة.

قلت: بل الثاني أولى؛ لأن معنى الدعاء لغةً وشرعاً هو الطلب، فإن استعمل في غير ذلك.. فهو مجاز.

وعن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾، أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله.. يغضب عليه». أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب.

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «الدعاء مخ العبادة» أخرجه الترمذي.

وعنه عن النبي ﷺ قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء» أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب.

فإن قلت[2]: كيف قال سبحانه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقد يدعو الإنسان

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

كثيراً فلا يستجاب له.

قلت: الدعاء له شروط: منها: الإخلاص في الدعاء، وأن لا يدعو وقلبه لاهٍ مشغول بغير الدعاء، وأن يكون المطلوب بالدعاء مصلحةً للإنسان، وأن لا يكون فيه قطيعة رحم، فإذا كان الدعاء بهذه الشروط.. كان حقيقاً بالإجابة، فإما أن يعجّلها، وإما أن يؤخّرها له، يدل له ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يدعو الله تعالى بدعاء.. إلا استجيب له، فإما أن يعجّل له به في الدنيا، وإما أن يدّخر له في الآخرة، وإما أن يكفّر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل» قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعجل؟ قال: «يقول: دعوت ربي فما استجاب لي» أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب.

يقال: ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة، ادعوني بلا خفاء استجب لكم بالوفاء، ادعوني بلا خطأ استجب لكم بالعطاء، ادعوني بشرط الدعاء، وهو الأكل من الحلال. قيل: الدعاء مفتاح الحاجة، وأسنانه لقمة الحلال، وقوله: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله تعالى، وفيه لطفٌ بعباده عظيم، وإحسان إليهم جليل، حيث توعّد من ترك طلب الخير منه، واستدفاع الشرِّ به بهذا الوعيد البالغ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة.

وقيل: هذا الوعد بالإجابة مقيّد بالمشيئة؛ أي: أستجب لكم إن شئت، كقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾؛ أي: الله، وقرأ الجمهور والحسن وشيبة[1]: ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ مبنياً للفاعل، وقرأ زيد بن علي بن وابن كثير وابن محيصن وورش وأبو جعفر: ﴿سيُدخلون﴾ بضم الياء وفتح الخاء مبنياً للمفعول، واختلف عن عاصم وأبي عمرو.

فيا عباد الله، وجّهوا رغباتكم، وعوّلوا في كل طلباتكم على من أمركم، بتوجيهها إليه، وأرشدكم إلى التوكل عليه، وكفل لكم الإجابة بإعطاء مطالبكم، وحصول رغباتكم، فهو الكريم الجواد، الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه،

---

(١) البحر المحيط.

ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم، وملكه الواسع ما يحتاج إليه من أمور الدين والدنيا.

ولما أمر بالدعاء والاشتغال به، لا بد أن يسبق بمعرفة المدعو.. ذكر الدليل عليه بذكر بعض نعمه، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي أمرتم بالدعاء له، واللجوء إليه هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾؛ أي: خلق لمصالحكم ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ مظلماً ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ من الحركات في طلب الكسب، ولتستريحوا فيه من تعب النهار، فإن الليل لكونه بارداً رطباً، تضعف فيه القوى المحرّكة، ولكونه مظلماً، يؤدّي إلى سكون الحواسّ، فتستريح النفس والقوى والحواس بقلة أشغالها وأعمالها والنوم ﴿و﴾ جعل لكم ﴿النهار مبصراً﴾؛ أي: مضيئاً لتبصروا فيه حوائجكم، وتتصرّفوا في طلب معايشكم؛ أي: مبصراً فيه أو به، يعني: يبصر به المبصرون الأشياء، ولكونه حارًّا يقوّي الحركات في اكتساب المعاش، فإسناد الإبصار إلى النهار مجاز فيه مبالغة، ولقصد المبالغة عدل به عن التعليل إلى الحال، بأن قال: ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ دون لتبصروا فيه أو به؛ يعني: أنّ نفس النهار لما جُعِلَ مبصراً.. فُهم أنّ النهار لكمال سببيّته للإبصار، وكثرة آثار القوة الباصرة، جعل كأنه هو المبصر.

فإن قيل[1]: فلِمَ لَمْ يَسْلك في الليل سبيل المبالغة؟.

قلنا: لأنّ نعمة النهار لشبهها بالحياة أتمّ وأولى من نعمة الليل، التي تشبه الموت، فكانت أحق بالمبالغة، إذ المقام مقام الامتنان، ولأنّ الليل يوصف بالسكون؛ لسكون هوائه وصفاً مجازياً متعارفاً، فسلوك سبيل المبالغة فيه يرفع الاشتباه، كما أشير إليه في «الكشاف».

ثمّ إذا حملت الآية على الاحتباك كما جرينا عليه أولاً.. فقيل: التقدير حينئذ: الله الذي جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه، والنهار مبصراً لتنتشروا فيه، ولتبتغوا من فضله، فحذف من الأول بقرينة الثاني، ومن الثاني بقرينة الأول لم يحتج إلى ما ذكر كذا أفاده سعدي المفتي.

والمعنى[2]: أي إنّ الله الذي لا تصلح الألوهية إلا له، ولا تنبغي العبادة

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

لغيره، وهو الذي جعل الليل للسكون والاستراحة من الحركة، والتردّد في طلب المعاش، والحصول على ما يفي بحاجات الحياة، وجعل النهار مضيئاً بشمسه. ذات البهجة والرواء، لتتصرفوا فيه بالأسفار، وجوب الأقطار، والتمكن من مزاولة الصناعات، ومختلف التجارات، وصنوف الزراعات والحراثات.

ثمّ ذكر نتيجة لما تقدم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم، وإحسان قديم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بخلق الليل والنهار لا يوازيه فضل، ولا يدانيه طول، فهو المتفضل عليهم بالنعم التي لا تحصى، ولا يمكن أن تستقصىٰ.

ثمّ بيّن أن كثيراً من عباده جحدوا هذه النعم، واستكبروا عن عبادة المنعم، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم، ولا يعترفون بها، إما لجحودهم وكفرهم بها، كما هو شأن الكفّار، وإما لإهمالهم النظر، وغفلتهم عمّا يجب من شكر المنعم، كما هو حال الجاهلين، وتكرير ﴿ٱلنَّاسِ﴾[1]؛ لتنصيص تخصيص الكفران بهم، بإيقاعه على صريح اسمهم الظاهر، الموضوع موضع الضمير الدال على أنّ ذلك كان شأن الإنسان وخاصته في الغالب.

أي: لا يشكرون فضل الله وإحسانه، لجهلهم بالمنعم، وإغفالهم مواضع النعم؛ أي: رفعة شأنها، وعلوّ قدرها، وإذا فقدوا شيئاً منها.. يعرفون قدرها، مثل أن يتفق لبعض والعياذ بالله أن يحبسه بعض الظلمة في بئر عميق مظلم مدة مديدة، فإنه حينئذ يعرف قدر نعمة الهواء الصافي، وقدر نعمة الضوء.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

ثم بين كمال قدرته، المقتضية لوجوب توحيده، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المتفرّد بالأفعال المقتضية للألوهية والربوبية ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود بالحق، المستحق منكم العبادة دون غيره ﴿رَبُّكُمْ﴾؛ أي: ما لككم ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المخلوقات، علويّها وسُفليّها ﴿لَّآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى، أخبار مترادفة، تخصّص السابقة منها اللاحقة وتقرّرها. قال في «كشف

---

(١) روح البيان.

الأسرار»: ﴿كُلِّ﴾ هنا بمعنى البعض، وقيل: عام خصّ منه ما لا يدخل في الخلق.

وقرأ الجمهور: ﴿خَلِقُ﴾ بالرفع على أنه خبر بعد الخبر الأول عن المبتدأ، وقرأ زيد بن علي ﴿خالق﴾ بفتح القاف بنصبه على الاختصاص، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فكيف تنقلبون أيها المشركون عن توحيده، ومن أيّ وجه تصرفون عن عبادته خاصة إلى عبادة غيره، وقرأ طلحة في رواية ﴿يؤفكون﴾ بياء الغيبة، والجمهور: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ بتاء الخطاب، وقال الراغب: قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: تصرفون من الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح، كما سيأتي.

ومعنى الآية: أي ذلكم الذي فعل كل هذا، وأنعم عليكم بهذه النعم هو الله الواحد الأحد، خالق جميع الأشياء، لا إله غيره، ولا ربّ سواه فكيف تنقلبون عن عبادته والإيمان به وحده، مع قيام البرهان الساطع، والدليل الواضح، وتعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً، وهي مخلوقة منحوتة بأيديكم.

ثم ذكر أنّ هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم قبلهم، بل قد سبقهم إلى هذا خلق كثير، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الإفك العجيب، الذي لا وجه له ولا مصحّح له أصلاً؛ أي: كما صرف قومك وهم قريش عن الحق، وحرموا من التحلي به مع قيام الدلائل ﴿يُؤْفَكُ﴾ ويصرف عنه ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: يصرف عنه كل جاحد قبلهم أو بعدهم بآياته أيّ آية كانت، لا إفكاً آخر له وجه ومصحح في الجملة؛ أي: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله.. ضل وأفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان، بل للجهل والهوى.

وبعد أن ذكر من الدلائل تعاقب الليل والنهار، ذكر منها خلق الأرض والسماء، فقال: ﴿اللَّهُ﴾ الذي يستحق منكم العبادة هو ﴿الَّذِى جَعَلَ﴾ وصير ﴿لَكُمُ﴾؛ أي: لمصالحكم وحوائجكم ﴿الْأَرْضَ قَرَارًا﴾؛ أي[1]: مستقراً. أي: موضع قرار ومكان ثبات وسكون، فإن القرار كما يجيء بمعنى الثبات والسكون،

---

(١) روح البيان.

ويجيء بمعنى ما قرّ فيه، وبمعنى المطمئن من الأرض. كما في «القاموس» قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿قَرَارًا﴾؛ أي: منزلاً في حال الحياة وبعد الممات ﴿و﴾ جعل ﴿السماء بناء﴾ قبةً مبينةً ومظلةً مرفوعة فوقكم، فالبناء بمعنى المبني، ومنه أبنية العرب لمضاربهم، لأن السماء في نظر العين كقبة مضروبة على فضاء الأرض. وفي «التأويلات النجمية»: خلق الأرض لكم استقلالا، ولغيركم طفيليًّا. وتبعاً، لتكون مقركم، والسماء أيضاً خلق لكم لتكون سقفكم، مستقلّين به، وغيركم تبع لكم فيه.

والمعنى[1]: أي الله الذي جعل لكم الأرض مستقراً تعيشون عليها، وتتصرّفون فيها، وتمشون في مناكبها، وجعل لكم السماء سقفاً محفوظاً مزيّناً بنجوم، ينشأ عنها الليل والنهار، والظلام والضياء.

وبعد أن ذكر دلائل الآفاق والأكوان.. ذكر دلائل الأنفس فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ في الأرحام ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ من صور الدوابّ، ويقال: أحكم صوركم، ويقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾؛ أي: أحدث صورتكم على غير نظام واحد ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ ولم يخلق الله تعالى حيواناً أحسن صورةً من الإنسان.

وهذا بيان لفضله المتعلق بأنفسهم، و﴿الفاء﴾[2]: في ﴿فَأَحْسَنَ﴾: تفسيرية، فإن الإحسان عين التصوير، كما في قوله ﷺ: «إن الله أدّبني فأحسن تأديبي» فإن الإحسان عين التأديب، فإن تأديب الله لمثله لا يكون إلا حسناً بل أحسن.

والمعنى: وصوّركم أحسن تصوير، حيث خلقكم منتصبي القامة، بادي البشرة، متناسبي الأعضاء والتخطيطات، متهيِّئين لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: خلق ابن آدم قائماً معتدلاً، يأكل ويتناول بيده، وغير ابن آدم يتناول بفيه.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿صُوَرَكُمْ﴾ بضم الصاد وفتح الواو، وقرأ الأعمش وأبو رزين: بكسرها؛ فراراً من الضمة قبل الواو استثقالاً، وجمع فعلة بضم الفاء على فعل بكسرها: شاذٌ، وقالوا: قوة وقوى بكسر القاف على الشذوذ أيضاً، قال

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

الجوهري: والصور بكسر الصاد: لغة في الصور بضمها، وقرأت فرقة: ﴿صوركم﴾ بضم الصاد وإسكان الواو على نحو بسرة وبسر ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: من المأكولات اللذيذة، والمشروبات الحلوية.

والمعنى: أي وخلقكم فأحسن خلقكم، إذ خلق كلاً منكم منتصب القامة، بادي البشرة، متناسب الأعضاء، متهيأً لمزاولة الصناعات واكتساب الكمالات، ورزقكم من طيبات المطاعم والمشارب.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الموصوف بما ذكر من الصفات الجميلة، مبتدأ، خبره: ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المستحق منكم العبادة ﴿رَبُّكُمْۖ﴾ الذي ربَّاكم بما يصلحكم، خبر آخر ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صفة خاصة بالله تعالى، أي: تقدّس وتنزّه وتعالى بذاته عن أن يكون له شريك في العبادة، إذ لا شريك له في شيء من تلك النعم، أو المعنى: كثر خيره، وتزايد برّه، ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: مالكهم ومربّيهم، والكل تحت ملكوته، مفتقرٌ إليه في ذاته ووجودِهِ وسائر أحواله جميعاً، بحيثُ لو انقطع فيضه عنه آناً.. لانعدم بالكلية.

أي[1]: ذلكم الذي أنعم عليكم بهذه النعم، هو الذي لا ينبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح الربوبية لغيره، لا مَنْ لا ينفع ولا يضر، فتقدس سبحانه وتنزّه، وهو رب العالمين.

ثم نبَّه إلى وحدانيته، وأمر بإخلاص العبادة له، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْحَيُّ﴾؛ أي: المتصف بالحياة الدائمة، المنفرد بالحياة الذاتية الحقيقة لا يموت، ويميت الخلق ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى، إذ لا موجود يدانيه في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿فَٱدْعُوهُ﴾؛ أي: فاعبدوه خاصةً لاختصاص ما يوجبه به تعالى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾؛ أي: الطاعة والعبادة من الشرك الجلي والخفيّ، مقرين له بالعبودية، قائلين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من قال: لا إله إلا الله.. فليقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ

(١) المراغي.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فعلى هذا هو من كلام المأمورين بالعبادة؛ أي: ولما كان تعالى موصوفاً بصفات الجلال والعزّة.. استحق لذاته أن يقال له: الحمد لله رب العالمين، ويجوز أن يكون من كلامه تعالى، على أنه استئناف لحمد ذاته بذاته. اهـ «شهاب».

والمعنى: أي هو سبحانه الحيّ الذي لا يموت، وما سواه فمنقطع الحياة، غير دائمها، لا معبود بحق غيره، ولا تصلح الألوهية إلا له، فادعوه مخلصين له الطاعة، ولا تشركوا في عبادته شيئاً سواه من وثن أو صنم، ولا تجعلوا له نداً ولا عدلاً، ثمّ أمر عباده أن يحمدوه على جزيل نعمه، وجليل إحسانه فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾؛ أي: احمدوه سبحانه، فهو مالك جميع أصناف الخلق، من ملك وإنس وجنّ، لا الآلهة التي تعبدونها، ولا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرًّا، فضلاً عن نفع غيرها وضرّه.

الإعراب

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف معطوف على المنادى الأول. ﴿مَا﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي في محل الرفع مبتدأ، ﴿لِيٓ﴾: جار ومجرور خبره، والجملة الاسمية، في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿أَدْعُوكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعل مستتر. ﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾: متعلق بـ﴿أَدْعُوكُمْ﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب حال من ضمير ﴿لِيٓ﴾. ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿تدعونني﴾: فعل وفاعل ومفعول به مرفوع بثبات النون والنون الثانية للوقاية، و﴿الياء﴾: مفعول به. ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ﴿تدعونني﴾، وهذه الجملة[1] مستأنفة أخبر عنهم بذلك بعد استفهامه عن دعائه لهم، ويجوز أن يكون التقدير: وما لكم تدعونني إلى النار، وهو الظاهر، ويضعف أن تكون الجملة حالاً؛ أي: ما لي أدعوكم إلى النجاة حال دعائكم إياي إلى النار. اهـ «سمين». وعبارة أبي السعود: ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ﴾: ﴿مَا﴾: مبتدأ، والظرف بعدها خبر عنها، وجملة

(١) الفتوحات.

﴿أَدْعُوكُمْ. . .﴾ إلخ. حال، والاستفهام المفاد بـ﴿مَا﴾ تعجبي، ومدار التعجب: دعوتهم إياه إلى النار لا دعوته إياهم إلى النجاة، كأنه قال: أخبروني، كيف هذه الحال، أدعوكم إلى الخير وتدعونني إلى الشر؟!.

﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿تَدْعُونَنِى﴾: فعل مضارع وفاعل ونون وقاية ومفعول به مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية: بدل من جملة ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أو مستأنفة مسوقة لبيانها ﴿لِأَكْفُرَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿أكفر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله: ضمير مستتر يعود على المؤمن. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أكفر﴾ والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: تدعونني إلى كفري بالله، والدعاء يتعدى كالهداية بـ﴿إلى﴾ وباللام. ﴿وَأُشْرِكَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿أكفر﴾ ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أشرك﴾، و﴿مَا﴾: مفعول به، ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص، و﴿لِى﴾: خبرها المقدم، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿عِلْمٌ﴾ و﴿عِلْمٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة ﴿وَأَنَا۠﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أنا﴾: ضمير المتكلم في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَدْعُوكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعل مستتر، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من ياء المتكلم في ﴿تَدْعُونَنِى﴾ أو معطوفة على ﴿تَدْعُونَنِى﴾، ﴿إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾: متعلق بـ﴿أَدْعُوكُمْ﴾، ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ صفة لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿لَا﴾: نافية لرد ما قبلها، كما مر في مبحث التفسير. ﴿جَرَمَ﴾: فعل ماض بمعنى حق ووجب. ﴿أَنَّمَا﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب وتوكيد ومصدر. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسمها، فكان حقها أن تكتب مفصولة من النون، كما هو القاعدة: أن الموصولة مفصولة، والكافَّة متصلة بها لكنها رسمت في المصحف متصلةً بالنون؛ تبعاً للرسم العثماني. ﴿تَدْعُونَنِى﴾: فعل مضارع وفاعل ونون وقاية

ومفعول به. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تَدْعُونَنِي﴾ وهو العائد إلى ﴿ما﴾ الموصولة، والجملة الفعلية: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لَهُ﴾: خبرها مقدم، ﴿دَعْوَةٌ﴾: اسمها مؤخر، ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿دَعْوَةٌ﴾. ﴿وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ وجملة ﴿لَيْسَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿جَرَمَ﴾ تقديره: حق وثبت بطلان دعوة ما تدعونني إليه في الدنيا والآخرة. ﴿وَأَنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿مَرَدَّنَا﴾: اسمها. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ خبرها، وجملة ﴿أَن﴾: معطوفة على جملة ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي﴾ على كونها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، تقديره: جرم بطلان دعوة ما تدعونني إليه، وكون مردنا إلى الله تعالى. ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ناصب واسمه ﴿هُمْ﴾: ضمير فصل. ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾: خبره، وجملة ﴿أَن﴾: في تأويل مصدر معطوفة على ما قبله؛ أي: وحق كون المسرفين من أصحاب النار.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم، وأردتم بيان عاقبتكم.. فأقول لكم، و﴿السين﴾: حرف استقبال. ﴿تذكرون﴾: فعل وفاعل مرفوع بثبات النون ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿أَقُولُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة والعائد: محذوف، تقديره: ما أقوله، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿تذكرون﴾، ﴿إِلَى اللَّهِ﴾. متعلق بـ﴿أفوض﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿بِالْعِبَادِ﴾: متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف يقتضيه السياق، تقديره: وقصدوا قتله فهرب منهم فوقاه الله، ﴿وقاه الله﴾: فعل ماض ومفعول به أول وفاعل معطوف على ذلك المحذوف. ﴿سَيِّئَاتِ﴾: مفعول به ثان ﴿سَيِّئَاتِ﴾: مضاف ﴿مَا﴾: اسم موصول

في محل الجر مضاف إليه. ﴿مَكَرُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ما مكروه. ﴿وَحَاقَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿وقاه﴾. ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾: متعلق بـ﴿حاق﴾، ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿ٱلنَّارُ﴾: مبتدأ، ﴿يُعْرَضُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة الفعلية، في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة: مستأنفة ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿يُعْرَضُونَ﴾، ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: ظرفان متعلقان بـ﴿يُعْرَضُونَ﴾، ﴿وَيَوْمَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بقول محذوف، تقديره: ويقال يوم تقوم الساعة، والقول المحذوف: مستأنف، وجملة ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿أَدْخِلُوٓا۟﴾: فعل أمر وفاعل، ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: مفعول به أول. ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية: في محل الرفع نائب فاعل محكي للقول المحذوف.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر لقومك يا محمد قصة ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾. ﴿فَيَقُولُ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿يقول الضعفاء﴾: فعل وفاعل والجملة: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يقول﴾، وجملة ﴿ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾: صلة الموصول. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنَّا﴾ فعل ماض ناقص واسمه. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿تَبَعًا﴾، ﴿تَبَعًا﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿يقول﴾. ﴿فَهَلْ﴾: الفاء عاطفة. ﴿هل﴾: حرف استفهام. ﴿أَنتُم مُّغْنُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾، ﴿عَنَّا﴾: متعلق بـ﴿مُّغْنُونَ﴾، ﴿نَصِيبًا﴾: منصوب بفعل محذوف دل عليه مغنون تقديره: هل أنتم دافعون عنا نصيباً، كما مر في بحث التفسير. ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ صفة لـ﴿نَصِيبًا﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ

ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، وجملة ﴿ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾: صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة قصد العموم. ﴿فِيهَآ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كُلٌّ﴾، وجملة المبتدأ مع خبره: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿قَدْ حَكَمَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾: متعلق بـ﴿حَكَمَ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالَ﴾ الأول، ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿يُخَفِّفْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على الرب جل جلاله. ﴿عَنَّا﴾: متعلق بـ﴿يُخَفِّفْ﴾، ﴿يَوْمًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿يُخَفِّفْ﴾ أيضاً ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾: صفة لمحذوف هو مفعول ﴿يُخَفِّفْ﴾؛ أي: يخفف عنا شيئاً من العذاب في يوم، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب الطلب.

﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿أَوَلَمْ تَكُ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف دل عليه السياق، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم تنتهوا عن هذا ولم تك تأتيكم إلخ. والجملة المحذوفة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم، ﴿تَكُ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم، وعلامة جزمه السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف، واسمها: ضمير مستتر يعود على الرسل. ﴿تَأْتِيكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به. ﴿رُسُلُكُم﴾: فاعل ﴿تَأْتِيكُمْ﴾ وقد تنازعه كل من ﴿تَكُ﴾ فأعطي فاعلاً للثاني وأضمر في الأول، ويجوز العكس. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿تَأْتِيكُمْ﴾ وجملة ﴿تَأْتِيكُمْ﴾: في محل النصب خبر تك، وجملة تك معطوفة على الجملة المحذوفة. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات النفي نائب عن الجواب، تقديره: بلى أتتنا رسلنا فكذبنا، والجملة المحذوفة

في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿فَٱدۡعُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كذلك، وأردتم بيان جزائكم.. فأقول لكم: ادعوا ﴿ادعوا﴾: فعل أمر وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾: ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة: ﴿ما﴾: نافية. ﴿دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾: خبر المبتدأ، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَٱدۡعُواْ﴾.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَنَنصُرُ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿ننصر﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿رُسُلَنَا﴾: مفعول به ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ﴿رُسُلَنَا﴾، وجملة ﴿ننصر﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ضياع دعائهم، وجملة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: صلة الموصول. ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾: متعلق بـ﴿ننصر﴾ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ صفة لـ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾. ﴿وَيَوۡمَ﴾: ظرف معطوف على ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: لننصرنهم في الحياة الدنيا وفي يوم يقوم الأشهاد، وجملة ﴿يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ من الفعل والفاعل: في محل الجر مضاف إليه ﴿يَوۡمَ﴾: بدل من ﴿يَوۡمَ﴾ قبله، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَنفَعُ﴾: فعل مضارع ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول به، ﴿مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾: فاعل، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه. لـ﴿يوم﴾ ﴿وَلَهُمُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَهُمُ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿لَا يَنفَعُ﴾. ﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾: خبر مقدم. ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على ما قبلها.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مُوسَى﴾: مفعول أول. ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾: مفعول ثان،

والجملة: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم، مستأنفة مسوقة لإيراد نموذج عظيم من نماذج النصر الذي وعد الله أنبياءه في الدنيا. ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَاتَيْنَا﴾، ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول أول، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان. ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾: منصوبان على أنهما مفعولان لأجله؛ أي: لأجل الهدى والذكرى، أو على أنهما مصدران في موضع الحال ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بذكرى أو صفة له. ﴿فَٱصْبِرْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت وعد الله النصر لأنبيائِهِ، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿اصبر﴾، ﴿اصبر﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه، ﴿حَقٌّ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالصبر. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿اصبر﴾ ﴿لِذَنۢبِكَ﴾: متعلق بـ﴿استغفر﴾، ﴿وَسَبِّحْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف أيضاً على ﴿اصبر﴾ ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: حال من فاعل ﴿سبح﴾، ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ متعلق بـ﴿سبح﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾: صلة الموصول. ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ تقديره: حال كونهم غير مستندين في جدالهم إلى حجة، وجملة ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ صفة ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ ﴿إِن﴾: نافية، ﴿فِى صُدُورِهِمْ﴾: خبر مقدم، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿كِبْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿مَا﴾: حجازية ﴿هُم﴾: في محل الرفع اسمها. ﴿بِبَٰلِغِيهِ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة في خبر ﴿مَا﴾ الحجازية. ﴿بالغيه﴾: خبر ﴿ما﴾ الحجازية، وجملة ﴿مَا﴾ الحجازية: في محل الرفع صفة لـ﴿كِبْرٌ﴾. ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حال المجادلين، وأردت بيان ما هو الأصلح له.. فأقول لك: ﴿استعذ بالله﴾ ﴿استعذ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿استعذ﴾

والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: خبر أول لها، ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿لَخَلْقُ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿خلق السموات﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿أَكْبَرُ﴾: خبره، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿أَكْبَرُ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبرها، والجملة الاستدراكية: معطوفة على الجملة التي قبلها، أو في محل النصب حال، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية. ﴿يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة التي قبلها، أو مستأنفة، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة للتوكيد. ﴿ٱلْمُسِىٓءُ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾. ﴿قَلِيلًا﴾: مفعول مطلق أو ظرف زمان؛ لأنه صفة مصدر أو ظرف محذوف؛ أي: تذكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً، ﴿مَّا﴾ زائدة لتأكيد القلة. ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿آتية﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿لَّا﴾ نافية. ﴿رَيْبَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾، وجملة ﴿لَا﴾ في محل الرفع خبر ثان لـ﴿إن﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو حالية، ﴿لكنَّ﴾: حرف نصب واستدراك ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لكن﴾: معطوفة أو حالية كما سبق.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ

ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قَالَ رَبُّكُمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾: فعل أمر وفاعل ونون وقاية. ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَسْتَجِبْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بالطلب السابق. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب الطلب. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾: صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿عَنْ عِبَادَتِى﴾ متعلق بـ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به على السعة. ﴿دَاخِرِينَ﴾: حال، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، والجملة: صلة الموصول، ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، لأنه بمعنى خلق، ﴿ٱلَّيْلَ﴾: مفعول به، ﴿لِتَسْكُنُوا۟﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿تسكنوا﴾: فعل مضارع وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿تسكنوا﴾ والجملة: في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿لَكُمُ﴾، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿تسكنوا﴾، ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾: معطوف على ﴿ٱلَّيْلَ﴾. ﴿مُبْصِرًا﴾: حال من ﴿النهار﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿فَضْلٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لكن﴾: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر أول، والجملة: مستأنفة. ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر ثان. ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: خبر ثالث، وجملة ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: خبر رابع. ﴿فَأَنَّىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية أو عاطفة، ﴿أنى﴾: اسم استفهام بمعنى كيف، في محل النصب على الحال مبني على السكون. ﴿تُؤْفَكُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة لإفادة التعجب من حالهم، أو معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: إفكاً مثل إفك هؤلاء

المشركين. ﴿يُؤْفَكُ الَّذِينَ﴾: فعل مضارع ونائب فاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿كَانُوا﴾: فعل ماض ناقص واسمه. ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَجْحَدُونَ﴾ وجملة ﴿يَجْحَدُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: صلة الموصول.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة، ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض بمعنى صير، وفاعل مستتر. ﴿لَكُمُ﴾: حال من ﴿قَرَارًا﴾. ﴿الْأَرْضَ﴾: مفعول أول، ﴿قَرَارًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية: صلة ﴿الَّذِي﴾، ﴿وَالسَّمَاءَ﴾: معطوف على ﴿الْأَرْضَ﴾، ﴿بِنَاءً﴾: مفعول ثان. ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿جَعَلَ﴾، ﴿فَأَحْسَنَ﴾ عطف على صوركم ﴿صُوَرَكُمْ﴾ مفعول به ﴿وَرَزَقَكُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: متعلق بـ﴿رزقكم﴾. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر ثان، والجملة: مستأنفة. ﴿فَتَبَارَكَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة أو استئنافية. ﴿تبارك الله﴾: فعل وفاعل. ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: نعت للجلالة، والجملة الفعلية: مستأنفة أو معطوفة على الجملة الاسمية. ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾: مبتدأ وخبر أول، والجملة: مستأنفة، وجملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: خبر ثان ﴿فَادْعُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما ذكر من الصفات لله تعالى، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿ادعوه﴾ ﴿ادعوه﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به. ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حال من فاعل ﴿ادعوه﴾. ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصِينَ﴾، ﴿الدِّينَ﴾: مفعول لـ﴿مُخْلِصِينَ﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: نعت للفظ الجلالة، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لقول محذوف، حال من فاعل ﴿ادعوه﴾ تقديره: فادعوه مخلصين له الدين حال كونكم قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾؛ أي: إلى الإيمان بالله، الذي ثمرته وعاقبته النجاة. ﴿إلى النار﴾؛ أي: إلى اتخاذ الأنداد والأوثان الذي عاقبته النار. ﴿أَدْعُوكُمْ﴾ أصله: أدعوكم بوزن أفعل سكنت الواو لوقوعها بعد ضَمة فصارت حرف مَدّ ﴿النجاة﴾ أصله: النجوة، بوزن فعلة كالدعوة، نقلت حركة الواو إلى الجيم، ثم قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن. ﴿تَدْعُونَنِى﴾ أصله: تدعوونني، حذفت الضمة التي على الواو تخفيفاً، ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين، فوزنه تفعونني. ﴿مَرَدَّنَآ﴾ أصله مرددنا، نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء فسكنت، ثم أدغمت في الدال الثانية. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ﴾ قال في «القاموس»: فوض إليه الأمر: رده إليه. انتهى. وحقيقة التفويض: تعطيل الإرادة في تدبير الله تعالى كما في «عين المعاني».

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: الذين يغلب شرهم على خيرهم. ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: وقيه، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ ومعنى عرضهم على النار: إحراق أرواحهم وتعذيبهم بها من قولهم: عرض الأسارى على السيف: إذا قتلوا به. قال في «القاموس»: عرض القوم على السيف: قتلهم، وعلى السوط: ضربهم. ﴿غُدُوًّا﴾ وزنه فعول، أصله: غدوواً، أدغمت واو فعول في واو لام الكلمة. ﴿وَعَشِيًّا﴾ لامه واو، أصله: عشيو، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما ساكنة فقلبت الواو ياءً وأدغمت فيها الياء.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾ أصله: يتحاججون، سكنت الجيم الأولى وأدغمت في الثانية، والتحاج بالتشديد: التخاصم كالمحاجة. ﴿مُّغْنُونَ﴾ أصله: مغنيون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت.. التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت النون لمناسبة الواو. ﴿تَبَعًا﴾: جمع تابع، كخدم جمع خادم، قال في «القاموس»: التبع: محركة التابع يكون واحداً وجمعاً؛ أي: أتباعاً في كل حال، خصوصاً فيما دعوتمونا إليه من الشرك والتكذيب، أو مصدر وصف به. ﴿نَصِيبًا﴾ وهو الحظ المنصوب؛ أي: المعين كما في «المفردات». ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ جمع خازن، والخزن: حفظ الشيء في الخزانة، ثم يعبر به عن كل حفظ، كحفظ السر

ونحوه. قاله الراغب. ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾: جمع شاهد، مثل صاحب وأصحاب. قال النحاس: ليس لباب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليه، ولكن ما جاء فيه مسموعاً أدي على ما سمع فهو على هذا جمع شهيد مثل شريف وأشراف. ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ والمعذرة: بمعنى العذر. ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أصله: أتيهم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أصله: استعوذ، بوزن استفعل، نقلت حركة الواو إلى العين فسكنت، فالتقت ساكنةً، مع الذال آخر الفعل المسكن لبناء الأمر، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين. ﴿ٱلْمُسِيٓءُ﴾ أصله: المسوىء، بوزن الفعل، نقلت حركة الواو إلى السين فسكنت إثر كسرة فقلبت ياءً حرف مد. ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والحذف، أصله: أستجوب: فعل مضارع مرفوع بالضمة، ثم وقع جواباً للأمر فجزم بالسكون، ثم نقلت حركة الواو إلى الجيم فسكنت فالتقى ساكنان فحذفت الواو، فوزنه استفل. ﴿دَاخِرِينَ﴾: اسم فاعل من دخر كمنع وفرح إذا صغر وذل. وفي «المصباح»: دخر الشخص يدخر بفتحتين دخوراً: ذل وهان؛ وأدخرته بالألف لتعدية.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ السماء، أصله: السماو من السمو، والهمزة: مبدلة من واو لتطرفها إثر ألف زائدة، وكذلك قوله: ﴿بِنَآءً﴾: أصله: بناو؛ لأنك تقول: بنيت البنيان، أبدلت الياء همزةً لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ﴾ قال الراغب: الأفك كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب: المؤتفكات.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تكرير نداء قومه في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ مبالغة في التنبيه والتحدي وقرع العصا وإمحاض النصيحة لهم، والإيقاظ من سنة الغفلة.

ومنها: الإتيان بالواو في النداء الثالث دون الثاني، لأن النداء الثاني بمثابة بيان للأول، وتفسير له، فأعطي حكمه في عدم دخول الواو عليه، وأما الثالث:

فداخل على كلام ليس بتلك المثابة.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَوٰةِ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وبين الأعمى، والبصير في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ وفيه الاستعارة اللطيفة: استعار ﴿الْأَعْمَىٰ﴾ للكافر ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ للمؤمن.

ومنها: المقابلة بين ﴿الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ وبين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿والمسيء﴾.

فائدة: واعلم: أن التقابل يجيء على ثلاث طرق:

إحداها: أن يجاور المناسب ما يناسبه كهذه الآية.

والثانية: أن يتأخر المتقابلان، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾.

والثالثة: أن يقدم مقابل الأول ويؤخر مقابل الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ وكل ذلك تفنن في البلاغة، وقدم ﴿الْأَعْمَىٰ﴾ في نفي التساوي؛ لمجيئه بعد صفة الذم في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كما مر اهـ «سمين».

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ لإفادة التهويل والتفظيع، لأن مقتضى السياق أن يقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ لخزنتها، والتفخيم فيه من وجهين:

أحدهما: وضع الظاهر موضع المضمر.

والثاني: ذكره وهو شيء واحد بظاهر غير الأول أفظع منه، لأن جهنم أفظع من النار إذ النار مطلقة وجهنم أشدها.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ لأن الإيراث الحقيقي إنما يتعلق بالمال، فلما تعذّر حمله على معناه هنا.. أريد به الترك مجازاً كما مر، فاستعير الإيراث للترك ثم اشتق من الإيراث بمعنى الترك، وأورثنا بمعنى تركنا على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ على

قراءة التاء الفوقانية، لأن ما قبله وما بعده على الغيبة، وفائدة الالتفات في مقام التوبيخ: هي إظهار العنف الشديد والإنكار البليغ، كما في «الكرخي» وغيره.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ لأن الدعاء مجاز عن العبادة، علاقته السببية، لأن الدعاء سبب العبادة.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فقد أسند الإبصار إلى النهار، لأنه يبصر فيه، ولأن الإبصار في الحقيقة لأهل النار.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فقد كان السياق يقتضي أن يقول: ولكن أكثرهم لا يشكرون، فلا يتكرر ذكر الناس، ولكن في هذا التكرار تخصيصاً لكفران النعمة بهم، وأنهم هم المتميزون بهذه الصفة المستولية على الطباع، تتوالى عليهم النعم وتترادف الآلاء، وهم مصرون على الجحود والكفران، وكان ذلك شأن الإنسان وخاصته.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

ومنها: التأكيد بأن واللام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ لأن المخاطبين هنا هم الكفار وهم منكرون، وجرد في طه عن اللام حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾؛ لكون المخبر ليس بشاك في الخبر كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي
وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟
أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ
يُسْحَبُونَ (٧١) فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن
دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤)
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى
نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ
قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ (٧٨) ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ
تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا
كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٥)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما أثبت لنفسه صفات الجلال

---

(١) المراغي.

والكمال.. أمر رسوله ﷺ أن يخبرهم بأنه نهى عن عبادة غيره، وأورد ذلك بألين قول وألطفه، ليصرفهم عن عبادة الأوثان، ثم بين أن سبب النهي هو البينات التي جاءته، إذ قد ثبت بصريح العقل أن إله العالم الذي تجب عبادته هو الموصوف بصفات العظمة لا الأحجار المنصوبة والخشب المصورة، ثم ذكر أنه بعد أن نهى عن عبادة غيره أمر بعبادته تعالى، وقد ذكر من الأدلة على وجوده خلق الأنفس على أحسن الصور ورزقها من الطيبات، ثم تكوين الجسم من ابتداء كونه نطفةً وجنيناً إلى الشيخوخة ثم الموت.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات، وهذه الآيات عود على بدء بالتعجيب من أحوال المجادلين الشنيعة، وآرائهم الفاسدة، والتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بالقرآن وبسائر الكتب والشرائع، وترتيب الوعيد على ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لما كان الكلام من أول السورة إلى هنا في تزييف طرق المجادلين في آيات الله تعالى.. أمر هنا رسوله بالصبر على أذاهم وتكذيبهم، فإن الله سبحانه سينجز له ما وعده من النصر والظفر على قومه، ويجعل العاقبة له ولمن اتبعه من المؤمنين في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أوعد المبطلين، وبالغ في ذلك بما فيه العبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.. عاد إلى ذكر الدلائل على وجوده ووحدانيته، بذكر نعمة من نعمه التي لا تحصى، ثم لفت أنظارهم إلى ما يحيط بهم من أدلة هم عنها معرضون.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أطال الكلام في هذه السورة في توبيخ الذين يجادلون في آيات الله طلباً للرياسة والجاه، والحصول على المال، وكسب حظوظ الدنيا.. ختمها بتهديدهم، وأبان أن هذه الدنيا فانية ذاهبة، فما فيها من مال وجاه ظل زائل لا يغني عنهم من الله شيئاً، وقد ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم ممن كانوا أكثر

منهم عدداً، وأشد قوةً وآثاراً في الأرض، فلم ينفعهم شيء من ذلك حين حل بهم بأس الله، ثم ذكر أن المكذبين حين رأوا البأس، تركوا الشرك وآمنوا بالله وحده، وأنى لهم ذلك، هيهات هيهات فذلك لا يجديهم فتيلاًولا قطميراً، سنة الله في عباده أن لا ينفع الإيمان حين حلول العذاب، وأحاط بهم، وما أحسن قول بعضهم:

صَاحِ هَلْ رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعٍ رَدَّ فِيْ ٱلضَّرْعِ مَا قَرَىٰ فِيْ ٱلْحِلَابِ

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ . . . ٱللَّهِ﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه جويبر عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالا: يا محمد، ارجع عما تقول وعليك بدين آبائك وأجدادك، فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ. . .﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة حين قالوا لك: ارجع إلى دين آبائك: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ وزجرت ومنعت، من النهي، وهو طلب الترك ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: منعت من عبادة الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله تعالى ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: حين جاءني الأدلة الواضحة، والبراهين القاطعة، الدالة على وحدانيته تعالى: ﴿مِن رَّبِّي﴾ فإنها توجب التوحيد؛ أي: منعني ربي من الإشراك وقت مجيء الآيات القرآنية من ربي، وذلك[1] لأنه لا نهي ولا وجوب عند أهل السنة إلا بعد ورود الشرع، ويجوز أن يقال: كان منهياً عن عبادتها عقلاً بحسب دلالة الشواهد على التوحيد، فأكد النهي بالشرع، ويجوز أنه نهي له ﷺ، والمراد: غيره. وفي قوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾ إشارة إلى أن دلائل التوحيد، وشواهد أنوار الحقيقة لا تطلع إلا من مطلع الهداية الأزلية، ولكن ينبغي للملتمسين أن يتوجهوا إلى ذلك الجانب بالإعراض عن السوى وترك أصنام البدع والهوى.

---

(١) روح البيان.

وفي «الخطيب»[1]: لما أورد على المشركين تلك الأدلة، الدالة على إثبات إله العالم.. أمره بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ إلخ؛ أي: قل لهؤلاء الذين يجادلونك في البعث، مقابلاً لانكارهم بالتوكيد ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾؛ أي: نهياً عاماً ببراهين العقول، ونهياً خاصاً بأدلة النقل، أن أعبد الذين تعبدون من دون الله حين جاءني البينات من ربي؛ أي: دلائل التوحيد العقلية والنقلية. اهـ.

وخلاصة المعنى[2]: أي قل أيها الرسول لمشركي قومك من قريش وغيرهم: إني نهيت أن أعبد ما تعبدون من دون الله من وثن أو صنم، حين جاءتني الأدلة من عند ربي، وهي آيات الكتاب الذي أنزله علي، وهي مؤيدة لأدلة العقل، ومنبهة لها، وجملة ذلك: أن الآيات التنزيلية مفسرات للآيات التي في الأكوان والأنفس.

ولما بين أنه نهى عن عبادة غير الله تعالى.. أردف ذلك بأنه أمر بعبادته تعالى فقال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: أمرت بأن أنقاد أو أخلص، فالأول على أن يكون ﴿أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من قولهم: أسلم أمره إلى الله؛ أي: سلم وفوض، وذلك إنما يكون بالرضا والانقياد لحكمه، والثاني مفعول ﴿أُسْلِمَ﴾ محذوفاً؛ أي: أمرت أن أسلم أمري أو أخلص توحيدي وطاعتي له. اهـ «زاده»؛ أي: أمرت بالانقياد والخضوع أو بالإخلاص له.

قال في «برهان القرآن»: مدح سبحانه نفسه وختم ثلاث آيات على التوالي بقوله: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وليس له في القرآن نظير.

ثم ذكر من الدلائل على وجوده تعالى تكوين الإنسان من ابتداء النطفة إلى وقت الشيخوخة، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾ وعبارة زاده هنا: لما استدل على ثبوت الإله ووجوده بأربع من دلائل الآفاق، وهي الليل والنهار، والأرض والسماء، وبثلاث من دلائل الأنفس، وهي التصوير وحسن الصورة، ورزق الطيبات.. ذكر من دلائل الأنفس كيفية تكون البدن من ابتداء كونه نطفة إلى آخر الشيخوخة والموت، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ الخ. انتهى.

أي: هو سبحانه وتعالى الإله الذي خلقكم وأوجدكم يا بني آدم ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾؛

---

(١) الخطيب. (٢) المراغي.

أي: في ضمن خلق أبيكم آدم من تراب؛ أي: خلق أباكم الأول ـ وهو آدم ـ من تراب وخلقه من تراب، يستلزم خلق ذريته منه. ﴿ثُمَّ﴾ خلقكم خلقاً تفصيلياً ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ أي: من مني، قال الراغب: النطفة: الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل؛ أي: ماء الصلب يوضع في الرحم. كما قال ابن سينا:

لاَ تُكْثِرَنَّ مِنَ ٱلْجِمَاعِ فَإِنَّهُ ... مَاءُ ٱلْحَيَاةِ يُصَبُّ فِيْ ٱلأَرْحَامِ

والمعنى: خلق أصلكم آدم من تراب، ثم خلقكم من نطفة نسلاً بعد نسل، أو خلق كل واحد منكم من التراب، بمعنى أن كل إنسان مخلوق من المني، وهو من الدم، وهو من الأغذية الحيوانية والنباتية، والحيوانية لا بد أن تنتهي إلى النباتية، وإلا لزم أن يتسلسل الحيوانيات إلى غير النهاية، والنبات إنما يتولد من الماء والتراب، أو خلق قالبكم في بدء أمركم من الذرة الترابية، التي استخرجها من صلب آدم، ثم أودعها في قطرة نطفة بنيه.

﴿ثُمَّ﴾ خلقكم ﴿مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم الجامد، لأن المني يصير على هذا الشكل بعد أربعين يوماً في بطن الأم. ﴿ثُمَّ﴾ خلقكم مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم حالة كونكم ﴿طِفْلًا﴾؛ أي: أطفالاً صغاراً، حال من الكاف في ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ ولما كانت الحال مفردة، وصاحبها جمعاً، وهذا لا يسوغ.. أولناها بالجمع ليحصل التطابق، وأفرده هنا؛ لكونه اسم جنس وضع موضع الجمع؛ أي: الأطفال، أو المعنى: ثم يخرج كل واحد منكم من رحم الأم حال كونه طفلاً، لتكبروا شيئاً فشيئاً. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾؛ أي: كمالكم في القوة والعقل، قال في «القاموس»: الأشد واحد، جاء على بناء الجمع بمعنى القوة، وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين. وفي «كشف الأسرار»: يقال: إذا بلغ الإنسان إحدى وعشرين سنة.. دخل في الأشد، وذلك حين اشتد عظامه، وقويت أعضاؤه ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾؛ أي: تصيروا إلى حالة الشيخوخة، والشيخ: يقال لمن طعن في السن، واستبانت فيه، أو من خمسين أو إحدى وخمسين إلى آخر عمره، أو إلى ثمانين. كما في «القاموس».

قال في «كشف الأسرار» يقال: إذا ظهر البياض بالإنسان.. فقد شاب. وإذا دخل في الهرم.. فقد شاخ. قال الشاعر:

وَمَـنْ عَـاشَ شَـبَّ وَمَـنْ شَـبَّ شَـابَ   وَمَـنْ شَـابَ شَـاخَ وَمَـنْ شَـاخَ مَـاتَ

روي: أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله، قد شبت فقال: «شيبتني هود وأخواتها»؛ يعني: سورة هود، وكان الشيب برسول الله ﷺ قليلاً، يقال: كان شاب منه إحدى وعشرون شعرةً بيضاء، ويقال: سبع عشرة شعرة. قال أنس: لم يكن في رأسه ولحيته عشرون شعرةً بيضاء، وقال بعض الصحابة: ما شاب رسول الله ﷺ، وسئل آخر منهم، فأشار إلى عنفقته؛ يعني كان البياض في عنفقته؛ أي: في شعيرات بين الشفة السفلى والذقن، وإنما اختلفوا لقلتها، يقال: كان إذا ادهن خفي شيبه.

والحاصل[1]: أن ﴿اللام﴾ التعليلية في ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ﴾: معطوفة على علة أخرى ليخرجكم مناسبة لها، والتقدير: لتكبروا شيئاً فشيئاً، ثم لتبلغوا غاية الكمال، وقوله ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًاۚ﴾ معطوف على ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ﴾.

وقرأ نافع وحفص وأبو عمرو وابن محيصن وهشام: ﴿شُيُوخًاۚ﴾ بضم الشين، وقرأ الباقون: بكسرها، وقرىء: ﴿شيخاً﴾ بالإفراد لقوله: طفلاً.

يعني: أن مراتب الإنسان بعد خروجه من بطن أمه ثلاث: الطفولية وهي حالة النمو، والزيادة إلى أن يبلغ كمال الأشد من غير ضعف، ثم يتناقص بعد ذلك وهي الشيخوخة، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾؛ أي: يقبض روحه ويموت ﴿مِن قَبْلُۖ﴾؛ أي: من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشد أو قبله أيضاً، وقوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ﴾: متعلق[2] بفعل مقدر بعده؛ أي: ولتبلغوا جميعاً ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾؛ أي: وقتاً محدوداً معيناً لا تتجاوزونه هو وقت الموت، أو يوم القيامة يفعل ذلك؛ أي: ما ذكر من خلقكم من تراب وما بعده من الأطوار المختلفة، ولكون المعنى على هذا لم يعطف على ما قبله من ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ و﴿لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًاۚ﴾، وإنما قلنا: أو يوم القيامة؛ لأن الآية تحتوي على جميع مراتب الإنسان، من مبدأ فطرته إلى منتهى أمره، فجاز أن يراد أيضاً يوم الجزاء، لأنه المقصد الأقصى، وإليه كمِّيَّةُ الأحوال ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: ولكي تعقلوا ما في ذلك الانتقال من طور، إلى طور من فنون

---

(١) الشوكاني.   (٢) روح البيان.

الحكم والعبر، وتستدلوا به على وجود خالق القوى والقدر؛ أي: لكي تعقلوا توحيد ربكم، وقدرته البالغة في خلقكم على هذه الأطوار المختلفة.

ومعنى الآية[1]: أي هو الذي خلقكم من التراب، إذ كل إنسان مخلوق من المني، والمني مخلوق من الدم، والدم يتولد من الأغذية، والأغذية تنتهي إلى النبات، والنبات يتكون من التراب والماء، ثم ذلك التراب يصير نطفةً ثم علقةً إلى مراتب كثيرة، حتى ينفصل الجنين من بطن الأم.

وقد رتب سبحانه عمر الإنسان ثلاث مراتب:

١ـ الطفولة.

٢ـ بلوغ الأشد.

٣ـ الشيخوخة، ومن الناس من يتوفى قبل المرتبة الأخيرة، وهو يفعل ذلك ويبقيكم لتبلغوا الأجل المسمى، وهو يوم القيامة، وتعقلوا ما في التنقل في هذه الأطوار المختلفة من فنون العبر والحكم.

وكم استدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر، استدل على ذلك بانتقال الإنسان من الحياة إلى الموت، ومن الموت إلى الحياة، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿الَّذِي يُحْيِي﴾ الأموات كما في الأرحام وعند البعث ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء كما عند انقضاء الأجل وفي القبر بعد السؤال، وأيضاً يحيي القلوب الميتة بنور ربوبيته ولطفه، ويميت القلوب بنار قهره، فإذا حيي القلب.. مات النفس، وإذا مات القلب.. حيي النفس ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾؛ أي: فإذا قدر شيئاً من الأشياء، وأراد كونه وحصوله.. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ﴾ سبحانه ﴿لَهُ﴾؛ أي: لذلك الأمر ﴿كُن﴾؛ أي: احدث ﴿فَيَكُونُ﴾ ذلك الأمر؛ أي: فهو يحدث ويوجد من غير توقف على شيء من الأشياء أصلاً.

وهذا تمثيل[2] لتأثير قدرته تعالى في المقدورات عند تعلق إرادته بها، وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك آمر ومأمور حقيقةً، وذهب بعضهم إلى أنه حقيقة، وأن الله تعالى مكون الأشياء بهذه الكلمة، فيقول

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بكلامه الأزلي لا بالكلام الحادث الذي هو مركب من الأصوات والحروف: ﴿كن﴾؛ أي: احدث، فيكون؛ أي: فيحدث.

ومعنى الآية[1]: أي قل لهم أيها الرسول: هو الذي يحيي من يشاء بعد مماته، ويميت من يشاء من الأحياء، وإذا أراد كون أمر من الأمور التي يريد تكوينها.. فإنما يقول له: كن فيكون، بلا معاناةٍ ولا كلفةٍ.

ثم عجب سبحانه من أحوال المجادلين في آيات الله فقال: ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ يا محمد أو أيها المخاطب ﴿إِلَى﴾ حال ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ ويخاصمون ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: في إبطالها ودفعها ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾؛ أي: كيف يصرفون عنها مع قيام الأدلة الدالة على صحتها؟

أي: انظر يا محمد إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة، الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدال فيها، وتعجب من أحوالهم الشنيعة، وآرائهم الركيكة، كيف يصرفون عن تلك الآيات القرآنية، والتصديق بها إلى تكذيبها، مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها بالإيمان وانتفاء الصوارف عنها بالكلية.

وتكرير ذم المجادلة في أربعة مواضع من هذه السورة[2]: إما لتعدد المجادل بأن يكون في أقوام مختلفة، أو المجادل فيه بأن يكون في آيات مختلفة أو للتأكيد.

وعبارة أبي السعود قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ...﴾ إلخ، تعجيب من أحوالهم الشنيعة، وآرائهم الركيكة، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن، وبسائر الكتب والشرائع، وترتيب الوعيد على ذلك، كما أن ما سبق من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ...﴾ إلخ: بيان لابتناء جدالهم على معنى فاسد، لا يكاد يدخل تحت الوجود، فلا تكرار فيه.

والخلاصة: أي انظر واعجب من هؤلاء المكابرين في آياتنا الواضحة، الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها، كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعي على الإقبال عليها، وانتفاء الصوارف عنها، وقيام الأدلة على صحتها،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وأنها في نفسها موجبة للتوحيد.

ثم بين صفات هؤلاء المبطلين بقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾؛ أي: بكل القرآن. وعبارة «السمين» هنا: يجوز في الموصول أوجه من الإعراب؛ إما أن يكون بدلاً من الموصول قبله، أو بياناً له، أو نعتاً أو خبراً لمبتدأ محذوف، أو منصوباً على الذم، وعلى هذه الأوجه فقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: جملة مستأنفة سيقت للتمهيد، ويجوز[1] أن يكون مبتدأ، والخبر: الجملة من قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، ودخول ﴿الفاء﴾ فيه: واضح. اهـ.

قال في «الإرشاد»: إنما وصل الموصول الثاني بالتكذيب دون المجادلة؛ لأن المعتاد وقوع المجادلة في بعض المواد لا في الكل، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق، كما أن صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها. اهـ.

﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من سائر الكتب؛ أي: هم الذين كذبوا بالقرآن وبجميع ما أرسلنا به رسلنا، من إخلاص العبادة له سبحانه، والبراءة مما يعبد من دونه من الآلهة والأنداد، والاعتراف بالبعث بعد الممات، ثم هددهم وأوعدهم على ما يفعلون فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم، ووبال كفرهم، وكنه جدالهم، وتكذيبهم عند مشاهدتهم لعقوباته، وهي جملة مستأنفة مسوقة للتهديد، والظرف[2] في قوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وقت كون الأغلال في أعناقهم.

فإن قلت[3]: إن ﴿إِذْ﴾ ظرف للزمن الماضي، و﴿يَعْلَمُونَ﴾ مستقبل لفظاً ومعنىً، فهو مثل قولك: سوف أصوم أمس، فهو لا يجوز؟.

قلت: إن وقت العلم مستقبل تحقيقاً، وماض تنزيلاً وتأويلاً؛ لأن ما سيعلمونه يوم القيامة، فكأنهم علموه في الزمن الماضي، لتحقق وقوعه ﴿فَسَوْفَ﴾ بالنظر إلى الاستقبال التحقيقي، و﴿إِذْ﴾ بالنظر إلى المضي التأويلي، و﴿الْأَغْلَالُ﴾: جمع غل بالضم، وهو: ما يقيد به فيجعل الأعضاء وسطه كما سيأتي؛ يعني: تغل

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

أيديهم إلى أعناقهم مضمومةً إليها ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ معطوف على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾، والجار: في نية التأخير، والتقدير: إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم، وهو جمع سلسلة بالكسر، وذلك لأن السلسلة بالفتح: إيصال الشيء بالشيء، ولما كان في السلسلة بالكسر إيصال بعض الخلق بالبعض.. سميت بها.

وجملة قوله: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾: حال من فاعل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أو من ضمير ﴿أَعْنَٰقِهِمْ﴾؛ أي: سوف يعلمون عاقبة وبالهم حال كونهم مسحوبين؛ أي: مجرورين، تجرّهم على وجوههم خزنة جهنم بالسلاسل إلى الحميم؛ أي: إلى الماء المسخن بنار جهنم، ولا يكون إلا شديد الحرارة جداً، لأن ما سخن بنار الدنيا التي هي جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم، إذا كان لا يطاق حرارته.. فكيف ما يسخن بنار جهنم، وفي كلمة ﴿فِى﴾ إشعار بإحاطة حرارة الماء لجميع جوانبهم، كالظرف للمظروف، حتى كأنهم في عين الحميم ويسحبون فيها، والظاهر أن معنى ﴿يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: يجرون إلى النار على وجوههم.

ويجوز[1] أن يرتفع ﴿السلاسل﴾ على أنه مبتدأ، وخبره: محذوف لدلالة ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ عليه، ويجوز أن يكون الخبر ﴿يُسْحَبُونَ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ بحذف العائد؛ أي: يسحبون بها في الحميم، وعلى هذا قراءة الجمهور برفع ﴿السلاسل﴾، وقراءة ابن عباس وابن مسعود وابن وثاب وعكرمة وزيد بن علي وأبو الجوزاء: ﴿والسلاسل﴾ بالنصب[2] على المفعول، وقرؤوا ﴿يسحبون﴾ بفتح الياء مبنياً للفاعل، فيكون ﴿السلاسل﴾ مفعولاً مقدماً، وهو عطف جملة فعلية على جملة اسمية، وقرأ فرقة منهم ابن عباس ﴿والسلاسل﴾ بجر اللام، قال ابن عطية: على تقدير إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل، وقال الزجاج: المعنى على هذه القراءة وفي السلاسل يسحبون، واعترضه ابن الأنباري بأن ذلك لا يجوز في العربية، ومحل ﴿يُسْحَبُونَ﴾ على تقدير عطف ﴿السلاسل﴾ على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ وعلى تقدير كونها مبتدأ، وخبرها: ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ النصب على الحال، أو لا محل له، بل هو مستأنف جواب سؤال مقدر.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

﴿ثُمَّ﴾ بعد الجر بالسلاسل إلى الحميم ﴿فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾؛ أي: يحرقون بالنار، وهي محيطة بهم، من سجر التنور: إذا ملأه بالوقود، ومن كانوا في النار وكانت هي محيطة بهم، وصارت أجوافهم مملوءة بها، لزم أن يحرقوا بها على أبلغ الوجوه، فهم يملؤون بالنار كائنين فيها ويحرقون، والمراد: بيان أنهم يعذبون بأنواع العذاب، وينقلون من لون إلى لون.

حكي: أنه توفيت النوارة - امرأة الفرزدق - فخرج في جنازتها وجوه أهل البصرة، وخرج فيها الحسن البصري، فقال الحسن للفرزدق: يا أبا فراس، ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة، فلما دفنت.. قام الفرزدق على قبرها وأنشد هذه الأبيات:

أَخَافُ وَرَاءَ ٱلْقَبْرِ إِنْ لَمْ يُعَافِنِيْ ... أَشَدَّ مِنَ ٱلْقَبْرِ ٱلْتِهَاباً وَأَضْيَقَا

إِذَا جَاءَنِيْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ قَائِدٌ ... عَنِيْفٌ وَسَوَّاقٌ يَسُوْقُ فَرَزْدَقَا

لَقَدْ خَابَ مِنْ أَوْلَادِ آدَمَ مَنْ مَشَىٰ ... إِلَىٰ ٱلنَّارِ مَغْلُولَ ٱلْقِلَادَةِ أَزْرَقَا

ومعنى الآية: أي فسوف يعلم هؤلاء المكذبون حقيقة ما نخبرهم به، وصدق ما هم به اليوم مكذبون من هذا الكتاب، حين تجعل الأغلال والسلاسل في أعناقهم، يسحبون بها في الحميم، فينسلخ كل شيء عليهم من جلد ولحم وعروق، ثم تملأ بهم النار، ونحو الآية قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ وقوله: ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم ذكر أنهم يسألون سؤال تبكيت وتوبيخ عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها، فقال: ﴿ثُمَّ﴾؛ أي: بعد الإحراق ﴿قِيلَ لَهُمۡ﴾؛ أي: يقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿أَيۡنَ مَا﴾؛ أي: أين الشركاء الذين ﴿كُنتُمۡ﴾ في الدنيا على الاستمرار ﴿تعبدون﴾هم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ رجاء شفاعتهم ادعوهم ليشفعوا لكم ويعينوكم، وهو نوع آخر من تعذيبهم ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: يقولون: ﴿ضَلُّواْ﴾؛ أي: الشركاء؛ أي: غابوا ﴿عَنَّا﴾؛ أي: عن أعيننا، وإن كانوا قائمين؛ أي: غيرها لكين، من قول العرب: ضل المسجد والدار؛ أي: لم

يعرف موضعهما، وذلك[1] قبل أن يقرن بهم آلهتهم، فإن النار فيها أمكنة متعددة، وطبقات مختلفة، فلا مخالفة بينه وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أو ضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم، على أن يكون ﴿ضل﴾ بمعنى ضاع وهلك، تنزيلاً لوجودهم منزلة الضياع والهلاك، لفقدهم النفع الذي يتوقعونه منهم، وإن كانوا مع المشركين في جميع الأوقات.

ثم أضربوا عن ذلك، وانتقلوا إلى الإخبار بعدمهم، وأنه لا وجود لهم، فقالوا: ﴿بَل﴾ تبين لنا أنا ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ﴾ ونعبد ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: في الدنيا بعبادتهم ﴿شَيْـًٔا﴾ ينفع لما ظهر لنا اليوم، أنهم لم يكونوا شيئاً يعتد به، كقولك: حسبته شيئاً فلم يكن؛ أي[2]: بل لم نكن نعبد من قبل هذا البعث شيئاً يضر وينفع، ويبصر ويسمع، وهذا اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلةً، قالوا ذلك: لما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة والجهالة، وأنهم كانوا يعبدون ما لا ينفع ولا يضر. وليس هذا إنكار لوجود عبادتهم لها، بل اعتراف ببطلانها وعدم نفعها لهم، أو المعنى: بل لم نكن نعبد من قبل هذا اليوم شيئاً من دون الله أصلاً، فيكون إنكاراً لعبادة الأصنام ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي[3]: مثل ضلال آلهتهم عنهم ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عن آلهتهم، حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة.. لم يتصادفوا، وهذا بالنظر إلى التفسير الأول في قوله: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾؛ أي: غابوا عن أعيننا، أو كما أضل الله هؤلاء المجادلين حيث لم يهتدوا في الدنيا إلى شيء ينفعهم في الآخرة، من العقائد الصحيحة، والأعمال الصالحة، يضل الله سائر الكافرين، الذين علم منهم اختيار الضلالة على الدين، وهذا بالنظر إلى التفسير الثاني في ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾، ومعنى إضلال الله سبحانه عبده: هو عدم عصمته إياه مما نهاه عنه، وعدم معونته وإمداده بما يتمكن به من الإتيان بما أمره به، أو الانتهاء عما نهاه عنه، كما في «تفسير الفاتحة» للشيخ صدر الدين القنوي رحمه الله.

والمعنى[4]: أي ثم يسألون، ويقال لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) النسفي.

(٤) المراغي.

دون الله، ليغيثوكم وينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء والعذاب؟ فيجيبون ويقولون: غابوا عنا، وأخذوا طريقاً غير طريقنا، وتركونا في البلاء، لا بل الحق أننا ما كنا ندعو في الدنيا شيئاً يعتد به، وهذا كما تقول: حسبت أن فلاناً شيء، فإذا هو ليس بشيء إذا خبرته فلم تر عنده خيراً.

والخلاصة: أنهم اعترفوا بأن عبادتهم إياها كانت عبادة باطلة عاطلة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: كما أضل الله تعالى هؤلاء المجادلين، وأبطل كذلك يفعل بأعمال جميع من يدين بالكفر، فلا ينتفعون بشيء منها.

ثم بين السبب فيما يأتيهم من هذا العذاب، فقال: ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلال أيها الكفار، والالتفات؛ للمبالغة في التوبيخ، أو ذلكم العذاب الذي نزل بكم وهو العذاب المذكور بقوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ﴾، قال ابن الشيخ: ولا يخلو عن بعد. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: سببية؛ أي: بسبب ما ﴿كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ وتبطرون وتتكبرون ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في الدنيا ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشرك والطغيان، و﴿الباء﴾: صلة الفرح؛ أي: تفرحون فرحاً بغير الحق، وهو الفرح بمعاصي الله، والسرور بمخالفة رسله وكتبه، أو الفرح بالمال والأتباع والصحة ﴿وب﴾سبب ﴿ما كنتم تفرحون﴾ وتختالون وتتوسعون في العدوان. وفي «المفردات»: الفرح: انشراح الصدر بلذة عاجلة، ولم يرخص إلا في الفرح بفضل الله ورحمته وبنصر الله، والمرح بفضل الله ورحمته وبنصر الله، والمرح: شدة الفرح والنشاط والتوسع فيه. كما سيأتي.

والمعنى(١): أي هذا الذي فعلنا بكم اليوم من شديد العذاب بسبب فرحكم الذي كنتم تفرحونه في الدنيا، بارتكاب الشرك والمعاصي، ومرحكم وبطركم فيها بتمتّعكم باللّذّات ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة المقسومة لكم، كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ حال كونكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في جهنم؛ أي: مقدّرين الخلود فيها أبداً ﴿فَبِئْسَ﴾ وقبح ﴿مَثْوَى﴾؛ أي: مقرّ ومنزل ﴿ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن قبول الحق، والمخصوص بالذم: جهنم؛ أي: فحينئذ يقال ﴿بئس مثوى المتكبرين﴾ على الله في الدنيا، من أن يوحدوه ويؤمنوا برسله.

---

(١) المراغي.

وكان[1] مقتضى النظم القرآني أن يقال: فبئس مدخل المتكبرين، ليناسب عجز الكلام صدره كما يقال: زر بيت الله فنعم المزار، فصلّ في المسجد الحرام فنعم المصلى، لكن لما كان الدخول المقصود بالخلود سبب الثواء؛ أي: الإقامة.. عبّر بالمثوى الذي هو محل الإقامة، فاتحد آخر الكلام بأوله.

وفي الآية: ذمّ الكبر، فلا بدّ من علاجه بضدّه وهو التواضع، وعن بعض الحكماء افتخر الكلأ في المفازة على الشجر، فقال: أنا خير منك، يرعاني البهائم التي لا تعصي الله طرفة عين، فقال الشجر: أنا خير منك، يخرج منّي الثمار ويأكلها المؤمنون، وتواضع القصب، قال: لا خير فيّ، لا أصلح للمؤمنين ولا للبهائم، فلما تواضع رفعه الله، وخلق فيه السكّر الذي هو أحلى شيء، فلما نظر إلى ما وضع الله فيه من الحلاوة وتكبّر، فأخرج الله منه رأس القصب، حتى اتخذ منه الآدميون المكنسات، فكنسوا بها القاذورات، فهذا حال كبر غير المكلف، فكيف حال المكلف؟

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر، فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد على أذيّة قومك لك، بسبب تلك المجادلات وغيرها، إلى أن يلاقوا ما وعدت لهم من العذاب ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إنّ وعده بتعذيبهم والانتقام منهم ﴿حَقٌّۚ﴾؛ أي: ثابت كائن لا محالة، إما في الدنيا أو في الآخرة، ولهذا قال: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾؛ أي: فإن نرك، و﴿مَا﴾: مزيدة لتأكيد الشرطية، ولذا لحقت النون الفعل، ولا تلحقه مع إن وحدها، فلا تقول: إن تكرمني.. أكرمك بنون التأكيد، بل إما تكرمني.. أكرمك؛ أي: فإن نرك يا محمد في الدنيا ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ من العذاب بالقتل والأسر والقهر، وجوابه: محذوف؛ أي: فذاك ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن تراه؛ أي: أو نُمتْكَ قبل إنزال العذاب بهم ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ وهو جواب ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾؛ أي: يردون إلينا يوم القيامة لا إلى غيرنا لنجازيهم بأعمالهم.

ومعنى الآية[2]: أي فاصبر أيها الرسول على ما يجادلك به هؤلاء المشركون في آيات الله التي أنزلها عليك، وعلى تكذيبهم إيّاك، فإن الله منجز لك فيهم ما وعدك، من الظفر بهم، والعلوّ عليهم، وإحلال العقاب بهم، إما في الدنيا وإما في

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

الآخرة، كما قال: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ إلخ؛ أي: فإما نرينك في حياتك بعض الذي نعدهم من العذاب والنقمة، كالقتل والأسر يوم بدر، فذاك ما يستحقّونه، أو نتوفّينك قبل ذلك فإلينا يرجعون يوم القيامة، فنجازيهم بأعمالهم، وننتقم منهم أشدّ الانتقام، ونأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ونحو الآية قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بياء الغيبة مبنياً للمفعول، وقرأ أبو عبد الرحمن ويعقوب: بفتح الياء، وطلحة بن مصرف ويعقوب في رواية الوليد بن حسان: بفتح تاء الخطاب.

ثم ردّ سبحانه وتعالى على العرب في إنكارهم بعثة الرسل، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ روي إن الذين كانوا يجادلون في آيات الله تعالى، اقترحوا معجزات زائدة على ما أظهره الله على يده ﷺ، من تفجير العيون، وإظهار البساتين، وصعود السموات ونحوها، مع كون ما أظهره من المعجزات كافية في الدلالة على صدقه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد بعثنا ﴿رُسُلًا﴾ ذوي عدد كثير إلى قومهم ﴿مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: من قبل بعثتك يا محمد، أو من قبل زمانك ﴿مِنْهُم﴾؛ أي: من أولئك الرسل، خبر مقدم ﴿مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: صفة ﴿رُسُلًا﴾ من قصّ عليه إذا بيّن، وأخبر؛ أي: من بيّناهم وأخبرناهم وسميناهم لك في القرآن، فأنت تعرفهم؛ أي: أنبأناك بأخبارهم، وما لقوه من قومهم ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾؛ أي: لم نسمّهم، ولم نخبرك خبرهم، ولا أوصلنا إليك علم ما كان بينهم وبين قومهم.

وعن علي وابن عباس: أن الله بعث نبياً أسود في الحبش، فهو ممن لم يقصص على محمد ﷺ، أخرجه الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه. قال بعضهم: لعل معناه: أن الله بعث نبياً أسود إلى السودان، فلا يخالف ما ورد من أنّ الله تعالى ما بعث نبياً إلا حسن الاسم، حسن الصورة حسن الصوت، وذلك لأنّ في كل جنس حسناً بالنسبة إلى جنسه. انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

والحاصل[1]: أنّ المذكور قصصهم من الأنبياء أفراد معدودة، وقد قيل: عدد الأنبياء مئة وأربعة وعشرون ألفاً، قال في «شرح المقاصد»: روى أحمد في «مسنده» عن أبي ذرّ الغفاري ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: كم عدد الأنبياء؟ فقال: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» فقلت: فكم الرسل منهم؟ فقال: ثلاث مئة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً» وفي رواية مئتا ألف وأربعة وعشرون ألفاً، كما في «شرح العقائد» للتفتازاني. قال ابن أبي شريف: لم أر هذه الرواية.

لكن ذكر بعض العلماء أن الأولى أن لا يقتصر على عددهم؛ لأنّ خبر الواحد على تقدير اشتماله على جميع الشرائط، لا يفيد إلا الظن، ولا يعتبر إلا في العمليات دون الاعتقادات، وههنا حصر عددهم يخالف ظاهر قوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا﴾ إلخ. ويحتمل أيضاً مخالفة الواقع، وإثبات من ليس بنبي إن كان عددهم في الواقع أقلّ مما ذكر، ونفي النبوة عمن هو نبي إن كان أكثر، فالأولى عدم التنصيص على عدد.

والمذكور في القرآن باسم العلم على ما ذكر بعض المفسرين: ثمانية وعشرون، وهم: آدم ونوح وإدريس وصالح وهود وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويوسف ولوط ويعقوب وموسى وهارون وشعيب وزكريا ويحيى وعيسى وداود وسليمان وإلياس واليسع وذو الكفل وأيوب ويونس ومحمد وذو القرنين وعزيز ولقمان على القول بنبوة هذه الثلاثة الأخيرة، وفي «الأمالي»:

وَذُوْ ٱلْقَرْنَيْنِ لَمْ يُعْرَفْ نَبِيَّاً ... كَذَا لُقْمَانُ فَٱحْذَرْ عَنْ جِدَالِ

وذلك لأنّ ظاهر الأدلّة يشير إلى نفي النبوة عن الأنثى، وعن ذي القرنين ولقمان ونحوهما، كتبع، فإنه عليه السلام قال: «لا أدري أهو نبي أم ملك» وكالخضر، فإنه قيل: نبي، وقيل: ولي، وقيل: رسول، فلا ينبغي لأحد أن يقطع بنفي أو إثبات، فإن اعتقاد نبوّة من ليس بنبي كفر، كاعتقاد نفي نبوة نبي من الأنبياء، يعني إذا كان متفقاً على نبوته أو عدم نبوته، وأما إذا كان فيه خلاف.. فلا يكفر؛ لأنه كالدليل الظنّي، والكفر في القطعيّ.

---

(١) روح البيان.

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ لاستغنائك عن ذلك، تخفيفاً لك عمّا لا يعنيك، وهذا أمارة كمال العناية فيما قصّ عليه، وفيما لم يقصص عليه.

والمعنى: أي ولقد أرسلنا رسلاً وأنبياء من قبلك إلى أممهم، منهم من أنبأناك بأخبارهم في القرآن، وبما لاقوه من قومهم، وهم خمسة وعشرون، ومنهم من لم نقصص عليك فيه خبرهم، ولا أوصلنا إليك علم ما كان بينهم وبين أقوامهم.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾؛ أي: وما صحّ وما استقام لرسول منهم ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ ومعجزة تقترح عليه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإرادته، لا من قبل نفسه فإن المعجزات تشعب فنونها عطايا من الله تعالى، قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنيّة على الحكم البالغة، كسائر القسم، ليس لهم اختيار في إيثار بعضها، ولا استبداد بإتيان المقترح بها، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، كأنه قيل: ما من رسول من قبلك سواء كان مذكوراً أو غير مذكور، أعطاه الله آيات ومعجزات إلا جادله قومه فيها، وكذّبوه عناداً وعبثاً، فصبروا وظفروا، فاصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ سبحانه بالعذاب في الدنيا والآخرة.. ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: حكم بين الرسل ومكذّبيهم بإنجاء المحق، وإهلاك المبطل وتعذيبه ﴿وَخَسِرَ﴾؛ أي: هلك أو تحقّق، وتبيّن أنه خسر ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: وقت مجيء أمر الله تعالى، وهو اسم مكان استعير للزمان ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ المتمسّكون بالباطل على الإطلاق، فيدخل فيهم المعاندون المقترحون دخولاً أولياً، جمع مبطل، والمبطل: صاحب الباطل والمتمسك به العامل له، كما أنّ المحق صاحب الحق والعامل به، والباطل: ضد الحق.

ولم يقل هنا(١): وخسر هنالك الكافرون، لما سبق من نقيض الباطل الذي هو الحق. كما في «برهان القرآن». وفي الآية إشارة إلى أنه يجب الرجوع إلى الله قبل أن يجيء أمرُه وقضاؤه بالموت والعذاب، فإنه ليس بعده إلا الأحزان.

وحاصل المعنى(٢): أي وليس في الرسل أحد إلا آتاه الله آيات ومعجزات جادله قومه فيها وكذّبوه، وجرى عليه من الإيذاء ما يقارب ما جرى عليك، فصبر على ما أوذي، وكانوا يقترحون عليه المعجزات على سبيل التعنّت والعناد، لا

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

للحاجة إليها، فكان من الحكمة عدم إجابتهم إلى ما طلبوا، ولم يكن ذلك بقادح في نبوّتهم، فلا عجب أن يقترح قومك عليك المعجزات التي لم يكن إظهارها صلاحاً ولا جرم، لم يجابوا إلى ما طلبوا لأنَّ المصلحة في عدم إجابتهم إليه، فإذا جاء أمر الله وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين.. قضي بالعدل، فنجّي رسله والذين آمنوا معهم، وأهلك الذين افتروا على الله الكذب وجادلوا في آياته، وزعموا أن له شريكاً.

ثمّ امتنّ سبحانه على عباده بنوع من أنواع نعمه التي لا تحصى، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي يستحق منكم العبادة هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وخلق ﴿لـ﴾أجلـ﴿كم﴾ ومصلحتكم ﴿ٱلْأَنْعَـٰمَ﴾؛ أي: الإبل، جمع نعم بفتحتين، وهو في الأصل الماشية الراعية، والكثير استعماله في الإبل، وقيل: الأنعام: الأزواج الثمانية. كما سيأتي عن بعضهم ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿من﴾: لابتداء الغاية، ومعناها: ابتداء الركوب، والأكل منها؛ أي: تعلقهما بها أو للتبعيض؛ أي: لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها، لا أن كلاً من الركوب والأكل مختص ببعض معيّن منها، بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر، بل على أن كل بعض منها صالح لكل منهما، وهذا أولى.

وتغيير[1] النظم في الجملة الثانية؛ لمراعاة الفواصل مع الإشعار بأصالة الركوب؛ لأنّ الغرض إنما يكون في المنافع، والركوب: متعلق بالمنفعة، لأنه إتلاف المنفعة، بخلاف الأكل، فإنه متعلق بالعين، لأنه إتلاف العين، ولا يقدح في ذلك كون الأكل أيضاً من المنافع، ولهذا جاء ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الأنعام أيضاً ﴿مَنَـٰفِعُ﴾ أخرى غير الركوب والأكل، كألبانها وأوبارها وجلودها، أو كالصوف والشعر والزبد والسمن والجبن وغير ذلك، وقوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾، و﴿حَاجَةً﴾: مفعول ﴿لِتَبْلُغُوٓا۟﴾؛ أي: ولتقضوا بها حاجة في قلوبكم، بحمل أثقالكم عليها من بلد إلى بلد ﴿وَعَلَيْهَا﴾؛ أي: على الإبل في البر ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: السفن في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ نظيره ﴿وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

---

(١) روح البيان.

قال في «الإرشاد»: لعل المراد به[1] حمل النساء والولدان عليها بالهودج، وهو السر في فصله عن الركوب، والجمع بينها وبين الفلك؛ لما بينهما من المناسبة التامة، حتى سمّيت سفائن البر؛ وإنما قال: ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾، ولم يقل: في الفلك، كما قال ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ للمزاوجة؛ أي: ليزاوج ويطابق قوله: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ فإن محمولات الأنعام مستعلية عليها، فذكرت كلمة الاستعلاء في الفلك أيضاً للمشاكلة. انتهى.

وفي «المدارك»: الإيعاء ومعنى الاستعلاء كلاهما مستقيم؛ لأنّ الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له، يستعليها، فلما صحّ المعنيان. صحت العبارتان. انتهى.

وقال بعض المفسرين: المراد[2] بالأنعام في هذا المقام: الأزواج الثمانية. كما ذكرناه أولاً: وهي الإبل والبقر والضأن والمعز باعتبار ذكورتها وأنوثتها. فمعنى الركوب والأكل منها: تعلقهما بالكل، لكن لا على أنّ كلاً منهما يجوز تعلقه بكل منها، ولا على أنّ كلاً منهما مختص ببعض معين منها، بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر، بل على أن بعضها يتعلق به الأكل فقط كالغنم، وبعضها يتعلق به كلاهما كالإبل والبقر، والمنافع تعمُّ الكل، وبلوغ الحاجة عليها يعمّ البقر. انتهى.

ثمّ ذكر أنّ هناك آيات من آياته الباهرة، التي لا مجال لإنكارها، فقال: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: يبيّن لكم سبحانه دلائله الدالة على كمال قدرته ووفور رحمته ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ فإنّ كلاً منها من الظهور بحيث لا يكاد يتجرأُ على إنكارها من له عقل في الجملة؛ أي: فإنها كلها من الظهور وعدم الخفاء، بحيث لا ينكرها منكر، ولا يجحدها جاحد، وفيه تقريع لهم وتوبيخ عظيم.

والمعنى[3]: أَيْ أَيَّ آيَةٍ من تلك الآيات تنكرون، فإنها لظهورها لا تقبل الإنكار، وإضافة[4] الآيات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة، وتهويل إنكارها كما سيأتي.

فإن قلت: كان الظاهر أن يقال: فأية آيات الله بتاء التأنيث، لكون ﴿أيّ﴾

(١) أبو السعود.
(٢) روح البيان.
(٣) البيضاوي.
(٤) روح البيان.

عبارةً عن المؤنث لإضافته إليها..

قلت: تذكير ﴿أيّ﴾ هو الشائع المستفيض، والتأنيث قليل؛ لأنّ التفرقة بين المذكّر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة، وإنسان وإنسانة غريب، وهو في أيّ أغرب لإبهامه، فإن قصد التمييز والتفرقة ينافي الإبهام، وهذا في غير النداء، فإن اللغة الفصيحة الشائعة أن تؤنث أيّ الواقعة في نداء المؤنث، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ ولم يسمع أن يقال: يا أيها المرأة بالتذكير، ومن قلة تأنيث أيّ قوله:

بِـأَيِّ كِـتَـابٍ أَمْ بِـأَيَّـةِ سُـنَّـةٍ ... تَـرَىٰ حُـبَّـهُـمْ عَـاراً عَـلَـيَّ وَتَـحْـسَـبِ

واعلم: أنّ جميع أجزاء العالم آيات بينات، وحجج واضحات، ترشدك إلى وحدانية الله تعالى وكمال قدرته.

وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ ... تَـدُلُّ عَـلَـىٰ أَنَّـهُ وَاحِـدُ

لكن هداية الله تعالى إلى **جهة الإرشاد**، وكيفيته أصل الأصول.

والمعنى[١]: أي إنّ له تعالى آيات يراها خلقه عياناً، ويشاهدونها متجدّدةً كل يوم، وفي كل آن فأياً منها تنكرون، وبأيها تعترفون، وهي ظاهرة بادية للعيان لا سبيل إلى جحدها.

وقصارى ذلك: أنكم لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا.

و﴿الهمزة﴾[٢] في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾: للاستفهام التوبيخي المضمّن للإنكار، و﴿الفاء﴾: عاطفة على مقدر يقتضيه السياق؛ أي: أقعد قومك قريش في منازلهم فلم يسيروا ولم يسافروا ﴿فِى﴾ نواحي ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وأرجائها ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المهلكة فيعتبروا بهم؛ يعني: أنهم قد ساروا في أطراف الأرض، وسافروا إلى جانب الشام واليمن، وشاهدوا مصارع المكذبين من الأمم السالفة، وآثارهم، فليحذروا من مثل عذابهم، فلا يكذّبوك يا محمد، فإن الآثار الموجودة في ديارهم تدل على ما نزل بهم من العقوبة، وما

(١) المراغي.　　(٢) روح البيان.

صاروا إليه من سوء العاقبة.

ثمّ بيّن سبحانه أن تلك الأمم كانوا فوق هؤلاء في الكثرة والقوة، فقال: ﴿كَانُوٓا﴾؛ أي: تلك الأمم ﴿أَكْثَرَ﴾ عدداً ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من قومك ﴿قُوَّةً﴾ في الأبدان والعدد ﴿وَءَاثَارًا﴾ باقيةً بعدهم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الأبنية والقصور والمصانع وهي جمع مصنعة بفتح النون وضمها شيء كالحوض يجمع فيه ماء المطر، ويقال له: الصهريج وأكثر بلاد العرب محتاجة إلى هذا لقلة الماء الجاري والآبار فيها؛ أي: كانوا أكثر منهم عدداً، وأقوى منهم أجساداً، وأوسع منهم أموالاً، وأظهر منهم آثاراً في الأرض بالعمائر والمصانع والحرث ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ ودفع ﴿عَنْهُم﴾؛ أي: عن تلك الأمم المهلكة ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: كسبهم أو مكسوبهم من الأموال والأولاد شيئاً من عذاب الله تعالى حين جاءهم؛ فإذا لم تفدهم تلك المكنة العظيمة إلا الخيبة والخسار.. فكيف هؤلاء الفقراء المساكين، ويجوز أن تكون ﴿مَآ﴾ الأولى استفهامية؛ أي: أيّ شيء أغنى عنهم، أو نافية؛ أي: لم يغن عنهم، و﴿مَّا﴾ الثانية: يجوز أن تكون موصولة، وأن تكون مصدرية، وهذه ﴿الفاء﴾؛ أعني: قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ لبيان عاقبة كثرتهم وشدة قوتهم، وما كانوا يكسبون بذلك، زعماً منهم أنَّ ذلك يغني عنهم، فلم يترتب عليه إلا عدم الإغناء، فهذا الاعتبار جرى مجرى النتيجة، وإن كان عكس الغرض ونقيض المطلوب، كما في قولك: وعظته فلم يتعظ؛ أي: لم يترتب عليه إلا عدم الاتعاظ، مع أنه عكس المتوقع.

وحاصل معنى الآية[1]: أي أفلم يسر هؤلاء المجادلون في آيات الله من مشركي قريش في البلاد، فإنهم أهل سفر إلى الشام واليمن، فينظروا فيما وطئوا من البلاد إلى ما حلّ بالأمم قبلهم، ويشاهدوا ما أحللنا بهم من بأسنا حين تكذيبهم رسلنا، وجحودهم بآياتنا، وكيف كانت عاقبة أمرهم، وقد كانوا أكثر منهم عدداً، وأشد بطشاً، وأقوى جنداً، وأبقى في الأرض أثراً، لأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً، ويتخذون مصانع، ويبنون أهراماً ضخمة، فلما جاءهم بأسنا، وحلّت بهم نقمتنا.. لم يغن ذلك عنهم شيئاً، ولا ردّ عنهم العذاب الذي حل بهم.

و﴿الفاء﴾ في قوله[2]: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والدلالات الواضحة: تفسيرية وتفصيلية لما أبهم وأجمل من عدم الإغناء، إذ التفسير يعقب المفسّر، وقد كثر في الكلام مثل هذه الفاء ومبناها على التفسير بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: أظهروا الفرح بذلك، واستحقروا علم الرسل، والمراد بعلمهم: ما لهم من العقائد الزائفة، والشبه الباطلة، كما قالوا: لا نبعث ولا نعذّب، وما أظنّ الساعة قائمة ونحو ذلك، وتسميتها علماً مع أنّ الاعتقاد الغير المطابق للواقع حقّه أن يسمّى جهلاً؛ للتهكّم بهم، فهي علم على زعمهم لا في الحقيقية، أو المراد: علمهم بأمور الدنيا، ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

فلما[1] جاءتهم الرسل بعلوم الديانات، وهي أبعد شيء من علمهم، لبعثها على رفض الدنيا، والإعراض عن الملاذّ والشهوات.. لم يلتفتوا إليها، وصغّروها واستهزؤوا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به، أو المراد: علم الفلاسفة والدهريين، وهو علم الطبائع والتنجيم، فإن الحكماء كانوا إذا سمعوا بوحي الله.. دفعوه، وصغّروا علم الأنبياء بالنسبة إلى علمهم، ويكتفون بما يكسبونه بنظر العقل، ويقولون: نحن قوم مهتدون فلا حاجة بنا إلى من يهدينا، كما قال سقراط لما ظهر موسى عليه السلام: نحن قوم مهذّبون، لا حاجة بنا إلى من يهذّبنا، وكان أبو جهل يكنى في الجاهلية بأبي الحكم، لأنهم يزعمون أنه عالم ذو حكمة، فكناه النبيّ ﷺ بأبي جهل، لأنه لو كان له علم حقيقة.. لآمن بالرسول عليه السلام، وقيل: الذين فرحوا بما عندهم من العلم هم الرسل، وذلك أنه لما كذّبهم قومهم.. أعلمهم الله تعالى بأنه مهلك الكافرين، ومنجي المؤمنين ففرحوا بذلك، أو المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه، واستهزاء به، كأنه قال: استهزؤوا بالبينات وبما جاؤوا به من علم الوحي، فرحين به مرحين، ويدل عليه قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: نزل بالكفار وأصحابهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: وبال استهزائهم بالأنبياء، واستحقارهم لعلومهم، وما أخبروا به من العذاب ونحوه، فلم يعجزوا الله في مراده منهم.

والمعنى[2]: أي فلما جاء هذه الأمم المكذّبة للرسل من أرسلوا إليهم بالأدلة

---

(١) النسفي. (٢) روح البيان.

الواضحة، والبراهين الظاهرة.. فرحوا بما عندهم من شبهات ظنّوها علماً نافعاً، كقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، وقولهم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ ولكن حل بهم ما كانوا يستعجلون به رسلهم استهزاءً وسخريةً.

ثمّ ذكر حالهم حين عاينوا العذاب فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟﴾؛ أي: فلما رأت الأمم السالفة المكذبة، وعاينوا ﴿بَأْسَنَا﴾؛ أي: شدّة عذابنا في الدنيا، ووقعوا في مذلة الخيبة، ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍ﴾؛ أي: شديد.. ﴿قَالُوٓا۟﴾ مضطرّين ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ لا شريك له ﴿وَكَفَرْنَا﴾؛ أي: حجدنا ﴿بِمَا كُنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: بسبب الإيمان به يعنون الأصنام التي يعبدونها، وهذه ﴿الفاء﴾:[1] لمجرد التعقيب، وجعل ما بعدها تابعاً لما قبلها، واقعاً عقيبه، لأن مضمون قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ إلخ. هو أنهم كفروا، فصار مجموع الكلام بمنزلة أن يقال: فكفروا ثم لما رأوا بأسنا.. آمنوا.

أي[2]: فلما عاينوا عذابنا النازل بهم.. قالوا: آمنا بالله، وكفرنا بتلك المعبودات الباطلة، والآلهة الزائفة، التي لا تجدي فتيلاً ولا قطميراً.

ثم بيّن أن ذلك لا يفيدهم شيئاً، فقد فات الأوان، فلا يفيد الندم ولا الاعتراف بالحق شيئاً.

نَدِمَ ٱلْبُغَاةُ وَلَاتَ سَاعَةَ مَنْدَمِ ... وَٱلْبَغْيُ مَرْتَعُ مُبْتَغِيْهِ وَخِيْمُ

فقال سبحانه: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ أصله يكن حذفت النون لكثرة استعماله ﴿يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾؛ أي: تصديقهم بالوحدانية اضطراراً، وقوله: ﴿إيمانهم﴾: يجوز[3] أن يكون اسم ﴿كان﴾ و﴿يَنفَعُهُمْ﴾: خبره مقدماف عليه، وأن يكون فاعل ﴿يَنفَعُهُمْ﴾ واسم ﴿كان﴾: ضمير الشأن المستتر فيه ﴿لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾؛ أي: حين رؤيتهم شدة عذابنا، والوقوع فيه لامتناع قبوله حينئذٍ امتناعاً عادياً، كما يدل عليه قوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

فامتنع القبول، لأنهم لم يأتوا به في الوقت المأمور به، لذلك قيل: ﴿فَلَمۡ يَكُ﴾ بمعنى: لم يصحّ ولم يستقم، فإنه أبلغ في نفي النفع من لم ينفعهم إيمانهم، وهذه الفاء: للعطف على ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ كأنه قيل: فآمنوا فلم ينفعهم، لأنّ النافع هو الإيمان الاختياري الواقع مع القدرة على خلافه، ومن عاين نزول العذاب.. لم يبق له القدرة على خلاف الإيمان فلم ينفعه، وعدم نفعه في الدنيا دليل على عدم نفعه في الآخرة.

والمعنى[1]: أي فلم يفدهم إيمانهم عند ما عاينوا عقابنا، وحين نزل بهم عذابنا، ومضى فيهم حكمنا، فمثل هذا الإيمان لا يفيد شيئاً، كما قال تعالى لفرعون حين الغرق وحين قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

وبعد إذ ذكر سبحانه أنّ هذه سنته فيهم وفي أمثالهم من المكذّبين فقال: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ وقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾[2]: من المصادر المؤكدة لفعل محذوف، و﴿خَلَتۡ﴾ من الخلوّ، يستعمل في الزمان والمكان، لكن لما تصوّر في الزمان المضي.. فسّر أهل اللغة قولهم: خلا الزمان، بقولهم: مضى وذهب؛ أي: سنّ الله سبحانه عدم قبول إيمان من آمن وقت رؤية البأس ومعاينته، سنةً ماضيةً في عباده مطّردةً؛ أي: في الأمم السالفة المكذبة كلها، ويجوز أن ينتصب ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ على التحذير؛ أي: احذروا يا أهل مكة سنة الله المطّردة في المكذبين السابقين، والأول أولى، والسنة: الطريقة والعادة المسلوكة، وسنة الله: طريقة حكمته.

والمعنى: أي وهكذا كانت سنة الله في الذين سلفوا، إذا عاينوا عذابه أن لا ينفعهم إيمانهم حينئذ، بعد أن جحدوا به، وأنكروا وحدانيته، وعبدوا من دونه من الأصنام والأوثان.

وقصارى ذلك[3]: أن حكم الله في جميع من تاب حين معاينة العذاب أن لا تقبل منه توبة، وقد جاء في الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»؛ أي:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

فإذا غرغر، وبلغت الروح الحلقوم.. فلا توبة، ولهذا قال: ﴿﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ و﴿هُنَالِكَ﴾[1]: اسم مكان، في الأصل موضوع للإشارة إلى المكان، وقد استعير في هذا المقام للزمان، لأنه لم أشير به إلى مدلول قوله: ﴿لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ و﴿لَمَّا﴾ للزمان.. تعيَّن أن يراد به الزمان، تشبيهاً له بالمكان في كونه ظرفاً للفعل كالمكان.

والمعنى على ما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - هلك الكافرون بوحدانية الله تعالى، المكذبون بها وقت رؤيتهم البأس والعذاب. وقال الزجاج: الكافر خاسر في كل وقت، ولكنه تبيّن لهم خسرانهم، إذا رأوا العذاب، ولم يرج فلاحهم، ولم يقل: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ كما قال فيما سبق، لأنه متصل بإيمان غير مجد، ونقيض الإيمان: الكفر كما في «برهان القرآن»؛ أي فحسن موقعه هنا، كما حسن موقع قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ هناك على ما عرف سره في موضعه.

الإعراب

﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿نُهِيتُ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة الفعلية، في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿أَعْبُدَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿أَعْبُدَ﴾ والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض تقديره: قل: إني نهيت عن عبادة الذين. وجملة ﴿تَدْعُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: تدعونهم. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تَدْعُونَ﴾؛ أي: مجاوزين الله، أو من العائد المحذوف. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين في محل النصب على الظرفية مبني على السكون لشبهها بالحرف شبهاً افتقارياً، والظرف: متعلق

---

(١) روح البيان.

بـ﴿نُهِيتُ﴾، ﴿جَآءَنِيَ﴾: فعل ونون وقاية ومفعول به. ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ فاعل؛ والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾. ﴿مِن رَّبِّي﴾: حال من ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أو متعلق بـ﴿جاء﴾، ﴿وَأُمِرْتُ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل في محل النصب معطوف على ﴿نُهِيتُ﴾. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿أُسْلِمَ﴾: فعل مضارع ونائب فاعل يعود على محمد منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، تقديره: وأمرت بالإسلام. و﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بـ﴿أُسْلِمَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان كيفية تكوّن البدن. ﴿خَلَقَكُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة الموصول. ﴿مِّن تُرَابٍ﴾: متعلق بـ﴿خلق﴾ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾: معطوفان على ﴿مِّن تُرَابٍ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة: معطوفة على جملة ﴿خَلَقَكُم﴾. ﴿طِفْلًا﴾: حال من ﴿الكاف﴾ في ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ على تأويله بالجمع؛ أي: أطفالاً، ليطابق الحال صاحبه، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿لِتَبْلُغُوٓا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿تبلغوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة ﴿أَشُدَّكُمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾. والجار والمجرور: متعلق بمحذوف معطوف على ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ والتقدير: ثم يخرجكم طفلاً، ثم يبقيكم لبلوغكم أشدكم. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿لِتَكُونُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تكونوا﴾: فعل مضارع ناقص واسمه ﴿شُيُوخًا﴾: خبره، والجملة مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾؛ أي: ثم لكونكم شيوخاً، الجار والمجرور: معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَمِنكُم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿منكم﴾: خبر مقدم ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة. ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل مستتر ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾. والجملة الفعلية: صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لِتَبْلُغُوٓا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف

جر وتعليل. ﴿تبلغوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة. ﴿أَجَلًا﴾: مفعول به ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة لـ﴿أَجَلًا﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾ والجار والمجرور: متعلق بمحذوف معطوف على ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾، والتقدير: ومنكم من يتوفى من قبل، ومنكم من يبقي لبلوغكم أجلاً مسمى ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لعل﴾: حرف ترّج وتعليل. و﴿الكاف﴾: اسمها، وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾: معطوفة على جملة ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾؛ أي: ثم يبقيكم لبلوغكم أشدكم، ولجعلكم عاقلين.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. وجملة ﴿يُحْىِۦ﴾: صلة الموصول. ﴿وَيُمِيتُ﴾. معطوف على ﴿يُحْىِۦ﴾. ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قَضَىٰٓ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به، والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب. ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿إنما﴾: كافة ومكفوفة. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿يَقُولُ﴾، والجملة الفعلية: جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿يُحْىِۦ﴾؛ أي: وهو الذي يحيي ويميت، ويقول: كن وقت قضائه أمراً ﴿كُن﴾: فعل أمر تام، وفاعل مستتر يعود على ﴿أَمْرًا﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾. ﴿فَيَكُونُ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿يكون﴾: فعل مضارع تام، وفاعله: ضمير يعود على ﴿أَمْرًا﴾ والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهو يكون، والجملة الاسمية: مستأنفة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري التعجبي. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه: حذف حرف العلة، والجملة: مستأنفة. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿تَرَ﴾. ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾:

فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾، ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنى كيف، في محل النصب على الحال، ﴿يُصۡرَفُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، ومتعلقه: محذوف، تقديره: كيف يصرفون عن الإيمان بالكلية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الجر بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأول. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: صلة الموصول. ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾: متعلق بـ﴿كَذَّبُواْ﴾ ﴿وَبِمَآ﴾: جار ومجرور معطوف على ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾. ﴿رُسُلَنَا﴾: مفعول به، والجملة: صلة الموصول ﴿فَسَوۡفَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية ﴿سوف﴾: حرف تنفيس. ﴿يَعۡلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة للتهديد، هذا ويجوز أن تعرب الذين خبراً لمبتدأ محذوف، أو منصوباً على الذم، ويجوز أن يكون مبتدأ، خبره: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ و﴿الفاء﴾: رابطة لما في الموصول من رائحة الشرط، ﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، مبني على السكون المقدر، والظرف: متعلق بـ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، أو هي في محل النصب مفعول به لـ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ ولا يتنافى كون الظرف ماضياً، و﴿سوف يعلمون﴾ مستقبلاً، ففي جعلها مفعولاً به تناف من استحالة عمل المستقبل في الزمن الماضي، ولك أن تقول: لا منافاة؛ لأنّ الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله تعالى متيقّنة مقطوعاً بها.. عبّر عنها بلفظ ما كان ووجد، والمعنى على الاستقبال. ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ مبتدأ، ﴿فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾: خبر. ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾، والظرف: في نية التأخير عنهما، فهو خبر عنهما معاً، والجملة الاسمية: في محل الجرّ مضاف إليه لـ﴿إِذِ﴾؛ أي: فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وقت كون الأغلال والسلاسل في أعناقهم. ﴿يُسۡحَبُونَ﴾: فعل ونائب فاعل.

﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾.

﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾: متعلق بـ﴿يُسۡحَبُونَ﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب حال من ضمير ﴿أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ لوجود شرطه وهو كون المضاف بعضاً من المضاف إليه. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ﴿يُسۡجَرُونَ﴾. وجملة ﴿يُسۡجَرُونَ﴾: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يُسۡحَبُونَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿لَهُمۡ﴾: متعلق بـ﴿قِيلَ﴾ وجملة ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾:

نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾. وجملة ﴿قِيلَ﴾: معطوفة على جملة ﴿يُسْجَرُونَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿أَيْنَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية المكانية، والظرف: متعلق بمحذوف خبر مقدم ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والجملة الاسمية: في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تُشْرِكُونَ﴾: خبره ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿تُشْرِكُونَ﴾. وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة.

﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿ضَلُّوا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنَّا﴾: متعلق به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾ ﴿بَل﴾: حرف إضراب للإضراب الانتقالي. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم ﴿نَكُن﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾ واسمها ضمير يعود على المتكلمين. وجملة ﴿نَّدْعُوا﴾: خبرها. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور حال من ﴿شَيْئًا﴾ أو متعلق بـ﴿نَّدْعُوا﴾. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به لـ﴿نَّدْعُوا﴾ وجملة ﴿لَّمْ نَكُن﴾: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ضَلُّوا﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالُوا﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: مستأنفة؛ أي: يضل الله الكافرين كلهم إضلالاً مثل إضلالهم المذكور. ﴿ذَٰلِكُم﴾: مبتدأ. ﴿بِمَا﴾: خبر، والجملة: في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: وتقول لهم الخزنة: ذلكم... إلخ. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تَفْرَحُونَ﴾: خبره. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿تَفْرَحُونَ﴾، ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: حال من فاعل ﴿تَفْرَحُونَ﴾ وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة أو لـ﴿ما﴾ المصدرية، وقوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾: معطوف على قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾. ﴿ادْخُلُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة: أيضاً مقول لقول محذوف؛ أي: ويقال لهم: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾. ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾: مفعول به على السعة ﴿خَالِدِينَ﴾: حال من فاعل ﴿ادْخُلُوا﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَالِدِينَ﴾. ﴿فَبِئْسَ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية أو عاطفة ﴿بئس﴾: فعل ماض من أفعال الذم. ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والمخصوص بالذم: محذوف، تقديره: هي،

وجملة ﴿بئس﴾: مستأنفة مسوقة لإنشاء الذم، أو معطوفة على جملة ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ﴾.

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾.

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا بدا لك منهم ما بدا من صد وإعراض، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿اصبر﴾ ولا تبتئس فإنا سننتقم لك منهم ﴿اصبر﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، تقديره: أنت، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، على أنها مسوقة لتعليل الأمر بالصبر. ﴿فَإِمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إما﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ﴿ما﴾ الزائدة، و﴿ما﴾: زائدة، ﴿نُرِيَنَّكَ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، و﴿نون﴾ التوكيد الثقيلة: حرف لا محل لها من الإعراب، وفاعله: ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: نحن. والكاف: ضمير المخاطب في محل النصب مفعول أول ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي﴾: مفعول ثان لـ﴿رأى﴾، لأنه من رأى البصرية، تعدّت إلى المفعول الثاني بالهمزة. ﴿نَعِدُهُمۡ﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعل مستتر، والجملة: صلة الموصول، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية: محذوف، تقديره: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ وهو القتل والأسر يوم بدر، فذاك غاية أملك، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿اصبر﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة، ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف: ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية بالعطف على ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله: ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: نحن، و﴿الكاف﴾: ضمير المخاطب في محل النصب مفعول به. ﴿فَإِلَيۡنَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية جوازاً. ﴿إلينا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُرۡجَعُونَ﴾، ﴿يُرۡجَعُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة: في محل الجزم جواب للشرط الثاني، وجواب الشرط الأول: محذوف كما مرّ آنفاً، والتقدير: فإما نرينّك بعض الذي نعدهم من العذاب، وهو القتل والأسر يوم بدر، فذاك المطلوب ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل

يوم بدر ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فننتقم منهم أشدّ الانتقام. وإنما حذف جواب الأول دون الثاني؛ لأنّ الأول إن وقع.. فذاك غاية الأمل في إنكائهم، فالثابت على تقدير وقوعه معلوم، وهو حصول المراد على التمام، وأما إن لم يقع ووقع الثاني وهو توفيه قبل حلول المجازاة بهم.. فهذا هو الذي يحتاج إلى ذكره للتسلية وتطمين النفس، على أنه وإن تأخر جزاؤُهم عن الدنيا.. فهو حتم في الآخرة ولا بد منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿رُسُلًا﴾: مفعول به. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أو صفة لـ﴿رُسُلًا﴾ والجملة الفعلية: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿مِنْهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿مَّن﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر. وجملة ﴿قَصَصْنَا﴾: صلة لـ﴿مَّن﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: قصصناهم ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿قَصَصْنَا﴾، والجملة الاسمية: في محل النصب صفة لـ﴿رُسُلًا﴾ أو مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَمِنْهُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مِنْهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿مَّن﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: معطوف على جملة قوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا﴾. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم ﴿نَقْصُصْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾ وفاعله: ضمير مستتر، تقديره: نحن. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿نَقْصُصْ﴾ والجملة: صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة. والعائد: محذوف، تقديره: من لم نقصصهم عليك.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص ﴿لِرَسُولٍ﴾: خبرها مقدم على اسمها. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَأْتِيَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، وفاعله: ضمير يعود على ﴿رسول﴾. ﴿بِآيَةٍ﴾:

متعلق بـ﴿يَأْتِيَ﴾ والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً، والتقدير: وما كان الإتيان بآية كائناً لرسول من الرسل إلا بإذن الله تعالى، وجملة ﴿كَانَ﴾: معطوفة على جملة ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أو مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال، ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يَأْتِيَ﴾؛ أي: وما كان لرسول أن يأتي بآية في حال من الأحوال، إلا بإذن الله، ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها والظرف: متعلق بالجواب. ﴿قُضِيَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿بِالْحَقِّ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قُضِيَ﴾، وجملة ﴿قُضِيَ﴾: جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ أو مستأنفة. ﴿وَخَسِرَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿خسر﴾: فعل ماض. ﴿هُنَالِكَ﴾: ظرف مكان متعلق بـ﴿خسر﴾، ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾: فاعل لـ﴿خسر﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿قُضِيَ﴾ على كونها جواب ﴿إذا﴾ الشرطية.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿الَّذِي﴾: خبره، والجملة: مستأنفة مسوقة لتعداد بعض آلائه سبحانه. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض بمعنى خلق، وفاعله: ضمير مستتر، والجملة: صلة الموصول. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿الْأَنْعَامَ﴾: مفعول به ﴿لِتَرْكَبُوا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل. ﴿تركبوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿مِنْهَا﴾ - أي: بعضها - متعلق بـ﴿تركبوا﴾ والجملة الفعلية مع أن المضمرة. في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾ والجار والمجرور: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، والتقدير: الله الذي خلق لكم الأنعام لمنفعة ركوبكم إياها. ﴿وَمِنْهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿تَأْكُلُونَ﴾: قدمه عليه لرعاية الفواصل. ﴿تَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿تركبوا﴾؛ أي: خلقها لركوبكم إياها ولأكلكم منها. ﴿وَلَكُمْ﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية. ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾: حال من ﴿مَنَافِعُ﴾، و﴿مَنَافِعُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: معترضة لا محل لها من

الإعراب، لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل، ﴿تبلغوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿تبلغوا﴾ ﴿حَاجَةً﴾ مفعول به. ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾: صفة لـ﴿حَاجَةً﴾ والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾ والجار والمجرور: معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِتَرْكَبُوا﴾ والتقدير: الله الذي خلق لكم الأنعام لركوبها، ولبلوغ حاجة في صدوركم عليها. ﴿وَعَلَيْهَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿تُحْمَلُونَ﴾، ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾: معطوف على ﴿عَلَيْهَا﴾، ﴿تُحْمَلُونَ﴾: فعل مضارع مغير ونائب فاعل، والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَيُرِيكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعول أول. ﴿ءَايَاتِهِ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية: معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾، ﴿فَأَيَّ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿أي﴾: اسم استفهام للاستفهام التوبيخي، منصوب على أنه مفعول مقدم وجوباً لـ﴿تُنكِرُونَ﴾، لأن اسم الاستفهام مما يلزم الصدارة. ﴿ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ مضاف إليه ﴿تُنكِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة للتوبيخ والتقريع.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي المضمّن للإنكار، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقعد قومك قريش في منازلهم ولم يسيروا في الأرض؟ والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَسِيرُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿يَسِيرُوا﴾ والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿فَيَنظُرُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة أو سببية واقعة في جواب الاستفهام ﴿ينظروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَسِيرُوا﴾ ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم وجوباً ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَاقِبَةُ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾. ﴿الَّذِينَ﴾: مضاف إليه. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: صلة ﴿الَّذِينَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل النصب مفعول ﴿ينظروا﴾: معلق عنها باسم الاستفهام.

﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿كَانُوا أَكْثَرَ﴾: فعل ناقص واسمه، وخبره ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَكْثَرَ﴾

وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة مسوقة لبيان مبدأ أحوالهم وعواقبها، ﴿وَأَشَدَّ﴾: معطوف على ﴿أَكْثَرَ﴾ ﴿قُوَّةً﴾. تمييز محوّل عن اسم ﴿كان﴾ ﴿وَءَاثَارًا﴾: معطوف على ﴿قُوَّةً﴾ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: صفة لـ﴿آثاراً﴾: ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية أو استفهامية في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿أَغْنَىٰ﴾. ﴿أَغْنَىٰ﴾: فعل ماض ﴿عَنْهُم﴾: متعلق بـ﴿أَغْنَىٰ﴾، ﴿مَّا﴾: اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾ أو مصدرية والمصدر المؤوّل بها: فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾ ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ماض ناقص واسمه. وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾: صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ما كانوا يكسبونه، أو صلة لـ﴿مَّا﴾ المصدرية، والمصدر المؤوّل فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾؛ أي: لم يغن عنهم، أو أيّ شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم، وجملة ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾: معطوفة على جملة ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: تفصيلية تفسيرية. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية ﴿جَآءَتْهُمْ﴾: فعل ومفعول به ﴿رُسُلُهُم﴾: فاعل. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ أو حال من ﴿الرسل﴾ والجملة: فعل شرط لـ﴿لمّا﴾ في محل جر بالإضافة. ﴿فَرِحُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾: جملة مفسرة لجملة قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾: لا محل لها من الإعراب، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرِحُوا۟﴾، ﴿عِندَهُم﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ﴿ما﴾ ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾: حال من ﴿ما﴾ الموصولة، أو من الضمير المستكن في الظرف ﴿وَحَاقَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿فَرِحُوا۟﴾. ﴿بِهِم﴾: متعلق بـ﴿حاق﴾. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿حاق﴾ ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية. ﴿رَأَوْا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿بَأْسَنَا﴾: مفعول به لرأى

لأنها بصرية، والجملة الفعلية: فعل شرط لـ﴿لمّا﴾ في محل جر بالإضافة، ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾: معطوفة على جملة ﴿لما﴾ الأولى، ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿وَحۡدَهُۥ﴾: حال من الجلالة حال لازمة. ﴿وَكَفَرۡنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿كفرنا﴾ ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿مُشۡرِكِينَ﴾ ﴿مُشۡرِكِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة كان صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَلَمۡ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لم﴾: حرف جزم: ﴿يَكُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف، واسمها: ضمير الشأن. ﴿يَنفَعُهُمۡ﴾: فعل ومفعول. ﴿إِيمَٰنُهُمۡ﴾: فاعل، والجملة الفعلية: في محل النصب خبر ﴿يكون﴾، وجملة ﴿يكون﴾: معطوفة على جملة ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾. ﴿لَمَّا﴾: ظرف زمان مجرّد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿إِيمَٰنُهُمۡ﴾. ﴿رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لمّا﴾. ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل مقدر من لفظه؛ أي: سنّ الله سبحانه وتعالى بهم ذلك سنة من قبلهم؛ أي: سنته فيمن قبلهم، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿ٱلَّتِي﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَتۡ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الموصول، والجملة: صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ﴿فِي عِبَادِهِۦۖ﴾: متعلق بـ﴿خَلَتۡ﴾، ﴿وَخَسِرَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿خسر﴾: فعل ماض ﴿هُنَالِكَ﴾: متعلق به ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾: فاعل، والجملة: مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ﴾: ماض مغيّر الصيغة من النهي، وهو الزجر عن شيء. ﴿أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يقال: أسلم أمره لله: إذا سلّم، وذلك إنما يكون بالرضىٰ والانقياد لحكمه، وأسلمت له الشيء: إذا جعلته سالماً خالصاً له. ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾

قال الراغب: النطفة: الماء الصافي، ويعبّر بها عن ماء الرجل؛ أي: ماء الصلب يوضع في الرحم كما مرّ. ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهو الدم الجامد. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ والطفل: الولد ما دام ناعماً، كما في «المفردات» والصغير من كل شيء أو المولود. كما في «القاموس» وحد الطفل: من أول ما يولد يستهل صارخاً إلى انقضاء ستة أعوام كما مرّ. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ﴾ قال في «القاموس»: الأشد: مفرد جاء على بناء الجمع من الشدة بمعنى القوّة، وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين. ﴿شُيُوخًا﴾: جمع شيخ، وهو: من طعن في سنّ الكبر واستبانت فيه الشيخوخة، أو من خمسين أو إحدى وخمسين إلى آخر عمره، أو إلى ثمانين كما في «القاموس».

﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾؛ أي: وقتاً محدّداً معيّناً لموتكم. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أصل يميت يموت بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت إثر كسرة فقلبت ياءً حرف مدّ. ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ من القضاء بمعنى التقدير، عبّر به عن لازمه الذي هو إرادة التكوين، كأنه قيل: إذا قدّر شيئاً من الأشياء وأراد كونه. ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ﴾: جمع غلّ بضم الغين المعجمة، وهو: ما يقيد به فيجعل الأعضاء وسطه، وغل فلان: قيد به؛ أي: وضع في عنقه أو يده الغلّ. ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ جمع عنق وهي الرقبة. ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ جمع سلسلة بالكسر، وهي الدائرة من حديد أو نحوه تتصل أجزاؤها أو حلقاتها بعضها ببعض، ومنه سلاسل البرق؛ أي: ما استطال منه في عرض السحاب وسلاسل الكتاب سطوره. قال الراغب: وتسلسل الشيء: اضطرب كأنه تصوّر منه تسلسل متردد، فتردّد لفظه تنبيه على تردد معناه، وماء مسلسل؛ أي: متردد في مقرّه، وأما السلسلة بالفتح فهو إيصال الشيء بالشيء، ولما كان في السلسلة بالكسر إيصال بعض الخلق بالبعض؛ سميت بها. ﴿يُسْحَبُونَ﴾ من السحب، وهو: الجرّ بعنف، ومنه السحاب، لأنّ الريح تجرُّه، أو لأنه يجرّ الماء، وسحبه كمنعه، جرّه على وجه الأرض. ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ والحميم: الماء الذي تناهى حرّه. قال في «القاموس»: الحميم: الماء الحار، والماء البارد ضد، والقيظ والعرق؛ أي: على التشبيه. كما في «المفردات». ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ من سجر التنور: إذا ملأه بالوقود. ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ من قول العرب، ضل المسجد والدار؛ أي: لم يعرف موضعهما.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ قال في «القاموس»: الفرح السرور والبطر انتهى، والبطر النشاط والأشر وقلّة احتمال النعمة والأشر شدّة البطر، وهو أبلغ من البطر، والبطر: أبلغ من الفرح، وفي «المفردات»: الفرح: انشراح الصدر بلذّة عاجلة، ولم يرخّص إلا في الفرح بفضل الله تعالى وبرحمته وبنصر الله، والبطر: دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقّها، وصرفها إلى غير وجهها. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله: نرئينّك: نقلت حركة الهمزة إلي الراء، ثم حذفت للتخفيف فوزنه نُفِلَنَّكَ. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ قياسه نوعدهم، حذفت فاؤه حذفاً مطرداً لوقوعها بين ياء مفتوحة وكسرة. وقوله: ﴿أَشَدُّ قُوَّةً﴾ أصله: أشدد، نقلت حركة الدال الأولى إلى الشين فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ يقال: أغنى عنه كذا: إذا كفاه ونفعه، وهو إذا استعمل بعن.. يتعدّى إلى مفعول؛ أي: لم يدفع ولم ينفع، وأصله: أغني بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟﴾ أصله: رأيوا، بوزن فعلوا قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ﴾ أصله: يكون، دخل الجازم ﴿لم﴾: فصار يكون فالتقي ساكنان فحذفت الواو فصار يكن بوزن يفل، ثم حذفت النون حذفاً غير مطرد، فصار بوزن يفُ، وقد تقدم القول في حذف نون المضارع المجزوم بشرط كونه مجزوماً بالسكون، غير متصل بضمير نصب ولا بساكن، وقد وقع ذلك في التنزيل في ثمانية عشر موضعاً، وقد سمع حذفها في الشعر إذا وليها ساكن، كما في قول الخنجر بن صخر الأسديّ:

فَإِنْ لَمْ تَكُ ٱلْمِرْآةُ أَبْدَتْ وَسَامَةً ... فَقَدْ أَبْدَتِ ٱلْمِرْآةُ جَبْهَةَ ضَيْغَمِ

فحذف النون مع ملاقاة الساكن، والمرآة بكسر الميم ومدّ الهمزة: آلة الرؤية، فكأنه نظر وجهه فيها فلم يره حسناً، فتسلّى بأنه يشبه الضيغم وهو الأسد، والوسامة بفتح الواو: الحسن والجمال، وحمله جمهور النحاة على الضرورة. ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ من المصادر المؤكدة لعاملها المحذوف من لفظها، والسنة الطريقة والعادة المسلوكة، وسنة الله: طريقته وحكمته كما مرّ. ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ من الخلوّ وهو المضي، أصله: خلو قلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها فصار خلا، ثم اتصلت بالفعل تاء التأنيث الساكنة، فالتقى ساكنان الألف والتاء، فحذفت الألف لذلك فوزنه:

فعت.

فائدة: رسمت ﴿سُنَّتَ﴾ مجرور التاء ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء، والباقون: بالتاء، وأمال الكسائي الهاء في الوقف. اهـ «خطيب».

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿نُهِيتُ﴾ و﴿أمرت﴾ في قوله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ أي: خلق أصلكم آدم من تراب.

ومنها: وضع المفرد موضع الجمع في قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾؛ أي: أطفالاً لإرادة الجنس.

ومنها: الطباق بين ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: تكرير ذم المجادلة في أربعة مواضع من هذه السورة. إما لتعدد المجادل، بأن يكون في أقوام مختلفة، أو تعدّد المجادل فيه بأن يكون في آيات مختلفة أو للتأكيد.

ومنها: وصل الموصول الثاني بالتكذيب دون المجادلة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ لأنّ المعتاد وقوع المجادلة في بعض موضوع الكتاب لا في الكل.

ومنها: صيغة الماضي في الصلة الثانية أعني: ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ للدلالة على التحقق كما أنّ صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على تجدد المجادلة وتكرُّرها.

ومنها: الإتيان بصيغة الماضي في قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾﴾ للدلالة على التحقيق والوقوع، لأنّ مقتضى الظاهر أن يقال: ثمّ يقال لهم، وفي قوله: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾؛ أي: يقولون.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلال أيها الكفار للمبالغة في التوبيخ.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿تَفْرَحُونَ﴾ و﴿تَمْرَحُونَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿رُسُلًا﴾.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

ومنها: الإتيان بخلاف مقتضى الظاهر في قوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ لأن الظاهر أن يقال: فبئس مدخل المتكبّرين، فعبّر عن المدخل بالمثوى؛ لكون دخولهم بطريق الخلود. اهـ «أبو السعود». وفي «السمين»: ولم يقل فبئس مدخل المتكبرين؛ لأن الدخول لا يدوم، وإنما يدوم الثواء، فلذلك خصّه بالذّم، وإن كان الدخول أيضاً مذموماً. اهـ.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ لأن ﴿هُنَالِكَ﴾: موضوع للإشارة إلى المكان، فاستعير هنا للزمان.

ومنها: التعبير بالماضي في قوله: ﴿وَخَسِرَ﴾ للدلالة على تحقق الوقوع.

ومنها: المزاوجة في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ لأنّ مقتضى الظاهر أن يقال: وفي الفلك، كما في قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ ليزاوج ويطابق قوله: ﴿وَعَلَيْهَا﴾.

ومنها: الاستطراد في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ وهو ذكر الشيء في غير موضعه لمناسبة بينه وبين ذلك الموضوع، لأنّ المقام مقام الامتنان بخلق الأنعام.

ومنها: إضافة الآيات إلى الاسم الجليل في قوله: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ لتربية المهابة وتهويل إنكارها.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ وهو في اصطلاح البيانيين الاستهزاء والسخرية من المتكبرين لمخاطبتهم بلفظ الإجلال في موضع التحقير، والبشارة في موضع التحذير، والوعد في موضع الوعيد، والعلم في موضع الجهل تهاوناً من القائل بالمقول له، واستهزاءً به.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما حوته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ وصف الكتاب الكريم.

٢ ـ الجدل بالباطل في آيات الله.

٣ ـ وصف الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله.

٤ ـ طلب أهل النار الخروج منها لشدة الهول، ثم رفض هذا الطلب.

٥ ـ إقامة الأدلة على وجود الإله القادر.

٦ ـ إنذار المشركين بأهوال يوم القيامة.

٧ ـ قصص موسى عليه السلام مع فرعون، وما دار من الحوار بين فرعون وقومه والذي يكتم إيمانه.

٨ ـ أمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى قومه، كما صبر أولوا العزم من الرسل.

٩ ـ تعداد نعم الله سبحانه على عباده في البر والبحر.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة فصلت

سورة فصلت: وتسمى[1] سورة السجدة، وسورة حم السجدة، وسورة المصابيح: مكية، قال القرطبي: في قوله الجميع. **وآيها**: ثلاث أو أربع وخمسون آية. **وكلماتها**: سبع مئة وتسع وتسعون كلمةً. **وحروفها**: ثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمسون حرفاً.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم - رحمه الله تعالى - في كتابه[2] «الناسخ والمنسوخ»: سورة فصلت كلها محكمة، إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ الآية (٣٤) نسخت بآية السيف. اهـ.

مناسبتها لما قبلها:[3] أنهما اشتركتا في شيئين:

أحدهما: في تهديد قريش وتقريعهم، فقد توعدهم في السورة السابقة بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلخ. وهددهم هنا بقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾.

وثانيهما: أن كلتيهما بُدِئت بوصف الكتاب الكريم.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه السورة لما قبلها[4]: أنه قال في آخر السابقة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخرها. فضمن وعيداً وتهديداً وتقريعاً لقريش، فأتبع ذلك التقريع والتوبيخ والتهديد بتوبيخ آخر، فذكر أنه نزل كتاباً مفصلاً آياته، بشيراً لمن اتبعه، ونذيراً لمن أعرض عنه، وأن أكثر قريش أعرضوا عنه، ثم ذكر قدرة الإله على إيجاد العالم العلوي والسفلي، ثم قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ فكان هذا كله مناسباً لآخر سورة المؤمن، من عدم انتفاع مكذبي الرسل حين التبس بهم العذاب، وكذلك قريش حل بصناديدها من القتل والأسر والنهب والسبي

---

(١) المراح.

(٢) الناسخ والمنسوخ.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

واستئصال أعداء رسول الله ﷺ ما حل بعاد وثمود من استئصالهم. انتهى.

ومن فضائلها: ما روى عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة السجدة أعطاه الله تعالى بكل حرف منها عشر حسنات» ذكره البيضاوي. ولكن لا أصل له.

ومما يدل على فضلها: ما أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم، وصححه ابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في «الدلائل» وابن عساكر عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا فليكلمه، ولينظر بم يرد عليه، فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: ائته يا أبا الوليد، فأتاه فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله، أنت خير أم عبد المطلب، فسكت رسول الله ﷺ قال عتبة: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك.. فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم.. فتكلم حتى نسمع قولك، أما والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف، يا رجل، إن كان إنما بك الحاجة.. جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباءة.. فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً، فقال رسول الله ﷺ: فرغت قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فقال عتبة: حسبك حسبك، ما عندك غير هذا، قال: «لا» فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك، قال ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك قال: والذي نصبها بنيةً ـ يريد الكعبة ـ ما فهمت شيئاً مما قال، غير أنه أنذركم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية وما تدري ما قال، لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة.

ومنه ما أخرجه أبو نعيم والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عمر قال: لما قرأ النبي ﷺ علي بن ربيعة: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾، أتى أصحابه فقال: يا قوم، أطيعوني في هذا اليوم، واعصوني بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذني

قط كلاماً مثله، وما دريْت ما أردّ عليه، وفي هذا الباب روايات كثيرة تدل على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة، وتلاوته ﷺ أول هذه السورة عليه.

وعرض هذه السورة على عتبة بن ربيعة للرد عليهم مما يدل على فضلها وجزالتها وبلاغتها، وفي رواية أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ ليعظم عليه أمر مخالفته لقومه، وليقبح عليه فيما بينَه وبينَه، وليبعد ما جاء به، فلما تكلم عتبة.. قرأ رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ①﴾ ومر في صدرها حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ⑬﴾ فأرعد الشيخ ووقف شعره، وأمسك على فم رسول الله ﷺ بيده، وناشده بالرحم أن يمسك، وقال حين فارقه: والله لقد سمعت شيئاً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا
تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ٨ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ
١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ١١
فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ١٢ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ١٣ إِذْ
جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً
فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا
يُنصَرُونَ ١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ١٧ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ١٨ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٢٠
وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن
ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ
فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٢٣ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ
٢٤﴾ .

المناسبة

المناسبة بين آخر السابقة وأول هذه السورة: أن السابقة ختمت بتهديد المعرضين عن آيات الله المكذبين بها، وهذه بدئت ببيان سبب إعراضهم بأن على قلوبهم أكنةً، وفي آذانهم وقر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ. . .﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين[1] ما يذكر المشركون من الأسباب التي تحول بينهم وبين قبول دعوته.. أمر رسوله أن يجيب عن كلامهم بأنه لا يقدر على جبرهم على الإيمان، وحملهم عليه قسراً، فإنه بشر مثلهم، ولا ميزة له عليهم، إلا بأن الله أوحى إليه ولم يوح إليهم.

ثم ذكر أن خلاصة الوحي علم وعمل، أما العلم فدعامته التوحيد، وأما العمل فأسُّه الاستغفار والتوبة مما فرط من الذنوب، ثم أردف ذلك بالتهديد لمن يشرك بالله، ولا يزكي نفسه من دنس الشح والبخل، وينكر البعث والجزاء والحساب يوم القيامة، وينصرف إلى الدنيا ولذاتها، وبعد أن ذكر وعيد الكفار أعقبه بوعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات، بأن لهم عند ربهم أجراً دائماً غير مقطوع ولا ممنوع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ. . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما أمر رسوله بأن يقول للمشركين: إن ما تلقيته بالوحي، أن إلهكم إله واحد، فأخلصوا له العبادة.. أردف هذا بما يدل على كمال قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض، على أطوار مختلفة متعاقبة، وأكمل لكل منها ما هي مستعدة له، وزين السماء بالنجوم والكواكب الثوابت والسيارات، ولا عجب؛ فذلك تقدير العزيز الغالب على أمره، العليم بكل ما فيها، لا يخفى عليه شيء منهما، فكيف يسوغ لكم أن تجعلوا الأوثان والأصنام شركاء له، وليس لها شيء في خلقهما وتقديرهما تعالى عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً. . .﴾ الآيات، مناسبتها لما

---

(١) المراغي.

قبلها: أن الله سبحانه لما أنكر عليهم عبادة الأنداد والأوثان، وطلب إليهم أن لا يعبدوا إلا الله الذي خلق السموات والأرض، وزين السماء الدنيا بالمصابيح، وأوجد في الأرض جبالاً رواسي، ثم أعرضوا عن كل ذلك، ولم يبق حينئذ طريق لعلاجهم.. أمر رسوله أن ينذرهم بحلول شديد النقم بهم، إن هم أصروا على عنادهم كما نزل بعاد وثمود من قبلهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين كيف عاقب أولئك الجاحدين في الدنيا، وأذاقهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون.. أردف ذلك بذكر عقابهم في الآخرة، ليكون ذلك أتم للزجر، وأكثر في الاعتبار لمن اعتبر.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وغيرهم عن ابن مسعود قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة أنفار: قرشي وثقفيان، أو ثقفي وقرشيان، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال: أترون أن الله سمع كلامنا هذا، فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا.. سمعه، وإذا لم نرفعه.. لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً.. سمع كله، قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حمٓ ①﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي[1]: هذه السورة مسماة بـ﴿حمٓ ①﴾ فيكون إطلاق الكتاب عليها في قوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ إلخ. باعتبار أنها من الكتاب وجزء من أجزائه، وقيل: ﴿حمٓ ①﴾ اسم للقرآن، فيكون إطلاق الكتاب عليه حقيقة، وإنما[2] افتتح السورة بـ﴿حمٓ ①﴾ لأن معنى حم بضم الحاء وتشديد الميم على ما قال سهل - رحمه الله تعالى - قضي ما هو كائن.

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

ولما كانت هذه السورة مصدرةً بذكر الكتاب الذي قدرت فيه الأحكام، وبينت.. ناسب أن تفتح بـ﴿حمٓ ۝١﴾ رعايةً لبراعة الاستهلال، وإنما سميت هذه السور السبع بـ﴿حمٓ ۝١﴾؛ لاشتراكها في الاشتمال على ذكر الكتاب، والرد على المجادلين في آيات الله تعالى، والحث على الإيمان بها، والعمل بمقتضاها ونحو ذلك.

وقال بعضهم: معنى الحاء. والميم؛ أي: هذا الخطاب والتنزيل من الحبيب الأعظم إلى المحبوب المعظم، وقيل: هو قسم أقسم به تعالى؛ أي: بحياتي ومجدي هذا تنزيل، أو بحياتك ومشاهدتك يا حبيبي ويا محبوبي، أو بالحجر الأسود والمقام، فإنهما ياقوتتان من يواقيت الجنة، وسران عظيمان من أسرار الله تعالى، فناسب أن يقسم بهما، أو هذه الحروف ﴿تَنزِيلٌ﴾ إلخ. نزل بها جبريل عليه السلام من عند الله تعالى وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ﴾: خبر بعد خبر؛ أي: هذه السورة مسماة بحم، منزلة من عنده تعالى، لأن التعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور، كقولهم: هذا الدرهم ضرب الأمير؛ أي: مضروبه، ومعنى كونها منزلة: أنه تعالى كتبها في اللوح المحفوظ، وأمر جبريل أن يحفظ تلك الكلمات، ثم ينزل بها على رسوله ﷺ، ويؤديها إليه، فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبريل.. سمي ذلك تنزيلاً، وإلا فالكلام النفسي القائم بذات الله تعالى لا يتصور فيه النزول والحركة من الأعلى إلى الأسفل، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ متعلق بـ﴿تَنزِيلٌ﴾ مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم؛ للإيذان بأن القرآن مدار للمصالح الدينية والدنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية، وذلك لأن المنزل ممن صفته الرحمة الغالبة، لا بد وأن يكون مداراً للمصالح كلها، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبر آخر مشتق من الكتب، وهو الجمع، فسمي كتاباً لأنه جمع فيه علوم الأولين والآخرين، وقوله: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ صفة ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ أي: كتاب بينت آياته بالأمر والنهي، والحلال والحرام، والوعد والوعيد، والقصص والتوحيد، وقرىء: ﴿فَصَلت﴾[1] بفتح الفاء والصاد مخففةً؛

(١) البحر المحيط.

أي: فرقت بين الحلال والحرام، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها، من قولهم: فصلت العير؛ أي: انفصلت، وفصل من البلد؛ أي: انفصل منه، حالة كونه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: مجموعاً من لسان العرب ولغتهم، حال من ﴿كتاب﴾ لتخصصه بالصفة، ويقال لها: الحال الموطئة، وهو اسم جامد موصوف بصفة هي الحال في الحقيقة، وهذا أولى من نصبه على المدح؛ أي: أريد بهذا الكتاب المفصل آياته قرآناً عربياً أو على المصدرية؛ أي: يقرؤه قرآناً، وبوجود كلمةٍ عجمية فيه معرّبة لا يخرج عن كونه عربياً؛ لأن العبرة للأكثر، وذلك كالقسطاس، فإنه رومي معرب بمعنى الميزان والسجيل، فإنه فارسي معرب سنك وكل، والصلوات فإنه عبراني معرب صلوتا، بمعنى المصلي، والرقيم فإنه رومي بمعنى الكلب، والطور فإنه الجبل بالسرياني ﴿لِقَوْمٍ﴾ عرب ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: كائناً لقوم يعلمون معانيه، لكونه على لسانهم، فهو صفة أخرى لـ﴿قُرْءَانًا﴾ وفي «التأويلات النجمية»: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ العربية والعربية بحروفها مخلوقة، والقرآن منزه عنها، وكأنه رد على من زعم أن في القرآن ما ليس من كلام العرب. اهـ. أو متعلق بـ﴿فُصِّلَتْ﴾ والأول أولى. وقال الضحاك؛ أي: يعلمون أن القرآن منزل من عند الله تعالى، وقال مجاهد؛ أي: يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل.

وحاصل معنى الآية(١): أي هذا القرآن منزل من الله الرحمن الرحيم على نبيه محمد ﷺ، وخص هذين الوصفين ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ بالذكر؛ لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى المحتاجين إلى الدواء، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية، وعلى ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية، فكان رحمةً لهم، ولطفاً بهم، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

هو ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ وبينت وميزت لفظاً بفواصل ومقاطع ومبادىء للسور وخواتم لها، وميزت معنىً بكونها وعداً ووعيداً ومواعظ ونصائح وتهذيب أخلاق ورياضة نفس وقصص الأولين وتواريخ الماضي، حال كونه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: أنزلناه بلغة العرب ليسهل عليهم فهمه، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، وفي هذا امتنان من الله عليهم ليسهل عليهم قراءته

---

(١) المراغي.

وفهمه ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ معانيه لكونه جاء بلغتهم، فهم أهل اللسان فيفهمونه بلا واسطة وغيرهم لا يفهمه إلا بواسطتهم، حالة كونه ﴿بَشِيرٗا﴾؛ أي: مبشراً لأوليائه بالجنة والنعيم المقيم، إن داموا على العمل بما فيه من أوامر ونواه ﴿وَنَذِيرٗا﴾؛ أي: منذراً مخوفاً لأعدائه بالعذاب الأليم، إن هم أصروا على التكذيب به، والجدل فيه بالباطل، وترك أوامره وفعل نواهيه، فهما صفتان أخريان لـ﴿قُرۡءَانًا﴾ أو حالان من ﴿كِتَٰبٌ﴾ وقرأ[1] زيد بن علي: ﴿بشير ونذير﴾ برفعهما على أنهما صفتان لـ﴿كِتَٰبٌ﴾ أو على أنهما خبران لمبتدأ محذوف.

ثم بين حال المشركين حين أنزل إليهم فقال: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ عن تدبره مع كونه على لغتهم، والضمير[2] لأهل مكة أو العرب أو المشركين، دل عليه ما سيجيء من قوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: فأعرض المشركون عما اشتمل عليه من النذارة ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ه سماع تفكر وتأمل وقبول، حتى يفهموا جلالة قدره وجزالة معانيه فيؤمنوا به، وفي «التأويلات النجمية»: فأعرض أكثرهم عن أداء حقه، فهم لا يسمعون بسمع القبول والانقياد، وفيه إشارة إلى أن الأقل هم أهل السماع، وإنما سمعوا بأن أزال الله تعالى بلطفه ثقل الآذان، فامتلأت الأذهان بمعاني القرآن.

والمعنى[3]: أي فاستكبر أكثر المشركين عن الإصغاء إليه، ولم يقبلوه ولم يطيعوا ما فيه من أوامر ونواه، إعراضاً عن الحق، ثم صرحوا بنفرتهم منه وتباعدهم عنه، وذكروا لذلك ثلاثة أسباب، تعللاً واحتقاراً لدعوته:

١ـ ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: المشركون لرسول الله ﷺ عند دعوته إياهم إلى الإيمان، وللعمل بما في القرآن ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾؛ أي: في أغطية متكاثفة مثل الكنانة التي فيها السهام ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ﴾ يا محمد ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ أي: في أغطية تمنعنا من فهم ما تدعونا وتورده علينا، وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وحذف متعلق حرف الجر أيضاً، والأكنّة: جمع كنان كأسلحة جمع سلاح وهو الغطاء، قال مجاهد: الكنان للقلب: كالجنة للنبل، شبهوا[4] قلوبهم بالشيء المحوي المحاط

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

بالغطاء، المحيط له بحيث لا يصيبه شيء من حيث تباعدها عن إدراك الحق واعتقاده.

فإن قلت: لِمَ عبَّر هنا بكلمة في حيث قال: ﴿فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾، وعبر بكلمة على في سورة الكهف حيث قال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ فما الفرق بين المقامين؟

قلت: عبر هنا بكلمة ﴿فِيٓ﴾ لأن القصد هنا المبالغة في عدم القبول، والأكنة إذا احتوت عليها احتواء الظرف على المظروف، لا يمكن أن يصل إليها شيء؛ وليست تلك المبالغة في ﴿عَلَىٰ﴾، والسياق في الكهف للعظمة، فيناسبه أداة الاستعلاء. اهـ سعدي المفتي.

أي: إن قلوبنا في أغطية متكاثفة مما تدعونا إليه من الإيمان بالله وحده، وترك ما ألفينا عليه آباءنا، فهي لا تفقه ما تقول من التوحيد، ولا يصل إليها قولك يا محمد.

٢- ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا﴾ وأسماعنا ﴿وَقۡرٞ﴾؛ أي: صمم يمنعها من استماع قولك، وفي «القاموس»: الوقر: ثقل في الأذن أو ذهاب السمع كله، شبهوا أسماعهم بآذان بها صمم من حيث إنها تمج الحق ولا تميل إلى استماعه.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾: ما ينفعنا كلامك، قالوه حقاً، وإن قالوا على سبيل الاستهزاء والاستهانة، لأن قلوبهم في أكنة حب الدنيا وزينتها مقفولة بقفل الشهوات والأوصاف البشرية، ولو قالوا ذلك على بصيرة.. لكان ذلك منهم توحيداً، فتعرضوا للمقت لما فقدوا من صدق القلب.

وقرأ طلحة بن مصرف[1]: ﴿وقر﴾ بكسر الواو وسكون القاف، وقرىء: ﴿وقر﴾ بفتحتين، وقرأ الجمهور: ﴿وَقۡرٞ﴾ بفتح الواو وسكون القاف.

٣- ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ عظيم، وستر غليظ يمنعنا عن إجابتك، وعن التواصل والتوافق معك، روي أن أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً وقال: يا محمد، بيننا وبينك حجاب استهزاءً منه، و﴿مِنۢ﴾: للدلالة[2] على أن الحجاب

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

مبتدأ من الجانبين، بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة المعبر عنها بالبين ولم يبق ثمة فراغ أصلاً، فيكون حجاباً قوياً عريضاً مانعاً من التواصل بخلاف ما لو قيل: بيننا وبينك، فإنه يدل على مجرد حصول الحجاب في المسافة المتوسطة بينهم وبينه من غير دلالة على ابتدائه من الطرفين، فيكون حجاباً في الجملة، لا كما ذكروا:

هذا فائدة زيادة من في قوله: ﴿من بيننا﴾ شبهوا حال أنفسهم مع رسول الله ﷺ بحال شيئين بينهما حجاب عظيم، يمنع من أن يصل أحدهما إلى الآخر ويراه ويوافقه، وإنما[1] اقتصروا على ذكر هذه الأعضاء الثلاثة؛ لأن القلب محل المعرفة، والسمع والبصر أقوى ما يتوسل إلى تحصيل المعارف، فإذا كانت هذه الثلاثة محجوبة.. كان ذلك أقوى ما يكون من الحجاب.

وقصارى ما يقولون[2]: أن قلوبهم نابية عن إدراك ما جئت به من الحق وتقبله واعتقاده، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها، وأسماعهم لا يدخل إليها شيء منه، كأن بها صمماً، ولتباعد الدّينين وتباين الطريقين، كأن بينهم وبين رسول الله ﷺ حجاب كثيف وحاجز منيع، ثم بارزوه بالخلاف، وشن الغارات الجدلية، بما لم يبق بعده مجال للوفاق، فقالوا: ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ على دينك ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على ديننا، وقال الكلبي[3]: اعمل في هلاكنا، فإنا عاملون في هلاكك، وقال مقاتل: اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها، وقيل: اعمل لآخرتك، فإنا عاملون لدنيانا، وقيل: فاعمل في إبطال أمرنا جهد طاقتك، ونحن نعمل جاهدين في فض الناس من حولك، وتشتيت شمل من آمن بك، حتى تبطل دعوتك.

ثم أمره سبحانه أن يجيب عن قولهم هذا فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين، جواباً لهم عما يقولون: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾؛ أي: إنما أنا كواحد منكم لولا الوحي، ولم أكن من جنس مغاير لكم حتى تكون قلوبكم في أكنة مما أدعوكم إليه، وفي آذانكم وقر، ومن بيني وبينكم حجاب، إلا أني يوحي إلي ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾؛ أي: ما إلهكم الذي يستحق العبادة منكم إلا إله واحد لا غيره،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

وهذا تلقين للجواب عما ذكره المشركون.

وقرأ الجمهور: ﴿قُلۡ﴾ على صيغة الأمر، وقرأ ابن وثاب والأعمش: ﴿قال﴾ بصيغة الماضي، وقرأ الجمهور: ﴿يُوحَىٰٓ﴾: بفتح الحاء مبنياً للمفعول، وقرأ النخعي والأعمش: ﴿يوحي﴾ بكسرها مبنياً للفاعل؛ أي: يوحي الله إلي.

والمعنى: أي إني لا أقدر على أن أحملكم على الإيمان قسراً، فإني بشر مثلكم، ولا امتياز لي عنكم إلا أني أوحي إلي التوحيد والأمر به، فعلي البلاغ وحده، فإن قبلتم رشدتم، وإن أبيتم هلكتم.

وقيل المعنى[1]: أني لست من جنس مغاير لكم، من ملك وجن حتى يكون بيني وبينكم حجاب وتباين مصحح لتباين الأعمال والأديان، كما ينبىء عنه قولكم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ بل إنما أنا بشر وآدمي مثلكم، مأمور بما أمرتم به، حيث أخبرنا الله جميعاً بالتوحيد بخطاب جامع بيني وبينكم، فإن الخطاب في إلهكم محكي منتظم للكل، لا أنه خطاب منه ﷺ للكفرة، كما في قوله: ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾، وقد أوحي إلي دونكم، فصرت بالوحي نبياً، ووجب عليكم اتباعي ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: وجهوا استقامتكم وامتثالكم وطاعتكم إليه تعالى لا إلى غيره؛ أي: توجهوا إليه تعالى قلباً وقالباً، بالتوحيد وإخلاص العبادة، غير ذاهبين يميناً وشمالاً[2]، ولا ملتفتين إلى ما يسول لكم الشيطان، من اتخاذ الأولياء والشفعاء؛ أي: توجهوا بالكلية إلى سبيلة لا إلى غيره، وهذا من جملة المقول[3]، و﴿الفاء﴾: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، من إيحاء الوحدانية، فإن ذلك موجب لاستقامتهم إليه تعالى بالتوحيد، والإخلاص في الأعمال، وعدي فعل الاستقامة بإلى لتضمنه معنى توجهوا، والاستقامة: الاستمرار على جهة واحدة، وطريقة مستقيمة.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ تعالى مما كنتم عليه من الشرك وسوء العقيدة والعمل، وقال الحسن في معنى الآية: إن الله سبحانه علم رسوله ﷺ كيف يتواضع بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾، ولهذا كان يعود المريض، ويشيع الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وكان يوم قريظة والنضير على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه

---

(١) روح البيان. (٢) النسفي. (٣) روح البيان.

إكاف من ليف.

وفي الآية: إشارة إلى أن البشر كلهم متساوون في البشرية، مسدود دونهم باب المعرفة؛ أي: معرفة الله بالوحدانية بالآلات البشرية من العقل وغيره، وإنما فتح هذا الباب على قلوب الأنبياء بالوحي، وعلى قلوب المؤمنين بالتبليغ والإلهام.

وحاصل المعنى(١): أي قل أيها الرسول لقومك: ما أنا إلا بشر مثلكم في الجنس والصورة والهيئة، ولست بملك ولا جني، لا يمكنكم التلقي مني، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول، بل أدعوكم إلى التوحيد الذي دلت عليه الدلائل الكونية، وأيده النقل عن الأنبياء جميعاً من آدم، فمن بعده، فأخلصوا له العبادة، وسلوه العفو عن ذنوبكم التي سلفت منكم بالتوبة من شرككم، يتب عليكم ويغفر لكم.

ثم هدد المشركين وتوعدهم فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله تعالى غيره في العبادة والطاعة؛ أي: وهلاك وخسار كائن لمن أشرك بربه في ذاته وصفاته وأفعاله، ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: يمنعونها ولا يخرجونها إلى المستحقين، ولم يواس البائس الفقير بشيء من ماله يدفع به عوزه، ويزيل خصاصته، وقال الحسن وقتادة: لا يقرون بوجوبها، وقال الضحاك ومقاتل: لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة، وقيل المعنى لا يشهدون أن لا إله إلا الله، لأنها زكاة الأنفس وتطهيرها، وقال الفراء: كان المشركون ينفقون النفقات، ويسقون الحجيج ويطعمونهم، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ، فنزلت فيهم هذه الآية، وقوله: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾: معطوف على ﴿لَا يُؤْتُونَ﴾ داخل(٢) معه في حيز الصلة، واختلافهما بالفعلية والاسمية؛ لما أن عدم إيتائها متجدد، والكفر أمر مستمر؛ أي: منكرون للآخرة بما فيها من الحساب والجزاء، جاحدون لها، والمجيء بضمير الفصل؛ لقصد الحصر، وكان يقال(٣): الزكاة قنطرة الإسلام، فمن قطعها نجا، ومن تخلف عنها.. هلك، وإنما جعل منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة، لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله.. فذاك أقوى دليل على استقامته وثباته، وصدق نيته، وصفاء طويته، وما خدع

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا بها لانت شكيمتهم وزالت عصبيتهم، وما ارتدت بنو حنيفة بعد رسول الله ﷺ إلا بمنعهم للزكاة، فعرضوا أنفسهم للحرب والطعن والضرب، إبقاءً على أموالهم، ولو ذهبت مهجهم وأرواحهم.

وقصارى ذلك: دمار وهلاك لمن أشرك بربه، ولم يطهر نفسه من دنس الرذائل، التي من أهمها البخل بالمال، ودفع غائلة الجوع عن المسكين والفقير، وإنكار البعث والجزاء، ونحو الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

وبعد أن ذكر وعيد المشركين، أردفه وعد المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله سبحانه، وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ بامتثال الأوامر، واجتنبوا السيئات بترك النواهي ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم في الآخرة ﴿أَجْرٌ﴾ وثواب ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع أبداً، ولا ممنوع عنهم، مِنْ مَنَنْتُ الحَبْلَ: إذا قَطعْتُه، وقيل: غير منقوص، من مَنَنْت حقه: إذا نَقَصْته، وقال مجاهد: غير محسوب عليهم، وقيل: غير ممنون عليهم على طريق الحذف والإيصال؛ أي: لا يمن به عليهم فيتكدر بالمنة؛ أي: بالامتنان عليهم؛ أي: عد النعمة عليهم، لأنه إنما يمن بالتفضل، فأما الأجر فحق أداؤه، والمنة في الأصل: النعمة الثقيلة التي لا يطلب معطيها أجراً ممن أعطاها إليه، ثم استعملت بمعنى الامتنان؛ أي: عد النعمة على من أعطاها إليه، وقال السدي: نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة.. كتب لهم من الأجر مثل ما كانوا يعملون في الصحة، ونحو الآية قوله: ﴿مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾، وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أن من آمن، ولم يعمل صالحاً.. لم يؤجر إلا ممنوناً؛ أي: ناقصاً، وهو أجر الإيمان، ونقصانه من ترك العمل الصالح، فيدخل النار ويخرج منها بأجر الإيمان ويدخل الجنة، ولكنه لا يصل إلى الدرجات العالية المنوطة بالأعمال البدنية، مثل: الصلاة والصوم والحج ونحوها.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يوبخهم ويقرعهم، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها

(١) روح البيان.

المشركون ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾؛ أي: لتنكرون ﴿بِـ﴾توحيد الإله العظيم الشأن ذي القدرة الباهرة والحكمة البالغة ﴿الذي خلق الأرض﴾ وأوجدها وأبدعها ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ قيل: اليومان، يوم الأحد والاثنين؛ أي: قدر وحكم في الأزل بأنها ستوجد في مقدار يومين من أيام الآخرة، ويقال: من أيام الدنيا، كما في «تفسير» أبي الليث، وفي «عين المعاني» تعليماً للتأني، وإن أمكن الإيجاد في الحال بلا إمهال، ووجه حمل اليومين على المعنيين المذكورين: أن اليوم الحقيقي إنما يتحقق بعد وجود الأرض، وتسوية السموات، وإبداع نيراتها وترتيب حركاتها؛ يعني: أن اليوم عبارة: عن زمان كون الشمس فوق الأرض، ولا يتصور ذلك قبل خلق الأرض والسماء والكواكب، فكيف يتصور الأرض في يومين؟ ويجوز أن يراد خلق الأرض في يومين؛ أي: في نوبتين، على معنى أن ما يوجد في كل نوبة يوجد بأسرع ما يكون، فيكون اليومان مجازاً عن دفعتين، على طريق ذكر الملزوم وإرادة اللازم، وقال سعدي المفتي: الظاهر أن اليوم على هذا التفسير بمعنى مطلق الوقت. انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾: بهمزتين الثانية بين بين، وقرأ ابن كثير: بهمزة بعدها ياء خفيفة؛ أي: قل أيها الرسول لمشركي قومك، توبيخاً وتقريعاً لهم: كيف تكفرون بالله الذي خلق الأرض التي تقلكم في نوبتين، فتقولوا: إنه لا يقدر على حشر الموتى من قبورهم، وتنسبوا إليه الأولاد، وتقولوا: إنه لم يبعث أنبياء أي: كيف تقولون هذا مع أنه خلق الأرض في يومين؟.

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾؛ أي: أشباهاً وأمثالاً من الملائكة والجن والأصنام التي تعبدونها من دونه، معطوف على ﴿تكفرون﴾ داخل في حكم الإنكار والتوبيخ، وجمع الأنداد باعتبار ما هو الواقع، لا بأن يكون مدار الإنكار هو التعدد بمعنى تصفون له شركاء وأشباهاً وأمثالاً من الآلهة، والحال أنه لا يمكن أن يكون له ند واحد، فضلاً عن الأنداد.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله ﷺ بأن ينكر عليهم أمرين[2]:

الأول: كفرهم بالله بإلحادهم في ذاته وصفاته، كالتجسم واتخاذ الصاحبة

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

والولد، والقول بأنه لا يقدر على إحياء الموتى، وأنه لا يبعث البشر رسلاً.

والثاني: إثبات الشركاء والأنداد له تعالى، فالكفر المذكور أولاً مغاير لإثبات الأنداد له؛ ضرورة عطف أحدهما على الآخر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العظيم الشأن، الذي فعل ما ذكر من خلق الأرض في يومين، وهو مبتدأ، خبره: قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: خالق جميع الموجودات ومربيها دون الأرض خاصة، فكيف يتصور أن يكون أخس مخلوقاته نداً له تعالى؟ وعبارة المراغي هنا: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي[1] خلق الأرض في نوبتين - نوبةً جعلها جامدةً بعد أن كانت كرةً غازيةً، ومرةً جعلها ستاً وعشرين طبقةً في ستة أطوار، كما بين ذلك علماء طبقات الأرض الجيولوجيا - هو ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا ربها وحدها، فهو مربي المخلوقات جميعاً، فإن رباها في نوبتين.. فقد ربى غيرها في نوبات، يعلم سبحانه عددها، فكيف يكون شيء منها نداً له، وضريباً؟

ثم بين أحكام ذلك الخلق وحسن تدبيره، فقال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت ﴿مِن فَوْقِهَا﴾؛ أي: من فوق الأرض، وهو معطوف على ﴿خَلَقَ﴾: داخل في حكم الصلة؛ أي: كيف تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين، وجعل فيها رواسي من فوقها، والجعل[2]: إبداعي، والمراد: تقدير الجعل، لا الجعل بالفعل، والمراد بالرواسي: الجبال الثابتة المستقرة، و﴿مِن فَوْقِهَا﴾ متعلق بجعل أو بمضمر، هو صفة لـ﴿رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: كائنةً[3] من فوقها، مرتفعة عليها، لتكون منافعها ظاهرةً للطلاب، وليظهر للناظر ما فيها من وجوه الاستدلال، وإلا فالجبال التي أثبتت فوق الأرض لا تمنعها عن الميدان، ولو كانت تحتها كأساطين الغرف، أو مركوزة فيها كالمسامير. لمنعتها عنه.

والمعنى[4]: أي كائنةً من فوق الأرض، ليرى الإنسان بعينه، وليتفكر بقلبه أن الجبال أثقال على أثقال، وكلها مفتقرة إلى ممسك وحافظ، وما ذاك الحافظ المدبر إلا الله تعالى، ولو جعل في الأرض رواسي من تحتها.. لأوهم ذلك أن تلك الأساطين التحتانية هي التي أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول، وقيل: جملة

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) المراح.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾: مستأنفة غير معطوفة على ﴿خَلَقَ﴾ لوقوع الفصل بينهما بالأجنبي، والأول أولى لأن الجملة الفاصلة هي مقررة لمضمون ما قبلها، فكانت بمنزلة التأكيد، ومعنى ﴿مِن فَوْقِهَا﴾: أنها مرتفعة عليها، لأنها من أجزاء الأرض، وإنما خالفتها باعتبار الارتفاع، فكانت من هذه الحيثية كالمغايرة لها.

وعبارة المراغي: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾؛ أي[1]: وجعل في الأرض جبالاً ثوابت مرتفعةً عليها، أسسها في الأرض وهي الطبقة الصوانية، وهذه الطبقة هي التي برزت منها الجبال، فالجبال أساسها بعيدة الغور، ضاربة في جميع الطبقات، واصلة إلى أول طبقة وهي الطبقة الصوانية، التي لولاها لم تكن الأرض أرضاً، ولم نستقر عليها، فأرضنا كرة من النار، غطيت بطبقة صوانية فوقها طبقات، ألطف منها تكون فيها الحيوان والنبات على مدى الزمان، والجبال نتوءات نتأت من تلك الطبقة، وارتفعت فوقها عشرات آلاف الكيلومترات، وصارت مخازن المياه والمعادن، وهداية للطرق، وحافظة للهواء والسحاب. انتهى.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض؛ أي: أنزل البركة والخير فيها، بشق الأنهار وخلق الأشجار والثمار، وأصناف الحيوانات، وكل ما يحتاج إليه من الخيرات؛ أي: وجعلها مباركةً كثيرة الخيرات، بما خلق فيها من المنافع، فجعل جبالها مبدأ لجريان الأنهار، ومخازن للمعادن، كالذهب والفضة والحديد والنحاس ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ﴾؛ أي: وأوجد في الأرض ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾؛ أي: أقوات أهلها وأرزاقهم، من الأنواع المختلفة المناسبة لها على مقدار معين، تقتضيه الحكمة البالغة؛ أي: قدر لأهلها من الأقوات ما يناسب حال كل إقليم، من مطاعم وملابس ونبات، ليكون بعض الناس محتاجاً إلى بعض، فتروج المتاجر بينهم، وتنتقل المحصولات والمنتوجات من بلد إلى آخر، ومن قطر إلى قطر، وفي هذا عمار للأرض، وانتظام أمور العالم.

وأضاف[2] الأقوات إلى الأرض من حيث هي فيها وعنها برزت. قاله السدي.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وقُرِىء[١]: ﴿وقسم فيها أقواتا﴾؛ أي[٢]: قسم في الأرض أرزاق العباد والبهائم. وقيل: قدر في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة، وقيل: قدر البر لأهل قطر من الأرض، والتمر لأهل قطر آخر، والذرة لأهل قطر، والسمك لأهل قطر، وكذلك سائر الأقوات، وقيل: إن الزراعة أكثر الحرف بركةً، لأن الله تعالى وضع الأقوات في الأرض، قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: مع اليومين الأولين من أيام الآخرة[٣]، أو من أيام الدنيا، فخلق الأرض في يومين، وقدر الأقوات في يومين، وهما يوم الثلاثاء والأربعاء، فصارت أربعة أيام، رد الآخر على الأول في الذكر؛ أي: أن خلق الأرض وجعل الرواسي فيها في يومين، وإكثار خيراتها وتقدير أقواتها في يومين، فيكون ذلك في أربعة أيام. كما يقول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً؛ أي: في تتمة خمسة عشر يوماً.

وقصارى ذلك: أن حصول جميع ما تقدم من خلق الأرض وخلق الجبال الرواسي فيها، وتقدير الأقوات في أربعة أيام، حالة كون تلك الأيام الأربعة ﴿سَوَآءً﴾؛ أي: مستويةً كاملة تامة بلا زيادة ولا نقصان.

وقرأ الجمهور: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب على الحال من ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ لتخصصه بالإضافة، أو من الأرض، أو من الضمائر الراجعة إليها، أو على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف هو صفة لـ﴿الأيام﴾؛ أي: استوت تلك الأيام وتمت سواءً؛ أي: استواءً وتماماً، وقرأ أبو جعفر؛ برفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي سواء؛ أي: تلك الأربعة مستوية تامة، وقرأ زيد بن علي والحسن وابن أبي إسحاق وعيسى ويعقوب وعمرو بن عبيد: بخفضه، على أنه صفة لـ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: في أربعة أيام مستوية تامة كاملة.

وقوله: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾: متعلق بمحذوف، تقديره: هذا الحصر في الأربعة للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها، القائلين: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ فالسؤال استفتائي، و﴿اللام﴾: للبيان أو متعلق بقدر. قال في «بحر العلوم» وهذا هو الظاهر؛ أي: قدر فيها أقواتها لأجل السائلين؛ أي: لأجل الطالبين لها،

---

(١) المراح. (٢) الخازن. (٣) روح البيان.

المحتاجين إليها من المقتاتين، فإن أهل الأرض كلها طالبون للقوت، محتاجون إليه، فالسؤال استعطافي، واللام للأجل.

قال الفراء[1]: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: وقدر فيها أقواتها سواءً كاملةً للمحتاجين في أربعة أيام، واختار هذا ابن جرير.

ولما انتهى من الكلام في الأرض.. أخذ يذكر السماء، فالترتيب في الذكر فحسب؛ أي: لما ذكر سبحانه خلق الأرض وما فيها.. ذكر كيفية خلقه للسموات، فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: وجه قصده وإرادته ﴿إِلَى﴾ خلق ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ وتكوينها، قال الرازي: هو من قولهم: استوى إلى مكان كذا: إذا توجه إليه توجهاً لا يلتفت معه إلى عمل آخر، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج، ونظيره قولهم: استقام إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾.

والمعنى: ثم دعاه سبحانه داعي الحكمة البالغة، والقدرة الباهرة، والإرادة التامة إلى خلق السموات وسمكها بعد خلق الأرض وما فيها ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾؛ أي: والحال أن السماء أمر ظلماني مثل الدخان المرتفع من النار، الذي لا تماسك فيه؛ أي: مثل السحاب الغير المتماسك. و﴿الواو﴾[2]: للحال، والضمير للسماء، لأنها من المؤنثات السماعية، والدخان أجزاء أرضية لطيفة؛ أي: غير متماسكة، ترتفع في الهواء مع الحرارة. وفي «المفردات»: الدخان: العثان المسْتَصْحِب لِلَهب، والبخار: أجزاء مائية رطبة ترتفع في الهواء مع الشعاعات الراجفة من سطوح المياه.

والمعنى: والحال أن السماء دخان؛ أي: أمر ظلماني يشبه الدخان، وهو المرتفع من النار وهو من قبيل التشبيه البليغ ولما كانت أول حدوثها مظلمة صحت تسميتها بالدخان تشبيهاً لها به، من حيث إنها أجزاء متفرقة غير متواصلة، عديمة النور كالدخان، فإنه ليس له صورة تحفظ تركيبه. كما في «حواشي ابن الشيخ». وقال بعضهم: ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾؛ أي: دخان مرتفع من الماء؛ يعني: السماء، بخار الماء كهيئة الدخان.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

وكان عرش الرحمن قبل خلق السموات والأرض على الماء، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق السموات والأرض.. أمر الريح فضربت الماء فاضطرب الماء اضطراباً شديداً فأزبد وارتفع، فخرج منه دخان، فأما الزبد: فبقي على وجه الماء، فخلق فيه اليبوسة، وأحدث منه الأرض، وأما الدخان: فارتفع وعلا، فخلق منه السموات.

فإن قلت: هذه[1] الآية مشعرة بأن خلق الأرض كان قبل السماء، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ مشعر بأن خلق الأرض بعد خلق السماء، فكيف الجمع بينهما؟

قلت: الجواب المشهور: أنه تعالى خلق الأرض أولاً، ثم خلق السماء بعدها، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض ومدّها، وفيه جواب آخر، وهو أن يقال: إن خلق السماء مقدم على خلق الأرض، فعلى هذا يكون معنى الآية خلق الأرض في يومين، وليس الخلق عبارةً عن الإيجاد والتكوين فقط، بل هو عبارة عن التقدير أيضاً، فيكون المعنى: قضى أن يحدث الأرض في يومين بعد إحداث السماء، فعلى هذا يزول الإشكال. والله أعلم بالحقيقة.

ولعل تقديم[2] بيان ما يتعلق بالأرض وأهلها، لما أن بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين، وترتب مبادي معايشهم قبل خلقهم، مما يحملهم على الإيمان، ويزجرهم عن الكفر والطغيان.

﴿فَقَالَ لَهَا﴾؛ أي: للسماء ﴿وَلِلْأَرْضِ﴾ التي قدر وجودها، ووجود ما فيها: ﴿ٱئْتِيَا﴾؛ أي: كُونا واحدُنا على وجه معين، وفي وقت مقدر لكل منكما، وهو عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقاً فعلياً، بطريق التمثيل، بعد تقدير أمرهما، من غير أن يكون هناك آمر ومأمور، كما في قوله: ﴿كُن﴾ بأن شبه تأثير قدرته فيهما، وتأثرهما عنها بأمر آمر نافذ الحكم يتوجه نحو المأمور المطيع، فيتمثل أمره، فعبر عن الحالة المشبهة بما يعبر به عن الحالة المشبهة بها.

ومعنى ﴿ٱئْتِيَا﴾[3]: افعلا ما آمركما به، وجيئا به، كما يقال: ائت ما هو

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

الأحسن؛ أي: افعله. قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله سبحانه قال: أما أنت يا سماء.. فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وأما أنت يا أرض.. فشقي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱئۡتِيَا﴾ أمراً من الإتيان، وقرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد: ﴿آتيا﴾ ﴿قالتا آتينا﴾ بالمد فيهما، وهو إما من المؤاتاة وهي الموافقة؛ أي: لتوافق كل منكما الأخرى، أو من الإيتاء وهو الإعطاء، فوزنه على الأول فاعلا كقاتلا، وعلى الثاني أفعلا كأكرما، وجمع الأمر لهما في الإخبار عنه لا يدل على جمعه في الزمان، بل يكون القول لهما متعاقباً.

وقوله: ﴿طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾: مصدران[1] واقعان في موقع الحال، والطوع الانقياد والاختيار والإرادة، ويضاده الكره؛ أي: كونا أو افعلا ما أمرتكما به حالة كونكما طائعتين منقادتين مختارتين أو كارهتين؛ أي: افعلا سواء شئتما ذلك أو أبيتما، وهو تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما، واستحالة امتناعهما من ذلك، لا إثبات الطوع والكره لهما، لأنهما من أوصاف العقلاء ذوي الإرادة والاختيار، والأرض والسماء من قبيل الجمادات العديمة الإرادة والاختيار.

وقرأ الأعمش: ﴿كرها﴾ بضم الكاف وهو بمعنى الفتح.

﴿قَالَتَآ﴾؛ أي: السماء والأرض ﴿أَتَيۡنَا﴾ وفعلنا أمرك حالة كوننا ﴿طَآئِعِينَ﴾؛ أي: منقادين وطائعين أمرك، وهو تمثيل لكمال تأثرهما بالذات عن القدرة الربانية، وحصولهما كما أمرتا به، وتصوير لكون وجودهما كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة، فإن الطوع منبىء عن ذلك، والكره موهم لخلافه.

فإن قلت: لِمَ قال[2]: ﴿طَآئِعِينَ﴾ على وزن جمع العقلاء الذكور، لا طائعتين حملاً على اللفظ أو طائعات حملاً على المعنى، لأنها سماوات وأرضون؟

قلت: جمعهما جمع العقلاء لخطابهما بما يخاطب به العقلاء، ونظيره: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ في قوله تعالى حكايةً عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾؛ أي: لما وصفتا بأوصاف العقلاء..

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

عوملتا معاملة العقلاء، وجمعتا لتعدد مدلولهما.

والمعنى(١): أي فقال لتلك العوالم السماوية، وللأرض التي دارت حولها: ائتيا كيف شئتما، طائعتين أو كارهتين، فأجابتا فقالتا: أتينا طائعين. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال الله تعالى للسموات: أطلعي شمسك وقمرك وكواكبك، وأجري رياحك وسحابك، وقال للأرض: شقي أنهارك، وأخرجي شجرك وثمارك، طائعتين أو كارهتين، قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

وفي هذا دلالة على الحركة المستمرة المعبّر عن سببها بالجاذبية، فهي حركة تجري جري طاعة، لا جري قسر، فإنا نشاهد أنا نرمي الحجر إلى أعلى قسراً، فيأبى إلا أن ينزل إلى الأرض بطريق الجاذبية إلى جسم أكبر منه وهي الأرض، وهكذا الأرض مجذوبة إلى الشمس التي هي أصلها بحركة دورية دائمة، طوعاً لا قسراً، لأن القسرية كرمي الحجر إلى أعلى سريعة الزوال، أما حركة الطاعة.. فهي دائمة ما دام المطيع متخلقاً بخلقه الذي هو فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ تفسير(٢) وتفصيل لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالأمر، وجوابه لا أنه فعل مرتب على تكوينها، والضمير لـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على المعنى، فإنه في معنى الجمع لتعدد مدلوله، فـ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ حال، أو هو؛ أي: الضمير مبهم يفسره ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ كضمير ربه رجلاً فـ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾: تمييز.

والمعنى: خلقهن وأحكمهن وفرغ منهن، حال كونهن سبع سموات، أو خلقهن من جهة كونهن سبع سموات، خلقاً إبداعياً؛ أي: على طريق الاختراع لا على مثال، وأتقن أمرهن بأن لا يكون فيهن خلل ونقصان، حسبما تقتضيه الحكمة، أو مفعول ثان لـ﴿قضاهن﴾ لتضمنه معنى التصيير؛ أي: صيرهن سبع سموات ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾؛ أي: في وقت مقدر بيومين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة، خلق السموات يوم الخميس، وما فيها من الشمس والقمر والنجوم في يوم الجمعة، وقد بين مقدار زمان خلق الأرض وخلق ما فيها عند بيان تقديرهما، فكان خلق الكل في ستة أيام حسبما نص عليه في مواضع من التنزيل.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى[1]: فأتم خلقهن خلقاً إبداعياً، وأتقن أمرهن في يومين سوى الأربعة الأيام التي خلق فيها الأرض، فوقع خلق السموات والأرض في ستة أيام، كما قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ على ما اقتضته الحكمة وحسن النظام.

وفي «فتح الرحمن»: إن قلت[2]: الكلام هنا يدل على أن السموات والأرض وما بينهما خلقت في ثمانية أيام، وهو مخالف لما ذكره في سورة الفرقان وغيرها، أنها خلقت في ستة أيام.

قلت: يوماً خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما، والمعنى في تتمة أربعة أيام، وهي مع يومي خلق السموات ستة أيام، يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجعل المذكور في الآية وما بعده، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات.

فإن قلت: السموات وما فيها أعظم من الأرض وما فيها بأضعاف، فما الحكمة في أنه تعالى خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام، والسموات وما فيها في يومين؟

قلت: لأن السموات وما فيها من عالم الغيب والملكوت والأمر، والأرض وما فيها من عالم الشهادة والملك والخلق، والأول أسرع من الثاني، أو أنه تعالى فعل ذلك في الثاني مع قدرته على فعله ذلك دفعةً واحدة؛ ليعرفنا أن الخلق على سبيل التدريج لنتأنى في أفعالنا، فخلق ذلك في أربعة أيام لمصالح وحكم اقتضت ذلك، ولهذا خلق العالم الأكبر في ستة أيام، والعالم الأصغر وهو الإنسان في ستة أشهر، وهي أقل مدة الحمل.

﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾: عطف على ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾؛ أي: وخلق في كل سماء منهن أمرها؛ أي: مخلوقها وسكانها، والإيحاء: عبارة: عن التكوين، والخلق مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت؛ أي: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها وما فيها من الملائكة والبحار والبرد والثلوج وغيرها، مما لا يعلمه إلا الله سبحانه. قاله قتادة والسدي؛ قال الراغب: يقال للإبداع: أمر، وقد

---

(١) المراغي. (٢) فتح الرحمن.

حمل على ذلك في هذه الآية. اهـ.

أو المعنى[1]: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ﴾؛ أي: ألقى إلى أهل كل سماء أوامره وكلفهم بما يليق بهم من التكاليف، فمنهم قيام لا يقعدون إلى قيام الساعة، ومنهم سجود لا يرفعون رؤوسهم أبداً إلى غير ذلك، والإيحاء حينئذ على معناه، ومطلق عن القيد المذكور، والآمر هو الله تعالى، والمأمور أهل كل سماء، وأضيف الأمر إلى نفس السماء؛ للملابسة، لأنه إذا كان مختصاً بالسماء.. فهو أيضاً بواسطة أهلها.

﴿وَزَيَّنَّا﴾ التفات إلى نون العظمة، لإبراز مزيد العناية بالأمر ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: القريبة إلى أهل الأرض ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾؛ أي: بكواكب تضيء في الليل كالمصابيح، فإنها ترى كلها متلألئة على السماء الدنيا، كأنها فيها، فالمراد بالمصابيح: جميع الكواكب النيرة التي خلقت في السموات من الثوابت والسيارات، وليس كلها في السماء الدنيا، وهي التي تدنو وتقرب من أهل الأرض، فإن كل واحد من السيارات السبع في فلك مستقل، والثوابت مركوزة في الفلك الثامن، المعبر عنه بالكرسي، إلا أن كونها مركوزة فيما فوق السماء الدنيا، لا ينافي كونها زينة لها، لأنَّا نرى جميع الكواكب كالسرج الموقدة فيها، وقيل: إن في كل سماء كواكب تضيء، وقيل: بل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا، وقوله: ﴿وَحِفْظًا﴾: مصدر مؤكد لفعل محذوف معطوف على ﴿زيّنّا﴾؛ أي[2]: وحفظنا السماء الدنيا من الآفات ومن المسترقة ﴿حفظاً﴾، وهي الشياطين الذين يصعدون السماء لاستراق السمع، فيرمون بشهب صادرة من نار الكواكب، منفصلة عنها، ولا يرجمون بالكواكب أنفسها، لأنها قارة في الفلك على حالها، وما ذلك إلا كقبس يؤخذ من النار، والنار باقية بحالها، لا ينتقص منها شيء، والشهاب: شعلة نار ساقطة.

وقيل المعنى[3]: أي وحفظنا تلك المصابيح حفظاً من الاضطراب في سيرها، ومن اصطدام بعضها ببعض، وجعلناها تسير على نهج واحد، ما دام هذا النظام باقياً حتى يأتي اليوم الموعود، فهناك تختل نظمها، كما قال سبحانه: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من خلق الأرض في يومين وما بعده إلى هنا ﴿تَقْدِيرُ﴾ وتدبير الإله القدير ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بحركات مخلوقاته وسكناتها، سرها ونجواها، ظاهرها وباطنها.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾: متصل بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ...﴾ إلخ؛ أي: فإن أعرض كفار قريش عن الإيمان بعد هذا البيان، وهو بيان خلق الأجرام العلوية والسفلية وما بينهما.. ﴿فَقُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾؛ أي: أنذركم وأخوفكم، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الإنذار المنبىء عن تحقق المنذر به؛ أي: أنذركم وأخوفكم ﴿صَٰعِقَةً﴾؛ أي: عذاباً هائلاً شديد الوقع، كأنه صاعقة؛ يعني أن الصاعقة في الأصل قطعة من النار، تنزل من المساء فتحرق ما أصابته، استعيرت هنا للعذاب الشديد، تشبيهاً له بها في الشدة والهول؛ أي: أنذركم عذاباً شديداً ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾؛ أي: مثل عذاب شديد نزل بعاد قوم هود وبثمود قوم صالح.

أي[1]: لم يبق في حقكم علاج إلا إنزال العذاب الذي نزل على من قبلكم من المعاندين المتمردين، المعرضين عن الله تعالى وطلبه وطلب رضاه، فهم سلف لكم في التكذيب والجحود والعناد، وقد سلكتم طريقهم، فتكونون كأمثالهم في الهلاك، قال مقاتل: كان عاد وثمود ابني عم، وموسى وقارون ابني عم، وإلياس واليسع ابني عم، وعيسى ويحيى ابني خالة.

وإنما خص[2] هاتين القبيلتين؛ لأن قريشاً كانوا يمرون على بلادهم في أسفارهم إلى الشام، فيرون آثارهم في الحجر.

وقرأ الجمهور: ﴿صَٰعِقَةً﴾ في الموضعين بالألف، وقرأ ابن الزبير والنخعي والسلمي وابن محيصن: ﴿صعقة﴾ بغير ألف في الموضعين، والصعقة: المرة من الصعق، أو الصعق، يقال: صعقته الصاعقة صعقاً؛ أي: أهلكته إهلاكاً فصعق صعقاً، والصاعقة: المهلكة من كل شيء، والظرف. في قوله: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾: متعلق بمحذوف حال من صاعقة عاد وثمود؛ أي: حال كون تلك الصاعقة نازلةً بهم وقت مجيء الرسل إليهم؛ أي: إلى عاد وثمود ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي[3]: من

---

(١) روح البيان. (٢) المراح. (٣) الخازن.

قبلهم، يعني الرسل الذي أرسلوا إلى آبائهم، فالضمير عائد إلى عاد وثمود ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: ومن بعد الرسل الذين أرسلوا إلى آبائهم، وهم الرسل الذين أرسلوا إليهم، وهما هود وصالح، والضمير عائد إلى الرسل.

قوله: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ﴾ الظاهر[1]: أنه من إطلاق الجمع على المثنى. . فإن الجائي إلى عاد هود، وإلى ثمود صالح ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ متعلق بـ﴿جَآءَتْهُمُ﴾؛ أي: جاءتهم من جميع جوانبهم، واجتهدوا بهم من كل جهة من جهات الإرشاد وطرق النصيحة، تارةً بالرفق، وتارةً بالعنف، وتارةً بالتشويق، وأخرى بالترهيب، فليس المراد الجهات الحسية والأماكن المحيطة بهم، أو من جهة الزمان الماضي بالإنذار عما جرى فيه على الكفار من الوقائع، ومن جهة الزمان المستقبل بالتحذير عما أعد لهم في الآخرة، ويحتمل أن يكون عبارة عن الكثرة كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ فيراد بالرسل ما يعم المتقدمين منهم والمتأخرين، أو ما يعم رسل الرسل أيضاً، وإلا فالجائي رسولان كما سبق، وليس في الاثنين كثرة؛ أي: إذ جاءتهم الرسل وخاطبوهم بـ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا﴾ أيها القوم ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: يأمرونهم بعبادة الله وحده، فـ﴿أنْ﴾: مصدرية ناصبة للفعل وصلت بالنهي، كما توصل بالأمر في مثل قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا﴾، ويجوز[2] أن تكون تفسيرية، أو مخففةً من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن محذوف.

ثم ذكر سبحانه ما أجابوا به على الرسل، فقال: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال قوم عاد وثمود استخفافاً برسلهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾؛ أي: إرسال الرسل، فإنه ليس هنا في أن تقدر المفعول مضمون جواب الشرط كثير معنى. . ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ أي: لأرسل الملائكة بدلكم، ولم يتخالجنا شك في أمرهم فآمنا بهم، لكن لما كان إرسالهم بطريق الإنزال. . قيل: لأنزل ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ على زعمكم، فهو ليس إقراراً منهم بالإرسال ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: كافرون بما تزعمونه من أن الله أرسلكم إلينا، لأنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا، فكيف اختصكم برسالته دوننا؟.

ومعنى الآية[3]: أي قل أيها الرسول لمشركي قومك، المكذبين لما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى. . فإني أنذركم بحلول

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

نقمته بكم، كما حلت بالأمم الماضية التي كذبت رسلها، كعاد وثمود ومن على شاكلتهما، ممن فعل فعلهما حين جاءتهم الرسل في القرى المجاورة لبلادكم، وأمروا أهلها بعبادة الله وحده، فكذبوهم واستكبروا عن إجابة دعوتهم، واعتذروا بشتى المعاذير، كما ذكر الله ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إلخ؛ أي: قالوا: إنا لا نصدق برسالتكم، فما أرسل الله بشراً، ولو أرسل رسلاً.. لأنزل ملائكة، وإذاً فلا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا، وقد تقدم في غير ما موضع دفع هذه الشبهة الداحضة التي جاؤوا بها، وقوله: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾: ليس إقراراً منكم بكونهم رسلاً بل ذكروه استهزاءً بهم، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

أخرج البيهقي في «الدلائل» وابن عساكر عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال أبو جهل والملأ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر فكلمه، ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت السحر، وعلمت من ذلك علماً، وما يخفى علي إن كان كذلك، فأتاه فقال: يا محمد، أنت خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطلب، أنت خير أم عبد الله، فلم يجبه ﷺ، قال: لم تشتم آلهتنا وتضللنا، إن كنت تريد الرياسة؟ عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تكن بك الباءة - الميل إلى قربان النساء -.. زوجناك عشر نسوة تختارهن أي بنات شئت من قريش، وإن كان المال مرادك.. جمعنا لك ما تستغني به، ورسول الله ساكت، فلما فرغ.. قال ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده الرحم، فرجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم.. قالوا: لا نرى عتبة إلا قد صبأ، فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً، ثم قال: والله لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا بسحر ولا كهانة، ولما بلغ: ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.. أمسكت بفيه وناشدته الرحم، ولقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً.. لا يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

وأخرج أبو نعيم والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عمر قال: لما قرأ النبي ﷺ

على عتبة بن ربيعة: ﴿حمٓ ۝١﴾ أتى أصحابه فقال: يا قوم، أطيعوني في هذا اليوم، واعصوني بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذني قط كلاماً مثله، وما دريت ما أرد عليه.

وقد ذكرنا هذا القصص قبل برواية أخرى، وهذه الرواية أتم من سابقتها، فأعدناها تكميلاً للفائدة، وفي هذا الباب روايات كثيرة تدل على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة، وتلاوته ﷺ أول هذه السورة عليه.

ولما بين سبحانه كفر قوم عاد وثمود إجمالاً، وبين معاذيرهما.. أردف ذلك بذكر ما لكل منهما من الجناية، وماحل به من العذاب، فقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ ولما[1] كان التفصيل مسبباً عن الإجمال السابق.. أدخل عليه ﴿الفاء﴾ السببية، هكذا ذكره صاحب «روح البيان» والأولى جعلها فصيحية كما سيأتي في مبحث الإعراب، والتقدير: إذا عرفت أن كلاً من القبيلتين كفروا برسلهم، فأخذتهم الصاعقة، وأردت بيان ما لكل منهما من الجريمة والعقوبة.. فأقول لك: أما عاد قوم هود ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: تكبروا عن الإيمان بالله وتصديق رسله، وتعظموا فيها على أهلها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بغير استحقاق ذلك الذي وقع منهم من التكبر والتعظم، بل ركنوا إلى قوة نفوسهم.

ثم ذكر سبحانه بعض ما صدر منهم من الأقوال الدالة على الاستكبار، فقال: ﴿وَقَالُوا۟﴾ اغتراراً بتلك القوة الموقوفة على عظم الأجسام: ﴿مَنْ﴾ للاستفهام الإنكاري؛ أي: لا أحد ﴿أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؛ أي: قدرةً وكان طول كل واحد منهم ثمانية عشر ذراعاً، وبلغ من قوتهم أن الرجل منهم كان يقتلع الصخرة من الجبل، ويجعلها حيث شاء، وكانوا يظنون أنهم يقدرون على دفع العذاب بفضل قوتهم، فخانتهم قواهم لما استمكن منهم بلواهم، وقد رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ و﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفلوا عن قدرة الله القاهرة، ولم يعلموا علماً جلياً شبيهاً بالمشاهدة والعيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ وخلق الأشياء كلها خصوصاً الأجرام العظيمة كالسموات والجبال ونحوها؟، وإنما[2] أورد

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

في حيز الصلة خلقهم دون خلق السموات والأرض؛ لادعائهم الشدة في القوة ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: قدرة، لأن قدرة الخالق لا بد وأن تكون أشد من قدرة المخلوق، إذ قدرة المخلوق مستفادة من قدرة الخالق، والقوة: عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف.

ولما كانت[1] صيغة التفضيل تستلزم اشتراك المفضل والمفضل عليه في الوصف الذي هو مبدأ اشتقاق أفعل، ولا اشتراك بينه تعالى وبين الإنسان في هذه القوة لكونه منزهاً عنها.. أريد بها القدرة مجازاً لكونها مسببة عن القوة بمعنى صلابة البنية ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على الرسل ﴿يَجْحَدُونَ﴾ والجحود: الإنكار مع العلم؛ أي: ينكرونها وهم يعرفون حقيقتها، كما يجحد المودع الوديعة وينكرها، وهو عطف على ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ وما بينهما اعتراض للرد على كلمتهم الشنعاء.

والمعنى: أنهم جمعوا بين الاستكبار وطلب العلوّ في الأرض، وهو فسق وخروج عن الطاعة بترك الإحسان إلى الخلق، وبين الجحود بالآيات وهو كفر وترك لتعظيم الحق، فكانوا فسقةً كفرةً، وهذان الوصفان لما كانا أصلي جميع الصفات الذميمة.. لا جرم سلّط الله عليهم العذاب، كما قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إلخ.

ومعنى الآية[2]: أي فأما عاد فبغوا وعصوا ربّهم، ولم يقبلوا كلام الرسول الذي جاء لهم، وقالوا: من أشد منا قوة حتى يستطيع قهرنا وإذلالنا؟ وقد كانوا قوماً طوال القامة، شديدي الأسر، فاغترّوا بأجسامهم حين تهدّدهم رسولهم بالعذاب، فردّ الله عليهم موبّخاً لهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ إلخ؛ أي: أما يفكّرون فيمن يبارزون بالعداوة، إنه العظيم الذي خلق الأشياء كلها، وركّب فيها قواها الحاملة لها، وأنّ بطشه لشديد، وأنه لقادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء، فيقول: كن فيكون، وكانوا يعرفون أنّ آياتنا التي أنزلناها على رسلنا حقّ لا مرية فيها، ولكنهم جحدوها وعصوا رسله، وقد يكون المعنى: إنهم جحدوا الأدلّة التكوينية التي نصبناها لهم، وجعلناها حجة عليهم، أو بجميع ذلك.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ثمّ ذكر سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على عاد ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ لتقلعهم من أصولهم؛ أي: ريحاً باردة تهلك وتحرق بشدّة بردها، كإحراق النار بحرّها من الصرّ وهو البرد الذي يصرّ أي: يجمع ويقبض؛ أي: ريحاً عاصفةً تصرصر؛ أي: تصوّت في هبوبها، قيل: إنها الدبور مقابل القبول؛ أي: الصبا التي تهبّ من مطلع الشمس، فيكون الدبور ما تهبّ من مغربها ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ جمع[1] نحسة من نحس على وزن علم؛ أي: في أيام منحوسات مشؤومات ليس فيها شيء من الخير، فنحوستها أن الله تعالى أدام تلك الرياح فيها على وتيرة وحالة واحدة بلا فتور، وأهلك القوم بها، لا كما يزعم المنجّمون من أنّ بعض الأيام قد يكون في حدّ ذاته نحساً، وبعضها سعداً، استدلالاً بهذه الآية، لأنّ أجزاء الزمان متساوية في حدّ ذاتها، ولا تمايز بينها إلا بحسب تمايز ما وقع فيها من الطاعات والمعاصي، فيوم الجمعة مثلاً سعد بالنسبة إلى المطيع، نحس بالنسبة إلى العاصي، وإن كان سعداً في حدّ نفسه، قال رجل عند الأصمعيّ: فسد الزمان، فقال الأصمعي:

إِنَّ ٱلْجَدِيْدَيْنِ فِيْ طُوْلِ ٱخْتِلَافِهِمَا لاَ يَفْسَدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ ٱلنَّاسُ

وقيل:

نَذُمُّ زَمَانَنَا وَٱلْعَيْبُ فِيْنَا وَلَوْ نَطَقَ ٱلزَّمَانُ إِذاً هَجَانَا

يعني: كانت[2] الريح من صبيحة الأربعاء لثمان بقين من شوال إلى غروب الأربعاء الآخر، وهو آخر الشهر، ويقال لها: أيام الحسوم، وسيأتي تفصيلها في سورة الحاقة إن شاء الله تعالى، وما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء، وقال الضحّاك: أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، ودامت الرياح عليهم من غير مطر، وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه -: إذا أراد الله بقوم خيراً.. أرسل عليهم المطر، وحبس عنهم كثرة الرياح، وإذا أراد بقوم شرًّا. حبس عنهم المطر، وسلّط عليهم كثرة الرياح، وقيل: معنى ﴿نَّحِسَاتٍ﴾: باردات، وقيل: متتابعات، وقيل: شداد، وقيل: ذوات غبار.

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وقرأ الحرميان[1] - نافع وابن كثير - وأبو عمرو والنخعي وعيسى والأعرج: ﴿نحسات﴾ بسكون الحاء، جمع نحس بسكون الحاء، فاحتمل أن يكون مصدراً وصف به، وتارةً يضاف إليه، واحتمل أن يكون مخفّفاً من فعل، وقرأ قتادة وأبو رجاء والجحدري وشيبة وأبو جعفر والأعمش وباقي السبعة: بكسر الحاء وهو القياس، واختار أبو حاتم القراءة الأولى لقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، واختار أبو عبيد القراءة الثانية.

والمعنى[2]: فأرسلنا عليهم ريحاً باردة تهلك بشدة بردها، وإذا هبّت.. سمع لها صوت قويّ لتكون عقوبة لهم من جنس ما اغترُّوا به أيام مشؤومات نكدات متتابعات، كما قال في آية أخرى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

ثم بين الغاية التي من أجلها نزل العذاب فقال: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾؛ أي: لكي نذيقهم بسبب ذلك الاستكبار عذاب الذل والهوان ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقرىء: ﴿لتذيقهم﴾ بالتاء، وقال الزمخشري: أسناداً للإذاقة إلى الريح، أو للأيام النحسات، وإضافة[3] العذاب إلى الخزي: من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة على طريق التوصيف بالمصدر للمبالغة؛ أي: العذاب الخزي؛ أي: الذليل المهان على أنّ الذليل المهان في الحقيقة أهل العذاب لا العذاب نفسه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لعذاب الآخرة ﴿أَخْزَىٰ﴾؛ أي: أذل وأزيد خزياً، وأشد إهانةً من عذاب الدنيا، وهو في الحقيقة أيضاً وصف للمعذّب، وقد وصف به العذاب على الإسناد المجازي لحصول الخزي بسببه ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ أي: لا يمنعون من العذاب النازل بهم، ولا يدفعه عنهم دافع، لأنهم لم ينصروا الله ودينه، وأما المؤمنون فإنهم وإن كانوا ضعفاء.. فقد نصرهم الله تعالى، لأنهم نصروا الله ودينه، فعجباً من القوة في جانب الضعف، وعجباً من الضعف في جانب القوة، وفي الحديث: «إنكم تنصرون بضعفائكم»؛ أي: الضعفاء الداعين لكم بالنصرة، وقال خالد بن برمك: اتقوا مجانيق الضعفاء؛ أي: دعواتهم.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

يقول الفقير[1]: إنما عذّبت بريح صرصر، لأنهم اغتروا بطول قاماتهم، وعظم أجسادهم، وزيادة قوّتهم، فظنّوا أنّ الجسم إذا كان في القوة والثقل بهذه المرتبة.. فهو يثبت في مكانه. ويستمسك، ولا يزيله عن مقرّه شيء من البلاء، فسلّط الله عليهم الريح، فصارت أجسامهم كريشة في الهواء.

وكان ﷺ يجثو على ركبتيه عند هبوب الرياح، ويقول: «اللهم اجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها لنا رياحاً»؛ أي: رحمةً «ولا تجعلها ريحاً»؛ أي: عذاباً، وأراد به أن أكثر ما ورد في القرآن من الريح بلفظ المفرد فهو عذاب، نحو: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ وإن جاء في الرحمة أيضاً نحو: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ وكل ما جاء بلفظ الجمع على الرياح فهو رحمة لا غير، ويقول ﷺ؛ أي: عند هبوب الرياح، وعند سماع الصوت والرعد والصواعق أيضاً: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك».

وبعد أن ذكر قصص عاد، أتبعه بقصص ثمود فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾؛ أي: قبيلة ثمود، فهو غير منصرف للعلمية والتأنيث، ومن نوّنه وصرفه جعله اسم رجل، وهو الجدّ الأعلى للقبيلة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بالرفع ومنع الصرف، وقرأ الأعمش وابن وثاب بالرفع والصرف، وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق وعاصم في رواية: بالنصب والصرف، وقرأ الحسن وابن هرمز وعاصم في رواية: بالنصب والمنع، فأما الرفع فعلى الابتداء، والجملة بعده: الخبر، وأما النصب. فعلى الاشتغال، وأما الصرف فعلى تفسير الاسم بالأب أو الحيّ، وأما المنع فعلى تأويله بالقبيلة، كما مرّ آنفاً.

﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾؛ أي: فدللناهم على الحق بنصب الآيات التكوينية، وبيّنا لهم طريق النجاة بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الآيات الشريفة، ورحمنا عليهم بالكلية، فإنها توجب على كل عاقل أن يؤمن بالله ويصدّق رسله، قال الفرّاء: معنى الآية: دللناهم على مذهب الخير والنجاة بإرسال الرسل. والمراد بالهداية، الدلالة على ما

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

يوصل إلى المطلوب، سواء ترتّب عليها الاهتداء أم لا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وليس المراد الدلالة المقيدة بكونها موصلة إلى البغية، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: اختاروا الضلالة من عمى البصيرة، وافتقادَها على الهداية، والكفر على الإيمان، والمعصيةَ على الطاعة.

وقيل[١]: إن ثمود في الابتداء آمنوا وصدّقوا، ثمّ ارتدُّوا وكذّبوا، فأجراهم مجرى إخوانهم في الاستئصال، فتكون الهداية حينئذ بمعنى الدلالة المقيدة، قال ابن عطاء: ألبسوا لباس الهداية ظاهراً وهم عواري، فيتحقق عليهم لباس الحقيقة، فاستحبُّوا العمى على الهدى، فردُّوا إلى الذي سبق لهم في الأزل.

والمعنى[٢]: أي وأما ثمود فبيّنا لهم الحقّ على لسان نبيهم صالح، ودللناهم على سبيل النجاة، بنصب الأدلة التكوينية، وإنزال الآيات التشريعيّة، فكذبوا واستحبوا العمى على الهدى، والكفر على الإيمان.

ثمّ ذكر جزاءَهم على ما اختاروه لأنفسهم، فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ﴾؛ أي: أهلكتهم ﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: نار من العذاب ﴿ٱلْهُونِ﴾؛ أي: نار نازلة من السماء هي من العذاب المهين؛ أي: نزلت صاعقة من السماء، فأهلكتهم وأحرقتهم، فيكون من إضافة النوع إلى الجنس بتقدير من؛ أي: من جنس العذاب المهين الذي بلغ في إفادة الهوان للمعذّب إلى حيث كان عين الهون وصِف به العذاب للمبالغة، كأنه عين الهوان. والهون: مصدر بمعنى الهوان والذلة، كما سيأتي.

وقرأ ابن مقسم: ﴿عذاب الهوان﴾ بفتح الهاء وألفٍ بعد الواو. و﴿الباء﴾ في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ للسببية؛ أي: بسبب الذي كانوا يكسبونه من اختيار الضلالة والكفر والمعصية، أو بسبب كسبهم.

يقول الفقير: أما حكمة الابتلاء بالصيحة.. فلعدم استماعهم الحق من لسان صالح عليه السلام، مع أن الاستحباب المذكور صفة الباطن، وبالصيحة تنشقُّ المرارة، فيفسد الداخل والخارج، وأما بالنار فلإحراقهم باطن ولد الناقة بعقر أمّه،

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

فابتلوا بالإحراق الظاهر، ألا ترى أنَّ يعقوب عليه السلام ذبح جدياً بين يدي أمه، فابتلي بفراق يوسف واحتراقه على ما قاله البعض؛ أي: فأرسلنا عليهم صيحةً ورجفةً وذلاً وهواناً بما كانوا يكسبون من الآثام بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسله ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله من تلك الصاعقة، وكانوا مئةً وعشرة أنفس ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الشرك، أو عقر الناقة.

أي: ونجينا صالحاً ومن آمن معه من المؤمنين من ذلك العذاب، فلم يمسسهم سوء، ولا نزل بهم مكروه بإيمانهم وتقواهم وصالح أعمالهم، والظرف في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللَّهِ﴾: متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك المعاندين لك، حال الكفار يوم يحشر ويجمع أعداء الله المذكورون، من عاد وثمود وهو يوم القيامة، لا الأعداء من الأولين والآخرين لما سيأتي من قوله تعالى: ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ والتعبير بالأعداء للذم والإيذان بعلة ما يحيق بهم من فنون العذاب، بمعنى أنهم يجمعون ﴿إِلَى النَّارِ﴾؛ أي: إلى موقف الحساب؛ إذ هناك تتحقق الشهادة الآتية لا بعد تمام السؤال والجواب وسوقهم إلى النار، والتعبير عنه بالنار إما للإيذان بأنها عاقبة حشرهم وأنهم على شرف دخولها، وإما لأنّ حسابهم يكون على شفيرها، وفي الآية إشارة إلى أنّ من لم يمتثل أوامر الله، ولم يجتنب عن نواهيه، ولم يتابع رسوله.. فهو عدو الله، وإن كان مؤمناً بالله، مقرًّا بوحدانيته، وأنّ وليّ الله من كان يؤمن بالله ورسله، ويمتثل أوامر الله بمتابعة الرسول، ويحشر الأولياء إلى الله وجنته، كما يحشر الأعداء إلى نار البعد وجحيمه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُحْشَرُ﴾ مبنياً للمفعول، و﴿أَعْدَآءُ﴾ رفعاً على النيابة، وقرأ زيد بن علي ونافع والأعرج وأهل المدينة: ﴿نحشر﴾ بالنون وضمّ الشين ﴿أعداء﴾ نصباً على المفعولية، وقرىء[2]: ﴿يحشر﴾ بالبناء للفاعل، ونصب ﴿أعداء﴾ وقرىء: بكسر الشين مع البناء للفاعل في الحالين ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يحبس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا، وهو كناية عن كثرة أهل النار، وفيه إشارة إلى أنّ في الوزع عقوبة لهم.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ غاية[1] لـ﴿يُحْشَرُ﴾ ولـ﴿يُوزَعُونَ﴾ و﴿ما﴾: مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور؛ يعني: أنّ وقت مجيئهم النار لا بدّ أن يكون وقت الشهادة عليهم؛ أي: حتى إذا حضروا النار جميعاً، وسئلوا عما أجرموا فأنكروا.. ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾؛ أي: آذانهم بما سمعت من المعاصي، لأنهم كانوا استعملوها في الدنيا في معاصي الله بغير اختيارها، فشهدت عليهم بما سمعت من شرّ، وأفرد السمع لكونه مصدراً في الأصل، ﴿و﴾ شهدت عليهم ﴿أبصارهم﴾ بما نظرت إلى حرام ﴿و﴾ شهدت عليهم ﴿جلودهم﴾؛ أي: ظواهر أبدانهم وبشراتها بما لامست محظوراً، والجلد: قشر البدن، وقيل: المراد بالجلود الجوارح والأعضاء، وقال السدّي وعبيد الله بن أبي جعفر والفرّاء: أراد بالجلود الفروج، والأول أولى ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، ويقال: تخبر كل جارحة بما صدر من أفاعيل صاحبها، لا أنّ كلاً منها تخبر بجناياتها المعهودة فقط، فالموصول عبارة عن جميع أعمالهم السيئة، وفنون كفرهم ومعاصيهم، وتلك الشهادة بأن ينطقها الله تعالى كما أنطق اللسان، إذ ليس نطقها بأغرب من نطق اللسان عقلاً، وكما أنطق الشجرة والشاة المشوية المسمومة، بأن يخلق فيها كلاماً، كما عند أهل السنة.

ووجه تخصيص الثلاثة من الحواس الخمس بالشهادة[2]، وهي السمع والبصر والجلد التي هي آلة اللمس دون غيرها، وهو الذوق والشمّ؛ لأنّ الذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه؛ لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان مماسةً لجرم الطعام، وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الحنك مماسةً لجرم المشموم، فكانا داخلين في جنس اللمس، وإذا عرفت وجه تخصيص الثلاثة بالذكر عرفت منه وجه تخصيص الجلود بالسؤال؛ لأنها قد اشتملت على ثلاث حواس، فكأن تأتي المعصية من جهتها أكثر، وأما على قول من فسّر الجلود بالفروج، فوجه تخصيصها بالسؤال: ظاهر، لأن ما يشهد به الفرج من الزنا أعظم قبحاً، وأجلب للخزي والعقوبة مما يشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة بواسطتهما.

ومعنى الآية[3]: أي واذكر يا محمد لقريش المعاندين لك، حال الكفار يوم القيامة، لعلهم يرتدعون ويزدجرون حين يساقون إلى النار، فيحبس أولهم على

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

آخرهم، ليتلاحقوا ويجتمعوا، حتى إذا وقفوا على النار.. شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجوارحهم بما كانوا يعملون في الدنيا من المعاصي، بعلامات متمايزة، تدلّ على الأخلاق المختلفة، لكل خلق منها علامة خاصة، نحن لا نعرف الآن كنهها، وربما كانت سوائل روحيةً، كل سائل يدل على خلق من الأخلاق، كما يكون في أنواع النبات والشجر روائح مختلفة، فالعلم والحلم والنشاط وحب الناس لها سوائل جميلة، والجهل والطيش والكسل وبغض الناس لها سوائل رديئة، وتلك السوائل تلازمهم، فتكون مشقيةً لهم، ومضايقةً أو مفرحةً لهم ومنعمةً، وهكذا الأجسام بعد الموت لا تشبه نفس نفساً أخرى في أوصافها، فهذه هي الشهادة التي تشهد بها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم، هكذا قيل في تفسير الشهادة، والراجح أنها بإنطاق الله إياها.

ثم ذكر سبحانه أنهم لاموا جوارحهم على أداء الشهادة التي تلزمهم الحجة، فحكى عنهم قولهم لها ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: الكفرة ﴿لِجُلُودِهِمْ﴾ توبيخاً لها: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؛ أي: وقالوا على جهة اللوم والمؤاخذة لجلودهم حين شهدوا عليهم: لم شهدتم علينا، وقد كانوا في الدنيا مساعدين لهم على المعاصي، فكيف يشهدون عليهم الآن. وقرأ زيد بن علي ﴿لم شهدتنّ﴾ بضمير المؤنثات.

وصيغة[1] جمع العقلاء في حطاب الجلود، وكذا في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ إلخ، لوقوعها في موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء، ولعلّ تخصيص الجلود لأنها بمرأى منهم، بخلاف غيرها، أو لأنّ الشهادة منها أعجب وأبعد، إذ ليس شأنها الإدراك بخلاف السمع والبصر.

﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: الجلود ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ناطق، وأقدرنا على بيان الواقع، فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا من القبائح وما كتمناها، وفي الآية إشارة إلى أن الأرواح والأجسام متساوية في قدرة الله تعالى، إن شاء.. جعل الأرواح بوصف الأجسام صُمًّا بُكْماً عُمياً فهم لا يعقلون، وإن شاء. جعل الأجسام بوصف الأرواح تنطق وتسمع وتبصر وتعقل.

---

(١) روح البيان.

أي[1]: قالت الجلود: إن الله جعل فينا من الدلالات الفعلية ما يقوم مقام النطق؛ بل ما هو أفصح منها، فشهدنا عليكم بما فعلتم من القبائح، وفي «صحيح مسلم»: عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فضحك فقال: «هل تدرون ممّ أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: ألم تجِرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أُجير على نفسي إلا شاهداً مني، قال: يقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله، قال: ثمّ يخلّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول بعداً لكن، وسحقاً. فعنكن كنت أناضل».

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ﴾؛ أي: والحال أنه سبحانه وتعالى خلقكم وأوجدكم أيها الكفرة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من العدم المحض ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تردون فإن من قدر على خلقكم وإنشائكم أولاً، وعلى إعادتكم ورجعكم؛ أي: ردّكم إلى جزائه ثانياً، لا يتعجّب من إنطاقه لجوارحكم، فهو لا يخالف ولا يمانع، وقد جعل فيكم دلائل واضحةً كخطوط اليد والإبهام والأصوات وألوان الوجوه وأشكالها، ولكن قليلاً من الناس من يفطن إلى ذلك، فمن قدر على خلقكم وإنشائكم ابتداءً.. قدر على إعادتكم ورجعكم إليه، ومن ثمّ قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: وإليه مصيركم بعد مماتكم، فيجازي كل نفس بما كسبت، لا معقّب لحكمه وهو سريع الحساب، قيل: هذا من تمام كلام الجلود، وقيل: مستأنف من كلام الله تعالى ﴿وَمَا كُنتُمْ﴾ أيها الكفرة ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ في الدنيا بنحو الحيطان عند الإقدام على الأفعال القبيحة مَخافة ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ في الآخرة، وقوله[2]: ﴿أَن يَشْهَدَ﴾ في موضع الجر على تقدير المضاف؛ أي: مخافة أن يشهد، أو في موضع النصب بإسقاط الخافض؛ أي: من أن يشهد لأنّ استتر لا يتعدّى بنفسه، و﴿لا﴾: في الموضعين زائدة لتأكيد النفي.

وهذه حكاية لما سيقال للأعداء يومئذ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع، تقريراً لجواب الجلود.

والمعنى: وما كنتم تستترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش، مخافة أن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

تشهد عليكم جوارحكم بذلك، لأنها كانت أجساماً صامتة غير ناطقة، ولم يكن في حسابكم ما استقبلكم، كما كنتم تستترون من الناس بالحيطان والحجب وظلمة الليل، مخافة الافتضاح عندهم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأساً، فضلاً عن شهادة الأعضاء، وفيه تنبيه على أنّ المؤمن ينبغي أن يتحقق أن لا يمرّ عليه حال إلا وعليه رقيب، وأن الله معه أينما كان. وفي الحديث: «أفضل إيمان المرء: أن يعلم أن الله معه حيث كان».

وقيل: هذا من كلام الجلود، وبختهم على ما كانوا يفعلون في الدنيا، فقالت لهم: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ إلخ؛ أي[1]: وما كنتم تستخفون حين تفعلون قبيح الأعمال، وترتكبون عظيم الفواحش بالحيطان والحجب، حذراً من شهادة الجوارح عليكم، بل كنتم تجاهرون بالكفر والمعاصي، وتجحدون البعث والجزاء، قال عبد الأعلى بن عبد الله الشاميّ فأحسن:

اَلْعُمْرُ يَنْقُصُ وَٱلذُّنُوبُ تَزِيْدُ ... وَتُقَالُ عَثْرَاتُ ٱلْفَتَىٰ فَيَزِيْدُ
هَلْ يَسْتَطِيْعُ جُحُوْدَ ذَنْبٍ وَاحِدٍ ... رَجُلٌ جَوَارِحُهُ عَلَيْهِ شُهُوْدُ
وَٱلْمَرْءُ يُسْأَلُ عَنْ سِنِيْهِ فَيَشْتَهِيْ ... تَقْلِيْلَهَا وَعَنِ ٱلْمَمَاتِ يَحِيْدُ

ولما كان[2] الإنسان لا يقدر على أن يستخفي من جوارحه عند مباشرة المعصية.. كان معنى الاستخفاء هنا ترك المعصية، وقيل: معنى الاستتار: الاتقاء؛ أي: ما كنتم تتقون في الدنيا، أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة، فتتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ عند استتاركم من الناس مع عدم استتاركم من أعضائكم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي فاجترأتم على فعلها، قيل: كان الكفار يقولون: إن الله لا يعلم ما في أنفسنا، ولكن يعلم ما نظهر دون ما نسرُّ.

والخلاصة: أنكم كنتم في الدنيا تستترون عن الناس خوف الفضيحة والعار حين ارتكاب الذنوب، وما ظننتم أنَّ أعضاءَكم وجسمكم الأثيريّ الذي هو على صورة الجسم الظاهريّ قد سطّرت فيه جميع أعمالكم، كأنه لوح محفوظ، فلذلك ما

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

كنتم تستترون عنها بترك الذنوب، وفي الآية إيماء إلى أنه لا ينبغي للمؤمن أن تمرّ عليه حال إلا وهو يفكر في أنّ الله رقيب عليه، كما قال أبو نوّاس:

إِذَا مَا خَلَوْتَ ٱلدَّهْرَ يَوْمَاً فَلاَ تَقُلْ   خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ: عَلَيَّ رَقِيْبُ

وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ يَغْفَلُ سَاعَةً   وَلاَ أَنَّ مَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ يَغِيْبُ

فائدة: وفي «فتح الرحمن» قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾ الآية، قاله[1] هنا بزيادة ﴿مَا﴾ بعد ﴿جاء﴾، وقال بحذفها في قوله في النمل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾، وفي الزمر: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ مرتين، وفي الزخرف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ لأنّ الكلام هنا في أعداء الله أبسط وآكد منه في البقية، فناسب ذكر ﴿مَا﴾ للتأكيد هنا دون البقية.

﴿وَذَٰلِكُمۡ﴾ الظن أيها الأعداء، وهو مبتدأ[2] خبره قوله: ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ﴾ وهو أنَّ الله لا يعلم كثيراً مما يعملون، وإلا فالله تعالى عالم بجميع الكليات والجزئيات، وهو خالق الأعمال وسائر الأعراض، والجواهر والمطلع على البواطن والسرائر، كما هو مطلع على الظواهر، والتغاير بين العنوانين أمر جليّ، لظهور أنَّ ظنَّ عدم علم الله غير الظن بالرب، فيصح أن يكون خبراً له ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ خبر آخر له؛ أي: أهلككم وطرحكم في النار ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾؛ أي: صرتم بسبب ذلك الظن السوء الذي أهلككم ﴿مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: من الكاملين في الخسران حيث ظننتم بالله ظنّ السوء، وسوء الظن بالله من أكبر الكبائر كحب الدنيا، وقيل[3]: إنّ ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾: في محل نصب على الحال المقدرة، وقيل: إن ﴿ظَنُّكُمُ﴾: بدل من ﴿ذلكم﴾ و﴿ٱلَّذِي ظَنَنتُم﴾: خبره و﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾: خبر آخر أو حال، وقيل: إن ﴿ظَنُّكُمُ﴾: خبر أول، والموصول وصلته خبر ثان، و﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾: خبر ثالث، والمعنى: أنّ ظنكم بأنّ الله لا يعلم كثيراً مما تعملون، أهلككم وطرحكم في النار، فصرتم من الكاملين في الخسران.

وحاصل معنى الآية[4]: أي وهذا الظن الفاسد الذي قد كان منكم في الدنيا،

---

(١) فتح الرحمن.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

وهو أنّ الله لا يعلم كثيراً من قبائح أعمالكم ومساويها، هو الذي أوقعكم في مواقع التلف والردى، فصرتم اليوم من الهالكين، إذ صرفتم ما منحتم من أسباب السعادة من القوّة العاقلة، والأعضاء الكاملة إلى الشقاء، فكفرتم نعم الخالق والرازق، وانهمكتم في الشهوات والمعاصي.

أخرج مسلم وأبو داود وابن ماجة وأحمد والطيالسي وعبد بن حميد وابن مردويه عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله تعالى، فإن قوماً قد أرداهم سوءُ ظنّهم بالله، فقال الله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾».

قال العلماء[1]: الظنّ قسمان:

١ـ حسن، وهو أن يظن بالله عز وجل الرحمة والفضل والإحسان، قال ﷺ حكاية عن الله عزّ وجل: «أنا عند ظنّ عبدي بِي».

٢ـ قبيح، وهو أن يظن أن الله يعزب عن علمه بعض الأعمال، وقال قتادة: الظن نوعان: منجٍ ومردٍ.

فالمنجي: قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾.

والمردي: هو قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾

وقال عمر بن الحطاب ـ رضي الله عنه ـ في هذه الآية: هؤلاء قوم كانوا يدمنون على المعاصي، ولا يتوبون منها، ولا يتكلمون على المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس، ثمّ قرأ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ الآية، وقال الحسن البصري: إن قوماً ألهتهم الأماني، حتى خرجوا من الدنيا ومالهم حسنة، ويقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي وقد كذب، ولو أحسن الظن.. لأحسن العمل، وتلا قول الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ الآية.

ثمّ أخبر عن حالهم فقال: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا﴾ في النار على العذاب، وأمسكوا عن الاستغاثة والجزع مما هم فيه، انتظاراً للفرج، زاعمين أنّ الصبر مفتاح الفرج

(١) المراغي.

﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾؛ أي: محل ثواءٍ وإقامة أبّدت لهم بحيث لا خلاص لهم منها، فلا ينفعهم صبرهم.

وقيل المعنى[1]: فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار.. فالنار مثوىً لهم. والالتفات[2] فيه عن الخطاب إلى الغيبة؛ للإشعار بإبعادهم عن حيّز الخطاب، والإبقاء في غاية دركات النار ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾؛ أي: يسألوا العتبى، وهو الرجوع إلى ما يُحبّونه جزعاً مما هم فيه.. ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾؛ أي: من المجابين إلى العتبى لأنهم لا يستحقون ذلك، فيكون صبرهم وجزعهم سواءً في أنّ شيئاً منهما لا يؤدّي إلى الخلاص، ونظيره قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: وإن يبدوا معاذير.. فلن تقبل منهم، ولا تقال لهم العثرات.

والمعنى[3]: وإن يطلبوا الرضى.. لم يقع الرضى عنهم، بل لا بدّ لهم من النار.

وقرأ الجمهور: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ بفتح التحتية وكسر الفوقية الثانية مبنياً للفاعل، وقرؤُوا: ﴿مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ بفتح الفوقية اسم مفعول، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري وأبو العالية: ﴿وإن يُستعتبوا﴾ بضم التحتية مبنياً للمفعول ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتِبِينَ﴾ اسم فاعل؛ أي: وإن طلب منهم أن يرضوا ربهم.. فما هم بفاعلين، ولا يكون ذلك منهم، لأنهم فارقوا الدنيا دار الأعمال، كما قال ﷺ: «ليس بعد الموت مستعتب» وقال أبو ذؤيب:

أَمِنَ ٱلْمَنُونِ وَرَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ ... وَٱلدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

وقيل المعنى: أنهم إن أقالهم الله، وردّهم إلى الدنيا.. لم يعملوا بطاعته كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾. وبعدما ختمت تفسير هذه الآية في اليوم السادس والعشرين من رمضان.. نمت وقت الضحوة قبيل الظهر، ورأيت النبي ﷺ في تلك النومة، كأني من مقدمة جيشه من فرسانهم، وأردت إدراك واحد من العدو شرد منا، وأجريت فرسي وراءَهُ، والنبي ﷺ يجري فرسه معي، وقربت

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

عمامتي إلى السقوط من رأسي لذلك الجري، فأصلحها لي النبي ﷺ على رأسي، فالحمد لله والشكر له على هذه البشارة العظيمة.

الإعراب

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذه السورة حم؛ أي: مُسمّاة بحم، أو مبتدأ خبره: محذوف؛ أي: سورة حم هذا محلها، أو مفعول به لفعل محذوف؛ أي: اقرأ حم، والجملة على كل التقادير: مستأنفة، ويجري فيه من أوجه الإعراب ما يجري في أسماء التراجم إن قلنا: إنها اسم للسورة، وإن قلنا: إنها رمز أو مما استؤثر الله سبحانه بعلمه.. فلا محل لها من الإعراب، لأنّ الإعراب فرع عن إدراك المعنى. ﴿تَنزِيلٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا القرآن منزّل من الرحمن الرحيم، و﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: متعلق بـ﴿تَنزِيلٌ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ صفة لـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وأجاز الزجاج أن يكون ﴿تَنزِيلٌ﴾: مبتدأ، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ الآتي: خبره وسوّغ الابتداء بـ﴿تَنزِيلٌ﴾: تخصُّصه بالصفة، وعليه درج الجلال وشرّاحه، وما ذكرناه أولاً أولى. ﴿كِتَٰبٌ﴾: بدل من ﴿تَنزِيلٌ﴾ أو خبر بعد خبر ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾: فعل مغيّر ونائب فاعله، والجملة الفعلية: في محل الرفع صفة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿قُرۡءَانًا﴾: حال مقصودة من ﴿كِتَٰبٌ﴾ لتخصصه بالصفة و﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة له أو حال منه أو حال أخرى من ﴿كِتَٰبٌ﴾ أو هو حال موطئة و﴿عَرَبِيًّا﴾: هي الحال المقصودة، ذكره في «الفتوحات». ﴿لِّقَوۡمٍ﴾ متعلق بـ﴿فُصِّلَتۡ﴾ وجملة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ صفة ﴿لِّقَوۡمٍ﴾. ﴿بَشِيرًا﴾ إما صفة ثانية لـ﴿قُرۡءَانًا﴾ أو حال ثانية من ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿وَنَذِيرًا﴾: معطوف على ﴿بَشِيرًا﴾، ﴿فَأَعۡرَضَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أعرض أكثرهم﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿فُصِّلَتۡ﴾: على كونها صفة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾ والرابط: محذوف، تقديره: فأعرض عنه أكثرهم ﴿فَهُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أعرض﴾.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ

فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة أو معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَعۡرَضَ﴾. ﴿قُلُوبُنَا﴾: مبتدأ، ﴿فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿أَكِنَّةٖ﴾؛ أي: في أكنة تمنعنا مما تدعونا إليه، وقال أبو البقاء: هو محمول على المعنى، إذ معنى ﴿فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾: أنها مَحْجُوبة عن سماع ما تدعونا إليه ﴿تَدۡعُونَآ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد ومفعول به، والجملة: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة ﴿إِلَيۡهِ﴾: متعلق بـ﴿تَدۡعُونَآ﴾ وهو العائد على ﴿ما﴾ الموصولة ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا﴾: خبر مقدم. ﴿وَقۡرٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿قُلُوبُنَا﴾، ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من بَيۡنِنَا﴾: خبر مقدم ﴿وَبَيۡنِكَ﴾: معطوف عليه ﴿حِجَابٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على جملة ﴿قُلُوبُنَا﴾. ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قلنا لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فنقول ﴿اعمل...﴾: إلخ. ﴿اعمل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿إِنَّنَا﴾: ناصب واسمه. ﴿عَٰمِلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مسوقة لتعليل الأمر قبلها؛ أي: فاستمرّ على دعوتك، فإننا مستمرون على ديننا، وهو الإشراك.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة، ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر؛ أو ﴿إِنَّمَآ﴾: مكفوفة وكافة. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿بَشَرٞ﴾: خبر ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾: صفة لـ﴿بَشَرٞ﴾ والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لـ﴿قُلۡ﴾، ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿إِلَيَّ﴾: متعلق بـ﴿يُوحَىٰٓ﴾، ﴿أَنَّمَآ﴾ مكفوفة وكافة. ﴿إِلَٰهُكُمۡ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَٰهٞ﴾: خبر. ﴿وَٰحِدٞ﴾: صفة لـ﴿إِلَٰهٞ﴾، والجملة الاسمية: صلة لـ﴿أن﴾ المكفوفة، و﴿أن﴾ المكفوفة مع صلتها: في تأويل مصدر مرفوع على كونه نائب فاعل لـ﴿يُوحَىٰٓ﴾ والتقدير: يوحى إليّ كون إلهكم إلهاً واحداً، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾ أو في محل الرفع خبر ثان لـ﴿أَنَا۠﴾.

﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنه يوحى إلي التوحيد، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿استقيموا إليه﴾. ﴿استقيموا﴾: فعل أمر وفاعل، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة. مستأنفة. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿استقيموا﴾، ﴿وَوَيْلٌ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ويل﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة: قصد الدعاء ﴿لِّلْمُشْرِكِينَ﴾: خبر، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة ﴿لِّلْمُشْرِكِينَ﴾، وجملة ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ﴿وَهُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿هُم﴾: مبتدأ. ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾. ﴿هُمْ﴾ الثانية تأكيد للأولى، ﴿كَٰفِرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا يُؤْتُونَ﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿أَجْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: صفة ﴿أجر﴾، والجملة الاسمية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة أو في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿أَئِنَّكُمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري المضمن للتوبيخ. ﴿إنكم﴾: ناصب واسمه. ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿تكفرون﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱلَّذِى﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة الموصول، ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾: متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾. ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على

﴿تكفرون﴾. ﴿لَهُۥٓ﴾: متعلق بـ﴿تجعلون﴾ على أنه مفعول ثان له. ﴿أَندَادًاۚ﴾: مفعول أول له، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب مقول لـ﴿قُلۡ﴾.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلَ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿خَلَقَ﴾ وما بينهما اعتراض. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جعل﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿رَوَٰسِيَ﴾: مفعول أول لـ﴿جعل﴾ ولم ينون لأنه على زنة مفاعل، ولك أن تعلق الجار والمجرور بـ﴿جعل﴾ على أنه بمعنى خلق، و﴿رَوَٰسِيَ﴾: مفعول به لـ﴿جعل﴾ لأنه يتعدى إلى مفعول واحد. ﴿مِن فَوۡقِهَا﴾ صفة لـ﴿رَوَٰسِيَ﴾ وما أجمل وقع هذا النعت؛ لئلا يتوهم أنها من تحتها، فتكون ممسكة لها ومانعة من الميدان. ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾: معطوف على ﴿جعل فيها﴾. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ﴾: معطوف على ﴿جعل﴾ أيضاً. ﴿أَقۡوَٰتَهَا﴾: مفعول به لـ﴿قدر﴾. ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾: متعلق بـ﴿قدر﴾ ﴿سَوَآءٗ﴾: بالنصب منصوب على المصدرية بفعل محذوف وجوباً؛ أي: استوت الأيام الأربعة استواءً لا تزيد ولا تنقص، أو حال من ﴿أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ لتخصصه بالإضافة؛ أي: حال كونها مستوية كاملة تامةً بلا زيادة ولا نقصان، كما مر بسطه في مبحث التفسير، وقرىء: بالرفع، على أنه خبر لمبتدأ محذوف هي؛ أي: تلك الأيام الأربعة مستوية تامة، وبالجر على أنه صفة لـ﴿أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾؛ أي: في أربعة أيام مستوية تامة كاملة. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾: متعلق بـ﴿قدر﴾؛ أي: قدر فيها أقواتها للسائلين؛ أي: لأجل الطالبين للأقوات، المحتاجين إليها من المقتاتين بها، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا الحصر في الأربعة كائن للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها، وجواب لسؤالهم في كم مدة خلقت الأرض وما فيها، كما مر بسطه أيضاً فراجعه.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب للترتيب الذكري لا الزماني، ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾: فعل ماض وفاعل يعود على الله، والجملة: معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾، ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾:

متعلق بـ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾. ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب حال من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿فَقَالَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قال﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾، ﴿لَهَا﴾: متعلق بـ﴿قال﴾. ﴿وَلِلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿لَهَا﴾، ﴿ٱئْتِيَا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والألف: فاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: مصدران في موضع الحال من فاعل ﴿ٱئْتِيَا﴾؛ أي: حالة كونكما طائعتين أو كارهتين، ﴿قَالَتَآ﴾: فعل وفاعل. التاء علامة تأنيث الفاعل. والجملة مستأنفة ﴿أَتَيْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿طَآئِعِينَ﴾: حال من فاعل: ﴿أَتَيْنَا﴾، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَتَآ﴾.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قضاهن﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول أول. ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾: مفعول ثان؛ لأن ﴿قضى﴾ هنا: بمعنى صير، ويجوز أن يكون ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾: حالاً من مفعول ﴿قضاهن﴾ إذا كان ﴿قضى﴾ بمعنى صنع؛ أي: صنعهن حالة كونهن معدودة بالسبع، ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير، والجملة الفعلية: معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾: متعلق بـ﴿قضى﴾. ﴿وَأَوْحَىٰ﴾ فعل ماض والفاعل مستتر يعود على الله. ﴿فِي كُلِّ سَمَآءٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلقان بـ﴿أوحىٰ﴾. ﴿أَمْرَهَاۚ﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَزَيَّنَّا﴾: فعل وفاعل ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة للسماء، ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: متعلق بـ﴿زيّنّا﴾ وهو غير منصرف؛ لكونه على زنة مفاعيل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿قضاهن﴾. ﴿وَحِفْظًاۚ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿حفظاً﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: وحفظناها حفظاً من استراق الشياطين السمع بالشهب، والجملة المحذوفة: معطوفة على جملة ﴿زيّنّا﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، والإشارة إلى ما ذكر كله بتفاصيله، وأفرد الكاف لأنه ليس المراد تعين المخاطبين. ﴿تَقْدِيرُ﴾: خبر المبتدأ. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ والجملة الاسمية: مستأنفة.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾:.

﴿فَإِنْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر،

تقديره: إذا قلت لهم ما ذكر من دلائل التوحيد، ولم يقبلوا التوحيد، وأردت بيان ما تقول لهم في حالة إعراضهم.. فأقول لك: إن أعرضوا ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿أَعْرَضُوا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَقُلْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿صَٰعِقَةً﴾: مفعول ثان. ﴿مِّثْلَ﴾: صفة لـ﴿صَٰعِقَةً﴾. ﴿صَاعِقَةِ﴾: مضاف إليه، وهو مضاف ﴿عَادٍ﴾: مضاف إليه. ﴿وَثَمُودَ﴾: معطوف على ﴿عَادٍ﴾، ولم يصرف للعلمية والتأنيث المعنوي، كما مر في مبحث التفسير، وجملة ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان. ﴿جَآءَتْهُمُ﴾: فعل ومفعول به، و﴿التاء﴾: تاء التأنيث. ﴿ٱلرُّسُلُ﴾: فاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، والظرف: متعلق بمحذوف حال من ﴿صَٰعِقَةِ عَادٍ﴾، والتقدير: حالة كونها نازلةً بهم وقت مجيء الرسل إياهم. ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جَآءَتْهُمُ﴾ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ معطوف على ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، وجعل بعضهم الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلرُّسُلُ﴾؛ أي: حال كون الرسل كائنين من بين أيدي عاد وثمود ومن خلفهم. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾: يجوز في ﴿أن﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون مخففةً من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن. ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَعْبُدُوٓا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، والتقدير: إذ جاءتهم الرسل بعدم عبادتهم إلا الله، والجار والمجرور: متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلرُّسُلُ﴾؛ أي: حالة كونهم قائلين: بأن لا تعبدوا إلا الله.

والوجه الثاني: أن تكون مصدرية تنصب الفعل المضارع. و﴿لا﴾: نافية؛ ﴿لأن﴾ ﴿لا﴾ النافية لا تمنع عمل العامل فيما بعدها.

والوجه الثالث: أن تكون مفسرةً؛ لأن مجيء الرسل يحتمل القول، وتكون الجملة: لا محل لها من الإعراب. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل. والجملة: مستأنفة. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿شَآءَ رَبُّنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَأَنزَلَ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية. ﴿أنزل﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الرب. ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾: مفعول به، والجملة: جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿فَإِنَّا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلنا لكم، وأردتم بيان حالنا.. فنقول لكم: إنا بما أرسلتم... إلخ، ﴿إنا﴾: ناصب واسمه، ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾. ﴿أُرْسِلْتُم﴾: فعل مغير ونائب فاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أُرْسِلْتُم﴾ والجملة: صلة الموصول. ﴿كَٰفِرُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت قصة عاد وثمود إجمالاً، وأردت بيان قصتها تفصيلاً.. فأقول لك: ﴿أما عاد﴾ ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل. ﴿عَادٌ﴾: مبتدأ، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾، واقعة في غير موضعها؛ لأن موضعها موضع ﴿أما﴾، ﴿استكبروا﴾: فعل ماض وفاعل، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: حال من فاعل ﴿استكبروا﴾؛ أي: غير محقين في استكبارهم، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: جواب ﴿أما﴾ الشرطية؛ وجملة ﴿أما﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة؛ وجملة إذا المقدرة: مستأنفة، ﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿استكبروا﴾. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿مِنَّا﴾: متعلق بـ﴿أَشَدُّ﴾. ﴿قُوَّةً﴾: تمييز محول عن المتبدأ، منصوب باسم التفضيل.

﴿أَوَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف يقتضيه السياق، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفلوا وضلوا ولم يروا، والجملة المحذوفة: جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَرَوْا﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾ والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿الَّذِى﴾: صفة للجلالة. ﴿خَلَقَهُمْ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة: صلة ﴿الَّذِى﴾. ﴿هُوَ﴾ مبتدأ. ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَشَدُّ﴾، ﴿قُوَّةً﴾: منصوب على التمييز، وجملة المبتدأ: في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿يَرَوْا﴾؛ لأنها علمية تتعدى إلى مفعولين. ﴿وَكَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿يَجْحَدُونَ﴾ وجملة ﴿يَجْحَدُونَ﴾ خبر ﴿كَانُوا﴾ وجملة ﴿كَانُوا﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ وجملة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ مع المعطوفة عليها المقدرة معترضة.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أرسلنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَانُوا﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿أرسلنا﴾. ﴿رِيحًا﴾: مفعول به، ﴿صَرْصَرًا﴾: صفة لـ﴿رِيحًا﴾. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ﴾: صفة ثانية لـ﴿رِيحًا﴾ أو حال منها. ﴿نَّحِسَاتٍ﴾: صفة لـ﴿أَيَّامٍ﴾، ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿نذيقهم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أول منصوب بأن مضمرة. ﴿عَذَابَ الْخِزْىِ﴾: مفعول ثان. ﴿فِى الْحَيَوٰةِ﴾ متعلق بـ نذيق. ﴿الدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿الْحَيَوٰةِ﴾ وجملة ﴿نذيقهم﴾: صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾ والجار والمجرور: متعلق بـ﴿أرسلنا﴾؛ أي: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ لإذاقتنا إياهم ﴿عَذَابَ الْخِزْىِ﴾. ﴿وَلَعَذَابُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿عذاب الآخرة﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿أَخْزَىٰ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾: خبره، والجملة: معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا

كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أما﴾: حرف شرط. ﴿ثَمُودُ﴾: مبتدأ. ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾، ﴿هديناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: جواب ﴿أما﴾: لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾. ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿استحبوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿هديناهم﴾: ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾: مفعول به. ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: متعلق بـ﴿استحبوا﴾؛ لأنه متضمن معنى آثروا ﴿فَأَخَذَتْهُمْ﴾. ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أخذتهم﴾: فعل ومفعول به. ﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾: فاعل. ﴿ٱلْهُونِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ والجملة الفعلية: معطوفة على جملة ﴿استحبوا﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أخذتهم﴾ ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أخذتهم﴾، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَكَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانُواْ﴾: معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة ويوم يحشر أعداء الله والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ﴿يُحْشَرُ﴾ والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة: ﴿يُوزَعُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿يُحْشَرُ﴾. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان في محل النصب على الظرفية. ﴿مَا﴾ زائدة زيدت لتأكيد معنىٰ الظرفية. ﴿جَآءُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب الآتي. ﴿شَهِدَ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿سَمْعُهُمْ﴾: فاعل. ﴿وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾: معطوفان على ﴿سَمْعُهُمْ﴾ والجملة الفعلية: جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إذا﴾:

في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰ﴾ والجار والمجرور: متعلق بـ﴿يُوزَعُونَ﴾ والتقدير: فهم يوزعون إلى شهادة سمعهم وأبصارهم عليهم وقت مجيئهم النار، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَهِدَ﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانُوا﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿شَهِدَ﴾، ﴿لِجُلُودِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿قالوا﴾ ﴿لِمَ﴾ (اللام): حرف جر، (مَ): اسم استفهام للاستفهام التوبيخي التعجبي، في محل الجر بـ﴿اللام﴾ مبني بسكون على الألف المحذوفة؛ فرقاً بينها وبين ﴿ما﴾ الموصولة. الجار والمجرور: متعلق بـ﴿شَهِدتُّمْ﴾، و﴿شَهِدتُّمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق بـ﴿شَهِدتُّمْ﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿أَنطَقَنَا﴾: فعل ومفعول. ﴿اللَّهُ﴾: فاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿الَّذِي﴾: صفة للجلالة. ﴿أَنطَقَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر. ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: مفعول به، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿هو﴾ مبتدأ ﴿خَلَقَكُمْ﴾: فعل ماض ومفعول به، وفاعله: ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿أنطق﴾، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: ظرف متعلق بـ﴿خَلَقَكُمْ﴾. ﴿وَإِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾. ﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿خَلَقَكُمْ﴾.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية. ﴿ما﴾: نافية، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾: معطوفة على جملة ﴿أَنطَقَنَا﴾: إن كان من كلام الجلود، أو مستأنفة إن كان من كلام الله تعالى، ﴿أن﴾: حرف مصدر. ﴿يَشْهَدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، ﴿سَمْعُكُمْ﴾: فاعل. ﴿وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾: معطوفان على ﴿سَمْعُكُمْ﴾،

و﴿لا﴾: في الموضعين: زائدة لتأكيد نفي ما قبلها، وجملة ﴿يَشْهَدَ﴾ مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: وما كنتم تستترون من شهادة سمعكم إلخ. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿ظَنَنتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾. ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿يَعْلَمُ كَثِيرًا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿مِّمَّا﴾: صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾ وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿ظَنَنتُمْ﴾؛ أي: ولكن ظننتم عدم علم الله سبحانه كثيراً مما تعملون.

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤)﴾.

﴿وَذَٰلِكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ذلكم﴾: مبتدأ. ﴿ظَنُّكُمُ﴾: خبره، والجملة: معطوفة على جملة الاستدراك. ﴿الَّذِي﴾: صفة لـ﴿ظَنُّكُمُ﴾ أو بدل منها. ﴿ظَنَنتُم﴾: فعل وفاعل، وهو بمعنى الاعتقاد يتعدى إلى مفعول واحد، وذلك المفعول محذوف، تقديره: ظننتموه، وهو العائد على الموصول. ﴿بِرَبِّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿ظَنَنتُم﴾ وجملة ﴿ظَنَنتُم﴾: صلة الموصول. ﴿أَرْدَاكُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الظن ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ثان لاسم الإشارة، أو حال من ﴿ظَنُّكُمُ﴾، ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أصبحتم﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿أصبح﴾: معطوفة على جملة ﴿أَرْدَاكُمْ﴾، ﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَصْبِرُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿فَالنَّارُ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿النار﴾: مبتدأ. ﴿مَثْوًى﴾: خبر. ﴿لَّهُمْ﴾: صفة لـ﴿مَثْوًى﴾ والجملة الاسمية: في محل الجزم ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿يَسْتَعْتِبُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿ما﴾ النافية. ﴿ما﴾: حجازية: أو تميمية. ﴿هُم﴾: اسمها، أو مبتدأ. ﴿مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾: خبرها، أو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها،

وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: ميزت آياته لفظاً باعتبار فواصل الآيات ومقاطعها ومبادىء السور، ومعنىً بكونها وعداً ووعيداً وقصصاً وأحكاماً، وخبراً وإنشاءً كما في «الشهاب». ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: لا يقبلون ولا يطيعون، من قولهم: تشفّعت إلى فلان فلم يسمع قولي؛ أي: لم يقبله ولم يعمل به، فكأنه لم يسمعه. ﴿فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ جمع كنان، كأغطية جمع غطاء، وهي خريطة السهام، والمراد: أنها في أغطية متكاثفة، والكنان في الأصل: الغطاء الذي يكنّ فيه الشيء؛ أي: يحفظ ويستر، وأصل أكنة: أكننة بوزن أفعلة، نقلت حركة النون الأولى إلى الكاف فسكّنت فأدغمت في النون الثانية، فصار أكنة بوزن أفلة. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ قال في «القاموس»: الوقر: ثقل في الأذن، أو ذهاب السمع بالكلية، فهو بمعنى الصمم.

﴿فَٱعْمَلْ﴾؛ أي: فاستمر على دينك الذي هو التوحيد. ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾؛ أي: مستمرون على ديننا الذي هو الإشراك. ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أصله: يوحى بضم الياء، فيقال: تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فصار يوحى بالألف في آخره، ولكن كتبت بصورة الياء إشارةً إلى أن أصله ياء. ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة، وفيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: فاستقوموا، نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت إثر كسرة فقلبت ياءً حرف مدّ، مأخوذ من الاستقامة، والاستقامة: الاستمرار على جهة واحدة ولزومها، بحيث لا يلتفت عنها إلى غيرها. ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: هلاك لهم جملة خبرية اللفظ، إنشائية المعنى، قصد بها الدعاء. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع من قولهم: مَنَنْتُ الحبل: إذا قطعته، ومنه قول ذي الإصبع:

إِنِّـيْ لَـعَـمْـرُكَ مَـا بَـابِـيْ بِـذِيْ غَـلَـقٍ عَـلَىٰ ٱلصَّـدِيْـقِ وَلاَ خَـيْـرِيْ بِـمَـمْـنُـوْنِ

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت لا تتحرّك ولا تميل، جمع راسيةٍ، من رسا الشيء يرسو رسوًّا: نظير سما يسمو سمواً إذا ثبت، وأرساه: غيره إذا أثبته، ومنه المرساة وهو أنجر السفينة إذا وقفت على الأنجر، وفي ﴿رَوَٰسِىَ﴾: إعلال بالقلب، أصله: رواسو من الرسو، قلبت الواو ياءً لتطرفها إثر كسرة. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ

﴿أَقْوَٰتَهَا﴾ جمع قوت، والقوت من الرزق: ما يمسك الرمق، ويقوم به بدن الإنسان، يقال: قاته يقوته: إذا أطعمه قوته، والمقيت المقتدر الذي يعطي كل أحد قوته، ومن بلاغات الزمخشري:

إِذَا حَصَّلْتُكَ يَا قُوْتُ   هَانَ عَلَيَّ ٱلدُّرُّ وَٱلْيَاقُوتُ

﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ جمع يوم، أصله: أيوام بوزن أفعال، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما ساكنةً فقلبت الواو ياءً وأدغمت فيها الياء. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ والاستواء: ضدّ الاعوجاج، من قولهم: استوى العود: إذا اعتدل واستقام، وحمل في هذا المقام على معنى القصد والتوجه، يقال: استوى إلى مكانه، كذا كالسهم المرسل إذا توجه إليه توجهاً مستوياً من غير أن يلوي على غيره، والمعنى: وجّه سبحانه قصده وإرادته إلى خلق السماء. ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾؛ أي: كالدخان، وفي «المفردات»: الدخان: العثان المستصحب للهب، والبخار: أجزاء مائية رطبة ترتفع في الهواء مع الشعاعات الراجعة من سطوح المياه، قال الراغب: قوله تعالى: ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾؛ أي: هي مثل الدخان، إشارة إلى أنها لا تماسك بها. انتهى.

وعبارة «السمين»: قوله: ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ الدخان: ما ارتفع من لهب النار، ويستعار لما يرى من بخار الأرض عند جدبها، وقياس جمعه في القلة: أدخنة، وفي الكثرة دخيان، مثل: غراب وأغربة وغربان، وقوله: ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ من باب التشبيه الصوريّ؛ لأنَّ صورتها صورة الدخان في رأي العين. اهـ، وقال بعضهم: وهي دخان؛ أي: دخان مرتفع من الماء، يعني السماء بخار الماء كهيئة الدخان. انتهى. ﴿قَالَتَآ﴾ الأصل في تاء التأنيث المتصلة بالفعل الماضي: السكون، ولكنها هنا لما التقت بالألف ساكنةً.. حركت بالفتح لمناسبة الألف. وقوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾ فيه، إعلال بالإبدال، أصله: طاوعين، أبدلت الواو همزةً في الوصف، حملاً له في الإعلال على فعله. ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ جمع مصباح، والياء فيه: مبدلة من الألف، حيث كسر ما قبلها في صيغة منتهى الجموع. ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ من الصر، وهو: البرد أو من الصرير، وفي «القاموس»: الصرّة بالكسر، شدّة البرد، أو البرد. كالصر فيهما، وأشدّ الصياح وبالفتح: الشدّة من الكرب والحرب والحرّ، وصرّ يصر: من باب ضرب صرًّا وصريراً: إذا صوّت وصاح شديداً كصرصر، وفي «السمين»: قوله:

﴿صَرْصَرًا﴾ والصرصر: الريح الشديدة، وقيل: هي الباردة من الصرّ وهو البرد، وقيل: هي الشديدة السموم، وقيل: هي المصوّتة، من صرّ الباب؛ أي: سمع صريره، والصرة: الصيحة، ومنه: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ وهي الصيحة، قال الراغب: صرصر لفظه من الصرّ، وذلك يرجع إلى الشدة لما في البرودة من التعقد. اهـ. ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ بكسر الحاء جمع نحسة بكسرها، فهو وصفٌ على فعل، وفعله فعل بكسر العين أيضاً، يقال: نحِسَ فهو نَحِسٌ، كفَرِحَ فهو فَرِحٌ، وأشِرَ فهو أَشِرٌ. ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: العذاب الخزي ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ فلو لم يكن من إضافة الموصوف إلى صفته لم يأت بلفظ ﴿أَخْزَىٰ﴾ الذي يقتضي المشاركة. و﴿أَخْزَىٰ﴾ أصله: أخزي بوزن أفعل، قلبت ياؤه ألفاً؛ لتحركها بعد فتح.

﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ حقيقة الاستحباب: أن يتحرّى الإنسان في الشيء أن يحبّه، واقتضى تعديته بـ﴿عَلَى﴾ تضمُّنه معنى الإيثار والاختيار، كما في «المفردات»؛ أي: اختاروا الضلالة على الهدى، وأصله: استحببوا بوزن استفعلوا، نقلت حركة الباء الأولى إلى الحاء فسكنت، فأدغمت في الباء الثانية. ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾ أصله: العمي، بوزن فعل، فقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ الهون: مصدر بمعنى الهوان والذلة، يقال: هان هوناً وهواناً: إذا ذلّ. ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ جمع عدوٍ، وأصله: أعداو، أبدلت الواو همزة لتطرفها بعد ألف أفعال الزائدة ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ من وزع الثلاثي لا من أوزع الرباعي، كما وهمه بعضهم، يقال: وزعته عن كذا كوضع كففته، وفي معاجم اللغة: وزع يزع من باب فتح، وورع يزع من باب ضرب، وزع فلان بفلان: كفّه ومنعه، وزع الجيش حبس أولهم على آخرهم، فمعنى ﴿يُوزَعُونَ﴾: يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم. ﴿وَجُلُودُهُم﴾ جمع جلد، والجلد: قشر البدن. ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أرداكم فيه إعلال بالقلب، أصله: أرديكم بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ وفي «القاموس»: العتبى: الرضا، واستعتبه أعطاه العتبى، كأعتبه وطلب إليه العتبى، وفي «المفردات»: أعتبته: أزلت عنه عتبة، نحو: أشكيته، ومنه ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ والاستعتاب: أن يطلب من الإنسان أن يذكر عتبه فيعتب، والعتب: الشدة والأمر الكريه، والغلظة التي يجدها

الإنسان في نفسه على غيره، فمعنى ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾؛ أي: يطلبوا العتبى؛ أي: الرضا والرجوع لهم إلى ما يحبّون جزعاً مما هم فيه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وبين ﴿طَوْعًا﴾ و﴿كَرْهًا﴾، وبين ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لأن التعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور، كقولهم: هذا الدرهم ضرب الأمير؛ أي: مضروبه.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ حيث شبّهوا قلوبهم بالشيء المحوي المحاط بالغطاء، المحيط له بحيث لا يصيبه شيء، من حيث تباعدها عن إدراك الحق واعتقاده.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ حيث شبّهوا أسماعهم بآذان بها صمم، من حيث إنها تمجّ الحق ولا تميل إلى استماعه.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ حيث شبّهوا حال أنفسهم مع رسول الله ﷺ بحال شيئين بينهما حجاب عظيم، يمنع من أن يصل أحدهما إلى الآخر ويراه ويوافقه.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

ومنها: الترهيب والتنفير من الشرك في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ إثر ترغيبهم في التوحيد.

ومنها: التحذير والتخويف من منعِ الزكاة حيث جعله من أوصاف المشركين.

ومنها: اختلاف جملتي الصلة بالفعلية والاسمية في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ⑦﴾ لما أنّ عدم إيتائها متجدد والكفر أمر

مستمر، فالأولى تفيد التجدّد، والثانية تفيد الاستمرار.

ومنها: الاستفهام في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ للإنكار والتشنيع لكفرهم، وفيه أيضاً جمع المؤكدات الهمزة وإن واللام لتأكيد الإنكار، وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة.

ومنها: التشبيه البليغ الصوري في قوله: ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾؛ أي: كدخان، ففيه تشبيه بليغ صُوري؛ لأنّ صورتها صورة الدخان في رأي العين، والمراد بالدخان البخار الذي تتشكّل منه الطبقات الهوائية، فتسميتها دخاناً تشبيهاً لها به من حيث إنها أجزاء متفرقة غير متواصلة، عديمة النور كالدخان، فإنه ليس له صورة تحفظ تركيبه.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا﴾ فقد شبه تأثير قدرته تعالى فيهما، وتأثرهما عنها بأمر آمر نافذ الحكم يتوجّه نحو المأمور المطيع فيمتثل أمره، فعبّر عن الحالة المشبّهة بما يعبّر به عن الحالة المشبّه بها ذكره في «الروح».

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا﴾ حيث أسند القول للأرض والسماء مع كونهما غير عاقلين تنزيلاً لهما منزلة العقلاء، ويجوز أن يكون هذا من باب الاستعارة المكنية، فقد شبّههما بمخلوقين حيّين عاقلين، ثمّ حذف المشبه به وأثبت شيئاً من لوازمه لتمثيلهما بأمر المطاع وإجابة الطائع، كما تقول: نطقت الحال بكذا بدل دلّت، فيجعل الحال كالإنسان الذي يتكلّم في الدلالة والبرهان، ثم يتخيّل له النطق الذي هو من لوازم المشبّه به، وينسب إليه.

ومنها: تنزيل غير العقلاء، منزلة العقلاء الذكور في قوله: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ حيث جمعه جمع المذكر السالم.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ التفت فيه من الغيبة في قوله: ﴿خَلَقَ﴾ و﴿قَدَّرَ﴾ إلى التكلم، فقد أسند التزيين إلى ذاته سبحانه لإبراز مزيد العناية بالتزيين المذكور.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ فقد خاطبهم أولاً بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ فلما لم يأبهوا لخطابه، ولم يستوعبوا نصحه.. التفت من

الخطاب إلى الغيبة؛ لأنهم فعلوا الإعراض فليس له إلا أن يعرض عن خطابهم، ليصح التلاؤم ويناسب اللفظ المعنى، وهذا من أرفع أنواع البلاغة وأرقاها، وكم للالتفات من أسرار ذكروها في محلها.

ومنها: العدول عن صيغة المضارع المستقبل، إلى الماضي في قوله: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ للدلالة على أن ما ينذرهم به أمر متحقّق لا مندوحة عنه، وعبارة «الروح»: وصيغة الماضي فيه الدلالة على تحقق الإنذار المنبىء عن تحقق المنذر به.

ومنها: الإسناد المجازيّ في قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ فإنه أضاف العذاب إلى الخزي الذي هو الذلّ والاستكانة، وهو في الأصل صفة المعذّب، ولكنّه جنح إلى وصف العذاب به للمبالغة.

ومنها: المشاركة في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وجعل الخزي هذه المرّة خبراً للمشاكلة، على حدّ قول الشاعر:

قَالُوْا: ٱقْتَرِحْ شَيْئَاً نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ   قُلْتُ: ٱطْبُخُوْا لِيْ جُبَّةً وَقَمِيْصَا

أي: خيطوا لي، فأطلق الخياطة بلفظ الطبخ، لمشاكلة ما قبله.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فقد شبّه الكفر بالعمى؛ لأنّ الكافر ضال عن القصد، متعسف الطريق كالأعمى، وشبّه الإيمان بالهدى؛ لأن المؤمن مهتد إلى محجّة القصد وسواء السبيل، ثم حذف المشبّه في كليهما وأثبت المشبّه به الذي هو العمى والهدى.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾ و﴿ٱلْهُدَىٰ﴾.

ومنها: صيغة جمع العقلاء في خطاب الجلود في قوله: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ وكذا في قوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ...﴾ إلخ. لوقوعهما في موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء كما مرّ.

ومنها: تخصيص الجلود، لكون شهادتها أعجب من شهادة السمع والبصر، إذ ليس شأنها الإدراك.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟...﴾ إلخ. للإشعار بإبعادهم عن حيّز الخطاب،

والإبقاء في غاية دركات النار.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مع أنّ هذه المحاورة بعد البعث والرجوع إلى الله، لما أنّ المراد بالرجوع ليس مجرد الردّ إلى الحياة بالبعث، بل ما يعمه ويعمّ ما يترتّب عليه من العذاب الخالد المترقّب عند المخاطبة، فغاب المتوقع على الواقع. اهـ «أبو السعود».

ومنها: عطف العامّ على الخاص في قوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ إذ المراد بالجلود: الجوارح. مطلقاً، فعطفها على ما قبلها من عطف العام على الخاصّ.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

فائدة: قال الشيخ النيسابوري: خلق الله السماء قبل خلق الأرض؛ ليعلم أنّ فعله خلاف أفعال الخلق؛ لأنه خلق أولاً السقف ثم الأساس، ورفعها على غير عمد؛ دلالةً على قدرته وكمال صنعه، وروي أنه تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخلق السموات وما فيهن يوم الخميس ويوم الجمعة، وخلق آدم في آخر ساعةٍ منه، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة، وسمي الجمعة لاجتماع المخلوقات لها وتكاملها، ولمَّا لم يخلق الله في يوم السبت شيئاً.. امتنع بنو إسرائيل من الشغل فيه، كما في «فتح الرحمن».

والظاهر: أنه ينبغي أن يكون المراد به أنه تعالى خلق العالم في مُدّة لو حصل فيها فلك وشمس وقمر.. لكانَ مبدأ تلك المدة أول يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، كما في «حواشي ابن الشيخ». وفي كلام بعضهم أول الأسبوع الأحد لغةً، وأوله السبت عرفاً؛ أي: في عرف الفقهاء.

واستشكل: هل تسمية الأيام بهذه الأسماء، هي من الله تعالى أو من النبي ﷺ أو من العرب؟ وروي: «أن الله تعالى خلق يوماً فسمّاه الأحد، ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء، بضم الثاء المثلثة وفتحها، ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء، بتثليث الباء الموحّدة، ثم خلق خامساً فسماه الخميس»، وعلى هذا

فالتسمية من الله تعالى، إلا السبت فلم يذكره، وبهذا يندفع ما قال السهيلي: تسمية هذه الأيام طارئة، ولم يذكر الله منها في القرآن إلا يوم الجمعة والسبت، والعرب أخذوا معاني الأسماء من أهل الكتاب، فألقوا عليها هذه الأسماء اتباعاً لهم، فلم يسمها رسول الله ﷺ بالأحد والاثنين إلى غير ذلك، إلا حاكياً للغة قومه، لا مبتدِئاً بتسميتها. هذا كلام السهيليّ، وعلى هذا فالتسمية من العرب.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي
أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا
لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ
الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ
(٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا
مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ
(٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا
تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا
يَسْأَمُونَ ۩ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي
أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن
يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو
عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ
يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ
فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر[1] الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على الكفر والمعاصي.. أردف ذلك بذكر السبب الذي من أجله وقعوا في الكفر، ثم حكى عنهم جنايةً أخرى، وهي أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن.. أعملوا الحيلة في عدم اسماع الناس له، حتى لا يتدبّروا معناه، فتشاغلوا حين قراءَته يرفع الأصوات، وإنشاء الأشعار حتى يهوّشوا على القارىء، ويغلبوا على قراءَته، ثم ذكر أنهم حين يقعون في العذاب الشديد، يطلبون أن يروا من كانوا السبب في وقوعهم في الضلال من الجنّ والإنس، ليدوسوهم تحت أقدامهم، انتقاماً منهم على أن صيروهم في هذه الهاوية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما أسلف القول في وعيد الكفار بما لم يبق بعده في القوس منزع.. أعقبه بهذا الوعد الشريف للمؤمنين، كما هي سنة القرآن من اتباع أحدهما بالآخر، كما جاء في قوله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾. قال عطاء عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنّ قرناء السوء يدعون إلى المعاصي.. أردف ذلك بذكر حال أضدادهم، الذين يدعون الناس إلى توحيد الله تعالى وطاعته، ثم أعقب هذا بأن الحسنة والسيئة لا يستويان ثواباً عند الله تعالى، ثمّ أمر رسوله بدفع سفاهات المشركين وجهالاتهم بطريق الحسنى، لما في ذلك من تألّف القلوب وارعواء النفوس عن غيّها وثوبها إلى رشدها، وأرشد إلى أن هذه فعلة لا يتقبّلها إلا الصابرون على احتمال المكاره، ومن لهم حظ عظيم من الثواب عند الله، ثمّ ختم ذلك بتلك النصيحة الذهبية، وهي أنه إذا صرف الشيطان المرء عن شيء مما شرعه الله تعالى.. فليتعوّذ من شرّه، ولا يطعه في أمره، والله سميع لما يقول،

(١) المراغي.

عليم بكل ما يفعل، وهو المجازي له على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر في الآيات السابقة. أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى. .[1] أردفه بذكر الدلائل على وجوده تعالى وقدرته وحكمته؛ تنبيهاً إلى أنَّ الدعوة إلى الله تقرير الدلائل على ذاته وصفاته، ثمّ ذكر منها الدلائل الفلكية، وهي الليل والنهار والشمس والقمر، ثمّ أتبعها بآيات أرضية تشاهد رأي العين في كل حين؛ وهي حال الأرض حين خلوِّها من المطر والنبات، ثم حالها بعد نزول المطر، فهي تنتعش بعد أن كانت ميتةً، وتهتزّ بعد أن كانت ساكنةً، والذي أحياها هو الذي يحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه[2] لمّا بيّن أنّ الدعوة إلى دين الله أسمى المقاصد، وأنها إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد وصحة البعث يوم القيامة. . أعقب هذا بتهديد من ينازع في تلك الدلائل بإلقاء الشبهات، ثم هدّدهم بضروب من التهديد، فهدّدهم بقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ وبقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وبقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ . . .﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما هدَّد الملحدين في آياته. . سلّى رسوله على ما يصيبه من أذى المشركين وطعنهم في كتابه، وحثّه على الصبر، وأن لا يضيق صدره بما حكاه عنهم من نحو قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾. وقولهم: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾ فما قاله أولئك الكفار في شأنه وشأن ما أنزل إليه من القرآن. . لا يعدو شأْن ما قاله أمثالهم من الأمم السابقة، ثم أجاب عن شبهة قالوها، وهي: هلا نزل القرآن بلغة العجم، بأنه لو نزل كما يريدون. . لأنكروا أيضاً، وقالوا: ما لنا ولهذا، ثمَّ ذكر أنَّ القرآن هدايةٌ وشفاء للمؤمنين، والذين لا يؤمنون به في آذانهم صمم عن سماعه، ثم ذكر أنّ الاختلاف في شأن الكتب عادة قديمة للأمم، فقومك ليسوا ببدع فيها بين الأمم، ثم أبان أن المرء وما عمل، فمن أحسن فلنفسه، ومن

(١) المراغي.　　(٢) المراغي.

أساء.. فعليها، ولا يظلم ربك أحداً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن المنذر عن بشير بن تميم: أنها نزلت في أبي جهل وعمّار بن ياسر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قالت قريش: لو أنزل هذا القرآن أعجمياً وعربياً، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ الآية، وأنزل الله بعد هذه الآية فيه بكل لسان، قال ابن جرير: والقراءة على هذا أعجميّ بلا استفهام.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَقَيَّضْنَا﴾؛ أي: قدّرنا وهيّأنا وسبّبنا وقرنّا ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لكفار مكة وسلّطنا عليهم في الدنيا ﴿قُرَنَآءَ﴾ جمع قرين؛ أي: أخداناً وأصحاباً من شياطين الإنس والجن، وأصدقاء يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض، وهو القشر الأعلى، وهو حجة على القدرية، فإن هذا يدل على التخلية بينهم وبين التوفيق، لأجله صاروا قرناءهم، وهم لا يقولون بموجب الآية ﴿فَزَيَّنُوا۟﴾؛ أي: زيّن القرناء وحسّن ﴿لَهُم﴾؛ أي: لكفار مكة، أو لجميع الكفرة ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمور الدنيا وشهواتها، وحملوهم على الوقوع في معاصي الله بانهماكهم فيها ﴿و﴾ زيّنوا لهم ﴿ما خلفهم﴾ من أمور الآخرة، فقالوا: لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا مكروه عوض، وقال الزجاج: ما بين أيديهم ما عملوه، وما خلفهم ما عزموا على أن يعملوه، وروي عن الزجاج أيضاً أنه قال: ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، وما خلفهم من أمر الدنيا، وعلى القول الأول جعل أمر الدنيا بين أيديهم، كما يقال: قدّمت المائدة بين أيديهم، والآخرة لما

---

(١) لباب النقول.

كانت تأتيهم بعد هذا جعلت خلفهم، كما يقال لمن يجيء بعد الشخص: أنه خلفه، وهذا هو الذي تقتضيه ملاحظة الترتيب الوجوديّ، وقيل: ما بين أيديهم: الآخرة؛ لأنها قدّامهم وهم متوجّهون إليها، وما خلفهم الدنيا لأنهم يتركونها خلفهم، وفي «عرائس البيان»: زيَّنت النفس الشهوات، والشياطين التسويف والإمهال، وهذا ما بين أيديهم وما خلفهم.

وقال الجنيد: لا تألف النفس الحق أبداً، وقال ابن عطاء: النفس قرين الشيطان وإلفه، ومتبعه فيما يشير إليه مفارق للحق مخالف له، لا يألف الحق ولا يتبعه، قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من طول الأمل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من نسيان الذنوب. انتهى.

﴿وَحَقَّ﴾؛ أي: وجب وثبت ﴿عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: على كفار مكة ﴿الْقَوْلُ﴾؛ أي: قول العذاب وقضاؤه وكلمته؛ أي: تقرّر عليهم كلمة العذاب، وتحقق موجبها ومصداقها، وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾، وقوله: ﴿فِي أُمَمٍ﴾ حال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: حالة كونهم كائنين في جملة أمم، وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنى مع، وهذا كما ترى صريح في أنّ المراد بأعداء الله فيما سبق المعهودون من عاد وثمود، لا الكفار من الأولين والآخرين، كما قيل. وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ صفة لـ﴿أُمَمٍ﴾؛ أي: مع أمم من الأمم الكافرة التي قد خلت ومضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ على الكفر والعصيان، كدأب هؤلاء الكفار، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير للأولين والآخرين، وأصل الخسارة: إفساد الاستعداد الفطري، كإفساد بعض الأسباب البيضة، فإنها إذا فسدت.. لم ينتفع بها.

وفي «كشف الأسرار»: إذا أراد الله بعبد خيراً.. قيّض له قرناء خير يعينونه على الطاعة ويدعونه إليها، وإذا أراد الله بعبد سوءاً.. قيّض له أخدان سوء يحملونه على المخالفات ويدعونه إليها، ومن ذلك الشيطان، فإنه مسلّط على الإنسان بالوسوسة، وشر من ذلك النفس الأمارة بالسوء، تدعو اليوم إلى ما فيه هلاكها وهلاك العبد، وتشهد غداً عليه بما دعته إليه.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الرابحين لا من الخاسرين، وأن يكون

عوناً لنا على النفس وإبليس وسائر الشياطين، ويجعلنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

ومعنى الآية[1]: أي وسلَّطنا عليهم أخداناً وأعواناً من شياطين الجنّ والأنس، فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا، من الضلالة والكفر واتباع الشهوات، وما خلفهم من أمر الآخرة، فألقوا إليهم أن لا جنّة ولا نار، ولا بعث ولا حساب، إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر، فسهل عليهم فعل ما يشتهون، وركوب كل ما يتلذذون به من الفواحش، ووجب عليهم من العذاب ما وجب على الذين كفروا من قبلهم، ممن فعلوا فعلهم، ثمّ علّل استحقاقهم للعذاب، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾؛ أي: لأنَّهم استووا جميعاً في الخسار والدمار، واستحقوا اللعن والخزي في الحياة الدنيا والآخرة.

وبعد أن أخبر عن كفر قوم هود وصالح وغيرهم.. أخبر عن مشركي قريش، وأنهم كذبوا بالقرآن، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله من رؤساء المشركين كأبي جهل وأضرابه لأعقابهم وأشقيائهم، أو قال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟﴾؛ أي: لا تستمعوا ﴿لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ ولا تنصتوا له، وقيل: معنى لا تسمعوا لا تطيعوا، يقال: سمعت لك؛ أي: أطعتك ﴿وَٱلْغَوْا۟﴾؛ أي: ائتوا باللغو والباطل من الكلام الذي لا طائل تحته ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في حال قراءة القارىء له، وعارضوه[2] بالخرافات، وهي الهذيان والأحاديث التي لا أصل لها، مثل: قصة رستم وإسفنديار، وبإنشاء الأرجاز والأشعار، وبالتصدية والمكاء؛ أي: بالتصفيق والصفير، وارفعوا أصواتكم بها لتشوشوا على القارىء، فيختلط عليه ما يقرؤُه ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾؛ أي: تغلبونه على قراءته، فيترك القراءة، ولا يتمكن السامع أيضاً من سماعه، أرادوا بذلك التلبيس والتشويش والأذية، وأيضاً خافوا من أنه لو سمعه الناس.. لآمنوا به، وكان ذلك غالباً شأن أبي جهل وأصحابه وقال أبو العالية وقَعُوا فيه وعَيّبوه، وقال الضحاك: أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول:

وقرأ الجمهور والفراء[3]: بفتح الغين مضارع لَغِي بكسرها، أو من لغَى بالفتح يلغَى بالفتح أيضاً، كما حكاه الأخفش.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

وقرأ عيسى بن عمر وقتادة وأبوحيوة وابن أبي إسحاق والزعفراني بخلاف عنهما، والجحدري وبكر بن حبيب السهمي كذا في «كتاب ابن عطية» وفي «كتاب اللوامح»: وأما في «كتاب ابن خالويه» فعبد الله بن بكر السهمي؛ أي: قرؤُوا: بضم الغين، مضارع لغَى بفتحها وهما لغتان، وقال الأخفش: يقال لَغَى يَلْغَى بفتح الغين، وقياسه الضم، لكنه فتح لأجل حرف الحلق، فالقراءة الأولى من يَلْغَى، والثانية من يَلْغُو، وقال صاحب «اللوامح»: ويجوز أن يكون الفتح من لغى الشيء يلغى به: إذا رمى به، فيكون ﴿فِيهِ﴾ بمعنى: به؛ أي: ارموا به وانبذوه، وأما معنى الضم؛ أي: أدخلوا فيه اللّغو، واللّغْوُ[1] من الكلام، ما لا يعتد به، وهو الذي لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللغاء، وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور.

والمعنى: أي وقال الذين كفروا بالله ورسوله: لا تنصتوا لسماع هذا القرآن وعارضوه باللغو والباطل، وبإنشاد الشعر والأراجيز، حتى تهوشوا على القارىء، لعلكم تغلبون على قراءته وتميتون ذكره، وقد كان النبي ﷺ وهو بمكة، إذا قرأ القرآن.. يرفع صوته، فكان المشركون يطردون الناس عنه، ويقولون: الغوا فيه بالمكاء والصفير وإنشاد الشعر، قال ابن عباس: قال أبو جهل: إذا قرأ محمد.. فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول.

ثم أوعد الكفار بالعذاب الشديد، فقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: فوعزتي وجلالي لنذيقن هؤلاء القائلين واللاغين، أو جميع الكفرة، وهم داخلون فيه دخولاً أولياً ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا، لا يقادر قدره، كما دل عليه التنكير والوصف، وهذا تهديد شديد؛ لأن لفظ الذوق إنما يذكر في القدر القليل، يؤتى به لأجل التجربة، وإذا كان ذلك الذوق، وهو قدر قليل عذاباً شديداً.. فقس عليه ما بعده ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي[2]: جزاء سيئات أعمالهم التي هي في أنفسها أسوأ، فإذا كانت أعمالهم أسوأ.. كان جزاؤها كذلك، فالأسوأ قصد به الزيادة المطلقة، وإنما أضيف إلى ما عملوا؛ للبيان والتخصيص، أو المعنى[3]: ولنجزينهم سيئات أعمالهم التي بعضها أسوأ من بعض، بحسب تفاوت مراتبها في الإثم، وأفعل التفضيل ليس على بابه.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) المراح.

وفي «فتح الرحمن»: المراد به سيئة، إذ لا يختص جزاؤهم بأسوأ عملهم، فلا يجازيهم على محاسن أعمالهم، كإغاثة الملهوفين وصلة الأرحام، وقرى الأضياف؛ لأنها محبطة بالكفر. أو المعنى[1]: ولنجزينهم أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم، وهو الكفر، وعلى غيره بحسب ما يليق به. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أبا جهل وأصحابه ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا يوم بدر ﴿أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة.

والمعنى: أي فلنذيقن الكافرين عذاباً لا يحاط بوصفه، ولنجازينهم بأسوأ أعمالهم؛ لأن أعمالهم الحسنة كصلة الأرحام وإكرام الضيف قد أحبطها الكفر، ولم يبق لهم إلا القبيح، ومن ثم لم يجازوا إلا على السيئات، وفي هذا تعريض بمن لا يخشع ولا يتدبر حين سماع القرآن، وتهديد ووعيد لمن يصدر منه حين سماع القرآن ما يهوش على القارىء، ويخلط عليه في القراءة.

ثم بين العذاب الشديد الذي يحيق بهم، فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الجزاء، وهو مبتدأ، خبره: قوله: ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾؛ أي: جزاء معد لأعدائه ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان لـ﴿الجزاء﴾ أو بدل منه، أو ذلك[2] خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الأمر ذلك على أنه عبارة عن مضمون الجملة، لا عن الجزاء، وما بعده: جملة مستقلة مبينة لما قبلها؛ يعني: أن ﴿الجزاء﴾ مبتدأ و﴿النَّارُ﴾: خبره، أو ﴿النَّارِ﴾: مبتدأ، خبره: قوله: ﴿لَهُمْ﴾، وجملة قوله: ﴿فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾: حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور؛ أي: النار كائنة لهم حالة كونها موصوفة بكون دار الخلد والإقامة المؤبدة فيها؛ أي: هي بعينها دار إقامتهم، لا انتقال لهم منها، على أن ﴿فِي﴾ للتجريد لا للظرفية، وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله؛ مبالغةً لكماله فيها، كما يقال: في البيضة عشرون مناً من حديد، وقيل: هي على معناها؛ أي: للظرفية، والمراد: أن لهم في النار المشتملة على الدور داراً مخصوصةً هم فيها خالدون، ومعنى دار الخلد: دار الإقامة المستمرة التي لا انقطاع لها ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: منصوب[3] بفعل مقدر؛ أي: يجزون جزاءً، و﴿الباء﴾ الأولى: متعلقة بـ﴿جَزَاءً﴾ والثانية: بـ﴿يَجْحَدُونَ﴾ وقدمت عليه؛ لمراعاة الفواصل؛ أي: بسبب

(١) النسفي. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقة، أو يلغون فيها، وذكر الجحود؛ لكونه سبباً للغو، إقامةً للسبب مقام المسبب؛ أي: يجزون جزاءً بسبب جحدهم بآيات الله، قال مقاتل: يعني القرآن، يجحدون أنه من عند الله.

والمعنى: أنهم مخلّدون فيها أبداً، لا انقطاع لعذابها ولا انتقال منها، فهي جزاء لهم على جحودهم لآياتنا، واستكبارهم عن سماعها.

ثم بين أنهم حين وقوعهم في العذاب الشديد يطلبون الانتقام ممن أضلوهم من شياطين الإنس والجن، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: قالوا وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب، وذكره بلفظ الماضي؛ تنبيهاً على تحقق وقوعه؛ أي: يقولون: يا ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿أَرِنَا﴾؛ أي: أبصرنا الشيطانين ﴿الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾؛ أي: حملانا على الضلال بالتسويل والتزيين ﴿مِنَ﴾ نوعي ﴿الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ لأن الشيطان بين جني وإنسي، بدليل قوله تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ويقال: أحدهما قابيل بن آدم؛ لأنه أول من سن القتل بغير حق، والذي من الجن إبليس؛ لأنه أول من سن الكفر والشرك، فيكون معنى: ﴿أَضَلَّانَا﴾: سنا لنا الكفر والمعصية، كما في «عين المعاني» ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع: «ما من مسلم يقتل ظلماً.. إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمه؛ لأنه أول من سن القتل» أخرجه الترمذي وغيره، ويروى: أن قابيل شدت ساقاه بفخذيه، يدور مع الشمس حيث دارت، يكون في الشتاء في حظيرة ثلج، وفي الصيف في حظيرة نار. وقيل: المراد: أنهم طلبوا من الله سبحانه أن يريهم من أضلهم من فريق الجن والإنس، من الشياطين الذين كانوا يسولون لهم ويحملونهم على المعاصي، ومن الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر والمعاصي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَرِنَا﴾ بكسر الراء، بمعنى: أبصرنا، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو بكر السوسي عن أبي عمرو والمفضل: ﴿أرنا﴾ بسكون الراء تخفيفاً، كفَخْذٍ في فَخِذَ بمعنى أعطِنا هُما، وقرأ الدوري: باختلاس كسرة الراء. وقال الخليل: إذا قلت: أرني ثوبك بكسر الراء.. فمعناه: أبصرنِيهِ، وبالسكون: أعطنيه، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد، وشدد ابن كثير النون من ﴿اللذين﴾

---

(١) البحر المحيط وغيره.

﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾؛ أي: ندسُّهما بأقدامنا لنتشفى وننتقم منهما، أو نجعلهما تحت أقدامنا في النار ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ فيها مكاناً، وأشد عذاباً منا، أو ليكونا من الأذلين المهانين.

وخلاصة المعنى: ويقول الكافرون يوم القيامة، وهم يتقلبون في العذاب: ربنا أرنا شياطين الإنس والجن الذين أوقعونا في الضلال، نَدُسُّهم تحت أقدامنا، انتقاماً منهم ومهانةً لهم، أو ليكونا مباشرين للنار، ويكونا وقايةً بيننا وبينها، فتخفَّف عنا حرارتها نوعَ خِفةٍ.

ثم لما ذكر سبحانه عقاب الكافرين وما أعده لهم.. ذكر حال المؤمنين وما أنعم عليهم به، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وحده لا شريك له، اعترافاً بربوبيته، وإقراراً بوحدانيته، فربُّنا الله من باب: صديقي زيد، يفيدُ الحصرَ ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾؛ أي: ثبتوا على الإقرار بقولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ ومقتضياته بأن لا تزل قدمهم عن طريق العبودية قلباً وقالباً ولا تتخطاه، وفيه يندرج كل العبادات والاعتقادات بصفة الدوام إلى وقت الوفاة، فـ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان، أو في الرتبة، فإن الاستقامة لها الشأن كله؛ يعني: أن المنتهى وهي الاستقامة، لكونه مقصوداً أعلى حالاً من المبدأ، وهو الإقرار واستقامة الإنسان: لزومه للمنهج المستقيم.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: تعريض لليهود والنصارى؛ لأنهم لم يستقيموا على دينهم، حتى قالوا: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ و﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ ونحو ذلك، وكفروا بنبوة محمد ﷺ. ومن الاستقامة: أن لا يرى المرء النفع والضر إلا من الله، ولا يرجو من أحد دون الله، ولا يخاف أحداً غيره.

وفي «التأويلات النجمية»: تشير الآية إلى يوم الميثاق، لما خوطبوا بقوله: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾؛ أي: ربنا الله، وهم الذريات المستخرجة من ظهر آدم عليه السلام، أقروا بربوبيته ثم استقاموا على إقرارهم بالربوبية، ثابتين على أقدام العبودية لما أخرجوا إلى عالم الصورة، ولهذا ذكر بلفظ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنه للتراخي، فأقروا في عالم الأرواح، ثم استقاموا في عالم الأشباح، وهم المؤمنون، بخلاف المنافقين والكافرين، فإنهم أقروا ولم يستقيموا على ذلك.

وقال جماعة من الصحابة والتابعين: معنى الاستقامة: إخلاص العمل لله، وقال قتادة وابن زيد: ثم استقاموا على طاعة الله. وقال الحسن: استقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته، وقال مجاهد وعكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا. وقال الثوري: عملوا على وفاق ما قالوا. وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله. وقال الفضيل بن عياض: زهدوا في الفانية، ورغبوا في الباقية.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ من جهته تعالى، يمدونهم فيما يعرض لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام، كما أن الكفرة يمدّهم ما قيّض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح، وكذا تتنزل عند الموت بالبشرى، وفي القبر وعند البعث إذا قاموا من قبورهم، ﴿أنْ﴾ مفسرة، بمعنى؛ أي: أو مخففة من الثقيلة، والأصل: بأنه، و﴿الهاء﴾: ضمير الشأن أو المصدرية، ولا على الوجهين الأولين: ناهية، وعلى الثالث: نافية؛ أي: يتنزلون متلبسين بهذه البشارة، وهي ﴿لا تخافوا﴾ ما تقدمون عليه من أمر الآخرة، فلا ترون مكروهاً فإن الخوف غم يلحق الإنسان لتوقع المكروه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خلفتم من أهل وولد، فإن الله تعالى يخلفكم عليهم بخير، ويعطيكم في الجنة أكثر من ذلك وأحسن، ويجمع بينكم وبين أهليكم وأولادكم المسلمين في الجنة، فإن الحزن غم يلحق من فوات نافع أو حصول ضار. وفي قراءة عبد الله: ﴿لا تخافوا﴾ بإسقاط ﴿أنْ﴾؛ أي: تتنزل عليهم الملائكة قائلين: ﴿لا تخافوا ولا تحزنوا﴾. وفي «التأويلات النجمية»: الخوف[1] إنما يكون في المستقبل من الوقت، وهو بحلول مكروه أو فوات محبوب، والملائكة يبشرونهم بأن كل مطلوب لهم سيكون، وكل محذور لهم لا يكون، والحزن من حزونة الوقت، والذي هو راض بجميع ما يجري مستسلم للأحكام الأزلية، فلا حزونة في عيشه، بل من يكون قائماً بالله، وهائماً في الله، دائماً على الله، لا يدركه الخوف والحزن، والملائكة يبشرونهم أن لا تخافوا ولا تحزنوا على فوات العناية في السابقة. انتهى.

وقال مجاهد[2]: لا تخافوا الموت ولا تحزنوا على أولادكم، فإن الله

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

خليفتكم عليهم. وقال عطاء: لا تخافوا رد ثوابكم، فإنه مقبول، ولا تحزنوا على ذنوبكم، فإنّي أغفرها لكم، والظاهر: عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين، وعدم تقييد نفي الخوف والحزن بحالة مخصوصة، كما يشعر به حذف المتعلق في الجميع ﴿وَأَبْشِرُوا﴾؛ أي: سروا وافرحوا ﴿بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها في الدنيا على ألسنة الرسل، فإنكم واصلون إليها، مستقرون بها، خالدون في نعيمها.

وهذا من بشارتهم في أحد المواطن الثلاثة، وعن ثابت: بلغنا إذا انشقت الأرض يوم القيامة.. ينظر المؤمن إلى حافظيه قائمين على رأسه، يقولان له: لا تخف ولا تحزن، وأبشر بالجنة الموعودة، وأنك سترى اليوم أموراً لم تر مثلها، فلا تهولنك، فإنما يراد بها غيرك[1] ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهذا من بشارتهم في الدنيا؛ أي: نحن أعوانكم في أموركم، نلهمكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم، بدل ما كانت الشياطين تفعل بالكفرة، ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرين على الطاعات، من أن ذلك بتوفيق الله وتأييده لهم بواسطة الملائكة، قال جعفر ـ رحمه الله تعالى ـ: من لاحظ في أعماله الثواب والأغراض.. كانت الملائكة أولياءه، ومن عملها على مشاهدته تعالى.. فهو وليه؛ لأنه يقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ نمدكم بالشفاعة، ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم ما يقع من التعادي والتخاصم. وقيل: هذا من قول الله تعالى؛ أي: نحن المتولون لحفظكم ومعونتكم في أمور الدنيا وأمور الآخرة، ومن كان الله وليه.. فاز بكل مطلب، ونجا من كل مكروه. وقال مجاهد: تقول الملائكة لهم: نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة.. قالوا لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة. وقال السدي: نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا، وأولياؤكم في الآخرة.

والمعنى[2]: أي نحن أعوانكم في أمور دنياكم، نلهمكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم في دنياكم، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤمنكم من الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ويوم البعث والنشور، ونجاوز بكم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم.

﴿وَلَكُمْ﴾ أيها المؤمنون لا لغيركم من الأعداء ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ﴾ وتحب ﴿أَنفُسُكُمْ﴾ من صنوف اللذات وفنون النعم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾؛ أي: ما تتمنون وتطلبون، افتعال من الدعاء بمعنى الطلب، والفرق بين الجملتين: أن الأولى باعتبار شهوات أنفسهم، والثانية باعتبار ما يطلبونه، أعم من أن يكون مما تشتهيه أنفسهم أو لا، إذ لا يلزم أن يكون كل مطلوب مشتهًى للنفس، كالفضائل العلمية ونحوها، وعدم الاكتفاء بعطف ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ على ﴿مَا تَشْتَهِيٓ﴾ للإشباع في البشارة، والإيذان باستقلال كل منهما، وقوله: ﴿نُزُلًا﴾ حال من ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾؛ أي: من الموصول، أو من ضميره المحذوف، تقديره: ما تدعونه مفيدة لكون ما يدعونه ويتمنونه بالنسبة إلى ما يعطون من عظائم الأمور، كالنزل، وهو: ما يهيأ للنزيل؛ أي: الضيف من الرزق، كأنه قيل: وثبت لكم فيها الذي تدعونه حال كونه كالنزل للضيف، وأما أصل كرامتكم فمما لا يخطر ببالكم، فضلاً عن الاشتهاء أو التمني.

وقرأ الجمهور: ﴿نُزُلًا﴾ بضمتين، وقرأ أبو حيوة بإسكان الزاي؛ أي: حالة كون ما تدعونه نزلاً؛ أي: رزقاً كائناً ﴿مِّنْ﴾ رب ﴿غَفُورٍ﴾ للذنوب العظام، مبدل للسيئات بالحسنات ﴿رَّحِيمٍ﴾ بالمؤمنين من أهل الطاعات بزيادة الدرجات والقربات.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿نُزُلًا﴾؛ أي: فضلاً وعطاءً وتقدمةً لما سيديم إلى الأبد من فنون الأعطاف وأصناف الألطاف، وذلك لأن عطاء الله تعالى يتجدد في كل آن، خصوصاً لأهل الاستقامة من أكامل الإنسان، ويظهر في كل وقت وموطن، ما لم يظهر قبله وفي غيره، ويكون ما في الماضي كالنزل لما يظهر في الحال، ومن هنا قالوا: ما ازداد القوم شرباً إلا ازدادوا عطشاً، وذلك لأنه لا نهاية للسير إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة. انتهى.

حكي: أن يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله ـ كتب إلى أبي يزيد البسطامي ـ رحمه الله ـ: سكرت من كثرة ما شربت من كأس حبه، فكتب إليه أبو يزيد:

شَرِبْتُ ٱلْحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ ... فَمَا نَفِدَ ٱلشَّرَابُ وَلاَ رُوِيتُ

﴿وَمَنْ﴾ للاستفهام الإنكاري، وهو مبتدأ، خبره: ﴿أَحْسَنُ﴾. و﴿قَوْلًا﴾ تمييز

محول عن المبتدأ؛ أي: وقول من أحسن ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: من قول من دعا غيره إلى توحيده وطاعته ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ابتهاجاً وسروراً بأنه منهم، واتخاذاً للإسلام ديناً ونحلةً، إذ لا يقبل طاعةً بغير دين الإسلام، من قولهم: هذا قول فلان؛ أي: مذهبه، لا أنه تكلم بذلك فحسب.

وقرأ ابن أبي عبلة وإبراهيم بن نوح عن قتيبة الميال: ﴿إنى﴾ بنون واحدة مشددة، والجمهور: ﴿إِنَّنِى﴾ بها وبنون الوقاية. وفيه رد على من يقول: أنا مسلم ـ إن شاء الله ـ فإنه تعالى قال مطلقاً غير مقيد بشرط إن شاء الله. وقال علماء العقائد: إن قاله للشك.. فهو كفر لا محالة، وإن كان للتأدب مع الله، وإحالةً للأمور إلى مشيئة الله تعالى أو للشك في العاقبة والمآل، لا في الآن والحال، أو للتبرك بذكر الله، أو للتبرُّؤ من تزكية نفسه، والإعجاب بحاله.. فجائز، لكن الأولى تركه لما أنه يوهم الشك.

والمعنى: لا أحد أحسن قولاً ممن جمع بين هذه الخصال الثلاث، وحكم الآية عام لكل من جمع ما فيها من الخصال الحميدة، التي هي الدعوة إلى الله والعمل الصالح، وهو تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه، والقول المذكور؛ أي: كونه من المسلمين ديناً لا من غيرهم، فلا شيء أحسن منه، ولا أوضح من طريقه، ولا أكثر ثواباً من عمله، وإن نزلت في رسول الله ﷺ، أو في أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ أو في المؤذنين، فإنهم يدعون الناس إلى الصلاة، فالأولى حمل الآية على العموم، كما يقتضيه اللفظ، ويدخل فيها من كان سبباً في نزولها دخولاً أولياً.

فإن قلت: السورة بكاملها مكية بلا خلاف، والأذان إنما شرع بالمدينة.

قلت: يجعل هذا من باب ما تأخر حكمه عن نزوله، وكم في القرآن من هذا النوع، وإليه ذهب بعض الحفاظ كابن حجر وغيره.

فائدة: وأول من أذن في السماء جبرائيل[1]، ثمَّ ميكائيل عليهما السلام عند

---

(١) روح البيان.

البيت المعمور، وأول من أذن في الإسلام بلال الحبشي ـ رضي الله عنه ـ وكان أول مشروعيته في أذان الصبح، قالت النوار أم زيد بن ثابت: كان بيتي أطول بيت حول المسجد، فكان بلال يؤذن فوقه من أول ما أذن، إلى أن بنى رسول الله ﷺ مسجده، فكان يؤذن بعده على ظهر المسجد، وقد رفع له شيء فوق ظهره، وأول من أقام عبد الله بن زيد الأنصاري صاحب رؤيا الأذان، وزاد بلال في أذان الصبح بعد الحَيَّعَلات: الصلاة خير من النوم مرتين، فأقرها النبي ﷺ؛ أي: اليقظة الحاصلة للصلاة، خير من الراحة الحاصلة بالنوم، ويقول المجيب عنده: صدقت وبالخير نطقت، وأول من زاد الأذان الأول في الجمعة عثمان ـ رضي الله عنه ـ زاده ليؤذن أهل السوق فيأتون إلى المسجد، وكان في زمانه ﷺ وزمان أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ أذان واحد حين يجلس الإمام على المنبر، وأول من رزق المؤذنين عثمان ـ رضي الله عنه ـ والجهر في الأذان واجب لإعلام الناس، ولذا سن أن يكون في موضع عال، ولو أذن لنفسه.. خافت، وأما التكبيرات في الصلاة.. فالمؤذن يرفع صوته لتبليغ التكبير لمن بَعُدَ عن الإمام من المقتدين، فإن كان في صوت الإمام كفاية.. فالتبليغ مكروه، كما في «إنسان العيون».

يقول الفقير: أما سر عدد المنارات في الحرم النبوي وهي اليوم خمس.. فإشارة إلى الأوقات الخمسة، فهو صورة الدعوات الخمس في الساعات الأربع والعشرين المشتمل عليها الليل والنهار، وأول من قدر الساعات الاثنتي عشرة نوح عليه السلام في السفينة، ليعرف بها مواقيت الصلوات.

وبعد أن ذكر(١) محاسن الأعمال التي بين العبد وربه، ذكر محاسن الأعمال التي بين العباد بعضهم مع بعض، ترغيباً لرسول الله ﷺ في الصبر على أذى المشركين، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ﴾ التي يرضى الله بها ويثيب عليها ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ التي يكرهها الله ويعاقب عليها، و﴿لا﴾ الثانية: مزيدة لتأكيد النفي؛ أي: لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة في الجزاء وحسن العاقبة، وقد يكون المعنى: ولا تستوي دعوة الرسول إلى الدين الحق بالطرق المثلى، والصبر على سفاهة الكفار وإذايتهم وترك الانتقام منهم، وما أظهروه من

---

(١) المراغي.

الغلظة والفظاظة في قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾. وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾.

والخلاصة[1]: أن فعلك أيها الرسول حسنة، وأن فعلهم سيئة، فإنك إذا صبرت على أذيتهم وجهالتهم، وتركت الانتقام منهم ولم تلتفت إلى سفاهتهم.. فقد استوجبْتَ التعظيم في الدنيا، والثواب في الآخرة، وهم بالضد من ذلك، فلا يكن إقدامهم على تلك السيئة مانعاً لك من الاشتغال بهذه الحسنة.

وإذا فسرت[2] ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ بالجنس، على أن يكون المعنى: لا تستوي الحسنات، إذ هي متفاوتة في أنفسها كشعب الإيمان التي أدناها إماطة الأذى، ولا السيئات لتفاوتها أيضاً، من حيث إنها كبائر وصغائر.. لم تكن زيادة ﴿لَا﴾ الثانية لتأكيد النفي على ما أشار إليه في «الكشاف».

ولا وجه لتخصيص ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ بنوع من أنواع الطاعات[3]، وبتخصيص ﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ بنوع من أنواع المعاصي، فإن اللفظ أوسع من ذلك. وقيل: الحسنة: التوحيد، والسيئة: الشرك. وقيل: الحسنة: المداراة، والسيئة: الغلظة. وقيل: الحسنة: العفو، والسيئة: الانتصار. وقيل: الحسنة: العلم، والسيئة: الفحش.

ثم ذكر بعض الحسنات، ووضحها بذكر بعض ضروبها، فقال: ﴿ٱدْفَعْ﴾ أيها الرسول السيئة حين اعترضتك من بعض أعاديك ﴿بِـ﴾ الخصلة ﴿التي هي أحسن﴾ ما يمكن دفعها به من الحسنات، كالإحسان إلى من أساء، فإنه أحسن من العفو.

والمعنى: أي ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق التي هي أحسن الطرق، فقابل إساءتهم بالإحسان إليهم، والذنوب بالعفو، والغضب بالصبر والإغضاء عن الهفوات واحتمال المكاره، فإنك إن صبرت على سوء أخلاقهم مرةً بعد أخرى، ولم يقابل سفههم بالغضب، ولا أذاهم بمثله.. استحيوا من ذميم أخلاقهم، وتركوا قبيح أفعالهم.

وكان ﷺ يقول: «صِلْ من قطعك، واعفُ عمن ظلمك، وأحسنْ إلى من أساء

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

إليك»، وما أمر ﷺ غيره بشيء إلا بعد التخلق به وإخراجه[1] مخرج الجواب عن سؤال من قال: كيف أصنع مع أن الظاهر أن يقول: ﴿فادفع﴾ بـ﴿الفاء﴾ السببية للمبالغة؟ ولذلك وضع ﴿أَحۡسَنُ﴾ موضع الحسنة؛ لأنه أبلغ في الدفع بالحسنة، فإن من دفع بالحسنى.. هان عليه الدفع بما دونها.

ثم بين نتائج الدفع بالحسنى، فقال: ﴿فَإِذَا﴾ فعلت الدفع المأمور به.. صار ﴿ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ﴾ وشحناء ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾؛ أي: صديق قريب. قال مقاتل: نزلت هذه في أبي سفيان بن حرب، وذلك أنه لان للمسلمين بعد الشدة؛ أي: شدة عداوته للنبي ﷺ بالمصاهرة التي جعلت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار وليا بالإسلام، حميماً بالمصاهرة، والأولى حمل الآية على العموم؛ أي: فإذا فعلت ذلك.. صار الذي بينك وبينه عداوة في الدين، كأنه ولي في الدين حميم؛ أي: قريب في النسب؛ أي: صار العدو كالصديق، والبعيد عنك كالقريب منك.

والمعنى[2]: أي إنك إن فعلت ذلك.. انقلبوا من العداوة إلى المحبة، ومن البغض إلى المودة، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وقال ابن عباس: أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك.. عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم.

وروي: أن رجلاً شتم قنبراً مولى علي بن أبي طالب، فناداه علي: يا قنبر، دع شاتمك والْهُ عنه، ترضِ الرحمن، وتسخط الشيطان، وقالوا: ما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه، ولله در القائل:

وَلَلْكَفُّ عَنْ شَتْمِ ٱللَّئِيْمِ تَكَرُّمَاً ... أَضَرُّ لَهُ مِنْ شَتْمِهِ حِيْنَ يُشْتَمُ

وقال آخر:

وَمَا شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَىٰ سَفِيْهِ ... إِذَا سَبَّ ٱلْكَرِيْمَ مِنَ ٱلْجَوَابِ
مُتَارَكَةُ ٱلسَّفِيْهِ بِلاَ جَوَابِ ... أَشَدُّ عَلَىٰ ٱلسَّفِيْهِ مِنَ ٱلسُّبَابِ

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

وقال محمود الورّاق:

سَأُلْزِمُ نَفْسِيْ ٱلصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ ... وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ لَدَيَّ ٱلْجَرَائِمُ
فَمَا ٱلنَّاسُ إِلاَّ وَاحِدٌ مِنْ ثَلاَثَةٍ ... شَرِيْفٌ وَمَشْرُوْفٌ وَمِثْلٌ مُقَاوِمُ
فَأَمَّا ٱلَّذِيْ فَوْقِيْ فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ ... أَتْبَعُ فِيْهِ ٱلْحَقَّ وَٱلْحَقُّ لاَزِمُ
وَأَمَّا ٱلَّذِيْ دُوْنِيْ فَإِنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ ... إِجَابَتِهِ عِرْضِيْ وَإِنْ لاَمَ لاَئِمُ
وَأَمَّا ٱلَّذِيْ مِثْلِيَ فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا ... تَفَضَّلْتُ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِٱلْحِلْمِ حَاكِمُ

وقال آخر:

إِنَّ ٱلْعَدَاوَةَ تَسْتَحِيْلُ مَوَدَّةً ... بِتَدَارُكِ ٱلْهَفَوَاتِ بِٱلْحَسَنَاتِ

و﴿إذا﴾ في[1] قوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى﴾: للمفاجأة، ظرف مكان لمعنى التشبيه، وهذا مبني على القول باسميتها، وجاز تقدم هذا الظرف على عامله المعنوي، مع أنه لا يجوز تقديم معموله عليه؛ لأنه يغتفر في الظروف ما لا يغتفر في غيرها، والموصول: مبتدأ، وجملة التشبيه: خبره، والتقدير: فالذي بينك وبينه عداوة، مشبه في المحبة بالصديق الحميم وقت فعلك ما ذكر.

والمعنى: فإذا فعلت مع عدوك ما ذكر.. فاجأك في الحضرة انقلابه وصيرورته مشابهاً في المحبة بالصديق الذي لم تسبق منه عداوة. اهـ شيخنا.

ثم نبه إلى عظيم فضل هذه الطريقة بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾؛ أي: وما يلقى هذه الخصلة الحميدة والفعلة الجميلة، وهي دفع السيئة بالحسنة.

وقرأ طلحة بن مصرف وابن كثير[2]: ﴿وما يلاقاها﴾ من الملاقاة من باب فاعل المعتل، وقرأ الجمهور ﴿وما يلقى﴾ من التلقية من فعل المضعف كزكى، كأن هذه الخصلة الشريفة غائبة؛ أي: ما يصادفها وما يوافقها وما يعطاها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على تحمل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ، وترك الانتقام؛ أي: إلا الذين شأنهم الصبر، فإنه يحبس النفس عن الانتقام؛ أي: ومايقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا الصابرون على تحمل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ، وترك

---

(١) الفتوحات.
(٢) البحر المحيط.

الانتقام، فإن ذلك يشق على النفوس، ويصعب احتماله في مجرى العادة، إلا على من عصمه الله تعالى ووفقه.

وقال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ في تفسير ذلك: الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت صادقاً.. غفر الله لي، وإن كنت كاذباً.. غفر الله لك ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾؛ أي: وما يوفّقها ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ أي: إلا صاحب نصيب وافر، وحظ كامل من السعادة في الدنيا والآخرة، ومن الفضائل النفسانية[1]، والقوة الروحانية، فإن الاشتغال بالانتقام لا يكون إلا لضعف النفس وتأثرها من الواردات الخارجية، فإن النفس إذا كانت قوية الجوهر.. لم تتأثر من الواردات الخارجية، وإذا لم تتأثر منها.. لم يصعب عليها تحمّل المكاره، ولم تشتغل بالانتقام.

والحاصل: أنه يلزم تزكية النفس حتى يستوي عندها الحلو والمرّ، ويكون حضور المكروه كغيبته، ففي الآية مدح لهم بفعل الصبر، وقال قتادة: الحظ العظيم: الجنة؛ أي: وما يلقّاها إلا من وجبت له الجنة، وقال الجنيد: وما يوفّق لهذا المقام، إلا ذو حظ عظيم من عناية الحق فيه، وقال ابن عطاء الله: إلا ذو معرفة بالله وأيامه، والحظ: النصيب المقدّر.

ثم ذكر طريقاً لمنع تهييج الشر، ودفع الغضب إذا بدت بوادره، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أصله: إن ما، على أن ﴿إن﴾: شرطية، و﴿ما﴾: مزيدة لتأكيد معنى الشرط، والنزغ: شبه النخس كما في «الإرشاد» شبه به وسوسة الشيطان لأنها تبعث على الشر، وجعل نازغاً على حدّ جدّ جدّه فـ﴿مِنْ﴾ ابتدائية؛ أي: نزغ صادر من جهته، أو المراد: وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر، فكلمة ﴿مِنْ﴾: تجريدية جرّد من الشيطان شيطاناً آخر، وسمّاه نازغاً.

والمعنى: وإن يوسوس إليك الشيطان، ويصرفك عما وصيتك به من الدفع بالتي هي أحسن، ودعاك إلى خلافه.. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شرّه، ولا تطعه ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ باستعاذتك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيّتك، وفي جعل ترك الدفع بالأحسن من آثار نزغات الشيطان مزيد تحذير وتنفير، قال الدميري في «حياة

---

(١) روح البيان.

الحيوان»: أجمعت الأمة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان، وإنما المراد: تحذير غيره من فتنة القرين، ووسوسته له وإغوائه، فأعلمنا أنه معنا لنحترز عنه حسب الإمكان انتهى.

وحاصل المعنى[1]: أي وإن وسوس إليك الشيطان ليحملك على مجازاة المسيء.. فاستعذ بالله من كيده وشرّه، واعتصم من خطراته، إنه هو السميع لاستعاذتك منه، واستجارتك به من نزغاته، ولغير ذلك من كلامك وكلام غيرك، العليم بما ألقى في روعك من نزغاته، وحدّثتك به نفسك، وما قصدت من صلاح، ونويت من إحسان.

ومن شياطين الإنس من يفعل مثل هذا، فيصرف عن الدفع بالتي هي أحسن، فيقول لك: إن فلاناً عدوّك الذي فعل بك كيت وكيت، فانتهز الفرصة وخذ ثأرك منه، لتعظم في عينه وأعين الناس، ولا يظنن فيك العجز وقلة الهمة وعدم المبالاة، إلى نحو أولئك من العبارات المثيرة للغضب، التي ربما لا يخطر ببال شياطين الجن، نعوذ بالله من شر كل شيطان.

والخلاصة: إنّ صرفك الشيطان عما شرعت فيه من الدفع بالحسنى.. فاستعذ بالله من شره، وامض لشأنك ولا تطعه.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا غضبت وكنت قائماً.. فاقعد، وإن كنت قاعداً.. فقم، فاستعذ بالله من الشيطان» عصمنا الله وإياكم من كيده وشره، ورد مكره إليه، فلا نتوكَّل ولا نعتمد إلا عليه.

فإن قلت[2]: قال هنا: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بزيادة ﴿هُوَ﴾ و﴿أل﴾ وفي الأعراف قال: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بدونهما، فما الفرق بين الموضعين؟.

قلت: بينهما فرق فارق؛ لأنّ ﴿ما﴾ هنا: متصل بمؤكدين: بالتكرار وبالحصر، فناسب التأكيد بما ذكر، و﴿ما﴾ في الأعراف خال عن ذلك، فجرى على القياس من كون المسند إليه معرفةً والمسند نكرةً.

ثمّ شرع سبحانه في بيان بعض آياته البديعة، الدالة على كمال قدرته وقوة

---

(١) المراغي.
(٢) فتح الرحمن.

تصرفه، للاستدلال بها على توحيده، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾؛ أي: ومن دلائل قدرته وحكمته الدالة على وحدانيته ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾؛ أي: تعاقبهما واختلافهما بالزيادة والنقصان، قال الإمام المرزوقي: الليل بإزاء النهار، والليلة بإزاء اليوم. ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ المشتمل عليه النهار ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾ المشتمل عليه الليل؛ أي: تذلُّلهما لما يراد منهما، وقدّم الليل على النهار لسابقيته في الوجود، والشمس على القمر لشرفها عليه بأصالة نورها؛ يعني: تعاقب الليل والنهار على الوجه الذي يتفرّع عليه منافع الخلق، ومصالحهم، وتذلُّل الشمس والقمر لما يراد منهما من أظهر العلامات الدالة على وجوده تعالى ووحدانيته، وكمال علمه وحكمته.

والمعنى[1]: أي ومن حجج الله تعالى على خلقه، ودلائله على وحدانيته وعظيم سلطانه الليل والنهار، ومعاقبة كل منهما صاحبه، والشمس ونورها، والقمر وضياؤه، وتقدير منازلهما في فلكيهما، واختلاف سيرهما في السماء، ليعرف بذلك مقادير الليل والنهار، والأسابيع والشهور والأعوام، وبذلك تضبط المعاملات وأوقات العبادات.

ولما كانت الشمس والقمر من أجلّ الأجرام المشاهدة في العالم العلويّ والسفليّ.. نبّه إلى أنهما مخلوقان مسخّران له تعالى، وهما تحت قهره وسلطانه، فلا تعظّموهما وعظّموا خالقهما، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟﴾ أيها الناس ﴿لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنهما من جملة مخلوقاته المسخرة لأوامره، يجريان لمنافعكم بإجراء الله إياهما طائعين له في جريهما، وهما لا يستطيعان لكم نفعاً ولا ضرًّا ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير للأربعة[2]، لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى، وإن كان المناسب تغليب المذكر، وهو ما عدا الشمس على المؤنث وهو الشمس، أو لأنها عبارة عن الآيات وتعليق الفعل بالكل مع كفاية بيان مخلوقية الشمس والقمر؛ للإيذان بكمال سقوطهما عن رتبة المسجودية، بنظمهما في سلك الأعراض التي لا قيام لها بذاتها، وهو السر في نظم الكل في آياته تعالى؛ أي: فله تعالى فاسجدوا، وإياه فاعبدوا دونهما، لأنهما لا فضيلة لهما في أنفسهما، فيستحقا بها العبادة من دون الله، ولو شاء الله.. لأعدمهما أو طمس نورهما، وفي هذا ردّ على الصابئين،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وغيرهم من الناس الذين عبدوا الكواكب والنجوم، وزعموا أنهم بعبادتهم إياها يقصدون الله، فنهوا عن تلك الواسطة، فهذا وجه تخصيص ذكر السجود بالنهي عنه. وقيل: وجه تخصيصه أنه أقصى مراتب العبادة ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ﴾ تعالى لا غيره ﴿تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: إن كنتم تعبدون إياه.. لا تسجدوا لغيره، فإن السجود أقصى مراتب العبادة، فلا بدّ من تخصيصه به تعالى.

فإن قيل[1]: لِمَ لَمْ يجز أن تكون الشمس قبلةً للناس عند سجودهم؟.

قلنا: لأنها جوهر مشرق عظيم الرفعة، لها منافع في صلاح أحوال الخلق، فلو أذن في جعلها قبلةً في الصلاة، بأن يتوجّه إليها، ويرجع ويسجد نحوها.. لربما غلب على بعض الأوهام أن ذلك الركوع والسجود للشمس لا لله، بخلاف الأحجار المعيّنة، فإنها ليس في جعلها قبلةً ما يوهم الإلهية.

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾؛ أي: تعظّموا عن امتثال أمرك في ترك السجود لغير الله تعالى، وأبوا إلا اتخاذ الواسطة، فذلك لا يقلّل عدد من يخلص عبادته لله تعالى، وقوله: ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ علة للجزاء المحذوف؛ أي: فإن الملائكة المقربين عند الله ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾؛ أي: ينزهونه عن الأنداد وسائر ما لا يليق به ﴿بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾؛ أي: دائماً وفي جميع الأوقات، وظهر من هذا التقرير أن تخصيص الملائكة مع وجود غيرهم من العبّاد المخلصين؛ لكثرتهم، وأيضاً الشمس والقمر عندهم، فيردّون العبادة عنهما غيرةً بتخصيصها بالله تعالى ﴿وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ﴾؛ أي: والحال أن الذين عند ربك لا يملّون عن عبادته وتسبيحه، ولا يفترون عنهما، فإن التسبيح منهم الكتنفس منا.

ومعنى الآية[2]: فإن استكبر هؤلاء المشركون الذين يعبدون هذه الكواكب، وأبوا إلا أن يسجدوا لها وحدها دون الله.. فالله لا يعبأ بهم، فالملائكة الذين في حضرة قدسه، وهم خير منهم لا يستكبرون عن عبادته، بل يسبِّحون له ويصلّون ليلاً ونهاراً وهم لا يَفْتَرون عن ذلك ولا يملُّون.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

فصل

وهذه السجدة[1] من عزائم سجود التلاوة، وفي موضع السجود فيها قولان للعلماء: وهما وجهان لأصحاب الشافعي:

أحدهما: أنه عند قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وهو قول ابن مسعود والحسن، وحكاه الرافعي عن أبي حنيفة وأحمد؛ لأنَّ ذكر السجدة قُبيله.

والثاني: وهو الأصح عند أصحاب الشافعي، وكذلك نقله الرافعي أنه عند قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيِّب وقتادة، وحكاه الزمخشري عن أبي حنيفة؛ لأنَّ عنده يتمّ الكلام.

ولما ذكر الدلائل الفلكية.. أتبعها بذكر الدلائل الأرضية، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على قدرته تعالى ووحدانيته ﴿أَنَّكَ﴾ يا محمد أو أيها الناظر، فالخطاب هنا لكل من يصلح له أو لرسول الله ﷺ ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ وتبصرها حال كونها ﴿خَـٰشِعَةً﴾؛ أي: يابسةً جدبةً فارغةً من النبات، مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ والمطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾؛ أي: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾؛ أي: انتفخت وعلت قبل أن تنبت لأنّ النبت إذا دنا أن يظهر.. ارتفعت له الأرض وانتفخت، ثم تصدّعت عن النبات؛ أي: انشقّت.

وعلى هذا في الكلام تقديم وتأخير[2]، والتقدير: فإذا أنزلنا عليها الماء.. ربت واهتزّت؛ أي: انتفخت وتحركت بالنبات، وقيل: الاهتزاز والربو قد يكونان قبل خروج النبات، وقد يكونان بعده. وقيل: اهتزّت: استبشرت بالمطر، وربت انتفخت بالنبات.

وقرأ أبو جعفر وخالد ﴿وربأت﴾ بالهمزة ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ بما ذكر بعد موتها. والاحياء في الحقيقة: إعطاء الحياة، وهي صفة تقتضي الحسّ والحركة، فالمراد بإحياء الأرض: تهييج القوى النامية فيها، وإحداث نضارتها بأنواع النباتات؛ أي: إن الإله الذي أحيا الأرض بالنبات بعد يبسها وجدبها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ بالبعث والنشور ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإحياء

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر لا يعجزه شيء كائناً ما كان، وقد وعد بذلك، فلا بد من أن يفي به، والحكمة في إحياء الموتى هي المجازاة والمكافأة.

ومعنى الآية[1]: ومن الدلائل على قدرته تعالى على البعث وإحياء الموتى بعد بلائها، وإعادتها لهيئتها كما كانت من بعد فنائها: أنك ترى الأرض يابسةً غبراء لا نبات بها ولا زرع، فإذا نزل عليها الغيث من السماء.. تحركت بالنبات، وانتفخت وأخرجت ألوان الزرع والثمار، كما يشاهد من ارتفاع الأرض وانتفاخها، ثمَّ تصدّعها وتشقُّقها إذا حان ظهور النبات منها، وتراه يسمو في الجوّ ويغطّي قشرتها، ثم تتشعّب عروقه، وتغلظ سوقه، إن الذي أحيا هذه الأرض الدارسة، وأخرج منها النبات وجعلها تهتز بالزرع، قادر على أن يحيي أموات بني آدم بعد مماتهم، وهو القدير على كل شيء، لا يعجزه شيء كائناً ما كان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾؛ أي: يميلون عن الاستقامة ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ والعدل فيها بالطعن فيها، بأنها كذب أو سحر أو شعر، ويتحريفها بحملها على المحامل الباطلة.

وقرأ حمزة: ﴿يلحدون﴾ بفتح الياء والحاء من لحد الثلاثي، وهو بمعنى ألحد. ففي الآية قراءتان سبعيتان. وهما: ضم الياء وكسر الحاء. من ألحد الرباعي، وهي قراءة الجمهور، وفتح الياء والحاء من لحد الثلاثي، وهي قراءة حمزة، وهما لغتان، لحد بمعنى: جار عن الحق، وألحد بمعنى: جادل وماری ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ في وقت من الأوقات، بل نحن نعلمهم فنجازيهم بإلحادهم.

والمعنى: أي إن الذين يميلون عن الحق في حججنا تكذيباً بها، وجحوداً لها، نحن بهم عالمون، لا يخفون علينا، ونحن لهم بالمرصاد إذا وردوا علينا، وسنجازيهم بما يستحقون، ولا يخفى ما في ذلك من شديد الوعيد، كان يقول الملك المعنيب: إن الذين ينازعونني في ملكي أعرفهم، ولا شكّ فهو يريد تهديدهم وإلقاء الرعب في قلوبهم، ثم بيّن كيفية الجزاء والتفاوت بين المؤمن والكافر، فقال ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف

---

(١) المراغي.

يقتضيه السياق، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أمن يلحد في آياتنا خير أم من يؤمن بها خير؟ فمن يلقي بإلحاده في النار على وجهه وهم الكفرة بأنواعهم خير، ﴿أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا﴾ بإيمانه من النار ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهو المؤمنون على طبقاتهم؛ يعني: أن الثاني في المعطوف والمعطوف عليه خير من الأولى. وقابل الإلقاء[1] في النار بالاتيان ﴿ءَامِنًا﴾ مبالغة في مدح حال المؤمنين بالتنصيص على أنهم آمنون يوم القيامة من جميع المخاوف، فلو قال: أم من يدخل الجنة.. لجاز من طريق الاحتمال أن يبدلهم الله من بعد خوفهم أمناً. ولك أن تقول: في الآية احتباك، حذف من الأول مقابل الثاني، ومن الثاني مقابل الأول، والتقدير: أفمن يأتي خائفاً ويلقى في النار خير أم من يأتي آمناً ويدخل الجنة؛ يعني: أن الثاني خير من الأول.

والغرض من هذا الاستفهام[2]: التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار، وأن المؤمنين بالآيات يأتون آمنين يوم القيامة، حين يجمع الله تعالى عباده للعرض عليه للحكم بينهم بالعدل. اهـ «خطيب». وترسم ﴿أم﴾ مفصولةً مِنْ مَنْ اتباعاً لمصحف الإمام، كما ذكره شيخ الإسلام في «شرح الجزرية».

ومعنى الآية: أفمن يلقى في النار لإلحاده بالآيات وتكذيبه للرسل، خير أم من آمن بها وجاء يوم القيامة من الآمنين، حين يجمع الله العباد للمجازاة، لا شكّ أنهما لا يستويان.

وظاهر الآية: العموم، وتمثيل حال المؤمن والكافر. وقيل: المراد بـ﴿من يلقى في النار﴾: أبو جهل، وبـ﴿من يأتي آمنا﴾: النبي ﷺ، وقيل: حمزة، وقيل: عمر بن الخطاب، وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وحملها على العموم أولى، اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وبعد أن أبان لهم عاقبة الملحدين بالآيات والمؤمنين بها.. هدَّدهم بقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ من الأعمال المؤدّية إلى ما ذكر من الإلقاء في النار، والاتيان آمناً، وآثروا ما شئتم، فقد علمتم مصير المسيء والمحسن، ولا تضرّون إلا

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات.

أنفسكم، فمن أراد الجزاء.. فليعمل له، فإنه لامقيه، وفيه تهديد شديد؛ لظهور أن ليس المقصود الأمر بكل عمل شاؤوا. قال في «الأسئلة المقحمة»: هو أمر وعيد، ومعناه: أن المهلة ما هي لعجز ولا لغفلةٍ، وإنما يعجل من يخاف الفوت، وهو أبلغ أسباب الوعيد ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم؛ أي: إنه بأعمالكم ذو خبرة وعلم لا تخفى عليه خافية منها ولا من غيرها، وهو مجازيكم بحسب أعمالكم خيراً أو شرًّا.

ثمّ بيّن أولئك الملحدين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾؛ أي: بالقرآن، فيكون[1] من وضع الظاهر موضع ضمير الآيات؛ أي: إن الذين بادهوا القرآن بالكفر والإنكار عليه ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: حين جاءهم، وأول ما سمعوه من غير إجالة فكر وإعادة نظر، وكذّبوا به على البديهة قبل التدبّر ومعرفة التأويل، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بدل من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ إلخ. بدل الكل بتكرير العامل، وخبر ﴿إِنَّ﴾ هو الخبر السابق، وهو ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾؛ لأنّ إلحادهم في الآيات كفر بالقرآن، فلهذا اكتفي بخبر الأول عن الثاني، إلا أنه غير معهود إلا في الجار والمجرور لشدة الاتصال. قال الرضي: ولا تكرر في اللفظ في البدل من العوامل إلا حرف الجر؛ لكونه كبعض حروف المجرور، وقيل: مستأنف، وخبرها محذوف، مثل: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ وذلك بعد قوله: ﴿حَمِيدٍ﴾. وقال الكسائي: سدّ مسدّه الخبر السابق، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن الذكر إلخ. جملة حالية من ﴿الذكر﴾ مفيدة لغاية شناعة الكفر به؛ أي: إن الذين كفروا بالذكر، والحال أن الذكر ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾؛ أي: كثير المنافع، عديم النظير لا يخفون علينا، أو سوف نصليهم ناراً، فهو[2] من العز الذي هو خلاف الذل، أو منيع لا تتأتى معارضته وإبطاله وتحريفه، فهو من العزة بمعنى الغلبة، فالقرآن وإن كان لا يخلو عن طعنٍ باطلٍ من الطاعنين، وتأويل فاسد من المبطلين، إلا أنه يؤتى بحفظةٍ، ويقدّر له في كل عصر منعة يحرسونه بإبطال شبه أهل الزيغ والأهواء، وردّ تأويلاتهم الفاسدة، فهو غالب بحفظ الله إياه، وكثرة منعته على كل من يتعرض له بالسوء.

وقوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾؛ أي: التكذيب ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾؛ أي: من الكتب

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

السابقة عليه، كالتوراة والإنجيل والزبور ﴿وَلَا﴾ يأتي ﴿مِنْ خَلْفِهِۦ﴾؛ أي: من بعده كتاب يكذّبه وينسخه. قاله سعيد بن جبير والكلبي، صفة أخرى لـ﴿كِتَٰبٌ﴾ أو المعنى: لا يتطرّق إليه الباطل، ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات الست، حتى يصل إليه ويتعلق به؛ أي: متى راموا إبطالاً له لم يصلوا إليه، ذكر أظهر الجهات وأكثرها في الاعتبار وهو جهة القدّام والخاف، وأريد الجهات بأسرها، فيكون قوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ...﴾ إلخ، استعارةً تمثلية، شُبّه الكتاب في عدم تطرّق الباطل إليه بوجه من الوجوه، بمن هو محمي بحماية غالب قاهر يمنع جاره من أن يتعرض له العدو من جهة من جهاته، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، بأن عبّر عن المشبّه بما عبّر به عن المشبّه به، فقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ...﴾ إلخ. أو المعنى: لا يأتيه الباطلُ فيما أخبر عما مضي، ولا فيما أخبر عن الأمور الآتية، أو الباطل هو الشيطان؛ أي: لا يستطيع أن يزيد فيه ولا ينقص منه. وقال الزجاج: معناه: أنه محفوظ من أن ينقص منه، فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه، فيأتيه الباطل من خلفه. وبه قال قتادة والسدّي.

قصارى ذلك: أنَّ الباطل لا يتطرّق إليه، ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه، فكل ما فيه حق وصدق، وليس فيه ما لا يطابق الواقع، ﴿تَنزِيلٌ﴾؛ أي: هو تنزيل، أو[1] صفة أخرى لـ﴿كِتَٰبٌ﴾ مفيدة لفخامته الإضافية بعد إفادة فخامته الذاتيه، وكل ذلك لتأكيد بطلان الكفر بالقرآن ﴿مِّنْ حَكِيمٍ﴾؛ أي: حكيم مانع عن تبديل معانيه بإحكام مبانيه ﴿حَمِيدٍ﴾؛ أي: حميد مستحق للتحميد بإلهام معانيه، أو يحمده كل خلق في كل مكان بلسان الحال والمقال بما وصل إليه من نعمه، أو المعنى: هو تنزيل من عند ذي الحكمة بتدبير شؤون عباده، المحمود على ما أسدى إليهم من النعم التي منها تنزيل هذا الكاتب، بل هو أجلّها.

ثم سلّى سبحانه رسوله ﷺ عن ما كان يتأثر له، من أذيّة الكفار، فقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾؛ أي: ما يقال في شأنك وفي شأن ما أنزل إليك من القرآن من جهة كفّار قومك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ من جهة قومهم؛ أي: إلا مثل ما قد قيل في حقهم وفي حق الكتاب السماوية المنزّلة عليهم، مما لا خير فيه، من الساحر

---

(١) روح البيان.

والكاهن والمجنون والأساطين ونحوها؛ أي[1]: ما يقول لك هؤلاء المشركون المكذّبون ما جئتهم به من عند ربّك، إلا مثل ما قالته الأمم التي كذّبت رسلها من قبلهم، فاصبر على ما نالك منهم من أذًى كما صبر أولو العزم من الرسل. وقد يكون المعنى: ما يقال لك من التوحيد، وإخلاص العبادة له إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك التوحيد، وإن اختلفت في غيره تبعاً للزمان والمكان. وقيل[2]: هو استفهام؛ أي: أيُّ شيء يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك؟ ونحو الآية على المعنى الأول قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ وعلى المعنى الثاني قوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾.

ثمَّ ذكر علة أمره بالصبر فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٍ﴾ لأنبيائه ومن آمن بهم ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم الذين لم يؤمنوا بهم. وبما أنزل إليهم، والتزموا الأذيّة بهم، وقد نصر من قبلك من الرسل، وانتقم من أعدائهم، وسيفعل مثل ذلك بك وبأعدائك أيضاً، أو المعنى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٍ﴾ لمن يستحق مغفرته من الموحّدين، الذين بايعوك وبايعوا من قبلك من الأنبياء ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ للكفار المكذّبين، المعادين لرسل الله تعالى. أو المعنى[3]: إن ربك لذو مغفرة للتائبين إليه من ذنوبهم، بالصفح عنهم، وذو عقاب مؤلم لمن أصرّ على كفره، ومات على ذلك قبل التوبة.

وفي الآية[4]: إشارة إلى حال العلماء والدعاة، فإنهم ورثة الأنبياء، فلهم أعداء وحسّاد يطلقون ألسنتهم في حقهم باللوم والطعن بالجنون والجهل ونحو ذلك، ولكنهم يصبرون على الجفاء والأذىٰ، فيظفرون بمراداتهم كما صبر الأنبياء فظفروا، وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾؛ أي: ظاهراً بهلاك قومهم، أو بإجابة الدعوة وباطنا بالتخلق بالأخلاق الإلهية مثل الصبر، فإنه نصر أيُّ نصر، إذ به يحصل المرام، وبالصبر ينقلب الإنسان

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

من حال إلى حال أخرى أحسن من الأولى، كما ينقلب النحاس بالإكسير فضةً أو ذهباً.

ودلّت الآية أيضاً[(١)]: على أنه ليس من الحكمة أن يقطع لسان الخلق بعضهم عن بعض، ألا ترى أنه تعالى لم يقطع لسان الخلق عن ذاته الكريمة، حتى قالوا في حقه تعالى: إن له صاحبةً وولداً ونحو ذلك، فكيف غيره تعالى من الأنبياء والمرسلين والعلماء والمقرّبين، فالنار لا ترتفع من الدنيا إلا يوم القيامة، وإنما يرتفع الاحتراق بها، كما وقع لإبراهيم عليه السلام وغيره من الخواص، فكل البلايا كالنار، فبطون العلماء والأولياء وقلوب الصديقين في سلامة من الاحتراق بها، فإنه لا يجري إلا ما قضاه الله تعالى، ومن آمن بقضاء الله.. سَلِمَ من الاعتراض والانقباض، وهكذا شأن الكبار، نسأل الله الغفّار السلامة من عذاب النار.

ثمَّ أجاب عن شبهةٍ قالوها: وهي هلا نزل القرآن بلغة العجم، فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: ولو جعلنا هذا الذكر والقرآن الذي تقرؤُهُ على الناس ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾؛ أي: قرآناً منتظماً على لغة العجم مؤلفاً عليها. والأعجمي في الأصل يقال لذات من لا يفصح عن مراده بلغة لسانه، وإن كان من العرب، ولكلامه الملتبس الذي لا يوضّح المعنى المقصود، أطلق ههنا على كلام مؤلّف على لغة العجم بطريق الاستعارة، تشبيهاً له بكلام من لا يفصح، من حيث إنه لا يفهم معناه بالنسبة إلى العرب، وهذا جواب لقول قريش تعنّتاً: هلاّ أنزل القرآن بلغة العجم.. ﴿لَّقَالُواْ﴾: جواب ﴿لو﴾ الشرطية؛ أي: لقال كفار قريش: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾؛ أي: هلاّ بيّنت آياته، وفصلت دلائله بلسان نفقهه من غير ترجمان عجمي، وهو من كان منسوباً إلى أمة العجم فصيحاً كان أو غير فصيح، و﴿لَوْلَا﴾ هنا: حرف تحضيض بمعنى: هلاّ، وحرف التحضيض إذا دخل على الماضي.. كان معناه: اللوم والتوبيخ على ترك الفعل، فهو في الماضي بمعنى الإنكار.

والاستفهام في قوله: ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ للإنكار، وهو من جملة كلام المشركين، مقرر للإنكار المفهوم من التحضيض، والأعجمي: كلام لا يفهم معناه،

---

(١) روح البيان.

ولغة العجم كذلك بالنسبة إلى العرب. و﴿الهمزة﴾ الأولى فيه: للاستفهام الإنكاري، والثانية: جزء كلمة، و﴿الياء﴾: فيه ليست للنسبة، بل للمبالغة في الوصف كالأحمري.

والمعنى: ولو جعلناه قرآناً أعجمياً.. لأنكروا وقالوا: لولا فصلت آياته بلسان نفهمه، إن كان من عند الله أهو؛ أي: القرآن أعجميٌّ وهو؛ أي: المرسل به أو المرسل إليه عربي، فكيف يرسل الكلام العجمي مع الرسول العربي؟ أو كيف يرسل الكلام العجميّ إلى القوم العربي؟ لحصول التنافي بين الكلام وبين الآتي به، أو بين الكلام وبين المخاطب به، مع كون المرسل إليه أمةً جمةً.

وحاصل المعنى: أي[1] ولو جعلنا هذا القرآن الذي أنزل إليك بلغة العجم.. لقال قومك من قريش: هلا بينت أدلته وما فيه من حكم وأحكام بلغة العرب، حتى نفقهه ونعلم ما هو وما فيه وكانوا يقولون منكرين: أقرآن أعجمي ولسان المرسل إليهم عربي.

وخلاصة ذلك: لو نزل بلسان أعجمي.. لقالوا: هلاّ بيّنت آياته باللسان الذي نفهمه، ولقالوا: أكلام أعجمي، والمرسل إليهم عرب خلص.

قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش وحفص[2]: بهمزتين محققتين، وقرأ الجمهور: ﴿أعجمي﴾ بهمزة الاستفهام بعدها مدة هي حمزة أعجمي، وقياسها في التخفيف: التسهيل بين بين؛ أي: وقالوا منكرين: أهو قرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي؟ وتأوله ابن جبير أن معنى قوله: أعجمي وعربي؛ أي: أهو قرآنٌ أعجمي ونحن عرب؟ مالنا وللعجمة؟ وقرأ الحسن وأبو الأسود والجحدري وسلاّم والضحاك وابن عباس وابن عامر: بخلاف عنهما، وأبو العالية ونصر بن عاصم وهشام: بهمزة واحدة هي أصل الكلمة وسكون العين بدون استفهام ولا إنشاء، والكلام حينئذ على الإخبار، والتفصيل في قوله: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ﴾ بمعنى: التفريق والتمييز، لا بمعنى التبيين، كما في القراءة الأولى، والمعنى حينئذ: ولو جعلنا المنزّل كله أعجميًا.. لقالوا: لولا فصلت آياته وميّزت، بأن جعل بعضها

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

أعجمياً لإفهام العجم، وبعضها عربياً لإفهام العرب، فهو؛ أي: القرآن حينئذ أعجمي وعربي.

وقرأ عمرو بن ميمون: ﴿أعجمي﴾ بهمزة استفهام وفتح العين.

والمقصود من هذا الكلام[1]: بيان أنّ آيات الله على أيّ وجه جاءتهم.. وجدوا فيها متعنتاً يتعلّلون به؛ لأنّ القوم غير طالبين للحق، وإنما يتبعون أهواءَهم. وفي «التأويلات النجمية»: يشير سبحانه إلى إزالة العلة وإزاحتها لمن أراد أن يعرف صدق الدعوة وصحة الشريعة، فإنه لا نهاية للتعليل بمثل هذه التعلُّلات؛ لأنه تعالى لو جعل القرآن أعجمياً وعربياً.. لقالوا: لولا جعله عبرانياً وسريانياً.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيبهم ببيان حال القرآن لدى المؤمنين والكافرين، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين، ردًّا على قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ...﴾ إلخ: ﴿هُوَ﴾؛ أي: هذا الذكر والقرآن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى﴾ يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴿وَشِفَآءٞۚ﴾ لما في الصدور من شكّ وشبهة، ولما في الأبدان من الأسقام والآلام؛ أي: قل[2] لهم: إن هذا القرآن الذين صدقوا بما جاء به من عند ربهم هادٍ إلى الحق، شافٍ لما في الصدور من ريبة وشك، ومن ثم جاء بلسانهم معجزاً بيّناً في نفسه، مبيّنا لغيره، ونحو الآية قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾ أو هو شفاء[3] حيث استراحوا به من كدّ الفكرة، وتحير الخواطر، أو شفاء لضيق صدور المريدين؛ لما فيه من التنعم بقراءَتِهِ، والتلذذ بالتفكر فيه، أو شفاء لقلوب المحبين من لواعج الاشتياق، لما فيه من لطائف المواعيد، أو شفاء لقلوب العارفين، لما يتوالى عليها من أنوار التحقيق، وآثار خطاب الرب العزيز.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ به ولا يصدقونك، مبتدأ، خبره: قوله: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾؛ أي: ثقل وصمم على أن التقدير هو؛ أي: القرآن في آذانهم وقر، على أن ﴿وَقۡرٞ﴾[4]: خبر للضمير المقدر و﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾: متعلق بمحذوف وقع حالاً عن

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) روح البيان.

﴿وَقْرٌ﴾ لبيان محل الوقر، وهو أوفق لقوله: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: القرآن ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الكفار المعاندين ﴿عَمًى﴾ وذلك لتصاممهم عن سماعه، وتعاميهم عما يريهم من الآيات، وهو بفتح الميم المنونة؛ أي: ذو عمى على معنى عميت قلوبهم عنه، وهو مصدر عمي يعمىٰ كعلم كما سيأتي. وفي «المفردات»: محتمل لعمى البصر والبصيرة جميعاً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَمًى﴾ بفتح الميم منوناً على أنه مصدر عمي، وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وابن عمر ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وابن هرمز: ﴿عمٍ﴾ بكسر الميم وتنوينه على أنه اسم منقوص وصف به مجازاً، وقرأ عمرو بن دينار[2]: بكسر الميم وفتح الياء على أنه فعل ماض، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى لقوله أولاً: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ ولم يقل: هاد وشاف.

والمعنى: أي والذين لا يؤمنون بالله ورسوله، وبما جاءهم به من عنده في آذانهم ثقل عن استماع هذا القرآن، فلا يستمعون له، بل يعرضون عنه، وهو عليهم عمىً، فلا يبصرون حججه ومواعظه، ونحو الآية قوله في وصفه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

ثم مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم له بحال من ينادى من مكان بعيد لا يسمع من يناديه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء الموصوفون بما ذكر من التصامم عن الحق الذي يستمعونه، والتعامي عن الآيات الظاهرة التي يشاهدونها ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ تمثيل لهم في عدم قبولهم واستماعهم للقرآن، بمن ينادى ويصاح به من مسافة بعيدة، لا يكاد يسمع من مثلها الأصوات.

قال الفراء: تقول للرجل الذي لا يفهم كلامك: أنت تنادى من مكان بعيد، ولثاقب الرأي إنك لتأخذ الأمور من مكان قريب، وقال مجاهد: من مكان بعيد من قلوبهم، وقال الضحاك: ينادون القيامة بأقبح أسمائهم من مكان بعيد؛ يعني: يقال: يا فاسق يا منافق يا كذا ويا كذا، فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وخزيهم.

ثم بين أن هؤلاء المكذبين ليسوا بدعاً بين الأمم في تكذيبهم بالقرآن، فقد

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

اختلف من قبلهم في التوراة، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد آتينا موسى بن عمران الكتاب، وأنزلنا عليه التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ﴾؛ أي: في ذلك الكتاب، فمن مصدق له ومن مكذب، وغيّروه من بعده بخمس مئة عام، وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك من القرآن، فمن مؤمن به ومن كافر، وإن كانوا لا يقدرون على تحريفه، فإنا له لحافظون، فالاختلاف في شأن الكتب عادة قديمة للأمم، غير مختص بقومك، ففيه تسلية له ﷺ.

والمعنى: أي والله لقد أرسلنا موسى وآتيناه التوراة فاختلفوا فيها، فمن مصدق بها ومن مكذب، وهكذا شأن قومك معك، فمن مصدق بكتابك ومن مكذب به، فلا تأس على ما فعلوا معك، واسلك سبيل أولي العزم من الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، فقد أوذوا وصبروا، وكان النصر حليفهم، والتوفيق أليفهم، وكتب الله لهم الفَلَجَ والظفر والفوز على أعدائهم المشركين، وأهلك الله القوم الظالمين.

ثم أخبر سبحانه أنه أخر عذابهم إلى حين، ولم يعاجلهم بالعقاب على ما اجترحوا من تكذيب الرسول، وجحدهم بكتابه، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وقضاء نفذ منه في حق أمتك المكذبة، وهي العدة بتأخير عذابهم، وتأخير الفصل بينهم وبين المؤمنين من الخصومة إلى يوم القيامة بنحو قوله سبحانه: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ﴾. ﴿لَقُضِيَ﴾ في الدنيا، وحكم ﴿بَيْنَهُمْۚ﴾؛ أي: بين المكذبين والمؤمنين باستئصال المكذبين، كما فعل بمكذبي الأمم السالفة.

يقول الفقير: وإنما[1] لم يفعل الاستئصال، لأن نبينا ﷺ كان نبي الرحمة، ولأن مكة كانت مهاجر الأنبياء والمرسلين، ومهبط الملائكة المقربين، بأنواع رحمة رب العالمين، فلو وقع فيها الاستئصال.. لكانت مثل ديار عاد وثمود، ووقعت النفرة منها لقلوب الناس، وقد دعا إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ فكان من حكمته أن لا يجعل الحرم المبارك الآمن مصارع السوء، وأن يقيه من نتائج سخطه. انتهى.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: أي ولولا ما سبق من قضاء الله وحكمه فيهم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة.. فعجل الفصل بينهم فيما اختلفوا فيه، بإهلاك المكذبين، كما فعل بمكذبي الأمم السالفة.

ثم بين ما يقتضي إهلاكهم فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: وإن كفار قومك ﴿لَ﴾ كائنون ﴿في شك﴾ وريب ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من حقية هذا القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: موجب ذلك الشك للإضطراب فيه موقع في الإنكار به، والشك: عبارة عن تساوي الطرفين في التردد فيهما من غير ترجيح، والوهم: ملاحظة الطرف المرجوح، وكلاهما تصور لا حكم معه؛ أي: لا تصديق معه أصلاً، وقيل: إن المراد بالكناية: اليهود؛ أي: وإنهم في شك من التوراة مريب، والأول أولى.

أي: وإن قومك يا محمد لفي شك من أمر القرآن موجب لقلقهم واضطرابهم، فما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم حين قالوا ما قالوا، بل كانوا شاكين غير محققين لشيء مما كانوا فيه من عنادك ومقاومة دعوتك.

ثم بين أن الجزاء من جنس العمل، وأنه لا يظلم ربك أحداً، فقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ أي: عمل عملاً صالحاً؛ أي: عملاً موجباً لصلاح صاحبه، بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فعمله أو فنفعه لنفسه لا لغيره ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾؛ أي: ومن عمل عملاً فيه إساءة أدب الله ورسوله، بأن كذب كتب الله ورسله، وعمل بخلاف ما أمر به ونهى عنه ﴿فَعَلَيْهَا﴾؛ أي: فعلى نفسه ضرر إساءته وعقابها، لا على غيرها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

والمعنى: أي من عمل بطاعة الله في هذه الحياة الدنيا، فائتمر بأمر، انتهى عما نهى عنه.. فلنفسه جزاء عمله وثوابه؛ لأنه يجازى عليه الجزاء الذي هو له أهل، فينجو من النار ويدخل جنة النعيم، ومن عصى الله سبحانه.. فعلى نفسه جنى؛ لأنه أكسبها سخطه وأليم عذابه، وقد قالوا في أمثالهم: إنك لا تجنى من الشوك العنب.

﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ أيها الرسول ﴿بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: بحامل عقوبة ذنب على غير

---

(١) المراغي.

مكتسبه، فلا يُعذِبُ أحداً إلا بذنبه، ولا يقع منه الظلم لأحدٍ، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ بل هو[1] العادل المتفضل، الذي يجازي كل أحد بكسبه، وهو اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله، مبني على تنزيل ترك إثابة المحسن بعمله، أو إثابة الغير بعمله، وتنزيل التعذيب بغير إساءة، أو بإساءة غيره منزلة الظلم الذي يستحيل صدوره عنه سبحانه؛ أي: هو تعالىٰ منزه عن الظلم، يقال: من ظلم وعلم أنه يظلم.. فهو ظلام، وقال بعضهم: أصله: وما ربك بظالم، ثم نقل مع نفيه إلى صيغة المبالغة، فكانت المبالغة راجعةً إلى النفي، على معنى أن الظلم منفي عنه نفياً مؤكداً مضاعفاً، ولو جعل النفي داخلاً على صيغة المبالغة بتضعيف ظالم بدون نفيه، ثم أدخل عليه النفي.. لكان المعنى: أن تضعيف الظالم منفي عنه تعالى، ولا يلزم منه نفيه عن أصله، والله تعالى منزه عن الظلم مطلقاً. ويجوز أن يقال: صيغة المبالغة باعتبار كثرة العبد، لا باعتبار كثرة الظلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وفي الحديث القدسي: «إني حرمت الظلم على نفسي، وعلى عبادي فلا تظالموا» والظلم: هو التصرف في ملك الغير، أو مجاوز الحد، وهذا محال في حق الله تعالى؛ لأن العالم كله ملك له سبحانه وتعالى، وليس فوقه أحد يحد له حداً فيتجاوز عنه.

فالمعنى: تقدست وتعاليت عن الظلم، وهو ممكن في حق العباد، ولكن الله منعهم عنه.

وفي الحديث: «من مشى خلف ظالم سبع خطوات.. فقد أجرم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾. وفي آخر: «من مشى مع ظالم ليعينه، وهو يعلم أنه ظالم.. فقد خرج عن الإسلام».

الإعراب

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) روح البيان.

﴿وَقَيَّضْنَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قضينا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿قُرَنَآءَ﴾: مفعول به. ﴿فَزَيَّنُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿زينوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿قضينا﴾. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿زينو﴾، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿زينوا﴾. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾، ﴿أَيْدِيهِمْ﴾: مضاف إليه. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: معطوف على ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾. ﴿وَحَقَّ﴾: فعل ماض، معطوف على ﴿قضينا﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿حق﴾. ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: فاعل. ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾: متعلق بمحذوف حال من ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: حق عليهم القول كائنين في جملة أمم، أو مندرجين في جملة أمم، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَتْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة: صفة لـ﴿أُمَمٍ﴾. ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ متعلق بـ﴿خَلَتْ﴾. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾: متعلق بمحذوف صفة ثانية لـ﴿أُمَمٍ﴾ أو حال منها لتخصصها بالصفة. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل استحقاقهم العذاب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، وجملة القول: مستأنفة مسوقة لتقرير حالهم ومكابرتهم عند قراءة القرآن. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَسْمَعُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة: في محل النصب مقول لـ﴿قال﴾ ﴿لِهَٰذَا﴾: متعلق بـ﴿تَسْمَعُوا۟﴾. ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾: بدل من اسم الإشارة. ﴿وَٱلْغَوْا۟﴾: فعل أمر وفاعل، معطوف على ﴿لَا تَسْمَعُوا۟﴾. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿الْغوا﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَغْلِبُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على أنها مسوقة لتعليل الأمر قبلها. والمراد بالغلبة: حمله على السكوت عن القراءة؛ لئلا يستهوي القلوب ويستميلها بقراءة ما لم تعهده من بيان. ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حال الذين كفروا ومكابرتهم عند قراءة القرآن، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك: لنذيقن... إلخ. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿نذيقن﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به أول، والجملة: جواب القسم لا محل لها، وجملة القسم: مقول لجواب إذا المقدرة. وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول ﴿عَذَابًا﴾: مفعول ثان لـ﴿نذيقن﴾. ﴿شَدِيدًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿نجزين﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ونون توكيد ومفعول أول، والجملة: معطوفة على جملة ﴿نذيقن﴾. ﴿أَسْوَأَ﴾: مفعول ثان لـ﴿نجزينهم﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: مضاف إليه. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانُواْ﴾: صلة الموصول.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿جَزَآءُ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلنَّارُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: جزاؤهم النار، أو مبتدأ، خبره: ما بعده، وهذا الإعراب هو الأوضح في معنى الكلام، وأما جعله بدلاً أو عطف بيان لجزاء.. فمعترض بأن علامة البدل: صحة حلوله محل المبدل عنه، فيصير التقدير: ذلك المذكور من الإذاقة والجزاء النار، وهذا لا يصح. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾: حال من دار الخلد. و﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: إما خبر عن النار بناءً على إعرابها مبتدأ، أو حال منها، أو مستأنفة مستقلة مقررة لما قبلها، وهذا أقعد بمكان البلاغة كما سيأتي. ﴿جَزَآءً﴾: مفعول مطلق منصوب بفعل مقدر، وهو مصدر مؤكد لعامله، تقديره: يجزون جزاء، والجملة: مستأنفة، أو منصوب بالمصدر المذكور قبله، أو مصدر واقع موقع الحال من النار. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَزَآءُ﴾ الثاني أو الأول. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿يَجْحَدُونَ﴾ لتضمنه معنى يكفرون، وذلك أولى من جعلها زائدة، وجملة ﴿يَجْحَدُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾: صلة لما الموصولة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿أَرِنَا﴾ ﴿أر﴾: فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع الباري

سبحانه، مبني على حذف حرف العلة، وفاعله: ضمير مستتر يعود على الله. و﴿نا﴾: مفعول أول، ﴿ٱلَّذَيْنِ﴾: مفعول ثان له، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء؛ لأن الرؤية بصرية، وقد عديت إلى اثنين بالهمزة، وجملة ﴿أَضَلَّانَا﴾: صلة لـ﴿ٱلَّذَيْنِ﴾، ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿أَضَلَّانَا﴾. ﴿نَجْعَلْهُمَا﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول أول مجزوم بالطلب السابق. ﴿تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿نجعل﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، والجملة الفعلية: لا محل لها من الإعراب، لأنها جملة جوابية. ﴿لِيَكُونَا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يكونا﴾: فعل مضارع ناقص واسمه، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿يكونا﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور: متعلق بـ﴿نَجْعَلْهُمَا﴾؛ أي: نجعلهما تحت أقدامنا لإرادة كونهما من الأسفلين في النار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿تَتَنَزَّلُ﴾: فعل مضارع. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لبيان حال المؤمنين في الدنيا. ﴿أَلَّا﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾: نافية، ﴿تَخَافُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، أو ﴿أن﴾: مخففة من الثقيلة، و﴿لا﴾: ناهية. ﴿تَخَافُوا۟﴾: مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وعلى كلا التقديرين ﴿أن﴾ ومدخولها: منصوب بنزع الخافض؛ أي: بأن لا تخافوا، الجار والمجرور: متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ تقديره: قائلين بـ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾: معطوف على ﴿تَخَافُوا۟﴾. ﴿وَأَبْشِرُوا۟﴾: معطوف أيضاً على ﴿تَخَافُوا۟﴾. ﴿بِٱلْجَنَّةِ﴾: متعلق بـ﴿أبشروا﴾. ﴿ٱلَّتِى﴾: صفة لـ﴿الجنة﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه، وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: صلة

الموصول.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول للقول المحذوف الذي وقع حالاً من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لأنه من تتمة مقول الملائكة. ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾: متعلق بـ﴿أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾؛ لأنه جمع ولي من الولاية بمعنى الحفظ؛ أي: نحن الحفظة لأعمالكم. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾. ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَلَكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكم﴾: خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ضمير المخاطبين، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ على كونها مقول القول، ﴿تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: تشتهيه أنفسكم. ﴿وَلَكُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾: حال من ضمير المخاطبين. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع، مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على ما قبلها، وجملة ﴿تَدَّعُونَ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ما تدعونه. ﴿نُزُلًا﴾: مصدر واقع في موضع الحال من الهاء المحذوفة في ﴿تَدَّعُونَ﴾، أو من ﴿مَا﴾ الموصولة؛ أي: ولكن فيها ما تدعونه حال كونه معداً لكم. ﴿مِّنْ غَفُورٍ﴾: صفة لـ﴿نُزُلًا﴾. ﴿رَّحِيمٍ﴾: صفة ﴿غَفُورٍ﴾ أو هو جمع نازل كصابر وصبر، فيكون حالاً من ﴿الواو﴾ في ﴿تَدَّعُونَ﴾، أو من ﴿الكاف﴾ في ﴿لكم﴾، فعلى هذا تتعلق ﴿مِّنْ غَفُورٍ﴾ بـ﴿تَدَّعُونَ﴾؛ أي: ما تطلبونه من ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَحْسَنُ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿قَوْلًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل. ﴿مِّمَّن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَحْسَنُ﴾، ﴿دَعَآ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿دَعَآ﴾ والجملة الفعلية: صلة ﴿مَن﴾

الموصولة. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿دَعَآ﴾. ﴿وَقَالَ﴾: معطوف على ما قبله أيضاً. ﴿إِنَّنِى﴾: ﴿إن﴾: حرف نصب، و﴿النون﴾: للوقاية، و﴿الياء﴾: اسمها. ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: خبرها، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: زائدة لتأكيد النفي. ﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾: معطوف على الحسنة، والجملة الفعلية: مستأنفة. ﴿ٱدْفَعْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿بِٱلَّتِى﴾: متعلق بـ﴿ٱدْفَعْ﴾. ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: صلة الموصول. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: إما تعليلية وهي التي كان ما بعدها علة لما قبلها، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا دفعت بالتي هي أحسن، وأردت بيان ثمرته.. فأقول لك: إذا الذي... إلخ. ﴿إذا﴾: فجائية، في محل النصب على الظرفية المكانية متعلق بمعنى التشبيه الآتي، والظرف يتقدم على عامله؛ لأنهم يتوسعون في الظروف ما لا يتوسعون في غيرها، أو حرف لا تحتاج إلى متعلق تتعلق به. ﴿ٱلَّذِى﴾: مبتدأ. ﴿بَيْنَكَ﴾: منصوب على الظرفية الاعتبارية. متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿وَبَيْنَهُۥ﴾: معطوف على ﴿بَيْنَكَ﴾. ﴿عَدَٰوَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: صلة الموصول. ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ ﴿كأن﴾: حرف نصب وتشبيه، و﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿وَلِىٌّ﴾: خبرها، ﴿حَمِيمٌ﴾: صفة ﴿وَلِىٌّ﴾ وجملة ﴿كأن﴾: في محل الرفع خبر الموصول؛ أعني: ﴿ٱلَّذِى﴾ والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، والتقدير: فأقول لك: الذي بينك وبينه عداوة مشبه بولي حميم في تلك الحضرة؛ أي: في المكان الذي حصل فيه دفع السيئة بالحسنة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة، ويجوز أن تكون الجملة التشبيهية في محل نصب على الحال، والموصول: مبتدأ أيضاً، و﴿إذا﴾ التي للمفاجأة: خبره، والعامل في هذا الظرف من الاستقرار هو: العامل في هذه الحال، ومحط الفائدة في هذا الكلام هو الحال، والتقدير: ففي الحضرة المعادي مشبهاً لولي الحميم، وقدمه أبو البقاء على

ما قبلها.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو اعتراضية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ومفعول ثان، والضمير لخصلة دفع السيئة بالحسنة. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: نائب فاعل لـ﴿يلقى﴾ والجملة الفعلية: مستأنفة أو اعتراضية، وجملة ﴿صَبَرُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾: فعل مضارع ومفعول ثان. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿ذُو﴾: نائب فاعل لـ﴿يلقى﴾. ﴿حَظٍّ﴾: مضاف إليه، ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة ﴿حَظٍّ﴾ والجملة الفعلية: معطوفة على ما قبلها. ﴿وَإِمَّا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة. ﴿إما﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط أدغمت نونها في ﴿ما﴾ الزائدة. ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إِنَّ﴾ الشرطية؛ مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. و﴿الكاف﴾: مفعول به. ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: حال من ﴿نَزْغٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها و﴿نَزْغٌ﴾: فاعل. ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً. ﴿استعذ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿استعذ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿ٱدْفَعْ﴾، أو مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ. ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: خبران لـ﴿إن﴾ أو لـ﴿هُوَ﴾ والجملة: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالاستعاذة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾.

﴿وَمِنْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ءَايَٰتِهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلَّيْلُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾: معطوفات على ﴿ٱلَّيْلُ﴾ والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان جمل من آيات الله ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَسْجُدُواْ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿لِلشَّمْسِ﴾: متعلق به. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿لِلْقَمَرِ﴾: معطوف

على ﴿لِلشَّمْسِ﴾ والجملة: مستأنفة. ﴿وَٱسْجُدُواْ﴾: فعل أمر وفاعل معطوف على ﴿لَا تَسْجُدُواْ﴾، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿اسجدوا﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للجلالة. ﴿خَلَقَهُنَّ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة الموصول. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿إِيَّاهُ﴾: ضمير نصب منفصل في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿تَعْبُدُونَ﴾ وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إن﴾ الشرطية: محذوف دل عليه ما قبله، تقديره: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فاسجدوا لله الذي خلقهن. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة..

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ (٣٨)﴾.

﴿فَإِنِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا أمرتهم بالسجود، وأردت بيان ما هو اللازم لك إذا أبوا من السجود.. فأقول لك: ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾: فعل ماض وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وجوابها: محذوف، تقديره: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن السجود.. فدعهم وشأنهم، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية للجواب المحذوف. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول، والظرفية هنا ظرفية مكانة وتشريف، وهي عبارة عن الزلفى والكرامة. ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ﴿يُسَبِّحُونَ﴾. ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: ظرفان متعلقان بـ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أيضاً، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مسوقة لتعليل الجواب المحذوف. ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة: ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿يُسَبِّحُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: خبر مقدم. ﴿أَنَّكَ﴾: ناصب واسمه. ﴿تَرَى﴾: فعل مضارع،

وفاعل مستتر يعود على محمد أو على أي مخاطب. ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به؛ لأن رأى بصرية. ﴿خَٰشِعَةً﴾: حال من ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ ولك أن تجعل الرؤية علمية، فيكون ﴿خَٰشِعَةً﴾: مفعولاً ثانياً لها وجملة ﴿تَرَى﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء والتقدير ومن آياته رؤيتك ﴿ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾؛ أي: خشوعها ويبوستها، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾. ﴿فَإِذَآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلْنَا﴾، ﴿ٱلْمَآءَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب الآتي. ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْأَرْضَ﴾. ﴿وَرَبَتْ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية: جواب ﴿إذا﴾: لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿أَنَّكَ﴾، والتقدير: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ رؤيتك ﴿ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ واهتزازها وربوها وقت إنزالنا الماء عليها، ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَحْيَاهَا﴾: صلة الموصول. ﴿لَمُحْيِ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿محي الموتى﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾. و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل جملة ﴿إِنَّ﴾ المذكورة قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يُلْحِدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: متعلق به، والجملة: صلة الموصول. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَخْفَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لبيان حال الملحدين. ﴿عَلَيْنَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿يَخْفَوْنَ﴾. ﴿أَفَمَن﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري؛ أي: لتقرير وتعيين أحد المستويين، داخلة على محذوف معلوم من السياق، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أمن يلحد في آياتنا خير أم من يؤمن بها خير؟ فمن يلقى في النار خير أم من يدخل الجنة خير؟ والجملة المحذوفة: مستأنفة أو إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿من﴾: اسم موصول مبتدأ. ﴿يُلْقَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل مستتر. ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾:

متعلق به، والجملة: صلة الموصول ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَم﴾: حرف عطف. ﴿مَّن﴾: اسم موصول معطوفة على ﴿مَّن﴾ الأولى، وجملة ﴿يَأْتِيٓ﴾: صلته. ﴿ءَامِنًا﴾: حال من فاعل ﴿يَأْتِيٓ﴾. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَأْتِيٓ﴾ أو بـ﴿ءَامِنًا﴾، وكان مقتضى السياق أن يقال: أم من يدخل الجنة، ولكن عدل عنه إلى ما ذكر، ليصرح بأمنهم انتفاء الخوف عنهم أصلاً، وذلك أثلج لصدورهم وأقر لعيونهم. ﴿ٱعْمَلُواْ﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة: مستأنفة مسوقة للتهديد، وجملة ﴿شِئْتُمْ﴾: صلة الموصول، والعائد: محذوف؛ أي: ما شئتموه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾ وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾. ﴿بَصِيرٌ﴾ خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿بِٱلذِّكْرِ﴾: متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين مجرد عن معنى الشرط متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾ ﴿جَآءَهُمْۖ﴾: فعل ومفعول، وفاعله: ضمير يعود على الذكر، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾ وخبر ﴿إِنَّ﴾: محذوف، تقديره: لا يخفون علينا، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة، وهذا الوجه أظهر الأوجه الجارية في خبر ﴿إِنَّ﴾، ويؤيده كون ﴿إِنَّ﴾ الثانية بدلاً من ﴿إن﴾ الأولى، فيجري عليها ما يجري على الأولى، فيكون خبرها نفس خبرها، وقيل: إنه محذوف، تقديره: معذبون أو مهلكون، وقيل: إنه محذوف، تقديره: نجازيهم، وقيل: خبرها: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ وقيل: خبرها قوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ كما هو مبين في المطولات مع علته. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿إنه﴾: ناصب واسمه. ﴿لَكِتَٰبٌ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿كتاب﴾: خبره ﴿عَزِيزٌ﴾: صفة ﴿كتاب﴾ والجملة: في محل النصب حال من ﴿الذكر﴾ وجملة ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾: صفة ثانية لـ﴿كتاب﴾. ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿يَأْتِيهِ﴾. ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ﴾: معطوف على ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾. ﴿تَنزِيلٌ﴾: خبر ثان لـ﴿إِنَّهُۥ﴾، ﴿مِّنْ حَكِيمٍ﴾: متعلق بـ﴿تَنزِيلٌ﴾. ﴿حَمِيدٍ﴾: صفة لـ﴿حَكِيمٍ﴾.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ

﴿٤٣﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿يُقَالُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ﴿يُقَالُ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿مَا﴾: نائب فاعل لـ﴿يُقَالُ﴾؛ أي: إلا مثل ما قيل للرسل. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿مَا﴾ والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، ﴿لِلرُّسُلِ﴾: متعلق بـ﴿قِيلَ﴾، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: حال من ﴿الرسل﴾. وجملة ﴿مَّا يُقَالُ﴾: مستأنفة مسوقة لتسليته ﷺ على ما يناله من أذى الكفار. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَذُو﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿ذو﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مَغْفِرَةٍ﴾: مضاف إليه. ﴿وَذُو عِقَابٍ﴾: معطوف على ﴿ذو مغفرة﴾. ﴿أَلِيمٍ﴾: صفة ﴿عِقَابٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالصبر الدال عليه السياق؛ أي: فاصبر على أذاهم، واعف عنهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿جَعَلْنَاهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿قُرْءَانًا﴾: مفعول ثان. ﴿أَعْجَمِيًّا﴾: صفة ﴿قُرْءَانًا﴾. ﴿لَّقَالُوا﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة مسوقة للرد على تساؤلهم ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا. ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعله، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿أعجمي﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو؛ أي: القرآن ﴿أعجمي﴾. ﴿وَعَرَبِىٌّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿عربي﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: وهو؛ أي: المرسل به ﴿عربي﴾ والجملة: معطوفة على جملة ﴿اعجمي﴾، والجملتان: في محل النصب مقولتان ﴿لَّقَالُوا﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور حال من ﴿هُدًى﴾؛ لأنه صفة نكرة تقدمت عليه، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾: صلة الموصول. ﴿هُدًى﴾: خبر المبتدأ. ﴿وَشِفَآءٌ﴾: معطوف على ﴿هُدًى﴾، والجملة الاسمية: في محل النصب

مقول ﴿قالوا﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ صلته والعائد محذوف تقديره لا يؤمنون به، ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾: خبر مقدم. ﴿وَقۡرٞ﴾: مبتدأ مؤخر، ولا بد من تقدير رابط؛ أي: منه، والجملة الاسمية: خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وجملة ﴿ٱلَّذِينَ﴾: معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قُلۡ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: حال من ﴿عَمًىۚ﴾، و﴿عَمًىۚ﴾: خبر المبتدأ، والجملة: معطوفة على ما قبلها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُنَادَوۡنَ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة، أو في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿مِن مَّكَانِۭ﴾: متعلق بـ﴿يُنَادَوۡنَ﴾: ﴿بَعِيدٖ﴾: صفة ﴿مَّكَانِۭ﴾.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فعل وفاعل ومفعولان، والجملة: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة مسوقة لبيان أن الاختلاف في أمر الكتب المنزلة ليس بدعاً، بل هو قديم في الأمم السالفة. ﴿فَٱخۡتُلِفَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿اختلف﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور نائب فاعل لـ﴿اختلف﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿اختلف﴾. ﴿وَلَوۡلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود ﴿كَلِمَةٞ﴾: مبتدأ، خبره: محذوف وجوباً لسد جواب ﴿لولا﴾: مسده، تقديره: موجودة. ﴿سَبَقَتۡ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿كَلِمَةٞ﴾. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: متعلق بـ﴿سَبَقَتۡ﴾ والجملة الفعلية: صفة لـ﴿كَلِمَةٞ﴾. ﴿لَقُضِيَ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿قضي﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾: منصوب على الظرفية الاعتبارية، والظرف: متعلق بـ﴿قضي﴾ على كونه نائب فاعل له، وقيل: نائب فاعله ضمير يعود على المصدر المفهوم من ﴿قضي﴾؛ أي: ﴿لَقُضِيَ﴾ القضاء ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ والجملة الفعلية: جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾: معطوفة على جملة ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى﴾. ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إنهم﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِي﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿في شك﴾: جار ومجرور خبر ﴿إنّ﴾. ﴿مِّنۡهُ﴾: متعلق بمحذوف صفة لـ﴿شَكّٖ﴾. ﴿مُرِيبٖ﴾: صفة ثانية لـ﴿شَكّٖ﴾ أو ﴿مِّنۡهُ﴾: متعلق

بـ﴿شَكٍّ﴾ ﴿مُرِيبٍ﴾ صفة لـ﴿شَكٍّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿لولا﴾.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿مَّنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿عَمِلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿مَّنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، أو نعت لمصدر محذوف، ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً. ﴿لنفسه﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فعمله لنفسه، والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ﴿مَّنْ﴾، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَّنْ﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿وَمَنْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الجواب. ﴿أَسَآءَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿مَّنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَعَلَيْهَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب. ﴿عليها﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فإساءته ﴿عليها﴾ والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ﴿مَّنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَّنْ﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿مَّنْ﴾ الأولى. ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: حجازية. ﴿رَبُّكَ﴾: اسمها، ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة. ﴿ظلام﴾: خبرها منصوب. ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾: متعلق بـ﴿ظلام﴾ وجملة ﴿مَا﴾ الحجازية: معطوفة على جملة ﴿مَّنْ﴾ الشرطية.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾؛ أي: يسرنا وهيأنا، من التقييض بمعنى التيسير والتهيئة، يقال: قيضته له؛ أي: هيأته ويسرته، ومنه المقايضة بمعنى المعاوضة، يقال: ثوبان قيضان؛ أي: كل منهما مكافىء للآخر في الثمن. ﴿قُرَنَآءَ﴾: جمع قرين، بمعنى: نظير؛ أي: أخداناً وأصحاباً وأصدقاء من غواة الجن والإنس، يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض، والقيض: القشر الأعلى من البيض.

﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾: فعل أمر من لغي بالكسر يلغى بالفتح، وفيها معنيان:

أحدهما: أنه من لَغِيَ: إذا تكلم باللغو، وهو: ما لا فائدة فيه.

والثاني: أنه من لَغَى بكذا: إذا رمى به، فتكون في بمعنى الباء؛ أي: ارموا

به وانبذوه، وإما أن يكون من لَغى بالفتح يلغى بالفتح أيضاً، كسَعى يسعى، حكاه الأخفش، وكان قياسه الضم، كغزا يغزو، ولكنه فتح لأجل حرف الحلق، وقرىء: بضم الغين، من لغا يلغو كدعا يدعو، هذا ما قرره السمين.

وعبارة الزمخشري: ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ بفتح الغين وضمها، يقال: لَغى يلغي ولغا يلغو، واللغو: الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته. والمعنى هنا؛ أي: عارضوه باللغو والباطل حين يقرأ لتشوّشوا عليه، وأصله على قراءة الفتح: الغيوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً فالتقى ساكنان ثم حذفت الألف فصار والغوا، وعلى قراءة الضم الغووا، تحركت الواو وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً فالتقى ساكنان فحذفت الألف، ثم حركت عين الكلمة بالضم؛ لتدل على الواو المحذوفة فصار: والغوا.

﴿رَبَّنَآ أَرِنَا﴾ من رأى البصرية، و﴿الهمزة﴾: للتعدية إلى مفعول ثان، فالضمير مفعول أول، والموصول مفعول ثان. كما مر. وأصله: أرئينا؛ أي: صيرنا رائين بأبصارنا، فحذفت الياء التي هي لام الكلمة لبناء الفعل على حذف حرف العلة، و﴿الهمزة﴾: الثانية التي هي عين الكلمة لنقل حركتها إلى الراء قبلها، التي هي فاء الكلمة، فصار وزنه أفنا، فإن الهمزة الموجودة ليست من الكلمة بل هي لتعدية الفعل. اهـ شيخنا.

﴿أَضَلَّانَا﴾ أصله: أضللانا، نقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد فسكنت فأدغمت في اللام الثانية ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ والفرق بين الخوف والحزن: أن الخوف غم يلحق الإنسان لخوف مكروه في المستقبل، والحزن: غم يلحق الإنسان من فوات نافع أو حصول ضار. قوله: ﴿ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ أصل: استقوموا، نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت ثم قلبت الواو ألفاً لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن. ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ جمع ولي، أصله: أولياي، أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ أصله: تدتعيون، تفتعلون، أبدلت تاء الافتعال دالاً وأدغمت فيها الدال فاء الكلمة، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت.. التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت العين لمناسبة الواو، فهو افتعال من الدعاء بمعنى الطلب. وفي المصباح: وادعيت الشيء تمنيته وادعيته طلبته. اهـ. ﴿وما يلقاها﴾ أصله: يلقيها بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها،

من التلقية نظير زكى تزكيةً.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ أصله: إن ما على أن ﴿إنْ﴾: شرطية، و﴿ما﴾ مزيدة لتأكيد معنى الشرط والاستلزام، فلذا لحقت نون التوكيد بفعل الشرط، فإنها لا تلحق الشرط ما لم يؤكد، والنزغ والنسغ بمعنًى وهو شبه النخس، والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه يبعثه على ما لا ينبغي، والمراد: الوسوسة. وفي معاجم اللغة: نزغ ينزغ، من باب ضرب نزغاً، نزغ بين القوم: أفسد، ويقال: نزغ الشيطان بينهم؛ أي: أغرى بعضهم ببعض، ونزغه الشيطان إلى المعاصي؛ أي: حثه، ونزغ الشيطان: وساوسه وما يحمل الإنسان على المعاصي.

﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ من السآمة، وهي الملالة؛ أي: لا يملون ولا يفترون. ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ من الاهتزاز؛ وهو التحرك؛ أي: تحرك بالنبات. ﴿وَرَبَتْ﴾ يقال: ربا ربواً ورباً: زاد ونما، والفرس ربواً: إذا انتفخ من عدْوٍ أو فَزع. وقال الراغب: ﴿وَرَبَتْ﴾؛ أي: زادت زيادة المتربي، ويقال: للموضع المرتفع: ربوة ورابية، وأصله: ربو، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم لما اتصلت تاء التأنيث بالفعل.. التقى ساكنان فحذفت الألف. ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ من الإلحاد، والإلحاد في الأصل: مطلق الميل والانحراف، ومنه اللحد؛ لأنه في جانب القبر، ثم خص في العرف بالانحراف عن الحق إلى الباطل؛ أي: يميلون عن الاستقامة، وهو بضم الياء: مضارع ألحد في دين الله؛ أي: جار وعدل، وقرىء: بفتح الياء مضارع لحد من باب قطع لغة فيه. وقال في «الكشاف»: يقال: ألحد الحافر ولحد: إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق.

﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أصله: يخفيون، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: يلقى بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الياء فيه منقلبة عن واوه. ﴿شِئْتُمْ﴾ أصله: شيء بوزن فعل، بكسر العين، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم لما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك.. سكن آخره فالتقى ساكنان: الألف وآخر الفعل، فحذفت الألف فصار اللفظ شأت، فحذفت حركة فائه، ونقلت إليها حركة مجانسة لتلك العين المحذوفة؛ لتدل عليها، ولما كانت العين هنا ياءً.. نقلت إلى الفاء كسرة؛ لأنها هي التي تناسب الياء، وهكذا كل أجوف من هذا النوع.

﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ قال أبو حيان: والياء فيه: للمبالغة في الوصف، وليس النسب فيه حقيقياً كأحمري ودراري. قال الرازي في «لوامحه»: فهي كياء كرسي وبختي، وفرق بينهما الشيخ، فقال: ليست كياء كرسي وبختي، فإن ياء كرسي وبختي بنيت الكلمة عليها بخلاف أعجمي، فإنهم يقولون: رجل أعجم وعجمي، والأعجمي: هو الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه.

﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أصله: يناديون، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿مَّكَانٍ﴾ أصله: مكون بوزن مفعل اسم مكان، نقلت حركة الواو إلى الكاف، ثم أبدلت الواو ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها حالاً. ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ مصدر: عمِيَ يعمَىٰ كصدِي يصدى صدًى، هوِي يهوَى هوًى. ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾ الأصل فيه: أسوأ، بوزن أفعل، نقلت حركة الواو إلى السين، ثم أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل، وانفتاح ما قبلها الآن.

﴿بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: بذي ظلم؛ فظلام: صيغة نسب، كتمار ويقال وخباز، لا صيغة مبالغة، وهذا التقرير أحسن من غيره.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وقد تقدم إجراؤها كثيراً.

ومنها: التجريد في قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله، مبالغةً لكماله فيها، وله أقسام.

فمنه: ما يكون بدخول في المنتزع منه كما هنا: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾؛ أي: في جهنم، وهي دار الخلد، لكنه انتزع منها داراً أخرى مبالغة.

ومنه: ما يكون بـ﴿من﴾ التجريدية كقولهم: لي من فلان صديق حميم؛ أي: قد بلغ فلان حداً من الصداقة، يصح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها، وله أقسام كثيرة مذكورة في محلها.

ومنها: الحصر المستفاد من تعريف طرفي الجملة في قوله: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما لنا رب إلا الله سبحانه، مثل: صديقي زيد.

ومنها: الإيجاز البليغ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾؛ لأن الاستقامة كلمة شملت جميع صفات التقوى.

ومنها: الطباق بين الحزن والبشارة في قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ﴾ وفي قوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾، وفي قوله: ﴿عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾؛ لأن الولاية بمعنى الصداقة.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ و﴿أَحْسَنُ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ مبالغةً في التأكيد.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿ولا﴾ و﴿قال﴾ في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، وفي قوله: ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾؛ لأن النزل حقيقة فيما يعد للضيف من الطعام النفيس، ثم استعير لرزق الجنة.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ شبه وسوسة الشيطان بالنزغ الذي هو النخس والطعن؛ لأنها بعث على الشر وتحريك على ما لا ينبغي، وفيه أيضاً التجريد المشتمل على من التجريدية في قوله: ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ لأنه جرد من الشيطان شيطاناً آخر، وسماه نازغاً.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾؛ لأنه ذُكِرَتْ فيه أداة التشبيه فهو مرسل، وحذف منه وجه الشبه فهو مجمل.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ مستعار الخشوع بمعنى التذلل، شبه يبس الأرض وخلوها عن الخير والبركة بكون الشخص خاشعاً ذليلاً عارياً لا يؤبه به لدناءة هيئته، فهي استعارة تبعية بمعنى يابسة جدبة.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا﴾؛ لأن الإحياء في الحقيقة: إعطاء الحياة، وهي صفة تقتضي الحس والحركة، استعارة لإنبات الأرض، فالمراد بإحياء الأرض: تهييج القوى النامية فيها، وإحداث نضارتها بأنواع النبات.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ وهو: أن يحذف من كل من المتقابلين نظير ما أثبته في الآخر، وأصل الكلام: ﴿أَفَمَن﴾ يأتي خائفاً و﴿يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا﴾ ويدخل الجنة.

ومنها: الأمر التهديدي في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾؛ لأن المقصود بالأمر هنا: التهديد والوعيد لا طلب الفعل.

ومنها: الطباق بين ﴿مغفرة وعقاب﴾، وبين ﴿أعجمي﴾ و﴿عربي﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ شبه حالهم في عدم قبول المواعظ وإعراضهم عن القرآن وما فيه، بحال من ينادى من مكان بعيد فلا يسمع ولا يفهم ما ينادى به، والجامع عدم الفهم في كل.

ومنها: وضع الظاهر موضع ضمير الآيات في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ وكان مقتضى السياق أن يقال: إن الذين كفروا بها؛ لتقدم المرجع في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾؛ لأن هذه الجملة بدل من تلك الجملة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ شبه الكتاب في عدم تطرق الباطل إليه بوجه من الوجوه، بمن هو محمي بحماية غالب قاهر يمنع جاره من أن يتعرض له العدو من جهة من جهاته، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، بأن عبر عن المشبه بما عبر به عن المشبه به، فقال: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ...﴾ إلخ.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ فإنه أطلق الأعجمي هنا على كلام مؤلف على لغة العجم بطريق الاستعارة، تشبيهاً له بكلام من لا يفصح، من حيث إنه لا يفهم معناه بالنسبة إلى العرب.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾؛ أي: هاد وشاف لهم، ففي إطلاق المصدر وإرادة اسم الفاعل.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾.

ومنها: الاعتراض التذييلي المقرر لمضمون ما قبله في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فإنه مبني على تنزيل ترك إثابة المحسن بعمله، أو إثابة الغير بعمله، وتنزيل التعذيب بغير إساءة، أو بإساءة غيره منزلة الظلم الذي يستحيل صدوره من الله سبحانه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) وقع الفراغ من تفسير هذه السورة الكريمة أوائل ليلة الجمعة، الليلة الثامنة عشرة من شهر الله رجب الفرد، من شهور سنة ١٨/ ٧/ ١٤١٤ ألفٍ وأربع مئة وأربع عشرة من الهجرة النبوية، عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيات، وعلى جميع الآل والصحابات، ونتفرّغ بحول الله تعالى وتيسيره لتفسير سورة غافر، نسأل الله تعالى الإعانة على التمام والإكمال، كما أعان على الابتداء والافتتاح، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين، آمين آمين، آمين، ألف ألف آمين، يا رب العالمين.

وهذا آخر ما وفقني الله سبحانه من تفسير هذا الجزء من الكتاب الكريم، فالحمد لله على ما حبا، والشكر له على ما أسدى، والصلاة والسلام على نبي الرحمة والهدى، سيدنا محمد خير من وحّد ودعا، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء، صلاةً وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين.

اللهم وفقنا بالصالحات، وجنبنا عن الموبقات، واختم لنا بالشهادات، وألهمنا العمل لما يرضيك، والبعد عما يسخطك بفضلك وجودك وكرمك وإحسانك.

وكان الفراغ من هذا المجلد يوم الأربعاء، وقت الضحوة، اليوم الرابع من شهر شوال، من شهور سنة أربع عشرة وأربع مئة وألف ٤/ ١٠/ ١٤١٤ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيات، في مكة المكرمة، جوار الحرم الشريف، حارة الرشد من المسفلة، أمام المسجد السندي.

وهذا آخر المجلد الخامس والعشرين، ويليه المجلد السادس والعشرون، وأوله قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

شعرٌ

إِذَا مَــا رَأَيْــتَ لَــحِــيْــنَــا ... كُــنْ سَــاتِــراً وَحَــلِــيْــمَــا
يَــا مَــنْ يُــقَــبِّــحُ سَــطْــرِيْ ... لِــمْ لاَ تَــمُــرُّ كَــرِيْــمَــا

آخرُ

اَلْــعَــبْــدُ ذُو ضَــجَــرٍ وَٱلــرَّبُّ ذُوْ قَــدَرٍ ... وَٱلــدَّهْــرُ ذُوْ دُوَلٍ وَٱلْــعِــلْــمُ مَــقْــسُــوْمُ
وَٱلْخَيْرُ أَجْمَعُ فِيْمَا ٱخْتَارَ خَالِقُنَا ... وَفِيْ ٱخْتِيَارِ سِوَاهُ ٱللَّوْمُ وَٱلشُّوْمُ

آخرُ

أُعَــلِّــمُــهُ ٱلــرِّمَــايَــةَ كُــلَّ يَــوْمٍ ... فَــلَــمَّــا ٱشْــتَــدَّ سَــاعِــدُهُ رَمَــانِــيْ
أُعَــلِّــمُــهُ ٱلْــقَــوَافِــيَ كُــلَّ حِــيْــنٍ ... فَــلَــمَّــا قَــالَ قَــافِــيَــةً هَــجَــانِــيْ

آخرُ

لَــقَــدْ رَبَّــيْــتُ جَــرْوَاً طُــوْلَ عُــمْــرِيْ ... فَــلَــمَّــا صَــارَ كَــلْــبَــاً عَــضَّ رِجْــلِــيْ

الفهرس

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد السادس والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

أَتَاكَ ٱلرُّوحُ يَلْفِظُ بِٱلْغَوَالِيْ وَيَرْمِيْ بِٱلزَّبَرْجَدِ وَٱللآلِيْ
يَقُوْلُ لِسَابِحِيْهِ وَخَائِضِيْهِ هَلُمُّوْا فَٱلنَّفَائِسُ فِيْ خِلاَلِيْ

آخرُ

كُنْ مِنَ ٱلْخَلْقِ جَانِبَاً وَٱرْضَ بِٱللَّهِ صَاحِبَا
قَلِّبِ ٱلْخَلْقَ كَيْفَ شِئْـ ـتَ تَجِدْهُ عَقَارِبَا

آخرُ

بِلاَدُ ٱللَّهِ وَاسِعَةٌ فَضَاءً وَرِزْقُ ٱللَّهِ فِيْ ٱلدُّنْيَا فَسِيْحُ
فَقُلْ لِلْقَاعِدِيْنَ عَلَىٰ هَوَانٍ إِذَا ضَاقَتْ بِكُمْ أَرْضٌ فَسِيْحُوْا

آخرُ

لاَ تَرْضَ مِنْ رَجُلٍ حَلاَوَةَ قَوْلِهِ حَتَّىٰ يُزَيِّنَ مَا يَقُوْلُ فِعَالُ
وَإِذَا وَزَنْتَ فِعَالَهُ بِمَقَالِهِ فَتَوَازَنَا فَإِخَاءُ ذَاكَ جَمَالُ

آخرُ

مِحَنُ ٱلزَّمَانِ كَثِيْرَةٌ لاَ تَنْقَضِيْ وَسُرُوْرُهُ يَأْتِيْكَ كَٱلأَعْيَادِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمداً لك يا فارق الفرقان، ويا منزل القرآن، على ما أكرمتنا بنعمة الإيمان وخصصتنا بصنوف العرفان، والصلاة والسلام على من اصطفيته، من ولد عدنان، وأرسلته لهدايتنا بأفضل الأديان، سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه، من حازوا قصب الميدان، ومن تبعهم في الإسلام والإيمان والإحسان، إلى يوم العرض، والوقوف بين يدي الرحمٰن.

أما بعد: فلما تجهزت تفسير الجزء الرابع والعشرين من القرآن الكريم، تجشمت لتفسير الجزء الخامس والعشرين منه، مستمداً من الله سبحانه التوفيق والهداية، لأقوم الطريق، في تفسير كتابه الكريم، مستعيذاً به من الزيغ والزلل والخطأ فيه، وأقول: وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية

لما قبلها: أن الله سبحانه لما هدد[1] الكافرين، بأن جزاء كل عامل سيصل إليه يوم القيامة كاملاً غير منقوص، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشرّ.. أردف ذلك ببيان، أنّ هذا اليوم، لا سبيل للخلق إلى معرفته، فلا يعلمه إلا هو، وأنّ علم الحوادث المقبلة في أوقاتها المعينة، مما استأثر الله به، فلا يعلم أحد متى تخرج الثمرات من الأكمام، ولا متى تحمل المرأة ولا متى تضع، ثم ذكر أنه سبحانه يوم القيامة، ينادي المشركين، تهكماً وتقريعاً لهم: أين شركائي الذين كنتم تزعمون فيجيبون الآن لا نشهد لأحد منهم بالشركة في الألوهية، وقد غابوا عنهم، فلا يرجون منهم نفعاً ولا يفيدونهم خيراً، وأيقنوا حينئذٍ أن لا مهرب لهم من العذاب.

وعبارة أبي حيان هنا: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر[2] ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ...﴾ الآية.. كان في ذلك دلالة على الجزاء يوم القيامة وكأن سائلاً قال: ومتى ذلك؟ فقيل: لا يعلمها إلا الله، ومن سئل عنها فليس عنده علم بتعيين وقتها، وإنما يرد ذلك إلى الله، ثم ذكر سعة علمه، وتعلقه بما لا يعلمه إلا هو تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما بيّن حال الكافرين في الآخرة، وذكر أنهم حينئذٍ يتبرؤون من الشركاء بعد أن كانوا معترفين بهم في الدنيا.. أردف ذلك ببيان، أنَّ الإنسان متبدل الأحوال، متغير الأطوار، إن أحس بخير وقدرة، انتفخت أوداجه، وصعّر خدّيه، ومشى الخيلاء، وإن أصابته محنة وبلاء، تطامن واستكان ويئس من الفرج، وهذا دليل على شدة حرصه على الجمع، وشدة جزعه من الفقد، إلى ما فيه من طيش يتولد عنه إعجابه واستكباره حين النعمة، وتطامنه حين زوالها، وذلك مما يومىء بشغله بالنعمة عن المنعم، في حالي وجودها وفقدها، أما في حال وجودها فواضح، وأما في حال فقدها، فلأن التضرع جزعاً إنما كان على

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

الفقد، الدال على الشغل عن المنعم بالنعمة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أوعد[1] على الشرك وهدّد وحذر وأنذر، وذكر أن المشركين ينكرون الشرك يوم القيامة، ويتبرؤون من الشركاء، ويظهرون الذل والخضوع لاستيلاء الخوف عليهم، لما يرون من شديد الأهوال، وأردف ذكر طبيعة الإنسان، وأنه متبدل لا يثبت على حال واحد، فإن أحسّ القوة تكبر وتعظم، وإن شعر بالضعف أظهر المسكنة والمذلة. . أعقب ذلك بلفت أنظار الطاعنين في نبوة محمد ﷺ، إلى التأمل والتفكر، فيما بين أيديهم من الدلائل، ليرعووا عما هم فيه من الغي والضلال، ويقروا بها لتظاهر الأدلة عليها، وعلى أن القرآن منزل من عند الله تعالى حقاً، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما روي أن المشركين، قالوا: يا محمد، إن كنت نبينا، فأخبرنا متى تقوم الساعة؟ فنزلت هذه الآية رداً عليهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه تعالى، لا إلى غيره ﴿يُرَدُّ﴾ ويرجع ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إذا سئل عن القيامة، يقال: الله يعلم، إذ لا يعلمها إلا الله، فإذا جاءت، يقضي بين المحسن والمسيء بالجنة والنار، يعني: إذا سئل عنها[3] أحد، وجب على المسؤول أن يرد علمها إليه تعالى، لا إلى غيره، فإنه لا يعلم متى قيامها سواه تعالى، وقد جاء في الحديث الصحيح: أنّ جبرائيل عليه السلام، سأل

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾﴾، وقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾.

وبعد أن ذكر أنه استأثر بعلم الساعة، بيّن أنه اختص أيضاً بعلم الغيب، ومعرفة ما سيحدث في مستأنف الأزمنة، فقال: ﴿وَمَا﴾ نافية ﴿تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ﴾ ﴿مِنْ﴾: مزيدة[1] للتنصيص على الاستغراق، فإنه قبل دخولها، يحتمل نفي الجنس، ونفي الوحدة.

والمعنى: ما تخرج أيّ ثمرة من الثمرات ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾؛ أي: من أوعيتها، يعني: الكفُرَّى قبل أن ينشق، وقيل: قشرها الأعلى من الجوز واللوز والفستق وغيرها، جمع كم بالكسر، وهو وعاء الثمرة وغلافها؛ أي: ما يغطّي الثمرة، كما أنّ الكم بالضم، ما يغطي اليد من القميص.

قال أبو عبيدة[2]: أكمامها أوعيتها، وهي ما كانت فيه الثمرة، واحدها كم وكمة. قال الراغب: الكم ما يغطي اليد من القميص، وما يغطي الثمرة، وجمعه أكمام، وهذا يدل على أنّ الكم بضم الكاف؛ لأنه جعله مشتركاً بين كم القميص، وما يغطي الثمرة، ولا خلاف في كم القميص أنه بالضم، ويمكن أن يقال: إن في الكم الذي هو وعاء الثمر لغتين.

وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة والحسن، بخلاف عنه، ونافع وابن عامر في غير رواية، والمفضل وحفص وابن مقسم[3]: ﴿مِن ثَمَرَاتٍ﴾ بالجمع، وقرأ باقي السبعة، والحسن في رواية طلحة والأعمش: ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ بالإفراد.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ حملاً في بطنها، أياً كان إنساناً أو غيره ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أي: ولا تلد ذلك الحمل، بمكان على وجه الأرض ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى[4]، استثناء مفرغ من أعم الأحوال، ولم يذكر متعلق العلم للتعميم؛ أي: وما يحدث شيء من خروج ثمرة: ولا حمل حامل، ولا وضع واضع ملابساً

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

بشيء من الأشياء إلا ملابساً بعلمه المحيط، واقعاً حسب تعلقه به، يعلم وقت خروج الثمرة من أكمامها وعددها وسائر ما يتعلق بها، من أنها تبلغ أوان النضج، أو تفسد قبله ونحوه ووقت الحمل، وعدد أيامه وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة. والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك، ووقت الوضع وما يتعلق به.

وفي «حواشي ابن الشيخ»، المعنى: أنّ إليه يضاف علم الساعة؛ أي: علم وقت القيامة، فإذا سئلت عنه، فرد العلم إليه تعالى فقل: الله أعلم، كما يردّ إليه علم جميع الحوادث الآتية من الثمار والنبات وغيرهما، والمعنى: أي: وما تبرز الثمرة من وعائها الذي هي مغلّفة به، وما تحمل أنثى حملها ولا تضع ولدها إلا بعلم من الله، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ونحو الآية قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾.

وفي هذا[1]: دليل على أن المنجمين لا يمكنهم الجزم بشيء مما يقولون البتة، وإنما غايته ادعاء ظن ضعيف، قد يصيب وربما لا يصيب، وعلم الله هو المقطوع به، الذي لا يشركه فيه أحد.

ولما كان[2] ما يخرج من أكمام الشجرة، وما تحمل الإناث وتضعه، هو إيجاد أشياء بعد العدم، ناسب أن يذكر مع علم الساعة، إذ في ذلك دليل على البعث، إذ هو إعادة بعد إعدام، وناسب ذكر أحوال المشركين في ذلك اليوم، وسؤالهم سؤال التوبيخ، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ وفي ذلك تهكم بهم وتقريع، والضمير في يناديهم عام في كل من عبد غير الله، فيندرج فيه عباد الأوثان؛ أي: واذكر يا محمد لقومك، يوم ينادي الله سبحانه وتعالى المشركين وذلك يوم القيامة، فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين كنتم تزعمون، أنهم شركائي في الدنيا، من الأصنام وغيرها، فادعوهم الآن فليشفعوا لكم، أو

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

يدفعوا عنكم العذاب، وهذا على طريقة التهكم بهم. قرأ الجمهور[1]: ﴿شُرَكَآءِى﴾ بسكون الياء، وقرأ ابن كثير: بفتحها. ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال المشركون ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾؛ أي: أخبرناك وأعلمناك ﴿مَا مِنَّا﴾؛ أي: ليس منا ﴿مِن شَهِيدٍ﴾؛ أي: من أحد يشهد لهم اليوم بالشركة، إذ تبرأنا منهم، لما عاينا الحال، والشهيد من الشهادة، أو ما منا من أحد يشهدهم ويعاينهم، لأنهم ضلوا عنهم حينئذٍ، فهم لا يبصرونهم في ساعة التوبيخ، فالشهيد من الشهود.

والمعنى[2]: أي واذكر أيها الرسول لقومك، يوم ينادي سبحانه عباده المشركين، على رؤوس الأشهاد، تهكماً بهم، واستهزاء بأمرهم: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ فيجيبون ويقولون: أعلمناك أنه ليس أحد منا يشهد اليوم، أن معك شريكاً، ونفي الشهادة يراد به التبرؤ منهم؛ لأنّ الكفار يوم القيامة ينكرون عبادة غير الله، كما حكى الله عنهم، أنهم قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

والخلاصة: أن قوله: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ إخبار بإعلام سابق علمه الله من أحوالهم يوم القيامة، وأنهم لم يبقوا على الشرك، وعلى تلك الشهادة، كأنهم يقولون: أنت أعلم به، ثم يأخذون في الجواب.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: غاب عن المشركين ﴿مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: الآلهة التي كانوا يعبدونها من قبل يوم القيامة، فأخذ بها بطريق غير طريقهم، فلم تنفعهم، ولم تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله الذي حل بهم، وظهر عدم نفعهم، فكان حضورهم كغيبتهم ﴿وَظَنُّواْ﴾؛ أي: أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: من مهرب؛ أي: وأيقنوا حينئذٍ أنه لا ملجأ لهم من عذاب الله تعالى.

والمحيص[3]: المحيد والمعدل والمميل والمهرب، والظن معلق عنه بحرف النفي، والتعليق أن يوقع ما ينوب عن المفعولين جميعاً.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

ثم ذكر سبحانه بعض أحوال الإنسان فقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾؛ أي: لا يمل ولا يضجر ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: من دعائه الخير، وطلبه السعة في النعمة وأسباب المعيشة، فحذف الفاعل، وأضيف إلى المفعول، والمعنى: أن الإنسان في حال إقبال الخير إليه، لا ينتهي إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها، ولا يمل من طلبها أبداً، وفيه إشارة إلى أن الإنسان مجبول على طلب الخير، بحيث لا يتطرق إليه السآمة فبهذه الخصلة بلغ من بلغ رتبة خير البرية، وبها بلغ من بلغ دركة شر البرية.

والخير هنا[1]: المال والصحة والسلطان والرفعة، قال السدي: والإنسان هنا، يراد به الكافر، وقيل: الوليد بن المغيرة، وقيل: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف، والأولى حمل الآية على العموم، باعتبار الغالب، فلا ينافيه خروج خلص العباد، وقرأ عبد الله بن مسعود ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء المال﴾ وفي «البحر المحيط»: وقرأ عبد الله ﴿من دعاء بالخير﴾ بباء داخلة على الخير.

والمعنى[2]: أي لا يمل الإنسان من دعائه ربَّه، ومسألته إياه، أن يؤتيه صحة وعافية، وسعة في الرزق، فهو مهما أوتي من المال، فهو لا يقنع، وقد جاء في الأثر: «منهومان لا يشبعان، طالب علم، وطالب مال»، وجاء أيضاً: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنّى لهما ثالثاً».

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: وإن أصابه البلاء والشدة والفقر، والمرض الذي أنهك قواه، واضمحل به جسمه ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من روح الله وفضله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته وإحسانه، وقيل: يؤوس من إجابة دعائه، قنوط بسوء الظن بربه، وقيل: يؤوس من زوال ما به من المكروه، قنوط بما يحصل له من ظن دوامه، وهما صيغتا مبالغة، يدلان على أنه شديد اليأس، عظيم القنوط، والفرق بين اليأس والقنوط، أن اليأس من صفة القلب، وهو قطع الرجاء من رحمة الله تعالى، والقنوط من صفة البدن، بأن يظهر أثر اليأس في بدنه، فيتضاءل ويحزن وينكسر

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

ويتذلل، وبدأ بصفة القلب، لأنها هي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من الانكسار، وبهذا ظهر الفرق بينهما، وقال بعضهم: هما مترادفان وذكرهما معاً للتأكيد.

والحاصل: أن اليأس من صفة القلب، والقنوط إظهار آثاره على ظاهر البدن، اهـ «كرخي»، وهذا صفة الكافر لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

وفي «فتح الرحمٰن»[1]: ولا ينافي ما هنا من قوله: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ ما سيأتي من قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ لأن المعنى قنوط من الصنم، دعّاء لله، أو قنوط بالقلب دعاء باللسان، أو الأولى في قوم والثانية في آخرين؛ انتهى.

وخلاصة ذلك: أن الإنسان متبدل الأحوال، متغير الأطوار، إن أحسّ بخير بطر وتعظم، وإن شعر ببؤس ذل وخضع، فهو شديد الحرص على الجمع، شديد الجزع على الفقد.

ثم ذكر حال هذا اليؤوس القنوط ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن أذقنا الإنسان وأعطيناه ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾؛ أي: نعمة من عندنا ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ وأصابته، وذلك بتفريج تلك الضراء عنه، كالمرض والضيق، بالرحمة، كالصحة والسعة ﴿...لَيَقُولَنَّ﴾ ذلك الإنسان: ﴿هَـٰذَا﴾ الخير ﴿لِى﴾؛ أي: مستحق لي، وصل إليّ، لأني استحقه، لما لي من الفضل وعمل البر، فاللام[2]: للاستحقاق، أو لي لا لغيري، فلا يزول عني أبداً، فاللام للاختصاص، فيكون إخباراً عن لازم الاستحقاق، لا عن نفسه، كما في الوجه الأول، ومعنى الدوام استفيد من لام الاختصاص؛ لأنّ ما يختص بأحدٍ، الظاهر أنه لا يزول عنه، فذلك المسكين لم ير فضل الله، وتوفيقه، فادّعى الاستحقاق في الصورة الأولى، واشتغل بالنعمة عن المنعم، وجهل أن الله تعالى أعطاه ليبلوه أيشكر أم يكفر،

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) روح البيان.

فلو أراد لقطعها منه، وذلك في الصورة الثانية.

والمعنى[١]: أي ولئن كشفنا ما أصابه من سقم في نفسه، أو شدة وجهد في معيشته فوهبنا له العافية بعد السقم، والغنى بعد الفقر، ليقولن هذا حقي قد وصل إلي؛ لأني استوجبه بما حصل لي من ضروب الفضائل، وأعمال البر والقرب من الله، لا تفضل منه عليّ، أو لا يعلم أن هذه الفضائل، لو وجدت فإنما هي بفضل الله وإحسانه، وهو لا يستحق على الله شيئاً.

والخلاصة: أي ولئن آتيناه خيراً وعافية وغنى، من بعد شدة ومرض وفقر. ليقولن هذا الخير شيء أستحقه على الله، لرضاه بعملي، فظن أن تلك النعمة التي صار فيها، وصلت إليه باستحقاقه لها، ولم يعلم أنّ الله يبتلي عباده بالخير والشر ليتبين له الشاكر من الجاحد، والصابر من الجزع، قال مجاهد: معناه هذا بعملي وأنا محقوق به ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة ﴿قَآئِمَةً﴾؛ أي: ستقوم؛ أي: ما أظنها تقوم كما يخبرنا به الأنبياء، فلا رجعة ولا حساب ولا عقاب على شيء من الآثام، التي يقترفها الإنسان في دنياه، ويجترمها مدى حياته الدنيوية. أوْلست على يقين من البعث.

وما نتج هذا إلا من شدة رغبته في الدنيا، وعظيم نفرته من الآخرة، فهو حين ينظر إلى أحوال الدنيا، يقول: إنها لي، وأنا جدير بها، لما لي من فضل به استحققتها، وحين ينظر إلى أحوال الآخرة يقول: وما أظن الساعة قائمة، وهذا خاص بالكافرين والمنافقين، فيكون المراد بالإنسان المذكور في صدر الآية: الجنس، باعتبار غالب أفراده؛ لأنّ اليأس من رحمة الله، والقنوط من خيره، والشك في البعث لا يكون إلا من الكافرين، أو المتزلزلين في الدين، المتظهّرين بالإسلام، المبطنين للكفر.

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ﴾ ورددت ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ وبعثت على تقدير صدق ما يخبرنا به الأنبياء، من قيام الساعة، وحصول البعث والنشور ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ...﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

عند ربي في الآخرة ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: للحالة الحسنة من الكرامة، فظنّ أنه استحقّ خير الدنيا بما فيه من الفضل، واستحق خير الآخرة بذلك الفضل، الذي اعتقده في نفسه، وأثبته لها، فقاس أمر الآخرة على أمر الدنيا بالوهم المحض، والأمنية الكاذبة، وهو اعتقاد باطل، وظن فاسد.

وبعد أن حكى عنهم هذه الأقوال، ذكر أنه سيظهر لهم، أنّ الأمر بعكس ما يظنون وبضد ما يعتقدون، فقال: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: فعزتي وجلالي، لنخبرن هؤلاء الكافرين يوم يرجعون فيه إلينا، وهو يوم القيامة ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ في الدنيا من المعاصي، واجترحوا من الآثام، وما دسوا به أنفسهم من الخطايا، ثمّ لنجازينهم عليها، فيستبين لهم أنهم جديرون بالإهانة والاحتقار، لا بالكرامة والإحسان ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: من عذاب شديد، بسبب ذنوبهم، لا يعرف كنهه، ولا يمكنهم التفصي ولا الفكاك منه، لغلظته وإحاطته بجميع جهاتهم، وهو عذاب جهنم التي لا موت فيها، ولا يجدون عنها حولاً، واللام هذه والتي قبلها هي الموطئة للقسم. وفي «بحر العلوم» غليظ؛ أي: شديد أو عظيم، بدل ما اعتقدوه لأنفسهم من الإكرام والإعزاز من الله تعالى.

وبعد أن حكى أقوال الذي أنعم عليه، بعد وقوعه في الجهد الجهيد، حكى أفعاله فقال: ﴿وَإِذَآ﴾ نحن ﴿أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾؛ أي: على هذا الجنس باعتبار غالب أفراده، فكشفنا عنه المرض، ووهبنا له الصحة والعافية، ورزقناه سعة العيش ﴿أَعْرَضَ﴾ عمّا دعوناه إليه: من طاعتنا، وعن الشكر على نعمتنا، كأنه لم يلق شدة قط، فنسي المنعم، وكفر بنعمته بترك شكره وطاعته ﴿وَنَـَٔا﴾؛ أي: تباعد بنفسه عن الشكر والطاعة، واستكبر عن الانقياد لأمرنا بكليته، لا ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ وعطفه فقط، ولم يمل إلى الشكر والطاعة تكبراً وتعظماً فالجانب مجاز عن النفس، كما في قوله تعالى: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، ويجوز[1] أن يراد به عطفه، فيكون على حقيقته، وهو عبارة عن الانحراف والازورار؛ لأنّ نأي الجانب عن الشكر،

---

(١) روح البيان.

يستلزم الانحراف عنه، كما قالوا: ثنى عطفه وتولى بركنه، فالباء للتعدية، والمعنى: حينئذٍ انحرف عن شكرنا. وقرأ يزيد بن القعقاع[1]: ﴿وناء بجانبه﴾ بالألف قبل الهمزة.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ﴾؛ أي: وإذا مس هذا الإنسان المعرض المتكبر ﴿ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: جنس الشر كالبلاء والمحنة، وإنما جيء بلفظ الماضي، ﴿وإذا﴾ لأنّ المراد: الشر المطلق، الذي حصوله مقطوع به ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾؛ أي: فهو ذو دعاء كثير؛ أي: وإذا مسه البلاء والجهد والفقر والمرض، فذو دعاء كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة مجازاً، يقال: أطال فلان الكلام وأعرض الدعاء إذا أكثر، فهو مستعار مما له عرض متسع، للإشعار بكثرته، فإن العريض يكون ذا أجزاء كثيرة وامتداد فمعنى الاتساع يؤخذ من تنكير عريض، فإنه يدل على التعظيم ومعنى: الامتداد يؤخذ من معنى الطول اللازم للعرض.

وإنما قال: ﴿عَرِيضٍ﴾[2] ولم يقل: طويل، مع أن كلاً منهما كناية عن الكثرة؛ لأنّ قوله: عريض أبلغ من قوله: طويل إذ الطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه كذلك؛ أي: متسعاً فما ظنك بطوله، وقد استعير[3] العرض هنا لكثرة الدعاء ودوامه، وهو من صفة الأجرام كما استعير الغلظ لشدة العذاب، ولا منافاة بين قوله: فيؤوس قنوط، وبين قوله: فذو دعاء عريض؛ لأنّ الأول في قوم، والثاني في آخرين، أو قنوط في البر وذو دعاء عريض في البحر، أو قنوط بالقلب، وذو ودعاء عريض باللسان، أو قنوط من الصنم، ذو دعاء عريض لله تعالى كما مر.

والمعنى: أنه إذا مسه الشر تضرع إلى الله، واستغاث به أن يكشف عنه ما نزل به واستكثر من ذلك فذكره في الشدة ونسيه في الرخاء، واستغاث به عند نزول النقمة، وتركه عند حصول النعمة، وهذا صنيع الكافرين، ومن كان غير

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) النسفي.

ثابت القدم من المسلمين.

ثم رجع سبحانه إلى مخاطبة الكفار ومحاجتهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﷺ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني أيها المشركون؛ لأنّ الرؤية سبب للإخبار ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: كذّبتم به من غير نظر، واتباع دليل، ولم تقبلوه ولا عملتم بما فيه، مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿مَنْ﴾ استفهام ﴿أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ﴾ وخلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عنه؛ أي: لا أحد أضلّ منكم لفرط شقاوتكم وشدة عداوتكم والأصل: من أضل منكم فوضع ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ﴾ موضع الضمير لبيان حالهم في المشاقة، وأنها السبب في ضلالهم، فإن[1] من كفر بما نزل من عند الله، بأن قال: أساطير الأولين ونحوه، فقد كان مشاقاً لله؛ أي: معادياً ومخالفاً له تعالى خلافاً بعيداً عن الوفاق، ومعاداة بعيدة عن الموالاة ولا شك أنّ من كان كذا، فهو في غاية الضلال، وفي الآية إشارة إلى أن كل بلاء وعناء ونعمة ورحمة ومضرة ومسرة، ينزل بالعبد، فهو من عند الله تعالى فإن استقبله بالتسليم والرضى صابراً شاكراً للمولى في الشدة، والرخاء والسراء والضراء، فهو من المهتدين المقربين، وإن استقبله بالكفر والجزع، فهو من الأشقياء المبعدين المضلّين، وفي الحديث القدسي: «إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه، أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل.. استحييت منه يوم القيامة، أن أنصب له ميزاناً وأنشر له ديواناً».

قال بعض الكبار[2]: النعمة توجب الإعراض كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ...﴾ إلخ، ومس الضر يوجب الإقبال على الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ...﴾ إلخ، فاللّه تعالى رحيم على العبد بدفع النعمة والصحة عنه، لأنها مظنة الإعراض والبلاء للولاء كاللهب للذهب، فالبلاء كالنار، فكما أن النار لا تبقى من الحطب شيئاً إلا وأحرقته، فكذا البلاء لا يبقى من ضر الوجود شيئاً، فالطريق إلى الله على جادة المحنة أقرب من جادة المنحة إذ الأنبياء

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

والأولياء جاؤوا وذهبوا من طريق البلاء، وقد ثبت أن النار لا ترتفع من الدنيا أبداً، فكيف يؤمل العاقل الراحة في الدنيا، فهي دار محنة، وقد ورد: «الدنيا سجن المؤمن» فالمؤمن لا يستريح في الدنيا، ولا يخلو من قلة أو علة أو ذلة، وله راحة عظمى في الآخرة، والكافر خاسر في الدنيا والآخرة، فعلى العبد أن يمشي على الصراط السوي، ويخاف من الزلق، ومن مكر الله تعالى.

وفي «فتح الرحمٰن»: قال هنا[1]: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم﴾ عاطفاً بثم، وفي الأحقاف قال: ﴿وَكَفَرْتُم﴾ عاطفاً بالواو، فما الفرق بين الموضعين قلتُ: عطف هنا بـ﴿ثُمَّ﴾ لأن **المعنى**: ثم كان عاقبة أمركم بعد الإمهال، للنظر والتدبر الكفر، فناسب ذكر ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على الترتيب، وما في الأحقاف لم ينظر فيه إلى ترتيب كفرهم على ما ذكر، بل عطف على ﴿كَفَرْتُم﴾ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ بالواو، فناسب ذكرها لدلالتها على مطلق الجمع.

والمعنى[2]: أي قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين بالقرآن، الذي جئتهم به من عند ربك: أخبروني أيها القوم: إن كان هذا الذي أنتم به تكذبون، من عند ربي، ثم كفرتم به.. أفلا تكونون مفارقين للحق، بعيدين من الصواب، وقد كانوا كلما سمعوا القرآن، أعرضوا عنه، وبالغوا في النفرة منه، حتى قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾، فلفت أنظارهم إلى أنه يجب عليهم النظر، والتأمل فيه، فإن دلّ دليل على صحته قبلوه، وإن أرشد إلى فساده تركوه، أما قبل ذلك، فالإصرار على الإعراض والإنكار، بعيدان عن الصواب وعما يحكم به العقل، فما أضلكم وأكثر عنادكم ومشاقتكم للحق واتباعكم للهوى.

وخلاصة ذلك: قل لهم: من أشد ذهاباً عن قصد السبيل، وأسلك لغير طريق الصواب، ممن هو في فراق لأمر الله، وخلاف له، وبعد عنه.

وبعد أن ذكر أدلة التوحيد، والنبوة، أجاب عن شبهات المشركين، وتمويهات الضالين، فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾؛ أي: سنري كفار قريش ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي:

---

(١) فتح الرحمٰن.   (٢) المراغي.

دلائلنا الدالة على قدرتنا. ووحدانيتنا المذكورة في القرآن، المبينة لهم فيما أوحى إلى محمد ﷺ، من الحكمة الدالة على صدق القرآن وحقيقته، وكونه من عند الله تعالى حالة كون تلك الآيات ﴿فِى ٱلْآفَاقِ﴾؛ أي: في آفاق الأرض ونواحيها والمراد[1] بالآيات الآفاقية: ما أخبرهم النبي ﷺ من الحوادث الآتية، كغلبة الروم على فارس في بضع سنين، وآثار النوازل الماضية، الموافقة لما هو المضبوط، المقرّر عند أصحاب التواريخ، والحال، أنه ﷺ أميّ لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يخالط أحداً، وما يسر الله له، ولخلفائه من الفتوح، والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاء على بلاد المشارق، والمغارب، على وجه خارق للعادة، إذا لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ﴿و﴾ حالة كونها ﴿في أنفسهم﴾؛ أي: في أنفس أهل مكة، والمراد بالآيات التي في أنفسهم، هو ما ظهر بين أهل مكة من القحط والخوف، وما حل بهم يوم بدر ويوم الفتح من القتل والمقهورية، ولم ينقل إلينا أن مكة فتحت على يد أحد، قبل رسول الله ﷺ، وكذا قتل أهلها وأسرهم.

وقيل[2]: المراد بالآفاق: أقطار السمٰوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار والأضواء والظلال والظلمات ومن النبات والأشجار والأنهار، وفي أنفسهم من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة في تكوين الأجنة في ظلمات الأرحام، وحدوث الأعضاء العجيبة، والتراكيب الغريبة، كقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

واعتذر بأن معنى السين - مع أن اراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك - أنه تعالى سيطلعهم على تلك الآيات زماناً فزماناً، ويزيدهم وقوفاً على حقائقها يوماً فيوماً، قالوا: الآفاق هو العالم الكبير، والأنفس هو العالم الصغير ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ ويتضح ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لأهل مكة بما أريناهم من تلك الآيات. المذكورة في القرآن، أو في الحكمة ﴿أَنَّهُ﴾؛ أي: أنّ القرآن أو الرسول محمداً ﷺ،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

فالقصر المستفاد من تعريف المسند حقيقي ادعائي، أو الله أو التوحيد فالقصر إضافي تحقيقي؛ أي: لا الشركاء ولا التشريك، والأول أولى، والضمائر في ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ﴿وَلَهُمْ﴾ للمشارفين منهم على الاهتداء، أو للجميع، على أنه من وصف الكل بوصف البعض.

والمعنى[1]: أي سنري هؤلاء المشركين، وقائعنا بالبلاد المحيطة بمكة، وبمكة بما أجريناه على يدي نبينا، وعلى يدي خلفائه وأصحابه من الفتوح الدالة على قوة الإسلام وأهله، ووهن الباطل وحزبه، حتى يعلموا حقيقة ما أوحينا به إليك، وأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وأن وعده صادق، وأنه مظهر دينك على الأديان كلها.

والخلاصة: سنيسر لهم من الفتوح، ما لم يتيسر لأحد ممن قبلهم، ونظهرهم على الجبابرة والأكاسرة، ونجري على أيديهم من الأمور الخارجة عن المعهود الخارقة للعادة، فيستبين لهم أنّ هذا القرآن هو الحق، ومن ثمّ نصر حامليه، وأظهرهم على أعدائهم في قليل من الزمان.

ثمّ وبّخهم على إنكارهم تحقّق هذه الإراءة وحصولها فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ استئناف وارد[2] لتوبيخهم على تردّدهم في شأن القرآن، وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات، وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى والهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف يقتضيه السياق، والباء مزيدة للتأكيد؛ أي: ألم يغن، ولم يكف ربك ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه؛ أي: ألم يغنهم عن إراءة الآيات الموعودة، المبينة لحقّية القرآن، ولم يكفهم في ذلك أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء، وقد أخبر بأنه من عنده، فعدم الكفاية معتبر بالنسبة إليهم، كما يصرحه قوله الآتي: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ وقرىء (إن) بكسر الهمزة على إضمار القول، أو على الاستئناف.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي كفى بالله شهيداً على أفعال عباده، وأقوالهم، وهو يشهد بأن محمداً ﷺ صادق، فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ الآية، وقال أيضاً: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾.

وقصارى ذلك: ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة، التي أوضحها سبحانه في هذه السورة، وفي كل سور القرآن، وفيها البيان الكافي لإثبات وحدانية الله، وتنزيهه عن كل نقص، وإثبات النبوة والبعث.

وبعد أن أقام الأدلة، وأوضح الحجج، حتى لم يبق بعدها مقال لمتعنت، ولا جاحد بيّن سبب عنادهم واستكبارهم، فقال: ﴿أَلَآ﴾ كلمة استفتاح، تنبه السامع على ما يقال ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: كفار مكة ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾؛ أي: في شك عظيم وشبهة شديدة، وقرأ[2] السلمي والحسن ﴿في مُرْيَةٍ﴾ بضم الميم، وهو لغة في مكسورة الميم ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث والجزاء، فإنهم استبعدوا إحياء الموتى بعد ما تفرقت أجزاؤهم وتبددت أعضاؤهم، ومن ثمّ لا يلتفتون إلى النظر فيما ينفعهم، عند لقائه، كالتفكر في نبوة محمد ﷺ، وأن القرآن حق لا شك فيه، وفيه إشارة[3] إلى أن الشك أحاط بجميع جوانبهم، إحاطة الظرف بالمظروف، لا خلاص لهم منه، وهم مستمرون دائمون فيه ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من الموجودات؛ أي: بجميع الأشياء جملها وتفاصيلها، ظواهرها وبواطنها ﴿مُّحِيطٌۢ﴾ أحاط علمه بجميع المعلومات، وأحاطت قدرته بجميع المقدورات، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم، وفي هذا وعيد شديد؛ لأنّ من أحاط علمه بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء جازى المحسن بإحسانه والمسيىء بإساءته.

والمعنى: أي إنه تعالى عليم بجمل الأشياء وتفاصيلها، مقتدر عليها لا يفوته شيء منها، فهو يعلم ما تفرق من أجزاء الأجسام، ويقدر على إعادتها إلى

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

أمكنتها، ثم بعثها وحسابها، لتستوفي جزاءها على ما قدّمت من عمل.

الإعراب

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾.

﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يُرَدُّ﴾، ﴿يُرَدُّ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ نافية، ﴿تَخْرُجُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِن﴾: حرف جر زائد. ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ فاعل. ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ متعلق بـ﴿تَخْرُجُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرَدُّ﴾، وقيل: ﴿ما﴾: موصولة في محل جر، معطوف على الساعة؛ أي: علم الساعة، وعلم التي تخرج من ثمرات، ومن الأولى للاستغراق، ومن الثانية لابتداء الغاية. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿تَحْمِلُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿أُنثَىٰ﴾: فاعل، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لا﴾ نافية، وفاعله ضمير يعود على أنثى، والجملة معطوفة على ما قبلها ﴿تَضَعُ﴾ فعل مضارع والفاعل يعود على ﴿أُنثَىٰ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، من أعم الأحوال، ﴿بِعِلْمِهِ﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف، وقع حالاً من أعم الأحوال، والتقدير: وما يحدث شيء من خروج ثمرة، أو حمل حامل، أو وضع واضع ملابساً بحال من الأحوال، إلا حالة كونه ملابساً بعلمه المحيط.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿يوم﴾: ظرف زمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد لقومك، قصة يوم يناديهم، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يُنَادِيهِمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾. ﴿أَيْنَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿شُرَكَائِي﴾: مبتدأ

مؤخر، ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب، مفعول ثان لـ﴿يُنَادِيهِمْ﴾، ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿مِنَّا﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مِن﴾: حرف جر زائد، ﴿شَهِيدٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب، سادّة مسدّ المفعول الثاني والثالث لـ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ علق عنهما بما النافية؛ لأنه بمعنى أعلمناك، فيتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، ﴿وَضَلَّ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ضل﴾: فعل ماض، ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَدْعُونَ﴾: خبره، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، وجملة ﴿ضلَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَظَنُّواْ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ظنوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على قالوا. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم ﴿مِن﴾: زائدة ﴿مَّحِيصٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية سادة مسد مفعولي ظنّ، لأنه علق عنهما بما النافية.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾.

﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَسْـَٔمُ﴾، ﴿وَإِن﴾: الواو: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾: الفاء رابطة الجواب وجوباً، ﴿يئوس﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره فهو يؤوس ﴿قَنُوطٌ﴾ خبر ثان، والجملة الاسمية في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾. ﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، واللام موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾. ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ﴿رَحْمَةً﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾،

﴿ضَرَّآءَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف لألف التأنيث الممدودة. ﴿مَسَّتۡهُ﴾: فعل ماض ومفعول به. وفاعل مستتر يعود على ضرّاء، والجملة الفعلية في محل الجر، صفة لـ﴿ضَرَّآءَ﴾، وجواب الشرط محذوف، لسد جواب القسم مسده، تقديره: وإن أذقناه رحمة منا، يقول هذا لي، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين القسم وجوابه على القاعدة المشهورة، فيما إذا اجتمع شرط وقسم، يكون الجواب للسابق، وجواب الآخر محذوف ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ اللام: رابطة لجواب القسم، مؤكدة للأولى ﴿يقولن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، لتجرده عن الناصب والجازم. مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الإنسان، والجملة الفعلية جواب القسم. لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم مع جوابه، معطوفة على جملة قوله: وإن مسه الشر ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. ﴿لي﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، واللام فيه للاستحقاق؛ أي: استحقه بعملي، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿ليقولن﴾.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿أَظُنُّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾: مفعول أول لـ﴿أَظُنُّ﴾، ﴿قَآئِمَةً﴾: مفعول ثان له، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: هذا لي، على كونها مفعولاً لـ﴿يَقُولُ﴾، ﴿وَلَئِنۡ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام: موطئة للقسم. ﴿إنْ﴾ حرف شرط جازم، ﴿رُّجِعۡتُ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾: متعلق بـ﴿رُّجِعۡتُ﴾، وجواب الشرط محذوف لسد جواب القسم مسده، على القاعدة المذكورة في قوله:

وَٱحۡذِفۡ لَدَىٰ ٱجۡتِمَاعِ شَرۡطٍ وَقَسَمۡ   جَوَابَ مَا أَخَّرۡتَ فَهۡوَ مُلۡتَزَمۡ

والتقدير: وإن رجعت إلى ربي فإن لي عنده للحسنى، وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿لي﴾: خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾، ﴿عِندَهُۥ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال

من الحسنى ﴿لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿الحسنى﴾ اسم ﴿إنَّ﴾ مؤخر. وجملة ﴿إنَّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه، معطوفة على جملة قوله: هذا لي، على كونها مقولاً ليقولن ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حال الكافر المذكور، وأردت بيان عاقبته.. فأقول لك، ﴿لننبئن﴾ واللام: موطئة للقسم، ﴿ننبئن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح، في محل الرفع، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: نحن، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب. مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿ننبئن﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، وما موصولة أو مصدرية. ﴿عَمِلُواْ﴾ فعل وفاعل، صلة لما الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما عملوه، أو صلة لما المصدرية؛ أي: بعملهم. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام موطئة للقسم. ﴿نذيقن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، والهاء ضمير الغائبين في محل النصب مفعول أول، ﴿مِّنۡ عَذَابٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿نذيقن﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له ﴿غَلِيظٖ﴾ صفة لـ﴿عَذَابٍ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾.

﴿وَإِذَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَنۡعَمۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿أَعۡرَضَ﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الإنسان، وجملة أعرض جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب. وجملة إذا مستأنفة. ﴿وَنَـَٔا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿نأى﴾: فعل ماض وفاعل مستتر. معطوف على أعرض، ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾

متعلق بـ﴿نأى﴾، ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، ﴿فَذُو دُعَآءٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب إذا وجوباً ﴿ذو﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهو ذو دعاء. ﴿ذو﴾ مضاف ﴿دُعَآءٍ﴾: مضاف إليه، ﴿عَرِيضٍ﴾: صفة ﴿دُعَآءٍ﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ومفعول ﴿رأى﴾ الأول: محذوف، وتقديره: أرأيتم أنفسكم. والثاني: هو الجملة الاستفهامية. ﴿إنْ﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم بإن على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير مستتر فيها، تقديره: هو يعود على القرآن. ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿كَفَرْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم، معطوف على ﴿كَانَ﴾. وجواب الشرط محذوف تقديره: فأنتم أضل من غيركم، أو ليس ثمة أضل منكم، وجملة الشرط جملة اعتراضية، لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين المفعولين الأول والثاني. ﴿بِهِۦ﴾ متعلقان به ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام، في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَضَلُّ﴾: خبره. ﴿مِمَّنْ﴾ متعلق بـ﴿أَضَلُّ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿فِى شِقَاقٍ﴾ خبر، ﴿بَعِيدٍ﴾ صفة ﴿شِقَاقٍ﴾، والجملة الاسمية صلة من الموصولة. ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ السين حرف استقبال. ﴿نريهم﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول أول ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ مفعول ثان. والرؤية هنا بصرية، فلذلك عدّيت إلى اثنين

فقط، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ حال من آياتنا، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: معطوف على في الآفاق، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية ﴿يَتَبَيَّنَ﴾: فعل مضارع منصوب، بأن مضمرة وجوباً بعد حتى، ﴿لَهُمۡ﴾ متعلق بـ﴿يَتَبَيَّنَ﴾، ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ ناصب واسمه، وخبره، وجملة أنّ في تأويل مصدر، مرفوع على الفاعلية ليتبين، تقديره: حتى يتبين لهم كونه الحق من ربهم، وجملة يتبين صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى، تقديره: إلى تبين كونه الحق، الجار والمجرور متعلق بـ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾، ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف يقتضيه السياق، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم يغنهم ولم يكفهم، والجملة المحذوفة جملة استفهامية، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَمۡ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَكۡفِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمۡ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ﴿بِرَبِّكَ﴾ الباء زائدة، ﴿رَبِّكَ﴾: فاعل مجرور لفظاً مرفوع محلاً، والمفعول محذوف تقديره: أو لم يكفك ربك، أو لم يكفهم ربك، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿أَنَّهُ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: متعلق بـ﴿شَهِيدٌ﴾، و﴿شَهِيدٌ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر، مرفوع على كونه بدلاً من ربك، والتقدير: أو لم يكف ربك شهادته على كل شيء، ﴿أَلَآ﴾ حرف استفتاح ﴿إِنَّهُمۡ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿مِرۡيَةٖ﴾، أو صفة له، ﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿بِكُلِّ شَيۡءٖ﴾ متعلق بـ﴿مُّحِيطُۢ﴾، و﴿مُّحِيطُۢ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة أيضاً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ﴾ وهو من المضاعف، أصله: يردد بوزن يفعل نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء، فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية، فصار يرد بوزن يفل. ﴿مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾ قال في «القاموس»: الكم بضم الكاف، مدخل اليد ومخرجها من الثوب، والجمع أكمام وكممة، وبكسرها وعاء الطلع وغطاء النور كالكمامة،

والكمة بالكسر فيهما، والجمع أكمّة وأكمام وكمام، ويؤخذ من «الأساس»، وغيرها من المعاجم الكبرى، الكم بضم الكاف مدخل اليد ومخرجها من الثوب، جمعه أكمام، وكممة بكسر الكاف، والكمة بضم الكاف، القلنسوة المدورة، وكل ظرف غطيت به شيئاً، وألبسته إياه فصار له، كالغلاف، والكم بكسر الكاف، الغلاف الذي يحيط بالزهر، أو الثمر، أو الطلع فيستره، ثم ينشق عنه جمعه أكمة، وأكمام وكمام وأكاميم، ومن ذلك أكمام الزرع؛ أي: غلفها التي يخرج منها، وأكمة الخيل مخاليها المعلقة على رؤوسها، الواحد منها كمام، والكمامة بكسر الكاف غطاء الزهر، ووعاء الطلع. والكمامة أيضاً بالكسر، والكمام ما يكم به فم الحيوان، لئلا يعضّ، أو يأكل إلى آخر هذه المادة المطولة.

﴿مِّن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: مهرب، اسم مكان، من حاص كمبيع من باع، وأصله: محيص بكسر الياء، بوزن مفعل بكسر العين، نقلت حركة الياء إلى الحاء، فسكنت فصارت حرف مد، من حاص يحيص حيصاً ومحيصاً إذا هرب، وفي «المفردات»: أصله من قولهم: وقع في حيص بيص؛ أي: في شدة، وحاص عن الحق، يحيص إذا حاد عنه إلى شدة ومكروه. وفي «القاموس»: حاص عنه إذا عدل، وحاد، والمحيص المحيد والمعدل والمميل والمهرب.

﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ وفي «المختار»: اليأس القنوط، وقد يئس من الشيء من باب فهم، وفيه لغة أخرى، يئس ييئس بالكسر فيهما، وهي شاذة. ورجل يؤس وييئس، أيضاً، وبمعنى علم في لغة النخع، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وآيسه من كذا، فاستيأس منه، بمعنى أيس اهـ. وفيه أيضاً أيس منه، لغة في يئس، وبابهما فهم، وآيسه منه غيره بالمد، مثل أيأسه، وكذا أيسه بتشديد الياء تأييساً اهـ، وفيه أيضاً القنوط اليأس، وبابه جلس ودخل وطرب وسلم، فهو قنط وقنوط وقانط، فأما قنط يقنط بالفتح فيهما، وقنط يقنط بالكسر، فإنما هو على الجمع بين اللغتين اهـ، والفرق بين اليأس والقنوط، أن اليأس انقطاع الرجاء القلبي من حصول الخير، والقنوط ظهور أثر ذلك على البدن، من المذلة والانكسار والحزن.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أصله: أظنن بوزن أفعل، نقلت حركة النون الأولى إلى الظاء، فسكنت فأدغمت في النون الثانية، فصار أظن بوزن أفل ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ قرأه الجمهور ﴿نأى﴾، وفيه إعلال بالقلب أصله: نأي بوزن فعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، وقرأ ابن ذكوان وغيره عن ابن عامر ﴿وناء﴾ بتقديم الألف على الهمزة بوزن بآء إما لأنه من ناء ينوء، بمعنى نهض، وليس من النأي أو من نأى، ووقع في الكلمة قلب مكاني، حيث قدمت لام الفعل التي هي الياء، وجعلت مكان العين التي هي الهمزة، ثم أبدلت الياء المقدمة ألفاً، لتحركها بعد فتح، والله أعلم، وعلى أنه من ناء ينوء، فأصله: نوأ بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً، لتحركها بعد فتح، ومعناه: نهض، وفي «الفتوحات»: ناء بتأخير الهمزة عن الألف بوزن قال، ونأى بتقديم الهمزة على الألف بوزن رمى، اهـ.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ أصله: سنرئيهم، بوزن سنفعل نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت للتخفيف، ثم سكنت الياء لوقوعها بعد كسرة، لتكون حرف مد. والآفاق جمع أفق بضمتين، كأعناق وعنق أبدلت همزته ألفاً. وهي الناحية من نواحي الأرض، وكذا آفاق السماء نواحيها وأطرافها كذا قال أهل اللغة، ونقل الراغب: أنه يقال: أفق بفتحتين كجبل وأجبال، وأفق فلان؛ أي: ذهب في الآفاق، والآفاقي الذي بلغ نهاية الكرم تشبيهاً في ذلك بالذاهب في الآفاق، والنسبة إلى الأفق أفقي بفتحهما، قلت: ويحتمل أنه نسبة إلى المفتوح، واستغنوا بذلك عن النسبة إلى المضموم، وله نظائر اهـ «فتوحات».

﴿فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ لقاء فيه إعلال بالقلب أصله: لقاي أبدلت الياء همزة، لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ﴾ من الإحاطة، والإحاطة إدراك الشيء بكماله، وفيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: محوط بوزن مفعل، نقلت حركة الواو إلى الحاء، فسكنت إثر كسرة، فقبلت ياء حرف مد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الحصر المستفاد من تقديم المعمول على عامله، في قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ﴾؛ أي: لا إلى غيره.

ومنها: الطباق بين ﴿رَحْمَةً﴾ و﴿ضَرَّآءَ﴾.

ومنها: وصف الجنس بوصف غالب أفراده، في قوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لأن اليأس من رحمة الله، لا يتأتى إلا من الكافر.

ومنها: المبالغات في قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ وقد تضمن هذا الكلام مبالغات، حيث أكد بالقسم، وبإن، وبتقديم الظرفين، وبالعدول إلى صيغة التفضيل، إذ الحسنى تأنيث الأحسن، وإنما يقول ذلك، لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا، يستحقه، فيستحق مثله في الآخرة. اهـ «كرخي».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾؛ لأن الجانب مجاز عن النفس، كالجنب في قوله تعالى: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ علاقته الكلية والجزئية.

ومنها: الاستعارة المكنية، التخيلية في قوله: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ فقد شبه الدعاء بأمر يوصف بالامتداد، ثم أثبت له العرض، فاستعار العرض لكثرة الدعاء وديمومته، وهو من صفات الأجرام، ويستعار له الطول أيضاً، ولكن استعارة العرض أبلغ؛ لأنه إذا كان عرضه كذلك، فما ظنك بطوله، والطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه بهذه المثابة.. فناهيك بطوله.

ومنها: تنكير عريض للدلالة على التعريض.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

١ ـ وصف الكتاب الكريم.

٢ ـ إعراض المشركين عن تدبره.

٣ ـ جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين.

٤ ـ إقامة الأدلة على الوحدانية.

٥ ـ إنذار المشركين بأنه سيحل بهم ما حل بالأمم قبلهم.

٦ ـ شهادة الأعضاء عند الحشر على أربابها.

٧ ـ ما يفعله قرناء السوء من التضليل والصد عن سبيل الله.

٨ ـ ما كان يفعله المشركون حين سماع القرآن.

٩ ـ طلب المشركين إهانة من أضلوهم انتقاماً منهم.

١٠ ـ ما يلقاه المؤمنون من الكرامة يوم العرض والحساب.

١١ ـ إعادة الأدلة على الوحدانية.

١٢ ـ القرآن هداية ورحمة.

١٣ ـ إحاطة علم الله وعظيم قدرته.

١٤ ـ من طبع الإنسان التكبر عند الرخاء والتضرع وقت الشدة.

١٥ ـ آيات الله في الآفاق والأنفس الدالة على وحدانيته وقدرته.

١٦ ـ شك المشركين في البعث والنشور ثم الرد عليهم[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) وكان الفراغ من تفسير هذه السورة يوم السبت وقت الضحوة، في السابع من شهر شوال، من شهور سنة ألف وأربع مئة، وأربع عشرة، سنة ٧/ ١٠/ ١٤١٤ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية.

سورة الشورى

سورة الشورى، وتسمّى سورة حمَ عسق، وسورة حمَ عسق مكيّة في قول[1] ابن عباس والجمهور، وحكي عن ابن عباس: إلا أربع آيات، نزلت بالمدينة، أولها: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، وقيل: فيها من المدني: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾، إلى قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾.

وآيها: ثلاث وخمسون آية، نزلت بعد فصّلت. وكلماتها: ثمان مئة وست وثمانون كلمة. وحروفها: ثلاثة آلاف، وخمس مئة، وثمانية وثمانون حرفاً، والله تعالى أعلم.

ومناسبتها لما قبلها[2]: اشتمال كل منهما على ذكر القرآن، ودفع مطاعن الكفار فيه، وتسلية النبي ﷺ على ذلك.

وقال أبو حيان[3]: مناسبة أول هذه السورة لأخر ما قبلها، أنه قال فيما قبلها: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، وكان في ذلك الحكم عليهم بالضلال، لما كفروا به، وقال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل الإيحاء السابق في القرآن، الذي كفر به هؤلاء ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾؛ أي: إن وحيه تعالى إليك متصل غير منقطع، يتعهدك وقتاً بعد وقت.

ومن فضائلها: ما روي عن النبي ﷺ: «من قرأ حم عسق، كان ممن يصلي عليه الملائكة، ويستغفرون له ويسترحمون له».

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله، محمد بن حزم: سورة الشورى كلها محكم، غير ثماني آيات:

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

أولاهن: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ الآية(٥) نسخت بالآية التي في سورة المؤمن: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾(٧).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ نسخت بآية السيف.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٥)، نسخت بقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الآية (٢٠)، نسخت بقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ﴾.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ الآية (٢٣)، مختلف في نسخها، ناسخها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ الآية (٤٧) سبأ.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (٣٩).

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ (٤١) الآيتان، نسختا بقوله عزّ وجل: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

الآية الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ الآية (٤٨) نسخت بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِىُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِى ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا
عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِى ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِى ٱلسَّعِيرِ
﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىّٖ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِىُّ وَهُوَ يُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ
﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَىۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾
فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ
كَمِثۡلِهِۦ شَىۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن
يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ
إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا
تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا
جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِى شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا
تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ
أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ
شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ
بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ...﴾ الآيات، مناسبة أول هذه السورة لآخر السابقة: أنه قال في آخر السابقة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ...﴾ الآية، ولما كان في ذلك، الحكم عليهم بالضلال لما كفروا به، قال هنا كذلك؛ أي: مثل الإيحاء السابق في القرآن، الذي كفر به هؤلاء يوحي إليك؛ أي: إن وحيه تعالى إليك، متصل غير منقطع، يتعهّدك وقتاً بعد وقت.

وبيّن سبحانه: أنّ ما جاء في هذه السورة، موافق لما في تضاعيف الكتب، المنزلة على سائر الرسل، من الدعوة إلى التوحيد، والإيمان باليوم الآخر، والتزهيد في جمع حطام الدنيا، والترغيب فيما عند الله، ثم ذكر أن ما في السمٰوات والأرض فهو ملكه وتحت قبضته، وله التصرف فيه إيجاداً وإعداماً، وتكويناً وإبطالاً وأنّ السمٰوات والأرض على عظمهما، تكاد تتشقّق فرقاً من هيبته، وجلاله سبحانه، وأن الملائكة ينزّهونه عما لا يليق به، من صفات النقص، ويطلبون المغفرة لعباده المؤمنين، ثم أردف هذا بتسلية رسول ﷺ، بأنه ليس بالرقيب على عبدة الأصنام والأوثان، فيستطيع أن يردّهم إلى سواء السبيل، بل ليس عليه إلا البلاغ، وعلينا حسابهم، فلا يبخع نفسه عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما[1] بيّن فيما سلف، أنه هو الرقيب على عباده، المحصي لأعمالهم، وأنه ﷺ نذير فحسب، وليس عليه إلا البلاغ.. ذكر هنا أنه أنزل كتابه بلغة العرب، ليفهمه قومه من أهل مكة، وما حولها كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ وينذرهم، بأن يوم القيامة آت لا شك فيه، وأن الناس إذ ذلك فريقان: فريق يدخل الجنة، بما قدّم من صالح

---

(١) المراغي.

الأعمال، وفريق يدخل النار بما دسّى به نفسه من سيّء الأفعال، ثم ذكر أنّ حكمته اقتضت أن يكون الإيمان بالتكليف اختياراً، ولم يشأ أن يكون قسراً وجبراً، ولو شاء أن يكون كذلك لفعل، فمن أخبت لله وأناب وعمل صالحاً أفلح، وفاز بالسعادة، ومن عاث في الأرض فساداً، واتجهت همته إلى ارتكاب الشرور والآثام خسر، وباء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المهاد، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً.

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر أنهم اتخذوا من دون الله أولياء، وأن الله وكيل عليهم، ولست أيها الرسول بالحفيظ عليهم.. طلب إليه هنا، أن يدع الاهتمام بأمرهم، ويقطع الطمع في إيمانهم، مبيناً أنهم اتخذوا من دون الله أولياء، وهو سبحانه الولي حقاً، القادر على كل شيء فقد عدلوا إلى ما لا نسبة بينه وبينهم بحال.

قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه لما عظم[١] وحيه إلى رسوله ﷺ، وأبان ما له من كبير الخطر، حين نسبه إليه تعالى، وأنه صادر من عزيز حكيم، لا يوحي إلا بما فيه مصلحة البشر، ومنفعتهم في دينهم ودنياهم.. ذكر هنا تفصيل هذا الوحي، وأرشد إلى أنه هو الدين الذي وصّى به أكابر الأنبياء، وأصحاب الشرائع العظيمة، والأتباع الكثيرة، وأردف ذلك أن المشركين يشقّ عليهم دعوتهم إلى التوحيد، وترك الأنداد والأوثان، وأنّ الله يهدي من يشاء من عباده لهدي دينه، وأنهم ما خالفوا الحق إلا بعد إبلاغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وأنه ما حملهم على ذلك إلا البغي والعدوان والحسد، وأنه لولا الكلمة السابقة من الله، بإنظار المشركين بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد.. لعجّل لهم العقوبة في الدنيا، وأن من اعتنقوا الأديان من بعد الأجيال الأولى، ليسوا على يقين من أمرهم، وإيمانهم،

---

(١) المراغي.

وإنما هم مقلّدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب، وشقاق بعيد.

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه، لما[1] أمرهم بالوحدة في الدين وعدم التفرّق فيه، وذكر أنهم قد تفرّقوا فيه من بعد ما جاءهم العلم بغياً وحسداً وعناداً واستكباراً، أمر رسوله ﷺ، بالدعوة إلى الاتفاق على الملة الحنيفية والثبات عليها، والدعوة إليها، وأن لا يتبع أهواءهم الباطلة. ثم أمره بالإيمان بجميع الكتب السماوية وبالعدل بين الناس والمساواة بينهم وبين نفسه، فلا يأمرهم بما لا يعمله، أو يخالفهم فيما نهاهم عنه، ثم أردف ذلك ببيان أن إلٰههم جميعاً واحد، وأنّ كل امرىء مسؤول عن عمله، وأن الله يجمع الناس يوم القيامة، ويجازيهم بأعمالهم.

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة، على عشرة أوامر ونواه، كل منها مستقل بذاته ودالّ على حكم برأسه، ولا نظير لها في ذلك إلا آية الكرسي، فهي عشرة فصول أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لما ذكر فيما سلف، أن لا محاجة بين المشركين والمؤمنين لوضوح الحجة، بيّن هنا أنّ الذين يخاصمون في دين الله، من بعد ما استجاب الناس له، ودخلوا فيه أفواجاً، حجتهم في الصرف عنه زائفة، لا ينبغي النظر إليها، وعليهم غضب من ربهم، لمكابرتهم للحقّ بعد ظهوره، ولهم عذاب شديد يوم القيامة.

رُوي: أن اليهود قالوا للمؤمنين: إنكم تقولون: إن الأخذ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف فيه، ونبوّة موسى وتوراته مسلّمة بيننا وبينكم، ونبوّة محمد ﷺ ليست كذلك، وإذاً الأخذ باليهودية أولى فدحض الله سبحانه وتعالى هذه الحجة، بأنّ الإيمان بموسى إنما وجب لظهور المعجزات على يديه. دالة

---

(١) المراغي.

على صدقه، وقد ظهرت المعجزات على يدي محمد ﷺ، واليهود قد شاهدوها، فوجب الاعتراف بنبوّته، ثم أردف ذلك تخويفهم يوم القيامة، حتى يستعدوا له ويتركوا المماراة بالباطل، ثم ذكر أن المشركين يستعجلون به استهزاء، وإنكاراً لوجوده، والمؤمنون خائفون منه لعلمهم بالجزاء حينئذٍ، ثم أعقب ذلك بذكر أن المماراة في الساعة ضلال بيّن، لتظاهر الأدلة على حصولها لا محالة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن المنذر عن عكرمة، قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ قال المشركون بمكة، لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجاً، فاخرجوا من بين أظهرنا، فعلام تقيمون بين أظهرنا، فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ...﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ...﴾ الآية، قال: هم اليهود والنصارى، قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ اسمان[2] للسورة، ولذلك فصل بينهما في الكتابة، وعدّا آيتين، بخلاف كهيعص والمص والمرّ، فإنها آية واحدة. وقيل: هما اسم واحد للسورة وآية واحدة، وفصلت لتطابق سائر الحواميم، فعلى الأول: يكونان خبرين لمبتدأ محذوف. وعلى الثاني: يكون خبراً لذلك المبتدأ المحذوف، وقرأ ابن مسعود وابن عباس ﴿حمٓ ۝١ سٓقٓ ۝٢﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الحاء حكم الله، والميم ملك الله، والعين علوّ الله، والسين سناء الله، والقاف قدرة الله، أقسم الله بها، فكأنه يقول: فبحكمي وملكي وعلوي وسنائي وقدرتي،

---

(١) لباب النقول.

(٢) روح البيان.

لا أعذب عبداً قال: لا إله إلا الله مخلصاً فلقيني بها. ومعناه على ما قاله أبو الليث في تفسيره: لا يعذّبه عذاباً دائماً خالداً. وفي الحديث: «افتتحوا صبيانكم بلا إلٰه إلا الله، ولقنوا موتاكم بلا إلٰه إلا الله» والحكمة في ذلك أنّ حال الصبيان حال حسن لا غلّ - غش - في قلوبهم، وحال الموتى حال الاضطرار، فإذا قلتم في أول ما يجري عليكم القلم، وآخر ما يجفّ عليكم القلم، فعسى الله أن يتجاوز ما بين ذلك.

واختلفوا[1] في حمّ، فأخرجها بعضهم من حيّز الحروف، وجعلها فعلاً فقال: معناها حم الأمر؛ أي: قضي، وبقي عسق على أصله، وفي «المراغي»: وقد تقدم قولنا: إن الحروف المقطعة التي جاءت في أوائل السور، حروف تنبيه، نحو: ألا ويا، ونحوها، يؤتى بها لإيقاظ السامع، وتنبيهه إلى ما سيلقى إليه من الأمور العظام، المشتملة عليها هذه السورة، وينطق بأسمائها هكذا ﴿حاميم عين سين قاف﴾.

وقيل غير ذلك، مما هو متكلف متعسف، لم يدل عليه دليل، ولا جاء به حجة، ولا شبهة حجة، والأسلم تفويض علمه إلى الله تعالى، فيقال: الله أعلم بمراده بذلك.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه، والكاف في حيز النصب على أنه مفعول ليوحي، والجلالة فاعله؛ أي: مثل ما في هذه السورة من المعاني، يوحي الله العزيز الحكيم إليك، في سائر السور، وإلى من قبلك من الرسل في كتبهم، على أن مناط المماثلة هو الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق، وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد، ويجوز أن يكون الكاف في حيز النصب، على أنه نعت لمصدر مؤكد ليوحي؛ أي: مثل إيحاء هذه السورة؛ يوحي الله العزيز الحكيم إليك، عند إيحاء سائر السور، وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم لا إيحاء مغايراً على أن مدار

---

(١) الخازن.

المثلية كونه بواسطة الملك.

وإنما ذكر[١] بلفظ المضارع، مع أن مقتضى المقام، أن يذكر بلفظ الماضي، ضرورة أن الوحي إلى الذين من قبله قد مضى، دلالة على استمرار الوحي، تجدده وقتاً فوقتاً، وأن إيحاء مثله عادته تعالى، ويجوز أن يكون إيذاناً أن الماضي والمستقبل بالنسبة إليه تعالى واحد، كما في «الكواشي». وقيل[٢]: إن المضارع استعمل في حقيقته، ومجازه مستعمل في المستقبل، بالنظر إلى ما لم ينزل عليه من القرآن إذ ذاك وفي الماضي بالنظر لما أنزل بالفعل، وبالنظر إلى ما أنزل على الرسل السابقين، ووجه الشبه أن الموحى به في الكل، يرجع لأمور ثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث. فهذا القدر موجود في القرآن وغيره من الكتب، اهـ شيخنا. وفي «زاده»: ووجه المشابهة الاشتراك في الدعوة إلى التوحيد، والنبوة والمعاد وتقبيح أحوال الدنيا والترغيب في أمور الآخرة اهـ.

وقال الشوكاني: والمعنى: أي[٣] مثل ذاك الإيحاء الذي أوحي إلى سائر الأنبياء من كتب الله، المنزلة عليهم، المشتملة على الدعوة إلى التوحيد، والبعث يوحي الله إليك يا محمد في هذه السورة، وقيل: إن حمّ عسق أوحيت إلى من قبله من الأنبياء، فتكون الإشارة بقوله: كذلك إليها اهـ.

وقرأ الجمهور[٤]: ﴿يُوحِىٓ﴾ بكسر الحاء مبنياً للفاعل، والفاعل الله، وهي واضحة اللفظ والمعنى: وقرأ أبو حيوة والأعمش وأبان ﴿نوحي﴾ بنون العظمة مع كسر الحاء، وقرأ مجاهد، وابن كثير وابن محيصن وعباس ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو ﴿يوحى﴾ بفتح الحاء مبنياً للمفعول، والقائم مقام الفاعل ضمير مستتر يعود على ذلك، والتقدير: مثل ذلك الإيحاء يوحى هو إليك، أو القائم مقام الفاعل إليك، أو الجملة المذكورة؛ أي: يوحى إليك هذا اللفظ أو القرآن، أو مصدر يوحي وارتفاع اسم الجلالة، على أنه فاعل لفعل محذوف، كأنه قيل:

---

(١) روح البيان.
(٢) الفتوحات.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

من يوحي فقيل: يوحي الله العزيز الحكيم، أو على الابتداء، والتقدير: الله العزيز الحكيم هو الموحي. وعلى قراءة النون يكون قوله: الله العزيز الحكيم، في محل النصب، والمعنى عليه: نوحي إليك هذا اللفظ.

والمعنى[1]: أي بمثل ما في هذه السورة من الدعوة إلى التوحيد، والنبوة والإيمان باليوم الآخر، وتجميل النفس بفاضل الأخلاق، وتبعيدها عن رذائل الأخلاق، والعمل على سعادة المرء والمجتمع، يوحي إليك الله العزيز في ملكه الغالب بقهره، الحكيم بصنعه المصيب في قوله وفعله، كما أوحي إلى الأنبياء بمثله من قبلك.

وسيأتي تفصيل هذا في سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، فقد ذكر في أولها التوحيد، وفي وسطها النبوة، وفي آخرها المعاد، ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾. أي: إن المقصود من إنزال جميع الكتب الإلٰهية، ليس إلا هذه المطالب الثلاثة العالية، التي لا تتم السعادة إلا بها، ولا الفوز بالنعيم في الدارين إلا بسلوكها.

ثم بيّن سبحانه عظمته وكبرياءه وحكمته فقال: ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه لا لغيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى يختص به جميع ما في العوالم العلوية والسفلية، خلقاً وملكاً وعلماً، ذكر سبحانه هذا الوصف لنفسه، وهو ملك جميع ما في السمٰوات والأرض لدلالته على كمال قدرته، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾؛ أي: الرفيع الشأن ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الملك والقدرة والحكمة، أو هو العلي؛ أي: المرتفع عن مدارك العقول، إذ ليس كذاته ذات، ولا كصفاته صفات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، وهو العظيم الذي يصغر عند ذكره وصف كل شيء سواه، والعظيم من العباد، الأنبياء والعلماء الوارثون لهم، فالنبي عظيم في حق أمته، والأستاذ عظيم في حق تلميذه، وإنما العظيم المطلق، هو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) المراغي.

والخلاصة[١]: أي إن ما في السمٰوات والأرض تحت قبضته، وفي ملكه، وله التصرف فيه إيجاداً وإعداماً، وهو المتعالي فوقه، العظيم عن مماثلته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾؛ أي: تقرب السمٰوات يتشققن من عظمة وخشية وهيبة الإلٰه الذي ﴿مِن فَوْقِهِنَّۚ﴾؛ أي: فوق السمٰوات بالألوهية والقهر والعظمة والقدرة، والتفطر التشقق، قال[٢] الضحاك والسدي: يتشققن من عظمة الله وجلاله من فوقهن. وقيل: المعنى: تكاد كل واحدة تتفطر فوق التي تليها من قول المشركين: اتخذ الله ولداً، وقيل: من فوقهن من فوق الأرضين، والأول أولى، ومن في قوله: من فوقهن لابتداء الغاية؛ أي: يبتدىء التفطر من جهتهن الفوقانية إلى جهتهن التحتانية.

ووجه تخصيص[٣] جهة الفوق، أنها أقرب إلى أعظم الآيات، وأدلها على القدرة الباهرة من العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلا الله من آثار الملكوت العظمى، فكان المناسب أن يكون تفطر السموات مبتدأ من تلك الجهة، بأن يتفطر أولاً أعلى السمٰوات ثم إلى أن ينتهي إلى أسفلها، بأن لا تبقى سماء إلا سقطت على الأخرى.

وقيل: تتشقق من ادعاء الولد له، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾، فتخصيصها حينئذٍ للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى؛ لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الأرض، إذا أثرت في جهة الفوق فلأن تؤثر في جهة التحت أولى، وقيل: لنزول العذاب منهن.

وقرأ الجمهور: ﴿تَكَادُ﴾ بالفوقية، وكذلك ﴿تتفطرن﴾ قرؤوه بالفوقية مع

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

تشديد الطاء، وقرأ نافع والكسائي وابن وثاب ﴿يكاد﴾، ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ بالتحتية فيهما. وقرأ أبو عمرو والمفضل وأبو بكر وأبو عبيد: ﴿ينفطرن﴾ بالتحتية والنون من الانفطار كقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾.

وبعد أن بيّن كمال عظمته، باستيلاء هيبته على الجسمانيات، انتقل إلى ذكر الروحانيات فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾ هذا كلام مستأنف، لا تعلق له بما قبله؛ أي: ينزهونه تعالى عما لا يليق به، من الشريك والولد، وسائر صفات الأجسام، حال كونهم متلبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ سبحانه وتعالى، فقدم التسبيح على الحمد؛ لأنّ التخلية مقدمة على التحلية، وقيل: إن التسبيح موضوع موضع التعجب؛ أي: يتعجبون من جراءة المشركين على الله. وقيل: معنى ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ بأمر ربهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: للمؤمنين بالشفاعة، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فالمطلق محمول على المقيد، أو يستغفرون للمؤمن والكافر والفاسق، بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم، من الشفاعة والإلهام، وترتيب الأسباب، المقربة إلى الطاعة، واستدعاء تأخير العقوبة، جمعاً في إيمان الكافر، وتوبة الفاسق، وتكون الآية عامة، وهذا لا ينافي كون الملائكة لاعنين للكفار من وجه آخر، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وفي الحديث: «ما فيها موضع أربع أصابع، وفي رواية موضع راحة، إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، يسبّحون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن في الأرض». وهذا يدل على أن المراد بالملائكة في الآية: ملائكة السموات كلها، وقال مقاتل: حملة العرش، وإليه ذهب الكاشفي في تفسيره، ويدل عليه قوله تعالى، في أوائل سورة المؤمن: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

يقول الفقير: تخصيص ملائكة العرش، لا ينافي من عداهم، فلعله من باب الترقي؛ لأنّ آية سورة المؤمن - غافر - مقيّدة بحملة العرش، وباستغفار المؤمنين، وهذه الآية مطلقة في حق كل من الملائكة والاستغفار.

ثم بيّن سبحانه أن من شأنه المغفرة والرحمة لعباده، فقال: ﴿أَلَآ﴾ للتنبيه؛

أي: اعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: كثير المغفرة لعباده، يغفر ذنوب المقبلين ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير الرحمة بهم، بأن يرزقهم جنته وقربه، وبرحمته يأمر الملائكة بالاستغفار لبني آدم، مع كثرة عصيانهم، والكفار الذين يرتكبون الشرك، والذنوب العظام، لا يقطع رزقهم ولا صحتهم، وتمتعاتهم من الدنيا، وإن كان يريد أن يعذّبهم في الآخرة.

يقول الفقير: إن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للمؤمنين، فالمؤمنون يسلّمون عليهم كما يقولون في التشهد: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، إذ لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فالمنة لله تعالى على كل حال.

وفي الآية: إشارة إلى أن قوماً من الجهلة يقولون على الله ما لا يعلمون، ومن عظم افترائهم تكاد السموات تنشق من فوقهم؛ لأنّ الله تعالى ألبسها أنوار قدرته، وأدخلها روح فعله، حتى عقلت عبودية صانعها؛ وعرفت قدسه وطهارته عن قول الزائغين، وإشارة الملحدين، والملائكة يقدسون الله، عما يقولون فيه من الزور والبهتان، والدعاوى الباطلة، ويستغفرون للمؤمنين، الذين لم يبلغوا حقيقة عبوديته، فإنهم هم القابلون للإصلاح، لاعترافهم بعجزهم، وقصورهم، دون المصرين المبتدعين.

وفي الآية: إيماء أيضاً إلى قبول استغفار الملائكة، وهو يزيد على ما طلبوه من المغفرة، الرحمة بهم، وتأخير عقوبة الكافرين والعصاة نوع من المغفرة والرحمة، لعلهم يرعوون عن غوايتهم، ويثوبون إلى رشدهم، وينيبون إلى ربهم، ثم أبان وظيفة الرسل، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أصناماً وأنداداً وشركاء، أشركوهم معه تعالى، في العبادة ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿حَفِيظٌ﴾؛ أي: رقيب ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أحوالهم، ومطلع على أعمالهم، ليس بغافل عنهم، فيجازيهم، لا رقيب عليهم إلا هو وحده ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﷺ ﴿بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: بموكول إليه أمورهم، ولا بموكل بهم، حتى تسأل عنهم وتؤخذ بهم، وإنما وظيفتك الإنذار وتبليغ الأحكام، قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف.

وفيه إشارة، إلى أن كل من عمل بمتابعة هواه، وترك لله حدّاً، ونقض له عهداً، فهو متخذ الشياطين أولياء؛ لأنه يعمل بأوامرهم، وأفعاله موافقة لطباعهم، الله حفيظ عليهم بأعمال سرهم وعلانيتهم، إن شاء عذّبهم، وإن شاء عفا عنهم، وما أنت عليهم بوكيل، لتمنعهم عن معاملتهم، فعلى العاقل أن لا يتخذ من دون الله أولياء، بل يتفرد بمحبة الله تعالى وولايته، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ حتى يتولاه في جميع أموره. وما أحوجه إلى أحد سواه.

حكاية: وقال الأستاذ أبو علي الدقاق ـ رحمه الله تعالى ـ: ظهرت علة بالملك يعقوب بن الليث، أعيت الأطباء، فقالوا له: في ولايتك رجل صالح، يسمى سهل بن عبد الله، لو دعا لك، لعل الله يستجيب له، فاستحضره فقال: ادع الله لي، فقال: كيف يستجاب دعائي فيك، وفي حبسك مظلومون، فأطلق كل من حبسه، فقال سهل: اللهم كما أريته ذل المعصية، فأره عز الطاعة، وفرج عنه، فعوفي، فعرض مالاً على سهل، فأبى أن يقبله، فقيل له: لو قبلته ودفعته إلى الفقراء، فنظر إلى الحصباء في الصحراء، فإذا هي جواهر فقال: من يُعطى مثل هذا، يحتاج إلى مال يعقوب بن الليث؟ فالمعطي والمانع والضار والنافع هو الله، الولي، الوكيل، الذي لا إلٰه غيره.

والمعنى: أي والمشركون الذين اتخذوا آلهة من الأصنام، والأوثان، يعبدونها، الله هو المراقب لأعمالهم، المحصي لأفعالهم، وأقوالهم، المجازي لهم يوم القيامة على ما كانوا يفعلون، ولست أنت أيها الرسول، بالحفيظ عليهم، إنما أنت نذير تبلغهم ما أرسلت به إليهم، إن عليك إلا البلاغ، وعلينا الحساب، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإنك لست بمدرك ما تريد من هدايتهم، إلا إذا شاء ربك.

والإشارة في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إلى مصدر أوحينا، ومحل الكاف النصب على المصدرية. وقرآناً عربياً مفعول به لأوحينا؛ أي: ومثل ذلك الإيحاء البديع، الواضح المفهم، أوحينا إليك إيحاء لا لبس به، عليك وعلى قومك.

والمعنى[١]: أي أنزلنا عليك قرآنا عربياً، بلسان قومك، كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه. ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي[٢]: لتخوف أهل مكة بعذاب الله، على تقدير إصرارهم على الكفر، والعرب تسمي أصل كل شيء بالأم، سميت أم القرى تشريفاً لها، وإجلالاً لاشتمالها على البيت المعظم، ومقام إبراهيم عليه السلام، ولما رُوي من أن الأرض دحيت من تحتها، فمنزلة القرى منها. البنات من الأمهات ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: حول أم القرى من العرب، وتفسير من حولها بالعرب لا ينافي عموم رسالته ﷺ؛ لأنّ تخصيص الشيء بالذكر لا ينافي حكم ما عداه. وقيل: من أهل الأرض كلها شرقاً وغرباً، وبذلك فسره البغوي فقال: من قرى الأرض كلها، وكذا القشيري حيث قال: العلم محدق بالكعبة ومكة؛ لأنهما سرة الأرض.

والمعنى[٣]: أي ومثل ذلك الإيحاء البديع البيّن، أوحينا إليك قرآناً عربياً بلسان قومك، لاخفاء فيه عليك، ولا عليهم، ليفهموا ما فيه من حجج الله وذكره، ولتنذر به أهل مكة، وما حولها من البلاد، إلى منقطع الأرض كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه.

وقصارى ذلك: أنا كما أوحينا إليك أنك لست بالحفيظ عليهم، ولا بالوكيل، أوحينا إليك قرآناً عربياً، لتنذر أهل مكة وما حولها، وخص هؤلاء بالذكر؛ لأنهم أول من أنذروا، ولأنهم أقرب الناس إليه، فلا دليل فيها على أنه أرسل إليهم خاصة، كيف وقد جاء في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

وهذا الإنذار يعم شؤون الدنيا وشؤون الآخرة، ثم خصَّ من بينها أمور الآخرة، بياناً لعظيم أهوالها، وشديد نكالها فقال: ﴿وَتُنذِرَ﴾ أهل مكة ومن حولها ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾؛ أي[٤]: بيوم القيامة وما فيه من العذاب، سمي يوم الجمع؛

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

لأنه يجمع فيه الخلائق من الأولين والآخرين، وأهل السمٰوات وأهل الأرض، أو الأرواح والأشباح أو الأعمال والعمال، أو الظالم والمظلوم، فالباء محذوف من اليوم، كما قال: لتنذر بأساً شديداً؛ أي: ببأس شديد. كما قاله أبو الليث. فيكون مفعولاً به لا ظرفاً، كما في «كشف الأسرار». وقد سبق نظير ذلك في سورة المؤمن: عند قوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

وجملة قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك في يوم الجمع، جملة معترضة، مقررة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب، أو صفة ليوم الجمع، أو حال منه، أي: لا بدّ من مجيء ذلك اليوم، وليس بمرتاب فيه في نفسه وذاته، لأنه لا بدّ من جزاء العاملين من المنذرين وأهل الجنة والنار، وارتياب الكفار فيه لا يعتد به. أو لا شك في الجمع أنه كائن، ولا بد من تحققه.

والمعنى[1]: أي ولتنذر الخلائق كافة، عقاب الله، يوم جمعهم للعرض والحساب، وهو يوم لا شك فيه، لتظاهر الأدلة على تحققه، عقلاً ونقلاً، فالحكمة قاضية بجزاء المحسن على إحسانه، ومعاقبة المسيء على إساءته، ولما فيه من نصوص قاطعة، على وجوده، لا تحتمل تأويلاً ولا تفسيراً.

ثم ذكر عاقبة العرض والحساب، فقال: ﴿فَرِيقٌ﴾ منهم، وهم المؤمنون ﴿فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ﴾ منهم وهم الكافرون ﴿فِي ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: في النار سميت بها لالتهابها، وذلك بعد جمعهم في الموقف؛ لأنهم يجمعون فيه أولاً، ثم يفرّقون بعد الحساب، وقرأ الجمهور[2]: برفع ﴿فَرِيقٌ﴾: في الموضعين، إما على أنه مبتدأ، وخبره الجار والمجرور، وسوّغ الابتداء بالنكرة، كونه في معرض تفصيل، أو كونه موصوفاً بصفة محذوفة؛ أي: فريق منهم، كما قدّرناه أولاً في حلنا، أو على أن الخبر مقدّر قبله، أي: منهم فريق في الجنة ومنهم فريق في السعير. وجاز حينئذٍ الابتداء بالنكرة لأمرين تقديم خبرها، وهو الجار والمجرور المحذوف، ووصفها بقوله في الجنة، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، وهو ضمير

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

عائد إلى المجموعين المدلول عليهم بذكر الجمع؛ أي: هم فريق في الجنة وفريق في السعير، وقرأ زيد بن عليّ ﴿فريقاً﴾ بالنصب في الموضعين على الحال، من جملة محذوفة؛ أي: افترقوا حال كونهم فريقاً كذا وفريقاً كذا. وجوّز الفراء والكسائي النصب على تقدير لتنذر فريقاً. والضمير المجرور في منهم للمجموعين، لدلالة لفظ الجمع عليه، فإن المعنى يوم يجمع الخلائق في موقف الحساب.

وفي «التأويلات النجمية»[1]: وتنذر يوم الجمع بين الأرواح والأجساد، لا شك في كونه، وكما أنهم اليوم فريقان: فريق في جنة القلوب، وراحات الطاعات، وحلاوات العبادات، وتنعّمات القربات، وفريق في سعير النفوس، وظلمات المعاصي، وعقوبات الشرك، والجحود، فكذلك غداً، فريق هم أهل اللقاء، وفريق هم أهل الشقاء والبلاء.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، قابضاً على كفّه، ومعه كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان» قلنا: لا يا رسول الله، فقال: للذي في يده اليمنى «هذا كتاب من ربّ العالمين، بأسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وعشائرهم، وعدّتهم، قبل أن يستقرّوا نطفاً في الأصلاب، وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام، إذ هم في الطينة منجدلون، فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم، إجمال من الله عليهم، إلى يوم القيامة»، ثم قال: للذي في يساره: «هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل النار، وأسماء آبائهم، وعشائرهم، وعدّتهم، قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب، وقبل أن يستقروا في الأرحام، إذ هم في الطينة منجدلون، فليس بزائد فيهم، ولا ناقص منهم إجمال من الله تعالى عليهم إلى يوم القيامة. فقال عبد الله بن عمرو: ففيم العمل إذاً؟ قال: اعملوا وسددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أيّ عمل، ثمّ قال: فريق في الجنة وفريق في السعير، عدل

---

(١) روح البيان.

من الله تعالى، أخرجه الإمام أحمد في «مسنده».

ثم سلى رسوله على ما كان يناله من الغم والهم، بتولي قومه عنه وعدم استجابة دعوته، وأعلمه أن أمور عباده بيده، وأنه الهادي إلى الحق من يشاء، والمضل من أراد، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، جمع الناس على الهداية، أو على الضلالة ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾ في الدنيا، والضمير لجميع الناس المشار إليهم بالفريقين ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مهتدين أو ضالين، وهو تفصيل لما أجمله ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: على دين واحد. قال الضحاك: أهل دين واحد، إما على هدى وإما على ضلالة، ولكنهم افترقوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية، وهو معنى قوله: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ﴾ في الدين الحق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يدخله ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ وجنته ويدخل في الضلال من يشاء أن يدخله في عذابه ونقمته، ولا ريب في أن مشيئة الله تعالى، لكل من الإدخالين، تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله، ومن ضرورة اختلاف الرحمة اختلاف حال الداخلين فيهما قطعاً، فلم يشأ جعل الكل أمةً واحدة، بل جعلهم فريقين ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: المشركون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾ ما يلي أمرهم ويغنيهم وينفعهم، فـ﴿مِّن﴾: مزيدة لاستغراق النفي ﴿وَلَا﴾ من ﴿نَصِيرٍ﴾ ما يدفع العذاب الواقع عنهم ويخلصهم منه، وفيه إيذان، بأن الإدخال في العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته تعالى، كما في الإدخال في الرحمة.

قال سعدي المفتي في «حواشيه»[(١)]: لعل تغيير المقابل حيث لم يأت المقابل، ويدخل من يشاء في نقمته، بل عدل إلى ما في النظم، للمبالغة في الوعيد، فإن في نفي من يتولاهم وينصرهم في دفع العذاب عنهم، دلالة على أن كونهم في العذاب أمر معلوم مفروغ عنه، وأيضاً فيه سلوك طريق ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ وأيضاً ذكر السبب الأصلي في جانب الرحمة ليجتهدوا في الشكر، والسبب الظاهري في جانب النقمة ليرتدعوا عن الكفر.

(١) روح البيان.

وفي «التأويلات النجمية»: ولو شاء الله لجعلهم أمةً واحدة، كالملائكة المقربين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾، الآية، أو جعلهم كالشياطين، المبعدين، المطرودين، المتمردين، ولكن الحكمة الإلٰهية اقتضت، أن يجعلهم مركبين من الجوهر الملكي، والشيطاني، ليكونوا مختلفين، بعضهم الغالب عليه الوصف الملكي، مطيعاً لله تعالى، وبعضهم الغالب عليه الوصف الشيطاني، متمرداً على الله تعالى، ليكونوا مظاهر صفات لطفه وقهره، ويدل على هذا التأويل، قوله: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: ليكونوا مظاهر صفات لطفه، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ أي: ليكونوا مظاهر صفات قهره، انتهى.

وحاصل المعنى[1]: أي ولو شاء الله لجعل الجميع مؤمنين، كما تريد وتحرص عليه، ولكن حكمته اقتضت أن يكون بعضهم مؤمنين وبعضهم كفاراً، وهم الذين اتخذوا من دون الله أولياء؛ لأنه سبحانه شاء أن يكون الإيمان مبنياً على التكليف والاختيار، يدخل المرء فيه بمحض الرضا. والتأمل في الأدلة الموصلة إلى الهدى، وبذلك يتم الفوز والسعادة في الدارين، وينفر منه من دنس نفسه بأدران الشرك، وركب رأسه وأطاع هواه، فكان من الخاسرين، ولو شاء لجعل الإيمان بالقسر والإلجاء، فكان الناس جميعاً أمة واحدة، ولكن له الحجة البالغة والمثل الأعلى، ولم يشأ ذلك، فلاتأس على عدم إيمان قومك، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾، و قد جاء هذا المعنى في غير آية سلف كثير منها، كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾.

وجملة قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء كون الولي والنصير للظالمين. و﴿أَمْ﴾[2] هذه هي المنقطعة المقدرة ببل المفيدة للانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها، وبالهمزة المفيدة لإنكار الوقوع

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ونفيه على أبلغ وجه وآكده، لا لإنكار الواقع واستقباحه كما قيل، إذ المراد بيان أن ما فعلوا من اتخاذ الأولياء، ليس في شيء لأن ذلك فرع كون الأصنام أولياء، وهو أظهر الممتنعات؛ أي: بل اتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام، التي يعبدونها ليس ذلك في شيء. والفاء[١] في قوله ﴿فَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى - ﴿هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾؛ أي: هو الحقيق بأن يتخذوه ولياً، فإنه هو الخالق الرازق، الضار النافع - فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إن أرادوا أن يتخذوا ولياً في الحقيقة، فأقول لهم: الله سبحانه هو الولي، الذي يجب أن يتولى ويعتقد أنه المولى، لا ولي سواه، وهو متولي الأمور من الخير والشر، والنفع والضر.

قلت: ويحتمل أن تكون الفاء تعليلية، لكون ما بعدها علة لإنكار اتخاذ الأولياء من دون الله، كقولك: أتضرب زيداً فهو أخوك، على معنى: لا ينبغي أن تضربه، لكونه أخاك، والمعنى هنا: لا ينبغي لهم أن يتخذوا أولياء من دون الله، لأنّ الله هو الولي الحقيقي.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه؛ أي: ومن شأنه أنه ﴿يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ليس في السماء والأرض معبود يحيي الموتى غيره ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه على كل شيء من الإحياء والإماتة ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً، فليَخصُّوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شيء.

ومعنى الآية[٢]: أي إن هؤلاء المشركين من قومك، قد اتخذوا أولياء ينصرونهم من دون الله، وقد ضلوا ضلالاً بعيداً، فهؤلاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فإن أرادوا ولياً بحق يدفع عنهم الملمات ويجلب لهم الخيرات، فاللَّه هو القادر على ذلك وهو محيي الموتى، ويحشرهم يوم القيامة، فجدير بمثله أن يتخذ ولياً، لا من لا يستطيع دفع الشر عن نفسه، ولا جلب الخير لها، ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

﴿يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

وبعد أن منع رسوله أن يحمل الكفار على الإيمان قسراً، منع الكافرين أن يتنازعوا معهم، في شأن من شؤون الدين فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ﴾ هذا[١] حكاية قول النبي ﷺ للمؤمنين؛ أي: ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين، فاختلفتم أنتم وهم فيه ﴿مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: في أمر من أمور الدين ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾؛ أي: حكم ذلك المختلف فيه مفوض ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين، ومعاقبة المبطلين، وهذا عام في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين، فإن حكمه ومرجعه إلى الله، يحكم فيه يوم القيامة بحكمه، ويفصل خصومة المختصمين فيه، وعند ذلك يظهر المحق من المبطل، ويتميز فريق الجنة وفريق النار، وقال مقاتل: إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن، وآمن به بعضهم فنزلت، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ويمكن[٢] أن يكون معنى قوله: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أنه مردود إلى كتابه، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه، فتكون الآية عامة في كل اختلاف يتعلق بأمر الدين، أنه يرد إلى كتاب الله تعالى، ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾. وقد حكم سبحانه وتعالى بأن الدين هو الإسلام، وأن القرآن حق، وأن المؤمنين في الجنة والكافرين في النار، ولكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقاً إلا في الدار الآخرة، وعدهم الله بذلك يوم القيامة.

ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم بهذا الحكم العظيم الشأن، وهو مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر ﴿رَبِّى﴾ ومالكي لقب لله سبحانه، ﴿عَلَيْهِ﴾ خاصة لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في كل أموري، التي من جملتها رد كيد أعداء الدين ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى أحد سواه ﴿أُنِيبُ﴾؛ أي: أرجع في كل ما يعنّ لي، من معضلات الأمور، التي منها كفاية شرهم والنصر عليهم.

---

(١) النسفي.

(٢) الشوكاني.

ولما كان التوكل أمراً واحداً مستمراً، والإنابة متعددة، متجددة بحسب تجدد موادها، أوثر في الأول صيغة الماضي، وفي الثاني صيغة المضارع، وفيه إشارة إلى أنه إذا اشتغلت قلوبكم بحديث نفوسكم لا تدرون، أبالسعادة جرى حكمكم، أم بالشقاوة مضى اسمكم، فَكِلوا الأمر فيه إلى الله، واشتغلوا في الوقت بأمر الله، دون التفكر فيما ليس لعقولكم سبيل إلى معرفته وعلمه من عواقبكم.

والمعنى: أي ذلكم الموصوف بهذه الصفات، من الإحياء والإماتة والحكم بين المختلفين، هو ربي وحده، لا آلهتكم التي تدعون من دونه، عليه توكلت في دفع كيد الأعداء. وفي جميع شؤوني، وإليه أرجع في كل المهمات، وإليه أتوب من الذنوب.

وفي هذا تعريض لهم، بأن ما هم عليه من اتخاذ غير الله ولياً لا يجديهم نفعاً، ولا يدفع عنهم ضراً، فالأجدر بهم أن يقلعوا عنه، إذ من شأن العاقل أن لا يفعل إلا ما يفيده في دينه أو دنياه.

ثم بين الأسباب، التي تحمله على أن يلتجىء إليه، وتجعله الحقيق بذلك فقال: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والفاطر: هو الخالق المبدع، وقرأ الجمهور: ﴿فاطرُ﴾ بالرفع، على أنه خبر آخر لذلكم، أو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ وخبره ما بعده، أو نعت لربي؛ لأن الإضافة فيه محضة، ويكون ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ معترضاً بين الصفة والموصوف، وقرأ زيد بن علي ﴿فاطرِ﴾ بالجر على أنه نعت للاسم الشريف، في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، وما بينهما اعتراض أو بدل من الهاء، في عليه أو إليه، وأجاز الكسائي النصب على النداء، وأجازه غيره على المدح.

والمعنى: أي أنه الجدير بأن يعتمد عليه ويستعان به، لأنه خالق العوالم جميعها علويها وسفليها، على عظمتها التي ترونها، لا آلهتكم التي لا تستطيع أن تخلق شيئاً.

ثم بين بعض ما خلقه وأنعم به، فقال: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي:

خلق لكم من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: نساء وحلائل، أو المراد: حواء لكونها خلقت من ضلع آدم. وقال مجاهد: نسلاً بعد نسل ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: خلق للأنعام من جنسها إناثاً، أو وخلق لكم من الأنعام أصنافاً من الذكور والإناث، وهي الثمانية التي ذكرها في سورة الأنعام ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ من الذرء، وهو البث، أو يخلقكم وينشئكم، والضمير في يذرؤكم للمخاطبين والأنعام، إلا أنه[1] غلب فيه العقلاء على غيرهم، حيث لم يقل يذرؤكم وإياهن، وغلب فيه المخاطبين على الغائبات، حيث لم يقل يذرؤها وإياكم؛ لأن الأنعام ذكرت بلفظ الغيبة، فإن ﴿كم﴾ مخصوص بالعقلاء، ففيه تغليبان ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في هذا الجعل والخلق أزواجاً المدلول عليه بالفعل؛ لأنه يكون بين ذكوره وإناثهم تناسل وتوالد، أو في هذا التدبير وهو جعل الناس والأنعام أزواجاً، ففيه بمعنى به، واختير فيه على لفظ به، لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع، والمعدن للبث والتكثير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾؛ أي: كذاته سبحانه وتعالى ﴿شَيْءٌ﴾ من الموجودات، قيل[2]: إنّ كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفي التمثيل والتقدير: ليس مثله شيء، فتكون الكاف زائدة، وقيل: المثل زائدة، والتقدير: ليس كهو شيء كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾؛ أي: بما آمنتم به، وذلك لأن المراد نفي المثلية، وإذا لم تجعل الكاف أو المثل زائدة، لزم إثبات المثل له تعالى؛ لأن المنفي مثل المثل. وقيل: المعنى ليس كذاته شيء؛ لأنهم يقولون: مثلك لا يبخل، يريدون به نفي البخل عن ذاته، ويقصدون المبالغة في نفي ذلك البخل؛ لأنهم إذا نفوه عمن يقوم مقامه، فقد نفوه عنه، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين ليس كمثله شيء، وبين ليس كالله شيء، وقال أبو البقاء[3] مرجحاً لزيادة الكاف: إنها لو لم تكن زائدة لأفضى ذلك إلى إثبات المحال إذ يكون المعنى أن له تعالى مثلاً وليس لمثله مثل، وفي ذلك تناقض، لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل، وهو مع أن إثبات المثل لله سبحانه وتعالى محال انتهى. ولكنه يندفع ما

---

(١) روح البيان.

(٢) النسفي.

(٣) العكبري.

أورده بما ذكرنا، من كون الكلام خارجاً من مخرج الكناية.

وقال الإمام الراغب في «المفردات»: المثل عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة، وذلك أن الند يقال لما يشارك في الجوهر فقط، والشبه يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط، والمثل عام في جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله سبحانه وتعالى نفي التشبيه، من كل وجه، خصه بالذكر فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ انتهى.

والشيء عبارة عن الموجود، وهو اسم لجميع المكونات، عرضاً كان أو جوهراً. وعند سيبويه الشيء ما يصح أن يعلم ويخبر عنه موجوداً أو معدوماً، ومن[1] فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها، وتدبرها حق تدبرها.. مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات، على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل، معنى قوله: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات بلا أذن ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ لجميع المرئيات بلا حدقة، وكأنه ذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له، كما لا مثل له.

وحاصل معنى الآية: أي ومن حكمته تعالى لبقاء العمران في هذه الحياة، إلى الأجل الذي حدده في علمه، أن خلق لكم من جنسكم زوجات، لتتوالدوا ويكثر النسل، ويستمر بقاء هذا النوع، وجعل للأنعام مثل هذا، وبهذا تنتظم شؤون الحياة لهذا الخليفة، الذي جعله الله في الأرض وتقضى مآربه الدنيوية، من مأكول ومشروب، وتستمر تغذيته على أتم النظم وأكمل الوجوه، فيشكر ربه على ما أولى، ويعبده على ما أنعم، فيفوز بالسعادة في الحياة الآخرة، كما فاز في الدنيا.

وبعد أن ذكر بعض صنعه، الدال على عظمته، أرشد إلى بعض صفاته العظيمة، فقال:

١ ـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ أي: ليس كخالق الأزواج شيء؛ لأنه الفرد

---

(١) الشوكاني.

الصمد، وقد يكون المعنى: ليس مثله شيء في شؤونه التي يدبرها، بمقتضى قدرته، الشاملة، وعلمه الواسع، وحكمته الكاملة، ومن ثم، جعل هذا التدبير المحكم لإحاطة علمه بكل شيء.

٢ ـ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: وهو السميع لما ينطق به خلقه من قول البصير بأعمالهم لا يخفي عليه شيء مما كسبت أيديهم من خير وشر.

٣ ـ ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع خزائن السموات والأرض، من الأرزاق والرحمة.

قال الجواليقي في كتابه «المعرب»: المقليد: المفتاح، فارسي، معرب لغة في الأقليد، والجمع مقاليد، فالمقاليد: المفاتيح، وهي كناية عن الخزائن، وقدرته عليها، وحفظه لها، قال النحاس: والذي يملك المفاتيح، يملك الخزائن، انتهى. وفيه مزيد دلالة على الاختصاص؛ لأن الخزائن لا يدخلها، ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها؛ أي: له تعالى مفاتيح خزائن السمٰوات والأرض، فبيده مقاليد الخير والشر، فما يفتح من رحمة، فلا ممسك لها، وما يمسك منها، فلا مرسل له من بعده، وقد بين هذا بقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيق ويقتر على من يريد، بحسب السنن والنواميس، التي وضعها بين عباده في هذه الحياة.

ثم ذكر سبب هذا البسط والتقتير فقال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: إنه تعالى عليم بكل ما يفعله من توسعة على من يوسع عليه، وتقتير على من يقتر عليه، ومن الذي يصلحه البسط في الرزق، ومن الذي يفسده، ومن الذي يصلحه التقتير، ومن الذي يفسده لا يخفى عليه شيء من ذلك، فيفعل كل ذلك على مقتضى حكمته الكاملة، وقدرته الواسعة وعلمه المحيط، فلا يوسع الرزق، إلا إذا علم سعته خير للعبد، وكذا التضييق.

ثم إن الرزق قسمان: رزق صوري: وهي المأكولات والمشروبات الحسية، ورزق معنوي: وهي العلوم الحقيقية والمعارف الإلٰهية، فالأول داخل في الآية

بطريق العبارة، والثاني بطريق الإشارة.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ شروع في تفصيل ما أجمله، أولاً بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ اهـ «خطيب». والخطاب في ﴿لَكُم﴾ لأمة محمد ﷺ؛ أي: بين وأوضح وسن لكم من التوحيد، ودين الإسلام، وأصول الشرائع والأحكام، سنةً وطريقاً واضحاً؛ أي: سن الله سبحانه لكم، يا أمة محمد ﷺ، ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ عليه السلام؛ أي[1]: أمر به نوحاً من التوحيد الذي لم يختلف فيه الرسل، وتوافقت عليه الكتب، أمراً مؤكداً، فإن التوصية معربة عن تأكيد الأمر، والاعتناء بشأن المأمور به؛ لأن الوصية التقديم إلى الغير بما يعمل به، مقترناً بوعظه، وقدم نوحاً لأنه أول أنبياء الشريعة، فإنه أول من أُوحي إليه الحلال والحرام، وأول من أوحي إليه تحريم الأمهات والأخوات والبنات وسائر ذوات المحارم، فبقيت تلك الحرمة إلى الآن ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﷺ؛ أي: وشرع لكم يا أمة محمد ﷺ الذي أوحينا إلى نبيكم ﷺ من القرآن، وشرائع الإسلام، والبراءة من الشرك، والتعبير عنه بالموصول، لتفخيم شأنه.

وتغيير التوصية إلى الإيحاء في جانب النبي ﷺ، للتصريح برسالته قطعاً لإنكار الكفرة، والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه، وهو السر في تقديمه على ما بعده، مع تقدمه عليه زماناً، وتقديم توصية نوح، للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً، والتعبير بالأصل في الموصولات، وهو الذي في جانب نبينا محمد ﷺ للتعظيم، وتوجيه الخطاب إليه ﷺ بطريق التلوين للتشريف، والتنبيه على أنه تعالى، شرعه لهم على لسانه ﴿و﴾ شرع الله لكم أيضاً ﴿ما وصينا﴾؛ أي: أمرنا ﴿بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ ابن مريم ـ على نبينا، وعليهم الصلاة والسلام ـ أمراً أكيداً.

وحكمة تخصيص هؤلاء الخمسة بالذكر هنا، أنهم أكابر الأنبياء، ومشاهيرهم، من أولى العزم، وأصحاب الشرائع العظيمة، والأتباع الكثيرة.

---

(١) روح البيان.

وحاصل المعنى[1]: أي شرع لكم من الدين، ما شرع لنوح ومن بعده، من أرباب الشرائع، وأولي العزم من الرسل، وأمرهم به أمراً أكيداً، وتخصيص هؤلاء الأنبياء بالذكر، كما تقدم آنفاً، لعلو شأنهم، وعظيم شهرتهم، ولاستمالة قلوب الكفار إلى اتباعه، لاتفاق كلمة أكثرهم على نبوتهم، واختصاص اليهود بموسى عليه السلام، والنصارى بعيسى عليه السلام، وإلا فكل نبي مأمور بما أمروا به، من إقامة دين الإسلام، وهو التوحيد وأصول الشرائع والأحكام، مما لا يختلف باختلاف الأعصار، كالإيمان بالله واليوم الآخر، والملائكة واكتساب مكارم الأخلاق وفاضل الصفات.

وفي الآية: إيماء إلى أن ما شرعه لهم، صادر عن كامل العلم والحكمة، وأنه دين قويم أجمع عليه الرسل، وما أوحاه إليه، هو إما ما ذكر في صدر السورة، وفي قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ﴾ الآية، وإما ما يعمهما وغيرهما مما وقع في سائر المواضع، التي من جملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

ثم فصل ما شرعه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ المراد[2] بإقامته تعديل أركانه، وحفظه من أن يقع فيه زيغ، أو المواظبة والتشمر له و﴿أَنْ﴾ تفسيرية بمعنى أي؛ أي: أقيموا الدين لأنه قد تقدمها ما في معنى القول. ويجوز أن تكون مصدرية في محل رفع خبر مبتدأ مقدر، تقديره: هو أن أقيموا إلخ، أو في محل نصب، بدلاً من الموصول، أو في محل جر، بدلاً من الدين، اهـ «سمين».

وعبارة «أبي السعود»: ومحل ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟﴾ إما النصب على أنه بدل من مفعول ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفين، أو الرفع على أنه جواب سؤال، نشأ من إبهام المشروع، كأنه قيل: وما ذاك، فقيل، هو إقامة الدين؛ أي: أقيموا دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله وباليوم الآخر، وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً، ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: في الدين، الذي هو عبارة عن

---

(١) المراغي.
(٢) أبو السعود.

الأصول، والخطاب فيه متوجه إلى أمته ﷺ، فهذه وصية لجميع العباد؛ أي[1]: لا تختلفوا في التوحيد والإيمان بالله، وطاعة رسله وقبول شرائعه، فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع، وتوافقت فيها الأديان، فلا ينبغي الخلاف في مثلها، وليس من هذا فروع المسائل التي تختلف فيها الأدلة، وتتعارض فيها الأمارات، وتتباين فيها الأفهام، فإنها من مطارح الاجتهاد، ومواطن الخلاف.

واعلم[2]: أن الأنبياء عليهم السلام مشتركون، ومتفقون في أصل الدين، وجميعهم أقاموا الدين، وقاموا بخدمته، وداموا بالدعوة إليه، ولم يختلفوا في ذلك، وباعتبار هذا الاتفاق، والاتحاد في الأصول، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ من غير تفرقة بين نبي ونبي، ومختلفون في الفروع والأحكام، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وهذا الاختلاف الناشيء من اختلاف الأمم، وتفاوت طبائعهم لا يقدح في ذلك الاتفاق، ثم أمر عباده بإقامة الدين والاجتماع عليه، ونهاهم عن التفرق فيه، فإن يد الله ونصرته مع الجماعة، وإنما يأكل الذئب الشاة البعيدة، النافرة، والمنفردة عن الجماعة.

أوصى حكيم أولاده عند موته، وكانوا جماعة، فقال: ائتوني بعصي، فجمعها، فقال لهم: اكسروها وهي مجموعة، فلم يقدروا على ذلك، ثم فرقها فقال: خذوا واحدة واحدة فاكسروها فكسروها، فقال لهم: هكذا أنتم بعدي لن تغلبوا ما اجتمعتم، فإذا تفرقتم تمكن منكم عدوكم فأهلككم، وكذا القائمون بالدين، إذا اجتمعوا على إقامته، ولم يتفرقوا فيه لم يقهرهم عدوهم، وكذا الإنسان في نفسه، إذا اجتمع في نفسه على إقامة الدين، لم يغلبه شيطان من الإنس والجن بما يوسوس به إليه، مع مساعدة الإيمان، والملك بإقامته له. وقال علي رضي الله عنه: لا تتفرقوا فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب، وكونوا عباد الله إخواناً.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وكان[1] ﷺ قبل نبوته يعبد ربه، بشريعة إبراهيم عليه السلام، حتى جاءه الوحي، وجاءته الرسالة. ولم يكن على ما كان عليه قومه، باتفاق الأمة وإجماع الأئمة.

والخلاصة[2]: أننا شرعنا لكم، ما شرعنا للأنبياء قبلكم، ديناً واحداً في الأصول، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب بصالح الأعمال، كالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحرمنا عليكم الزنا، وإيذاء الخلق، والاعتداء على الحيوان، فكل هذا قد اتحد فيه الرسل، وإن اختلفوا في تفاصيله.

ثم ذكر سبحانه وتعالى، أن ما شرعه لعباده شق على المشركين، فقال: ﴿كَبُرَ﴾؛ أي: عظم وشق ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ يا محمد من التوحيد، ورفض عبادة الأصنام، واستبعدوه حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ وقال قتادة: شهادة أن لا إله إلا الله وحده، ضاق بها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يظهرها على من ناوأها؛ أي: عاداها.

والمعنى: أي شق على المشركين دعوتهم إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام والأوثان، وتقريعهم على ذلك، لأنهم توارثوا ذلك كابراً عن كابر، ونقلوه عن الآباء والأجداد، كما حكى سبحانه عنهم بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

وبعد أن أرشد المؤمنين إلى التمسك بالدين، ذكر أنه إنما هداهم إلى ذلك لأنه اصطفاهم من بين خلقه فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى دينه الحق؛ أي: يختار لتوحيده والدخول في دينه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ اجتباءه من عباده، والاجتباء[3]: الجمع على طريق الاصطفاء، وهو هنا مأخوذ من الجباية، وهي جلب الخراج، وجمعه لمناسبة النهي عن التفرق في الدين، ولأن الاجتباء

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

بمعنى الاصطفاء لا يتعدى بإلى إلا باعتبار تضمين معنى الضم والصرف.

والمعنى: الله سبحانه يجتلب إلى ما تدعوهم إليه من يشاء أن يجتلبه إليه، وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الدين بالإرشاد والتوفيق، وإمداد الألطاف ﴿مَن يُنِيبُ﴾ ويقبل إليه؛ أي: يوفق لدينه ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته، ويقبل إلى عبادته. ويجوز[1] أن يكون الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ لله في كلا الموضعين، فالمعنى: الله يجمع إلى جنابه على طريق الاصطفاء من يشاء من عباده، بحسب استعداده، ويهدي إليه بالعناية من ينيب، واجتباء الله تعالى العبد، تخصيصه إياه بفيض إلٰهي يتحصل منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء عليهم السلام، ولبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء.

فعليك أيها المؤمن الإتيان بجميع القرب بقدر الاستطاعة في كل زمان وحال، فإن المؤمن لن تخلص له معصية أبداً، من غير أن تخالطها طاعة، لأنه مؤمن بها أنها معصية، فإن أضاف إلى هذا الخليط استغفاراً وتوبة، فطاعة على طاعة، وقربة على قربة، فيقوى جزاء الطاعة التي خالطها العمل السيء، وهو الإيمان بأنها معصية، والإيمان من أقوى القرب وأعظمها عند الله تعالى، فإنه الأساس الذي ابتنى عليه جميع القرب، وفي الخبر الصحيح: «وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» وكان قربه تعالى من العبد، ضعف قرب العبد منه، وعلى كل حال، لا يخلو المؤمن من الطاعة والقرب، والعمل الصالح يمحو الخطايا، فإن العبد إذا رجع عن السيئة وأناب إلى الله وأصلح عمله، أصلح الله شأنه وأعاد عليه نعمه الفائتة.

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: بلغني أن رجلاً من بني إسرائيل، ذبح عجلاً بين يدي أمه، فيبست يده، فبينما هو جالس إذ سقط فرخ من وكره،

---

(١) روح البيان.

وهو يتبصبص؛ أي: يضطرب ويحرك الذنب، فأخذه ورده إلى وكره، فرحمه الله تعالى لذلك، ورد عليه يده بما صنع، والوكر: بفتح الواو، عش الطائر.

والمعنى(١): أي الله يصطفي من يشاء من عباده، ويقربهم إليه تقريب الكرامة، ويوفق للعمل بطاعته، واتباع ما بعث به نبيه ﷺ من الحق، من راجع التوبة من معاصيه.

ثم أجاب عن سؤال قد يخطر بالبال، لماذا صار الناس متفرقين في الدين، مع أنهم أمروا بالأخذ به، وعدم التفرق فيه، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾؛ أي(٢): وما تفرقت اليهود والنصارى في الدين الذي دعوا إليه، ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم في حال من الأحوال، أو في وقت من الأوقات ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ بحقيقته؛ أي: إلا حال مجيء العلم. أو إلا وقت مجيء العلم بحقية ما شاهدوا في رسول الله ﷺ، والقرآن من دلائل الحقية، حسبما وجدوه في كتابهم، أو العلم بمبعثه ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ أي: ما تفرقوا إلا لأجل البغي والعدوان، على محمد ﷺ والحسد له، فيما بينهم لابتغاء طلب الدنيا، وطلب ملكها وسياستها وجاهها وشهرتها، وللحمية الجاهلية؛ لأن لهم في ذلك شبهة، كما يدل عليه قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤﴾ وقيل: المراد بهم: كفار قريش، تفرقوا بعد ما جاءهم العلم، وهو محمد ﷺ بغياً منهم عليه، وحسداً له فيما بينهم، وكانوا يقولون فيما حكاه الله عنهم، بقوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ الآية، وقيل: المراد بهم: كفار الأمم الماضية، وأنهم فيما ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ اختلفوا لما طال بهم المدى، فآمن قوم وكفر قوم.

والمعنى(٣): أي وما تفرقت الأمم إلا من بعد ما علموا، أن الفرقة ضلالة، وقد فعلوا ذلك بغياً وطلباً للرياسة، وللحمية حمية الجاهلية، التي جعلت كل طائفة تذهب مذهباً وتدعو إليه، وتقبح ما سواه طلباً للأحدوثة بين الناس،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

والسيطرة عليهم.

والخلاصة: أن الأمم قديمها وحديثها، أمروا باتفاق الكلمة، وإقامة الدين، وبلغهم أنبياؤهم ذلك، وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بذلك، بغياً وحسداً وعناداً وحباً للرياسة، فدعت كل طائفة إلى مذهب، وأنكرت ما عداه.

ثم ذكر أن هؤلاء كانوا يستحقون العذاب المعجل على سوء أفعالهم، ولكن حكمته تعالى اقتضت تأخيره عنهم إلى وقت معلوم، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ ووجبت ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَة بتأخير العقوبة عن هذه الأمة، وتلك الكلمة، كقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقت معين، معلوم عند الله تعالى، وهو يوم القيامة، أو آخر أعمارهم المقدرة ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لأوقع القضاء بينهم، باستئصالهم لاستيجاب جنايتهم لذلك قطعاً، وقيل: لقضي بين من آمن منهم، ومن كفر، بنزول العذاب بالكافرين، ونجاة المؤمنين.

والمعنى: أي ولولا الكلمة السابقة من ربك، بإنظار حسابهم، وتأخيره إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً، بما دسَّوا به أنفسهم، من كبير الآثام وقبيح المعاصي.

ثم ذكر أن تفرقهم في الدين باق في أعقابهم، مضافاً إليه الشك في كتابهم، مع انتسابهم إليه فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟﴾ وأعطوا ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل، من اليهود والنصارى المعاصرين لمحمد ﷺ: ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد[1] من قبلهم: من سلف اليهود والنصارى ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾؛ أي: من القرآن، أو من محمد ﷺ ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: مقلق مدخل في الريبة؛ أي: موقع في الريب، ولذلك لم يؤمنوا. وقال مجاهد: معنى من بعدهم: من قبلهم، يعني: من قبل مشركي مكة، وهم اليهود والنصارى، والمعنى عليه؛ أي: وإن المشركين الذين أورثوا الكتاب؛ أي: القرآن من بعد ما أوتي أهل الكتاب كتابهم، لفي

(١) الشوكاني.

شك منه؛ أي: من القرآن، والإيراث في الأصل: تملك قهري، يثبت لقريب الميت بموته، والشك[1]: اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: موقع ذلك الشك في القلق، أي: الاضطراب، ولذلك لا يؤمنون لمحض البغي، والمكابرة، بعد ما علموا بحقيته، كدأب أهل الكتابين. والريب: قلق النفس واضطرابها، ويسمى الشك بالريب؛ لأنه يقلق النفس، ويزيل طمأنينتها، كما سيأتي في مبحث اللغة، قرأ الجمهور: ﴿أُورِثُوا﴾، وقرأ زيد بن علي: ﴿ورّثوا﴾ مشدد الراء، مبنياً للمفعول، وقرىء ﴿ورثوا﴾ بتخفيف الراء، مبنياً للفاعل.

والمعنى[2]: أي وإن أهل الكتاب الذين كانوا في عهده ﷺ وورثوا التوراة، والإنجيل عن السابقين لهم، لفي شك من كتابهم، إذ لم يؤمنوا به حق الإيمان، فهم مقلدون أسلافهم بلا حجة ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك أقض مضاجعهم، وأوقعهم في اضطراب وقلق.

وقصارى ذلك: أنهم تفرقوا بعد العلم الذي حصل من النبي المبعوث إليهم المصدق لكتابهم، لأنهم شكوا في كتابهم فلم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه من أمر ونهي.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾؛ أي: فلأجل ما ذكر من التفرق والشك المريب، أو فلأجل أنه شرع لهم الدين القويم، القديم الحقيق، بأن يتنافس فيه المتنافسون ﴿فَٱدْعُ﴾ يا محمد الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين، والعمل بموجبه، فإن كلا من تفرقهم وكونهم في شك مريب، ومن شرع ذلك الدين لهم على لسان رسوله ﷺ، سبب للدعوة إليه، والأمر بها، وليس المشار إليه ما ذكر من التوصية، والأمر بالاتفاق، والنهي عن التفرق حتى يتوهم شائبة التكرار؛ أي: فلأجل ذلك التفرق، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر في الأمم السالفة شعباً، ادع إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية ملة إبراهيم ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليه وعلى الدعوة

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

إليه ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ وأوحي إليك من عند الله تعالى، والمراد: الثبات والدوام عليهما؛ لأنه كان مستقيماً في هذا المعنى؛ أي: واثبت أنت ومن اتبعك على عبادة الله كما أمركم ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؛ أي: ولا تتبع أيها الرسول أهواءهم المختلفة الباطلة، والضمير للمشركين، وكانوا يهوون أن يعظم عليه السلام آلهتهم وغير ذلك، أو للذين شكوا في الحق الذي شرعه الله لكم، من الذين أورثوا الكتاب من قبلكم، فتشكوا فيه كما شكوا؛ أي[1]: فلأجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة في الدين، فادع الناس كافة إلى الاتفاق على الملة الإسلامية، واستقم عليها وعلى الدعوة إليها، كما أمرك الله تعالى، ولا تتبع أهواءهم المختلفة.

﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ﴾ أي كتاب كان من الكتب المنزلة، لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض، وذلك لأن كلمة ﴿ما﴾ من ألفاظ العموم؛ أي: وقل لهم يا محمد: صدقت بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء، من التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، لا أكذب بشيء منها، وفي هذا[2] تعريض بأهل الكتاب، إذ صدقوا ببعض وكفروا ببعض، وتأليف لقلوبهم إذ آمن بما آمنوا به.

والمعنى: وقل لهم يا محمد: آمنت بما أنزل الله على الأنبياء، من كتاب صح أن الله أنزله، وهو الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأنّ المتفرقين آمنوا ببعض منها، وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرۡتُ﴾ بذلك الذي أمرت به ﴿لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾؛ أي: لكي أعدل وأسوي بينكم؛ أي: بين شريفكم ووضيعكم في تبليغ الشرائع، وفي الحكم، وفصل القضايا بينكم، عند المحاكمة والمرافعة إليّ، فاللام لام كي، والمأمور به محذوف، كما قدرناه. وقيل: اللام بمعنى الباء؛ أي: وأمرت بأن أعدل بينكم في الحكم، إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ، وأسوي بين أكابركم وأصاغركم، فيما يتعلق بحكم الله تعالى، فلا أخصّ البعض بأمر أو نهي، وقيل: اللام زائدة.

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.

والمعنى: أمرت أن أعدل بينكم، والأول أولى. والظاهر[1]: أن الآية عامة في كل شيء، المعنى: أمرت لأعدل بينكم في كل شيء ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَبُّنَا﴾؛ أي: معبودنا وخالقنا ومتولي أمورنا ﴿وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: ومعبودكم وخالقكم ومتولي أموركم أيضاً، لا الأصنام والهوى، فنحن نقر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه، فله يسجد من في السموات والأرض، طوعاً وكرهاً ﴿لَنَآ﴾ لا لكم ﴿أَعْمَٰلُنَا﴾ لا يتخطانا جزاؤها، ثواباً كان أو عقاباً ﴿وَلَكُمْ﴾ لا لنا ﴿أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا يجاوزكم آثارها لا ننتفع بحسناتكم، ولا تضرنا سيئاتكم، ونحو الآية قوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ أي: لا حجاج ولا خصومة بيننا وبينكم، لأن الحق قد ظهر ووضح وليس للمحاجة مجال فما المخالف إلا معاند أو مكابر، وسيأتي الوقت الذي يستبين فيه الحق، ويتضح فيه سبيل الرشاد، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم يوم القيامة في المحشر، فيقضي بيننا بالحق فيما اختلفنا فيه، ومثل الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا إلى غيره ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع والمعاد بعد مماتنا يوم الحساب، فيجازي كل نفس بما كسبت ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾، قيل: الخطاب لليهود، وقيل: للكفار على العموم.

وهذه الأوامر والنواهي[2]، وإن وجهت في الظاهر إلى الرسول ﷺ، فهي له ولأمته، كما هي القاعدة من أن أمر النبي ﷺ أمر لأمته، إلا إذا ورد دليل على التخصيص، قيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل[3]: ليس في الآية إلا ما يدل على المتاركة في المقاولة، لا مطلقاً، حتى لا تكون منسوخة بآية القتال، يعني: هذه الآية إنما تدل على المتاركة القولية، لحصول الاستغناء عن المحاجة القولية معهم؛ لأنهم قد عرفوا صدقه من الحجج، وإنما كفروا عناداً، وبعد ما ظهر الحق وصاروا محجوجين كيف يحتاج إلى المحاجة القولية، فلا يبقى بعد

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

هذا إلا السيف، أو الإسلام، فقد قوتلوا بعد ذلك.

فعلى العبد قبول الحق بعد ظهوره، والمشي خلف النصح بعد إضاءة نوره، فإن المصير إلى الله تعالى، والدنيا دار عبور، وإن الحضور في الآخرة، والدنيا دار التفرق والفتور، فلا بد من التهيُّؤ للموت، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى لرجل في الطواف: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين، حتى تجوز ست عقبات:

أولاها: تغلق باب النعمة، وتفتح باب الشدة.

والثانية: تغلق باب العز، وتفتح باب الذل.

والثالثة: تغلق باب الراحة، وتفتح باب الجهد.

والرابعة: تغلق باب النوم، وتفتح باب السهر.

والخامسة: تغلق باب الغنى، وتفتح باب الفقر.

والسادسة: تغلق باب الأمل، وتفتح باب الاستعداد للموت، وأنشدوا:

إنَّ لِلَّهِ عِبَاداً فُطَنَا ... طَلَّقُوا ٱلدُّنْيَا وَخَافُوا ٱلْفِتَنَا
نَظَرُوْا فِيْهَا فَلَمَّا عَلِمُوْا ... أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا
جَعَلُوْهَا لُجَّةً وَٱتَّخَذُوْا ... صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيْهَا سُفُنَا

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ﴾ ويخاصمون ويجادلون ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ وينازعون نبيه ﷺ، في دين الله تعالى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾؛ أي: من بعد ما استجاب الناس له، ودخلوا فيه لظهور حجته، ووضوح محجته، والتعبير[1] عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه والضمير في ﴿لَهُۥ﴾ راجع إلى الله، وقيل: راجع إلى محمد ﷺ، والأول أولى كما عرفت.

وفيه إشارة إلى أنهم استجابوا له تعالى يوم الميثاق بقولهم: بلى حين قال

(١) روح البيان.

لهم المولى: ألست بربكم، ثم لما نزلوا من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح، نسوا الإقرار والعهد، فأخذوا في المحاجة والإنكار، بخلاف المؤمنين، فإنهم ثبتوا على التصديق والإقرار، قال مجاهد: وهؤلاء قوم توهموا أن الجاهلية تعود، وقال قتادة: هم اليهود والنصارى ومحاجتهم قولهم: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة، بأنهم أهل كتاب، وأنهم أولاد الأنبياء، وكان المشركون يقولون: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ فنزلت هذه الآية.

والموصول مبتدأ أول ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ مبتدأ ثان ﴿دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأول؛ أي: زائلة باطلة بل لا حجة لهم أصلاً، وإنما عبّر عن أباطيلهم بالحجة، مجاراة على زعمهم الباطل ﴿وَعَلَيْهِمْ﴾؛ أي: وعلى أولئك المحاجين ﴿غَضَبٌ﴾ عظيم من الله تعالى، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره، ومجادلتهم بالباطل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة على كفرهم الشديد، وضلالهم البعيد، لا يعرف كنهه، وهو عذاب النار.

والمعنى(١): أي والذين يجادلون المؤمنين، المستجيبين لله ورسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، حجتهم زائفة لا تقبل عند ربهم وعليهم غضب منه، لأنهم ماروا في الحق بعد ما تبين، ولهم عذاب شديد يوم القيامة، لتركهم الحق، بعد أن وضحت محجته عناداً واستكباراً ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي يستحق منكم العبادة، أيها الناس هو ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: جنس الكتاب حال كونه متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في أحكامه وأخباره، بعيداً من الباطل، أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾؛ أي: وأنزل الشرع الذي(٢) يوزن به الحقوق، ويسوىٰ به بين الناس على أن يكون لفظ الميزان، مستعاراً للشرع، تشبيهاً له بالميزان العرفي، من حيث إنه يوزن به الحقوق الواجبة الأداء، سواء كان من حقوق الله، أو من حقوق العباد، أو نفس العدل والتسوية، بأن أنزل الأمر به في الكتب الإلٰهية، فيكون تسمية العدل بالميزان، تسمية المسمى باسم آلته، فإن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الميزان آلة العدل، أو أنزل آلة الوزن، والوزن معرفة قدر الشيء، فيكون المراد بالميزان معناه الأصلي وإنزاله إما حقيقة لما رُويَ أن جبرائيل عليه السلام نزل بالميزان، فدفعه إلى نوح عليه السلام، فقال له: مر قومك يزنوا به، وقيل: نزل آدم عليه السلام، بجميع آلات الصنائع، وإما مجاز عن إنزال الأمر به، واستعماله في الإيفاء والاستيفاء.

والمعنى[1]: الله أنزل كتبه على أنبيائه حاوية للحق، الذي لا شبهة فيه، بعيدة من الباطل، الذي لا خير فيه، وأنزل العدل ليقضي بين الناس بالإنصاف، ويحكم بينهم بحكمه، الذي أمر به في كتابه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

ثم رغب سبحانه وتعالى في الآخرة، وزهد في الدنيا، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ ويعلمك يا محمد، بحال القيامة من[2] الإدراك بمعنى الإعلام؛ أي شيء يجعلك دارياً؛ أي: عالماً بحال الساعة، التي هي من العظم والشدة والخفاء، بحيث لا تبلغها دراية أحد، وإنما يُدرىٰ ذلك بوحي منا. قال الراغب: كل موضع ذكر في القرآن، وما أدراك فقد عقب ببيانه نحو: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾، وكل موضع ذكر فيه وما يدريك لم يعقبه بذلك، نحو: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ التي يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق ﴿قَرِيبٌ﴾؛ أي: شيء قريب، أو قريب مجيئها، وإلا فالفعيل بمعنى الفاعل، لا يستوي فيه المذكر والمؤنث عند سيبويه، فكان الظاهر أن يقال: قريبة، لكونه مسنداً إلى ضمير الساعة، إلا أنه قد ذكر لكونه صفة جارية على غير من هي له، وقيل: القريب بمعنى ذات قرب، على معنى النسب، وإن كان على صورة اسم الفاعل، كلابنٍ وتامرَ بمعنى ذي لبن، وذي تمر؛ أي: لبني وتمريّ لا على معنى الحدث كالفعل، فلما لم يكن في معنى الفعل حقيقة لم يلحقه تاء التأنيث، أو الساعة بمعنى البعث، تسمية باسم ما حل فيه، وقال الزمخشري: لعل مجيء الساعة، قريب بتقدير المضاف.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى: أن القيامة على جناح الإتيان، فاتبع الكتاب يا محمد، واعمل به، وواظب على العدل، قبل أن يفاجئك اليوم، الذي يوزن فيه الأعمال، ويُوفَّىٰ جزاؤها، وفيه زجرهم عن طول الأمل، وتنبيههم على انتظار الأجل وهجومه، نبهنا الله تعالى وإياكم أجمعين آمين.

والمراد بذلك [1]: حث المؤمنين على اتباع نهج الشرع وترك مخالفته. روي أن النبي ﷺ ذكر الساعة، وعنده قوم من المشركين، فقالوا: متى الساعة: استهزاء بها، وتكذيباً لمجيئها، فأنزل الله الآية. ويدل على ذلك قوله ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾؛ أي: بمجيئها ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجال إنكار، واستهزاء، وتكذيب بمجيئها، ولا يشفقون منها، ويقولون متى هي، ليتها قامت حتى يظهر لنا الحق، أهو الذي نحن عليه، فنفوز بالنجاة، أم الذي عليه محمد ﷺ وأصحابه. فنكون من الخاسرين، فإنهم لما لم يؤمنوا بها، لم يخافوا ما فيها، فهم يطلبون وقوعها استبعاداً لقيامها، والعجلة [2]: طلب الشيء وتحريه قبل أوانه.

وبعد أن بين حال المشركين في شأنها، ذكر حال المؤمنين بها، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وصدقوا بمجيئها ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: خائفون منها، وجلون من مجيئها؛ لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم، وهم موقنون أنهم محاسبون، ومجزيون على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ علم اليقين ﴿أَنَّهَا﴾؛ أي: أن مجيئها ﴿الْحَقُّ﴾ لا ريب فيه، فهم يستعدون له ويعملون من أجله، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠﴾.

رُوي أن رجلاً، سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فقال: يا محمد، فقال رسول الله ﷺ، بنحو من صوته: «هاؤم» فقال له: متى الساعة؟ فقال له: «إنها كائنة، فما أعددت لها»؟ فقال: حب الله، ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحببت».

ثم بين ضلال الممارين فيها فقال: ﴿أَلَا﴾ انتبهوا واعلموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

﴿يُمَارُونَ﴾ ويجادلون ﴿فِى ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: القيامة، وينكرون مجيئها، عناداً، ويخاصمون فيها مخاصمة شك وريبة، من[1] المماراة، وهي المخاصمة والمجادلة، أو من المرية، وهي الشك والريبة، فمعناه في الأصل: تداخلهم المرية والشك فيها، فيؤدي ذلك إلى المجادلة، ففسر المماراة بلازمها ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، لأنهم لم يتفكرون في الموجبات للإيمان بها، من الدلائل التي هي مشاهدة لهم، منصوبة لأعينهم، مفهومة لعقولهم، ولو تفكروا لعلموا أن الذي خلقهم ابتداء، قادر على الإعادة، فإن البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات؛ لأنه كإحياء الأرض بعد موتها، فمن لم يهتد إلى تجويزه، فهو من الاهتداء إلى ما وراءه أبعد وأبعد.

ووصف[2] الضلال بالبعد، من المجاز العقلي؛ لأن البعد في الحقيقة للضال، لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، ويحتمل أن يكون المعنى: في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد، لأن الضال قد يضل عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

والمعنى[3]: أي ألا إن الذين يجادلون في وجودها، ويدفعون وقوعها، لفي جور عن طريق الهدى، وزيغ عن سبيل الرشاد، وبعد من الصواب؛ لأن الذي خلق السمٰوات والأرض، قادر على إحياء الموتى، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وفي الآية أمور[4]:

الأول: ذم الاستعجال، ولذا قيل: العجلة من الشيطان، إلا في ستة مواضع: أداء الصلاة إذا دخل الوقت، ودفن الميت إذا حضر، وتزويج البكر إذا أدركت. وقضاء الدين إذا وجب، وإطعام الضيف إذا نزل، وتعجيل التوبة إذا أذنب.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

(٤) روح البيان.

والثاني: الإيمان والتصديق، فإنه الأصل، وذلك بجميع ما يكون به المرء مؤمناً، خصوصاً الساعة، وكذا الاستعداد لها بالأعمال الصالحة.

والثالث: مدح العلم، لكن إذا قرن بالخوف والخشية والعمل الصالح، كان أمدح، فإن العلم ليس جالباً للسؤدد إلا من حيث طرده الجهل فلا تعجب بعلمك، فإن فرعون علم بنبوة موسى وإبليس علم بحال آدم، واليهود علموا بنبوة محمد ﷺ، وحرموا التوفيق للإيمان.

والرابع: ذم الشك والتردد، فلا بد من اليقين الصريح، بل من العيان الصحيح.

والخامس: أن الشقاوة والسعادة أزليتان، وإنما يشقى السعيد لكون سعادته عارضة، وإنما يسعد الشقي لكون شقاوته عارضة، فكل يرجع إلى أصله، فنسأل الله سبحانه الهدى، نعوذ به تعالى من الهوى.

الإعراب

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه سورة حم عسق، إن قلنا إنه اسم للسورة، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الأخير، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية، والجملة مستأنفة، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف ﴿يُوحِيٓ﴾ فعل مضارع مرفوع ﴿إِلَيۡكَ﴾: متعلق بـ﴿يُوحِيٓ﴾، ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ﴾: معطوف على إليك، ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾: صلة الذين، ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ نعتان للجلالة، والجملة الفعلية مستأنفة، والتقدير: يوحي الله العزيز الحكيم إليك، وإلى الذين من قبلك من الرسل: إيحاء مثل إيحاء هذه السورة، وقرىء ﴿يُوحىٰ﴾ بالبناء للمجهول، فنائب الفاعل هو الجار والمجرور، ولفظ الجلالة فاعل لفعل محذوف دل عليه ﴿يُوحَىٰ﴾، كأنّ سائلاً سأل، فقال: من الموحي، فأجاب يوحي الله العزيز الحكيم، والجملة المحذوفة، مستأنفة استئنافاً

بيانياً ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿مَا﴾ مبتدأ مؤخر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل الإيحاء ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: معطوف على ما في السمٰوات، ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾: خبران له، والجملة مستأنفة.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾.

﴿تَكَادُ﴾: فعل مضارع من أفعال المقاربة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾: اسمها ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ فعل وفاعل، ﴿مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿تَكَادُ﴾ وجملة ﴿تَكَادُ﴾ مستأنفة، ومعنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ الابتداء؛ أي: يبتدىء انفطارهن من جهتهن الفوقانية، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مبتدأ. وجملة ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: خبره، ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾: حال من فاعل ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، ﴿لِمَن﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يستغفرون﴾، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ صلة ﴿لِمَن﴾ الموصولة ﴿أَلَآ﴾ حرف استفتاح وتنبيه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: خبران؛ لـ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: فعل وفاعل من أخوات ظنّ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني: ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: مفعول أول لـ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ثان، ﴿حَفِيظٌ﴾ خبره ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلق بـ﴿حَفِيظٌ﴾، وجملة المبتدأ الثاني خبر الأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: نافية حجازية ﴿أَنتَ﴾: اسمها، ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلق بـ﴿وكيل﴾: و﴿بِوَكِيلٖ﴾ خبرها، والباء زائدة، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية معطوفة على جملة قوله: الله حفيظ عليهم، على كونها خبراً لقوله: والذين اتخذوا من دونه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿كذلك﴾: صفة لمصدر محذوف تقديره:

إيحاء مثل إيحاء هذه السورة، أوحينا إليك قرآناً عربياً، ﴿أَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق له، والجملة مستأنفة ﴿قُرْءَانًا﴾: مفعول ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، ﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة ﴿قُرْءَانًا﴾، ﴿لِّتُنذِرَ﴾ اللام: حرف جر وتعليل ﴿تنذر﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً، بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مفعول به، ﴿وَمَنْ﴾ معطوف على أم القرى، ﴿حَوْلَهَا﴾: ظرف مكان، متعلق بمحذوف صلة لـ﴿من﴾ الموصولة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإنذارك أم القرى ومن حولها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، ﴿وَتُنذِرَ﴾ معطوف على ﴿لِّتُنذِرَ﴾. ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ مفعول به ثان لـ﴿تنذر﴾، والمفعول الأول محذوف؛ أي: وتنذر الناس يوم الجمع، أي: عذابه، فحذف المفعول الأول من الإنذار الثاني، كما حذف المفعول الثاني من الإنذار الأول. تقديره: لتنذر أم القرى عذاب الله، إن لم يؤمنوا، ﴿لَا﴾ نافية للجنس ﴿رَيْبَ﴾: اسمها، و﴿فِيهِ﴾: خبرها، والجملة في محل النصب حال من ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ واختار الزمخشري أن تكون معترضة ﴿فَرِيقٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل ﴿فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿وَفَرِيقٌ﴾: مبتدأ، ﴿فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ خبره، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية ﴿جعلهم أمة﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعولان ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة أمة، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿يُدْخِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به، ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يُدْخِلُ﴾ والجملة الاستدراكية

معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء إدخاله في رحمته ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿الظالمون﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ نافية، ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم ﴿مِن﴾ زائدة ﴿وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾: معطوف عليه وجملة النفي خبر الظالمون، وجملة الظالمون معطوفة على جملة الاستدراك، ﴿أَمِ﴾ منقطعة تقدر ببل الإضرابية، وبهمزة الاستفهام الإنكاري ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: في محل المفعول الثاني و﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مفعول ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ الأول، والجملة الفعلية مستأنفة. منقطعة عما قبلها ﴿فَٱللَّهُ﴾: الفاء: عاطفة ما بعدها على ما قبلها، أو الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت إنكار ولي سواه تعالى، وأردت بيان ما هو الولي حقاً، فأقول لك ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْوَلِيُّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية، أو مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: خبره، والجملة معطوفة على ما قبلها ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿ٱخْتَلَفْتُمْ﴾ فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿ٱخْتَلَفْتُمْ﴾، ﴿مِن شَىْءٍ﴾: حال من ﴿ما﴾ الشرطية، أو من الضمير في فيه ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية وجوباً ﴿حكمه﴾: مبتدأ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: خبره؛ أي: راجع إلى الله، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾: خبره ﴿رَبِّى﴾ خبر ثان ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿تَوَكَّلْتُ﴾، وجملة ﴿تَوَكَّلْتُ﴾: في محل الرفع خبر ثالث ﴿وَإِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿أُنِيبُ﴾،

وجملة ﴿أُنِيبُ﴾: خبر رابع.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾: بالرفع خبر خامس لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، وقرىء بالجر، قال أبو البقاء: هو بدل من الهاء في ﴿عَلَيْهِ﴾ وقال الزمخشري: نعت لقوله: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، فتكون جملة ﴿لَكُم﴾: معترضة بين الموصوف وصفته، ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿لَكُم﴾: متعلق به على أنه مفعول ثان له، إن كان بمعنى التصيير، ومتعلق به إن كان بمعنى الخلق ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ حال من أزواجاً، لأنه كان صفة لأزواجاً، و﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى التصيير، ومفعول به إن كان بمعنى الخلق، والجملة الفعلية خبر سادس لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾. ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: حال من أزواجاً المذكور بعده، و﴿أَزْوَٰجًا﴾ معطوف على أزواجاً الأول، ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ﴿فِيهِۚ﴾: متعلق بـ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل جعل، أو في محل الرفع خبر سابع ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾: فعل ماض ناقص، والكاف زائدة، ﴿مثله﴾ خبر ليس مقدم على اسمها، ﴿شَىْءٌۖ﴾: اسمها مؤخر، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل جعل، أو خبر ثامن، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ خبران له، والجملة مستأنفة، أو حال، ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿وَٱلْأَرْضِۖ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة خبر تاسع، ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة خبر عاشر ﴿لِمَن﴾: متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿وَيَقْدِرُۚ﴾: معطوف على ﴿يَبْسُطُ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، و﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿شَرَعَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿لَكُم﴾ متعلق به، ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾: حال من المفعول الآتي، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول شرع، وجملة شرع مستأنفة، مسوقة لتفصيل ما أجمله أولاً، ولك أن تجعله الخبر الحادي عشر، ﴿وَصَّىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿وَصَّىٰ﴾، ﴿نُوحًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿وَصَّىٰ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾: معطوف على ﴿مَا﴾ وجملة ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ صلة له، والعائد محذوف تقديره: والذي أوحيناه، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿مَا﴾ الأولى أيضاً، ﴿وَصَّيْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ مفعول به، ﴿وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾: معطوفان على إبراهيم، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿أَنْ﴾ تفسيرية بمعنى أي، لأنها سبقت بما فيه معنى القول دون حروفه، وهو ﴿وصَّى﴾، ويجوز أن تكون مصدرية مؤولة، مع ما بعدها بمصدر، في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو أن أقيموا أو في محل نصب بدلاً من الموصول، وهو ما، و﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية ﴿تَتَفَرَّقُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، و﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على ﴿أَقِيمُوا۟﴾، ﴿كَبُرَ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، وجملة ﴿تَدْعُوهُمْ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تَدْعُوهُمْ﴾، و﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَجْتَبِىٓ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿يَجْتَبِىٓ﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة له، ﴿وَيَهْدِىٓ﴾: معطوف على ﴿يَجْتَبِىٓ﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿يهدي﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يُنِيبُ﴾: صلته.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿ما﴾ نافية، ﴿تَفَرَّقُوٓا۟﴾ فعل وفاعل والجملة

مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ متعلق بـ﴿تَفَرَّقُوٓاْ﴾، ﴿مَا﴾ مصدرية، ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ فعل ومفعول به وفاعل، والجملة الفعلية مع ﴿مَا﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، والتقدير: من بعد مجيء العلم إياهم. والاستثناء من أعم الأحوال؛ أي: ما تفرقوا في حال من الأحوال إلا في حال مجيء العلم إياهم، ﴿بَغۡيَۢا﴾ مفعول لأجله أو منصوب على الحال بتأويله بمشتق؛ أي: باغين، ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ متعلق بـ﴿بَغۡيَۢا﴾؛ أي: لم يكن تفرقهم لقصور في البيان والحجج ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾.

﴿وَلَوۡلَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود ﴿كَلِمَةٞ﴾ مبتدأ، محذوف الخبر وجوباً، وجملة ﴿سَبَقَتۡ﴾ صفة للكلمة، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ متعلق بـ﴿سَبَقَتۡ﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ متعلق بـ﴿سَبَقَتۡ﴾ أيضاً، ﴿مُّسَمّٗى﴾ صفة لـ﴿أَجَلٖ﴾، ﴿لَّقُضِيَ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾، ﴿قضي﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾: ظرف اعتباري في محل الرفع، نائب فاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة، ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿أُورِثُواْ﴾: فعل ماض ونائب فاعل، ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ متعلق بـ﴿أُورِثُواْ﴾، ﴿لَفِي﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿في شك﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مِّنۡهُ﴾: صفة أولى لـ﴿شَكّٖ﴾، ﴿مُرِيبٖ﴾: صفة ثانية له، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿لولا﴾. ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما شرعنا لكم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: لذلك فادع ﴿لذلك﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ادع﴾، واللام: فيه بمعنى إلى ﴿فَٱدۡعُۖ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والفاء: الثانية تأكيد للأولى، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا

المقدرة ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾: معطوف على ادع، ﴿كَمَآ﴾: الكاف نعت لمصدر محذوف، و﴿ما﴾: موصولة. ﴿أُمِرۡتَۖ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: واستقم استقامة، كالاستقامة التي أمرت بها، من قبل، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تَتَّبِعۡ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بلا ناهية، ﴿أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿استقم﴾.

﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

﴿وَقُلۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿قل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على قوله ﴿فَٱدۡعُۖ﴾، ﴿ءَامَنتُ﴾: فعل وفاعل ﴿بِمَآ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنتُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾، وجملة ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: أنزله الله، ﴿مِن كِتَٰبٖۖ﴾: حال من العائد المحذوف ﴿وَأُمِرۡتُ﴾: فعل ماض ونائب فاعل معطوف على ﴿ءَامَنتُ﴾، ﴿لِأَعۡدِلَ﴾ اللام: لام الصيرورة ﴿أعدل﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الصيرورة، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنا ﴿بَيۡنَكُمُۖ﴾: متعلق به، والتقدير: وأمرت للعدل بينكم؛ أي: بالعدل بينكم ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾، ﴿وَرَبُّكُمۡۖ﴾: معطوف على ربنا ﴿لَنَآ﴾: خبر مقدم ﴿أَعۡمَٰلُنَا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾، ﴿وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾: مبتدأ وخبر معطوف على ما قبله ﴿لَا﴾: نافية للجنس ﴿حُجَّةَ﴾: اسمها، ﴿بَيۡنَنَا﴾: ظرف متعلق بمحذوف، هو خبر ﴿لَا﴾ والجملة في محل النصب، مقول ﴿قل﴾ ﴿وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ معطوف على ﴿بَيۡنَنَا﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَجۡمَعُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قل﴾، ﴿بَيۡنَنَا﴾ ظرف متعلق بـ﴿يَجۡمَعُ﴾ ﴿وَإِلَيۡهِ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل للنصب مقول ﴿قل﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ

غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿الذين﴾: مبتدأ أول، وجملة ﴿يُحَآجُّونَ﴾ صلة ﴿الذين﴾، ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يُحَآجُّونَ﴾، وهو على حذف مضاف؛ أي: في دين الله ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلق بـ﴿يُحَآجُّونَ﴾، أو حال من الجلالة، و﴿ما﴾ مصدرية ﴿ٱسْتُجِيبَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور في محل الرفع، نائب فاعل لـ﴿ٱسْتُجِيبَ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر، ومجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد الاستجابة له. ﴿حُجَّتُهُمْ﴾: مبتدأ ثان ﴿دَاحِضَةٌ﴾: خبره ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف متعلق بداحضة. والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿وَعَلَيْهِمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿عليهم﴾: خبر مقدم. ﴿غَضَبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: حجتهم داحضة على كونها خبرا للمبتدأ الأول، ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿شَدِيدٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. والجملة صلة الموصول، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، أو حال من فاعله، أو من الكتاب، ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾: معطوف على الكتاب ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. أو استئنافية ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع، مبتدأ ﴿يُدْرِيكَ﴾: فعل مضارع ومفعول أول. وفاعله ضمير يعود على ما. والجملة خبر المبتدأ، والجملة معطوفة أو مستأنفة، ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. وجملة ﴿لَعَلَّ﴾ في محل النصب، مفعول ثان لـ(يُدري)؛ لأنها عاقت عن العمل في لفظه بالترجي، ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: لعل مجيء الساعة قريب.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَسْتَعْجِلُ﴾: فعل مضارع ﴿بِهَا﴾: متعلق به، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة

مستأنفة. وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾: صلة الموصول. ﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿مُشْفِقُونَ﴾: خبره. والجملة معطوفة على جملة ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿مُشْفِقُونَ﴾، ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مُشْفِقُونَ﴾، ﴿أَنَّهَا الْحَقُّ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها، سادة مسد مفعولي ﴿يَعْلَمُونَ﴾، ﴿أَلَآ﴾: أداة استفتاح، ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يُمَارُونَ﴾: صلة الموصول. ﴿فِى السَّاعَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُمَارُونَ﴾، ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿في ضلال﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿بَعِيدٍ﴾: صفة لـ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ قرأ ابن كثير: ﴿يُوحَىٰ﴾ بالبناء للمجهول. وفيه إعلال بالقلب، أصله: يوحي، قلبت الياء ألفا، لتحركها بعد فتح، وحذفت منه همزة أفعل في صورة ابتداء المضارع بهمزة المتكلم، فرارا من توالي الأمثال، وفي غيرها، حملا عليها، كما هو مقرر في محله.

﴿تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ﴾: مضارع كاد من باب خاف، بمعنى قرب، فيه إعلال بالنقل والتسكين، والقلب أصله: تكود بوزن تفعل مضارع كود بكسر العين، يكود بفتحها، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الكاف فسكنت، لكنها أبدلت ألفا لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾؛ أي يتشققن، وأصل الفطر: الشق طولا؛ أي يتشققن من عظمة الله تعالى، وخشيته وإجلاله، كقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. ﴿يُسَبِّحُونَ﴾؛ أي ينزهون الله تعالى عما لا يليق به. ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ والأولياء الشركاء والأنداد. ﴿حَفِيظٌ﴾؛ أي: رقيب على أحوالهم وأعمالهم. ﴿بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: بموكول إليك أمورهم حتى تؤاخذهم بها، ولا وكل إليك هدايتهم، وإنما عليك البلاغ فحسب.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾؛ أي: لتخوف أهل مكة بعذاب الله، إن أصروا على الكفر: والعرب تسمي أصل كل شيء بالأم. كأم النحل، وهو يعسوبها، سميت مكة بأم القرى، تشريفا لها. وإجلالا لاشتمالها على الكعبة المشرفة، شرفنا الله

سبحانه، وجميع المسلمين بجوارها. ﴿فِي ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: في النار، سميت بالسعير لالتهابها واتقادها بهم. ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾؛ أي: في الدنيا. ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: جماعة متفقة مهتدين أو ضالين. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾؛ أي: المعين، الناصر لمن آمن به. ﴿أُنِيبُ﴾ مضارع أناب الرباعي، وأصله: أأنوب بوزن يؤكرم، حذفت الهمزة الثانية لتوالي الأمثال، فصار أنوب بوزن أكرم، نقلت حركة الواو إلى النون، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد. ففيه إعلال بالنقل والتسكين، والقلب والحذف.

﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾؛ أي: يكثركم أيها الناس، والأنعام، من الذرء وهو البث، قال في «القاموس»: ذرأ كجعل خلق، والشيءَ كَثَّره، ومنه الذرية، مثلثة لنسل الثقلين، وقال شارحه في «التاج»: وقد يطلق على الآباء والأصول أيضاً، قال تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، والجمع ذراري كسراري. ﴿لَهُۥ﴾ جمع مقلاد، وفيه إعلال بالقلب حيث قلبت ألفه ياء، لوقوعها بعد كسرة، عند بناء اللفظ على صيغة منتهى الجموع، وتقدم البسط فيه في سورة الزمر، فجدد به عهداً، قال الجواليقي في كتابه «المعرب»: المقليد: المفتاح، فارسي معرب لغة في الأقليد، والجمع مقاليد، فالمقاليد المفاتيح، وهي كناية عن الخزائن، وقدرته عليها وحفظه لها، وفيه مزيد دلالة على الاختصاص؛ لأن الخزائن لا يدخلها، ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها. ﴿شَرَعَ لَكُم﴾؛ أي: سن لكم ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ التوصية وكذا الوصية التقديم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظه. ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: حافظوا عليه، ولا تخلوا بشيء من مقوماته، والمراد بالدين: دين الإسلام، وهو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله واليوم الآخر، وسائر ما يكون به العبد مؤمناً، كما مرّ ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: ولا تختلفوا فيه، فتأتوا ببعض وتتركوا بعضاً. ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: عظم عليهم وشق. ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يصطفي ويجتلب إليه، والاجتباء افتعال من الجباية وهي الجمع، قال الراغب: يقال: جبيت الماء في الحوض؛ أي: جمعته فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ والاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء، قال تعالى: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾، واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي لتحصل له أنواع النعم بلا سعي منه. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ الشك اعتدال النقيضين عند الإنسان

وتساويهما، مريب؛ أي: موقع في القلق والاضطراب من الريبة، والريبة قلق النفس واضطرابها، وفي «القاموس»: أراب الأمر، صار ذا ريب.

﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾ أصله: استقوم بوزن استفعل نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: أهوايهم من الهوى، أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أصله: يحاججون بوزن يفاعلون، أدغمت الجيم الأولى في الثانية. ﴿ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: استجوب بوزن استفعل، نقلت حركة الواو إلى الجيم، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ. ﴿دَاحِضَةٌ﴾ باطلة، وفي «المختار»: دحضت حجته بطلت، وبابه خضع، وأدحضها الله، ودحضت رجله زلقت، وبابه قطع، والإدحاض الإزلاق، والدحض بتشديد الدال وسكون الحاء المهملتين، وبفتح الحاء أيضاً، وآخره ضاد معجمة هو الزلق. ﴿وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ أصله: الموزان مفعال من الوزن، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة، والوزن معرفة قدر الشيء بآلة. ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ من الإدراء بمعنى الإعلام؛ أي: أيّ شيء يجعلك دارياً؛ أي: عالماً بحال الساعة. ﴿قَرِيبٞ﴾؛ أي: شيء قريب، أو قريب مجيئها، وإلا فالفعيل بمعنى الفاعل لا يستوي فيه المذكر والمؤنث عند سيبويه. فكان الظاهر فيه أن يقال: قريبة لكونه مسنداً إلى ضمير الساعة، إلا أنه قد ذكر لكونه صفة جارية على غير من هي له.

فائدة: فإن قلت: متى يستوي المذكر والمؤنث؟

قلت: يستوي المذكر والمؤنث في خمسة أوزان:

الأول: فعول بفتح الفاء، بمعنى، فاعل كرجل صبور بمعنى صابر، وامرأة صبور بمعنى صابرة، ولو كان فعول بمعنى مفعول، لحقته التاء الفاصلة جوازاً نحو: جمل ركوب وناقة ركوبة.

والثاني: فعيل بمعنى مفعول، نحو: رجل جريح، وامرأة جريح، بمعنى مجروحة، فإن كان فعيل بمعنى فاعل، لحقته التاء الفاصلة، نحو: امرأة رحيمة وظريفة.

والثالث: مفعال بكسر الميم كمنحار، يقال: رجل منحار، وامرأة منحار، أي: كثير النحر، وشذ ميقانة من اليقين، وهو عدم التردد، يقال: رجل ميقان لا يسمع شيئاً إلا أيقنه، وامرأة ميقانة.

والرابع: مفعيل بكسر الميم، كمعطير من العطر، وشذ امرأة مسكينة، لخروجه عن القاعدة، ومع ذلك فإنه محمول على فقيرة، وسمع امرأة مسكين على القياس، حكاه سيبويه.

والخامس: مفعل بكسر الميم وفتح العين كمغشم، وهو الذي لا ينتهي عما يريده ويهواه من شجاعته، ومدعس من الدعس، وهو الطعن.

﴿يُمَارُونَ﴾ أصله: يماريون استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الراء، لمناسبة الواو، قال الراغب: المرية التردد في الأمر، وهو أخص من الشك، والممارة: المحاجة فيما فيه مرية، انتهى. ويحتمل أن يكون من مريت الناقة، إذا مسحت ضرعها بشدة الحلب، فيكون تفسيره بيجادلون حملاً له على الاستعارة التبعية، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ حيث استعمل المضارع في حقيقته ومجازه، فهو مستعمل في المستقبل بالنظر لما ينزل عليه من القرآن، إذ ذاك، وفي الماضي بالنظر لما أنزل بالفعل، وبالنظر لما أنزل على الرسل السابقين.

ومنها: جمع المؤكدات مع صيغة المبالغة في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهي ﴿أَلَآ﴾ و﴿إِنَّ﴾ وضمير الفصل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ أي: لتنذر أهل مكة؛ لأنّ الإنذار لأهل القرية لا لها.

ومنها: الاحتباك في هذه الآية، حيث حذف من كل نظير ما أثبته في الآخر، والتقدير: لتنذر أم القرى العذاب، وتنذر الناس يوم الجمع؛ أي: عذابه.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ و﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ وبين ﴿يَبْسُطُ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾.

ومنها: مخالفة مقتضى الظاهر في قوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لأن مقتضى الظاهر أن يقال: ولكن يدخل من يشاء في رحمته، ويدخل من يشاء في غضبه، ولكنه عدل عن ذلك إلى ذكر الظالمين، تسجيلاً عليهم باسم الظلم، ومبالغة في الوعيد.

ومنها: الإتيان بجملة معرّفة الطرفين في قوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ لغرض إفادة حصر الولاية في الله سبحانه وتعالى.

ومنها: إيثار صيغة الماضي في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وصيغة المضارع في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ لكون التوكل أمراً واحداً مستمراً، فيناسبه الماضي، وكون الإنابة متعددة، متجددة، بحسب تجدد موادها، فيناسبها المضارع، وفيهما أيضاً تقديم المعمول على عامله، لإفادة الحصر.

ومنها: زيادة الكاف في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لتأكيد نفي المثلية.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأن المقاليد المفاتيح. وهو كناية عن الخزائن؛ لأن فيه مزيد دلالة على الاختصاص، لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها، إلا من بيده مفاتيحها.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى نون العظمة في قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه إليه، وهو السر في تقديمه على ما بعده، مع تقدمه عليه زماناً.

ومنها: التعبير بالأصل في الموصولات، وهو الذي للتعظيم.

ومنها: توجيه الخطاب إليه ﷺ بطريق التلوين، للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾؛ لأنه كناية عن الثبات والدوام على الدعوة.

ومنها: المجاراة معهم في قوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ لأنه لا حجة لهم أصلاً، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجاراة معهم على زعمهم الباطل.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ دلالة على عظم الغضب عليهم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ حيث استعار الميزان العرفي للشرع، الذي يوزن به الحقوق الواجبة الأداء، سواء كان من حقوق الله، أو من حقوق العباد، بجامع العدل والتسوية في كل، ويحتمل أن يكون المراد بالميزان: العدل والتسوية؛ أي: أنزل العدل في الكتب الإلٰهية، فيكون تسمية العدل بالميزان، تسمية المسمى باسم آلته، فإن الميزان آلة للعدل.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ حيث ذكر الاستعجال أولاً، وحذف الإشفاق، وذكر الإشفاق ثانياً وحذف الاستعجال؛ لأن التقدير: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها. فلا يشفقون منها، والذين آمنوا مشفقون فلا يستعجلون بها.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ إذا قلنا إنه مأخوذ من مريت الناقة، وفسرناه بيجادلون، حيث شبه المجادلة بمماراة الحالب للضرع، لاستخراج ما فيه من اللبن، من حيث إن كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه، بكلام فيه شدة اهـ «روح البيان».

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ففيه وصف الشيء بوصف صاحبه؛ لأن البعد في الحقيقة للضال؛ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق فوصف به فعله.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ (١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ
ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ
(٢٠) أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ
لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢١) تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ
وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ (٢٢) ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ
عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ (٢٣) أَمۡ
يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ
عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ
(٢٥) وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ (٢٦)
۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ
(٢٧) وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٢٨) وَمِنۡ
ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ (٢٩) وَمَآ
أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ (٣٠) وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ (٣١) وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأۡ
يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ (٣٣) أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا
كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ (٣٤) وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ (٣٥) فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ
فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ
ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ
بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما

قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] فيما سبق، أنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على الدلائل الموصلة إلى السعادة، وأن المتفرقين في الدين، استوجبوا شديد العذاب، لكنه أخره إلى يوم معلوم.. أرشد هنا إلى أن ذلك من لطف الله بعباده، ولو شاء لجعلهم في عماية من أمرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، ولو شاء لعجل لهم العذاب. ثم بين أن من يعمل للآخرة يرجو ثوابها.. يضاعف له فيها الجزاء إلى سبع مئة ضعف، ومن يعمل للدنيا وجلب لذاتها.. يؤته ما يريد، وليس له في الآخرة نصيب من نعيمها، ثم أعقب هذا، بذكر ما وسوست به الشياطين للمشركين، وزينت لهم به، من الشرك بالله وإنكار البعث، إلى نحو ذلك. ثم بين أنهم كانوا يستحقون العذاب العاجل على ذلك، لكنه أجله لما سبق في علمه، من أنظارهم إلى يوم معلوم، ثم ذكر مآل كل من الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، فالأولون خائفون، وجلون من جزاء ما عملوا، والآخرون مترفون منعمون.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر في الآيات السالفة، أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون بالنعيم في روضات الجنات، وأنه يعطيهم من فضله ما فيه قرة أعينهم، رحمة من لدنه.. ذكر هنا أن ذلك كائن لهم لا محالة، ببشارة منه لهم، ثم أعقب هذا، بأن أمر رسوله بأن يقول لهم: إنه لا يسألهم على هذا البلاغ والنصح أجراً، وإنما يطلب منهم التقرب إلى الله وحسن طاعته، ثم رد عليهم قولهم: أن القرآن مفترى، بأنه لا يفتري الكذب على الله إلا من كان مختوماً على قلبه، ومن سنن الله تعالى إبطال الباطل ونصرة الحق، فلو كان محمد ﷺ كذاباً مفترياً، لفضحه وكشف باطله، ولكن أيده بالنصر والقوة، ثم ندبهم إلى التوبة مما نسبوه إلى رسوله من افترائه القرآن، ثم وعد المؤمنين بأنه يجيب دعاءهم إذا هم دعوه ويزيدهم من نعمه، وأوعد الكافرين بشديد العقاب، كفاء ما اجترحوا من الشرور والآثام.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين فيما سلف، أنه يجيب دعاء المؤمنين إذا هم أنابوا إليه وأخبتوا. . ذكر هنا أنه لا يعطيهم كل ما يطلبون من الأرزاق، بل ينزلها بقدر بحسب ما يعلم من مصلحتهم، فإن كثرة الرزق تجعل الناس يتجبرون ويتكبرون، والله هو الخبير بما يصلح حالهم من فقر وغنى.

قال خباب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية، نظرنا إلى أموال بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع، فتمنيناها، ثم أعقب هذا بأنهم إذا احتاجوا إلى الرزق، لا يمنعه منهم، وهو المتولي أمورهم بإحسانه، المحمود على ما يوصل للخلق من صنوف الرحمة، ثم أقام الأدلة على ألوهيته بخلقه للسمٰوات والأرض وما فيهما من الحيوان، ثم جمعهم للحساب يوم القيامة، ثم ذكر أن ما يصيب الإنسان من نكبات الدنيا، من الأمراض والأسقام والفقر والغنى، فبكسب الإنسان واختياره، كما دلت على صدق ذلك التجارب، ثم أعقب ذلك، بآية أخرى على ألوهيته، وهي جريان السفن في البحار، فتارة بجعل الريح ساكنة، فتظل السفن على سطحها، وأخرى تعصف الرياح فتفرقها، أو تنجو بحسب تقديره تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] دلائل توحيده، وعظيم قدرته وسلطانه، بخلق السمٰوات والأرض وجري السفن ماخرات في البحار. . أردف ذلك بالتنفير من الدنيا وزخرفها؛ لأن المانع من النظر في الأدلة، إنما هو الرغبة فيها، طلباً للرياسة والجاه، فإذا صغرت الدنيا في عين المرء، لم يلتفت إليها، وانتفع بالأدلة ووجه النظر إلى ملكوت السمٰوات والأرض، ثم أبان أن ما عند الله خير لمن آمن به، وتوكل عليه واجتنب كبائر الذنوب والفواحش، وكان منقاداً له، مطيعاً لأوامره، تاركاً لنواهيه وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يبرم أمراً إلا بعد

---

(١) المراغي.

مشورة، وانتصر لنفسه ممن ظلمه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[١]: ما أخرجه الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: لو جمعنا لرسول الله ﷺ مالاً، فأنزل الله سبحانه ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقال بعضهم: إنما قال هذا، ليقاتل عن أهل بيته وينصرهم، فأنزل الله ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ فعرض لهم التوبة إلى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

وأخرج أحمد بسنده عن طاووس قال: سأل رجل ابن عباس، عن معنى قول الله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى محمد ﷺ، قال ابن عباس: عجلت، إن رسول الله ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا لرسول الله ﷺ فيهم قرابة، فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الحاكم وصححه عن علي، قال: نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة، وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا، فتمنوا الدنيا، وأخرج الطبراني عن عمرو بن حريث مثله، وعمرو بن حريث، مختلف في صحبته كما في «الإصابة».

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لَطِيفٌۢ﴾؛ أي: بر بليغ البر ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ يفيض عليهم[٢] من فنون ألطافه، ما لا يكاد يناله أيدي الأفكار والظنون، وقولنا: من فنون ألطافه يؤخذ ذلك من صيغة لطيف، فإنها للمبالغة، وتنكيره أيضاً، وقولنا: ما لا يكاد، إلخ، مأخذه مادة الكلمة، فإن اللطف إيصال النفع إلى العبد على

---

(١) لباب النقول. (٢) روح البيان.

وجه فيه دقة: وقال مقاتل: لطيف بالبار والفاجر، حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم، وقال القرطبي: لطيف بهم في العرض والمحاسبة، وقيل[١]: كثير الإحسان بهم بالحياة والعقل ودفع أكثر البليات عنهم، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق، وتأخير العذاب عمن يستحقون العذاب.

والمعنى[٢]: أنه يجري لطفه على عباده في كل أمورهم، ومن جملة ذلك، الرزق الذي يعيشون به في الدنيا، وهو معنى قوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ منهم أن يرزقه كيفما يشاء، فيوسع على هذا، ويضيق على هذا، فيخص كلا من عباده، الذين عمهم جنس لطفه، بنوع من البر على ما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكم البالغة، فلا مخالفة بين عموم الجنس وخصوص النوع، يعني: أن المخصوص بمن يشاء هو نوع البر وصنفه، وذلك لا ينافي عموم جنس بره بجميع عباده، على ما أفادته إضافة العباد إلى ضميره تعالى، حتى يلزم التناقض بين الكلامين، فالله تعالى يبرهم جميعاً، لا بمعنى أن جميع أنواع البر، وأصنافه يصل إلى كل أحد فإنه مخالف الحكمة الإلهية، إذ لا يبقى الفرق حينئذٍ بين الأعلى والأدنى، بل يصل بره إليهم على سبيل التوزيع، بأن يخص أحداً بنعمة وآخر بأخرى، فيرجع بذلك كل واحد منهم إلى الآخر، فيما عنده من النعمة، فينتظم به أحوالهم، ويتم أسباب معاشهم، وصلاح دنياهم وعمارتها، فيؤدي ذلك إلى فراغهم لاكتساب سعادة الآخرة، وقال بعضهم: معناه: يرزق من يشاء بغير حساب، إذ الآيات القرآنية يفسر بعضها بعضاً.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾؛ أي: العظيم القوة الباهرة، والقدرة البالغة وهو يناسب عموم لطفه للعباد، قيل: والقوة في الأصل: صلابة البنية وشدتها المضادة للضعف، ولما كانت محالاً في حق الله تعالى، حملت على القدرة، لكونها مسببة من القوة.

قلت: ولا حاجة إلى هذا التأويل؛ لأن القوة صفة ثابتة لله تعالى، أثرها

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

عدم الضعف في أفعاله، والقدرة صفة ثابتة لله تعالى، أثرها عدم العجز عن إيجاد أي ممكن كان وإعدامه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي يغلب كل شيء، ولا يغلبه شيء، وهو يلائم تخصيص من يشاء بما شاء.

والمعنى[1]: أنه تعالى بر بعباده، يرسل إليهم أعظم المنافع، ويدفع عنهم أكبر البلاء، فيرزق البر والفاجر، لا ينسى أحداً منهم، ويوسع الرزق على من يشاء منهم، ويقتره على من يشاء، ليمتحن الغني بالفقير، والفقير بالغني، وليحتاج بعض إلى بعض، كما قال: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، ثم ذكر ما هو كالعلة لذلك، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: وهو القادر على ما يشاء، العزيز الذي لا يقدر أحد أن يمنعه عن شيء مما يريده.

وبعد أن أبان أن الرزق ليس إلا في يده، أتبعه بما يزهد في التكالب على طلب رزق البدن، ويرغب في الجد في طلب رزق الروح، والسعي في رفع منزلتها عند ربها ليرضى عنها، فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ ويقصد بعمله الصالح ﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ وثوابها، والحرث في الأصل[2]: إلقاء البذر في الأرض، ويطلق على الزرع الحاصل منه، ويطلق على ثمرات الأعمال، ونتائجها بطريق الاستعارة، المبنية على تشبيهها بالغلال، الحاصلة من البذور، المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور، من حيث إنها فائدة تحصل بعمل الدنيا، ولذلك قيل: الدنيا مزرعة الآخرة.

والمعنى: من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾ وثوابه؛ أي: نضاعف له ثوابه، ونعط له بالعمل الواحد عشر حسنات إلى سبع مئة فما فوقها، وقيل: نزد له في توفيقه، وإعانته وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات له. وقيل: نزد له في قوته ونشاطه، أو نزد له على ما قصده من حرث الآخرة، بالبسط له في الدنيا.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

ولم يقل في حقه[1]: وله في الدنيا نصيب، مع أن الرزق المقسوم له، يصل إليه لا محالة، للاستهانة بذلك، والإشعار بأنه في جنب ثواب الآخرة ليس بشيء، ولذلك قال سليمان عليه السلام: لتسبيحة خير من ملك سليمان.

فإن قيل: ظاهر اللفظ يدل على أن من صلى لأجل طلب الثواب، أو لأجل دفع العقاب، فإنه تصح صلاته، وأجمعوا على أنها لا تصح؛ لأن الرغبة في الإيمان والطاعة لا تنفع، إلا إذا كانت تلك الرغبة فيه، رغبة فيه لكونه إيماناً وطاعة، وأما الرغبة فيه لطلب الثواب، وللخوف من العقاب فغير مفيد، لأنه يكون عليلاً مريضاً.

والجواب: أن الحرث لا يتأتى إلا بإلقاء البذر الصحيح في الأرض، والبذر الصحيح الجامع للخيرات، والسعادات، ليس إلا عبودية الله تعالى، فلا يكون العمل أخروياً إلا بأن يطلب فيه رضى الله تعالى.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ ويقصد بأعماله الصالحة ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ثوابها ومتاعها وزخارفها وطيباتها، والمراد: الكافر أو المنافق، حيث كانوا مع المؤمنين في المغازي وغرضهم الغنيمة، ودخل فيه أصحاب الأغراض الفاسدة جميعاً. ﴿نُؤْتِهِۦ﴾؛ أي: نعطه شيئاً كائناً ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الدنيا حسبما قسمنا له أزلاً، لا ما يريده ويبتغيه، وقوله: منها متعلق بكائناً المحذوف، الواقع صفة للمفعول الثاني، ويجوز أن تكون كلمة من للتبعيض؛ أي: بعضها، ومآل المعنى واحد، دلت الآية على أن طالب الدنيا لا ينال مراده من الدنيا.

وفي الحديث: «من كانت نيته الآخرة، جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له».

﴿وَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: لمريد الدنيا ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾؛ لأنه لم يعمل للآخرة، فلا نصيب له فيها. و﴿مِن﴾: مزيدة للاستغراق؛ أي: ما له نصيب وحظ في الآخرة،

---

(١) روح البيان.

إذ كانت همته مقصورة على الدنيا، ولكل امرىء ما نوى، فيكون محروماً من ثواب الآخرة بالكلية، وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَزِدْ﴾ و﴿نُؤْتِهِۦ﴾ بالنون فيهما، وابن مقسم والزعفراني ومحبوب والمنقري، كلاهما عن أبي عمرو بالياء فيهما، وقرأ سلام: ﴿نؤتهُ منها﴾ بضم الهاء، وهي لغة الحجاز، ذكره في «البحر المحيط». وقال الإمام الراغب: إن الإنسان في دنياه حارث، وعمله حرثه، ودنياه محرثه، ووقت الموت وقت حصاده، والآخرة بيدره، ولا يحصد إلا ما زرعه، ولا يكيل إلا ما حصده.

حكي: أن رجلاً ببلخ، أمر عبده أن يزرع حنطة، فزرع شعيراً، فرآه وقت الحصاد وسأله، فقال العبد: زرعت شعيراً على ظن أن ينبت حنطة، فقال مولاه: يا أحمق، هل رأيت أحداً زرع شعيراً فحصد حنطة، فقال العبد: فكيف تعصي أنت، وترجو رحمته، وتغتر بالأماني، ولا تعمل العمل الصالح.

وكما أن في البيدر مكيالاً، وموازين وأمناء وحفاظاً وشهوداً، كذلك في الآخرة مثل ذلك، وكما أن للبيدر تذرية وتمييزاً بين النقاوة والحطام، كذلك في الآخرة تمييزٌ بين الحسنى والآثام، فمن عمل لآخرته بورك له في كيله ووزنه، وجعل له منه زاداً لا بد، ومن عمل لدنياه خاب سعيه وبطل عمله، فأعمال الدنيا كشجرة الخلاف، بل كالدقلي والحنظل في الربيع، يرى غض الأوراق، حتى إذا جاء حين الحصاد لم ينل طائلاً، وإذا حضر مجتناه في البيدر، لم يفد نائلاً. ومثل أعمال الآخرة كشجرة الكرم والنخل المستقبح المنظر في الشتاء، فإذا حان وقت القطاف والاجتناء أفادتك زاداً، وادخرت عدةً وعتاداً.

ولما كانت زهرات الدنيا رائقة الظاهر، خبيثة الباطن، نهى الله تعالى عن الاغترار بها، فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ فالقذر قذر، وإن كان في ظرف من الذهب، فالعاقل لا يتناوله.

وحاصل معنى الآية[2]: من كان يريد بأعماله، وكسبه ثواب الآخرة، نوفقه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

لصالح الأعمال، ونجزه بالحسنة عشر أمثالها، إلى ما شاء الله تعالى، ومن كان سعيه موجهاً إلى شؤون الدنيا وطلب طيباتها واكتساب لذاتها، وليس له هم في أعمال الآخرة، نؤته منها ما قسمناه له، وليس له في ثواب الآخرة حظ، فالأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى، قال قتادة: إن الله يعطي على نية الآخرة، ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا. وقال ابن عباس: من يؤثر دنياه على آخرته.. لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلا النار، ولم يزد بذلك من الدنيا شيئاً، إلا رزقاً فرغ منه وقسم له.

وأخرج أحمد والحاكم وصححه، وابن مردويه وابن حبان عن أبي بن كعب: أن رسول الله ﷺ قال: «بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا.. لم يكن له في الآخرة من نصيب».

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ الآية، ثم قال: «يقول الله لابن آدم: تفرغ لعبادتي، أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك». وعن علي كرم الله وجهه قال: الحرث: حرثان، فحرث الدنيا المال والبنون، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

ولما بين القسطاس الأقوم في أعمال الآخرة وأعمال الدنيا.. أردفه بالتنبيه إلى ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾ أم[1] منقطعة، مقدرة ببل التي للإضراب الانتقالي من قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾، والهمزة التي للتقرير والتوبيخ، وشركاؤهم شياطينهم من الإنس والجن، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ للمشركين من قريش، وإضافة الشركاء إلى ضميرهم في قولنا:

(١) روح البيان.

شركاؤهم على حقيقتها.

والمعنى: بل ألهم شركاء من الشياطين؛ أي: نظراء يشاركونهم في الكفر والعصيان، ويعاونونهم عليه بالتزيين والإغراء ﴿شَرَعُوا﴾ وسنوا ﴿لَهُم﴾ بالتسويل والتزيين ﴿مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ﴾ ويأمر ﴿بِهِ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، كالشرك وإنكار البعث، والعمل للدنيا، وسائر مخالفات الشريعة، وموافقات الطبيعة؛ لأنهم لا يعلمون غيرها، وتعالى الله عن الإذن في مثل هذا والأمر به، والتعبير عنه بالدين للمشاكلة؛ لأنه ذكر في مقابلة دين الله، أو للتهكم، وقيل: شركاءهم أوثانهم، فالهمزة للإنكار، فإن الجماد الذي لا يعقل شيئاً، كيف يصح أن يشرع ديناً، والحال أن الله تعالى، لم يشرع لهم ذلك الدين الباطل، وإضافتها إليهم حينئذٍ؛ لأنهم الذين جعلوها شركاء لله، وإسناد الشرع إليها، مع كونها بمعزل عن الفاعلية، إسناد مجازي، من إسناد الفعل إلى السبب؛ لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾.

والمعنى(١): أي هم ما اتبعوا، ما شرع الله من الدين القويم، بل اتبعوا ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، فحرموا عليهم ما حرموا من البحيرة، والسائبة والوصيلة، وحللوا لهم أكل الميتة والدم والقمار، إلى نحو أولئك، من الضلالات والجهالات، التي كانوا قد اخترعوها في الجاهلية.

وقد ثبت في «الصحيح»، أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لُحَيّ بن قمعة يجر قصبة أمعائه في النار؛ لأنه أول من سيّب السوائب، وحمل قريشاً على عبادة الأصنام، وكان أحد ملوك خزاعة»، وقصارى ذلك: أن الشيطان زين لهم الشرك والمعاصي والشرائع المضلة وإنكار البعث والعمل للدنيا.

ثم بين أنه رحمة بعباده، أخر عذاب المشركين ليوم معلوم، ولم يعجله لهم، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾؛ أي: القضاء السابق بتأخير العذاب عنهم، أو العدة لهم، بأن الفصل يكون يوم القيامة، حيث قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ

---

(١) المراغي.

﴿مَّوۡعِدُهُمۡ﴾ والفصل: القضاء بين الحق والباطل، كما في «القاموس»، ويوم الفصل هو اليوم الذي فيه يبين الحق من الباطل، ويفصل بين الناس بالحكم، كما في «المفردات»: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ في الدنيا، فعوجلوا بالعقوبة. والضمير في ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ راجع إلى المؤمنين والمشركين، أو إلى المشركين وشركائهم.

والمعنى: أي ولولا القضاء السابق منه تعالى، بتأخير العذاب إلى يوم القيامة، لعوجلوا بالعذاب في الدنيا.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم، وهم المشركون والمكذبون ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الدنيا والآخرة؛ أي: نوع من العذاب متفاقم ألمه، وأقام المظهر مقام المضمر، تسجيلاً عليهم بالظلم، ودلالة على أن العذاب الأليم، الذي لا يكتنه كنهه، إنما يلحقهم بسبب ظلمهم، وانهماكهم فيه.

والمعنى: أي وإن الظالمين أنفسهم، بشرع ما لم يأذن به الله، مما ابتدعوه من التحليل، والتحريم، لهم عذاب شديد الإيلام في جهنم، وبئس المصير، وقرأ الجمهور(١): وإن الظالمين بكسر الهمزة على الاستئناف، والإخبار بما ينالهم في الدنيا، من القتل والأسر والنهب، وفي الآخرة من النار، وقرأ الأعرج ومسلم بن جندب: ﴿وأنّ﴾ بفتح الهمزة، عطفاً على كلمة الفصل، فهو في موضع رفع؛ أي: ولولا كلمة الفصل وكون الظالمين لهم عذاب أليم في الآخرة، لقضي بينهم في الدنيا، وفصل بين المتعاطفين بجواب ﴿لولا﴾، كما فصل في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩﴾.

ثم ذكر أحوال أهل العقاب، وأهل الثواب يوم القيامة، مبتدئاً بالأولين، فقال: ﴿تَرَى﴾ وتبصر يا محمد، أو يا من يصلح للرؤية ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المشركين يوم القيامة ﴿مُشۡفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾؛ أي: لأجل ما كسبوا واقترفوا في الدنيا من الشرك والمعاصي؛ أي(٢): مشفقين إشفاقاً ناشئاً من

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

السيئات، التي عملوها في الدنيا ومن أجلها، فكلمة من للتعليل، وليست صلة مشفقين، حتى يحتاج إلى تقدير المضاف، مع أنه أيضاً معنى صحيح؛ لأنه أبلغ وأدخل في الوعيد ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ﴾؛ أي: والحال أن وبال ما كسبوه، وجزاءه، لا حق بهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا والجملة حال من ضمير مشفقين، أو اعتراض. قال سعدي المفتي: يعني ينعكس الحال في الآخرة، فالآمنون في الدنيا يشفقون في الآخرة، والمشفقون في الدنيا يأمنون في الآخرة؛ أي: ترى الظالمين خائفين، وجلين أشد الخوف والوجل، لأجل ما كسبوا في الدنيا من السيئات، والحال أن جزاءه واقع بهم، نازل عليهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا، وذكر الآخرين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: استعملوا تكاليف الشرع لقمع الطبع، وكسر الهوى، وتزكية النفس وتصفية القلب وتحلية الروح، مستقرون ﴿فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ﴾؛ أي: في أطيب بقاع الجنات وأنزهها، كما أنها في الدنيا أحسن أمكنتها.

قال في «حواشي الكشاف»: الروضة اسم لكل موضع فيه ماء وعشب، وفي «كشف الأسرار»: هي الأماكن المتسعة، المونقة ذات الرياحين. والزهر، انتهى. وفي الحديث: ثلاث يجلون البصر، النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن. قال ابن عباس: رضي الله عنه: والإثمد عند النوم، قال الراغب: قوله: ﴿فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ﴾ إشارة إلى ما أعد لهم في العقبى من حيث الظاهر، وقيل: إشارة إلى ما أهلهم له من العلوم والأخلاق التي من تخصص بها طاب قلبه؛ أي: والذين آمنوا بالله، وأطاعوه فيما أمر به ونهى عنه، لهم في الآخرة روضات الجنات، متمتعين بمحاسنها ولذاتها.

ثم بين ما يكون لهم من النعيم، في تلك الروضات، فقال: ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ مبتدأ مؤخر؛ أي: ما يشتهونه من فنون المستلذات من مآكل ومشارب، ومناظر مما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، حاصل لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ على أن عند ربهم ظرف للاستقرار العامل في ﴿لَهُم﴾، وقيل: ظرف ليشاؤون على أن يكون عبارة عن كونهم عند الله.

وفي الآية[1]: احتباك، حيث أثبت الإشفاق أولاً، دليلاً على حذف الأمن ثانياً، وأثبت الجنات ثانياً، دليلاً على حذف النيران أولاً، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذكر للمؤمنين، وهو مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أي: ذاك المذكور من أجر المؤمنين، هو الفضل العظيم، والمن الجسيم، الذي يصغر دونه ما لغيرهم من الدنيا، أو تحقر عنده الدنيا بحذافيرها من أولها إلى آخرها. وهذا في حق الأمة، وأما النبي ﷺ فمخصوص بالفضل العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الفضل الكبير، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿ٱلَّذِى﴾؛ أي: ذلك الفضل المذكور هو الثواب الذي ﴿يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى به ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: يبشرهم به على لسان النبي ﷺ، فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول، لأنهم لا يجوزون حذف المفعول الجار والمجرور، إلا على التدريج، بخلاف مثل: السمن منوان بدرهم؛ أي: منه؛ أي[2]: ذلك الذي أخبرتكم بأني أعددته في الآخرة من النعيم، والكرامة، لمن آمن بالله ورسوله وعمل صالح الأعمال. هي البشرى التي أبشركم بها في الدنيا، ليتبين لكم أنها حق، وأنها كائنة لا محالة.

والخلاصة: أن هؤلاء الجامعين بين الإيمان والعمل، بما أمر الله به، وترك ما نهى عنه، هم المبشرون بتلك البشارة.

يقول الفقير: حكمة تخصيص الروضة، وتعميم المشيئة، أن أكثر بلاد العرب خالية عن الأنهار الجارية والروضات، وأنهم لا يجدون كل المشتهيات، فيشوقهم بذلك ليكونوا على أهبة وتدارك، ولا يقيسوا الآخرة على الدنيا، فإن الدنيا محل البلاء والآفات، والآخرة دار النعيم والضيافات، وتدارك كل ما فات، فمن أحب مولاه اجتهد في طريق رضاه.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

قال شقيق البلخي رحمه الله تعالى: رأيت في طريق مكة مقعداً، يزحف على الأرض، فقلت له: من أين أقبلت؟ قال: من سمرقند، قال: قلت: وكم لك في الطريق؟ فذكر أعواماً تزيد على العشرة، فرفعت طرفي انظر إليه متعجباً، فقال لي: يا شقيق، ما لك تنظر إليّ، فقلت: متعجباً من ضعف مهجتك، وبعد سفرتك، فقال لي: يا شقيق، أما بعد سفرتي فالشوق يقربها، وأما ضعف مهجتي فمولاها يحملها، يا شقيق، أتعجب من عبد ضعيف يحمله المولى اللطيف، فمن وصل إليه بشارة الله بفضله وجوده.. هان عليه بذل وجوده.

قرأ الجمهور[1]: ﴿يُبَشِّرُ﴾: بتشديد الشين من بشر المضاعف، وعبد الله بن يعمر، وابن أبي إسحاق والجحدري والأعمش وطلحة، في رواية: والكسائي وحمزة ﴿يبشر﴾ ثلاثياً، وقرأ حميد بن قيس ومجاهد: ﴿يبشر﴾ بضم الياء وتخفيف الشين من أبشر الرباعي، وهو معدى بالهمزة، من بشر، اللازم المكسور الشين، وأما بشر بفتحها فمتعد، وبشر بالتشديد للتكثير لا للتعدية؛ لأن المتعدي إلى واحد، وهو مخفف لا يعدى بالتضعيف إليه، فالتضعيف فيه للتكثير لا للتعدية.

وبعد أن ذكر سبحانه، ما أخبر به نبيه ﷺ من هذه الأحكام، التي اشتمل عليها كتابه، أمره أن يخبرهم: بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ أجراً، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد لقريش قومك ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا﴾؛ أي: جعلا ولا نفعاً، كما لا يطلب الأنبياء من قبلي أجراً على تبليغهم الرسالة ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ المودة[2] مودة الرسول ﷺ، والقربى مصدر، كالزلفى بمعنى القرابة، التي هي بمعنى الرحم. و﴿في﴾ للسببية، أو بمعنى اللام، متعلقة بالمودة، ومودته كناية عن ترك أذيته، والجري على موجب قربته سمى عليه السلام المودة أجراً، واستثناها منه تشبيهاً لها به، والاستثناء من قبيل قول من قال:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

وذلك لأنه لا يجوز من النبي ﷺ أن يطلب الأجر، أياً كان على تبليغ الرسالة؛ لأن الأنبياء لم يطلبوه، وهو أولى بذلك؛ لأنه أفضل، ولأنه صرح بنفيه في قوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، ولأن التبليغ واجب عليه، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق به، ولأن متاع الدنيا أخس الأشياء، فكيف يطلب في مقابلة تبليغ الوحي الإلٰهي الذي هو أعز الأشياء؛ لأن العلم جوهر ثمين، والدنيا خزف مهين، ولأن طلب الأجر يوهم التهمة، وذلك ينافي القطع بصحة النبوة. وقرأ الجمهور ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ وقرأ زيد بن علي ﴿إلا مودة﴾.

فمعنى الآية[(١)]: قل لا أسألكم على التبليغ أجراً أصلاً، إلا أن تودوني لأجل قرابتي منكم وبسببها، وتكفوا عني الأذى، ولا تعادوني إن كان ذلك أجراً يختص بي، لكنه ليس بأجر؛ لأنه لم يكن بطن من بطونكم يا قريش، إلا وبيني وبينها قرابة فإذا كانت قرابتي قرابتكم، فصلتي، ودفع الأذى عني لازم لكم في الشرع والعادة والمروءة، سواء كان مني التبليغ أو لا، وقد كنتم تتفاخرون بصلة الرحم، ودفع الأذى عن الأقارب، فما لكم تؤذونني والحال ما ذكر.

ويجوز أن يراد بالقربى: أهل قرابته ﷺ على تقدير المضاف وبالمودة مودة أقربائه، وترك أذيتهم، فكلمة ﴿في﴾ على هذا للظرفية، والظرف حال من المودة، والمعنى: إلا أن تودوا أهل قرابتي، مودةً ثابتة، متمكنة فيهم. وقد اختلف في هذه الآية اختلافاً كثيراً، يرجع إليه في المطولات، وأحسن ما قرأناه في صددها، ما ذكره مجاهد وقتادة.

وخلاصته: أنكم قومي، وأحق من أجابني وأطاعتي، فإذا قد أبيتم ذلك، فاحفظوا حق القربى وصلوا رحمي، ولا تؤذوني.

وفي «الخازن»: فإن قلت[(٢)]: طلب الأجر على تبليغ الرسالة والوحي، لا

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

يجوز، لقوله في قصة نوح عليه السلام وغيره من الأنبياء: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قلت: لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الأجر على تبليغ الرسالة، بقي الجواب عن قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ﴾، فالجواب عنه من وجهين:

الأول: معناه لا أطلب منكم إلا هذا، وهذا في الحقيقة ليس بأجر، نظير قوله: (وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ)، البيت، معناه: إذا كان هذا عيبهم، فليس فيهم عيب بل هو مدح فيهم؛ ولأن المودة بين المسلمين أمر واجب، وإذا كان كذلك في حق جميع المسلمين، كان في أهل بيت النبي ﷺ أولى. فقوله: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ﴾ فالمودة في القربى ليست أجراً في الحقيقة؛ لأن قرابته قرابتهم، فكانت مودتهم وصلتهم لازمة لهم، فثبت أن لا أجر البتة.

والوجه الثاني: أن هذا الاستثناء منقطع، وتم الكلام عند قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ﴾؛ أي: لكن أذكركم المودة في قرابتي، الذين هم قرابتكم، فلا تؤذوهم.

واختلف أهل العلم في قرابته ﷺ. فقيل: علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم، وقيل: أهل بيته من تحرم عليهم الصدقة من أقاربه، وهم بنو هاشم، وبنو المطلب، الذين لم يفترقوا في الجاهلية، ولا في الإسلام.

روى مسلم عن زيد بن أرقم، أن رسول الله ﷺ قال: «إني تارك فيكم ثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله تعالى، واستمسكوا به»، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، فقال له حصين: من أهل بيته يا زيد، أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرمت عليه الصدقة بعده، قال: ومن هم قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، انتهى.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾ ويكتسب ﴿حَسَنَةً﴾؛ أي حسنة[1] كانت سيما مودة قربى رسول الله ﷺ، وعن السدي: أنها المودة في آل رسول الله ﷺ، نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، ومودته فيهم، والظاهر العموم في أي حسنة كانت إلا أنها تتناول المودة تناولاً أولياً لذكرها عقب ذكر المودة في القربى؛ أي: ومن يكتسب حسنة واحدة، ولو مثقال ذرة ﴿نَّزِدْ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك العامل ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في جزاء تلك الحسنة ﴿حُسْنًا﴾؛ أي: فضلاً وزيادة على قدر ما يستحقه، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، فما فوق، كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿نَّزِدْ لَهُۥ﴾ بالنون، وقرأ زيد بن علي وعبد الوارث عن أبي عمرو وأحمد بن جبير عن الكسائي: ﴿يزد﴾ بالياء؛ أي: يزد الله. وقرأ الجمهور: ﴿حُسْنًا﴾: بالتنوين، وعبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿حسنى﴾ بغير تنوين، على وزن رجعى وبشرى، وزيادة حسنها مضاعفة أجرها.

والمعنى[3]: أي ومن يعمل عملاً فيه طاعة الله ورسوله، نزد له فيه أجراً وثواباً، فنجعل له مكان الحسنة عشرة أمثالها، إلى سبع مئة ضعف إلى ما فوق ذلك، فضلاً منا ورحمة. ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾؛ أي: كثير الشكر للمطيعين بتوفيقه الثواب، والتفضل عليه بالزيادة، فالشكر[4] من الله مَجازٌ عن هذا المعنى، لأن معناه الحقيقي، وهو فعل ينبيء عن تعظيم المنعم، لكونه منعماً لا يتصور من الله سبحانه، لامتناع أن ينعم عليه أحد، حتى يقابل بالشكر، شبهت الإثابة والتفضل بالشكر، من حيث إن كل واحد منهما يتضمن الاعتداد بفعل الغير، وإكراماً لأجله؛ أي: إنه تعالى يغفر الكثير من

---

(١) النسفي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر. قال قتادة: غفور للذنوب، شكور للحسنات.

ثم أنكر عليهم نسبة افتراء القرآن إلى محمد ﷺ، ووبخهم على مقالهم، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم منقطعة، بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي من قوله: أم لهم شركاء إلخ، وبهمزة الاستفهام الإنكاري التوبيخي؛ أي: بل أيقول كفار مكة ﴿افْتَرَىٰ﴾ محمد واختلق ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ سبحانه ﴿كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة وتلاوة القرآن؛ أي[1]: أيقع في قلوبهم ويجري على ألسنتهم، أن ينسبوا مثله ﷺ إلى الافتراء على الله، وهو أقبح أنواع الفرية وأفحشها، وهذا المقال منهم أفظع من الشرك الذي جعلوه شرعاً لهم، فإنهم قد جعلوا الحق الأبلج، الذي يعاضده الدليل، ويؤيده البرهان، افتراءً على الله، واختلاقاً للكذب عليه، وفي ذلك أتم دلالة على بعده ﷺ من الافتراء.

وخلاصة ذلك: أنهم قالوا: إن هذا الذي يتلوه علينا من القرآن، ما هو إلا اختلاق من قبل نفسه، وليس بوحي من عند ربه، كما يدعي.

ثم زاد في استبعاد الافتراء من مثله ﷺ، والإنكار له، على أتم وجه، فقال: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى خذلانك ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لتجترىء بالافتراء عليه، فإنه لا يفعل مثل هذا إلا من كان في مثل حالهم، قد ختم الله على قلبه، وأعمى بصيرته.

والخلاصة: أنه إن يشأ يجعلك منهم، لأنهم هم المفترون الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله.

وفي «التأويلات النجمية»: يعني أنك إن افتريته ختم الله على قلبك، ولكنك لم تكذب على ربك، فلم يختم على قلبك، وما أجمل هذا التعريض بأنهم مفترون، وأنهم في نسبة الافتراء إليه مفترون أيضاً، وشبيه بالآية قول أمين نسب

---

(١) المراغي.

إلى الخيانة: لعل الله خذلني لعل الله أعمى بصيرتي، لا يريد بمقاله إثبات الخذلان وعمى القلب، بل يريد استبعاد الخيانة من مثله، وأن من نسبه إلى ذلك فقد ركب شططاً وأتي أمراً إدّا، وقال قولاً نكراً.

ثم أكد استبعاد الافتراء منه وزاده إيضاحاً، فقال: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ استئناف مقرر لنفي الافتراء غير معطوف على ﴿يَخْتِمْ﴾ كما ينبىء عنه إظهار الاسم الجليل، وصيغة المضارع.

فائدة[١]: وكتب ﴿يمح﴾ في المصحف بحاء مرسلة، كما كتبوا، (ويدع الإنسان)، و(يدع الداع) و(سندع الزبانية)، مما ذهبوا فيه إلى الحذف، والاختصار نظراً إلى اللفظ، وحملاً للموقف على الوصل. يعني: أن سقوط الواو لفظاً لالتقاء الساكنين، حال الوصل، وخطاً أيضاً، حملاً للخط على اللفظ؛ أي: على أنه خلاف القياس، وليس سقوطها منه، لكونه مجزوماً بالعطف على ما قبله، لاستحالة المعنى؛ لأنه تعالى يمحو الباطل مطلقاً لا معلقاً بالشرط.

والمعنى: كيف يكون منه الافتراء على الله، وقد جرت عادته تعالى، أن يمحو الباطل ويمحق الشرك، ويثبت الحق والإسلام والتوحيد بكلماته؛ أي: بقضائه أو بوحيه. أو بما أنزله من القرآن. وينشره بين الناس، وها هو ذا يزداد ما أوتيه محمد ﷺ كل يوم قوة وانتشاراً، فلو كان مفترياً كما تدعون، لكشف افتراءه ومحقه، وقذف بالحق على باطله فدمغه.

وقد يكون المعنى: أن هذه عدة من الله لرسوله بالنصر، ويكون المراد يمحو الله باطلهم وما بهتوك به. ويثبت الحق الذي أنت عليه بقضائه، الذي لا مرد له فيكون هذا كلاماً معترضاً بين ما قبله وما بعده، مؤكداً لما سبق من الكلام، من كونهم مبطلين في نسبة الافتراء إلى من هو أصدق الناس حديثاً.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: عالم بما في قلب العباد؛ أي: بما تضمره القلوب، فيجري عليها أحكامها اللائقة بها، من المحو

---

(١) روح البيان.

والإثبات. ولم يقل[1]: ذوات الصدور لإرادة الجنس، وذات هنا تأنيث ذي، بمعنى صاحب، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه؛ أي: عليم بالمضمرات صاحبة الصدور، وهي الخواطر القائمة بالقلب، من الدواعي والصوارف الموجودة فيه، وجعلت صاحبة للصدور بملازمتها، وحلولها فيها، كما يقال للبن: ذو الإناء ولولد المرأة وهو جنين ذو بطنها، وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى يتصرف في عباده بما يشاء، من إبعاد قريب، وإدناء بعيد.

والمعنى: أي فيعلم ما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر، وتجري الأمور بحسب علمه الواسع، المحيط بكل شيء.

ثم امتن على عباده بقبول توبتهم، إذا هم تابوا ورجعوا إليه فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ من الذنوب ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ بالتجاوز عما فرط منهم في الزمن الماضي، من الذنوب، واقترفوا فيه من السيئات؛ لأنه إن لم يقبل كان إغراء بالمعاصي، وعدى القبول بعن؛ لتضمنه معنى التجاوز، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي عامة للمؤمن والكافر والولي والعدو، ومن تاب منهم، قبل الله توبته.

فصل في ذكر التوبة وحكمها

قال العلماء[2]: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلق بحق آدمي.. فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً، فإذا حصلت هذه الشروط صحت التوبة، وإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته، وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي،

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.

فشروطها أربعة: هذه الثلاثة.

والشرط الرابع: أن يبرأ من حق صاحبها، فهذه شروط التوبة الصحيحة. وقيل: التوبة الانتقال عن المعاصي نيةً وفعلاً، والإقبال على الطاعات نيةً وفعلاً، وقال سهل بن عبد الله التستري: التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة.

وقد ورد في الحث على التوبة كثير من الأحاديث في «الصحيحين» وغيرهما.

فمن ذلك: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه، في اليوم أكثر من سبعين مرة» أخرجه البخاري.

ومنها: ما رُوي عن الأغر بن بشار المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة»، أخرجه مسلم.

ومنها: ما رُوي عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن، من رجل نزل في أرض دوية، مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه، فنام نومة فاستيقظ، وقد ذهبت راحلته فطلبها، حتى إذا اشتد الحر والعطش، أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكان الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه. فاللّه أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده» متفق عليه، الدوية الفلاة والمفازة.

ومنها: ما رُوي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للّه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة» متفق عليه.

ومنها: لمسلم عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده، حين يتوب إليه، من أحدكم، كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه. وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتي شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته،

فبينا هو كذلك، إذ هو بها قائمة عنده، فاخذ بخطامها ثم قال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

ومنها: ما رُوي عن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل بالمغرب باباً، عرضه مسيرة سبعين عاماً، للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله، وذلك قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا...﴾ الآية، أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

ومنها: ما رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل، يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»، أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب.

ومنها: ما رُوي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار. ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». أخرجه مسلم.

وروى جابر رضي الله عنه أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر، فلما فرغ من صلاته، قال له علي رضي الله عنه: إن سرعة اللسان بالاستغفار، توبة الكذابين، وتوبتك تحتاج إلى التوبة، فقال يا أمير المؤمنين: ما التوبة، قال: التوبة اسم يقع على ستة معان، على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم. وإذاقة النفس مرارة الطاعة، كما أذقتها حلاوة المعصية، وإذابتها في الطاعة، كما ربيتها في المعصية. والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في المستقبل؛ أي: يعفو عن صغائرها في المستقبل، بمحض فضله، وإن لم يتوبوا؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات. وقيل: يعفو عن السيئات صغائرها وكبائرها، غير الشرك لمن يشاء بمحض فضله ورحمته. وفي «التأويلات النجمية»: ويعفو عن كثير من الذنوب، التي لا يطلع العبد عليها، فيتوب عنها، وأيضاً يعفو عن كثير من الذنوب، قبل التوبة، ليصير العبد به قابلاً للتوبة، وإلا لما تاب ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ كائناً ما كان من خير أو شر، فيجازي

بالثواب أو بالعقاب، أو يتجاوز بالعفو بحسب ما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكم والمصالح. وفي «التأويلات النجمية»: ويعلم ما تفعلون من السيئات والحسنات، مما لا تعلمون أنها من السيئات والحسنات، فبتلك الحسنات يعفو عن السيئات، وفي هذا حث على لزوم الحذر منه تعالى، والإخلاص له وإمحاض التوبة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَا يَفْعَلُونَ﴾ بياء الغيبة، وقرأ عبد الله وعلقمة وحمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ بتاء الخطاب، واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأن هذا الفعل وقع بين خبرين.

والموصول في قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ في موضع نصب على المفعولية، والفاعل ضمير يعود على الله سبحانه؛ أي: يستجيب الله سبحانه، للذين آمنوا دعاءهم ويعطيهم ما طلبوه منه. يقال: استجاب وأجاب بمعنىً وقيل: المعنى: يقبل الله عبادة الذين آمنوا، وعملوا الصالحات؛ أي: يقبل عبادة المؤمنين المخلصين، ويثيبهم على طاعاتهم، يعني: يعطيهم الثواب في الآخرة. والإثابة[2] معنى مجازي للإجابة؛ لأن الطاعة لما شبهت بالدعاء، باعتبار ما يترتب عليها من الثواب، كانت الإثابة عليها، بمنزلة إجابة الدعاء، فعبر بها عنها، وقيل: إن الموصول في محل رفع على الفاعلية؛ أي: يجيب الذين آمنوا ربهم إذا دعاهم إلى طاعته، كقوله: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾، والأول أولى باعتبار السياق ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ الله سبحانه على ما طلبوه، أو على ما يستحقونه من الثواب ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ وكرمه وجوده ما يشاء تفضلاً وكرماً منه، وهو معطوف على ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ على الوجه الأول أعني: نصب الموصول، وعلى الوجه الثاني، أعني: رفع الموصول يكون قوله. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ معطوفاً على مقدر تقديره: ويستجيبون لله تعالى بالطاعة، ويزيدهم على ما استحقوه من الثواب تفضلاً منه، وقيل: معنى ويزيدهم من فضله: يشفعهم في إخوانهم.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي ويجيب الذين آمنوا إذا دعوه، ويزيدهم من فضله على ما طلبوه بالدعاء.

وبعد أن ذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب، أردف بما أعده للكافرين من العذاب فقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ﴾ يوم القيامة﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: وجيع مؤلم بدل ما للمؤمنين من الثواب والفضل المزيد، فالمؤمنون استجاب لهم دعاءهم وزادهم من فضله، وهؤلاء الكفرة لا يستجيب لهم دعاءً ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾؛ أي: لجميعهم، ووسعه عليهم ﴿لَبَغَوْا۟﴾؛ أي: جميعهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لطغوا وعصوا وأفسدوا فيها، لأن الغنىٰ مبطرة مأشرة؛ أي: داع إلى البطر والأشر، أو لظلم بعضهم بعضاً، وقيل: المعنى: لو جعلهم سواءً في الرزق لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بغيهم في الأرض، طلبهم منزلة بعد منزلة ومركباً بعد مركب. وملبساً بعد ملبس، وقال بعضهم: لو أن الله تعالى رزق العباد من غير كسب، لتفرغوا للفساد في الأرض، ولكن شغلهم بالكسب حتى لا يتفرغوا للفساد، ونعم ما قيل:

إِنَّ ٱلشَّبَابَ وَٱلْفَرَاغَ وَٱلْجِدَهْ ... مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَهْ

أي: داعية إلى الفساد. ومعنى الفراغ: عدم الشغل، ولزوم البغي على بسط الرزق على الغالب، وإلا فقد يكون الفقير مستكبراً وظالماً، يعني: أن البغي مع الفقر أقل؛ لأن الفقر مؤد إلى الانكسار والتواضع غالباً، ومع الغنىٰ أكثر وأغلب؛ لأن الغنىٰ مؤد إلى البغي غالباً، فلو عم البسط كل واحد من العباد، لغلب البغي، وانقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن.

وذكروا في كون بسط الرزق موجباً للطغيان وجوهاً[2]:

الأول: أن الله لو سوى في الرزق بين الكل. امتنع كون البعض محتاجاً إلى البعض، وذلك يوجب خراب العالم وتعطيل المصالح.

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

ثانيها: أن هذه الآية مختصة بالعرب، فإنهم كلما اتسع رزقهم، ووجدوا من ماء المطر ما يرويهم، ومن الكلأ والعشب ما يشبعهم، قدموا على النهب والغارة.

ثالثها: أن الإنسان متكبر بالطبع، فإذا وجد الغنىٰ والقدرة.. عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية، وهو التكبر وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه.. انكسر وعاد إلى التواضع والطاعة، وكفىٰ بحال قارون عبرة.

قال علماؤنا(١): أفعال الرب سبحانه لا تخلو عن مصالح، وإن لم يجب على الله الاستصلاح، فقد يعلم من حال عبده، أنه لو بسط عليه الرزق.. قاده ذلك إلى الفساد، فيزوي عنه الدنيا مصلحة له، فليس ضيق الرزق هواناً، ولا سعة الرزق فضيلة، وقد أعطى قوماً مع علمه بأنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلاف ما فعل، لكانوا أقرب من الصلاح، وبالجملة فالأمر مفوض إلى مشيئته تعالى، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح، في كل فعل من أفعاله تعالى.

وروى أنس عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى، قال: «إن من عبادي المؤمنين، من يسألني الباب من العبادة، وإني عليم أني لو أعطيته إياه لدخله العجب فأفسده، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه، إلا الغنىٰ، ولو أفقرته لأفسده الفقر، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده الغنىٰ، وإني لأدبر عبادي لعلمي بقلوبهم، فإني عليم خبير»، ثم قال أنس: اللهم إني من عبادك المؤمنين، الذين لا يصلحهم إلا الغنىٰ فلا تفقرني برحمتك.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ﴾ سبحانه وتعالى من الرزق لعباده ﴿بِقَدَرٍ﴾؛ أي: بتقدير أزلي ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن ينزله مما تقتضيه مشيئته، وهو مفعول ينزل ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾؛ أي: بأحوال عباده ﴿خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾؛ أي: محيط بخفايا أمورهم، وجلاياها، فيقدر لكل واحد منهم في كل وقت من أوقاتهم، ما يليق بشأنهم،

---

(١) الفتوحات.

فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية، ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم[1]: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بتشديد الزاي. وابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف.

والمعنى[2]: أي ولو أعطى عباده من الرزق فوق حاجتهم، لحملهم ذلك على البغي والطغيان، وطلب ما ليس لهم طلبه؛ لأن الغنى مبطرة مأشرة، وكفى بحال قارون وفرعون، عبرة لمن اعتبر، ولكن يرزقهم ما فيه صلاحهم، وهو أعلم بحالهم، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، بحسب ما يعلم من المصلحة في ذلك.

والخلاصة: أنه تعالى خبير بما يصلح عباده، من توسيع الرزق، وتضييقه، فيقدر لكل واحد منهم ما يصلحه. فيبسط ويقبض ويعطي ويمنع، ولو أغناهم جميعاً لبغوا. ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا، فنظام العالم لا يستقر إلا على هذا الوضع القائم، الجامع بين الأمرين، فخوف الأغنياء يَزَعُهُم عن الظلم، وخوف الفقراء من الأغنياء، يدعوهم إلى التعاون معهم ليفوزوا بمبتغاهم، ويزعهم عن البغي، وقال قتادة: كان يقال: خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك.

وبعد أن بين أنه لا يعطي عباده ما زاد على حاجتهم؛ لأنه يعلم أن الزيادة تضرهم في دينهم، ذكر أنهم لو احتاجوا إلى الغيث، فهو لا يمنعه عنهم، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإلٰه: ﴿ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ والمطر من السماء على الأرض، فيغيثهم به من الجدب، ولذلك خص بالنافع منه. فإن المطر قد يضر. وقد لا يكون في وقته. قال الراغب: الغيث يقال في المطر. والغوث في النصرة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أي: يئسوا منه. وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضاً، لتذكير كمال النعمة. فإن حصول النعمة بعد اليأس والبلية، أوجب لكمال الفرح. فيكون أدعى إلى الشكر. وقرأ الجمهور: ﴿قَنَطُواْ﴾ بفتح النون، وقرأ الأعمش وابن وثاب بكسرها. ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾؛ أي: يبسط بركات الغيث ومنافعه وما

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

يحصل به من الخصب في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان، وفي «فتح الرحمٰن»: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾: وهي الشمس، وذاك تعديد نعمة غير الأولى. وذلك أن المطر إذا جاء بعد القنوط حسن موقعه، فإذا دام سئم، وتجيء الشمس بعده عظيمة الوقع ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْوَلِيُّ﴾؛ أي: السيد المالك، الذي يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: المستحق للحمد على ذلك وغيره، لا غيرُه.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾؛ أي: متولى المطر، ومتصرفه، يرسله مرة بعد مرة ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: الأهل لأن يحمد على صنعه. إذ لا قبح فيه؛ لأنه بالحكمة. ودل الغيث على الاحتياج، وعند الاحتياج تتقوى العزيمة، والله تعالى يجيب دعوة المضطر. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر رضي الله عنه: اشتد القحط وقنط الناس. فقال: مطروا إذن، ثم قرأ هذه الآية.

والمعنى: أي وهو الذي ينزل المطر من السماء، فيغيثهم به من بعد يأسهم من نزوله حين حاجتهم إليه، وينشر بركات الغيث، ومنافعه، وما يحصل به من الخصب، وهو الذي يتولى عباده بإحسانه، ويحمد على ما يوصله إليهم من رحمته.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن تحت العرش بحراً، ينزل منه أرزاق الحيوانات، يوحي الله سبحانه إليه. فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء، حتى ينتهي إلى سماء الدنيا ويوحي إلى السماء أن غربليه. فتغربله فليس من قطرة تقطر إلا ومعها ملك يضعها موضعها، ولا ينزل من السماء قطرة إلا بكيل معلوم، ووزن معلوم، إلا ما كان من يوم الطوفان من ماء، فإنه نزل بغير كيل ولا وزن.

وروي: أن الملائكة يعرفون عدد المطر، ومقداره في كل عام؛ لأنه لا يختلف فيه البلاد، وفي الحديث: «ما من سنة بأمطر من أخرى، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي، حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار».

ثم أقام الأدلة على ألوهيته فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي:

ومن دلائل قدرته تعالى، الموجبة لتوحيده، وصدق ما وعد به من البعث ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خلقهما على هذه الكيفية العجيبة والصنعة الغريبة، فإنهما بذاتهما وصفاتهما يدلان على شؤونه العظيمة، والإضافة[1] في ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: السمٰوات المخلوقة، والأرض المخلوقة ﴿وَمَا بَثَّ﴾ وفرق ونشر ﴿فِيهِمَآ﴾؛ أي: في السمٰوات والأرض، معطوف على السمٰوات؛ أي: وفي خلق ما بث فيهما، أو على الخلق؛ أي: في خلق السمٰوات والأرض، وفي ما بث فيهما ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: من حي. فهو من إطلاق المسبب، وهو الدبيب وإرادة السبب، وهو الحياة. فتكون الدابة بمعنى الحي، فتتناول الملائكة، فإن الملائكة ذووا حركات طيارون في السماء، وإن كانوا لا يمشون في الأرض.

وفي «الخازن»: فإن قلت: كيف[2] يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة؟

قلت: الدبيب في اللغة: المشي الخفيف على الأرض، فيحتمل أن يكون للملائكة مشي مع الطيران، فيوصفون بالدبيب، كما يوصف به الإنسان. وقيل: يحتمل أن الله تعالى خلق في السمٰوات أنواعاً من الحيوانات، يدبون دبيب الإنسان، وقيل: يحتمل أنه من إطلاق المثنى على المفرد، فيعود الضمير في ﴿فِيهِمَآ﴾ إلى الأرض فقط، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ وإنما يخرجان من أحدهما وهو الملح.

يقول الفقير: إن للملائكة أحوالاً شتى، وصوراً مختلفة، لا يقتضي موطنهم الحصر، في شيء من المشي والطيران، فطيرانهم إشارة إلى قوتهم في قطع المسافة، وإن كان ذلك لا ينافي أن يكون لهم أجنحة ظاهرة، فلهم أجنحة يطيرون بها. ولهم أرجل يمشون بها. والله أعلم.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾؛ أي: على جمع الأجسام وحشرهم بعد البعث للمحاسبة ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾؛ أي: في أي وقت شاء جمعهم ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي:

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

قادر متمكن منه. وقوله: ﴿هو﴾[1] مبتدأ. و﴿قدير﴾ خبره. و﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ متعلق بقدير، وإذا مجردة عن معنى الشرط، متعلقة بجمعهم لا بقدير، لفساد المعنى. فإن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لا قدرته، و﴿إذا﴾ عند كونها بمعنى الوقت، مجردة عن الشرط كما تدخل على الماضي تدخل على المضارع، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾.

والمعنى[2]: أي ومن دلائل عظمته وقدرته وسلطانه القاهر، خلق السمٰوات والأرض، وما نشر فيهما من دابة، تدب وتتحرك، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوان على اختلاف أشكالهم وألوانهم، وهو يجمعهم يوم القيامة، فيجمع الأولين والآخرين، وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، ثم يحكم بينهم بحكمه العدل، وهو اللطيف الخبير.

وقصارى ذلك: أنه قدير على جمع ما بث فيهما من دابة، إذا شاء جمعه، كما لم يتعذر خلقه وتفريقه.

ثم ذكر سبحانه دستوراً للناس في أعمالهم، إذا تأملوه.. أقلعوا عما يرتكبونه من الآثام، فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾؛ أي[3]: والذي وصل إليكم أيها الناس ﴿مِّن مُّصِيبَةٖ﴾ أي مصيبة كانت، من الآلام والأسقام والقحط والخوف، حتى خدش العود وعثرة القدم واختلاج العرق وغير ذلك، في البدن، أو في المال، أو في الأهل والعيال، ويدخل فيه الحدود على المعاصي، كما أنه يدخل في قوله: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ ما لم يجعل له حد ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾؛ أي: فهو واقع بكم بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، فإن ذكر الأيدي لكون أكثر الأعمال، مما يزاول بها، فكل نكد لاحق إنما هو بسبب ذنب سابق، أقله التقصير.

وفي الحديث: «لا يرد القدر إلا بالدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وقوله: لا يرد القدر إلخ، لأن من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لدفع البلاء، وجلب الرحمة، كما أن الترس سبب لدفع السلاح، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، وقال الضحاك: ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب، وأي معصية أقبح من نسيان القرآن، وتلا الآية.

وقرأ نافع وابن عامر(١): ﴿بما كسبت﴾ بغير فاء، وقرأ الباقون بالفاء. و﴿ما﴾ في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ هي الشرطية، ولهذا دخلت الفاء في جوابها، على قراءة الجمهور، ولا يجوز حذفها عند سيبويه والجمهور، وجوز الأخفش الحذف كما في قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، وقول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ ٱلْحَسَنَاتِ ٱللَّهُ يَشْكُرُهَا وَٱلشَّرُّ بِٱلشَّرِّ عِنْدَ ٱللَّهِ مِثْلَانِ

وقيل: هي الموصولة، فيكون الحذف والإثبات جائزين، والأول أولى، وقال الزجاج: إثبات الفاء أجود، لأن الفاء مجازاة جواب الشرط، ومن حذف الفاء، فعلى أن ﴿ما﴾ في معنى الذي، وقال بعضهم: ﴿ما﴾ موصول مبتدأ، دخلت الفاء في خبره، لتضمنه معنى الشرط.

والمعنى: والذي أصابكم، فواقع بما كسبت أيديكم، قال الحسن: المصيبة هنا: الحدود على المعاصي، والأولى الحمل على العموم، كما يفيده وقوع النكرة في سياق النفي، ودخول من الاستغراقية عليها.

﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ من الذنوب التي يفعلها العباد، فلا يعاقب عليها، ولولا عفوه وتجاوزه ما ترك على ظهرها من دابة، وهذا من تتمة قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

والمعنى(٢): أي وما يحل بكم أيها الناس، من المصائب في الدنيا، فإنما تصابون به عقوبة لكم، على ما اجترحتم من الآثام، واقترفتم من الشرور والمعاصي، ويعفو لكم عن كثير من جرائمكم، فلا يعاقبكم بها، وقد ثبتت الأدلة

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الصحيحة، أن جميع ما يصاب به الإنسان في الدنيا. يؤجر عليه، أو يكفر عنه من ذنوبه، وقيل: هذه الآية مختصة بالكافرين، على معنى أن ما يصابون به، بسبب ذنوبهم، من غير أن يكون ذلك مكفراً عنهم لذنب، ولا محصلاً لثواب، ويترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم، فلا يعاجلهم في الدنيا، بل يمهلهم إلى الدار الآخرة، والأولى حمل الآية على العموم، والعفو يصدق على تأخير العقوبة، كما يصدق على محو الذنب ورفع الخطاب به.

فاللَّه سبحانه[١] جعل للذنوب أسباباً، لها نتائجها ومسبباتها، فشارب الخمر، يصاب بكثير من الأمراض الجسمية، والعقلية في الدنيا، وهي أثر من آثار ما اجترح من الذنوب، والتاجر غير الأمين، أو الكذاب، تصاب تجارته بالكساد، ويشهر بين الناس بالخيانة، فيحجمون عن معاملته، والحكام المرتشون، الظلمة، الذين يجمعون أموالهم بالسحت، يصابون بالفقر والعدم، ويصبحون مثلاً بين الناس، وإن لم يصبهم الفقر.. يصب أولادهم، فيصبحوا بحال يرثى لها، ويصيروا أحاديث الخاصة والعامة، والأمم الظالمة، التي لا تناصر بين أفرادها، بل بينها التقاطع، ويبتز بعض أفرادها أموال بعض آخر، تصاب بالمهانة بعد العظمة، والذلة بعد العزة، وما الأمثال في ذلك بعزيزة.

وقد تقدم أن قلنا في غير موضع: إن عقاب الأفراد في الدنيا ليس بالمطرد، إذ كثيراً ما نرى سكيراً عربيداً، لا يصاب بأذى مما يفعل، ونرى تاجراً يخون الأمانة، ولا يصاب بكساد في تجارته، وحينئذٍ يكون عقاب كل منهما مؤجلاً ليوم الحساب، إن شاء ربك عاقب، وإن شاء عفا بعد التوبة، عما فرط منهما من الذنوب، والآثام.

وأما عقاب الأمم على ما تجترح من السيئات، فهو محقق في الدنيا، ولدينا عظة التاريخ في القديم والحديث، فما من أمة تركت أوامر دينها، وخالفت نواميس العمران، إلا زالت وصارت كأمس الدابر، وأصبحت عبرة للباقين. ومثلاً

---

(١) المراغي.

للآخرين ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾. وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يشاكها».

ولما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر». وروى الترمذي، وجماعة عن علي - كرم الله وجهه - قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله، حدثنا بها رسول الله ﷺ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ قال ﷺ: «وسأفسرها لك يا علي، ما أصابكم من مرض، أو عقوبة، أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يعود بعد عفوه»، والآثار في هذا الباب كثيرة.

وقال الواحدي: وهذه أرجى آية في كتاب الله، لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين، صنف كفره عنهم بالمصائب، وصنف عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفوه، فهذه سنة الله مع المؤمنين، وأما الكافر فإنه لا يعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة انتهى.

والخلاصة: أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب، ويعفو عن كثير من الذنوب.

ولما كان من يعاقب بدون الموت، ربما ظن أنه عاجز فائت، قال: ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ أيها الناس، أجمعون عربكم وعجمكم ﴿بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: بفائتين عليه تعالى. هرباً في الأرض. ولا في السماء، لو كنتم فيها، لو أراد محقكم بالكلية، يعني: لو أراد الله سبحانه، ابتلاءكم وعقوبتكم. . فلا تفوتونه حيثما كنتم، ولا تسبقونه، ولا تقدرون أن تمنعوه من تعذيبكم، بل ما قضاه عليكم من المصائب واقع عليكم، نازل بكم ﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها الناس، عند الاجتماع. فكيف عند الانفراد ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء عظمة وكبراً وعزة ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يوالي أموركم بالاستقلال، فيحميكم مما قضاه الله

من المصائب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم، أو يمنعكم من عذاب الله، في الدنيا والآخرة.

والمعنى[1]: أي وما لكم من دون الله ولي يليكم، بالدفاع عنكم، إذا أراد عقوبتكم على معصيتكم، ولا لكم نصير ينصركم، إذا هو عاقبكم فينتصر لكم، فاحذروا معاصيه، واتقوا مخالفة أوامره، فإنه لا دافع لعقوبته إذا أحلها بعبد من عباده.

ثم ذكر سبحانه، آية أخرى من آياته العظيمة، الدالة على توحيده، وصدق ما وعد به، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾؛ أي: ومن دلائل قدرته وباهر حكمته وعظيم سلطانه ﴿ٱلْجَوَارِ﴾؛ أي: السفن الجارية ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: في الماء الكثير العميق؛ أي: تسخيره البحر، لتجري فيه الفلك بأمره، حالة كون تلك الجواري ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ في عظمها وارتفاعها؛ أي: كالجبال الشاهقة، والمدن العالية.

أي[2]: ومن دلائل قدرته تعالى، السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف، شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تشخص بالأجسام الثقيلة الكثيفة. ومع ذلك جعل تعالى، للماء قوة يحملها بها، ويمنع من الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيرها، فإذا أراد أن ترسو، أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها، والجواري جمع جارية، وأصله: السفن الجواري، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه، وحسن ذلك قوله: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فدل ذلك على أنها صفة للسفن. وإلا فهي صفة غير مختصة. فكان القياس أن لا يحذف الموصوف، ولا يقام مقامه. ويمكن أن يقال: إنها صفة غالبة، كالأبطح فجاز أن تلي العوامل، بغير ذكر الموصوف، وقرىء ﴿الجواري﴾ بالياء ودونها، وسمع من العرب الإعراب في الراء. و﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متعلق بالجواري، و﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ في موضع الحال، والأعلام: الجبال، ومنه قول الخنساء:

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ   كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِيْ رَأْسِهِ نَارُ

قال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم. وقال مجاهد: الأعلام القصور، واحدها علم.

﴿إن يَشَأْ﴾ الله سبحانه وتعالى. وهو شرط، جوابه قوله: ﴿يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجريها ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾؛ أي: فيصرن[1] تلك السفن من ظل، بمعنى صار، أي: يصرن تلك السفن، بعد ما كانت جواري بريح طيبة ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾؛ أي: ثوابت على ظهر البحر. غير جاريات ولا متحركات أصلاً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَشَأْ﴾ بالهمزة، وقرأ ورش عن نافع بلا همزة، وقرأ جمهور السبعة: ﴿ٱلرِّيحَ﴾: بالإفراد، وقرأ نافع ﴿الرياح﴾ بالجمع، وقرأ الجمهور: ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾: بفتح اللام الأولى، وقرأ قتادة بكسرها، وهي لغة قليلة، والقياس الفتح لأن الماضي بكسر العين، فالكسر في المضارع شاذ.

والمعنى: إن يشأ الله، الذي قد أجرى هذه السفن في البحر، أن لا تجري فيه، أسكن الريح التي تجري بها، فتثبت في موضع واحد، وتقف على ظهر الماء، لا تتقدم ولا تتأخر.

ثم أتى بجملة معترضة بين ما مضى وما سيأتي فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من أمر السفن، اللاتي يجرين تارة، ويركدن تارة أخرى، على حسب مشيئة الله تعالى ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في العدد، دالة على ما ذكر من شؤونه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: لكل من كان كثير الصبر على احتمال البلايا في طاعة الله تعالى ﴿شَكُورٍ﴾؛ أي: كثير الشكر على نعمائه، باستعمال كل عضو من الأعضاء، فيما خلق له، قال قطرب: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتُلي صبر، قال عون بن عبد الله:

فَكَمْ مِنْ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ غَيْرُ شَاكِرٍ   وَكَمْ مِنْ مُبْتَلَىً غَيْرُ صَابِرِ

---

(١) روح البيان.   (٢) الشوكاني والبحر المحيط.

ويجوز أن يكون[١] مجموع صبار، شكور كناية عن الآتي بجميع ما كلف من الأفعال والتروك، فالمعنى: لكل مؤمن كامل في خصائل الإيمان، وثمراتها ترجع كلها إلى الصبر والشكر، فإن الإيمان نصفه صبر عن المعاصي، ونصفه شكر، وهو الإتيان بالواجبات.

والمعنى: أي إن في جري هذه الجواري في البحر، بقدرته تعالى، لحجة بينة على قدرته على ما يشاء، لكل ذي صبر على طاعته، شكور لنعمه وأياديه عنده، والمؤمن إذا كان في ضراء كان من الصابرين، وإذا كان في السراء كان من الشاكرين.

وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ معطوف على ﴿يُسْكِنِ﴾؛ أي: يُهلكهن الله تعالى بالغرق، والمراد: أهلهن بما كسبوا من الذنوب، وقيل: بما أشركوا. والأول أولى، فإنه يهلك في البحر المشرك وغير المشرك، يقال: أوبقه إذا أهلكه كما في «القاموس».

والمعنى: إن يشأ يسكن الريح، فيركدن على ظهره، أو يرسلها بشدة، فيغرقهن بعدله، وإيقاع الإيباق عليهن، مع أنه حال أهلهن للمبالغة والتهويل، يعني: أن المراد إهلاك أهلها بسبب ما كسبوا من الذنوب الموجبة للهلاك.

قال سعدي المفتي[٢]: والظاهر أنه لا مانع من إبقاء الكلام على حقيقته فالآية مثل قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ إلخ؛ أي: يوبق سفائنهم بشؤم ما كسبوا ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ فلا يوبق أموالهم، انتهى. وإجراء حكمه على العفو، في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ لما أن المعنى: أو يرسلها فيوبق ناساً، وينجي آخرين، بطريق العفو.

وقرأ الأعمش[٣]: ﴿ويعفو﴾ بالواو، وعن أهل المدينة ﴿ويعفو﴾ بنصب

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

الواو، وقرأ الجمهور: ﴿وَيَعْفُ﴾: مجزوماً، عطفاً على ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾، فأما قراءة الأعمش، فإنه أخبر تعالى، أنه يعفو عن كثير؛ أي: لا يؤاخذ بجميع ما اكتسب الإنسان، فهو كلام مستأنف، وأما النصب، فبإضمار أن بعد الواو، كالنصب بعد الفاء في قراءة من قرأ ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ﴾، وبعد ﴿الواو﴾ في قول الشاعر:

فَإِنْ يَهْلِكْ أَبُو قَابُوسَ يَهْلِكْ رَبِيعُ ٱلنَّاسِ وَٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ
وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ أَجَبِّ ٱلظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنَامُ

رُوي بنصب (ونأخذ) ورفعه وجزمه، وفي هذه القراءة يكون العطف على مصدر متوهم؛ أي: يقع إيباق، وعفو عن كثير، وأما الجزم فإنه داخل في حكم جواب الشرط. إذ هو معطوف عليه. وهو راجع في المعنى إلى قراءة النصب، لكن هذا عطف فعل على فعل، وفي النصب عطف مصدر مقدر على مصدر متوهم.

والمعنى(١): أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف، فيغرق السفن بذنوب راكبيها، ولكنه يعفو عن كثير من ذنوبهم، ولو آخذهم بجميع ما يجترحون منها، لأهلك كل من ركب البحر.

والخلاصة: أنه لو شاء أسكن الريح. فوقفت السفن رواكد على ظهر البحر، ولو شاء لأرسلها عاتية قوية، فأخرتها عن سيرها، وصرفتها ذات اليمين، وذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق، ولا تصل إلى مقصد حتى تغرق، ولكن من رحمته ولطفه يرسلها بقدر الحاجة، لينتفع بها الملاحون لقضاء أوطارهم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ بالرفع. مستأنف على أنه جملة فعلية، ويكون الموصول فاعلاً. أو على أنه جملة اسمية، فيكون خبراً لمبتدأ محذوف، يعود على الله، ويكون الموصول مفعولاً؛ أي: وهو سبحانه يعلم الذين يجادلون إلخ. وهذه قراءة ظاهرة المعنى واضحة اللفظ، وبالنصب معطوف على تعليل مقدر

(١) المراغي.

للإغراق؛ أي: يغرقهم لينتقم منهم، ويعلم الذين يجادلون ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالتكذيب ويسعون في دفعها ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾؛ أي: من مهرب من عذاب الله، وجملة النفي سدت مسد مفعولي يعلم، والنفي معلق عن العمل، وبالجزم عطفاً على المجزوم قبله على معنى: وإن يشأ يجمع بين أمور ثلاثة: إهلاك قوم، ونجاة قوم، وتحذير آخرين؛ لأن قوله: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ إلخ يتضمن تحذيرهم من عقاب الله تعالى. وعلى هذه القراءة، فلا يوقف على كثير، بخلاف القراءتين الأوليين، فالوقف عليه تام. أما القراءة الأولى، أعني[1]: قراءة الرفع، فقرأ بها الأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وزيد بن علي، وأما الثانية أعني: قراءة النصب، فقرأ بها الجمهور، وأما القراءة الثالثة فشاذة.

والمعنى[2]: أي وليعلم الذين ينازعون في آياتنا على جهة التكذيب، لها أنه لا مخلص لهم، ولا مهرب إذا وقفت السفن، أو إذا عصفت الريح، فيكون ذلك سبباً لاعترافهم، بأن الإلٰه النافع الضار، ليس إلا الله سبحانه وتعالى.

والخلاصة: فكما لا مخلص لهم إذا وقفت، أو عصفت الرياح؛ كذا لا مهرب لهم من عذابه بعد البعث، فلا بد من الاعتراف بأن الضار والنافع ليس إلا الله، وأن كل أمر حدث فإنما هو بتأثيره.

ولما ذكر سبحانه دلائل التوحيد.. ذكر التنفير عن الدنيا، فقال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾؛ أي: أعطيتم أيها الناس ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ مما ترغبون فيه، وتتنافسون به، من الغنى، والسعة في الرزق، والمال، والبنين ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: فهو متاعها ومنفعتها، تتمتعون وتنتفعون به مدة حياتكم القليلة، فيزول ويفنى؛ ولله در القائل:

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا فَنَاءٌ ... لَيْسَ لِلدُّنْيَا ثُبُوتْ
إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَبَيْتٍ ... نَسَجَتْهُ ٱلْعَنْكَبُوتْ

وفي هذا، تحقير لشأن هذه الحياة، وزينتها، وما فيها من النعيم الزائل،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿فما﴾[1] موصولة، متضمنة لمعنى الشرط، من حيث إن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع به في الحياة الدنيا، ولذا دخلت الفاء في جوابها، وقدر المبتدأ لأن الجواب لا يكون إلا جملة. يعني: أن سببيته مقصود فيها الإعلام لتضمنها الترغيب في الشكر، بخلاف الثانية أعني: قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلخ، فإن المقصود فيها، بيان حال أن ما عند الله، سبب للخيرية والدوام، وقيل: إن ﴿ما﴾ شرطية، على أنها مفعول ثان لـ﴿أُوتِيتُم﴾ بمعنى أعطيتم، والأول هو ضمير المخاطبين، قائم مقام الفاعل، ومن شيء بيان لها، لما فيها من الإبهام.

ثم رغبهم في ثواب الآخرة، وما عند الله من النعيم المقيم فقال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ذاتاً، لخلوص نفعه من المكدرات ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ زماناً، حيث لا يزول ولا يفنى، بخلاف ما في الدنيا، أي: وما عند الله تعالى من ثواب الطاعات والجزاء عليها، والنعيم المقيم خير من زهرة الدنيا؛ لأنه باق سرمدي، وما في الدنيا زائل فانٍ، والعقل قاض بترجيح الباقي على الفاني، وفيه إشارة إلى أن الراحات في الدنيا لا تصفو، ومن الشوائب لا تخلو، وإن اتفق لبعضهم منها في الأحايين، فإنها سريعة الزوال وشيكة الارتحال، وما عند الله من الثواب الموعود، خير وأبقى من هذا القليل الموجود، بل ما عند الله من الألطاف الخفية والمقامات العلية، والمواهب السنية خير وأبقى مما في الدنيا والآخرة.

ثم بين سبحانه، أنه لا يكون خيراً إلا لمن اتصف بصفات:

١ ـ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تنازع فيه كل من خير، وأبقى؛ أي: ما عند الله تعالى خير، للذين صدقوا وحدانية الله، وآمنوا برسوله، وعملوا على ما يوجبه الإيمان.

٢ ـ ﴿و﴾ خير للذين ﴿على ربهم يتوكلون﴾؛ أي وخير للذين على من رباهم بإحسانه يعتمدون، وإليه يفوضون أمورهم. ولا يلتفتون إلى غيره في مهام أمورهم. رُوي: أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تصدق

---

(١) روح البيان.

بماله. فلامه المسلمون، وخطأه الكافرون.

٣ ـ ﴿و﴾ خير لـ﴿الذين يجتنبون﴾ ويبتعدون ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ وعظائم الذنب، كالقدف والشرب والسرقة والغيبة والنميمة ﴿و﴾ يبتعدون ﴿الفواحش﴾ التي ينكرها الشرع والعقل والطبع السليم، من قول أو فعل، اختص بصيغة الفحش، وهي فوق الكبائر، كالزنا واللواط، والموصول في محل الجر، معطوف[1] على الذين آمنوا عطف الصفة على الصفة؛ لأن الذات واحدة، والعطف إنما هو بين الصفات، والكبائر: جمع كبيرة، وهي ما أوجب الله عليه الحد في الدنيا. والعذاب في الآخرة، كالقدف والشرب والسرقة. والفواحش: جمع فاحشة، بمعنى قبيحة مفرطة في القبح، وهي ما اختص من الكبائر بصفة الفحش، فكأنها فوقها كالشرك، والقتل والزنا واللواط وعقوق الوالدين، فيكون عطف الفواحش على الكبائر، من عطف البعض على الكل، إيذاناً بكمال شناعته، وقيل: هما واحد، والعطف لتغاير الوصفين، وقرأ الجمهور ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ بالجمع هنا وفي النجم، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿كبير الإثم﴾ بالإفراد، وهو يفيد مفاد الكبائر، لأن الإضافة للجنس كاللام.

و﴿إذا﴾ في قوله:

٤ ـ ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ ظرفية مجردة عن معنى الشرط، متعلقة بيغفرون، و﴿ما﴾ زائدة، و﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَغۡفِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية هي المعطوفة على الصلة، وهي ﴿يَجۡتَنِبُونَ﴾ عطف اسمية على فعلية، والتقدير: والذين يجتنبون كبائر الإثم وهم يغفرون، لا أنها شرطية، والاسمية جوابها لخلوها عن الفاء الرابطة. والغضب: ثوران دم القلب إرادَة الانتقام، ولذلك قال عليه السلام: «اتقوا الغضب فإنه جمرة توقد في قلب ابن آدم. ألم تر إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه». والمغفرة هنا بمعنى العفو والتجاوز والحلم وكظم الغيظ، والمعنى والذين هم، يعفون ويتجاوزون ويحلمون ويكظمون الغيظ،

---

(١) روح البيان.

وقت غضبهم على أحد، ويتجرعون كاسات الغضب النفسانية، بأفواه القلوب الروحانية الربانية ويسكنون صورة الصفة الشيطانية، وفيه دلالة على أنهم الأخصاء بالمغفرة حال الغضب لعزة منالها، لا يزيل الغضب أخلاقهم، كسائر الناس، وذلك لأن تقديم الفاعل المعنوي، أو التقديم مطلقاً يفيد الاختصاص.

والخلاصة: أي[١] وإذا ما غضبوا كظموا غيظهم، إذ من سجاياهم الصفح والعفو، وليس من طباعهم الانتقام، وقد ثبت في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ، ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله.

وقوله:

٥ - ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾، أي: أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من توحيده. والبراءة من عبادة كل ما يعبد من دونه، معطوف[٢] على الموصول الأول عطف خاص على عام، لمزيد التشريف، وذلك لأن الاستجابة داخلة في الإيمان، قيل: نزلت الآية في الأنصار، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان، فاستجابوا له من صميم القلب، ولا يلزم منه أن تكون الآية مدنية، فإن كثيراً منهم أسلموا بمكة قبل الهجرة، وفيه إشارة إلى أن الاستجابة للرسول استجابة للمرسل.

وقوله:

٦ - ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة؛ أي: أدوها لمواقيتها بشروطها وأركانها وهيئاتها، معطوف على استجابوا، فهو من أوصاف الأنصار أيضاً، وخص الصلاة من بين أركان الدين، كالزكاة والصوم والحج لما لها من الخطر في صفاء النفوس، وتزكية القلوب، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولأنه[٣] ما بين العبد والإيمان إلا إقامة الصلاة كما أنه ما بينه وبين الكفر إلا ترك الصلاة، فإذا أقام الصلاة فقد آمن، وأقام الدين، كما أنه إذا تركها فقد كفر وهدم الدين، وفي

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

الحديث: «أول ما يحاسب العبد يوم القيامة بصلاته، فإن صلحت أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر».

وقوله:

٧ - ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ معطوف على الصلة. أعني: استجابوا عطف اسمية على فعلية. وشورى مصدر. كالفتيا بمعنى التشاور؛ أي: وأمرهم ذو تشاور بينهم لا ينفردون برأي، حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه.

قال سعدي المفتي: فإن قلت: لا حاجة إلى إضمار المضاف لظهور صحة: وشأنهم تشاور بينهم.

قلت: المصدر المضاف من صيغ العموم، فيكون المعنى: جميع أمورهم تشاور، ولا صحة له إلا أن يقصد المبالغة في كثرة ملابستهم به، وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله: ذو شورى لبيان حاصل المعنى انتهى.

وكانوا قبل الهجرة وبعدها إذا حزبهم أمر اجتمعوا وتشاوروا، وذلك من فرط تدبرهم وتفقههم في الأمور، وفي «عين المعاني»: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ حين[١] سمعوا بظهوره ﷺ، فاجتمع رأيهم في دار أبي أيوب، على الإيمان به والنصر له، وقيل: لها العموم؛ أي: لا يستبدون برأيهم فيما لا وحي فيه من أمر الدين، بل يشاورون الفقهاء، وقيل: في كل ما يعرض من الأمور، انتهى.

وقال علي رضي الله عنه: نعم الموازنة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد قال حكيم: اجعل سرك إلى واحد، ومشورتك إلى ألف، وقيل: من بدأ بالاستخارة وثني بالاستشارة لحقيق أن لا يضل رأيه، وقال الإسكندر: لا يستحقر الرأي الجزيل من الرجل الحقير، فإن الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها، يقال: أعقل الرجال لا يستغني عن مشاورة أولي الألباب، وأفره الدواب لا يستغني عن السوط، وأورع النساء لا يستغني عن الزوج.

وعن الحسن[٢]: ما تشاور قوم؛ إلا هدوا لأرشد أمرهم. وقال ابن

---

(١) عين المعاني. (٢) المراغي.

العربي: الشورى ألفة للجماعة، وصقال للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هدوا، ولأمرٍ ما أصبحت الحكومات في العصر الحاضر، لا تبتُّ في مهام الأمور، إلا إذا عرضت على مجالس الشورى ـ البرلمان، مجلس الشيوخ، والنواب ـ وكأني بك قد سمعت قول بشار بن برد في فوائد الشورى:

إِذَا بَلَغَ ٱلرَّأْيُ ٱلْمَشُوْرَةَ فَٱسْتَعِنْ ... بِرَأْيِ لَبِيْبٍ أَوْ مَشُوْرَةِ حَازِمِ
وَلاَ تَجْعَلِ ٱلشُّوْرَىٰ عَلَيْكَ غَضَاضَةً ... فَرِيْشُ ٱلْخَوَافِيْ قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ
وَمَا خَيْرُ كَفٍّ أَمْسَكَ ٱلْغِلُّ أُخْتَهَا ... وَمَا خَيْرُ كَفٍّ لَمْ تُؤَيَّدْ بِقَائِمِ

وقد كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الكثير من الأمور، ولم يكن يشاورهم في الأحكام؛ لأنها منزلة من عند الله تعالى. أما الصحابة فكانوا يتشاورون فيها، ويستنبطونها من الكتاب والسنة، وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة، فإن النبي ﷺ لم ينص عليها حتى انتهى أمرهم إلى أبي بكر، وتشاوروا في قتال من ارتدوا، بعد وفاة رسول الله ﷺ، فاستقر رأي أبي بكر على القتال، وقد كان فيه الخيرة للإسلام والمسلمين، وشاور عمر رضي الله عنه الهرمزان حين وفد. ونحو الآية قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾.

وقوله:

٨ ـ ﴿و﴾ الذين ﴿مما رزقناهم﴾ من الأموال ﴿يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير، ويتصدقون منه على المحاويج، معطوف على الصلة أيضاً، ولالتفات إلى إنفاق الكافر، فإنه لم يستجب لربه بالإيمان والطاعة، فخيره محبط بكفره.

ولعل[1] فصله عن قرينه بذكر المشاورة، لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات، كما في «الإرشاد». قال سعدي المفتي: ثم إن إدخال هذه الجملة يعني: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ بين خصال الإيمان، لعله لمزيد الاهتمام بشأن المشاورة، للمبادرة إلى التنبيه على أن استجابتهم للإيمان كانت عن بصيرة، ورأي سديد، انتهى.

---

(١) روح البيان.

ثم ذكر سبحانه وتعالى، الطائفة التي تنتصر ممن ظلمها، فقال:

٩ - ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾؛ أي: وصل إليهم الظلم ﴿يَنتَصِرُونَ﴾؛ أي: ينتقمون ممن ظلمهم معطوف على الموصول الأول.

والمعنى: إذا وصل إليهم الظلم، والتعدي من ظالم متعد، ينتقمون ويقتصون ممن بغىٰ عليهم، على الوجه الذي جعله الله، ورخصه لهم، لا يتجاوزون ذلك الحد المعين، وهو رعاية المماثلة، وأما غيرهم فليسوا كذلك، فهذا هو معنى التخصيص هنا، وقد ذكر[١] سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح، كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح؛ لأن التذلل لمن بغىٰ، ليس من صفات من جعل الله له العزة، حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالانتصار عند البغي فضيلة، كما أن العفو عند الغضب فضيلة. وقال في «الروح»: وهذا وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم، بسائر أمهات الفضائل، من الدين والتيقظ، والحلم والسخاء. وذلك لأن البغي إنما يصيبهم من أهل الشوكة والغلبة، فإذا انتقموا منهم على الحد المشروع، كراهة التذلل، باجتراء الفساق عليهم، وردعاً للجاني عن الجراءة على الضعفاء، فقد ثبت شجاعتهم وصلابتهم في دين الله، وكان النخعي رحمه الله تعالى، إذا قرأ هذه الآية يقول: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم، فتجترىء عليهم السفهاء. قال الشاعر:

وَلاَ يُقِيْمُ عَلَىٰ ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ ... إِلاَّ ٱلأَذَلاَّنِ عِيْرُ ٱلْحَيِّ وَٱلْوَتَدُ
هَذَا عَلَىٰ ٱلْخَسْفِ مَرْبُوْطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِيْ لَهُ أَحَدُ

أي: لا يصبر على ظلم يراد في حقه، إلا الأذلان هما في غاية الذل، وهما الحمار المربوط على الذل، بقطعة حبل بالية، والوتد الذي يدق ويشق رأسه، فلا يرحم له أحد. ولفظ البيت خبر، والمعنى: نهي عن الصبر على الظلم، وتحذير وتنفير للسامعين عنه.

واعلم[٢]: أن المؤمنين فريقان:

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أ ـ فريق يعفو اتباعاً، لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

ب ـ فريق ينتصر ممن ظلمه، وهو المذكور في هذه الآية.

والخلاصة: أن العفو ضربان:

١ ـ ضرب يكون فيه العفو سبباً لتسكين الفتنة، وتهدئة النفوس، ومنع استفحال الشر، وهذا محمود، وحثت عليه الآيات الكريمة، التي ذكرت آنفاً.

٢ ـ ضرب يكون فيه العفو سبباً لجراءة الظالم، وتماديه في غيه، وهذا مذموم، وعليه تحمل الآية، التي نحن بصدد تفسيرها، فالعفو عن العاجز المعترف بجرمه محمود، والانتصار من المخاصم المصر على جرمه، والمتمادي في غيه محمود، وإلى هذا أشار المتنبي:

إذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ ٱلْكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ ... وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ ٱللَّئِيْمَ تَمَرَّدَا

فَوَضْعُ ٱلنَّدَىٰ فِي مَوْضِعِ ٱلسَّيْفِ بِٱلعُلاَ ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ ٱلسَّيْفِ فِي مَوْضِعِ ٱلنَّدَىٰ

الإعراب

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿لَطِيفٌۢ﴾ خبر. ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ متعلق: بـ﴿لَطِيفٌۢ﴾ والجملة مستأنفة، وجملة ﴿يَرْزُقُ﴾: خبر ثان. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به لـ﴿يَرْزُقُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلتها، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿هو القوي﴾: مبتدأ وخبر ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ خبر ثان، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير مستتر يعود على ﴿مَن﴾، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾: خبرها،

﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾: مفعول يريد. ﴿نَزِدْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه جواب الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿نَزِدْ﴾، ﴿فِى حَرْثِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿نَزِدْ﴾ أيضاً، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية، مستأنفة، مسوقة لبيان الفرق بين عملي العاملين، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، ﴿كَانَ﴾: فعل شرط لها. وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾: مفعول ﴿يُرِيدُ﴾، ﴿نُؤْتِهِۦ﴾ جواب الشرط ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ﴿نُؤْتِهِۦ﴾، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة من الأولى، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية ﴿مَا﴾: نافية، أو حجازية عند من يجيز تقدم خبرها على اسمها، ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ حال، ﴿مِن﴾ حرف جر زائد، ﴿نَّصِيبٍ﴾ مبتدأ مؤخر، أو اسم ﴿ما﴾ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة من الشرطية، أو حال من ضمير المفعول في ﴿نُؤْتِهِۦ﴾، أي: نؤته منها حال كونه عادم النصيب في الآخرة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام التوبيخي. ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿شُرَكَٰٓؤُا۟﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿شَرَعُوا۟﴾ صفة لـ﴿شُرَكَٰٓؤُا۟﴾، ﴿لَهُم﴾ متعلق بـ﴿شَرَعُوا۟﴾، ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾: حال من ﴿مَا﴾ الموصولة، المذكورة بعده، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول ﴿شَرَعُوا۟﴾، وجملة ﴿لَمْ يَأْذَنۢ﴾ صلة لما الموصولة ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿يَأْذَنۢ﴾، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، ﴿وَلَوْلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، و﴿كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف وجوباً والجملة الاسمية شرط لـ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَقُضِىَ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾، ﴿قضي﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرف في محل الرفع، نائب فاعل لقضي، وجملة ﴿قضي﴾ جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب شرط غير جازم، وجملة ﴿لولا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إن الظالمين﴾: ناصب

واسمه ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، وجملة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿تَرَى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على أي مخاطب، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول به؛ لأن رأى بصرية، والجملة مستأنفة. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ حال من الظالمين، ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ﴿مُشْفِقِينَ﴾، وجملة ﴿كَسَبُواْ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: مما كسبوه، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ﴾: ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هو واقع﴾: مبتدأ وخبر ﴿بِهِمْۗ﴾: متعلق بـ﴿وَاقِعٌۢ﴾، والجملة حال من العائد المحذوف، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الذين﴾، مبتدأ، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم، ﴿مَّا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، أو حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، وجملة ﴿يَشَآءُونَ﴾: صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بالاستقرار العامل في لهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ خبر ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ صفة لـ﴿ٱلْفَضْلُ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلَّذِى﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿عِبَادَهُ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يبشر الله به عباده، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للعباد، ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول،

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ﴾: نافية، ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول أول، ﴿عَلَيْهِ﴾: حال من ﴿أَجْرًا﴾. و﴿أَجْرًا﴾ مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿ٱلْمَوَدَّةَ﴾: منصوب على الاستثناء، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً؛ أي: لا أسألكم عليه أجراً إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي، ويجوز أن يكون منقطعاً؛ أي: لا أسألكم أجراً مالياً، ولكني أسألكم أن تودوا أهل قرابتي، الذين هم قرابتكم، ﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: متعلق بـ﴿ٱلْمَوَدَّةَ﴾، أو حال منها، ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما، ﴿يَقْتَرِفْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿حَسَنَةً﴾: مفعول به، ﴿نَّزِدْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿نَّزِدْ﴾، ﴿فِيهَا﴾: حال من ﴿حُسْنًا﴾، و﴿حُسْنًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُل﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ﴾: خبران له، وجملة إن مستأنفة. مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة، بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام التقريري. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على محمد ﷺ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول القول. ﴿فَإِن يَشَإِ﴾: الفاء: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَشَإِ ٱللَّهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿يَخْتِمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿إن﴾

على كونه جواب الشرط. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: متعلق بـ﴿يَخْتِمْ﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يمح﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو المحذوفة لفظاً، لالتقاء الساكنين، المحذوفة خطاً، تبعاً للفظ، منع من ظهورها الثقل، ولفظ الجلالة فاعل، والجملة مستأنفة غير داخلة في جواب الشرط؛ لأنه تعالى يمحو الباطل مطلقاً. ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾: مفعول به، ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿يحق﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبره. ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌۢ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبره، ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، صلة الموصول، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان قبول التوبة. ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَقْبَلُ﴾. ﴿وَيَعْفُوا۟﴾: معطوف على يقبل، ﴿عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: متعلق به. ﴿وَيَعْلَمُ﴾: معطوف على ﴿يَقْبَلُ﴾ أيضاً، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَفْعَلُونَ﴾: صلة الموصول.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يستجيب﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يَقْبَلُ﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب بنزع الخافض؛ أي: ويستجيب للذين آمنوا دعاءهم، فحذف الجار، كما حذف في قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾؛ أي: كالوا لهم، وأجاز «السمين» أن يكون اسم الموصول فاعلاً، والجملة مستأنفة، والسين والتاء زائدتان؛ أي: يجيبون ربهم إذا دعاهم إلى طاعته، ويجوز أن يكون الموصول مفعولاً به، بعد أن تقررت زيادة السين والتاء؛ أي: يجيب الله الذين آمنوا، والأول أقوم، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿وَيَزِيدُهُم﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، معطوف على ﴿يستجيب﴾، ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يزيدهم﴾، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾: مبتدأ، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ

مؤخر، ﴿شَدِيدٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية خبر لـ﴿الكافرون﴾، وجملة ﴿الكافرون﴾ مستأنفة.

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾: متعلق ببسط، ﴿لَبَغَوْا۟﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿بغوا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾: الشرطية مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل، ﴿يُنَزِّلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿بِقَدَرٍ﴾: حال من ﴿ما﴾ الموصولة، المذكورة بعده. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول ﴿يُنَزِّلُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلته. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌۢ﴾، و﴿خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾: خبران لـ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾: فعل وفاعل مستتر. ومفعول به، والجملة صلة الموصول ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُنَزِّلُ﴾. ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿قَنَطُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة ما المصدرية، وهي مع مدخولها في تأويل مصدر، مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من بعد قنوطهم، ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هو الولي﴾: مبتدأ وخبر، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿ينشر﴾ و﴿يُنَزِّلُ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَمِنْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من آياته﴾: خبر مقدم. ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان بعض الأدلة على توحيده وقدرته تعالى. ﴿وَمَا﴾: في محل رفع، معطوف على ﴿خَلْقُ﴾، أو في محل جر، معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهذا الأخير أرجح، لسلامته من التقدير، إذ لا بد من تقدير مضاف على الأول؛ أي: خلق ما بث، و﴿بَثَّ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿فِيهِمَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: وما بثه فيهما، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: حال من العائد المحذوف. ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾ حالية. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿جَمْعِهِمْ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: في محل جر بإضافة الظرف إليه. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿بَثَّ﴾.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿أَصَٰبَكُم﴾: فعل ومفعول به، في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على ﴿ما﴾، ﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾: حال من فاعل ﴿أَصَٰبَكُم﴾، ﴿فَبِمَا﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية وجوباً، ﴿بما﴾: جار ومجرور، متعلق بواجب الحذف، لوقوعه خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: فذلك كائن بما كسبت أيديكم، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماض، ﴿أَيْدِيكُمْ﴾: فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: فبما كسبته أيديكم، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ موصولة، والفاء: داخلة في الخبر، تشبيهاً للموصول بالشرط. ﴿وَيَعْفُواْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿يعفو﴾: فعل مضارع،

وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿عَن كَثِيرٍ﴾: متعلق بـ﴿يعفو﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ما﴾ الشرطية، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: حجازية. ﴿أَنتُم﴾: اسمها، ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: الباء زائدة، معجزين خبر لـ﴿ما﴾، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾. أو حال من الضمير المستكن في ﴿معجزين﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾: نافية، أو حجازية ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿وَلِيٍّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخر، أو اسم ما مؤخر، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾: معطوف عليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿ما﴾ الأولى.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿من آياته﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْجَوَارِ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لفظاً وخطاً. أو خطاً فقط، ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾: حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، أو متعلق بالجوار، ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: حال ثانية على الوجه الأول، وعلى الوجه الثاني هي حال من الضمير في ﴿ٱلْجَوَارِ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿يَشَأْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿يُسْكِنِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه جواب شرط لها، ﴿ٱلرِّيحَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾: الفاء عاطفة، ﴿يظللن﴾: فعل مضارع ناقص، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، لكونه معطوفاً على ﴿يُسْكِنِ﴾، مبني على السكون، لاتصاله بنون النسوة، ونون النسوة في محل الرفع اسمها؛ لأنه من ظل الناقصة. ﴿رَوَاكِدَ﴾: خبرها. ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿رَوَاكِدَ﴾. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿آيات﴾: اسمها مؤخر. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، صفة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾، ﴿شَكُورٍ﴾: صفة

﴿صَبَّارٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾: فعل مضارع، معطوف على ﴿يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾؛ أي: يفرقهن بعصف الريح عليهن، قال الزمخشري: فإن قلت: علام عطف يوبقهن، قلت: على ﴿يُسْكِنِ﴾؛ لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح، فيركدن على ظهره، أو يعصفها فيفرقن بعصفها، أو بطروء خلل على أجهزتها، ﴿بِمَآ﴾: متعلق بـ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾، و﴿ما﴾ إما موصولة أو مصدرية، والباء للسببية؛ أي: بسبب ما كسبوه من الذنوب، أو بسبب كسبهم، وجملة ﴿كَسَبُوا۟﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: بما كسبوه، أو صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿وَيَعْفُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يُسْكِنِ﴾ أيضاً، مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة ﴿عَن كَثِيرٍ﴾: متعلق بـ﴿يعف﴾، والمعنى: أو إن يشأ يهلك ناساً، وينج ناساً، على طريق العفو عنهم. ﴿وَيَعْلَمَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿يعلم﴾: فعل مضارع، معطوف على تعليل مقدر تقديره: يفرقهم لينتقم منهم ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ وللمعطوف حكم المعطوف عليه، تبعه بالنصب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل. ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾، وقرىء ﴿يعلم﴾: بالرفع على الاستئناف، على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: وهو سبحانه يعلم الذين، ويكون الموصول مفعولاً به، والفاعل ضمير يعود على المبتدأ المحذوف، وتكون الجملة اسمية، أو على أن الفاعل هو الموصول، وتكون الجملة فعلية، وقرىء بالجزم عطفاً على الجواب السابق، كأنه قال: وإن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور: هلاك قوم، ونجاة آخرين، وتحذير آخرين. ﴿مَا﴾: نافية أو حجازية. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿مَّحِيصٍ﴾: مبتدأ مؤخر، أو اسم ما مؤخر. وجملة النفي، سدت مسد مفعولي يعلم المعلقة بالنفي عن العمل.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

﴿يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَمَآ﴾: الفاء: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم، في محل النصب، مفعول ثان مقدم لـ﴿أُوتِيتُم﴾. ﴿أُوتِيتُم﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل، في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، والمفعول الأول، هو ضمير المخاطبين، ﴿مِن شَىْءٍ﴾ بيان لـ﴿ما﴾، متعلق بمحذوف حال من ﴿ما﴾، ﴿فَمَتَٰعُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط ﴿متاع﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: فهو متاع الحياة الدنيا. ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ما﴾ الشرطية، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أبقى﴾ أو بـ﴿خَيْرٌ﴾ على الخلاف المذكور في محله، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَعَلَىٰ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿على ربهم﴾ متعلق بـ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، و﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ على كونه صلة الموصول.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل الجر معطوف على ﴿لِلَّذِينَ﴾، وجملة ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾: صلة الموصول. و﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾: معطوف على ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿يَغْفِرُونَ﴾، ﴿مَا﴾: زائدة، ﴿غَضِبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَغْفِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ على كونها صلة الموصول، عطف اسمية على فعلية، والتقدير: والذين يجتنبون كبائر الإثم، وهم غافرون وقت

غضبهم، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول، وجملة ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾ صلة له. ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾، ﴿وَأَمۡرُهُمۡ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أمرهم﴾: مبتدأ، ﴿شُورَىٰ﴾: خبر. ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: ظرف متعلق بـ﴿شُورَىٰ﴾؛ لأنه مصدر. كالرجعى والبشرى، أو صفة لـ﴿شُورَىٰ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾، ﴿وَمِمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مما﴾ متعلق بـ﴿يُنفِقُونَ﴾، ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾: فعل وفاعل، ومفعول، صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما رزقناهموه ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول أيضاً. ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿يَنتَصِرُونَ﴾، ﴿أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إِذَآ﴾. ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَنتَصِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية صلة الموصول، والتقدير: والذين هم منتصرون وقت إصابة البغي إياهم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال أبو علي رحمه الله: معنى اللطيف هو الذي ينشر من عباده المناقب، ويستر عليهم المثالب، وعلى هذا قول النبي ﷺ: «يا من أظهر الجميل وستر القبيح». وقيل: هو الذي يقبل القليل، ويبذل الجزيل، وقيل: هو الذي يجبر الكسير وييسر العسير، وقيل: هو الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله، وقيل: هو الذي يعين على الخدمة، ويكثر المدحة، وقيل: هو الذي لا يعاجل من عصاه، ولا يخيب من رجاه، وقيل: هو الذي لا يرد سائله، ولا يؤيس آمله، وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو، وقيل: هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه، وقد ذكرنا هذه المعاني في «الكتاب الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى»، عند اسمه اللطيف، ولله الحمد، اهـ. وقيل: هو العالم بخفيات الأمور، وقيل: هو معطي الإحسان في صورة الامتحان. كإعطاء يوسف الصديق، الملك في صورة الابتلاء برقه، لأنه من اللطف، وهو إيصال النفع على وجه فيه دقة، كما ذكرناه في كتابنا: «هدية الأذكياء في شرح طيبة الأسماء».

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ﴾ من القوة، والقوة في الأصل: صلابة البنية وشدتها المضادة للضعف، وهي محالة على الله سبحانه وتعالى، فهي في حقه تعالى بمعنى القدرة، لكونها مسببة عن القوة، فمعنى القوي: هو ذو القدرة التامة، التي يوجد بها كل شيء من الكائنات، ويعدمه على طبق مراده، كما ذكرناه في كتابنا المذكور.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ والحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض، ويطلق على الزرع الحاصل منه، ويستعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها، بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال، الحاصلة من البذور، المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور، اهـ «أبو السعود». من حيث إنها فائدة تحصل بعمل الدنيا.

﴿نَزِدْ لَهُۥ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين، أصله: نزيد فعل مضارع جزم لوقوعه جواب الشرط. فلما سكن آخره التقى ساكنان، فحذفت الياء بعد نقل حركتها إلى الزاي، فصار وزنه نفل. ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ وزنه نفعه لحذف لامه، لمناسبة جزم الفعل، الواقع جواباً للشرط.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾؛ أي: في الكفر، وهم الشياطين. ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم﴾؛ أي: زينوا لهم. ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا فحسب. ﴿كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ هي القضاء، والحكم السابق منه بالنظرة إلى يوم القيامة. ﴿فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ جمع روضة، والروضة: مستنقع الماء والخضرة، وروضات الجنات أطيب بقاعها وأنزهها. ﴿يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ والبشارة الإخبار بحصول ما يسر في المستقبل. ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ المودة: مودة الرسول ﷺ. والقربى: مصدر، كالزلفى بمعنى القرابة التي هي بمعنى الرحم.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قال الراغب: أصل القرف والاقتراف: قشر اللحاء عن الشجرة والجليدة عن الجذع، وما يؤخذ منه قرف، واستعير الاقتراف للاكتساب حسنياً كان أو سوئياً، وفي الإساءة أكثر استعمالاً، ولهذا يقال: الاعتراف يزيل الاقتراف. ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ والفرق بين الافتراء والكذب: أن الافتراء هو افتعال الكذب من قول نفسه، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وزنه يفع، حذفت منه الواو في رسم المصحف لغير داع، ولا يصح عطفه على ﴿يَخْتِمْ﴾؛ لأن الباطل ممحو لا محالة، فالمشيئة تتعلق بمحوه لا محالة، ولهذا الحذف نظائر في المصحف، كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ الإسراء، وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ القمر. وقوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ العلق. وقوله: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التحريم.

قوله: ﴿لَبَغَوْا۟﴾ أصله: لبغيوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان، فحذفت الألف. ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ أصله: أصوبكم بوزن أفعل، نقلت حركة الواو إلى الصاد، ثم قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال. ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ أصله: مصوبة بوزن مفعلة، نقلت حركة الواو إلى الصاد، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مدّ.

﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ أصله: يعفو، بوزن يفعل، سكنت ﴿الواو﴾ لوقوعها متطرفة إثر ضمة. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال أهل اللغة: أعجزته: أي: صيرته عاجزاً، وأعجزته فيه سبقته. ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن، وهي بحذف الياء في الخط؛ لأنها من ياءات الزوائد، وبإثباتها وحذفها في اللفظ في كل من الوصل والوقف، وقد قرىء بها جميعها. قال أبو حيان: جمع جارية، وهي صفة جرت مجرى الأسماء، فوليت العوامل.

وقال الشهاب الحلبي: فإن قلت: الصفة متى لم تكن خاصة بموصوفها، امتنع حذف الموصوف، فلا تقول: مررت بماش؛ لأن المشي عام، وتقول: مررت بمهندس وكاتب، والجري ليس من الصفات الخاصة بالموصوف، وهو السفن، فلا يجوز حذفه.

والجواب: أن محل الامتناع إذا لم تجر الصفة مجرى الجوامد، بأن تغلب عليها الاسمية، كالأبطح والأبرق، وإلا جاز حذف الموصوف، وعلى هذا فقوله: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ حالان، انتهى. وإلى هذا يشير صنيع الجلال، حيث فسر الجوار بالسفن فقط، ولم يفسرها بالسفن الجارية، ففيه إشارة إلى أن المراد

بالجواري ذاتُ السفن، لا مع وصف الجري. ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ جمع عَلَم بفتحتين، كسبب وأسباب، وهو الجبل، وكل مرتفع. قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِيْ رَأْسِهِ نَارُ

﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ من ظل، بمعنى صار. ﴿رَوَاكِدَ﴾؛ أي: ثوابت لا تجري، يقال: ركدت السفينة إذا سكنت وثبتت، وركد الماء ركوداً من باب قعد، وسكن، والشمس إذا قامت مقام الظهيرة، وكل ثابت في مكان فهو راكد، وركد الميزان استوى، وركد القوم هدؤوا، والمراكد: المواضع التي يركد فيها الإنسان وغيره اهـ «قرطبي». ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهنّ يقال: وبق يبق مثل: وعد يعد، ووبق يبق من باب تعب يتعب وبقاً، بسكون الباء ووبق يوبق وبقاً، بفتح الباء ووبوقاً وموبقاً، واستوبق هلك، فهو وبق، وأوبقه إيباقاً، أهلكه وذلله وحبسه. ﴿مَّحِيصٍ﴾ أصله: محيص بوزن مفعل، اسم مكان، نقلت حركة الياء إلى الحاء، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد.

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ والإثم الذنب، والكبائر جمع كبيرة، والهمزة فيه مبدلة من الياء الموجودة في المفرد، لوقوعها حرف مد ثالثاً، زائداً في اسم مؤنث ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ جمع فاحشة، وهي القبيحة، أو المفرطة في القبح، قال في «القاموس»: الفاحشة الزنا، وما يشتد قبحه من الذنوب، فيكون عطف الفواحش على الكبائر من عطف البعض على الكل، إيذاناً بكمال شناعته، وقيل: هما واحد، والعطف لتغاير الوصفين، كأنه قيل: يجتنبون المعاصي، وهي عظيمة عند الله تعالى في الوزن، وقبيحة في العقل والشرع.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ والغضب: ثوران دم القلب إرادة الانتقام، والمغفرة هنا بمعنى: العفو والتجاوز والحلم وكظم الغيظ.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ مصدر كالفتيا، بمعنى التشاور، وأصله: من الشور: وهو الإخراج، سميت المشاورة به، لأن كل واحد من المتشاورين في الأمر، يستخرج من صاحبه ما عنده.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاكتفاء في قوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: ويحرم من يشاء.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ حيث شبه ما يعمله العامل من العمل الصالح بالحرث، الذي هو إلقاء البذر في الأرض، أو الزرع الحاصل منه، ثم حذف المشبه، وهو العمل الصالح، وأبقي المشبه به، وهو الحرث، للدلالة على نتائج الأعمال وثمراتها، وشبه بالزرع، من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا، ولذلك قيل: الدنيا مزرعة الآخرة.

ومنها: الطباق بين ﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ و﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾.

ومنها: المشاكلة أو التهكم في قوله: ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾؛ لأن ذكر الدين للمشاكلة؛ لأنه في مقابلة دين الله تعالى، أو للتهكم بهم.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿شَرَعُوا۟﴾ حيث أسند التشريع إلى الشركاء التي هي الأصنام، مع كونها بمعزل عن الفاعلية، فهو من قبيل إسناد الفعل إلى السبب؛ لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تسجيلاً عليهم بالظلم، ودلالة على أن العذاب الأليم، الذي لا يكتنه كنهه، إنما يلحقهم بسبب ظلمهم وإنهماكهم فيه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: إلا المحبة لأهل قرابتي حيث أطلق الحال، وهو القرابة، وأراد المحل، وهو أهلها فقد جعلوا مكاناً ومقراً لها.

ومنها: الطباق بين ﴿يمحُ﴾ و﴿يحق﴾ وبين ﴿ٱلْحَقَّ﴾ و﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ في قوله

تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ﴾ حيث أثبت الإشفاق في الظالمين، أولاً: دليلاً على حذف الأمن، ثانياً: في الذين آمنوا، وأثبت الجنات ثانياً في الذين آمنوا، دليلاً على حذف النيران أولاً في الظالمين.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية، في قوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾؛ لأن الاقتراف حقيقة في قشر اللحاء عن الشجرة، والجليدة عن الجذع، فاستعير للاكتساب مطلقاً، حسناً كان أو سوءاً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في شكور، من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ حيث شبهت الإثابة والتفضل بالشكر، الذي هو فعل ينبيء عن تعظيم المنعم لكونه منعماً، لامتناع أن ينعم عليه تعالى أحد حتى يقابل بالشكر؛ أي: شبهت الإثابة بالشكر، من حيث إن كل واحد منهما يتضمن الاعتداد بفعل الغير، وإكراماً لأجله، فاستعير اسم المشبه به الذي هو الشكر، للمشبه الذي هو الإثابة، ثم اشتق من الشكر، بمعنى الإثابة شكور، بمعنى: مثيب على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ دلالة على الاستمرار.

ومنها: صحة التفسير، في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ وهو أن يأتي المتكلم في أول كلامه بمعنى، لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه، لكونه مجملاً يحتاج إلى بيان المراد منه، وقد يكون بيانه بعد الجار والمجرور، كما في هذه الآية، وقد جاءت صحة التفسير فيها مؤذنة بمجيء الرجاء بعد اليأس، والفرج بعد الشدة، والمسرة بعد الحزن، ليكون ذلك أحلى موقعاً في القلوب.

ومنها: عطف العام على الخاص، في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ فالغيث خاص، والرحمة عام.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية، في قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: يثيبهم على أعمالهم؛ لأن الإجابة مجاز عن الإثابة؛ لأن الطاعة لما شبهت بدعاء ما يترتب عليها من الثواب، كانت الإثابة عليها بمنزلة إجابة الدعاء، فعبر بها عنها.

ومنها: إطلاق اسم المسبب، وهو الدابة على السبب، في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾ فإن الدبيب مجاز أريد به سببه، وهو الحياة، فتكون الدابة بمعنى الحي، فتتناول الملائكة أيضاً كما مر. وقيل: إنه من نسبة الشيء إلى الكل مراداً به البعض؛ لأن الدابة إنما تكون في الأرض، والمراد بضمير التثنية: الأرض فقط، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ وإنما يخرجان من البحر الملح لا العذب.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل، في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: كالجبال في الضخامة والعظم.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: عظيم الصبر كبير الشكر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] مدح فيما سلف الذين ينتصرون لأنفسهم، ممن بغى عليهم.. أردف ذلك بما يدل على أن ذلك الانتصار، مقيد بالمثل؛ لأن النقصان حيف، والزيادة ظلم، والتساوي هو العدل الذي قامت به السموات والأرض، ثم

---

(١) المراغي.

ندب إلى العفو والإغضاء من الزلات، ثم ذكر أنه لا مؤاخذة على من ينتصر لنفسه، وإنما المؤاخذة على من يظلم الناس، ويبغي في الأرض بغير الحق، وأن الصبر وغفران السيئة مما حث عليه الدين، وأجزل ثواب فاعله.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله لما ذكر أن الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، لهم عذاب أليم على ما اجترحوا من البغي، والعدوان بغير الحق.. أردف ذلك ببيان أن من أضله فلا هادي له، وأن الكافرين حين يرون العذاب يوم القيامة، يطلبون الرجوع إلى الدنيا، وأنهم يعرضون على النار، وهم خاشعون أذلاء، ينظرون من طرف خفي، وأن الذين آمنوا يقولون: إن الكافرين لفي خسران مبين، فقد أضاعوا النفس والأهل، ولا يجدون لهم، ناصراً يخلصهم مما هم فيه من العذاب.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر ما سيكون يوم القيامة، من الأهوال وعظائم الأمور، حذر من هذا اليوم. فبين أن الكافرين لا يجدون حينئذٍ ملجأ يقيهم من عذاب الله تعالى، ولا ينكرون ما اقترفوه؛ لأنه مكتوب في صحائف أعمالهم. ثم أرشد رسوله إلى أنهم إن أعرضوا عن دعوتك، فلا تأبه بهم، ولا تهتم بشأنهم. ثم أعقب هذا بذكر طبيعة الإنسان، وأنه يفرح حين النعمة، ويجحد نعم ربه حين الشدة، ثم قسم هبته لعباده في النسل أربعة أقسام: فمنهم من وهب الإناث، ومنهم من وهب الذكران، ومنهم من أعطي الصنفين ومنهم العقيم الذي لا نسل له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر تقسيم النعم الجسمانية التي يهبها لعباده.. أردفها تقسيم النعم الروحية، وأن الناس محجوبون عن

---

(١) المراغي.

ربهم؛ لأنهم في عالم المادة، وهو منزه عنها، ولكن من رق حجابه وخلصت نفسه، وأصبح في مقدوره أن يتصل بالملأ الأعلى.. يستطيع أن يكلم ربه على أحد أوجه ثلاثة:

١ ـ أن يحس بمعان تلقى في قلبه، أو يرى رؤياً منامية، كرؤيا الخليل إبراهيم عليه السلام ذبح ولده.

٢ ـ أن يسمع كلاماً من وراء حجاب، كما سمع موسى عليه السلام، من غير أن يبصر من يكلمه، فهو قد سمع كلاماً، ولم ير المتكلم.

٣ ـ أن يرسل إليه ملكاً، فيوحي ذلك الملك ما يشاء إلى النبي ﷺ، ثم ذكر أنه كما أوحى إلى الأنبياء قبله، أوحى إليه القرآن، وما كان قبله يعلم ما القرآن، وما الشرائع التي بها هداية البشر، وصلاحهم في الدارين.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ﴾؛ أي: جناية ﴿سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: جناية ﴿مِّثۡلُهَاۖ﴾؛ أي: مماثلة للأولى في الكم والكيف، بيان لوجه كون الانتصار من الخصال الحميدة، مع كونه في نفسه إساءة إلى الغير، بالإشارة إلى أن البادىء هو الذي فعله لنفسه، فإن الأفعال مستتبعة لأجزيتها حتماً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌ، وفيه تنبيه على حرمة التعدي.

والمعنى: أي وجزاء سيئة المسيء، عقوبته بما شرعه الله من عقوبة مماثلة لجرمه. وإطلاق(١) السيئة على الثانية، مع أنها جزاء مشروع مأذون فيه، وكل مأذون حسن لا سيء، لأنها تسوء من نزلت به، كما في آية أخرى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾، يريد ما يسؤهم من المصائب والبلايا، أو للمشاكلة، لتشابههما في الصورة. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ﴾ وعلى هذا فالسيئة مقابل الحسنة، بخلافها في الوجه الأول.

---

(١) روح البيان.

والخلاصة: أنه يجب، إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة، قال الحسن: إذا قال: لعنك الله، أو أخزاك الله، فلك أن تقول: أخزاك الله، أو لعنك الله، وإذا شتمك فلك أن تشتمه بما شتم ما لم يكن فيه حد، كلفظ الزنا، أو كلمة لا تصلح، فلا تجري المقابلة في الكذب والبهتان، قال في «التنوير»: لو قال لآخر: يا زاني، فقال له الآخر: لا بل أنت الزاني، حدا بخلاف ما لو قال له: مثلاً يا خبيث، فقال: أنت، تكافئا، ولو لم يجب، بل رفع الأمر إلى القاضي ليؤدبه جاز، وظاهر الآية العموم. وقال مقاتل والشافعي وأبو حنيفة وسفيان: إن هذا خاص بالمجروح، ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره.

وفي الآية حث على العفو؛ لأن الانتصار إنما يحمد إذا حصلت المماثلة في الجزاء، وتقديرها عسر شاق، وربما صار المظلوم حين استيفاء القصاص ظالماً.

ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

وقد أمر ﷺ برد الشتم على الشاتم، أخرج النسائي وابن ماجه وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت علي زينب وعندي رسول الله ﷺ، فأقبلت علي تسبني، فردعها النبي ﷺ، فلم تنته، فقال لي: «سبيها»، فسببتها حتى جف ريقها في فمها، ووجه رسول الله ﷺ يتهلل سروراً. وكان هذا بمنزلة التعزيز منه لزينب، بلسان عائشة، لما أن لها حقاً في الرد، وقد رأى فيه المصلحة.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستبان ما قالا من شيء فعلى البادىء حتى يعتدي المظلوم»، ثم قرأ: «﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾».

وقصارى ذلك[1]: أن كل جناية على النفس، أو المال، تقابل بمثلها

---

(١) المراغي.

قصاصاً؛ لأن إهدارها يوجب فتح باب الشرور والمفاسد، إذ في طبع الإنسان الظلم والبغي والعدوان، فإذا لم يزدجر عنه تمادى فيه ولم يتركه، والزيادة على قدر الذنب ظلم، والشرائع تنزه عن ذلك، ومن ثم شرع الله القصاص، وندب إلى الفضل، وهو العفو، فقال: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾.

وعن بعض الفقهاء في هذه الآية[1]: وقد قيل: إنه الشافعي رحمه الله تعالى: أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه، مثل ما خانه من غير علمه، واستشهد على ذلك بقول النبي ﷺ لهند، زوجة أبي سفيان: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك»، فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه، كذا ذكره القرطبي في «تفسيره».

وجاء تتمة لهذه الآية، قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن المسيء إليه جنايته؛ أي: ترك القصاص وسامح له ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ما بينه وبين من يعاديه، بالعفو والإغضاء عما صدر منه، قال في «الحواشي السعدية»: الفاء للإفصاح؛ أي: إذا كان الواجب في الجزاء رعاية المماثلة من غير زيادة، وهي عسرة جداً، وأردتم بيان ما هو الأولى، فأقول: الأولى العفو، والإصلاح، إذا كان قابلاً للإصلاح بأن لم يصر على البغي. وفي الحديث: «ما زاد الله العبد بالعفو إلا عزاً».

﴿فَأَجْرُهُۥ﴾؛ أي: فأجر عفوه وإصلاحه حق واجب ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، بطريق وعده المحتوم، فيجزيه أعظم الجزاء، وهذه عدة منبئة عن عظمة شأن الموعود، وخروجه عن الحد المعهود، وفي إبهام[2] الأجر وجعله حقاً على العظيم الكريم جل شأنه، زيادة في الترغيب في العفو والحث عليه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، أمر الله منادياً ينادي: ألا، ليقم من كان له على الله أجر، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا وذلك قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا...﴾» الآية.

ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته، التي هي سبب الفوز والنجاة،

---

(1) روح البيان. (2) المراغي.

فقال: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المتجاوزين الحد في الانتقام، وفي هذا تصريح، بما تضمنه سالف الكلام، من حسن رعاية طريق المماثلة، وأنها قلما تخلو عن الاعتداد والتجاوز عن الواجب، ولا سيما حال الحرد والتهاب الحمية، وحينئذٍ، يدخل المنتقمون في زمرة من لا يحبهم الله سبحانه وتعالى.

وفي «الروح»: قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: البادئين بالسيئة، والمتعدين في الانتقام، وهو استئناف تعليل، متعلق بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ﴾ إلخ. وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ إلخ، اعتراض يعني: إنما شرعت المجازاة وشرطت المساواة؛ لأنه لا يحب الظالمين.

واللام في قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾: لام[1] الابتداء، وجعلها الحوفي وابن عطية للقسم، وليس بجيد إذا جعلنا ﴿مَنْ﴾ شرطية، و﴿مَنْ﴾ شرطية لدخول الفاء في جوابها، وهو قوله: (فأولئك)، أو موصولة، ودخلت الفاء لشبه الموصول بالشرط، وقوله: بعد ظلمه من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: بعد ما ظلم. وقرىء به، وتذكير الضميرين باعتبار لفظ ﴿مَنْ﴾.

والمعنى: ولمن انتقم، واقتص بعد ظلم الظالم إياه، يعني: في الحقوق المالية ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنتصرون. فهو إشارة إلى ﴿مَنْ﴾ والجمع باعتبار المعنى. ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ للمعاقب ولا للمعاتب والمعايب. والسبيل: الطريق الذي فيه سهولة، والآية دفع لما تضمنه السياق، من إشعار سد باب الانتصار.

والمعنى: ولمن انتصر ممن ظلمه بعد ظلمه إياه، فأولئك المنتصرون، لا سبيل للمنتصر منهم أن يوجهوا إليهم عقوبة ولا أذى، لأنهم انتصروا منهم بحق، ومن أخذ حقه ممن وجب له عليه، ولم يتعد ولم يظلم، فلا سبيل لأحد عليه بالمعاتبة، أو المعاقبة.

ولما نفى سبحانه وتعالى السبيل على من انتصر بعد ظلمه.. بين من عليه

---

(١) روح البيان.

السبيل، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاقبة والمؤاخذة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: يبتدئونهم بالإضرار، أو يعتدون في الانتقام ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يعملون في الأرض البغي والعدوان والإفساد بقتل الأنفس، وأخذ الأموال ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾؛ أي: بلا حق يكون لهم في ذلك، كذا قال الأكثر، وقال مقاتل: بغيهم عملهم بالمعاصي، وقيل: يتكبرون ويتجبرون ويتطاولون على الناس، وقيل: ظلم الناس صدُّهم عن سبيل الله، وبغيهم: أخذ أموالهم، وقتل أنفسهم بلا حق يكون لهم في ذلك، قيل[1]: ويظلمون الناس، أي: يضعون الأشياء في غير مواضعها، من القتل وأخذ الأموال، والأذى باليد واللسان، والبغي بغير الحق، فهو نوع من أنواع الظلم، خصه بالذكر تنبيهاً على شدته، وسوء حال صاحبه.

والمعنى: أي إنما الحرج والإثم على الذين يبتدئون الناس بالظلم، أو يزيدون في الانتقام ويتجاوزون ما حد لهم، أو يتكبرون في الأرض تجبراً وفساداً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الظلم، والبغي بغير الحق ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ أي: مؤلم بسبب بغيهم وظلمهم.

ثم رغب سبحانه وتعالى في الصبر والعفو، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى، معطوف على قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾. وجملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ إلخ. اعتراض، اهـ «سمين». واللام فيه للابتداء، و﴿من﴾ موصولة مبتدأ ﴿وَغَفَرَ﴾؛ أي: عفا لمن ظلمه ولم ينتصر، وفوض أمره إلى الله تعالى، وكرره اهتماماً بالصبر، ترغيباً فيه، والصبر هنا: هو الإصلاح المتقدم. فأعيد هنا، وعبر عنه بالصبر؛ لأنه من شأن أولي العزم، وأشار إلى أن العفو المحمود ما نشأ عن التحمل لا عن العجز، اهـ «شهاب».

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الصبر والمغفرة ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ أي: من معزومات الأمور ومهماتها وواجباتها؛ أي: من الأمور التي يجب عزم العبد عليها بإيجابها على نفسه، وتصميم قلبه عليها. لكونه من الأمور المحمودة عند

---

(١) البحر المحيط.

الله سبحانه وتعالى، فإن الصبر والعفو مندوب إليه، وقد ينعكس الأمر في بعض الأحوال، ويكون ترك العفو مندوباً إليه، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي، وقطع مادة الأذى.

وحكي: أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن، رحمه الله تعالى، فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام، فتلا هذه الآية، فقال الحسن: عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فإن قلت: قاله هنا بلام التأكيد، وقاله في ﴿لُقْمَٰنَ﴾ بدونها، فما الفرق بين الموضعين.

قلت: لأن الصبر على مكروه حدث بظلم، كقتل ولد أشد من الصبر على مكروه حدث بلا ظلم، كموت ولد، كما أن العزم على الأول أوكد منه على الثاني، وما هنا من القبيل الأول، فكان أنسب بالتوكيد وما في ﴿لُقْمَٰنَ﴾ من القبيل الثاني، فكان أنسب بعدمه اهـ «كرخي».

والمعنى: أي ولمن صبر عن الانتصار بغير انتقام ولا شكوى، وستر السيئة، فقد فعل ما يشكر عليه ويستحق به الأجر وجزيل الثواب، ورُوي أنه ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة، فيفضي عنها إلا أعزه الله تعالى بها ونصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة، يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة».

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: يخلق فيه الضلالة من الهوى، أو بتركه على ما كان عليه من ظلم الناس ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمره، وناصر ينصره ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد خذلانه تعالى إياه. وظاهر الآية: العموم، وقيل: هي خاصة بمن أعرض عن النبي ﷺ، ولم يعمل بما دعاه إليه، من الإيمان بالله والعمل بما شرعه، والأول أولى.

والمعنى: أي أنه ما شاء الله كان، ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن، فمن

هداه الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له.

والخلاصة: أن من خذله الله لسوء استعداده، وتدسيته نفسه، باجتراح الآثام والمعاصي، فليس له من ولي يهديه إلى سبيل الرشاد، ويوصله إلى طريق الفوز والفلاح.

ثم ذكر تمني الكافرين الرجوع إلى الدنيا، فقال: ﴿وَتَرَى﴾ أيها المخاطب؛ لأن الخطاب[1] لكل من يتأتى منه الرؤية البصرية ﴿الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: المشركين المكذبين بالبعث ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾؛ أي: حين يرون العذاب يوم القيامة، وينظرونه، وصيغة الماضي، للدلالة على التحقق، حال كونهم ﴿يَقُولُونَ﴾ فالجملة في موضع الحال من ﴿الظَّالِمِينَ﴾؛ لأن الرؤية هنا بصرية ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾؛ أي: طريق، فالمرد: مصدر ميمي بمعنى الرد، وهل للاستفهام المضمن معنى التمني ﴿وَتَرَاهُمْ﴾؛ أي: تبصر الظالمين أيها الرائي حال كونهم ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على النار المدلول عليها بالعذاب، حال كونهم ﴿خَاشِعِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يُعْرَضُونَ﴾. و﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ للتعليل متعلقة بـ﴿خَاشِعِينَ﴾. وقرأ طلحة: ﴿من الذل﴾ بكسر الذال[2]. والجمهور: بالضم؛ أي: يعرضون عليها خاضعين حقيرين، بسبب ما لحقهم من الذل والهوان، ويصح تعلقها بينظرون، ويوقف على خاشعين، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾؛ أي: ضعيف. لابتداء الغاية.

والمعنى: حال كونهم يبتدىء نظرهم إلى النار، من تحريك لأجفانهم ضعيف، يعني: يسارقون النظر إلى النار، خوفاً منها، وذلة في أنفسهم، كالمقتول ينظر إلى السيف، فلا يقدر أن يملأ عينيه منه، وهكذا الناظر إلى المكاره، لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها، ويملأ عينيه منها، كما يفعل في نظره إلى المحابِّ، وقيل: هل المراد بالطرف: العين، أو المصدر، قلنا: كلاهما يناسب المقام، وقال الكلبي: ينظرون بأبصار قلوبهم، ولا ينظرون بأبصار ظواهرهم؛ لأنهم

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

يسحبون على وجوههم، أو لأنهم يحشرون عمياً، فينظرون كنظر الأعمى إذا خاف حساً، يقول الفقير: لا حاجة إلى حمل الآية على ما ذكر من الوجهين؛ لأن لهم يوم القيامة أحوالاً شتى، بحسب المواطن، فكل من النظر والسحب والحشر أعمى، ثابت صحيح. وقال يونس[1]: إن ﴿مِن﴾ في ﴿مِن طَرْفٍ﴾ بمعنى الباء؛ أي: ينظرون بطرف ضعيف من الذل والخوف، وبه قال الأخفش.

وفي الآية: إشارة إلى أن النفوس التي لم تقبل الصلاح بالعلاج في الدنيا، تتمنى الرجوع إلى الدنيا يوم القيامة، لتقبل الصلاح، بعلاج الرياضات الشرعية، وتخشع، إذ لم تخشع في الدنيا من القهّار، فلا تنفعها ندامة، ولا تسمع منها دعوة، ولها نظر من طرف خفي، من خجالة المؤمنين، إذ يعيرونها بما ذكروها، فلم تسمع وهي نفوس الظالمين.

وحاصل المعنى[2]: أي وترى الكافرين بالله، حين يعاينون العذاب يوم القيامة، يتمنون الرجعة إلى الدنيا، ويقولون: هل من رجعة لنا إليها، وتراهم أيضاً في ذلك اليوم، يعرضون على النار وهم خاشعون أذلاء؛ لأنهم عرفوا ذنوبهم وانكشف لهم عظمة من عصوه يسارقون النظر إليها خوفاً منها، وحذراً من الوقوع فيها، كما ينظر من قدم للقتل إلى السيف، فلا يقدر أن يملأ عينيه منه، وإنما ينظر ببعضها.

ولما وصف حال الكفار، حكى ما يقوله المؤمنون فيهم، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وجاهدوا في الله تعالى حق جهاده، وربحوا على ربهم، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: المتصفين بحقيقة الخسران، وهو انتقاص رأس المال، وينسب إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، ويستعمل ذلك في القنيات الخارجة، كالمال والجاه في الدنيا، وهو الأكثر. وفي القنيات النفيسة، كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب، وهو الذي جعله الله سبحانه الخسران، وكل خسران ذكره الله في القرآن

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الكريم، فهو على هذا المعنى الأخير، دون الخسران المتعلق بالقنيات الدنيوية، والتجارات البشرية، وخبر ﴿إن﴾ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾؛ أي: إن الكاملين في الخسران، هم هؤلاء الذين جمعوا بين خسران الأنفس والأهلين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾والظرف إما متعلق بـ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ فيكون القول في الدنيا، أو متعلق بـ﴿قال﴾؛ أي: يقولون لهم حين يرونهم على تلك الحالة، وعبر بالماضي، إشعاراً بتحققه، كما مر آنفاً، أما خسرانهم لأنفسهم فلكونهم صاروا في النار معذبين بها، وأما خسرانهم لأهليهم، فلأنهم إن كانوا معهم في النار. فلا ينتفعون بهم، وإن كانوا في الجنة، فقد حيل بينهم وبينهم، وقيل: خسران الأهل، أنهم لو آمنوا، لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين.

وفي «التأويلات النجمية»: إن الخاسرين هم الذين خسروا أنفسهم، بإبطال استعدادهم، إذ صرفوه في طلب الدنيا وزخارفها والالتذاذ بها، وخسروا أهليهم، إذ لم يقوا أنفسهم وأهليهم ناراً، بقبول الإيمان، وأداء الشرائع ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المشركين الذين كانوا في جهنم، شهوات النفس جثياً في الدنيا ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ في الآخرة؛ أي: دائم لا ينقطع إلى الأبد، وهذا إما من تمام كلام المؤمنين، أو من كلام الله سبحانه تصديقاً لهم.

والمعنى: أي ويقول المؤمنون يوم القيامة: إن المغبونين غبناً لا غبن بعده، هم الذين خسروا أنفسهم، فأدخلوا في النار، وحرموا نعيم الأبد، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وذوي قراباتهم.

ثم صدقهم ربهم فيما قالوا، فقال: ألا إن الكافرين لفي عذاب سرمدي، لا مهرب لهم منه ولا خلاص، ثم أيأسهم من الفكاك منه بأي سبيل، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾؛ أي: للظالمين ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا؛ أي: لا يجدون لهم أعواناً وأنصاراً ينقذونهم، مما حل بهم من العذاب، فأصنامهم التي كانوا يعبدونها لتشفع لهم، لا تستطيع أن تتقدم إليهم بشفاعة ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يرد الله إضلاله بأن يشغله بغيره ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ يؤدي سلوكه إلى النجاة؛ أي:

ومن يضلله الله تعالى، لما علم من استعداده للشر والفساد وارتكاب الشرور والآثام، فلا سبيل له إلى الوصول إلى الحق في الدنيا، ولا إلى الجنة في الآخرة.

حكي: أن شيخاً حج مع شاب، فلما أحرم قال: لبيك، فقيل له: لا لبيك، فقال الشاب للشيخ: ألا تسمع هذا الجواب، فقال: كنت أسمع هذا الجواب منذ سبعين سنة، قال: فلأي شيء تتعب، فبكى الشيخ، فقال: فإلى أي باب ألتجىء فقيل له: قد قبلناك. فهذا من هداية الله الخاصة، فافهم جيداً.

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ إذا دعاكم إلى الإيمان، على لسان نبيه ﷺ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، أو يوم الموت ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿مِّن﴾ إما متعلقة بـ﴿يَأْتِيَ﴾؛ أي: من قبل أن يأتي من الله يوم، لا يقدر أحد على رده، ودفعه، أو متعلقة بـ﴿مَرَدَّ﴾؛ أي: لا يرده الله، بعد أن حكم به على عباده، ووعدهم به.

والمعنى: أجيبوا داعي الله، وهو رسوله ﷺ وآمنوا به، واتبعوه فيما جاءكم به من عند الله تعالى، من قبل أن يأتي يوم لا يستطيع أحد أن يرده، إذا جاء به الله.

﴿ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ تلتجئون إليه، ولا مفر تفرون إليه؛ أي[1]: ما لكم مخلص ما، من العذاب على ما دل عليه، تأكيد النفي بـ﴿من﴾ الاستغراقية ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾؛ أي: إنكار ما لما اقترفتموه؛ لأنه مدون في صحائف أعمالكم، وتشهد عليكم جوارحكم، ولعل المراد: الإنكار المنجي، وإلا فهم يقولون ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وغير ذلك، ولذلك تشهد عليهم أعضاؤهم، أي: ما لكم من إنكار يومئذٍ، بل تعترفون بذنوبكم. والنكير: اسم مصدر بمعنى الإنكار، وقال مجاهد: ﴿مالكم من نكير﴾؛ أي: ناصر ينصركم، وقيل: النكير بمعنى المنكر، كالأليم بمعنى المؤلم؛ أي: لا تجدون يومئذٍ منكراً لما ينزل بكم من العذاب، قاله الكلبي وغيره، والأول أولى.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا تستطيعون إنكار ما اجترحتموه من السيئات؛ لأنه قد كتب في صحفكم، وتشهد به ألسنتكم وجوارحكم، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ أعمالهم حتى تحاسبهم عليها، ولا موكلاً بهم رقيباً عليهم، تلوين للكلام، وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة، وتوجيه منه إلى الرسول ﷺ؛ أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه، فما أرسلناك رقيباً ومحاسباً عليهم، وحافظاً لأعمالهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ أي: ما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة، وقد فعلت فلا يهمنك إعراضهم، وهذا منسوخ بآية السيف.

والمعنى: أي فإن أعرض هؤلاء المشركون عما أتيتهم به من الحق، ودعوتهم إليه من الرشد، ولم يستجيبوا لك، وأبوا قبوله منك، فدعهم وشأنهم، فإنا لم نرسلك رقيباً عليهم، تحفظ أعمالهم وتحصيها، فما عليك إلا أن تبلغهم، ما أرسلناك به إليهم، فإذا أنت بلغته فقد أديت ما كلفت به، ونحو الآية ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

قال الغزالي رحمه الله تعالى في «شرح الأسماء»: الحفيظ من العباد: من يحفظ جوارحه وقلبه، ويحفظ دينه من سطوة الغضب، وخلابة الشهوة وخداع النفس وغرور الشيطان، فإنه على شفا جرف هار، وقد اكتنفته هذه المهلكات المفضية إلى النار، وقد عرف كلها من لسان الشارع ﷺ، فليسارع العبد إلى دفع الموبقات، وجلب المنجيات بإصلاح النفس، والتخلق بالأخلاق الإلهية، فإن النفس طاغية مؤدية إلى الإفلاس والخسار.

وبعدئذٍ ذكر طبيعة الإنسان، وغريزته في هذه الحياة، فقال: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: إذا أعطينا الإنسان ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾؛ أي: نعمة صادرة من جهتنا، كالصحة والغنى ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ بطراً لأجلها. والمراد بالإنسان: الجنس لا الواحد، ولهذا قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾؛ أي: الإنسان ﴿سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: بلاء وشدة ومرض

وفقر ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما عملته أنفسهم من كفرانهم، بنعم الله تعالى وعصيانهم فيها، وذكر الأيدي؛ لأن أكثر الأعمال تباشر بها، فجعل كل عمل كالصادر بالأيدي على طريق التغليب. ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: جنسه ﴿كَفُورٌ﴾؛ أي: بليغ الكفر، ينسى النعمة بالكلية، ويذكر البلية ويستعظمها، ولا يتأمل سببها، بل يزعم أنها أصابته بغير استحقاق لها؛ أي: كثير الكفر لما أنعم به عليه من نعمه، غير شكور له عليها، وإسناد هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها من خواص المجرمين، لغلبتهم فيما بين الأفراد، يعني: أنه حكم على الجنس بحال أغلب أفراده، للملابسة على المجاز العقلي، وتصدير الشرطية الأولى بإذا المفيدة للتحقق مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة، للتنبيه على أن إيصال النعمة محقق الوجود كثير الوقوع، وأنه مقتضى الذات، كما أن تصدير الثانية بـ﴿إن﴾ وإسناد الإصابة إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم، للإيذان بندرة وقوعها. وأنها بمعزل عن الانتظام في سلك الإرادة، والإظهار في مقام الإضمار للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم، كما سيأتي جميع ذلك في مبحث البلاغة.

والمعنى: أي وإنا إذا أغنينا ابن آدم، فأعطيناه من لدنا سعة في الرزق، أو في الصحة، أو في الأمن سر بما آتيناه، وإن أصابته فاقة، أو مرض بما أسلف من معصية ربه، جحد نعمتنا، وأيس من الخير، والإنسان من طبعه الجحد والكفران بالنعم حين الشدة.

والخلاصة: أن الإنسان إن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن ابتلي بمحنة يئس وقنط.

واعلم: أن نعمة الله تعالى، وإن كانت في الدنيا عظيمة، إلا أنها بالنسبة إلى سعادات الآخرة، كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سمي الإنعام بها إذاقة فالإنسان إذا حصل له هذا القدر الحقير في الدنيا فرح به، ووقع في العجب والكبر، وظن أنه فاز بكل المنى، ودخل في قصر السعادات، ولذا ضعف اعتقاده في سعادات الآخرة، وإلا لاختار الباقي على الفاني؛ لأن الفاني كالخزف مع أنه قليل، والباقي كالذهب مع أنه كثير.

ثم ذكر سبحانه سعة ملكه ونفاذ تصرفه، فقال: ﴿لِّلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: له التصرف فيهما بما يريد، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع؛ أي: يختص به سبحانه ملك العالم كله، لا يقدر أن يملكه أحد سواه، فله التصرف فيه، وقسمة النعمة والبلية على أهله، وليس عليهم إلا الشكر في النعمة، والصبر في البلية، والرضى والتسليم للأحكام الأزلية.

والمعنى: أي إنه تعالى خالق السمٰوات والأرض، ومالكهما، والمتصرف فيهما، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مما يعلمونه، ومما لا يعلمونه على أي صورة شاء ﴿يَهَبُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ لا ذكور معهن مثل ما وهب لشعيب ولوط عليهما السلام، والهبة: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض، والوهاب هو الله سبحانه وتعالى؛ لأنه يعطي كلاً على قدر استحقاقه ولا يريد عوضاً، والجملة بدل من يخلق بدل البعض، وإنما قدم الإناث على الذكور مع شرفهم؛ لأنها أكثر لتكثير النسل، أو لتطييب قلوب آبائهن، إذ في التقديم تشريف لهن، وإيناس بهن، ولذلك جعلن من مواهب الله تعالى مع ذكر اللام الانتفاعية أو لرعاية الترتيب الواقع أولاً في الهبة بنوع الإنسان، فإنه تعالى وهب لآدم أولاً زوجته حواء عليهما السلام، بأن ولَّدها منه، وخلقها من قصيراه، وهي أسفل الأضلاع، أو آخر ضلع في الجنب، كما في «القاموس».

قال في «الكواشي»: ويجوز أنهن قدمن توبيخاً لمن كان يئدهن، ونكرن إيماء إلى ضعفهن ليرحمن، فيحسن إليهن. وقال في «الشرعة وشرحه»: وليزداد فرحاً بالبنات، مخالفة لأهل الجاهلية، فإنهم يكرهونها، بحيث يدفنونها في التراب في حال حياتها، وفي الحديث: «من بركة المرأة تبكيرها بالبنات»؛ أي: يكون أول ولدها بنتاً، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ الآية، حيث بدأ بالإناث ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ لا إناث معهم، كما وهب إبراهيم عليه السلام، من غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد، ومجال اعتراض.

وعرف الذكور للمحافظة على الفواصل، أو لجبر التأخير، يعني: أن الله تعالى أخر الذكور، مع أنهم أحقاء بالتقديم، فتدارك تأخيرهم بتعريفهم؛ لأن في التعريف العهدي تنويهاً وتشهيراً، كأنه قيل: ويهب لمن يشاء الفرسان، الأعلام، الذين لا يخفون عليكم. وفي الحديث: «إن أولادكم هبة الله لكم، يهب لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء الذكور، وأموالهم لكم إن احتجتم إليها».

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾؛ أي: يقرن بين الإناث والذكور، فيجعلهم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ فيصير أولاده ذكراناً وإناثاً، فيهبهما جميعاً لمن يشاء، بأن يولد له الذكور والإناث، مثل ما وهب لنبينا محمد ﷺ، إذ كان له من البنين ثلاثة على الصحيح، قاسم، وعبد الله، وإبراهيم. ومن البنات أربع: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة رضي الله عنهن. قال مجاهد: معنى يزوجهم: هو أن تلد المرأة غلاماً، ثم تلد جارية. ثم تلد غلاماً، ثم تلد جارية، وقال محمد بن الحنفية: هو أن تلد توأماً، غلاماً وجارية ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لا يولد له ذكر ولا أنثى، فـ﴿مَن﴾ عبارة عن الرجل والمرأة. فلا يلد ولا تلد. والعقيم: الذي لا يولد له، يقال: رجل عقيم؛ أي: لا يولد له، وامرأة عقيم؛ أي: لا تلد، كما في عيسى ويحيى عليهما السلام، فإنهما ليس لهما أولاد، أما عيسى فلم يتزوج، وإن كان يتزوج حين نزوله في آخر الزمان، ويكون له البنات كما قيل: وأما يحيى فقد تزوج، ولكن لم يقرب لكونه عزيمةً في شريعته، وبعضهم لم يكن له أولاد، وإن حصل له قربان النساء.

ومعنى الآية:[1] أي يخلق ما يشاء، فيرزق من يشاء البنات فحسب، ويرزق من يشاء البنين فحسب، ويعطي من يشاء الزوجين الذكر والأنثى، ويجعل من يشاء لا نسل له، وفي هذا إيماء إلى أن الملك ملكه من غير منازع ولا مشارك، يتصرف فيه كيف يشاء، ويخلق ما يشاء، فليس لأحد أن يعترض عليه، أو يدبر بحسب هواه، وتصرفه لا يكون إلا على أكمل وجه وأتم نظام، وقد قيل: ليس في الإمكان أبدع مما كان ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق كل نوع من هذه

(١) المراغي.

الأنواع ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يريد أن يخلق، فيفعل ما يفعل بحكمة وعلم.

وفي «فتح الرحمٰن»: فإن قلت[1]: لم قدم الإناث مع أن جهتهن التأخير، ولم عرف الذكور دونهن؟.

قلت: لأن الآية سيقت لبيان عظمة ملكه ومشيئته، وأنه فاعل ما يشاء، لا ما يشاء عبيده، كما قال: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ ولما كان الإناث مما لا يختاره العباد، قدمهن في الذكر، لبيان نفوذ إرادته ومشيئته وانفراده بالأمر، ونكرهن وعرف الذكور لانحطاط رتبتهن، لئلا يظن أن التقديم كان لأحقيتهن به ثم أعطى كل جنس حقه من التقديم والتأخير، ليعلم أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن، بل لمقتضى آخر فقال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

وقال أبو حيان: ولما[2] ذكر الهبة في الإناث، والهبة في الذكور، اكتفى عن ذكرها في قوله: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾، ولما كان العقيم ليس بمحمود قال: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾، وهو قسيم لمن يولد له، وتغيير العاطف في الثالث؛ لأنه قسيم المشترك بين القسمين، ولم يحتج إليه في الرابع لإفصاحه، بأنه قسيم المشترك بين الأقسام الثلاثة، ذكره «البيضاوي»، ولما كان الخنثى مما يحزن بوجوده لم يذكره سبحانه وتعالى، قالوا: وكانت الخلقة مستمرة ذكراً وأنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخنثى، فسئل فارض العرب ومعمرها، عامر بن الظرب عن ميراثه، فلم يدر ما يقوله وأرجأهم، فلما جن عليه الليل، جعل يتقلب وتذهب به الأفكار، وأنكرت خادمته حاله، فسألته، فقال: بهرت لأمر لا أدري ما أقول فيه، فقالت له: ما هو، فقال شخص له ذكر وفرج، كيف يكون حاله في الميراث، قالت له الأمة: ورثه من حيث يبول، فعقلها وأصبح، فعرضها عليهم فرضوا بها، وجاء الإسلام على ذلك، وقضى بذلك علي كرم الله وجهه.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾؛ أي: وما صح لفرد من أفراد البشر يا محمد ﴿أَن

---

(1) فتح الرحمٰن.
(2) البحر المحيط.

﴿يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه بوجه من الوجوه، إلا بإحدى طرق ثلاث:

١ - ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ استثناء من أعم الأحوال؛ أي: ما كان له أن يكلمه الله في حال من الأحوال، إلا حالة كونه وحياً وإلهاماً، وإلقاء من الله تعالى في روعه وقلبه، كما أوحى إلى أم موسى، وإلى إبراهيم في ذبح ولده، وكما روى ابن حبان في «صحيحه»، أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفث في روعي، إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب».

٢ - ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾؛ أي: أو إلا حالة كونه من وراء حجاب، بأن يسمعه كلامه جهرة، من غير أن يبصر السامع من يكلمه، فهو تمثيل له بحال الملك المحتجب، الذي يكلم بعض خواصه من وراء الحجاب، يسمع صوته، ولا يرى شخصه، وإلا فالله تعالى منزه عن الاستتار بالحجاب، الذي هو من خواص الأجسام، فالحجاب يرجع إلى المستمع، لا إلى الله تعالى المتكلم، وذلك كما كلم الله تعالى موسى في طوى والطور، ولذا سمي كليم الله؛ لأنه سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى، من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق.

٣ - ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾؛ أي: أو إلا حالة كونه بأن يرسل رسولاً؛ أي: ملكاً من الملائكة، إما جبرئيل أو غيره ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك الرسول إلى المرسل إليه الذي هو الرسول البشري ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ أي: بأمره تعالى وتيسيره ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾ الله سبحانه أن يوحيه إليه من أمر أو نهي، كما كان جبريل ينزل على النبي ﷺ وعلى غيره من الأنبياء، وهذا هو الذي بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، في عامة الأوقات من الكلام، فيكون إشارة إلى التكلم بواسطة الملك.

رُوي: أن النبي ﷺ قال: «من الأنبياء من يسمع الصوت، فيكون بذلك نبياً، ومنهم من ينفث في أذنه وقلبه، فيكون بذلك نبياً، وإن جبرئيل يأتيني فيكلمني، كما يكلم أحدكم صاحبه».

وروى البخاري في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن

هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصة الجرس، وهو أشده عليَّ، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول»، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي، في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد يسيل عرقاً.

قال الزجاج: المعنى أن كلام الله للبشر، إما أن يكون بإلهام يلهمهم، أو يكلمهم من وراء حجاب، كما كلم موسى، أو برسالة ملك إليهم، وتقدير الكلام: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي وحياً، أو يكلمه من وراء حجاب، كما كلم موسى، أو يرسل رسولاً. وقرأ الجمهور: ﴿حِجَابٍ﴾: مفرداً. وابن أبي عبلة ﴿حجباً﴾: جمعاً. وقرأ الجمهور بنصب ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾، وبنصب ﴿فَيُوحِيَ﴾ على تقدير أن، وتكون أن وما دخلت عليه معطوفين على وحياً، ووحياً في محل الحال والتقدير: إلا موحياً، أو مرسلاً، ولا يصح عطف ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ على ﴿أَن يُكَلِّمَهُ﴾؛ لأنه يصير التقدير: وما كان لبشر أن يرسل رسولاً، وهو فاسد لفظاً ومعنى. وقرأ نافع وأهل المدينة ﴿أو يرسلُ رسولاً فيوحي﴾. بالرفع فيهما، على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أو هو يرسل. وجملة قوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ﴾؛ أي: متعال عن صفات المخلوقين؛ لا يأتي جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلا بأحد الوجوه المذكورة ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته، فيكلمه تارة بواسطة، وتارة بغير واسطة، إما إلهاماً، وإما خطاباً من وراء حجاب تعليل لما قبلها.

قال المفسرون: فلما قالت اليهود للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتنظر إليه، إن كنت نبياً كما كلمه موسى، نزل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ والكاف صفة لمصدر محذوف. والروح[1]: هو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان، حيث يحييها حياة طيبة؛ أي: يحصل لها به ما هو مثل الحياة،

(١) روح البيان.

وهو العلم النافع، المزيل للجهل الذي هو كالموت. وقال الراغب: سمي القرآن روحاً لكونه سبباً للحياة الأخروية، الموصوفة في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾. ومعنى ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾؛ أي: روحاً ناشئاً، ومبتدأ من أمرنا، والمعنى: وإيحاء مثل إيحائنا إلى سائر رسلنا، أوحينا إليك روحاً وقرآناً ناشئاً بأمرنا وإرادتنا، ونازلاً من عندنا رحمةً وحياةً لعبادنا.

وقيل: الروح هو جبرائيل عليه السلام، والمعنى: أوحينا إليك جبرائيل بأمرنا وإرادتنا، كما أوحيناه إلى سائر رسلنا، فإن قلت: كيف علم الرسول ﷺ في أول الأمر، أن الذي تجلى له جبرائيل، وأن الذي سمعه كلام الله تعالى؟

قلت: خلق الله تعالى له علماً ضرورياً، علم به ذلك، والعلم الضروري يوجب الإيمان الحقيقي، ويتولد من ذلك اليقين، فإن الخشية على قدر المعرفة.

ثم ذكر سبحانه صفة رسوله، قبل أن يوحي إليه، فقال: ﴿مَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿تَدْرِى﴾ وتعلم قبل النبوة في أربعين سنة. وجملة ﴿مَا كُنتَ﴾ حال من كاف ﴿إِلَيْكَ﴾ كما في تفسير «الكواشي» ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ والقرآن، أي: أي شيء هو.

والمعنى: ما تدري جواب هذا الاستفهام، والكلام على حذف مضاف؛ لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وذلك أدخل في الإعجاز، وأدل على صحة نبوته، والاستفهام معلق للفعل عن العمل، وما بعده ساد مسد المفعولين ﴿وَلَا﴾ تدري ما ﴿ٱلْإِيمَٰنُ﴾ بتفاصيل ما في تضاعيف القرآن، من الأمور التي لا تهتدي إليها العقول، لا الإيمان بما يستقل به العقل والنظر، فإن درايته ﷺ له مما لا ريب فيه قطعاً، فإن أهل العلم اتفقوا على أن الرسل عليهم السلام، كانوا مؤمنين قبل الوحي، معصومين من الكبائر، ومن الصغائر الموجبة، لنفرة الناس عنهم، قبل البعثة وبعدها، فضلاً عن الكفر، وهو مراد من قال: لا يعرف القرآن قبل الوحي، ولا شرائع الإيمان ومعالمه، وقيل: المراد بالإيمان: الكلمة التي بها دعوة الإيمان والتوحيد، وهي لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، والإيمان بهذا التفسير إنما علمه بالوحي لا بالعقل.

قال ابن قتيبة: لم تزل العرب على بقايا من دين إسماعيل، من الحج

والختان والنكاح، وإيقاع الطلاق، والغسل من الجنابة، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والمصاهرة، وكان رسول الله ﷺ على ما كانوا عليه في مثل هذه الشرائع، وكان يوحد، ويبغض اللات والعزى، ويحج ويعتمر، ويتبع شريعة إبراهيم عليه السلام، ويتعبد بها حتى جاءه الوحي، وجاءته الرسالة.

والمعنى: أي[1] ما كنت قبل الأربعين، وأنت بين ظهراني قومك، تعرف ما القرآن، ولا تفاصيل الشرائع، ومعالمها على النهج الذي أوحينا به إليك، وقيل: معنى الآية: ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: الروح الذي أوحينا إليك، والجعل بمعنى التصيير، لا بمعنى الخلق، وحقيقته أنزلناه؛ أي: ولكن جعلنا الروح والقرآن الذي أوحيناه إليك ﴿نُورًا﴾ وضياء، ودليلاً على التوحيد ﴿نَّهْدِى﴾ ونرشد ﴿بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتوفيق، وهو الذي يصرف اختياره نحو الاهتداء به ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ بهذا النور، وترشد من نشاء هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وطريق قويم الذي هو الإسلام، وسائر الشرائع والأحكام، وقوله[2]: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ تقرير لهدايته تعالى، وبيان لكيفيتها ومفعول ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ محذوف ثقة بغاية الظهور، كما قدرناه.

والمعنى: أي ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً عظيماً، نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا، ونرشده إلى الدين الحق، وإنك لتهدي بذلك النور، من نشاء هدايته إلى الحق القويم. ونحو الآية قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ الآية.

وقرأ الجمهور[3] ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ مبنياً للفاعل مضارع هدى، وقرأ ابن حوشب: مبنياً للمفعول، إجابة سؤاله ﷺ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. وقرأ ابن السميقع: بضم التاء وكسر الدال، من أهدى الرباعي، وعن الجحدري مثلها، ومثل قراءة

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

حوشب، وفي قراءة أبي ﴿وإنك لتدعو﴾.

ثم بين الصراط المستقيم بقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الصراط الأول، وفي إضافة الصراط إلى الاسم الشريف، من التعظيم له، والتفخيم لشأنه ما لا يخفى ووصف الجلالة بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً لتقرير استقامته، وتأكيد وجوب سلوكه، فإن كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى، خلقاً وملكاً وتصرفاً، مما يوجب ذلك أتم إيجاب.

وقال بعضهم[1]: معنى الآية: دعونا يا محمد أقواماً في الأزل، فأجابوا، فأنت تهديهم إلينا وتدلهم علينا، وإنما كان عليه السلام هادياً؛ لأنه نور كالقرآن، ولمناسبة نوره مع نور الإيمان والقرآن قيل: كان خلقه القرآن.

وحاصل المعنى: أي هذا الطريق، هو الطريق الذي شرعه الله، مالك السموات والأرض والمتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقب لحكمه.

﴿أَلَآ﴾ كلمة تذكرة لتبصرة، أو تنبيه لحجة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ أي: ترجع أمور ما فيهما قاطبةً بارتفاع الوسائط والتعلقات، يعني: يوم القيامة، فيحمل لفظ تصير على الاستقبال؛ أي: انتبهوا وتذكروا أن أمور الخلائق يوم القيامة تصير إلى الله، لا إلى غيره، فيضع كلاً منهم في موضعه الذي يستحقه من نعيم أو جحيم، وفي هذا وعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم ووعيد للظالمين، وفيه وعد بالبعث المستلزم للمجازاة. وقال في «بحر العلوم»: إلى الله سبحانه، تصير أمور الخلائق كلها، في الدنيا والآخرة، فلا يدبرها إلا هو، حيث لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره.

وعن سهل بن أبي الجعد: احترق مصحف، فلم يبق إلا قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وغرق مصحف، فانمحى كل شيء إلا ذلك، كذا في «عين المعاني» للسجاوندي انتهى «قرطبي».

---

(١) روح البيان.

الإعراب

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جزاء سيئة﴾: مبتدأ، ﴿سَيِّئَةٞ﴾ خبر، ﴿مِّثۡلُهَاۖ﴾: صفة لـ﴿سَيِّئَةٞ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾، أو مستأنفة، ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾: الفاء: فاء الإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن جزاء سيئة سيئة مثلها، وأردت بيان أجر من عفا وأصلح. . فأقول لك: ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما كما مر مراراً، ﴿عَفَا﴾: فعل ماض في محل الجزم فعل شرط، ﴿وَأَصۡلَحَ﴾: معطوف عليه، ﴿فَأَجۡرُهُۥ﴾ الفاء: رابطة الجواب وجوباً، ﴿أجره﴾: مبتدأ، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب الشرط، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَلَمَنِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، ﴿ٱنتَصَرَ﴾ فعل ماض في محل الجزم فعل شرط، ﴿بَعۡدَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿ٱنتَصَرَ﴾. ﴿ظُلۡمِهِۦ﴾ مضاف إليه للظرف، وهو مضاف إلى الهاء، من إضافة المصدر إلى مفعوله، وتؤيده قراءة من قرأ: ﴿من بعد ما ظلم﴾ بالبناء للمفعول، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الفاء: رابطة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿ما﴾: نافية، ﴿عَلَيۡهِم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾: مبتدأ مؤخر. و﴿من﴾: زائدة، والجملة خبر عن اسم الإشارة، وجملة الإشارة في محل جزم جواب الشرط، وجملة الشرط وجوابه خبر لـ﴿من﴾ الشرطية، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿يَظۡلِمُونَ

﴿ٱلنَّاسَ﴾: صلة الموصول، والجملة الاسمية مستأنفة معترضة، ﴿وَيَبۡغُونَ﴾: معطوف على ﴿يَظۡلِمُونَ﴾، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق بـ﴿يبغون﴾، ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾: حال من فاعل ﴿يبغون﴾؛ أي: حال كونهم غير محقين، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿لَهُمۡ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٞ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة خبر لاسم الإشارة. وجملة اسم الإشارة مستأنفة، أو حال من الموصول، ﴿وَلَمَن﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. كما مر نظيره، ﴿من﴾: اسم موصول مبتدأ، ﴿صَبَرَ﴾ صلته ﴿وَغَفَرَ﴾: معطوف عليه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾: اللام: مؤكدة للأولى. ﴿من عزم الأمور﴾ جار ومجرور خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الرفع خبر لـ﴿من﴾ الموصولة، وفي الرابط قولان:

أحدهما: هو اسم الإشارة إذا أريد به المبتدأ، ويكون حينئذٍ على حذف مضاف، تقديره: إن صبر ذلك لمن عزم الأمور.

الثاني: أنه ضمير محذوف، تقديره: لمن عزم الأمور منه أو له، وجملة قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾، وجملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ...﴾ إلخ، معترضة، وجوز الحوفي وغيره أن تكون ﴿من﴾: شرطية، و﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: جوابها على حذف الفاء، على حد حذفها في البيت المشهور:

مَنْ يَفْعَلِ ٱلحَسَنَاتِ ٱللَّهُ يَشْكُرُهَا

وعلى جعل اللام للقسم، فإن ذلك جواب القسم المقدر، وحذف جواب الشرط للدلالة عليه، وتقدر الفاء الرابطة للجواب.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿مَنۡ﴾: اسم شرط جازم، في محل النصب مفعول مقدم، ﴿يُضۡلِلِ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿مَنۡ﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، ﴿فَمَا﴾ الفاء رابطة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم. ﴿مِن وَلِيّٖ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿من﴾ زائدة، ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾: صفة لـ﴿وَلِيّٖ﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿مَنۡ﴾ الشرطية. وجملة ﴿مَنۡ﴾ الشرطية معطوفة على الجمل التي قبلها، أو مستأنفة، ﴿وَتَرَى﴾

﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ترى﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على أي مخاطب، ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ مفعول به، لأن رأى هنا بصرية. ﴿لَمَّا﴾ ظرف بمعنى حين، متعلق بـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به. والجملة مضاف إليه لـ﴿لما﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام واستخبار مع الدهشة ﴿إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿من﴾ زائدة. والجملة الاستفهامية مقول القول لـ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿ترى الظالمين﴾، ﴿يُعْرَضُونَ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق بـ﴿يُعْرَضُونَ﴾ وجملة ﴿يُعْرَضُونَ﴾ حال من مفعول ﴿تراهم﴾، حال أولى، أو حال من واو ﴿يُعْرَضُونَ﴾، ﴿خَـٰشِعِينَ﴾ حال ثانية. ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متعلق بـ﴿خَـٰشِعِينَ﴾، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾ حال ثالثة، أو من مرفوع ﴿يُعْرَضُونَ﴾، ﴿مِن طَرْفٍ﴾ متعلق بـ﴿يَنظُرُونَ﴾، ﴿خَفِيٍّ﴾ صفة ﴿طَرْفٍ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قال الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول، ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾: معطوف على ﴿أَنفُسَهُمْ﴾، منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: ظرف، متعلق بـ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، ويصح أن يتعلق بـ﴿قال﴾ كما مر. ﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح وتنبيه، ﴿إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِى عَذَابٍ﴾: خبره، ﴿مُّقِيمٍ﴾ صفة ﴿عَذَابٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، إن قلنا من كلام الله سبحانه، تصديقاً لكلامهم، أو مقول لـ﴿قال﴾ إن قلنا من تمام كلامهم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص.

﴿لَهُم﴾: خبرها مقدم. ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾: اسمها مؤخر، و﴿من﴾ زائدة، وجملة ﴿يَنصُرُونَهُم﴾ صفة لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل النصب، مفعول مقدم، ﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَمَا﴾ الفاء: رابطة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿سَبِيلٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية جواب ﴿مَن﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على ما قبلها.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟﴾: فعل وفاعل، بمعنى ﴿أجيبوا﴾. مبني على حذف النون، ﴿لِرَبِّكُم﴾ متعلق به، ﴿مِّن قَبْلِ﴾ متعلق به أيضاً؛ أي: أجيبوه بالتوحيد والعبادة. ﴿أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة الفعلية مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من قبل إتيان يوم. ﴿لَّا﴾: نافية للجنس، ﴿مَرَدَّ﴾: اسمها، ﴿لَهُ﴾: خبرها، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿مَرَدَّ﴾؛ لأنه مصدر ميمي، وأجاز بعضهم تعلقه بـ﴿يَأْتِىَ﴾؛ أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يتاح لأحد رده. وجملة ﴿لَا﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿يَوْمٌ﴾، ﴿مَا لَكُم﴾ ﴿ما﴾: نافية، ﴿لَكُم﴾ خبر مقدم، ﴿مِّن مَّلْجَإٍ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿من﴾: زائدة. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف متعلق، بمحذوف حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، أو من ضمير المخاطبين، والجملة مستأنفة، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن نَّكِيرٍ﴾: مبتدأ، و﴿مِن﴾ زائدة، والجملة معطوفة على التي قبلها. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾: الفاء: استئنافية، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿أَعْرَضُوا۟﴾: فعل ماض وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿فَمَآ﴾ الفاء: رابطة الجواب وجوباً، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: فعل

وفاعل ومفعول به، ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلق بـ﴿حَفِيظًاۗ﴾، و﴿حَفِيظًاۗ﴾ حال من مفعول ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، والأولى أن يكون جواب الشرط محذوفاً، والفاء عاطفة على الجواب المحذوف، المقدر بما يناسب المقام؛ أي: فلا تبتئس ولا تحاول اقتسارهم. ﴿إن﴾: نافية، ﴿عَلَيۡكَ﴾: خبر مقدم، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، ﴿وَإِنَّآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنا﴾: ناصب واسمه ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط، متعلق بالجواب الآتي، ﴿أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿مِنَّا﴾: حال من ﴿رَحۡمَةً﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿رَحۡمَةً﴾: مفعول ثان، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَرِحَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾. ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿فَرِحَ﴾، والجملة جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية. ﴿وإِنْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنْ﴾ حرف شرط، ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾: فعل مضارع، ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿سَيِّئَةُۢ﴾ فاعل، ﴿بِمَآ﴾ متعلق بـ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾، و﴿ما﴾ موصولة، وجملة ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ صلة، والعائد محذوف؛ أي: قدمته. وعبر بالأيدي؛ لأن أكثر الأعمال تزاول بها كما مر. ﴿فَإِنَّ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية، أو علة للجواب المقدر، والتقدير: وإن تصبهم سيئة نسوا النعمة فوراً؛ لأن الإنسان كثير كفران النعمة، ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم جواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الشرطية.

﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ۝٥٠﴾.

﴿لِّلَّهِ﴾: خبر مقدم ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة

الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان سعة ملكه، ﴿يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر. و﴿ما﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، وجملة ﴿يَخْلُقُ﴾: في محل النصب حال من الجلالة، ﴿يَهَبُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله تعالى، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ متعلق بـ﴿يَهَبُ﴾، ﴿إِنَٰثًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَهَبُ﴾: بدل من جملة ﴿يَخْلُقُ﴾: بدل مفصل من مجمل، وجملة ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾: معطوفة على ما قبلها، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على اللّه، ومفعول به، ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ مفعول به ثان، بدليل ما بعده، على تضمينه معنى التصيير؛ أي: يجعل أولاده ذكوراً وإناثاً. واختار أبو البقاء والخطيب إعراب ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ حالين. ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول أول، و﴿عَقِيمًا﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ثان له، والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لِبَشَرٍ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل مضارع، ومفعول وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع مدخولها، في تأويل مصدر، مرفوع على كونه اسما لـ﴿كَانَ﴾، والتقدير: وما كان تكليم الله سبحانه، إنساناً كائناً له، في حال من الأحوال، إلا في حالة كونه وحياً، إلخ. وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة. مسوقة لبيان كيفية تكليم الله لعباده، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء من أعم الأحوال، ﴿وَحْيًا﴾: مصدر واقع موقع الحال؛ أي: موحياً، أو مفعول مطلق لفعل محذوف، والتقدير: إلا أن يوحي إليه وحياً ﴿أَوْ﴾ حرف عطف، ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾: متعلق بمقدر، معطوف على المقدر العامل في وحياً؛ أي: أو إلا أن يكلمه الله من وراء حجاب، أو مسمعاً من وراء حجاب، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿يُرْسِلَ﴾: فعل مضارع، منصوب بأن

مضمرة جوازاً بعد أو، العاطفة على اسم خالص، أعني: وحياً، كما قال ابن مالك:

وَإِنْ عَلَى ٱسْمٍ خَالِصٍ فِعْلٌ عُطِفْ تَنْصِبُهُ إِنْ ثَابِتاً أَوْ مُنْحَذِفْ

وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿رَسُولًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر، معطوف على وحياً تقديره: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو إرسال رسول، فكأنه قال إلا موحياً، أو مرسلاً رسولاً، أو إلا أن يوحي، أو ﴿يُرْسِلَ﴾ ﴿رَسُولًا﴾، ﴿فَيُوحِيَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿يُوحِيَ﴾: فعل مضارع، معطوف على يرسل، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَسُولًا﴾، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يُوحِيَ﴾، ﴿ما﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، والكاف صفة لمصدر محذوف؛ أي: إيحاء مثل إيحائنا إلى غيرك، ﴿أَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، ﴿رُوحًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾: نعت لـ﴿رُوحًا﴾. وقيل: حال، و﴿من﴾ تبعيضية؛ أي: حال كون هذا الروح، وهو القرآن بعض ما نوحيه إليك؛ لأن الموحى إليه لا ينحصر في القرآن، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه، والجملة حال من كاف إليك، ﴿ما﴾: استفهامية معلقة لـ﴿تَدْرِى﴾ عن العمل، في محل رفع مبتدأ، و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل نصب، سدت مسد مفعولي ﴿تَدْرِى﴾، ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾: عطف على ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: حالية، أو عاطفة، ﴿لكن﴾ حرف استدراك مهمل، ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿نُورًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾، أو معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾،

﴿تَهْدِي﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿نَّهْدِي﴾. ﴿مَنْ﴾: مفعول به، وجملة ﴿نَّشَآءُ﴾: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ حال من ﴿مَنْ﴾ الموصولة، أو من عائده المحذوف، وجملة ﴿نَّهْدِي﴾ في محل النصب، صفة لـ﴿نُورًا﴾. ﴿وَإِنَّكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿إنك﴾ ناصب واسمه، ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ اللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿تهدي﴾: في محل الرفع خبر﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ متعلق بـ﴿تهدي﴾. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ صفة لـ﴿صِرَٰطٍ﴾: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من ﴿صِرَٰطٍ﴾ الأول، بدل معرفة من نكرة ﴿ٱلَّذِى﴾: نعت للجلالة، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿مَا﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الاسمية صلة الذي ﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تَصِيرُ﴾. ﴿ٱلْأُمُورُ﴾: فاعل. والمراد بهذا المضارع الديمومة، كقولك: زيد يعطي ويمنع؛ أي: من شأنه ذلك، وليس المراد حقيقة المستقبل؛ لأن الأمور منوطة به تعالى كل وقت.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ﴾ والسيئة: فعيلة من السوء، وهو القبيح. ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾؛ أي: سعي في نصر نفسه بجهده. ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾؛ أي: من عقاب وعتاب، والسبيل في الأصل: الطريق الذي فيه سهولة. ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: لمن الأمور المشكورة عند الله تعالى، والأفعال التي ندب إليها عباده، ولم يرخص بالتهاون فيها من العزم، والعزم: عقد القلب على إمضاء الأمر. والعزيمة: الرأي الجد كما في «المفردات» ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾؛ أي: أجيبوا، فالسين والتاء فيه زائدتان.

﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾؛ أي: لا يرده بعد ما حكم به. أصله: مردد بوزن مفعل بفتح العين، نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء، فسكنت فأدغمت في الدال الثانية. ﴿مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ قيل المراد به: العضو، وهو العين، وقيل المراد به: المصدر، يقال: طرفت عينه تطرف طرفاً؛ أي: ينظرون نظراً خفياً. وفي «المصباح»: طرف البصر طرفاً، من باب ضرب تحرك، وطرف العين نظرها، ويطلق على الواحد وغيره، لأنه مصدر اهـ، وفي «المختار»: وطرف بصره من باب ضرب، إذا أطبق

أحد جفنيه على الآخر، والمرة منه طرفة، يقال: أسرع من طرفة العين ﴿خَفِيٍّ﴾ أصله: خفيي بوزن فعيل، أدغمت ياء فعيل في لام الكلمة ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ من الخسران، وهو انتقاص رأس المال، وينسب إلى الإنسان، فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، كما سبق. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ قال ابن الملك في «شرح المشارق»: الأهل يفسر بالأزواج والأولاد. وبالعبيد والإماء، وبالأقارب، وبالأصحاب، وبالمجموع. ﴿مِّن مَّلْجَإٍ﴾؛ أي: ملاذ تلجؤون إليه، ومهرب ومفر تفرون إليه، وفي «المصباح»: لجأ إلى الحصن وغيره، لجأ من بابي نفع وتعب، والتجأ إليه اعتصم به، فالحصن ملجأ بفتح الميم والجيم، وألجأته إليه ولجأته بالهمزة والتضعيف، اضطررته إليه وأكرهته، اهـ. ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الملك بالضم: الاستيلاء على الشيء والتمكن من التصرف فيه، وفي «المصباح»: وملك على الناس أمرهم ملكاً، من باب ضرب، إذا تولى السلطنة، فهو ملك، والاسم الملك بضم الميم اهـ.

﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ قال الراغب: كفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها. وأعظم الكفر: جحودهم الوحدانية والنبوة، فمعنى كفور: نسّاء للنعمة، ذكّار للبلية. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ﴾ والهبة: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض، وفي «المختار»: وهب له شيئاً يهبه وهباً، بوزن وضع يضع وضعاً، ووهَباً أيضاً بفتح الهاء، وهبة بكسر الهاء، والاسم الموهب والموهبة بكسر الهاء فيهما، والاتهاب: قبول الهبة، والاستيهاب: سؤال الهبة اهـ. فأصل يهب: يوهب؛ لأنه حذفت فاؤه فوزنه يعل. ﴿إِنَاثًا﴾ جمع أنثى خلاف الذكر. ﴿الذُّكُورَ﴾ جمع ذكر، وهو ضد الأنثى، والخنثى: إنسان له ذكر وفرج، وأول ظهوره في الجاهلية الأولى، زمن عامر بن الظرب ملك العرب، كما سبق. ﴿ذُكْرَانًا﴾ جمع ذكر أيضاً. ﴿عَقِيمًا﴾ وفي «المصباح»: العقيم الذي لا يولد له، يطلق على الذكر والأنثى، وفي «القاموس» العقم بالضم: هرمة تقع في الرحم، فلا تقبل الولد، يقال: عقمت كفرح ونصر وكرم عقماً وعقماً، ويضم، وعقمها الله تعقيماً وأعقمها، ورحم عقيمة وامرأة معقومة، وامرأة عقيم، والجمع عقائم وعقم، ورجل عقيم كأمير لا يولد له، والجمع عقماء وعقام، اهـ. وفي «الروح»: وأصل العقم:

اليبس المانع من قبول الأثر، والعقيم من النساء التي لا تقبل ماء الفحل، فالعقم كما يقع صفة للمرأة، يقع صفة للرجل، بأن يكون في مائه ما يمنع العلوق من الأعذار. ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ قال الراغب: ومعنى الوحي: الإشارة السريعة، يقال: أمر وحي؛ أي: سريع، ثم اختص في عرف اللغة بالأمر الإلهي الملقى إلى الأنبياء، وفي «المصباح»: الوحي: الإشارة، والرسالة، والكتابة، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه وحي كيف كان، قاله ابن فارس، وهو مصدر وحى إليه يحي من باب وعى، وأوحى إليه بالألف مثله، وجمعه وحي، أصله: وحوي بوزن فعول، مثل: فلوس، وبعض العرب تقول: وحيت إليه، ووحيت له، وأوحيت إليه وله، ثم غلب استعمال الوحي فيما يلقى إلى الأنبياء من عند الله تعالى، ولغة القرآن الفاشية أوحى بالألف، اهـ.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والصراط من السبيل مالا التواء فيه؛ أي: لا اعوجاج بل يكون على سبيل القصد. ﴿تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أصله: تصير بوزن تفعل نقلت حركة الياء إلى الصاد، فسكنت الياء إثر كسرة فصارت حرف مد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس المزاوجة اللفظي في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾؛ لأن إطلاق السيئة على الثانية، مع أنها جزاء وقصاص مشروع مأذون فيه، وكل مأذون حسن لا سيء لقصد المزاوجة، ويعبر عنها بعضهم بالمشاكلة، ومثله قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فسمى جزاء الاعتداء اعتداء، مع أنه مأذون فيه، ليكون في نظم الكلام مزاوجة؛ أي: مشاكلة.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ للدلالة على تحقق وقوعه؛ لأن مقتضى الظاهر أن يقال: لما يرون العذاب لاستقباله.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ اهتماماً بشأن الصبر وترغيباً فيه، والصبر هنا: هو الإصلاح المتقدم فأعيد هنا، وعبر عنه بالصبر؛ لأنه من شأن أولي العزم، وأشار إلى أن العفو المحمود ما نشأ عن التحمل، لا عن العجز، اهـ «شهاب».

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ لأن مقتضى الظاهر: أن يقال: ألا إنهم في عذاب مقيم، تسجيلاً عليهم باسم الظلم.

ومنها: تلوين للكلام، وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة، وتوجيه له إلى الرسول ﷺ في قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾؛ أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه، فما أرسلناك رقيباً.

ومنها: تصدير الشرطية الأولى بإذا المفيدة للتحقيق، مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة في قوله: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ للتنبيه على أن إيصال النعمة أمر محقق الوجود كثير الوقوع، وأنه مقتضى الذات، كما أن تصدير الشرطية الثانية في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بـ﴿إن﴾ المفيدة للشك، مع إسناد الإصابة إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم، للإيذان بندرة وقوعها، وأنها بمعزل عن الانتظام في سلك الإرادة بالذات.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم، وفيه أيضاً المجاز العقلي، حيث أسند هذه الخصلة إلى الجنس والكل، مع كونها من صفات المجرمين فقط، نظراً لغلبتهم فيما بين الأفراد، يعني: أنه حكم على الجنس بحال أغلب أفراده، لعلاقة الملابسة.

ومنها: التقسيم في قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾.

ومنها: الطباق بين الذكور والإناث.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾؛ لأنه حقيقة فيما يحيي به الروح، فاستعير للقرآن بجامع حصول الحياة بكل منهما، وإن كانت مختلفة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾؛ لأنه كناية عن الأحكام المشروعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) كان الفراغ من تفسير هذه السورة الكريمة، في تاريخ: ٢٥/ ١١/ ١٤١٤ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، في عصر يوم الجمعة، بعد صلاته، قبيل الغروب، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، تسليماً كثيراً.

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

١ ـ إنزال الوحي على رسوله ﷺ.

٢ ـ اختلاف الأديان ضروري للبشر.

٣ ـ أصول الشرائع واحدة لدى جميع الرسل.

٤ ـ اختلاف المختلفين في الأديان بغي وعدوان منهم.

٥ ـ إنكار نبوة محمد ﷺ، بعد أن قامت الأدلة على صدقه.

٦ ـ استعجال المشركين لمجيء الساعة، وإشفاق المؤمنين منها.

٧ ـ من يعمل للدنيا يؤت منها، وما له حظ في الآخرة، ومن يعمل للآخرة، يوفقه الله للخير.

٨ ـ ينزل الله الرزق بقدر، بحسب ما يرى من المصلحة.

٩ ـ من الأدلة على وجود الخالق خلق السمٰوات والأرض، وجرى السفن في البحار.

١٠ ـ متاع الآخرة خير وأبقى من متاع الدنيا.

١١ ـ جزاء السيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله سبحانه.

١٢ ـ تمني المشركين يوم القيامة العودة إلى الدنيا، حين يرون العذاب.

١٣ ـ نظر المشركين إلى النار بطرف خفي، إذا عرضوا عليها خاشعين من الذل.

١٤ ـ ليس على الرسول إلا البلاغ.

١٥ ـ يهب الله سبحانه لمن يشاء الإناث، ولمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً.

١٦ ـ أقسام الوحي إلى البشر.

١٧ ـ الرسول ﷺ قبل الوحي، ما كان يدري شيئاً من الشرائع.

١٨ ـ هدايته إلى صراط مستقيم.

والله أعلم

* * *

سورة الزخرف

سورة الزخرف: قال القرطبي: هي مكية بالإجماع، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة حم الزخرف بمكة، قال مقاتل: إلا قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ يعني: فإنها نزلت بالمدينة.

وآياتها[١]: تسع وثمانون آية، وكلماتها: ثمان مئة وثلاث وثلاثون كلمة. وحروفها: ثلاثة آلاف وأربع مئة حرف.

التسمية: سميت سورة الزخرف، لما فيها من التمثيل الرائع، لمتاع الدنيا الزائل، وبريقها الخادع، بالزخرف اللامع الذي ينخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة. ولهذا يعطيها الله تعالى للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله تعالى إلا لعباده المتقين، فالدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء.

ووجه مناسبتها لما قبلها[٢]: أن مفتتح هذه يشاكل مختتم تلك.

والحاصل: أن مناسبة هذه السورة لما قبلها من آل حم من وجهين.

الأول: تشابه مطلع هذه السورة مع مطلع وخاتمة السورة المتقدمة، في وصف القرآن الكريم، وبيان مصدره، وهو الوحي الإلهي.

الثاني: التشابه في إيراد الأدلة، القاطعة على وجود الله عز وجل ووحدانيته، ووصف أحوال الآخرة ومخاوفها، وأهوال النار التي تعرض لها الكفار، ومقارنته بنعيم الجنة، وإعداده للمؤمنين المتقين، انتهى من «التفسير المنير».

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.

فضلها: روي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الزخرف، كان ممن يقال لهم يوم القيامة: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ولكن فيه مقال.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم[1]: سورة الزخرف جميعها محكم غير آيتين:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ (الآية ٨٣) نسخت بآية السيف.

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ (الآية ٨٩) نسخت أيضاً بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الناسخ والمنسوخ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ۝١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝١٩ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ۝٢٤ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝٢٥﴾.

المناسبة

قد تقدم آنفاً بيان المناسبة بين السورتين، بأن هذه بدئت بذكر الكتاب المبين، الذي فيه بيان الصراط المستقيم، الذي ختمت به السورة السابقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أن المشركين منهمكون في كفرهم، وإعراضهم عما جاء به القرآن، من توحيد الله تعالى والبعث.. أبان هنا أن أفعالهم تخالف أقوالهم، فإن سألتهم عن الخالق لهذا الكون، من سمائه وأرضه ليقولن الله، وهم مع اعترافهم به يعبدون الأصنام والأوثان، ثم ذكر سبحانه وتعالى جليل أوصافه، فأرشد إلى أنه هو الذي جعل الأرض فراشاً، وجعل فيها طرقاً لتهتدوا بها في سيركم، ونزل من السماء ماء بقدر الحاجة، يكفي زرع النبات وسقي الحيوان، وخلق أصناف المخلوقات، من حيوان ونبات، وسخر لكم السفن والدواب لتركبوها، وتشكروا الله على ما آتاكم، وتقولوا لولا لطف الله بنا ما كنا لذلك بمطيقين، وإنا يوم القيامة إلى ربنا راجعون، فيجازي كل نفس بما كسبت إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنهم يعترفون بالألوهية، وأنه خالق السمٰوات والأرض.. أردف هذا ببيان أنهم متناقضون مكابرون، فهم مع اعترافهم لله بخلق السمٰوات والأرض، يصفونه بصفات المخلوقين، المنافية لكونه خالقاً لهما، إذ جعلوا الملائكة بنات له، ولا غرو، فالإنسان من طبعه الكفران، وجحود الحق، ومن عجيب أمرهم أنهم أعطوه أخس صنفي الأولاد، وما لو بشر به أحدهم اسودَّ وجهاً وامتلأ غيظاً، ومن يتربى في الزينة، وهو لا يكاد يبين حين الجدل، فلا يظهر حجة، ولا يؤيد رأياً، واختاروا لأنفسهم الذكران، ثم أعقبه بالنعي عليهم في جعلهم الملائكة إناثاً، وزاد في الإنكار عليهم ببيان أن مثل هذا الحكم لا يكون إلا عن مشاهدة، فهل هم شهدوا ذلك، ثم توعدهم على هذه المقالة، وأنه يوم القيامة يجازيهم بها.

ثم حكي عنهم شبهة أخرى، قالوا لو شاء الله أن لا نعبد الملائكة ما عبدناها، لكنه شاء عبادتها، لأنها هي المتحققة فعلاً، فتكون حسنة، ويمتنع

النهي عنها، ثم رد مقالهم بأن المشيئة إنما هي ترجيح بعض الأشياء على بعض، ولا دخل لها في حسن أو قبح، وبعد أن أبطل استدلالهم العقلي.. نفى أن يكون لهم دليل نقلي على صحة ما يدعون، ثم أبان أن ما فعلوه إنما هو بمحض التقليد عن الآباء، دون حجة ولا برهان، وهم ليسوا ببدع في ذلك، فكثير من الأمم قبلهم، قالوا مثل مقالهم، مع أن الرسل بينوا لهم الطريق السويّ، فكفروا به واتبعوا سنن من قبلهم حذو القذة بالقذة، فكان عاقبة أمرهم أن حل بهم نكالنا، كما يشاهدون ويرون من آثارهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا...﴾ الآيات، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن المنذر عن قتادة قال: قال ناس من المنافقين: إن الله صاهر الجن فخرجت من بينهم الملائكة، فنزل فيهم: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا...﴾ الآيات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حمٓ ۝١﴾ يحتمل[2] كونه اسماً للقرآن؛ أي: هذا القرآن يسمى بـ﴿حمٓ﴾، أو اسماً للسورة؛ أي: هذه السورة تسمى بـ﴿حمٓ﴾، وقيل: ﴿حمٓ﴾ إشارة إلى الاسمين الجليلين من أسمائه تعالى، وهما: الحنان والمنان.

فالحنان: هو الذي يقبل على من أعرض عنه. وفي «القاموس»: الحنان كشداد، اسم لله تعالى ومعناه: الرحيم انتهى.

والمنان: هو الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال، كما في «القاموس»: المنان من أسماء الله تعالى، المعطي ابتداء، انتهى. وقد جعل في داخل الكعبة ثلاث اسطوانات. الأولى: اسطوانة الحنان. والثانية: اسطوانة المنان، والثالثة: اسطوانة الديان، وإنما أضيفت إلى الله تعالى تعظيماً لها، كما قيل: بيت الله،

---

(١) لباب النقول.
(٢) روح البيان بتصرف.

وناقة الله، فأشار بهذه الأسماء الثلاثة، حيث جعلت في داخل الكعبة، المشار بها إلى الذات الأحدية، إلى أن مقتضى الذات هو الرحمة، والعطاء في الدنيا، والمجازاة والمكافأة في الآخرة، وبرحمته أنزل القرآن، كما قال مقسماً به: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ بالجر على أنه مقسم به، إما ابتداء أو عطفاً على ﴿حمٓ ①﴾ على تقدير كونه مجروراً بإضمار باء القسم، على أن مدار العطف المغايرة في العنوان، ومناط تكرير القسم المبالغة في تأكيد مضمون الجملة القسمية، ومعنى إقسام الله بالأشياء: استشهاده بما فيها من الدلالة على المقسم عليه، اهـ «بيضاوي». ﴿ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي: البين لمن أنزل عليهم، لكونه بلغتهم وعلى أساليبهم، فيكون من أبان بمعنى بان؛ أي: ظهر، أو المبين لطريق الهدى من طرق الضلالة، الموضح لكل ما يحتاج إليه في أبواب الديانة، فيكون من أبان بمعنى أظهر وأوضح.

وقال سهل: بين فيه الهدى من الضلالة، والخير من الشر، وبين سعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء، وقال بعضهم(١): المراد بالكتاب: الخط والكتابة، يقال: كتبه كتباً وكتاباً خطه، أقسم به تعظيماً لنعمته فيه، إذ فيه كثرة المنافع، فإن العلوم إنما تكاملت بسبب الخط والكتابة، فالمتقدم إذا استنبط علماً وأثبته في كتاب، وجاء المتأخر وزاد عليه، تكاثرت به الفوائد، يقول الفقير: لعل السبب في حمل الآية على هذا المعنى الغير الظاهر، لزوم اتحاد المقسم به والمقسم عليه، على تقدير حملها على القرآن، وليس بذلك، كما سيأتي، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أقسمت لك بالكتاب المبين، إنا صيرنا ذلك الكتاب ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ بإنزاله بلغة العرب ولسانها، ولم نصيره أعجمياً بإنزاله بلغة العجم، مع كونه كلامنا وصفتنا قائمة بذاتنا، عرية عن كسوة العربية، منزهة عنها وعن توابعها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لكي تفهموا القرآن العربي، وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق، والمعنى الفائق، ولتقفوا على ما تضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حق النعمة في ذلك، وتنقطع أعذاركم بالكلية،

---

(١) روح البيان.

إذ لو أنزلناه بغير لغة العرب ما فهمتموه، فلعل هنا مستعارة لمعنى كي، وهو التعليل، وسببية ما قبلها لما بعدها، لكون حقيقة الترجي والتوقع ممتنعة في حقه تعالى. لكونها مختصة بمن لا يعلم عواقب الأمور.

وحاصل معناها: الدلالة على أن الملابسة بالأول لأجل إرادة الثاني، من شبه الإرادة بالترجي، فقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في موضع النصب على المفعول له، وإنما سمي ﴿قُرْءَانًا﴾؛ لأنه جعل بعض سوره مقروناً بآخر.

فإن قلت: إن قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ يدل على أن القرآن مجعول، والمجعول مخلوق، وقد قال ﷺ: «القرآن كلام الله غير مخلوق».

قلت: المراد بالجعل هنا: تصيير الشيء على حالة دون حالة، وقال بعضهم: أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً، فالقسم والمقسم عليه من بدائع الأقسام لكونهما من واحد، فالمقسم به ذات القرآن العظيم، والمقسم عليه وصفه، وهو جعله قرآناً عربياً، فتغايرا، فكأنه قيل: والقرآن إنه ليس بمجرد كلام مفترى على الله وأساطير، بل هو الذي تولينا إنزاله على لغة العرب، فهذا هو المراد بكونه جواباً لا مجرد كونه عربياً، إذ لا يشك فيه.

وإنما جعله مقسماً به إشارة إلى أنه ليس عنده شيء أعظم قدراً، وأرفع منزلة منه حتى يقسم به، فإن المحب لا يؤثر على محبوبه شيئاً، فأقسم به، ليكون قسمه في غاية الوكادة، وكذا لا أهم من وصفه فيقسم عليه.

والمعنى(١): أي أقسمت بالكتاب المبين، لطريق الهدى والرشاد، الموضح لما يحتاج إليه البشر في دنياهم ودينهم، ليفوزوا بالسعادة على أننا جعلناه قرآناً عربياً، إذ كنتم أيها المنذرون به عرباً لتعقلوا ما فيه من عبر ومواعظ، ولتتدبروا معانيه، ولم ينزله بلسان العجم حتى لا تقولوا: نحن عرب، وهذا كلام أعجمي لا نفقه شيئاً مما فيه.

ثم بين شرفه في الملأ الأعلى تعظيماً له، وليطيعه أهل الأرض، فقال:

---

(١) المراغي بتصرف.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن ذلك الكتاب يعني: القرآن ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ وهو خبر أول لـ﴿إن﴾، والجملة معطوفة على جواب القسم، وسمي[1] اللوح المحفوظ أم الكتاب؛ لأنه أصل الكتب السماوية، فإن جميعها مثبتة فيه على ما هي عليه عند الأنبياء، ومأخوذة مستنسخة منه. وقوله: ﴿لَدَيۡنَا﴾ بدل من الجار والمجرور قبله، أو حال من الضمير المستكن فيه.

والمعنى: وإن هذا القرآن مثبت في اللوح المحفوظ، ومحفوظ لدينا، أو حال كونه محفوظاً لدينا عن تبديل وتغيير. وقوله: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ خبران آخران لـ﴿إن﴾ أيضاً؛ أي: وإن هذا الكتاب لعليّ؛ أي: لرفيع القدر من بين الكتب السماوية شريف حكيم؛ أي: ذو حكمة بالغة، أو محكم النظم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض، أو محكم لا يتطرق إليه نسخ بكتاب آخر، ولا تبديل.

والمعنى[2]: أي وإن هذا الكتاب في علمه الأزلي رفيع الشأن، لاشتماله على الأسرار والحكم التي فيها سعادة البشر، وهدايتهم إلى سبيل الحق، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بضم الهمزة، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي بكسرها، وعزاها ابن عطية يوسف بن عمرو إلى العراق غفلة منه، وقال ابن جريج: المراد بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية، وقال قتادة: أخبر عن منزلته وشرفه وفضله؛ أي: إن كذبتم به يا أهل مكة، فإنه عندنا شريف رفيع، محكم من الباطل، انتهى.

وبعد ما بين سبحانه علو شأن القرآن العظيم، وحقق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه، ويؤمنوا به، ويعملوا بموجبه، عقب ذلك بإنكار أن يكون بخلافه، فقال: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ﴾ والهمزة[3] فيه للاستفهام الإنكاري، داخلة على مقدر

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

يقتضيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير؛ أي: أنهملكم يا أهل مكة إهمالاً، فننحي عنكم الذكر والقرآن، ونبعده عنكم، ونمسك عن إنزاله لكم.

والمعنى: أنمسك عن إنزال ما لم ينزل منه، ونرفع ونزيل ما نزل منه، ونترك عنكم الأمر والنهي والوعد والوعيد، مأخوذ من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض؛ أي: طردها عنه. والمراد بالغرائب: البعران الأجانب؛ لأن الإبل إذا وردت الماء ودخلت فيها ناقة غريبة من غيرها ذبت وطردت عن الحوض، وقوله: ﴿صَفْحًا﴾ مفعول لأجله؛ أي: أفنضرب عنكم الذكر ونرفعه صفحاً وإعراضاً عنكم، أو حال من فاعل نضرب، أي: نضرب عنكم الذكر صافحين؛ أي: معرضين عنكم، أو مصدر معنوي لنضرب، فإن تنحية الذكر عنهم إعراض؛ أي: أفنعرض عنكم بترك إنزال الذكر صفحاً وإعراضاً لأجل ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾؛ أي: منهمكين في الإسراف، مجاوزين الحد في المعاصي، مصرين عليها على معنى: أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة، وتبقوا في العذاب الخالد، لكنا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نهديكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين ﷺ، وإنزال الكتاب المبين. قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن عاد بعائدته ورحمته، فكرره عليهم عشرين سنة، أو ما شاء الله سبحانه. وقرأ[1] نافع وحمزة والكسائي ﴿إن كنتم قوماً مسرفين﴾ بكسر الهمزة على أنها الشرطية. والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه، وقد تشكل هذه القراءة بأن إسرافهم كان متحققاً. فكيف دخلت عليه إن الشرطية التي لا تدخل إلا على غير المتحقق، أو على المتحقق الذي انبهم زمانه. وقرأ الجمهور ﴿أَن كُنتُمْ﴾ بفتح الهمزة؛ أي: من أجل أن كنتم، واختار أبو عبيد قراءة الفتح لما ذكر. وقرأ زيد بن علي ﴿إذ كنتم﴾ بالذال مكان النون.

والمعنى[2]: أي أنترك إنذاركم وتذكيركم بالقرآن لانهماككم في الكفر والإعراض عن أوامره ونواهيه، كلا لا نفعل ذلك رحمةً بكم، وقد كانت حالكم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

تدعو إلى تخليتكم، وما تريدون حتى تموتوا على الضلال، أراد أنه تعالى من رحمته ولطفه بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإلى الذكر الحكيم، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي من قدر له الهداية، وتقوم الحجة على من كتب له الشقاوة.

ثم قال مسلياً رسوله ﷺ على تكذيب قومه، آمراً له بالصبر، مهدداً للمشركين، منذراً لهم بشديد العقاب: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ ﴿كَمْ﴾ خبرية[1] بمعنى عدد كثير في موضع النصب، على أنه مفعول مقدم لأرسلنا، و﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ تمييز و﴿في الأولين﴾ متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أو بمحذوف مجرور على أنه صفة لنبي.

والمعنى: كثيراً من الأنبياء أرسلنا في الأمم الأولين والقرون الماضين. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾ ضمير يأتيهم إلى الأولين، وهو حكاية حال ماضية مستمرة، كما سيأتي؛ لأن ﴿مَآ﴾ إنما تدخل على مضارع في معنى الحال، أو على ماض قريب منها؛ أي: وما أتى وجاء أولئك الأولين نبي من الأنبياء والمرسلين ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي إلا كانوا يستهزؤون بذلك النبي ويكذبونه؛ أي: إلا كانوا مستمرين على التكذيب. يعني: أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق، هو التكذيب والاستهزاء، كما استهزأ قومك بك، فلا ينبغي لك أن تتأذى من قومك بسبب تكذيبهم واستهزائهم إياك؛ لأن المصيبة إذا عمت خفت ﴿فَأَهْلَكْنَآ﴾ واستأصلنا بسبب تكذيبهم أنبياءهم قوماً ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾؛ أي: أشد بطشاً وأخذاً وصولة، من هؤلاء القوم المسرفين. وهم قريش؛ أي: أهلكنا قوماً أشد قوة وجلداً، وأكثر عُدداً وعَدداً، من هؤلاء القوم الذين كذبوك، بسبب تكذيبهم أنبياءهم، و﴿بَطْشًا﴾ تمييز، وهو الظاهر، أو حال من فاعل ﴿أَهْلَكْنَا﴾؛ أي: باطشين. والبطش: تناول الشيء بصولة، والأخذ بشدة، كما سيأتي في مبحث المفردات. وهذا وعد له ﷺ ووعيد لهم بمثل ما جرى على الأولين، ووصفهم بأشدية البطش؛ لإثبات حكمهم لهؤلاء المشركين بطريق

---

(١) روح البيان.

الأولوية.

والمعنى: أي[1] وكثيراً ما أرسلنا في الأمم الغابرة رسلاً قبلك، كما أرسلناك إلى قومك قريش، وكلما أتى نبي أمته يدعوهم إلى الهدى وطريق الحق، استهزؤوا به، وسخروا منه، كما يفعل قومك بك، فقومك ليسوا ببدع في الأمم، ولا أنت ببدع في الرسل، فلا تأس على ما تجد منهم، ولا يشقن ذلك عليك، فهم قد سلكوا سبيل من قبلهم، واحتذوا حذوهم، ونهجوا نهجهم حذو القذة بالقذة، وكن كما كان أولو العزم من الرسل، واصبر كما صبروا على ما أوذوا في سبيل الله.

ثم ذكر عقبى تكذيبهم واستهزائهم برسله، تسلية لرسوله وتحذيراً لهم، فقال: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾؛ أي: فأهلكنا المكذبين بالرسل، ولم يقدروا على دفع بأسنا إذ أتاهم، وقد كانوا أشد بطشاً من قومك، وأشد قوة، فأحرى بهؤلاء أن لا يعجزونا، ونحو الآية: قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ﴾ الآيــة. ﴿وَمَضَىٰ﴾؛ أي: سلف، وسبق في القرآن غير مرة ﴿مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: ذكر صفتهم وبيان قصتهم وخبرهم وشديد عقوبتهم، التي حقها أن تسير مسير المثل، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم.

وفي هذا كما مر، تهديد شديد؛ لأنه يتضمن أن الأولين أهلكوا بتكذيب الرسل، وهؤلاء إن استمروا على تكذيبك والكفر بما جئت به، هلكوا مثلهم، وفي الآية[2] إشارة إلى كمال ظلومية نفس الإنسان وجهوليته، وكمال حلم الله سبحانه وكرمه، وفضل ربوبيته، بأنهم وإن بالغوا في إظهار أوصافهم الذميمة، وأخلاقهم اللئيمة، بالاستهزاء من الأنبياء والمرسلين، والاستخفاف بهم إلى أن كذبوهم، وسعوا في قتلهم من أهل الأولين والآخرين، وكذلك يفعل أهل كل زمان مع ورثة الأنبياء، من العلماء العاملين الناصحين لهم، والداعين إلى الله،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والهادين لهم، فالله تعالى لم يقطع عنهم مراحم فضله وكرمه، وكان يبعث إليهم الأنبياء، وينزل عليهم الكتب، ويدعوهم إلى جنابه، وينعم عليهم بعفوه وغفرانه، ومن غاية إفضاله وإحسانه تأديباً وترهيباً بعباده، أهلك بعض المتمردين المتمادين في الباطل، ليعتبر المتأخرون من المتقدمين.

والخلاصة: أي وقد مضت سنتنا في المكذبين لرسلهم من قبلكم، ورأيتم ما حل بهم، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم، ونحو الآية: قوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾، وقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن سألت يا محمد هؤلاء الكفار من قومك ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: من خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية ﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ أي: ليقولن هؤلاء المشركون من قومك اعترافاً بالصانع، وإقراراً بربوبيته ﴿خَلَقَهُنَّ﴾؛ أي: خلق هذه الأجرام المذكورة، وأوجدها الخالق ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في حكمه وملكه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوال خلقه، وذلك أسوأ لحالهم وأشد لعقوبتهم؛ لأنهم عبدوا بعض مخلوقات الله، وجعلوه شريكاً له، بل عمدوا إلى ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر من المخلوقات، وهي الأصنام، فجعلوها شركاء لله سبحانه.

قال في «الإرشاد»: ليسندن خلقها، وينسبنه إلى من هذا شأنه في الحقيقة، وفي نفس الأمر، لا أنهم يعبرون عنه بهذا العنوان، وقد جوز أن يكون ذلك عين عبارتهم. وفي «فتح الرحمٰن»: ومقتضى جواب قريش أن يقولوا: خلقهن الله، فلما ذكر الله تعالى المعنى، جاءت العبارة عن الله بالعزيز العليم، ليكون ذلك توطئة لما عدده بعد من أوصافه التي ابتدأ الإخبار بها، وقطعها عن الكلام الذي حكي معناه عن قريش، وهو قوله: الذي... إلخ.

والمعنى[1]: أي ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين من قومك: من

---

(١) المراغي.

خلق السموات والأرض؟ لأجابوك بقولهم: خلقهن العزيز في سلطانه، وانتقامه، من أعدائه، العليم بهن، وما فيهن، لا يخفى عليه شيء من ذلك.

والخلاصة: أنهم يعترفون بأنه لا خالق لهما سواه، وهم مع هذا، يعبدون معه تعالى غيره من الأصنام والأوثان.

ثم وصف سبحانه نفسه، بما يدل على عظيم نعمته على عباده، وكمال قدرته في مخلوقاته، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وصير ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أي: فراشاً وبساطاً، وهذا كلام مستأنف غير متصل بما قبله، ولو كان متصلاً بما قبله من جملة مقول الكفار.. لقالوا: الذي جعل لنا الأرض مهاداً. وقرأ[1] الجمهور: ﴿مِهَٰدًا﴾. وقرأ الكوفيون ﴿مهدا﴾. والمهد والمهاد: المكان الممهد الموطأ، لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾؛ أي: بسطها لكم تستقرون فيها، وفي «بحر العلوم» جعل الأرض مسكناً لكم تقعدون عليها، وتنامون، وتتقلبون كما يتقلب أحدكم على فراشه ومهاده. وفي «الخازن»: معناه: جعلها واقفة ساكنة يمكن الانتفاع بها، ولما كان المهد موضع راحة الصبي، شبهها به، وسمى الأرض مهاداً لكثرة ما فيها من الراحة للخلق، انتهى. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿سُبُلًا﴾؛ أي: طرقاً تسلكونها في أسفاركم، إلى حيث تريدون، لقضاء حوائج الدين والدنيا، وقيل: معايش تعيشون بها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بها، وتصلون إلى مقاصدكم ومنافعكم، أو بالتفكر فيها إلى التوحيد الذي هو المقصد الأصلي.

والمعنى[2]: والعزيز العليم هو الإله الذي مهد لكم **الأرض**، وجعلها لكم وطاءاً تطؤونها بأقدامكم. وتمشون عليها بأرجلكم، وجعل لكم فيها طرقاً تنتقلون فيها من بلد إلى آخر، ومن إقليم إلى إقليم لمعاشكم ومتاجركم وابتغاء رزقكم.

والخلاصة: أن الخلق كلهم يتربون على الأرض، وهي موضع راحتهم كما يربي الصبي على مهده.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ أي: وهو الإله الذي نزل من السماء ماء ﴿بِقَدَرٍ﴾؛ أي: بمقدار ووزن ينفع العباد والبلاد ولا يضرهم؛ أي: ينزله بقدر الحاجة، وحسبما تقتضيه المصلحة، ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زروعكم، ويهدم منازلكم، ويهلككم بالغرق كما في الطوفان، ولا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة، وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته في أرزاق عباده بالتوسيع تارة، والتقتير أخرى.

وهذه[١] عادة الله سبحانه في عامة الأوقات، وقد ينزل بحسب الحكمة ما يحصل به السيول فيضرهم، وذلك في عشرين أو ثلاثين سنة مرة ابتلاء منه لعباده، وأخذاً لهم بما اقترفوا كما جرب ذلك ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ﴾؛ أي: فأحيينا بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾؛ أي: أرضاً مقفرة من النبات والنماء، خالية منه بالكلية، والإنشار: إحياء الميت، شبه زوال النماء عنها بزوال الحياة عن البدن، وتذكير ميتا، لأن البلدة في معنى البلد، أو المكان، أو الفضاء. وقال سعدي المفتي: لا يبعد، والله تعالى أعلم أن يكون تأنيث البلدة، وتذكير الميت إشارة إلى بلوغ ضعف حاله الغاية. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم خطره كما سيأتي في مبحث البلاغة، وميتاً مخففاً من الميت مشدداً، قرأ الجمهور[٢]: ﴿ميتا﴾ بالتخفيف. وقرأ عيسى وأبو جعفر بالتشديد.

﴿كَذَلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الإحياء الذي هو في الحقيقة إخراج النبات من الأرض ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم، وتبعثون أحياء، فإن من قدر على هذا قدر على ذلك، فتشبيه إحيائهم بإحياء البلدة الميت، كما يدل على قدرة الله تعالى وحكمته مطلقاً، فكذلك يدل على قدرته على القيامة والبعث. وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذي هو إحياء الموتى، وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث لتقويم سند الاستدلال، وتوضيح منهاج القياس.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وعبد الله بن جبير المصبح وعيسى وابن عامر والأخوان حمزة والكسائي: ﴿تَخْرُجون﴾ مبنياً للفاعل.

والمعنى: أي[2] وهو الإله الذي ينزل من السماء ماء بقدر الحاجة، فلا يجعله كثيراً حتى لا يكون عذاباً، كالطوفان الذي أنزل على قوم نوح، ولا قليلاً لا يكفي النبات والزرع، لئلا تهلكوا جوعاً، فتحي به الأقاليم التي كانت خالية من النبات والشجر، وكما أحيينا الأرض بعد موتها بالماء نحييكم ونخرجكم من قبوركم أحياء ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ أي: خلق أصناف المخلوقات بأسرها، كما قال: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يشذ شيء منها عن إيجاده واختراعه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الأزواج: الضروب والأنواع، كالحلو والحامض، والأبيض والأسود. والذكر والأنثى، وقيل: كل ما سوى الله فهو زوج كفوق وتحت، ويمين وشمال، وقدام وخلف، وماض ومستقبل، وذات وصفات، وأرض وسماء، وبر وبحر، وشمس وقمر، وليل ونهار، وصيف وشتاء، وجنة ونار إلى غير ذلك مما لا يحصى، وكونها أزواجاً يدل على أنها ممكنة الوجود، وأن محدثها فرد منزه عن المقابل والمعارض ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾؛ أي: من السفن الجارية في البحر ﴿وَالْأَنْعَـٰمِ﴾؛ أي: من الإبل والدواب، أعني: الخيل والبغال والحمير ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾؛ أي: ما تركبونه في البحر والبر على تغليب إحدى اعتباري الفعل لقوته على الآخر، فإن ركب يعدى إلى الأنعام بنفسه، يقال: ركبت الدابة وإلى الفلك بواسطة حرف الجر، يقال: ركبت في الفلك، وتقديم البيان على المبين للمحافظة على الفاصلة النونية. وتقديم الفلك على الأنعام، لأن الفلك أدل دليل على القدرة الباهرة، والحكمة البالغة.

والمعنى: أي وهو الإله الذي خلق سائر الأصناف، مما تنبت الأرض من

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

نبات، وأشجار، وثمار، وأزاهير، ومن الحيوان على اختلاف أجناسها وألوانها ولغاتها، وجعل لكم من السفن ما تركبونه في البحار، إلى حيث تقصدون لمعايشكم ومتاجركم، ومن الأنعام ما تركبونه في البر، كالإبل والخيل والبغال والحمير، ومما سَيَجِدُّ من وسائل المواصلات، وطرق النقلة براً وبحراً، كما جاء في سورة النحل، من قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ من الباخرة، والطائرة، والسيارة إلى غير ذلك. ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾؛ أي: لتستعلوا على ظهور ما تركبونه من الفلك والأنعام، والظهور للأنعام حقيقة لا للفلك، فدل على تغليب الأنعام على الفلك، وإيراد لفظ ظهور بصيغة الجمع، مع أن ما أضيف إليه مفرد، نظراً للمعنى؛ لأن مرجع الضمير جمع في المعنى، وإن كان مفرداً في اللفظ ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ عليكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ﴾ وارتفعتم ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على ظهر ما تركبونه. والمراد: الذكر بالقلوب؛ لأنه هو الأصل، وله الاعتبار، فقد ورد «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم، بل إلى قلوبكم ونياتكم»، وبه يظهر وجه إيثار تذكروا على تحمدوا.

والمعنى: ثم تذكروا نعمة ربكم بقلوبكم إذا استعليتم عليه، معترفين بها مستعظمين لها، ثم تحمدوا عليها بألسنتكم ﴿وَتَقُولُوا﴾ متعجبين من ذلك ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ﴾ وذلل ﴿لَنَا هَٰذَا﴾ المركوب، وقرأ علي بن أبي طالب ﴿سبحان من سخر لنا هذا﴾ ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ﴾؛ أي: لهذا المركوب ﴿مُقْرِنِينَ﴾؛ أي: مطيقين بتذليلها، وقرىء ﴿مقترنين﴾ اسم فاعل من اقترن، يعني: ليس عندنا من القوة والطاقة، أن نقرن هذه الدابة والفلك، وأن نضبطها، فسبحان من سخر لنا هذا بقدرته وحكمته، وهذا من[1] تمام ذكر نعمته تعالى، إذ بدون اعتراف المنعم عليه، بالعجز عن تحصيل النعمة، لا يعرف قدرها، ولا حق المنعم بها ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ ومالك أمرنا، لا إلى غيره ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: راجعون بالموت، فيجازي كل نفس بما عملت، فاستعدوا لهذا اليوم، ولا تغفلوا عن ذكره في حلكم وترحالكم

---

(١) روح البيان.

يوم ظعنكم وإقامتكم، وهذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة، وفيه إقرار بالرجوع إلى الله بالبعث، لأن الراكب في مظنة الهلاك بالغرق إذا ركب الفلك، وبعثور الدابة، إذ ركوبها أمر فيه خطر، ولا تؤمن السلامة فيه.

وجاء في الحديث: أنه ﷺ كان إذا وضع رجله في الركاب قال: «بسم الله»، فإذا استوى على الدابة قال: «الحمد لله على كل حال، سبحان الذي سخر لنا هذا» إلى قوله: «لمنقلبون»، وكبر ثلاثاً، وهلل ثلاثاً.

وقالوا: إذا ركب في السفينة، أو الباخرة، أو الطائرة، أو السيارة قال ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾. ويقال عند النزول منها: «اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً، وأنت خير المنزلين»، كما يدل عليه قصة ركوب نوح عليه السلام السفينة، ونزوله منها.

ومعنى الآية[1]: أي لكي تستووا، على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام، ثم تذكروا نعمة ربكم، الذي أنعم بها عليكم، فتعظموه وتمجدوه، وتقولوا تنزيهاً له عما يصفه المشركون: سبحان الذي سخر لنا هذا الذي ركبناه، وما كنا لولا تسخيره وتذليله بمطيقين ذلك، فالأنعام مع قوتها ذللها للإنسان، ينتفع بها حيث شاء وكيفما أراد، ولولا ذلك ما استطاع الانتفاع بها، ولقد أشار إلى نحومن هذا العباس بن مرداس، فقال في وصف الجمل:

وَتَضْرِبُهُ الوَلِيْدة بالهَرَاوىٰ ... فلا غيرٌ لَدَيْهِ وَلاَ نَكِيْرُ

واعلم: أنه سبحانه وتعالى، عين لنا ذكراً خاصاً حين ركوب السفينة، وهو قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾، وذكراً آخر حين ركوب الأنعام، وهو قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾، وذكراً ثالثاً حين دخول المنازل، وهو قوله: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

---

(١) المراغي.

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر ركب راحلته، ثم كبر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾. قال القرطبي: علمنا[١] سبحانه وتعالى ما نقول، إذا ركبنا الدواب، وعرفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن، فكم من راكب دابة عثرت به، أو شمست، أو تقحمت[٢] أو طاح عن ظهرها، فهلك، وكم من راكب سفينة انكسرت به فغرق.

فلما كان الركوب مباشرة أمر محظور، واتصالاً بسبب من أسباب التلف، أمر أن لا ينسى عند اتصاله به موته، وأنه هالك لا محالة، فمنقلب إلى الله عز وجل، غير منفلت من قضائه، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه، حتى يكون مستعداً للقاء الله والحذر من أن يكون ركوبه ذلك، من أسباب موته في علم الله، وهو غافل عنه، انتهى.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكفار، الذين تقدم ذكرهم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾؛ أي: وجعل بعض مشركي العرب ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ومخلوقاته، والمراد بالعباد: الملائكة، وهو حال من ﴿جُزْءًا﴾؛ أي بنات وإناثاً، والجاعلون[٣] هم قبائل من العرب قالوا: إن الله صاهر الجن فولدت له الملائكة وقال بعضهم: الآية ردٌّ على بني مليح حيث قالوا: الملائكة بنات الله ومليح بالحاء المهملة مصغراً كزبير حي من خزاعة كما في «القاموس» والجعل هنا بمعنى الحكم بالشيء والاعتقاد به قال في «القاموس»: الجزء البعض، وأجزأت الأم ولدت الإناث.

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾؛ أي: إناثاً انتهى. وإنما عبر عن الولد بالجزء لأنه بعض أبيه وجزء منه كما قال ﷺ: «إن فاطمة مني»؛ أي: قطعة مني وقال

---

(١) القرطبي.

(٢) يقال: تقحم الفرس براكبه إذا ألقاه على وجهه.

(٣) روح البيان.

أيضاً: «فاطمة بضعة مني» والبضعة القطعة والجزء عند أهل العربية البنات، يقال: قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات ومنه قول الشاعر:

إذا اجزأت حرة يوماً فلا عجب قد تجزىء الحرة المذكار أحياناً

وقد جعل صاحب «الكشاف» تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير وصرح بأنه مكذوب على العرب. ويجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج والمبرد، وهما إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى في معرفتها، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتي قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ وقيل: المراد بالجزء هنا: الملائكة، فإنهم جعلوهم أولاد الله سبحانه وتعالى، قاله مجاهد والحسن.

ومعنى الآية[١]: واعتقد المشركون، وحكموا، وأثبتوا له تعالى ولداً حال كون ذلك الولد من الملائكة الذين هم عباده، فقالوا: الملائكة بنات الله بعد اعترافهم بألسنتهم، واعتقادهم أن خالق السمٰوات والأرض هو الله، فكيف يكون له ولد، والولادة من صفات الأجسام، وهو خالق الأجسام كلها، ففيه تعجيب من جهلهم، وتنبيه على قلة عقولهم حيث وصفوه بصفات المخلوقين، وإشارة إلى أن الولد لا يكون عبد أبيه، والملائكة عباد الله فكيف تكون البنات عباداً، وقيل: الجزء ههنا بمعنى النصيب، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾؛ أي: نصيب.

ومعنى الآية: معنى قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ وذلك أنهم جعلوا البنات لله والبنين لأنفسهم كما سيأتي.

والحاصل[٢]: أن مقالتهم هذه، أعني قولهم: إن الملائكة بنات الله، تقتضي الكفر من وجهين:

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

الأول: كون الخالق جسماً محدثاً، لمشابهة الولد له، فلا يكون إلٰهاً ولا خالقاً.

والثاني: الاستخفاف به، إذ جعلوا له أضعف نوعي الإنسان وأخسهما.

ثم أكد كفرهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: إن الكافر، يعني: قائل ذلك ﴿لَكَفُورٌ﴾؛ أي: لجحود بنعم ربه التي أنعمها عليه ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر كفره لمن تأمل حاله وتدبر أمره، لأن نسبة الولد إليه كفر، والكفر أصل الكفران كله، ولذلك يقولون ما يقولون سبحانه وتعالى عما يصفون.

ثم زاد في الإنكار عليهم والتعجب من حالهم، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وأم[1] منقطعة، مقدرة ببل الإضرابية، وبالهمزة، على أنها للإنكار والتوبيخ، والتعجيب من شأنهم، وتنكير بنات لتربية الحقارة، كما أن تعريف البنين في قوله: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ لتربية الفخامة، وقدم البنات لكون المنكر عليهم نسبتهن إلى الله تعالى، فكان ذكرهن أهم بالنظر إلى مقصود المقام، والالتفات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتشديد التوبيخ، والإصفاء: الإيثار.

والمعنى[2]: بل أأتخذ من خلقه البنات، التي هي أخس الصنفين، واختار لكم البنين، الذين هم أفضلهما على معنى: هبوا أنكم اجترأتم على إضافة جنس الولد إليه سبحانه وتعالى، مع ظهور استحالته وامتناعه، أما كان لكم شيء من العقل، ونبذة من الحياء، حتى اجترأتم على ادعاء أنه تعالى آثركم على نفسه، بخير الصنفين وأعلاهما، وترك لنفسه شرهما وأدناهما، فإن الإناث كانت أبغض الأولاد عندهم، ولذا وأدوهن، ولو اتخذ لنفسه البنات، وأعطى البنين لعباده، لزم أن يكون حال العبد أكمل، وأفضل من حال الله، ويدفعه بديهة العقل، فما أنتم إلا حمقى جهلاء، ونحو الآية قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ جائرة.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ثم زاد في توبيخهم وتقريعهم والإنكار عليهم، فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾؛ أي: أخبر أحد المشركين الذين جعلوا الملائكة بنات الله، كبني مليح ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾؛ أي: بولادة ما جعله شبهاً للرحمٰن، والالتفات هنا إلى الغيبة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم، أن يعرض عنهم ويحكي لغيرهم تعجباً منها، وضرب هنا بمعنى جعل، المتعدي إلى مفعولين، حذف الأول منهما، لا بمعنى بين، ومثلاً بمعنى شبيه، لا بمعنى القصة العجيبة، كما في قولهم: ضرب له المثل بكذا.

والمعنى: وإذا أخبر أحد المشركين بولادة ما جعله مثلاً للرحمٰن، وشبيهاً له تعالى، إذ الولد لا بد أن يجانس الوالد ويماثله ﴿ظَلَّ﴾ من الظلول بمعنى الصيرورة؛ أي: صار ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾؛ أي: شديد السواد من سوء ما بشر به، ولذا قيل: من رأى في المنام أن وجهه أسود، ولدت له بنت، ويحتمل أن يكون اسوداد الوجه عبارة عن الكراهة، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ أي: حزين؛ أي: والحال أنه مملوء من الكرب والكآبة، يقال: رجل كظيم ومكظوم؛ أي: مكروب كما في «القاموس».

وقرىء[1]: ﴿مسود ومسواد﴾ بالرفع، واسم ظل حينئذٍ إما ضمير يعود على أحد، وجملة ﴿وجهه مسود﴾ من المبتدأ والخبر خبرها، وإما وجهه فمسود، خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو مسود، فتقع هذه الجملة موقع خبر ظل.

والمعنى[2]: أي وإذا بشر أحد هؤلاء المشركين، بما جعله مشابهاً للرحمٰن، وهو الأنثى.. أنف من ذلك، واغتم، وعلته الكآبة من سوء ما بشر به، فصار وجهه متغيراً، وأضحى ممتلئاً غيظاً، شديد الحزن، كثير الكرب، فكيف تأنفون أنتم من البنات، وتنسبونها إلى الله سبحانه وتعالى.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ

---

(١) المراح والبيضاوي.

(٢) التفسير المنير.

﴿٥٨﴾ ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ الآية وروي[١]: أن بعض العرب وضعت امرأته أنثى، فهجر البيت الذي ولدت فيه، فقالت:

مَـا لأَبِـيْ حَـمْـزَةَ لاَ يَـأْتِـيْـنَـا ... يَـظَـلُّ فِـيْ ٱلْـبَـيْـتِ ٱلَّـذِيْ يَـلِـيْـنَـا
غَـضْـبَـانَ أَنْ لاَ نَـلِـدَ ٱلْـبَـنِـيْـنَـا ... لَـيْـسَ لَـنَـا مِـنْ أَمْـرِنَـا مَـا شِـيْـنَـا
وَإِنَّـمَـا نَـأْخُـذُ مَـا أُعْـطِـيْـنَـا

يقول الفقير: هذه[٢] صفة المشركين، فإنهم جاهلون بالله، غافلون عن خفي لطفه، تحت جلي قهره، وأما الموحدون فحالهم الاستبشار، بما ورد عن الله أيا كان، إذ لا يفرقون بين أحد من رسله، كما أن الكريم لا يغلق بابه على أحد من الضيفان، والفاني عما سوى الله تعالى ليس له مطلب، وإنما مطلبه ما أراد الله تعالى.

ثم كرر الإنكار وأكده، فقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري الاستقباحي داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿مَن﴾ واقعة على الأنثى، والتنشئة: التربية، والحلية ما يتحلى به الإنسان ويتزين، والتقدير[٣]: أيجترئون ويبلغون الغاية في إساءة الأدب ويجعلون لله تعالى الأنثى التي تنشأ وتربى وتكبر في الحلية والزينة لنقصها، إذ لو كملت في نفسها، لما تكملت بالزينة، وهي أيضاً ناقصة العقل، لا تقدر على إقامة الحجة عند الخصام كما قال ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: ذلك المنشأ في «الحلية» ذكر الضمير باعتبار لفظ من؛ أي: وهو مع ما ذكر من نقص ذاتها ﴿فِى ٱلْخِصَامِ﴾؛ أي: مع من يخاصمه ويجادله؛ أي: في الجدال الذي لا يكاد يخلو الإنسان منه في العادة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾؛ أي: غير قادر على تقرير دعواه، وإقامة حجته، كما يقدر الرجل عليه، لنقصان عقله وضعف رأيه، وربما يتكلم عليه، وهو يريد أن يتكلم له، وهذا بحسب الغالب، وإلا فمن الإناث من هو أهل الفصاحة، والفاضلات على الرجال.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) الفتوحات.

قال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر رضي الله عنه حتى مضى، وكلام عمر رضي الله عنه حتى مضى، وكلام عثمان رضي الله عنه حتى مضى، وكلام علي رضي الله عنه حتى مضى، لا والله، ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله عنها وقال معاوية رضي الله عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة، ما أغلقت باباً، فأرادت فتحه، إلا فتحته، ولا فتحت باباً، فأرادت إغلاقه إلا أغلقته، ويدل عليه قوله ﷺ في حقها: «إنها ابنة أبي بكر» إشعارا بحسن فهمها، وفصاحة منطقها.

والمعنى[١]: أي أو قد جعلوا لله الأنثى التي تتربى في الزينة، وإذا خوصمت لا تقدر على إقامة حجة، ولا تقرير دعوى، لنقصان عقلها وضعف رأيها، وما كان ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك.

وفي قوله ﴿يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ إيماً[٢] إلى ما فيهن من الدعة والراحة ورخاوة الخلق، بضعف المقاومة الجسمية واللسانية، كما أن فيه دلالة على أن النشوء في الزينة، ونعومة العيش من المعايب والمذام للرجال، وهو من محاسن ربات الحجال، فعليهم أن يجتنبوا ذلك، ويأنفوا منه، ويربؤوا بأنفسهم عنه، قال شاعرهم:

كُتِبَ ٱلْقَتْلُ وَٱلْقِتَالُ عَلَيْنَا ... وَعَلَىٰ ٱلْغَانِيَاتِ جَرُّ ٱلذُّيُوْلِ

ورُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: اخشوشنوا في الطعام، واخشوشنوا في اللباس، وتمعددوا؛ أي: تزيوا بزي معد في تقشفهم، وفي الآية، دلالة على أن التحلي بالذهب والحرير مباح للنساء، وأنه حرام على الرجال؛ لأنه تعالى جعل ذلك عنوانا على الضعف والنقصان، وإنما زينة الرجال الصبر على طاعة الله تعالى، والتزين بزينة التقوى.

وفيها إشارة[٣] إلى أن المرء المتزين كالمرأة، فالعاقل يكتفي بما يدفع الحر والبرد، ويجتهد في تزيين الباطن، فإنه المنظر الإلهي، ولو كانت للنساء عقول

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

راجحة، لما ملن إلى التزين بالذهب والفضة والحلي والحلل.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ينشأ﴾ مبنيا للفاعل؛ أي: بفتح الياء وإسكان النون. وقرأ الجحدري في رواية مبنيا للمفعول مخففا. وقرأ ابن عباس وزيد بن علي والحسن ومجاهد والجحدري في رواية والأخوان - حمزة والكسائي - وحفص والمفضل وأبان وابن مقسم وهارون، عن أبي عمرو وخلف: بضم الياء، وفتح النون، وتشديد الشين، مبنيا للمفعول، وقرأ الحسن في رواية ﴿يناشؤ﴾ على وزن يفاعل، مبنيا للمفعول، والمناشأة بمعنى: الإنشاء. كالمعالاة بمعنى الإعلاء، واختار قراءة الجمهور أبو حاتم، واختار أبو عبيد قراءة ابن عباس، قال الهروي الفعل على القراءة الأولى لازم، وعلى الثانية متعد ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾؛ أي: سموا الملائكة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ وحكموا لهم بذلك، وهذا بيان لتضمن كفرهم المذكور لكفر آخر، وتقريع لهم بذلك، وهو جعلهم أكمل العباد، وأكرمهم على الله، أنقصهم رأيا وأخسهم صنفا، وفيه رد لقولهم: الملائكة بنات الله، وفي قولهم هذا كفر من ثلاثة أوجه:

١ - أنهم نسبوا إلى الله الولد.

٢ - أنهم أعطوه أخس النصيبين.

٣ - أنهم استخفوا بالملائكة بجعلهم إناثا، وقرأ الجمهور: ﴿إِنَـٰثًا﴾، وقرأ زيد بن علي ﴿أنثا﴾: جمع الجمع.

وقرأ عمر بن الخطاب والحسن وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والابنان - ابن كثير وابن عامر - ونافع: ﴿عند الرحمٰن﴾ بالنون ظرفا، وهو أدل على رفع المنزلة، وقرب المكانة، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، وقرأ عبد الله وابن عباس وابن جبير وعلقمة وباقي السبعة: ﴿عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ جمع عبد لقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، وقرأ الأعمش ﴿عباد الرحمٰن﴾ جمعاً، وبالنصب

---

(١) البحر المحيط.

حكاها ابن خالويه، قال: وهي في مصحف ابن مسعود كذلك، والنصب على إضمار فعل، أي: الذين هم خلقوا عباد الرحمٰن، وأنشؤوا عباد الرحمٰن إناثاً، وقرأ أبي: ﴿عبد الرحمٰن﴾ مفرداً، ومعناه الجمع؛ لأنه اسم جنس.

وقد رد الله سبحانه وتعالى مقالهم، فقال: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ والهمزة للاستفهام الإنكاري، وهو من الشهود[1] بمعنى الحضور، لا من الشهادة؛ أي: أحضروا خلق الله تعالى إياهم، فشاهدوهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتهم، فإن ذلك إنما يعلم بالمشاهدة، وهو تجهيل لهم وتهكم بهم، فإنهم إنما سمعوه من آبائهم، وهم أيضاً كذابون جاهلون، وفيه تخطئة للمنجمين، وأهل الحكمة المموهة في كثير من الأمور، فإنهم بعقولهم القاصرة حكموا على الغيب.

قال العماد الكاتب: أجمع المنجمون في سنة اثنتين وثمانين، وخمس مئة في جميع البلاد، على خراب العالم في شعبان، عند اجتماع الكواكب الستة، في الميزان، بطوفان الريح، وخوفوا بذلك ملوك الأعاجم والروم، فشرعوا في حفر مغارات، ونقلوا إليها الأزواد، والماء، وتهيؤوا، فلما كانت الليلة التي عينها المنجمون، بمثل ريح عاد، ونحن جلوس عند السلطان، والشموع تتوقد فلا تتحرك، ولم نر ليلة في ركودها مثلها.

ونحو الآية قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ وفي هذا تجهيل لهم، ورمي لهم بالسفه والحمق، وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَشَهِدُواْ﴾: بهمزة الاستفهام، داخلة على شهدوا، ماضياً مبنياً للفاعل؛ أي: أحضروا خلقهم، وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني التي تطلب أن تؤدىٰ، وقرأ نافع بهمزة استفهام، داخلة على أشهدوا رباعياً، مبنياً للمفعول ﴿أشهدوا﴾: بلا مد بين الهمزتين، ورُوي عنه بمدة بينهما، وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد، وفي رواية أبي عمرو، ونافع بتسهيل الثانية بلا مد، وقرأ جماعة كذلك بمد بينهما، وعن علي والمفضل عن عاصم، تحقيقهما بلا مد، وقرأ الزهري وناس

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

﴿أشهدوا﴾ بغير استفهام مبنياً للمفعول رباعياً، فقيل: المعنى على الاستفهام، حذفت الهمزة لدلالة المعنى عليها.

وقيل: سألهم الرسول ﷺ: «ما يدريكم أنهم إناث»، فقالوا: سمعنا ذلك من آبائنا، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا، فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها في الآخرة؛ أي: ستكتب شهادتهم هذه، التي شهدوا بها في الدنيا، أي: يكتب الملك ما شهدوا به على الملائكة، في ديوان أعمالهم، ويسألون عنها يوم القيامة، ليأتوا ببرهان على صحتها، ولن يجدوا لذلك سبيلاً.

وقال سعدي المفتي[1]: السين في ﴿سَتُكْتَبُ﴾ للتأكيد، ويحتمل أن تكون للاستعطاف إلى التوبة، قبل كتابة ما قالوه، وفي الحديث: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يساره، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة، قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح الله أو يستغفره». وفي هذا دليل على أن القول بغير برهان منكر، وأن التقليد لا يغني من الحق شيئاً، ثم في الآية إشارة إلى أن الله تعالى أمهل عباده، ولم يأخذهم بغتة في الدنيا، ليرى العباد أن العفو والإحسان، أحب إليه من الأخذ والانتقام، وليتوبوا من الكفر والمعاصي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَتُكْتَبُ﴾ بالتاء من فوق، مبنياً للمفعول، ﴿شَهَٰدَتُهُمْ﴾ بالرفع مفرداً، وقرأ الزبيري كذلك، إلا أنه بالياء، وقرأ الحسن كذلك إلا أنه بالتاء، وجمع شهادتهم، وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وأبو جعفر وأبو حيوة وابن أبي عبلة والجحدري والأعرج ﴿سنكتب﴾ بالنون مبنياً للفاعل. ﴿شهادتهم﴾: على الإفراد، وقرأت فرقة ﴿سيكتب﴾ بالياء مبنياً للفاعل؛ أي: الله ﴿شهادتهم﴾ بالنصب.

ثم حكى الله سبحانه وتعالى عنهم، فنّاً آخر من فنون كفرهم بالله، جاؤوا به

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

للاستهزاء والسخرية، فقال: ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: وقال[1] المشركون العابدون للملائكة: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ﴾ عدم عبادتنا للملائكة مشيئة ارتضاء ﴿مَا عَبَدْنَاهُم﴾؛ أي: ما عبدنا الملائكة، أرادوا بذلك أن ما فعلوه حق مرضي عنده تعالى، وأنهم إنما يفعلونه بمشيئة الله تعالى، لا الاعتذار من ارتكاب ما ارتكبوه، بأنه بمشيئة الله إياه منهم، مع اعترافهم بقبحه، ومبنىٰ كلامهم الباطل على مقدمتين:

إحداهما: أن عبادتهم لهم بمشيئة الله تعالى.

والثانية: أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى، ولقد أخطؤوا في الثانية. حيث جهلوا أن المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائناً ما كان، من غير اعتبار الرضى والسخط في شيء من الطرفين.

والمعنى[2]: أي وقال عباد الملائكة: لو أراد الله تعالى عدم عبادتنا للملائكة ما عبدناهم، فإنه قادر على أن يحول بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صورة الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك، وهو قد أقرنا عليه، فنحن لا نؤاخذ بذلك، إذ هو وفق مشيئته تعالى، ويريدون بذلك القول أن الله راض بعبادتهم للأصنام، وهو احتجاج بالقدر، وكلمة حق يراد بها باطل، لأن المشيئة لا تستلزم الأمر إذ هي بترجيح بعض الممكنات على بعض بحسب. . .؟ والله يأمر بالخير والإيمان ونحن لا نعلم مشيئته أو إرادته إلا بعد وقوع الفعل منا، وقد جمعوا في هذا القول أفانين من الكفر وضروباً من الترهات والأباطيل ذكره ابن كثير ومنها:

١ ـ أنهم جعلوا لله ولداً، تقدس سبحانه وتعالى عن ذلك.

٢ ـ دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، إذ جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمٰن إناثاً.

٣ ـ عبادتهم لهم بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بالرأي

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

والهوى وتقليد الأسلاف وتخبط الجاهلية.

٤ ـ احتجاجهم بتقدير الله ذلك، وقد جهلوا في هذا جهلاً كبيراً، فإنه تعالى أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ أن بعث الرسل وأنزل الكتب، يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾. وقال عز وجل: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾. ونحو الآية: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

ثم رد الله سبحانه عليهم مقالهم، وبين جهلهم بقوله: ﴿مَا لَهُمْ﴾؛ أي: ما لهؤلاء المشركين ﴿بِذَلِكَ﴾؛ أي[1]: بصحة ما قالوا، واحتجوا به من كون ما فعلوه بمشيئة الارتضاء، لا بمطلق المشيئة، فإن ذلك أمر محقق، ينطق به ما لا يحصى من الآيات الكريمة ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ويقين يستند إلى دليل وبرهان ما ﴿إِنْ هُمْ﴾؛ أي: ما هم ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ أي: يكذبون، فإن الخرص: الكذب، وكل قول بالظن والتخمين سواء طابق الواقع أو لا؛ أي: ما هم إلا كاذبون فيما قالوا، متمحلون تمحلاً باطلاً، متقولون على الله ما لم يقله، فإن الله يأمر بالحق والإيمان والخير، ولا يرضى لعباده الكفر والفحشاء، والآية دليل على جهلهم الفاضح وكذبهم وافترائهم الباطل، وقاله هنا بلفظ ﴿يَخْرُصُونَ﴾، وفي الجاثية بلفظ ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ لأن ما هنا متصل بقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية؛ أي: قالوا: الملائكة بنات الله، وأن الله سبحانه قد شاء منا عبادتنا إياهم، وهذا كذب، فناسبه ﴿يَخْرُصُونَ﴾، وما هناك متصل بخلطهم الصدق بالكذب، فإن قولهم: نموت ونحيا صدق، وكذبوا في إنكارهم البعث، وقولهم: وما يهلكنا إلا الدهر، فناسبه ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ أي: يشكون فيما يقولون، اهـ «كرخي».

---

(١) روح البيان.

يقول الفقير: إسناد المشيئة إلى الله إيمان وتوحيد، إن صدر من المؤمن، وإلا فكفر وشرك؛ لأنه من العناد والعصبية والجهل بحقيقة الأمر فلا يعتبر.

وبعد أن بين بطلان قولهم بالعقل، أتبعه ببطلانه بالنقل، فقال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أم منقطعة، تقدر ببل الإضرابية وبهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أأعطيناهم ﴿كِتَٰبًا﴾ ينطق بصحة ما يدعونه من عبادة غير الله، وكون الملائكة بناته ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل القرآن، أو من قبل الرسول ﷺ أو من قبل ادعائهم هذه الدعوى ﴿فَهُم بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الكتاب المعطى لهم ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾؛ أي: متمسكون آخذون عاملون به، وعليه معولون.

والمعنى[1]: أي بل أأعطيناهم كتاباً من قبل هذا القرآن ينطق بصحة ما يدّعون مكتوباً فيه اعبدوا غير الله فهم بذلك الكتاب متمسكون وعليه معولون؛ أي: وليس الأمر كذلك.

والخلاصة: أنه لا كتاب لهم، ولما بين أنهم لا حجة لهم على ذلك من عقل ولا نقل.. ذكر أن الحامل لهم على ما جنحوا إليه إنما هو التقليد، فقال: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟﴾؛ أي: بل لا حجة لهم يتمسكون بها، لا من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث السمع إلا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: على دين وطريقة ساروا عليها في عبادتهم الأصنام فقلدناهم ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ ورأيهم؛ أي: على دينهم وطريقتهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي: سائرون سالكون، و﴿مهتدون﴾ خبر ﴿إنا﴾ والظرف صلة له، قدم عليه للاختصاص واستعمل بعلى لتضمنه معنى الثبوت؛ أي: ثابتون مستمرون على طريقتهم، وهذا اعتراف صريح منهم بأنه ليس لهم مستند ولا حجة.

والمعنى: أي ليس لهم مستند على ما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، وقد قالوا: إنهم أرجح منا أحلاماً وأصح أفهاماً ونحن سائرون على طريقتهم وسالكون نهجهم ولم نأت بشيء من عند أنفسنا ولم نغلط في الاتباع

---

(١) المراغي.

واقتفاء الآثار، كما قال قيس بن الخطيم:

كُـنَّـا عَـلَـىٰ أُمَّـةِ آبَـائِـنَـا   وَيَـقْـتَـدِيْ بِـالأوّلِ الآخِـرُ

والخلاصة: أنهم اعترفوا بأن لا مستند لهم من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث النقل، وإنما يستندون إلى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أمة﴾ بضم الهمزة أي على دين. وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والجحدري بكسر الهمزة وهي الطريقة الحسنة، لغة في الأمة بالضم، قاله الجوهري. وقرأ ابن عباس ﴿أمة﴾ بفتح الهمزة؛ أي: على قصد وحال، والخلاف في الحرف الثاني كهو في الأول.

ثم بين سبحانه، أن مقال هؤلاء قد سبقهم إلى مثله أشباههم، ونظراؤهم من الأمم السالفة، المكذبة للرسل، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي[2]: والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة، وتشبثهم بذيل التقليد، فهو خبر لمبتدأ محذوف، كما قدرنا، وما بعده مستأنف ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾ من القرى ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ أي: من نبي منذر قومه من عذاب الله ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾؛ أي: متنعموها وأغنياؤها وجبابرتها ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: على طريقة ودين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ وطريقتهم ﴿مُّقْتَدُونَ﴾؛ أي: متبعون وقوله: ﴿مَآ أَرْسَلْنَا﴾ كلام مستأنف دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم، ليس لأسلافهم أيضاً سند غيره، وخص[3] المترفين بتلك المقالة، للإيذان بأن التنعيم وحب الطالة، هو الذي صرفهم عن النظر إلى التقليد، يقال: أترفته النعمة أطغته، والمراد بالمترفين: الأغنياء والرؤساء، الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش في الدنيا، وأشغلتهم عن نعيم الآخرة، ويدخل فيهم كل من يتمادى في الشهوات، ويتبالغ في النفرة من لوازم الدين، من الشرائع والأحكام، ويحتمل كون كذلك صفةً لمصدر محذوف مع فعله، والمعنى عليه؛ أي[4]: ومثل هذا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

المقال الشنيع، المتناهي في الشناعة، قالت الأمم السالفة لأخوانك الأنبياء، فلم نرسل قبلك في قرية رسولاً، إلا قال رؤساؤها وكبراؤها لرسولهم المرسل، للإنذار من عذاب الله، إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين، وإنا على منهاجهم سائرون، نفعل مثل ما فعلوا، ونعبد ما كانوا يعبدون، فقومك أيها الرسول، ليسوا ببدع في الأمم، فهم قد سلكوا نهج من قبلهم، من أهل الشرك، في جواباتهم، بما أجابوك به، واحتجاجهم بما احتجوا به، لمقامهم على دينهم الباطل.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وإنما قال أولاً: ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾. وثانياً: ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾؛ لأن الأول وقع في محاجتهم النبي ﷺ، وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين، وأنهم مهتدون كآبائهم، فناسبه ذكر ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ والثاني، وقع حكاية عن قوم، ادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء، فناسبه ذكر ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك، ضلال قديم.

ثم ذكر تعالى جواب الرسل لأقوامهم عن التقليد، فقال: ﴿قَالَ﴾ كل نذير من أولئك المنذرين لأممهم، عند تعللهم بتقليد آبائهم ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف. والواو: عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾؛ أي: بدين أهدى وأرشد ﴿مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾؛ أي: من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء وإنما عبر عنها بذلك، مجاراة معهم على مسلك الإنصاف؛ أي: قال لهم رسولهم: أتتبعون آباءكم، وتسيرون على طريقتهم، ولو جئتكم من عند ربكم بدين أهدى إلى طريق الحق، وأدل على سبيل الرشاد، مما وجدتم عليه آباءكم من الدين والملة.

وتلخيص ذلك: أتتبعون آباءكم وتقلدونهم، ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم، وقرأ ابن عامر وحفص: ﴿قال أولو جئتكم﴾ بصيغة الماضي، وقرأ الجمهور ﴿قل﴾ بصيغة الأمر؛ أي: قل يا محمد لقومك: أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من الدين، الذي وجدتم عليه آباءكم. وهذا تجهيل لهم، حيث

يقلدون ولا ينظرون في الدلائل، وقرأ الجمهور[1]: ﴿جِئْتُكُم﴾: بتاء المتكلم، وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن مقسم والزعفراني وأبو شيخ الهتائي وخالد ﴿جئناكم﴾: بنون المتكلمين، وقيل: إن كلا القراءتين حكاية لما جرى بين الأنبياء وقومهم، كأنه قال لكل نبي قل بدليل قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: قال كل أمة لنذيرها، مجيبين إجابة تيئيس من اتباعهم له على كل حال، ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾، وإن كان أهدى مما كنا فيه؛ أي: ثابتون على دين آبائنا، لا ننفك عنه، ولو جئتنا بما هو أهدى منه، فكأنهم يقولون: إنهم لو علموا صحة ما جئتهم به، ما انقادوا لك لسوء قصدهم، ومكابرتهم للحق وأهله، وحينئذ لم يبق لهم عذر، ومن ثم قال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من هؤلاء المكذبين لرسلهم الجاحدين بربهم بالاستئصال، وذلك الانتقام مثل ما أوقعه بقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، من الأمم المكذبة لرسلها، أو بالقحط والقتل والسبي، كما في هذه الأمة ﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها الرسول ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ من الأمم المذكورة؛ أي: كيف كان عاقبة أمرهم ومآله، حين كذبوا بآياتنا، ألم نهلكهم ونجعلهم عبرة لغيرهم، فأنت لا تكترث بتكذيب قومك، فإن الله ينتقم منهم باسم المنتقم، القاهر القابض، كما انتقم من أولئك الأمم المكذبة لرسلها.

وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ، وإرشاد له إلى عدم الاكتراث بتكذيب قومه له، ووعيد وتهديد لهم.

وحاصل معنى الآية[2]: أي قالوا: لا نعمل برسالتك، ولا سمع لك، ولا طاعة، وإنا كافرون جاحدون بما أرسلتم به، ومستمرون ثابتون على دين الآباء والأسلاف، والمراد: أنهم لو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به أيها الرسول، لما انقادوا لذلك، لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله، وقوله: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ يعني: بكل ما أرسل به الرسل، فالخطاب للنبي ﷺ، ولفظه لفظ الجمع؛ لأن

---

(١) البحر المحيط.

(٢) التفسير المنير.

تكذيبه تكذيب لمن سواه، وما بعد الإصرار على الكفر، إلا النقمة والإهلاك، فقال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ إلخ؛ أي: فانتقمنا من الأمم المكذبة للرسل، بأنواع من العذاب كعذاب قوم نوح وعاد وثمود، فانظر أيها المخاطب كيف كان مصير أمر المكذبين من تلك الأمم، كيف بادوا وهلكوا، وإن آثارهم موجودة عبرة للناظر المعتبر، وهذا وعيد وتهديد لأهل مكة، وسلوة للرسول ﷺ، وإرشاد له، إلى عدم الاكتراث بشأن قومه من رسالته.

الإعراب

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾: تقدم القول فيه معنى وإعراباً، فلا عود ولا إعادة، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿الكتاب﴾: مقسم به، مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم، محذوف وجوباً، وجملة القسم مسأنفة، أو معطوفة على القسم قبله، إن قلنا إن ﴿حم﴾ قسم أيضاً، ﴿ٱلْمُبِينِ﴾: صفة لـ﴿الكتاب﴾، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿قُرْءَٰنًا﴾: مفعول ثان، ﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة ﴿قُرْءَٰنًا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾ حرف نصب وتعليل، مستعارة لكي التعليلية، والكاف: اسمها، وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾: جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب، أو مجرورة بلام التعليل، المقدرة المتعلقة بـ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنّه﴾: ناصب واسمه، ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلق بمحذوف خبر ﴿إنّ﴾؛ أي: مثبت ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿لَدَيْنَا﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال، من ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أو بدل من الجار والمجرور قبله؛ أي: محفوظ لدينا، ﴿لَعَلِىٌّ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿عليّ﴾: خبر ثان لـ﴿إنّ﴾، ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثالث لها، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى، على كونها جواباً

ثانياً للقسم، واعترض بعضهم على هذا الإعراب؛ لأن فيه تقديم الخبر غير المقرون باللام على المقرون بها، وقال أبو البقاء: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يتعلق بـ﴿عليّ﴾، واللام: لا تمنع من ذلك، و﴿لَدَيۡنَا﴾ بدل من الجار والمجرور، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿الكتاب﴾، ﴿أو من أم﴾، ولا يجوز أن يكون واحد من الظرفين خبراً لـ﴿إن﴾ الخبر قد لزم أن يكون ﴿علي﴾: من أجل اللام، ولكن يجوز أن يكون كل واحد منهما صفة للخبر، فصارت حالاً يتقدمها، انتهى.

﴿أَفَنَضۡرِبُ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿نضرب﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَنكُمُ﴾: متعلق بـ﴿نضرب﴾، ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿صَفۡحًا﴾ مفعول مطلق معنوي لنضرب، أو حال من فاعل نضرب؛ أي: صافحين، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿كُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه في محل النصب بأن المصدرية، ﴿قَوۡمًا﴾ خبرها، ﴿مُّسۡرِفِينَ﴾ صفة لـ﴿قَوۡمًا﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر، مجررو بلام التعليل المقدرة، والتقدير: أفنضرب عنكم الذكر لأجل كونكم قوماً مسرفين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نضرب﴾، وقرىء بكسر الهمزة، فهي حينئذ شرطية، جوابها محذوف، تقديره: إن كنتم قوماً مسرفين، نضرب عنكم الذكر، وجملة الشرط مستأنفة.

﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَكَمۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كم﴾: خبرية، بمعنى عدد كثير، في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ وجوباً، مبني على السكون لشبهها بالحرف شبهاً معنوياً، ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِن نَّبِيّٖ﴾: تمييز لـ﴿كم﴾ الخبرية، ﴿فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية، ﴿يأتيهم﴾: فعل مضارع، ومفعول به، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿نَّبِيٍّ﴾: فاعل

﴿يأتيهم﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، من أعم الأحوال، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: خبر ﴿كَانُوا۟﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب على الحال، من أعم الأحوال؛ أي: وما يأتيهم من نبي في حال من الأحوال، إلا حال كونهم مستهزئين به. ﴿فَأَهْلَكْنَآ﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿أهلكنا﴾ فعل وفاعل، ﴿أَشَدَّ﴾: مفعول به، ﴿مِنْهُم﴾: متعلق بـ﴿أَشَدَّ﴾، ﴿بَطْشًا﴾ تمييز منصوب باسم التفضيل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: وما يأتيهم من نبي، مفرعة على استهزائهم، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مضى مثلُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أهلكنا﴾. ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مضاف إليه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿سَأَلْتَهُم﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول أول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿مَّنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: خبره، والجملة الاستفهامية في محل النصب، مفعول ثاني لـ﴿سَأَلْتَهُم﴾ المعاقة عن العمل بالاستفهام. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: اللام: واقعة في جواب القسم، مؤكدة الأولى؛ لأنه المتقدم كما هي القاعدة، ﴿يقولن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون للتوكيد، ولو كان مجزوماً في جواب الشرط لكان الحذف للجازم، ولكنه لا يجوز للقاعدة، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: وإن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ يقولوا: خلقهن العزيز العليم، وجملة الشرط معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين القسم وجوابه، ﴿خَلَقَهُنَّ﴾: فعل ومفعول، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: فاعل، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، وكرر الفعل للتأكيد، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول ليقولن، ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع،

صفة ثانية لـ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، أو بدل منه، أو خبر لمبتدأ محذوف، ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ﴿لَكُمُ﴾ متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى خلق، وإن كان بمعنى صير فيكون متعلقاً، بمحذوف حال من مهداً، ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾: مفعول به أول و﴿مَهۡدٗا﴾ مفعول ثان، أو حال، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول، ﴿لَكُمۡ﴾ متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، أو في موضع المفعول الثاني، ﴿فِيهَا﴾ حال من ﴿سُبُلٗا﴾، و﴿سُبُلٗا﴾ مفعول به، ﴿لَّعَلَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَهۡتَدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِي﴾: معطوف على الموصول الأول، وجملة ﴿نَزَّلَ﴾: صلته، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾، ﴿مَآءَۢ﴾: مفعول به، ﴿بِقَدَرٖ﴾: متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾ أيضاً، أو صفة لـ﴿مَآءَۢ﴾، ﴿فَأَنشَرۡنَا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿أنشرنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نَزَّلَ﴾، وفيه التفات، وسيأتي سره في مبحث البلاغة. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أنشرنا﴾، ﴿بَلۡدَةٗ﴾ مفعول به، ﴿مَّيۡتٗاۚ﴾: صفة ﴿بَلۡدَةٗ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿تُخۡرَجُونَ﴾: فعل ونائب فاعل؛ أي: تخرجون من قبوركم بالبعث، إخراجاً. مثل إخراج النبات من الأرض، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِي﴾: معطوف أيضاً على الموصول الأول. ﴿خَلَقَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾: مفعول به، ﴿كُلَّهَا﴾: توكيد لـ﴿الأزواج﴾، ﴿وَجَعَلَ﴾: معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، داخل في حيز الصلة، ﴿لَكُمُ﴾: في محل المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾، ﴿مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ﴾ حال من ﴿مَا﴾ الموصولة المذكورة بعده، ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿جعل﴾، وجملة ﴿تَرۡكَبُونَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما تركبونه.

﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لِتَسْتَوُۥا﴾: اللام: لام كي، ﴿تستووا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن المضمرة جوازاً، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لاستوائكم على ظهوره، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جعل﴾. ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ متعلقان به ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿تَذْكُرُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تستووا﴾، ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾: مفعول به، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿تَذْكُرُوا﴾، ﴿ٱسْتَوَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذَا﴾؛ أي: وقت استوائكم عليه. ﴿وَتَقُولُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَذْكُرُوا﴾، ﴿سُبْحَٰنَ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً؛ أي: نسبح الذي سخر لنا هذا سبحاناً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿تقولوا﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الجر، مضاف إليه، لـ﴿سُبْحَٰنَ﴾، ﴿سَخَّرَ﴾: فعل وفاعل مستتر صلة الموصول، ﴿لَنَا﴾: متعلق به، ﴿هَٰذَا﴾: مفعول به، لـ﴿سَخَّرَ﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو حالية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿مُقْرِنِينَ﴾، ﴿مُقْرِنِينَ﴾: خبر ﴿كُنَّا﴾، وجملة ﴿كُنَّا﴾ في محل النصب، حال من ضمير لنا، ﴿وَإِنَّآ﴾: الواو، حالية أيضاً، ﴿إنا﴾: ناصب واسمه، ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾: متعلق بـ﴿منقلبون﴾، ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿منقلبون﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ مرفوع الواو، والجملة الاسمية في محل النصب، حال ثانية من ضمير لنا.

﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿جعلوا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُۥ﴾ في محل المفعول الثاني. ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: حال من ﴿جُزْءًا﴾، و﴿جُزْءًا﴾ مفعول أول لـ﴿جعل﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكَفُورٌ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿كفور﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿كفور﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة، لتعليل ما قبلها، ﴿أَمِ﴾: منقطعة، بمعنى بل الإضرابية،

وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿أَتَّخَذَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور، في موضع المفعول الثاني لـ﴿أَتَّخَذَ﴾، وجملة ﴿يَخْلُقُ﴾. صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿بَنَاتٍ﴾ مفعول أول لـ﴿أَتَّخَذَ﴾، وجملة ﴿أَتَّخَذَ﴾ مستأنفة، ﴿وَأَصْفَنكُم﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿أَتَّخَذَ﴾، ﴿بِٱلْبَنِينَ﴾ متعلق بـ﴿أصفاكم﴾، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط، ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿بُشِّرَ﴾، ﴿ضَرَبَ﴾: فعل ماض بمعنى ﴿جعل﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿أَحَدُهُم﴾، ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿مَثَلًا﴾، والمفعول الأول محذوف، تقديره: بما ضربه. ﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثاني لـ﴿ضَرَبَ﴾، وجملة ﴿ضَرَبَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد ضمير المفعول المحذوف، ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُسْوَدًّا﴾ خبره، والجملة جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير وجهه؛ لأن المضاف كان جزءا للمضاف إليه

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والواو: عاطفة لفعل محذوف على ذلك المحذوف، والتقدير: أيجترؤون على الله، ويبالغون في إساءة الأدب، ويجعلون لله من ينشأ في الحلية، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿يجعلون﴾: فعل وفاعل، ﴿لله﴾: في محل المفعول الثاني، ﴿من﴾: اسم موصول، في محل النصب مفعول أول، لـ﴿يجعلون﴾ المقدر، ﴿يُنَشَّؤُا۟﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ الموصولة، ﴿فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ متعلق بـ﴿يُنَشَّؤُا۟﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾ حالية. ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿فِى ٱلْخِصَامِ﴾: متعلق بـ﴿مُبِينٍ﴾ المذكور بعده، ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ خبر المبتدأ، والجملة

الاسمية في محل النصب حال من نائب فاعل ﴿يُنَشَّؤُا﴾، ﴿وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف على قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، ﴿هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية صلة الموصول، ﴿إِنَٰثًا﴾: مفعول ثان لـ﴿جعلوا﴾، ﴿أَشَهِدُوا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿شهدوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿خَلْقَهُمْ﴾: مفعول ﴿شهدوا﴾ ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة مستأنفة أيضاً، ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿سَتُكْتَبُ﴾، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ويسألون شهادتهم في الآخرة.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾
أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ
وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان نوع آخر من أنواع كفرهم، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: فعل وفاعل، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: عدم عبادتنا الملائكة، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿عَبَدْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم، ﴿بِذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ﴿عِلْمٍ﴾ المذكور بعده ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿عِلْمٍ﴾ مبتدأ مؤخر، ولك أن تجعل ﴿مَّا﴾ حجازية، على رأي من يجيز تقديم خبرها على اسمها، والجملة مستأنفة، ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، وجملة ﴿يَخْرُصُونَ﴾: خبر المبتدأ؛ أي: ما هم إلا خارصون كاذبون، والجملة مستأنفة، ﴿أَمْ﴾: منقطعة، بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري، ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿كِتَٰبًا﴾: مفعول ثان، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿آتينا﴾، أو صفة لـ﴿كِتَٰبًا﴾، ﴿فَهُم﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿هُمْ﴾:

مبتدأ، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بما بعده، ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ خبر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ مفرعة عليها، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء، ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿وَجَدْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿ءَابَآءَنَا﴾: مفعول أول لـ﴿وَجَدْنَآ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ في موضع المفعول الثاني، وجملة ﴿وَجَدْنَآ﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنّا﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾: متعلق بـ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، و﴿مُّهْتَدُونَ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى على كونها مقولاً لـ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كذلك﴾: جار ومجرور، خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: والأمر كائن كذلك، والجملة مستأنفة مستقلة جيء بها للتخلص، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان أن التقليد بهم ضلال قديم، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أيضاً، أو حال من ﴿نَّذِيرٍ﴾، ﴿مِّن﴾ زائدة، ﴿نَّذِيرٍ﴾: مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء من أعم الأحوال، ﴿قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب على الحال؛ أي: وما أرسلنا من نذير في قرية، في حال من الأحوال، إلا حال كون مترفيها قائلين: إنا وجدنا آباءنا إلخ. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ في محل المفعول الثاني لـ﴿وَجَدْنَآ﴾، وجملة ﴿وَجَدْنَآ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَإِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ متعلق بـ﴿مُّقْتَدُونَ﴾، و﴿مُّقْتَدُونَ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى.

﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر، يعود على الـ﴿نَّذِيرٍ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والواو: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم، إلخ، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم ﴿جِئْتُكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ متعلق بـ﴿جِئْتُكُم﴾، وجواب ﴿لو﴾ محذوف، تقديره: تقتدون بآبائكم، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿مِمَّا﴾ متعلق بـ﴿أهدى﴾. ﴿وَجَدتُّمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾: في موضع المفعول الثاني لـ﴿وَجَدتُّمْ﴾، ﴿ءَابَآءَكُمْ﴾ مفعول أول لـ﴿وَجَدتُّمْ﴾، وجملة ﴿وجد﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿قَالُوٓا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾ المذكور بعده، ﴿أُرْسِلْتُم﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أُرْسِلْتُم﴾، وجملة ﴿أُرْسِلْتُم﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿كَٰفِرُونَ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا﴾، ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿انتقمنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالُوٓا﴾ مفرع عليه، ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بـ﴿انتقمنا﴾ ﴿فَٱنظُرْ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، أو على أي مخاطب، والجملة معطوفة على جملة ﴿انتقمنا﴾، ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب، خبر كان مقدم عليه وجوباً، ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: فعل ناقص واسمه، ومضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول ﴿انظر﴾ معلق عنها باسم الاستفهام.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حمٓ ۝١﴾ هذه الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وعلى خطورة الأحكام المبينة في السورة. ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن. ﴿ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي: الموضح لطريق الهدى، المبعد من الضلالات، قال الراغب: قوله: ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ. والكتاب في الأصل: اسم للصحيفة مع المكتوب فيها. ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ يقال: ضربت عنه، وأضربت عنه؛ أي: تركته،

﴿صَفْحًا﴾ الصفح: الإعراض، يقال: صفح كمنع أعرض وترك، وصفح عنه عفا، وصفح السائل رده، كأصفحه، وسمي العفو صفحاً، لأنه إعراض عن الانتقام من صفحة الوجه؛ لأن من أعرض عنك، فقد أعطاك صفحة وجهه، والمعنى هنا: إعراضاً عنكم، كما مر. ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان. ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ قال الراغب: البطش تناول الشيء بصولة، والأخذ بشدة. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ومضى فيه إعلال بالقلب، أصله: مضي بوزن فعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفا فصار مضى. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أصله: يقولونن، حذفت نون علامة الرفع لتوالي الأمثال، والواو لالتقاء الساكنين، فصار يقولن. ﴿مَهْدًا﴾ والمهد والمهاد: المكان الممهد الموطأ ﴿سُبُلًا﴾ جمع سبيل، وهو من الطريق ما هو معتاد السلوك، وقال الراغب: السبيل: الطريق الذي فيه سهولة. ﴿مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾؛ أي: بمقدار ما تحتاجون إليه، فلا يكون قليلاً لا ينفع، ولا يكون كثيراً فيؤذي ويضر.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أحيينا، وفي «المبصاح»: ونشر الموتى نشوراً. أحياهم ونشرهم الله يتعدى ولا يتعدى، ويتعدى بالهمزة أيضاً، فيقال: أنشرهم الله، ونشرت الأرض نشوراً أيضاً حييت وأنبتت، ويتعدى بالهمزة، فيقال: أنشرتها إذا أحييتها بالماء، والإنشار: الإحياء. ﴿مَّيْتًا﴾ مخفف من الميت بالتشديد؛ أي: خاليةً عن النماء والنبات بالكلية. ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أصله: تستويون استثقلت الضمة على الياء، فحذفت تخفيفاً، فلما سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الواو، لمناسبة واو الجماعة بعدها، فوزنه لتفتعوا؛ لأن نون الرفع حذفت للناصب بعد لام التعليل. ﴿مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين، يقال: أقرن الشيء إذا أطاقه. قال الزمخشري: وحقيقة أقرنه وجده قرينته وما يقرن به لأن الصعب لا يكون قرينةً للضعيف، وقال الأخفش وأبو عبيدة: ومقرنين ضابطين. وقيل: مماثلين في الأيدي، والقوة من قولهم: هو قرن فلان، إذا كان مثله في القوة، ويقال: فلان مقرن لفلان؛ أي: ضابط له، وأقرنت كذا؛ أي: أطقته، وأقرن له أطاقه وقوي عليه، كأنه صار له قرناً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾؛ أي: مطيقين. قال في «القاموس»: أقرن للأمر، أطاقه وقوي عليه، كاستقرن،

وعن الأمر ضعف ضد انتهى.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾ والجعل هنا، بمعنى: الحكم بالشيء، والاعتقاد به، يقال: جعلت زيداً أفضل الناس؛ أي: حكمت به ووصفته. وقال في «القاموس»: الجزء البعض، وأجزأت الأم ولدت الإناث، ويفتح، والجمع أجزاء، وبالضم موضع ورملٌ، وَجَزأَهُ كَجَعَلَهُ قَسَّمَهَ أجزاءً كَجَزّأَهَ بالتضعيف وبالشيء اكتفى، كاجتزأ وتجزأ.

﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ أصله: أصفوكم من الصفوة قلبت الواو ياءً. لوقوعها رابعةً، ثم قلبت ألفاً لتحركها بعد فتح، ومعناه: اختار لكم. ﴿ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ أي: جعل ﴿مَثَلٗا﴾؛ أي: مشابهاً بنسبة البنات إليه، لأن الولد يشبه الوالد. ﴿كَظِيمٌ﴾؛ أي: ممتلىء غيظاً وغماً. ﴿يُنَشَّؤُاْ﴾؛ أي: يربى. ﴿فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾؛ أي: في الزينة، والحلية ما يتحلى به الإنسان ويتزين، والجمع حلي بكسر الحاء وضمها وفتح اللام. ﴿يَخۡرُصُونَ﴾؛ أي: يكذبون. وفي «المصباح»: وخرص الكافر خرصاً، من باب قتل كذب فهو خارص. وفي «القاموس» و«التاج»: الخراص الكذاب. وقال الراغب: الخرص: كل قول مقول عن ظن وتخمين، يقال له: خرص، سواء كان ذلك مطابقاً للشيء، أو مخالفاً له، من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم، ولا غلبة ظن، ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين، كفعل الخارص في خرصه، وكل من قال قولاً على هذا النحو، يسمى كاذباً. وإن كان مطابقاً للقول المخبر به.

﴿فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ يقال: استمسك به إذا اعتصم به. وفي «المفردات»: إمساك الشيء: التعلق به وحفظه، واستمسكت بالشيء، إذا تحريت الإمساك، انتهى. ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ الأمة: الدين والطريقة التي تؤم؛ أي: تقصد. قال الراغب: الأمة كل جماعة يجمعهم أمر، إما دين واحد أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً. ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ وفي «الروح»: الأثر بفتحتين بقية الشيء. والآثار الأعلام، وسنن النبي ﷺ آثاره، قال الراغب: أثر الشيء حصول ما يدل على وجوده، ومن هذا يقال للطريق المستدل به على

من تقدم آثاره. ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ جمع مهتد، أصله: مهتديون استثقلت الحركة على الياء، فحذفت فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الدال لمناسبة الواو. ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ جمع مترف اسم مفعول. وفي «القاموس»: وترف كفرح، تنعم، وأترفته النعمة أطغته، أو نعمته كترفته تتريفاً، والمترف كمكرم، المتروك، يصنع ما يشاء فلا يمنع، والمتنعم لا يمتنع من تنعمه، انتهى. ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾ جمع مقتد، أصله: مقتديون استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الدال لمناسبة الواو، ومعناه: سالكون طريقتهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: فن التناسب في قوله: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ الآية، فقد أقسم سبحانه بالقرآن، وإنما يقسم بعظيم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن، بأنه قرآن عربي، مرجو له أن يعقل به العالمون، فكان جواب القسم مصصحاً للقسم، وتم التناسب بين القسم والمقسم به؛ لأنهما من واد واحد.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لأن لفظ الأم حقيقة في الأنثى الوالدة، فاستعار للوح المحفوظ، بجامع الأصالة في كل.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنه استعار كلمة ﴿لعل﴾ الموضوعة للترجي، والتوقع لمعنى كي، وهو التعليل لكون حقيقة الترجي والتوقع ممتنعةً في حقه تعالى، لكونها مختصةً بمن لا يعلم عواقب الأمور.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ﴾ شبه حال الذكر وتنحيته، بحال غرائب الإبل وذود هاشم، استعمل ما كان مستعملاً في تلك القصة ههنا، بجامع التنحية والإبعاد في كل.

ومنها: حكاية حال ماضية في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾؛ لأن ﴿ما﴾ إنما تدخل على مضارع في معنى الحال، أو على ماض قريب منها.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أي: كالمهد والفراش، حذفت من الأداة، ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَأَنشَرْنَا﴾؛ لأن الإنشار حقيقة في إحياء الميت وبعثه، فاستعاره لإنبات الأرض فاستعير الإنشار بمعنى إحياء الأموات لإنبات الأرض، فاشتق منه أنشرنا، بمعنى: أنبتنا على طريقة الاستعارة التبعية.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم، حيث عبر بنون العظمة، لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء، والإشعار بعظم خطره.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ حيث استعار الميت، الذي هو حقيقة فيمن خرجت روحه، للمكان الخالي من النبات.

ومنها: التعبير عن إخراج النبات بالإنشار، الذي هو إحياء الموتى حيث قال: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ﴾، وعن إحياء الموتى بالإخراج حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ تفخيماً لشأن الإنبات، وتهويناً لأمر البعث، لتقويم سند الاستدلال، وتوضيح منهاج القياس.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فقد حذف الموصوف، وهو الله تعالى، وأقام صفاته مقامه؛ لأن الكلام مجزأ، فبعضه من قولهم، وبعضه من قول الله تعالى، فالذي هو من قولهم: خلقهن، وما بعده، هو من قول الله تعالى، وأصل الكلام أنهم قالوا: خلقهن الله، بدلالة قوله في آية أخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ثم لما قالوا: خلقهن الله، وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات، وأقيمت مقام الموصوف، كأنه كلام واحد، ونظير هذا أن تقول للرجل: من أكرمك من القوم؟ فيقول: أكرمني زيد، فتقول: أنت، واصفاً له، الكريم الجواد المفضال الذي من صفته كذا وكذا.

ومنها: تنكير بنات في قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ لتربية الحقارة.

ومنها: تعريف البنين في قوله: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ لتربية الفخامة.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم، ويحكي لغيرهم تعجباً منها.

ومنها: التأكيد بـ﴿إِنَّ﴾ واللام، مع صيغة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأن فعولاً وفعيلاً من صيغ المبالغة.

ومنها: الأسلوب التهكمي للتوبيخ والتقريع في قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ۝١٦﴾.

ومنها: الطباق بين لفظ البنين والبنات.

ومنها: التجهيل لهم والتهكم بهم في قوله: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ فإنهم إنما سمعوه من آبائهم وهم أيضاً كذابون جاهلون.

ومنها: فن الإلجاء في قوله: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ وهو أن يبادر المتكلم الخصم، بما يلجئه إلى الاعتراف بحقيقة نفسه، ودخيلة قلبه، فالتعبير في الآية بالتفضيل المقتضي أن ما عليه آباؤهم فيه هداية، لم يكن إلا لإلجائهم إلى الاعتراف بحقيقة نياتهم، التي يضمرونها، كأنه يتنزل معهم إلى أبعد الحدود، ويرخي لهم العنان إلى أقصى الآماد، ليعترفوا بالتالي بمكابرتهم التي لا تجدي معها المناصحة في القول، ولا ينفع في تذليلها الإتيان بالحجة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ
سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ
جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ
هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ
مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا
مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن
كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ
نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ
ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم
مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ
وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ
﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ
﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ
لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ
مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾
فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[١] في الآية السالفة أن الذي دعا الكفار إلى اعتناق العقائد الزائغة، هو تقليد الآباء والأجداد، وبين أنه طريق باطل ونهج فاسد، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من التقليد.. أردف هذا بأن ذكر لهم أن أشرف آبائهم، وهو إبراهيم عليه السلام، ترك دين الآباء، وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعتهم، فيجب عليكم تقليده، وحين عدل عن طريق آبائه، جعل الله دينه باقياً في عقبه إلى يوم القيامة، وأديان آبائه درست وبطلت.

ثم ذكر أن قريشاً وآباءهم مدَّ لهم في العمر والنعمة، فاغتروا بذلك واتبعوا الشهوات، وأعرضوا عن توحيد الله تعالى، وشكره على آلائه، حتى جاءهم الرسول منبهاً لهم، مذكراً بالنظر إلى من فطرهم وفطر السموات والأرض، وآتاهم من فضله ما يتمتعون به من زينة هذه الحياة، فكذبوه وقالوا: ساحر كذاب، ثم حكى عنهم، قالوا: هلا نزل هذا القرآن على رجل عظيم الجاه، كثير المال، من إحدى القريتين، مكة والطائف، فرد عليهم مقالهم، بأنه قسم الحظوظ الدنيوية بين عباده، فجعل منهم الغني والفقير، والسيد والمسود، والملوك والسوقة، والأقوياء والضعفاء، ولم يغير أحد ما حكم به في أحوال دنياهم على حقارتها، فكيف يعترضون على حكمه فيما هو أرفع درجةً وأشرف غايةً وأعظم مرتبةً وهو منصب النبوة.

ثم ذكر أن التفاوت في شؤون الدنيا هو الذي يتم به نظام المجتمع، والسير به على النهج القويم، فلولاه ما صرف بعضهم بعضاً في حوائجه، ولا تعاونوا في تسهيل وسائل المعيشة، ثم أعقب هذا ببيان أنه لولا أن يرغب الناس في الكفر، إذا رأوا الكفار في سعة من الرزق، لمتعهم بكل وسائل النعيم، فجعل لبيوتهم

(١) المراغي.

أبواباً من فضة وسقفا وسرُرُاً ومصاعد عليها يظهرون، وزينة في كل شيء، ولكن كل هذا متاع قليل زائل، والآخرة هي الباقية، وهي لمن يتقي الله تعالى، ويجتنب الكفر والمعاصي ولم يفعل ذلك بالمؤمنين، فيوسع عليهم جميعاً ليكون سبب اجتماعهم على الإيمان العقيدة المنبعثة عن الاطمئنان النفسي؛ لأنه لو فعل ذلك لاجتمعوا عليه طلباً للدنيا، وهذا إيمان المنافقين، ومن ثم ضيق الرزق على بعض المسلمين ووسع على بعض، ليكون من يدخله فإنما يدخله للدليل والبرهان، وابتغاء رضوان الله ومثوبته.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] بين أن المال متاع الدنيا، وهو عرض زائل، ونعيم الآخرة هو النعيم المقيم الدائم، الذي أعده الله سبحانه للمتقين. . ذكر هنا أن من فاز بالمال والجاه، صار كالأعشى عن ذكر الله، وصار من جلساء الشياطين، الضالين المضلين، الذين يصدونه عن السبيل القويم، ويظن أنه مهتد، لأنه يتلقى من الشياطين ما يلائم أخلاقه، فيألفه ولا ينكره، ثم ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة، تبرأ الكافر من الشيطان قرينه، وقال له: ليت بيني وبينك بعد ما بين المشرقين، ثم أعقب هذا ببيان أن اشتراك الكافر مع قرينه الشيطان في العذاب لا يخفف عنه شيئاً منه، لاشتغال كل منهما بنفسه.

ثم ذكر لرسوله أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم، وقلما تجديهم المواعظ، فإذا أسمعتهم القرآن كانوا كالصم، وإذا أريتهم معجزاتك كانوا كالعمي، وإنما كانوا كذلك لضلالهم المبين، ثم سلى رسوله، وبين له أنه لا بد أن ينتقم منهم، إما حال حياته أو بعد موته، ثم أمره أن يستمسك بما أمره الله به، فيعمل بموجبه، فإنه الصراط المستقيم النافع في الدين والدنيا، وفيه الشرف العظيم له ولقومه، وسوف يسألون عما قاموا به من التكاليف التي أمرهم بها، ثم أرشد إلى أن بغض

(١) المراغي.

الأصنام وبغض عبادتها جاء على لسان كل نبي، فمحمد ﷺ ليس بدعاً من بينهم في الإنكار عليها، حتى يعارض ويبغض.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين أن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد ﷺ، لكونه فقيراً عديم المال والجاه.. بين هنا أن موسى بعد أن أورد المعجزات الباهرة، أورد فرعون هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش، فقال: إني غني كثير المال، عظيم الجاه، فلي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري تحتي، وموسى فقير مهين، وليس له بيان ولا لسان، وهذا شبيه بما قاله كفار قريش، وأيضاً فإنه لما قال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ ذكر هنا قصة موسى وعيسى عليهما السلام، وهما أكثر الأنبياء أتباعاً، وقد جاءا بالتوحيد، ولم يكن فيما جاءا به، إباحة اتخاذ آلهة من دون الله تعالى.

ثم ذكر سبحانه أن فرعون قال: هلا ألقي إلى موسى مقاليد الملك، فطوق بسوار من ذهب إن كان صادقاً، زعماً منه أن الرياسة من لوازم الرسالة، أو جاء معه جمع من الملائكة يعينونه على من خالفه، وأعقب هذا، بأن ذكر أنه حين دعا قومه إلى تكذيب موسى في دعواه الرسالة، أطاعوه لضلالهم وغوايتهم، ولما لم تجد فيهم المواعظ غضبنا وانتقمنا منهم، وجعلناهم قدوةً للكافرين، وضربنا بهم الأمثال للناس ليكونوا عبرةً لهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما[1]: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس: أن العرب قالوا: وإذا كان النبي بشراً، فغير محمد ﷺ أحق بالرسالة، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ يكون أشرف من محمد ﷺ، يعنون: الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، فأنزل الله ردا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ

---

(١) لباب النقول.

﴿رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ يعني النبوة، فيضعونها حيث شاؤوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي: أن قريشاً قالت: قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد ﷺ رجلاً يأخذه، فقيضوا لأبي بكر الصديق طلحة بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوم، فقال أبو بكر: إلام تدعوني، قال: أدعوك إلى عبادة اللات والعزى، قال أبو بكر: وما اللات؟ قال: ربنا، قال: وما العزى؟ قال: بنات الله، قال أبو بكر: فمن أمهم فسكت طلحة فلم يجبه، فقال طلحة لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فأنزل الله سبحانه هذه الآية: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ...﴾ سبب نزولها: ما رُوي: أنه كان رسول الله ﷺ يتعب نفسه في دعاء قومه، وهم لا يزيدون إلا غياً، فنزلت الآية ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قريش، وقت قول إبراهيم عليه السلام، بعد الخروج من النار ﴿لِأَبِيهِ﴾ تارخ الشهير بآزر، وكان ينحت الأصنام ﴿وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ المنْكَبِّين على التقليد وعبادة الأصنام، كيف تبرأ مما هم فيه بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ وتمسك بالبرهان ليسلكوا مسلك الاستدلال، أو ليقتدوا به إن لم يكن لهم بد من التقليد، فإنه أشرف آبائهم، وبراء مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ أي: بريء، كما سيأتي في مبحث التصريف.

والمعنى[2]: أني بريء من عبادتكم لغير الله، إن كانت ما مصدرية، أو من

---

(١) التفسير المنير.

(٢) روح البيان.

معبودكم إن كانت موصولة حذف عائدهما ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وخلقني استثناء[1] منقطع إن كانوا عبدة الأصنام؛ أي: لكن الذي خلقني لا أبرأ منه، أو متصل على أن ما تعم أولي العلم وغيرهم، وأنهم يعبدون الله والأصنام، أو صفة على أن ما موصوفة؛ أي: إني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني، فإن ﴿إلا﴾، بمعنى غير، لا يوصف بها إلا جمع منكور غير محصور، وهو هنا آلهة، كما هو مذهب ابن الحاجب ﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإن الذي فطرني ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: سيثبتني على الهداية، أو سيهديني إلى ما وراء الذي هداني إليه إلى الآن، ولذا أورد كلمة التسويف هنا، بعد ما قال في الشعراء: فهو يهدين بلا تسويف، والأوجه أن السين للتأكيد دون التسويف، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار؛ أي: دوام الهداية حالاً واستقبالاً، فهو هاديه في المستقبل والحال.

والمعنى: أي واذكر[2] أيها الرسول لقومك قريش المنكبين على تقليد الآباء والأجداد في عبادة الأصنام، كيف تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه، حين رآهم عاكفين على عبادة الأصنام، حين قال لهم: إني بريء مما تعبدون إلا من عبادة الله الذي خلقني، وخلق الناس جميعاً، وإنه سيهديني إلى سبيل الرشاد، ويوفقني إلى اتباع الحق؟ وقد جزم بذلك لثقته بربه ولقوة يقينه. فينبغي لكم يا أهل مكة أن تقتدوا به في ترك تقليد آبائكم الأقربين وترجعوا إلى النظر واتباع الحق.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿بَرَآءٌ﴾ بفتح الباء وألف وهمزة بعد الراء، وهو مصدر يستوي فيه المفرد والمذكر ومقابلهما، يقال: نحن البراء منك، وهي لغة أهل العالية، وبها قرأ الأعمش. وقرأ الزعفراني والقورحي عن أبي جعفر وابن المناذري عن نافع بضم الباء بزنة طوال، يقال: طويل وطوال وبريء وبراء، وهي لغة نجد وقرأ الأعمش: ﴿إنّي﴾ بنون مشددة دون نون الوقاية، والجمهور ﴿إِنَّنِى﴾ بنونين الأولى مشددة.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

فإن قلت: قال هنا: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ بزيادة سين التسويف، وقال في الشعراء: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨﴾ بلا زيادة سين الاستقبال، فما الفرق بين الموضعين.

قلت: زاد السين للتأكيد؛ لأن المقام مقام التبرُّؤ من عبادة الأصنام، فهو أشد حاجة إلى التأكيد، وما في الشعراء بيان لعداوة الأصنام له، فلا حاجة إلى التأكيد، هكذا ظهر الفرق لي بعد تأمل شديد، والله أعلم بأسرار كتابه.

﴿وَجَعَلَهَا﴾؛ أي[1]: وجعل إبراهيم كلمة التوحيد، التي كان ما تكلم به من قوله: إنني براء إلى سيهدين عبارةً عنها، يعني: أن البراءة من كل معبود سوى الله تعالى، توحيد للمعبود بالحق، وقول بلا إله إلا الله ﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً﴾؛ أي: دائمة مستمرة جارية ﴿فِي عَقِبِهِۦ﴾ وذريته حيث وصاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ الآية، فالقول المذكور بعد الخروج من النار، وهذا الجعل بعد حصول الأولاد الكبار، فلا يزال فيهم نسلاً بعد نسل، من يوحد الله سبحانه، ويدعو إلى توحيده، وتفريده إلى قيام الساعة، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ علة[2] للجعل، والضمير للعقب، وإسناد الرجوع إليهم من وصف الكل بحال الأكثر، والترجي راجع إلى إبراهيم عليه السلام؛ أي: جعلها باقيةً في عقبه وخلفه، رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد منهم.

فائدة: قال بعضهم في سبب تكريم وجه علي بن أبي طالب: بأن يقال: كرم الله وجهه، أنه نقل عن والدته فاطمة بنت أسد بن هاشم: أنها كانت إذا أرادت أن تسجد للصنم، وهو في بطنها، يمنعها من ذلك. وقرأ حميد بن قيس ﴿كلمة﴾ بكسر الكاف وسكون اللام، وقرىء ﴿في عقبه﴾ بسكون القاف؛ أي: في ذريته، وقرىء ﴿في عاقبه﴾؛ أي: من عقبه؛ أي: من خلفه، ذكره في «البحر».

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى: أي[1] وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، جعلها دائمةً في ذريته، يقتدي به فيها من هداه الله تعالى منهم، فلا يزال فيهم من يوحد الله سبحانه إلى يوم القيامة، رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم، كأهل مكة، بدعاء الموحد منهم، فإنهم إذا ذكروا أباهم الأعظم الذي بني لهم البيت، وأورثهم ذلك الفخر، تبعوه في ملته الحنفية، وتأثروا بأبوته إن كانوا يدعون تقليد الآباء. قال قتادة: لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة، وقال ابن العربي[2]: إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب موصولة بالأحقاب، بدعوتيه المجابتين، إحداهما قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقد قال: إلا من ظلم منهم فلا عهد له. ثانيتهما قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

وقيل[3]: الفاعل في جعلها الله سبحانه وتعالى؛ أي: وجعل الله عز وجل كلمة التوحيد باقيةً في عقب إبراهيم، وقيل: الضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ راجع إلى أهل مكة؛ أي: لعل أهل مكة يرجعون إلى دينك الذي هو دين إبراهيم، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: فإنه سيهدين لعلهم يرجعون، وجعلها إلخ، قال السدي: لعلهم يتوبون فيرجعون عما هم عليه إلى عبادة الله تعالى.

ثم ذكر سبحانه نعمته على قريش، ومن وافقهم من الكفار المعاصرين لهم، فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إضراب عن محذوف؛ أي: فلم يحصل ما رجاه، بل متعت وأنعمت منهم هؤلاء المعاصرين لمحمد ﷺ من أهل مكة ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ بالمد في العمر والبسط في النعمة، فاغتروا بالمهلة وانهمكوا في الشهوات، وشغلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ﴾؛ أي: جاء هؤلاء المعاصرين لمحمد ﷺ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، محمد ﷺ ظاهر الرسالة واضحها بالمعجزات الباهرة، أو مبين التوحيد بالآيات البينات والحجج الواضحات، أو مبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فلم يجيبوه ولم يعملوا بما أنزل عليه، فحتى ليست

(١) التفسير المنير.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

غاية للتمتع، بل لما تسبب عنه من الاغترار المذكور وما يليه.

والمعنى[١]: أي بل متعت هؤلاء المشركين، من أهل مكة وآباءهم من ذرية إبراهيم بطول العمر، والسعة في الرزق، وأنعمت عليهم في كفرهم فاغتروا بالمهلة، وأكبوا على الشهوات وطاعة الشيطان، وشغلوا بالتنعم عن كلمة التوحيد، إلى أن جاءهم الحق وهو القرآن العظيم، والرسول المبين، الذي أوضح مبدأ التوحيد بالبراهين الساطعة، وشرع الله وأحكامه بالأدلة القاطعة، وهو محمد ﷺ.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ بتاء المتكلم، وقرأ قتادة والأعمش: ﴿بل متعت﴾ بتاء الخطاب، ورواها يعقوب عن نافع، قال صاحب «اللوامح»: وهي من مناجاة إبراهيم عليه السلام ربه تعالى، والظاهر: أنه من مناجاة محمد ﷺ؛ أي: قال: يا رب بل متعت، وقرأ الأعمش: ﴿بل متعنا﴾ بنون العظمة، وهي تعضد قراءة الجمهور، قال الزمخشري: فإن قلت: فما وجه من قرأ: ﴿بل متعت﴾ بفتح التاء؟.

قلتُ: كأن الله سبحانه وتعالى خاطب نفسه، واعترض على ذاته في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فقال مخاطباً لنفسه: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد، وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم؛ لأنه إذا متعهم بزيادة النعم، وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً، فمثاله: أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه، ثم يقبل على نفسه فيقول: أنت السبب في ذلك، بمعروفك وإحسانك، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله.

ثم بين سبحانه ما صنعوه عند مجيء الحق، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾؛ أي: ولما جاء أهل مكة القرآن العظيم، الذي هو الحق من الله، لينبههم عما هم

---

(١) التفسير. (٢) البحر المحيط.

فيه من الغفلة، ويرشدهم إلى التوحيد، ازدادوا كفراً وعتوا، وضموا إلى كفرهم السابق معاندة الحق، والاستهانة به حيث ﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ الحق والقرآن ﴿سِحْرٌ﴾ وهو[1] إراءة الباطل في صورة الحق؛ أي: هذا القرآن كلام باطل، ليس من عند الله تعالى: ﴿وَإِنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: بكون هذا القرآن من عند الله تعالى ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: جاحدون منكرون، فسموا القرآن سحراً وكفروا به واستحقروا رسول الله ﷺ.

والمعنى[2]: أي وحينما جاءهم القرآن والرسول المؤيد بالمعجزات دليلاً على صدقه، وصفوا ما جاء به بأنه سحر وأباطيل، وليس بوحي من عند الله تعالى، وقالوا: إنا بما أرسل به جاحدون، مكابرةً وعناداً وحسداً وبغياً، فضموا إلى شركهم وضلالهم تكذيب الحق ورفضه والاستهزاء به، والتصريح بالكفر برسالته وإنكار نبوته.

ثم ذكر فناً آخر من أفانين كفرهم فقال: ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: وقال كفار مكة ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض؛ أي: هلا ﴿نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ إن كان حقاً من عند الله تعالى ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ﴾ إحدى ﴿ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ ذلك الرجل بالمال والجاه، كالوليد بن المغيرة بمكة، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف، فهو على نهج قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: من أحدهما، وذلك[3] لأن من للابتداء، وكون الرجل الواحد من القريتين بعيد، فقدر المضاف، ومنهم من لم يقدر مضافاً وقال: أراد على رجل كائن من القريتين كلتيهما، والمراد به: عروة المذكور؛ لأنه كان يسكن مكة والطائف جميعاً. وكان له في مكة أموال يتَّجرُ بها، وكان له في الطائف بساتين وضياع، فكان يتردد إليهما، فصار كأنه من أهلهما، يقول الفقير: هنا وجه خفي، وهو أن النسبة إلى القريتين قد تكون بالمهاجرة من إحداهما إلى الأخرى، كما يقال: المكي، المدني، والمصري، الشامي وذلك بعد الإقامة في إحداهما أربع سنين، صرح

---

(١) روح البيان.

(٢) التفسير المنير.

(٣) روح البيان.

بذلك أهل أصول الحديث.

ثم إنهم لم يتفوهوا[١] بهذه الكلمة العظيمة، حسداً على نزوله على الرسول ﷺ، دون من ذكر من عظمائهم، من اعترافهم بقرآنيته، بل استدلالاً على عدمها، بمعنى أنه لو كان قرآنا، لنزل على أحد هذين الرجلين، بناءً على ما زعموا، من أن الرسالة منصب جليل. لا يليق به إلا من له جلالة من حيث المال والجاه، ولم يدروا أن العظيم من عظّمه الله، وأعلى قدره في الدارين، لا من عظمه الناس، إذ رب عظيم عندهم حقير عند الله تعالى، وبالعكس، وأن الله يختص برحمته من يشاء، وهو أعلم حيث يجعل رسالته. وفي قوله: ﴿عَظِيمٍ﴾ تعظيم لرسول اللهﷺ، وعظم شأنه وفخم.

والمعنى[٢]: أي وقال كفار قريش وأمثالهم: هلا أنزل هذا القرآن على أحد رجلين عظيمين من مكة أو الطائف، وهما الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف.

وهذا اعتراض منهم على الله، الذي أنزل القرآن على رسوله، فأنكر الله سبحانه عليهم ذلك، وجهلهم، وعجب من حالهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ استفهام إنكار، وتجهيل لهم، وتعجيب من تحكمهم، والمراد بالرحمة: النبوة، أو ما هو أعم، يعني: أبيدهم مفاتيح الرسالة والنبوة، فيضعونها حيث شاؤوا.

ثم بين سبحانه: أنه هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾؛ أي: بين أهل الأرض ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾؛ أي: أسباب معيشتهم، والمعيشة: ما يعيش به الإنسان ويتغذى به، ويجعله سبباً في قوام بنيته، إذ العيش الحياة المختصة بالحيوان، وهو يعم الحلال والحرام عند أهل السنّة ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قسمةً تقتضيها مشيئتنا، المبنية على الحكم والمصالح، ولم نفوض أمرنا إليهم، علماً منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية، كما دل عليه

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

تقديم المسند إليه، وهو نحن، إذ هو للاختصاص.

والحاصل[1]: نحن قسمنا أرزاقهم فيما بينهم، وهو أدنى من الرسالة، فلم نترك اختيارها إليهم وإلا لضاعوا وهلكوا فما ظنهم في أمر الدين؛ أي: فكيف نفوض اختيار ما هو أفضل وأعظم، وهو الرسالة، وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء، بل الحكم لله وحده؟ وإذا كان الله سبحانه، هو الذي قسم بينهم أرزاقهم، ورفع درجات بعضهم على بعض، فكيف لا يقنعون بقسمته في أمر الرسالة وتفويضها إلى من يشاء من خلقه؟

قال مقاتل: يقول تعالى: أبأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا! وفي قوله[2]: ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾ تزهيد في الإكباب على طلب الدنيا، وحث على التوكل على الله تعالى. وقرأ الجمهور: ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾ بالإفراد، وعبد الله والأعمش وابن عباس ومجاهد وابن محيصن وسفيان ﴿معائشهم﴾ على الجمع.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق وسائر مبادىء المعاش ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ نصب[3] بنزع الخافض؛ أي: إلى درجات متفاوتة، بحسب القرب والبعد، حسبما تقتضيه الحكمة، فمن ضعيف وقوي وفقير وغني وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم، أو تمييز محول عن المفعول ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ أي: خادماً وعاملاً وأجيراً من التسخير، بمعنى: الاستخدام، ولكون المراد هنا الاستخدام دون الهزء؛ لأنه لا يليق التعليل به، أجمع القراء على ضم السين في الرواية المشهورة عنهم، فما كان من التسخير فهو مضموم، وما كان من الهزء فهو مكسور، وقرأ الجمهور[4]: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين، وعمرو بن ميمون وابن محيصن وابن أبي ليلى وأبو رجاء والوليد بن مسلم، وابن عامر بكسرها، وهو من التسخير بمعنى الاستعباد والاستخدام والاستعمال. ويبعد أن يكون ﴿سُخْرِيًّا﴾ هنا من الهزء، وقد قال بعضهم؛ أي: يهزأ الغني بالفقير، وهذا وإن كان مطابقاً

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

للمعنى اللغوي، ولكنه بعيد من معنى القرآن، ومناف لما هو مقصود السياق.

والمعنى[1]: فاضلنا بينهم فجعلنا بعضهم أفضل من بعض، في الدنيا بالرزق والرياسة والقوة والحرية والعقل والحلم، ليستخدم بعضهم بعضاً، فيستخدم الغني الفقير والرئيس المرؤوس والقوي الضعيف والحر العبد والعاقل من هو دونه في العقل، والعالم الجاهل، وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا، وبه تتم مصالحهم وينتظم معاشهم، ويصل كل واحد منهم إلى مطلوبه، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين، فجعل البعض محتاجاً إلى البعض لتحصيل المساواة بينهم في متاع الدنيا، ويحتاج هذا إلى هذا ويعطي هذا هذا.

وحاصل معنى الآية[2]: أي إن هؤلاء المشركين تجاوزوا حدودهم وأقدارهم، فأرادوا أن يجعلوا ما لله لأنفسهم، وليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على من بلغ مرتبة روحانية خاصةً، وكان ذا فضائل قدسية، وكمالات خلقية، مستهيناً بالزخارف الدنيوية التي انغمسوا فيها، فهم ليسوا لها بأهل، فضلاً عن أن يهبوها لمن يشاؤون، ونحن الذين قسموا الأرزاق والحظوظ بين العباد، ونفضل بعضهم على بعض درجات في القوة، والضعف والعلم والجهل والشهرة والخمول والغنى والفقر؛ لأنا لو سوينا بينهم في هذه الأحوال لم يتعاونوا فيما بينهم، ولم يتمكنوا من استخدام بعضهم بعضاً، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض، وإلا فسد نظام العالم، وليس المعنى في الاستخدام أو الاستئجار، أو الاستعمال على عمل شيء من الذل والمهانة؛ لأن حقوق العامل مصونة في الإسلام، وعلى صاحب العمل واجبات خلقية ومادية كثيرة، توجب عليه الترفع عن الغبن، والظلم والأذى والإساءة، فإذا عجزوا عن تغيير نظام الدنيا، فكيف يعترضون على حكمنا بتخصيص الرسالة والنبوة في بعض العباد، وقصارى ذلك: أنا قسمنا بينهم أرزاقهم، أفلا يقنعون بقسمتنا في أمر النبوة وتفويضها إلى من نشاء من عبادنا؟

---

(١) الشوكاني. (٢) التفسير المنير والمراغي.

ثم علل ما سلف بقوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ وفضله بالنبوة، وما يتبعها من وحي وكتاب ينزل ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ أي: مما يجمع هؤلاء الكفار من حطام الدنيا الدنية الفانية، فالدنيا على شفا جرف هار، ومظاهرها فانية لا قيمة لها، فهو قد أغدقها على الدواب والأنعام، وكثير من جهلة بني آدم، والعظيم من رزق من تلك الرحمة العظيمة، لا مما يجمعون من الدنيء الحقير، يظنون أن العظمة به.

وفيه[1]: إشارة إلى أن الله يعطي الفقير من فقراء البلد، لا يؤبه به ما لا يعطي لعلمائه، وأفاضله من حقائق القرآن، وأسراره، فإن قسمة العلم والمعرفة بيده سبحانه، كقسمة النبوة والرسالة، فما لا يحصل بالدرس قد يحصل بالوهب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. قوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ ترسم[2] هذه التاء مجرورةً في الموضعين من هذه السورة، اتباعاً لرسم مصحف الإمام عثمان رضي الله عنه، وكذا ترسم مجرورةً في سورة الأعراف في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وفي سورة الروم في قوله: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ وفي سورة هود في قوله: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، وفي سورة مريم في قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾، وفي البقرة في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾، وفيما عدا هذه السبعة المواضع، ترسم مربوطةً على صورة الهاء، وأبو عمرو وابن كثير والكسائي يقفون عليها بالهاء كسائر الهاءات الداخلة على الأسماء، كفاطمة وقائمة، وهي لغة قريش، والباقون يقفون عليها بالتاء تغليباً لجانب الرسم، وهي لغة طيء.

ثم بين الله سبحانه وتعالى، حقارة الدنيا وخستها بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهنا لا بد[3] من تقدير مضاف، فإن لولا لانتفاء الثاني، لوجود الأول، ولا تحقق لمدلول لولا ظاهراً؛ أي: ولولا كراهة أن يرغب الناس في الكفر، إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم لحبهم الدنيا، وتوهم أن ذلك لفضيلة

(١) روح البيان.
(٢) الفتوحات.
(٣) روح البيان.

في الكفار، ويجتمعوا على الكفر، ويكونوا في الكفر أمةً واحدة ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ لحقارة الدنيا، وهوانها عندنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لشر الخلائق وأدناهم منزلة، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾. ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال[1] من ﴿لِمَن﴾ أو اللام بمعنى على، وجمع الضمير باعتبار معنى من، كما أن إفراد المستكن في ﴿يَكْفُرُ﴾ باعتبار لفظها، والبيوت جمع بيت، وهو اسم لمبني مسقف، مدخله من جانب واحد، كما سيأتي في مبحث اللغة ﴿سُقُفًا﴾ متخذة ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ جمع سقف، وهو سماء البيت.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سُقُفًا﴾ بضمتين، كرهن ورهن، قال أبو عبيدة: ولا ثالث لهما، وقرأ أبو رجاء بضم فسكون وهي لغة تميم، وهي أيضاً جمع سقف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح السين وسكون القاف على الإفراد. وقال الفراء: جمع سقيف كرغيف ورغف وكثيب وكُثُب، وقرىء بفتحتين، كأنه لغة في سقف، وقرىء سقوفاً جمعاً على فعول، نحو: كعب وكعوب، والفضة: جسم ذائب، صابر، منطرق، أبيض رزين، كما سيأتي في مبحث اللغة ﴿وَمَعَارِجَ﴾ معطوف على ﴿سُقُفًا﴾، جمع معرج بفتح الميم وكسرها، بمعنى: السلم، والمعارج: المصاعد، والسلالم، وقرأ الجمهور: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ جمع معرج، وطلحة ﴿ومعاريج﴾ جمع معراج، والمعنى: وجعلنا لهم مصاعد ومراقي من فضة، حذف لدلالة الأول عليه. ﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي: على المعارج ﴿يَظْهَرُونَ﴾؛ أي: يصعدون إلى العلالي والسطوح ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾؛ أي: وجعلنا لبيوتهم، ولعل تكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير ﴿أَبْوَٰبًا﴾ جمع باب، وهو مدخل الشيء ومخرجه؛ أي: مداخل ﴿وَسُرُرًا﴾ جمع سرير، وهو الذي يجلس عليه أو ينام فيه؛ أي: وجعلنا لبيوتهم أبواباً وسرراً من فضة ﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي: على السرر ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾؛ أي: يعتمدون ويجلسون عليها من الاتكاء، وهو الاعتماد على الشيء والاستناد إليه، وقرأ الجمهور ﴿سُرراً﴾ بضم السين. وقرىء بفتحها، وهي لغة لبعض تميم وبعض كلب، وذلك في جمع فعيل المضعف، إذا كان اسماً باتفاق، وصفةً نحو: ثوب

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

جديد وثياب جدد، باختلاف بين النحاة ذكره في «البحر» ﴿وَزُخْرُفًاۚ﴾ إما معطوف على ﴿سُقُفًا﴾، والزخرف حينئذ بمعنى ما يزين به البيت من أثاث وأمتعة ومواعين كالأواني والمفارش وما يزين به الجدار؛ أي: ولجعلنا لبيوتهم زينةً تزوق بها البيوت من الأثاث والمواعين، أو معطوف على محل ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ فيكون بمعنى الذهب، فيكون أصل الكلام: ولجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة ومن زخرف يعني: بعض السقف من فضة وبعضها من ذهب، فيكون نصبه على هذا بنزع الخافض؛ أي: أبواباً وسرراً من فضة ومن ذهب، فلما حذف الخافض انتصب.

والمعنى[1]: أي ولولا كراهية أن يكون الناس كلهم على ملة الكفر ميلا إلى الدنيا وزخرفها، فلا يبقى في الأرض مؤمن، لأعطينا الكفار ثروات طائلةً، وجعلنا سقف بيوتهم وسلالمهم ومصاعدهم التي يرتقون ويصعدون عليها، وأبواب البيوت والسرر التي يتكئون عليها من فضة خالصة وذهب خالص وزينةٍ ونقوش، فائقة لهوان الدنيا عند الله تعالى.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾ إن نافية، ولما بالتشديد بمعنى إلا؛ أي: وما كل ذلك المذكور من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة إلا شيء يتمتع به في الحياة الدنيا لا دوام له ولا حاصل إلا الندامة والغرامة، وقرىء بتخفيف لما على أنّ ﴿إن﴾ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وما صلة، والتقدير: وإن الشأن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا ﴿وَٱلْأَخِرَةُ﴾ بما فيها من فنون النعم التي يقصر عنها البيان حال كونها مدخرة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ كائنةً ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي؛ أي: لمن اتقى الشرك والمعاصي، وآمن بالله وحده، وعمل بطاعته، فإنها الباقية التي لا تفنى ونعيمها الدائم الذي لا يزول.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَمَا﴾ بفتح اللام وتخفيف الميم، وإن: هي المخففة من الثقيلة، واللام: هي الفارقة بين الإيجاب والنفي، و﴿ما﴾: زائدة، و﴿مَتَٰعُ﴾: خبر ﴿كُلُّ﴾، وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وعيسى وعاصم وحمزة ﴿لمّا﴾

---

(١) التفسير المنير.　　(٢) البحر المحيط.

بتشديد الميم، و﴿إن﴾: نافية، و﴿لما﴾ بمعنى إلا، كما مر آنفاً. وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة ﴿لما﴾ بكسر اللام، وخرجوه على أن ﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف تقديره: للذي هو متاع الحياة الدنيا، كقوله: تماماً على الذي هو أحسن، وإن في هذا التخريج هي المخففة من الثقيلة، وكل مبتدأ وخبره في المجرور؛ أي: وإنه كل ذلك كائن، أو مستقر للذي هو متاع الحياة الدنيا ذكره في «البحر المحيط». وعبارة «المراغي» في معنى هذه الآية؛ أي: ولولا أن يعتقد كثير من الجهلة، أن إعطاءنا المال للكفار دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر ويرغبوا فيه، إذا رأوا سعة الرزق عندهم لجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة، ومصاعد من فضة وسرراً من فضة عليها يتكئون، وزينةً في كل ما يرتفق به من شؤون الحياة.

ثم بين أن هذه المتعة قصيرة الأمد، سريعة الزوال، فهي متاع الحياة الفانية، فقال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إلخ؛ أي: وما كل ذلك إلا متاع قصير زائل، والآخرة بما فيها من ضروب النعيم التي لا يحيط بها عد ولا إحصاء، أعدها الله لمن اتقى الشرك والمعاصي، وعمل بطاعته، وآثر الآخرة على الدنيا.

وكذلك لو أعطيت هذه النعم والسرر والأبواب المصنوعة من الذهب والفضة للؤمنين، حتى يصير الناس كلهم مبسوطين، لأخلت بالمقصود من الإيمان؛ لأن الترف والنعيم يحجب العقول عن عالم الروحانيات، والرقي العقلي، فقل من يتخلص من شرك هذه الآفات، فالشهوات والزينة والزخارف للعقول، أشبه بالقاذورات للأجسام، والأجسام القذرة يحوم حولها الذباب، فيلقي فيها بيوضه لتفرخ في القروح والعيون، ويخرج ذباب يعيش من تلك القاذوات، وهكذا النفوس الضعيفة تعيش فيها النفوس المماثلة لها من عالم الشياطين، وتلقي إليها بذور الفساد، فتزرع فيها وتحصدها النفوس خزياً وعاراً في الدنيا والآخرة، وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ. . .﴾ إلخ.

وأخرج الترمذي وابن ماجه والبغوي والطبراني عن سهل بن سعد رضي الله

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء». ومعنى هوان الدنيا على الله، أنه سبحانه، لم يجعلها مقصودةً لنفسها، بل جعلها طريقاً موصلاً إلى ما هو المقصود لنفسه، وأنه لم يجعلها دار إقامة ولا جزاءٍ، وإنما جعلها دار رحلة وبلاء، وأنه ملّكها في الغالب الجهلة والكفرة، وحماها الأنبياء والأولياء، وأبغضها وأبغض أهلها، ولم يرض العاقل فيها إلا بالتزود للارتحال عنها.

﴿وَمَن يَعْشُ﴾ هذه الآية متصلة بقوله أول السورة: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾، أي: لا نضربه عنكم، بل نواصله لكم، فمن يعش عن ذلك الذكر بالإعراض عنه، إلى تأويل المضلين وأباطيلهم، نقيض له شيطاناً. و﴿يَعْشُ﴾: من عشا يعشو عشاً إذا تعاشى بلا آفة وتعامى؛ أي: نظر نظر العشا، ولا آفة في بصره، والعشا بالفتح والقصر ظلمة تعرض في العين، كما سيأتي. و﴿من﴾ فيه شرطية؛ أي: ومن يتعام عن القرآن ويعرض ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ سبحانه ﴿نُقَيِّضْ لَهُ﴾؛ أي: نهيىء له ﴿شَيْطَانًا﴾ ونسلطه عليه ونضمه إليه ليستولي عليه استيلاء القيض على البيض، وهو القشر الأعلى اليابس ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: ذلك الشيطان ﴿لَهُ﴾؛ أي: لذلك العاشي والمعرض ﴿قَرِينٌ﴾؛ أي: مصاحب وملازم له، لا يفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه، ويزين له العمى على الهدى، والقبيح بدل الحسن، أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه، بل يتبعه في جميع أموره، ويطيعه في كل ما يوسوس به إليه، والعشا في العين ضعف البصر، والمراد هنا: عشا البصيرة.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله بعبد شراً، قيض له شيطاناً قبل موته بسنة، فلا يرى حسناً إلا قبحه عنده، حتى لا يعمل به، ولا يرى قبيحاً إلا حسنه حتى يعمل به، وينبغي أن يكون هذا الشيطان غير قرينه الجني الكافر، وإلا فكل أحد له شيطان هو قرينه، كما قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة»، قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «وإياي، ولكن الله أعانني عليه، فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» أخرجه مسلم بمعناه.

والمعنى: أي ومن يتعام عن ذكر الله، ويعرض عنه، وينهمك في لذات الدنيا وشهواتها.. نسلط عليه شياطين الإنس والجن، يزينون له أن يرتع في الشهوات، ويلغ في اللذات، فلا يألو جهداً في ارتكاب الآثام، والمحرمات على ما جرت به سنتنا الكونية، كما نسلط الذباب على الأجسام القذرة، ونخلق الحيات والعقارب والحشرات في المحالّ العفنة، لتلطف الجو وترحم الناس والحيوان، وهكذا النفوس الموسوسة للضعفاء توقعهم في الذنوب لاستعدادهم لها، فينالون جزاءهم من عقاب الله وعقوبات البشر واحتقارهم لهم إلى ما ينالهم من الأمراض الفتاكة، والأدواء التي لا يجدي فيها علاج، فيكون ذلك عبرة لهم ولغيرهم، وأنّى لهم أن تنفعهم تلك الذكرى، فقد فات الأوان ولا ينفع الندم على فائت.

نَـدِمَ ٱلْـبُـغَـاةُ وَلاَتَ سَـاعَـةَ مَـنْـدَمِ   وَٱلْـبَـغْـيُ مَـرْتَـعُ مُـبْـتَـغِـيْـهِ وَخِـيْـمُ

قال الزجاج: معنى الآية: إن من أعرض عن القرآن، وما فيه من الحكم إلى أباطيل المضلين، يعاقبه الله بشيطان يقيضه له حتى يضله، ويلازمه قريناً له، فلا يهتدي مجازاةً له، حين آثر الباطل على الحق المبين اهـ.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ بضم الشين من عشا يعشو كدعا يدعو؛ أي: يتعام بلا آفة في بصره، كعرج بفتح الراء، ويتجاهل عن ذكره وهو يعرف الحق، وقيل: يقل نظره في شرع الله، ويغمض جفونه عن النظر في ذكر الله، والذكر هنا يجوز أن يراد به القرآن، ويحتمل أن يكون مصدراً أضيف إلى المفعول؛ أي: يعش عن أن يذكر الرحمٰن. وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن سلام البصري: ﴿ومن يعش﴾ بفتح الشين، يقال: عشي الرجل يعشى عشياً، من باب رضي إذا عمي وكان في بصره آفة، كعرج بكسر الراء، وقرأ زيد بن علي ﴿يعشو﴾ بالواو. قال الزمخشري: على أن ﴿من﴾: موصولة غير متضمنة معنى الشرط، وحق هذا القارىء أن يرفع ﴿نُقَيِّضْ﴾ انتهى، ولا يتعين ما قاله، بل يصح أن تكون ﴿مَنْ﴾ شرطية، ﴿يعشو﴾ مجزوم بحذف الحركة تقديراً، وقرأ الجمهور:

---

(١) البحر المحيط.

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ﴾ بالنون. وقرأ السلمي وعلي بن زيد وابن أبي إسحاق ويعقوب وعصمة عن عاصم وعن الأعمش وأبو عمرو بخلاف عنه، والعليمي عن أبي بكر ﴿يقيض﴾ بالياء مبنياً للفاعل؛ أي: يقيض الرحمٰن. وقرأ ابن عباس ﴿يقيض له﴾ بالبناء للمفعول ﴿شيطان﴾ الرفع؛ أي[1]: ييسر له شيطان ويعد له، وهذا عقاب على الكفر بالختم ﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: وإن الشياطين الذين قيض كل واحد منهم، لكل واحد ممن يعشو ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾؛ أي: ليمنعون قرناءهم، فمدار جمع الضميرين اعتبار معنى من، كما أن مدار إفراد الضمائر السابقة اعتبار لفظها ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: عن الطريق المستبين الذي من حقه أن يسبل، وهو الذي يدعو إليه القرآن ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾؛ أي: والحال أن العاشين يظنون ﴿أَنَّهُم﴾؛ أي: أن الشياطين ﴿مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي: إلى السبيل المستقيم؛ أي: يحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم، وإلا لما اتبعوهم، أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة، أنهم في أنفسهم مهتدون، لأن اعتقاد كون الشياطين مهتدين، مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك، لاتحاد مسلكهما.

والمعنى[2]: أي وإن هؤلاء الشياطين، الذين يقيضهم الله سبحانه وتعالى لكل من يعشو عن ذكر الرحمٰن، ليحولن بينهم وبين سبيل الحق، ويوسوسن لهم، أنهم على الجادة، وسواهم على الباطل، فيطيعونهم ويكرهون إليهم الإيمان بالله، والعمل بطاعته.

ثم ذكر حال الكافر مع القرين يوم القيامة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ حتى ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية، ومع هذا غاية لما قبلها، فإن الابتدائية لا تنافيها. والمعنى: يستمر العاشون على ما ذكر من مقارنة الشياطين والصد والحسبان الباطل، حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة، وقرأ أبو جعفر[3] وشيبة وقتادة والزهري والجحدري وأبو بكر والحرميان - نافع وابن كثير - ﴿حتى إذا جاآنا﴾ على التثنية؛ أي: العاشي والقرين إعادةً على لفظ ﴿من﴾، والشيطان:

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

القرين وإن كان من حيث المعنى صالحاً للجمع. وقرأ الأعمش[1] والأعرج وعيسى وابن محيصن والأخوان ـ حمزة والكسائي ـ ﴿جاءنا﴾ على الإفراد، والضمير عائد على لفظ ﴿من﴾، أعاد أولاً على اللفظ، ثم جمع على المعنى، ثم أفرد على اللفظ، ونظير ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أفرد أولاً، ثم جمع في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ثم أفرد في قوله: ﴿رِزْقًا﴾.

رُوي: أنهما يجعلان يوم البعث في سلسلة، فلا يفترقان حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار ﴿قَالَ﴾ العاشي الكافر، مخاطباً لشيطانه ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ أي: يا هذا القرين، أتمنى لو كان بيني وبينك في الدنيا بعد كالبعد الذي بين المشرق والمغرب، حتى لا تصدني عن سبيل الله سبحانه، أو تمنى ذلك في الآخرة وهو الظاهر؛ لأنه جواب إذا التي للاستقبال؛ أي: بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق، فغلب المشرق فثناهما، كما قالوا: العمران في أبي بكر وعمر، والقمران في الشمس والقمر، واختار تغليب المشرق على المغرب لمناسبة الشيطان؛ لأنه حيث يطلع قرن الشيطان، كما في الحديث الصحيح. وقال مقاتل: أي مشرقي الشمس، مشرقها في أقصر يوم من السنة، ومشرقها في أطول يوم من السنة، قاله ابن السائب أيضاً، يعني: أن بينهما بعد مشرق أطول يوم في السنة، من مشرق أقصر يوم في السنة، والأول[2] أولى، وبه قال الفراء ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾؛ أي: الصاحب المقارن لي، والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: أنت أيها الشيطان.

والمعنى[3]: أي يستمر العاشون على ما ذكر من مقارنة الشياطين، حتى إذا وافى الكافر يوم القيامة إلينا، وعرض عليها، أعرض عن قرينه، الذي وكل به، وتبرأ منه، وقال: ليت بيني وبينك بعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس القرين، أنت أيها الشيطان؛ لأنك قد أضللتني وأوصلتني إلى هذا العذاب المهين،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

والخزي الدائم، والعيش الضنك، والمحل المقض المضجع.

ثم حكى ما سيقال لهم حينئذ، توبيخاً وتأنيباً، فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم، يعني: يوم القيامة، فهو حكاية لما سيقال لهم حينئذ، من جهة الله تعالى، توبيخاً وتقريعاً؛ أي: لن ينفعكم اليوم تمنيكم لمباعدتهم ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾؛ أي: لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا، باتباعكم إياهم في الكفر والمعاصي، وإذ للتعليل، متعلق بالنفي، كما قال سيبويه، إنها بمعنى التعليل، حرف بمنزلة لام العلة ﴿إِنَّكُمْ﴾؛ أي: أنتم وشياطينكم ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تعليل لنفي النفع؛ أي: لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وشياطينكم القرناء في العذاب، كما كنتم في الدنيا مشتركين في سببه، ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن عامر، على اختلاف عليه فيها، بكسر همزة ﴿إنّ﴾. وقرأ الجمهور: بفتح همزة ﴿أنّ﴾ على أنها وما بعدها في محل رفع على الفاعلية لينفعكم؛ أي: لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب، بمعنى لن يحصل لكم التشفي، بكون قرنائكم معذبين مثلكم، حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾، ونظائره: لتشفوا بذلك، قال المفسرون: لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب؛ لأن لكل أحد الكفار والشياطين الحظ الأوفر منه.

وفي الآية[1]: إشارة إلى حال التابع والمتبوع، من أهل الأهواء والبدع، فإن المتبوع منهم، كان شيطان التابع في الإضلال عن طريق السنة، فلما فات الوقت وأدرك المقت، وقعوا في التمني الباطل، قيل:

فَضِّلِ ٱلْيَوْمَ عَلَىٰ ٱلْغَدِ ... إِنَّ لِلتَّأْخِيْرِ آفَاتِ

فعلى العاقل تدارك حاله وتفكر مآله، والهرب من الشيطان الأسود والأبيض، قبل أن يهرب هو منه.

ومعنى الآية: أي[2] ولن ينفعكم في هذا اليوم اشتراككم في العذاب، أنتم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وقرناؤكم، كما كان ينفع في الدنيا الاشتراك في المهام الدنيوية، إذ يتعاونون في تحمل أعبائها، ويتقاسمون شدتها وعناءها، فإن لكل منهم من العذاب ما لا تبلغه طاقته ولا قدرة له على احتماله

وقد يكون المعنى: ولن ينفعكم ذلك من حيث التأسي، فإن المكروب في الدنيا يتأسى ويستروح بوجدان المشارك في البلوى، فيقول أحدهم: لي في البلاء والمصيبة أسوة، فيسكن ذلك من حزنه، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

يُذَكِّرُنِيْ طُلُوْعُ ٱلشَّمْسِ صَخْرًا ... وَأَذْكُرُهُ بِكُلِّ مَغِيْبِ شَمْسِ
فَلَوْلاَ كَثْرَةُ ٱلْبَاكِيْنَ حَوْلِيْ ... عَلَىٰ إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِيْ
وَمَا يَبْكُوْنَ مِثْلَ أَخِيْ وَلَكِنْ ... أُعَزِّيْ ٱلنَّفْسَ عَنْهُ بِٱلتَّأَسِّيْ

وقصارى ذلك: أنه لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب، إذ لكل منهم الحظ الأوفر منه، وقد يكون المعنى: ولن ينفعكم اليوم الاعتذار والندم، فأنتم وقرناؤكم مشتركون في العذاب، كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا، ولما وصفهم فيما سلف بالعشى، وصفهم هنا بالعمىٰ والصمم، من قبل أن الإنسان لاشتغاله بالدنيا يكون كمن حصل بعينه ضعف في البصر، وكلما زاد انهماكه فيها، كان ميله إلى الجسمانيات أشد، وإعراضه عن الروحانيات أكمل، فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري التعجبي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أأنت تتعب نفسك يا محمد، في دعاء قومك إلى التوحيد، فأنت تسمع الحق الصم؛ أي: الذين تصامّوا عن سماعه ﴿أَوۡ تَهۡدِي﴾ وترشد إلى الحق ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾؛ أي: الذين تعاموا عن إبصاره ﴿و﴾ تهدي ﴿من كان في ضلال مبين﴾؛ أي: بين لا يخفى على أحد؛ أي: ومن كان في علم الله، أنه يموت على الضلالة، فهو معطوف على العمى، باعتبار تغاير الوصفين؛ أي: أنت لا تسمعهم؛ أي: لا ينتفعون بسماعك، يشير[1] إلى أن من سددنا بصيرته، ولبسنا عليه رشده، ومن

(١) روح البيان.

صببنا في مسامع قلبه رصاص الشقاء والحرمان، لا يمكنك يا محمد مع كمال نبوتك هدايته، وإسماعه من غير عنايتنا السابقة، ورعايتنا اللاحقة، وكان ﷺ يتعب نفسه في دعاء قومه، وهم لا يزيدون إلا غياً وتعامياً عما يشاهدونه من شواهد النبوة، وتصاماً عما يسمعونه من بينات القرآن، فنزلت الآية، وهو إنكار تعجيب، من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، بعد تمرنهم على الكفر، واستغراقهم في الضلال، بحيث صار عشاهم عمى مقروناً بالصمم، فنزل منزلة من يدعي أنه قادر على ذلك لإصراره على دعائهم قائلاً: أنا أسمع وأهدي، على قصد تقوي الحكم، لا التخصيص، فعجب تعالى منه.

ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار في الضلال المفرط، بحيث لا ارعواء له عنه، لا توهم القصور من قبل الهادي، ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله وحده بالقسر والإلجاء، يعني: لا يقدر على إسماع الصم وهداية العمي، وجعل الكافر مؤمناً إلا الله وحده، لعظم قدرته وإحاطة تعلقها بكل مقدور.

ومعنى الآية: أي أفأنت[1] تسمع من قد سلبهم الله استماع حججه التي ذكرها في كتابه، أو تهدي إلى طريق الحق، من أعمى قلوبهم عن أبصارها، واستحوذ عليهم الشيطان، فزين لهم طريق الردى.

والخلاصة: أن ذلك ليس إليك إنما ذلك إلى من بيده تصريف القلوب، وتوجيهها إلى حيث شاء، فعليك البلاغ وعلينا الحساب.

وبعد أن أيأسه من إيمانهم، سلاه بالانتقام منهم لأجله، إما حال حياته، أو بعد مماته، فقال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أصله[2]: إن ما على أن ﴿إن﴾ للشرط و﴿ما﴾ مزيدة للتأكيد، بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة؛ أي: فإن قبضناك وأمتناك يا محمد، وأذهبناك من الدنيا، قبل أن نبصرك عذابهم، ونشفي بذلك صدرك، وصدر المؤمنين ﴿فَإِنَّا مِنْهُم﴾؛ أي: من هؤلاء المشركين ﴿مُّنتَقِمُونَ﴾ لا محالة في الدنيا والآخرة ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ أو إن أردنا أن

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

نريك العذاب الذي وعدناهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ لا يفوتوننا، لأنهم تحت قهرنا وقدرتنا. وفي الآية تسلية النبي ﷺ، بأنه تعالى ينتقم من أعدائه ومنكريه، إما في حال حياته، وإما بعد مماته، وإنه قادر على انتقامهم بواسطته كما كان في يوم بدر، أو بغير واسطة، كما كان في زمن أبي بكر - رضي الله عنه وغيره. وقرىء ﴿نرينك﴾ بالنون الخفيفة.

ومعنى الآية[1]: أي فإن نذهب بك أيها الرسول من بين أظهر المشركين، بموت أو غيره، فإنا منهم منتقمون، كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم، المكذبة لرسلها، أو نرينك الذي وعدناك من الظفر بهم، وعلائك عليهم، فإنا عليهم مقتدرون، فنظهرك عليهم، ونخزيهم بيديك، وأيدي المؤمنين، وفي التعبير بالوعد، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، إشارة إلى أن ذلك سيقع حتماً، وهكذا كان، فإنه لم يقبض رسوله ﷺ حتى أقر عينيه من أعدائه، وحكمه في نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم، قاله السدي، واختاره ابن جرير.

ثم أمر رسوله ﷺ أن يستمسك بما أوحى به إليه، فيعمل به، فقال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾ يا محمد ﴿بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: تمسك بالقرآن الذي أنزل عليك بمراعاة أحكامه، وإن كذب به من كذب، سواء عجلنا لك الموعود، أو أخرناه إلى يوم الآخرة ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: طريق سوي لا عوج له، وهو طريق التوحيد ودين الإسلام، والجملة تعليل لقوله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾.

وفي «التأويلات النجمية»: فاعتصم بالقرآن، فإنه حبل الله المتين، بأن تتخلق بخلقه وتدور معه حيث يدور، وقف حيث ما أمرت، وثق بربك فإنك على صراط مستقيم، تصل به إلى حضرة جلالنا ﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أي: وإن هذا القرآن الذي أوحي إليك ﴿لَذِكْرٌ﴾؛ أي: لشرف عظيم ﴿لَّكَ﴾ خصوصاً ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾؛ أي: لأمتك عموماً كما قال عليه السلام: «إن لكل شيء شرفاً يباهى به، وإن أمتي تباهي وشرفها القرآن»

(١) المراغي.

فالمراد بالقوم[1]: الأمة، كما قال مجاهد، وقال بعضهم: ولقومك من قريش حيث يقال: إن هذا الكتاب العظيم، أنزله الله على رجل من هؤلاء، قال في «الكواشي»: أولاهم بذلك الشرف الأقرب، فالأقرب منه ﷺ، كقريش، ثم بني هاشم، وبني المطلب. قال ابن عطاء: شرف لك بانتسابك إلينا، وشرف لقومك بانتسابهم إليك؛ أي: لأن الانتساب إلى العظيم عظم، وإلى الشريف شرف.

ثم جمع الله النبي ﷺ مع قومه فقال: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه، وعن تعظيمكم وشرككم على أن رزقتموه، وخصصتم به من بين العالمين. وقال القرطبي والصحيح: أنه شرف لمن عمل به كان من قريش، أو من غيرهم، انتهى.

ومعنى الآية[2]: أي فخذ يا محمد بهذا القرآن، المنزل على قلبك، فإنه هو الحق المفضي إلى الصراط المستقيم، والموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم، وإنه لشرف عظيم لك، ولقومك؛ لأنه نزل بلغتهم على رجل منهم، فهم أفهم الناس به، فينبغي أن يكونوا أسبق الناس إلى العمل به، وسوف تسألون يوم القيامة عن حقه، وأداء شكر النعمة فيه.

أخرج الطبراني وابن مردويه عن عدي بن حاتم قال: كنت قاعداً عند النبي ﷺ فقال: «ألا إن الله تعالى، علم ما في قلبي من حبي لقومي، فبشرني فيهم»، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ الآية، فجعل الذكر والشرف لقومي، إلى أن قال: «فالحمد للّه الذي جعل الصديق من قومي، والشهيد من قومي، وإن الله قلب العباد ظهراً وبطناً، فكان خير العرب قريش، وهي الشجرة المباركة». ثم قال عدي: ما رأيت رسول الله ﷺ ذكرت عنده قريش بخير، إلا سره، حتى يتبين ذلك السرور في وجهه للناس كلهم اهـ.

ونظير الآية، قوله في سورة الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أي: شرفكم، فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم، وصاروا عيالاً عليهم، حتى يقفوا على معانيه من أمر ونهي، وأنباء وقصص، وحكمة وأدب.

وروى الترمذي عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا ينازعهم فيه أحد، إلا أكبه الله تعالى على وجهه، ما أقاموا الدين». وفي الآية، إيماء إلى أن الذكر الجميل، والثناء الحسن، أمر مرغوب فيه، ولولا ذلك ما امتن الله على نبيه محمد ﷺ به، ولما طلبه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ وقال ابن دريد:

إِنَّمَا ٱلْمَرْءُ حَدِيْثٌ بَعْدَهُ كُنْ حَدِيْثاً حَسَناً لِمَنْ وَعَىٰ

وقال المتنبي:

ذِكْرُ ٱلْفَتَىٰ عُمْرُهُ ٱلثَّانِيْ وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُوْلُ ٱلْعَيْشِ أَشْغَالُ

وخلاصة ما سلف: أن القرآن نزل بلغة العرب، وقد وعد الله بنشر هذا الدين، وأبناء العرب هم العارفون بهذه اللغة، فهم الملزمون بنشرها، ونشر هذا الدين للأمم الأخرى، فمتى قصروا في ذلك، أذلهم الله تعالى في الدنيا، وأدخلهم النار في الآخرة، فعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب، ويعلموا أنهم هم المعلمون للأمم، فينشروا هذا القرآن، ويكتبوا المصاحف باللغة العربية، ويضعوا على هوامشها تفاسير بلغات مختلفة، كالإنجليزية والألمانية والروسية والأرومية، تعرِّف الأمم كلها هذا الدين، معرفةً حقةً خاليةً من الخرافات، التي ألصقها به المبتدعون ويعود سيرته الأولى، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم وبخ مشركي قريش، بأن ما هم عليه من عبادة الأوثان والأصنام، لم يأت في شريعة من الشرائع فقال: ﴿وَسْئَلْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ في محل النصب على أنه مفعول ﴿اسأل﴾، وهو على حذف المضاف. لاستحالة السؤال من الرسل حقيقةً، والمعنى: واسأل أمم من أرسلنا ﴿مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ وعلماء دينهم.

وفائدة هذا المجاز: التنبيه على أن المسؤول عنه، عين ما نطقت به ألسنة الرسل، لا ما يقوله أممهم وعلماؤهم من تلقاء أنفسهم ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؛ أي: هل حكمنا بعبادة الأوثان، وهل جاءت في ملة من مللهم، والمراد به: الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه، حتى يكذب ويعادى له، فإنه أقوى ما حملهم على التكذيب والمخالفة.

قال ابن الشيخ: السؤال يكون لرفع الالتباس، ولم يكن رسول الله يشك في ذلك، وإنما الخطاب له والمراد غيره، قالت عائشة رضي الله عنها: لما نزلت هذه الآية، قال ﷺ: «ما أنا بالذي أشك، وما أنا بالذي أسأس».

والمعنى[1]: أي واسأل أمم من أرسلنا من قبلك من الرسل، هل حكمنا بعبادة غير الله؟ وهل جاء ذاك في ملة من الملل، أو المراد بهذا الاستشهاد بيان إجماع المسلمين على التوحيد، والتنبيه على أن محمداً ﷺ ليس ببدع من بين الرسل في الأمر، حتى يكذب ويعادى له؟

وقصارى ذلك: أن الرسل جميعاً دعوا إلى ما دعا إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام، ونحو الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾. وجعل الزمخشري السؤال في الآية مجازاً على النظر في أديانهم، والفحص عن مللهم، على أنه نظير قولهم: سل الأرض من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك.

وللآية وجه آخر[2]، بحملها على ظاهرها من غير تقدير مضاف، وهو ما روى أنه ﷺ، لما أُسري به إلى المسجد الأقصى، حشر إليه الأنبياء، والمرسلون من قبورهم، ومثلوا له، فأذّن جبرائيل، ثم أقام، وقال: يا محمد تقدم فصل بإخوانك الأنبياء والمرسلين، فلما فرغ من الصلاة، قال له جبرائيل: زعمت قريش، أن لله شريكاً، وزعمت اليهود والنصارى، أن لله ولداً، سل يا محمد، هؤلاء النبيين، هل كان لله شريك؟ ثم قرأ ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الآية، فقال ﷺ: لا أسأل، وقد اكتفيت، ولست بشاكّ فيه، فلم يشك فيه، ولم يسأل، وكان أثبت يقيناً من ذلك.

قال أبو القاسم، المفسر في كتاب «التنزيل» له: إن هذه الآية أنزلت على النبي ﷺ ببيت المقدس، ليلة المعراج، فلما أنزلت وسمعها الأنبياء عليهم السلام، أقروا لله تعالى بالوحدانية، وقالوا: بعثنا بالتوحيد، انتهى.

قصة موسى عليه السلام مع فرعون اللعين

ولما أعلم سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عدوه، وذكر اتفاق الأنبياء على التوحيد، أتبعه بذكر قصة موسى وفرعون، وبيان ما نزل بفرعون وقومه من النقمة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد بعثنا موسى بن عمران عليه السلام، حال كونه متلبساً ﴿بِآيَاتِنَآ﴾ ومعجزاتنا التسع الدالة على صحة نبوته ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ اللعين ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ أي: أشراف قومه، والإرسال إلى الأشراف إرسال إلى الأراذل؛ لأنهم تابعون لهم ﴿فَقَالَ﴾ موسى لهم ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ إليكم فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ موسى ﴿بِآيَاتِنَآ﴾ ليسعدوا وينتهوا وينتفعوا بها، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ مرتب على محذوف، تقديره: فطلبوا منه الآيات الدالة على صدقه، فلما جاءهم إلخ، كما يدل عليه ما في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَآ﴾ إلخ. ﴿إِذَا﴾ فجائية رابطة لجواب لما الشرطية ﴿هُم مِّنْهَا﴾؛ أي: من تلك الآيات ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بها، ويسخرون منها، ويهزؤون بها؛ أي: فاجؤوا المجيء بها بالضحك، سخرية من غير توقف، ولا تأمل، وإذا هنا حرف فجأة لا ظرف، كما زعمه الزمخشري؛ أي: استهزؤوا بها، وكذبوها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها، وقالوا: سحر وتخييل ظلماً وعلواً.

والمعنى[1]: أي فلما جاءهم موسى بالأدلة على صدق قوله، فيما يدعوهم إليه من توحيد الله، وترك عبادة الآلهة، إذا فرعون وقومه يضحكون من تلك

(١) المراغي.

المعجزات، كما أن قومك يسخرون مما جئتهم به، وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ على، ما كان يلقاه من قومه المشركين، وإعلام له بأن قومه لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم، الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله، وتكذيب رسله، وندب له أن يستن بسنة أولي العزم من الرسل، في الصبر على أذى أقوامهم، وتكذيبهم لهم، وإخبار بأن عقبى أمرهم الهلاك، كسنته في الكافرين قبلهم، وظفره بهم، وعلو أمره، كما فعل بموسى عليه السلام وقومه، الذين آمنوا معه من إظهارهم على فرعون وملئه.

﴿وَمَا نُرِيهِم﴾؛ أي: وما أرينا فرعون وملأه ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من تلك الآيات؛ أي: حجة من حججنا الدالة على صدق رسولنا في دعواه الرسالة ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾؛ أي: إلا كانت أعظم من سابقتها في الحجية عليهم، وآكد في الدلالة على صحة ما يأمر به من توحيد الله؛ أي: كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها، وأعظم قدراً، مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها.

وقيل المعنى[1]: إن الأولى تقتضي علماً، فإذا ضمت الثانية إلى الأولى ازداد الوضوح، ومعنى الأخوة بين الآيات: أنها متشاكلة متناسبة في دلالتها على صحة نبوة موسى، كما يقال: هذه صاحبة هذه؛ أي: هما قرينتان في المعنى، وقيل: المعنى أن كل واحدة من الآيات إذا انفردت ظن الظان أنها أكبر من سائر الآيات، ومثل هذا: قول القائل:

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاَقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلُ ٱلنُّجُوْمِ ٱلَّتِيْ يَسْرِيْ بِهَا ٱلسَّارِيْ

وجملة قوله: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ في محل جر، صفة لـ﴿ءَايَةٍ﴾.

ثم بين ما جوزوا به على تكذيبهم، فقال: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم﴾؛ أي: أخذنا فرعون وقومه ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ وعاقبناهم بالسنين، والطوفان والجراد والدم والطمس ونحوها، وكانت هذه الآيات دلالات ومعجزات لموسى، وزجراً وعذاباً للكافرين ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: لكي يرجعوا[2] عما هم عليه من الكفر، فإن من جهولية نفس

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

الإنسان، أن لا يرجع إلى الله على أقدام العبودية، إلا أن يجر بسلاسل البأساء والضراء إلى الحضرة الإلٰهية، فكلمة لعل، مستعارة لمعنى كي، وهو التعليل كما سبق في أول هذه السورة؛ أي: عاقبناهم بالعذاب لكي يرجعوا عما هم عليه من الكفر إلى الإيمان بالله وطاعته، والتوبة مما هم عليه مقيمون من المعاصي، ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات، والدلالات الواضحات، ظنوا أن ذلك من قبيل السحر ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: فرعون وقومه في كل مرة من العذاب، لما ضاق نطاق بشريتهم ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ نادوه بذلك في مثل تلك الحالة؛ أي: عند طلب كشف العذاب بدعائه، لغاية عتوهم وغاية حماقتهم، أو سبق ذلك إلى لسانهم، على ما ألفوه من تسميتهم إياه بالساحر لفرط حيرتهم، قال سعدي المفتي: والأظهر: أن النداء كان باسمه العلم، كما في الأعراف، لكن حكى الله تعالى هنا كلامهم لا بعبارتهم، بل على وفق ما أضمرته قلوبهم، من اعتقادهم أنه ساحر، لاقتضاء مقام التسلية ذلك، فإن قريشاً أيضاً سموه ساحراً، وسموا ما أتى به سحراً، وعن الحسن قالوه على الاستهزاء، وقال بعضهم: قالوه تعظيماً، فإن السحر كان عندهم علماً عظيماً، وصفةً ممدوحةً والساحر فيهم عظيم الشأن، فكأنهم قالوا: يا أيها العالم بالسحر الكامل، الحاذق فيه، ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾؛ أي: بسبب ما أخبرتنا من عهده إليك، أنا إن آمنا به كشفه عنا، أو بعهده عندك، وهو النبوة، فإن النبوة تسمى عهد الله، والباء حينئذ للقسم؛ أي: ادع الله بحق ما عندك من النبوة، أو بما عهده عندك من استجابة دعوتك في كل شيء.

قال في «التأويلات النجمية»: ما قالوا مع هذا الاضطرار: يا أيها الرسول، وما قالوا: ادع لنا ربنا؛ لأنهم ما رجعوا إلى الله بصدق النية، وخلوص العقيدة. ليروه بنور الإيمان رسولاً، ويروا الله ربهم، وإنما رجعوا بالاضطرار لخلاص أنفسهم، لا لخلاص قلوبهم ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾؛ أي: لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك وعد منهم، معلق بشرط الدعاء، ولهذا تعرضوا للنبوة على تقدير صحتها، وقالوا: ربك، لا ربنا، فإنه إنما يكون ربهم بعد الإيمان؛ لأنهم قائلون بربوبية فرعون.

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ مرتب على محذوف تقديره: فدعا موسى ربه فكشف عنهم العذاب، فلما كشفنا وأزلنا عنهم العذاب النازل بهم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾؛ أي: فاجؤوا نقض عهدهم بالاهتداء، وهو الإيمان؛ أي: بادروا النكث ولم يؤخروه، وعادوا إلى كفرهم، وأصروا عليه، ولما نقضوا عهودهم صاروا ملعونين، ومن آثار لعنهم الغرق كما يأتي، فعلى العاقل الوفاء بالعهد، وقرأ أبو حيوة ﴿ينكثون﴾ بكسر الكاف.

والمعنى: فدعانا موسى فكشفنا عنهم العذاب فلم يؤمنوا، ونقضوا العهد، وقد كان هذا ديدنهم مع موسى، يعدونه في كل مرة أن يؤمنوا به، إذا كشف الرجز، ثم ينقضون ما عاهدوا الله عليه، ونحو الآية: ما جاء في سورة الأعراف من قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

ثم أخبر سبحانه، عن تمرد فرعون وعتوه وعناده، فقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه، أو بمناد أمره بالنداء ﴿فِى قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: في مجمعهم وفيما بينهم، بعد أن كشف العذاب عنهم، مخافة أن يؤمنوا فـ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ يريد الأقباط ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام التقريري. لا ينازعني فيه أحد، ولا يخالفني مخالف، وهي أربعون فرسخاً في أربعين، وفي «فتح الرحمن»: وهو من نحو الإسكندرية إلى أسوان بطول النيل، وأسوان بالضم، بلد بصعيد مصر، كما في «القاموس». قال في «روضة الأخبار»: مصر بلدة معروفة، بناها مصر بن حام بن نوح، وبه سميت مصر مصراً.

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: أنهار[1] النيل، فاللام عوض عن المضاف إليه، والمراد بها: الخلجان الكبار الخارجة من النيل، ومعظمها أربعة أنهر، نهر

---

(١) روح البيان.

الملك وهو نهر الإسكندرية، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس، وهو بوزن سكين بلدة بجزيرة من جزائر بحر الروم، قرب دمياط، ينسب إليها الثياب الفاخرة، كما في «القاموس» ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾؛ أي: من تحت قصري، أو بأمري، والواو في قوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إما عاطفة لهذه الأنهار على ملك، فجملة ﴿تَجْرِي﴾ حال منها، أو ﴿الواو﴾ للحال، فـ﴿هذه﴾ مبتدأ و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفتها، و﴿تَجْرِي﴾ خبر للمبتدأ.

قال في «خريدة العجائب»: ليس في الدنيا نهر أطول من النيل؛ لأن مسيرته شهران في الإسلام، وشهران في الكفر، وشهران في البرية، وأربعة أشهر في الخراب، ومخرجه من بلاد جبل القمر، خلف خط الاستواء، وسمي جبل القمر؛ لأن القمر لا يطلع عليه أصلاً، لخروجه عن خط الاستواء، وميله عن نوره، وضوءه يخرج من بحر الظلمة؛ أي: البحر الأسود، ويدخل تحت جبل القمر، وليس في الدنيا نهر يشبه النيل إلا نهر مهران، وهو نهر السند، وقال الضحاك[1]: أراد بالأنهار القوّاد والرؤساء والجبابرة، وأنهم تحت لوائه، وقيل: أراد بالأنهار الأموال، والأول أولى؛ لأن هذين التفسيرين يشبهان تفسير الباطنية، والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتتعامون فلا تبصرون عظمتي وقدرتي، وعجز موسى، و﴿أم﴾ في قوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ منقطعة، تقدر ببل الإضرابية، وبهمزة الاستفهام التقريري؛ لأن غرضه حملهم على الإقرار بخيريته، كأنه قال إثر ما عدد أسباب فضله، ومبادىء خيريته، أَثَبَت عندكم واستقر لديكم، أني أنا خير من هذا الذي هو مهين؛ أي: بل أنا خير ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ الساحر ﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾؛ أي: ضعيف، حقير، فقير، ذليل، لا قدر ولا ملك له، من المهانة، وهي الذلة ﴿وَلَا يَكَادُ﴾؛ أي: لا يقرب ﴿يُبِينُ﴾ الكلام، ويوضحه ويبينه للكنة، ورتة في لسانه، فكيف يصلح للنبوة والرسالة، يريد أنه ليس معه من آيات الملك والسياسة، ما يعتضده ويتقوى به، كما قالت

---

(١) الشوكاني.

قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهو في نفسه، خال عما يوصف به الرجال من الفصاحة والبلاغة، وكان الأنبياء كلهم فصحاء بلغاء، قاله افتراءً على موسى، وتنقيصا له في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من نوع رتة، حدثت بسبب الجمرة، وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ والرتة: غير اللثغة، وهي حبسة في اللسان، تمنعه من الجريان، وسلاسة التكلم، واللثغة: إبدال حرف بحرف، كإبدال الراء غيناً، والسين ثاء مثلثة. وفي «التأويلات النجمية»: تشير الآية، إلى أن من تعزز بشيء من دون الله، فحتفه وهلاكه في ذلك الشيء، فلما تعزز فرعون بملك مصر، وجري النيل بأمره، كان فيه هلاكه، وكذلك من استصغر أحداً سلط عليه، كما أن فرعون استصغر موسى عليه السلام وحديثه، وعابه بالفقر واللكنة، فقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾، فسلطه الله عليه، وكان هلاكه على يديه، وفيه إشارة أخرى، وهي أن قوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾، هو من خصوصية صفة إبليس، فكانت هذه الصفة توجد في فرعون، وكان من صفة فرعون قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ولم توجد هذه الصفة في إبليس، وقرأ الباقر ﴿يبين﴾ بفتح الياء، من بان إذا ظهر.

والمعنى(1): أي بل أنا ولا شك خير وأفضل بما لي من الملك والسلطة والسعة والجاه من هذا؛ أي: من موسى الذي هو ضعيف، حقير ممتهن في نفسه، لا عز له، ولا يكاد يبين الكلام، ويفصح عما يريد، لما في لسانه من العقدة بسبب الجمرة، وهذا حكم عليه بما يعلم منه في الماضي، دون أن يعلم أن الله الكريم، أزال عنه عقدته حين دعاه، فقال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ فحل عقدة لسانه، كما جاء في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

قال الحسن البصري: إنه قد بقي منها شيء لم يسأل زواله، وإنما سأل زوال ما يمنع الإبلاغ والإفهام اهـ. والأشياء الخلقية لا يعاب بها المرء ولا يذم،

---

(1) المراغي.

لكنه أراد الترويج على رعيته، وصدهم عن الإيمان به.

ثم ذكر شبهةً مانعة له من الرياسة، وهي أنه لا يلبس لبس الملوك، فلا يكون رئيساً ولا رسولاً لتلازمهما في زعمه، فقال: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ قاله توبيخاً[1] ولوماً على ترك الفعل، على ما هو مقتضى حرف التحضيض، الداخل على الماضي، والأسورة جمع سوار بالكسر والضم، وهو ما يلبس في الساعد، والذهب جسم ذائب صاف، منطرق، أصفر، كما سيأتي.

والمعنى: فهلا أُلقي على موسى، وأُعطي مقاليد الملك، إن كان صادقاً في مقالته في رسالته، فيكون حاله خيراً من حالي، والملقي هو رب موسى من السماء، وإلقاء الأسورة كناية عن إلقاء مقاليد الملك؛ أي: أسبابه التي هي كالمفاتيح له، وكانوا إذا سودوا رجلاً سوروه بسوارين، وطوقوه بطوق من ذهب علما على رياسته، ودلالة لسيادته؛ أي: فهلا ألقى رب موسى عليه أساور من ذهب، فيتحلى بها إن كان صادقاً، في أن له رباً أرسله إلينا، كما جرت عادتهم بذلك، وهذا شبيه بما قال كفار قريش في عظيم القريتين.

وقرأ الضحاك[2]: ﴿فلولا ألقى﴾: مبنيا للفاعل؛ أي: الله ﴿أساورة﴾: بالنصب، وقرأ الجمهور: ﴿أساورة﴾: بالرفع. وقرأ أبي وعبد الله: ﴿أساوير﴾ جمع إسوار، لغة في سوار، وقرأ الحسن وقتادة وأبو رجاء والأعرج ومجاهد وأبو حيوة وحفص: ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ جمع سوار، نحو: خمار وأخمرة، وقرأ الأعمش ﴿أساور﴾، ورويت عن أبي وعن أبي عمرو.

ثم ذكر شبهةً أخرى، وهي أنه ليس له خدم من الملائكة تعينه، فقال: ﴿أَوْ﴾ هلا ﴿جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾؛ أي: حالة كونهم متقارنين متتابعين، أو مقرونين بموسى منضمين إليه: إن كان صادقاً يعينونه على أمره، ويشهدون له بالنبوة، ويمشون معه، كما نفعل نحن، إذا أرسلنا رسولاً في أمر هام يحتاج إلى دفاع، وفيه خصام ونزاع، وهو بهذا، أوهم قومه أن الرسل لا بدّ أن يكونوا على

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

هيئة الجبابرة، أو يكونوا محفوفين بالملائكة.

ثم ذكر أن هذه الخدع قد غلبت عليهم، و سحرت ألبابهم لغفلتهم، وضعف عقولهم، فاعترفوا بربوبيته، وكذبوا بنبوة موسى، فقال: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾؛ أي: فاستجهل قومه، واستحمق عقولهم بقوله وكيده، وبما أبداه لهم من عظمة الملك والرياسة، وجعلها مناطاً للعلم والنبوة، وأنه لو كانت هناك نبوة، لكان هو أولى بها ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: فامتثلوه فيما أمرهم به من تكذيب موسى وإقرار ربوبيته، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ أي: خارجين عن طاعة الله تعالى، تعليل لطاعتهم له؛ أي: أطاعوه فيما أمرهم به؛ لأنهم كانوا قوماً ذوي فسق وضلال وغي، ومن ثم أسرعوا إلى تلبية دعوة ذلك الفاسق، الغوي، اللعين.

ثم ذكر جزاءهم على ما اجترحوا من تكذيب رسوله، على وضوح الدليل، وظهور الحق، فقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾؛ أي: أغضبونا بعنادهم وعظيم استكبارهم، وبغيهم في الأرض، والأسف محركاً: الغضب، وقيل: أشد الغضب، وقيل: السخط[1]، وحقيقته ثوران دم القلب إرادة الانتقام، فمتى كان ذلك على من دونه، انتشر فصار غضباً، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزناً.

والمعنى: فلما أغضبنا فرعون وقومه أشد الغضب، بالإفراط في العناد والعصيان، وغضب الله نقيض الرضى، أو إرادة الانتقام، أو تحقيق الوعيد، أو الأخذ الأليم، أو البطش الشديد، أو هتك الأستار والتعذيب بالنار، أو تغيير النعمة، وقيل: المعنى: أغضبوا رسولنا موسى عليه السلام. بتكذيبه وعدم طاعته ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: أردنا أن نعجل لهم انتقامنا وعذابنا، وأن لا نحلم عنهم، وفي «كشف الأسرار»: أحللنا بهم النقمة والعذاب ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ في «البحر»، تفسير للانتقام؛ أي: فأهلكناهم المطاع والمطيعين له ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بالإغراق في

---

(١) روح البيان.

اليم، لم نترك منهم أحداً، وإنما أهلكوا بالغرق ليكون هلاكهم بما تعززوا به، وهو الماء في قوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾.

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي في «الشعب»، وابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه.. فإنما ذلك استدراج منه له»، وقرأ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾؛ أي: قدوة لمن عمل بعلمهم من الكفار، في استحقاق العذاب ككفار قومك.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سَلَفًا﴾ بفتح السين واللام جمع سالف، كخدم وخادم وحرس وحارس، يعني: اسم جمع له؛ لأن فَعَلاً ليس من أبنية الجموع المكسرة، قال ابن عباس وزيد بن أسلم وقتادة؛ أي: جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون. وقرأ[2] أبو عبد الله. وأصحابه، وسعيد بن عياض والأعمش وطلحة والأعرج وحمزة والكسائي: ﴿وسلفا﴾ بضم السين وضم اللام جمع سليف، كسرر وسرير، وقال أبو حاتم: هو جمع سلف، كخشب وخشب، وقرأ علي وابن مسعود ومجاهد وأبو وائل والنخعي وحميد بن قيس والأعرج أيضاً ﴿وسلفا﴾ بضم السين وفتح اللام جمع سلفة، كغرفة وغرف، وهي الفرقة المتقدمة والقطيعة من الناس.

﴿و﴾ جعلناهم أيضاً ﴿مثلاً﴾ وعبرةً وتذكرةً ﴿لِّلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: لمن يأتي بعدهم من الكافرين؛ أي: جعلناهم حديثاً عجيب الشأن، سائراً مسير المثل، يحدث به الآخرون من الكفار، يقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون، فاللام متعلق بكل من ﴿سَلَفًا﴾ ﴿وَمَثَلًا﴾ على سبيل التنازع.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم، ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿لِأَبِيهِ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿وَقَوۡمِهِۦٓ﴾: معطوف على ﴿أبيه﴾، ﴿إِنَّنِي﴾: ناصب واسمه، والنون نون الوقاية، ﴿بَرَآءٞ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مِّمَّا﴾: متعلق بـ﴿بَرَآءٞ﴾، وجملة ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ صلة لما الموصولة ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿ٱلَّذِي﴾ مستثنى في محل النصب على الاستثناء، والاستثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا، بناء على أنهم كانوا يشركون مع الله الأصنام، ورجح أبو حيان كون الاستثناء منقطعاً، إذ كانوا لا يعبدون الله مع الأصنام، ﴿فَطَرَنِي﴾: فعل وفاعل مستتر، ونون وقاية ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ الفاء: تعليلية. ﴿إنه﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ خبره، والسين للتأكيد، لا للاستقبال كما مر؛ أي: يديم هدايتي في المستقبل والحال، والمفعول به محذوف؛ أي: سيهديني لرعاية الفاصلة، وجملة ﴿إن﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَجَعَلَهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جعلها﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمُ﴾، أو على الله، ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾، ﴿كَلِمَةَۢ﴾: مفعول ثان، ﴿بَاقِيَةٗ﴾: صفة لـ﴿كَلِمَةَۢ﴾، ﴿فِي عَقِبِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿بَاقِيَةٗ﴾، ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه وجملة ﴿يَرۡجِعُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾ تعليلية، لا محل لها من الإعراب، ﴿بَلۡ﴾ حرف عطف وإضراب عن محذوف، تقديره: فلم يحصل ما رجاه إبراهيم. ﴿مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على الجملة المحذوفة، ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾: معطوف على هؤلاء، أو مفعول معه ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية، ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾: فعل، ومفعول، وفاعل في محل النصب بأن المضمرة بعد حتى الجارة، ﴿وَرَسُولٞ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، ﴿مُّبِينٞ﴾ صفة رسول، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، تقديره: إلى

مجيء الحق إياهم ورسول مبين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿مَتَّعْتُ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل جواب لما، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾، أو مستأنفة، ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿وَإِنَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنّا﴾: ناصب واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾، و﴿كَٰفِرُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على ما قبلها، على كونها مقولاً لـ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿وَقَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، معطوف على جملة ﴿قَالُوا۟﴾ الأولى ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا. ﴿نُزِّلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿هَٰذَا﴾: نائب فاعل، ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾: بدل من اسم الإشارة،، أو عطف بيان له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ متعلق بـ﴿نُزِّلَ﴾، ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ صفة أولى لـ﴿رَجُلٍ﴾. ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة ثانية له، ﴿أَهُمْ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري التجهيلي، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَقْسِمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة إنشائية. ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، ﴿نَحْنُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿قَسَمْنَا﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿بَيْنَهُم﴾: ظرف متعلق بـ﴿قَسَمْنَا﴾، ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾: مفعول به، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: حال من ضمير ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾؛ لأن المضاف كالجزء من المضاف إليه، ﴿وَرَفَعْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَسَمْنَا﴾، ﴿بَعْضَهُمْ﴾: مفعول به. ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾: ظرف متعلق بـ﴿رفعنا﴾، ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: تمييز محول عن المفعول، أو منصوب بنزع الخافض، كما مر، ﴿لِّيَتَّخِذَ﴾ اللام: حرف جر وتعليل. ﴿يتخذ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة

بعد لام كي، ﴿بَعْضُهُم﴾ فاعل، ﴿بَعْضًا﴾: مفعول أول لـ﴿يتخذ﴾. ﴿سُخْرِيًّا﴾: مفعول ثان له، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لاتخاذ بعضهم بعضاً سخرياً، والجار والمجرور متعلق بـ﴿رفعنا﴾، ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿رحمت ربك﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر، والجملة مستأنفة، ﴿مِّمَّا﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، وجملة ﴿يَجْمَعُونَ﴾: صلة لما الموصولة، والعائد محذوف تقديره: مما يجمعونه.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿أَن﴾ حرف مصدر ونصب، ﴿يَكُونَ﴾: فعل ناقص منصوب بـ﴿أَن﴾، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: اسمها. ﴿أُمَّةً﴾: خبرها، ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة ﴿أُمَّةً﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر، مجرور بإضافة المبتدأ المقدر إليه، وخبر ذلك المبتدأ محذوف وجوباً، والتقدير: ولولا كراهية كون الناس أمة واحدة موجود، والجملة الاسمية شرط لـ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَّجَعَلْنَا﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل، ﴿لِمَن﴾: في موضع المفعول الثاني لـ﴿جعلنا﴾، وجملة ﴿يَكْفُرُ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾: متعلق بـ﴿يَكْفُرُ﴾، ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال من ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ بإعادة الجار، ﴿سُقُفًا﴾ مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾، ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ صفة لـ﴿سُقُفًا﴾، وجملة ﴿جعلنا﴾ جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة، ﴿وَمَعَارِجَ﴾ معطوف على ﴿سُقُفًا﴾، ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق بـ﴿يَظْهَرُونَ﴾، وجملة ﴿يَظْهَرُونَ﴾ صفة لـ﴿معارج﴾.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾: معطوف على قوله ﴿لبيوتهم﴾، وكرر لفظ البيوت لزيادة التقرير، ﴿أَبْوَٰبًا﴾ معطوف بعاطف مقدر على ﴿سُقُفًا﴾، أو منصوب بفعل محذوف،

مماثل للأول، فيكون من عطف الجمل؛ أي: ولجعلنا لبيوتهم أبواباً ﴿وَسُرُرًا﴾: معطوف على أبواباً، ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿يَتَّكِئُونَ﴾، وجملة ﴿يَتَّكِئُونَ﴾ صفة لـ﴿سرراً﴾، ﴿وَزُخْرُفًا﴾: معطوف على على أبواباً، أو مفعول به لفعل محذوف؛ أي: ولجعلنا لهم زخرفاً، وعطفه الزمخشري على محل ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾، كأنه قال: سقفاً من فضة وذهب؛ أي: بعضها من فضة وبعضها من ذهب. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: نافية، ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد، حرف بمعنى إلا الاستثنائية، استثناء مفرغاً، ﴿مَتَٰعُ﴾: خبر المبتدأ. ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مضاف إليه، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، وقرىء بتخفيف لما، و﴿إن﴾ حينئذ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً، ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿لَمَا﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿ما﴾: زائدة، ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: خبر المبتدأ، وجملة المبتدأ والخبر خبر لـ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة مستأنفة، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ مبتدأ، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿الآخرة﴾ أو من الضمير المستكن في الخبر، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يَعْشُ﴾: فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: متعلق بـ﴿يَعْشُ﴾، ﴿نُقَيِّضْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿نُقَيِّضْ﴾، ﴿شَيْطَٰنًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿فَهُوَ﴾ الفاء: عاطفة تفريعية، ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿لَهُۥ﴾ حال من ﴿قَرِينٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿قَرِينٌ﴾ خبر هو، والجملة الاسمية معطوفة على جملة جواب الشرط، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنهم﴾ ناصب واسمه، ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿يصدونهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ متعلق بـ﴿يصدونهم﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿من﴾ الشرطية، أو على جملة

الجواب ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على جملة ﴿إِنّ﴾، ﴿أَنَّهُم﴾ ناصب واسمه، ﴿مُّهْتَدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي حسب؛ أي: يحسبون اهتداءهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء وغاية، لدخولها على الجملة ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿جَآءَنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعل مستتر يعود على العاشي، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على العاشي، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الجارة، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: فهو له قرين، إلى قوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ وقت مجيئه إيانا. ﴿يَٰلَيْتَ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، والمنادى محذوف، تقديره: يا هذا القرين، ﴿ليت﴾: حرف تمن ونصب، ﴿بَيْنِى﴾ ظرف متعلق بمحذوف، خبر ﴿ليت﴾ مقدم على اسمها، ﴿وَبَيْنَكَ﴾: معطوف على ﴿بَيْنِى﴾، ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾: اسم ﴿ليت﴾ مؤخر، ومضاف إليه، وجملة النداء مع جملة التمني في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَبِئْسَ﴾: الفاء: استئنافية. ﴿بئس﴾ فعل ماض من أفعال الذم. ﴿ٱلْقَرِينُ﴾: فاعل، والمخصوص بالذم محذوف وجوباً تقديره: أنت، وجملة ﴿بئس﴾ في محل الرفع خبر لهذا المخصوص، المحذوف، والجملة الاسمية جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَلَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لن﴾ حرف نصب، ﴿يَنفَعَكُمُ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿لن﴾، والكاف مفعول به، وفاعله ضمير مستتر يعود على التمني المفهوم من ﴿ليت﴾، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَنفَعَكُمُ﴾، ﴿إِذ﴾: حرف تعليل بمعنى اللام، أو ظرف لما مضى من الزمان، بدل من اليوم، ﴿ظَّلَمْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف

لـ﴿إذ﴾، أو في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بـ﴿إذ﴾ التعليلية؛ أي: ولن ينفعكم تمنيكم اليوم، وندمكم لظلمكم في الدنيا، ﴿أَنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾ متعلق بـ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾، و﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ مسوقة لتعليل الظلم، لا محل لها من الإعراب، وقرىء أنكم بفتح الهمزة، ففاعل النفع حينئذ المصدر، المؤول من ﴿أن﴾ والتقدير: ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب، لظلمكم في الدنيا.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَفَأَنتَ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري التعجبي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أأنت تتعب نفسك، فأنت تسمع الصم، والجملة المحذوفة مستأنفة، مسوقة لتسليته ﷺ، ﴿أنت﴾: مبتدأ، ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿تُسْمِعُ﴾، ﴿وَمَن﴾: اسم موصول في محل النصب، معطوف على العمي، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: خبرها، ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكر، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك: ﴿إما نذهبن بك﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿ما﴾ زائدة ﴿نَذْهَبَنَّ﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف، لا محل لها من الإعراب، وفاعله ضمير يعود على الله سبحانه، ﴿بِكَ﴾: متعلق بـ﴿نَذْهَبَنَّ﴾، ﴿فَإِنَّا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إنا﴾ ناصب واسمه، ﴿مِنْهُم﴾ متعلق بـ﴿مُّنتَقِمُونَ﴾، و﴿مُّنتَقِمُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة،

﴿أَوْ﴾ حرف عطف وتفصيل، ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية معطوف على ﴿نَذْهَبَنَّ﴾ لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على الله، والكاف مفعول أول، ﴿ٱلَّذِى﴾ مفعول ثان لـ﴿أرى﴾، لأنها بصرية تعدت بالهمزة إلى مفعولين، ﴿وَعَدْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وعدناهموه، ﴿فَإِنَّا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إنّا﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَيْهِم﴾ متعلق بـ﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾، و﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية المقدرة بالعطف على كونها جواباً لها.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك استمسك. ﴿استمسك﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿بِٱلَّذِىٓ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿أُوحِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿أُوحِىَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ خبره ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنّه﴾: ناصب واسمه، ﴿لَذِكْرٌ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿ذكر﴾ خبر ﴿إن﴾. ﴿لَّكَ﴾ متعلق بـ﴿ذكر﴾، أو صفة له، ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾: معطوف على ﴿لَّكَ﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى، ﴿وَسَوْفَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿سوف﴾: حرف تسويف، ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ عطف فعلية على اسمية، ﴿وَسْـَٔلْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اسأل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة معطوفة على جملة ﴿استمسك﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل

النصب مفعول أول لـ﴿اسأل﴾، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، صلة من الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من أرسلناه. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿مِن رُّسُلِنَآ﴾: حال من ﴿مَنْ﴾ الموصولة، أو من العائد المحذوف، ﴿أَجَعَلْنَا﴾: الهمزة: للاستفهام الاستخباري ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: في موضع المفعول الثاني لـ﴿جعلنا﴾، ﴿ءَالِهَةً﴾: مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾، وجملة ﴿يُعْبَدُونَ﴾: صفة لـ﴿ءَالِهَةً﴾، وجملة ﴿جعلنا﴾ في محل النصب سدت مسد المفعول الثاني، لـ﴿سأل﴾ المعلق عنها بهمزة الاستفهام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: حال من موسى، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، ﴿فَقَالَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ناصب واسمه وخبره، ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة على مقدر تقديره: فطلبوا منه الآيات، ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿جَآءَهُم﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلق بـ﴿جَآءَهُم﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿إِذَا﴾: حرف فجأة رابطة لجواب ﴿لما﴾، ﴿هُم﴾: مبتدأ. ﴿مِّنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يَضْحَكُونَ﴾، وجملة ﴿يَضْحَكُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المقدرة.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿نُرِيهِم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول، والجملة مستأنفة أو معطوفة على ما قبلها، ﴿مِّنْ﴾: زائدة، ﴿ءَايَةٍ﴾ مفعول ثان لـ﴿نُري﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هِيَ أَكْبَرُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مِنْ أُخْتِهَا﴾: متعلق بـ﴿أَكْبَرُ﴾، والجملة الاسمية صفة لـ﴿ءَايَةٍ﴾، ﴿وَأَخَذْنَٰهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ متعلق بـ﴿أخذنا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿نُرِيهِم﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَقَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿أخذناهم﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة في محل النصب، مبني على الضم. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة، مبني بسكون على الألف المحذوفة، للتخلص من التقاء الساكنين. ﴿ٱلسَّاحِرُ﴾ بدل من أي، أو نعت لها، وجملة النداء في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾. ﴿ٱدْعُ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ﴿لَنَا﴾: متعلق به، ﴿رَبَّكَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾ على كونها جواب النداء، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱدْعُ﴾، و﴿ما﴾ إما موصولة أو مصدرية، ﴿عَهِدَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عِندَكَ﴾ متعلق بـ﴿عَهِدَ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، أو لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿إِنَّنَا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿مُهْتَدُونَ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿فَلَمَّا﴾ الفاء، عاطفة على مقدر، يقتضيه المقام تقديره: فدعا موسى، فكشفنا عنهم العذاب، فلما كشفنا عنهم العذاب إلخ، ﴿لمّا﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿كَشَفْنَا﴾ فعل وفاعل، فعل شرط لـ﴿لَمَّا﴾، ﴿عَنْهُمُ﴾: متعلق بـ﴿كشفنا﴾، ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ مفعول به ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿لما﴾ الشرطية، حرف لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، كما قدرنا آنفاً ﴿هُمْ يَنكُثُونَ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿نادى فرعون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿فِي قَوْمِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿نادى﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، والجملة مفسرة لجملة ﴿نادى﴾، ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿أَلَيْسَ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري. لدخولها على النافي، ﴿ليس﴾: فعل ناقص، ﴿لِي﴾: خبرها مقدم، ﴿مُلْكُ مِصْرَ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿ليس﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَهَٰذِهِ﴾: في محل الرفع معطوف على اسم ﴿ليس﴾، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بدل من اسم الإشارة، ﴿تَجْرِي﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ﴿مِن تَحْتِيٓ﴾ متعلق بـ﴿تَجْرِي﴾، والجملة الفعلية حال من الأنهار، ويحتمل كون اسم الإشارة مبتدأ، و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بدل منه، وجملة تجري خبره، والجملة الاسمية حال من ياء المتكلم في ﴿لِي﴾، والعامل فيه الاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور في ﴿لِي﴾، ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتتعامون فلا تبصرون، والجملة المحذوفة في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لا﴾: نافية، ﴿تُبْصِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل، وهمزة الاستفهام، ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾ خبره، ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿ٱلَّذِي﴾: بدل من اسم الإشارة، والجملة معطوفة على ما قبلها، على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿هُوَ مَهِينٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَكَادُ﴾: فعل مضارع من أفعال المقاربة، واسمها ضمير يعود على الموصول، وجملة ﴿يُبِينُ﴾: خبرها، وجملة ﴿يَكَادُ﴾: معطوفة على الجملة الابتدائية، على كونها صلة الموصول، ﴿فَلَوْلَآ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿لولا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا،

﴿أُلْقِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أُلْقِىَ﴾، ﴿أَسْوِرَةٌ﴾: نائب فاعل لـ﴿أُلْقِىَ﴾، ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾: صفة لـ﴿أَسْوِرَةٌ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل، ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض، ﴿مَعَهُ﴾: متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: فاعل، ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾: حال من الملائكة، والجملة معطوفة على جملة ﴿أُلْقِىَ﴾، ﴿فَٱسْتَخَفَّ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿استخف﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، ﴿قَوْمَهُۥ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿نادى﴾، ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿استخف﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿قَوْمًا﴾ خبره، ﴿فَـٰسِقِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل إطاعتهم. ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكر من طاعتهم له، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك، ﴿لمّا آسفونا﴾، ﴿لمّا﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿ءَاسَفُونَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿ٱنتَقَمْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿ٱنتَقَمْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لمّا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ﴾: الفاء: عاطفة ﴿أغرقناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ٱنتَقَمْنَا﴾ عطفا تفسيريا، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لضمير المفعول، ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿جعلناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿سَلَفًا﴾ مفعول ثان، ﴿وَمَثَلًا﴾: معطوف على ﴿سَلَفًا﴾. ﴿لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ صفة لـ﴿مثلا﴾ و﴿سَلَفًا﴾ على سبيل التنازع، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أغرقناهم﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ بفتح الباء وألف وهمزة بعد الراء، وهو في الأصل وقع موقع الصفة مبالغة، ولذلك استوى فيه المذكر والمؤنث، والواحد والاثنان والجمع، يقال: نحن البراء. وأما البريء فهو يؤنث ويجمع، يقال: بريء وبريؤون وبريئة وبريئات. وفي «المختار»: وتبرأ من كذ فهو براء منه بالفتح والمد، لا يثنى ولا يجمع؛ لأنه مصدر. وفي «القاموس»: وأنا براء منه، لا يثنى ولا يجمع ولا

يؤنث؛ أي: بريء. ﴿فَطَرَنِي﴾ خلقني، والفطر: ابتداء خلق من غير مثال، من قولهم: فطرت البئر إذا أنشأت حفرها من غير أصل سابق. ﴿فِي عَقِبِهِۦ﴾؛ أي: في ذريته، قال الراغب: العقب مؤخر الرجل، واستعير للولد وولد الولد، انتهى. وفي «القاموس»: العقب ككتف الجري بعد الجري، والولد وولد الولد. ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ والسحر: إراءة الباطل في صورة الحق. ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾ والمعيشة: ما يعيش به الإنسان، ويتغذى، ويجعله سبباً في قوام بنيته، إذ العيش الحياة المختصة بالحيوان، كما سبق. وأصل معيشة: بوزن مفعلة، نقلت حركة الياء إلى العين، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد. ﴿سُخْرِيًّا﴾ والسخري: هو الذي يقهر على العمل، وهو بضم السين نسبة إلى السخرة، وهي العمل بلا أجرة، وفي «القاموس»: وسخره كمنعه سخرياً بالكسر، ويضم كلفه ما لا يريد وقهره، ويبعد أن تكون من السخرية التي هي بمعنى الاستهزاء؛ أي: ليستهزىء الغني بالفقير، وهو هنا من التسخير، بمعنى الاستخدام والاستعمال.

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ والبيوت والأبيات جمع بيت، وهو اسم لمبنى مسقف، مدخله من جانب واحد، بني للبيتوتة، قال الراغب: أصل البيت مأوى الإنسان بالليل، ثم قد يقال من غير اعتبار الليل فيه، والبيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر، ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومدر، ومن صوف ووبر، وبه شبه بيت الشعر. ﴿سُقُفًا﴾ جمع سقف، كرهن ورهن، وهو سماء البيت وعلوه. ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ والفضة: جسم ذائب، صابر، صاف، منطرق، أبيض، رزين بالقياس إلى باقي الأجساد، سميت فضة لتفضضها وتفرقها في وجوه المصالح. ﴿وَمَعَارِجَ﴾ جمع معرج بفتح الميم وكسرها بمعنى: السلم، وهو المسمى الآن: سنسير، وهذا من معجزات القرآن، إذ لم يكن معروفاً في عصر التنزيل، قال الراغب: العروج: ذهاب في صعود، والمعارج المصاعد، وسميت المصاعد من الدرج معارج؛ لأن المشي عليها مثل مشي الأعرج. ﴿يَظْهَرُونَ﴾ يقال: ظهر على الشيء، إذا علاه وارتقى إليه، وأصل ظهر الشيء أن يحصل شيء على ظهر الأرض فلا يخفى، ثم صار مستعملاً في كل بارز للبصر والبصيرة، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾ جمع باب، والباب: يقال لمدخل الشيء، وأصل ذلك مداخل الأمكنة، كباب المدينة والدار

والبيت. ﴿وَسُرُرًا﴾ جمع سرير، قال الراغب: السرير الذي يجلس عليه من السرور إذا كان ذلك لأولي النعمة، وسرير الميت تشبيه به في الصورة، وللتفاؤل بالسرور الذي يلحق الميت برجوعه إلى الله، وخلاصه من السجن المشار إليه بقوله ﷺ: «الدنيا سجن للمؤمن».

﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾ من الاتكاء، وهو الاعتماد. ﴿وَزُخْرُفًا﴾ هو في الأصل: بمعنى الذهب، ويستعار لمعنى الزينة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾. قال الراغب: الزخرف الزينة المزوقة، ومنه قيل للذهب زخرف، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾؛ أي: ذهب مزوق. قال ابن زيد: الزخرف هو ما يتخذه الناس في منازلهم من الأمتعة، والأثاث. قال الحسن: النقوش، وأصله: الزينة، يقال: زخرفت الدار؛ أي: زينتها، وتزخرف فلان؛ أي: تزين. وأوردت معاجم اللغة معاني عديدة للزخرف، منها: الذهب، وحسن الشيء، وزخرف الكلام أباطيله المموهة، وزخرف الأرض ألوان نباتها، والجمع زخارف.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ويعش بضم الشين، من عشا يعشو عشا إذا تعاشى بلا آفة وتعامى؛ أي: نظر نظر العشا، ولا آفة في بصره، ويقال: عشي يعشى، كرضي يرضى إذا كان في بصره آفة مخلة بالرؤية. قال الراغب: العشا بالفتح والقصر ظلمة تعرض في العين، يقال: رجل أعشى، وامرأة عشواء. وفي «القاموس»: العشا سوء البصر بالليل والنهار، وخبطه خبط عشواء، ركبه على غير بصيرة، والناقة العشواء التي لا تبصر أمامها. ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ نسبب ونقدر ونسلط ونضمه إليه ليستولي عليه استيلاء القيض على البيض، وهو القشر الأعلى اليابس، ويقال قيض الله كذا، قدره له، وقيض الله فلاناً لفلان، جاءه به. ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أصله: يصددونهم بوزن يَفْعُلُون، نقلت حركة الدال الأولى إلى الصاد فسكنت، وأدغمت في الدال الثانية ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، أي: بعد المشرق، وكثيراً ما تسمي العرب الشيئين المتقابلين باسم أحدهما، قال الفرزدق:

أَخَـذْنَـا بِـآفَـاقِ ٱلـسَّـمَـاءِ عَـلَـيْـكُـمُ ... لَـنَـا قَـمَـرَاهَـا وَالـنُّـجُـوْمُ ٱلـطَّـوَالِـعُ

يريد الشمس والقمر، وبعد المشرقين بعد أحدهما من الآخر. ﴿فَٱسْتَمْسِكْ

﴿بِٱلَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ أصله أؤحي بهمزتين الأولى مضمومة والثانية ساكنة، أبدلت الساكنة حرف مدٍّ مجانساً لحركة الأولى المضمومة فأبدلت واواً. ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ الأخت تأنيث الأخ، وجعلت التاء فيها كالعوض عن المحذوف منه. ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَ﴾ حذف الألف التي بعد الهاء من رسم المصحف العثماني هنا كما حذفت من قوله تعالى في سورة الرحمٰن: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ ومن قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ من سورة النور اتباعاً للخط تحت اللفظ. ﴿ادع﴾ وزنه افع لحذف لامه الواو، لبناء الأمر من معتل الآخر على ذلك، ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ وأصل العهد بمعنى التوصية أن يتعدى بإلى إلا أنه أورد هنا بدلها لفظ ﴿عندك﴾ إشعاراً بأن تلك الوصية مرعية محفوظة عنده، لا مضيعة ملغاة. قال الراغب: العهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال وعهد فلان إلى فلان بعهد؛ أي: ألقى العهد إليه، وأوصاه بحفظه. ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾؛ أي ينقضون العهد، والنكث في الأصل: نقض الحبل والغزل ونحوه ذلك، واستعير هنا لنقض العهد كما سيأتي.

﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ وفي «القاموس»: مصّروا المكان تمصيراً: جعلوه مصراً فتمصّر، ومصر: علم للمدينة المعروفة، سميت لتمصّرها، أو لأنه بناها مصر بن حام بن نوح، وقال بعضهم: مصر بلد معروف، من مَصَرَ الشيء يمصره، إذا قطعه، سمي به لانقطاعه عن الفضاء بالعمارة، انتهى. ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ مهين صفة مشبهة بوزن فعيل بمعنىٰ ضعيف وحقير. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أصله يبين بوزن يفعل، نقلت حركته الياء إلى الباء فسكنت إثر كسرة. فصارت حرف مدٍّ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بموسى لثغة في لسانه، واللثغة بالضم أن تصير الراء غيناً أو لاماً، والسين ثاءً، وقد لثغ من باب ضرب فهو ألثغ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾ جمع سوار، كأخمرة جمع الخمار، على تعويض التاء من ياء أساوير، يعني الياء المقابلة لألف أسوار، ونظيره: زنادقة وبطارقة، فالهاء فيهما عوض عن ياء زناديق وبطاريق، المقابلة لياء زنديق وبطريق، قال في «القاموس»: السوار بالكسر والضم القلب، كالأسوار بالضم. والجمع أسورة وأساور وأساورة. وفي «المفردات»: سوار المرأة أصله: دستوراه، فهو فارسي

معرب عند البعض، انتهى. ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ والذهب: جسم ذائب، صاف، منطرق، أصفر، رزين بالقياس إلى سائر الأجسام. ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾؛ أي: مقرونين به يعينونه على من خالفه.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ وجد أحلامهم خفيفة يغترون بالتلبيسات الباطلة، وقال الراغب: حملهم على أن يخفوا معه، أو وجدهم خفافاً في أبدانهم وعزائمهم. وفي «القاموس»: استخفه ضد استثقله، واستخف فلاناً عن رأيه حمله على الجهل والخفة، وأزاله عما كان عليه من الصواب. وأصله: استخفف بوزن استفعل، نقلت حركة الفاء الأولى إلى الخاء فسكنت، وأدغمت في الفاء الثانية. ﴿فَأَطَاعُوهُۚ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: فأطوعوه، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الطاء، فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها، في الحال. ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ منقول من أسف يأسف، كعلم يعلم إذا اشتد غضبه. وفي «القاموس»: الأسف محركة أشد الحزن، وأسف عليه غضب. وقال الراغب: الأسف الحزن والغضب معاً، وقد يقال: لكل منهما على الانفراد، وحقيقته ثوران دم القلب إرادة الانتقام، كما مر. وأصله: أأسفونا بهمزتين الأولى همزة التعدية، والثانية فاء الفعل، فأبدلت الثانية الساكنة حرف مد مجانساً لحركة الأولى المفتوحة، والمجانس لها هو الألف. ﴿سَلَفًا﴾ إما مصدر سلف يسلف، كطلب يطلب، بمعنى التقدم وصف به الأعيان للمبالغة، فهو بمعنى متقدمين ماضين، أو جمع سالف كخدم جمع خادم، ولما لم يكن التقدم متعدياً باللام، فسروه بالقدرة مجازاً لأن المتقدمين يلزمهم غالباً أن يكونوا قدوةً لمن بعدهم. ﴿لِّلْءَاخِرِينَ﴾ اللام متعلق بكل من ﴿سَلَفًا﴾ و﴿مَثَلًا﴾ على سبيل التنازع؛ أي: عظةً للكفار المتأخرين عنهم، والعظة ليس من لوازمها الاتعاظ، أو قصة عجيبةً تسير مسير الأمثال لهم، فيقال: مثلكم مثل قوم فرعون كما مر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾؛ لأن المراد بالكلمة الجملة التي قالها بقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ففيه إطلاق اسم الجزء على الكل.

ومنها: صيغة المضارع في قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ للدلالة على الاستمرار؛ أي: دوام الهداية حالاً واستقبالاً.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لما فيه من إسناد ما للبعض إلى الكل نظراً بحال الأكثر؛ لأن الرجوع إنما يحصل من البعض لا من الكل.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾ لأن العقب حقيقة في مؤخر الرجل، فاستعير للولد وولد الولد، كما قاله الراغب.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ لزيادة التقرير.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾ رعاية للفاصلة.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ﴾، وبين ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ لأن حق العبارة، ليتخذوهم سخرياً لغرض الإيضاح والبيان.

ومنها: التجهيل والتعجيب من تحكمهم في قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ لأن المراد بالرحمة هنا النبوة.

ومنها: تقديم المسند إليه، وهو نحن على المسند، وهو قسمنا، في قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ لإفادة الاختصاص.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ لغرض التأكيد.

ومنها: التعريض إلى تعظيمه ﷺ، في وصف رجل بعظيم، في قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لأنه في تقدير ولولا، كراهية أن يكون الناس... إلخ.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿وَزُخْرُفًا﴾؛ لأن الزخرف في الأصل اسم لكل ما يتزين به، والمراد به هنا: الذهب.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةُ﴾ في قوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ لأنه مستعار للإعراض عنه.

ومنها: النكرة الواقعة في سياق الشرط في قوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ لإفادة العموم، ولذلك أعاد عليه الضمير مجموعاً، في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ لأن فيه تغليب المشرق على المغرب، كالعمرين والقمرين.

ومنها: إعادة النكرة معرفة في قوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ إفادة بأنه نفس الأول، كما قال السيوطي في «عقود الجمان»:

ثُمَّ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُشْتَهَرَهْ   إِذَا أَتَتْ نَكِرَةً مُكَرَّرَهْ
تَغَايَرَتْ، وَإِنْ يُعَرَّفْ ثَانِ   تَوَافَقَا كَذَا ٱلْمُعَرَّفَانِ

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ وفيه أيضاً الاستعارة التصريحية، حيث شبه الكفار بالصم العمي، بجامع عدم الاهتداء إلى المقصود في كل.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾؛ لأنه كناية عن الموت.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ لغرض التفخيم والتعظيم.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ لتغيير الشكل، وبعض الحروف بينهما، وفيه أيضاً المجاز المرسل، فقد أوقع السؤال على الرسل، مع أن المراد أممهم، لعلاقة الهداية المفضية بهم إلى معرفة اليقين، وقيل: هو على حذف مضاف، ففيه مجاز بالحذف؛ أي: واسأل أمم من أرسلنا من قبلك.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ لأن كلمة لعل مستعارة لمعنى كي، وهو التعليل.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾؛ لأن النكث في الأصل: نقض الحبل والغزل مثلاً، فاستعير لنقض العهد بجامع الانفكاك في كل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ علاقته المحلية، فقد جعل قومه محلاً لندائه وموقعاً له، والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم، وفيه أيضاً الإسناد المجازي؛ لأنه أسند النداء إلى نفسه، مع أن المنادى غيره كقولهم: قطع الأمير اللص إذا أمر بقطعه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ
أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا
لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (٥٩) وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا
تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢)
وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ (٦٤) فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ
بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم
بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (٦٦) ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ (٦٧) يَٰعِبَادِ لَا
خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ (٦٨) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ (٦٩) ٱدۡخُلُواْ
ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ
ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٧١) وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ (٧٢) لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ (٧٣) إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (٧٤)
لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٧٦) وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ
عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ (٧٧) لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ (٧٨) أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا
فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ (٧٩) أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ (٨٠) قُلۡ إِن كَانَ
لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ (٨١) سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢)
فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ
إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ
وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ
يَعۡلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا
يُؤۡمِنُونَ (٨٨) فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ (٨٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات

لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] طرفاً من قصة موسى عليه السلام، ذكر طرفاً من قصة عيسى عليه السلام، وعن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره لما نزل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾، ونزل: كيف خلق من غير فحل، قالت قريش: ما أراد محمد ﷺ من ذكر عيسى إلا أن نعبده، كما عبدت النصارى عيسى عليه السلام، فهذا كان صدودهم من ضربه مثلاً.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف: أن يوم القيامة سيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.. أردف ذلك ببيان أحوال ذلك اليوم:

فمنها: أن الأخلاء يتعادون فيها، إلا من تخالوا على الإيمان والتقوى.

ومنها: أن المؤمنين لا يخافون من سلب نعمة يتمتعون بها، ولا يحزنون على فقد نعمة قد فاتتهم.

ومنها: أنهم يتمتعون بفنون من الترف والنعيم، فيطاف عليهم بصحاف من ذهب، فيها ما لذ وطاب من المآكل، وبأكواب وأباريق فيها شهي المشارب، ويقال لهم: هذا النعيم كفاء ما قدمتم، من عمل بأوامر الشرع ونواهيه، وأسلفتم من إخلاص لله وتقوى له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[2] ما أعد لأهل الجنة من النعيم المقيم، والتمتع بفنون اللذات، من المآكل والمشارب والفواكه.. أعقب ذلك، بذكر ما يكون فيه الكفار من العذاب الأليم، الدائم، الذي لا يخفف عنهم أبداً، وهم في حزن لا ينقطع، ثم ذكر أن هذا ليس إلا جزاءً وفاقاً، لما دسوا به أنفسهم من سيء الأعمال، ثم أردف ذلك، بمقال أهل النار، لخزنة جهنم وطلبهم من ربهم، أن يموتوا حتى يستريحوا مما هم فيه من العذاب، ثم إجابته لهم عن ذلك، ثم وبخهم على ما عملوا في الدنيا واستحقوا به العذاب. ثم ذكر

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

ما أحكموا تدبيره من رد الحق، وإعلاء شأن الباطل، ظناً منهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، وقد وهموا فيما ظنوا، فإن الله عليم بذلك، ورسله يكتبون كل ما صدر عنهم من قول، أو فعل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر مقال أهل النار لخزنة جهنم، وطلبهم من ربهم أن يموتوا حتى يستريحوا مماهم فيه من العذاب، وحسبانهم أن الله لا يسمع سرهم ونجواهم: أمر هنا نبيه ﷺ أن يقول للمشركين إحقاقاً للحق: إن مخالفته لهم في عبادة ما يعبدون، لم يكن بغضاً منه لهم، ولا عداوة لمعبوديهم، بل لاستحالة نسبة ما نسبوه إليهم، وبنوا عليه عبادتهم لهم، من كونهم بنات الله، تنزه ربنا عما يقولون. ثم أمره أن يتركهم وشأنهم حتى يأتي اليوم الذي يلاقون فيه جزاء أعمالهم وأقوالهم. ثم أخبر بأن لا معبود في السماء، ولا في الأرض سواه، وهو الحكيم العليم بكل شيء، وأن من يعبدونهم لا يشفعون لهم حين الجزاء والحساب. ثم ذكر أن أقوالهم تناقض أفعالهم، فهم يعبدون غير الله ويقولون: إن الخالق للكون سمائه وأرضه، هو الله سبحانه، ثم أردف هذا، بأنه لا يعلم الساعة إلا هو سبحانه، وأنه يعلم شديدَ حزنك على عدم إيمانهم وعدم استجابتهم لدعوتك، ثم ختم السورة بأمر رسوله بالإعراض عنهم وتركهم وشأنهم، وسيأتي اليوم الذي يلقون فيه الجزاء على سوء صنيعهم، وقبيح فعالهم من عبادة غير الله سبحانه وتعالى، والإشراك به ما لا ينفع ولا يضر من مخلوقاته.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه أحمد بسند صحيح، والطبراني عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»، فقالوا:

(١) لباب النقول.

ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً، وقد عبد من دون الله، فأنزل الله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا...﴾ الآية.

قال الواحدي[1]: وأكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في مجادلة عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمي، مع النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.. قال ابن الزِّبَعْرَى: خصمتك ورب الكعبة، أليست النصارى يعبدون المسيح واليهود عزيراً، وبنو مليح الملائكة، ففرح قومه بذلك من قوله فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾، ونزلت هذه الآية المذكورة هنا. وقد مضى هذا في سورة الأنبياء، ولا يخفاك أن ما قاله ابن الزبعرى مندفع من أصله، وباطل برمته، فإن الله سبحانه قال: إنكم وما تعبدون، ولم يقل: ومن تعبدون حتى يدخل في ذلك العقلاء، كالمسيح، وعزير، والملائكة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان، وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا، فقال آخر: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع، فنزلت هذه الآية: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ﴾ وجعل عيسى ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ عليه السلام ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: مثالاً ومشابها للأصنام، من حيث إن النصارى اتخذوه إلهاً، وعبدوه من دون الله؛ أي: ضربه عبد الله بن الزبعرى السهمي مثلاً لأصنامهم، كان من مردة قريش قبل أن يسلم. قال في «القاموس»: الزِّبَعْرَىٰ بكسر الزاي وفتح الباء والراء والد عبد الله الصحابي القرشي الشاعر، انتهى. ومعنى ضربه مثلاً أي[3]: جعله مثالاً ونظيراً

(١) الشوكاني.
(٢) لباب النقول.
(٣) روح البيان.

ومقياساً لأصنامهم في بيان إبطال ما ذكره رسول الله ﷺ، من كون معبودات الأمم دون الله ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ...﴾ الآية، حين قرأه على قريش فامتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً؛ أي: غضبوا وشق عليهم ذلك، فقال ابن الزبعرى بطريق الجدال: هذا لنا ولآلهتنا خاصة، أم لجميع الأمم»؟ فقال النبي ﷺ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال: خصمتك ورب الكعبة، أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيراً، وبنو مليح الملائكة، فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون وآلهتنا معهم، ففرح به قومه، وضحكوا، وارتفعت أصواتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا﴾ فجائية ﴿قَوْمُكَ﴾ قريش يا محمد ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك المثل الذي ضربه ابن الزبعري؛ أي: لأجله وبسببه ﴿يَصِدُّونَ﴾؛ أي: يضجون ويصيحون ويرفعون أصواتهم بالضحك، فرحاً بذلك المثل المضروب، ظنا منهم أن الرسول ﷺ صار ملزماً به، مغلوباً محجوجاً عليه، وقرأ أبو جعفر[1] والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثاب وعامر ونافع والكسائي ﴿يصدون﴾ بضم الصاد؛ أي: يعرضون عن الحق من أجل ضرب المثل. وقرأ ابن عباس وابن جبير والحسن وعكرمة وباقي السبعة بكسرها؛ أي: يصيحون ويضحكون فرحاً بضرب المثل.

قال الكسائي والفراء والزجاج والأخفش[2]: هما لغتان، مثل: عكف يعكف، ويعكف بالكسر والضم، ومعناهما يضجون. قال الجوهري: صد يصد صديداً؛ أي: ضج، وقيل: إنه بالضم الإعراض، وبالكسر الضجيج قاله قطرب قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحق لقال: إذا قومك عنه يصدون، وقال الفراء: هما سواء منه وعنه. وقال أبو عبيدة: من ضم فمعناه: يعدلون، ومن كسر فمعناه: يضجون.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال قومك قريش ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ﴾ عندك من عيسى، فإن آلهتهم خير عندهم من عيسى ﴿أَمۡ هُوَۚ﴾؛ أي: أم عيسى خير من آلهتنا، وظاهر

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

أن عيسى خير من آلهتنا، فحيث كان هو في النار، فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها، فالاستفهام إنكاري؛ لأن المعنى: ليست خيراً منه، وقيل: معناه أآلهتنا خير أم هو؛ أي: محمد ﷺ فنعبده ونطيعه، ونترك آلهتنا، قاله قتادة، ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن مسعود ﴿أآلهتنا خير أم هذا﴾، والأول أولى لتناسق الضمائر في قوله: إن هو إلا عبد، ذكره في «البحر». وقرأ الجمهور[1]: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا﴾ بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، وقرأ الكوفيون ويعقوب: بتحقيقها، وقرأ ورش في رواية أبي الأزهر: بهمزة واحدة على مثال الخبر، فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام محذوفة لدلالة أم عليها، واحتمل أن يكون خبراً محضاً، حكوا: أن آلهتهم خير ثم عن لهم أن يستفهموا على سبيل التنزل من الخبر إلى الاستفهام المقصود به الإفحام، وهذا يتضمن أن آلهتهم خير من عيسى عليه السلام، فعلى قراءة[2] ورش تكون: ﴿أَمْ﴾ منقطعة لا عاطفة، تقدر ببل والهمزة، وأما على قراءة العامة، فتكون متصلة عاطفة على آلهتنا عطف المفردات، والتقدير: أآلهتنا أم هو خير؛ أي: أيهما خير، فالهمزة لطلب التعيين. وعلى قراءة ورش يكون هو مبتدأ، وخبره محذوف تقديره: بل أهو خير، وليست ﴿أَمْ﴾ حينئذ عاطفة اهـ «سمين».

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾؛ أي: ما ضرب قومك لك هذا المثل في عيسى، وما ذكروه ﴿إِلَّا﴾ ليجادلوك ويخاصموك ﴿جَدَلًا﴾؛ أي: جدالاً وخصاماً، ونزاعاً في الحق على أنه منصوب على المصدرية، أو ما ضربوه لك إلا لأجل الجدال والخصام، لا لطلب الحق، حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك، أو إلا حال كونهم مجادلين على أنه مصدر وقع موقع الحال. وقرأ ابن مقسم: ﴿إلا جدالا﴾ بكسر الجيم وبألف.

وقال بعضهم: مرادهم بهذا الكلام؛ إن قال محمد ﷺ: آلهتكم خير من عيسى، فقد أقر بأنها معبودة، وإن قال: عيسى خير من آلهتكم، فقد أقر بأن عيسى يصلح لأن يعبد، وإن قال: ليس واحد منهم خيراً فقد نفى عيسى، فراموا

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

بهذا السؤال أن يجادلوه ولم يسألوه للاستفادة، فبين الله سبحانه: أن جدالهم ليس لفائدة، إنما هو لخصومة نفس الإنسان فقال: ﴿بَلْ هُمْ﴾؛ أي: قومك قريش ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾؛ أي: لدد شداد الخصومة بالباطل، مجبولون على اللجاج والخلاف، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ وذلك لأنهم قد علموا أن المراد من قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء الأصنام بشهادة المقام، لكن ابن الزبعرى لما رأى الكلام محتملاً للعموم بحسب الظاهر، وجد مجالاً للخصومة. وفي الحديث: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أتوا الجدل»، ثم قرأ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾ الآية، أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد في جماعة عن أبي أمامة.

ومعنى الآية[1]: أي ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلاً، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى له إذا قومك من هذا المثل، يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وسروراً، كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا أعيوا في حجة، ثم فتحت عليهم، وقالوا: إن آلهتنا ليست خيراً من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب جهنم، كان أمر آلهتنا أهون، ما ضربوا لك المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لإظهار الحق، فإن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إنما ينطبق على الأصنام والأوثان، ولا يتناول عيسى والملائكة، ولكنهم قوم ذوو لدد في الخصومة، مجبولون على سوء الخلق واللجاج.

قال الزمخشري[2]: إن ابن الزبعرى بخبه وخداعه، وخبث دخلته، لما رأى كلام الله ورسوله محتملاً لفظه وجه العموم، مع علمه بأن المراد به أصنامهم، لا غير، وجد للحيلة مساغاً، فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله، على طريقة المحك والجدال، وحب المغالبة والمكابرة، وتوقح في ذلك فتوقر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ فدل به على أن الآية خاصة في الأصنام، انتهى.

---

(١) المراغي. (٢) الكشاف.

ثم بين أن عيسى عبد من عبيده، الذين أنعم الله عليهم بقوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما عيسى بن مريم ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ مربوب ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بفضلنا[1] عليه بالنبوة، أو بخلقه بلا أب، أو بقمع شهوته لا ابن الله، والعبد لا يكون مولى ولا إلهاً، كالأصنام ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ أي: آية وعبرة ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله سبحانه حيث خلقه من غير أب، وكان يحيي الموتى، ويبرىء الأكمه والأبرص، وكل مريض؛ أي: جعلناه أمراً عجيباً حقيقاً، بأن يسير ذكره، كالأمثال السائرة.

والمعنى[2]: أي ما عيسى بن مريم إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة وروادفها، فهو رفيع المنزلة على القدر، وقد جعلناه آية على قدرتنا، بأن خلقناه من غير أب وشرفناه بالنبوة، وصيرناه عبرة سائرة تفتح للناس باب التذكر والفهم، وليست مخالفة العادة بموجبه لعبادته كما يزعم النصارى، بل مذكرة بعبادة الخالق الحكيم ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ ﴿لو﴾ للمضي، وإن دخل على المضارع ولذا لا يجزمه، ويتضمن ﴿لو﴾ معنى الشرط؛ أي: ولو شئنا ﴿لـ﴾ أهلكناكم يا كفار مكة و﴿جعلنا﴾ بدلاً ﴿مِنكُم مَّلَائِكَةً﴾ يسكنون ﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ عنكم؛ أي: يكونون خلفاً عنكم يعمرون الأرض، ويعبدونني، ويطيعونني، ومقصود الآية: أنا لو شئنا لأسكنا الملائكة الأرض، وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا، أو يقال لهم: بنات الله، قاله السدي. ونحوه عن مجاهد.

وقيل المعنى[3]: ولو شئنا ﴿لَجَعَلْنَا﴾؛ أي: أولدنا؛ أي: لخلقنا بطريق التوالد ﴿مِنكُم﴾ وأنتم رجال من الإنس ليس من شأنكم الولادة. كما ولدنا حواء من آدم، وعيسى من غير أب، وإن لم تجر العادة بذلك ﴿مَّلَائِكَةً﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين في السماء ﴿يَخْلُفُونَ﴾؛ أي: يخلفونكم، ويصيرون خلفاء بعدكم مثل أولادكم فيما تأتون وتذرون، ويباشرون الأفاعيل المنوطة بمباشرتكم، مع أن شأنهم التسبيح، والتقديس في السماء، فمن شأنهم بهذه المثابة بالنسبة إلى القدرة الربانية، كيف

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

يتوهم استحقاقهم للمعبودية، أو انتسابهم إليه بالولادة. يعني: أن الملائكة مثلكم في الجسمية واحتمال خلقها توليداً لما ثبت أنهم أجسام، والأجسام كلها متماثلة، فيجوز على كل منها ما يجوز على الآخر، كما جاز خلقها إبداعاً، وذات القديم الخالق لكل شيء متعالية عن مثل ذلك.

فقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ...﴾ إلخ، لتحقيق[1] أن مثل عيسى ليس ببدع من قدرة الله، وأنه تعالى قادر على أبدع من ذلك، وهو توليد الملائكة من الرجال، مع التنبيه على سقوط الملائكة أيضاً عن درجة المعبودية، والمعنى الأول أولى وفي الآية إشارة، إلى أن الإنسان لو أطاع الله تعالى، لأنعم الله عليه، بأن جعله متخلقاً بأخلاق الملائكة، ليكون خليفة الله في الأرض بهذه الأخلاق، ليستعد بها إلى أن يتخلق بأخلاق الله، فإنها حقيقة الخلافة.

والمعنى على القول الأول: ولو شئنا لأهلكناكم، وجعلنا بدلكم في الأرض ملائكة يعمرونها ويعبدوننا، وفي الآية على هذا المعنى تهديد وتخويف لكفار قريش، وقد يكون المعنى: ولو شئنا لجعلنا ذريتكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، كما يخلفكم أولادكم، كما خلقنا عيسى من أنثى بلا ذكر، وجعلناه رجلاً.

والخلاصة[2]: أننا لو شئنا لجعلنا في الأرض عجائب، كأمر عيسى بحيث يلد الرجل ملكاً فيخلفه، فباب العجائب وتغير السنن لا حد له عندنا، فكم من نواميس خافية عليكم بيدنا تصريفها.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: وإن عيسى بن مريم عليه السلام بنزوله في آخر الزمان ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي[3]: لشرط من أشراط الساعة، يعلم بنزوله قربها، وتسميته علماً لحصوله به، فهي على المبالغة في كونه مما يعلم به، فكأنه نفس العلم بقربها، أو المعنى: إن حدوثه بغير أب، أو إحياءه الموتى دليل على صحة البعث، الذي

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة في الساعة، وهذا المعنى قاله[1] ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدي والضحاك وابن زيد، يعني: عود الضمير على عيسى عليه السلام. وقال الحسن وقتادة أيضاً وابن جبير: الضمير يعود على القرآن؛ أي: وإن هذا القرآن يدل إنزاله على قرب الساعة، أو إنه به تعلم الساعة وأهوالها. وقالت فرقة: الضمير يعود على النبي ﷺ إذ هو آخر الأنبياء تميزت به الساعة نوعاً وقدراً من التمييز، ونفي التحديد التام الذي انفرد الله تعالى بعلمه، والأول أولى، إذ الظاهر في الضمائر السابقة أنها عائدة على عيسى.

وروي: أن عيسى عليه السلام، ينزل على ثنية بالأرض المقدسة، يقال لها: أفيق بوزن أمير، قرية بين حوران والغور، وعليه ممصرتان، يعني: ثوبين مصبوغين بالأحمر، فإن المصر الطين الأحمر، والممصر المصبوغ به، كما في «القاموس» وشعر رأسه دهين، وبيده حربة وبها يقتل الدجال، فيأتي بيت المقدس، والناس في صلاة الصبح، وفي رواية في صلاة العصر، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ، ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل اليهود والنصارى إلا من آمن به. وفي حديث آخر: الأنبياء أولاد علات، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ليس بيني وبينه نبي، وفي «صحيح مسلم»: «ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية»، وزاد غيره «وتهلك في زمانِه الملل كُلها إلا الإسلام»، دل آخر الحديث، على أن المراد بوضع الجزية: تركها ورَفْعُها عن الكفار بأن لا يقبل إلا الإسلام، صرح بذلك النووي. ولعل المراد بالكسر والقتل المذكورين ليس حيقتهما، بل إزالة آثار الشرك عن الأرض.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَعِلْمٌ﴾ بصيغة المصدر، جعل المسيح علماً، مبالغة لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله. وقرأ ابن عباس وأبو هريرة، وأبو مالك الغفاري وزيد بن علي وقتادة ومجاهد والضحاك ومالك بن دينار والأعمش

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

والكلبي قال ابن عطية وأبو نصرة ﴿لعلم﴾ بفتحتين؛ أي: لعلامة. وقرأ عكرمة به. قال ابن خالويه وأبو نصرة: ﴿للعلم﴾ معرفاً بفتحتين.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾؛ أي: فلا تشكن يا كفار مكة في وقوع الساعة، ولا تكذبن بها، فإنها كائنة لا محالة من الامتراء، وهو المحاجة فيما فيه مرية ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾؛ أي: واتبعوا هداي وشرعي فيما آمركم به، وأنهاكم عنه من التوحيد وبطلان الشرك، والمعنى: قل لهم يا محمد: اتبعوني ﴿هَٰذَا﴾ الذي أدعوكم إليه وآمركم به من التوحيد وفرائض الله تعالى ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: قويم لا اعوجاج فيه، موصل إلى الحق وإلى رضا الله سبحانه وتعالى.

وقرأ الجمهور[1]: بحذف الياء من ﴿اتبعون﴾ وصلاً ووقفاً، وكذلك قرؤوا بحذفها في الحالين في ﴿أطيعون﴾. وقرأ يعقوب باثباتها وصلاً ووقفاً فيهما. وقرأ أبو عمرو وهي رواية عن نافع بحذفها في الوصل دون الوقف.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ﴾؛ أي: لا يمنعنكم الشيطان، ولا يصرفنكم عن اتباعي؛ أي: لا تغتروا بوساوسه وشبهه التي يوقعها في قلوبكم، فيمنعكم عن اتباعي، فإن الذي دعوتكم إليه هو دين الله الذي اتفق عليه رسله وكتبه، ثم علل نهيهم، عن أن يصدهم الشيطان ببيان عداوته لهم فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الشيطان ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: لبني آدم لا لغيركم ﴿عَدُوٌّ﴾؛ أي: شديد العداوة ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيِّن العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور، وعرضكم للبلية.

فائدة: وحكي[2]: أنه لما خرج آدم عليه السلام من الجنة، قال إبليس: أخرجته من الجنة بالوسوسة، فماذا أفعل به الآن، فذهب إلى السباع والوحوش فأخبرهم بخبر آدم، وما يولد منه حتى قالت الوحوش والسباع: ما التدبير والرأي في ذلك قال إبليس: ينبغي أن تقتلوه، وقتل واحد أسهل من قتل ألف، فأقبلوا إلى آدم وإبليس أمامهم، فلما رأى آدم أن السباع قد أقبلت إليه رفع يده إلى

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

السماء، وتضرع إلى الله تعالى، فقال الله: يا آدم امسح بيدك على رأس الكلب، فمسح فكرَّ الكلب على السباع والوحوش حتى هزمها، ومن ذلك اليوم صار الكلب عدو للسباع، التي هي أعداء لآدم وأولاده، وأصله: أن إبليس بصق على آدم حين كان طيناً، فوقع بصاقه على موضع سرته، فأمر الله سبحانه وتعالى جبرئيل حتى قور ذلك الموضع، فخلق من القوارة الكلب، ولذا أنس بآدم وصار حامياً له. ويقال: المؤمن بين خمسة أعداء: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وعدو يقتله، ونفس تغويه، وشيطان يضله.

والمعنى[1]: أي إنه مظهر لعداوته لكم غير متحاش، ولا متكتم لها، كما يدل على ذلك ما وقع بينه وبين أبيكم آدم، من امتناعه عن السجود له، وما ألزم به نفسه من إغواء جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ﴾ إلى بني إسرائيل ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحة والشرائع الربانية، وقال قتادة: البينات هنا الإنجيل ﴿قَالَ﴾ لهم عيسى ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾ يا بني إسرائيل وبعثت إليكم ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾؛ أي: بالإنجيل أو بالشريعة لأعلمكم، وقيل: الحكمة كل ما يرغب في الجميل، ويكف عن القبيح ﴿و﴾ جئتكم ﴿لِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أحكام التوراة، قيل: إن بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم، وقيل: ذلك البعض ما يتعلق بأمور الدين، وأما ما يتعلق بأمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء، كما قال ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»، لأن اختلافهم يكون فيها وفي غيرها من الأمور التي لا تتعلق بالديانات، فأمور الديانات بعض ما يختلفون فيه، وبين لهم في غيره ما احتاجوا إليه، واللام في قوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾ معطوفة على مقدر، كأنه قال: قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها، ولأبين لكم.

فإن قلت[2]: كيف قال عيسى عليه السلام لأمته ذلك، مع أن كل نبي يلزمه أن يبين لأمته كل ما يختلفون فيه؟.

---

(١) روح البيان.
(٢) فتح الرحمٰن.

قلت: المرادُ: أنه يبين لهم مما اختلفوا فيه ما يحتاجونه دون ما لا يحتاجونه، وقال أبو عبيدة: المراد بالبعض: الكل، كما في قوله: يصبكم بعض الذي يعدكم، ورده الناس عليه، وقال مقاتل: هو كقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الإنجيل من لحم الإبل والشحم من كل حيوان، وصيد السمك يوم السبت من كل ما حرم عليهم في التوراة.

والمعنى(١): ولما جاءهم عيسى بالمعجزات الواضحة قال: قد جئتكم بالشرائع التي فيها صلاح البشر، ولأبين لكم بعض ما اختلف فيه قوم موسى، من أحكام الدين دون أمور الدنيا، كطرق الفلاحة والتجارة، فإن الأنبياء لم يبعثوا لبيانها، كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ حين نهاهم عن تأبير النخل - تلقيحه بطلع الذكر - ففقد الثمر ولم يغل شيئاً نافعاً: «أنتم أعلم بأمور دنياكم، وأنا أعلم بأمور دينكم».

ولما بين لهم أصول الدين وفروعه قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: اتقوا عقابه في مخالفتي أن يحل بكم ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي: أطيعوني فيما أبلغه عنه تعالى من الشرائع والتكاليف، فإن طاعتي طاعة الله سبحانه وتعالى، كما قال من يطع الرسول فقد أطاع الله.

ثم فصل ما يأمرهم به بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي يستحق إفراده بالألوهية، وإخلاص العبادة له ﴿هُوَ رَبِّي﴾ ومالكي ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ ومالككم، فأنا وأنتم عبيد له فقراء إليه، فخصوه بالعبادة والتوحيد، وهذا بيان(٢) لما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد، والتعبد بالشرائع ﴿هَذَا﴾ الذي جئتكم به من التوحيد، والتعبد بالشرائع، ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه، وكل الديانات جاءت بمثله، فما هو إلا اعتقاد بوحدانية الله تعالى، وتعبد بشرائعه، وفي «التأويلات النجمية»: فاعبدوه ولا تعبدوني، فإني في العبودية شريك معكم، وإنه متفرد بربوبيته إيانا، وتعبدنا إياه صراط مستقيم لا اعوجاج فيه، وهذا تتمة كلام عيسى عليه السلام،

---

(١) المراغي.　　(٢) روح البيان.

أو استئناف من الله، يدل على ما هو المقتضي للطاعة في ذلك، ولما كان الطريق القويم يجب الاجتماع عليه، والاتفاق على سلوكه، بين أنهم خالفوا ذلك فاختلفوا فيه، فقال: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾؛ أي: فاختلفت الفرق المتخربة من اليهود والنصارى في شأن عيسى عليه السلام، بعد رفعه إلى السماء اختلافاً ناشئاً ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾؛ أي: من قبل أنفسهم لم يدخلهم الاختلاف من غيرهم، فقالت اليهود لعنهم الله تعالى: ابن زانية زنت أمه بيوسف النجار، وقالت اليعقوبية من النصارى: هو الله، وقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت الملكانية: هو شريك الله، وقالت المرقوسية: هو ثالث ثلاثة.

وفي «التأويلات النجمية»: تفرق قومه الذين بعث إليهم أحزاباً وفرقاً، حزب آمنوا به أنه عبد الله ورسوله، وحزب آمنوا به أنه ثالث ثلاثة فعبدوه بالألوهية، وحزب اتخذوه ولداً لله وابناً له، تعالى الله عما يقول الظالمون، وحزب كفروا به وجحدوا نبوته، وظلموا عليه، وأرادوا قتله. وقيل: المراد بالأحزاب: الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، وكذبوه وهم المرادون بقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾. والأول أولى. فقال الله في حق الظالمين المشركين: ﴿فَوَيْلٌ﴾؛ أي: فشدة عذاب ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من هؤلاء المتحزبين، الذين وضعوا القول في غير موضعه، ففيه إظهار في مقام الإضمار، تسجيلاً عليهم باسم الظلم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: وجيع عذابه، وهو يوم القيامة، والمراد: يوم أليم العذاب، كقوله: في يوم عاصف؛ أي: عاصف الريح. والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ للإنكار، والضمير لكفار مكة؛ أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون، وقيل: للأحزاب المختلفة؛ أي: ما ينتظر هؤلاء الأحزاب المتفرقة، وهذا أوفق بمقتضى السياق، وقيل: جميع الكفرة، وهذا أولى لعمومه؛ أي: ما ينتظر الكفار ولا يرتقبون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ والقيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل[1] من الساعة؛ أي: إلا إتيانَ الساعة، ولما كانت الساعة تأتيهم لا محالة كانوا كأنَّهم ينتظرونها، وانتصاب ﴿بَغْتَةً﴾ على المصدرية؛ أي: إتيان بغتة وفجأة. قال في «الإرشاد»:

---

(١) روح البيان.

فجأةً لكن لا عند كونهم مترقبين لها، بل غافلين عنها مشتغلين بأمور الدنيا، منكرين لها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يعلمون بإتيانها، فيجازي كل الناس على حسب أعمالهم، فلا تؤدي ﴿بَغْتَةً﴾ مؤدى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، حتى لا يستغنى بها عنه؛ لأنه ربما يكون إتيان الساعة بغتةً مع الشعور بوقوعه، والاستعداد له، لأنه إذا لم يعرف وقت مجيئه ففي أي وقت جاء أتي بغتةً، وربما يجيء والشخص غافل عنه منكر له، والمراد هنا: هو الثاني، فلذا وجب تقييد إتيان الساعة بمضمون الجملة الحالية، فعلى العاقل الخروج عن كل ذنب، والتوبة لكل جريمة، قبل أن يأتي يوم أليم عذابه، وهو يوم الموت، فإن ملائكة العذاب ينزلون فيه على الظالمين، ويشددون عليهم حتى تخرج أرواحهم الخبيثة بأشد العذاب.

والمعنى[1]: أي هل ينتظر هؤلاء الأحزاب المختلفون في شأن عيسى، القائلون فيه الباطل من القول إلا أن تقوم الساعة بغتةً، وهم غافلون عنها، لا يعلمون بمجيئها لاشتغالهم بأمر دنياهم وإنكارهم لها، فيندمون حين لا ينفعهم الندم، ولا يدفع ذلك عنهم شيئاً، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

روى ابن مردويه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «تقوم الساعة والرجلان يحلبان الشاة، والرجلان يطويان الثوب»، ثم قرأ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

واعلم[2]: أن القيامة ثلاث:

الكبرى: وهي حشر الأجساد، والسوق إلى المحشر للجزاء.

والصغرى: وهي موت كل أحد، كما قال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» ولذا جعل القبر روضةً من رياض الجنة، أو حفرةً من حفر النيران.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والوسطى: وهي موت جميع الخلائق، وقيام هذه الوسطى لا يعلم وقته يقينا، وإنما يعلم بالعلامات المنقولة عن الرسول ﷺ، مثل: أن يرفع العلم، و يكثر الجهل، والزنا، وشرب الخمر، ويقل الرجال، ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأةً القيم الواحد.

وعن علي رضي الله عنه: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من الدين إلا رسمه، ولا من القرآن إلا درسه، يعمرون مساجدهم، وهي خراب عن ذكر الله تعالى، شر أهل ذلك الزمان علماؤهم منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود»، يعني: يهدى به ولا يهتدي، فنعوذ بالله من علم بلا عمل.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ والأصدقاء؛ أي[1]: المتحابون في الدنيا على الإطلاق، أو في الأمور الدنيوية ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تأتيهم الساعة، وهو ظرف لقوله: ﴿عَدُوٌّ﴾. والفصل بالمبتدأ غير مانع، والتنوين فيه عوض عن الجملة المحذوفة التي أضيف إليها إذ ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ أي: يعادي بعضهم بعضاً؛ لأنه قد انقطعت بينهم علائق الخلة والتحاب، واشتغل كل واحد منهم بنفسه، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها أخلاء أسباباً للعذاب، فصاروا أعداء، ثم استثنى المتقين فقال ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإن خلتهم في الدنيا، لما كانت في الله بقيت على حالها، ولم تنقطع، بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار الخلة، من الثواب ورفع الدرجات. والاستثناء على الأول متصل، وعلى الثاني منقطع.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير سبحانه إلى أن كل خلة وصداقة تكون في الدنيا مبنية على الهوى والطبيعة الإنسانية، وتكون في الآخرة عداوةً يتبرأ بعضهم من بعض. والأخلاء في الله خلتهم باقية إلى الأبد، وينتفع بعضهم من بعض، ويشفع بعضهم في بعض، ويتكلم بعضهم في شأن بعض، وهم المتقون الذين استثناهم الله سبحانه، وشرائط الخلة في الله أن يكونا متحابين في الله محبةً خالصة لوجه الله، من غير شوب بعلة دنيوية، هوائية، متعاونين في طلب الله،

---

(١) روح البيان.

ولا يجري بينهم مداهنة، فبقدر ما يرى بعضهم في بعض من صدق الطلب والجد، والاجتهاد يساعده، ويوافقه، ويعاونه، فإذا علم منه شيئاً لا يرضاه الله تعالى، لا يرضاه من صاحبه، ولا يداريه، فقد قيل: المداراة في الشريعة كفر، بل ينصحه بالرفق والموعظة الحسنة، فإذا عاد إلى ما كان عليه وترك ما تجدد لديه يعود إلى صدق مودته وحسن صحبته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ انتهى.

ثم ذكر ما يتلقى الله سبحانه وتعالى به عباده المتقين، المتحابين في الله تشريفاً لهم، وتسكيناً لروعتهم مما يرون من الأهوال فقال: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ من لقاء المكاره ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ من فوت المقاصد، كما يخاف ويحزن غير المتقين، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو: ﴿يا عبادي﴾ بإثبات الياء، ساكنة وصلاً ووقفا. وقرأ أبو بكر وزر بن حبيش بإثباتها وفتحها في الحالين. وقرأ الباقون بحذفها في الحالين. وقرأ الجمهور: ﴿لَا خَوْفٌ﴾: مرفوعاً منوناً، وابن محيصن بالرفع من غير تنوين، والحسن والزهري وابن أبي إسحاق وعيسى وابن يعمر بفتحها من غير تنوين، ذكره في «البحر»؛ أي[1]: ونقول لهم يومئذ: يا عبادي لا تخافوا من عقابي. فإني قد أمنتكم منه برضاي عنكم، ولا تحزنوا على فراق الدنيا، فإن الذي تقدمون عليه خير لكم مما فارقتموه منها.

ثم بين من يستحق هذا النداء وذلك التكريم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وعملوا بجميع ما فيها ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: منقادين لتكاليفنا بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي. وجملة ﴿كَانُوا۟﴾ حال من ﴿الواو﴾ في ﴿ءَامَنُوا۟﴾، أو عطف على الصلة؛ أي: مخلصين وجوههم لنا، جاعلين أنفسهم سالمةً لطاعتنا، وفي الآية إشارة إلى الإيمان بالآيات التنزيلية، والتكوينية.

والمعنى: أي الذين آمنت قلوبهم، وصفت نفوسهم، وانقادت لشرع الله بواطنهم وظواهرهم، والموصول يجوز أن يكون نعتاً لعبادي، أو بدلاً منه، أو

---

(١) المراغي.

عطف بيان له، أو مقطوعاً عنه في محل نصب على المدح، أو في محل رفع على الابتداء، وخبره قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ على تقدير يقال لهم: ادخلوا الجنة، والأول أولى، وبه قال الزجاج؛ أي: ويقال لهم على سبيل البشرى: ادخلوا الجنة أيها المؤمنون ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾؛ أي: نساؤكم المؤمنات، وقيل: قرناؤهم من المؤمنين. وقيل: زوجاتهم من الحور العين، والأول أولى. حال كونكم ﴿تُحۡبَرُونَ﴾؛ أي: تسرون سروراً يظهر حباره، بفتح الحاء وكسرها؛ أي: أثره على وجوهكم لقوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾، أو تزينون من الحبرة، وهو حسن الهيئة، وبعدئذ ذكر طرفاً مما يتمتعون به من النعيم فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾؛ أي: على العباد المؤمنين بعد دخولهم الجنة، والطائف[1]: الخادم ومن يدور حول البيت حافظاً، والإطافة كالطوف والطواف؛ أي: يدار عليهم بأيدي الغلمان والولدان ﴿بِصِحَافٖ﴾ وقصاع وجفان مخلوقة ﴿مِّن ذَهَبٖ﴾ مملوءة بألوان من الطعام والحلوى، جمع صحفة كجفان جمع جفنة، وهي القصعة العريضة الواسعة، قال السدي: ليست لها آذان، قال الكسائي: أعظم القصاع الجفنة، ثم القصعة، وهي تشبع عشرةً ثم الصحفة، وهي تشبع خمسة، ثم المكيلة، وهي تشبع الرجلين والثلاثة.

والمعنى: أن لهم في الجنة أطعمةً، يطاف عليهم بها في صحاف الذهب ﴿و﴾ لهم فيها أشربة، يطاف عليهم بها في ﴿أكواب﴾ وكاسات من ذهب، جمع كوب، وهو كوز لا عروة له ولا خرطوم، ليشرب الشارب من حيث شاء، قال سعدي المفتي: قللت الأكواب، وكثرت الصحاف؛ أي: كما دل عليهما الصيغة لأن المعهود قلة أواني الشرب بالنسبة إلى أواني الأكل.

والمعنى[2]: أي وبعد أن استقروا في الجنة، وهدأ روعهم، يطاف عليهم بجفان من الذهب. مترعة بألوان الأطعمة والحلوى، وبأكواب فيها أصناف الشراب مما لذ وطاب.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وبعد أن فصل بعض ما في الجنة من نعيم، عمم في ذلك فقال: ﴿وَفِيهَا﴾؛ أي: وفي الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ وتطلبه؛ أي: أنفس أهل الجنة من فنون الملاذ والمشتهيات النفسانية، كالمطاعم والمشارب والمناكح والملابس، والمراكب، ونحو ذلك. وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وابن عباس وحفص: ﴿تَشْتَهِيهِ﴾ بإثبات الضمير العائد على الموصول، وقرأ الجمهور[1]، وباقي السبعة: بحذف الهاء.

قال في «الأسئلة المقحمة»: أهل الجنة هل يعطيهم الله جميع ما يسألونه، وتشتهي أنفسهم ولو اشتهت أنفسهم شيئاً من مناهي الشريعة كيف يكون حاله؟

والجواب: معنى الآية أن نعيم الجنة كله مما تشتهيه الأنفس، وليس فيها ما لا تشتهيه النفوس، ولا تصل إليه، وقد قيل: يعصم الله سبحانه أهل الجنة من شهوة محالٍ، أو منهي عنه، يقول الفقير: دل هذا على أنه ليس في الجنة اللواطة المحرمة في جميع الأديان والمذاهب، ولو في دبر امرأته، فإن الإمام مالكاً رحمه الله تعالى رجع عن تجويز اللواطة في دبر امرأته، وليس فيها اشتهاء اللواطة، لكونها مخالفة للحكمة الإلهية، وقد جوزها بعضهم في «شرح الأشباح»، وغلط فيه غلطاً فاحشاً، وأما الخمر فليست كاللواطة لكونها حلالا على بعض الأمم.

والحاصل: أنه ليس في الجنة ما يخالف الحكمة كائناً ما كان، ولذا تستر فيها الأزواج عن غير محارمهن، وإن كان لا حل ولا حرمة هناك؛ أي: وفيها[2] ما تشتهيه الأنفس من الأشياء المعقولة والمسموعة والملموسة، جزاءً لهم بما منعوا أنفسهم من الشهوات في الدنيا ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾؛ أي: تستلذه الأعين، وتقر بمشاهدته من الأشياء المبصرة، جزاء ما تحملوه من منع أعينهم، من نظر ما لا يجوز شرعاً، وفي مصحف عبد الله: ﴿ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين﴾ بإثبات الهاء فيهما.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.

قال جعفر[1]: شتان بين ما تشتهي الأنفس، وبين ما تلذ الأعين؛ لأن ما في الجنة من النعيم والشهوات واللذات في جنب ما تلذ الأعين، كأصبح يُغمس في بحر، لأن شهوات الجنة لها حد ونهاية؛ لأنها مخلوقة، ولا تلذ الأعين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الوجه الباقي الذي لا حد له ولا نهاية.

﴿وَأَنتُمْ﴾ يا عبادي ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾؛ أي: باقون دائمون، لا تخرجون ولا تموتون، إذ لولا البقاء والدوام لنغص العيش، ونقص السرور، والاشتهاء، واللذة فلم يكن التنعم كاملاً، والخوف والحسرة زائلاً بخلاف الدنيا، فإنها لفنائها عيشها مشوب بالكدر، ونفعها مخلوط بالضرر.

والمعنى[2]: أي وفي الجنة ما تشتهيه أنفس أهلها من صنوف الأطعمة والأشربة، والأشياء المعقولة والمسموعة ونحوها، مما تطلبه النفوس وتهواه، كائناً ما كان، جزاءً لهم على ما منعوا أنفسهم من الشهوات، وفيها ما تقر أعينهم بمشاهدته، وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، وأنتم لا تخرجون منها، ولا تبغون عنها حولاً.

أخرج ابن أبي شيبة والترمذي عن عبد الرحمٰن بن سابط قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل في الجنة خيل، فإني أحب الخيل، قال: «إن يدخلك الله الجنة، فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء، فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت». وسأله آخر فقال: يا رسول الله هل في الجنة من إبل، فإني أحب الإبل، فقال: «إنْ يدخلكَ الله الجنة، يكن لك ما اشتهت نفسك ولذت عينك».

ثم ذكر أن هذا كان فضلاً من ربكم، آتاكموه كفاء أعمالكم التي أسلفتموها فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ، إشارة إلى الجنة المذكورة ﴿الْجَنَّةُ﴾ خبره ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾؛ أي: أعطيتموها، وجعلتم ورثتها، وصارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث ﴿بِمَا﴾ الباء سببية؛ أي: بسبب ما ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من

---

(1) روح البيان.
(2) المراغي.

الأعمال الصالحة وقيل: اسم الإشارة مبتدأ، والجنة صفته، والتي أورثتموها صفة للجنة، والخبر بما كنتم تعملون، وقيل: الخبر الموصول مع صلته، والأول أولى، وعليه أكثر المفسرين.

والمقصود[1]: أن دخول الجنة بمحض فضل الله تعالى ورحمته، واقتسام الدرجات بسبب الأعمال، والخلود فيها بحسب عدم السيئات، شبه جزاء العمل بالميراث، لأن العامل يكون خليفة العمل على جزائه، يعني: يذهب العمل ويبقى جزاؤه مع العامل، فكان العمل كالموروث، وجزاؤه كالميراث.

والمعنى: أي وهذه الجنة جعلها الله تعالى لكم باقية، كالميراث الذي يبقى عن المورث جزاء ما قدمتم من عمل صالح، أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة، ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله في النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾».

وبعد أن ذكر الطعام والشراب ذكر الفاكهة فقال: ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون المتقون ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة سوى الطعام والشراب ﴿فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب[2] الأنواع، والأصناف لا بحسب الأفراد فقط. والفواكه من أشهى الأشياء للناس، وألذها عندهم، وأوفقها لطباعهم وأبدانهم، ولذلك أفردها بالذكر ﴿مِّنْهَا﴾؛ أي: بعضها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ في نوبة لكثرتها، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرة خلت من ثمرها لحظةً، فهي مزينة بالثمار أبداً موفرة بها، وفي الحديث: «لا ينزع رجل في الجنة ثمرةً من ثمرها، إلا نبت مثلاها مكانها»، فمن تبعيضية، والتقديم للتخصيص، ويجوز أن تكون ابتدائيةً، وتقدم الجار للفاصلة، أو للتخصيص، كالأول فيكون فيه دلالة على أن كل ما يأكلون للتفكه ليس فيها تقوت، إذ لا تحلل حتى يحتاج إلى الغذاء.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: لكم فيها صنوف من الفواكه لا حصر لها، تأكلون منها حيثما شئتم، وكيفما اخترتم.

ولما ذكر سبحانه حال أهل الجنة، وما يقال لهم من لذائذ البشارة.. أعقب ذلك بذكر حال الكفرة، وما يجاوبون به عند سؤالهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: إن المشركين الراسخين الكاملين في الإجرام والإشراك حسبما ينبىء عنه إيرادهم في مقابلة المؤمنين بالآيات ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾ متعلق بقوله: ﴿خَـٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيه أبداً لا ينقطع عذابهم في جهنم، كما ينقطع عذاب عصاة المؤمنين، على تقدير دخولهم فيها ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا يخفف عنهم العذاب، ولا ينقص من قولهم: فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً، ونقص حرها. والجملة في محل النصب على الحال ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المجرمون ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: آيسون من النجاة والراحة، وخفة العقوبات، وعن الضحاك: يجعل المجرم في تابوت من النار، ثم يردم عليه فيبقي فيه خالداً، لا يرى ولا يرى. وقيل: ساكتون سكوت يأس، وقرأ عبد الله ﴿وهم فيها﴾؛ أي: في جهنم، والجمهور ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾؛ أي: في العذاب.

وفي «التأويلات النجمية»: في الآية إشارة، إلى أن أهل التوحيد وإن كان بعضهم في النار، لكن لا يخلدون فيها، ويفتر عنهم العذاب بدليل الخطاب، وقد ورد في الخبر: «إنه يميتهم الحق إماتةً إلى أن يخرجهم من النار، والميت لا يحس ولا يألم» وذكر في الآية وهم مبلسون؛ أي: خائبون، وهذه صفة الكفار، والمؤمنون وإن كانوا في بلائهم، فهم على وصف رجائهم، يعدون أيامهم إلى أن تنتهي أشجانهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ﴾ بذلك؛ أي: ما عذبناهم بغير ذنب، ولا بزيادة على ما يستحقونه ﴿وَلَـٰكِن كَانُوا۟﴾؛ أي: المجرمون ﴿هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بما فعلوا من الإشراك والمعاصي لتعريض أنفسهم للعذاب الخالد، بالكفر والمعاصي. و﴿هُمُ﴾ ضمير[2] فصل عند البصريين، من حيث إنه فصل به بين كون ما بعده خبراً أو

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

نعتاً، وتسمية الكوفيين له عماداً، لكونه حافظاً لما بعده، حتى لا يسقط عن الخبرية، كعماد البيت، فإنه يحفظ سقفه من السقوط، وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالنصب، على أنه خبر كان، والضمير ضمير فصل، وقرأ عبد الله وأبو زيد النحوي: ﴿الظالمون﴾ بالرفع على أنه خبر ﴿هُمُ﴾، و﴿هُمُ﴾: مبتدأ، وذكر أبو عمرو الجرمي أن لغة تميم جعل ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ، ويرفعون ما بعده على الخبر، وقال أبو زيد: سمعتهم يقرؤون ﴿تجدوه عند الله هو خيرٌ وأعظمُ أجرا﴾، يعني: برفع خير وأعظم.

والمعنى[2]: أي: إن الذين اجترموا الكفر بالله في الدنيا، يجازيهم ربهم بعذاب جهنم خالدين فيه أبداً لا ينفك عنهم، ولا يجدون عنها حولاً، ولا يخفف عنهم لحظةً، وهم فيه ساكتون سكوت يأس من النجاة والفرج، ولا منافاة بين هذا وبين قوله الآتي: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ إلخ، لأن تلك أزمنة متطاولة، وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال، فيسكتون تارة لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أنه لا فرج، ويشتد عليهم العذاب أخرى فيستغيثون.

ثم ذكر أن ذلك العذاب جزاء ما كسبت أيديهم، فقال: وما ظلمنا هؤلاء المجرمين بفعلنا بهم، ما أخبرناكم أننا فاعلون بهم، ولكن هم الذين أساؤوا إلى أنفسهم، فكذبوا الرسل وعصوهم، بعد أن أقاموا الحجة عليهم فأتوهم بباهر المعجزات.

ثم ذكر ما يقوله أهل النار، وما يجيبهم به خزنتها، فقال: ﴿وَنَادَوْاْ﴾؛ أي: ونادى المجرمون من شدة العذاب، فقالوا: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ هو خازن النار، قرأ[3] الجمهور: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ بدون ترخيم، وقرأ عبد الله وعلي وابن وثاب والأعمش: ﴿يا مالِ﴾ بالترخيم، على لغة منم ينتظر الحرف المحذوف، وقرأ أبو السرار الغنوي: ﴿يا مالُ﴾ بالبناء على الضم، جعله اسماً على حياله على لغة من لا

---

(١) البحر المحيط والمراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

ينتظر، واللام في ﴿لِيَقْضِ﴾ لام الطلب والرغبة؛ أي: ليقض ﴿عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ بالموت حتى لا يتكرر عذابنا؛ أي: ليمتنا حتى نستريح من ألم العذاب، من قضى عليه إذا أماته، كقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أماته، توسلوا بمالك إلى الله سبحانه وتعالى، ليسأله لهم أن يقضي عليهم بالموت، فيستريحوا من العذاب.

والمعنى[1]: سل ربك يا مالك، أن يقضي علينا، وهذا لا ينافي ما ذكر من إبلاسهم أولاً كما مر، لأنه جؤار؛ أي: صياح وتمن للموت، لفرط الشدة ﴿قَالَ﴾ مالك مجيباً لهم بعد أربعين سنة، يعني: ينادون مالكاً أربعين سنة، فيجيبهم بعدها، كما قاله عبد الله بن عمرو، أو بعد مئة سنة، كما قاله نوف، أو بعد ألف سنة، كما قاله ابن عباس، وقيل: بعد ثمانين سنة؛ لأن تراخي الجواب أحزن لهم ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ المكث ثبات مع انتظار؛ أي: إنكم مقيمون في العذاب أبداً، لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره، فليس بعدها إلا جؤار كصياح الحمير، أوله زفير وآخره شهيق.

والمعنى[2]: أي ونادى المجرمون من شدة العذاب، فقالوا: يا مالك، ادع لنا ربك أن يقبض أرواحنا ليريحنا مما نحن فيه، فأجابهم بقوله: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ لا خروج لكم منها، ولا محيص لكم عنها. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، وقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

ثم خاطبهم خطاب تقريع وتوبيخ، وبين سبب مكثهم فيها بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم﴾ أيها المجرمون في الدنيا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بإرسال، وإنزال الكتب. وهو خطاب توبيخ من جهة الله تعالى مقرر لجواب مالك، ومبين لسبب مكثهم، ويحتمل[3] أن يكون من كلام مالك، والأول أولى.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

والمعنى: أنا أرسلنا إليكم الرسل، وأنزلنا عليهم الكتب فدعوكم إلى التوحيد فلم تقلبوا ولم تصدقوا، وهو معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ أيها المجرمون ﴿لِلْحَقِّ﴾ أي حق كان ﴿كَٰرِهُونَ﴾؛ أي: لا يقبلون، وينفرون منه مشمئزين منه.

والمعنى: أي لقد بينا لكم الحق على ألسنة رسلنا، وأنزلنا إليكم الكتب مرشدة إليه، ولكن سجاياكم وطبائعكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل، وتعظمه وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة.

وبعد أن ذكر كيفية عذابهم في الآخرة، بين سببه، وهو مكرهم، وسوء طويتهم في الدنيا، فقال: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟﴾ و﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي تقدر بمعنى بل والهمزة؛ أي: بل أأبرم كفار قريش ﴿أَمْرًا﴾ وأحكموا كيداً، واحتالوا حيلة للرسول ﷺ في فتكه، كما فعلوا في اجتماعهم على قتله ﷺ في دار الندوة إلى غير ذلك، وفي ذلك انتقال من توجع أهل النار إلى حكاية ما يقع من هؤلاء.
والإبرام[1]: الإتقان والإحكام، يقال: أبرمت الشيء أحكمته وأتقنته، وأبرم الحبل إذا أحكم فتله.

والمعنى: بل أأحكموا كيداً للنبي ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾؛ أي: محكمون لهم كيداً قاله مجاهد وقتادة وابن زيد، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾. وقيل: المعنى أم قضوا أمراً فإنا قاضون عليهم أمرنا بالعذاب، قاله الكلبي.

والخلاصة: بل هم تحيلوا في رد الحق بالباطل بوجوه من الحيل والمكر، فكادهم الله تعالى، ورد عليهم سوء كيدهم بتخليدهم في النار، معذبين فيها أبداً ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾؛ أي: بل أيحسب كفار مكة ويظنون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾؛ أي: ما يسرون به في أنفسهم من حديث النفس، أو ما يتحدثون به سراً في مكان خال

---

(١) روح البيان.

من كيد النبي ﷺ؛ لأنهم كانوا مجاهرين بتكذيب الحق ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: ما يتناجون ويتحدثون به فيما بينهم بطريق التناجي، والتشاور في شأن النبي ﷺ ﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمعهما، ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم، ويلازمونهم أينما كانوا ﴿لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾؛ أي: يكتبونهما، أو يكتبون كل ما صدر منهم من الأفعال والأقوال، التي من جملتها ما ذكر من سرهم ونجواهم، ثم تعرض عليهم يوم القيامة، فإذا كان خفاياهم غير خفية على الملائكة، فكيف على عالم السر والنجوى، ولقد أجاد من قال:

إِنِّيْ لَمُسْتَتِرٌ مِنْ عَيْنِ جِيْرَانِيْ ... وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارِيْ وَإِعْلَانِيْ

والجملة[1] معطوفة على ما يترجم عنه بلى، وفي «التأويلات النجمية»: خوفهم بسماعه أحوالهم، وكتابة الملك عليهم أعمالهم لغفلتهم عن الله تعالى، ولو كان لهم خبر عن الله لما خوفهم بغير الله، ومن علم أن أعماله تكتب عليه، ويطالب بمقتضاها، قل إلمامه بما يخاف أن يسأل عنه. قال يحيى بن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه، وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية، فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من أمارات النفاق، ولما قدم في أول السورة تبكيتهم والتعجب منهم في ادعائهم لله ولداً من الملائكة، وهددهم بقوله: ستكتب شهادتهم ويسألون.. أمر الله سبحانه رسوله ﷺ، أن يقول للكفار قولاً يلزمهم به الحجة، ويقطع ما يوردونه من الشبهة، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفرة ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ فرضاً، كما تقولون: الملائكة بنات الله ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد، وأسبقكم إلى تعظيمه والانقياد له، وذلك لأنه ﷺ أعلم الناس بشؤونه تعالى، وبما يجوز عليه، وبما لا يجوز، وأولاهم بمراعاة حقوقه، ومن موجب تعظيم الوالد تعظيم ولده؛ أي: إن يثبت بحجة قطعية كون الولد للرحمٰن، كما تزعمون فأنا أولكم في التعظيم، وأسبقكم إلى الطاعة تعظيماً لله تعالى، وانقياداً لأن الداعي إلى طاعته وتعظيمه أول وأسبق في ذلك، وكون الولد له تعالى، مما هو مقطوع بعدم وقوعه، ولكن نزل منزلة ما لا جزم لوقوعه، واللاوقوعه على

---

(١) روح البيان.

المساهلة، وإرخاء العنان لقصد التبكيت، والإسكان والإلزام، فجيء بكلمة إن المفيدة للشك، فلا يلزم من هذا الكلام صحة كينونة الولد، وعبادته، لأنها محال في نفسها يستلزم المحال، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد، والإطناب مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد، قال جعفر الصادق رحمه الله تعالى: وأول ما جرى به القلم لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، قال: فأنا أول العابدين أحق بتوحيد الله، وذكر الله سبحانه.

وقال ابن عباس[1]: ﴿إِن كَانَ﴾؛ أي: ما كان للرحمٰن ولد ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾؛ أي: الشاهدين له بذلك. وقيل: العابدين بمعنى الآنفين؛ أي: أنا أول الجاحدين المنكرين لما قلتم، وأنا أول من غضب للرحمٰن أن يقال له ولد. وهو[2] تكلف لا ملجىء إليه، ولكنه قرأ أبو عبد الرحمٰن اليماني ﴿العبدين﴾ بغير ألف، يقال: عبد يعبد عبداً، بالتحريك من باب فرح، إذا أنف وغضب فهو عبد، والاسم العبدة مثل الأنفة، ولعل الحامل لمن قرأ هذه القراءة على هذه القراءة الشاذة البعيدة هو استبعاد معنى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾، وليس بمستبعد ولا مستنكر، وقد حكى الجوهري عن أبي عمرو في قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ أنه من الأنف والغضب، وحكاه الماوردي عن الكسائي والقتيبي، وبه قال الفراء، وكذا قال ابن الأعرابي: إن معنى العابدين الغضاب الآنفين، وقال أبو عبيدة: معناه: الجاحدين، وحكي عبدني حقي؛ أي: جحدني. وقد أنشدوا على هذا المعنى الذي قالوه قول الفرزدق:

أُولَـئِكَ آبَـائِيْ فَـجِـئْـنِـيْ بِـمِـثْـلِـهِـمْ ... وَأَعْـبُـدُ أَنْ أَهْـجُـوْ كُـلَـيْـبَـاً بِـدَارِمِ

وقوله أيضاً:

أُوْلَـئِكَ نَـاسٌ لَـوْ هَـجَـوْنِـيْ هَـجَـوْتُـهُـمْ ... وَأَعْـبُـدُ أَنْ يُـهْـجَـىٰ كُـلَـيْـبٌ بِـدَارِمِ

ولا شك أن عبد وأعبد بمعنى أنف، أو غضب ثابت في لغة العرب، وكفى

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.

بنقل هؤلاء الأئمة حجةً، ولكن جعل ما في القرآن من هذا من التكلف الذي لا مجلىء إليه، ومن التعسف الواضح، وقد رد ابن عرفة ما قالوه فقال: إنما يقال: عبد يعبد فهو عبد، وقل ما يقال: عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ. وقرأ الجمهور: ﴿ولد﴾ بفتح اللام بالإفراد، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً ﴿ولد﴾ بضم ﴿الواو﴾ وسكون اللام.

والمعنى: أي قل يا محمد لكفار قريش: إن ثبت ببرهان صحيح توردونه، وحجة واضحة تدلون بها، أن للرحمٰن ولداً كنت أنا أسبقكم إلى طاعته والانقياد له، كما يعظم الرجل ابن الملك تعظيماً لأبيه، ولا شك أن هذا أبلغ أسلوب في نفي الولد، كما يقول الرجل لمن يناظره ويجادله: إن ثبت ما تقول بالدليل، فأنا أول من يعتقده، ويقول به، وهذا ما اختاره ابن جرير ورجحه.

ثم نزه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: تنزيها له وتقديساً عما يقولون من الكذب، بأن له ولداً، ويفترون عليه سبحانه ما لا يليق بجنابه، وهذا إن كان من كلام الله سبحانه، فقد نزه نفسه عما قالوه، وإن كان من تمام كلام رسوله ﷺ، الذي أمره بأن يقوله.. فقد أمره بأن يضم إلى ما حكاه عنهم، بزعمهم الباطل، تنزيه ربه وتقديسه، وفي إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها، تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته، كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزءاً منه سبحانه ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ في تكرير اسم الرب، تفخيم لشأن العرش ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: يصفونه به، وهو الولد. قال في «بحر العلوم» أي: سبحوا رب هذه الأجسام العظام، لأن مثل هذه الربوبية توجب التسبيح على كل مربوب فيها، ونزهوه عن كل ما يصفه الكافرون به من صفات الأجسام، فإنه لو كان جسماً لم يقدر على خلق هذا العالم، وتدبير أمره.

والمعنى: أي تنزه مالك السموات والأرض وما فيهما من الخلق، ورب العرش المحيط بذلك كله، عما يصفه به المشركون كذباً، وعما ينسبون إليه من الولد إذ كيف تكون هذه العوالم كلها ملكاً له، ويكون شيء منها جزءاً منه، تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً.

ولما ذكر الدليل القاطع على نفي الولد، أمره أن يتركهم وشأنهم فيما يقولون، فقال: ﴿فَذَرْهُمْ﴾؛ أي: اترك أيها الرسول هؤلاء الكفرة، حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا هذا البرهان الجلي، ولم يهتدوا بما هديتهم به، ولا أجابوك إلى ما دعوتهم إليه ﴿يَخُوضُواْ﴾ بالجزم في جواب الطلب؛ أي: يشرعوا في أباطيلهم وأكاذيبهم والخوض[1]: هو الشروع في الماء، والمرور فيه، ويستعار للأمور، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه، كما في «المفردات» ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ في دنياهم، ويلهوا فيها، فإن ماهم فيه من الأقوال والأفعال ليست إلا من باب الجهل واللعب يقال: لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً، قالوا: كل لعب لا لذة فيه فهو عبث، وما كان فيه لذة فهو لعب ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ ويعاينوا ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ على لسانك، وهو يوم القيامة، فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يفعل بهم، قال سعدي المفتي: والأظهر: يوم الموت، فإن خوضهم ولعبهم إنما ينتهي به.

يقول الفقير: وفيه أن الموعود هو يوم القيامة؛ لأنه الذي كانوا ينكرونه، لا يوم الموت الذي يشكون فيه، ولما كان يوم الموت متصلاً بيوم القيامة، على ما أشار إليه قوله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» جعل الخوض واللعب منتهيين بيوم القيامة.

وفي الآية: إعلام بأنهم من الذين طبع الله على قلوبهم، فلا يرجعون عما هم عليه أبداً، وإشارة إلى أن الله سبحانه، خلق الخلق أطواراً مختلفة، فمنهم من خلقه للجنة، فيستعده للجنة بالإيمان والعمل الصالح وانقياد الشريعة ومتابعة النبي ﷺ، ومنهم من خلقه للنار، فيستعده للنار، برد الدعوة والإنكار والجحود والخذلان، ويكله إلى الطبيعة النفسانية الحيوانية، التي تميل إلى اللهو واللعب والخوض فيما لا يعنيه، ومنهم من خلقه للقربة والمعرفة، فيستعده لهما بالمحبة والصدق والتوكل واليقين.

واعلم: أن الاشتغال بما سوى الله تعالى من قبيل اللهو واللعب إذ ليس فيه

---

(١) روح البيان.

مقصد صحيح وإنما المطلب الأعلى هو الله سبحانه وتعالى، ولذا خرج السلف عن الكل، ووصلوا إلى مبدأ الكل، جعلنا الله وإياكم من المشتغلين به.

وقال عكرمة وغيره[1]: هو يوم بدر، وأضاف اليوم إليهم؛ لأنه الذي فيه هلاكهم وعذابهم، قيل: وهذا الأمر بتركهم منسوخ بآية السيف، وقيل: هو غير منسوخ، وإنما أخرج مخرج التهديد. وقرأ الجمهور: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾. وقرأ مجاهد وأبو جعفر وابن محيصن وحميد وعبيد بن عقيل عن أبي عمرو وابن السميقع ﴿حتى يلقوا﴾ بفتح الياء وإسكان اللام من غير ألف، مضارع لقي من باب رضي.

وحاصل معنى الآية[2]: أي فاترك أيها الرسول هؤلاء المفترين على الله الواصفيه، بأن له ولداً، يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم حتى يأتي ذلك اليوم، الذي لا محيص عنه، وحينئذ يعلمون عاقبة أمرهم، ويذوقون الوبال والنكال، جزاء ما اجترحوه من الشرك والآثام، ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد والتهديد.

ثم أكد هذا التنزيه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾؛ أي[3]: مستحق لأن يعبد فيها؛ أي: هو معبود أهل السماء من الملائكة، وبه تقوم السماء وليس حالّاً فيها ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾؛ أي: مستحق لأن يعبد فيها؛ أي: فهو معبود أهل الأرض من الإنس والجن، وإلٰه الآلهة التي تدعون، ولا قاضي لحوائج أهل الأرض إلا هو، وبه تقوم الأرض وليس حالاً فيها.

فالظرفان متعلقان بـ﴿إِلَٰهٌ﴾ لأنه بمعنى المعبود بالحق، أو متضمن معناه كقولهم: هو حاتم؛ أي: جواد لاشتهاره بالجود، وكذا في قراءة من قرأ ﴿وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله﴾، ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وهو الواجب الوجود المعبود المستحق للعبادة

---

(1) البحر المحيط.

(2) المراغي.

(3) روح البيان.

فيهما، والعائد إلى الموصول مبتدأ محذوف لطول الصلة بمتعلق الخبر، وهو ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ والعطف عليه، والتقدير: وهو الذي هو في السماء إله، وهو في الأرض إلٰه، قاله أبو علي الفارسي قال: والمعنى على الإخبار بإلاهيته فيهما، لا على الكون والحلول فيهما، وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنى على؛ أي: هو القادر على السماء والأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِلَٰهٌ﴾ في الموضعين، وقرأ عمر وعبد الله وأبي وعلي والحكم بن أبي العالي وبلال بن أبي بردة وابن يعمر وجابر وابن زيد وعمر بن عبد العزيز وأبو الشيخ الهنائي وحميد وابن مقسم وابن السميقع ﴿الله﴾ فيهما كما مر آنفاً بيانه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما دبره لخلقه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالحهم، فهو كالدليل على ما قبله والتعليل له؛ لأنه المتصف بكمال الحكمة والعلم، المستحق للألوهية لا غيره؛ أي: وهو الحكيم في تدبير العالم وأهله، العليم بجميع الأحوال من الأزل إلى الأبد.

فإن قلت: ما في هذه[2] الآية يقتضي تعدد الآلهة؛ لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت، كقولك: أنت طالق وطالق.

قلت: لا إلٰه هنا بمعنى المعبود، وهو تعالى معبود فيهما، والمغايرة إنما هي بين معبوديته في السماء ومعبوديته في الأرض؛ لأن المعبودية من الأمور الإضافية، فيكفي التغاير فيها من أحد الطرفين، فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض مع أن المعبود واحد.

وحاصل معنى الآية[3]: أي: وهو الله الذي يعبده أهل السماء وأهل الأرض، ولا تصلح العبادة إلا له، وهو الحكيم في تدبير خلقه، وتسخيرهم لما

---

(١) البحر المحيط.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) المراغي.

يشاء، العليم بمصالحهم، فالحكمة المقترنة بالعلم تخللت كل رطب ويابس، وجليل وحقير، فمن يشاهد إتقان العالم وحسن تنسيقه وإبداعه، يجد الحكمة فيه على أتم وجوهها، ويعجب مما فيه من جمال وكمال، ويدهش لما يجد فيه من غرائب يحار فيها اللب، فأفردوا له العبادة، ولا تشركوا به شيئاً سواه ﴿وَتَبَارَكَ﴾؛ أي: تعالى وتقدس عن الولد والشريك، وجل عن الزوال والانتقال، الإله ﴿ٱلَّذِى﴾ فاعل تبارك ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: سلطنتهما ﴿و﴾ سلطنة ﴿ما بينهما﴾ إما على الدوام كالهواء، أو في بعض الأوقات كالطير والسحاب؛ أي: تزايد خيره، وعمت بركته، وتبارك: تفاعل من البركة، وهي كثرة الخير معنى ﴿و﴾ تبارك الذي ﴿عنده علم﴾ وقت قيام ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: القيامة لا يعلمها إلا هو ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالموت ثم البعث، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير أو شر، والالتفات فيه للتهديد، وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بتاء الخطاب مبنيا للمفعول، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بياء الغيبة كذلك، وقرىء بفتح تاء الخطاب مبنياً للفاعل.

والمعنى: أي وتقدس خالق السمٰوات والأرض وما فيهما من عوالم لا ندري كنهها، ولا نعلم حقيقتها، المتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة من أحد، وعنده علم وقت مجيء الساعة، لا يجليها لوقتها إلا هو، وإليه المرجع، فيجازي كل أحد بما يستحق إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌ.

﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾؛ أي: لا يقدر ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾؛ أي: يدعو الكفار ويعبدونهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ تعالى ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ عند الله تعالى، كما يزعمون ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ﴾ وأقر، واعتقد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو التوحيد. والاستثناء[2] إما متصل والموصول عام، لكل ما يعبد من دون الله تعالى، كعيسى وعزير والملائكة وغيرهم، أو منقطع على أنه خاص بالأصنام، وجملة قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص، حال من فاعل ﴿شَهِدَ﴾، والجمع باعتبار معنى ﴿من﴾، كما أن الإفراد أولاً باعتبار لفظها، والمعنى[3] على الاتصال: إلا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

من شهد بالحق، وهم المسيح، وعزير، والملائكة، فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها. وعلى الانقطاع: لكن من شهد بالحق يشفع في هؤلاء، ويجوز أن يكون المستثنى منه محذوفاً؛ أي: لا يملكون الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق، قال سعيد بن جبير وغيره: معنى الآية: أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة. وقال قتادة: لا يشفعون لعابديهم بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية، وقرأ الجمهور: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالتحتية، وقرأ السلمي وابن وثاب بالفوقية.

والمعنى[1]: ولا تقدر الأصنام والأوثان التي يعبدونها على الشفاعة لهم، كما زعموا أنهم شفعاء عند ربهم، ولكن من نطق بكلمة التوحيد، وكان على بصيرة وعلم من ربه، كالملائكة، وعيسى تنفع شفاعتهم عنده بإذنه لمن يستحقها.

ثم بين أن هؤلاء المشركين، متناقضوا الأقوال والأفعال، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن سألت يا محمد العابدين والمعبودين ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾؛ أي: من أوجدهم، وأخرجهم من العدم إلى الوجود﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾؛ أي: ليقرون جميعاً، ويعترفون بأن خالقهم الله، ولا يقدرون على الإنكار والجحود لتعذر الإنكار، لغاية ظهوره ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فمع إقرارهم بأن خالقهم هو الله سبحانه، كيف يصرفون عن عبادته تعالى إلى عبادة غيره؟ فهو[2] استفهام تعجيب من جحودهم التوحيد، مع ارتكازه في فطرتهم، فإن المعترف بأن الله خالقه، إذا عمد إلى صنم أو حيوان، وعبده مع الله، أو عبده وحده فقد عبد بعض مخلوقات الله، وفي هذا من الجهل ما لا يقادر قدره، وقيل: المعنى ولئن سألت هؤلاء المشركين، العابدين للأصنام، ليقولن: الله. وقيل: ولئن سألت المسيح، وعزيراً، والملائكة من خلقهم؟ ليقولن: الله، فأنى يؤفك هؤلاء الكفار عن عبادة الله تعالى، باتخاذهم آلهة.

قال في «الأسئلة المقحمة»: فإن قلت: هذا دليل على أن معرفة الله

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ضرورية، ولا تجب بالسمع الضروريات؛ لأنه تعالى أخبر عن الكفار، أنهم كانوا يقرون بوحدانية الله قبل ورود السمع.

قلتُ: إنهم يقولون ذلك تقليداً لا دليلاً، وضرورةً، ومعلوم أن في الناس من أهل الإلحاد من ينكر الصانع، ولو كان ضرورياً لما اختلف فيه اثنان، انتهى.

وقرأ الجمهور(١): ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: بياء الغيبة مناسباً لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؛ أي: كيف يصرفون عن عبادة من أقروا أنه موجد العالم. وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو بتاء الخطاب.

ومعنى الآية: أي ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله، العابدين غيره تعالى، من خلق الخلق جميعاً؟ ليعترفن بأنه هو الله تعالى وحده، لا شريك له في ذلك، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر وجلائه، فكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف، وفي هذا تعجيب شديد من إشراكهم بعد هذا.

وقرأ الجمهور(٢): ﴿وقيلَه﴾ بالنصب عطفاً على محل الساعة، كأنه قيل: إنه يعلم الساعة ويعلم قيله، أو عطفاً على سرهم ونجواهم؛ أي: يعلم سرهم ونجواهم ويعلم قيله؛ أي: قول محمد ﷺ: إن هؤلاء قوم إلخ، أو عطفاً على مفعول يكتبون المحذوف؛ أي: يكتبون ذلك ويكتبون قيله، أو عطفاً على مفعول يعلمون المحذوف؛ أي: يعلمون ذلك ويعلمون قيله أو منصوب على المصدرية بفعله المحذوف؛ أي: قال قيله، أو منصوب على حذف حرف القسم، ومن المجوزين للوجه الأول: المبرد وابن الأنباري، ومن المجوزين للثاني: الفراء والأخفش، ومن المجوزين للنصب على المصدرية الفراء والأخفش أيضاً. وقرأ حمزة وعاصم: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ بالجر عطفاً على لفظ الساعة؛ أي: وعنده علم الساعة وعلم قيله، أو على أن ﴿الواو﴾ للقسم، وقرأ قتادة ومجاهد والحسن وأبو قلابة والأعرج وابن هرمز ومسلم بن جندب ﴿وقيله﴾ بالرفع عطفاً على ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

أي: وعنده علم الساعة وعنده قيله، أو على الابتداء، وخبره الجملة المذكورة بعده، أو خبره محذوف تقديره: وقيله كيت وكيت، أو وقيله مسموع.

قال بعضهم[1]: والأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه، يعني: أن الجر على إضمار حرف القسم، كما في قولك: اللَّهِ لأفعلن، النصب على حذفه وإيصال فعله إليه، كقولك: اللَّه لأفعلن، كأنه قيل: وأقسم قيله، أو بقيله. والفرق بين الحذف والإضمار أنه في الحذف لا يبقى للذاهب أثر. نحو: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وفي الإضمار يبقى له الأثر نحو: ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾، والتقدير: افعلوا خيراً لكم.

ويجوز الرفع في ﴿قيله﴾ على أنه قسم مرفوع بالابتداء، محذوف الخبر كقولهم: أيمن الله، ويكون ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلخ جواب القسم؛ أي: وقيله يا رب قسمي إن هؤلاء إلخ، وذلك لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، بما لا يحسن اعتراضاً إن كان مرفوعاً معطوفاً على ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، بتقدير مضاف مع تنافر النظم، ورجح الزمخشري احتمال القسم لسلامته عن وقوع الفصل وتنافر النظم، ولكن في القسم التزام حذف وإضمار بلا قرينةٍ ظاهرة في اللفظ الذي لم يشتهر استعماله في القسم.

قال أبو عبيد[2]: يقال: قلت قولاً وقيلاً وقالاً. والضمير في ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ راجع إلى النبي ﷺ، قال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه. وقيل: الضمير عائد إلى المسيح، وعلى الوجهين فالمعنى: أنه قال منادياً لربه ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين أرسلتني إليهم ﴿قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

والمعنى[3]: أي ويعلم سبحانه علم الساعة، وقوله ﷺ لربه شاكياً قومه، الذين كذبوه، ولقي منهم شديد الأذى: يا رب إن هؤلاء المشركين الذين أمرتني بإنذارهم، وأرسلتني إليهم لتبليغهم دينك الحق قوم لا يؤمنون؛ أي: لا يريدون الإيمان. ولما شكا الرسول ﷺ إلى ربه عدم إيمانهم، أجابه الله سبحانه وتعالى

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

بقوله: ﴿فَٱصۡفَحۡ﴾ يا محمد، وأعرض ﴿عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: عن هؤلاء المشركين؛ أي: أعرض عن دعوتهم، واقنط من إيمانهم، ﴿وَقُلۡ﴾ لهم أمري وشأني ﴿سَلَٰمٞۚ﴾ منكم؛ أي: سلامتي منكم، وتبرّ منكم ومن دينكم، ومتاركة لكم، ولا تجبهم بمثل ما يخاطبونك به من سيىء الكلام، بل تألفهم، واصفح عنهم قولاً وفعلاً، فليس المأمور به السلام عليهم والتحية، بل البراءة كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ﴾ وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وقال قتادة: أمره بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم. فصار الصفح منسوخاً بالسيف، وقيل: محكمة لم تنسخ ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم وسوء كفرهم، فإنك ستنصر عليهم، ويحل بهم بأسنا الذي لا يرد وإن تأخر، ففيه تهديد شديد، ووعيد عظيم من الله عز وجل، وقد أنجز الله وعده، وأنفذ كلمته، وأعلى دينه، وشرع الجهاد والجلاد، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، فله الحمد والمنة على إظهار الحق، وإعلاء مناره، وإزهاق الباطل، وكبح جماحه. وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ بياء الغيبة مناسباً قوله: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾. وقرأ أبو جعفر والحسن والأعرج ونافع وهشام وابن عامر ﴿تعلمون﴾ بالفوقية.

الإعراب

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾: فعل مغير، ونائب فاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿مَثَلًا﴾: مفعول ثان لـ﴿ضُرِبَ﴾؛ لأن ﴿ضُرِبَ﴾ ضمن معنى جعل، ويجوز أن يعرب حالاً؛ أي: ذكر ممثلاً به، ﴿إِذَا﴾: حرف فجأة رابطة جواب ﴿لمّا﴾ وجوباً، ﴿قَوۡمُكَ﴾ مبتدأ، ﴿مِنۡهُ﴾: متعلق بـ﴿يَصِدُّونَ﴾، وجملة

---

(١) البحر المحيط.

﴿يَصِدُّونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿لمّا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لمّا﴾ مستأنفة. ﴿وَقَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على جواب ﴿لما﴾، ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا﴾ الهمزة: للاستفهام، لطلب تعيين أحد الأمرين، ﴿آلهتنا﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾ خبره. ﴿أَمْ﴾ حرف عطف متصلة، ﴿هُوَۚ﴾ معطوف على آلهتنا، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿ضَرَبُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿لَكَ﴾ متعلق بـ﴿ضَرَبُوهُ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿جَدَلَۢاۚ﴾ مفعولا لأجله؛ أي: ما ذكروه لك إلا لأجل الجدال، والمراء واللجاج، لا لإظهار الحق، ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال؛ أي: ما ذكروه لك إلا حال كونهم مجادلين لك، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وانتقال، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿قَوْمٌ﴾: خبر، ﴿خَصِمُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾: عطف اسمية على فعلية، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿عَبْدٌ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنْعَمْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أَنْعَمْنَا﴾، وجملة ﴿أَنْعَمْنَا﴾ صفة لـ﴿عَبْدٌ﴾، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جعلناه مثلاً﴾: فعل وفاعل، ومفعولان، ﴿لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ صفة لـ﴿مَثَلًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنْعَمْنَا﴾.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لو﴾ حرف شرط، ﴿نَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، ﴿لَجَعَلْنَا﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنكُم﴾ في موضع المفعول الثاني إن كان ﴿جعلنا﴾ بمعنى صيرنا، وإن كان بمعنى خلقنا، فالجار والمجرور متعلق بـ﴿جعلنا﴾، ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ مفعول أول، أو مفعول به، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ﴿يَخْلُفُونَ﴾، وجملة ﴿يَخْلُفُونَ﴾ صفة لـ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾، وجملة ﴿جعلنا﴾ جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ...﴾ إلخ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، واللام: حرف ابتداء، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿لِّلسَّاعَةِ﴾ صفة ﴿علم﴾، ﴿فَلَا﴾: الفاء: فاء

الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم كونه علماً للساعة، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم، فأقول لكم ﴿لا تمترن بها﴾، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَمْتَرُنَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل، والنون المشددة نون التوكيد، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ﴿تَمْتَرُنَّ﴾، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اتبعوا﴾: فعل أمر، وفاعل مبني على حذف النون، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل النصب مفعول به، والجملة معطوفة على جملة النهي، ﴿هَذَا﴾: مبتدأ، ﴿صِرَاطٌ﴾ خبر ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ صفة ﴿صِرَاطٌ﴾، والجملة الاسمية مسوقة لتعليل الأمر بالاتباع.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢)﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿يَصُدَّنَّكُمُ﴾: فعل مضارع، في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والكاف مفعول به، ﴿الشَّيْطَانُ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾، ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾، أو حال منه، ﴿عَدُوٌّ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، ﴿مُبِينٌ﴾ صفة ﴿عَدُوٌّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣)﴾.

﴿وَلَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لما﴾: حرف شرط. ﴿جَاءَ عِيسَى﴾: فعل وفاعل، فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ متعلق بـ﴿جَاءَ﴾، وجملة ﴿قَالَ﴾ جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جِئْتُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلِأُبَيِّنَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام لام كي، ﴿أبين﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَى﴾، ﴿لَكُمْ﴾

متعلق بـ﴿أبين﴾، ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى﴾: مفعول به، ومضاف إليه، وجملة أبين مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: ولتبييني لكم بعض الذي فيه تختلفون، الجار والمجرور متعلق بمقدر، معطوف على ﴿جِئْتُكُم﴾، تقديره: قد جئتكم بالحكمة وجئتكم لتبييني لكم، ولم يترك العاطف ليتعلق بما قبله، ليؤذن بالاهتمام بالعلة، حتى جعلت كأنها كلام برأسه، ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: الفاء: عاطفة تفريعية، ﴿اتقوا الله﴾، فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾: على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أطيعوا﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب، مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ويجوز أن تجعل الفاء في ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: استئنافية، فيكون الكلام مستأنفاً من الله، للدلالة على طريق الطاعة ومحجتها الواضحة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿رَبِّى﴾: خبر، ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ معطوف على ﴿رَبِّى﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مفسرة لما تقدم من قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾. ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم كون الله ربي وربكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: اعبدوه. ﴿أعبدوه﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿صِرَٰطٌ﴾: خبر، ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾ صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَٱخْتَلَفَ﴾: الفاء: استئنافية، ﴿اختلف الأحزاب﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من الأحزاب؛ أي: حال كونهم

مختلفين من قبل أنفسهم وباختيارهم، أو حال كون الأحزاب بعضهم؛ أي: بعض النصارى، إذ بقي منهم فرقة أخرى مؤمنة، يقولون: إنه عبد الله ورسوله، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿ويل﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿اختلف﴾، وجملة ﴿ظَلَمُوا﴾ صلة الموصول؛ أي: فعذاب شديد كائن وحاصل للذين ﴿ظَلَمُوا﴾، ﴿مِنْ عَذَابِ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، ﴿يَوْمٍ﴾: مضاف إليه، ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة ﴿يَوْمٍ﴾ أي: فعذاب شديد، كائن للذين ظلموا، حال كون ذلك العذاب من عذاب يوم أليم عذابه، وهو يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿هَلْ﴾ حرف استفهام للاستفهام الإنكاري؛ أي: لا ينظرون، ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿السَّاعَةَ﴾ مفعول به، ﴿أَن﴾ حرف مصدر، ﴿تَأْتِيَهُم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿السَّاعَةَ﴾، ومفعول به، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه بدلاً من الساعة؛ أي: هل ينظرون إلا الساعة إلا إتيانها إياهم، ﴿بَغْتَةً﴾ حال من فاعل ﴿تَأْتِيَهُم﴾؛ أي: حال كونها باغتة، ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿تَأْتِيَهُم﴾ ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ مبتدأ أول، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف إلى مثله، متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾، ﴿بَعْضُهُمْ﴾ مبتدأ ثان، ﴿لِبَعْضٍ﴾ حال من عدو، لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿عَدُوٌّ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المبتدأ الثاني مع خبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿الْمُتَّقِينَ﴾: مستثنى منصوب بـ﴿إِلَّا﴾، ﴿يَا عِبَادِ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿عباد﴾ منادى مضاف إلى يا المتكلم، المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة المناسبة، وجملة النداء في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم: يا عباد لا

خوف عليك، ﴿لَا﴾: نافية، تعمل عمل ليس، ﴿خَوْفٌ﴾ اسمها، ﴿عَلَيْكُمُ﴾ خبرها، أو ﴿لَا﴾ مهملة، ﴿خَوْفٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه بعد النفي ﴿عَلَيْكُمُ﴾: خبرها، والجملة الاسمية مقول للقول المحذوف. ﴿الْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور قبله، ﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية مهملة، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَحْزَنُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿الَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿عباد﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾ صلته، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ متعلق بـ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا﴾: على كونها صلة الموصول.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿ادْخُلُوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل ﴿الْجَنَّةَ﴾ مفعول به، منصوب على السعة، والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿تُحْبَرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ادْخُلُوا﴾، أو في محل النصب مقول القول، ﴿يُطَافُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِم﴾: في موضع رفع نائب فاعل، ﴿بِصِحَافٍ﴾: متعلق بـ﴿يُطَافُ﴾، ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾: صفة ﴿صحاف﴾، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ معطوف على ﴿صحاف﴾، وذكر الذهب في الصحاف، واستغنى به عن الإعادة في الأكواب، كقوله تعالى: ﴿وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ﴾. ﴿وَفِيهَا﴾: خبر مقدم، ﴿مَا﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿يُطَافُ﴾. ﴿تَشْتَهِيهِ﴾: فعل ومفعول، ﴿الْأَنفُسُ﴾ فاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ فعل وفاعل، معطوف على صلة ﴿مَا﴾، والعائد محذوف، تقديره: تلذه الأعين، ﴿وَأَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾. ﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنتُمْ

﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ وهو من جملة ما يقال لهم، وما بينهما اعتراض اعترض به، لبيان صفات الجنة. ﴿وَتِلْكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿تلك﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿ٱلَّتِىٓ﴾ صفة لـ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾، ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، أو المصدرية. ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿فِيهَا﴾: حال من فاكهة، و﴿فَٰكِهَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿كَثِيرَةٌ﴾ صفة أولى لـ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مرفوع ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾، ﴿مِّنْهَا﴾ متعلق بـ﴿تَأْكُلُونَ﴾، وجملة ﴿تَأْكُلُونَ﴾ صفة ثانية لـ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، ولكنها سببية، والرابط ضمير ﴿مِّنْهَا﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾، و﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُفَتَّرُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على العذاب. ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق بـ﴿يُفَتَّرُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من عذاب جهنم، ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿مُبْلِسُونَ﴾، و﴿مُبْلِسُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿خَٰلِدُونَ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿ظَلَمْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على جملة ﴿إنّ﴾، ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل. ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿ظَلَمْنَٰهُمْ﴾.

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَنَادَوْا۟﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿نادوا﴾: فعل ماض وفاعل، والجملة معطوفة

على جملة ﴿إنّ﴾ وعبر بالماضي عن المضارع إيذاناً بتحقق وقوعه، فهو من باب أتى أمر الله، ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾: مقول محكي لـ﴿نادوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿مالك﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿نادوا﴾؛ لأنه بمعنى قالوا. ﴿لِيَقْضِ﴾ اللام: لام الأمر، ﴿يقض﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق به، ﴿رَبُّكَ﴾ فاعل، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مالك﴾، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّكُم﴾ ناصب واسمه، ﴿مَّٰكِثُونَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول قال، ﴿لَقَدْ﴾ اللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿جِئْنَٰكُم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق به، والخطاب لأهل مكة عام لمؤمنهم وكافرهم، والقائل هو الله تعالى، على لسان رسوله ﷺ، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، مقررة لجواب مالك لأهل النار، ومبينة لسبب مكثهم، كما قاله أبو السعود، ويحتمل أن يكون هذا، من قول مالك لأهل النار؛ أي: إنكم ماكثون في النار، لأنا جئناكم بالحق في الدنيا، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكنّ﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكْثَرَكُمْ﴾: اسمها، ﴿لِلْحَقِّ﴾ متعلق بـ﴿كَٰرِهُونَ﴾، و﴿كَٰرِهُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لكنّ﴾ معطوفة على ما قبلها، على كونها جواب القسم.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿أَبْرَمُوٓا۟﴾: فعل ماض وفاعل، ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿فَإِنَّا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إنّا﴾: ناصب واسمه، ﴿مُبْرِمُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿أبرموا﴾، ﴿أَمْ﴾: منقطعة كما ذكرنا آنفاً. ﴿يَحْسَبُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾: معطوف على ﴿سِرَّهُمْ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي

﴿حسب﴾، ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب، يجاب بها لإثبات نفي ما قبلها، قائم مقام جملة الجواب، تقديره: نسمع ذلك، والجملة الجوابية المحذوفة مستأنفة، ﴿وَرُسُلُنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿رسلنا﴾: مبتدأ، ﴿لَدَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يَكْتُبُونَ﴾ وجملة ﴿يَكْتُبُونَ﴾: خبر ﴿رسلنا﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الجواب، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾: خبرها مقدم، ﴿وَلَدٌ﴾: اسمها مؤخر، ﴿فَأَنَا۠﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿أنا﴾: مبتدأ، ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿سُبْحَٰنَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، وجملة ﴿سُبْحَٰنَ﴾: مستأنفة، ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مضاف إليه، ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾: بدل من ﴿رَبِّ﴾ الأول، ﴿عَمَّا﴾: متعلق بـ﴿سُبْحَٰنَ﴾، وجملة ﴿يَصِفُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَذَرْهُمْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت تعنتهم وتمردهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك ذرهم، ﴿ذرهم﴾: فعل، ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿يَخُوضُوا۟﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بالطلب السابق، والجملة جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾: معطوف على ﴿يَخُوضُوا۟﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُلَٰقُوا۟﴾: فعل مضارع، وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى الجارة، ﴿يَوْمَهُمُ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلىٰ؛ أي: إلى ملاقاتهم يومهم، الجار والمجرور، متعلق بـ﴿يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ على سبيل التنازع، ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة لـ﴿يَوْمَهُمُ﴾، وجملة

﴿يُوعَدُونَ﴾ من الفعل المغير ونائبه صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يوعدونه، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿ٱلَّذِى﴾: خبره، والجملة مستأنفة، ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بإله؛ لأنه في تأويل معبود، ﴿إِلَٰهٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: وهو الذي هو إله في السماء، والجملة الاسمية صلة الموصول، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿هو﴾ مبتدأ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ خبر أول، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ خبر ثان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ ﴿وَتَبَارَكَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿تبارك الذي﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على ما قبلها. ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول، ﴿وَمَا﴾: معطوف على السموات، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول. ﴿وَعِندَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة. ﴿وَإِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وجملة ﴿تُرْجَعُونَ﴾: معطوفة على جملة الصلة.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يدعونهم، ﴿مِن دُونِهِ﴾: متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾، ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ مفعول يملك. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ويحتمل كون الاستثناء منقطعاً، والمعنى: ولا يملك آلهتهم الأصنام والأوثان الشفاعة كما زعموا، ولكن من شهد، وأقر بالتوحيد كعيسى، وعزير يملك الشفاعة في مستحقيها، وأن يكون متصلا، والمعنى: ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق، فهو استثناء من المفعول المحذوف، ﴿شَهِدَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق بـ﴿شَهِدَ﴾، ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿شَهِدَ﴾، والجمع باعتبار معنى

﴿مَن﴾؛ أي: شهدوا بالحق بألسنتهم، حال كونهم يعلمون بقلوبهم حقية ما شهدوا بألسنتهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾.

﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿سَأَلْتَهُم﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول أول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مَّنْ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ثان. ﴿خَلَقَهُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول، صلة مَن الموصولة. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: اللام: موطئة للقسم، مؤكدة للأولى، ﴿يقولن﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل، والنون المشددة نون التوكيد؛ لأن أصله: ليقولونن، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: وإن سألتهم: من خلقهم، يقولون: الله، وجملة الشرط معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿اللَّهُ﴾: فاعل بفعل محذوف، دل عليه ما قبله، تقديره: خلقهم الله، أو مبتدأ، خبره محذوف تقديره: الله خلقهم، والأول أولى؛ لأن الجملة الفعلية في هذا الباب أكثر، فالحمل عليها أولى، والجملة الفعلية أو الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿يقولن﴾، ﴿فَأَنَّىٰ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿أنى﴾: اسم استفهام بمعنى كيف، في محل النصب على الحال من مرفوع ﴿يُؤْفَكُونَ﴾، و﴿يُؤْفَكُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة القسم، ﴿وَقِيلِهِ﴾؛ أي: وقوله ﷺ بالجر، يقال في إعرابه ﴿الواو﴾ حرف جر وقسم، ﴿قيله﴾ مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بقول محمد ﷺ. ﴿يَا رَبِّ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿قيله﴾. ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ ناصب واسمه، ﴿قَوْمٌ﴾: خبره، وجملة ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم

مع جوابه، معطوفة على جملة القسم الأول، وهذا أحسن الأعاريب في هذا المقام، وقرىء بالنصب على المصدرية بفعله المقدر، تقديره: وقال محمد ﷺ قوله يا رب إلخ. وقيل: معطوف على ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَنَهُمْ﴾، كما مر ذلك كله مبسوطاً في مبحث التفسير. وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر ما بعده، أو أن الخبر محذوف تقديره: وقوله مسموع أو مقبول. ﴿فَٱصْفَحْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم قوم لا يؤمنون، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: اصفح عنهم. ﴿اصفح﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَقُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿فَٱصْفَحْ﴾، ﴿سَلَٰمٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمري وشأني ومطلبي، سلامة من إذايتكم، وبراءة من دينكم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾، ﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس واستبقال. ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، ومفعوله محذوف للتفخيم تقديره: عاقبة أمرهم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱصْفَحْ﴾: على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: جعل، ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: حجة وبرهاناً على شبهتهم. ﴿يَصِدُّونَ﴾ قال في «القاموس»: صد يصد ويصد صديداً، إذا ضج وارتفع صوته، فالمكسور من باب ضرب، والمضموم من باب رد، يقال: صد عنه يصد بالضم صدوداً إذا أعرض عنه، وصد فلاناً عن كذا صدا، منعه وصرفه، كأصد، فالصديد بمعنى الضجيج، والصدود بمعنى الإعراض، والصد بمعنى المنع. ﴿إِلَّا جَدَلًا﴾؛ أي: خصومةً بالباطل، والجدل محركاً فتل الخصم عن قصده لطلب صحة قوله، وإبطال غيره، وهو مأمور به على وجه الإنصاف، وإظهار الحق بالاتفاق. وقوله: ﴿ٱبْنُ﴾ أصله: بنو حذفت لامه الواو، وعوض عنها همزة الوصل، وقوله: ﴿يَصِدُّونَ﴾ قرىء بكسر الصاد من صد اللازم، وقرىء بضمها

من صد المتعدي، وأصله على كلتا القراءتين: يصددون بوزن يفعلون بكسر العين، أو يصددون بوزن يفعلون بضم العين، نقلت حركة الدال فيهما إلى الصاد فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية. ﴿خَصِمُونَ﴾؛ أي: شديدوا الخصومة، مجبولون على اللجاج، وسوء الخلق. ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: أمراً عجيباً حقيقاً بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة.

﴿يَخْلُفُونَ﴾ يقال: خلف فلان فلاناً إذا قام بالأمر عنه، إما معه وإما بعده. ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أصله: تمتريون حذفت منه نون الرفع للجازم، وهو لا الناهية، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت فسكنت فالتقى ساكنان فحذفت الياء وضمت الراء لمناسبة الواو، ثم دخلت نون التوكيد على الفعل، فصار تمترون، فالتقى ساكنان الواو وأولي نوني التوكيد المشددة، فحذفت الواو لبقاء داله، فصار تمترن بوزن تفتعن. ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ بحذف الياء خطأ؛ لأنها من ياءات الزوائد، وأما في اللفظ فيجوز إثباتها وحذفها وصلاً ووقفاً.

﴿يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ﴾ أصله: يصددنكم، نقلت حركة الدال الأولى إلى الصاد فسكنت، فأدغمت في الثانية، وبني الفعل على الفتح وإن كان في محل جزم لاتصال نون التوكيد به. ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ جمع حزب بكسر الحاء بمعنى جماعة الناس. ﴿بَغْتَةً﴾ والبغت مفاجأة الشيء من حيث لا يحسب، كما في «المفردات». ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ جمع خليل، وهو الصديق. وفي «المصباح»: الخليل الصديق، والجمع أخلاء كأصدقاء، وفي «القاموس»: والخل بالكسر والضم الصديق المختص، أو لا يضم إلا مع ود، يقال: كان لي وداً وخلا، والجمع أخلال كالخليل وخلان، أو الخليل الصادق، أو من أصفى المودة وأصحها، واستدرك في «التاج» فقال: قال ابن سيده: وكسر الخاء أكثر، ويقال للأنثى: خل أيضاً. وأصل ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾: الأخللاء، بوزن أفعلاء جمع خليل، كصديق وأصدقاء، نقلت حركة اللام الأولى إلى الخاء فسكنت، فأدغمت في اللام الثانية، فصار أخلاء بوزن أفلاء.

﴿يُطَافُ﴾ أصله: يطوف، بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى الطاء، فسكنت

ثم أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ تسرون سروراً يظهر حباره؛ أي: أثره على وجوهكم. وقال الزجاج: تكرمون إكراماً يبالغ فيه، والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل. وفي «القاموس»: والحبر بفتحتين الأثر كالحبار، بكسر أوله وفتحه، والحبر بالكسر الأثر أو أثر النعمة، والحسن، والوشي وبالفتح السرور، وحبره سره، والنعمة، والحبرة بالفتح السماء في الجنة، وكل نعمة حسنة. وقال الراغب: الحبر الأثر المستحسن، ومنه ما روي: يخرج من النار رجل قد ذهب حبره وسبره؛ أي: جماله وبهاؤه، والحبر: العالم لما يبقى من أثر علومه في قلوب الناس، ومن آثار أفعاله الحسنة المقتدى بها.

﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾ جمع صحفة، كجفان جمع جفنة، وقصاع جمع قصعة. قال الكسائي: وأعظمها الجفنة، وهي القصعة العريضة الواسعة، ثم القصعة، وهي التي تشبع العشرة، ثم الصحفة وهي تشبع الخمسة، ثم المئكلة، وهي التي تشبع الرجلين أو الثلاثة ﴿وَأَكۡوَابٖۖ﴾ جمع كوب، كعود وأعواد، وهو كوز لا عروة له ولا خرطوم، وإنما كانت بغير عروة ليشرب الشارب من أي جانب شاء؛ لأن العروة ترد الشارب من بعض الجوانب. وقال عدي:

مُتَّكِئاً تُصَفِّقُ أَبْوَابُهُ   يَسْعَىٰ عَلَيْهِ ٱلْعَبْدُ بِٱلْكُوْبِ

﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ يقال: لذذت الشيء بالكسر لذاذاً ولذاذة؛ أي: وجدته لذيذاً، أصله: تلذذ بوزن تفعل، مضارع لذذ بكسر العين، من باب فعل المكسور، نقلت حركة الذال الأولى إلى اللام فسكنت، فأدغمت في الذال الثانية ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ من قولهم: فترت الحمى عنه إذا سكنت قليلاً ونقص حرها. قال الراغب: الفتر: سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة. ﴿مُبۡلِسُونَ﴾ وفي «المفردات»: الإبلاس الحزن المعترض من شدة اليأس، ومنه اشتق إبليس، ولما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكون وينسى ما يعنيه.. قيل: أبلس فلان إذا سكت وانقطعت حجته. ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ أصله: ناديوا بوزن فاعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿لِيَقۡضِ﴾ وزن يقض يفع لحذف لامه للجازم. ﴿سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: نجويهم،

قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ﴾ أصله: يخوضون بوزن يفعلون، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الخاء فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد، ثم حذفت نون الرفع لما وقع الفعل جواباً للأمر، فوزنه يفولوا، وأصل الخوض: الشروع في الماء والمرور فيه، ويستعار للأمور. وقوله: ﴿يُلَٰقُواْ﴾ أصله: يلاقيون، حذفت نون الرفع للناصب، ثم حذفت حركة الياء تخفيفاً، فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين وضمت القاف لمناسبة الواو. ﴿كَٰرِهُونَ﴾ من الكراهة مصدر كره الشيء بالكسر؛ أي: لم يرده فهو كاره. ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا﴾ من الإبرام، وهو إحكام الأمر، وأصله: من إبرام الحبل، وهو ترديد فتله. ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ يقال: ناجيته؛ أي: ساررته، وأصله: أن تخلو في نجوة من الأرض؛ أي: مكان مرتفع منفصل بارتفاعه عما حوله، والسر هو ما يحدث به الإنسان نفسه، أو غيره في مكان خال، والنجوى التناجي والتحادث فيما بينهم. ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ قال أبو عبيدة: يقال: قلت قولاً وقالاً وقيلاً. وفي الخبر: «نهى عن قيل وقال». فالقول والقيل والقال كلها مصادر، وفيه إعلال بالقلب، أصله: قِوْلِه من القول، قلبت الواو ياءً لوقوعها ساكنةً إثر كسرة، فصارت حرف مد. ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: اعف عنهم عفو المعرض، ولا تقف عن التبليغ. ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾؛ أي: سلام متاركةٍ لكم بسلامتكم مني وسلامتي منكم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإبهام في فاعل ضرب في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ للإهانة والتحقير له.

ومنها: الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾، و في قوله: ﴿إِنْ هُوَ

﴿إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾؛ أي: إن نزوله لعلامة لقرب الساعة.

ومنها: تأكيد النهي في قوله: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ إيذاناً بأنه لا محالة منها.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ إن، وضمير الفصل، وتعريف الطرفين.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ تسجيلاً عليهم باسم الظلم؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: فويل لهم.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾؛ أي: ما ينظرون.

ومنها: النداء في قوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ...﴾ إلخ، تشريفاً لهم، وناداهم بأربعة أمور: الأول: نفي الخوف، والثاني: نفي الحزن، والثالث: الأمر بدخول الجنة، والرابع، البشارة بالسرور، في قوله: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ اهـ شيخنا.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖ﴾؛ أي: أكواب من ذهب، وحذف لدلالة السابق عليه.

ومنها: ذكر العام، في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ بعد الخاص، في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖ﴾.

ومنها: الحصر المستفاد من قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ فقد حصر أنواع النعم في أمرين اثنين، إما مشتهاة في القلوب، وإما مستلذة في العيون.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ للتشريف والتفخيم لشأنهم.

ومنها: إفراد الخطاب في قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ حيث لم يقل: وتلكم الجنة، مع أن مقتضى أورثتموها أن يقال: وتلكم، للإيذان بأن كل واحد من أهل الجنة مقصود بالذكر لذاته، وبالخطاب.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ فقد شبه الجنة بالمال الموروث، والتلاد الموفور، ثم استعار له الإرث على طريق الاستعارة المكنية؛ لأن كل عامل لا بد أن يلقى جزاءه، إذ يذهب العمل ويبقى جزاؤه مع العامل، أو إنها شبهت في بقائها على أهلها، وإفاضة النعم السوابغ عليهم، بالميراث الباقي، لا ينضُب له معين، ولا ينتهي إلى نفاد.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ لأن المراد: سرهم وعلانيتهم.

ومنها: الحذف للاختصار في قوله: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: بلى نسمع سرهم ونجواهم، لدلالة ﴿بلى﴾ على المحذوف.

ومنها: تكرير اسم الرب في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ تفخيماً لشأن العرش؛ لأنه أعظم مخلوقات الله سبحانه.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾؛ لأن حقيقة الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه، فاستعير لشروعهم في أباطيلهم، وأكاذيبهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد

١ ـ وصف القرآن الكريم.

٢ ـ الأمر بإنذار قومه ﷺ، مع غفلتهم وإسرافهم في لذات الدنيا.

٣ ـ شأن هؤلاء المشركين في تكذيبهم للرسول، شأن غيرهم من المكذبين من قبلهم.

٤ ـ اعترافهم بأن الله هو خالق السموات والأرض، مع عبادتهم للأوثان والأصنام.

٥ ـ اعتقادهم أن الملائكة بنات الله، ثم نعي ذلك عليهم.

٦ ـ تمسكهم بتقليد الآباء والأجداد في شؤونهم الدينية.

٧ ـ قصص الأنبياء من أولي العزم، كإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام.

٨ ـ وصف نعيم الجنة.

٩ ـ الأهوال التي يلقاها أهل النار، حتى يتمنوا الموت ليستريحوا مما هم فيه.

١٠ ـ متاركة أهل الباطل والصفح عنهم، حتى يأتي وعد الله تعالى.

والله أعلم

* * *

سورة الدخان

سورة الدخان مكية، قال القرطبي مكية بالاتفاق، إلا قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾ الآية.

وآياتها[١]: سبع أو تسع وخمسون آية. **وكلماتها**: ثلاث مئة وست وأربعون كلمة. **وحروفها**: ألف وأربع مئة وأحد وثلاثون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها من وجوه[٢]:

١ ـ أنه تعالى حكى فيما قبلها قول رسوله ﷺ: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، وحكى في هذه عن أخيه موسى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٢ ـ أنه تعالى ختم ما قبلها بالوعيد والتهديد، وافتتح هذه بالإنذار الشديد.

٣ ـ أنه تعالى قال فيما سلف: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾، وحكى هنا عن موسى ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ وهو قريب من ذلك.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه السورة لما قبلها[٣]: أنه تعالى ذكر في أواخر ما قبلها: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾، فذكر يوماً غير معين ولا موصوفاً، فبين في أوائل هذه السورة ذلك اليوم، بوصف وصفه، فقال: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾، وأن العذاب هو ما يأتيهم من قبلك، ويحل بهم من الجدب والقحط، ويكون العذاب في الدنيا، وإن كان العذاب في الآخرة، فيكون ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ يوم القيامة، انتهى.

تسميتها: سميت سورة الدخان، لأن الله تعالى جعله ـ أي: الدخان ـ آية لتخويف الكفار، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة، بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ،

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكون، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة الدخان جميعها محكم، غير آية واحدة، وهي قوله تعالى في آخرها: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ۝٥٩﴾ نسخت بآية السيف.

فضلها: ومما ورد في فضلها، ما أخرجه الترمذي والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ «من قرأ حم الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» قال الترمذي بعد إخراجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمرو بن أبي خثعم أحد رواته ضعيف. قال البخاري: منكر الحديث.

ومنها: ما أخرجه الترمذي ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الدخان في ليلة جمعة، أصبح مغفوراً له». قال الترمذي بعد إخراجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام بن المقدام أحد رواته ضعيف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، كذا قال أيوب ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد، ويشهد له ما أخرجه ابن الضريس عن الحسن مرفوعاً بنحوه، وهو مرسل.

وما أخرجه الدارمي ومحمد بن نصر عن أبي رافع قال: «من قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له، وزوج من الحور العين».

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة حم الدخان في ليلة الجمعة، أو يوم الجمعة، بنى الله بها بيتاً في الجنة».

وعبارة الشهاب في سورة الواقعة: ولم يذكر البيضاوي، في فضائل السور، حديثاً غير موضوع من أول القرآن إلى هنا، غير ما ذكره هنا، وما مر في سورة يس والدخان.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا
يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ (٦) رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى
ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا
مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا
كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) ۞ وَلَقَدْ
فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
(١٨) وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن
لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ
(٢٣) وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ
ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٢) وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ
ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ (٣٣)﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة وما قبلها آنفاً، والله سبحانه وتعالى أقسم في مبدأ هذه السورة بكتابه الكريم المبين، كما أقسم به في السابقة، لما فيه من صلاح البشر، على أنه أنزل القرآن في ليلة القدر، لإنذار العباد، وتخويفهم من عقابه، وأن هذه الليلة يفصل فيها كل أمر حكيم، فيبين فيها التشريع النافع للعباد في دنياهم وآخرتهم، وهو رب السموات والأرض وما بينهما، فلا تخفى عليه خافية من أمرهم، وهو الذي بيده إحياؤهم وإماتتهم، وهو

ربهم ورب آبائهم الأولين، ولكنهم يمترون بعد أن وضح الحق وأفصح الصبح لذي عينين.

قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه[1] الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال كفار قريش إذ قابلوا الرحمة بالكفران، ولم ينتفعوا بالمنزل ولا بالمنزل عليه.. أردف هذا بأن أمر نبيه ﷺ بالانتظار، حتى يحل بهم بأسه؛ لأنهم أهل الخذلان والعذاب، لا أهل الإكرام والغفران، وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ، وتهديد للمشكرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أن مشركي مكة أصروا على كفرهم، ولم يؤمنوا برسولهم.. أردف هذا، ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم، فكثير قبلهم كذبوا رسلهم، فها هم أولاء قوم فرعون، قد كان منهم مع موسى مثل ما كان من قومك معك، بعد أن أتاهم بالبينات التي كانت تدعو إلى تصديقه، فكذبوه، فنصره الله عليهم، وأغرق فرعون وقومه، وجعلهم مثلاً للآخرين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود، قال: إن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠﴾ فأتي رسول الله ﷺ، فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت فاستسقى فسقوا، فنزلت: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، حين أصابتهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾ قال: يعني يوم بدر. والحديث أخرجه مسلم وأحمد.

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

﴿حمٓ ①﴾؛ أي: أقسمت[١] بحق ﴿حم﴾، وهي هذه السورة، أو مجموع القرآن ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: وبالكتاب الكريم، وهو القرآن، معطوف على ﴿حم﴾، إذ لو كان قسماً آخر، لزم اجتماع قسمين على مقسم عليه واحد، ومدار العطف على تقدير كون ﴿حمٓ ①﴾ اسماً لمجموع القرآن المغايرةُ في العنوان ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾؛ أي: البين معانيه لمن أنزل عليهم، وهم العرب لكونه بلغتهم، وعلى أساليبهم، أو المبين لطريق الهدى من طرق الضلالة، الموضح لكل ما يحتاج إليه في أبواب الديانة، وقال بعضهم: معنى الكلام: أقسمت بحق الحي القيوم، وبحق القرآن الفاصل بين الحق والباطل، فالحاء إشارة إلى الاسم الحي، والميم إلى الاسم القيوم، وهما أعظم الأسماء الإلهية لاشتمالهما على ما يشتمل عليه كل منها من المعاني والأوصاف والحقائق.

ويجوز[٢] أن يراد بالكتاب المبين ههنا: الكتب المتقدمة، التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه، والضمير في ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ عائد عليه بمعنى الكتب؛ لأنها كلها أنزلت في رمضان، كما سيأتي، أو على القرآن، ويجوز أن يكون المراد به: اللوح المحفوظ، والأول أولى. وقال النسفي: والواو في ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾: واو القسم إن جعلت ﴿حمٓ ①﴾ تعديداً للحروف، أو اسماً للسورة، مرفوعاً على أنه خبر مبتدأ محذوف، وواو العطف إن كانت ﴿حمٓ ①﴾ مقسماً بها، وجواب القسم ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ وفي «عرائس البقلي» الحاء من ﴿حمٓ ①﴾ الوحي الخاص إلى محمد ﷺ، والميم محمد ﷺ، وذلك ما كان بلا واسطة، فهو سر بين المحب والمحبوب، لا يطلع عليه أحد غيرهما، كما قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ⑩﴾.

ويحتمل[٣] أن يكون ﴿حمٓ ①﴾ إشارةً إلى حمد الله على إنزاله القرآن،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

الذي هو أجل النعم الإلهية. فـ﴿حمٓ ۝١﴾ منحوت من الحمد، والمعنى: وحق الحق، الذي يستحق الحمد في مقابلة إنزال القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: الكتاب المبين الذي هو القرآن، وهو جواب القسم؛ أي: إنا أنزلنا القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، في مكان يقال له: بيت العزة دفعةً واحدة، وأملاه جبرائيل على السفرة، ثم كان ينزله على النبي ﷺ نجوماً؛ أي: مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع؛ أي: أنزلناه ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ أي: ذات بركة وخير كثير، إذ فيها الرحمة والمغفرة ومضاعفة الحسنات، واستجابة الدعوات، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركةً، وهي ليلة القدر في شهر رمضان، أو ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء: الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصك، وليلة الرحمة، وقيل: بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة، والجمهور[1] على الأول، لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان، وقيل: ابتداء نزوله إلى النبي ﷺ في ليلة القدر. قال القرطبي: ومن قال[2]: أقسم بسائر الكتب المنزلة فقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ كنى به عن غير القرآن، وروى قتادة عن واثلة، أن النبي ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزلت الزبور لاثني عشرة من رمضان، وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان، ثم قال: أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا في هذه الليلة، ثم أنزل نجماً نجماً في سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب»، وقيل: كانَ ينزل من اللوح المحفوظ في كل ليلة القدر، ما ينزل في سائر السنة، وقيل: كان ابتداء الإنزال من اللوح المحفوظ في هذه الليلة، انتهى.

والحكمة في نزوله ليلاً[3]: أن الليل زمان المناجاة، ومهبط النفحات، وفي الليل فراغ القلوب بذكر حضرة المحبوب، فهو أطيب من النهار عند المقربين

---

(١) النسفي.

(٢) القرطبي.

(٣) روح البيان.

والأبرار، ووصف الليلة بالبركة، لما أن نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها، أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة، وإجابة الدعوة ونحوها، وإلا فأجزاء الزمان متشابهة بحسب ذواتها وصفاتها، فيمتنع أن يتميز بعض أجزائه عن بعض، بمزيد القدر والشرف لنفس ذواتها.

ثم بين السبب في إنزاله، فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾؛ أي: ومبشرين، ففيه اكتفاء استئناف مبين لما يقتضي الإنزال، كأنه قيل: إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتخويف من العقاب، والتبشير بالجنة؛ أي: وإنما أنزلناه لأنا كنا معلمين الناس ما ينفعهم، فيعملون به، وما يضرهم فيجتنبونه لتقوم حجة الله على عباده.

ثم بين سبب تخصيص نزوله بتلك الليلة، فقال: ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الليلة المباركة ﴿يُفْرَقُ﴾؛ أي: يكتب، ويفصل، ويبين، ويظهر للملائكة، الموكلين بالتصرف في العالم ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: كل أمر محكم، متقن، مبرم، مقضي من الله سبحانه، في تلك السنة من أرزاق العباد، وآجالهم، وجميع أمورهم إلا السعادة والشقاوة، من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة، وقيل: يبدأ في انتساخ ذلك من اللوح المحفوظ، في ليلة البراءة: ليلة النصف من شعبان ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتدفع نسخة الأرزاق إلى مكيائيل، ونسخة الحروب والزلازل والصواعق والخسف إلى جبرائيل، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا، وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت، حتى أن الرجل ليمشي في الأسواق، وأن الرجل لينكح ويولد له، ولقد أدرج اسمه في الموتى، وهذه الجملة إما صفة أخرى لليلة، وما بينهما اعتراض، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها، قال الزمخشري[1]: فإن قلت: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ﴾ ما موقع هاتين الجملتين.

قلت: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان، فسر بهما جواب القسم، الذي هو

---

(١) الكشاف.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾، كأنه قيل: أنزلناه، لأن من شأننا الإنذار والتحذير، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً؛ لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة يفرق فيها كل أمر حكيم.

قلتُ: وهذا من محاسن هذا الرجل، اهـ «سمين».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُفۡرَقُ﴾ بضم الياء و فتح الراء مخففاً، مبنياً للمفعول. وقرأ الحسن والأعمش والأعرج: ﴿يَفۡرُق﴾ بفتح الياء وضم الراء. ﴿كل﴾: بالنصب ﴿حكيم﴾. بالرفع على الفاعلية، وقرأ زيد بن علي فيما ذكر الزمخشري: ﴿نفرق﴾ بالنون ﴿كل﴾ بالنصب، وفيما ذكر أبو علي الأهوازي عينه ﴿يفرق﴾ بفتح الياء وكسر الراء ونصب ﴿كل﴾، ورفع ﴿حكيم﴾ على أنه الفاعل بيفرق. وقرأ الحسن وزائدة عن الأعمش ﴿يفرق﴾ بالتشديد مبنياً للمفعول.

قال الشوكاني: والحق[2] ما ذهب إليه الجمهور، من أن هذه الليلة المباركة، هي ليلة القدر، لا ليلة النصف من شعبان؛ لأن الله سبحانه أجملها هنا، وبينها في سورة البقرة، بقوله: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ وبقوله في سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ فلم يبق بعد هذا البيان الواضح، ما يوجب الخلاف ولا ما يقتضي الاشتباه.

﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ قال الزجاج والفراء: انتصاب ﴿أَمۡرٗا﴾ على المصدرية بـ﴿يُفۡرَقُ﴾؛ أي: يفرق فرقاً؛ لأن ﴿أَمۡرٍ﴾ بمعنى فرقاً، مثل قولك: قعدت جلوساً، والمعنى: إنا نأمر ببيان ذلك، ونسخه من اللوح المحفوظ، وقال المبرد: ﴿أَمۡرٗا﴾ في موضع المصدر لـ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، والتقدير: ﴿أنزلناه﴾ إنزالاً من عندنا. وقال الأخفش انتصابه على الحال من فاعل أنزلناه؛ أي: أنزلناه آمرين، أو من مفعول أنزلناه؛ أي: مأموراً به، وقيل: هو منصوب على الاختصاص؛ أي: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافية، بعد بيان فخامته الذاتية؛ أي: فيه تفخيم لشأن القرآن، وتعظيم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

له، وقد ذكر بعض أهل العلم في انتصاب ﴿أَمْرًا﴾ اثني عشر وجهاً، أظهرها ما ذكرناه. وقرأ زيد بن علي ﴿أمر﴾ بالرفع؛ أي: هو أمر.

ولما ذكر إنزال القرآن، ذكر المرسل، فقال ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ هذه الجملة إما بدل من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ بدل الكل، أو جواب ثالث للقسم، أو مستأنفة، قال الرازي: المعنى إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل أنا كنا مرسلين للأنبياء. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول لأجله للإرسال.

والمعنى[1]: إنا أنزلنا القرآن، لأن عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد، لأجل إفاضة رحمتنا عليهم، فيكون قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ غايةً للإرسال، متأخرةً عنه على أن المراد منها: الرحمة الواصلة إلى العباد، أو لاقتضاء رحمتنا السابقة إرسالهم، فيكون باعثاً متقدماً للإرسال، على أن المراد: مبدؤها، ووضع الرب موضع الضمير، للإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها، وإضافته إلى ضميره ﷺ للتشريف، وقرأ الحسن وزيد بن علي ﴿رحمة﴾ بالرفع على تقدير: هي رحمة؛ أي: تلك رحمة من ربك التفاتاً من مضمر إلى ظاهر، إذ لو روعي ما قبله، لكان التركيب رحمةً منا، لكنه وضع الظاهر موضع المضمر، إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، كما مر آنفاً.

والمعنى[2]: أي في هذه الليلة بدأ سبحانه، يبين ما ينفع عباده، من أمور محكمة لا تغيير فيها ولا تبديل، بإنزاله ذلك التشريع الكامل، الذي فيه صلاح البشر، وهدايتهم، وسعادتهم في دنياهم وآخرتهم، ولا غرو، فهي من لدن حكيم عليم بما يصلح شؤون عباده في معاشهم ومعادهم.

ثم بين السر في نزول القرآن على لسان رسوله، فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إلخ؛ أي: إنا[3] أرسلنا الرسول به، رحمة منا لعبادنا، حتى يستبين لهم ما يضرهم وما ينفعهم، وحتى لا يكون لهم حجة بعد إرسال الرسول به.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

ثم أكد ربوبيته، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمن دعاه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيته، يسمع كل شيء من شأنه أن يسمع، خصوصاً أنين المشتاقين، ويعلم كل شيء من شأنه أن يعلم، خصوصاً حنين المحبين، فلا يخفى عليه شيء من أقوال العباد وأفعالهم، وأحوالهم، وهو تحقيق لربوبيته تعالى، وأنها لا تحق إلا لمن هذه نعوته الجليلة؛ أي: إنه إنما فعل تلك الرحمة؛ لأنه هو السميع لأقوالهم، العليم بما يصلح أحوالهم، فلا عجب أن أرسله إليهم لحاجتهم إليه. ثم أكد العلة في سمعه للأشياء وعلمه بها، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ بدل من ربك؛ أي: مالك جميع الموجودات العلوية والسفلية ﴿إِن كُنتُم﴾ أيها المشركون ﴿مُّوقِنِينَ﴾ بشيء، فهذا أولى ما توقنون به، لفرط ظهوره، أو إن كنتم مريدين لليقين فاعلموا ذلك.

والمعنى: إنه هو السميع لكل شيء، العليم به؛ لأنه مالك السمٰوات والأرض وما فيهما وما بينهما، إن كنتم تطلبون معرفة ذلك، معرفة يقين لا شك فيه؛ أي: إن كنتم موقنين بأنه ربّ السموات والأرض وما بينهما.. فأقرّوا بتوحيده، ولا تكذبوا رسوله فيما دعاكم إليه، وقد أقروا بذلك، كما حكاه الله عنهم، في غير موضع. وقرأ ابن محيصن[1] والأعمش وأبو حيوة والكوفيون: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالخفض، بدلاً من ﴿رَّبِّكَ﴾، أو بياناً له، أو نعتاً، وقرأ باقي السبعة والأعرج وابن أبي إسحاق وأبو جعفر وشيبة بالرفع على القطع؛ أي: هو رب السموات، أو على البدل من السميع العليم، أو على أنه مبتدأ، وخبره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وبعد أن أثبت ربوبيته ووحدانيته، ذكر فذلكة لذلك، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا خالق سواه، جملة مستأنفة مقررة لما قبلها، أو خبر ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كما مر، وكذلك جملة ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فإنها مستأنفة مقررة لما قبلها؛ أي[2]: يوجد الحياة في الجماد، ويوجد الموت في الحيوان بقدرته، كما يشاهد

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

ذلك؛ أي: يعلم علماً جلياً يشبه المشاهدة؛ أي: هو سبحانه الإله الذي لا تصلح العبادة إلاّ له، وهو المحيي المميت، فيحيي ما يشاء مما يقبل الحياة، ويميت ما يشاء عند انتهاء ما قدر له ﴿رَبُّكُمْ﴾؛ أي: هو ربكم أيها العباد، وخالقكم ورازقكم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: رب آدم ومن دونه من الأولين.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمْ﴾ برفعهما على الاستئناف، بتقدير مبتدأ؛ أي: هو ربكم، أو على أنه بدل من ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أو بيان، أو نعت له، وقرأ ابن أبي إسحاق وابن محيصن وأبو حيوة والزعفراني وابن مقسم والحسن وأبو موسى عيسى بن سليمان، وصالح الناقط كلاهما عن الكسائي بالجر، على أنه بدل ثان من ﴿رَّبِّكَ﴾، أو بيان له، وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي ﴿ربكم ورب آبائكم﴾ بالنصب على المدح.

والمعنى[2]: هو مالككم والمتصرّف فيكم، ومالك آبائكم الأولين، ومدبر شؤونهم، فاعبدوه دون آلهتكم التي لا تقدر على ضر ولا نفع.

ثم بين أنهم، ليسوا بموقنين بالجواب، بعد أن تبين لهم الرشد من الغي، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ مما ذكر من شؤونه تعالى، غير موقنين في إقرارهم بأنه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما ﴿يَلْعَبُونَ﴾ لا يقولون ما يقولون عن جدّ وإذعان، بل مخلوطاً بهزء ولعب، وهو خبر آخر للمبتدأ. وفي «كشف الأسرار» الظرف متعلق بالفعل، أو حال من فاعل ﴿يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: بل هم يلعبون في شك، ويتحيرون فيه، مثل قوله: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أو بل هم حال كونهم في شك مستقر في قلوبهم يلعبون؛ أي: بل هم في شك من التوحيد والبعث والإقرار، بأن الله خالقهم، وإن قالوا ذلك، فإنما يقولونه تقليداً لآبائهم، من غير علم، إذ هم قابلوه وبالهزء والسخرية، فعل اللاعب العابث الذي يأخذ الجد، وما لا مرية فيه، أخذ الهزل الذي لا فائدة فيه.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

والفاء، في قوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره إذا عرفت حالهم هذا، وأردت بيان عاقبتهم... فأقول لك: انتظر يا محمد لكفار مكة ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: ظاهر لا شك فيه، و﴿يَوْمَ﴾ مفعول ﴿ارتقب﴾ والباء للتعدية، ويجوز أن يكون ظرفاً له، والمفعول محذوف؛ أي: ارتقب وعد الله في ذلك اليوم، أطلق الدخان على شدة القحط، وغلبة الجوع على سبيل الكناية، أو المجاز المرسل.

والمعنى[1]: فانتظر لهم يوم شدةٍ ومجاعة فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، إما لضعف بصره، أو لأن في عام القحط يظلم الهواء، لقلة الأمطار وكثرة الغبار، ولذا يقال لسنة القحط السنة الغبراء، كما قالوا: عام الرمادة، والظاهر أن السنة الغبراء ما لا تنبت الأرض فيها شيئاً، وكانت الريح إذا هبت ألقت تراباً كالرماد، أو لأن العرب تسمي الشر الغالب دخاناً، وإسناد الإتيان إلى السماء لأن ذلك يكفها عن الأمطار، فهو من قبيل إسناد الشيء إلى سببه.

وذلك أن قريشاً لما بالغوا في الأذية له ﷺ دعا عليهم، فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر؛ أي: عقابك الشديد. يعني: خذهم أخذاً شديداً. واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، وهي السبع الشداد، فاستجاب الله دعاءه، فأصابتهم سنة؛ أي: قحط حتى أكلوا الجيف، والجلود، والعظام، والعلهز وهو الوبر والدم المخلوطان؛ أي: يخلط الدم بأوبار الإبل، ويشوى على النار، كان الرجل منهم يرى بين السماء والأرض الدخان من الجوع، وكان يحدث الرجل، ويسمع كلامه، ولا يراه من الدخان، وذلك قوله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ صفة ثانية لـ﴿دُخَانٌ﴾؛ أي: يحيط ذلك الدخان بهم، ويشملهم من جميع جوانبهم حال كونهم قائلين: ﴿هَٰذَا﴾ الجوع، أو الدخان ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فمشى إليه ﷺ أبو سفيان ونفر معه، وناشدوه الله والرحم؛ أي: قالوا: نسألك يا محمد بحق

---

(١) روح البيان.

الله وبحرمة الرحم أن تستسقي لنا، ووعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم القحط أن يؤمنوا، وذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾؛ أي: وقائلين: ربنا اكشف وارفع عنا هذا العذاب؛ أي: عذاب الجوع، أو عذاب الدخان، ومآلهما واحد، فإن الدخان إنما ينشأ من الجوع ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ بعد رفعه عنا.

قال الشوكاني: وقد اختلف[1] في هذا الدخان، المذكور في الآية متى يأتي، فقيل: إنه من أشراط الساعة، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً، وقد ثبت في «الصحيح»: أنه من جملة العشر الآيات، التي تكون قبل قيام الساعة، وقيل: إنه أمر قد مضى، وهو ما أصاب قريشاً بدعاء النبي ﷺ كما بينا آنفاً، وهذا ثابت في «الصحيحين». وغيرهما، وقيل: إنه يوم فتح مكة، فقد قال الأعرج: إن المراد بالدخان: هو الغبار الذي ظهر يوم فتح مكة من ازدحام جنود الإسلام حتى حجب الأبصار عن رؤية السماء، فحينئذ فالمراد بالعذاب: في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾: الجوع الذي كان بسببه، ما يرونه من الدخان، أو الدخان الذي هو من أشراط الساعة، أو يرونه يوم فتح مكة، على اختلاف الأقوال، والراجح منها: أنه الدخان الذي كانوا يتخيلونه، مما نزل بهم من الجهد وشدة الجوع، ولا ينافي ترجيح هذا القول ما ورد أن الدخان من آيات الساعة، فإن ذلك دخان آخر، ولا ينافيه أيضاً ما قيل: إنه الذي كان يوم فتح مكة، فإنه دخان على تقدير صحة وقوعه، اهـ. بتصرف واختصار.

والمعنى[2]: أي فانتظر يوم يأتيهم الجدب والمجاعة، التي تجعل الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، المنتشر في الفضاء، يغشى ذلك الدخان، ويحيط بهم من كل جانب، فيقولون: ربنا هذا عذاب مؤلم، يقض المضاجع، وينتهي إلى موت محقق إن دام، فاكشفه عنا إنا مؤمنون، إن كشفته عنا، وهذه هي طبيعة البشر، إذا هم وقعوا في شدة أيا كانت، أن يعدوا بالتوبة والإقلاع عما هم فيه، ولكن النفوس الشريرة لا تتجه إلى فعل الخير، ولا تفعل ما تتقرب به

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

إلى ربها انتظاراً لمثوبته ورجاءاً في غفرانه ورحمته.

ثم نفى صدقهم في الوعد، وبين أن غرضهم كشف العذاب فحسب، فقال: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؛ أي: من أين يحصل لهم التذكر والاتعاظ، فهو بعيد عنهم غير ممكن منهم، فهو رد[1] لكلامهم، واستدعائهم الكشف، وتكذيب لهم في الوعد بالإيمان، المنبىء عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم من الداهية، والمراد بالاستفهام: الاستبعاد، لا حقيقته، وهو ظاهر؛ أي: كيف يتذكرون، أو من أين يتذكرون؟ ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يبين لهم كلَّ شيء يحتاجون إلى بيانه، من أمر الدين، والدنيا؛ أي: والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر، وموجبات الاتعاظ، ما هو أعظم منه في إيجابهما، حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، وبين لهم مناهج الحق بإظهار آيات ظاهرة، ومعجزات قاهرة، تحرك صم الجبال ﴿ثُمَّ﴾ كلمة ﴿ثم﴾ هنا للاستبعاد ﴿تَوَلَّوْاْ﴾؛ أي: أعرضوا ﴿عَنْهُ﴾؛ أي: عن ذلك الرسول فيما شاهدوا منه من العظائم، الموجبة للإقبال إليه، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل جاوزوه ﴿وَقَالُواْ﴾ تارةً هذا الرجل ﴿مُعَلَّمٌ﴾ يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف، واسمه عداس أو أبو فكهة، أو جبر أو يسار. وقرأ زر بن حبيش ﴿معلِم﴾ بكسر اللام، قاله في «البحر» وتارة أخرى ﴿مَّجْنُونٌ﴾؛ أي: مغلوب العقل ناقصه، أو يقول بعضهم: كذا، وآخرون: كذا، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم، أن يتأثروا منه بالعظة والتذكير، وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضغا، وإذا شبع طغا. وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم: ربنا اكشف عنا العذاب؛ أي: إنا نكشف العذاب المعهود عنكم، بدعاء النبي ﷺ، وإنزل المطر كشفاً ﴿قَلِيلًا﴾ وهو دليل على كمال خبث سريرتهم، فإنهم إذا عادوا إلى الكفر بكشف العذاب كشفاً قليلاً، فهم بالكشف رأساً أعود، أو زماناً قليلاً، وهو ما بقي من أعمارهم ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾؛ أي: تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والإصرار على الكفر، وتنسون هذه الحالة، وصيغة[2] الفاعل في الموضعين

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

للدلالة على تحققهما لا محالة، ولقد وقع كلاهما، حيث كشفه الله سبحانه، بدعاء النبي ﷺ، فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا فيه من العتو والعناد؛ لأن من مقتضى فساد طينتهم واعوجاج طبيعتهم، المبادرة إلى خلف الوعد ونقض العهد، والعود إلى الإشراك إذا زال المانع على ما بينه الله تعالى، فيمن ركب الفلك إذا أنجاه إلى البر، والمراد بعودهم إليه: عودهم إلى العزم على الاستمرار عليه؛ لأنه لم يوجد منهم إيمان بالفعل، إنما وجد منهم الوعد به، إذا انكشف عنهم العذاب.

ومعنى الآيات[1]: أي كيف يتذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوا به من الإيمان حين يكشف عنهم العذاب، وقد جاءهم الرسول بما هو كاف في رجوعهم إلى الحق، فلم يرجعوا بل قال بعضهم: إن القرآن إنما يعلمه له غلام رومي لبعض ثقيف. وقال آخرون: إنه أصيب بخبل، إذ تلقي إليه الجن هذه الكلمات، حين يعرض له الغشي.

والخلاصة: أن التوبة إما أن تكون بما ينال الناس من النوائب، وإما أن تكون بما يتضح لهم من الحقائق، وهؤلاء قد اتضحت لهم وجوه الصواب فلم يفقهوا، فأخذناهم بالعذاب، ولكن كيف يرجعون به وقد ذكرناهم بالآيات، وأريناهم الحقائق، وهو أنجع أثراً من العقاب فلم يؤمنوا، وقالوا ما قالوا.

ثم نبه إلى أنهم لا يوفون بعهدهم، بل إذا زال الخوف نكصوا على أعقابهم، ورجعوا إلى سيرتهم الأولى، وعضوا على الكفر بالنواجذ، وساروا على طريق الأباء والأجداد، فقال: إنا كاشفوا العذاب، إلخ؛ أي: إنا رافعوا هذا الضر النازل بهم، بالخصب الذي نوجده لهم زمناً يسيراً، وإنا لنعلم أنهم عائدون إلى سيرتهم الأولى من تمسكهم بالكفر، وترك الحق وراءهم ظهرياً لما في طباعهم من الميل إلى عبادة الأوثان، وتقليد الآباء والأجداد.

ولما كان العذاب الأليم لم يؤثر، والإصلاح بالعلم والإيمان لم يفد

---

(١) المراغي.

أمهلناهم إلى يوم البطشة الكبرى، حيث لا توبة بعدها فينتقم الله منهم، وهذا ما عناه سبحانه، بقوله: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ﴾ ونأخذهم ﴿ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾؛ أي: الأخذة الشديدة ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ منهم أشد الانتقام؛ أي: يوم القيامة ننتقم منهم، ونعاقبهم العقوبة العظمى، فيوم ظرف لما دل عليه قوله: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، وهو ننتقم، لا بمنتقمون؛ لأن ما بعد ﴿إِنَّ﴾ لا يعمل فيما قبلها، أو منصوب بمحذوف. تقديره: اذكر يوم نبطش البطشة الكبرى، إنا منتقمون منهم في ذلك اليوم، ويوم البطشة الكبرى هو يوم القيامة. كما ذكرنا آنفا، قاله الحسن وعكرمة وابن عباس.

والمعنى عليه: أي إننا يوم القيامة لنسلطن عليهم بأسنا، وننتقمن منهم أشد الانتقام، ولا يجدن شفيعاً ولا ولياً ولا نصيراً يمنع عنهم عقابنَا، فيندمن ولات حين مندم، وقيل: البطشة الكبرى هي يوم بدر، قاله الأكثر. والمعنى عليه: إنهم لما عادوا إلى التكذيب والكفر بعد رفع العذاب عنهم، انتقم الله منهم بوقعة بدر.

والظاهر: أن ذلك يوم القيامة. وإن كان يوم بدر يوم بطشة كبرى أيضاً. قال الشوكاني: بل الظاهر: أنه يوم بدر وإن كان يوم القيامة يوم بطشة كبرى من كل بطشة، فإن السياق مع قريش، فتفسيره بالبطشة الخاصة بهم، أولى من تفسيره بالبطشة التي تكون يوم القيامة لكل من الإنس والجن.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَبۡطِشُ﴾ بفتح النون وكسر الطاء؛ أي: نبطش بهم، وقرأ الحسن وأبو جعفر بضم الطاء، وهي لغة فيه. و قرأ الحسن أيضاً وأبو رجاء وطلحة بضم النون وكسر الطاء. بمعنى: نسلط عليهم من يبطش بهم، والبطشة على هذه القراءة ليس منصوباً بنبطش، بل بمقدر؛ أي: نبطش ذلك المسلط البطشة، أو يكون البطشة في معنى الإبطاشة، فينتصب بنبطش.

والخلاصة: أن الله سبحانه وتعالى، أخذهم بالجوع والدخان، ثم أذاقهم القتل والأسر يوم بدر، وكل ذلك من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، فإذا كان يوم القيامة، يأخذهم أخذاً شديداً، لا يقاس على ما كان في الدنيا، نسأل

(١) البحر المحيط.

الله العصمة من عذابه وجحيمه، والتوفيق لما يوصل إلى رضاه ونعمته، وقال بعض المفسرين: المراد بالدخان: ما هو من أشراط الساعة كما مر، وهو دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة، فيدخل في أسماع الكفرة، حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيذ؛ أي: المشوي، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، ليس فيه خصاص؛ أي: فرجة يخرج منها الدخان، وفي الحديث: «أول الآيات الدخان، ونزول عيسى بن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين»، وهو بفتح الهمزة على ما هو المشهور، اسم رجل بنى هذه البلدة باليمن، وأقام بها، تسوق الناس إلى المحشر؛ أي: إلى الشام والقدس، قال حذيفة: فما الدخان؟ «فتلا الآية، فقال: يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلةً، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره».

وقال حذيفة بن أسيد الغفاري ـ رضي الله عنه ـ: اطلع رسول الله ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال ﷺ: «ما تذاكرون»؟ فقالوا: نذكر الساعة، فقال ﷺ: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها آيات»؛ أي: علامات، فذكر الدخان والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ وقرىء ﴿فتنا﴾ بتشديد التاء للمبالغة في الفعل، أو لتكثير متعلقه؛ أي: وعزتي وجلالي لقد فتنا وابتلينا قبل كفار مكة ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: القبط، وامتحناهم؛ أي: فعلنا بهم فعل الممتحن بإرسال موسى عليه السلام إليهم ليؤمنوا، ويظهر منهم ما كان مستوراً، فاختاروا الكفر على الإيمان.

فالفعل حقيقة، أو المعنى[1]: أوقعناهم في الفتنة بالإمهال، وتوسيع الرزق

---

(١) روح البيان.

عليهم، فهو مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى سببه؛ لأن المراد بالفتنة حينئذ: ارتكاب المعاصي، وهو تعالى كان سبباً لارتكابها بالإمهال والتوسيع المذكورين ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله تعالى، وهو موسى عليه السلام، بمعنى: أنه استحق على ربه أنواعاً كثيرة من الإكرام، أو كريم على المؤمنين، أو في نفسه، لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من كان أفضل نسباً، وأشرف حسباً على أن الكرم بمعنى الخصلة المحمودة، وقال بعضهم: لمكالمته مع الله تعالى، واستماع كلامه من غير واسطة، وقال مقاتل: حسن الخلق بالتجاوز والصفح، وقال الفراء: كريم على ربه إذ اختصه بالنبوة.

وفي الآية: إشارة إلى أنه تعالى جعل فرعون وقومه فيما فتنهم فداء أمة محمد ﷺ، لتعتبر هذه الأمة بهم، فلا يصرون على جحودهم كما أصروا، ويرجعوا إلى طريق الرشد، ويقبلوا دعوة نبيهم، ويؤمنوا بما جاء به لئلا يصيبهم مثل ما أصابهم بعد أن جاءهم رسول كريم ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ﴾ ﴿أن﴾ إما مصدرية؛ أي: بأن أدوا، وادفعوا ﴿إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بني إسرائيل، وسلموهم، وأرسلوهم معي لأذهب بهم إلى الشام موطن آبائهم، ولا تستعبدوهم، ولا تعذبوهم؛ أي: جئتكم من الله تعالى لطلب تأدية عباد الله إلي. يقول الفقير: فتكون التأدية بعد الإيمان، كما قالوا في آية آخرى: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ونظيره قول نوح عليه السلام لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: آمن واركب، فإن الراكب إنما هم المؤمنون، والركوب متفرع على الإيمان. وقال بعضهم: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ منصوب بحرف النداء المحذوف؛ أي: بأن أدوا إلي يا عباد اللّه حقه من الإيمان، وقبول الدعوة، وقيل: المعنى أدوا إلي يا عباد الله سمعكم، حتى أبلغكم رسالة ربكم، وإما مفسرة لتقدم ما هو بمعنى القول، وهو رسول كريم، أو مخففة من الثقيلة، والمعنى: أن الشأن والحال. أدوا إلي عباد الله، والأول أولى وأوضح.

وقوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه ورسالته، صادق في دعواه بالمعجزات، تعليل للأمر بالتأدية، وفيه إشارة إلى أنّ بني إسرائيل، كانوا

أمانة الله في أيدي فرعون وقومه، يلزمهم تأديتهم إلى موسى لكونه أميناً، فخانوا تلك الأمانة حتى آخذهم الله تعالى على ذلك.

والمعنى[1]: أي ولقد اختبرنا قبل مشركي قومك قوم فرعون، وهم مثال قومك في جبروتهم وطغيانهم وعتوهم، واستكبارهم، فأرسلنا إليهم الرسول الكريم موسى عليه السلام، فقال لهم: أيها القوم أرسلوا معي بني إسرائيل، وأطلقوهم من أسركم وتعذيبكم إني رسول من الله مأمون على ما أبلغكم غير متهم فيه ونحو الآية: قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: وبأن لا تتكبروا عليه تعالى، بالاستهانة بوحيه وبرسوله، واستخفاف عباده وإهانتهم وقال يحيى بن سلام: لا تستكبروا عن عبادة الله. وقال ابن جريج: لا تعظموا على الله، قيل: والفرق بينهما: أن التعظيم تطاول المقتدر، والاستكبار ترفع المحتقر ذكره الماوردي. وقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم﴾؛ أي: من جهته تعالى، يحتمل أن يكون اسم فاعل، وأن يكون فعلاً مضارعاً ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة في نفسها، وموضحة صدق دعواي، لا سبيل إلى إنكارها، يعني: المعجزات، تعليل للنهي. وفي إيراد[2] الأداء مع الأمين، والسلطان مع العلو، من الجزالة ما لا يخفى، وقرأ الجمهور ﴿إِنِّيٓ﴾ بكسر الهمزة على سبيل الإخبار. وقرأت فرقة بفتح الهمزة.

والمعنى عليه: لا تعلوا على الله من أجل أني آتيكم، فهذا توبيخ لهم، كما تقول: أتغضب أن قال لك الحق؛ أي: وأن لا تطغوا وتبغوا على ربكم، فتكفروا به وتعصوه، فتخالفوا أمره، لأني آتيكم بحجة واضحة على حقية ما أدعوكم إليه لمن تأملها وتدبر فيها ﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾ والتجأت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ وتوكلت عليه من ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ي فهو العاصم من شركم من الرجم، وهو الرمي بالرجام بالكسر، وهي الحجارة، أو تؤذوني ضرباً أو شتماً بأن تقولوا: هو ساحر ونحوه، أو

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

تقتلوني. قيل: لما قال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ توعدوه بالقتل. وفي «التأويلات النجمية». وإني عذت بربي من شر نفسي، وبربكم من شر نفوسكم، أن ترجموني بشيء من الفتن، انتهى.

والمعنى: وإني التجىء إلى الله الذي خلقني وخلقكم، أن لا تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي[1]: ﴿عُتُّ﴾.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾؛ أي: وإن لم تصدقوني، وتقروا نبوتي ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾؛ أي: فاتركوني، ولا تتعرضوا لي بأذى. قال مقاتل: دعوني كفافاً لا علي ولا لي. وقيل: كونوا بمعزل عني، وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا، وقيل: فخلوا سبيلي، والمعنى متقارب، والإيمان يتعدى باللام باعتبار معنى الإذعان والقبول، وبالباء باعتبار معنى الاعتراف، وحقيقة آمن به أمن المخبر من التكذيب والمخالفة، وقال ابن الشيخ: اللام للأجل بمعنى: لأجل ما أتيت به من الحجة.

والمعنى[2]: وإن كابرتم مقتضى العقل، ولم تصدقوني فكونوا بمعزل مني، لا علي ولا لي، ولا تتعرضوا إلي بشر ولا أذى، لا باليد ولا باللسان، فليس ذلك من جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحُكم، فالاعتزال كناية عن الترك، ولا يراد به الاعتزال بالأبدان.

قال القاضي عبد الجبار ـ من متأخري المعتزلة ـ: كل موضع جاء فيه لفظ الاعتزال في القرآن، فالمراد به: الاعتزال عن الباطل، وبهذا صار اسم الاعتزال اسم مدح، وهو منقوض، بقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾، فإن المراد بالاعتزال هنا: العزلة عن الإيمان التي هي الكفر، لا العزلة عن الكفر والباطل.

وخلاصة المعنى[3]: أي وإن لم تصدقوني فيما جئتكم به، من عند ربكم، فخلوا سبيلي، ولا ترجموني باللسان ولا باليد، ودعوا الأمر بيني وبينكم

---

(١) البيضاوي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

مسالمةً، إلى أن يقضي الله بيننا، ولما طال مقامه عليه السلام، بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، ولم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً.. دعا عليهم، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ إذ كذبوه، ولم يؤمنوا به، ولم يؤدوا إليه عباد الله، وهموا بقتله بـ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ القبطيين ﴿قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾؛ أي: مصرون على الإجرام والكفر، مشركون بك، مكذبون لرسلك، متبعون أهواءهم، وأنت أعلم بهم، فافعل بهم ما يستحقونه، والفاء في قوله: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا﴾ عاطفة ما[1] بعدها على محذوف ولكنه مع إضمار القول بعدها، لئلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر. والإسراء وكذا السرى لا يكون إلا بالليل، لكنه أتى بالليل للتأكيد، وسماه دعاءً مع أنه لم يذكر إلا مجرد كونهم مجرمين؛ لأنهم قد يستحقون بذلك الدعاء عليهم، والتقدير: فأجاب الله دعاءه، فقال له: أسر وَٱمۡشِ يا موسى ببني إسرائيل ومن آمن معك من القبط، من مصر ليلاً، على غفلة من العدو.

ثم علل السرى ليلاً، فقال: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾؛ أي: إن فرعون وقومه يتبعونكم إذا علموا بخروجكم ومسيركم ليلاً ليقتلوكم، وأؤخر علمهم بذلك، فلا يدركونكم. ونحو الآية. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾.

وقرأ الجمهور[2]: بفتح همزة: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على إضمار حرف الجر، كما قدرنا آنفاً، وقرأ الحسن في رواية، وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وزيد بن علي بكسرها، على إضمار القول. وقرأ الجمهور: ﴿فَأَسۡرِ﴾ بقطع الهمزة وقرأ أهل الحجاز بالوصل، ووافقهم ابن كثير، فالقراءة الأولى من أسرى، والثانية: من سرى، يقال: سرى وأسرى لغتان.

﴿وَٱتۡرُكِ﴾ يا موسى ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾؛ أي: بحر القلزم، وهو الأظهر الأشهر، أو النيل، حال كونه ﴿رَهۡوًاۖ﴾؛ أي: ساكناً، مصدر[3] سمي به البحر للمبالغة، وهو

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

بمعنى الفرجة الواسعة؛ أي: ذا رهو أو راهياً، مفتوحاً على حاله منفرجاً، ولا تخف أن يتبعك فرعون وقومه، أو ساكناً على هيئته بعدما جاوزته، ولا تضرب بعصاك لينطبق، ولا يغيره عن حاله ليدخله القبط، فإذا دخلوا فيه أطبقه الله عليهم، فيكون معنى ﴿رَهْوًا﴾ ساكناً غير مضطرب، وذلك لأن الماء وقف له كالطود العظيم، حتى جاوز البحر ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ علة للأمر بترك البحر رهْواً، والجند جمع معد للحرب، والإغراق والغرق الرسوب في الماء، والتسفل فيه؛ أي: وإذا قطعت البحر أنت وأصحابك، فاتركه منفرجاً، ساكناً على حاله التي كان عليها حين دخلته، حتى يدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه؛ لأنهم جند مغرقون، في سابق علمنا، أخبر تعالى موسى بذلك ليسكن قلبه، ويطمئن جأشه. وقرأ الجمهور[١]: بكسر همزة ﴿إِنَّ﴾ على الاستئناف، لقصد الإخبار بذلك، وقرىء بالفتح على تقدير لأنهم ﴿كَمْ﴾ هي الخبرية، المفيدة للتكثير، في محل النصب على أنه مفعول ﴿تَرَكُوا﴾، وقوله: ﴿مِّن جَنَّٰتٍ﴾ بيان لإبهامها ﴿وَعُيُونٍ﴾ معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: ترك آل فرعون في مصر كثيراً من بساتين كثيرة الأشجار، وعيون نابعة بالماء، وكانت بساتينهم متصلةً من رشيد إلى أسوان، وقدر المسافة بينهما أكثر من عشرين يوماً. ولعل[٢] المراد بالعيون: الأنهار الجارية، المتشعبة من النيل، إذ ليس في مصر آبار ولا عيون، كما قال بعضهم في ذمها هي بين بحر رطب، عفن، كثير البُخارات الرديئة، التي تولد الأدواء، وتفسد الغذاء، وبين جبل وبر يابس صلد. ولشدة يبسه لا تنبت فيه خضراء، ولا تنفجر فيه عين ماء، انتهى.

وفي الآية[٣] اختصار، والمعنى: فعل موسى ما أمر به، بأن ترك البحر رهواً. فدخله فرعون فأغرقوا، وتركوا بساتين كثيرةً وعيوناً نابعةً، قال بعضهم: لما كان فرعون يفتخر بالماء وجريان الأنهار من تحت قصره، وأشجار بساتينه جاء الجزاء من جنس العمل، ولذا أمر الله تعالى موسى عليه السلام، بأن يسير

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

إلى جانب البحر دون البر، وإلا فالله سبحانه وتعالى قادر على إهلاك العدو في البر أيضاً، بسبب من الأسباب، كما فعل بأكثر الكفار، ممن كانوا قبل القبط ﴿و﴾ كم تركوا من ﴿زروع﴾ كثيرة الأقوات، جمع زرع، وهو ما استنبت بالبذر، تسميةً بالمصدر من زرع الله الحرث إذا أنبته وأنماه. قال في «كشف الأسرار»؛ أي: وفنون الأقوات، وألوان الأطعمة؛ أي: كانوا أهل ريف وخصب، خلاف حال العرب ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: محافل مزينة، ومنازل محسنة، وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَمَقَامٍ﴾ بفتح الميم، قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير: أراد المقام، وهو اسم مكان للقيام، وقرأ ابن هرمز وقتادة وابن السميقع ونافع، في روايةٍ خارجة، وقتادة بضمها، اسم مكان الإقامة، قال قتادة: أراد المواضع الحسان من المجالس، والمساكن وغيرها.

﴿وَنَعْمَةٍ﴾؛ أي: تنعم[2] ونضارة عيش ولذاذة حياة، يقال: كم ذي نعمة لا نعمة له؛ أي: كم ذي مال لا تنعم له، فالنعمة بالكسر ما أنعم به الله عليك، والنعمة بالفتح التنعم، وهو استعمال ما فيه النعومة، واللين، من المأكولات والملبوسات؛ أي: وكم تركوا من نعمة ﴿كَانُوا﴾؛ أي: فرعون وقومه ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك النعمة ﴿فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: متنعمين متلذذين، ومنه الفاكهة، وهي ما يتفكه به؛ أي: يتنعم ويتلذذ بأكله، وقرأ أبو رجاء ﴿ونعمة﴾ بالنصب عطفاً على ﴿كَمْ﴾ وقرأ الجمهور: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بالألف؛ أي: طيبي الأنفس، أصحاب فاكهة كلابن وتامر؛ أي: كانوا فيها متنعمين طيبةً بها أنفسهم، وقرأ[3] أبو رجاء والحسن، وأبو الأشهب، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة ﴿فكهين﴾ بغير ألف؛ أي: أشرين بطرين، وقال الجوهري: فكه الرجل بالكسر فهو فكه، إذا كان مزاحاً، والفكه أيضاً الأشر. وقال القشيري: فاكهين لاهين. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محل[4] رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، قال الزجاج: الأمر، وهو إهلاك فرعون وقومه، وتخليفهم وراءهم كذلك، ويجوز أن تكون في محل نصب،

---

(1) البحر المحيط.

(2) روح البيان.

(3) البحر المحيط.

(4) الشوكاني.

والإشارة إلى مصدر فعل يدل عليه ﴿تَرَكُوا﴾؛ أي: مثل ذلك السلب سلبناهم إياها، وقيل: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها، وقيل: مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم، فعلى الوجه الأول يكون قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ معطوفاً على ﴿تَرَكُوا﴾، وعلى الأوجه الأخيرة يكون معطوفاً على الفعل المقدر، والمراد بالقوم الآخرين: بنو إسرائيل، فإن الله سبحانه ملكهم أرض مصر، بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين؛ أي: إنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث بلا كلفة، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾.

أي[1]: جعلنا أموال القبط لقوم، ليسوا منهم في شيء، من قرابة، ولا دين، ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل، كانوا مسخرين لهم مستعبدين في أيديهم، فأهلكهم الله تعالى، وأورثهم ديارهم وملكهم وأموالهم، وقيل: غيرهم لأنهم لم يعودوا إلى مصر. قال قتادة: لم يروَ في مشهور التواريخ، أنهم رجعوا إلى مصر، ولا ملكوها قط، ورد بأنه لا اعتبار بالتواريخ فالكذب فيها كثير، والله تعالى أصدق قيلاً، وقد جاء في الشعراء التنصيص بإيراثها بني إسرائيل، كذا في «حواشي» سعدي المفتي.

قال المفسرون عند قوله تعالى[2]: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يجعلكم خلفاء في أرض مصر، أو في الأرض المقدسة، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾؛ أي: أرض الشام، ومشارقها ومغاربها، جهاتها الشرقية والغربية، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة. والعمالقة، بعد انقضاء مدة التيه، وتمكنوا في نواحيها، فاضطرب كلامهم، فتارةً حملوا الأرض على أرض مصر، وأخرى على أرض الشام، والظاهر: الثاني ولأن المتبادر استخلاف أنفس المستضعفين لا أولادهم، ومصر إنما ورثها أولادهم، لأنها فتحت في زمان

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

داوود عليه السلام، ويمكن أن يحمل على أرض الشام ومصر جميعاً والمراد بالمستضعفين: هم وأولادهم، فإن الأبناء ينسب إليهم ما ينسب إلى الآباء، والله أعلم.

وعبارة «المراغي» هنا: أي كم[1] ترك فرعون وقومه، بعد مهلكهم من بساتين فيحاء، وحدائق غناء، وزروع ناضرة، وقصور شاهقة، فقد كانوا في بُلَهْنِيَّةٍ من العيش، وسعة في الرزق، وخفض ودعة، وسرور، وحبور، ثم أكد هذا بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: هكذا فعلنا بهؤلاء الذين كذبوا رسلنا، وهكذا نفعل بكل من عصانا، وخالف أمرنا ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: وأورثنا تلك البلاد بما فيها من خير عميم ونعيم عظيم، قوماً غير أهلها ممن لا يمتون[2] - لا ينسبون - إليهم بقرابة ولا دين، فقد تغلب على مصر الآشوريون، والبابليون حيناً، والحبش حيناً آخر، ثم الفرس مدةً، واليونان أخرى، ثم الرومان من بعدهم، ثم العرب، ثم الطولونيون، والإخشيديون، والفاطميون، والمماليك البرية والبحرية، والترك والفرنسيون، والإنكليز، وها نحن أولاء نجاهد لنحظى بخروجهم من ديارنا، ونتمكن من استقلال بلادنا، ولله الأمر من قبل ومن بعد ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم سخر منهم، واستهزأ بهم حين هلكوا، فقال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مجاز مرسل عن عدم الاكتراث بهلاكهم. والاعتداد بوجودهم؛ لأن سبب البكاء على الشيء هو المبالاة بوجوده، قال المفسرون؛ أي[3]: إنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم به، ولم يصعد لهم إلى السماء عمل طيب يُبْكَىٰ عليهم به.

---

(١) المراغي.

(٢) يمتون: المت التوسل بقرابة بابه رد اهـ مختار.

(٣) الشوكاني.

والمعنى: أنه لم يصب بفقدهم وهلاكهم أحد من أهل السماء، ولا من أهل الأرض، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض؛ أي: عمت مصيبته، ومن ذلك قول جرير:

لَمَّا أَتَىٰ خَبَرُ ٱلزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُوْرُ ٱلْمَدِيْنَةِ وَٱلْجِبَالُ ٱلْخُشَّعُ

وقال الحسن: في الكلام حذف مضاف، تقديره: أي ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض من الملائكة والناس، وقال مجاهد: الكلام على حقيقته، فإن السماء والأرض تبكيان على المؤمن أربعين صباحاً، وقيل: إنه يبكي على المؤمن مواضع صلاته، ومصاعد عمله، وفي الحديث: «إن المؤمن يبكي عليه من الأرض مصلاه، وموضع عبادته، ومن السماء مصعد عمله»، ورُوي: إذا مات كافر استراح منه السماء والأرض، والبلاد، والعباد، فلا تبكي عليه أرض ولا سماء ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾؛ أي: ممهلين إلى وقت آخر، بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم، وشدة عنادهم؛ أي: ما أمهلوا لتوبة، أو تدارك تقصير، بل عجل لهم العذاب.

ولما بين كيفية إهلاك فرعون وقومه أردف ذلك، بذكر إحسانه إلى موسى، وقومه فبدأ بدفع الضرر عنهم، وهو نجاتهم مما كانوا فيه من العذاب، ثم ذكر اتصال النفع لهم من اختيارهم على العالمين، وإيتائهم الآيات، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد خلصنا أولاد يعقوب بإغراق القبط في اليم ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾؛ أي: من العذاب الشديد من استعباد فرعون إياهم، وقتل أبنائهم، واستخدام نسائهم وبناتهم، وتكليفه إياهم بالأعمال الشاقة. وقوله: ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من العذاب، إما على جعله نفس العذاب لإفراطه في التعذيب، وإما على حذف المضاف؛ أي: من عذاب فرعون، أو حال من المهين؛ أي: حال كونه واقعاً من جهة فرعون واصلاً إليهم من جانبه.

وقرأ عبد الله[1]: ﴿من عذاب المهين﴾ وهو من إضافة الموصوف إلى

---

(١) البحر المحيط.

صفته، كبقلة الحمقاء، أو من عذاب فرعون المهين إياهم؛ لأنه كان عظيم السعي في إهانة المحقين، وقرأ ابن عباس ﴿من فرعون﴾، من اسم استفهام مبتدأ، و﴿فرعون﴾ خبره لما وصف فرعون بالشدة والفظاعة، قال ﴿من فرعون﴾ على معنى: هل تعرفونه من هو في عتوه وشيطنته.

ثم عرف حاله في ذلك. بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾؛ أي: متكبراً عن الإيمان وقبول الحق، ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان؛ أي: من الذين أسرفوا على أنفسهم بالظلم والعدوان، وتجاوز الحد في الكفر والعصيان، ومن إسرافه أنه على حقارته، وخسة شأنه ادعى الإلهية، وكان أكفر الكفار، وأطغاهم، وهو أبلغ من أن يقال: مسرفاً لدلالته على أنه معدود في زمرتهم، مشهور بأنه في جملتهم، وفيه ذم لفرعون، ولمن كان مثله في العلو والإسراف، كنمرود وغيره، وبيان أن من أهان المؤمن، أهلكه الله تعالى، وأذله، ومن يهن الله فما له من مكرم، وأن النجاة من أيدي الأعداء، من نعم الله الجليلة على الأحباب، فإن من نكد الدنيا ومصائبها على الحر، أن يكون مغلوباً للأعداء، وأن يرى عدواً له، ما من صداقته بد، وأن الله تعالى إذا أراد للمرء ترقياً في دينه ودنياه، يقدم له البلايا ثم ينجيه.

والمعنى: أي ولقد خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد، وقتل الأبناء، واستحياء النساء، وتكليفهم بالأعمال الشاقة إلى نحو ذلك، من وسائل الخسف والضيم، إذ كان جباراً مستكبراً مسرفاً في الشر والفساد، ولا أدل على ذلك من ادعائه الألوهية إذ قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾.

وبعد أن بين طريق دفعه الضر عنهم، أردف ذلك، ذكر ما أكرمهم به، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد اصطفينا بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿اخترنا﴾؛ أي[1]: حالة كوننا

---

(١) روح البيان.

عالمين، بأنهم أحقاء بالاختيار، والاصطفاء، وفضلناهم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: على عالمي زمانهم، أو على العالمين جميعاً في زمانهم وبعدهم في كل عصر، لكثرة الأنبياء فيهم حيث بعث فيهم يوماً ألف نبي، ولم يكن هذا في غيرهم، ولا ينافيه قوله تعالى في حق أمة محمد ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية، لتغاير جهة الخيرية. وقال هنا[1]: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: منا وقال في الجاثية: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بحذفه جرياً هنا على الأصل في ذكر ما لا يغني عنه غيره، واكتفاءً، ثم بقوله بعد: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

يقول الفقير: والحق أن هذه الأمة المرحومة، خير من جميع الأمم من كل وجه، فإن خيرية الأمم إن كانت باعتبار معجزات أنبيائهم، فالله تعالى قد أعطى لنبينا ﷺ جميع ما أعطاه للأولين، وإن كانت باعتبار كثرة الأنبياء في وقتٍ واحد، فعلماؤنا الذين كأنبياء بني إسرائيل أكثر، وأزيد، وذلك لأنه لا تخلو الدنيا كل يوم من أيام هذه الأمة إلى قيام الساعة من مئة ألف وليٍّ وأربعة وعشرين ألف ولي، فانظر كم بينهم من الفرق، وهدانا الله وإياكم أجمعين انتهى.

وقال الواسطي رحمه الله تعالى[2]: اخترناهم على علم منا بجناياتهم، وما يقترفون من أنواع المخالفات، فلم يؤثر ذلك في سوابق علمنا بهم، ليعلموا أن الجنايات لا تؤثر في الرعايات، ومن هذا القبيل أولاد يعقوب عليه السلام، فإنهم مع ما فعلوا بيوسف من إلقائه في الجب ونحوه، اختارهم الله تعالى للنبوة على قول.

والمعنى[3]: أي ولقد اصطفيناهم على عالمي زمانهم بما أنزلنا عليهم من الكتب، وأرسلنا فيهم من الرسل، ونحن عالمون بأنهم أهل لكل مكرمة وفضل ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ أي: وأعطينا بني إسرائيل ﴿مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: من الأمور ذوات الخطر والشرف، الدالة على كرامتهم عندنا، وهي معجزات موسى عليه السلام،

---

(١) فتح الرحمٰن.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

﴿مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾؛ أي: اختبار ظاهر، وامتحان واضح، لننظر كيف يعملون، كفلق البحر، وإنجائهم من الغرق، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها من عظائم الآيات التي لم يعهد مثلها في غيرهم. وفي «كشف الأسرار»: ابتلاهم بالرخاء والبلاء، فطالبهم بالشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء.

الإعراب

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه السورة الآتية سورة ﴿حم﴾؛ أي: مسماة بـ﴿حم﴾ إن قلنا إنه اسم للسورة، والجملة مستأنفة، وإن قلنا: إنه مما استأثر الله سبحانه بعلمه، فلا محل له من الإعراب؛ لأن الإعراب فرع عن إدراك المعنى، والمعنى: لم يعلم ﴿وَٱلۡكِتَـٰبِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿الكتاب﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ صفة لـ﴿الكتاب﴾، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً، تقديره: أقسم والكتاب المبين، وجملة القسم مستأنفة.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَـٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَـٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنزَلۡنَـٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿فِي لَيۡلَةٖ﴾: متعلق به، ﴿مُّبَـٰرَكَةٍۚ﴾ صفة ﴿لَيۡلَةٖ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿مُنذِرِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب ثان للقسم أيضاً، أو مستأنفة، أو تفسيرية لجواب القسم. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿يُفۡرَقُ﴾، ﴿يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ﴾: فعل مغير الصيغة، ونائب فاعل، ومضاف إليه ﴿حَكِيمٍ﴾: صفة أمر، والجملة الفعلية مستأنفة، أو صفة ثانية لـ﴿لَيۡلَةٖ﴾، وما بينهما اعتراض ﴿أَمۡرٗا﴾: مفعول مطلق لـ﴿يُفۡرَقُ﴾ لأنه مصدر معنوي له؛ أي: يفرق فرقاً من عندنا، أو مفعول مطلق لفعله المحذوف؛

أي: أمرنا أمراً ﴿مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ صفة لـ﴿أَمۡرٗا﴾، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿رَحۡمَةٗ﴾ أجازوا فيه خمسة أوجه، متساوية الرجحان:

الأول: المفعول لأجله والعامل فيه إما ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، وإما ﴿أَمۡرٗا﴾، وإما ﴿يُفۡرَقُ﴾، وإمَّا ﴿مُنذِرِينَ﴾.

والثاني: أنه مصدر منصوب بفعل مقدر؛ أي: رحمنا رحمة.

والثالث: أنه مفعول بـ﴿مُرۡسِلِينَ﴾.

والرابع: أنه حال من ضمير ﴿مُرۡسِلِينَ﴾؛ أي: ذوي رحمة.

والخامس: أنه بدل من ﴿أَمۡرٗا﴾، ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾ صفة لـ﴿رَحۡمَةٗ﴾، أو متعلق بنفس الرحمة، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿هو﴾ ضمير فصل ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ خبران لـ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩﴾.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: بالجر بدل من ﴿رَّبِّكَۚ﴾، وبالرفع خبر ثالث لـ﴿إنّ﴾. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿بَيۡنَهُمَآۖ﴾: ظرف صلة لما، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها: ﴿مُّوقِنِينَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن كنتم موقنين، فأيقنوا بأن محمداً ﷺ رسوله، وجملة الشرط معترضة ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾: ناصب واسمه وخبره محذوف جوازاً، تقديره: موجود، وجملة ﴿لَآ﴾: في محل الرفع خبر ثالث أو رابع لـ﴿إنّ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع، بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾: المحذوف، ﴿يُحۡيِۦ﴾: فعل، وفاعل مستتر، والجملة خبر رابع لـ﴿إنّ﴾. ﴿وَيُمِيتُۖ﴾: معطوف على ﴿يُحۡيِۦ﴾، ﴿رَبُّكُمۡ﴾: خبر خامس لـ﴿إنّ﴾. ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾: معطوف على

﴿رَبُّكُمْ﴾، ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: صفة لـ﴿ءَابَآئِكُمُ﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب عن محذوف، تقديره: فليسوا بموقنين بل هم، و﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِى شَكٍّ﴾: خبره، وجملة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ في محل النصب، حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، والجملة الإضرابية معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت تعنتهم وتمردهم في الكفر، وأردت بيان عاقبة أمرهم. فأقول لك: ارتقب: ﴿ارتقب﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿يَوْمَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿بِدُخَانٍ﴾: متعلق لـ﴿تَأْتِى﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة لـ﴿دخان﴾.

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿دخان﴾، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر، صفة ثانية لـ﴿دخان﴾. ﴿هَٰذَا عَذَابٌ﴾: مبتدأ وخبر ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لقول محذوف، وجملة القول المحذوف حال من الناس، تقديره: يغشى الناس، حال كونهم يقولون لربك هذا عذاب أليم، ربنا اكشف عنا العذاب، ﴿رَّبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب، مقول القول. ﴿ٱكْشِفْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَنَّا﴾: متعلق به، ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة في محل النصب، مقول القول مسوقة لتعليل الدعاء بالكشف، ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنى كيف، أو أين، في محل النصب على الظرفية، مبني على السكون، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مبتدأ،

والتقدير: الذكرى حاصل؛ أي: حال كونه كائناً لهم، والاستفهام هنا لاستبعاد حصول الذكرى لهم، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾ حالية، ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿جَآءَهُمْ﴾ فعل ومفعول به، ﴿رَسُولٌ﴾: فاعل، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من ضمير ﴿لَهُمُ﴾.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتأخير، ﴿تَوَلَّوْا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على مقدر تقديره: فلم يذكروا ثم تولوا عنه، ﴿وَقَالُوا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تَوَلَّوْا﴾، ﴿مُعَلَّمٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو معلم، ﴿مَّجْنُونٌ﴾: خبر ثان للمبتدأ، والجملة الاسمية مقول لـ﴿قالوا﴾، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾: خبره، ومضاف إليه، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: كشفاً قليلاً، أو على الظرفية الزمانية؛ لأنه صفة لزمان محذوف؛ أي: زمناً قليلاً، ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَائِدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولي بعاطف مقدر، تقديره: إنا كاشفوا العذاب قليلاً ثم إنكم عائدون، ﴿يَوْمَ﴾ منصوب باذكر مقدر، أو بننتقم منهم، ﴿نَبْطِشُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه ليوم، و﴿الْبَطْشَةَ﴾ مفعول مطلق، ﴿الْكُبْرَىٰ﴾ صفة له، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿مُنتَقِمُونَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة.

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿فَتَنَّا﴾: فعل وفاعل، ﴿قَبْلَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿فَتَنَّا﴾، ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿وَجَاءَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جاءهم﴾: فعل ومفعول به، ﴿رَسُولٌ﴾: فاعل، ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة ﴿رَسُولٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَتَنَّا﴾.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩﴾.

﴿أَنْ﴾ يجوز أن تكون مفسرة؛ لأن مجيء الرسل متضمن معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية، وهي مع مدخولها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: بأدائكم إلي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جاءهم﴾، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وجملة ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ﴾: خبرها. ﴿عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، فيكون المراد بعباد الله: القبط. واختار الزمخشري أن يكون ﴿عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ مفعولاً به، وهم بنو إسرائيل، يقول أدوهم إلي، وأرسلوهم معي، ويؤيد هذا المعنى ما جاء في سورة الشعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٧﴾. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكُمْ﴾: حال من رسول؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿رَسُولٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَمِينٞ﴾: صفة ﴿رَسُولٌ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالأداء. ﴿وَأَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أن﴾: معطوفة مع مدخولها على ﴿أن﴾ الأولى، ويجوز فيها من الأوجه ما جاز في الأولى. ﴿لَّا﴾ ناهية. ﴿تَعْلُواْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، ﴿عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ متعلق بـ﴿تَعْلُواْ﴾؛ أي: وبعدم علوكم على الله. ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه، ﴿ءَاتِيكُم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿بِسُلْطَٰنٖ﴾ متعلق بـ﴿ءَاتِيكُم﴾، ﴿مُّبِينٖ﴾: صفة لـ﴿سلطان﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي قبلها.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ٢١ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٞ مُّجْرِمُونَ ٢٢﴾.

﴿وَإِنِّي﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إنّي﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿عُذْتُ﴾: خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ قبلها، ﴿بِرَبِّي﴾: متعلق بـ﴿عُذْتُ﴾، ﴿وَرَبِّكُمْ﴾: معطوف على ﴿ربي﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَرْجُمُونِ﴾: فعل مضارع، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل،

والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة، اجتزاءً عنها بكسرة نون الوقاية مفعول به، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع مدخولها، في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: من رجمكم إياي بلا جرم، والجار والمجرور متعلق بـ﴿عُذْتُ﴾، ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم ﴿تُؤْمِنُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، والواو فاعل، ﴿لِي﴾: متعلق بـ﴿تُؤْمِنُوا﴾، واللام بمعنى الباء، كقوله: فآمن له لوط؛ أي: به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً ﴿اعتزلون﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة الشرط معطوفة على مقدر معلوم من السياق، تقديره: فآمنوا بي ولا تؤذون، وإن لم تؤمنوا فاعتزلون. ﴿فَدَعَا﴾ الفاء عاطفة على مقدر معلوم من السياق، تقديره: فلم يتركوه، ﴿دعا ربه﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على موسى ومفعول به، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾: ناصب واسمه، ﴿قَوْمٌ﴾: خبر. ﴿مُّجْرِمُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ ومدخولها في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: بأن هؤلاء إلخ، الجار والمجرور متعلق بـ﴿دعا﴾.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَأَسْرِ﴾: الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان أمرهم وشأنهم كما قلت، وأردت النصر عليهم.. فأقول لك: أسر بعبادي، ﴿أسر﴾: فعل أمر، مبني على حذف حرف العلة، وهي الياء، وفاعله ضمير مستتر يعود على موسى ﴿بِعِبَادِي﴾: متعلق بـ﴿أسر﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿لَيْلًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿أسر﴾. ﴿إِنَّكُم﴾ ناصب واسمه ﴿مُّتَّبَعُونَ﴾ خبره،

﴿وَٱتۡرُكِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اترك﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على موسى، ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾: مفعول به، ﴿رَهۡوًاۖ﴾: حال من البحر، أو مفعول ثان لـ﴿اترك﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَسۡرِ﴾، ﴿إِنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه، ﴿جُندٌ﴾ خبره ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾ صفة ﴿جُندٌ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب، وقوله: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ...﴾ إلخ، مرتبط بمقدر لا بد من تقديره: ليلتئم نظام الكلام، تقديره: فأطمأن موسى بذلك، فتم إغراقهم، وكم تركوا إلخ، ﴿كَمۡ﴾: خبرية بمعنى عدد كثير، في محل النصب، مفعول به مقدم لـ﴿تركوا﴾، ﴿تَرَكُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن جَنَّٰتٍ﴾: تمييز لـ﴿كَمۡ﴾، و﴿مِن﴾: زائدة، وجملة ﴿تَرَكُواْ﴾: معطوف على ذلك المقدر. ﴿وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ﴾: معطوفات على ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿كَرِيمٍ﴾ صفة ﴿مَقَامٍ﴾، ﴿وَنَعۡمَةٍ﴾: معطوف أيضاً على ﴿جَنَّٰتٍ﴾: عطف عام على خاص؛ لأن النعمة تشمل جميع ما ذكر وغيره، مما لم يذكر هنا، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿فَٰكِهِينَ﴾، و﴿فَٰكِهِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانُواْ﴾ في محل الجر صفة لـ﴿نعمة﴾، ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر كذلك، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب، وقال الزمخشري: الكاف صفة لمصدر محذوف؛ أي: أخرجناهم منها إخراجاً مثل ذلك الإخراج، وقال أبو البقاء: صفة للترك؛ أي: وتركوها تركاً مثل ذلك الترك، ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أورثناها﴾: فعل، وفاعل، ومفعول أول، ﴿قَوۡمًا﴾ مفعول ثان، ﴿ءَاخَرِينَ﴾ صفة ﴿قَوۡمًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾، ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة على مقدر، تقديره: فأغرقوا فما بكت، ﴿ما﴾: نافية ﴿بَكَتۡ﴾ فعل ماض، ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ متعلق بـ﴿بَكَتۡ﴾، ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: فاعل، ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾: معطوف عليه، والجملة معطوفة على تلك المقدرة، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُنظَرِينَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَكَتۡ﴾ أو على أغرقوا المقدر، وما بينهما اعتراض.

﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف

تحقيق، ﴿نَجَّيْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به، ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: متعلق بـ﴿نَجَّيْنَا﴾، ﴿ٱلْمُهِينِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ، على ما يكابده من قريش، من الأذى، ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور، في قوله: ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص واسمه ضمير يعود على فرعون، ﴿عَالِيًا﴾: خبره ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان لـ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾: فعل، وفاعل ومفعول به، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على القسم المذكور قبلها، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ و﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى مع؛ أي: مع علمنا بأنهم يزيغون، وتفرط منهم الفرطات، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بـ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل، ومفعول أول، معطوف على ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾، ﴿مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾: حال مقدم على صاحبها؛ لأنه حال من ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول ثان لـ﴿آتيناهم﴾، ﴿فِيهِ﴾ خبر مقدم، ﴿بَلَٰٓؤٌا۟﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة ﴿بَلَٰٓؤٌا۟﴾، والجملة الاسمية صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ أي: ذات بركة وخير كثير، اسم مفعول من بارك الرباعي، بوزن فاعل لا مصدر، والمفاعلة ليست على بابها، وهي ليلة القدر على الصحيح المشهور. وقال النووي في «شرح مسلم»: والقول بأنها ليلة النصف من شعبان خطأ. ﴿مُنذِرِينَ﴾؛ أي: مخوفين ﴿يُفْرَقُ﴾؛ أي: يفصل ويبين ﴿أَمْرٍ

حَكِيمٍ﴾؛ أي: محكم مبرم لا يقبل التغيير والتبديل. ﴿مُوقِنِينَ﴾؛ أي: مريدين اليقين، كما يقال: منجد، متهم؛ أي: يريد نجداً وتهامة: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أصله: يموت بوزن يفعل، مضارع أمات الرباعي، نقلت حركة الباء إلى الميم فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد، وفيه حذف همزة أفعل من المضارع كما في أكرم.

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾؛ أي: انتظر من قولهم: رقبته؛ أي: انتظرته وحرسته. ﴿بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ في «المختار»: دخان النار معروف، ودخنت النار ارتفع دخانها، وبابه دخل وخضع، وأدخنت مثله، ودخنت النار إذا فسدت بإلقاء الحطب عليها حتى هاج دخانها، ودخن الطبيخ، إذا تدخنت القدر، وبابه طرب، وقياس جمعه في القلة أدخنة، وفي الكثرة دخنان، نحو: غراب وأغربة وغربان، وشذوا في جمعه على فواعل، فقالوا: دواخن، كأنه جمع داخنة، كما شذوا في عنان، فقالوا في جمعه: عوانن. وفي «القاموس»: والدخان كغراب وجبل، ورمان العُثَانُ، والجمع أدخنة ودواخن ودواخين، وقال أبو عبيدة: والدخان الجدب، قال القتيبي: سمي دخاناً ليبس الأرض منه، حتى يرتفع منها كالدخان. ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: يغشي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، والمراد بالدخان هنا: ما أصابهم من الظلمة في أبصارهم من شدة الجوع، حتى كأنهم كانوا يرون دخاناً، فإن الإنسان إذا اشتد خوفه، أو ضعفه، أظلمت عيناه، ورأى الدنيا كالمملوءة دخاناً ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: يحيط بهم ﴿ٱكْشِفْ عَنَّا﴾؛ أي: ارفع عنا ﴿أَنَّىٰ﴾؛ أي: كيف يكون، ومن أين يحصل ﴿مُعَلَّمٌ﴾؛ أي: يعلمه غلام رومي لبعض ثقيف.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أصله: تولّيوا بوزن تفعلوا قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة فحذفت الألف وبقيت الفتحة دالة عليها.

﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ جمع عائد، وفيه إعلال بالإبدال أصله: عاودون، أبدلت الواو همزة في الوصف، حملاً له في الإعلال على فعله حيث أعل الفعل عود بقلب الواو ألفاً، لتحركها بعد فتح. ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ يقال: بطش به أخذه بالعنف والسطوة، كأبطشه، والبطش الأخذ الشديد في كل شيء، والبأس قاله في «القاموس». وفي «المصباح»: بطش بطشاً من باب ضرب، وبها قرأ السبعة، وفي

لغة من باب قتل، وبها قرأ الحسن البصري، وأبو جعفر المدني، والبطش: هو الأخذ بعنف، وبطشت اليد إذا عملت فهي باطشة اهـ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: بلونا، وامتحنا؛ أي: فعلنا بهم فعل الممتحن الذي يريد أن يعلم بحقيقة ذلك الشيء، وذلك الامتحان كان بزيادة في الرزق، والتمكين في الأرض، ففسدوا واستطالوا في الغي، وركوب متن الضلال ﴿كَرِيمٌ﴾؛ أي: جامع لخصال الخير، والأفعال المحمودة قاله الراغب. ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ﴾ أصله: أديوا، أمر من أدى يؤدي، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت التقي ساكنان، فحذف الياء وضمت الدال، لمناسبة الواو؛ أي: أطلقوا، وسلموا إلي ﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: ائتمنه الله على وحيه ورسالته.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تستكبروا على الله بالاستهانة بوحيه، أصله: تعلووا بوزن تفعلوا، سكنت الواو الأولى لوقوعها إثر ضمة، لتكون حرف مد، فالتقى ساكنان فحذفت الواو الأولى، لام الكلمة فوزنه تفعوا.

﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم﴾ اسم فاعل من أتى الثلاثي، فالمدة فيه مدة فاعل، اتصلت بفاء الكلمة، وسكنت الياء لوقوعها إثر كسرة، ويحتمل أن يكون مضارع أتى، فاجتمعت همزتان، همزة المضارع للمتكلم، وهمزة فاء الفعل، فأبدلت الثانية ألفاً حرف مد، من جنس حركة الأولى. ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها. ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ﴾؛ أي: التجأت إليه، وتوكلت عليه، وأصله: عوذ قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، فصار عاذ فاتصلت بالفعل تاء الفاعل فبني على السكون، فصار عاذت فالتقى ساكنان، فحذفت الألف فصار عَذت، فحذفت حركة فاء الفعل، وعوض عنها حركة تجانس العين المحذوفة، وهي الضمة؛ لأن عين الفعل واو فقيل: ﴿عُذْتُ﴾ بوزن فلت ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾؛ أي: تؤذونني ضرباً، أو شتماً. ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾؛ أي: كونوا بمعزل مني، لا علي ولا لي، ولا تتعرضوا لي بسوء ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾؛ أي: سربهم ليلاً ﴿مُّتَّبَعُونَ﴾؛ أي: يتبعكم فرعون وقومه. ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾؛ أي: حال كونه رهواً، فهو منصوب على الحال من البحر. والرهو في الأصل، مصدر رها يرهو رهواً، كعدا يعدو عدواً، إما بمعنى سكن؛ أي: ساكناً، وإما بمعنى انفرج وانفتح؛ أي: منفرجاً منفتحاً.

وفي «المختار»: رها بين رجليه؛ أي: فتح، وبابه عدا ورها البحر سكن، وبابه عدا أيضاً، اهـ.

﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ والجند الجمع المعد للحرب، ﴿مغرقون﴾؛ أي: متمكنون في هذا الوصف، وإن كان لهم وصف القوة، والتجمع الذي شأنه النجدة الموجبة للعلو في الأمور. والغرق: الرسوب في الماء، والتسفل فيه حتى يغرق ويهلك، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: مجالس محفلة، ومنازل مزينة، وأصله: مقوم بوزن مفعل، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال، مصدر ميمي، أو اسم مكان. ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ قال صاحب «الكشاف»: النعمة بالفتح من التنعم، وبالكسر من الإنعام؛ أي: حسن حياة، ونضرة عيش.

﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: طيبي الأنفس ناعمين، أو أصحاب فاكهة، كلابن وتامر، وقد مرت هذه الصيغة، وعبارة «القاموس»: الفاكهة الثمر كله، والفاكهاني بائعها وكخجل آكلها، والفاكه صاحبها، وفكههم تفكيهاً أطرفهم بها، والاسم الفكيهة والفكاهة بالضم، وفكه كفرح فكهاً فهو فكه وفاكه طيب النفس ضحوك، أو يحدث صحبه، فيضحكهم انتهى.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: لم تكترث لهلاكهم، ولا اعتدت بوجودهم، وقد جرى الناس أن يقولوا حين هلاك الرجل العظيم الشأن: إنه قد أظلمت الدنيا لفقده، وكسفت الشمس والقمر له، وبكت عليه السماء والأرض، كما قال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى:

اَلشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ ... تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُوْمَ ٱللَّيْلِ وِٱلْقَمَرَا

أي: يا نجوم الليل والقمر، وأصله: بكي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم اتصلت بالفعل تاء التأنيث الساكنة، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين فوزنه فعت. ﴿مُنظَرِينَ﴾؛ أي: ممهلين مؤخرين ﴿ٱلْمُهِينِ﴾؛ أي: الشديد الإهانة والإذلال ﴿عَالِيًا﴾؛ أي: جباراً متكبراً. ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: في الشر والفساد. و﴿عَالِيًا﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: عالوا من العلو، قلبت الواو ياء

لوقوعها متطرفةً إثر كسرة. ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: اصطفيناهم. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: عالمين باستحقاقهم ذلك. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: عالمي زمانهم، وقوله: ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أصل اختار اختير، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم لما أسند الفعل إلى ضمير الرفع التقى ساكنان، فحذفت الألف فوزنه افتلناهم ﴿مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: المعجزات، كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى ﴿بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾؛ أي: اختبار ظاهر، أصل بلاء بلاو، أبدلت الواو همزة لتطرفها بعد ألف زائدة، وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ أصله: مبين بوزن مفعل نقلت حركة الياء إلى الباء، فسكنت إثر كسرة وصارت حرف مد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: وضع الرب موضع الضمير في قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ للإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: رحمة منا، وفيه أيضاً الإضافة إلى ضميره ﷺ للتشريف، وفيه أيضاً الالتفات من التكلم إلى الغيبة، ولو جرى على منوال ما تقدم لقال: رحمةً منا كما في «السمين».

ومنها: الطباق في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

ومنها: تكرار لفظ الرب، اعتناءً بشأن الربوبية.

ومنها: الإسناد العقلي في قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ حيث أسند الإتيان إلى السماء؛ لأن كفها عن الإمطار كان سبباً في الدخان، فهو من قبيل إسناد الشيء إلى سببه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِدُخَانٍ﴾ حيث أطلق الدخان على شدة القحط، وغلبة الجوع على سبيل الكناية، أو المجاز المرسل.

ومنها: صيغة الفاعل في قوله: ﴿كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ للدلالة على تحقق الكشف والمعاودة لا محالة، ولقد وقع كلاهما، حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبي ﷺ، فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا فيه من

العتو والعناد.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ لما فيه من إسناد الفعل إلى سببه؛ لأن المراد بالفتنة: ارتكاب المعاصي، وهو تعالى كان سبباً لارتكابها بالإمهال، وتوسيع الرزق عليهم.

ومنها: إيراد الأداء مع الأمين، والسلطان مع العلو، في قوله: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾، وفي قوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾؛ لأن في ذلك من الجزالة، والمناسبة ما لا يخفى.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾؛ لأن الاعتزال هنا كناية عن الترك، ولا يراد به الاعتزال بالأبدان.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾؛ أي: وقلنا له: أن أسر بعبادي.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾: لأن النعمة تشمل الأربعة قبلها، وغيرها من أنواع النعم، كالنظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾؛ لأن الإيراث هنا مجاز عن تمليكها مخلفة عليهم، أو عن تمكينهم من التصرف فيها، تمكين الوارث فيما يرثه.

ومنها: الاستعارة المكنية التخييلية في قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ حيث شبه السماء والأرض بمن يصح منه الاكتراث، ثم حذف المشبه به، وهو من يصح منه الاكتراث، واستعار له شيئاً من لوازمه، وهو البكاء، فإسناد البكاء إليهما على سبيل التخييل، والمعنى: أنهم لم يكونوا يعملوا عملاً صالحاً ينقطع بهلاكهم، فتبكي الأرض لانقطاعه، وتبكي السماء؛ لأنه لم يصعد إليها شيء من ذلك العمل الصالح بعد هلاكهم، وجعله بعضهم مجازاً مرسلاً عن الاكتراث بهلاك الهالك، والعلاقة السببية، فذكر المسبب، وأراد السبب، فإن الاكتراث

المذكور سبب يؤدي إلى البكاء عادة.

ومنها: أن الإضافة في قوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي﴾ للتشريف، وفي قوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ للتهويل والتهديد، وفي قوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ للتشريف.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿لَيْلًا﴾ لأن الإسراء، وكذا السرى، لا يكون إلا في الليل.

ومنها: أن التنكير والإبهام في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وما بعده للتكثير والتعظيم؛ لأن جناتهم، وبساتينهم كانت كبيرةً واسعةً جداً؛ لأنها كانت متصلة من رشيد إلى أسوان، وقدر المسافة بينهما أكثر من عشرين يوماً.

ومنها: الإيجاز والاختصار في هذه الآية، والتقدير: وفعل موسى ما أمر به من ترك البحر رهواً، فدخله فرعون وقومه فأغرقوا، وتركوا بساتين كثيرة كما مرّ.

ومنها: تسمية الشيء بالمصدر لكونه سببه في قوله: ﴿وَزُرُوعٍ﴾؛ لأنه مصدر زرع الله الحرث زرعاً، إذا أنبته وأنماه.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بين المعطوف والمعطوف عليه، للتفخيم والتعجيب.

ومنها الإبهام في قوله: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ دلالةً على فخامتهم، ونباهتهم.

ومنها: التهكم بالكفار، وبحالهم المنافية لحال من يعظم، فيقال له: بكت عليه السماء والأرض، في قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا
خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾
طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ
﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾
يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا
بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾...﴾ الآيات، عود[1] على بدءٍ، كان الكلام أولاً في كفار قريش، إذ قال فيهم: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾؛ أي: إنهم في شك من البعث والقيامة، ثم بين كيف أصروا على كفرهم، ثم ذكر أن قوم فرعون كانوا في إصرارهم على الكفر كهؤلاء، وقد أهلكهم الله، وأنجى بني إسرائيل، ثم رجع إلى الحديث الأول، وهو إنكارهم للبعث، وقولهم: إنه لا حياة بعد هذه الحياة فإن كنتم صادقين، فاسألوا ربكم، يعجل لنا إحياء من مات، حتى يكون ذلك دليلاً على صدق دعواكم النبوة، والبعث والقيامة، ثم توعدهم بأنه سيستن بهم سنة من قبلهم من المكذبين، فقد أهلك من هم أقوى منهم

---

(١) المراغي.

بطشاً، وأكثر جنداً، وهم قوم تبع ملوك اليمن من قحطان، فحذار أن تصروا على الكفر، حتى لا يحيق بكم بأس ربكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر وعيد الكافرين، وما يرونه من الأهوال في ذلك اليوم.. أعقب هذا بوعد المتقين، بما يلاقونه في جنات النعيم، من ضروب التكريم في الملبس، والزوجات، والمآكل، ثم ببيان أن هذا النعيم أبدي، خالد، لا يعقبه موت ولا تحول ولا انتقال، ثم ختم السورة بالمنة على العرب في نزول القرآن بلغتهم لعلهم يعتبرون، ويتعظون به، ثم توعدهم إذا هم كذبوا بما جاء به الرسول بحلول النقمة بهم، والنصر له عليهم، كما هي سنته في أمثالهم من المكذبين ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه سعيد بن منصور عن أبي مالك، قال: إن أبا جهل كان يأتي بالتمر، والزبد، فيقول: تزقموا، فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد ﷺ، فنزلت: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾.

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ سبب نزوله[2]: ما أخرجه الأموي في «مغازيه» عن عكرمة، قال: لقي النبي ﷺ أبا جهل، فقال: «إن الله أمرني أن أقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾ قال فنزع ثوبه من يده، فقال: ما تستطيع لي أنت وصاحبك من شيء، لقد علمت أني أمنع أهل بطحاء، وأنا العزيز الكريم، فقتله يوم بدر، وأذله، وعيره بكلمته، ونزل فيه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾، وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه.

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى كفار قريش، لأن الكلام فيهم، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على استوائهم في الإصرار على الكفر؛ أي: إن هؤلاء المشركين من قومك ﴿لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ﴾؛ أي: ما العاقبة، ونهاية الأمر ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ التي نموتها في الدنيا، وتزيل حياتنا الدنيوية، ولا حياة بعدها ولا بعث.

قال الرازي: المعنى أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموتة الأولى، اهـ، ووصفها بالأولى لا يستدعي أن يثبت الخصم موتةً ثانية، فيقصدوا بذلك إنكارها؛ لأن كون الشيء أولاً، يستلزم وجود ما كان آخراً بالنسبة إليه، كما لو قال أول عبد أملكه حر، فملك عبداً عتق، سواء كان ملك بعده عبداً آخر، أو لا، ولا يبعد[1] أن يحمل على حذف المضاف، على أن يكون التقدير: إن الحياة إلا حياة موتتنا الأولى، فالأولى صفة للمضاف، والقرينة عليه قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، فالآية مثل قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾؛ أي: بمبعوثين بعد الموت، من أنشر الله الموتى، إذا بعثهم، وغرضهم من هذا القول، المبالغة في إنكار حشر الموتى، ونشرهم من القبور، والمعنى؛ أي: إن هؤلاء المشركين من أهل مكة يقولون ماثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث، ولا نشور.

ثم خاطبوا من وعدوهم بالنشور، وهم النبي ﷺ وأصحابه، وقالوا لهم ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾؛ أي: ارجعوهم إلى الدنيا بعد موتهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولونه، وتخبروننا به من البعث؛ أي: إن كان البعث والنشور حقاً ممكناً معقولاً كما تقولون، فعجلوا لنا بإحياء آبائنا الذين ماتوا، وذهبوا ولم يرجعوا، إن كنتم صادقين فيما تدعون من البعث، قيل: وكانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله تعالى، فينشر لهم قصي بن كلاب ليشاوروه، ويسألوا منه عن أحوال الموت، وكان كبيرهم ومفزعهم في المهمات والملمات.

---

(١) روح البيان.

وهذه حجة داحضة، فإن المعاد يوم القيامة، بعد انقضاء دار الدنيا، حين يعيد الله تعالى العالمين خلقاً جديداً، ومن ثم لم يتعرض الكتاب الكريم لرد ما قالوا، بل قال لهم متوعداً منذراً بأسه الذي لا يرد ﴿أَهُمْ﴾؛ أي: أكفار قريش ﴿خَيْرٌ﴾ في القوة، والشوكة اللتين يدفع بهما أسباب الهلاك، لا في الدين حتى يردانه ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحميري الذي دار في الدنيا بجيوشه، وغلب أهلها وقهرهم خير، لا خيرية في واحد من الفريقين، وفيه وعيد شديد والمراد بتبع هنا: واحد من ملوك اليمن، معروف عند قريش، وخصه بالذكر لقرب الدار، وسيأتي بقية الكلام فيه، وقيل: المراد بتبع: جميع ملوكه لا واحد بعينه، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من قبل قوم تبع، معطوف على ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، والمراد بهم: عاد، وثمود، وأضرابهم من كل جبار عنيد، أولي بأس شديد.

والاستفهام[1] لتقرير أن أولئك أقوى من هؤلاء المشركين، ومع ذلك ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ لما كذبوا رسلنا، وهذا كلام مستأنف لبيان عاقبة أمرهم؛ أي: أهلكنا قوم تبع والذين من قبلهم، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: إن قوم تبع ومن قبلهم كانوا كاملين في الإجرام والآثام، مستحقين للهلاك، تعليل لإهلاكهم، ليعلم أن أولئك، حيث أهلكوا بسبب إجرامهم، مع ما كانوا في غاية القوة والشدة، فلأن يهلك هؤلاء، وهم شركاء لهم في الإجرام، وأضعف منهم في الشدة والقوة أولى.

ومعنى الآية[2]: أي إن نظراءهم المشركين، المنكرين للبعث، كقوم تبع، أهلكهم الله تعالى، وخرب ديارهم، وشردهم في البلاد شذر مذر، وقد كانوا أقوى منهم جنداً، وأكثر عدداً، وكانت لهم دولة وصولة، وهؤلاء ليسوا في شيء من ذلك، وكذلك فعل بمن قبلهم كعاد، وثمود، إذ كانوا في خسران مبين بكفرهم، وإنكارهم للبعث والنشور، فليحذر هؤلاء أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)﴾.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

وقولنا: تبع الحميري منسوب إلى حمير، وهم أهل اليمن، وقد كانت حمير وهم أولاد سبأ، كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من الألقاب السلطانية، وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: لا تسبوا تبعاً، فإنه قد أسلم، وكان يكتب إذا كتب بسم الله الذي ملك براً وبحراً، والمراد به هنا: تبع الأكبر، اسمه أسعد بن ملكيكون، وقيل: ابن حسان[1] الحميري، وكنيته أبو كرب الذي كسا البيت بعد ما أراد غزوه، وبعد ما غزا المدينة، وأراد خرابها ثم انصرف عنها، لما أخبر أنها مهاجر نبي اسمه أحمد، وقال شعراً أودعه عند أهلها، وكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر، إلى أن هاجر النبي ﷺ، فدفعوه إليه، ويقال: كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد، وفيه:

شَهِدْتُ عَلَىٰ أَحْمَدٍ أَنَّهُ رَسُوْلٌ مِنَ ٱللَّهِ بَارِيْ ٱلنَّسَمْ

فَلَوْ مُدَّ عُمْرِيْ إِلَىٰ عُمْرِهِ لَكُنْتُ وَزِيْراً لَهُ وَٱبْنَ عَمْ

وروى ابن إسحاق وغيره: أنه كان في الكتاب الذي كتبه، أما بعد: فإني آمنت بك وبكتابك الذي ينزل عليك، وأنا على دينك وسنتك، وآمنت بربك ورب كل شيء، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام، فإن أدركتك فبها ونعمت، وإن لم أدركك فاشفع لي، ولا تنسني يوم القيامة، فإني من أمتك الأولين، وبايعتك قبل مجيئك، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام، ثم ختم الكتاب ونقش عليه لله الأمر من قبل ومن بعد، وكتب على عنوانه، إلى محمد بن عبد الله، نبي الله ورسوله، خاتم النبيين ورسول رب العالمين، صلى الله عليه وسلم، من تبع الأول، وكان من اليوم الذي مات فيه تبع، إلى اليوم الذي بعث فيه النبي ﷺ، ألف سنة، لا يزيد ولا ينقص.

وفي «أوائل السيوطي»: أول من كسا الكعبة أسعد الحميري، وهو تبع

---

(١) الفتوحات.

الأكبر، وذلك قبل الإسلام بتسع مئة سنة، كساها الثياب الحبرة، وهي بوزن عنبة ضرب من برود اليمن، وفي رواية: وكسا بها الوصائل، وهي برود حمر، فيها خطوط خضر تعمل باليمن، وعن بعضهم: أول من كسا الكعبة كسوةً كاملة، تبع كساها العصب وهي ضرب من البرود، وجعل لها باباً يغلق، وقال في ذلك:

وَكَسَوْنَا ٱلْبَيْتَ ٱلَّذِيْ حَرَّمَ ٱللَّـ ـهُ مَلاَءً مُعَصَّباً وَبُرُوْدَا

وَأَقَمْنَا بِهِ مِنَ ٱلشَّهْرِ عَشْرَاً وَجَعَلْنَا لِبَابِهِ إِقْلِيْدَا

وَخَرَجْنَا مِنْهُ نَؤُمُّ سُهَيْلاً قَدْ رَفَعْنَا لِوَائَنَا مَعْقُوْدَا

وكان تبع هذا مؤمنا بالاتفاق، وقومه كانوا كافرين، ولذلك ذمهم الله تعالى دونه، واختلف هل كان نبياً أو ملكاً، فقال ابن عباس: كان تبع نبياً وقال كعب: كان تبع ملكاً من الملوك، وكان قومه كهاناً، وأهل كتاب فأمر الفريقين أن يقرب كل منهما قرباناً ففعلوا، فتقبل قربان أهل الكتاب، فأسلم، وقالت عائشة رضي الله عنهما: لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً، والله أعلم.

وفي «فتح الرحمٰن»: فإن قلت: القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية، فكان حقهم أن يقولوا: إن هي إلا حياتنا الأولى؟.

قلت: لما قيل لهم: إنكم تموتون موتةً يعقبها حياة كما تقدمتكم موتة، لذلك قالوا: إن هي إلا موتتنا الأولى؛ أي: ما الموتة التي من شأنها أن يعقبها الحياة إلا الموتة الأولى.

ثم أقام تعالى على قدرته القاهرة دليلاً، ليستدل بذلك على إمكان البعث، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: وما بين جنس السماء والأرض من المخلوقات، قرأ الجمهور: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ نظراً إلى الجنس، وقرأ عمرو بن عبيد ﴿وما بينهن﴾ نظراً إلى مجموع السمٰوات والأرض حالة كوننا ﴿لَٰعِبِينَ﴾؛ أي: عابثين من غير أن يكون لخلقهما غرض صحيح، وغاية حميدة، يقال: لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً. وفي «التعريفات»: اللعب فعل الصبيان، يعقبه التعب من غير فائدة، وفي «فتح الرحمٰن»: قاله هنا

بالجمع، موافقة لقوله أول السورة: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ﴾ وما بينهما في حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالة كوننا متلبسين ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي[1]: محقين، لنا فيه حكمة، وذلك ليستدل به على قدرتنا ووحدانيتنا، فهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أو ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء، فهو استثناء من أهم الأسباب، وقال الكلبي: إلا للحق، وكذا قال الحسن، وقيل: إلا لإقامة الحق وإظهاره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: أكثر الناس، وهم كفار مكة، وسائر الكفرة بسبب الغفلة، وعدم الفكرة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك فينكرون البعث، والجزاء.

والآية دليل على ثبوت الحشر ووقوعه، ووجه الدلالة أنه لو لم يحصل البعث والجزاء، لكان هذا الخلق عبثاً؛ لأنه تعالى خلق نوع الإنسان، وما ينتظم به أسباب معايشهم من السقف المرفوع، والمهاد المفروش، وما فيهما وما بينهما من عجائب المصنوعات، وبدائع الأحوال، ثم كلفهم بالإيمان والطاعة ليتميز المطيع من العاصي، بأن يكون المطيع متعلقَ فضله وإحسانه، والعاصي متعلقَ عدله وعقابه، وذلك لا يكون في الدنيا لقصر زمانها، وعدم الاعتداد بمنافعها، لكونها مشوبة بأنواع المضار والمحن، فلا بد من البعث والجزاء لتجزى كل نفس بما كسبت، فالجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها، إذ لو لم يكن الجزاء كما يقول الكافرون، لاستوت عند الله تعالى أحوال المؤمن والكافر، وهو محال.

ومعنى الآية[2]: أي وما خلقنا الخلق عبثاً بأن نوجدهم ثم نفنيهم بغير امتحان بطاعتنا، واتباع أمرنا ونهينا، وبغير مجازاة للمطيع على طاعته، والعاصي على معصيته، بل خلقناهم لنبتلي من أردنا امتحانه منهم بما شئنا، ولنجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ولنجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وقد سبق نحو هذا في سورة

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

يونس، وسورة المؤمنين حيث قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾، وفي سورة ص، إذ قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾، ما خلقناهما إلا خلقاً متلبساً بالحق، وهو الدلالة بهما على وحدانية الخالق لهما، ووجوب طاعته والإنابة إليه لعظمته وجبروته، كما جاء في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً، فأردت أن أعرف، فخلقت الخلق فبي عرفوني» ولكن أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون ذلك، فهم لا يخافون من سخطه، عقوبةً لهم على ما اجترحوا من السيئات، ولا يرجون ثواباً على خير فعلوه، لتكذيبهم بالميعاد، والعودة إلى دار أخرى، بعد هذه الدار.

وخلاصة ما تقدم[1]: أن هؤلاء لقلة تدبرهم، لا يعتقدون أن الأمر كذلك، وهم واهمون فيما يظنون، إذ لو لم توجد دار للجزاء، لما امتاز مطيع من عاص، ولا محسن من مسيء، والعقل قاض بغير هذا.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾؛ أي: إن يوم القيامة الذي يفصل فيه الحق من الباطل، ويميز المحق من المبطل، ويقضى بين الخلائق، بين الأب والابن، والزوج والزوجة، ونحو ذلك ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾؛ أي: وقت موعد الخلائق ﴿أَجْمَعِينَ﴾ من الأولين والآخرين؛ أي: الوقت المجعول لتمييز المحسن منهم من المسيء، والمحق من المبطل، لا يتخلف عنه أحد منهم أجمعين، وقال بعضهم: يوم الفصل يوم يفصل فيه بين كل عامل وعمله، ويطلب بإخلاص ذلك وبصحته، فمن صح له مقامه وأعماله، قبل منه وجزي عليه، ومن لم تصح له أعماله، كانت أعماله عليه حسرةً وندامةً.

وقد اتفق[2] القراء على رفع ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ على أنه خبر ﴿إِنَّ﴾، واسمها ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، و﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير المجرور في ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾، وأجاز الكسائي والفراء نصبه على أنه اسمها، و﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ خبرها. وقرىء ﴿ميقاتهم﴾ بالنصب

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

على أنه اسم ﴿إِنَّ﴾ والخبر ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ ذكره في «البحر». والميقات اسم للوقت المضروب للفصل، فيوم القيامة وقت لما وعدوا به، من الاجتماع للحساب والجزاء.

وقوله: ﴿لَا يُغْنِي﴾ بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو منتصب بفعل مضمر يدل عليه الفصل؛ أي: يفصل بينهم يوم لا يغني، ولا يجزي ﴿مَوْلًى﴾؛ أي: ولي، وناصر من قرابة، أو عتاق، أو صداقة ﴿عَن مَّوْلًى﴾ له؛ أي: عن قريب له أيّا كان ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء، والإجزاء على أن شيئاً واقع موقع المصدر، وتنكيره للتقليل، ويجوز أن يكون منصوباً على المفعول به على أن يكون ﴿لَا يُغْنِي﴾: بمعنى لا يدفع بعضهم عن بعض شيئاً من عذاب الله، ولا يبعده، فإن الإغناء يأتي بمعنى الدفع، وإبعاد المكروه. وتنكير[1] ﴿مَوْلًى﴾ في الموضعين للإبهام، فإن المولى مشترك بين معان كثيرة يطلق على المالك والعبد والمعتق والصاحب والقريب كابن العم ونحوه، والجار والحليف والابن والعم والنزيل والشريك، وابن الأخت والولي والرب والناصر والمنعم والمنعم عليه والمحب والتابع والصهر، كما في «القاموس» وكل من ولي أمر واحد، فهو وليه ومولاه، فواحد من هؤلاء أي واحد كان، لا يغني عن مولاه أيَّ مولى كان شيئاً من الإغناء؛ أي: إغناءً قليلاً، وإذا لم ينفع بعض الموالي بعضاً ولم يغن عنه شيئاً من العذاب بشفاعته، كان عدم حصول ذلك ممن سواهم أولى، وهذا في حق الكفار، يقال: أغنى عنه كذا إذا كفاه.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا يمنعون مما نزل بهم من العذاب، ولا يملكون أن يشفع لهم غيرهم، فالضمير لمولى الثاني باعتبار المعنى، لأنه عام لوقوعه نكرةً في سياق النفي، فكأنه جمع، والمراد بالضمير: المولى الثاني؛ لأن المراد به[2] الكافر، وأما الأول فالمراد به: المؤمن.

والمعنى: يوم لا يغني مولى مؤمن عن مولى كافر شيئاً من عذاب الله،

---

(١) روح البيان.
(٢) الفتوحات.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ توكيد لقوله: ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾، فالمعنى: لا ينصر المؤمن الكافر، ولو كان بينهما في الدنيا علقة من قرابة، أو صداقة، أو غيرهما كما أشار إليه القرطبي. ﴿إلا من رحمـ﴾ـه ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بالعفو عنه، وقبول الشفاعة في حقه، وهم المؤمنون، ومحله الرفع على البدل من ﴿الواو﴾ في ﴿يُنصَرُونَ﴾، كما في «المختار»، أو النصب على الاستثناء ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا ينصر من أراد تعذيبه كالكفار ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن أراد أن يرحمه كالمؤمنين.

والمعنى: أي إن هذا اليوم الذي يفصل الله فيه بين خلقه، فيحق الحق ويبطل الباطل لآت لا محالة، وهو وقت حسابهم وجزائهم على ما كسبت أيديهم من خير، أو شر، ونحو الآية قوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾، ثم وصف أهوال هذا اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى﴾ إلخ؛ أي: إن هذا يوم تنقطع فيه الأسباب بابن آدم، فلا تنفع الناس إلا أعمالهم، فمن أصاب خيراً في دنياه سعد به، ومن أصاب شراً شقي به، ولا يغني القريب عن القريب، ولا يدفع عنه شيئاً من عذاب الله، ولا يجد الناصر الذي يقيه ذلك العذاب.

وقصارى ذلك: لا يفيد المؤمن الكافر، ولا ينصره ولو كان بينهما في الدنيا علقة من قرابة أو صداقة أو غيرهما، ونحو الآية قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لكن من رحمه الله تعالى، فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه، ولا إلى ناصر ينصره، قاله الكسائي على أن الاستثناء منقطع، وقيل: متصل، والمعنى: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنهم يؤذن لهم في الشفاعة فيشفعون، إنه سبحانه هو العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه وأهل طاعته.

ثم لما وصف يوم الفصل، ذكر بعده وعيد الكفار، فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ وقرىء بكسر الشين، هي على صورة شجرة الدنيا، لكنها في النار،

والزقوم ثمرها، وهو في الأصل كل طعام ثقيل، وشجرة الزقوم هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها، فأكلوا منها قال في «القاموس»: هي شجرة بجهنم، وطعامُ أهل النار. وفي «عين المعاني»: شجرة في أسفل النار مرتفعة إلى أعلاها، وما من دركة إلا وفيها غصن منها انتهى. فتكون هي في الأصل نظير طوبى في الأعلى. وفي «كشف الأسرار»: شجرة الزقوم على صورة شجرة الدنيا لكنها من النار، والزقوم ثمرها، وهو ما أكل بكره شديد، وقيل: كل طعام ثقيل فهو زقوم كما مر.

وفي «إنسان العيون»: لا تسلط لجهنم على شجرة الزقوم، فإن من قدر على خلق من يعيش في النار ويلتذ بها كالسمندل، فهو أقدر على خلق الشجر في النار، وحفظه من الإحراق بها. وقد قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: إنها تحيا باللهب كما تحيا شجرة الدنيا بالمطر، وثمر تلك الشجرة مر له زفرة، انتهى و﴿شَجَرَتَ﴾ ترسم بالتاء المجرورة، ووقف عليها أبو عمرو بالهاء، وكذا ابن كثير والكسائي، ووقف الباقون بالتاء على الرسم ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: غذاء الأثيم؛ أي: الكثير الإثم والمراد به[1]: الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه، يعني: أنهم أجمعوا على أن المراد بقوله: ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ هم الكفار، وبقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ المؤمنون، وكذا دل عليه قوله فيما سيأتي ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو كالمهل. وعن النبي ﷺ في تفسير المهل: كعكر الزيت، وهو درديه فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه، أخرجه الترمذي، وقال: لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد، وقد تكلم فيه من غير حفظه، وشبه بالمهل في كونه غليظاً أسود وقال بعضهم: المهل ما يمهل في النار حتى يذوب، كالحديد، والرصاص والصفر ونحوها. وشبه الطعام بالنحاس، أو الصفر المذاب في الذوب ونهاية الحرارة، لا في الغليان، وإنما يغلي ماشبه به، وجملة قوله: ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ حال من الطعام، وقوله: ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ صفة مصدر

---

(١) روح البيان.

محذوف؛ أي: حال كون ذلك الطعام يغلي، ويفور في بطون الكفار غلياناً كغليان الماء الحار، الذي انتهى حره وغليانه لشدة حرارته وكراهية المعدة إياه، والغلي والغليان: التحرك والارتفاع. وفي الحديث: أيها الناس اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرةً من الزقوم قطرت على الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم، فكيف بمن هو طعامه وليس له طعام غيره». أخرجه الترمذي عن ابن عباس، وقال حديث حسن صحيح.

وقال الحسن[1]: ﴿كالمهل﴾ بفتح الميم لغة فيه، وقرأ الجمهور وعمرو بن ميمون وأبو رزين والأعرج وأبو جعفر وشيبة وطلحة: ﴿تغلي﴾ بالتاء الفوقية، على أن الفاعل ضمير يعود على الشجرة، والجملة خبر ثان، أو حال، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي تغلي غلياً مثل غلي الحميم، وهو الماء المسخن الذي يتطاير من غليانه، وقرأ مجاهد وقتادة والحسن وابن كثير وابن عامر وحفص وابن محيصن وورش عن يعقوب: ﴿يَغۡلِي﴾ بالياء التحتانية، على أن الفاعل ضمير يعود على الطعام، ولا يصح أن يكون الضمير عائداً إلى المهل؛ لأنه مشبه به، وإنما يغلي ما يشبه بالمهل.

والمعنى[2]: أن الزقوم وهو ثمر هذه الشجرة التي في الجحيم طعام للكافر، الكثير الذنوب والآثام، يشبه المهل؛ أي: دردي الزيت الأسود، يغلي في بطون الكفار كغلي الماء المسخن، البالغ نهاية الحرارة، وقوله: ﴿خُذُوهُ﴾ على تقدير القول، والخطاب للزبانية؛ أي: يقال للزبانية يوم القيامة: خذوا الأثيم، فلا يأخذونه إلا بالنواصي والأقدام ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾؛ أي: جروه بالعنف والقهر، فإن العتل الأخذ بمجامع الثوب ونحوه، وجره بقهر وعنف ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ أي: إلى وسطها قاله ابن عباس، أو إلى معظمها الذي تستوي المسافة إليه من جميع جوانبه، قاله الحسن. وقرأ الجمهور[3]: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ بكسر التاء،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

وقرأ زيد بن علي وابن كثير وابن عامر: بضم التاء وهما لغتان، والخلاف عن الحسن وقتادة والأعرج وأبي عمرو ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨﴾[1] وصب الماء إراقته من أعلى، والعذاب ليس بمصبوب؛ لأنه ليس من الأجسام المائعة، فكان الأصل يصب من فوق رؤوسهم الحميم، كما هو القراءة في سورة الحج، والمصبوب في الحقيقة هو الحميم، فتارة اعتبرت الحقيقة كما في سورة الحج، وتارةً اعتبرت الاستعارة كما هنا، فقيل: يصب من فوق رؤوسهم العذاب، وهو الحميم؛ لأنه أذم، وأهيب من الحميم، فقد صب ما تولد عنه من الآلام والعذاب، فعبر بالمسبب عن السبب؛ لأن العذاب هو المسبب عن الحميم، ولفظة العذاب أهول وأهيب، وزيد من للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع، وإضافة العذاب إلى الحميم للبيان؛ أي: إلى عذاب هو الحميم.

ويروى: أن الكافر إذا دخل النار يطعم الزقوم، ثم إن خازن النار يضربه على رأسه بمقمعة، يسيل منها دماغه على جسده، ثم يصب الحميم فوق رأسه، فينفذ إلى جوفه فيقطع الأمعاء والأحشاء ويمرق من قدميه.

وقولوا له على سبيل الاستهزاء والتهكم والتقريع: ﴿ذُقْ﴾ أيها الأثيم هذا العذاب المذل المهين ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في نظرك ﴿ٱلْكَرِيمُ﴾ عند قومك؛ أي: وقولوا له ذلك استهزاءً به، وتقريعاً له على ما كان يزعمه، من أنه عزيز كريم، فمعناه: أنت الذليل المهان.

وقيل: إن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبلي مكة أعز وأكرم مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك، أن تفعل بي شيئاً، فوردت الآية وعيداً له ولأمثاله، عجباً كيف أقسم بالله تعظيماً له، ثم نفى الاستطاعة عنه، مع أن الرسول عليه السلام كان لا يدعو ربا سواه، فالكلام المذكور من حيرة الكفر وحكم الجهل وتعصب النفس، كما قالوا: أمطر علينا حجارة من السماء، وفي لفظ الذوق إشارة إلى أنه كان معذباً في الدنيا، ولكن لما كان في نوم الغفلة،

---

(١) روح البيان.

وكثافة الحجاب، لم يكن ليذوق ألم العذاب، فلما مات انتبه، وذاق ألم ما ظلم به نفسه، وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّكَ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب على المنبر، والكسائي بفتحها؛ أي: لأنك. قال الفراء: أي بهذا القول الذي قلته في الدنيا اهـ.

والمعنى: أي ذق هذا الذل والهوان اليوم، فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم، وها هوذا، قد تبين لك أنك أنت الذليل المهين، فأين ما كنت تقول وتدعي من العز والكرامة، فهلا تمتنع من العذاب بعزتك ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب الذي تعذبون به ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: تشكون في الدنيا، أو تمارون فيه؛ أي: تجادلون بالباطل؛ أي: العذاب الذي كنتم تشكون فيه في الدنيا فتختصمون فيه ولا توقنون به، فقد لقيتموه فذوقوه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ والجمع باعتبار المعنى؛ لأن المراد: جنس الأثيم.

ولما ذكر حال الكفار.. أعقبه بحال المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: عن الكفر والمعاصي وهم المؤمنون المطيعون ﴿فِى مَقَامٍ﴾؛ أي: في موضع قيام. والمراد[1]: المكان على الإطلاق، فإنه من الخاص الذي شاع استعماله في معنى العموم، يعني أنه عام، ومستعمل في جميع الأمكنة حتى قيل لموضع القعود. مقام وإن لم يقم فيه أصلاً؛ أي: في مكان ﴿أَمِينٍ﴾ يأمن صاحبه الآفات والانتقال عنه، على أن وصف المقام بالأمن من المجاز في الإسناد، كما في قولهم: جرى النهر، فالأمن ضد الخوف، والأمين بمعنى ذي الأمن.

وأشار الزمخشري إلى وجه آخر، وهو أن الأمين من الأمانة التي هي ضد الخيانة، وهي في الحقيقة صفة صاحب المكان، لكن وصف به المكان بطريق الاستعارة التخييلية، كأن المكان المخيف يحزن صاحبه ونازله، بما يلقى فيه من المكاره، أو كناية؛ لأن الوصف إذا أثبت في مكان الرجل، فقد أثبت له، لقولهم

---

(١) روح البيان.

المجد بين ثوبيه، والكرم بين برديه، كما في «بحر العلوم». قال أهل السنة: كل من اتقى الشرك، صدق عليه أنه متق، فيدخل الفساق في الوعد، يقول الفقير: الظاهر أن المطلق مصروف على الكامل بقرينة أن المقام مقام الامتنان، والكامل والمؤمن المطيع كما أشرنا إليه في عنوان الآية، نعم يدخل العصاة فيه انتهاءً وتبعيةً لا ابتداءً وأصالة. كما يدل عليه الوعيد الوارد في حقهم، وإلا لاستوى المطيع والعاصي، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ عفا الله عنا وعنكم أجمعين.

وقرأ عبد الله بن عمر وزيد بن علي وأبو جعفر وشيبة والأعرج والحسن وقتادة ونافع وابن عامر[1]: ﴿في مقام﴾ بضم الميم، وقرأ أبو رجاء وعيسى ويحيى والأعمش وباقي السبعة: بفتحها، وعلى القراءة الأولى هو موضع الإقامة، وعلى القراءة الثانية هو موضع القيام، قاله الكسائي وغيره، وقال الجوهري: قد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام.

وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار، بدل من ﴿مَقَامٍ﴾، أو بيان له، أو خبر ثان جيء به دلالةً على نزاهته واشتماله على طيبات المآكل والمشارب، والمراد[2] بالعيون: الأنهار الجارية، والتنكير فيهما للتعظيم، وقوله: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر ثان أو ثالث، أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، والسندس ما رقَّ من الحرير، يجري مجرى الشعار لهم، وهو اللين من الدثار في المعتاد، والإستبرق ما غلظ منه وصفق نسجه، يجري مجرى الدثار، وهو أرفع نوع من أنواع الحرير، والحرير نوعان: نوع كلما كان أرق كان أنفس، ونوع: كلما كان أرزق بكثرة الإبريسم كان أنفس، يقول الفقير: يحتمل عندي أن يكون السندس لباس المقربين، والإستبرق لباس الأبرار يدل عليه أن شراب المقربين هو التسنيم الخالص، وشراب الأبرار هو الرحيق الممزوج به.

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلت: كيف وعد الله تعالى أهل الجنة بلبس الإستبرق، وهو غليظ الديباج، مع أن غليظه عند السعداء، من أهل الدنيا عيب ونقص؟

قلت: غليظ ديباج الجنة لا يشابه غليظ ديباج الدنيا حتى يعاب، كما أن سندس الجنة وهو رقيق الديباج، لا يشابه سندس الدنيا. وقيل: إن السندس لباس سادة أهل الجنة، والإستبرق لباس خدمهم إظهاراً لتفاوت الرتب انتهى.
وقرأ ابن محيصن[1]: ﴿واستبرق﴾ جعله فعلاً ماضياً.

وقوله: ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَلْبَسُونَ﴾؛ أي: حال كونهم متقابلين في المجالس. ليستأنس بعضهم ببعض. ومعنى متقابلين: متواجهين لا ينظر[2] بعضهم إلى قفا بعض، لدوران الأسرة بهم، فهو أتم للأنس. وقال بعضهم: معناه: متقابلين بالمحبة، غير متدابرين بالبغض والحسد؛ لأن الله ينزع من صدورهم الغل و قت دخولهم الجنة، فإن قلت: المقصود من جلوسهم متقابلين: استئناس بعضهم ببعض، والجلوس على هذه الصفة موحش؛ لأنه يكون كل واحد منهم مطلعاً على ما فيه الآخر، فقليل الثواب إذا اطلع على حال كثيره.. تنغص.

والجواب: أن أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا، اهـ «كرخي».
والكاف، في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إما صفة لمصدر محذوف مع فعله؛ أي: أثبناهم إثابةً مثل المذكور، أو نفعل بالمتقين فعلاً مثل ذلك المذكور، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الأمر كذلك، والأول أولى ليعطف عليه، قوله: ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ أي: قرناهم بهن، فيتمتعون تارةً بمؤانسة الإخوان ومقابلتهم، وتارةً بملاعبة النسوان من الحور العين، ومزاوجتهن، فليس المعنى: حصول عقد النكاح بينهم وبين الحور، فإن التزويج بمعنى العقد لا يتعدى بالباء، كما جاء في التنزيل: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ وإذا لم يكن عقد التزويج يقال: زوجناك بها، بمعنى كنت فرداً فقرناك بها؛ أي: جعلناك شفعاً بها، والله سبحانه

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

وتعالى جعلهم اثنين ذكراً وأنثى، وقال في «المفردات»: لم يجىء في القرآن زوجناهم حوراً، كما يقال: زوجته امرأةً تنبيهاً على أن ذلك لم يكن على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكح انتهى.

ثم الحور جمع الحوراء، وهي البيضاء، والعين جمع العيناء، وهي العظيمة العينين، فالحور هي النساء النقيات البياض، يحار فيهن الطرف لبياضهن وصفاء لونهن، وواسعات الأعين حسانها، أو الشديدات بياض الأعين الشديدات سوادها.

وحاصل معنى الآيات: أن[1] المتقين لله في الدنيا الخائفين عقابه، المنتظرين فضله وثوابه، يكونون في الآخرة في مجالس يأمنون فيها من الموت، ومن كل ما يحزنهم ويصيبهم من الآفات والآلام. وقد ذكر سبحانه من ضروب نعيمهم خمسة ألوان:

١ ـ مساكنهم، كما قال: ﴿مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ والمسكن يطيب بأمرين:

الأول: أن يكون من فيه آمناً من جميع ما يخافه ويحذر منه، وهو المقام الأمين.

الثاني: أن يكون فيه أسباب النزهة من الجنات والعيون. وذلك قوله: ﴿فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾.

٢ ـ ملابسهم، وهي التي عناها سبحانه بقوله: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾.

٣ ـ استئناس بعضهم ببعض بجلوسهم على جهة التقابل، وهو ما أشار إليه بقوله: ﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾.

٤ ـ الأزواج كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

---

(١) المراغي.

٥ ـ المآكل، كما قال: ﴿يَدْعُونَ﴾؛ أي: يطلبون ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنات ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾؛ أي: يأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه، لا يتخصص شيء منها بمكان ولا زمان، وذلك لا يجتمع في الدنيا، يعني: أن فواكه الدنيا لا توجد في كل مكان، ولها أزمنة مخصوصة، لا تستقدمها ولا تستأخرها، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾؛ أي: حال كونهم آمنين من كل ما يسوءهم أيا كان، خصوصاً الزوال والانقطاع، وتولد الضرر من الإكثار، وحجاب القلب، كما يكون في الدنيا فيكونون في الصورة مشغولين بالحور العين، وبما يشتهون من النعيم، وبالقلوب متوجهين إلى الذات العلية، مشاهدين لها.

والمعنى[١]: يطلبون ما يشتهون من أنواع الفاكهة، وهم آمنون من انقطاعها، ومن غائلة أذاها ومكروهها، فهي ليست كفاكهة الدنيا التي نأكلها، ونخاف مكروه عاقبتها، أو نخاف نفادها في بعض الأحايين.

وبعد أن وصف ما هم فيه من نعيم مقيم، بين أن حياتهم في هذا النعيم دائمة، لا يلحقها موت ولا فناء، فقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنات ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ أبداً ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ التي ذاقوها في الدنيا، وقرأ[٢] عبيد بن عمير ﴿لا يذاقون﴾ مبنياً للمفعول، والموت والموتة: مصدران من فعل واحد، كالنفخ والنفخة، إلا أن الموتة أخص من الموت؛ لأن الموتة للوحدة والموت للجنس، فيكون بعضاً من جنس الموت، وهو فرد واحد، ونفي الواحدة أبلغ من نفي الجنس، فكانت أقوى وأنفى في نفي الموت عن أنفسهم، كأنه قال: لا يذوقون فيها شيئاً من الموت يعني: أقل ما ينطلق عليه اسم الموت، كما في «بحر العلوم»، والاستثناء[٣] منقطع؛ أي: لا يذوقون الموت في الجنة لكن الموتة الأولى قد ذاقوها قبل دخول الجنة، فعيشتهم المرضية مقارنة للحياة الأبدية، بخلاف أهل النار، فإنه لا عيشة لهم، وكذا لا يموتون فيها، ولا يحيون، ويقال:

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

ليس في الجنة عشرة أشياء: ليس فيها هرم ولا نوم ولا موت ولا خوف ولا ليل ولا نهار ولا ظلمة ولا حر ولا برد ولا خروج، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً، على أن المراد: بيان استحالة ذوق الموت فيها على الإطلاق، كأنه قيل: لا يذوقون فيها الموتة إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى في المستقبل، وذوق الماضي غير ممكن في المستقبل، لا سيما في الجنة التي هي دار الحياة فهذا من باب التعليق بالمحال كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

والمقصود: أنهم لا يذوقون فيها الموت البتة، وكذا لا ينكحون منكوحات آبائهم قطعاً، وقيل: إلا بمعنى بعد كما اختاره ابن جرير، أو بمعنى سوى، واختاره ابن عطية، فإن قلت: هذا دليل على نفي الحياة والموت في القبر.

قلت: أراد به: جنس الموت، المتعارف المعهود فيما بين الخلق، فإن الموت المعهود لا يعرى عن الغصص، والموت بعد الإحياء في القبر يكون أخف من الموت المعهود، كما في «الأسئلة المقحمة».

والمعنى(١): أي لا يخشون في الجنة موتاً ولا فناء أبداً، وقد ثبت في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار،، ثم يذبح، ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت».

وروى أبو هريرة، وأبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تهرموا أبداً»، رواه مسلم.

وخلاصة ذلك: لا يذوقون فيها الموت لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا، كذا قال الزجاج والفراء.

---

(١) المراغي.

﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾؛ أي: حفظهم الله سبحانه وتعالى ﴿عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وصرفه عنهم، وقرأ[1] الجمهور: ﴿وقاهم﴾ بالتخفيف، وقرأ أبو حيوة مشدداً بالقاف، وقوله: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ﴾ منصوب على المصدرية بفعل مقدر، أو على الحالية؛ أي[2]: أعطي المتقون ما ذكر من نعيم الجنة، والنجاة من عذاب النار عطاءً وتفضلاً منه تعالى، لا جزاءً للأعمال المعلولة، وقرىء بالرفع؛ أي: ذلك فضل من ربك، كما في «البيضاوي».

واحتج أهل السنة بهذه الآية: على أن كل ما وصل إليه العبد من الخلاص من النار، والفوز بالجنة ونعيمها، فإنما يحصل بفضل الله وإحسانه، وأنه لا يجب عليه شيء من ذلك، ففي إثبات الفضل نفي الاستحقاق، فجميع الكرامات فضل منه على المتقين، حيث اختارهم بها في الأزل، وأخرجها من علل الاكتساب، فإن الاكتساب أيضاً فضل إذ لو لم يخلق القدرة على كسب الكمالات، وتحصيل الكرامات لما وجد العبد إليه سبيلاً.

وفي الحديث: «لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة، ولا يجيره من النار، ولا أنا، إلا برحمة الله»؛ أي: ولا أنا أدخل الجنة بعمل، إلا برحمة الله، وليس المراد به توهين أمر العمل، بل نفي الاغترار به، وبيان أنه يتم بفضل الله تعالى، وأما قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ونظائره فلا ينافي الحديث: لأن الآية تدل على سببية العمل، والمنفي في الحديث عليته وإيجابه، انتهى.

وقال الشيخ الأكبر رحمه الله تعالى في «مواقع النجوم»: الدخول بالرحمة، وقسمة الدرجات بالأعمال، والخلود بالنيات فهذه ثلاثة مقامات، وكذلك في دار الشقاوة دخول أهلها فيها بعدل الله، وطبقات عذابها بالأعمال، وخلودهم بالنيات، وأصل ما استوجبوا به هذا العذاب المؤبد، المخالفة، كما كانت في السعادة الموافقة، وكذلك من دخل النار من العاصين، لولا المخالفة لما عذبهم الله شرعاً، نسأل الله سبحانه لنا وللمسلمين، أن يستعملنا بصالح الأعمال،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

ويرزقنا الحياء منه تعالى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أعطيناه هؤلاء المتقين من الكرامة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ والظفر بما كانوا يطلبون إدراكه في الدنيا بأعمالهم، وطاعتهم لربهم، واتقائهم إياه فيما امتحنهم به من الطاعات، واجتنابهم للمحرمات؛ أي: ذلك هو الفوز ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، إذ هو خالص من جميع المكاره، وجامع لكل المطالب. يقول الفقير: لما كان الموت وسيلةً لهذا الفوز، وباباً له.. ورد الموت تحفة المؤمن، والموت وإن كان من وجه هلكاً فمن وجه فوز، ولذلك قيل: ما أحد إلا والموت خير له، أما المؤمن فإنما كان الموت خيراً له؛ لأنه يتخلص به من السجن، ويصل إلى النعيم المقيم في روضات الجنات، وأما العاصي فلأن الإمهال في الدنيا سبب لازدياد المعاصي والإثم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ وهو سبب لازدياد العذاب.

ولما أتم المقاصد التي أراد ذكرها في هذه السورة، لخصها بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ فهذه[1] الآية فذلكة للسورة الكريمة، ونتيجة لها، واللسان آلة التكلم في الأصل، واستعير هنا لمعنى اللغة، كما في قوله ﷺ: «لسان أهل الجنة العربية»؛ أي: إنما يسرنا الكتاب المبين، وسهلنا قراءته عليك، حيث أنزلناه بلسانك ولغة قومك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لكي يفهمه قومك، ويتذكروا به، ويتعظوا بعظاته، ويعملوا بموجبه، ويتفكروا في آياته إذا تلوتها عليهم، فينيبوا إلى ربهم، ويذعنوا للحق الذي تبينوه، وإذا لم يعملوا بذلك ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾؛ أي: فانتظر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾؛ أي: منتظرون، وفي «عين المعاني»: أو فارتقب الثواب فإنهم كالمرتقبين العقاب؛ لأن المسيء ينتظر عاقبةَ الإساءة، وعلى كلا التقديرين فمفعول الارتقاب محذوف في الموضعين؛ أي: ولما كان القرآن الكريم مع هذا الوضوح والبيان قد خالف فيه بعض الناس، وعاند قال تعالى، مسلياً رسوله، وواعداً له بالنصر، ومتوعداً من كذبه بالهلاك: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾؛

(١) روح البيان.

أي: فانتظر يا محمد لما يحل لهم من المقادير، فإن في رؤيتها عبرة للعارفين، وموعظة للمتقين ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾؛ أي: منتظرون لما سيحل بك من الدوائر، ولم يضرك ذلك فعن قريب يتحقق أملك، وتخيب آمالهم، وسيعلمون لمن تكون له النصرة والغلبة والظفر، وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، ولا شك أن النصر سيكون لك كما كان لإخوانك من النبيين والمرسلين، ومن تبعهم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

وفي الآية فوائد[1]:

منها: أنه تعالى بين تيسير القرآن، والتيسير ضد التعسير، وقد قال في آية أخرى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ فبينهما تعارض في الظاهر، والجواب: أنه ميسر باللسان، وثقيل من حيث اشتماله على التكاليف الشاقة على المكلفين، ولا شك أن التلاوة باللسان، أخف من العمل بما فيه.

ومنها: أنه تعالى قال: ﴿بِلِسَانِكَ﴾، فأشار إلى أنه لو أسمعهم كلامه بغير الواسطة لماتوا جميعاً لعدم تحملهم، قال جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ: لولا تيسيره، لما قدر أحد من خلقه أن يتلفظ بحرف من القرآن، وأنى لهم ذلك، وهو كلام من لم يزل، ولا يزال، وقال ابن عطاء: يسر ذكره على لسان من شاء من عباده؛ فلا يفتر عن ذكره بحال، وأغلق باب الذكر على من شاء من عباده، فلا يستطيع بحال أن يذكره.

ومنها: أن انتظار الفرج عبادة، على ما جاء في الحديث؛ لأنه من الإيمان.

الإعراب

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا

(١) روح البيان.

بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَيَقُولُونَ﴾: اللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿يقولون﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة للحديث عن قريش، بعد استطراد حديث بني إسرائيل. ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هِىَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَوْتَتُنَا﴾: خبر هي، ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾: نعت للموتة، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لـ﴿يقولون﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ما﴾: نافية حجازية، ﴿نَحْنُ﴾: اسمها. ﴿بِمُنشَرِينَ﴾: خبرها والباء زائدة، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿فَأْتُوا۟﴾: الفاء: واقعة في جواب شرط قدم جوابه عليه، اعتناء بشأن الجواب، تقديره: إن كنتم صادقين، فأتوا بآبائنا. ﴿ائتوا﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الطلبية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها. ﴿بِـَٔابَآئِنَآ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿ائتوا﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وتاء المخاطبين اسمها. ﴿صَـٰدِقِينَ﴾: خبرها، والجملة الشرطية مؤخرة عن جوابها، كما قدرنا أولاً، وجملة الشرط مع جوابه في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾، ﴿أَهُمْ﴾ الهمزة: للاستفهام التعييني. ﴿هم﴾ مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾: خبره، ﴿أَمْ﴾: حرف عطف متصلة. ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾: معطوف على ﴿هم﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، والجملة الاسمية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من المعطوف والمعطوف عليه. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: نافية. ﴿خَلَقْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف عليه. ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على السموات، ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: ظرف، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف، وقع صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿لَٰعِبِينَ﴾ حال من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿خَلَقْنَٰهُمَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مفسرة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿خَلَقْنَٰهُمَآ﴾؛ أي: ما خلقناهما إلا حالة كوننا، متلبسين بالحق والحكمة؛ أي: محقين، أو صفة لمصدر محذوف، تقديره: إلا خلقاً متلبساً بالحق والحكمة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لكن أكثرهم﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، ومفعول العلم محذوف، تقديره: لا يعلمون كون خلقنا إياهما لحكمة، والجملة الاستدراكية في محل النصب، حال من مفعول ﴿خَلَقْنَا﴾؛ أي: ما خلقناهما إلا لحكمة، حال كون أكثرهم لا يعلمون ذلك، ولكنها حال سببية.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه، ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ خبره، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد للضمير في ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾، والجملة مستأنفة ﴿يَوْمَ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو ظرف لما دل عليه الفصل؛ أي: يفصل بينهم يوم لا يغني ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُغْنِى﴾: فعل مضارع. ﴿مَوْلًى﴾: فاعل، ﴿عَن مَّوْلًى﴾: متعلق بـ﴿يُغْنِى﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، أو مفعول مطلق؛ أي: إغناءً شيئاً؛ أي: قليلاً وجملة ﴿لَا يُغْنِى﴾ في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: نافية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُنصَرُونَ﴾ خبره، وهو مبني للمجهول، والواو نائب فاعل، والجملة الاسمية في محل الجر، معطوفة على جملة ﴿لَا يُغْنِى﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع،

بدل من ﴿الواو﴾ في ﴿يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله تعالى، ويجوز النصب على الاستثناء، فيكون منقطعاً كما مر، ﴿رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل والجملة صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: إلا من رحمه الله، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه: ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾: خبران، لـ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾، ناصب واسمه، ومضاف إليه، ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ خبره ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: خبر ثان لـ﴿إنَّ﴾. ﴿يَغْلِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾، ﴿فِى ٱلْبُطُونِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾، أو من ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾، ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: يغلي غلياناً، مثل غليان الحميم.

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿خُذُوهُ﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال للزبانية خذوه، ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿اعتلوه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿خُذُوهُ﴾، ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اعتلوه﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿صُبُّوا۟﴾: فعل أمر وفاعل، معطوف على ﴿اعتلوه﴾. ﴿فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾، ظرف متعلق بـ﴿صُبُّوا۟﴾، ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ متعلق بـ﴿صُبُّوا۟﴾ أيضاً، فـ﴿من﴾ تبعيضية، وهو من إضافة الصفة للموصوف، أو المسبب إلى السبب اهـ شيخنا. ﴿ذُقْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال له: ذق ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنتَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ خبران لـ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مقول للقول المحذوف، على كونها معللة لما قبلها. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ناصب واسمه ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل

الرفع خبر، ﴿إنّ﴾. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تَمۡتَرُونَ﴾ وجملة ﴿تَمۡتَرُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد ضمير ﴿بِهِۦ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب، مقول للقول المحذوف.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: ناصب واسمه ﴿فِي مَقَامٍ﴾: خبره. ﴿أَمِينٖ﴾: صفة لـ﴿مَقَامٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾﴾: بدل من ﴿فِي مَقَامٍ﴾: بإعادة الجار، ﴿يَلۡبَسُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن سُندُسٖ﴾: متعلق به. ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ معطوف على ﴿سُندُسٖ﴾، وجملة ﴿يَلۡبَسُونَ﴾ إما خبر ثان لـ﴿إن﴾، أو في محل النصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، الواقع خبراً لـ﴿إن﴾، ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: حال من الضمير في ﴿يَلۡبَسُونَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الأمر كذلك، وهذه الجملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه، جيء بها للتقرير، ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يَلۡبَسُونَ﴾، أو على محذوف إن قلنا إن الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف كما مر. ﴿بِحُورٍ﴾: متعلق بـ﴿زوجناهم﴾، ﴿عِينٖ﴾ صفة لـ﴿حور﴾، ﴿يَدۡعُونَ﴾: فعل وفاعل، حال من الهاء في ﴿زوجناهم﴾، ﴿فِيهَا﴾: حال من فاعل ﴿يَدۡعُونَ﴾، ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَدۡعُونَ﴾، ﴿ءَامِنِينَ﴾: حال من فاعل ﴿يَدۡعُونَ﴾ أيضاً؛ أي: لا يخافون من مغبة أكلها ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَذُوقُونَ﴾ فعل وفاعل، حال من الضمير المستكن في ﴿ءَامِنِينَ﴾، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿يَذُوقُونَ﴾، ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾: مفعول به، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء منقطع ﴿ٱلۡمَوۡتَةَ﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ صفة لـ﴿ٱلۡمَوۡتَةَ﴾، ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به أول معطوف على ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾، ﴿عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ مفعول ثان لـ﴿وقاهم﴾.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿فَضْلًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: تفضلنا بذلك المذكور فضلاً، ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾: صفة لـ﴿فَضْلًا﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: خبره. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة لـ﴿ٱلْفَوْزُ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما بيناه لك في هذه السورة، وأردت بيان نتيجته.. فأقول لك: ﴿إنما﴾: أداة حصر، ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿بِلِسَانِكَ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ﴿لعل﴾ حرف ترج مستعار للتعليل، فتكون بمعنى كي، والهاء اسمها، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، على كونها معللة لما قبلها، ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة أيضاً؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت تيسيره لتذكيرهم، وأبوا من التذكر به، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ارتقب. ﴿ارتقب﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، مستأنفة. ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، على كونها مسوقة لتعليل الأمر بالارتقاب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾؛ أي: بمبعوثين، يقال: نشر الله الموتى وأنشرهم إذا أحياهم. ﴿تُبَّعٍ﴾ بوزن سكر، واحد التبابعة، وهم ملوك اليمن، وهذا اللقب أشبه بفرعون لدى قدماء المصريين، وكان منهم سبعون تبعاً، قال النعمان بن بشير الأنصاري:

لَنَا مِنْ بَنِي قَحْطَانَ سَبْعُوْنَ تُبَّعاً ... أَطَاعَتْ لَنَا بِالْخَرْجِ مِنَّا الأَعَاجِمُ

وَمِنَّـا سَـرَاةُ ٱلنَّـاسِ هُـوْدٌ وَصَـالِـحٌ   وَذُو ٱلْكِفْلِ مِنَّا وَٱلْمُلُوْكُ ٱلأَعَـاظِمُ

وهم طبقتان:

الطبقة الأولى: ملوك سبأ وريدان، من سنة ١١٥ قبل الميلاد، إلى ٢٧٥ بعده.

والطبقة الثانية: ملوك سبأ وريدان، وحضرموت، والشحر من سنة (٢٧٥) بعد الميلاد، إلى سنة (٥٢٥)، وأولهم شمر برعش، وآخرهم ذو نواس، ثم ذو جدن، ومنهم ذو القرنين، أو إفريقش ويسمى الصعب، وبعده عمرو زوج بلقيس، ثم أبو بكر ابنه، ثم ذو نواس، والذين اشتهروا من هؤلاء الملوك ثلاثة، شمر برعش، وذو القرنين، وأسعد أبو كرب، وتفاصيل أخبارهم مبثوثة في بطون كتب التاريخ المطولة، فليرجع إليها من استهوته قراءة الأساطير الممتعة، وما فيها من قصص عجيبة.

والظاهر: أن تبعاً الأول سمي به لكثرة قومه وتبعه، ثم صار لقباً لمن بعده من الملوك، سواء كانت لهم تلك الكثرة والأتباع، أم لا. ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾؛ أي: ميقات كفار مكة وسائر الناس؛ أي: وقت وعدهم الذي ضرب لهم في الأزل، وأصل الميقات: موقات قلبت الواو ياءً لسكونها إثر كسرة، فصارت حرف مد، قال في «بحر العلوم»: ميقاتهم؛ أي: حدهم الذي يوقتون به ولا ينتهون إليه، ومنه مواقيت الإحرام على الحدود، التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً، فإنَّ الميقات ما وقت به الشيء؛ أي: حد. قال ابن الشيخ: الفرق بين الوقت والميقات أن الميقات وقت يقدر؛ لأن يقع فيه عمل من الأعمال، وأن الوقت ما يقع فيه شيء، سواء قدره مقدر لأن يقع فيه شيء، أم لا.

﴿لَا يُغْنِى مَوْلًى﴾ في «المختار»: المولى المعتق والمعتَق وابن العم والناصر والجار والحليف، اهـ. وفي «القرطبي»؛ أي: لا يدفع ابن عم عن ابن عمه، ولا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه شيئاً اهـ. وأصله مولي بوزن مفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ وفي «المفردات»: شجرة الزقوم عبارة عن أطعمة كريهة في النار، ومنه استعير زقم فلان وتزقم، إذا

ابتلع شيئاً كريهاً. وفي «المراغي»: شجرة الزقوم هي شجرة ذات ثمر مر، تنبت بتهامة، شبهت بها الشجرة التي تنبت في الجحيم وفي «القاموس»: الزقم اللقم، والتزقم التلقم، وأزقمه فازدقمه أبلعه فابتلعه، والزقوم كتنور الزبد بالتمر، وشجرة بجهنم ونبات بالبادية له زهر ياسميني الشكل، وطعام أهل النار، وشجرة بأريحاء من الغور، لها ثمر كالتمر حلو عفص، ولنواه دهن عظيم المنافع، عجيب الفعل في تحليل الرياح الباردة، وأمراض البلغم، وأوجاع المفاصل والنقرس، وعرق النسا، والريح اللاحجة في حق الورك، يشرب منه زنة سبعة دراهم ثلاثة أيام، وربما أقام الزمنى والمقعدين، ويقال: أصله الأهليلج، والزقمة الطاعون، انتهى ﴿ٱلۡأَثِيمِ﴾ الكثير الآثام والذنوب، وهو الكافر.

﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ المهل بضم الميم، له معان كثير، واللائق منها هنا دردي الزيت وعكر القطران، والصديد والقيح والنحاس المذاب. والمهل بالفتح التؤدة والرفق، ومنه ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. ﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ والغلي والغليان: التحرك والارتفاع. قال في «المفردات». الغلي والغليان، يقال في القدر إذا طفحت؛ أي: امتلأت وارتفعت، ومنه استعير ما في الآية، وبه شبه غليان الغضب والحرب.

﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾؛ أي: جروه بالعنف والقهر. وفي «المختار»: عتل الرجل جذبه جذباً عنيفاً، وبابه ضرب ونصر، فقولهم: العتال للذي ينقل الأحمال بالأجرة صحيح لا غبار عليه، والحرفة العتالة، وفي «القاموس»: العتلة محركةً، المدرة الكبير تنقلع من الأرض، وحديدة كأنها رأس فأس، والعصا الضخمة من حديد لها رأس مفلطح، يهدم بها الحائط، اهـ. والعُتُلُّ الجافي الغليظ، والعتل أن تأخذ بمنكبي الرجل فتجره إليك، وتذهب به إلى حبس أو محنة، وقال ابن السكيت: عتلته إلى السجن، وأعتلته إذا دفعته دفعاً عنيفاً. ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وسطها. ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾ الماء الذي تناهي حره ﴿ذُقۡ﴾ أمر من ذاق يذوق، وأصل يَذُوق يَذْوُق، بوزن يفعل نقلت حركة الواو إلى الذال، فسكنت إثر ضمة فصار يذوق، فلما بني منه الأمر قيل: ذوق فالتقى ساكنان فحذفت الواو، وهكذا شأن

كل ثلاثي أجوف واوي العين، كقل من قال، وكن من كان مثلاً.

﴿تَمْتَرُونَ﴾ أصله: تمتريون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت، حذفت لالتقاء الساكنين، ثم ضمت الراء لمناسبة الواو، فصار تمترون ﴿فِي مَقَامٍ﴾ قرىء مقام بفتح الميم، وأصله: مقوم بوزن مفعل بفتح العين، نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال، وقرىء مقام بضم الميم، اسم مكان من أقام فعل به ما فعل بالأول.

﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾؛ أي: في مجلس أمنوا منه من كل هم وحزن، وأصل الأمن: طمأنينة النفس، وزوال الخوف، والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر، ويستعمل الأمان تارةً اسماً للحالة التي عليها الإنسان في الأمن، وتارةً اسماً لما يؤتمن عليه الإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾؛ أي: ما ائتمنتم عليه. ﴿مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السندس هو مارقَّ من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه. وفي «المصباح»: والديباج ثوب سداه ولحمته إبريسم، ويقال: هو معرب، انتهى. ثم إن الإستبرق من كلام العجم، عرب بالقاف، قال في «القاموس»: الإستبرق الديباج الغليظ. معرب إستروه، وتصغيره أبيرق، وستبر بالتاء والطاء، بمعنى: الغليظ بالفارسية، قال الجواليقي في «المعربات»: نقل الإستبرق من العجمية إلى العربية، فلو حقر أو كسر لكان في التحقير أبيرق، وبالتكسير أباريق، بحذف السين والتاء جميعاً، انتهى. والتعريب: جعل العجمي بحيث يوافق اللفظ العربي، بتغييره عن منهاجه، وإجرائه على أوجه الإعراب، وجاز وقوع اللفظ العجمي في القرآن العربي؛ لأنه إذا عرب خرج من أن يكون عجمياً إذا كان متصرفاً تصرف اللفظ العربي من غير فرق، فمن قال: القرآن أعجمي فقد كفر؛ لأنه عارض قوله تعالى: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، وإذا قال: فيه كلمة أعجمية، ففي أمره نظر؛ لأنه إن أراد وقوع الأعجمي فيه بتعريب فصحيح، وإن أراد وقوعه بلا تعريب فغلط.

﴿بِحُورٍ﴾ بوزن فعل بضم العين، جمع حوراء كحمر وحمراء. ﴿عِينٍ﴾ جمع عيناء، وقياسه أن يجمع على فعل بضم الفاء، كما جمعت حوراء على حور،

لكن الفاء كسرت لمناسبة الياء. ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ الأصل فيه يذوقون نقلت حركة الواو إلى الذال، فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مد فوزنه يفعلون. ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ والموت والموتة مصدران من فعل واحد كالنفخ والنفخة، كما مر ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ الأصل فيه ووقيهم بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، والوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه، ويضره.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإشارة بالقريب إليهم في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾﴾ للتحقير والازدراء بهم.

ومنها: التجهيل لمنكري الحشر في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وتوكيده بحرف الاستدراك؛ لأن إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات بأسرها ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾، اهـ «كرخي»؛ أي: ليس عندهم علم بالكلية.

ومنها: أسلوب التعجيز في قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

ومنها: الاستفهام الذي يطلب به، وبأمْ تعيين أحد الأمرين، في قوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ...﴾ إلخ، والمراد: التهديد لهم؛ لأنه لا خيرية في الفريقين.

ومنها: تنكير مولى في الموضعين في قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ لغرض الإبهام فإن المولى مشترك بين معان كثيرة، يطلق على المالك والعبد والمعتق والصاحب والقريب، كابن العم ونحوه والجار والحليف والابن والعم والنزيل والشريك وابن الأخت والولي والرب والناصر والمنعم والمنعم عليه والمحب والتابع والصهر، كما في «القاموس». وكل من ولي أمر أحد، فهو وليه ومولاه، فواحد من هؤلاء أي واحد كان، لا يغني عن مولاه أي مولىً كان، شيئاً من الإغناء؛ أي: إغناء قليلاً.

ومنها: تنكير شيئاً في قوله: ﴿عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ لإفادة التقليل.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ شبه بالمهل في كونه غليظاً أسود.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ فإن الغليان حقيقة في امتلاء القدر، وارتفاع ما فيها.

ومنها: الايجاز بالحذف في قوله: ﴿خُذُوهُ﴾؛ أي: يقال للزبانية: خذوه.

ومنها: الاستعارة المكنية التخييلية، في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ فقد شبه العذاب بالمائع، ثم خيل له بالصب.

ومنها: أسلوب التهكم والسخرية في قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ فالتهكم عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع النذارة، وبالوعد في مكان الوعيد، تهاوناً من القائل بالمقول له، واستهزاءً به، وقد تقدمت أمثلته في مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ وهو أغيظ للمستهزأ به، وأشد إيلاماً له.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ فإن وصف المقام بالأمن من المجاز العقلي، كما في قولهم: جرى النهر، ففيه إسناد ما للحالّ إلى المحل، وفيه الاستعارة التخييلية، إن قلنا إن الأمين من الأمانة، التي هي ضد الخيانة، كما قاله الزمخشري، كأن المكان المخيف يحزن صاحبه ونازله، بما يلقى فيه من المكاره، أو الكناية؛ لأن الوصف إذا أثبت في مكان الرجل، فقد أثبت له كقولهم: المجد بين ثوبيه، والكرم بين برديه.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ للتعظيم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من المقاصد

١ ـ بيان بدء نزول القرآن.

٢ ـ وعيد الكافرين بحلول الجدب والقحط بهم.

٣ ـ عدم إيمانهم مع توالي النكبات بهم.

٤ ـ عظة الكافرين بقصص فرعون، وقومه مع موسى عليه السلام، وقد أنجى الله المؤمنين، وأهلك الكافرين.

٥ ـ إنكار المشركين للبعث، وقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

٦ ـ إقامة الدليل على نبوة محمد ﷺ.

٧ ـ وصف أهوال يوم القيامة.

٨ ـ وصف ما يلاقيه المجرمون من النكال والوبال.

٩ ـ وصف نعيم المتقين، وحصولهم على كل ما يرغبون.

والله أعلم

* * *

سورة الجاثية

وتسمى سورة الشريعة، هي مكية كلها في قول الحسن، وجابر، وعكرمة. نزلت بعد الدخان، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وابن الزبير: أنها نزلت بمكة، ورُوي عن ابن عباس، وقتادة: أنهما قالا: إلا آية منها، وهي قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ فإنها نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب كما سيأتي، وهي سبع أو ست وثلاثون آية، وأربع مئة وثمان وثمانون كلمة، وألفان ومئة وأحد وتسعون حرفاً.

التسمية: سميت سورة الجاثية؛ لأنه يذكر فيها الأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب، فيجثون من الفزع منها على الركب، وفي «التفسير المنير»: سميت سورة الجاثية أخذاً من الآية المذكورة فيها: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: جميع آياتها محكم غير آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ الآية (١٤) نزلت في عمر بن الخطاب، ثم نسخت بآية السيف.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها: أن أول هذه السورة مشاكل لآخر سابقتها في الأغراض والمقاصد. وقال[١] أبو حيان: مناسبة أولها لآخر ما قبلها في غاية الوضوح، والظهور؛ لأنه قال في آخر السابقة: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾، وقال في أول هذه: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

وفي «التفسير المنير»: تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجهين:

---

(١) البحر المحيط.

١ ـ ابتدأت هذه السورة بالكلام عن تنزيل القرآن من الله تعالى، والذي هو مكمل لما ختمت به السورة المتقدمة.

جعل القرآن بلغة النبي ﷺ، ولغة قومه العرب، فهو عربي اللسان نصاً، وفحوى ومعنى وأسلوباً، وفي ذلك حث على اتباعه، والإيمان به.

٢ ـ تشابه السورتين في الغايات الكبرى، التي يستهدفها القرآن، وهي إثبات وحدانية الله تعالى، من خلال بيان أدلة القدرة الإلهية، في خلق السموات والأرض، ومناقشة الكفار في عقائدهم الفاسدة، وضرب الأمثال من مصائر الأمم الغابرة، التي أهلكها الله سبحانه، لتكذيبهم الرسل.

والله أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ
(٣) وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٥) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ
بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ (٦) وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ (٧) يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ
يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ
عَذَابٞ مُّهِينٞ (٩) مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ
وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ (١١) ۞ ٱللَّهُ
ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ
لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (١٤) مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ
أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ (١٥) وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٦) وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا
جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ
جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ
عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ
وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ (٢٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ (٦) ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما[1] ذكر آيات القرآن العظيم.. أشار إلى ما لها من علو المرتبة، ورفيع الدرجة، ثم أوعد من كذبوا بها بعد سماعها، وأصروا على كفرهم بها بالويل والثبور،

---

(١) المراغي.

وعظائم الأمور، ثم بين أن عاقبتهم النار، وبئس القرار، ولا تنفعهم أصنامهم شيئاً، ولا تدفع عنهم ما قدر لهم من العذاب.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[1] فيما سلف الحجج الدالة على ربوبيته، ووحدانيته.. أردف بذكر آثارها، فمن ذلك تسخير السفن في البحار، حاملة للأقوات والمتاجر، رجاء أن تشكروا ما أنعم به عليكم، ومنها تسخيره ما في السموات والأرض من شموس وأقمار وبحار وجبال لتنتفعوا بها في مرافقكم وشؤونكم المعيشية، ثم أمر المؤمنين بأحسن الأخلاق، فطلب إليهم أن يصفحوا عن الكافرين، ويحتملوا أذاهم، وعند الله جزاؤهم، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، ويوم القيامة يعرضون على ربهم، ويجازي كل نفس بما كسبت من خير أو شر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر[2] فيما سلف من آيات ربوبيته، ووحدانيته، تسخير السفن في البحار، حاملةً للأقوات والمتاجر، وتسخير ما في السموات والأرض.. بين هنا، أنه أنعم على بني إسرائيل بنعم كثيرة، وقد حصل بينهم الاختلاف بغياً وحسداً، تسليةً لرسوله ﷺ، بأن قومه ليسوا ببدع في الأمم، بل طريقهم طريق من تقدمهم، ثم أمر رسوله بأن يتمسك بالحق، ولا يكون له غرض سوى إظهاره، ولا يتبع أهواء الجاهلين الضالين، ثم ذكر أن القرآن معالم للهداية، تهتدي به القلوب الضالة عن طريق الحق، فتلزم الجادة وتصل إلى طريق النجاة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حمٓ ①﴾؛ أي: هذه[3] السورة مسماة بـ﴿حم﴾، فهو خبر لمبتدأ

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

محذوف، إن جعلناه اسماً للسورة، أو مبتدأ خبره ما بعده، وإن جعل حروفاً مسرودة على نمط التعديد، فلا محل له من الإعراب. وفي «التأويلات النجمية»: يشير بالحاء إلى حياته، وبالميم إلى مودته، كأنه قال: أقسمت بحياتي ومودتي لأوليائي، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: تنزيل القرآن المشتمل على السور مطلقاً، خصوصاً هذه السورة الجليلة، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: واقع منه سبحانه وتعالى، والجملة جواب القسم، فدل على أن القرآن حق وصدق ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾فدل على أنه معجز، غالب غير مغلوب ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ فدل على أنه مشتمل على حكم بالغة، وعلى أنه ناسخ غير منسوخ، فليس كما يزعم المبطلون، من أنه شعر أو كهانة، أو تقول من عنده ﷺ، ممكن معارضته، وأنه كأساطير الأولين مثل حديث رستم، وإسفنديار وغيرهما، فيجب أن يعرف قدره، وأن يكون الإنسان مملوءاً به صدره.

والمعنى: تنزيل هذا الكتاب واقع من الله العزيز في ملكه، الحكيم في أمره وقضائه.

ثم أخبر سبحانه، بما يدل على قدرته الباهرة، فقال: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إن في خلقهما، وخلق ما فيهما من آثار القدرة كالكواكب، والجبال والبحار، ونحوها ﴿لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لشواهد الربوبية لأهل التصديق، وأدلة الإلهية لأهل التوفيق، خص المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بتلك الآيات والدلالات، فإنهم يستدلون بالمخلوق على الخالق، وبالمصنوع على الصانع، فيوحدونه، وهو أول الباب، ولذا قدم الإيمان على الإيقان، ولعل[1] الوجه في طي ذكر المضاف هنا، وهو الخلق، وإثباته في الآية الآتية أن خلق السموات والأرض ليس بمشهود للخلق، وإن كانتا مخلوقتين، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بخلاف خلق الإنسان، وما يلحق به من خلق سائر الدواب، فإنه كما أنه يستدل بخلقه على خالقه، فكذا يشاهد خلقه وتوالده،

(١) روح البيان.

فتكون المخلوقية فيه أظهر من الأول، هكذا لاح بالبال، والله أعلم بحقيقة الحال.

ومعنى الآيتين[1]: أي إن هذا الكتاب الكريم، أنزله العزيز الغالب، القاهر لكل شيء، الحكيم في تدبيره لكل ما خلق، فهو سبحانه مع قهره للعوالم المادية، والروحية، لا يتصرف إلا بالحكمة كما يشاهد في النبات والحيوان والأجسام الإنسانية، ودوران الكواكب وانتظامها في سيرها، فكل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة في صنعها، ومن ثم، أعقب ذلك بنتائج العزة والحكمة، فقال: إن في السموات السبع، اللاتي منهن ينزل الغيث، وفي الأرض التي منها يخرج الخلق، لأدلةً واضحةً للمصدقين بالحجج، إذا تأملوها، وفكروا فيها تفكير من سلك السبيل القويم، فيرتب المقدمات ليصل منها إلى النتائج التي هي لازمة لها، بحكم النظام الفكري، والترتيب العقلي.

وبعد أن ذكر الأدلة الكونية التي في الآفاق، أتبعها بذكر الأدلة التي في الأنفس، فقال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أنفسكم أيها الإنسان من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة متقلبة في أطوار، مختلفة إلى تمام الخلق ﴿و﴾ في خلق ﴿ما يبث﴾ـه اللّه سبحانه وتعالى وينشره، ويفرقه في الأرض، حال كونه ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ وحيوانات تدب على الأرض، وما الموصولة معطوفة على المضاف إليه، والمعنى: وفي خلق ما ينشره الله تعالى، ويفرقه من دابة، وهي كل ما يدب على وجه الأرض من الحيوان مع اختلاف صورها، وأشكالها، وكثرة أنواعها، وأضمر ذكر الله هنا، لقرب العهد منه بخلافه في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كما سيأتي. ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ مؤخر، خبره الظرف المقدم، والجملة معطوفة على ما قبلها من الجملة المصدرة بإنّ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لقوم من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه، واليقين علم فوق المعرفة والدراية، ونحوهما، وبينه وبين الإيمان فروق كثيرة، وحقيقة الإيمان هو اليقين، حين باشر الأسرار بظهور الأنوار، ألا ترى كيف سأل رسول الله ﷺ بقوله: «اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي، ويقيناً ليس بعده كفر».

---

(١) المراغي.

يقول الفقير: لم يقل: للموقنين كما قال للمؤمنين، إشارةً إلى قلة هذا الفريق بالنسبة إلى الأول. وخص الإيقان بخلق الأنفس، لأن ما قبله من الإيمان بالآفاق، وهو ما خرج عنك، وهذا من الإيمان بالأنفس، وهو ما دخل فيك، وهذا أخص درجات الإيمان، فإنه إذا أكمل الإيمان في مرتبة الإيمان بترقي العبد إلى المشاهدة في مرتبة الأنفس، فكمال اليقين إنما هو في هذه المرتبة، لا في تلك المرتبة؛ لأن العلم بما دخل فيك أقوى منه بما خرج عنك، إذ لا يكذبه شيء، ولذا جاء العلم الضروري أشد من العلم الاستدلالي، وضم خلق الدواب إلى خلق الإنسان لاشتراك الكل في معنى الجنس، فافهم جداً، واقنع.

وفي «التأويلات النجمية»: أن العبد إذا أمعن نظره في حسن استعداده ظاهراً وباطناً، وأنه خلق في أحسن تقويم، ورأى استواء قده وقامته، وحسن صورته وسيرته، واستكمال عقله وتمام تمييزه وما هو مخصوص به في جوارحه وجوانبه، ثم تفكر فيما عداه من الدواب وأجزائها وأعضائها وأوصافها وطباعها.. وقف على اختصاص وامتياز بني آدم بين البرية من الجن في الفهم والعقل والتمييز ثم في الإيمان ومن الملائكة في حمل الأمانة، وتعلم علم الأسماء.

والمعنى: أي وإن في خلق الله إياكم على أطوار مختلفة من تراب، ثم من نطفة إلى أن تصيروا أناسي، وفي خلق ما تفرق في الكون من الدواب لحججاً لقوم يوقنون بحقائق الأشياء، فيقرونها بعد العلم بصحتها.

﴿و﴾ في ﴿اختلاف الليل والنهار﴾ بتعاقبهما أو بتفاوتهما طولاً وقصراً، أو بسواد الليل، وبياض النهار ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عطف على ﴿اختلاف﴾ ﴿مِن رِّزْقٍ﴾؛ أي: مطر، وهو سبب الرزق، عبر عنه بذلك تنبيهاً على كونه آية من جهتي القدرة والرحمة ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزروع والثمرات والنباتات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: بعد يبسها، وعرائها عن آثار الحياة، وانتفاء قوة التنمية عنها، وخلو أشجارها عن الثمار، ففيه[1] تشبيه للرطوبة الأرضية بالروح الحيواني في كونها مبدأ التوليد، والتنمية، وتشبيه زوالها بزوال الروح وموت

الجسد ﴿و﴾ في ﴿تصريف الرياح﴾؛ أي: وفي تحويلها من جهة إلى أخرى، وتبديلها من حال إلى حال، إذ منها مشرقية ومغربية وجنوبية وشمالية وحارة وباردة ونافعة وضارة.

وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه في الوجود، إما للإيذان بأنه آية مستقلة، حيث لو روعي الترتيب الوجودي، لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح، وإنزال المطر آية واحدة، وإما لأن كون التصريف آيةً ليس لمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر، بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السفن في البحار ﴿ءَايَٰتٌ﴾ ودلالات على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: يستعملون عقولهم في مصنوعات الله تعالى، ويتأملون فيها، فيثبتون وجود صانعها وعظيم قدرته، وباهر حكمته.

والمعنى(١): أي وإن في تعاقب الليل والنهار عليكم، هذا بظلمته وسواده، وذلك بنوره وضيائه، وفيما أنزل الله من السماء من مطر تحيا به الأرض بعد موتها، فتهتز بالنبات والزرع من بعد جدوبها وقحوطها، فتخرج أرزاق العباد وأقواتهم، وفي تصريف الرياح لمنافعكم شماليةً مرة، وجنوبية أخرى، صباً مرة، ودبوراً أخرى، لأدلة وحججا لله على خلقه، الذي يعقلون عنه حججه، ويفهمون ما وعظهم به من الآيات والعبر.

وقصارى ما سلف كله: أنكم إذا تأملتم الحكم المنبثة في السموات والأرض.. آمنتم بوحدة خالقها وقدرته، فإذا ازددتم علماً.. ازداد تثبتكم وفهمكم، فصرتم موقنين بها، لأن الإيقان يكون بتوافر الأدلة وتكاثرها، ومتى أيقنتم بجمال هذا الكون وحسن نظامه.. أصبحتم من ذوي العقول الناضجة، والأفكار النافذة في أسرار هذا الكون، وبديع صنعه، فتستطيعون أن تنتفعوا بما فيه، وتسخروه لمنافعكم في هذه الحياة المليئة بالمطالب.

وإجمال ذلك: أن أول المراتب الإيمان بالله، فإذا ازداد المرء علماً وحكمة

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وبحثاً في دقائق الأشياء وعظائمها أصبح موقناً به وكلما ازداد بحثاً، ازداد عقله دراية، وفهما لأسرار هذا الكون، فسخره لمنافعه، واستفاد من نظمه التي وجد عليها، وعرف أنه لم يخلق عبثاً، بل خلق للانتفاع بما في ظاهره وباطنه، علويه وسفليه، أرضه وسمائه، نوره وظلامه، فكأنه يقول: إنا أمرناكم بالنظر في العالم لتؤمنوا، فإذا ازددتم نظراً أيقنتم بي، وذلك كله مما يربي عقولكم، ويكملها إلى أقصى حدود طاقتها البشرية.

وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلت: لم ختم[1] الآية الأولى بقوله ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، والثانية بقوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾، والثالثة بقوله ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

قلتُ: لأنه تعالى، لما ذكر العالم ضمناً، ولا بد له من صانع، موصوف بصفات الكمال، ومن الإيمان بالصانع، ناسب ختم الأولى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولما كان الإنسان أقرب إلى الفهم من غيره، وكان فكره في خلقه وخلق الدواب، مما يزيده يقيناً في إيمانه، ناسب ختم الثانية بقوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾، ولما كان جزئيات العالم من اختلاف الليل والنهار، وما ذكره معهما مما لا يدرك إلا بالعقل، ناسب ختم الثالثة بقوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾، انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ جمعاً بالرفع فيهما، وقرأ الأعمش والجحدري وحمزة والكسائي ويعقوب: بالنصب فيهما، وزيد بن علي: برفعهما على التوحيد، وقرأ أبي وعبد الله: ﴿لآيات﴾ فيهما كالأولى، وتنكير آيات[3] في المواضع الثلاثة للتفخيم كما وكيفا، والعقل يقال: للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل، ولهذا قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

فَإِنَّ ٱلْعَقْلَ عَقْلاَنِ ... فَمَطْبُوْعٌ وَمَسْمُوْعُ
وَلاَ يَنْفَعُ مَطْبُوْعٌ ... إِذَا لَمْ يَكُ مَسْمُوْعُ

---

(١) فتح الرحمٰن.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

كَـمَـا لاَ تَـنْـفَـعُ ٱلـشَّـمْـسُ   وَضَـوْءُ ٱلْـعَـيْـنِ مَـمْـنُـوْعُ

وإلى الأول أشار النبي ﷺ بقوله: «ما خلق الله خلقاً، أكرم عليه من العقل». وإلى الثاني أشار بقوله: «ما كسب أحد شيئاً، أفضل من عقل يهديه إلى هدى، أو يرده عن ردى»، وهذا العقل هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾، وكل موضع ذم الكفار بعدم العقل، فإشارة إلى الثاني دون الأول، وكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقل، فإشارة إلى الأول، كما في «المفردات».

والمعنى[1]: لقوم ينظرون بعيون عقولهم، ويعتبرون لأنها دلائل واضحة على وجود صانعها وعظيم قدرته وبالغ حكمته، وخص العقلاء بالذكر؛ لأنه بالعقل يمكن الوقوف على الدلائل. يقول الفقير: لعل سر تخصيص العقل بهذا المقام، وتأخيره عن الإيمان والإيقان، أن هذه الآية دائرة بين علوي وسفلي وما بينهما، وللعقل مدخل تعقل كل ذلك، واشتراك بين الإيمان والإيقان، فافهم جداً.

﴿تِلْكَ﴾ الآيات القرآنية من أول السورة إلى هنا، وهو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، المنبهة على الآيات التكوينية ﴿نَتْلُوهَا﴾ ونقرؤها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد بواسطة جبريل، حال كوننا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: محقين، أو حال كون الآيات متلبسةً بالحق والصدق، بعيدةً من الباطل والكذب، وقرىء ﴿يتلوها﴾ بياء الغيبة عائداً على الله، وقال في «بحر العلوم»: نتلوها عليك، حال عاملها معنى الإشارة، كأنه قيل: نشير إليها متلوة عليك، تلاوة متلبسة بالحق مقترنة به، بعيدةً من الباطل واللعب والهزل، كما قال: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾، انتهى. ويجوز أن تكون إشارةً إلى الدلائل المذكورة؛ أي: تلك دلائله الواضحة على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته نتلوها عليك؛ أي: بتلاوة النظم الدال عليها ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ من الأحاديث، وخبر من الأخبار ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ﴾؛ أي: وبعد آيات الله، وتقديم الاسم الجليل لتعظيمه، كما في قولهم: أعجبني زيد

---

(١) روح البيان.

وكرمه، يريدون أعجبني كرم زيد، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ فإن اسم الله هنا أيضاً، مذكور بطريق التعظيم كما سبق هناك، أو معنى: بعد الله؛ أي: بعد حديث الله الذي هو القرآن، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وهو المراد بآياته أيضاً، ومناط العطف التغاير العنواني ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: أن القرآن من بين الكتب السماوية معجزة باهرة، فحيث لم يؤمنوا به، فبأي كتاب بعده يؤمنون؛ أي: لا يؤمنون بكتاب سواه، وقيل: المعنى القرآن آخر كتب الله، ومحمد ﷺ آخر رسله، فإن لم يؤمنوا به، فبأي كتاب يؤمنون، ولا كتاب بعده ولا نبي.

وقرأ[1] أبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة ونافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء التحتانية، وقرأ الأعمش، وباقي السبعة: ﴿تؤمنون﴾ بتاء الخطاب، وقرأ طلحة: ﴿توقنون﴾ بالتاء من فوق، وبالقاف من الإيقان والمعنى: يومنون بأي حديث، وإنما قدم الجار عليه؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام.

والمعنى[2]: أي هذه آيات القرآن بما فيها من حجج، وبينات نتلوها عليك، متضمنة للحق، فبأي حديث أيها القوم، بعد حديث الله الذي يتلوه على رسوله، وبعده حججه وبرهاناته، التي دلكم بها على وحدانيته، تصدقون إن كذبتم به.

والخلاصة: إذا كنتم لا تؤمنون بهذه الآيات، ولا تنقادون لها فبم تؤمنون وإلام تنقادون.

وبعد أن بين للكفار آياته، وذكر أنهم إن لم يؤمنوا بها فبأي حديث بعدها يؤمنون، أتبعه بالوعيد العظيم لهم، فقال: ﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: عذاب شديد كائن ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾؛ أي: لكل كذّاب ﴿أَثِيمٍ﴾؛ أي: كثير الإثم مرتكب لما يوجبه؛ أي: فالويل أشد الويل، والعذاب أقسى العذاب لكل كذاب، في قوله أثيم في فعله،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وبعد أن وصف هذا الأفاك بالإثم أولاً. أتبعه بوصفه بالاستكبار عن سماع الآيات، فقال: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة أخرى لأفاك، والمراد: آيات القرآن، لأن السماع إنما يتعلق بها، وكذا التلاوة في قوله: ﴿تُتْلَىٰ﴾ وتقرأ تلك الآيات ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على ذلك الأفاك، والجملة حال من ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾. ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ ويقيم ذلك الأفاك على كفره، ويدوم عازماً عليه عاقداً. قال في «المفردات»: الإصرار: التعقد في الذنب، والتشدد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله: من الصر؛ أي: الشد، والصرة ما يعقد فيها الدراهم، أو من إصرار الحمار على العانة، وهو أن ينحني عليها صاراً؛ أي: ضاما أذنيه على رأسه، حال كونه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بما سمعه من آيات الله تعالى، والإذعان بما نطق به من الحق، مزدرياً لها معجباً بما عنده من الأباطيل، وكان[1] النضر بن الحارث بن عبد الدار، وقد قتل صبراً، يشتري من أحاديث العجم مثل حديث رستم وإسفنديار، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، فوردت الآية ناعيةً عليه وعلى كل من يسير سيرته فيما هم فيه من الشر والفساد، وذلك التعميم لكلمة الإحاطة والشمول، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإصرار، والاستكبار بعد سماع الآيات، التي حقها أن تذعن لها القلوب، وتخضع لها الرقاب، فهي محمولة على المعنى المجازي؛ لأنه الأليق بمرام المقام، وإن كان يمكن الحمل على الحقيقة أيضاً، باعتبار منتهى الإصرار ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾؛ أي: يصر مستكبراً كأنه لم يسمع تلك الآيات، و﴿كَأَن﴾ مخففة، واسمها ضمير الشأن، والجملة حال من فاعل ﴿يُصِرُّ﴾؛ أي: ثم يصر على كفره مستكبراً، مشابها حاله حال من لم يسمعها؛ أي: مشبهاً بغير السامع في عدم القبول، والانتفاع ﴿فَبَشِّرْهُ﴾؛ أي: فبشر يا محمد ذلك الأفاك على إصراره واستكباره، وعدم استماعه إلى الآيات ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: وجيع؛ أي: أنذره بعذاب شديد، فإن ذكر العذاب قرينة على الاستعارة، استعيرت البشارة التي هي الإخبار بما يظهر السرور في المخبربه، للإنذار الذي هو ضده، بإدخال الإنذار في جنس البشارة على سبيل التهكم والاستهزاء، هذا

---

(١) روح البيان.

إذا أريد المعنى المتعارف للبشارة، وهو الخبر السار، ويجوز أن يكون على الأصل، فإنها بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذي يؤثر في بشرة الوجه بالتغيير، وهو يعم خبر السرور والحزن، ولذا قال في «كشف الأسرار»؛ أي: أخبره خبراً يظهر أثره على بشرته من الترح، وعبارة أبي حيان: فمعنى[1] ﴿ثُمَّ﴾ الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعد مارآها، وعاينها شيء يستبعد في العادة والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة، القاطعة بالحق من تليت عليه وسمعها، كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها، واستكباره عن الإيمان بها.

والمعنى[2]: أي إذا سمع آيات الله تقرأ عليه، وهي مشتملة على الوعد والوعيد والإنذار والتبشير والأمر والنهي والحكم والآداب، أصر على الكفر بها وجحدها عناداً، كأنه ما سمعها، ثم أوعده على ما فعل عذاباً أليماً في نار جهنم، فقال: فبشره أيها الرسول بالعذاب المؤلم، الموجع في جهنم، وبئس القرار، وفي تسمية هذا الخبر المخزي بشرى، وهي لا تكون إلا في الأمر السار، تهكم بهم، واحتقار لشأنهم، فهو من وادي قولك للكافر: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، وقول الشاعر:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ ذلك الأفاك ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾؛ أي: إذا بلغه من آياتنا شيء، وعلم أنه من آياتنا، لا أنه علمه كما هو عليه، فإنه بمعزل من ذلك، قرأ الجمهور[3]: ﴿عَلِمَ﴾ بفتح العين، وكسر اللام مخففة على البناء للفاعل، وقرأ قتادة، ومطر الوراق على البناء للمفعول، والمعنى: أنه إذا وصل إليه علم شيء من آيات الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾؛ أي: الآيات كلها ﴿هُزُوًا﴾؛ أي: مهزوءاً بها لا ما سمعه فقط، وقيل: الضمير في ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ عائد إلى ﴿شَيْـًٔا﴾ لأنه عبارة عن الآيات، فالتأنيث باعتبار المعنى، والأول أولى؛ أي: وإذا وصل إليه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

خبرها وبلغه شيء منها جعلها هزوا، وسخريةً. فقد رُوي: أن أبا جهل حين سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ دعا بتمر وزبد، وقال لأصحابه: تزقموا من هذا، ما يعدكم محمد ﷺ إلا شهداً، وحين سمع قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: على النار، قال: إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدي.

ثم ذكر ما يصيب هؤلاء من العذاب فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأفاكون المتصفون بتلك الصفات، فالإشارة إلى كل أفاك من حيث الاتصاف بما ذكر من القبائح، والجمع باعتبار شمول كل، كما أن الإفراد في الضمائر السابقة باعتبار كل واحدٍ واحدً ﴿لَهُمْ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: عذاب يهينهم، ويذلهم في نار جهنم، ويذهب بعزهم بما كانوا في الدنيا يستكبرون عن طاعة الله واتباع آياته واتخاذها هزواً، ووصف[1] العذاب بالإهانة توفية لحق استكبارهم، واستهزائهم بآيات الله ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: جهنم كائنة من قدامهم؛ لأنهم متوجهون إلى ما أعد لهم؛ أي: من وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا، والتكبر عن الحق، جهنم فإنها من قدامهم؛ لأنهم متوجهون إليها، وعبر بالوراء عن القدام كقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾، وقول الشاعر:

أَلَـيْـسَ وَرَائِـيْ إِنْ تَـرَاخَـتْ مَـنِـيَّـتِـيْ

أو المعنى: من خلفهم؛ لأنهم معرضون عن ذلك، مقبلون على الدنيا، فإن الوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام؛ أي: يسترها ﴿وَلَا يُغْنِي﴾؛ أي: لا يدفع ﴿عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟﴾ وجمعوا من الأموال والأولاد، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله، فيكون مفعولاً به، أو لا يغني عنهم في دفع ذلك شيئاً منم الإغناء؛ أي: إغناءً قليلاً، فيكون مصدراً، يقال: أغنى عنه إذا كفاه، وقوله: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ معطوف على ﴿مَّا كَسَبُوا۟﴾؛ أي: ولا ينفعهم أيضاً ما عبدوه من دون الله من الأصنام،

---

(١) روح البيان.

وتوسيط[1] حرف النفي بين المعطوفين، مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى، من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً، مبني على زعمهم الفاسد، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكم، وقيل: زيادة ﴿لا﴾ في الجملة الثانية للتأكيد. و﴿ما﴾ في الموضعين، إما مصدرية أو موصولة.

والمعنى[2]: أي ولا يدفع العذاب عنهم ما كسبوا من الأموال والأولاد، ولا تغني عنهم أصنامهم التي عبدوها من عذاب الله شيئاً ﴿وَلَهُمْ﴾ فيما وراءهم من جهنم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعرف كنهه، ولا يقادر قدره؛ أي: بالغ إلى أقصى الغايات في كونه ضرراً. وقوله: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ جملة مستأنفة؛ أي: هذا القرآن هدى للمهتدين به؛ أي: في غاية الكمال من الهداية، كأنه نفسها، كقولك: زيد عدل ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ القرآنية ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾؛ أي: من أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة عذاب.

والمعنى: أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أيها الرسول، هاد إلى الحق وإلى صراط مستقيم، لمن اتبعه وعمل بما فيه، والذين جحدوا بآياته الكونية في الأنفس والآفاق، وآياته المنزلة على ألسنة رسله، لهم العذاب المؤلم، الموجع يوم القيامة، وقرأ[3] طلحة وابن محيصن وأهل مكة وابن كثير وحفص: ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة لـ﴿عذاب﴾ وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وباقي السبعة: بالجر نعتاً لرجز ﴿اللَّهُ﴾؛ أي: الإله الذي يستحق منكم العبادة، هو الإله ﴿الَّذِي سَخَّرَ﴾ وذلل ﴿لَكُمُ الْبَحْرَ﴾؛ أي: جعله على صفة، تتمكنون بها منه الركوب عليه، بأن جعله أملس السطح؛ أي: مستويه يعلو عليه ما شأنه الغوص كالأخشاب، ولا يمنع الغوص والخرق لميعانه، فإنه لو جعل خشن السطح، بأن كان ذا ارتفاع وانخفاض لم يتيسر جرى الفلك عليه، وكذا لو جعله بحيث لا تطفو عليه الأخشاب ونحوها، بل تسفلت وغرقت فيه، لم يتيسر ذلك أيضاً، ولو

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

جعله صلباً مصمتاً، يمنع الغوص فيه، لم يمكن تحصيل المنافع المترتبة على الغوص ﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: بإذنه وتيسيره وأنتم راكبوها ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة والغوص على اللؤلؤ والمرجان، ونحوها من منافع البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك بالإقرار بوحدانية المنعم بها، والحكمة[1] في هذا التسخير مختصة بالإنسان لا بالفلك، سخر البحر والفلك له، وسخره لنفسه ليكون خليفته، ومظهراً لذاته وصفاته نعمةً منه، وفضلاً لإظهار الكنز المخفي، فبحسب كل مسخر من الجزئيات والكليات، يجب على العبد شكره، وشكره أن يستعمله في طلب الله بأمره، ولا يستعمله في هوى نفسه، وله أن يعتبر من البحر الصوري، والذين يركبون البحر فربما تسلم سفينتهم، وربما تغرق كذلك العبد في فلك الاعتصام، في بحار التقدير، يمشي به في رياح المشيئة، مرفوع له شراع التوكل، مرسى في بحر اليقين، فإن هبت رياح العناية، نجت السفينة إلى ساحل السعادة، وإن هبت نكباء الفتنة، لم يبق بيد الملاح شيء، وغرقت في لجة الشقاوة، فعلى العبد أن يبتغي فضل الله، ويسعى في الطلب بأداء شكر النعم، كما في «التأويلات النجمية».

والمعنى[2]: أي إن ذلك الخالق الواحد، الذي أقمت لكم الأدلة على وجوده، هو الذي يسَّر لكم استخدام البحر، لتجري فيه السفن بإذنه وقدرته، حاملةً أقواتكم ومتاجركم، لتقوم بشؤونكم المعيشية، ولتطلبوا رزق ربكم منه بالغوص للدر تارةً، والصيد تارةً أخرى، ولتشكروه على ما أفاض عليكم من هذه النعم، التي تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر، فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم وينهاكم عنه ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات، بأن جعلها مداراً لمنافعكم؛ أي: سخر لكم أيها العباد جميع ما خلقه في سمٰواته وأرضه، مما تتعلق به مصالحكم، وتقوم به معايشكم، ومما سخره لكم من مخلوقات السموات الشمس، والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح، ومن مخلوقات الأرض الدواب والأشجار والجبال مثلاً ﴿جَمِيعًا﴾ إما حال من ﴿مَا فِى

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أو تأكيد له ﴿مِّنْهُ﴾ صفة لـ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: كائناً منه تعالى، أو حال من ﴿ما﴾؛ أي: سخر لكم هذه الأشياء كائنةً منه مخلوقة له، أو خبر لمحذوف؛ أي: هي جميعاً منه تعالى. وفي «فتح الرحمٰن»: جميعاً منه؛ أي: كل إنعام فهو من فضله؛ لأنه لا يستحق عليه أحد شيئاً، بل هو ويوجب على نفسه تكرماً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾المذكور من التسخير ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمة الشأن، كبيرة القدر، دالةً على وجود الصانع وصفاته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في بدائع صنع الله تعالى، فإنهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها، ويوفقون لشكرها.

والمعنى: أي وسخر لكم جميع ما خلقه في سمواته وأرضه، مما تتعلق به مصالحكم، وتقوم به معايشكم، فمما سخر لكم من المخلوقات السماوية الشمس والقمر والنجوم والمطر والسحاب والرياح، ومن المخلوقات الأرضية الدواب والأشجار والجبال والسفن رحمةً منه وفضلاً، وكل هذه أدلة على أنه الله، الذي لا إلٰه غيره، لمن تأمل فيها واعتبر بها، وتدبرها حق التدبر.

والخلاصة: أن العالم كله، كأنه جسم واحد، يحتاج كل جزء منه إلى الأجزاء الباقية، فلا يستقيم مطر بلا حرارة شمس، ولا تسير سفن، إلا بهواء أو فحم أو كهرباء وما شاكل ذلك، فالعالم كله كساعة منتظمة، لا يستقيم سيرها إلا إذا استكملت آلاتها وعددها، وخص المتفكرين لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها.

وعن طاووس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسأله: مم خلق الخلق؟ فقال: من الماء والنور والظلمة والهواء والتراب، قال: فمم خلق هؤلاء؟ قال: لا أدري، ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله، فقال: مثل قول عبد الله بن عمرو، فأتى ابن عباس، فسأله: مم خلق الخلق؟ فقال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب، قال: مم خلق هؤلاء؟ فقرأ ابن عباس ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، فقال الرجل: ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبوة.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أن السموات والأرض وما فيهن خلقت للإنسان، فإن وجودها تبع لوجوده، وناهيك من هذا المعنى، أن الله تعالى أسجد ملائكته لآدم عليه السلام، وهذا غاية التسخير، وهم أكرم مما في السموات والأرض، ومثال هذا: أن الله تعالى لما أراد أن يخلق ثمرةً خلق شجرة، وسخرها للثمرة لتحملها، فالعالم بما فيه شجرة، وثمرتها الإنسان، و لعظم هذا المعنى قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: في هذا المعنى دلالات على شرف الإنسان، وكماليته لقوم لهم قلوب منورة بنور الإيمان والعرفان، إذ يتفكرون بفكر سليم، كما في «التأويلات النجمية».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مِنْهُ﴾، وقرأ ابن عباس ﴿منة﴾ بكسر الميم وشد النون، ونصب التاء على المصدر، قال أبو حاتم: نسبة هذه القراءة إلى ابن عباس ظلم، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس وعبد الله بن عمر والجحدري وعبد الله بن عبيد بن عمير، وحكاها أيضاً عن هؤلاء الأربعة صاحب «اللوامح»، وحكاها ابن خالويه عن ابن عباس وعبيد بن عمير، وقرأ سلمة بن محارب كذلك؛ إلا أنه ضم التاء؛ أي: هو منة، وعنه أيضاً فتح الميم وشد النون، وهاء الكناية عائدة على الله، وهو فاعل ﴿سَخَّرَ﴾ على الإسناد المجازي، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: ذلك، أو هو منة.

ولما علم سبحانه عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة أردفه تعليمهم فضائل الأخلاق، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله اغفروا واصفحوا وسامحوا عما يصدر من الكفار من الكلمات المؤذية، والأفعال الموحشة، ولا تقابلوهم بالمؤاخذة عليها إن أمرتهم بذلك ﴿يَغْفِرُواْ﴾؛ أي: يغفر الذين آمنوا، ويعفوا، ويصفحوا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ ولا يخافون ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ وعذابه، وانتقامه من أعدائه، ولا يرجون ثوابه، ولا يخشون مثل عقاب الأمم الخالية، ومعنى الرجاء هنا: الخوف، وأيام الله: وقائعه تعالى لأعدائه في الأمم

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

الماضية، لقولهم أيام العرب، لوقائعها كيوم بعاث بوزن غراب، موضع بقرب المدينة، ويومه معروف؛ أي: قل لهم: اغفروا، يغفروا ويصفحوا ويعفوا، وقيل: مجزوم بلام مقدرة تقديره: ليغفروا، فهو أمر مستأنف، وإنما جاز حذف اللام؛ لأن الأمر الذي هو ﴿قُل﴾ عوض عنه، وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز به فيها وإضافتها إلى الله كبيت الله، وناقة الله والأول أولى، والأيام يعبر بها عن الوقائع، كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾، قال مقاتل: لا يخشون مثل عذاب الله للأمم الخالية، وذلك أنهم لا يؤمنون، فلا يخافون عقابه. وقيل: المعنى لا يأملون نصر الله لأوليائه، وإيقاعه بأعدائه، وقيل: لا يخافون البعث.

والمعنى[1]: قل يا محمد، للذين صدقوا الله ورسوله: اعفوا واصفحوا عن هؤلاء المشركين، الذي لا يخافون بأس الله ونقمته، إذا نالكم منهم أذى ومكروه، قاله مجاهد. روى الواحدي، والقشيري عن ابن عباس: أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب مع عبد الله بن أبي، في غزوة بني المصطلق، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها: المريسيع، فأرسل عبد الله غلامه ليستقي، فأبطأ عليه، فقال: ما حبسك؟ فقال: غلام عمر قعد على فم البئر، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قرب النبي ﷺ، وقرب أبي بكر، وملأ لمولاه، فقال عبد الله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك، فبلغ عمر قوله، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله، فأنزل الله هذه الآية.

وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس سبباً آخر، قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال يهودي بالمدينة يسمى فنحاصاً: احتاج رب محمد ﷺ، قال: فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه، وخرج في طلبه، فجاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول لك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ فبعث رسول الله ﷺ في طلب عمر، فلما جاء

---

(١) المراغي.

قال: يا عمر ضع سيفك، قال: يا رسول الله صدقت، أشهد أنك أرسلت بالحق، ثم تلا رسول الله ﷺ الآية، فقال عمر: لا جرم والذي بعثك بالحق، لا ترى الغضب في وجهي.

ثم علل بالمغفرة، فقال: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿قَوْمًا﴾ كاملين كاظمين غيظهم على إذاية الكفار، جزاءاً كاملاً وافراً ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: على ما يكسبونه من الأعمال الصالحة، التي منها كظم الغيظ. والمراد[1] بالقوم: المؤمنون. والتنكير لمدحهم، والثناء عليهم؛ أي: أمروا بذلك ليجزي الله سبحانه يوم القيامة قوماً أي قوم، لا قوماً مخصوصين، بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة، التي من جملتها الصبر على أذية الكفار والمنافقين، والإغضاء عنهم بكظم الغيظ، واحتمال المكروه ما يقصر عنه البيان من الثواب العظيم.

وقد جوز أن يراد بالقوم: الكفرة، و﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: سيئاتهم التي من جملتها ما حكي من الكلمة الخبيثة، والتنكير حينئذ للتحقير، فإن قلت: مطلق الجزاء لا يصلح تعليلاً للأمر بالمغفرة، لتحققه على تقديري المغفرة وعدمها، قلت: لعل المعنى: قل للمؤمنين: يتجاوزوا عن إساءة المشركين والمنافقين، ولا يباشروا بأنفسهم لمجازاتهم، ليجزيهم الله تعالى؛ أي: ليجزي أولئك الكفرة يوم القيامة جزاءً كاملاً، يكافىء سيئاتهم، كأنه قيل: لا تكافؤوهم أنتم حتى نكافئهم نحن، ويدل على هذا المعنى الآية الآتية، والأول أولى، وأيضاً إن الكسب في أكثر ما ورد في القرآن كسب الكفار، ويجوز[2] أن يكون المعنى: ليجزيهم الله وقت الجزاء كيوم بدر، ونحوه. وفي الآية إشارة، إلى أن المؤمن إذا غفر لأهل الجرائم، وإن لم يكونوا أهل المغفرة لإصرارهم على الكفر، والأذى.. يصير متخلقاً بأخلاق الحق.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ مبنياً للفاعل؛ أي: ليجزي الله، وقرأ زيد بن

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

علي، وأبو عبد الرحمٰن والأعمش وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿لِنَجْزِيَ﴾ بالنون مبنياً للفاعل. وقرأ أبو جعفر وشيبة، وعاصم: ﴿ليجزى﴾ بالياء التحتية مبنياً للمفعول مع نصب ﴿قَوْمًا﴾، وفيه حجة لمن أجاز بناء الفعل للمفعول، على أن يقام الجار والمجرور وهو ﴿بما﴾ مقام الفاعل، وينصب المفعول به الصريح وهو ﴿قَوْمًا﴾، ونظيره: ضرب بسوط زيداً، ولا يجيز ذلك الجمهور، وخرجت هذه القراءة على أن يكون الفعل بني للمصدر؛ أي: ليجزى الجزاء قوماً، وهذا أيضاً لا يجوز عند الجمهور، لكن يتأول على أن ينصب بفعل محذوف، تقديره: يجزي قوماً، فيكون الكلام جملتين إحداهما: ليجزى الجزاء، والأخرى: يجزيه قوماً. وعبارة البيضاوي هنا: وقرىء ﴿ليجزى قوم﴾، ﴿وليجزى قوما﴾؛ أي: ليجزى الخير أو الشر، أو الجزاء بمعنى: ما يجزى به لا المصدر. فإن الإسناد إليه سيما مع المفعول به ضعيف.

والمعنى[1]: أي ليجزي الله تعالى يوم القيامة قوماً بما كسبوا في الدنيا من أعمال طيبة، من جملتها الصبر على أذى الكفار، والإغضاء عنهم بكظم الغيظ، واحتمال المكروه، ما لا يحيط به الوصف من الثواب العظيم في جنات النعيم.

ولما رغب سبحانه، ورهب، وقرر أنه لا بد من الجزاء.. أبان أن النفع والضر لا يعدو المحسن والمسيء فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ عملا ﴿صَالِحًا﴾ وهو ما طلب به رضى الله تعالى ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فنفع ذلك العمل الصالح وثوابه لنفسه عائد إليها ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾؛ أي: عمل عملاً سيئاً، وهو كل ما يوجب سخط الله تعالى ﴿فَعَلَيْهَا﴾؛ أي: فضرر إساءته وعقابها على نفسه لا يكاد يسرى عمل إلى غير عامله ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء آجالكم ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: إلى مالك أموركم لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تردون بالموت، فيجازيكم على أعمالكم خيراً كان أو شراً، فاستعدوا للقائه، ففيه ترغيب على اكتساب العمل الصالح، وترهيب عن ارتكاب العمل السيء.

---

(١) المراغي.

فمن الأول العفو، والمغفرة للمجرم، وصاحبه متصف بصفات الله تعالى.

ومن الثاني المعصية، والظلم، وصاحبه متصف بصفات الشيطان، فمن كان من الأبرار فإن الأبرار لفي نعيم، ومن كان من الفجار فإن الفجار لفي جحيم.

والمعنى: أي من عمل من عباد الله بطاعته فانتهى إلى أمره وازدجر عن نهيه فلنفسه عمل، ولها طلب الخلاص من عذابه، والله غني عن كل عامل، ومن أساء عمله في الدنيا بمعصية ربه فعلى نفسه جنى، ولها اكتسب الضر.

ثم بين وقت الجزاء فقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: ثم تصيرون إلى ربكم حين العرض للحساب، فيجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أعطينا بني إسرائيل ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة. قال سعدي المفتي: ولعل الأولى[1] أن يحمل الكتاب على الجنس حتى يشمل الزبور، والإنجيل أيضاً انتهى. وذلك لأن موسى، وداود، وعيسى عليهم السلام. كانوا في بني إسرائيل ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾؛ أي: الحكمة النظرية، والعملية، والفقه في الدين، أو فصل الخصومات بين الناس، إذ كان الملك فيهم ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم تكثر في غيرهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: من اللذائذ، كالمن والسلوى ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلهم أولهم وآخرهم حيث آتيناهم ما لم نؤت أحداً من العالمين، من كثرة الأنبياء فيهم، وفلق البحر، وإنجائهم، وغرق عدوهم، وإنزال المن والسلوى لهم، وانفجار اثنتي عشرة عيناً لهم من حجر صغير في مدة التيه، وتظليل الغمام عليهم، وليس المراد تفضيلهم على العالمين بحسب الدين والثواب، اهـ «زاده». وقيل: على عالمي زمانهم، فإنه لم يكن أحد من العالمين في زمانهم أكرم على الله، ولا أحب إليه منهم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ أي: وأعطينا بني إسرائيل ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: دلائل ظاهرة، ومعجزات قاهرة ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: في أمر الدين، فـ﴿من﴾ بمعنى: في، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾؛ أي: شرائع

---

(١) روح البيان.

واضحات في الحلال والحرام، أو معجزات ظاهرات، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو العلم بمبعث النبي ﷺ، وما بين لهم من أمره، وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب، ويكون أنصاره أهل يثرب ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ﴾؛ أي: فما وقع الاختلاف بينهم في ذلك الأمر الذي بين لهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ واليقين فيه؛ أي: إلا من بعد مجيء العلم بحقيقته، وحقيته إليهم ببيانه وإيضاحه، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لثبوته، ورسوخه، وقيل: المراد بالعلم: يوشع بن نون، فإنه آمن به بعضهم، وكفر به بعضهم، وقيل: نبوة محمد ﷺ، فاختلفوا فيها ﴿بَغۡيَۢا﴾ واعتداء من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة، وحسدا حدث ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ لا شكاً فيها، فقد كانوا قبل ذلك وهم تحت أيدي القبط في غاية الاتفاق، واجتماع الكلمة، فلما جاءهم العلم، والشرع في كتابهم كان مقتضاه أن يدوموا على الاتفاق، بل كان ينبغي أن يزدادوا اتفاقاً، لكنهم لم يكونوا كذلك، بل صار ما هو مقتضٍ للاتفاق مقتضياً للاختلاف لسوء حالهم، اهـ من «الخطيب».

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقۡضِي﴾ ويحكم ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أي: بين المختلفين من بني إسرائيل ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

والمعنى(١): أي إن ربك سبحانه، يقضي يوم القيامة بين المختلفين من بني إسرائيل بغياً وحسداً، فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا، بعد العلم الذي أتاهم، والبيان الذي جاءهم منه، ويجعل الفلج للمحق على المبطل، والمقصد من هذا: أنه لا ينبغي أن يغتر المبطل بنعم الدنيا، فإنها وإن ساوت نعم المحق أو زادت عليها، فهو سيرى في الآخرة ما يسوءه.

وفي هذا: تحذير لهذه الأمة المحمدية أن تسلك مسلكهم، وأن تسير على نهجهم.

---

(١) المراغي.

ولما ذكر سبحانه وتعالى إنعامه على بني إسرائيل، واختلافهم بعد ذلك، وإعراضهم عن الحق بغياً وحسداً، ذكر حال نبيه ﷺ، وما منّ به عليه من اصطفائه، وأمره أن يعدل عن هذه الطريقة، وأن يستمسك بالحق، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ هنا[1] للاستئناف، والكاف مفعول أول لـ﴿جعل﴾، و﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ هو المفعول الثاني؛ أي: و[2] جعلناك يا محمد على شريعة؛ أي: طريقة عظيمة الشأن، وسنة رفيعة القدر ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: من أمر الدين ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾؛ أي: فاتبع يا محمد تلك الشريعة أنت وقومك وسائر أهل الأرض، بإجراء أحكامها في نفسك، وفي غيرك من غير إخلال بشيء منها.

وفي «التأويلات النجمية»: إنا أفردناك من جملة الأنبياء بلطائف فاعرفها، وخصصناك بحقائق فأدركها، وسننّا لك طرائق فاسلكها، وأثبتنا لك الشرائع فاتبعها، ولا تجاوز عنها، ولا تحتج إلى متابعة غيرك، ولو كان موسى وعيسى حيين، لما وسعهما إلا اتباعك، قال جعفر الصادق رحمه الله تعالى: الشريعة في الأمور محافظة الحدود فيها، ومن الله الإعانة، والمراد بالشريعة هنا: ما شرعه الله سبحانه لعباده من الدين، والجمع شرائع؛ أي: جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين، يوصلك إلي فاتبعها، واعمل بأحكامها في أمتك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله، وشرائعه لعباده؛ أي[3]: لا تتبع آراء الجهلة، واعتقاداتهم الزائفة التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش، ومن وافقهم كانوا يقولون له ﷺ: ارجع إلى دين آبائك، فإنهم كانوا أفضل منك وأسن، ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن الجهلة المذكورين ﴿لَن يُغْنُوا۟﴾؛ أي: لن يدفعوا ﴿عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مما أراد الله بك من العذاب ﴿شَيْـًٔا﴾ إن اتبعتهم. قال بعضهم: يعني إن أراد بك نعمة فلا يقدر أحد على منعها، وإن أراد بك فتنة فلا يقدر أحد يصرفها عنك، فلا تعلق بمخلوق فكرك، ولا تتوجه بضميرك إلى غيرنا، وثق بنا، وتوكل علينا ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾؛ أي: أنصار

---

(1) الفتوحات.

(2) روح البيان.

(3) روح البيان.

بعض؛ أي: بعضهم ينصر بعضاً، فلا يواليهم، ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم؛ لأن الجنسية علة الانضمام والانتصار ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: ناصر المتقين الذين أنت قدوتهم، فدم على ما أنت عليه من تولية خاصة بالتقوى، والشريعة، والإعراض عما سواه بالكلية، وفي «التأويلات النجمية»: سماهم الظالمين؛ لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه، وسمّىٰ المؤمنين المتقين لأنهم اتقوا عن هذا المعنى، واتخذوا الله الولي في الأمور كلِّها.

ومعنى الآيتين[1]: أي ثم جعلناك بعد بني إسرائيل، الذين وصفت لك صفتهم على نهج خاص من أمر الدين، فاتبع ما أوحى إليك، ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون الذين لا يعلمون توحيد الله، ولا شرائعه لعباده، وهم كفار قريش، ومن وافقهم فتهلك، ثم علل النهي عن اتباع أهوائهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن هؤلاء الجاهلين بربهم لا يدفعون عنك شيئاً مما أراد بك، إن اتبعت أهواءهم وخالفت شريعته، ثم بين أولياء الكافرين وأولياء المؤمنين، فقال: وإن الكافرين ليتولى بعضهم شؤون بعض في الدنيا، أما في الآخرة فلا ولي ولا شفيع، ولا نصير يجلب لهم ثواباً، ولا يدفع عنهم عقاباً، والله ولي المتقين؛ أي: والمتقون المهتدون وليهم الله، وهو ناصرهم ومخرجهم من الظلمات إلى النور، والكافرون أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، فما أبعد الفرق بين الولايتين.

وقصارى ما سلف: دم على ما أنت عليه من اعتمادك على ولاية ربك ونصرته، وأعرض عما سواه.

ثم بين فضل القرآن، وذكر ما يجلبه التمسك بحبله المتين، فقال: ﴿هَٰذَا﴾ القرآن، وهو مبتدأ، خبره ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: براهين، ودلائل لهم فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين، أو إن اتباع الشريعة بصائر، وأنوار لقلوب من

---

(١) المراغي.

اتبعها تنورها بنور الإيمان، واليقين، وجمع الخبر باعتبار ما في المبتدأ من تعدد الآيات، والبراهين، اهـ «سمين». وقرىء[1] ﴿هذه بصائر﴾؛ أي: هذه الآيات بصائر؛ لأن القرآن بمعناها ﴿وَهُدًى﴾؛ أي: هاد من ورطة الضلالة إلى طريق الرشاد ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة، ونعمة كاملة من الله تعالى، فإن الفوز بجميع السعادات الدنيوية، والأخروية إنما يحصل به ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لقوم من شأنهم الإيقان بالأمور، وعدم الشك والتزلزل بالشبه فيها.

والمعنى: أي هذا القرآن دلائل للناس فيما يحتاجون إليه من أمر الدين، وبينات تبصرهم وجه الفلاح، وتعرفهم سبيل الهدى، وهو هدى ورحمة لقوم يوقنون بصحته، وهو تنزيل من رب العالمين، وإنما خص الموقنين بأنه لهم هدى، ورحمة لأنهم هم الذين ينتفعون بما فيه، دون من كذب به من أهل الكفر، فإنه عليهم عمىً.

الإعراب

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)﴾.

﴿حمٓ (١)﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه السورة ﴿حم﴾؛ أي: مسماة بـ﴿حم﴾ إن قلنا إنه علم للسورة، والجملة مستأنفة. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: مبتدأ، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: صفتان للجلالة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: خبر لـ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿آيات﴾ اسم ﴿إنّ﴾ مؤخر منصوب بالكسرة. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ صفة لـ﴿آيات﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿في خلقكم﴾: خبر مقدم، ﴿وَمَا﴾: اسم موصول معطوف على ﴿خَلْقِكُمْ﴾. ﴿يَبُثُّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما يبثه. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾

(١) البحر المحيط.

حال من العائد المحذوف؛ أي: حال كونه من دابة، ﴿ءَايَٰتٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿لِّقَوْمٍ﴾ صفة ﴿ءَايَٰتٌ﴾، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾ والجملة الابتدائية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ﴾ معطوف أيضاً على ﴿خَلْقِكُمْ﴾، منزل منزلته في كونه متعلقاً بمحذوف خبر مقدم، ﴿ٱلَّيْلِ﴾ مضاف إليه ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ معطوف على ﴿ٱلَّيْلِ﴾. ﴿وَمَآ﴾ معطوف على ﴿اختلاف﴾، ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما أنزله الله، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلقان بـ﴿أَنزَلَ﴾ ﴿مِن رِّزْقٍ﴾: حال من العائد المحذوف، أو متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿فَأَحْيَا﴾ معطوف على ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿أحيا﴾، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ مفعول به ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ظرف ومضاف إليه، ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ معطوف على ﴿اختلاف﴾، ﴿ءَايَٰتٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿لِّقَوْمٍ﴾ صفة لـ﴿آيات﴾، وجملة ﴿يَعْقِلُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

فائدة: قال الزمخشري: وقرىء ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بالنصب والرفع على حد قولك: إن زيداً في الدار وعمراً في السوق، أو وعمرو في السوق، وأما قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فمن العطف على معمولي عاملين، سواء نصبت أو رفعت، فالعاملان إذا نصبت هما إنّ وفي أقيمت ﴿الواو﴾ مقامهما، فعملت الجر في ﴿اختلاف الليل والنهار﴾، والنصب في ﴿ءَايَٰتٌ﴾، وإذا رفعت فالعاملان الابتداء، وفي عملا الرفع في ﴿ءَايَٰتٌ﴾، والجر في ﴿اختلاف﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿وفي اختلاف الليل والنهار﴾.

فإن قلت: العطف على معمولي عاملين على مذهب الأخفش سديد لا مقال فيه، وقد أباه سيبويه، فما وجه تخريج الآية عنده؟

قلت: فيه وجهان عنده:

أحدهما: أن يكون على إضمار في، والذي حسنه تقدم ذكره في الآيتين قبلها، ويعضده قراءة ابن مسعود.

والثاني: أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور، معطوفاً على ما قبله، أو على التكرير ورفعهما بإضمار ﴿هي﴾، وقرىء ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ بالرفع.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿نَتْلُوهَا﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾، والعامل فيه ما في الإشارة من معنى الفعل، ويجوز أن تكون ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بدلاً من اسم الإشارة، وجملة ﴿نَتْلُوهَا﴾ هي الخبر، و﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿نَتْلُوهَا﴾، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إما حال من الفاعل؛ أي: محقين، أو من المفعول؛ أي: متلبسة بالحق: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾ الفاء: استئنافية، والباء: حرف جر، ﴿أي حديث﴾ مجرور بالباء. متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، والاستفهام توبيخي مضمن للإنكار؛ أي: لا يؤمنون. ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ﴿حَدِيثٍۭ﴾، ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ معطوف على لفظ الجلالة، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء. ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ خبر، والجملة مستأنفة، ﴿أَثِيمٍ﴾ صفة ﴿أَفَّاكٍ﴾، وهما صيغتا مبالغة للكذب والإثم، ﴿يَسْمَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿أَفَّاكٍ﴾. ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَسْمَعُ﴾: في محل الجر صفة ثانية لأفاك، أو حال من الضمير المستكن فيه، ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُتْلَىٰ﴾، وجملة ﴿تُتْلَىٰ﴾: في محل النصب حال من ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن سمع هنا دخل على ما يسمع فيتعدى إلى واحد فقط بالإجماع، وأما إذا دخل على ما لا يسمع كقوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾،

أو سمعت رسول الله ﷺ يقول: كذا، ففيه الخلاف بين الأخفش ومن وافقه، وبين الجمهور، فعند الأخفش يتعدى حينئذ إلى الثاني، وعند الجمهور لا يتعدى إلى الثاني مطلقاً، كما هو مذكور في محله. ﴿ثُمَّ﴾ للعطف والترتيب الرتبي عند العقل. ﴿يُصِرُّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر معطوف على ﴿يَسْمَعُ﴾، ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ حال من فاعل ﴿يُصِرُّ﴾. ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: كأنه، وجملة ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: خبرها، والجملة التشبيهية في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿يُصِرُّ﴾؛ أي: حال كونه مثل غير السامع، ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حاله المذكور، وأردت بيان ما يستحقه.. فأقول لك بشره ﴿بشره﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق به. ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة ﴿عذاب﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿عَلِمَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿أَفَّاكٍ﴾، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ حال من ﴿شَيْـًٔا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ فعل ماض ناسخ، وفاعل مستتر يعود على الأفاك، ومفعولان، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل الجر، معطوفة على جملة قوله: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ على كونها صفة لـ﴿أَفَّاكٍ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ أول، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم لما بعده. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثان مؤخر. ﴿مُّهِينٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾ خبر مقدم. ﴿جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع بدل من جملة قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ على كونها خبراً للمبتدأ الأول، والوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام، قال الشاعر وهو عبيد بن الأبرص:

أَلَـيْسَ وَرَائِـيْ إِنْ تَـرَاخَـتْ مَـنِـيَّـتِـيْ أَدِبُّ مَـعَ ٱلْـوِلْـدَانِ أَزْحَـفُ كَـٱلـنَّـسْـرِ

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية. ﴿يُغْنِي﴾: فعل مضارع. ﴿عَنْهُم﴾: متعلق به، ﴿مَّا﴾: اسم موصول فاعل، ويجوز أن تكون مصدرية، والمصدر المؤول هو الفاعل. ﴿كَسَبُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة لتأكيد نفي ﴿لا﴾ الأولى، ﴿مَّا﴾ موصولة أو مصدرية معطوفة على ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا كَسَبُوا۟﴾ على كونها فاعل ﴿يُغْنِي﴾، ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾: فعل وفاعل، ومفعوله الأول محذوف، تقديره: ولا ما تخذوه، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول ثان لـ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾. والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة أو المصدرية، ﴿وَلَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿هُدًى﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿الذين﴾: مبتدأ أول، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿كَفَرُوا۟﴾، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثان مؤخر، ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة ﴿رِّجْزٍ﴾، أو صفة ثانية لـ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول مع خبره معطوفة على جملة قوله: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة مسوقة للاعتبار بتسخير البحر إلى عظمته، والسفن الجارية فيه لمخلوق هو أضأل شيء بالنسبة لهما، ﴿سَخَّرَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الموصول، والجملة صلة له، ﴿لَكُمُ﴾ متعلق بـ﴿سَخَّرَ﴾، ﴿ٱلْبَحْرَ﴾: مفعول به، ﴿لِتَجْرِىَ﴾: اللام حرف جر وتعليل. ﴿تجري﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿ٱلْفُلْكُ﴾: فاعل. ﴿فِيهِ﴾:

متعلق بـ﴿تجري﴾، ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: حال من الفلك، أو متعلق بـ﴿تجري﴾ أيضاً، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة،وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿سَخَّرَ﴾، تقديره: سخر لكم البحر لجريان الفلك فيه، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، اللام: حرف جر وتعليل أيضاً، ﴿تبتغوا﴾: فعل مضارع، وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تبتغوا﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولا بتغائكم من فضله، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: لجريان الفلك فيه، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لعل﴾: حرف نصب وتعليل مستعارة لكي التعليلية، والكاف اسمها، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبرها، والجملة الاسمية في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بلعل التعليلية؛ أي: ولشكركم إياه سبحانه وتعالى على هذا التسخير. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾: معطوف على ﴿سَخَّرَ﴾ الأول، ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿مَّا﴾ الموصولة، أو تأكيد لها. ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: كائناً منه تعالى، أو حال ثانية من ﴿مَّا﴾؛ أي: سخر لكم هذه الأشياء حالة كونها كائنة منه تعالى، مخلوقة له تعالى. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿آيات﴾: اسمها مؤخر، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة لـ﴿آيات﴾، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿قُل﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول، ومقول ﴿قُل﴾ محذوف تقديره: قل للذين آمنوا: اغفروا للذين لا يرجون أيام الله. ﴿يَغْفِرُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم في جواب الطلب المحذوف، كما قدرناه، والجملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَغْفِرُوا۟﴾، ﴿لَا يَرْجُونَ﴾: فعل وفاعل

صلة الموصول، ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به. ﴿لِيَجْزِيَ﴾: اللام: حرف جر وتعليل، ﴿يجزي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، منصوب بأنْ مضمرة بعد لام كي جوازاً، ﴿قَوْمًۢا﴾: مفعول به، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿يجزي﴾ وجملة ﴿يجزي﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَغْفِرُواْ﴾، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة أو المصدرية.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿عَمِلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به أو صفة لمصدر محذوف، ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾: الشرطية وجوباً، ﴿لنفسه﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فثواب عمله كائن لنفسه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة، مسوقة لبيان كيفية الجزاء. ﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط مبتدأ، وجملة ﴿أَسَآءَ﴾: فعل شرط لها، ﴿فَعَلَيْهَا﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فاساءته عليها، والجملة في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿تُرْجَعُونَ﴾: من الفعل المغير، ونائب فاعله معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا﴾: فعل وفاعل، وهو بمعنى أعطينا يتعدى إلى مفعولين، ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول أول، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول ثان، ﴿وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: معطوفان على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَاتَيْنَا﴾. ﴿مِّنَ

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿رزقناهم﴾، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿آتيناهم﴾، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلق بـ﴿فضلناهم﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ﴾: فعل وفاعل ومفعولان معطوف على ﴿آتيناهم﴾ الأول ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية مع ﴿مَا﴾. المصدرية في تأويل مصدر بإضافة الظرف إليه؛ أي: إلا من بعد مجيء العلم إياهم.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿بَغْيًۢا﴾: مفعول لأجله منصوب بـ﴿اختلفوا﴾؛ أي: فما اختلفوا إلا لأجل البغي بينهم، و﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ﴿بَغْيًۢا﴾. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقْضِى﴾: خبره، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَقْضِى﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَقْضِى﴾، ﴿فِيمَا﴾: متعلق بـ﴿يَقْضِى﴾ أيضاً، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ولكن هنا بمعنى الواو الاستئنافية، كما في «السمين». ﴿جَعَلْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ في موضع المفعول الثاني، والجملة مستأنفة، ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾: صفة لـ﴿شَرِيعَةٍ﴾، ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿اتبعها﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ ومفعول به والجملة معطوفة على جملة ﴿جَعَلْنَٰكَ﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية، جازمة، ﴿تَتَّبِعْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ مجزوم

بلا الناهية، معطوف على قوله: ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ ﴿أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَن﴾ حرف نفي ونصب، ﴿يُغْنُوا۟﴾: فعل مضارع، وفاعل منصوب بـ﴿لَن﴾، وعلامة نصبه حذف النون، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي المذكور قبله، ﴿عَنكَ﴾ متعلق بـ﴿يُغْنُوا۟﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿شَيْـًٔا﴾؛ لأنه صفة نكرة، قدمت عليها، أو متعلق بـ﴿يُغْنُوا۟﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، ﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: اسمها، ﴿بَعْضُهُمْ﴾: مبتدأ، ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾: خبر، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: خبره، والجملة الابتدائية معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ﴾: مبتدأ وخبره، والجملة مستأنفة. ﴿لِلنَّاسِ﴾ صفة لـ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: معطوفان على ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ ﴿لِّقَوْمٍ﴾: نعت لكل من ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾ صفة لـ﴿قوم﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ أي: لعبراً للمؤمنين، ولشواهد على الربوبية للمصدقين. ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾؛ أي: يفرق، وينشر. أصله: يبثث بوزن يفعل، نقلت حركة الثاء الأولى إلى الباء فسكنت، فأدغمت في الثاء الثانية. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ وهي كل ما يدب على وجه الأرض من الحيوان مع اختلاف صورها وأشكالها وكثرة أنواعها، وأصله: داببة بوزن فاعلة، أدغمت الباء الأولى في الثانية فصار دابة. ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: تعاقبهما ليل بعد نهار، ونهار بعد ليل. ﴿مِن رِّزْقٍ﴾؛ أي: مطر، وسمي بذلك؛ لأنه سبب له. ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾؛ أي: تحويلها من جهة إلى أخرى، ومن حال إلى حال. ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب. ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الأفاك كثير الإفك والكذب، والأثيم: كثير الإثم والمعاصي، وهما صيغتا مبالغة، كعليم بمعنى: كثير العلم. ﴿يُصِرُّ﴾ أصله: يصرر، نقلت حركة الراء الأولى إلى الصاد، فسكنت فأدغمت في الثانية. قال في «المفردات»: الإصرار التعقد في الذنب والتشدد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله: من الصر، وهو الشد، والصرة

ما يعقد فيها الدراهم. وقال بعضهم: الإصرار على الشيء ملازمته. ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾؛ أي: من بعد آجالهم، والوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام؛ أي: يسترها. وقال بعضهم: وراء في الأصل مصدر وارى، جعل ظرفاً ويضاف إلى الفاعل، فيراد به: ما يتوارى به، وهو خلفه وإلى المفعول فيراد به: ما يواريه، وهو قدامه، ولذلك عدَّ من الأضداد. وفي «القاموس»: الوراء معرفةً يكون خلف وقدام ضدُّ أَوْ لا؛ لأنه بمعنى، وهو ما توارى عنك، والوراء أيضاً ولد الولد، ووري المخ كولي اكتنز، انتهى.

﴿وَلَا يُغْنِي﴾؛ أي: يدفع، يقال: أغنى عنه إذا كفاه. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أصناماً ﴿رِّجْزٍ﴾ والرجز أشد العذاب. ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾؛ أي: ذلله وهيأه، بأن جعله أملس السطح، مستويه، يعلو عليه ما شأنه الغوص كالأخشاب، فإنه لو جعله خشن السطح، بأن كان ذا ارتفاع وانخفاض لم يتيسر جرى الفلك عليه، كما مر. ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ والمراد بأيام الله: الوقائع المشهورة التي انتصر الحق فيها على الباطل، وأديل الباطل بالجهاد، وهذا جري على أساليب العرب، إذ يقولون أيام العرب لوقائعهم المشهورة، كيوم بعاث على حد قول السموءل اليهودي.

وَأَيَّامُنَا مَشْهُوْرَةٌ فِيْ عَدُوِّنَا ... لَهَا غُرَرٌ مَعْلُوْمَةٌ وَحُجُوْلُ

وأصل أيام: أيوام بوزن أفعال اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء، وأدغمت فيها الياء. ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ والشريعة في الأصل: ما يرده الناس من المياه والأنهار، فاستعير ذلك للدين، والعبادة؛ لأن العباد يردون ما تحيا به نفوسهم، والجمع شرائع اهـ «سمين». وفي «القرطبي»: الشريعة في اللغة المذهب والملة، ويقال لمشرعة الماء، وهي مورد شريعة، ومنه الشارع لأنه طريق إلى القصد، فالشريعة ما شرعه الله لعباده من الدين، والجمع الشرائع، والشرائع في الدين: المذاهب التي شرعها الله تعالى لخلقه، انتهى.

﴿لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أصله: يغنيون حذفت نون الرفع لدخول أداة النصب عليه، وهو ﴿لَن﴾، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان فحذفت الياء وضمت النون، لمناسبة الواو. ﴿وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أصله: وليي بوزن

فعيل، أدغمت ياء فعيل في لام الكلمة، فصار ولي بتشديد الياء. ﴿بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ﴾ جمع بصيرة بوزن فعلية. وفي «المختار»: البصيرة: الحجة، والاستبصار في الشيء اهـ. وفي «القاموس»: والبصيرة عقيدة القلب والفطنة، والحجة. والهمزة في الجمع أعني: ﴿بَصَآئِرُ﴾ بدل من ياء فعيلة، الواقعة حرف مد ثالثا، زائداً في اسم مؤنث.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد بإن واللام في قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ﴾؛ لأن المخاطبين منكرون لوحدانية الله تعالى.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾؛ أي: مطر من إطلاق المسبب وإرادة السبب، وهو المطر؛ لأن الرزق لا ينزل من السماء، ولكن ينزل المطر الذي ينشأ عنه النبات والرزق.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ لأنه استعار الإحياء للإنبات، فاشتق منه أحيا، بمعنى: أنبت على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ لأنه استعار الموت لليبس.

ومنها: الإتيان باسم إشارة البعيد في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى بعد مرتبتها.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التعجبي في قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾.

ومنها: تنكير آيات في قوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وفي قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: تنكيرها في المواضع الثلاثة،

للدلالة على فخامة شأنها، وعلو قدرها.

ومنها: تقديم الاسم الجليل في قوله: ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ دلالة على تعظيمه، وعلو شأنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ حيث استعار البشارة التي هي الإخبار، بما يظهر سروراً في المخبر به، للإنذار الذي هو ضده بإدخال الإندار في جنس البشارة على سبيل التهكم، والاستهزاء.

ومنها: تنكير شيئاً في قوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ إفادة للتقليل.

ومنها: التضاد في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ وهو استعمال لفظ يحتمل المعنى وضده، وهو مشترك بين المعنيين، فيستعمل في الشيء وضده، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: توسيط حرف النفي بين المعطوفين في قوله: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر، وأجلى من عدم إغناء الأموال، والأولاد مجاراة على زعمهم الفاسد، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه ضرب من التهكم.

ومنها: الإطناب بتكرار اللفظ في قوله: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لإظهار الامتنان.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومنها: المبالغة بذكر المصدر في قوله: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ كأن القرآن الكريم لوضوح حجته عين الهدى.

ومنها: الطباق ي قوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ كالإضافة في بيت

الله، وناقة الله.

ومنها: تنكير قوماً في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لغرض مدحهم، والثناء عليهم، إن أريد بهم المؤمنون، أو للتحقير والإهانة إن أريد بهم الكافرون.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾؛ لأنها حقيقة فيما يرده الناس من المياه والأنهار، ثم استعير للدين.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ تسجيلاً عليهم باسم الظلم؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: وإنهم بعضهم أولياء بعض.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله[1] سبحانه وتعالى، لما ذكر الفرق بين الكافرين والمؤمنين في الولاية، فأبان أن الأولين بعضهم أولياء بعض، وأن الآخرين وليهم الله.. أردف ذلك بذكر الفارق بينهم في المحيا

---

(١) المراغي.

والممات، فالمحسنون مرحومون في الحالين، ومجترحوا السيئات مرحومون في الدنيا فحسب، ثم ذكر الدليل على هذا، بأن الله ما خلق الخلق إلا بالحق، المقتضي للعدل أو الانتصاف للمظلوم من الظالم، والتفاوت بين المحسن والمسيء في الجزاء، وإذا لم يكن هذا في المحيا كان في دار الجزاء حتماً، لتجزي كل نفس بما كسبت فلا تظلم بنقص ثواب، أو بمضاعفة عقاب، ثم عجب سبحانه ممن ركب رأسه واتبع هواه وترك الهدى، وأضله الله وهو العليم باستعداده وخبث طويته، وأنه ممن يميل إلى تدسية نفسه، واجتراح الآثام والمعاصي، فهو ممن ختم الله على سمعه وقلبه، فلا يتأثر بعظة، ولا يفكر في آية، وجعل على بصره غشاوة مانعة من الاستبصار والاعتبار، فمن بعد الله يهديه أفلا تتذكرون، وتتفكرون في هذا.

قوله تعالى: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن المشركين قد اتخذوا إلٰههم هواهم، وأن الله سبحانه، قد أضلهم على علم بحالهم، وأنه ختم على سمعهم وقلبهم، وجعل على بصرهم غشاوة.. ذكر هنا جنايةً أخرى من جناياتهم، وحماقةً من حماقاتهم تلك، أنهم أنكروا البعث، وقالوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر، وما ذلك منهم إلا ظنون وأوهام، لا مستند لها من نقل ولا عقل، ولم يجدوا حجةً يقولونها إلا أن قالوا: إن كان ما تقوله حقاً، فأرجعوا آباءنا الموتى إلى الحياة، فأمر الله رسوله أن يجيبهم، بأنه هو الذي يحييهم ثم يميتهم، ثم يجمعهم في يوم لا شك فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1]، لما أثبت فيما سلف، أنه قادر على الإحياء مرة ثانية، كما قدر على ذلك في المرة

(١) المراغي.

الأولى.. ذكر هنا دليلاً آخر على ذلك، وهو أنه تعالى مالك الكون كله، فهو قادر على التصرف فيه بالإحياء في الإعادة، كما أحياه في البدء، ثم ذكر من أهوال هذا اليوم، أن كل أمة تجثو على ركبها، وتجلس جلسةَ المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء، وكل أمة تدعى إلى صحيفة أعمالها التي كَتَبَتْهَا الحفظة، لتحاسب عليها، ويقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولا شاهد عليكم أصدق من كتابكم، فهو صورة أعمالكم قد كتبتها الملائكة في دنياكم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ...﴾ الآيات إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر[1] أهوال العرض والحساب، وأن أعمال كل أمة تعرض عليها، ويقال لهم: هذا ما كتبته الحفظة في الدنيا، فهو شهادة صدق لا شك فيها.. أردف هذا، ببيان أنه بعد انتهاء هذا الموقف، يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات النعيم، ويوبخ الكافرون على ما فرط منهم في الدنيا، ويقال لهم: لا عذر لكم في الإعراض عن آياتي، حين كانت تتلى عليكم إلا الاستكبار، والعناد، وقد كنتم في الحياة الأولى إذا قيل لكم: إن يوم القيامة آت لا شك فيه، قلتم: لا يقين عندنا به وهو موضع حدس وتخمين، فها هو ذا قد حل بكم، جزاء ما اجترحتموه من السيئات، وما كنتم تستهزؤون في دنياكم، إذ قد خدعتكم بزخارفها، فظننتم أن لا حياة بعد هذه الحياة، ولا مأوى لكم إلا جهنم فادخلوها، ولا مخرج لكم منها، ولا عتبى حينئذ، فلا تنفع توبة مما فرط منكم من الذنوب.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما قاله الكلبي[2]: أنها نزلت في علي، وحمزة، وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، وفي ثلاثة من المشركين: عتبة وشيبة والوليد بن عتبة، قالوا

---

(١) المراغي.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/٢٦٦.

للمؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقاً.. لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أنا أفضل حالاً منكم في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام، وبين أنه لا يمكن أن يكون حال المؤمن المطيع، مساوياً لحال الكافر العاصي في درجات الثواب، ومنازل السعادات.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن المنذر، وابن جرير عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تعبد الحجر حينا من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر، فأنزل الله سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ...﴾ الآية. وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهمي، أحد المستهزئين؛ لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه.

نزول بقية الآية: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ قال مقاتل[1]: نزلت في أبي جهل، ذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة، ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ، فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه صادق، فقال: مه وما دلك على ذلك، قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله، وكمل رشده، نسميه الكذاب الخائن، والله إني لأعلم أنه صادق، قال: فما يمنعك أن تصدقه، وتؤمن به، قال: تتحدث عني بنات قريش، أني اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى إن اتبعته أبداً فنزلت: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾ إلخ، كلام[2] مستأنف مسوق لبيان تباين حالي المسيئين، والمحسنين إثر بيان تباين حالي الظالمين، والمتقين. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني، والهمزة لإنكار الحسبان، لكن لا بطريق إنكار الوقوع نفيه، كما في قوله تعالى:

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٧٠.

(٢) أبو السعود.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ بل بطريق إنكار الواقع واستقباحه، والتوبيخ عليه، والاجتراح الاكتساب، و﴿حَسِبَ﴾ فعل ماض من أخوات ظن و﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعله، وجملة ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ سادة مسد المفعولين لـ﴿حَسِبَ﴾، وقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ جار ومجرور في موضع المفعول الثاني لـ﴿لجعل﴾، وقوله: ﴿سَوَآءً﴾: بالنصب حال من الضمير في الظرف، والموصول معاً لاشتماله على ضمير الفريقين، على أن السواء بمعنى المستوي، و﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مرتفعان بالسواء على الفاعلية.

والمعنى[1]: بل أظن الذين اكتسبوا الشرك والمعاصي، مع مالهم من مساوي الأحوال، أن نصيرهم في الحكم، مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، مع ما لهم من محاسن الأعمال، ونعاملهم معاملتهم في الكرامة، ورفع الدرجة، حالة كون كلا الفريقين مستوياً، محياهم ومماتهم؛ أي: محيا الفريقين جميعاً ومماتهم، كلا لا يستوون في شيء منهما، فإن هؤلاء في عز الإيمان والطاعة، وشرفهما في المحيا، وفي رحمة الله ورضوانه في الممات، وأولئك في ذل الكفر والمعاصي وهوانهما في المحيا، وفي لعنة الله، والعذاب الخالد في الممات، وشتان بينهما، وقيل: المراد إنكار أن يستووا في الممات، كما استووا في الحياة؛ لأن المسيئين والمحسنين مستو محياهم في الرزق والصحة، وإنما يفترقون في الممات ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساء وقبح حكمهم هذا، على أن ﴿مَا﴾: مصدرية، والفعل للإخبار عن قبح حكمهم، أو بئس شيئاً حكموه، ذلك على أن ﴿سَآءَ﴾ بمعنى بئس، و﴿مَا﴾: نكرة موصوفة بمعنى شيء، والفعل لإنشاء الذم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سواءٌ﴾ بالرفع، و﴿مماتهم﴾ بالرفع أيضاً، وأعربوا ﴿سواءٌ﴾ مبتدأ، وخبره ما بعده، ولا مسوغ لجواز الابتداء، بل هو خبر مقدم وما بعده المبتدأ، والجملة خبر مستأنف، والمعنى: إنكار حسبانهم أن محياهم

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

ومماتهم سواء، وقرأ زيد بن علي وحمزة والكسائي وحفص: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب، وما بعده مرفوع على الفاعلية، أجرى ﴿سَوَآءً﴾ مجرى مستوياً كما قالوا: مررت برجل سواء هو والعدم، وجوز في انتصاب ﴿سَوَآءً﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون منصوباً على الحال، و﴿كَٱلَّذِينَ﴾ المفعول الثاني: والعكس، وقرأ الأعمش: ﴿سواء﴾: بالنصب ﴿محياهم ومماتهم﴾ بالنصب أيضاً، وخرج على، أن محياهم ومماتهم ظرفي زمان، والعامل إما ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ وإما ﴿سَوَآءً﴾.

والثاني: أن يجعل بدلاً من مفعول ﴿نَّجْعَلَهُمْ﴾، والمفعول الثاني: ﴿سَوَآءً﴾؛ أي: نجعل محياهم ومماتهم سواءً.

ومجمل معنى الآية(١): أي أيظن هؤلاء الذين اكتسبوا الإثم والمعاصي في الدنيا، فكفروا بالله وكذبوا الرسل، وخالفوا أمره، وعبدوا غيره، أن نجعلهم كالذين آمنوا به، وصدقوا رسله، فنساوي بينهم في دار الدنيا، وفي الآخرة، كلا، لا يستوون في شيء منهما، فإن أهل السعادة في عز الإيمان والطاعة، وشرفهما في المحيا، وفي رحمة الله، ورضوانه في الممات، وأهل الشقاء في ذل الكفر، والمعاصي، وهوانهما في المحيا، وفي لعنة الله، والعذاب الخالد في الممات، فشتان ما بينهما وما أبعد ما بين الثريا والثرى.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾، وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساء ما ظنوا، وبعد أن نساوي بين الأبرار، والفجار في دار الآخرة، وفي هذه الدار، وفي الآية إرشاد إلى تباين حالي المؤمن العاصي، والمؤمن المطيع، وقد أثر عن كثير من الناسكين، المخبتين لربهم، أنهم كانوا يبكون عند تلاوة هذه الآية، حتى سموها مبكاة العابدين.

أخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» والطبراني، وجماعة عن أبي

(١) المراغي.

الضحى قال: قرأ تميم الداري سورة الجاثية، فلما أتى على قوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية، لم يزل يكررها ويبكي، حتى أصبح وهو عند المقام، وأخرج ابن أبي شيبة عن بشير مولى الربيع بن خشيم، أن الربيع كان يصلي، فمر بهذه الآية: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾ فلم يزل يرددها حتى أصبح، وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها: ليت شعري من أي الفريقين أنت.

فلا يطمعن[1] البطال في ثواب العمال ولا الجبان في مقام الأبطال ولا الجاهل في مقام العالم ولا النائم في ثواب القائم، فعلى اجتهاد المرء يزيد أجره، وبقدر تقصيره ينحط قدره، وفي بعض الكتب السالفة: إن لله منادياً ينادي كل يوم: أبناء الخمسين زرع دنا حصاده، أبناء الستين هلموا إلى الحساب أبناء السبعين ماذا قدمتم وماذا أخرتم؟ أبناء الثمانين لا عذر لكم، ليت الخلق لم يخلقوا، وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا وتجالسوا بينهم، فتذكروا ما عملوا، ألا أتتكم الساعة فخذوا حذركم.

وفي الخبر: «إذا أراد الله سبحانه بعبد خيراً، بعث إليه ملكاً من عامه الذي يموت فيه، فيسدده، وييسره، فإذا كان عند موته أتاه ملك الموت، فقعد عند رأسه فقال: يا أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فذلك حين يحب لقاء الله، ويحب الله لقاءه، وإذا أراد بعبد شراً بعث إليه شيطاناً من عامه الذي يموت فيه، فأغواه، فإذا كان عند موته، أتاه ملك الموت، فقعد عند رأسه، فيقول: يا أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتفرق في جسده، فذلك حين يبغض لقاء الله، ويبغض الله لقاءه»، ويقال: إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة، آنسه بالوحدة، وأغناه بالقناعة، وبصره بعيوب نفسه، فمن أعطي ذلك، فقد أعطي خير الدنيا والآخرة.

وعن أبي بكر الوراق رحمه الله تعالى: طلبنا أربعةً فوجدناها في أربعة، وجدنا رضى الله في طاعة الله تعالى، وسعة العيش في صلاة الضحى، وسلامة

---

(١) روح البيان.

الدين في حفظ اللسان، ونور القلب في صلاة الليل، فعليك بالتدارك قبل فوت الوقت، فإن الوقت سيف قاطع.

ثم أقام الدليل على عدم التساوي، وأبان حكمة ذلك، فقال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: لأجل إظهار الحق والعدل بين العباد، فالباء تعليلية بمعنى اللام، وقوله: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ معطوف على ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ عطف علة على علة؛ لأن الباء تعليلية؛ أي: ولتجزى كل نفس مكلفة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: النفوس المدلول عليها بكل نفس؛ أي: والحال أن الخلائق ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب المحسن، أو بزيادة عقاب المسيء.

والمعنى[(١)]: أن المقصود من خلق هذا العالم إظهار العدل والرحمة، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة، وحصل التفاوت في الدرجات والدركات بين المحقين والمبطلين، ويجوز أن يكون معطوفاً على علة محذوفة، تقديرها: وخلق الله السموات والأرض بالحق، ليدل بهما على قدرته، ولتجزى كل نفس، إلخ. وجوز ابن عطية أن تكون هذه اللام لام الصيرورة؛ أي: فصار الأمر منها من حيث اهتدى بها قوم، وضل عنها آخرون؛ لأن يجازى كل واحد بعمله، وبما اكتسب من خير أو شر، انتهى. ولا وقف على قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وعند أبي حاتم، فالوقف عليه تام بجعل لام ﴿لتجزى﴾ لام قسم؛ أي: لم يخلق الله السموات والأرض للجور والظلام، بل خلقهما للحق والعدل، ومن العدل أن يخالف بين المحسن والمسيء، في العاجل والآجل، وليثيب كل عامل بما هو له أهل، فلا يبخس المحسن ثواب إحسانه، أو يحمل عليه جرم غيره فيعاقبه به، أو يجعل للمسيء ثواب إحسان غيره.

والخلاصة: كل عامل يجزى بما كسبت يداه، ولا يظلم بنقص ثواب، ولا بتضعيف عقاب.

ثم بين أحوال الكافرين، وذكر جناياتهم على أنفسهم، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ

---

(١) المراح.

﴿أَتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وهو تعجيب لحال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، فكأنه عبده، والهمزة: للاستفهام التعجيبي داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنظرت يا محمد إلى حال أسير الهوى، فرأيت من اتخذ ما تهواه نفسه الخبيثة إلهاً ومعبوداً، وترك متابعة الهدى، واختار متابعة الهوى، ففي الكلام استعارة تمثيلية، أو تشبيه بليغ حذف منه أداة التشبيه؛ أي: جعل هواه كإلهه في طاعته؛ أي: انظر يا محمد، واعجب من حال من ركب رأسه وترك الهدى وأطاع الهوى، فكأنه جعله إلٰهاً يعبده من دون الله، فهو لا يهوى شيئاً إلا فعله، لا يخاف رباً ولا يخشى عقاباً، ولا يفكر في عاقبة ما يعمل، قال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به، وعبد الآخر، وعن أبي رجاء العطاردي: أنه أدرك الجاهلية، وهو ثقة مات سنة خمس ومئة، وعمره مئة وعشرون سنة، قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه.. ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حَثْوَةَ من تراب، فحلبنا عليها، ثم طفنا بها.

وفي هذا: إيماء[1] إلى ذم اتباع هوى النفس، ومن ثم قال وهب بن منبه: إذا شككت في خير أمرين، فانظر أبعدهما من هواك فأته، وقال سهل التستري: هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك وقال الإشبيلي الزاهد:

فَخَالِفْ هَوَاهَا وَٱعْصِهَا إِنَّ مَنْ يُطِعْ ... هَوَىٰ نَفْسِهِ يُنْزَعْ بِهِ شَرَّ مَنْزَعِ
وَمَنْ يُطِعِ ٱلنَّفْسَ ٱللَّجُوْجَةَ تُرْدِهِ ... وَتَرْمِ بِهِ فِيْ مَصْرَعٍ أَيَّ مَصْرَعِ

وقال البوصيري:

وَخَالِفِ ٱلنَّفْسَ وَٱلشَّيْطَانَ وَٱعْصِهِمَا ... وَإِنْ هُمَا مَحَضَاكَ ٱلنُّصْحَ فَٱتَّهِمِ

وقال بعضهم:

نُوْنُ ٱلْهَوَانِ مِنَ ٱلْهَوَىٰ مَسْرُوْقَةٌ ... فَأَسِيْرُ كُلِّ هَوَىً أَسِيْرُ هَوَانِ

وقال الآخر:

---

(١) المراغي.

فَأَعْصِ هَوَى ٱلنَّفْسِ وَلاَ تُرْضِهَا إِنَّكَ إِنْ أَسْخَطْتَهَا زَانَكَا
حَتَّىٰ مَتَىٰ تَطْلُبُ مَرْضَاتَهَا وَإِنَّمَا تَطْلُبُ عُدْوَانَكَا

وقال ابن عباس: ما ذكر الله سبحانه هوى في القرآن إلا ذمه، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾، وقال: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وروى عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ فيما ذكره النووي في كتاب «الحجة» للمقدسي: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». وقال أبو أمامة سمعت النبي ﷺ يقول: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى».

وروى شداد بن أوس عن النبي ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله». أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، والحاكم. وعنه ﷺ أنه قال: «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرةً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة». أخرجه الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني. وعنه أنه قال: «ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، فالمهلكات: شح مطاع، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه، والمنجيات: خشية الله في السر والعلن، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب». أخرجه الطبراني في «الأوسط» عن ابن عمر وهو ضعيف، وحسبك ذماً لاتباع الهوى، قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

وقيل: معنى ﴿أرأيت﴾ أخبرني عن حال من اتخذ هواه إلٰهاً، فيتعدى[1] إلى مفعولين، الأول: هو من اتخذ، والثاني: محذوف تقديره: مهتدياً يدل عليه قوله: فمن يهديه من بعد الله؛ أي: لا أحد يهديه من بعد إضلال الله إياه، وفيه حينئذ تجوزان[2]، إطلاق الرؤية، وإرادة الإخبار على طريق إطلاق اسم السبب وإرادة المسبب، لأن الرؤية سبب للإخبار، وجعل الاستفهام بمعنى الأمر بجامع

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

مطلق الطلب.

وقرئ[1]: ﴿آلهته هواه﴾ لأنه كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه، فكأنه اتخذ هواه آلهةً شتى، يعبد كل وقت واحداً منها. وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ سبحانه معطوف على صلة ﴿مَنِ﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ إما حال من الفاعل؛ أي: حال كون الله عالماً في سابق علمه، بأن جوهر روحه لا يقبل الصلاح، أو من المفعول؛ أي: حال كون ذلك الضال، عالماً بأن الحق هو الدين، ويعرض عنه عناداً، كقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: خذله فلم يجعله يسلك سبيل الرشاد؛ لأنه قد علم أنه لا يهتدي ولو جاءته كل آية، لما في جوهر نفسه من الميل إلى ارتكاب الإجرام واتباع الشهوات، فهو يوغل في القبائح دون زاجر، ولا وازع.

﴿وَ﴾ قد ﴿ختم﴾ وطبع ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾ فلا يتأثر بالآيات تتلى عليه ليعتبر بها، ولا يتدبرها ليعقل ما فيها من النور والهدى ﴿وَ﴾ ختم على ﴿قلبه﴾ فلا يعي حقاً، ولا يسترشد إلى صواب ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ عظيمة، وغطاء مانعاً، يمنعه أن يبصر حجج الله، وآياته في الآفاق والأنفس فيستدل بها على وحدانيته تعالى، ويعلم بها أن لا إله غيره.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾. وقرأ الجمهور[2]: ﴿غِشَاوَةً﴾ بكسر الغين المعجمة، وقرأ عبد الله، والأعمش: بفتحها، وهي لغة ربيعة، وقرأ الحسن، وعكرمة، وعبد الله أيضاً: بضمها، وهي لغة عكل، وقرأ الأعمش أيضاً وطلحة وأبو حنيفة ومسعود بن صالح وحمزة والكسائي: ﴿غشوة﴾ بفتح الغين وسكون الشين، وقرأ ابن مصرف والأعمش أيضاً كذلك إلا أنهما كسرا الغين.

ثم ذكر أن مثل هذا لا طمع في هدايته، فقال: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ﴾ ويرشده ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ إضلال ﴿اللَّهِ﴾ سبحانه إياه؛ أي: فمن يوفقه لإصابة الحق، وإبصار محجة

---

(١) المراح.　　(٢) البحر المحيط.

الرشد بعد إضلال الله إياه، والاستفهام إنكاري؛ أي: لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك، والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تلاحظون[1] أيها الناس فلا تتذكرون، ولا تتفكرون، فتعلموا أن الهداية لا يملكها أحد سواه، أو فلا تتعظون؛ أي: أفلا تتذكرون أيها القوم فتعلموا، أن من فعل الله به ما وصفنا، لن يهتدي أبداً، ولم يجد لنفسه ولياً ولا مرشداً، وقرأ الجمهور: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال، والجحدري يخففها، والأعمش بتاءين.

ومجمل معنى الآية[2]: أي أخبرني عن حال ذلك الكافر الذي أطاع هواه وترك الهدى، واتخذ دينه ما يهواه، فكأنه جعل الهوى إلٰهه، يعبده من دون الله، فلا يهوى شيئاً إلا اتبعه دون مراعاة لما يحبه الله ويرضاه، فهذا مما يدعو إلى العجب، وكان الحارث بن قيس لا يهوى شيئاً إلا فعله، والعبرة بعموم لفظ الآية، لا بخصوص السبب الذي نزلت الآية من أجله.

وقد أضله الله، وخذله مع علمه بالحق، ومعرفته الهدى من الضلال، وقيام الحجة عليه، وطبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، وعلى قلبه حتى لا يفقه الهدى، وجعل غطاء على بصره وبصيرته حتى لا يبصر الرشد، ويدرك آيات الله في الكون، التي تدل على وحدانية الله تعالى، فمن يوفقه للصواب والحق، من بعد إضلال الله له بسبب انحرافه واتباعه هواه، أفلا تتذكرون تذكر اعتبار، وتتعظون حتى تعلموا حقيقة الحال.

ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم، فقال: ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: قال منكروا البعث من غاية غيهم وضلالهم، وهم كفار قريش، ومشركوا العرب، وفي «كشف الأسرار»: هذا من قول الزنادقة، الذين قالوا: الناس كالحشيش أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: يصيبنا الموت، والحياة فيها، وليس وراء ذلك حياة، وتأخير ﴿نحيا﴾ لأن فيها شبه مراعاة الفاصلة،

---

(١) روح البيان.
(٢) التفسير المنير.

ولأن ﴿الواو﴾ لمطلق الجمع، وقيل: نموت نحن ويحيا فيها أولادنا، وقيل: نكون نطفاً ميتةً، ثم نصير أحياء، وقيل: في الآية تقديم وتأخير؛ أي: نحيا ونموت، وكذا قرأ ابن مسعود. وعلى كل تقدير، فمرادهم بهذه المقالة: إنكار البعث، وتكذيب الآخرة، وقد جوز[1] أن يريدوا به التناسخ، فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان، قال الراغب: القائلون بالتناسخ قوم ينكرون البعث، على ما أثبتته الشريعة، ويزعمون أن الأرواح تنتقل من الأجساد على التأبيد؛ أي: إلى أجساد أخر. وفي «التعريفات»: التناسخ عبارة عن تعلق الروح بالبدن، بعد المفارقة من بدن آخر، من غير تخلل زمان بين التعلقين، للتعشق الذاتي بين الروح والجسد. وقرأ زيد بن علي ﴿ونحيا﴾ بضم النون ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ﴾ ويعدمنا، ويفنينا ﴿إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛ أي: إلا مرور الزمان، وهو مدة بقاء العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، ثم يعبر به عن كل مدة كبيرة، وهو خلاف الزمان، فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة، وقيل: إلا مرور الأيام والليالي، قال مجاهد، يعني السنين والأيام. وقال قتادة: إلا العمر والمعنى واحد. وقال قطرب: وما يهلكنا إلا الموت. وقال عكرمة: وما يهلكنا إلا الله، وقرأ عبد الله: ﴿إلا دهر﴾، وتأويل إلا دهر يمر، كانوا يضيفون كل حادثة إلى الدهر، وأشعارهم ناطقة بشكوى الدهر، حتى يوجد ذلك في أشعار المسلمين، قال ابن دريد في مقصورته:

يَا دَهْرُ إِنْ لَمْ تَكُ عُتْبَىٰ فَاتَّئِدْ ... فَإِنَّ إِرْوَادَكَ وَٱلْعُتْبَىٰ سَوَاء

ومجمل المعنى[2]: أي وقال المشركون الذين سبق ذكر بعض أوصافهم: لا حياة بعد هذه الحياة، التي نحن نعيش فيها، فنموت وتحيا أبناؤنا من بعدها، وهذا تكذيب صريح منهم للبعث والمعاد.

وقصارى ذلك: ما ثم إلا هذه الدار يموت قوم، ويعيش آخرون، وليس هناك بعث ولا قيامة ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛ أي: وما يفنينا إلا مر الليالي

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والأيام، فمرورها هو المؤثر في هلاك الأنفس، ويضيفون كل حادث إلى الدهر، وأشعارهم ناطقة بذلك، قال:

أَشَابَ ٱلصَّغِيْرَ وَأَفْنَىٰ ٱلْكَبِيْرَ   كَرُّ ٱلْغَدَاةِ وَمَرُّ ٱلْعَشِيِّ

وقد كانت العرب في جاهليتهم، إذا أصابتهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، وقد جاء النهي عن سب الدهر، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: استقرضت عبدي فلم يعطني، وسبني عبدي، يقول وادهراه وأنا الدهر». قال الشافعي[1] وأبو عبيدة، وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»: كان العرب في الجاهلية إذا أصيبوا بشدة أو بلاء، قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر، ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلذا نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

ثم نعى عليهم مقالهم هذا، الذي لا دليل عليه، فقال: ﴿وَمَا لَهُم﴾؛ أي: وما لهؤلاء المشركين، الذين ينفون البعث والحياة بعد الموت ﴿بِذَٰلِكَ﴾؛ أي: بما ذكر من اقتصار الحياة على ما في الدنيا، وإسناد الحياة والموت إلى الدهر ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ويقين، أسند إلى عقل، أو نقل، و﴿مِن﴾: مزيدة لتأكيد النفي؛ أي: وما لهم علم ويقين بذلك ﴿إِنْ هُمْ﴾؛ أي: ما هم ﴿إِلَّا﴾ قوم ﴿يَظُنُّونَ﴾ بذلك؛ أي: ما هم إلا قوم قصارى أمرهم: الظن والتقليد من غير أن يكون لهم شيء يصح أن يتمسك به في الجملة، هذا معتقدهم الفاسد في أنفسهم، وأما المؤمنون فقد

---

(١) ابن كثير.

أخذوا بالنصوص، وسلكوا طريق اليقين، وتجاوزوا عن برازخ الظن والتخمين، وأثبتوا البعث والحشر والصراط والجنة والنار.

والمعنى: أي وما لهم بقصر الحياة على حياة الدنيا، ونسبة الإهلاك إلى الدهر علم يستند إلى عقل، أو نقل، وقصارى أمرهم: الظن والتخمين، من غير أن يكون لهم ما يتمسكون به من حجة نافذة.

وفي الآية إشارة، إلى أن القول بغير بينة ولا حجة، لا ينبغي أن يعول عليه، وأن اتباع الظن منكر عند الله تعالى.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على منكري البعث ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقة بالحق، الذي من جملته البعث، حالة كونها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على ما نطقت، أو مبينات له، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ وغير ذلك: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ جواب ﴿إذا﴾، وبه استدل أبو حيان، على أن العامل في ﴿إذا﴾ ليس جوابها؛ لأن ﴿مَّا﴾ النافية لها صدر الكلام، واعتذر عن دخول الفاء في الجواب، بأنها خالفت أدوات الشرط في ذلك، فإنها لا بد من دخول الفاء فيها، نحو: إن تزرنا فما جفوتنا؛ أي: فما تجفونا. و﴿حُجَّتَهُمْ﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿كَانَ﴾؛ أي[1]: ما كان متمسكاتهم بشيء من الأشياء يعارضونها به ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾؛ أي: إلا قولهم عناداً واقتراحاً ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾؛ أي: أحيوهم، وابعثوهم من قبورهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنا نبعث بعد الموت، وقد سبق في سورة الدخان؛ أي: لا حجة لهم إلا هذا القول الباطل، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحجة؛ لأنها إنما تطلق على الدليل القطعي. وتسميته[2] حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم، أو لتنزيل التقابل منزلة التناسب للمبالغة، فأطلق اسم الحجة على ما ليس بحجة، من قبيل:

تَـحِـيَّـةُ بَـيْـنِـهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِـيْـعُ

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

أي: سماه حجة، لبيان أنهم لا حجة لهم البتة؛ لأن من كانت حجته هذا، لا يكون له حجة البتة، كما أن من ابتدأ بالضرب الوجيع في أول التلاقي، لا يكون بينهم تحية البتة، ولا يقصد بهذا الأسلوب إلا هذا المعنى، كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة والمراد: نفي أن يكون لهم حجة البتة، وقرأ الجمهور[1]: ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ واسمها ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وزيد بن علي وعبيد بن عمير وابن عامر فيما روى عنه عبد الحميد، وعاصم فيما روى هارون، وحسين عن أبي بكر برفع ﴿حجتُهم﴾ على أنه اسم ﴿كَانَ﴾.

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم فقال: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداء ما شاء أن يحييكم في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فيها عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بعد البعث جميعاً أولكم وآخركم، صغيركم وكبيركم، منتهين ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ للجزاء ثم أكد ذلك ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك في هذا البعث والجمع، فإن من قدر على البدء بقدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء، لا محالة لتجزى كل نفس بما كسبت، والأديان جميعاً متضافرة على تحققه، وحصوله يوم القيامة، والوعد المصدق بالمعجزات دل على وقوعه حتماً، والإتيان بآبائهم حيث كان، مزاحماً للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه.

وقصارى ما سلف[2]: أن البعث أمر ممكن، أخبر به الأنبياء الصادقون، والحكمة تقتضي حصوله، والعقل يؤيده فهو واقع لا محالة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني: الكفرة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ تحتم البعث والجزاء بمقتضى وعده؛ أي: ينكرون البعث، ويستبعدون عودة الأجساد بعد موتها، وحين تكون عظاماً نخرة، كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾؛ أي: يرون وقوعه بعيداً، والمؤمنون يرونه قريباً وما دعاهم إلى ذلك إلا جهلهم، وقصر نظرهم، وهذا[3] استدراك

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

على قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بأن فيه شائبة ريب ما، وفيه إشارة إلى أن الله يحييكم بالحياة الإنسانية، ثم يميتكم عن صفة الإنسانية الحيوانية، ثم يجمعكم بالحياة الربانية إلى يوم القيامة، وهي النشأة الأخرى لا ريب في هذا عند أهل النظر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون؛ لأنهم أهل النسيان والغفلة.

وَفِيْ ٱلْجَهْلِ قَبْلَ ٱلْمَوْتِ مَوْتٌ لأَهْلِهِ ... وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ ٱلْقُبُوْرِ قُبُوْرُ

وَإِنَّ ٱمْرَأً لَمْ يَحْيَ بِٱلْعِلْمِ مَيِّتٌ ... وَلَيْسَ لَهُ حِيْنَ ٱلنُّشُوْرِ نُشُوْرُ

﴿وَلِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الملك المطلق، والتصرف الكلي فيهما، وفيما بينهما مخصوص بالله تعالى، وهو تعميم للقدرة بعد تخصيصها؛ أي: إن الله[1] سبحانه مالك العالم العلوي والسفلي، جار حكمه فيهما دون ما تدعون من دونه من الأوثان والأصنام.

ثم توعد الكافرين أهل الباطل فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ والعامل في[2] ﴿يوم﴾ ﴿يَخْسَرُ﴾ الآتي، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل منه، قال العلامة التفتازاني: مثل هذا بالتأكيد أشبه، وأنى يتأتىٰ أن هذا مقصود بالنسبة دون الأول؟.

قلت: اليوم في البدل بمعنى الوقت، والمعنى وقتئذٍ إذ تقوم الساعة، ويحشر الموتى فيه، وهو جزء من ﴿يوم تقوم الساعة﴾ فإنه يوم متسع مبدؤه من النفخة الأولى، فهو بدل البعض، والعائد مقدر، ولما كان ظهور خسرهم وقت حشرهم، كان هو المقصود بالنسبة، كذا في «حواشي سعدي المفتي»، ومعنى ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: يظهر خسرانهم ثمة، يقال: أبطل فلان إذا جاء بالباطل، وقال شيئاً لا حقيقة له، والمراد: الذي يبطلون الحق، ويكذبون بالبعث؛ أي: يخسر المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل.

والمعنى[3]: أي ويوم تقوم الساعة، ويحشر الناس من قبورهم للعرض، والحساب سيظهر خسران أولئك المنكرين الجاحدين، بما أنزل الله على رسله من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

الآيات والدلائل، بدخولهم في جهنم وبئس المستقر، وقد جعلت الحياة والصحة والعقل كأنها رؤوس أموال، والتصرف فيها بطلب السعادة الأخروية يجري مجرى تصرف التاجر في ماله طلباً للربح، أما الكفار فقد أتعبوا أنفسهم، وتصرفوا فيها بفعل الآثام، والإشراك بالله، تصرف التاجر الذي أساء في تجارته فوكس فيها، ولم يجد في العاقبة إلا الخسران والخذلان والطرد من رحمة الله، وذلك ما لا يرضاه عاقل لنفسه، يزن الأمور بميزان الحكمة والسداد.

ثم بين حال الأمم في ذلك اليوم، وما تلاقيه من الشدائد، انتظارا لفصل القضاء، فقال: ﴿وَتَرَىٰ﴾ أيها المخاطب في ذلك اليوم، رؤية عين ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المجموعة، مؤمنيهم وكافريهم، حال كونها ﴿جَاثِيَةً﴾؛ أي: باركة جالسة على الركب من هول ذلك اليوم، غير مطمئنة؛ لأنها خائفة، فلا تطمئن في جلستها عند السؤال والحساب، يقال: جثا إذا جلس على ركبتيه، أو قام على أطراف أصابعه، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿جَاثِيَةً﴾؛ أي: مجتمعة، بمعنى: أن كل أمة لا تختلط بأمة أخرى، يقال: جثوت الإبل وجثيتها، جمعتها، والجثوة بالضم: الشيء المجتمع.

فإن قيل[1]: الجثو على الركب إنما يليق بالكافرين، فإن المؤمنين لا خوف عليهم يوم القيامة.

فالجواب: أن الآمن قد يشارك المبطل في مثل هذا، إلى أن يظهر كونه محقاً مستحقاً للأمن.

وقرىء[2]: ﴿جاذية﴾ بالذال المعجمة، والجذو أشد استيفازا من الجثو؛ لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه. ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ كرر ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾؛ لأنه موضع الإغلاظ والوعيد ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾؛ أي: إلى صحيفة أعمالها، فالإضافة مجازية للملابسة؛ لأن أعمالهم مثبتة فيه، وقيل: إلى كتابها الذي أنزل عليها لتعبد ربها بهديه، وكتابها الذي نسخته الحفظة من أعمالها، ليطبق أحدهما

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

على الآخر، فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا، ومن خالفه هلك، وكان من الأخسرين أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾. ونحو الآية قوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

وفيه إشارة[1] إلى عجز العباد، وأن لا حول ولا قوة لهم فيما كتب الله لهم في الأزل، وأنهم لا يصيبهم في الدنيا والآخرة إلا ما كتب الله لهم على مقتضى أعيانهم الثابتة، فلا يجرون في الأفعال إلا على القضاء، وقرأ يعقوب ﴿كل أمة تدعى﴾ بنصب كل أمة على البدل، بدل النكرة الموصوفة من النكرة، وأفرد كتابها اكتفاءً باسم الجنس لقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾.

ثم ذكر أنهم ينذرون ويبشرون بما سيبنىٰ عليه حكم القضاء ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ معمول لقوله: ﴿تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: ويقال لهم حال دعائهم إلى كتابهم: اليوم تجازون بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا خيرها وشرها، فمن كان عمله الإيمان والطاعة، جزاه الله بالجنة، ومن كان عمله الشرك والعصيان، جزاه بالنار كما قال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة جاء الإيمان والشرك، فيجثيان بين يدي الرب تعالى، فيقول الله للإيمان، انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك انطلق أنت وأهلك إلى النار». وقوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ إلخ، من تمام ما يقال لهم حينئذ، ولما كان كتاب كل أمة مكتوباً بأمر الله، أضيف إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه، وتهويلاً لأمره، وإلا فالظاهر: أن يضاف إلى الأمة بأن يقال: هذا كتابها كما فيما قبلها. وعبارة «فتح الرحمٰن» هنا: فإن قلت: كيف أضاف الكتاب إلى الأمة ثم أضافه إليه تعالى في قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾؟

قلت: الإضافة تحصل بأدنى ملابسة، فأضافه إلى الأمة لكون أعمالهم مثبتة فيه، وأضاف إليه تعالى لكونه مالكه، وآمر ملائكته بكتابته؛ أي: هذا الكتاب الذي تدعون إليه كتابنا؛ أي: كتاب حفظتنا الذي كتبته عليكم في الدنيا، ودونت

---

(١) روح البيان.

فيه أعمالكم.

﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾؛ أي: يشهد عليكم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق من غير زيادة، ولا نقص، والجملة خبر آخر لهذا، و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من فاعل ﴿يَنطِقُ﴾ فهو صورة تطابق ما فعلتموه حذو القذة بالقذة، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ إلخ، تعليل لنطقه عليهم بأعمالهم من غير إخلال بشيء منها؛ أي: إنا كنا نأمر الحفظة بنسخ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وكتابته في صحائف أعمالكم، وإثباتها عليكم حسنة كانت أو سيئة، صغيرة كانت أو كبيرة، أول فأول، فهي وفق ما عملتم بالدقة والضبط؛ لأن السين للطلب، وفي هذا[1] إجابة عما يخطر بالبال من سؤال فيقال: ومن يحفظ أعمالنا على كثرتها مع طول المدة، وبعد العهد، فأجيبوا بهذا الجواب.

قال الواحدي[2]: وأكثر المفسرين، على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بني آدم، فيجدون ذلك موافقاً لما يعملونه قالوا: لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل. وقيل: المعنى نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون، وقيل: إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات، وتركوا المباحات، وقيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه، أمر - عز وجل - أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب، وسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب.

ثم فصل حال الفريقين فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من الأمم، وصدقوا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: وعملوا الأعمال الصالحة، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى﴾ محل ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ وهو الجنة؛ أي: فأما الذين آمنت قلوبهم، وعملت جوارحهم صالح الأعمال التي أمر بها الدين، فيكافئهم ربهم على ما عملوا، ويدخلهم جنات النعيم، وقد جاء في الحديث الصحيح: «أن الله تعالى قال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إدخالهم في رحمته تعالى ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الظاهر كونه فوزاً لا فوز وراءه.

يقول الفقير: وأما الفوز[1] العظيم فهو دخول جنة القلب، ولقاؤه تعالى، ولكن لما كان هذا الفوز غير ظاهر بالنسبة إلى العامة، وكان الظاهر عندهم الفوز بالجنة، قيل هو الفوز المبين، وإن اشتمل الفوز المبين على الفوز العظيم؛ لأن الجنة محل أنواع الرحمة؛ أي: هذا المذكور هو الظفر بالبغية التي كانوا يطلبونها، والغاية التي كانوا يسعون في الدنيا لبلوغها، وهو فوز لا فوز بعده ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله ورسوله وعملوا السيئات، فيقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾ المنزلة ﴿تُتْلَىٰ﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بواسطة رسلي، والجملة الاستفهامية مقول للقول المحذوف كما قدرنا، والهمزة فيه للاستفهام التقريعي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم تكن تأتيكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم، فحذف المعطوف عليه ثقة بدلالة القرينة عليه ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ أي: تكبرتم عن الإيمان ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾؛ أي: قوماً عادتهم الإجرام والإشراك.

أي: وأما الذين جحدوا وحدانية الله تعالى، فيقال لهم تأنيباً وتوبيخاً: ألم تكن تأتيكم رسلي فتتلو عليكم آيات كتبي فتتكبرون عن الإيمان، ولا عجب، فديدنكم الإجرام وارتكاب الآثام، والكفر بالله، لا تصدقون بميعاد، ولا تؤمنون بثواب ولا عقاب، والمجرم من كسب الآثام بفعل المعاصي ﴿و﴾ كنتم ﴿إذا قيل﴾ لكم؛ أي: إذا قال لكم المؤمنون: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: إن ما وعده من الأمور الآتية فهو بمعنى الموعود ﴿حَقٌّ﴾ واقع لا محالة ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة التي هي أشهر ما وعده ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ولا شك في وقوعها لكونها مما أخبر به الصادق المصدوق، ولقيام الشواهد على وجودها ﴿قُلْتُم﴾ من غاية عتوكم يا منكري البعث من الكفار والزنادقة ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: أي شيء

(١) روح البيان.

هي، استغراباً لها؛ أي: أنكرتموها، وقلتم ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؛ أي: ما نعلم ذلك إلا حدساً وتوهماً. وأصله[1]: نظن ظناً، فأدخل حرف النفي والاستثناء لإثبات الظن، ونفي ما عداه، كأنه قال: ما نحن إلا نظن ظناً، أو لنفي ظنهم فيما سوى ذلك مبالغةً، ثم أكده بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾؛ أي: أنها كائنة.

فإن قلت[2]: إن قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يدل على أنهم قاطعون بنفي البعث، وقولهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ يدل على أنهم شاكون في إمكانه ووقوعه، وبين الآيتين معارضة.

قلت: يجمع بينهما بأن المجرمين كانوا فرقتين في أمر البعث، فرقة جازمة بنفيه، وهم المذكورون في قوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وفرقة كانت تشك وتتحير فيه، وهم المذكورون في هذه الآية. اهـ. «زاده» بتصرف.

وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد[3]: ﴿وإذا قيل أن وعد الله﴾ بفتح الهمزة، وذلك على لغة سليم، والجمهور قرؤوا بكسرها، وقرأ الجمهور ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ بالرفع على الابتداء، وقرأ حمزة بالنصب عطفاً على ﴿وعد الله﴾، وهي مروية عن الأعمش وأبي عمرو وعيسى وأبي حيوة، والعبسي والمفضل.

والمعنى[4]: أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار من طريق الرسول ﷺ والمؤمنين: إن وعد الله بالبعث والحساب، وبجميع الأمور المستقبلة في الآخرة حق ثابت، وواقع لا محالة، والقيامة لا شك في وقوعها فآمنوا بذلك، واعملوا لما ينجيكم من العذاب قلتم: لا نعرف ما القيامة إن نتوهم وقوعها توهماً مرجوحا، أو ظنا لا يقين فيه ولا علم، وما نحن بمتحققين، ولا موقنين أن القيامة آتية؛ أي: كأنهم نفوا كل الظنون إلا الذي لا ثبوت علم فيه، وأكدوا هذا المعنى بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

ثم بعد هذا التوبيخ والنقاش، ذكر الله تعالى ما يفاجؤون به من العذاب

---

(١) بيضاوي.

(٢) زاده.

(٣) البحر المحيط.

(٤) التفسير المنير.

فقال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾؛ أي: ظهر للكفار في الآخرة ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: أعمالهم السيئة، على ما هي عليه من الصورة المنكرة الهائلة، وعاينوا وخامة عاقبتها: والمراد[1] الشرك والمعاصي، التي كانت تميل إليها الطبائع والنفوس، وتشتهيها وتستحسنها، ثم تظهر يوم القيامة في الصور القبيحة، قالوا فالحرام على صورة الخنزير، والزكاة التي لم تؤد على صورة الشجاع الأقرع، والعلم بلا عمل على صورة الشجرة اليابسة، والرجوع عن الحق إلى الباطل في صورة تحول الوجه إلى القفا، إلى غير ذلك من الصور المتنوعة، بحسب الأعمال المختلفة، ولكن ليس لبعض هذه الصور أصول يستند إليه، فكل ما أثمر لهم في الآخرة، إنما هو من زرع زرعوه في مزرعة الدنيا بأعمالهم السيئة، ويجوز أن يراد ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ جزاؤها، فإن جزاء السيئة سيئة مثلها، فسميت باسم سببها، وهذا أولى ﴿وَحَاقَ﴾؛ أي: أحاط ﴿بِهِم﴾ ونزل عليهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في الدنيا من الجزاء والعقاب ﴿وَقِيلَ﴾ من جانب الحق سبحانه ﴿الْيَوْمَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿نَنسَاكُمْ﴾؛ أي: نترككم في العذاب ترك المنسي، ففي ضمير الخطاب استعارة بالكناية، بتشبيههم بالأمر المنسي في تركهم في العذاب، وعدم المبالاة بهم، وقرينتها النسيان ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾؛ أي: كما تركتم عدَّته ولم تبالوا بها، وهي الإيمان والعمل الصالح، وإضافة اللقاء إلى اليوم، من إضافة المصدر إلى ظرفه؛ أي: نسيتم لقاء الله، وجزاءه في يومكم هذا، فأجرى اليوم مجرى المفعول به، وجعل ملقياً. ففي هذه الإضافة توسع، لما فيه من إضافة الشيء إلى ما هو واقع فيه، وفيه إشارة إلى أنهم زرعوا في مزرعة الدنيا بذر النسيان، فأثمرهم في الآخرة ثمرة النسيان ﴿وَمَأْوَاكُمُ﴾؛ أي: مستقركم ومسكنكم الذي تأوون إليه ﴿النَّارُ﴾؛ أي: نار جهنم؛ لأنها مأوى من نسينا، كما أن الجنة تأوي من ذكرنا ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونكم، فيمنعون عنكم العذاب؛ أي: ما لأحد منكم ناصر واحد، يخلصكم منها.

---

(١) روح البيان.

ومجمل معنى الآيتين[1]: أي وظهرت لهم قبائح أعمالهم التي عملوها في الدنيا، حين قرؤوا كتب أعمالهم، التي دونتها الحفظة، كي لا يكون لهم حجة إذا نزل بهم العذاب، ثم جُوزوا بما كانوا يهزؤون به في الدنيا، ويقولون: ما هو إلا أوهام وأباطيل، وخرافات قد دونها المبطلون.

ثم ذكر ما يزيد في تعذيبهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فقال: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ إلخ؛ أي: وقيل لهم تغليظاً في العقوبة وإمعاناً في التهكم، والسخرية: اليوم نترككم في العذاب، كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا، وليس لكم مستنقذ ينقذكم منه، ولا مستنصر يستنصر لكم ممن يعذبكم.

والخلاصة: أنه تعالى جمع لهم ثلاثة ألوان من العذاب: قطع الرحمة عنهم، وجعل مأواهم النار، وعدم وجود الأنصار والأعوان، من قبل أنهم أتوا بثلاثة ضروب من الإجرام: الإصرار على إنكار الدين الحق، والاستهزاء به، والاستغراق في حب الدنيا، وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾؛ أي: بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُزُوًا﴾؛ أي: مهزوءاً بها، ولم ترفعوا لها رأساً بالتفكر والقبول، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ حين قلتم: لا بعث ولا حساب، فحسبتم أن لا حياة بعدها ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: من النار، والالتفات[2] فيه من الخطاب إلى الغيبة، للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، استهانة بهم، أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيابة النار. وقرأ الجمهور: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ مبنيا للمفعول، وقرأ الحسن وابن وثاب وحمزة والكسائي مبنياً للفاعل ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا هم يطلب منهم العتبى، والرجوع إلى طاعة الله سبحانه ليرضوه؛ أي: ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم؛ أي: يرضوه بالطاعة لفوات أوانه.

والمعنى[3]: أي هذا الذي حل بكم من عذاب الله، بسبب أنكم في الدنيا

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

اتخذتم حجج الله، وآيات كتابه، التي أنزلها على رسوله، سخرية تسخرون منها، وخدعتكم زينة هذه الحياة، فآثرتموها على العمل لما ينجيكم من عذابه، ظنا منكم أنه لا حياة بعد هذه الحياة، ولا بعث ولا حساب، فاليوم لا يخرجون من النار ولا هم يردون إلى الدنيا ليتوبوا، ويراجعوا الإنابة مما عوقبوا عليه.

والخلاصة: أنهم لا يخرجون، ولا يطلب منهم أن يزيلوا عتب ربهم عليهم؛ أي: لا يُطلب إرضاؤه لفوات أوانه.

وبعد أن ذكر ماحوته السورة من آلائه تعالى، وإحسانه، وما اشتملت عليه من الدلائل التي في الآفاق والأنفس، وما انطوت عليه من البراهين الساطعة على المبدأ، والمعاد، أثنى على نفسه بما هو له أهل، فقال: ﴿فَلِلَّهِ﴾ سبحانه خاصة. ﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ أي: جميع صنوف الحمد، وأنواعه، فلا يستحق لغيره؛ لأنه الفاعل المختار ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع، وخالقهما، و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: مالك جميع المخلوقات، علويها وسفليها من الأرواح، والأجسام، والذوات، والصفات، فلا يستحق الحمد أحد سواه تعالى، وتكرير[1] الرب للتأكيد، والإيذان بأن ربيته تعالى لكل منها، بطريق الأصالة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿رَبِّ﴾ في المواضع الثلاثة، بالجر على الصفة للاسم الشريف، وقرأ مجاهد وحميد وابن محيصن: بالرفع في الثلاثة، على تقدير مبتدأ؛ أي: هو رب السموات إلخ، ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾؛ أي: العظمة والقدرة والسلطان والجلال والعز والقهر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي سائر المخلوقات، وخص السموات والأرض بالذكر لظهور آثارها، وأحكامها فيهما، وإظهارهما في مقام الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل ما قضى وقدر فاحمدوه؛ أي: لأن له الحمد، وكبروه؛ أي: لأن له الكبرياء، وأطيعوه؛ أي:

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

لأنه غالب على كل شيء، وفي كل صنعة حكمة جليلة.

وفي الحديث القدسي: «يقول الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري». أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه، عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهما ـ، وقال بعضهم: وصف الحق سبحانه نفسه بالإزار والرداء دون القميص والسراويل؛ لأن الأولين غير مخيطين وإن كان منسوجين فهما إلى البساطة أقرب، والثانيين مخيطان ففيهما تركيب، ولهذا السر حرم المخيط على الرجل في الإحرام دون المرأة؛ لأن الرجل وإن كان خلق من مركب فهو إلى البساطة أقرب، وأما المرأة فقد خلقت من مركب محقق هو الرجل، فبعدت عن البسائط، والمخيط تركيب، فقيل للمرأة: ابقي على أصلك لا تلحقي الرجل، وقيل للرجل: ارتفع عن تركيبك، انتهى.

ومعنى الآية: أي فللّه الحمد على أياديه على خلقه، فإياه فاحمدوا، وله فاعبدوا، فكل ما بكم من نعمة فهو مصدرها، دون ما تعبدون من وثن أو صنم، وهو مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع، ومالك جميع ما فيهن، وله الجلال، والعظمة، والسلطان في العالم العلوي، والعالم السفلي، فكل شيء خاضع له، فقير إليه، دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وهو العزيز الذي لا يمانع، ولا يغالب، الحكيم في أفعاله وأقواله، تقدس ربنا جلت قدرته، وتعظمت آلاؤه.

وقصارى ذلك: له الحمد فاحمدوه، وله الكبرياء فعظموه، وهو العزيز الحكيم فأطيعوه.

الإعراب

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة، بمعنى: بل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿حَسِبَ

﴿الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لبيان تغاير حالي المسيئين والمحسنين، ﴿اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿نَجْعَلَهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعول أول. ﴿كَالَّذِينَ﴾: في موضع المفعول الثاني، وجملة ﴿جعل﴾ مع أن المصدرية في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي حسب، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾ صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿سَوَاءً﴾ بالنصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور في قوله: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ﴿مَحْيَاهُمْ﴾ فاعل بـ﴿سَوَاءً﴾، ﴿وَمَمَاتُهُمْ﴾ معطوف عليه، والمعنى: أم حسب الذين اجترحوا السيئات، أن نجعلهم مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، حال كونهم مستوين وإياهم في حياتهم ومماتهم؛ أي: مماثلين إياهم في الحالين، والاستفهام بمعنى: الإنكار والنفي، وبالرفع: ﴿سَوَاءٌ﴾ خبر مقدم، و﴿مَحْيَاهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور؛ أي: أم حسب الكفار أن نجعلهم مثل المؤمنين، حال كونهم مستوين في حياتهم ومماتهم، ليسوا كذلك، بل هم مفترقون أي افتراق في الحالين، وتكون هذه الحال مبينة لما انبهم في المثلية، الدال عليها الكاف التي هي في موضع المفعول الثاني. ﴿سَاءَ﴾ فعل ماض لإنشاء الذم. ﴿مَا﴾ مصدرية، وجملة ﴿يَحْكُمُونَ﴾: مع ﴿مَا﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿سَاءَ﴾ تقديره: ساء حكمهم هذا، أو ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة في محل النصب على التمييز، وفاعل ﴿سَاءَ﴾ مستتر تقديره: هو، وجملة ﴿يَحْكُمُونَ﴾ صفة لـ﴿ما﴾، والتقدير: ساء هو شيئاً حكموه، والمخصوص بالذم حكمهم هذا.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢)﴾.

﴿وَخَلَقَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿خلق الله السماوات﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَالْأَرْضَ﴾: معطوف على السموات، ﴿بِالْحَقِّ﴾: إما حال من الفاعل، أو من المفعول، أو صفة لمصدر محذوف، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، مسوقاً لبيان دليل نفي الاستواء بين الفريقين. ﴿وَلِتُجْزَى﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ما

بعدها على تعليل محذوف، تقديره: وخلق الله السموات والأرض بالحق، ليدل على قدرته، ولتجزى كل نفس، واللام: حرف جر وتعليل، ﴿تجزى﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ نائب فاعل. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تجزى﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: ولجزاء كل نفس بما كسبت، الجار والمجرور: معطوف على الجار والمجرور في قوله: ليدل، على كونه متعلقاً بـ﴿خلق﴾ وجملة ﴿كَسَبَتْ﴾ صلة لما المصدرية أو الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما كسبته. ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من نائب فاعل ﴿تجزى﴾؛ لأنه بمعنى؛ ليجزى كل الخلائق بما كسبوا وهم لا يظلمون.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: الهمزة للاستفهام التعجيبي داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف والتقدير: أنظرت يا محمد إلى حال أسير الهوى، فرأيت من اتخذ إلهه هواه، كما مر في مبحث التفسير، والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿رأيت﴾: فعل وفاعل، و﴿مَنِ﴾ مفعول ﴿رأيت﴾ الأول، والثاني محذوف، تقديره: مهتدياً، ﴿اتَّخَذَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر صلة ﴿مَنِ﴾ الموصولة، ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾: مفعول أول لـ﴿اتَّخَذَ﴾، ﴿هَوَىٰهُ﴾: مفعوله الثاني، أو بالعكس، ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، معطوف على ﴿اتَّخَذَ﴾، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: حال من المفعول، وهو أولى من جعله حالاً من الفاعل، والمعنى: أضله الله وهو عالم بالحق؛ لأن المبالغة فيه أشد، والتشنيع به أكثر. ﴿وَخَتَمَ﴾ فعل، وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على أضل، ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿ختم﴾، ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ معطوف على ﴿سَمْعِهِۦ﴾، ﴿وَجَعَلَ﴾ فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿ختم﴾، ﴿عَلَىٰ بَصَرِهِۦ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾، ﴿غِشَٰوَةً﴾ مفعول أول لـ﴿جعل﴾، ﴿فَمَن﴾ الفاء: عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿يَهْدِيهِ﴾ خبره، ﴿مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ﴾ جار

ومجرور متعلق بـ﴿يَهْدِيهِ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على مفعول. ﴿رأيت﴾، ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتصرون على الغي فلا تذكرون، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: فعل مضارع، حذفت إحدى تائيه مرفوع بثبات النون، والواو فاعل، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لتفنيد مزاعمهم؛ إذ كانوا يزعمون أن هلاك الأنفس منوط بمرور الأيام والليالي. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿هِىَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداء استثناء مفرغ. ﴿حَيَاتُنَا﴾: خبر، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿نَمُوتُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود عليهم، والجملة مستأنفة، مسوقة لإيراد المزيد من عقائدهم الفاسدة، وجملة: ﴿وَنَحْيَا﴾ معطوفة على ﴿نَمُوتُ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يُهْلِكُنَآ﴾: فعل ومفعول به. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر. ﴿ٱلدَّهْرُ﴾ فاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم، ﴿بِذَٰلِكَ﴾ متعلق بـ﴿عِلْمٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة. ﴿عِلْمٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿قالوا﴾، ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، وجملة ﴿يَظُنُّونَ﴾: خبر المبتدأ. والجملة مستأنفة، ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿تُتْلَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به. ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حال من ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، ﴿مَّا﴾ نافية، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر، وجملة ﴿أَن قَالُوا۟﴾ **قالوا** مع أن المصدرية في تأويل مصدر، مرفوع على كونه اسم كان مؤخر تقديره:

ما كان حجتهم إلا قولهم ائتوا بآبائنا، وجملة ﴿كَانَ﴾ جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا معطوفة على جملة قالوا ﴿ٱئۡتُواْ﴾ فعل أمر، وفاعل، ﴿بِـَٔابَآئِنَآ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية مقول قالوا: ﴿إِن﴾ حرف شرط، ﴿كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجوابها معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم صادقين فائتوا بآبائنا، وجملة الشرط مقول ﴿قالوا﴾، ﴿قُلِ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُحۡيِيكُمۡ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلِ﴾. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾: معطوف على ﴿يُحۡيِيكُمۡ﴾، ﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ﴾: معطوف على ﴿يُمِيتُكُمۡ﴾ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾ ﴿لَا﴾: نافية. ﴿رَيۡبَ﴾ اسمها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب حال من ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لكن﴾: حرف نصب، ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ اسمها وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾: خبرها، والجملة الاستدراكية حال من ضمير ﴿فِيهِ﴾؛ أي: حال كونهم لا يعلمون مجيئه، ولا يعتقدون.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿للَّه﴾: خبر مقدم، ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَيَوۡمَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿يَخۡسَرُ﴾، وجملة ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: مضاف إليه، ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف أضيف إلى مثله، وهو بدل من الظرف قبله، بدل بعض من كل، كما مر في مبحث التفسير، ﴿يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿وَتَرَىٰ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ترى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر معطوف على ﴿يَخۡسَرُ﴾، ﴿كُلَّ أُمَّةٖ﴾: مفعول به لـ﴿ترى﴾، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، ﴿جَاثِيَةٗۚ﴾ حال من ﴿كُلَّ أُمَّةٖ﴾، ويحتمل أن تكون ﴿ترى﴾ علمية، و﴿جَاثِيَةٗۚ﴾: مفعولها الثاني، ﴿كُلُّ أُمَّةٖ﴾: مبتدأ، ﴿تُدۡعَىٰٓ﴾ فعل مضارع مغير

الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾، والجملة خبر المبتدأ. ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾: متعلق بـ﴿تُدْعَىٰٓ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب، حال ثانية من ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تُجْزَوْنَ﴾، ﴿تُجْزَوْنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، والواو نائب فاعل، وهو المفعول الأول. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿تُجْزَوْنَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول للقول المحذوف؛ أي: ويقال لهم توبيخاً لهم: اليوم تجزون، إلخ. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف، ﴿يَنطِقُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر، والجملة في محل النصب حال من ﴿كِتَٰبُنَا﴾، ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿يَنطِقُ﴾، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: نطقاً متلبساً بالحق، أو حال من فاعل ﴿يَنطِقُ﴾، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف، على كونها معللة لما قبلها، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿نَسْتَنسِخُ﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَأَمَّا﴾الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما يقال لهم يوم القيامة، وأردت بيان حال الفريقين.. فأقول لك. ﴿أما﴾: حرف شرط. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلته، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿فَيُدْخِلُهُمْ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿أما﴾، ﴿يدخلهم﴾: فعل مضارع ومفعول به، ﴿رَبُّهُمْ﴾: فاعل، ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يدخلهم﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل،

﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: خبر، ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿أما﴾: حرف شرط، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: فيقال لهم: أفلم تكن آياتي إلخ، والجملة الإسمية جواب ﴿أما﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى، ﴿أَفَلَمۡ﴾: الهمزة للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم تأتكم رسلي، فلم تكن آياتي تتلى عليكم، والجملة المحذوفة في محل النصب، مقول لذلك القول المحذوف. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَكُنۡ ءَايَٰتِي﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بـ﴿لم﴾، ﴿تُتۡلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ءَايَٰتِي﴾، ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلق بـ﴿تُتۡلَىٰ﴾، وجملة ﴿تُتۡلَىٰ﴾: في محل النصب خبر ﴿تَكُنۡ﴾، وجملة ﴿لم تكن﴾ معطوف على تلك المحذوفة ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾: الفاء عاطفة، ﴿استكبرتم﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لم تكن﴾. ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا﴾: فعل ناقص واسمه وخبرهُ، معطوف على ﴿استكبرتم﴾، ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾ صفة ﴿قَوۡمٗا﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡتُم﴾ نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾: ﴿الواو﴾: **عاطفة** ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾: خبره، والجملة الابتدائية معطوفة **على** جملة ﴿إِنَّ﴾، وقرىء ﴿والساعة﴾ بالنصب عطفاً **على** ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾، ﴿قُلۡتُم﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿مَّا﴾: نافية، ﴿نَدۡرِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡتُم﴾،

﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: خبرها، والجملة الاستفهامية سدت مسد مفعولي ﴿نَدْرِى﴾، علقت عنها باسم الاستفهام، ﴿إِن﴾: نافية، ﴿نَّظُنُّ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ظَنًّا﴾ مفعول مطلق، وظن هنا بمعنى الوهم، لا يتعدى إلى مفعولين، بل إلى واحد محذوف، تقديره: إن نظنه إلا ظنا، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْتُم﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: حجازية، ﴿نَحْنُ﴾: اسمها، ﴿بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾: خبرها، والباء زائدة، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿وَبَدَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿بدا﴾: فعل ماض، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، ﴿سَيِّئَاتُ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿سَيِّئَاتُ﴾: مضاف ﴿مَا﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿عَمِلُوا﴾ صلة الموصول، ﴿وَحَاقَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿حاق﴾ فعل ماض ﴿بِهِم﴾ متعلق به، ﴿مَّا﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بدا﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿قيل﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ إلخ نائب فاعل محكي لـ﴿قيل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿بدا﴾، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾، ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾، ﴿كَمَا﴾: الكاف، حرف جر ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿نَسِيتُمْ﴾: فعل وفاعل ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾: مفعول به، ﴿هَٰذَا﴾ بدل من ﴿يَوْمِكُمْ﴾ أو صفة له، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾: مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: اليوم ننساكم نسيانا مثل نسيانكم. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مأواكم النار﴾: مبتدأ وخبر، ويجوز العكس، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ على كونها نائب فاعل لـ﴿قيل﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾:

خبر مقدم، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿نَّصِرِينَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على ﴿ما﴾ قبلها.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُم﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ الباء: حرف جر وسبب ﴿أنكم﴾: ناصب واسمه ﴿ٱتَّخَذْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مفعول أول. ﴿هُزُوًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب اتخاذكم آيات الله هزواً، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، معطوف على ﴿ٱتَّخَذْتُمْ﴾، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾، ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حالكم في الدنيا، وأردتم بيان حالكم اليوم.. فأقول لكم: ﴿اليوم﴾: ظرف متعلق بـ﴿يُخْرَجُونَ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُخْرَجُونَ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يُخْرَجُونَ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ وجملة ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من الفعل المغير ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها، ﴿فَلِلَّهِ﴾: الفاء: استئنافية، ﴿للّه﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بدل، أو نعت للجلالة، ﴿وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف عليه، وكذا ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: معطوف عليه بعاطف مقدر، ﴿وَلَهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿له﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حال من ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾، أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف قبله، واختار بعضهم أن يتعلق بنفس الكبرياء؛ لأنه مصدر، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوفة على ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: خبران له، والجملة معطوفة على ما قبلها، والله أعلم.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ والاجتراح: الاكتساب، ومنه الجارحة للأعضاء التي يكتسب بها كالأيدي. قال في «المفردات»: سمي الصائد من الكلاب والفهود، والطير جارحة، وجمعها جوارح إما لأنها تجرح، وإما لأنها تكسب، وسميت الأعضاء الكاسبة جوارح تشبيهاً بها بأحد هذين، انتهى. والمراد بالسيئات: سيئات الكفر، والإشراك بالله سبحانه وتعالى. ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾؛ أي: أن نصيرهم في الحكم. ﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ الأصل فيه: محييهم بوزن مفعل، قلبت الياء الأخيرة ألفاً لتحركها وفتح ما قبلها، وقوله: ﴿مماتهم﴾ أصله: مموتهم بوزن مفعل أيضاً، نقلت حركة الواو إلى الميم، ثم أبدلت الواو ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال، وقوله: ﴿سَآءَ﴾ أصله: سوأ بوزن فعل قلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. ﴿نَمُوتُ﴾ أصله: نموت بوزن نفعل، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الميم فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد. ﴿وَنَحْيَا﴾ أصله: نحيي قلبت الياء الثانية ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ وهو في الأصل: مدة بقاء العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، ثم يعبر به عن كل مدة طويلة، وهو خلاف الزمان، فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة، قال في «القاموس»: الدهر: الزمان الطويل والأبد الممدود، ودهرهم أمر كمنع إذا نزل بهم مكروه، فهم مدهور بهم ومدهورون، اهـ.

﴿يَظُنُّونَ﴾ أصله: يظننون بوزن يفعلون، نقلت حركة النون الأولى إلى الظاء فسكنت، فأدغمت في النون الثانية ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ الأصل فيه: يموتكم بوزن يفعل نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مد.

﴿جَاثِيَةً﴾؛ أي: باركة على الركب مستوفزة، وهي هيئة المذنب الخائف من مكروه، يقال: جثا على ركبتيه يجثو، ويجثي جثواً وجثياً، على فعول فيهما إذا جلس على ركبتيه، أو قام على أطراف أصابعه، وفيه إعلال بالقلب أصله: جاثوة من الجثو قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة. ﴿تُدْعَىٰٓ﴾ أصله: تدعو قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ أصله: تجزيون قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾؛ أي: إلى صحيفة أعمالها التي كتبتها الحفظة، لتحاسب على ما قيد فيها. ﴿يَنطِقُ﴾؛ أي: يشهد. ﴿نَسْتَنسِخُ﴾؛ أي: نأمر الملائكة بأن تكتب وتنسخ، والنسخ في الأصل: هو النقل من أصل كما ينسخ كتاب من كتاب، لكن قد يستعمل للكتبة ابتداءً.

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ وقال في «التعريفات»: الظن هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين، والشك، انتهى. واليقين: اتقان العلم بنفي الشك والشبهة عنه، نظراً واستدلالاً، ولذلك لا يوصف به علم القديم، ولا العلوم الضرورية إذ لا يقال: تيقنت أن السماء فوقي.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ بدا فيه إعلال بالقلب، أصله: بدو قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ أصله: ننسيكم بوزن نفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: لقاي أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ أصله: مأويكم بوزن مفعل اسم مكان، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حجج الله. ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾؛ أي: خدعتكم. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: زينتها. ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا هم يطلب منهم العتبى، والرجوع إلى الله تعالى بالتوبة من ذنوبهم، والإنابة إلى ربهم لفوات أوانه وزمانه، وهو من باب استفعل السداسي، والسين والتاء فيه للطلب، يقال: استعتبته فأعتبني؛ أي: استرضيته فقبل مني عذري، والمعنى: ولاهم يطلب منهم أن يعتبوا ربهم؛ أي: أن يرضوه بالطاعة لفوات أوانه، وهو في الدنيا. ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ والكبرياء: العظمة والملك والجلال والعز والسلطان وهي صفة أثرها تنزهه تعالى عن كل ما لا يليق به.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التجوز في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ فإنه بمعنى: أخبرني، ففيه تجوزان

إطلاق الرؤية، وإرادة الإخبار على طريق إطلاق اسم السبب وإرادة المسبب؛ لأن الرؤية سبب للإخبار، وجعل الاستفهام، بمعنى: الأمر، بجامع مطلق الطلب، اهـ «زاده».

ومنها: الاستعارة التمثيلية، أو التشبيه البليغ، في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إذا قلنا حذف منه أداة التشبيه والأصل: كإلٰهِهِ في طاعته واتباعه.

ومنها: تنكير غشاوة في قوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ لإفادة التنويع، أو للتعظيم.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾.

ومنها: التهكم أو التقابل في قوله: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾؛ لأن تسمية قولهم: حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم، أو لتنزيل التقابل منزلة التناسب للمبالغة، فأطلق الحجة على ما ليس بحجة، من قبيل:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيْعُ

ومنها: التعميم في القدرة بعد تخصيصها في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لأنه خصصها أولاً بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾.

ومنها: شبه التأكيد في قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾؛ لأنه كالتأكيد لقوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ كما مر مع ما فيه.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ لإفادة الإغلاظ والتشديد، والوعيد.

ومنها: الإضافة المجازية في قوله: ﴿كِتَٰبِهَا﴾؛ لأن الإضافة فيه لأدنى ملابسة؛ لأن أعمالهم مثبتة فيه.

ومنها: الإضافة إلى نون العظمة في قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ تفخيماً لشأن

الكتاب، وتهويلاً لأمره.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ يقال: نطق الكتاب بكذا، إذا بينه ودل عليه. والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة، لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: في جنته، ففيه إطلاق الحال وإرادة المحل والعلاقة المحلية.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿نَنسَاكُمْ﴾ ففي ضمير الخطاب استعارة بالكناية، بتشبيههم بالأمر المنسي في تركهم في العذاب، وعدم المبالاة بهم، وقرينتها النسيان.

ومنها: إضافة المصدر إلى ظرفه توسعاً في قوله: ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ أي: نسيتم لقاء الله وجزاءه في يومكم هذا، فأجرى اليوم مجرى المفعول به، وجعل ملقياً.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، استهانة بهم، أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيابة النار كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: أيضاً الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ إلخ، مثل تركهم في العذاب بمن حبس في مكان، ثم نسيه السجان من الطعام والشراب، حتى هلك بطريق الاستعارة التمثيلية، والمراد من الآية: نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي؛ لأن الله تعالى لا ينسى ولا يعرض عليه النسيان.

ومنها: تكرير الرب في قوله: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ للتأكيد والإيذان، بأن ربيته تعالى لكل منها، بطريق الأصالة كما مر.

ومنها: إظهار السمٰوات والأرض في قوله: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع كون المقام للإضمار، لتفخيم شأن الكبرياء.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما في هذه السورة الكريمة من الأغراض والمقاصد

١ ـ إقامة الأدلة على وجود الخالق سبحانه.

٢ ـ وعيد من كذب بآياته، واستكبر عن سماعها.

٣ ـ طلب العفو من المؤمنين عن زلات الكافرين.

٤ ـ الامتنان على بني إسرائيل، بما آتاهم من النعم الروحية والمادية.

٥ ـ أمر رسوله ﷺ أن لا يطيع المشركين، ولا يتبع أهواءهم.

٦ ـ التعجب من حال المشركين، الذين أضلهم الله على علم.

٧ ـ إنكار المشركين للبعث.

٨ ـ ذكر أهوال العرض والحساب، وشهادة صحائف الأعمال على الإنسان.

٩ ـ حلول العذاب بالمشركين، بعد أن تتبين لهم قبائح أعمالهم.

١٠ ـ ثناء المولى سبحانه على نفسه، وإثبات الكبرياء والعظمة له(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) وقد تم تسويد هذا الجزء الخامس والعشرين من القرآن الكريم، بيد جامعه ومؤلفه، في الليلة الثالثة والعشرين، منتصف الساعة الخامسة من شهر الله المحرم، من شهور سنة ألف أربع مئة وخمس عشرة ٢٣/ ١/ ١٤١٥ هـ من السنين الهجرية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكي التحيات، اللهم يا مولى النعم، ويا راحم الأمم، ويا محيي الرمم أنت المعبود، وأنت المقصود، وأنت المستعان بكرمك، وجودك، وفيضك، وفقنا لإتمام هذا التفسير على الوجه الذي يرضيك عنا، وأن تبارك في أعمارنا إلى إكماله، وأن تصرف عنا العوائق والمعائق إلى انتهائه يا منيل رغبة الراغبين، ويا مجيب دعوة الداعين آمين يا رب العالمين، والحمد لله الذي تتم به الصالحات حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تم تصحيح هذه النسخة بيد مؤلفه ليلة العشرين من ذي القعدة في تاريخ ٣٠/ ١١/ ١٤١٧هـ.

تم بحمد الله تعالى المجلد السادس والعشرون، ويليه المجلد السابع والعشرون.

شعرٌ

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِيْ أَمْرٍ يُحَاوِلُهُ   وَٱسْتَعْمَلَ ٱلصَّبْرَ إِلاَّ فَازَ بِٱلظَّفَرِ
يُنَادِيْ ٱلْبَحْرُ يَلْفِظُ بِٱلْغَوَالِيْ   وَيَرْمِيْ بِٱلزَّبَرْجَدِ وَٱلَّلآلِيْ
يَقُوْلُ لِسَابِحِيْهِ وَخَائِضِيْهِ   هَلُمُّوْا فَٱلنَّفَائِسُ فِيْ خِلاَلِيْ
يَا مَنْ بَارَكَ فِيْ ٱلتِّيْنِ وَٱلرُّمَانْ   بَارِكِ ٱللَّهُمَّ فِيْ ٱلرَّوْحِ وَٱلرَّيْحَانْ

الفهرس

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد السابع والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

أَتَاكَ الرُّوْحُ يَعْبِقُ بِالْغَوَالِيْ ... وَيَرْمِي بِالزَّبَرْجَدِ والَّلآلِيْ
يَقُولُ لِشَامِّيْهِ وَمُنْتَشِقِيْهِ ... هَلُمُّوا فَالْعُطُوْرُ فِيْ خِلاَلِيْ

آخرُ

إِذَا رَأَيْتَ أَثِيْمَا ... كُنْ سَاتِراً وَحَلِيْمَا
يَا مَنْ يُقَبِّحُ قَوْلِيْ ... لِمْ لاَ تَمُرُّ كَرِيْمَا

من كلام زين العابدين رضي الله عنه:

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْمَأْمُوْلُ فِيْ كُلِّ حَاجَةٍ ... إِلَيْكَ شَكَوْتُ ٱلضُّرَّ فَٱرْحَمْ شِكَايَتِي
أَلاَ يَا رَجَائِي أَنْتَ كَاشِفُ كُرْبَتِيْ ... فَهَبْ لِيْ ذُنُوْبِيْ كُلَّهَا وَٱقْضِ حَاجَتِيْ
فَزَادِيْ قَلِيْلٌ مَا أَرَاهُ مُبَلِّغِيْ ... عَلَىٰ ٱلزَّادِ أَبْكِيْ أَمْ لِبُعْدِ مَسَافَتِيْ
أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ رَدِيْئَةٍ ... وَمَا فِيْ ٱلْوَرَىٰ خَلْقٌ جَنَىٰ كَجِنَايَتِيْ

ولقد أحسن من قال، وهو أبو علي الثقفيُّ:

يَا عَاتِبَ ٱلدَّهْرِ إِذَا نَابَهُ ... لاَ تَلُمِ ٱلدَّهْرَ عَلَىٰ غَدْرِهِ
الدَّهْرُ مَأْمُوْرٌ لَهُ آمِرُ ... وَيَنْتَهِي ٱلدَّهْرُ إِلَىٰ أَمْرِهِ
كَمْ كَافِرٍ أَمْوَالُهُ جَمَّةٌ ... تَزْدَادُ أَضْعَافاً عَلَىٰ كُفْرِهِ
وَمُؤْمِنٍ لَيْسَ لَهُ دِرْهَمٌ ... يَزْدَادُ إِيْمَاناً عَلَىٰ فَقْرِهِ

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك يا مولى النعم، ويا مفيض الحكم على من اختاره من أهل الكرم، ونصلّي ونسلم على السلطان الأعظم، والقائد الأجل الأكرم، ومنبع العلوم والحكم، سيّدنا محمد، وعلى آله وأصحابه السادات الكرام، صلاةً وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم القيامة.

أما بعد: فإنّي لما فرغت من تفسير الجزء الخامس والعشرين من القرآن الكريم.. تفرغت للشروع في الجزء السادس والعشرين منه بإذن الله سبحانه وتوفيقه، فقلت مستمدًّا من الله التوفيق والهداية، لأقوم الطريق في كتابة هذا التعليق:

سورة الأحقاف

مكية، قال القرطبي: في قول جميعهم، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير قالا: نزلت سورة حم الأحقاف بمكة بعد الجاثية، قيل:[1] إلا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قيل: إلا قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ فإنهما نزلتا بالمدينة. قيل[2]: وإلا ثلاث آيات من قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فنزلت بالمدينة. وهي أربع أو خمس وثلاثون آية. وفي «الشهاب»: الاختلاف في عدد الآيات مبني على أن ﴿حمٓ ①﴾ آية أولاً، وست مئة وأربع وأربعون كلمةً، وألفان وخمس مئة وخمسة وتسعون حرفاً.

التسمية: سميت سورة الأحقاف؛ لأنه يذكر فيها الأحقاف التي هي مساكن عاد الذين أهلكهم الله تعالى بطغيانهم، وكانت مساكنهم بالأحقاف التي هي من

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

أرض اليمن، حيث قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾.

فضلها[1]: وذكر في فضلها عن النبيّ ﷺ: «من قرأ سورة الأحقاف.. كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا». ولكنه حديث موضوع لا أصل له.

الناسخ والمنسوخ: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة الأحقاف مكية، وجميعها محكم إلا آيتين:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ نسخت بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...﴾ الآية. من سورة الفتح.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ نسخ معناها بآية السيف.

المناسبة[2]: تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة هي:

١ ـ تطابق السورتين في: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

٢ ـ تشابه موضوع السورتين، وهو إثبات التوحيد والنبوة والوحي والبعث والمعاد.

٣ ـ ختمت السورة السابقة بتوبيخ المشركين على الشرك، وبدئت هذه السورة بتوبيخهم على شركهم، ومطالبتهم بالدليل عليه، وبيان عظمة الإله الخالق المجيب من دعاه، على عكس تلك الأصنام التي لا تستجيب لدعاتها إلى يوم القيامة.

---

(١) البيضاوي.

(٢) التفسير المنير.

وعبارة «المراغي» هنا: ووجه اتصال هذه السورة بما قبلها: أنه تعالى ختم السورة السالفة بالتوحيد، وذمِّ أهل الشرك، وتوعُّدهم عليه، وافتتح هذه بالتوحيد، وتوبيخ المشركين على شركهم أيضاً. انتهى.

وعبارة أبي حيان: ومناسبة أول هذه السورة لما قبلها[1]: أنّ في آخر ما قبلها: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾، وقلتم: إنه ﷺ اختلقها، فقال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ وهاتان الصفتان هما آخر تلك، وهما أوّل هذه. انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢) ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون (٣) قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين (٤) ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون (٥) وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٦) وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين (٧) أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم (٨) قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين (٩) قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (١٠) وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم (١١) ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين (١٢)﴾.

المناسبة

بدأ سبحانه هذه السورة بإثبات أنّ هذا القرآن من عند الله لا من عند محمد كما تدّعون، ثم ذكر أنّ خلق السموات والأرض مصحوب بالحق، قائم بالعدل والنظام، ومن النظام أن تكون الآجال مقدرة معلومة لكل شيء، إذ لا شيء في الدنيا دائم، ولا بدّ من يوم يجتمع الناس فيه للحساب، حتى لا يستوي المحسن والمسيء، ولكن الذين كفروا أعرضوا عن إنذار الكتاب، ولم يفكّروا فيما شاهدوا في العالم من النظام والحكمة، فلا هم بسماع الوحي متعظون، ولا هم بالنظر في العالم المشاهد يعتبرون.

ثم نعى على المشركين حال آلهتهم، وأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم: أخبروني ماذا خلق آلهتكم من الأرض، أو لهم شركة في خلق السموات حتى يستحقّوا العبادة، فإن كان لهم ما تدّعون.. فهاتوا دليلاً على هذا الشرك المدّعى بكتاب موحى به من قبل القرآن، أو ببقية من علوم الأولين، وكيف خطر على بالكم أن تعبدوها، وهي لا تستجيب لكم دعاء إلى يوم القيامة؟ وهي غافلة عنكم، وفي الدار الآخرة تكون لكم أعداء، وتجحد عبادتكم لها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما تكلم[1] في تقرير التوحيد، ونفي الأضداد والأنداد.. أعقب هذا بالكلام في النبوة، وبيّن أنه كلما تلا عليهم الرسول شيئاً من القرآن.. قالوا: إنه سحر، بل زادوا في الشناعة، وقالوا: إنه مفترى، فردّ عليهم بأنه لو افتراه على الله.. فمن يمنعه من عقابه لو عاجله به، وهو العليم بما تندفعون فيه من الطعن في نبوتي، ويشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالكذب والجحود.

ثم أمر رسوله أن يقول لهم: إني لست بأول الرسل حتى تنكروا دعائي لكم إلى التوحيد، ونَهْيِي لكم عن عبادة الأوثان والأصنام، وما أدري ما يفعل بي في الدنيا، أأموت أم أُقتل كما قتل الأنبياء قبلي، ولا ما يفعل بكم، أترمون بالحجارة من السماء أم تخسف بكم الأرض، أم يفعل بكم غير ذلك مما عمل مع سائر المكذبين للرسل، وإني لا أعمل عملاً، ولا أقول قولاً إلا بوحي من ربي، وما أنا إلا نذير لا أستطيع أن آتي بالمعجزات والأخبار الغيبية، فالقادر على ذلك هو الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا نعى عليهم استهزاءهم بكتابه، وقولهم فيه: إنه سحر مفترى، وردَّ الرسول عليهم بأنه ليس بأول رسول حتى

---

(١) المراغي.

يستنكرون نبوته، ويطلبون منه ما لا قبل له به من المعجزات التي أمرها بيد الله تعالى لا بيده.. أردف[1] هذا بأمر رسوله أن يقول لهم: ما ظنّكم أنّ الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله الله عليّ لأبلغكموه فكفرتم به وكذّبتموه، وقد شهد شاهد من بني إسرائيل الواقفين على أسرار الوحي بما أوتوا من التوراة على مثل ما قلتم، فآمن واستكبرتم.

ثم حكى عنهم شبهة أخرى بشأن إيمان من آمن منهم من الفقراء كعمار وصهيب وابن مسعود، فقالوا: لو كان هذا الدين خيراً.. ما سبقنا إليه هؤلاء. ثم إنهم حين لم يهتدوا به قالوا: إنه من أساطير الأولين.

ثم ذكر أنّ مما يدل على صدق القرآن: أنّ التوراة وهي الإمام المقتدى به بشّرت بمقدم محمد ﷺ، فاقبلوا حكمها في أنه رسول حقاً من عند الله.

ثمّ أعقب هذا ببيان أنّ من آمنوا بالله، وعملوا صالحاً لا يخافون مكروهاً ولا يحزنون لفوات محبوب، وأولئك هم أهل الجنة، جزاء ما عملوا من عمل صالح، وما أخبتوا لربهم، وانقادوا لأمره ونهيه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه أحمد في «المسند» والطبراني بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال: انطلق النبي ﷺ يوماً وأنا معه، حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أنه لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله ﷺ، يحطُّ الله عن كل يهوديّ تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه» قال: فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم ردّ عليهم، فلم يجبه أحد، ثم

---

(١) المراغي.

(٢) أسباب النزول.

ثلّث، فلم يجبه أحد، فقال: «أبيتم، فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى، آمنتم أو كذبتم» ثم انصرف وأنا معه، حتى إذا كدنا نخرج.. نادى رجل من خلفنا: كما أنت يا محمد، قال: فأقبل فقال ذلك الرجل: أيَّ رجلٍ تعلموني يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا مِنْ أبيك قبلك، ولا من جدّك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له بأنه نبيُّ الله الذي تجدونه في التوراة، قالوا: كذبت، وردّوا عليه قوله، وقالوا فيه شراً، قال رسول الله ﷺ: «كذبتم، لن يقبل قولكم، أما آنفاً فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، ولما آمن كذّبتموه وقلتم فيه ما قلتم، فلن يقبل فيه قولكم» قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ، وأنا، وعبد الله بن سلام، وأنزل الله عز وجل فيه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾.

وأخرج[1] البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: في عبد الله بن سلام نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾.

وأخرج ابن جرير والترمذي وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال: فيّ نزلت، ونزل فيّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الطبراني عن قتادة قال: قال ناس من المشركين: نحن أعزّ ونحن ونحن، فلو كان خيراً منا.. ما سبقنا إليه فلان وفلان، فنزل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . . .﴾.

وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله، يقال لها: «زِنّينٌ»، أو «زِنّيرة»، فكان عمر يضربها على إسلامها حتى يفتر، وكان كفار قريش يقولون: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زِنّين، فأنزل الله تعالى في شأنها: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا . . .﴾ الآية. وقال عروة بن الزبير: إنّ زِنّيرة روميّة كان أبو جهل يعذبها، أسلمت فأصيب بصرها،

(١) لباب النقول.

فقالوا لها: أصابك اللات والعزى، فردّ الله عليها بصرها، فقال عظماء قريش: لو كا ما جاء به محمد خيراً.. ما سبقتنا إليه زِّنيرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال ابن عباس والكلبي والزجاج: إنّ الذين كفروا هم بنو عامر وغطفان وتميم وأسد وحنظلة وأشجع، قالوا لمن أسلم من غفار وأسلم وجهينة ومزينة وخزاعة: لو كان ما جاء به محمد خيراً، ما سبقتنا إليه رعاة البهم، إذ نحن أعز منهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حمٓ ۝١﴾؛ أي: هذه السورة[1] مسماة بـ ﴿حمٓ ۝١﴾. وقال بعضهم: ﴿الحاء﴾، إشارة إلى حماية أهل التوحيد، و﴿الميم﴾: إلى مرضاته منهم مع المزيد، وهو النظر إلى وجهه الكريم. وقال بعضهم: معناه: حميت قلوب أهل عنايتي فصنتها عن الخواطر والهواجس، فلاح فيها شواهد الدين، وأشرقت بنور اليقين.

يقول الفقير: فيه إشارة إلى أنّ القرآن حياة الموتى، كما قال: ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾، وكذا حياة الموتى من القلوب، فإنّ العلوم والمعارف، والحكم حياة القلوب والأرواح والأسرار. وأيضاً إشارةٌ إلى الأسماء الحسنى، فإنَّ حاء وميم من حساب البسط تسعةٌ وتسعون. وأيضاً إلى الصفات السبع التي خلق الله آدم عليها: وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، فـ ﴿الحاء﴾، حاء الحياة، و﴿الميم﴾ ميم الكلام، فأُشير بالأول والآخر إلى المجموع؛ يعني: أنّ الله تعالى أنزل القرآن لتحصى أسماؤه الحسنى، وتعرف به صفاته العليا، ويتخلق بأخلاقه العظمى. ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾؛ أي: القرآن المشتمل على هذه السورة، وعلى سائر السور الجليلة، وهو مبتدأ، خبره: قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: كائن منه تعالى، وما كان من الله فهو حق وصدق، فإنه قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾. ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يُغالب، وما كان من العزيز فهو عزيز غالب على جميع الكتب بنظمه ومعانيه، ودليل ظاهر

---

(١) روح البيان.

لأرباب الظواهر والباطن ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ أي: المتقن في صنعه، وما كان من الحكيم ففيه حكمة بالغة، فإنّ الله تعالى لا يفعل إلا ما فيه مصلحة لعباده، كما قال: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ بما فيهما من حيث الجزئية منهما، ومن حيث الاستقرار فيهما ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ من المخلوقات: كالنار والهواء والسحاب والأمطار والطيور المختلفة ونحوها ﴿إِلَّا﴾ خلقا متلبساً ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالغرض الصحيح، والحكمة البالغة، وأنّ جعلها مقارّاً للمكلفين، ليعملوا فيجازيهم يوم القيامة، لا بالعبث والباطل، فإنه ما وجد شيء إلا لحكمة. وفي الآية إشارة إلى أنّ المخلوقات كلها ما خلقت إلا لمعرفة الحق تعالى، كما قال: فخلقت الخلق لأعرف، ولهذه المعرفة خلقت سموات الأرواح، وأراضي النفوس، وما بينهما من العقول والقلوب والقوى.

﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾: معطوف[1] على ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ بتقدير المضاف المحذوف؛ أي: وإلا بتقدير أجل معين ينتهي إليه أمور الكل، وبقاؤه في هذه الدنيا؛ لأنَّ اقتران الخلق ليس إلا به، لا بالأجل نفسه، وهذا الأجل هو يوم القيامة، فإنه ينتهي فيه السموات والأرض وما بينهما، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات. وقيل: المراد بالأجل المسمى: هو انتهاء أجل كل فرد من أفراد المخلوقات، وهو آخر مدة بقائه المقدر له. والأول أولى، وفيه إشارة إلى قيام الساعة، وانقضاء مدّة الدنيا، وأنّ الله سبحانه لم يخلق خلقاً باطلاً وعبثاً لغير شيء، بل خلقه للثواب والعقاب، وفيه موعظة وزجر؛ أي: فانتبهوا أيها الناس، وانظروا ما يراد بكم، ولم خلقتم.

والمعنى[2]: أي ما خلقناهما إلا خلقا متلبساً بالعدل، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق، إليه ينتهي بقاؤه في هذه الحياة الدنيا، وهذا يستدعي أن يكون خلقه لحكمة وغاية، وأنَّ هناك يوماً معلوما للحساب والجزاء؛ لئلا يتساوى من أحسن في الدار الأولى، ومن أساء فيها، ومن أطاع ربه واتبع أوامره ونواهيه، ومن دسَّ

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

نفسه وركب رأسه واتبع شيطانه وهواه، وسلك سبل الغواية، فلم يترك منها طريقاً إلا سلكه، ولا باباً إلا ولجه.

ثم بين غفلة المشركين، وإعراضهم عما أنذروا به فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: مشركوا أهل مكة ﴿عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ وخوّفوا به في القرآن من البعث والحساب والجزاء، وأهوال يوم القيامة ﴿مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: مولّون غير مستعدين له بالإيمان والعمل الصالح. والجملة[1]: في محل النصب على الحال؛ أي: والحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به. و﴿ما﴾ في قوله: ﴿عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾: يجوز أن تكون موصولةً، وأن تكون مصدريةً؛ أي: عن إنذار الرسول إياهم.

والمعنى[2]: أي مع ما نصبنا من الأدلة، وأرسلنا من الرسل، وأنزلنا من الكتب بقي هؤلاء الكفار معرضين عنه غير ملتفتين إليه، فلا هم بما أنزلنا من الكتب اتعظوا، ولا بما شاهدوا من أدلة الكون اعتبروا، وأنى لهم ذلك فهم صُمٌّ بكمٌ عميٌّ لا يعقلون.

وبعد أن أثبت لنفسه الألوهية، وأنه رحيم عادل، وأثبت البعث والجزاء يوم القيامة.. ردَّ على عبدة الأصنام فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكافرين توبيخاً وتبكيتاً ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾؛ أي: أخبروني ما تعبدون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه من الأصنام والكواكب وغيرهما ﴿أَرُونِى﴾ تأكيد لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾؛ أي: أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟﴾؛ أي: الآلهة ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بيان للإبهام في ﴿مَاذَا﴾؛ أي: أخبروني أيَّ جزءٍ من أجزاء الأرض تفردوا بخلقه دون الله، فالمفعول الأول لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ قوله: ﴿ما تدعون﴾، والثاني ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟﴾. ومآله أخبروني عن حال آلهتكم، ويحتمل أن لا يكون ﴿أَرُونِى﴾ تأكيداً، بل يكون هذا من باب التنازع؛ لأنَّ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ يطلب مفعولاً ثانياً، و﴿أَرُونِى﴾ كذلك. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾؛ أي: شركة مع الله، و﴿أَمْ﴾ هذه هي المنقطعة المقدرة ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري التوبيخي؛ أي: بل ألهؤلاء الأصنام شركة مع الله تعالى ﴿فِى﴾ خلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أو ملكها

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وتدبيرها، حتى يتوهم أن يكون لهم شائبة استحقاق للعباد، فإنَّ ﴿ما﴾ لا مدخل له في وجود شيء من الأشياء بوجه من الوجوه، فهو بمعزل من ذلك الاستحقاق بالكلية، وإن كانوا من الأحياء العقلاء.. فما ظنكم بالجماد.

فإن قلت[١]: فما تقول في عيسى عليه السلام، فإنه كان يحيي الموتى، ويخلق الطير، ويفعل ما لا يقدر عليه غيره؟

قلت: هو بإقدار الله تعالى وإذنه، وذلك لا ينافي عجزه في نفسه، وذكر الشرك في الجهات العلوية دون السفلية؛ أي: دون أن يعم بالأرض أيضاً؛ لأنَّ الآثار العلوية أظهر دلالة على اختصاص الله تعالى بخلقها لعلوّها، وكونها مرفوعة بلا عمد ولا أوتاد، أو للاحتراز عمّا يتوهم أنّ للوسائط شركة في إيجاد الحوادث السفلية؛ يعني: لو قال: أم لهم شرك في الأرض.. لتوّهم أنّ للسموات دخلاً وشركة في إيجاد الحوادث السفلية، هذا على تقدير أن تكون ﴿أمْ﴾: منقطعة، والأظهر: أن تجعل الآية من حذف معادل أم المتصلة لوجود دليله، والتقدير: ألهم شرك في الأرض أم لهم شرك في السموات كما في «حواشي سعدي المفتي».

والمعنى[٢]: أي قل لهم أيها الرسول: أخبروني عن حال آلهتكم بعد التأمل في خلق السموات والأرض وما بينهما، والنظام القائم المبنيّ على الحكمة ودقّة الصنع، والإبداع في التكوين، هل تعقلون لهم مدخلاً في خلق جزء من هذا العالم السفليّ، فيستحقوا لأجله العبادة؟ ولو كان لهم ذلك لظهر التفاوت في هذا النظام، والمشاهد أنه على حال واحدة يستمدُّ أدناه من أعلاه، ويرتبط بعضه ببعض، وكل فرد في الأرض مخدوم بجميع الأفراد فيهما، أم هل تظنون أن لهم شركة في خلق العالم العلويّ: شموسه وأقماره كواكبه ونجومه سياراتها وثوابتها.

وقصارى ذلك: نفى استحقاق آلهتهم للمعبودية على أتمّ وجه، فقد نفى أنَّ لها دخلاً في خلق شيء من أجزاء العالم السفليّ استقلالاً، ونفى ثانياً أنّ لها

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

دخلاً على سبيل الشركة في خلق شيء من أجزاء العالم العلويّ، ونفي ذلك يستلزم نفي استحقاق المعبودية أيضاً.

وبعد أن بكتهم، وعجزهم عن الإتيان بسند عقلي.. عجَّزهم وبكَّتهم عن الإتيان بسند نقليّ، فقال: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ...﴾ إلخ. تبكيت[1] لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقليّ. و﴿الباء﴾[2]: للتعدية؛ أي: ائتوني بكتاب إلهي كائن ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ الكتاب الذي أنزل عليَّ؛ أي: من قبل هذا القرآن الناطق بالتوحيد، وإبطال الشرك، دالٍّ ذلك الكتاب على صحة دينكم؛ يعني: أنَّ جميع الكتب السماوية ناطقة بمثل ما نطق به القرآن ﴿أَوْ﴾ ائتوني بـ ﴿أَثَٰرَةٍ﴾ مصدر بوزن سماحة وغواية؛ أي: بقية كائنة ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ الأولين؛ أي: بقيةٍ كائنة من علم بقيت عليكم من علوم الأولين، شاهدة باستحقاقهم للعبادة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم صحة عبادتها، فإنها لا تكاد تصح ما لم يقم عليها برهان عقلي أو نقليّ، وحيث لم يقم عليها شيء منهما، وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل تبيَّن بطلانها.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾ وهو مصدر كالشجاعة والسماحة، وهي البقية من الشيء، وقرأ عليٌّ وابن عباس بخلاف عنهما وزيد بن علي وعكرمة وقتادة والحسن والسلمي وأبو رجاء والأعمش وعمرو بن ميمون: ﴿أو أثرةٍ﴾ بفتح الهمزة والثاء بغير ألف، وهي واحدة جمعها أثر، كقترة وقتر، وقرأ عليّ والسلمي وقتادة أيضاً: بإسكان الثاء، وهي الفعلة الواحدة مما يؤثر؛ أي: قد قنعت لكم بخبر واحد، وأثر واحد يشهد بصحة قولكم، وقرأ الكسائي: ﴿أثرة﴾ بضم الهمزة وسكون الثاء، وهي لغة فيها.

وعبارة البيضاوي هنا: وقرىء: ﴿إثارة﴾ - بالكسر؛ أي: مناظرة، فإن المناظرة تثير المعاني، وأثرة؛ أي: شيء أوثرتم به، وإثرة بالحركات الثلاث في

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

الهمزة وسكون الثاء، فالمفتوحة للمرة من مصدر أثر الحديث: إذا رواه، والمكسورة بمعنى الأثر، والمضمومة اسم ما يؤثر. انتهى.

والمعنى[1]: أي أحضروا لي دليلاً مكتوباً قبل القرآن مما نزل على الأنبياء، كالتوراة والإنجيل، يدلُّ على صحة عبادتكم لآلهتكم، أو ببقية بقيت عندكم من علم الأولين المفكرين في خلق السموات والأرض ترشد إلى استحقاق الأصنام والأوثان للعبادة، وتدل على صحة هذا المنهج الذي سلكتموه ونهجتموه، إن كنتم صادقين في ادّعائكم ألوهية الأصنام.

والمعنى: لا دليل لكم نقلياً ولا عقلياً على ذلك.

والخلاصة: أنّ الدليل إما وحي من الله، أو بقية من كلام الأوائل، وإما إرشاد من العقل، فإن كان الأول.. فأين الكتاب الذي يدل على أنهم شركاء؟ وإن كان الثاني.. فأين هو؟.

وبعد أن أبطل شركة الأصنام في الخلق بعدم قدرتها على ذلك.. أتبعه إبطاله بعدم علمها بالعبادة، فقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ ﴿من﴾: للاستفهام الإنكاري، خبره. قوله: ﴿أَضَلُّ﴾؛ أي: وأيُّ امرىءٍ أبعد من الحق وأقرب إلى الجهل ﴿مِمَّن يَدْعُوا﴾ ويعبد ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: حال كونه متجاوزاً دعاء الله وعبادته ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ﴾؛ أي: أصناماً وجماداً لا تستجيب لداعيها. والموصول مع صلته مفعول ﴿يَدْعُوا﴾؛ أي: لا أضل منه ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فكيف يطمع في الإجابة فضلاً عن جلب نفع أو دفع ضر؟ فتبيَّن به أنه أجهل الجاهلين، وأضل الضالّين، وما هنا للشوكاني من أنّ الاستفهام للتقريع والتوبيخ غير صواب؛ لأنّ قوله هذا يناقض تفسيره أولاً؛ أي: هم أضل من كل ضالّ، حيث تركوا عبادة خالقهم السميع القادر المجيب الخبير، إلى عبادة مصنوعهم العاري عن السمع والقدرة والاستجابة. وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: غاية لنفي الاستجابة؛ أي: ما دامت الدنيا.

---

(١) التفسير المنير.

فإن قيل[1]: يلزم منه أنّ منتهى عدم الاستجابة يوم القيامة؛ للإجماع على اعتبار مفهوم الغاية.. قلنا: لو سلّم.. فلا يعارض المنطوق، وقد دلّ قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ الآية. على معاداتهم إياهم، فأنّى الاستجابة. وقد يجاب بأنّ انقطاع عدم الاستجابة حينئذٍ؛ لاقتضائه سابقة الدعاء ولا دعاء، ويردّه قوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ إلّا أن يخصّ الدعاء بما يكون عن رغبة. كما في «حواشي سعدي المفتي».

وقال ابن الشيخ: وإنما جعل ذلك غاية، مع أنّ عدم استجابتهم أمر مستمرّ في الدنيا والآخرة، إشعاراً بأنّ معاملتهم مع العابدين بعد قيام الساعة أشدّ وأفظع مما وقعت في الدنيا، إذ يحدث هناك العداوة والتبرّي، ونحوه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ فإنّ اللعنة على الشيطان، وإن كانت أبدية، لكن يظهر يوم الدين أمر أفظع منها، تنسى عنده كأنها تنقطع.

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال أنّ الأصنام ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾؛ أي: عن دعاء الداعين المشركين وعبادتهم، فالضمير الأول لمفعول ﴿يَدْعُوا۟﴾، والثاني لفاعله، والجمع فيهما باعتبار معنى ﴿مَن﴾ كما أنّ الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها ﴿غَٰفِلُونَ﴾؛ أي: جاهلون لكونهم جمادات لا يعقلون، فكيف يستجيبون؟ وعلى تقدير كون معبوديهم أحياء كالملائكة ونحوهم، فهم عباد مسخرون مشغولون بأحوالهم، وضمائر العقلاء؛ لإجرائهم الأصنام مجرى العقلاء، ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها؛ للتهكم بها وبعبدتها.

والمعنى[2]: أي لا أحد أضل وأجهل ممن يعبد من دون الله أصناماً، ويتخذهم آلهةً، ويطلب منها ما لا تستطيعه، وهم إذا دُعوا لا يسمعون ولا يجيبون إلى يوم القيامة؛ أي: لا يجيبون أبداً ما داموا في الدنيا، إذ هم في غفلة عن دعائهم؛ لأنهم أحجار، فهم صمّ بكم لا يسمعون ولا يتكلمون ولا يعقلون، وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تأبيد على عادة العرب، ما دامت الدنيا، وما أنكى

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

هذا التوبيخ، وما أمضى ألمه لهؤلاء المشركين على سوء رأيهم، وقبح اختيارهم في عبادتهم ما لا يعقل شيئاً ولا يفهم، وتركهم عبادة من بيده جميع نعمهم، ومن به إغاثتهم حين تنزل بهم الجوائح والمصائب.

وبعد أن أبان أنهم لا ينفعونهم في الدنيا، ولا يستجيبون لهم دعاء.. أبان حالهم في الآخرة فقال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: وإذا جمع الناس لموقف الحساب.. ﴿كَانُوا﴾؛ أي: الأصنام ﴿لَهُمْ﴾؛ أي؛ لعابديهم ﴿أَعْدَآءً﴾ يضرُّونهم ولا ينفعونهم؛ أي: كانت هذه الآلهة التي يعبدونها في الدنيا أعداء لهم؛ إذ يتبرؤون منهم ﴿وَكَانُوا﴾؛ أي: الأصنام ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾؛ أي: بعبادة عابديهم ﴿كَٰفِرِينَ﴾؛ أي؛ منكرين مكذبين بلسان الحال، أو المقال، على ما يروى أنه تعالى يحيي الأصنام فتتبرأ من عبادتهم، وتقول: إنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم[1]؛ لأنها الآمرة بالإشراك.

والمعنى[2]: أي وإذا جمع الناس العابدون للأصنام في موقف الحساب.. كانت الأصنام لهم أعداء تتبرّأ منهم وتلعنهم، وكانوا جاحدين مكذبين منكرين لعبادتهم، فيخلق الله الحياة في الأصنام فتكذّبهم، وتتبرّأ الملائكة والمسيح وعزير والشياطين ممن عبدوهم يوم القيامة، ونظير الآية قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾، وقوله في سورة العنكبوت حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الكفار ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ القرآنية حالة كونها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على مدلولاتها من حلال وحرام وحشر ونشر وغيرها.. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ﴿لِلْحَقِّ﴾؛ أي: لأجل الحقّ، وشأنه الذي هو

---

(١) التفسير المنير.　　(٢) روح البيان.

الآيات المتلوّة.

ويجوز[1] أن تكون ﴿اللام﴾ بمعنى الباء؛ أي: كفروا بالحق، والتعدية بـ ﴿اللام﴾ من حمل النقيض على النقيض، فإنّ الإيمان يتعدّى بها كما في قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ وغيره. والحق هنا عبارة عن الآيات المتلوّة وضع موضع ضميرها تنصيصاً على حقّيتها، ووجوب الإيمان بها، كما وضع الموصول موضع ضمير المتلوّ عليهم؛ تسجيلاً بكمال الكفر والضلالة عليهم ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: في أول ما جاءهم من غير تدبّر ولا تأمل ﴿هَٰذَآ﴾ الحق الذي هو القرآن المتلوّ عليهم ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر كونه سحراً وباطلاً لا حقيقة له، وإذا جعلوه سحراً.. فقد أنكروا ما نطق به من البعث والحساب والجزاء، وصاروا أكفر من الحمير؛ أي: أجهل وأبلد من الحمير؛ لأنّ الكفر من الجهل والعياذ بالله.

والمعنى[2]: أي وإذا تليت على هؤلاء حججنا التي أودعناها كتابنا، الذي أنزلناه عليك حال كونها بينة واضحةً جليةً.. قالوا في شأن الحق الذي أتاهم، وهو القرآن: هذا سحر واضح، وتمويه خادع، يفعل فعل السحر في قلب من سمعه، فكذّبوا به وافتروا وكفروا وضلوا.

ثم انتقل من هذه المقالة الشنعاء إلى ما هو أشنع منها، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: بل أيقول كفار مكة: افترى محمد هذا القرآن؛ أي: اختلقه من عند نفسه، وأضافه إلى الله كذباً، فقولهم هذا منكر، ومحل تعجب، فإن القرآن كلام معجز خارج عن حيّز قدرة البشر، فكيف يقوله محمد ﷺ ويفتريه؟.

واعلم: أنّ كلًا من السحر والافتراء كفر، لكن الافتراء على الله أشنع من السحر، و﴿أَمْ﴾ هنا هي[3] المنقطعة المقدرة بمعنى بل، وهمزة الاستفهام التوبيخي التعجبي من صنيعهم، وبل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحراً إلى قولهم: إنّ رسول الله ﷺ افترى ما جاء به، وفي ذلك من التوبيخ والتقريع ما لا

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

يخفى؛ أي: دع هذا واسمع القول المنكر العجيب، إنهم يقولون: إنّ محمداً افتراه على الله عمداً، واختلقه عليه اختلاقاً.

ثمّ أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم، ويبطل شبهتهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ واختلقته على سبيل الفرض والتقدير ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ أي: فلا تقدرون أن تدفعوا عنّي من عذاب الله شيئاً، إذ لا ريب في أنّ الله تعالى يعاقبني حينئذٍ، فكيف أفتري على الله كذباً، وأعرض نفسي للعقوبة التي لا خلاص منها؟.

والمعنى: أي قل لهم يا محمد: لو كذبت على الله، وزعمت أنه أرسلني إليكم، ولم يكن الأمر كذلك.. لعاقبني أشدّ العقاب، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، فكيف أقدم على هذه الفرية، وأعرض نفسي لعقابه؟ فالملوك لا يتركون من كذب عليهم دون أن ينتقموا منه، فما بالكم بمن يتعمد الكذب على الله في الرسالة، وهي الجامعة لأمور عظيمة، ففيها الإخبار عن تكليف الناس بما يصلح شأنهم في دينهم ودنياهم.

ونحو الآية قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم علّل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام منهم بقوله: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: أعلم بما تخوضون فيه من قدح القرآن، وطعن آياته، وتسميته سحراً تارةً، وفريةً أخرى؛ أي: هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن وغيره.

ثم أكد صدق ما يقول بنسبة علم ذلك إلى الله تعالى فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ﴾ سبحانه وتعالى - و﴿الباء﴾: صلة - ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث يشهد لي بالصدق في البلاغ، وعليكم بالتكذيب والجحود، ولا يخفى ما في هذا من الوعيد الشديد على إفاضتهم في الطعن في الآيات.

ثم فتح لهم باب الرحمة بعد الإنذار السابق لعلهم يتوبون، ويثوبون إلى الحق، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب وآمن وصدّق بالقرآن، وعمل بما فيه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ له بقبول توبته؛ أي: ومع كل ما صدر منكم من تلك المطاعن الشنعاء، إن أنتم تبتم وأنبتم إلى ربكم، وصحّ عزمكم على الرجوع عما أنتم عليه تاب عليكم، وعفا عنكم، وغفر لكم ورحمكم.

وبعد أن حكىٰ عنهم طعنهم في القرآن.. أمر رسوله أن يرد عليهم مقترحاتهم العجيبة، وهي طلبهم من الرسول ﷺ أن يأتيهم بمعجزات بحسب ما يريدون ويشتهون، وكلها تدور حول الإخبار بشؤون الغيب، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ أي: ما كنت رجلاً غير مسبوق بمثله من الرسل، والبدع[1] بالكسر: البديع، وهو من الأشياء ما لم ير مثله، كانوا يقترحون عليه ﷺ آيات عجيبة، ويسألونه عن المغيبات عناداً ومكابرةً، فأمر عليه السلام بأن يقول لهم: ما كنت بدعاً من الرسل؛ أي: لست بأول مرسل أرسل إلى البشر، فإنه تعالى قد بعث قبلي كثيراً من الرسل، وكلهم قد اتفقوا على دعوة عباد الله إلى توحيده وطاعته، ولست داعياً إلى غير ما يدعون إليه، بل أدعو إلى الله بالإخلاص في التوحيد، والصدق في العبودية، وبعثت لأتمم مكارم الأخلاق، ولست قادراً على ما لم يقدروا عليه، حتى آتيكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب، فإن من قبلي من الرسل ما كانوا يأتون إلا بما آتاهم الله تعالى من الآيات، ولا يخبرون قومهم إلا بما أوحي إليهم، فكيف تنكرون منّي أن دعوتكم إلى ما دعا إليه من قبلي من الأنبياء؟ وكيف تقترحون عليّ ما لم يؤته الله إيّاي؟.

وقرأ عكرمة وأبو حيوة وابن أبي عبلة[2]: ﴿بِدَعاً﴾: بكسر الباء وفتح الدال جمع بدعة، وهو على حذف مضاف؛ أي: ذا بدع، وقرأ مجاهد: ﴿بَدِعاً﴾ بفتح الباء، وكسر الدال كحذر على الوصف، وقرأ الجمهور: بكسر الباء وسكون الدال.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

والمعنى: أي قل لهم: لست بأول رسول بلَّغ عن ربه، بل قد جاءت رسل من قبلي، فما أنا بالفذِّ الذي لم يعهد له نظير حتى تستنكروا وتستبعدوا رسالتي إليكم، وما أنا بالذي يستطيع أن يأتي بالمعجزات متى شاء، بل ذلك بإذنه تعالى، وتحت قبضته وسلطانه، وليس لي من الأمر شيء، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أيها المكذبون. ﴿ما﴾ الأولى: نافية، و﴿لا﴾ تأكيد لها، والثانية: استفهامية مرفوعة بالابتداء، خبرها: ﴿يُفۡعَلُ﴾. وجُوِّز أن تكون الثانية موصولة منصوبة بـ ﴿أَدۡرِي﴾ والاستفهامية أقضى لحق مقام التبرّي من الدراية؛ أي:[1] وما أعلم أيُّ شيء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان، وإلا يصير أمري وأمركم في الدنيا، فإنه قد كان من الأنبياء من يسلم من المحن، ومنهم من يمتحن بالهجرة من الوطن، ومنهم من يبتلىٰ بأنواع الفتن، وكذلك الأمم منهم من أهلك بالخسف، ومنهم من كان هلاكه بالقذف، وكذا بالمسخ وبالريح وبالصيحة وبالغرق وبغير ذلك، فنفىٰ عليه السلام علم ما يفعل به وبهم من هذه الوجوه، وعلم من هو الغالب المنصور منه ومنهم، ثم عرّفه الله بوحيه إليه عاقبة أمره وأمرهم، فأمره بالهجرة، ووعده العصمة من الناس، وأمره بالجهاد، وأخبر أنه سيظهر دينه على الأديان كلها، ويسلِّط على أعدائه ويستأصلهم.

وقيل[2]: يجوز أن يكون المنفي هي الدراية المفصلة؛ أي: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدارين على التفصيل، إذ لا علم لي بالغيب، وكان بالإجمال معلوماً بقوله فإن جند الله هم الغالبون وإن مصير الأبرار إلى النعيم، ومصير الكفار إلى الجحيم، وقال أبو السعود ـ رحمه الله تعالى ـ: والأظهر الأوفق لما ذكر من سبب النزول: أنّ ﴿ما﴾ عبارة عما ليس في علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية، دون ما سيقع في الآخرة، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة، وقد ورد به الوحي الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانبين هذا.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَا يُفْعَلُ﴾ بضم الياء مبنياً للمفعول، وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة: بفتحها مبنياً للفاعل.

وخلاصة المعنى: أي ولا أعلم ما يفعل بي في الدنيا، أأخرج من بلدي كما أخرجت أنبياء من قبلي؟ أم أقتل كما قتل منهم من قتل؟ ولا ما يفعل بكم أيها المكذبون، أترمون بحجارة من السماء؟ أم تخسف بكم الأرض؟ كل هذا علمه عند ربّي جلّ وعلا.

وفي «صحيح البخاري» وغيره من حديث أمّ العلاء أنها قالت: لما مات عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ: قلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب، لقد أكرمك الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أنّ الله أكرمه، أما هو فقد جاءه اليقين من ربّه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم» قالت أم العلاء: فوالله ما أزكّي بعده أحداً، وفي رواية الطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس، أنه لما مات.. قالت امرأته أو امرأة: هنيئاً لك ابن مظعون الجنة، فنظر إليها رسول الله ﷺ نظر مغضب، وقال: «وما يدريك، والله إني لرسول الله، وما أدري ما يفعل بي» فقالت: يا رسول الله صاحبك وفارسك وأنت أعلم، فقال: «أرجو له رحمة ربه تعالى، وأخاف عليه ذنبه».

ومن هذا يعلم أنّ ما ينسب إلى بعض الأدعياء من العلم بشؤون الغيب فهو فرية على الله ورسوله، وكفى بما سلف ردّاً عليهم.

ثم أكد ما سلف وقرّره بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: ما أتبع إلا القرآن، ولا أبتدع شيئاً من عندي؛ أي: ما أفعل إلا اتباع ما يوحىٰ إليّ، على معنى قصر أفعاله ﷺ على اتباع الوحي، لا قصر اتباعه على الوحي، كما هو المتسارع إلى الأفهام، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوح إليه من الغيوب. وقيل: عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا من أذية المشركين، والأول هو الأوفق لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذركم عقاب الله، وأخوفكم عذابه

(١) البحر المحيط.

حسبما يوحى إليّ، وآتيكم بالشواهد الواضحة على صدق رسالتي، ولستُ أقدر على شيء من الأعمال الخارجة عن قدرة البشر ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيّن الإنذار لكم بالمعجزات الباهرة، ففيه أنه ﷺ أرسل مبلِّغاً وليس له من الهداية شيء، ولكن الله يهدي من يشاء.

وقرأ ابن عمير[1]: ﴿ما يوحي﴾ بكسر الحاء؛ أي: الله عز وجل ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني أيها القوم ﴿إِن كَانَ﴾ ما يوحى إليّ من القرآن في الحقيقة ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: والحال أنكم قد كفرتم به، فهو[2] حال بإضمار قد من الضمير في الخبر وسط بين أجزاء الشرط، مسارعة إلى التسجيل عليهم بالكفر، ويجوز أن يكون عطفاً على كان كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ لكن لا على أنَّ نظمه في سلك الشرط المتردِّد بين الوقوع وعدمه عندهم، باعتبار حاله في نفسه، بل باعتبار حال المعطوف عليه عندهم، فإن كفرهم به متحقّق عندهم أيضاً، وإنما تردُّدهم في أنَّ ذلك كفر بما عند الله أم لا؟ وكذا الحال في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وما بعده من الفعلين، فإن الكل أمور متحققة عندهم، وإنما تردّدهم في أنها شهادة وإيمان بما عند الله، واستكبار منهم أم لا؟ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الواقفين على شؤون الله، وأسرار الوحي بما أوتوا من التوراة ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾؛ أي: على مثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة، المطابقة لما في القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك، فإنها عين ما فيه في الحقيقة، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾، وهذه المثلية هي باعتبار تطابق المعاني وإن اختلفت الألفاظ. وقال الجرجاني: مثل صلة؛ يعني: عليه.

والمعنى: وشهد شاهد على القرآن أنه من عند الله. وكذا قال الواحدي. و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَـَٔامَنَ﴾: للدلالة على أنه سارع في الإيمان بالقرآن لما علم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

أنه من جنس الوحي الناطق بالحق، وليس من كلام البشر ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عطف على ﴿شهد شاهد﴾؛ أي: فآمن الشاهد بالقرآن، واستكبرتم أنتم عن الإيمان. وجواب[1] الشرط محذوف، والتقدير: أخبروني إن كان من عند الله، وشهد على ذلك أعلم بني إسرائيل فآمن به من غير تباطؤ، واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه المرتبة، فمن أضل منكم؟ بقرينة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يضعون الجحد والإنكار موضع الإقرار والتسليم، وصفهم بالظلم؛ للإشعار بعلية الحكم، فإن تركه تعالى لهدايتهم لظلمهم وعنادهم بعد وضوح البرهان. وقال أبو حيان: ومفعولا ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: محذوفان؛ لدلالة المعنى عليهما، والتقدير: أرأيتم حالكم إن كان كذا، ألستم ظالمين؟ فالأول حالكم، والثاني ألستم ظالمين، وجواب الشرط، محذوف؛ أي: فقد ظلمتم، ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً. انتهى.

وفيه إشارة إلى أنه لا عذر لهم بحال، إذ عند وجود الشاهد على حقّية الدعوى تبطل الخصومة، وذلك الشاهد في الآية عبد الله بن سلام بن الحارث حبر أهل التوراة، وكان اسمه الخصين، فسمّاه رسول الله ﷺ عبد الله - رضي الله عنه - لما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة.. أتاه، فنظر إلى وجهه الكريم، فعلم أنه ليس بوجه كذّاب، وتأمّله فتحقق أنه النبي المنتظر، فقال له: إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيّ: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما حال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال النبي ﷺ: «أما أول أشراط الساعة.. فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام أهل الجنة.. فزيادة كبد الحوت، وأما الولد.. فإن سبق ماء الرجل.. نزعه، وإن سبق ماء المرأة.. نزعته» فقال: أشهد أنك رسول الله حقاً، فقام ثم قال: يا رسول الله، إنّ اليهود قوم بهتٌ، فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عنّي بهتوني عندك، فجاء اليهود وهم خمسون، فقال لهم النبي ﷺ: «أيّ رجل عبد الله فيكم؟

---

(١) روح البيان.

قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا، شرّنا وابن شرنا، وانتقصوه. قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر. قال سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض: «إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزل: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

وقال مسروق ـ رضي الله عنه ـ: والله ما نزلت في عبد الله بن سلام، فإن آل ﴿حمٓ ۝١﴾ نزلت بمكة، وإنما أسلم عبد الله بالمدينة قبل وفاة النبي ﷺ بعامين، وأجاب الكلبي بأن الآية مدنية، وإن كانت السورة مكية، فوضعت في المكية على ما أمر رسول الله ﷺ.

ومعنى الآية: أي قل لهم[١]: أخبروني حالكم إن ثبت أنّ القرآن من عند الله لعجز الخلق عن معارضته، لا أنه سحر ولا مفترى كما تزعمون، ثم كذبتم به، وشهد أعلم بني إسرائيل بكونه من عند الله، فآمن واستكبرتم، أفلستم تكونون أضل الناس وأظلمهم؟

والخلاصة[٢]: أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، وشهادة منصف من بني إسرائيل عارف بالتوراة على مثل ما قلت، فآمن به مع استبكاركم، أفلا تكونون ظالمين لأنفسكم؟

ثم ذكر أن في استكبارهم عن الإيمان ظلماً لأنفسهم، وكفروا بآيات ربهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: إنّ الله لا يوفّق لإصابة الحق، وهدى الصراط المستقيم من ظلموا أنفسهم باستحقاقهم بسخط الله لكفرهم به بعد قيام الحجة الظاهرة عليهم، وهذا استئناف بياني تعليل لاستكبارهم.

ثم حكى نوعاً آخر من أقاويلهم الباطلة في القرآن العظيم والمؤمنين به

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: لأجلهم، فليس الكلام على المواجهة والخطاب حتى يقال: ما سبقتمونا؛ أي: قالوا لأجل إيمان من آمن من فقراء المؤمنين كعمار وصهيب وابن مسعود ومن لف لفهم: ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما جاء به محمد ﷺ من القرآن والدين ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: حقاً ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ما سبقنا إليه هؤلاء الأراذل والفقراء، فإنّ معالي الأمور لا تنالها أيدي الأراذل، وهؤلاء سقّاط الناس، ورعاة الإبل والشاء، وقد قالوا[1] ذلك زعماً منهم أنّ الرياسة الدينية مما ينال بأسباب دنيوية، وقد غاب عنهم أنها منوطة بكمالات نفسانية، وملكات روحانية مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية، والإقبال على الآخرة بالكلية، وأنّ من فاز بها.. فقد حازها بحذافيرها، ومن حرمها.. فما له منها من خلاق، ولم يعلموا أنّ الله يختصّ برحمته من يشاء، ويصطفي لدينه من يشاء.

يقول الفقير: الأولى في مثل هذا المقام أن يقال: إنّ الرياسة الدينية فضل الله تعالى، يؤتيه من يشاء بغير علل ولا أسباب، فإن القابلية أيضاً إعطاء من الله تعالى. انتهى.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾: ظرف لمحذوف يدل عليه ما قبله، ويترتب عليه ما بعده، لا لقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ فإنه للاستقبال، و﴿إِذْ﴾ للمضي؛ أي: وإذ لم يهتدوا بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان قالوا ما قالوا؛ أي: وحين لم يهتدوا بالقرآن ظهر عنادهم وقالوا: لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ في المستقبل غير مكتفين بنفي خيريّته: ﴿هَٰذَآ﴾ القرآن ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وكذب مأثور عن الناس الأقدمين، كما قالوا: أساطير الأولين بقصد انتقاص القرآن وأهله، فقد جهلوا بلبّ القرآن وعادوه؛ لأنّ الناس أعداء ما جهلوا، ومن كان مريضاً مرّ الفم.. يجد الماء الزّلال مراً، فلا ينبغي لأحد أن يستهين بشيء من الحق إذا لم يهتد عقله به، ولم يدركه فهمه، فإنّ ذلك من محض الضلالة والجهالة، بل ينبغي أن

---

(١) روح البيان.

يطلب الاهتداء من الهادي ويجدّ فيه.

ثمّ ردّ عليهم طعنهم في القرآن، وأثبت صحته فقال: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: التوراة.

قرأ الجمهور[١]: بكسر الميم من ﴿مِنْ﴾ على أنها حرف جر، وهي ومجرورها خبر مقدم، و﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: في محل نصب على الحال، أو هي مستأنفة، والكلام مسوق لردّ قولهم: ﴿إِفۡكٌ قَدِيمٌ﴾، وإبطال له، فإن كونه مصدقاً لكتاب موسى مقرّر لحقيته قطعاً؛ يعني: كيف يصحّ هذا القول منهم، وقد سلّموا لأهل كتاب موسى أنهم من أهل العلم؟ وجعلوهم حكماً يرجعون لقولهم في هذا النبي، وهذا القرآن مصدق له، أو له ولسائر الكتب الإلهية؛ أي: فإن كون القرآن موافقاً لكتاب موسى في أصول الشرائع، يدل علىٰ أنه حق، وأنه من عند الله، ويقتضي بطلان قولهم: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٌ قَدِيمٌ﴾.

وقرأ الكلبي بفتح ميم ﴿مَن﴾ على أنها موصولة ونصب ﴿كتاب﴾ على أنه مفعول لفعل محذوف؛ أي: وآتينا من قبل القرآن، أو قبل محمد ﷺ كتاب موسى ﴿إِمَامًا﴾ حال من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: حال كون كتاب موسى إماماً يقتدى به في دين الله سبحانه ﴿و﴾ حال كونه ﴿رحمة﴾ لمن آمن به، وعمل بموجبه ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن الذي يقولون في حقه ما يقولون ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة، أو مصدق لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿كِتَٰبٌ﴾ في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾؛ أي: حال كون هذا القرآن ملفوظاً به على لسان العرب؛ لكون القوم عرباً.

قرأ الجمهور[٢]: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بياء الغيبة على أنّ فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب أو الله أو الرسول، والأول أولى، وهو متعلق بـ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، وقرأ نافع وابن عامر وابن كثير وأبو رجاء وشيبة والأعرج وأبو جعفر: ﴿لتنذر﴾ بتاء الخطاب للرسول، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد؛ أي: وهذا كتاب

---

(١) الشوكاني. (٢) الشوكاني.

مصدق لما بين يديه، أنزل بلسان عربي مبين؛ لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالإشراك وهم كفار مكة. وقوله: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في حيّز النصب عطفاً على محل ﴿لِّيُنذِرَ﴾؛ لأنه مفعول له؛ أي: أنزل بلسان عربي لينذر الظالمين بعبادة الأصنام من عذاب الله سبحانه، وليبشّر المحسنين بالإيمان والعمل الصالح بالجنة، وبرضوان الله تعالى. وقال الزجاج: الأجود أن يكون في محل رفع؛ أي: وهو ﴿بشرى للمحسنين﴾ وقوله: ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ متعلق بـ ﴿بشرى﴾.

ومن الظالمين[1]: اليهود والنصارى، فإنهم قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وغيّروا ذكر محمد ﷺ، ونعته في التوراة والإنجيل، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، فكان ﷺ نذيراًلهم، وبشيراً للذين آمنوا بجميع الأنبياء والكتب المنزلة، وهدوا إلى الصراط المستقيم، وثبتوا على الدين القويم.

والخلاصة: كيف يكون إفكاً قديماً وهو مصدق لكتاب موسى الذي تعترفون بصدقه، وهو بلسان عربيّ، والتوراة بلسان عبريّ؟ فتصديق الأول للثاني مع اختلاف لغتهما دليل على اتحادهما صدقاً، فبطل كونه إفكاً قديماً، وثبت له الصدق القديم.

ومجمل معنى الآية[2]: أي ومما يدلّ على أنّ القرآن حق وصدق، وأنه من عند الله... اعترافكم بإنزال الله التوراة على موسى الذي هو إمام وقدوة يقتدى به في الدين، وهو رحمة لمن آمن به، وهذا القرآن الموافق للتوارة في أصول الشرائع مصدق لكتاب موسى ولغيره من الكتب الإلهية المتقدمة، أنزله الله حال كونه بلغة عربية واضحة فصيحة، يفهمونها، من أجل أن ينذر به هذا النبي الكريم من عذاب الله الذين ظلموا أنفسهم، وهم مشركوا مكة، ويبشّر به المؤمنين الذين أحسنوا عملاً، فهو مشتمل على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين، وهو ليس إفكاً قديماً كما يزعمون، بدليل توافقه مع التوراة.

---

(١) روح البيان.
(٢) التفسير المنير.

الإعراب

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه السورة حم؛ أي: مسماة بلفظ حم، والجملة: مستأنفة. ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ، خبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ والجملة: مستأنفة. ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾: صفتان للجلالة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والجملة: مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ اسم موصول معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿بَيۡنَهُمَآ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿ما﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرّغ. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: إلا خلقاً متلبساً بالحق والحكمة. ﴿وَأَجَلٖ﴾: معطوف على ﴿الحق﴾ ﴿مُّسَمّٗىۚ﴾: صفة لـ ﴿الحق﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الذين﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿عَمَّآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ وجملة ﴿أُنذِرُواْ﴾: صلة الموصول، والعائد: محذوف؛ أي: عن الذي أنذروه. ﴿مُعۡرِضُونَ﴾: خبر ﴿الذين﴾ ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾: مصدرية، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم، والجملة الاسمية، معطوفة على الجملة الفعلية قبلها. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿أَرَءَيۡتُم﴾: فعل وفاعل، و﴿مَّا﴾ مفعول به أول، وجملة ﴿تَدۡعُونَ﴾: صلة لـ ﴿مَّا﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿تَدۡعُونَ﴾؛ أي: تدعونهم مجاوزين الله في دعائهم. ﴿أَرُونِي﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة: توكيد لـ ﴿أَرَءَيۡتُم﴾. ﴿مَاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم وجوباً لـ ﴿خَلَقُواْ﴾. ﴿خَلَقُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ حال من مفعول ﴿خَلَقُواْ﴾، والجملة الفعلية سادّة مسدّ المفعول الثاني لـ ﴿أَرَءَيۡتُم﴾ وإن شئت قلت: ﴿ما﴾:

اسم استفهام مبتدأ، ﴿ذا﴾ اسم موصول خبره، وجملة ﴿خَلَقُواْ﴾: صلة الموصول، والجملة الاسمية سادة مسد المفعول الثاني لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ ويجوز أن لا تكون ﴿أَرُونِي﴾ توكيداً لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ فتكون المسألة من باب التنازع؛ لأنّ ﴿أَرَءَيْتُم﴾: يطلب مفعولاً ثانياً. و﴿أَرُونِي﴾ كذلك، وقوله: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾ هو المتنازع فيه. ﴿أَمْ﴾: منقطعة، بمعنى همزة الاستفهام وبل الإضرابية. كما مر. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿شِرْكٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بـ ﴿شِرْكٌ﴾ والجملة الاسمية: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱئْتُونِي﴾: فعل أمر وفاعل ونون وقاية ومفعول به، والجملة: من تتمّة المقول. ﴿بِكِتَٰبٍ﴾: متعلق بـ ﴿ٱئْتُونِي﴾. ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ ﴿كتاب﴾. ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾: معطوف على ﴿كتاب﴾ ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ صفة لـ ﴿أَثَٰرَةٍ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن كنتم صادقين فائتوني به، وجملة الشرط، من تتمّة المقول.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم استفهام معناه الإنكار، في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَضَلُّ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿مِمَّن﴾: متلعق بـ ﴿أَضَلُّ﴾، وجملة ﴿يَدْعُواْ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿يَدْعُواْ﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَدْعُواْ﴾، ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَسْتَجِيبُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾. ﴿لَهُۥٓ﴾: متعلق بـ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: متعلق بـ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ أو حال من فاعله. ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿غَٰفِلُونَ﴾ و﴿غَٰفِلُونَ﴾: خبر ﴿هم﴾، والجملة: في محل النصب حال من مفعول ﴿يَدْعُواْ﴾، والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾ الموصولة.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة، في محل الخفض فعل شرط لـ ﴿إذا﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ماض ناقص واسمه. ﴿لَهُمْ﴾ حال من ﴿أَعْدَآءً﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿أَعْدَآءً﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، معطوف على ﴿كان﴾ الأولى، ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿كَٰفِرِينَ﴾ و﴿كَٰفِرِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾. ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿تُتْلَىٰ﴾، ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ نائب فاعل، والجملة: فعل شرط لـ﴿إذا﴾. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: حال من ﴿آيات﴾ وجملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى. ﴿لِلْحَقِّ﴾: متعلق بـ ﴿قَالَ﴾ و﴿اللام﴾ فيه: للتعليل. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين، في محل النصب على الظرفية، مبنيّ على السكون، والظرف: متعلق بـ ﴿قَالَ﴾. ﴿جَآءَهُمْ﴾ فعل ومفعول به وفاعل يعود على ﴿الحق﴾ والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿لَمَّا﴾ إليها. ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿سِحْرٌ﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة مقدرة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: فعل ماض، ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿إِنِ﴾: حرف شرط. ﴿ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول به في محل الجزم بـ ﴿إِنِ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِنِ﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقتران الجواب بـ ﴿لا﴾ النافية ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَمْلِكُونَ﴾: فعل مضارع وفاعل مرفوع بثبات النون. ﴿لِى﴾: متعلق بـ ﴿تَمْلِكُونَ﴾. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ حال من

﴿شَيْـًٔا﴾ و﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول ﴿تَمْلِكُونَ﴾، وجملة ﴿تَمْلِكُونَ﴾: جواب ﴿إِنِ﴾ الشرطية، وجملة ﴿إِنِ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ وجملة ﴿تُفِيضُونَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿تُفِيضُونَ﴾. ﴿كَفَىٰ﴾: فعل ماض، ﴿بِهِۦ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة، و﴿الهاء﴾: ضمير مجرور لفظاً في موضع رفع فاعل ﴿كَفَىٰ﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿شَهِيدًا﴾: تمييز لفاعل ﴿كَفَىٰ﴾، ﴿بَيْنِى﴾: متعلق بـ ﴿شَهِيدًا﴾ ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾: معطوف على ﴿بَيْنِى﴾، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: خبران لـ ﴿هو﴾ والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿مَا﴾، نافية. ﴿كُنتُ بِدْعًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾: صفة لـ ﴿بِدْعًا﴾. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَدْرِى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ وجملة ﴿يُفْعَلُ﴾: من الفعل المغير ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية سادّة مسدّ مفعولي ﴿أَدْرِى﴾ وهي معلقة عنها باسم الاستفهام. ﴿بِى﴾: متعلق بـ ﴿يُفْعَلُ﴾. ﴿وَلَا بِكُمْ﴾: معطوف عليه. قال الزمخشري: و﴿مَا﴾ في ﴿مَا يُفْعَلُ﴾: يجوز أن تكون موصولةً منصوبةً، وأن تكون استفهامية مرفوعة. انتهى. وجملة ﴿وَمَآ أَدْرِى﴾: معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية. ﴿أَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿أَتَّبِعُ﴾، ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير مستتر يعود على ﴿مَا﴾، ﴿إِلَىَّ﴾: متعلق بـ ﴿يُوحَىٰٓ﴾، وجملة ﴿يُوحَىٰٓ﴾، صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿نَذِيرٌ﴾: خبره ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿نَذِيرٌ﴾،

والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على ما قبلها، على كونها مقولا لـ ﴿قُلْ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ومفعولا ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: محذوفان تقديرهما: أرأيتم حالكم إن كان كذا وكذا ألستم ظالمين؟. وجواب الشرط: محذوف أيضاً، تقديره: فقد ظلمتم، وقيل: تقديره: فمن المحق منّا ومن المبطل؟ وقيل: جواب الشرط ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، واسمه ضمير يعود على القرآن. ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: خبره، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية: محذوف، كما قدرنا آنفاً، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿وَكَفَرْتُم﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿كفرتم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿كفرتم﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب حال من اسم ﴿كَانَ﴾ ولكن بتقدير قد. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾: فعل وفاعل في محل النصب معطوف على: ﴿كفرتم﴾. ﴿مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿شَاهِدٌ﴾. ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿شهد﴾. ﴿فَـَٔامَنَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿آمن﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿شَاهِدٌ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿شهد﴾، ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿آمن﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع. وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول ﴿يَهْدِى﴾. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة للقوم، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ أو مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، أو معطوفة على ما قبلها، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾. صلة الموصول. ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق بـ ﴿قال﴾

و﴿اللام﴾: للتعليل، ﴿ءَامَنُوا﴾: صلة الموصول ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على القرآن، أو على ما جاء به محمد. ﴿خَيْرًا﴾: خبرها، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿مَا﴾: نافية ﴿سَبَقُونَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿سَبَقُونَآ﴾ والجملة جواب ﴿لَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: ظهر عنادهم وتسبّب عنه قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾، ولا يعمل في ﴿إذ﴾ قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾؛ لتضاد الزمانين، ولأجل ﴿الفاء﴾ أيضاً. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَهْتَدُوا﴾: فعل مضارع. وفاعل مجزوم بحذف النون. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿يَهْتَدُوا﴾ والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذ﴾، والظرف: متعلق بذلك المحذوف، والجملة المحذوفة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، و﴿السين﴾: حرف استقبال. ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل معطوف على الجملة المحذوفة، التي هي متعلق ﴿إذ﴾ الظرفية. ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ﴾: مبتدأ وخبر ﴿قَدِيمٌ﴾ صفة ﴿إِفْكٌ﴾، والجملة: في محل النصب مقول لـ ﴿يقولون﴾، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿من قبله﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة. ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾: حالان من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾. ﴿وَهَٰذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿هذا﴾: مبتدأ. ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبره، والجملة: معطوفة على ما قبلها. ﴿مُّصَدِّقٌ﴾: صفة ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿لِّسَانًا﴾: حال مؤولة من الضمير المستكن في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أو من ﴿كِتَٰبٌ﴾. والعامل فيه، معنى الإشارة، والتقدير: ملفوظاً به بلغة عربية. ﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة ﴿لِّسَانًا﴾، ﴿لِّيُنذِرَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿ينذر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله: ضمير مستتر يعود على الكتاب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول

به، وجملة ﴿ظَلَمُوا﴾: صلة الموصول، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور ﴿باللام﴾ الجار والمجرور: متعلق بمحذوف، تقديره: أنزل لإنذاره الذين ظلموا. ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: معطوف على محل ﴿لِّيُنذِرَ﴾ إن كان مفعولاً لأجله، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: وهو بشرى ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ متعلق بـ ﴿بشرى﴾ أو صفة له.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عَمَّآ أُنذِرُوا﴾؛ أي: خـوّفـوا. ﴿مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: مـولّـون لاهـون. ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾؛ أي: تعبدون. ﴿أَرُونِي﴾ أصله: أرئيوني، نقلت حركة الهمزة إلىٰ الراء ثمّ حذفت للتخفيف واستثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمّت الراء لمناسبة الواو، وحذفت نون الرفع لبناء الأمر على ذلك. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾؛ أي: نصيب وفي «السمين»: والشرك: المشاركة. اهـ. وهذا أولى. ﴿ائْتُونِي﴾ أصله: ائتيونني، استثقلت الضمة على الياء ثم حذفت فالتقى ساكنان، ثم حذفت الياء ثم حركت التاء بحركة مجانسة للواو، ثم حذفت نون الرفع لبناء الأمر على ذلك.

تنبيه: أبدل ورش والسوسي الهمزة الثانية من ﴿ائْتُونِي﴾ في الوصل ياء، وحققها الباقون، ومن المعلوم أنّ الأولى همزة تسقط في الوصل، وأما الابتداء بها.. فجميع القرّاء أبدلوها ياءً بعد الابتداء بهمزة الوصل مكسورةً. اهـ «خطيب».

﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: بقية كائنة من علم الأثارة بفتح الهمزة، ومثلها الأثرة بالتحريك، بقيةٌ من علم، والمَكْرُمة المتوارثة، والفعل المجيد، من قولهم: سمنت الناقة على أثارة من شحم ولحمٍ، أي: على بقية لحم وشحم كانت بها من لحم وشحم ذاهبٍ ذائبٍ. وعن ابن الأعرابي: أغضبني فلانٌ على أثارة غضبٍ، أي: على أثر غضب كان قبل ذلك، وهم أثارةٌ من علم؛ أي: بقيةٌ منه يأثرونها عن الأولين، ويقال: لبني فلان أثارةٌ من شرف، إذا كانت عندهم شواهد قديمة. وفي «المختار»: وأثر الحديث: ذكره عن غيره فهو آثر بالمد، وبابه نصر، ومنه حديث مأثور، ينقله خلف عن سلف. اهـ. وفي «السمين»: قوله: أو أثارة

العامة على أثارة، وهي مصدر على فعالة كالشجاعة والغواية والضلالة والسماحة، ومعناها: البقية. والمعنى: بما يؤثر ويروى؛ أي: ائتوني بخبر واحد يشهد بصحة قولكم، وهذا على سبيل التنزل للعلم بكذب المدّعي اهـ.

﴿أَضَلُّ﴾ أصله: أَضْلل، نقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد فسكنت فأدغمت في اللام الثانية. ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾ فيه إعلالٌ بالإبدال، أصله: دعاوهم، أبدلت الواو همزة لتطرّفها إثر ألف زائدة. ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ والحشر، الجمع. كما في «القاموس». قال الراغب: الحشر: إخراج الجماعة عن مقرّهم، وإزعاجهم عنه إلى الحرب وغيرها، ولا يقال إلا في الجماعة. وسمّي يوم القيامة يوم الحشر، كما سمّي يوم البعث، ويوم النشر. ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ كذب عليه عمداً.

﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا تغنون عنّي من الله شيئاً إن أراد تعذيبي. ﴿تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: تخوضون فيه، يقال: أفاضوا في الحديث: إذا خاضوا فيه وشرعوا؛ أي: تخوضون في قدح القرآن، وطعن آياته، وتسميته سحر تارة، وفرية أخرى، وهو من فاض الماء وأفاضه: إذا سال، وأصله: تفيضون، بوزن تفعلون مضارع أفاض، نقلت حركة الياء إلى الفاء فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد. ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا﴾ أصله: كفى بوزن فعل كرمي، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا﴾ البدع والبديع من كل شيء: المبتدع المحدث دون سابقة له من الابتداء، وهو الاختراع. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ يوحىٰ: فيه إعلال بالقلب، أصله: يوحي قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ أصله: يهتديون، حذفت نون الرفع؛ لدخول الجازم وهو ﴿لَمْ﴾ فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت... التقىٰ ساكنان فحذفت الياء وضمت الدال لمناسبة الواو. ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾؛ أي: من قول الأقدمين، فهذا على حدّ قولهم: هو أساطير الأولين. وفي «الخطيب» ﴿قَدِيمٌ﴾؛ أي: أَفَكَه غيره وعثر هو عليه وأتى به، ونسبه إلى الله تعالى، كما قالوا: أساطير الأولين.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لم يقل له؛ أي: لكتاب موسى تعميماً وإيذاناً بأنه

مصدق للكتب السماوية كلِّها، لا سيما نفسه؛ لكونه معجزاً. اهـ «كرخي».
﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وبشرى مصدر على وزن فعلى، كرجعى، وهي بمعنى البشارة، والبشارة: الخبر السار، سمي بشارة؛ لطلاقة بشرة وجهه عند سماعه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروبا من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الكناية في قوله: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾؛ لأنه كناية عن ترك الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ و﴿أَرُونِى﴾.

ومنها: التبكيت في قوله: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾؛ لأنّ الغرض منه تبكيتهم، وتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقليّ.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَدْعُواْ﴾ ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾.

ومنها: النكتة البلاغية الرائعة في قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة، ومن شأن الغاية انتهاء المعنى عندها،لكن عدم الاستجابة مستمرّ بعد هذه الغاية؛ لأنهم في القيامة أيضاً لا يستجيبون لهم، فالوجه: أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها، وإن وافق ما قبلها، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني، حتى كأنّ الحالتين، وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده، وذلك أنّ الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة، لا تزيد على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة وبالكفر، بعبادتهم إياهم.

ومنها: التغليب، فغلب العاقل على غيره على سبيل المجاراة معهم، حيث عبّر عن الأصنام وغيره بضمير العقلاء في قوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾؛ لأنّ عابدي الأصنام يصفونها بالتمييز جهلاً منهم وغباوةً.

ومنها: وصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة، مع ظهور حالها للتهكم بها وبعَبَدَتِها.

ومنها: وضع الموصول موضع ضمير المتلوّ عليهم في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ تسجيلاً عليهم بكمال الكفر والضلالة، وفيه أيضاً: وضع الحق موضع ضمير الآيات المتلوّة تنصيصاً على حقّيتها، ووجوب الإيمان بها.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ حيث استعمل الإفاضة في الأخذ في الشيء، والاندفاع فيه.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: ما أفعل إلا اتباع ما يوحي إليّ على معنى قصر أفعاله ﷺ على اتباع الوحي، لا قصر اتباعه على الوحي كما هو المتسارع إلى الأفهام.

ومنها: الطباق بين: ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿كفرتم﴾ وبين: ﴿ينذر﴾ و﴿بشرى﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾.

ومنها: حذف المتعلق في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ حيث لم يقل: مصدق له؛ أي: لكتاب موسى؛ إفادة للتعميم، وإيذاناً بأنه مصدق للكتب السماوية كلها، لا سيما نفسه، لكونه معجزاً كما سبق عن الكرخي.

ومنها: تنكير ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾؛ إيذاناً بفخامة شأنه، وعلوّ قدره.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار، في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تسجيلاً عليهم بصفة الظلم؛ لأنّ مقتضى السياق أن يقال: لينذرهم؛ أي: أهل مكة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٣) أولئك
أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون (١٤) ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه
كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب
أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في
ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين (١٥) أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن
سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون (١٦) والذي قال لوالديه أف لكما
أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول
ما هذا إلا أساطير الأولين (١٧) أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من
الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين (١٨) ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون
(١٩) ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون
عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون (٢٠) ۞ واذكر أخا عاد إذ
أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم
عذاب يوم عظيم (٢١) قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٢٢)
قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون (٢٣) فلما رأوه عارضا
مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم (٢٤) تدمر
كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين (٢٥) ولقد مكناهم
فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا
أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (٢٦) ولقد
أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون (٢٧) فلولا نصرهم الذين اتخذوا من
دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون (٢٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها:

أنّ الله سبحانه لما ذكر[1] في سابق الآيات توحيده سبحانه، وإخلاص العبادة له، والاستقامة في العمل.. أردف هذا بالوصية بالوالدين، وقد فعل هذا في غير موضع من القرآن الكريم، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾، وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وعبارة «التفسير المنير»: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[2] جزاء المؤمنين الموحدين المستقيمين على الشريعة.. أمر ووصّى ببرّ الوالدين، وأشاد بصفة خاصة بالبارّ بوالديه بعد بلوغه سنَّ الأربعين، وبشره بقبول أعماله الصالحة، والتجاوز عن سيئاته، وجعله في عداد أصحاب الجنة وعداً منجزاً لا خلف فيه. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[3] حال الداعين للوالدين البررة بهما، ثم ذكر ما أعد لهم من الفوز والنجاة في الدار الآخرة.. أعقب هذا بذكر حال الأشقياء العاقّين للوالدين، المنكرين للبعث والحساب، المحتّجين بأنّ القرون الخوالي لم تبعث، ثم ردّ الأباء عليهم بأنّ هذا اليوم حقّ لا شك فيه، بإجابة الأبناء لهم بأنّ هذه أساطير الأولين وخرافاتهم، ثم ذكر أنّ أمثال هؤلاء ممن حقّ عليهم القول بأنّ مصيرهم إلى النار.

ثم أردف هذا بأنّ لكل من البررة والكفرة منازل عند ربهم، كفاء ما قدموا من عمل، وسيجزون عليها الجزاء الأوفى، ثم أخبر بأنه يقال للكفار حين عرضهم على النار: أنتم قد تمتعتم في الحياة الدنيا، واستكبرتم عن اتباع الحق، وتعاطيتم الفسوق والمعاصي، فجازاكم الله بالإهانة والخزي، والآلام الموجبة للحسرات المتتابعة في دركات النار.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

---

(١) المراغي.

(٢) التفسير.

(٣) المراغي.

الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لما أورد الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة، التي أعرض عنها أهل مكة، ولم يلتفتوا إليها، ولم تجدهم فتيلا ولا قطميراً لاستغراقهم في الدنيا، واشتغالهم بطلبها.. أردف هذا بذكر قصص عاد وما حدث منهم مع نبيهم هود عليه السلام، وضرب لهم به المثل ليعتبروا فيتركوا الاغترار بما وجوده من الدنيا، ويقبلوا على طاعة الله، فقد كانوا أكثر منهم أموالاً، وأقوى منهم جنداً، فسلَّط الله عليهم العذاب بسب كفرهم، ولم يغن عنهم مالهم من الله شيئاً، وفيه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب قومه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية(١): ما روىٰ الواحدي عن ابن عباس قال: أنزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وذلك أنه صحب رسول الله ﷺ وهو ابن ثمان عشرة، ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في التجارة، فنزلوا منزلاً فيه سدرةٌ ـ شجرة السدرة ـ فقعد رسول الله ﷺ في ظلها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين، فقال له: من الرجل الذي في ظل السدرة؟ فقال: ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: هذا والله نبيّ، وما استظل تحتها أحد بعد عيسى ابن مريم إلا محمد نبي الله، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، وكان لا يفارق رسول الله ﷺ في أسفاره وحضوره، فلما نبّىء رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة أسلم، وصدق رسول الله ﷺ، فلما بلغ أربعين سنة.. قال: رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ.

وقال السّدي والضحاك: نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. أخرج مسلم، وأهل السنن إلا ابن ماجه عن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قالت أم سعد لسعد: أليس الله قد أمر بطاعة الوالدين، فلا آكل طعاماً ولا أشرب،

---

(١) أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص ٢١٦.

حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾.

وقال الحسن البصري: هي مرسلة نزلت على العموم، وهذا هو الأولى؛ لأنّ حمل اللفظ على العموم منذ بداية نزول الوحي أوقع وأفيد وأشمل، وإن كانت العبرة دائماً لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ...﴾ في عبد الرحمن بن أبي بكر، قال لأبويه، وكانا قد أسلما وأبىٰ هو، فكانا يأمرانه بالإسلام، فيردّ عليهما ويكذبهما ويقول: فأين فلان وأين فلان؟ يعني: مشايخ قريش ممن قد مات، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه، فنزلت توبته في هذه الآية: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟...﴾ الآية. وأخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس مثله، لكن أخرج البخاري من طريق يوسف بن ماهان قال: قال مروان بن الحكم في عبد الرحمن بن أبي بكر: إنَّ هذا هو الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أنّ الله أنزل عذري.

وأخرج عبد الرزاق من طريق مكيّ أنه سمع عائشة تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، وقالت: إنما نزلت في فلان، وسمَّت رجلاً. وقال الحافظ بن حجر: ونفي عائشة أصح إسناداً، وأولى بالقبول. وقال ابن كثير: ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما.. فقوله، ضعيفٌ؛ لأنّ عبد الرحمن أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. قال القرطبي: الصحيح أن الآية نزلت في عبد كافر عاق لوالديه.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ على أداء فرائض الله

تعالى، واجتناب معاصيه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات محبوب. والمراد[1]: دوام نفي الحزن؛ أي: إنّ الذين جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في أمور الدين، التي هي منتهى العمل، و﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾: للدلالة على تراخي رتبة العمل، وتوقّف الاهتداء به على التوحيد. قال ابن طاهر: استقاموا على ما سبق منهم من الإقرار بالتوحيد، فلم يروا سواه منعماً، ولم يشكروا سواه في حال، ولم يرجعوا إلى غيره، وثبتوا معه على منهاج الاستقامة. و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾: زائدة في خبر الموصول جوازاً، لما فيه من معنى الشرط.

والمعنى[2]: أي إنّ الذين جمعوا بين التوحيد والاستقامة على منهج الشريعة، لا يخافون من وقوع مكروه بهم في المستقبل، ولا يحزنون من فوات محبوب في الماضي؛ أي: فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم بعد مماتهم ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ المؤمنون الموحدون المستقيمون على أمر الله هم ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: ملازموها حالة كونهم ﴿خَـٰلِدِينَ﴾؛ أي: ماكثين ﴿فِيهَا﴾ مكثاً مؤبّداً، فهو حال من الضمير المستكن في ﴿أَصْحَـٰبُ﴾ يجزون الجنة ﴿جَزَآءً﴾ وكفاءً ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة، فـ ﴿جَزَآءً﴾: منصوب إما بعامل مقدر كما قدّرنا، أو بمعنى ما تقدم، فإنّ قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾. في معنى جازيناهم.

وفي هذه الآية من الترغيب أمر عظيم، فإنّ نفي الخوف والحزن على الدوام، والاستقرار في الجنة على الأبد، مما لا تطلب الأنفس سواه، ولا تتشوف إلى ما عداه، ولما كان رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما كما ورد في الحديث. . حث الله سبحانه عليه، بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: عهدنا إليه، وأمرناه بأن يحسن ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾؛ أي: بأبويه وإن عليا ﴿إِحْسَـٰنًا﴾ فحذف الفعل واقتصر على المصدر دالًّا عليه.

---

(١) روح البيان. (٢) التفسير المنير.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿حسنا﴾ بضم الحاء وإسكان السين، وقرأ عليّ والسلمي وعيسى بفتحهما، وعن عيسى: بضمهما، وقرأ الكوفيون: ﴿إِحْسَٰنًا﴾ فقيل: ضمّن ﴿وصينا﴾ معنى ألزمنا، فيتعدى لاثنين، فانتصب ﴿حسنا﴾ و﴿إِحْسَٰنًا﴾ على المفعول الثاني لـ ﴿وصينا﴾. وقيل: التقدير: إيصاء ذا حسن أو ذا إحسان، ويجوز أن يكون ﴿حسناً﴾ بمعنى إحسان، فيكون مفعولاً له؛ أي: ووصّيناه بهما لإحساننا إليهما، فيكون الإحسان من الله تعالى.

والمعنى[2]: أي أمرنا الإنسان بالإحسان إليهما، والحنوّ عليهما، والبرّ بهما في حياتهما وبعد مماتهما، والإنفاق عليهما عند الحاجة، والبشاشة عند لقائهما، وجعلنا البرّ بهما من أفضل الأعمال، وعقوقهما من الكبائر. والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ثم ذكر سبب التوصية وعلته، وخصَّ الكلام بالأم؛ لأنها أضعف وأولى بالرعاية، وفضلها أعظم، كما ورد في صحيح الأحاديث، ومن ثم كان لها ثلثا البّر، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ﴾؛ أي: حملت الإنسان ﴿أُمُّهُۥ﴾ الأمّ[3] بإزاء الأب وهي الوالدة القريبة التي ولدته، والوالدة البعيدة التي ولدت من ولدته، ولهذا قيل لحوّاء عليها السلام: هي أُمُّنا، وإن كان بيننا وبينها وسائط. ويقال لكل ما كان أصلاً لوجود الشي أو تربيته أو إصلاحه أو مبدأه أمٌّ. ﴿كُرْهًا﴾ حال من فاعل ﴿حَمَلَتْهُ﴾؛ أي: حملته حال كونها ذات كره، وهو المشقة والصعوبة، يريد حالة ثقل الحمل في بطنها لا في ابتدائها، فإنّ ذلك لا يكون فيه مشقة، أو حملته حملاً ذا كره ومشقة.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿كُرْهًا﴾ بضم الكاف في الموضعين، وقرأ شيبة أبو جعفر، والأعرج والرحميان نافع وابن كثير وأبو عمرو بالفتح، وبهما معاً أبو رجاء ومجاهد وعيسى، والضم والفتح لغتان بمعنى واحد، كالعَقْرِ والعُقْرِ. وقالت

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

فرقة بالضم: المشقة، وبالفتح: الغلبة والقهر.

﴿وَوَضَعَتْهُ﴾؛ أي: ولدته ﴿كُرْهًا﴾ وهي شدة الطلق. وفي الحديث[1] «اشتدي أزمة تنفرجي». قال ﷺ لامرأة مسماة بأزمة، حين أخذها الطلق؛ أي: تصبري يا أزمة حتى تنفرجي عن قريب بالوضع. كذا في «المقاصد الحسنة».

والمعنى: أي حملته في بطنها بمشقة، فقاست في حال حمله مشقةً وتعباً، من وَحْمٍ وغثيانٍ وثقلٍ وكربٍ، ووضعته بمشقةٍ أيضاً، فقاست بسبب وضعه مشقة ألم الطلق وشدته، ووجع الولادة، ثم الرضاع والتربية، وكانت أيام الوحم تمنع من الطعام والشراب، وتعاف كل شيء، وكل هذا مما يستدعي البر بها، والإحسان الزائد إليها، واستحقاقها للكرامة، وجميل الصحبة.

ثم بين سبحانه مدة حمله وفصاله، فقال: ﴿وَحَمْلُهُ﴾؛ أي: ومدة حمله في البطن ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ وهو الفطام؛ أي: قطع الولد ومنعه عن اللبن. والمراد به: الرضاع التام المنتهىٰ به، فيكون مجازاً مرسلاً عن الرضاع التام، بعلاقة أنّ أحدهما بغاية الآخر ومنتهاه، كما أراد بالأمد المدّة من قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمْـ ... ـرِ وَمَرْدِيٌّ إِذَا انْتَهَى أَمَدُهُ

أي: هالك إذا انتهت مدة عمره، ونظيره: التعبير عن المسافة بالغاية في قولهم: مَن لابتداء الغاية، وإلى لانتهاء الغاية؛ أي: ومدة حمله ورضاعه ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ تمضي عليها بمقاساة الشدائد، والشهر: مدة معروفة مشهورة بإهلال الهلال، أو باعتبار جزء من اثني عشر جزءاً من دوران الشمس من نقطة إلى تلك النقطة، سمي به لشهرته، والمراد به: الشهر القمري، لا الشمسي.

وقرأ الجمهور ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾، وهو مصدر فاصل الرباعيّ، كأنه من اثنين فاصل أمه وفاصلته، وقرأ أبو رجاء والحسن وقتادة والجحدري: ﴿وفَصْلُه﴾. قيل: والفصل والفصال: مصدران، كالفطم والفطام.

---

(١) روح البيان.

أي: إنّ مدة حمله[١] ورضاعه ثلاثون شهراً؛ أي: عامان ونصف، تكابد الأمُّ فيها الآلام الجسمية والنفسية، فتسهر الليالي ذوات العدد إذا مرض، وتقوم بغذائه وتنظيفه، وكلِّ شؤونه بمحبةٍ وحنانٍ بلا ضجرٍ ولا سآمة، وتحزن إذا اعتل جسمه، أو ناله مكروه يؤثّر في نموه وحسن صحته.

وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ حق الأمّ آكد من حق الأب؛ لأنها حملته بمشقة ووضعته بمشقة، وأرضعته وحضنته وعنيت به بتعب وصبر، ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك، وإن تعب في الكسب والإنفاق، كذا جاءت الأحاديث النبوية تؤكد بر الأم، وتقدمه بمراتب ثلاث على مرتبة الأب، أخرج الشيخان، البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمُّك، قال: ثم مَنْ؟ قال: أمُّك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك».

وفي الآية أيضاً[٢]: إيماءٌ إلى أنّ أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنّ أكثر مدة الإرضاع حولان كاملان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر، وبذلك يعرف أقل الحمل وأكثر الإرضاع.

وأول من استنبط هذا الحكم من هذه الآية عليّ ـ كرم الله وجهه ـ وهو استنباط صحيح، ووافقه عليه عثمان، وجمع من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ روى ابن أبي حاتم ومحمد بن إسحاق صاحب «السيرة» عن معمر بن عبد الله الجهني قال: تزوّج رجل منا امرأة من جهينة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان ـ رضي الله عنه ـ فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها.. بكت أختها، فقالت لها: وما يبكيك، فوالله ما التبس بي أحدٌ من خلق الله تعالى غيره قط، فيقضي الله فيّ ما شاء، فلما أتي بها إلى عثمان رضي الله عنه.. أمر برجمها، فبلغ ذلك عليًّا ـ رضي الله عنه ـ فأتاه فقال له: ما

(١) المراغي. (٢) المراغي.

تصنع؟ قال: ولدت تماماً لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له عليٌّ - رضي الله عنه -: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قال: أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَٰلُهُ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ﴾؟ وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ﴾ فلم نجده أبقى إلا ستة أشهر، فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، عليَّ بالمرأة، فوجدها قد فرغ منها[1].. قال معمر: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلمَّا رآه أبوه.. قال: ابني والله لا أشك فيه.

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر.. كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر.. كفاه من الرضاعة ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر... فحولان كاملان؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَٰلُهُ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ﴾. وقال أبو حنيفة: المراد بحمله: الحمل على اليد، ولو حمل على حمل البطن.. كان بيان الأقل مع الأكثر. انتهى.

قيل: ولعلَّ[2] تعيين أقل مدة الحمل، وأكثر مدة الرضاع؛ أي: في الآية؛ لانضباطهما، وتحقُّق ارتباط النسب، والرضاع بهما، فإن من ولدت لستة أشهر من وقت التزوج، يثبت نسب ولدها، كما وقع في زمان عليّ رضي الله عنه فحكم بالولد على أبيه، فلو جاءت بولد لأقلَّ من ستة.. لم يلزم الولد للزوج، ويفرَّق بينهما، ومن مصَّ ثدي امرأة في أثناء حولين من مدة ولادته.. تكون المرضعة أمًّا له، ويكن زوجها الذي لبنها منه أباً له. قال في «الحقائق»: الفتوى في مدة الرضاع على قولهما. وفي «فتح الرحمن»: اتفق الأئمة على أنَّ أقل مدة الحمل ستة أشهر، واختلفوا في أكثر مدته، فقال أبو حنيفة: سنتان. والمشهور عن مالك: خمس سنين، وروي عنه أربع وسبع. وعند الشافعي، وأحمد: أربع سنين، وغالبها تسعة أشهر. انتهى.

---

(١) وفي رواية: أنّ عثمان رجع عن قوله ولم يحدّها؛ أي: أن الأمر تم قبل الحد. اهـ.
(٢) روح البيان.

وحكي عن أرسطوطاليس أنه قال: إنّ مدة الحمل لكل الحيوان مضبوطةٌ، سوى الإنسان، فربما وضعت لسبعة أشهر ولثمانية، وقل ما يعيش الولد في الثامن إلا في بلاد معينة، مثل: مصر. انتهى. وفي «إنسان العيون»: ذكر أنَّ مالكاً رحمه الله مكث في بطن أمه سنتين، وكذا الضحاك بن مزاحم التابعي. وفي «محاضرات السيوطي»: أنَّ مالكاً مكث في بطن أمه ثلاث سنين. وأخبر مالك أنَّ جارةً له ولدت ثلاثة أولاد في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل ولد أربع سنين. انتهى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غاية[1] لمحذوف؛ أي: أخذ ما وصَّيناه به، حتى إذا بلغ وقت أشده بحذف المضاف. وبلوغ الأشد: أن يكتهل ويستوفي السن الذي تستحكم فيه قوته وعقله وتمييزه. وسن الكهولة ما بين سنّ الشباب وسنّ الشيخوخة. قال في «فتح الرحمن»: ﴿أَشُدَّهُۥ﴾: كمال قوته وعقله ورأيه. وأقلُّه: ثلاث وثلاثون، وأكثره: أربعون ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾؛ أي: تمام أربعين، بحذف المضاف. قيل: لم يبعث نبي قبل أربعين، وهو ضعيف جداً، يدل عى ضعفه أنّ عيسىٰ ويحيى عليهما السلام بعثا قبل الأربعين. كما في «بحر العلوم». وجوابه: أنه من إقامة الأكثر الأغلب مقام الكل. قال ابن الجوزي: قوله: «ما من نبيٍ نبيء إلا بعد الأربعين» موضوع؛ لأنَّ عيسى نبيء ورفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنةً، فاشتراط الأربعين في حق الأنبياء ليس بشيء. انتهى. وكذا نُبِّيء يوسف عليه السلام وهو ابن ثماني عشرة سنة. كما في كتب التفاسير، وقيس على النبوة قوة الإيمان والإسلام. وقوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قمريةً، لا الشمسية، كما أفادته الآية. كما في «الروح» يفيد أن بلوغ الأربعين هو شيءٌ وراء بلوغ الأشد، وهو[2] نهاية استحصاد العقل واستكماله، ومن ثم روي عن ابن عباس: «من أتى عليه الأربعون ولم يغلب خيره شرَّه.. فليتجهز إلى النار» ولهذا قيل:

إِذَا ٱلْمَرْءُ وَافَىٰ الأَرْبَعِيْنَ وَلَمْ يَكُنْ ... لَهُ دُوْنَ مَا يَهْوَىٰ حَيَاءٌ وَلاَ سِتْرُ

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

فَدَعْهُ فَلاَ تَنْفَسْ عَلَيْهِ ٱلَّذِيْ مَضَىٰ وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ ٱلْحَيَاةِ لَهُ ٱلْعُمْرُ

﴿قَالَ﴾ ذلك الإنسان ﴿رَبِّ﴾ي، ويا مالك أمري ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾؛ أي: وَفِّقْني، وألهمني ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ من نعمة الهداية إلى الدين الحق والتوحيد وغير ذلك من نعم الدنيا، كسلامة العقل والصحة والعافية، وسعة العيش وتمام الخلقة السوية، وحنان الأبوين حين ربيّاني صغيراً، وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه؛ لأنّ النعمة عليهما نعمة عليه.

وقوله: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾: معطوف[1] على قوله: ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ﴾؛ أي: ألهمني ووفّقني للعمل الصالح الذي ترضاه منّي، والعمل الصالح المرضي: هو ما يكون سالماً من شوائب عدم القبول. وفيه إشارةٌ إلى أنه لا يمكن للعبد أن يعمل عملاً يرضي به ربَّه إلا بتوفيقه وإرشاده ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾؛ أي: واجعل الصلاح سارياً في ذريتي، متمكناً من نفوسهم، راسخاً في قلوبهم؛ أي: اجعل ذرّيتي صالحين راسخين في الصلاح متمكنين منه. وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات. وأصل ﴿أصلح﴾: يتعدى بنفسه كما في قوله: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ وإنما عدي هنا بالحرف ﴿فِي﴾؛ لإفادة الرسوخ والسريان. قال سهلٌ: اجعلهم لي خلف صدق، ولك عبيدا حقاً. وقال محمد بن عليّ: لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلاً. وفيه إشارة إلى أنَّ صلاحية الآباء تورث صلاحية الأبناء ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ من ذنوبي التي فُرِّطت مني في أيامي الخوالي ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ أي: من الخاضعين لك بالطاعة، المستسلمين لأمرك ونهيك، المنقادين لحكمك.

قال ابن كثير: وهذا فيه إرشادٌ لمن بلغ الأربعين أن يجدّد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، ويعزم عليها. وقد روىٰ أبو داود في «سننه» عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ كان يعلّمهم أن يقولوا في التشهد: «اللهم ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى

---

(١) التفسير المنير.

النور، وجنّبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرّياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، قابليها وأتمها علينا.

قال عليّ رضي الله عنه: هذه الآية: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه أسلم أبواه جميعاً، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره، فأوصاه الله بهما، ولزم ذلك من بعده، ووالده: هو أبو قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، وأمه: أم الخير، واسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد، وأم أبيه أبي قحافة: قيلة، وامرأة أبي بكر الصديق اسمها: قتيلة بنت عبد العزّى.

وقال ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أجاب الله دعاء أبي بكر، فأعتق تسعةً من المؤمنين يعذّبون في الله، منهم: بلال وعامر بن فهيرة، ولم يدع شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه، ولم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده، ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر وهذا دليل على استجابة دعاء أبي بكر رضي الله عنه.

ثم ذكر جزاء أصحاب هذه الأوصاف الجليلة، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الإنسان المذكور، ولأنّ المراد به: الجنس المتصف بالوصف المحكي عنه، وهو مبتدأ خبره الموصول المذكور بعده؛ أي: أولئك المنعوتون بما ذكر من النعوت الجليلة هم ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ من الطاعات واجبة أو مندوبة، فإن المباحات حسن لا يثاب عليها، فأفعل التفضيل على بابه.

وقرأ الجمهور(١): ﴿يتقبل﴾ مبنياً للمفعول ﴿أحسن﴾ رفعاً، وكذا ﴿ويتجاوز﴾. وقرأ زيد بن عليّ وابن وثّاب وطلحة وأبو جعفر والأعمش بخلاف عنه، وحمزة والكسائي وحفص: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ ﴿أَحْسَنَ﴾ نصباً، ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ بالنون

---

(١) البحر المحيط.

فيهما، وقرأ الحسن والأعمش وعيسى: بالياء فيهما مفتوحةً، ونصب ﴿أَحْسَنَ﴾.

﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾؛ أي: نتسامح ﴿عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ أي: ما فعلوا قبل التوبة، ولا يعاقبون عليها. قال الحسن: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ إنما ذلك من أراد الله سبحانه هوانه، وأما من أراد كرامته.. فإنه يتجاوز عن سيئاته حال كونهم كائنين ﴿فِىٓ﴾ عداد ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ منتظمين في سلكهم، فالجار والمجرور: في محل النصب على الحال، كقولك: أكرمني الأمير في أصحابه؛ أي: كائناً في جملتهم. وقيل: إن ﴿فِىٓ﴾ بمعنى: مع؛ أي: مع أصحاب الجنة. وقيل: إنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم في أصحاب الجنة ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة؛ لأنّ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ إلخ. في معنى الوعد بالتقبل والتجاوز.

والمعنى عليه: وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق. ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف؛ أي: وعدهم الله وعد الصدق ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ به في الدنيا على ألسنة الرسل، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية.

ومعنى الآية: أي [1] هؤلاء الذين هذه صفاتهم، هم الذين يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا في الدنيا من صالح الأعمال، فيجازيهم به، ويثيبهم عليه، ويصفح عن سيئات أعمالهم التي فرطت منهم في الدنيا لماماً ولم تكن عادة لهم، بل جاءت بحافزة من القوة الشهوانية، أو القوة الغضبية، فلا يعاقبهم عليها، وهم منتظمون في سلك أصحاب الجنة، داخلون في عدادهم.

ثم أكد الوعد السابق بقوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾؛ أي: وعدهم الله الوعد الحق الذي لا شك فيه ولا خلف، وأنه موفّ به.

وهذه الآية كما تنطبق على سعد بن أبي وقاص، وعلى أبي بكر الصديق، اللذين قيل: في كل منهما نزلت الآية، تنطبق على كل مؤمن، فهو موصى

---

(١) المراغي.

بوالديه، مأمور أن يشكر نعمة الله عليه، وعلى والديه، وأن يعمل صالحاً، وأن يسعى في إصلاح ذرّيته، ويدعو الله أن يوفقه لعمل أهل الجنة.

ولما ذكر سبحانه من شكر نعمة الله سبحانه عليه وعلى والديه.. ذكر من قال لهما قولاً يدل على التضجر منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان، فقال: ﴿وَٱلَّذِى﴾: مبتدأ، خبره: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لأنَّ المراد به ـ أي: بالموصول ـ الجنس ﴿قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ عند دعوتهما له إلى الإيمان، ويدخل فيه كل عبد سوءٍ عاقٍ لوالديه فاجرٍ لربّه ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ و﴿أُفٍّ﴾:[1] كلمة تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه، وكراهيته له. و﴿اللام﴾: لبيان المؤفف له، كما في ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾؛ أي: هذا التأفيف لكما خاصَّة. وقال الراغب: أصل الأفّ: كل مستقذر من وسخ وقلامة ظفر وما يجري مجراهما، ويقال ذلك لكل مستخفٍ به، استقذاراً له؛ أي: نتناً وقبحاً لكما، أتضجر منكما. فـ﴿اللام﴾ بمعنى: منْ.

وقرأ نافع وحفص[2]: ﴿أُفٍّ﴾ بكسر ﴿الفاء﴾ مع التنوين، وقرأ ابن كثير وابن عامر وابن محيصن: بفتحها من غير تنوين، وقرأ الباقون، بكسر من غير تنوين، وهي لغات. وقد مضى الكلام على ﴿أُفٍّ﴾ مدلولاً. ولغات، وقراءةً في سورة الإسراء مبسوطاً، وقرأ الجمهور: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ بنونين خفيفتين الأولى مكسورة، وفتح ياءه أهل المدينة ومكة، وأسكنها الباقون، وقرأ الحسن وعاصم وأبو عمرو في روايةٍ، وهشامٌ، بإدغام نون الرفع في نون الوقاية، وقرأ نافع في رواية، وجماعةٌ: بنونٍ واحدةٍ، وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر بخلاف عنه، وعبد الوارث عن أبي عمرو وهارون بن موسى عن الجحدري وسامٌ عن هشام: بفتح النون الأولى، كأنهم فرُّوا من توالي الكسرتين والياء إلى الفتح؛ طلباً للتخفيف، ففتحوا كما فرَّ من أدغم ومن حذف، وقال أبو حاتم: فتح النون باطل غلط.

وقرأ الجمهور: ﴿أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ بضم الهمزة، وفتح الراء مبنياً للمجهول، وقرأ الحسن وابن يعمر والأعمش وأبو العالية وابن مصرِّف والضحاك: بفتح الهمزة،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

وضم الراء مبنياً للفاعل.

والمعنى: أتعدانني وتخبرانني أن أبعث بعد الموت، وأخرج من القبر ﴿و﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَتِ﴾ ومضت ﴿ٱلْقُرُونُ﴾؛ أي: أمة بعد أمة ﴿مِن قَبْلِي﴾ فماتوا ولم يبعث منهم أحد ولم يرجع. فالجملة: في محل النصب على الحال من مفعول ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾، وكذا جملة قوله: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾: في محل النصب على الحال من قوله: ﴿لِوَٰلِدَيْهِ﴾؛ أي: قال لهما ذلك، والحال: أنهما يستغيثان الله سبحانه له، ويسألانه، ويطلبان منه أن يغيثه، ويوفِّقه للإيمان، واستغاث يتعدَّى بنفسه، وبالباء، يقال: استغاث الله، واستغاث به. وقال الرازي: معناه: يستغيثان الله من كفره، فلما حذف الجار.. وصل الفعل؛ أي: يقولان: الغياث بالله منك ومن قولك، وهو استعظام لقوله؛ أي: يستغيثان الله حال كونهما قائلين له: ﴿وَيْلَكَ﴾؛ أي: هلكت هلاكك، وهو في الأصل: دعاء عليه بالهلاك أريد به الحث والتحريض على الإيمان، لا حقيقة الهلاك. وانتصابه: إما على المصدر[1] بفعل ملاقٍ له في المعنى دون اللفظ؛ أي: هلكت هلاكك، وهو من المصادر التي لم تستعمل أفعالها كالويح والويس والويب، وإمَّا على المفعول به؛ أي: ألزمك الله ويلك. وعلى كلا التقديرين، فالجملة معمولة لقول مقدر؛ أي: يقولان: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾. والقول المقدر: في محل النصب على الحال من فاعل ﴿يَسْتَغِيثَانِ﴾، كما مرت الإشارة إليه ﴿ءَامِنْ﴾؛ أي: صدِّق بالبعث، والإخراج من الأرض، وهو فعل أمر من الإيمان، وهو من جملة مقولهما ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث؛ أي: إنّ موعوده وهو البعث ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: كائن واقع لا محالة؛ لأنَّ الخلف في الوعد نقص يجب تنزيه الله منه، وأضاف الوعد إليه تعالى في قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على خطأه في إسناده الوعد إليهما. في قوله: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ ﴿فَيَقُولُ﴾ مكذباً لهما: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الذي تسميانه وعد الله ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إلا أكاذيب الأقدمين، وأباطيلهم التي يسطرونها في الكتب من غير أن يكون لها حقيقة، كأحاديث رستم، وبهرام، واستنديار.

---

(١) الفتوحات.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بكسر ﴿إِن﴾ على الاستئناف، أو على التعليل وقرأ الأعرج، وعمرو بن فائد: بفتحها على أنها معمولةٌ لآمن بتقدير الباء؛ أي: آمن بأنَّ وعد الله بالبعث حقٌّ.

والمعنى: أي والذي قال لوالديه لأجل أن دعواه إلى الإيمان والإقرار ببعث الله خلقه من قبورهم، ومجازاته إياهم بأعمالهم: أفٍّ لكما؛ أي: قبحاً لكما، إنّي لضجر منكما، أتقولان: إني أبعث من قبري حيًّا بعد موتي وفنائي، وما لحق بي من بلى، وتفتت عظام، إنَّ هذا لعجب عاجب، فها أولئك قرون قد مضت، وأمم قد خلت من قبلي، كعاد وثمود، ولم يبعث منهم أحدٌ، ولو كنت مبعوثاً بعد وفاتي كما تقولان.. لبعث من قبلي من القرون الغابرة، ووالداه يستصرخان الله عليه، ويستغيثانه أن يوفقه إلى الإيمان بالبعث، ويقولان له حثّاً وتحريضاً: هلاكاً لك، صدق بوعد الله، وأنك مبعوث بعد وفاتك، إنّ وعد الله الذي وعده خلقه أنه باعثهم من قبورهم ومخرجهم منها إلى موقف الحساب لمجازاتهم حق لا شك فيه.

والخلاصة[2]: أنهما يستعظمان قوله، ويلجآن إلى الله في دفعه، ويدعوان عليه بالويل والثبور ليستحثاه على ترك ما هو فيه، ويشعراه بأن ما يرتكبه جدير بأن يهلك فاعله.

ثم ذكر ردَّه عليهما مع الاستهزاء بهما، والتعجيب من حالهما. بقوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ إلخ؛ أي: فيقول ذلك الولد مجيباً لوالديه، رادًّا عليهما نصحهما، مكذِّباً بوعد الله: ما هذا الذي تقولان لي، وتدعواني إليه إلا ما سطره الأولون من الأباطيل، فأصبتماه أنتما وصدَّقتما به، ولا ظل له من الحقيقة.

ثم ذكر سبحانه جزاء هؤلاء على ما قالوا واعتقدوا، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القائلون هذه المقالات الباطلة هم ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾ ووجب ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾؛ أي: العذاب بقوله سبحانه لإبليس: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ كما يفيده

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

قوله: ﴿فِيٓ أُمَمٍ﴾: حال من الضمير المجرور في ﴿عَلَيۡهِمُ﴾؛ أي: حال كون أولئك القائلين في عداد أمم ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ بيان للأمم، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُمۡ﴾ جميعاً؛ أي: هم والأمم ﴿كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾؛ لأنهم قد ضيَّعوا فطرتهم الأصلية الجارية مجرى رؤوس أموالهم باتباع الشيطان؛ تعليل للحكم بطريق الاستئناف التحقيقي.

والمعنى[1]: أي هؤلاء الذين هذه أوصافهم، هم الذين وجب عليهم عذاب الله، وحلت عليهم عقوبته وسخطه فيمن حل به العذاب من الأمم الذين قد مضوا من قبلهم من الجن والإنس ممن كذّبوا الرسل، وعتوا عن أمر ربهم.

وفي الآية[2]: إيماء إلى أنَّ الجن يموتون قرناً بعد قرن كالإنس، قال أبو حيان في «البحر»: قال الحسن البصري في بعض مجالسه: الجن لا يموتون، فاعترضه قتادة بالآية فسكت، وفيها رد أيضاً على من قال: إنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر؛ لأنه رضي الله عنه أسلم وَجُبَّ عنه ما قبل الإسلام، وكان من أفاضل الصحابة، أما من حق عليه القول... فهو من علم الله تعالى أنه لا يسلم أبداً.

ثم ذكر العلة في هذا العذاب المهين، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لأنهم ضيَّعوا فطرهم التي فطرهم الله عليها، واتبعوا الشيطان، فغبنوا ببيعهم الهدى بالضلال، والنعيم بالعذاب.

ثم ذكر أنّ لكل من الفريقين الذين قالوا: ربنا الله، والذي قال لوالديه أُفٍّ مراتب متفاوتة، فقال: ﴿وَلِكُلّٖ﴾ من الفريقين المذكورين ﴿دَرَجَٰتٞ﴾ ومراتب متفاوتة ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾؛ أي[3]: من أجزية ما عملوا من الخير والشر، فـ ﴿من﴾ نعت لـ ﴿دَرَجَٰتٞ﴾ ويجوز أن تكون بيانية. و﴿ما﴾ موصولة، أو من أجل ما عملوا، فـ ﴿ما﴾ مصدرية، و﴿من﴾: متعلق بقوله: ﴿لكل﴾ أي: ولكل من الفريقين من

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

أجل ما عملوا درجات متفاوة حسناً وقبحاً، والدرجات: طبقات عالية في مراتب المثوبة، وإيرادها هنا بطريق التغليب، قال ابن زيد: درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفلاً، ودرجات أهل الجنة تذهب علواً.

فإن قلت[1]: كيف وصف الفريقين بأنّ لكل منها درجات، مع أنَّ أهل النار لهم دركات لا درجات؟

قلت: الدرجات: هي الطبقات من المراتب مطلقاً، أو فيه إضمارٌ تقديره: ولكل فريق درجات أو دركات، لكن حذف الثاني اختصاراً لدلالة المذكور عليه.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾: معللة لمحذوف، تقديره: وجازاهم بما ذكر ليوفِّيهم ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: ليعطيهم الله سبحانه أجزية أعمالهم وافيةً تامةً، من وفاه حقّه. إذا أعطاه إياه وافياً تاماً ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: بنقص ثواب الأولين وزيادة عقاب الآخرين.

وفي «الروح»: ﴿اللام﴾ في ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ متعلقة بمحذوف مؤخر، كأنه قيل: وليوفهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم فعل ما فعل من تقدير الأجزية على تقدير أعمالهم، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات، وجملة قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في محل النصب على الحال من مفعول ﴿يُوفِّيهم﴾، أو مستأنفة مقررة لما قبلها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ بالياء؛ أي: الله تعالى، وقرأ الأعمش والأعرج وشيبة وأبو جعفر والأخوان: حمزة والكسائي وابن ذكوان ونافع بخلاف عنه: بالنون، وقرأ السلميّ: بالتاء من فوق؛ أي: ﴿ولتوفيهم﴾ الدرجات، أسند التوفية إليها مجازاً.

والمعنى: أي ولكل من الأبرار والفجار من الإنس والجن مراتب عند الله يوم القيامة بحسب أعمالهم، من خير أو شرّ في الدنيا، وليوفيهم أجور أعمالهم: المحسن منهم بإحسانه، والمسيء منهم بإساءته، وهم لا يظلمون شيئاً، فلا

(١) فتح الرحمن. (٢) البحر المحيط.

يعاقب المسيء إلا بعقوبة ذنبه، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يبخس المحسن منهم ثواب إحسانه.

وبعد أن بين سبحانه أنه يعطي كل ذي حق حقه.. بين الأهوال التي يلاقيها الكافرون، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك أهوال يوم ينكشف الغطاء، ويعرض الذين كفروا؛ أي: يقرب الذين كفروا على النار لتعذيبهم، وينظرون إليها.

وقيل: معنى[1] ﴿يُعْرَضُ﴾: يعذبون، من قولهم: عرض الأسارى على السيف؛ أي: قتلوا، وإلا فالمعروض عليه يجب أن يكون من أهل الشعور والإطلاع، والنار ليست منه، وقيل: تعرض النار عليهم بأن يوقفوا بحيث تبدو لهم النار، ومواقعهم فيها، وذلك قبل أن يلقوا فيها، فيكون من باب القلب مبالغةً بادعاء كون النار مميزاً ذا قهر وغلبة.

يقول الفقير: لا حاجة عندي إلى هذين التأويلين، فإن نار الآخرة لها شعور وإدراك، بدليل أنها تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، وتقول للمؤمنين: «جُزْ يا مؤمن فإن نورك أطفأ ناري»، وأمثال ذلك، وأيضاً لا بعد في أن يكون عرضهم على النار باعتبار ملائكة العذاب، فإنهم حاضرون عندها بأسباب العذاب، وأهل النار ينظرون إليهم وإلى ما يعذبونهم به عياناً. والله أعلم.

أي: اذكر يوم يقربون إليها، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾؛ أي: أصبتم وأخذتم ما كتب لكم من طيبات الدنيا ولذائذها وحظوظها ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾؛ أي: بالطيبات وانتفعتم بها، فلم يبق لكم بعد ذلك شيء منها؛ لأنّ إضافة الطيبات تفيد العموم. قال سعدي المفتي: قوله: ﴿وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ كأنه عطف تفسيري لـ ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾. والطيبات هنا[2]: المستلذّات من المآكل والمشارب والملابس والمفارش والمراكب والمواطىء وغير ذلك، مما يتنعم به أهل الرفاهية.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

والمعنى: أنه كانت تكون لكم طيبات الآخرة لو آمنتم، لكنكم لم تؤمنوا فاستعجلتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، فهذه كناية عن عدم الإيمان، ولذلك ترتب عليه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾، ولو أريد الظاهر ولم يكن كنايةً عما ذكر.. لم يترتب عليه الجزاء بالعذاب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾ على الخبر؛ أي: فيقال لهم: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾ ولذلك حسنت ﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾، وقرأ قتادة ومجاهد وابن وثاب وأبو جعفر والأعرج وابن كثير: بهمزة بعدها مدة مطولة، وقرأ ابن عامر: بهمزتين حققهما ابن ذكوان، وليَّن الثانية هشام. وابن كثير في رواية، وعن هشام: الفصل بين المحقَّقَة والمَلَيَّنَة بألف. وهذا الاستفهام على معنى التوبيخ والتقرير، فهو خبر في المعنى، فلذلك حسنت ﴿الفاء﴾ بعدها، ولو كان استفهاماً محضاً.. لم تدخل ﴿الفاء﴾.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾؛ أي: ففي هذا اليوم الحاضر؛ يعني يوم القيامة ﴿تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾؛ أي: الذل والحقارة؛ أي: العذاب الذي فيه ذلّ لكم وخزي عليكم، وقرىء: الهوان، وهو والهون بمعنى واحد.

ثم بين تلك الكناية بقوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾ في الدنيا ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ وتترفعون عن الإيمان ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بغير استحقاق لذلك.

وفيه إشارة[2] إلى أنّ الاستكبار إذا كان بحق، كالاستكبار على الظلمة.. لا ينكر ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾؛ أي: تخرجون عن طاعة الله تعالى؛ أي: تجزون عذاب الهون بسبب استكباركم، وفسقكم المستمرين، علّل سبحانه ذلك العذاب بأمرين:

أحدهما: الاستكبار عن قبول الحق والإيمان بمحمد ﷺ، وهو ذنب القلب.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

والثاني: الفسق والمعصية بترك المأمورات، وفعل المنهيات، وهو ذنب الجوارح، وقدّم الأول على الثاني؛ لأنّ ذنب القلب أعظم تأثيراً من ذنب الجوارح، وهذا شأن الكفرة، فإنهم قد جمعوا بينهما، وهذه الآية محرضة على التقليل من الدنيا، وترك التنعم فيها، والأخذ بالتقشف، وما يجتزي به رمق الحياة.

ومعنى الآية: أي[1] واذكر يا محمد لقومك حال الذين كفروا حين يعذبون في النار، ويقال لهم على سبيل التوبيخ: إنّ كل ما قدّر لكم من اللذات والنعيم قد استوفيتموه في الدنيا ونلتموه، ولم يبق لكم منه شيء، ولكن بقيت لكم الإهانة والخزي جزاء استكباركم، وفسوقكم عن أمر ربكم، وخروجكم عن طاعته.

فصل في ذكر نبذة من الأحاديث المحرضة على التزهد في الدنيا

ولما وبّخ[2] الله سبحانه الكافرين بالتمتع بالطيبات.. آثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات في الدنيا، رجاء ثواب الآخرة، فقد وردت أحاديث صحيحة دالة على ذلك:

فمنها: ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ، فإذا هو متّكىء على رمال حصير قد أثّر في جنبه، فقلت: أستأنس يا رسول الله، قال: «نعم» فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يردّ البصر إلا أهبة ثلاثة، فقلت: ادع الله أن يوسع على أمّتك، فقد وسَّع على فارس والروم، ولا يعبدون الله، فاستوى جالساً ثم قال: «أفي شكّ أنت يا ابن الخطاب، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» فقلت: استغفر لي يا رسول الله. متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين، حتى قبض رسول الله ﷺ. متفق عليه.

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

وعنها قالت: كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً، إنما هو الأسودان: التمر والماء، إلا أن نؤتىٰ باللحيم. وفي رواية أخرى قالت: إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلّة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار. قال عروة: قلت: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا. متفق عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير). أخرجه الترمذي، وله عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أُخفت في الله ما لم يخف أحد، وأوذيت في الله ما لم يؤذ أحد، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة، وما لي ولبلال طعام إلاّ شيء يواري إبط بلال».

وعن أبي هريرة قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة، ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته. أخرجه البخاري.

وعن إبراهيم بن عبد الرحمن: أنّ عبد الرحمن بن عوف أتي بطعام وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير منّي، فكفّن في بردة إن غطّي رأسه.. بدت رجلاه، وإن غطّي رجلاه.. بدا رأسه، قال: وأراه، قال: قتل حمزة وهو خير منّي، فلم يوجد ما يكفّن فيه إلا بردة، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيّباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام، أخرجه البخاري أيضاً.

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقي عن ابن عمر: أنّ عمر رضي الله عنه رأىٰ في يد جابر بن عبد الله رضي الله عنه درهماً، فقال: ما هذا الدرهم؟ قال: أريد أن أشتري به لأهلي لحماً قرموا إليه،

فقال: أكلما اشتهيتم شيئاً اشتريتموه؟ أين تذهب عنكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾؟.

وقد كان[1] السلف الصالح يؤثرون التقشف والزهد في الدنيا؛ رجاء أن يكون ثوابهم في الآخرة أكمل، لا أن التمتع بزخارف الدنيا مما يمتنع، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

نعم: إنّ الاحتراز عن التنعم أولىٰ؛ لأنّ النفس إذا اعتادت ذلك، وألفته.. صعب عليها تركه والاكتفاء بما دونه، ولله در البوصيري إذ يقول:

وَالنَّفْسُ كَٱلطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَىٰ ... حُبِّ ٱلرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

والذي يضبط هذا الباب، ويحفظ قانونه: أنّ على المرء أن يأكل ما وجد، طيباً كان أو قفاراً ـ الطعام بلا إدام ـ ولا يتكلف الطيب، ويتخذه عادةً. وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمده أصلاً، ولا يجعله ديدناً له.

قِصّة هود عليه السلام مع قومه عاد

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لكفار مكة هوداً عليه السلام مع قومه، ليعتبروا من حال قومه، فمعنى[2] ﴿أَخَا عَادٍ﴾. واحداً منهم في النسب لا في الدين، كما في قولهم: يا أخا العرب، وعاد: هم ولد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. وهود: هو ابن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد ﴿إِذْ أَنذَرَ﴾ وخوّف ﴿قَوْمَهُۥ﴾ عاداً من عذاب الله تعالى، والظرف: بدل اشتمال من ﴿أَخَا عَادٍ﴾ لأنّ ﴿أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود، يلابس وقت إنذاره وما وقع له معهم، فـ ﴿إِذْ﴾: ظرف للماضي، بمعنى الوقت مضافة لما بعدها ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾؛ أي: بموضع يقال له: الأحقاف واد باليمن به منازلهم، وليس صلةً لـ ﴿أَنذَرَ﴾ كما قد

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

يتوهم، بل هو حال من ﴿عَادٍ﴾؛ أي: حال كونهم كائنين بالأحقاف؛ أي: نازلين به، أو صفة؛ أي: أخا عاد الكائنين بالأحقاف؛ أي: بالوادي المعلوم. اهـ شيخنا. وأمّا صلة ﴿أَنذَرَ﴾ فهي قوله الآتي: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

والأحقاف: جمع حقفٍ، وهو الرمل العظيم المستطيل المعوج. قاله الخليل وغيره. وكانوا قهروا أهل الأرض بقوتهم، وكثيراً ما تحدث هذه الأحقاف في بلاد الرمل في الصحارى؛ لأنَّ الريح تصنع ذلك. وقال في «فتح الرحمن»: الصحيح من الأقوال: أنَّ بلاد عاد كانت في اليمن، ولهم كانت إرم ذات العماد. وعن عليّ رضي الله عنه: شر وادٍ بين الناس وادي الأحقاف، وواد بحضرموت يدعىٰ برهوت، تلقى فيه أرواح الكفار، وخير واد وادي مكة، ووادٍ نزل به آدم بأرض الهند، وخير بئر في الناس بئر زمزم، وشر بئر في الناس بئر برهوت. كذا في «كشف الأسرار».

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾؛ أي: مضت الرسل، جمع نذير بمعنى المنذر ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾؛ أي: من قبل هود، كنوح عليهما السلام ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾؛ أي: ومن بعد هود، كصالح عليهما السلام. وهذه الجملة: معترضة بين المفسِّر والمفسَّر، أو المتعلِّق والمتعلَّق، مقرِّرة لما قبلها، مؤكدة لوجوب العمل بموجب الإنذار، وسَّط بها بين إنذار قومه وبين قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مسارعةً إلى ما ذكر من التقرير والتأكيد، وإيذاناً باشتراكهم في العبادة المحكيّة.

وفي «الفتوحات»[1]: المضي بالنسبة لزمن محمد ﷺ خوطب به محمد، وأخبر به لبيان أنَّ إنذار هود لعاد وقع مثله للرسل السابقين عليه، والمتأخرين عنه، فأنذروا أممهم كما أنذر هود أمته، فصحَّ قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾، فالذين قبله أربعة: آدم وشيث وإدريس ونوح، والذين بعده: كصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وكذا سائر أنبياء بني إسرائيل.

والمعنى[2]: واذكر يا محمد لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك، والعذاب

---

(١) الجمل.
(٢) روح البيان.

العظيم، وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك. قال في «بحر العلوم»: ﴿أن﴾، مخففة من الثقيلة؛ أي: أنه يعني: أنَّ الشأن والقصة لا تعبدوا إلا الله، أو مفسرة بمعنى أي، أي: لا تعبدوا إلا الله أو مصدرية بحذف الباء؛ أي: بأن لا تعبدوا إلا الله، وتلك الباء للتصوير والتفسير؛ أي: صورة إنذاره أن قال: لا تعبدوا إلخ. و﴿لا﴾: ناهية. وإنما كان هذا إنذاراً؛ لأنّ النهي عن الشيء إنذار وتخويف من مضرّته. اهـ. «بيضاوي». فصح أنّ قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ مفسر للإنذار، ومتعلق به. اهـ «شهاب».

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بسبب شرككم، وإعراضكم عن التوحيد، تعليل لقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾؛ أي إنما أحذركم أن لا تعبدوا إلا الله لأني أخاف عليكم بسبب شرككم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: هائل واليوم العظيم يوم نزول العذاب عليهم، فعظيم مجاز عن هائل، لأنّه يلزم العظم، ويجوز أن يكون من قبيل الإسناد إلى الزمان مجازاً، وأن يكون الجر على الجوار.

والمعنى[1]: أي واذكر أيها الرسول لقومك المكذبين ما جئتهم به من الحق هوداً أخا عاد، فقد كذّبه قومه بالأحقاف حين أنذرهم بأس الله وشديد عذابه، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها أن لا تشركوا مع الله شيئاً في عبادتكم إياه، بل أخلِصوا له العبادة، وأفرِدوا له الألوهية، وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله، فقال لهم ناصحاً: إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾، وحين نصحهم بذلك أجابوه و﴿قَالُوٓا۟﴾ له: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ يا هود بالتوحيد والإيمان، والاستفهام فيه[2]: للتقرير والتوبيخ، والتعجيز له فيما أنذره إياهم من العذاب العظيم، على ترك إفراد الله تعالى بالعبادة. ذكره في «البحر». ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾؛ أي: لتصرفنا وتردنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾؛ أي: عن عبادتها إلى دينك، وهذا مما لا يكون ولا يعقل ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ وتخبرنا من

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

العذاب العظيم. و﴿الباء﴾: للتعدية ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في وعدك بنزوله بنا ﴿قَالَ﴾ هود ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقت مجيئه أو العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ذلك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وحده لا عندي، لا علم لي بوقت نزوله، ولا مدخل لي في إتيانه وحلوله، وإنما علمه عند الله تعالى، فيأتيكم به في وقته المقدر له ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار، وبيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك من غير وقوف على وقت نزوله.

وقرأ أبو عمرو: ﴿أبلغكم﴾ بالتخفيف ﴿وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث بقيتم مصرين على كفركم، ولم تهتدوا بما جئتكم به، بل تقترحون عليّ ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب، وتعيين وقت نزوله. وفي «التأويلات النجمية»: تجهلون الصواب من الخطأ، والصلاح من الفساد حين أدلكم على الرشاد.

والمعنى[1]: أي قال قومه له: أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعونا إليه، وإلى اتباعك فيما تقول، هلمّ فهات ما تعدنا به من العذاب على عبادة ما نعبد من الآلهة، إن كنت صادقاً في قولك وعدتك.

والخلاصة: أتزيلنا بضروب من الكذب عن آلهتنا وعبادتها، فأتنا بما تعدنا من معالجة العذاب على الشرك إن كنت صادقاً في وعيدك، وقد استعجلوا عذاب الله. وعقوبته، استبعاداً منهم لوقوعه، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾. فردّ هود عليهم مقالتهم، قال: إنما العلم بوقت نزوله عند الله وحده لا عندي، فلا أستطيع تعجيله، ولا أقدر عليه، ثم بين وظيفته فقال: وأبلغكم ما أرسلت به إليكم من ربكم من الإنذار، لا أن آتي بالعذاب، فليس ذلك من مقدوري، بل هو من مقدورات ربّي، ثمّ بيّن لهم أنهم جاهلون بوظيفة الرسل، فقال: ﴿وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ...﴾ إلخ؛ أي: وإنّي لأعتقد فيكم الجهل، ومن ثم بقيتم مصرين على كفركم، ولم تهتدوا بما جئتكم به، بل اقترحتم عليّ ما ليس

---

(١) المراغي.

من شأن الرسل، وهو الإتيان بالعذاب.

ثمّ ذكر مجيء العذاب إليهم، وانتقامه منهم، واستئصال شأفتهم، فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ ﴿الفاء﴾. عاطفة على محذوف، تقديره: فأتاهم العذاب الموعود به، فلمّا رأوه وأبصروه حال كونه ﴿عَارِضًا﴾؛ أي: سحاباً يعرض في أفق السماء، أو يبدو في عرض السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾؛ أي: متوجّهاً تلقاء أوديتهم، والإضافة فيه[1] لفظية، ولذا وقع صفة للنكرة، قال المفسّرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً، فساق الله إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من واد لهم، يقال له: المُعَتِّب، فلمّا شاهدوها.. ﴿قَالُوا۟﴾ مستبشرين مسرورين بها: ﴿هَٰذَا﴾ السحاب ﴿عَارِضٌ﴾؛ أي: غيم ﴿مُّمْطِرُنَا﴾؛ أي: يأتينا بالمطر، فلما قالوا ذلك.. أجاب عليهم هود، فقال: ليس الأمر كذلك ﴿بَلْ هُوَ﴾؛ أي: هذا العارض ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب حيث قلتم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾. وقرىء: ﴿ما استعجلتم﴾ بضم التاء وكسر الجيم. ذكره في «البحر». ﴿رِيحٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو ريح ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والجملة الاسمية: صفة أولى لـ ﴿رِيحٌ﴾ والريح التي عُذّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه. وقرىء ﴿قل بل ريح﴾؛ أي: بل هي ريح. ذكره البيضاوي. وكذا جملة قوله: ﴿تُدَمِّرُ﴾؛ أي: تهلك ﴿كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ مرّت عليه من نفوسهم وأموالهم، صفة ثانية لـ ﴿رِيحٌ﴾. والاستغراق فيه عرفيّ، والمراد: المشركون منهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بإذن ربها وإرادته، إذ لا حركة ولا سكون إلا بمشيئته تعالى، وأضاف الرب إلى الريح، مع أنه تعالى ربّ كل شيء؛ لتعظيم شأن المضاف إليه، وللإشارة إلى أنها في حركتها مأمورة، وأنها من أكابر جنود الله؛ يعني: ليس ذلك من باب تأثيرات الكواكب والقرانات، بل هو أمر حدث ابتداءً بقدرة الله تعالى لأجل التعذيب.

وقرأ الجمهور: ﴿تُدَمِّرُ﴾ بضم التاء وكسر الميم المشددة من التدمير وهو: الإهلاك، وكذا الدمار، وقرأ[2] زيد بن علي: ﴿تَدْمُرُ﴾ بفتح التاء وسكون الدال

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وضم الميم. ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بالنصب، وقرىء: ﴿يَدْمُر﴾ بالتحتية المفتوحة والدال الساكنة، والميم المضمومة، ورفع ﴿كل﴾ على الفاعلية، من دمر دماراً: إذا هلك ﴿فَأَصْبَحُوا﴾، أي: صاروا من العذاب بحال ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾ فيها ﴿إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بعد ذهاب أنفسهم وأموالهم، و﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فجاءتهم الريح فدمَّرتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لا تَرَى إلا مساكنهم﴾ بفتح التاء الفوقية على الخطاب، ونصب ﴿مساكنهم﴾؛ أي: لاترى أنت يا محمد، أو كل من يصلح للرؤية إلا مساكنهم بعد ذهاب أنفسهم وأموالهم، وقرأ عبد الله ومجاهد وزيد بن علي وقتادة وأبو حيوة وطلحة وعيسى والحسن وعمرو بن ميمون بخلافٍ عنهما، وعاصم وحمزة: ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾ بالتحتية المضمومة مبنياً للمفعول، ورفع ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ قال سيبويه: معناه: لا يرى أشخاصُهم إلا مساكنَهم واختار أبو عبيد وأبو حاتم هذه القراءة، قال الكسائي، والزجاج: معناها: لا يُرى شيء إلا مساكنهم، فهي محمولة على المعنى، كما تقول: ما قام إلا هند، والمعنى: ما قام أحد إلا هند، وقرأ الجحدريّ، والأعمش، وابن أبي إسحاق والسلميّ: بالتاء من فوق مضمومة، ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بالرفع. وهذا لا يجيزه أصحابنا إلا في الشعر، كقوله:

فَمَا بَقِيَتْ إِلاَّ ٱلضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ

وبعضهم يجيزه في الكلام، وقرأ عيسى الهمدانيّ: ﴿لا يرى﴾ بضم الياء، ﴿إلا مسكنهم﴾ بالتوحيد، وروى هذا عن الأعمش، ونصر بن عاصم، وقرىء: ﴿لا ترى﴾ بتاء مفتوحة للخطاب، ﴿إلا مسكنهم﴾ بالتوحيد مفرداً منصوباً. واجتزىء بالمفرد عن الجمع تصغيراً لشأنهم، وأنهم لمّا هلكوا في وقت واحد.. فكأنهم كانوا في مسكن واحد. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ﴿الكاف﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: جزاءً مثل ذلك الجزاء الفظيع، يعني: الهلاك بعذاب الاستئصال ﴿نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: المتمردّين في الإجرام المستمريّن على الإشراك الذين منهم هؤلاء.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى: أي كما جازينا عاداً بكفرهم بالله ذلك العقاب في الدنيا فأهلكناهم بعذابنا، كذلك نجزي كل مجرم كافر بالله متمادٍ في غيّه، والآية وعيد لأهل مكة على إجرامهم بالتكذيب، فإنّ الله تعالى قادر على أن يرسل عليهم ريحاً مثل ريح عاد أو نحوها فلا بد من الحذر.

قيل[١]: أوحى الله تعالى إلى خزّان الريح، أن أرسلوا مقدار منخر البقر، فقالوا: يا رب ننسف الأرض ومن عليها! فقال تعالى: مثل حلقة الخاتم، ففعلوا، فجاءت ريح باردة من قبل المغرب، وأول ما عرفوا به أنه عذاب أن رأوا ما كان في الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير بها الريح بين السماء والأرض، وترفع الظعينة في الجوّ حتى ترى كأنها جرادة، فتدمغها بالحجارة، فدخلوا بيوتهم، وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، فأمال الله الأحقاف عليهم، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين، ثم كشفت الريح عنهم الأحقاف، فاحتملتهم فطرحتهم في البحر، وقد قالوا: من أشد منا قوة، فلا تستطيع الريح أن تزيل أقدامنا، فغلبت عليهم الريح بقوتها، فما أغنت عنهم قوتهم، وبقي هود ومن آمن معه، وكانوا أربعة آلاف.

وفي «الخازن»: وقيل: إنّ هوداً عليه السلام لما أحسَّ بالريح.. خطَّ على نفسه وعلى من معه من المؤمنين خطاً، فكانت الريح تمر بهم لينة باردة طيبة، والريح التي تصيب قومه شديدة عاصفة مهلكة، وهذه معجزة عظيمة لهود عليه السلام. انتهى.

ولما أخبر سبحانه بهلاك قوم عاد.. خاطب قريشاً على سبيل الموعظة، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أقدرنا عاداً، وملكناهم ﴿فِيمَآ﴾؛ أي: في الذي ﴿إِن﴾ نافية بمعنى ما؛ أي: في الذي ما ﴿مَّكَّنَّٰكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿فِيهِ﴾ من السعة، والبسطة، وطول الأعمار، وسائر مبادي التصرفات، ومما[٢] يحسن وقوع ﴿إِن﴾ ههنا دون ما التقصي والفرار عن تكرر لفظة ما، وهو

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

الداعي إلى قلب ألفها هاء في مهما.

أي:[١] ولقد مَكَّنَّا عاداً الذين أهلكناهم بكفرهم فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه من الأموال الكثيرة، وبسطة الأجسام، وقوة الأبدان، وهم على ذلك ما نجوا من عقاب الله، فتدبروا أمركم، وفكروا فيما تعملون قبل أن يحل بكم العذاب، ولا تجدون منه مهرباً.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ﴾؛ أي: خلقنا لعاد، وأعطيناهم ﴿سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾؛ أي: قلوباً ليستعملوها فيما خلقت له، ويعرفوا بكل منها ما نيطت به معرفته من فنون النعم، ويستدلّوا بها على شؤون منعمها عز وجل، ويدوموا على شكرها، ولعل[٢] توحيد السمع وإفراده لأنه لا يدرك به إلا الصوت وما يتبعه بخلاف البصر، حيث يدرك به أشياء كثيرة، بعضها بالذات، وبعضها بالواسطة، والفؤاد يعمّ إدراك كل شيء، والفؤاد من القلب كالقلب من الصدر؛ سُمِّيَ به لتفؤده؛ أي: لتوقده وتحرقه ﴿فَمَآ﴾: نافية؛ أي: فيما ﴿أَغْنَىٰ﴾ ودفع ﴿عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي، ومواعظ الرسل، يقال: أغنى عنه كذا: إذا كفاه ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المنصوبة في صحائف العالم ﴿وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله سبحانه ﴿مِّن شَيْءٍ﴾؛ أي: شيئاً من الإغناء، و﴿مِنَ﴾: مزيدة للتأكيد.

والمعنى[٣]: أي إنا فتحنا عليهم أبواب نعمنا، فأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الأدلة والحجج ليعتبروا ويتذكروا، وأعطيناهم أبصاراً ليروا ما نصبناه من الشواهد الدالة على وجودنا فما انتفعوا بها، وأعطيناهم قلوباً تفقه حكمة الله في خلق الأكوان فما استفادوا منها ما يفيدهم في آخرتهم، ويقرّبهم من جوار ربهم، بل صرفوها في طلب الدنيا ولذاتها، لا جرم لم ينفعهم ما أعطيناهم من السمع والأبصار والأفئدة، إذ لم يستعملوها فيما خلقت له من شكر من أنعم

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

بها، ودوام عبادته.

ثم بيّن العلة في عدم إغناء ذلك عنهم، فقال: ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ويكذّبون رسله، وينكرون معجزاتهم. و﴿إذ﴾، ظرف جرى مجرى التعليل، متعلق بـ ﴿بما أغنى﴾ من حيث إنّ الحكم مرتب على ما أضيف إليه، فإنّ قولك: أكرمته إذ أكرمني في قوة قولك: أكرمته لإكرامه، لأنك إذا أكرمته وقت إكرامه... فإنما أكرمته فيه لوجود إكرامه فيه، وكذا الحال في حيث ﴿وَحَاقَ﴾ أي: أحاط ونزل ﴿بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء، فيقولون: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

وفي هذا تخويف لأهل مكة حتى يحذروا من عذاب الله، ويخافوا عقابه، فإنّ عاداً لمّا اغتروا بدنياهم، وأعرضوا عن قبول الحق.. نزل بهم العذاب، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم شيئاً، فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أنَّ هذه الآلات التي هي السمع والبصر، والفؤاد، أسباب تحصيل التوحيد، وبدأ بالسمع؛ لأنّ جميع التكليف الوارد على القلب إنما يوجد من قبل السمع، وثنّى بالبصر؛ لأنه أعظم شاهد بتصديق المسموع منه، وبه حصول ما به التفكر والاعتبار غالباً، تنبيها على عظمة ذلك، وإن كان المبصر هو القلب، ثم رجع إلى الفؤاد الذي هو العمدة في ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أهلكنا يا أهل مكة ﴿مَا حَوْلَكُم﴾؛ أي: ما حول قريتكم ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ المكذّبة للرسل كعاد، وقد كانوا بالأحقاف بحضرموت، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وسبأ باليمن، ومدين وكانت في طريقهم في رحلاتهم صيفاً وشتاءً؛ أي: أهلكنا تلك الأمم المكذّبة بعد أن أنذرناهم بالمثلات، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾؛ أي: ولقد كررنا، وبيّنا لهم قبل إهلاكهم الآيات التي يعتبر بها بتكرير ذكرها، وإعادة أقاصيص الأمم الخالية بتكذيبها وشركها؛

(١) روح البيان.

أي[1]: بيَّنا لهم دلائل قدرتنا، وبديع حججنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: لكي يرجعوا عن غيِّهم الذي استمسكوا به لمحض التقليد، أو لشبهة عرضت لهم، فلم يرجعوا، فحل بهم سوء العذاب، ولم يجدوا لهم نصيراً، ولا دافعاً لعذاب الله.

ثم أبان الله تعالى مدى الكرب والشدَّة بفقد الأعوان والنصراء لدفع عذاب الله، فقال: ﴿فَلَوْلَا﴾: تحضيضية؛ أي: فهلاً نصر أولئك الأمم المكذّبة، حين أهلكهم الله تعالى الأصنام والأوثان ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ هم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً﴾؛ أي: اتخذوها آلهة من دون الله، يتقربون بعبادتها إلى ربهم؛ أي: فهلاً نصرهم أوثانهم وآلهتهم التي اتخذوا عبادتها قرباناً يتقرَّبون به إلى ربهم فيما زعموا، حين جاءهم بأسه، فأنقذوهم من عذابه إن كانوا يشفعون عنده ﴿بَلْ ضَلُّوا﴾ وغابوا ﴿عَنْهُمْ﴾ ولم يفيدوهم شيئاً، و﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي عن نفي النصرة لما هو أخص منه، إذ نفيها يصدق بحضورها عندهم بدون النصرة، فأفاد بالإضراب أنهم لم يحضروا بالكلية، فضلاً عن أن ينصروهم، والقربان: كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من طاعة ونسيكة، والجمع: قرابين، كرهبان ورهابين، وأحد[2] مفعولي ﴿اتَّخَذُوا﴾: ضمير محذوف راجع إلى الموصول، والثاني: ﴿ءَالِهَةً﴾ و﴿قُرْبَانًا﴾: حال، والتقدير: فهلاّ نصرهم وخلّصهم من العذاب الذين اتخذوهم آلهة، حال كونها متقرَّباً بها إلى الله تعالى، حيث كانوا يقولون: ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، وفيه تهكم بهم ﴿بَلْ ضَلُّوا﴾؛ أي: بل ضلت الآلهة وغابت عنهم؛ أي: عن عابديها عند حلول البأس بهم، وفيه تهكم آخر بهم، كأنّ عدم نصرتهم لغيبتهم أو ضاعوا عنهم: أي: ظهر ضياعهم عنهم بالكلية.

﴿وَذَلِكَ﴾؛ أي: ضياع[3] آلهتهم عنهم، وامتناع نصرتهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾؛ أي: أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها، ونتيجة شركهم، وثمرته ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

عطف على ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: وما كانوا يكذبون بقولهم: إنها آلهة، وإنها تشفع لهم، و﴿ما﴾: إما مصدرية؛ أي: أثر افترائهم على الله، أو موصولة؛ أي: وأثر ما كانوا يفترونه عليه تعالى، من نسبة الشركاء إليه تعالى.

والمعنى(١): أي فهلاً نصرتهم آلهتهم التي تقرَّبوا بها إلى الله لتشفع لهم، ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم، بل غابوا وذهبوا عنهم، ولم يحضروا لنصرتهم عند الحاجة إليهم. وذلك الضلال والضياع سببه اتخاذهم إياها آلهةً، وزعمهم الكاذب أنها تقرِّبهم إلى الله تعالى، وتشفع، وافتراؤهم وكذبهم بقولهم: إنها آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

وفي هذا(٢): تقريع لأهل مكة، وتأنيبٌ لهم على أنه لو كانت آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تغني عنهم شيئاً، أو تنفعهم عنده.. لأغنت عمن كان قبلهم من الأمم الذين أُهلكوا بعبادتهم لها، فدفعت عنهم العذاب إذ نزل بهم، أو لشفعت لهم عند ربهم، لكنها أضرّتهم ولم تنفعهم، وغابت عنهم أحوج ما كانوا إليها، فما أحراهم أن يتنبهوا لما هم فيه من خطل الرأي، وسوء التقدير للأمور.

وقرأ الجمهور(٣): ﴿إِفْكُهُمْ﴾ بكسر الهمزة وإسكان الفاء وضم الكاف، مصدر أفك يأفك إفكاً؛ أي: كذبهم، وقرأ ابن عباس في رواية: بفتح الهمزة مع سكون الفاء وهو أيضاً مصدر لأفك، وقرأ ابن عباس أيضاً وابن الزبير، والصباح بن العلاء الأنصاري وأبو عياض، وعكرمة، وحنظلة بن النعمان بن مرة، ومجاهد: ﴿أَفَكَهم﴾ بثلاث فتحات، على أنه فعل ماض؛ أي: ذلك القول صرفهم عن التوحيد، وقرأ أبو عياض وعكرمة أيضا: كذلك، إلا أنهما شدَّدا الفاء للتكثير، فقالا: أفَّكهم من باب فعّل المضعف، وقرأ ابن الزبير أيضاً، وابن عباس فيما ذكر ابن خالويه: ﴿آفَكَهم﴾ بالمدّ، فاحتمل أن يكون بزنة فاعل، فـ ﴿الهمزة﴾ أصلية، وأن يكون بزنة أفعل، فـ ﴿الهمزة﴾: للتعدية؛ أي: جعلهم

---

(١) التفسير المنير.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

يأفكون، ويكون أفعل بمعنى المجرد، وعن الفرّاء أنه قرىء: ﴿أَفَكُهم﴾ بفتح الهمزة والفاء وضم الكاف، وهي لغة في الإفك، فيكون له ثلاثة مصادر: الأَفْك، والإِفْك بفتح الهمزة وكسرها مع سكون الفاء، والأفك بفتح الهمزة والفاء، وقرأ ابن عباس فيما روى قطرب، وأبو الفضل الرازي: ﴿آفكهم﴾ اسم فاعل من أفك؛ أي: صارفهم، والإشارة بذلك على قراءة من قرأ: ﴿أفكهم﴾ مصدراً إلى اتخاذ الأصنام آلهةً؛ أي: ذلك كذبهم وافتراؤهم، وقال الزمخشري: وذلك إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم، وضلالهم عنهم؛ أي: وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهةً، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب، من كونه ذا شركاء. انتهى.

وعلى قراءة من جعله فعلاً معناه: وذلك الاتخاذ صرفهم عن الحق، وكذلك قراءة اسم الفاعل؛ أي: صارفهم عن الحق، ويحتمل أن تكون ﴿ما﴾ في قوله: ﴿وما يفترون﴾: مصدرية كما مرّ؛ أي: وافتراؤهم، وهذا الاحتمال هو الأحسن، ليُعْطَف مصدرَ على مثله، وأن تكون بمعنى الذي، والعائد: محذوف؛ أي: والذي يفترونه.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالُواْ﴾. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: زائدة في خبر الموصول، لما فيه من معنى الشرط. ﴿لا﴾ نافية ﴿خَوْفٌ﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء به تقدم النفي عليه، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية. في محل الرفع خبر ﴿إِن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: حرف عطف، ﴿لا﴾: زائدة لتكررها ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾: خبره، والجملة: معطوفة على الجملة السابقة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾. خبر، والجملة: خبر ثان لـ ﴿إنّ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿جَزَآءً﴾: مصدر منصوب بفعل محذوف؛ أي: يجزون جزاءً، والجملة المحذوفة: في محل النصب حال ثانية من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾. وجوّز أبو البقاء إعرابه حالاً. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿جَزَآءً﴾ و﴿ما﴾: موصولة أو مصدرية. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة أو المصدرية.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: مستأنفة. ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿وصينا﴾. ﴿إِحْسَٰنًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: وصّيناه أن يحسن إليهما إحساناً، أو مفعول به على تضمين ﴿وصّينا﴾ معنى ألزمنا، فيكون مفعولاً ثانياً؛ أي: ألزمنا الإنسان إحساناً بوالديه، ﴿حَمَلَتْهُ﴾: فعل ومفعول به، ﴿أُمُّهُۥ﴾: فاعل، والجملة الفعلية: مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالوصية. ﴿كُرْهًا﴾: حال من ﴿أُمُّهُۥ﴾؛ أي: حالة كونها ذات كره ومشقة وتعب، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: حملاً كرهاً. ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَحَمْلُهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿حمله﴾: مبتدأ. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: معطوف عليه. ﴿ثَلَٰثُونَ﴾: خبر. ﴿شَهْرًا﴾ تمييز، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من مفعول ﴿وضعته﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿بَلَغَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الإنسان ﴿أَشُدَّهُۥ﴾: مفعول به، والجملة: في محل الخفض مضاف إليه على كونها فعل شرط، والظرف: متعلق بالجواب. ﴿وَبَلَغَ﴾: فعل وفاعل مستتر. ﴿أَرْبَعِينَ﴾: مفعول به. ﴿سَنَةً﴾: تمييز، والجملة: معطوفة على جملة ﴿بَلَغَ﴾ الأول.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، يعود على الإنسان، والجملة جواب

﴿إِذَا﴾: لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها: في محل الجر بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الجارة المتعلقة بمحذوف، تقديره: وعاش إلى قوله: رب أوزعني وقت بلوغه أشده، وبلوغه أربعين سنة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾: فعل دعاء مبني على السكون، وفاعله: ضمير يعود على الله، والنون: للوقاية، والياء: مفعول به أول، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء ﴿أَنۡ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿أَشۡكُرَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر. ﴿نِعۡمَتَكَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ تقديره: رب أوزعني شكر نعمتك. ﴿ٱلَّتِيٓ﴾: صفته لـ ﴿نِعۡمَتَكَ﴾. ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: أنعمتها. ﴿عَلَيَّ﴾: متعلق بـ ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾. ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾: معطوف على ﴿عَلَيَّ﴾، ﴿وَأَنۡ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أن أعمل﴾: ناصب ومنصوب وفاعل مستتر معطوف على ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ﴾؛ أي: وعملي. ﴿صَٰلِحٗا﴾: مفعول به، أو صفة لمصدر محذوف، وجملة ﴿تَرۡضَىٰهُ﴾: صفة لـ ﴿صَٰلِحٗا﴾. ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾. ﴿لِي﴾: متعلق بـ ﴿أصلح﴾، ﴿فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾: متعلق بـ ﴿أصلح﴾ أيضاً؛ أي: واجعل لي الصلاح في ذريتي راسخاً فيهم. ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تُبۡتُ﴾ خبر، ﴿إِلَيۡكَ﴾: متعلق بـ ﴿تُبۡتُ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل الدعاء المذكور قبله، وجملة ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾: معطوفة على جملة ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝١٦ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. وجملة ﴿نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾: صلة الموصول. ﴿أَحۡسَنَ﴾: مفعول به. و﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿عَمِلُواْ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾: مصدرية؛ أي: أحسن عملهم. ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾: معطوف على ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ داخل في حيز الصلة. ﴿عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾. متعلق بـ ﴿نتجاوز﴾. ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾: حال من

الموصول؛ أعني: الذين نتقبل عنهم. ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾: منصوب بفعله المقدر؛ أي: وعدهم الله وعد الصدق؛ أي: وعداً صادقاً لا خلف فيه، وهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة. ﴿ٱلَّذِي﴾: صفة لوعد الصدق. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يُوعَدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: يوعدونه ﴿وَٱلَّذِي﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الذي﴾، مبتدأ، وجملة ﴿قَالَ﴾: صلته. ﴿لِوَٰلِدَيۡهِ﴾: متعلق بـ ﴿قَالَ﴾، ﴿أُفّٖ﴾: اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، مبني على الكسر لشبهه بالحرف شبهاً استعمالياً، وفاعله: ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنا وجملة اسم الفعل: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: ﴿لَّكُمَآ﴾: متعلق بـ ﴿أُفّٖ﴾.

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿تعدان﴾: فعل مضارع مرفوع بثبات النون، والألف: فاعل، والنون: للوقاية، والياء: مفعول أول له، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنۡ أُخۡرَجَ﴾: ناصب وفعل مغير ونائب فاعل مستتر، والجملة: في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ ﴿تعدانني﴾؛ أي: تعدانني خروجي من القبر. ﴿وَقَدۡ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿قَدۡ﴾ حرف تحقيق. ﴿خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن قَبۡلِي﴾: متعلق بـ ﴿خَلَتِ﴾، والجملة: في محل النصب حال من نائب ﴿أُخۡرَجَ﴾، ﴿وَهُمَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هما﴾: مبتدأ. ﴿يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل، ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من ﴿والديه﴾. ﴿وَيۡلَكَ﴾: منصوب على المصدرية بفعل مقدر من معناه لا من لفظه؛ لأنّ العرب أماتوا لفظ فعله، تقديره: هلكت ويلك؛ أي: هلاكك، أو مفعول به لفعل محذوف تقديره: ألزمك الله ويلك، والجملة المحذوفة: في محل النصب مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل ﴿يَسۡتَغِيثَانِ﴾، تقديره: وهما يستغيثان الله حال كونهما قائلين: ويلك آمن. ﴿ءَامِنۡ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على الولد، والجملة الفعلية: من تتمّة مقولهما. ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾: ناصب

واسمه وخبره، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب من تتمّة قولهما، مسوقة لتعليل الأمر بالإيمان. ﴿فَيَقُولُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على القول المحذوف. ﴿يقول﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الولد. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: خبر. ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لـ ﴿يقول﴾، وجملة ﴿يقول﴾: معطوفة على جملة يقولان المحذوف.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل الرفع خبر لقوله السابق: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾. والجمع هنا باعتبار المعنى. ﴿حَقَّ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: فاعل، والجملة: صلة الموصول. ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ حال من الضمير المجرور بـ ﴿على﴾؛ أي: حال كونهم كائنين في عداد أمم. وجملة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: صفة لـ ﴿أُمَمٍ﴾. ﴿مِن قَبْلِهِم﴾: متعلق بـ ﴿خَلَتْ﴾ ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾: حال من فاعل ﴿خَلَتْ﴾، أو صفة لـ ﴿أُمَمٍ﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾: وجملة ﴿إن﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلِكُلٍّ﴾: خبر مقدم. ﴿دَرَجَٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة. ﴿مِّمَّا﴾: صفة لـ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ وجملة ﴿عَمِلُوا۟﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يوفّيهم﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله: ضمير يعود على الله، و﴿الهاء﴾: مفعول أول. ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولتوفيته إياهم أعمالهم، والجار والمجرور: متعلقان بمعلول محذوف، والمعلول المحذوف، معطوف على مقدر تقديره: فعل بهم ما فعل، ليعدل بينهم، وجازاهم بما ذكر، ليوفيهم أعمالهم. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب حال مؤكدة من ضمير ﴿يوفيهم﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يوم﴾: ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: يقال لهم يوم عرضهم على النار: أذهبتم، والقول المحذوف: مستأنف. ﴿يُعْرَضُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: نائب فاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يوم﴾. ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ ﴿يُعْرَضُ﴾، ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾: مفعول به. ﴿فِى حَيَاتِكُمُ﴾: متعلق بـ ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ ﴿الحياة﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول للقول المحذوف. ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم﴾: معطوف على ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾، ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ ﴿استمتعتم﴾. ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿اليوم﴾: ظرف متعلق بـ ﴿تُجْزَوْنَ﴾ و﴿تُجْزَوْنَ﴾: فعل مضارع ونائب فاعل، والجملة: معطوفة على ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾. ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾: مفعول به ثان. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿تُجْزَوْنَ﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾: خبره، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَبِمَا﴾: معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾، وجملة ﴿كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾: في الموضعين موصوفةً أو مصدرية.

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، ومفعول به، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان قصة عاد قوم هود. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان، في محل النصب بدل اشتمال من ﴿أَخَا عَادٍ﴾. ﴿أَنذَرَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿أَخَا عَادٍ﴾. ﴿قَوْمَهُۥ﴾: مفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾: حال من ﴿قَوْمِهِۦ﴾. ﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: حال من ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾: معطوف عليه، والجملة: اعتراضية لا محل لها

من الإعراب؛ لاعتراضها بين المفسِّر والمفسَّر، أو بين المتعلِّق والمتعلَّق. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: مخففة من الثقيلة، أو مصدرية أو مفسرة، واسمها. ضمير الشأن؛ أي: أنه ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَعۡبُدُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة، في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿أَنذَرَ﴾؛ أي: إذ أنذر قومه بعدم عبادتهم إلا الله. ﴿إِنِّيٓ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَخَافُ﴾: خبر ﴿إنّ﴾ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿أَخَافُ﴾. ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ﴾: مفعول به. ﴿عَظِيمٖ﴾: صفة ﴿يَوۡمٍ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ تعليلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها تعليل للنهي عن عبادة غير الله.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري التوبيخي. كما في «البحر»، ﴿جئتنا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ ﴿لِتَأۡفِكَنَا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿تأفكنا﴾: فعل مضارع، ومفعول به، وفاعل مستتر، يعود على هود. ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لإفكك إيّانا عن آلهتنا، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿جئتنا﴾. ﴿فَأۡتِنَا﴾ ﴿الفاء﴾، عاطفة. ﴿ااتنا﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿بِمَا﴾: متعلق به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ لتوافقهما في الطلبية. ﴿تَعِدُنَآ﴾: فعل مضارع: وفاعل مستتر. ومفعول به، والجملة: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: بما تعدناه. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إن﴾ الشرطية: معلوم مما قبلها؛ أي: إن كنت من الصادقين. فأتنا بما تعدنا. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على هود، والجملة: مستأنفة. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾: مبتدأ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَأُبَلِّغُكُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أبلغكم﴾: فعل مضارع. وفاعل مستتر، ومفعول به. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب. مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾. ﴿أُرْسِلْتُ﴾: فعل ماض، مغير الصيغة. ونائب فاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به والجملة: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَلَٰكِنِّيٓ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكنّي﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرَىٰكُمْ﴾: خبره، والجملة: معطوفة على ما قبلها. ﴿أَرَىٰكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول أوّل. ﴿قَوْمًا﴾: مفعول ثان له، وجملة ﴿تَجْهَلُونَ﴾: صفة ﴿قَوْمًا﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لمّا﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿رَأَوْهُ﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول به. ﴿عَارِضًا﴾: حال من المفعول؛ لأنّ الرؤية بصرية، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لمّا﴾. ﴿مُّسْتَقْبِلَ﴾ صفة ﴿عَارِضًا﴾؛ لأنّ الإضافة فيه لفظية. ﴿أَوْدِيَتِهِمْ﴾ مضاف إليه ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة، جواب ﴿لمّا﴾، وجملة ﴿لمّا﴾: معطوفة على محذوف، تقديره: فجاءهم العذاب، فلمّا رأوه قالوا. إلخ. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿عَارِضٌ﴾: خبره، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مُّمْطِرُنَا﴾: صفة ﴿عَارِضٌ﴾، لأنّ الإضافة فيه لفظية، كما مرّ آنفاً. ﴿بَلْ﴾: حرف ابتداء وإضراب، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة: مقول لقول محذوف، تقديره: قال هود: بل هو ما استعجلتم به. ﴿ٱسْتَعْجَلْتُم﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿رِيحٌ﴾: بدل من ﴿مَا﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي ريح. ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية: نعت أول لـ ﴿رِيحٌ﴾.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿تُدَمِّرُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود على ﴿رِيحٌ﴾. ﴿كُلَّ شَيْءٍۭ﴾:

مفعول به، ﴿بِأَمْرِ﴾ متعلق بـ ﴿تُدَمِّرُ﴾، ﴿رَبِّهَا﴾: مضاف إليه، والجملة: نعت ثان لـ ﴿رِيحٌ﴾. ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فأدركتهم الريح فأصبحوا إلخ. ﴿أصبحوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يُرَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغيّر الصيغة. ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر. ﴿مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ نائب فاعل، والرؤية هنا بصريّة، تتعدّى إلى مفعول واحد، وجملة ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾: في محل النصب خبر ﴿أصبح﴾ وجملة ﴿أصبح﴾: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف. ﴿نَجۡزِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود على الله. ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: صفة لـ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾. والجملة الفعلية: مستأنفة؛ أي: نجزي القوم المجرمين جزاءً مثل ذلك الجزاء الفظيع.

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة: جواب لقسم محذوف، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿فِيمَآ﴾: جار ومجرور، متعلّق بـ ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ﴾. ﴿إِن﴾: نافية، ﴿مَّكَّنَّٰكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿مَّكَّنَّٰكُمۡ﴾. والجملة: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: ولقد مكنّاهم في الذي ما مكّناكم فيه. ﴿وَجَعَلۡنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ﴾، ﴿لَهُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿جعلنا﴾؛ لأنّه بمعنى خلقنا. ﴿سَمۡعٗا﴾: مفعول به لـ ﴿جعلنا﴾، ﴿وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾: معطوفان عليه. ﴿فَمَآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَغۡنَىٰ﴾: فعل ماض. ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿أَغۡنَىٰ﴾، ﴿سَمۡعُهُمۡ﴾: فاعل، ﴿وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم﴾: معطوفان عليه. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿شَيۡءٍ﴾. مفعول مطلق مجرور لفظاً، منصوب محلاً؛ أي: شيئاً من الإغناء. وجملة ﴿ما أغنى﴾: معطوفة على جملة ﴿جعلنا﴾. ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان، مفيدة للتعليل، متعلق بمعنى النفي؛ لأنّ المعلّل هو النفي؛ أي: انتفى نفع هذه الحواسّ عنهم؛ لأنّهم كانوا يجحدون. ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَجۡحَدُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿كان﴾: في محل الجر

بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليه. ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَجْحَدُونَ﴾. ﴿وَحَاقَ﴾: فعل ماض. ﴿بِهِم﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل. والجملة: معطوفة على جملة ﴿كَانُوا﴾. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل وفاعل. والجملة: جواب القسم، وجملة جواب القسم مستأنفة. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿حَوْلَكُم﴾: منصوب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾، ﴿مِّنَ الْقُرَى﴾: حال من الضمير المستقرّ في الصلة أو من ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿لعل﴾: تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿فَلَوْلَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لولا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلّا. ﴿نَصَرَهُمُ﴾: فعل ومفعول به. ﴿الَّذِينَ﴾: فاعل. والجملة: معطوفة على جملة القسم. ﴿اتَّخَذُوا﴾: فعل وفاعل والمفعول الأول لـ ﴿اتَّخَذُوا﴾: محذوف، تقديره: فلولا نصرهم الذين اتخذوهم، وهو عائد الموصول. ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿اتَّخَذُوا﴾، ﴿قُرْبَانًا﴾: حال من المفعول الأول المحذوف. ﴿آلِهَةً﴾: مفعول ثان. وجملة ﴿اتخذ﴾: صلة الموصول. وقال ابن عطية والحوفيّ: المفعول الأول: محذوف، كماقلنا: و﴿قُرْبَانًا﴾: مفعول ثان، ﴿آلِهَةً﴾: بدل منه. وقد أنكر الزمخشريّ هذا الوجه؛ لفساد المعنى عليه. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب للانتقال عن نفي النصرة لما هو أخص منه، إذ نفيها يصدق بحضورها عندهم بدون النصرة، فأفاد بالإضراب أنهم لم يحضروا بالكلّية، فضلاً عن أن ينصروهم. ﴿ضَلُّوا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به. والجملة الإضرابية: معطوفة على جملة ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ذلك﴾: مبتدأ، ﴿إِفْكُهُمْ﴾: خبر. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْتَرُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ المصدرية؛ أي: وافتراؤهم، أو الموصولة؛ أي: والذي يفترونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ من التوصية. والتوصية، وكذا الإيصاء، والوصيّة: بيان الطريق القويم لغيرك ليسلكه، أو الأمر المقترن بضرورة الاعتناء والاهتمام؛ أي: أمرنا، والإحسان: خلاف الإساءة، والحسن: خلاف القبح. والمراد: أنه يفعل معهما فعلاً ذا حسن.

﴿كُرْهًا﴾ والكره بالضم والفتح، كالضُعف والضَعف: المشقّة والتعب.

﴿وَحَمْلُهُۥ﴾؛ أي: مدّة حمله ستة أشهر. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾؛ أي: المدّة القصوى لفطامه من الرضاع سنتان. والمراد به: الرضاع التامّ، المنتهي بالفطام. وفي «المختار»: الفصال، هو الفطام. وقرىء: ﴿وفصله﴾ وهو مصدر فاصل الرباعيّ، كأنّ الأمّ فاصلته، وهو فاصلها. والفصل والفصال: بمعنى واحد كالفطم والفطام، والقطف والقطاف، وفي الآية تجوّز، كما سيأتي من حيث إنّ المراد بالفصال فيها: الرضاع: أي: مدّته التي يعقبها الفطام، فهو مجاز، علاقته المجاورة.

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وبلوغ الأشدّ أن يكتهل، ويستوفي السنّ التي تستحكم فيها قوته وعقله وتمييزه، وذلك إذا أناف على الثلاثين، وناطح الأربعين. ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ والمراد بالسنة: القمرية، على ما أفادته الآية، كما قال: شهراً لا الشمسية، اهـ «الروح». كما مرّ.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾؛ أي: ألهمني ووفّقني ورغّبني، من أوزعته بكذا: إذا جعلته مولَعا به، راغباً في تحصيله. وأصله: الإعاء بالشيء من قولهم: فلان موزع

بكذا؛ أي: مغرى به. وقال الراغب: وتحقيقه أولعني بذلك.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ من ذرأ الشيء إذا كثر. ومنه: الذرّيّة لنسل الثقلين. كما في «القاموس»؛ أي: واجعل الصلاح سارياً في ذريّتي، راسخاً فيهم. كما مرّ.

﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ والقبول: هو الرضا بالعمل، والإثابة عليه. ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾؛ أي: حسن أعمالهم وطاعاتهم، فإنّ المباح حسن، ولا يثاب عليه. فالقبول ليس قاصراً على أحسن، وأفضل عبادتهم، بل يعم كل طاعاتهم أفضلها ومفضولها.

﴿أُفٍّ﴾ هو صوت يصدر من الإنسان حين تضجره، وكتب عليه الكرخي في سورة الإسراء: وهو مصدر أفّ يؤف أفّاً، بمعنى تبّا وقبحاً، أو صوت يدلّ على تضجّر، أو اسم الفعل الذي هو أتضجر. اهـ. فجعل فيه احتمالات ثلاثة: مصدر، واسم صوت، واسم فعل. لكن المراد: أيُّ كلام يؤذيهما فيه كسر لخاطرهما.

﴿يَسْتَغِيثَانِ﴾ من الغوث. أصله: يستغوثان، نقلت حركة الواو إلى الغين إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد. ﴿أُخْرَجَ﴾؛ أي: أبعث من القبر للحساب.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾؛ أي: مضت ولم يخرج منها أحد. والقرون: جمع قرن، والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد.

﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: يقولان: الغياثُ بالله منك، يقال: استغاث الله، واستغاث بالله. والمراد: أنهما يستغيثان بالله من كفره إنكاراً، واستعظاماً له حتى لجأ إلى الله في دفعه. كما يقال: العياذ بالله من كذا. ﴿وَيْلَكَ﴾ دعاء عليه بالثبور والهلاك، ويراد به: الحثُّ على الفعل أو تركه، إشعاراً بأنّ مرتكبه حقيق بأن يهلك، فإذا سمع ذلك.. ارعوى عن غيّه، وترك ما هو فيه، وأخذ بما ينجيه. وهو من المصادر التي لم تستعمل أفعالها، ومثله: ويحه، وويسه، وويبه.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: أباطيلهم التي سطّورها في الكتب من غير أن يكون

لها حقيقة، كما مرّ. ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: وجب عليهم قوله لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ الآية.

﴿خَٰسِرِينَ﴾؛ أي: كانوا من الذين ضيّعوا نظرهم الشبيه برؤوس الأموال باتّباعهم همزات الشياطين. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ والدرجات: المنازل، واحدها: درجة. وهي المنزلة، ويقال لها: منزلة إذا اعتبرت صعوداً، ودركة إذا اعتبرت حدوراً. ومن ثمّ يقال: درجات الجنة، ودركات النار. فالتعبير بالدرجات هنا على سبيل التغليب. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ من وفّاه حقّه: إذا أعطاه إيّاه وافياً تامّاً.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ الإذهاب: الاشتغال بالطيّبات المستلذّات.

وعبارة الخطيب: والمعنى: أنّ ما قدّم لكم من الطيبات والدرجات.. فقد استوفيتموه في الدنيا، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظوظكم في الدنيا شيء في الآخرة. انتهت. قال ابن بحر: الطيبات: الشباب والقوّة، مأخوذ من قولهم: ذهب أطيباه؛ أي: شبابه وقوّته. قال الماورديّ: ووجدت الضحاك قاله أيضاً. قال القرطبيّ: القول الأول: أظهر. ﴿ٱلْهُونِ﴾؛ أي: الهوان، والذلّ. ﴿تَفْسُقُونَ﴾: تخرجون عن طاعة الله تعالى.

﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ جمع حقف بالكسر والسكون، وهو: ما استطال من الرمل العظيم واعوجّ، ولم يبلغ أن يكون جبلاً. والجمع: حقاف وأحقاف: وحقوف. وجمع الجمع: حقائف وحقفة. يقال: احقوقف الرمل والهلال: إذا اعوجّ. وفي المراد بالأحقاف هنا خلاف. فقال ابن زيد: هي رمال مشرفة على البحر، مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبالاً، وشاهد ما ذكرناه ما قال قتادة: هي جبال مشرفة بالشحر، والشَّحَر: موضع قريب من عدن. وفي «القاموس»: الشحر كمنع، فتح الفم، وساحل البحر بين عمان وعدن. وقال ابن إسحاق: الأحقاف: رمل فيما بين عمان إلى حضرموت. وقال قتادة: الأحقاف: رمال مشرفة على هجر بالشحر من أرض اليمن. قال ياقوت: فهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المعنى، مأخوذ من احقوقف الشيء: إذا اعوجَّ، وإنما أخذ الحقف من احقوقف، مع أنّ الأمر ينبغي أن يكون بالعكس؛ لأنّ احقوقف أجلىٰ معنى،

وأكثر استعمالاً. فكانت له من هذه الجهة أصالةٌ، اهـ من «الروح».

﴿لِتَأْفِكَنَا﴾؛ أي: تصرفنا من الأفك بالفتح مصدر أفكه يأفكه أفكاً: إذا قلبه، وصرفه عن الشيء. ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾؛ أي: عبادتها. ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من معالجة العذاب على الشرك. ﴿عَارِضًا﴾ والعارض: السحاب الذي يعرض في أفق السماء. قال الأعشى:

يَا مَنْ رَأَىٰ عَارِضاً قَدْ بِتُّ أَرْمُقُهُ   كَأَنَّمَا ٱلْبَرْقُ فِيْ حَافَاتِهِ ٱلشُّعَلُ

﴿عن ألهتنا﴾ أصله: أألِهَةٌ، بوزن أفعلة، أبدلت الهمزة الساكنة حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى المفتوحة.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أصله: رأيوه، بوزن فعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان: الألف، وواو الجماعة، فحذفت الألف. ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أصله: يرءي، بوزن يفعل، نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت للتخفيف، ثمّ أبدلت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. وكذلك القول في قراءة من قرأ ﴿ترى﴾ بالتاء والبناء للفاعل.

وفي «صحيح مسلم» عن ابن عباس: أنّ النبيّ ﷺ قال: «نُصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور». قال شاعرهم يحكي هذا القصص فيما رواه ابن الكلبيّ:

فَدَعَا هُوْدٌ عَلَيْهِمْ   دَعْوَةً أَضْحَوْا هُمُوْدَا
عَصَفَتْ رِيْحٌ عَلَيْهِمْ   تَرَكَتْ عَاداً خُمُوْدَا
سُخِّرَتْ سَبْعَ لَيَالِيْ   لَمْ تَدَعْ فِيْ الأَرْضِ عُوْدَا

﴿عَادٍ﴾ قبيلة عربية من إرم. ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾؛ أي: لقد جعلنا لهم مكنة، وقدرة في الذي ما مكّنّاكم فيه يا أهل مكة. ﴿أَغْنَىٰ﴾ أصله: أغني بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ وحول الشيء: جانبه الذي يمكنه أن يحوّل إليه. ﴿قُرْبَانًا﴾ والقربان: ما يتقرّب به إلى الله تعالى. يجمع على قرابين، كرهبان ورهابين، كما مرّ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروبا من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ بعد قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾؛ لزيادة العناية والاهتمام بشأنّ الأمّ؛ لحقّها العظيم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾؛ لأنّه مجاز عن مدّة الرضاع التامّ التي يعقبها الفطام، فهو مجاز علاقته المجاورة.

ومنها: الطباق بين: ﴿حَمَلَتْهُ﴾ ﴿وَوَضَعَتْهُ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ لأنّ الكلام على حذف المضاف؛ أي: بلغ وقت أشدّه، وكذا قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ على حذف مضاف؛ أي: تمام أربعين سنة، وكذا قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾؛ أي: أن أشكرك على نعمتك.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ للتفخيم والتعميم.

ومنها: زيادة ﴿فِىٓ﴾ في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ مع أنّ الصلاح يتعدّى بنفسه، كما في قوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾؛ ليدلّ على أنّ المدعو جعل الصلاح سارياً في ذرّيّته، راسخاً فيهم.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿صَٰلِحًا﴾ ﴿وَأَصْلِحْ﴾ في قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾.

ومنها: إضافة الموصوف إلى صفته في قوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾؛ أي: الوعد الصادق الذي لا خلف فيه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أضافه إلى لفظ الجلالة؛

تحقيقاً للحقّ، وتنبيهاً على خطئه في إسناد الوعد إليهما في قوله: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾.

ومنها: صيغة الحصر في قوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾؛ لأنّه غلَّب درجات السعداء على دركات الأشقياء، فعبّر عن الكل بالدرجات على طريق التغليب.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأنّه استعار العرض للتعذيب، فاشتقَّ منه ﴿يُعْرَضُ﴾ بمعنى يعذّب على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، فالعرض هنا مجاز عن التعذيب، نظير قوله: عرض الأسارى على السيف؛ أي: قتلوا، وإلاّ فالمعروض عليه يجب أن يكون من أهل الشعور والاطلاع، والنار ليست منهم. قال الفرَّاء: معنى عرضهم عليها: إبرازها لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾؛ أي: أبرزناها، حتى نظر الكفار إليها، فالمعروض عليه، يجب أن يكون من أهل الشعور، والنار ليست منه، فلا بدَّ أن يحمل العرض على التعذيب مجازاً بطريق التعبير عن الشيء باسم ما يؤدّي إليه، كما يقال: عرض بنو فلان على السيف، فقتلوا به، أو يكون باقياً على أصل معناه، ويكون الكلام محمولاً على القلب. والأصل: ويوم تعرض النار على الذين كفروا؛ أي: تظهر وتبرز عليهم، والنكتة في اعتبار القلب: المبالغة بادّعاء أنَّ النار ذات تمييزٍ، وقهرٍ وغلبةٍ.

ومنها: الإيجاز بالحذف مع التوبيخ والتقريع في قوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: يقال لهم: أذهبتم.

ومنها: إضافة الرب إلى الريح في قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ مع أنه تعالى ربّ كل شيء؛ لتعظيم شأن المضاف إليه، وللإشارة إلى أنّها في حركتها مأمورةٌ، وأنها من أكابر جنود الله تعالى.

ومنها: إضافة الموصوف إلى صفته في قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾.

ومنها: الإطناب بتكرار اللفظ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾

ثم قال: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾؛ لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها(١): أنّ الله سبحانه لمّا بيَّن أنَّ الإنس مؤمن وكافر، وذكر أن الجنّ فيهم مؤمن وكافر، وكان ذلك بأثر قصة هود وقومه، لما كان عليه قومه من الشدّة والقوّة، والجنّ توصف أيضاً بذلك، كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾، وأنَّ ما أهلك به قوم هود هو الريح، وهو من العالم الذي لا يشاهد، وإنما يحس بهبوبه، والجن أيضاً من العالم الذي لا يشاهد، وإنّ هوداً عليه السلام كان من العرب، ورسول الله ﷺ من العرب.. فهذه تجوز أن تكون مناسبةً لهذه الآية بما قبلها، وفيها أيضاً توبيخ لقريش، وكفّار العرب، حيث أنزل عليهم هذا الكتاب المعجز، فكفروا به وهم من أهل اللسان الذي أنزل به القرآن، وآمنوا به، وبمن أنزل عليه، وعلموا أنّه من عند الله، بخلاف قريش وأمثالها، فهم مصرّون على الكفر به، ذكره أبو حيّان.

(١) البحر المحيط.

وعبارة المراغي هنا: مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر أنّ في الإنس من آمن، ومنه من كفر.. أعقب هذا ببيان أنّ الجنّ كذلك، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وأنّ مؤمنهم معرّض للثواب، وكافرهم معرّض للعقاب، وأنّ الرسول ﷺ كما أرسل إلى الإنس أرسل إلى الجنّ.

واعلم[1]: أنّ عالم الملائكة وعالم الجنّ لا يقوم عليهما دليل من العقل، فهما بمعزل عن ذلك، وإنّما دليلهما السمع وإخبار الأنبياء بذلك فقط، فعلينا أنّ نؤمن بما جاء به فحسب، ولا نزيد على ذلك شيئاً، ولا نتوسّع في بحثه وتأويله وتفصيله، فإنّ ذلك من عالم الغيب، لم نؤت من علمه كثيراً ولا قليلاً، فعلينا أن نؤمن بأنّ اتصالاً قد تمّ بين النبيّ ﷺ وعالم الملائكة، وبه تلقىٰ الوحي على أيديهم، وأنّه اتصل بعالم الجنّ، فعلمهم وبشرهم وأنذرهم، ولكنّا لا ندري كيف كان الاتصال؟ ولا كيف تلقّوا عنه القرآن؟. ولعلّ تقدم العلوم في مستأنف الأيّام يلقي علينا ضوءاً من هذه المعرفة، أو لعل قراءة علم الروح والتوسع في دراسته بيَّن لنا بعض السرّ في ذلك، ففي هذه الدراسة معرفة شيء من أحوالنا في الحياة الأخرى بعد هذه الحياة، وسيأتي تفصيل لهذا القصص في سورة الجنّ.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر في أول السورة[2] ما يدلّ على وجود الإله القادر الحكيم، وأبطل قول عبدة الأصنام، ثمّ ثنّىٰ بإثبات النبوة، وذكر شبهاتهم في الطعن فيها، وأجاب عنها.. أردف ذلك بإثبات البعث، وأقام الدليل عليه، فذكر أنّ من خلق السموات والأرض على عظمهنّ، فهو قادر على أن يحيي الموتى، ثمّ أعقب هذا بما يجري مجرى العظة والنصيحة لرسوله ﷺ بالصبر على أذى قومه، كما صبر من قبله أولوا العزم من الرسل، وبعدم استعجال العذاب لهم، فإنّه نازل بهم لا محالة وإن تأخّر، وحين نزوله بهم سيستقصرون مدّة لبثهم في الدنيا، حتى يحسبونها ساعة من نهار لهول ما عاينوا.

ثم ختم السورة بأنّ في هذه العظات كفاية أيّما كفايةٍ، وما يهلك إلا من

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

خرج عن طاعة ربّه، ولم ينقد لأمره ونهيه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ سبب[1] نزولها: ما أخرجه الحاكم بسنده عن زرّ بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبيّ ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلمّا سمعوه.. أنصتوا، قالوا: صه، وكانوا تسعة، أحدهم: زوبعة، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟...﴾ الآية، إلى ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وأقرّه الذهبيّ، وأخرجه الحافظ البيهقي من طريق الحاكم بهذا السند في «دلائل النبوّة» (ج ٢/ ص: ١٣).

التفسير وأوجه القراءة

ولمَّا بيَّن سبحانه أنّ في الإنس من آمن، وفيهم من كفر.. بيّن أيضاً أنّ في الجنّ كذلك، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ والعامل في الظرف محذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ صرفنا ووجّهنا، وأملنا إليك نفراً وجماعة من الجنّ، وأقبلنا بهم نحوك.

وقرىء ﴿صرَّفْنَا﴾ بتشديد الراء؛ لأنّهم كانوا جماعة، فالتكثير بحسب الحال. ذكره في «البحر». والنفر: دون العشرة، وجمعه أنفار. قال الراغب: النفر: عدة رجال يمكنهم النفر إلى الحرب ونحوها.

واعلم[2]: أنَّ الجن بعض الروحانيين، وذلك أنَّ الروحانيين ثلاثة أجناس: أخيار وهم الملائكة، وأشرار وهم الشياطين، وأوساط فيهم أخيار وأشرار، وهم الجنّ.

قال سعيد بن المسيّب: الملائكة ليسوا بذكور ولا إناث، ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون، والشياطين ذكور وإناث، يتوالدون ولا يموتون، بل يُخَلَّدون

---

(١) المسند الصحيح.
(٢) روح البيان.

في الدنيا، كما خلد إبليس، والجن يتوالدون، وفيهم ذكور وإناث، ويموتون.

يقول الفقير: يؤيّده: ما ثبت أنَّ في الجنّ مذاهب مختلفة كالإنس، حتى الرافضي ونحوه، وإنّ بينهم حروباً وقتالاً، ولكن يشكل قولهم: إبليس هو أبو الجنّ، فإنه يقتضي أن لا يكون بينهم وبين الشياطين فرق، إلا بالإيمان والكفر فاعرف.

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ حال مقدرة من ﴿نَفَرًا﴾ لتخصيصه بالصفة، أو صفة أخرى له، ونقل بعضهم: إنّ أولئك الجنّ كانوا يهوداً فأسلموا.

أي: واذكر يا محمد لقومك وقت صرفنا إليك نفراً كائناً من الجنّ، مقدَّرا استماعهم القرآن، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾؛ أي: حضروا القرآن عند تلاوته، وقيل: حضروا النبي ﷺ، ويكون في الكلام التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة، والأوَّل أولى.

﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُواْ﴾؛ أي: اسكتوا لنسمعه، وفيه إشارة إلى أنّ من شأنهم فضول الكلام واللغط كالإنس، ورمز إلى الحرص المقبول. قال بعض العارفين: هيبة الخطاب، وحشمة المشاهدة، حبست ألسنتهم، فإنّه ليس في مقام الحضرة إلاّ الخمول والذبول؛ أي: أمر بعضهم بعضاً بالإنصات لأجل أن يسمعوا.

﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ القرآن؛ أي: فرغ من تلاوته ﴿وَلَّوْاْ﴾؛ أي: انصرفوا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ ورجعوا إليهم، حال كونهم ﴿مُّنذِرِينَ﴾ لهم؛ أي: مقدرين إنذارهم عند رجوعهم إليهم؛ يعني: آمنوا به، وأجابوا إلى ما سمعوا، ورجعوا إلى قومهم منذرين؛ أي: مخوّفين لهم من عقاب الله إن خالفوه؛ أي: انصرفوا وتفرقوا في البلاد، قاصدين إلى من ورائهم من قومهم، منذرين لهم عن مخالفة القرآن، ومحذّرين لهم، ولا يلزم من رجوعهم بهذه الصفة أن يكونوا رسل رسول الله ﷺ، إذ يجوز أن يكون الرجل نذيراً ولا يكون نبياً أو رسولاً من جانب أحد، فالنذارة في الجنّ من غير نبوّة، وفي «الخطيب»: رجعوا إلى قومهم منذرين بأمر رسول الله ﷺ، فجعلهم رسلاً إلى قومهم. اهـ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ مبنياً للمفعول، وأبو مجلز وخبيب بن عبد الله بن الزبير: ﴿قَضَى﴾ مبنياً للفاعل؛ أي: قضى محمد ما قرأ؛ أي: أتمّه وفرغ منه.

وقال ابن عمرو وجابر بن عبد الله: قرأ عليهم سورة الرحمن، فكان إذا قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.. قالوا: لا شيء من آيات ربّنا نكذّب، ربنا لك الحمد.

ومعنى الآية[2]: أي واذكر يا محمد لقومك موبّخاً لهم على كفرهم بما آمنت به الجنّ، لعلّهم يتنبهون لجهلهم، ويرعوون عن غيّهم وقبيح ما هم فيه من كفر بالقرآن، وإعراض عنه، مع أنهم أهل اللسان الذي به نزل، ومن جنس الرسول الذي جاء به، وأولئك استمعوه، وعلموا أنه من عند الله، وآمنوا به، وليسوا من أهل لسانه، ولا من جنس رسوله في ذلك الوقت الذي وجه الله إليه جماعةً من الجنّ ليستمعوا القرآن، ويتعظوا بما فيه من عبر وعظات، فلمَّا حضروا الرسول.. قال بعضهم لبعض: أنصتوا مستمعين، فلمّا فرغ من تلاوته.. رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه.

وذكر الوقت[3] ذكر لما فيه من الأحداث التي يراد إخبار السامع بها، لما لها من خطر جليل، وشأن عظيم، فيراد علمه بها، ليكون لها في نفسه الأثر الذي يقصد منها من ترغيب أو ترهيب، ومسرّة أو حزن إلى نحو أولئك من أغراض الكلام ومقاصده.

قال العلماء[4]: إنّه ﷺ بعث إلى الجن قطعاً، وهم مكلّفون، وفيهم العصاة والطائعون، وقد أعلمنا الله أنّ نفراً من الجنّ رأوه عليه الصلاة والسلام، وآمنوا وسمعوا القرآن، فهم صحابة فضلاء من حيث رؤيتهم وصحبتهم، وحينئذٍ يتعيّن ذكر من عرف منهم في الصحابة رضي الله عنهم كذا في «شرح النخبة» لعليّ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

القاري. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أولئك تسعة: سليط، شاصر، ماصر، حاصر، حسا، مسا، عليم، أرقم، أدرس. قيل: ومنهم زوبعة. قال في «القاموس»: الزوبعة بفتح الزاي المعجمة والباء الموحدة: اسم شيطان، أو رئيس الجنّ، فتكون الأسماء عشرة.

تنبيه[1]: ذكروا في سبب هذه الواقعة قولين:

أحدهما: أنّ الجنّ كانت تسترق السمع، فلمّا رجموا من السماء حين بعث النبيّ ﷺ.. قالوا: ما هذا إلاّ لشيء أحدث في الأرض، فذهبوا فيها يطلبون، وكان قد اتفق أنَّ النبي ﷺ في السنة الحادية عشرة من النبوّة، لمّا أيس من أهل مكة.. خرج إلى الطائف يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فانصرف راجعاً إلى مكة، فقام ببطن نخلة يقرأ القرآن، فمرّ به نفر من جنّ نصيبين، كان إبليس قد بعثهم يطلبون السبب الذي أوجب حراسة السماء بالرجم بالشهب، فسمعوا القرآن، فعرفوا أنّ ذلك هو السبب.

والقول الثاني: أنّ الله أمر رسوله أن ينذر الجنّ، ويدعوهم إلى الله، ويقرأ عليهم القرآن، فصرف الله إليه نفراً منهم يستمعون القرآن، وينذرون قومهم، وذلك لأنّ الجنّ مكلّفون، لهم الثواب، وعليهم العقاب، ويدخلون الجنة، ويأكلون فيها، ويشربون كالإنس، فانتهض النبيُّ ﷺ ذات ليلة، وقال: «إنّي أمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة القرآن، فأيكم يتبعني» فأطرقوا، فتبعه عبد الله بن مسعود، قال عبد الله بن مسعود: ولم يحضر معه أحد غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة.. دخل النبيّ ﷺ شعباً يقال له: شعب الحجون، وخط لي خطّا، وأمرني أن أجلس فيه، وقال لي: لا تخرج حتى أعود إليك، فانطلق حتى وصل إليهم، فافتتح القرآن، فجعلت أرى أمثال النسور تهوي، وسمعت لغطاً شديداً، حتى خفت على نبيّ الله، وغشيته أسودة كثيرة، حالت بيني وبينه، حتى لم أسمع صوته، ثمّ طفقوا يتقطّعون مثل قطع السحاب ذاهبين، ففرغ النبيّ منهم مع الفجر،

---

(١) الفتوحات.

فانطلق إليّ، فقال لي: «قد نمت»، فقلت: لا والله، ولكنّي هممت أن آتي إليك لخوفي عليك، فقال ﷺ لي: «لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم، فأولئك جنّ نصيبين»: بلدة قاعدة ديار ربيعة أو مدينة بالشام أو باليمن. فقلت: يا رسول الله، سمعت لغطاً شديداً، فقال: «إنّ الجنّ اختصموا في قتيل قتل بينهم، فتحاكموا إليّ فقضيت بينهم بالحقّ». وكانت عدة هؤلاء الجن اثني عشر ألفاً.

وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما عن مسروق قال: سألت ابن مسعود من آذن النبي ﷺ بالجنّ ليلة استمعوا القرآن؟. قال: آذنته بهم الشجرة.

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي عن علقمة قال: قلت لابن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ منكم أحد ليلة الجنّ؟. قال: ما صحبه منّا أحد، ولكنّا فقدناه ذات ليلة، فقلنا: اغتيل، استطير، ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلمّا كان في وجه الصبح.. إذا نحن به يجيء من قبل حراء، فأخبرناه، فقال: إنّه أتاني داعي الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن، فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وقد وردت أحاديث كثيرة أنّ الجنّ بعد هذا وفدت على رسول الله ﷺ مرةً بعد مرةً، وأخذت عنه الشرائع والأحكام الدينية.

ثمّ فصّل ما قالوه لهم في إنذارهم، فقال: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال أولئك النفر الجنّيون عند رجوعهم إلى قومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ فيه إطلاق الكتاب على بعض أجزائه، إذ لم يكن القرآن كلّه منزلاً حينئذٍ. ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ﴾ كتاب ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام، وفي الكلام[1] حذف، والتقدير: فوصلوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إلخ. قيل: ذكروا موسى، لأنّهم كانوا على اليهودية وأسلموا. قال[2] سعدي المفتي في «حواشيه»: قلت: الظاهر أنّه مثل قول ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، فقد قالوا في وجهه وعلّته: إنه ذكر موسى مع أنه كان نصرانياً، تحقيقاً للرسالة؛ لأنّ نزوله على موسى متفق عليه بين اليهود والنصارى، بخلاف عيسى، فإن اليهود ينكرون نبوّته، أو لأنّ النصارى

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

يتبعون أحكام التوراة، ويرجعون إليها، وهذان الوجهان متأتّيان هنا أيضاً.

يقول الفقير: قد صحّ أنّ التوراة أوّل كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع، بخلاف ما قبله من الكتب، فإنها لم تشتمل على ذلك، إنما كانت مشتملة على الإيمان بالله وتوحيده، ومن ثم قيل لها: صحف، وإطلاق الكتب عليها مجاز، كما صرَّح به في «السيرة الحلبية». فلمّا كان القرآن مشتملاً على الأحكام والشرائع أيضاً.. صارت الكتب الإلهية كلها في حكم كتابين: التوراة والقرآن، فلذا خصَّصوا موسى بالذكر، وفيه بيان لشرف الكتابين وجلالتهما.

حالة كون ذلك الكتاب ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: موافقاً لما قبله من التوراة والكتب الإلهية في الدعوة إلى التوحيد والتصديق، وحقّية أمر النبوّة والمعاد وتطهير الأخلاق، فهو حال من ﴿كِتَٰبًا﴾ لتخصُّصه بالصفة، أو صفة ثانية له. ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ والصواب من العقائد الصحيحة ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: موصل إليه، لا عوج فيه، وهو الشرائع، والأعمال الصالحة، قال ابن عطاء: يهدي إلى الحق في الباطن، وإلى طريق مستقيم في الظاهر، وجملة ﴿يَهْدِىٓ﴾: إما حال ثانية، أو صفة ثالثة لـ ﴿كِتَٰبًا﴾.

والمعنى(١): أي قالوا: يا قومنا من الجنّ إنّا سمعنا كتاباً أنزله الله من بعد توراة موسى، يصدِّق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله، ويرشد إلى سبيل الحقّ، وإلى ما فيه لله رضاً، وإلى الطريق الذي لا عوج فيه، وخصوا التوراة؛ لأنّه متفق عليه عند أهل الكتابين، كما مرّ آنفاً. وقال عطاء: لأنهم كانوا على اليهوديّة، وهذا يحتاج إلى نقل صحيح. قيل: وأسلم(٢) من قومهم حين رجعوا إليهم وأنذروهم سبعون. اهـ «خطيب». وقالوا: إنّ الجنّ لهم مللٌ مثل الإنس، ففيهم اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأصنام، وفي مسلميهم مبتدعة، ومن يقول بالقدر، وخلق القرآن، ونحو ذلك من المذاهب والبدع، وروي: أنهم ثلاثة أصناف:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

صنف: لهم أجنحة يطيرون بها.

وصنف: على صورة الحيات والكلاب.

وصنف: يحلون ويظعنون.

واختلف العلماء في مؤمني الجنّ، فقال قوم: ليس لهم ثواب إلاّ النجاة من النار، وعليه أبو حنيفة. وحكي عن الليث وبعد نجاتهم من النار يقال لهم: كونوا تراباً مثل البهائم، وقال آخرون: لهم الثواب على الإحسان، كما عليهم العقاب على الإساءة، وهذا هو الصحيح، وعليه ابن عباس والأئمّة الثلاثة، فيدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، وقال عمر بن عبد العزيز: إنّهم حول الجنة في ربضٍ ورحابٍ، وليسوا فيها. اهـ «خازن».

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ يعني: محمداً ﷺ، لأنّه لا يوصف بهذا غيره، أو أرادوا ما سمعوه من الكتاب، فإنّه كما أنه هاد، كذلك هو داع إلى الله تعالى، وفي الآية دليل على أنّه مبعوث إلى الإنس والجنّ جميعاً، قال مقاتل: لم يبعث الله تعالى نبيًّا إلى الإنس والجنّ قبله ﷺ. ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ تعالى.

فإن قلت[1]: قوله: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ أمر بإجابته في كل ما أمر به، فيدخل فيه الأمر بالإيمان، فلم أعاد ذكره بلفظ التعيين؟

قلت: إنّما أعاده؛ لأنّ الإيمان أهمّ أنواع المأمور به وأشرفها، فلذلك ذكره على التعيين، فهو من باب ذكر العام، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه كقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؛ أي:[2] بعض ذنوبكم، وهو ما كان في خالص حقّ الله تعالى، وحقّ الحربيّ، فإنَّ حقوق العباد غير الحربيين لا تغفر بالإيمان، بل برضىٰ أربابها؛ يعني: إذا أسلم الذميُّ لا يغفر عنه

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

حقوق العباد بإسلامه، وكذا لا تغفر عن الحربي إذا كان الحقّ ماليًّا، قالوا: ظلامة الكافر وخصومة الدابة أشدُّ؛ لأنّ المسلم إمّا أن يحمل عليه ذنب خصمه بقدر حقّه، أو يأخذ من حسناته، والكافر لا يأخذ من الحسنات، ولا ذنب للدابّة، ولا يؤهل لأخذ الحسنات، فتعيَّن العقاب. وقيل: ﴿من﴾: زائدة؛ لأنّ الإسلام يجب ما قبله، فلا يبقى معه تبعة، وقيل: إنّ ﴿من﴾[1] لابتداء الغاية.

والمعنى: أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب، ثمّ ينتهي إلى غفران ترك ما هو الأولى.

﴿وَيُجِرْكُم﴾؛ أي: ينجيكم ويؤمنكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: شديد معدٌّ للكفرة، وهو عذاب النار، قال ابن عباس: فاستجاب لهم من قومهم نحو: سبعين رجلاً من الجنّ، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ، فوافوه بالبطحاء، فقرأ عليهم القرآن، وأمرهم ونهاهم.

والمعنى: أي[2] يا قومنا أجيبوا رسول الله محمداً ﷺ إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله، وصدِّقوه فيما جاء به من أمر الله ونهيه، يغفر لكم بعض ذنوبكم، ويسترها لكم، ولا يفضحكم بها في الآخرة بعقوبته لكم عليها، وينقذكم من عذاب موجع إذا أنتم تبتم من ذنوبكم، وأنبتم إلى ربّكم، وأخلصتم له العبادة، وفي الآية إيماء إلى أنّ حكم الجنّ حكم الإنس في الثواب والعقاب، والتعبّد بالأوامر والنواهي، وقال الحسن[3]: ليس لمؤمني الجنّ ثواب غير نجاتهم من النار، وبه قال أبو حنيفة، والأوّل أولى وبه قال مالك والشافعيّ، وابن أبي ليلى، فقد قال الله تعالى في مخاطبة الجنّ والإنس: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾، فامتَّن سبحانه على الثقلين، بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، ولا ينافيه الاقتصار ههنا على ذكر إجارتهم من عذاب أليم، ومما يؤيد هذا: أنّ الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل، فكيف لا

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

يجازي محسنهم بالجنة وهو مقام فضل؟ ومما يؤيّد هذا أيضاً: ما في القرآن في غير موضع، أنّ جزاء المؤمنين الجنّة، وجزاء من عمل صالحاً الجنة، وجزاء من قال: لا إله إلا الله الجنّة، وغير ذلك مما هو كثير في الكتاب والسنة.

وقد اختلف أهل العلم: هل أرسل الله سبحانه إلى الجنّ رسلاً منهم أم لا؟.

وظاهر الآيات القرآنية أنَّ الرسل من الإنس فقط، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ وقال سبحانه في إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾. فكل نبيّ بعثه الله بعد إبراهيم فهو من ذريّته، وأمّا قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ فقيل: المراد من مجموع الجنسين، وصدق على أحدهما وهم الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: من أحدهما.

ثم حذروا قومهم، وتوعَّدوهم، وأوجبوا إجابتهم داعي الله بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب، فقالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن لم يجب رسول الله محمداً ﷺ إلى ما دعا إليه من التوحيد، والعمل بطاعته، فـ ﴿مَن﴾: شرطيَّة. و﴿لَّا﴾: نافية، ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾ ربَّه بهرب ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلا يفوت ربّه، ولا يسبقه هرباً إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه، وإن هرب كل مهرب من أقطارها، أو دخل في أعماقها ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك المنكر ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَوْلِيَآءُ﴾؛ أي: أنصار ينصرونه، ويدفعون عنه عذابه، وهذا[1] بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير إثر بيان استحالة نجاته بنفسه، وجمع الأولياء باعتبار معنى ﴿مَن﴾ فيكون من باب مقابلة الجمع بالجمع، لانقسام الآحاد إلى الآحاد.

ثمّ بيَّن أنّ من فعل ذلك.. فقد بلغ الغاية في الضلال، والبعد عن الصراط

---

(١) روح البيان.

المستقيم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بعدم إجابة الداعي ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: ظاهر كونه ضلالاً، بحيث لا يخفى على أحد، حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه؛ أي:[1] وأولئك الذين يفعلون ذلك الإعراض، يكونون في ضلال بيّن، وجورٍ عن قصد السبيل، لأنّ طريق الحقّ واضحة، وأعلامه منصوبة، والوصول إليه ميسور، فمن جانفه وأعرض عنه.. فقد أجرم واستحقّ الجزاء الذي هو له أهلٌ.

ثم ذكر سبحانه دليلاً على البعث، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ﴿الهمزة﴾[2] فيه: للاستفهام الإنكاري، داخلة على مقدر يستدعيه المقام، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المقدّر، والرؤية هنا: هي القلبية التي بمعنى العلم؛ أي: ألم يتفكروا، ولم يعلموا علماً جازماً في حكم المشاهدة والعيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ابتداءً من غير مثال؛ أي: خلق هذه الأجرام العظام. ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾؛ أي: لم يتعب، ولم ينصب بذلك أصلاً، أو لم يعجز عنه.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَلَمْ يَعْىَ﴾ بسكون العين وفتح الياء، مضارع عيي على وزن فعل بكسر العين، وقرأ الحسن: بكسر العين وسكون الياء، ووجهه: أنّه فتح في الماضي عين الكلمة، كما قالوا في بقي بقا. وهي لغة لطيءٍ، ولمّا بني الماضي على فعل بفتح العين.. بني مضارعه على يفعل بكسر العين، فجاء يعيي، فلمّا دخل الجازم.. حذف الياء، فبقي يعي بنقل حركة الياء إلى العين، فسكنت الياء وبقي يعي.

﴿بِقَٰدِرٍ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾ ووجه[4] دخول الباء: اشتمال النفي الوارد في صدر الآية على ﴿أَنَّ﴾ وما في حيّزها، كأنّه قيل: أو ليس الله بقادر ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ولذا أجيب عنه بقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقريرٌ للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود؛ يعني: أن الله تعالى إذا كان قادراً على

---

(1) المراغي.

(2) روح البيان.

(3) البحر المحيط.

(4) روح البيان.

كل شيء.. كان قادراً على إحياء الموتى لأنّه من جملة الأشياء، وقدرته تعالى لا تختص بمقدور دون مقدور، فـ ﴿بلىٰ﴾: يختص بالنفي، ويفيد إبطاله على ما هو المشهور، وإن حكى الرضي عن بعضهم: أنه جاز استعمالها في الإيجاب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ اسم فاعل، و﴿الباء﴾: زائدة في خبر ﴿أَنَّ﴾ وحسّن زيادتها كون ما قبلها في حيز النفي، وقرأ الجحدريّ وزيد بن عليّ وعمرو بن عبيد وعيسى والأعرج: بخلاف عنه، ويعقوب: ﴿يَقْدِرُ﴾ مضارعاً، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى، واختار أبو حاتم القراءة الثانية، قال: لأنّ دخول الباء في حيّز أنّ قبيح.

والمعنى[2]: أي أو لم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم، وبعثه إيّاهم من قبورهم بعد بلاهم، فيعلموا أنّ الذي خلق السموات السبع والأرض، فابتدعهنّ من غير شيء، ولم يعي في إنشائهنّ، بقادر على أن يحيي الموتى، فيخرجهم من بعد بلاهم في قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم، ونحو الآية قوله عزّ وجل: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والخلاصة: أنّ من قال للسموات والأرض: كُوني فكانت، لا ممانعةً، ولا مخالفةً، طائعةً خائفةً وجلةً، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ ثمّ أجاب عن ذلك الاستفهام مقرّراً للقدرة على وجه عام، فقال: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ﴾ إلخ؛ أي: بلى إنّ الذي خلق ذلك ذو قدرة على كل شيء أراد خلقه، ولا يعجزه شيء أراد فعله، وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال لوضوح الجواب، إذ لا يختلف فيه أحد، ولا يعارض فيه ذو لبٍّ.

ولما أثبت البعث بما أقام من الأدلة.. ذكر ما يحدث حينئذٍ من الأهوال، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: يعذّبون بها كما سبق في هذه السورة، والظرف: متعلق بقول محذوف، تقديره: يقال لهم: يومئذٍ على سبيل

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

التوبيخ والتأنيب: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ العذاب الذي ترونه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: حقًّا، وكنتم تكذّبون به، وفيه تهكّم بهم، وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله، ووعيده، وقولهم: وما نحن بمعذّبين، وفي الاكتفاء[1] بمجرّد الإشارة من التهويل للمشار إليه، والتفخيم لشأنه ما لا يخفى، كأنّه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدلّ عليه ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾؛ أي: إنّه الحقّ ﴿وَرَبِّنَا﴾؛ أي: أقسمنا بربّنا ومالك أمرنا على حقّيته، أكدوا جوابهم بالقسم؛ لأنّهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقّيته الآن كما في الدنيا، وأنّى لهم ذلك.

والمعنى[2]: أي ويوم يعرض هؤلاء المكذّبون بالبعث، وبثواب الله لعباده على أعمالهم الصالحة، وعقابه إيّاهم على أعمالهم السيئة على نار جهنم، يقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ: أليس هذا العذاب الذي تُعَذَّبونه اليوم، وقد كنتم تكذّبون به في الدنيا بالحقّ الذي لا شكّ فيه؟ قالوا من فورهم: بلى وربّنا إنه لحق.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى أو خازن النار: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: أحسوا به إحساس الذائق المطعوم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ به في الدنيا. و﴿الباء﴾: للسببية، ومعنى الأمر: الإهانة بهم، والتوبيخ لهم على ما كان منهم في الدنيا، من الكفر والإنكار لوعد الله ووعيده، قال ابن الشيخ: الظاهر: أنّ صيغة الأمر لا مدخل لها في التوبيخ، وإنما هو مستفاد من قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: قال آمراً لهم على طريق الإهانة والتوبيخ: ذوقوا عذاب النار الآن، جزاء جحودكم به في الدنيا، وإبائكم الاعتراف به، إذا دعيتم للتصديق به.

ولمّا قرّر التوحيد والنبوّة والبعث، وأجاب عن شبهاتهم.. أردف ذلك بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لنبيّه، لأنّ الكفّار كانوا يؤذونه، ويوغرون صدره، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ و﴿الفاء﴾ فيه: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت عاقبة الكفرة، وأنه لم ينجح فيهم الإنذار، وأردت بيان

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

ما هو الأصلح والنصيحة لك.. فأقول لك: اصبر أيّها الرسول على ما أصابك في الله من أذى مكذّبيك من قومك، الذين أرسلناك إليهم منذراً.

﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾؛ أي: أصحاب الحزم والثبات ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته، فإنك منهم.

والخلاصة: اصبر على الدعوة إلى الحق، ومكابدة الشدائد، كما صبر إخوانك الرسل من قبلك، قيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: محكمة، والأظهر: أنها منسوخة؛ لأنّ السورة مكيّة.

والمعنى: أي إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذكر.. فاصبر على ما يصيبك من جهتهم، كما صبر أولوا الثبات والحزم من الرسل، فإنك من جملتهم، بل من أفضلهم، و﴿مِنَ﴾: للتبيين، فيكون الرسل كلهم أولي عزم وجدٍّ في أمر الله. قال في «التكملة»:[1] وهذا لا يصحّ لإبطال معنى تخصص الآية، وقيل: ﴿مِنَ﴾: للتبعيض على أنهم أولوا عزم، وغير أولي عزم، والمراد بأولي العزم: أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها، وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاغين فيها، ومشاهيرهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمَّد عليهم السلام، وقد نظمهم بعضهم بقوله:

أُوْلُوْا ٱلْعَزْمِ: نُوحٌ وَٱلْخَلِيْلُ ٱلْمُمَجَّدُ ... مُوْسَىٰ وَعِيْسَىٰ وَٱلْحَبِيْبُ مُحَمَّدُ

قال في «الأسئلة المقحمة»: هذا القول هو الصحيح، وقيل هم الصابرون على بلاء الله: كنوح، صبر على أذيّة قومه، كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم صبر على النار، وعلى ذبح ولده، والذبيح صبر على الذبح، ويعقوب على فقد الولد، ويوسف على الجب والسجن، وأيوب على الضرّ، وموسى قال قومه: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ ويونس على بطن الحوت، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة، وقال: إنها معبرة فاعبروها، ولا تعمروها،

---

(١) روح البيان.

صلوات الله عليهم أجمعين، وقيل: غير ذلك من الأقوال المتلاطمة مما لا طائل تحتها.

ولمّا أمره بالصبر، وهو أعلى الفضائل.. نهاه عن العجلة، وهو أخس الرذائل، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾؛ أي: لأجلهم، فـ ﴿اللام﴾ للتعليل والمفعول: محذوف؛ أي: لا تستعجل العذاب يا محمد لكفّار مكة؛ أي: ولا تطلب من ربّك عجلة العذاب لهم، فإنه نازل بهم لا محالة، ومهلهم ليستعدوا بالتمتعات الحيوانية للعذاب العظيم، فإنّي أمهلهم رويداً، كأنَّه ضجر بعض الضجر، فأحب أن ينزل العذاب بمن أبى منهم، فأمر بالصبر، وترك الاستعجال، ونحو الآية لقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾، وقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾.

ثم أخبر بأنَّ العذاب إذا نزل بالكافرين.. استقصروا مدّة لبثهم في الدنيا، حتى يحسبونها ساعةً من نهار، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾؛ أي: لم يمكثوا في الدنيا، والتمتّع بنعيمها ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ يسيرةً وزماناً قليلاً ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾ لما يشاهدون من شدّة العذاب، وطول مدّته؛ يعني[1]: أنَّ هول ما ينزل بهم ينسيهم مدّة اللبث، وأيضاً إنَّ ما مضى، وإن كان دهراً طويلاً، لكنّه يظن زماناً قليلاً، بل يكون كأن لم يكن، فغاية التنعم الجسماني هو العذاب الروحانيّ كما في البرزخ، والعذاب الجسمانيّ أيضاً كما في يوم القيامة.

والمعنى: أي كأنّهم حين يرون عذاب الله الذي أوعدهم بأنّه نازل بهم، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار؛ لأنّ شدّة ما ينزل بهم منه ينسيهم قدر ما مكثوا في الدنيا من السنين والأعوام، فيظنّونها ساعة من نهار، ونحو الآية قوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾﴾، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿بَلَاغٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي[2]: هذا القرآن الذي وعظتم به بلاغٌ

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وكفاية لهم في الموعظة إن فكروا واعتبروا، ودليله قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾. أو تبليغ من الرسول إليهم، فالعبد يضرب بالعصا، والحرّ يكفيه الإشارة.

ثمّ أوعد وأنذر، فقال: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾؛ أي: ما يهلك بالعذاب ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن الاتعاظ به، أو الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لأمره ونهيه، إذ لا يعذِّب إلا من يستحق العذاب، وقال بعض أهل التأويل؛ أي: الخارجون عن عزم طلبه إلى طلب ما سواه، وفي هذه الألفاظ وعيد محضٌ، وإنذارٌ بيِّن، وقال قتادة: لا يهلك على الله إلا هالك مشرك، وهذه الآية أقوى آية من الرجاء، ومن ثم قال الزجاج: تأويله: لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون، وهذا تطميع في سعة فضل الله سبحانه وتعالى.

وقرأ أبيٌّ: ﴿من النهار﴾، وقرأ الجمهور[1]: ﴿مِّن نَّهَارٍۭ﴾ وقرأ الجمهور: ﴿بَلَٰغٌ﴾ بالرفع، وقرأ الحسن وزيد بن عليّ وعيسى: ﴿بلاغاً﴾ بالنصب، فاحتمل أن يراد بلاغاً في القرآن؛ أي: بلّغوا بلاغاً، أو بلّغنا بلاغاً، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿بلاغ﴾ بالجرّ نعتاً لـ ﴿نَّهَارٍۭ﴾. وقرأ أبو مجلز وأبو سراح الهذليّ: ﴿بلِّغ﴾ على الأمر للنبيّ ﷺ، وعن أبي مجلز أيضاً: ﴿بلَّغ﴾ فعلا ماضياً، وقرأ الجمهور: ﴿يُهْلَكُ﴾ بضم الياء وفتح اللام وابن محيصن فيما حكى عنه ابن خالويه: بفتح الياء وكسر اللام، وعنه أيضاً: بفتح الياء واللام، وماضيه هلك بكسر اللام، وهي لغة، وقال أبو الفتح: هي مرغوبٌ عنها، وقرأ زيد بن ثابت: ﴿يُهلك﴾ بضم الياء وكسر اللام، ﴿إلا القوم الفاسقين﴾ بالنصب.

الإعراب

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق

(١) البحر المحيط.

بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك إذ صرفنا إليك. ﴿صَرَفْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذ﴾. ﴿نَفَرًا﴾ مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: صفة ﴿نَفَرًا﴾. ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب، صفة ثانية لـ ﴿نَفَرًا﴾ أو حال منه لتخصّصه بالصفة. ﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿حَضَرُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لمّا﴾: لا محل لها من الإعراب ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب شرط لـ ﴿لمّا﴾، وجملة ﴿لمّا﴾: معطوفة على محذوف، تقديره: إذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ فحضروه، فلمّا حضروه قالوا: أنصتوا. ﴿أَنصِتُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول لـ ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لما﴾: حرف شرط، ﴿قُضِيَ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله: ضمير مستتر، يعود على القرآن، والجملة: فعل شرط لـ﴿لمّا﴾. ﴿وَلَّوْاْ﴾: فعل ماض وفاعل، ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾: متعلق به. ﴿مُّنذِرِينَ﴾ حال من فاعل ﴿وَلَّوْاْ﴾. والجملة: جواب ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لمّا﴾: معطوفة على جملة ﴿لمّا﴾ الأولى. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب لـ ﴿لمّا﴾ المحذوفة، تقديره: فلمّا رجعوا إلى قومهم.. قالوا: يا قومنا إلخ. ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾: منادى مضاف، والجملة: في محلّ النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿كِتَٰبًا﴾. والجملة: صفةٌ أولى لـ ﴿كِتَٰبًا﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾: متعلق بـ ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مُصَدِّقًا﴾: صفة ثانية لـ ﴿كِتَٰبًا﴾ أو حال منه

لتخصصه بالصفة. ﴿لِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿مُصَدِّقًا﴾ ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوفٍ صلةٍ لـ ﴿ما﴾، ﴿يَهْدِيٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود على ﴿كِتَٰبًا﴾. والجملة: نعت ثالث لـ ﴿كِتَٰبًا﴾ أو حال منه. ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: متعلق بـ ﴿يَهْدِى﴾. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ﴾: معطوف على ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ صفة ﴿طَرِيقٍ﴾. ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾: منادى مضاف، والجملة: مقول لـ ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿أَجِيبُوا۟﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، والواو فاعل. ﴿دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به، والجملة: في محل النصب، مقول لـ ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿وَءَامِنُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أَجِيبُوا۟﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿يَغْفِرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله: ضمير يعود على الله. ﴿لَكُم﴾. متعلق بـ ﴿يَغْفِرْ﴾. ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿يَغْفِرْ﴾ أيضاً. و﴿مِن﴾: تبعيضية. ﴿وَيُجِرْكُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿يَغْفِرْ﴾، ﴿مِّنْ عَذَابٍ﴾: متعلق بـ ﴿يجر﴾ ﴿أَلِيمٍ﴾: صفة ﴿عَذَابٍ﴾.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يُجِبْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به. ﴿فَلَيْسَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً، لكون الجواب جملة جامديّة. ﴿ليس﴾: فعل ناقص، في محلّ الجزم بـ ﴿مَن﴾ على كونه جواباً لها، واسمها: ضمير مستتر يعود على ﴿مَن﴾. ﴿بِمُعْجِزٍ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة، ﴿معجز﴾: خبر ﴿ليس﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ ﴿معجز﴾. وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لـ ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿وَلَيْسَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ليس﴾: فعل ناقص. ﴿لَهُۥ﴾: خبرها مقدم. ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: حال من ﴿أَوْلِيَآءُ﴾، ﴿أَوْلِيَآءُ﴾: اسمها مؤخر، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ليس﴾ الأولى. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ خبر. ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾، والجملة: في محل النصب، مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف معلوم من المقام، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم يتفكروا ولم يروا، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَرَوْا﴾ فعل مضارع وفاعل مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾، والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للجلالة. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَلَمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَعْىَ﴾: فعل مضارع، مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلّة، وهي الألف، وفاعله: ضمير يعود على الموصول، والجملة: معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾، ﴿بِخَلْقِهِنَّ﴾: متعلق بـ ﴿يَعْىَ﴾، ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة في خبر ليس ﴿قادر﴾ خبرها. وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها: في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿يَرَوْا﴾. ﴿عَلَىٰٓ﴾ حرف جرّ، ﴿أن﴾: حرف مصدر ونصب. ﴿يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾؛ أي: على إحيائه الموتى، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿قادر﴾. ﴿بَلَىٰٓ﴾: حرف جواب لإبطال النفي، فهي تبطل النفي، وتقرّر نقيضه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾. متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ و﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: جملة جوابيّة، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿يوم﴾: ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: ويقال لهم. والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿يُعْرَضُ﴾: فعل مضارع، مغير الصيغة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: نائب فاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يوم﴾، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ ﴿يُعْرَضُ﴾ ﴿أَلَيْسَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري. ﴿ليس﴾: فعل ناقص. ﴿هَٰذَا﴾: اسمها. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: خبرها،

و﴿الباء﴾: زائدة، والجملة: في محل النصب، مقول للقول المحذوف. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب قائم مقام الجواب، تقديره: بلى هو الحق، وجملة الجواب، في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿وَرَبِّنَا﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿ربنا﴾: مقسم به، مجرور بواو القسم، الجار والمجرور: متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: نقسم بربّنا، وجملة القسم: في محل النصب، مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، يعود على الله أو على خازن النار، والجملة: مستأنفة. ﴿فَذُوقُوا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا اعترفتم بحقّية هذا العذاب، وأردتم بيان ما هو المستحق لكم.. فأقول لكم: ﴿ذوقوا﴾. ﴿ذوقوا﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿الْعَذَابَ﴾: مفعول به. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلّق بـ ﴿ذوقوا﴾. والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، في محل النصب، مقول قال. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَكْفُرُونَ﴾: خبر، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿الباء﴾؛ أي: بسبب كفركم، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿ذوقوا﴾ كما مرّ آنفاً.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَاصْبِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت عاقبة الكفّار، وأنّ الإنذار لا ينجح فيهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: اصبر كما صبر أولوا العزم. ﴿اصبر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾: حرف جرّ، ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ﴾: فعل وفاعل مرفوع بالواو. ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾: حال من ﴿أُولُوا الْعَزْمِ﴾. والجملة الفعلية: صلة لـ ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في

تأويل مصدر مجرور بـ ﴿الكاف﴾ تقديره: كصبر أولي العزم، الجار والمجرور، صفة لمصدر محذوف، تقديره: فاصبر صبراً كائناً كصبر أولي العزم، بَلْ أعلى منه. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية. ﴿تَسْتَعْجِل﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله: ضمير يعود على محمد. ﴿لَهُمْ﴾: متعلّق بـ ﴿يستعجل﴾. والجملة: معطوفة على جملة ﴿فَاصْبِرْ﴾. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ الآتي، ﴿يَرَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿يَرَوْنَ﴾ لأنّ الرؤية هنا بصرية. ﴿يُوعَدُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والتقدير: ما يوعدونه. ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿سَاعَةً﴾: ظرف متعلق بـ ﴿يَلْبَثُوٓاْ﴾ أو مفعول به على التوسع. ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾: صفة ﴿سَاعَةً﴾. وجملة ﴿يَلْبَثُوٓاْ﴾: في محل الرفع خبر ﴿كأنّ﴾ وجملة ﴿كأنّ﴾: مستأنفة. ﴿بَلَٰغٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا الذي وعظتم به بلاغ، وقيل: تقديره: هذا القرآن بلاغ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿فَهَلْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع. ﴿هل﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري. ﴿يُهْلَكُ﴾: فعل مضارع مغيّر الصيغة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ نائب فاعل. ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ صفة ﴿ٱلْقَوْمُ﴾. والجملة الفعلية: معطوفة على الاسمية قبلها لكونها في معنى الاسمية، كأنّه قيل: هذا بلاغٌ، فما هالك بعده إلاّ القوم الفاسقون.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ﴾؛ أي: وجّهنا نحوك. ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: جماعة من الجنّ. والنفر: ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال، سمّوا بذلك؛ لأنّهم ينفرون إذا حزبهم أمر لكفايته. وفي «المختار»: النَّفر بفتحتين: عدَّة رجال من ثلاثة إلى عشرة، وكذا النفير والنفر والنفرة بسكون الفاء فيها. انتهى. وهم جنّ نصيبين أو جن نينوىٰ، وكانوا سبعة أو تسعة، وكان ﷺ فيما رواه الشيخان ببطن نخلة على نحو ليلة من مكة منصرفه من الطائف، يصلّي بأصحابه الفجر في السنة الحادية

عشرة من البعثة. كما مرّ.

﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ ورد الفعل جمعاً نظراً للمعنى، والاستماع: الإصغاء مع قصد السماع. ﴿أَنصِتُواْ﴾ أمر من الإنصات. وهو الإصغاء مع السكوت؛ أي: أسكتوا. ﴿قُضِيَ﴾ فرغ من تلاوته. ﴿وَلَّوْاْ﴾؛ أي: رجعوا. ﴿مُّنذِرِينَ﴾؛ أي: مخوّفين لهم عواقب الضلال، وكانوا يهوداً، ثمّ أسلموا.

﴿أَجِيبُواْ﴾ أصله: أجوبوا بوزن أفعلوا، نقلت حركة الواو إلى الجيم، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مدّ. ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: داعو، قلبت الواو ياءً؛ لتطرُّفها إثر كسرة.

﴿وَيُجِرْكُم﴾ أصله: يجوركم بوزن يفعل، مضارع أجار، نقلت حركة الواو إلى الجيم فسكنت فالتقى ساكنان: الواو والراء، فحذفت الواو، فوزنه يفلكم. ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ أصله: يجوب، نقلت حركة الواو إلى الجيم فسكنت فالتقى ساكنان، فحذفت الواو، فوزنه يفل. ﴿أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ قد اجتمع ههنا همزتان مضمومتان من كلمتين، وليس لهما نظير في القرآن؛ أي: لا وجود لهما في محلٍ منه غير هذا. اهـ «خطيب».

﴿وَلَمْ يَعْيَ﴾؛ أي: لم يتعب بذلك، ولم يعجز عنه، يقال: عييت بالأمر: إذا لم تعرف وجهه، وأَعْيَيْتُ: تعبت. وفي «القاموس»: أعيىٰ الماشي: إذا كلَّ، قال الكسائي: يقال: أَعْيَيْتُ من التعب، وعَيِيْتُ من انقطاع الحيلة والعجز، قال عبيد بن الأبرص:

عَيُّوْا بِأَمْرِهِمُ كَمَا عَيَّتْ بِبَيْضَتِهَا ٱلْحَمَامَهْ

وحكي في سبب تعلّم الكسائي النحو على كبره: أنّه مشى يوماً، حتى أعيَ ثم جلس إلى قوم ليستريح، فقال: قد عييت، بالتشديد بغير همزة، فقالوا له: لا تجالسنا وأنت تلحن، قال الكسائي: وكيف؟ قالوا: إن أردت من التعب.. فقل: أعييت، وإن أردت من انقطاع الحيلة، والتعجيز في الأمر.. فقل: عييت مخفّفاً، فقام من فوره، وسأل عمَّن يعلم النحو، فأرشدوه إلى معاذٍ، فلزمه حتى نفد ما

عنده، ثمّ خرج إلى البصرة إلى الخليل بن أحمد. اهـ من «روح البيان» (ج: ٨، ص: ٤٩٣).

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ قال القشيري: الصبر: الوثوق بحكم الله، والثبات من غير بثٍّ ولا استكراهٍ، اهـ «خطيب».

﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾؛ أي؛ ذوو الحزم والصبر. والعزم في اللغة: الجدّ، والقصد مع القطع.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروبا من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، في قوله: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ إذا أعيد الضمير إلى النبيّ ﷺ؛ لأنّ مقتضى السياق حينئذٍ أن يقال: فلمّا حضروك.

ومنها: إطلاق الكتاب على بعض أجزائه، في قوله: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾ إذ لم يكن القرآن كلُّه منزلاً حينئذٍ.

ومنها: تخصيص موسى بالذكر دون عيسى؛ لكون نزول الكتاب عليه متفقاً عليه بين اليهود والنصارى، بخلاف عيسى؛ لأنّ اليهود تنكر نبوّته، ونزول الكتاب عليه.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لأنّه نفس الحق المذكور قبله، أطنب به للتأكيد وللتفخيم لشأنه.

ومنها: فن التنكيت في قوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ فقد عبر بـ ﴿مِّن﴾ التبعيضية إشارةً إلى أنَّ الغفران يقع على الذنوب الخاصة، أما حقوق العباد فلا يمكن غفرانها، إلا بعد أن يُرضَّىٰ أصحابها، فإنّ الله تعالى لا يغفر بالإيمان ذنوب المظالم.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ومن لا يجب داعى الله﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار، في قوله: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ مقتضى السياق أن يقال: ومن لم يجبه، أظهره تفخيماً لشأنه، وإظهاراً لنباهته.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾؛ لأنّه مجاز عن الانقطاع عن العمل، علاقته: السببيّة؛ لأنّ العيّ؛ أي: التعب مستحيل عليه تعالى، وهو سبب للانقطاع عن العمل أو النقص فيه والمتأخر في إنجازه، فهو العلاقة في هذا المجاز.

ومنها: تعليل الخاصّ بالعام في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأنّه تعالى إذا كان قادراً على كل شيء.. كان قادراً على إحياء الموتى؛ لأنّه من جملة الأشياء، وقدرته لا تختصّ بمقدور دون مقدور.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأنّه مجاز عن التعذيب بها، كما مرّ.

ومنها: التهكم بهم والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: باشروا العذاب؛ لأنّه مستعار من إحساس الذائق المطعوم.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ إقامة الأدلة على التوحيد، والردّ على عبدة الأصنام والأوثان.

٢ ـ المعارضات التي ابتدعها المشركون للنبوّة، والإجابة عنها، وبيان فسادها.

٣ ـ ذكر حال أهل الاستقامة الذين وحّدوا الله تعالى، وصدَّقوا أنبياءه، وبيان أنَّ جزاءهم الجنة.

٤ ـ ذكر وصايا المؤمنين من إكرام الوالدين، وعمل ما يرضي الله.

٥ ـ بيان حال من انهمكوا في الدنيا ولذّاتها.

٦ ـ قصص عاد، وفيه بيان أنَّ صرف النعم في غير وجهها يورث الهلاك.

٧ ـ استماع الجنّ للرسول ﷺ، وتبليغهم قومهم ما سمعوه.

٨ ـ عظةٌ للنبيّ ﷺ والمؤمنين من أمّته.

٩ ـ بيان أنّ القرآن فيه البلاغ والكفاية في الإنذار.

١٠ ـ من عدل الله ورحمته أن لا يعذّب إلاّ من خرج عن طاعته، ولم يعمل بأمره ونهيه[١].

---

(١) تمّ تفسير هذه السورة بمعونة الله وتوفيقه، آخر الساعة الثالثة من يوم الأربعاء الثاني عشر من شهر صفر، من شهور سنة ١٢/٢/١٤١٥ ألف وأربع مئة وخمس عشرة، سنة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلوات، وأزكى التحيّات، بيد مؤلفه وجامعه في مكة المكرمّة، في المسفلة في حارَة الرشد جوار المسجد الحرام، وصلى الله وسلم على سيدّنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين، آمين آمين، لا أرضىٰ بواحدةٍ، حتى أكمل ألف ألفي آمين.

فائدة: أخرج الطبراني في الدعاء عن أنس: أنَّ النبيّ ﷺ كان يدعو: «اللهم إنّي أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل برّ، والفوز بالجنّة، والنجاة من النار، اللهم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا همًّا إلا فرّجته، ولا دينا إلا قضيته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها، برحمتك يا أرحم الراحمين».

والله أعلم

* * *

سورة محمد

سورة محمد ﷺ، وتسمّى سورة القتال، وسورة الذين كفروا. وهي مدنية، قال الماوردي في قول الجميع إلا ابن عباس، وقتادة، فإنهما قالا: إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً عليه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾. وقال الثعلبيُّ[1]: إنها مكية، وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك، وسعيد بن جبير وهو غلطٌ من القول، فالسورة مدنية كما لا يخفى. وقد أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: نزلت سورة القتال بالمدينة، وأخرج النحاس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عنه قال: نزلت سورة محمد بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا.

وهي[2] ثمان أو تسع وثلاثون آية، وخمس مئة وتسع وثلاثون كلمة، وألفان وثلاث مئة وتسعة وأربعون حرفاً، نزلت بعد سورة الحديد.

تسميتها: سمّيت سورة محمد؛ لبيانها تنزيل القرآن على محمد ﷺ، بقوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، ولم يذكر محمد باسمه في القرآن إلا في أربع مواضع: في سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. وفي سورة الأحزاب: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وهنا في هذه السورة، وفي سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾. وأما في غير هذه المواضع الأربعة، فيذكر بصفة الرسول أو النبيّ.

وسميت أيضاً سورة القتال؛ لبيان أحكام قتال الكفار فيها في أثناء المعارك وبعد انتهائها: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾.

مناسبتها لما قبلها: قال أبو حيان: مناسبة أولها لآخر ما قبلها واضحة

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

جداً. اهـ. وفي «التفسير المنير»: هذه السورة يرتبط أولها ارتباطاً قويًا بآخر سورة الأحقاف ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ حتى لو أسقطت البسملة بينهما لكان الكلام متصلاً مباشرةً بما قبله اتصالاً لا تنافر فيه كالآية الواحدة، ولكان بعضه آخذاً بحجز بعض.

فضلها: ما أخرجه الطبرانيّ في «الأوسط» عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنّ النبيّ ﷺ كان يقرؤها في صلاة المغرب.

الناسخ والمنسوخ منها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: جميعها محكم إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ نسخ المنّ والفداء بآية السيف، وقيل: في سورة محمد ﷺ آيتان منسوختان الثانية منهما: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ (الآية ٣٦). نسخت بقوله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ (الآية ٣٧).

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا
بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا
الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ
يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤)
سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ
يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا
تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ
فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم (١٤) مَّثَلُ
الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ
لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ
وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ
هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا
جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السابقة.

واعلم: أنّ الله سبحانه قسم الناس في أول هذه السورة إلى فريقين[1]:

أهل الكفر الذين صدّوا الناس عن سبيل الله، وهؤلاء يبطل أعمالهم، سواء كانت حسنةً كصلة الأرحام وإطعام الطعام، أو سيئة كالكيد لرسول الله ﷺ، والصدّ عن سبيل الله، فالأولى يبطل الله ثوابها، والثانية يمحو أثرها، وهكذا كل من قاوم عملاً شريفاً، فإنّ مآله الخذلان.

وأهل الإيمان بالله ورسوله الذين أصلحوا أعمالهم، أولئك يغفر الله لهم سيئات أعمالهم، ويوفّقهم في الدين والدنيا، كما أضاع أعمال الكافرين ولم يثب عليها.

ثم علل ما سلف بأنّ أعمال الفريقين جرت على ما سنَّه الله في الخليقة بأنّ الحق منصور، وأنّ الباطل مخذول، سواء كان في أمور الدين أم في أمور الدنيا، فالصناعات المحكمة إنما يقبل الناس عليها، ويؤثرونها؛ لأنها جارية على الطريق القويم والنسق الحق، وهكذا الشأن في المزروعات، والمصنوعات المتقنة الجيّدة، والسياسات الحكيمة.

والصناعات المرذولة، والسلع المزجاة، لن يكون حظها إلا الكساد والبوار؛ لأنّ الباطل لا ثبات له، والحق هو الثابت، والله هو الحق فينصر الحقّ، والعلم الصحيح، والدين الصحيح، والصناعات الجيّدة والآراء الصادقة نتائجها السعادة، وضدّها عاقبته الشقاء والبوار.

وقصارى ذلك: أنّ الله سبحانه خلق السموات والأرض بالحق، وعلى قوانين ثابتة منظمة، فكل ما قرب إلى الحق كان باقياً، وكل ما ابتعد عنه كان هالكاً، فرجال الجدّ والنشاط مؤيَّدون، ورجال الكسل والتواكل مخذولون، والمُحِقُّون في كل شيء محبوبون منصورون.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

---

(١) المراغي.

الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[1] فيما سلف أنّ الناس فريقان:

أحدهما: متّبع للباطل، وهو حزب الشيطان.

وثانيهما: متّبعٌ للحق، وهو حزب الرحمن.. ذكر هنا وجوب قتال الفريق الأول، حتى يفيء إلى أمر الله، ويرجع عن غيّه، وتخضد شوكته.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما نعىٰ على الكافرين مغبّة أعمالهم، وأنّ النار مثوى لهم.. أردف هذا أمرهم بالنظر في أحوال الأمم السالفة، ورؤية آثارهم، لما للمشاهدت الحسّية من آثار في النفوس، ونتائج لدى ذوي العقول إذا تدبّروها واعتبروا بها.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا بينّ الفارق بين الفريقين في الاهتداء والضلال.. ذكر الفارق بينهما في مرجعهما ومآلهما، فذكر ما للأوّلين من النعيم المقيم، واللذات التي لا يدركها الإحصاء، وما للآخرين من العذاب اللازب في النار، وشرب الماء الحار الذي يقطّع الأمعاء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر حال المشركين، وبيّن سوء مغبّتهم.. أردف هذا ببيان أحوال المنافقين الذين كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه تهاوناً واستهزاء به، حتى إذا خرجوا من عنده.. قالوا للواعين من الصحابة: ماذا قال قبل افتراقنا وخروجنا من عنده؟. وهؤلاء قد طبع الله على قلوبهم، واتبعوا أهواءهم، ومن ثم تشاغلوا عن سماع كلامه، وأقبلوا على جمع حطام الدنيا.

ثم أعقبه بذكر حال من اهتدوا، وألهمهم ربهم ما يتقون به النار، ثم عنف

---

(١) المراغي.

أولئك المكذّبين، وذكر أنّ عليهم أن يرعووا قبل أن تجيء الساعة التي بدت علاماتها بمبعث محمد ﷺ، والذكرى لا تنفع حينئذٍ.

ثم أمر رسوله ﷺ بالثبات على ما هو عليه من وحدانية الله، وإصلاح نفسه بالاستغفار من ذنبه، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات، والله هو العليم بمنصرفكم في الدنيا، ومصيركم إلى الجنّة أو إلى النار في الآخرة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ أخرج[1] ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنها نزلت في أهل مكة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال: هم الأنصار.

وأخرج عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: ذكر لنا أنّ هذه الآية نزلت يوم أحد ورسول الله ﷺ في الشعب، وقد نشبت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون يومئذٍ: أعل هبل، ونادى المسلمون: الله أعلى وأجل، فقال المشركون: إنّ لنا العزّى، ولا عزّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً...﴾ إلخ. سبب نزولها: ما أخرجه أبو يعلى عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ تلقاء الغار.. نظر إلى مكة فقال: «أنت أحبّ بلاد الله إليّ، ولولا أنّ أهلك أخرجوني منك.. لم أخرج منك»، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج قال: كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبيّ ﷺ، فيسمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه، ويسمعه المنافقون فلا يعونه، فإذا

(١) لباب النقول.

خرجوا.. سألوا المؤمنين: ماذا قال آنفاً؟. فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي:[1] أعرضوا عن دين الإسلام، وسلوك طريقه، من صد صدوداً، فيكون كالتأكيد والتفسير لما قبله، أو منعوا الناس عن ذلك، من صدّه صداً، كالمطعمين الجيوش يوم بدر، فإنَّ مترفيهم كأبي جهل والحارث ابن هشام وعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهم، أطعموا الجنود يوم بدر، يستظهرون على عداوة النبي ﷺ والمؤمنين، فيكون مخصّصاً لعموم قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والظاهر: أنه عام في كل من كفر وصدّ، وقال مجاهد والسدي: هم كفار قريش كفروا بالله، وصدّوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو دين الإسلام، بنهيهم عن الدخول فيه، وقال الضحاك: معنى ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن بيت الله بمنع قاصديه، وقيل: هم أهل الكتاب، والموصول: مبتدأ، خبره: قوله: ﴿أَضَلَّ﴾ الله سبحانه، وأبطل ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الصالحة، ولم يتقبلها منهم؛ أي: حكم ببطلانها وضياعها، فإنّ ما كانوا يعملونه من أعمال البر، كصلة الأرحام، وقرى الأضياف، وفكّ الأسارى، وغيرها من المكارم، ليس لها أثر من أصلها؛ لعدم مقارنتها للإيمان، أو أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ، والصدّ عن سبيله بنصر رسوله، وإظهار دينه على الدين كلّه، وهو الأوفق بقوله: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

قال الضحاك: معنى ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبيّ ﷺ، وجعل الدائرة عليهم، وقال أبو حيان: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: أتلفها حيث لم ينشأ عنها خير ولا نفع، بل ضرر محض. وفي «البيضاوي»: معنى ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: جعلها ضالة؛ أي: ضائعة محبطة بالكفر، أو مغلوبة مغمورة فيه، كما يضل الماء في اللبن، أو جعلها ضلالاً، حيث لم يقصدوا بها وجه الله. انتهى.

---

(١) روح البيان.

وقال بعضهم[1]: أول هذه السورة متعلق بآخر السورة السابقة ـ سورة الأحقاف ـ كأن قائلاً قال: كيف يهلك الفاسقون ولهم أعمال صالحة، كإطعام الطعام ونحوه من الأعمال الصالحة، والله لا يضيع لعامل عمله، ولو كان مثقال ذرة من خير؟ فأخبر بأنّ الفاسقين هم الذين كفروا، وصدّوا عن سبيل الله، أضل أعمالهم؛ يعني: أبطلها؛ لأنها لم تكن لله ولا بأمره، إنما فعلوها من عند أنفسهم، ليقال عنهم ذلك، فلهذا السبب أبطلها الله تعالى.

والمعنى[2]: أي الذين جحدوا توحيد الله، وعبدوا غيره، وصدّوا من أراد عبادته والإقرار بوحدانيته، وتصديق نبيه عما أراد، جعل الله أعمالهم تسير على غير هدى؛ لأنها عملت في سبيل الشيطان، لا في سبيل الرحمن، وما عمل للشيطان.. فمآله الخسران، فما عملوه في الكفر مما كانوا يسمونه مكارم الأخلاق من صلة الأرحام، وإطعام الجائع، وعمارة المسجد الحرام، وإجارة المستجير، ونحو ذلك، حكم الله ببطلانه، فلا يرون له في الآخرة ثواباً، ويجزون به في الدنيا من فضله تعالى بزيادة مال، أو حدوث ولد، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

قال ابن عباس في رواية عنه: نزلت الآية في المطعمين ببدر، وهم اثنا عشر رجلاً: أبو جهل والحارث ابنا هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبيّ وأمية ابنا خلف، ومنبه ونُبيه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، والحارث بن عامر بن نوفل.

ولما ذكر سبحانه جزاء أهل الكفر.. أتبعهم بثواب أهل الإيمان، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعمّ كل من آمن وعمل صالحاً من المهاجرين والأنصار، وأهل الكتاب وغيرهم، وكذا يعمّ الإيمان بجميع الكتب الإلهية ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ ﷺ، وهو القرآن الذي أنزله الله على محمد.

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نُزِّلَ﴾ مشدداً مبنياً للمفعول، وقرأ زيد بن علي وابن مقسم: ﴿نَزَّل﴾ مبنياً للفاعل، وقرأ الأعمش: ﴿أُنزِل﴾ معدى بالهمزة مبنياً للمفعول، وقرىء: ﴿نزل﴾ ثلاثياً مخففاً.

وخصّ سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ بالذكر، مع اندراجه تحت مطلق الإيمان المذكور قبله؛ تنبيهاً على شرفه، وعلوّ مكانه، كما في عطف جبرائيل على الملائكة، وعلى أنه الأصل في الكل، ولذلك أكّده بقوله: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: ما نزّل على محمد ﴿الْحَقُّ﴾؛ أي: العدل الصواب، وقيل: الناسخ لما قبله، ولا يرد عليه النسخ، حال كونه ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ بطريق حصر الحقّية فيه، والحق: مقابل الباطل، وهذه الجملة معترضة بين المبتدأ، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وبين خبره، وهو قوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ أي: السيئات التي عملوها فيما مضى؛ أي: ستر الله أعمالهم السيئة بالإيمان والعمل الصالح ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، أي: حالهم وشأنهم في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق، وأرشدهم إلى أعمال الخير، وأصلح نيّاتهم بالإخلاص.

والمعنى[2]: أي والذين صدّقوا الله، وعملوا بطاعته، واتبعوا أمره ونهيه، وصدّقوا بالكتاب الذي نزل على محمد، وهو الحق من ربهم، محا الله بفعلهم سيء ما عملوا، فلم يؤاخذهم به، وأصلح شأنهم في الدنيا بتوفيقهم لسبل السعادة، وأصلح شأنهم في الآخرة بأن يورثهم نعيم الأبد، والخلود الدائم في جناته، قال ابن عباس: نزلت الآية في الأنصار. كما مرّ.

ثم بيّن سبب الإضلال، وإصلاح البال، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ من إضلال الأعمال، وتكفير السيئات، وإصلاح البال، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: ذلك كائن بسبب أنّ الكافرين ﴿اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾؛ أي: الشيطان، ففعلوا ما فعلوا من الكفر والصدّ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: وبسبب أنّ المؤمنين ﴿اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ الذي لا محيد عنه، كائناً ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ ففعلوا ما فعلوا من الإيمان

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

به وبكتابه، ومن الأعمال الصالحة.

ومعنى الآية[1]: ذلك الأمر وهو إضلال أعمال الكفار، وتكفير سيئات المؤمنين، كائن بسبب اتباع الكفار الباطل، واتباع المؤمنين الحق من ربهم؛ أي: وإنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأنّ الذين كفروا اختاروا الباطل على الحق، بما وسوس به إليهم الشيطان، ولأنّ الذين آمنوا اتبعوا الحق الذي جاءهم من ربهم، فأنار بصائرهم، وهداهم إلى سبيل الرشاد ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل الضرب والبيان المذكور ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾؛ أي: يبيِّن الله للناس أمثالهم؛ أي: أحوال الفريقين، وأوصافهما الجارية مجرى الأمثال في الغرابة، وهي: اتباع الأولين الباطل وخيبتهم، وخسرانهم، واتباع الآخرين الحق، وفوزهم وفلاحهم. وفي الخبر: «اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه». قال الزجاج: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يبيّن الله للناس أمثال حسنات المؤمنين، وإضلال أعمال الكافرين؛ يعني: أنّ من كان كافراً أضل الله عمله، ومن كان مؤمناً كفّر الله سيئاته.

والمعنى: أي كما بيَّنت لكم فعلي بفريقي الكفار والمؤمنين، كذلك نمثل للناس الأمثال، ونشبه لهم الأشباه، فنلحق بالأشياء أمثالها وأشكالها.

والخلاصة: أنه جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، وإضلال أعمالهم مثلاً لخيبتهم، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، وتكفير سيئاتهم مثلا لفوزهم، وهكذا شأن القرآن، يوضِّح الأمور التي فيها عظة وذكرى بضرب الأمثال، كما ضرب المثل بالنخل والحنظل في سورة أخرى.

ولمّا بيّن سبحانه حال الفريقين.. أمر بجهاد الكفار، فقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والمراد بالذين كفروا: المشركون، ومن لم يكن صاحب عهد من أهل الكتب، و﴿الفاء﴾ فيه: للإفصاح؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كما ذكر، من إضلال أعمال الكفرة وخيبتهم، وإصلاح

---

(١) الخازن.

أحوال المؤمنين وفلاحهم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم. . فأقول لكم: إذا لقيتم الذين كفروا، وقابلتموهم في المحاربة يا معشر المسلمين ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾؛ أي: فاضربوا الرقاب منهم ضرباً، فحذف الفعل وأنيب المصدر منابه مضافاً إلى المفعول، والألف واللام في ﴿ٱلرِّقَابِ﴾: بدل من المضاف إليه؛ أي: فاضربوا رقابهم بالسيف، والمراد: فاقتلوهم.

وإنّما عبَّر[1] عن القتل بضرب الرقاب، لما في التعبير به من الغلظة والشدة ما ليس في نفس القتل، وهي: حز العنق، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وأعلاه وأشرفه، وإرشاداً للغزاة إلى أيسر ما يكون منه، وفي الحديث: «أنا لم أبعث لأعذِّب بعذاب الله، وإنما بعثت بضرب الرقاب وشدِّ الوثاق»؛ أي: فاقتلوهم كيفما أمكنكم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾؛ أي: أضعفتموهم بالجراح، أو بالغتم في قتلهم، وأكثرتم القتل فيهم، أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾؛ أي: وثاق الأسير منهم؛ أي: اربطوا الأسير منهم على كتفه كيلا ينفلت عنكم، والوثاق: الحبل الذي يربط به الأسير، وقال أبو الليث: يعني: حتى إذا قهرتموهم وأسرتموهم. . فاستوثقوا أيديهم واربطوها من خلفهم كيلا يفلتوا، والأسر يكون بعد المبالغة في القتل.

قرأ الجمهور: ﴿فَشُدُّوا۟﴾ بضم الشين، وقرأ السلميّ: بكسرها ﴿فَإِمَّا﴾ تمنون عليهم ﴿مَنًّۢا﴾ بإرسالهم من غير فداء ﴿بَعْدُ﴾؛ أي: بعد أسرهم، وشد وثاقهم ﴿وَإِمَّا﴾ تفدونهم ﴿فِدَآءً﴾ بمال أو بأسرى مسلمين.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فِدَآءً﴾ بالمدّ، وقرأ ابن كثير في رواية شبلٍ: ﴿فدىً﴾ بالقصر. والمنُّ: أن يترك الأمير الأسير الكافر من غير أن يأخذ منه شيئاً. والفداء: أن يترك الأمير الأسير الكافر، ويأخذ مالاً، أو أسيراً مسلماً في مقابلته، وإنما قدم المنّ على الفداء؛ لأنه من مكارم الأخلاق، ولهذا كانت العرب تفتخر به، كما قال شاعرهم:

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

وَلاَ نَقْتُلُ ٱلأَسْرَىٰ وَلَكِنْ نَفُكُّهُمْ   إِذَا أَثْقَلَ الأَعْنَاقَ حِمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

قال الشيخ الرضيُّ: المطلوب[1] من شدّ الوثاق: إمّا قتلٌ، أو استرقاق، أو منّ، أو فداء. فالإمام يتخير في الأسارى البالغين من الكفار بين هذه الخصال الأربع، وهذا التخيير ثابت عند الشافعي، ومنسوخ عند الأحناف بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، قالوا: نزل ذلك يوم بدر، ثم نسخ. والحكم إما القتل أو الاسترقاق. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا كثر المسلمون، واشتدّ سلطانهم. . . أنزل الله تعالى في الأسارى ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وكان عليه عمل رسول الله ﷺ، والخلفاء من بعده.

روىٰ البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة، يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه في سارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي خيرٌ، إن تقتلني. . تقتل ذا دم، وإن تُنْعِم. . تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال. . فسل ما شئت، حتى كان الغد، فقال له رسول الله ﷺ: «ما عندك يا ثمامة؟» قال: عندي ما قلت لك، قال: «أطلقوا ثمامة» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فقد أصبح بلدك أحبَّ البلاد إليّ، وإن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلمَّا قدم مكة قال له قائل: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد ﷺ.

وعن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: أسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من عقيل فأوثقوه، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي ﷺ،

(١) روح البيان.

ففداه رسول الله ﷺ بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف، وأما الفداء بالمال.. فقد وقع يوم بدر، كما هو مشهور في الأحاديث الصحيحة.

والظاهر[1]: أنّ قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ غاية لقوله: ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾؛ لأنه قد غيًّا، فضرب الرقاب بشد الوثاق وقت الإثخان، فلا يمكن أن يُغيّا بغاية أخرىٰ، لتدافع الغايتين، إلا أن تكون الثانية مبيّنة للأولى، ومؤكدة لها فيجوز.

والمعنى: فشدوا وثاق الأسير وربطه، حتى تضع أهل الحرب أوزارها وأحمالها وأسلحتها، ويتركوا حمل سلاحها؛ أي: حتى تنقرض الحرب وتنعدم بالكليَّة، بحيث لا يبقى في الدنيا حزب من أحزاب الكفار يحارب حزباً من أحزاب الإسلام.

والأوزار[2]: جمع وزر، والوزر بالكسر: الثقل، وما يحمله الإنسان، فسمى الأسلحة أوزاراً؛ لأنها تحمل، فيكون جعل مثل الكراع من الأوزار من التغليب، و﴿حَتَّىٰ﴾ غاية عند الشافعي لأحد الأمور الأربعة، أو للمجموع. والمعنى حينئذٍ: إنهم لا يتركون ذلك أبداً، حتى لا يكون مع المشركين حرب، بأن لا يبقى لهم شوكة، وأما عند أبي حنيفة فإنه حمل الحرب على حرب بدر، فهي غاية للمنّ والفداء، والمعنى: يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها وتنقضي، وإن حملت الحرب على الجنس.. فهي غاية للضرب والشد، والمعنى: أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب أوزارها، بأن لا يبقى للمشركين شوكة.

ومعنى الآية: أي فإذا واجهتم المشركين في القتال.. فاحصدوهم حصداً بالسيوف، حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقابهم، وصاروا في أيديكم أسرى.. فشدّوهم في الوثاق كي لا يقاتلوكم، أو يهربوا منكم، ثم أنتم بعد انتهاء الحرب وانتهاء المعارك بالخيار في أمرهم، إن شئتم.. مننتم عليهم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

فأطلقتموهم بلا عوضٍ من مال أو غيره، وإن شئتم.. فاديتموهم بمال تأخذونه منهم حتى لا يكون حرب مع المشركين، ولا قتال بزوال شوكتهم.

واعلم[1]: أنَّ للحرب فوائد، وللسلم أخرى، فالأمم في حال الطفولة عقولها أشبه بعقول الشابّ المراهق، الذي لم يبلغ الحلم، تراه يقاتل الصبيان، ويشاجرهم، ويوقع الأذى بهم، وهم يزيدون في أذاه، وينكلون به، وهذه هي حال الأمم اليوم.

ألا إنَّ الحرب تقوّي الأبدان، وترقي الصناعات، وتجعل الأمم تنمو وتوقظ الشعور، وتفتح المغلق، وتيسر العسير، قال أرسطو للإسكندر: إنّ الراحة مضرة للأمم، ومن ثم قيل: إذا أردت رقي أمةٍ.. فاجعلها تخوض الحروب، فذلك يفتح لها باب السعادة، والأمم النائمة على فراش الراحة الوثير، معرَّضة للزوال، كما رأينا ذلك في بعض من عليه الاستئمار من أفريقيا، فإذا كملت أخلاق الأمم ومواهبها.. فإنّ نتائج السلم عندها ستكون كنتائج الحرب لدى من قبلها، فكما يفرح الرجل في الأمم الحاضرة بغلبة الأعداء، وشفاء الغليل، وجمع الرجال والسلاح والكراع، فسيكون فرح الأمم فيما بعد بمساعدة غيرها، وانشراح صدورها، بظهور أمم أخرى تكافح معها في ميدان الحياة، ويكون كل فرد في الأمم المقبلة أشبه بالأب، يكدح لمساعدة أبنائه، وهذا الكدح والجد في العمل لفائدة الجميع، يجد العامل فيه لذّةً وفرحاً أشدَّ من فرح المنتصر في ميادين القتال.

وإنَّ الأمم لا تزال في الطور الأول، فهي تسعى لإسعاد نفسها، بإهلاك سواها، وسيأتي حينٌ تسعى فيه لإسعاد الجميع، ويكون فرحها بهذا المسعى أشد من فرحها بهزيمة الأعداء، ويكون الناس جميعاً بعضهم لبعض كالآباء والأبناء.

واعلم[2]: أنه قد اختلف العلماء في هذه الآية، هل هي محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنها منسوخة في أهل الأوثان، وأنه لا يجوز أن يفادوا ولا يمن

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

عليهم، والناسخ لها قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾. وبهذا قال قتادة والضحاك والسدي وابن جريج. وكثير من الكوفيين قالوا: والمائدة آخر ما نزل، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الأدلّة على تركه، من النساء، والصبيان، ومن تؤخذ منه الجزية، وهذا هو المشهور من مذهب أبي حنيفة، وقيل: إنَّ هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ روي ذلك عن عطاء وغيره، وقال كثير من العلماء: إنّ الآية محكمة، والإمام مخيّر بين القتل والأسر، وبعد الأسر مخيَّر بين المنِّ والفداء. وبه قال مالك والشافعي والثوريّ والأوزاعي وأبو عبيد وغيرهم، وهذا هو الراجح؛ لأنّ النبيَّ ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك، وقال سعيد بن جبير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره.

ثمّ بين الله سبحانه وتعالى الحكمة في شرع القتال، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ محلُّه: إما رفعٌ على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الأمر ذلك، وإما نصبٌ على أنه مفعول لفعل محذوف؛ أي: افعلوا ذلك. ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف؛ أي: ذلك حكم الكفار؛ أي:[1] هذا الذي أمرتكم به من قتل المشركين إن لقيتموهم في حرب، وشد وثاقهم في أسرهم، والمن والفداء حتى تضع الحرب أوزارها، هو الحق الذي أمركم به ربكم، وهو السنة التي شرعها لإصلاح حال عباده، وهي التي ستبقى السنة الطبيعية بين الأمم ما دامت في طور طفولتها، حتى يتمّ نضجها العقلي والخلقي فتضع الحرب أوزارها، إذ لا يكون هناك حاجة إليها؛ لأنّ العالم كلّه كأسرة واحدة، سعادته بسعادة أفراده جميعاً، وشقاؤه بشقائهم.

---

(١) المراغي.

﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ ﴿لو﴾: [1] للمضيّ، وإن دخلت على المستقبل؛ أي: ولو شاء الله سبحانه وتعالى الانتصار والانتقام من الكفار ﴿لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: لانتصر من هؤلاء المشركين، وانتقم منهم بعقوبة عاجلة، وكفاكم أمرهم؛ أي: لانتقم منهم بغير قتال، بأن يكون ببعض أسباب الهلكة والاستئصال، من خسف أو رجفة أو حاصب أو غرق أو موت ذريع أو نحو ذلك، ويجوز أن يكون الانتقام بالملائكة، بصيحتهم أو بصرعهم أو بقتالهم، من حيث لا يراهم الكفار، كما وقع في بدر. ﴿وَلَٰكِن﴾ أمركم بقتالهم ﴿لِّيَبۡلُوَاْ﴾ ويختبر ﴿بَعۡضَكُم﴾ أيها الناس ﴿بِبَعۡضٖۗ﴾ آخر؛ أي: أمركم بالقتال، وبلاكم بالكافرين، لتجاهدوهم فتستوجبوا الثواب العظيم؛ بموجب الوعد، فيعلم المجاهدين في سبيله، والصابرين على ابتلائه، وبلاء الكافرين بكم ليعاجلهم على أيديكم ببعض عقوبتهم، ويتّعظ منهم من شاء بمن أهلك بأيديكم حتى ينيب إلى الحق، فالحكمة من القتال هي امتحان الناس، واختبار صبرهم على المكاره، وفي الجهاد تقوية لأبدانكم، ورقي لعقولكم، ونفاذ لكلمتكم، وجمع لشملكم بما ترون من اتحاد عدوكم، وبه ترقىٰ الزراعة والتجارة والصناعة وجميع العلوم، إذ لا يتم حرب ولا غلبة إلا بها.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى جزاء المجاهدين في سبيله، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: استشهدوا يوم بدر، ويوم أحد وفي سائر الحروب ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ الله سبحانه، ويضيع ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ بل يثيبهم عليها؛ أي: والذين جاهدوا أعداء الله في طاعة الله، وطلب مرضاته، ونصرة ما بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى، سواء قتلوا في الجهاد أو لم يقتلوا، فلن يجعل الله أعمالهم التي عملوها في الدنيا ضائعة سدى، كما أذهب أعمال الكافرين، وجعلها عديمة الجدوى.

روى أحمد عن المقدام بن معدي كرب الكندي رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «يعطىٰ الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: تكفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوّج من الحور العين، ويأمن من الفزع

(١) روح البيان.

الأكبر ومن عذاب القبر، ويحلّىٰ حلّة الإيمان».

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وعن أبي قتادة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شيء إلا الدَّين».

وقرأ الجمهور(١): ﴿قَٰتَلُوا﴾ بألف مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو وحفص، وقتادة والأعرج والأعمش: ﴿قتلوا﴾ مبنياً للمفعول، والتاء خفيفة، وقرأ زيد بن ثابت والحسن وأبو رجاء وعيسى بن عمر: ﴿قُتّلوا﴾ بالتشديد مبنياً للمفعول، وقرأ أبو حيوة والجحدري: ﴿قَتَلوا﴾ على البناء للفاعل مع التخفيف. والمعنى على القراءة الأولى والرابعة: أنَّ المجاهدين في سبيل الله ثوابهم غير ضائع، وعلى القراءة الثانية والثالثة: أنَّ المقتولين في سبيل الله كذلك لا يضيِّع الله سبحانه أجرهم، وقرأ عليّ: ﴿فلن يضل﴾ مبنياً للمفعول، ﴿أعمالهم﴾ بالرفع، وقرىء: ﴿يَضِلّ﴾ بفتح الياء من ضلَّ. ﴿أعمالهم﴾ بالرفع.

ثمّ فسّر ما سلف بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ في الدنيا إلى أرشد الأمور إن لم يقتلوا، وفي الآخرة إلى طريق الجنة من غير وقفة من قبورهم إلى موضع حبورهم، والظاهر: أنّ السين للتأكيد، والمعنى: يهديهم الله ألبتة إلى مقاصدهم الأخروية، وقال الحسن بن زياد: يهديهم إلى محاجة منكر ونكير ﴿وَيُصْلِحُ﴾ الله سبحانه ﴿بَالَهُمْ﴾؛ أي: حالهم، وشأنهم في الدنيا بالعصمة والتوفيق، وفي الآخرة بأن يقبل الله أعمالهم، ويرضي خصمائهم؛ لكرامتهم على الله بالجهاد والشهادة ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ وجملة قوله: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ مستأنفة(٢) أو حالية؛ أي: عرّف الجنة، وبيَّنها لهم في الدنيا بذكر أوصافها، بحيث اشتاقوا إليها، أو بيَّنها لهم في الآخرة، بحيث يعلم كل أحد منزله ويهتدي إليه، كأنه كان ساكنه منذ خلق. وفي الحديث: «لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا». وقيل: إذا دخلوها.. يقال لهم: تفرَّقوا إلى منازلكم، فهم أعرف بمنازلهم في الجنة من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم، وفي «المفردات»: عرَّفه جعل له عَرْفاً؛ أي:

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) روح البيان.

رائحة طيِّبة. فالمعنى: زيَّنها وطيَّبها لهم بأنواع الملاذ. وقال بعضهم: حدَّدها لهم، وأفرزها: من عرَّف الدار إذا حدَّدها؛ أي: جعل لها حدوداً، فجنة كل أحد محدَّدة مفرزة. وقيل: هذا التعريف بدليل يدلهم عليها، وهو الملك الموكل بالعبد، يسير بين يديه حتى يدخله منزله، كذا قال مقاتل.

ومن فضائل الشهداء: أنه ليس أحد يدخل الجنة يحب أن يخرج منها، ولو أعطي ما في الدنيا جميعاً إلا الشهيد، فإنه يتمنَّى أن يردَّه الله إلى الدنيا مراراً، فيقتل في سبيل الله كما قتل أولاً؛ لما يرى من عظيم كرامة الشهداء على الله تعالى. ومن فضائلهم: أنّ الشهادة في سبيل الله تكفّر ما على العبد من الذنوب التي بينه وبين الله تعالى، وفي الحديث: «يغفر للشهيد كلّ شيء إلا الدَّيْن». والمراد[1] بالدين: كل ما كان عليه من حقوق الآدميين، كالغصب وأخذ المال بالباطل، وقتل العمد، والجراحة، وغير ذلك من التبعات، وكذلك الغيبة والنميمة والسخرية وما أشبه ذلك، فإنّ هذه الحقوق كلها لا بدّ من استيفائها لمستحقيها، وقال القرطبي: الدين الذي يحبس صاحبه عن الجنة: هو الذي قد ترك له وفاء ولم يوصِّ به، أو قدر على الأداء فلم يؤدِّه، أو ادّانه على سفه أو سرف ومات ولم يوفه، وأما من ادّان في حق واجب كفاقة وعسر، ومات ولم يترك وفاء.. فإنّ الله تعالى لا يحبسه عن الجنة شهيداً كان أو غيره، ويقضي عنه، ويرضي عنه خصمه، كما قال ﷺ: «من أخذ أموال الناس يريد أدائها.. أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها.. أتلفه الله».

ومجمل معنى الآية[2]: أي سيوفقهم الله للعمل بما يرضيه ويحبّه، ويصونهم مما يورث الضلال في الدنيا، ويصلح شأنهم في العقبى، ويتقبل أعمالهم، ويجعل لكل منهم مقرّاً في الجنة، لا يضل في طلبه.

لا جرم أنّ لكل امرىء في الحياة عملاً يستوجب حالاً في الآخرة لا يتعدّاها، كما يحصل كل من نال إجازةً في علم أو صناعةٍ على عمل يشاكل

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

إجازته في قوانين الدولة، والناس في الآخرة أشبه بأنواع السمك في البحر الملح، وأنواع الطير في جوّ السماء، لكل منها جو لا تتعداه، هكذا لكل من الصالحين درجةٌ في الآخرة لا يتعدَّاها، بل يجد نفسه مقهوراً على البقاء فيها، كما أنّ السمك منه ما هو قريب من سطح الماء، ومنه ما يوجد تحت سطح الماء بمئات الأمتار وآلافها، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾.

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال: يُهدىٰ أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون، كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها.

ثمّ وعدهم سبحانه بنصرهم على أعدائهم إذا نصروا دينه، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالله ورسوله ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: إن تنصروا دين الله ورسوله ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ الله سبحانه على أعدائكم، ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب ومواقفها، أو على محجة الإسلام، وتثبيت الأقدام: عبارة عن النصر والمعونة في مواطن الحرب.

واعلم(١): أنّ النصرة على وجهين:

الأول: نصرة العبد، وذلك بإيضاح دلائل الدين، وإزالة شبهة القاصرين، وشرح أحكامه وفرائضه وسننه وحلاله وحرامه والعمل بها، ثم بالغزو والجهاد لإعلاء كلمة الله، وقمع أعداء الدين، إما حقيقة كمباشرة المحاربة بنفسه، وإما حكماً بتكثير سواد المجاهدين بالوقوف تحت لوائهم، أو بالدعاء لنصرة المسلمين، وخذلان الكافرين بأن يقول: اللهمّ انصر من نصر الدين، واخذل من خذل المسلمين، ثم بالجهاد الأكبر، بأن يكون عوناً لله على النفس حتى يصرعها ويقتلها فلا يبقى من هواها أثر.

والثاني: نصرة الله تعالى، وذلك بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإظهار

---

(١) روح البيان.

الآيات والمعجزات، وتبيين السبل إلى النعيم وإلى الجحيم، والأمر بالجهاد الأصغر والأكبر، والتوفيق للسعي فيهما طلبا لرضاه، لا تبعاً لهواه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَيُثَبِّتْ﴾ مشدّداً، وقرأ المفضل عن عاصم: مخففاً، من أثبت الرباعي من باب أفعل.

وبعد أن ذكر سبحانه جزاء المجاهدين. أعقبه بجزاء الكافرين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله، مبتدأ خبره محذوف دلّ عليه قوله: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ ودخلت ﴿الفاء﴾ تشبيهاً للمبتدأ بالشرط، وانتصاب ﴿تعساً﴾ على المصدر بالفعل المقدر خبراً، و﴿اللام﴾ فيه: للبيان، كسقياً لهم، ورعياً، ولذلك عطف عليه الفعل في قوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ والفعل منه، كمنع وسمع، كما سيأتي، يقال: تعسه الله وأتعسه، والتقدير: والذين كفروا بالله ورسوله، وجحدوا توحيده فَتَعِسَهُم الله تعساً؛ أي: أذلّهم الله إذلالاً، وأخزاهم خزياً، وأهلكهم إهلاكاً، وأبطل أعمالهم، وجعلها على غير هدىً واستقامةٍ؛ لأنها عُمِلت للشيطان، لا طاعة للرحمن.

ثم بيَّن سبب ذلك الإضلال، فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من التعس وإضلال الأعمال ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ تعالى من القرآن لما فيه من التوحيد، وسائر الأحكام المخالفة لما ألفوه، واشتهته أنفسهم الأمّارة بالسوء ﴿فَأَحْبَطَ﴾ الله سبحانه ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ لأجل ذلك؛ أي: أبطلها وجعلها من الأعمال التي لا تزكو ولا يعتد بها، كرّره إشعاراً بأنه يلزم الكفر بالقرآن، ولا ينفك عنه بحال، والمراد بالأعمال: طواف البيت، وعمارة المسجد الحرام، وإكرام الضيف، وإغاثة الملهوفين، وإعانة المظلومين، ومواساة اليتامى والمساكين، ونحو ذلك مما هو على صورة البرّ، وذلك بالنسبة إلى كفار قريش، وقس عليهم أعمال سائر الكفرة إلى يوم الدين.

والمعنى[2]: أي ذلك الذي فعلنا بهم من التعس، وإضلال الأعمال، من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

أجل أنهم كرهوا كتابنا الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ، فكذَّبوا به، وقالوا: هو سحر مبين، فمن ثم أحبط الله أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وأصلاهم سعيراً.

وقصارى ذلك: أنَّ كل ما عملوه في الدنيا من صالح الأعمال فهو باطل؛ لعدم الإيمان الذي هو أساس قبول الأعمال.

ثم خوف سبحانه الكفار، وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أُقعدوا في أماكنهم فلم يسيروا؛ أي: كفار مكة في الأرض إلى جانب الشام واليمن والعراق ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبة: كعاد، وثمود وأهل سبأ، فإن آثار ديارهم تنبىء عن أخبارهم؛ أي: كيف كان آخر أمرهم من الدمار بسبب تكذيبهم رسلهم.

والمعنى(١): أي أفلم يسر هؤلاء المكذبون بمحمد ﷺ، المنكرون ما أنزلناه عليه من الكتاب في نواحي الأرض، وأرجائها، فيروا نقمة الله التي أحلَّها بالأمم الغابرة، والقرون الخالية، حين كذبوا رسلهم، كعاد وثمود، ويتعظوا بذلك، ويحذروا أن نفعل بهم كما فعلنا بمن قبلهم.

ثم ذكر ما فعله بهم، فقال: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يقال: دمّره: أهلكه، ودمّر عليهم: أهلك ما يختص به، قال الطيبي: كأنَّ في ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ تضمين معنى أطبق، فعدَّى بعلى، فإذا أطبق عليهم دماراً.. لم يخلص مما يختص بهم أحدٌ، وفي «حواشي سعدي المفتي»: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أوقع التدمير عليهم.

وجملة ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: مستأنفة(٢) استئنافاً بيانياً، نشأ عن سؤال مقدر، كأنه قيل: كيف كان عاقبتهم؟ فقيل: استأصل الله عليهم ما اختص به من أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى: أي أهلك ما يختص بهم من الأهل والأولاد والأموال، أفلا يعتبر هؤلاء بما حلّ بمن قبلهم، فيعلموا أنّ ما حاق بهم من سوء المنقلب لا بد أن يحلّ بهم مثله، بحسب ما وضعه سبحانه من السنن في الأمم المكذبة لرسلها، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم؛ يعني: كفار مكة ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾؛ أي: أمثال هذه العاقبة التي ترون آثارها إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وبما جاء به من عند الله تعالى، أو أمثال عقوبتهم، لكن لا على أنَّ لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه، بل مثله، وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الأمم المعذَّبة، قال الزجاج[1] وابن جرير: الضمير في ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ يرجع إلى عاقبة الذين من قبلهم، وإنما جمع لما مرّ آنفاً، وقيل: أمثال العقوبة، وقيل: أمثال الهلكة، وقيل: أمثال التدميرة، والأول أولى؛ لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله، وقيل: المعنى[2]: ولقوم محمد أمثال تلك العاقبة، فأهلكوا بأيدي أمثالهم، الذين كانوا لا يرضون بمجالستهم، وأسروا بأيدي من كانوا يستضعفونهم، وذلك الألم من الهلاك بسبب عام، فهو أخف من هذا.

ثم بين السبب في حلول أمثال هذه العاقبة بهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عقوبة الأمم السابقة لهؤلاء، وقال بعضهم: ذلك المذكور من كون المؤمنين منصورين ظافرين، ومن كون الكافرين مقهورين مدمَّرين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: بسبب أنه تعالى ﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: ناصرهم على أعدائهم في الظاهر والباطن بسبب إيمانهم.

وقرأ ابن مسعود[3]: ﴿ذلك بأنّ الله وليُّ الذين آمنوا﴾. ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: وبسبب أنّ الكافرين لا ناصر لهم، فيدفع عنهم العذاب الحال بهم بسبب كفرهم، فالمراد:[4] ولاية النصرة لا ولاية العبودية، فإنَّ الخلق كلهم عباده

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) الشوكاني.

(٤) روح البيان.

تعالى، فنفي المولى عنهم هنا لا يعارض إثباته في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾؛ لأنّ المراد به هناك: المالك لأمورهم، المتصرف في شؤونهم، أو المعنى: لا مولىٰ لهم في اعتقادهم حيث يعبدون الأصنام، وإن كان مولاهم الحق تعالى في نفس الأمر.

ومعنى الآية[1]: ذلك الذي فعله بهم من التدمير والهلاك، ونصر المؤمنين، وإظهارهم عليهم، بسبب أنّ الله ولي من آمن به، وأطاع رسوله، وأنّ الكافرين لا ناصر لهم فيدفع ما حلّ بهم من العقوبة والعذاب.

وبعد أن بيّن حال المؤمنين والكافرين في الدنيا.. بيّن حالهم في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ذا الجلال والإكرام ﴿يُدْخِلُ﴾ يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ به، وصدّقوا رسوله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الأعمال الصالحة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين ﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة الآتية، كرامةً لهم على إيمانهم بالله، ورسوله واليوم الآخر، وهذا بيان لحكم ولايته تعالى للمؤمنين، وثمرتها الأخروية. قال الإمام الرازي[2]: كثيراً ما يقتصر الله سبحانه على ذكر الأنهار في وصف الجنة؛ لأنّ الأنهار يتبعها الأشجار، والأشجار تتبعها الثمار، والماء سبب حياة العالم، والنار سبب الإعدام. وللمؤمن الماء ينظر إليه، وينتفع به، وللكافر النار يتقلب فيها، ويتضرّر بها. انتهى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وجحدوا بالله، وكذّبوا رسوله ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾؛ أي: ينتفعون في الدنيا بمتاعها أياماً قلائل، ويعيشون ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ من طيّباتها، حريصين غافلين عن عواقبهم ﴿كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ والبهائم في مسارحها، ومعالفها، غافلة عمّا هي بصدده من النحر والذبح ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾؛ أي: والحال أنّ النار الأخروية منزل ثواء وإقامةٍ، وخلودٍ لهم، والجملة إما حال مقدرة من واو ﴿يأكلون﴾، أو مستأنفة.

---

(١) المراغي.
(٢) تفسير الرازي.

ومعنى الآية: أي والذين جحدوا توحيد الله، وكذّبوا رسوله ﷺ، يتمتعون في هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية، ويأكلون فيها غير مفكرين في عواقبهم، ومنتهى أمورهم، ولا معتبرين بما نصب الله لخلقه في الآفاق والأنفس من الحجج المؤدِّية إلى معرفة توحيده، وصدق رسوله، فمثلهم مثل البهائم، تأكل في معالفها ومسارحها، وهي غافلة عمَّا هي بصدده من النحر والذبح، فكذلك هؤلاء يأكلون، ويتلذَّذون بمتاع الدنيا، وينتفعون به كأنهم أنعام، ليس لهم هَمٌّ إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عن العاقبة، لاهون بما هم فيه، ونار جهنم مسكن ومأوى لهم، يصيرون إليها بعد مماتهم.

والخلاصة: أنّ المؤمنين عرفوا أنَّ نعيم الدنيا ظل زائل، فتركوا الشهوات، وتفرَّغوا للصالحات، فكانت عاقبتهم النعيم المقيم في مقام كريم، وإنّ الكافرين غفلوا عن ذلك، فرتعوا في الدمن كالبهائم، حتى ساقهم الخذلان إلى مقرهم من تلك النيران، أعاذنا الله منها.

فإن قلت[1]: كيف التقابل بينه وبين قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ...﴾ إلخ.

قلت ـ والله أعلم ـ: الآية من قبيل الاحتباك، ذكر الأعمال الصالحة، ودخول الجنة أولاً، دليلاً على حذف الفاسدة، ودخول النار ثانياً، وذكر التمتع والمثوى ثانياً، دليلاً على حذف التمتع والمأوى أولاً.

قال القشيري: الأنعام تأكل بلا تمييز من أي موضع وجد، كذلك لا تمييز له، أمن الحلال وجد أم من الحرام، وكذلك الأنعام، ليس لها وقت، بل في كل وقت تقتات وتأكل، كذلك الكافر أكول، كما قال ﷺ: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن يأكل في معي واحد».

وبعد أن ضرب لهم المثل بقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يعتبروا، وذكر لهم ما تقدّم من الأدلَّة على وحدانيته، ضرب المثل لنبيه تسلية له على ما يلاقي من عنت قومه وجحودهم، فقال: ﴿وَكَأَيِّن﴾ كلمة مركبة من الكاف وأيّ،

---

(١) روح البيان.

بمعنى كم الخبرية، قال المولى الجامي في «شرح الكافية»: إنما[1] بني كأيّن؛ لأنه كاف التشبيه دخلت على أيّ، وأيٌّ في الأصل: كان معرباً، لكنَّه انمحى عن الجزئين معناهما الإفرادي، فصار المجموع كاسم مفرد بمعنى كم الخبرية، فصار كأنه اسم مبني على السكون، آخره نون ساكنة كما في «من» لا تنوين تمكن، ولهذا يكتب بعد الياء نون مع أنَّ التنوين لا صورة له في الخط، انتهى. ومحلها الرفع بالابتداء ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾: تمييز لها ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ صفة لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾ ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ صفة لـ ﴿قَرْيَتِكَ﴾ وهي مكة. وقد حذف منهما المضاف وأجري أحكامه عليهما، كما يفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾.

ومعنى الآية: وكم من أهل قرية هم أشد قوّةً من أهل قريتك الذي أخرجوك منها، ووصف[2] القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوّتها، كما أنَّ وصف الثانية بإخراجه ﷺ للإيذان بأولويَّتها به لقوة جنايتها ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ فبالأولى من هو أضعف منهم، وهم: قريش الذين هم أهل قرية النبيّ ﷺ، وهي: مكة، قال مقاتل: أهلكناهم بالعذاب حين كذّبوا رسولهم، وجملة قوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾: بيانٌ لعدم خلاصهم من العذاب بواسطة الأعوان والأنصار، إثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم، و﴿الفاء﴾: لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذات، وهو حكاية حال ماضية.

ومعنى الآية[3]: أي وكثير من الأمم التي كان أهلها أشد بأساً، وأكثر جمعاً، وأعدّ عديداً من أهل مكة الذين أخرجوك أهلكناهم بأنواع العذاب، ولم يجدوا ناصراً ولا معيناً يدفع عنهم بأسنا وعذابنا، فاصبر كما صبر قبلك أولو العزم من الرسل، ولا تبْخَع نفسك عليهم حسرات، فالله مظهرك عليهم، ومهلكهم كما أهلك من قبلهم إن لم ينيبوا إلى ربهم، ويثوبوا إلى رشدهم، وغير خافٍ ما في هذا من التهديد الشديد، والوعيد الأكيد لأهل مكة.

---

(١) ملا جامي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

ثم ذكر الفارق بين حالي المؤمنين والكافرين، والسبب في كون هؤلاء في أعلىٰ علّيين، وأولئك في أسفل سافلين، فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ و﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف يقتضيه المقام، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿مِن﴾[1]: عبارةٌ عن المؤمنين المتمسكين بأدلّة الدين، والتقدير: أليس الأمر كما ذكر، فمن كان مستقراً على حجة ظاهرة، وبرهان نيرٍ من مالك أمره ومربيه، وهو القرآن، وسائر المعجزات، والحجج العقلية ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من الشر وسائر المعاصي مع كونه في نفسه أقبح القبائح، والمعنى: لا مساواة بين المهتدي والضالّ. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغة، وانهمكوا في فنون الضلالات من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم عليه، فضلاً عن حجة تدل عليها، وجمع الضمير باعتبار معنى ﴿مِن﴾، كما أنّ إفراد الأولين باعتبار لفظها، وقرىء:[2] ﴿أَمَنْ كَانَ﴾ بغير فاء.

ومعنى الآية[3]: أي أفمن كان على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أنزله في كتابه من الهدى، والعلم وبما فطره الله عليه من الفطرة السليمة، فهو على علم بأنّ له ربًّا يجازيه على طاعته إيّاه بالجنة، وعلى إساءته ومعصيته إياه بالنار، كمن حسَّن له الشيطان قبيح عمله، وأراه إيَّاه جميلاً، فهو على العمل به مقيم، وعلى السير على نهجه دائب، واتبع هواه، وجمحت به شهواته، فطفق يعدو في المعاصي ويخبُّ فيها، ويضع غير ملتفت إلى واعظ أو زاجرٍ.

والخلاصة: أيستوي الفريقان: من كان ثابتاً على حجة بينة من عند ربّه، وهي كتابه الذي أنزله على رسوله، وسائر الحجج التي أقامها في الآفاق والأنفس، ومن زيَّن له الشيطان سيّء أعماله من الشرك وسائر المعاصي، كإخراجك من قريتك، واتباع هواه من غير أن يكون له شبهة يركن إليها تعاضد ما

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

يدّعيه، وتطمئن إليها نفسه في الدفاع عمّا يدين به، كلاهما لا يستويان، ونحو الآية قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال.. بيَّن الفرق في مرجعهما ومآلهما، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: صفة الجنة التي وعدها الله سبحانه من اتقى عقابه، فأدّى فرائضه، واجتنب نواهيه ما ستسمعونه بعد، وعبَّر[1] عن المؤمنين بالمتقين؛ إيذاناً بأنَّ الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى، الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها، وترك السيئات عن آخرها، ومثلها وصفها العجيب الشأن، وهو مبتدأ محذوف الخبر؛ أي: مثل الجنة الموعودة للمؤمنين، وصفتها العجيبة الشأن ما تسمعون فيما يتلىٰ عليكم، وقوله: ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في الجنة الموعودة إلى آخره مفسر له ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ جمع نهر، وهو: مجرى الماء الفائض كما سيأتي؛ أي: فيها أنهار جارية ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؛ أي: غير متغير الطعم والرائحة واللون، وإن طالت إقامته، بخلاف ماء الدنيا؛ فإنه يتغير بطول المكث في مناقعه وفي أوانيه، مع أنه مختلف الطعوم مع اتحاد الأرض ببساطتها، وشدة اتصالها، وقد يكون متغيراً بريح منتنة من أصل خلقته، أو عارضٍ عرض له من منبعه أو مجراه. كذا في «المناسبات».

يقول الفقير[2]: قد صحَّ أنّ المياه كلها تجري من تحت الصخرة التي في المسجد الأقصى، فهي ماء واحد في الأصل، عذب فرات سائغ للشاربين، وإنما يحصل التغير من المجاري، فإنّ طباعها ليست متساوية، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ وتجاور أجزائها لا يستلزم اتحادها في نفس الأمر، بل هي متجاورة مختلفة، ومثلها العلوم، فإنها إذا مرت بطبع غير مستقيم تتغير عن أصلها، فتكون في حكم الجهل، ومن هذا القبيل علوم جميع أهل الهوى، والبدع والضلال والخرافات.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ءَاسِنٍ﴾ بالمد على وزن فاعل كضارب، من أسن يأسن، كضرب يضرب، وقرأ حميد، وابن كثير وأهل مكة: ﴿أسِنٍ﴾ بالقصر على وزن فعل، من أسن يأسن كحذر يحذر، وهما سبعيتان، وقرىء: ﴿ياسِنٍ﴾ بالياء، قال أبو علي: وذلك على تخفيف الهمز.

﴿و﴾ فيها ﴿أنهار﴾ جارية ﴿مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كألبان الدنيا بأن كان قارصاً، وهو: الذي يقرص اللسان ويقبضه، أو حازراً بتقديم الزاي وهو: الحامض، أو غير ذلك؛ لأنه لم يخرج من ضروع الإبل، والغنم والبقر.

والمعنى: لم يتغير طعمه بنفسه عن أصل خلقته، ولو أنهم أرادوا تغييره بشهوةٍ اشتهوها تغيَّر، وتغير الريح لا يفارق تغير الطعم، وذلك تركه ﴿و﴾ فيها ﴿أنهار﴾ جارية ﴿مِّنْ خَمْرٍ﴾ وهو: ما أسكر من عصير العنب، أو عام؛ أي: لكل مسكرٍ، كما في «القاموس» ﴿لَّذَّةٍ﴾؛ أي: لذيذة ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾؛ أي: ليس فيها حموضة ولا غضاضة، ولا مرارة، ولم تدنسها الأرجل بالدوس ولا الأيدي بالعصر، وليس في شربها ذهاب عقل، ولا صداع، ولا آفة من آفات خمر الدنيا، وإنّما هي لتلذذ محض.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَّذَّةٍ﴾ بالجر، على أنه صفة لـ ﴿خَمْرٍ﴾ وقرىء بالرفع على أنه صفة لـ ﴿أنهار﴾ وبالنصب على أنه مصدر، أو مفعول لأجله؛ أي: لأجل لذّة له ﴿و﴾ فيها ﴿أنهار من عسلٍ مصفىً﴾؛ أي: من عسل قد صفي من القذى، وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمع وفضلات النحل وغيرها؛ أي: خلقه الله تعالى: مصفى، لا أنه كان مختلطاً فصفي.

قال بعضهم:[3] الفرق بين الخالص والصافي: أن الخالص ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصافي قد يقال لما لا شوب فيه، والعسل: لعاب النحل وقيئه، كما قال ظهير الفارابي، وقال الدميري في: «حياة الحيوان»: وبالجملة

(١) البحر المحيط، والشوكاني، والفتوحات. (٣) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

فإنَّه يخرج من بطون النحل، ولا ندري أمن فمها أم من غيره، وقد سبق جملة النقل فيه في سورة النحل.

وبدىء بالماء[1] في الذكر؛ لأنه لا يستغنى عنه في الدنيا، ثم باللبن، لأنه يجري مجرى المطعوم لكثير من العرب في غالب أوقاتهم، ثم بالخمر؛ لأنه إذا حصل الري والشبع.. تشوفت النفس لما يستلذ به، ثم بالعسل؛ لأنَّ فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم.

أخرج أحمد، والترمذي، وصحَّحه، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي عن معاوية بن حيدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأزهار منها بعد».

فإن قيل[2]: ما الحكمة في قوله تعالى في الخمر: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾؟ ولم يقل في اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين، ولا قال في العسل: مصفّى للناظرين؟

أجاب الرازي: بأنَّ اللذّة تختلف باختلاف الأشخاص، فرب طعام يتلذذ به شخص ويعافه الآخر، فلذلك قال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بأسرها، ولأنّ الخمر كريهة الطعم في الدنيا، فقال: لذّة؛ أي: لا يكون في خمر الآخرة كراهة طعم، وأمَّا الطعم واللون.. فلا يختلفان باختلاف الناس، فإنّ الحلو، والحامض وغيرهما، يدركه كل أحدٍ، لكن قد يعافه بعض الناس، ويلتذ به البعض مع اتفاقهم أنَّ له طعماً واحداً، وكذلك اللبن، فلم يكن للتصريح بالتعميم حاجة. اهـ. «خطيب».

وقال صاحب «الروح»[3]: وبدأ بأنهار الماء لغرابتها في بلاد العرب، وشدّة حاجتهم إليها، ولما كان خلوها عن تغير أغرب.. نفاه بقوله: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾. ولمَّا كان اللبن أقل فكان جريه أنهاراً أغرب.. ثنى به، ولما كان الخمر أعز.. ثلث به، ولما كان العسل أشرفها، وأقلها.. ختم به. انتهى.

---

(1) المراغي.

(2) الفتوحات.

(3) روح البيان.

﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: للمتقين ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة الموعودة مع ما فيها من فنون الأنهار صنف ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ على وجه لا حاجة معه من قلة، ولا انقطاع. وقيل: لهم فيها زوجان من كل الثمرات أخذاً من قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ۝٥٢﴾. وفي ذكر[1] الثمرات بعد المشروب، إشارةٌ إلى أنَّ مأكول أهل الجنة للذة لا لحاجةٍ، فلهذا ذكر الثمار بعد المشروب؛ لأنها للتفكه واللذة.

﴿و﴾ لهم فيها ﴿مغفرة﴾ عظيمة كائنة ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾؛ أي: المحسن إليهم بمحو ذنوبهم السالفة أعيانها وآثارها، بحيث لا يخشون لها عاقبة بعقاب ولا عتاب، وإلا لتنغص العيش عليهم، قال في «فتح الرحمن»: قوله: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ عطف على الصنف المحذوف؛ أي: ونعيم أعطته المغفرة وسببته، وإلا فالمغفرة قبل دخول الجنة.

وفي «الخازن»: فإن قلت: المؤمن المتقي لا يدخل الجنة إلا بعد المغفرة، فكيف يكون فيها المغفرة؟.

قلت: ليس بلازم أن يكون المعنى: ولهم مغفرة فيها؛ لأنّ الواو لا تقتضي الترتيب، فيكون المعنى: ولهم فيها من كل الثمرات، ولهم مغفرة قبل دخولهم فيها، وقيل[2]: معنى ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ أي: رفع تكليفٍ عنهم، فيأكلون ويشربون من غير حساب ولا عقاب، ورفع قبيح ومكروه، فلا يحتاجون إلى غائط، ولا يمرضون بسبب تناول المأكولات والمشروبات، بخلاف الدنيا، فإنّ للأكل توابع ولوازم لا بدّ منها.

وقوله: ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ﴾ خبر[3] لمبتدأ محذوف، تقديره أمن هو خالد في هذه الجنة حسبما جرى به الوعد الكريم، كمن هو خالد في النار التي لا يطفأ لهيبها، ولا يفك أسيرها، ولا يؤنس غريبها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾؛ أي: ليس هؤلاء كأولئك، فليس من هو في الدرجات العلى

---

(١) الخازن.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.

كمن هو في الدركات السفلى، وقوله: ﴿وَسُقُوا﴾: بدل ما ذكر من أشربة أهل الجنة ﴿مَآءً حَمِيمًا﴾؛ أي: بالغاً نهاية الحرارة ﴿فَقَطَّعَ﴾ بحرارته ﴿أَمْعَآءَهُمْ﴾؛ أي: مصارينهم، معطوف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية، لكنه راعىٰ في الأول لفظ ﴿مَن﴾، وفي الثانية معناها، والحميم: الماء الحار الشديد الغليان، فإذا شربوه.. قطع أمعاءهم لفرط حرارته، والأمعاء: جمع معي، وهي ما في البطون من الحوايا، كما سيأتي في مبحث اللغة.

قيل: إذا دنا منهم.. شوى وجوههم، وانمازت فروة رؤوسهم؛ أي: انعزلت وانفرزت، فإذا شربوا.. قطع أمعاءهم، فخرجت من أدبارهم، فانظر بالاعتبار أيها الغافل عن القهار، هل يستوي الشراب العذب البارد، والماء الحميم المر؟.

وإنما ابتلاهم الله بذلك؛ لأنّ قلوبهم كانت خالية عن العلوم والمعارف الإلهية، ممتلئة بالجهل والغفلة.

﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي[1]: ومن هؤلاء الكفار الذين يتمتّعون، ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، وهم: المنافقون، أفرد الضمير باعتبار لفظ ﴿من﴾، وجمع في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ باعتبار معناها.

والمعنى: أنّ المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله ﷺ، ومواطن خطبه التي يمليها على المسلمين، حتى إذا خرجوا من عنده ﷺ ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: المنافقون على طريق الاستهزاء، وإن كان بصورة الاستعلام ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾؛ يعني: علماء الصحابة: كعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبي الدرداء رضي الله عنهم ﴿مَاذَا قَالَ﴾ محمد ﴿ءَانِفًا﴾؛ أي: في الساعة الماضية القريبة منّا قبل خروجنا في وعظه؛ أي؛ في أول وقتٍ يقرب منّا.

والمعنى: أنا لم نلتفت إلى قوله؛ لأنّه كلام ساقط، فماذا قال حين تكلم؟ والمعنى: ماذا قال قبيل هذا الوقت؟

---

(١) الشوكاني.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ءَانِفًاۚ﴾ على وزن فاعل، وابن كثير: ﴿أنفا﴾ على وزن فعل.

والمعنى[2]: أي ومن الناس منافقون يستمعون، فلا يعون ما تقول، ولا يفهمون ما تتلوا عليهم من كتاب ربك، تغافلاً عما تدعوهم إليه من الإيمان، حتى إذا خرجوا من عندك.. قالوا لمن حضر مجلسك من أهل العلم بكتاب الله: ماذ قال محمد قبل أن نفارق مجلسه؟ وما مقصدهم من ذلك إلا السخرية والاستهزاء بما يقول، وأنه مما لا ينبغي أن يؤبه به، أو يلقى لمثله سمع.

روى مقاتل: أنَّ النبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد. سألوا عبد الله بن مسعود استهزاءً، ماذا قال محمد آنفاً؟ قال ابن عباس: وقد سئلت فيمن سئل.

ثم بين سبب استهزائهم، وتهاونهم بما سمعوا، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنافقون القائلون ما ذكر التاركون اتباع الحق، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وأماتها، فلم يؤمنوا، ولا توجهت قلوبهم إلى شيء من الخير ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة، وشهواتهم العاطلة في الكفر والعناد، فلذلك فعلوا ما فعلوا مما لا خير فيه.

أي[3]: هؤلاء الذين هذه صفتهم هم الذين ختم الله على قلوبهم، فلا يهتدون للحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، واتّبعوا شهواتهم، وما دعتهم إليه أنفسهم، فلا يرجعون إلى حجة ولا برهان.

ثمّ ذكر سبحانه أضداد هؤلاء بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ إلى طريق الحق والخير، فآمنوا بالله، وعملوا بما أمرهم الله به ﴿زَادَهُمْ﴾ الله سبحانه ﴿هُدًى﴾ ورشاداً بالتوفيق والإلهام، وقيل: زادهم النبيّ ﷺ، وقيل: زادهم القرآن، وقال الفرَّاء: زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى، وقيل: زادهم نزول الناسخ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

هدى، وعلىٰ كل تقدير فالمراد: أنه زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة في الدين.

﴿وَءَاتَىٰهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى، وأعطاهم ﴿تَقْوَىٰهُمْ﴾ وخشيتهم منه تعالى؛ أي: ألهمهم إياها، وأعانهم عليها.

والمعنى: والذين اهتدوا بالإيمان، واستماع القرآن زادهم الله تعالى على اهتدائهم هدى، وبصيرة، وعلماً، وشرح صدورهم، وألهمهم رشدهم، وأعانهم على تقواه، حتى ارتقوا من درجة المهتدين إلى درجة الهادين، وخلق الله فيهم كمال التقوى، فلا يخافون لومة لائم، ويتنزه العارفون عمّا يشغل أسرارهم عن الحق، ويتبتَّلون إليه تعالى.

ثم بين أنهم في غفلة عن النظر والتأمل في عاقبة أمرهم، فقال: ﴿فهل ينظرون﴾؛ أي: المناقون والكافرون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾؛ أي: القيامة، سميت ساعة لسرعة قيامها، والاستفهام فيه: إنكاري؛ أي: ما ينتظرون إلا القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأةً، بدل اشتمال من الساعة؛ أي: أن تباغتهم بغتةً.

والمعنى[1]: أنهم لا يتذكَّرون بذكر أحوال الأمم الخالية، ولا بالإخبار بإتيان الساعة، وما فيها من عظائم الأمور، وما ينتظرون للتذكر إلا إتيان نفس الساعة بغتةً وفجأة ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ تعليل لمفاجأتها، لا لإتيانها مطلقاً، على معنى إنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكر أمر مرتقب ينتظرونه، سوى إتيان نفس الساعة بغتةً؛ لأنّه قد جاء أشراطها، وأماراتها التي منها بعثة محمد ﷺ، وانشقاق القمر، فلم يرفعوا لها رأساً، ولم يعدوها من مبادي إتيانها، فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾؛ أي[2]: فمن أين لهم التذكر والتوبة إذا جاءتهم الساعة فجأة؟؛ أي: لا تنفعهم الذكرى، إذ لا تقبل التوبة، ولا يحسب الإيمان حينئذٍ، حكم بخطئهم وفساد رأيهم في تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذٍ، و﴿أَنَّىٰ﴾: خبر مقدم، و﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾: اعتراض وسط بينهما؛ رمزاً إلى غاية سرعة مجيئها،

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وجواب ﴿إِذَا﴾: محذوف؛ أي: كيف لهم التذكُّر إذا جاءتهم الساعة، فكيف يتذكَّرون؟ وإطلاق المجيء عن قيد البغتة؛ لما أنَّ مدار استحالة نفع التذكر عند مجيئها مطلقاً لا مقيّداً بالبغتة، ويحتمل أن يكون المبتدأ محذوفاً؛ أي: فأنَّى لهم الخلاص، ويكون ﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ فاعلاً بـ ﴿جَآءَتْهُمْ﴾. اهـ «سمين». وفي «الخازن»: يعني: من أين لهم التذكر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة بغتة؟ اهـ.

وقرأ أبو جعفر الرؤاسي عن أهل مكة[1]: ﴿إنْ تأتهم﴾ على الشرط، وجوابه. ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾. وهذا غير مشكوك فيه؛ لأنها آتية لا محالة، لكن خوطبوا بما كانوا عليه من الشك، ومعناه: إن شككتم في إتيانها.. فقد جاء أعلامها، فالشكّ راجع إلى المخاطبين الشاكّين فيها.

قال الزمخشري: فإن قلت: فما جزاء الشرط على هذه القراءة؟

قلت: قوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾، ومعناه: إن تأتهم الساعة.. فكيف لهم ذكراهم؛ أي: تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم الساعة؟ يعني: لا تنفعهم الذكرى حينئذٍ؛ لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾.

فإن قلت: بم يتصل قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ على القراءتين؟

قلت: بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول، كقولك: إن أكرمني زيد.. فأنا حقيقٌ بالإكرام أكرمه.

وقرأ الجعفي وهارون عن أبي عمرو: ﴿بَغَتَّة﴾ بفتح الغين وشدّ التاء، قال صاحب «اللوامح»: وهي صفة، وانتصابها على الحال لا نظير لها في المصادر ولا في الصفات، بل في الأسماء، نحو: الحَريَّة، وهو: اسم جماعة، والسريَّة: وهو اسم مكان. انتهى.

ومعنى الآية[2]: أي إنه بعد أن قامت الأدلّة على وحدانية الله تعالى، وصدق نبوّة رسوله، وأنَّ البعث حق، وأنّ الله يهلك من كذّب رسله، ويحل بهم

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الوبال والنكال، كما شاهدوا ذلك فيمن حولهم من الأمم التي أهلكها الله لتكذيبها رسلها، ولم يبق منها إلا آثارها، ولم يفدهم كل ذلك شيئاً، ولم يتعظوا، ولم يؤمنوا، فماذا ينتظرون للعظة والاعتبار؟ لا ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتةً، إذْ جاءت علامتها، ولم يبق من الأمور الموجبة للتذكر والعظة للإيمان بالله سوى ذلك.

والخلاصة: أنّ البراهين قد نصبت، والأدلة قد وضحت على وجوب الإيمان بالله، وصدق رسوله، والبعث والنشور، وهم لم يؤمنوا، فلا يتوقع منهم إيمان بعدئذٍ، إلا حين مجيء الساعة بغتةً، وها هي ذي أشراطها قد ظهرت، ومقدّماتها قد بدأت، ولم يأبهوا بها، ولا فكّروا في أمرها، والمراد: بيان أنهم بلغوا الغاية في العناد، والنهاية في الاستكبار.

ثم أظهر خطأهم، وحكم بأنّ رأيهم آفنٌ في تأخيرهم التذكر إلى قيام الساعة، ببيان أنَّ التذكر لا يجدي نفعاً حينئذٍ، فقال: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ إلخ؛ أي: فمن أين التذكر إذا جاءتهم الساعة؟ فإنّ الذكرى لا تنفع حينئذٍ ولا تقبل التوبة، ولا ينفع الإيمان.

وبعد أن أبان أنّ الذكرى لا تنفع إذ انقضت هذه الدار التي جعلت للعمل، أمر رسوله بالثبات على ما هو عليه، والاستغفار لأتباعه، فقال: ﴿فَٱعْلَمْ﴾ يا محمد ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أنّ الشأن الأعظم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي[1]: انتفى انتفاءً عظيماً، أن يكون معبوداً بحق غير الملك الأعظم، و﴿الفاء﴾ فيه: للإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا علمت أنَّ مدار السعادة هو التوحيد والطاعة، ومناط الشقاوة: هو الإشراك والعصيان، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿اعلم أنه لا إله إلا الله﴾؛ أي: أثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، والعمل بموجبه، كقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾؛ أي: ثبتنا على الصراط المستقيم، وبهذا يندفع الإيراد بأنه ﷺ

---

(١) روح البيان.

كان عالماً بالله، وأنه لا إله إلا هو، فما فائدة هذا الأمر، كقولك للجالس: اجلس؛ أي: دم على ما أنت عليه من الجلوس، أو المعنى[1] ازدد علما إلى علمك، وقيل: إنّ هذا الخطاب وإن كان له ﷺ، فالمراد به غيره، قال أبو العالية، وسفيان بن عيينة: هذا متصل بما قبله، معناه: إذا جاءتهم فاعلم أنه لا ملجأ ولا منجا، ولا مفزع عند قيامها إلا إلى الله الذي لا إله إلا هو، وقيل: معناه: فاعلم أنه لا إله إلا الله، وأنَّ جميع الممالك تبطل عند قيامها، فلا ملك ولا حكم لأحد إلا الله الذي لا إله إلا هو، وقيل: المعنى: فاذكر أنه لا إله إلا الله، فعبَّر عن الذكر بالعلم.

وقدَّم العلم على العمل؛ تنبيهاً على فضله، واستبداده بالمزية عليه، لا سيما العلم بوحدانية الله تعالى، فإنه أول ما يجب على كل أحد، والعلم أرفع من المعرفة، ولذا قال: فاعلم دون فاعرف؛ لأن الإنسان قد يعرف الشيء ولا يحيط به علماً، فإذا علمه وأحاط به علماً.. فقد عرفه، والعلم بالألوهية من قبيل العلم بالصفات؛ لأنّ الألوهية صفة من الصفات، فلا يلزم أن يحيط بكنهه تعالى أحد، فإنه محالٌ إذ لا يعرف الله إلا الله، كما في الحديث.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾ يا محمد؛ أي: أطلب الغفران من الله سبحانه ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ هو كل مقام عالٍ ارتفع ﷺ عنه إلى أعلى، أو ما صدر منه ﷺ من ترك الأولى، وعبَّر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل، وإرشاداً له ﷺ إلى التواضع، وهضم النفس، واستقصاء العمل، أو أطلب من الله أن لا يقع منك ذنب، أو استغفر الله ليعصمك. وقيل: معنى ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾: استغفر لذنوب أهل بيتك ﴿و﴾ استغفر ﴿للمؤمنين والمؤمنات﴾؛ أي: لذنوب أمّتك بالدعاء لهم، وترغيبهم فيما يستدعي غفرانهم؛ لأنهم أحق الناس بذلك منك؛ لأنَّ ما عملوا من خيرٍ كان لك مثل أجره، إذ لمكمل الغير مثل أجر ذلك الغير.

وفي إعادة[2] حلة الاستغفار على اختلاف متعلقيه جنساً، وفي حذف

---

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.

المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، إشعارٌ بعراقتهم في الذنب، وفرط افتقارهم إلى الاستغفار، وهو سؤال المغفرة، وطلب الستر، إما من إصابة الذنب، فيكون حاصله العصمة والحفظ، وإما من إصابة عقوبة الذنب، فيكون حاصله العفو والمحو.

والمعنى[1]: أي إذا علمت سعادة المؤمنين، وعذاب الكافرين.. فاستمسك بما أنت عليه من موجبات السعادة، واستكمل حظوظ نفسك بالاستغفار من ذنبك ـ وذنوب الأنبياء أن يتركوا ما هو الأولى بمنصبهم الجليل ـ وتوجه بالدعاء والاستغفار لأتباعك من المؤمنين والمؤمنات.

وفي الحديث الصحيح: أنَّ رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به منيّ، اللهم اغفر لي هزلي، وجدي، وخطئي، وعمدي، وكل ذلك عندي». وثبت أنه ﷺ كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به منّي، أنت إلهي لا إله أنت». وجاء أيضاً أنه قال: «أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإنّي أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة». وفي رواية: «مئة مرة». وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإنّ إبليس قال: إنما أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك.. أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون». وفي الأثر المرويّ: «قال إبليس: وعزّتك وجلالك، لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله عز وجل: وعزّتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

ثم رغَّبهم سبحانه في امتثال ما يأمرهم به، ورهَّبهم مما ينهاهم عنه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾؛ أي: مكان تقلبكم الذي تتقلبون فيه في

---

(١) المراغي.

معاشكم ومتاجركم في الدنيا ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾؛ أي: مكان ثوائكم وإقامتكم في الآخرة، وقيل[1]: متقلّبكم في أعمالكم نهاراً، ومثواكم في ليلكم نياماً، وقيل: متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، ومثواكم في الأرض، أي: مقامكم فيها، قال ابن كيسان: متقلبكم من ظهر إلى بطن في الدنيا، ومثواكم في القبور، فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم في الدنيا والآخرة، فبادروا إلى الامتثال بما أمركم به، فإنه المهم لكم في المقامين.

والمعنى[2]: أي والله يعلم تصرفكم في نهاركم، ومستقركم في ليلكم، فاتقوه واستغفروه، فهو جدير بأن يتقىٰ ويخشىٰ، وأن يستغفر ويسترحم.

والخلاصة: أنه تعالى عالم بجميع أحوالكم، فلا يخفىٰ عليه شيء منها، وإن دق وخفي، فراقبوه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، وقوله: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾.

الإعراب

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة. ﴿وَصَدُّوا۟﴾: معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿وَصَدُّوا۟﴾. ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة: مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿وَءَامَنُوا۟﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿نُزِّلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل مستتر.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

﴿عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾: متعلق بـ ﴿نُزِّلَ﴾، وجملة ﴿نُزِّلَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية أو حالية. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿الْحَقُّ﴾: خبره، والجملة إما اعتراضية، أو حالية من نائب فاعل ﴿نُزِّلَ﴾. ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾: حال من ﴿الْحَقُّ﴾. ﴿كَفَّرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهِ﴾، والجملة: في محل الرفع خبر عن ﴿الذين آمنوا﴾، والجملة الاسمية: معطوفة على ما قبلها. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿كَفَّرَ﴾ ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾: مفعول به. ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿كَفَّرَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلته. ﴿اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿الباء﴾، والتقدير: ذلك كائن بسبب اتباع الذين كفروا الباطل. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿آمَنُوا﴾: صلة الموصول. ﴿اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾: حال من ﴿الْحَقَّ﴾، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ وجملة ﴿أنّ﴾: معطوفة على جملة ﴿أنّ﴾ الأولى ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: ضرباً مثل ذلك الضرب. ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق به. ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة: مستأنفة.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كما ذكر، من إضلال أعمال الكفرة وخيبتهم، وصلاح أحوال المؤمنين، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿إذا لقيتم﴾ إلخ. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿لَقِيتُمُ﴾: فعل وفاعل. ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلة الموصول، وجملة ﴿لَقِيتُمُ﴾: في محل الخفض

بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب الآتي؛ أي: فاضربوا الرقاب وقت ملاقاتكم العدو: ﴿فَضَرْبَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، ﴿ضرب﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف ناب عنه المصدر، ﴿ٱلرِّقَابِ﴾: مضاف إليه للمصدر، والتقدير: فاضربوا رقابهم، والجملة المحذوفة: جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء؛ أي: حرف تبدأ بعده الجمل، فتكون بمعنى الفاء السببية؛ أي: فإذا ترتب على قتالهم كثرة القتل.. فأسروهم. اهـ شيخنا. وجعلها أبو حيان حرف جر وغاية، قال: وهذه غاية للضرب. ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لإذا على كونها فعل شرط لها. ﴿فَشُدُّواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ الشرطية. ﴿شدُّوا الوثاق﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة جواب ﴿إِذَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَآ﴾ مستأنفة مسبَّبة عما قبلها. ﴿فَإِمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية. ﴿إما﴾: حرف تفصيل. ﴿مَنًّۢا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً؛ لأنه سبق تفصيلاً لعاقبة جملة سيقت قبله، تقديره: فإما منوا منًّا، والجملة: معطوفة على جملة ﴿شدّوا﴾. ﴿بَعْدُ﴾: في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبنيّ على الضمّ؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً؛ لافتقاره إلى المضاف إليه المحذوف؛ أي: بعد أسرهم وشدّ وثاقهم، والظرف: متعلق بالفعل المحذوف. ﴿وَإِمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إما﴾ الثانية على ﴿إما﴾ الأولى، و﴿إما﴾: عاطفة ما بعدها على ما بعد ﴿إما﴾ الأولى، أو أحدهما زائد فتكون ﴿الواو﴾: عاطفة. و﴿إما﴾: حرف تفصيل فقط. ﴿فِدَآءً﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً تقديره: وإما افدوهم فداءً، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَنًّا﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَضَعَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة. ﴿ٱلْحَرْبُ﴾: فاعل. ﴿أَوْزَارَهَاۚ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، تقديره: إلى وضع الحرب أوزارها، والجار والمجرور: متعلق إما بالضرب أو بالشدِّ، أو بالمن والفداء؛

لأنها غاية لذلك كله على ما بسط في كتب الفقه.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الأمر فيهم ما ذكر من القتل والأسر، وما بعدهما من المنّ والفداء، أو مفعول لفعل محذوف؛ أي: افعلوا بهم ذلك، والجملة: مستأنفة. ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿يَشَاءُ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لو﴾ ﴿لَانتَصَرَ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿انتصر﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق به، والجملة: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾: مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل. ﴿لِّيَبْلُوَا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يبلو﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿بَعْضَكُم﴾: مفعول به. ﴿بِبَعْضٍ﴾: متعلق بـ ﴿يبلو﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بفعل محذوف، تقديره: ولكن أمركم بالقتال لبلاء بعضكم ببعض، والجملة الاستدراكية: معطوفة على جملة ﴿لو﴾. ﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿قُتِلُوا﴾: فعل ونائب فاعل صلة الموصول. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿قُتِلُوا﴾. ﴿فَلَن﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ؛ لما في الموصول من معنى الشرط. ﴿لن﴾: حرف نصب واستقبال ونفي. ﴿يُضِلَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿لن﴾ وفاعله: ضمير يعود على الله. ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ ﴿السين﴾: حرف استقبال. ﴿يهديهم﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله: ضمير يعود على الله، والجملة: مفسرة لما قبلها. ﴿وَيُصْلِحُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿يهديهم﴾. ﴿بَالَهُمْ﴾: مفعول به. ﴿وَيُدْخِلُهُمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿يهديهم﴾، ﴿الْجَنَّةَ﴾: مفعول به ثان على السعة. ﴿عَرَّفَهَا﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على

الله ومفعول به. ﴿لهم﴾: متعلق به، والجملة: مستأنفة أو حال من فاعل ﴿يدخلهم﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، تعويضاً عمّا فات؛ أيّ من الإضافة، وجملة النداء: مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ ﴿أي﴾ أوبدل منه. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: صلة الموصول. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل مضارع وفاعل ومفعول به مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: جواب النداء. ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿فَتَعۡسٗا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ لشبه الموصول بالشرط. ﴿تَعۡسٗا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: فتعسوا تعساً. ﴿لَّهُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿تعسا﴾ أو صفة له، و﴿اللام﴾: للتبيين، والجملة المحذوفة: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية، مستأنفة. ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع معطوفة على الجملة المحذوفة على كونها خبر المبتدأ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿أنهم﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَرِهُواْ﴾: خبره ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب كراهتهم ما أنزل الله. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: ما أنزله الله. ﴿فَأَحۡبَطَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أحبط أعمالهم﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿كَرِهُواْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف يقتضيه المقام. و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أقعدوا في منازلهم فلم يسيروا في الأرض، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿لَمْ يَسِيْرُوا﴾: جازم وفعل مضارع وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾ معطوف على تلك المحذوفة. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ ﴿يَسِيرُوا﴾. ﴿فَيَنظُرُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية. ﴿يَنْظُرُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿الفاء﴾ السببية الواقعة في جواب النفي أو الاستفهام، وعلامة نصبه: حذف النون، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيّد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: ألم يكن سيرهم في الأرض فنظرهم كيف كان عاقبة الذين. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم مبنيّ على الفتح. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَاقِبَةُ﴾: اسمها. وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل النصب مفعول لـ ﴿يَنظُروا﴾ علق عنها باسم الاستفهام. ﴿الَّذِينَ﴾: مضاف إليه. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: متعلق بمحذوف صلة الموصول. ﴿دَمَّرَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿دَمَّرَ﴾ لتضمينه معنى أطبق، والجملة: مفسرة لـ ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿للكافرين﴾: خبر مقدم. ﴿أَمْثَالُهَا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿بِأَنَّ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿أنّ﴾: حرف نصب ﴿اللَّهَ﴾: اسمها، ﴿مَوْلَى﴾: خبرها. ﴿الَّذِينَ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿آمَنُوا﴾: صلة الموصول، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: ذلك كائن بسبب كون الله مولى الذين آمنوا. ﴿وَأَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أن الكافرين﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿مَوْلَىٰ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لهُم﴾: خبرها، وجملة ﴿لَا﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: معطوفة على جملة ﴿أن﴾ الأولى.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ثان على السعة. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة: في محل النصب، صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع بثبات النون، والواو: فاعل، والجملة: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الابتدائية: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾: معطوفة على جملة ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾. ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾: فعل وفاعل والجملة: صلة لـ ﴿ما﴾ المصدرية، تقديره: كأكل الأنعام، والجار والمجرور: صفة لمصدر محذوف، تقديره: أكلاً كائناً كأكل الأنعام. ﴿وَٱلنَّارُ﴾: مبتدأ. ﴿مَثْوًى﴾ خبره، ﴿لَّهُمْ﴾: صفة لـ ﴿مَثْوًى﴾، والجملة الاسمية: مستأنفة.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كأين﴾: اسم مركب من الكاف وأي، بمعنى كم الخبرية، في محل الرفع مبتدأ مبني على السكون. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿قَرْيَةٍ﴾: تمييز لـ ﴿كأيّن﴾. ﴿هِىَ﴾: مبتدأ. ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، والجملة: صفة لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿قَرْيَةٍ﴾: تمييز لـ ﴿كأيّن﴾. ﴿هِىَ﴾: مبتدأ. ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، والجملة: صفة لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾. ﴿قُوَّةً﴾ تمييز محوّل عن المبتدأ، منصوب بـ ﴿أَشَدُّ﴾، ﴿مِّن قَرْيَتِكَ﴾: متعلق بـ ﴿أَشَدُّ﴾. ﴿ٱلَّتِىٓ﴾: صفة لـ ﴿قَرْيَتِكَ﴾، ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة ﴿ٱلَّتِىٓ﴾. ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر لـ ﴿كأيّن﴾، وجملة ﴿كأيّن﴾: مستأنفة مسوقة لتسليته ﷺ. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية،

﴿نَاصِرَ﴾: اسمها. ﴿لَهُمْ﴾: خبرها، والجملة: في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾.

﴿أَفَمَن﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أليس الأمر كما ذكر، فمن كان على بينة من ربه، إلخ. والجملة المحذوفة، مستأنفة، مسوقة لبيان حال الفريقين. ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها: ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ خبرها، ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: صفة لـ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾: صلة الموصول. ﴿كَمَن﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ؛ أعني ﴿من﴾ الموصولة، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة المقدرة. ﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق به. ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: نائب فاعل، والجملة: صلة ﴿من﴾ الموصولة، وأفرد الضمير نظراً للفظ ﴿من﴾. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿زُيِّنَ﴾. ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: مفعول به، وجمع الضمير نظراً لمعنى ﴿من﴾. ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿ٱلَّتِى﴾: صفة لـ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾، ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: وعدها المتقون، وخبر المبتدأ: محذوف، قدّره سيبويه فيما يتلى عليكم: مثل الجنة، والجملة بعدها: مفسرة للمثل، وقدَّره النضر بن شميل: مثل الجنة ما تسمعون، والجملة بعدها أيضاً: مفسرة للمثل. ﴿فِيهَآ﴾: خبر مقدم. ﴿أَنْهَٰرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: إما مفسرة للمثل لا محل لها من الإعراب، أو خبر لمبتدأ مضمر؛ أي: هي فيها أنهار، أو داخلة في حيز الصلة وتكرير لها، أو حال من ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾. ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ صفة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾. ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ صفة ﴿مَّآءٍ﴾. ﴿وَأَنْهَٰرٌ﴾: معطوف على ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ الأولى. ﴿مِّن لَّبَنٍ﴾: صفة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ وجملة ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾: صفة ﴿لَّبَنٍ﴾، ﴿وَأَنْهَٰرٌ﴾: معطوف على ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ الأولى، ﴿مِّنْ خَمْرٍ﴾:

صفة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾. ﴿لَّذَّةٍ﴾؛ أي: لذيذة: صفة ﴿خَمْرٍ﴾. ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: متعلق بـ ﴿لَّذَّةٍ﴾، ﴿وَأَنْهَٰرٌ﴾: معطوف على ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ الأولىٰ. ﴿مِّنْ عَسَلٍ﴾: صفة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾. ﴿مُّصَفًّى﴾: صفة ﴿عَسَلٍ﴾.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

﴿وَلَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لهم﴾: خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بالاستقرار المحذوف الذي تعلق به الخبر، والمبتدأ: محذوف، تقديره: أصناف. و﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: نعت للمبتدأ المحذوف. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: معطوف على أصناف، أو مبتدأ خبره مقدم محذوف؛ أي: ولهم مغفرة. ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: نعت لـ ﴿مغفرة﴾. ﴿كَمَنْ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمن هو خالد في هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد، وجملة ﴿هُوَ خَٰلِدٌ﴾ صلة ﴿من﴾: الموصولة. ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدٌ﴾. ﴿وَسُقُوا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿سقوا﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة ونائب فاعل. ﴿مَآءً﴾: مفعول ثان. ﴿حَمِيمًا﴾: صفة ﴿مَآءً﴾ والجملة: معطوفة على جملة الصلة. ﴿فَقَطَّعَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قطّع﴾ فعل ماض، وفاعله: ضمير مستتر يعود على ﴿مَآءً﴾، ﴿أَمْعَآءَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجمع باعتبار معنى ﴿من﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿سقوا﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿منهم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان جانب آخر من استهزاءهم وتعنّتهم. ﴿يَسْتَمِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَّن﴾. وأفرد الضمير نظراً للفظ ﴿مَّن﴾، والجملة: صلة الموصول. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بـ ﴿يَسْتَمِعُ﴾. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿خَرَجُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْ عِندِكَ﴾: متعلق بـ ﴿خَرَجُوا﴾ والجملة: في محل

الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب الآتي، وجمع الضمير هنا وفيما بعد نظراً لمعنى ﴿مِن﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ ﴿قَالُواْ﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها، وجوابها: في محل الجر بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾، والجار والمجرور: متعلق بـ ﴿يَسْتَمِعُ﴾، والتقدير: ومنهم من يستمع إليك إلى وقت خروجهم من عندك. ﴿أُوتُواْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل. ﴿ٱلْعِلْمَ﴾: مفعول ثان لـ ﴿أُوتُواْ﴾، والجملة: صلة الموصول. ﴿مَاذَا﴾ ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي، في محل الرفع خبر. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله: ضمير مستتر يعود على محمد. ﴿ءَانِفًا﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ﴿قَالَ﴾. وجملة ﴿قَالَ﴾: صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والجملة الاسمية، في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: متعلق به، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿طَبَعَ﴾، ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الله﴾: مبتدأ ﴿ٱهْتَدَوْاْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿زَادَهُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ومفعول أول. ﴿هُدًى﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿وَءَاتَىٰهُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ومفعول أول. ﴿تَقْوَىٰهُمْ﴾: مفعول ثان، والجملة: معطوفة على جملة ﴿زَادَهُمْ﴾.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَهَلْ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿هل﴾: حرف استفهام. ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾: مفعول به. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تَأْتِيَهُم﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ ﴿بَغْتَةً﴾: حال من فاعل ﴿تَأْتِيَهُم﴾؛ أي: باغتة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة:

في تأويل مصدر منصوب على كونه بدل اشتمال من ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ تقديره: فهل ينظرون إلا الساعة إتيانها باغتةً. ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية، لإتيان الساعة مفاجأة. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مسوقة لتعليل إتيان الساعة بغتة، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَأَنَّىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أنّى﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على السكون، وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿لهُم﴾: متعلق بما تعلق به ﴿أنّى﴾. ﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر؛ أي: فالتذكر والاتعاظ كائن من أين لهم، والجملة: معطوفة على جملة ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَتْهُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾. والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إِذَا﴾: محذوف، تقديره: إذا جاءتهم الساعة بغتة.. فكيف يتذكّرون. وجملة ﴿إِذَا﴾ معترضة: لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين المبتدأ والخبر.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَٱعْلَمْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا علمت سعادة المؤمنين، وشقاوة الكافرين، وأردت بيان ما هو اللازم لك. فأقول لك: ﴿اعلم﴾. ﴿اعلم﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿أَنَّهُۥ﴾ ﴿أنّ﴾: حرف نصب ومصدر، و﴿الهاء﴾: ضمير الشأن في محل النصب اسمها، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ مع مدخولها: في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي علم؛ أي: فاعلم عدم وجود إله إلا الله. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿اعلم﴾ ﴿لِذَنۢبِكَ﴾: متعلق بـ ﴿استغفر﴾، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على ﴿لِذَنۢبِكَ﴾، ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: معطوف على ﴿للمؤمنين﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الله﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: مفعول

به. ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾: معطوف عليه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: صرفوا الناس عن الدخول في الإسلام، وذلك يستلزم أنهم منعوا أنفسهم عن الدخول فيه، فهو من صدّ صدوداً: إذا أعرض بنفسه، فيكون كالتأكيد والتفسير لما قبله، أو من صدَّه صدّاً: إذا منعه عن الشيء، فهو تأسيس لا تأكيد، وأصله: صددوا، أدغمت الدال في الدال.

﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: أبطلها وأحبطها، وأصله: أضلل، نقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد، فسكنت فأدغمت في الثانية.

﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وهو: اسم عربي، وهو مفعل من الحمد، والتكرير فيه: للتكثير، كما تقول: كرّمته فهو مكرّم، وعظّمته فهو معظّم، إذا فعلت ذلك مرةً بعد مرةً، وهو منقول من الصفة على سبيل التفاؤل أنه سيكثر حمده، وكان ﷺ كذلك. وقد روى بعض نقلة العلم فيما حكاه ابن دريد: أن النبي ﷺ لمّا ولد.. أمر عبد المطلب بجزور فنحرت، ودعا رجال قريش وكانت سنّتهم في المولود إذا ولد في استقبال الليل.. كفئوا عليه قدراً حتى يصبح، ففعلوا ذلك بالنبيّ ﷺ، فأصبحوا وقد انشقت عنه القدر، وهو شاخص إلى السماء، فلما حضرت رجال قريش وطعموا.. قالوا لعبد المطلب: ما سميت ابنك هذا؟ قال: سميته محمداً، قالوا: ما هذا من أسماء آبائك، قال: أردت أن يحمد في السموات والأرض، يقال: رجل محمود ومحمد، فمحمود لا يدل على الكثرة، ومحمد يدل على ذلك، والذي يدل على الفرق بينهما قول الشاعر:

فَلَسْتَ بِمَحْمُودٍ وَلاَ بِمُحَمَّدٍ وَلَكِنَّمَا أَنْتَ ٱلْحَبَطُ ٱلْحَبَاتِرُ

وقد سمت العرب في الجاهلية رجالاً من أبنائها بذلك، منهم: محمد بن حمران الجعفي الشاعر، وكان في عصر امرىء القيس، وسمّاه: شُوَيْعرا، ومحمد بن خولي الهمدانيّ، ومحمد بن بلال بن أحيحة، وكان زوج سلمى بنت

عمرو جدة رسول الله ﷺ أم جدّه، ومحمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، وأبو محمد بن أوس بن زيد، شهد بدراً.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾؛ أي: حالهم في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق، قال الراغب في «المفردات»: البال: الحال التي يكترث لها، ولذلك يقال: ما باليت بكذا؛ أي: ما اكترثت، ويعبر عن البال بالحال الذي ينطوي عليه الإنسان، ويقال: ما خطر كذا ببالي. انتهى. والبال: القلب، يقال: ما خطر الأمر ببالي، والحال، والعيش. يقال: فلان رخي البال والخاطر، يقال: فلان كاسف البال، وما يهتم به يقال: ليس هذا من بالي؛ أي: مما أباليه، وأمر ذو بال؛ أي: يهتم به، وما بالك، أي: ما شأنك. قال الجوهري: والبال أيضاً: رفاء العيش، يقال: فلان رخي البال؛ أي: رخي العيش، وعبارة أبي حيان: البال: الفكر، تقول: خطر في بالي كذا. ولا يثنىٰ ولا يجمع، وشذ قولهم: بالات في جمعه، وعبارة «القاموس»: والبال: الحال والخاطر والقلب والحوت العظيم، والبالة بهاء: القارورة، والجراب، ووعاء الطيب.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال الراغب: اللقاء: يقال: في الإدراك بالحس؛ أي: بالبصر والبصيرة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾؛ أي: أكثرتم فيهم القتل، قال في «الكشاف»: الإثخان: كثرة القتل، والمبالغة فيه، من قولهم: أثخنته الجراحات: إذا أثبتته، حتى تثقل عليه الحركة، وأثخنه المرض إذا أثقله، من الثخانة التي هي: الغلظ والكثافة، وفي «المفردات»: يقال: ثخن الشيء فهو ثخين: إذا غلظ ولم يستمر في ذهابه، ومنه استعير قولهم: أثخنته ضرباً واستخفافاً.

﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ الوثاق بالفتح والكسر: اسم لما يوثق به، ويشد من القيد والحبل ونحوه، والجمع: وثق كرباط وربط، وعناق وعنق، اهـ من «المصباح». قال في «الوسيط»: الوثاق: اسم من الإيثاق، يقال: أوثقه إيثاقاً ووثاقاً: إذا شدّ أسيره كيلا يفلت، وفي «القاموس»: الأسير: الأخيذ والمقيَّد والمسجون، والجمع: أسرى وأسارى بالضم، وأسارى بالفتح. اهـ. وفي «المختار»: وأسرت

قتب البعير: شددته بالإسار بوزن الإزار، ومنه سمي الأسير، كانوا يشدونه بالقد، فسمي كل أخيذ أسيراً، وإن لم يشد به، وأسره من باب ضرب أسراً وإساراً أيضاً بالكسر، فهو أسير ومأسور. اهـ. وفيه أيضاً: والقد بالكسر: سير يقد من جلدٍ غير مدبوغ. اهـ.

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا﴾ المنّ هنا: أن يترك الأمير الأسير الكافر من غير أن يأخذ منه شيئاً. ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وهو: أن يترك الأمير الأسير الكافر، ويأخذ منه مالاً أو أسيراً مسلماً في مقابلته، يقال: فداه يفديه فدى وفداءً، وفداه وافتداه وفاداه: أعطي شيئاً فانقذه، والفداء ذلك المعطي ويقصر، كما في «القاموس»، وقال الراغب: الفدى والفداء: حفظ الإنسان عن النائبة بما يبذله عنه، كما يقال: فديته بمالي، وفديته بنفسي، وفاديته بكذا. انتهى.

وفي إعلال بالإبدال، أصله: فداي، أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ﴿تضع﴾: فعل مثالي حذفت فاؤه في المضارع، و﴿أَوْزَارَهَا﴾: آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها، كالسلاح والكراع، قال الأعشى:

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا ... رِمَاحاً طِوَالاً وَخَيْلاً ذُكُورَا
وَمِنْ نَسْجِ دَاوُوْدَ مَوْضُوْنَةٌ ... تُسَاقُ مَعَ ٱلْحَيِّ عِيْراً فَعِيْرَاً

وعبارة «الكشاف»: وسميت أوزارها؛ لأنها لمَّا لم يكن لها بد من جرها فكأنها تحملها، وتستقل بها، فإذا انقضت. فكأنها وضعتها، وقيل: أوزارها، آثامها؛ يعني: حتى يترك أهل الحرب ـ وهم: المشركون ـ شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا.

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أصله: يضلل، بوزن يفعل نقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد فسكنت، فأدغمت في اللام الثانية.

﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ وفي «المفردات»: عرَّفه جعل له عرفاً؛ أي: رائحة طيّبةً، مأخوذ من العرف: وهو الرائحة الطيبة، وطعام معرّف؛ أي: مطيَّب، تقول

العرب: عرّفت القدر: إذا طيبتها بالملح، والأبازير، وقيل: هو من وضع الطعام بعضه على بعض، وهو من العرف المتتابع، كعرف الفرس؛ أي: وفّقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة، وقيل: عرَّف أهل السماء أنها لهم، وقيل: فيه حذف؛ أي: عرّف طرقها ومساكنها وبيوتها لهم، فحذف المضاف، أو حدَّدها لهم بحيث يكون لكل واحد جنة مفرزة.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾؛ أي: يوفقكم للدوام على طاعته. ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ وفي «المختار»: التعس: الهلاك، وأصله: الكب، وهو ضد الانتعاش، وقد تعس من باب قطع، وأتعسه الله، ويقال: تعساً لفلان؛ أي: ألزمه الله هلاكاً. اهـ.

وفي «المصباح»: وتعس تعساً من باب تعب لغة، فهو تعس، مثل: تعب، ويتعدَّوا بالحركة وبالهمزة، فيقال: تعسه الله بالفتح، وأتعسه، وفي الدعاء: «تعساً له، وتعس وانتكس». فالتعس: أن يخرَّ لوجهه، والنكس: أن لا يستقل بعد سقطته حتى يسقط ثانيةً، وهي أشد من الأولى.

وفي «القرطبي»: وفي التعس عشرة أقوال:

الأول: بعداً لهم. قاله ابن عباس وابن جريج.

الثاني: خزياً لهم. قاله السدّي.

الثالث: شقاءً لهم. قاله ابن زيد.

الرابع: شتماً لهم من الله. قاله الحسن.

الخامس: هلاكاً لهم. قاله ثعلب.

السادس: خيبةً لهم. قاله الضحاك وابن زياد.

السابع: قبحاً لهم. حكاه النقاش.

الثامن: رغماً لهم. قاله الضحاك أيضاً.

التاسع: شرًّا لهم. قاله ثعلب أيضاً.

العاشر: شقوة لهم. قاله أبو العالية، وقيل: إنّ التعس: الإنحطاط والعشار. قاله ابن السكيت. انتهى.

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ وفي «الشهاب»: ومعنى ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ﴾ أهلكه، ودمّر عليه: لك ما يختص به من المال والنفس، والثاني: أبلغ؛ لما فيه من العموم، بجعل مفعوله نسياً منسياً، فيتناول نفسه، وكل ما يختص به من المال، ونحوه. والإتيان بعلىٰ؛ لتضمينه معنى أطبق عليهم؛ أي: أوقعه عليهم محيطاً بهم.

﴿كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾: جمع نعم بفتحتين، وهي: الإبل والبقر والضأن والمعز.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: أهوايهم، أبدلت الياء همزة لتطرفها بعد ألفٍ زائدةٍ.

﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٌ﴾ جمع نهر بالسكون، ويحرك مجرىٰ الماء الفائض.

﴿غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ من أسن الماء بالفتح، من باب ضرب أو نصر، أو بالكسر من باب طرب لغة فيه: إذا تغير طعمه وريحه ولونه تغيَّراً منكراً. وفي «القاموس»: الآسن من الماء: الآجن؛ أي: المتغير الطعم واللون.

والمعنى: من ماء غير متغير الطعم والرائحة واللون، وإن طالت إقامته، بخلاف ماء الدنيا، فإنه يتغير بطول المكث في مناقعه وفي أوانيه.

﴿لَّذَّةٖ﴾ واللذّة: مصدر بمعنى الالتذاذ، ووقعت صفة للخمر، وهو عين لتأويلها بالمشتق؛ أي: لذيذة على حدِّ مررت برجلٍ عدل؛ أي: عادل، وفي «الكرخي»: قوله: ﴿لَّذَّةٖ﴾ يجوز أن يكون تأنيث لذٍّ، ولذٌّ بمعنى لذيذ، ولا تأويل على هذا، ويجوز أن يكون مصدراً وصف به، ففيه التأويلات المشهورة. اهـ.

﴿مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾؛ أي: لم يخرج من بطون النحل؛ أي: لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل، ولم يمت فيه بعض نحله، كعسل الدنيا. وفي «المصباح»: العسل: يذكر ويؤنث، وهو الأكثر، ويصغر على عسيلة على لغة التأنيث، ذهاباً إلى أنها قطعة من الجنس، وطائفة منه. اهـ. وفي «المختار»: العسل: يذكر

ويؤنث، يقال: منه عسل الطعام؛ أي: عمله بالعسل، وبابه ضرب ونصر، وزنجبيل معسل؛ أي: معمول بالعسل، والعاسل: الذي يأخذ العسل من بيت النحل، والنحل: عسالة، وأصل ﴿مُّصَفًّى﴾: مصفي، بوزن مفعل اسم مفعول، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وأصل الياء واو؛ لأنه من صفا يصفو.

﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جمع ثمرة؛ وهي اسم لكل ما يطعم من أحمال الشجر، ويقال لكل نفع يصدر عن شيء: ثمرة، كقولهم: ثمرة العلم العمل الصالح، وثمرة العمل الصالح الجنة.

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ أصله: سقيوا بوزن فعلوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان فحذفت الياء، وضمت القاف لمناسبة الواو.

﴿أَمْعَآءَهُمْ﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: أمعاي بالياء، أبدلت الياء همزة لما تطرفت إثر ألف أفعال الزائدة، وهو: جمع معي بالفتح والكسر، وبالقصر وهو: ما في البطون من الحوايا، وهو ما ينتقل إليه الطعام بعد المعدة.

﴿ءَانِفًا﴾؛ أي: قبيل هذا الوقت، مأخوذ من أنف الشيء لما تقدَّم منه، وأصل ذلك: الأنف بمعنى الجارحة، ثم سمي به طرف الشيء ومقدمه وأشرفه، وقرىء: بالمدّ وبالقصر، وهما: لغتان بمعنى واحد، وهما: اسما فاعل كحاذر وحذر، وآسن وأسن، إلا أنه لم يستعمل لهما فعل مجرد، بل المستعمل ائتنف يأتنف، واستأنف يستأنف، والائتناف والاستئناف: الابتداء، قال الراغب: استأنفت الشيء: أخذت أنفه؛ أي: مبدأه. ومنه. ماذا قال آنفاً.

﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يقال: استمع له وإليه: إذا أصغىٰ. ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أصله: أأتيوا بوزن أفعلوا، أبدلت الهمزة الساكنة واواً حرف مد مجانساً لحركة الأولى، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقىٰ ساكنان فحذفت الباء وضمت الياء لمناسبة الواو.

﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال الراغب: الطبع: أن يصور الشيء بصورة ما، كطبع السكة، وطبع الدراهم، وهو أعم من الختم، وأخص من النقش، والطابع

والخاتم: ما يطبع به ويختم، والطابع فاعل ذلك.

﴿أَشْرَاطُهَا﴾ الأشراط: جمع شرط: وهو العلامة، وفي «المصباح»: وجمع الشرط، شروط، مثل: فلس وفلوس، والشرط بفتحتين: العلامة، والجمع: أشراط، مثل: سبب وأسباب، ومنه أشراط الساعة؛ أي: علاماتها. اهـ.

﴿اهْتَدَوْا﴾ أصله: اهتديوا بوزن افتعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقىٰ ساكنان فحذفت الألف. ﴿زَادَهُمْ﴾ أصله: زيدهم، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَءَاتَاهُمْ﴾ أصله: أأتيهم بوزن أفعل، أبدلت الهمزة الساكنة ألفاً حرف مد من جنس حركة الأولى، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿تَقْوَاهُمْ﴾ أصله: تقويهم؛ قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. وأصل التقوى: وقيا، قلبت الواو تاءً، وقلبت الياء واواً.

﴿مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ يجوز فيهما أن يكونا مصدرين ميميين من تقلب وثوى، وأن يكونا اسمي مكان أو زمان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المقابلة بين قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ فإنه ذكر الإيمان بذلك مع اندراجه فيما قبله؛ تنويهاً بشأن المنزل عليه، كما في عطف جبرائيل على الملائكة، وتنبيهاً على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنه الأصل في الكل.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فإنه حصر الحقية فيه بتعريف طرفي الجملة.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فقد شبه أعمالهم بالضالة من الإبل، التي هي بمضيعةٍ لا ربَّ لها يحفظها ويعتني بها، أو بالماء الذي يضل في اللبن.

والمعنى: أنَّ الكفار ضلَّت أعمالهم الصالحة في جملة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي، حتى صار صالحهم مستهلكاً في غمار سيئهم.

ومنها: الطباق بين الحق والباطل في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ﴾، وكذلك بين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وبين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ شبه ترك القتال بوضع آلته، واشتق من الوضع تضع بمعنى تنتهي وتترك، بطريق الاستعارة التبعية.

وفيه أيضاً: الإسناد المجازي؛ أي: حتى يضع أهلها آلاتها، فقد أسند وضع الأوزار إلى الحرب، وإنما هو لأهلها.

وفيه أيضاً: الاستعارة المكنية، حيث شبه الحرب بمطايا ذات أوزار؛ أي: أحمال ثقال.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ ففيه مجاز مرسل، علاقته ذكر الجزء وإرادة الكل؛ لأن ضرب الرقاب عبارة عن القتل، ولكن لمَّا كان قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته وقع عبارة عن القتل، وقد أوثر المجاز لما فيه من تصوير وتجسيد؛ لأنّ في هذه العبارة كما قال الزمخشري، من الغلظة والشدَّة ما ليس في لفظ القتل، لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة، وهو: حز العنق، وإطارة العضو الذي هو أعلى البدن، وأشرف أعضائه.

ومنها: الطباق بين: ﴿مَنًّا﴾ و﴿فِدَآءً﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾؛ لأنه أطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: يثبّتكم، وعبّر بالأقدام؛ لأنّ الثبات والتزلزل يظهران فيها. وهو

مثل: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾؛ أي: دينه ورسوله.

ومنها: تكرار قوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ إشعاراً بأن الإحباط يلزم الكفر بالقرآن، ولا ينفك عنه بحال، كما في «الروح».

ومنها: التضمين في قوله: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فإنه ضمن ﴿دَمَّرَ﴾ معنى أطبق، فعدَّاه بـ ﴿على﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ تسجيلاً عليهم باسم الكفر؛ لأنَّ مقتضى السياق أن يقال: ولهم أمثالها.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ فإنه ذكر الأعمال الصالحة، ودخول الجنة أوّلاً، دليلاً على حذف الأعمال الفاسدة، ودخول النار ثانياً، وذكر التمتع والمثوى ثانياً، دليلاً على حذف التمتع والمأوىٰ أولاً.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ وجه الشبه: أنّ الأنعام تأكل بلا تمييز من أيّ موضع، كذلك الكافر لا تمييز له أمن الحلال وجد أم من الحرام، وكذلك الأنعام ليس لها وقت، بل في كل وقت تقتات وتأكل، كذلك الكافر أكول، كما قال ﷺ: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن يأكل في معي واحد».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾؛ أي: وكأيّن من أهل قرية من قريتك؛ أي: من أهل قريتك، فإنه أطلق المحل وأراد الحال. ونسبة الإخراج إليها باعتبار التسبب.

ومنها: وصف القرية الأولى بشدة القوة، للإيذان بأولوية الثانية منها

بالإهلاك لضعف قوتها، كما أن وصف الثانية بإخراجه ﷺ، للإيذان بأولويتها به لقوة جنايتها.

ومنها: التعبير بالمتقين عن المؤمنين في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: المؤمنون إيذاناً بأنّ الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى، الذي هو عبارة عن فعل المأمورات، وترك المنهيات.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ أطنب بتكرار لفظ ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ تشويقاً لنعيم الجنة.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾؛ دلالةً على عظمها.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ لأنّ فيه تأكيداً لما أفاده التنكير في ﴿مغفرة﴾ مكن الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية.

ومنها: إعادة صلة الاستغفار، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، في قوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ولذنب المؤمنين إشعاراً بعراقتهم في الذنب، وفرط افتقارهم إلى الاستغفار.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ
رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠)
طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن
تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى
أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم
مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ
كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ
الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا
رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ
(٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)
وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن
سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢)
۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا
عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ
وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ
أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ
هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ
وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[١] حال المنافقين والكافرين

---

(١) المراغي.

والمؤمنين حين استماع آيات التوحيد والحشر والبعث، وغيرها من الأمور التي أوجب الدين علينا اعتقادها بقوله فيما سلف: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾.. أردف هذا فذكر حالهم في الآيات العملية كآيات الجهاد والصلاة والزكاة ونحوها، فأبان أنَّ المؤمنين كانوا ينتظرون مجيئها، ويرجون نزولها، وإذا تأخرت.. كانوا يقولون: هلا أمرنا بشيء من ذلك؛ لينالوا ما يقربهم من ربهم، ويحصلوا على رضوانه، والزلفى إليه، وأنّ المنافقين كانوا إذا نزل شيء من تلك التكاليف.. شق عليهم، ونظروا نظرة المصروع الذي يشخص بصره خوفاً وهلعاً.

ثم ذكر نتيجة لما سلف، وفذلكة لما تقدم، فأعقب هذا بأنّ الله طرد المنافقين وأبعدهم من الخير، ومن قبل هذا أصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين، وأعمى أبصارهم، فلا يسيرون على الصراط المستقيم، أما المؤمنون فقد رضي عنهم، وأرضاهم، ونالوا محبته، ودخلوا جنته فضلاً منه ورحمةً، والله ذو الفضل العظيم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر أن أولئك المنافقين أبعدهم الله عن الخير فأصمهم فلم ينتفعوا بما سمعوا، وأعمى أبصارهم فلم يستفيدوا بما أبصروا.. بيَّن أن حالهم دائرة بين أمرين: إما أنهم لا يتدبرون القرآن إذا وصل إلى قلوبهم، أو أنهم يتدبرون ولكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة، ثم ذكر أنهم رجعوا إلى الكفر بعد أن تبين لهم الهدى بالدلائل الواضحة، والمعجزات الباهرة، وقد زيّن لهم الشيطان ذلك، وخدعهم بباطل الأمانيّ، ثمّ بيّن سبب ارتدادهم وهو قولهم لبني قريظة والنضير من اليهود: سنطيعكم في بعض أحوالكم، وهو ما حكي عنهم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآية. والله يعلم ما يصدر عنهم من كل قبيح.

ثم أردف هذا بذكر ما يصادفونه من الأهوال إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم بسبب اتباعهم أهوائهم، وعمل ما يغضب ربهم، ومن ثم أحبط

أعمالهم، وهل يعتقد هؤلاء المنافقون أنَّ الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بلىٰ إنه سيوضح ذلك لذوي البصائر، ولو نشاء لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً، ولكن لم نفعل ذلك ستراً منّا على عبادنا، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، وردّاً للسرائر إلى عالمها، وإنك لتعرفنهم فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم بمغامز يضعونها أثناء حديثهم، وقد كان يفهمها رسول الله، ويفهم مراميها، فلا تخفىٰ عليه.

ثم ذكر أنه يبتلي عباده بالجهاد وغيره، ليعلم الصادق في إيمانه، الصابر على مشاقّ التكاليف من غيره، ويختبر أعمالهم حسناتهم وسيئاتهم، فيجازيهم بما قدّموا. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر أنّ المنافقين ستفضح أسرارهم، وأنهم سيلقون شديد الأهوال حين وفاتهم.. أردف ذلك بذكر حال جماعة من أهل الكتاب: وهم بنو قريظة والنضير، كفروا بالله، وصدّوا الناس عن سبيل الله، وعادوا الرسول بعد أن شاهدوا نعته في التوراة، وما ظهر على يديه من المعجزات، فهؤلاء لن يضرُّوا الله شيئاً بكفرهم، بل يضرون أنفسهم، وسيحبط الله مكايدهم التي نصبوها لإبطال دينه.

ثم ذكر قصص بني سعد، وقد أسلموا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: قد آثرناك، وجئناك بنفوسنا وأهلينا، منّاً بذلك عليه، فنهاهم عن ذلك، وبيَّن لهم أنَّ هذا مما يبطل أعمالهم.

ثم أعقب هذا ببيان أن من كفروا وصدوا عن السبيل القويم، ثم ماتوا وهم علىٰ هذه الحال فلن يغفر الله لهم، ثم أرشد إلى أن عمل الكافرين الذي له صورة الحسنات محبط، وأن ذنبهم غير مغفور، وبعدئذٍ أردف هذا بأنّ الله خاذلهم في الدنيا والآخرة، فلا تبالوا بهم، ولا تظهروا ضعفاً أمامهم، فإنَّ الله ناصركم ولن يضيع أعمالكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا أمر المؤمنين بترك المعاصي، لأنها محبطة لثواب الأعمال الصالحة، وأمرهم بالتشمير عن ساعد الجد للجهاد، ومقاتلة الأعداء نصرة لدينه، ووعدهم بأن الله ناصرهم وهم الأعلون، فلا ينبغي لهم أن يطلبوا المهادنة من العدوّ خوراً وجبناً خوفاً على الحياة ولذاتها.. أكد هذا المعنى، فأبان أنه لا ينبغي لكم أيها المؤمنون الحرص على الدنيا، فإنها ظل زائل، وعرض غير باق، وما هي إلا لذات مؤقتة لا تلبث أن تزول، وهي مشغلة عن صالح الأعمال، فلا يليق بكم أن تعضوا عليها بالنواجذ، بل اعملوا لما يرضي ربكم يؤتكم أجوركم، وهو لا يسألكم من أموالكم إلا القليل النزر الذي فيه صلاح المجتمع للمعونة على القيام بالمرافق العامة دنيوية كانت أو دينية، وهو عليم بأنكم أشحة على أموالكم، فلو طلبها.. لبخلتم بها، وظهرت أحقادكم على طالبيها، والله قد طلب إليكم الإنفاق في سبيله، والقيام بما تحتاج إليه الدعوة، فإن بخلتم فضرر ذلك عائد إليكم، والله غني عن معونتكم، وإن أعرضتم عن الإيمان والتقوى.. يأت الله بخلق غيركم يقيمون دينه، وينصرون الدعوة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة» عن أبي العالية، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اشتياقاً منهم إلى الوحي، وحرصاً على الجهاد، لأنّ

---

(١) لباب النقول.

فيه إحدى الحسنين: إما الجنة والشهادة، وإما الظفر والغنيمة ﴿لَوْلَا﴾: تحضيضيّة؛ أي: هلا ﴿نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ نؤمر فيها بالجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾؛ أي: غير منسوخة أو مبينة لا تشابه فيها بوجه آخر سوى وجوب القتال، وعن قتادة: كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة؛ لأنّ النسخ لا يرد عليها من قبل أنَّ القتال نسخ ما كان من الصفح، والمهادنة، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة وذكر فيها القتال بطريق الأمر به؛ أي: وفرض فيها الجهاد.

قرأ الجمهور[1]: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ﴾ و﴿ذكر﴾ على بناء الفعلين للمفعول، وقرأ زيد بن علي وابن عمير: ﴿نزلت﴾ و﴿ذكر﴾ على بناء الفعلين للفاعل، ونصب ﴿القتال﴾؛ أي: ذكر الله القتال، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿فإذا أنزلت سورة محدثة﴾؛ أي: محدثة النزول. ﴿رَأَيْتَ﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ في الإيمان أو نفاق، وهو الأظهر، فيكون المراد: الإيمان الظاهري الزعمي، والكلام من إقامة المظهر مقام المضمر؛ أي: رأيت المنافقين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ جبناً وهلعاً ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ﴾؛ أي:[2] نظراً كنظر من أصابته الغشية والسكرة ﴿مِنَ﴾ أجل حلول ﴿ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجبنهم عن القتال، وميلهم إلى الكفار، قال ابن قتيبة والزجاج: يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون إليك نظراً شديداً، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت.

أي: تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً، كدأب من أصابته غشية الموت؛ أي: حيرته وسكرته إذا نزل به، وعاين الملائكة، والغشي: تعطل القوى المتحركة والحساسة لضعف القلب، واجتماع الروح إليه بسبب يُحقِّقه في داخل، فلا يجد منفذاً. ومن أسباب ذلك: امتلاء خانق، أو مؤذ بارد، أو جوع شديد، أو وجع شديد، أو آفة في عضو مشارك كالقلب والمعدة، كذا في «المغرب». وفي الآية إشارة إلى أنّ من أمارات الإيمان: تمني الجهاد والموت شوقاً إلى لقاء الله، ومن

---

(1) الشوكاني. (2) روح البيان.

أمارات الكفر والنفاق: كراهة الجهاد كراهية الموت.

ومعنى الآية(١): أي إنّ المؤمنين المخلصين في إيمانهم يشتاقون للوحي ونزول آيات الجهاد حرصاً على ثوابه، ويقولون: هلاّ أنزلت سورة تأمرنا به، فإذا أنزلت سورة واضحة الدلالة في الأمر به.. فرحوا بها، وشقّ ذلك على المنافقين، وشخصت أبصارهم هلعاً وجبناً من لقاء العدوّ، ونظروا مغتاظين بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصره حين الموت.

ونحو الآية قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

ثم هددهم وتوعّدهم، فقال: ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾؛ أي: فالموت أولى لمثل هؤلاء المنافقين، إذ حياتهم ليست في طاعة الله، فالموت خير منها، وقد يكون المعنى على التهديد والوعيد، والدعاء عليهم بالهلاك، فكأنه قيل: أهلكهم الله هلاكاً أقرب لهم من كل شرّ وهلاك، فهو نحو قولهم في الدعاء: بعداً له وسحقاً، قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد أولى لك؛ أي: وليك الهلاك وقاربك ما تكره، وأنشد قول الشاعر:

فَعَادَىٰ بَيْنَ هَادِيَتَيْنِ مِنْهَا وَأَوْلَىٰ أَنْ يَزِيدَ عَلَىٰ الثَّلَاثِ

أي: قارب أن يزيد. وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾: كلام مستقل(٢) مستأنف، محذوف منه أحد الجزئين: إما المبتدأ؛ أي: أمرهم أو أمرنا أو الأمر المرضي لله طاعة لله ولرسوله، وقول معروف بالإجابة إلى ما أمروا به من الجهاد أو الخير؛ أي: طاعة مخلصة، وقول معروف خير لهم، وقيل: هو حكاية لقولهم؛ أي: قالوا: طاعة... إلخ. ويشهد له قراءة أبيّ: ﴿يقولون طاعة وقول معروف﴾؛ أي: أمرنا ذلك كما قال في النساء: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

﴿عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾.

وقيل[1]: هو متصل بما قبله، و﴿اللام﴾ في ﴿لَهُمْ﴾: بمعنى الباء مجازةً، فأولى بهم طاعة الله وطاعة رسوله، وقول معروف بالإجابة.

والمعنى: لو أطاعوا وأجابوا.. لكانت الطاعة والإجابة أولى بهم، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء عنه.

ومعنى الآية على القول الأول: طاعة الله ورسوله، وقول معروف أمثل لهم، وأحسن مما هم فيه من الهلع والجزع والجبن من لقاء العدوّ، فمتاع الحياة الدنيا متاع قليل، وظلّ زائل، والآخرة خير لمن اتقى.

﴿فَإِذَا عَزَمَ﴾؛ أي: حتم وفرض ووجب ﴿ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: الجهاد، ووجد القتال ولزمهم، وجواب الشرط: محذوف، تقديره: خالفوا وتخلفوا؛ أي: فإذا عزم الأمر... خالف المنافقون، وكذبوا فيما وعدوا به، وقيل: الجواب قوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ كما في «البيضاوي»؛ أي: فلو صدقوا فيما قالوا من الكلام المنبىء عن الحرص على الجهاد بالجري على موجبه، أو صدقوا في إظهار الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ﴾ الصدق ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من الكذب والنفاق، والقعود عن الجهاد، وفي الآية دلالة على اشتراك الكل فيما حكي من قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾. فالمراد بهم: الذين في قلوبهم مرض.

والمعنى[2]: فإذا حضر القتال.. كرهوه وتخلّفوا عنه خوفاً وفرقاً، ولو صدقوا في إيمانهم، واتباعهم للرسول، وأخلصوا النيّة في القتال.. لكان خيراً لهم عند ربهم، إذ ينالون به الثواب والزلفىٰ عنده، ويعطيهم ما تقرُّبه أعينهم، ويدخلهم جنات النعيم.

ثم خاطب أولئك المنافقين خطاب توبيخ وتأنيب، فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ وترجيتم؛ أي: هل يتوقع منكم يا من في قلوبهم مرض ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمور الناس،

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

وتأمرتم عليهم، وجعلتم حكاماً ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالتغاور والتناهب والتقاتل والتفارق وأخذ الرشا ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ بمقاتلة بعض الأرحام بعضاً، ووأد البنات، قال الكلبي؛ أي: فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم، وتقطعوا أرحامكم، وخبر ﴿عسى﴾ ﴿أَن تُفۡسِدُواْ﴾. والشرط اعتراض بين الاسم والخبر، وهذا على لغة الحجاز، فإنَّ بني تميم لا يلحقون الضمير به.

والمعنى[1]: أنهم لضعفهم في الدين، وحرصهم على الدنيا أحقاء بأن يتوقع ذلك منه من عرف حالهم، ويقول لهم: هل عسيتم.

وقيل المعنى[2]: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾؛ أي: فعلكم ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾؛ يعني: أعرضتم عن سماع القرآن، وفارقتم أحكامه ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ يعني: تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض بالمعصية والبغي وسفك الدم، وترجعوا إلى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالإسلام، وتقطّعوا أرحاكم.

وقال أبو حيان: الأظهر: أنّ المعنى: إن أعرضتم أيّها المنافقون عن امتثال أمر الله في القتال أن تفسدوا في الأرض بعدم معونة أهل الإسلام على أعدائهم، تقطعوا أرحامكم؛ لأنّ من أرحامكم كثيراً من المسلمين، فإذا لم تعينوهم.. قطعتم أرحامكم. انتهى.

والخلاصة: أنه لا عجب بعد أن صدر منكم ما صدر، من كراهة الدفاع عن حوزة الإسلام أن تعيدوا أحوال الجاهلية جزعة إذا صرتم أمراء الناس وولاتهم.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ مبنياً للفاعل، وقرأ عليُّ بن أبي طالب: بضم التاء والواو، وكسر اللام مبنياً للمفعول، وبها قرأ ابن أبي إسحاق وورش عن

---

(١) البيضاوي.

(٢) الخازن.

(٣) الشوكاني والبحر المحيط.

يعقوب، ومعناها: فهل عسيتم إن ولي عليكم ولاة جائرون أن تخرجوا عليهم في الفتنة، وتحاربوهم، وتقطعوا أرحامكم بالبغي والظلم والقتل، وقرأ الجمهور: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾ بالتشديد على التكثير، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه، وسلام وعيسى ويعقوب وأبان وعصمة: بالتخفيف من القطع، مضارع قطع الثلاثي، وقرأ الحسن: ﴿وَتَقَطَعوا﴾ بفتح التاء والقاف على إسقاط حرف الجر؛ أي: بأرحامكم؛ لأنّ تقطع لازم، يقال: عسيت أن أفعل كذا، وعسيت بالفتح والكسر لغتان. ذكره الجوهري وغيره.

وبعد أن ذكر هناتهم، بيّن سببها، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة[1] إلى المخاطبين بطريق الالتفات، إيذاناً بأنّ ذكر إهانتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم، وهو مبتدأ، خبره: قوله تعالى: هم ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه؛ أي: أبعدهم، وطردهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق، لتصامهم عنه بسوء اختيارهم ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ لتعاميهم عمّا يشاهدونه من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق، قيل[2]: لم يقل: أصم آذانهم؛ لأنه لا يلزم من ذهاب الآذان ذهاب السماع، فلم يتعرض لها، ولم يقل: أعماهم، لأنه يلزم من ذهاب الأبصار ـ وهي الأعين ـ ذهاب الإبصار؛ لأن العين لها مدخل في الرؤية بخلاف الأذن، فلا مدخل لها في السمع.

قال سعدي المفتي: إصمام الآذان غير إذهابها، ولا يلزم من أحدهما الآخر، والصمم والعمى يوصف بكل منهما الجارحة، وكذلك مقابلهما من السماع والإبصار، ويوصف به صاحبهما في العرف المستمر، وقد ورد التنزيل على الاستعمالين، اختصر في الإصمام، وأطنب في الإعماء مع مراعاة الفواصل.

والمعنى[3]: أي فهؤلاء هم الذين أبعدهم من رحمته، فأصمهم عن الانتفاع

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

بما سمعوا، وأعمى أبصارهم عن الاستفادة مما شاهدوا من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق، فلم يكن سماعهم سماع إدراك، ولا إبصارهم إبصار اعتبار.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم. قامت الرحم، فأخذت بِحِقْوِ الرحمن، فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك» ثمّ قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ. . .﴾» الآية. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

وقد وردت أحاديث كثيرة في صلة الرحم، كما مرّ بعضها في أول سورة النساء، فلا نطيل الكلام بذكرها هنا.

و﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: ألا يلاحظ هؤلاء المنافقون هذا القرآن فلا يتدبرونه، ولا يتصفحون ما فيه من المواعظ الزاجرة، والحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة، التي تكفي من له فهم وعقل، وتزجره عن الكفر بالله، حتى لا يقعوا في المعاصي الموبقة ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ لهم ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ وأغلاقها، فلا يكاد يصل إليها ذكر أصلاً.

والمعنى: أنه لا يدخل في قلوبهم الإيمان، ولا يخرج منها الكفر والشرك، لأنَّ الله سبحانه قد طبع عليها، والمراد بالقلوب: قلوب هؤلاء المخاطبين، والأقفال: جمع قفل بالضم: وهو الحديد الذي يغلق به الباب. كما في «القاموس».

قال في «الإرشاد»[1]: ﴿أَمْ﴾: منقطعة، وما فيها من معنى بل، للانتقال من التوبيخ بعدم التدبّر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبّر، والتفكر، وما فيها من معنى الهمزة للتقرير، وتنكير القلوب: إما لتهويل حالها، وتفظيع شأنها بإبهام أمرها في الفساد والجهالة، كأنه قيل: أم على قلوب منكرة لا يعرف

(١) روح البيان.

حالها، ولا يقادر قدرها في القسوة، وإما لأنّ المراد: قلوب بعض منهم: وهم المنافقون، وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أنها أقوال مخصوصة بها مناسبة غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة التي من الحديد، إذ هي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح، انتهى.

فإن قيل: قد أخبر تعالى: بأنه أصمهم وأعمى أبصارهم، فكيف يوبخهم على ترك التدبر؟ كقولك للأعمى: أبصر، وللأصمّ: اسمع؟

أجيب عنه: بأن التكليف بما لا يطاق جائز، وقد أمر الله من علم أنه لا يؤمن بالإيمان، فلذلك وبخهم على ترك التدبّر، مع كونه أصمهم وأعمى أبصارهم. كذا في «الفتوحات».

وفي «التأويلات النجمية»: أفلا يتدبّرون القرآن، فإنّ فيه شفاء من كل داء، ليفضي بهم إلى حسن العرفان، ويخلصهم من سجن الهجران. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أم قفل الحق على قلوب أهل الهوى، فلا يدخلها زواجر التنبيه، ولا ينبسط عليها شعاع العلم، ولا يحصل لهم فهم الخطاب، وإذا كان الباب متقفلاً.. فلا الشك والإنكار الذي فيها يخرج، ولا الصدق واليقين الذي هم يدعون إليه يدخل في قلوبهم. انتهى.

قرأ الجمهور: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالجمع، وقرىء: ﴿إقفالها﴾ بكسر الهمزة على أنه مصدر، كالإقبال، وقرىء: ﴿أقفلها﴾ بالجمع على أفعل.

ومجمل معنى الآية[1]: أفلا يتدبر هؤلاء المافقون مواعظ الله التي وعظ بها في آي كتابه، ويتفكرون في حججه التي بينها في تنزيله، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون، أم هم قد أقفل على قلوبهم، فلا يعقلون ما أنزل في كتابه من العبر والمواعظ.

والخلاصة: أنهم بين أمرين، كلاهما شر، وكلاهما فيه الدمار والمصير إلى النار، فإما أنهم يعقلون ولا يتدبّرون، أو أنهم سلبوا العقول فهم لا يعون شيئاً.

---

(١) المراغي.

ولما أخبر بإقفال قلوبهم.. بين منشأ ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟﴾ ورجعوا ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ وأعقابهم؛ أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، وهم المنافقون الموصوفون بمرض القلوب، وغيره من قبائح الأفعال والأحوال، فإنهم كفروا به ﷺ ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدلائل الظاهرة، والمعجزات القاهرة ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لعنة الله عليه ﴿سَوَّلَ﴾ وزيّن ﴿لَهُم﴾ ما هم عليه من الشرك والمعاصي، جملة ﴿مِن﴾ مبتدأ وخبر وقعت خبراً لـ ﴿إِنَّ﴾؛ أي: سهل لهم ركوب العظائم، وحسنها لهم، وصورها لهم بصورة الحسن، من التسويل، وهو: تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن.

وقرأ زيد بن علي ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي: كيده على تقدير حذف مضاف من السول، وهو: استرخاء البطن.

قال قتادة[1]: هم: كفار أهل الكتاب، كفروا بالنبي ﷺ بعد ما عرفوا نعته عندهم، وبه قال ابن جرير، وقال الضحاك والسدي: هم المنافقون، قعدوا عن القتال، وهذا أولى؛ لأنّ السياق في المنافقين.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ الشيطان؛ أي: مدَّ لهم في الآمال والأماني، ووعدهم طول العمر، وقيل: إنّ الذي أملى لهم هو الله سبحانه، والمعنى: أمهلهم الله، ولم يعاجلهم بالعقوبة.

قرأ الجمهور[2]: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر، وأبو جعفر وشيبة والجحدري وابن سيرين: ﴿وأُملي لهم﴾ مبنياً للمفعول؛ أي: أمهلوا ومدوا في عمرهم، قيل: وعلى هذه القراءة يكون الفاعل هو الله أو الشيطان، كالقراءة الأولى، وقد اختار القول بأنّ الفاعل هو الله، الفراء، والمفضل، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدم ذكره قريباً، وقرأ مجاهد[3] وابن هرمز والأعمش وسلام ويعقوب: ﴿وأملي﴾ بهمزة المتكلم

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

مضارع أملي؛ أي: وأنا أنظرهم، كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾. ويجوز أن يكون ماضياً سكنت منه الياء، كما تقول في يعي: بسكون الياء.

والمعنى[1]: أي إنَّ الذين رجعوا القهقرىٰ على أعاقبهم كفّاراً من بعد ما تبيَّن لهم الهدى، وقصد السبيل، فعرفوا واضح الحجج، ثم آثروا الضلال على الهدىٰ عناداً لأمر الله، الشيطان زيَّن لهم ذلك، وخدعهم بالآمال، وحسن لهم ما في الدنيا من لذة يتمتعون بها إلى حين، ثم يعودون كما كانوا كافرين إلى نحو ذلك من وساوسه التي لا تدخل تحت الحصر، ولا يبلغها العد.

ثم ذكر كيف إنهم ضلوا، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الارتداد كائن ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنّ المنافقين المذكورين ﴿قَالُوا﴾ سرّاً ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ﴾؛ أي: قالوا لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ، مع علمهم بأنه من عند الله، حسداً وطمعاً في نزوله عليهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وذلك البعض: هو عداوة رسول الله ﷺ، ومخالفة ما جاء به، كما أفاده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾. وهم: بنو قريظة والنضير، الذين كانوا يوالونهم ويودونهم، وأرادوا بالبعض الذي أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه إظهار كفرهم، وإعلان أمرهم بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم من ديارهم، فإنهم كانوا يفعلون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية الداعية إليه لما كان لهم في إظهار الإيمان من المنافع الدنيوية.

والمعنى[2]: أي سنطيعكم في بعض أموركم، أو في بعض ما تأمروننا به، كالقعود عن الجهاد، والموافقة في الخروج معهم إن أخرجوا، والتظافر على الرسول ﷺ.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾؛ أي: إخفاءهم لما يقولون لليهود. قرأ الجمهور[3]

---

(١) المراغي.

(٢) البيضاوي.

(٣) البحر المحيط.

﴿أسرارهم﴾ بفتح الهمزة، جمع سر، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم، وقرأ الكوفيون وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وابن وثاب والأعمش: بكسر الهمزة على المصدر، و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَكَيْفَ﴾: عاطفة على محذوف، و﴿كَيْف﴾ مفعول لفعل محذوف، والظرف في قوله: ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: متعلق بذلك الفعل المحذوف، والتقدير: هم يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيلة، فكيف يفعلون إذا قبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه؟ حال كون الملائكة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾؛ أي: ظهورهم وخلفهم بمقامع الحديد، والجملة: حال من فاعل ﴿تَوَفَّتْهُمُ﴾. وهو تصوير لتوفيهم على أهول الوجوه وأفظعها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتوفىٰ أحد على معصية إلا تضرب الملائكة وجهه ودبره، والمعنى: أنه إذا تأخر عنهم العذاب، فسيكون حالهم هذا. وفي الكلام تخويف وتهديد، وقيل: ذلك عند القتال نصرة من الملائكة لرسول الله ﷺ، وقيل: ذلك يوم القيامة، والأول أولى، وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَوَفَّتْهُمُ﴾ بالتاء، وقرأ الأعمش: ﴿توفَّاهم﴾، بألف بدل التاء، فاحتمل أن يكون ماضياً ومضارعاً حذفت منه التاء.

والمعنى: أي فكيف يفعلون إذا جاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم على أقبح الوجوه وأفظعها؟ وقد مثل ذلك بحال يخافونها في الدنيا، ويجبنون عن القتال لأجلها، وهو الضرب على الوجوه والأدبار، إذ في يوم الوفاة لا نصرة لهم ولا مفر، فكيف يحترزون من الأذى، ويبتعدون من العذاب؟.

ثم بين سبب التوفي على تلك الحال الشنيعة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفّي الهائل مع الضرب ﴿بِأَنَّهُمُ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾؛ أي: ما يرضاه من الإيمان والطاعة، حيث كفروا بعد الإيمان، وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع اليهود

---

(١) الشوكاني.

﴿فَأَحۡبَطَ﴾ لأجل ذلك ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ التي عملوها حال إيمانهم من الطاعات، أو بعد ذلك من أعمال البر التي لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها، فالكفر والمعاصي سبب لإحباط الأعمال، وباعث على العذاب والنكال.

والمعنى: أي ذلك الهول الذي يرونه، من أجل أنهم انهمكوا في المعاصي، وزينت لهم الشهوات، وكرهوا ما يرضي الله من الإيمان به، والعمل على طاعته، والإخلاص له في السر والعلن، فأحبط ما عملوه من البر والخير، كالصدقات، والأخذ بيد الضعيف، ومساعدة البائس الفقير، وإغاثة الملهوف إلى نحو أولئك؛ إذ هم فعلوه وهم مشركون، فلم تكن لله ولا بأمره، بل بأمر الشيطان للفخر وحسن الأحدوثة بين الناس.

ثم بالغ في توبيخ المنافقين، وإظهار خباياهم، وإعلان نواياهم، فقال: ﴿أَمۡ حَسِبَ﴾ ﴿أَمۡ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أظن ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: نفاقٌ؛ لأنّ النفاق مرض قلبي، كالشك ونحوه؛ أي: بل أحسب المنافقون ﴿أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه؛ أي: أنه لن يظهر الله ﴿أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾؛ أي: أحقادهم وبغضهم وحسدهم للمؤمنين، والأضغان: جمع ضغن بالكسر، وهو: الحقد، والحقد: إمساك العداوة في القلب، والتربص لفرصتها؛ أي:[1] بل أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين، أن لن يخرج الله أحقادهم، ولن يبرزها لرسول الله وللمؤمنين، فتبقى أمورهم مستورةً؛ أي: إن ذلك مما يكاد يدخل تحت الاحتمال، وفي بعض الآثار: «لا يموت ذو زيغ في الدين حتى يفتضح» وذلك لأنه كحامل الثوم، فلا بد من أن تظهر رائحته، كما أنَّ الثابت في طريق السنة كحامل المسك، إذ لا يقدر على إمساك رائحته ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ﴾ إراءتهم إيّاك ﴿لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾؛ أي: لأعلمناكهم وعرفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية، تقول العرب: سأريك ما أصنع؛ أي: سأعلمك ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾؛ أي: بعلامتهم الخاصّة بهم، التي يتميَّزون بها، ونسمهم بها.

---

(١) روح البيان.

وعن أنس رضي الله عنه: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنّا في بعض الغزوات، وفيها تسعة من المنافقين، والناس يشكون منهم، فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى وجه كل منهم مكتوب هذا منافق. وفي «عين المعاني»: وعلى جبهة كل واحد مكتوب كهيئة الوشم «هذا منافق». و﴿الفاء﴾[1]: لترتيب المعرفة على الإراءة، وما بعدها معطوف على جواب ﴿لو﴾. و﴿اللام﴾: لام الجواب، وكرّرت في المعطوف للتأكيد، وأمّا ﴿اللام﴾ في قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾: فهي لام جواب قسم محذوف، و﴿لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ معناه: فحواه ومقصده ومغزاه، وما يعرضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين واستهزائه، وكان ﷺ بعد هذا لا يتكلم منافق عنده إلا عرفه، قال أبو زيد: لحنت له اللحن: إذا قلت له قولاً يفقهه عنك، ويخفى على غيره، ومنه قول الشاعر:

مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَا ... نًا فَخَيْرُ ٱلأَحَادِيثِ مَا كَانَ لَحْنَا

أي: أحسنها ما كان تعريضاً يفهمه المخاطب ولا يفهمه غيره لفطنته وذكائه، وإياه قصد بقوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾. وأصل اللحن: إمالة الكلام إلى نحو من الأنحاء لغرض من الأغراض.

أي: والله إنك يا محمد لتعرفن المنافقين في وجه خفي من القول، فيفهمه النبي ﷺ، ولا يفهمه غيره، ولكن لم يظهره إلى أن أذن الله تعالى له في إظهار أمرهم، وفي المنع من الصلاة على جنائزهم، والقيام على قبورهم.

ومعنى الآية: أي[2] ولو نشاء أيها الرسول لعرّفناك أشخاصهم، فعرفتهم عياناً بعلامات هي غالبة عليهم، ولكنّه لم يفعل ذلك في جميع المنافقين للستر على خلقه، وردّاً للسرائر إلى عالمها، وحرصاً على أن لا يؤذىٰ ذوي قرباهم من المخلصين ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾؛ أي: ولتعرفنهم فيما يدارونه من القول، فيعدلون عن التصريح بمقاصدهم إلى التعريض والإشارة، وإيّاه عنى القائل في مدح محبوبته، فقال:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

مَـنْـطِـقٌ صَـائِـبٌ وَتَـلْـحَـنُ أَحْـيَـا نَـاً وَخَـيْـرُ ٱلأَحَـادِيْـثِ مَا كَـانَ لَـحْـنَـا

يريد: أنها تتكلم بشيء وتريد غيره، وتعرض في حديثها، فتزيله عن جهته لفطنتها وذكائها، وقد كانوا يخاطبون الرسول ﷺ بألفاظ ظاهرها الحسن، وهم يعنون بها: القبيح، قال الكلبيّ: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبيّ ﷺ منافق إلا عرفه، وقال أنس: فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ، عرّفه الله ذلك بوحي أو علامة عرفها بتعريف الله إيّاه، وفي الحديث: «ما أسرَّ أحد سريرةً إلا كساه الله جلبابها، إن خيراً.. فخير، وإن شراً.. فشر».

وروي: أنَّ أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال: ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله سبحانه على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. وقد ثبت في الحديث تعيين جماعة من المنافقين، فقد روى أحمد عن عقبة بن عامر، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إنّ فيكم منافقين، فمن سميت.. فليقم، ثم قال: قم يا فلان، قم يا فلان، ثم يا فلان» حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً، ثمّ قال: «إنّ فيكم منافقين، فاتقوا الله». قال: فمرّ عمر رضي الله عنه برجل ممن سمي مقنع قد كان يعرفه، فقال: مالك، فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر الدهر.

ثم وعد سبحانه وأوعد وبشّر وأنذر، فقال: ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ونياتكم، فيجازيكم بحسب قصدكم وعملكم على ما قدّمتم من خير أو شر، إذ لا يضيع عمل عامل منكم عدلاً منه ورحمةً، وهذا وعد منه للمؤمنين، ووعيد للمنافقين، وإيذان بأنَّ حالهم بخلاف حال المنافقين ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي، لنبلونكم بالأمر بالقتال ونحوه من التكاليف الشاقّة؛ إعلاماً لا استعلاماً، أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ في إظهار العذاب، فإنّ الله تعالى عالم بجميع الأشياء ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقّ الجهاد علماً فعليّاً يتعلّق به الجزاء؛ أي: حتى[1] نعلم كائناً ما علمناه أزلاً أنه سيكون

(١) النسفي.

﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾؛ أي: نظهر أعمالكم، والأخبار: بمعنى المخبر بها؛ أي: ما يخبر به من أعمالكم، فيظهر حسنها وقبحها؛ لأنّ الخبر علىٰ حسب المخبر عنه، إن حسناً فحسن، وإن قبيحاً فقبيح؛ يعني:[1] أنا نأمركم بالجهاد، حتى يظهر المجاهد، ويتبين من يبادر منكم ويصبر عليه من غيره؛ لأنّ المراد من قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾؛ أي: على الوجود والظهور، ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾؛ أي: نظهرها ونكشفها، ليتبين للناس من يأبى القتال، ولا يصبر على الجهاد، ومن يمتثل أمره ويصبر عليه.

وقيل المعنى[2]: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾؛ أي: حتى نميّز المجاهدين في سبيل الله منكم يا معشر المنافقين والصابرين؛ أي: ونميّز الصابرين في الحرب منكم، ﴿ونبلو أخباركم﴾؛ أي: نظهر أسراركم وبغضكم وعداوتكم، ومخالفتكم لله ولرسوله.

وقرأ الجمهور الأفعال الثلاثة[3] بالنون، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالتحتية فيها كلّها، وقرأ الجمهور: ﴿وَنَبْلُوَاْ﴾ بنصب الواو عطفاً على قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾. وروى ورش عن يعقوب: إسكانها على القطع عمّا قبله.

والمعنى: أي ولنختبرنّكم بالأمر بالجهاد، وسائر التكاليف الشاقّة، حتى يتبيّن المجاهد الصابر من غيره، ويعرف ذو البصيرة في دينه من ذي الشكّ والحيرة فيه والمؤمن من المنافق، ونبلو أخباركم، فنعرف الصادق منكم في إيمانه من الكاذب، قال إبراهيم بن الأشعث: كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية.. بكى، وقال: اللهم لا تبتلنا، فإنك إذا بلوتنا.. فضحتنا، وهتكت أستارنا.

وفيه إشارة إلى أنه بنار البلاء يخلص إبريز الولاء، قيل: البلاء للولاء كاللهب للذهب، فإنّ بالبلاء والامتحان. تبين جواهر الرجال، فيظهر المخلص،

---

(١) الخازن.

(٢) تنوير المقابص.

(٣) الشوكاني.

ويفتضح المنافق، وعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان، والله تعالى عالم بخصائص جواهر الإنسان من الأزل إلى الأبد؛ لأنه خلقها على أوصافها من السعادة والشقاوة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَصَدُّوا﴾؛ أي: منعوا الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: عن دين الإسلام الموصل إلى رضا الله تعالى ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ؛ أي: خالفوه وعادوه، وصاروا في شقّ في غير شقّه، المخالفة: أصل كل شرّ إلى يوم القيامة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ بما شاهدوا من نعته ﷺ في التوراة، وبما ظهر على يديه من المعجزات، ونزل عليه من الآيات، وهم قريظة والنضير، أو المطعمون يوم بدر وهم رؤساء قريش، وقيل: المنافقون ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ بكفرهم وصدّهم ﴿شَيْئًا﴾ من الأشياء، أو لن يضرّوا الله شيئاً، من الضرر، أو لن يضرّوا رسول الله بمشاقّته شيئاً، وقد حذف المضاف؛ لتعظيمه وتفظيع مشاقّته ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾ ﴿السين﴾: لمجرد التأكيد ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: مكايدهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى، ومشاقّة رسوله، فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل، ولا يتم لهم إلا القتل، كما لقريظة وأكثر المطعمين ببدر، والجلاء عن أوطانهم كما للنضير.

وقيل: المراد بأعمالهم: ما صورته صورة أعمال الخير، كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير، وإن كانت باطلة من الأصل؛ لأنّ الكفر مانع.

والمعنى[1]: أي إنّ الذين جحدوا توحيد الله، وصدّوا الناس عن دينه الذي بعث به رسوله، وخالفوا هذا الرسول، وحاربوه، وآذوه من بعد أن استبان لهم بالأدلّة الواضحة، والبراهين الساطعة، أنه مرسل من عند ربّه، لن يضرّوا الله شيئاً، لأنّ الله بالغ أمره، وناصر رسوله، ومظهره على من عاداه وخالفه، وسيبطل مكايدهم التي نصبوها لإبطال دينه ومشاقّة رسوله، ولا يصلون بها إلى ما

---

(١) المراغي.

كانوا يبغون له من الغوائل، وستكون ثمرتها: إما قتلهم، أو جلاءهم عن أوطانهم.

والمراد بصدّ الناس عن سبيل الله: منعهم إيّاهم عن الإسلام بشتّى الوسائل، وعن متابعة الرسول والانضواء تحت لوائه.

ثمّ أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به من الفرائض والصدقة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً ﷺ فيما أمركم من الجهاد والسنة، ولا تشاقّوا الله والرسول في شيء منها ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ بمثل ما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق والرياء والسمعة والعجب والمن والأذى وغيرها.

والظاهر: النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال، كائناً ما كان من غير تخصيص بنوع معيّن.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أنّ كل عمل وطاعة لم يكن بأمر الله وسنة رسوله، فهو باطل لم يكن له ثمرة؛ لأنّه صدر عن الطبع، والطبع ظلمانيّ، وإنما جاء الشرع وهو نورانيّ ليزيل ظلمة الطبع بنور الشرع فيكون مثمراً، وثمرته أن يخرجكم من الظلمات إلى النور؛ أي: من ظلمات الطبع إلى نور الحق، فعليك بالإطاعة واستعمال الشريعة، وإيّاك والمخالفة والإهمال.

وعن أبي العالية، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضرّ مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، حتى نزلت هذه الآية، فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنّا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولاً، حتى نزلت: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات

---

(١) روح البيان.

والفواحش، فكنّا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها.. قلنا: قد هلك، حتى نزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. فكففنا عن القول في ذلك، وكنّا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً، خفنا عليه، وإن لم يصب.. رجونا له.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال في الآية: من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً بعمل سوء... فليفعل ولا قوة إلا بالله تعالى.

ثم بين سبحانه أنه لا يغفر للمصرّين على الكفر، والصدّ عن سبيل الله، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله تعالى ورسوله ﴿وَصَدُّوا۟﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن دينه الموصل إلى رضاه ﴿ثُمَّ مَاتُوا۟﴾ وفارقوا الدنيا ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ ﴿الواو﴾: للحال ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ في الآخرة، لأنّهم ماتوا على الكفر، فيحشرون على ما ماتوا عليه، كما ورد: «تموتون كما تعيشون، وتحشرون كما تموتون». فقيّد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر؛ لأنّ باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حياً، وظاهر الآية العموم، وإن كان السبب خاصّاً؛ لأنها نزلت في أصحاب القليب: وهم أبو جهل وأصحابه الذين قتلوا ببدر، وألقوا في قليب بدر، والقليب ـ بوزن أمير ـ: البئر أو القديمة منها. والمراد: البئر التي طرح فيها جيف الكفار المقتولين يوم بدر، وأما البئر التي استقى منها المشركون ذلك اليوم فهي منتنة الآن، سمعته من بعض أهل بدر حين مروري بها. ويستفاد من الآية: أنّ كل كافر مات على كفره، فالله لا يغفر له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ثم نهى سبحانه وتعالى المؤمنين عن الوهن والضعف، فقال: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾؛ أي: فلا تضعفوا أيّها المؤمنون عن قتال الكفار، والخطاب فيه لأصحاب النبيّ ﷺ، ثم وهو عام لجميع المسلمين إلى يوم القيامة، و﴿الفاء﴾ فيه: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا تبيّن لكم بما يتلى عليكم: أنّ الله عدوّهم يبطل أعمالهم فلا يغفر لهم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿لا تهنوا﴾؛ أي: لا تضعفوا عن قتالهم، فإنّ من كان الله

عليه لا يفلح ﴿و﴾ لا ﴿تدعوا﴾ الكفار ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾؛ أي: إلى الصلح فوراً؛ أي: ابتداء منكم، فإن ذلك فيه ذلة لكم، وهو مجزوم بالعطف على ﴿تَهِنُوا﴾ ويجوز نصبه بإضمار أن، قال الزجاج: منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح، وأمرهم بحربهم حتى يسلموا، واختلف العلماء[1] في هذه الآية: هل هي محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنها محكمة، وإنها ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، وقيل: منسوخة بهذه الآية، ولا يخفاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ، فإنّ الله سبحانه نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداءً، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محل واحد، حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص، قال قتادة: معنى الآية: لا تكون أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَتَدْعُوا﴾ مضارع دعا الثلاثي، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿وتدّعوا﴾ بتشديد الدال من ادّعى القوم وتداعوا، مثل قولك: ارتموا الصيد وتراموا، وقرأ الجمهور: ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ بفتح السين، وقرأ الحسن وأبو رجاء والأعمش وعيسى وطلحة وحمزة وأبو بكر: بكسرها.

وجملة قوله: ﴿وَأَنتُمُ﴾ أيّها المؤمنون ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾؛ أي: الغالبون بالسيف والحجة، في محل النصب حال من فاعل ﴿تَهِنُوا﴾، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها من النهي مؤكّدة لوجوب الانتهاء، قال الكلبيّ: آخر الأمر لكم، وإن غلبوكم في بعض الأوقات، وكذا جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَعَكُمْ﴾ بالنصر والمعونة عليهم في محل نصب على الحال، فإنّ كونهم الأغلبين، وكونه تعالى؛ أي: ناصرهم في الدارين، من أقوى موجبات الاجتناب عمّا يوهم الذلّ والضراعة، وكذا توفيته تعالى لأجور أعمالهم، حسبما يعرف عنه قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾؛ أي: لن ينقصكم سبحانه وتعالى ﴿أَعْمَٰلَكُمْ﴾؛ أي: شيئاً من أجور أعمالكم، ولن يضيّعها، بل يوفي أجورها موفّرة كاملة، من وتره يتره وتراً، من

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

باب وعد: إذا نقصه حقّه. كما سيأتي.

وعبّر[1] عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بالوتر الذي هو إضاعة شيء معتدّ به من الأنفس والأموال، مع أنّ الأعمال غير موجبة للثواب على قاعدة أهل السنة، إبرازاً لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق، وتنزيل ترك الإثابة، بمنزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها.

والمعنى: أي فلا تضعفوا أيّها المؤمنون عن جهاد المشركين، وتجبنوا عن قتالهم، وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة خوراً وإظهاراً للعجز، وأنتم العالون عليهم، والله معكم بالنصر لكم عليهم، ولا يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ عند أهل البصيرة؛ أي: إنّ الاشغال بها ﴿لَعِبٌ﴾؛ أي: شغل غير مقصود لذاته، سواء شغل عن المقصود أم لا، يقال: لعب فلان: إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً، كفعل الصبيان ﴿وَلَهْوٌ﴾؛ أي: شغل شاغل عما هو المقصود؛ لأنّ اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمّه، ولذلك يقال: آلات الملاهي؛ أي: إنّ الاشتغال بالدنيا أعمال ضائعة لا نتيجة لها، ومشغلة عن طاعة الله تعالى؛ أي: باطل وغرور لا أصل لشيء منها، ولا ثبات له، ولا اعتداد به.

وفيه[2]: إشارة إلى أنّ الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها، لا وجود لها في الحقيقة، وإنما هي أمر عارض، وخيال زائل ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ أيّها الناس بما يجب به الإيمان ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ عن الكفر والمعاصي ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾؛ أي: يعطكم ثواب إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات، التي يتنافس فيها المتنافسون، وفي الآية حث على طلب الآخرة العلية الباقية، وتنفير عن طلب الدنيا الدنية الفانية ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿أَمْوَٰلَكُمْ﴾؛ أي: لا يأمركم بإخراج جميع أموالكم في الزكاة، وسائر وجوه الخير، بحيث يخل أداؤها بمعاشكم؛

---

(١) روح المعاني. (٢) روح البيان.

لأنَّ الجمع المضاف من صيغ العموم، وإنما أمركم بإخراج القليل منها: وهو ربع العشر أو العشر، تؤدونها إلى فقرائكم، فطيبوا بها نفساً، وقيل: المعنى: لا يسألكم أموالكم، إنما يسألكم أمواله؛ لأنه أملك لها، وهو المنعم عليكم بإعطائها، وقيل: لا يسألكم الرسول أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة، كما في قوله: ﴿قُل مَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾. والأول أولى. ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا﴾؛ أي: إن يسأل الله سبحانه وتعالى إيّاكم أموالكم جميعاً ﴿فَيُحۡفِكُمۡ﴾؛ أي: يجهدكم، ويلحف عليكم بمسألة جميعها، يقال: أحفىٰ بالمسألة، وألحف وألح بمعنى واحد، والإحفاء: الاستقصاء في الكلام، ومنه إحفاء الشارب؛ أي: استئصاله؛ أي: إزالته من أصله.

وجواب الشرط قوله: ﴿تَبۡخَلُواْ﴾ بها، فلا تعطوا؛ أي: إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم.. تبخلوا بها، وتمتنعوا من الامتثال ﴿وَيُخۡرِجۡ﴾ الله سبحانه، ويعضده القراءة بنون العظمة، أو البخل؛ لأنّه سبب الإضغان ﴿أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾؛ أي: أحقادكم معطوف على جواب الشرط، قال في «عين المعاني»؛ أي: يظهر أضغانكم عند الامتناع، وقيل: ويخرج ما في قلوبكم من حبّ المال، وهذه المرتبة لمن يوقىٰ شح نفسه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ جزماً عطفاً على جواب الشرط، والفعل مسند إلى الله، أو إلى الرسول أو إلى البخل، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿ويخرج﴾ بالرفع على الاستئناف، بمعنى: وهو يخرج، وحكاها أبو حاتم عن عيسى، وفي «اللوامح»: عن عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿وَيَخْرُجُ﴾ بالياء التحتانية وفتحها، وضمّ الراء والجيم، ﴿أضغانكم﴾ بالرفع، بمعنى: وهو يخرج أو سيخرج أضغانكم رفع بفعله، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن سيرين وابن محيصن، وأيُّوب بن المتوكل، واليمانيّ: ﴿وتَخْرُجُ﴾ بتاء التأنيث مفتوحة، ﴿أضغانكم﴾ رفع به، وقرأ يعقوب الحضرميّ: ﴿ونخرج﴾ بالنون وضم الجيم،

(١) البحر المحيط.

والفاعل: ضمير يعود على الله، ﴿أضغانكم﴾ بالنصب، وهي مروية عن عيسى، إلا أنه فتح الجيم بإضمار أن، فالواو: عاطفة على مصدر متوهّم؛ أي: يكن بخلكم وإخراج أضغانكم، وهذا[1] الذي خيف أن يعتري المؤمنين، هو الذي تقرب به محمد بن مسلمة إلى كعب بن الأشرف، وتوصل به إلى قتله حين قال له: إنّ هذا الرجل قد أكثر علينا، وطلب منّا الأموال.

ومجمل معنى الآيتين: [2] يقول الله سبحانه حاضّاً عباده المؤمنين على جهاد أعدائه، والنفقة في سبيله، وبذل مهجتهم في قتال أهل الكفر به: قاتلوا أيّها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر، ولا تدعكم الرغبة في الحياة إلى ترك قتالهم، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو لا يلبث أن يضمحل ويذهب، إلا ما كان منها من عمل في سبيل الله، وطلب رضاه.

ثم رغّبهم في العمل للآخرة، فقال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا . . .﴾ إلخ؛ أي: وإن تؤمنوا بربكم، وتتقوه حقّ تقاته، فتؤدّوا فرائضه، وتجتنبوا نواهيه.. يؤتكم ثواب أعمالكم، فيعوّضكم عنها ما هو خير لكم يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم، وهو لا يأمركم بإخراجها جميعها في الزكاة، وسائر وجوه الطاعات، بل يأمركم بإخراج القليل منها: وهو ربع العشر للزكاة مواساة لإخوانكم الفقراء، ونفع ذلك عائد إليكم.

ثمّ بيّن شحّ الإنسان على ماله، وشدة حرصه عليه، فقال: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ إلخ؛ أي: إن يسألكم ربكم أموالكم فيجهدكم بالمسألة، ويلحف عليها بطلبها. تبخلوا بها وتمنعوها إياه ضنّا منكم بها، لكنه علم ذلك منكم فلم يسألكموها، فيخرج ذلك السؤال أحقادكم لمزيد حبكم للمال، قال قتادة: قد علم الله سبحانه أنّ في سؤال المال خروج الأضغان للإسلام، من حيث محبّة المال بالجبلة والطبيعة، ومن نوزع في حبيبه.. ظهرت طوّيته التي كان يسرها.

والخلاصة: قد علم الله شحّ الإنسان على المال، فلم يطلب منه إلا النزر

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) المراغي.

اليسير في الصدقات، وبذل المال في المرافق العامة لإصلاح شؤون المجتمع الإسلاميّ، كسدّ الثغور، وبناء القناطر والجسور.

ثمّ أكد ما سلف وقرّره بقوله: ﴿ها﴾ حرف تنبيه بمعنى انتبهوا ﴿أنتم﴾ كلمة[1] على حدة، وهو مبتدأ، خبره: قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: انتبهوا أنتم أيها المخاطبون هؤلاء الموصوفون؛ يعني: في قوله: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا﴾ الآية. ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. استئناف مقرّر لذلك، حيث دلّ على أنهم يدعون لإنفاق بعض أموالهم في سبيل الله، فيبخل ناس منهم، أو صلة لهؤلاء على أنه بمعنى الذين؛ أي: ها أنتم الذين تدعون، ففيه توبيخ عظيم، وتحقير من شأنهم، والإنفاق في سبيل الله يعمّ نفقة الغزو والزكاة وغيرهما؛ أي: ها أنتم أيها المؤمنون تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله، ونصرة دينه ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾ بالرفع، ومنكم من يجود؛ لأنّ من هذه ليست بشرط؛ أي: فمنكم ناس يبخلون، وهو في حيّز الدليل على الشرطية الثانية، كأنه قيل: الدليل عليه أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر، فمنكم ناس يبخلون بما يطلب منهم ويدعون إليه من الإنفاق في سبيل الله، وإذا كان منكم من يبخل باليسير من المال.. فكيف لا يبخلون بالكثير: وهو جميع الأموال.

ثم بيّن سبحانه أنّ ضرر البخل عائد على النفس، فقال: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ﴾ بالجزم؛ لأن ﴿من﴾: شرطية ﴿فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾؛ أي: بمنعها الأجر والثواب ببخله، فإنّ كلاً من ضرر البخل، نفع الإنفاق عائد إليه، فإن من يبخل وهو مريض بأجرة الطبيب، وبثمن الدواء.. فلا يبخل إلا على نفسه، والبخل يستعمل بعن وبعلىٰ؛ لتضمّنه معنى الإمساك والتعدّي؛ أي: فإنما يمسك الخير عن نفسه بالبخل ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ عنكم وعن صدقاتكم؛ لأنّه الغنيّ عن المطلب المتنزه عن الحاجة دون من عداه ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ إليه، وإلى ما عنده من الخير والرحمة، فما يأمركم به، فهو لاحتياجكم إلى ما فيه من

---

(١) روح البيان.

المنافع، فإن امتثلتم فلكم، وإن توليتم فعليكم.

وجملة قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾: معطوفة على الشرطية المتقدمة، وهي: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ إلخ؛ أي: وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى، وعما دعاكم إليه، ورغبكم فيه من الإنفاق في سبيله ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ أي: يذهبكم ويخلق مكانكم قوماً آخرين: هم أطوع لله منكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا﴾؛ أي: أولئك الآخرون ﴿أَمْثَالَكُم﴾ في التولّي عن الإيمان والتقوى والإنفاق، بل يكونون راغبين فيها، وكلمة[1] ﴿ثُمَّ﴾: للدلالة على أنّ مدخولها مما يستبعده المخاطب؛ لتقارب الناس في الأحوال، واشتراك الجل في الميل إلى المال، والخطاب في ﴿تَتَوَلَّوْا﴾ لقريش، والبدل: الأنصار. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أو للعرب، والبدل: العجم وأهل فارس، كما روي: أنه عليه السلام سئل عن القوم، وكان سلمان إلى جنبه، فضرب على فخذه، فقال: «هذا وقومه، والذي نفسي بيده، لو كان الإيمان منوطاً - أي: معلقاً - بالثريّا - النجم المعروف - لتناوله رجال من فارس». فدلّ على أنهم الفرس الذين أسلموا، أخرجه الطبراني والبيهقي وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه. وفي إسناده مقال. وقال مجاهد: هم من شاء الله من سائر الناس، وقال ابن جرير: والمعنى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ في البخل بالإنفاق في سبيل الله.

الإعراب

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

﴿وَيَقُولُ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿يقول الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾: صلته. ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض. ﴿نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة: في محل النصب، مقول لـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾:

---

(١) روح البيان.

عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة: في محل الخفض بإضافة إذا إليها، والظرف: متعلق بالجواب. ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ صفة ﴿سُورَةٌ﴾. ﴿وَذُكِرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿فيها﴾: متعلق بـ ﴿ذكر﴾ ﴿الْقِتَالُ﴾: نائب فاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿أُنزِلَتْ﴾. ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿يقول﴾ ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ خبر مقدم، ﴿مَّرَضٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة صلة الموصول.

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب حال من الموصول، إن كانت الرؤية بصرية، ومفعول ثان إن كانت قلبية، وكلا الوجهين مراد في الآية. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾. ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ﴾ مفعول مطلق مبيّن للنوع، مؤكد لعامله. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿الْمَغْشِيِّ﴾؛ لأنه اسم مفعول. ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾: متعلق به أيضاً. ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿أولى﴾: مبتدأ، وسوّغ الابتداء به قصد الدعاء. ﴿لهُم﴾: خبره؛ أي: فالهلاك كائن لهم، وعليه اقتصر أبو البقاء، أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: العقاب أو الهلاك أولى لهم؛ أي: أقرب وأدنى، ويجوز أنّ تكون اللام بمعنى الباء؛ أي: أولى وأحقّ بهم، وفي «شرح القاموس»: معناه: الويل لك، أو أولاك الله ما تكرهه، فتكون اللازم زائدة. اهـ.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾.

﴿طَاعَةٌ﴾: مبتدأ، خبره: محذوف، وسوّغ الابتداء به الوصف المحذوف؛ أي: طاعة الله ورسوله أمثل لكم وأفضل، قال الرازي: لا يقال: ﴿طَاعَةٌ﴾: نكرة لا تصلح للابتداء؛ لأنّا نقول: هي موصوفة يدل عليه قوله تعالى: ﴿قول معروف﴾ فإنه موصوف، فكأنه تعالى قال: طاعة مخلصة وقول معروف خير.

انتهى. ﴿وَقَوْلٌ﴾: معطوف على ﴿طَاعَةٌ﴾، ﴿مَّعْرُوفٌ﴾: صفة ﴿قول﴾، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: أمرنا طاعة وقول معروف. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب. ﴿فَلَوْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لو﴾. ﴿لَكَانَ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿كان﴾: فعل ماض وناقص، واسمها: ضمير يعود على الصدق. ﴿خَيْرًا﴾: خبرها، ﴿لَّهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿خَيْرًا﴾. وجملة ﴿كان﴾: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية. جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿طَاعَةٌ﴾: عطف فعلية على اسمية. ﴿فَهَلْ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿هل﴾: حرف استفهام. ﴿عَسَيْتُمْ﴾: فعل من أفعال الرجاء، ترفع الاسم وتنصب الخبر. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط: محذوف لدلالة ﴿هل عسيتم﴾ عليه تقديره: إن تولّيتم تفسدوا في الأرض وجملة الشرط: معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين ﴿عسىٰ﴾ وخبرها. ﴿أَن تُفْسِدُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾ المصدرية. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عسى﴾. ولكنّه في تأويل مشتق؛ لئلا يخبر بالمعنى عن الذات، تقديره: فهل عسيتم إفسادكم؛ أي: مفسدين إن تولّيتم، وجملة ﴿عسى﴾: مستأنفة. ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿تُفْسِدُوا۟﴾. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل، والجملة: صلة الموصول. ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أصمّهم﴾: فعل ماض ومفعول به، وفاعله: ضمير مستتر يعود على الله، والجملة: معطوفة على جملة الصلة. ﴿وَأَعْمَىٰٓ﴾ فعل وفاعل مستتر. ﴿أَبْصَٰرَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿أصمهم﴾: على كونها معطوفة على الصلة.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَفَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخيّ، داخلة على مقدر يقتضيه السياق، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: ألا يلاحظ هؤلاء المنافقون هذا القرآن فلا يتدبّرون، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ذلك المحذوف. ﴿أَمۡ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الاستفهام التقريري التوبيخي. ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾: خبر مقدم. ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾: مبتدأ مؤخر وجوباً، والجملة: جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿ٱرۡتَدُّواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾: متعلق بـ ﴿ٱرۡتَدُّواْ﴾ أو حال من فاعله. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱرۡتَدُّواْ﴾ أيضاً. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلۡهُدَى﴾: فاعل، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من بعد تبيّن الهدى لهم. ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿سَوَّلَ لَهُمۡ﴾: خبر عن ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾. والجملة الابتدائية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، وجملة ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾: معطوفة على جملة ﴿سَوَّلَ لَهُمۡ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة: مستأنفة. ﴿أنّ﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها، وجملة ﴿قَالُواْ﴾: خبرها. ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ ﴿قَالُواْ﴾. وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مجرور بالباء، والتقدير: ذلك كائن بسبب قولهم للذين كرهوا، وجملة ﴿كَرِهُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ما أنزله الله. ﴿سَنُطِيعُكُمۡ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على المتكلمين. ﴿فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُواْ﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿كيف﴾: اسم استفهام في محل الرفع خبر مقدم لمبتدأ محذوف، تقديره: فكيف حالهم؟ أو في محل النصب مفعول لفعل محذوف، تقديره: فكيف يصنعون؟ ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، الجملة: في محل الخفض مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾: معطوف على ﴿وُجُوهَهُمْ﴾. والجملة الفعلية: في محل النصب حال من ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ وجواب ﴿إِذَا﴾: معلوم مما قبله؛ أي: إذا توفّتهم الملائكة.. فكيف حالهم؟ أو ﴿إِذَا﴾ ظرف مجرد عن معنى الشرط، متعلق بالفعل المحذوف؛ أي: فكيف يصنعون وقت توفية الملائكة إياهم؟ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمُ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿أنّ﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها. ﴿اتَّبَعُوا﴾: فعل وفاعل، و﴿مَا﴾: موصولة في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك بسبب اتباعهم ما أسخط الله. ﴿أَسْخَطَ اللَّهَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿اتَّبَعُوا﴾. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿اتَّبَعُوا﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنىٰ بل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿حَسِبَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل والجملة: مستأنفة. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: خبر مقدم. ﴿مَرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: صلة الموصول. ﴿أَنْ﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن. ﴿لَنْ﴾: حرف نصب واستقبال ﴿يُخْرِجَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ

﴿لَّن﴾، ﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة: في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿حَسِبَ﴾. والتقدير: أم حسب الذين في قلوبهم مرض عدم إخراج الله أضغانهم. ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿نَشَآءُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿أريناكهم﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والرؤية هنا بصرية، تعدّت إلى مفعولين بالهمزة، والجملة جواب ﴿لو﴾: الشرطية لا محل له وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿حَسِبَ﴾. ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: رابطة للجواب مؤكّدة للأولى. ﴿عرفتهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿أريناكهم﴾. ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿عرفتهم﴾. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿تعرفن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله: ضمير يعود على محمد، و﴿الهاء﴾: مفعول به، ﴿فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾: متعلق بـ ﴿تعرفنهم﴾ أو حال من المفعول؛ أي: حال كونهم لا حنين، والجملة: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الابتدائية: مستأنفة. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿نبلوّن﴾: فعل مضارع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله: ضمير مستتر يعود على الله، و﴿الكاف﴾: مفعول به، والجملة: جواب القسم، وجملة القسم: مستأنفة أو معطوفة على جملة القسم الأولى. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿نَعْلَمَ﴾: فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة، وفاعله: ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾: مفعول به. ﴿مِنكُمْ﴾: حال من ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿نبلوّن﴾؛ أي: ولنبلونكم إلى علمنا المجاهدين والصابرين منكم. ﴿وَنَبْلُوَا۟﴾ فعل مضارع، معطوف على ﴿نَعْلَمَ﴾، وفاعله: ضمير

يعود على الله. ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ مفعول به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ ناصب واسمه. ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَصَدُّوا﴾ معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾. ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿صدوا﴾ ومضاف إليه. ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف أيضاً على ﴿كَفَرُوا﴾. ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ متعلق بـ ﴿شاقوا﴾ ﴿مَا﴾ مصدرية ﴿تَبَيَّنَ﴾ فعل ماض ﴿لَهُمُ﴾ متعلق به ﴿الْهُدَىٰ﴾ فاعل، والجملة الفعلية مع ﴿مَا﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه تقديره من بعد تبين الهدى لهم. ﴿لَن﴾: حرف نصب. ﴿يَضُرُّوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بـ ﴿لَن﴾، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول مطلق؛ أي: شيئاً من الضرر، ولك أن تعربه مفعولاً به. ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿والسين﴾: حرف استقبال. ﴿يحبط أعمالهم﴾: فعل مضارع وفعل مستتر ومفعول به معطوف على جملة ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾. ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أي﴾، منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه، ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لـ ﴿أيّ﴾، وجملة النداء: مستأنفة. وجملة ﴿آمَنُوا﴾: صلة الموصول، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ معطوف على ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية. ﴿تُبْطِلُوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية. ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلته. ﴿وَصَدُّوا﴾: معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾، ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿وَصَدُّوا﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف

عطف، ﴿مَاتُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿مَاتُواْ﴾، ﴿فَلَن﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر لما في الموصول من معنى الشرط، ﴿لن﴾: حرف نصب. ﴿يَغْفِرَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿لن﴾. ﴿لهُم﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم وجوب الجهاد، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم. ﴿لا تهنوا﴾ ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَهِنُواْ﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿وَتَدْعُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لا تهنوا﴾. ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾: متعلق به. ﴿وَأَنتُمُ﴾ ﴿الواو﴾: واو الحال. ﴿أنتُم﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾: خبره، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿وَصَدُّواْ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿مَعَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿تَهِنُواْ﴾ أيضاً. ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لن﴾: حرف نصب واستقبال. ﴿يَتِرَكُمْ﴾: فعل وفاعل. مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ومفعول به. ﴿أَعْمَٰلَكُمْ﴾: بدل اشتمال من ضمير المفعول أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: في أعمالكم، كما نصّ عليه في «المختار»، أو مفعول ثان كما يفيده كلام «المصباح». والجملة الفعلية: في محل الرفع معطوفة على الظرف على كونها خبر المبتدأ. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة، ﴿لَعِبٌ﴾: خبر، ﴿وَلَهْوٌ﴾: معطوف عليه، والجملة: مستأنفة. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿تُؤْمِنُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾: معطوف عليه، ﴿يُؤْتِكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول أول، مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه جواباً لها. ﴿أُجُورَكُمْ﴾: مفعول ثان، والجملة الشرطية. معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، عطف فعليّة على اسمية. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَسْـَٔلْكُمْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول أول معطوف على ﴿يُؤْتِكُمْ﴾،

﴿أَمْوَٰلَكُمْ﴾: مفعول ثان لـ ﴿يسأل﴾.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ ﴿يسأل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، و﴿الكاف﴾: ضمير المخاطبين في محل النصب مفعول أول، و﴿الميم﴾: حرف دالّ على الجمع، و﴿الواو﴾ للإشباع، و﴿الهاء﴾ مفعول ثان. ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿يحفكم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على الشرط. ﴿تَبْخَلُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على الجواب. ﴿هَـٰٓأَنتُمْ﴾ ﴿ها﴾: حرف تنبيه لتنبيه المخاطب على ما يلقى إليه. ﴿أنتم﴾: مبتدأ. ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: خبره، وجملة ﴿تُدْعَوْنَ﴾: مستأنفة، وأعربه بعضهم ﴿ها﴾. للتنبيه، و﴿أنتم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تُدْعَوْنَ﴾: خبره، و﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: منادى معترض بين المبتدأ والخبر؛ أي: أنتم يا هؤلاء تدعون.. إلخ. وجنح الزمخشري إلى إعراب ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: اسم موصول بمعنى الذين، وهو الخبر، وجملة ﴿تُدْعَوْنَ﴾: صلة، وتبعه البيضاوي. وكررت ﴿ها﴾؛ للتنبيه وللتأكيد. ﴿تُدْعَوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿لِتُنفِقُوا۟﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل. ﴿تنفقوا﴾: فعل مضارع وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿تنفقوا﴾ والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور، متعلق بـ ﴿تنفقوا﴾؛ أي: تدعون لإنفاقكم في سبيل الله. ﴿فَمِنكُم﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنكم تدعون للإنفاق، وأردتم بيان تفاصيل أحوالكم.. فأقول لكم: منكم من يبخل ومنكم من لا يبخل. ﴿منكم﴾: خبر مقدم، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يَبْخَلُ﴾:

صلته، والجملة الاسمية: في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الجواب أو الشرط أو هما. ﴿يبخل﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية جوازاً. ﴿إنما﴾: كافة ومكفوفة. ﴿يَبْخَلُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مِن﴾، ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿يَبْخَلُ﴾، عدّاه بـ ﴿عَن﴾؛ لتضمّنه معنى الإمساك، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿تَتَوَلَّوْا۟﴾: فعل مضارع وفاعل، مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ مجزوم على كونه جواب الشرط، ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به. ﴿غَيْرَكُمْ﴾: صفة ﴿قَوْمًا﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية، معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَكُونُوٓا۟﴾: فعل ناقص واسمه، معطوف على الجواب مجزوم. ﴿أَمْثَـٰلَكُم﴾: خبره.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَوْلَا﴾: كلمة تفيد الحثّ على حصول ما بعدها؛ أي: هلاّ أنزلت سورة في أمر الجهاد. ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾؛ أي: بيّنة واضحة، لا احتمال فيها لشيء آخر. ﴿مَّرَضٌ﴾؛ أي: ضعف في الدين وشكّ ونفاق.

﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: نظر المغمىٰ عليه خوفاً من الموت، أو المحتضر الذي لا يحرّك بصره. ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ اختلف اللغويّون، والمعربون في هذه الكلمة، فقال الأصمعيّ: إنه فعل ماض، فمعناه: قاربهم ما يهلكهم، وعلى قوله: هو فعل ماض، وفاعله: ضمير مستتر يدلّ عليه السياق؛ كأنه قيل: فأولى

هو؛ أي: الهلاك، والأكثرون على أنه اسم، ثمّ اختلف هؤلاء: فقيل: هو اسم على وزن أفعل، مشتق من الولي: وهو القرب، ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه، وقيل: اسم على وزن فعلى، مشتقّ من آل يؤول، فمعناه: الدعاء عليهم بأن يؤول أمرهم إلى المكروه، وقال الراغب: أولى: كلمة تهدّد وتخوّف، يخاطب بها من أشرف على الهلاك، فيحثّ به على عدم التعرّض، أو يخاطب به من نجا منه فينهي عن مثله ثانياً، فأكثر ما يستعمل مكرّراً، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾، وأنه حث على تأمّل ما يؤول إليه أمره لينتبه المتحرّز منه، وقال صاحب «الصحاح»: قول العرب: أولى لك: تهديد وتوعيد، ومنه قول الشاعر:

فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ وَهَلْ لِلدَّاءِ يَحْلُبُ مَنْ يَرُدُّ

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: جدَّ أولو الأمر، والعزم والعزيمة: الجدّ، وعقد القلب إلى إمضاء الأمر، والعزيمة: تعويذٌ، كأنه تصوّر أنك قد عقدت على الشيطان أن يمضي إرادته منك.

والمعنى: فإذا جدّوا في أمر الجهاد، وافترض القتال.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ بكسر السين وفتحها؛ أي: لعلكم، أو فهل يتوقّع منكم إلا الإفساد أن أعرضتم عن الإيمان والقتال؟ وكلمة عسى: تدلّ على توقّع حصول ما بعدها، ولكن التوقع من الله غير متصوّر؛ لأنّ الله عزّ وجل عالم بما كان وبما يكون، فتفيد هنا التحقق؛ أي: حقّق الله إن أعرضتم وتولّيتم عن دين الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ أنّ ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض، بالإغارة والنهب والسلب، وقطع الأرحام، كما مرّ، أو إن تولّيتم أمور الناس، أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشوة، والحكم بالظلم.

﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾: جمع رحم، والرحم في الأصل: رحم المرأة: وهو منبت الولد، ووعاؤه في البطن، ثمّ سمّيت القرابة والوصلة من جهة الولادة رحماً بطريق الاستعارة؛ لكونهم خارجين من رحم واحد.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ والتدبّر: النظر في دبر الأمور وعواقبها، وأصل التدبّر: التفكر في عاقبة الشيء وما يؤول إليه أمره، وتدبّر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب، وجمع الفهم وقت تلاوته، ويشترط فيه تقليل الغذاء من الحلال الصرف، وخلوص النيّة. اهـ. «خازن».

﴿أَقْفَالُهَآ﴾ والأقفال: جمع قفل بالضم: وهو الحديد الذي يغلق به الباب. كما في «القاموس».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ الارتداد والردّة: الرجوع في الطريق الذي جاء منه، لكن الردّة تختصّ بالكفر، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره، وأصله: ارتَدَدُوا، فكرهوا توالي المثلين، فأدغمت الدال الأولى في الثانية، على حدّ قول ابن مالك في «ألفيته».

أَوَّلَ مِثْلَيْنِ مُحَرَّكَيْنِ فِيْ كِلْمَةٍ ٱدْغِمْ لاَ كَمِثْلِ صُفَفِ

والأدبار: جمع دبر، ودبر الشيء: خلاف القبل، وكني بهما عن العضوين المخصوصين.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي: سهّل لهم، وزيّن، من التسويل: وهو تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: أمدّ لهم في الأمانيّ الكاذبة، والآمال الباطلة. قال الراغب: الإملاء: الإمداد، ومنه قيل للمدّة الطويلة: ملاوة من الدهر، وملوة من الدهر، وأصله: أملي، بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وهذه الياء أصلها واو، إلا أنها لمّا صارت رابعة.. قلبت ياء. ﴿سَنُطِيعُكُمْ﴾ أصله: سنطوعكم، من الطواعية، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ.

﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ جمع ضغن: وهو الحقد: وهو إمساك العداوة في القلب، والتربص لفرصتها. وفي «المصباح»: ضغن صدره ضغناً، من باب تعب: حقد، والاسم ضغن، والجمع: أضغان، مثل: حمل وأحمال: وهو ضغن وضاغن. وفي «المصباح» أيضاً: الحقد: الانطواء على العداوة والبغضاء، وحقد

عليه من باب ضرب وتعب يجمع على أحقاد، كحمل وأحمال، وقال عمرو بن كلثوم:

وَإنِ ٱلضُّغْنُ بَعْدَ ٱلضُّغْنِ يَبْدُوْ عَلَيْكَ وَيُخْرِجُ ٱلدَّاءَ ٱلدَّفِيْنَا

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أصله: لأريناكهم، نقلت حركة الهمزة إلى الراء فسكّنت ثم حذفت للتخفيف، فوزنه أفلنا. ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ أي: بعلامتهم التي نسمهم بها. وفي «القاموس»: والسومة بالضم، والسيمة والسيماء والسيمياء بكسرهن: العلامة، وذكر في السوم. ﴿فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: في معنى القول وفحواه ومقصده وأسلوبه، وقيل: اللحن: أن تلحن بكلامك؛ أي: تميله إلى نحو من الأنحاء، ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية، قال الشاعر:

وَلَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْهَمُوْا وَٱللَّحْنَ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلأَلْبَابِ

فاللحن: العدول بالكلام عن الظاهر، والمخطىء لاحن؛ لعدوله عن الصواب؛ أي: لكي تفهموا دون غيركم، فإنَّ اللحن يعرفه أرباب الألباب دون غيرهم، قال في «المصباح»: واللحن بفتحتين: الفطنة: وهو مصدر من باب تعب، والفاعل لحن، يتعدى بالهمزة، فيقال: ألحنته فلحن؛ أي: أفطنته ففطن: وهو سرعة الفهم، وهو ألحن من زيد؛ أي: أسبق فهماً، ولحن في كلامه لحناً من باب نفع: أخطأ في العربية، قال أبو زيد: لحن في كلامه لحناً بسكون الحاء لحوناً: إذا أخطأ في الإعراب، وخالف وجه الصواب، ولحنت بلحن فلان لحناً أيضاً: تكلمت بلغته، ولحنت له لحناً: قلت له قولاً فهمه عنّي، وخفي على غيره من القوم، وفهمته من لحن كلامه، وفحواه ومعاريضه بمعنى، قال الأزهري: لحن القول: كالعنوان، وهو كالعلامة تشير بها فيفطن المخاطب لغرضك. اهـ. وقد كان المنافقون يصطلحون فيما بينهم على ألفاظ يخاطبون بها الرسول ﷺ، ظاهرها حسن ويعنون بها القبيح، كقولهم: راعنا. اهـ «كرخي».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أصل ﴿صدوا﴾: صددوا، أدغمت الدال في الدال، وأصل ﴿شاقوا﴾: شاققوا، أدغمت القاف الأولى في الثانية، فصار شاقوا. ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ أصله: يضرون بوزن يفعلون،

حذفت نون الرفع لدخول الناصب وهو ﴿لن﴾، ثم نقلت حركة الراء الأولى إلى الضاد، فسكنت فأدغمت في الراء الثانية.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ من الوهن: وهو الضعف، أصله: توهنون، حذفت نون الرفع لدخول الجازم: وهو ﴿لا﴾ الناهية، ثم حذفت فاء الفعل المثاليّ، فمضارعه: يوهن بوزن يفعل بكسر العين، ووقعت الواو بين ياء مفتوحة وكسرة فحذفت لوقوعها بين عدوّيها: الياء والكسرة. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ جمع أعلى، أصله: الأعلوون بواوين، الأولى: لام الكلمة، والثانية: واو جمع المذكر السالم، فيقال: تحركت الواو الأولى وانفتح ما قبها فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان فحذفت الألف.

﴿يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ مضارع وتر المثاليّ، وتحذف فاؤه في المضارع. وفي «المختار»: وتره حقَّه يتره بالكسر وتراً بالكسر أيضاً: نقصه.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ويقال في الفرق بينهما: وكل ما اشتغلت به مما ليس فيه ضرر في الحال، ولا منفعة في المآل، ولم يمنعك من مهام أمورك، فهو لعب، فإن شغلك عنها.. فهو لهو، ومن ثم يقال: آلات الملاهي؛ لأنها مشغلة عن غيرها، ويقال لما دون ذلك: لعب كاللعب بالشطرنج، والنرد والحمام.

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ أصله: توتقيون استثقلت الضمة على الياء فحذفت، ثم لمّا سكنت.. حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت القاف لمناسبة الواو، ثم أبدلت الواوفاء الكلمة تاءً، وأدغمت في تاء الافتعال، وحذفت نون الرفع لعطف الفعل على فعل الشرط.

﴿فَيُحْفِكُمْ﴾؛ أي: يجهدكم بطلب الكل. والإحفاء، وكذا الإلحاف: بلوغ الغاية في كل شيء، يقال: أحفاه في المسألة: إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح. ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وفي «السمين»: بخل، وضن يتعدَّيان بعلى تارةً، وبعن أخرى، والأجود: أن يكونا حال تعدّيهما بعن مضمنين معنى الإمساك. اهـ.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أصله: تدعوون، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ أصله: تتوليون، حذفت نون الرفع لدخول الجازم، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وحذفت الألف لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أسند العزم إلى الأمر إسنادا مجازياً، وهو لأهله مثل: نهاره صائم.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ لتأكيد التوبيخ، وتشديد التقريع. اهـ «أبو السعود».

وفيه أيضاً: ما يُسمَّى في البلاغة في غير القرآن بتجاهل العارف؛ أي: سلوك طريقة الاستخبار.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾؛ لأنّ قطعها كناية عن ترك صلتها.

وفيه أيضاً: الاستعارة التصريحية الأصلية في ﴿أَرْحَامَكُمْ﴾؛ لأنّ الرحم في الأصل: وعاء الولد في البطن، أستعير لذوي القرابات لكونهم خارجين من رحم واحد.

ومنها: الإشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المفسدون ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إيذاناً بأنّ ذكر إهانتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ اختصر في الإصمام، حيث قال: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ وأطنب في الإعماء، حيث قال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخيّ في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

ومنها: تنكير ﴿قُلُوبٍ﴾ في قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ إمّا لتهويل حالها، وتفظيع شأنها، كأنه قيل: على قلوب نكرة لا يعرف حالها، وإمّا لأنّ المراد بها: قلوب بعض منهم: وهم المنافقون.

وفيه أيضاً: الاستعارة التصريحية، حيث شبّه قلوبهم بالأبواب المقفلة، فهي لا تنفتح لوعظ واعظ.

ومنها: إضافة الأقفال إلى ضمير القلوب؛ للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها، مناسبة لها، غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة التي من الحديد، إذ هي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح. اهـ «أبو السعود».

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ وهو كناية عن الكفر بعد الإيمان.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾؛ لأنّ بلاء الأخبار كناية عن بلاء الأعمال.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾، لأنّ الصدّ والمشاقة عين الكفر.

ومنها: زيادة السين في قوله: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لمجرد التأكيد.

ومنها: تكرار اللام الرابطة لجواب ﴿لو﴾ في قوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ لمجرد التأكيد بعد قوله: ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ حيث عبّر بنون العظمة لإبراز العناية بالإراءة.

ومنها: حذف المضاف في قوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: لن يضرّوا رسول الله بمشاقته شيئاً، فقد حذف المضاف لتعظيمه، وتفظيع مشاقّته.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ حيث

عبّر عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بالوتر، الذي هو إضافة شيء معتدّ به من الأنفس والأموال، فاستعار الوتر الذي بمعنى إضاعة الأموال، لترك الإثابة على الأعمال، فاشتقّ من الوتر الذي بمعنى ترك الإثابة، يتر بمعنى يترك الإثابة، على طريقة الاستعارة التبعية.

ومنها: قصد العموم بقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾؛ لأنّ الجمع المضاف من صيغ العموم. فالمراد: جميع أموالكم.

ومنها: تكرار ها التنبيه في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ للتأكيد.

ومنها: تكرار لفظ ﴿يَبْخَلُ﴾؛ استهجاناً له، وتنفيراً منه.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾؛ أي: ومنكم من يجود، وحذف هذا المقابل؛ لأنّ المراد: الاستدلال على البخل. اهـ «خطيب».

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

ومنها: الإتيان بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾؛ للدلالة على أنّ مدخولها مما يستبعده المخاطبون لتقارب الناس في الأحوال، واشتراكهم في الميل إلى المال.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على ثلاثة مقاصد:

١ ـ وصف الكافرين والمؤمنين من أوّل السورة إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾.

٢ ـ جزاء الفريقين في الدنيا والآخرة، من خذلان ونصر ونار وجنة، من قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾.

٣ ـ الوعد والوعيد للمنافقين والمرتدين، من قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ...﴾ إلى آخر السورة[1].

والله أعلم

* * *

(١) فرغت من تفسير هذه السورة عصر يوم الخميس في تاريخ ١٧/٢/١٤١٥ هـ.

سورة الفتح

قال القرطبي: سورة الفتح مدنية بالإجماع[١]، ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، وقد أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سولة الفتح بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وأخرج ابن إسحاق والحاكم وصححه، والبيهقي في «الدلائل» عن المسور بن مخرمة ومروان، قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، من أولها إلى آخرها، وهذا لا ينافي الإجماع على كونها مدنية؛ لأنّ المراد بالسور المدنية: النازلة بعد الهجرة من مكة.

وهي تسع وعشرون آيةً، وخمس مئة وستون كلمةً، وألفان وأربع مئة وثمانية وثلاثون حرفاً، نزلت بعد سورة الجمعة.

تسميتها: سميت سورة الفتح؛ لأنّ الله تعالى بشّر المؤمنين بالفتح المبين، حيث قال في أولها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ الآيات.

فضلها: نزلت هذه السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية، ولما نزلت هذه السورة. قال رسول الله ﷺ: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة، هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها». ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ أخرجه أحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب.

مناسبتها لما قبلها من ثلاثة أوجه[٢]:

١ ـ أنّ الفتح المراد به النصر مرتب على القتال، وجاء في سورة محمد تعليم المؤمنين كيفية القتال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾، ثم ذكر هنا بيان

---

(١) القرطبي.

(٢) المراغي.

الثمرة اليانعة لتلك الكيفية، وهي النصر والفتح.

٢ - في كلتا السورتين ذكر محمد والفتح، وذكر المؤمنين المخلصين والمشركين والمنافقين.

٣ - وفي السورة السالفة أمر النبيّ ﷺ بالاستغفار لذنبه، وللمؤمنين والمؤمنات، وافتتحت هذه السورة بذكر حصول المغفرة.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها[١]: أنه تقدم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟...﴾ الآية. وهو خطاب لكفار قريش، أخبر رسوله ﷺ بالفتح العظيم، وأنه بهذا الفتح حصل الاستبدال، وآمن كل من كان بها، وصارت مكة دار إيمان، ولما قفل رسول الله ﷺ من صلح الحديبية.. تكلّم المنافقون، وقالوا: لو كان محمد نبياً، ودينه حقاً.. ما صدّ عن البيت، ولكان فتح مكة، فأكذبهم الله تعالى، وأضاف عز وجل الفتح إلى نفسه؛ إشعاراً بأنه من عند الله، لا بكثرة عَدد ولا عُدد، وأكّده بالمصدر، ووصفه بأنه مبين مظهر لما تضمّنه من النصر والتأييد.

والظاهر: أنّ هذا الفتح هو فتح مكة، وقال الكلبي وجماعة: وهو المناسب لآخر السورة التي قبل هذه، لما قال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾ الآية.. بين أنه فتح لهم مكة، وغنموا، وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا، ولو بخلوا.. لضاع عليهم، فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم، وأيضاً لما قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.. بيّن برهانه بفتح مكة، فإنهم كانوا هم الغالبين، وأيضاً لما قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾.. كان فتح مكة، حيث لم يلحقهم وهن ولا دعوا إلى صلح، بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين مسلمين.

الناسخ والمنسوخ منها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة الفتح مدنية بالإجماع، فيها ناسخ وليس فيها منسوخ.

سبب نزولها: ما أخرجه الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة، ومروان بن

---

(١) البحر المحيط.

الحكم، قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة، في شأن الحديبية، من أولها إلى آخرها.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ
وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا
عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ
دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ
ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ
بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا
وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا
نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ۖ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ
تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ
شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ
يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

المناسبة

قد تقدّم قريباً بيان مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها، ووسطها لوسطه، وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآيات، فمناسبتها لما قبلها: أنّ[1] الله سبحانه وتعالى، لما أخبر أنه سينصر رسله.. بينّ سبيل النصر بأنه رزقهم ثبات أقدام ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم، ثمّ أخبر بأنّ من سننه أن يسلّط بعض عباده على بعض، وهو العليم بالمصالح واستعداد النفوس، وقد وعد المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار، وأوعد الكافرين والمنافقين الذين كانوا يتربّصون الدوائر بالمؤمنين بالعذاب الأليم، وغضب عليهم، وطردهم من رحمته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لمّا أتمّ الكلام[2] على ما لكل من النبيّ ﷺ والمؤمنين من الثمرات، التي ترتّبت على عمله.. أعقبه بما يعمّهما معاً، فذكر أنه أرسل رسوله شاهداً على أمّته، ومبشراً لها بالثواب، ومنذراً إيّاها بالعقاب، ثمّ أبان أنّ فائدة هذا الإرسال هو الإيمان بالله، وتعظيمه وتسبيحه غدوةً وعشيًّا، ونصرة دينه، ثمّ ذكر بيعة الحديبية، وهي قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكة سمّيت باسم بئر هناك، وأنّ الذين بايعوا هذه البيعة إنما بايعوا الله، ونصروا دينه، وأنّ من نَقَضَ منهم العهد.. فوبال ذلك عائد إليه، ولا يضرنّ إلا نفسه، ومن أوفى بهذا العهد.. فسينال الأجر العظيم، والثواب الجزيل.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر حال المنافقين فيما سلف، وبيّن أنّ الله غضب عليهم ولعنهم، وأعدّ لهم عذاب السعير.. أردف ذلك بذكر قبائل من العرب: جهينة ومزينة وغفار وأشجع، والديل وأسلم، تخلّفوا عن رسول الله ﷺ، لما استنفرهم عام الحديبية، حين أراد السير إلى مكة

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

معتمراً، وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حرباً، وأعتلّوا بأنّ أموالهم وأهليهم قد شغلتهم، لكنّهم في حقيقة أمرهم كانوا ضعاف الإيمان، خائفين من مقاتلة قريش، وكنانة وثقيف والقبائل المجاورة لمكة: وهم الأحابيش، وقالوا: كيف نذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فنقاتلهم؟ وقالوا: لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذا السفر، ففضحهم الله تعالى في هذه الآية، وأخبر بأنه أعد لهؤلاء وأمثالهم ناراً موقدة، تطّلع على الأفئدة، وأعد للمؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبداً، وهو ذو مغفرة لمن أقلع من ذنبه، وأناب إلى ربّه.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[1] اعتذارهم عن التخلّف فيما سلف، بأنه إنما كان لمعالجة معايشهم، وصلاح أموالهم، وما كان له من سبب آخر يقعدهم عن نصرته.. أعقب ذلك بما يكذّبهم في هذه المعذرة، فإنهم قد طلبوا السير مع النبيّ ﷺ في وقعه خيبر، لما يتوقعونه من مغانم يأخذونها، ولو كانت التّعِلّة السالفة حقاً.. ما طلبوا السير معه بحال.

ثم أخبر بأن الله سبحانه رفض طلبهم الذهاب مع رسول الله إلى خيبر، فقالوا: إنّ ذلك حسد من المؤمنين لهم، أن ينالوا شيئاً من الغنيمة، فرد الله عليهم ما قالوا، وأبان أنهم قوم مادّيّون لا يسعون إلا للدنيا، ولا يفهمون ما يعلي شأن الدين، ويرفع قدره.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما رفض[2] إشراك المتخلّفين في قتال خيبر، عقاباً لهم على تقاعدهم عن نصرة الله ورسوله في الحديبية.. أردف ذلك ببيان أنّ باب القتال لا يزال مفتوحاً أمامكم، فإن شئتم أن تبرهنوا على مالكم من بلاءٍ في ميدان القتال.. فاستعدوا، فستندبون إلى مواجهة قوم

(١) المراغي. (٢) المراغي.

أولي بأس ونجدة، فإما أن يسلموا، وإما أن تبارزوهم حتى تبيدوا خضراءهم، ولا تبقوا منهم ديّاراً، ولا نافخ نار، فإن أجبتم داعي الله.. أثابكم على ما فعلتم جزيل الأجر، وإن نكصتم على أعقابكم كما فعلتم من قبل.. فستجزون العذاب الأليم.

ثم ذكر الأعذار المبيحة للتخلّف عن الجهاد.

ومنها: ما هو لازم، كالعمى والعرج.

ومنها: ما هو عارض يطرأ ويزول، كالمرض.

ثم أعقب ذلك بالترغيب في الجهاد، والوعيد بالعذاب الأليم من مذّلة في الدنيا، ونار موقدة في الآخرة لمن نكل عنه، وأقبل على الدنيا، وترك ما يقرّبه من ربه.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة[1]: ما أخرجه البخاريّ عن أحمد بن إسحاق السلميّ، عن يعلى عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله، فقال: كنا بصفّين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله تعالى؟ فقال علي: نعم، فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفكسم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية؛ يعني: الصلح الذي كان بين النبيّ ﷺ والمشركين، ولو نرى قتالاً... لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى». قال: ففيم نعطي الدنيّة في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: «يا ابن الخطاب إنّي رسول الله، ولن يضيِّعني الله أبداً». فرجع متغيِّظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر، فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال يا ابن الخطاب إنه رسول الله، ولن يضيّعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح. وأخرجه أحمد أيضاً.

قوله تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه

---

(١) أسباب النزول.

أحمد عن قتادة عن أنس رضي الله عنه: أنها نزلت على النبيّ ﷺ مرجعه من الحديبية، وأصحابه يخالطون الحزن والكآبة، وقد حيل بينهم وبين مساكنهم، ونحروا الهدي بالحديبية. ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ إلى ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾. قال: «لقد أنزلت عليّ آيتان، هما أحبّ إليّ من الدنيا جميعاً». قال: فلمّا تلاهما.. قال رجل: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بيّن لك ما يفعل بك، فما يفعل بنا؟ فأنزل الله عز وجل الآية التي بعدها: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّآ﴾ نحن ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ يا محمد ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾؛ أي: فتحاً ظاهراً واضحاً، لا يختلج فيه شكّ بذلك الصلح الذي تمَّ على يديك في الحديبية، إذ لم يمض إلا القليل من الزمان، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وكان هو السُّلَّم الذي فيه رقيت إلى فتح مكة، وتسابق العرب إلى الدخول في الدين زرافات ووحداناً.

اختلف في تعيين هذا الفتح[1]، فقال أكثر العلماء: هو صلح الحديبية، والصلح قد يسمّىٰ فتحاً، قال الفرّاء: والفتح قد يكون صلحاً، ومعنى الفتح في اللغة: فتح المنغلق، والصلح الذي كان مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً متعذّراً، حتى فتحه الله، قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أنّ المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكّن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام، وقال قوم: إنّه فتح مكة، وقال آخرون: إنّه فتح خيبر، والأول: أرجح، ويؤيّده ما ذكرناه قبل هذا، من أنّ السورة أنزلت في شأن الحديبية، وقيل: هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح، وقيل: هو ما فتح له من النبوّة والدعوة إلى الإسلام، وقيل: فتح الروم، وقيل: المراد بالفتح في هذه الآية: الحكم والقضاء، كما في قوله:

(١) الشوكاني.

﴿ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، فكأنه قال: إنا قضينا لك قضاءً مبيناً؛ أي: ظاهراً واضحاً مكشوفاً.

فإن قلت[1]: على هذه الأقوال هذه البلاد مكة وغيرها، لم تكن قد فتحت بعد، فكيف قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾ بلفظ الماضي؟

قلت: وعد الله تعالى نبيَّه ﷺ بالفتح، وجيء به بلفظ الماضي، جرياً على عادة الله تعالى في أخباره؛ لأنها في تحقّقها وتيقّنها بمنزلة الكائنة الموجودة، كأنه تعالى قال: إنا فتحنا لك في حكمنا وتقديرنا أزلاً، وما قدّره وحكم به فهو كائن لا محالة.

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ﴾ ربّك ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؛ أي: جميع ما فُرِّط منك من الهفوات، مما يصح أن يسمىٰ ذنباً بالنظر إلى مقامك الشريف، وإن كان لا يسمىٰ بالنظر إلى سواك، ومن ثم قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

والمراد: غفران الذنوب التي قبل الرسالة والتي بعدها، قاله مجاهد، وسفيان الثوريّ، وابن جرير والواحدي، وغيرهم، أخرج البخاري ومسلم وغيرهما، عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبيّ ﷺ يصلّي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله ما تقدّم من ذبنك وما تأخّر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

قال صاحب «الكشاف»: فإن قلت[2]: كيف جعل فتح مكة علّة للمغفرة؟

قلت: لم يجعله علّة للمغفرة، ولكنّه جعله علّة لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة: وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز، كأنه قيل: يسّرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوّك؛ لنجمع لك بين عزّ الدارين، وأغراض الآجل والعاجل. اهـ.

---

(١) الخازن.

(٢) الكشاف.

وهذا كلام[1] غير جيّد، فإنّ اللام داخلة على المغفرة، فهي علّة للفتح، فكيف يصحّ أن تكون معلّلة؟. وقال الرازي في توجيه التعليل: إنّ المراد بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾: التعريف بالمغفرة، تقديره: إنا فتحنا لك؛ لتعرف أنك مغفور لك معصوم، وقال ابن عطية: المراد: أنّ الله فتح لك لكي يجعل الفتح علامة لغفرانه لك، فكأنها لام الصيرورة.

﴿وَ﴾ لـ ﴿يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإظهار دينك على الدين كله، وانتشاره في البلاد، ورفع ذكرك في الدنيا والآخرة ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ أي: ويرشدك طريقاً من الدين لا اعوجاج فيه، يستقيم بك إلى رضا ربّك.

والمعنى: ليثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه على من ناوأك من أعدائك ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾؛ أي: نصراً غالباً منيعاً لا يتبعه ذل، ولا يدفعه دافع لما يؤيِّدك به من بأس، وينيلك من ظفر.

هذا، ولمّا[2] كان لكل عامل ثمرة يجنيها من عمله، وغاية يبتغيها منه كان للنبوة نهاية مطلوبة في هذه الحياة، وثمرة تتبع هذه النهاية، فنهاية أمر النبوة أن تلتئم الأمور، ويجتمع شملها، وتكمل نظمها التي تبني عليها الحياة الهنيّة، حتى يعيش العالم في طمأنينة وهدوءٍ، ولن يتم ذلك إلا بعد بث الدعوة والجهاد العلمي والعملي بقتال الأعداء، وخضد شوكتهم، ومتى تم هذا، وأنقذ المستضعفون، ودخل الناس في دين الله أفواجاً كرهاً ثم طوعاً انتظم أمر النبوة، وأدى الرسول واجبه، واستوجب أن يجني ثمرة أعماله، وهي:

١ ـ مغفرة ما فرط من ذنبه، مما يعد ذنباً بالنظر إلى مقامه الشريف.

٢ ـ تمام النعمة باجتماع الملك والنبوة، بعد أن كانت له النبوة وحدها.

٣ ـ الهداية إلى الصراط المستقيم في تبليغ الرسالة، وإقامة مراسيم الرياسة.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

٤ ـ المنعة والعزّة، ونفاذ الكلمة. ورهبة الجانب، وحمي الذمار.

فهذا الفتح كان كفيلاً بهذه الشؤون الأربعة، فكأنه سبحانه يقول لرسوله: لقد بلّغت الرسالة، ونصبت في العمل، وجاهدت بلسانك وسيفك، وجمعت الرجال والكراع والسلاح، وتلطّفت وأغلظت، وأخلصت في عملك، وفعلت في وجيز الزمن ما لم ينله مثلك في طويله، حتى تم ما ندبناك له، فلتجن ثمار عملك، ولتقر عيناً بما آل إليه أمرك في الدنيا والآخرة.

فإن قلت[1]: وصف الله تعالى النصر بكونه عزيزاً، والعزيز: هو المنصور صاحب النصر، فما معناه؟

قلت: معناه: ذا عزّة، كقوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: ذات رضاً، وقيل: وصف النصر بما يوصف به المنصور إسناداً مجازياً، يقال: هذا كلام صادق، كما يقال: متكلّم صادق. وقيل: معناه: نصراً عزيزاً صاحبه، فحذف المضاف إيجازاً واختصاراً، وقيل: إنما يحتاج إلى هذه التقديرات إذا كانت العزّة بمعنى الغلبة، والعزيز: الغالب، أما إذا قلنا: إنّ العزيز: هو النفيس القليل، أو العديم النظير، فلا يحتاج إلى هذه التقديرات؛ لأنّ النصر الذي هو من الله تعالى عزيز في نفسه، لكونه من الله تعالى، فصحَّ وصف كونه نصراً عزيزاً. اهـ من «الخازن».

ولـمّا قال تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③﴾.. بيّن وجه هذا النصر، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ وألقى ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ والطمأنينة ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم: أهل الحديبية؛ أي: وهو الذي جعل السكينة التي هي الطمأنينة، والثبات، وعدم التزلزل في قلوب المؤمنين، بعد أن دهمهم فيها ما من شأنه أن يزعج النفوس، ويزيغ القلوب من صد الكفار، ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصودهم، فلم يرجع أحد منهم عن الإيمان بعد أن هاج الناس وزلزلوا، ويلزم من ذلك ثبات الأقدام عند اللقاء في الحروب وغيرها، فكان ذلك من

---

(١) الخازن.

أسباب النصر الذي وعد الله تعالى نبيَّه ﷺ؛ أي: جعل السكينة، والطمأنينة، وعدم التزلزل في قلوبهم، بسبب الصلح والأمن بعد الخوف؛ لأنهم كانوا قليلي العدة بسبب أنهم معتمرون، وكان الأعداء مستعدِّين لقتالهم، مع ما لهم من القوّة، والشوكة، وشدة البأس، فثبتوا وبايعوا على الموت بفضل الله تعالى ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ﴾ بسبب تلك السكينة ﴿إِيمَٰنًا﴾؛ أي: يقيناً وتصديقاً ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: منضمّاً إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل، قال الكلبيّ: كلما نزلت آية من السماء، فصدّقوا بها.. ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم، وقال الربيع بن أنس: خشيةً مع خشيتهم.

والمعنى[1]: هو الذي أنزل في قلوب المؤمنين طمأنينة، وثبات أقدام عند اللقاء، ومقاتلة الأعداء، ليزدادوا يقيناً في دينهم إلى يقينهم برسوخ عقيدتهم واطمئنان نفوسهم بعد أن دهمهم من الحوادث ما من شأنه أن يزعج ذوي الأحلام، ويزلزل العقائد بصدّ الكفار لهم عن المسجد الحرام، ورجوعهم دون بلوغ مقصدهم، ولكن لم يرجع أحد منهم عن الإيمان، بعد أن هاج الناس وزلزلوا زلزالاً شديداً، حتى إنّ عمر بن الخطاب لم يكن راضياً عن هذا الصلح، وقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟. وكان للصديق من القدم الثابتة، ورسوخ الإيمان ما دلّ على أنه لا يجارىٰ ولا يبارىٰ. أو المعنى: ليزدادوا[2] إيماناً بشرائع الدين مع إيمانهم بالله ورسوله، وليزدادوا إيماناً بالفروع مع إيمانهم بالأصول، فإنهم آمنوا بأنّ محمداً رسول الله، وأنّ الله واحد، والحشر كائن، وآمنوا بأنّ كل ما يأمر الله به واجب، وبأنّ كلّ ما يقوله النبيّ ﷺ صدق، وهو الذي قد قال لهم: «لا بد من أن تدخلوا مكة، وتطوفوا بالبيت».

ولـمّا قال الله عز وجل:[3] ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾، وكان المؤمنون في قلّة من العَدد والعُدد.. فكأنّ قائلاً قال: كيف ينصره؟ فأجابه الله سبحانه

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.

بقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو قادر على نصر رسوله ﷺ ببعض جنوده، بل هو قادر على أن يهلك عدوّه بصيحة، ورجفة، وصاعقة، ونحو ذلك، فلم يفعل، بل أنزل سكينة في قلوبكم أيّها المؤمنون، ليكون نصر رسول الله ﷺ، وإهلاك أعدائه على أيديكم، فيكون لكم الثواب، ولهم العقاب، وفي جنود السموات والأرض وجوه:

الأول: أنهم ملائكة السموات والأرض.

الثاني: أنّ جنود السموات الملائكة، وجنود الأرض جميع الحيوانات.

الثالث: أنّ جنود السموات: مثل الصاعقة، والصيحة، والحجارة، وجنود الأرض: مثل الزلازل والخسف والغرق، ونحو ذلك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ بجميع جنوده الذين في السموات والأرض، أو عليما بالمصالح ﴿حَكِيمًا﴾؛ أي: في تدبير جنوده، أو فيما يقدّر ويدبّر، وقيل: عليماً بما في قلوبكم أيّها المؤمنون، حكيماً حيث جعل النصر لكم على أعدائكم.

والمعنى(١): أي فهو سبحانه الإله الذي يدبّر أمر العالم، ويسلّط بعض جنده على بعض، فيجعل جماعة يجاهدون لإعلاء كلمة الحق، ويجعل آخرين يقاتلون في سبيل الشيطان، ولو شاء.. لأرسل عليهم جنداً من السماء، فأباد خضراءهم، لكنّه سبحانه شرع الجهاد والقتال لما في ذلك من مصلحة هو عليم بها، وحكمة قد تغيب عنّا، وهذا ما عناه بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. فهو لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ الله سبحانه ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين من الرجال ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المخلصات من النساء ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: تسيل من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: أنهار الماء واللبن والخمر

---

(١) المراغي.

والعسل، حال كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: مقدّرين الخلود في الجنة لا يموتون، ولا يخرجون منها، متعلقة بمقدر يقتضيه السياق، تقديره: هو الذي[١] أنزل السكينة في قلوب المؤمنين؛ ليدخلهم جنات.. إلخ. وقيل: تقديره: إن من علمه وحكمته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية، ووعدهم الفتح والنصر، ليشكروه على نعمه، فيثيبهم ويدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار.

وقيل[٢]: متعلقة بما يدل عليه ما ذكر من كون جنود السموات والأرض له تعالى من معنى التصرّف والتدبير؛ أي: دبّر ما دبَّر من تسليط المؤمنين، ليعرفوا نعمة الله في ذلك، ويشكروها، فيدخلهم الجنة، وقد تقدّم ما روي عن أنس: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.. قال الصحابة: هنيئاً مريئاً، قد بيَّن الله تعالى ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله عزّ وجل الآية التي بعدها: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلخ.

﴿وَيُكَفِّرَ﴾؛ أي: يستر ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن المؤمنين ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ أي: ذنوبهم ولا يظهرها، وهذا[٣] بإزاء قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يغطيها ولا يظهرها، قبل أن يدخلهم الجنة؛ ليدخلوها مطهَّرين من الآثام، وتقديم الإدخال على التكفير، مع أنّ الترتيب في الوجود على العكس، من حيث إنَّ التخلية قبل التحلية للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى. أو يقال: إنّ الواو لا تقتضي الترتيب ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يقادر قدره؛ لأنه منتهى ما يمتد إليه أعناق الهمم من جلب نفع، ودفع ضرّ، والفوز: الظفر بالمطلوب مع حصول السلامة، و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿فَوْزًا﴾؛ لأنه صفته في الأصل، فلما قدم عليه.. صار حالاً؛ أي: كائناً عند الله تعالى؛ أي: في علمه وقضائه.

أي: وكان[٤] ذلك الوعد بإدخالهم الجنة، وتكفير سيئاتهم عند الله وفي

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

(٤) الشوكاني.

حكمه فوزاً عظيماً؛ أي: ظفراً بكل مطلوب، ونجاةً من كل غمّ، وجلباً لكل نفع، ودفعاً لكل ضر، والجملة: معترضة بين جزاء المؤمنين، وجزاء المنافقين والمشركين.

والمعنى[1]: أي وإنّما دبّر ذلك؛ ليعرف المؤمنون نعمة الله، ويشكروها، فيدخلوا الجنة ماكثين فيها أبداً، وليكفرّ عنهم سيئات أعمالهم بالحسنات التي يعملونها شكراً لربهم على ما أنعم به عليهم، وكان ذلك ظفراً لهم بما كانوا يرجون ويسعون له، ونجاة ما كانوا يحذرونه من العذاب الأليم، وهذا منتهى ما يرون من منفعة مجلوبة، ومضرة مدفوعة.

ثمّ لما فرغ مما وعد به صالحي عباده.. ذكر ما يستحقه غيرهم، فقال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ إلخ، فهو معطوف على ﴿يُدْخِلُ﴾؛ أي: وليعذّب المنافقين والمنافقات من أهل المدينة ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ من أهل مكة؛ أي: وليعذّبهم في الدنيا بما يصل إليهم من الهموم والغموم، بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام، وقهر المخالفين له، وبما يصابون به من القهر، والقتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب جهنم.

وفي تقديم المنافقين على المشركين هنا، وفي غيره من المواضع[2]، دلالة على أنهم أشدّ منهم عذاباً، وأحق منهم بما وعدهم الله به؛ لأنّ المنافقين كانوا أشد ضرراً على المؤمنين من الكافرين المجاهرين، لأنّ الكافر يمكن أن يحترز منه، ويجاهد؛ لأنه عدو مبين، فيتوقى المؤمن من شره، والمنافق لا يمكن أن يحترز منه، ولا يجاهد؛ لأنّه يختلطه لظنّه إيمانه فيفشي سره، فلهذا كان شره أكثر من شر الكافر، فكان تقديم المنافق بالذكر أولى.

ثم وصف الفريقين، فقال: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾: صفة للفريقين: أهل النفاق، وأهل الشرك. و﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾[3]: منصوب على المصدرية،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

والإضافة فيه كالإضافة في سيف شجاع، من حيث إنّ المضاف إليه في الحقيقة هو موصوف هذا المجرور، والتقدير: سيف رجل شجاع، فكذا التقدير هنا: ظن الأمر السوء، وهو أنّ الله لا ينصر رسوله، ولا يرجعهم إلى مكة فاتحين، ولا إلى المدينة سالمين، كما قال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.

والمعنى: الذين يظنون بالله الأمر السيء الفاسد الرديء ظنّاً. وقال في «كشف الكشاف»: إنّ ظن السوء مثل رجل صدق؛ أي: يظنون الظنَّ السيء الفاسد المذموم. انتهى، وعند البصريين لا يجوز إضافة الموصوف إلى صفته ولا عكسها، لأنّ الصفة والموصوف عبارتان عن شيء واحد، فإضافة أحدهما إلى الآخر، كإضافة الشيء إلى نفسه، وفي «التأويلات النجمية»: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ في ذاته وصفاته بالأهواء والبدع، وفي أفعاله، وأحكامه بالظلم والعبث.

﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على المشركين والمنافقين ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: الأمر السيء الرديء الذي يظنونه بالمؤمنين، ويتربّصونه بهم، دائر عليهم، حائق بهم، لا يتجاوزهم إلى غيرهم، فقد أكذب الله سبحانه ظنهم، وقلب ما يظنونه بالمؤمنين عليهم بحيث لا يتخطاهم، ولا يظفرون بالنصرة أبداً، كقوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾. وقال أبو السعود: في سورة التوبة: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين على نهج الاعتراض، كقوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بعد قول اليهود ما قالوا. اهـ.

فإن قلت: كيف يحمل على الدعاء، وهو للعاجز عرفاً، والله منزه عن العجز؟

قلت: هذا تعليم من الله لعباده أنه يجوز الدعاء عليهم، كقوله تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾، ونحوه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ في الموضعين بفتح السين، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: بضمها، وهما[2] لغتان في مصدر ساء بمعنى واحد، كالكره والكره،

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

والضعف والضعف، خلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمّه من كلّ شيء، وأما المضموم فجارٍ مجرى الشر المناقض للخير، ومن ثمة أضيف إلى المفتوح؛ لكونه مذموماً، وكانت الدائرة محمودة، فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل المذكور، وأما ﴿دائرةُ السُّوء﴾، بالضم؛ فلأنَّ الذي أصابهم مكروه وشدة، يصح أن يقع عليه اسم السوء، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾. كما في بعض التفاسير، والدائرة: عبارة عن الخطّ المحيط بالمركز، ثم استعملت في الحادثة والمصيبة المحيطة لمن وقعت هي عليه.

فمعنى الآية: يحيط بهم السوء إحاطة الدائرة بالشيء، أو بمن فيها، بحيث لا سبيل إلى الانفكاك عنها بوجهٍ، إلا أنّ أكثر استعمالها؛ أي: الدائرة في المكروه، كما أنَّ أكثر استعمال الدولة في المحبوب الذي يتداول، ويكون مرةً لهذا، ومرةً لذاك، والإضافة في ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ من إضافة العام إلى الخاص للبيان، كما في خاتم فضة؛ أي: دائر من شرّ، لا من خير.

والخلاصة: [1] أنّ الفريقين ظنّوا أنّ الله لا ينصر رسوله ولا المؤمنين على الكافرين، وقد دعا سبحانه عليهم بأن ينزل بهم ما كانوا يظنّونه بالمؤمنين من الدوائر، وأحداث الزمان، فقال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: عليهم تدور الدوائر السيئة، والمصائب الداهية، وسيحيق بهم ما كانوا يتربَّصونه بالمؤمنين من قتل وسبيٍ، وأسرٍ لا يتخطاهم.

ثم بين ما يستحقونه من الغضب واللعنة، فقال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ولمَّا بين سبحانه أن دائرة السوء عليهم في الدنيا.. بيَّن ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعنة وعذاب جهنم، وقال بعضهم[2]: غضبه تعالى: إرادة العقوبة لهم في الآخرة، وكونهم على الشرك والنفاق في الدنيا، وحقيقته: أن للغضب صورة ونتيجة، أما صورته فتغير في الغضبان يتأذى به ويتألم، وأما نتيجته فإهلاك

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

المغضوب عليه، وإيلامه، فعبَّر عن نتيجة الغضب بالغضب على الكناية بالسبب عن المسبب، وعلى قول هذا القائل فمعنى: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾؛ أي: أراد إصرارهم على الشرك والنفاق في الدنيا، وعقوبتهم في الآخرة، وقيل: الغضب[1]: إشارة إلى أنَّ هذا الذي نزل بهم يكون على وجه التعذيب، فإن من كان به بلاء، قد يكون مصاباً على وجه الامتحان ليصير مثاباً، وقد يكون مصاباً على وجه التعذيب، كما هنا.

والصحيح: أنَّ الغضب صفة ثابتة لله تعالى، أثرها الانتقام ممن عصاه.

﴿وَلَعَنَهُمْ﴾؛ أي طردهم، وأبعدهم من كل خير، فإن المغضوب عليه قد يقنع الغاضب بالعتب، والشتم أو الضرب، ولا يفضي غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابه، ولا إلى طرده من بابه، وقد يفضي غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابه؛ لكون الغضب شديداً ﴿وَأَعَدَّ﴾؛ أي: هيأ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ﴾؛ أي: نارها ﴿وَسَآءَتْ﴾؛ أي: قبحت جهنم ﴿مَصِيرًا﴾؛ أي: مرجعاً لهم، والمخصوص بالذمِّ هي.

والمعنى: ونالهم غضب من الله، وأبعدهم فأقصاهم من رحمته، وأعدَّ لهم جهنم يصلونها يوم القيامة، وساءت منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه ﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجنّ، والشياطين والصيحة والرجفة والحجارة والزلازل والخسف والغرق، ونحو ذلك أنصاراً على أعدائه، إن أمرهم بإهلاكهم.. أهلكوهم، وسارعوا مطيعين لذلك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزًا﴾؛ أي: غالباً على كل شيء، فلا يرد بأسه ممن أراد الانتقام منهم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبّره لخلقه، فلا يفعل ما يفعل إلا على مقتضى الحكمة والصواب، وكرَّر هذه الآية؛ لقصد التأكيد، أو للتنبيه[2] على أنَّ لله تعالى جنوداً للرحمة، ينزلهم ليدخل بهم المؤمنين الجنة، معظماً

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.

مكرماً، وهذا هو المراد في الآية الأولى، وأنّ له تعالى جنوداً للعذاب، يسلِّطهم على الكفار، ويعذبهم بهم في جهنم. كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾. والمراد ههنا: جنود العذاب، كما ينبىء عنه التعرض لوصف العزة، فإنَّ عادته تعالى أن يصف نفسه بالعزة في مقام ذكر العذاب والانتقام، وفي «الفتوحات»: ذكر جملة قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ سابقاً على أنّ المراد به: أنه المدبّر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته، فلذلك ذيلّه بقوله: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. وهنا أريد به: التهديد بأنهم في قبضة قدرة المنتقم، فلذلك ذيله بقوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فلا تكرار. انتهى.

قال في «برهان القرآن»: الأول متصل بإنزال السكينة وازدياد إيمان المؤمنين، فكان الموضوع موضع علم وحكمة، وأما الثاني والثالث الذي بعده، فمتصلان بالعذاب والغضب، وسلب الأموال والغنائم، فكان الموضع موضع عزّ وغلبة وحكمة، روي: أنه لمّا جرى صلح الحديبية.. قال عبد الله بن أبي رئيس المنافقين: أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها.. لا يبقى له عدوّ، فأين فارس والروم؟ فبيَّن سبحانه أن جنود السموات والأرض، أكثر من فارس والروم.

خلاصة ما سلف[1]: أنّه قد ترتَّب على هذا الفتح أربعة أشياء للنبيّ ﷺ:

١ ـ مغفرة الذنوب.

٢ ـ اجتماع الملك والنبوّة.

٣ ـ الهداية إلى الصراط المستقيم.

٤ ـ العزّة والمنعة.

وفاز المؤمنون بأربعة أشياء:

١ ـ الطمأنينة والوقار.

٢ ـ ازدياد الإيمان.

---

(١) المراغي.

٣ ـ دخول الجنّات.

٤ ـ تكفير السيئات.

وجازى الكفار بأربعة أشياء:

١ ـ العذاب.

٢ ـ الغضب.

٣ ـ اللعنة.

٤ ـ دخولهم جهنم.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد إلى كافّة الناس، حالة كونك ﴿شَٰهِدٗا﴾ على أمّتك يوم القيامة بتصديق من صدّقك، وتكذيب من كذّبك كما في قوله في آية أخرىٰ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾؛ أي: مقبولاً قوله في حقهم يوم القيامة عند الله تعالى، سواء شهد لهم أو عليهم، كما يقبل قول الشاهد العدل عند الحاكم، وهو حال مقدرة، فإنه ﷺ إنما يكون شاهداً وقت التحمل والأداء، وذلك متأخّر عن زمان الإرسال، بخلاف غيره مما عطف عليه، فإنه ليس من الأحوال المقدرة ﴿و﴾ حالة كونك ﴿مبشراً﴾ لمن آمن بك بالجنة والثواب ﴿وَنَذِيرٗا﴾؛ أي: منذراً ومخوفاً لمن كذّبك بالعذاب والعقاب ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾؛ أي: لكي تؤمن أنت وأمّتك. ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بوحدانية الله وصفاته ﴿و﴾ تؤمنوا بـ ﴿رسوله﴾ محمد ﷺ بأنه صادق مصدَّق فيما جاء به من عند الله سبحانه، والخطاب[1] في: ﴿تؤمنوا﴾ يكون للنبي ﷺ ولأمّته، فيكون تعميماً للخطاب بعد التخصيص؛ لأنّ خطاب ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ للنبيّ خاصّةً، ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خصّه ﷺ بالنداء، ثمّ عمّم الخطاب على طريق تغليب المخاطب على الغائبين وهم: المؤمنون، فدلت الآية على أنه ﷺ يجب أن يؤمن برسالة نفسه، كما ورد في الحديث: أنه كان يقول: «أشهد أنّي عبد الله ورسوله». ويجوز أن يكون الخطاب

---

(١) روح البيان.

للأمّة فقط.

فإن قلت: كيف يجوز تخصيص الخطاب الثاني بالأمّة في مقام توجيه الخطاب الأول إليه ﷺ بخصوصه؟.

قلت: إنّ خطاب رئيس القوم بمنزلة خطاب من معه من أتباعه، فيجوز أن يخاطب الأتباع في مقام تخصيص الرسل بالخطاب؛ لأنّ المقصود سماعهم.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾؛ أي: ولكي تعزّر الله تعالى أنت وأمّتك، وتنصروه، وتقوّوه بتقوية دينه ونصرة رسوله، من التعزير: وهو النصرة مع التعظيم؛ أي: ولتنصروا الله تعالى بنصر دينه تعالى ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعالى؛ أي: ولكي توقّر الله تعالى أنت وأمّتك، وتعظّموه باعتقاد أنه متصف بجميع صفات الكمال، منزّه عن جميع سمات النقصان، من التوقير: وهو التبجيل والتعظيم. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تعالى؛ أي: ولكي تسبّح الله تعالى أنت وأمّتك، وتنزهوه عمّا لا يليق به، وعمّا لا يجوز إطلاقه عليه تعالى من الشريك والولد، أو تصلّوا له، من السبحة: وهي الدعاء وصلاة التطوع، قال في «القاموس»: التسبيح: الصلاة، ومنه قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾؛ أي: من المصلّين. ﴿بُكْرَةً﴾ وغدوة ﴿وَأَصِيلًا﴾ وعشيّا، فالبكرة: أوّل النهار، والأصيل: آخره، أو تسبّحوه دائماً، فإنه يراد بهما: الدوام، وفي «عين المعاني»: البكرة: صلاة الفجر، والأصيل: الصلوات الأربع، فتكون الآية مشتملة على جميع الصلوات المفروضة.

وجوّز(١) بعض أهل التفسير أن يكون ضمير ﴿تعزّروه وتوقّروه﴾ لرسول الله ﷺ، ولا وجه له؛ لأنه تفكيك وتشتيت للضمائر، إذ ضمير ﴿رسوله﴾ و﴿تسبحوه﴾ لله تعالى قطعاً، وعلى تقدير يكون له وجه، فمعنى تعظيم الرسول ﷺ، وتوقيره حقيقةً: اتباع سنته في الظاهر والباطن، والعلم بأنه زبدة المخلوقات، وخلاصتها وأفضلها على الإطلاق، وحينئذٍ الوقف على ﴿توقروه﴾ وقف تام، ثم يبدأ بقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: أي إنا أرسلناك أيّها الرسول شاهداً على أمّتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه، مما أرسلناك به إليهم، مبشّراً لهم بالجنة إن أجابوك إلى ما دعوتهم إليه من الدين القيّم، ونذيراً لهم عذاب الله إن تولّوا، وأعرضوا عمّا جئتهم به من عنده، فآمنوا بالله ورسوله، وانصروا دينه، وعظّموه وسبّحوه في الغدّو والعشيّ.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ والأفعال الثلاثة بعده بتاء الخطاب، وأبو جعفر وأبو حيوة وابن كثير وأبو عمرو: بياء الغيبة فيها، والكنايات الثلاثة راجعة إلى الله تعالى؛ لتكون على وتيرة واحدة، كما جرينا عليه في حلّنا، ويصحّ رجوعها إلى رسول الله ﷺ، فحينئذٍ معنى ﴿يسبحوه﴾: ينزهوه ﷺ من كل وصمة بإخلاف وعده بدخول مكة، والطواف بالبيت الحرام، وبنحو ذلك.

وقرأ الجحدري: ﴿وتعزروه﴾ بفتح التاء وضم الزاي مخففةً، وقرأ جعفر بن محمد: ﴿وتعزروه﴾ بضم التاء وكسر الزاي، وقرأ ابن عباس واليمانيّ: ﴿وتعزّزوه﴾ بزايين، من العزة، وقرىء: ﴿وتوقروه﴾ بسكون الواو.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾؛ أي: إنّ الذين بايعوك، وعاهدوك يا محمد على أن لا يفرّوا من قتال قريش تحت شجرة السمرة في الحديبية بيعة الرضوان، وهم مقدار ألف وخمس مئة أو أربع مئة رجل، سميت[3] المعاهدة مبايعة؛ تشبيهاً بالمعاوضة الماليّة؛ أي: مبادلة المال بالمال في اشتمال كل واحد منهما على معنى المبادلة، فهم التزموا طاعة النبيّ ﷺ، والثبات على محاربة المشركين، والنبيّ ﷺ وعدهم بالثواب، ورضا الله تعالى، قال بعض الأنصار عند بيعة العقبة: تكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فقال ﷺ: «أشترط لربّي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني، ومما تمنعوني منه: أنفسكم، وأبناءكم، ونساءكم» فقال ابن رواحة رضي الله عنه: فإذا فعلنا فما لنا؟

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط والمراح.

(٣) روح البيان.

فقال: «لكم الجنة». قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. وفي «الخازن»: وأصل البيعة: العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام، والوفاء بالعهد الذي التزمه له، والمراد بهذه البيعة: بيعة الرضوان.

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى أنفسهم بالجنة؛ أي: إنّ[1] من بايعك بمنزلة من بايع الله، كأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾. وذلك لأنّ المقصود ببيعة رسوله: هو وجه الله، وتوثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه، قال ابن الشيخ: لمّا كان الثواب إنما يصل إليهم من قبله تعالى.. كان المقصود بالمبايعة منه ﷺ: المبايعة مع الله سبحانه، وأنه ﷺ إنما هو سفير، ومعبّر عنه تعالى، وبهذا الاعتبار صاروا كأنهم يبايعون الله تعالى.

وقرأ تمام بن العباس بن عبد المطلب: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ لِلَّهِ﴾؛ أي: لأجل الله ولوجهه، والمفعول: محذوف؛ أي: إنما يبايعونك لله، ذكره في «البحر».

والمعنى: أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله تعالى، من غير تفاوت بينهما؛ لأنّ من بايع النبي ﷺ أن لا يفرّ من موضع القتال إلى أن يقتل، أو أن يفتح الله لهم، وإن كان يقصد ببيعته رضا الرسول ظاهراً، لكن إنما يقصد بها حقيقةً رضا الرحمن، فإنّ المقصود توثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه، وهذا يسمى بيعة الرضوان؛ لقول الله تعالى في شأن هذه البيعة: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ...﴾ الآية.

وجملة قوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: مستأنفة[2] لتقرير ما قبلها على طريق التخييل في محل نصب على الحال؛ أي: نعمة[3] الله عليهم في الهداية فوق إحسانهم إلى الله، وهو ما صنعوا من البيعة، أو نصرة الله تعالى إيّاهم أعلى من نصرتهم إياه، ويقال: حفظ الله إياهم على البيعة أقوى من وضع يد ثالث على

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح.

أيدي المتبايعين لحفظ أيديهما إلى أنّ يتم العقد، فإنّ كل واحد من المتبايعين إذا مد يده إلى صاحبه في البيع والشراء.. يتوسط بينهما ثالث، فيضع يده على يديهما، فيحفظ يديهما إلى أنّ يتم العقد، لا يترك واحداً منهما أن يقبض يده إلى نفسه، ويتفرق عن صاحبه قبل انعقاد البيع، فيكون وضع الثالث يده على يديهما سبباً لحفظ البيعة، فلذلك قال تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ يحفظهم، ويمنعهم عن ترك البيعة، كما يحفظ المتوسّط أيدي المتبايعين.

فيد الله في هذه التأويلات: إما بمعنى النعمة، أو بمعنى النصرة، أو بمعنى الحفظ، وقال سعدي المفتي: الظاهر: والله أعلم أنَّ المعنى على التشبيه؛ أي: كأنهم يبايعون الله، وكذا الحال في قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾؛ أي: كأنَّ يد الله حين المبايعة فوق أيديهم، حذف أداة التشبيه للمبالغة في التأكيد، وذكر اليد لأخذهم بيد رسول الله ﷺ حين البيعة على ما هو عادة العرب عند المعاهدة والمعاقدة، وفيه تشريف عظيم ليد رسول الله ﷺ، التي تعلوا أيدي المؤمنين المبايعين، حيث عبَّر عنها بيد الله، كما أنَّ وضعه ﷺ يده اليمنى على يده اليسرى لبيعة عثمان رضي الله عنه تفخيم لشأن عثمان، حيث وضعت يد رسول الله ﷺ موضع يده، ولم ينل تلك الدولة العظمى أحد من الأصحاب، فكانت غيبته رضي الله عنه في تلك الواقعة خيراً له من الحضور، وقيل غير ذلك من الأقوال المتلاطمة، وقيل: إنّ في الكلام حذف مضاف؛ أي: يد رسول الله ﷺ فوق أيديهم عند المبايعة.

تنبيه هام: وهذا الذي ذكرناه من الأقاويل: مذهب أهل التأويل، وكلامهم في هذه الآية، ومذهب أهل السلف، وهو الأصحّ الصحيح، والأسلم السليم: السكوت عن التأويل، وإمرار آيات الصفات كما جاءت وتفسيرها قراءتها، والإيمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل، والله أعلم بمعنى كلامه وأسرار كتابه.

وعن يزيد بن عبيد قال: قلت لسلمة بن الأكوع: على أيّ شيءٍ بايعتم رسول الله ﷺ؟ قال: على الموت. متفق عليه.

وعن معقل بن يسار قال: لقد رأيتني يوم الشجرة، والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مئة قال: لم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على أن لا نفرَّ. أخرجه مسلم.

قال العلماء: لا منافاة بين الحديثين، ومعناهما صحيح، فيقال في الجمع بينهما: بايعه جماعة، منهم: سلمة بن الأكوع على الموت، فلا يزالون يقاتلون بين يديه حتى يقتلوا، أو ينتصروا، وبايعه جماعة، منهم: معقل بن يسار على أن لا يفرّوا.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إنّ الناس كانوا مع النبي ﷺ يوم الحديبية، تفرَّقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ، فقال ـ يعني: عمر ـ: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس أحدقوا بالنبي ﷺ، فذهب، فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر، فخرج فبايع. أخرجه البخاري.

بيعة الرضوان بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة: أنّ رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعيّ حين نزل الحديبية، فبعثه إلى قريش بمكة ليبلّغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمنعه الأحابيش، واحدهم أحبوش: وهو الفوج من قبائل شتّى، فخلّوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ، فأخبره، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه، فقال: إنيّ أخافهم على نفسي لما أعرف من عداوتي إياهم، وما بمكة عدويٌّ، قبيلته بنو عدي، ولكني أدلك على رجل هو أعز بها، وأحبّ إليهم: عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان، وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظّماً لحرمته، فلقيه أبان بن سعيد بن العاصي حين دخل مكة، فجعله في جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش، ثمّ احتبسوه عندهم، فشاع بين المسلمين أنّ عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، وبايعه القوم على أن لا يفرّوا أبداً إلا جدَّ بن قيس الأنصاري، فأرعب ذلك المشركين، وأرسلوا داعين إلى الموادعة والصلح،

وكان قد أتى رسول الله ﷺ أنَّ الذي بلغه من أمر عثمان كذب، فتم الصلح، ومشى بعضهم إلى بعض على أن يحج رسول الله ﷺ في العام القابل، ويدخل مكة.

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾؛ أي: فمن نقض العهد الذي عقده مع النبيّ ﷺ، وبيعته معه، وأزال إبرامه وإحكامه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ﴾ وينقض إدخالاً للضرر ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه، ولا يضر بنقضه إلا نفسه؛ لأنّ الناكث هو لا غير؛ لأنّه فوت على نفسه الإحسان الجزيل، على العمل القليل، فقد خسر. ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ﴾؛ أي: ومن وفىٰ ﴿بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ بضم الهاء؛ فإنه[1] أبقى الضم بعد حذف الواو، إذ أصله: عليه والله توصلاً بذلك إلى تفخيم لام الجلالة؛ أي: ومن أوفىٰ بعهده مع الله، وثبت عليه، وأتمّه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ الله سبحانه وتعالى في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثواباً جزيلاً: هو الجنة وما فيها من رضوان الله العظيم، والنظر إلى وجهه الكريم، وسيدخله جنات يجد فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ويحتمل أن يراد بنكث العهد: ما يتناول عدم مباشرته ابتداءً، ونقضه بعد انعقاده؛ لما روي عن جابر رضي الله عنه أنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت، وعلى أن لا نفرّ، فما نكث أحد منّا البيعة إلا جُدَّ بن قيس، وكان منافقاً اختبأ تحت إبط بعيره، ولم يصر مع القوم؛ أي: إلى المبايعة حين دعوا إليها.

وقرأ زيد بن عليّ[2]: ﴿يَنْكِثُ﴾ بكسر الكاف، وقرىء: ﴿بما عَهِدَ﴾ ثلاثياً، وقرأ الجمهور: ﴿عليه﴾ بكسر الهاء والترقيق لوقوعها بعد ياءٍ ساكنةٍ، كما هو الغالب، وقرأ حفص والزهري: بضمها والتفخيم على الأصل في بناء هاء الضمير على الضمّ؛ لأنّها هاء هو، وهي مضمومة، فاستصحب ذلك، كما في له وضربه، وقرأ الجمهور: ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ بالياء التحتية، وقرأ نافع وابن كثير، وابن عامر

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

وزيد بن عليّ: بالنون.

﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ السين فيه: للاستقبال ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ من خلّفته بالتشديد تركته خفي، وخلفوا أثقالهم تخليفاً خلّوها وراء ظهورهم؛ أي: سيقول لك يا محمد، الأحياء الذين خلّفتهم وتركتهم وراءك في المدينة، حين سافرت إلى مكة ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين خلَّفهم الله تعالى عن صحبتك، إذا رجعت إليهم من عمرتك هذه، وعاتبتهم على التخلف عنك: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ عن المسافرة والخروج معك ﴿أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ أي: نساؤنا وذرارينا؛ يعني: لم يكن لنا من يخلفنا فيهم، فلذا تخلفنا عنك، قال ابن عباس ومجاهد: يعني: أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والنخع، وذلك أنّ رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً.. استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه، حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، فأحرم بالعمرة، وساق الهدي؛ ليعلم الناس أنه لايريد حرباً، فتثاقل عنه كثير من الأعراب، وتخلّفوا، واعتلّوا بالشغل، فأنزل الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، إذا رجعت إليهم من عمرتك: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ أي: منعنا عن الخروج معك مالنا، من الأموال والنساء والذراريّ، وليس لنا من يقوم بهم، ويخلفنا عليهم، فإنا لو تركناهم.. لضاعوا، وأنت قد نهيت عن ضياع المال، وعن التفريط في العيال، وقرئ[1]: ﴿شَغَّلَتْنا﴾ بتشديد الغين، حكاه الكسائي، وهي قراءة إبراهيم بن نوح بن باذان عن قتيبة.

ولمّا علموا أنّ ذلك التخلُّف عن الرسول الله ﷺ كان معصية.. سألوا أن يستغفر لهم ﴿فـ﴾ قالوا: ﴿استغفر لنا﴾ الله يا رسول الله بتأخرنا عنك عن الخروج إلى الحديبية؛ أي: فاطلب لنا المغفرة من الله، إذ لم يكن تخلَّفنا عن عصيان لك، ولا مخالفة لأمرك؛ ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب.

ولمّا كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد، بل على طريقة الاستهزاء،

---

(١) البحر المحيط.

وكانت بواطنهم مخالفةً لظواهرهم.. فضحهم الله سبحانه بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ يعني: أنهم في طلب الاستغفار كاذبون؛ لأنّهم لا يبالون أستغفر لهم النبيّ ﷺ أم لا، وهذا صنيع المنافقين، والجملة مستأنفة لبيان ما تنطوي عليه بواطنهم، ويجوز أن تكون بدلاً من الجملة الأولىٰ؛ أي: إنهم لم يكونوا صادقين في اعتذارهم بأنَّ الامتناع كان لهذا السبب؛ لأنّهم إنّما تخلّفوا اعتقاداً منهم أنّ النبيّ ﷺ والمؤمنين يغلبون، بدليل قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾. فإنهم[1] قالوا: أهل مكة يقاتلون في باب المدينة، فكيف يذهب إلى قوم قد غزوا في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه في أحد؟ وكيف يكون حالهم إذا دخل عدوّهم بلادهم، وأحاطوا بهم؟.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عنهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ردّاً لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم﴾؛ أي: فمن يقدر لأجلكم ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: من مشيئة الله، وقضائه أن يجلب ﴿شَيْئًا﴾ من النفع ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ أو من يحفظكم من مشيئته وقضائه، إن أراد بكم ضرّاً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ضَرًّا﴾ بفتح الضاد، وهو مصدر ضررته ضرّاً، وقرأ حمزة والكسائي: بضمها، وهو اسم ما يضر، وقيل: هما لغتان في المصدر؛ أي: إن أراد بكم ما يضركم، كقتل وهزيمة، وخلل في المال والأهل، وعقوبة على التخلف من هلاك الأهل والأموال، وضياعهما حتى تتخلّفوا عن الخروج لحفظهما، ودفع الضرر عنهما. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾؛ أي: ومن يقدر على شيء من الضرر إن أراد بكم ما ينفعكم من حفظ أموالكم وأهليكم؛ فأيُّ حاجة إلى التخلف لأجل القيام بحفظهما.

أي: قل لهم[3]: إنكم بعملكم هذا تحترسون من الضر، وتتركون أمر الله ورسوله، وتقعدون طلباً للسلامة، ولكن لو أراد الله بكم ضرًّا.. لا ينفعكم

---

(١) المراح. (٣) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

قعودكم شيئاً، أو أراد بكم نفعاً، فلا راد له، إذ من الذي يمنع من قضائه، وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله ﷺ يدفع عنهم الضر، ويجلب لهم النفع.

ثم أبان لهم أنه عليم بجميع نواياهم، وأنّ ما أظهروه من العذر هو غير ما أبطنوه من الشك والنفاق، فقال: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: عليماً بجميع ما تعملونه بواطنه وظواهره، فيعلم أنَّ تخلفكم لم يكن لما أظهرتم من المعاذير، بل كان شكًّا ونفاقاً، كما فصَّل ذلك بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ...﴾ إلخ: بدل[1] من ﴿كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ مفسِّرٌ لما فيه من الإبهام؛ أي: بل ظننتم أيها المخلفون ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾؛ أي: أنه لن ينقلب، ولن يرجع، فـ ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين معه: وهم ألف وأربع مئة ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ﴾ في المدينة ﴿أَبَدًا﴾ لظنكم أن يستأصلهم المشركون بالكلية، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلأجل ذلك الظنّ تخلَّفتم، لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة.

وقرأ عبد الله[2]: ﴿إلى أهلهم﴾ بغير ياءٍ، وأهلون:[3] جمع أهل، كأرضون جمع أرض، وقد يجمع على أهلات كأرضات على أنّ أصله: أهلة، وأما أهال فاسم جمع، كليال.

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ﴾ الظن المذكور ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: زيَّنه الشيطان في قلوبكم، وقبلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم غير مبالين بهم، وقرأ الجمهور: ﴿وَزُيِّنَ﴾ مبنياً للمفعول، وقرىء: مبنياً للفاعل، والفاعل الله حقيقةً، أو الشيطان مجازاً ﴿وَظَنَنتُمْ﴾ في الرسول والمؤمنين ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: ظننتم فيهم الأمر السّيء الفاسد الرديء ظنًّا، وهو عدم انقلابهم إلى أهاليهم، وعدم نصر الله إياهم، والظنّ: منصوب على المصدرية، مضاف إلى موصوف محذوف، كما مرّ، وهذا

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البيضاوي.

الظنّ: إنما هو الظنّ الأول، والتكرير لتشديد التوبيخ، والتسجيل عليه بالسوء، وإلا فهو من عطف الشيء على نفسه، أو ما يعمّه وغيره من الظنون الفاسدة التي من جملتها: الظنّ بعدم صحة رسالته ﷺ، فإن الجازم بصحتها لا يحوم حول فكره ما ذكر من الاستئصال، فبهذا التعميم لا يلزم التكرار. ﴿وَكُنتُمْ﴾ بذلك الظن ﴿قَوْمًا بُورًا﴾؛ أي: قوماً هالكين عند الله سبحانه، مستوجبين سخطه وعقابه، على أنه جمع بائر، من بار بمعنى هلك، كعائذ وعوذ، وهي من الإبل والخيل الحديثة النتاج، أو فاسدين في أنفسكم وقلوبكم، ونيّاتكم لا خير فيكم، فإنَّ البور: الفاسد في بعض اللغات، قال الجوهري: البور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه.

والمعنى[1]: أي أن تخلفكم لم يكن لما أبديتم من الأسباب، بل إنكم اعتقدتم أنّ الرسول والمؤمنين سيقتلون، وتستأصل شأفتهم، فلا يرجعون إلى أهليهم أبداً، وزيّن لكم الشيطان ذلك الظنَّ، حتى قعدتم عن صحبته، وظننتم أنّ الله لن ينصر محمداً وصحبه المؤمنين على أعدائهم، بل سيغلبون، ويقتلون، وبلغ الأمر بكم أن قلتم: إنّ محمداً وأصحابه أكلة رأس، قليلوا العدد، فأين يذهبون؟ وقد صرتم بما قلتم قوماً هلكىٰ، لا تصلحون لشيء من الخير، مستوجبين سخط الله وشديد عذابه.

ثم أخبر سبحانه عما أعده للكافرين به، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا كلام مستأنف من جهته تعالى، غير داخل تحت ما أمر الله به رسوله ﷺ أن يقوله، مقرر لبوارهم، ومبين لكيفيته. و﴿مَنْ﴾: شرطية أو موصولة، جوابها أو خبرها: محذوف، دلَّ عليه قوله: ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾؛ أي: ومن لم يصدق بما أخبر الله به، ويقر بصدق ما جاء به رسوله من الحق من عنده، كهؤلاء المخلفين.. فهو كافر مستوجب لسخط الله وعذابه، لأنّا أعتدنا وهيأنا للكافرين ناراً ملتهبة متقدة عليه يوم القيامة جزاء كفره، وإنما[2] وضع الكافرين موضع

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

الضمير العائد إلى ﴿مَن﴾ الشرطية أو الموصولة؛ إيذاناً بأنّ من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله هو كافر مستوجب للسعير؛ أي: النار الملتهبة، وتنكير ﴿سَعِيرًا﴾ للدلالة على أنها سعير لا يكتنه كنهها، أو لأنها نار مخصوصة، كما قال: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾. فالتنكير للتنويع.

ثمّ بيّن سبحانه قدرته على ذلك، وأنه يفعل ما يشاء، لا رادّ لحكمه، ولا معقّب لقضائه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه، لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ وما فيهما، يتصرف في الكل كيف يشاء، لا يحتاج إلى أحد من خلقه، وإنما تعبدهم بما تعبدهم ليثيب من أحسن، ويعاقب من أساء، ولهذا قال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له، وهو فضل منه ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ أن يعذّبه، وهو عدل منه من غير دخل لأحد في شيء منهما وجوداً وعدماً، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وفيه حسم لأطماعهم الفارغة في استغفاره ﷺ لهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة بليغهما، يخصّ بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده، ولا يشاء إلا لمن تقتضي الحكمة مغفرته ممن يؤمن به وبرسوله، وأما من عداه من الكافرين، فهو بمعزل من ذلك قطعاً.

ومعنى الآية[1]: أي ولله السلطان والتصرف في السموات والأرض، فلا يقدر أحد أن يدفعه عمّا أراد بكم من تعذيب على نفاقكم إن أصررتم عليه، أو منعه من العفو عنكم إن أنتم تبتم من نفاقكم وكفركم، وهذا حسم لأطماعهم في استغفاره ﷺ لهم، وهم على هذه الحال، ثمّ أطمعهم في مغفرته وعفوه إن تابوا وأنابوا إليه، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن يشاء المغفرة والرحمة دون من عداه.

وفي الآية حث لهؤلاء المتخلفين عن رسول الله ﷺ على التوبة، والمراجعة إلى أمر الله في طاعة رسوله ﷺ، وطلب المبادرة بها، فإنّ الله يغفر للتائبين، ويرحمهم إذا أنابوا إليه، وأخلصوا العمل له.

---

(١) المراغي.

﴿سَيَقُولُ﴾ لك يا محمد، و﴿السين﴾: يدل على القرب ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون؛ أي: سيقول لك الذين تخلّفوا عنك في عمرة الحديبية، واعتلُّوا بشغلهم بأموالهم وأهليهم: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾: ظرف مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿سَيَقُولُ﴾؛ أي: سيقولون عند انطلاقكم وذهابكم أيها المؤمنون ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ وتحوزوها حسبما وعدكم إياها، وخصَّكم بها عوضاً عمّا فاتكم من غنائم مكة إذا انصرفتم منها على صلح، ولم تصيبوا منها شيئاً ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾؛ أي: اتركونا نتبعكم، ونشهد معكم غزوة خيبر، وأصل القصة:[1] أنه لما انصرف النبيّ ﷺ ومن معه من المسلمين من الحديبية.. وعدهم الله سبحانه فتح خيبر، وخصَّ بغنائمها من شهد الحديبية، فلما انطلقوا إليها.. قال هؤلاء المخلّفون: ذرونا نتبعكم، ونسر معكم إلى غزوة خيبر حين توقعوا ما سيكون فيها من مغانم، وفي هذا وعد للمبايعين الموافقين بالغنيمة، وللمتخلفين المخالفين بالحرمان.

فإن قيل: كيف[2] يصح هذا الكلام، وقد ثبت أنه ﷺ أعطى من قدم مع جعفر رضي الله عنه من مهاجري الحبشة، وكذا الدوسيين والأشعريين من مغانم خيبر، ولم يكونوا ممن حضر الحديبية؟.

قلنا: كان ذلك باستنزال أهل الحديبية عن شيء من حقهم.

فقال الله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ﴾؛ أي: يريد أولئك المخلفون بقولهم: ﴿ذَرُونَا﴾ ﴿أَن يُبَدِّلُوا۟﴾ ويغيِّروا ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: مواعيد الله لأهل الحديبية، حيث وعدهم غنيمة خيبر لهم خاصة، وهذا قول جمهور المفسرين، وقال مقاتل: يعني: أمر الله تعالى نبيه ﷺ حيث أمره أن لا يسير منهم أحد إلى خيبر. وقال ابن زيد: هو قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾. والقول الأول أصوب.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ بألف، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿كَلِمَ الله﴾ بلا ألف: جمع كلمة مثل: نبق ونبقةٍ، فالمراد بتبديلهم كلام الله تعالى: قصد مشاركتهم في المغانم التي خصّها بأهل الحديبية، فإنه ﷺ رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم من سنة سبع، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية، ففتحها، وغنم أموالاً كثيرة، فخصَّها بهم حسبما أمره الله تعالى، فالمراد بكلام الله: ما ذكر من وعده تعالى غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصةً، لا قوله تعالى: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾ فإنّ ذلك نزل في غزوة تبوك مرجع رسول الله ﷺ من تبوك في آخر عمره، وهذه السورة نزلت عام الحديبية.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم إقناطاً وتيئيساً من الذهاب معه إلى خيبر، بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المخلّفين الذين يريدون تبديل كلام الله إقناطاً لهم: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ في المسير إلى خيبر، ولن تذهبوا معنا؛ أي: لا تتبعونا، فإنه نفي في معنى النهي للمبالغة. وقال سعدي المفتي: ﴿لَّن﴾ ليس[2] للتأبيد، سيّما إذا أريد النهي.

والمراد: لن تتبعونا في خيبر، أو ديمومتهم على مرض القلوب، وقال أبو الليث: لن تتبعونا في المسير إلى خيبر، إلا متطوعين من غير أن يكون لكم شركة في الغنيمة.

﴿كَذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: قولاً مثل ما قلته لكم ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿مِن قَبْلُۖ﴾؛ أي: من قبل رجوعنا من الحديبية إليكم؛ أي: قال عند انصرافنا من الحديبية: إنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبيّة خاصةً، ليس لغيرهم فيها نصيب. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾؛ أي: فسيقول المنافقون للمؤمنين عند سماع هذا النهي: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ﴾؛ أي: ليس ذلك النهي حكم الله، بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنائم؛ أي: بل ما يمنع من خروجنا معكم إلا الحسد منكم؛ لئلاّ نشارككم في الغنيمة، وليس ذلك

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

بقول الله سبحانه كما تزعمون. والحسد: تمنّي زوال النعمة عمّن يستحق لها، وربّما يكون من ذلك سعي في إزالتها.

ثم رد الله سبحانه عليهم اتهام رسوله وصحبه بالحسد، بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا﴾؛ أي: أولئك المخلفون ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: إلا فهماً قليلاً، وهو فطنتهم لأمور الدنيا، وهو وصف لهم بالجهل المفرط وسوء الفهم في أمور الدين، وعن علي رضي الله عنه: «أقل الناس قيمةً أقلهم علماً».

ومعنى الآية: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾؛ أي:[1] لا تأذن لهم في الخروج معك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإنَّ امتناعهم عن الخروج إلى الحديبية ما حصل إلا لأنّهم كانوا يتوقعون المغرم: وهو جلاد العدو، ومصاولته، ولا يتوقعون المغنم، فلمّا انعكست الآية في خيبر.. طلبوا ذلك، فعاقبهم الله بطردهم من المغانم، ثمّ أكد هذا المنع بقوله: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: مثل هذا القول الصادر منّي قال الله سبحانه من قبل مرجعنا من الحديبية إليكم؛ أي: حكم الله بأن لا تتبعونا، وبأنَّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا، ولستم ممن شهدها، فليس لكم أن تتبعونا؛ لأنّ غنيمتها لغيركم، ثم أخبر بأنهم سيردُّون مقالك السابق: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾. فقال: فسيقولون: إنّ الله ما قال ذلك من قبل، بل أنتم تحسدوننا أن نصيب معكم مغنماً، ومن ثم منعتمونا، فردّ الله عليهم اتهام الرسول وصحبه بالحسد، فقال: ﴿بَلْ كَانُوا﴾ إلخ؛ أي: ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من الأعراب، من أنكم تمنعونهم عن اتباعكم حسداً منكم لهم على أن يصيبوا معكم من العدو مغنماً، بل إنما كان؛ لأنّهم لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلاً، ولو فقهوا.. ما قالوا ذلك لرسوله وللمؤمنين بعد أن أخبرهم بأنّ الله منعهم غنائم خيبر، وفي هذا إشارة إلى أن ردهم حكم الله، وإثبات الحسد لرسوله وللمؤمنين ناشىء من الجهل، وقلة التدبر، فإن حب الدنيا ليس من شيمة

(١) المراغي.

العالم العاقل.

واعلم: أيها الأخ الكريم، أنّ العلم إنما يزداد بصحبة أهله، ولمّا تخلف المنافقون عن صحبة رسول الله ﷺ.. وصفهم الله سبحانه بعدم الفقه، فلا بدَّ من مجالسة العلماء العاملين، حتى تكون الدنيا وراء الظهر، ويجعل الرغبة في الآخرة. وقدورد في الأخبار: «اطلبوا العلم ولو بالصين».

وعن بعضهم قال: رأيت في الطواف كهلاً قد أجهدته العبادة، وبيده عصا، وهو يطوف معتمداً عليها، فسألته عن بلده، فقال: خراسان، ثم قال لي: في كم تقطعون هذا الطريق؟ قلت: في شهرين أو ثلاثة، فقال: أفلا تحجون كلّ عام؟ فقلت له: وكم بينكم وبين هذا البيت؟ قال: مسيرة خمس سنين، قلت: هذا والله هو الفضل المبين، والمحبّة الصادقة، فضحك وأنشأ يقول:

زُرْ مَنْ هَوَيْتَ وَإِنْ شَطَّتْ بِكَ الدَّارُ   وَحَالَ مِنْ دُوْنِهِ حُجُبٌ وَأَسْتَارُ
لاَ يَمْنَعَنَّكَ بُعْدٌ عَنْ زِيَارَتِهِ   إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يَهْوَاهُ زَوَّارُ

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ المذكورين من الأعراب، كرّر ذكرهم بهذا العنوان؛ لذمّهم مرّة بعد أخرى، فإنّ التخلّف عن صحبة الرسول ﷺ شناعة أي شناعة: إنكم ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ وتندبون ﴿إِلَىٰ﴾ قتال ﴿قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: أصحاب قوّة شديدة في الحرب، فعليكم أن تخيروهم بين أمرين: إما السيف، وإما الإسلام، وهذا حكم عام في مشركي العرب والمرتدين، يجب اتباعه، كما بيّن الأمرين بقوله: إما ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾ أبداً ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾: كلام مستأنف، كأنّه قيل: لماذا يدعون؟ فأجيب: ليكون أحد الأمرين: إما المقاتلة أبداً، أو الإسلام لا غير، وأما من عدا المرتدين والمشركين من العرب فينتهي قتالهم بالجزية، كما ينتهي بالإسلام.

يعني: أنّ المراد بـ ﴿قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: المرتدّون والمشركون مطلقاً، سواء كانوا مشركي العرب أو العجم، بناءً على أنّ من عدا الطائفتين المذكورتين، وهم: أهل الكتاب والمجوس، ليس الحكم فيهم أن يقتلوا إلى أن يسلموا، بل تقبل منهم الجزية، بخلاف المرتدّين، ومشركي العرب والعجم، فإنه لا تقبل منهم

الجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا، وهذا عند الشافعي، وأما عند أبي حنيفة: فمشركوا العجم تقبل منهم الجزية، كما تقبل من أهل الكتاب والمجوس، والذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف إنما هم مشركوا العرب والمرتدون فقط عنده.

واختلف العلماء في تعيين هؤلاء القوم، فقال الزهريّ ومقاتل وجماعة: المراد بالقوم أولي البأس شديد: بنو حنيفة، أصحاب مسيلمة الكذّاب، وقال قتادة: هم هوازن وغطفان، وقال ابن عباس، ومجاهد: هم أهل فارس، وقال الحسن: هم فارس والروم، قال ابن جرير: إنه لم يقم دليل من نقل، ولا من عقل على تعيين هؤلاء القوم، فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعيين. اهـ.

أي: يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة، أو الإسلام، لا ثالث لهما.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ مرفوعاً، وقرأ أبيّ وزيد بن عليّ: بحذف النون منصوباً بإضمار أن بعد ﴿أَوْ﴾ العاطفة لمصدر متصيد، على مصدر متوهّم؛ أي: يكون قتال أو إسلام، والرفع على العطف على: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾ أو على القطع؛ أي: أو هم يسلمون دون قتال.

ثمّ وعدهم إذا أجابوا بقوله: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾؛ أي: فإن تستجيبوا وتنفروا أيّها المخلّفون للجهاد، وتؤدُّوا ما طلب منكم أداؤه.. ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يعطكم ربّكم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ وثواباً جزيلاً، فتنالوا المغانم في الدنيا، وتدخلوا الجنة في الآخرة، كما وعد من نكص على عقبه بقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾؛ أي: تعرضوا عن الدعوة، وتعصوا ربكم فتدبروا عن طاعته، وتخالفوا أمره، فتتركوا قتال أولي النجدة والبأس الشديد إذا دعيتم إلى قتالهم ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية؛ أي: كما عصيتموه في أمره إياكم بالمسير مع رسوله ﷺ إلى مكة ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: عذاباً شديداً بالمذلّة في الدنيا بالقتل والأسر والقهر والنار في

---

(١) البحر المحيط.

الآخرة لتضاعف جرمكم.

وبيان المقام[1]: أنه ﷺ لمّا قال لهم: «لن تتبعونا».. دعت الحاجة إلى بيان قبول توبة من رجع منهم عن النفاق، فجعل تعالى لهذا القبول علامة، وهو أنهم يدعون بعد وفاته ﷺ إلى محاربة قوم أولي بأس وقوة في الحرب، فمن أجاب منهم دعوة إمام ذلك الزمان، وحاربهم.. فإنه يقبل توبته، ويعطى الأجر الحسن، فلولا هذا الامتحان.. لاستمرّ حالهم على النفاق، كما استمرت حالة ثعلبة عليه، فإنه قد امتنع من أداء الزكاة، ثمّ أتى بها، ولم يقبل منه النبي ﷺ، واستمر عليه الحال، ولم يقبل منه أحد من الصحابة، فلعلّه تعالى علم من ثعلبة أنَّ حاله لا تتغيّر، فلم يبيّن لتوبته علامةً، وعلم من أحوال الأعراب أنها تتغيّر، فبيّن لتغيُّرها علامةً. والله أعلم.

روي: أنه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ الآية.. قال أهل الزمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآية، فبيَّن فيها الأعذار المبيحة للتخلف عن القتال بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾؛ أي: فاقد البصر ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: إثم في التخلف عن الغزو؛ لأنّه كالطائر المقصوص الجناح لا يمتنع على من قصده، والتكليف يدور على الاستطاعة ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾؛ أي: على فاقد منفعة الرجل ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: ذنب في التخلّف عن الجهاد لما به من العلّة اللازمة إحدى الرجلين أو كلتيهما، وقد سقط عمّن ليس له رجلان غسلهما في الوضوء، فكيف بالجهاد؟! ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾ مرضاً يمنع من الجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ لأنّه لا قوّة به، وفي نفي الحرج عن كلّ من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم، وتوسيع لدائرة الرخصة.

والمعنى: أي ليس[2] على من في عضوه أو قوّته خلل مأثم في التخلّف عن الغزو، وكذا فقير لا يمكن له استصحاب ما يحتاج إليه من مصالح الجهاد، وإنما قدّم الأعمى على الأعرج؛ لأنَّ عذره مستمر، لا يمكن الانتفاع به في حراسة

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.

وغيرها، ولا يعود بصيراً، أما الأعرج، فإنه يمكن الانتفاع به في الحراسة ونحوها، وقد يقدر على القتال بالرمي وغيره، وقدم الأعرج على المريض؛ لأنّ عذره أشدّ من عذر المريض؛ لإمكان زوال المرض عن قرب، فالعذر في محل الآلة أتم من الآفة في القوّة.

ومجمل المعنى[1]: أي لا إثم على ذوي الأعذار إذا تخلفوا عن الجهاد، وشهود الحرب مع المؤمنين إذا هم لاقوا عدوَّهم للعلل التي بهم، والأسباب التي تمنعهم من شهودها، كالعمىٰ والعرج والمرض، قال مقاتل: عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية.

ثم رغب سبحانه في الجهاد، وطاعة الله ورسوله، وأوعد على تركه بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامر والنواهي في السر والعلن من المعذورين وغيرهم، فيجب الداعي إلى حرب أعدائه أهل الشرك، دفاعاً عن دينه، وإعلاءً لكلمته ﴿يُدْخِلْهُ﴾ يوم القيامة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ خالدين فيها ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن طاعتهما، ويعص الله ورسوله، فيتخلّف عن الجهاد إذا دعي إليه.. ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: يدخله عذاباً موجعا في نار جهنم لا يقادر قدره.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ و﴿يُعَذِّبْهُ﴾ بالياء، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد، وقرأ نافع وابن عامر والحسن وقتادة وأبو جعفر والأعرج وشيبة: بالنون فيهما.

تتمة: وهذه الأعذار[3] المذكورة هنا أعذار ظاهرة في ترك الجهاد؛ لأنَّ أصحابها لا يقدرون على الكر والفرّ؛ لأنّ الأعمى لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب، ولا يمكنه الهرب، وكذلك الأعرج والمريض، وفي معنى المريض: صاحب السعال الشديد، والطحال الكبير، والذين لا يقدرون على الكرّ والفرّ: كأصحاب السمن المفرط، فهذه أعذار، وهناك أعذار أخر دون ما ذكر، كالفقر

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الفتوحات.

الذي لا يمكن صاحبه أن يستصحب ما يحتاج إليه من مصالح الجهاد، والأشغال التي تعوق عن الجهاد، كتمريض المريض الذي ليس معه من يقوم مقامه عليه، ونحو ذلك، كعدم إذن الوالدين له.

وقد غزا ابن أم مكتوم، وكان أعمى في بعض حروب القادسية، وكان رضي الله عنه يمسك الراية. ذكره في «البحر».

الإعراب

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿فَتَحْنَا﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ ﴿فَتَحْنَا﴾. ﴿فَتْحًا﴾: مفعول مطلق. ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له. ﴿لِّيَغْفِرَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يغفر﴾: فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ ﴿يغفر﴾. ﴿اللَّهُ﴾: فاعل، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به، وجملة ﴿تَقَدَّمَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾. ﴿مِن ذَنبِكَ﴾: متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿تَقَدَّمَ﴾. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: معطوف على ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾، وجملة ﴿يغفر﴾: صلة أن المضمرة، أن مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿اللام﴾. تقديره: لغفران الله لك، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿فَتَحْنَا﴾. ﴿وَيُتِمَّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿يغفر﴾، ﴿نِعْمَتَهُ﴾: مفعول به. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ ﴿يُتِمَّ﴾. ﴿وَيَهْدِيَكَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿يغفر﴾، و﴿الكاف﴾: مفعول أول. ﴿صِرَاطًا﴾: مفعول ثان، أو منصوب بنزع الخافض. ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾: صفة ﴿صِرَاطًا﴾.

﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يغفر﴾. ﴿نَصْرًا﴾: مفعول مطلق. ﴿عَزِيزًا﴾: صفة له. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، صلة الموصول. ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يزدادوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿إِيمَـٰنًا﴾: مفعول به، أو تمييز. ﴿مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿إِيمَـٰنًا﴾، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿اللام﴾، والجار والمجرور: متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾؛ أي: لزيادتهم إيماناً مع إيمانهم. ﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لله﴾: خبر مقدم. ﴿جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾. فعل ناقص واسمه وخبره، ﴿حَكِيمًا﴾ خبر ثان له، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾. ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يدخل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول أول. ﴿وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿جَنَّـٰتٍ﴾: مفعول ثان على السعة، وجملة ﴿يدخل﴾ مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور ﴿باللام﴾: الجار والمجرور: متعلق بمحذوف، تقديره: أمر بالجهاد لإدخال المؤمنين والمؤمنات إلخ. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية: في محل النصب صفة لـ ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ ولكنها سببيّة. ﴿خَـٰلِدِينَ﴾: حال من ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿خَـٰلِدِينَ﴾. ﴿وَيُكَفِّرَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يدخل﴾. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿يُكَفِّرَ﴾. ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: مفعول به. ﴿وَكَانَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كان ذلك﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿فَوْزًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿فَوْزًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ ﴿فَوْزًا﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة استئنافاً بيانياً، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ

دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿يدخل﴾. ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: معطوفات على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾. ﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾: نعت لـ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وما بعده. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾؛ ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ﴾: مفعول مطلق مضاف إلى ما بعده مؤكد لعامله، والسوء، بضم السين وفتحها: صفة لموصوف محذوف، تقديره: الظانّين بالله الأمر السوء ظنًّا، فحذف المضاف إليه الذي هو الأمر، وأقيمت صفته مقامه، وسيأتي بقية البحث فيه. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: خبر مقدم. ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: دعائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿غَضِبَ﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾: عطف فعلية على اسمية. ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿غَضِبَ﴾، ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل وفاعل مستتر، معطوف على ﴿غَضِبَ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿أعدَّ﴾، ﴿جَهَنَّمَۖ﴾: مفعول به. ﴿وَسَآءَتْ﴾: فعل ماض لإنشاء الذم، وفاعل مستتر يعود على ﴿جَهَنَّمَۖ﴾. ﴿مَصِيرًا﴾: تمييز، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لله﴾: خبر مقدم. ﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة. ﴿وَٱلْأَرْضِۚ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَزِيزًا﴾: خبره. ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان له، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿شَٰهِدًا﴾: حال مقدرة من مفعول ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾: معطوفان على ﴿شَٰهِدًا﴾. ﴿لِّتُؤْمِنُوا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿تؤمنوا﴾: فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿تؤمنوا﴾ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾؛ أي: أرسلناك لإرادة إيمانكم بالله

ورسوله ﷺ. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾: أفعال وفواعل ومفاعيل معطوفات على ﴿تؤمنوا﴾. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: منصوبان على الظرفية الزمانية، متعلقان بـ ﴿تسبحوه﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ناصب واسمه. ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول. ﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة. ﴿يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ. ﴿فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل الرفع خبر ثان. لـ ﴿إِنَّ﴾. ويجوز أن تكون حالية من ضمير الفاعل في ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿نَّكَثَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً؛ لشبه الجواب جملة اسمية لاشتماله على ﴿إنّ﴾ المكفوفة. ﴿إنما﴾: كافة ومكفوفة. ﴿يَنكُثُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾. ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿يَنكُثُ﴾، والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الجواب. ﴿أَوْفَىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿أَوْفَىٰ﴾، وجملة ﴿عَـٰهَدَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿عَلَيْهُ﴾: متعلق بـ ﴿عَـٰهَدَ﴾، وضمت الهاء، مع أنها تكسر بعد الياء؛ لمجيء سكون بعدها، فيجوز الضمّ إن أريد تفخيم لام الجلالة، والكسر إن أريد ترقيقها، ولفظ الجلالة: مفعول به. ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً؛ لاشتمال الجواب على حرف

التنفيس، و﴿الهاء﴾: مفعول أول، وفاعله: ضمير يعود على الله. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة ﴿أَجْرًا﴾، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١)﴾.

﴿سَيَقُولُ﴾ ﴿السين﴾: حرف استقبال ﴿يقول﴾: فعل مضارع. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ ﴿يقول﴾، ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾: فاعل ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾: حال من ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾. والجملة: مستأنفة. ﴿شَغَلَتْنَا﴾: فعل ومفعول به. ﴿أَمْوَالُنَا﴾: فاعل ﴿وَأَهْلُونَا﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول القول. ﴿فَاسْتَغْفِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿استغفر﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿لَنَا﴾: متعلق بـ ﴿استغفر﴾ ومفعول ﴿استغفر﴾: محذوف؛ أي: الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿شَغَلَتْنَا﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِأَلْسِنَتِهِم﴾: متعلق به، والجملة: حال من ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها: ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: خبر ﴿لَيْسَ﴾. والجملة: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿يَمْلِكُ﴾: خبره. ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ ﴿يَمْلِكُ﴾، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾: حال من ﴿شَيْئًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَرَادَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وفاعله: ضمير يعود على الله. ﴿بِكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿أَرَادَ﴾. ﴿ضَرًّا﴾: مفعول به، وجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية: محذوف دلّ عليه ما قبلها؛ أي: إن أراد بكم ضرًّا، فمن يملك لكم دفعه، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾: معطوف على ﴿أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف

إضراب للإضراب الانتقالي من موضوع إلى آخر. ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿خَبِيرًا﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿خَبِيرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾: جملة إضرابية، لا محل لها من الإعراب.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف إضراب أيضاً، أضرب عن بيان بطلان اعتذارهم إلى بيان الحامل لهم على التخلّف. ﴿ظَنَنتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جملة إضرابية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَن﴾: مخفّفة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن، ﴿لَّن﴾: حرف نفي ونصب. ﴿يَنقَلِبَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿لَّن﴾. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: فاعل. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿يَنقَلِبَ﴾. ﴿أَبَدًا﴾: ظرف متعلق بـ ﴿يَنقَلِبَ﴾، وجملة ﴿يَنقَلِبَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخفّفة، وجملة ﴿أَن﴾ المخفّفة: سدّت مسدّ مفعولي ﴿ظَنَنتُمْ﴾. ﴿وَزُيِّنَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ نائب فاعل. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿زُيِّنَ﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ظَنَنتُمْ﴾. ﴿وَظَنَنتُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ظَنَنتُمْ﴾ الأول، ﴿ظَنَّ﴾: مفعول مطلق. ﴿ٱلسَّوْءِ﴾: مضاف إليه، والسوء في الأصل: صفة لمفعول ﴿ظَنَنتُمْ﴾ المحذوف، والتقدير: وظننتم الأمر السّيء بالمؤمنين ظنًّا. ﴿وَكُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿قَوْمًۢا﴾: خبر ﴿كان﴾، ﴿بُورًا﴾: نعت ﴿قَوْمًۢا﴾. وجملة ﴿كان﴾: معطوفة على ما قبلها. وبوراً: جمع بائر، اسم فاعل من بار يبور: إذا هلك. ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم أو موصولة، في محل الرفع. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يُؤْمِنۢ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، يعود على ﴿مَن﴾ مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يُؤْمِنۢ﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة، وجواب الشرط: محذوف، تقديره: ندخله ناراً، وجملة الجواب المحذوف: خبر لـ ﴿مَن﴾

الشرطية، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: مستأنفة من جهته تعالى، مبيّنة لكيفية بوارهم. ﴿فَإِنَّآ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿أَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ ﴿أَعْتَدْنَا﴾، ﴿سَعِيرًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿أَعْتَدْنَا﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنّ﴾، وجملة ﴿إِنّ﴾: جملة تعليلية معلّلة للجواب المحذوف، لا محل لها من الإعراب، هذا إن كانت ﴿مَن﴾ شرطية، وإن كانت موصولة.. فخبرها جملة ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾، ودخلت ﴿الفاء﴾ لما في الموصول من معنى الشرط. ﴿وَلِلَّهِ﴾: خبر مقدم. ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وجملة ﴿يَغْفِرُ﴾: حال من الجلالة. ﴿لِمَن﴾: متعلق بـ ﴿يَغْفِرُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَيُعَذِّبُ﴾: معطوف على ﴿يَغْفِرُ﴾. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يُعَذِّبُ﴾. وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ أيضاً صلة لـ﴿مَن﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾: معطوفة على جملة ﴿يَغْفِرُ﴾ أو مستأنفة.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿سَيَقُولُ﴾. ﴿ٱنطَلَقْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾: متعلق بـ ﴿ٱنطَلَقْتُمْ﴾، ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿تأخذوها﴾: فعل وفاعل ومفعول به، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لأخذكم إياها، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿ٱنطَلَقْتُمْ﴾. ﴿ذَرُونَا﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول لـ ﴿سَيَقُولُ﴾. ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، مجزوم بالطلب السابق، والجملة الفعلية: جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب،

حال من ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أو من مفعول ﴿ذَرُونَا﴾ أو مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿يُبَدِّلُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾، ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريدون تبديل كلام الله ومواعيده للمؤمنين.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿لَّن﴾: حرف نصب واستقبال. ﴿تَتَّبِعُونَا﴾ ﴿تتبعوا﴾: فعل مضارع، منصوب بـ ﴿لَن﴾ وعلامة نصبه: حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿نا﴾: مفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿كَذَٰلِكُمْ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: قولاً مثل هذا القول الصادر عنّي. وهو ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾. ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿مِن قَبْلُۖ﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿قال﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قُل﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب. ﴿تَحْسُدُونَنَاۚ﴾: فعل مضارع مرفوع بثبات النون، و﴿الواو﴾: فاعل و﴿نا﴾: مفعول به، والجملة: في محل النصب مقول لـ ﴿سيقولون﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، جملة ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: إلا فقهاً قليلاً، وجملة ﴿كان﴾: جملة إضرابية مستأنفة، أو معطوفة على ﴿يقولون﴾. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾: متعلق بـ ﴿قُل﴾، ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: حال من ﴿المخلفين﴾. ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ ﴿السين﴾: حرف استقبال. ﴿تُدْعَوْنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع بالنون، و﴿الواو﴾: نائب فاعل. ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ﴾: متعلق به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿أُوْلِي بَأْسٍ﴾: صفة لـ ﴿قَوْمٍ﴾، مجرور بالياء؛ لأنه

ملحق بجمع المذكر السالم. ﴿شَدِيدٍ﴾ صفة ﴿بَأْسٍ﴾، ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب حال من واو ﴿تدعون﴾، أو في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿قَوْمٍ﴾ أو مستأنفة. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿يُسْلِمُونَ﴾: معطوف على ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾، أو مستأنف، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: أو هم يسلمون. ﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿تُطِيعُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، و﴿الكاف﴾: مفعول به أول، ولفظ الجلالة: فاعل. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثان. ﴿حَسَنًا﴾: صفة ﴿أَجْرًا﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿تدعون﴾. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تَتَوَلَّوْا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾: صفة لمصدر محذوف. و﴿ما﴾: مصدرية. ﴿تَوَلَّيْتُم﴾: فعل وفاعل صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ ﴿تَوَلَّيْتُم﴾. وبني على الضم لانقطاعه عن الإضافة لفظاً لا معنى، والتقدير: وإن تتولّوا تولّيا مثل تولّيكم من قبل. ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾: فعل مضارع وفعل مستتر ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جوابا لها. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق. ﴿أَلِيمًا﴾: نعت لـ ﴿عَذَابًا﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَى الْأَعْمَىٰ﴾: خبرها مقدم. ﴿حَرَجٌ﴾: اسمها مؤخر، والجملة: مستأنفة، مسوقة لبيان حكم الزمني وذوي العاهات بالنسبة إلى الجهاد، ونفي الحرج عنهم في التخلف عنه. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد نفي ﴿لَيْسَ﴾. ﴿عَلَى الْأَعْرَجِ﴾: معطوف على ﴿الْأَعْمَىٰ﴾، ﴿حَرَجٌ﴾: معطوف على ﴿حَرَجٌ﴾ الأول، وكذا قوله: ﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾: معطوف عليه. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في

محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يُطِعِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، مجزوم بـ ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف عليه. ﴿يُدْخِلْهُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، مجزوم بـ ﴿مَن﴾ على كونه جواب شرط لها، و﴿الهاء﴾: مفعول به. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ثان على التوسّع، وجملة ﴿مَن﴾: الشرطية، معطوفة على جملة ﴿لَّيْسَ﴾. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية. في محل النصب صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ولكنها سببية. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَتَوَلَّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ مجزوم بـ ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه: حذف حرف العلّة. ﴿يُعَذِّبْهُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ ومفعول به مجزوم بـ ﴿مَن﴾ على كونه جواب شرط لها. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾: فتح البلد عبارة عن الظفر به عنوة أو صلحاً، بحرب أو بدونه، فإنه ما لم يظفر منغلق، مأخوذ من فتح باب الدار، قال في «عين المعاني»: الفتح: هو الفجر المزيل للهمّ؛ لأنّ المطلوب كالمنغلق، فإذا نيل.. انفتح، وفي «المفردات»: الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال، وذلك ضربان:

ضرب: يدرك بالبصر، نحو: فتح الباب والغلق والقفل، والمتاع نحو قوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾.

والثاني: ما يدرك بالبصيرة، كفتح الهمّ: وهو إزالة الغمّ، وذلك ضربان:

أحدهما: في الأمور الدنيوية كغمّ يفرج، وفقر يزال بإعطاء المال ونحوه.

والثاني: فتح المستغلق من العلوم، نحو: قولك: فلان فتح من العلم باباً مغلقاً. انتهى.

والمراد بالفتح هنا في رأي الجمهور: هو صلح الحديبية، وسمّي هذا الصلح فتحاً؛ لأنّه كان سبباً لفتح مكة، من قبيل المجاز المرسل، بإطلاق السبب على المسبّب، وقال جماعة: المراد: فتح مكة، وهو المرويّ عن أنس رضي الله عنه: بشر به رسول الله ﷺ عند انصرافه من الحديبية والتعبير عنه حينئذٍ بصيغة الماضي؛ للإيذان بتحقّقه لا محالة، كسائر الأخبار الربانية.

﴿مُّبِينًا﴾؛ أي: بيّناً، ظاهر الأمر مكشوف الحال.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ﴾ أصله: يتمم، نقلت حركة الميم الأولى إلى التاء، فسكنت فأدغمت في الميم الثانية.

﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾؛ أي: خلقها، وأوجدها، قال الراغب: إنزال الله تعالى نعمته على عبده: إعطاؤه إياها إما بإنزال الشيء نفسه: كإنزال القرآن، أو بإنزال أسبابه بالهداية إليه: كإنزال الحديد ونحوه. اهـ. السكينة: الطمأنينة والثبات، من السكون.

﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أوجد السكينة في القلوب في مواضع القلق والاضطراب.

قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ﴾ أصله: ليزتيدوا بوزن يفتعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثمّ أبدلت تاء الافتعال دالًا لوقوعها بعد الزاي، فصار ليزدادوا، وهذا على حدّ قول ابن مالك في باب التصريف:

طَا تَا ٱفْتِعَالٍ رُدَّ إِثْرَ مُطْبَقِ ... فِيْ ٱدَّانَ وَٱزْدَدْ وَٱدَّكِرْ دَالاً بَقِيْ

﴿إِيمَٰنًا﴾ أصله: إءماناً، أبدلت الهمزة الثانية الساكنة حرف مدٍّ مجانساً لحركة الأولى، فصارت ياءً؛ أي: ليزدادوا يقيناً.

﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: مع يقينهم. أو ليزدادوا إيماناً بالشرائع مع إيمانهم بالله، وباليوم الآخر، قال ابن عباس: إنّ أوّل ما أتاهم به النبيّ ﷺ التوحيد، فلّما آمنوا بالله وحده.. أنزل الصلاة، ثمّ الزكاة، ثم الجهاد، ثم الحج.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الجنود: جمع جند بالضم، وهو جمع معدّ للحرب؛ أي: الأسباب السماويّة والأرضيّة.

﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾: جمع ظانّ، أصله: ظانن، أدغمت النون الأولى في الثانية.

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ لفظ دائرة فيه إعلام بالإبدال، أصله: داورة، اسم فاعل من دار يدور، كقال يقول، أبدلت الواو في الوصف حملاً له في الإعلال على فعله، والدائرة في الأصل: عبارة عن الخطّ الميحط بالمركز، ثمّ استعملت في الحادثة والمصيبة المحيطة بمن هي وقعت عليه.

فمعنى الآية: يحيط بهم السوء إحاطة الدائرة بالشيء أو بمن فيها، بحيث لا سبيل إلى الانفكاك عنها بوجه، إلا أن أكثر استعمالها؛ أي: الدائرة في المكروه، كما أنّ أكثر استعمال الدولة في المحبوب الذي يتداول، ويكون مرةً لهذا، ومرةً لذاك، والإضافة في ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ من إضافة العام إلى الخاص، فهي للبيان، كخاتم فضة؛ أي: دائرة من شرّ لا من خير.

والمراد: الإحاطة والشمول، بحيث لا يتخطّاهم السوء ولا يتجاوزهم، اهـ. «روح».

وقال ابن الشيخ: السوء بالفتح صفة مشبهة، من ساء يسوء بضم العين في المضارع، سوءاً فهو سوء، ويقابله من حيث المعنى قولك: حسن يحسن حسناً، فهو حسن، وهو فعل لازم بمعنى: قبح، وصار فاسداً رديئاً، بخلاف ساءه يسوءه سوءاً ومساءةً؛ أي: أحزنه، نقيض سرَّه، فإنه متعدٍّ، ووزنه في الماضي فعل بفتح العين، ووزن ما كان لازماً فعل بضم العين، وفعل يأتي فعله على فعل، كصعب صعوبة فهو صعب، والسوء بضم السين: مصدر لهذا اللازم، والسوء بالفتح: مشترك بين اسم الفاعل من اللازم، وبين مصدر المتعدّي، وقيل: السوء بالفتح والضم لغتان، من ساء بمعنى كالكره والكره. كما مرّ.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾؛ أي: تنصروه، قال في «المفردات»: التعزير: النصرة، من التعظيم، قال تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾. والتعزير ما دون الحد، وذلك يرجع إلى الأول، فإنّ ذلك تأديب، والتأديب نصرة بقهر عدوّه، فإنّ أفعال الشر عدوّ الإنسان، فمتى قمعته عنها.. فقد نصرته، وعلى هذا الوجه قال النبي ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فقال: أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تكفّه

عن الظلم». انتهى.

وقال في «القاموس»: التعزير: ضرب دون الحد، أو هو أشد الضرب. والتفخيم والتعظيم ضدٌ، والإعانة كالعزر والتقوية والنصر. انتهى.

وقال بعضهم: أصله: المنع ومنه التعزير، فإنه منع من معاودة القبيح؛ يعني: وتمنعوه تعالى؛ أي: دينه ورسوله، حتى لا يقوى عليه عدو.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾؛ أي: تعظّموه تعالى، باعتقاد أنه متصف بجميع صفات الكمال، منزّه عن جميع وجوه النقصان، قال في «القاموس»: التوقير: التبجيل، والوقار بوزن سحاب: الرزانة. انتهى يعني: السكون والحلم، فأصله من الوقر الذي هو الثقل في الأذن.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تعالى عمّا لا يليق به من الشريك والصاحبة والولد، وسائر صفات المخلوقين، أو تصلّوا له، من السبحة: وهي الدعاء، وصلاة التطوّع، وقال في «القاموس»: التسبيح: الصلاة، ومنه قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾؛ أي: من المصلّين.

﴿بُكْرَةً﴾؛ أي: أول النهار. ﴿وَأَصِيلًا﴾؛ أي: آخر النهار.

والمراد: جميع النهار، إذ من سنن العرب: أن يذكروا طرفي الشيء، ويريدوا جميعه، كما يقال: شرقاً وغرباً لجميع الدنيا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾؛ أي: يعاهدونك يوم الحديبية تحت الشجرة، سمّيت المعاهدة بالمبايعة التي هي مبادلة المال بالمال تشبيهاً لها بالمبايعة في اشتمال كل واحد منهما على معنى المبادلة؛ لأنّ المعاهدة أيضاً مشتملة على المبادلة بين التزام الثبات في محاربة الكافرين، وبين ضمانه ﷺ لمرضاة الله عنهم، وإثابته إيّاهم بجنات النعيم في مقابلة محاربة الكافرين، وسيأتي مزيد بسط في مبحث البلاغة، إن شاء الله تعالى.

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ النكث: نقضُ نحوِ: الحبل والغزل، استعير لنقض العهد.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ﴾؛ أي: وفي، فالرباعيّ بمعنى الثلاثي، يقال: وفي بالعهد وأوفى به، وهي لغة تهامة.

﴿شَغَلَتْنَآ﴾ والشغل: العارض الذي يذهل الإنسان، وقد شغل فهو مشغول. ﴿أَمْوَٰلُنَا﴾ جمع مال: وهو كل ما يتملّكه الإنسان من دراهم أو دنانير أو ذهب أو فضة أو حنطة أو خبز أو حيوان أو ثياب أو سلاح أو غير ذلك، والمال: العين هو المضروب، وسمّي المال مالاً؛ لكونه بالذات تميل القلوب إليه، وفي «التلويح»: المال: ما يميل إليه الطبع، ويدّخر لوقت الحاجة، أو ما خلق لمصالح الآدميّ، ويجري فيه الشحّ والضنة. انتهى.

﴿وَأَهْلُونَا﴾ والأهلون: جمع أهل، وأهل الرجل: عشيرته، وذووا قرباه، وقد يجمع الأهل على إهالٍ وآهالٍ وأهلاتٍ، ويحرك كأرضات، على تقدير تاء التأنيث؛ أي على أنّ أصله: أهلة، كما في أرض، فحكمه حكم تمرة، حيث يجوز في تمرات تحريك الميم.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾ و(السين): للاستقبال، يقال: خلّفته بالتشديد: تركته خلفي، وخلفوا أثقالهم تخليفاً: خلوها وراء ظهورهم، وقال ابن الشيخ في سورة التوبة: العرب: هو الصنف الخاص من بني آدم، سواء سكن البوادي أم سكن القرى، وأمّا الأعراب فإنه لا يطلق إلا على من يسكن البوادي، فالأعراب جمع أعرابيّ، كما أنّ العرب: جمع عربيٌّ، والمجوس: جمع مجوسيّ، واليهود: جمع يهودي، بحذف ياء النسبة في الجمع، ويدل على الفرق بين العرب والأعراب، قوله ﷺ: «حب العرب من الإيمان» وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾، حيث مدح العرب، وذم الأعراب الذين هم سكان البادية، فعلى هذا يكون العرب أعم من الأعراب.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: إنّ كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما في القلب، فهو كذب صراح. ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم﴾ والملك: إمساك بقوّة وضبطٍ، تقول: ملكت الشيء: إذا دخل تحت ضبطك دخولاً تامًّا، ومنه: لا أملك رأس بعيري: إذا لم تستطع إمساكه إمساكاً تامًّا.

﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا﴾ والمراد بالضر: ما يضرّ من هلاك الأهل والمال وضياعهما، وبالنفع: ما ينفع من حفظ المال والأهل.

﴿بُورًا﴾؛ أي: هالكين لفساد عقائدكم، وسوء نياتكم، على أنه جمع بائر، من بار بمعنى هلك، كعائذٍ وعوذٍ: الحديثة النتاج من الإبل أو الخيل، وقيل: البور: مصدر من بار، كالهلك من هلك بناء، ومعنى؛ ولذا وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، فيقال: رجل بور، وقوم بور.

﴿إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾؛ أي: ذهبتم، يقال: انطلق فلان إذا مرَّ متخلفاً، وأصل الطلاق: التخلية من وثاق، كما يقال: حبس طلقاً، ويضم؛ أي: بلا قيد ولا وثاق، والمغانم: جمع مغنم بمعنى الغنيمة.

﴿ذَرُونَا﴾؛ أي: دعونا، يقال: ذره دعه، وهو يذره؛ أي: يدعه، وأصله وذره يذره، كوسعه، وقد أماتوا ماضيه، ومصدره واسم فاعله، فلم ينطقوا بها، فلا يقال: وذره ماضياً، ولا يقال: وذر مصدراً، كوعد، ولا واذر بكسر الذال اسم فاعل، بل يقال: تركه تركاً فهو تارك. اهـ من «القرطبي» و«القاموس».

﴿بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ﴾ والحسد: تمني زوال النعمة عمّن يستحق لها. كما مرّ.

﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون، قال الراغب: الفقه: هو التوصل إلى علم غائبٍ بعلم شاهدٍ، فهو أخص من العلم، والفقه: العلم بأحكام الشريعة، وفقه فقهاً؛ أي: فهم فهماً، والمراد بالفقه القليل: فهمهم لأمور الدنيا، دون أمور الدين.

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ وهو فاقد البصر. ﴿حَرَجٞ﴾ وأصل الحرج والحراج: مجتمع الشيء، كالشجر وتصوُّر منه ضيق ما بينهما، فقيل للضيق: حرجٌ، وللإثم: حرج. ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ﴾ من العروج؛ لأنّ الأعرج ذاهب في صعود بعد هبوط، وعرج كفرح: إذا صار ذلك خلقة له، وقيل للضبع: عرجاء؛ لكونها في خلقتها ذات عرج، وعرج كدخل: ارتقى وأصابه شيء في رجليه، فمشىٰ مشي العارج؛ أي: الذاهب في صعود، وليس ذلك بخلقةٍ، أو يثلث في غير الخلقة.

كما في «القاموس».

قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ أصله: ستدعوون، قلبت الواو الأولى ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعبير بالماضي عمّا في المستقبل في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ فقد جاء الإخبار بالفتح بلفظ الماضي؛ لأنها نزلت حين رجع ﷺ من الحديبية قبل عام الفتح؛ إيذاناً بأنّ أخبار الله تعالى لمّا كانت محقَّقة لا محالة.. نزلت منزلة المحققة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر، وصدقه ما لا يخفىٰ على من له مسكة من عقل.

ومنها: تصدير الكلام بحرف التحقيق تأكيداً للتبشير.

ومنها: حذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل، والإيذان بأنَّ مناط التبشير: نفس الفتح الصادر عنه سبحانه، لا خصوصية المفتوح.

ومنها: الالتفات من التكلّم إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات كالمغفرة والإنعام والنصر، في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾؛ لأجل الإشعار بأنّ كل واحد من الأمور الأربعة الداخلة تحت لام الغاية صادر عنه تعالى، من حيثيّةٍ غير الحيثية الأخرى، مترتب على صفة من صفاته تعالى. اهـ «أبو السعود». فمغفرة الذنوب من حيث إنه تعالى غفار، وهداية الصراط من حيث إنه هاد، وهكذا، ويجمع الكل لفظ الله، فإنه اسم للذات المستجمع للصفات. اهـ شيخنا.

قال ابن الشيخ: في إظهار فاعل قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ﴾ ﴿وَيَنصُرَكَ﴾ إشعار بأنّ كل واحد من المغفرة والنصرة متفرع على الألوهية، وكونه معبوداً بالحق، والمغفرة: ستر الذنوب ومحوها.

ومنها: الطباق بين: ﴿ما تقدم﴾ و﴿ما تأخر﴾ وبين: ﴿مبشراً﴾ و﴿نذيراً﴾، وبين: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وبين: ﴿نكث﴾ و﴿أَوْفَىٰ﴾، وبين ﴿أراد بكم ضراً﴾ و﴿أراد بكم نفعاً﴾، وبين: ﴿يَغْفِرُ﴾ و﴿يعذب﴾.

ومنها: المقابلة بين: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ الآية، وبين: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ...﴾ الآية.

ومنها: التعليل في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ حيث جعل تعالى فتح مكة علة للمغفرة؛ لأنَّ الفتح من حيث كونه جهاداً وعبادة سبب للغفران، وقيل: السرّ فيه: اجتماع ما عدد من الأمور الأربعة، وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، والهداية والنصر العزيز، كأنَّه قيل: يسّرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوّك لنجمع لك عزّ الدارين، وأغراض العاجلة والآجلة.

ومنها: الإسناد المجازيّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ فقد أسند العزّ والمنعة إلى النصر، وهو للمنصور، فإنَّ صيغة فعيل هنا للنسبة، العزيز بمعنى ذي العزّة.

ومنها: التكرير في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ حيث قال ثانياً: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ لأنّه ذكر قبل الآية الأولى ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولما كان فيهم من هو أهل للرحمة، ومن هو أهل للعذاب.. ناسب أن يكون خاتمة الأولى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. ولمّا بالغ تعالى في تعذيب المنافق والكافر، وشدته.. ناسب أن يكون خاتمة الثانية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فالأولى: دلّت على أنه المدبّر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته، والثانية: دلّت على التهديد والوعيد، وأنهم في قبضة المنتقم.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

ومنها: الإتيان بالواو في الفعلين الأخيرين في قوله: ﴿وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ مع أنّ حقّهما الإتيان بالفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها، إذ اللعن سبب الإعداد، والغضب سبب اللعن؛ للإيذان باستقلال كل منهما في الوعيد،

وأصالته من غير استتباع بعضهما لبعض.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ حيث شبّه المعاهدة على التضحية بالأنفس في سبيل الله طلباً لمرضاته، بدفع السلع في نظير الأموال، بجامع اشتمال كل منهما على معنى المبادلة، واستعير اسم المشبه به للمشبّه، واشتق من المبايعة بمعنى المعاهدة: يبايعون: بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله، على طريق الاستعارة التصريحية التبعيّة.

ومنها: الاستعارة المكنيّة في قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حيث شبّه اطلاع الله على مبايعتهم، ومجازاته على طاعتهم، بملك وضع يده على يد أميره ورعيّته، وطوى ذكر المشبّه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو اليد، على طريق الاستعارة المكنية الأصلية، فتلخّص أنّ في هذا التركيب استعارة تصريحية تبعيّة في الفعل، ومكنية في الاسم الكريم، وتخييلية في إثبات اليد له، وفيه مشابهة في مقابلة يده بأيديهم، وقيل: الكلام على التشبيه البليغ، الأصل: كأنّ يد الله حين المبايعة فوق أيديهم، حذف أداة التشبيه؛ للمبالغة في التأكيد.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة في قوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾؛ لأنّ النكث حقيقة في نقض، نحو: الحبل والغزل وفكّه، فاستعير لنقض العهد، فاشتق من النكث بمعنى: نقض العهد نكث، بمعنى: نقض العهد، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: فنّ اللفّ في قوله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾؛ لأنّ الأصل: فمن يملك لكم من الله شيئاً، إن أراد بكم ضرًّا، ومن يحرمكم النفع، إن أراد بكم نفعاً.

ومنها: تكرير الظنّ في قوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ بعد قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلخ، لتشديد التوبيخ، والتسجيل عليه بالسوء.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾؛

لأن مقتضى السياق أن يقال: فإنا أعتدنا له سعيراً، بالضمير العائد على ﴿مَنْ﴾؛ إيذاناً بأنّ من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله كافر، مستوجب السعير.

ومنها: تنكير ﴿سَعِيرًا﴾؛ للتهويل للدلالة على أنه سعير لا يكتنه كنهها، ولا يعرف قدرها.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فالإضراب الأول معروف، وهو ديدنهم، ودليل لجاجهم وتماديهم في التعنّت والإصرار على السفه، أمّا الإضراب الثاني.. فهو الذي تتجسد فيه بلادتهم وغباوتهم؛ لأنّ الإضراب الأول: فيه نسبة إلى جهل في شيء مخصوص: وهو نسبتهم الحسد إلى المؤمنين، والثاني: فيه نسبة إلى جهل عامّ على الإطلاق.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كرّر ذكرهم بهذا العنوان؛ لذمّهم مرّةً بعد أخرى، فإنّ التخلّف عن صحبة الرسول ﷺ شناعةٌ أيُّ شناعة.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ
السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)
وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
(٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ
عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ
وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ
مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي
قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ
كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ
رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا
تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ
مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ
فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا[1] بين حال المخلّفين فيما سلف.. عاد إلى بيان

(١) المراغي.

حال المبايعين، الذين ذكرهم فيما تقدم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ فأبان رضاه عنهم؛ لأجل تلك البيعة، لما علم من صدق إيمانهم، وإخلاصهم في بيعتهم، وأنزل عليهم طمأنينة ورباطة جأش، وجازاهم بمغانم كثيرة أخذوها من خيبر بعد عودتهم من الحديبية، وكان الله عزيزاً؛ أي: غالباً على أمره، موجداً أفعاله وأقواله على مقتضى الحكمة.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا[1] وعدهم فيما سلف بمغانم خيبر.. أردف ذلك ببيان: أنّ ما آتاهم من الفتح والمغانم، ليس هو الثواب وحده، بل الجزاء أمامهم، وإنّما عجّل لهم هذه؛ لتكون علامة على صدق رسوله ﷺ وحياطته له، وحراسته للمؤمنين، وليثبتكم على الإسلام، وليزيديكم بصيرةً، وسيؤتيكم مغانم أخرى من فارس والروم، وغيرهما ما كنتم تقدرون عليها لولا الإسلام، فقد كانت بلاد العرب شبه مستعمرات لهذه الدول، فأقدرهم الله تعالى عليها بعزّ الإسلام.

ثم ذكر أنه لو قاتلكم أهل مكة، ولم يصالحوكم.. لانهزموا ولم يجدوا وليّاً ولا نصيراً يدافع عنهم، وتلك هي سنة الله تعالى من غلبة المؤمنين، وخذلان الكافرين، ثمّ امتن على عباده المؤمنين أنه كفَّ أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، فصان كلاً من الفريقين عن الآخر، وأوجد صلحاً فيه خيرة للمؤمنين، وعافية لهم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا بيّن فيما سلف أنّ الله كفّ أيدي المؤمنين عن الكافرين، وكفّ أيدي الكافرين عن المؤمنين.. عيَّن هنا مكان الكفّ، وهو البيت الحرام، الذي صدّوا المؤمنين

---

(١) المراغي.

عنه، ومنعوا الهدى معكوفاً أن يبلغ محلّه، والسبب الذي لأجله كفوهم هو كفرهم بالله.

ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالاً مؤمنين، ونساء مؤمنات لا علم لهم بهم، فيلزمهم العار والإثم.. لأذن لهم في دخول مكة، ولقد كان الكف ومنع التعذيب عن أهل مكة؛ ليُدخل الله في دين الإسلام من يشاء منهم بعد الصلح وقبل دخولها، وليمنعنّ الأذى عن المؤمنين منهم، ولو تفرّقوا وتمييّز بعضهم من بعض.. لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما بالقتل والسبي، حين جعلوا في قلوبهم أنفة الجاهلية، التي تمنع من الإذعان للحق، ولكن أنزل الله الثبات والوقار على رسوله، وعلى المؤمنين، فامتنعوا أن يبطشوا بهم، وألزمهم الوفاء بالعهد، وكانوا أحق بذلك من غيرهم، إذ اختارهم الله لدينه، وصحبة نبيّه ﷺ.

ورأى النبي ﷺ في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبيّة أنه يدخل المسجد الحرام، هو وأصحابه آمنين، منهم من يحلق، ومنهم من يقّصر، فأخبر ذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا، فلمّا انصرفوا لم يدخلوا.. شقَّ ذلك عليهم، وقال المنافقون: أين رؤياه التي رآها؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ ودخلوا في العام المقبل.

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر[1] أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام، ليعلي شأنه على سائر الأديان.. أردف هذا ببيان حال الرسول، والمرسل إليهم، فوصفهم بأوصاف كلها مدائح لهم، وذكرى لمن بعدهم، وبها سادوا الأمم، وامتلكوا الدول، وقبضوا على ناصية العالم أجمع، وهي:

١ ـ أنهم غلاظ على من خالف دينهم، وناوأهم العداء رحماء فيما بينهم.

٢ ـ أنهم جعلوا الصلاة والإخلاص لله ديدنهم في أكثر أوقاتهم.

---

(١) المراغي.

٣ ـ أنهم يرجون بعملهم الثواب من ربهم، والزلفى إليه، ورضاه عنهم.

٤ ـ أنهم لهم سيماء، يعرفون بها، فلهم نور في وجوههم، وخشوع وخضوع يعرفه أولو الفطن.

٥ ـ أن الإنجيل ضرب بشأنهم المثل، فقال: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

ذاك أنهم في بدء الإسلام كانوا قليلي العدد، ثمّ كثروا واستحكموا، وترقى أمرهم يوماً فيوماً، حتى أعجب الناس بهم، فإنّ النبي ﷺ قام وحده، ثمّ قوّاه الله بمن معه، كما يقوّي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتوالد منها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية(١): ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع، قال: بينما نحن قائلون، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: يا أيّها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه مسلم والترمذي والنسائي، عن أنس رضي الله عنه قال: لمّا كان يوم الحديبية.. هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً في السلاح من جبل التنعيم، يريدون غرّة رسول الله ﷺ، فأُخذوا فأعتقهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم...﴾ الآية. وأخرج مسلم نحوه من حديث سلمة بن الأكوع وأحمد والنسائي نحوه من حديث عبد الله بن مغفل المزني، وابن إسحاق نحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ...﴾ الآية، سبب نزول هذه

(١) لباب النقول.

الآية: ما أخرجه الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنيد بن سبع قال: قاتلت النبيّ ﷺ أوّل النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وكنّا ثلاثة رجال، وسبع نسوة، وفينا نزل: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ...﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في «الدلائل» عن مجاهد قال: أري النبيّ ﷺ وهو بالحديبية: أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين، محلّقين رؤوسهم ومقّصرين، فلمّا نحر الهدي بالحديبية.. قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد باعد الله السخط عن المؤمنين بواسطة إيجاد الرضا لهم؛ لأنَّ من معنى ﴿عَنِ﴾ المجاوزة، والمجاوزة لغةً: البعد، واصطلاحاً: بعد الشيء عن المجرور بها بواسطة إيجاد مصدر ذلك العامل، كما هو مقرّر في محلّه، ورضوا عنه.

ومعنى رضا العبد عن ربه[1]: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه.

ومعنى رضا الله عن العبد: هو أن يراه مؤتمرا لأمره، منتهياً عن نهيه، وهم الذين ذكر شأن مبايعتهم، وكانوا ألفاً وأربع مئة على الصحيح، وقيل: ألفاً وخمس مئة وخمسةً وعشرين؛ أي:[2] رضي عن المؤمنين الراسخين في الإيمان؛ أي: فعل بهم فعل الراضي بما جعل لهم من الفتح، وما قدر لهم من الثواب، وأفهم ذلك أنه لم يرض عن الكافرين، فخذلهم في الدنيا مع ما أعد لهم في الآخرة، فالآية تقرير لما ذكر من جزاء الفريقين بأمور شاهدة.

﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿رَضِىَ﴾، وصيغة المضارع؛ لاستحضار صورتها؛ أي: رضي الله عنهم وقت تلك المبايعة، وبهذه الآية سمّيت: بيعة

---

(١) روح البيان.

(٢) خطيب.

الرضوان، وقوله: ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾: إما متعلق بـ ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ أو بمحذوف حال من المفعول؛ أي: حال كونك تحت الشجرة، وهذه الشجرة المذكورة هي شجرة كانت بالحديبية، وهي السمرة؛ أي: أمّ غيلان، وهي كثيرة في بوادي الحجاز، وقيل: هي سدرة، قال في «إنسان العيون»: صارت تلك الشجرة التي وقعت عندها البيعة، يقال لها: شجرة الرضوان، وبلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمان خلافته: أنّ ناساً يصلّون عندها، فتوعّدهم، وأمر بها فقطعت خوف ظهور البدعة. انتهى.

وروىٰ الإمام النسفيّ رحمه الله في «التيسير»: إنها عمّيت عليهم من قابل، فلم يدروا أين ذهبت، ويمكن التوفيق بين الروايتين بأنها لما عميت عليهم.. ذهبوا يصلون تحت شجرة على ظنّ أنها هي شجرة البيعة، فأمر عمر بقطعها، فقطعت.

وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشاً، ولا يفرّوا، وروي: أنه بايعهم على الموت، والقصة مبسوطة في كتب الحديث والسير، فراجعها إن شئت.

﴿فَعَلِمَ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: معطوف على ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ لما عرفت من أنه بمعنى بايعوك، لا على ﴿رَضِىَ﴾، فإنّ رضاه تعالى عنهم مرتّب على علمه تعالى بما في قلوبهم من الصدق والإخلاص، عند مبايعتهم له ﷺ، قال الفرّاء: علم ما في قلوبهم من الصدق والوفاء، وقال قتادة وابن جريج: من الرضى بأمر البيعة على أن لا يفرّوا، وقال مقاتل: من كراهة البيعة على الموت.

﴿فَأَنزَلَ﴾ سبحانه ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾؛ أي: الطمأنينة، وسكون النفس بالتشجيع أو الصلح ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على قلوبهم، معطوف على ﴿رَضِىَ﴾؛ يعني: أنزل السكينة على قلوب المؤمنين المخلصين حتى ثبتوا، وبايعوك على الموت، وعلى أن لا يفرّوا ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾؛ أي: وجازاهم على الطاعة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾؛ أي: فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية في ذي الحجة، فأقام ﷺ بالمدينة بقيته وبعض المحرم، ثم خرج إلى خيبر في بقية المحرم، سنة سبع.

وقرأ الحسن ونوح القارىء: ﴿وآتاهم﴾؛ أي: أعطاهم، والجمهور:

﴿وَأَثَٰبَهُمۡ﴾ من الثواب.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾ وهي مغانم خيبر، وكانت ذات عقار وأشجار أخذوها من اليهود مع فتح بلدتهم، فقسمت عليهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾ بالياء على الغيبة في ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ﴾ وما قبله من ضمير الغيبة، وقرأ الأعمش، وطلحة، ورويس عن يعقوب ودلبة عن يونس عن ورش، وأبو دحية عن نافع والأنطاكي عن أبي جعفر: بالتاء على الخطاب، كما جاء بعد ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ بالخاطب.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزًا﴾؛ أي: غالباً منيعاً كامل العزّة غنياً عن إعانتكم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبّره لخلقه، حيث حكم لكم بالنصرة والفتح والغنائم، ولأهل خيبر بالسبي والهزيمة ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أيّها المؤمنون ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ إلى يوم القيامة ﴿تَأۡخُذُونَهَا﴾ من الكفار في أوقاتها المقدّرة لكل واحدة منها، والالتفات لتشريفهم بالخطاب، وفي هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة، يأخذونها في أوقاتها التي قدّر وقوعها فيها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: غنائم خيبر، قاله مجاهد، وقيل: صلح الحديبية، فليست كل الثواب، بل الجزاء قدامكم ﴿وَكَفَّ﴾ سبحانه ومنع ﴿أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾؛ أي: كفّ[2] الله سبحانه أيدي بني أسد وغطفان: وهم حلفاء أهل خيبر عنكم، حيث جاؤوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فنكصوا عن عيالكم لما خرجتم إلى خيبر، فإنّ النبيّ ﷺ لمّا قصد خيبر، وحاصر أهلها.. همّت قبائل من بني أسد وغطفان، أن يغيروا على عيال المسلمين وذراريّهم بالمدينة، فكفّ الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، فنكصوا، وقال قتادة: كفّ أيدي يهود خيبر عن المدينة بعد خروج النبيّ ﷺ إلى الحديبية، ورجح هذا ابن جرير، أما كفّ أيدي أهل مكة بالحديبية.. فمذكور بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ...﴾ إلخ.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراح.

وقال سعدي المفتي[1]: إن كان نزولها بعد فتح خيبر، كما هو الظاهر.. لا تكون السورة بتمامها نازلة في مرجعه ﷺ من الحديبية، وإن كان قبله، على أنها من الإخبار بالغيب.. فالإشارة بهذه لتنزيل المغانم منزلة الحاضرة المشاهدة، والتعبير بالمضي للتحقق.

وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوف على علة أخرى محذوفة من أحد الفعلين؛ أي: فعجّل لكم هذه، أو كفّ أيدي الناس عنكم لتغتنموها، ولتكون هذه الكفة أمارةً للمؤمنين يعرفون بها صدق الرسول ﷺ في وعده إياهم عند رجوعه من الحديبية ما ذكر من الغنائم، وفتح مكة، ودخول المسجد الحرام؛ أي[2]: لتنفعكم في الظاهر، وتنفعكم في الباطن، حيث يزداد يقينكم إذا رأيتم صدق الرسول في إخباره عن الغيوب، فيكمل اعتقادكم؛ أي: عجّل الله فتح خيبر ليكون ذلك الفتح وهو هزيمة أهل خيبر وسلامتكم عبرةً للمؤمنين؛ لأنكم كنتم ثمانية آلاف، وأنّ أهل خيبر كانوا سبعين ألفاً، وكفّ أيدي الناس عنكم، وعن عيالكم؛ ليكون ذلك الكف علامة للمؤمنين، فيعلموا أنّ الله يحرسهم في مشهدهم ومغيبهم.

ويجوز[3] أن تكون ﴿الواو﴾: اعتراضية على أن تكون اللام متعلقة بمحذوف مؤخرٍ؛ أي: ولتكون آيةً لهم فعل ما فعل من التعجيل، وقيل: إنّ ﴿الواو﴾: زائدة، و﴿اللام﴾: لتعليل ما قبلها؛ أي: كفّ أيدي الناس عنكم؛ لتكون لتلك الكفّة آية للمؤمنين.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ أي: طريق التوكّل عليه تعالى، والثقة بفضله تعالى في كلّ ما تأتون وما تذرون، أو يزيدكم بتلك الآية هدى، أو يثبّتكم بها على الهداية إلى طريق الحق.

ومعنى الآية: أي[4] وعدكم الله سبحانه مغانم كثيرة من غنائم أهل الشرك

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

إلى يوم القيامة، ولكن عجّل لكم مغانم خيبر، وكفّ أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبي ﷺ إلى الحديبية وخيبر، وقال قتادة، واختاره ابن جرير الطبريّ: لتشكروه، ولتكون أمارة للمؤمنين، يعلمون بها أنّ الله حافظهم، وناصرهم على أعدائهم على قلّة عددهم، وليهديكم صراطاً مستقيماً بانقيادكم لأمره، وموافقتكم رسوله ﷺ، ويزيدكم يقيناً بصلح الحديبية وفتح خيبر.

روى إياس بن سلمة، قال: حدّثني أبي قال: خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ، فجعل عمّي عامر يرتجز بالقوم، ثمّ قال:

تَـاْللهِ لَـوْلاَ ٱلـلَّـهُ مَـا ٱهْـتَـدَيْـنَـا وَلاَ تَـصَـدَّقْـنَـا وَلاَ صَـلَّـيْـنَـا

وَنَـحْـنُ عَـنْ فَـضْـلِكَ مَـا ٱسْتَغْنَيْنَا فَـثَـبِّـتِ ٱلأَقْـدَامَ إِنْ لاَقَـيْـنَـا

وَأَنْـزِلَـنْ سَـكِـيْـنَـةً عَـلَـيْـنَـا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» قال: أنا عامر، قال: «غفر لك ربّك» وما استغفر لأحد إلا استشهد، قال: فنادىٰ عمر بن الخطاب وهو على جمل له: يا نبيّ الله، لو امتعتنا بعامر، فلمّا قدمنا خيبر.. خرج قائدهم مرحب يخطر سيفه، ويقول:

قَـدْ عَـلِـمَـتْ خَـيْـبَـرُ أَنِّـيْ مَـرْحَـبُ شَـاكِـيْ ٱلـسِّـلاَحِ بَـطَـلٌ مُـجَـرَّبُ

إِذِ ٱلْـحُـرُوْبُ أَقْـبَـلَـتْ تَـلْـتَـهِـبُ

فبرز له عامر بن عثمان، فقال:

قَـدْ عَـلِـمَـتْ خَـيْـبَـرُ أَنِّـيْ عَـامِـرُ شَـاكِـيْ ٱلـسِّـلاَّحِ بَـطَـلٌ مُـغَـامِـرُ

أي: تام السلاح معروف بالشجاعة، وقهر الفرسان، فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، فرجع سيف عامر على نفسه، فقطع أكحله الأكحل: عرق في اليد، فكانت فيها نفسه، قال: فأتيت النبيّ ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله، بطل عمل عامر، فقال: «من قال ذلك؟» قلت: ناس من أصحابك، قال: «من قال ذلك؟ بل له أجره مرتين». ثمّ أرسلني إلى عليّ وهو أرمد، وقال: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله» فأتيت

علياً فجئت به أقوده، وهو أرمد، حتى أتيت به رسول الله ﷺ، فتفل في عينيه فبرىء، وأعطاه الراية، فخرج مرحب، وقال:

أَنَا ٱلَّذِيْ سَمَّتْنِيْ أُمِّيْ مَرْحَبُ ... شَاكِيْ ٱلسِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

فقال عليّ كرّم الله وجهه:

أَنَا ٱلَّذِيْ سَمَّتْنِيْ أُمِّيْ حَيْدَرَهْ ... كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيْهِ ٱلْمَنْظَرَهْ

أَكِيْلُكُمْ بِٱلسَّيْفِ كَيْلَ ٱلسَّنْدَرَهْ[1]

قال: فضرب رأس مرحب، فقتله، ثم كان الفتح على يديه كرم الله وجهه.

نبذة من قصة خيبر

ثم إن خيبر حصن معروف قرب المدينة، على ما في «القاموس». وقال في «إنسان العيون»: هو على وزن جعفر، سمّيت باسم رجل من العماليق نزلها، يقال له: خيبر، وهو أخو يثرب الذي سمّيت باسمه المدينة، وفي كلام بعضهم: خيبر بلسان اليهود الحصن، ومن ثمّ قيل لها: خيابر؛ لاشتمالها على الحصون، وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، ونخل كثير، بينها وبين المدينة الشريفة ثمانية برد، والبريد: أربعة فراسخ، وكل فرسخ ثلاثة أميال.

يقول الفقير: وكل ميلين ساعة واحدة بالساعات النجومية؛ لأنّه عدّ من المدينة إلى قبّاء ميلان، وهي ساعة واحدة، فتكون الثمانية البرد ثماني وأربعين ساعة بتلك الساعات.

ولمّا رجع ﷺ من الحديبية.. أقام بالمدينة شهراً؛ أي: بقية ذي الحجة وبعض المحرم من سنة سبع، ثمّ خرج إلى خيبر، وقد استنفر من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه، وجاء المخلّفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، فقال ﷺ: «لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، أما الغنيمة فلا»؛ أي: لا تعطون منها شيئاً، ثمّ أمر منادياً ينادي بذلك، فنادى به، وأمر أيضاً أنه

---

(١) السندرة: مكيال واسع وكيلهم بها قتلهم قتلا واسعاً ذريعاً، اهـ.

لا يخرج الضعيف، ولا من له مركب صعب، حتى إنّ بعضهم خالف هذا الأمر، فنفر مركوبه فصرعه، فاندقت فخذه فمات. فأمر عليه السلام بلالاً رضي الله عنه أن ينادي في الناس: الجنة لا تحل لعاص، ثلاثاً. وخرج معه ﷺ من نسائه أمّ سلمة رضي الله عنها ولمّا أشرف على خيبر، وكان وقت الصبح.. رأى عمّالها وقد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم، وهي القفف الكبيرة، قالوا: محمد والخميس؛ أي: الجيش العظيم معه، قيل له: الخميس؛ لأنه خمسة أقسام: المقدمة، والساقة والميمنة والميسرة، وهما الجناحان، والقلب، وأدبروا؛ أي: العمّال هرباً إلى حصونهم، وكانوا لا يظنّون أنّ رسول الله ﷺ يغزوهم، وكان بها عشرة آلاف مقاتل، فقال ﷺ: «الله أكبر، خَرِبَت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم.. فساء صباح المنذرين».

وابتدأ من حصونهم بحصن النطاة، وأمر بقطع نخلها فقطعوا أربع مئة، ثم نهاهم عن القطع، ومكث ﷺ سبعة أيَّام يقاتل أهل حصون النطاة، فلم يرجع من أعطى له الراية بفتح، ثمّ قال: «لأُعطين الراية غداً إلى رجل يحبّ الله ورسوله، ويحبّانه، يفتح الله على يديه» فتطاولها أبو بكر وعمر، وبعض الصحابة من قريش، فدعا ﷺ عليًّا رضي الله عنه وبه رمد، فتفل في عينيه، ثم أعطاه الراية، وكانت تلك الراية بيضاء مكتوب فيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله بالسواد، فقال: عَلَامَ أقاتلهم يا رسول الله؟ قال: «أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك.. فقد حقنوا دماءهم وأموالهم» وألبسه ﷺ درعه الحديد، وشدّ سيفه ذا الفقار في وسطه، ووجهه إلى الحصن، وقال: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم»؛ أي: من الإبل النفيسة التي تصدَّق بها في سبيل الله، فخرج عليّ بالراية يهرول، حتى ركزها تحت الحصن، فخرج الحارث أخو مرحب، وكان معروفاً بالشجاعة، فتضاربا فقتله عليّ، وانهزم اليهود إلى الحصن، ثمّ خرج إليه مرحب سيد اليهود، وهو يرتجز ويقول:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّيْ مَرْحَبُ شَاكِيْ ٱلسِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

وارتجز عليّ رضي الله عنه وقال:

أَنَا ٱلَّذِيْ سَمَّتْنِيْ أُمِّيْ حَيْدَرَهْ ضِرْغَامُ آجَامٍ وَلَيْثٌ قَسْوَرَهْ

وضرب عليًّا، فطرح ترسه من يده، فتناول عليّ باباً كان عند الحصن، فتترس به عن نفسه، فلم يزل في يده يقاتل حتى قتل مرحباً، وفتح الله عليه الحصن، وهو حصن ناعم من حصون النطاة، وألقى الباب من يده وراء ظهره ثمانين شبراً، وذلك بالقوّة القدسيَّة، وفيه بيان شجاعة عليّ، حيث قتل شجيعاً بعد شجيع.

ثم انتقل النبي ﷺ من حصن ناعم إلى حصن العصب من حصون النطاة، فأقاموا على محاصرته يومين، حتى فتحه الله، وما بخيبر حصن أكثر طعاماً منه: كالشعير، والسمن والتمر والزيت، والشحم والماشية والمتاع، ثم انتقلوا إلى حصن قلة، وهو حصن بقلة، وهو آخر حصون النطاة، فقطعوا عنهم ماءهم، ففتحه الله، ثمّ سار المسلمون إلى حصار الشقّ، بفتح الشين المعجمة، وهو أعرف عند أهل اللغة من الكسر، ففتحوا الحصن الأول من حصونه. ثمّ حاصروا حصن البراء: وهو الحصن الثاني من حصون الشقّ، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى فتحه الله، ثمّ حاصروا حصون الكثيبة، وهي ثلاثة حصون: القموص بوزن صبور، والوطيح، وسلالم بضم السين المهملة، وكان أعظم حصون خيبر القموص، وكان منيعاً حاصره المسلمون عشرين ليلةً، ثم فتحه الله على يد عليّ رضي الله عنه ومنه سبيت صفية بنت حيي رضي الله عنها. وانتهى المسلمون إلى حصار الوطيح، بالحاء المهملة، سمي باسم الوطيح بن مارن رجل من اليهود، وسلالم آخر حصون خيبر، ومكثوا على حصارهما أربعة عشر يوماً، وهذان الحصنان فتحا صلحاً؛ لأنَّ أهلهما لمّا أيقنوا بالهلاك.. سألوا رسول الله ﷺ الصلح على حقن دماء المقاتلة، وترك الذريّة لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريِّهم، وأن لا يصحب أحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره، فصالحهم عليه، ووجدوا في الحصنين المذكورين مئة درع، وأربع مئة سيف، وألف رمح، وخمس مئة قوس عربية بجعابها، وأشياء أخر غالية القيمة، وهي ما في خزانة أبي الحقيق - مصغراً - وأرسل ﷺ إلى أهل فدك، وهي محرّكة: قرية بخيبر، يدعوهم إلى الإسلام ويخوِّفهم، فتصالحوا معه ﷺ على أن يحقن دماءهم ويخلِّيهم ويخلون

بينه وبين الأموال، ففعل ذلك رسول الله ﷺ، وقيل: تصالحوا معه على أن يكون لهم النصف في الأرض، ولرسول الله النصف الآخر، وكان فدك على الأول لرسول الله، وعلى الثاني كان له نصفها؛ لأنها لم تؤخذ بمقاتلة، وكان ﷺ ينفق منها، ويعود منها على صغير بني هاشم، ويزوج منها أيمهم، ولمّا مات ﷺ وولي أبو بكر رضي الله عنه الخلافة.. سألته فاطمة رضي الله عنها أن يجعل فدك أو نصفها لها، فأبى، وروي لها أنه ﷺ قال: «إنا ـ معاشر الأنبياء ـ لا نورث»؛ أي: لا نكون مورّثين «ما تركناه صدقة»؛ أي: على المسلمين.

ثمّ إنّ النبي ﷺ أمر بالغنائم التي غنمت قبل الصلح فجمعت، وأصاب رسول الله ﷺ سبايا، منها: صفية بنت ملكهم حيي بن أخطب، من سبط هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام، فهداها الله، فأسلمت، ثمّ أعتقها رسول الله ﷺ وتزوّجها، وكانت رأت أن القمر وقع في حجرها، فكان ذلك رسول الله ﷺ وجعل وليمتها حيساً في نطع، الحيس: تمر وأقط وسمن، ودخل بها رسول الله ﷺ في منزل الصهباء في العود، والصهباء: موضع قرب خيبر، كما في «القاموس».

ونهى النبيّ ﷺ عن إتيان الحبالى حتى تضع، وعن غير الحبالى حتى تستبرأ بحيضة، ونهى عن إتيان المسجد لمن أكل الثوم والبصل، وعن بعضهم: ما أكل نبيّ قطّ ثوماً ولا بصلاً.

يقول الفقير: يدخل فيه الدخان الشائع شربه في هذا الزمان، بل رائحته أكره من رائحة الثوم والبصل، فإذا كان دخول المسجد ممنوعاً مع رائحتهما دفعاً لأذى الناس والملائكة.. فمع رائحة الدخان أولى، وظاهر: أنَّ الثوم والبصل من جنس الأغذية، ولا كذلك الدخان، ومحافظة المزاج بشربه إنما عرفت بعد الإدمان المولد للأمراض الهائلة، فليس لشاربه دليل في ذلك أصلاً، فكما أنَّ شرب الخمر ممنوع أولاً وآخراً، حتى لو تاب منها ومرض.. لا يجوز أن يشربها، ولو مات من ذلك.. يؤجر ولا يأثم، فكذا شرب الدخان، وليس استطابته إلا من خباثة الطبع، فإنّ الطباع السليمة تستقذره لا محالة، فتب إلى

الله، وعد حتى لا يراك حيث نهاك.

ولمّا قدم رسول الله ﷺ خيبر.. كان الثمر أخضر، فأكثر الصحابة من أكله، فأصابتهم الحمى، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ وسلم، فقال: «برِّدوا لها الماء في الشنان؛ أي: في القرب، ثم صبوا منه عليكم بين أذاني الفجر، واذكروا اسم الله عليه» ففعلوا فذهبت عنهم، وفي هذه الغزوة أراد ﷺ أن يتبَّرز، فأمر إلى شجرتين متباعدتين، حتى اجتمعتا فاستتر بهما، ثمّ قام فانطلقت كل واحدة إلى مكانها.

وفي خيبر كان أكله من الشاة المسمومة، وذلك أنَّ زينب ابنة الحارث أخي مرحب سمتها، وأكثرت في الذراعين والكتف، لمّا عرفت أنه ﷺ كان يحب الذراع والكتف لكونهما أبعد من الأذى، وأهدتها له معه، وهو بشر بن البراء، واحتجم رسول الله ﷺ بين الكتفين في ثلاثة مواضع، ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى تلك اليهوديّة، فقال: «أسَمَمْت هذه الشاة؟» فقالت من أخبرك؟ قال: «أخبرتني هذه التي في يدي»؛ أي: الذراع، قالت: نعم. قال: «ما حملك على ما صنعت؟» قالت: قتلت أبي وعمي وزوجي، ونلت من قومي ما نلت، فقلت: إن كان ملكاً.. استرحنا منه، وإن كان نبياً فسيخبر، فعفا عنها، فلمّا مات بشر.. أمر بها، فقتلت وصلبت.

وقوله: ﴿أُخْرَىٰ﴾: معطوف[1] على هذه، أي: فعجَّل لكم هذه الغنائم ومغانم أخرى: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وهي الفتوح التي فتحها الله على المسلمين من بعد: كفارس والروم ونحوهما، كذا قال الحسن ومقاتلٌ، وابن أبي ليلى، وقال الضحاك وابن زيد وابن أبي إسحاق: هي خيبر، وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها، ولم يكونوا يرجونها، وقال قتادة: فتح مكة، وقال عكرمة: حنين، والأول: أولى.

﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾: صفة ثانية لـ ﴿أُخْرَىٰ﴾ قال الفرّاء: أحاط الله بها

---

(١) روح البيان.

لكم حتى تفتحوها، وتأخذوها.

والمعنى: أنه أعدّها لهم، وجعلها كالشيء الذي قد أحيط به من جميع جوانبه، فهو محصور لا يفوت منه شيء، فهم وإن لم يقدروا عليها في الحال، فهي محبوسة لهم لا تفوتهم، وقيل: معنى: ﴿أحاط﴾: علم أنها ستكون لهم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يعجزه شيء، ولا تختصّ قدرته ببعض المقدورات دون بعض.

والمعنى[1]: أي ووعدكم الله فتح بلاد أخرى لم تقدروا عليها، قد حفظها لكم، حتى تفتوحها، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها: كفارس والروم، أقدركم عليهم بعزّ الإسلام، وقد كنتم قبل ذلك مستضعفين أمامهم، لا تستطيعون دفعهم عن أنفسكم، وكان الله على كل ما يشاء من الأشياء من فتح القرى والبلدان لكم، وغير ذلك، ذا قدرة لا يتعذّر عليه شيء منها.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ﴾ أيّها المؤمنون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يصالحوكم، قال قتادة: يعني: كفار قريش بالحديبية، وقيل: أسد وغطفان الذين أرادوا نصر أهل خيبر، والأول: أولى. ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾؛ أي: لانهزموا عنكم، ولم يكن قتال، فإنّ تولية الأدبار كناية عن الانهزام ﴿ثُمَّ﴾ بعد انهزامهم ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يواليهم ويحرسهم وينفعهم باللطف ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم، ويدفع عنهم بالعنف، بل الهلاك لاحقٌ بهم بعد الانهزام؛ يعني: من تولى الله خذلانه فلا ناصر له ولا مساعد.

والمعنى: ولو ناجزكم المشركون بالقتال.. لنصركم عليهم، ولانهزم جيش الكفر فارًّا مدبراً، لا يجد وليًّا يتولّىٰ رعايته، ويكلؤه، ويحرسه، ولا نصيراً يساعده؛ لأنّه محارب لله ولرسوله، ولحزبه المؤمنين.

وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾: مصدر مؤكد لفعله المحذوف؛ أي: سنَّ الله سبحانه

---

(١) المراغي.

وتعالى غلبة أنبيائه وأوليائه، سنّته ﴿ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الأمم الماضية؛ أي: سنَّ ذلك سنَّةً قديمةً فيمن خلا ومضى من الأمم، وهو قوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾. ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ يا محمد، أو أيّها المخاطب ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ وعادته ﴿تَبْدِيلًا﴾؛ أي: تغيّراً بنقل الغلبة من الأنبياء إلى غيرهم.

أي: ما تقابل الكفر والإيمان في موطن إلا نصر الله المؤمنين على الكافرين، ورفع الحق، ووضع الباطل، كما نصر يوم بدر أولياءه المؤمنين، على قلة عددهم وعددهم، وكثرة المشركين وكثرة عددهم.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِى كَفَّ﴾ ومنع ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: أيدي كفّار مكة ﴿عَنكُمْ﴾ أيّها المؤمنون؛ أي: بأن حملهم على الفرار منكم، مع كثرة عددهم، وكونهم في بلادهم بصدد الذّب عن أهليهم وأولادهم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ بأن حملكم على الرجوع عنهم وتركهم ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾؛ أي: في داخلها؛ أي: في داخل الحرم، وهو الحديبية ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾؛ أي: من بعد أن جعلكم ظافرين غالبين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مع أنّ العادة المستمرّة فيمن ظفر بعدوّه أن لا يتركه، بل يستأصله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ الله تعالى أظهر المسلمين عليهم بالحجارة، حتى أدخلوهم البيوت؛ يعني: أنّ جماعة من أهل مكة خرجوا يوم الحديبية يرمون المسلمين، فرماهم المسلمون بالحجارة، حتى أدخلوهم بيوت مكة، فلمّا كان الكفّ على الوجه المذكور في غاية البعد.. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ﴾ إلخ. على طريق الحصر، استشهاداً به على ما تقدم من قوله: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ﴾.

وقيل: هم ثمانون رجلاً، طلعوا على رسول الله ﷺ من قبل التنعيم عند صلاة الصبح ليأخذوه بغتة، ويقتلوا الأصحاب، فأخذهم رسول الله ﷺ، فخلّى سبيلهم، فيكون[1] المراد ببطن مكة: وادي الحديبية؛ لأنّ بعضها من الحرم.

---

(١) روح البيان.

يقول الفقير: لا شكّ أنّ وادي الحديبية واقع في الجهة السفلىٰ من مكة؛ لأنّه في جانب جدّة المحروسة، فيكون المراد بالبطن: تلك الجهة، لا داخل مكة.

والمعنى - والله أعلم -: أنّ الله هو الذي كفّ أيديهم عنكم، وأيديكم عنهم في الحديبية التي هي الجهة السفلى من مكة، من بعد أن أقدركم عليهم، بحيث لو قاتلتموهم.. غلبتم عليهم بإذنه تعالى على ما كان في علمه، كما قال: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ﴾ إلخ؛ أي: إنّ الله[1] سبحانه هو الذي كفّ أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ بالحديبية، يلتمسون غرتهم ليصيبوا منهم، فبعث رسول الله ﷺ سريةً، فأتي بهم أسرى، ثم خلى سبيلهم، ولم يقتلهم منةً منه وفضلاً.

روى أحمد وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي في آخرين عن أنس قال: لمّا كان يوم الحديبية.. هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه، ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من جبل التنعيم، التنعيم: موضع بين مكة وسرف، فدعا عليهم، فأخذوا، فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ...﴾ إلخ.

وروى أحمد عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنهما قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وكان عليّ بن أبي طالب، وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعليّ رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»: فأخذ سهيل بيده، وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيّتنا ما نعرف قال: «اكتب باسمك اللهم» وكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة، فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيّتنا ما نعرف، فقال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله»،

---

(١) المراغي.

فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً، عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ وهل جعل لكم أحد أماناً؟» فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ أي: بأعمالكم وأعمالهم، بصيراً لا يخفىٰ عليه شيء منها، وهو مجازيكم، ومجازيهم بها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على الخطاب؛ أي: من مقاتلتكم وهزمكم إياهم أولاً طاعة لرسوله، وكفّكم عنهم ثانياً؛ لتعظيم بيته الحرام، وصيانة أهل الإسلام. ﴿بَصِيرًا﴾؛ أي: عالماً لا يخفى عليه شيء، فيجازيكم بذلك، وقرأ أبو عمرو: بالياء، وهو تهديد للكفّار.

﴿هُمُ﴾؛ أي: قريش الأقوام ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾؛ أي: منعوكم ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: عن أن تطوفوا بالبيت ﴿و﴾ صدّوا ﴿الهدي﴾ وهو بالنصب عطف على الضمير المنصوب في ﴿صدّوكم﴾ والهدي بسكون الدال:[2] جمع هدية، كتمر وتمرة، وجدي وجدية، وهو: مختص بما يهدىٰ إلى البيت تقرّباً إلى الله تعالى من النعم، أيسره: شاة، وأوسطه: بقرة، وأعلاه: بدنة، ويجوز تشديد الياء، فيكون جمع هديّة.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿الهدي﴾ بالنصب، عطفاً على الضمير في: ﴿صدّوكم﴾، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه. ﴿الهدي﴾ بالجر عطفاً على ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾ ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: وعن نحر الهدي، وقرىء: بالرفع على تقدير: وصد الهدي، وقرأ الجمهور: ﴿الهدي﴾ بفتح الهاء وسكون الدال، وهي لغة قريش، وقرأ ابن هرمز والحسن وعصمة عن عاصم واللؤلؤيّ وخارجة عن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط والشوكاني.

أبي عمرو: ﴿الهدي﴾ بكسر الدال، وتشديد الياء، وهم لغتان، وانتصاب ﴿مَعۡكُوفًا﴾ على الحال من ﴿الهدي﴾؛ أي: وصدّوا الهدي عن دخول الحرم، حال كونه محبوساً عن ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾؛ أي: مكانه الذي يحلّ فيه نحره؛ أي؛ يصح ويجب فيه نحره، وهو الحرم، فالمحل: اسم للمكان الذي ينحر فيه الهدي، وقوله: ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾: بدل اشتمال من ﴿الهدي﴾ أو منصوب بنزع الخافض.

قال في «بحر العلوم»: الحديبية: طرف الحرم على تسعة أميال من مكة، وروي: أنّ خيامه ﷺ كانت في الحلّ، ومصلاه في الحرم، وهناك نحرت هداياه ﷺ، وهي سبعون بدنة.

والمراد: صدّها عن محلّها المعهود الذي هو منى للحاج، وعند الصفا للمعتمر، وعند الشافعي لا يختص دم الإحصار بالحرم، فيجوز أن يذبح في الموضع الذي أحصر فيه.

والمعنى: أي هم الذين جحدوا توحيد الله، وصدّوكم أيّها المؤمنون بالله عن دخول المسجد الحرام، وصدّوا الهدي محبوساً أن يبلغ محلّ نحره، وهو الحرم عناداً منهم وبغياً، وكان رسول الله ﷺ ساق معه حين خرج إلى مكة في سفرته تلك سبعين بدنة.

واعلم(١): أنه تعالى بيّن استحقاق كفّار مكة للعقوبة بثلاثة أشياء: كفرهم في أنفسهم، وصدِّ المؤمنين عن إتمام عمرتهم، وصدّ هديهم عن بلوغ المحلّ، فهم مع هذه الأفعال القبيحة كانوا يستحقّون أن يقاتلوا أو يقتلوا، إلا أنه تعالى كفّ أيدي كل فريق عن صاحبه، محافظةً على ما في مكة من المؤمنين المستضعفين ليخرجوا منها، أو يدخلوها على وجه لا يكون فيه إيذاء من فيها من المؤمنين والمؤمنات، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾؛ أي: لم تعرفوهم أيّها المؤمنون بأعيانهم؛ لاختلاطهم بالمشركين،

---

(١) روح البيان.

وقيل: لم تعلموا أنهم مؤمنون، وهو صفة لـ ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نساء﴾ جميعاً، وكانوا بمكة. وهم اثنان وسبعون نفساً، يكتمون إيمانهم ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾: بدل اشتمال من ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نساء﴾ ولكنّه غلّب الذكور، أو بدل من الضمير المنصوب في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾. والتقدير على الأول: ولولا وطء رجال ونساء غير معلومين، وعلى الثاني: لم تعلموا وطأهم، والخبر: محذوف؛ أي: ولولا رجال ونساء موجودون؛ أي: لم تعلموا أن تطؤوهم، وتدوسوهم بالقتل، وتهلكوهم؛ لأنّ الوطء؛ عبارة عن الإيقاع والإهلاك والإبادة ﴿فَتُصِيبَكُم﴾؛ أي: فيتسبب عن هذا الوطء أن تصيبكم ﴿مِّنْهُم﴾؛ أي: من جهتهم وبسببهم معطوف على قوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾، ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾؛ أي: مشقة ومكروه، كوجوب الدية، والكفارة بقتلهم، والتأسّف عليهم، وتعيير الكفار لكم بذلك، والإثم بالتقصير في البحث عنهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: متعلق بـ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾؛ أي: أن تطؤوهم غير عالمين بهم، فيصيبكم بذلك مكروه لما كفّ أيديكم عنهم، وفي الحذف دليل على شدة غضب الله تعالى على كفار مكة، كأنه قيل: لولا حق المؤمنين موجود.. لفعل بهم ما لا يدخل تحت الوصف.

والمعنى(١): لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين، بين أظهر الكافرين، غير معروفين لكم، كالوليد وسلمة بن هشام وعيّاش بن ربيعة وأبي جندلٍ، حال كونكم جاهلين بهم، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقّة.. لأذن لكم في دخول مكة عنوةً، أو لما كفّ أيديكم عنهم. اهـ «بيضاوي».

أي(٢): ولولا هؤلاء الذين يكتمون إيمانهم خيفة على أنفسهم، وهم بين أظهرهم.. لسلّطناكم عليهم، فقتلتموهم، وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات من لا تعرفونهم حين القتل، ولو قتلتموهم.. للحقتكم المعرة والمشقة بما يلزمكم في قتلهم من كفارة وعيب.

والخلاصة: أنه لولا وجود المؤمنين مختلطين بالمشركين، غير متميزين

---

(١) البيضاوي. (٢) المراغي.

منهم.. لوقع ما كان جزاءهم لصدِّهم وكفرهم، ولو حصل ذلك.. لزمكم العيب، إذ يقول المشركون: إنّ المسلمين يقتلون أهل دينهم.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: متعلِّقة بما يدل عليه الجواب المقدّر؛ أي: ولكن لم يأذن لكم، أو كف أيديكم ليدخل الله سبحانه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده المؤمنين في رحمته بتوفيقه لزيادة الخير والطاعة، أو من المشركين بدخوله في الإسلام، والمراد بمن يشاء من عباده: هم[1] المؤمنون والمؤمنات، الذين كانوا في مكة، فيتمم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهراني الكفار، ويفكّ أسرهم، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب، وقيل: إنّ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ عباده ممن رغب في الإسلام من المشركين، وقيل: ﴿اللام﴾: متعلقة بمحذوف غير ما ذكر، تقديره: لو قتلتموهم.. لأدخلهم الله في رحمته، والأول: أولى.

والمعنى[2]: أي هم الذين كفروا، الذين استحقوا التعجيل في إهلاكهم، ولولا مؤمنون مختلطون بهم.. لعجَّل الله بهم، ولكن كفَّ الله أيديكم عنهم لكي يكرم الله المؤمنين، بزيادة الخير والطاعة لله تعالى، والمشركين بدخولهم في دين الإسلام؛ أي: ليخرج المؤمنين من مكة، ويهاجروا إلى المدينة، وليؤمن من المشركين من علم الله أنه يؤمن في تلك السنة؛ لأنّهم إذا شاهدوا رحمة الله في شأن طائفة من المؤمنين، بأن منع الله من تعذيب أعداء الدين بعد الظفر بهم؛ لأجل اختلاطهم بهم، رغبوا في مثل هذا الدين.

والخلاصة: قد حال بينكم وبين دخول مكة لقتالهم، إخراج المؤمنين من بين أظهرهم، وليدخل في دينه من يشاء منهم قبل أن تدخلوها.

والضمير في قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ عائد إلى الفريقين المؤمنين والمشركين؛ أي: لو تميز المؤمنون عن المشركين، وتفرَّقوا عنهم، وخرجوا من بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالقتل والأسر والقهر؛ أي: لعذَّبنا كفار مكة بتسليط المؤمنين عليهم بقتلهم، وسبي ذراريهم.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾، وقرأ ابن أبي عبلة وابن مقسم وأبو حيوة وابن عون: ﴿لو تزايلوا﴾ بوزن تفاعلوا، والتزايل: التباين.

والظرف في قوله: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد، قصّة إذ ألقى الذين كفروا من أهل مكة ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ﴾؛ أي: الأنفة والتكبر، من حمي من كذا حمية إذا أنف منه، والجار والمجرور[2]: إما متعلق بالجعل على أنه بمعنى الإلقاء، أو بمحذوف هو مفعول ثان على أنه بمعنى التصيير؛ أي: جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل من ﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾؛ أي: حمية الملة الجاهلية، وهي ما كانت عليه قبل البعثة، أو الحميَّة الناشئة من الجاهلية التي تمنع إذعان الحق، قال الزهري: حميتهم أنفسهم من الإقرار بالرسالة للنبيّ ﷺ، والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم، أو منعهم من دخول مكة، وقال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان: قال أهل مكة: قد قتلوا أبنائنا وإخواننا، ثم يدخلون علينا، فتتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا، واللات والعزّى، لا يدخلون علينا! فهذه حميَّة الجاهلية التي دخلت في قلوبهم.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ معطوف على ﴿جَعَلَ﴾.

والمراد[3]: تذكير حسن صنيع الرسول والمؤمنين بتوفيق الله تعالى، وسوء صنيع الكفرة؛ أي: فأنزل الله تعالى عليهم الثبات والوقار والطمأنينة، فلم يلحق بهم ما لحق الكفار، فصالحوهم، ورضوا أن يكتب الكتاب على ما أرادوا، ويروى: أنه لمَّا أبى سهيل بن عمرٍو ومن معه أن يكتب في عنوان كتاب الصلح البسملة، وهذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة، بل قالوا لعليّ: اكتب باسمك اللهم، وهذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة.. قال النبيُّ ﷺ لعليّ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

رضي الله عنه: أكتب ما يريدون، فهمَّ المسلمون أن يأبوا ذلك، ويبطشوا بهم، فأنزل الله السكينة عليهم، فتوقَّروا، وحلموا مع أنّ أصل الصلح لم يكن عندهم بمحلٍّ من القبول في أول الأمر، حين قالوا: علام نعطي الدنيَّة في ديننا، وهم مشركون ونحن مسلمون؟ كما سبق، وقيل: ثبتهم على الرضا والتسليم.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾؛ أي: ألزم الله تعالى رسوله والمؤمنين ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: اختار لهم كلمة يُتّقى بها من الشرك؛ أي: كلمة لا إله إلا الله، كذا قال الجمهور، وزاد بعضهم: محمد رسول الله، وزاد بعضهم: وحده لا شريك له، حتى قالوها، وهذا إلزام الكرم واللطف، لا إلزام الإكراه والعنف، وأضيفت إلى التقوى؛ لأنها سببها، إذ بها يتقى من الشرك ومن النار، فإنَّ أصل التقوى: الاتقاء عنها، وقد وصف الله تعالى هذه الأمة بالمتقين في مواضع من القرآن العظيم، باعتبار هذه الكلمة، وقال الزهري: هي: بسم الله الرحمن الرحيم، وذلك أنَّ الكفار لم يقروا بها، وامتنعوا من كتابتها في كتاب الصلح الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في كتب الحديث والسير، فخصَّ الله بهذه الكلمة المؤمنين، وألزمهم بها، وهي من شعار هذه الأمة وخواصِّها، اختارها لهم، وصار المشركون محرومين منها، حيث لم يرضوا بأن يكتب في كتاب الصلح، والأول: أولى، وعن الحسن: كلمة التقوى: هي الوفاء بالعهد، فإنَّ المؤمنين وفوا بالعهد، حيث نقضوا وعاونوا من حارب حليف المؤمنين.

والمعنى على هذا: وألزمهم كلمة أهل التقوى: وهي العهد الواقع في ضمن الصلح، ومعنى إلزامها إياهم: تثبيتهم عليها، وعلى الوفاء بها.

﴿وَكَانُوٓا﴾؛ أي: وكان المؤمنون ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾؛ أي: بكلمة التوحيد من الكفار في سابق علمه ﴿وَأَهْلَهَا﴾؛ أي: مستأهلين لها، ومختصين بها في الدنيا دونهم؛ لأنَّ الله تعالى اختارهم لصحبة نبيّه ﷺ، وهو عطف تفسير لما قبله.

قيل: إنّ الذين كانوا قبلنا، لا يمكن لأحد منهم أن يقول: لا إله إلا الله في اليوم والليلة إلا مرةً واحدة، لا يستطيع أن يقولها أكثر من ذلك، وكان قائلها يمدُّ بها صوته حتى ينقطع النفس؛ التماس بركتها وفضلها، وجعل الله لهذه الأمة

أن يقولها متى شاؤوا، وهو قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من الأمم السالفة، وقال مجاهد: ثلاث لا يحجبن عن الربّ: لا إله إلا الله من قلب مؤمن، ودعوة الوالدين، ودعوة المظلوم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من شأنه أن يتعلق به العلم ﴿عَلِيمًا﴾؛ أي: بليغ العلم، فيعلم حق كل شيء، فيسوقه إلى مستحقه، ومن معلوماته: أنهم أحقُّ بها؛ أي: من جميع الأمم؛ لأنَّ النبيّ ﷺ أفضل المخلوقات، وأمته خير الأمم، وهذه الكلمة من أفضل الأذكار، فأُعطوها لأنّها اللائقة بهم.

والمعنى[1]: أي واذكر يا محمد إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم أنفة الجاهلية، فامتنع سهيل بن عمرو أن يكتب في كتاب الصلح الذي بين رسول الله ﷺ والمشركين بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يكتب فيه محمد رسول الله، وامتنع هو وقومه أن يدخل رسول الله ﷺ عامه هذا المسجد الحرام، فأنزل الله الصبر والطمأنينة على رسوله، ففهم عن الله مراده، وجرى على ما يرضيه، وأنزله على المؤمنين فألزمهم أمره، وقبلوه، وحماهم من همزات الشياطين، وألزمهم كلمة التوحيد والإخلاص لله في العمل، وكانوا أحق بها، وكانوا أهلها، إذْ هم أهل الخير والصلاح، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ سواء كان من المؤمنين أم من المشركين، فيجازي كلًّا بما عمل.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾؛ أي: لقد[2] جعل الله سبحانه رؤيا رسوله صادقةً، ولم يجعلها أضغاث أحلام، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ إما صفة لمصدر محذوف؛ أي: صدقاً متلبساً بالحق والحكمة البالغة: وهي التمييز بين الراسخ في الإيمان، والمتزلزل فيه، أو حال من الرؤيا؛ أي: متلبسةً بالصدق ليست من نوع أضغاث الأحلام؛ لأنّ ما رآه كائن لا محالة في وقته المقدر له: وهو العام القابل.

والمعنى: أراه الرؤيا الصادقة المتلبسة بالحق والحكمة، حيث قال النبيّ ﷺ

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

لأصحابه وقت خروجه إلى الحديبية: والله ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعالى حالة كونكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من العدوّ، فلا تخافون عدوّكم من أن يخرجكم في المستقبل، وهو حال من فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾. والشرط: معترض، وكذا قوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾؛ أي: جميع شعورها ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بعض شعورها؛ أي: محلّقاً بعضكم، ومقصّراً آخرون، وإلا فلا يجتمع الحلق والتقصير في كل واحد منهم، فالنظم من نسبة حال البعض إلى الكل؛ يعني: أنّ الواو ليست لاجتماع الأمرين في كل واحد منهم، بل لاجتماعهما في مجموع القوم، ثمّ إنّ قوله: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ و﴿مقصرين﴾ من الأحوال المقدرة، فلا يرد أنّ حال الدخول هو حال الإحرام، وهو لا يجامع الحلق والتقصير، وقدّم الحلق على التقصير: وهو قطع أطراف الشعر؛ لأنّ الحلق أفضل من التقصير، وقد حلق رسول الله ﷺ بمنى، وأعطى شعر شق رأسه أبا طلحة الأنصاري، وهو زوج أمّ سليم: وهي والدة أنس بن مالك، فكان آل أنس يتهادون به بينهم، وروي: أنه ﷺ حلق رأسه أربع مرّات، والعادة في هذا الزمان في أكثر البلاد حلق الرأس للرجل، عملاً بقوله ﷺ: «تحت كل شعرة جنابة، فخلّلوا الشعر، وأنقوا البشرة». وإنما قلنا: للرجل؛ لأنّ حلق شعر المرأة مثلة، وهي حرام، كما أنَّ حلق لحية الرجل كذلك، فقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ إشارة إلى أداء الحج، و﴿مُحَلِّقِينَ﴾ إشارة إلى تمام الحج، فقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ من العدوّ، فيبقى أمنكم بعد خروجكم عن الإحرام، حال مؤكدة من فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أو استئناف جواباً عن سؤال أنه كيف يكون الحال بعد الدخول؟ أي: لا تخافون بعد ذلك من أحد.

وتلك الرؤيا أنه ﷺ رأى عام الحديبية قبل خروجه إلى الحديبية: كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا رؤوسهم وقصروا، فقصّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوا مكة في عامهم، فلمّا خرجوا معه ﷺ، وصدّهم الكفار بالحديبية، ورجعوا، وشقّ عليهم ذلك.. قال عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحارث: والله ما حلقنا ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت هذه الآية المذكورة، ولمّا نزلت هذه الآية.. علم المسلمون أنهم يدخلونها فيما يستأنف، واطمأنت قلوبهم، ودخلوها معه ﷺ في

ذي القعدة سنة سبع، وذلك ثلاثة أيام هو وأصحابه، وصدقت رؤياه ﷺ.

وقوله: ﴿فَعَلِمَ﴾ الله سبحانه ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ في الصلح في الحديبية من المصلحة المتجدّدة، فإنّ دخولكم في سنتكم هذه سبب لهلاك المؤمنين والمؤمنات، معطوف على ﴿صَدَقَ﴾. و﴿الفاء﴾[1]: للترتيب الذكري، فالتعرض لحكم الشيء إنما يكون بعد جري ذكره.

والمراد بعلمه تعالى: العلم الفعليّ المتعلق بأمر حادث بعد المعطوف عليه؛ أي: فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة، ما لم تعلموا من الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً. ﴿فَجَعَلَ﴾ سبحانه ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من قبل ذلك الدخول في مكة؛ أي: من قبل تحقق مصداق ما أراه من دخول المسجد الحرام ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، فيقويكم به، فإنه كان سبباً لإسلام كثير من الناس تقوّى بهم المسلمون، فتكون تلك الكثرة سبباً لهيبة الكفار، ولمنعهم من قتال المسلمين، حين رجعوا إلى مكة في العام المقبل، وهم عشرة آلاف، وكانوا في عام الحديبية ألفاً وأربع مئة.

والمعنى[2]: أي لقد صدق الله رسوله محمداً ﷺ رؤياه التي أراها إياه، أنه يدخل هو وأصحابه البيت الحرام، آمنين لا يخافون أهل الشرك، محلّقاً بعضهم ومقصّراً بعضهم الآخر، فعلم جلّ ثناؤه ما لم تعلموا، وذلك علمه تعالى ما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين، الذين لم يعلمهم المؤمنون، ولو دخلوها هذا العام.. لوطئوهم بالخيل والرجل، فأصابتهم منهم معرّة بغير علم، فردّهم الله تعالى عن مكة من أجل ذلك، فجعل من دون دخولهم المسجد فتحاً قريباً: هو صلح الحديبية، وفتح خيبر؛ لتستروح إليه قلوب المؤمنين، إلى أن يتيسّر اليوم الموعود.

ثمّ أكّد صدق الرسول في الرؤيا بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾؛ أي: هو سبحانه وتعالى الإله الذي ﴿أَرْسَلَ﴾ وبعث ﴿رَسُولَهُۥ﴾ محمداً ﷺ؛ أي؛ اختصّ بإرسال

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

رسوله الذي لا رسول أفضل منه، حال كونه متلبساً ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: بالقرآن أو بالتوحيد، وهو: شهادة أن لا إله إلا الله، فيكون الجار متعلقاً بمحذوف حال من الرسول، أو بسببه، أو لأجله فيكون متعلقاً بـ ﴿أَرْسَلَ﴾ ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: وبدين الإسلام، وهو[1] من قبيل إضافة الموصوف إلى صفته مثل: عذاب الحريق، والأصل: الدين الحق، والعذاب المحرق.

ومعنى الحق: الثابت الذي هو ناسخ لجميع الأديان ومبطلها.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ أي: ليظهر الله سبحانه الدين الحق، ويعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: على جنس الدين بجميع أفراده التي هي الأديان المختلفة، بنسخ ما كان حقًّا منها من بعض الأحكام المتبدّلة بتبدّل الأعصار، وإظهار بطلان ما كان باطلاً منها، أو بتلسيط المسلمين على أهل سائر الأديان.

والمعنى: أي هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام؛ ليبطل به الملل كلها، بنسخ سائر الديانات، وإظهار فساد العقائد الزائفات، حتى لا يكون دين سواه، ولقد أنجز الله وعده، حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام، ولا يبقى إلا مسلم أو ذمّة للمسلمين، وكم ترى من فتوح أكثر البلاد، وقهر الملوك الشداد، ما تعرف به قدرة الله تعالى، وقيل: ليظهره الرسول على الدين كلّه، والأول: أولى.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال، و﴿الباء﴾: زائدة، كما تقدم في غير موضع؛ أي: كفى الله سبحانه ﴿شَهِيدًا﴾ على هذا الإظهار الذي وعد المسلمين به، وعلى صحة نبوّة محمد ﷺ، بإظهار المعجزات، وإن لم يشهد الكفار، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شهد له بالرسالة بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ فـ ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ مبتدأ، و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾: خبره، وهو وقف تام، والجملة: مبيّنة للمشهود به، وقيل: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، وقوله: ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾: بدل أو عطف بيان أو نعت؛ أي: ذلك الرسول المرسل بالهدى ودين الحق،

---

(١) روح البيان.

محمد رسول الله.

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾؛ أي: مع رسول الله ﷺ، قيل: هم أصحاب الحديبية، والأولى[1]: الحمل على العموم، وهو مبتدأ، خبره: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾؛ أي: غلاظ عليهم، كما يغلظ الأسد على فريسته، وهو جمع شديد. ﴿رُحَمَاءُ﴾؛ أي: متعاطفون، جمع رحيم ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: فيما بينهم، كالوالد مع ولده؛ أي: متوادون متعاطفون فيما بينهم.

والمعنى: أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرأفة والرحمة، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فلو اكتفى[2] بقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾.. لربما أوهم الفظاظة والغلظة، فكمّل بقوله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ فيكون من أسلوب التكميل، وعن الحسن: بلغ من تشدّدهم على الكفار: أنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمسّ أبدانهم، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم: أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه.

وقرأ ابن عامر في رواية[3]: ﴿رسول الله﴾ بالنصب على المدح، وقرأ الجمهور: ﴿أَشِدَّاءُ﴾، ﴿رُحَمَاءُ﴾ بالرفع على أنه خبر للموصول، وقرأ الحسن: بنصبهما على الحال، والعامل فيهما: العامل في ﴿مَعَهُ﴾ ويكون الخبر عن المبتدأ المتقدم ﴿تَرَاهُمْ﴾ وقيل: على المدح، وقرأ[4] يحيى بن يعمر: ﴿أشِدًا﴾ بالقصر، وهي شاذّة؛ لأنّ قصر الممدود إنما يكون في الشعر، نحو قوله:

لاَ بُدَّ مِنْ صَنْعَا وَإِنْ طَالَ السَّفَرْ

﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ جمع راكع وساجد؛ أي: تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، لمواظبتهم على الصلوات، فهما حالان؛ لأنّ الرؤية بصرية، وأريد بالفعل الاستمرار، والجملة: خبر آخر أو استئناف، وجملة قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾: إما خبر آخر، أو استئناف، مبنيّ على سؤال نشأ عن بيان مواظبتهم على الركوع والسجود، كأنه قيل: ماذا يريدون بذلك؟ فقيل: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾؛ أي: ثواباً من الله ورضى منه، وقال بعض الكبار: قصدهم في الطاعة والعبادة، الوصول والوصال، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قال الراغب: الرضوان: الرضا الكثير.

والمعنى: يطلبون ثواب الله لهم، ورضاه عنهم. وقرأ عمرو بن عبيد: ﴿ورضوانا﴾ بضم الراء.

﴿سِيمَاهُمْ﴾ فعلى من سامه: إذا أعلمه؛ أي: جعله ذا علامة. وقرىء: ﴿سيمياؤهم﴾ بالياء بعد الميم والمد، وهما لغتان، وفيها لغة ثالثة هي: السيماء، وهو مبتدأ، خبره: قوله: ﴿فِي وُجُوهِهِم﴾؛ أي: علامتهم التي تميزهم عن غيرهم ثابتة في وجوههم؛ أي: في جباههم حالة كون تلك السيماء كائنة ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ فالجار والمجرور: حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور الواقع خبر المبتدأ، وأثر الشيء: حصول ما يدلّ على وجوده. كما في «المفردات»؛ أي:[(١)] من التأثير الذي تؤثّر كثرة السجود في جباههم، وما روي عن النبيّ ﷺ: «لاَ تُعْلِمُوا صُوركم»؛ أي: لا تسموها، إنما هو فيما إذا اعتمد بجبهته على الأرض ليحدث فيها تلك السمة، وذلك محض رياءٍ ونفاقٍ، والكلام هنا فيما حدث في جبهة السُّجَّاد الذين لا يسجدون إلا خالصاً لوجه الله تعالى؛ أي: تظهر علامتهم في جباههم من أثر السجود في الصلاة، وكثرة التعبّد بالليل والنهار، وقال الضحاك: إذا سهر الرجل أصبح مصفرًّا، فجعل هذا هو السيما، وقال ﷺ: «من كثر صلاته بالليل.. حسن وجهه بالنهار». ألا ترى أنَّ من سهر بالليل، وهو مشغول بالشراب واللعب.. لا يكون وجهه في النهار كوجه من سهر وهو مشغول بالطاعة، وقال الزهري: مواضع السجود أشد وجوههم بياضاً يوم القيامة.

وقرأ ابن هرمز: ﴿إثْر﴾ بكسر الهمزة وسكون الثاء، والجمهور: بفتحهما،

---

(١) روح البيان.

وقرأ قتادة: ﴿من آثار السجود﴾ بالجمع، وقال عطاء الخراساني رحمه الله: ودخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من نعوتهم الجليلة ﴿مَثَلُهُمْ﴾؛ أي: وصفهم العجيب الشأن، الجاري من الغرابة مجرى الأمثال، حال كون ذلك المثل مكتوباً ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ حال من ﴿مَثَلُهُمْ﴾ والعامل فيه: معنى الإشارة، والتوراة: اسم لكتاب موسى عليه السلام، سمّي بالتوراة؛ لأنه يظهر منه النور والضياء لبني إسرائيل ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾: معطوف على ﴿مَثَلُهُمْ﴾ الأول، كأنه قيل: ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل، وتكرير ﴿مَثَلُهُمْ﴾؛ لتأكيد غرابته، وزيادة تقريرها، والإنجيل: كتاب عيسى عليه السلام، سمّي بالإنجيل؛ لأنّه أظهر الدين بعد ما درس؛ أي: عفا رسمه.

ومعنى الآية: أي[1] إنّ محمداً ﷺ رسول الله، بلا شكّ ولا ريب، مهما أنكر المنكرون، وافترى الجاحدون، وإنّ صحابته الذين معه غليظة قلوبهم على الكفار، رقيقة قلوب بعضهم على بعض، ليّنة أنفسهم لهم، هيّنة عليهم، تراهم دائبين على الصلاة، مخلصين لله، محتسبين فيها الأجر وجزيل الثواب عنده، طالبين رضاه عنهم، لهم سمت حسن، وخشوع وخضوع يظهر أثره على الوجوه، ومن ثمّ قيل: إنّ للحسنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الناس.

والخلاصة: أنّ كل ما يفعله المرء، أو يتصوّره، يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سيرته وسريرته صحيحة مع الله.. أصلح الله عزّ وجلّ ظاهره للناس، ثمّ أخبر سبحانه: أنه نوّه بفضلهم في الكتب المنزّلة، والأخبار المتداولة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ أي: هذه الصفة التي وصفت لكم من صفات أتباع محمد ﷺ، هي صفتهم في التوراة، وصفتهم في الإنجيل: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ...﴾ إلخ، تمثيل مستأنف[2]؛ أي: هم كزرع أخرج أفراخه؛

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

أي: فروعه وأغصانه، وذلك أنّ أوّل ما نبت من الزرع بمنزلة الأمّ، وما تفرّع وتشعّب منه بمنزلة أولاده وأفراخه، ولا يكون الشطأ إلا في البرّ والشعير، وفي «المفردات»: شطأه: فروع الزرع، وهو: ما خرج منه، وتفرّع في شاطئيه؛ أي: جانبيه، وجمعه: أشطاء، وقوله: ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾؛ أي: أفراخه. انتهى، وقيل: هو تفسير لقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدّم من الأوصاف، وقيل: هو خبر لقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ على أنّ الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

وقال الفرّاء: قوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ فيه وجهان: إن شئت.. قلت: ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل؛ يعني: كمثلهم في القرآن، فيكون الوقف على الإنجيل، وإن شئت.. قلت: ذلك مثلهم في التوراة، ثم تبتدىء: ومثلهم في الإنجيل كزرع، وعلى هذا فيكون ﴿كَزَرْعٍ﴾: خبراً عن قوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾. قال قتادة: مثل أصحاب النبيّ ﷺ في الإنجيل مكتوب: أنه سيخرج من أمة محمد ﷺ قوم ينبتون نباتاً كالزرع، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

قال ابن عطية: قوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾: هو على كل الأقوال، وفي أيّ كتابٍ أنزل، فرض مثل للنبيّ ﷺ وأصحابه، في أنَّ النبيَّ ﷺ بعث وحده، فكان كالزرع حبّةً واحدةً، ثم كثر المسلمون، فهو كالشطأ: وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل. انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ بإسكان الطاء وبالهمزة، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان: بفتحهما، وكذلك وبالمدّ أبو حيوة وابن أبي عبلة وعيسى الكوفي، وقرأ أنس وزيد بن عليّ ونصر بن عاصم ويحيى بن وثاب: ﴿شطاه﴾ كعصاه، فاحتمل أن يكون مقصوراً، وأن يكون أصله الهمزة، فنقل الحركة وأبدل الهمزة ألفاً، كما قالوا في المرأة والكمأة: المراه والكماه، وهو تخفيف مقيس عند الكوفيين، وهو عند البصريين شاذٌّ لا يقاس عليه، وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق: ﴿شَطَه﴾

---

(١) البحر المحيط.

بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الطاء، رويت عن شيبة ونافع والجحدريّ، وعن الجحدريّ أيضاً: ﴿شطوه﴾ بإسكان الطاء وواو بعدها، وقال أبو الفتح: هي لغة أو بدل من الهمزة، وهذه كلّها لغات.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾؛ أي: فقوّاه وأعانه وشدّه، قال الإمام النسفيّ:[١] الضمير المستتر في ﴿آزره﴾: يعود على الشطأ، والبارز على الزرع؛ أي: فقوّى الشطأ أصل الزرع بالتفافه عليه وتكاثفه، وهو من الموازرة بمعنى المعاونة، فيكون وزن آزر فاعل، من الأزر: وهو القوّة. وخطّأه أبو حيان لأنّه لم يسمع في مضارعه إلا يؤزر على وزن يكرم، أو من الإيزار: وهي الإعانة، فيكون وزنه أفعل، وهو الظاهر؛ لأنه لم يسمع في مضارعه يوازر.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ على وزن أفعله، وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة وحميد بن قيس: ﴿فأزره﴾ بالقصر ثلاثياً، وقرىء: ﴿فأزّره﴾ بتشديد الزاي.

﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ ذلك الزرع؛ أي: صار ذلك الزرع الأصل غليظاً، بعد أن كان دقيقاً، فهو من باب استحجر الطين؛ يعني: أنّ السين للتحوّل، فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ، كانوا أقلّة ضعفاء، فلمّا كثروا، وتقوّوا.. قاتلوا المشركين ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ ذلك الزرع، واستقام ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾؛ أي: تمّ نباته على سوقه؛ أي: على أصوله، سوق جمع ساق، ساق: أصل الزرع، وساق فروعه.

وقرأ ابن كثير وقنبل: ﴿سؤقه﴾ بالهمزة الساكنة، قيل: وهي لغة ضعيفة يهمزون الواو التي قبلها ضمة، ومنه قول الشاعر:

أَحَبُّ ٱلْمُؤْقِدِيْنَ إِلَيَّ مُؤْسَىٰ

ذكره في «البحر».

وقوله: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾: حال من ﴿زرع﴾؛ أي: حال كون ذلك الزرع

---

(١) النسفيّ.
(٢) البحر المحيط.

يعجب زرّاعه الذين زرعوه؛ أي: يسرَّهم بقوته، وكثافته وغلظه، وحسن منظره، وطول قامته، وهنا[1] تمَّ المثل، وهو مثل ضربه الله لأصحاب رسول الله ﷺ، قلوا في بدء الإسلام، ثم كثروا واستحكموا، فترقى أمرهم يوماً فيوماً، بحيث أعجب الناس أمرهم.

ثم ذكر سبحانه علّة تكثيره لأصحاب نبيّه ﷺ، وتقويته لهم، فقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ الغيظ: أشدّ الغضب، وهو علّة لما يعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع في زكائه واستحكامه؛ أي: كثرهم الله سبحانه، وقوّاهم وجعلهم كالزرع في النماء والقوّة؛ ليغيظ ويغضب بهم مشركي مكة، وسائر كفّار العرب والعجم؛ أي: فعل بهم ذلك؛ ليكونوا غيظاً للكافرين، ومما يغيظ الكفار قول عمر رضي الله عنه لأهل مكة بعد ما أسلم: لا نعبد الله سرّاً بعد اليوم.

وقيل: قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾: علّة لما بعده من قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فرائضها وسننها، و﴿من﴾، في قوله: ﴿مِنْهُم﴾؛ أي: من أصحاب محمد ﷺ، للبيان؛ أي: لبيان الجنس كلّهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ فلا حجّة فيه للطاعنين في الأصحاب؛ لأنّ كلّهم مؤمنون، وقيل: الضمير للكفار فمن للتبعيض. ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثواباً جزيلاً؛ أي: وعد الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين مع محمد ﷺ، أن يغفر ذنوبهم، ويجزل أجرهم، بإدخالهم الجنة التي هي أكبر نعمة، وأعظم منّة؛ ليغيظ بهم الكفار، فإنّ الكفار[2] إذا سمعوا بما أعدّ للمؤمنين في الآخرة، مع ما لهم في الدنيا من العزّة.. غاظهم ذلك أشدّ الغيظ، والأول: أولى.

يقول الفقير: نظر الكفار مقصور على ما في الدنيا مما يتنافس فيه ويتحاسد، وكيف لا يغيظهم ما أعدّ للمؤمنين في الآخرة وليسوا بمؤمنين باليوم الآخر؟!

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

والمعنى(١): أي وعد الله سبحانه هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ أن يغفر ذنوبهم، ويجزل أجرهم، بإدخالهم جنات النعيم، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة.. فهو في حكمهم، ولهم السبق والفضل، والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد.

روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنّ أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً.. ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» رضي الله عنهم وأرضاهم.

تنبيه: هذه أوصاف الأمة الإسلامية أيّام عزّها، فانظر الآن، وتأمّل في تخاذلها وجهلها، حتى أصبحت مثلاً في الخمول والجهل، وأصبحت زرعاً هشيماً تذروه الرياح، فكيف يجتمع عصفه وتبنه؟! ولعل الله يبدل الحال غير الحال، ويخضر الزرع بعد ذبوله، وتعود الأمة سيرتها الأولى، مهيبة مرعية الجانب، مخشية القوة.

الإعراب

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿لَّقَدْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ ﴿رَضِىَ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ ﴿رَضِىَ﴾. ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به مرفوع بثبات النون، وأتى بصيغة المضارع؛ لاستحضار صورة المبايعة، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾: متعلق بـ ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾، ﴿فَعَلِمَ﴾

---

(١) المراغي.

﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿علم﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ معطوف على ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ لما علمت أنه بمعنى الماضي. ﴿مَا﴾: موصول مفعول به. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾، ﴿فَأَنزَلَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أنزل﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ معطوف على ﴿رَضِيَ﴾. كما في «أبي السعود». ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾: مفعول به، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿أنزل﴾، ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول أول، معطوف على ﴿أنزل﴾، ﴿فَتْحًا﴾: مفعول ثان. ﴿قَرِيبًا﴾: صفة له. ﴿وَمَغَانِمَ﴾: معطوف على ﴿فَتْحًا﴾. ﴿كَثِيرَةً﴾ صفة لـ ﴿مَغَانِمَ﴾، وجملة ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾: صفة ثانية لـ ﴿مَغَانِمَ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبران له، والجملة: مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿أثابهم﴾.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض ومفعول أول وفاعل. ﴿مَغَانِمَ﴾: مفعول ثان، ﴿كَثِيرَةً﴾: صفة لـ ﴿مَغَانِمَ﴾، وجملة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾: صفة ثانية لـ ﴿مَغَانِمَ﴾، وجملة ﴿وَعَدَكُمُ﴾: مستأنفة على طريق الالتفات. ﴿فَعَجَّلَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿عجل﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿عجّل﴾. ﴿هَٰذِهِۦ﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿وَعَدَكُمُ﴾. ﴿وَكَفَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة: معطوفة على جملة ﴿عجل﴾. ﴿عَنكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿كف﴾، ﴿وَلِتَكُونَ﴾ ﴿الواو﴾: مقحمة عند الكوفين، وعاطفة على مقدر عند البصريين، تقديره: وكفّ أيدي الناس عنكم لتشكروه. ﴿وَلِتَكُونَ﴾ و﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تكون﴾: فعل مضارع ناقص، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، واسمها: ضمير مستتر يعود على خصلة الكفّ لأيدي الناس، ﴿ءَايَةً﴾: خبرها، ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: صفة لـ ﴿ءَايَةً﴾، وجملة ﴿تكون﴾ مع أن المضمرة: في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من الجملة المحذوفة،

تقديره: وكفّ أيدي الناس عنكم لشكركم إياه، ولكونها آيةً للمؤمنين، والجار والمجرور: معطوف على الجار والمجرور المقدر، وذلك المقدر متعلق بـ ﴿كَفَّ﴾. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾: معطوف على ﴿وَلِتَكُونَ﴾ وفاعله: ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾ و﴿الكاف﴾: مفعول أول. ﴿صِرَاطًا﴾: مفعول ثان. ﴿مُسْتَقِيمًا﴾: صفة ﴿صِرَاطًا﴾، ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أخرى﴾: صفة لموصوف محذوف، هو مفعول لفعل محذوف، تقديره: ووعدكم مغانم أخرى، والجملة المحذوفة: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾. وفي المقام أوجه أخر من الإعراب، أعرضنا عنها صفحاً خوف الإطالة، وجملة ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾: صفة أولى لـ ﴿أخرى﴾، وجملة ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾: صفة ثانية لها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كَانَ اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ ﴿قَدِيرًا﴾، و﴿قَدِيرًا﴾: خبره، والجملة: مستأنفة.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣)﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿قَاتَلَكُمُ﴾: فعل ومفعول به. ﴿الَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة: فعل شرط لـ ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿لَوَلَّوُا﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿ولّوا﴾: فعل وفاعل. ﴿الْأَدْبَارَ﴾: مفعول به، والجملة: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَجِدُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على جواب ﴿لو﴾، ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: معطوف عليه، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: سنّ الله سبحانه غلبة أنبيائه سنّته التي قد خلت، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿الَّتِي﴾: صفة لـ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿خَلَتْ﴾. فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ ﴿خَلَتْ﴾، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَن﴾: حرف نفي ونصب واستقبال. ﴿تَجِدَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، أو على أيّ مخاطب. ﴿لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾:

متعلق بـ ﴿تَبۡدِيلٗا﴾. و﴿تَبۡدِيلٗا﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿سنة الله﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿عَنكُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿كَفَّ﴾، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾: معطوف على ﴿أَيۡدِيَهُمۡ﴾. ﴿عَنۡهُم﴾ متعلق بـ ﴿كَفَّ﴾. ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ضمير ﴿عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: حال كونهم كائنين ببطن مكة. ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿كَفَّ﴾، ﴿أَنۡ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿أَظۡفَرَكُمۡ﴾: فعل ماض ومفعول به وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، في محل النصب بـ ﴿أَنۡ﴾ المصدرية ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: متعلق بـ ﴿أظفر﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَنۡ﴾ المصدرية: في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من بعد إظفاره إياكم عليهم. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: متعلق بـ ﴿بَصِيرًا﴾، و﴿بَصِيرًا﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة. ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول، ﴿وَصَدُّوكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ﴾: متعلق بـ ﴿صدوكم﴾ ﴿ٱلۡحَرَامِ﴾: صفة لـ ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾. ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾: معطوف على الضمير المنصوب في ﴿صدوكم﴾. وهو ﴿الكاف﴾؛ أي: وصدّوا الهدي، ويجوز أن يكون مفعولاً معه، و﴿الواو﴾: للمعية. ﴿مَعۡكُوفًا﴾: حال من ﴿الهدي﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿يَبۡلُغَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿الهدي﴾، ﴿مَحِلَّهُۥ﴾: منصوب على الظرفية المكانية، متعلق بـ ﴿يَبۡلُغَ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، تقديره: وصدّوا الهدي بلوغه محلّه؛ أي:

عن بلوغه محلّه، والجار المقدر: متعلق بـ ﴿صدوا﴾. ﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿رِجَالٌ﴾: مبتدأ، ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾: صفته. ﴿وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾: معطوف على ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ وخبر المبتدأ: محذوف، تقديره: موجودون. وجملة ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾: في محل الرفع صفة لـ ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نساء﴾ جميعاً. ﴿أَن﴾: حرف مصدر ونصب، ﴿تَطَـُٔوهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل ومفعول به، منصوب بـ ﴿أن﴾ المصدرية، وعلامة نصبه: حذف النون، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر مرفوع على كونه بدل اشتمال من ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نساء﴾؛ أي: ولولا خوف وطئكم إيّاهم، أو منصوب على كونه بدل اشتمال من الضمير المنصوب في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾؛ أي: لم تعلموا وطأكم إياهم. ﴿فَتُصِيبَكُم﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببيّة. ﴿تصيبكم﴾: فعل مضارع ومفعول به، منصوب بأن مضمرة بعد ﴿الفاء﴾ السببية. ﴿مِّنْهُم﴾: متعلق بـ ﴿تصيبكم﴾ ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾: فاعل. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿الكاف﴾ في ﴿تصيبكم﴾، أو صفة لـ ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من الجملة التي قبلها، تقديره: لم تعلموا وطأكم إياهم، فإصابة معرة إياكم منهم، وجواب ﴿لولا﴾: محذوف، تقديره: لما كفَّ أيديكم عنهم، أو لأذن لكم في دخول مكة، وجملة ﴿لولا﴾: مستأنفة.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿لِّيُدْخِلَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يدخل الله﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿يدخل﴾ ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلته، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿اللام﴾، تقديره: لإدخال الله في رحمته من يشاء، الجار والمجرور: متعلق بمحذوف، دلّ عليه جواب ﴿لولا﴾ المقدّر، تقديره: ولكن كفّكم عنهم لإدخال الله في رحمته من يشاء. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿تَزَيَّلُوا۟﴾: فعل ماض وفاعل، والجملة: فعل شرط لـ

﴿لو﴾. ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿عذبنا﴾: فعل وفاعل. ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة: جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿مِنْهُمْ﴾: حال من فاعل ﴿كَفَرُوا﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق لـ ﴿عذّبنا﴾، ﴿أَلِيمًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ ﴿عذّبنا﴾ أو بـ ﴿صدوكم﴾ أو بمحذوف، تقديره: واذكر إذ جعل الذين كفروا، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿جَعَلَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿كَفَرُوا﴾ من فعل وفاعل والجملة صلة الموصول ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾: متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى ألقى أو بمحذوف: مفعول ثان لـ ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى صيّر، كما مر. ﴿الْحَمِيَّةَ﴾: مفعول به لـ ﴿جَعَلَ﴾ أو مفعول أول له، ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل من ﴿الْحَمِيَّةَ﴾: بدل كل من كل. ﴿فَأَنْزَلَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أنزل الله﴾: فعل وفاعل، ﴿سَكِينَتَهُ﴾: مفعول به لـ ﴿أَنْزَلَ﴾، ﴿عَلَى رَسُولِهِ﴾: متعلق بـ ﴿أَنْزَلَ﴾، ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوف على قوله: ﴿عَلَى رَسُولِهِ﴾، والجملة الفعلية: معطوفة على محذوف معلوم من السياق، والتقدير: فهمّ المسلمون مخالفة الرسول في أمر الصلح، فأنزل الله سكينته عليهم، والجملة المحذوفة: معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهُ﴾ ومفعول أول معطوف على ﴿أَنْزَلَ﴾. ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾: مفعول ثان. ﴿وَكَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿أَحَقَّ﴾: خبره. ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ ﴿أَحَقَّ﴾. ﴿وَأَهْلَهَا﴾: معطوف على ﴿أَحَقَّ﴾: عطف تفسير، وجملة ﴿كان﴾: معطوفة على جملة ﴿ألزمهم﴾. ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ ﴿عَلِيمًا﴾. و﴿عَلِيمًا﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَّقَدْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب القسم، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿رَسُولَهُ﴾: مفعول به. ﴿ٱلرُّءْيَا﴾: منصوب بنزع الخافض؛ أي: في رؤياه؛ أي: جعله صادقاً في رؤياه. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: صدقاً متلبساً بالحق، أو حال من الرؤيا؛ أي: حالة كونها متلبسةً بالحق. ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿تدخلنّ﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه: ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، و﴿الواو﴾ المحذوفة، لالتقاء الساكنين: في محل الرفع فاعل. ﴿ٱلْمَسْجِدَ﴾: مفعول به على السعة. ﴿ٱلْحَرَامَ﴾: صفة له، والجملة الفعلية: جواب القسم، وجملة القسم: مقول لقول محذوف، تقديره: لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، حيث قال الرسول: لتدخلنّ المسجد الحرام. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، وهو فعل شرط لـ﴿إن﴾ الشرطية، وجوابها: معلوم مما قبلها؛ أي: إن شاء الله.. لتدخلن المسجد الحرام، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية: معترضة. ﴿ءَامِنِينَ﴾: حال من فاعل ﴿تدخلن﴾، ﴿مُحَلِّقِينَ﴾: حال ثانية متداخلة. ﴿رُءُوسَكُمْ﴾: مفعول به لـ ﴿مُحَلِّقِينَ﴾، ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾: معطوف على ﴿مُحَلِّقِينَ﴾، وجملة ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أو من الضمير في ﴿ءَامِنِينَ﴾ أو في ﴿مُحَلِّقِينَ﴾. ﴿فَعَلِمَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿علم﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة: معطوفة على ﴿صَدَقَ﴾، وجملة ﴿لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ما لم تعلموه. ﴿فَجَعَلَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿جعل﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ معطوف على ﴿علم﴾، ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ ﴿جعل﴾ ﴿فَتْحًا﴾: مفعول به. ﴿قَرِيبًا﴾ صفة ﴿فَتْحًا﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة: صلة الموصول. ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾: حال من ﴿رَسُولِهِۦ﴾؛ أي: حال كونه متلبساً بالهدى. ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾: معطوف على ﴿الهدى﴾، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ ﴿اللام﴾: لام كي، ﴿يظهره﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ومفعول به. ﴿عَلَى ٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ ﴿يظهر﴾. ﴿كُلِّهِۦۚ﴾: توكيد لـ﴿ٱلدِّينِ﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإظهاره دين الحق على الدين كلّه، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿أَرۡسَلَ﴾. ﴿وَكَفَىٰ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كفى﴾: فعل ماض. ﴿بِٱللَّهِ﴾: فاعل و﴿الباء﴾: زائدة. ﴿شَهِيدًا﴾: تمييز، والجملة: مستأنفة، مسوقة للتعجب.

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾.

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿مَعَهُۥٓ﴾: متعلق بمحذوف صلة الموصول. ﴿أَشِدَّآءُ﴾: خبر. ﴿عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾: متعلق به. ﴿رُحَمَآءُ﴾: خبر ثان. ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾ متعلق بـ ﴿رُحَمَآءُ﴾، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة قوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾. ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على من يصلح للخطاب، و﴿الهاء﴾: ضمير الغائبين مفعول به. ﴿رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾: حالان من مفعول ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾؛ لأنّ الرؤية هنا بصرية، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ثالث للموصول أو مستأنفة. ﴿يَبۡتَغُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فَضۡلٗا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَبۡتَغُونَ﴾، ﴿وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾: معطوف على ﴿فَضۡلٗا﴾، والجملة الفعلية: مستأنفة، واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا يريدون بركوعهم وسجودهم؟ فقيل: ﴿يَبۡتَغُونَ﴾.. إلخ. ﴿سِيمَاهُمۡ﴾: مبتدأ. ﴿فِي وُجُوهِهِم﴾ خبر. ﴿مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾: حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفيّ؛ أي: سيماهم

كائنة هي في وجوههم، حالة كونها من أثر السجود، والجملة: مستأنفة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿مَثَلُهُمْ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾: حال من ﴿مَثَلُهُمْ﴾؛ أي: حال كون ذلك المثل مكتوباً في التوراة. ﴿وَمَثَلُهُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِي الْإِنجِيلِ﴾: حال. ﴿كَزَرْعٍ﴾: خبر ﴿مَثَلُهُمْ﴾ والجملة معطوفة على ما قبلها، ويجوز أن يكون ﴿مَثَلُهُمْ﴾: معطوفاً على ﴿مَثَلُهُمْ﴾ الأول، ﴿فِي الْإِنجِيلِ﴾: حال من ﴿مَثَلُهُمْ﴾. وإن شئت.. قلت: ﴿كَزَرْعٍ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم كزرع، والجملة: مستأنفة. ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: في محل الجر صفة لـ ﴿زرع﴾. ﴿فَآزَرَهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿آزره﴾. فعل ومفعول به، وفاعله: ضمير يعود على الشطأ، والجملة: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَخْرَجَ﴾.

﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿استغلظ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الزرع، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿آزره﴾. ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿استوى﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الزرع، والجملة: معطوفة على جملة ﴿استغلظ﴾. ﴿عَلَىٰ سُوقِهِ﴾: متعلق بـ ﴿استوى﴾ أو حال من فاعله؛ أي: كائناً على سوقه، قائماً عليها. ﴿يُعْجِبُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الزرع، ﴿الزُّرَّاعَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿استوى﴾: أي: حال كون ذلك الزرع المستوي معجباً الزرّاع. ﴿لِيَغِيظَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرف وتعليل. ﴿يغيظ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهُ﴾. ﴿بِهِمُ﴾: متعلق به. ﴿الْكُفَّارَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور: متعلق بمعلول محذوف، تقديره: كثرهم الله تعالى، وقوّاهم كالزرع المذكور، لإغاظته الكفار بهم، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: مستأنفة. وجملة ﴿آمَنُوا﴾: صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾:

معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿مِنْهُم﴾: حال من فاعل ﴿ءَامَنُوا﴾. ﴿مَّغْفِرَةً﴾. مفعول ثان لـ ﴿وَعَدَ﴾، ﴿وَأَجْرًا﴾: معطوف عليه. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة ﴿أَجْرًا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ﴾ الرضا: ما يقابل السخط، يقال: رضي عنه، ورضي به، ورضيته، ورضي الله عن العبد: هو أن يراه مؤتمراً لأمره، منتهياً عن نهيه، وأصله: رضو، قلبت الواو ياءً لتطرفها إثر كسرة، والمراد بالمؤمنين: أهل الحديبية، ورضاه عنهم؛ لمبايعتهم رسول الله ﷺ.

﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ والشجرة: واحد الشجر، والشجر من النبت: ما له ساق، والمراد بالشجرة: السمرة؛ أي: أمّ غيلان، وهي كثيرة في بوادي الحجاز، وقيل: السدرة.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: من الصدق والإخلاص في المبايعة.

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ السكينة: الطمأنينة والأمن وسكون النفس.

﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ أصله: أثوبهم، بوزن أفعل نقلت حركة الواو إلى الثاء فسكّنت، لكنها أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها في الحال، والثواب: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء عمله، يستعمل في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف في الخير، والإثابة تستعمل في المحبوب، وقد قيل ذلك في المكروه، نحو: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ على طريق الاستعارة.

﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر بعد انصرافهم من الحديبية.

﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي مغانم خيبر، وكانت خيبر أرضاً ذات عقار وأموال، فقسمها رسول الله ﷺ بين المقاتلة، فأعطي الفارس سهمين، والراجل سهماً واحداً.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾؛ أي: أيدي أهل خيبر، وهم سبعون ألفاً، وحلفاؤهم من بني أسد وغطفان، حيث جاءوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم

الرعب فنكصوا، والحلفاء بالحاء المهملة: جمع حليف، وهو المعاهد للنصر، فإنّ الحلف: العهد بين القوم، وقيل: أيدي أهل مكة بالصلح، وقال في «المفردات»: الكفّ: كفّ الناس، وهي ما بها يقبض ويبسط، وكففته دفعته بالكفّ، وتعورف الكفّ بالدفع على أيّ وجه كان بالكف أو بغيرها، حتى قيل: رجل مكفوف لمن قبض بصره.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي ما وعد به المؤمنون إلى يوم القيامة.

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: مغانم خيبر.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾؛ أي: أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول منها إلى الحديبية.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أمارة للمؤمنين يعرفون بها.

١ - وصدق الرسول ﷺ.

٢ - حياطة الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين، وحراسته لهم في مشهدهم ومغيبهم.

٣ - معرفة المؤمنين الذين سيأتون بعد: أنَّ كلاءته تعالى ستعمهم أيضاً ما داموا على الجادّة الصراط المستقيم، وهي الثقة بالله تعالى، والتوكّل عليه فيما يأتون ويذرون.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾؛ أي: مغانم أخرى: هي مغانم فارس والروم.

﴿أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾؛ أي: أعدّها لكم، وهي تحت قبضته يظهر عليها من أراد.

﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾؛ أي: لانهزموا، فإنّ تولية الأدبار كناية عن الانهزام، أصله: لوليو، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، والأدبار جمع دبر، ودبر الشيء: خلاف القبل: كالظهر والخلف.

﴿وَلِيًّا﴾ والوليّ: الحارس الحامي.

﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ والنصير: المعين والمساعد.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: سنَّ سبحانه وتعالى غلبة أنبيائه على أعدائه، سنّةً قديمةً فيمن مضى وخلا من الأمم.

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ من الظفر: وهو الفوز، وأصله: من ظفر؛ أي: نشب ظفره.

﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾ بسكون الدال: جمع هدية، كتمر وتمرة، وجدي وجدية، وهو ما يقدم قرباناً لله تعالى من النعم حين أداء مناسك الحج أو العمرة، كما مرّ، يقال: أهديت له، وأهديت إليه، وحكي ابن خالويه فيه ثلاث لغات: الهدي بسكون الدال: وهي الشهيرة لغة قريش، والهديّ بكسر الدال، وتشديد الياء: جمع هديّة، والهداء بالمدّ.

﴿مَعۡكُوفًا﴾؛ أي: محبوساً، يقال: عكفت الرجل عن حاجته: إذا حبسته عنها، وأنكر الفارسيّ تعدية عكف بنفسه، وأثبتها ابن سيده والأزهري وغيرهما، وهو ظاهر القرآن لبناء اسم المفعول منه. اهـ «سمين». وفي «المختار»: عكفه حبسه ووقفه، وبابه: ضرب ونصر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا﴾ ومنه الاعتكاف في المسجد: وهو الاحتباس، وعكف على الشيء: أقبل عليه مواظباً، وبابه: دخل وجلس، قال الله تعالى: ﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾، اهـ.

﴿مَحِلَّهُۥۚ﴾ اسم مكان على وزن مفعل بكسر العين، أصله: محلل، نقلت حركة اللام الأولى إلى الحاء فسكنت، فأدغمت في اللام الثانية؛ أي: المكان الذي يسوغ فيه نحره، وهو منى في حقّ الحاج، والمروة في حق المعتمر.

﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ من الوطء: وهو الدوس، وهو عبارة عن الإيقاع، والإهلاك والإبادة؛ لأنّ الوطء تحت الأقدام مستلزم للإهلاك.

﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ مفعلة من عرّه: إذا عراه ودعاه بما يكرهه ويشقّ عليه، وفي «المفردات»: العرّ: الجرب الذي يعرّ البدن؛ أي: يعترضه، ومنه قيل للمضرّة:

معرة تشبيهاً بالعرّ الذي هو الجرب، وفي «القاموس» و«اللسان»: المعرة: المساءة والإثم والأذى والجناية والعيب والأمر القبيح والشدة والمسبة، وتلون الوجه غضباً، وكوكب دون المجرة، وبلد معروف. انتهى.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ التزيّل: التفرق والتميز، من زاله يزيله فرَّقه، وزيلته فتزيل؛ أي: فرَّقته فتفرق.

﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الحمية: الأنفة والتكبر، وهي: مصدر على وزن فعيلة، من حمي من كذا حميّة: إذا أنف منه، وداخله منه عارٌ، وفي «المفردات»: عبّر عن القوّة الغضبيّة إذا ثارت وكثرت بالحمية، يقال: حميت على فلان؛ أي: غضبت عليه. انتهى. وذلك لأنّ في الغضب ثوران دم القلب وحرراته وغليانه، وحميّة الجاهلية: حمية في غير موضعها لا يؤيّدها دليل ولا برهان، بل مدارها مطلق المنع، سواء، كان بحق أم بباطل، فتمنع من الإذعان والقبول للحق، ومبناها التشفّي على مقتضى الغضب لغير الله، فتوجب تخطّي حدود الشرع، ولذلك أنفوا من دخول المسلمين مكة المشرفة لزيارة البيت العتيق الذي الناس فيه سواءٌ، وأصل الحميّة: حمييّة على وزن فعيلة، أدغمت ياء فعيل في ياء لام الكلمة.

﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ التاء فيه مبدلة من واو، والواو مبدلة من ياء، فأصله: وقيا.

﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ أصله: أحقق بوزن أفعل، نقلت حركة القاف الأولى إلى الحاء فسكنت، فأدغمت في القاف الثانية.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ هي رؤيا منام وحلم؛ أي: صدقه في رؤياه ولم يكذبه.

﴿مُحَلِّقِينَ﴾ والحلق: العضو المخصوص، وحلقه قطع حلقه، ثم جعل الحلق لقطع الشعر وجزه، فقيل: حلق شعره وحلق رأسه: إذا أزال شعره ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ والقصر: خلاف الطول، وقصر شعره: جز بعضه.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ أي: ليعليه على سائر الأديان حقها وباطلها، وأصل الإظهار: جعل الشيء بادياً ظاهراً للرائي، ثمّ شاع استعماله في الإعلاء.

﴿أَشِدَّآءُ﴾ أصله: أشدداء بوزن أفعلاء، جمع شديد، نقلت حركة الدال الأولى إلى الشين فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية.

﴿رُحَمَآءُ﴾ جمع رحيم. ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: جمع راكع وساجد، كفضل جمع فاضل، وكمل جمع كامل. ﴿سِيمَاهُمْ﴾ فيه ثلاث لغات: السيما والسيماء والسيمياء، وهي لغة فصيحة كثيرة في الشعر، قال الشاعر:

غُلَامٌ رَمَاهُ ٱللهُ بِٱلْحُسْنِ يَافِعاً ... لَهُ سِيْمِيَاءُ لاَ تَشُقُّ عَلَىٰ ٱلْبَصَرْ

وقوله: ﴿سيماهم﴾ الياء فيه مبدلة من واو؛ لأنه من الوسم، قلبت الواو ياءً؛ لسكونها إثر كسرة، فأصله: سومىٰ بوزن عفلى، إذ فيه قلب مكاني بتقديم العين على الفاء، والأصل: وسمى بوزن فعلى.

﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ من جوز أن تكون التوراة عربية، يقول: إنها مشتقة من ورىٰ الزند حينما تقدح به النار، فأصل التوراة: تورية بوزن تفعلة، بفتح العين، وأصل تورية وورية؛ لأنه من وري، قلبت الواو الأولى تاءً، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وقيل: أصله تورية بوزن تفعلة، بكسر العين، ثمّ فتحت راؤه توصّلاً لقلب الياء ألفاً.

﴿فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ من نجل الشيء: إذا أظهره. ﴿كَزَرْعٍ﴾ يقال: زرع كمنع: طرح البذر، وزرع الله: أنبت، والزرع: الولد، والمزروع، والجمع: زروع، وموضعه المزرعة مثلثة الراء. ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ وفي «القاموس»: الشطء: فراخ النخل والزرع أو ورقه، وشطأ كنمع شطأً وشطوءاً: أخرجها، ومن الشجر: ما خرج حول أصله، والجمع: أشطاء، وأشطأ الزرع، وشطأ: إذا أخرج فراخه، وهو في الحنطة والشعير والنخل وغيرها.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾؛ أي: أعانه وقوّاه، من المؤازرة: وهي المعاونة، فيكون وزن آزر فاعل من الأزر: وهو القوّة أو من الإيزار: وهي الإعانة، فيكون وزنه أفعل، وهو

الظاهر؛ لأنه لم يسمع في مضارعه يؤازر، بل يؤزر بوزن يكرم، كما مرّ.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾؛ أي: استقام. ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساقٍ؛ أي: على قضبانه وأصوله.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين، أصله: ليغيظ بوزن يفعل، نقلت حركة الياء إلى الغين فسكنت إثر كسرة فصارت حرف مدّ، من الغيظ، والغيظ: أشدُّ الغضب: وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من ثوران دم قلبه، يقال: غاظه يغيظه بوزن باع فاغتاظ، وغيظه فتغيظ وأغاظه وغايظه، كما في «القاموس».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآية ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿إِذۡ يُبَايِعُونَكَ﴾ مع كون المقام للماضي لاستحضار صورة المبايعة؛ **لأنّها** جديرة بالتجسيد لتكون عبرة الأجداد للأحفاد.

ومنها: تكرار المغانم إشعاراً بكثرتها وتنوّعها.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ لأنّ تولية الأدبار كناية عن الهزيمة لأنّ المنهزم يدبر ظهره لعدوّه للهرب.

ومنها: الالتفات من ضمير الغائب إلى الخطاب، في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ بعد قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وذلك لتشريف المؤمنين في مقام الامتنان.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾؛ لأنّ الوطأ عبارة عن الإهلاك والإبادة، على طريق ذكر الملزوم وإرادة اللازم؛ **لأنّ** الوطأ تحت الأقدام مستلزم للإهلاك.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾؛ لأنّ المعرّة والعرّ، حقيقة في الجرب الذي يعرّ البدن؛ أي: يعترضه. فاستعير للمضرّة على طريق الاستعارة التصريحية.

ومنها: البلاغات المعنوية في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الآية. قال الإمام الرازي: ففي هذه الآية لطائف معنوية: وهو أنّه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن، باين بين الفاعلين، إذ فاعل ﴿جَعَلَ﴾ هو الكافر، وفاعل ﴿أَنزَلَ﴾ هو الله تعالى، وبين المفعولين، إذ تلك حميّة وهذه سكينة، وبين الإضافتين أضاف الحميّة إلى الجاهلية، وأضاف السكينة إلى الله تعالى، وبين الفعل ﴿جَعَلَ﴾ و﴿أَنزَلَ﴾ فالحميّة مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى، والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها، والحميّة قبيحة مذمومة في نفسها، وازدادت قبحاً بالإضافة إلى الجاهلية، والسكينة حسنة في نفسها، وازدادت حسناً بإضافتها إلى الله تعالى، والعطف في ﴿فأنزل بـ ﴿الفاء﴾ لا بالواو: يدلّ على المقابلة، تقول: أكرمني زيد فأكرمته، فدلّت على المجازاة للمقابلة، ولذلك جعل ﴿فَأَنزَلَ﴾.

ولمّا كان الرسول ﷺ هو الذي أجاب أوّلاً إلى الصلح، وكان المؤمنون عازمين على القتال، وأن لا يرجعوا إلى أهلهم إلا بعد فتح مكة أو النحر في المنحر، وأبوا إلا أن يكتبوا: محمد رسول الله ﷺ، وباسم الله.. قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ ولمّا سكن هو ﷺ للصلح.. سكن المؤمنون، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولمّا كان المؤمنون عند الله تعالى.. ألزموا تلك الكلمة قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. وفيه تلخيص، وهو كلام حسن.

ومنها: أسلوب التكميل في قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، لأنّه لو اكتفى بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ لربّما أوهم الفظاظة والغلظة فيما بينهم، فكمّل بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ رفعاً لذلك الوهم، فيكون من أسلوب التكميل.

ومنها: تكرير ﴿مَثَلُهُمْ﴾ لتأكيد غرابته، وزيادة تقريرها.

ومنها: التشبيه التمثيليّ في قوله: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ الآية؛ لأنّ وجه الشبه منتزع من أمور متعدّدة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

خاتمة: قال في «فتح الرحمن»: وقد اجتمعت حروف الهجاء التسعة والعشرون في هذه الآية، وهي ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ إلى آخر السورة، أول حرف المعجم فيها ميم من محمد، وآخرها صاد من الصالحات، وتقدّم نظير ذلك في سورة آل عمران في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا...﴾ الآية، وليس في القرآن آية جمعت فيها حروف المعجم غيرهما، من دعا الله بهما.. استجيب له، وفي ذلك بشارة تلويحيّة مع ما فيها من البشائر التصريحية باجتماع أمرهم، وعلى نصرهم رضي الله عنهم وأحشرنا معهم نحن ووالدينا ومحبّينا، وجميع المسلمين بمنه وكرمه، وهذا آخر القسم الأول من القرآن، وهو المطوّل، وقد ختم كما ترى بسورتين هما في الحقيقة للنبيّ ﷺ.

وحاصلهما: الفتح بالسيف والنصر على من قاتله ظاهراً، كما ختم القسم الثاني المفصل بسورتين هما نصرة له ﷺ بالحال على من قصده بالضر باطناً. اهـ «خطيب».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ بشارة النبيّ ﷺ بالفتح، وإعزاز دين الله تعالى.

٢ ـ وعد المؤمنين، ووعيد الكافرين والمنافقين.

٣ ـ ذمّ المخلّفين من عرب أسلم وجهينة ومزينة وغفار.

٤ ـ رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، ووعده إياهم بالنصر في الدنيا، وبالجنة في الآخرة.

٥ ـ البشرى بتحقّق رؤيا رسول الله ﷺ أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، وقد تمّ لهم ذلك في العام المقبل.

٦ ـ وصف النبي ﷺ، والذين آمنوا معه بالرحمة والشدة.

٧ ـ وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة، والأجر العظيم[1].

والله أعلم

* * *

(١) وقد فرغت من تفسير هذه السورة الكريمة أوائل ليلة الأربعاء العاشر من شهر ربيع الأول من شهور ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة ١٠/ ٣/ ١٤١٥ هـ.

سورة الحجرات

سورة الحجرات مدنيّة، قال القرطبي: بالإجماع، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس وابن الزبير: أنها نزلت بالمدينة بعد سورة المجادلة، وهي ثماني عشرة آيةً، وثلاث مئة وثلاث وأربعون كلمةً، وألف وأربع مئة وستة وسبعون حرفاً، وكلها محكمة لا ناسخ ولا منسوخ فيها، كما قاله ابن حزم، وسمّيت بالحجرات؛ لذكر لفظ الحجرات فيها.

ومناسبتها لما قبلها من وجوه(١):

١ ـ ذكر في هذه قتال البغاة، وفي تلك قتال الكفار.

٢ ـ أنّ السابقة ختمت بالذين آمنوا، وافتتحت هذه بهم.

٣ ـ أنّ كلًّا منهما تضمّن تشريفاً وتكريماً للرسول ﷺ، ولا سيما في مطلعيهما.

قال أبو حيان(٢): مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة؛ لأنه ذكر رسول الله ﷺ وأصحابه، ثمّ قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فربما صدر من مؤمن عمل الصالحات بعض شيء ممّا ينبغي أن يجتنب عنه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وكانت عادة العرب وهي إلى الآن الاشتراك في الآراء، وأن يتكلم كل بما شاء، ويفعل ما أحبّ، فجرى من بعض من لم يتمرن على آداب الشريعة بعض ذلك، قال قتادة: فربّما قال قوم: ينبغي أن يكون كذا لو أنزل في كذا.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن
تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ
أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ
نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ
إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧
فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ
فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا
بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ
مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ
ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ
ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا
فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا
وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل
لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ
أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ
وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ
بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ
أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنه ذكرت سورة الفتح بعد سورة القتال؛ لأنّ الأولى كالمقدمة، والثانية كالنتيجة، وذكرت هذه بعد الفتح لأنّ الأمّة إذا جاهدت ثم فتح الله عليها، والنبي ﷺ بينها، واستتب الأمر.. وجب أن توضع القواعد التي تكون بين النبيّ ﷺ وأصحابه، وكيف يعاملونه، وكيف يعامل بعضهم بعضاً، فطلب إليهم أن لا يقطعوا أمراً دون أن يحكم الله ورسوله به، وأن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبيّ ﷺ، وأن لا يجهروا له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض، لما في ذلك من الاستخفاف الذي قد يؤدّي إلى الكفر المحبط للأعمال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا نهى عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ.. أردفه بذمّ الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، وهو في بيوت نسائه، كما يفعل أجلاف الأعراب، ثمّ أرشدهم إلى ما فيه الخير والمصلحة لهم في دينهم ودنياهم، وهو أن ينتظروا حتى يخرج إليهم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذمّ المنادين من وراء الحجرات.. أردفه بتأديب عباده المؤمنين بأدب نافع لهم في دينهم ودنياهم، وهو أنه إذا جاءهم الفاسق المجاهر بترك شعائر الدين بأيّ خبر.. لا يصدّقونه بادىء ذي بدءٍ، حتى يتثبّتوا ويتطلّبوا انكشاف الحقيقة، ولا يعتمدوا على قوله، فإنّ من لا يبالي بالفسق لا يبالي بالكذب الذي هو من فصيلته كراهة أن يصيبوا بأذى قوماً هم جاهلون حالهم، فتندموا على ما فرّط منكم، وتتمنّوا أنه لم يكن قد وقع.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا[2] حذر المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق.. بيَّن

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

هنا ما ربّما ترتب على خبره من النزاع بن فئتين، وقد يؤول الأمر إلى الاقتتال، فطلب من المؤمنين أن يزيلوا ما نتج من كلامه، وأن يصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى.. فقاتلوا التي تبغي حتى ترجع إلى الصلح بدفعها عن الظلم مباشرةً إن أمكن، أو باستعداء الحاكم عليها، وإن كان الباغي هو الحاكم.. فالواجب على المسلمين دفعه بالنصيحة فما فوقها، بشرط أن لا تثير فتنة أشد من الأولى، ثمّ تمم الإرشاد، وأبان أنَّ الصلح كما يلزم بين الفئتين يجب بين الأخوين، ثم أمرهم بتقوى الله، ووجوب اتباع حكمه، وعدم الإهمال فيه رجاء أن يرحمهم إذا هم أطاعوه ولم يخالفوا أمره.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى، ومع رسوله ﷺ، ومع من يخالفهما ويعصيهما، وهو الفاسق.. بيّن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن، فذكر أنه لا ينبغي أن يسخر منه، ولا أن يعيّبه بالهمز واللمز، ولا أن يلقبه باللقب الذي يتأذى منه، فبئس العمل هذا، ومن لم يتب بعد ارتكابه.. فقد أساء إلى نفسه، وارتكب جرماً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه أدّب عباده المؤمنين بآداب، إن تمسّكوا بها.. دامت المودّة والوئام بينهم، منها: ما تقدم قبل هذا، ومنها: ما ذكره هنا من الأمور العظام، التي تزيد توثيق رباط المجتمع الإسلامي قوّةً، وهي:

١ ـ البعد عن سوء الظن بالناس، وتخوينهم في كل ما يقولون ويفعلون؛ لأنّ بعض ذلك قد يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثير منه، وقد روي عن عمر رضي الله عنه: أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً.

٢ ـ عدم البحث عن عورات الناس ومعايبهم.

٣ ـ عدم ذكر بعضهم بعضا بما يكرهون في غيبتهم، وقد مثّل الشارع المغتاب بآكل لحم الميتة استفظاعاً له، قال قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة

ممدودة أن تأكل منها، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حيّ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا نهى فيما سلف عن السخرية بالناس، والازدراء بهم، وعن اللمز والتنابز بالألقاب.. ذكر هنا ما يؤكّد النهي، ويؤيّد ذلك المنع، فبين أنّ الناس جميعاً من أب واحد وأمّ واحدة، فكيف يسخر الأخ من أخيه، إلى أنه تعالى جعلهم شعوباً وقبائل مختلفة ليحصل بينهم التعارف والتعاون في مصالحهم المختلفة، ولا فضل لواحد على آخر إلاّ بالتقوى والصلاح وكمال النفس لا بالأمور الدنيويّة الزائلة.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا...﴾ إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا حثّ[1] الناس على التقوى.. وبّخ من في إيمانه ضعف من الأعراب الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم وغلة، لأنّهم كانوا يريدون المغانم، وعرض الدنيا إذ جاؤوا في سنة مجدبة، وكانوا يقولون لرسوله ﷺ: جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان؛ يريدون بذكر ذلك: الصدقة والمنّ على النبيّ ﷺ، فأطلع الله نبيّه ﷺ على مكنون ضمائرهم، وأنهم لم يؤمنوا إيماناً حقيقيًّا، وهو الذي وافق القلب فيه اللسان، وأمرهم أن يقولوا: استسلمنا وخضعنا.

ثمّ أخبرهم بأنهم إن اتقوا الله حقّ تقاته.. وفّاهم أجورهم كاملة غير منقوصة.

ثمّ بيّن أنّ من علامة الإيمان الكامل: التضحية بالنفس والمال في سبيل الله، ببذلهما في تقوية دعائم الدين، وإعلاء شأنه، وخضد شوكة العدوّ بكل السبل الممكنة.

ثمّ أعقب هذا: بأنّ الله يعلم ما هم عليه من إيمان ضعيف أو قويّ، إذ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأنه لا ينبغي للمؤمن أن يمتّن على

---

(١) المراغي.

الرسول بإيمانه، بل من حق الرسول أن يمتن عليه بأن وفق للهداية على يديه، إن كان صادق الإيمان.

ثم ختم الآيات بالإخبار عن واسع علمه، وإحاطته بمكنون سرّ خلقه في السموات والأرض، لا يعزب عنه مثقال ذرّة فيهما، وهو البصير بما يعمل عباده من خير أو شرّ.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآيتين، سبب نزولهما: ما أخرجه البخاري وغيره(١)، من طريق ابن جريج عن ابن أبي مليكة، أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر رضي الله عنه: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾.

وأخرج ابن المنذر عن الحسن: أنّ أناساً ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر، فأمرهم أن يعيدوا ذبحاً، فأنزل الله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾.

وأخرج ابن أبي الدنيا في «كتاب الأضاحي» بلفظ: ذبح رجل قبل الصلاة.. فنزلت.

وأخرج الطبراني في «الأوسط» عن عائشة: أنّ ناساً كانوا يتقدّمون الشهر، فيصومون قبل النبيّ ﷺ، فأنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟...﴾.

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أنّ ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا، فأنزل الله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾.

---

(١) لباب النقول.

وأخرج عنه قال: كانوا يجهرون له بالكلام، ويرفعون أصواتهم، فأنزل الله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ...﴾ الآية.

وأخرج أيضاً عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ... ٱلنَّبِىِّ﴾ قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، فمرّ به عاصم بن عديّ بن العجلان، فقال: ما يبكيك؟ قال: هذه الآية، أتخوّف أن تكون نزلت في، وأنا صيّت رفيع الصوت، فرفع عاصم ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا به، فقال: «أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟» قال: رضيت، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما: ما أخرجه الطبراني وأبو يعلى بسند حسن عن زيد بن أرقم، قال: جاء ناس من العرب إلى حجر رسول الله ﷺ، فجعلوا ينادون: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ...﴾ الآية. وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا محمد إنّ مدحي لزين، وإنّ شتمي لشين، فقال النبيّ ﷺ: «ذاك هو الله» فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ...﴾ الآية. مرسل له شواهد مرفوعة من حديث البراء، وغيره عند الترمذي بدون نزول الآية، وأخرج ابن جرير نحوه عن الحسن، وأخرج أحمد بسند صحيح عن الأقرع بن حابس: أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات فلم يجبه، فقال: يا محمد إنّ حمدي لزين، وإنّ ذمّي لشين، فقال: «ذلك الله». وقال قتادة: نزلت في وفد تميم، وكانوا سبعين رجلاً منهم: الزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب وقيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم، جاؤوا إلى النبيّ ﷺ للمفاخرة، فنادوا على الباب: اخرج إلينا يا محمد، فإنّ مدحنا لزين، وإنّ ذمّنا لشين، فخرج إليهم رسول الله ﷺ وهو يقول: «إنما ذلكم الله الذي مدحه زين، وذمّه شين» فقالوا: نحن ناس من تميم، جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال رسول الله ﷺ: «ما بالشعر بعثت، ولا بالفخار أمرت، ولكن هاتوا» فقام

شابٌ منهم، فذكر فضله وفضل قومه، فقال ﷺ لثابت بن قيس بن شمّاس، وكان خطيب النبيّ ﷺ: «قُمْ فأجبه» فأجابه، وقام الزبرقان بن بدر فقال.... إلى أن قال:

نَحْنُ ٱلْكِرَامُ فَلاَ حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... مِنَّا ٱلْمُلُوكُ وَفِيْنَا تُنْصَبُ ٱلبِيَعُ

فَلاَ تَرَانَا إِلَىٰ حَيٍّ يُفَاخِرُهُمْ ... إلاَّ ٱسْتَفَادُوْا فَكَانُوْا ٱلرَّأْسَ يُقْطَتَعُ

فَمَنْ يُفَاخِرُنَا فِيْ ذَاكَ نَعْرِفُهُ ... فَيَرْجِعُ ٱلْقَوْمُ وَٱلأَخْبَارُ تُسْتَمَعُ

فقال رسول الله ﷺ لحسّان بن ثابت: «أجبه» فقال:

إِنَّ ٱلذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ

يَرْضَىٰ بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيْرَتُهُ ... تَقْوَىٰ ٱلإِلَهِ وَكُلُّ ٱلْخَيْرِ يُصْطَنَعُ

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوْا عَدُوَّهُمُ ... أَوْ حَاوَلُوْا النَّفْعَ فِيْ أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوْا

سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ ... إِنَّ ٱلْخَلاَئِقَ فَٱعْلَمْ شَرُّهَا ٱلْبِدَعُ

في قصيدة طويلة.

فلمّا فرغ حسان من قوله.. قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا الرجل لمؤنّىٰ له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم دنا من رسول الله ﷺ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «ما يضرُّك ما كان من قبل هذا» ثم جوزهم فأحسن جوائزهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنّ هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان قد بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق ليأخذ الصدقات، فلمّا أتاهم الخبر.. فرحوا به، وخرجوا يستقبلونه، فلمّا حدث بذلك الوليد.. حسب أنهم جاؤوا لقتاله، فرجع قبل أن يدركوه، وأخبر رسول الله ﷺ أنهم منعوا الزكاة، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، وبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم، إذ أتاه الوفد، فقالوا: يا رسول الله إنّا حدثنا أن

رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أنه إنما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله عذرهم في الكتاب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ...﴾ الآية. أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه، وقال ابن كثير: وهذا من أحسن ما روي في سبب نزول هذه الآية.

وقال الرازي: هذه الرواية ضعيفة؛ لأنّ إطلاق لفظ الفاسق على الوليد بعيد؛ لأنّه توهم وظن فأخطأ، والمخطىء لا يسمى فاسقاً، كيف والفاسق في أكثر المواضع يراد به من خرج من ربقة الإيمان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك: أنّ النبيّ ﷺ ركب حماراً وانطلق إلى عبد الله بن أبيّ، فقال: إليك عنّي، فقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحماره أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فنزلت: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير عن أبي مالك قال: قال: تلاحى رجلان من المسلمين، فغضب قوم هذا لهذا، وهذا لهذا، فاقتتلوا بالأيدي والنعال، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ...﴾ الآية، روي: أنّ الآية نزلت في وفد تميم، إذ كانوا يستهزئون بفقراء أصحاب رسول الله ﷺ: كعمار وصهيب وبلال وخبّاب وابن فهيرة، وسلمان الفارسي وسالم مولى أبي حذيفة في آخرين غيرهم، لما رأوا من رثاثة حالهم، وروي: أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها أتت رسول الله ﷺ فقالت: إنّ النساء يقلن لي: يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها: «هلاّ قلت: أبي هارون وعمي موسى، وزوجي محمد ﷺ».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ...﴾ سبب نزوله: ما أخرجه أصحاب «السنن» الأربعة، عن أبي جبير بن الضحاك، قال: كان الرجل منّا يكون له الاسمان والثلاثة، فيدعى ببعضها، فعسى أن يكرهه، فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. قال الترمذي: حسن. وأخرج الحاكم وغيره من حديثه أيضاً قال: كانت الألقاب في الجاهلية، فدعا النبيّ ﷺ رجلاً منهم بلقبه، فقيل له: يا رسول الله، إنّه يكرهه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ...﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج قال: زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسيّ، أكل ثم رقد فنفخ، فذكر رجل أكله ورقاده، فنزلت.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه أبو داوود: أنّ هذه الآية نزلت في أبي هند، وكان حجّام النبيّ ﷺ، قال: إنّ رسول الله ﷺ أمر بني بياضة أنّ يزوّجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: نزوّج بناتنا موالينا، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ...﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة، قال: لمّا كان يوم الفتح.. رقى بلال على ظهر الكعبة فأذّن، فقال بعض الناس: أهذا العبد الأسود يؤذّن على ظهر الكعبة وقال بعضهم: إن يرد الله شيئاً يغيّره فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ...﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...﴾ سبب نزوله: ما أخرجه الطبراني بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى: أنّ ناساً من العرب قالوا: يا رسول الله، أسلمنا ولم نقاتلك، وقاتلك بنو فلان، فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...﴾ الآية، وأخرج البزّار من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله، وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: قدم عشرة نفر من بني أسد على رسول الله ﷺ في المسجد مع أصحابه، فسلّموا وقال متكلّمهم: يا رسول الله إنّا شهدنا أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله، ولم تبعث إلينا بعثا، ونحن لمن وراءنا سلم، فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ

أَن أَسْلَمُوا۟...﴾ الآية، وأخرج سعيد بن منصور في «سننه» عن سعيد بن جبير قال: أتى قوم من الأعراب من بني أسد النبيّ ﷺ، فقالوا: جئناك ولم نقاتلك، فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟...﴾ الآية، وقال مجاهد: نزلت في أعراب من بني أسد بن خزيمة، وكانوا يجاورون المدينة، قدموا على رسول الله ﷺ، وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا مؤمنين حقاً، وقال السدّي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح، أعراب مزينة وجهينة، وأسلم وغفار والديل، وأشجع، قالوا: آمنا، ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استنفروا إلى المدنية.. تخلّفوا.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: تصدير[1] الخطاب بالنداء؛ لتنبيه المخاطبين على أنّ ما في حيّزه أمر خطير، يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه، وفرط اهتمامهم بتلقّيه، ومراعاته ووصفهم بالإيمان؛ لتنشطيهم والإيذان بأنّه داع إلى المخاطبة، ورادع عن الإخلال به.

﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ أمرا من الأمور ﴿بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولا تقطعوه ولا تقولوه، ولا تعجلوا به، إلا بعد أن يحكما به، ويأذنا فيه، فتكونوا إمّا عاملين بالوحي المنزل، وإما مقتدين بالنبيّ المرسل؛ لأنَّ المعنى: لا تقدموا قبل أمرهما ونهيهما، ولفظ اليدين بمعنى الجهتين الكائنتين في سمت يدي الإنسان اليمين واليسار، وبين اليدين بمعنى: بين الجهتين، والجهة التي بينهما هي جهة الأمام والقدَّام، فقولك: جلست بين يديه، بمعنى: جلست أمامه، وبمكان يحاذي يديه قريباً منه، وإذا قيل: بين يدي الله.. امتنع أن يراد الجهة والمكان، فيكون استعارة تمثيلية، شبَّه ما وقع من بعض الصحابة من القطع في أمر من الأمور الدينية، قبل أن يحكم الله به ورسوله، بحال من يتقدم في المشي في الطريق مثلاً لوقاحته، على من يجب أن يتأخر عنه، ويقفو أثره تعظيماً له، فعبَّر عن الحالة

---

(١) روح البيان.

المشبَّهة بما يعبر به عن المشبه بها، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ بضم التاء وفتح القاف وكسر الدال المشددة، من قدّم المضاعف، فاحتمل أن يكون متعدّياً، وحذف مفعوله؛ ليتناول كل ما يقع في النفس مما تقدم: كالصوم والأضحية، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل، كقولهم: هو يعطي ويمنع، فلم يقصد لشيء معين، بل النهي متعلق بنفس الفعل دون تعرّض لمفعول معيّن، واحتمل أن يكون لازماً بمعنى: تقدم، نحو: وجَّه بمعنى: توجَّه، ويكون المحذوف مما يوصل إليه بحرف؛ أي: لا تتقدموا في شيء ما من الأشياء، ويعضد هذا الوجه قراءة ابن عباس وأبي حيوة والضحاك ويعقوب، وابن مقسم: ﴿لا تقدموا﴾ بفتح التاء والقاف والدال على اللزوم، وحذفت التاء تخفيفاً؛ إذ أصله: لا تتقدموا. وقرأ بعض المكيين: ﴿تقدّموا﴾ بشدّ التاء، أدغم تاء المضارعة في التاء بعدها: كقراءة البزي، وقرىء: ﴿لا تقدموا﴾ مضارع قدم بكسر الدال، من القدوم؛ أي: لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومها، ولا تعجلوا عليها، وقرىء: ﴿لا تقدموا﴾ بضم التاء وكسر الدال، من أقدم الرباعي؛ أي: لا تقدموا على شيء، وقال مجاهد: لا تفتئتوا على الله شيئاً حتى يقصه الله على لسان رسوله ﷺ، وفي هذا النهي توطئة لما يأتي بعد من نهيهم عن رفع أصواتهم.

فائدة: ذكر في هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خمس مرات، والمخاطبون فيها المؤمنون، والمخاطب به أمر أو نهي، وذكر فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مرةً، والمخاطبون فيها يعمّ المؤمنين والكافرين، كما أنّ المخاطب به وهو قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يعمهما. فناسب فيها ذكر الناس. انتهى. «فتح الرحمن».

ولمّا نهى من التقدّم.. أمر بالتقوى؛ لأنّ من التقوى اجتناب المنهي عنه، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوا الله، وراقبوه في كل ما تأتون وما تذرون من

---

(١) البحر المحيط.

الأقوال والأفعال، ثمّ علل ما أمر به من التقوى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، فمن حقّه: أن يُتقى ويُراقب.

ويجوز[١] أن يكون معنى ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾: لا تفعلوا التقديم بالكلية على أنّ الفعل لم يقصد تعلّقه بمفعوله، وإن كان متعدياً. قال المولى أبو السعود: وهو أوفى بحق المقام؛ لإفادة النهي عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكليّة، المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهانيّ، وقد جوَّز أن يكون التقديم لازماً، بمعنى: التقدم، ومنه: مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة منهم، ومنه: وجه بمعنى: توجه. كما مرّ آنفاً.

وقال مجاهد والحسن[٢]: نزلت الآية في النهي عن الذبح يوم الأضحى قبل الصلاة، كأنه قيل: لا تذبحوا قبل أن يذبح النبيّ ﷺ، وعن عائشة: أنها نزلت في النهي عن صوم يوم الشك، فكأنه قيل: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيّكم، وقال قتادة: إنّ ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا، أو صنع في كذا، ولو نزل كذا وكذا في معنى كذا، ولو فعل الله كذا، وينبغي أن يكون كذا، فكره الله ذلك، فنزلت، وعن الحسن: لمَّا استقر رسول الله ﷺ بالمدينة.. أتته الوفود من الآفاق، فأكثروا عليه بالمسائل، فنهوا عن أن يبتدئوا بالمسألة حتى يكون هو المبتدىء.

والظاهر: أنّ الآية عامة في كل قول وفعل، ولذا حذف مفعول ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾؛ ليذهب ذهن السامع كل مذهب، مما يمكن تقديمه من قول أو فعل، مثلاً إذا جرت مسألة في مجلسه ﷺ.. لا تسبقوه بالجواب، وإذا حضر الطعام.. لا تبدؤوا بالأكل قبله، وإذا ذهبتم إلى موضع.. لا تمشوا أمامه إلا لمصلحة دعت إليه، ونحو ذلك مما يمكن فيه التقديم.

قيل: لا يجوز تقدّم الأصاغر على الأكابر، إلا في ثلاثة مواضع: إذا ساروا ليلاً أو رأوا خيلاً؛ أي: جيشاً، أو دخلوا سيلاً، أي: ماء سائلاً، وكان

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

في الزمان الأول، إذا مشى الشابّ أمام الشيخ.. يخسف الله به الأرض، ويدخل في النهي المشي بين يدي العلماء، فإنهم ورثة الأنبياء، دليله ما روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: رآني رسول الله ﷺ أمشي أمام أبي بكر رضي الله عنه فقال: «تمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة، ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين خير أو أفضل من أبي بكر الصديق». كما في «كشف الأسرار».

وأكثر هذه[1] الروايات يشعر بأنّ المراد من الآية: بين يدي رسول الله ﷺ، وذكر الله لتعظيمه والإيذان بجلالة قدره عنده، حيث ذكر اسمه تعالى توطئةً وتمهيداً لذكر اسمه ﷺ؛ ليدل على قوّة اختصاصه ﷺ بربّ العزة، وقرب منزلته من حضرته تعالى، فإنّ إيقاع ذكره تعالى موقع ذكره ﷺ بطريق العطف تفسيراً للمراد، يدلّ عليها لا محالة، كما يقال: أعجبني زيد وكرمه، في موضع أن يقال: أعجبني كرم زيد؛ للدلالة على قوّة اختصاص الكرم به. والله أعلم.

ومعنى الآية[2]: أي يا أيها المؤمنون، لا تعجلوا بالقضاء في أمر قبل أن يقضي الله ورسوله لكم فيه، إذ ربّما تقضون بغير قضائهما، وراقبوا الله أن تقولوا ما لم يأذن لكم الله ورسوله به، إنّ الله سميع لما تقولون، عليم بما تريدون بقولكم إذا قلتم، لا يخفى عليه شيء من ضمائر صدوركم.

وبنحو هذا أجاب معاذ بن جبل رضي الله عنه رسول الله ﷺ، حين بعثه إلى اليمن، قال له: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله تعالى، قال ﷺ: «فإن لم تجد» قال: بسنّة رسوله، قال ﷺ: «فإن لم تجد» قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفّق رسول رسوله، لما يرضي رسوله». رواه أحمد وأبو داود والترمذي، فتراه قد أخّر رأيه واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدّمه.. لكان من المتقدّمين بين يدي الله ورسوله.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والخلاصة[1]: أنّه طلب إليهم أن ينقادوا لأوامر الله ونواهيه، ولا يعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول الرسول أو يفعل، ولا يذبحوا يوم عيد الأضحى قبل أن يذبح، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهي عنه.

والحاصل: أنّ الله سبحانه قد أدّب المؤمنين إذا قابلوا الرسول بأدبين:

أحدهما: فعل.

وثانيهما: قول.

وأشار إلى أوّلهما بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وأشار إلى ثانيهما بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ إذا نطقتم، وتحدّثتم مع النبي ﷺ ﴿فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ ﷺ إذا نطق، وتكلّم معكم؛ أي: إذا نطق ونطقتم في المحادثة معه.. فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم حدًّا يبلغه صوته، بل يكون كلامكم دون كلامه؛ ليتميز منطقه عن منطقكم بكونه عالياً رفيعاً على منطقكم.

والمعنى[2]: لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدّ يبلغه ﷺ بصوته، والصوت: هو الهواء المنضغط عن قرع جسمين، كما سيأتي البسط فيه إن شاء الله تعالى، وقال في «المفردات»: تخصيص الصوت بالنهي؛ لكونه أعم من النطق والكلام، ويحتمل أنّه خصّه لأنّ المكروه رفع الصوت لا رفع الكلام.

وكرر النداء[3]؛ ليعلم أنّ كلّ واحد من الكلامين مقصود ليس الثاني منهما تأكيداً للأول، كقولك: يا زيد، لا تنطق ولا تتكلّم إلا بالحق، فإنه لا يحسن أن تقول: يا زيد لا تنطق، يا زيد لا تتكلّم، كما يحسن عند اختلاف المطلوبين. كما في «الخطيب».

﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ﴾ ﷺ؛ أي: لا تنادوه ﴿بِٱلْقَوْلِ﴾ والكلام إذا كلّمتوه وهو

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الخطيب.

صامت، جهراً كائناً ﴿كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ﴾ ورفعه صوته عند مكالمته ﴿لِبَعۡضٍ﴾ آخر منكم؛ أي[1]: لا تجهروا، ولا ترفعوا صوتكم عند مكالمته وهو صامت جهراً، كالجهر الجاري فيما بينكم في عدم المبالاة، وقلة الاحترام، بل اجعلوا صوتكم أخفض، وتعهدوا في مخاطبته اللين القريب من الهمس والسر، كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظَّم، وحافظوا على مراعاة جلالة النبوّة، فنهوا عن جهر مخصوص مقيد: وهو الجهر المماثل لجهر اعتادهوه فيما بينهم، لا عن الجهر مطلقاً، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلّموه بالهمس والمخافتة.

والمفهوم من «الكشاف» في الفرق بين النهي عن رفع الصوت، والنهي عن الجهر له: أنّ معنى النهي الأول: أنه ﷺ إذا نطق ونطقتم.. فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم فوق الحد الذي يبلغ إليه صوته ﷺ، وأن تغضوا من أصواتكم، بحيث يكون صوته عالياً على أصواتكم، ومعنى الثاني: أنكم إذا كلمتوه وهو ﷺ ساكت.. فلا تبلغوا بالجهر في القول الجهر الدائر بينكم، بل ليِّنوا القول ليناً يقارب الهمس الذي يضادّ الجهر.

وفي «الشهاب على البيضاوي»[2]: لمَّا رأى أنّ تخصيص الأول بمكالمته معهم، والثاني بسكوته خلاف الظاهر؛ لأنّ الأول نهي عن أن يكون جهرهم أقوى من جهره، كما هو صريح قوله: ﴿فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ وهذا نهي عن مساواة جهرهم لجهره.. عدل عنه، فحمل الأول على النهي عن زيادة صوتهم على صوته، والثاني على مساواة صوتهم لصوته، فحصل التغاير بين النهيين بهذا الاعتبار أيضاً. اهـ من «الشهاب».

وقيل المعنى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾؛ أي: لا تدعوه، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته ﴿كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾؛ أي: كدعاء بعضكم لبعض باسمه، ولكن عظّموه ووقروه وشرّفوه، وقولوا له: يا نبيّ الله، ويا رسول الله، ويا أبا القاسم.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشهاب.

وقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ تنازع[1] فيه ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ﴾ ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ﴾ فيكون مفعولاً لأجله للثاني عند البصريين، وللأول عند الكوفيين، والأول أصح؛ لأنّ إعمال الأول يستلزم الإضمار في الثاني، وهو[2]: إما علّة للنهي على طريق التنازع، فكأنه قيل: انتهوا عمّا نهيتم عنه لخشية حبوط أعمالكم أو كراهته، كما في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ فحذف المضاف ولام التعليل، وإمّا علة للفعل المنهي عنه، كأنه قيل: انتهوا عن الفعل الذي تفعلونه لأجل حبوط أعمالكم، فاللام فيه، لام العاقبة، فإنهم لم يقصدوا بما فعلوه من رفع الصوت والجهر حبوط أعمالهم، إلا أنه لمّا كان بحيث قد يؤدي إلى الكفر المحبط.. جعل كأنّه فعل لأجله، فأدخل عليه لام العلّة تشبيهاً لمؤدىٰ الفعل بالعلة الغائية، وليس المراد بما نهي عنه من الرفع والجهر: ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة بشأنه ﷺ، وعدم المبالاة به، فإنّ ذلك كفر، وكذا ليس المراد: ما يقع من الرفع والجهر في حرب أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدوٍ أو نحو ذلك، فإنّه لا بأس به، إذ لا يتأذى به النبي ﷺ، فلا يتناوله النهي، ففي الحديث: أنّه ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب، لمّا انهزم الناس يوم حنين: «اصرخ بالناس»، وكان العباس أجهر الناس صوتاً، وروي: أنَّ غارة أتتهم يوماً؛ أي: في المدينة، فصاح العباس: يا صباحاه، فأسقط الحوامل لشدّة صوته، وكان يسمع صوته من ثمانية أميال.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ حال من فاعل ﴿تَحْبَطَ﴾؛ أي: والحال أنكم لا تشعرون بحبوطها، ولا تعلمونه، وفيه تحذير شديد، ووعيد عظيم، قال الزجّاج: وليس المراد: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: يوجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم، قال أبو حيان: قوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ إن كانت[3] الآية معرّضة بمن يجهر استخفافاً.. فذلك كفر يحبط معه العمل حقيقةً، وإن

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

كانت للمؤمن الذي فعل ذلك غفلةً، وجرياً على عادته.. فإنّما يحبط عمله البرّ في توقير النبيّ ﷺ، وغضّ الصوت عنه أن لو فعل ذلك كأنه قال: مخافة أن تحبط الأعمال التي هي معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها.

وقرأ عبد الله وزيد بن عليّ: ﴿فتحبط﴾ بالفاء، وهو مسبب عما قبله.

وفي «فتح الرحمن»: فإن قلت:[1] كيف قال ذلك مع أنّ الأعمال إنّما تحبط بالكفر، ورفع الصوت على صوت النبيّ ليس بكفر؟.

قلت: المراد به: الاستخفاف بالنبيّ ﷺ؛ لأنّه ربّما يؤدّي إلى الكفر، وقيل: حبوط العمل هنا مجاز عن نقصان المنزلة، وانحطاط الرتبة. اهـ.

ومعنى الآية[2]: إذا نطق ونطقتم.. فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته، ولا تبلغوا به وراء الحدّ الذي يبلغه؛ لأنّ ذلك يدل على قلة الاحتشام، وترك الاحترام، وإذا كلّمتوه وهو صامت.. فإيّاكم أن تبلغوا به الجهر الذي يدور بينكم، أو أن تقولوا: يا محمد، يا أحمد، بل خاطبوه بالنبوّة مع الإجلال والتعظيم، خشية أن يؤدّي ذلك إلى الاستخفاف بالمخاطب، فتكفروا من حيث لا تشعرون.

قال البقلي في «العرائس»: أعلمنا الله سبحانه بهذا التأديب، أنّ خاطر حبيبه من كمال لطافته، ومراقبة جمال ملكوته، كان يتغير من الأصوات الجهرية، وذلك من غاية شغله بالله، وجمع همومه بين يدي الله، فكان إذا جهر أحد عنده.. يتأذى قلبه، ويضيق صدره من ذلك، كأنه يتقاعد سرّه لحظةً عن السير في ميادين الأزل، فخوَّفهم الله من ذلك، فإنَّ تشويش خاطره ﷺ سبب بطلان الأعمال.

يقول الفقير: ولكمال لطافته ﷺ، كان الموت عليه أشدَّ، إذ اللطيف يتأثر مما لا يتأثر به الكثيف، كما قال بعضهم: قد شاهدنا أقواماً من عرب البوادي، يسلخ الحكام جميع جلد أحدهم ولا يظهر ضجراً، ولو سلخ أكبر الأولياء...

---

(١) فتح الرحمن. (٢) المراغي.

لصاح، إلا أن يؤخذ عقله بمشاهدة تمنع إحساسه. اهـ.

وقد كره[1] بعض العلماء رفع الصوت عند قبره ﷺ، وكذا القرب منه عليه السلام في المواجهة عند السلام، بحيث كان بينه وبينه ﷺ أقلَّ من أربعة أذرع، وكره بعضهم رفع الصوت في مجالس الفقهاء؛ تشريفاً لهم، إذ هم ورثة الأنبياء، قال سليمان بن حرب: ضحك إنسان عند حمّاد بن زيد، وهو يحدث بحديث عن رسول الله ﷺ، فغضب حمّاد، وقال: إنّي أرى رفع الصوت عند حديث رسول الله ﷺ وهو ميت، كرفع الصوت عنده وهو حيّ، وقام وامتنع من الحديث ذلك اليوم.

ثم رغب سبحانه في امتثال ما أمر به، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ﴾؛ أي: يخفضون ﴿أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ؛ مراعاةً للأدب، وخشية من مخالفة النهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، خبره: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿قُلُوبَهُمۡ﴾؛ أي: شرح قلوبهم، ووسعها ﴿للتقوى﴾ وصفّاها، وأخلصها للتقوى، والجملة الابتدائية. خبر ﴿إِنَّ﴾. وعن عمر رضي الله عنه: أذهب عنها الشهوات؛ أي: نزع عنها محبّة الشهوات، وصفَّاها عن دنس سوء الأخلاق، وحلاَّها بمكارمها، حتى انسلخوا عن عادات البشرية. ﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿مَّغۡفِرَةٌ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ التنكير للتعظيم؛ أي: ثابت لهم غفران، وأجر عظيم لا يقادر قدره لغضّهم، وسائر طاعاتهم، فهو استئناف لبيان جزاء الغاضين مدحاً لحالهم، وتعريضاً بسوء حال من ليس مثلهم، أو خبر ثان لـ ﴿إِنَّ﴾.

وروى أحمد في «الزهد» عن مجاهد قال: كتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية، ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية، ولا يعمل بها؟. فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم.

---

(١) روح البيان.

والتقوى: هي امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، وقال بعضهم: التقوى: كل عمل يقيك من النار، وإذا وقاك من النار.. وقاك من الحجاب، وإذا وقاك من الحجاب.. شاهدت العزيز الوهّاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ ويدعونك يا محمد ﴿مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾؛ أي[1]: من خارج حجرات نسائك من خلفها أو قدّامها؛ لأنّ وراء الحجرة عبارة عن الجهة التي يواريها شخص الحجرة بجهتها من أيّ ناحية كانت من نواحيها، ولا بدّ أن تكون تلك الجهة خارج الحجرة؛ لأنّ ما في داخلها لا يتوارى عمن فيها بجثة الحجرة، فاشتراك الوراء في تينك الجهتين معنوي لا لفظي، لكن جعله الجوهري وغيره من الأضداد، فيكون اشتراكه لفظيًا، و﴿مِن﴾: ابتدائية دالة على أن المناداة نشأت من جهة الوراء، وأنَّ المنادى داخل الحجرة؛ لوجوب اختلاف المبدأ والمنتهى بحسب الجهة، ولو جرِّد الكلام عن حرف الابتداء.. جاز أن يكون المنادىٰ أيضاً في الخارج؛ لانتفاء مقتضى اختلافهما بالجهة.

والمراد: حجرات أمّهات المؤمنين، وكانت لكل واحد منهنّ حجرة، فتكون تسعاً عددهنّ.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ بضم الجيم إتباعاً للضمّة قبلها، وقرأ أبو جعفر وشيبة: بفتحها، وابن أبي عبلة: بإسكانها ثلاثتها جمع حجرة: كغرفات جمع غرفة، وظلمات جمع ظلمة، وقبضات جمع قبضة بمعنى محجورة كقبضة بمعنى مقبوضة، وهي الموضع الذي يحجره الإنسان لنفسه بحائط ونحوه، ويمنع غيره من أن يشاركه فيه من الحجر، وهو المنع، وقيل للعقل: حجر لكون الإنسان في منع منه ممّا تدعو إليه نفسه.

ومناداتهم من ورائها: إما بأنّهم أتوها حجرة حجرة، فنادوه عليه السلام من ورائها، أو بأنهم تفرّقوا على الحجرات متطلّبين له ﷺ، لأنّهم لم يتحقّقوا مكانه،

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

فناداه بعض من وراء هذه، وبعض من وراء تلك، فأسند فعل الأبعاض إلى الكل مجازاً.

﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ أي: كلهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لا يفقهون أمر الله وتوحيده، ولا حرمة رسوله ﷺ؛ لغلبة الجهل عليهم، وكثرة الجفاء في طباعهم، قال في «بحر العلوم»: في قوله: ﴿أكثر﴾ دلالة على أنّه كان فيهم من قصد بالمحاشاة، وعلى قلة العقلاء فيهم قصداً إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل، إذ القلة تجري مجرى النفي في كلامهم، فيكون المعنى: كلهم لا يعقلون، إذ لو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب، بل تأدَّبوا معه بأن يجلسوا على بابه، حتى يخرج إليهم، كما قال تعالى آنفاً: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾، الصبر: حبس النفس عن شهواتها. و﴿لو﴾[1] مختص بالفعل على ما ذهب إليه المبرّد والزجاج والكوفيون، فما بعد ﴿لو﴾ مرفوع على الفاعلية، لا على الابتداء على ما قاله سيبويه.

والمعنى: ولو تحقق صبرهم وانتظارهم ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ و﴿حَتَّىٰ﴾ تفيد أنّ الصبر ينبغي أن يكون مغيّاً بخروجه ﷺ، فإنها مختصّة بما هو غاية للشيء في نفسه، ولذلك تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولا تقول: حتى نصفها وثلثها، بخلاف إلى فإنها عامّة، وفي قوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إشعار بأنّه لو خرج لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم. ﴿لَكَانَ﴾؛ أي: الصبر المذكور ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من الاستعجال لما فيه من رعاية حسن الأدب مع الرسول ﷺ.

والمعنى: أنهم لو انتظروا خروجك، ولم يعجلوا بالمناداة.. لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم، لما في ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ، ورعاية جنابه الشريف، والعمل بما يستحقه من التعظيم والتبجيل، الموجبين للثواب والثناء، والإسعاف بالمسؤول، وقيل: إنّهم جاؤوا شفعاء في أسارى، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى نصفهم، ولو صبروا.. لأعتق الجميع.

---

(١) روح البيان.

فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ النبيّ ﷺ بعث سريّة إلى قوم من بني عنبر جماعة من خزاعة، وأمّر عليهم عيينة بن حصن الفزاريّ، فسار إليهم، فلمّا بلغهم أنه خرج إليهم.. فرّوا وهربوا، وتركوا عيالهم وأموالهم، فسبىٰ ذراريَّهم، وجاء بهم إلى النبيّ ﷺ، فجاء بعد ذلك رجالهم ليفادوا ذراريهم، فدخلوا المدينة عند القيلولة، ووافقوا النبي ﷺ قائلاً عند أهله، فلمّا رأتهم الذراريّ.. أجهشوا يبكون، فنادوا النبيّ ﷺ: يا محمد أخرج إلينا، حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد فادنا عيالنا، فنزل جبريل عليه السلام فقال: إنّ الله تعالى يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أترضون أن يكون بيني وبينكم شبرمة بن عمرو، وهو على دينكم» فقالوا: نعم. فقال شبرمة: أنا لا أحكم بينهم وعمي شاهد، وهو أعور بن بسَّامة بن ضرار، فرضوا بالأعور، فقال الأعور: فأنا أرى أن تفادي نصفهم، وتعتق نصفهم، فقال رسول الله ﷺ: «قد رضيت» ففادى نصفهم وأعتق نصفهم، ولو صبروا.. لأعتق جميعهم بغير فداء، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: بليغ المغفرة والرحمة واسعهما، فلن تضيق ساحته عن هؤلاء المسيئين للأدب إن تابوا وأصلحوا.

ومعنى الآية(١): أي ولو أنَّ هؤلاء الذين ينادونك من وراء الحجرات صبروا، ولم ينادوك حتى تخرج إليهم.. لكان خيراً لهم عند الله تعالى؛ لأنّه قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك، والله ذو عفو عمّن ناداك من وراء الحجاب، إن هو تاب من معصيته بندائك كذلك، وراجع أمر الله في ذلك وفي غيره، رحيم به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد توبته منه.

والخلاصة(٢): أنّ الله تعالى هجَّن الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدراً لينبه إلى فظاعة ما جسروا عليه؛ لأنَّ من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول، يكون صنيع مثل هؤلاء معه من

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

المنكر الذي يبلغ من التفاحش مبلغاً لا يقدر قدره.

تنبيه[1]: وفي هذا المقام أمور:

الأول: أنّ في هذه الآية تنبيهاً على قدره ﷺ، والتأدب معه بكل حال، فهم إنّما نادوه لعدم عقل يعرفون به قدره، ولو عرفوا قدره.. لكانوا كما في الخبر يقرعون بابه بالأظافير، وفي المناداة إشارة إلى أنهم رأوه من وراء الحجاب، ولو كانوا من أهل الحضور والشهود.. لما نادوه.

قال أبو عثمان المغربي رحمه الله تعالى: الأدب عند الأكابر، وفي مجلس السادات من العلماء والأولياء، يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى، والخير في الأولى والعقبى، فكما لا بد من التأدّب معه ﷺ، فكذا مع من استنّ بسنته: كالعلماء العاملين، وكان جماعة من العلماء يجلسون على باب غيرهم، ولا يدقّون عليه بابه حتى يخرج لقضاء حاجته احتراماً، قال أبو عبيدة القاسم بن سلاّم: ما دققت الباب على عالم قط، كنت أصبر حتى يخرج إليّ، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ﴾ الآية.

قال بعضهم: من الحكمة توقير الكبير، ورحمة الصغير، ومخاطبة الناس باللّين. وقال: إن كان خليلك فوقك.. فاصحبه بالحرمة، وإن كان كفأك ونظيرك.. فاصحبه بالوفاء، وإن كان دونك.. فاصحبه بالمرحمة، وإن كان عالماً.. فاصحبه بالخدمة والتعظيم، وإن كان جاهلاً.. فاصحبه بالسياسة، وإن كان غنيّاً.. فاصحبه بالزهد، وإن كان فقيراً.. فاصحبه بالجود، وقال بعض الحكماء: عاشروا الناس معاشرة، إن متّم.. بكوا عليكم، وإن رغبتم.. حنّوا إليكم.

والثاني: ذم الجهل، ومدح العقل والعلم، فإن شرف العقل مدرك بضرورة العقل والعلم والحس، حتى إنّ أكبر الحيوانات شخصاً، وأقواها بدناً، إذا رأى الإنسان.. احتشمه وخاف منه؛ لإحساسه بأنّه مستول عليه بحيلته، قال بعضهم:

---

(١) روح البيان.

العاقل كلامه وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم به.. أمَّره على قلبه، فينظر فيه، فإن كان له؛ أي: لنفعه.. أمضاه، وإن كان عليه؛ أي: لضرّه.. أمسكه، والأحمق كلامه على طرف لسانه، وعقله في حجره إذا قام سقط، قال عليّ كرم الله وجهه: لسان العاقل في قلبه، وقلب الأحمق في فمه، والأدب صورة العقل، ولا شرف مع سوء الأدب، ولا داء أعيا من الجهل، وإذا تم العقل.. نقص الكلام.

والثالث: ما قاله بعضهم: تدبر سر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ﴾ ولا تنظر إلى سبب النزول، وانتظر خروجه مرةً ثانية لقيام الساعة لفتح باب الشفاعة، وقد ثبت أنّ الناس يلتجئون يوم القيامة إلى الأنبياء، ثمَّ، وثمَّ إلى أن يصلوا إليه ﷺ، فلا يصلون إلى المراد إلا عنده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿إِن جَاءَكُمْ﴾ وأتاكم ﴿فَاسِقٌ﴾ أيَّ فاسقٍ كان ﴿بِنَبَإٍ﴾ وخبر أيَّ نبأ كان، والنبأ: الخبر الخطير، والتنكير[1] في الموضعين للتعميم، وفيه إيذان بالاحتراز عن كل فاسق، وإنما قال: ﴿إِن جَاءَكُمْ﴾ بحرف الشك دون إذا؛ ليدل على أنّ المؤمنين ينبغي أن يكونوا على هذه الصفة، لئلا يطمع فاسق في مكالمتهم بكذب، وقال ابن الشيخ: إخراج الكلام بلفظ الشرط المحتمل الوقوع؛ لندرة مثله فيما بين أصحابه ﷺ؛ أي: إن جاءكم فاسق بخبر يعظم وقعه في القلوب.. ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾؛ أي: فتعرّفوا وتفّحصوا، حتى يتبين لكم ما جاء به، أصدق هو أم كذب، ولا تعتمدوا على قوله المجرّد؛ لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق.. لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه.

قرأ الجمهور[2]: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ من التبين، وقرأ حمزة والكسائيّ: ﴿فتثبتوا﴾ من التثبت، والمراد من التبيّن: التعرف والتفحص، ومن التثبت: الأناة وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع، والخبر الوارد، حتى يتّضح ويظهر.

قال المفسرون: كما مر إنّ هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، أخي عثمان رضي الله عنه لأمه، وهو الذي ولاّه عثمان الكوفة بعد سعد بن

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

أبي وقّاص، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً، ثم قال: هل أزيدكم؟ فعزله عثمان عنهم، بعثه ﷺ مصدقاً إلى بني المصطلق، إلى آخر ما سبق في أسباب النزول.

وقوله: ﴿أَن تُصِيبُوا﴾ مفعول لأجله على تقدير مضاف؛ أي: حذار أن تصيبوا ﴿قَوْمًا﴾ بريئين بقتل وأسر وجرح، حال كونكم متلبسين ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ بحالهم، وكنه قصتهم؛ لأنَّ الخطأ ممن لم يتبين الأمر، ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة؛ لأنّه لم يصدر عن علم. ﴿فَتُصْبِحُوا﴾؛ أي: فتصيروا بعد ظهور براءتهم مما أسند إليهم ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ في حقهم ﴿نَادِمِينَ﴾؛ أي: مهتمين به مغتمّين له غمًّا لازماً، متمنّين أنه لم يقع، فإنّ تركيب[1] هذه الأحرف الثلاثة: ن د م، يدور مع الدوام، مثل: أدمت الأمر: إذا أدامه، ومدن المكان: إذا أقام به، ومنه المدينة؛ يعني: أنَّ الندم غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام على ما وقع، مع تمني أنه لم يقع، ولزومه قد يكون لقوته من أول الأمر، وقد يكون لعدم غيبة موجبه وسببه عن الخاطر، وقد يكون لكثرة تذكره، ولغير ذلك من الأسباب.

وفي الآية[2]: دلالة على أنَّ الجاهل لا بد أن يصير نادماً على ما فعله بعد زمان، وفي ترتيب الأمر بالتبين على فسق المخبر: إشارة إلى قبول خبر الواحد العدل في بعض المواد، وفي الآية أيضاً إشارة إلى ترك الاستماع إلى كلام الساعي والنمام، والمغتاب للناس، فلا بدّ من التبين والتفحص؛ لتظهر حقيقة الحال، ويسلم المرء من الوبال، ويفتضح الكذاب الدجال، وفي الحديث: «التبيُّن من الله، والعجلة من الشيطان».

ومعنى الآية: أي[3] يا أيها الذين آمنوا، إن جاءكم الفاسق بأيّ نبأ، فتوقّفوا فيه، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا على قوله، فإنّ

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

من لا يبالي بالفسق.. فهو أجدر بأن لا يبالي بالكذب ولا يتحاماه، خشية إصابتكم بالأذى قوماً أنتم جاهلون حالهم، فتندموا على ما فرط منكم، وتتمنّوا أن لو لم تكونوا فعلتم ذلك.

ثم وعظهم سبحانه بعظة هم أحرى الناس باتباعها، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيّها المؤمنون، وفائدة الأمر الدلالة على أنهم نزّلوا منزلة الجاهلين، لمكانه ﷺ؛ لتفريطهم فيما يجب عليهم من تعظيم شأنه، وجملة ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾: سادّة مسدّ مفعولي ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾؛ أي: واعلموا أنّ فيكم رسول الله، وهو مرشد لكم، فارجعوا إليه، واعتمدوا عليه، فلا تقولوا قولاً باطلاً، ولا تتسرّعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبيّن، وجملة ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾؛ أي: لوقعتم في العنت والفساد والهلاك، في محل نصب على الحال من ضمير ﴿فِيكُمۡ﴾؛ أي: كائنين[1] على حالة.. إلخ. وهي أنكم تريدون أن يتبع الرسول ﷺ رأيكم في كثير من الحوادث، ولو فعل ذلك.. لوقعتم في الجهد والهلاك، فعلى هذا يكون قوله: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ إلخ. دليل وجوب تغيير تلك الحال أقيم مقام الحال، وفيه إيذان بأنّ بعضهم زيّنوا لرسول الله الإيقاع ببني المصطلق، تصديقاً لقول الوليد، وأنه ﷺ لم يطع رأيهم، أو مستأنفة.

والمعنى: لو يطيعكم في كثير مما تخبرونه من الأخبار الباطلة، وتشيرون به عليه من الآراء التي ليست بصواب.. لوقعتم في العنت، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه، وقد يوافق الناس، ويفعل بمقتضى مصلحتهم؛ تحقيقاً لفائدة قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾.

وصيغة المضارع في قوله: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾: للدلالة على أنّ امتناع عنتهم لامتناع استمرار طاعته ﷺ لأن عنتهم، إنما يلزم من استمرار الطاعة فيما يعنُّ لهم

---

(١) روح البيان.

من الأمور، إذ فيه اختلال أمر الرياسة، وانقلاب الرئيس مرؤساً، لا من إطاعته في بعض ما يرونه نادراً، بل فيها استمالتهم بلا معرةٍ؛ يعني: أنّ امتناع عنتكم بسبب امتناع استمراره على إطاعتكم، فإنّ المضارع يفيد الاستمرار، ودخول ﴿لو﴾ عليه، يفيد امتناع الاستمرار.

والمعنى[1]: أي واعلموا أيّها المؤمنون، أن بين أظهركم رسول الله، فعظّموه ووقّروه، وتأدّبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، ثم بين أن رأيه أنفع لهم، وأجدر بالرعاية، فقال: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ إلخ؛ أي: لو سارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر، وأجاب ما أشرتم به عليه من الآراء.. لوقعتم في الجهد والإثم، ولكنّه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه، عن أبي سعيد الخدري: أنّه قرأ هذه الآية، وقال: هذا نبيُّكم يوحى إليه، وخيار أئمتكم، لو أطاعهم في كثير من الأمر.. لعنتوا، فكيف بكم اليوم؟! أخرجه الترمذي.

ثمّ استدرك على ما سلف لبيان براءة بعضهم من أوصاف الأولين، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ أي: جعل الإيمان أحبّ الأشياء إليكم، أو جعله محبوباً لديكم، فلا يقع منكم إلا ما يوافقه، ويقتضيه من الأمور الصالحة، وترك التسرّع في الأخبار، وعدم التثبت فيها.

وقيل: هذا تجريد للخطاب[2] وتوجيه له إلى بعضهم بطريق الاستدراك، بياناً لبراءتهم من أوصاف الأولين، وإحماداً لأفعالهم، وهم الكاملون الذين لا يعتمدون على كل ما سمعوه من الأخبار؛ أي: ولكن جمعاً منكم براء مما أنتم عليه من تصديق الكاذب، وتزيين الإيقاع بالبريء، وإرادة أن يتبع الحق أهواءهم؛ لأنّ الله تعالى جعل الإيمان أحبَّ الأشياء إليهم، فلا يقع منهم إلا ما يوافقه، ويقتضيه من الأمور الصالحة، وترك التسرع في الأخبار.

---

(١) المراغي.　　(٢) روح البيان.

والظاهر: أنّه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان.

﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾؛ أي: زيّن الإيمان، وحسّنه ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ حتى رسخ حبه فيها، ولذلك أتيتم بما يليق به من الأقوال والأفعال، وفي «عين المعاني»: في قلوبكم دون ألسنتكم مجرّدةً ردًّا على الكرامية القائلين: بأنَّ الإيمان لا يكون بالقلب، ولكن باللسان، وقيل: دون جوارحكم ردًّا على الشعوبية بضم الشين: وهم قوم يتعلقون بظاهر الأعمال.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾؛ أي: جعل هذه الأمور الثلاثة: الكفر والفسوق والعصيان مكروهة عندكم، ولذلك اجتنبتم ما يليق بها، مما لا خير فيه من آثارها وأحكامها، والتكريه هنا بمعنى التبغيض، والبغض: ضد الحب، فالبغض: نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه، والحب: انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه، ولما كان في التحبيب والتكريه معنى إنهاء المحبّة والكراهة، وإيصالهما إليهم.. استعملا بكلمة إلى.

قال في «فتح الرحمن»: معنى تحبيب الله وتكريهه: اللطف والإمداد بالتوفيق، والكفر تغطية نعم الله بالجحود والفسوق الخروج عن القصد؛ أي: العدل بظلم نفسه، والعصيان: الامتناع عن الانقياد، وهو شامل لجميع الذنوب، والفسوق مختص بالكبائر، قال شيخ الإسلام: إن قلت: ما فائدة الجمع بين الفسق والعصيان؟.. قلت: الفسوق: الكذب، كما نقل عن ابن عباس، والعصيان: بقية المعاصي، وإنما أفرد الكذب بالذكر؛ لأنّه سبب نزول الآية، وقيل: الفسوق: الكبيرة، والعصيان: الصغيرة. انتهى.

والخلاصة[1]: أنّ الإيمان الكامل: إقرارٌ باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان، فكراهة الكفر في مقابلة محبّة الإيمان، وتزيينه في القلوب هو التصديق بالجنان، والفسوق: هو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان، والعصيان: في مقابلة العمل بالأركان.

---

(١) المراغي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المستثنون بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ إلخ. ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾؛ أي: السالكون إلى الطريق السويّ الموصل إلى الحق، والرشد: الاستقامة على طريق الحق، مع تصلبٍ من الرشادة: وهي الصخرة، وفي الآية[1] عدول وتلوين، حيث ذكر أولها على وجه المخاطبة، وآخرها على المغايبة، حيث قيل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ ليعلم أنّ من كان حاله هكذا، فقد دخل في هذا المدح، كما قاله أبو الليث.

وقوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾؛ أي: تفضلاً منه تعالى، وإنعاماً منه تعليل لـ ﴿حَبَّبَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ﴾ وما بينهما اعتراض.

والمعنى: أنه تعالى حبّب إليكم ما حبّب، وكرّه إليكم ما كرّه؛ لأجل فضله وإنعامه، لا للراشدين، فإنّ الفضل فعل الله، والرشد وإن كان مسبّباً عن فعله، وهو التحبيب والتكريه مسند إلى ضمير ﴿هُمُ﴾؛ يعني: أنّ المراد بالفاعل: من قام به الفعل، وأسند هو إليه، لا من أوجده، ومن المعلوم: أنّ الرشد قائم بالقوم، والفضل والإنعام قائمان به تعالىٰ، فلا اتحاد في الفاعل، وقيل: علّة لمحذوف؛ أي: جعلكم راشدين لأجل فضله وإنعامه، وقيل: النصب بتقدير فعل؛ أي: تبتغون فضلاً ونعمةً.

والخلاصة[2]: أنّ رسول الله بين أظهركم، وهو أعلم بمصالحكم، لو أطعاكم في جميع ما تختارونه.. لأدّى ذلك إلى عنتكم ووقوعكم في مهاوي الردى، ولكنّ بعضاً منكم حبّب إليهم الإيمان، وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وأولئك هم الذين أصابوا الحق، وسلكوا سبيل الرشاد.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الهداية، ومن يستحق الغواية ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شؤون خلقه، وصرفهم فيما شاء من قضائه، فيفعل كل ما يفعل بموجب الحكمة.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وفي الآية دليل على أنّ من كان مؤمناً، لا يحبّ الفسق والمعصية، وإذا ابتلي بالمعصية.. فإنّ شهوته وغفلته تحمله على ذلك، لا لحبّه للمعصية، بل ربّما يعصي حال الحضور؛ لأنّ فيه نفاذ قضائه تعالى.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾؛ أي: تقاتلوا، والجمع حيث لم يقل: اقتتلتا على التثنية والتأنيث باعتبار المعنى؛ لأنّ كل طائفة جمع، فهي بمعنى القوم، نظير قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾، وبه قرأ الجمهور[1]. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿اقتتلتا﴾ بالتثنية والتأنيث اعتباراً بلفظ ﴿طَآئِفَتَانِ﴾، وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير: ﴿اقتتلا﴾ بالتثنية، وتذكير الفعل باعتبار الفريقين والرهطين، والطائفة من الناس: جماعة منهم، لكنها دون الفرقة، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾. و﴿طَآئِفَتَانِ﴾: فاعل فعل محذوف وجوباً؛ لا مبتدأ؛ لأنّ حرف الشرط لا يدخل إلا على الفعل لفظاً أو تقديراً، والتقدير: وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، فحذف الأول؛ لئلا يلزم اجتماع المفسّر والمفسّر، وأصل القتل: إزالة الروح عن الجسد بأيّ طريق كان.

﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿بَيۡنَهُمَاۖ﴾؛ أي: بين تينك الطائفتين بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى، وثنّى الضمير باعتبار لفظ الطائفتين، والصلاح: الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، والإصلاح: جعل الشيء على تلك الحالة، والإصلاح بين الناس إذا تفاسدوا من أعظم الطاعات، وأتمّ القربات، وكذا نصرة المظلوم، قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: من وصل أخاه بنصيحة في دينه، ونظر له في صلاح دنياه.. فقد أحسن صلته، وقال مطرّف: وجدنا أنصح العباد لله الملائكة، ووجدنا أغشّ العباد لله الشياطين، ويقال: من كتم السلطان نصحه، والأطبّاء مرضه، والأخوان بثّه.. فقد خان نفسه.

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ﴾؛ أي: تعدّت واستطالت ﴿إِحۡدَىٰهُمَا﴾؛ أي: إحدى الطائفتين وكانت مبطلة ﴿عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ وكان محقّة، ولم تتأثّر الباغية بالنصيحة ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي

---

(١) البحر المحيط.

﴿تَبۡغِي﴾؛ أي: قاتلوا الطائفة الباغية ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾؛ أي: حتى ترجع عن بغيها، فإنّ الفيء: الرجوع إلى حالة محمودة. ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: إلى حكمه الذي حكم به في كتابه العزيز، وهو المصالحة، ورفع العداوة، أو إلى ما أمر به، وهو الإطاعة المدلول عليها بقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾. فأمر الله على الأول واحد الأمور، وعلى الثاني واحد الأوامر.

وإنّما أطلق[1] الفيء على الظل؛ لرجوعه بعد نسخ الشمس؛ أي: إزالتها إيّاه، فإنّ الشمس كلما ازدادات ارتفاعاً.. ازداد الظل انسلاخاً وزوالاً، وذلك إلى أن توازي الشمس خطّ نصف النهار، فإذا زالت عنه، وأخذت في الانحطاط.. أخذ الظل في الرجوع والظهور، فلمّا كان الزوال سبباً لرجوع ما انتسخ من الظل.. أضيف الظل إلى الزوال، فقيل: فيء الزوال.

ومرَّ الأصمعي بحيّ من أحياء العرب، فوجد صبياً يلعب مع الصبيان في صحراء، ويتكلّم بالفصاحة، فقال الأصمعي: أين أباك يا صبيّ؟ فنظر إليه الصبي ولم يجب، ثم قال: أين أبيك؟ فنظر إليه ولم يجب كالأول، ثمّ قال: أين أبوك؟ فقال: فاء إلى الفيفاء لطلب الفيء، فإذا فاء الفيء.. فاء؛ أي: رجع.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ مضارع فاء بفتح الهمزة، وقرأ الزهريّ ﴿حتى تفى﴾ بغير همزة وفتح الياء، وهذا شاذّ، كما قالوا في مضارع جاء: يجي بغير همز، فإذا أدخلوا عليه الناصب.. فتحوا الياء، وأجروه مجرى يفي مضارع وفىٰ شذوذاً.

﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ الباغية، ورجعت إليه، وأقلعت عن القتال حذاراً من قتالكم ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ أي: بين الطائفتين: الباغية والمحقّة ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ والإنصاف بفصل ما بينهما على حكم الله، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما، عسى أن يكون بينهما قتال في وقت آخر.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

والمعنى[1]: أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين.. فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم، ويدعوهم إلى حكم الله، فإن حصل بعد ذلك التعدّي من إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم تقبل الصلح، ولا دخلت فيه.. كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية، حتى ترجع إلى أمر الله، وحكمه، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها، وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه.. فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحرّوا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة، حتى تخرج من الظلم، وتؤدي ما يجب عليها للأخرى.

ثمّ أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم، بعد أمرهم بهذا العدل الخاصّ بالطائفتين المقتتلتين، فقال: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾؛ أي: واعدلوا في كلّ ما تأتون وما تذرون، من أقسط، وهمزته للسلب إذا أزال القسط بالفتح؛ أي: الجور، يقال: إذا جاء القسط بالكسر؛ أي: العدل.. زال القسط بالفتح؛ أي: الجور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ أي: العادلين الذين يؤدُّون لكل ذي حق حقه، فيجازيهم بأحسن الجزاء؛ لأنّ محبته تعالى لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء، وفي «الصحيح»: عن أنس رضي الله عنه: أنّ النبيّ ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قلت: يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذلك نصرك إيّاه».

وجملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: مستأنفة مقرّرة لما قبلها من الأمر بالإصلاح، جمع الأخ[2]، وأصله: المشارك لأخر في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما، أو من الرضاع، ويستعار في كل مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدين، أو في صنعة، أو في معاملة، أو في مودّة، أو في غير ذلك من المناسبات، والفرق بين الخلة والأخوة: أنّ الصداقة إذا قويت.. صارت أخوة، فإن ازدادات.. صارت خلّة، كما في «إحياء العلوم». قال بعض أهل اللغة:

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

الإخوة جمع الأخ من النسب، والإخوان جمع الأخ من الصداقة، ويقع أحدهما موقع الآخر، وفي الحديث: «وكونوا عباد الله إخواناً».

والمعنى: إنّما المؤمنون منتسبون إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية، كما أنّ الإخوة من النسب منتسبون إلى أصل واحد هو الأب الموجب للحياة الفانية، فالآية من قبيل التشبيه البليغ المبني على تشبيه الإيمان بالأب في كونه سبب الحياة كالأب.

وفي الحديث: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يعيّبه، ولا يخذله، ولا يتطاول عليه في البنيان، فيستر عليه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقتار قدره، إلا أن يغرف له غرفة، ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها». ثم قال: «احفظوا، ولا يحفظ منكم إلا قليل». وفي «الصحيح» أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب.. قال الملك: آمين، ولك مثله».

ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ولا بد.. تسبب عن ذلك قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ في الدين، كما تصلحون بين أخويكم في النسب، و﴿الفاء﴾ فيه: للإيذان بأنّ الأخوّة الدينية موجبة للإصلاح، ووضع[1] المظهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح، والتحضيض عليه، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى في كل ما تأتون، وما تذرون من الأمور التي من جملتها ما أمرتم به من إصلاح ذات البين، وفي «التأويلات النجمية»: واتقوا الله في إخوتكم في الدين بحفظ عهودهم، ورعاية حقوقهم، في المشهد والمغيب، والحياة والممات.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: راجين أن ترحموا على تقواكم كما ترحمون، أو رجاء أن يرحمكم ربّكم، ويصفح عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أمره ونهيه، والترجّي باعتبار المخاطبين.

---

(١) روح البيان.

واعلم: أنّ أخوّة الإسلام أقوى من أخوّة النسب، بحيث لا تعتبر أخوّة النسب إذا خلت عن أخوّة الإسلام، ألا ترى أنه إذا مات المسلم، وله أخ كافر.. يكون ماله للمسلمين، لا لأخيه الكافر، وكذا إذا مات أخ الكافر، وذلك لأنّ الجامع الفاسد لا يفيد الأخوّة، وأنّ المعتبر الأصليّ الشرعيّ، ألا ترى أنّ ولدي الزنا من رجل واحد لا يتوارثان، وهذا المعنى يستفاد من الآية أيضاً؛ لأنّ ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، فكأنه قيل: لا أخوة إلا بين المؤمنين، فلا أخوّة بين المؤمن والكافر.

وفي هذه الآية[1]: دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرر بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز، مستدلاً بقوله ﷺ: «قتال المسلم كفر». فإنّ المراد بهذا الحديث، وما ورد في معناه: قتال المسلم الذي لم يبغ، قال ابن جرير: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه، ولزوم المنازل.. لما أقيم حق ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبباً إلى استحلال كل ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دمائهم، بأن يتحزبوا عليهم، ولكفّ المسلمين أيديهم عنهم، وذلك مخالف لقوله ﷺ: «خُذوا على أيدي سفهائكم».

قال ابن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، وعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملّة، وإياها عنى النبيّ ﷺ بقوله: «تقتل عمارا الفئة الباغية». وقوله ﷺ في شأن الخوارج: «يخرجون على حين فرقة من الناس، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ بالتثنية؛ لأنّ أقلّ من يقع بينهما الشقاق اثنان، فإذا كان الإصلاح لازماً بين اثنين.. فهو ألزم بين أكثر من اثنين، وقيل: المراد بالأخوين: الأوس والخزرج، وقرأ زيد بن ثابت وابن مسعود والحسن: بخلاف عنه، والجحدري وثابت البنانيّ وحماد بن سلمة، وابن سيرين: ﴿بين

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

إخوانكم﴾ جمعاً بالألف والنون، وقرأ الحسن أيضاً وابن عامر في روايةٍ، وزيد بن عليّ ويعقوب: ﴿بين إخوتكم﴾ جمعاً على وزن غلمة، وروى عبد الوهاب عن أبي عمرو القراءات الثلاث، قال أبو علي الفارسي في توجيه قراءة الجمهور: أراد بالأخوين: الطائفتين؛ لأنّ لفظ التثنية قد يرد ويراد به الكثرة، وقال أبو عبيدة: أي: أصلحوا بين كل أخوين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿لَا يَسۡخَرۡ﴾ والسخرية: أن يحقر الإنسان أخاه، ويستخفه، ويسقطه عن درجته، ويعده ممن لا يلتفت إليه؛ أي: لا يستهزىء ﴿قَوۡمٌ﴾؛ أي: منكم. وهو اسم جمع لرجل، وهو مختص بالرجال؛ لأنهم قوامون على النساء، ولهذا عبّر عن الإناث بما هو مشتق من النسوة بفتح النون، وهو ترك العمل، حيث قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾. ويؤيده قول زهير:

وَمَا أَدْرِيْ وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِيْ ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

وقال الزمخشري: وهو في الأصل: جمع قائم، كصوم جمع صائم، وزور جمع زائر. انتهى. وليس فعل من أبنية الجموع إلا على مذهب أبي الحسن في قوله: إنّ ركبا جمع راكب. ﴿مِّن قَوۡمٍ﴾ آخرين أيضاً منكم، والتنكير إما للتعميم أو للتبعيض. والقصد إلى نهي بعضهم عن سخرية بعض؛ لما أنّها مما يجري بين بعض وبعض.

فإن قلت[(١)]: المنهيّ عنه هو أن يسخر جماعة من جماعة، فيلزم أن لا يحرم سخرية واحد من واحد.

قلت: اختيار الجمع ليس للاحتراز عن سخرية الواحد من الواحد، بل هو لبيان الواقع؛ لأنّ السخرية وإن كانت بين اثنين؛ إلا أنَّ الغالب أن تقع بمحضر جماعة يرضون بها، ويضحكون بسببها، بدل ما وجب عليهم من النهي والإنكار، ويكونون شركاء الساخر في تحمّل الوزر، ويكونون بمنزلة الساخرين حكماً، فنهوا

---

(١) روح البيان.

عن ذلك؛ يعني: أنه من نسبة فعل البعض إلى الجمع لرضاهم به في الأغلب، أو لوجوده فيما بينهم.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ﴾ تعليل للنهي؛ أي: عسى أن يكون المسخور منهم ﴿خَيْرًا﴾ عند الله تعالى ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من الساخرين، ولا خبر لـ ﴿عَسَىٰٓ﴾ لإغناء الاسم عنه، ولمّا كان لفظ ﴿قَوْمٌ﴾ مختصّاً بالرجال، لأنّهم القَوَّمُ على النساء.. أفرد النساء بالذكر، فقال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ﴾؛ أي: ولا تسخر نساء من المؤمنات، وهم اسم جمع لامرأة. ﴿مِّن نِّسَآءٍ﴾ منهنّ، وإنما لم يقل: امرأة من رجل، ولا بالعكس للإشعار بأنّ مجالسة الرجل المرأة مستقبح شرعاً، حتى منعوها عن حضور الجماعة، ومجلس الذكر؛ لأنّ الإنسان إنّما يسخر ممن يلابسه غالباً، وقيل: أفرد النساء بالذكر؛ لأنّ السخرية منهن أكثر. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ﴾؛ أي: المسخور منهن ﴿خَيْرًا﴾ عند الله تعالى ﴿مِّنْهُنَّ﴾؛ أي: من الساخرات، فإنّ مناط الخيرية في الفريقين ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال، ولا الأوضاع والأطوار التي عليها يدور أمر السخرية غالباً، بل إنما هو الأمور الكامنة في القلوب، فلا يجترىء أحد على استحقار أحد، فلعله أجمع منه لما نيط به من الخيرية عند الله تعالى، فيظلم نفسه بتحقير من وقّره الله، واستهانة من عظمه الله تعالى. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب.. لخشيت أن أحول كلباً، وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أنّه لا عبرة بظاهر الخلق، فلا تنظر إلى أحد بنظر الإزدراء، والاستهانة والاستخفاف والاستحقار، لأنّ في استحقار أخيك عجب نفسك مودع، كما نظر إبليس بنظر الحقارة إلى آدم عليه السلام، فأعجبته نفسه، فقال: أنا خير منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين، فلعن إلى الأبد لهذا المعنى، فمن حقر أخاه المسلم، وظنَّ أنه خير منه.. يكون إبليسَ وقته، وأخوه آدمَ وقته.

وقرأ عبد الله وأبيٌّ[1]: ﴿عسوا أن يكونوا﴾ و﴿عَسِيْنَ أن يكن﴾، فـ ﴿عَسَىٰٓ﴾

---

(١) البحر المحيط.

على هذه القراءة ناقصة، لها خبر، و﴿عَسَىٰٓ﴾ في الموضعين على قراءة الجمهور: تامّة لا خبر لها، وفيها لغتان: الإضمار لغة تميم، وتركه لغة الحجاز.

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ أي: ولا يعب[1] بعضكم بعضاً بقول أو إشارة على وجه الخفية، فإن المؤمنين كنفس واحدة، والأفراد المنتشرة بمنزلة أعضاء تلك النفس، فيكون ما يصيب واحداً منهم كأنه يصيب الجميع، إذا اشتكى عضو واحد من شخص.. تداعى سائر الأعضاء إلى الحمى والسهر، فمتى عاب مؤمناً.. فكأنما عاب نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾، وفي قوله: ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾: تنبيه إلى أنَّ العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغي أن يعيب غيره؛ لأنّه كنفسه.

وفي «التأويلات النجمية»: إنما قال: ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ لأنّ المؤمنين كنفس واحدة، إن عملوا شرًّا إلى أحد، فقد عملوا إلى أنفسهم، وإن عملوا خيراً إلى أحد.. فقد عملوا إلى أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾، انتهى.

ويجوز أن يكون معنى الآية: ولا تفعلوا ما تلمزون به، فإن من فعل ما يستحق به اللمز.. فقد لمز نفسه؛ أي: تسبب للمز نفسه، وإلا فلا طعن باللسان لنفسه منه، فهو من إطلاق المسبب وإرادة السبب، وقال سعدي المفتي: ولا يبعد أن يكون[2] المعنى لا تلمزوا غيركم، فإنَّ ذلك يكون سبباً لأن يبحث الملموز عن عيوبكم فيلمزكم، فتكونوا لامزين أنفسكم، فالنظم حينئذٍ نظير ما ثبت في «الصحيحين» من قوله ﷺ: «من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

يقول الفقير: هو مسبوق في هذا المعنى، فإنَّ الإمام الراغب قال في

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

«المفردات»: اللمز: الإغتياب، وتتبع المعايب؛ أي: لا تلمزوا الناس فيلمزوكم، فتكونوا في حكم من لمز نفسه. انتهى.

والمعنى: ولا تلمزوا الناس فيلمزوا أنفسكم؛ أي؛ لا تعيبوهم فيعيبوكم، وقال النبيّ ﷺ: «يبصر أحدكم القذاة ـ ما يقع في العين والماء من تراب أو وسخ ـ في عين أخيه، ويدع الجذع في عينه». وقيل: من سعادة المرء: أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره. قال الشاعر:

لاَ تَكْشِفَنْ مِنْ مَسَاوِيْ النَّاسِ مَا سَتَرُوا فَيَهْتِكَ اللَّهُ سِتْراً عَنْ مَسَاوِيْكَا
وَٱذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فَيْهِمْ إِذَا ذُكِرُوْا وَلاَ تَعِبْ أَحَدَاً مِنْهُمْ بِمَا فَيْكَا

وفي الحديث: «طوبى لمن يشغله عيبه عن عيوب الناس». ولا يدخل في الآية ذكر الفاسق؛ لقوله ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه، كي يحذره الناس».

يقول الفقير: أشار التعليل في الحديث إلى أنّ ذكر الفاجر بما فيه من العيوب، إنما يصحّ بهذا الغرض الصحيح، وهو أن يحذر الناس منه، وإلا فالإمساك، مع أنّ في ذكره تلويث اللسان الطاهر؛ ولذا نقل عن بعض المشايخ: أنه لم يلعن الشيطان، إذ ليس فيه فائدة سوى اشتغال اللسان بما لا ينبغي، فإنّ العداوة له إنما هي بمخالفته، لا بلعنته فقط.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ﴾ بكسر الميم، وقرأ الحسن، والأعرج وعبيد عن أبي عمرو: بضمها، وقال أبو عمرو: هي عربية، وقال ابن جرير: اللمز باليد والعين واللسان والإشارة، والهمز لا يكون إلا باللسان. اهـ.

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾ وتدعوا أنفسكم ﴿بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ السيئة؛ أي: لا يدع بعضكم بعضاً باللقب الذي يسوؤه ويكرهه، كأن يقول لأخيه المسلم: يا فاسق يا منافق، أو يقول لمن أسلم: يا يهوديُّ أو يا نصرانيُّ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل قد عمل السيئات، ثمّ تاب وراجع الحق،

(١) البحر المحيط.

فنهى الله تعالى أن يعيّر بما سلف من عمله، أما[1] الألقاب التي تكسب حمداً ومدحاً، وتكون حقاً وصدقاً.. فلا تكره، كما قيل لأبي بكر: عتيق، ولعمر: الفاروق، ولعثمان: ذو النورين، ولعليّ: أبو تراب، ولخالد: سيف الله، من[2] النبز بسكون الباء، مصدر نبزه بمعنى لقبه، والنبز بفتحها: اللقب مطلقاً؛ أي: حسناً كان أو قبيحاً، ومنه قيل في الحديث: «قومٌ نبْزهم الرافضة»؛ أي: لقبهم، ثم خص في العرف باللقب القبيح، وهو ما يكره المدعو أن يدعى به، واللقب: ما سمي به الإنسان بعد اسمه العلم، من لفظ يدل على المدح، كزين العابدين، أو الذم كأنف الناقة، لمعنى فيه.

والمعنى[3]: ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء، قالوا: وليس من هذا قول المحدثين لسليمان الأعمش، وواصل الأحدب، ولعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، ونحوه مما تدعو إليه الضرورة، وليس قصد استخفاف، ولا أذى، وفيه إشارة إلى أنّ اللقب الحسن لا ينهى عنه، مثل: محيي الدين وشمس الدين، وبهاء الدين، وفي الحديث: «من حق المؤمن على أخيه: أن يسميه بأحب أسمائه إليه».

﴿بِئْسَ﴾ وقبح ﴿ٱلِٱسْمُ﴾ أي[4]: التسمية لأخيك ﴿ٱلْفُسُوقُ﴾؛ أي: الدال على فسق الأخ وكفره، ونفاقه ﴿بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: بعد ما آمن ذلك الأخ، وترك ذلك؛ أي: بئست التسمية الدالة على فسق المسمى بها، وكفره بعد إيمانه، كقولك للمؤمن: يا يهودي ويا نصرانيّ، ويا مجوسي بعد ما أسلم، أو يا فاسق؛ ويا سارق، ويا شارب، ويا زاني بعد ما تاب، نظراً لما قبل إسلامه وتوبته.

وقيل معناه[5]: أنَّ من فعل ما نهي عنه من السخرية واللمز والنبز.. فهو

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) تنوير المقباس.
(٥) الخازن.

فاسق، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، فلا تفعلوا ذلك، فتستحقوا اسم الفسوق، وقيل: المعنى: بئس الاسم واللقب هو اسم الفسوق، ولقب السوء حال كونه واقعاً بعد إيمان المقول له، وقيل: الاسم بمعنى الذكر المرتفع؛ لأنّه من السمو، يقال: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم؛ أي: ذكره، والفسوق هو المخصوص بالذمّ، وفي الكلام مضاف مقدر، وهو اسم الفسوق؛ أي: ذكره.

والمعنى: بئس الذكر والقول للمؤمنين؛ أي: أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم في الإيمان، واشتهارهم به، والمخصوص بالذم اسم الفسوق، وذكره بعد الإيمان، وقال ابن زيد: أي بئس أن يسمى الرجل كافراً أو فاسقاً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته.

وفي «التأويلات النجمية»: بئس الاسم اسم يخرجهم من الإيمان، والمراد به: إما تهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين خصوصاً، إذ روي: أنَّ الآية نزلت في صفية بنت حيّي رضي الله عنها أتت رسول الله ﷺ باكيةً، فقالت: إنَّ النساء يقلن لي - وفي رواية: قالت لي عائشة رضي الله عنها -: يا يهودية بنت يهوديين، فقال النبي ﷺ: هلا قلت: «إنَّ أبي هارون، وعمّي موسى، وزوجي محمد ﷺ». أو الدلالة على أنَّ التنابز مطلقاً، لا بالكفر والفسوق خصوصاً فسق والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح، فدخل فيه زيد اليهودي، وعمرو النصراني وبكر الكافر وخالد الفاسق، ونحو ذلك.

والعجب من العرب، يقولون للمؤمنين من أهل الروم: نصارى! فهم داخلون في الذم، ولا ينفعهم الافتخار بالأنساب، فإنّ التفاضل بالتقوى، كما سيجيء.

ونعم ما قيل:

وَمَا يَنْفَعُ ٱلأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ إِذَا كَانَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْ بَاهِلَهْ

وفي الفقه: لو قال رجل لصالح: يا فاسق، ويا ابن الفاسق، ويا فاجر، ويا خبيث، ويا مخنث، ويا مجرم، ويا جيفة، ويا بليد، ويا ابن الخبيثة، ويا سارق، ويا زاني، ويا لص، ويا كافر، ويا زنديق، وهو بريء منه.. يعزر في

هذا كله.

والخلاصة: بئس الاسم الفسوق مع الإيمان، وفي هذا إيماء إلى استقباح الجمع بين الأمرين، كما تقول: بئس الصبوة بعد الشيخوخة؛ أي: معها.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عمّا نهى الله عنه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب، والظالم أعم من الفاسق، والفاسق أعم من الكافر. أو المعنى[1]: ومن لم يتب من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه من الألقاب، أو لمزه إياه، أو سخريته منه، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها عقاب الله بعصيانهم إياه.

وفيه[2] دلالة بينة على أنَّ الرجل بترك التوبة يدخل مدخل الظلمة، فلا بدّ من توبة نصوح من جميع القبائح والمعاصي، لا سيما ما ذكر في هذا المقام، ومن أصرّ.. أخذ سريعاً، لأنّ أقرب الأشياء صرعة الظلوم، وأنفذ السهام دعوة المظلوم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾؛ أي: كونوا على جانب منه، وابعدوا عنه ولا تقربوه، والظنّ هنا هو مجرد التهمة التي لا سبب لها، كمن يتهم غيره بشيء من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، فالمراد به: ظن السوء بأهل الخير والصلاح، وأمر سبحانه باجتناب الكثير ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنّه، حتى يعلم أنه من أيّ القبيل، فإنّ من الظنّ ما يجب اتباعه، كالظنّ حيث لا قاطع فيه من العمليات، فإنّ أكثر الأحكام الشرعية مبنيّة على الظنّ، كالقياس وخبر الواحد ودلالة العموم، ولكن هذا الظنّ الذي يجب العمل به قد قوي بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به، فارتفع عن الشك والتهمة وكحسن الظنّ بالله تعالى، وفي الحديث: «إنّ حسن الظنّ من الإيمان». ومن الظنّ ما يحرم: كالظنّ في الإلهيات؛ أي: بوجود الإله وذاته وصفاته، وما

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

يليق به من الكمال، وفي النبوات، فمن قال: آمنت بجميع الأنبياء، ولا أعلم آدم نبي أم لا.. يكفر، وكذا من آمن بأنَّ نبينا محمداً ﷺ رسول، ولم يؤمن بأنه خاتم الرسل لا نسخ لدينه إلى يوم القيامة.. لا يكون مؤمناً، وكالظن حيث يخالفه قاطع: كالظن بنبوة علي كرم الله وجهه أو بنبوة واحد من خلفاء هذه الأمة مع وجود قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وقوله ﷺ: «لا نبيّ بعدي». فإنَّ مثل هذا الظنّ حرام، ولو قطع كان كفراً، وكظنّ السوء بالمؤمنين، خصوصاً بالرسول ﷺ، وبورثته الكمَّل: كالعلماء بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾، وقال ﷺ: «إنّ الله حرّم من المسلم: عرضه، ودمه، وأن يظنَّ به ظن السوء». ومن الظنّ ما يباح: كالظنّ في الأمور المعاشية، وفي «كشف الأسرار»: ومن المباح: الظن في الصلاة، والصوم، والقبلة، أمر صاحبه بالتحريّ فيها، والبناء على غلبة الظن، فلا يدخل[1] في الظن المأمور باجتنابه شيء من الظنّ المأمور باتباعه في مسائل الدين، فإنَّ الله قد تعبَّد عباده باتباعه، وأوجب العمل به جمهور أهل العلم، ولم ينكر ذلك إلا بعض طوائف المبتدعة كياداً للدين، وشذوذاً عن جمهور المسلمين، وقد جاء التعبد بالظن في كثير من الشريعة المطهرة، بل في أكثرها.

والمعنى[2]: أي يا أيّها الذين آمنوا ابتعدوا عن كثير من الظن بالمؤمنين، بأن تظنوا بهم السوء ما وجدتم إلى ذلك سبيلاً، ولا يحرم سوء الظن إلا ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة، أما من يجاهر بالفجور: كمن يدخل أو يصاحب الغواني الفواجر.. فلا يحرم سوء الظنّ به، وحكى القرطبي عن أكثر العلماء: أنَّ الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظنّ القبيح بمن ظاهره القبيح.

وجملة قوله[3]: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾؛ أي: ذنب فيه عقوبة، تعليل لما

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظنّ، وهذا البعض هو ظنّ السوء بأهل الخير، والإثم: هو ما يستحق الظانّ به العقوبة، قال الزجاج: هو أن يظنّ بأهل الخير سوءاً، فأمّا أهل السوء والفسوق، فلنا أنّ نظنّ بهم مثل الذي ظهر منهم، قال مقاتل بن سلمان ومقاتل بن حيان: هو أن يظن بأخيه المسلم سوءاً، ولا بأس به ما لم يتكلم به، فإن تكلم بذلك الظن، وأبداه.. أثم.

قال سفيان الثوري: الظنّ ظنّان[1]:

أحدهما: إثم: وهو أن يظنّ ويتكلم به.

والآخر: ليس بإثم: وهو أن يظنّ ولا يتكلم به، وقيل: الظنُّ أنواع: واجبٌ ومأمورٌ به، وهو الظنّ الحسن بالله عز وجل، ومنه: مندوب إليه، وهو الظنّ الحسن بالأخ المسلم الظاهر العدالة، ومنه: حرام محذور، وهو سوء الظن بالله عز وجل، وسوء الظن بالأخ المسلم.

ودلت الآية على أنّ أكثر الظنون من قبيل الإثم؛ لأنّ الشيطان يلقي الظنون في النفس، فتظنّ النفس الظن الفاسد، ودلت أيضاً على أن بعض الظن ليس بإثم، بل هو حقيقة، وهو الذي لم يكن من قبيل النفس، بل كان بالفراسة الصحيحة، بأن يرى القلب بنور اليقين ما جرى في الغيب فيظنه. اهـ من «الروح».

ثم لما أمرهم سبحانه باجتناب كثير من الظن.. نهاهم عن التجسس، فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾؛ أي: ولا تبحثوا أيها المؤمنون عن عورات المسلمين ومعايبهم، نهى الله سبحانه عن البحث عن المستور من أمور الناس، وتتبع عوراتهم، حتى لا يظهر على ما ستره الله منها.

والمعنى[2]: أي ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا، أو ذموا لا على ما لا تعلمون به من الخفايا.

وفي «الصحيحين»: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ النبي ﷺ قال: «إياكم والظنّ، فإنّ الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تحسّسوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ بالجيم، وقرأ الحسن وأبو رجاء، وابن سيرين: ﴿تحسسوا﴾ بالحاء، وهما متقاربان، لأنَّ التجسس بالجيم: البحث عما يكتم عنك، والتحسس بالحاء: طلب الأخبار والبحث عنها، وقيل:(١) إن التجسس بالجيم: هو البحث، ومنه قيل: رجل جاسوس: إذا كان يبحث عن الأمور، وبالحاء ما أدركه الإنسان ببعض حواسه، وقيل: إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه، وبالجيم أن يكون رسولاً لغيره. قاله ثعلب، والتناجش: الشراء على شراء غيرك بالزيادة، والتدابر: الهجر والقطيعة.

وعن أبي برزة الأسلميّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنّ من اتبع عوراتهم.. يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته.. يفضحه في عقر بيته».

وروى الطبراني عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن»، فقال رجل: وما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: «إذا حسدت.. فاستغفر الله، فإذا ظننت فلا تحقّق، وإذا تطيرت.. فامض».

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: حرست ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة، إذ تبيّن لنا سراج في بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

مرتفعة ولغطٌ، فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أميّة بن خلف، وهم الآن شرب، فما ترى؟ قلت: أرى أنَّا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ وقد تجسسنا، فانصرف عمر، وتركهم.

وقال أبو قلابة: حُدِّث عمر بن الخطاب: أنَّ أبا محجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: إنَّ هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس، فخرج عمر وتركه.

وقيل لابن مسعود: هل لك في فلان تقطر لحيته خمراً؟ فقال: إنّا قد نهينا عن التجسس، فإن ظهر لنا شيء.. أخذنا به، وفي الحديث: «إنّ الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس.. أفسدهم».

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾؛ أي[1]: ولا يذكر بعضكم أيها المؤمنون بعضاً بما يكرهه في غيبته وخلفه، والمراد بالذكر: الذكر صريحاً، أو إشارةً، أو نحو ذلك مما يؤدّي مؤدَّى النطق لما في ذلك من أذى المغتاب، وإيغار الصدور، وتفريق شمل الجماعات، فهي النار تشتعل فلا تبقي ولا تذر، والمراد بما يكره: ما يكرهه في دينه أو دنياه، أو خلقه أو خلقه، أو ماله أو ولده أو زوجته، أو خادمه أو ملبسه، أو غير ذلك مما يتعلق به.

قال الحسن: الغيبة ثلاثة أوجه، كلها في كتاب الله تعالى: الغيبة والإفك، والبهتان، فأمّا الغيبة بالكسر، وفتح الغين غلط، كما سيأتي. فهي أن تقول في أخيك ما هو فيه، وأما الإفك: فأن تقول فيه ما بلغك عنه، وأمّا البهتان: فأن تقول فيه ما ليس فيه، وهو الذي يترك الديار بلاقع، كما في حديث أبي هريرة الثابت في «الصحيح»: أنّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره». فقيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، فقال: «إن كان فيه ما تقول.. فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه.. فقد بهتّه».

---

(١) المراغي.

ولا خلاف[1] بين العلماء في أنّ الغيبة من الكبائر، وأنّ على من اغتاب أحداً التوبة إلى الله تعالى، أو الاستغفار لمن اغتابه أو الاستحلال منه، وعن شعبة قال: قال لي معاوية بن قرّة: لو مرّ بك رجل أقطع ـ مقطوع اليد ـ فقلت هذا أقطع.. كان غيبة، قال شعبة: نعم، فذكرته لأبي إسحاق، فقال: صدق.

ثم ضرب سبحانه مثلاً للغيبة للتنفير والتحذير منها، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾ حال كون الأخ ﴿مَيْتًا﴾ وقرأ نافع: بتشديد الياء، وهو حال من اللحم أو من الأخ، والاستفهام للإنكار، فهو بمعنى النفي؛ أي: لا يحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ﴿فـ﴾ لو عرض عليكم لحمه ﴿كرهتموه﴾؛ أي: كرهتم أكله، فكما تكرهون أكل لحمه ميتاً.. فاكرهوا أكل لحمه حيًّا، وهو اغتيابه، وقرىء: ﴿كرهتموه﴾ بغير فاء؛ أي: جبلتم على كراهته، فـ ﴿الفاء﴾ فيه: عاطفة على منفيّ مقدر معلوم من الاستفهام الإنكاري، كما قدّرنا، وقيل: لفظه خبر، ومعناه: الأمر، ولذلك عطف عليه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. و﴿الفاء﴾ حينئذٍ: فصيحية؛ أي: فإذا كرهتم أكل لحمه ميتاً.. فاكرهوا الغيبة التي هي نظير ذلك ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه، وبالندم على ما صدر منكم من قبل.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ بفتح الكاف وتخفيف الراء، وقرأ أبو سعيد الخدري وأبو حيوة: ﴿فكرِّهْتموه﴾ بضم الكاف وتشديد الراء المكسورة، ورواها أبو سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ. ذكره أبو حيان في «البحر».

والمعنى: أي أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته، فإذا كنتم لا تحبون ذلك، بل تكرهونه؛ لأنَّ النفس تعافه.. فاكرهوا أن تغتابوه في حياته.

والخلاصة: أنكم كما تكرهون ذلك طبعاً، فاكرهوا ذلك شرعاً، لما فيه من

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

شديد العقوبة.

وقد شبهت[1] الغيبة بأكل اللحم؛ لما فيها من تمزيق الأعراض، المشابه لأكل اللحم وتمزيقه، وقد جاء هذا على نهج العرب في كلامهم، قال المقنع الكندي:

فَإِنْ أَكَلُوْا لَحْمِيْ وَفَرْتُ لُحُوْمَهُم وَإِنْ هَدَمُوْا مَجْدِيْ بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا

وقد زادت الآية، فجعلت اللحم لحم أخ ميت تصويراً له بصورة بشعة تستقذرها النفوس جميعاً، وقد ثبت في «الصحيح» من غير وجه: أنّ النبي ﷺ قال حين خطب في حجة الوداع: «إنّ دماءكم وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا». وقوله: ﴿واتقوا الله﴾: معطوف على مقدر، كما مر؛ أي: فاكرهوا الغيبة، واتقوا الله فيما أمركم به، ونهاكم عنه، وراقبوه، واخشوه حقَّ خشيته.

ثم علَّل هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿تَوَّابٌ﴾ يتوب على من تاب إليه عمّا فرط منه من الذنب. ﴿رَّحِيمٌ﴾ به أن يعذّبه بعد توبته.

وعبارة «الروح» هنا: قوله ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾[2]: لترتيب ما بعدها على ما قبلها من التمثيل، كأنه قيل: وحيث كان الأمر كما ذكر فقد كرهتموه، فأضمر كلمة قد لتصحيح دخول الفاء في الجزاء، فالمقصود من تحقيق استكراههم، وتقذّرهم من المشبه به: الترغيب، والحث على استكراه ما شبّه به، وهو الغيبة، كأنه قيل: إذا تحققتم كراهتكم له.. فليتحقق عندكم كراهة نظيره الذي هو الاغتياب، وتمثيل الغيبة بأكل لحم الميت من جهة أنّ الحيّ المغتاب لا يعلم بغيبة من اغتابه، كما أنَّ الميت لا يعلم بأكل من أكل لحمه. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ باجتناب ما نهيتم عنه، وهو معطوف على ما تقدم من الأوامر والنواهي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: مبالغ في قبول التوبة، وإفاضة الرحمة، حيث يجعل التائب

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

كمن لم يذنب، ولا يخص ذلك بتائب دون تائب، بل يعم الجميع، وإن كثرت ذنوبهم، فصيغة المبالغة باعتبار المتعلقات. انتهى.

واعلم[1]: أنّ الاغتياب كأكل لحم الآدميّ ميتاً، ولا يحل أكله إلا لمضطر بقدر الحاجة، فالمغتاب إن وجد لحاجته مدفعاً غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب، ففي هذه الآية نهي عن اغتياب المؤمن دون الكافر، أما الفاسق، فيجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة، فمن نقص مسلماً أو ثلم عرضه.. فهو كآكل لحمه حيًّا. ومن اغتابه.. فهو كآكل لحمه ميتاً؛ لأنَّ الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أنّ الحيّ لا يعلم بغيبة من اغتابه.

واعلم: أنّ الله سبحانه ذكر في هذه الآية أموراً ثلاثاً مرتبة، فكأنّه تعالى قال: لا تقولوا في حقّ المؤمنين ما لم تعلموه فيهم، بناء على الظن، ثم إذا سئلتم عن المظنونات.. فلا تقولوا: نحن نكشف أمورهم لنستيقنها قبل ذكرها، ثم إن علمتم منها شيئاً من غير تجسس.. فلا تقولوه، ولا تفشوه عنهم.

ففي الأول نهى عن التكلم بما لم يعلم، ثم نهى عن طلب علم عيب الناس، ثمّ نهى عن ذكر ما علم منه، روي: أنّ رجلين من الصحابة بعثا سلمان إلى رسول الله ﷺ، يطلب منه لهما طعاماً، فقال له: انطلق إلى أسامة بن زيد، واطلب منه فضل طعام وإدام إن كان عنده، وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ على رحله وطعامه، فأتاه، فقال: ما عندي شيء، فرجع سلمان إليهما، فأخبرهما، فقالا: كان عند أسامة شيء ولكن بخل، فبعثا سلمان إلى بعض الصحابة، فلم يجد عندهم شيئاً، فلمّا رجع.. قالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سحيمة.. لغار ماؤها، وسحيمة بوزن جهينة بالحاء المهملة: بئر بالمدينة، غزيرة الماء، على ما في «القاموس». ثمّ انطلقا يتجسّسان، هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ من الطعام؟ فلمّا راحا إلى رسول الله ﷺ.. قال لهما: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما، فقالا: ما تناولنا لحماً في يومنا هذا، فقال ﷺ

(١) المراح.

اغتبتما سلمان وأسامة، فنزلت هذه الآية.

ويجب[1] على المغتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه، بأن يقلع عنها، ويندم على ما فرط منه، ويعزم عزماً مؤكّداً على أن لا يعود إلى مثل ما فرط منه، ولا تحرم الغيبة إذا كانت لغرض صحيح شرعاً لا يتوصّل إليه إلا بها، وينحصر ذلك في ستة أمور:

الأول: التظلم، فلمن ظلم أن يشكو لمن يظن أنه يقدر على إزالة ظلمه أو تخفيفه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته.

الثالث: الاستفتاء، فيجوز للمستفتي أن يقول للمفتي: ظلمني فلان بكذا، فهل يجوز له ذلك؟

الرابع: تحذير المسلمين من الشرّ، كجرح الشهود والرواة، والمتصدين للإفتاء مع عدم أهليّتهم لذلك، وكأن يشير وإن لم يستشر على مريد التزوج، أو مخالطة غيره في أمر دينيّ أو دنيوي، ويقتصر على ما يكفي، فإن احتاج إلى ذكر عيب أو عيبين.. ذكر ذلك.

الخامس: أن يجاهروا بالفسق، كالمدمنين على شرب الخمور، وارتياد محالّ الفجور، ويتباهوا بما يفعلون.

السادس: التعرف بلقب أو نحوه، كالأعور والأعمش والأعرج والأعلم، ونحو ذلك، إذا لم تمكن المعرفة بغيره.

والأمة مجمعة على قبح الغيبة، وعظم آثامها مع ولوع الناس بها، حتى إنّ بعضهم ليقولون: هي صابون القلوب، وإنّ لها حلاوةً كحلاوة التمر، وضرارةً كضرارة الخمر، وفي الحديث: «الغيبة أشدّ من الزنا» قالوا: وكيف؟ قال: «إنّ الرجل يزني، ثمّ يتوب فيتوب الله عليه، وإنّ صاحب الغيبة لا يغفر له، حتى يغفر

---

(١) المراغي.

له صاحبه». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الغيبة إدام كلاب الناس.

وممّا يجب التنبيه عليه[1]: أنّ مستمع الغيبة كقائلها، فوجب على من سمعها أن يردّها، كيف وقد قال النبيّ ﷺ: «من ردّ عن عرض أخيه.. ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة». وقال النبيّ ﷺ: «المغتاب والمستمتع شريكان في الإثم».

وفي الحديث: «خَمْسٌ يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة». رواه أنس. وأول من اغتاب إبليس، اغتاب آدم، وفي «المقاصد الحسنة»: ثلاثة ليست لهم غيبة: الإمام الجائر، والفاسق المعلن بفسقه، والمبتدع الذي يدعو إلى بدعته. انتهى. وعن الحسن: لا حرمة لفاجر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ يعني: بني آدم ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾؛ أي: من آدم وحواء عليهما السلام، أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم، فالكل سواء في الانتساب إلى ذكر وأنثى أيًّا كانا، فلا وجه للتفاخر بالنسب؛ أي: خلقناكم من ذكر واحد، وأنثى واحدة، فلا موضع للتفاخر بالأنساب، لأنّكم متساوون في الانتساب إليهما، قال إسحاق الموصلي:

ٱلنَّاسُ فِيْ عَالَمِ ٱلتَّمْثِيْلِ أَكْفَاءُ   أَبُوْهُمُ آدَمٌ وَٱلأُمُّ حَوَّاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمُوْ فِيْ أَصْلِهِمْ شَرَفٌ   يُفَاخِرُوْنَ بِهِ فَالطِّيْنُ وَٱلْمَاءُ

نزلت هذه الآية حين أمر النبي ﷺ بلالاً رضي الله عنه ليؤذّن بعد فتح مكة، فعلا ظهر الكعبة، فأذّن، فقال عتّاب بن أسيد، وكان من الطلقاء: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وجد رسول الله سوى هذا الغراب الأسود مؤذنا: يعني: بلالاً، وقيل: نزلت في غير ذلك، كما مرّ.

والمعنى: أي إنا أنشأنا جميعاً من آدم وحواء، فكيف يسخر بعضكم من

---

(١) روح البيان.

بعض، ويلمز بعضكم بعضاً، وأنتم إخوة في النسب، وبعيد أن يعيب الأخ أخاه أو يلمزه أو ينبزه، وروى الطبري قال: خطب رسول الله ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق، وهو على بعير، فقال: «يا أيها الناس، ألا إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على عجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «فليبلغ الشاهد الغائب».

وعن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم، ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح.. تحنن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم، وأحبكم إليه أتقاكم».

وفيه[1] إشارة إلى أنّ الكفاءة في الحقيقة إنما هي بالديانة؛ أي: الصلاح والحسب والتقوى والعدالة، ولو كان مبتدعاً، والمرأة سنّية.. لم يكن كفوءاً لها.

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا﴾ جمع شعب بفتح الشين وسكون العين: وهو الجمع العظيم، المنتسبون إلى أصل واحد سموا شعوباً؛ لتشعب القبائل منهم كتشعب أغصان الشجرة منها، وقيل لتشعبهم؛ أي: تجمعهم، وهي رؤوس القبائل، مثل: ربيعة ومضر، وأما الشعب بكسر الشين.. فهو الطريق في الجبل. ﴿وَقَبَآئِلَ﴾: جمع قبيلة، سميت بها؛ لأنها يقبل بعضها على بعض من حيث كونها من أب واحد، وهي دون[2] الشعوب: كبكر من ربيعة وتميم من مضر، ودون القبائل العمائر، واحدتها عمارة بفتح العين على الصحيح، كما في «القاموس». كشيبان من بكر، ودارم من تميم، ودون العمائر البطون، واحدتها بطن: وهم كبني غالب، ولؤي من قريش، ودون البطون الأفخاذ، واحدتها فخذ: وهم كبني هاشم، وبني أمية من لؤي، ودون الأفخاذ الفصائل، واحدتها فصيلة بالصاد

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

المهملة: كبني العباس من بني هاشم، ثم بعد ذلك العشائر، واحدتها عشيرة، وليس بعد العشيرة شيء يوصف به، وكون الشعوب أعلى من القبائل هو ما عليه الجمهور، ويؤيده قول الشاعر:

قَبَائِلُ مِنْ شُعُوْبٍ لَيْسَ فِيْهِمْ كَرِيْمٌ قَدْ يُعَدُّ وَلاَ نَجِيْبُ

وقيل: الشعوب للعجم، والقبائل للعرب، والأسباط من بني إسرائيل، وقيل: الشعوب الذين لا ينسبون إلى أحد، بل ينسبون إلى المدائن والقرى، والقبائل: العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾؛ أي: ليعرف بعضكم بعضاً في قرب النسب وبعده، لا للتفاخر بالأنساب متعلقة بـ ﴿خَلَقْنَٰكُم﴾؛ أي: خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً بحسب الأنساب، فلا يعزىٰ أحد إلى غير آبائه، لا لتفاخروا بالآباء والقبائل، وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب، أو متعلقة بـ ﴿جعلنا﴾؛ أي: رتبناكم كذلك لتعارفوا.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾: مضارع تعارف، محذوف التاء، أصله: لتتعارفوا، فحذفت إحدى التاءين، وقرأ الأعمش: بتاءين، وقرأ مجاهد وابن كثير في رواية، وابن محيص والبزي: بتشديدها؛ أي: بإدغام التاء في التاء، وابن عباس وأبان عن عاصم: ﴿لتعرفوا﴾ مضارع عرف الثلاثيّ.

وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾: تعليل[2] للنهي عن التفاخر بالأنساب، المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف التحقيقي، كأنه قيل: إنّ الأكرم عنده تعالى هو الأتقى، وإن كان عبداً حبشياً أسود، مثل: بلال رضي الله عنه فإن فاخرتم.. ففاخروا بالتقوى؛ أي: إنَّ الأكرم عند الله الأرفع منزلة لديه عز وجل في الآخرة والدنيا، هو الأتقى، فإن فاخرتم.. ففاخروا بالتقوى، فمن رام نيل الدرجات العلا في الدنيا والآخرة.. فعليه بها، فمن تلبس بها.. فهو المستحق؛ لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها وأشرف وأفضل فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

بالأنساب، فإنّ ذلك لا يوجب كرماً، ولا يثبت شرفاً، ولا يقتضي فضلاً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنَّ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ ابن عباس: بفتحها، وكان قرأ: ﴿لتعرفوا﴾ مضارع عرف، فاحتمل أن تكون ﴿أنَّ﴾: معمولة لـ ﴿تَعْرِفُوا﴾ وتكون ﴿اللام﴾ في ﴿لتعرفوا﴾: لام الأمر، وهو أجود من حيث المعنى، وأمَّا إن كانت لام كي.. فلا يظهر المعنى أن جعلهم شعوبا وقبائل؛ لأن تعرفوا أن الأكرم هو الأتقى، فإن جعلت مفعول ﴿لتعرفوا﴾ محذوفاً؛ أي: لتعرفوا الحق؛ لأنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ساغ في لام ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أن تكون لام كي.

قيل: أكرم الكرم التقوى، وألأم اللؤم الفجور، وقال ابن عباس: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب، وروى ابن عمر رضي الله عنهما: أنّ النبي ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، وهو على راحلته، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «أيها الناس، إنّ الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية، وتكبرها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى، إن الله عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. ثم قال: «أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم». قوله: «عيبة الجاهلية»، يعني: كبرها وفخرها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بكم وبأعمالكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطن أحوالكم، فاجعلوا التقوى زادكم لدى معادكم، وقال[2] ابن الشيخ في «حواشيه»: والنسب وإن كان معتبراً عرفاً وشرعاً، حتى لا تتزوج الشريفة بالنبطي ـ نسبة إلى نبط محركاً، جيل ينزلن بالبطائح بين العراقين ـ إلا أنه لا عبرة به عند ظهور ما هو أعظم منه قدراً وأعز، وهو الإيمان والتقوى، كما لا يظهر الكواكب عند طلوع الشمس فالفاسق وإن كان قرشي النسب، وقارون النشب[3].. لا قدر له عند المؤمن التقي، وإن كان عبداً حبشياً، والأمور التي يفتخر بها في الدنيا،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) قارون النشب: مثل قارون في الغِنى.

وإن كانت كثيرةً، لكن النسب أعلاها، من حيث إنه ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك، بخلاف غيره، كالمال مثلاً، فإنه قد يحصل للفقير مال، فيبطل افتخار المفتخر به عليه، وكذا الأولاد والبساتين ونحوها؛ فلذلك خصَّ الله النسب بالذكر، وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى؛ ليعلم منه بطلان اعتبار غيره بطريق الأولى. انتهى.

وسئل عيسى عليه السلام: أي الناس أشرف؟ فقبض قبضتين من تراب، ثم قال: أي هذين أشرف؟ ثم جمعهما وطرحهما، وقال: الناس كلهم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه:

أَبِـــيْ ٱلإِسْـــلاَمُ لاَ أَبَ لِـــيْ سِـــوَاهُ إِذَا ٱفْـتَـخَـرُوْا بِـقَـيْـسٍ أَوْ تَـمِـيْـمِ

ولما ذكر الله سبحانه أنَّ أكرم الناس عند الله أتقاهم له، وكان أصل التقوى الإيمان.. ذكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان؛ ليثبت لهم الشرف والفضل، فقال: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ وهم أهل البادية بنو أسد، أظهروا الإسلام في سنة مجدبة يريدون الصدقة، وإلحاق التاء بالفعل المسند إليهم مع خلوه عنها في قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ للدلالة على نقصان عقلهم، بخلافهنّ، حيث لُمن امرأة العزيز في مراودتها فتاها، وذلك يليق بالعقلاء. ﴿ءَامَنَّا﴾؛ أي: صدقنا بالله ورسوله، ونحن له مؤمنون، فرد الله عليهم مكذباً لهم مع عدم التصريح بذلك، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ردّاً عليهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ أنتم، إذ الإيمان: هو التصديق بالله وبرسوله، المقارن لثقة بحقيقة المصدق، وطمأنينة القلب، ولم يحصل لكم ذلك، وإلا لما مننتم علي ما ذكرتم من الإسلام، وترك المقاتلة، كما ينبىء عنه آخر السورة؛ يعني: أن التصديق الموصوف مسبوق بالعلم بقبح الكفر، وشناعة المقاتلة، وذلك يأبى المن وترك المقاتلة، فإنّ العاقل لا يمن بترك ما يعلم قبحه.

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾؛ أي: دخلنا في السلم والصلح والانقياد، مخافة على أنفسنا من القتل والسبي، أو للطمع في الصدقة، فإنَّ الإسلام: انقياد، ودخول في السلم، وإظهار الشهادة، وترك المحاربة مشعر به؛ أي: بالانقياد والدخول المذكور، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ حال من ضمير ﴿قُولُوٓاْ﴾؛ أي:

ولكن قولوا: أسلمنا، حال عدم مواطأة قلوبكم لألسنتكم، وما في ﴿وَلَمَّا﴾ من معنى التوقع، مشعر بأن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد.

فإن قلت[1]: مقتضى نظم الكلام أن يقال: قل: لا تقولوا: آمنّا، ولكن قولوا: أسلمنا، أو قل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم.

قلت: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أوّلاً، فقيل: لم تؤمنوا مع أدب حسن، فلم يقل: كذبتم تصريحاً ووضع ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، واستغنى بقوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ عن أن يقال: لا تقولوا: آمنّا؛ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤدّاه النهي عن القول بالإيمان، ولم يقل: ولكن أسلمتم؛ ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى، كما كان قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾، كذلك لو قيل: ولكن أسلمتم.. لكان كالتسليم والاعتداد بقولهم، وهو غير معتدّ به، وليس قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ تكريراً لمعنى قوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾. فإنَّ فائدة قوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ تكذيب لدعواهم، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه، فكأنه قيل لهم: ولكن قولوا: أسلمنا، حيث لم يثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في ﴿قُولُوٓا۟﴾ وما في ﴿لمَّا﴾ من معنى التوقع: دال على أنَّ هؤلاء قد آمنوا فيما بعد.

وحاصل الجواب: أنه تكرار، لكنه مستقل بفائدة زائدة؛ لأنّه علم من الأول نفي الإيمان عنهم، ومن الثاني نفيه مع توقع حصوله. اهـ «كرخي».

وقال سعدي المفتي: والظاهر[2]: أنَّ النظم القرآني من الاحتباك حذف من الأول ما يقابل الثاني، ومن الثاني ما يقابل الأول، والأصل: قل: لم تؤمنوا، فلا تقولوا: آمنَّا، ولكن أسلمتم، فقولوا: أسلمنا، وهذا من اختصارات القرآن الكريم.

واعلم[3]: أنّ الإسلام: هو الدخول في السلم، وهو الانقياد والطاعة، فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والأبدان والجنان؛ لقوله

---

(١) النسفيّ.
(٢) روح البيان.
(٣) الخازن.

لإبراهيم: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ومنه: ما هو انقياد باللسان دون القلب، وذلك قوله: ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وقيل: الإيمان: هو التصديق بالقلب مع الثقة، وطمأنينة النفس عليه، والإسلام: هو الدخول في السلم، والخروج من أن يكون حرباً للمسلمين، مع إظهار الشهادتين.

فإن قلت: المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة، فكيف يفهم ذلك مع هذا القول؟

قلت: بين العام والخاص فرق، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب، والانقياد قد يحصل بالقلب، وقد يحصل باللسان، فالإسلام أعمّ، والإيمان أخصّ، لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص، ولا يكون أمراً غيره، فالعام والخاص مختلفان في العموم والخصوص، متحدان في الوجود، فكذلك المؤمن والمسلم، قال الزجاج: الإسلام: إظهار الخضوع، وقبول ما أتى به النبي ﷺ، وبذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب.. فذلك هو الإيمان، وصاحبه المؤمن. اهـ.

﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ظاهراً وباطناً، سرًّا وعلانية، وتخلصوا له في العمل، وتتركوا النفاق ﴿لَا يَلِتْكُم﴾؛ أي: لا ينقصكم ﴿مِّنْ﴾ أجور ﴿أَعْمَالِكُمْ﴾ وثوابها ﴿شَيْئًا﴾ من النقص، لا قليلاً ولا كثيراً، بل يضاعف ذلك أضعافاً كثيرةً، من لات يليت ليتاً من باب باع: إذا نقص، قال الإمام(١): معنى قوله: ﴿لَا يَلِتْكُم﴾: إنكم إن أتيتم بما يليق بضعفكم من الحسنة المقرونة بالإخلاص، وترك النفاق.. فهو تعالى يؤتكم بما يليق بفضله من الجزاء، لا ينقص منه نظراً إلى ما في حسناتكم من النقصان والتقصير، وهذا لأن من حمل إلى ملك فاكهةً طيّبةً، يكون ثمنها في السوق درهماً مثلاً، وأعطاه الملك درهماً أو ديناراً.. انتسب الملك إلى قلة العطاء بل إلى البخل، فليس معنى الآية: أن يعطي من الجزاء مثل عملكم من غير نقص، بل المعنى: يعطي ما تتوقعون بأعمالكم من غير نقص،

---

(١) روح البيان.

ويؤيد ما قاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم، وعبارة المراغي: ولمّا كان الإنسان كثير الهفوات مهما اجتهد.. ذكر أنه غفور رحيم؛ أي: إنه ستار للهفوات، غفّار لزلاّت من تاب وأناب وأخلص لربّه، رحيم به أن يعذّبه بعد التوبة، بل يزيد في إكرامه، ويصفح عن آثامه، انتهى. وهذا فتح لباب التوبة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾ من لاته يليته، كباعه يبيعه، وهي لغة الحجاز، وقرأ الحسن والأعرج وأبو عمرو: ﴿لا يألتكم﴾ بالهمز من ألته يألته، بالفتح في الماضي، وبالكسر في المضارع، وهي لغة غطفان وأسد، واختار أبو حاتم قراءة أبي عمرو؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾. وعليها قول الشاعر:

أَبْلِغْ بَنِيْ أَسَدٍ عَنِّيْ مُغَلْغَلَةً ... جَهْرَ الرِّسَالَةِ لاَ أَلْتاً وَلاَ كَذِباً

واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور، وعليها قول رؤبة بن العجّاج:

وَلَيْلَةٍ ذَاتِ نَدَىً سَرَيْتُ ... وَلَمْ يَلِتْنِيْ عَنْ سُرَاهَا لَيْتُ

وهما لغتان فصيحتان.

ثم لما ذكر سبحانه أنَّ أولئك الذين قالوا: آمنّا لم يؤمنوا، ولا دخل الإيمان في قلوبهم، بيَّن المؤمنين المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ حق الإيمان، هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إيماناً صحيحاً خالصاً، صادراً عن مواطأة القلب واللسان. ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾؛ أي: لم يدخل قلوبهم شيء من الريب، ولا خالطهم شك من الشكوك، بل ثبتوا على حالة واحدة، ولم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به، ولا اتهام لمن صدقوه، واعترفوا بأن الحق معه، و﴿ثُمَّ﴾ للإشعار[2] بأن اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس في حال إنشائه فقط، بل وفيما يستقبل، فهي كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾. ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: في طاعته،

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.
(٢) روح البيان.

وابتغاء مرضاته على كثرة فنونها من العبادات البدنية المحضة، والمالية الصرفة، والمشتملة عليها معاً، كالحج والجهاد. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف الجميلة ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾؛ أي: الذين صدقوا في دعوى الإيمان لا غيرهم، فهو قصر إفراد، وتكذيب لأعراب بني أسد، حيث اعتقدوا الشركة، وزعموا أنهم صادقون أيضاً في دعوى الإيمان.

أي: أولئك الجامعون بين الأمور المذكورة هم الصادقون في الاتصاف بصفة الإيمان، والدخول في عداد أهله، لا من عداهم ممن أظهر الإسلام بلسانه، وادّعى أنه مؤمن ولم يطمئن بالإيمان قلبه، ولا وصل إليه معناه، ولاعمل بأعمال أهله، وهم الأعراب الذين تقدم ذكرهم، وسائر أهل النفاق.

ثم أمر الله سبحانه أن يقول لأولئك الأعراب وأمثالهم قولاً آخر لمّا ادّعوا أنهم مؤمنون، فقال: ﴿قُلْ﴾ روي: أنه لما نزلت الآية السابقة.. جاء الأعراب، وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون، فنزل لتكذيبهم قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؛ أي: أتخبرون الله سبحانه بدينكم الذي أنتم عليه بقولكم: آمنّا، والتعبير[1] عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم، ودخلت الباء؛ لأنَّ هذا التعليم بمعنى الإعلام والإخبار، والاستفهام فيه للتوبيخ والإنكار؛ أي: لا تعرفوا الله بدينكم، فإنه عالم به لا يخفى عليه شيء، وفيه إشارةٌ إلى أنّ التوقيف في الأمور الدينية معتبر واجب، وحقيقتها موكولة إلى الله، فالأسامي منه تؤخذ، والكلام منه يطلب، وأمره يتبع.

أي: قل: أتخبرون[2] الله بما في ضمائركم، وما تنطوي عليه جوانحكم من صادق الإيمان بقولكم: آمنّا حقاً. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه مثقال ذرّة فيهما، والجملة: حال من مفعول ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾: مؤكدة لتشنيعهم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يحتاج إلى إخباركم،

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

وهذا[1] تذييل مقرّر لما قبله؛ أي: مبالغ في العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان، وفيه مزيد تجهيل وتوبيخ لهم، حيث كانوا يجتهدون في ستر أحوالهم وإخفائها؛ أي: والله بكل شيء عليم، فاحذروا[2] أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم، فتنالكم عقوبته، إذ لا يخفى عليه شيء، وقد علم ما تبطنونه من الكفر، وتظهرونه من الإسلام لخوف الضراء، ورجاء النفع. وفي «التأويلات النجمية»: والله يعلم ما في سموات القلوب من استعدادها في العبودية، وما في أرض النفوس من تمرّدها عن العبودية والله بكل شيء جبلت القلوب والنفوس عليه عليم، لأنّه تعالى أودعه فيها عند تخمير طينة آدم بيده. انتهى.

قال بعض الكبار: لا تضف إلى نفسك حالاً ولا مقاماً، ولا تخبر أحداً بذلك، فإنّ الله تعالى كل يوم هو في شأن في تغيير وتبديل يحول بين المرء وقلبه، فربّما أزالك عمّا أخبرت به، وعزلك عمّا تخيلت ثباته، فتخجل عند من أخبرته بذلك، بل احفظ ذلك، ولا تعلمه إلى غيرك؛ فإن كان الثبات والبقاء علمت أنّه موهبة من الله فلتشكر الله، ولتسأله التوفيق للشكر، وإن كان غير ذلك كان فيه زيادة علم ومعرفة ونور وتيقظ وتأديب. انتهى.

فظهر من هذا[3]: أنّ الإنسان يخبر غالباً بما ليس فيه، أو بما سيزول عنه، والعياذ بالله من سوء الحال، ودعوى الكمال، قال بعضهم: إيّاكم ثمّ إيّاكم والدعوات الصادقة والكاذبة، فإنّ الكاذبة تسوّد الوجه، والصادقة تطفىء نور الإيمان أو تضعفه، وإياكم والقول بالمشاهدات، والنظر إلى الصور المستحسنات، فإنَّ هذا كله نفوس وشهوات، ومن أحدث في طريق التعبّد ما ليس فيها فليس هو منّا ولا فينا، فاتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تمرقوا، ووحدوا ولا تشركوا، وصدقوا الحق ولا تشكوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

ولا تتفرقوا، وأسألوا ولا تسأموا، وانتظروا ولا تيأسوا، وتواخوا ولا تعادوا، واجتمعوا على الطاعة ولا تفرقوا، وتطهروا من الذنوب ولا تلطخوا، وليكن أحدكم بواب قلبه، فلا يدخل فيه إلا ما أمره الله به، وليحذر أحدكم ولا يركن، وليخف ولا يأمن، وليفتش ولا يغفل.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾؛ أي: يعدون إسلامهم منة عليك، حيث قالوا: جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، والمنة: هي النعمة التي لا يطلب موليها ثواباً ممن أنعم عليه بها من المنّ بمعنى القطع؛ لأنّ المقصود به: قطع حاجته مع قطع النظر أن يعوضه المحتاج بشيء؛ أي: يعدون إسلامهم، ومتابعتهم لك، ونصرتهم إياك منة يطلبون منك أجرها، فقد قالوا جئناك بالأثقال.. إلخ.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله بما يقوله لهم عند المنّ عليه بما يدّعونه من الإسلام، فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾؛ أي: لا تعدوا إسلامكم منّة عليّ، أو لا تمنّوا عليّ بإسلامكم، فنصبه بنزع الخافض، فإنّ الإسلام هو المنّة التي لا يطلب موليها ثواباً ممن أنعم بها عليه، ولهذا قال: ﴿بَلِ اللَّهُ﴾ سبحانه هو الذي ﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾؛ أي: أرشدكم إليه، وأراكم بتوفيقه على ما زعمتم من أنكم أرشدتم إليه، وجملة ﴿أَنْ هَدَاكُمْ﴾: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ أي: يمن عليكم هدايته إياكم، أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: بهدايته إياكم.

وقرأ الجمهور: ﴿أَنْ هَدَاكُمْ﴾ بفتح ﴿أن﴾، وقرأ عاصم: بكسرها، وقرأ عبد الله وزيد بن عليّ: ﴿إذ هداكم﴾ جعلا إذ مكان ﴿أن﴾ وكلاهما تعليل. انتهى من «البحر المحيط».

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان، وجوابه: محذوف، دلّ عليه ما قبله؛ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم.. فلله المنّة عليكم، وفي هذا إيماء إلى أنهم كاذبون في ادّعائهم الإيمان، وفي سياق النظم الكريم من اللطف ما لا يخفى، فإنهم لما سمّوا ما صدر عنهم إيماناً، ومنّوا به نفي كونه إيماناً، وسمّاه

إسلاماً، فقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ بما هو في الحقيقة إسلام؛ أي: دخول في السلم، وليس بجدير بالمنّ؛ لأنّه ليس له اعتداد شرعاً، ولا يعدّ مثله نعمة، بل لو صحّ ادّعاؤهم للإيمان، فلله المنّة عليهم بالهداية إليه لا لهم، قال الجنيد رحمه الله: المنّ من العباد تقريع، وليس من الله تقريعاً، وإنما هو من الله تذكير النعم، وحثّ على شكر المنعم.

روي: أنّ النبيّ ﷺ قال للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل.

والخلاصة[1]: أنّ الله سبحانه وتعالى سمّىٰ ما كان منهم إسلاماً وخضوعاً، لا إيماناً؛ إظهاراً لكذبهم في قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾. ثمّ لما منّوا على رسول الله ﷺ بما كان منهم قال سبحانه لرسوله: أيعتدون عليك بما ليس جديراً أن يعتد به من إسلامهم الذي سموه إيماناً، وليس بذاك، بل الله هو الذي يعتد عليهم إيمانهم إن صدقوا، فهو قد أمدهم بهديه وتوفيقه.

ثم أعاد الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ما غاب فيهما عن العباد، وخفي عليهم علمه ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سرّكم وعلانتكم، فكيف يخفىٰ عليه ما في ضمائركم؟!

قرأ الجمهور[2]: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب نظراً لقوله: ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾، وقرأ ابن كثير وأبان عن عاصم: ﴿يعملون﴾ بياء الغيبة؛ نظراً لقوله: ﴿يَمُنُّونَ﴾. وفي ذلك رمز إلى أنهم كاذبون في إيمانهم، وإعلان للنبيّ ﷺ، وأتباعه من المؤمنين بما في أنفسهم، فمن لاحظ[3] شيئاً من أعماله وأحواله.. فإن رآها من نفسه.. كان شركاً، وإن رآها لنفسه.. كان مكراً، وإن رآها من ربّه

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

بربّه لربّه. . كان توحيداً، وفّقنا الله لذلك بمنّه، وجوده وكرمه.

قال البقليّ: ليس لله غيب، إذ الغيب شيء مستور، وجميع الغيوب عيان له تعالى، وكيف يغيب عنه وهو موجده، يبصره ببصره القديم، والعلم والبصر هناك واحد. انتهى.

الإعراب

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيّ﴾ منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عمّا فات؛ أيّ: من الإضافة، وجملة النداء: مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أيّ﴾ أو عطف بيان له وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلته. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُقَدِّمُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، والواو: فاعل، والجملة الفعلية: جواب النداء لا محل لها من الإعراب. وفي ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه متعدّ حذف مفعوله لقصد التعميم اقتصاراً، كقولهم: هو يعطي ويمنع، وكلوا واشربوا، أو اختصاراً للدلالة عليه؛ أيّ: لا تقدّموا ما لا يصلح تقديمه عليهما من الأقوال والأفعال.

والثاني: أنه لازم، نحو: وجّه وتوجّه، كما مرّ، ويؤيّده قراءة ابن عباس والضحاك ويعقوب ﴿تقدّموا﴾ بفتح التاء والقاف والدال. ﴿بَيْنَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ ﴿تُقَدِّمُواْ﴾. ﴿يَدَيِ ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، مجرور بالياء؛ لأنّه مثنى، ولفظ الجلالة: مضاف إليه. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ على كونه جواب النداء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان له، والجملة: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيّ﴾: منادىٰ نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أي﴾ وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾: صلة الموصول، وجملة النداء: مستأنفة. ﴿لَا تَرْفَعُوٓا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿أَصْوَٰتَكُمْ﴾: مفعول به، وجملة النهي، واقعة في جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَرْفَعُوٓا﴾، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية معطوف على ﴿لَا تَرْفَعُوٓا﴾. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ ﴿تَجْهَرُوا﴾. ﴿بِٱلْقَوْلِ﴾: متعلق بـ ﴿تَجْهَرُوا﴾ أيضاً. ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ﴾ ﴿الكاف﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره؛ أي: لا تجهروا له جهرا كائناً كجهر بعضكم، أو جهراً مثل جهر بعضكم لبعض. و﴿لِبَعْضٍ﴾: متعلق بـ ﴿جهر﴾؛ لأنه مصدر. ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾: ناصب وفعل مضارع وفاعل، والجملة: في تأويل مصدر منصوب على أنه مفعول لأجله، ولكنّه على تقدير مضاف؛ أي: خشية حبوط أعمالكم، أو كراهية حبوطها، والخشية منهم، وقد تنازع فيه ﴿لَا تَرْفَعُوٓا﴾ ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾. ﴿وَأَنتُمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أنتم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا تَشْعُرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب على الحال من الكاف في ﴿أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول. ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَغُضُّونَ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة الابتدائية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة الموصول. ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾: متعلق بـ ﴿ٱمْتَحَنَ﴾؛ لأنّه بمعنى: شرح أو أخلص أو صفّىٰ. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَأَجْرٌ﴾: معطوف على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿أجر﴾، والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُنَادُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة الموصول. ﴿مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يُنَادُونَكَ﴾، ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾. مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾: خبره، والجملة الإبتدائية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿صَبَرُوا۟﴾ من الفعل والفاعل: في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف، تقديره: ولو ثبت صبرهم على رأي المبرد والزجاج والكوفيين، أو مرفوع على أنه مبتدأ لا يحتاج إلى خبر؛ لأنّ الخبر يحذف وجوباً بعد لو ولولا علىٰ رأي سيبويه، وجمهرة البصريين. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، متعلق بـ ﴿صَبَرُوا۟﴾. ﴿تَخْرُجَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿تَخْرُجَ﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾؛ أي: إلى خروجك إليهم؛ أي: ولو ثبت صبرهم إلى خروجك إليهم. ﴿لَكَانَ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية. ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، واسمها: ضمير يعود على المصدر المفهوم من ﴿صَبَرُوا۟﴾؛ أي: لكان صبرهم. و﴿خَيْرًا﴾: خبرها. ﴿لَّهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿خَيْرًا﴾ وجملة ﴿كان﴾: جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ أو مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة: مستأنفة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أيّ﴾، وجملة النداء: مستأنفة، وجملة ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾: صلة الموصول. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿جَآءَكُمْ﴾: فعل ماض ومفعول به، في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿فَاسِقٌ﴾: فاعل.

﴿بِنَبَإٍ﴾: متعلق بـ ﴿جاء﴾. ﴿فتبيّنوا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً لكونه جملة طلبية. ﴿تبيّنوا﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، والواو: فاعل، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية: جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَن﴾ حرف نصب. ﴿تُصِيبُوا﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية، والواو: فاعل. ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به. ﴿بِجَهَالَةٍ﴾: حال من فاعل ﴿تُصِيبُوا﴾؛ أي: حال كونكم متلبسين بجهالة أو جاهلين، وجملة ﴿تُصِيبُوا﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على أنّه مفعول من أجله، ولكنّه على تقدير مضاف؛ أي: خشية إصابتكم أو كراهية إصابتكم. ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿تصبحوا﴾: فعل ناقص واسمه. معطوف على ﴿تُصِيبُوا﴾. ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾: متعلق بـ ﴿نَادِمِينَ﴾. و﴿نَادِمِينَ﴾: خبر ﴿تصبحوا﴾ منصوب بالياء.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَاعْلَمُوا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِيكُمْ﴾: خبر مقدم؛ لـ ﴿أَنَّ﴾: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿اعلموا﴾. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿يُطِيعُكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الرسول. ﴿فِي كَثِيرٍ﴾: متعلق بـ ﴿يُطِيعُكُمْ﴾. ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾: صفة لكثير، والجملة الفعلية: فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية. ﴿عنتم﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية: في محل النصب حال من ضمير المخاطبين في قوله: ﴿فِيكُمْ﴾؛ أي: حالة كونكم عانتين لو أطاعكم في كثير من الأمر. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿حَبَّبَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهِ﴾. ﴿إِلَيْكُمُ﴾: متعلق بـ

﴿حَبَّبَ﴾. ﴿ٱلْإِيمَٰنَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿حَبَّبَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لكنّ﴾، وجملة ﴿لكن﴾: معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية. ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوفِ على ﴿حَبَّبَ﴾. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿زين﴾. ﴿وَكَرَّهَ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿حَبَّبَ﴾، ﴿إِلَيْكُمُ﴾: متعلق بـ ﴿كره﴾. ﴿ٱلْكُفْرَ﴾: مفعول به لـ ﴿كرّه﴾. ﴿وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾: معطوفان على ﴿ٱلْكُفْرَ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: معترضة. ﴿فَضْلًا﴾: مفعول لأجله لـ ﴿حَبَّبَ﴾. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: صفة لـ ﴿فَضْلًا﴾. ﴿وَنِعْمَةً﴾: معطوف على ﴿فَضْلًا﴾، ويجوز أن تكون ﴿فَضْلًا﴾ ﴿وَنِعْمَةً﴾ مفعولاً لفعل محذوف؛ أي: تبتغون فضلاً من الله ونعمة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة: مستأنفة.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إنْ﴾: حرف شرط. ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ فاعل بفعل محذوف وجوبا يفسّره المذكور بعده، تقديره: وإن اقتتلت طائفتان. اقتتلت: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ صفة لـ ﴿طَآئِفَتَانِ﴾. ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة: مفسّرة للمحذوف، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَأَصْلِحُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً. ﴿أصلحوا﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، والواو: فاعل، والجملة: في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف متعلق بـ ﴿أصلحوا﴾، ﴿فَإِنۢ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿بَغَتْ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، مبنيّ بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة للتخلّص من التقاء الساكنين، والتاء: علامة تأنيث الفاعل. ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾: فاعل ﴿بَغَتْ﴾. ﴿عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾: متعلق بـ ﴿بغت﴾. ﴿فَقَٰتِلُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً.

﴿قاتلوا﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، والواو فاعل. ﴿ٱلَّتِي﴾: اسم موصول للمفردة المؤنثة في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾. ﴿تَبۡغِي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر صلة الموصول. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَفِيٓءَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة، وفاعله: ضمير يعود على الطائفة الباغية. ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: متعلق بـ ﴿تَفِيٓءَ﴾ والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ تقديره: إلى فيئها إلى أمر الله الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿قاتلوا﴾. ﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿فَآءَتۡ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الباغية، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب. ﴿أصلحوا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿بَيۡنَهُمَاۚ﴾: متعلق بـ ﴿أصلحوا﴾، ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ متعلق بـ ﴿أصلحوا﴾ أيضاً، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ﴾. ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾: فعل أمر وفاعل معطوف على ﴿أصلحوا﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: مبتدأ. ﴿إِخۡوَةٞ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿فَأَصۡلِحُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أخوّة المؤمنين، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم من النصيحة. . فأقول: لكم أصلحوا. ﴿أصلحوا﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، والواو: فاعل، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿أصلحوا﴾. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أصلحوا﴾، ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه وجملة ﴿تُرۡحَمُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: تقدّم إعرابه مراراً. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿مِّن قَوۡمٍ﴾: متعلق بـ ﴿يَسۡخَرۡ﴾، والجملة الفعلية، جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿عَسَىٰٓ﴾: فعل ماض من أفعال الرجاء، وهي هنا تامّة. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿يَكُونُواْ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية، والواو: اسمها. ﴿خَيۡرٗا﴾: خبرها. ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿خَيۡرٗا﴾، وجملة ﴿يَكُونُواْ﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ ﴿عَسَىٰٓ﴾، تقديره: عسى وحق كونهم خيراً منهم، وجملة ﴿عَسَىٰٓ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل النهي قبلها، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: زائدة زيدت لتأكيد النهي السابق. ﴿نِسَآءٞ﴾: معطوف على ﴿قَوۡمٞ﴾، ﴿مِّن نِّسَآءٍ﴾، متعلق بـ ﴿يَسۡخَرۡ﴾. ﴿عَسَىٰٓ﴾: فعل ماض تامّ. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَكُنَّ﴾: فعل مضارع ناقص في محل النصب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية، مبني بسكون على النون المدغمة في نون النسوة؛ لاتصاله بنون الإناث، ونون النسوة: اسمها. ﴿خَيۡرٗا﴾: خبرها. ﴿مِّنۡهُنَّۖ﴾: متعلق بـ ﴿خَيۡرٗا﴾، وجملة ﴿عَسَىٰٓ﴾: مسوقة لتعليل النهي.

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾، ناهية جازمة. ﴿تَلۡمِزُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، معطوف على جملة قوله: ﴿لَا يَسۡخَرۡ﴾. ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾. مفعول به. ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿لَا يَسۡخَرۡ﴾ أيضاً. ﴿بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾: متعلق بـ ﴿تَنَابَزُواْ﴾، ﴿بِئۡسَ﴾: فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ، ﴿ٱلِٱسۡمُ﴾: فاعله، ﴿ٱلۡفُسُوقُ﴾: هو المخصوص بالذمّ، وهو مبتدأ، خبره: الجملة قبله، ولك أن تعربه خبراً لمبتدأ محذوف، وأن تجعله بدلاً من ﴿ٱلِٱسۡمُ﴾. و﴿بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلِٱسۡمُ﴾، وجملة ﴿بِئۡسَ﴾: جملة

إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم ونفي. ﴿يَتُبْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾. وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة: في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿لَا يَسْخَرْ﴾ على كونها جواب النداء أو مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: تقدم إعرابه. ﴿ٱجْتَنِبُواْ﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، والواو: فاعل. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ صفة لـ ﴿كَثِيرًا﴾، والجملة الفعلية، جواب النداء. ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ﴾ ناصب واسمه. ﴿إِثْمٌ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، معطوف على ﴿ٱجْتَنِبُواْ﴾. ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ٱجْتَنِبُواْ﴾. ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري. ﴿يحب أحدكم﴾: فعل وفاعل، والجملة: جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَأْكُلَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿مَيْتًا﴾: حال من الأخ أو من اللحم، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: أكل لحم أخيه. ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة لجملة لو المحذوفة، على الجملة المفهومة من الاستفهام الإنكاري، تقديره: لا يحبّ أحدكم أكل لحم أخيه، فلو عرض عليكم.. كرهتموه، كما مر بسطه في مبحث

التفسير. ﴿كرهتموه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والواو: لإشباع ضمة الميم، والجملة الفعلية: جواب للو المحذوفة، لا محل لها من الإعراب، أو هو خبر بمعنى الأمر على كونه جواباً لشرط محذوف، تقديره: فإذا عرض عليكم.. فاكرهوه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿كرهتموه﴾ إذا كان خبراً بمعنى الأمر. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿تَوَّابٌ﴾: خبره. ﴿رَحِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿والهاء﴾: حرف تنبيه. ﴿النَّاسُ﴾: بدل من ﴿أيّ﴾، وجملة النداء: مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾: خبره، وجملة ﴿إنّ﴾: جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿مِنْ ذَكَرٍ﴾: متعلق بـ ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾. ﴿وَأُنْثَى﴾: معطوف على ﴿ذَكَرٍ﴾، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾، ﴿وَقَبَائِلَ﴾: معطوف على ﴿شُعُوبًا﴾، ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل. ﴿تعارفوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتعارف بعضكم بعضاً، الجار والمجرور: متعلق بـ ﴿خلقنا﴾، أو بـ ﴿جعلنا﴾. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿أَكْرَمَكُمْ﴾ ﴿أَتْقَاكُمْ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبره. ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)﴾.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿آمَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على

محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿تُؤْمِنُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿ولكنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل. ﴿قُولُوٓاْ﴾: فعل أمر وفاعل، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾. ﴿أَسْلَمْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة، في محل النصب مقول ﴿قُولُوٓاْ﴾. ﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لمَّا﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لمَّا﴾. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿يَدْخُلِ﴾، والجملة: في محل النصب حال من ضمير ﴿قُولُوٓاْ﴾؛ أي: ولكن قولوا أسلمنا حال عدم مواطأة قلوبكم لألسنتكم. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تُطِيعُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف عليه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَلِتْكُم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ومفعول به مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه جواباً لها. ﴿مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ﴾: حال من ﴿شَيْـًٔا﴾؛ لأنّه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة قوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾، على كونها مقولاً لـ ﴿قُل﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ﴾: خبره. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للتراخي. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَرْتَابُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾ معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿جاهدوا﴾، ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: معطوف على ﴿أموالهم﴾. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق

بـ ﴿جاهدوا﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ خبر، والجملة. مستأنفة. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة، مستأنفة. ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخيّ. ﴿تعلمون الله﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿بِدِينِكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿تعلمون﴾؛ لأنه بمعنى التعريف. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾: خبره، والجملة، الاسمية: في محل النصب حال من مفعول ﴿تعلمون﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾. و﴿عَلِيمٌ﴾، خبر المبتدأ، والجملة: مستأنفة مقرّرة لما قبلها.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَمُنُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ ﴿يَمُنُّونَ﴾، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿أَسْلَمُوا۟﴾: فعل ماض وفاعل في محل النصب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية، في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: يمنّون عليك بإسلامهم؛ أي: إسلامهم. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿لَّا﴾ ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَمُنُّوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿عَلَىَّ﴾ متعلق بـ ﴿تَمُنُّوا۟﴾، ﴿إِسْلَٰمَكُم﴾: مفعول به أو منصوب بنزع الخافض، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿بَلِ﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَمُنُّ﴾: خبره. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَمُنُّ﴾، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَّا تَمُنُّوا۟﴾. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿هَدَىٰكُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ومفعول به في محل النصب بـ ﴿أَنْ﴾ المصدرية، ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ متعلق بـ ﴿هَدَىٰكُمْ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية:

في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: بل الله يمنّ عليكم بهدايته إيّاكم للإيمان. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إن﴾ الشرطية: محذوف يدل عليه ما قبلها؛ أي: إن كنتم صادقين.. فهو المانُّ عليكم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية. مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بَصِيرٌ﴾: خبره، والجملة الابتدائية: معطوفة على جملة ﴿إنَّ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَصِيرٌ﴾. ويحتمل كون ﴿ما﴾: موصولة أو مصدرية، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف؛ أي: بالذي تعملونه، أو صلة لـ ﴿ما﴾ المصدرية، أي: بعملكم، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾؛ أي: لا تتقدموا، من قولهم: مقدمة الجيش لمن تقدم منهم، قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تقدم بين يدي الإمام، وبين يدي الأب؛ أي: لا تعجل بالأمر دونه، وقيل: إنّ المراد: لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة، ورُجّح هذا.

﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾؛ أي: إذا كلمتموه، ونطق ونطقتم فلا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، والصوت: هو الهواء المنضغط عن قرع جسمين، فإن الهواء الخارج من داخل الإنسان إن خرج بدفع الطبع يسمى نفساً، بفتح الفاء، وإن خرج بالإرادة، وعرض له تموج بتصادم الجسمين يسمىٰ صوتاً، والصوت الاختياري الذي يكون للإنسان ضربان: ضرب باليد: كصوت العود، وما يجري مجراه، وضرب بالفم، فالذي بالفم ضربان: نطق وغيره، فغير النطق كصوت الناي، والنطق إما مفرد من الكلام، وإما مركب، كأحد الأنواع الثلاثة من الكلام.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ والجهر يقال: لظهور الشيء بإفراط لحاسة البصر، نحو: رأيته جهاراً، أو حاسة السمع، نحو: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ في «المختار»: حبط عمله بطل ثوابه، وبابه فهم، وحبوطاً أيضاً. اهـ. وحبط عمله كسمع وضرب حبطاً وحبوطاً: بطل عمله، وأحبطه الله: أبطله. كما في «القاموس»، وقال الراغب: أصل الحبط من الحبط: وهو أن تكثر الدابة من الكلأ، حتى تنتفخ بطنها، فلا يخرج منها شيء.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ والشعور: العلم والفطنة، والشعر: العلم الدقيق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾ أصله: يغضضون بوزن يفعلون، نقلت حركة الضاد الأولى إلى الغين، فسكنت فأدغمت في الثانية، من الغضّ: وهو النقصان من الطرف أو الصوت، وما في الإناء، يقال: غض طرفه: خفضه، وغض السقاء: نقص مما فيه، وغض الصوت خفضه.

﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ الامتحان، افتعال، من محنت الأديم محناً: مددته حتى أوسعته، فمعنى امتحن قلوبهم للتقوى: وسَّعها، وشرحها للتقوى؛ اهـ «قرطبي».

وفي «القاموس»: محنه كمنعه اختبره كامتحنه، والاسم المحنة بالكسر. اهـ.

وقيل معناه: أخلصها للتقوى، من امتحن الذهب: إذا أذابه، وميز إبريزه من خبثه، فهو من إطلاق المقيد، وهو إخلاص الذهب، وإرادة المطلق. اهـ. «روح».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ أصله: ينادويونك، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلمّا سكنت.. التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الدال لمناسبة الواو.

﴿مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾؛ أي: من خارجها، سواء كان من خلفها أو من

قدامها، إذ إنها من المواراة: وهي الاستتار، فما استتر عنك.. فهو وراء خلفاً كان أو قدّاماً، فإذا رأيته.. لا يكون وراءك، ويرى بعض أهل اللغة: أنّ وراء من الأضداد، فتطلق تارةً على ما أمامك وأخرى على ما خلفك، والحجرات بضم الجيم وفتحها وتسكينها، واحدها حجرة: وهي القطعة من الأرض المحجورة؛ أي: الممنوعة عن الدخول فيها بحائط ونحوه، فهي فعلة بمعنى مفعولة: كالغرفة، والقبضة. اهـ «بيضاوي».

والمراد بها: حجرات نسائه ﷺ، وكانت تسعة، لكل منهنّ حجرة من جريد النخل، على أبوابها المسوخ من شعر أسود، وكانت غير مرتفعة، يتناول سقفها باليد، وقد أدخلت في عهد الوليد بن عبد الملك بأمره في مسجد رسول الله ﷺ، فبكى الناس لذلك، وقال سعيد بن المسيب يومئذٍ: لوددت أنهم لو تركوها على حالها، لينشأ ناس من أهل المدينة، ويقدم القادم من أهل الآفاق، فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التفاخر والتكاثر فيها.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾؛ أي: ولو ثبت صبرهم وانتظارهم إلى خروجك إليهم.. لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال، والصبر: هو حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها.

﴿فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ الفاسق: هو الخارج عن حدود الشرع من قولهم: فسق الرطب: إذا خرج من قشره، والنبأ: الخبر، قال الراغب: ولا يقال للخبر: نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة، وبه يحصل علم أو غلبة ظنّ.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ والتبين: طلب البيان والوضوح.

﴿لَعَنِتُّمْ﴾ والعنت محركة: الفساد والإثم والهلاك، ودخول المشقة على الإنسان. كما في «القاموس»، يقال: عنت فلان: إذا وقع في أمر يخاف منه التلف. كما في «المفردات». فهو من الباب الرابع مثل: طرب يطرب طرباً، ومعنى لعنتم؛ أي: لوقعتم في الجهد والهلاك.

﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ والحب: انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه، والتحبيب: إيقاع محبة الشيء في القلب.

﴿وَكَرَّهَ﴾ من التكريه، بمعنى التبغيض، والبغض ضدّ الحب، فالبغض: نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه، والتكريه: إيقاع كراهة الشيء، وبغضه في القلب.

﴿ٱلْكُفْرَ﴾: تغطية نعم الله تعالى بالجحود لها.

﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ الخروج عن الحدّ، كما علمت، والعصيان: عدم الانقياد، من قولهم: عصت النواة؛ أي: صلبت واشتدت.

﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ والرشاد: إصابة الحق، واتباع الطريق السويّ.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ مثنى طائفة، والطائفة من الناس: جماعة منهم، لكنّها دون الفرقة، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾. وفيه إعلال بالإبدال، أصله: طاوفتان؛ لأنّه من الطوف، أبدلت الواو همزة في الوصف حملاً له على فعله في الإعلال.

﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾: افتعال من القتل، وأصل القتل: إزهاق الروح عن الجسد بأيّ سبب كان.

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: فكفوهما عن القتال بالنصحية، أو بالتهديد والتعذيب.

﴿بَغَتْ﴾؛ أي: تعدت وجارت، أصله: بغي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم لما اتصلت بالفعل تاء التأنيث الساكنة.. التقى ساكنان، فحذفت الألف، يقال: بغى عليه بغياً: علا وظلم، وعدل عن الحق، واستطال. كما في «القاموس». وأصل البغي: طلب ما ليس بمستحق، فإنّ البغي الطلب.

﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ﴾؛ أي: ترجع، فإن الفيء: الرجوع إلى حالة محمودة، وفيه إعلال بالنقل، أصله: تفيىء بوزن تفعل، نقلت حركة الياء إلى الفاء، فسكنت إثر

كسرة فصارت حرف مدّ.

﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ وأمر الله: هو الصلح؛ لأنّه مأمور به في قوله: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾. ﴿فَآءَتۡ﴾ أصله: فيأ بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ من الصلاح، والصلاح: الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، والإصلاح: جعل الشيء على تلك الحالة.

﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾؛ أي: بإزالة آثار القتال بضمان المتلفات، بحيث يكون الحكم عادلاً، حتى لا يؤدي النزاع إلى الاقتتال مرة أخرى. ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾؛ أي: واعدلوا في كل شأن من شؤونكم، وأصل الإقساط: إزالة القسط بالفتح: وهو الجور، والقاسط: الجائر، كما قال: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ والإخوة في النسب، والإخوان في الصداقة، واحدهم أخ، وقد جعلت الأخوة في الدين كالأخوة في النسب، وكأنَّ الإسلام أب لهم، كما قال قائلهم:

أَبِـــيْ الإِسْـــلاَمُ لاَ أَبَ لِـــيْ سِـــوَاهُ ... إِذَا ٱفْـتَـخَـرُوْا بِـقَـيْـسٍ أَوْ تَـمِـيْـمِ

وأصل الأخ: المشارك لآخر في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما أو من الرضاع.

﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ﴾ السخرية: الاحتقار، وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، يقال: سخر به، وسخر منه، ضحك به، ومنه، وهزىء به ومنه، والاسم: السخرية، والسخري بالضم والكسر، وقد تكون بالمحاكاة بالقول أو بالفعل أو بالإشارة أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه، أو على صنعته، أو على قبح صورته، والقوم شاع إطلاقه على الرجال دون النساء، كما في الآية، وقول زهير:

وَمَـــا أَدْرِيْ وَسَـــوْفَ إِخَـــالُ أَدْرِيْ ... أَقَـــوْمٌ آلُ حِـــصْـــنٍ أَمْ نِـــسَـــاءُ

والقوم: الرجال خاصة؛ لأنهم القوّام بأمور لنساء، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ

﴿قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ وقال النبي ﷺ: «النساء لحم على وضم، إلا ما ذبّ عنه الذابّون» والذابّون: هم الرجال، وهو في الأصل جمع قائم كصوم وزور، جمع صائم وزائر، وسمع تسميته بالمصدر عن بعض العرب: إذا أكلت طعاماً أحببت نوماً، وأبغضت قوماً؛ أي: قياماً، وقال بعضهم: القوم: الجماعة من الناس، والجمع أقوام وأقاوم وأقائم وأقاويم، وقوم الرجل: أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جدٍّ واحد.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ﴾ أصله: يكْونون بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى الكاف فسكنت بعد ضمّ، فصارت حرف مدّ، ثم حذفت نون الرفع لدخول أداة النصب.

﴿وَلَا نِسَآءٌ﴾ اسم جمع لامرأة من النسوة بالفتح: وهو الضعف، الهمزة فيه مبدلة من واوٍ لظهورها في نسوة.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ﴾ أصله: يكْونن بوزن يفعلن، النون الأولى لام الفعل، الثانية نون النسوة، أُدغمت النون الساكنة في المتحركة، ثم نقلت حركة الواو إلى الكاف قبله فسكنت الواو، فالتقى ساكنان: الواو والنون المدغمة، فحذفت الواو لذلك، فوزنه يفلن.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: لا يعب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة باليد أو بالعين أو نحوهما، والمؤمنون كنفس واحدة، فمتى عاب المؤمن المؤمن.. فكأنما عاب نفسه، من اللمز: وهو الطعن، والضرب باللسان، وفي «المصباح»: لمزه لمزاً من باب ضرب: عابه، وقرأ بها السبعة، ومن باب قتل لغة.

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾ والتنابز: التعاير والتداعي بما يكرهه الشخص من الألقاب، من النبز بسكون الباء مصدر نبزه بمعنى لقبه، وأصل تنابزوا: تتنابزوا بتائين، حذفت إحداهما. وفي «السمين»: التنابز تفاعل من النبز: وهو التداعي باللقب، والنزب مقلوب منه لقلة هذا وكثرة ذاك، ويقال: تنابزوا وتنازبوا: إذا دعا بعضهم بعضاً بلقب سوء. اهـ.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ﴾ والاسم: الذكر، والصيت من قولهم: طار اسمه بين الناس بالكرم أو اللؤم، وليس المراد بالاسم هنا: ما يقابل اللقب والكنية، ولا ما يقابل الفعل والحرف، بل المراد به: الذكر المرتفع؛ لأنّه من السمو. اهـ «كرخي».

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أصله: يتْوب بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى التاء فسكنت فالتقى ساكنان؛ لأن آخر الفعل ساكن لمناسبة دخول الجازم، فحذفت الواو لذلك فوزنه يفل.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ أصله: تتجسسوا، حذفت نون الرفع للجازم، ثم حذفت إحدى التائين للتخفيف، من التجسس: وهو البحث عن العورات والمعايب والكشف عمّا ستره الناس، تفعل من الجس لما فيه من معنى الطلب، فإن جس الخبر: طلبه، والتفحص عنه، فإذا نقل إلى باب التفعل.. يحدث معنى التكلف منضماً إلى ما فيه من معنى الطلب، يقال: جسست الأخبار؛ أي: تفحصت عنها، وإذا تجسستها يراد به معنى التكلف كالتلمس، فإنه تفعل من اللمس: وهو المسّ باليد لتعرف حال الشيء، وفي «المفردات»: أصل الجس: مس العرق، وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم، ومن لفظ الجس اشتق الجاسوس، وهو أخص من الحس؛ لأنه تعرف ما يدرك الحس، والجس: تعرف حال ما من ذلك، وفي «الإحياء»: التجسّس بالجيم في: تطلع الأخبار، وبالحاء المهملة: في المراقبة بالعين، وفي «القاموس»: الجس: تفحص الأخبار كالتجسس، ومنه الجاسوس، والجسيس لصاحب سر الشر، ولا تجسسوا؛ أي: خذوا ما ظهر، ودعوا ما ستر الله تعالى، أو لا تفحصوا عن بواطن الأمور، أو لا تبحثوا عن العورات، والحاسوس: هو الجاسوس أو في الخير، وبالجيم في الشر. انتهى.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أصله: يغتيب، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثمّ حذفت لالتقاء الساكنين، من الاغتياب، والغيبة بالكسر: اسم من الاغتياب، وفتح الغين غلط، إذ هو بفتحها مصدر بمعنى الغيبوبة، والغيبة والاغتياب: هو أن يتكلم إنسان خلف إنسان مستورٍ بما فيه من عيب، كما تقدم.

﴿وَقَبَآئِلَ﴾ جمع قبيلة، والهمزة فيه مبدلة من ياء فعيلة المجودة في اسم

مؤنث، وهي حرف مدّ زائد ثالث.

﴿شُعُوبًا﴾ جمع شعب بفتح الشين: وهو أعلى طبقات النسب، كما مرّ، وسميت الشعوب؛ لأنَّ القبائل تشعبت منها، ومنه: اشتقت الشعوبية بضم الشين: وهم قوم يصغرون شأن العرب، سموا بذلك؛ لتعلّقهم بظاهر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾. وقال ابن هبيرة: في «المحكم»: غلبت الشعوبية بلفظ الجمع على جيلٍ من العجم، حتى قيل لمحتقر أمر العرب: شعوبيٌّ، وإن لم يكن منهم، وأضافوا إلى الجمع لغلبته على الجيل الواحد، كقولهم؛ أنصاريّ.

﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أصله: تتعارفوا، حذفت منه إحدى التائين. ﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾ اسم تفضيل من الفعل الثلاثيّ وقى، والتاء فيه: مبدلة من واو، والألف فيه مبدلة من واو المبدلة من الياء في الأصل؛ لأنّ مادّة وقي فاؤها واو، ولامها ياء، أُبدلت الواو تاءً، والياء واواً.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ هم سكان البادية. ﴿لَا يَلِتْكُم﴾؛ أي: لا ينقصكم، من لاته يليته، كباعه يبيعه، وقيل هو من ولته يلته، كوعده يعده، وعلى هذا فيه إعلال بحذف فاء الفعل المثاليّ، أصله: ولت، وقياس المضارع يولت، حذفت الواو لوقوعها بين ياءٍ مفتوحة وكسرة.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ من ارتاب مطاوع رابه: إذا أوقعه في الشكّ في الخير مع التهمة للمخبر، فظهر الفرق بين الريب والشك، فإنَّ الشك تردد بين نقيضين لا تهمة فيه، أصله: يرتيبون بوزن يفتعلون، حذفت نون الرفع لدخول أداة الجزم، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾؛ أي: يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنيعة، وأسدى إليك نعمة، أصله: يمننون بوزن يفعلون، نقلت حركة النون الأولى إلى الميم، فسكنت فأدغمت في الثانية، وكذلك القول في: ﴿تَمُنُّواْ﴾ وفي ﴿يَمُنُّ﴾.

وقوله: ﴿هَدَىٰكُمْ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: هديكم، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ شبه ما وقع من بعض الصحابة من القطع في أمر من الأمور الدينيّة، قبل أن يحكم الله ورسوله به بحال من يتقدم في المشي في الطريق مثلاً لوقاحته على من يجب أن يتأخّر عنه، ويقفو أثره تعظيماً له، فعبر عن الحالة المشبهة بما يعبر به عن المشبه بها على طريق الاستعارة التمثيلية.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل، في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ لوجود أداة التشبيه.

ومنها: حذف مفعول ﴿تُقَدِّمُوا﴾. كقوله: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾. وقولهم: هو يعطي ويمنع، وفي الحذف من البلاغة ما ليس في الذكر؛ لأنّ الخيال فيه يذهب كل مذهب.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فإنَّ في تكريره فائدة بلاغية لطيفة: وهي إظهار الشفقة على المسترشد، وإبداء المناصحة له على آكد وجه؛ ليقبل على استماع الكلام، ويعيره باله، ولتحديد المخاطبين بالذات، وأنهم هم المعنيون بالمناصحة. وفيه أيضاً: استدعاء لتجديد الاستبصار والتيقظ، والتنبه عند كل خطاب.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿مِن وَرَآءِ الْحُجُرَٰتِ﴾ فإنه كناية من موضع خلوته ﷺ، ومقيله مع بعض نسائه، وقد ازدادت الكناية بإيقاع الحجرات معرفة بالألف واللام، دون الإضافة إليه، وفي ذلك من حسن الأدب ما لا يخفى.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ للدلالة على عظمهما.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ﴾ لإفادة الشمول والعموم، لأنّ النكرة إذا وقعت في سياق الشرط.. عمّت، كما تعمّ إذا وقعت في سياق النفي،

وفي هذا التنكير ردّ على من زعم أنها نزلت في الوليد بن عقبة، وهو من كبار الصحابة؛ لأنّ إطلاق الفسوق عليه بعيد، ذلك أنّ الفسوق هو الخروج من الشيء والانسلاخ منه، والوليد كما يذكرون ظنّ فأخطأ، والمخطىء كما قاله الرازي: لا يسمّىٰ فاسقاً، فالعموم هنا هو المراد، كأنه قال: أيّ فاسق جاءكم بأي نبأ فمّحصوه، وابحثوا عنه، واعرضوه على محك التصويب والتخطئة قبل البتّ في الحكم، ولا تستعجلوا الأمور.

ومنها: الإتيان بصيغة الأمر في قوله: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ دلالة على أنهم نزّلوا منزلة الجاهلين لمكانه؛ لتفريطهم فيما يجب من تعظيم شأنه.

ومنها: التعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ولم يقل: لو أطاعكم لإفادة الديمومة والاستمرار على أن يعمل ما يرونه صواباً.

ومنها: الطباق بين ﴿حَبَّبَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ﴾، وبين الإيمان والكفر في، قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾.

ومنها: أيضاً صيغة المضارع في قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ للدلالة على أنّ امتناع عنتهم لامتناع استمرار طاعته ﷺ؛ لأنّ عنتهم إنما يلزم من استمرار الطاعة فيما يعنّ لهم من الأمور.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ بعد قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

ومنها: الطباق بين: ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾ و﴿أصلحوا﴾ في قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾.

ومنها: مراعاة المعنى، حيث قال: ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾ بواو الجمع؛ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس، والقياس؛ اقتتلتا بالتثنية، ثمّ مراعاة اللفظ، حيث قال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ بألف التثنية.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أصل الكلام: إنما المؤمنون كالإخوة في وجوب التراحم والتناصر، فحذف وجه الشبه وأداة التشبيه،

فأصبح بليغاً مع إفادة الجملة الحصر؛ أي: فالآية من التشبيه البليغ المبتنى على تشبيه الإيمان بالأب في كونه سبب الحياة كالأب.

ومنها: وضع الظاهر مقام المضمر، مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح، والتحضيض عليه؛ لأنّ مقتضى السياق أن يقال: إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بينهم.

ومنها: تخصيص الاثنين بالذكر، في قوله: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية؛ لتضاعف الفتنة والفساد فيه.

ومنها: جناس الاشتقاق، في قوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

ومنها: الإتيان بالجمع في قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ حيث لم يقل: رجل من رجل، ولا امرأة من امرأة؛ إيذاناً بإقدام غير واحد من رجالهم، وغير واحدة من نسائهم على السخرية، واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه، ولأنّ مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهّي ويستضحك، على قوله: ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار، فيكون شريك الساخر، وتلْوه في تحمّل الوزر، وكذلك كل من يستطيبه ويضحك منه، فيؤدّي ذلك وإن أوجده واحد إلى تكثير السخرة، وانقلاب الواحد جماعة وقوماً.

ومنها: تنكير ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ و﴿نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ إمّا للتعميم أو للتبعيض، والقصد إلى نهي بعضهم عن سخرية بعض.

ومنها: عطف الخاص على العامل في، قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ لأنّه داخل في السخرية، بجعل الخاصّ كأنه جنس آخر للمبالغة، ولهذا قيل:

جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا ٱلْتِئَامٌ وَلاَ يَلْتَامُ مَا جَرَحَ ٱللِّسَانُ

فالسخرية تكون باللسان وبالعين والإشارة، واللمز إنّما يكون باللسان فقط.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ إيذاناً بأنّ من الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيّن لذلك، ولا تعيين؛ لئلا يجترىء أحد على ظنّ إلا بعد تأمّل، وبعد نظر وتمحيص.

ومنها: الاستعارة التمثيلية الرائعة، في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فقد شبّه من يغتاب غيره بمن يأكل لحم أخيه ميتاً.

وفيها مبالغات شتّى:

أوّلها: الاستفهام الذي معناه التقرير، كأنه أمر مفروغ منه، مبتوت فيه.

وثانيها: جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة.

وثالثها: إسناد الفعل إلى كل أحد للإشعار بأنّ أحداً من الأحدين لا يحبّ ذلك.

ورابعها: أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعله أكره اللحوم، وأبعثها على التقزز.

وخامسها: أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً، ومن ثم فَصُحَتْ هذه الآية، وأكبرها أصحاب البيان.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ لأنّه حذف من الأول ما يقابل الثاني، ومن الثاني ما يقابل الأول، والأصل: فإن لم تؤمنوا.. فلا تقولوا: آمنّا، ولكن أسلمتم، فقولوا أسلمنا، كما مر.

ومنها: الإتيان بـ: ثُمَّ في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ للإشعار بأنّ اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان، ليس في حال إنشائه فقط، بل وفيما يستقبل، فهي كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

ومنها: قصر إفراد وتكذيب، في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾؛ لأنّ فيه تكذيباً لأعراب بني أسد، حيث اعتقدوا الشركة، وزعموا أنهم صادقون أيضاً في دعوى الإيمان.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾.

ومنها: تذييل مقرر لما قبله بقوله: ﴿وَاللَّهُ﴾ في: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛

لأنّه تقرير لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. وفيه أيضاً: مزيد تجهيل وتوبيخ لهم، حيث كانوا يجتهدون في ستر أحوالهم وإخفائها.

ومنها: في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا...﴾ الآية. فن سماه صاحب «الصناعتين» الاستدراك، وغيره يسميه الاستثناء، وهو يتضمن ضرباً من المحاسن زائداً على ما يدل عليه المدلول اللغويّ، فإن الكلام لو اقتصر فيه على ما دون الاستدراك.. لكان منفّرا لهم؛ لأنّهم ظنّوا الإقرار بالشهادتين من غير اعتقادهما إيماناً، فأوجبت البلاغة تبيين الإيمان، فاستدرك ما استدركه من الكلام، ليعلم أنّ الإيمان موافقة القلب للسان، ولأنّ انفراد اللسان بذلك يسمّى إسلاماً لا إيماناً، وزاده إيضاحاً بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. وبعضهم يدخل هذا النوع في نطاق فنّ يقال له: جمع المختلفة والمؤتلفة، فإنّهم ظنّوا أنّ الإيمان العمل باللسان ودن العمل بالجنان، فجاء قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ مؤتلفاً لقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ وهم يعتقدون أنّ الإيمان مجرد الإقرار باللسان، وخالف ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ وائتلف به قوله مبيّناً حقيقة الإيمان، وأنه خلاف ما ظنّوا: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) فرغت من تفسير هذه السورة الكريمة، تمام الساعة الرابعة من يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر الربيع الأول المبارك، من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة، من سني الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيات، ١٤١٥/٣/٢٥ وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين، آمين يا ربّ العالمين آمين.

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة

مباحث هذه السورة قسمان:

قسم: بين النبيّ ﷺ وأمته.

وقسم: يخصّ أمّته، وهو: إما ترك للرذائل، وإما تحلية بالفضائل.

والقسم الأول:

١ ـ أن لا يقضي المؤمنون في أمر قبل أن يقضي الله ورسوله فيه.

٢ ـ الهيبة والإجلال لرسول الله ﷺ، وأن لا تتجاوز أصواتهم صوته.

٣ ـ أن لا يخاطبوه باسمه وكنيته. كما يخاطب بعضهم بعضاً، بل يخاطبونه بالنبيّ والرسول.

٤ ـ أنّ الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك هم المتقون.

٥ ـ أنّ من نادوه من وراء الحجرات: كعيينة بن حصن، ومن معه أكثرهم لا يعقلون.

٦ ـ ذمّ المنّ على الله ورسوله ﷺ بالإيمان.

والقسم الثاني هو:

١ ـ أن لا نسمع كلام الفاسق، حتى نثبّت منه، وتظهر الحقيقة.

٢ ـ إذا بغت إحدى طائفتين من المؤمنين على أخرى.. وجب قتال الباغية حتى تفيء إلى أمر الله.

٣ ـ حبب الصلح بين المؤمنين.

٤ ـ النهي عن السخرية واللمز والتنابز.

٥ ـ النهي عن سوء الظنّ بالمسلم، وعن تتبع العورات المستورة، وعن الغيبة والنميمة.

٦ ـ الناس جميعاً سواسية، مخلوقون من ذكر وأنثى، لا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلا بالتقوى.

والله أعلم

* * *

سورة ق

سورة ق مكّية كلّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، نزلت بعد المرسلات، وروي عن ابن عباس وقتادة: أنها مكية، إلا آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ فمدنية، وهي أوّل المفصل على الصحيح، وقيل: أوّله من الحجرات، كما هي عند الشافعية.

وهي خمس وأربعون آيةً، وثلاث مئة وسبع وخمسون كلمةً، وألف وأربع مئة وأربعة وتسعون حرفاً، وسمّيت سورة قَ؛ لبدايتها بحرف قَ.

الناسخ والمنسوخ: قال محمد بن حزم: وجميعها محكم، إلا آيتين.

إحداهما: قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ...﴾ (الآية ٣٩)، نسخ الصبر بآية السيف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ (٤٥ الآية)، نسخ بآية السيف.

مناسبتها لما قبلها[١]: أنه أشار في آخر السورة السابقة إلى أنّ إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيماناً حقًّا، وذلك يقتضي إنكار النبوّة، وإنكار البعث، وافتتح هذه السورة بما يتعلّق بذلك، وعبارة أبي حيان[٢]: مناسبتها لآخر ما قبلها: أنه تعالى أخبر أنّ أولئك الذين قالوا: آمنا لم يكن إيمانهم حقًّا، وانتفاء إيمانهم دليل على إنكار نبوّة الرسول ﷺ، فقال: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾. وعدم الإيمان أيضاً يدل على إنكار البعث؛ فلذلك أعقبه به.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه مسلم وغيره عن جابر بن سمرة: أنه ﷺ كان يقرأ سورة ق في الركعة الأولى من صلاة الفجر.

ومنها: ما أخرجه أحمد ومسلم، وأبو داود والنسائي عن أبي واقد الليثي: أنه ﷺ كان يقرأ في العيد بقاف واقتربت.

ومنها: ما أخرجه أبو داود، والبيهقي وابن ماجه عن أم هشام ابنة حارثة قالت: ما أخذت ق والقرآن المجيد إلا من في رسول الله ﷺ كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر، إذا خطب الناس وكل ذلك دليل على أنه كان يقرأ بها في المجامع الكبيرة: كالعيدين والجمع؛ لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور والمعاد والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب، وروي(١) عنه ﷺ:أنه قال: «من قرأ سورة قَ.. هوَّن الله عليه تأرات الموت، وسكراته».

والله أعلم

* * *

(١) البيضاوي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ
(٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ
(٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ
بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ
بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ
وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ
الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَٰبُ
الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ
(١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى
الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَآءَتْ سَكْرَةُ
الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ
مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ
قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِى
جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِى
ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّٰمٍ
لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾.

المناسبة

قد قدّمنا آنفاً بيان مناسبة أوّل هذه السورة لآخر السابقة، وأما قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر(١) أنهم استبعدوا البعث، فقالوا: رجع

---

(١) المراغي.

بعيد.. أردف ذلك بالدليل الذي يدحض كلامهم، فإنَّ من خلق السماء، وزينها بالكواكب، وبسط الأرض، وجعل فيها رواسي، وأنبت فيها صنوف النبات، وجعل ذلك تذكرةً وتبصرةً لأولي الألباب، ونزّل من السماء ماءً فأنبت به ناضر الجنان، والزرع المختلف الأصناف والألوان، والنخل الباسق ذا الطلع المتراكم بعضه فوق بعض رزقاً لعباده، وأحيا به الأرض الموات، أفلا يستطيع من هذا شأنه أن يخرج الناس من قبورهم بعد بلاهم، وبعد أن يصيروا عظاماً ورفاتاً، وينشئهم خلقاً آخر في حياة أخرى، وعالم غير هذا العالم؟

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر تكذيب المشركين للرسول ﷺ.. أردف ذلك بذكر المكذبين للرسل من قبله، وبيان ما آل إليه أمرهم، تسليةً لرسوله ﷺ، وعبرة لهم، وتنبيهاً إلى أنَّ حاله معهم كحال من تقدمه من الرسل، كُذبوا، فصبروا، فأهلك الله مكذبيهم، ونصرهم، وأعلى كلمتهم، كما قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾.

ثم ذكر الدليل على البعث الذي أنكرته الأمم التي كذّبت رسلها، بأنّ من خلق العالم بادىء ذي بدءٍ.. فهو على إعادته أقدر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما استدلَّ على إمكان البعث بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾.. أردف ذلك دليلاً آخر على إمكانه، وهو علمه بما في صدورهم، وعدم خفاء شيء من أمرهم عليه، فإنَّ من كان كذلك لا يبعد أن يعيدهم كرةً أخرى.

ثم أخبر بأنهم سيعلمون بعد الموت أنّ ما جاء به الدين حقّ لا شكّ فيه، وأنه يوم القيامة تأتي كل نفس ومعها ملكان:

أحدهما: سائق لها إلى المحشر.

والثاني: شهيد عليها، وأنّ الخزنة سيقولون لأهل النار لقد كنتم في غفلة عن حلول هذا اليوم الذي تُوفّى فيه كل نفس جزاء ما عملت، والآن أزلنا عنكم هذه الغفلة، فأبصرتم عاقبة أمركم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قٓ﴾؛ أي:[1] هذه سورة ق؛ أي: مسماة بـ﴿قٓ﴾، واختلف في معنى ﴿قٓ﴾ ما هو؟ فقال يزيد وعكرمة والضحاك: هو اسم جبلٍ محيطٍ بالأرض، من زمردة خضراء اخضرت السماء منه، والسماء مقببة عليه، وهو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنةٍ، وما أصاب الناس من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل، رواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال الفرّاء: كان يجب على هذا القول أن يظهر الإعراب في ﴿قٓ﴾؛ لأنّه اسمٌ، وكذا على القول الأول. وقال وهب[2]: أشرف ذو القرنين على جبل قَ، فرأى تحته جبالاً صغاراً، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا قاف، قال: فما هذه الجبال حولك؟ قال: هي عروقي، ما من مدينة من المدن، ولا قرية من القرى، إلا وفيها عرق من عروقي، فإذا أراد الله سبحانه أن يزلزل مدينة.. أمرني، فحركت عرقي ذلك، فتزلزل تلك المدينة، فقال: يا قاف، أخبرني بشيءٍ من عظمة الله تعالى، قال: إنَّ شأن ربنا لعظيم، وإن ورائي أرضاً مسيرة خمس مئة عام في خمس مئة عام من جبال ثلج بعضها يحطم بعضاً، لولا هي.. لاحترقت من حرّ جهنّم، فهذا يدل على أنّ جهنّم على وجه الأرض، والله أعلم بموضعها، وأين هي من الأرض، وقال الزجّاج: معنى قوله: ﴿قٓ﴾؛ أي: قُضِيَ الأمر، كما قيل: في حمّ؛ أي: حم الأمر، وقال ابن عباس أيضاً: إنه اسم من أسماء الله تعالى، أقسم به، وعنه أيضاً: أنه اسم من أسماء القرآن، وهو قول قتادة، وقال القرطبي: هو افتتاح أسماء الله عزّ وجل، مثل: القادر والقدير والقديم والقاهر والقهار والقريب والقابض والقدوس والقيّوم؛ أي: أنا القادر إلخ، وقيل: قَسَمٌ أقسم الله به؛ أي: بحق القائم بالقسط، وقال الشعبي: فاتحة السورة، وقال أبو

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات.

بكر الورّاق: معناه قف عند أمرنا ونهينا، ولا تعدهما، وقيل: غير ذلك مما هو أضعف منه.

والحق: أنه من المتشابه الذي استأثر الله سبحانه بعلمه، كما حقّقنا ذلك في فاتحة سورة البقرة.

وقرأ الجمهور: ﴿قٓ﴾ بسكون الفاء، وبفتحها عيسى، وبكسرها الحسن وابن أبي إسحاق وأبو السمّال، وبالضم هارون وابن السميقع والحسن أيضاً فيما نقل ابن خالويه، والأصل في حروف المعجم إذا لم تركب مع عامل: أن تكون موقوفةً، فمن فتح القاف.. عدل إلى أخفّ الحركات، ومن كسرها.. فعلى أصل التقاء الساكنين، ومن ضم.. فكما ضم قط ومنذ وحيث وقبل وبعد وحسب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾؛ أي: الشريف الكريم على الله، الكثير الخير والبركة، أو ذي المجد والشرف على سائر الكتب على أن يكون للنسب: كلابن وتامر، ﴿الواو﴾ فيه: للقسم إن قلنا: إنّ ﴿قٓ﴾ من المتشابه الذي لا نعلم معناه، وهو الأصحّ.

والمعنى: أقسمت بالقرآن المجيد، وإن قلنا: إنّ ﴿قٓ﴾ قسم أقسم به سبحانه وتعالى، فالواو فيه: عاطفة على ما قبله.

والمعنى: أقسمت بـ﴿قٓ﴾ وبـ﴿القرآن المجيد﴾.

واختلفوا في جواب القَسَم[1]، فقال الأخفش: إنه محذوف، تقديره: أقسمت بالقرآن المجيد، إنك يا محمد لنبيّ منذر؛ أي: مخوّف من عذاب الله تعالى، وقال الكوفيّون: جوابه قوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ وقال ابن كيسان: جوابه ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾، وقيل: هو ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ بتقدير اللام؛ أي: لقد علمنا، وقيل: هو محذوف، تقديره: والقرآن المجيد، إنا أنزلناه إليك لتنذر به الناس، وقيل: هو محذوف، تقديره: لتبعثّن يدلّ عليه قوله: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا

---

(١) الشوكاني.

﴿مِّتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝٤٧﴾.

وقوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ إضراب عن الجواب المحذوف على اختلاف الأقوال، وقوله: ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ في موضع نصب على تقدير مِن؛ أي:[1] بل عجب كفّار مكة، ومتعنّتوهم من أن جاءهم رسول منذر من عذاب الله من جنسهم، لا من جنس الملك، وهو محمد ﷺ؛ أي: إنهم شكّوا فيه، ولم يكتفوا بالشكّ والتردّد، بل جزموا بالخلاف، حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، وقال بعضهم: جواب القسم محذوف، ودليل ذلك قوله: ﴿بَلۡ﴾؛ لأنّه لنفي ما قبله، فدلّ على نفي مضمر، تقديره: أقسم بجبل قاف الذي به بقاء دنياكم، وبالقرآن الذي به بقاء دينكم ما كذّبوك ببرهان، ولا بمعرفةٍ بكذبك بل عجبوا، إلخ. والعجب: نظر النفس لأمر خارج عن العادة.

ثمّ فسّر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ فهو تفسير لتعجّبهم، وبيان لكونه مقارناً لغاية الإنكار، وهذا إشارة إلى كونه ﷺ منذراً بالقرآن.

وحاصله: كون النذير منّا خصص بالرسالة من دوننا، وكون ما أنذر به هو البعث بعد موت كل شيء، بليغ في الخروج عن العادة إشكاله، وهو من فرط جهلهم؛ لأنهم عجبوا أن يكون الرسول بشراً، وأوجبوا أن يكون الإله حجراً، وأنكروا البعث مع أنّ أكثر ما في الكون مثل ذلك من إعادة كل من الملوين بعد ذهابه، وأحياء الأرض بعد موتها، وإخراج النبات والأشجار والثمار وغير ذلك.

ثمّ إنّ[2] إضمار الكافرين أوّلاً في قوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾؛ للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم من المقال، وأنه إذا ذكر شيء خارج عن سنن الاستقامة.. انصرف إليهم إذ لا يصدر إلا عنهم، فلا حاجة إلى إظهار ذكرهم، وإظهارهم ثانياً بقوله: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى: يقول الله سبحانه[1]: أقسم بكتابي الكثير الخير والبركة، إنّك أيها الرسول جئتهم منذراً بالبعث فلم يقبلوا، ولم يكتفوا بالشك في أمرك، وردّ رسالتك، بل جزموا بنفيها، وجعلوها من عجائب الأمور التي تستحق الدهشة، وتثير التأمّل والاعتبار، فقال المكذبون بالله ورسوله من قريش إذ جاءهم منذر منهم: هذا شيء عجيب؛ أي: إنّ مجيء رجل منّا برسالة من الله إلينا أمر عجيب، هلا أنزل إلينا ملكاً، فيكون لنا نذيراً، كما حكى عنهم من قولهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ وقوله حكاية عنهم: ﴿قَالُوٓاْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾.

وبعد أن أظهروا التعجب من رسالته، أظهروا استبعاد ما جاء به، فقالوا: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: أنرجع ونبعث حين فارقت أرواحنا أجسامنا، وصرنا تراباً كما يقول النذير؛ أي: لا نرجع ولا نبعث. ﴿ذَٰلِكَ﴾ البعث والرجوع بعد الموت لـ﴿رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ عن الأوهام، لا يصدّقه العقل، وتحيله العادة.

وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي: بكسر ميم ﴿مِتۡنَا﴾، والباقون: ﴿متنا﴾ بالضم، وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَءِذَا﴾ بهمزة الاستفهام الإنكاري، وهو على تفصيلهم في تحقيق الثانية وتسهيلها والفصل بينهما، وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وابن وثّاب والأعمش، وابن عتبة عن ابن عامر: ﴿إذا﴾ بهمزة واحدة على صورة الخبر، فجاز أن يكون استفهاماً، حذفت منه الهمزة كقراءة الجمهور، وجاز أن يكونوا عدلوا إلى الخبر، وأضمر جواب إذا؛ أي: إذا متنا وكنا تراباً.. رجعنا، وهمزة الاستفهام على قراءة الجمهور: داخلة على محذوف، دلّ عليه ما بعده، وهو العام في الظرف؛ أي: أنبعث ونرجع إذا متنا، وصرنا تراباً لا فرق بيننا وبين تراب الأرض، كما يقول النذير، والمنذر به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذٍ؛ أي: لا نرجع ولا نبعث. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرجع والبعث ﴿رَجۡعُۢ﴾؛ أي:

(١) المراغي بتصرف.

(٢) البحر المحيط.

ردّ إلى الحياة، وإلى ما كنّا عليه. ﴿بَعِيدٌ﴾ جدّاً عن الأوهام، أو عن العادة، أو عن الإمكان أو عن الصدق غير كائن؛ لأنه لا يمكن تمييز ترابنا عن بقية التراب.

ثم ردّ سبحانه ما قالوه، فقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ نحن ﴿مَا تَنقُصُ﴾ وتأكل ﴿ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أجسادهم، فلا يضلّ عنّا شيء من ذلك، ومن أحاط علمه بكل شيء، حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور، لا يصعب عليه البعث، ولا يستبعد منه، وهذا[1] رد لاستبعادهم، وإزاحة له؛ أي: نحن على ذلك في غاية القدرة، فإنّ من عمّ علمه ولطفه، حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى، وتأكل من لحومهم وعظامهم.. كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا؟! وعبّر بمن في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأنّ الأرض لا تأكل عجب الذنب، فإنه كالبذر لأجسام بني آدم، وفي الحديث: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، فمنه خلق وفيه يركب». والعجب بفتح العين وسكون الجيم: أصل الذنب، ومؤخر كل شيء، وهو ههنا عظم لا جوف له، قدر ذرة أو خردلة، يبقى من البدن ولا يبلى، فإذا أراد الله سبحانه الإعادة. ركّب على ذلك العظم سائر البدن وأحياه؛ أي: غيْر أبدان الأنبياء والصديقين والشهداء، فإنها لا تبلى، ولا تتفسخ إلى يوم القيامة، على ما نصت به الأخبار الصحيحة.

والأصح في كيفية الإعادة[2]، كما دلّ عليه الخبر الصحيح: أنّ السماء تمطر مطراً شبه المنيّ، فينشأ منه النشأة الآخرة، كما أنّ النشأة الدنيا من نقطة تنزل من بحر الحياة إلى أصلاب الآباء، ومنها إلى أرحام الأمّهات، فيتكون من قطر بحر الحياة تلك النقطة جسد في الرحم.

والخلاصة[3]: أي قد علمنا ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم، ولا يخفى علينا أين تفرّقت الأبدان، وأين ذهبت، وإلى أين صارت، فلا يصعب البعث ولا يستبعد.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

ثم أكد علمه بجميع الأشياء، فقال: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾؛ أي: وعندنا كتاب حافظ، ضابط لتفاصيل الأشياء كلها، أو محفوظ عن التغيير، وهذا إما تمثيل لحال علمه تعالى للكائنات جميعاً علماً كاملاً بعلم من عنده كتاب حفيظ، يتلقّى منه كل شيء، فيضبط ما يعلم أتم الضبط، ويحصيه أكمل الإحصاء، أو تأكيد لعلمه بها، بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده.

ثمّ حكى عنهم ما هو أفظع من تعجّبهم، وهو تكذيبهم بالنبوّة الثابتة بالمعجزات من أوّل وهلة بلا تدبّر ولا تفكر، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا إضراب وانتقال من بيان شناعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم بالنبوّة الثابتة بالمعجزات الباهرة، فالأفظعيّة لكون الثاني تكذيباً للأمر الثابت من غير تدبّر، بخلاف الأول، فإنه تعجّب؛ أي: بل كذّبوا بالحق الذي جاءهم، وهو محمد ﷺ، أو القرآن. ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: حين جاءهم الحق من غير تأمّل وتفكر تقليدا للآباء، وبعد التأمل تمردّاً وعناداً، وجاء بكلمة التوقع إشعاراً بأنّهم علموا بعد علو شأنه، وإعجازه الشاهد على حقيقته، فكذّبوا به بغياً وحسداً.

وقرأ الجمهور: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بفتح اللام وتشديد الميم، وقرأ الجحدري: بكسر اللام وتخفيف الميم، فاللام حرف جرٍ وما مصدرية، واللام كهي في قولهم: كتبته لخمس خلون من كذا؛ أي: عند مجيئه إياهم. ذكره في «البحر».

﴿فَهُمْ﴾؛ أي: كفار مكة ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾؛ أي: في أمر مختلط مضطرب عليهم، من مرج الخاتم في إصبعه: إذا اضطرب عليها من سعته بسبب الهزال؛ أي[1]: في أمر مضطرب لا قرار له، من غلبات آفات الحس والوهم والخيال على عقولهم، فلا يهتدون إلى الحق، ولذا يقولون تارةً: إنه شاعر، وتارةً ساحر، وأخرى كاهن، ومرّة مفترٍ، لا يثبتون على شيء واحد، وهذا اضطرابهم في شأن النبيّ ﷺ صريحاً، ويتضمن ذلك اضطرابهم في شأن القرآن أيضاً، فإنّ نسبتهم

---

(١) روح البيان.

إياه إلى الشعر ونحوه إنما هي بسببه.

واعلم: أنّ الاضطراب موجب للاختلاف، وذلك أدلّ دليل على البطلان، كما أنّ الثبات والخلوص موجب للاتفاق، وذلك أدل دليل على الحقِّية، قال الحسن: ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم، وكذا قال قتادة، وزاد: والتبس عليهم دينهم، وعن عليّ رضي الله عنه قال له يهودي: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم، فقال: إنّما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر، حتى قلتم لنبيكم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

والمعنى: أي بل كذبوا[1] بالنبوّة التي قامت الأدلة على صدقها، وأيدتها المعجزات الباهرة، وهم إذا كذّبوا بها. فقد كذّبوا بما أنبأ الرسول من البعث وغيره، ولا شك أنّ هذا الإنكار أعظم جرماً، وأشد بلية من الإنكار بما جاء به الرسول، إذ به أنكروا الصلة الروحية بين الله سبحانه وبين من يصطفيه من خلقه من ذوي النفوس الصافية، وأرباب الأرواح العالية. ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: فهم في قلقٍ واضطرابٍ، فتارة ينفون الرسالة عن البشر، وأخرى يزعمون أنها لا تليق إلا بأهل الجاه والرياسة، كما ينبىء بهذا قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. وثالثة يقولون: إنها سحر أو كهانة، إذ قالوا للنبيّ ﷺ: ساحر أو كاهن إلى نحو ذلك من أقاويلهم، التي تدلّ على اضطراب في الأمر، وقلق في الفكر، فهم لا يدرون ماذا يفعلون حين جاءهم النذير الذي أقضَّ مضاجعهم، وجعلهم حيارى دهشين، إلام هم صائرون، وإلى أي منقلبٍ ينقلبون.

و﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾: للاستفهام[2] التوبيخيّ: داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفلوا فلم ينظروا حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت؛ أي: فلم ينظروا إلى آثار قدرة الله في خلق العالم، وإيجاده من العدم إلى الوجود،

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

و﴿فَوْقَهُمْ﴾: ظرف لـ ﴿يَنظُرُوٓا۟﴾، أو حال من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا﴾؛ أي: كيف رفعناها، وجعلناها على هذه الصفة، مرفوعة كالخيمة بغير عمد تعتمد عليه. ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ بما جعلنا فيها من الكواكب المرتبة على نظام بديع. ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾؛ أي: فتوق وشقوق، وصدوع لملاستها وسلامتها من كل عيب وخلل، كما قال: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ وهذا[1] لا ينفي وجود الأبواب والمصاعد فيها، فإنها ليست من قبيل العيب والخلل، ولعل تأخير هذا لمراعاة الفواصل، والفروج: جمع فرج، وهو: الشق بين الشيئين كفرجة الحائط، كما سيأتي في مبحث المفردات.

والمعنى: أي[2] أفلم ينظر هؤلاء المكذّبون بالبعث بعد الموت، المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد البلى إلى السماء فوقهم، كيف رفعناها بلا عمد، وزيّنّاها بالكواكب، وما لها من فتوق، فهي ملساء متلاصقة الطباق، وهذا هو الرأي الحديث في عالم السموات، إذ يقولون: إنّ هناك عالماً لطيفاً أرقّ من الهواء، وألطف من كل ما نراه، وهو مبدأ كل شيء، وأول كل شيء، وهو العالم المسمى بالأثير، وهذا العالم وإن لم يره الناس، فقد عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا، فإنَّ من الكواكب ما لا يصل ضوؤه إلينا إلا فيما يزيد على ألف ألف سنة، ونور الشمس التي تبعد عنا مقدار سير القطار إليها، لو أمكن في نحو خمس وستين وثلاث مئة سنة، يصل إلينا في مدة ثمان دقائق وثماني عشرة ثانية، فانظر كيف يكون بعد تلك الكواكب التي تحتاج بسير النور إلى مليون سنةٍ ونصف مليون، ألا يدل هذا على أنّ ذلك الضوء محمول على شيء موجود، وهو الأثير، فلو أنَّ طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير.. لانقطع سير النور إلى الأرض ولم نره، وهذا ما يشير إليه الكتاب بقوله: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ فلو كان هناك فروج تتخلل السموات.. لانقطع سير النور إلينا، وآراء الجهلة في كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى، وبينهما فضاء كما يظن لأول وهلة فيما بيننا وبين السماء، فجاء الكتاب الكريم، وعكس هذه القضية، وقال: لا فروج في السماء؛ أي: لا

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

خلاء في العالم، وفي المقام خلاف طويل لا مستند له.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾؛ أي[1]: بسطناها، وفرشناها على وجه الماء مسيرة خمس مئة عام من تحت الكعبة، وهذا دليل على أنّ الأرض مبسوطة، وليست على شكل الكرة، كما في «كشف الأسرار» وفيه أنه لا منافاة بين بساطتها وكرويتها، كما عرف في محله. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت أرسيت بها الأرض، إذ لو لم تكن.. لكانت مضطربةً مائلةً إلى الجهات المختلفة، كما كانت قبل، إذ روي: أنّ الله لمّا خلق الأرض.. جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحدٍ على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، لم تدر الملائكة مم خلقت، من رسا الشيء إذا ثبت، والتعبير عنها بهذا الوصف؛ للإيذان بأنّ إلقاءها لإرساء الأرض بها.

﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾؛ أي: وأخرجنا ﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾؛ أي: من كل صنف، وقوله في آية أخرى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾؛ أي: أنواعاً متشابهة. ﴿بَهِيجٍ﴾؛ أي: حسنٍ طيب من الثمار والنباتات والأشجار، كما قال في موضع آخر: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾؛ أي: يبتهج به؛ أي؛ يسر، والبهجة: حسن اللون، وظهور السرور فيه.

والمعنى[2]: أي والأرض بسطناها، وألقينا فيها جبالاً ثوابت، لئلا تميد وتضطرب، وأنبتنا فيها من كل صنف من صنوف النبات ما حسن منظره، وراق مخبره.

وقوله: ﴿تَبْصِرَةً﴾؛ أي: تعليماً منّا، وتفهيماً لكل عبد منيب كيفية الاستدلال على قدرتنا. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: تذكرة منّا، وعظة لكل عبد منيب، مفعولان لأجله لبنيناها وما بعده، وقوله: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾؛ أي: راجع إلى الله بالتوبة، متدبر في بديع صنعه، وعجائب مخلوقاته، متعلق بكل من المصدرين؛ أي: فعلنا البناء والتزيين، وما بعدهما تعليماً منّا، وعظةً لكل عبد منيب.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وفي «الخطيب»: تنبيه: قال الرازي: يحتمل[1] أن يكون المصدران عائدين إلى السماء والأرض؛ أي: خلقنا السماء تبصرة، وخلقنا الأرض ذكرى، ويدلّ على ذلك أنّ السماء وزينتها غير متجددة في كل عام، فهي كالشيء المرئي على ممر الزمان، وأما الأرض فهي كل سنة تأخذ زينتها وزخرفتها فتذكِّر، فالسماء تبصرة، والأرض تذكرة، ويحتمل أن يكون كل واحد من المصدرين موجوداً في كل واحد من الأمرين، فالسماء تبصرة وتذكرة، والأرض كذلك، والفرق بين التذكرة والتبصرة: هو أنّ فيهما آياتٍ مستمرّة منصوبةً في مقابلة البصائر، وآيات متجددة مذكرة عند التناسي، وقال الزجاج: منصوبان بفعل مقدر؛ أي: فعلنا ما فعلنا للتبصير والتذكير، وقال أبو حاتم: انتصبا على المصدرية؛ أي: جعلنا ذلك تبصرةً وذكرى، وفي سياق[2] هذه الآيات تذكير لمنكري البعث، وإيقاظ لهم عن سنة الغفلة، وبيان لإمكان ذلك، وعدم امتناعه، فإن القادر على مثل هذه الأمور، يقدر عليه، وهكذا قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ إلخ.

وفي قوله: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾: إشارة[3] إلى أنّ الوصول إلى مقام التبصرة والذكرى إنما هو بالعبودية، والإنابة التي هي مبنى الشريعة وأساسها، وقال بعضهم: التبصرة، معرفة منن الله عليه، والذكرى عدّها على نفسه في كل حال ليشتغل بالشكر فيما عومل به عن النظر إلى شيء من معاملته.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ بالنصب، وهما منصوبان بفعل مضمر من لفظهما؛ أي: بصر وذكر، وقرأ زيد بن عليّ ﴿تبصرة﴾ بالرفع، و﴿ذكرى﴾ معطوف عليه؛ أي: ذلك الخلق على ذلك الوصف تبصرة.

والمعنى: يتبصر بذلك، ويتذكر كل عبد منيب؛ أي: راجع إلى ربه، مفكر في بدائع صنعه.

والمعنى: فعلنا ذلك لتبصرة العبد المنيب وادّكاره فإنّ رفْعنا السماء وتزيينها بالكواكب؛ فلاستبصاره، وإنّ بسْطنا الأرض وإرساء الجبال وإنبات النبات؛

---

(١) تفسير الرازي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

فلاعتباره.

﴿وَنَزَّلْنَا﴾ عبر بصيغة التفعيل لإفادة التكرير ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا﴾ أي: نزلنا من السماء ماء كثير البركة والخير لانتفاع الناس به في غالب أمورهم؛ أي: أنزلنا ماءً كثير المنافع حياة الأناسي والدواب والأرض الميتة، وفي «كشف الأسرار»: مطراً يثبت في أجزاء الأرض، فينبع طول السنة. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾؛ أي: أخرجنا بذلك الماء ﴿جَنَّـٰتٍ﴾؛ أي: بساتين كثيرة؛ أي: أشجاراً ذوات ثمار، فذكر المحل وأراد الحال، كما قال: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾، ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾؛ أي: وحبَّ الزرع المحصود، فهو[1] من حذف الموصوف وإقامة صفته على ما هو المختار عند البصريين، كباب الجامع؛ أي: المسجد الجامع، لئلاّ يلزم إضافة الشيء إلى نفسه، وأصل الحصد: قطع الزرع، والحصيد بمعنى المحصود، وهو هنا مجاز باعتبار الأول.

والمعنى: وحبّ الزرع الذي شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالهما، مما يقتات به، وتخصيص إنبات حبه بالذكر؛ لأنه المقصود بالذات. ﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾ معطوف على ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ وتخصيصها بالذكر، مع اندارجها في الجنات؛ لبيان فضلها على سائر الأشجار، وقد سبق بعض أوصافها في سورة يسٓ، وتوسيط الحبّ بينهما؛ لتأكيد استقلالها، وامتيازها عن البقية، مع مافيه من مراعاة الفواصل.

وقوله: ﴿بَاسِقَـٰتٍ﴾؛ أي: طوالاً في السماء عجيبة الخلق، حال مقدّرة من ﴿النخل﴾. فإنها وقت الإنبات لم تكن طوالاً، من بسقت الشجرة سوقاً إذا طالت، ويجوز أن يكون معنى ﴿بَاسِقَـٰتٍ﴾: حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت، فيكون من باب أفعل، فهو فاعل.

وجملة قوله: ﴿لَّهَا طَلۡعٌ نَّضِيدٌ﴾؛ أي: منضود متراكم بعضه فوق بعض، حال مقدرة من النخل أيضاً، والمراد:[2] تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وذلك قبل أن ينفتح، فهو نضيد في أكمامه، فإذا خرج من أكمامه. فليس بنضيد، والطلع: شيء يخرج من النخل، كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود، والطرف محدد، أو هو ما يبدو من ثمرته في أول ظهورها، وقشره يسمى الكفرة بضم الكاف والفاء معا، وتشديد الراء، وما في داخله الإغريض؛ لبياضه، كما في «القاموس».

وقوله: ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ علة لقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾؛ أي: فأنبتنا هذه الأشياء لرزقهم، أو منصوب بفعله المحذوف؛ أي: رزقناهم رزقاً، والأول أولى وأوضح، وفي تعليله بذلك بعد تعليل أنبتنا الأول بالتبصرة، والتذكرة، تنبيه على أنَّ الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكر والاستبصار أهم، وأقدم من تمتعه به من حيث الرزق.

والمقصود من الآية الأولى: هو الاستدلال على القدرة بأعظم الأجرام، كما دل عليه النظر، وذكر الإنبات فيها بطريق التبع، فناسب التعليل بالتبصرة والتذكير، ومن الثانية بيان الانتفاع بمنافع تلك الأجرام، فناسب التعليل بالرزق، ولذا أخرت عن الأولى، لأنَّ منافع الشيء مترتبة على خلقه، قال أبو عبيدة: نخل الجنة نضيد ما بين أصلها إلى فرعها، بخلاف نخل الدنيا، فإن ثمارها في رؤوسها، كلما نزعت رطبة عادت ألين من الزبد، وأحلى من العسل، فنخل الدنيا تذكير لنخل الجنة، وفي كل منهما رزق للعباد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

والمعنى(١): ونزلنا من السماء ماء كثير المنافع، إذ أنبتنا به جنات غناء، وحدائق فيحاء، وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالشعير، والقمح وغيرهما، وأنبتنا به النخل الطوال التي لها طلع منضود، متراكم بعضه فوق بعض، لأقوات العباد وأرزاقهم، ولم يقيد العباد هنا بالإنابة كما قيد به في قوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾؛ لأنّ التذكرة لا تكون إلا لمنيب، والرزق

---

(١) المراغي.

يعمّ كل أحد، غير أنّ المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً للإنعام، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام، ولذلك لم يخصص الرزق بقيد.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ تذكير ﴿مَّيْتًا﴾ باعتبار البلد والمكان؛ أي: أرضاً جدبة لا نماء فيها أصلاً، بأن جعلناها بحيث ربت، وأنبتت أنواع النبات والأزهار، فصارت تهتز بها بعد ما كانت جامدة.

وقرأ الجمهور: ﴿مَّيْتًا﴾[1] بالتخفيف، وقرأ أبو جعفر، وخالد: بالتثقيل؛ أي: وأحيينا بذلك الماء الأرض المجدبة التي لا نبات فيها، فتربو وتنبت من كل زوج بهيج.

ثمّ جعل ما سلف كالدليل على البعث؛ لأنّه شبيه به، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ جملة قدّم فيها الخبر للقصد إلى القصر، وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة من الإحياء؛ أي: مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور، لا شيء مخالف لها، وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن إحياء الموتى بالخروج؛ تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث، وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى، لتوضيح منهاج القياس، وتقريبه لأفهام الناس، وقد روي: «أنّ الله يمطر السماء أربعين ليلة كمنيّ الرجال، يدخل في الأرض، فينبت لحومهم وعروقهم وعظامهم، ثم يحييهم، ويخرجهم من تحت الأرض».

ثم ذكر سبحانه الأمم المكذّبة لرسلها، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ أي: كذّبوا نوحاً وجميع الرسل؛ لأنّ تكذيبه تكذيب لهم لاتفاقهم في أصول الدين. ﴿و﴾ كذّب قبلهم ﴿أصحاب الرس﴾ رسولهم، قيل: كانت الرس[2] بئراً بعدن لأمة من بقايا ثمود، وكان لهم ملك عدل حسن السيرة، يقال له: العنيس بوزن زبير، وكانت البئر تسقي المدينة كلها وباديتها، وجميع ما فيها من الدواب والغنم والبقر وغير ذلك، لأنّها كانت بكرات كثيرة منصوبة

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

عليها، جمع بكرة بالفتح: وهي خشبة مستديرة في وسطها محزٌّ يستقى عليها، ورجال كثيرون موكلون بها، وأبازن بالزاي والنون من رخام، وهي تشبه الحياض كثيرة تملأ للناس، قال في «القاموس»: الأبزن مثلثة الأول: حوض يغتسل فيه، وقد يتخذ من نحاس، معرب آب زن، انتهى. وآخر للدواب، وآخر للبقر والغنم والهوام يستقون عليها بالليل والنهار، يتداولون ولم يكن لهم ماء غيره، فطال عمر الملك، فلمّا جاءه الموت.. طلي بدهن لتبقى صورته ولا تتغير، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهم الميت، وكان ممن يكرم عليهم، فلمّا مات.. شقَّ ذلك عليهم، ورأوا أن أمرهم قد فسد، وضجوا جميعاً بالبكاء، واغتنمها الشيطان منهم، فدخل في جثة الملك بعد موته بأيام كثيرة، فكلمهم وقال: إني لم أمت، ولكني قد تغيبت عنكم، حتى أرى صنيعكم بعدي، ففرحوا أشد الفرح، وأمر لخاصته أن يضربوا حجاباً بينه وبينهم، ويكلمهم من ورائه، كيلا يعرف الموت في صورته، فنصبوه صنماً من وراء حجاب لا يأكل ولا يشرب، وأخبرهم أنه لا يموت أبداً، وأنه إله لهم، وذلك كله يتكلم به الشيطان على لسانه، فصدق كثير منهم، وارتاب بعضهم، وكان المؤمن المكذب منهم أقل من المصدق، فكلما تكلم ناصح منهم.. زجر وقهر، فاتفقوا على عبادته، فبعث الله لهم نبيّاً كان الوحي ينزل عليه في النوم دون اليقظة، وكان اسمه حنظلة بن صفوان، فأعلمهم أنَّ الصورة صنم لا روح له، وأنّ الشيطان فيه، وقد أضلَّهم الله سبحانه، وأنّ الله تعالى لا يتمثل بالخلق، وأنَّ الملك لا يجوز أن يكون شريكاً لله، وأوعدهم ونصحهم، وحذَّرهم سطوة ربهم ونقمته، فآذوه وعادوه، وهو يتعهدهم بالموعظة والنصيحة حتى قتلوه، وطرحوه في بئر، وعند ذلك حلت عليهم النقمة، فباتوا شباعى رواء من الماء، وأصبحوا والبئر قد غار ماؤها، وتعطل رشاؤها، وهو بالكسر الحبل، فصاحوا بأجمعهم، وضج النساء والولدان، وضجت البهائم عطشاً، حتى عمهم الموت، وشملهم الهلاك، وخلفهم في أرضهم السباع، وفي منازلهم الثعالب والضباع، وتبدلت لهم جناتهم وأموالهم بالسدر والشوك شوك العضاة بالكسر: أم غيلان أو نحوه، والقتاد بوزن سحاب: شجر صلب شوكه كالإبر، فلا تسمع فيها إلا عزيف الجن؛ أي: صوتهم، وهو جرس يسمع في

المفاوز في الليل، وإلا زئير الأسد؛ أي: صوته من الصدر، نعوذ بالله من سطواته، ومن الإصرار على ما يوجب نقماته، كذا في «التكملة» نقلاً عن «تفسير المقري». وقيل: الرّسّ: بئر قرب اليمامة، أو بئر بأذربيجان، أو وادٍ، كما قال الشاعر:

فَهُنَّ لِوَادِيْ ٱلرَّسِّ كَٱلْيَدِ لِلْفَمِ

وقد سبق بعض الكلام عليه في سورة الفرقان، فارجع إليه.

﴿و﴾ كذّبت قبلهم ﴿ثمود﴾؛ أي: قوم ثمود صالحاً، وجميع الرسل، وهو ثمود بن عاد، وهو عاد الآخرة. ﴿و﴾ كذبت قبلهم ﴿عاد﴾؛ أي: قوم عاد هوداً، وجميع الرسل، وهو عاد إرم، وهو عاد الأولى. ﴿و﴾ كذب قبلهم ﴿فرعون﴾ موسى وهارون وجميع الرسل.

والمراد: هو وقومه القبط ليلائم ما قبله وما بعده من الجماعة. ﴿و﴾ كذب قبلهم ﴿إخوان لوط﴾؛ أي: أصهاره؛ لأنه صاهرهم، وتزوج منهم لوط وجميع الرسل، جمع صهر، والصهر: زوج بنت الرجل، وزوج أخته، وقيل: إخوانه قومه؛ لاشتراكهم في النسب لا في الدين، قال عطاء: ما من أحد من الأنبياء إلا ويقوم معه يوم القيامة قومه، إلا لوطاً عليه السلام، يقوم وحده. ﴿و﴾ كذّب قبلهم ﴿أصحاب الأيكة﴾ شعيباً وجميع الرسل، وهم من بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين، وكانوا يسكنون أيكة؛ أي: غيضة تنبت السدر الأراك، وقد مر ما فيه في سورة الحجر. ﴿و﴾ كذّب قبلهم ﴿قوم تبّع﴾ تبعاً وجميع الرسل، وهذا على تقدير رسالة تبع ظاهر، وأما على تقدير عدمها وهو الأظهر، فمعنى تكذيب قومه الرسل: تكذيبهم لمن قبلهم من الرسل المجمعين على التوحيد والبعث، وإلى ذلك كان يدعوهم تبّع، وهو أبو كرب أسعد الحميري ملك اليمن، سُمِّي تبعاً لكثرة أتباعه.

﴿كلٌّ﴾؛ أي: كل قوم من هؤلاء الأقوام المذكورين ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾؛ أي: كذّبوا رسلهم، وكذّب جميعهم جميع الرسل بالمعنى المذكور أولاً، كما أشرنا إليه في الحلّ، وإفراد الضمير في ﴿كَذَّبَ﴾ باعتبار لفظ الكل، أو كل واحد منهم

كذب جميع الرسل، لاتفاقهم على التوحيد والإنذار بالبعث والحشر، فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل. ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾؛ أي: فوجب وحل عليهم وعيدي، وحق بهم ما قدره الله عليهم من الخسف والمسخ والإهلاك، والوعيد يستعمل في الشر خاصةً، بخلاف الوعد، فإنه يكون في الخير والشر، وفي الآية: تسلية لرسول الله ﷺ؛ يعني: لا تحزن، ولا تكثر غمك لتكذيب الكفار إيّاك؛ لأنّك لست بأول نبيّ كذب، وكل أمة كذبت رسولها، واصبر على أذاهم كما صبروا، تظفر بالمراد كما ظفروا، وتهديد لأهل مكة؛ يعني: احذروا يا أهل مكة من مثل عذاب الأمم الخالية، فلا تكذبوا رسول الله، فإنّ الاشتراك في العمل يوجب الاشتراك في الجزاء.

والحاصل[1]: أنّ الله سبحانه هدّد كفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم من المكذبين قبلهم، من النقم والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فقد أغرق قوم نوح بالطوفان، وأهلك جميع من ذكروا بعدهم من الأمم التي كذبت رسلها بضروب شتى من العذاب، وحقّ عليهم وعيده، ونصر رسله، وأعلى كلمتهم، وكانت العاقبة لهم، كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. وقد تقدمت هذه القصص في مواضع متفرقة من الكتاب الكريم.

ثم ذكر سبحانه ما يؤكد صحة البعث، فقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ و﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام[2] الإنكاري، داخلة على مقدر، ينبىء عنه العيُّ من القصد والمباشرة، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير: أقصدنا الخلق الأول وهو الإبداء، فعجزنا عنه، حتى يتوهم عجزنا عن الخلق الثاني وهو الإعادة؛ أي: ليس الأمر كذلك، وما هنا في «الشوكاني»: في الاستفهام و﴿الفاء﴾: غير صواب.

وجملة قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: معطوفة على مقدر يدلّ عليه ما قبله، كأنه قيل: هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول، بل هم في خلط

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وحيرة وشبهة وشك في خلق مستأنف، وهو بعث الأموات لما فيه من مخالفة العادة، إذ لم تجر العادة بالإعادة في هذه الدار، وهذا قياس فاسد، كما لا يخفى، وتنكير ﴿خَلْقٍ﴾؛ لتفخيم شأنه، والإشعار بخروجه عن حدود العادات، أو الإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه، ويهتم بمعرفته، ولا يقعد على لبس.

وقرأ الجمهور: ﴿أَفَعَيِينَا﴾[1] بياء مكسورة بعدها ياء ساكنة، ماضي عيي، بوزن رضي، وقرأ ابن أبي عبلة والوليد بن مسلم والقورصبيُّ عن أبي جعفر والسمار عن شيبة وأبو بحر عن نافع: بتشديد الياء من غير إشباع في الثانية، هكذا قال أبو القاسم الهذلي في كتاب «الكامل». وقال ابن خالويه في كتاب «شواذ القراءآت» له: ﴿أفعَيَّنا﴾ بتشديد، قرأ ابن أبي علة، وفكرت في توجيه هذه القراءة، إذ لم يذكر أحد توجيهها، فخرجتها على لغة من أدغم الياء في الياء في الماضي، فقال: عيَّ في عيي، وحيَّ في حيي، فلما أدغم.. ألحقه ضمير المتكلم المعظم نفسه، ولم يفك الإدغام، فقال: عيّنا، وهي لغة لبعض بني بكر بن وائل، يقولون في رددت، وردنا: ردت وردّنا، فلا يفكون، وعلى هذه اللغة تكون الياء المشددة مفتوحة، فلو كان ضمير نصب.. لاجتمعت العرب على الإدغام، نحو: ردّنا زيد.

والمعنى: أي أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى يشكّوا في الإعادة؛ أي: إنّ ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل من الابتداء، فلا حقّ لهم في تطرق الشبهة إليهم، والشك فيه، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾. وقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾. وجاء في الحديث القدسي، يقول الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته».

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد أوجدنا الإنسان، وأنشأناه من العدم المحض، والمراد بالإنسان: الجنس، وقيل: آدم. ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾؛ أي: ما تحدث به نفسه، وهو ما يخطر بالبال، والوسوسة: الصوت الخفي، والخطرة الرديئة، ومنه: وساوس الحلي، والمراد بها هنا: ما يختلج في سره وقلبه وضميره، أي: نعلم ما يخفي ويكن في نفسه، والضمير[1] في ﴿بِهِ﴾ لما إنْ جُعلت موصولة، والباء صلة كالباء في صوّت بكذا، وهمس بِهِ؛ أي: نعلم الخاطر الذي توسوسه نفسه، أو للإنسان إن جعلت مصدرية، والباء للتعدية؛ أي: ونعلم وسوسة نفسه به.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الإنسان ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وهو حبل العاتق وعرقه، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان عن يمين وشمال، وقال الحسن: الوريد: الوتين، وهو عرق معلق بالقلب، وهو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان؛ أي: نحن أقرب إليه من حبل وريده إليه، والإضافة بيانية؛ أي: حبل هو الوريد، والوريدان: عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدّمها متصلان بالوتين، والوتين: عرق في القلب، إذا انقطع.. مات صاحبه، يردان من الرأس إليه، فالوريد بمعنى الوراد، وقيل: سمي وريداً؛ لأنّ الروح الحيواني يرده، فالوريد حينئذٍ بمعنى المورود، وفي «المفردات»: الوريد: عرق متصل بالكبد والقلب، وفيه مجاري الروح، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾؛ أي: من روحه. انتهى. وفي «التأويلات النجمية»: حبل الوريد أقرب أجزاء نفسه إلى نفسه، يشير إلى أنه تعالى أقرب إلى العبد من نفس العبد إلى العبد، فكما أنه كل وقت يطلب نفسه يجدها؛ لأنّها قريب منه، فكذلك كل وقت يطلب ربه يجده لأنّه قريب منه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. وفي الزبور: ألا من طلبني وجدني.

أي:[2] أنه تعالى قادر على بعث الإنسان؛ لأنّه خالقه، وعالم بجميع

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

أموره، حتى إنه ليعلم ما تسوس به نفسه من الخير والشر. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ونحن أعلم به، وبخفيات أحواله، لا يخفى علينا شيء من أمره من علمكم بحبل الوريد؛ لأنّ العرق تحجبه أجزاء من اللحم، وعلم الله لا يحجب عنه شيء.

أي: ونحن[1] أقرب إلى الإنسان من العرق الذي يجري فيه الدم، ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن بعلمنا بحاله، وبنفوذ قدرتنا فيه، يجري فيه أمرنا كما يرجي الدم في عروقه.

و﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾: منصوب[2] بأذكر، وهو أولى لبقاء قوله: ﴿وَنَحْنُ...﴾ إلخ. على إطلاقه، أو هو متعلق بما في ﴿أَقْرَبُ﴾ من معنى الفعل، والتلقي: الأخذ، والتلقن بالحفظ والكتابة.

والمعنى: أنه تعالى لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس، ولا شيء أخفى منها، وهو أقرب إلى الإنسان من كل قريب حين يتلقى، ويتلقن، ويأخذ ويكتب الملكان الحفيظان الموكلان بالعبد ما يتلفظ به العبد ويفعله.

وفيه[3]: أي على الوجه الثاني، إيذان بأن استحفاظ الملكين أمر هو سبحانه غنيّ عنه، وكيف لا يستغني عنه وهو مطلع على أخفىٰ الخفيات؟! وإنما ذلك الاستحفاظ لحكمة، وهي ما في كتب الملكين وحفظهما لأعمال العبد، وعرض صحائف العمل يوم القيامة، وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطته تعالى بتفاصيل أحواله، خيراً أو شراً، من زيادة اللطف له في الانتهاء عن السيئات، والرغبة في الحسنات، والحال أنّ أحدهما ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: عن يمين العبد، وجانبه قعيد ﴿و﴾ الآخر منهما ﴿عن الشمال﴾؛ أي: شمال العبد ﴿قَعِيدٌ﴾؛ أي: مقاعد كالجليس بمعنى المجالس لفظاً ومعنى، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وقيل: يطلق الفعيل على الواحد والمتعدد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) النسفي.

﴿ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ أي:[1] فالله أقرب إلى الإنسان من عرقه المخالط له في وقت أخذ الملكين الحافظين منه قوله وفعله، فلهما عن اليمين مقاعد، وعن الشمال مقاعد، وفي هذا إشارة إلى أنّ المكلّف غير متروك سدى، قال الحسن وقتادة، ومجاهد: المتلقيّان ملكان يتلقّيان عملك، أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك، وقال مجاهد أيضاً: وكّل الله بالإنسان ملكين بالليل، وملكين بالنهار يحفظان عمله، ويكتبان أثره.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾؛ أي: ما يتكلم الإنسان من كلام، فيلفظه ويرميه من فيه ﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾؛ أي: إلا لدى ذلك اللافظ ﴿رَقِيبٌ﴾؛ أي: ملك حافظ يرقب قوله ذلك ويكتبه، والقول أعم من الكلمة والكلام، والرقيب: الحافظ المتتبع لأمور الإنسان، الذي يكتب ما يقوله ويفعله من خير أو شر، فكاتب الخير هو ملك اليمين، وكاتب الشر هو ملك الشمال. ﴿عَتِيدٌ﴾؛ أي: حاضر ذلك الملك الرقيب لا يفارقه، معد مهيأً لكتابة ما أمر به من خير أو شر، فهو حاضر معه أينما كان، فالرقيب بمعنى الحافظ، والعتيد بمعنى الحاضر، والإفراد[2] حيث لم يقل: رقيبان عتيدان مع وقوفهما معاً على ما صدر عنه، لما أنَّ كلاً منهما رقيب لما فوض إليه، لا لما فوض إلى صاحبه، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿عَتِيدٌ﴾. وتخصيص القول بالذكر، لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النص، واختلف فيما يكتبانه، فقيل: يكتبان كل شيء، حتى أنينه في مرضه، وقيل: إنّما يكتبان ما فيه أجر ووزر، وهو الأظهر، قيل[3] إنّ الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه، وعند جِماعه؛ ولذا كره الكلام في الخلاء، وعند قضاء الحاجة أشد كراهة؛ لأنّ الملائكة تتأذى بالحضور في ذلك الموضع الكريه لأجل كتابة الكلام، فإن سلم عليه في هذه الحالة.. قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: يردّ السلام بقلبه لا بلسانه، لئلا يلزم كتابة الملائكة، فإنهم لا يكتبون الأمور القلبية، وكذا يحمد الله بقلبه عند العطاس في بيت الخلاء، وكذا يكره الكلام عند الجماع، وكذا

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

الضحك في هذه الحالة، فلا بدّ من حفظ اللسان، وفي الحديث: «من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

قال الحسن البصري[1]: وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذ مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾. ثم قال: عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك.

وروى أبو أسامة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة.. كتبها ملك اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة.. قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات، لعلّه يسبّح أو يستغفر».

وبعد أن ذكر استبعادهم البعث للجزاء، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه.. أعلمهم بأنهم يلاقون صدق ذلك حين الموت، وحين قيام الساعة فقال: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: وكشفت لك سكرة الموت عن اليقين الذي كنت تمتري فيه، وأنّ البعث لا شكّ فيه، والباء[2] في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: إما للتعدية كما في قولك: جاء الرسول بالخبر، والمعنى: حضرت الموت؛ أي: شدته التي تجعل الإنسان كالسكران، بحيث تغشاه وتغلب على عقله، وكشفت له حقيقة الأمر الذي نطق به كتاب الله، وأخبرت به رسله، أو حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته، وإما للملابسة، كالتي في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾؛ أي: حالة كونها متلبسةً بالحق؛ أي: بحقية الأمر أو بالحكمة والغاية الجميلة، وقرىء: ﴿وجاءت سكرة الحق بالموت﴾. ويقال للميت بلسان الحال، أو تقول

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

له الملائكة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الموت أيها الإنسان ﴿مَا﴾: موصولة؛ أي: الأمر الذي ﴿كُنتَ﴾ في الدنيا ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بقوله: ﴿تَحِيدُ﴾؛ أي: تميل وتفرّ وتهرب منه، بل تحسب أنه؛ أي: الموت، لا ينزل عليك بسبب محبّتك الحياة الدنيا، كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾؛ أي: أقسمتم بألسنتكم بطراً وأشراً، وجهلاً وسفهاً، أو بألسنة الحال، حيث بنيتم مشيداً، وأملتم بعيداً، ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال منها إلى هذه الحالة، فكأنكم ظننتم أنكم ما لكم من زوال مما أنتم عليه من التمتّع بالحظوظ الدنيوية، فالخطاب[1] في الآية للإنسان المتقدم على طريق الالتفات، فإنّ النفرة عن الموت شاملة لكل فرد من أفراده طبعاً، ويضعده ما روي عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت: أخذت أبا بكر غشية من الموت، فبكيت عليه، فقلت:

مَــنْ لاَ يَــزَالُ دَمْــعُــهُ مُــقَــنَّــعَــا   لاَ بُــدَّ يَــوْمَــاً أَنَّــهُ مُــهْــرَاقُ

فأفاق أبو بكر رضي الله عنه فقال: بل جاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. وجوَّز في «الكشاف» أن تكون الإشارة إلى الحق، والخطاب للفاجر، وهذا هو الظاهر؛ لأنّ الكلام في الفجار. قاله سعدي المفتي.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والنشور، والنافخ هو إسرافيل عليه السلام، وقد سبق الكلام في الصور. ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: وقت ذلك النفخ على حذف المضاف ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾؛ أي: يوم إنجاز الوعيد الواقع في الدنيا وتحقيقه، والوعيد: التهديد، أو يوم وقوع الوعيد على أنه عبارة عن العذاب الموعود، وتخصيص الوعيد بالذكر، مع أنه يوم الوعد أيضاً؛ لتهويله، ولذا بدىء ببيان حال الكفرة. ﴿وَجَآءَتْ﴾ في ذلك اليوم ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرة والفاجرة ﴿مَّعَهَا﴾ إلخ. محله النصب على الحالية من ﴿كُلُّ﴾ لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة، كأنه قيل: كل النفوس؛ أي: حالة كون كل نفس معها

---

(١) روح البيان.

﴿سَآئِقٌ﴾؛ أي: ملك يسوقها إلى المحشر ﴿و﴾ ملك ﴿شهيد﴾ يشهد بعملها خيراً أو شرّاً، وفي «كشف الأسرار»: يسوق الكافر سائقه إلى النار، ويشهد الشهيد عليه بمعصيته، ويسوق المؤمن سائقه إلى الجنة، ويشهد الشهيد له بطاعته، وهل الملكان الكاتبان في الدنيا هما اللذان ذكرهما الله في قوله: ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، أو غيرهما؟. فيه خلاف كما في «فتح الرحمن» أو معها ملك جامع بين الوصفين، كأنه قيل: معها ملك يسوقها ويشهد لها أو عليها، ويقال له: والله ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ أيها الإنسان في الدنيا ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ وسهوٍ ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم وغوائله، وفي «فتح الرحمن»: من هذا النازل بك اليوم، وقال ابن عباس: من عاقبة الكفر، وفي «عين المعاني»: أي: من السائق والشهيد، وخطاب الكل بذلك؛ لما أنه ما من أحد إلا وله غفلة ما من الآخرة، وقيل: الخطاب للكافر، وقرىء: ﴿كنت﴾ بكسر التاء على اعتبار تأنيث النفس، وكذا الخطابات الآتية، كما سيأتي، وقال ابن زيد[1]: الخطاب للنبيّ ﷺ؛ أي: لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة، وقال أكثر المفسرين: المراد به: جميع الخلق برّهم وفاجرهم، واختار هذا ابن جرير.

﴿فَكَشَفْنَا﴾؛ أي: أزلنا ورفعنا ﴿عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ وحجابك الذي كان على بصرك في الدنيا؛ يعني: رفعنا الحجاب الذي كان بينك وبين أمور الآخرة، ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك ﴿فَبَصَرُكَ﴾ أيها الإنسان ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم الذي يعرض فيه العباد على الله ﴿حَدِيدٌ﴾؛ أي: حاد نافذ، تبصر ما كنت تنكره، وتستبعده في الدنيا لزوال المانع للإبصار، ولكن لا ينفعك، وهذا كقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾.

وفي الآية[2]: إشارة إلى أنَّ الإنسان وإن خلق من عالمي الغيب والشهادة، فالغالب عليه في البداية الشهادة، وهي العالم الحسّي، فيرى بالحواس الظاهرة العالم المحسوس مع اختلاف أجناسه، وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب، فمن

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

الناس من يكشف الله غطاءه عن بصر بصيرته، فيجعل بصره حديداً يبصر رشده، ويحذر شرّه، وهم المؤمنون من أهل السعادة، ومنهم من يكشف الله عن بصر بصيرته يوم القيامة يوم لا ينفع نفساً إيمانها، وهم الكفار من أهل الشقاوة، ومن كلمات أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه: لو كشف الغطاء.. ما ازددت يقيناً.

وقرأ الجمهور[1]: بفتح التاء من ﴿كُنتَ﴾ وفتح الكاف في ﴿عَنكَ﴾ ﴿غِطَآءَكَ﴾، ﴿فَبَصَرُكَ﴾ حملاً على ما في لفظ كل من التذكير، وقرأ الجحدري وطلحة بن مصرّف: بالكسر في الجميع على أنّ المراد: النفس، ولاكتساب كل التأنيث من المضاف إليه.

والمعنى: أي والله لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن هذا الذي عاينت اليوم من الأهوال والشدائد، فجلَّينا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك، حتى رأيته وعاينته، فزالت عنك هذه الغفلة، وقد جعل سبحانه الغفلة غطاء غطي به الجسد كلّه، أو غشاوة غشي بها عيينه، فلا يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة.. تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها، فأبصر ما لم يكن يبصره من الحق.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾؛ أي: قال الملك الموكل به في الدنيا، الكاتب لعمله، الشهيد عليه للربّ سبحانه ﴿هَٰذَا﴾ المكتوب من عمله، مبتدأ خبره: ﴿مَا﴾ وهي نكرة موصوفة[2]. و﴿لَدَىَّ﴾ ظرف صفة أولى لما ﴿عَتِيدٌ﴾ صفة ثانية لها، والتقدير: هذا شيء ثابت لديّ عتيد حاضر قد هيأته، ويجوز أن يكون ﴿عَتِيدٌ﴾ صفة لـ ﴿مَا﴾ و﴿لَدَىَّ﴾ متعلقاً بـ ﴿عَتِيدٌ﴾؛ أي: هذا المتكوب شيء عيتد لديّ؛ أي: حاضر، ويجوز أن تكونا ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الذي، و﴿لَدَىَّ﴾ صلتها و﴿عَتِيدٌ﴾: خبر الموصول، والموصول وصلته: خبر اسم الإشارة.

والمعنى: أي وقال الملك الموكل به في الدنيا: هذا الذي وكّلتني به من بني آدم، قد أحضرته، وأحضرت ديوان أعماله، قاله مجاهد. أو قال شيطانه

---

(١) الشوكاني. (٢) النسفي.

الذي قيّض له في الدنيا مشيراً إليه هذا الشخص: ما عندي، وفي ملكي وسيطرتي، عتيد لجهنم حاضر قد هيأته لها بإغوائي وإضلالي إياه.

وقرأ الجمهور: ﴿عَتِيدٌ﴾ بالرفع، وعبد الله: بالنصب على الحال، والأولى حينئذٍ أن تكون ﴿ما﴾ موصولة.

ويقول الله سبحانه: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾: خطابٌ[1] من الله تعالى للسائق والشهيد، أو لملكين من خزنة النار، أو لواحد وهو الملك الجامع للوصفين، أو خازن النار على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل، وتكريره للتأكيد، كأنه قيل: ألقِ ألق، حذف الفعل الثاني، ثم أتى بفاعله وفاعل الفعل الأول على صورة ضمير الاثنين متصلاً بالفعل الأول، أو على أن الألف بدل من نون التوكيد الخفيفة على إجراء الوصل مجرى الوقف، ويؤيده أنه قرىء: ﴿ألقين﴾ بالنون الخفيفة، مثل: ﴿لنسفعاً﴾ فإنه إذا وقف على النون.. تنقلب ألفاً، فتكتب بالألف على الوقف، وفيه وجه آخر، وهو أنَّ العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان؛ يعني: أدنىٰ الأعوان في السفر اثنان، فكثر في ألسنتهم أن يقولوا: خليليّ، وصاحبيّ، وقفا وأسعدا، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين، كما قال امرىء القيس:

خَلِيْلِيَّ مُرَّا بِيْ عَلَىٰ أُمِّ جُنْدُبِ ... لِنَقْضِيَ حَاجَاتِ ٱلْفُؤَادِ ٱلْمُعَذَّبِ
أَلَمْ تَرَ أَنِّيْ كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً ... وَجَدْتُ بِهَا طِيْباً وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

وقوله:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَىٰ حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ ٱللِّوَىٰ بَيْنَ ٱلدَّخُوْلِ فَحَوْمَلِ

فثنى في البيت الأول، ووحد في البيت الثاني، وثنّى في البيت الثالث أيضاً.

وقرأ الحسن[2]: ﴿ألقين﴾ بنون التوكيد الخفيفة خطاباً لواحد من خزنة

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

النار، وهي شاذة مخالفة لنقل التواتر بالألف.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾؛ أي[1]: كل مبالغ في الكفر بالمنعم والنعم، جاحد بالتوحيد، معرض عن الإيمان، وقيل: كل كافر حامل غيره على الكفر ﴿عَنِيدٍ﴾؛ أي: معاند للحق، يعرف الحق فيجحده، والعناد أقبح الكفر، وقال قتادة: منحرف عن الطاعة. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾؛ أي: كثير المنع للمال عن حقوقه مفروضة زكاة أو غيرها؛ أي: طبع على الشره والإمساك، كما أنَّ الكافر طبع على الكفر، والعنيد طبع على العناد، أو منّاع لجنس الخير عن أن يصل إلى أهله، يحول بينه وبينهم، وقيل: المراد بالخير هنا: الإسلام، فإنّ الآية نزلت في الوليد بن المغيرة لمَّا منع بني أخيه منه، وكان يقول: من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت. ﴿مُعْتَدٍ﴾؛ أي: ظالم متخطّ للحق، معاد لأهله. ﴿مُّرِيبٍ﴾؛ أي: شاكّ في الله وفي دينه، فهو صيغة نسبة بمعنى ذي شكّ وريب؛ أي: موقع في الريبة، وقيل: متّهم.

أي[2]: ألقيا في جهنم كل كافر بالله، معاند لآياته، مانع للناس من اتباع الرسول ﷺ، ومن الإنفاق على من عنده، ظالم بالإيذاء وكثرة الهذاء، شاكٌّ في اليوم الآخر، فلا يظنّ أنّ الساعة آتية، فكل كافر موصوف بهذه الصفات.

﴿الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ أو منصوباً على الذم، أو بدلاً من ﴿كَفَّارٍ﴾، أو هو مبتدأ متضمّن معنى الشرط، خبره: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾. وقوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾: تكرير للتوكيد، و﴿الفاء﴾؛ للإشعار بأنّ الإلقاء للصفات المذكورة.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾؛ أي: الشيطان الذي قيض لهذا الكافر: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ وما أضللته، وما أغويته، قيل[3]: هذا جواب لكلام مقدر، وهو أنّ الكافر حين يلقى في النار، يقول: ربّنا أطغاني شطاني، فيقول الشيطان: ربّنا ما أطغيته. ﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ هذا الإنسان ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، فدعوته فاستجاب لي، ولو كان

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.

من عبادك الصالحين.. لم أقدر عليه، فيتبرأ منه شيطانه، وقال ابن عباس: قرينه: الملك الموكّل به، الكاتب لأعماله؛ يعني: يقول الكافر: ربّ إنّ الملك زاد عليّ في الكتابة، فيقول الملك: ربّنا ما أطغيته؛ أي: ما زدت عليه، وما كتبت إلا ما قال وعمل، ولكن كان في ضلال بعيد؛ أي: طويل لا يرجع عنه إلى الحقّ، فأعنته عليه بالإغواء والدعوة إليه من غير قسر وإلجاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ والأول أولى، وعليه الجمهور، وقال أبو حيان(١): ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ لم تأت هذه الجملة بالواو بخلاف ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ قبله: لأنّ هذه استؤنفت كما استؤنفت الجمل في حكاية التقاول في مقاولة موسى وفرعون، فجرت مقاولة بين الكافر وقرينه، فكأنّ الكافر قال: ربّ هو أطغاني، قال قرينه: ربّنا ما أطغيته، وأما ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ فعطفت للدلالة على الجمع بين معناها، ومعنى ما قبلها في الحصول؛ أعني: مجيء كل نفس مع الملكين، وقول قرينه ما قال له.

وجملة قوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾: مستأنفة، واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله؟ فقيل: قال الله سبحانه لهم: لا تختصموا أيها الكفّار والقرناء لديّ؛ أي: في موقف الحساب والجزاء، إذ لا فائدة في ذلك، قال بعضهم(٢): هذا الخطاب في الكفار فقط، وأما قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ ففي المؤمنين في الظالم فيما بينهم؛ لأنّ الاختصام في الظالم مسموع، وهذا في الموقف، وأما قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ ففي جهنم، فظهر التوفيق بين الآيات.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ في محل نصب على الحال؛ أي: والحال أنّي قد قدمت إليكم بالوعيد والتهديد من العذاب بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، و﴿الباء﴾ في ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾: مزيدة للتأكيد، أو معدّية على أنّ قدّم بمعنى تقدّم.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

والمعنى: أي قال الله سبحانه للإنسيّ، وقرينه من الجن حين اختصما، فقال الإنسي: ربّ إنّ هذا أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني، وقال الشيطان: ربّنا ما أطغيته، ولكن كان في ضلال بعيد عن الحقّ، فأعنته عليه بالإغواء من غير قسرٍ ولا إلجاء: لا تختصموا الآن عندي في موقف الحساب والجزاء، وقد قدمت إليكم بالوعيد على الطغيان في دار الكسب والتكليف، فقد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج، فما تركت لكم حجة عليّ، فلا تطمعوا في الخلاص منه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة، والجملة: حال فيها معنى التعليل للنهي على معنى ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ وقد صحَّ عندكم وعلمتم أني قدمت إليكم بالوعيد، حيث قلت لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ فاتبعتموه معرضين عن الحق، فلا وجه للاختصام في هذا الوقت، وإنما قدّر المعنى هكذا ليصح جعله حالاً، فإن مقارنة الحال لصاحبها من الزمان واجبة، ولا مقارنة بين تقديم الوعيد في الدنيا والاختصام في الآخرة.

﴿مَا يُبَدَّلُ﴾ ولا يغير ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ والقضاء ﴿لَدَىَّ﴾؛ أي: عندي[1]؛ أي: لا يغير قولي في الوعد والوعيد، فما يظهر في الوقت هو الذي قضيته في الأزل، لا مبدل له، والعفو عن بعض المذنبين لأسباب داعية إليه ليس بتبديل، فإنَّ دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد؛ يعني: ولا مخصص في حق الكفار، فالوعيد على عمومه في حقهم، قال الجلال الدواني في «شرح العضد»: ذهب بعض العلماء إلى أن الخلف في الوعيد جائز على الله تعالى، لا في الوعد، وبهذا وردت السنة، حيث قال النبيّ ﷺ: «من وعد لأحد على عمله ثواباً فهو منجز له، ومن أوعده على عمله عقاباً.. فهو بالخيار». والعرب لا تعد عيباً ولا خلفاً أن يعد شرًّا ثم لا يفعله، بل ترى ذلك كرماً وفضلاً، وإنما الخلف أن يعد خيراً ثم لا يفعله، كما قال:

وَإِنِّــيْ إِذَا أَوْعَــدْتُــهُ أَوْ وَعَــدْتُــهُ ... لَمُخْلِفُ إِيْعَادِيْ وَمُنْجِزُ مَوْعِدِيْ

(١) روح البيان.

ولقد أحسن يحيى بن معاذ رضي الله عنه في هذا المعنى، حيث قال: الوعد والوعيد حقّ، فالوعد حقّ العباد على الله سبحانه، ضمن لهم إذا فعلوا ذلك أن يعطيهم كذا ومن أولى بالوفاء من الله، والوعيد حقّه على العباد، قال لا تفعلوا كذا فأعذّبكم ففعلوا، فإن شاء.. عفا، وإن شاء.. أخذ؛ لأنّه حقه، وأولاهما العفو والكرم؛ لأنه غفور رحيم، فالله تعالى لا يغفر أن يشرك به، فينجز وعيده في حق المشركين، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فيجوز أن يخلف وعيده في حق المؤمنين.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: وما أنا بمعذّب للعبيد ظلماً بغير جرم اجترموه، ولا ذنب أذنبوه، والتعبير عنه بالظلم، مع أنّ تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم، على ما تقرّر من قاعدة أهل السنة، فضلاً عن كونه ظلماً مفرطاً لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك، بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من الظلم، وصيغة المبالغة؛ لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في معرض المبالغة في الظلم، وقيل: هي لرعاية جمعيّة العبيد من قولهم: فلان ظالم لعبده، وظلاّم لعبيده على أنها مبالغة كمّاً لا كيفاً، وقيل: إنّ الظلاّم هنا بمعنى الظالم، كالتمّار بمعنى التامر.

والظرف في قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾: متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك، ويشمل كل من شأنه الذكر يوم نقول بما لنا من العظمة ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ دار العذاب، وسجن الله للعصاة ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ يا جهنم بمن ألقي فيك؟ وهل أوفيتك ما وعدتك؟. وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وقوله: لكل واحدة منكما ملؤها. فهذا السؤال من الله لتصديق خبره، وتحقيق وعده، والتقريع لأهل عذابه، والتنبيه لجميع عباده. ﴿وَتَقُولُ﴾ جهنم مجيبة بالاستفهام تأدباً، وليكون الجواب وفق السؤال ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؛ أي: هل من زيادة من الجن والإنس موجودة، فيكون مصدراً كالمحيد، أو من يزاد فيكون مفعولاً كالمبيع، ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَ﴾: ظرفاً لمقدر مؤخر؛ أي: يوم نقول لجهنم: هل امتلأت إلخ، يكون من الأحوال والأهوال ما يقصر عنه المقال، وقيل: العامل فيه ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾. وقيل:

المعنى؛ أي: قد امتلأت، ولم يبق فيَّ موضع لم يمتلىء، وبهذا قال عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان. وقيل: إنّ المعنى: أنها طلبت أن يزاد في سعتها لتضايقها بأهلها، واختلف العلماء في أنَّ الخطاب والجواب، هل هما على الحقيقة أو لا؟ فقال بعضهم: هما على الحقيقة، فينطقها الله بذلك كما ينطق الجوارح، وهو المختار، فإنَّ الله على كل شيء قدير، وأمور الآخرة كلها أو جلها على خلاف ما تعورف في الدنيا، وقد دلت الأحاديث على تحقق الحقيقة، فلا وجه للعدول إلى المجاز، كما روي من زفرتها وهجومها على الناس في الموقف، وجرّها الملائكة بالسلاسل، وقولها: «جُزْ يا مؤمن فإنّ نورك أطفأ لهبي». ونحو ذلك مما يدلّ على حياتها الحقيقية وإدراكها.

والمعنى: أي وأنذر قومك: يوم نقول لجهم هل امتلأت بما ألقي إليك فوجاً بعد فوج؟ فتقول: لا مزيد بع ذلك، وفي هذا بيان أنها مع اتساعها، وتباعد أقطارها يطرح فيها من الجِنة والناس جماعات بعد جماعات، حتى تمتلىء، ولا تقبل الزيادة.

وقرأ الجمهور: ﴿نَقُولُ﴾ بالنون، وقرأ نافع والأعرج وشيبة وأبو بكر والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر والأعمش: ﴿يقول﴾ بياء الغيبة، وقرأ عبد الله والحسن والأعمش أيضاً: ﴿يقال﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿أقول﴾ بالهمزة.

الإعراب

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾.

﴿قٓۚ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه سورة قاف إن قلنا: إنه علم على السورة، والجملة: مستأنفة، وإن قلنا: من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه. . فلا محل له من الإعراب؛ لأنّ الإعراب فرع عن المعنى، والمعنى غير معلوم لنا. ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿القرآن﴾: مقسم به مجرور

بواو القسم. ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾: صفة لـ ﴿القرآن﴾، الجار والمجرور: متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بالقرآن المجيد، وجواب القسم: محذوف، دلّ عليه ما بعده، تقديره: إنك جئتهم منذراً بالبعث، فلم يقبلوا، بل عجبوا، وقيل: هو مذكور، واختلفوا فيه، فقيل: هو ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾، وقيل: هو قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ والأول أولى وأرسخ عرفاً في البلاغة، وقدّره أبو البقاء: لتبعثنّ، أو لترجعنّ، على ما دلّ عليه سياق الآيات. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب، أضرب به عن جواب القسم المحذوف لبيان حالتهم الزائدة في الشناعة والقبح. ﴿عَجِبُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: معطوفة على جواب القسم المحذوف. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿جَآءَهُم﴾: فعل ومفعول به في محل النصب بـ ﴿أَن﴾: المصدرية. ﴿مُّنذِرٌ﴾: فاعل. ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لـ ﴿مُّنذِرٌ﴾. والجملة الفعلية. مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، تقديره: أي: بل عجبوا مجيء منذر إياهم؛ أي: من مجيئه. ﴿فَقَالَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قال الكافرون﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿عَجِبُوٓاْ﴾. ﴿هَٰذَا شَىْءٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿عَجِيبٌ﴾: صفة ﴿شَىْءٌ﴾. والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿أَءِذَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على الجواب المحذوف، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿مِتْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب المحذوف المدلول عليه بما بعده؛ أي: أإذا متنا وكنا تراباً نرجع ونبعث؛ أي: نبعث ونرجع وقت موتنا وكوننا تراباً. ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره معطوف على ﴿مِتْنَا﴾. وجملة ﴿إذا﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿بَعِيدٌ﴾: صفة ﴿رَجْعٌۢ﴾. والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿عَلِمْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به؛ لأنّ علم بمعنى

عرف. ﴿نَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنۡهُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿نَنقُصُ﴾. والجملة الفعلية: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ما تنقصه الأرض. ﴿وَعِندَنَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿عندنا﴾: خبر مقدم. ﴿كِتَٰبٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿حَفِيظُۢ﴾: صفة ﴿كِتَٰبٌ﴾ والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿عَلِمۡنَا﴾. ﴿بَلۡ﴾: حرف عطف وإضراب إضراباً انتقالياً مما هو شنيع إلى ما هو أشنع وأقبح، وهو تكذيب النبوّة بعد إنكار البعث. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: متعلق به، والجملة الإضرابية: معطوفة على جملة الإضراب في قوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين متعلق بـ ﴿كَذَّبُواْ﴾، ﴿جَآءَهُمۡ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿لَمَّا﴾. ﴿فَهُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿فِيٓ أَمۡرٖ﴾: خبر، ﴿مَّرِيجٍ﴾: صفة ﴿أَمۡرٖ﴾ والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُواْ﴾: عطف اسمية على فعلية.

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾.

﴿أَفَلَمۡ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أغفلوا فلم ينظروا، والجملة المحذوفة: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَنظُرُوٓاْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾، ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿يَنظُرُوٓاْ﴾، ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾: حال مؤكدة من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾. والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب مفعول ثان مقدم لـ ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾، أو في محل النصب حال من مفعول ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ وهي معلقة بالنظر قبلها. ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، وجملة ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾: بدل من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَهَا﴾: خبر مقدم. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿فُرُوجٖ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل

النصب حال من مفعول ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الأرض﴾: معطوف على محل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو النصب على المفعولية. ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب حال من ﴿الأرض﴾، ولك أن تنصب ﴿الأرض﴾ بفعل محذوف وجوباً، تقديره: ومددنا الأرض مددناها، فهو من باب الاشتغال. ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿ألقينا﴾. ﴿رَوَٰسِيَ﴾ مفعول به، ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿أنبتنا﴾: ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿كُلِّ زَوْجٍ﴾: مفعول به. ﴿بَهِيجٍ﴾: صفة لـ ﴿زَوْجٍ﴾، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾: مفعولان من أجله لـ ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ وما بعده؛ أي: لتبصير أمثالهم، وتذكير أمثالهم، وقيل: منصوبان بفعل مقدر من لفظهما؛ أي: بصّرناهم تبصرةً، وذكّرناهم تذكرةً، وقيل: حالان من فاعل الأفعال المذكورة؛ أي: مبصّرين ومذكّرين، وقيل: حال من المفعول؛ أي: ذات تبصرة وتذكير لم يراها. ﴿لِكُلِّ﴾: متعلق بـ ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ على سبيل التنازع. ﴿عَبْدٍ﴾: مضاف إليه. ﴿مُّنِيبٍ﴾: صفة لـ ﴿عَبْدٍ﴾.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ
لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَنَزَّلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ أو على ﴿ألقينا﴾. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿نزلنا﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به، ﴿مُّبَٰرَكًا﴾: صفة ﴿مَآءً﴾، ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نزلنا﴾، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿أنبتنا﴾، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾، وهو من حذف الموصوف وإقامة صفته مقامه؛ أي: وحب الزرع المحصود. ﴿وَٱلنَّخْلَ﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾. ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾: حال مقدرة من النخل؛ لأنها في وقت الإنبات لم تكن طوالاً. ﴿لَّهَا﴾: خبر مقدم. ﴿طَلْعٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿نَّضِيدٌ﴾: صفة ﴿طَلْعٌ﴾ والجملة: في محل النصب حال ثانية من النخل الباسقات بطريق الترادف، أو من الضمير في ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ على طريق التداخل. ﴿رِّزْقًا﴾: مفعول لأجله لـ ﴿أنبتنا﴾ أو مفعول مطلق معنوي لـ ﴿أنبتنا﴾ على أنه مصدر من معنى ﴿أنبتنا﴾، أو حال من

﴿جَنَّٰتٍ﴾، وما بعده؛ على تأويله بمرزوقاً، أو ذا رزق. ﴿لِّلۡعِبَادِۖ﴾: صفة لـ ﴿رِّزۡقًا﴾، أو متعلق به على أنه مصدر. ﴿وَأَحۡيَيۡنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾. ﴿بِهِۦ﴾ متعلقان به ﴿بَلۡدَةً﴾: مفعول به، ﴿مَّيۡتًاۚ﴾: صفة ﴿بَلۡدَةً﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلۡخُرُوجُ﴾. مبتدأ مؤخر، والجملة التشبيهية: مستأنفة مفيدة للحصر.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَذَّبَتۡ﴾: فعل ماض. ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾: متعلق به. ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾: فاعل، والجملة: مستأنفة لبيان حقيقة راهنة عن البعث، واتفاق جميع الرسل عليه. ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾: معطوف على ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾ وكذا ﴿وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ﴾: معطوفات على ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾. ﴿﴾: مبتدأ وسوغ الابتداء به قصد العموم، أو إضافته المقدرة؛ أي: كل هذه الأمم. ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿كُلّٞ﴾ وأفرد الضمير نظراً إلى لفظ ﴿كُلّٞ﴾ والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر عن ﴿كُلّٞ﴾ والجملة: مستأنفة مسوقة لتأكيد ما قبلها. ﴿فَحَقَّ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿حق﴾: فعل ماض. ﴿وَعِيدِ﴾: فاعل مرفوع بضمة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة الممنوعة بسكون الوقف؛ لأنه مضاف إلى ياء المتكلم، وأصله: وعيدي، فحذفت الياء، فبقيت الكسرة دليلاً عليها، والجملة الفعلية: معطوفة على جملة ﴿كَذَّبَ﴾ والعائد: محذوف، تقديره: عليهم. ﴿أَفَعَيِينَا﴾ ﴿الهمزة﴾: اللاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أقصدنا الخلق فعجزنا عنه حتى يتوهم أحد عجزنا إعادته، والجملة المحذوفة: مستأنفة مقررة لصحة البعث الذي حكيت أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة. ﴿عيينا﴾: فعل وفاعل معطوف على تلك المحذوفة. ﴿بِٱلۡخَلۡقِ﴾: متعلق بـ ﴿عيينا﴾ ﴿ٱلۡأَوَّلِۚ﴾: صفة لـ﴿الخلق﴾ ﴿بَلۡ﴾: عاطفة على مقدر مستأنف مسوق لبيان

شبهتهم، وفضح سفسطتهم، والتقدير: هم غير منكرين لقدرتنا، بل هم في خلط وشبهة. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِي لَبْسٍ﴾: خبر. ﴿مِّنْ خَلْقٍ﴾: صفة لـ ﴿لَبْسٍ﴾ و﴿جَدِيدٍ﴾: نعت لـ ﴿خَلْقٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿وَنَعْلَمُ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿نعلم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة الفعلية: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ونحن نعلم، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾ ولا يصح أن يكون ﴿نعلم﴾ حالاً بنفسه؛ لأنه مضارع مثبت باشرته الواو، كما في «الكرخي» ولك أن تجعل ﴿الواو﴾: استئنافية، فتكون الجملة مستأنفة. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿تُوَسْوِسُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به. ﴿نَفْسُهُۥ﴾: فاعل، وجملة ﴿تُوَسْوِسُ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد: ضمير ﴿بِهِۦ﴾ ولك أن تجعل ﴿مَا﴾ مصدرية، والتقدير: ونعلم وسوسة نفسه له. ﴿وَنَحْنُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿نَحْنُ﴾: مبتدأ. ﴿أَقْرَبُ﴾: خبره. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿أَقْرَبُ﴾. ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: متعلق بـ ﴿أَقْرَبُ﴾ أيضاً ومضاف إليه، والجملة: معطوفة على جملة ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ ﴿أَقْرَبُ﴾ أو متعلق باذكر محذوفاً؛ أي: واذكر يا محمد لقومك حين يتلقى المتلقيّان. ﴿يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾: خبر مقدم. ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾: معطوف عليه. ﴿قَعِيدٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية. في محل النصب على الحال من ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿يَلْفِظُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الإنسان، والجملة: مستأنفة. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿قَوْلٍ﴾: مفعول به ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿لَدَيْهِ﴾: ظرف مكان خبر مقدم. ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: مبتدأ مؤخر؛ لأنهما

وصفان لشيء واحد، كأنه قيل: إلا لديه ملك موصوف بأنه رقيب عتيد؛ أي: حافظ حاضر، كقولهم في الخبر: هذا حلو حامض، فالمبتدأ هنا مجموع الوصفين، والجملة الاسمية: في محل النصب على الحال من فاعل ﴿يَلْفِظُ﴾.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَجَآءَتْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿جاءت سكرة الموت﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: حالة كونها متلبسةً بالحق. ﴿ذَٰلِكَ﴾. مبتدأ. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر المبتدأ. ﴿كُنتَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه. ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ ﴿تَحِيدُ﴾. وجملة ﴿تَحِيدُ﴾: خبر ﴿كُنتَ﴾، وجملة ﴿كُنتَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال له في وقت الموت: ذلك الأمر الذي رأيته الآن هو الذي كنت منه تحيد، وتفرّ في حياتك، فلم ينفعك الهرب، وما أنجاك الفرار. ﴿وَنُفِخَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿نفخ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾: نائب فاعل، والجملة: معطوفة على ﴿جاءت﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَجَآءَتْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾. ﴿مَّعَهَا﴾: خبر مقدم. ﴿سَآئِقٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَشَهِيدٌ﴾: معطوف عليه، والجملة الاسمية: في محل الرفع صفة لـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أو حال منه على أنّه تخصّص بالإضافة. ﴿لَّقَدْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾: خبره. ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾: متعلق بـ ﴿غَفْلَةٍ﴾ والجملة: جواب القسم، وجواب القسم: مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لكل نفس: لقد كنت إلخ. ﴿فَكَشَفْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كشفنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كُنتَ﴾، ﴿عَنكَ﴾: متعلق بـ ﴿كشفنا﴾،

﴿غِطَآءَكَ﴾: مفعول به، ﴿فَبَصَرُكَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿بصرك﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿بصرك﴾. ﴿حَدِيدٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿كشفنا﴾: عطف اسمية على فعلية. ﴿وَقَالَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جاءت كل نفس﴾. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة في محل الرفع خبر المبتدأ. ﴿لَدَىَّ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿عَتِيدٌ﴾. و﴿عَتِيدٌ﴾: صفة لـ ﴿مَا﴾ الموصوفة؛ أي: هذا شيء عتيد لديّ؛ أي: حاضر عندي، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ويجوز أن يكون ﴿لَدَىَّ﴾: صفة أولى لـ ﴿مَا﴾، و﴿عَتِيدٌ﴾: صفة ثانية لها، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو عتيد؛ أي: هذا شيء ثابت لديّ عتيد؛ أي: حاضر، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾: موصولة بمعنى الذي. و﴿لَدَىَّ﴾: صلتها. و﴿عَتِيدٌ﴾؛: خبر الموصول، والموصول وصلته: خبر اسم الإشارة، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ بدلاً من ﴿هَٰذَا﴾ موصولة أو موصوفة بـ ﴿لَدَىَّ﴾، و﴿عَتِيدٌ﴾: خبر ﴿هَٰذَا﴾.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَلْقِيَا﴾: فعل أمر مبنيّ على حذف النون، لاتصاله بألف الاثنين، والألف فاعل. ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾: متعلق بـ ﴿أَلْقِيَا﴾، والجملة: في محل النصب مقول لقول محذوف؛ أي: يقال ألقيا في جهنم. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾: مفعول به. ﴿عَنِيدٍ﴾: صفة لـ ﴿كَفَّارٍ﴾، ﴿مَّنَّاعٍ﴾: صفة ثانية لـ ﴿كَفَّارٍ﴾، ﴿لِّلْخَيْرِ﴾: متعلق بـ ﴿مَّنَّاعٍ﴾، ﴿مُعْتَدٍ﴾: صفة ثالثة له. ﴿مُّرِيبٍ﴾: صفة رابعة. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل النصب بدل من ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾، أو في محل الجر بدل من ﴿كَفَّارٍ﴾. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة: صلة الموصول. ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾: ظرف في محل المفعول الثاني ﴿إِلَٰهًا﴾: مفعول أول. ﴿ءَاخَرَ﴾: صفة لـ ﴿إِلَٰهًا﴾. ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ ﴿الفاء﴾: زائدة. ﴿ألقياه﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾: متعلق بـ ﴿ألقيا﴾، ﴿ٱلشَّدِيدِ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾. والجملة الفعلية: جملة مؤكدة لجملة قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ توكيداً لفظيًّا، ويجوز أن يكون الموصول مبتدأ، وجملة

﴿فَٱلْقِيَاهُ﴾: خبره، و﴿الفاء﴾: رابطة لشبه الموصول بالشرط في العموم، والأوّل: أرجح.

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جملة مستأنفة، أو جوابية، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها وقعت في جواب قول الكافر حين يلقي في النار: ربّنا أطغاني قريني وشيطاني. قال قرينه وشيطانه: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مَآ﴾: نافية. ﴿أَطْغَيْتُهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على الكافر. ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿بَعِيدٌ﴾: صفة ﴿ضَلَٰلٍۭ﴾ وجملة الاستدراك معطوفة على جملة قوله: ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾.

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة: مستأنفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَخْتَصِمُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، والواو: فاعل ﴿لَدَىَّ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿تَخْتَصِمُوا۟﴾. والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿قَدَّمْتُ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكُم﴾: متعلق بـ ﴿قَدَّمْتُ﴾. ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾: مفعول به لـ ﴿قَدَّمْتُ﴾، و﴿الباء﴾: زائدة، والجملة الفعلية: في محل النصب حال من فاعل ﴿تَخْتَصِمُوا۟﴾. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: نائب فاعل. ﴿لَدَىَّ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿يُبَدَّلُ﴾ والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: حجازية. ﴿أَنَا۠﴾: في محل الرفع اسمها. ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة ﴿ظلام﴾: خبر ﴿مَا﴾ الحجازية. ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ متعلق بـ ﴿ظلام﴾

والجملة الاسمية: معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يَوۡمَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿ظلام﴾؛ لأنّه إذا لم يظلم في هذا اليوم.. فنفي الظلم عنه في غيره أولى، أو متعلق باذكر مقدراً؛ أي: واذكر يا محمد لقومك أهوال يوم نقول لجهنم إلخ. ﴿نَقُولُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوۡمَ﴾، ﴿لِجَهَنَّمَ﴾: متعلق بـ ﴿نَقُولُ﴾. ﴿هَلِ﴾: حرف استفهام للاستفهام التقريري، فإنّ الله سبحانه يقرّرها بأنها قد امتلأت، ولمّا خاطبها بصورة الاستفهام.. أجابته بصورة استفهام أيضاً، ومرادها الإخبار عن امتلائها، والإقرار به. ﴿ٱمۡتَلَأۡتِ﴾: فعل وفاعل و﴿التاء﴾: ضمير المؤنثة المخاطبة في محل الرفع فاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿نَقُولُ﴾. ﴿وَتَقُولُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿تقول﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿جَهَنَّمَ﴾، معطوف على ﴿نَقُولُ﴾. ﴿هَلۡ﴾: حرف استفهام. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿مَّزِيدٖ﴾: مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: موجود، والجملة: في محل النصب مقول ﴿تقول﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾؛ أي: ذي المجد والشرف على سائر الكتب على أن يكون للنسب كلابن وتامر، قال الراغب: والمجد: السعة في الكرم، من قولهم: مجدت الإبل: إذا وقعت في مرعى كثير واسع، وصف به القرآن؛ لكثرة ما تضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية، أو لأنّ من علم معانيه وعمل بما فيه مَجُد عند الله تعالى وعند الناس وشرف، قال الإمام الغزالي رحمه الله: المجيد: هو الشريف ذاته، الجميل أفعاله، الجزيل عطاؤه ونواله، فكان شرف الذات إذا قارنه حسن الفعال.. سمي مجيداً، وهو الماجد أيضاً، ولكن أحدهما أدل على المبالغة.

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ والعجب: نظر النفس لأمر خارج عن العادة.

﴿شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ العجيب: الأمر الذي يتعجّب منه، وكذلك العجاب بالضم، والعجّاب بالتشديد أكثر منه، وكذلك الأعجوبة، قال قتادة: عجبهم أن

دعوا إلى إله واحد، وقيل: من إنذارهم بالبعث والنشور، والذي نص عليه القرآن أولى.

﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾؛ أي: بعث. ﴿بَعِيدٌ﴾ عن الأوهام، والرجع متعدّ بمعنى الرد بخلاف الرجوع. ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: ما تأكل من لحوم موتاهم وعظامهم.

﴿حَفِيظٌۢ﴾؛ أي: حافظ لتفاصيل الأشياء.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ من مرج الخاتم في أصبعه: إذا جرح، بالجيمين كفرح؛ أي: قلق واضطراب من سعته بسبب الهزال، وفي «المختار»: مرج الأمر والدين: اختلط، وبابه طرب، وأمر مريج. مختلط.

والمعنى: أنهم لا يثبتون على رأي واحد، فتارةً يقولون: شاعر، وتارةً: ساحر، وتارةً: كاهن.

﴿بَنَيْنَـٰهَا﴾؛ أي: أحكمنا بناءها، فجعلناها بغير عمد، جمع عماد كأهب جمع إهاب. ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ بالكواكب. ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾؛ أي: شقوق، جمع فرج، وهو الشقّ بين الشيئين كفرجة الحائط، والفجر: ما بين الرجلين، وكني به عن السوءة، وكثر حتى صار كالصريح فيه، واستعير الفرج للثغر، وكل مخافة، وسمي القباء المشقوق فروجاً، ولبس رسول الله ﷺ فروجاً من حرير ثم نزعه.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ من رسا الشيء يرسو؛ أي: ثبت، والتعبير عنها بهذا الوصف؛ للإيذان بأنّ إلقاءها لإرساء الأرض بها، وفي ﴿رَوَٰسِىَ﴾ إعلال بالقلب، أصله: رواسو، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة.

﴿بَهِيجٍ﴾؛ أي: حسن طيّب من البهجة، وهو حسن اللون، وظهور السرور فيه، وابتهج بكذا؛ أي: سر به سروراً: بأن أثره على وجهه، كما في «المفردات».

﴿مُّنِيبٍ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: منوب، نقلت حركة الواو إلى النون فسكّنت إثر كسرة فقلبت ياءً حرف مدّ. ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾؛ أي: الذي من شأنه أن يحصد، وأصل الحصد: قطع الزرع، والحصيد بمعنى المحصود.

﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ البسوق: الطول، يقال: بسق فلان على أصحابه، من باب دخل؛ أي: وطال عليهم في الفضل، وبسقت الشاة ولدت، وأبسقت الناقة: وقع في ضرعها اللبأ قبل النتاج، ونوق بساق من ذلك. اهـ «سمين». وفي «المصباح»: بسقت النخلة بسوقاً، من باب قعد؛ طالت، فهي باسقة، والجمع باسقات وبواسق، وبسق الرجل: مهر في علمه. اهـ. ويجوز أن يكون معنى ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾: حوامل، من أبسقت الشاة: إذا حملت، فيكون من باب أفعل، فهو فاعل.

﴿نَّضِيدٌ﴾؛ أي: متراكب بعضه فوق بعض، يقال: نضدت المتاع بعضه على بعض ألقيته فهو منضود ومنضد، المنضد: السرير الذي ينضد عليه المتاع، ومنه استعير ﴿طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾، كما في «المفردات». ﴿طَلْعٌ﴾ قال في «بحر العلوم»: والطلع: ما يطلع من النخلة، وهو الكم قبل أن يشق، ويقال لما يظهر من الكم: طلع أيضاً، وهو شيء أبيض يشبه بلونه الأسنان، وبرائحته المني.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ والرس: البئر التي لم تطو؛ أي: لم تبن. ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ والأيكة: الغيضة الملتفّة الشجر. ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ العيُّ بالأمر العجز عنه، يقال: عيّ بالأمر، وعيي به إذا لم يهتد لوجه علمه، وعيي عن حجته يعيا من باب تعب: إذا عجز عنه، وقد يدغم الماضي، فيقال: عيَّ، فالرجل عيٌّ، وعيٌّ على فعل وفعيل، وعيي بالأمر لم يهتد لوجهه، وأعياني بالألف أتعبني، فأعييت يستعمل لازماً ومتعدياً، قال الكسائي: تقول: أعييت من التعب، وعييت من العجز عن الأمر، وانقطاع الحيلة.

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾؛ أي: شك شديد وحيرة واختلاط. ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يقال: جددت الثوب: إذا قطعته على وجه الإصلاح، وثوب جديد أصله المقطوع، ثم جعل لكل ما حدث إنشاؤه، وخلق جديد، إشارة إلى النشأة الثانية، وقوبل الجديد بالخلق لما كان المقصود بالجديد القريب العهد بالقطع من الثوب.

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ الوسوسة: الصوت الخفيّ، ومنه: وسواس

الحليّ، والمراد بها هنا: حديث النفس، وما يخطر بالبال من شتى الشؤون.

﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وهو عرق كبير في العنق، وللإنسان وريدان، والوريدان: عرقان مكتنفان بصفحي العنق في مقدّمهما متصلان بالوتين، سميّا بذلك؛ لأنهما يردان من الرأس، أو لأنّ الروح تردهما، فالوريد إما بمعنى الوارد، وإما بمعنى المورود، وقال الزمشخري: وهو في القلب الوتين، وفي الظهر الأبهر، وفي الذراع والفخذ الأكحل والنَّساء، وفي الخنصر الأسيلم، وقال أيضاً: وحبل الوريد مثل في فرط القرب، كقولهم: هو منّي مقعد القابلة، ومعقد الإزار، وقال ذو الرمة:

هَـلْ أَغْـدُوَنْ فِـيْ عِـيْـشَـةٍ رَغِـيْـدِ وَٱلْـمَـوْتُ أَدْنَـىٰ لِـيْ مِـنَ ٱلْـوَرِيْـدِ

أي: لا أكون في عيشة واسعة، والحال أنَّ الموت أقرب إلي من الوريد.

﴿قَعِيدٌ﴾؛ أي: مقاعد، كالجليس بمعنى المجالس وزناً ومعنى، وقيل: يطلق الفعيل على الواحد والمتعدد كما في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

﴿عَتِيدٌ﴾؛ أي: حاضر، وفي «المصباح»: عتد الشيء بالضم عتاداً بالفتح حضر فهو عتد بفتحتين، وعتيد أيضاً، ويتعدى بالهمزة والتضعيف، فيقال: اعتده صاحبه وعتده: إذا أعده وهيأه، وفي التنزيل: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أصله: جيأ بوزن فعل، قلبت الياء ألفا لتحركها بعد فتح.

﴿تَحِيدُ﴾ أصله: تحيد بوزن تفعل، نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت، فصارت حرف مدّ، من حاد عنه يحيد حيداً من باب باع: إذا مال عنه وفرَّ وهرب.

﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾؛ أي: يوم إنجاز الوعيد والوعد، ففيه اكتفاء.

﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ سائق فيه إعلال بالقلب، أصله: ساوق، قلبت الواو همزةً في الوصف حملاً له على فعله: ساق في الإعلال.

﴿كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ الغفلة: معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور، وفي «المفردات»: الغفلة: سهو يعتري من قلة التحفظ والتيقظ. ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ والغطاء: الحجاب المغطي لأمور المعاد، وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات، والألفة بها، وقصر النظر عليها، قال في «المفردات»: الغطاء: ما يجعل فوق الشيء من لباس ونحوه، كما أنّ الغشاء كذلك، وقد استعير للجهالة، قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا...﴾ الآية. وفيه إعلال بالإبدال، أصله: غطاي، أبدلت الياء همزةً لتطرفها إثر ألف زائدة.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يقال: حددت السكين: رققت حدَّها، ثم يقال لكل حاد في نفسه من حيث الخلقة، أو من حيث المعنى، كالبصر والبصيرة، فيقال: هو حديد النظر، وحديد الفهم، ويقال: لسان حديد، نحو: لسان صارم وماض، وذلك إذا كان يؤثر تأثير الحديد.

﴿عَنِيدٍ﴾؛ أي: معاند للحق، وقال السدي: مشتق من العند، وهو عظم يعترض في الحلق، أو معجب بما عنده، كأنه من قولهم: عندي كذا، كما في «عين المعاني». وقال في «المفردات»: العنيد: المعجب بما عنده، والمعاند: المتباهي بما عنده، والعنود: الذي يعند عن القصد؛ أي: يميل عن الحق، ويردُّه عارفاً به.

﴿مُّعْتَدٍ﴾ من الاعتداء، وهو مجاوزة الحق؛ أي: متجاوز للحق ظالم.

﴿مُّرِيبٍ﴾؛ أي: شاك في الله، وفي دينه. ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ القرين هنا الشيطان المقيد له.

﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾؛ أي: لا يجادل بعضكم بعضاً عندي.

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾؛ أي: على الطغيان في دار الدنيا في كتبي، وعلى ألسنة رسلي. ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أصله: مزيد بوزن مفعل بكسر العين مصدر ميمي، أو اسم مكان، نقلت حركة الياء فيه إلى الزاي، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مدّ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ لما فيه من وصف الشيء بوصف صاحبه؛ لأنّ المجد حال المتكلّم.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والإضمار في موضع الإظهار، في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ فإضمار الكافرين أولاً؛ للإشعار بتعيّنهم بما أسند إليهم من المقال، وأنه إذا ذكر شيء خارج عن سنن الاستقامة.. انصرف إليهم، إذ لا يصدر إلا عنهم، فلا حاجة إلى إظهار ذكرهم، وإظهارهم ثانياً؛ للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ لاستبعاد البعث بعد الموت.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ مثل علمه تعالى بكلّيات الأشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب محيط يتلقى منه كل شيء.

ومنها: الإضراب الانتقالي، من بيان شناعتهم السابقة، إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، في قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو تكذيبهم للنبوّة الثابتة بالمعجزات الباهرة، فالأفظعية لكون الثاني تكذيباً للأمر الثابت من غير تدبّر، بخلاف الأول، فإنه تعجّب.

ومنها: الإتيان بالكلمة المفيدة للتوقّع في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إشعاراً بأنهم علموا بعد علو شأنه، وإعجازه الشاهد على حقّيته، فكذّبوا به بغياً وحسداً.

ومنها: الإتيان بصيغة التفعيل في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لإفادة تكرير النزول.

ومنها: ذكر المحل وإرادة الحال في قوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: أشجاراً ذوات ثمرات، كما قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

ومنها: حذف الموصوف، وإقامة صفته مقامه، في قوله: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ فحذف الموصوف للعلم به، وأصله: وحب الزرع المحصود.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿ٱلْحَصِيدِ﴾ فإنه مجاز باعتبار الأول، لأنّ المعنى: وحبّ الزرع الذي شأنه أن يحصد.

ومنها: تخصيص إنباته بالحبّ في قوله: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾؛ لكونه المقصود بالذات.

ومنها: تخصيص النخل بالذِّكرِ في قوله: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ مع اندراجها في الجنات؛ لبيان فضلها على سائر الأشجار.

ومنها: توسيط الحبّ بين جنّات والنخل؛ لتأكيد استقلالها، وامتيازها عن البقية مع ما فيه من مراعاة الفواصل.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾؛ لأنّ النضيد في الأصل: السرير الذي ينضد عليه المتاع، فاستعير للطلع النضيد.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ شبه إحياء الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة.

وفيه أيضاً: تقديم الخبر للقصد إلى الحصر، كما في «أبي السعود».

ومنها: تنكير ﴿خَلْقٍ﴾ في قوله: ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لتفخيم شأنه، والإشعار بخروجه عن حدود العادات، أو الإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه، ويهتم بمعرفته، ولا يقعد على لبس.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ مثّل علمه تعالى بأحوال العبد، وبخطرات النفس بحبل الوريد القريب من القلب، وهو تمثيل للقرب بطريق الاستعارة، كقول العرب: هو مني مقعد القابلة، وهو منّي معقد الإزار.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ حيث شبه العرق بواحد من الحبال من حيث الهيئة، ثم استعار له اسمه.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أصله: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه.

ومنها: الطباق بين اليمين والشمال، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ حيث استعار لفظ السكرة للهول والشدة التي يلقاها المحتضر عند وفاته، بجامع إذهاب العقل في كلٍ، وإنما لم يجعل الموت استعارة بالكناية، ثمّ إثبات السكرة له، تخييلاً؛ لأنّ المقام أدعى للاستعارة التحقيقية. كذا في «روح البيان».

ومنها: التعبير عن وقوعها بالماضي، إيذاناً بتحقّقها، وغاية اقترابها، حتى كأنه قد أتت وحضرت، كما قيل: قد أتاكم الجيش؛ أي: قرب إتيانه.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ حيث استعار الغفلة للجهالة بجامع مَنْع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ حيث استعار الغطاء للغفلة عن أمور المعاد؛ لأنّ الغطاء حقيقة في كل ما يجعل فوق الشيء من لباس ونحوه، فاستعاره للغفلة والجهالة بجامع الستر في كلٍّ.

ومنها: الجناس الناقص بين: ﴿عَنِيدٍ﴾، و﴿عَتِيدٌ﴾ لتغاير حرفي النون والتاء.

ومنها: توافق الفواصل والسجع اللطيف غير المتكلّف به، مثل: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾، ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وهو من المحسنات البديعية لما فيه من جميل الوقع على السمع.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر(١) الحوار بين الكافر وقرينه من الشياطين، واعتذار الكافر، ورد القرين عليه، وأنَّ الله سبحانه نهاهم عن الاختصام لديه؛ لأنه لا فائدة فيه بعد أن أوعدهم.. ذكر أن الجنَّة تكون قريبة من المتقين، بحيث يرونها رأي العين، فتطمئن إليها نفوسهم، وتثلج لمرآها صدورهم، ويقال لهم: هذا هو الثواب الذي وعدتم به على ألسنة الأنبياء والرسل، وهو دائم لا نفاد له، ولا حصر فكل ما يريدون من لذّة ونعيم فهو حاضر، ولهم فوق هذا رضوان من ربهم ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمَّا أنذرهم(٢) بما بين أيديهم من اليوم العظيم، والعذاب الأليم.. أنذرهم بما يعجل لهم في الدنيا من ضروب العذاب،

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

سنّة الله فيمن تقدَّمهم من المكذبين قبلهم ممن ساروا في البلاد طولاً وعرضاً، وكانوا ذوي قوّة وأيدٍ، ولم يغن ذلك عنهم من الله شيئاً، ووسط بين ذلك ذكر المتقين وما يلاقونه من النعيم؛ ليكون أمرهم بين الخوف والطمع، ومن ثم ذكر حال الكفور المعاند، وحال الشكور العابد، ثم ذكر أنّ هذا عظة وذكرى لكل ذي لب واعٍ سميعٍ لما يلقى إليه، ثم أعاد الدليل مرة أخرى على إمكان البعث، فأبان أنه قد خلق السموات والأرض في ستة أطوار مختلفة، وما أصابه تعب، ولا لغوب كما قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ﴾ ثمّ أمره بالصبر على ما يقولون، وتنزيه الله عن كل نقص آناء الليل وأطراف النهار، فها هو ذا قد اقترب يوم البعث والنشور، وسمع صوت الداعي لذلك بعد النفخ في الصور، وتشققت الأرض سراعاً، وخرج الناس من القبور، وما ذلك بالصعب على ربّ العالمين، خالق السموات والأرض، وإنا لنعلم ما يقول المشركون في البعث والنشور، فدعهم في غيّهم يعمهون، فما أنتَ عليهم بجبار تلزمهم الإيمان بهذا اليوم، ومافيه من هول، إن أنت إلا نذير، ولا يؤمن بك إلا من يخاف عقابي وشديد وعيدي، ولا تنفع العظة إلا ذوي الأحلام الراجحة والقلوب الواعية.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات[1]: ما أخرجه الحاكم وصحّحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ اليهود أتت رسول الله ﷺ، فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق في أول ساعة الآجال حتى يموت من مات، وفي الثانية ألقىٰ الآفة على كل شيء

---

(١) لباب النقول.

مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة خلق آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة» قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال ثم استوى على العرش، قالوا: قد أصبت لو أتممت، قالوا: ثم استراح، فغضب النبيّ ﷺ غضباً شديداً، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ...﴾ سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن جرير من طريق عمرو بن قيس الملائي، عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله، لو خوَّفتنا، فنزلت هذه الآية: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ...﴾ ثمّ أخرج عن عمر مرسلاً مثله.

التفسير وأوجه القراءة

ثم لما فرغ من بيان حال الكافرين.. شرع في بيان حال المؤمنين، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾؛ أي: قربت الجنة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي تقريباً ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أو مكاناً غير بعيد عنهم، بحيث يشاهدونها من الموقف، ويقفون على ما فيها قبل دخولها من فنون المحاسن، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبتهون بأنهم محشورون إليها، فائزون بها، وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيد[1] للإزلاف، وانتصابه: إما على المصدرية، أو على الظرفية، كما مرّت الإشارة إليه، أو على الحالية المؤكّدة؛ أي: حال كونها غير بعيد؛ أي: شيئاً غير بعيد، كقولك هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل، إلى غير ذلك من أمثلة التوكيد، فالإزلاف تقريب الرؤية، وغير بعيد تقريب الدخول، فإنّهم يحاسبون حساباً يسيراً، ومنهم من لا يحاسب أصلاً، ويجوز أن يكون التذكير لكونه على زنة المصدر الذي يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث، كالزئير والضليل، أو لتأويل الجنة بالبستان، وقيل: المعنى: أنها زينت قلوبهم في الدنيا بالترغيب والترهيب، فصارت قريبة من قلوبهم، والأول أولى، والإشارة بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى الجنة التي أزلفت لهم على معنى هذا الذي ترونه من فنون نعيمها ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل، والجملة الاسمية: مقول لقول محذوف،

---

(١) روح البيان.

وقع حالاً من المتقين؛ أي: يقال لهم: هذا ما توعدون.

والمعنى[1]: وأزلفت الجنة للمتقين، حال كون أولئك المتقين مقولاً لهم من قبل الله، أو على ألسنة الملائكة عند ما شاهدوا الجنة ونعيمها هذا المشاهد، أو هذا الثواب، أوهذا الإزلاف، وتذكير اسم الإشارة لتذكير الخبر، أو هو إشارة إلى الجنة والتذكير لما أنّ المشار إليه هو المسمى من غير أن يخطر بالبال لفظ يدل عليه، فضلاً عن تذكيره وتأنيثه، فإنهما من أحكام اللفظ العربي، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وفي «التأويلات النجمية»: هذا إشارة إلى مقعد صدق، ولو كانت الإشارة إلى الجنة لقال: هذه. انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ بالتاء خطاباً للمؤمنين، وابن كثير وأبو عمرو: بياء الغيبة؛ أي: هذا القول هو الذي وقع الوعد به، وهي جملة اعتراضية بين المبدل منه والبدل.

ومعنى الآية: أي وأدنيت الجنة للذين اتقوا ربّهم، واجتنبوا معاصيه بحيث تكون بمرأى العين منهم، إكراماً لهم واطمئناناً لنفوسهم، فيرون ما أعد لهم من نعيم وحبور ولذّة وسرور لا نفاد له ولا فناء، وتقول لهم الملائكة: هذا هو النعيم الذي وعدكم به ربّكم على ألسنة رسله، وجاءت به كتبه.

ثم بين المستحق لهذا النعيم، فقال: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل من المتقين، بإعادة الجار؛ أي: وأزلفت الجنة للمتقين لكل أوّاب منهم؛ أي: رجَّاع إلى الله؛ أي: كثير الرجوع إلى الله بالتوبة، فأوّلاً يرجع من الشرك إلى التوحيد، وثانياً من المعصية إلى الطاعة، وثالثاً من الخلق إلى الحقّ، وقيل: هو المسبح، وقيل: هو الذاكر لله في الخلوة، قال الشعبي ومجاهد: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلوة، فيستغفر الله منها، وقال عبيد بن عمير: هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله فيه.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

﴿حَفِيظٌ﴾؛ أي: حافظ لتوبته من النقض، ولعهده من الرفض، أو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها، وقال قتادة: هو الحافظ لما استودعه من حقّه ونعمته، وقيل: هو الحافظ لأمر الله، وقال سهل رضي الله عنه: الأوَّاب: هو الراجع إلى الله تعالى بقلبه من الوسوسة إلى السكون إلى الله الحفيظ المحافظ على الطاعات والأوامر، وقال المحاسبيّ: الأوّاب: الراجع بقلبه إلى ربّه، والحفيظ: الحافظ قلبه في رجوعه إليه أن لا يرجع منه إلى أحد سواه، وقال الوراق: هو المحافظ لأوقاته وخطراته؛ أي: الخطرات القلبية والإلهامات الروعية، وفي الحديث: «من حافظ على أربع ركعات في أول النهار.. كان أوّاباً حفيظاً».

﴿مَنْ﴾: بدل أو عطف بيان من ﴿كل أوّاب﴾ وقيل: يجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من المتقين، وفيه نظر[1]؛ لأنّه لا يتكرّر البدل والمبدل منه واحد؛ أي: وأزلفت الجنة لمن ﴿خَشِيَ﴾ وخاف ﴿الرَّحْمَنَ﴾ سبحانه حال كونه متلبساً ﴿بِالْغَيْبِ﴾ عن الناس، قال الضحاك والسدي: يعني: في الخلوة، حيث لا يراه أحد، وقال الحسن: إذا أرخى الستر، وأغلق الباب. والجار والمجرور: متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ﴿خَشِيَ﴾ أو مفعوله أو صفة لمصدره؛ أي: خشية متلبسة بالغيب حيث خشي عقابه وهو غائب عنه، قال بعضهم: والخشية خوف يشوبه تعظيم، قالوا: ومن رزق الخشية لم يعدم الإنابة، ومن رزق الإنابة لم يعدم التفويض والتسليم، ومن رزق التفويض والتسليم.. لم يعدم الصبر على المكاره، ومن رزق الصبر على المكاره.. لم يعدم الرضىٰ.

والتعرض لعنوان الرحمانية[2]؛ للإشعار بأنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته، أو بأنّ علمهم بسعة رحمته لا يصدهم عن خشيته، وأنهم عاملون بموجب قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾.

﴿وَجَاءَ﴾ ربّه يوم القيامة ﴿بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾؛ أي: راجع إلى الله تعالى مخلص

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

لطاعته، وقيل: المنيب: المقبل على الطاعة، وقيل: السليم من أمراض القلب، وصف[1] القلب بالإنابة مع أنها وصف المكلف لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى؛ أي: لا عبرة للإنابة والرجوع إلا إذا كان من القلب.

والمراد: الرجوع إلى الله تعالى بما يحبّ ويرضى، وفي «التأويلات النجمية»: بقلب منيب إلى ربّه، معرض عمَّا سواه، مقبل عليه بكليته.

وقوله: ﴿مَّنۡ﴾ بتقدير القول؛ أي: يقال لهم: ادخلوها، والجمع باعتبار معنى ﴿مَنۡ﴾ وقوله: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾: متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ﴿ادخلوها﴾؛ أي: يقال لهم من جهة الله سبحانه: ادخلوا الجنة حالة كونكم متلبسين بسلامة من العذاب، وزوال النعم، وحلول النقم أو بتسليم من جهة الله وملائكته عليكم؛ أي: مسلماً عليكم، أو سلم بعضكم على بعض.

والمعنى: أي[2] هذا الثواب للمتقين الذين يرجعون من معصية الله إلى طاعته تائبين من ذنوبهم، ويلقون الله بقلوب منيبة إليه خاضعة له، وتقول لهم الملائكة تكرمةً لهم: ادخلو الجنة سالمين من العذاب والهموم والأكدار، فلا خوف عليكم، ولا أنتم تحزنون.

ثم يبشرون، ويقال لهم: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم الذي حصل فيه الدخول ﴿يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ والدوام في الجنة إذ لا انتهاء له أبداً، فاطمئنوا، وقروا عيناً فهذا يوم الخلود الذي لا موت بعده، ولا ظعن ولا رحيل، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الزمان الممتد الذي وقع في بعض منه الدخول المتحقق فيه، تقديره: الخلود إذ لا انتهاء له، فإن قيل[3]: المؤمن قد علم في الدنيا أنه إذا دخل الجنة.. خلد فيها، فما فائدة هذا القول؟

فالجواب من وجهين:

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.

الأول: أنّ الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ في الدنيا إعلاماً وإخباراً، وليس ذلك قولاً يقوله عند قوله: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾.

الثاني: أنّ اطمئنان القلب بالقول أكثر. اهـ «كرخي».

والخلود في الجَنَّة[1] بقاء الأشياء على الحالة التي هي عليها من غير اعتراض الكون والفساد عليها، وقال سعدي المفتي: ولا يبعد والله أعلم أن تكون الإشارة إلى زمان السلم، فتحصل الدلالة على أنَّ السلامة من العذاب، وزوال النعم حاصلة لهم مؤبّداً مخلَّداً لا أنها مقتصرة على وقت الدخول.

ثم زاد في البشرى، فقال: ﴿لَهُم﴾؛ أي: للمتقين ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ من فنون المطالب، كائناً ما كان سوى ما تقتضي الحكمة حجره، وهو ما كان خبيثاً في الدنيا أبداً كاللواطة ونحوها، فإنهم لا يشاؤونها؛ لأنّ الله سبحانه يعصم أهل الجنة من شهوة محال أو منهيٍّ عنه. ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة، متعلق بـ ﴿يَشَآءُونَ﴾ ويجوز أن يكون حالاً من الموصول، أو من عائده، والأول أولى. اهـ «كرخي».

قال القشيري: يقال لهم: قد قلتم في الدنيا: ما شاء الله كان، فاليوم ما شئتم كان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾: أي: عندنا زيادة في النعيم على ما يشاؤون، وهو ما لا يخطر ببالهم، ولا يندرج تحت مشيئتهم، من أنواع الكرامات التي لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإنهم يسألون الله سبحانه، حتى تنتهي مسألتهم فيعطيهم ما شاؤوا، ثم يزيدهم من عنده ما لم يسألوه، ولم تبلغه أمانيهم، وقيل: إنّ السحاب تمر بأهل الجنة فتمطرهم الحور، فتقول: نحن المزيد الذي قال الله تعالى: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ والأصح: أن المزيد هو النظر إلى وجه الله الكريم، كما روي بطرق مختلفة، فيجتمعون في كل يوم جمعة، فلا يسألون شيئاً إلا أعطاهم، وتجلى لهم، ويقال ليوم الجمعة في الجنة: يوم المزيد.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: أي لهم إجابة لسؤالهم كل ما يشتهون، ثم نزيدهم فوق ما سألوا مما لم تره أعينهم، ولم يدر بخلدهم، ونحو الآية قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

ثم خوف الله سبحانه أهل مكة، ومن دان دينهم بما وقع للأمم الماضية، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ كم: خبرية بمعنى عدد كثير، وقعت مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾. و﴿مِّن قَرْنٍ﴾ مميزها ومبين لإبهامها. ﴿قَبْلَهُم﴾؛ أي قبل أهل مكة ﴿مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: من أمة؛ أي: وكثيراً من القرون الذين كذبوا رسلهم أهلكنا قبل قومك يا محمد. ﴿هُمْ﴾؛ أي: أولئك القرون ﴿أَشَدُّ﴾ وأقوى ﴿مِنْهُم﴾؛ أي: من أهل مكة ﴿بَطْشًا﴾؛ أي: أخذاً وبأساً، كعاد وثمود وفرعون، ومحل الجملة: النصب على أنها صفة لكم، وفيه إشارة إلى إهلاك النفوس المتمردة في القرون الماضية إظهاراً لكمال القدرة والحكمة البالغة، لتتأدب به النفوس القابلة للخير، وتتعظ به القلوب السليمة.

وقوله: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ معطوف على ﴿أَهْلَكْنَا﴾ فـ ﴿الفاء﴾[1] لمجرد العطف والتعقيب، من نقب في الأرض إذا ذهب وطاف في أرجائها؛ أي: وكم أهلكنا قبل قومك يا محمد من الأمم المكذبة لرسلها، الموصوفين بشدّة البطش والقوّة، فساروا في البلاد، وطافوا في أرجاء الأرض هرباً من عذابنا حين رأوا أمارته، حال كونهم قائلين: ﴿هَلْ﴾ لنا ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: هل لنا من مفرّ ومهرب ومخلص من أمر الله وعذابه، أو من الموت، فلم يجدوا مفرّاً ولا مهرباً، فـ ﴿مَّحِيصٍ﴾: مبتدأ خبره: مضمر، وهو لهم. و﴿مِن﴾: زائدة، والجملة مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل ﴿نقَّبوا﴾.

ويجوز أن يراد: فنقب أهل مكة، وجالوا في أسفارهم، ومسايرهم للتجارة في بلاد القرون، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم، ويحتمل أن تكون ﴿الفاء﴾: سببية، عاطفة على جملة ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾؛ أي: دالّةً على

(١) روح البيان بتصرف.

أنَّ شدّة بطشهم أبطرتهم، وأقدرتهم، على التنقيب؛ أي: فبسبب شدّة بطشهم نقبوا في البلاد، وجالوا فيها، وأذلوها، وقهروا أهلها، واستولوا عليهم، وتصرفوا في أقطارها، فأهلكناهم، فهل لهم من محيص؛ أي: ليس لهم مخلص من عذابي؟ وجملة ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾: مستأنفة، واردة لنفي أن يكون لهم محيص؛ يعني: فإن أصرَّ أهل مكة.. فليحذروا من مثل ما حل بالأمم الماضية، فإنَّ الغاية هو الهلاك، والنهاية هو العذاب.

والمعنى[1]: أي وكثير من الأمم التي قبلك أهلكناهم، وكانوا أشدّ من قومك بطشاً، وأكثر منهم قوّة، كعاد وثمود وتبع، فتقلبوا في البلاد، وسلكوا كل طريق ابتغاء للرزق، ولم يجدوا لهم من أمر الله مهرباً ولا ملجأ حين حم القضاء، وهكذا حالكم، فحذار أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب العاجل في الدنيا، والآجل يوم القيامة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَنَقَّبُواْ﴾ بفتح القاف مشددة، والظاهر: أنّ الضمير في ﴿نقبوا﴾: عائد على ﴿كَمْ﴾؛ أي: دخلوا البلاد من أنقابها وطرقها.

والمعنى: طافوا في البلاد، وقيل: نقروا وبحثوا، والتنقيب: التنقير والبحث، قال امرؤ القيس في معنى التطواف:

وَقَدْ نَقَّبْتُ فِيْ ٱلآفَاقِ حَتَّىٰ رَضِيْتُ مِنَ ٱلْغَنِيْمَةِ بِٱلإِيَابِ

وروي: قد طوفت.

ومثله قول الحارث بن خلدة:

نَقَبُوْا فِيْ ٱلْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ ٱلْمَوْ تِ وَجَالُوْا فِيْ ٱلأَرْضِ كُلَّ مَجَالِ

﴿فَنَقَّبُواْ﴾ متسبب عن شدة بطشهم، فهي التي أقدرتهم على التنقيب، وقوّتهم عليه، ويجوز أن يعود الضمير في ﴿فَنَقَّبُواْ﴾ على قريش؛ أي: فنقّبوا في أسفارهم في بلاد القرون، فهل رأوا محيصاً حتى يؤملوه لأنفسهم؟ ويدلّ على عود الضمير

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

لأهل مكة قراءة ابن عباس وابن يعمر وأبي العالية ونصر بن يسار وأبي حيوة والأصمعي عن أبي عمرو: بكسر القاف مشددة على صيغة الأمر لأهل مكة؛ أي: فسيحوا في البلاد وابحثوا، وقرأ ابن عباس والحسن وأبو العالية وأبو عمرو في رواية: ﴿نقبوا﴾: بفتح القاف مخفّفة، وقرىء: بكسر القاف خفيفة؛ أي: نقبت أقدامهم وأخفاف إبلهم، من نقب خف البعير: إذا انتقب ودمي، ويحتمل أن يكون ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ على إضمار القول؛ أي: يقولون: هل من محيص من الهلاك، كما مرّ آنفاً، واحتمل أن لا يكون ثم قول؛ أي: لا محيص من الموت، فيكون توقيفاً وتقريراً واستئنافاً، اهـ من «البحر المحيط».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي[1]: إنَّ فيما ذكر من قصتهم، أو فيما ذكر في هذه السورة، من أولها إلى آخرها من العبر والأخبار، وإهلاك القرى. ﴿لَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: لتذكرة وعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾؛ أي: قلب سليم يدرك به كنه ما يشاهده من الأمور، ويتفكر فيها كما ينبغي، فإنَّ من كان له ذلك يعلم أن مدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير.

قال الراغب: قلب الإنسان سمي به لكثرة تقلبه، ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به، من الروح والعلم والشجاعة وسائر ذلك، وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾؛ أي: علم وفهم. انتهى، وفسَّره ابن عباس رضي الله عنهما بالعقل، وذلك لأنَّ العقل قوة من قوى القلب، وخادم من خدامه، فمن له أدنى عقل فله ذكرى، وقال أبو الليث: لمن كان له قلب؛ أي: عقل، فكني به عنه. انتهى. قال الفرّاء: وهذا جائز في العربية، تقول: مالك قلب، وما قلبك معك؛ أي: مالك عقل، وما عقلك معك، وقيل[2]: المعنى: لمن كان له حياة، ونفس مميزة، فعبّر عن ذلك بالقلب؛ لأنّه وطنها ومعدن حياتها، ومنه قول امرىء القيس:

أَغَـرَّكِ مِـنِّـيْ أَنَّ حُـبَّـكِ قَـاتِـلِـيْ   وَأَنَّـكِ مَـهْـمَـا تَـأْمُـرِيْ ٱلْـقَّـلْـبَ يَـفْـعَـلِ

---

(١) البحر المحيط.   (٢) الشوكاني.

وفي «الأسئلة المقحمة»: كيف قال: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾، ومعلوم أنّ لكل إنسان قلباً؟ قلت: إنّ المراد ههنا بالقلب: عقل، كني بالقلب عن العقل؛ لأنه محله ومنبعه كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ وسمعت بعض المشايخ يقول: لمن كان له قلب مستقر على الإيمان، لا ينقلب بالسراء والضرّاء. انتهى.

﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ إلى ما يتلى عليه من الوحي الناطق بما جرى عليهم، فإنَّ من فعله يقف على جلية الأمر، فينزجر عما يؤدي إليه من الكفر، فكلمة ﴿أَوۡ﴾ لمنع الخلو دون الجمع، فإن إلقاء السمع لا يجدي بدون سلامة القلب، كما يلوح به قوله: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أن ذلك الملقي فهو حال من الفاعل. ﴿شَهِيدٌ﴾ من الشهود بمعنى الشاهد؛ أي: حاضر بذهنه ليفهم معانيه؛ لأنّ من لا يحضر ذهنه، فكأنه غائب أو شاهد بصدقه، فيتعظ بظواهره، وينزجر بزواجره.

والمعنى: أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحي الحاكي لما جرى على تلك الأمم، واستمعه والحال أنّ قلبه حاضر فيما يسمع، فإنَّ من لم يحضر قلبه فيما يسمع.. فهو غائب، وإن حضر بجسمه.

والخلاصة: استمع الوعظ بغاية استماعه، حتى كأنه يرمى بشيء ثقيل من علو إلى سفل اهـ «خطيب».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ مبنياً للفاعل و﴿ٱلسَّمۡعَ﴾. نصب به؛ أي: أو أصغى سمعه مفكراً فيه، وقرأ السلمي وطلحة والسدي وأبو البرهشم: ﴿أو أُلقي﴾ مبنياً للمفعول السمع رفع به؛ أي: السمع منه؛ أي: من الذي له قلب.

قال مجاهد وقتادة: هذه الآية في أهل الكتاب، وكذا قال الحسن، وقال محمد بن كعب وأبو صالح: إنها في أهل القرآن خاصة.

والمعنى: إنّ فيما تقدّم لتذكرة وعبرة لمن كان له قلب واع، يتدبّر الحقائق، ويعي ما يقال له.

---

(١) البحر المحيط.

ثم أعقب ذلك بذكر ما هو كالدليل على ما سلف، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أوجدنا السموات والأرض ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أصناف المخلوقات ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: في قدر[1] ستّة أيّام من أيّام أول الدنيا، طول كل يوم ألف سنة من هذه الأيام. الأرض في يومين، ومنافعها في يومين، والسموات في يومين، ولو شاء.. لكان ذلك في أقل من لمح البصر، ولكنّه سن لنا التأنّي بذلك، فإن العجلة من الشيطان، إلا في ستة مواضع: أداء الصلاة إذا دخل الوقت، ودفن الميت إذا حضر، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب وحل، وإطعام الضيف إذا نزل، وتعجيل التوبة إذا أذنب. قال بعضهم: إذا فتح الله عليك بالتصريف.. فأتِ البيوت من أبوابها، وإيّاك والفعل بالهمة من غير أناة، وانظر إلى الحق سبحانه كيف خمر طينة آدم بيديه، وسواه وعدله، ثم نفخ فيه الروح، وعلمه الأسماء، فأوجد الأشياء على ترتيب ونظام، وكان قادراً أن يكون آدم ابتداءً من غير تخمير، ولا شيء مما ذكر.

﴿وَمَا مَسَّنَا﴾ بذلك الخلق، مع كونه مما لا تفي القوى والقدر ﴿مِن لُّغُوبٍ﴾؛ أي: من إعياء ولا تعب ولا نصب، فإنه لو كان.. لاقتضى ضعفاً، فاقتضى فساداً، فكان من ذلك شيء على غير ما أردناه، فكان تصرفنا فيه غير تصرفنا في الباقي، وأنتم تشاهدون الكل على حدٍّ سواء من نفوذ الأمر، وتمام التصرف، وفي «التأويلات النجمية»: وما مسَّنا من لغوب؛ لأنها خلقت بإشارة أمر كن كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ فأنّى يمسه اللغوب، وأنه صمد لا يحدث في ذاته حادث، انتهى. و﴿مِن﴾: زائدة، و﴿لُّغُوبٍ﴾: فاعل، والجملة: إما حالية، أو مستأنفة.

والمعنى[2]: قسماً بربك، إنا خلقنا السموات والأرض، وملأناهما بالعجائب في ستة أطوار مختلفة وما مسنا تعب ولا إعياء، ولا تزال عجائبنا تترى

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

كل يوم، فانظروا إليها، وتأمَّلوا في محاسنها، فهي لا تحصى، ولا يبلغها الاستقصاء، وكذبوا اليهود الذين قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، أوَّلها الأحد، وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش، فنحن لايمسنا لغوب ولا إعياء، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لُّغُوبٍ﴾ بضم اللام، وقرأ علي والسلميّ وطلحة ويعقوب: بفتحها، وهما مصدران: الأول مقيس، وهو الضم، وأما الفتح فغير مقيس، كالقبول والولوع والوزوع.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: على ما يقوله المشركون في شأن البعث، من الأباطيل التي لا مستند لها إلا الاستبعاد، حيث قالوا: هذا شيء عجيب؛ أي: هذا الذي يقوله محمد: نبعث بعد الموت شيء عجيب بعيد عن العقل، فإنَّ من خلق الخلق في تلك المدّة اليسيرة بلا إعياء ولا فتور، قادر على بعثهم، وجزائهم على ما قدَّموا من الحسنات والسيئات، أو على ما يقوله اليهود من مقالات الكفر والتشبيه، وهذا تسلية للنبي ﷺ، وأمر له بالصبر على ما يقوله المشركون؛ أي: هون عليك ولا تحزن لقولهم، وتلق ما يرد عليك منه بالصبر، وهذا قبل الأمر بقتالهم.

﴿وَسَبِّحْ﴾؛ أي: ونزهه تعالى يا محمد عن العجز عمَّا يمكن، وعن وقوع الخلف في أخباره التي من جملتها الإخبار بوقوع البعث، وعن وصفه بما يوجب التشبيه حال كونك متلبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: بحمده على ما أنعم عليك من إصابة الحق وغيرها، وفي «الخطيب»: فقد كان النبيّ ﷺ مشتغلاً بأمرين:

أحدهما: عبادة الله.

والثاني: هداية الخلق، فلما لم يهتدوا.. قيل له: أقبل على شغلك الآخر،

---

(١) البحر المحيط.

وهو العبادة. اهـ. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾؛ يعني: وقت صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾؛ يعني: وقت صلاة العصر، وفضيلة هذين الوقتين مشهورة؛ لأنهما وقت تعاقب ملائكة الليل وملائكة النهار، والتسبيح فيهما بمكان، وقيل: المراد[1]: صلاة الفجر، وصلاة العصر، وقيل: الصلوات الخمس، وقيل: صلّ ركعتين قبل طلوع الشمس، وركعتين قبل غروبها، والأول أولى.

فإن قلت: لم قال هنا: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ وقال في طه: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ بالضمير؟

قلت: لأنّه راعى هناك القياس؛ لأنّ الغروب للشمس كما أنَّ الطلوع لها، فأتى بالضمير لِسَبْقِ المرجع، وراعى هنا الفواصل، فهذا هو الفرق بين الموضعين، فتأمل.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾؛ أي: وسبحه سبحانه وتعالى بعض ساعات الليل، وقيل: هي صلاة الليل، وقيل: ركعتا الفجر، وقيل: صلاة العشاء، والأول أولى. فقوله[2]: ﴿مِنَ ٱلَّيْلِ﴾: مفعول لفعل مضمر معطوف على ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يفسره ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ و﴿مِن﴾ للتبعيض، ويجوز أن يعمل فيه المذكور أيضاً، ولا تمنع الفاء من عمل ما بعدها فيما قبلها، كما سيجيء في سورة قريش.

﴿و﴾ سبّحه ﴿أدبار السجود﴾؛ أي: أعقاب الصلوات وأواخرها، جمع دبر، من أدبر الشيء: إذا ولّى، وأدبرت الصلاة: إذا انقضت، والركوع والسجود يعبّر بهما عن الصلاة لأنهما أعظم أركانها، كما يعبّر بالوجه عن الذات، لأنّه أشرف أعضائها.

وقرأ الجمهور - أي: جمهور السبعة - والحسن والأعرج: ﴿وَأَدْبَٰرَ﴾ بفتح الهمزة، جمع دبر، كطنب وأطناب، وقرأ نافع وابن كثير وحمزة وابن عباس وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وطلحة، وشبل: بكسرها على المصدر، وقال[3]

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

جماعة من الصحابة والتابعين: أدبار السجود: الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم: الركعتان قبل الفجر، وقد اتفق القرّاء السبعة في إدبار النجوم، أنه بكسر الهمزة كما سيأتي، وفي «تفسير المناسبات»[1]: وسبح متلبساً بحمد ربك قبل طلوع الشمس بصلاة الصبح، وما يليق به من التسبيح وغيره، وقبل الغروب بصلاة العصر والظهر كذلك، فالعصر أصل في ذلك الوقت، والظهر تبع لها، ولما ذكر ما هو أدل على الحب في المعبود؛ لأنّه وقت الانتشار إلى الأمور الضرورية، التي بها القوام والرجوع لقصد الراحة الجسدية، بالأكل والشرب واللعب والاجتماع بعد الانتشار، والانضمام بعد الافتراق، مع مافي الوقتين من الدلالة الظاهرة على طيّ الخلق ونشرهم، أتبعه ما يكون وقت السكون المراد به الراحة بلذيذ الاضطجاع والمنام، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: في بعض أوقاته، فسبحه بصلاتي المغرب والعشاء وقيام الليل؛ لأنَّ الليل وقت الخلوات وهي ألذّ المناجاة، ولما ذكر الفرائض التي لا مندوحة عنها على وجه يشمل النوافل من الصلاة وغيرها.. أتبعها النوافل المقيَّدة بها، فقال: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾؛ أي: الذي هو الأكمل في بابه، وهو صلاة الفرض بما يصلي بعده من الرواتب، والتسبيح القول أيضاً.

والمعنى - والله أعلم -: أن الاشتغال استمطار من المحمود المسبح للنصر على المكذّبين، وأنَّ الصلاة أعظم ترياق للنصر وإزالة النصب، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر.. فزع إلى الصلاة. انتهى، يقال: حزبه الأمر: نابه واشتد عليه، أو ضغطه وفزع إليه: لجأ.

والخلاصة[2]: أي ونزه ربك عن العجز عن كل ممكن كالبعث ونحوه، حامداً له على أنعمه عليك وقت الفجر، ووقت العصر، وبعض الليل، وفي أعقاب الصلوات، وقال ابن عباس: الصلاة قبل طلوع الشمس صلاة الفجر، وقبل الغروب الظهر والعصر، ومن الليل العشاءان، وأدبار السجود النوافل بعد

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

الفرائض، روى البخاريّ عن ابن عباس قال: «أمر رسول الله ﷺ أن يسبِّح في أدبار الصلوات كلّها؛ يعني: قوله: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ وفي حديث مسلم: تحديد التسبيح بثلاث وثلاثين، والتحميد بثلاث وثلاثين، والتكبير بثلاث وثلاثين، وتمام المئة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، دبر كل صلاةٍ».

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ أيها الرسول، أو أيها المخاطب ما أقول لك، وما أخبرك به في شأنّ أهوال يوم القيامة، فمفعول ﴿اسْتَمِعْ﴾: محذوف، والوقف على ﴿اسْتَمِعْ﴾. وفي حذف المفعول تهويل وتفظيع المخبر به، و﴿يَوْمَ﴾ أول كلام مستأنف، عامله: محذوف، تقديره: يعلم المشركون عاقبة كفرهم وتكذيبهم، أو يخرجون من قبورهم.

﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ بالحشر، وهو إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس، فينادي بالحشر، والمراد بندائه: نفخه في الصور، سمّي نداء من حيث إنه جعله علماً للخروج وللحشر، وإنما[1] يقع ذلك النداء كأذان المؤذن، وعلامات الرحيل في العساكر، وقيل: هو النداء حقيقةً، فيقف على صخرة بيت المقدس، ويضع أصبعه في أذنيه، وينادي: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزِّقة، والشعور المتفرقة، إنّ الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، وقيل: المنادي جبريل، والنافخ إسرافيل، قال الشهاب الخفاجي: وهو الأصح، كما دلت عليه الآثار.

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ إلى السماء، وهو صخرة بيت المقدس، فإنَّ بيت المقدس أقرب من جميع الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً، أو ثمانية عشر ميلاً، وهو وسط الأرض، كما قاله علي رضي الله عنه ولا يصح ذلك إلا بوحي، أو من مكان قريب يصل نداؤه إلى الكل على سواء، وفي «كشف الأسرار»: سمي قريباً، لأنّ كل إنسان يسمعه من طرف أذنه، وقيل: من تحت أقدامهم، وقيل:

---

(١) روح البيان.

من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة، ولعل ذلك في الإعادة، مثل: كن في البدء، والله أعلم. وكل ذلك مما لا مستند له من نقلٍ.

وعبارة السمين: قوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ هو استماع على بابه، وقيل: هو بمعنى الانتظار، وهو بعيد، فعلى الأول يجوز أن يكون المفعول محذوفاً؛ أي: استمع نداء المنادي، أو نداء الكافر بالويل والثبور، فعلى هذا يكون ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ منصوباً بيخرجون مقدراً مدلولاً عليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ وعلى الثاني يكون ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ مفعولاً به؛ أي: انتظر ذلك اليوم. انتهى.

وقرأ ابن كثير[1] ﴿المنادي﴾ بالياء وصلاً ووقفاً، ونافع وأبو عمرو: بحذف الياء وقفاً، وعيسى وطلحة والأعمش وباقي السبعة: بحذفها وصلاً ووقفاً اتباعاً لخط المصحف، ومن أثبتها فعلى الأصل، ومن حذفها وقفاً فلأنَّ الوقف تغيير يبدل فيه التنوين ألفاً نصباً، والتاء هاءً، ويشدد المخفف، ويحذف في القوافي.

﴿يَوْمَ ...﴾ إلخ. بدل من ﴿يَوْمَ يُنَادِ ...﴾ إلخ. ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ أي[2]: الأرواح، وقيل: الأجساد؛ لأنه يمدها أربعين سنة، كما في «عين المعاني». ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾ والصرخة، وهي صيحة البعث التي هي النفخة الثانية. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: إما حالٌ من الصيحة؛ أي: متلبسةً بالحق، أو من فاعل ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أي: متلبسين بالحق، أو متعلق بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ على أنَّ الباء للتعدية والعامل في الظرف: هو ما يدل عليه قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم؛ أي: يوم النداء، وسماع صيحة النفخ ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور، وهو من أسماء يوم القيامة، وسمّي يوم العيد يوم الخروج أيضاً تشبيهاً به.

والمعنى: يوم يسمعون الصيحة متلبسةً بالحق الذي هو البعث، يخرجون من القبور إلى المحاسبة، ثم إلى إحدى الدارين، إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا بانقضاء الآجال من غير أن يشاركنا في ذلك أحد، أو نحيي في الآخرة ونميت في الدنيا، والجملة: مستأنفة لتقرير أمر

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

البعث. ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجع للمجازاة في الآخرة لا إلى غيرنا، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، فليستعدوا للقائنا، فتكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً؛ ﴿إنّ﴾ للتأكيد والاختصاص والتفرد.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ﴾ الثاني، أو ظرف للمصير، أو ظرف للخروج.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَشَقَّقُ﴾ بإدغام التاء في الشين، وباقي السبعة: بتخفيفها على حذف إحدى التاءين تخفيفاً، وقرىء: ﴿تشقّق﴾ بضم التاء، مضارع شقّقت، على البناء للمفعول، وقرىء: ﴿تنشق﴾ مضارع انشقّت، وقرأ زيد بن عليّ: ﴿تتشقّق﴾ بإثبات التاءين على الأصل؛ أي: يخرجون من قبورهم يوم تتشقّق وتتصدّع وتنفتح ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن الموتى حال كونهم ﴿سِرَاعًا﴾؛ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي من غير التفات يميناً وشمالاً، وهذا كقوله: ﴿مهطعين إلى الداع﴾ فهو حال من الضمير المجرور، والعامل فيه ﴿تَشَقَّقُ﴾ وقيل: محذوف، تقديره: يخرجون، فهو حال من الواو في ﴿يخرجون﴾، قاله الحوفي، ويجوز أن يكون هذا المقدر عاملاً في ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ كما مرّ آنفاً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإخراج بتشقّق الأرض عنهم ﴿حَشْرٌ﴾؛ أي: بعث وجمع وسوق ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾؛ أي: هيّن علينا للحساب والجزاء، فكيف ينكره عاقل؛ أي[2]: نقول: كن فيكون، وهو كلام معادل لقول الكفرة: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾. وتقديم الجار والمجرور على عامله؛ لتخصيص اليسر به تعالى، فإنّ ذلك لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته، الذي لا يشغله شأن من شأن، كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾. وعبارة أبي حيّان: فصل بين الموصوف وصفته بمعمول الصفة وهو ﴿عَلَيْنَا﴾؛ أي: يسير علينا، وحسّن ذلك كون الصفة فاصلة.

---

(١) الشوكاني والبحر المحيط.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي إلينا المصير في ذلك اليوم الذي تتصدّع فيه الأرض، فتخرج الموتى من صدوعها مسرعة، وذلك جمع هيّن علينا لا عسر فيه ولا مشقّة.

ثم سلّى رسوله، وهدّد المشركين بقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: بما يقول المشركون من فريتهم على ربهم، وتكذيبهم بآياته، وإنكارهم قدرته على البعث بعد الموت، وغير ذلك مما لا خير فيه، ففيه تسلية له ﷺ وتهديد لهم. ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِم﴾؛ أي: على المشركين ﴿بِجَبَّارٍ﴾؛ أي: بمسلط عليهم تجبرهم، وتقسرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تريد، وإنما أنت مذكر، وهذا كقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: لست بمتسلّط عليهم تجبرهم على ما تريد، والآية منسوخة بآية السيف[2].

﴿فَذَكِّرْ﴾ وعظ ﴿بِٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أي: بمواعظه ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾؛ أي: من يخاف وعيدي لعصاتي بالعذاب، لأنَّ من لا يخاف الوعيد لكونه غير مصدق بوقوعه لا يذكر، إذ لا تنفع فيه الذكرى، كما قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾. وختمت السورة بقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ كما افتتحت بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ فحصلت المناسبة بين المبتدأ والمختتم.

وقرأ ورش[3]: بإثبات الياء بعد الدال في الوصل.

والمعنى: أي وما أنت بمسلط عليهم تقسرهم على الإيمان، وتسيرهم على ما تهوى وتريد، إنما أنت نذير، وما عليك إلا التبليغ، وعلينا الحساب، ثم أكد أنه مذكر لا مسيطر، وأن التذكير لا ينفع إلا من خشي ربه، فقال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ...﴾ إلخ؛ أي[4]: فذكر أيها الرسول بهذا القرآن الذي أنزلته عليك من يخاف وعيدي، الذي أوعدته من عصاني، وخالف أمري؛ أي: بلّغ رسالة ربّك،

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح.

(٤) المراغي.

وما يتذكر بها إلا من يخاف وعيد الله تعالى، وشديد عذابه، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. وكان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا برّ يا رحيم، وأما من لا يخاف وعيدنا، فنفعل بهم ما يوجبه أقوالهم، وتستدعيه أعمالهم من ألوان العقاب، وفنون العذاب.

فائدة: كان[1] رسول الله ﷺ يخطب بسورة قٓ في كثير من الأوقات؛ لاشتمالها على ذكر الله تعالى، والثناء عليه، ثمّ على علمه بما توسوس به النفوس، وما تكتبه الملائكة على الإنسان من طاعة وعصيان، ثم تذكير الموت وسكرته، ثم تذكير القيامة وأهوالها، والشهادة على الخلائق بأعمالهم، ثمّ تذكير الجنة والنار، ثمّ تذكير الصيحة والنشور والخروج من القبور، ثم بالمواظبة على الصلوات.

قال السيوطي في كتاب «الوسائل»: أوّل من قرأ في آخر الخطبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ...﴾ الآية. عمر بن عبد العزيز، ولزمها الخطباء إلى عصرنا هذا، وكان النبيّ ﷺ يقرأ ق، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقرأ: الكافرون والإخلاص، ذكر ذلك ابن الصلاح، وفي الحديث: «من قرأ سورة قٓ... هوَّن الله عليه تارات الموت وسكراته» قيل: تارات الموت إفاقاته وغشياته، كما في «حواشي سعدي المفتي».

الإعراب

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية. ﴿أزلفت الجنة﴾: فعل ونائب

---

(١) روح البيان.

فاعل. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: متعلق بـ ﴿أزلفت﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾: أو مستأنفة. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: منصوب على الظرفية؛ لقيامه مقام الظرف؛ لأنّه صفته؛ أي: مكاناً غير بعيد، وأجاز الزمخشري نصبه على الحال، قال: وتذكيره لأنه على زنة المصدر، والمصادر يستوي فيه المذكر والمؤنث، أو على حذف الموصوف؛ أي: شيئاً غير بعيد. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. و﴿مَا﴾: خبره، وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾، والعائد: محذوف، تقديره: ما توعدونه، والجملة: معترضة بين البدل والمبدل منه، لا محل لها من الإعراب. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، بدل من قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: بتكرار الجار. ﴿حَفِيظٍ﴾: صفة ﴿أَوَّابٍ﴾ ﴿مَّنْ خَشِيَ﴾: بدل من ﴿كل أواب﴾ بعد كون كل بدلاً من المتقين، كما مرّ، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم من خشي الرحمن، وجملة ﴿خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ﴾: صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿بِالْغَيْبِ﴾: حال من المفعول به؛ أي: خشيه، وهو غائب لا يعرفه. ﴿وَجَاءَ﴾: معطوف على ﴿خَشِيَ﴾، ﴿بِقَلْبٍ﴾: حال من فاعل ﴿جاء﴾؛ أي: حال كونه متلبساً بقلب، أو متعلق بـ ﴿جاء﴾. ﴿مُّنِيبٍ﴾ صفة ﴿قلب﴾.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ادْخُلُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: مقول لقول محذوف؛ أي: ويقال لهم: ادخلوها. ﴿بِسَلَامٍ﴾: حال من الفاعل؛ أي: سالمين من كل مخوفة، وهي حال مقارنة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمُ الْخُلُودِ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. و﴿مَا﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يَشَاءُونَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾، ﴿فِيهَا﴾: حال من الموصول، أو متعلق بـ ﴿يَشَاءُونَ﴾. ﴿وَلَدَيْنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لدينا﴾: متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَزِيدٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على ما قبلها. ﴿وَكَمْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كم﴾: خبريّة بمعنى عدد كثير في محل النصب، مفعول مقدم لـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة لذكر إهلاك قرون ماضية. ﴿قَبْلَهُم﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال

من ﴿كم﴾ الخبرية. ﴿مِّن قَرْنٍ﴾: تمييز ﴿كم﴾، و﴿مِن﴾: زائدة. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، والجملة: صفة لـ ﴿كم﴾ أو لتمييزها. ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿أَشَدُّ﴾. ﴿بَطْشًا﴾ تمييز محول عن المبتدأ، منصوب بـ ﴿أَشَدُّ﴾. ﴿فَنَقَّبُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿نقبوا﴾: فعل وفاعل معطوف على معنى ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ كأنه قيل: اشتد بطشهم فنقبوا، أو معطوف على ﴿أَهْلَكْنَا﴾؛ أي: كم من قرن أردنا إهلاكهم فنقبوا في البلاد هرباً من إهلاكنا وعذابنا. ﴿فِي الْبِلَادِ﴾: متعلق بـ ﴿نقبوا﴾. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿مَّحِيصٍ﴾: مبتدأ، خبره: محذوف، تقديره: هل من محيص لهم، والجملة الاسمية، مقول لقول محذوف حال من فاعل ﴿نقّبوا﴾؛ أي: فنقّبوا في البلاد قائلين: هل من محيص. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لـ ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿ذكرى﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿لِمَن﴾: متعلق بمحذوف صفة ﴿لَذِكْرَىٰ﴾، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص. ﴿لَهُ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾: مقدم. و﴿قَلْبٌ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿مِن﴾ الموصولة. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿أَلْقَى السَّمْعَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هو شهيد﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿أَلْقَى﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ﴾: على وفاعل ومفعول به. ﴿وَالْأَرْضَ﴾ معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾. والجملة: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾. ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: متعلق بـ ﴿خَلَقْنَا﴾، ﴿وَمَا مَسَّنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿مَسَّنَا﴾: فعل ماض ومفعول به.

﴿مِن﴾: زائدة. ﴿لُّغُوبٍ﴾: فاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿خَلَقْنَا﴾ أو حال من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت إصرارهم على كفرهم، وتماديهم على تعنتهم، وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك: اصبر. ﴿اصبر﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقرّرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: متعلق بـ ﴿اصبر﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَسَبِّحْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد معطوف على ﴿اصبر﴾. ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: حال من فاعل ﴿سبح﴾؛ أي: سبح متلبساً بحمد ربك. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿سبح﴾. ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾: ظرف معطوف على الظرف قبله. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾: متعلق بـ ﴿سبحه﴾. ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ ﴿الفاء﴾: زائدة، ﴿سبحه﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿سبح بحمد ربك﴾. ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾: ظرف معطوف على ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾. ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿استمع﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿فَٱصْبِرْ﴾ أو على ما بعده، ومفعوله: محذوف، تقديره: واستمع نداء المنادي يوم ينادي. و﴿يَوْمَ﴾: متعلق بـ ﴿استمع﴾. وقيل: تقدير المفعول: ما أقول لك، فيكون ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾: منصوباً بـ ﴿يخرجون﴾ مقدراً مدلولاً عليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾. و﴿يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾ وحذفت ياء ﴿يُنَادِ﴾: في الخطّ تبعاً للرسم العثماني، أو تبعاً للفظ؛ لأنّها حذفت في اللفظ لالتقاء الساكنين. ﴿ٱلْمُنَادِ﴾: فاعل وحذفت الياء منه في بعض القراءات تبعاً للرسم العثماني أيضاً. ﴿مِن مَّكَانٍ﴾: متعلق بـ ﴿يُنَادِ﴾. ﴿قَرِيبٍ﴾: صفة ﴿مَّكَانٍ﴾، ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ الظرف:

بدل من الظرف قبله؛ أعني: يوم يناد المناد، وجملة ﴿يَسْمَعُونَ﴾: مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من ﴿الواو﴾) في ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أو من الصيحة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿نَحْنُ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ، وجملة ﴿نُحْيِۦ﴾: خبر ﴿إِنَّا﴾ أو خبر ﴿نَحْنُ﴾ والجملة: خبر ﴿إنّ﴾. ﴿وَنُمِيتُ﴾: معطوف على ﴿نُحْيِۦ﴾. ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾: خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿نُحْيِۦ﴾ أو على جملة ﴿إنَّ﴾.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾.

﴿يَوْمَ﴾: بدل من الظرف الثاني؛ أعني: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ أو متعلق بـ ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾. ﴿تَشَقَّقُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾: فاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿تَشَقَّقُ﴾. والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿سِرَاعًا﴾. حال من الضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾: مبتدأ وخبره، والجملة: مستأنفة. ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق بـ ﴿يَسِيرٌ﴾. و﴿يَسِيرٌ﴾: صفة لـ ﴿حَشْرٌ﴾. ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾، ويصح كون ﴿مَا﴾ موصولة أو مصدرية. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: حجازية. ﴿أَنتَ﴾: اسمها. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق ﴿بِجَبَّارٍ﴾ و﴿جبار﴾: خبر ﴿مَا﴾ الحجازية، و﴿الباء﴾: زائدة، وجملة ﴿مَا﴾ الحجازية: معطوفة على جملة ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾. ﴿فَذَكِّرْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قلت لك من علمنا بقولهم، وعدم سيطرتك عليهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ذكّر بالقرآن. ﴿ذكّر﴾: فعل أمر وفاعل مستتر. ﴿بِٱلْقُرْءَانِ﴾: متعلق بـ ﴿ذكر﴾، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَخَافُ﴾: صلتها. ﴿وَعِيدِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه: فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة؛ اجتزاء عنها

بالكسرة، أو للفاصلة، أو اتباعاً للرسم، وهو مضاف، وياء المتكلم المحذوفة: في محل الجر مضاف إليه، مبني على السكون.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾؛ أي: قربت، وأدنيت الجنة، تقول: أزلفه: قرّبه، وأزلف الأشياء: جمعها، وأزلف الدليل القوم: حملهم على التقدم، وأزعجهم مزلفة بعد مزلفة؛ أي: مرحلة بعد مرحلة.

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ أي: في مكان غير بعيد منهم، بل هو بمرأى منهم، بحيث ينظرون إليها قبل دخولها، فيكون انتصابه على الظرفية كما مرّ.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: هذا هو الثواب الذي وعدتم به على ألسنة الرسل.

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ الأوَّاب: الرجَّاع الذي يرجع عن المعصية إلى الطاعة، وفي «المفردات»: الأوّاب كالتوّاب، وهو الراجع إلى الله بترك المعاصي، وفعل الخيرات ومنه قيل للتوبة: أوبة، والفرق بين الأوب والرجوع: أنَّ الأوب ضرب من الرجوع، وذلك أنه لا يقال: إلا في الحيوان الذي له إرادة وقصد، والرجوع يقال فيه وفي غيره، آب أوباً وإياباً ومآباً، والمآب مصدر منه، واسم المكان والزمان.

﴿حَفِيظٍ﴾؛ أي: حافظ لحدود الله، وشرائعه، وقال المحاسبي: الأوّاب: الراجع بقلبه إلى ربه، والحفيظ: الحافظ قلبه في رجوعه إليه أن لا يرجع منه إلى أحد سواه، كما مرّ بسطه.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وفي «عين المعاني»: الخشية: انزعاج القلب عند ذكر السيئة وموجبها، وقال الواسطي: الخشية: أرق من الخوف؛ لأنّ الخوف للعامّة من العقوبة، والخشية من نيران الله في الطبع، كما مرّ.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: خاف عقاب ربّه، وهو غائب عن الأعين حين لا يراه أحد.

﴿مُّنِيبٍ﴾؛ أي: مخلص مقبل على طاعة الله، قال في «المفردات»: النوب: رجوع الشيء مرّةً بعد أخرى، والإنابة إلى الله: الرجوع إليه بالتوبة، وإخلاص العمل.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾؛ أي: الدوام والبقاء في الجنة، إذ لا انتهاء له أبداً، قال الراغب: الخلود: هو تبرّي الشيء عن اعتراض الفساد، وبقاؤه عى الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود، كقولهم: الأيّام خوالد، وذلك لطول مكثها، لا لدوام بقائها، والخلود في الجنة بقاء الأشياء على الحالة التي هي عليها من غير اعتراض الكون والفساد عليها.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾؛ أي: وعندنا زيادة في النعيم على ما يشاؤون، وقال الراغب: الزيادة أن ينضم إلى ما عليه الشيء من نفسه شيء آخر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ القرن: الجيل من الناس، والقوم المتقرنون في زمان.

﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ قال في «القاموس»: نقَّب في الأرض ذهب، كأنقب ونقب، وعن الأخبار: بحث عنها أو أخبر بها، والنقب: الطريق في الجبل؛ أي: ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمكاسب، ويقال لمن طوف في الأرض: نقب فيها، قال أمرؤ القيس:

فَقَدْ نَقَّبْتُ فِيْ ٱلآفَاقِ حَتَّىٰ ... رَضِيْتُ مِنَ ٱلْغَنِيْمَةِ بِٱلإِيَابِ

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: هل من معدل ومهرب من عذاب الله؟ وفي «القاموس»: حاص عنه يحيص حيصا وحيصة وحيوصا ومحيصا ومحاصا وحيصانا: عدل وحاد كانحاص، أو يقال للأولياء: حاصوا، وللأعداء: انهزموا، والمحيص: المحيد والمعدل والمميل والمهرب، ودابة حيوص نفور، والحيصاء: الضيقة الحياء، وهو هنا اسم مكان من حاص، وأصله: محيص، بوزن مفعل بكسر العين، نقلت حركة الياء إلى الحاء، فسكنت إثر كسرة فصارت حرف مد.

﴿لَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: تذكرةً.

﴿قَلْبٌ﴾؛ أي: لبٌّ يعي به. ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: أصغى إلى ما يتلى عليه من الوحي. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ أي: حاضر، فهو من الشهود بمعنى الحضور، والمراد به: الفطن، إذ غيره كأنه غائب.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أصله: أيوام، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً، وأدغمت فيها الياء.

﴿مِن لُّغُوبٍ﴾ قال الراغب: اللغوب: التبع والنصب، يقال: أتانا ساعياً لاغباً خائفاً تعباً، وفي «القاموس»: لغب لغباً ولغوباً، كمنع وسمع وكرم: أعيى أشد الإعياء، وفي «المختار»: اللغوب بضمتين: التعب والإعياء، وبابه دخل، ولغب بالكسر لغوباً، لغة ضعيفة، وفي «المصباح»: أنّه من باب قتل.

﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ بفتح الهمزة، جمع دبر بضمتين، من أدبرت الصلاة: إذا انقضت، وأدبار السجود: النوافل بعد المكتوبات، وقيل: الوتر بعد العشاء اهـ «بيضاوي».

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾؛ أي: لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة، والسمع: إدراك المسموع بالإصغاء، والفرق بين المستمع والسامع: أنَّ المستمع: من كان قاصداً للسماع مصغياً إليه، والسامع: من اتفق سماعه من غير قصد إليه، فكل مستمع سامع من غير عكس.

﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ وقف ابن كثير على ﴿ينادي﴾ بالياء، والباقون: بدونها، ووجه إثباتها: أنه لا مقتضى لحذفها، ووجه حذفها وقفاً، اتباعاً للرسم، والوقف محل تخفيف، وأما المنادي فأثبت ابن كثير أيضاً ياءه وصلاً ووقفاً، ونافع وأبو عمرو: بإثباتها وصلاً وحذفها وقفاً، وباقي السبعة بحذفها وصلاً ووقفاً، فمن أثبت فلأنّه الأصل، ومن حذف فلاتباع الرسم، ومن خص الوقف بالحذف، فلأنّه محل راحة ومحل تغيير، اهـ «سمين».

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: بحيث لا يخفى الصوت على أحد. ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾ وهي صيحة البعث التي هي النفخة الثانية، والصيحة والصياح: الصوت بأقصى

الطاقة. ﴿وَنُمِيتُ﴾ أصله: نموت بوزن نفعل، نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ. ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ أصله: المصير بوزن مفعل بكسر العين، نقلت حركة الياء إلى الصاد فسكنت فصارت حرف مدّ. ﴿تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: تتصدّع، بحذف إحدى التاءين من تتشقق مع تخفيف الشين، وقرىء: بتشديدها بإدغام التاء الثانية فيها.

﴿سِرَاعًا﴾ جمع سريع، والسرعة: ضد البطء، ويستعمل في الأجسام والأفعال، ويقال: سرع فهو سريع، وأسرع فهو مسرع.

﴿بِجَبَّارٍ﴾ من الجبر، وأصل الجبر: إصلاح الشيء بضرب من القهر، والجبّار في اسم الله تعالى هو: الذي جبر العباد على ما أراد، وهو صيغة مبالغة من جبر الثلاثي، فإنّ فعالاً إنما يبنى من الثلاثي نحو الفتّاح والعلام، ولم يجيء من أفعل بالألف إلا دراك. ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ والوعيد: التخويف بالعذاب، ويستعمل في نفس العذاب.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد في قوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ لأنّه تأكيد للإزلاف، كقولهم: هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.

ومنها: التعرض لعنوان الرحمانية، في قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ للإشعار بأنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته، أو بأنّ علمهم بسعة رحمته لا يصدّهم عن خشيته، وأنهم عاملون بموجب قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

ومنها: وصف القلب بالإنابة، في قوله: ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مع أنها وصف المكلّف، لما أنّ العبرة برجوعه إلى الله تعالى؛ أي: لا عبرة للإنابة والرجوع، إلا إذا كان من القلب، والمراد بها: الرجوع إلى الله تعالى بما يحبّ ويرضى.

ومنها: المبالغة في الثناء على الخاشي، في قوله: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنّه إذا خشيه وهو عالم بسعة رحمته.. فناهيك بخشيته التي ما بعدها خشية، كما أثنىٰ عليه بالخشية، مع أنَّ المخشي عنه غائب.

ومنها: إطلاق اسم الجزء على الكل، في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إذا فسّرناه بالصلاة؛ أي: صلّ حامداً لربّك قبل طلوع الشمس صلاة الصبح.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾.

ومنها: تكرار ﴿يَوْمَ﴾ في قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾؛ تفخيماً لشأنه، وتهويلاً منه.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾.

ومنها: الفصل بين الموصوف والصفة بمتعلقها، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾؛ لإفادة الحصر والاختصاص؛ لأنّ تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر؛ أي: لا يتيسّر ذلك إلا على الله سبحانه، اهـ «خطيب».

ومنها: التعبير بالمستقبل عن الماضي، في قوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لإفادة الاستمرار والتجدّد.

ومنها: تكرير الضمير في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ﴾ لإفادة التأكيد والاختصاص والتفرّد.

ومنها: توافق الفاصلة في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾؛ لأنّه من المحسنات البديعية، كما مرّ.

ومنها: الحذف والزيادة في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

موجز ما تضمّنته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

١ ـ إنكار المشركين للنبوّة والبعث.

٢ ـ الحثّ على النظر في السماء وزينتها، وبهجة بنائها، وفي الأرض وجبالها الشامخات، وزروعها النضرات، وأمطارها الثجاجات.

٣ ـ العبرة بالدول الهالكات، كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبّع، وما استحقوا من الوعيد والعذاب.

٤ ـ تقريع الإنسان على أعماله، وأنه مسؤول عن دخائل نفسه في مجلس أنسه، وعند إخوته، وفي خلوته، وأنه محوّط بالكرام الكاتبين يحصون أعماله، ويرقبون أحواله حتى إذا جاءت سكرته، وحانت منيّته.. حوسب على كل قول وكل عمل، وشهدت عليه الشهود، وكشفت له الحجب.

٥ ـ إنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً.

٦ ـ إنّ القرآن عظة وذكرى لمن كان له قلب واع، يستمع ما يلقى إليه.

٧ ـ تسلية رسوله ﷺ على ما يقول المشركون، من إنكار البعث، وتهديدهم على ذلك.

٨ ـ أمر رسول الله ﷺ بالتسبيح، آناء الليل وأطراف النهار.

٩ ـ أمر رسول الله بالتذكير بالقرآن من يخاف وعيد الله تعالى، ويخشى عقابه(١).

والله أعلم

* * *

(١) وهذا آخر ما أردناه من شرح هذه السورة الكريمة، وقد فرغت منها قبيل المغرب يوم السبت، الثاني عشر من شهر الربيع الآخر، من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة ١٢/ ٤/ ١٤١٥ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلّى الله وسلّم على سيّدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، آمين يا ربّ العالمين.

سورة الذاريات

سورة الذاريات مكيّة، نزلت بعد الأحقاف، قال القرطبي في قول الجميع، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: نزلت سورة الذاريات بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وهي ستون آيةً[1]، وثلاث مئة وستون كلمةً، وألف ومئتان وتسعة وثلاثون حرفاً، سمّيت بالذاريات؛ لذكر الذاريات فيها.

مناسبتها لما قبلها من وجهين[2]:

الأوّل: إنّه قد ذكر في السورة السابقة، البعث والجزاء والجنة والنار وافتتح هذه بالقسم بأنّ ما وعدوا من ذلك صدق، وأنّ الجزاء واقع.

الثاني: أنه ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال، وهنا ذكر ذلك على وجه التفصيل.

وقال أبو حيان[3]: مناسبتها لآخر ما قبلها أنه قال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾. وقال في أوّل هذه بعد القسم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال ابن حزم: وفيها من المنسوخ آيتان:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ (الآية ١٩)، نسخ ذلك بآية الزكاة.

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ (٥٤ الآية). نسخت بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

المناسبة

ها هنا أمور يجمل بك أن تفهمها[1]:

١ ـ بعد أن بيّن الحشر بدلائله وقال: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ ثمّ أصروا على ذلك غاية الإصرار، لم يبق إلا اليمين فقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾.

٢ ـ أنّ الأيمان التي حلف بها الله سبحانه في كتابه، كلها دلائل على قدرته، أخرجها في صورة الأيمان، كما يقول القائل للمنعم عليه: وحقّ نعمك الكثيرة، إني لا أزال أشكرك، فيذكر النعم وهي سبب لدوام الشكر، ويسلك بها مسلك القسم، وجاءت الآيات هكذا مصدرة بالقسم؛ لأنّ المتكلم إذا بدأ كلامه

(١) المراغي.

به.. علم السامع أنّ ها هنا كلاماً عظيماً يجب أن يصغي إليه، فإذا وجَّه همَّه لسماعه.. خرج له الدليل والبرهان المتين في صورة اليمين.

٣ ـ في السورة التي أقسم الله في ابتدائها بغير الحروف المقطعة، كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة: الوحدانية والرسالة والحشر، وهي التي يتمّ بها الإيمان، فأقسم لإثبات الوحدانية في سورة الصافّات فقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾. وأقسم في سورتي النجم والضحى لإثبات الرسالة، فقال في الأولى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾، وقال في الثانية: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾. وأقسم في سور كثيرة على إثبات البعث والجزاء.

٤ ـ في السور التي أقسم فيها لإثبات الوحدانية، أقسم بالساكنات، فقال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾. وفي السور التي أقسم فيها لإثبات الحشر أقسم بالمتحركات، فقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾؛ لأنّ الحشر فيه جمع وتفريق، وهو بالحركة أليق.

٥ ـ كانت العرب تحترز عن الأيمان الكاذبة، وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع، وقد جرى النبيّ ﷺ على سننهم، فحلف بكل شريف، ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً، وكانوا يعلمون أنه لا يحلف إلا صادقاً، وإلا أصابه شؤم الأيمان، وناله المكروه في بعض الأيمان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[1] حال المفترين الذين أنكروا يوم الدين، وكذّبوا بالبعث والنشور، وأنكروا نبوّة محمد ﷺ، وعبدوا مع الله سبحانه غيره من وثن أو صنم.. أردف ذلك بذكر حال المتقين، وما يتمتّعون به من النعيم المقيم، في جنّات تجري من تحتها الأنهار، جزاء إحسانهم في أعمالهم، وقيامهم في الليل للصلاة، والاستغفار بالأسحار، وإنفاقهم أموالهم للفقراء

---

(١) المراغي.

والمساكين، ونظرهم في دلائل التوحيد، التي في الآفاق والأنفس، وتفكيرهم في ملكوت السموات والأرض، مصدقين قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾. ثمّ أقسم بربّ السماء والأرض، إنّ ما توعدون من البعث والجزاء لحق، لا شك فيه، كما لا شك في نطقكم حين تنطقون.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر إنكار قومه بالبعث والنشور، حتى أقسم لهم بعزّته أنه كائن لا محالة.. سلّىٰ رسوله ﷺ، فأبان له أنه ليس ببدع في الرسل، وأنّ قومه ليسوا ببدع في الأمم، وأنهم إن تمادوا في غيّهم، وأصرّوا على كفرهم، ولم يقلعوا عمّا هم عليه.. فسيحل بهم مثل ما حلّ بمن قبلهم من الأمم الخالية.

وذكر إبراهيم عليه السلام من بين الأنبياء؛ لكونه شيخ المرسلين، وكون النبيّ ﷺ على سننه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ولأنّ العرب كانت تجله وتحترمه، وتدعي أنها على دينه.

وأتى[1] بالقصص بأسلوب الاستفهام؛ تفخيماً لشأن الحديث، كما تقول لمخاطبك: هل بلغك كذا وكذا؟ وأنت تعلم أنه لم يبلغه؛ توجيهاً لأنظهاره حتى يصغي إليه ويهتم بأمره، ولو جاء على صورة الخبر، لم يكن له من الروعة والجلال مثل ما كان وهو بهذه الصورة تنبيهاً إلى أنّ الرسول لم يعلم به إلا من طريق الوحي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الحنفية: أنّ رسول الله ﷺ بعث سريّة، فأصابوا وغنموا، فجاء قوم بعد ما فرغوا، فنزلت

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

هذه الآية: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾؛ أي: أقسمت لكم يا أهل مكة بالرياح التي تذروا التراب ونحوه، وتطيره من الأرض ﴿ذَرْوًا﴾؛ أي: إطارة وإثارة، إنما توعدون لواقع لا محالة، يقال: ذرت الريح الشيء ذروا وأذرته: أطارته وأذهبته، وانتصاب ﴿ذَرْوًا﴾ على المصدرية، والعامل فيه: اسم الفاعل، والمفعول: محذوف، كما قدّرناه؛ أعني: التراب ونحوه، وفي «البيضاوي»: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾، يعني: الرياح تذرو التراب وغيره، أو النساء الولود، فإنّهنّ يذرين الأولاد. اهـ. والأول أولى؛ لأنّه أدل على القدرة، وروي عن كعب الأحبار أنه قال: لو حبس الله الريح عن الأرض ثلاثة أيام.. ما بقي على الأرض شيء إلا نتن.

وقرأ أبو عمرو[١] وحمزة: بإدغام تاء ﴿الذاريات﴾ في ذال ﴿ذَرْوًا﴾، وقرأ الباقون: بدون إدغام وقيل: المقسم به مقدر، وهو رب الذاريات وما بعدها، والأول أولى.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾﴾؛ أي: فأقسمت لكم بالسحب الحاملات التي تحمل وقراً؛ أي: حملاً ثقيلاً، وهو الماء، كما تحمل ذوات الأربع الوقر، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾، وفي «البيضاوي»: فالسحب الحاملات للأمطار، أو الرياح الحاملات للسحاب، أو النساء الحوامل. انتهى.

قرأ الجمهور: ﴿وِقْرًا﴾ بكسر الواو، وهو اسم لما يُوقر؛ أي: يحمل، والمراد هنا: المطر، وقرىء: بفتحها، على أنه مصدر، والعامل فيه: اسم الفاعل، والمفعول به: محذوف؛ أي: فالسحب الحاملات للأمطار وقراً؛ أي: حملاً، أو على تسمية المحمول بالمصدر مبالغة.

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾؛ أي: فأقسمت لكم بالسفن التي تجري في البحر

---

(١) الشوكاني.

بالرياح جرياً يسراً؛ أي: سهلاً ليّناً ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾. وانتصاب ﴿يُسْرًا﴾ على المصدرية، أو على أنه صفة لمصدر محذوف، أو على الحال؛ أي: ذا يسر وسهولة، وفي «البيضاوي»: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾؛ أي: فالسفن الجارية في البحر سهلاً، أو الرياح الجارية في مهابها، أو الكواكب التي تجري في منازلها.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾؛ أي: فأقسم لكم بالملائكة التي تقسم الأمور والأشياء من الأمطار والأرزاق وغيرهما؛ إنما توعدون لواقع، وانتصاب ﴿أَمْرًا﴾ على المفعولية، والمراد بالمقسّمات: الملائكة، وإيراد جمع المؤنث السالم فيهم بتأويل الجماعات، وفي «كشف الأسرار»: هذا كقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾.

وقيل[1]: إنّ المراد بالذاريات، والحاملات والجاريات والمقسمات: الرياح، فإنها توصف بجميع ذلك؛ لأنّها تذرو التراب، وتحمل السحاب، وتجري في الهواء، وتقسم الأمطار، وهو ضعيف جدّاً.

قال عبد الرحمن بن سابط: يدبّر أمر الأرض أربعة من الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام، فجبريل على الجنود والرياح، وميكائيل على القطر والنبات، وملك الموت على قبض الأرواح، وإسرافيل يبلغهم ما يؤمرون به، وأضاف هذه الأفعال إلى هذه الأشياء؛ لأنها أسباب لظهورها، كقوله تعالى حكاية عن جبريل: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾. وإنما الله هو الواهب الغلام، لكن لمّا كان جبريل سبب ظهوره.. أضاف الهبة إليه.

و﴿الفاء﴾ فيها: لترتيب الأقسام بها، والترتيب في هذه الأقسام ترتيب ذكريّ أو رتبيّ، باعتبار تفاوت مراتبها في الدلالة على قدرته تعالى، ووضيح المقام: أنّ الأيمان الواقعة في القرآن، وإن وردت في صورة تأكيد المحلوف عليه، إلا أنّ المقصود الأصليّ منها تعظيم المقسم به، لما فيه من الدلالة على كمال القدرة، فيكون المقصود بالحلف: الاستدلال به على المحلوف عليه، وهو هنا صدق الوعد بالبعث والجزاء، فكأنه قيل: من قدر على هذه الأمور

---

(١) الشوكاني.

العجيبة.. يقدر على إعادة ما أنشأه أولاً، فإذا كان كذلك، فالمناسب في ترتيب الإقسام بالأمور المتباينة أن يقدم ما هو أدل عى كمال القدرة، فالرياح أدلّ عليها بالنسبة إلى السحب، لكون الرياح أسباباً لها، والسحب لغرابة ماهيّتها، وكثرة منافعها، ورقّة حاملها الذي هو الرياح، أدلّ عليه بالنسبة إلى السفن، وهذه الثلاثة أدل عليه بالنسبة إلى الملائكة الغائبين عن الحسّ، إذ الخصم ربّما ينكر وجود من هو غائب عن الحسّ، فلا يتمّ الاستدلال، وهذا على كون الترتيب على طريق التدلّي والتنّزل، ويصح أن يكون على طريق الترقّي، لما في كل منها من الصفات التي تجعلها أعلى من وجه، وأدنى من وجه آخر، فالملائكة المدبرات أعظم وأنفع من السفن، وهي باعتبار أنها بيد الإنسان يتصرّف فيها كما يريد، ويسلم بها من المهالك أنفع من السحب، والسحب لما فيها من الأمطار أنفع من الرياح. اهـ ملخصاً من «زاده» و«الشهاب».

وفي «الخازن»: ﴿فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾؛ يعني: الملائكة، يقسّمون الأمور من الأرزاق، والأمطار، وغيرهما بين الخلق على ما أمروا به، وقيل: هم أربعة كما مرّ، فجبريل صاحب الوحي إلى الأنبياء، الأمين عليه، وصاحب الغلظة، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل صاحب الصور واللوح، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح، وقيل: هذه الأوصاف الأربعة في الرياح، كما مرّ؛ لأنّها تنشىء السحاب وتثيره، ثمّ تحمله وتنقله، ثمّ تجري به جرياً سهلاً، ثم تقسم الأمطار بتصريف السحاب، أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرف ذواتها، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعته وقدرته.

والمعنى: أقسم بالذاريات وبهذه الأشياء، وقيل: فيه مضمر، كما مرّ تقديره: أقسم برب الذاريات.

ثمّ ذكر جواب القسم، فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ و﴿ما﴾[1]: إما موصولة والعائد: محذوف؛ أي: إنّ الذي توعدونه من البعث والحساب، أو من

---

(١) روح البيان.

الثواب والعقاب ﴿لَصَادِقٌ﴾؛ أي: لموعود محقّق لا خلف فيه، قال في «الإرشاد»: وصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضى في أنّ اسم الفاعل مسند إلى المفعول به، إذ الوعد مصدوق، والعيشة مرضية.

وقال القاضي زكرياء: إن قلت: كيف قال ذلك، مع أنّ الصادق وصف للواعد لا لما يوعد؟

قلت: وصف به ما يوعد مبالغة، أو هو بمعنى مصدوق، كعيشة راضية، وماء دافق؛ أي: عيشة مرضية وماء مدفوق، فاسم الفاعل جاء بمعنى اسم المفعول انتهى. وقال ابن الشيخ: أي: لذو صدق على أنّ البناء للنسب كتامر ولابن؛ لأنّ الموعود لا يكون صادقاً، بل الصادق هو الواعد، وإما مصدرية؛ أي: إن وعدكم بالثواب، ووعيدكم بالعذاب لصادق؛ أي: لمحقّق لا محالة، إذ يحتمل ﴿تُوعَدُونَ﴾ أن يكون مضارع وعد وأوعد، والثاني: هو المناسب للمقام؛ لأنّ الكلام مع المنكرين.

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: وإنّ الجزاء على الأعمال لحاصل، وكائن لا محالة، فإنّ من قدر على هذه الأمور البديعة المخالفة لمقتضى الطبيعة.. فهو قادر على البعث الموعود، قال بعضهم: قد وعد الله سبحانه المطيعين بالجنة، والتائبين بالمحبّة، والأولياء بالقربة، والعارفين بالوصلة، والطالبين بالوجدان، كما قال: «ألا من طلبني وجدني». ووعد الله واقع ألبتة، ومن أوفى بوعده من الله، وأوعد الفاسقين بالنار، والمصرين بالبغضاء، والأعداء بالبعد، والجاهلين الغافلين بالفراق، والبطالين بالفقدان.

قال بعضهم: ما الحكمة في معنى القسم من الله سبحانه، فإنه إن كان لأجل المؤمن، فالمؤمن يصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده؟ والجواب: إنّ القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً، والحكم يفصل باثنين: إما بالشهادة، وإما بالقسم، فذكر الله في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ الآية. ولا يكون القسم إلا باسم معظم، وقد أقسم الله بنفسه في القرآن في سبعة مواضع،

والباقي من القسم القرآنيّ قسم بمخلوقاته، كما في عنوان هذه السورة، ونحوه: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾، والصافات والشمس والليل والضحى وغير ذلك.

فإن قلت[1]: ما الحكمة في أنّ الله تعالى قد أقسم بالخلق، وقد ورد النهي عن القسم بغير الله تعالى؟

قلت: فيه وجوه:

الأول: أنه على حذف مضاف؛ أي: ورب الذاريات، وربِّ التين، ورب الشمس.

والثاني: أنّ العرب كانت تعظم هذه الأشياء، وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفون.

والثالث: أنّ الإقسام إنما يكون بما يعظمه المقسم أو يجله، وهو فوقه، والله تعالى ليس شيء فوقه، فأقسم تارةً بنفسه، وتارةً بمصنوعاته؛ لأنَّها تدل على بارئٍ، وصانع حكيم، وقال بعضهم: القسم بالمصنوعات يستلزم بالصانع؛ لأنّ ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.

وقال بعضهم: إنّ الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى.

وقال بعضهم: القسم: إما لفضيلة، أو منفعة، ولا تخلو المصنوعات عنهما.

ومعنى الآية على القول الثاني - أعني: قول: أنّ هذه المذكورات أوصاف للرياح -: أقسم[2] سبحانه بالرياح، وذروها التراب، وحملها السحاب، وجريها في الهواء بيسر وسهولة، وتقسيمها الأمطار، إنّ هذا البعث لحاصل، وإن هذا الجزاء لا بدّ منه في ذلك اليوم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وهنا أقسم سبحانه بالرياح وأفعالها، لما يشاهدون من آثارها، ونفعها العظيم لهم، فهي التي ترسل الأمطار مبشّرات برحمته، ومنها تسقي الأنعام

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

والزروع، وبها تنبت البساتين والجنات، وتصير الأرض القفر مروجاً، وعليها يعتمدون في معاشهم، فآثارها واضحة أمامهم، ولا عجب أن تكون لها المنزلة العظمى في نفوسهم.

وأفعال الرياح تخالف ناموس الجاذبيَّة، فإنَّ ما على الأرض منجذب إليها، واقع عليها، ولكن هذه الرياح تتصرف تصرفاً عجيباً تابعاً لسير الكواكب، فبجريها وجري الشمس تؤثر في أرضنا وهوائها بنظام محكم، فما ذرت الرياح التراب، ولا حملت السحاب، ولا قسمت المطر على البلاد إلا بحركات فلكيّة منتظمة، من أجل هذا جعل ذلك براهين على البعث والإعادة.

ثم ابتدأ سبحانه قسماً آخر، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾؛ أي: وأقسمت لكم يا أهل مكة بالسماء ذات الطرائق[1] المحسوسة، التي هي مساير الكواكب، أو المعقولة التي يسلها النظّار، ويتوصّل بها إلى المعارف، كما قال الراغب: الحبك بضمتين، جمع حباك كمثال ومثل، أو جمع حبيكة كطريقة وطرق، وهي الطرائق، فمن الناس من تصوّر منها الطرائق المحسوسة بالنجوم والمجرة، وهي الخطوط فيها كالطرق في الرمل، ومنهم من اعتبر ذلك بما فيها من الطرائق المعقولة المدركة بالبصيرة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ذات الحُسن والجمال والاستواء والطرق، والظاهر: أنَّ السماء هي المعروفة، وقيل: السحاب.

﴿إِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ في القرآن؛ أي: متخالف متناقض، وهو قولهم: إنه شعر وسحر وافتراء وأساطير الأولين، وفي الرسول: شاعر وساحر ومفتر ومجنون، وفي القيامة فإنّ من الناس من يقطع القول بإقرار، ومنهم من يقول: إن نظنّ إلا ظنًّا، وهذا من التحيّر والجهل الغليظ فيكم، وفي هذا الجواب تأييد لكون الحبك عبارة عن الاستواء، كما يلوح به ما نقل عن الضحاك: إنّ قول الكفرة لا يكون مستوياً، إنما هو مناقض مختلف، ووجه

---

(١) روح البيان.

تخصيص[1] القسم بالسماء المتصفة بتلك الصفة: تشبيه أقوالهم في اختلافها باختلاف طرائق السماء، واستعمال الحبك في الطرائق هو الذي عليه أهل اللغة، وإن كان الأكثر من المفسرين على خلافه، على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال في تفسير الحبك إلى هذا، وذلك بأن يقال: إنَّ ما في السماء من الطرائق يصحّ أن يكون سبباً لمزيد حسنها، واستواء خلقها، وحصول الزينة فيها ومزيد القوّة لها، وقيل: إنّ المراد بكونهم في قول مختلف أنّ بعضهم ينفي الحشر، وبعضهم يشكّ فيه كما مر، وقيل: كونهم يقرون أنّ الله خالقهم ويعبدون الأصنام.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ بضمتين، وابن عباس والحسن بخلاف عنه، وأبو مالك الغفاريّ وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو السمال ونعيم عن أبي عمرو: بإسكان الباء، وعكرمة: بفتحها جمع حبكة، مثل: طرفة وطرف، وأبو مالك الغفاريّ والحسن بخلاف عنه: بكسر الحاء والباء، وأبو مالك الغفاريّ والحسن أيضاً وأبو حيوة: بكسر الحاء وإسكان الباء، وهو تخفيف فِعِل المكسور، هما وهو اسم مفرد لا جمع، لأنّ فعلاً ليس من أبنية الجموع، فينبغي أن يعد مع إبل فيما جاء من الأسماء على فعل بكسر الفاء والعين، وابن عباس أيضاً وأبو مالك: بفتحهما، قال أبو الفضل الرازيّ: فهو جمع حبكة، مثل: عقبة وعقب. انتهى. والحسن أيضاً: ﴿الحبك﴾ بكسر الحاء وفتح الباء، وقرأ أيضاً كالجمهور، فصارت قراءته خمساً: الحُبُكُ والحُبْك، والحِبِك، والحِبْك، والحِبَكُ، وقرأ أبو مالك أيضاً: ﴿الحِبُك﴾ بكسر الحاء وضمّ الباء، وذكرها ابن عطية أيضاً عن الحسن، فتصير له ستّ قراءات، وقال «صاحب اللوامح»: وهو عديم النظير في العربية في أبنيتها وأوزانها، ولا أدري ما رواه. انتهى.

﴿يُؤْفَكُ﴾ ويصرف ﴿عَنْهُ﴾؛ أي: عن الإيمان بمحمد ﷺ، وبما جاء به، أو عن الحق، وهو البعث والتوحيد، أو عن القرآن. ﴿مَنْ أُفِكَ﴾؛ أي: من صرف عن الخير كله، وقيل: يحرم عنه من حرم، وقال اليزيدي: يدفع عنه من دفع

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

عنه، وقيل: يصرف عنه من صرف في علم الله وقضائه، إذ لا صرف أفظع منه وأشد، فكأنه لا صرف بالنسبة إليه.

قيل[1]: هذا مدح للمؤمنين؛ أي: يصرف عن القول المختلف من صرف عن ذلك القول، ورشد إلى القول المستوي، وقيل: إنّ هذا ذم؛ أي: يصرف عن الإيمان بمحمد ﷺ، والقرآن، والحشر من قد صرف عن الهدى، وهو الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام وأبي بن خلف وأمية بن خلف ومنبه ونبيه.

وقرأ ابن جبير وقتادة[2]: ﴿مَنْ أَفَكَ﴾ مبنياً للفاعل؛ أي: من أفك الناس عنه، وهم قريش كانوا يصدون الناس عن الإيمان، وقرأ زيد بن علي ﴿يَأْفُكُ عنه من أُفِكَ﴾ ببناء الأول للفاعل، والثاني للمفعول؛ أي: يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه، وعنه أيضاً: ﴿يأفَكُ عنه مَنْ أَفَكَ﴾ بالبناء للفاعل فيهما؛ أي: يصرف الناس عنه من هو أَفَّاكٌ كذَّابٌ، وقرىء: ﴿يُؤْفَنُ عنه من أُفِنُ﴾ بالنون فيهما، أي: يحرم عنه من حرم، من أفن الضرع: إذا نهكه حلباً.

والمعنى[3]: أي والسماء ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء، إنكم أيّها المشركون المكذبون للرسول ﷺ لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتئم، ولا يجتمع، ولا يروج إلا على من هو ضال في نفسه؛ لأنّه قول باطل، يصرف بسببه من صرف عن الإيمان برسول الله ﷺ، وبما جاء به.

والخلاصة: قسماً بالسماء وزينتها، وجمالها، إنَّ أمركم في شأن محمد، وكتابه لعجب عاجب، فهو متناقض مضطرب، فحيناً تقولون: هو شاعر، وحيناً آخر تقولون: هو ساحر، ومرّةً ثالثة تقولون: هو مجنون، وحيناً تقولون عن القرآن: إنه سحر، وحيناً: إنه شعر، وحيناً: إنه كهانة.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾؛ أي: لعن وطرد عن رحمة الله الكذّابون من أصحاب

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

القول المختلف، وأصله: الدعاء بالقتل، أجري مجرى اللعن، و﴿اللام﴾[1] فيه: إشارة إلى أصحاب القول المختلف، كأنّه قيل: قتل هؤلاء الخرّاصون المقدرون ما لا يصح من القول، ويقولونه تخميناً في محمد، وفي القرآن. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ لفظ ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، خبره: قوله: ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾؛ أي: الذين هم كائنون في غمرة وغشية من الجهل والضلالة تغمرهم وتغشاهم عن أمر الآخرة. ﴿سَاهُونَ﴾ خبر بعد خبر؛ أي: غافلون عمّا أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ، قال بعضهم: الغمرة فوق الغفلة، والسهو دون الغفلة.

وفي «كشف الأسرار»: الخرّاصون: هم المقتسمون الذين اقتسموا أعتاب مكة، واقتسموا القول في النبيّ ﷺ؛ ليصرفوا الناس عن دين الإسلام؛ يعني: أنّ أهل مكة أقاموا رجالاً على زقاق مكة، يصرفون الناس؛ يعني: وقت ورود قوافل. انتهى.

وأصل الغمرة[2]: ما ستر الشيء وغطاه، ومنها: غمرات الموت، والسهو الغفلة عن الشيء، وذهابه عن القلب.

﴿يَسْـَٔلُونَ﴾؛ أي: يسألك يا محمد المشركون، لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة، بل بطريق الاستعجال استهزاء، فيقولون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: متى يوم الجزاء، والكلام على حذف مضاف من اليوم وإقامة المضاف إليه مقامه، فلا يرد أنَّ ظرف الزمان لا يقع خبراً إلا عن الحدث؛ أي[3]: متى وقوع الجزاء، وقد كان لهم من أنفسهم ما لو تدبَّروا فيه يدفعهم إلى الاعتقاد بمجيء هذا اليوم، فإنّ أحداً منهم لا يترك عبيده وأجراءه في عمل دون أن يحاسبهم، وينظر في أحوالهم، ويحكم بينهم في أقوالهم وأفعالهم، فكيف يترك أحكم الحاكمين عبيده الذين أبدع لهم هذا الكون، وهيَّأ لهم كل ما يحتاجون إليه سدًى، ويوجدهم عبثاً.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

ثم أجاب سبحانه عن هذا السؤال، وذكر أنه يكون يوم القيامة، فقال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾. أي: يعرضون عليها؛ أي: يوم الجزاء هو يوم يعرض فيه الكفّار على النار، ويعذّبون بها، ويحرقون فيها كما يفتن الذهب بالنار، يقال[1]: فتنت الذهب: أحرقت خبثه لتظهر خلاصته، والكافر كله خبث فيحرق كلّه، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هو يوم هم إلخ، والفتح لإضافته إلى غير متمكّن، وقيل: هو منصوب بتقدير: أعنيْ، وقال بعض النحاة: ﴿يَوْمَ هُمْ﴾: بدل من ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ فيكون هنا حكاية من كلامهم على المعنى: ويقولون ذلك على سبيل الاستهزاء، ولو حكى لفظ قولهم.. لكان التركيب يوم نحن على النار نفتن.

وقرأ ابن أبي عبلة والزعفراني: ﴿يَوْمُ هُمْ﴾ بالرفع على البدل من ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؛ أي[2]: يوم الجزاء هو يوم نعذب الكفار.

وتقول لهم الخزنة: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾؛ أي: عذابكم ﴿هَٰذَا﴾ العذاب هو العذاب ﴿ٱلَّذِى كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ أي: تستعجلون وقوعه استهزاءً، وتظهرون أنه غير كائن، و﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، والموصول: خبره، والجملة: داخلة تحت القول المضمر، وهذا إشارة إلى ما في الفتنة من معنى العذاب؛ أي: هذا العذاب ما كنتم تستعجلون به في حياتكم الدنيا، وتقولون: متى هذا الوعد بطريق الاستهزاء، ويجوز أن يكون ﴿هَٰذَا﴾ بدلاً من ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ بتأويله بالعذاب، و﴿ٱلَّذِى﴾: صفته.

ولمّا ذكر سبحانه حال أهل النار.. ذكر حال أهل الجنة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي والجهل والميل إلى ما سوى المولى، والمتصفين بالإيمان والطاعة والمعرفة والتوجّه إلى الحضرة العليا لكائنون ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين لا يعرف كنهها، فالتنكير[3]: للتعظيم، ويجوز أن يكون للتكثير، كما

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

في قوله: إنّ له لإبلاً، وإن له لغنماً، والعرب تسمي النخيل جنّة. ﴿وَعُيُونٍ﴾؛ أي: أنهار جارية؛ أي: تكون الأنهار بحيث يرونها، وتقع عليها أبصارهم، لا أنهم فيها؛ أي: هم في بساتين فيها عيون جارية لا يبلغ وصفها الواصفون، حال كونهم ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾؛ أي: قابلين ما أعطاهم ربّهم من الخير والكرامة، راضين به، فهو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور على معنى: أنّ كل ما أعطاهم حسن مرضي متلقى بالقبول ليس فيه ما يرد، لأنّه في غاية الجودة، ومنه قوله: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: يقبلها ويرضاها، قال بعضهم: معناه: آخذين ما آتاهم ربهم اليوم بقلوب فارغة إلى الله من أصناف ألطافه، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربهم في الجنة من فنون العطاء والرفد.

وفي «فتح الرحمن»[1]: ختم الآية هنا بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ وفي الطور بقوله: ﴿وَنَعِيمٍ فَٰكِهِينَ﴾؛ لأنّ ما هنا متصل بما به يصل الإنسان إلى الجنات وهو قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ الآيات. وما في الطور متصل بما يناله الإنسان فيها، وهو قوله: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ الآية. انتهى.

والمعنى[2]: أي إنّ الذين اتقوا الله وأطاعوه واجتنبوا معاصيه في بساتين وجنّات تجري من تحتها الأنهار، قريرةً أعينهم بما آتاهم ربّهم، إذ فيه ما يرضيهم، ويغنيهم، ويفوق ما كانوا يؤملون.

ثمّ ذكر الثمن الذي دفعوه لنيل هذا الأجر العظيم، وعلّل استحقاقهم ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: لأنّهم ﴿كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: قبل دخولهم الجنّة ﴿مُحْسِنِينَ﴾؛ أي: مخلصين في أعمالهم الصالحة من فعل ما أمروا به وترك ما نهوا عنه؛ أي: إنهم كانوا في دار الدنيا يفعلون صالح الأعمال خشية من ربّهم، وطلباً لرضاه، ومن ثمّ نالوا هذا الفوز العظيم، والمكرمة التي فاقت ما كانوا يؤملون ويرجون، ونحو الآية قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ

---

(١) فتح الرحمن.

(٢) المراغي.

ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

ثمّ فصّل ما أحسنوا فيه، فقال: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: كانوا يهجعون من الليل هجوعاً قليلاً ما؛ أي: كانوا ينامون القليل من الليل، ويتهجّدون في معظمه، والهجوع[1]: النوم بالليل دون النهار. و﴿مَا﴾، مزيدة لتأكيد معنى القلة، فإنها تزاد لإفادة التقليل كما في قولك: أكلت أكلاً ما، و﴿قَلِيلًا﴾: ظرف و﴿يَهۡجَعُونَ﴾: خبر ﴿كَانُواْ﴾؛ أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل، أو صفة مصدر محذوف؛ أي: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً من أوقات الليل وساعاته؛ يعني: يذكرون، ويصلّون أكثر الليل، وينامون أقلّه، ولا يكونون مثل البطّالين الغافلين النائمين إلى الصباح، ويجوز[2] أن تكون ﴿مَآ﴾ مصدرية، أو موصولة؛ أي: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما تأتي عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلّون فيها شيئاً، إما من أوّلها، أو من وسطها، وقال الحسن البصري: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقلّه، وربما نشطوا فجدوا إلى السحر، وعن أنس قال: كانوا يصلّون بين المغرب والعشاء.

﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: يطلبون في أوقات السحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم، والسحر: السدس الأخير من الليل؛ لاشتباهه بالضياء كالسحر يشبه الحقّ وهو باطل؛ أي: هم مع قلّة هجوعهم، وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم وفي بناء[3] الفعل على الضمير المفيدة للتخصيص إشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار، كأنهم المختصّون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه، وفي «بحر العلوم»: تقديم الظرف للاهتمام به، ورعاية الفاصلة.

أي: فهم يحيون الليل متهجّدين، فإذا أسحروا.. أخذوا في الاستغفار،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم.

ولمّا ذكر أنهم يقيمون الصلاة.. ثنى بوصفهم بإعطاء الصدقة، والبرّ بالفقراء، فقال: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾؛ أي: وفي أموال أولئك المذكورين ﴿حَقٌّ﴾؛ أي[1]: نصيب وافر يوجبونه على أنفسهم؛ أي: يعدّونه واجباً عليهم في أموالهم، ويلزمونه أنفسهم تقرّباً إلى الله، وإشفاقاً على الناس، فليس المراد بالحق: ما أوجبه الله عليهم في أموالهم، فاندفع به ما عسى يقال: كيف يمدح المرء بأنه يثبت في ماله حقاً للفقراء؟ فمن يمنع الزكاة من الأغنياء يوجد فيهم هذا المعنى، ولا يستحقّون المدح؛ أي: هم الذين لا يجمعون[2] الأموال إلا ويجعلونها ظرفاً للحق، فيرون في أموالهم حقًّا ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾؛ أي: للذي يسأل العطاء من الناس ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾؛ أي: وللمتعفّف الذي يحسبه بعض الناس غنيًّا، فلا يعطيه شيئاً، فهو الذي لا يسأل ولا يعطي؛ أي: هم أوجبوا على أنفسهم بمقتضى الكرم، بأن يصلوا بأموالهم الأرحام والفقراء والمساكين، تقرّباً إلى الله تعالى، وقال محمد بن سيرين وقتادة: الحق هنا الزكاة المفروضة، والأول أولى، فيحمل على صدقة النفل، وصلة الرحم، وقرى الضيف؛ لأنَّ السورة مكيّة، والزكاة إنما فرضت في المدينة، وسيأتي في ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ بزيادة معلوم.

والمعنى[3]: وجعلوا في أموالهم جزءاً معيّناً ميّزوه، وعزلوه للطالب المحتاج، والمتعفّف الذي لا يجد ما يغنيه، ولا يسأل الناس، ولا يفطنون إليه ليتصدّقوا عليه، أخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان، والأكلة والأكلتان» قيل: فمن المسكين؟ قال: «الذي ليس له ما يغنيه، ولا يعلم مكانه فيتصدّق عليه، فذلك المحروم».

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

وبعد أن ذكر أوصاف المتقين بيَّن أنه قد لاحت لهم الأدلّة الأرضية والأنفسيّة، التي بها أخبتوا إلى ربّهم، وأنابوا إليه، فقال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا كلام[1] مستأنف، قصد به الاستدلال على قدرة الله تعالى ووحدانيته، وقد اشتمل على دليلين: الأرض، والأنفس، وأما قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾. فهو كلام آخر، ليس المقصود به: الاستدلال، بل المقصود به: الامتنان والوعد والوعيد. اهـ شيخنا. ﴿ءَايَٰتٌ﴾ وقرأ قتادة: ﴿آية﴾ بالإفراد؛ أي: وفي الأرض دلائل واضحة على باهر قدرته، وعلامات ظاهرة على بديع صنعته من الجبال، والبر والبحر والأشجار والثمار والأنهار، وفيها آثار الهلاك للأمم الكافرة المكذّبة، لما جاءت به رسل الله سبحانه، ودعتهم إليه. ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾؛ أي: للموحّدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة، فهم نظارون بعيون باصرة، وأفهام نافذة، كلّما رأوا آية عرفوا وجه تأمّلها، فازدادوا إيقاناً على إيقانهم، وخصَّهم بالذكر؛ لأنّهم هم الذين يعترفون بذلك، ويتدبرونه فينتفعون به؛ يعني: أنّ في[2] الأرض دلائل واضحة على وجود الصانع وعلمه وقدرته، وإرادته ووحدته وفرط رحمته، من حيث إنها مدحوة كالبساط الممهد، وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين في أقطارها، والسالكين في مناكبها، وفيها سهل وجبل وبر وبحر وقطع متجاورات وعيون متفجرة ومعادن متفننة، وأنها تلقح بألوان النبات، وأنواع الأشجار، وأصناف الثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح، وفيها دواب منبثة، قد رتب كلها، ودبر لمنافع ساكنيها، ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم، وقال الكلبيّ: عظات من آثار من تقدّم.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أيها الناس، آيات للموقنين من عجائب الصنع، الدالة على كمال الحكمة والقدرة والتدبير والإرادة، فيكون تخصيصاً بعد تعميم؛ لأن أنفس الناس مما في الأرض، كأنه قيل: في الأرض آيات للموحّدين العاقلين، وفي أنفسكم خصوصا آيات لهم؛ لأنّ أقرب المنظور فيه من كل عاقل نفسه، ومن ولد

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

منها، وما في بواطنها، وظواهرها من الدلائل الواضحة على الصانع، وفي نقلها من هيئة وحال إلى حال من وقت الميلاد إلى وقت الوفاة، قال ابن عباس رضي الله عنه[١]: يريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع، وقيل: يريد سبيل الغائط والبول، يأكل ويشرب من مدخل واحد، ويخرج من سبيلين، وقيل: يعني: تقويم الأدوات السمع والبصر والنطق والعقل، إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم، وحسبك[٢] بالقلوب، وما ركز فيها من العقول وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة، والبيّنات القاطعة على حكمة مدبّرها وصانعها، دع الأسماع والأبصار، والأطراف وسائر الجوارح، وتأتّيها لما خلقت له، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني، فإنه إذا جثا منها شيء.. جاء العجز، وإذا استرخى.. أناخ الذل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الأرض وما فيها من البراهين الساطعة، والأنفس وما فيها من الدلائل القاطعة، فتعتبروا بها، و﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام التوبيخي، داخلة على مقدر يقتضيه السياق، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تنظرون إلى ذلك فلا تبصرون بعين البصيرة حتى تعتبروا، وتستدلّوا بالصنعة على الصانع، وبالنقش على النقاش، وكذا على صفاته.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾؛ أي: أسباب رزقكم، فالكلام على حذف مضاف؛ يعني بها[٣]: الشمس والقمر وسائر الكواكب واختلاف المطالع والمغارب، التي يترتب عليها اختلاف الفصول، فتنبت الأرض أنواع النبات وتسقى بماء الأمطار التي تحملها السحب، وتسوقها الرياح لأسباب فلكيّة وطبيعيّة، أوضحها علماء الفلك وعلماء الطبيعة.

---

(١) الخازن.

(٢) النسفي.

(٣) المراغي.

وقيل المعنى[1]: وفي السماء سبب رزقكم، وهو المطر، فإنه سبب الأرزاق، وقال ابن جبير والضحاك: الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج، وقيل: المراد بالسماء: السحاب؛ أي: وفي السحاب رزقكم، وقيل: المراد بالسماء: المطر، وسمّاه سماء؛ لأنّه ينزل من جهتها، ومنه قول الشاعر:

إِذَا نَزَلَ ٱلسَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ   رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

وقيل: وفي السماء تقدير رزقكم، وقال ابن كيسان: وعلى ربّ السماء رزقكم كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ ففي بمعنى على، ونظيره: قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وهو بعيد.

وقرأ الجمهور: ﴿رِزْقُكُمْ﴾ بالإفراد، وقرأ يعقوب وابن محيصٍ، ومجاهد: ﴿أرزاقكم﴾ بالجمع.

﴿و﴾ كذلك في السماء ﴿ما توعدون﴾ من[2] الثواب؛ لأنّ الجنّة على ظهر السماء السابعة تحت العرش قرب سدرة المنتهى، أو أراد أنّ كل ما توعدون من الخير والشر، والثواب والعقاب والشدة والرخاء، وغيرها مكتوب مقدّر في السماء.

يقول الفقير: أمر العقاب ينزل من السماء، ونفسه أيضاً، كالصيحة والقذف والنار والطوفان، مما وقع على الأمم السالفة، وقال ابن سيرين: ما توعدون من أمر الساعة وبه قال الربيع، والأولى الحمل على ما هو أعمّ من هذه الأقوال، فإنّ جزاء الأعمال مكتوب في السماء، والقضاء والقدر ينزل منها، والجنة والنار فيها.

ثم أقسم سبحانه بنفسه، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وذكر الرب؛ لأنّه في بيان التربية بالرزق. ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنّ ما توعدون، أو ما ذكر من أمر الآيات والرزق على أنّ الضمير مستعار لاسم الإشارة.

---

(١) الشوكاني.   (٢) روح البيان.

وقال أبو حيان[1]: والظاهر: أنّ الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾: عائد على الإخبار السابق من الله تعالى فيما تقدم في هذه السورة من صدق الموعود، ووقوع الجزاء، وكونهم في قول مختلف، وقتل الخراصين، وكينونة المتقين في الجنة على ما وصف، وذكر أوصافهم وما ذكر بعد ذلك؛ ولذلك شبّه في الحقيقة بما يصدر من نطق الإنسان بجامع ما اشتركا فيه من الكلام. انتهى، وقيل: عائد على القرآن، أو إلى الدين الذي في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ أو إلى اليوم المذكور في قوله: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أو إلى الرزق، أو إلى الله، أو إلى النبيّ ﷺ أقوال منقولة، ذكره أبو حيان أيضاً؛ أي: فأقسمت لكم برب السماء والأرض، إنّ ما أخبركم به في هذه الآيات ﴿لَحَقٌّ﴾؛ أي: لأمر ثابت، واقع لا محالة، وقرأ الجمهور: ﴿مِّثْلَ﴾ بالنصب على الحالية من الضمير المستكن في ﴿لَحَقٌّ﴾. و﴿مَآ﴾: زائدة، وجملة ﴿أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾: في تأويل مصدر مجرور بإضافة ﴿مِّثْلَ﴾ إليه؛ أي: إنّ ما توعدون لحقّ حال كونه مثل نطقكم؛ أي: كما أنه لا شكّ لكم في نطقكم ينبغي أن لا تشكّوا في حقّيّة ما توعدون، أو على أنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: إنه لحقّ حقًّا مثل نطقكم، فإنه لتوغله في الإبهام لا يتعرف بإضافته إلى المعرفة، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر والحسن وابن أبي إسحاق والأعمش بخلاف عن ثلاثتهم: ﴿مثل﴾ بالرفع على أنه صفة لقوله: ﴿لَحَقٌّ﴾.

والمقصود من الآية: تشبيه تحقيق ما أخبر الله عنه بتحقيق نطق الآدمي ووجوده، وهذا كما تقول: إنه لحق كما أنك ها هنا، وإنه لحق كما أنك تتكلّم.

والمعنى: أنه في صدقه وجوده كالنطق الذي تعرفه ضرورة، وإنما خص[2] التمثل بالنطق؛ لأنّه مخصوص بالإنسان وهو أخص صفاته.

ومعنى الآية: أقسم ربّنا جلّت قدرته بجلاله وكبريائه، إنّ ما وعدكم به من أمر القيامة، والبعث والجزاء، حقّ لا مرية فيه، فلا تشكّوا فيه، كما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون، وهذا كما تقول للناس: إنّ هذا لحقّ كما أنك ترى

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وتسمع، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن: أنه قال فيها: بلغني: أنّ رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله قوماً أقسم لهم ربّهم، ثمّ لم يصدّقوه».

وقال بعض الحكماء[1]: معناه: كما أنّ كل إنسان ينطق بلسان نفسه، لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره، كذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له، لا يقدر أن يأكل رزق غيره.

والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ للتعجيب[2] والتشويق إلى استماعه، ومثله لا يكون إلا فيما فيه فخامة، وعظيم شأن، وفي هذا الاستفهام تنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله ﷺ بغير طريق الوحي، إذ هو أمّي لم يمارس الخط وقراءته، ولم يصاحب أصحاب التواريخ، ففيه إثبات نبوّته، قال ابن الشيخ: الاستفهام للتقرير؛ أي: قد أتاك، وقيل: إن لم يأتك.. نحن نخبرك، والضيف في الأصل مصدر ضافه إذا نزل به ضيفاً، ولذلك يطلق على الواحد والجماعة كالزور والصوم، وقد يجمع على أضياف وضيوف وضيفان.

وبدأ بقصّة إبراهيم، مع كونها متأخرة عن قصة عاد وغيرها، هزماً للعرب؛ لأنّه كان أباهم الأعلى، وصارت الضيافة متعارفة في القرى، وكان ضيفه اثني عشر ملكاً، منهم: جبريل ومكيائيل وإسرافيل وزقائيل، وتسميتهم ضيفاً؛ لأنّهم كانوا في صورة الضيف، حيث أضافهم إبراهيم، أو لأنّهم كانوا في حسبانه كذلك.

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ صفة للضيف؛ أي: المكرمين عند الله سبحانه بالعصمة والتأييد والاصطفاء والقربة والسفارة بينه تعالى وبين الأنبياء، كما قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾. أو المكرمين عند إبراهيم بالخدمة، حيث خدمهم بنفسه وبزوجته، وأيضاً بطلاقة الوجه، وتعجيل الطعام، وقيامه على رؤوسهم، وكان لا يقوم على رؤوس الضيف، وقرأ عكرمة: ﴿المكرّمين﴾ بالتشديد، وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. فليكرم ضيفه» قيل: إكرامه تلقّيه بطلاقة الوجه،

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

وتعجيل قراه، والقيام بنفسه في خدمته، وروي: أنّ الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: أكرم أضيافك، فأعدّ لكل منهم شاةً مشوية، فأوحى إليه: أكرم، فجعله ثوراً، فأوحى إليه: أكرم، فجعله جملاً، فأوحى إليه: أكرم، فتحير فيه، فعلم أنّ إكرام الضيف ليس في كثرة الطعام، فخدمهم بنفسه، فأوحى إليه: الآن أكرمت الضيف، وقال بعض الحكماء[1]: لا عار للرجل ولو كان سلطاناً أن يخدم ضيفه، وأباه ومعلمه، ولا تعتبر الخدمة بالإطعام.

وقوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ ظرف للحديث، فالمعنى: هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه. ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾؛ أي: نسلم عليك سلاماً، و﴿الفاء﴾ هنا: إشارة إلى أنهم لم يخلوا بأدب الدخول. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلَامٌ﴾؛ أي: عليكم سلام، فهو مبتدأ، خبره: محذوف، وترك العطف قصداً إلى الاستئناف، فكأنّ قائلاً قال: ماذا قال إبراهيم في جواب سلامهم؟ فقيل: قال سلام؛ أي: حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم؛ لأنّ تحيّتهم كانت بالجملة الفعلية، الدالّة على الحدوث، حيث نصبوا ﴿سلاما﴾ وتحيّته بالاسمية الدالة على دوام السلام، وثباته لهم حيث عدل به إلى الرفع بالابتداء.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ بالنصب على المصدر السادّ مسدّ فعله المستغني به. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ بالرفع، وقرىء: بالرفع في الموضعين، وقرىء: بالنصب فيهما، وقرأ ابن وثّاب والنخعيّ وابن جبير وطلحة: ﴿قال سلم﴾، بكسر السين وإسكان اللام، والمعنى: نحن سلم، أو أنتم سلم.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: قال إبراهيم في نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف، هؤلاء قوم منكرون؛ أي: مجهولون لنا لا نعرفهم، فهم منكرون عند كل أحد، وكانوا على أوضاع وأشكال خلاف ما عليه الناس، وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض، لأنّ السلام لم يكن تحيّتهم؛ لأنّه كان بين أظهر قوم

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

كافرين، لا يحيي بعضهم بعضاً بالسلام الذي هو تحية المسلمين.

﴿فَرَاغَ﴾ إبراهيم؛ أي: مال ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ وخدمه الذين كانت عندهم البقرة، وكانت عامة ماله البقرة، فالمراد بأهله: خدمه، وهم الرعاة، فالاختفاء معتبر في مفهوم الروع؛ أي: ذهب في أثناء حديثه معهم إلى أهله وخدمه على خفية من ضيفه، فإنّ من أدب المضيّف أن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف، حذراً من أن يكفّه الضيف، ويعذره أو يصير منتظراً.

وقوله: ﴿فَجَآءَ﴾ إبراهيم ضيفه ﴿بِعِجۡلٖ﴾ أي: بولد بقر ﴿سَمِينٖ﴾؛ أي: غير هزيل مشويّ بالحجارة، معطوف على جمل محذوفة، و﴿الباء﴾: للتعدية؛ أي: فراغ إلى أهله، فذبح عجلاً سميناً، فحنذه؛ أي: شواه، فجاء به ضيفه، والعجل: ولد البقر لتصوّر عجلته التي تعدم منه إذا صار ثوراً، أو بقرةً، واختاره؛ لأنّه كان عامّة ماله البقر، واختار السمين؛ مبالغة في إكرامهم.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: فجاء إبراهيم بعجل حنيذ، فقرّب العجل إليهم وقدّمه لهم، بأن وضعه لديهم حسبما هو المعتاد ليأكلوه، فلم يأكلوه، ولمّا رأى منهم ترك الأكل.. ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ منه إنكاراً لعدم تعرّضهم للأكل، وحثًّا عليه، و﴿أَلَا﴾ هنا بالخفيف: حرف عرض، وهو الطلب برفق ولين، وهو الصواب، وقيل: الهمزة في ﴿أَلَا﴾: للاستفهام الإنكاري، و﴿لا﴾: نافية كما في «الشوكاني». والأوّل أولى، بل أصوب.

وروي: أنهم قالوا: نحن لا نأكل بغير ثمن، قال إبراهيم: كلوا، وأعطوا ثمنه، قالوا: وما ثمنه؟ قال: إذا أكلتم.. فقولوا: بسم الله، وإذا فرغتم.. فقولوا: الحمد لله، فتعجّب الملائكة من قوله.

﴿فـ﴾ لما رآهم لا يأكلون ﴿أوجس منهم﴾؛ أي: فلمّا رآهم لا يأكلون.. أضمر في نفسه ﴿خِيفَةٗ﴾؛ أي: خوفاً منهم، فتوهّم أنهم لصوص أو أعداء جاؤوا بالشر، فإنّ عادة من يجيء بالشر والضرر أن لا يتناول من طعام من يريد إضراره، قال في «عين المعاني»: من لم يأكل طعامك.. لم يحفظ ذمامك.

يقول الفقير: يخالفه سلامهم، فإنّ المسلم لا بدّ أن يكون من أهل السلم، وقيل: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قالت الملائكة حين أحسّوا بخوفه: ﴿لَا تَخَفۡ﴾ منّا، إنا رسل الله سبحانه، وأعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه، وقيل: مسح جبريل العجل بجناحه، فقام يمشي حتى لحق بأمّه، فعرفهم إبراهيم، وأمن منهم. ﴿وَبَشَّرُوهُ﴾؛ أي: بشّرت الملائكة إبراهيم، وفي سورة الصافات. ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ﴾؛ أي: بواسطتهم ﴿بِغُلَٰمٍ﴾؛ أي: بولد يولد له ﴿عَلِيمٖ﴾؛ أي: كثير العلم في صغره، كثير الحلم في كبره، والمبشّر به عند الجمهور هو إسحاق، ولم تلد له سارة غيره، وقال مجاهد وحده: هو إسماعيل.

ومعنى الآيات: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ أي: هل عندك يا محمد نبأ بما حدث بين إبراهيم وضيوفه من الملائكة الذين وفدوا عليه؟ وهم ذاهبون في طريقهم إلى قوم لوط، فسلّموا عليه، فردّ عليهم التحية بأحسن منها، ثمّ أراد أن يتعرفّ بهم فقال: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾؛ أي: إنكم قوم لا عهد لنا بكم من قبل، فعرفوني أنفسكم، من أنتم؟

واستظهر بعض العلماء أنّ هذه مقالة أسرّها إبراهيم في نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وجلسائه من غير أن يشعرهم بذلك؛ لأنّ في خطاب الضيف بنحو ذلك، إيحاشاً له إلى أنه لو كان أراد ذلك.. لكشفوا له أحوالهم، ولم يتصدّ لمقدّمات الضيافة، ثمّ ذكر أنه أسرع في قرى ضيوفه، فقال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ إلخ؛ أي: فذهب خفية مسرعاً، وقدّم لضيوفه عجلاً سميناً أنضجه شياً، كما جاء في سورة هود: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾؛ أي: مشويّ على الرضف. ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ أي: قال مستحثًّا لهم على الأكل: ألا تأكلون، وفي هذا تلطّف منه في العبارة، وعرض حسن، وقد انتظم كلامه وعمله آداب الضيافة، إذ جاء بطعام من حيث لا يشعرون، وأتى بأفضل ماله، وهو عجل فتيٌّ شويٌّ، ووضعه بين أيديهم، ولم يضعه بعيداً منهم حتى يذهبوا إليه، وتلطف في العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾؛ أي: فأعرضوا عن طعامه ولم

يأكلوا، فأضمر في نفسه الخوف منهم، ظنًّا منه أنّ امتناعهم إنما كان لشرّ يريدونه، فإنّ أكل الضيف أمنة، ودليل على سروره وانشراح صدره، وللطعام حرمة، وفي الإعراض عنه وحشة موجبة لسوء الظنّ، وقد جاء في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ ثمّ ذكر أنهم طمأنوه حينئذٍ، فقال: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ منا ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ وجاء في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾. فبشّروه بإسحاق بن سارة، كما جاء في سورة هود: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾. وجاءت البشرة بذكر؛ لأنّه أسرّ للنفس، وأقر للعين ووصفه بالعلم؛ لأنّه الصفة التي يمتاز بها الإنسان الكامل، لا الصورة الجميلة، ولا القوّة، ولا نحوهما.

ثم أخبر عمّا حدث من امرأته حينئذٍ، فقال: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾؛ أي: امرأة إبراهيم، وزوجته سارة، لما سمعت بشارتهم إلى بيتها، وكانت في زواية تنظر إليهم، قال ابن الشيخ: فأقبلت إلى أهلها، وكانت مع زوجها في خدمتهم، فلمّا تكلّموا بولادتها.. استحيت، وأعرضت عنهم، فذكر الله سبحانه ذلك بلفظ الإقبال على الأهل، ولم يذكره بلفظ الإدبار عن الملائكة.

قال سعدي المفتي كذا في «التفسير الكبير»: ولا يناسبه[1] قوله: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ فإنّه يقتضي كونها عندهم، فالإقبال إليهم؛ أي: فأقبلت امرأته على الملائكة ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ حال من فاعل ﴿أقبلت﴾ والصرّة: الصيحة الشديدة؛ أي: حالة كونها متلبسة بصيحة وصوت شديد وقيل: صرّتها قولها: أوّه، أو يا ويلتي، أو رنّتها، والصرّة أيضاً: الجماعة، وبها فسّرها بعضهم؛ أي: أقبلت في جماعة من النساء كن عندها، وهي واقفة متهيّئة للخدمة.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾؛ أي: لطمت وجهها من الحياء، لما أنها وجدت حرارة دم الحيض، وقيل: ضربت بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجّب، وهي عادة النساء إذا أنكرن شيئاً. ﴿وَقَالَتْ﴾ أنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؛ أي: أنا عجوز عاقر لم

(١) روح البيان.

ألد قطّ في شبابي، فكيف ألد الآن، ولي تسع وتسعون سنة؟ وكان إبراهيم ابن مئة سنة، سميت العجوز عجوزاً، لعجزها عن كثير من الأمور، والعقيم من النساء التي لا تقبل ماء الفحل، وفي «عين المعاني»: العقيم: من سد رحمها، ومنه: الداء العقام الذي لا يرجي برؤه، وبمعناه العاقر كما سيأتي، وكانت سارّة عقيماً لم تلد قطّ، فلمّا لم تلد في صغرها وعنفوان شبابها، ثم كبر سنها وبلغت سن الإياس.. استبعدت ذلك، وتعجبت، فهو استبعاد بحكم العادة لا تشكك في قدرة الله.

والمعنى[١]: أي فأقبلت امرأته سارّة حين سمعت بشارتهم، وكانت في ناحية من البيت تنظر إليهم، وهي تصرخ صرخة عظيمة، وضربت بيديها على جبينها، وقالت: أنا عجوز عقيم، فكيف ألد؟ وجاء في الآية الأخرى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾.

فأجابوها عمّا قالت، حيث: ﴿قَالُوا۟﴾ لها ﴿كَذَٰلِكِ﴾؛ أي: مثل ذلك الذي بشّرناه، وأخبرناه به ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وإنما نحن معبّرون نخبرك به عنه تعالى، لا أنّا نقول من تلقاء أنفسنا، وروي: أن جبريل عليه السلام قال لها: انظري إلى سيف بيتك، فنظرت، فإذا جذوعه مورقة مثمرة، فأيقنت، و﴿الكاف﴾ في ﴿كَذَٰلِكِ﴾[٢]: منصوب المحل على أنه صفة لمصدر ﴿قَالَ﴾ الثانية؛ أي: لا تستبعدي ما بشّرناه به، ولا تتعجّبي منه، فإنه تعالى قال مثل ما أخبرناك به؛ أي: قضي وحكم في الأزل؛ أي: إنه من جهة الله سبحانه، فلا تعجبّي منه.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، فيكون قوله حقًّا، وفعله محكماً لا محالة، تعليل لما قبله.

أي[٣]: قالوا لها مثل الذي أخبرناك به، قال ربك، فنحن نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين، وهو الحكيم في أفعاله، العليم بكل شيء لا يخفى

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والخلاصة: أنها استبعدت الولادة لسببين: كبر السن، والعقم، وقد كانت لا تلد في عنفوان شبابها، والآن قد عجزت وأيست، فأجدر بها الآن أن لا تلد، فكأنها قالت: ليتكم دعوتم دعاء قريباً من الإجابة، ظنًّا منها أنّ ذلك منهم كما يصدر من الضيف من الدعوات الطيبة، كما يقول الداعي: أعطاك الله مالاً، ورزقك ولداً، فردّوا عليها بأنّ هذا ليس منّا بدعاء، وإنما ذلك قول الله تعالى.

ولم تكن[١] هذه المفاوضة مع سارة فقط، بل مع إبراهيم أيضاً، حسبما شرح في سورة الحجر، وإنما لم يذكر هنا اكتفاء بما ذكر هناك، كما أنه لم يذكر هناك سارّة، اكتفاءً بما ذكر ههنا، وفي سورة هود، وفي الآية إشارة إلى أنه لا يجوز اليأس من فضل الله تعالى، فإنّ المقدور كائن ولو بعد حين، وقد أورقت وأثمرت شجرة مريم عليها السلام أيضاً، وكانت يابسة كما مرّ في سورة مريم، وقد اشتغل أفراد في كبرهم، ففاقوا على أقرانهم في العلم، فبعض محرومي البداية، مرزقون في النهاية، فمنهم: إبراهيم بن أدهم وفضيل بن عياض ومالك بن دينار، رحمهم الله تعالى.

الإعراب

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ② فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ④ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ⑥﴾.

﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿الذاريات﴾: مجرور بواو القسم، الجار والمجرور: متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بالذاريات، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿ذَرْوًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، والعامل فيه: اسم الفاعل، والمفعول به: محذوف، تقديره التراب ونحوه، كما مر. ﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿الحاملات﴾: معطوف على ﴿الذاريات﴾

---

(١) روح البيان.

﴿وِقْرًا﴾: مفعول به لاسم الفاعل. ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿الجاريات﴾: معطوف على ﴿الحاملات﴾. ﴿يُسْرًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنّه صفة لمصدر محذوف؛ أي: جرياً يسراً سهلاً. ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾: معطوف على ﴿الجاريات﴾، ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به لاسم الفاعل. ﴿إِنَّمَا﴾ ﴿إنّ﴾: حرف نصب. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسمها، وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، والعائد: محذوف، تقديره: توعدونه. ﴿لَصَادِقٌ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿صادق﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، فتكون هي و﴿ما﴾ في حيّزها مؤوّلة بمصدر هو اسم ﴿إنّ﴾؛ أي: إنّ وعدكم لصادق. ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَوَٰقِعٌ﴾: خبره. و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، والجملة: معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: مجرور بواو القسم، الجار والمجرور: متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بالسماء. ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ صفة لـ ﴿السماء﴾، ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿في قول﴾: جار ومجرور، خبر ﴿إنّ﴾. ﴿مُّخْتَلِفٍ﴾: صفة ﴿قَوْلٍ﴾. وجملة ﴿إنّ﴾: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: معطوفة على جملة القسم الأوّل. ﴿يُؤْفَكُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به. ﴿مَنْ﴾: موصول في محل الرفع نائب فاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿أُفِكَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. والجملة: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾. فعل ونائب فاعل، والجملة: جملة دعائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾: خبر أول، أو متعلق بـ ﴿سَاهُونَ﴾، ﴿سَاهُونَ﴾: خبر ثان، أو هو الخبر، والجملة: صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب. ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾: فعل

وفاعل ﴿أَيَّانَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف خبر مقدم و﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل النصب مفعول ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾. وجملة ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾: بدل من جملة الصلة قبلها. ﴿يَوْمَ﴾: في محل النصب على الظرفية الزمانية، متعلق بفعل محذوف، تقديره: يجيء يوم الدين يوم هم عى النار، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَى النَّارِ﴾: متعلق بـ ﴿يُفْتَنُونَ﴾. و﴿عَلَى﴾: بمعنى في وجملة ﴿يُفْتَنُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿ذُوقُوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل. ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم حين التعذيب: ذوقوا فتنتكم. ﴿هَذَا﴾: مبتدأ. ﴿الَّذِي﴾: خبره، والجملة: في محل النصب مقول لذلك القول. ﴿كُنْتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وجملة ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾. وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ خبره. ﴿وَعُيُونٍ﴾: معطوف على ﴿جَنَّاتٍ﴾، والجملة: مستأنفة. ﴿آخِذِينَ﴾: حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: استقرّوا فيها، حال كونهم راضين ما آتاهم ربّهم. و﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿آخِذِينَ﴾، ﴿آتَاهُمْ﴾: فعل ومفعول به. ﴿رَبُّهُمْ﴾: فاعل، والجملة: صلة لـ ﴿مَا﴾، والعائد: محذوف، تقديره: ما آتاهم إياه ربّهم. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿قَبْلَ ذَلِكَ﴾: متعلق بـ ﴿مُحْسِنِينَ﴾، و﴿مُحْسِنِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾. خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾.

﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الظرفية الزمانية؛ لأنه

صفة زمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً، متعلق بـ ﴿يَهْجَعُونَ﴾، أو منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنّه صفة مصدر محذوف؛ أي: هجوعاً قليلاً. ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: صفة لـ ﴿قَلِيلًا﴾ ﴿مَا﴾: زائدة لتأكيد القلّة، وجملة ﴿يَهْجَعُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾، جملة مفسّرة، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها تفسير لإحسانهم. ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿بالأسحار﴾: متعلق بـ ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وقدّم معمول الخبر على المبتدأ؛ لجواز تقديم عامله عليه. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿كان﴾ على كونها مفسّرة، أو على خبر ﴿كان﴾. ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿في أموالهم﴾: خبر مقدم. ﴿حَقٌّ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿حَقٌّ﴾، ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾: معطوف على ﴿السائل﴾. والجملة: معطوفة على جملة ﴿كان﴾، أو على خبر ﴿كان﴾. فهي خبر ثالث لها. ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿في الأرض﴾: خبر مقدم. ﴿ءَايَٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾: صفة لـ ﴿ءَايَٰتٌ﴾. والجملة: مستأنفة.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: خبر مقدم لمبتدأ محذوف، لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: وفي أنفسكم آيات للموقنين. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخيّ، داخلة على مقدر يقتضيه السياق، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تنظرون ذلك فلا تبصرون، والجملة المحذوفة: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُبْصِرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف. ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿في السماء﴾: خبر مقدم. ﴿رِزْقُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على ﴿رِزْقُكُمْ﴾، وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾: صلته والعائد: محذوف، تقديره: وما توعدونه. ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، و﴿الواو﴾: حرف جر وقسم ﴿رب السماء﴾:

مجرور بـ ﴿الواو﴾: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، الجار والمجرور: متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بربّ السماء، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف نصب، و﴿الهاء﴾: اسمها، ﴿لَحَقٌّ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿حق﴾: خبرها. وجملة ﴿إنّ﴾: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿مِّثْلَ﴾: منصوب على الحالية من الضمير المستكن في ﴿حقّ﴾؛ أي: لحقّ هو حال كونه مماثلاً نطقكم، أو على المفعولية المطلقة؛ لأنّه صفة لمصدر محذوف؛ أي: لحقّ حقًّا مثل نطقكم. و﴿مَآ﴾: زائدة كما قاله الخليل. ﴿أَنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَنطِقُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿أنّ﴾: في تأويل مصدر مجرور بإضافة مثل إليه، تقديره: مثل نطقكم، وقرىء: ﴿مثل﴾ بالرفع على أنه صفة لـ ﴿حق﴾. وقيل: ﴿مَآ﴾: نكرة موصوفة في محل جرّ بإضافة مثل إليه، وجملة ﴿أنّ﴾ في محل جر صفة لها؛ أي: مثل شيء منطوق لكم، والنطق هنا: عبارة عن الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام، والاستفهام: هنا معناه: التفخيم والتنبيه على أنّ الحديث ليس من علم رسول الله ﷺ، وإنما عرفه بالوحي. ﴿أَتَىٰكَ﴾: فعل ومفعول. ﴿حَدِيثُ﴾: فاعل. ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾: صفة للضيف، والجملة: مستأنفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان، متعلق بـ ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أو باذكر محذوفاً. ﴿دَخَلُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿فَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿دَخَلُوا۟﴾. ﴿سَلَٰمًا﴾: مفعول مطلق استغنى عن فعله؛ لأنّه سدّ مسدّه، تقديره: نسلّم عليكم سلاماً، والجملة المحذوفة: في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿سَلَٰمٌ﴾: مبتدأ، خبره: محذوف؛ أي: سلام عليكم، وسوّغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء، والجملة: في

محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. وجملة ﴿قَالَ﴾: مستأنفة. ﴿قَوۡمٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أنتم قوم. ﴿مُّنكَرُونَ﴾: صفة لـ ﴿قَوۡمٌ﴾. والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَرَاغَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف يقتضيه السياق، تقديره: فبادر إلى إكرام ضيفه من غير أن يشعرهم فراغ. ﴿راغ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾. والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿راغ﴾ ﴿فَجَآءَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿جاء﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾: معطوف على ﴿راغ﴾. ﴿بِعِجۡلٖ﴾ متعلق بـ ﴿جاء﴾ ﴿سَمِينٖ﴾. صفة ﴿عجل﴾، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قربه﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿جاء﴾. ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾: متعلق بـ ﴿قرب﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾. والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿أَلَا﴾: حرف عرض وطلب، وجملة ﴿تَأۡكُلُونَ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَوۡجَسَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فامتنعوا من أكله فأوجس. ﴿أوجس﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾. ﴿مِنۡهُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿خِيفَةٗۖ﴾ و﴿خِيفَةٗۖ﴾ مفعول به. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَخَفۡۖ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَبَشَّرُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿قَالُواْ﴾. ﴿بِغُلَٰمٍ﴾: متعلق بـ ﴿بشروه﴾، ﴿عَلِيمٖ﴾: صفة ﴿غلام﴾.

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَأَقۡبَلَتِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: وسمعت سارّة تبشيرهم إبراهيم فأقبلت. ﴿أقبلت امرأته﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف. ﴿فِي صَرَّةٖ﴾: حال من الفاعل؛ أي: حالة كونها صارّة؛ أي: صارخةً. ﴿فَصَكَّتۡ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿صكت وجهها﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿أقبلت﴾. ﴿وَقَالَتۡ﴾: معطوف على ﴿صكت﴾، ﴿عَجُوزٌ﴾: خبر

لمبتدأ محذوف؛ أي: أنا عجوز. ﴿عَقِيمٌ﴾: صفة ﴿عَجُوزٌ﴾. والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قالت﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿كَذَٰلِكِ﴾: صفة لمصدر محذوف لـ ﴿قَالَ﴾ الثاني. ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾: فعل وفاعل، والتقدير: قالوا: قال ربك قولاً مثل ذلك التبشير الذي بشّرناه، وجملة ﴿قَالَ﴾: في محل النصب مقول لـ ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر أول لـ ﴿إن﴾ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إنّ﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ وهي الرياح التي تذروا التراب وغيره؛ أي: تطيّره وتفرّقه، من ذرا يذرو، من باب عدا يعدو، ويقال: ذرا يذري من باب رمى، وفيه إعلال بالقلب، أصله: الذاروات، من ذرا يذرو، قلبت الواو ياءً لتطرفها إثر كسرة. ويحتمل أن تكون من ذرى يذري من باب رمى، فلا قلب فيها حينئذٍ، أفاده الجوهري في «صحاحه» في مادة ذرا، ولو كان كما قال.. لكان المصدر ذرياً.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ﴾ هي الرياح الحاملات للسحاب المشبع ببخار الماء.

﴿وِقْرًا﴾ والوقر والثقل والحمل، كلها ألفاظ وزنها واحد، ومعناه واحد.

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ﴾ هي الرياح الجارية في مهابّها بسهولة.

و﴿اليسر﴾ السهولة. ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾ هي الرياح التي تقسم الأمطار بتصريف السحاب.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ و﴿مَآ﴾: يجوز تكون اسمية، وعائدها: محذوف؛ أي: توعدونه ومصدرية، فلا عائد لها، وحينئذٍ يحتمل أن يكون ﴿تُوعَدُونَ﴾ مبنياً من الوعد، وأن يكون مبنياً من الوعيد؛ لأنّه صالح أن يقال: أوعدته فهو يوعد، ووعدته فهو يوعد لا يختلف، فالتقدير: إنّ وعدكم أو إنّ وعيدكم، اهـ «سمين».

﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ جمع حبيكة كطرق وطريقة وزناً ومعنى، وقيل: الحبك: التكسر الذي يبدو على وجه الماء إذا ضربته الريح.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾؛ أي: متناقض مضطرب في شأن الله، فبينا تقولون: إنه خالق السموات تقولون بصحة عبادة الأوثان، معه، وفي شأن الرسول، فتارةً تقولون: إنه مجنون، وتارةً تقولون: إنه ساحر، وفي شأن الحشر، فتارةً تقولون: لا حشر ولا بعث، وأخرى تقولون: الأصنام شفعاؤنا عند الله يوم القيامة.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾؛ أي: يصرف عن القول المختلف؛ أي: بسببه. ﴿مَنْ أُفِكَ﴾؛ أي: ومن صرف عن الإيمان، يقال: أفكه عنه يأفكه إفكاً صرفه وقلبه، أو قلب رأيه، كما في «القاموس». ورجل مأفوك؛ أي: مصروف عن الحق إلى الباطل، كما في «المفردات».

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: لعن الكذّابون، وهذا دعاء عليهم كقوله: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾﴾. وأصله: الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى لعن وقبح، من الخرص، وهو تقدير القول بلا حقيقة، ومنه: خرص الثمار؛ أي: تقديرها مثلاً، بأن يقدر ما على النخل من الرطب تمراً، وكل قول مقول عن ظنّ وتخمين يقال له: خرص، سواء كان ذلك مطابقاً للشيء أو مخالفاً له، من حيث إنّ صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظنّ ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظنّ والتخمين، والخرص: الظن والحدس، يقال: كم خرص أرضك بكسر الخاء، وأصل الخرص: القطع، من قولهم: خرص فلاناً كلاماً، واخترصه: إذا قطعه من غير أصل.

﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ من غمره الماء يغمره: إذا غطاه، والمراد بها هنا: الجهل، قال الراغب: أصل الغمر: إزالة أثر الشيء، ومنه: قيل للماء الكثير الذي يزيل أثر سيله: غمر وغامر، وبه شبه الرجل السخي والفرس الشديد العدو، فقيل لهما: غمر كما شبها بالبحر، والغمرة: معظم الماء الساترة لمقرها، وجعلت مثلاً للجهالة التي تغمر صاحبها، وإلى نحوه أشار بقوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾. وقيل للشدائد: غمرات، قال تعالى: ﴿فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾. وقال الشاعر:

قَالَ الْعَوَاذِلُ إِنَّنِيْ فِيْ غَمْرَةٍ   صَدَقُوْا وَلَكِنْ غَمْرَتِيْ لاَ تَنْجَلِيْ

﴿سَاهُونَ﴾ قال الراغب: السهو: خطأ عن غفلة، وذلك ضربان:

أحدهما: أن لا يكون من الإنسان جوالبه ومولداته كمجنون سبَّ إنساناً.

والثاني: أن يكون مولداته منه، كمن شرب خمراً، ثم ظهر منه منكر لا عن قصد إلى فعله، والأول معفو عنه، والثاني مأخوذ به، وعلى الثاني ذمَّ الله تعالى فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾ انتهى. وقوله: ساهون جمع ساه، وفعله سها يسهو، فأصل ساهٍ: ساهو، قلبت واوه ياء لتطرفها إثر كسرة، ثم أعلت إعلال قاض، أما ساهون، فأصله: ساهيون، وعلى هذا استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الهاء لمناسبة الواو، فوزنه فاعون.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: يحرقون ويعذّبون بها، كما يفتن الذهب بالنار، يقال: فتنت الشيء؛ أي: أحرقت خبثه لتظهر خلاصته، فالكافر كله خبث، فيحرق كله، قال الراغب: أصل الفتن: إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، ويستعمل في إدخال الإنسان النار، ومنه: قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾؛ أي: عذابكم، وتارةً يسمون ما يحصل منه العذاب فتنةً، فيستعمل فيه نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾. وتارة في الاختبار نحو قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾.

﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ والهجوع: النوم بالليل دون النهار، وبابه خضع، والهجعة: النومة الخفيفة، ويقال: أتيت فلاناً بعد هجعة؛ أي: بعد نومة خفيفة من الليل، كما في «المختار».

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ جمع سحر بفتح السين وسكون الحاء: السدس الأخير من الليل لاشتباهه بالضياء، كالسحر يشبه الحق، وهو باطل.

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾؛ أي: المستجدي الطالب العطاء.

﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ هو المتعفّف الذي يحسبه الجاهل غنياً فيحرم الصدقة من أكثر الناس، وفي «القاموس»: المحروم: الممنوع من الخير، ومن لا ينهى له مالٌ،

وفي «المفردات»؛ أي: الذي لم يوسَّع عليه في الرزق، كما وسع على غيره، بل منع من جهة الخير. انتهى.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ والضيف للواحد والجماعة؛ لأنّه في الأصل مصدر كالزور والصوم، وفي «القاموس»: والضيف للواحد والجميع، وقد يجمع على أضياف وضيوف وضيفان، وهي ضيف وضيفة، أما الضيفن: فهو من يجيء مع الضيف متطفلاً، وفي «الأساس»: ضاف إليه مال إليه، وضاف عنه مال عنه، وضاف السهم عن الهدف، وضافت الشمس، وضيَّفت وتضيَّفت: مالت إلى الغروب.

﴿فَرَاغَ﴾ رغ ذهب في خفية، وهذا من أدب المضيف ليبادر ضيفه بقراه، وفي «المصباح»: وراغ الثغلب روغاً من باب قال، وروغاناً: ذهب يمنةً ويسرةً في سرعة وخديعةٍ، فهو لا يستقر في جهة، وراغ فلان إلى كذا: مال إليه سرًّا، وفيه إعلال بالقلب، أصله: روغ قلبت الواو ألفاً لتحرّكها وانفتاح ما قبلها.

﴿بِعِجْلٍ﴾ والعجل: ولد البقرة، سمّي بذلك لتصور عجلته التي تعدم منه إذا صار ثوراً أو بقرةً. ﴿سَمِينٍ﴾ والسمين: ضد الهزيل.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ الوجس: الصوت الخفيّ كالإيجاس، وذلك في النفس، أي: أضمر في نفسه خيفة؛ أي: خوفاً منهم.

﴿لَا تَخَفْ﴾ أصله: لا تخوف بوزن تفعل، مضارع خوف بكسر العين من باب فعل المكسور، نقلت حركة الواو إلى الخاء فسكنت، لكنّها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال، ثمّ حذفت لالتقائها ساكنة مع الفاء آخر الفعل المسكّن؛ لدخول الجازم عليه.

﴿بِغُلَامٍ﴾ والغلام: الطار. الشارب، والكهل: ضده، أو من حين يولد إلى أن يشب كما في «القاموس».

﴿فِي صَرَّةٍ﴾ والصرة بفتح الصاد: الصيحة الشديدة، يقال: صر يصر صريراً: إذا صوت، ومنه: صرير الباب، وصرير القلم، وقيل: الصرّة: الجماعة من

الناس كما مرّ.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ الصك: ضرب الشيء بالشيء العريض، يقال: صكه: إذا ضربه شديداً بعريض، أو عام كما في «القاموس».

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؛ أي: أنا كبيرة السنّ، سميت العجوز عجوزاً؛ لعجزها عن كثير من الأمور، وقال في «القاموس»: العقم بالضم: هزمة تقع في الرحم فلا تقبل الولد، وفي «عين المعاني»: العقيم: من سد رحمها، ومنه: الداء العقام، كما مرّ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة في قوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠)﴾؛ أي: لعن الكذّابون، حيث شبّه اللعن بالقتل بجامع فوات كل خير في كل منهما، فاشتق من القتل بمعنى اللعن قتل بمعنى لعن على طريقة الاستعارة التصريحية التبعيّة، ففيه تشبيه الملعون الذي يفوته كل خير وسعادة بالمقتول الذي تفوته الحياة، وكل نعمة. اهـ «زاده».

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾؛ لأنّ السائل الطالب والمحروم المتعفّف.

ومنها: الكناية عن الموصوف في قوله: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩)﴾؛ لأنّه كناية عن محذوف، وهو المكذّب الجاحد للحق، والضمير في ﴿عَنْهُ﴾ للرسول أو للقرآن؛ أي: يصرف عنه من صرف صرفاً لا أشدَّ منه ولا أعظم، وفائدة الكناية هنا: أنّه لمّا خصَّص هذا بأنّه هو الذي.. صرف أفهم أنّ غيره لا يصرف، فكأنه قال: لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا، وكل صرف دونه يعتبر بمثابة المعدوم بالنسبة إليه.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾؛ لأنّ الغمرة حقيقة في

الماء الكثير الساتر لمقرّه، فاستعير للجهالة التي تغمر صاحبها.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾؛ لأنّ أصله: متى مجيء يوم الجزاء، فحذف المضاف الذي هو المصدر وأقيم المضاف إليه الذي هو الظرف، والاستفهام فيه للاستعجال استهزاءً لا للاستعلام.

ومنها: الاستعارة المكنيّة في قوله: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ شبّه العذاب بطعام يؤكل، ثم حذف المشبه به، واستعير له شيء من لوازمه، وهو الذوق.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾؛ لإفادة التعظيم أو التكثير.

ومنها: زيادة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾؛ لتأكيد معنى التقليل، فإنها تكون لإفادة التقليل.

ومنها: بناء الفعل على الضمير المفيد للتخصيص، في قوله: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ إشعاراً بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار، كأنهم المختصون به لاستدامتهم له، وإطنابهم فيه، وفي «بحر العلوم»: وتقديم الظرف فيه للاهتمام به، ولرعاية الفاصلة.

ومنها: تأكيد الخبر بالقسم وإن واللام في قوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لكون المخاطب منكراً، ويسمّىٰ هذا الضرب إنكارياً.

ومنها: ذكر لفظ الربّ في القسم دون غيره، لكون السياق في بيان التربية بالرزق.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾؛ لأنّه شبه تحقق ما أخبر به عنه بتحقق نطق الآدميّ، ومعناه: إنّه لحق كما أنت تتكلم.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)﴾؛ أي: ألم يأتك حديث... إلخ. فالاستفهام فيه تقريريّ لتفخيم الحديث، ولتجتمع نفس المخاطب، كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب، فتقرره هل سمع ذلك أم لا، فكأنك تقتضي أن يقول: لا، ويطلب منك الحديث.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ وقد اختلف في تقرير المبتدأ لمحذوف، فقيل: إنّ الذي يناسب حال إبراهيم عليه السلام: أنه لا يخاطبهم بذلك، إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى، بل يظهر أنه يكون التقدير: هؤلاء قوم منكرون.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ فإنّه قد سمّى الغلام عليماً باعتبار ما يؤول إليه أمره إذا كبر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الحمد لله الذي تتمّ بنعمته الصالحات، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وقد انتهى ما منّ الله سبحانه وتعالى به علينا من المعاني المحرّرة، والألفاظ المحبّرة، والأبحاث المشكلة من الفنون المختلفة على الجزء السادس والعشرين من الآيات المحكمة في اليوم الثالث والعشرين، قبيل صلاة الظهر من شهر الربيع الآخر من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة من الهجرة النبوية ٢٣/ ٤/ ١٤١٥ هـ. على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، بيد جامعها محمد الأمين بن عبد الله الأرميّ الهرريّ غفر الله له، ولوالديه، ولمن أعانه عليها، ولجميع المحبّين، وإخوانه المسلمين، وصلى الله على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

إلى هنا تم المجلد السابع والعشرون، ويليه المجلد الثامن والعشرون، وأوّله: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٧﴾ الآية ٣١. من سورة الذاريات، فلله الحمد حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه على كل حال، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده. ٢٣/ ٤/ ١٤١٥ هـ.

شعرٌ

إِذَا رَأَيْتَ لَحِيْنَا   كُنْ سَاتِرَاً وحَلِيْمَا
يَا مَنْ يُقَبِّحُ لَغْوِيْ   لِمْ لاَ تَمُرُّ كَرِيْمَا

آخرُ

كُلُّ حيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مدَّةَ ٱلْعُمْـ   ـرِ وَمَرْدِيٌّ إِذَا ٱنْتَهَىٰ أَمَدُهُ

آخرُ

كُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَؤُوْبُ   وَغَائِبُ ٱلْمَوْتِ لا يَؤُوْبُ

آخرُ

خُلِقْتُ مِنَ التُّرَابِ فَصِرْتُ شَخْصَاً   بَصِيْرَاً بِٱلسُّؤَالِ وَبِٱلْجَوَابِ
وَعُدْتُ إلى ٱلتُّرابِ فَصِرْتُ فِيْهِ   كَأَنِّي مَا بَرِحْتُ مِنَ ٱلتُّرَابِ

آخرُ

بِلاَدُ ٱللهِ وَاسِعَةٌ فَضَاءً   ورِزْقُ الله فِيْ الدُّنْيَا فَسِيْحُ
فَقُلْ لِلْقَاعِدِيْنَ علَىٰ هَوَانٍ   إِذَا ضَاقَتْ بِكُمْ أَرْضٌ فَسِيْحُوْا

الفهرس

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الثامن والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على نواله، والصلاة والسلام على نبيِّه وآله، محمد ﷺ وصحبه وعترته.

أما بعد: فلمَّا فرغت من تفسير الجزء السادس والعشرين من القرآن الكريم.. تفرغت بعون الله تعالى لتفسير الجزء السابع والعشرين منه، مستمِدّاً من الله سبحانه التوفيق، والهداية لأقوم الطريق في تفسير كتابه الكريم، وأقول: وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا
وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ
إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ
فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ
إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ
كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ
﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ
إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾
وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن
رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ
ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

المناسبة

قد تقدّم أنَّ قلنا غير مرة: إن الذين قسموا القرآن إلى أجزائه الثلاثين نظروا

إلى العد اللفظي، ولم يعنوا بالنظر إلى الترتيب المعنويّ، ومن ثم تجد جزءاً قد انتهى، وبدىء بآخر بأثناء القصّة كما هنا.

فبعد أن بشر الملائكة إبراهيم عليه السلام بالغلام، سألهم ما شأنكم، وما الذي جئتم لأجله؟ قالوا: إنّا أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم بحجارة من سجيل، بها علامةٌ تدل على أنها أعدّت لإهلاكهم. ثم نأمر من كان فيها من المؤمنين بالخروج، من القرية حتى لا يلحقهم العذاب الذي سيصيب الباقين، وسنترك فيها علامةً تدل على ما أصابهم من الرجز، جزاء فسوقهم، وخروجهم من طاعة ربهم.

قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر[1] ما كان من قوم لوط من الفسوق والعصيان، وما أصابهم من الهلاك جزاءً وفاقاً لما اجترحوا من السيئات، تسليةً لرسوله ﷺ على ما يرى من قومه.. عطف على ذلك قصص جمع آخرين من الأنبياء لقوا من أقوامهم من الشدائد مثل ما لقي هذا الرسول الكريم.

فحقت على أقوامهم كلمة ربّهم، ونزل بهم عذاب الاستئصال، وصاروا كأمس الدابر عبرة ومثلاً للآخرين. فذكر أنه أرسل موسى إلى فرعون بشيراً ونذيراً، فأبى، واستكبر، واعتزّ بقوّته وجنده، وقال: أنا ربكم الأعلى، فأغرق هو وقومه في البحر. وأرسل هوداً إلى عادٍ، فكذَّبوه، فأهلكهم بريح صرصرٍ عاتية. وأرسل صالحاً إلى ثمود، فكذّبوه، فأخذتهم الصاعقة، ولم تبق منهم أحداً. وبعث نوحاً إلى قومه، فلم يستجيبوا لدعوته، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما أثبت الحشر، وأقام الأدلة على أنه كائن لا محالة، أرشد إلى وحدانية الله، وعظيم قدرته.. فبيَّن أنه خلق السماء بغير عمد، وبسط الأرض ودحاها لتصلح لسكنى الإنسان والحيوان، وخلق من كل نوع من أنواع الحيوان، زوجين ذكراً وأنثى، ليستمرّ بقاء الأنواع إلى أن يشاء الله سبحانه فناء هذا العالم. ثمّ أمرهم أن يعتصموا بحبل الله، وأنذرهم شديد عقابه، وحذّرهم أن يجعلوا مع الله

---

(١) المراغي.

سبحانه نداً وشريكاً.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر أنَّ هؤلاء المشركين في قول مختلف، مضطرب، لا يلتئم بعضه مع بعض، فبينما هم يقولون: خالق السموات والأرض هو الله، إذا هم يعبدون الأصنام والأوثان، وطوراً يقولون: محمد ساحر، وطورا آخر يقولون: هو كاهن، إلى نحو ذلك.. قفى على ذلك، بأن ذكر أنَّ قومه ليسوا بدعاً في الأمم. فكما كذَّبت قريش نبيها فعلت الأمم التي كذبت رسلها، فأحل الله بهم نقمته، كقوم نوح، وعاد، وثمود. ثم عجب من حالهم، وقال: أتواصى بعضهم مع بعض بذلك!؟ ثم قال: لا بل هم قوم طغاة، متعدون حدود الله تعالى، لا يأتمرون بأمره، ولا ينتهون بنهيه. ثم أمر رسوله أن يعرض عن جدلهم ومرائهم. فإنه قد بلغ ما أمر به، ولم يقصر فيه فلا يلام على ذلك، وأن يذكر من تنفعه الذكرى، ولديه استعداد لقبول الإرشاد والهداية.

ثم أردف هذا أن ذكر أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليأمرهم، ويكلفهم بعبادته، لا لاحتياجه إليهم في تحصيل رزق، ولا إحضار طعام. فالله هو الرزّاق ذو القوّة. ثم ختم السورة بتهديد أهل مكة، بأنه سيصيبهم من العذاب مثل ما أصاب من قبلهم من الأمم السالفة. فأولى لهم أن لا يستعجلوه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾. فقد حقت عليهم كلمة ربك في اليوم الذي يوعدون، وسيقع عليهم من العذاب ما لا مرد له، ولا يجدون له دافعاً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ سبب نزول هاتين الآيتين[1]: ما أخرجه ابن منيع، وابن راهويه، والهيثم بن كليب بأسانيدهم من طريق مجاهد عن عليّ قال: لمَّا نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾﴾ لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى منّا، فنزلت: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾، فطابت أنفسنا.

---

(١) لباب النقول.

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أنه لما نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ...﴾ الآية، اشتد على أصحاب رسول الله ﷺ، ورأوا أن الوحي قد انقطع، وأنَّ العذاب قد حضر. فأنزل الله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام لمَّا علم أنهم ملائكة أرسلوا لأمر ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾؛ أي: فما شأنكم الخطير الذي لأجله أرسلتم سوى البشارة. فإنَّ الخطب يستعمل في الأمر العظيم الذي يكثر في التخاطب، وقلما يعبر به عن الشدائد والمكاره، حتى قيل: خطوب الزمان، ونحو هذا. والفاء[1] فيه للتعقيب المتفرع على العلم بكونهم ملائكة.

﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ من جهة الله سبحانه وتعالى.

وقال الشوكاني: قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ جملة[2] مستأنفة جواباً عن سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة؟ والخطب: الشأن والقصة.

والمعنى: فما شأنكم وما قصتكم أيّها المرسلون من جهة الله تعالى، وما ذاك الأمر الذي لأجله أرسلتم سوى هذه البشارة؟ انتهى.

وفي «المراح»:[3] فما أمركم العظيم الذي لأجله أرسلتم سوى البشارة، فلعظمتكم لا ترسلون إلا في عظيم أيها المرسلون، فأتى إبراهيم عليه السلام بما هو من آداب المضيف، حيث يقول لضيفه إذا استعجل في الخروج: ما هذه العجلة، وما شغلك الذي يمنعنا من التشرف بالاجتماع معك؟ ولا يسكت عند خروجهم لأنّ سكوته يوهم استثقالهم، انتهى.

فأجابوه عمّا سأل حيث: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾؛ أي: إلى قوم متمادين في إجرامهم وآثامهم مصرّين عليها. والمراد بهم: قوم لوط.

---

(١) روح البيان.
(٢) فتح القدير.
(٣) المراح.

وفي «فتح الرحمن»: المجرم فاعل الجرائم، وهي صعاب المعاصي.

﴿لِنُرْسِلَ﴾؛ أي: لننزل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من السماء ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ متحجّر كالآجرّ. وهو ما طبخ فصار في صلابة الحجارة، وهو السّجيل، يعني:[1] أنّ السّجيل حجارةٌ من طين طبخت بنار جهنم، مكتوب عليها أسماء القوم، ولو لم يقل: ﴿مِّن طِينٍ﴾ لتوهّم أنّ المراد من الحجارة: البرد بقرينة إرسالها من السماء، فلمّا قيل: ﴿مِّن طِينٍ﴾ اندفع ذلك الوهم؛ أي: لنرسل عليهم حجارة من طين بعد ما قلبنا قراهم، وجعلنا عاليها سافلها.

قال السديّ ومقاتل: كانوا ست مئة ألف، فأدخل جبرائيل جناحه تحت الأرض فاقتلع قراهم ـ وكانت أربعة ـ ورفعها حتى سمع أهل السماء أصواتهم، ثم قلبها بأن جعل عاليها سافلها. ثم أرسل عليهم الحجارة فتتبعت الحجارة مسافريهم وشذاذهم؛ أي: المنفردين عن الجماعة.

وانتصاب[2] ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ على كونه صفة ثانية لـ ﴿حِجَارَةً﴾، أو على الحال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، أو من الحجارة لكونها قد وصفت بالجار والمجرور. ومعنى ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: مرسلةً من عند ربك من سوّمت الماشية؛ أي: أرسلتها لترعى لعدم الاحتياج إليها. قال سعديٌ المفتي: فيه أنّ الظاهر حينئذٍ من عند ربك بإثبات من الحجارة، انتهى. أو معلمةٌ بعلامات تعرف بها، من السومة وهي العلامة، قيل: كانت مخططة بسواد وبياض، وقيل: بسواد وحمرة، وقيل: معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل: معلّمة بسيما تتميّز بها عن حجارة الأرض. وقيل: مكتوب على كل حجر منها اسم من يرمى بها ويهلك.

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ظرف لـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾؛ أي: معلّمة عنده، أو مخزونةً عنده في خزائنه التي لا يتصرّف فيها غيره تعالى. ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: للمجاوزين الحدَّ في الفجور؛ إذ لم يقنعوا بما أبيح لهم من النساء للحرث، بل أتوا الذكران. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: للمشركين، فإنَّ الشرك أسرف الذنوب وأعظمها.

---

(١) روح البيان. (٢) فتح القدير.

ولمّا أراد سبحانه أن يهلك المجرمين.. ميّز عنهم المؤمنين، وأبعدهم عنهم كما قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ الفاء: عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فباشروا ما أمروا به. فأخرجنا بقولنا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ...﴾ إلخ. فهو إخبار من الله سبحانه، وليس بقول الملائكة. ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾؛ أي: في قرى قوم لوط. وهي خمس على ما في تفسير الكاشفيّ. وإضمارها[1] بغير ذكرها لشهرتها. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من آمن بلوط ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في قرى قوم لوط ﴿غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: غير أهل بيت واحد. وهو بيت لوط ﴿بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قيل: هم لوط، وابنتاه. وأما امرأته فكانت كافرةً. وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر. قال العلماء[2]: يأتي النبي يوم القيامة ومعه أمّته، وآخر معه قومه، وآخر معه رهطه، وآخر معه ابنه، وآخر معه رجل، وآخر استتبع ولم يتبع، ودعا فلم يجب، وذلك لإتيانه في الوقت الشديد الظلمة.

وفي الآية: إشارة إلى أنّ المسلم والمؤمن متحدان صدقاً وذاتاً لا مفهوماً. والمسلم أعمُّ من المؤمن. فإنّه ما من مؤمن إلا وهو مسلم من غير عكس، والعامّ والخاص قد يتصادقان في مادّة واحدة، وقال بعضهم: الإيمان: هو التصديق بالقلب: أي: إذعان الحكم المخبر، وقبوله، وجعله صادقاً، والإسلام: هو الخضوع والانقياد بمعنى قبول الأحكام والإذعان. وهذا حقيقة التصديق كما لا يخفى على من له أدنى عقل وتأمل، وإنكار ذلك مكابرة.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في تلك القرى ﴿ءَايَةً﴾؛ أي: علامةً دالةً، على ما أصابهم من العذاب. هي تلك الحجارة، أو ماء أسود منتن خرج من أرضهم. ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾؛ أي: من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقّة قلوبهم، دون من عداهم من ذوي القلوب القاسية، فإنهم لا يعتدون بها، ولا يعدونها آيةً. كما شاهدَنا أكثر الحجاج حين المرور بمدائن صالح عليه السلام.

وكان ﷺ يبكي حين المرور بمثل هذا الموضع، وينكس رأسه، ويأمر بالبكاء والتباكي، ودلت الآية على كمال قدرته تعالى على إنجاء من يؤيّد دينه، والانتقام من أعدائه ولو بعد حين، وعلى أنّ المعتبر في باب النجاة والحشر مع أهل الفلاح

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

والرشاد هو حبّهم، وحسن اتباعهم، وهو الاتصال المعنوي لا الاختلاط الصوري، وإلا لنجت امرأة نوح ولوط. وقد قال تعالى في حقهما: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

ومعنى الآيتين[1]: أي وبعد أن ذهبت رسلنا إلى قوم لوط، ووقعت بينهم وبينهم محاورات.. أخرجوا من كان في القرى من المؤمنين تخليصاً لهم من العذاب، ولم يجدوا فيها سوى بيت واحد أسلم وجهه لله ظاهراً وباطناً، وانقاد لأوامره، واجتنب نواهيه.

وهو بيت لوط بن هاران أخ إبراهيم عليه السلام. ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً...﴾ إلخ، أي: وجعلناها عبرة بما أنزلنا بها من العذاب والنكال، وحجارة السجيل، وخسف الأرض بهم حتى صارت قريتهم بحيرة منتنة خبيثة. وهي بحيرة طبرية لتكون ذكرى لمن يخشى الله، ويخاف عذابه.

وفي الآية: إيماء إلى أنّ الكفر متى غلب، والفسق إذا انتشر، لا تنفع معه عبادة المؤمنين، أمّا إذا كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة، وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويفجرون.. فإنّ الله لا يأخذ الكثرة الصالحة بذنب العدد القليل من الفاجرين.

وقوله: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ معطوف[2] على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ على معنى وجعلنا في إرسال موسى إلى فرعون، وإنجائه مما لحق فرعون وقومه من الغرق آية. كقوله: «علفتها تبناً وماءً بارداً: أي: وسقيتها ماءً بارداً، وإلا فقوله ﴿في موسى﴾ لا يصح كونه معمولاً لـ ﴿تركنا﴾. إذ لا يستقيم أن يقال: تركنا في موسى آيةً، كما يصح أن يقال: تركنا في تلك القرية آيةً. لأنّ الترك ينبىء عن الإبقاء، فإذا لم يبق موسى كيف يبقى ما جعل فيه؟ وقيل: معطوف على قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾. فقصة إبراهيم ولوط عليهما السلام معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه تسلية لرسول الله ﷺ من تكذيبهم، ووعداً له بإهلاك أعدائه الأفاكين. كما أهلك قوم لوط. وقيل: غير ذلك. والأول أولى.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾ ظرف لـ ﴿جَعَلْنَا﴾ المقدّر؛ أي: وجعلنا في إرسال موسى، وإنجائه مع قومه، وإهلاك فرعون وقومه آيةً للذين يخافون العذاب الأليم وقت إرسالنا إيّاه. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ صاحب مصر حال كون موسى متلبساً ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة ظاهرة دالة على صدقه. وهو ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة: كالعصا، واليد البيضاء، وغيرهما. والسلطان مصدر يطلق على المتعدد.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فرعون ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾؛ أي: ثنى بعطفه وجانبه. وهو كناية عن الإعراض؛ أي: فأعرض عن الإيمان به وازورَّ، فالتولي بمعنى الإعراض، والباء في ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ للتعدية كما في قوله: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾. فإنها معدية لـ ﴿نأى﴾ بمعنى بعد. فيكون الركن بمعنى الطرف والجانب، والمراد بهما: نفسه؛ أي: أعرض بنفسه عن الإيمان بموسى. فإنه كثيراً ما يعبر بطرف الشيء وجانبه عن نفسه، وفي «الصحاح»: ركن الشيء جانبه الأقوى كالمنكب بالنسبة إلى الإنسان. وقيل: فتولى بما يتقوى به من ملكه وعساكره. فإنّ الركن اسم لما يركن إليه الإنسان، ولكن من مال، وجند، وقوة، فالركن مستعار لجنوده تشبيهاً لهم بالركن الذي يتقوى به البنيان، وعلى هذا الباء للسببية، أو للملابسة والمصاحبة.

﴿وَقَالَ﴾ فرعون في حق موسى هو؛ أي: موسى ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ فردد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحراً أو مجنوناً، وهذا[1] من اللعين مغالطة وإبهام لقومه، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسر على يد ساحر، ولا يفعله من به جنون، وقيل: إن ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو، لأنّه قد قال ذلك جميعاً، ولم يتردد. قاله المؤرج والفراء كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾؛ أي: أخذنا فرعون ﴿وَجُنُودَهُۥ﴾؛ أي: قومه وعساكره ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾؛ أي: فطرحناهم في بحر القلزم مع كثرتهم، كما يطرح أحدكم فيه حصيات أخذهن في كفه، لا يبالي بها، وبزوالها عنه. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: أخذناه، والحال أنه آت بما يلام عليه صغيرةً أو كبيرةً، حيث كذب الرسل، وادعى الربوبية، إذ كل صاحب ذنب ملوم على مقدار ذنبه.

---

(١) الشوكاني.

والمعنى[1]: أي وفي قصص موسى عبرة لقوم يعقلون؛ إذ أرسلناه إلى فرعون بحجج ظاهرةٍ، وآيات باهرة فأعرض، ونأى، وكذب ما جاء به معتزّاً بجنده، وقوته، وجبروته. وقال حيناً تحقيراً لشأن موسى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾. وقال حيناً آخر: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾. وما مقصده من هذا إلا صرفهم عن النظر والتأمّل فيما جاء به من الآيات خوفاً على ملكه أن ينهار، وعلى دولته أن يلحقها الدماء، وإبقاء على ما له من النفوذ والسلطان في البلاد.

ثم ذكر جزاءه هو وقومه على ما صنع، فقال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ...﴾ إلخ؛ أي: فألقينا فرعون وجنوده في البحر، وهو آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان. وفي هذا إيماء إلى عظمة القدرة على إذلال الجبابرة، وسوء عاقبتهم جزاء عتوهم واستكبارهم وعصيانهم أمر خالقهم.

ثم ذكر قصص عاد، فقال: ﴿وَفِى عَادٍ﴾؛ أي[2]: وجعلنا في عاد قوم هود آيةً على تقدير كونه معطوفاً على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾، أو وفي قوم هود ﴿ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ إن كان معطوفاً على ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ ظرف لـ ﴿جعلنا﴾ المقدر ﴿عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: على أنفسهم أصالة، وعلى دورهم وأموالهم وأنعامهم تبعاً. ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾؛ أي: المعقم. أي: المهلك لكل شيء، أو العاقم: أي: القاطع لكل خير. وهي التي لا خير فيها ولا بركة، لا تلقح شجراً، ولا تحمل مطراً إنّما هي ريح الإهلاك والعذاب، وفي «بحر العلوم»: ولعله سمَّاها عقيماً لأنّها كانت سبب قطع الأرحام من الولادة بإهلاكها إيّاهم، وقطعها دابرهم، وهي ريح العذاب والهلاك، وهي[3] النكباء على قول عليّ رضي الله عنه. وهي التي انحرفت ووقعت بين ريحين، أو بين الصبا والشمال، وهو الدبور على قول ابن عباس رضي الله عنهما. ويؤيده قوله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور». وهي ريح تقابل الصَّبا. أي: ريح تجيء من جانب المغرب. فإنَّ الصَّبَا تجيء من جانب المشرق. وقال ابن المسيب: الريح العقيم: هي الجنوب مقابل الشمال. وهي ريح تجيء من شمال من يتوجه إلى المشرق. وهي كثيرة في فصل الشتاء، وآخر فصل الخريف.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

ثم وصف سبحانه هذه الريح، فقال: ﴿مَا تَذَرُ﴾؛ أي: ما تترك تلك الريح ﴿مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: مرَّت عليه من أنفسهم، وأنعامهم، وأموالهم ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾؛ أي: كالشيء البالي المتفتت. والرميم: كل ما رم، وبلي، وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك، وقال قتادة[1]: الرميم: ما ديس من يابس النبات. وقال السديُّ، وأبو العالية: إنه التراب المدقوق. وقال قطرب: إنه الرماد. وأصل الكلمة: من رم العظم إذا بلي، فهو رميم. والرمة: العظام البالية كما سيأتي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما أرسل على عاد من الريح إلا مثل خاتمي هذا. يعني: أنّ الريح العقيم تحت الأرض، فأخرج منها مثل ما يخرج من الخاتم من الثقب، فأهلكهم الله تعالى.

والمعنى[2]: أي وفي عاد آية لكل ذي لب. إذ أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً عاتية لم تبق منهم ديَّاراً، ولا نافخ نار، ولا تركت شيئاً من الأبنية والعروش إلا جعلته كالشيء الهالك البالي.

ثم ذكر قصص ثمود فقال: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾؛ أي: وجعلنا في ثمود قوم صالح آيةً، أو وفي قوم صالح آيات للموقنين. وقوله: ﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿جعلنا﴾؛ أي: جعلنا فيهم آية وقت إذ ﴿قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا﴾؛ أي: انتفعوا بالحياة الدنيا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقت نزول العذاب. وهو آخر ثلاثة أيّام الأربعاء، والخميس، والجمعة. فإنهم عقروا الناقة يوم الأربعاء، وهلكوا بالصيحة يوم السبت. وقد فسر بقوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾. قيل: قال لهم صالح عليه السلام: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرة، واليوم الثالث مسودة، ثم يصبحكم العذاب، فكان كذلك.

وإنما[3] تبدلت ألوانهم بما ذكر، لأنهم كانوا كل يوم في الترقي إلى سوء الحال. ولا شك أنّ الأبيض يصير أصفر ثم أحمر ثم أسود. والسواد من ألوان الجلال والقهر، وأيضاً لون جهنم، فإنّها سوداء مظلمة، فعند الهلاك صاروا إلى لون جهنم لأنّها مقرّهم، ونعوذ بالله منها.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

﴿فَعَتَوْا﴾؛ أي: استكبروا ﴿عَنْ﴾ امتثال ﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وهو ما أمروا به على لسان صالح عليه السلام من قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ وقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾. والفاء ليست للعطف على ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾. فإنّ العتوّ لم يكن بعد التمتع، بل قبله. وإنما هو تفسير وتفصيل لما أجمله في قوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ...﴾ إلخ. فإنّه يدلّ إجمالاً على أنه تعالى جعل فيهم آيةً، ثمّ بيّن وجه الآية وفصّلها.

قال في «شرح الرضيّ»: إنّ الفاء العاطفة للجمل قد تفيد كون المذكور بعدها كلاماً مرتّباً على ما قبلها في الذكر، لأنّ مضمونها عقيب مضمون ما قبلها في الزمان، انتهى.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾؛ أي: أهلكتهم النار النازلة من السماء ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم ينظرون إليها، ويعاينونها. لأنّهم جاءتهم معاينة بالنهار، فينظرون من النظر بالعين. وفيه ترجيح لكون المراد بالصاعقة: حقيقة النار. لأنّها حين ظهرت رأوها بأعينهم، والصيحة لا ينظر إليها، وإنما تسمع بالأذن. والظاهر: أنّ الصاعقة لا تنافي أن يكون معها صيحة جبرئيل. وقيل: هو الانتظار؛ أي: ينتظرون ما وعدوا به من العذاب، حيث شاهدوا علامات نزوله من تغيّر ألوانهم في تلك الأيّام. ويقال: سمعوا الصيحة وهم ينظرون: أي: يتحيّرون.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿الصَّاعِقَةُ﴾. وقرأ عمر، وعثمان رضي الله عنهما، وحميد، وابن محيصن، ومجاهد، والكسائي، وزيد بن علي ﴿الصعقة﴾. قيل[2]: لمّا رأوا العلامات التي بيّنها صالح من اصفرار وجوههم، واحمرارها، واسودادها عمدوا إلى قتله عليه السلام فنجاه الله إلى أرض فلسطين. ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا، وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة جبرئيل عليه السلام كما صرح بها في قوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾. فهلكوا. فالمراد بالصاعقة: الصيحة لا حقيقتها. وهي نار تنزل من السماء فتحرق ما أصابته. وقيل: أتتهم صيحة من السماء، فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم. وقال بعضهم: أهلكوا بالصاعقة حقيقة بأن جاءت نار من السماء

---

(١) الشوكاني والبحر المحيط.
(٢) روح البيان.

فأهلكتهم جميعاً، كما مرَّ.

والمعنى[1]: أي وفي ثمود عظة لمن تدبر، وفكر في آيات ربّه؛ إذ قال لهم نبيهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾. ثم يحل بكم من العذاب ما لا قبل لكم به، فكذَّبوه، واستكبروا، وعتوا عن أمر ربهم. فأرسل عليهم صاعقة من السماء أهلكتهم جميعاً، وهم ينظرون إليها جزاء ما اكتسبت أيديهم من الآثام، وارتكاب الخطايا، والأوزار.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾؛ أي: لم يقدروا على القيام. قال قتادة: من نهوض يعني: لم ينهضوا من تلك الصرعة. والمعنى: أنهم عجزوا عن القيام فضلاً عن الهرب. ومثله قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾؛ أي: لاصقين بمكانهم من الأرض، لا يقدرون على الحركة والقيام فضلاً عن الهرب. فالقيام ضد القعود.

﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾؛ أي: ممتنعين من عذاب الله بغيرهم كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

والخلاصة: فما استطاعوا من هرب، ولم يجدوا مفرًّا ولا نصيراً يدفع عنهم عذاب الله تعالى.

ثم ذكر موجزاً لقصص قوم نوح عليه السلام، فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾؛ أي: وأهلكنا قوم نوح، فإنَّ ما قبله يدل عليه. ويجوز أن يكون منصوباً باذكر المقدر. ﴿مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هؤلاء المهلكين ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إنّ قوم نوح ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾؛ أي: خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي. وهو علة لإهلاكهم.

والمعنى: وأهلكنا قوم نوحٍ بالطوفان قبل هؤلاء المذكورين بسبب فسقهم، وفجورهم، وانتهاكهم حرمات الله تعالى. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي ﴿وقوم نوح﴾ بالجر عطفاً على ما تقدم؛ أي: وفي قوم نوح آية. وهي قراءة عبد الله وقرأ[2] باقي السبعة، وأبو عمرو في رواية بالنصب. قيل: عطفاً على الضمير في ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾. وقيل: عطفاً على ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾؛ لأنَّ معنى كل منهما فأهلكناهم.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وقيل: منصوب بإضمار فعل، تقديره: وأهلكنا قوم نوح. لدلالة معنى الكلام عليه. وقيل: باذكر مضمرة. وروى عبد الوارث، ومحبوب، والأصمعيّ عن أبي عمرو، وأبو السمال، وابن مقسم ﴿وقومُ نُوحٍ﴾ بالرفع على الابتداء. والخبر محذوف؛ أي: أهلكناهم.

والنصب في قوله[1]: ﴿وَالسَّمَآءَ﴾ على الاشتغال؛ أي: وبنينا السماء ﴿بَنَيْنَهَا﴾ حال كوننا متلبسين ﴿بِأَيْيْدٍ﴾؛ أي: بقوة وقدرة قاهرة. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: كقوله: ﴿دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾. فهو[2] حال من الفاعل أو حالة كون السماء متلبسة بقوة وإحكام، فيكون حالاً من المفعول. ويجوز أن تكون الباء للسببية: أي: بسبب قدرتنا، فتتعلق ببنيناها، لا بالمحذوف، والقوة هنا بمعنى القدرة. فإنّ القوة عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف. والله تعالى منزه عن ذلك. والقدرة هي الصفة التي بها يتمكن الحي من الفعل وتركه بالإرادة. والأيد: مصدر: آد يئيد أيداً إذا اشتد وقوى. قال في «القاموس»: الآد: الصلب والقوة كالأيد، وأيدته مؤايدة، وأيدته تأييداً فهو مؤيد قويته، انتهى. قال الراغب: ولما في اليد من القوة قيل: أنا يدك وأيدتك، قويت يدك اهـ.

﴿وَإِنَّا﴾ نحن ﴿لَمُوسِعُونَ﴾؛ أي: لقادرون على إيساعها من الوسع بمعنى الطاقة. والموسع: القادر على الإنفاق. يقال: أوسع الله عليك؛ أي: أغناك. فيكون قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ حالاً مؤكدة، أو تذييلاً إثباتاً لسعة قدرته كل شيء فضلاً عن السماء. أو لموسعون السماء؛ أي: جاعلوها واسعة في نفسها، أو واسعون ما بينها وبين الأرض، أو واسعون الرزق فيها على خلقنا؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾.

وقرأ أبو السمال[3]، ومجاهد، وابن مقسم برفع السماء، ورفع الأرض على الابتداء. وقرأ الجمهور بنصبهما.

والمعنى: أي ولقد بنينا السماء ببديع قدرتنا، وعظيم سلطاننا، وإنا لقادرون

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

على ذلك، لا يمسنا نصب ولا لغوب. وفي ذلك تعريض باليهود الذين قالوا: إنّ الله خلق السموات والأرض في ستّة أيّام، واستراح في اليوم السابع مستلقياً على عرشه.

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: وفرشنا الأرض ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾؛ أي: مهدناها، وبسطناها على الماء من تحت الكعبة مسيرة خمس مئة عام ليستقروا عليها، ويتقلبوا فيها كما يتقلب أحدهم على فراشه ومهاده. ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾؛ أي: فنعم الفارشون نحن. والمخصوص بالمدح محذوف كما قدرنا؛ أي: هم نحن، فحذف المبتدأ والخبر من غير أن يقوم شيء مقامهما.

وقد اختلف القدماء في هيئة الأرض وشكلها(١)، فذكر بعضهم أنها مبسوطة مستوية السطح في أربع جهات: المشرق، والمغرب، والجنوب، والشمال. وزعم آخرون أنها كهيئة المائدة، ومنهم من زعم أنها كهيئة الطبل، وذكر بعضهم أنها تشبه نصف الكرة كهيئة القبة، وأنّ السماء مركبة على أطرافها. وزعم قوم أنَّ الأرض مقعرة وسطها كالجام. والذي عليه الجمهور أنَّ الأرض مستديرة كالكرة، وأنّ السماء محيطة بها من كل جانب إحاطة البيضة بالمح. فالصفرة بمنزلة الأرض، وبياضها بمنزلة السماء، وجلدها بمنزلة السماء الأخرى. غير أنَّ خلقها ليس فيه استطالة كاستطالة البيضة، بل هي مستديرة كاستدارة الكرة المستوية الخرط حتى قال مهندسوهم: لو حفر في الوهم وجه الأرض لأدى إلى الوجه الآخر، ولو ثقب مثلاً ثقب بأرض الأندلس لنفذ الثقب بأرض الصين.

واختلف في كمية عدد الأرضين. فروي في بعض الأخبار: أنَّ بعضها فوق بعض. وغلظ كل أرض مسيرة خمس مئة عام، حتى عد بعضهم لكل أرض أهلاً على صفة وهيئة عجيبة. وسمى كل أرض باسم خاص كما سمى كل سماء باسم خاص. وزعم بعضهم أن في الأرض الرابعة حيات أهل النار، وفي الأرض السادسة حجارة أهل النار.

وعن عطاء بن يسار: في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قال:

---

(١) خريدة العجائب.

في كل أرض آدم كآدمكم، ونوح مثل نوحكم، وإبراهيم مثل إبراهيمكم. وليس هذا القول بأعجب من قول الفلاسفة: إنّ الشموس شموس كثيرة، والأقمار أقمار كثيرة. ففي كل أقليم شمس وقمر ونجوم. وقال القدماء: سبع على المجاورة والملاصقة وافتراق الأقاليم لا على المطابقة والمكابسة. وأهل النظر من المسلمين يميلون إلى هذا القول. ومنهم من يقول: سبع على الانخفاض والارتفاع كدرج المراقي. ويزعم بعضهم أن الأرض مقسومة لخمس مناطق. وهي المنطقة الشمالية، والجنوبية، والمستوية، والمعتدلة، والوسطى.

واختلفوا في مبلغ الأرض، وكمّيتها. فروي عن مكحول أنه قال: ما بين أقصى الدنيا إلى أدناها مسيرة خمس مئة عام مئتان من ذلك في البحر، ومئتان ليس يسكنها أحد، وثمانون فيها يأجوج ومأجوج، وعشرون فيها سائر الخلق.

وعن قتادة قال: الدنيا أربعة وعشرون ألف فرسخ، فملك السودان ـ يعني: إفريقيا كلها منها ـ اثنا عشر ألف فرسخ، وملك الروم ثمانية آلاف فرسخ، وملك العجم والترك ثلاثة آلاف فرسخ، ملك العرب ألف فرسخ. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ربع من لا يلبس الثياب من السودان أكثر من جميع الناس. وقال بطليموس: بسيط الأرض كلها مئة واثنان وثلاثون ألف ألف وست مئة ألف ميل. فتكون مئتي ألف وثمانية وثمانين ألف فرسخ. فإن كان حقاً فهو وحي من الحق أو إلهام، وإن كان قياساً واستدلالاً فهو قريب من الحق أيضاً. وأما قول قتادة، ومكحول فلا يوجب العلم اليقيني، الذي يقطع على الغيب، كذا في «خريدة العجائب». وكل هذه الأقاويل ظنية لا مستند لها ولا أصل.

والمعنى[1]: أي ومهدنا الأرض وجعلناها صالحة لسكنى الإنسان والحيوان، وجعلنا فيها الأرزاق، والأقوات من الحيوان والنبات، وغيرهما مما يكفل بقاءهما إلى حين، ووضعنا فيها من المعادن في ظاهرها وباطنها ما فيه زينة لكم. فتبنون المساكن من حجارتها، وتتخذون الحلي من ذهبها وفضتها وأحجارها الكريمة، وتصنعون آلات الحرب، والسفن، والطائرات من حديدها ومعادنها الأخرى.

---

(١) المراغي.

وفي الآية: إشارة إلى أنَّ دحو الأرض كان بعد خلق السماء؛ لأنّ بناء البيت يكون قبل الفرش، وهذا ما يثبته العلم الحديث الآن. وقد تقدم ذكر ذلك غير مرّة.

ثم مدح سبحانه نفسه على ما صنع، فقال: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾؛ أي: فنعم ما فعلنا، وأجمل ما خلقنا مما فيه عظة لمن يتذكر ويتدبر. ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: من أجناس الموجودات. فالمراد بالشيء: الجنس. وقيل: من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾؛ أي: صنفين ونوعين مختلفين كالذكر والأنثى، والسماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والبر والبحر، والسهل والجبل، والإنس والجن، والنور والظلمة، والأبيض والأسود، والدنيا والآخرة، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والحق والباطل، والحلو والمر، والموت والحياة، والرطب واليابس، والجامد والنامي، والناطق والصامت، والجود والبخل، والعزّ والذلّة، والعرش والكرسي، واللوح والقلم، إلى غير ذلك مما لا يدخل تحت حصر.

وفي قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ تنبيه على أنَّ الأشياء كلها مركبة من جوهر وعرض، ومادّة وصورة، وأن لا شيء يتعرى منها، إذ الأشياء كلها مركبة من تركيب يقتضي كونه مصنوعاً. وأنه لا بد له من صانع تنبيهاً على أنه تعالى هو الفرد وإنما ذكر ههنا ﴿زَوْجَيْنِ﴾ تنبيهاً على أنه وإن لم يكن له ضد، ولا مثل فإنه لا ينفك من تركب صورة ومادة، وذلك زوجان. قال الخراز رحمه الله: أظهر معنى الربوبية والوحدانية بأن خلق الأزواج ليخلص له الفردانية.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: فعلنا ذلك كله من البناء، والفرش، وخلق الأزواج كي تتذكروا فتعرفوا أنه خالق الكل، ورازقه، وأنه المستحق للعبادة، وأنه قادر على إعادة الجميع. فتعملوا بمقتضاه.

والمعنى: أي وإنا خلقنا لكل ما خلقنا من الخلق ثانياً له مخالفاً له في مبناه والمراد منه، وكل منهما زوج للآخر. فخلقنا السعادة والشقاوة، والهدى والضلال إلى غير ذلك لتتذكروا، وتعتبروا، فتعلموا أنَّ الله ربكم الذي ينبغي لكم أن تعبدوه وحده، لا شريك له، هو الذي يقدر على خلق الشيء وخلافه، وابتداع زوجين من كل شيء، لا ما لا يقدر على ذلك.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والفاء فيه فاء الفصيحة؛ أي: قل لهم يا محمد: إذا علمتم أن الله تعالى فرد لا نظير له، وأنَّ هذه المذكورة شؤونه وأفعاله، فاهربوا إلى الله الذي هذه شؤونه بالإيمان والطاعة كي تنجوا من عقابه، وتفوزوا بثوابه. وقيل[1]: معنى ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أخرجوا من مكة. وقال الحسين بن الفضل: احترزوا من كل شيء غير الله، فمن فر إلى غيره.. لم يمتنع منه. وقيل: فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. وقيل: فروا من الجهل إلى العلم.

وجملة قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾؛ أي: من جهته تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: منذر مخوف من عذاب الله ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: بين كونه منذراً منه تعالى بالمعجزات الظاهرة على يديه، أو مظهر لما يجب إظهاره من العذاب المنذر به. تعليل للأمر بالفرار.

وفي أمره[2] للرسول ﷺ بأن يأمرهم بالهرب إليه من عقابه، وتعليله بأنّه ﷺ ينذرهم من جهته تعالى لا من تلقاء نفسه وعد كريم بنجاتهم من المهروب، وفوزهم بالمطلوب.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ نهي موجب للفرار من سبب العقاب بعد الأمر بالفرار نفسه. فقد نهاهم عن الشرك بالله بعد أمرهم بالفرار إلى الله. كأنّه قيل: وفروا من أن تجعلوا معه تعالى اعتقاداً، أو تقولوا: إلهاً آخر. وجملة قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾؛ أي: من الجعل المنهي عنه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيِّن الإنذار. تعليل للنهي المذكور. وفيه تأكيد لما قبله من الفرار من العقاب إليه تعالى، لا بطريق التكرير بل بالنهي عن سببه، وإيجاب الفرار منه. وفي «المراح»: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي:[3] بل وحّدوا الله سبحانه. فإنَّ التوحيد بين التعطيل والتشريك. فالمعطل يقول: لا إله. والمشرك يقول: إنّ في الوجود آلهةً. فقوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أثبت وجود الله. وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ نفي الأكثر من الواحد، فصح التوحيد بالآيتين؛ ولهذا قال مرتين: ﴿إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: أي: لا أقول شيئاً إلا بدليل ظاهر. فالرسول نذير من الله في المقامين عند الأمر بالطاعة، وعند النهي عن الشرك. وذلك ليعلم أنَّ العمل لا ينفع إلا مع الإيمان،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.

وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما، انتهى.

وحاصل معنى الآيتين: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي:[1] فالجؤوا إلى الله، واعتمدوا عليه في جميع أموركم، واتبعوا أوامره، واعملوا على طاعته. ﴿إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ﴾ من الله أنذركم عقابه، وأخوفكم عذابه الذي أحله بهؤلاء الأمم التي قص عليكم قصصها، وإني مبين لكم ما يجب عليكم أن تحذروه، ولا تجعلوا مع معبودكم الذي خلقكم معبوداً آخر سواه؛ فإنَّ العبادة لا تصلح لغيره، إني لكم نذير ومخوف من عقابه على عبادتكم غيره. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم...﴾ إلخ[2]، تسلية لرسول الله ﷺ ببيان أنَّ هذا شأن الأمم المتقدمة، وأنَّ ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله ﷺ، ووصفه بالسحر والجنون قد كان ممن قبلهم لرسلهم. و﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محل رفع، خبر لمبتدأ محذوف: أي: أمر الأمم السابقة عند مجيء الرسل إليهم مثل أمر كفّار قومك الذين بعثت إليهم من تكذيبهم إيّاك، وتسميتهم لك ساحراً، أو مجنوناً. أو في محل نصب نعت لمصدر محذوف: أي: أنذركم إنذاراً كإنذار من تقدمني من الرسل الذين أنذروا قومهم. والأول أولى.

ثم فسر ما أجمله بقوله: ﴿مَآ أَتَى﴾؛ أي: ما جاء الأمم ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾؛ أي: من قبل قريش ﴿مِن﴾ زائدة؛ أي: ﴿رَّسُولٍ﴾ من رسل الله تعالى ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾ في حقّه هو ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ فلا تأس على تكذيب قومك إيّاك. ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ الاستفهام فيه للإنكار والتعجيب من حالهم، واتفاقهم مع تفرق أزمانهم على تلك الكلمة الشنيعة التي لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء فضلاً عن التفوه بها في حق الأنبياء؛ أي: هل وصى الأولون الآخرين بعضهم بعضاً بهذا القول، حتى اتفقوا عليه. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ أي: مجاوزون الحد في الطغيان والفساد إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر. تواصيهم بذلك لبعد الزمان وعدم تلاقيهم في وقت واحد. وإثبات لكونه أمراً أقبح من التواصي، وأشنع منه. وهو الطغيان الشامل للكل الدال على أنّ صدور تلك الكلمة الشنيعة عن كل واحد منهم بمقتضى

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

جبلته الخبيثة لا بموجب وصية من قبلهم بذلك من غير أن يكون ذلك مقتضى طباعهم.

وفيه[1] إشارة إلى أنَّ أرباب النفوس المتمردة من الأولين والآخرين مركوزة في جبلتهم طبيعة الشيطنة من التمرد، والإباء، والاستكبار. فما أتاهم رسول من الأنبياء إلا أنكروا عليه، وقالوا: ساحر يريد أن يسحرنا، أو مجنون لا عبرة بقوله. كأنَّ بعضهم أوصىٰ بعضهم بالتمرد، والإنكار، والجحود؛ لأنهم خلقوا على طبيعة واحدة. بل هم قوم طاغون بأنهم وجدوا أسباب الطغيان من السعة، والتنعم، والبطر، والغنى. قال الشاعر:

إنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَهْ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أيُّ مَفْسَدَهْ

فعكسوا الأمر، وكان ينبغي لهم أن يصرفوا العمر والشباب والغنى في تحصيل المطلوب الحقيقيّ.

والمعنى[2]: أي كما كذبك قومك من قريش، وقالوا: ساحر أو مجنون فعلت الأمم التي كذبت رسلها من قبلهم، وقالوا مثل مقالتهم. فهم ليسوا ببدع في الأمم، ولا أنت ببدع في الرسل. فكلهم قد كذبوا، وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله تعالى. وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ على احتمال الأذىٰ والإعراض عن جدالهم؛ فإنهم قد أبطرتهم النعمة، وغرهم الإمهال فلا تجدي فيهم العظة، ولا تنفعهم الذكرى. ثم تعجب من إجماعهم على إنكار نبوة محمد ﷺ، فقال: أأوْصَى أولهم آخرهم بتكذيب محمد ﷺ فقبلوا ذلك منهم. ثم أضرب عن أن الذي جمعهم على هذا القول هو التواصي إلى أنّ الذي جمعهم على ذلك هو الطغيان، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ أي: بل الذي جمعهم على ذلك هو الطغيان، وتجاوز حدود الدين والعقل. فقال متأخرهم: مثل مقالة متقدمهم. ثم سلى رسوله بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالإعراض عنهم فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرض عنهم، وكف عن جدالهم ودعائهم إلى الحق. فقد فعلت ما أمرك الله به،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وبلغت رسالته، وكررت عليهم الدعوة فأبوا إلا الإباء والاستكبار ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿بِمَلُومٍ﴾ عند الله سبحانه على هذا التولي والإعراض بعد بذل المجهود؛ لأنك قد أديت ما عليك. وهذا منسوخ بآية السيف.

ثم بعد ما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترك التذكير والموعظة بالتي هي أحسن فقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ قال الكلبي: أي: عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم. وقال مقاتل: عظ كفار مكة، فإنّ الذكرى تنفع من سبق في علم الله أنه يؤمن. وقيل: ذكرهم بالعقوبة، وأيام الله. وخص المؤمنين بالتذكير لأنّهم المنتفعون به.

والمعنى[1]: فأعرض عنهم أيّها الرسول، ولا تأسّف على تخلفهم عن الإسلام فإنك لم تأل جهداً في الدعوة. وهم ما زادوا إلا عتوا واستكباراً، وطغياناً، وإعراضاً، ودم على العظة والنصح، فإنَّ الذكرى تنفع من في قلوبهم استعداد للهداية والرشاد.

وجملة قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ...﴾ إلخ[2]، مستأنفة مقررة لما قبلها. لأنَّ كون خلقهم لمجرد العبادة مما ينشط رسول الله ﷺ للتذكير، وينشطهم للإجابة؛ أي؛ وما خلقت المؤمنين من الجن والإنس ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي؛ إلا ليطيعوني، ويعرفوني. قال القشيري: والآية دخلها التخصيص بالقطع، لأنَّ المجانين لم يؤمروا بالعبادة، ولا أرادها منهم. وقد قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾. ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة. فالآية محمولة على المؤمنين منهم. ويدل عليه قراءة ابن مسعود، وأبيّ بن كعب ﴿وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون﴾.

وقال مجاهد: إنّ المعنى: إلا ليعرفوني. قال الثعلبيّ: وهذا قول حسن، لأنّه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده. وروي عن مجاهد أنه قال:

المعنى: إلا لآمرهم وأنهاهم. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. واختار هذا

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

الزجاج. وقال الواحدي: مذهب أهل المعاني في معنى الآية: إلا ليخضعوا لي، ويتذللوا. ومعنى العبادة في اللغة: الذل والانقياد. وكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله تعالى، مذلل لمشيئته، خلقه على ما أراد، ورزقه كما قضى، لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق عليه.

والحاصل(١): أنهم خلقوا للعبادة تكليفاً واختياراً لا جبلة وإجباراً. فمن وفقه وسدده أقام العبادة التي خلق لها، ومن خذله وطرده حرمها، وعمل بما خلق له. وفي الحديث: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، كما في «عين المعاني».

فينبغي للعبد أنّ يعبد ربَّه، ويتذلل لخالقه بأيّ وجه كان من الفرائض، والواجبات، والسنن، والمستحبّات على الوجه الذي أمره أن يقوم فيه. فإذا كملت فرائضه، وكمالها فرض عليه، فيتفرغ فيما بين الفرضين لنوافل الخيرات كانت ما كانت. ولا يحقر شيئاً من عمله؛ فإنّ الله تعالى ما احتقره حين خلقه وأوجبه، فإنَّ الله تعالى ما كلَّفك بأمر إلا وله بذلك الأرم اعتناء وعناية، حتى كلفك به، وإذا واظب على أداء الفرائض؛ فإنه يتقرب إلى الله بأحب الأمور المقرّبة إليه. وورد في الخبر الصحيح عن الله تعالى: «ما تقرَّب إليَّ عبد بشيء أحب إلي مما افترضته، وما يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبَّهُ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع، وبصره الذي به يبصر، ويده التي بها يبطش، ورجله التي بها يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته».

ووجه تقديم الجن على الإنس ها هنا تقدم وجودهم على الإنس(٢).

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم﴾؛ أي: من الجن والإنس في وقت من الأوقات ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ لي، ولا لأنفسهم، ولا لغيرهم يحصّلونه بكسبهم. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ ولا أنفسهم ولا غيرهم. وأصله: ﴿أن يطعموني﴾ بياء المتكلم. وهو بيان لكون شأنه تعالى مع عباده متعالياً عن أن يكون كسائر السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم، وتهيئة أرزاقهم فإنَّ منهم من يحتاج إلى كسب

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

عبده في نيل الرزق، ومنهم من يكون له مال وافر يستغني به عن حمل عبده على الاكتساب، لكنه يطلب من العبد قضاء حوائجه من طبخ الطعام، وإصلاحه، وإحضاره بين يديه. وهو تعالى مستغن عن جميع ذلك. ونفع العباد وغيره إنما يعود عليهم.

فإن قلت: ما فائدة تكرار لفظ ﴿مَآ أُرِيدُ﴾؟

قلت: فائدته إفادة حكم زائد على ما قبله. إذ المعنى: ما أريد منهم أن يطعموا أنفسهم، وما أريد منهم أن يطعموا عبيدي. وإنما أضاف تعالى الإطعام إلى نفسه؛ لأنّ الخلق عياله وعبيده، ومن أطعم عيال غيره فكأنما أطعمه. ويؤيده خبر: إنّ الله تعالى يقول يوم القيامة: «يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني» أي: استطعمك عبدي فلم تطعمه، انتهى من «فتح الرحمن».

والمعنى[1]: ما أريد أن أصرفهم في تحصل رزقي، ولا رزقهم، ولا في تهيئته بل أتفضل عليهم رزقهم، وبما يصلحهم، ويعيشهم من عندي، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي. وفي الآية تعريض بأصنامهم؛ فإنّهم كانوا يحضرون لها المآكل فربما أكلتها الكلاب فبالت على الأصنام، ثم لا يصدهم ذلك عن عبادتها.

وهذه الآية دليل على أنّ الرزق أعم من الأكل[2]، كما في تفسير المناسبات. وقال بعضهم: معنى ﴿أَن يُطْعِمُونِ﴾: أن يطعموا أحداً من خلقي. وإنما أسند الإطعام إلى نفسه، لأنّ الخلق عيال الله، ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه. كما جاء في الحديث: يقول الله: «استطعمتك فلم تطعمني»؛ أي: لم تطعم عبدي. كما مرّ آنفاً. وذلك أنَّ الاستطعام وسؤال الرزق يستعمل في وصف الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ لا رازق سواه، ولا معطي غيره. فهو الذي يرزق مخلوقاته.

والجملة[3]: تعليل لعدم إرادة الرزق منهم. وهو من قصر الصفة على الموصوف؛ أي: لا رزاق إلا الله الذي يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق. وفيه تلويح

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

بأنه غني. ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ على جميع ما خلق. تعليل لعدم إرادته منهم أن يعملوا ويسعوا في إطعامه. لأنَّ من يستعين بغيره في أموره يكون عاجزاً لا قوة له. ﴿ٱلْمَتِينُ﴾؛ أي: الشديد القوّة، لأنَّ القوة تمام القدرة، والمتانة: شدّتها. وهو بالرفع على أنه نعت للرزّاق، أو لذو، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف. وفي التأويلات النجمية: إنّ الله هو الرزاق لجميع الخلائق، ذو القوة المتين في خلق الأرزاق والمرزوقين. وقد سبق أنَّ القوة في الأصل عبارة عن شدّة البنية، وصلابتها المضادة للضعف. والله تعالى منزه عن ذلك. فهي في حقه تعالى بمعنى القدرة التامّة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ بصيغة المبالغة. وقرأ ابن محيصن ﴿الرازق﴾ بصيغة اسم الفاعل. كما قرأ ﴿وفي السماء رازقكم﴾ اسم فاعل، وهي قراءة حميد. وقرأ الجمهور ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ بالرفع. وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش بالجر صفة للقوة على معنى الاقتدار، قاله الزمخشري، أو كأنه قال: ذو الأيد. وقيل: التذكير لكون تأنيثها غير حقيقي. قال الفراء: كان حقه المتينة، فذكرها لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل. يقال: حبل متين؛ أي: محكم الفتل. ومعنى المتين هنا: الشديد القوّة كما مرّ آنفاً. وأجاز أبو الفتح أن تكون صفة لذو. وخفض على الجوار كقولهم: هذا حجر ضبٌّ خربٍ.

والمعنى[2]: أنه تعالى غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم؛ لأنّه خالقهم، ورازقهم، وهو ذو القدرة القاهرة، والقوّة التامّة، الغالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. روى أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنًى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك».

ولما أقسم سبحانه في أول السورة على الصدق في وعيدهم أخبر بإيقاع هذا الوعيد بهم يوم القيامة، فقال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بتعريضها للعذاب بسبب تكذيب محمد ﷺ، أو وضعوا مكان التصديق تكذيباً، وهم أهل مكة. ﴿ذَنُوبًا﴾؛ أي: حظًّا وافراً من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾؛ أي: مثل أنصباء نظرائهم من

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) المراغي.

الأمم الماضية المحكية. وهو[1] مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذَّنوب. وهو الدلو العظيم المملوء. قال الشاعر:

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبٌ ... فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا ٱلْقَلِيبُ

والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فاء الفصيحة. لأنَّها أفصحت عن جواب شرط محذوف، تقديره: إذا عرفت حال الكفرة المتقدمين من عاد، وثمود، وقوم نوح وأردت بيان حال كفرة قومك فأقول لك: فإنَّ لهؤلاء المكذبين لك نصيباً مثل نصيبهم. وعبر عن النصيب بالذنوب ليشبهه به في أنه يصب عليهم العذاب كما يصب الذنوب. قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ انتهى «من الفتوحات» بتصرف.

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أصله: فلا يستعجلوني بياء المتكلم؛ أي: فلا يطلبوا منّي أن أعجل في المجيء به؛ لأنَّ له أجلاً معلوماً، فهو نازل بهم في وقته المحتوم. يقال: استعجله إذا طلب وقوعه بالعجلة.

والمعنى: فإنَّ للذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ما خلقوا له من العبادة، وإشراكهم بالله عزّ وجل، وتكذيبهم رسوله نصيباً من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة التي كذبت رسلها. فلا يطلبوا مني أن أعجل بالإتيان به، فإني لا أخاف الفوت، ولا يلحقني عجز. وهذا جواب عن قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. وكان النضر بن الحارث يستعجل بالعذاب، فأمهل إلى بدر ثم قتل في ذلك اليوم، وصار إلى النار، فعذب أولاً بالقتل ثم بالنار.

﴿فَوَيْلٌ﴾؛ أي: فشدّة عذاب. ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بما جاء به محمد ﷺ وهم أهل مكة. ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾ من للتعليل؛ أي: من أجل يومهم ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ العذاب فيه. وهو يوم بدر. وهو الأوفق لما تقدم من حيث إنه من العذاب الدنيوي أو يوم القيامة. وهو الأنسب لما في صدر السورة الآتية. وأيّا ما كان فالعذاب آت، وكل آت قريب. ووضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بما في حيز الصلة من

---

(١) روح البيان.

الكفر، وإشعاراً بعلة الحكم. والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أنَّ لهم عذاباً عظيماً. كما أنَّ الفاء الأولى لترتيب النهي عن الاستعجال على ذلك؛ أي: فويل لهم من حلول ذلك العذاب الذي وعدوه يوم القيامة. حين لا تغني نفس عن نفس شيئاً ولا هم ينصرون.

وقرأ يعقوب[1]: ﴿لِيَعْبُدُونِي﴾، ﴿أَنْ يُطْعِمُونِي﴾، ﴿فلا يستعجلوني﴾ بالياء وقفاً ووصلاً. ووافقه سهل في الوصل. وقرأ الباقون بغير ياء في الحالين.

الإعراب

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة ﴿فَمَا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إن كنتم ملائكة كما تقولون فأقول لكم: ما خطبكم وشأنكم. ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع، مثلاً ﴿خَطْبُكُمْ﴾ خبره. ﴿أَيُّهَا﴾ ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء للتخفيف، والهاء حرف تنبيه زائد، ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ صفة لـ﴿أيّ﴾، أو بدل منها. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدَّرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالُوا﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿أُرْسِلْنَا﴾ فعل ماض مغير، ونائب فاعل، ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ متعلق به، ﴿مُجْرِمِينَ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمٌ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ في محل النصب، مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿لِنُرْسِلَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل، ﴿نرسل﴾ فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الملائكة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿نرسل﴾، ﴿حِجَارَةً﴾ مفعول به، ﴿مِنْ طِينٍ﴾ صفة لـ ﴿حِجَارَةً﴾. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لإرسالنا عليهم حجارة من طين. الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نرسل﴾. ﴿مُسَوَّمَةً﴾ صفة ثانية لـ ﴿حِجَارَةً﴾، ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ظرف متعلق بمسوَّمة، ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ متعلق به أيضاً.

---

(١) النسفي.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فباشروا ما أمروا به. فأخرجنا بقولنا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ...﴾ إلخ. فهو إخبار من الله تعالى، وليس من كلام الملائكة. كما مرَّ في مبحث التفسير. ﴿أخرجنا﴾ فعل، وفاعل. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول ﴿أخرجنا﴾، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿فِيهَا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من الضمير المستكن في خبر ﴿كَانَ﴾، أو ﴿مَنْ﴾ اسمها. وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لمن الموصولة. ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، «ما» نافية، ﴿وَجَدْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿أخرجنا﴾؛ أي: أردنا إخراجهم فما وجدنا حين الإخراج. ﴿غَيْرَ بَيْتٍ﴾ مفعول به لـ ﴿وَجَدْنَا﴾. لأنّه من وجدان الضالّة. ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ صفة ﴿بَيْتٍ﴾، ﴿وَتَرَكْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿أخرجنا﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿تركنا﴾، ﴿ءَايَةً﴾ مفعول به، ﴿لِّلَّذِينَ﴾ صفة لـ ﴿ءَايَةً﴾، ﴿يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، ﴿ٱلْأَلِيمَ﴾ صفة للعذاب. والجملة صلة الموصول.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ معطوف على قوله: ﴿فِيهَا﴾ بإعادة الجار. لأنّ المعطوف عليه ضمير مجرور، فيتعلق بـ ﴿تركنا﴾ من حيث المعنى. ويكون التقدير: وتركنا في قصة موسى آية. أو معطوف على ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ على معنى: وجعلنا في إرسال موسى آيةً. على حد قوله: علفتها تبناً وماءً بارداً. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف. لأنّه صفة لـ﴿ءَايَةً﴾؛ أي: آية كائنة في وقت إرسالنا إيّاه، أو متعلق بجعلنا المقدر. ﴿أَرْسَلْنَٰهُ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول. والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَٰهُ﴾، ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ حال من ضمير ﴿أَرْسَلْنَٰهُ﴾؛ أي: مؤيّداً بسلطان. ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة لـ ﴿سلطان﴾. ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿تولى﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَٰهُ﴾. ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ حال من ضمير فرعون؛ أي: متلبساً بركنه. ﴿وَقَالَ﴾

معطوف على ﴿تولى﴾، ﴿سَٰحِرٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو؛ أي: موسى ساحر. ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ معطوف على ساحر. والجملة في محل النصب، مقول قال. و﴿أَوْ﴾ هنا للإبهام على السامع، أو للشك نزل نفسه منزلة الشاكّ مع أنه يعرفه نبياً حقاً تمويهاً على قومه.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿أخذناه﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿تولى﴾. ﴿وَجُنُودَهُۥ﴾ معطوف على ضمير المفعول. ويجوز أن يكون مفعولاً معه. ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿نبذناهم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿أخذناه﴾، ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ متعلق بـ ﴿نبذنا﴾. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هو مليم﴾ مبتدأ وخبر. والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿نَبذناهم﴾، أو من مفعول ﴿أخذناه﴾. والفرق بين الحالين: أنَّ ﴿الواو﴾ في الأولى واجبة لازمة. إذ ليس فيها ذكر ضمير يعود على صاحب الحال. وفي الثانية ليست واجبة لازمة إذ في الجملة ذكر ضمير يعود عليه. ﴿وَفِى عَادٍ﴾ معطوف على ما تقدم. ويقال فيها: ما قيل: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾؛ أي: وجعلنا في عاد آيةً، وعبرةً للذين يخافون العذاب الأليم. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ جعلنا المقدر، أو صفة لآية، ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ مفعول به، ﴿ٱلْعَقِيمَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلرِّيحَ﴾. والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿إذ﴾. ﴿مَآ﴾ نافية، ﴿تَذَرُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الريح. والجملة في محل النصب حال من الريح. ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿شَىْءٍ﴾ مفعول به لـ ﴿تَذَرُ﴾، ﴿أَتَتْ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الريح، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿أَتَتْ﴾. وجملة ﴿أَتَتْ﴾ صفة لـ ﴿شَىْءٍ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ لـ ﴿جعل﴾ ﴿الرميم﴾ مضاف إليه للكاف؛ أي: مثل الرميم، وجملة جعل في محل النصب مفعول ثان ﴿جَعَلَتْهُ﴾ فعل، وفاعل مستتر يعود على الريح، ومفعول أول، ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ الكاف اسم بمعنى مثل، في محل النصب، مفعول ثان لـ ﴿تَذَرُ﴾. كأنّه قيل: ما تترك شيئاً أتت عليه إلا مجعولاً مثل الرميم.

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ

يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ معطوف على ما تقدم أيضاً. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى، متعلق بجعلنا المقدّر أو صفة لـ ﴿ءَايَةً﴾، ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض، مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿قِيلَ﴾، ﴿تَمَتَّعُوا﴾ إلى آخره نائب فاعل، محكيّ لـ ﴿قِيلَ﴾. ويجوز أن يكون ﴿لَهُمْ﴾ نائب فاعل، و﴿تَمَتَّعُوا﴾ الخ مقولاً. وجملة ﴿قِيلَ﴾ في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. وإن شئت قلت: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ فعل أمر، وفاعل، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تَمَتَّعُوا﴾. والجملة في محل الرفع، نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿فَعَتَوْا﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفصيل لإجمال ما تضمّنه قوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ الخ. والتقدير: وجعلنا في ثمود آية، إذ قيل لهم: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فعتوا عن أمر ربهم، وقيل لهم: تمتعوا حتى حين. ﴿عتوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ذلك المحذوف، ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿عتوا﴾، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فعل، ومفعول به، وفاعل، معطوف علىٰ ﴿عتوا﴾، ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾ خبره. والجملة في محل النصب، حال من مفعول ﴿أخذتهم﴾.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿اسْتَطَاعُوا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿أخذتهم﴾، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿قِيَامٍ﴾ مفعول به، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، معطوف على ﴿ما استطاعوا﴾. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿قوم نوح﴾ منصوب بفعل محذوف مفهوم ضمناً؛ أي: وأهلكنا قوم نوح. ولك أن تقدّره: وأذكر قوم نوح. وقرىء بالجر عطفاً على ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾. ﴿مِّن قَبْلُ﴾ جار ومجرور حال من ﴿قوم نوح﴾؛ أي: وأهلكنا قوم نوح حالة كونهم من قبل عاد وثمود، أو متعلق بـ ﴿أهلكنا﴾ المقدر. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خبره. وجملة إنّ مستأنفة مسوقة لتعليل الإهلاك، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، والتقدير: وبنينا السماء بنيناها. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول والجملة جملة مفسّرة للمحذوف، لا محل لها من الإعراب. ﴿بِأَيْدٍ﴾ جار ومجرور، حال من فاعل ﴿بَنَيْنَاهَا﴾؛ أي: متلبسين بأيد، أو

من مفعوله؛ أي: متلبسةً بقوّة. ويجوز أن يتعلق ببنيناها، فتكون الباء للسببية؛ أي: بسبب قدرتنا. ﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿إنا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿موسعون﴾ خبره. والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿بَنَيْنَاهَا﴾. ﴿وَالْأَرْضَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿الأرضَ﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، تقديره: وفرشنا الأرض. والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿وَالسَّمَاءَ﴾. ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة مفسّرة؛ لا محل لها من الإعراب. ﴿فَنِعْمَ﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿نعم﴾ فعل ماض من أفعال المدح، ﴿الْمَاهِدُونَ﴾ فاعل. والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: نحن، وجملة ﴿نعم﴾ خبره. والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَمِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿من كل شيء﴾ متعلق بـ ﴿خَلَقْنَا﴾ ومضاف إليه. ويجوز أن يكون حالاً من ﴿زَوْجَيْنِ﴾؛ لأنّه في الأصل صفة له. ﴿خَلَقْنَا﴾ فعل، وفاعل، ﴿زَوْجَيْنِ﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ خبره. والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿فَفِرُّوا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا علمتم أنّ الله فرد لا نظير له ولا نديد، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم فأقول لكم: فرّوا إلى طاعة الله. ﴿فرّوا﴾ فعل أمر، وفاعل. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدَّرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿فرّوا﴾ ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿لَكُم﴾ متعلق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾، ﴿مِّنْهُ﴾ متعلق به أيضاً، ﴿نَذِيرٌ﴾ خبر إنّ، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة ﴿نَذِيرٌ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لَا﴾ ناهية جازمة، ﴿تَجْعَلُوا﴾ فعل، وفاعل، مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية. والجملة معطوفة على جملة ﴿فرّوا﴾. ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ ظرف متعلق بمحذوف في موضع المفعول الثاني لـ ﴿جعل﴾. ﴿إِلَهًا﴾ مفعول أول لـ ﴿جعل﴾، ﴿آخَرَ﴾ صفة لـ ﴿إِلَهًا﴾. وجملة ﴿لا تجعلوا﴾ معطوف على ﴿فرّوا﴾. ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿لَكُم﴾ متعلق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾ و﴿مِّنْهُ﴾ متعلق به أيضاً، ﴿نَذِيرٌ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة لـ ﴿نَذِيرٌ﴾. وجملة إنَّ مستأنفة مسوقة لتعليل النهي.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف جوازاً، تقديره: الأمر والشأن كذلك؛ أي: أمر الأمم المكذّبة في تكذيب رسولهم، وشأنها كذلك المذكور من تكذيب قومك إيّاك. والجملة مستأنفة. ﴿مَآ﴾ نافية، ﴿أَتَى﴾ فعل ماض، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به، ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ صلة الموصول، ﴿مِن﴾ صلة زائدة، ﴿رَّسُولٍ﴾ فاعل. والجملة مفسرة لجملة ﴿كَذَٰلِكَ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿قَالُواْ﴾ فعل، وفاعل. والجملة في محل النصب، حال من ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾؛ أي: ما أتاهم رسول إلا حالة قولهم: هو ساحر أو مجنون. ﴿سَاحِرٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو ساحر، ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ معطوف على ﴿سَاحِرٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿أَتَوَاصَوْاْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التعجبي، ﴿تواصوا﴾ فعل ماض، والواو فاعل، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تواصوا﴾. والجملة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. والمعنى: ما وقع منهم وصية بذلك؛ لأنّهم لم يتلاقوا في زمان واحد، ﴿بَلْ﴾ حرف عطف وإضراب، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿قَوْمٌ﴾ خبر، ﴿طَاغُونَ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمٌ﴾. والجملة الإضرابية معطوفة على محذوف، تقديره: هم غير متواصين بذلك بل هم قوم طاغون. ﴿فَتَوَلَّ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا كان هذا شأنهم، وأردت بيان ما هو النصيحة لك.. فأقول لك: تولّ عنهم؛ أي: أعرض عن جدالهم. ﴿تولّ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿تولّ﴾. والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فَمَآ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية، ﴿ما﴾ نافية حجازية، ﴿أَنتَ﴾ في محل الرفع، اسمها، ﴿بِمَلُومٍ﴾ خبرها، و﴿الباء﴾ زائدة. والجملة تعليل للأمر بالتولي، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَذَكِّرْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، معطوف على ﴿فَتَوَلَّ﴾. ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية، ﴿إن الذكرى﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبره. والجملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية،

﴿ما﴾ نافية، ﴿خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿وَٱلْإِنسَ﴾ معطوف على الجنّ. والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ اللام: حرف جر وتعليل، ﴿يعبدون﴾ فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، والنون المذكورة للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاءاً عنها بكسرة نون الوقاية، أو للفاصلة في محل النصب مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل الجار والمجرور متعلق بـ ﴿خَلَقْتُ﴾؛ أي: وما خلقتهما إلا لعبادتي. ﴿مَآ﴾ نافية، ﴿أُرِيدُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله سبحانه، ﴿مِنْهُم﴾ متعلق بـ ﴿أُرِيدُ﴾، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿رِّزْقٍ﴾ مفعول به. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَآ﴾ الواو: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿أُرِيدُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿أُرِيدُ﴾ الأول، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يُطْعِمُونِ﴾ فعل مضارع، منصوب بأن المصدرية، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، والنون المذكورة للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية، في محل النصب، مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ أي: وما أريد منهم إطعامهم إيّاي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٦٠)﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ خبره. والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ خبر ثان لـ ﴿إنّ﴾ ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ خبر ثالث لها. وقيل: نعت لـ ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ أو لـ﴿ذُو﴾، ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حال الكفرة المتقدمين من عاد، وثمود، وقوم نوح، وأردت بيان حال كفرة قومك فأقول لك: ﴿إنّ للذين ظلموا﴾. ﴿إنّ﴾ حرف نصب، ﴿لِلَّذِينَ﴾ خبر مقدم لـ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿ظَلَمُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿ذَنُوبًا﴾ اسم ﴿إنّ﴾ مؤخر، ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ صفة لـ ﴿ذَنُوبًا﴾. وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فَلَا﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع ﴿لا﴾ ناهية، ﴿يَسْتَعْجِلُونِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، والنون المذكورة للوقاية، والياء المحذوفة مفعول به. والجملة الفعلية معطوفة مفرّعة على جملة ﴿إنّ﴾. ﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء: عاطفة

تفريعية، ﴿ويل﴾ مبتدأ. وسوّغ الابتداء بالنكرة ما فيه من معنى الدعاء. ﴿لِّلَّذِينَ﴾ خبر المبتدأ. والجملة معطوفة مفرّعة على جملة ﴿إنّ﴾ أيضاً. وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾ جار ومجرور، صفة لويل، و﴿من﴾ بمعنى في؛ أي: في يومهم. ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة ليومهم، ﴿يُوعَدُونَ﴾ فعل مضارع، مبني للمجهول، والواو: نائب فاعل. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: يوعدونه؛ أي: يوعدون العذاب فيه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾؛ أي: شأنكم. والخطب: الشأن الخطير، والأمر الجليل. ومنه: الخطبة؛ لأنها كلام بليغ يستهدف أموراً جليلة؛ أي: فما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة.

﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ هم قوم لوط. وفي «فتح الرحمن»: المجرم فاعل الجرائم. وهي صعاب المعاصي، وكبارها، وفاحشها. ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ أي: من طين متحجّر. وهو ما طبخ، وصار في صلابة الحجارة. وهو السجيل. فإنَّ السجيل حجارة من طين طبخت بنار جهنم.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾؛ أي: معلمة من السؤمة. وهي العلامة؛ أي: معلمة ببياض أو حمرة، أو بسيما تتميز بها عن حجارة الأرض أو بكتابة اسم من يرمىٰ بها أو مرسلة من سومت الماشية إذا أرسلتها لترعى لعدم الاحتياج إليها. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: في خزائنه، لا يتصرف فيها غيره تعالى.

﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: للمجاوزين الحد في الفجور. إذ لم يقنعوا بما أبيح لهم من النسوان للحرث، بل أتوا الذكران. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ممن آمن بلوط.

﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة. وهي ما ظهرت على يديه من المعجزات الظاهرة: كاليد والعصا. والسلطان: مصدر يطلق على المتعدّد. ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ والركن: ما يركن إليه الشيء، ويتقوى به. والمراد هنا: جنوده وأعوانه، ووزراؤه. كما جاء في سورة هود: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. وفي «الصحاح»: ركن الشيء. . جانبه الأقوى، كالمنكب بالنسبة إلى الإنسان. وقيل: فتولى بما يتقوى به من ملكه وعساكره. فإنّ الركن اسم لما يركن إليه الإنسان. ويكون من مال، وجند، وقوة. فالركن هنا مستعار لجنوده تشبيهاً لهم بالركن الذي يتقوى به

البنيان.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ والمجنون: ذو الجنون. وهو زوال العقل وفساده كأنه نسب ما ظهر على يديه من الخوارق العجيبة إلى الجن، وتردد في أنه حصل باختياره وسعيه أو بغيرهما.

﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ والنبذ: إلقاء الشيء، وطرحه لقلة الاعتداد به؛ أي: فطرحناهم في بحر القلزم. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: ملام؛ أي: آتٍ بما يلام عليه. أصله: ملوم بوزن مفعل اسم فاعل، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى اللام، فسكنت إثر كسرة فقلبت ياء حرف مد. وفي «المصباح»: ألام الرجل فعل ما يستحق عليه اللوم، اهـ. وفي «المختار»: اللوم: العذل، تقول: لامه على كذا، من باب قال، ولومه أيضاً فهو ملوم، واللائمة، والملامة. وألام الرجل أتى بما يلام عليه. اهـ.

﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾؛ أي: التي لا خير فيها ولا بركة، فلا تلقح شجراً، ولا تحمل مطراً. سميت عقيماً؛ لأنّها أهلكتهم وقطعت دابرهم. من العقم بالضم. وهو هزمة «يُبْسٌ» تقع في الرحم، فلا تقبل الولد، كما في «القاموس».

﴿مَا تَذَرُ﴾؛ أي: ما تترك. يقال: ذره؛ أي: دعه، يذره تركاً، ولا تقل؛ وذراً. وأصله: وذره يذره نحو: وسعه يسعه، لكن ما نطقوا بماضيه، ولا بمصدره، ولا باسم الفاعل. ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ والرميم: الشيء البالي من عظم ونبات وغير ذلك؛ أي: كالشيء البالي المتفتت. وفي «القاموس»: رمَّ العظم يرم رمة بالكسر، ورماً ورميماً، وأرم بلي، فهو رميم. وفي «المفردات»: الرمة بالكسر تختص بالعظم، والرمة بالضم بالحبل البالي، والرم بالكسر بالفتات من الخشب والحشيش والتبن.

﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ يقال: عتا عتوا وعتياً وعتيا استكبر، وجاوز الحد، فهو عات وعتي. وأصله: عتووا بواوين: الأولى لام الكلمة، والثانية: واو الجماعة. قلبت الأولى منهما ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لالتقائهما ساكنة مع واو الجماعة.

﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ نار تنزل من السماء بالاحتكاكات الكهربية. ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ أصله: استطوعوا بوزن استفعلوا، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الطاء، ثم أبدلت ألفاً لتحركها أصالة وفتح ما قبلها في الحال. ﴿مِن قِيَامٍ﴾ أصله: قوام، أبدلت ﴿الواو﴾ في المصدر ياء لوقوعها بعد كسرة، وقبل ألف، كما في صيام ونيام مثلاً.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ وفي «المختار»: آد الرجل اشتد، وقوي، وبابه بلع. والأيد والآد: القوة، اهـ. فالأيد مصدر، لكن يكتب في المصحف بيائين بعد الهمزة وقبل الدال كما نبَّه عليه الخطيب. ورسم المصحف سنة متبعة، وإن لم يعلم له وجه، اهـ شيخنا.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وفي «المصباح»: وسع الله عليه رزقه يوسع وسعاً من باب نفع، بسطه وكثره، وأوسعه ووسعه بالألف، والتشديد مثله. وأوسع الرجل بالألف صار ذا سعة وغنى، اهـ. ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ والفرش كناية عن البسط، والتسوية، اهـ شهاب؛ أي: بسطناها ومهدناها. ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ من مهدت الفراش إذا بسطته، ووطأته. وتمهيد الأمور تسويتها. وفي «المختار»: المهد: مهد الصبيّ، والمهاد: الفرش. ومهد الفراش بسطه ووطأه. وبابه قطع. وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها، وتمهيد العذر بسطه وقبوله، اهـ.

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾؛ أي: من كل جنس من الحيوان. ﴿خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾؛ أي: أمرين متقابلين ذكراً وأنثى. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين. أصله: تتذكرون. ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وفي «المصباح»: فرّ من عدوه يفر من باب ضرب فراراً إذا هرب، وفر الفارس فرًّا أوسع الجولان للإنعطاف، وفر إلى الشيء ذهب إليه.

﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ﴾ أصله: أتواصيوا بوزن تفاعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة. والتواصي: أن يوصي القوم بعضهم إلى بعض.

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أصله: طاغيون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فسكنت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الغين لمناسبة الواو. ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ فيه إعلال بحذف حرف العلة لام الفعل لمناسبة بناء الأمر على ذلك. ﴿بِمَلُومٖ﴾ أصله: ملووم اسم مفعول من لام، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى اللام فسكنت فالتقى ساكنان: ﴿الواو﴾ عين الكلمة، وواو مفعول، فحذفت ﴿الواو﴾ الأولى على قول، أو الثانية على قول. فوزنه مفعول على كل حال، أو مفعل.

﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ من المتانة. وهو شدة القوة. والمتنان: مكتنفا الصلب، وبه شبه المتن من الأرض، ومتنته ضربت متنه، ومتن قوي متنه فصار متيناً. ومنه قيل: حبل متين. ﴿ذَنُوبٗا﴾ قال في «المفردات»: الذنوب: الدلو الذي له ذنب، واستعير للنصيب

كما أستعير السجل. وهو الدلو العظيم. وفي «القاموس»: الذنوب: الفرس الوافر الذنب، ومن الأيام الطويل الشر. وهو صفة على زنة فعول. والدلو أو فيها ماء، أو الملأى أو دون الملأى، والحظ، والنصيب. والجمع أذنبة وذنائب وذناب، انتهى.

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ يقال: استعجله حثه على العجلة، وأمره بها. ويقال: استعجله؛ أي: طلب وقوعه بالعجلة. ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ﴿فَوَيْلٌ﴾ والويل: الأشد من العذاب، والشقاء، والهم. ويقال: واد في جهنم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضمار، بلا ذكر مرجع الضمير في قوله: ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾؛ أي: في قرى قوم لوط لشهرتها، وعلمها من السياق.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ فالركن حقيقة فيما يتقوى به البنيان. فاستعاره للجنود، والجموع. لأنّه يحصل بهم التقوي والاعتماد كما يعتمد على الركن في البناء.

ومنها: الكناية في التولي في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ لأنه كناية عن الإعراض؛ أي: فأعرض عن الإيمان بموسى.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: آتٍ بما يلام عليه على حد عيشة راضية. فأطلق اسم الفاعل على اسم المفعول؛ أي: ملام على طغيانه.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ حيث شبه ما في الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء مطر أو إلقاح شجر بما في المرأة من الصفة المذكورة التي تمنع الحمل. ثم قيل: العقيم، وأريد به ذلك المعنى بقرينة وصف الريح به. فالمستعار له الريح، والمستعار منه ذات النتاج، والمستعار العقم. وهو عدم النتاج. والمشاركة بين المستعار له والمستعار منه في عدم النتاج. وهي استعارة محسوس لمحسوس للإشتراك في أمر معقول. وهي من ألطف الاستعارات. وفي «الشهاب»: أصل العقم: اليبس المانع من قبول الأثر، كما قاله الراغب. وهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول كما مرّ.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ لأنّ الفرش كناية عن البسط

والتسوية.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: إلا مهيئين ومستعدين للعبادة. وذلك أنني خلقت فيهم العقل، وركزت فيهم الحواس والقدرة التي تمكنهم من العبادة. وهذا لا ينافي تخلف العبادة بالفعل عن بعضهم. لأنَّ هذا البعض المتخلف، وإن لم يعبد الله مركوز فيه الاستعداد والتهيؤ الذي هو الغاية في الحقيقة. وقد شجر خلاف بين أهل السنة والاعتزال حول هذه الآية فلا نطيل الكلام به.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ فإنَّ فيه تعريضاً بأصنامهم. فإنهم كانوا يحضرون لها المآكل، فربما أكلتها الكلاب، ثم بالت على الأصنام، كما مرّ.

ومنها: الإطناب بتكرار ﴿أُرِيدُ﴾ في قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ للمبالغة والتأكيد.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ وهو من قصر الصفة على الموصوف؛ أي: لا رزّاق إلا الله سبحانه. وفيه أيضاً التلويح بأنه سبحانه غني عن كل ما سواه.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا﴾ فإنّه حقيقة في الدلو العظيم، استعارة للحظ والنصيب.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾؛ أي: لهم نصيب من العذاب مثل نصيب أسلافهم المكذبين لأنبيائهم في الشدة والغلظة. لأنّه حذف منه وجه الشبه فهو مجمل.

ومنها: وضع الموصول موضع ضميرهم في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تسجيلاً عليهم بما في حيز الصلة من الكفر، وإشعاراً بعلة الحكم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ دلائل البعث من العجائب الطبيعية، والعلوم النفسية.

٢ ـ جزاء المتقين بما يلقونه من النعيم يوم القيامة.

٣ ـ أخبار الأمم السالفة التي كذبت رسلها.

٤ ـ تسلية رسول الله ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه.

٥ ـ الفرار إلى الله من هذه الدنيا المحفوفة بالمخاطر.

٦ ـ النهي عن الإشراك بالله تعالى.

٧ ـ إخبار رسوله ﷺ بأن قومه ليسوا ببدع في التكذيب بك فقد كذب رسل من قبلك.

٨ ـ أمره ﷺ بالإعراض عنهم، وتذكير من تنفعه الذكرى من المؤمنين.

٩ ـ إخباره بأن الله ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه.

١٠ ـ وعيد الكافرين بأن العذاب سيحل بهم يوم القيامة.

١١ ـ أن المشركين سينالهم نصيب من العذاب مثل نصيب نظرائهم من المكذبين[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تم تفسير هذه السورة في تاريخ ٢/٥/١٤١٥ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الطور

سورة الطور مكية، نزلت بعد السجدة. قال القرطبي: مكية في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الطور بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وهي[١] تسع أو ثمان وأربعون آية، وثلاث مئة واثنتا عشرة كلمة، وألف وخمس مئة حرف.

مناسبتها لما قبلها:

١ ـ إنّ في[٢] ابتداء كل منهما وصف حال المتقين.

٢ ـ إنّ في نهاية كل منهما وعيداً للكافرين.

٣ ـ إنّ كلاً منهما بدأت بقسم بآية من آياته تعالى الكونية التي تتعلق بالمعاش أو المعاد. ففي الأولى أقسم بالرياح الذاريات التي تنفع الإنسان في معاشه، وهنا أقسم بالطور الذي أنزلت فيه التوراة النافعة للناس في معادهم.

٤ ـ في كل منهما أمر النبي ﷺ بالتذكير، والإعراض عمّا يقول الجاحدون من قول مختلف.

٥ ـ تضمّنت كلتاهما الحجاج على التوحيد والبعث إلى نحو ذلك من المعاني المتشابهة في السورتين، انتهى من المراغي.

وقال أبو حيان: مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة[٣]؛ إذ في آخر تلك: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾، وقال هنا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾.

تسميتها: سمّيت سورة الطور لذكر الطور ـ الذي هو جبل طور سيناء ـ فيها

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

أقسم الله به تشريفاً وتكريماً وتذكيراً بما فيه من الآيات. وهو أحد جبال الجنّة، قاله السدّي.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور.

وأخرج البخاري وغيره عن أمّ سلمة: أنها سمعت رسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت بالطور وكتاب مسطور. وعنه ﷺ: «من قرأ سورة الطور كان حقًّا على الله أن يؤمّنه من عذابه، وأن ينعمه في جنّته». وفيه مقال.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم: سورة الطور كلها محكم، إلا آيةً واحدةً. وهي قوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا...﴾ الآية (٤٨) نسخ الصبر منها بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ (١) وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ (٢) فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ (٣) وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ (٤) وَٱلسَّقۡفِ
ٱلۡمَرۡفُوعِ (٥) وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ (٧) مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ (٨) يَوۡمَ تَمُورُ
ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا (٩) وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا (١٠) فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ
يَلۡعَبُونَ (١٢) يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)
أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ (١٥) ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٦) إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ (١٧) فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ
عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (١٨) كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ
وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ (٢٠) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ
عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ (٢١) وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ (٢٢)
يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ
(٢٤) وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨)
فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ (٢٩) أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ
(٣٠) قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ (٣٢)
أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ (٣٣) فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ (٣٤)﴾.

المناسبة

وقد تقدّم لك آنفاً بيان مناسبة أوّل هذه السورة لآخر السابقة، وأقسم سبحانه بمخلوقاته[1] العظيمة الدالّة على كمال قدرته، وبديع صنعته، وعدَّ منها أماكن ثلاثةً: الطور، والبيت المعمور، والبحر المسجور لأنبياء ثلاثة كانوا ينفردون للخلوة بربهم، والخلاص من الخلق لمناجاة الخالق. فانتقل موسى إلى الطور، وخاطب ربَّه، وقال: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾، وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾. وانتقل محمد إلى البيت المعمور، وناجى ربه، وقال: «سلام علينا وعلى عباد الله

(١) المراغي.

الصالحين»، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». وكلّم يونس ربه في البحر، وقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقرن الكتاب بالطور؛ لأنَّ موسى كان ينزل عليه الكتاب وهو به. وقرن السقف المرفوع بالبيت المعمور، ليعلم عظمة شأن محمد ﷺ. وأقسم بكل هذا على أن العذاب يوم القيامة نازلٌ بأعدائه الذين يخوضون في الباطل، ويتخذون الدين هزواً ولعباً فيدفعون إلى النار دفعاً عنيفاً، ويقال لهم: هذه هي النار التي كنتم بها تكذّبون، ادخلوها، وقاسوا شدائدها، وسواء عليكم أجزعتم أم صبرتم ما لكم منها مهرب ولا خلاص.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ⑰...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا بيّن ما يصيب الكافرين من العذاب الأليم الذي لا دافع له، ولا مهرب منه.. ذكر ما يتمتع به المؤمنون في ذلك اليوم من صنوف اللذّات في المساكن، والمآكل، والمشارب، والفرش، والأزواج بحسب سنن القرآن من ذكر الثواب بعد العقاب ليتم أمر الترغيب بعد الترهيب، حتى يكون المرء بين عاملين عامل الرهبة من بطش ربّه، وعامل الرغبة في رحمته. وكلاهما لا غنىً للمرء عنه؛ ليكمل صلاحه، ويرعوي عن غيّه، ولا يقنط من رحمة ربّه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّه سبحانه وتعالى لمّا ذكر ما يتمتع به أهل الجنة من المطاعم والمشارب والأزواج كرماً منه وفضلاً.. أردف ذلك ذكر ما زاده لهم من الفضل والإكرام. وهو أن يلحق بهم ذريتهم المؤمنة في المنازل والدرجات، وإن لم تبلغ بهم أعمالهم ذلك لتقربهم أعينهم إذا رأوهم في منازلهم على أحسن الأحوال. فيرفع الناقص في عمله إلى الكامل فيه، ولا ينقص من عمله هو، ولا منزلته.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ㉙...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله[1] سبحانه وتعالى لمّا ذكر فيما سلف أنّ العذاب واقع بالكافرين لا محالة، وأنّ الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيون

(١) المراغي.

بأعمالهم، وأنَّ الرسول على الحق المبين الذي من كذبه باء بغضب من الله، ومن صدقه استحق رضوانه ومغفرة من لدنه. . أمر رسوله هنا بالثبات على التذكير والموعظة، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك الكائدون فإنه هو الغالب حجة وسيفاً في هذه الدار، ومنزلة ورفعة في دار القرار. ثم ذكر تناقض أقوالهم لينبه إلى فساد آرائهم، وإلى أنهم ما أعرضوا عن الحق إلا اتباعاً للهوى، لا اتباعاً للدليل والبرهان.

وفي ذلك تسلية لرسوله ﷺ، كما لا يخفى؛ إذ ما أبعد حال من كان أرجحهم عقلاً، وأبينهم قولاً منذ ترعرع إلى أن بلغ الأشد من الجنون والكهانة إلى ما في هذا من التناقض والاضطراب. فإن الكهان كانوا من الكملة، وكان قولهم مقنعاً. فأين هذا من الجنون! ثم ترقوا في نسبته إلى الكذب، فقالوا: إنه شاعر، وأعذب الشعر أكذبه. ثم قالوا: فلنصبر عليه، ولنتربص صروف الدهر وأحداثه فسيكون حاله حال زهير، والنابغة، وأضرابهم ممن انقرضوا، وصاروا كأمس الدابر. ثم أمره بتهديدهم بمثل صنيعهم بقوله ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾. ثم زاد في تسفيه أحلامهم بأن مصدر هذا التكذيب إما كتاب أنزل عليهم بذلك، وإما أن عقولهم تأمرهم بما يقولون، لا بل الحق أنهم قوم طاغون يفترون، ويقولون ما لا دليل عليه لا من كتاب، ولا مقتضى له من عقل. ثم زادوا في الإنكار، ونسبوه إلى التقول والافتراء. فإن صح ما يقولون فليأتوا بمثل أقصر سورة من مثل هذا المفترى إن كانوا صادقين، لا بل هم قوم جاحدون لا يؤمنون فليقولوا ما تسوله لهم أنفسهم فإن الله قد أعمى بصائرهم، فهم لا أحلام لهم تميز الحق من الباطل، والغث من السمين. فامض لشأنك، ولا تأبه لمقالتهم، فالله معك ولن يترك شيئاً من أعمالك.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) لباب النقول.

قال: إنّ قريشاً لـمّا اجتمعوا إلى دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: احبسوه في وثاق، وتربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء، زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم. فأنزل الله في ذلك: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾ ﴿الواو﴾ للقسم. والطور[1] بالسريانية: الجبل. وقال بعضهم: هو عربي فصيح، ولذا لم يذكره الجواليقي في «المعربات». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الطور: كل جبل ينبت. قال الشاعر:

لَوْ مَرَّ بِٱلطُّوْرِ بَعْضُ نَاعِقَةٍ ... مَا أَنْبَتَ الطُّوْرُ فَوْقَهُ وَرَقَهْ

وقيل: بل هو جبل محيط بالأرض. والأظهر الأشهر: أنه اسم جبل مخصوص، هو طور سينين. يعني: الجبل المبارك، وهو جبل مدين، واسمه زبير، سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى، ولذا أقسم الله تعالى به. لأنّه محل قدم الأحباب وقت سماع الخطاب.

وقال في «خريدة العجائب»: جبل طور سينا هو بين الشام ومدين. قيل: إنه بالقرب من أيلة. وهو المكلم عليه موسى عليه السلام. كان إذا جاءه موسى للمناجاة ينزل عليه غمام، فيدخل في الغمام ويكلم ذا الجلال والإكرام. وهو الجبل الذي دك عند التجلي، وهناك خر موسى عليه السلام صعقاً. وهذا الجبل إذا كسرت حجارته يخرج من وسطها شجرة العوسج على الدوام. وتعظيم اليهود لشجرة العوسج لهذا المعنى. ويقال لشجرة العوسج: شجرة اليهود، انتهى كلام «الخريدة». والعوسج جمع عوسجة. وهو شجر الشوك، كما في «القاموس».

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾؛ أي: مكتوب على وجه الانتظام. فإنَّ السطر ترتيب الحروف المكتوبة. والمراد به: القرآن أو ألواح موسى. وهو الأنسب بالطور أو اللوح المحفوظ. وقيل: جميع الكتب المنزلة، أو ما يكتبه الحفظة يخرج إليهم يوم القيامة منشوراً. فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله. نظيره قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(١) روح البيان.

﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾.

﴿فِى رَقٍّ﴾ متعلق بمسطور؛ أي: مكتوب في رقّ؛ أي: في جلد رقيق. ﴿مَّنشُورٍ﴾؛ أي: مبسوط. وقرأ الجمهور[1] ﴿فِى رَقٍّ﴾ بفتح الراء. وقرأ أبو السَّمال في ﴿رق﴾ بكسرها. قال الجوهري: الرق بالفتح: ما يكتب فيه. وهو جلد رقيق، ومنه قوله تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾. وقال المبرد: الرق: ما رق من الجلد ليكتب فيه. والمنشور: المبسوط. قال أبو عبيدة: وجمعه رقوق. وأما الرق بالكسر: فهو المملوك. يقال: عبد رق، وعبد مرقوق.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ في السماء السابعة. وقيل: في سماء الدنيا. ويسمى الضراح[2] بضم الضاد المعجمة. لأنّه ضرح؛ أي: رفع وأبعد، حيث كان في السابعة. ووصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة، ويعبد الله فيه. وقيل: الكعبة، ووصفها بالعمارة باعتبار عمارتها بالحجاج، والعمار، والمجاورين فيها. وقال بعضهم: المراد بالبيت المعمور: قلب المؤمنين، وعمارته بالمعرفة والإخلاص. فإنَّ كل قلب ليس فيه ذلك فهو خراب، فكأنه لا قلب.

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾؛ أي: السماء المرفوعة عن الأرض مقدار خمس مئة عام. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾. سمَّاها سقفاً لكونها كالسقف للأرض. وقيل: هو العرش. ولا يخفى[3] حسن موقع العنوان المذكور من حيث اجتماع السقف مع البيت، ومن حيث أن العرش على التقدير الثاني، والبيت المعمور متقاربان تقارب السقف بالبيت.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾؛ أي: المملوء ماء. وهو البحر المحيط الأعظم الذي منه مادة جميع البحار المتصلة والمنقطعة. وهو بحر لا يعرف له ساحل، ولا يعلم عمقه إلا الله تعالى. والبحار التي على وجه الأرض خلجان منه. وفي هذا البحر عرش إبليس لعنه الله. وفيه مدائن تطفو على وجه الماء. وهي آهلة من الجن في مقابلة الربع الخراب من الأرض. وفيه من الجزائر المسكونة والخالية ما لا يعلمه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

إلا الله تعالى. وقيل: معناه: والبحر المحبوس ماؤه من أن يفيض فيغرق جميع ما في الأرض من حيوان ونبات. وقيل: المسجور بمعنى الموقد من السجر. وهو إيقاد النار في التنور، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾. وقد روي: أنّ البحار تسجر يوم القيامة، فتكون ناراً. وهذا على أن يكون البحر بحر الدنيا وبحر الأرض. وقال عليّ رضي الله عنه، وعكرمة: هو بحر تحت العرش عمقه كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين، فيه ماء غليظ، يقال له: بحر الحيوان. وهو بحر مكفوف، أي: عن السيلان، يمطر منه على الموتى ماء كالمني بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً، فينبتون في قبورهم.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾؛ أي: لنازل حتماً. وهو جواب القسم. قال في «فتح الرحمن»: المراد: عذاب الآخرة للكفّار، لا العذاب الدنيوي؛ أي: كائن لا محالة لمن يستحقه. ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ يدفعه، ويرده عن أهل النار. وهو كقوله تعالى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾. وهذه الجملة خبر ثان لـ﴿إن﴾، أو صفة لواقع. و«من» مزيدة للتأكيد. والفرق بين الدفع والرفع: أنّ الدفع بالدال يستعمل قبل الوقوع، والرفع بالراء يستعمل بعد الوقوع. ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها لما أنها من أمور عظام تنبىء عن عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه، وحكمته الدالة على إحاطته بتفاصيل أعمال العباد، وضبطها الشاهدة بصدق أخباره التي من جملتها الجملة المقسم عليها.

والمعنى: أي أقسم لك يا محمد بهذا الجبل العظيم الشأن، الذي كلمت فوقه موسى، وأنزلت عليه التوراة التي كتبت بنظام بديع مرتب الحروف في رق منشور، سهل على كل أحد أن يطلع على ما فيها من حكم وأحكام وآداب وأخلاق، وبالكعبة التي يعمرها عشرات الآلاف الذين يهرعون لها كل عام من أرجاء المعمورة، وينسلون إليها من كل حدب كما يعمرها المجاورون لها تبركاً بالعبادة فيها، وطلباً لقبولها عند ربهم، والسقف المرفوع؛ أي: بالعالم العلوي، وما حوى من شموس، وأقمار، وكواكب ثابتة، وسيارت، وما فيه من عرشه، وكرسيه، وملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. وبالبحر المحبوس من أن يفيض ماؤه فيغرق جميع ما على الأرض، ولا يبقى ولا يذر من حيوان ونبات، فيفسد نظام العالم، وتعدم الحكمة التي لأجلها خلق. وقد يكون المعنى:

وبالبحر الموقد في باطن الأرض بمنزلة التنور المحمي.

ثم ذكر ما أقسم عليه، فقال: إنّ عذاب ربك يا محمد المحيط بالكافرين المكذّبين بالرسل لواقع يوم القيامة، لا يدفعه عنهم دافع، ولا يجدون من دونه مهرباً جزاء ما دسوا به أنفسهم من الشرك والآثام، ودسوا به أرواحهم من التكذيب بالرسل.

﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ وتضطرب وتتحرك ﴿ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾؛ أي: اضطراباً. وهو ظرف لواقع، مبين لكيفية الوقوع مُنَبِّىء عن كمال هوله وفظاعته، لا لدافع؛ لأنّه يوهم أنّ أحداً يدفع عذابه في غير ذلك اليوم.

والغرض: أنّ عذاب الله لا يدفع في كل وقت. والمور: الاضطراب والتردد في المجيء والذهاب، والجريان السريع؛ أي: تضطرب، وتجيء، وتذهب. قيل: تدور السماء كما تدور الرحى، وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة. وقيل: يختلج أجزاؤها بعضها في بعض، ويموج أهلها بعضهم في بعض، ويختلطون، وهم الملائكة. وذلك من الخوف.

والمعنى[1]: أي ليس للعذاب دافع في ذلك اليوم الذي ترتج فيه السماء. وهي في أماكنها، وتتحققون أنه لا مانع من عذاب الله، ولا مهرب منه.

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿سيرا﴾ كسير السحاب، وتزول عن مواضعها، وتطير في الهواء، ثم تقع على الأرض مفتتة كالرمل، ثم تصير كالعهن ـ الصوف المندوف ـ ثم تطيرها الرياح، فتكون هباء منثوراً. كما دل على ذلك ما جاء في سورة النمل.

والحكمة في مور السماء، وسير الجبال: الإعلام والإنذار بأن لا رجوع ولا عودة إلى الدنيا لخرابها، وعمارة الآخرة. وتأكيد[2] الفعلين بمصدريهما للإيذان بغرابتهما، وخروجهما عن الحدود المعهودة؛ أي: موراً عجيباً وسيراً بديعاً، لا يدرك كنههما، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

والفاء في قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

مقدر، تقديره: إذا عرفت مور السماء، وسير الجبال في ذلك اليوم وأردت بيان ما سيقع للمكذّبين فأقول لك ويل، وشدة عذاب. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يقع ذلك المور والسير واقع ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالله ورسوله وباليوم الآخر. وهذا[1] لا ينافي تعذيب غير المكذبين من أهل الكبائر. لأنّ المعنى: أنَّ الويل والعذاب الشديد خاص بالمكذبين.

ثم وصف المكذبين بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ﴾؛ أي: في اندفاع وانغماس عجيب في الأباطيل والأكاذيب ﴿يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: يلهون، ويتشاغلون بكفرهم؛ أي: الذين هم يلعبون، ويلهون، ويتشاغلون في أباطيل، فأفعالهم مثل أفعال الخائض في الماء، فهو لا يدري أين يضع رجله. قال في «فتح الرحمن»: الخوض: التخبط في الأباطيل، شبه بخوض الماء، وغوصه.

والمعنى: أنهم يخوضون في أمر محمد ﷺ بالتكذيب والاستهزاء. وقيل: يخوضون في أسباب الدنيا، ويعرضون عن الآخرة.

وفي «الروح»: قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ﴾ ليس صفة قصد بها تخصيص المكذبين وتمييزهم، وإنما هو للذمّ كقولك: الشيطان الرجيم.

والمعنى: أي فإذا حدث ما ذكر من مور السماء، وسير الجبال فهلاك يومئذٍ للمكذبين الذين يخوضون في الباطل، ويندفعون فيه، لاهين عن الآخرة، لا يذكرون حساباً، ولا يخافون عقاباً.

والظرف في قوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ إما بدل من ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾؛ أي: إنّ عذاب ربك لواقع للمكذبين يوم يدعون، ويدفعون ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾ ويساقون إليها ﴿دَعًّا﴾؛ أي: دفعاً عنيفاً شديداً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار دفعاً عنيفاً على وجوههم وفي أقفيتهم، حتى يردوها. قرأ الجمهور[2] بفتح الدال وتشديد العين. وقرأ علي، والسلميّ وأبو رجاء، وزيد بن عليّ، وابن السميقع بسكون الدال وتخفيف العين مفتوحة. من الدعاء؛ أي: يدعون إلى النار، أو متعلق بقول مقدر قبل قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ﴾؛ أي: يقال لهم يوم

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

يدعون إلى نار جهنم دعا: هذه النار التي تشاهدونها الآن هي ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا؛ أي: تكذبون الوحي الناطق بها. والقائل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار.

أي: إنَّ عذاب ربك لواقع يوم يدفعون، ويساقون إلى نار جهنم دفعاً عنيفاً. فإذا دنوا منها تقول لهم خزنتها تقريعاً وتوبيخا: هذه النار التي تشاهدونها هي التي كنتم بها تكذبون في الدنيا. وتكذيبهم بها تكذيب للرسول الذي جاء بخبرها، وللوحي الناطق بها.

ثم وبخهم سبحانه أو أمر ملائكته بتوبيخهم، فقال: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ الذي ترون، وتشاهدون الآن كما كنتم تقولون لرسل الله المرسلة، ولكتبه المنزلة. وقدم الخبر هنا على المبتدأ؛ لأنَّه الذي وقع الاستفهام عنه، وتوجه التوبيخ إليه.

﴿أَمْ أَنتُمْ﴾ عمي عن هذا ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾ به، كما كنتم عمياً عن الحق في الدنيا. والهمزة في قوله: ﴿أَفَسِحْرٌ﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف. والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أكنتم تقولون للوحي: هذا سحر؟ فهذا المصداق؛ أي: هذه النار التي ترونها الآن سحر. والمصداق: ما يصدق الشيء، وأحوال الآخرة ومشاهدتها تصدق أقوال الأنبياء في الإخبار عنها. يعني: أنَّ الذي ترونه من عذاب النار حق. ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؛ أي: أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عمياً عن الخبر، أو أم سدت أبصاركم كما سدت في الدنيا على زعمكم، حيث كنتم تقولون: إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون.

وعبارة زاده: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾؛ أي: هل في المرئي تلبيس وتمويه، حتى قيل لكم: إنه نار، مع كونه ليس بنار في نفس الأمر، أم هل في بصركم خلل. فكلمة «أم» متصلة، والاستفهام للإنكار؛ أي: ليس شيء منهما ثابتاً. فثبت أنكم قد بعثتم وجوزيتم بأعمالكم، وأنَّ الذي ترونه حق. فهو تقريع شديد، وتهكم فظيع. وبعد هذا التقريع يقال لهم: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ إلخ؛ أي: ادخلوها، وقاسوا حرها وشدائدها ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ﴾ عليها إن شئتم ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ إن شئتم؛ أي: ادخلوها فافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه. فإنه لا خلاص لكم منها. وهذا على جهة قطع رجائهم.

وكان المشركون في الدنيا ينسبون إلى محمد ﷺ أنه يسحر العقول، ويغطي

الأبصار، فَأَنَّبهم على ما قالوا مستهزئاً بهم، وقال لهم: هل ما ترونه بأعينكم الآن مما كنتم تنبئون به في الدنيا من العذاب حق، أو سحرتم أيضاً كما كان يفعل بكم محمد في الدنيا، أو قد غطيت أبصاركم فلا ترى شئياً، بلى إنه لحق فلم تسحر أعينكم ولم تغط أبصاركم.

والخلاصة: هل في المرئي شك، أو في أبصاركم علل، لا واحد منهما بموجود. فالذي ترونه حق فاصلوها إلخ؛ أي: إذا لم يمكن لكم إنكارها، وتحققتم أن ذلك ليس بسحر، ولم يكن في أبصاركم خلل.. فالآن ادخلوها، وقاسوا شدائدها. فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا، وافعلوا ما شئتم.

فالأمران ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ في عدم النفع. قيل أيضاً: تقول لهم الملائكة هذا القول. و﴿سَوَآءٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الأمران سواء. ويجوز أن يكون مبتدأ، والخبر محذوف؛ أي: سواء عليكم الصبر وعدمه.

وفي قوله[1]: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ بيان لعدم الخلاص، وانتفاء لعدم المناص. فإن من لا يصبر على شيء يحاول دفعه إما بإبعاده عنه، وإما بمحقه وإزالته. ولا شيء من ذلك بحاصل يوم القيامة؛ لأنّ عذاب الآخرة ليس كعذاب الدنيا. فإن المعذب في الدنيا إن صبر انتفع بصبره. إما بالجزاء في الآخرة، وإما بالحمد في الدنيا فيقال: ما أشجعه، وما أقوى قلبه. وإن جزع ذم. وقيل فيه: يجزع كالصبيان والنسوان. وأما في الآخرة فلا مدح ولا ثواب على الصبر.

ثم علل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا من الخير والشر، لا الذي تعملون في الآخرة من الصبر، والخضوع، والخشوع، والتضرع، والدعاء. فإنه لا ينفع شيء منها. وإذا كان الجزاء واقعاً حتماً.. كان الصبر وعدمه سواء.

والمعنى[2]: سواء عليكم الأمران: أجزعتم أم صبرتم في عدم النفع، لا بدفع العذاب، ولا بتخفيفه. إذ لا بد أن يكون الصبر حين ينفع، وذلك في الدنيا، لا غير. فمن صبر هنا على الطاعات لم يجزع هناك؛ إذ الصبر وإن كان مرًّا بصلاً لكن

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

آخره حلو عسل.

ولمَّا فرغ سبحانه من ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين خالدة ﴿وَنَعِيمٍ﴾ مقيم وملاذ دائمة. وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة. ويجوز أن تكون من جملة ما يقال للكفّار زيادة في غمهم وحسرتهم. والتنوين في «جنات ونعيم» إما للتفخيم؛ أي: جنات، أيُّ جنّة، ونعيم، أي نعمة بمعنى الكامل في الصفة. وإما للتنويع؛ أي: في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين. والجنة مع كونها أشرف المواضع قد يتوهم أن من يدخلها إنما يدخلها ليعمل فيها، ويصلحها، ويحفظها لصاحبها كما هو شأن ناطور الكرم؛ أي: مصلحه وحافظه. فلما قال: ﴿وَنَعِيمٍ﴾ أفاد أنهم فيها متنعمون كما هو شأن المتفرج بالبستان، لا كالناطور والعمال.

حالة كونهم ﴿فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: ناعمين متلذذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وأعطاهم من إنعامه، ورضاه عنهم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وذلك أن المتنعم قد يستغرق في النعم الظاهرة، وقلبه مشغول بأمر ما. فلمَّا قال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ تبين أن حالهم محض سرور وصفاء وتلذّذ، ولا يتناولون شيئاً من النعيم إلا تلذّذاً، لا لدفع ألم جوع أو عطش.

وقرأ الجمهور[(١)]: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بالألف، وبالنصب على الحال، وخبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾. وقرأ خالد ﴿فاكهون﴾ بالرفع على أنَّه خبر بعد خبر لـ﴿إِنَّ﴾ عند من يجيز تعدد الخبر، أو هو خبر، و﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ متعلق به. وقرأ ابن عباس ﴿فكهين﴾ بغير ألف. والفكه: طيب النفس، كما تقدم في الدخان. ويقال للأشر والبطر. ولا يناسب التفسير به هنا.

والمعنى[(٢)]: أي إنّ الذين خافوا ربهم، وأخلصوا له العبادة في السر والعلن، وأدوا فرائضه، وتحلوا بآداب دينه، وانتهوا عن معاصيه، ولم يدنسوا أنفسهم بالمعاصي، والآثام، ولم يدسوا أرواحهم بالذنوب يجازيهم ربهم جزاء وفاقاً بجنات يتنعمون فيها، ويجدون ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر

---

(١) الشوكاني.　　(٢) المراغي.

كفاء ما قاسوا به من جليل الأعمال في الدنيا، وما حرموا منه أنفسهم من لذاتها، وما صبروا عليه من مكارهها ابتغاء رضوانه. وهم فيها قريرو الأعين، طيبو النفوس، لا يشغلهم شاغل، ولا يجدون همًّا ولا نصباً، ولا يكدر صفو عيشهم مكدر.

وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ لبيان[1] أنَّ حالهم كحال من يتمتع بالبستان، لا كالناطور الذي يحرسه. وقوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ إشارة إلى أن قلوبهم لا يشغلها هم ولا نصب، بل هم في لذة وسرور وفرح وحبور.

ثم ذكر أنهم تمتعوا بنعمة أخرى قبل هذه فقال: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه، ويضره. والجحمة: شدة تأجج النار، ومنه الجحيم؛ أي: جهنم، لأنه من أسمائها. وهو معطوف على ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ على أنّ «ما» مصدرية؛ أي: متلذذين بسبب إيتاء ربهم، ووقايتهم عذاب الجحيم. فإنها إن جعلت موصولة يكون التقدير: بالذي وقاهم ربهم عذاب الجحيم، فيبقى الموصول بلا عائد، أو معطوف على خبر إنّ، أو الجملة في محل نصب على الحال بإضمار قد. وإظهار الرب في موضع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم للتشريف والتعليل. وقرأ أبو حيوة ﴿ووقّاهم﴾ بالتشديد.

وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ على إضمار القول؛ أي: يقال لهم من قبل خزنة الجنة دائماً: كلوا واشربوا أكلا وشرباً. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ أي: مأمون العاقبة من التخم والسقم. فـ﴿هنيئاً﴾ صفة لمصدر محذوف، أو طعاماً وشراباً هنيئاً. فهو صفة مفعول به محذوف. فإنّ في ترك ذكر المأكول والمشروب دلالة على تنوعهما وكثرتهما. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بسببه أو بدله[2]. وقيل: الباء زائدة، و«ما» فاعل هنيئاً. والمعنى عليه: هناكم ما كنتم تعملون؛ أي: جزاؤه.

والمعنى[3]: كلوا مما رزقكم ربكم من الطيبات، واشربوا مما لذ وطاب بلا تعب في تحصيل الطعام والشراب، وبلا داء في تناولهما، وبلا خوف نفاد، وبلا إثم كما تشاهدون ذلك في طعام الدنيا وشرابها كفاء ما قدمتم من صالح الأعمال،

---

(١) روح البيان.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراح.

وآثرتم من تعب الدنيا لراحة الآخرة. فلا منَّ عليكم في هذا اليوم، وإنما منتي عليكم في الدنيا إذ هديتكم ووفقتكم للأعمال الصالحة؛ لأنّ هذا إنجاز الوعد.

قيل للربيع بن خيثم، وقد صلى طوال الليل: أتعبت نفسك، فقال: راحتها أطلب. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي قوله: ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾ إشارة[1] إلى خلو المآكل والمشارب مما ينغصهما؛ فإنّ الآكل قد يخاف المرض فلا يهنأ له الطعام، أو يخاف النفاد فيحرص عليه، أو يتعب في تحصيله وتهيئته بالطبخ والإنضاج، ولا يكون شيء من هذا في الآخرة.

وفي قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إيماء إلى أنَّ هذا إنجاز لما وعدهم ربهم به في الدنيا، فلا من عليهم فيه، بل كان المن عليهم في الدنيا بهدايتهم للإيمان. وتوفيقهم لصالح الأعمال. كما قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾.

ثمّ ذكر ما يتمتعون به من الفرش، فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير في ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾؛ أي: معتمدين ومستندين ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير. وفي الكلام حذف، تقديره: متكئين على نمارق على سرر مصفوفة. وهو الذي يجلس عليه. وهو من السرور إذا كان ذلك لأولى النعمة. وسرير الميت تشبيه به في الصورة، وللتفاؤل بالسرور الذي يلحق الميت برجوعه إلى الله، وخلاصه من سجنه المشار إليه بقوله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن». وقرأ أبو السَّمال[2]: ﴿على سرر﴾ بفتح الراء. وهي لغة لكلب في المضعف فراراً من توالي ضمّتين مع التضعيف.

﴿مَّصْفُوفَةٍ ۖ﴾؛ أي: مصطفة، قد صف بعضها إلى جنب بعض، أو مرمولة؛ أي: مزينة بالذهب، والفضة، والجواهر. والظاهر[3]: أنّ جمع السرر مبني على أن يكون لكل واحد منهم سرر متعددة مصطفة معدة لزائريهم. فكل من اشتاق إلى صديقه يزوره في منزله.

قال الكلبيّ: طولها مئة ذراع في السماء، يتقابلون عليها في الزيارة، وإذا أراد

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

أحدهم القعود عليها تطامت واتضعت، فإذا قعد عليها ارتفعت إلى أصل حالها.

والمعنى[1]: أي يجلسون على سرر مصفوف بعضها بجوار بعض جلسة المتكيء الذي لا كلفة عليه، ولا تكلف لديه. فإن من يكون عنده من يكلف له يجلس ولا يتكيء ومن يكون في مهم لا يتفرغ للاتكاء فحالهم حال اطمئنان، ورفع كلفة، وخلو بال. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

ثم ذكر ما يتمتعون به من الأزواج، فقال: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾؛ أي: قرناهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ أي: جعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حسانات، وواسعات العيون. واحد الحور: حوراء، وواحد العين: عيناء. وإنما سمين حوراً؛ لأنَّ الطرف يحار في حسنهن، وعيناً لأنهن الواسعات الأعين مع جمالها. والتزويج هنا ليس على أصل معناه: وهو عقد النكاح. بل بمعنى تصييرهم أزواجاً. لأنّه ليس في الجنة تزويج كالدنيا، لأنّ الجنة ليست دار تكليف. فشأن تزوج أهل الجنّة بالحور بقبول بعضهم بعضاً، لا بأن يعقد بينهم عقد النكاح. وقرأ عكرمة[2]: ﴿بحور عين﴾ على الإضافة.

ولمّا فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنّة على العموم.. ذكر حال طائفة منهم على الخصوص، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مبتدأ، خبره ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾. ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾؛ أي: نسلهم، معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾ ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ متعلق بـ ﴿اتبعوا﴾. والتنكير فيه[3] للتقليل؛ أي: بشيء من الإيمان. وتقليل الإيمان ليس مبنياً على دخول الأعمال فيه، بل المراد: قلة ثمرته، ودناءة قدره بذلك. فالتقليل فيه بمعنى التحقير.

والمعنى: واتبعتهم ذريتهم بإيمان في الجملة، قاصرين عن رتبة إيمان الآباء. واعتبار هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالةً، لا إلحاقاً.

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: أولادهم الصغار والكبار في الدرجة. كما روي: أنه ﷺ قال: «أنه تعالى يرفع ذرية المؤمن في درجته»، وإن كانوا دونه لتقر بهم عينه؛ أي: يكمل سروره. ثم تلا هذه الآية.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

وفي الآية: دلالة بينة على أن الولد يحكم بإيمانه تبعاً لأحد أبويه، وتحقيقاً للحوقه به. فإنه تعالى إذا جعلهم تابعين لآبائهم، ولا حقين بهم في أحكام الآخرة، فينبغي أن يكونوا تابعين لهم، ولا حقين بهم في أحكام الدنيا أيضاً. قال في «فتح الرحمن»: إنّ المؤمنين اتبعتهم أولادهم الكبار والصغار بسبب إيمانهم. فكبارهم بإيمانهم بأنفسهم، وصغارهم بأن اتبعوا في الإسلام بآبائهم بسبب إيمانهم؛ لأنّ الولد يحكم بإسلامه تبعاً لأحد أبويه إذا أسلم. وهو مذهب أبي حنيفة، والشافعيّ، وأحمد. وقال مالك: يحكم بإسلامه تبعاً لإسلام أبيه دون أمه.

وقيل[1]: إنّ الضمير في ﴿بِهِمْ﴾ راجع إلى الذرية المذكورة أولاً؛ أي: ألحقنا بالذرية المتبعة لآبائهم بإيمان ذريتهم. وقيل: المراد بالذين آمنوا: المهاجرون والأنصار فقط. وظاهر الآية العموم، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار كونهم السبب في نزولها إن صح ذلك. فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾ بإسناد الفعل إلى الذريّة. وقرأ أبو عمرو ﴿وأَتْبَعْنَاهم﴾ بإسناد الفعل إلى المتكلّم كقوله: ﴿أَلْحَقْنَا﴾. وقرأ الجمهور ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ بالإفراد. وقرأ ابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب بالجمع، إلا أن أبا عمرو قرأ بالنصب على المفعولية لكونه قرأ ﴿وأَتْبَعْناهم﴾. ورويت قراءة الجمع هذه عن نافع والمشهور عنه كقراءة الجمهور.

والمعنى: أي إن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرّيتهم في الإيمان.. يلحقهم ربهم بآبائهم في المنزلة فضلاً منه وكرماً، وإن لم يبلغوا بأعمالهم منزلتهم لتقر بهم أعينهم، ويكمل بهم فرحهم وحبورهم لوجودهم بينهم. وروى ابن مردويه، والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه، وزوجته، وولده فيقال له: إنّهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: ربّ قد عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به».

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾؛ أي[3]: وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق، وإلا لأبغضوهم في

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط والشوكاني.
(٣) روح البيان.

الدنيا شحاً، كما في «عين المعاني». من ألت يألت كضرب يضرب. ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾؛ أي: من ثواب عملهم ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الأولى متعلقة بألتناهم، والثانية زائدة.

والمعنى: ما نقصناهم من عملهم شيئاً بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبنائهم، فتنتقص مثوبتهم، وتنحط درجتهم. وإنما رفعناهم إلى درجتهم ومنزلتهم بمحض الفضل والإحسان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَلَتْنَٰهُم﴾ بفتح اللام، من ألات. والحسن، وابن كثير بكسرها. وابن هرمز ﴿آلتناهم﴾ بالمد، من آلت على وزن أفعل. وابن مسعود، وأبي ﴿لتناهم﴾ من لات. وهي قراءة طلحة، والأعمش. ورويت عن شبل، وابن كثير، وعن طلحة، والأعمش أيضاً ﴿لتَناهم﴾ بفتح اللام. قال سهل لا يجوز فتح اللام من غير ألف بحال. وأنكر أيضاً آلتناهم بالمدّ كما قرأ ابن هرمز. وقال: لا يروى عن أحد، ولا يدل عليها تفسير ولا عربية. وليس كما ذكر بل قد نقل أهل اللغة آلت بالمد. وقرىء ﴿وما ولتناهم﴾ ذكره ابن هارون. قال ابن خالويه: فكيون الحرف هنا من لات يليت، وولت يلت، وألت يألت، وألات يليت ويؤلت. وكلها بمعنى نقص. ويقال: ألت بمعنى غلظ. فقد قام رجل إلى عمر رضي الله عنه فوعظه فقال رجل: لا تألت أمير المؤمنين؛ أي: لا تغلظ عليه.

والمعنى[2]: أي وما أنقصنا مثوبات الآباء، وحططنا درجاتهم، بل رفعنا منزلة الأبناء تفضلاً منّا وإحساناً.

وبعد أن أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذريّة إلى منزلة الآباء من غير عمل لهم.. أخبر عن مقام العدل. وهو أن لا يؤاخذ أحد بذنب أحد فقال: ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾؛ أي: كل امرىء مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً. وقد جعل العمل كأنه دين، والمرء كأنه رهن به. والرهن لا ينفك ما لم يؤد الدين. فإن كان العمل صالحاً.. فقد أدى الدين؛ لأنّ العمل الصالح يقبله الله سبحانه ويصعد إليه، وإن كان غير صالح فلا أداء ولا خلاص. إذ لا يصعد إليه غير الطيب. ونحو الآية قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾؛ أي: إنّ كل نفس رهن بعملها عند الله، لا يفك رهنها إلا أصحاب اليمين. فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطاعوه من عملهم وكسبهم. والرهن[1]: ما يوضع وثيقة للدَّين. ولما كان الرهن يتصور منه حبسه أستعير ذلك للمحتبس؛ أيَّ شيء كان. وقال ابن الشيخ: ﴿ما﴾ مصدرية. والفعيل بمعنى المفعول، والعمل الصالح بمنزلة الدين الثابت على المرء، من حيث أنه مطالب به. ونفس العبد مرهونة به. فكما أنَّ المرتهن ما لم يصل إليه الدين لا ينفك منه الرهن كذلك العمل الصالح ما لم يصل إلى الله لا تتخلص نفس العبد المرهونة.

فالمعنى: كل امرىء مرهون عند الله بالعمل الصالح الذي هو دين عليه. فإن عمله، وأداه كما هو المطلوب منه فك رقبته من الرهن، وإلاّ أهلكها.

وفي الآية: وجه آخر، وهو أن يكون الرهين فعيلاً بمعنى فاعل. فيكون المعنى: كل امرىء بما كسب راهن دائم ثابت مقيم. إن أحسن.. ففي الجنة مؤبّداً، وإن أساء.. ففي النار مخلَّداً؛ لأنّ في الدنيا دوام الأعمال بدوام الأعيان. فإنّ العرَض لا يبقى إلا في جوهر، ولا يوجد إلا فيه. وفي الآخرة دوام الأعيان بدوام الأعمال. فإنّ الله يبقي أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات، وما عند الله باق. والباقي من الأعيان يبقى ببقاء عمله.

قال في «الإرشاد»: وهذا المعنى أنسب بالمقام. فإنّ الدوام يقتضي عدم المفارقة بين المرء وعمله. ومن ضرورته أن لا ينقص من ثواب الآباء شيءٌ. فالجملة تعليل لما قبلها، انتهى.

وبعد أن ذكر وجوه النعيم فيما سلف ذكر أنّه يزيدهم على ذلك حيناً فحيناً مما يشتهون من فنون النعماء، فقال: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾؛ أي: زدناهم على ما كان لهم من النعيم ﴿بِفَاكِهَةٍ﴾ متنوعة كثيرة. والفاكهة: هي الثمار كلها. والتنوين فيها للتكثير؛ أي: بفاكهة لا تنقطع كلما أكلوا ثمرة عاد مكانها مثلها. ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ أي: من اللحوم التي يشتهونها ويستطيبونها، وإن لم يقترحوا ولم يطلبوا.

والمعنى: وزدناهم عل ما كان من مبادي التنعم وقتاً فوقتاً مما يشتهون من

---

(١) روح البيان.

فنون النعماء، وضروب الآلاء. وذلك أنه تعالى لما قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ ونفى النقصان يصدق بإيصال المساوى دفع هذا الاحتمال بقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾؛ أي: ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوي بل بالزيادة على ثواب أعمالهم، والإمداد لهم.

و﴿ما﴾[1] في ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ للعموم لأنواع اللحوم. وفي الخبر: «إنك لتشتهي الطير في الجنة فيخرُّ بين يديك مشويًّا». وقيل: يقع الطائر بين يدي الرجل في الجنة فيأكل منه قديداً ومشويًّا، ثم يطير إلى النهر. وذكر الفاكهة واللحم دون أنواع الطعام الأخرى؛ لأنهما طعام المترفين في الدنيا.

وبعد أن ذكر طعامهم أردفه بذكر شرابهم، وسرورهم لدى احتسائهم له، فقال: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾؛ أي: يتعاطون ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في الجنات، ويتداولون هم وجلساؤهم بكمال رغبة واشتياق. كما ينبىء عنه التعبير بالتنازع الذي هو التعاطي والتداول على طريق التجاذب. يعني: تجاذب الملاعبة لفرط السرور والمحبّة. وفيه نوع لذّة. إذ لا يتصور في الجنة التنازع بمعنى التخاصم.

﴿كَأْسًا﴾؛ أي: يتعاطون ويتناولون فيها كؤوساً من خمر، ويتجاذبونها هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة كما يفعل الندامى في الدنيا فيما بينهم لشدّة سرورهم. والكأس: قدح فيه شراب، ولا يسمى كأساً إلا إذا كان فيه شراب، كما لا يسمّى مائدة إلا إذا كان فيه طعام.

والمعنى[2]: ﴿كَأْسًا﴾؛ أي: خمراً تسمية لها باسم محلها.

ولمّا كانت الكأس مؤنّثة مهموزة أنّث الضمير في قوله: ﴿لَّا لَغْوٌ﴾؛ أي: لا باطل من الكلام، ولا ساقط منه. ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في شرب تلك الكأس. فلا يتكلّمون في أثناء الشرب بلغو الحديث، وسقط الكلام.

قال الراغب: اللغو من الكلام: ما لا يُعتدّ به. وهو الذي يورد لا عن روية وفكر. فيجري مجرى اللغا. وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور. ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ في شربها؛ أي: لا يفعلون ما يأثم به فاعله؛ أي: ينسب إلى الإثم لو فعله في دار

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

التكليف من الكذب، والسبّ، والفواحش. كما هو ديدن المنادمين في الدنيا. وإنما يتكلّمون بالحِكَم وأحاسن الكلام، ويفعلون ما يفعله الكرام؛ لأنّ عقولهم ثابتة غير زائلة.

قرأ الجمهور[1]: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ بالرفع، والتنوين فيهما. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وأبو عمرو بفتحهما من غير تنوين. ومعنى ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾؛ أي: لا فضول من الكلام فيها. ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾؛ أي: لا سِبَابَ ولا تَخاصم فيها. وقد أخبر سبحانه في موضع آخر عن حسن منظرها، وطيب مطعمها، فقال: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾، وقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم ذكر ما لهم من خدم وحشم في الجنّة، فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يدور على أهل الجنة بالكؤوس، والفواكه، والأطعمة. من الطواف. وهو المشي حول الشيء. ومنه الطائف لمن يدور حول البيت. وقال هنا، وفي الإنسان: ﴿وَيَطُوفُ﴾ بالواو. حيث قال في الإنسان: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ لأنه معطوف على ما قبله. وقال في الواقعة بلا واو، حيث قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾. لأنّه حال أو خبر بعد خبر، انتهى «فتح الرحمن».

﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾؛ أي: مماليك مخصوصون بهم. ولم يضفهم[2] بأن يقول: غلمانهم؛ لئلا يظن أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا، فيشفق كل من خدم أحداً في الدنيا أن يكون خادماً له في الجنة، فيحزن لكونه لا يزال تابعاً. وأفاد التنكير أنّ كل من دخل الجنّة، وجد له خدم لم يعرفهم، كما في «حواشي سعدي المفتي».

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ ...﴾ إلخ، حال من ﴿غلمان﴾. لأنّهم قد وصفوا؛ أي: كأنهم في الحسن، والبياض، والصفاء ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾؛ أي: درّ مستور مصون في الصدف لم تمسه الأيدي. من كننت الشيء إذا سترته، وصنته من الشمس؛ لأنّه رطباً أحسن، وأصفى إذ لم تمسه الأيدي، ولم يقع عليه غبار. أو لؤلؤ مخزون؛ لأنّه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

قيل لقتادة: هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب». أخرجه ابن جرير، وابن المنذر. وعنه ﷺ: «إنّ أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه لبّيك لبيك».

والمعنى[1]: أي ويطوف عليهم بالكؤوس مماليك لهم يتصرّفون فيهم بالأمر والنهي والاستخدام، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في الأصداف في الحسن، والبهاء. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

ثمّ بيّن أنهم في الجنة يتذاكر بعضهم مع بعض في أحوال الدنيا، فقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾؛ أي: بعض أهل الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر، حال كونهم ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ أي: يسأل كل بعض منهم بعضاً آخر عن أحواله، وأعماله، وما استحق به نيل ما عند الله سبحانه من الكرامة. وذلك تلذّذاً واعترافاً بالنعمة العظيمة على حسب الوصول إليها على ما هو عادة أهل المجلس يشرعون في التحادث ليتمَّ به استئناسهم. فيكون كل بعض سائلاً ومسؤولاً، لا أنه يسأل بعض عين منهم بعضاً آخر معيّناً.

أي[2]: يسأل بعضهم بعضاً في الجنة عن حاله، وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العاقبة، فيحمدون الله الذي أذهب عنهم الحزن، والخوف، والهمِّ، وما كانوا فيه من الكدِّ والنكدِ بطلب المعاش، وتحصيل ما لا بدَّ منه من الرزق. وقيل: يقول بعضهم لبعض: بم صِرتم في هذه المنزلة الرفيعة؟ وقيل: إنّ التساؤل بينهم عند البعث من القبور. والأوّل أولى لدلالة السياق على أنهم قد صاروا في الجنة.

وجملة قوله: ﴿قَالُوٓاْ...﴾ إلخ، مستأنفة استئنافاً بيانياً. كأنّه قيل: ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل؟ فقيل: قالوا؛ أي: المسؤولون. وهم كل واحد منهم في الحقيقة: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿قَبْلُ﴾؛ أي: قبل دخول الجنة ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين، وجلين من عذاب الله تعالى. أو كنا خائفين من عصيان الله معتنين بطاعة الله. قيّد[3] بقوله: ﴿فِىٓ أَهْلِنَا﴾ فإنّ كونهم بين أهليهم مظنة الأمن. فإذا

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

خافوا في تلك الحال فلأن يخافوا في سائر الأحوال والأوقات أولى.

يقول الفقير: الظاهر أنَّ هذا الكلام وارد على عرف الناس. فإنهم يقولون: شأننا بين قومنا وقبيلتنا كذا. فهم كانوا في الدنيا بين قبائلهم وعشائرهم على صفة الإشفاق. وفيه تعريض بأنّ بعض أهليهم لم يكونوا على صفتهم، ولذا صاروا محرومين. ويدلّ[1] على هذا أنّ الأهل يفسّر بالأزواج، والأولاد، وبالعبيد والإماء، وبالأقارب، وبالأصحاب، وبالمجموع. كما في «شرح المشارق لابن الملك».

أخرج البزّار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدّثان، فيتكيء ذا ويتكيء ذا، فيتحدّثان بما كانوا في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلانُ أتدري أيَّ يوم غفر الله لنا اليوم الذي كنّا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله فغفر لنا، ثم فصل ما يجيب به بعضهم بعضاً، فقال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾ في الدنيا، ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه؛ أي: تفضّل وأنعم ﴿عَلَيۡنَا﴾ بالمغفرة والرحمة، أو بالهداية والتوفيق لطاعته.

يقول الفقير: الظاهر: أنّ المنَّ والإنعامَ إنَّما هو بالجنة ونعيمها، كما دلّ عليه قوله: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾؛ أي:[2] حفظنا من عذاب النار النافذة في المسامّ؛ أي: ثقب الجسد كالمنخر، والفم، والأذن نفوذ السموم. وهي الريح الحارّة التي تدخل المسامّ. فأطلق على جهنم لنفوذ حرّها في المسام كالسموم. وقرأ أبو حيوة ﴿ووقّانا﴾ بتشديد القاف.

روي: أنَّ عائشة قالت: لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها.

ثم تمموا العلة في استحقاقهم للكرامة في تلك الدار بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل لقاء الله سبحانه، والمصير إليه ﴿نَدۡعُوهُ﴾؛ أي:

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

نعبده، ونسأله أن يمنّ علينا بالمغفرة والرحمة، فاستجاب دعائنا، وأعطانا سؤلنا. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: لأنّه هو المحسن الكثير الرحمة الواسع الفضل الذي إذ عُبد أثاب، وإذا سئل أجاب. وكل من المؤمن والكافر لا ينسى ما كان له في الدنيا. وتزداد لذّة المؤمن إذا رأى نفسه قد انتقلت من سجن الدنيا إلى نعيم الجنة، ومن الضيق إلى السعة. وتزداد آلام الكافر إذا رأى نفسه انتقل من الترف إلى التلف، ومن النعيم إلى الجحيم.

وقرأ الحسن وأبو جعفر، ونافع، والكسائي[1]: ﴿أنه﴾ بفتح الهمزة؛ أي: لأنّه. وقرأ باقي السبعة ﴿إنّه﴾ بكسر الهمزة. وهي قراءة الأعرج، وجماعة، وفيها معنى التعليل.

والفاء في قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدّر تقديره: إذا عرفت يا محمد أنّ في الوجود قوما يخافون الله سبحانه، ويشفقون في أهليهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: أثبت ودم على ما أنت عليه من تذكير المشركين بما أنزل إليك من الآيات والذكر الحكيم، ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من الأباطيل.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾؛ أي: بسبب إنعام الله عليك بالنبوّة، ورجاحة العقل ﴿بِكَاهِنٍ﴾؛ أي: بمخبر عن المغيبات بلا وحي. ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾؛ أي: ولا زائل عقل، ولا فاسده. والباء[2] متعلقة بمحذوف هو حال؛ أي: ما أنت متلبّساً بنعمة ربك التي أنعم بها عليك من رجاحة العقل بكاهن ولا مجنون. وقيل: متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام؛ أي: ما أنت في حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. وقيل: الباء سببية متعلقة بمضمون الجملة المنفية.

والمعنى: انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك. كما تقول: ما أنا بمعسر بحمد الله. وقيل: الباء للقسم متوسطة بين اسم ﴿ما﴾ وخبرها. والتقدير: ما أنت ونعمة الله بكاهن ولا مجنون. والكاهن: هو الذي يوهم أنه يعلم الغيب من دون وحي؛ أي: ليس ما تقوله كهانة. فإنك إنما تنطق بالوحي الذي

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

أمرك الله بإبلاغه. والمقصود من الآية: ردّ ما يقوله المشركون: إنه كاهن أو مجنون.

والمعنى: أي[1] فذكر أيها الرسول من أرسلت إليهم من قومك وغيرهم، وعظهم بالآيات والذكر الحكيم، ولا تكثرث بما يقولون فيك من الأكاذيب. وقد انتفت عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك. والمقصود بذلك: الرد على القائلين بذلك، وإبطاله. فإن ما أوتيته من رجاحة العقل، وعلو الهمة، وكرم الفعال، وصدق النبوّة لكاف جد الكفاية في دحض هذا، وأشباهه. وممن قال: إنه كاهن: شيبة بن ربيعة. وممن قال: إنه مجنون: عقبة بن أبي معيط.

ثم ذكر أنهم ترقوا في الإنكار عليه، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ و﴿أَمْ﴾[2] المكرّرة في هذه الآيات منقطعة بمعنى بل الأضرابية، وهمزة الاستفهام. وقال في «برهان القرآن»: أعاد أم خَمْسَ عَشْرَةَ مرّة. وكلّها إلزامات وليس للمخاطبين بها عنها جواب. وفي «عين المعاني»: ﴿أَمْ﴾ ههنا خمسة عشر. وكلّها استفهام. أربعة للتحقيق والتقرير مع التوبيخ بمعنى بل. ١ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾. ٢ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ وقد قالوها. ٣ - ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ٤ - ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾. وقد فعلوهما. وسائرها للإنكار. وفي «فتح الرحمن»: جميع ما في هذه السورة من ذكر ﴿أم﴾ استفهام غير عاطفة. واستفهم تعالى مع علمه بهم تقبيحاً عليهم وتوبيخاً لهم، كقول الشخص لغيره: أجاهل أنت؟ مع علمه بجهله؛ أي: بل أيقول كفّار مكة: هو؛ أي: محمّد ﷺ ﴿شَاعِرٌ﴾ يتقوّل الكلام من تلقاء نفسه. وصفوه بالشعر، لأنهم يعدُّون الشعر دناءة. لأنّ الشعر كان مكسبة وتجارة. وفيه وصف اللئيم عند الطمع بصفة الكريم، والكريم عند تأخر صلته بوصف اللئيم. ومما يدل على شرف النثر أنّ الإعجاز وقع في النثر دون النظم؛ لأنّ زمن النبيّ ﷺ زمن الفصاحة.

فإن قلت: فإذا كان الإعجاز واقعاً في النثر، فكيف قالوا في حقّ القرآن: شعر، وفي حقّه ﷺ: شاعر؟

قلت: ظنوا أنه ﷺ كان يرجو الأجر على التبليغ. ولذا قال تعالى: ﴿قُل مَآ

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. فكان ﷺ عندهم بمنزلة لشاعر، حيث إنّ الشاعر إنما يستجلب بشعره في الأغلب المال، وأيضاً لمّا كانوا يعدون الشعر دناءة حملوا القرآن عليه. ومرادهم عدم الإعتداد به.

قال ابن الشيخ: قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إلخ، من باب الترقي إلى قولهم فيه: «إنه شاعر». لأنّ الشاعر أدخل في الكذب من الكاهن والمجنون. وقد قيل: أحسن الشعر أكذبه. وكانوا يقولون لا نعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوة شعره. وإنا نصبر ونتربص موته وهلاكه كما هلك من قبله من الشعراء. وحينئذٍ تتفرق أصحابه، وإنَّ أباه مات شابًّا، ونحن نرجوا أن يكون موته كموت أبيه.

وذلك قوله تعالى: ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾؛ أي: ننتظر ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الشاعر. والجملة صفة لشاعر. ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾؛ أي: تقلبات الزمان، وحوادث الدهر، ونزول الموت. فإنه إن كان شاعراً فصروف الزمان قد تضعف ذهنه، فيتبين كساد شعره.

وقد سبق آنفاً أنَّ ﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام التقريري.

والمعنى: أي بل قال كفّار قريش: هو شاعر نتربّص، وننتظر به نوائب الدهر. فيهلك كما هلك غيره من الشعراء: زهير، والنابغة، وطرفة، وغيرهم. أو ننتظر به الموت كما مات أبوه شابًّا. وذلك كما تتمنّى الصبيان في المكتب موت معلمهم ليتخلصوا من يده، فويل لمن أراد هلاك معلمه في الدين، وكان محروماً من تحصيل اليقين.

روي: أنّ قريشاً اجتمعت في دار الندوة، وذهبت مذاهب شتى في صدّ دعوته ﷺ، ومقابلة هذا الخطر الداهم عليهم، وماذا يفعلون في الخلاص منه. فقال قائل من بني عبد الدار: تربصوا به ريب المنون. فإنّه شاعر، وسيهلك كما هلك زهير، والنابغة، والأعشى. ثم افترقوا على هذه المقالة. فنزلت الآية.

وخلاصة هذا: أنا نبتعد من إيذائه، ونتقي لسانه مخافة أن يغلبنا بقوّة شعره. وإنما سبيلنا معه أن نصبر عليه، ونتربص موته كما مات الشعراء من قبله.

فأمره الله سبحانه أن يهددهم، ويتهكم بهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد جواباً لهم ﴿تَرَبَّصُواْ﴾؛ أي: انتظروا وتمهلوا في ريب المنون. وهذا أمر تهديد. ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ أي: فإني متربص منتظر معكم قضاء الله سبحانه فيَّ وفيكم،

وستعلمون لمن تكون له حسن العاقبة، والظفر في الدنيا والآخرة. وفي هذا عِدَةٌ كريمة بإهلاكهم.

قرأ الجمهور[1]: ﴿نَتَرَبَّصُ﴾ بإسناد الفعل إلى جماعة المتكلمين. وقرأ زيد بن عليّ ﴿يتربص﴾ بالياء مبنياً للمفعول، ﴿ريب المنون﴾ بالرفع على النيابة.

وقد أهلكوا قبل رسول الله ﷺ في يوم بدر، وفي غيره من الأيّام. وقيل[2]: إنَّ معنى الآية: إني أخاف الموت، ولا أتمناه لا لنفسي، ولا لأحد، وإنما أنا نذير فتربصوا موتي، وأنا متربصه. ولا يسرنكم ذلك لعدم حصول ما تتمنون بعدي.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ﴾؛ أي: بل أتأمرهم ﴿أَحْلَامُهُم﴾؛ أي: عقولهم السخيفة السفيهة ﴿بِهَٰذَآ﴾ المقال المتناقض، حيث قالوا في حقّ الرسول: هو كاهن مجنون شاعر. فإنّ الكاهن يكون ذا فطنة، ودقة نظر في الأمور، والمجنون مغطى عقله مختل فكره، والشاعر ذو كلام موزون، متسق، مخيل فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء في رجل واحد. فالشاعر غير الكاهن وغير المجنون[3]. وفرق عظيم بين من زال عقله، ومن يقول الشعر الحكيم الرصين، ومن يجعل قوله حجة في معرفة أخبار الغيب، ويعتقد أنَّ الجن توحي إليه بما يقول.

وقصارى هذا: أنهم لا أحلام لهم ولا عقول، فدع تفوههم بهذه الأقوال الزائغة المتناقضة. وفي الآية إشارة إلى التربص في الأمور، ودعوة الخلق إلى الله تعالى، والتوكل على الله فيما يجري على عباده، والتسليم لأحكامه في المقبولين والمردودين. إذ كل يجري على ما قضاه الله تعالى.

ثم ذكر السبب الحق في كل ما يعملون، فقال: ﴿أَمْ هُمْ﴾؛ أي: بل أهم ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ أي: مجاوزون الحدود في المكابرة والعناد مع ظهور الحقّ، لا يحومون حول الرشد والسداد. ولذلك يقولون ما يقولون من الأكاذيب الخارجة عن دائرة العقول والظنون، أي: بل الحق أن الذي حملهم على أن يقولوا ما قالوا هو طغيانهم، وعنادهم، وضلالهم عن الحق. وقرأ مجاهد[4] ﴿بل هم﴾ مكان ﴿أم هم﴾.

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ محمد ﷺ؛ أي: اختلق القرآن من تلقاء نفسه. ثم قال: إنه من عند الله افتراء عليه تعالى، وليس الأمر كما زعموا. ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ البتة؛ لأن الله سبحانه ختم على قلوبهم. وفي «الإرشاد»: فلكفرهم وعنادهم يرمونه بهذه الأباطيل التي لا يخفى على أحد بطلانها، كيف لا وما رسول الله ﷺ إلا واحد من العرب، أتى بما عجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم، وفي كون ذلك مبنياً على العناد إشارة إلى أنهم يعلمون بطلان قولهم، وتناقضه؛ أي: إنَّ كفرهم هو الذي حملهم على هذه المطاعن، وزين لهم أن يقولوا ما قالوا.

ثم رد عليهم جميع ما زعموا، وتحداهم في دحض ما قالوا، فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ والفاء فيه فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره؛ أي:[1] إذا كان الأمر كما زعموا من أنه كاهن أو مجنون أو شاعر، ادّعى الرسالة وتقول القرآن من عند نفسه، فليأتوا بكلام مثل القرآن في النعوت التي استقل بها من حيث النظم، ومن حيث المعنى.

قال في «التكملة»: والمشهور عند القراء ﴿بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ بتنوين حديث، فيكون الضمير في ﴿مِّثْلِهِۦٓ﴾ راجعاً إلى القرآن. وقرأ الجحدري[2]، وأبو السمال ﴿بحديث مثله﴾ بالإضافة، فيكون الضمير راجعاً إلى الرسول ﷺ؛ أي[3]: بحديثِ رجل مثل الرسول في كونه أميًا لم يصحب أهل العلم، ولا رحل عن بلده، أو مثله في كونه واحداً منهم. فلا يجوز أن يكون مثله في العرب فصاحة فليأت بمثل ما أتى به، ولن يقدر على ذلك أبداً.

﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ فيما زعموا. فإنَّ صدقهم في ذلك يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله بقضيّة مشاركتهم له ﷺ في البشرية والعربية مع ما بهم من طول الممارسة للخطب، والأشعار، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر والمبالغة في حفظ الوقائع والأيام. ولا ريب في أن القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به، ودواعي الأمر بذلك.

والمعنى[4]: أي إن كان شاعراً.. فلديكم الشعراء الفصحاء، أو كاهناً..

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

فلديكم الكهان الأذكياء، وإن كان قد تقوله.. فلديكم الخطباء الذين يحبرون الخطب، ويجيدون القول في كل فنون الكلام. فهلم فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون؛ فإن أسباب القول متوافرة لديهم كما هي متوافرة لديه، بل فيهم من طالت مزاولته للخطب والأشعار، وممارسته لأساليب النظم والنثر، وحفظ أيام العرب، ووقائعها أكثر من محمد ﷺ.

فائدة: واعلم أنَّ الإعجاز إما أن يتعلق بالنظم من حيث فصاحته وبلاغته، أو يتعلق بمعناه، ولا يتعلق به من حيث مادته. فإن مادته ألفاظ العرب، وألفاظه ألفاظهم. قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ تنبيهاً على اتحاد العنصر، وأنه منظم من عين ما ينظمون به كلامهم. والقرآن معجز من جميع الوجوه لفظاً ومعنى، ومتميز من خطبة البلغاء ببلوغه حد الكمال في أثنىٰ عشر وجهاً. إيجاز اللفظ، والتشبيه الغريب، والاستعارة البديعية، وتلاؤم الحروف والكلمات، وفواصل الآيات، وتجانس الألفاظ، وتعريف القصص والأحوال، وتضمين الحكم والأسرار، والمبالغة في الأسماء والأفعال، وحسن البيان في المقاصد والأغراض، وتمهيد المصالح والأسباب، والإخبار عما كان وما يكون.

الإعراب

﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾.

﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ ﴿الواو﴾ حرف جر وقسم، ﴿الطور﴾ مجرور بالواو، الجار والمجرور متعلق بفعل قَسَمٍ محذوفٍ وجوباً، تقديره: أقسم بالطور إنّ عذاب ربّك لواقع. ﴿وَكِتَٰبٍ﴾ معطوف على ﴿الطور﴾، ﴿مَّسْطُورٍ﴾ صفة كتاب، ﴿فِي رَقٍّ﴾ متعلق بـ ﴿مَّسْطُورٍ﴾. ﴿مَّنشُورٍ﴾ صفة ﴿رَقٍّ﴾. ﴿وَالْبَيْتِ﴾ معطوف على ﴿الطور﴾، أو كل منها قسم مستقل بنفسه، وجوابه جميعاً قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾. ﴿الْمَعْمُورِ﴾ صفة لـ ﴿البيت﴾، ﴿وَالسَّقْفِ﴾ معطوف على ﴿الطور﴾ أيضاً، ﴿الْمَرْفُوعِ﴾ صفة لـ ﴿السقف﴾، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ معطوف على ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾، ﴿الْمَسْجُورِ﴾ صفة لـ ﴿البحر﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿عَذَابَ﴾ اسمها، ﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه، ﴿لَوَاقِعٌ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿واقع﴾ خبر ﴿إنّ﴾. وجملة إنّ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة

القسم مستأنفة. ﴿مَّا﴾. نافية، ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿دَافِعٍ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ثان لـ ﴿إِنَّ﴾.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾.

﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿واقع﴾؛ أي: يقع العذاب في ذلك اليوم. وتكون جملة النفي معترضة بين العامل ومعموله. وقيل: الظرف متعلق بـ ﴿دَافِعٍ﴾. ﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿مَوْرًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على جملة ﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ﴾، ﴿سَيْرًا﴾ مفعول مطلق. ﴿فَوَيْلٌ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت وقوع العذاب في ذلك اليوم، وأردت بيان حال هؤلاء المكذبين لك.. فأقول لك: ويل للمكذبين لك. ﴿ويل﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة تضمنه معنى الدعاء. ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿ويل﴾، ﴿يَوْمَ﴾ مضاف، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر، مضاف إليه، مبنيّ بسكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلّص من التقاء الساكنين لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً. ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ جار ومجرور، خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿فِى خَوْضٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَلْعَبُونَ﴾، وجملة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ خبر المبتدأ. والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ الظرف فيه بدل من ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾، أو بدل من ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، ﴿يُدَعُّونَ﴾ فعل، ونائب فاعل. والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُدَعُّونَ﴾، ﴿دَعًّا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿هَٰذِهِ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبره. والجملة في محل الرفع نائب فاعل، محكي لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم: هذه النار، ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة لـ ﴿ٱلنَّارُ﴾، ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾. وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان صلة الموصول.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا

تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَفَسِحْرٌ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف. والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أكنتم تقولون للوحي هذا سحر فسحر هذا؟ والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿سحر﴾ خبر مقدم، ﴿هَٰذَآ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الأضرابية، وهمزة الإنكار، ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾ خبره. والجملة مستأنفة، لأنّ الكلام الأول تمّ عند قوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾. ويجوز أن تكون متصلة؛ أي: ليس شيء منهما ثابتاً، فثبت أنكم قد بعثتم وجوزيتم بأعمالكم، وأنّ الذي ترونه حقّ. فهو تقريع شديد، وتهكّم فظيع. وبعد هذا التقريع يقال لهم: اصلوها الخ. ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ فعل أمر، وفاعل، ومفعول به. والجملة في محل النصب، مقول للقول المحذوف. ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿اصبروا﴾ فعل أمر وفاعل، والجملة معطوفة على ﴿ٱصْلَوْهَا﴾، ﴿أَوْ﴾ حرف عطف، ﴿لَا﴾ ناهية جازمة، ﴿تَصْبِرُواْ﴾ فعل، وفاعل مجزوم بلا الناهية. والجملة معطوفة على ﴿اصبروا﴾. ﴿سَوَآءٌ﴾. خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: صبركم وعدم صبركم مستويان. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿سَوَآءٌ﴾. والجملة مقول للقول المحذوف. ونحا الزمخشري إلى إعرابها مبتدأ، خبره محذوف؛ أي: سواء عليكم الأمران، وتبعه أبو حيان. ولا مانع من ذلك؛ لأنّ ما في سواء من معنى التسوية أفادها فائدة سوَّغت إعرابها مبتدأ. ﴿إِنَّمَا﴾ كافّة ومكفوفة، ﴿تُجْزَوْنَ﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة، ونائب فاعل، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول ثان لـ ﴿تُجْزَوْنَ﴾. والجملة الفعلية مقول للقول المحذوف على كونها معللة لما قبلها. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره. وجملة كان صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: ما كنتم تعملونه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ خبره، ﴿وَنَعِيمٍ﴾ معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾. والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان بشرى المتقين. ﴿فَٰكِهِينَ﴾ حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿بِمَآ﴾ متعلق بـ ﴿فَٰكِهِينَ﴾، ﴿ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعل، والمفعول الثاني محذوف؛ أي: إيّاه. والجملة صلة لـ﴿ما﴾

الموصولة. ويصح أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: بإيتاء ربهم إياهم. ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ معطوف على الصلة؛ أي: بإيتاء ربهم وبوقايته لهم عذاب الجحيم. ويجوز أن تكون الجملة حالاً، ولكن بتقدير قد. ﴿رَبُّهُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ مفعول ثان، ﴿كُلُوا۟﴾ فعل أمر، وفاعل. والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف؛ أي: يقال لهم: كلوا. ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿كُلُوا۟﴾، ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ حال من الفاعل؛ أي: مهنّئين، أو مفعول مطلق؛ أي: أكلاً وشرباً هنيئين. ﴿بِمَآ﴾ متعلق بـ ﴿كُلُوا۟﴾، أو ﴿اشربوا﴾. وجملة ﴿كُنتُمْ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبر كان.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير المستكن في قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: كائنون في جنات حال كونهم متكئين، أو من فاعل ﴿كلوا﴾، أو من مفعول ﴿آتاهم﴾، أو من مفعول ﴿وقاهم﴾. ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ متعلق بـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ صفة ﴿سُرُرٍ﴾، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ الواو: عاطفة، ﴿زوجناهم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على خبر ﴿إِنَّ﴾. أعني: في جنات. فهو خبر آخر. ﴿بِحُورٍ﴾ متعلق بـ ﴿زوجناهم﴾. وزوّج يتعدّى إلى المفعولين بنفسه. وعدي إلى الثاني هنا بالباء لتضمينه معنى قرنّاهم. ﴿عِينٍ﴾ صفة ﴿حور﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلته، ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ فعل ومفعول به، ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ فاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حال من الذريّة، أي: حالة كون الذرية متلبسة بإيمان. ﴿أَلْحَقْنَا﴾ فعل وفاعل، ﴿بِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَلْحَقْنَا﴾، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مفعول به. والجملة في محل الرفع خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَمَآ﴾ الواو: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿أَلَتْنَٰهُم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة معطوفة على ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾. ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ حال ﴿مِّن شَىْءٍ﴾، ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿شَىْءٍ﴾ مفعول ثان لـ ﴿أَلَتْنَٰهُم﴾. ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ﴾ مبتدأ ومضاف إليه، ﴿بِمَآ﴾ الباء حرف جر، ﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿رَهِينٌ﴾، ﴿كَسَبَ﴾ فعل ماض و﴿رَهِينٌ﴾ خبر ﴿كُلُّ﴾. والجملة الاسمية معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿أَلْحَقْنَا﴾. ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿أمددنا﴾، ﴿وَلَحْمٍ﴾ معطوف على ﴿فاكهة﴾، ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور، صفة لـ ﴿لحم﴾، وجملة ﴿يَشْتَهُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: مما يشتهونه ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة أو حال من مفعول ﴿أمددناهم﴾ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ﴿كَأْسًا﴾ مفعول به. ومعنى يتنازعون كأساً: يتجاذبونها تجاذب ملاعبة كما مر. إذ أهل الدنيا لهم لذّة في ذلك. وقيل: معناه: يتعاطونها. ﴿لَّا﴾ نافية للجنس مهملة لتكرّرها، ﴿لَغْوٌ﴾ مبتدأ، خبره ﴿فِيهَا﴾، وسوّغ الابتداء تقدّم النافي عليها. والجملة الاسمية في محل النصب، صفة لـ ﴿كَأْسًا﴾. ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿لَا﴾ زائدة زيدت لتأكيد ﴿لا﴾ الأولى، ﴿تَأْثِيمٌ﴾ معطوف على ﴿لَغْوٌ﴾.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَيَطُوفُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿يطوف﴾ فعل مضارع، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، ﴿غِلْمَانٌ﴾ فاعل، ﴿لَّهُمْ﴾ صفة لـ ﴿غِلْمَانٌ﴾. والجملة معطوفة على ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿لُؤْلُؤٌ﴾ خبره، ﴿مَّكْنُونٌ﴾ صفة ﴿لُؤْلُؤٌ﴾، وجملة ﴿كأن﴾ صفة ثانية لـ ﴿غِلْمَانٌ﴾، أو حال منه. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ متعلق بـ ﴿أقبل﴾، وجملة ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ حال من الفاعل، ومن المجرور بـ ﴿عَلَىٰ﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿قَبْلُ﴾ في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على الضم لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً لافتقاره إلى المضاف إليه المحذوف، والظرف متعلق بمحذوف حال من اسم كان. ﴿فِىٓ أَهْلِنَا﴾ متعلق بـ ﴿مُشْفِقِينَ﴾، و﴿مُشْفِقِينَ﴾ خبر

كان. وجملة كان في محل الرفع خبر إنّ، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿من الله﴾ فعل، وفاعل. والجملة في محل الرفع، معطوفة على جملة كان. ﴿عَلَيۡنَا﴾ متعلق بـ ﴿مَنَّ﴾، ﴿وَوَقَىٰنَا﴾ فعل، ومفعول أول، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ مفعول ثان. والجملة معطوفة على جملة ﴿من الله﴾.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كُنَّا﴾ في محل الرفع خبر إنّ، وجملة إنّ في محل النصب، مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿مِن قَبۡلُ﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف حال من اسم كان. ﴿نَدۡعُوهُ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلۡبَرُّ﴾ خبر أول لـ﴿إنَّ﴾، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ خبر ثان له، وجملة إنّ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها معللة لما قبلها. ﴿فَذَكِّرۡ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنّ في عباد الله مشفقين، وأردت بيان ما هو اللازم لك... فأقول لك. ﴿ذكّر﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فَمَآ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية، ﴿ما﴾ نافية حجازية، ﴿أَنتَ﴾ في محل الرفع، اسمها، ﴿بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بما في ما من معنى النفي، فتكون الباء سببية. وهذا أرجح الأوجه الجارية هنا. والمعنى: انتفت عنك الكهانة، والجنون بسبب نعمة ربك عليك. وقال أبو البقاء: إنّ الباء في موضع نصب على الحال، والعامل فيها ﴿بِكَاهِنٖ﴾ أو ﴿مَجۡنُونٍ﴾. والمعنى: ما أنت كاهناً ولا مجنوناً حال كونك متلبساً بنعمة ربك. وقيل غير ذلك. ﴿بِكَاهِنٖ﴾ الباء زائدة، ﴿كاهن﴾ خبر لما الحجازية، ﴿وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ معطوف عليه. وجملة ما الحجازية جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَمۡ﴾ منقطعة مبعنى بل الأضرابية، وهمزة الاستفهام التقريري كما مر. ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿شَاعِرٞ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو شاعر. والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾، وجملة ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ صفة لـ

﴿شَاعِرٌ﴾، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾، ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ مفعول به. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿تَرَبَّصُوا۟﴾ فعل أمر، وفاعل. والجملة في محل النصب مقول قل. ﴿فَإِنِّى﴾ ﴿الفاء﴾ تعليل للأمر المقصود به التهديد، ﴿إني﴾ ناصب واسمه، ﴿مَعَكُم﴾ حال من اسم إنّ. ﴿مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ خبر إنّ، وجملة إنّ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها تعليلية للأمر المقصود به التهديد.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: حرف إضراب بمعنى بل، وهمزة الاستفهام، ﴿تَأْمُرُهُمْ﴾ فعل، ومفعول به، ﴿أَحْلَٰمُهُم﴾ فاعل، ﴿بِهَٰذَآ﴾ متعلق بـ ﴿تَأْمُرُهُمْ﴾. والجملة استفهامية إضرابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَمْ﴾ حرف عطف، ﴿هُمْ قَوْمٌ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿طَاغُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الأضرابية، وهمزة الاستفهام التقريري، ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾ فعل، وفاعل، مستتر، ومفعول به. والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿بَل﴾ حرف إضراب، ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم يقولون تقوّله، وأردت بيان ما هو اللازم لهم... فأقول لك فليأتوا إلخ. واللام لام الأمر، ﴿يأتوا﴾ فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، والواو فاعل، ﴿بِحَدِيثٍ﴾ متعلق بـ ﴿يأتوا﴾، ﴿مِّثْلِهِۦٓ﴾ صفة لـ ﴿حديث﴾. والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة. ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿كَانُوا۟﴾ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب إن الشرطية محذوف دلّ عليه ما قبله، تقديره: إن صدقوا في هذا القول... فليأتوا بحديث مثله، وجملة إن الشرطية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾ بالسريانية: الجبل. والمراد به: طور سينين. وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام. أقسم الله سبحانه به تشريفاً وتكريماً وتذكيراً بما

فيه من الآيات. وهو أحد جبال الجنة، قاله السدّيُّ. وقيل: إن الطور كل جبل ينبت الشجر المثمر، وما لا ينبت فليس بطور.

وقال المبرّد: يقال لكل جبل: طور. فإذا دخلت الألف واللام المعرفة فهو شيء بعينه.

﴿وَكِتَٰبٍ﴾ والمراد بالكتاب هنا: ما كتب من الكتب السماوية: كالقرآن، والتوراة، والإنجيل.

﴿مَّسْطُورٍ﴾؛ أي: متفق الكتابة بسطور مصفوفة في حروف مرتبة جامعة لكلمات متفقة، اهـ خطيب. وفي «المختار»: السطر: الصف من الشيء، يقال: بني سطراً. والسطر أيضاً: الخط والكتابة. وهو في الأصل مصدر، وبابه نصر. وسطر أيضاً بفتحتين. والجمع أسطار، كسبب وأسباب. وجمع الجمع أساطير وجمع السطر أسطر وسطور كأفلس وفلوس، اهـ.

﴿فِى رَقٍّ﴾ الرق بالفتح والكسر: الجلد الرقيق الذي يكتب فيه. وجمعه رقوق. والرق بالكسر: المملوك. قال الراغب: الرق: كل ما يكتب فيه جلداً كان أو غيره. وهو بفتح الراء على الأشهر. ويجوز كسرها كما قرىء به شاذًّا. وأما الرق الذي هو ملك الأرقاء فهو بكسر الراء، لا غير.

﴿مَّنشُورٍ﴾؛ أي: مبسوط، غير مطويّ، وغير مختوم عليه. قوله: ﴿تَمُورُ﴾ أصله: تمور بوزن تفعل، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الميم، فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مدّ. ﴿مَوْرًا﴾ مصدر من مار يمور كقال يقول قولاً. والمور: الاضطراب والتردد في المجيء والذهاب، والجريان السريع؛ أي: تضطرب، وتجيء وتذهب اضطراباً.

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: تزول عن وجه الأرض فتصير هباءً منثوراً. وأصله تسير بوزن تفعل بكسر العين، نقلت حركة الياء إلى السين فسكنت إثر كسرة فصارت حرف مدًّ.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾ هو الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين. ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ هو السماء. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾؛ أي: الموقد المحمي. من سجر النار؛ أي: أوقدها. وعني به باطن الأرض. وهو الذي دل عليه الكشف الحديث،

ولم تعرفه الأمم قديماً. وقد أشارت إليه الأحاديث. فعن عبد الله بن عمر: «لا يركبنَّ رجل البحر إلا غازياً أو معتمراً أو حاجّاً؛ فإنَّ تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً».

وقد أثبت علماء طبقات الأرض ـ الجيلوجيا ـ أنَّ الأرض كلها كبطيخة، وقشرتها كقشرة البطيخة؛ أي: إنّ نسبة قشرة الأرض إلى النار التي في باطنها كنسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذي يؤكل، فنحن الآن فوق نار عظيمة؛ أي: فوق بحر مملوء ناراً. وهذا البحر مغطي من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة السدّ عليه. ومن حين إلى آخر تتصاعد من ذلك البحر نار تظهر في الزلازل، والبراكين، كبركان فيزوف الذي هاج بإيطاليا سنة (١٩٠٩ م)، وابتلع مدينة مسينا، والزلزلة التي حدثت باليابان سنة (١٩٢٥ م)، وخرّبت مدناً بأكملها.

﴿فِي خَوْضٍ﴾ وأصل الخوض: السير في الماء، ثم استعمل في الشروع في كل شيء، وغلب في الخوض في الباطل. كالإحضار فإنه عامّ في كل شيء، ثم غلب استعماله في الإحضار للعذاب.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾؛ أي: يدفعون دفعاً عنيفاً شديداً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعون إلى النار، ويطرحون فيها. والدع: الدفع الشديد، وأصله أن يقال للعاثر: دع دع. أصله: يدعون بوزن يفعلون، نقلت حركة العين الأولى إلى الدال فسكنت، فأدغمت في العين الثانية. وقوله: ﴿دَعًّا﴾ وزنه فعل، أدغمت العين في اللام. وفي «المختار»: دعَّه دفعه، وبابه ردّ. ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾.

﴿ٱصْلَوْهَا﴾ في «المصباح»: صلي بالنار، وصليها صلي من باب تعب وجد حرها والصلاء وزان كتاب حر النار، وصليت اللحم أصليه من باب رمي شويته. وأصله: اصليوها، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة.

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ النعيم: الدعة، والراحة، والتنعم، والترفه. والاسم النعمة بالفتح. قال الراغب: النعيم: النعمة الكثيرة، وتنعم تناول ما فيه النعمة وطيب العيش، ونعمه تنعيماً جعله في نعمة؛ أي: لين عيش. وفي «البحر»: التنعم

استعمال ما فيه النعومة واللين من المأكولات والملبوسات.

﴿فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: ناعمين متلذّذين. في «القاموس»: الفاكه: صاحب الفاكهة، وطيب العيش، والضحوك، والناعم الحسن العيش. كما أنَّ الناعمة والمنعمة: الحسنة العيشة.

﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أصله: أتيهم بوزن أفعل، أبدلت الهمزة الساكنة ألفاً حرف مد للأولى، وقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ الوقاية، حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره. ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ من الجحمة. والجحمة: شدة تأجج النار. ومنهم الجحيم؛ أي: جهنَّم؛ لأنه من أسماءها كما مر.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾ والهنيء، والمريء صفتان من هنوء الطعام ومروء، إذا كان سائغاً سهلاً بحيث لا يورث الكدر من التخم والسقم وسائر الآفات.

﴿بِحُورٍ﴾ الحور بوزن فعل، جمع حوراء كسود جمع سوداء. من الحور. وهو شدة بياض العين في شدة سوادها. ﴿عِينٍ﴾ جمع عيناء. وهي الواسعة العينين. وقياسه فعل بضم ﴿الفاء﴾ كما جمع حوراء على ذلك إلا أنه لما كانت عينه ياء كسرت فاؤه، فقيل: عين بوزن فعل بكسر الفاء.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ أي: نقصناهم. من ألت يألت من باب ضرب. قال في «القاموس»: ألته حقًّا يألته نقصه كألته إيلاتاً.

﴿بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ والرهن: ما يوضع وثيقة للدين. ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ أصل المد: الجر. وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب، والمد في المكروه. وفي «القاموس»: الإمداد: تأخير الأجل، وأن تنصر الأجناد بجماعة غيرك، والإعطاء، والإغاثة. ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾ الفاكهة: ثمار الأشجار. ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أصله: يشتهيون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت التقى ساكنان، فحذفت ثم ضمت الهاء لمناسبة الواو.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ يقال: نزع الشيء جذبه من مقره كنزع القوس من كبدها. والتنازع والمنازعة: المجاذبة، ويعبَّر بها عن المخاصمة والمجادلة. والمراد بالتنازع هنا: التعاطي والتداول على طريق التجاذب.

﴿كَأْسًا﴾ والكأس: قدح فيه شراب، ولا يسمى كأساً ما لم يكن فيه شراب.

كما لا تسمى مائدة ما لم يكن عليها طعام. ﴿لَّا لَغْوٌ﴾ قال الراغب: اللغو من الكلام: ما لا يعتد به. وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللغا. وهو صوت العصافير، كما مرّ.

﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ والتأثيم: فعل ما يأثم فاعله؛ أي: ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف من الكذب، والسب، والفواحش.

﴿وَيَطُوفُ﴾ من الطواف. وهو المشي حول الشيء، والدوران به. ومنه: الطائف لمن يدور حول البيوت حافظاً لها. أصله: يطوف بوزن يفعل بضم العين نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الطاء فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد.

﴿غِلْمَانٌ﴾ جمع غلام. وهو الطار الشارب. ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ﴾ واللؤلؤ: جوهر بحريٌّ أبيض براق. ﴿مَّكْنُونٌ﴾؛ أي: مصون محفوظ في صدفه، ووعائه الذي خلق فيه.

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ فيه إعلال بالقلب. أصله: وقينا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً. وفي «المفردات»: السموم في الأصل: الريح الحارَّة التي تؤثر تأثير السم، فأطلقت على جهنم لنفوذ حرها في المسام كالسموم.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ قال الراغب: البرُّ: خلاف البحر، وتصور منه التوسع، فاشتق منه البر؛ أي: التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك تارة إلى الله تعالى. نحو: إنه هو البر الرحيم، وإلى العبد تارة فيقال: بر العبد ربه؛ أي: توسع في طاعته. فمن الله الثواب، ومن العبد الطاعة.

﴿بِكَاهِنٍ﴾ وفي «المفردات»: الكاهن الذي يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن كالعراف الذي يخبر بالأخبار المستقبلة على نحو ذلك، ولكون هاتين الصّناعتين مبنيتين على الظن الذي يخطىء ويصيب. قال ﷺ: «من أتى عرافاً أو كاهناً. . فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل الله على محمد». ويقال: كهن فلان كهانة إذا تعاطي ذلك، وكهن إذا تخصص بذلك، وتكّهن تكلف ذلك وفي القاموس كهن له كجعل ونصر وكرم، كهانة بالفتح، وتكهّن تكهناً وتكهيناً قضى له بالغيب، فهو كاهن. والجمع كهنة، وكهان، وحرفته الكهانة بالكسر، انتهى.

﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وهو من به جنون. وهو زوال العقل أو فساده. وفي «المفردات»: الجنون: الحائل بين النفس والعقل. وفي «التعريفات»: الجنون: اختلال العقل بحيث يمنع جريان الأفعال والأقوال على نهج العقل إلا نادراً.

﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ التربص: الانتظار بالشيء من انقلاب حال له إلى خلافها. ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ الريب: ما يقلق النفوس؛ أي: يورث قلقاً واضطراباً لها من حوادث الدهر، وتقلبات الزمان. فهو بمعنى الرائب من قولهم: رابه الدهر، وأرابه إذا: أقلقه. والمنون: الدهر، والموت، والكثير الامتنان كالمنونة. وسمَّاه ريباً لا من حيث إنه مشكك في كونه، بل من حيث إنه يشكك في وقت حصوله. فالإنسان أبداً في ريب المنون من جهة وقته، لا من جهة كونه. وعلى هذا قال الشاعر:

أَلنَّاسُ قَدْ عَلِمُوا أَنْ لاَ بَقَاءَ لَهُمْ   لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا مِقْدَارَ مَا عَلِمُوا

وهو في الأصل فعول، من منه إذا: قطعه؛ لأنّ الدهر يقطع القويَّ، والموت يقطع الأماني والعمر.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟﴾ قال الراغب: التربص: انتظار الشخص سلعة كان يقصد بها غلاء، أو رخصاً، أو أمراً ينتظر زواله، أو حصوله. انتهى. ﴿أَحْلَٰمُهُم﴾؛ أي: عقولهم. وفي «القاموس»: الحلم بالضم وبضمتين: الرؤيا. والجمع أحلام. والحلم بالكسر: الأناة والعقل، والجمع أحلام وحلوم. ومنه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ وهو حليم، والجمع حلماء وأحلام، انتهى.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ والتقول: تكلف القول، ولا يستعمل إلا في الكذب. ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أصله: يأتيون بوزن يفعلون بكسر العين، حذفت منه نون الرفع لدخول لام الأمر، ثمّ استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلمّا سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت التاء لمناسبة الواو.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإلتزام في قوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ فإنّه قد جاءت

الطاء قبل واو الردف لازمةً.

ومنها: تنكير ﴿كتاب﴾، و﴿رق﴾، في قوله: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣﴾ للتفخيم، أو للإشعار بأنهما ليسا مما يتعارفه الناس.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَرَقّٖ﴾ لأنه حقيقة في جلد الحيوان الرقيق، ثم استعير لكل ما يكتب فيه من الصحائف والألواح.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾، وقوله: ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠﴾.

ومنها: طباق السلب بين قوله: ﴿ٱصۡبِرُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿لَا تَصۡبِرُواْ﴾ وفيه أيضاً من الإهانة والتوبيخ ما لا يخفى.

ومنها: تأكيد الفعلين بمصدريهما في قوله: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠﴾ للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة؛ أي: موراً عجيباً وسيراً عجيباً، لا يدرك كنههما.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصليّة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ۝١٢﴾ حيث شبّه التخبّط والاندفاع في الأباطيل بخوض الغائص في الماء بجامع الانغماس في كل. فاستعار له اسمه على طريق الاستعارة التصريحية الأصليّة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي التقريعيّ في قوله: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥﴾.

ومنها: إظهار الرب في موضع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم في قوله: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ للتشريف والتعليل.

ومنها: ترك ذكر المأكول والمشروب في قوله: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ دلالة على تنوّعهما، وكثرتهما.

ومنها: تنكير ﴿إيمان﴾ في قوله: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ إفادة للتقليل؛ أي: بشيء من الإيمان.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا

بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾؛ لأنّ الرهن حقيقة فيما يوضع وثيقة للدين. فاستعاره للمحتبس بأيّ شيء كان من عمله.

ومنها: تنكير ﴿فاكهة﴾ في قوله: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ إفادة للكثرة وعدم الانقطاع؛ أي: بفاكهة كثيرة لا تنقطع، كلّما أكلوا ثمرة عاد مكانها مثلها.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿كَأْسًا﴾؛ أي: خمراً، تسمية لها باسم محلها.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ حيث شبه الغلمان باللؤلؤ المكنون في الأصداف. لأنّه أحسن وأصفى، أو لأنّه مخزون، ولا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة. فهو تشبيه مجمل؛ لأنّه حذف منه وجه الشبه.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ لأنّ فيه تعريضاً بأنّ بعض أهلهم لم يكونوا على صفتهم، ولذا صاروا محرومين، حيث قال: ﴿مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين من عصيان الله سبحانه.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصليّة في قوله: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ شبهت حوادث الدهر بالريب الذي هو الشكّ بجامع التحيّر، وعدم البقاء على حالة واحدة في كل منهما. واستعير لفظ الريب لصروف الدهر وتواليه على طريق الاستعارة التبعية.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ فقد أسند الأمر إلى الأحلام. وقد كان العرب يتفاخرون بعقولهم، فأزرى الله بها، حيث لم تثمر لهم معرفة الحق والباطل. ويجوز اعتبارها استعارة مكنية إن أريد التشبيه. وكل مجاز عقلي يصح أن يكون استعارة مكنية، ولا عكس. كما هو مقرر في محله.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لما[١] أثبت رسالة محمد ﷺ، ورد عليهم ما زعموا من أنه كاهن، أو شاعر، أو مجنون، وأمره أن يذكر الناس، ويبشرهم، وينذرهم، ولا يأبه لمقالتهم، فالله ناصره عليهم.. انتقل إلى الرد عليهم في إنكارهم للخالق كما هو شأن الدهريين، أو في ادعائهم لله شريكاً كما هو شأن كثير من العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، وقالوا: ما نعبد الأوثان، والأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وبعد أن أقام عليهم الحجة في كل ذلك، وسد عليهم المسالك.. طلب إليه أن يتوكل عليه، وأن يعلم أن كيدهم لا يضره شيئاً، فالله ناصره عليهم، وسيظهر دينه، ويتم له الغلبة والفلج عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا...﴾ الآيات إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر مزاعمهم في النبوة، وبين فسادها بما لم يبق بعده وجه للعناد والمكابرة. ثم أعقبه بالرد عليهم في جحوده للألوهية إما بإنكارها بتاتاً، وإما بادعاء الشريك، أو باتخاذه الولد، سبحانه وتعالى

---

(١) المراغي.

عما يصفون. . أردف هذا بيان أن هؤلاء قوم بلغوا حدّاً في العناد أصبحوا به يكابرون في المحسوسات فضلاً عن المعقولات، فدعهم وشأنهم حتى يأت اليوم الذين لا مرد له يوم لا تنفعهم حبائلهم وشراكهم التي كانوا ينصبون مثلها في الدنيا، ولا يجدون لهم إذ ذاك وليًا ولا نصيراً. وأنَّ الله سيصيبهم بعذاب من عنده في الدنيا قبل ذلك اليوم. وأنه ناصرك عليهم، وكالئك بعين رعايته. واذكر ربك حين تقوم من منامك، ومن مجلسك، وحين تغيب النجوم، ويصبح الصباح، وتغرد الأطيار مسبحة منزهة خالق السموات والأرض قائلة: سبوح قدوس رب الملائكة والروح.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَمْ خُلِقُوا﴾ و﴿أم﴾ هنا وفيما بعده منقطعة، تقدر ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري، كما مر؛ أي: بل أخلقوا، وأحدثوا، وقدّروا على هذه الكيفية البديعة والصنعة العجيبة.

﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾؛ أي[1]: من غير خالق لهم، ولا مقدر، ولا محدث، ولا موجد. فـ ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية. قال الزجاج؛ أي: أخلقوا باطلاً وعبثاً لغير شيء لا يحاسبون، ولا يؤمرون، ولا ينهون. وجعل ﴿مِن﴾ تعليلية بمعنى اللام؛ أي: أخلقوا من أجل لا شيء عليهم من عبادة ولا جزاء. وقال ابن كيسان: أخلقوا عبثاً، وتركوا سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون. وقيل: المعنى: أم خلقوا من غير أب، ولا أم. فهم كالجماد لا يفهمون، ولا تقوم عليهم الحجة.

﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم. فلذلك لا يعبدون الله تعالى؛ أي: بل أيقولون هم الخالقون لأنفسهم فلا يؤمرون، ولا ينهون مع أنهم يقرون أن الله خالقهم وإذا أقروا لزمتهم الحجة.

ومعنى الآية[2]: أي كيف ينكرون الخالق الموجد، فهل هم خلقوا هذا الخلق البديع الصنع من غير خالق ولا موجد، والعقل يشهد بأن كل ما يوجد من العدم لا بد له من موجد. ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾؛ أي: بل أهم أوجدوا أنفسهم، والضرورة والعقل يكذبان ذلك. إذ يلزم من هذا أن الشيء يكون مقدماً في الوجود على نفسه.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

فهم باعتبار أنهم خالقون مقدمون على أنفسهم في الوجود باعتبار أنهم مخلوقون. وهذا بين البطلان.

﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهم لا يدعون ذلك، فلزمتهم الحجة. ولهذا أضرب عن هذا، وقال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: ليسوا على يقين من الأمر، بل يتخبطون في ظلمات الشك في وعد الله ووعيده. فأم للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي؛ أي[1]: ما خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون بأنّ الله واحد. فإذا سئلوا من خلقكم، وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، وهم غير موقنون بما قالوا، وإلا لما أعرضوا عن عبادته؛ أي: لما لم ينشأ من إيقانهم بالله أثر، وهو الإقبال على عبادته جعل إيقانهم كالعدم، فنفي عنهم. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ؛ أي: إنهم كما طعنوا فيك يا محمد طعنوا في خالقهم، فلا تحزن لعدم إيمنهم ولا تبخع نفسك عليهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ﴾ رحمة ﴿رَبِّكَ﴾ ورزقه. فهو على حذف مضاف؛ أي: هل عندهم خزائن النبوّة، ومفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا، ويمسكونها عمن شاؤوا؛ أي: أعندهم خزائن علمه وحكمته، حتى يختاروا لها من اقتضت الحكمة اختياره. وقيل: هل عندهم خزائن أرزاق العباد فيعطونها من شاؤوا، ويحرمونها من شاؤوا.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾؛ أي: بل أهم المسلطون الجبارون الغالبون على الأمور، يدبرونها كيفما شاؤوا، حتى يدبر أمر الربوبية، ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم. وفي «عين المعاني»: بل أهم الأرباب المسلطون على الناس فيجبرونهم على ما شاؤوا. جمع مسيطر، من السطر كأنه يخط للمسلط عليه خطّاً لا يجاوزه. وفي «كشف الأسرار»: المسيطر: المسلط القاهر الذي لا يكون تحت أمر أحد ونهيه، ويفعل ما يشاء. وفي «القاموس»: السطر: الصف من الشيء كالكتاب، والشجر وغيره، والخط والكتابة. ويحرك في الكل كما سيأتي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿المصيطرون﴾ بالصاد الخالصة. وهشام، وقنبل، وابن

---

(١) المراح.　　(٢) البحر المحيط.

محيصن وحميد، ومجاهد، وحفص بخلاف عنه بالسين الخالصة. وهو الأصل. ومن أبدلها صاداً فلأجل حرف الاستعلاء. وهو الطاء. وقرأ خلف عن حمزة، وخلاد عنه بخلاف عنه بصاد مشمة زاياً. والمراد: أنه ليس الأمر كذلك بل الله هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

﴿أَمْ لَهُمْ﴾؛ أي: بل ألهم ﴿سُلَّمٌ﴾؛ أي: مصعد ومرقى منصوب ممدود إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ خبر السماء، وكلام الملائكة، وما يوحى إليهم من علم الغيب حال كونهم صاعدين ﴿فِيهِ﴾؛ أي[1]: في ذلك السلم حتى يعلموا ما هو كائن من الأمور التي يتقولون فيها رجماً بالغيب، ويعلقون بها أطماعهم الفارغة. وفي «كشف الأسرار»: فيه؛ أي: عليه، كقوله: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾؛ أي: عليها.

فإن كانوا يدعون ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: فليأتوا بحجة تبين أنهم على الحق ما أتى محمد ﷺ بالبرهان الدال على صدق قوله فيما جاءهم به من عند ربه.

وبعد أن رد على الذين أنكروا الألوهية بتاتاً.. ردَّ على من قالوا: الملائكة بنات الله. وسفه أحلامهم إذ اختاروا له البنات ولأنفسهم البنين، فقال: ﴿أَمْ لَهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾؛ أي: بل ألربكم البنات ولكم البنون ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾. وهذا[2] إنكار عليهم، حيث جعلوا لله ما يكرهون، أو تسفيه لهم، وتركيك لعقولهم، وإيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء، فضلاً عن الترقي بروحه إلى عالم الملكوت، والتطلع على الأسرار الغيبية.

وذلك أن من جعل خالقه أدنى حالاً منه بأن جعل له ما لا يرضى لنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾. فإنه لم يستبعد منه أمثال تلك المقالات الحمقاء.

والالتفات إلى الخطاب لتشديد ما في ﴿أَمْ﴾ المنقطعة من الإنكار والتوبيخ. والمعنى؛ أي[3]: بل أيضيفون إلى الله سبحانه البنات، وهي أضعف الصنفين،

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

ويجعلون لأنفسهم البنين وهم أعلاهما. ومن كان هذا رأيه فهو بمحل سافل في الفهم والعقل، فلا يستبعد منه إنكار البعث، وجحد التوحيد.

ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله، وأعرض عنهم، فقال: ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ﴾؛ أي: بل أتسأل يا محمد هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم على ما تدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته ﴿أَجْرًا﴾ وجعلا تأخذه من أموالهم ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾؛ أي: من غرامة ما حملتهم من الأجرة؛ أي: من التزام غرامة تطلبها منهم ﴿مُّثْقَلُونَ﴾؛ أي: متعبون، مجهودون، مثقلون بحملهم ذلك المغرم الثقيل. فلا يقدرون على إجابتك إلى ما تدعوهم إليه. فالمغرم مصدر ميمي بمعنى الغرم. ولا بد من تقدير مضاف. يعني: لا عذر لهم أصلاً، والدين لايباع بالدنيا. فالأجر على الله تعالى، كما قال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾. وقد سبق تحقيقه في مواضع متعددة.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾؛ أي: بل أعندهم علم ما غاب عن الخلق. أو المعنى: هل عندهم[1] اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه للناس فينبئونهم بما شاؤوا، ويخبرونهم بما أرادوا. ليس الأمر كذلك. إذ لا يعلم غيب السموات والأرض إلا الله.

قال قتادة: وهذا جواب[2] لقولهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾. يقول الله تعالى: أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمداً يموت قبلهم، فهم يكتبون؛ أي: يحكمون بما يقولون.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾؛ أي: ألا يكتفون بهذه المقالات الفاسدة، ويريدون مع ذلك أن يكيدوا بك كيداً وإساءة. وهو كيدهم برسول الله ﷺ في دار الندوة، ومكرهم بالقتل، أو الحبس، أو الإخراج. فإن الكيد هو الأمر الذي يسوء من نزل به سواء كان في نفسه حسناً أو قبيحاً. فالاستفهام في المعطوف للتقرير، وفي المعطوف عليه للإنكار.

وقال سعدي المفتي: الظاهر: أنه من الإخبار بالغيب. فإن السورة مكية وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة. فإن قيل: فليكن نزول الطور في تلك الليلة.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

قلنا: قد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه نزل بعدها بمكة ﴿تَبَارَكَ﴾ الملك وغيرها من السور، انتهى.

وقال في «فتح الرحمن»: والظاهر أنه من الإخبار بالغيب. فإنّ السورة مكية، وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة. ثم أهلكهم الله تعالى ببدر عند انتهاء سنين. عدتها عدة ما هنا من كلمة ﴿أَمْ﴾. وهي خمس عشرة. فإن بدراً كانت في الثانية من الهجرة. وهي الخامسة عشرة من النبوة. وأذلهم في غير موطن. ومكر سبحانه بهم: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ القصر فيه إضافي؛ أي: هم الذين يحيق بهم كيدهم، أو يعود عليهم وباله، لا من أرادوا أن يكيدوه. فإنه المظفر الغالب عليهم قولاً وفعلاً حجةً وسيفاً، أو هم المغلوبون في الكيد من كايدته فكدته. فالمراد: ما أصابهم يوم بدر من القتل، كما مرّ آنفاً.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يعينهم، ويحرسهم من عذابه تعالى؛ أي: بل أيدعون أن لهم إلهاً غير الله تعالى يحفظهم، ويرزقهم، وينصرهم.

ثم نزه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنيعة، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تنزه الله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي[1] عن إشراكهم به. فما مصدرية، أو عن شركة ما يشركونه به، فما موصولة. والمضاف مقدر، وكذا العائد.

ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم، فقال: ﴿وَإِن يَرَوْاْ﴾؛ أي: وإن يرى هؤلاء المشركون ﴿كِسْفًا﴾؛ أي: قطعة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ عليهم لتعذيبهم. وفي «عين المعاني»: قطعة من العذاب، أو من السماء، أو جانباً منها. من الكسف وهو التغطية، كالكسوف. والكسف والكسفة بمعنى واحد. وهو القطعة من الشيء. ﴿يَقُولُواْ﴾ من فرط طغيانهم، وشدة عنادهم: هو ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾؛ أي: متراكم غليظ يمطرنا؛ أي: هم في طغيان بحيث لو أسقطناه عليهم حسبما قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ لقالوا: هذا السحاب سحاب تراكم؛ أي: ألقي بعضه على بعض يمطرنا، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب.

---

(١) روح البيان.

وفي «التأويلات النجمية»: يعني: أنهم وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ حتى شاهدوه بالعين.. لقالوا إنما سكرت أبصارنا. وليس هذا عياناً عن مشاهدة. وقد تقدم[1] اختلاف القراء في ﴿كِسَفًا﴾. قال الأخفش: يعني: بكسر الكاف وفتح السين جعله جمعاً.

والمعنى[2]: أي إنَّ هؤلاء قوم ديدنهم العناد، والمكابرة. فلو رأوا بعض ما سألوا من الآيات، فعاينوا كسفاً من السماء ساقطاً لكذَّبوا، وقالوا: هذا سحاب بعضه فوق بعض؛ لأنّ الله قد ختم على قلوبهم، وأعمى أبصارهم. فأصبحوا ينكرون ما تبصره الأعين، وتسمعه الآذان.

ثم أمر الله سبحانه رسوله لله أن يتركهم، فقال: ﴿فَذَرْهُمْ﴾؛ أي: فاتركهم يا محمد، وخلهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾ ويشاهدوا ﴿يَوْمَهُمُ﴾ مفعول به، لا ظرف ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾؛ أي: يموتون، ويهلكون. وهو على البناء للمفعول. من صعقته الصاعقة، أو من أصعقته أماتته، وأهلكته. قال ابن الشيخ: المقصود[3] من الجواب عن الاقتراح المذكور: بيان أنهم مغلوبون بالحجة، مبهوتون، وأن طعنهم ذلك ليس إلا للعناد والمكابرة، حتى لو أجبناهم في جميع مقترحاتهم لم يظهر منهم إلا ما يبنى على العناد والمكابرة. فلذلك رتب عليه قوله: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ بالفاء. وهو أمر موادعة، منسوخ بآية السيف.

والمعنى: أي فدعهم وشأنهم، ولا تكترث بهم، حتى يأتي اليوم الذي يجاوزن فيه بسيئات أعمالهم. وهو يوم بدر، قاله البقاعيّ. وهو الظاهر في الآية، لا النفخة الأولى كما قيل. إذ لا يصعق بها إلا من كان حيًّا حينئذٍ.

وقرأ الجمهور:[4] ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾. وقرأ أبو حيوة ﴿يلقوا﴾. وقرأ الجمهور ﴿يَصْعَقُون﴾ بفتح الياء بالبناء للفاعل. وقرأ ابن عامر، وعاصم على البناء للمفعول. وقرأ السلمي بضم الياء، وكسر العين من أصعق الرباعيّ.

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى﴾ ولا يدفع ﴿عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ من الإغناء في رد

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

العذاب، أو شيئاً من عذاب الله سبحانه، بدل من ﴿يَوْمِهِمُ﴾؛ أي: لا ينفعهم في ذلك اليوم كيدهم الذي كادوا به رسول الله ﷺ في الدنيا. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من جهة الغير في رفع العذاب عنهم؛ أي: ولا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع، بل هو واقع بهم لا محالة.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي:[1] وإنّ لهؤلاء الظلمة: أبي جهل وأصحابه. ﴿عَذَابًا﴾ آخر ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾؛ أي: غير ما لاقوه من القتل؛ أي: قبله. وهو القحط الذي أصابهم سبع سنين، كما مر في سورة الدخان. أو وراءه. وهو عذاب القبر، وما بعده من فنون عذاب الآخرة؛ أي: وإن لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي عذاباً في الدنيا دون عذاب الآخرة؛ أي: قبله. وهو قتلهم يوم بدر. والظاهر: أن المراد بالعذاب: القحط والجوع سبع سنين قبل يوم بدر؛ لأنّه كان في السنة الثانية للهجرة. والقحط وقع لهم قبلها.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما سيصيرون إليه من عذاب الله، وما أعده لهم في الدنيا والآخرة لفرط جهلهم، وسوء غفلتهم، أو لا يعلمون شيئاً أصلاً.

وفيه إشارة[2] إلى أن منهم من يعلم ذلك، وإنما يصر على الكفر عناداً. فالعالم الغير العامل والجاهل سواء. فعلى العاقل أن يحصل علوم الآخرة، ويعمل بها.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود الذي وعدناهم فيه العذاب، وإبقائك فيما بينهم مع مقاساة الأحزان والشدائد، ولا تكن في ضيق مما يمكرون.

يقول الفقير: أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بالصبر لحكمه، لا لأذى الكفار وجفائهم تسهيلاً للأمر عليه؛ لأنّ في الصبر لحكمه حلاوةً، ليست في الصبر للأذى والجفاء. وإن كان الصبر له صبراً للحكم، فاعرف.

﴿فَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: بمرأى ومنظر منا، وفي حفظنا، وفي حمايتنا. فلا تبال بهم. قال الزجاج: إنّك بحيث نراك، ونحفظك، ونرعاك فلا يصلون إليك. وجمع العين لجمع الضمير، والإيذان بغاية الاعتناء في الحفظ،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وبكثرة أسبابه إظهاراً للتفاوت بين الحبيب والكليم، حيث أفرد فيه العين والضمير، حيث قال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾. وقيل: جمع العين هنا لأنّه أضيف إلى ضمير الجماعة، وأفرد هناك لكون الضمير مفرداً. وقرأ أبو السمال ﴿بأعينّا﴾ بنون واحدة مشدّدة.

والمعنى[1]: واصبر على أذاهم، ولا تبال بهم، وامض لأمر الله ونهيه، وبلغ ما أرسلت به فإنك بمرأى منا، نراك ونرى أعمالك، ونحوطك، ونحفظك فلا يصل إليك منهم أذى.

﴿وَسَبِّحْ﴾؛ أي: نزهه تعالى عما لا يليق به، حال كونك متلبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وشكره على نعمائه عليك ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مقام قمت. قال سعيد بن جبير، وعطاء؛ أي: قل حين تقوم من مجلسك: سبحانك اللهم وبحمدك؛ أي: سبح الله متلبساً بحمده. فإن كان ذلك المجلس خيراً ازددت إحساناً، وإن كان غير ذلك كان كفارة له.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه ـ الكلام الرديء القبيح ـ فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.. كان كفارةً لما بينهما». وفي «فتح القريب»: «فقد غفر له». يعني: من الصغائر ما لم تتعلق بحق آدمي كالغيبة. وقال الضحاك، والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. وقال الكلبي: واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة، وهي صلاة الفجر. والأول أولى.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: وفي بعض ساعات الليل ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ سبحانه وتعالى. وأفرد بعض الليل بالتسبيح والصلاة؛ لأنّ العبادة فيه أشق على النفس، وأبعد عن الرياء. كما يلوح إليه تقديمه على الفعل. يقول الفقير؛ ولأن الليل زمان المعراج، والصلاة هو المعراج المعنوي. فمن أراد أن يلتحق برسول الله ﷺ في معراجه فليصل بالليل والناس نيام؛ أي: في جوفه حين غفلة الناس. ولشرف ذلك الوقت كان معراجه ﷺ

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

في ذلك الوقت، لا قرب الصباح. لأن في قربه قد يستيقظ بعض النفوس للحاجات. وإن كان السحر الأعلى مما له خواص كثيرة. وقال مقاتل؛ أي: صل صلاة المغرب والعشاء. وقيل: ركعتي الفجر.

﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ بكسر الهمزة مصدر أدبر الرباعي. والنجوم: جمع نجم. وهو الكوكب الطالع. يقال: نجم نجوماً ونجماً؛ أي: طلع.

والمعنى: وسبح وقت إدبارها من آخر الليل؛ أي: وقت غيبتها بضوء الصباح. وقيل: صلاة الفجر. واختاره ابن جرير. وقيل: هو التسبيح في أدبار الصلوات.

وقرأ الجمهور ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ بكسر الهمزة على أنه مصدر. وقرأ سالم بن أبي الجعد، ومحمد بن السميقع، ويعقوب، والمنهال بن عمر بفتحها على الجمع؛ أي: أعقاب النجوم، وأدبارها إذا غربت. ودبر الأمر آخره. وقد تقدم الكلام على هذا في سورة ق. وفي ختم هذه السورة بالنجوم، وافتتاح السورة الآتية بالنجم من حسن الانتهاء والابتداء، ما لا يخفى.

الإعراب

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام، ﴿خُلِقُوا۟﴾ فعل ماض، مغير الصيغة، ونائب فاعل. والجملة مستأنفة أو معطوفة. ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿خُلِقُوا۟﴾، ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿أَمْ﴾ حرف إضراب وعطف، ﴿عِندَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة مستأنفة أو معطوفة. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ مبتدأ وخبر، معطوف على ما قبله، ﴿أَمْ﴾ حرف إضراب بمعنى بل وهمزة الاستفهام، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿سُلَّمٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة مستأنفة. وجملة ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ صفة لـ ﴿سُلَّمٌ﴾، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾. ﴿فَلْيَأْتِ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إن ادّعوا ذلك، وأردت إلزامهم الحجة... فأقول لك قل لهم ليأت مستمعكم بسلطان مبين على ذلك. واللام حرف

جزم وطلب، ﴿يأت﴾ فعل مضارع مجزوم بلام الطلب، ﴿مُسْتَمِعُهُم﴾ فاعل، ﴿بِسُلْطَانٍ﴾ متعلق بـ ﴿يأت﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة لـ ﴿سلطان﴾. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ حرف إضراب واستفهام، ﴿لَهُ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْبَنَٰتُ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة مستأنفة. ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ معطوف على ﴿لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾. ﴿أَمْ﴾ حرف إضراب، ﴿تَسْـَٔلُهُمْ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول أول، ﴿أَجْرًا﴾ مفعول ثان. والجملة مستأنفة. ﴿فَهُم﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿هم﴾ مبتدأ، ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ متعلق بـ ﴿مُّثْقَلُونَ﴾، و﴿مُّثْقَلُونَ﴾ خبر. والجملة معطوفة مفرعة على الجملة الفعلية. ﴿أَمْ﴾ حرف إضراب ﴿عِندَهُمُ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة مستأنفة. ﴿فَهُمْ﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَكْتُبُونَ﴾ خبره. والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. ﴿أَمْ﴾ حرف إضراب، ﴿يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول. والجملة إضرابيّة، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿الذين﴾ مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، لا محل له من الإعراب، ﴿ٱلْمَكِيدُونَ﴾ خبر. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية. ﴿أَمْ﴾ حرف إضراب ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿إِلَٰهٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ ﴿إِلَٰهٌ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً. والجملة مستأنفة. ﴿عَمَّا﴾ متعلق بـ ﴿سُبْحَٰنَ﴾، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ صلة لما الموصولة، أو لما المصدرية.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿يَرَوْا۟﴾ فعل، وفاعل، مجزوم

بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿كِسْفًا﴾ مفعول به، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ صفة لـ ﴿كِسْفًا﴾، ﴿سَاقِطًا﴾ صفة لـ ﴿كِسْفًا﴾. ﴿يَقُولُواْ﴾ فعل، وفاعل، مجزوم على كونه جواب الشرط. والجملة مستأنفة، أو معطوفة. ﴿سَحَابٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو سحاب. ﴿مَّرْكُومٌ﴾ صفة ﴿سَحَابٌ﴾. والجملة في محل النصب، مقول لـ ﴿يَقُولُواْ﴾. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا بلغوا في الكفر والعناد إلى هذا الحدّ، وتبيّن أنّهم لا يرجعون عن الكفر، وأردت بيان ما هو الأسهل عليك فأقول لك ذرهم. ﴿ذرهم﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية، ﴿يُلَٰقُواْ﴾ فعل، وفاعل، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى بمعنى إلى. ﴿يَوْمَهُمُ﴾ مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بحتى، تقديره: إلى ملاقاتهم يومهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ذرهم﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة لـ ﴿يَوْمَهُمُ﴾، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُصْعَقُونَ﴾، و﴿يُصْعَقُونَ﴾ فعل مغير، ونائب فاعل، صلة الموصول، والعائد ضمير «فيه»، ﴿يَوْمَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَهُمُ﴾، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يُغْنِى﴾ فعل مضارع، ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق به، ﴿كَيْدُهُمْ﴾ فاعل ﴿يُغْنِى﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به أو مفعول مطلق. وجملة ﴿لَا يُغْنِى﴾ في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُنصَرُونَ﴾ من الفعل المغير، ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿لَا يُغْنِى﴾. ﴿وإن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿إنّ﴾ حرف نصب، ﴿لِلَّذِينَ﴾: خبر ﴿إن﴾ مقدم وجملة ﴿ظَلَمُواْ﴾ صلة الموصول. ﴿عَذَابًا﴾: اسم ﴿إن﴾ مؤخر، ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿عَذَابًا﴾. وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الواو: عاطفة، ﴿لكن﴾ حرف نصب، ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ اسمها، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ خبرها. وجملة لكن معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾. ﴿وَٱصْبِرْ﴾ الواو: استئنافية، ﴿اصبر﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ ﴿اصبر﴾، ﴿فَإِنَّكَ﴾ الفاء: تعليلية، ﴿إنك﴾ ناصب واسمه، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ خبره؛ أي: بمرأى منّا. وجملة ﴿إنّ﴾ تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَسَبِّحْ﴾ فعل، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿اصبر﴾، ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حال من فاعل ﴿سبّح﴾، ﴿حِينَ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿سبح﴾، وجملة

﴿نَقُومُ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿حِينَ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ متعلق بـ ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾، و﴿فَسَبِّحۡهُ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿اصبر﴾، ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ مصدر ناب مناب الظرف، منصوب على الظرفية، معطوف على محل ﴿من الليل﴾ على كونه متعلقاً بسبِّحه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾؛ أي: من غير خالق. ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ جمع خزانة بالكسر. وهو مكان الخزن، يقال: خزن المال أحرزه، وجعله في الخزانة. وهو على حذف مضاف؛ أي: خزائن رزقه ورحمته.

﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ جمع مسيطر. والمسيطر: المسلط القاهر، حتى لا يكون تحت أمر أحد من سيطر عليه إذا راقبه وحفظه أو قهره. ولم يأت على مفيعل إلا خمسة ألفاظ. أربعة صفة اسم فاعل. مهيمن: من هيمن، إذا اطلع وراقب. ومبيقر: من بيقر، إذا أفسد وأهلك، ومشى مشية المتكبر، كما في «القاموس». ومسيطر: من سيطر، إذا تسلط. ومبيطر: من بيطر الدواب إذا عالج. وواحد اسم جبل. وهو المحيصر.

﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ﴾ قال الراغب: السلم: ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجىٰ به السلامة. ثم جعل اسماً لما يتوصل به إلى كل شيء رفيع. ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة تصدق استماعه. ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ﴾؛ أي: التزام غرامة تطلبها منهم. فالمغرم: مصدر ميمي بمعنى الغرم. وفي «الكشاف»: المغرم: أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه. وفي «فتح الرحمن»: المغرم: ما يلزم أداؤه. وفي «المفردات»: الغرم: ما ينوب الإنسان من ماله من ضرر بغير جناية منه، وكذا المغرم والغريم يقال لمن له الدين، ولمن عليه الدين، انتهى.

﴿مُّثۡقَلُونَ﴾؛ أي: محملون ثقلاً وحملاً. ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾؛ أي: مكراً وتحيلاً في هلاكك. وفي «المصباح»: كاد كيداً من باب باع، إذا خدعه ومكر به. والاسم المكيدة. وكان هذا المكر في دار الندوة، وهي دار من دور أهل مكة للمشاورة فيها إذا أشكل عليهم الأمر. وفي «التعريفات»: الكيد: إرادة مضرة الغير خفية. وهو من الخلق الحيلة السيئة، ومن الله التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ جمع مكيد، اسم مفعول من كاد يكيد، فهو مكيد بوزن مبيع. وأصله: مكيودون، جمع مكيود، نقلت حركة الياء إلى الكاف فسكنت، فالتقى ساكنان: الياء، وواو مفعول، فحذفت واو مفعول لأنَّها زائدة، هذا على رأي سيبويه، ثم كسرت الكاف لمناسبة الياء. وأما على رأي الأخفش فإنه يرى أن المحذوف منه الياء، وأنها لما حذفت كسر فاء الكلمة، ثم قلبت ﴿الواو﴾ ياء لسكونها إثر كسرة.

﴿كِسۡفٗا﴾؛ أي: قطعة. وفي «القاموس»: الكسفة بالكسر: القطعة من الشيء، والجمع كسف كسدرة وسدر، وكسف كقربة وقرب. وفي «المختار»: وقيل: الكسف والكسفة واحد. ﴿مَّرۡكُومٞ﴾؛ أي: متراكم ملقى بعضه على بعض. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ أصله: يلاقيون بوزن يفاعلون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت القاف لمناسبة الواو، وحذفت نون الرفع لدخول أداة النصب.

﴿ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾؛ أي: يهلكون من صعقته الصاعقة، أو من أصعقته أماتته وأهلكته. قال في «المختار»: صعق الرجل بالكسر صعقة غشي عليه، ومنه: قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: مات. ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ أي: في حفظنا وحراستنا. ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾؛ أي: وقت إدبار النجوم، وغيبتها، وغروبها. والمراد بغروبها: ذهاب ضوئها بغلبة ضوء الصبح عليه، وإن كانت باقية في السماء، وذلك بطلوع الفجر، اهـ خطيب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المغاير بين ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ و﴿خُلِقُواْ﴾ في قوله: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾؛ أي: خزائن رحمة ربك.

ومنها: ضرب المثل بالخزائن؛ لأنّ الخزانة بيت يهيأ لجمع أنواع مختلفة من الذخائر. ومقدرات الرب كالخزائن التي فيها من كل الأجناس، فلا نهاية لها، اهـ قرطبي.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع لهم في قوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ تسجيلاً عليهم بصفة الكفر القبيحة.

والأصل: أم يريدون كيداً فهم المكيدون. وفيه أيضاً القصر الإضافي؛ أي: هم الذين يحيق بهم كيدهم، أو يعود عليهم وباله، لا من أرادوا أن يكيدوه.

ومنها: أسلوب الفرض والتقدير في قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾؛ أي: لو رأوا ذلك... لقالوا ما قالوا. ومن المعلوم أنّ قريشاً لم ينزل عليهم قطع من السماء تعذيباً لهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ الآية. فالكلام على سبيل الفرض والتقدير. كأنه يقول: لو عذبناهم بسقوط قطع من السماء عليهم لم ينتهبوا ولم يرجعوا، ويقولون في هذا النازل عناداً واستهزاءً، وإغاظة لمحمد ﷺ: إنه سحاب مركوم، اهـ شيخنا.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة

تضمنت هذه السورة ما يلي:

١ ـ القسم بالعالم العلوي والسفلي على أن العذاب آت لا محالة.

٢ ـ وصف عذاب النار، وما يلاقيه المكذبون حينئذٍ من الذلة والمهانة.

٣ ـ وصف نعيم أهل الجنة، وما يتمتعون به من اللذات في مساكنهم، ومطاعمهم، ومشاربهم، وأزواجهم، وخدمهم، وحشمهم.

٤ ـ أمر الرسول ﷺ بالثبات على تبليغ الرسالة، والإعراض عن سفاهتهم من نحو قولهم: هو شاعر، هو كاهن، هو مجنون، هو مفتر.

٥ ـ إثبات الألوهية بالبراهين التي لا تقبل جدلاً.

٦ ـ النعي على المشركين في قولهم: الملائكة بنات الله.

٧ ـ بيان أنهم بلغوا في عنادهم حدّاً ينكرون معه المحسوسات التي لا شك فيها.

٨ ـ أمر الرسول ﷺ أن يتركهم وشأنهم حتى يأتي اليوم الذي كانوا يوعدون.

٩ ـ الإخبار بأن الظالمين في كل أمة، وكل جيل يعذبون في الدنيا قبل عذابهم في الآخرة.

١٠ ـ الإخبار بأن الله حارس نبيه وكالئه فلا يصل إليه أذى من خلفه كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

١١ ـ أمره ﷺ بالذكر والتسبيح آناء الليل، وأطراف النهار، وفي كل موطن ومجلس يقوم فيه(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) فرغنا من هذه السورة في تاريخ ١٧/٥/١٤١٥ هـ.

سورة النجم

سورة النجم مكيّة جميعاً في قول الجمهور، وروي عن ابن عباس، وعكرمة: أنّها مكية، إلا آية منها وهي مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الآية، نزلت بعد سورة الإخلاص.

وهي[1] اثنتان وستون آيةً، وثلاثمائة وستون كلمةً، وألف وأربع مئة وخمسة أحرف.

مناسبتها لما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ إنّ السورة قبلها ختمت بقوله: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾، وبدئت هذه بقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾.

٢ ـ إنّ السورة قبلها ذكر فيها تقوُّل القرآن، وافتراؤه وذكر هذا في مفتتح هذه السورة.

٣ ـ إنه ذكر في التي قبلها أن ذرية المؤمنين تبع لآبائهم، وفي هذه ذكر ذرية اليهود في قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

٤ ـ إنه قال هناك في المؤمنين: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وقال هنا في الكفار: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ㊴﴾.

وقال أبو حيان: مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة؛ لأنه قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾؛ أي: اختلق القرآن، ونسبوه إلى الشعر، وقالوا: هو كاهن ومجنون. فأقسم تعالى إنه ﷺ ما ضل، وإن ما يأتي به هو وحي من الله، انتهى.

تسميتها: سميت سورة النجم لقوله في أوّلها: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾.

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

فضائلها: ومن فضائلها ما أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود أنها أول سورة أعلن النبي ﷺ قراءتها، فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون.

ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم، وأبو داود، والنسائي: إنَّ أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فسجد رسول الله ﷺ، وسجد الناس كلهم إلا رجلاً رأيته أخذ كفًّا من تراب، فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً. وهو أمية بن خلف.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم[1]: سورة النجم كلها محكم إلا آيتين:

إحداهما: قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ (٢٩) الآية، نسخت بآية السيف.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (٣٩) نسخت بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾ الآية. فيجعل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه، ويشفِّع الله تعالى الآباء في الأبناء، والأبناء في الآباء. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ (١١) سورة النساء، انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الناسخ والمنسوخ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا
وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ
(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١)
أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥)
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)
أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ
ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ
وَالْأُولَىٰ (٢٥) ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن
يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ
اهْتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ
أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ
(٣٢)﴾.

المناسبة

قد تقدم آنفاً بيان المناسبة بين أوّل هذه السورة، وآخر التي سبقت. وقد أقسم[١] ربنا بخلق من مخلوقاته العظيمة التي لا يعلم حقيقتها إلا هو، وهي نجوم السماء التي تهدي الساري في الفلوات، وترشده إلى البعيد من المسافات، على أن محمداً صاحبكم نبي حقًّا، وما ضل عن طريق الرشاد، ولا اتبع الباطل، ولا يتكلم إلا بوحي يوحيه الله إليه، ويعلمه إياه جبريل شديد القوىٰ.

---

(١) المراغي.

ولقد رأه مرتين على صورته التي خلقه الله عليها بأجنحته وأوصافه الملكية. مرة بغار حراء في بدء النبوة، وأخرى ليلة المعراج، حين عرج به إلى السماء، ورأى من عجائب صنع الله ما رأى مما استطاع أن يخبركم به، ومما لم يستطع ذلك. فكيف بكم تجادلونه فيما أخبركم به؟ وتقولون طوراً: إنه مجنون، وطوراً آخر: إنه كاهن، وطوراً ثالثاً: إنه شاعر، وما كل هذا بالذي ينطبق على أوصافه. وهو صاحبكم، وأنتم أعلم بحاله، فحق عليكم أن تسمعوا قوله، وأن تطيعوا أمره. فتفوزوا برضوان من ربه.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى[1] لما بين أن ما رآه محمد ﷺ من العجائب ليلة المعراج قال للمشركين: ماذا رأيتم في هذه الأصنام، وكيف تحصرون أنفسكم في العالم المادّيّ وأصنامه، وتقطعون على أنفسكم طريق التقدم والارتقاء، وإن النفس لا ترقىٰ إلا بما استعدت له. فإذا وقفت النفوس عند هذه المادة، وتلك الأصنام لم يكن لها عروج إلى السماء. ولا سيما أن هذه الأصنام لا تشفع لهم عند ربهم، ولا تجديهم نفعاً.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمر رسوله بالإعراض عن المشركين مع شدة ميله إلى إيمانهم، وتطلعه إلى هدايتهم، وتعلقه بصلاحهم وإرشادهم، وهم قومه وعشيرته، وأبان له أن هؤلاء قوم انصرفوا عن النظر إلى الحق، ووجهوا همهم إلى زخرف الدنيا، وأن منتهىٰ علمهم التصرف في شؤونها فهي قبلتهم التي إليها يحجون، ومطمح أنظارهم الذي إليه يرنون. وذكر أنه هو العليم باستعدادهم، وأنهم قوم ضالون، لا يصل الحق إلى شغاف قلوبهم، ولا يلتفتون إليه بعيونهم.. ذكر هنا أنه لا يهملهم، بل سيجزيهم بسوء صنيعهم. وهو العليم بما في السموات والأرض، فلا يترك عباده هملاً، بل يجازيهم بعدله. فيثيب المحسن بالجنة، ويعاقب المسيء على سوء صنيعه بما هو أهله. ثم أردف ذلك ذكر أوصاف المحسنين، وأنهم هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ولا

---

(١) المراغي.

يقع منهم إلا اللمم من صغائر الذنوب الفينة بعد الفينة، ويتوبون منه، ولا يصرون عليه. ثم حذر عباده بأنه لا تخفي عليه خافية من أمورهم من لحظة أن كانوا أجنة في بطون أمهاتهم إلى أن يموتوا. فيعلم المطيع من العاصي. فلا حاجة للعبد إذاً إلى مدح نفسه بفعل الطاعات، واجتناب السيئات.

أسباب النزول

قوله تعالى[(١)]: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الواحدي، والطبراني، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبيٌّ صغيرٌ: هو صدِّيقٌ. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: «كذبت اليهود، ما من نسمة يخلقه الله سبحانه في بطن أمه، إلا ويعلم أنه شقي أو سعيد». فأنزل الله عند ذلك هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَالنَّجْمِ﴾؛ أي: أقسم لكم أيها المشركون بالنجم. ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾ وسقط للغروب. والتعريف فيه[(٢)] للجنس. والمراد به: جنس النجوم، وبه قال جماعة من المفسرين. وقيل: المراد به: الثريا. وهو اسم غلب فيها. تقول العرب: النجم، وتريد به الثريا، وبه قال مجاهد، وغيره. والثريا[(٣)] سبعة كواكب، ولا يكاد يرى السابع منها لخفائه.

وفي الحقيقة إنها اثنا عشر كوكباً. وكان رسول الله ﷺ يراها كلها بالقوة التي جعلها الله سبحانه في بصره. وقال في «عين المعاني»: وهي سبعة أنجم ظاهرة، والسابع تمتحن به الأبصار، وكانت قريش تجلها، وتقول: أحسن النجم في السماء الثريا. والثريا في الأرض زين السماء، وكانت رحلتاها عند طلوعها وسقوطها. فإذا طلعت بالغداة عدُوها من الصيف، وإذا طلعت بالعشي عدوها من الشتاء، وقال السدي[(٤)]: النجم هنا: هو الزهرة. لأنَّ قوماً من العرب كانوا يعبدونها. وقيل:

---

(١) لباب النقول.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

النجم هنا: النبت الذي لا ساق له، كما في قوله: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾، قاله الأخفش. وقيل: النجم محمد ﷺ.

وقيل: النجم القرآن، وسمي نجماً لكونه نزل منجماً مفرقاً، والعرب تسمي التفريق تنجيماً، والمفرق المنجم، وبه قال مجاهد، والفرّاء، وغيرهما، والأول أولى، قال الحسن: المراد بالنجم: النجوم، إذا سقطت يوم القيامة. وقيل: المراد بها: النجوم التي ترجم بها الشياطين. ومعنى هويه: سقوطه من علو إلى سفل. يقال: هوى النجم يهوى هويًّا، إذا سقط من علو إلى سفل. وقيل: غروبه. وقيل: طلوعه. والأوَّل أولى. وبه قال الأصمعيّ، وغيره. ومعنى الهويِّ على قول من فسَّر النجم بالقرآن: أنه نزل من أعلى إلى أسفل. وأما على قول من قال: إنه النبت الذي لا ساق له، أو إنه محمد ﷺ، فلا يظهر للهوي معنى صحيح.

وهذا القسم[1] جرياً على عادة العرب فإنها تقسم بكل ما تستعظمه، وتريد إظهار تعظيمه. وقيل: كل موضع أقسم فيه الرب بمخلوق، فالرب فيه مضمر كقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾؛ أي: ورب النجم، ورب الذاريات، وأشباه ذلك. والعامل في ﴿إِذَا﴾ هو فعل القسم المقدر؛ أي: أقسم. فإنه بمعنى مطلق الوقت، منسلخ عن معنى الاستقبال، كما في قولك: أتيتك إذا احمر البُسْر. فلا يلزم عمل فعل الحال في المستقبل. يعني: إن فعل القسم إنشاء، والإنشاء حال، و﴿إذا﴾ لما يستقبل من الزمان، فيكون المعنى: أقسم الآن بالنجم وقت هوى بعد هذا الزمان.

ثم إن الله سبحانه أقسم بالنجم حين هوى؛ أي: وقت هويه؛ لأن شأنه أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا. كأنّه قيل: والنجم الذي يهتدي به السابلة في البر، والجارية في البحر إلى سواء السبيل.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أيها المشركون محمد ﷺ. وهو جواب القسم؛ أي: ما عدل، ولا مال في أقواله وأفعاله عن طريق الحق الذي هو مسلك الآخرة. وهذا دليل على أن قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ ليس من ضلال الغي. فإنه ﷺ قبل الوحي، وبعده لم يزل يعبد ربه، ويوحده، ويتوقى مستقبحات الأمور. وفيه[2] بيان فضل

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

النبي ﷺ حيث إن الله تعالى قال في حق آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، وقال في حقه ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ وأخطأ في اعتقاده؛ لأنَّ الغي اعتقاد شيء فاسد باطل. فعطفه على ﴿مَا ضَلَّ﴾ من عطف الخاصّ على العام، للاهتمام بشأن الخاص. فإنه فرق بين الغي والضلال، بأن الغي هو الخطأ في الاعتقاد خاصة، والضلال أعم منه. لأنه يتناول الخطأ في الأقوال، والأفعال، والأخلاق، والعقائد التي شرعها الله سبحانه، وبينها لعباده.

والمعنى: ما عدل صاحبكم عن طريق الحق في الأقوال، والأفعال، والاعتقاد، وغيرها. وما اعتقد باطلاً قط؛ أي: هو في غاية الهدى والرشد، وليس مما تتوهمونه من الضلال والغواية في شيء أصلاً. وكانوا يقولون: ضل محمد عن دين آبائه، وخرج عن الطريق، وتقوَّل شيئاً من تلقاء نفسه. فرد الله عليهم بنفسه بتنزيل هذه السورة تعظيماً له.

والخطاب لقريش[1]، وإيراده ﷺ بعنوان صاحبيته لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله، وإحاطتهم خبراً ببراءته ﷺ مما نفي عنه بالكلية، واتصافه بغاية الهدى والرشاد. فإنَّ طول صحبتهم له، ومشاهدتهم محاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً، كما في «الإرشاد». ويؤيد ما في «الإرشاد»: قول الراغب في «المفردات»: لا يقال: الصاحب في العرف إلا لمن كثرت ملازمته، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾. سمي النبي ﷺ صاحبهم تنبيهاً على أنكم صحبتموه، وجربتموه، وعرفتم ظاهره وباطنه، ولم تجدوا به خبلاً ولا جنة.

وتقييد القسم بوقت الهوى؛ لأنَّ النجم لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء، ولا يعلم المشرق من المغرب، ولا الشمال من الجنوب. وإنما يهتدي به عند هبوطه أو صعوده مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكي من تدلي جبريل من الأفق الأعلى، ودنوه منه عليهما السلام. وقال سعدي المفتي: ثم التقييد بوقت الهوى؛ أي: الغروب لكونه أظهر دلالة على وجود الصانع، وعظيم قدرته،

---

(١) روح البيان.

كما قال الخليل عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾.

قال ابن الشيخ في «حواشيه»: وفيه لطيفة. وهي أن القسم بالنجم يقتضي تعظيمه، وقد كان فيهم من يعبده، فنبه بهويه على عدم صلاحيته للإلهية بأفوله.

وقيل: خص الهوى دون الطلوع؛ لأنَّ لفظة النجم دلت على طلوعه. فإن أصل النجم الكوكب الطالع.

ومعنى الآية: أقسم[1] بمخلوقاتي العظيمة. وهي النجوم التي تسير في مداراتها، ولا تعدوا أفلاكها، والتي تهتدون بها في الفيافي والقفار في حلكم، وترحالكم، في سفركم وحضركم، وفي البحار، ولها لديكم منزلة عظمى في حياتكم المعيشية أنَّ محمّداً نبي حقًّا، وما حاد عن سبيل الحق، ولا سلك سبيل الباطل. وقد خاطب سبحانه بهذا القسم العرب الذين يعرفون ما للنجوم من جزيل الفضل عليهم في تعيين المواسم، والفصول ليستعدوا للنجعة، ويرتادوا الكلأ بعد سقوط المطر، ويزرعوا ما يتسنى لهم أن يزرعوه، وهم يتيامنون ببعضها، ويتشاءمون ببعض آخر.

إلى أن القسم بها ينبهنا إلى أن هناك عوالم وأجراماً علوية، يجب علينا أن نتعرف أمرها، لنستدل بها على عظيم قدرة مبدعها، وبديع صنعه.

والخلاصة: أنَّ الرسول ﷺ راشد، مرشد، تابع للحق ليس بضال، ولا هو بسالك للطريق بغير علم، ولا بغاو يعدل عن الحق قصداً إلى غيره. وبهذا نزه الله رسوله وشرعه عن مشايعة أهل الضلال من اليهود والنصارى الذين يعلمون الحق، ويعملون بخلافه. فهو في غاية الاستقامة، والاعتدال، والسداد.

وضمن كلمة ﴿يَنطِقُ﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ معنى الصدور[2]، فعداه بكلمة ﴿عَنِ﴾. فالمعنى: وما يصدر نطقه بالقرآن عن هواه ورأيه أصلاً. فإن المراد: استمرار نفي النطق عن الهوى، لا نفي استمرار النطق عنه، وقد يقال: ﴿عَنِ﴾ هنا بمعنى الباء؛ أي: وما ينطق بالهوى، كما يقال: رميت السهم عن القوس؛ أي: بالقوس. وفي «التنزيل»: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان ببعض تصرف.

بقولك.

قال ابن الشيخ: قال أوّلاً: ﴿مَا ضَلَّ﴾، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ بصيغة الماضي، ثم قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ بصيغة المستقبل بياناً لحاله قبل البعثة وبعدها، أي: ما ضل، وما غوى حين اعتزلكم وما تعبدون قبل أن يبعث رسولاً، وما ينطق عن الهوى الآن، حين يتلو عليكم آيات ربه، انتهى.

﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما الذي ينطق به محمد ﷺ من القرآن، وغيره ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ من الله سبحانه وتعالى. وقوله: ﴿يُوحَىٰ﴾ إليه بواسطة جبرئيل عليه السلام صفة مؤكدة لوحي، رافعة لاحتمال المجاز، مفيدة للاستمرار التجددي. يعني: أن فائدة الوصف التنبيه على أنه وحي حقيقة، لا أنه يسمى به مجازاً. والوحي قد يكون اسماً بمعنى الكتاب الإلهي، وقد يكون مصدراً. وله معان: الإرسال، والإلهام، والكتابة، والكلام، والإشارة، والإفهام.

وفيه[1] إشارة إلى أن النبي ﷺ قد فني عن ذاته، وصفاته، وأفعاله في ذات الله، وصفاته، وأفعاله. بحيث لم يبق منه لا اسم، ولا رسم، ولا أثر، ولا عين. فكان ناطقاً بنطق الحق، لا بنطق البشرية. فلا يتوهم فيه أن يجري عليه الخطرات الشيطانية، والهواجس النفسانية. وقال بعض المفسرين[2]: إن قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ رد لقولهم: إنه مجنون. وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ رد لقولهم: ﴿هُوَ شَاعِرٌ﴾؛ أي: ليس بينه وبين الغواية تعلق وارتباط.

وقوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝٢٢٤﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ رد لقولهم: كاهن. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ تأكيد لما تقدم؛ أي: فلا هو بقول كاهن، ولا هو بقول شاعر. والهوى كما سيأتي الميل إلى الشهوات والمستلذات من غير داعية الشرع.

﴿عَلَّمَهُ﴾؛ أي: علم صاحبكم محمداً ﷺ القرآن ملك شديد القوى؛ أي: نزل به عليه، وقرأه عليه، وبينه له. هذا على أن يكون الوحي بمعنى الكتاب. وإن كان بمعنى الإلهام، فتعليمه بتبليغه إلى قلبه. فيكون كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ من[1] إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، مثل؛ حسن الوجه، والموصوف محذوف، كما قدرنا آنفاً؛ أي: علمه ملك شديد قواه؛ أي: شديد قوة الجسم والبدن، وهو جبريل عليه السلام. فإنه الواسطة في إبداء الخوارق. ويكفيك دليلاً على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذي تحت الثرى، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها، وصاح بثمود صيحة، فأصبحوا جاثمين. وكان هبوطه على الأنبياء عليهم السلام، وصعوده في أسرع من رجعة الطرف.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: صاحب حصافة واستحكام في عقله ورأيه، ومتانة في دينه. وقوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾، كما أشار إليه القرطبي ونصه. ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: ارتفع[2] جبريل، وعلا إلى مكانه في السماء بعد أن علَّم محمداً ﷺ، قاله سعيد بن المسيب، وابن جبير. وقيل: معنى ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: قام، وظهر في صورته التي خلق عليها؛ لأنّه كان يأتي النبي ﷺ في صورة الآدميين، كما يأتي إلى الأنبياء. فسأله النبي ﷺ أن يريه نفسه التي جبله الله عليها، فأراه نفسه مرتين. مرة في الأرض، ومرة في السماء ليلة المعراج عند سدرة المنتهى.

وذلك أن رسول الله ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها. وكان رسول الله ﷺ بجبل حراء. وهو الجبل المسمى بجبل النور في قرب مكة. فقال: إنّ الأرض لا تسعني، ولكن أنظر إلى السماء، فطلع له جبريل من المشرق، فسد الأرض من المغرب، وملأ الأفق، فخر رسول الله ﷺ، كما خر موسى في جبل الطور، فنزل جبريل في صورة الآدميين، فضمه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه. ولم يره أحد من الأنبياء على صورته التي خلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ. وقيل: إن معنى ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: استوى القرآن في صدر محمد ﷺ حين نزل عليه.

---

(١) روح البيان.

(٢) القرطبي.

وقوله: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: جبرئيل عليه السلام ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ من الأرض؛ أي: بالمشرق، حال من فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: استوى جبريل، وظهر على صورته الأصلية، والحال أن جبريل بأفق الشمس؛ أي: أقصى الدنيا عند مطلع الشمس[1]. والأفق: هي الدائرة التي تفصل بين ما يرى من الفلك وما لا يرى. والأفق الأعلى مطلع الشمس، كما أن الأفق الأدنى مغربها.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل عليه السلام؛ أي: ثم بعد ما استوى، وظهر على صورته الأصلية، ومد جناحه، وسد الأفق الأعلى عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها. وهو صورة دحية بن خليفة الكلبي أمير العرب. ﴿ثُمَّ دَنَا﴾؛ أي: أراد الدنو والقرب إلى النبي ﷺ حال كونه في جبل حراء.

﴿فَتَدَلَّىٰ﴾؛ أي: استرسل، واستنزل جبريل من الأفق الأعلى مع تعلقه به. والدنو: القرب بالذات أو بالحكم. والتدلي: استرسال مع تعلق. وفي العبارة تقديم وتأخير؛ أي: تدلى ونزل جبريل في الأفق الأعلى، ثم دنا، وقرب إلى النبي ﷺ. وهو في غار حراء.

﴿فَكَانَ﴾ مقدار مسافة ما بين النبيّ ﷺ وبين جبريل عليه السلام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾؛ أي: مقدار قوسين عربيين في القرب؛ أي: مقدار قرب إحدى قوسين إلى الأخرى. وذكر القوس؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب، والعرب تجعل مساحة الأشياء بالقوس. وأصل ذلك أن الحليفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفاء، والحلف، والعهد خرجا بقوسيهما، فألصقا بينهما يريدان بذلك أنهما متظاهران، يحامي كل واحد منهما عن صاحبه. وفي «معالم التنزيل»: معنى قوله: كان بين جبريل ومحمد عليهما السلام مقدار قوسين، إنه كان بينهما مقدار ما بين الوتر والقوس. كأنه غلب القوس على الوتر. وهذا إشارة إلى تأكيد القرب. وقيل: معنى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾: قدر ذراعين. ويسمي الذراع قوساً؛ لأنه يقاس به المذروع؛ أي: يقدر. فلم يكن قريباً قرب التصاق، ولا بعيداً، بحيث لا يتأتى معه الإفادة والاستفادة. وهو الحد المعهود في مجالسة الأحباء المتأدبين.

---

(١) روح البيان.

وقيل: في الكلام قلب؛ أي: وكان مسافة ما بينهما قدر مسافة ما بين قابي قوس؛ لأن لكل قوس قابين. وهذا كناية عن شدة الاتصال، لأنه ضمه جبريل إلى نفسه حتى سكن عنه الروع. وفي القرطبي: والقاب: ما بين المقبض والسية مخففة الياء. وهي طرف القوس المنحني.

﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾؛ أي: بل كان قدر مسافة ما بينهما أقرب من ذلك؛ أي: من قاب قوسين على تقديركم أيها المخاطبون، كما في قوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾، فـ﴿أو﴾ للشك من جهة العباد، كما أن كلمة ﴿لَعَلَّ﴾ كذلك؛ أي: للترجي من العباد في مواضع من القرآن. فإن التشكيك والترجي لا يصحان على الله تعالى؛ أي: لو رآهما راء منكم لقال: هو قدر قوسين في القرب أو أدنى؛ أي لالتبس عليه مقدار القرب.

والمراد؛ أي: من قوله[1]: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ تمثيل ملكة الاتصال، وتحقيق استماعه، لما أوحى إليه بنفي البعد الملبس وحمله بعضهم على حقيقته، حيث قال: فكلما دنا جبريل من النبي عليهما السلام انتقص، فلما قرب منه مقدار قوسين رآه على صورته التي كان يراه عليها في سائر الأوقات، حتى لا يشك أنه جبرئيل.

﴿فَأَوْحَىٰ﴾ جبريل، وبلَّغ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ أي: إلى عبد الله تعالى. وإضماره قبل الذكر لغاية ظهوره، كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: على ظهر الأرض. والمراد بالعبد المشرَّف بالإضافة إلى الله تعالى: هو الرسول محمد ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾؛ أي: من الأمور العجيبة التي لا تفي بها العبارة، أو المعنى: فأوحى الله سبحانه حينئذٍ بواسطة جبريل ما أوحى إلى عبده محمد ﷺ، وقيل: المعنى: فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى. وفي الإبهام تفخيم للوحي الذي أوحى إليه على كل من الأقوال، وقد أبهم سبحانه ما أوحى جبريل إلى محمد، أو ما أوحاه إلى جبريل، فليس لنا أن نتعرض لتفسيره. وقال سعيد بن جبير: الذي أوحى إليه هو ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ...﴾ إلخ. وقيل: أوحى إليه أن الجنة حرام على

---

(١) روح البيان.

الأنبياء، حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك، اهـ من الشوكاني.
والوحي: إلقاء الشيء بسرعة. ومنه: الوحا. وهو السرعة.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾؛ أي: فؤاد محمد ﷺ. و﴿مَا﴾ نافية. ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ ما موصولة، وعائدها محذوف؛ أي: لم يكذب فؤاده وقلبه ما رآه ببصره من صورة جبريل؛ أي: ما قال فؤاده لما رآه: لم أعرفك. ولو قال ذلك لكان كاذباً، لأنّه عرفه بقلبه، كما رآه ببصره.

وقال بعضهم: ﴿كَذَبَ﴾ مخفّفاً ومشدّداً بمعنى واحد. وقال بعضهم: من خفف ﴿كَذَبَ﴾ جعل ﴿مَا﴾ في موضع النصب على نزع الخافض وإسقاطه؛ أي: ما كذب فؤاده فيما رآه ببصره؛ أي؛ لم يقل فيه: كذباً. وإنما يقول ذلك أن لو قال له: لا أعرفك، ولا أعتقد بك. وقرأ الجمهور[1] ﴿مَا كَذَبَ﴾ مخفّفاً. وقرأ هشام، وأبو جعفر بالتشديد.

ومعنى قوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ...﴾ إلخ؛ أي[2] فاستقام جبريل، وظهر له ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها، حين أحب رسول الله ﷺ أن يراه كذلك. فظهر له في الأفق الأعلى. وهو أفق الشمس الشرقي، فملأه، ثم أخذ يدنو من رسول الله ﷺ، ويتدلي؛ أي: يزيد في القرب والنزول، حتى كان منه مقدار قوسين، أو أقرب على تقديركم، وعلى مقدار فهمكم، فأوحى إلى عبده ورسوله ما شاء أن يوحيه إليه من شؤون الدين.

ولا غرو فإن ظهور الأرواح في صورة مرئية أصبح الآن معروفاً. وقد قص علماء الروح عجائب وغرائب، وأصبح في طوقهم أن يظهروا الروح في صور بشرية، وصور نورية، وتخاطبهم حين التنويم المغناطيسي، وإذا صح ذلك للعلة، فليكن ذلك للقديسين والأنبياء بالأولى بطريق يشاكل مقامهم. ولا تتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلي والمتجلى عليه. وظهوره في صورة مرئية يرجع إلى قوته وشدته. وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ يرجع إلى قوته العلمية.

ولما كان الإنسان كثيراً ما يظن أنه قد تخيل ما رآه، ويكذب قلبه ما ظهر له،

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

حتى قال علماء الأرواح: إنهم لما خاطبوا الأرواح قالت لهم: إنكم كثيراً ما يظهر لكم عجائب روحية، فتظنونها من الوهم، وتنسبونها إلى خداع الحواس.. أعقب سبحانه هذا بما دل على أنه ﷺ لم يقم بنفسه أن هذا تخيل، ولا أنه وهم، فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾؛ أي: ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام؛ أي: إن فؤاده ﷺ ما قال لما رآه ببصره: «لم أعرفك»، ولو قال ذلك لكان كاذباً. لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره.

والخلاصة: أنه لما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ أكد هذا المعنى، وفصله بقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ ليبين أنه ليس من الشعر، ولا من الكهانة في شيء. ولما قال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾، وذكر قيامه بصورته الحقيقية أكد أن مجيئه بصورة دحية الكلبي لا يعمي وصفه. إذ قد عرفه بشكله الحقيقيّ من قبل، فلا يشتبه عليه. وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ تتميم لحديث نزوله عليه السلام، وإتيانه بالمنزل. وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ بين به أنه لما عرفه وحققه لم يكذبه فؤاده بعد ذلك في أنه جبريل، ولو تصور بغير تلك الصورة.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ للاستفهام التقريري التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف. والتقدير: أتكذبون محمداً ﷺ أيها المشركون، فتجادلونه على ما يراه معاينة من صورة جبريل عليه السلام وغيره، وذلك أنهم جادلوه حين أسري به، فقالوا: صف لنا مسجد بيت المقدس؛ أي: فأتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما شاهده وعلمه.

وقرأ الجمهور: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾؛ أي: أتجادلونه على شيء رآه ببصره، وأبصره. وعدى بعلى لما في الجدال من المغالبة. وجاء ﴿يَرَىٰ﴾ بصيغة المضارع وإن كانت الرؤية قد مضت إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعد. وقرأ علي، وعبد الله، وابن عباس، والجحدري، ويعقوب، وابن سعدان، وحمزة، والكسائي: ﴿أفتَمْرُونَه﴾ بفتح التاء وسكون الميم، مضارع مريت؛ أي: جحدت، يقال: مريته حقه إذا جحدته. وقرأ عبد الله فيما حكى ابن خالويه، والشعبي فيما ذكر شعبة ﴿أَفَتُمْرُونَه﴾ بضم التاء وسكون الميم، مضارع أمريت؛ أي: أتريبونه، وتشكون فيه. قال أبو حاتم: وهو غلط.

وقال الحسن البصري رحمه الله، وجماعة[1]: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾؛ أي: علمه الله. وهو وصف من الله نفسه بكمال القدرة والقوة. ﴿ذو مرة﴾؛ أي: ذو إحكام الأمور والقضايا. وبين المكان الذي علمه فيه بلا واسطة، فقال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ محمد ﷺ. وهو بالأفق الأعلى؛ أي: فوق السموات. ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ محمد إلى ربه فتدلى؛ أي: تزايد في القرب إلى ربه ﴿فَكَانَ﴾ مقدار ما بينه وبين ربه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾؛ أي: مقدار ما بين قابي قوس. وهو كناية عن شدة القرب. ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾؛ أي: بل أدنى، وأقرب من ذلك ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ الله سبحانه ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿ما أوحى﴾ من أحكام الدين، ومن خصائص الكرم والجود.

ويدل على أن ضمير ﴿دَنَا﴾ يعود ويرجع إليه ﷺ أنه قال في رواية «لما أسري بي إلى السماء قربني ربي حتى كان بيني وبينه كقاب قوسين أو أدنى، قيل لي: قد جعلت أمتك آخر الأمم لأفضح الأمم عندهم؛ أي: بوقوفهم على أخبارهم، ولا أفضحهم عند الأمم لتأخرهم عنهم». ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾؛ أي: فؤاد محمد ﷺ ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾. من ذات ربه، ومن عجائب الأمور الغيبية، ومن الألطاف عليه وعلى أمته. وقال أبو علي الفارسي في هذه الآية قولا يطول شرحه، وقصاراه: يرجع إلى أنه تعالى ستر بعض ما أوحى إلى نبيّه عن الخلق لما علم أن علمهم بذلك يفترهم عن السير في طريق العبودية اتكالاً على محض الربوبية. ولهذا قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، حيث قال معاذ: أأخبر الناس بذلك يا رسول الله، فقال: «لا تخبرهم بذلك لئلا يتكلوا»، انتهى.

لاَ يَكْتُمُ ٱلسِّرَّ إلاَّ كُلُّ ذِيْ خَطَرٍ ... وَالسِّرُّ عِنْدَ كِرَامِ ٱلنَّاسِ مَكْتُوْمُ
وَٱلسِّرُّ عِنْدِيَ فِيْ بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ ... قَدْ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ وَٱلْبَابُ مَخْتُوْمُ

وقد قيل:

بَيْنَ ٱلْمُحِبِّيْنَ سِرٌّ لَيْسَ يُفْشِيْهِ ... قَوْلٌ وَلاَ عَمَلٌ لِلْخَلْقِ يَحْكِيْهِ
سِرٌّ يُمَازِجُهُ أُنْسٌ يُقَابِلُهُ ... نُوْرٌ تَحَيَّرَ فِيْ بَحْرٍ مِنَ ٱلتِّيْهِ

وعبارة «الخازن»: قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ قرىء بالتشديد؛ أي: ﴿ما

---

(١) روح البيان.

كذَّب﴾ قلب محمد ﷺ ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾؛ أي: بعينه تلك الليلة، بل صدقه، وحققه، وقرىء بالتخفيف؛ أي: ما كذب فؤاد محمد الذي رآه، بل صدقه. والمعنى: ما كذب الفؤاد فيما رأى.

واختلفوا في الذي رآه فقيل: رأى جبريل. وهو قول ابن عباس، وابن مسعود، وعائشة. وقيل: هو الله عز وجل. ثم اختلفوا في معنى رؤية الله، فقيل: جعل بصره في فؤاده، وهو قول ابن عباس.

عن ابن عباس ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾. قال: رآه بفؤاده مرتين. وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه حقيقة. وهو قول أنس بن مالك، والحسن، وعكرمة. قالوا: رأى محمد ربه عز وجل. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله عز وجل اصطفى إبراهيم بالخلة، واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمداً بالرؤية. وقال كعب: إنَّ الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلم موسى مرتين، ورآه محمد مرتين. أخرجه الترمذي بأطول من هذا.

وكانت عائشة تقول: لم ير رسول الله ﷺ ربه، وتحمل الآية على رؤية جبريل. وعن مسروق قال: قلت لعائشة: يا أماه هل رأى محمد ربه، فقالت: لقد قَفَّ شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن، فقد كذب؟ من حدثك أن محمداً رأى ربه، فقد كذب ثم قرأت ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، ومن حدثك أن محمداً كتم أمراً فقد كذب، ثم قرأت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾. ولكنه رأى جبرئيل في صورته مرتين. أخرجاه في «الصحيحين».

عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه».

قوله عز وجل: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ يعني: أفتجادلونه على ما يرى. وذلك أنهم جادلوه حين أسري به، وقالوا: صف لنا بيت المقدس، وأخبرنا عن عيرنا في الطريق، وغير ذلك مما جادلوه به.

والمعنى: أفتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما رآه وعلمه.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد رأى محمد جبريل عليهما السلام في

صورته التي خلق عليها، حالة كون جبريل نازلا من السماء ﴿نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ وذلك أنه رآه في صورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ قال: رأى جبريل، وعلى قول ابن عباس يعني: نزلة أخرى هو أنه كانت للنبي ﷺ في تلك الليلة عرجات لمسألة التخفيف من أعداد الصلوات، فيكون لكل عرجة نزلة، فرأى ربه عز وجل في بعضها، وروي عن ابن عباس: أنه رأى ربه بفؤاده مرتين. وعنه: أنه رآه بعينه. انتهى من «الخازن».

وعبارة «الروح»: قوله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ الضمير البارز في «رآه» جبريل، و﴿نَزۡلَةً﴾ منصوب على الظرفية نصب الظرف الذي هو مرة، لأن الفعلة اسم للمرة من الفعل، فكانت في حكمها.

والمعنى: وبالله لقد رأى محمد جبريل عليهما السلام على صورته الحقيقية مرة أخرى من النزول. وذلك أنه كان للنبي ﷺ في ليلة المعراج عرجات لمسألة التخفيف من أعداد الصلوات المفروضة، فيكون لكل عرجة نزلة، فرأى جبريل في بعض تلك النزلات.

﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ وهو مقام جبريل. وكان قد بقي هنا عند عروجه ﷺ إلى مستوى العرش، وقال: «لو دنوت أنملة لاحترقت». قال النبي ﷺ: «رأيته عند سدرة المنتهي عليه ست مئة جناح، يتناثر منه الدر والياقوت». وقيل: رأى محمد ربه مرة أخرى بفؤاده عند سدرة المنتهى. و﴿عِندَ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً برأى، وأن يكون حالاً من المفعول المراد به: جبريل؛ لأنَّ جبريل لكونه مخلوقا يجوز أن يراه النبي ﷺ في مكان مخصوص. وهو سدرة المنتهى. وهي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش، ثمرها كقلال هجر، وورقها كآذان الفيلة، ينبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله سبحانه في كتابه يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها. و﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ مصدر ميمي بمعنى الانتهاء، كما قال الزمخشري، أو اسم مكان بمعنى موضع الانتهاء، كأنها في منتهى الجنة. وقيل: ينتهي إليها الملائكة، ولا يتجاوزونها؛ لأنّ جبريل رئيس الملائكة إذا لم يتجاوزها فبالحري أن لا يتجاوزها غيره. فأعلاها لجبريل كالوسيلة لنبينا ﷺ. فكما أن خواص الأمة

يشتركون مع النبي ﷺ في جنة عدن بدون أن يتجاوزوا إلى مقامه المخصوص به، فكذا الملائكة يشتركون مع جبريل في السدرة بدون أن يتعدّوا إلى ما خص به من المكان، وقيل: إليها ينتهي علم الخلائق، وأعمالهم، ولا يعلم أحد ما وراءها.

﴿عِندَهَا﴾؛ أي: عند تلك السدرة ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾؛ أي: جنة تعرف بجنة المأوى. وسميت جنة المأوى؛ لأنه أوى إليها آدم. وقيل: إن أرواح المؤمنين تأوى إليها، وتنزل فيها. وقرأ الجمهور[1] ﴿جَنَّةُ﴾ برفع جنه، على أنها مبتدأ وخبرها الظرف المتقدم. والجملة حال من ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾. قيل: الأحسن أن يكون الحال هو الظرف، و﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ مرتفع به بالفاعلية، وإضافة الجنة إلى المأوى مثل إضافة مسجد الجامع؛ أي: الجنة التي يأوي إليها المتقون. وقرأ علي، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وابن الزبير، وأنس، وزر بن حبيش، ومحمد بن كعب، وقتادة، ومجاهد، وأبو سبرة الجهني ﴿جَنَّهُ المأوى﴾ بهاء الضمير، وجن فعل ماض من جن يجن، والهاء ضمير النبي ﷺ، مفعول به، و﴿ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ فاعل؛ أي: عندها ستره إيواء الله تعالى، وجميل صنعه. وقيل: المعنى: ضمه المبيت والليل. وقيل: جنه بظلاله، ودخل فيه. وقال الأخفش: أدركه المأوى، كما تقول: جنه الليل؛ أي: ستره، وأدركه. وردت عائشة وصحابة معها هذه القراءة، وقالوا: أَجَنَّ الله من قرأها.

ومعنى الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ...﴾ إلخ؛ أي[2]: ولقد رأى النبي ﷺ جبريل في صورته الأصلية التي خلقه الله عليها عند شجرة النبق التي ينتهي إليها علم كل عالم، وما ورائها لا يعلمه إلا الله، قاله ابن عباس. وقد يكون المراد بالمنتهى: الله عزّ وجلّ؛ أي: سدرة الله الذي إليه المنتهى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾. وعند هذه السدرة الجنّة التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة، قاله الحسن البصري.

وعلينا أن نؤمن بهذه الشجرة كما وصفها الله سبحانه، ولا نعين مكانها، ولا نصفها بأوصاف أكثر مما وصفها به الكتاب الكريم، إلا إذا ورد عن المعصوم ﷺ ما يبين ذلك، ويثبت لدينا بالتواتر؛ لأن ذلك من علم الغيب الذي لم يؤذن لنا بعلمه. روى أحمد، ومسلم، والترمذي، وغيرهم أنها في السماء السابعة، ثمرها

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

كقلال هجر، وأوراقها مثل آذان الفيلة يسير الراكب في ظلها سبعين خريفاً لا يقطعها. والمشاهد في الدنيا أن النبات يعيش إذا وجد التراب والماء والهواء، ولكن لا عجب فالله يخلقه في أي مكان شاء، كما أخبر عن شجرة الزقّوم أنها نبت في أصل الجحيم.

وقصارى ما سلف: أنّ النبيّ ﷺ رأى جبريل في صورته الحقيقية مرّتين: مرةً، وهو في غار حراء في بدء النبوة، والثانية في ليلة المعراج، ولم يكن ذلك في الأرض، بل كان عند شجرة نبق عن يمين العرش. وهي منتهى الجنّة؛ أي: آخرها، وعلم الملائكة ينتهي إليها.

ومن المعلوم[1]: أنَّ الإسراء كان قبل الهجرة بسنة وأربعة أشهر أو بثلاث سنين على الخلاف، والرؤية الأولى كانت في بدء البعثة، فبين الرؤيتين نحو عشر سنين.

قال الماوردي في «معاني القرآن»: فإن قيل: لِمَ اختيرت السدرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأنَّ السدرة تختص بثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعام لذيذ، ورائحة ذكيّة. فشابهت الإيمان الذي يجمع قولاً، وعملاً، ونيّةً. فظلها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النية لكونه، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره.

وقوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾ ويغطيها ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾؛ أي: ما غطاها زيادة في تعظيم السدرة. و﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق برأى السابق، لا لما بعده من الجملة المنفية. فإن ﴿مَا﴾ النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. والغشيان بمعنى التغطية والستر، ومنه: الغواشي وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة، أو للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد.

والمعنى: وعزّتي وجلالي لقد رأى محمد جبريل عند السدرة وقت ما غشَّاها، وغطَّاها، وسترها، وعلاها ما لا يكتنهه الوصف ولا يفي به البيان كيفاً ولا كمًّا.

---

(١) الفتوحات.

وفي الحديث: «وغشيها ألوان لا أدري ما هي، فليس أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها». وعنه ﷺ: «رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب، ورأيت على كل ورقة ملكاً قائماً يسبح الله». وعنه ﷺ: «يغشاها رفرف»؛ أي: جماعة من طيور خضر. وقيل: يغشاها فراش أو جراد من ذهب. وقيل: يغشاها سبحات أنوار الله حين تجلَّى لها كما تجلَّى للجبل، لكنها كانت أقوى من الجبل، حيث لم يصبها ما أصابه من الدك. وذلك لأن الجبل كان في عالم الملك الضعيف، والسدرة في عالم الملكوت القوي، ولذا لم يخر ﷺ هناك مغشياً عليه حين رأى جبريل كما غشي عليه حين رآه في الأفق الأعلى لقوة التمكين، وغاية لطافة الجسد الشريف. وقيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة أمثال الغربان حين يقمن على الشجر، يعبدون الله تعالى عندها أو يزورونها متبركين بها، كما يزور الناس الكعبة. وقيل: غير ذلك.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾؛ أي: ما مال بصر رسول الله ﷺ أدنى ميل عما رآه في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة المقدسة الشريفة يميناً ولا شمالاً ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾؛ أي: وما جاوز ما أمر برؤيته مع ما شاهد هناك من الأمور المذهلة مما لا يحصى، بل أثبته على ما أمر به إثباتاً صحيحاً متيقناً.

والمعنى(١): أي(٢) ولقد رأى محمد ﷺ جبريل عند السدرة، حين غطى السدرة ما غطاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله، ومن الإشراق، والحسن من الملائكة. وقد أبهم ذلك الكتاب الكريم، فعلينا أن نكتفي بهذا الإبهام، ولا نزيده إيضاحاً بلا دليل قاطع ولا حجة بينة. ولو علم الله سبحانه الخير لنا في البيان لفعل. ﴿مَا زَاغَ﴾، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾؛ أي: ما مال بصر رسول الله ﷺ عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها وما جاوزها إلى رؤية ما لم يؤمر برؤيته.

والخلاصة: أنه رأى رؤية المستيقن المحقق لما رأى.

وعزتي وجلالي ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ محمد ﷺ ليلة المعراج ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ أي: الآيات التي هي كبراها وعظماها، فأري من عجائب الملك

---

(١) المراغي.

والملكوت ما لا يحيط به نطاق العبارة. فقوله[1]: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾ حال قدمت على صاحبها. وكلمة ﴿مِنْ﴾ للبيان، لأنّه المناسب لمرام المقام. وهو التعظيم والمبالغة. ولذا لم تحمل على التبعيض على أن يكون هو المفعول. ويجوز أن يكون ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ صفة للآيات، والمفعول محذوف؛ أي: شيئاً عظيماً من آيات ربه. أي: ولقد رأى الآيات الكبرى من آيات ربه، وعجائبه الملكوتية. روى البخاري، وابن جرير، وابن المنذر في جماعة آخرين عن ابن مسعود: أنه قال في الآية: «رأى رفرفاً أخضر من الجنة سد الأفق»، أي: فجلس عليه، وجاوز سدرة المنتهى. والرفوف: البساط. وهو صورة همته البسيطة العريضة المحيطة بالآفاق مطلقاً؛ لأنّه ﷺ في سفر العالم البسيط، ولا يصل إليه إلا من له علو الهمة مثله. وقد قال حسّان بن ثابت رضي الله عنه في نعته ﷺ:

لَهُ هِمَمٌ لاَ مُنْتَهَىٰ لِكِبَارِهَا وَهِمَّتُهُ ٱلصُّغْرَىٰ أَجَلُّ مِنَ ٱلدَّهْرِ

وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال في الآية: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ قال: رأى جبريل في صورته له ست مئة جناح، ورأى في تلك الليلة طوائف الملائكة، وسدرة المنتهى، وجنة المأوى، وما في الجنان لأهل الإيمان، وما في النيران لأهل الطغيان والظلم والأنوار، وما يعجز عنه الأفكار، وتحار فيه الأبصار. ومن ذلك ما رآه في السموات من الأنبياء عليهم السلام إشارة بكل نبي إلى أمر دقيق جليل، وحالة شريفة، كما ذكره الإمام السهيلي في «الروض الأنف».

وعلينا أن لا نحضر ما رآه في شيء بعينه بعد أن أبهمه القرآن. إذ هو قد رأى من الآيات الكبرى ما يجل عنه الحصر والاستقصاء.

فصل

نبذة من كلام الشيخ محيي الدين النواوي رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ وهل رأى نبينا محمد ﷺ ربه عز وجل ليلة الإسراء؟. قال القاضي عياض: اختلف السلف والخلف هل رأى نبينا ﷺ ربه ليلة الإسراء، فأنكرته عائشة كما وقع في «صحيح مسلم»، وجاء مثله عن أبي هريرة،

---

(١) روح البيان.

وجماعة، وهو المشهور عن ابن مسعود، وإليه ذهب جماعة من المحدثين والمتكلمين.

وروي عن ابن عباس: أنه رآه بعينه، ومثله عن أبي ذر، وكعب، والحسن، وكان يحلف على ذلك. وحكي مثله عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وأحمد بن حنبل.

وحكى أصحاب المقالات عن أبي الحسن الأشعري، وجماعة من أصحابه: أنه رآه. ووقف بعض مشايخنا في هذا، وقال: ليس عليه دليل واضح، ولكنه جائز. ورؤية الله عز وجل في الدنيا جائزة. وسؤال موسى إياها دليل على جوازها. إذ لا يجهل نبي ما يجوز أو يمتنع على ربه.

واختلفوا في أن نبينا ﷺ هل كلم ربه ليلة الإسراء بغير واسطة أم لا؟. فحكي عن الأشعري، وقوم من المتكلمين أنه كلمه. وعزا بعضهم هذا القول إلى جعفر بن محمد، وابن مسعود، وابن عباس. وكذا اختلفوا في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾. فالأكثر على أن معنى هذا الدنو والتدلي منقسم بين جبريل والنبي ﷺ، أو مختص بأحدهما من الآخر، أو من سدرة المنتهى. وذكر ابن عباس، والحسن، ومحمد بن كعب، وجعفر بن محمد، وغيرهم أنه دنو من النبي ﷺ إلى ربه، أو من الله. فعلى هذا القول يكون الدنو والتدلي متأولاً ليس على وجهه، بل كما قال جعفر بن محمد: الدنو من الله لا حد له، ومن العباد بالحدود. فيكون معنى دنو النبي ﷺ وقربه منه ظهور عظيم منزلته لديه، وإشراق أنوار معرفته عليه، وإطلاعه من غيبه، وأسرار ملكوته على ما لم يطلع عليه سواه. والدنو من الله تعالى له إظهار ذلك، وعظيم بره وفضله لديه. ويكون قوله تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ هنا عبارة عن لطف المحل، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من نبينا محمد ﷺ، ومن الله تعالى إجابة الرغبة، وإنابة المنزلة. هذا آخر كلام القاضي عياض.

قال الشيخ محيي الدين النواوي: وأما صاحب «التحرير»، فإنه اختار إثبات الرؤية قال: والحجج في المسألة وإن كانت كثيرة، ولكن لا نتمسك إلا بالأقوى منها. وهو حديث ابن عباس: «أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين». وعن عكرمة قال: سئل ابن عباس

هل رأى محمد ﷺ ربّه؟ قال: نعم. وقد روي بإسناد لا بأس به عن شعبة عن قتادة عن أنس قال: رأى محمد ربّه عزّ وجل. وكان الحسن يحلف بالله لقد رأى محمد ﷺ ربّه عزّ وجل. والأصل في المسألة حديث ابن عباس حبر هذه الأمة وعالمها، والمرجوع إليه في المعضلات. وقد راجعه ابن عمر في هذه المسألة، وراسله هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ فأخبره أنه رآه. ولا يقدح في هذا حديث عائشة؛ لأن عائشة لم تخبر أنها سمعت النبي ﷺ يقول: لم أر ربي، وإنما ذكرت ما ذكرت متأولة لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾، ولقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾. والصحابي إذا قال قولاً، وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجّةً. وإذا صحت الروايات عن ابن عباس: أنه تكلم في هذه المسألة بإثبات الرؤية، وجب المصير إلى إثباها، لأنها لسيت مما يدرك بالعقل، ويؤخذ بالظن، وإنما يتلقى بالسمع، ولا يستجيز أحد أن يظن بابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بالظن والاجتهاد.

وقد قال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس: ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس، ثم إن ابن عباس أثبت ما نفاه غيره، والمثبت مقدم على النافي. هذا كلام صاحب «التحرير» في إثبات الرؤية.

قال الشيخ محيي الدين: فالحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه عز وجل بعيني رأسه، ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم. وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه.

ثم إن عائشة لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ، ولو كان معها حديث لذكرته، وإنما اعتمدت على الاستنباط من الآيات. وسنوضح الجواب، فنقول: أما احتجاج عائشة رضي الله عنها بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ فجوابه ظاهر، فإن الإدراك هو الإحاطة، والله لا يحاط به، وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة. وهذا الجواب في نهاية الحسن مع اختصاره. وأما احتجاجها بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا...﴾ الآية، فالجواب عنه من أوجه:

أحدها: أنه لا يلزم مع الرؤية وجود الكلام حال الرؤية، فيجوز وجود الرؤية من غير كلام.

والوجه الثاني: أنه عام مخصوص بما تقدم من الأدلة.

والوجه الثالث: ما قاله بعض العلماء: أن المراد بالوحي هنا: الإلهام والرؤية في المنام، وكلاهما يسمى وحياً. وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ فقال الواحدي وغيره: معناه: غير مجاهر لهم بالكلام، بل يسمعون كلامه سبحانه من حيث لا يرونه. وليس المراد أن هناك حجاباً يفصل موضعاً عن موضع. ويدل على تحديد المحجوب فهو بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب، حيث لم ير المتكلم. وقول عائشة في أوّل الحديث: «لقد قف شعري» فمعناه: قام شعري من الفزع، لكوني سمعت ما لا ينبغي أن يقال. تقول العرب عند إنكار الشيء: قف شعري، واقشعر جلدي، واشمأزت نفسي. وقوله ﷺ في حديث أبي ذرّ: «نور أنى أراه» فهو بتنوين «نور»، وبفتح الهمزة في «أنّى»، وتشديد النون المفتوحة، ومعناه: حجابه نور فكيف أراه. قال الماوردي: الضمير في «أراه» عائد على الله تعالى.

والمعنى: أنّ النور يمنعني من الرؤية، كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار، ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائي وبينه. وفي رواية: رأيت نوراً، معناه: رأيت النور فحسب، ولم أر غيره. وفي رواية: «ذاته نور أنى أراه»، ومعناه: هو خالق النور المانع من رؤيته. فيكون من صفات الأفعال. ومن المستحيل أن تكون ذات الله نوراً، إذ النور من جملة الأجسام، والله يتعالى عن ذلك. هذا مذهب جميع أئمة المسلمين، والله أعلم. انتهى من «الخازن».

ولما قص الله سبحانه هذه الأقاصيص، قال للمشركين موبخاً لهم ومقرعاً: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري[1]، داخلة على محذوف. والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمته، وإحكام قدرته، ونفاذ أمره في الملأ الأعلى، وما تحت الثرى، وما بينهما أنكرتم وحدانية الله تعالى فرأيتم؛ أي: ظننتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وذلتها شركاء الله

---

(١) الفتوحات بتصرف.

سبحانه، وقيل: الهمزة للإستفهام الاستخباري المضمن للإنكار، مقدمة من تأخير. والفاء: للإفصاح، والتقدير: إذا سمعتم ما أخبرته لكم من آثار كمال عظمة الله سبحانه في ملكه، وملكوته، وجلاله، وجبروته، ونفاذ أمره في العالم الأعلى وفيما تحت الثرى، وأردتم بيان ما تستحقون من التوبيخ والتقريع على شرككم، فأقول لكم: أرأيتم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: أخبروني عن حال آلهتكم هذه التي اتخذتموها معبودات، وتمكنتم على عبوديتها هل وجدتم فيها صفة من صفات الإلهية من الإيجاد، والإعدام، والنفع، والضر، وأمثالها؟ لا والله. بل اتخذتموها آلهة لغاية ظلوميتكم على أنفسكم، ونهاية جهوليتكم بالإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وقيل: المعنى: أفتظنون أن عبادتكم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى في الدنيا تنفعكم في الآخرة، أي: أخبروني عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، هل لها قدرة توصف بها؟ وهل أوحت إليكم شيئاً كما أوحى الله إلى محمد، أم هي جمادات لا تعقل ولا تنفع. ثم ذكر هذه الأصنام الثلاثة التي اشتهرت في العرب، وعظم اعتقادهم فيها. قال الواحديّ وغيره: وكانوا يشتقون لها أسماء من أسماء الله تعالى. فقالوا من الله: اللات، ومن العزيز: العزّى. وهي تأنيث الأعز بمعنى العزيزة، ومناة من منى الله الشيء إذا قدره، وكان اللات بالطائف. وقيل: بنخلة، كانت قريش تعبده. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان اللات رجلاً يلت السويق للحجاج. قيل: فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه.

وقيل: كان في رأس جبل له غنيمة يسلأ منها السمن، ويأخذ منها الأقط، ويجمع رسلها، ثم يتخذ حيساً، فيطعم الحجاج. وكان ببطن نخلة، فلما مات عبدوه، وهو اللات، وقيل: كان رجلاً من ثقيف يقال له: صرمة بن غنم، وكان يسلأ السمن، فيضعه على صخرة، فتأتيه العرب، فتَلُتُّ به أسوقهم. فلما مات الرجل حولتها ثقيف إلى منازلها، فمرت الطائف على موضع اللات.

وأما العزى: فهو تأنيث الأعز، كانت لغطفان. وهي سمرة، كانوا يعبدونها، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فقطعها، فجعل يضربها بالفأس، وهو يقول:

يَـا عُـزَّىٰ كُـفْـرَانَـكِ لاَ سُـبْـحَـانَـكِ   إِنِّـــيْ رَأَيْـــتُ ٱللهَ قَـــدْ أَهَـــانَـــكِ

فخرجت من أصلها شيطانة ناشرة شعرها، واضعة يدها على رأسها، وهي تولول؛ أي: تقول: يا ويلاه، فجعل خالد يضربها بالسيف، حتى قتلها، فأخبر رسول الله ﷺ؛ فقال: تلك لن تعبد أبداً. وفي «القاموس»: العزى: صنم أو سمرة، عبدتها غطفان، أول من اتخذها ظالم بن أسعد الغطفاني فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال، بني عليها بيتاً، وسماه بسا، وكانوا يسمعون فيها الصوت، فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فهدم البيت، وأحرق السمرة، انتهى. وقيل: هي صنم لغطفان، وضعها لهم أسعد بن ظالم الغطفاني.

وقيل: إنه قدم مكة، فرأى الصفا والمروة، ورأى أهل مكة يطوفون بينهما، فرجع إلى بطن نخلة، فقال لقومه: إنّ لأهل مكة الصفا والمروة وليستا لكم، ولهم إله يعبدونه وليس لكم. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: أنا أصنع لكم كذلك، فأخذ حجراً من الصفا، وحجراً من المروة، ونقلهما إلى نخلة، فوضع الذي أخذ من الصفا، فقال: هذا الصفا، ثم وضع الذي أخذ من المروة، وقال: هذه المروة، ثم أخذ ثلاثة أحجار، وأسندها إلى شجرة، وقال: هذا ربكم، فجعلوا يطوفون بين الحجرين، ويعبدون الحجارة الثلاث، حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة، وأمر برفع الحجارة، وأمر خالد بن الوليد بالعزى، فقطعها. وقيل: هي بيت بالطائف، كان تعبده ثقيف.

وأما مناة فصخرة لهذيل وخزاعة، يعبدها أهل مكة. سمّيت مناة لأنّ دماء المناسك تمنى عندها؛ أي: تراق، ومنه: مني. وقالت عائشة رضي الله عنها: في الأنصار كانوا يهلون لمناة، وكانت حذ وقديد. وقيل: هي بيت بالمشلل، كانت بنو كعب تعبده. وفي «إنسان العيون»: مناة صنم، كان للأوس والخزرج، أرسل رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه في عشرين فارساً إلى مناة ليهدم محلها، فلما وصلوا إلى ذلك الصنم قال السادن لسعد: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد إلى ذلك الصنم، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس، تدعو بالويل، فضرب صدرها، فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصاتك، فضربها سعد، فقتلها، وهدم محلها، انتهى.

وقوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وصف لمناة، وصفها بأنها ثالثة تأكيداً؛ لأنّها لما عطفت عليهما علم أنها ثالثتهما. والأخرى صفة ذمٍّ لها، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار؛ أي: مناة الحقيرة الذليلة، لأنَّ الأخرى تستعمل في الضعفاء، كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾؛ أي: ضعفاؤهم لرؤسائهم. وذلك لأن اللات كان وثناً على صورة آدمي، والعزى صورتها صورة شجرة سمرة. ومناة صورتها صورة صخرة. فالآدمي أشرف من النبات، وهو أشرف من الجماد، وهو متأخر.

فالمناة في أخريات المراتب. قال أبو البقاء: فالوصف بالأخرى للتأكيد. وقد استشكل وصف الثالثة بالأخرى، والعرب إنما تصف به الثانية. فقال الخليل: إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآي، كقوله: ﴿مآرب أخرى﴾. وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير. والتقدير: أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة.

وقرأ الجمهور(١): ﴿ٱللَّٰتَ﴾ خفيفة التاء. وابن عباس، ومجاهد، ومنصور بن المعتمر، وأبو صالح، وطلحة، وأبو الجوزاء، ويعقوب، وابن كثير في رواية بشدها. وقرأ الجمهور ﴿مناة﴾ مقصوراً، فقيل: وزنها فعلة، واشتقاقها من مني يمني؛ أي: صب. لأن دماء النسائك تصب عندها يتقربون بذلك إليها. وقرأ ابن كثير ﴿ومناءة﴾ بالمد والهمزة، ووزنها مفعلة، والألف منقلبة من واو، والهمزة أصل؛ لأنها مشتقة من النوء. وهو المطر؛ لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها. والقصر أشهر، وهي قراءة الجمهور.

والمعنى(٢): أي فبعد أن سمعتم ما سمعتم من آثار كمال الله عزّ وجلّ، وعظمته في ملكه، وملكوته، وجلاله، وجبروته، وأن الملائكة على رفعة مقامهم، وعلو قدرهم ينتهون إلى السدرة، ويقفون عندها تجعلون هذه الأصنام على حقارة شأنها شركاء لله مع ما علمتم من عظمته. وفي هذا تقريع شديد، وتوبيخ عظيم، وتأنيب لا إلى غاية. وإن العاقل لا ينبغي أن يخطر بباله مثل هذا، ويمتهن رأيه إلى هذا الحد.

وبعد أن أنبهم على سخف عقولهم، وسفاهة أحلامهم بعبادتهم الأصنام التي

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

كانوا يزعمون أنها هياكل للملائكة، والملائكة بنات الله.. وبخهم على نسبة البنات إليه سبحانه، وهم لا يرضونها لأنفسهم، فقال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ الاستفهام فيه[1] للتوبيخ المبني على التوبيخ الأول؛ أي: هل لكم أيها المشركون الذكر الكامل، وله سبحانه الأنثى الناقصة؟ حيث قلتم: الملائكة بنات الله مع كراهتكم البنات لأنفسكم. واختار لفظ الأنثى على البنات لوقوعه رأس فاصلة، ولأنه الذي يذكر في مقابلة الذكر، لا البنات؛ لأن البنات إنما تذكر في مقابلة البنين.

وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية. ﴿إِذًا﴾؛ أي: إذ جعلتم البنات له والبنين لكم ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾؛ أي: جائرة معوجة، حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه، وتجعلون لأنفسكم ما تحبون.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ بكسر الضاد من غير همز. والظاهر: أنه صفة على وزن فعلى بضم الفاء، كسرت لتصح الياء. ويجوز أن يكون مصدراً على وزن فعلى كذكرى، ووصف به. وقرأ ابن كثير ﴿ضئزى﴾ بالهمزة، فوجه على أنه مصدر، كذكرى. وقرأ زيد بن عليّ ﴿ضَيْزَى﴾ وبفتح الضاد وسكون الياء، ويوجه على أنه مصدر كدعوى، وصف به، أو وصف كسكرى. ويقال: ضوزى بالواو وبالهمز.

والمعنى[3]: أي أتجعلون له ولداً وتجعلون هذا الولد أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكران على علم منكم أنَّ البنات ناقصات، والبنين كاملون، والله كامل العظمة. فكيف تنسبون إليه الناقص. وأنتم على نقصكم تنسبون إلى أنفسكم الكامل. تلك القسمة إذا كانت على تلك الحالة قسمة جائرة، غير مستوية، ناقصة غير تامة. لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها.

ثم أنكر عليهم ما ابتدعوه من الكذب والإفتراء في عبادة الأصنام، وتسميتها

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

آلهة، فقال: ﴿إِنْ هِيَ﴾ الضمير للأصنام؛ أي: ما هذه الأصنام باعتبار الألوهية التي تدعونها؛ أي: باعتبار إطلاق اسم الإله ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾؛ أي: أسماء محضة ليس تحتها مسميات؛ أي: ما تنبىء هي عنه من معنى الألوهية، ليس بشيء ما أصلاً. كما إذا أردت أن تحقر من هو ملقب بما يشعر بالمدح، وفخامة الشأن تقول: ما هو إلا اسم.

﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ صفة لأسماء[1]، وضمير «ها» لها، لا للأصنام. والمعنى: جعلتموها أسماء، لا جعلتم لها أسماء. فإن التسمية نسبة بين الاسم والمسمى. فإذا قيست إلى الاسم فمعناها: جعله اسماً للمسمى، وإذا قيست إلى المسمى فمعناها: جعله مسمى للاسم. وإنما اختير هنا المعنى الأول من غير تعرض للمسمى لتحقيق أن تلك الأصنام التي يسمونها آلهة أسماء مجردة، ليس لها مسميات قطعاً كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ لا أنَّ هناك مسميات، لكنها لا تستحق التسمية، أي: ما هي إلا أسماء خالية من المسميات وضعتموها. ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة، ليس فيها شيء من معنى الألوهية التي تدعونها. لأنها لا تبصر، ولا تسمع، ولا تعقل، ولا تفهم، ولا تضر، ولا تنفع. فليست إلا مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم قلد الآخر فيها الأول، وتبع في ذلك الأبناء الآباء. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾؛ أي: بصحة تسميتها ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: برهان تتعلقون به، ولا حجة. في جميع القرآن ﴿أَنزَلَ﴾ بالألف، إلا في الأعراف، فإنه نزل بالتشديد.

والمعنى[2]: أن هذه الأسماء التي تسمونها آلهة هي أسماء فقط، وليس لها مسميات هي آلهة البتة كما تزعمون، وتعتقدون أنها تستحق أن يعكف على عبادتها، وتقديم القرابين إليها. وليس لكم من حجة ولا برهان تؤيدون به ما تقولون. وإنما قلد فيها الآخر الأول، وتبع في ذلك الأبناء الآباء. ولا يخفي ما في ذلك من التحقير، كما تقول: ما هو إلا اسم إذا لم يكن مشتملاً على صفة معتبرة لها شأن، وقدر.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ فيه[1] التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن تعداد قبائحهم اقتضى الإعراض عنهم، وحكاية جناياتهم لغيرهم، أي: ما يتبعون فيما ذكر من التسيمة والعلم بموجبها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الذي لا يغني من الحقّ شيئاً، أي: إلا توهم أن ما هم عليه حق توهماً باطلاً ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾؛ أي: وما تشتهيه أنفسهم الأمّارة بالسوء، من غير التفات إلى ما هو الحقّ الذي يجب الإتباع له. فما موصولة، ويجوز كونها مصدرية. والألف واللام بدل من الإضافة، وهو معطوف على الظنّ.

وقرأ الجمهور:[2] ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ بياء الغيبة. وقرأ عيسى بن عمر، وأيوب، وابن السميقع بالفوقية على الخطاب. ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود، وابن عباس، وطلحة، وابن وثّاب، والأعمش.

وفي «فتح الرحمن»: قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ذكره هنا[3]، وفيما بعد، وليس بتكرار. لأنَّ الأول متصل بعبادتهم الأصنام اللات، والعزى، ومناة، والثاني بعبادتهم الملائكة، والظن فيها مذموم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا يقوم مقام العلم. فإن قلت: كيف لا يقوم مقامه مع أنه يقوم مقامه في كثير من المسائل، كالقياس؟.

قلت: المراد هنا: الظن الحاصل من اتباع الهوى، دون الظن الحاصل من الاستدلال والنظر بقرينة قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ انتهى.

والمعنى[4]: أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظوظ نفوسهم في رياستهم، وتعظيم آبائهم الأقدمين.

والخلاصة: إنكم تعبدون هذه الأصنام توهماً منكم أنّ ما عليه أباؤكم حق، واتباعاً لشهوات أنفسكم.

ثم بين أنه ما كان ينبغي لهم ذلك، لأنّه قد جاءهم ما ينبههم إلى سوء رأيهم

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) فتح الرحمن.
(٤) المراغي.

وعظيم غفلتهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ حالٌ[1] من فاعل ﴿يَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: يتبعون الظن، وهوى النفس في حال تنافي ذلك. وهي مجيء الهدى من عند ربهم. أو اعتراض، لأن قوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ متصل بقوله: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾. والأول أولى. وأيًّا ما كان ففيه تأكيد لبطلان إتباع الظن. وهوى النفس، وزيادة تقبيح لحالهم. فإن اتباعهما من أي شخص كان قبيح وممن هداه الله بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب أقبح. فالهدى القرآن والرسول، ولم يهتدوا بهما.

والمعنى: كيف يتبعون ذلك، والحال أنه قد جاءهم ما فيه هدى لهم من عند الله تعالى على لسان رسوله الذي بعثه الله بين ظهرانيهم وجعله من أنفسهم؛ أي[2]: هم يتبعون ما كان عليه أسلافهم، وينقادون إلى آرائهم، وقد أرسل الله إليهم الرسول بالحق المنير، والحجة الواضحة، وقد كان ينبغي أن يكون لهم في ذلك مزدجر، لكنهم أعرضوا عنه، وتولوا كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة.

وبعد أن بين أن جعلهم الأصنام شركاء لله لا يستند إلى دليل، بل لا يستند إلا إلى التشهي والهوى وإتباع الظن ذكر أنها مع هذا لا تجديهم نفعاً. فهي لا تشفع لهم عند الله، ولا يظفرون منها بجدوى، فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ و﴿أَمْ﴾ فيه منقطعة تقدر ببل الإضرابية، وهمزة الإنكار والنفي، والتمنّي. تقدير شيء في النفس وتصويره فيها كما سيأتي. فأضرب عن اتباعهم الظن الذي هو مجرد التوهم، وعن اتباعهم هوى الأنفس، وما تميل إليه. وانتقل إلى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم، وتشفع لهم.

والمعنى: بل أيظن الكافر أن له ما يتمنى ويشتهي من شفاعة الأصنام؛ أي:[3] ليس له كل ما يتمناه، وتشتهيه نفسه من الأمور التي من جملتها أطماعهم الفارغة في شفاعة الآلهة، ونظائرها التي لا تكاد تدخل تحت الوجود.

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى ٱلْمَرْءُ يُدْرِكُهُ   تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِي السُّفُنُ

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

ثم علل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾ سبحانه ﴿ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: إن أمور الآخرة والدنيا بأسرها لله عز وجل، فليس لهم معه تعالى أمر من الأمور. ومن جملة ذلك أمنياتهم الباطلة، وأطماعهم الفارغة. فالجملة تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما يتمناه حتماً. فإن اختصاص أمور الآخرة والأولى جميعاً به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون له أمر من الأمور.

والمعنى[1]: أي بل ألهم ما يتمنونه من شفاعة الآلهة يوم القيامة؟ كلا إنَّ هذا لن يكون، ولن يجديكم ذلك فتيلاً ولا قطميراً، فإنَّ كل ما في الدنيا والآخرة فهو ملك له تعالى، ولا دخل لهذه الأصنام في شيء منه. وهذا تيئيس لهم من أن ينالوا خيراً من عبادتها، والتقرب إليها، ولا تكون وسيلة لهم عند ربهم.

ثم حرمهم فائدة عبادتها من وجه آخر، فقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ وهذا[2] إقناط لهم مما علقوا به أطماعهم من شفاعة الملائكة لهم، موجب لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولوية. و«كم» خبرية مفيدة للتكثير، محلها الرفع على الابتداء، والخبر هي الجملة المنفية. وجمع الضمير في ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾ مع إفراد الملك باعتبار المعنى، أي: وكثير[3] من الملائكة لا تغني شفاعتهم عند الله شيئاً من الإغناء في وقت من الأوقات، أي: لا تنفع شيئاً من النفع. وهو القليل منه أو شيئاً؛ أي: أحداً. وليس المعنى: أنهم يشفعون فلا تنفع شفاعتهم، بل معناه: أنهم لا يشفعون. لأنه لا يؤذن لهم كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه لهم في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ ويريد أن يشفعوا له ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ عنه، ويراه أهلاً للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان. وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله بمعزل ومن الشفاعة بألف منزل. فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر فما ظنهم بحال الأصنام.

والمعنى[4]: أي وكثير من الملائكة لا تفيد شفاعتهم شيئاً إلا إذا أذن بها

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

(٤) المراغي.

ربهم لمن يشاء، ويريد شفاعتهم له، ويرضى عنه عمله ممن أخلص له في القول والعمل. وإذا كان هذا حال الملائكة، وهم عالم روحي، لهم القرب من ربهم، والزلفى لديه، فما بالكم بأصنام أرضية ميتة، لا روح فيها ولا حياة، فهي بعيدة كل البعد عن الذات الأقدس.

وخلاصة ذلك: أنَّهُ لا مطمع لهم في شفاعة هذه الأصنام، ولا تجديهم نفعاً في هذا اليوم. وقرأ الجمهور[1]: ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾ بإفراد الشفاعة، وجمع الضمير. وقرأ زيد بن عليّ ﴿شفاعته﴾ بإفراد الشفاعة، والضمير. وابن مقسم ﴿شفاعاتهم﴾ بجمعها، وهو اختيار صاحب الكامل؛ أي: القاسم الهذلي. وأفردت الشفاعة في قراءة الجمهور، لأنّها مصدر، ولأنهم لو شفع جميعهم لواحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: لا يصدقون بمجيء يوم القيامة مع ما فيه من الحساب والعقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ المنزهين عن سمات النقصان على الإطلاق؛ أي: كل منهم يسمون كل واحد منهم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ منصوب[2] على أنه صفة مصدر محذوف؛ أي: تسمية مثل تسمية الأنثى. فإنَّ قولهم: الملائكة بنات الله قول منهم: بأن كلا منهم بنته تعالى. وهي التسمية بالأنثى. فاللام في الملائكة للتعريف الاستغراقيّ، وفي تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها في الشناعة، والفظاعة. واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترىء عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً.

قال ابن الشيخ: فإن قيل: كيف يصح أن يقال: إنّهم لا يؤمنون بالآخرة؟ مع أنهم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وكان من عادتهم أن يربطوا مركوب الميت على قبره، ويعتقدون أنه يحشر عليه.

أجيب: بأنهم ما كانوا يجزمون به، بل كانوا يقولون لا نحشر. فإن كان.. فلنا شفعاء بدليل ما حكى الله عنهم: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وأيضاً ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه الذي وردت به الرسل، فهم لا يؤمنون بها على وجهه.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث وما بعده من أحوال الدار الآخرة على الوجه الذي بينته الرسل يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء، وجهالة جهلاء. وهي قولهم: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإنما جعلها مقالة من لا يؤمن للإشارة إلى أنها بلغت من الفظاعة حدًّا لا يمكن معه أن تصدر من موقن بالجزاء والحساب، فقد اشتملت على جريمتين. أولاهما: نسبة الولد إلى الله. ثانيتهما: أن الولد أنثى تفضيلاً لأنفسهم على بارئهم وموجدهم من العدم.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ﴾ حال من فاعل ﴿يسمّون﴾؛ أي: يسمُّونهم أنثى، والحال أنه لا علم لهم بما يقولون أصلاً؛ أي: ليس لهم بذلك برهان، ولا أتى لهم به وحي، حتى يقولوا ما قالوا. وقرىء ﴿وما لهم بها﴾؛ أي: بالملائكة أو التسمية.

ثم أكد نفي علمهم الحق بذلك، فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: ما يتبعون في ذلك ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الفاسد، وليس هذا تكراراً مع ما سبق؛ لأنَّ الأول متصل بعبادتهم اللات والعزى ومناة، وهذا بعبادتهم الملائكة كما سبق بيانه.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ أي[2]: جنس الظن، كما يلوح به الإظهار في مقام الإضمار. ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ من الإغناء. فإن الحق الذي هو عبارة عن حقيقة الشيء لا يدرك إدراكاً معتبراً إلا بالعلم، والظن لا اعتداد به في شأن المعارف الحقية، وإنما يعتد به في العمليات، وما يؤدي إليها كمسائل علم أصول الفقه. وفيه ذم للظن، ودلالة على عدم إيمان المقلد. وقيل: الحق بمعنى العلم؛ أي: لا يقوم الظن مقام العلم. وقيل: الحق بمعنى العذاب؛ أي: إن ظنهم لا ينقذهم من العذاب.

والمعنى[3]: أي إنَّ معرفة الشيء معرفة حقيقية يجب أن تكون عن يقين، لا عن ظن وتوهم، وأنتم لا تتبعون فيما تقولون في هذه التسمية إلا الظن والتوهم، وليس هذا من سبيل العلم في شيء. وقد جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

«إيّاكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

والخلاصة: أن مثل هذا الاعتقاد إما أن يكون عن دليل عقلي، والعقل لا يركن إليه في مثل هذا، وإما عن وحي، ولم يصل إليهم شيء منه يخبرهم بما يقولون.

ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم، فقال: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا محمد ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: عن دعوة من تولى وأعرض ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ وكتابنا المفيد للعلم اليقينيِّ، ولم يؤمن به. وهو القرآن المنطوي على علوم الأولين والآخرين، المذكر لأمور الآخرة. ولا تتهالك على إسلامه، أو عن ذكرنا كما ينبغي. فإنَّ ذلك مستتبع لذكر الآخرة، وما فيها من الأمور المرغوب فيها، والمهروب عنها؛ أي: أعرض عمن أعرض عن ذكرنا. والمراد بالذكر هنا[1]: القرآن أو ذكر الآخرة أو ذكر الله على العموم. وقيل: المراد بالذكر هنا: الإيمان. والمراد: أترك مجادلتهم، فقد بلغت إليهم ما أمرت به، وليس عليك إلا البلاغ. وهذا منسوخ بآية السيف. وقيل: النهي[2] عن الدعوة لا يستلزم نسخ الآية بآية القتال، بل الإعراض عن الجواب والمناظرة شرط لجواز المقاتلة، فكيف يكون منسوخاً بها.

فالمعنى: أعرض عنهم، ولا تشتغل بإقامة الدليل والبرهان. فإنهم لا ينتفعون به، وقاتلهم، واقطع دابرهم.

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: لم يرد سواها، ولا طلب غيرها، بل قصر نظره عليها راضياً بها، منكباً مقبلاً على جمع حطامها، وجلب منافعها. فالمراد النهي عن دعوته، والاعتناء بشأنه. فإن من أعرض عما ذكر، وانهمك في الدنيا بحيث كانت منتهى همته، وقصارى سعيه لا تزيده الدعوة إلى خلافها إلا عناداً، وإصراراً على الباطل.

ومعنى الآية[3]: أي فأعرض عن مثل هؤلاء الذين أعرضوا عن كتابنا، ولم

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

يأخذوا بما فيه مما يوصل إلى سعادتهم في المعاش والمعاد من المعتقدات الحقة، وقصص الأولين المذكرة بأمور الآخرة، وما فيها من نعيم مقيم، أو عذاب أليم. واقتصروا على شؤون الدنيا، ورضوا بزخرفها، وجدوا في بلوغ أسمى المراتب فيها كما فعل النضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، وأضرابهما.

والخلاصة: لا تبالغ في الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا، وانهمك في أمور الدنيا، وجعلها منتهى همته، وأقصى أمنيته، وقصارى سعيه فلا سبيل إلى إيمان مثله، فلا تبخع نفسك على مثله أسفاً وحزناً، كما قال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

ثم أكد ما مضى من أن همتهم مقصورة على الحياة الدنيا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التولي، وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: غاية علمهم، ونهايته، لا يكادون يجاوزونه إلى غيره، حتى يجديهم الدعوة والإرشاد كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾. فـ﴿مبلغ﴾ اسم مكان، وجمع الضمير في ﴿مَبْلَغُهُم﴾ باعتبار معنى ﴿مَن﴾ كما أنّ إفراده فيما سبق باعتبار لفظها.

قال الفرّاء: أي ذلك قدر عقولهم، ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: الإشارة بذلك إلى جعلهم للملائكة بنات الله، وتسميتهم لهم تسمية الأنثى. والأول أولى. والمراد بالعلم هنا: مطلق الإدراك الذين يندرج تحته الظن الفاسد. والجملة مستأنفة لتقرير جهلهم، واتباعهم مجرد الظن. وقيل: معترضة بين المعلل والعلة. وهي قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ وحاد ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وأعرض عن الحق الذي هو التوحيد والطاعة. والمراد ﴿بِمَن ضَلَّ﴾: هو من أصر عليه، ولم يرجع إلى الهدى أصلاً.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فقبل الحق، وأقبل عليه، وعمل به. فإن هذا تعليل للأمر بالإعراض. فهو سبحانه مجازٍ كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشراً. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، وإرشاد له بأنه لا يتعب نفسه في دعوة من أصر على الضلالة، وسبقت له الشقاوة؛ فإن الله سبحانه قد علم حال هذا الفريق الضالّ، كما علم حال الفريق الراشد.

وحاصل معنى الآية: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾؛ أي[1]: إن منتهى علمهم أن يتفهموا شؤون الحياة الدنيا، ويتمتعوا باللذات، ويتصرفوا في التجارات ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة في المال، وسعة في الرزق، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان، وما به يذكرون لدى الناس، ولا يعنون بما وراء ذلك. فشؤون الآخرة دبر أذنهم، ووراء ظهورهم لا يعرفون منها قبيلاً من دبير.

روى أحمد عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له». وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا». ثم ذكر السبب في الأمر بالإعراض عنهم فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ...﴾ إلخ؛ أي: إن ربك يا محمد هو العليم بمن واصل ليله بنهاره، وصباحه بمسائه مفكراً في آياته في الكون، وفيما جاء على ألسنة رسله، حتى اهتدى إلى الحق الذي ينجيه في آخرته، ويبلغه رضوان ربه، ويبلغه سعادة الدنيا بالسير على السنن التي وضعها في خليقته، فاحتذى حذوها، وسار على أثرها. وبمن حاد عن طريق النجاة، وجعل إلهه هواه، وركب رأسه فلم يلو على شيء مما جاء به الداعي الناصح الأمين. وإنه لمجاز كلاً بما كسب، واكتسب. وسيجزيه على الجليل، والحقير، والصغير، والكبير، بحسب ما أحاط به واسع علمه، وبمقدار فضله على من أخبت إليه. كما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. ونكاله بمن دسى نفسه، واجترح السيئات مصداقاً لقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

والخلاصة: أنّ هؤلاء قوم لا تجدي فيهم الذكرى، ولا تؤثر فيهم العظة فلا تبتئس بما كانوا يفعلون.

ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته، وعظيم ملكه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه ملكاً، وخلقاً، وعبيداً، لا لغيره أصلاً لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع ما في السموات من العالم العلوي، وجميع ما في الأرض من العالم السفلي. فهو المالك لذلك، والمتصرِّف فيه، لا يشاركه فيه أحد. واللام[2] في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ وأشركوا، متعلقة بما دل عليه الكلام. كأنه قيل: هو

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

مالك ذلك يضل من يشاء، ويهدي من يشاء ليجزي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه. وقيل[1]: متعلّقة بما دلّ عليه ﴿أعلم﴾... إلخ، وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله. فإن كون الكل مخلوقاً له تعالى مما يقرر علمه تعالى بأحوالهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾. كأنه قيل: فيعلم ضلال من ضل واهتداء من اهتدى، ويحفظهما ليجزى الذين أساؤوا، وضلّوا.

﴿بِمَا عَمِلُوا﴾؛ أي: بعقاب ما عملوا من الشرك والضلال الذي عبَّر عنه بالإساءة بياناً لحاله. شبه نتيجة علمه بكل واحد من الفريقين. وهي مجازاته على حسب حاله بعلته الغائية. فأدخل لام العلة عليها، وصح بذلك تعلقها بقوله: ﴿أعلم﴾.

﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾؛ أي: وحدوا، واهتدوا ﴿بِالْحُسْنَى﴾؛ أي: بالمثوبة الحسنى التي هي الجنة. والباء لتعدية الجزاء أو بسبب أعمالهم الحسنى، فالباء للسببية والمقابلة. وإنما قدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك كامل القدرة، فلذلك قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. والحسنى تأنيث الأحسن. وقرأ زيد بن عليّ ﴿لنجزي﴾ بالنون فيهما. وقرأ الجمهور بالياء فيهما.

ومعنى الآية[2]: أي إنّ ما في السموات وما في الأرض تحت قبضته وسلطانه، وله التصرف فيه خلقاً، وملكاً، وتدبيراً. فهو العليم به، لا تخفى عليه خافية من أمره. فلا تظنوا أنه يهمل أمركم، كلَّا فإنه مجاز كل نفس بما كسبت من خير أو شر. وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا...﴾ إلخ؛ أي: فهو يجازي بحسب علمه المحيط بكل شيء. المحسن بالإحسان، ويدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار، ويمتعه بنعيم لا يخطر على قلب بشر. والمسيء بصنيع ما أساؤوا، وبما دسى به نفسه من ضروب الشرك والمعاصي، وبما ران على قلبه من كبائر الذنوب والآثام. وقد أضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوةً.

ثم وصف هؤلاء المحسنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ ويبتعدون

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

عنها. فالموصول في محل نصب على أنه نعت للموصول الأوّل أعني قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُوا۟﴾. وقيل: بدل منه. وقيل: بيان له. وقيل: منصوب على المدح بإضمار أعني، أو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين يجتنبون كبائر الإثم. وقرأ الجمهور[1] ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ على الجمع. وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثّاب ﴿كبير الإثم﴾ على الإفراد. وصية الاستقبال[2] في صلة هذا الموصول، دون صلة الموصوف، أو المبدل منه للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره. يعني: للإشعار بأن ترك المعصية سواء كانت بارتكاب المحرمات أو بترك الواجبات ينبغي أن يستمر عليه المؤمن، ويجعل الاجتناب عنها دأباً له وعادة، حتى يستحق المثوبة الحسنى. فإن من اجتنب عنها مرة، وانهمك عليها في باقي الأزمان لا يستحقها بخلاف الحسنات المتطوع بها. فإن من أتى بها ولو مرة يؤجر عليها.

قال سعدي المفتي: لا حسن في جعل الذين يجتنبون مقصوداً بالنسبة، وجعل الذين أحسنوا في حكم المسكوت عنه على القول: بأنه بدل منه، ولو كان النظم على العكس.. لكان لها وجه، انتهى.

يقول الفقير: الاجتناب من باب التخلية بالمعجمة. وهي أقدم من التحلية بالحاء المهملة، فلذا جعلت مقصوداً بالنسبة.

وكبائر الإثم: ما يكبر عقابه من الذنوب. وهو ما ترتب عليه الوعيد بخصوصه كالشرك والزنا مطلقاً خصوصاً بحليلة جاره، وقتل النفس مطلقاً لا سيما الأولاد. وهي الموؤدة. وقيل: ما ذم فاعله ذمًّا شديداً. وقيل: الكبيرة: كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب أو حدّ في الدنيا أو أقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أو ندم أو ترتب عليه مفاسد كبيرة. ولو كان في نظر الناس صغيراً. فمن أمسك إنساناً ليقتله ظالم، أو دل العدو على عورات البلاد، فقد فعل أمراً عظيماً. فيكون أكل مال اليتيم إذا قيس على هذين قليلاً مع أنه من الكبائر. ولأهل العلم في تحقيق الكبائر كلام طويل. وكما اختلفوا في تحقيق معناها وماهيتها اختلفوا في عددها.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

والمشهور: أنّ الكبائر سبع. روي ذلك عن عليّ كرم الله وجهه، واستدلوا عليه بما روي في الصحيحين: «اجتنبوا السبع الموبقات: الإشراك بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق؛ وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». وروى الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنَّ رجلاً قال له: الكبائر سبعٌ، فقال: هي إلى سبع مئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، اهـ.

والإثم: قيل: الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب. وقيل: هو اسم للأفعال المبطئة عن الثواب. وقيل: هو فعل ما لا يحل. وقيل: الإثم جنس يشتمل كبائر وصغائر، وجمعه آثام.

وقوله: ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ معطوف على ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾. جمع فاحشة. وهي ما فحش من كبائر الذنوب: كالزنا، ونحوه. فهو من قبيل التخصيص بعد التعميم. وقال مقاتل: كبائر الإثم: كل ذنب ختم بالنار. والفواحش: كل ذنب فيه الحد. وقيل: الكبائر: الشرك. والفواحش: الزنا.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ منقطع؛ أي: إلا ما قل وصغر من الذنوب لأن المراد باللمم: الصغائر. وهي لا تدخل في الكبائر. وذلك كالنظرة، والكذب الذي لا حد فيه ولا ضرر، والإشراف على بيوت الناس، وهجر المسلم فوق ثلاث، والضحك في الصلاة المفروضة، والنياحة، وشق الجيب في المصيبة، والتبختر في المشي، والجلوس بين الفساق إيناساً بهم، وإدخال مجانين وصبيان ونجاسةِ المسجد إذا كان يغلب تنجيسهم له، واستعمال نجاسة في بدن أو ثوب لغير حاجة، اهـ خطيب.

والمعنى: إلا ما قلَّ وصغر من الذنوب. فإنه مغفور ممن يجتنب الكبائر. يعني: إن الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنب الكبائر. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ وقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾. وقيل: هي النظر بلا تعمد، فإن أعاد النظر فليس بلمم، وهو مذنب. والغمزة والقبلة كما روي أن نبهان التمّار أتته امرأة لتشتري التمر، فقال لها: أدخلي الحانوت، فعانقها وقبلها، فقالت المرأة: خنت أخاك، ولم تصب حاجتك، فندم، وذهب إلى رسول الله ﷺ، فنزلت

الآية. وقيل: هي الخطرة من الذنب؛ أي: ما خطره من الذنب على القلب بلا عزم. وقيل: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًّا ولا عذاباً. وقال بعضهم: اللمم والإلمام: ما يعمله الإنسان الحين بعد الحين ولا يكون له عادة، ولا إقامة عليه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: إلا أن يلم بالفاحشة مرة، ثم يتوب ولم يثبت عليها. فإن الله يقبل توبته. ويؤيده تمثل النبي ﷺ قول أمية[1]:

إنْ تَغْفِرِ ٱللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وَأيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا

أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وبه قال مجاهد، والحسن، والزهري، وغيرهم.

واختار هذا القول الزجاج والنحاس. فالاستثناء على هذا متصل. والراجح الأول. واللمم: مأخوذ من قولهم: ألممت بكذا؛ أي: نزلت به وقاربته من غير مواقعة. قال الأزهري: العرب تستعمل الإلمام في معنى الدنو والقرب.

وجملة قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ وكثيرها، تعليل لما تضمنه الاستثناء؛ أي: إنّ ذلك، وإن خرج عن حكم المؤاخذة، فليس يخلو عن كونه ذنباً يفتقر إلى مغفرة الله، ويحتاج إلى رحمته، بل لسعة المغفرة الربانية. وقيل معناه: إنّه سبحانه يغفر لمن تاب عن ذنبه فيغفر ما يشاء من الذنوب بعد التوبة الصادقة، والندم على ما فرط من مرتكبها، إذا أخبت لربه، وتجافى عن ذنبه. ومثله قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥٣﴾.

ثم ذكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباده، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِكُمْ﴾؛ أي: بأحوالكم يعلمها ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾؛ أي: خلقكم في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ إنشاء إجمالياً. وقيل: المراد: آدم. فإنه خلقه من طين ﴿و﴾ هو سبحانه أعلم بأحوالكم ﴿إذ أنتم أجنة﴾؛ أي: وقت كونكم أجنة ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ على أطوار مختلفة مترتبة، لا يخفى عليه حال من

---

(١) نفى الإمام ابن حجر في «فتح الباري» نسبة هذا البيت وغيره إلى النبي ﷺ؛ لأنه لم يقل الشعر، وإنما ثبت تمثله أقوال الشعراء، كقول أمية هذا، وكقول لبيد:

ألا كل شيءٍ ما خلا اللّه باطل وكل نعيم لا محالة زائل

أحوالكم، وعمل من أعمالكم التي من جملتها اللمم الذي لولا المغفرة الواسعة لأصابكم وباله، وضرره. والأجنّة: جمع جنين مثل: أسرَّة وسرير، وسيأتي بسط الكلام فيه في مبحث اللغة والصرف.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ لترتيب[1] النهي عن تزكية النفس على ما سبق من أن عدم المؤاخذة باللمم، ليس لعدم كونه من قبيل الذنوب، بل لمحض مغفرته تعالى مع علمه بصدوره عنكم، أي: إذا كان الأمر كذلك.. فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة من المعصية بالكلية، أو بما يستلزمها من زكاء العمل، ونماء الخير، ولا تمدحوها بحسن الأعمال، ولا تبرئوها عن الآثام. فإن ترك تزكية النفس أبعد من الرياء، وأقرب إلى الخشوع. بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته.

وقال الحسن رحمه الله تعالى: علم الله من كل نفس ما هي صانعة، وإلى ما هي صائرة، فلا تزكوا أنفسكم، ولا تطهروها من الآثام، ولا تمدوحها بحسن الأعمال. لأن كل واحد من التخلية والتحلية إنما يعتد به إذا كان خالصاً لله تعالى، وإذا كان هو أعلم بأحوالكم منكم فأيُّ حاجة إلى التزكية.

وأما من زكاه الغير، ومدحه فقد ورد فيه «احثوا في وجه المداحين - أي: الذين يمدحون بما ليس في الممدوح - التراب» على حقيقته، أو مجاز عن ردهم عن المدح، لئلا يغتر الممدوح فيتجبر. وقيل: المراد به: أن لا يعطوهم شيئاً لمدحهم. أو معناه: الأمر بدفع المال إليهم لينقطع لسانهم، ولا يشتغلوا بالهجو، وفيه إشارة إلى أن المال حقير في الواقع كالتراب.

قال أبو الليث في «تفسيره»: المدح على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يمدحه في وجهه، فهو الذي نهي عنه.

والثاني: أن يمدحه في غير حضرته، ويعلم أنه يبلغه فهذا أيضاً منهي عنه.

والثالث: مدح يمدحه في حال غيبته، وهو لا يبالي بلغه أم لم يبلغه، ومدح يمدحه بما هو فيه فلا بأس بهذا، انتهى. وأمَّا المدح بعد الموت فلا بأس إذا لم يجاوز الحد، كالروافض في مدح أهل البيت.

وجملة قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ المعاصي جميعاً، مستأنفة مقرّرة للنهي

---

(١) روح البيان.

ومشعرة بأن فيهم من يتقيها بأسرها. وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة، ثم يقولون: صلاتنا، وصيامنا، وحجنا، فنزلت فيهم هذه الآية، وهذا إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء أو السمعة. فأما من اعتقد أن ما عمله من الأعمال الصالحة من الله تعالى، وبتوفيقه وتأييده، ولم يقصد به التمدح لم يكن من المزكين أنفسهم. فإن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر.

ومعنى الآية(١): هو سبحانه وتعالى بصير بأحوالكم، عليم بأقوالكم وأفعالكم، حين ابتدأ خلقكم من التراب، وحين صوركم في الأرحام على أطوار مختلفة وصور شتى. ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: فإذا علمتم ذلك فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة من المعاصي، أو بزكاة العمل وزيادة الخير، بل اشكروا على فضله ومغفرته. فهو العليم بمن اتقى المعاصي، ومن ولغ فيها، ودنس نفسه باجتراحها.

الإعراب

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾.

﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ ﴿الواو﴾ حرف جر وقسم، ﴿النجم﴾ مقسم به، مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بالنجم. وجملة القسم مستأنفة. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرّد عن معنى الشرط، متعلق بفعل القسم المحذوف، ﴿هَوَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿النجم﴾. والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾، والتقدير: أقسم بالنجم وقت هويه. وقيل: الظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿النجم﴾؛ أي: أقسم بالنجم حال كونه مستقرًّا في زمان هويّه. وقيل: غير ذلك. وفي كل منها إشكال ذكرت مع الأجوبة عنها في المطولات. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ فعل، وفاعل. والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ معطوف على ﴿مَا ضَلَّ﴾. ﴿وَمَا﴾

---

(١) المراغي.

الواو: عاطفة، ﴿يَنطِقُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ متعلق بـ ﴿يَنطِقُ﴾. والجملة معطوفة على ﴿مَا ضَلَّ﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية، و﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿وَحْيٌ﴾ خبر ﴿هُوَ﴾. والجملة مستأنفة. وجملة ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة لـ﴿وَحْيٌ﴾. ﴿عَلَّمَهُ﴾ فعل، ومفعول به، ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ فاعل، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: علم صاحبكم ذلك الوحي ملك شديد القوى. والجملة الفعلية صفة ثانية لـ ﴿وَحْيٌ﴾. ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ صفة لـ ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾، مرفوع بالواو، ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿استوى﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ كما يشير إليه صنيع القرطبي. ونصّه ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾؛ أي: ارتفع جبرئيل، وعلا إلى مكانه في السماء بعد أن علمه محمداً ﷺ، اهـ. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿بِالْأُفُقِ﴾ خبر، ﴿الْأَعْلَىٰ﴾ صفة لـ ﴿الأفق﴾. والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿استوى﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، ﴿دَنَا﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿استوى﴾. ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿تدلى﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿دَنَا﴾. ﴿فَكَانَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿كان﴾ فعل ماض، واسمه ضمير يعود على ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ولكنه على تقدير مضافات. ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ خبرها. والجملة معطوفة على جملة ﴿تدلى﴾، والتقدير: فَكَانَ مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف وشكّ، أو بمعنى بل، ﴿أَدْنَىٰ﴾ معطوف على ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾. ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿أوحى﴾ فعل ماض، وفعل مستتر يعود على ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾، أو إلى الله. ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ متعلق بأوحى. والجملة معطوفة على جملة كان. ﴿مَا﴾ موصولة أو مصدرية، مفعول به على الأول، أو مفعول مطلق على الثاني. وجملة ﴿أوحى﴾ صلة لما على كلا الوجهين. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿مَا﴾ موصولة، مفعول به لكذب، وجملة ﴿رَأَىٰ﴾ صلته، و﴿رَأَىٰ﴾ بصرية، ومفعوله محذوف؛ أي: ما رآه.

﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. والجملة المحذوفة جملة طلبيّة، لا محل لها من الإعراب. ﴿تمارونه﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على الجملة المحذوفة، ﴿عَلَىٰ مَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تمارون﴾، وحقّه أن يتعدّى بفي، ولكن ضمَّنه معنى الغلبة فعداه بعلى. وجملة ﴿يَرَىٰ﴾ صلة لـ ﴿مَآ﴾ الموصولة، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، ﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: حاليّة، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿رَءَاهُ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم في محل النصب، حال من مفعول ﴿تمارونه﴾. ﴿نَزْلَةً﴾ إما منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿رَءَاهُ﴾؛ أي: مرّةً أخرى، أو على المفعولية المطلقة؛ أي: رؤية أخرى، و﴿أُخْرَىٰ﴾ صفة لـ ﴿نَزْلَةً﴾، ﴿عِندَ سِدْرَةِ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿رَءَاهُ﴾، ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ مضاف إليه، أو حال من الفاعل أو المفعول أو منهما معاً. ﴿عِندَهَا﴾ خبر مقدم، ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية الزمانية، والظرف متعلق بـ ﴿رَءَاهُ﴾ ﴿يَغْشَى﴾ فعل مضارع، ﴿ٱلسِّدْرَةَ﴾ مفعول به، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل. والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. وجملة ﴿يَغْشَىٰ﴾ صلة لما الموصولة ﴿مَا﴾ نافية، ﴿زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ معطوف على ﴿مَا زَاغَ﴾. ﴿لَقَدْ﴾ اللام: موطئة للقسم المحذوف، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿رَأَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾ حال من المفعول مقدّمة عليه، ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ مفعول به، والتقدير: لقد رأى الآيات الكبرى حال كونها من جملة آيات ربّه. ويحتمل أن تكون ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ صفة آيات ربّه، لا مفعولاً به، ويكون المرئي محذوفاً لتفخيم الأمر وتعظيمه، كأنه قال: لقد رأى من آيات ربّه الكبرى أموراً عظاماً لا يحيط بها الوصف، والحذف في مثل هذا أبلغ وأهول، لأنَّ فيه تفخيماً لآيات الله الكبرى، وأنّ فيها ما رآه وما لم يره. وهو على الوجه الأول يكون مقتضاه أنه رأى جميع الآيات الكبرى على الشمول والعموم، مع أنَّ آيات الله مما لا يحيط أحد بجملتها.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أعقب ما سمعتم آثار قدرة الله تعالى أنكرتم وحدانيته، فرأيتم، وظننتم هذه الأصنام شركاء لله سبحانه. ﴿رأيتم﴾ فعل، وفاعل، ﴿اللَّٰتَ﴾ مفعول أول، ﴿وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ معطوفان عليه، ﴿الثَّالِثَةَ﴾ صفة مؤكدة لمناة، ﴿الْأُخْرَىٰ﴾ صفة ذمّ للثالثة، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: شركاء لله وجملة ﴿رأيتم﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿أَلَكُمُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿لكم﴾ خبر مقدم، ﴿الذَّكَرُ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة جملة طلبية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَهُ﴾ خبر مقدم، ﴿الْأُنثَىٰ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، ﴿إِذًا﴾ حرف جواب وجزاء بمعنى إذ الظرفية، مهمل حرف لا محل لها من الإعراب؛ أي: إذ جعلتم له البنات ولكم البنين. ﴿قِسْمَةٌ﴾ خبر، ﴿ضِيزَىٰ﴾ صفة لـ ﴿قِسْمَةٌ﴾. والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿هِيَ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿أَسْمَاءٌ﴾، خبر هي والجملة مستأنفة ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول ثانٍ والمفعول الأول محذوف تقديره: سميتم بها أصناماً وجملة ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾: في محل الرفع، صفة لـ ﴿أَسْمَاءٌ﴾ ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد لتاء الفاعل في ﴿سميتم﴾ ليصح عطف ﴿وَآبَاؤُكُم﴾ عليها على حد قوله:

وَإِنْ عَلَىٰ ضَمِيْرِ رَفْعٍ مُتَّصِلْ عَطَفْتَ فَافْصِلْ بِالضَّمِيْرِ الْمُنْفَصِلْ

﴿مَّا﴾ نافية، ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة صفة ثانية لـ ﴿أَسْمَاءٌ﴾، ﴿بِهَا﴾ حال ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿سُلْطَانٍ﴾ مفعول به لـ ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿إِن﴾ نافية، ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فعل، وفاعل، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿الظَّنَّ﴾ مفعول به. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿ما﴾ اسم موصول في محل النصب، معطوف على الظنّ، ويصح جعلها مصدرية، ﴿تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: وما تهواه الأنفس. ﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: حالية، أو اعتراضية، واللام

موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿جَآءَهُم﴾ فعل، ومفعول به ﴿مِّن رَّبِّهِمُ﴾ متعلق بـ ﴿جَآءَهُم﴾. ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فاعل. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم معترضة، أو حال من فاعل ﴿يَتَّبِعُونَ﴾. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الإنكار، ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ خبر مقدم، ﴿مَا﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة إضرابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿تَمَنَّىٰ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الإنسان. والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما تمنّاه. ﴿فَلِلَّهِ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿لله﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿وَٱلْأُولَىٰ﴾ معطوف على ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾. والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَكَم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿كم﴾ خبرية، في محل الرفع، مبتدأ، ﴿مِّن﴾ زائدة في تمييزكم، ﴿مَّلَكٍ﴾ تمييز لكم، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صفة لـ ﴿مَّلَكٍ﴾، ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ فعل، وفاعل، ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول ﴿تُغْنِى﴾ أو مفعول مطلق؛ أي: شيئاً من الإغناء. والجملة في محل الرفع، خبر لكم الخبرية. والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ متعلق بـ ﴿تُغْنِى﴾، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ فعل، وفاعل، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية. والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: إلا من بعد إذن الله سبحانه. ﴿لِمَن﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿يَأْذَنَ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة لمن الموصولة، ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ معطوف على ﴿يَشَآءُ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿لَيُسَمُّونَ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿يسمون الملائكة﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ مفعول مطلق.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: حالية، ﴿ما﴾ نافية، ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بعلم،

﴿مِنْ﴾ زائدة، ﴿عِلْمٍ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿يسمون﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ٱلظَّنَّ﴾ مفعول به، ﴿وَإِنَّ﴾ الواو: حالية، ﴿إنّ الظنّ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُغْنِي﴾ خبر ﴿إنّ﴾. ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ متعلق بـ ﴿يُغْنِي﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به، أو مفعول مطلق. وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب حال من الظنّ. ﴿فَأَعْرِضْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك من أحوالهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك أعرض ﴿أعرض﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿عَن مَّن﴾ متعلق بـ ﴿أعرض﴾. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿تَوَلَّىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾ الموصولة. والجملة صلة لمن الموصولة. ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ متعلق بـ ﴿تَوَلَّىٰ﴾ فعل ماض، ﴿وَلَمْ﴾ الواو: عاطفة، ﴿لَمْ﴾ حرف جزم، ﴿يُرِدْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، مجزوم بـ ﴿لم﴾. والجملة معطوفة على ﴿تَوَلَّىٰ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ مفعول به، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم﴾ مبتدأ وخبر، ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ متعلق بـ ﴿مَبْلَغُهُم﴾. والجملة الاسمية جملة اعتراضية، لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين الأمر وهو ﴿أعرض﴾، وبين تعليله الآتي بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿أَعْلَمُ﴾ خبره، ﴿بِمَن﴾ متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ صلة الموصول. وجملة ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿بِمَنِ﴾ متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ صلة لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ خبر مقدم، و﴿مَا﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة مستأنفة. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿لِيَجْزِىَ﴾ اللام حرف جر وتعليل، ﴿يجزي﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود

على الله، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بمعلول محذوف معلوم من السياق، تقديره: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء لجزائه الذين أساؤوا الخ. وجملة ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾ صلة الموصول، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿يجزي﴾، وجملة ﴿عَمِلُواْ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿يجزي﴾ الأول. وجملة ﴿أَحْسَنُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ متعلق بـ ﴿يجزي﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾، أو عطف بيان له كما سبق بسطه. ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ معطوف على ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿ٱللَّمَمَ﴾ منصوب على الاستثناء، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مسوقة لتعليل استثناء ﴿ٱللَّمَمَ﴾، لا محل لها من الإعراب. ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة. ﴿بِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ أيضاً، ﴿أَنشَأَكُم﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به. والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿وإذ﴾ معطوف على ﴿إذ﴾ الأولى، ﴿أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾ الظرفية، ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ صفة لـ ﴿أَجِنَّةٌ﴾، ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنّ الله سبحانه أعلم بكم في جميع أحولكم، وأردتم بيان ما هو اللائق بكم.. فأقول لكم لا تزكّوا. ﴿لا تزكّوا﴾ ﴿لا﴾. ناهية جازمة، ﴿تُزَكُّوٓاْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مجزوم بلا الناهية ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ مفعول به. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة. ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ مبتدأ، وخبر، ﴿بِمَنِ﴾ متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿ٱتَّقَىٰٓ﴾ صلة الموصول. والجملة الاسمية جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ النجم معروف، وجمعه نجوم، وأنجم، وأنجام، ونجم. وهو الكوكب. وعند الإطلاق الثريّا، وهي المراد به هنا.

أقوال منها: أنَّ المراد به هنا: جماعة النجوم، إذا هوت؛ أي: سقطت، وغابت عن الحس. وأرادبه: الجنس.

وقيل: أراد الثريّا، وأقسم بها إذا سقطت، وغابت مع الفجر.

والعرب تطلق اسم النجم على الثريا خاصة. قال ابن دريد: والثريّا سبعة أنجم، ستة ظاهرة، وواحد خفي، يمتحن الناس به أبصارهم. وقيل: أراد به: القرآن إذ أنزله نجوماً متفرقة على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. وسمي الكوكب نجماً لطلوعه. وكل طالع نجم، يقال: نجم السن، والبنت والقرن إذا طلع، اهـ خطيب. وبابه قعد كما في «المصباح».

﴿إِذَا هَوَىٰ﴾؛ أي: سقط. يقال: هوى يهوي من الثاني هَويًّا بوزن قبول إذا غرب. فإنَّ الهويَّ سقوط من علو إلى أسفل، وهُويًّا بوزن دخول إذا علا، وصعد ويقال: هوى يهوى إذا صبا. وقال الراغب: الهَويُّ سقوط من علو، ثم قال: والهوي ذهاب في انحدار، والهُوي ذهاب في ارتفاع. وقيل: هوى في اللغة: خرق الهواء، ومقصده السفل، أو مصيره إليه، وإن لم يقصده، اهـ سمين. وأصله: هوي بوزن فعل، قلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ الغيُّ هو: الجهل المركب. قال الراغب: الغيُّ جهل من اعتقاد فاسد؛ وذلك أنَّ الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد أصلاً لا صالحاً ولا فاسداً، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد. وهذا الثاني يقال له: غي. فعطفه على ﴿مَا ضَلَّ﴾ من عطف الخاص على العام؛ للاهتمام بشأن الاعتقاد بمعنى أنه فرق بين الغي والضلال، وليسا بمعنى واحد. فإن الغواية هي الخطأ في الاعتقاد خاصة، والضلال أعم منها، يتناول الخطأ في الاعتقاد، والأقوال، والأفعال، كما مر. وأصله: غوي بوزن فعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ يقال: نطق ينطق نطقاً ومنطقاً ونطوقاً إذا تكلم بصوت وحروف يعرف بها المعاني، كما في «القاموس». فلا يستعمل في الله تعالى لأن التكلم بالصوت والحروف من خواص المخلوق. والهوى مصدر هويه، من باب علم إذا أحبه، واشتهاه، ثم غلب على الميل إلى الشهوات والمستلذات من غير داعية الشرع. منه قيل: صاحب الهوى للمبتدع. لأنّه مائل إلى ما يهواه في أمر

الدين. فالهوى هو الميل المخصوص المذموم. وأصله: الهوي، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً فصار الهوى.

﴿يُوحَىٰ﴾ أصله: يوحي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. ﴿بِٱلْأُفُقِ﴾ والأفق: ناحية السماء، وجمعه آفاق. وقال قتادة: هو الموضع الذي تأتي منه الشمس، وكذا قال سفيان: هو الموضع الذي تطلع منه الشمس. ويقال: أفق مثل: عشر وعسُر. ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أصله بعد قلب الواو الواقعة رابعة ياء الأعلي، قلبت الياء ألفا لتحركها بعد فتح. ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: حصافة؛ أي: استحكام في عقله ورأيه، ومتانة في دينه. قال الراغب: أمررت الحبل إذا، فتلته والمرير والمُمَر: المفتول. ومنه: فلان ذو مرة، كأنه محكم الفتل.

وفي «القاموس»: المرّة بالكسر: قوة الخلق، وشدته. والجمع مِرر، وأمرار. والعقل، والأصالة، والإحكام، وطاقة الحبل كالمريرة. وذو مرة جبرئيل عليه السلام. والمريرة: الحبل الشديد الفتل.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ﴾ والأفق: هي الدائرة التي تفصل بين ما يرى من الفلك، وما لا يرى. والأفق الأعلى: مطلع الشمس، كما أن الأفق الأدنى مغربها كما سبق.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من دنا يدنو دنوا، إذا قرب. والدنو: القرب بالذات أو بالحكم، ويستعمل في الزمان، والمكان، والمنزلة، كما في «المفردات». وفيه إعلال بالقلب، أصله: دنو بوزن فعل، من الدنو، قلبت ﴿الواو﴾ ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أصله: تدلي بوزن تفعل، قلبت ياءه ألفا لتحركها بعد فتح.

﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ والقاب والقيب، والقاد والقيد: المقدار. قال الزجاج: إنَّ العرب قد خوطبوا على لغتهم، ومقدار فهمهم، قيل لهم في هذا ما يقال للذي يحدد.

فالمعنى: فكان على ما تقدرونه أنتم قدر قوسين أو أقل من ذلك.

وقال ابن السكيت: قاس الشيء يقوسه قوساً لغة في قاسه يقيسه، إذا قدره. وقد جاء تقديرهم بالقوس، والرمح، والسوط، والذراع، والباع، والخطوة، والشبر، والفتر، والإصبع.

وفي «القرطبي»: والقاب: ما بين المقبض والسية، ولكل قوس قابان. وقال

بعضهم: في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أراد قابي قوس، فقلبه. وفي «المصباح»: سية القوس، خفيفة الياء، ولامها محذوفة. وترد في النسبة فيقال: سيوى، والهاء عوض عنها طرفها المنحني. قال أبو عبيدة: وكان رؤبة يهمزه، والعرب لا تهمزه. ويقال: لِسِيَتها العليا يدها، ولِسِيَتها السفلى رجلها، اهـ. ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ التدلي: استرسال مع تعلق. يقال: تدلت الثمرة، ودلى رجليه من السرير.

﴿فَكَانَ﴾ أصله: كون بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿قَابَ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: قوب بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أصله: أدني بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. وهو أفعل تفضيل، والمفضل عليه محذوف؛ أي: أو أدنى من قاب قوسين، و﴿أَوْ﴾ بمعنى بل. أي: بل أدنى.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ على ما يراه معاينةً؛ أي: أفتجادلونه من المماراة. والمراء والمماراة: المجادلة بالباطل، فكان حقه أن يتعدى بفي، يقال: جادلته في كذا، لكنه ضمن معنى الغلبة، فتعدى تعديتها؛ لأنَّ المماري يقصد بفعله غلبة الخصم. واشتقاقه من مري الناقة كأن كلًّا من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه. يقال: مريت الناقة مرياً مسحت ضرعها لتدر، ومريت الفرس إذا استخرجت ما عنده من الجري أو غيره.

﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ النزلة بوزن فعلة، اسم للمرة من الفعل الذي هو النزول. ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ شجرة نبق. والمنتهى: مصدر ميمي بمعنى الانتهاء، كما قال الزمخشري. أو اسم مكان بمعنى موضع الانتهاء، كأنها في منتهى الجنة.

وقد اختلف في سبب تسميتها بذلك على ثمانية أقوال، تفصيلها في المطولات. والمنتهى: أصله منتهي بوزن مفتعل، قلبت ياءه ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾؛ أي: الجنة التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة. فالإضافة فيها كإضافة مسجد الجامع. يقال: أويت منزلي وإليه أوياً وأويًا عدت إليه، وأويته نزلته بنفسي. والمأوى: المكان. فالمأوى: أصله مأوي بوزن مفعل قلبت ياؤه ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

فائدة: قال بعضهم: آدم عليه السلام أنزل من جنّة المأوى التي هي اليوم مقام الروح الأمين جبرئيل عليه السلام. وهي اليوم برزخ لذرية آدم، ونزل إليها جبرئيل من السدرة بنزول آدم. وهذه الجنة لا تقتضي الخلود لذاتها، فلذلك أمكن خروج آدم منها، ولذلك تأثَّر بالاشتياق إلى أن يكون ملكاً بعد سجود الملائكة له بغرور إبليس إياه، ووعده في الخلود رغبة في الخلود والبقاء مع جبرئيل، والجنة التي عرضها السموات والأرض تقتضي الخلود لذاتها، يعلم من دخلها أنه لا يمكن الخروج منها؛ إذ لا سبيل للكون والفساد إليها. قال تعالى في وصف عطائها: إنه ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؛ أي: غير منقطع، انتهى. فالجنة التي عرضها السموات والأرض أرضها الكرسيّ الذي وسع السموات والأرض، وسقفها العرش المحيط. فهي محيطة بالجنان الثمان، وليست هي الجنة التي أنزل منها آدم، كذا قاله أيضاً صاحب كتاب «تلقيح الأذهان».

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾؛ أي: يغطي. والغشيان بمعنى التغطية والستر، ومنه: الغواشي. وأصله: يغشي بوزن يفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾؛ أي: ما مال. وأصل الزيغ: الميل عن الاستقامة. وفيه إعلال بالقلب، أصله: زيغ بوزن فعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح، أي: ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها، ومكن منها، وما مال يميناً ولا شمالاً. ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾؛ أي: وما جاوز ما أمر به. وأصله: طغي بوزن فعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾ قال الراغب: أصل اللات: اللاه، فحذفوا منه الهاء، وأدخلوا التاء فيه، فأنّثوهُ تنبيهاً على قصوره عن الله، وجعلوه مختصاً بما يتقرب به إلى الله في زعمهم. وقال غيره: أصله: لوية، فأسكنت الياء، وحذفت لالتقاء الساكنين، فبقيت لوة، فقلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، فصارت لاة. فهي فعلة من لوى؛ لأنهم كانوا يلوون إليها أعناقهم، ويطوفون بها، وكانت على صورة آدمي. وعلى هذا فالتاء زائدة فيه. لأنه من لوى يلوى. وقيل: التاء فيه أصلية لام الكلمة كالباء في الباب؛ لأنه من لات يليت، فألفها عن ياء. فإن مادة لَ يَ تَ موجودة، فإن وجدت مادة من لَ وَ تَ جاز أن تكون منقلبة من واو. وهل هي والعزى علمان بالوضع أو صفتان غالبتان فيه خلاف. ويترتب على ذلك جواز حذف الألف واللام

في اللات، وعدمه. فإن قلنا: إنهما ليسا وصفين في الأصل، فلا تحذف منهما أل وإن قلنا: إنهما صفتان، وإنّ أل للمح الصفة جاز. وبالتقديرين فأل زائدة. وقد اختلف القراء في الوقف على تائها، فوقف الكسائي عليها بالهاء، والباقون بالتاء. وهو مبني على القولين المتقدمين. فمن جعلها تاء أصلية أقرها في الوقف كتاء بيت. ومن جعلها زائدة وقف عليها هاء. والعامة على تخفيف تائها. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، ومنصور بن المعتمر، وأبو الجوزاء، وأبو صالح، وابن كثير في رواية بتشديد التاء. فقيل: هو رجل كان يلت السويق، ويطعمه الحاج. فهي اسم فاعل في الأصل، غلب على هذا الرجل، وكان يجلس عند حجر، فلما مات سمي الحجر باسمه، وعكفوا على قبره يعبدونه؛ ثم صنعوا له صورة، وعبدوها. والعزى: فعلى من العز. وهي تأنيث الأعز، كالفضلى والأفضل. وهي اسم صنم أو شجرة تعبد. وأما مناة فاشتقاقها على قراءة العامة من مني يمني، إذا صب؛ لأن دماء النسائك كانت تصب عندها. وقال أبو البقاء: وألفه من ياء، كقولك: مني يمني إذا قدر، ويجوز أن تكون من الواو. ومنه: منوان. فوزنها على قراءة القصر فعلة، اهـ سمين. وقال بعضهم: قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ يحتمل أن تكون الألف فيه منقلبة عن واو، كما يرشد لذلك رسمها في المصحف، وعليه يكون أصلها منوة بوزن فعلة، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، وأن تكون منقلبة عن ياء، فيكون أصلها منية، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾؛ أي: جائرة ظالمة. من ضازه يضيزه إذا ضامه وجار عليه. وعلى هذا فتحتمل وجهين:

أحدهما: تكون صفة على فعلى بضم الفاء، وإنما كسرت الفاء؛ لتصح الياء، كبيض. فإن قيل: وأيُّ ضرورة تدعو إلى أن يقدر أصلها ضم الفاء، ولم لا قيل فعلى بالكسر؟. فالجواب: أن سيبويه حكى: أنه لم يرد في الصفات فعلى بكسر الفاء، وإنما ورد بضمها، نحو: حبلى، وأنثى، وربا، وما أشبهه. إلا أن غيره حكى في الصفات ذلك. حكى ثعلب: ميتة حيكي، ورجل كيسي. وحكى غيره: امرأة عزهي، وامرأة سعلي. وهذا لا ينقض على سيبويه؛ لأن سيبويه يقول في حيكي وكيسي كقوله في ضيزى لتصح الياء. وأمَّا عزهي وسعلي فالمشهور فيهما عزهاة وسعلاة.

والوجه الثاني: أن تكون مصدراً كذكرى. قال الكسائي: يقال: ضاز يضيز ضيزى، كذكر يذكر ذكرى. وقرىء ﴿ضِئْزَى﴾ بهمزة ساكنة. ومعنى ضأزه يضأزه نقصه ظلماً وجوراً. وهو قريب من الأول. وفي «المختار»: ضاز في الحكم جار، وضازه فيه نقصه وبخسه، وبابهما باع. وقال بعضهم: قوله: ﴿ضيزى﴾ يحتمل أن تكون أصلها ضيزى بوزن فعلى بضم الفاء، فقلبت الضمة كسرة لمناسبة الياء. ويحتمل أن يكون أصلها ضوزى بوزن فعلى بكسر الفاء، ثم قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة. ويحتمل أن يكون أصلها ضوزى مثل: طوبى، بكسر أوله، فقلبت الواو ياء لمناسبة الكسرة. ومنشأ هذا الخلاف هل الكلمة واوية العين أو يائية؟ وعلى أنها يائية لا قلب، اهـ.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أصله: تمني بوزن تفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. والتمني: تقدير شيء في النفس، وتصويره فيها. وذلك قد يكون عن تخمين وظن، وقد يكون عن رؤية وبناء على أصل. لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك. فأكثر التمني تصوير ما لا حقيقة له.

﴿لَيُسَمُّونَ﴾ أصله: ليسميون، استثقلت الضمة علي الياء فحذفت، ثم حذفت لما التقت ساكنة بواو الجماعة، وضمت الميم لمناسبة الواو. ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ مصدر قياسي لسمي؛ لأنه قياس فعل المستعل اللام، فحذفت ياء التفعيل منه، وعوض عنها التاء في آخره، نظيره زكى تزكية، وورى تورية.

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قال الفراء: اللمم: أن يفعل الإنسان الشيء في الحين، ولا يكون عادة له. ومنه: إلمام الخيال.

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ والأجنة: جمع جنين، مثل: أسرة وسرير. وأصله: أجننة بوزن أفعلة، نقلت حركة النون الأولى إلى الجيم فسكنت، وأدغمت في النون الثانية، فوزنه أفعلة. والجنين: الولد ما دام في البطن. وهو فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مدفون مستتر. والجنين: الدفين في الشيء المستتر فيه من جنه إذا ستره. وإذا خرج من بطن أمه لا يسمى إلا ولداً أو سقطاً. وفي الأشباه: هو جنين ما دام في بطن أمه، فإذا انفصل ذكراً فصبي، ويسمى رجلاً، كما في آية الميراث إلى البلوغ. فغلام إلى تسعة عشر، فشاب إلى أربعة وثلاثين، فكهل إلى إحدى وخمسين، فشيخ

إلى آخر عمره.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا﴾ أصله: تزكيون، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الكاف لمناسبة الواو، وحذفت نون الرفع.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أصله: اوتقي بوزن افتعل، فقلبت ﴿الواو﴾ تاء، وأدغمت في تاء الافتعال، وقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③﴾ فالأول ﴿هَوَىٰ﴾ بمعنى خر وسقط، والثاني بمعنى هوى النفس.

ومنها: إيراده ﷺ بعنوان صاحبيته لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله، وإحاطتهم خبراً ببراءته ﷺ مما نفي عنه بالكلية، وباتصافه بغاية الهدى والرشاد. فإن طول صحبتهم له، ومشاهدتهم محاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً، كما في «الإرشاد».

ومنها: عطف الخاص الذي هو الغواية: وهو الخطأ في الاعتقاد فقط على الضلال الذي هو العام. لأنه خطأ في الاعتقاد، والأقوال، والأفعال، والأخلاق في قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة الماضي أولاً في قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾ وبصيغة المستقبل ثانياً في قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③﴾ بياناً لحاله قبل البعثة وبعدها؛ أي: ما ضلَّ وما غوى حين اعتزلكم، وما تعبدون قبل أن يبعث رسولاً، وما ينطق عن الهوى الآن، حين يتلو عليكم آيات ربه، قاله ابن الشيخ. وقال صاحب الروح: والظاهر: أن صيغة الماضي باعتبار قولهم: قد ضل وغوى إشارة إلى تحقق ذلك في زعمهم. وأمَّا صيغة المضارع، فباعتبار تجدد النطق في كل حال، والله أعلم بكل حال.

ومنها: التأكيد لرفع احتمال المجاز في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ④﴾ فإنَّ

﴿يُوحَىٰ﴾ صفة مؤكدة لوحي، رافعة لاحتمال المجاز، مفيدة للاستمرار التجددي يعني: أن فائدة الوصف التنبيه على أنه وحي حقيقة، لا أنه يسمى به مجازاً. والوحي قد يكون اسماً بمعنى الكتاب الإلهي، وقد يكون مصدراً. وله معان: الإرسال، والإلهام، والكتابة، والكلام، والإشارة، والإفهام.

ومنها: إضافة الصفة المشبهة إلى مرفوعها في قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ وحذف الموصوف؛ أي: ملك شديد قواه.

ومنها: فن القلب في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ وهو من المقلوب الذي تقدم فيه ما يوضحه التأخر، وتأخر ما يوضحه التقديم؛ أي: تدلى فدنا. لأنه تدلى للدنوّ، ودنا بالتدلي.

ومنها: الإبهام للتعظيم والتهويل في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ ومثله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾، وكذلك قوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي مع الإزراء بعقولهم في قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾. والاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

ومنها: الإضمار قبل الذكر في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ لغاية ظهوره، كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: على ظهر الأرض. والمراد بالعبد المشرف بالإضافة إلى الله: هو الرسول ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

ومنها: تمثيل ملكة الاتصال، وتحقيق استماعه لما أوحي إليه بنفي البعد الملبس من قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾. **وفيه أيضاً**: الجناس المغاير بين: ﴿دَنَا﴾ ﴿أَدْنَىٰ﴾.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿يَرَىٰ﴾، و﴿رَآهُ﴾ في قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ﴾.

ومنها: إضافة الموصوف إلى الصفة في قوله: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾؛ أي: الجنّة التي يأوي إليها المتقون، فهو مثل: مسجد الجامع كما مرّ.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة، أو للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ للإيذان بأن تعداد قبحائهم اقتضى الإعراض عنهم، وحكاية جناياتهم لغيرهم.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ لإفادة إرادة الجنس.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بتكرير قوله: ﴿أَعْلَمُ﴾ لزيادة التقرير، والإيذان بكمال تباين المعلومين.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾. وفيه الإطناب أيضاً بتكرار لفظ ﴿يجزي﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة الاستقبال في صلة الموصول الذي وقع بدلاً أعني: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ دون صلة الموصول الذي وقع مبدلاً منه أعني: قوله: ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ اهتماماً بشأن الخاص.

ومنها: الإتيان بلام التعريف في الملائكة في قوله: ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ لإفادة الاستغراق.

ومنها: تعليق التسمية بعدم الإيمان بالآخرة إشعاراً بأنّها في الشناعة، والفظاعة، واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترىء عليها إلا من لا يؤمن بها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ فإن قيل: الجنين إذا كان اسماً له ما دام في البطن، فما فائدة قوله تعالى: ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؟ قلنا: فائدته

المبالغة في بيان كمال علمه، وقدرته. فإنّ بطون الأمهات في غاية الظلمة. ومن علم حال الجنين فيها لا يخفى عليه شيء من أحواله.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله[1] سبحانه وتعالى لمّا بيّن علمه، وقدرته، وأن الجزاء واقع على الإساءة والإحسان، وأن المحسن هو الذي يجتنب كبائر الإثم. وهذا لا يعرف إلا بالوحي من الله تعالى.. ذكر هنا أن من العجب العجاب بعد هذا أن يسمع سامع، ويرجو عاقل أن غيره يقوم مقامه في تحمل وزره، ويعطيه جعلاً. لكنه ما أعطاه إلا قليلاً، حتى وقف عن العطاء. ومن ثم وبخه على ذلك بأن علم هذا لا يكون إلا بوحي. فهل علم منه صحة ما اعتقده؟ كلا فجميع الشرائع المعروفة لكم كشريعة موسى، وإبراهيم على غير هذا. وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، فمن أين وصل له أن ذلك مجز له؟.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر قبل ما جاء في صحف موسى وإبراهيم من أن الإحياء، والإماتة بيد الله سبحانه، وأنه هو الذي يصرف أمور العالم خلقاً، وتدبيراً،

(١) المراغي.

وملكاً، فيفقر قوماً ويغني آخرين، وأن أمر المعاد تحت قبضته، وأن الخلق إذ ذاك يرجعون إليه، وأن بعض الأمم كذبت رسلها، وأنكرت الخالق فأصابها ما أصابها.. قفى على هذا بالتعجيب من أمر الإنسان، وأنه كيف يتشكك في هذا، ويجادل فيه منكراً له، وقد جاء النذير به فعليكم أن تصدقوه، وتؤمنوا به قبل أن يحل بكم عذاب يوم عظيم قد أزف، ولا يقدر على كشفه أحد إلا هو، فلا تعجبوا من القرآن منكرين، ولا تضحكوا منه مستهزئين، وابكوا حزناً على ما فرطتم في جنب الله، وعلى غفلتكم عن مواعظه وحكمه التي فيها سعادتكم في دنياكم وآخرتكم، واسجدوا شكراً لباريء النسم الذي أوجدها من العدم، واعبدوه بكرةً وعشيًا شكراً على آلائه، وتقلبكم في نعمائه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ...﴾ الآيات، سبب نزولها[١]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة: أنّ النبي ﷺ خرج في غزوة، فجاء رجل يريد أن يحمل، فلم يجد ما يخرج عليه، فلقي صديقاً له، فقال: أعطني شيئاً فقال: أعطيك بكري هذا على أن تتحمل ذنوبي، فقال له: نعم. فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ الآيات.

وقال مجاهد، وابن زيد[٢]: إن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد سمع قراءة رسول الله ﷺ، وجلس إليه، ووعظه، فلان قلبه للإسلام، فطمع فيه رسول الله ﷺ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين، وقال له: أأترك ملة آبائك ارجع إلى دينك، واثبت عليه، وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما هم به من الإسلام، وضل ضلالاً بعيداً، وأعطى بعض المال لذلك الرجل، ثم أمسك عنه وشحّ.

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال[٣]: إنّ رجلاً أسلم، فلقيه بعض من يعيره،

(١) لباب النقول.
(٢) المراغي.
(٣) لباب النقول.

قال: أتركت دين الأشياخ، وضللتهم، وزعمت أنهم في النار؟ قال: إني خشيت عذاب الله، قال: أعطني شيئاً، وأنا أحمل كل عذاب كان عليك، فأعطاه شيئاً، فقال: زدني، فتعاسرا حتى أعطاه، وكتب كتاباً وأشهد له. ففيه نزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانوا يمرون على رسول الله ﷺ وهو يصلي شامخين، فنزلت: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

ولما بين سبحانه جهالة المشركين على العموم خصَّ بعضهم بالذم، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ يا محمد، أو أيها المخاطب؛ أي: هل أخبرت، وعلمت يا محمد ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: شأن وحال الذي تولى عن الخير، وأعرض عن اتباع الحق. فالفاء استئنافية، والهمزة للاستفهام التقريري. ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ لمن يتحمل عنه الأوزار شيئاً ﴿قَلِيلًا﴾ من ماله أو إعطاء قليلاً. ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾؛ أي: قطع عطاءه عنه، وأمسك بخلاً. والاستفهام في قوله: ﴿أَعِندَهُۥ﴾؛ أي: هل عند ذلك المتولي ﴿عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: علم ما غاب عنه من أمر العذاب للإنكار.

والفاء في قوله[1]: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ سببية. والرؤية قلبية؛ أي: هل عنده علم بالأمور الغيبية التي من جملتها تحمل صاحبه عنه يوم القيامة. فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه. قال ابن الشيخ: أرأيت بمعنى أخبرت، و﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ مفعوله الثاني؛ أي: هل أخبرت، وعلمت يا محمد هذا المعطي المكدي هل عنده علم ما غاب عنه من أحوال الآخرة؟ فهو يعلم أن صاحبه يتحمل أوزاره على أن قوله: ﴿يَرَىٰٓ﴾ بمعنى يعلم، حذف مفعولاه لدلالة المقام عليهما. وقيل: الهمزة في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفكرت يا محمد في حال بعض المعاندين فرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى هل عنده علم الغيب فهو يرى أن صاحبه يتحمل عنه أوزاره؛

(١) روح البيان.

أي: فكر في حاله، وأخبرني عن شأنه هل عنده علم الغيب، أم لا؟.

والمعنى[1]: أي أعلمت شأن هذا الكافر، وهل بلغك شأنه العجيب؟ فقد أشرف على الإيمان، واتباع هدى الرسول، فوسوس له شيطان من شياطين الإنس بأن لا يقبل نصح الناصح، ويرجع إلى دين آبائه، ويتحمل ما عليه من وزر إذا هو أعطاه قليلاً من المال، فقبل ذلك منه، لكنه ما أعطاه إلا قليلاً، حتى امتنع من إعطائه شيئاً بعد ذلك. أفعنده علم بأمور الغيب، فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه ما يخاف من أوزاره يوم القيامة.

وقصارى ذلك[2]: أخبرني بأمر هذا الكافر، وحاله العجيبة. إذ قبل أن سواه يحمل أوزاره، إذا أدى له أجراً معلوماً أأنزل عليه وحي فرأى أن ما صنعه حق؟.

ثم أكد هذا الإنكار، فذكر أن الشرائع التي يعرفونها على غير هذا، فقال: ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام؛ أي: بل أهو جاهل ﴿لَمْ يُنَبَّأْ﴾؛ أي: لم يخبر ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾؛ أي: أسفار التوراة. جمع صحيفة. وهي التي يكتب فيها. ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ معطوف على موسى؛ أي: وبما في صحف إبراهيم ﴿الَّذِي وَفَّىٰ﴾ صفة لإبراهيم، أي: الذي وفر، وأكمل، وأتم ما ابتلي به من الكلمات، كما مر في سورة البقرة. قال المفسرون؛ أي: بلغ قومه ما أمر به، وأداه إليهم. وقيل: بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه؛ لأنّ التشديد يأتي للتكثير والمبالغة.

وتخصيصه بذلك[3] لاحتماله ما لم يحتمل غيره كالصبر على نار نمرود، حتى إنه أتاه جبريل حين ألقي في النار، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. وعلى ذبح الولد، وعلى الهجرة، وعلى ترك أهله وولده بواد غير ذي زرع. ونعم ما قيل هنا: ﴿وَفَّىٰ﴾ ببذل نفسه للنيران، وقلبه للرحمن، وولده للقربان، وماله للضيفان. وروي: أنه كان يمشي كل يوم فرسخاً يرتاد ضيفاً، فإن وجده أكرمه، وإلا نوى الصوم.

وروي: «ألا أخبركم لم سمى الله خليله ﴿الَّذِي وَفَّىٰ﴾؟ كان يقول إذا أصبح،

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

وأمسى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ حتى يختم الآيتين». ذكره أحمد في «مسنده» الآيات الثلاث. وفي «عين المعاني»: عن أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: كم من كتاب أنزل الله؟ قال: مئة كتاب وأربعة كتب. أنزل الله على آدم عشر صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف. وأنزل الله التوراة، والإنجيل والزبور، والفرقان. قال: قلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً منها: أيّها الملك المبتلى المغرور إني لم أبعثك، فتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك كيلا ترد دعوة المظلوم، فإني لا أردها، وإن كانت من كافر» الحديث.

وإنما ذكر ما جاء في شريعتي هذين النبيين فحسب؛ لأن المشركين كانوا يدعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم، وأهل الكتاب كانوا يدعون أنهم متبعون ما في التوراة وصحفها قريبة العهد منهم.

فإن قلت: لم قدم موسى هنا على إبراهيم، وعكس في سورة الأعلى؟.

قلت: إنما قدم موسى هنا لما أنَّ صحفه التي هي التوراة أشهر عندهم وأكثر، وأيضاً هو من باب الترقي من الأقرب إلى الأبعد لكون الأقرب أعرف، وأيضاً أن موسى صاحب كتاب حقيقة بخلاف إبراهيم. وقدم إبراهيم على موسى في سورة الأعلى لغرض الفاصلة.

وقرأ الجمهور ﴿وَفَّىٰٓ﴾ بتشديد الفاء. وقرأ أبو أمامة الباهلي، وسعيد بن جبير، وأبو مالك الغفاري، وابن السميقع، وزيد بن علي بتخفيفها. ولم يذكر متعلق ﴿وَفَّىٰٓ﴾ إفادة للعموم، ذكره في «البحر».

ثم بين سبحانه ما في صحفهما، فقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾؛ أي: والذي في صحفهما أنه لا تزر، ولا تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾؛ أي: حاملة وزراً وحملاً ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: حمل نفس أخرى. ومعناه: لا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى. وأصله[١]: أن لا تزر؛ على أن ﴿أن﴾ هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والجملة المنفية خبرها. ومحل الجملة الجر، على أنها بدل من ﴿مَا﴾ في قوله:

---

(١) روح البيان.

﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: أي شيء في صحفهما؟ فقيل: هو أنه؛ أي: الشأن لا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى، من حيث إنه تتعرى منه المحمول عنها، ولا يؤاخذ أحد بذنب غيره؛ ليتخلص الثاني من عقابه، فالمراد بالوازرة: هي التي يتوقع منها الوزر والحمل، لا التي وزرت وحملت ثقلاً، وإلا فكان مقتضى المقام أن يقال: لا تحمل فارغة وزر أخرى. إذ لا تحمل مثقلة بوزرها غير الذي عليها.

وفي هذا[1]: إبطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة أنه يحمل عنه الإثم. وقال ابن عباس: كانوا قبل إبراهيم يأخذون الرجل بذنب غيره، كان الرجل يقتل بقتل أبيه، وابنه، وأخيه، وامرأته، وعبده حتى كان إبراهيم عليه السلام فنهاهم عن ذلك، وبلغهم عن الله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى.

ولا يعارض[2] هذه الآية قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. إذ ليس المعنى: أنَّ عليه إثم مباشرة سائر القاتلين، بل المعنى: أنَّ عليه فوق إثم مباشرته للقتل المحظور إثم دلالته، وسببيته لقتل هؤلاء، وهما ليستا إلا من أوزاره، فهو لا يحمل إلا وزر نفسه.

وكذا لا يعارضها أيضاً قوله ﷺ: «مَن سنَّ سنةً سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». فإن ذلك وزر الإضلال الذي هو وزره.

وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ معطوف على قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ إلخ. و﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة كأختها السابقة، ﴿لِلْإِنسَانِ﴾ خبر ﴿لَّيْسَ﴾، و﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ اسمها و﴿ما﴾ مصدرية، ويجوز أن تكون موصولة.

والمعنى: وأنه ـ أي: الشأن ـ ليس للإنسان في الآخرة إلا سعيه في الدنيا من العمل، والنية، أي: كما لا يؤاخذ أحد بذنب الغير لا يثاب بفعله. فهو بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره من حيث جلب النفع إثر بيان عدم انتفاعه، من حيث دفع

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

الضرر عنه. وظاهر الآية[١]: يدل على أنه لا ينفع أحداً عمل أحد. وهذا العموم مخصوص بمثل قوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وبمثل ما ورد في شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد، ومشروعية دعاء الأحياء للأموات، ونحو ذلك. ولم يصب من قال: إنَّ هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور. فإن الخاص لا ينسخ العام، بل يخصصه. فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به، وهو من غير سعيه كان مخصصاً لما في هذه الآية من العموم.

وقال الربيع بن أنس[٢]: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ يعني: الكافر. وأما المؤمن فله ما سعى، وما سعى له غيره. وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول. وفي «فتح الرحمن»: واختلف الأئمة فيما يفعل من القرب: كالصلاة، والصوم، وقراءة القرآن، والصدقة، ويهدى ثوابه للميت المسلم. فقال أبو حنيفة وأحمد: يصل ذلك إليه، ويحصل له نفعه بكرم الله ورحمته. وقال مالك، والشافعي: يجوز ذلك في الصدقة، والعبادة المالية، وفي الحجّ. وأما غير ذلك كالصلاة، والصوم، وقراءة القرآن، وغيره فلا يجوز، ويكون ثوابه لفاعله. وعند المعتزلة: ليس للإنسان جعل ثواب عمله مطلقاً لغيره، ولا يصل إليه، ولا ينفعه لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، ولأن الثواب هو الجنة، وليس في قدرة العبد أن يجعلها لنفسه فضلاً عن غيره.

ومعنى الآية[٣]: أي كما لا يحمل على الإنسان وزر غيره لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب لنفسه. ومن هذا استنبط مالك، والشافعي، ومن تبعهما: أن القراءة لا يصح إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنّه ليس من عملهم ولا كسبهم، وهكذا جميع العبادات البدنية كالصلاة، والصوم، والتلاوة. ومن ثم لم يندب إليها رسول الله ﷺ أمته، ولا حثهم عليها، ولا أرشدهم إليها بنصٍّ، ولا إيماءٍ، ولم ينقل من أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه. أما الصدقة فإنها تقبل.

وما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة من قوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

انقطع عمله، إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة جارية من بعده، وعلم ينتفع به» فهي في الحقيقة من سعيه، وكده، وعمله، كما جاء في الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولد الرجل من كسبه»، والصدقة الجارية كالوقف، ونحوه من أعمال البر هي من آثار عمله والعلم نشره في الناس فاقتدوا به، واتبعوه هو من سعيه. فقد ثبت في «الصحيح»: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئاً».

ومذهب أحمد بن حنبل، وجماعة من العلماء: أن ثواب القراءة يصل إلى الموتى إن لم تكن القراءة بأجر، أما إذا كانت به، كما يفعله الناس اليوم من إعطاء الأجر للحفاظ للقراءة على المقابر، وغيرها فلا يصل إلى الميت ثوابها. إذ لا ثواب لها حتى يصل إليهم لحرمة أخذ الأجر على قراءة القرآن، وإن لم يحرم على تعليمه.

قال الشيخ تقي الدين أبو العباس[1]: من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله، فقد خرق الإجماع. وذلك باطل من وجوه كثيرة:

أحدها: أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره. وهو انتفاع بعمل الغير.

والثاني: أن النبي ﷺ يشفع لأهل الموقف في الحساب، ثم لأهل الجنة في دخولها، ولأهل الكبائر في الإخراج من النار. وهذا الانتفاع بسعي الغير.

والثالث: أن كل نبي وصالح له شفاعة. وذلك انتفاع بعمل الغير.

والرابع: أن الملائكة يدعون، ويستغفرون لمن في الأرض. وذلك منفعة بعمل الغير.

والخامس: أن الله تعالى يخرج من النار من لم يعمل خيراً قط بمحض رحمته. وهذا انتفاع بغير عملهم.

والسادس: أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم. وذلك انتفاع بمحض عمل الغير.

وكذا الميت بالصدقة عنه، وبالعتق بنص السنة والإجماع. وهو من عمل غيره. وأن الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وليه عنه بنص السنة. وكذا تبرأ

---

(١) روح البيان.

ذمة الإنسان من ديون الخلق إذا قضاها عنه قاض، كما قال الشافعي: إذا أنا مت فليغسلني فلان؛ أي: من الدين. وذلك انتفاع بعمل الغير. وكذا من عليه تبعات ومظالم، إذا حلل منها سقطت عنه. وأن الجار الصالح ينتفع بجواره في الحياة والممات، كما جاء في الأثر: وأن جليس أهل الذكر يرحم بهم، وهو لم يكن منهم، ولم يجلس معهم لذلك، بل لحاجة أخرى. والأعمال بالنيات، وكذا الصلاة على الميت، والدعاء له فيها ينتفع بها الميت مع أن جميع ذلك انتفاع بعمل الغير. ونظائر ذلك كثيرة لا تحصى. والآيات الدالة على مضاعفة الثواب كثيرة أيضاً، فلا بد من توجيه قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾. فإنه لاشتماله على النفي والاستثناء، يدل على أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمل نفسه، ولا يجزى على عمله إلا بقدر سعيه، ولا يزداد. وهو يخالف الأقوال الواردة في انتفاعه بعمل غيره، وفي مضاعفة ثواب أعماله. ولا يصح أن يؤول بما يخالف صريح الكتاب، والسنة، وإجماع الأمّة.

فأجابوا عنه بوجوه:

منها: أنه في حق الكافر. والمعنى عليه: ليس له من الخير إلا ما عمل هو، فيثاب عليه في الدنيا، بأن يوسع عليه في رزقه، ويعافى في بدنه، حتى لا يبقى له في الآخرة حسنة يثاب عليها.

ومنها: أنه بالنسبة إلى العدل، لا الفضل.

ومنها: أن الإنسان إنما ينتفع بعمل غيره؛ إذا نوى الغير أن يعمل له، حيث صار بمنزلة الوكيل عنه القائم مقامه شرعاً، فكان سعي الغير بذلك كأنه سعيه. وأيضاً أن سعي الغير إنما لم ينفعه إذا لم يوجد له سعي قط، فإذا وجد له سعي بأن يكون مؤمناً صالحاً كان سعي الغير تابعاً لسعيه، فكأنه سعي بنفسه. فإن علقة الإيمان وصلة وقرابة، كما قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

والحاصل: أنه لما كان مناط منفعة كل ما ذكر من الفوائد عمله الذي هو الإيمان، والعمل الصالح، ولم يكن لشيء منه نفع ما بدونهما جعل النافع نفس عمله، وإن كان بانضمام غيره إليه.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ﴾؛ أي: سعي الإنسان. وهو عمله، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝﴾. وهو مع خبره معطوف على ما قبله من قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ إلخ، على معنى: أنّ المذكورات كلها في الصحف، أي: ومما في صحفهما أن سعيه ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾؛ أي: يعرض عليه، ويكشف له يوم القيامة في صحيفته، وميزانه. من أريته إذا عرضته عليه. أو يراه أهل الموقف، ويطلعون عليه تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسيء.

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾؛ أي: ثم يجزى الإنسان سعيه؛ أي: جزاء عمله. فالضمير المرفوع عائد إلى الإنسان، والمنصوب إلى سعيه. ﴿الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ﴾؛ أي: الجزاء الأوفر الكامل الأتم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وهو مفعول مطلق مبين للنوع. وفي قوله: ﴿الْأَوْفَىٰ﴾ وعيد للكافر، ووعد للمؤمن.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ۝﴾؛ أي: ومما في صحفهما أن انتهاء الخلق في رجوعهم إلى الله تعالى بعد الموت إلى ربك، لا إلى غيره لا استقلالاً، ولا اشتراكاً، فيجازيهم بأعمالهم. وفي الحقيقة انتهاء الخلق إليه تعالى في البداية والنهاية ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾. إذ لا إله إلا هو؛ أي: وأن مرجع الأمور يوم المعاد إلى ربك. فيحاسبهم على النقير والقطمير، ويثيبهم أو يعاقبهم بالجنة أو النار، وفي هذا تهديد بليغ للمسيء، وحث شديد للمحسن، وتسلية لقلبه ﷺ. كأنه يقول له: لا تحزن أيها الرسول، فإن المنتهى إلى الله سبحانه. وقرأ الجمهور[(١)] ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وما بعدها من ﴿وأنّه﴾، و﴿أنّ﴾ بفتح الهمزة عطفاً على ما قبلها، وقرأ أبو السمال بالكسر فيهن.

﴿و﴾ مما في صحفهما ﴿أنه﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾؛ أي: خلق قوتي الضحك والبكاء في الإنسان منهما ينبعث الضحك والبكاء. والإنسان لا يعلم ما تلك القوة. والضحك[(٢)]: انبساط الوجه، وتكشر الأسنان من سرور النفس. والبكاء بالمد: سيلان الدمع عن حزن. وقيل: هما كنايتان عن السرور، والحزن. كأنه قيل: أفرح، وأحزن. لأنَّ الفرح يجلب الضحك، والحزن يجلب البكاء، أو عما يسر ويحزن. وهو الأعمال الصالحة، والأعمال السيئة. أو

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

أضحك في الدنيا أهل النعمة، وأبكى أهل الشدة والمصيبة، أو أضحك في الجنة أهلها، وأبكى في النار أهلها. أو أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر، أو أضحك الأشجار بالأنوار، والسحاب بالأمطار، أو القراطيس بالأرقام والأقلام بالمداد، أو أضحك القرد، وأبكىٰ البعير، أو أضحك بالوعد، وأبكىٰ بالوعيد، أو أضحك المطيع بالرضى، وأبكىٰ العاصي بالسخط، أو أضحك الأسنان، وأبكي الجنان. أو بالعكس. قال الشاعر:

السِّنُّ تَضْحَكُ وَٱلأَحْشَاءُ تَحْتَرِقُ   وَإِنَّمَا ضِحْكُهَا زُوْرٌ وَمُخْتَلَقُ
يَا رُبَّ بَاكٍ بِعَيْنٍ لاَ دُمُوْعَ لَهَا   وَرُبَّ ضَاحِكِ سِنٍّ مَا بِهِ رَمَقُ

والمعنى[1]: أي وأنه خلق في عباده الضحك والبكاء، وسببهما. والمراد: أنه خلق ما يسر وما يحزن من الأعمال الصالحة والأعمال الطالحة.

﴿و﴾ مما في صحفهما ﴿أنه﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾؛ أي: قضى أسباب الموت والحياة، ولا يقدر على ذلك غيره لا خلقاً، ولا كسباً. فإن أثر القاتل هو نقض البنية، وتفريق الاتصال، وإنما يحصل الموت عنده بفعل الله سبحانه على العادة. فللعبد نقض البنية كسباً دون الإماتة. وقيل: خلق نفس الموت والحياة كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾. وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء. وقيل: أمات في الدنيا، وأحيا للبعث. وقيل: المراد بهما: النوم واليقظة. وقال عطاء: أمات بعدله، وأحيا بفضله، وقيل: أمات الكافر، وأحيا المؤمن كما في قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾.

﴿و﴾ مما في صحفهما ﴿أنه﴾ سبحانه ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي: الصنفين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ بدل من الزوجين. وفي بعض التفاسير من كل الحيوان. وفيه[2] أن كل حيوان لا يخلق من النطفة، بل بعضه من الريح كالطير؛ فإن البيضة المخلوقة منها الدجاجة مخلوقة من ريح الديك. ولا يدخل في ذلك آدم وحواء. فإنهما لم يخلقا من النطفة.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ متعلق بخلق. هي الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل كما في

---

(١) المراغي.   (٢) روح البيان.

«المفردات». ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾؛ أي: إذا تدفق، وتصب في الرحم والمعنى: أنه يقدر منها الولد. قال أبو عبيدة: ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ إذا تقدر. يقال: منيت الشيء إذا قدرته، ومنى له إذا قدر له. فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ ولم يقل: وأنه هو خلق، كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾؟ فالجواب: أن الضحك والبكاء ربما يتوهم أنهما بفعل الإنسان، وكذا الإماتة. وإن كان ذلك التوهم فيهما أبعد، لكن ربما يقول به جاهل، كما قال من حاج إبراهيم: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾. فأكد ذلك بالفصل. وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة، فلا يتوهم أحد أنه بفعل أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل. اهـ كرخي.

والمعنى: أي وأنه خلق الذكر والأنثى من الإنسان وغيره من الحيوان من المنيّ الذي يدفق، ويصب في الأرحام.

﴿و﴾ مما في صحفهما ﴿أن عليه﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾؛ أي: الخلقة الأخرى. وهو الإحياء بعد الموت وفاء بوعده، لا لأنّه يجب على الله كما يوهمه ظاهر كلمة على. وفيه تصريح بأن الحكمة الإلهية اقتضت النشأة الثانية الصورية للجزاء، والمكافأة، وإيصال المؤمنين بالتدريج إلى كمالهم اللائق بهم. ولو أراد تعجيل أجورهم في هذه الدار.. لضاقت الدنيا بأجر واحد منهم، فما ظنك بالباقي. ومن طلب تعجيل نتائج أعماله، وأحواله في هذه الدار.. فقد أساء الأدب، وعامل الموطن بما لا يقتضيه حقيقته؛ أي: وإن عليه الإحياء بعد الإماتة ليجازي كلاً من المحسن، والمسيء على ما عمل. وقرأ الجمهور(١) ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ بالقصر بوزن الضربة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالمد بوزن الكفالة. وهما على القراءتين مصدران.

﴿و﴾ مما في صحفهما ﴿أنه﴾ تعالى ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿أَغْنَىٰ﴾ من شاء من عباده بالأموال. ﴿وَأَقْنَىٰ﴾؛ أي: أفقر من شاء منها. ومثله قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، وقوله: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾؛ أي: وأنه تعالى يغني من يشاء من عباده، ويفقر من يشاء بحسب ما يرى من استعداد كل منهما ومقدرته على كسب المال بحسب السنن المعروفة في هذه الحياة.

---

(١) الشوكاني.

وفي هذا[1]: تنبيه إلى كمال القدرة. فإن النطفة جسم متناسب الأجزاء في الظاهر، ويخلق الله تعالى منها أعضاء مختلفة، وطباعاً متباينة من ذكر وأنثى. ومن ثم لم يدع أحد خلق ذلك كما لم يدع خلق السموات والأرض كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. ونحو الآية قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾ وقيل: أنه هو أغنى؛ أي: أعطى الغنى للناس بالأموال، وأقنى؛ أي: أعطى القنية. وهي ما يتأثل من الأموال؛ أي: يتخذ أصلاً، ويدخر بأن يقصد حفظه استثماراً واستنماءً، وأن لا يخرج عن ملكه. وقال بعضهم: أغنى الناس بالكفاية والأموال، وأعطى القنية، وما يدخرونه بعد الكفاية. وقال الضحاك: أغنى بالذهب، والفضة، والمسكن، والثياب. وأقنى بالإبل، والبقر، والغنم، والدواب. قال أبو زيد: تقول العرب: من أعطي مئة من البقر.. فقد أعطي القنى، ومن أعطي مئة من الضأن.. فقد أعطي الغنى، ومن أعطي مئة من الإبل.. فقد أعطي المنى.

وأفرد القنية بالذكر بعد قوله: ﴿أَغْنَىٰ﴾؛ لأنها أشرف الأموال، وأفضلها. والأوفق لما قدمه من الآي المشتملة على مراعاة صنعة الطباق أن يحمل ﴿أقنى﴾ على معنى أفقر، على أن تكون الهمزة في ﴿أقنى﴾ للإزالة، كما قاله سعديٌّ المفتي.

﴿و﴾ منه ﴿أنه﴾ تعالى ﴿رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾؛ أي: رب معبودهم الشعرى. فاعبدوا الرب دون المربوب. والشعرى: كوكب نير خلف الجوزاء. يقال له: العبور بالمهملة بوزن الصبور. قال مجاهد، وابن زيد: هو مرزم الجوزاء. وهي المرادة هنا. وهي أشد ضياء من الغميصاء ـ بالغين المعجمة المضمومة ـ وفتح الميم والصاد المهملة». وهي إحدى الشعريين. يعني: أن الشعرى شعريان. أحدهما: الشعرى اليمانية، وتسمى أيضاً الشعرى العبور. وثانيتهما: الشعرى الشامية، وهي التي بالذراع. وتسمى أيضاً الشعرى الغميصاء، فصلت المجرة بينهما. تزعم العرب أن الشعريين أختا سهيل، وأن الثلاثة كانت مجتمعة فانحدر سهيل نحو اليمين،

---

(١) روح البيان.

وتبعته العبور، فعبرت المجرة، ولقيت سهيلاً، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل، فغمصت عينها؛ أي: كانت أقل نوراً من العبور وأخفى. والغمص في العين ما سال من الرمص. يقال: غمصت عينه بالكسر غمصاً. وكانت خزاعة تعبد الشعرى. سن لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرافهم. فقال: لقومه: إن النجوم تقطع السماء عرضاً، وهذه تقطعها طولاً، فليس شيء مثلها. فعبدتها خزاعة، وخالف أبو كبشة قريشاً في عبادة الأوثان، ولذلك كانت قريش تقول لرسول الله ﷺ، ويسمونه: ابن أبي كبشة تشبيهاً له به، لا يريدون بذلك اتصال نسبه إليه، وإن كان الأمر كذلك؛ لأن أبا كبشة من أجداده ﷺ من قبل أمه. ومن ذلك قول أبي سفيان حين دخوله على هرقل: لقد أمِر أمر ابن أبي كبشة، بل يريدون بذلك موافقته ﷺ له في ترك عبادة الأوثان، وإحداث دين جديد. فالنبي ﷺ كما وافق أبا كبشة في مخالفة قريش بترك عبادة الأوثان خالفه أيضاً بترك عبادة الشعرى.

والمعنى[1]: أي وأنه تعالى رب هذا الكوكب الوهاج الذي يطلع خلف الجوزاء في شدة الحر. فاعبدوه، ولا تعبدوا الشعرى. وإنما خصها بالذكر من بين الأجرام السماوية، وفيها ما هو أكبر منها جرماً، وأكثر ضوءاً لأنها عبدت من دون الله في الجاهلية. فقد عبدتها حمير، وخزاعة، كما مر آنفاً. ومن العرب من كانوا يعظمونها، ويعتقدون أن لها تأثيراً في العالم، ويتكلمون على المغيبات حين طلوعها. وهي شعريان. إحداهما: شامية. وهي التي في الذراع. وثانيتهما: يمانية، وهي خلف الجوزاء. وهي المرادة في هذه الآية، وهي التي كانت تعبد من دون الله سبحانه وتعالى.

وفي هذا إشارة إلى فساد قول من قال من الناس: إن الفقر والغنى بكسب الإنسان واجتهاده. فمن كسب استغنى، ومن كسل افتقر. وبعضهم قال: إنّ ذلك بالبخت، وذلك بالنجوم. فردهم تعالى بقوله: هو تعالى محرك النجوم، ورب معبودهم الشعرى العبور.

﴿و﴾ منه ﴿أنّه﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ هي[2] قوم هود عليه السلام، أهلكوا بريح صرصر. وعاد الأخرى إرم بن سام بن نوح، كما قال: ﴿أَلَمْ

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾. وكانوا من أشدّ الأمم، وأقواهم، وأعتاهم على الله ورسوله. وقيل: الأولى القدماء؛ لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح؛ أي: فالمراد بعاد: جميع من انتسب إلى عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. ووصفهم بالأولية ليس للاحتراز عن عاد الأخيرة، بل لتقدم هلاكهم بحسب الزمان على هلاك سائر الأمم بعد قوم نوح. قال في «التكملة»: وصف عاد بالأولى يدل على أن لها ثانية. فالأولى هي عاد بن إرم قوم هود. والثانية من ولدها، وهي التي قاتلها موسى عليه السلام بأريحاء. كانوا تناسلوا من الهزيلة بنت معاوية، وهي التي نجت من قوم عاد مع بنيها :لأربعة: عمر، وعمرو، وعامر، والعتيد. وكانت الهزيلة من العماليق، انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ بتنوين عاداً وكسره لالتقاءه ساكناً مع سكون لام الأولى، وتحقيق الهمزة بعد اللام. وقرأ قوم كذلك، غير أنهم نقلوا حركة الهمزة إلى اللام، وحذفوا الهمزة. وقرأ نافع، وابن كثير، وابن محيصن وأبو عمرو بإدغام التنوين في اللام المنقول إليها حركة الهمزة المحذوفة.

﴿وَثَمُودَا۟﴾ معطوف على ﴿عَادًا﴾. لأنَّ ما بعده لا يعمل فيه لمنع ما النافية عن العمل. وهم قوم صالح عليه السلام، أهلكهم الله سبحانه بالصيحة. ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ الله سبحانه وتعالى أحداً من الفريقين.

والمعنى: أي وأنه أهلك ثمود كما أهلك عاداً، فما أبقى منهم عيناً تطرف. ويجوز أن يكون المعنى: فما أبقى عليهما. فالإبقاء على هذا المعنى: الترحم عليهم. وإنما لم يترحم عليهم لكونهم من أهل الغضب، ورحمة الله لأهل اللطف دون القهر؛ أي: فما أبقى عليهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وقرأ الجمهور[2] ﴿وثموداً﴾ مصروفاً. وقرأه غير مصروف: الحسن، وعاصم، وعصمة.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ معطوف على ﴿عَادًا﴾ أيضاً؛ أي: وأنّه سبحانه أهلك قوم نوح عليه السلام ﴿مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل إهلاك عاد، وثمود. ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن قوم نوح ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ﴾ لنبيهم ﴿وَأَطْغَىٰ﴾؛ أي: أعتى لربهم من الفريقين، حيث كانوا

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

يؤذونه، وينفرون الناس عنه. وكانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه، وكانوا يضربونه عليه السلام، حتى لا يكون به حراك. وما أثرت فيهم دعوته قريباً من ألف سنة، وما آمن معه إلا قليل.

والمعنى: أي وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود، وكانوا أظلم وأطغى من الفريقين، أو أظلم وأطغى من جميع الفرق الكفرية، أو أظلم وأطغى من مشركي العرب. وإنما كانوا أظلم لأنهم بدؤوا بالظلم. وفي الحديث: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها». لأنهم أول من كذب الرسل.

وقد كان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه، ويمشي به إلى نوح، ويحذره منه، ويقول: يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا الرجل، وأنا مثلك يومئذٍ، ويقول: فإياك أن تصدقه، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصية أبيه، لا يتأثر من دعوة نوح له. وكانوا أطغى؛ أي: أكثر طغياناً وتمرداً على الله، وأكثر تجاوزاً للحد؛ لأنهم سمعوا المواعظ، وطال عليهم الأمد، ولم يرتدعوا، حتى دعا عليهم نبيهم بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ منصوب عطفاً على ﴿عَادًا﴾؛ أي: وأنّه أهلك المؤتفكة؛ أي: قرى قوم لوط عليه السلام. سميت مؤتفكة لأنها ائتفكت بأهلها؛ أي: انقلبت بهم. وقيل: هو منصوب بقوله: ﴿أَهْوَىٰ﴾؛ أي: أسقطها الله إلى الأرض مقلوبة بعد أن رفعها على جناح جبريل إلى السماء. وقال الزجّاج: ألقاها في الهاوية.

﴿فَغَشَّىٰهَا﴾؛ أي: فغشى الله سبحانه المؤتفكة، وغطاها، وألبسها ﴿مَا غَشَّىٰ﴾؛ أي: ما غشاها؛ أي: ما ألبسها من فنون العذاب، والحجارة التي وقعت عليها. وفي هذه العبارة من التهويل والتفظيع ما لا غاية وراءه.

وقوله[1]: ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ مفعول ثان إن قلنا: إن التضعيف للتعدية، أي: ألبس الله سبحانه المؤتفكة ما ألبسها إياه من العذاب كالحجارة المنضودة المسوّمة، فمفعولا الفعل الأول مذكوران، والثاني محذوفان. وإن قلنا: إنه للمبالغة والتكثير فهو فاعل كقوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: وأهلك الله سبحانه قوم لوط بانقلاب قريتهم عليهم، وجعل عاليها سافلها، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾. وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

خلاصة ما هنا: وجملة ما ذكره سبحانه مما تضمنته صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام أربعة عشر:

١ ـ أن لا يؤاخذ امرؤ بذنب غيره.

٢ ـ أن لا يثاب امرؤ إلا بعمله.

٣ ـ أن العامل يرى عمله في ميزانه خيراً كان أو شرّاً.

٤ ـ أنه يجازى عليه الجزاء الأوفى، فتضاعف له حسناته إلى سبع مئة ضعف ويجازى بمثل سيئاته.

٥ ـ أن الخلائق كلهم راجعون يوم المعاد إلى ربهم، ومجازون بأعمالهم.

٦ ـ أنه تعالى خلق الضحك والبكاء والفرح والحزن.

٧ ـ أنه سبحانه خلق الذكر والأنثى من نطفة تصب في الأرحام.

٨ ـ أنه تعالى خلق الموت والحياة.

٩ ـ أنه هو الذي أعطى الغنى والفقر، وكلاهما بيده، وتحت قبضته.

١٠ ـ أنه هو رب الشعرى، وكانت خزاعة تعبدها.

١١ ـ أنه أهلك عاداً الأولى، وقد كانوا أول الأمم هلاكاً بعد قوم نوح.

١٢ ـ أنه أهلك ثمود فما أبقاهم، بل أخذهم بذنوبهم.

١٣ ـ أنه أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، وقد كانوا أظلم وأطغى من الفريقين.

١٤ ـ أنه أهلك المؤتفكة. وهي قرى قوم لوط، وقد انقلبت بأهلها، وغطّاها بحجارة من سجيل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾؛ أي: فبأيّ نعماء ربك، وخالقك التي أنعم بها عليك أيها المخاطب ﴿تَتَمَارَىٰ﴾؛ أي: تتجاحد، وتمتري، وتكذب. ونحو الآية قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾، وقوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

والمراد بالنعم[1]: ما عدَّده من قبل، وجعلت كلها نعماً، وبعضها نقم لما في النقم من المواعظ والعبر للمعتبرين من الأنبياء والمؤمنين.

والخلاصة: أنها كلها دالة على وحدانية ربك وربوبيته، ففي أيها تتشكك على وضوحها للناظرين، ووجوه دلالتها للمعتبرين. وهذا خطاب للإنسان المكذب؛ أي: فبأي نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك، وتمتري. وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لغيره على حدّ قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. أو لكل واحد، وإسناد فعل التماري إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه.

وعبارة «الروح»: وجعل الأمور المعدودة آلاء مع أن بعضها نقم لما أنها أيضاً نعم، من حيث إنها نصرة للأنبياء والمؤمنين، وانتقام لهم. وفيها عظات، وعبر للمعتبرين. قال في «بحر العلوم»: وهلاك أعداء الله تعالى، والنجاة من صحبتهم وشرهم، والعصمة من مكرهم من أعظم آلائه تعالى الواصلة إلى المؤمنين. قال المتنبي:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَىٰ   عَدُوّاً لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

وقد أمر نوحاً بالحمد على ذلك في قوله: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وقد حمد هو بنفسه على ذلك في موضع آخر تعليماً لعباده حيث قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾. وقد سجد ﷺ سجدة الشكر حين رأى رأس أبي جهل قد قطعت في غزوة بدر.

وقرأ الجمهور:[2] ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ بتائين من غير إدغام. وقرأ يعقوب، وابن محيصن ﴿تمارى﴾ بتاء واحدة مشددة. والفاء في قوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ للإفصاح؛ لأنّها وقعت في جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت يا محمد هذه المذكورات، وكنت شاكّاً فيها على سبيل الفرض.. فأقول لك: بأيّ نعمة من نعم ربك تتشكك بأنها ليست من عند الله تعالى، أو في كونها نعمة. فكما نصرت

---

(١) المراغي.   (٢) البحر المحيط.

إخوانك من الأنبياء الماضين، ونصرت أولياءهم، وأهلكت أعداءهم، فكذلك أفعل بك. فلا يكن قلبك في ضيق وحرج مما رأيت من إصرار هؤلاء القوم على شركهم وعنادهم واستكبارهم.

والإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ إما للرسول. والنذير بمعنى المنذر؛ أي: هذا الرسول[1] محمد ﷺ منذر لكم من عذاب الله، ومبشر لمن آمن منكم؛ أي: نذير كائن من جنس النذر المتقدمين. ووصفهم بالأولى على تأويلهم بالجماعة لمراعاة الفواصل. وقد علمتم أحوال قومهم المنذرين فلكم أيها المشركون ما لهم، كذا قال ابن جريج، ومحمد بن كعب، وغيرهما.

والمعنى: أي إن محمداً ﷺ منذر من حاد عن طريق الهدى، وسلك طريق الضلال والهوى بسيء العواقب في العاجل والآجل. وهو كمن قبله من الرسل الذين أرسلهم ربهم لهداية خلقه، فكذبوهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وحل بهم البوار والنكال كفاء تكذيبهم وجحودهم آلاء ربهم ونعمه التي تترى عليهم. ونحو الآية: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، وقوله ﷺ: «أنا النذير العريان»، أي: الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس شيئاً، وبادر إلى إنذار قومه، وجاءهم مسرعاً. وإما إشارة إلى القرآن، والنذير بمعنى الإنذار؛ أي: هذا القرآن الذي تشاهدونه إنذار كائن من قبيل الإنذارات المتقدمة التي سمعتم عاقبتها، كذا قال قتادة، أو إلى ما سبق في السورة؛ أي: هذا الذي أخبرنا به من أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك، كذا قال أبو مالك الغفاري، وقال أبو صالح: إنّ الإشارة بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى ما في صحف موسى وإبراهيم. والأول أولى. لأنه لما افتتح به أول السورة اختتم به ﷺ.

ولما ذكر إهلاك من تقدم ذكره، وذكر قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾: ذكر أن الذي أنذر به قريب الوقوع، فقال: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾؛ أي: قربت الساعة الموصوفة بالقرب في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، وهي القيامة، ودنت. وسماها آزفة لقرب قيامها كما في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أخبرهم بذلك ليستعدوا لها.

---

(١) المراغي.

وفي «الروح»: قوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأَزِفَةُ ۝٥٧﴾ في إيراده[1] عقيب المذكورات إشعار بأن تعذيبهم مؤخر إلى يوم القيامة، تعظيماً للنبي ﷺ، وإن كانوا معذبين في الدنيا في الجملة. واللام فيه للعهد، فلذا صح الإخبار بدنوها، ولو كانت للجنس لما صح؛ لأنه لا فائدة في الإخبار بقرب آزفة ما.

فإن قلت: الإخبار بقرب الآزفة المعهودة لا فائدة فيه أيضاً.

قلتُ: فيه فائدة، وهو التأكيد، وتقرير الإنذار.

والمعنى:[2] أي اقتربت الساعة، ونصب الميزان، وستجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر، فاحذروا أن تكونوا من الهالكين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون. ونحو الآية: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾. وفي الحديث: «مثلي ومثل الساعة كهاتين» وفرَّق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام.

﴿لَيۡسَ لَهَا﴾؛ أي: للساعة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَاشِفَةٌ﴾؛ أي: نفس[3] قادرة على كشفها؛ أي: إزالتها، وردها عند وقوعها في وقتها المقدر لها إلا الله سبحانه، لكنه لا يكشفها، من كشف الضر إذا أزاله بالكلية. فالكاشفة: اسم فاعل، والتاء للتأنيث، والموصوف مقدر. أو المعنى: ليس لها الآن نفس كاشفة؛ أي: قادرة بتأخيرها إلا الله سبحانه. فإنه المؤخر لها. يعني: لو وقعت الآن لم يردها إلى وقتها أحد إلا لله. فالكشف بمعنى الإزالة لا بالكلية، بل بالتأخير إلى وقتها. أو المعنى: ليس لها كاشفة لوقتها إلا الله؛ أي: عالمة به من كشف الشيء إذا عرف حقيقته، أو مبينة له متى تقوم. وفي القرآن: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾. أو المعنى: ليس لها من غير الله كشف على أن كاشفة مصدر كالعافية والخائنة. وأما جعل التاء للمبالغة كتاء علامة فالمقام يأباه لإبهامه ثبوت أصل الكشف لغيره تعالى. والمعنى الأول أولى.

والمعنى[4]: أي ليس هناك من يعرف وقت حلول الآزفة إلا هو فاستعدوا

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) المراغي.

لهذا اليوم قبل أن تأخذكم الساعة بغتة وأنتم لا تشعرون، فتندموا ولات ساعة مندم، وجدوا بالعمل قبل حلول الأجل.

وقد أشار في هذه الآيات إلى أصول الدين الثلاثة:

١ ـ وحدانية الله بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

٢ ـ إثبات نبوّة محمد ﷺ بقوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾.

٣ ـ إثبات الحشر والبعث بقوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم أنكر على المشركين تعجبهم من القرآن، واستهزاءهم به، وإعراضهم عنه، فقال: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ والمراد بالحديث: القرآن؛ أي: كيف تعجبون منه أيها المشركون تكذيباً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاء مع كونه غير محل للتكذيب. ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خوفاً وانزجاراً لما فيه من الوعيد الشديد.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتكذبون نبوة محمد ﷺ، فتعجبون من هذا القرآن الذي أنزل عليه، وتضحكون من تلاوته عليكم، ولا تبكون خوفاً من الوعيد الذي اشتمل عليه، وحزناً على ما فرطتم في شأنه، وخوفاً من أن يحيق بكم مثل ما حاق بالأمم المذكورة هنا.

وقرأ الحسن(١): ﴿تُعجِبون﴾ ﴿تُضحِكون﴾ بغير واو، وبضم التاء، وكسر الجيم والحاء.

وجملة قوله: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ حال من فاعل ﴿لا تبكون﴾؛ أي: ولا تبكون والحال أنكم سامدون؛ أي: لاهون(٢) عما في القرآن، أو مستكبرون من استماعه من سمد البعير في مسيره إذا رفع رأسه، أو مغنون لتشغلوا الناس عن استماعه من السمود بمعنى الغناء على لغة حمير. وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء واللهو ليشغلوا الناس عن الاستماع. أو خاشعون جامدون من السمود بمعنى الجمود والخشوع. ومضمون هذه الجملة الحالية على الوجه الأخير قيد للمنفي. والإنكار وارد على نفي البكاء والسمود معاً، وعلى الأوجه الأول قيد للنفي.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

والإنكار متوجه إلى نفي البكاء ووجود السمود. والوجه الأول أوفى بحق المقام، فتدبر كما في «الإرشاد».

والمعنى[1]: أفينبغي لكم بعد ذلك أن تعجبوا من هذا القرآن، وقد جاءكم بما فيه هدايتكم إلى سواء السبيل، وإرشادكم إلى الطريق المستقيم. وكيف تسخرون منه، وتستهزئون به، ولا تكونوا كالموقنين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾. وكيف تلهون عن استماع عبره، وتغفلون عن مواعظه، وتتلقونها تلقي اللاهي الساهي المعرض عما يسمع غير المكترث بما يلقى إليه.

أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩)﴾ الآية، بكى أصحاب الصفة، حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع رسول الله ﷺ حنينهم بكى معهم، فبكينا ببكائه، فقال ﷺ: «لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى، ولا يدخل الجنّة مصر على معصيته، ولو لم تذنبوا.. لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون، فيغفر لهم». وروي: أنه ﷺ لم ير ضاحكاً بعد نزول هذه الآية. وفي قوله: ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حث على البكاء عند سماع القرآن.

ثم بين ما يجب عند سماع القرآن من الإجلال والتعظيم، فقال: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾؛ أي: صلّوا مخلصين لله. ﴿وَاعْبُدُوا﴾؛ أي: أفردوه بالعبادة، ولا تعبدوا اللات، والعزى، ومناة، والشعرى، وغيرها من الأصنام.

والفاء في قوله: ﴿فَاسْجُدُوا﴾ لترتيب الأمر، أو موجبه على ما تقرر من بطلان مقابلة القرآن بالإنكار، والاستهزاء، ووجوب تلقيه بالإيمان والإذعان مع كمال الخضوع والخشوع؛ أي: وإذا كان الأمر من الكفّار كذلك، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: اسجدوا لله الذي أنزله، واعبدوه، ولا تعبدوا غيره من ملَكٍ أو بشر، فضلاً عن جماد لا يضرّ ولا ينفع كالأصنام، والكواكب. قال في «عين المعاني»: فاسجدوا؛ أي: في الصلاة. والأصحّ: أنه على الانفراد. وهي

---

(١) المراغي.

سجدة التلاوة، انتهى.

والمعنى: أي فاخضعوا، وأخلصوا له العمل حنفاء غير مشركين به. فهو الذي أنزله على عبده ورسوله هادياً وبشيراً لكم لعلكم ترحمون. ودعوا ما أنتم عليه من عبادة الأوثان، والأصنام التي لا تغني عنكم شيئاً، لا تدفع عنكم ضرّاً، ولا تجديكم نفعاً، كما قال آمراً رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾.

وهذا محل السجود عند أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وهو قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه. روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ والنجم، فسجد فيها وسجد من كان معه غير أنّ شيخاً من قريش أخذ كفّاً من حصباء أو تراب فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بعد قتل كافراً. زاد البخاري في رواية له قال: أول سورة نزلت فيها السجدة النجم، وذكره، وقال في آخره: وهو أميّة بن خلف.

وروى البخاري عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون، والمشركون، والجن والإنس. ولم يرها مالك لما روى الشيخان عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قرأت على رسول الله ﷺ النجم فلم يسجد فيها. ففي هذا الحديث دليل على أنّ سجود التلاوة غير واجب. وهو قول الشافعي، وأحمد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّ الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء. وذهب قوم إلى وجوبها على القارىء، والمستمع. وهو قول سفيان، وأصحاب الرأي. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الإعراب

﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة

على ذلك المحذوف، والتقدير: أفكرت يا محمد في شأن هؤلاء المعاندين فرأيت الذي تولى. ﴿رأيت﴾ فعل، وفاعل، ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محمد النصب، مفعول أول لـ ﴿رأيت﴾، وجملة ﴿رأيت﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿تَوَلَّىٰ﴾ فعل، وفاعل مستتر، يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ معطوف على ﴿تَوَلَّىٰ﴾، ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: عطاء قليلاً، ولك أن تجعله مفعولاً به لـ ﴿أعطى﴾، لأنه بمعنى وهب. ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ معطوف على ﴿أعطى﴾. ﴿أَعِندَهُۥ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿عنده﴾ خبر مقدم، ﴿عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في موضع نصب على أنها مفعول ثان لـ ﴿رأيت﴾. ﴿فَهُوَ﴾ الفاء: عاطفة سببية، ﴿هو﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَرَىٰ﴾ خبره. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾، فهي داخلة في حيّز الاستفهام. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الإنكار، ﴿لَمْ﴾ حرف نفي وجزم، ﴿يُنَبَّأْ﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة، مجزوم بلم، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿يُنَبَّأْ﴾، على أنه مفعول ثان له. والجملة الإضرابية مستأنفة. ﴿فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ جار ومجرور، صلة الموصول، ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة لـ ﴿إبراهيم﴾، و﴿وَفَّىٰٓ﴾ صلة الموصول، ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وجملة ﴿لا تزر﴾ خبرها، ﴿وَازِرَةٌ﴾ فاعل ﴿تَزِرُ﴾، ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ مفعول ﴿تَزِرُ﴾. وجملة ﴿أن﴾ المخفّفة من اسمها وخبرها في محل الجرّ، بدل من ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، أو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو أن لا تزر وازرة. ﴿وَأَن﴾ الواو: عاطفة، ﴿أنْ﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، ﴿لَّيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ خبرها مقدم، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مَا﴾ اسم موصول، في محل الرفع اسم ليس مؤخر، ﴿سَعَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على ﴿الإنسان﴾. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: إلا ما سعاه، ويصح أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، وجملة ليس في محل الرفع خبر أن المخفّفة، وجملة أن المخفّفة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿سَوْفَ﴾ حرف تنفيس واستقبال، وجملة ﴿يُرَىٰ﴾ في محل الرفع خبر أنّ، وجملة أنّ معطوفة على جملة ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب، ﴿يُجْزَىٰهُ﴾ فعل مضارع، مغير

الصيغة، ومفعول ثانٍ له، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿الإنسان﴾، ﴿ٱلْجَزَآءَ﴾ مفعول مطلق، ﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾ صفة له، أو هو بدل من الضمير الذي وقع مفعولاً ثانياً. والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَأَنَّ﴾ عاطف، وناصب، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خبره مقدم، ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ اسمه مؤخر. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿أَضْحَكَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على الله. والجملة في محل الرفع خبر هو، وجملة هو في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة أنّ معطوفة على قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ﴿وَأَبْكَىٰ﴾ معطوف على ﴿أَضْحَكَ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أَمَاتَ﴾ خبره، ﴿وَأَحْيَا﴾ معطوف على ﴿أَمَاتَ﴾. والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ معطوفة على ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ﴿ٱلذَّكَرَ﴾ بدل من الزوجين، ﴿وَٱلْأُنثَىٰ﴾ معطوف عليه، ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بخلق، ﴿تُمْنَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿نُّطْفَةٍ﴾. والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾؛ أي: خلق من نطفة وقت إمنائها في الرحم. ﴿وَأَنَّ﴾ عاطف وناصب، ﴿عَلَيْهِ﴾ خبر مقدم لـ ﴿أَنَّ﴾، ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ اسمها مؤخر، ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ صفة لـ ﴿نشأة﴾. وجملة ﴿أَنَّ﴾ معطوفة على ما تقدم. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أَغْنَىٰ﴾ خبره. والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة أنّ معطوفة على ما تقدم. وجملة ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ معطوفة على ﴿أَغْنَىٰ﴾. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ خبره. والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب

واسمه، ﴿أَهْلَكَ عَادًا﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿الْأُولَىٰ﴾ صفة لـ ﴿عَادًا﴾، وجملة ﴿أَهْلَكَ﴾ خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم. ﴿وَثَمُودَا﴾ معطوف على ﴿عَادًا﴾ ﴿فَمَآ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿أَبْقَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، والجملة معطوفة على ﴿أَهْلَكَ﴾. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ معطوف على ﴿عَادًا﴾، ﴿مِّن قَبْلُ﴾ جار ومجرور، حال من ﴿قوم نوح﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانُوا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿هُمْ﴾ ضمير فصل، لا محل له، أو تأكيد للضمير في ﴿كَانُوا﴾، ﴿أَظْلَمَ﴾ خبر ﴿كَانُوا﴾. ﴿وَأَطْغَىٰ﴾ معطوف على ﴿أَظْلَمَ﴾. وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ مفعول مقدم لـ ﴿أَهْوَىٰ﴾، و﴿أَهْوَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله. والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أَهْلَكَ عَادًا﴾. ﴿فَغَشَّاهَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿غشاها﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به أول. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَهْوَىٰ﴾. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿غشاها﴾، وجملة ﴿غَشَّىٰ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ الموصولة فاعلاً لـ ﴿غشاها﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت يا محمد هذه المذكورات، وكنت شاكًا فيها على سبيل الفرض.. فأقول لك في أيّ نعمة من نعم ربّك تشكك بأنها ليست من عند الله تعالى، أو في كونها نعمة من عند الله تعالى. وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بأي آلاء ربك﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَتَمَارَىٰ﴾، و﴿تَتَمَارَىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة. ﴿مِّنَ النُّذُرِ﴾ نعت لـ ﴿نَذِيرٌ﴾، ﴿الْأُولَىٰٓ﴾ صفة لـ ﴿النُّذُرِ﴾، ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لَهَا﴾ خبرها مقدم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ حال من ﴿كَاشِفَةٌ﴾، و﴿كَاشِفَةٌ﴾ اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر. وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل النصب، حال من ﴿الْآزِفَةُ﴾. ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على

ذلك المحذوف، ﴿من هذا الحديث﴾ متعلق بـ ﴿تَعْجَبُونَ﴾ وجملة ﴿تَعْجَبُونَ﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: أتكذّبون نبوة محمد ﷺ فتعجبون من هذا الحديث. والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تَعْجَبُونَ﴾، ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ معطوف على تضحكون، أو الجملة حال من فاعل ﴿تضحكون﴾. ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ مبتدأ وخبر. والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿تَبْكُونَ﴾. ﴿فَٱسْجُدُوا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان شأن المشركين وحالهم ما ذكر، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم اسجدوا لله. ﴿اسجدوا﴾ فعل أمر، مبنيّ على حذف النون، والواو: فاعل، ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿اسجدوا﴾. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱعْبُدُوا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿اسجدوا﴾ من عطف العام على الخاص.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: أعرض عن اتباع الحق، والثبات عليه. ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾؛ أي: قطع العطاء، وأمسك بخلاً، من أكدى الحافر؛ أي: حافر البئر إذا بلغ الكدية؛ أي: الصلابة كالصخرة، فلا يمكنه أن يحفر، ثم استعمل في كل من طلب شيئاً فلم يصل إليه، فلم يتممه، ولم يبلغ آخره. وفي «القاموس»: أكدى بخل، أو قل خيره، أو قلل عطاءه. وأصل ﴿تَوَلَّىٰ﴾ تولي بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. وكذلك أصل ﴿أعطى﴾ أعطي قلبت الياء التي أصلها واو ألفاً لتحركها بعد فتح، وإنما قلبت الواو ياء لوقوعها رابعة. وكذلك أصل ﴿أكدى﴾ أكدي بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ جمع صحيفة. قال الراغب: الصحيفة: المبسوطة من كل شيء، كصحيفة الوجه، والصحيفة التي كان يكتب فيها. وجمعها صحائف، وصحف. والمصحف: ما جعل جامعاً للصحف المكتوبة. وقال القهستاني: المصحف مثلث الميم ما جمع فيه قرآن، والصحف.

﴿وَفَّىٰٓ﴾ يقال: أوفاه حقه، ووفاه بمعنى؛ أي: أعطاه تامّاً وافياً. ويجوز أن يكون التشديد فيه للتكثير والمبالغة في الوفاء بما عاهد الله.

﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ والسعي: المشي السريع. وهو دون العدو، ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شرّاً. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أصله: يرأي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم نقلت حركة الهمزة إلى الراء ثم حذفت تخفيفاً، فوزنه يفل.

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أصله: يجزي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾ اسم تفضيل، وزنه أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

والمعنى: يجزى سعيه. يقال: جزاه الله بعمله، وجزاه على عمله، وجزاه عمله.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ المنتهى مصدر ميمي بمعنى الانتهاء؛ أي: إليه الانتهاء، والرجوع في المعاد. وأصله: المنتهي بوزن مفتعَل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ والضحك: انبساط الوجه، وتكشر الأسنان من سرور النفس. ولظهور الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان الضواحك. والبكاء بالمد: سيلان الدمع عن حزن وعويل. ويقال: البكاء بالمد إذا كان الصوت أغلب كالرغاء، وسائر هذه الأبنية الموضوعة للصوت. وبالقصر يقال: إذا كان الحزن أغلب. وأصل ﴿أبكى﴾ أبكي بوزن أفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿أَمَاتَ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: أموت بوزن أفعل، نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿وَأَحْيَا﴾ أصله: أحيي بوزن أفعل، قلبت الياء الأخيرة ألفا لتحركها بعد فتح.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ والنطفة: الماء الصافي. ويعبر بها عن ماء الرجل، كما في «المفردات». ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾؛ أي: تصب في الرحم. وفي «القاموس»: منى وأمنى ومنَّى بمعنًى، يقال: أمنى الرجل ومنى: إذا صب المني، أو معنى ﴿تُمْنَىٰ﴾ يقدر منها الولد من مناه الله يَمْنِيه قدره. إذ ليس كل مني يصير ولداً. وأصل ﴿تُمْنَىٰ﴾ تمني بوزن تفعل، فأعل كنظائره السابقة. ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾؛ أي: أغنى من شاء، وأفقر من شاء.

وأصلهما: أغني وأقني بوزن أفعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً.

﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾ هي الشعرى العبور. وهي النجم الوضاء الذي يقال له: مرزم الجوزاء. وقد عبدته طائفة من العرب. وعاداً الأولى: هم قوم هود، وهم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. وعاد الأخرى: هم من ولد عاد الأولى، وهم قوم صالح.

﴿المؤتفكة﴾ وهي قرى قوم لوط. سميت بذلك لأنها ائتفكت بأهلها؛ أي: انقلبت بهم. ومنه: الإفك. لأنه قلب الحق. ﴿أَهْوَىٰ﴾؛ أي: أسقطها على الأرض مقلوبة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ الآلاء: النعم. واحدها إلى بوزن معى. وفيه إعلال بالإبدال. أصله: ألاى، أبدلت الياء همزة لتطرفها بعد ألف زائدة. والمدة فيه بدل من همزة، إذ أصله: أألاى، أبدلت الهمزة الثانية الساكنة حرف مد من جنس حركة الأولى. وقوله: ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ فيه إعلال بالقلب. أصله: تتماري بوزن تتفاعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. والتماري، والمماراة، والامتراء: المحاجة فيما فيه مرية، أي: شك وتردد.

﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ يقال: أزف الترحل كفرح أزفاً وأزوفاً إذا دنا. والأزف محركاً: الضيق. وفي «المصباح»: أزف الرحيل أزوفاً من باب تعب، وأزفاً أيضاً دنا وقرب، وأزفت الآزفة دنت الدانية؛ أي: قربت القيامة. ﴿كَاشِفَةٌ﴾ من كشف الضر إذا أزاله.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قال الراغب: العجب، والتعجب: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، ولهذا قال بعض الحكماء: العجب: ما لا يعرف سببه. ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أصله: تبكيون، أستثقلت الضمة على الياء، فحذفت فسكنت فحذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، ثم ضمت الكاف لمناسبة الواو.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ السمود: اللهو. وقيل: الإعراض، وقيل: الاستكبار. وقال أبو عبيدة: السمود: الغناء بلغة حمير، يقولون: يا جارية اسمدي لنا؛ أي: غني لنا. وقال الراغب: والسامد: اللاهي الرافع رأسه من قولهم: بعير سامد في مسيره، وقيل: سمد رأسه وجسده؛ أي: استأصل شعره. وفي «المختار»:

والسامد: اللاهي، بابه دخل. وفسر الزمخشري السمود بالبرطمة. وهي عامية فصيحة. ففي «الصحاح»: البرطمة: الانتفاخ من الغضب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية؛ لأنه استعار التولي والإدبار والإعراض لعدم الدخول في الإيمان. فاشتق من التولي بمعنى عدم الإيمان تولى بمعنى أعرض عن الإيمان على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية. ويمكن أن يكون هذا ضابطاً لذكر التولي في القرآن، فحيث ورد في القرآن مطلقاً غير مقيد يكون معناه عدم الإيمان.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ حيث شبه من يعطي قليلاً ثم يمسك عن العطاء بمن يكدي أي: يمسك عن الحفر بعد أن حيل دونه بصلابة كالصخرة على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الطباق بين: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ وبين: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ وبين: ﴿أعطى وأكدى﴾ وبين: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾. وهو في السورة جميعها متعدد، ولهذا يدخل في باب المقابلة. وقد زاد هذا الطباق حسناً أنه أتى في معرض التسجيع الفصيح لمجيء المناسبة التامة في فواصل الآي.

ومنها: التضعيف في قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ لإفادة التكثير والمبالغة في الوفاء بما عاهد الله.

ومنها: الجناس المغاير، وجناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

وجناس الاشتقاق بين: ﴿سَعَىٰ﴾، و﴿سَعْيَهُۥ﴾ في قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ لأنهما كنايتان عن الفرح والسرور، كأنّه قيل: وأنه هو أفرح وأحزن، لأنَّ الفرح يجلب الضحك،

والحزن يجلب البكاء.

ومنها: تقديم الذكر على الأنثى في قوله: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ رعاية للفاصلة، ولشرفه الرتبي.

ومنها: فن التنكيت في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ وهو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده لأجل نكتةٍ في المذكور ترجح مجيئه على غيره. وقد خص الله سبحانه هنا الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم. وهو رب كل شيء وخالقه لما تقدم في مبحث التفسير من أن العرب كان قد ظهر فيهم رجل يعرف بأبي كبشة عبد الشعرى، ودعا الناس إلى عبادتها، فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ إفادة للتهويل الشديد، والتفظيع البليغ.

ومنها: إسناد فعل التماري إلى الواحد مع إفادته المشاركة نظراً لتعدده بحسب تعدد متعلقه.

ومنها: الخطاب للرسول ﷺ بقوله: ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ على طريق الإلهاب والتعريض للغير.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾؛ لأنّه شبه إنذار القرآن أو الرسول بإنذار الكتب الماضية، أو الرسل المتقدمة.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾.

ومنها: وصف القيامة بالآزفة للتأكيد، وتقرير الإنذار.

ومنها: فن التمثيل في قوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ فقد أخرج الكلام مخرج المثل السائر يتمثل به في الوقائع.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من الأسرار والأحكام

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ إنزال الوحي على رسوله.

٢ ـ أنَّ الذي علمه إياه هو جبرئيل شديد القوى.

٣ ـ قرب رسوله من ربه.

٤ ـ أن النبي ﷺ رأى جبرئيل على صورته الملكية مرتين.

٥ ـ تقريع المشركين على عبادتهم للأصنام.

٦ ـ توبيخهم على جعل الملائكة إناثاً، وتسميتهم إياهم بنات الله.

٧ ـ مجازاة كل من المحسن والمسيء بعمله.

٨ ـ أوصاف المحسنين.

٩ ـ إحاطة علمه تعالى بما في السموات والأرض.

١٠ ـ النهي عن تزكية المرء نفسه.

١١ ـ الوصايا التي جاءت في صحف إبراهيم وموسى.

١٢ ـ النعي على المشركين في إنكارهم الوحدانية، والرسالة، والبعث، والنشور.

١٣ ـ التعجب من استهزاء المشركين بالقرآن حين سماعه، وغفلتهم عن مواعظه.

١٤ ـ أمر المؤمنين بالخضوع لله، والإخلاص له في العمل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة القمر

سورة القمر مكية كلّها عند الجمهور، نزلت بعد الطارق. وقال مقاتل: هي مكيّة إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ فمدنية.

وآيها خمس وخمسون، وكلماتها ثلاثمائة واثنتان وأربعون كلمة، وحروفها ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها من وجوه[1]:

١ ـ حسن التناسق بين النجم والقمر.

٢ ـ مشاكلة آخر السورة السابقة لأوّل هذه. فقد قال هناك: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧﴾، وقال هنا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾.

٣ ـ أنَّ هذه قد فصلت ما جاء في سابقتها. ففيها إيضاح أحوال الأمم التي كذبت رسلها، وتفصيل هلاكهم الذي أشار إليه في السابقة بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾، فما أشبهها مع سابقتها بالأعراف بعد الأنعام، والشعراء بعد الفرقان.

وقال أبو حيان: مناسبة أوّل السورة لآخر ما قبلها ظاهرة، قال أوّلاً: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧﴾، وقال هنا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾.

تسميتها: سمّيت سورة القمر لذكر انشقاق القمر فيها، وتسمى أيضاً: سورة اقتربت. وكلها محكم، ليس فيها منسوخ إلا قوله: ﴿حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾.

---

(١) المراغي.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه البيهقي في «الشعب» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اقتربت تدعى في التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه. قال البيهقي: منكر.

وأخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة رفعه: «من قرأ اقتربت الساعة في كل ليلتين بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر».

وأخرج ابن الضريس نحوه عن ليث بن معن عن شيخ من همدان رفعه. وقد تقدم أنّ النبي ﷺ كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢)
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ
مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ
(٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا
يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ
فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ
(١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ
أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ
ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ
هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ
(٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ
عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ
فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ
(٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ...﴾ الآيات، يخبر[1] سبحانه في هذه الآيات باقتراب الساعة، وفراغ الدنيا، وانقضائها، وأنَّ الأجرام العلوية يختل نظامها على

(١) المراغي.

نحو ما جاء في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾. روى أنس: أنّ النبي ﷺ خطب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس تغرب، ولم يبق منها إلا سف يسير، فقال: «والذي نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه».

وروى أحمد عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بعثت أنا والساعة هكذا وأشار بأصبعيه السبّابة والوسطى». ثمّ ذكر أنّ الكافرين كلّما رأوا علامة من علامات نبوتك أعرضوا، وكذّبوا بها، وقالوا: إن هذا إلا سحر منك يتلو بعضه بعضاً. ثم أخبر أنّ أمرهم سينتهي بعد حين، ويستقر أمرك، وسينصرك الله عليهم نصراً مؤززاً. ثم أعقب هذا بأن عبر الماضين، وإهلاك الله لهم بعد تكذيبهم أنبياءهم كانت جد كافية لهم لو أن لهم عقولاً يفكرون بها فيما هم قادمون عليه، ولكن أنى تغني الآيات والنذر عن قوم قد أضلهم الله على علم، وختم على قلوبهم، وجعل على سمعهم وبصرهم غشاوة. ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم، وسيخرجون عن قبورهم أذلاء ناكسي الرؤوس مسرعين إلى إجابة الداعي، يقول الكافرون منهم: هذا يوم شديد حسابه، عسر عقابه.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] فيما سلف أنه جاءهم من الأخبار ما فيه زاجر لهم لو تذكروا، لكن لم تغنهم تلك الزواجر شيئاً.. أردف هذا بذكر قصص من قبلهم من الأمم: كقوم نوح، وعاد، وثمود ليبين لرسوله أنهم ليسوا ببدع في الأمم، بل كثير منهم فعلوا فعلهم، بل كانوا أشد منهم عتواً واستكباراً، وأن الأنبياء قبله قد لاقوا منهم من البلاء ما لاقيت، فلا تأس على ما فرط منهم، ولا تبتئس بما كانوا يفعلون، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

وفي هذا وعيد للمشركين من أهل مكة وغيرهم على تكذيبهم رسولهم، وأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم فسيحل بهم من العذاب مثل ما حل بمن قبلهم، وينجي نبيه والمؤمنين، كما نجى من قبله من الرسل، وأتباعهم من نقمه التي أحلها بأممهم.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر قصص قوم نوح، وما فيه من العبرة لمن تدبر وفكر. . أعقبه بقصص عاد قوم هود ليبين للمكذّبين أنَّ عاقبة كلّ مكذّب الهلاك والبوار، وإن تعددت أسبابه.

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِٱلسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ   تَعَدَّدَتِ الأَسْبَابُ وَٱلْمَوْتُ وَاحِدُ

فقد أرسل الله عليهم ريحاً عاصفاً لصوتها صرير، حين هبوطها في يوم شؤم عليهم، واستمر بهم البلاء حتى حل بهم الدمار، وكانت الريح لشدتها تقتلع الناس من الأرض، وترفعهم إلى السماء، ثم ترمي بهم على رؤوسهم، فتندق رقابهم، وتبين من أجسامهم. فانظروا أيها المكذبون إلى ما حل بهم من العذاب جزاء تكذيبهم لرسولهم كما هي سنة الله في أمثالهم من المكذبين.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ. . .﴾ الآيات، لما فرغ الله سبحانه من ذكر قصة عاد. . قص علينا قصص ثمود مع نبيها صالح إذ قالوا: أنحن العدد الجم والكثرة الساحقة، نتبع واحداً منا لا امتياز له عنا، إنا إذا فعلنا ذلك لفي ضلال وبعد عن محجة الصواب، وإنه لكاذب فيما يدعيه من الوحي عن ربه، وما هو إلا بشر، وليس بملك. فقال لهم ربهم: ستعلمون بعد حين قريب من الكذاب البطر. وقد جعلنا ناقته فتنة واختباراً لهم، فأمرناه أن يخبرهم بأنَّ ماء البئر يقسم بينها وبينهم، فلها يوم ولهم يوم آخر. فما ارتضوا هذا، وقام فاسقهم قدار، وعقر الناقة، فخرت صريعة، فجازاهم الله تعالى، فأرسل عليهم العذاب فصاروا كالهشيم الذي يتفتت حين بناء حظيرة الماشية.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ. . .﴾ الآيات، لمَّا فرغ الله سبحانه من قصة ثمود. . ذكر هنا تكذيب قوم لوط لنبيهم، ومخالفتهم إيّاه، واجتراحهم من السيئات ما لم يسبقهم به أحد من العالمين بإتيانهم الذكران دون النساء، ثم أردفه ذكر عذابهم بإرسال حجارة من سجيل عليهم إلا من آمن منهم، فقد نجاهم بسحر، وما أهلكهم إلا بعد أن أنذرهم عذابه على لسان رسوله، فكذبوه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ①﴾ سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه الشيخان، والحاكم، واللفظ له عن ابن مسعود قال: رأيت القمر منشقاً شقين بمكة قبل مخرج النبيّ ﷺ فقالوا: سحر القمر، فنزلت ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ①﴾.

وأخرج الترمذي عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آيةً، فانشق القمر بمكة مرتين. فنزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ①﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾؛ أي:[2] دنت القيامة، وقرب قيامها ووقوعها؛ لأنه ما بقي من الدنيا إلا قليل، كما قال ﷺ: «إنَّ الله جعل الدنيا كلها قليلاً، فما بقي منها قليل من قليل، ومثل ما بقي مثل الثغب ـ أي: الغدير ـ شرب صفوه، وبقي كدره». فالاقتراب يدل على مضي الأكثر، ويمضي الأقل كما مضى الأكثر.

والساعة جزء من أجزاء الزمان، عبر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها، أو لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنَّها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم، أو لغير ذلك. والحكمة في ذكر اقتراب الساعة تحذير المكلف، وحثه على الطاعة تنبيهاً لعباده على أن الساعة من أعظم الأمور الكونية على خلقه من أهل السموات والأرض. وأما تعيين وقت الساعة: فقد انفرد الحق سبحانه بعلمه، وأخفاه عن عباده؛ لأنه أصلح لهم، ولذا كان كل نبي قد أنذر أمته الدجال.

يقول الفقير: فإن قلت: فكم عمر الدنيا بأسرها، وما قول العلماء فيه؟

قلت: اتفقوا على حدوث الدنيا، وما قطعوا بشيء في مدتها.

﴿و﴾ قد ﴿انشق القمر﴾؛ أي: انفصل بعضه من بعض معجزة له ﷺ. ودلت

---

(١) لباب النقول. (٢) روح البيان.

صيغة الماضي على تحقق الانشقاق في زمن النبي ﷺ. ويدل عليه قراءة حذيفة رضي الله عنه ﴿وقد انشق القمر﴾؛ أي: اقتربت الساعة، وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق، وقد خطب حذيفة بالمدائن، ثم قال: ألا إن الساعة قد اقتربت، وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم ﷺ. وحذيفة بن اليمان صاحب سرّ رسول الله ﷺ كابن مسعود رضي الله عنهما. وعلى هذا القول عامّة الصحابة ومن بعدهم، وبه أخذ أكثر المفسّرين. فلا عبرة بقول من قال: إنه سينشق يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾. والتعبير بالماضي للدلالة على تحققه، على أنا نقول: يجوز أن يكون انشقاقه مرتين: مرة في زمانه ﷺ إشارة إلى قرب الساعة، ومرة يوم القيامة، حين انشقاق السماء. قال الواحديّ: وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر؛ لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد ﷺ ونبوته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة.

قال ابن كيسان: في الكلام تقديم وتأخير، أي: انشق القمر، واقتربت الساعة. وقال جمع من المفسرين: إن هذا الانشقاق حدثٌ قد حصل، وأن القمر صار فرقتين على عهد رسول الله ﷺ قبل الهجرة بخمس سنين. فقد صح من رواية الشيخين، وابن جرير عن أنس: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء - جبل بمكة - بينهما.

وفي «الصحيحين»، وغيرهما من حديث ابن مسعود: «وانشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة على الجبل، وفرقة دونه. فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا». وجاء عنه أيضاً: «انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، فقال رجل: انتظروا ما يأتيكم به السفار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس، فجاء السفار، فأخبروهم بذلك» رواه أبو داود، والطيالسي. وفي رواية البيهقي: فسألوا السفار، وقد قدموا من كل وجه، فقالوا: رأيناه، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾.

والحاصل[1]: أنّا إذا نظرنا إلى كتاب الله فقد أخبرنا بأنه قد انشق، ولم يخبرنا بأنه سينشق، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ فقد ثبت في الصحيح وغيره

(١) .الشوكاني.

من طريق متواترة: أنه قد كان ذلك في أيام النبوة، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم.. فقد اتفقوا على هذا، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ، واستبعاد من استبعد.

وقال قوم - منهم عثمان بن عطاء -: المراد: انشقاقه يوم القيامة، والمعنى عليه[1]: اقتربت الساعة، وسينشق القمر، وينفصل بعضه عن بعض، حين يختل نظام هذا العالم، وتبدل الأرض غير الأرض. ونحو هذا قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾، وقوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾، وكثير غيرهما من الآيات الدالة على الأحداث الكبرى التي تكون حين خراب هذا العالم، وقرب قيام الساعة، والذي يدل على أن هذا إخبار عن حدث مستقبل لا عن انشقاق ماض أمورٌ:

١ - أن الإخبار[2] بالانشقاق أتى إثر الكلام على قرب مجيء الساعة. والظاهر: تجانس الخبرين، وأنهما خبران عن مستقبل لا عن ماض.

٢ - أن انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التي لو حصلت.. لرآها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم، ولبلغ حدّاً لا يمكن أحداً أن ينكره، وصار من المحسوسات التي لا تدفع، ولصار من المعجزات التي لا يسع مسلماً ولا غيره إنكارها.

٣ - ما ادّعى أحدٌ من المسلمين إلا من شذ أن هذه معجزة بلغت حد التواتر، ولو كان قد حصل ذلك.. ما كان رواته آحاداً، بل كانوا لا يعدّون كثرة.

٤ - أنَّ حذيفة بن اليمان، وهو الصحابي الجليل خطب الناس يوم الجمعة في المدائن حين فتح الله فارس. فقال: ألا إنّ الله تبارك وتعالى يقول:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإنّ القمر قد انشقّ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة. فهذا الكلام من حذيفة في معرض قرب مجيء الساعة، وتوقع أحداثها لا في كلام عن أحداث قد حصلت تأييداً للرسول، وإثباتاً لنبوته، لأنَّ ذلك كان في معرض العظة والاعتبار.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

وقيل[1]: معنى ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾: وضح الأمر، وظهر. وقيل: انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه، وطلوعه في أثنائها كما يسمى الصبح فلقاً لانفلاق الظلمة عنه.

وبعد أن ذكر قرب مجيء الساعة، وكان ذلك مما يستدعي انتباههم من غفلتهم والتفكير في مصيرهم، والنظر فيما جاءهم به الرسول من الأدلّة المثبتة لنبوته، والمؤيّدة لصدقه، لكنهم مع كل هذا ما التفتوا إلى الداعي لهم إلى الرشاد، والهادي لهم إلى سواء السبيل، بل أعرضوا، وتولوا مستكبرين كما قال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾؛ أي: وإن ير هؤلاء المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوتك، وترشدهم إلى صدق ما جئت به من عند ربك كانشقاق القمر، ونظائره. ووجه تسمية ما جاءت به الأنبياء معجزة هو أنَّ الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها. وقرىء[2] ﴿وَإِن يُرَوْا آيَةً﴾ مبنياً للمفعول؛ أي: من شأنهم ومن حالهم أنهم متى رأوا ما يدل على صدق الرسول ﷺ من الآيات الباهرة ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ عن التأمل فيها ليقفوا على حقيقتها، وعلو طبقتها، فيؤمنوا، ويتولّوا مكذّبين بها منكرين أن يكون ذلك حقّاً.

﴿وَيَقُولُوا۟﴾ تكذيباً منهم بها هذا الذي ظهر على يد محمد ﷺ ﴿سِحْرٌ﴾ سحرنا به، وخيال غشّنا به. ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾؛ أي:[3] مطرد دائم يأتي به على ممرّ الزمان، لا يكاد يختلف بحال كسائر أنواع السحر. فالاستمرار بمعنى الاطراد، يقال: اطّرد الشيء تبع بعضه بعضاً، وجرى. وهو يدل على أنهم رأوا قبله آيات أخرى مترادفة، حتى قالوا ذلك. وفيه تأييد أن انشقاق القمر قد وقع، لا أنه سينشق يوم القيامة، كما قاله بعضهم. وذلك لأنه لو لم يكن الانشقاق من جنس الآيات.. لم يكن ذكر هذا القول مناسباً للمقام. أو مطّرداً بالنسبة إلى جميع الأشخاص والبلاد، حيث رأوه منشقًّا. وقال الكسائي والفراء، واختاره النحاس[4]: إنَّ المراد بالمستمر: الذاهب الزائل عن قرب. إذ هم قد عللوا أنفسهم، ومنوها بالأماني الفارغة. وكأنّهم قالوا: إنَّ حاله ﷺ، وما ظهر من معجزاته إن هي إلا سحابة صيف عن قريب تقشع، ولكن هيهات هيهات.. فقد غرتهم الأماني. ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

﴿نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

ثم أكد ما سبق بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾؛ أي: بالنبي ﷺ، وما عاينوه من المعجزات التي أظهرها الله على يده. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ أي: شهواتهم التي زيّنها الشيطان لهم من رد الحق بعد ظهوره. أو كذبوا الآية التي هي انشقاق القمر، واتبعوا أهواءهم، وقالوا: سحر القمر أو سحر أعيننا، والقمر بحاله، ولم يصبه شيء، أو إنه خسوف في القمر، وظهور شيء من جانب آخر من الجو يشبه نصف القمر. فهذه أهواؤهم الباطلة اتبعوها لجهلهم وسخف عقولهم.

والخلاصة: أنهم كذّبوا النبيّ ﷺ، وتركوا حججه، وقالوا: هو كاهن، يقول عن النجوم، ويختار الأوقات للأفعال، وساحر يسترهب الناس بسحره إلى أشباه هذا من مقالاتهم التي تدل على العناد، وعدم قبول الحق. وذكرهما[1] بلفظ الماضي؛ أي: بعد «يعرضوا، ويقولوا» بلفظ المستقبل للإشعار بأنهما من عادتهم القديمة.

ثم سلى رسوله، وهدد المشركين بقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ من الأمور ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾؛ أي: منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة. ومن جملتها: أمر النبي ﷺ، فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيقته، وعلو شأنه. وإبهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال، وعدم الحاجة إلى التصريح به. أو كل أمر من أمرهم، وأمره ﷺ مستقر؛ أي: سيثبت، ويستقر على حالة خذلان، أو نصرة في الدنيا، وشقاوة أو سعادة في الآخرة. فإن الشيء إذا انتهى إلى غايته ثبت واستقر. يعني: أن الاستقرار كناية عن ملزومه. وهو الانتهاء إلى الغاية. فإن عنده يتبين حقيقة كل شيء من الخير والشر، والحق والباطل، والهوى، والحجة. وينكشف جلية الحال، ويضمحل الشبه والالتباس؛ فإنّ الحقائق إنما تظهر عند العواقب. فهذا وعيد للمشركين، ووعد وبشارة للرسول والمؤمنين. ونظيره قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾؛ أي: كل نبأ وإن طالت مدته فلا بد أن ينتهي إلى غايته، وتنكشف حقيقته من حق أو باطل. وفي عين المعاني: وكل أمر وعدهم الله تعالى كائن في وقته، لأنه مستقر لا يزول.

---

(١) روح البيان.

والخلاصة[1]: أي وكل شيء ينتهي إلى غاية تشاكله، فأمرهم سينتهي إلى الخذلان في الدنيا، والعذاب الدائم في الآخرة. وأمرك سينتهي إلى النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة. وهذه قاعدة عامّة تنضوي تحتها حركات الكواكب، والأفلاك، ونظم العمران، وأعمال الأفراد والأمم.

وقصارى ذلك: أنَّ أمر محمد ﷺ سيصل إلى غاية يتبين عندها أنه الحق، وأنَّ ما سواه هو الباطل. فقد جرت سنة الله بأن الحق يثبت والباطل يزهق بحسب ما وضعه في نظم الخليقة: البقاء للأصلح.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ بكسر القاف. وهو مرتفع على أنه خبر المبتدأ. وهو كل. وقرأ أبو جعفر. وزيد بن علي بجر ﴿مُسْتَقِرٍ﴾ على أنه صفة للأمر. وقرأ شيبة بفتح القاف، ورويت هذه القراءة عن نافع. قال أبو حاتم: ولا وجه لها. وقيل: لها وجه بتقدير مضاف محذوف؛ أي: وكل أمر ذو استقرار أو ذو زمان استقرار، أو ذو مكان استقرار على أنه مصدر أو ظرف زمان، أو ظرف مكان.

ثمّ ذكر أنهم في ضلال بعيد. فإنَّ ما جاء في القرآن من أخبار الماضين قد كان فيه مزدجر لهم لو كانوا يعقلون، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي.. لقد جاء أهل مكة، أو الكفار على العموم في القرآن ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾؛ أي: من أنباء القرون الخالية، أو أنباء الآخرة، وما وصف من عذاب الكفّار. فالألف واللام[3] عوض عن المضاف إليه، و﴿من﴾ للتبعيض. وهو حال مما بعده.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾؛ أي: ازدجار وارتداع من تعذيب إن أريد بالأنباء: أنباء القرون الخالية، أو وعيد إن أريد أنباء الآخرة على أنه مصدر ميمي. ويجوز أن يكون اسم مكان؛ أي: جاءهم ما فيه موضع ازدجارٌ على أنّ ﴿فِي﴾ تجريدية؛ أي: أنه في نفسه موضع ازدجار، ومظنّة له كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ أي: هو في نفسه أسوة حسنة. وقرىء[4] ﴿مزّجر﴾ بإبدال تاء الافتعال زاياً وإدغام الزاي فيها. وقرأ زيد بن عليّ ﴿مزجر﴾ اسم فاعل من أزجر؛

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

أي: صار ذا زجر، كأعشب؛ أي: صار ذا عشب.

والمعنى: أي ولقد جاء هؤلاء المشركين الذين كذبوا بك، واتبعوا أهواءهم من الأخبار عن الماضين الذين كذبوا الرسل، فأحلَّ الله بهم من العقوبات ما قصه في كتابه ما يردعهم، ويزجرهم عما هم فيه من القبائح؛ إذ أبادهم في الدنيا، وسيعذبهم يوم الدين جاء وفاقاً لما دنسوا به أنفسهم من الشرك بربهم، وعصيان رسله، واجتراحهم للسيئات.

ثم بين الذي جاءهم به، فقال: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾؛ أي: هذه الأنباء حكمة بالغة غايتها متناهية في كونها حكمة، لا خلل ولا نقص فيها. أو قد بلغت الغاية في الإنذار، والنهي، والموعظة، والإرشاد إلى طريق الحق، لمن اتبع عقله وعصى هواه. وهو بدل من ﴿ما﴾، أو خبر لمحذوف.

وقرأ الجمهور[(١)]: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ برفعهما، وجوزوا أن تكون ﴿حِكْمَةٌ﴾ بدلاً من ﴿مُزْدَجَرٌ﴾، أو من ﴿مَا﴾، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرأ اليماني ﴿حكمةً بالغةً﴾ بالنصب فيهما حالاً من ﴿مَا﴾، سواء كانت موصولةً أم موصوفة تخصصت بالصفة.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ نفي للإغناء[(٢)]. فمفعول ﴿تُغْنِ﴾ محذوف؛ أي: لم تغن النذر شيئاً. أو استفهام إنكار فما منصوبة على أنها مفعول مقدم لتغني؛ أي: فأي إغناء تغني النذر إذ خالفوا أو كذبوا؛ أي: لا تنفع. كقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾. والنذر: جمع نذير بمعنى المنذر أو مصدر بمعنى الإنذار. والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة.

أي: إنَّ النذر والرسل[(٣)] لم يبعثوا ليلجئوا الناس إلى قبول الحق، وإنما أرسلوا مبلغين فحسب. فليس عليك، ولا على الأنبياء قبلك الإغناء والإلجاء إلى اتباع سبيل الهدى. فإذا بلغت.. فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التي أمرت بها في نحو قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وتول عنهم بعدئذٍ.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

ثم أمر رسوله أن لا يجادلهم، ولا يناظرهم. فإن ذلك لا يجدي نفعاً فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين المكذّبين بك، ولا تحاجهم فإنهم قد بلغوا حدّاً لا يقنعون معه بحجة ولا برهان، فأحرى بك أن لا تلتفت إلى نصحهم وإرشادهم. فقد عييت بأمرهم، وبرمت بعنادهم. وهذه الآية منسوخة بآية السيف.

والظرف في قوله[1]: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ متعلق بـ ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أو باذكر محذوفاً أو بقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ ويكون ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ اعتراضاً أو بقوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أو بقوله: ﴿خُشَّعًا﴾. وهو يوم القيامة. والداعي إسرافيل عليه السلام، ينفخ في الصور قائماً على صخرة بيت المقدس، ويدعو الأموات، وينادي قائلاً: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، أو إنَّ إسرافيل وجبريل يدعو وينادي بذلك. وعلى كلا القولين فالدعاء على حقيقته. وقال بعضهم: هو مجاز كالأمر في قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. يعني: أنَّ الدعاء في البعث والإعادة مثل: «كن» في التكوين والابتداء بأن لا يكون ثمة داع إسرافيل أو غيره، بل يكون الدعاء عبارة عن نفاذ مشيئته، وعدم تخلف مراده عن إرادته كما لا يتخلف إجابة دعاء الداعي المطاع.

يقول الفقير: الأولى بقاؤه على حقيقته؛ لأنَّ إسرافيل مظهر الحياة، وبيده الصور، والله تعالى ربط الأشياء بعضها ببعض، وإن كان الكل بإرادته ومشيئته، انتهى. وأصل ﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾: يدعو الداعي بالواو والياء، ولما حذفت الواو من ﴿يدعو﴾ في التلفظ لاجتماع الساكنين حذفت في الخط أيضاً اتباعاً للفظ، وأسقطت الياء من الداعي للاكتفاء بالكسرة تخفيفاً. قال بعضهم: حذفت الياء من الداعي مبالغة في التخفيف إجراء لأل مجرى ما عاقبها. وهو التنوين. فكما يحذف الياء مع التنوين كذلك مع ما عاقبه.

﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ بضمّتين، صفة على فعل، وقرىء[2] بسكون الكاف

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

وكلاهما بمعنى المنكر؛ أي: إلى شيء منكر فظيع، تنكره النفوس لعدم العهد بمثله. وهو هول يوم القيامة. ومنه: منكر ونكير لفتاني القبر؛ لأنه لم يعهد عند الميت مثلهما.

وقد جرت العادة أن من ينصح شخصاً لا يؤثر فيه النصح أن يعرض عنه، ويقول لغيره ما فيه نصح للمعرض عنه، وهدايته، وإرشاده لو أراد. وقرأ الجمهور[1] ﴿نُكُرٍ﴾ بضم الكاف. وهو صفة على فعل. وهو قليل في الصفات. ومنه: رجل شلل أي: خفيف في الحاجة، وناقة أحد، ومشية سجح، وروضة أنف. وقرأ الحسن، وابن كثير، وشبل بإسكان الكاف، كما قالوا: شغل وشغل، وعسر وعسر. وقرأ مجاهد، وأبو قلابة، والجحدري، وزيد بن عليّ ﴿نُكِرَ﴾ فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول؛ أي: جهل فنكر.

ثم ذكر حال الكافرين في ذلك اليوم، فقال: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾ والتقديم؛ لأنَّ العامل فعل متصرف. وفيه دليل عى بطلان مذهب الجرمي؛ لأنه لا يجوز تقدم الحال على الفعل، وإن كان متصرفاً. ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث، محركاً. هو القبر، أي: يخرجون من قبورهم حال كونهم أذلة أبصارهم من شدة الهول، خاضعة عند رؤية العذاب. والخشوع[2]: الضراعة، وأكثر ما يستعمل فيما يوجد في الجوارح. والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب. كما روي: إذا ضرع القلب.. خشعت الجوارح. وخصَّ الأبصار بالخشوع؛ لأنّه فيها أظهر منه في سائر الجوارح وكذلك سائر ما في نفس الإنسان من حياء أو خوف ونحوه إنما يظهر في البصر.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿خُشَّعًا﴾ جمع تكسير. وابن عباس، وابن جبير، ومجاهد والجحدري، وأبو عمرو، وحمزة والكسائي ﴿خاشعاً﴾ بالإفراد. وقرأ أبي، وابن مسعود «خاشعة». وجمع التكسير أكثر في كلام العرب. وقال الفراء، وأبو عبيدة: كله جائز، انتهى. وقرىء «خُشَّعٌ أبصارُهم» وهي جملة في موضع الحال و«خشع» خبر مقدم.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ لكثرتهم، واختلاط بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾؛ أي: منبث في الأقطار، متفرق فيها، مختلط بعضه ببعض؛ أي: يخرجون من قبورهم ذليلة أبصارهم من هول ما يرون كأنهم في انتشارهم، وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد قد انتشر في الآفاق.

وجاء[1] تشبيههم في الآية الأخرى بالفراش في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾. وهم يكونون أوّلاً كالفراش، حين يخرجون فزعين، لا يهتدون أين يتوجهون؛ لأن الفراش لا جهة لها تقصدها، ثم يكونون كالجراد المنتشر إذا توجهوا للحشر. فهما تشبيهان باعتبار وقتين. حكي ذلك عن مكي بن أبي طالب.

وقوله: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ حال أيضاً من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾؛ أي: يخرجون من الأجداث حال كونهم مسرعين إلى جهة الداعي والمنادي. وهو إسرافيل، مادي أعناقهم أو ناظرين إليه، لا يقلعون أبصارهم عنه.

وجملة قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ منهم إما حال من ضمير ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أو من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾، والرابط مقدر كما قدرناه آنفاً، أو مستأنفة استئنافاً بيانيّاً واقعاً في جواب سؤال مقدر نشأ من وصف اليوم بالأهوال، وأهله بسوء الحال. كأنه قيل: فماذا يكون حينئذٍ؟ فقيل: يقول الكافرون ﴿هَٰذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمٌ عَسِرٌ﴾؛ أي: صعب شديد علينا. فيمكثون بعد الخروج من القبور واقفين أربعين سنة كما روي، يقولون: أرحنا من هذا ولو إلى النار. ثم يؤمرون بالحساب. وفي إسناد القول المذكور إلى الكفار تلويح بأن المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة من الشدة، بل ذلك اليوم يوم يسير لهم ببركة إيمانهم، وأعمالهم الصالحة؛ أي: مسرعين إلى الداعي، لا يخالفون، ولا يتأخّرون، ويقولون: هذا يوم شديد الهول سيء المنقلب. ونحو الآية قوله: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ وفي هذا إيماء إلى أنّه هين على المؤمن، لا عسر فيه، ولا مشقة.

---

(١) المراغي.

قصص قوم نوح عليه السلام

ثم ذكر سبحانه تفصيل بعض ما تقدم من الأنباء المجملة، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً. فالمفعول محذوف. وهذا شروع في تعداد بعض الأنباء الموجبة للازدجار، وتسلية لرسول الله ﷺ ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً عليه السلام. وهذا تفسير لذلك التكذيب المبهم أوّلاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ...﴾ إلخ. فالمكذب في المقامين واحد. والفاء تفسيرية، تفصيلية، تعقيبية في الذكر. فإن التفصيل يعقب الإجمال. وفيه مزيد تقرير وتأكيد. وقيل: المعنى: كذبت قوم نوح الرسل، فكذبوا عبدنا نوحاً بتكذيبهم للرسل. فإنه منهم.

وفي «فتح الرحمن»: إن قلت: ما فائدة إعادة التكذيب فيه؟

قلت: فائدته حكاية الواقع، وهو أنهم كذبوا تكذيباً بعد تكذيب، أو الأوّل تكذيبهم بالتوحيد، والثاني: بالرسالة، أو الأول تكذيبهم بالله، والثاني: برسول الله.

وفي ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام، ورفع لمحله، وزيادة تشنيع لمكذبيه. فإن تكذيب عبد السلطان أشنع من تكذيب عبد غيره. وفيه إشارة إلى أنه لا شيء أشرف من العبودية. فإن الذلة الحقيقية التي يقابلها مقام الربوبية مختصة بالله تعالى، فكذا العبودية مختصة بالعبد. وهي المرادة بالتواضع. وهي غير التملق. فإن التملق لا عبرة به.

﴿وَقَالُواْ﴾ في حقه هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ أو قالوا له: إنك مجنون. أي: لم يقتصروا على مجرد التكذيب، بل نسبوه إلى الجنون، واختلال العقل. وهو مبالغة في التكذيب. لأنَّ من الكاذبين من يخبر بما يوافق العقل، ويقبله. والمجنون لا يقول إلا ما لا يقبله العقل، ويأباه.

﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ عطف[1] على ﴿قالوا﴾. فهو من كلام الله تعالى. أي: وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية. مثل الشتم، والضرب، والخنق، والوعيد بالرجم. قال الراغب: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾؛ أي: طرد. واستعمال الزجر فيه لصياحهم بالمطرود، نحو أن

---

(١) روح البيان.

يقال: أغرب عنّي، وتنح، ووراءك.

وقيل: هو من جملة ما قالوه؛ أي؛ هو مجنون، وقد ازدجرته الجن، وتخبطته؛ أي: أفسدته، وتصرفت فيه، وذهبت بلبه، وطارت بقلبه. والأول أولى. وفيه إشارة إلى أن كل داعي حق لا بد وأن يكذب لكثرة أهل البطلان، وغلبة أهل البدع والأهواء والطغيان. وذلك في كل عصر وزمان؛ أي: فكذبوا عبدنا نوحاً، ونسبوه إلى الجنون، وزجروه، وتوعدوه لئن لم ينته.. ليكونن من المرجومين.

ثم بين أنه عيل بهم صبراً، وضاق بهم ذرعاً، فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾؛ أي: لما زجروا نوحاً عند الدعوة، وبلغ مدة التبليغ تسع مئة وخمسين سنة دعا ربه ﴿أَنِّى﴾؛ أي: بأنّي ﴿مَغْلُوبٌ﴾ من جهة قومي، ما لي قدرة على الانتقام منهم ﴿فَٱنتَصِرْ﴾؛ أي: فانتقم لي منهم. وذلك بعد تقرّر يأسه منهم.

فقد روي: أنَّ الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه، حتى يخر مغشياً، فيفيق، ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». فلما أذن الله له في الدعاء للإهلاك دعا. فأجيب كما قال في الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَنِّى﴾ بفتح الهمزة؛ أي: بأنّي. وقرأ ابن أبي إسحاق، والأعمش بكسرة الهمزة، ورويت هذه القراءة عن عاصم بتقدير إضمار القول؛ أي: فقال إنيّ.

والمعنى[2]: أي فدعا نوح ربه قائلاً: إن قومي قد غلبوني لتمردهم وعتوهم، ولا طاقة لي بهم، فانتصر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك.

وقصارى ذلك: انتصر لك ولدينك، فإني قد غلبت، وعجزت عن الانتصار لهما.

ثم أخبر سبحانه أنه أجاب دعاءه، وعاقبهم بقوله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: طرق السماء ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾؛ أي: بماء كثير منصب انصباباً شديداً يقال: انهمر الماء إذا انسكب، وسال؛ أي: منصب انصباباً شديداً كما ينصب من أفواه القرب لم ينقطع أربعين يوماً. وكان مثل الثلج بياضاً وبرداً. وهو تمثيل لكثرة الأمطار،

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

وشدة انصبابها سواء جعلت الباء في قوله: ﴿بِمَآءٍ﴾ للاستعانة وجعل الماء كالآلة لفتح أبواب السماء، وهو ظاهر، أو للملابسة، قرأ الجمهور[1] ﴿فتحنا﴾ مخففاً. وقرأ ابن عامر، ويعقوب بالتشديد.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾؛ أي: جعلنا الأرض كلها كأنها عيون منفجرة؛ أي: جارية. وكان ماء الأرض مثل الحميم حرارة. وأصل الكلام: وفجرنا عيون الأرض. فغير عن المفعولية إلى التمييز قضاء لحقّ المقام من المبالغة؛ لأنّ قولنا: فجرنا عيون الأرض يكفي في صحة تفجر ما فيها من العيون، ولا مبالغة فيه، بخلاف فجرنا الأرض عيوناً فإنّ معناه: فجرنا أجزاء الأرض كلها بجعلها عيون الماء. ولا شك في أنه أبلغ. وقرأ الجمهور[2] ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ بتشديد الجيم. وعبد الله، وأصحابه، وأبو حيوة، والمفضل عن عاصم بالتخفيف. قال عبيد بن عمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها، فتفجرت بالعيون.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾؛ أي: ماء السماء، وماء الأرض، وارتفع على أعلى جبل في الأرض ثمانين ذراعاً. والإفراد حيث لم يقل: الماءان لتحقيق أنَّ التقاء الماءين.. لم يكن بطريق المجاورة والتقارب، بل بطريق الالتقاء والاتحاد.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾. وهو اسم جنس. وقرأ عليّ بن أبي طالب، والحسن، ومحمد بن كعب، والجحدري ﴿الماءان﴾. وقرأ الحسن أيضاً ﴿الماءان﴾. وقال الزمخشري: وقرأ الحسن ﴿ماوان﴾ بقلب الهمزة واواً، كقوله: علباوان، انتهى. شبه الهمزة التي هي بدل من هاء في الماء بهمزة الإلحاق في علباء. وعن الحسن أيضاً ﴿المايان﴾ بقلب الهمزة ياء. وفي كلتا القراءتين شذوذ.

حالة كون الماء كائناً ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾؛ أي: على حالة ورتبة قد فصلت في الأزل. وقيل: على مقادير قد رتبت وقت التقائه. فروي: أن ماء الأرض كان على سبعة عشر ذراعاً، ونزل ماء السماء على تكملة أربعين ذراعاً. وقيل: كان ماء الأرض أكثر. وقيل: كانا متساويين نزل من السماء قدر ما خرج من الأرض.

---

(1) الشوكاني.

(2) البحر المحيط.

(3) البحر المحيط.

وقيل: على أمرٍ قد قدر في اللوح المحفوظ أنه يكون. وهو هلاك قوم نوح عليه السلام بالطوفان. وهذا هو الراجح؛ لأن كل قصة ذكرت بعد هذه القصة ذكر الله هلاك مكذبي الرسل فيها. فيكون هذا كناية عن هلاك قوم نوح، ولذلك ذكر نجاة نوح بعدها في قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ فكلمة ﴿عَلَىٰ﴾ هذا للتعليل؛ أي: التقى الماء لأجل أمر قد قدره الله في الأزل. وهو هلاكهم بالطوفان.

يقول الفقير: إنما وقع[1] العذاب بالطوفان العام؛ لأنَّ الماء إشارة إلى العلم، فلما لم ينتفعوا بعلم نوح عليه السلام في المدة الطويلة، ولم تغرق أرواحهم فيه أخذوا بالماء، حتى غرقت أجسادهم. وتأثير الطوفان يظهر في كل ثلاثين سنة مرة واحدة، لكن على الخفة. فيقع مطر كثير، ويغرق بعض القرى، والبيوت من السيل. وقرأ أبو حيوة ﴿قُدِّر﴾ بتشديد الدال، والجمهور بتخفيفها.

والخلاصة[2]: أنّ الله أرسل ماء السحاب مدراراً، وأخرج من الأرض ماء ثجاجاً، فالتقى الماءان، فأحدثا طوفاناً على وجه الأرض، فأغرق به قوم نوح، ونجا نوحاً بركوب سفينته التي بناها، كما أشار إلى ذلك في هود بالتفصيل.

وأشار إليه هنا بقوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾؛ أي: نوحاً ومن آمن معه ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾؛ أي: على سفينة صاحبة أخشاب عريضة. فإن الألواح جمع لوح. وهو كل صحيفة عريضة خشباً أو عظماً. وكانت سفينة نوح من ساج. وهو شجر عظيم ينبت في أرض الهند.

﴿وَدُسُرٍ﴾؛ أي: ومسامير. جمع دسار[3]، من الدسر. وهو الدفع الشديد، سمي به المسمار؛ لأنه يدسر به منفذها؛ أي: يدفع. قال في «عين المعاني»: دسرت بها السفينة؛ أي: شدت، أو لأنّها تدسر أي: تدفع بالدقّ. فقوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ صفة للسفينة، أقيمت مقامها بأن يكنى بها عنها كما يكنى عن الإنسان بقولهم: هو مستوي القامة عريض الأظفار.

أي: وأنقذناه من الطوفان، فحملناه على سفينة ذات خشب ومسامير. وفي

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

سورة العنكبوت: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾. وفي هذا إيماء إلى أنه تعالى يوجد الأسباب لتحقيق ما يريد من المسببات بحسب السنن التي وضعها في الخليقة، وأنه يمهل الظالمين ولا يهملهم كما جاء في الحديث: «إنّ ربك لا يهمل، ولكن يمهل».

ثم أشار إلى أنه كان محروساً بعناية الله، وكلاءته فقال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: تجري السفينة، وتسير بمرأى منا؛ أي: محفوظة بحفظنا. وقيل: محفوظة بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها. وقيل: تجري بأعيننا؛ أي: بأمرنا، وقدرتنا. وقيل: تجري بأعيننا النابعة من الأرض. وقرأ الجمهور[1] ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بالفك. وقرأ زيد بن علي، وأبو السمّال ﴿بأعْيُنَّا﴾ بالإدغام.

وقوله: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ مفعول له لما ذكر من فتح أبواب السماء وما بعده؛ أي:[2] فعلنا ذلك المذكور أجراً وثواباً لنوح؛ لأنه كان نعمة كفروها. فإن كل نبي نعمة من الله على أمته أي نعمة، ورحمة أي رحمة. وكان نوح نعمة مكفورة.

ومن هذا المعنى ما حكي: أنَّ رجلاً قال لهارون الرشيد: الحمد لله عليك، فقال: ما معنى هذا الكلام؟ فقال: أنت نِعَمٌ حمدت الله عليها. وقال الفراء: فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه، وإغراقهم ثواباً لمن كان كفر به، وجحد أمره، وهو نوح عليه السلام، فإنه كان لهم نعمة كفروها، فانتصاب ﴿جَزَآءً﴾ على العلة. وقيل: على المصدرية بفعل مقدر؛ أي: جازيناهم جزاء.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿كُفِرَ﴾ مبنياً للمفعول. والمراد به: نوح، وقيل: هو الله سبحانه، وقرأ مسلمة بن محارب بإسكان ﴿الفاء﴾ خفف فعل، كما قال الشاعر:

لَوْ عُصْرَ مِنْهُ ٱلْبَانُ وَٱلْمِسْكُ ٱنْعَصَرْ

يريد لو عصر. وقرأ زيد بن رومان، وقتادة، وعيسى، ومجاهد، وحميد ﴿كَفَرَ﴾ بفتح الكاف والفاء مبنياً للفاعل. فـ﴿من﴾ يراد به: قوم نوح؛ أي: إنّ ما

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

نشأ من تفتيح أبواب السماء بالماء، وتفجير عيون الأرض، والتقاء الماءين من غرق قوم نوح عليه السلام كان جزاء لهم على كفرهم.

والمعنى: أي تجري محفوظة بحراستنا، فقد كانت بمرأى منّا، فنحن نكلؤها ونرعاها كما يرعى المرء ما يراه بعينه، ويقع تحت سمعه وبصره. ويقول القائل إذا وصى آخر بأمر، وشدد عليه: اجعله نصب عينيك؛ أي: اهتم به، ولا تهمله. ثم بين أن هذا هو الجزاء العادل على سوء صنيعهم، وكفرهم بربهم، فقال: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ أي: فعلنا ذلك بهم جزاء كفرهم بآياتنا، وجحودهم بنعمائنا، وتكذيبهم برسولنا.

ثم ذكر أنه أبقى السفينة عبرة لمن بعدهم على كر الدهور والأعوام، فقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي.. لقد تركنا، وصيرنا هذه السفينة ﴿ءَايَةً﴾ وعبرة لمن يعتبر بها ممن يقف على خبرها. وقال قتادة: أبقيناها دهراً طويلاً حالة كونها آية، وعبرة لمن يعتبر بها. أبقاها بباقردى من بلاد الجزيرة. وقيل: على الجودي دهراً طويلاً، حتى نظر إليها أوائل هذه الأمّة. وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رماداً.

وفي «تفسير أبي الليث»: قال بعضهم: يعني: أنَّ تلك السفينة كانت باقية على الجبل قريباً من خروج النبيّ ﷺ. وقيل: بقيت خشبة من سفينة نوح هي في الكعبة الآن. وهي ساجة غرست، حتى ترعرت أربعين سنة، ثم قطعت، فتركت حتى يبست أربعين سنة. وقيل: بقي بعض خشبها على الجودي إلى هذه الأوقات.

يقول الفقير: لعل بقاء بعض خشبها لكونها آية وعبرة، وإلا فهو ليس بأفضل من أخشاب منبر نبيّنا محمد ﷺ في المدينة. وقد احترقت، أو أكلتها الأرضة، فاتخذت مشطاً، ونحوه مما يتبرك به، ألا ترى أن مقام إبراهيم عليه السلام مع كونه حجراً صلداً لم يبق أثره بكثرة مسح الأيدي، ثم لم يبق نفسه أيضاً على ما هو الأصح والمعروف بالمقام الآن هو مقام ذلك المقام، فاعرف.

وقال بعضهم: جنس السفينة صارت عبرة؛ لأنَّ الناس لم يعرفوا قبل ذلك سفينة واتخذوا السفن بعد ذلك في البحر، فلذلك كانت آيةً للناس. يقول الفقير: كيف يعرفونها؟ ولم يكن في الدنيا قبل الطوفان إلا البحر المحيط. وذلك أن الله

تعالى أمر الأرض بعد الطوفان فابتلعت ماءها، وبقي ماء السماء لم تبتلعه الأرض. فهذه البحور على وجه الأرض منها، وأما البحر المحيط، فغير ذلك، بل هو جرز عن الأرض، حين خلق الله الأرض من زبده. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «وكان عرشه على الماء»؛ أي؛ العذب. والبحور سبعة. منها: البحر المحيط. وبعضهم لم يعد منها البحر المحيط، بل هو غير السبعة. وكان نوح عليه السلام نجاراً، فجاء جبريل، وعلمه صنعة السفينة.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أي: من معتبر بتلك الآية الحقيقة بالاعتبار، فيخاف من الله، ويترك المعصية. وأصله: مذتكر بوزن مفتعل، كما سيأتي في مبحث التصريف؛ أي: فهل من متعظ ومعتبر يتعظ بهذه الآية ويعتبر بها.

والمعنى[1]: أي ولقد جعلنا السَّفينة التي حملنا فيها نوحاً ومن معه عبرة لمن بعده من الأمم ليدبروا، ويتعظوا، ويرعووا أن يسلكوا مسلكهم، وينهجوا منهجهم في الكفر بالله، وتكذيب رسله. فيصيبهم مثل ما أصابهم من العقوبة. وقد رووا أنَّ الله حفظها آماداً طويلة بأرض الجزيرة على جبل الجودي، كما مر. فهل من معتبر بتلك الآية الحرية بالاعتبار، الجديرة بطويل التفكير والتأمل في عواقب المكذبين برسل الله، الجاحدين بوحدانيته المتخذين له الأنداد والأوثان.

ثم بين سبحانه شديد نكاله، وعقابه فقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ الذي عذبتهم به. ﴿وَنُذُرِ﴾؛ أي: وكيف كان عاقبة إنذاري إياهم على لسان رسولي نوح عليه السلام؟ أي: كانا على كيفية هائلة، وحكمة بالغة، لا يحيط بها الوصف. والاستفهام فيه للتعظيم، والتهويل، والتعجيب. والنذر: جمع نذير بمعنى إنذار، كالنكر جمع نكير بمعنى إنكار. وأصله: نذري بالياء، حذفت اكتفاء عنها بالكسرة رعاية للفاصلة، ووحَّد[2] العذاب وجمع الإنذارات إشارة إلى غلبة الرحمة على العذاب، لأنَّ الإنذار إشفاق ورحمة، فقال: فكيف إنذارتي التي هي نعم ورحمة تواترت عليهم. فلما لم تنفع تلك الإنذارات وقع العذاب عليهم وقعة واحدة، فكانت كثيرة، والنقمة واحدة.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وقيل المعنى[1]: فانظر يا محمد كيف كان عذابي عليهم؟ وكيف كان حال منذري لمن أنذرهم نوح فلم يؤمنوا. ثم إنه تعالى لما أجاب دعوة نوح بأن أغرقهم أجمعين قال استعظاماً لذلك العقاب، وإيعاداً لمشركي مكة: فكيف كان عذابي الذي عذبتهم به، وكيف كان عاقبة إنذاري، اهـ زاده.

والمعنى: أي ما أشد ما أنزلته بهم من البوار والهلاك، وما أفظع إنذاري لهم بما أحللته بهم من النقمة بعد النعمة، وهكذا عاقبة كل مكذب جبار. ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد، وعظيم التهديد لكل باغ عنيد ساخط على الرسل، مكذب بربه.

والخلاصة: انظر كيف كان عذابي لمن كفر بي، وكذب رسلي؟ وكيف انتصرت منهم لهم، وأخذت أعدائهم بما يستحقون.

ثم ذكر أن هذا القصص، وأمثاله إنما ذكر للعبرة، لا ليكون قصصاً تاريخياً يتلى، فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ﴾ إلخ، جملة قسمية، وردت في أواخر القصص الأربع تنبيهاً على أن كل قصة منها مستقبلة بإيجاب الإدّكار، كافية في الازدجار، ومع ذلك لم تقع واحدة في حيز الاعتبار؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ ووشحنا فيه بأنواع المواعظ والعبر، وصرفنا فيه من الوعد والوعيد. ﴿لِلذِّكْرِ﴾؛ أي: للتذكير والاتعاظ. وعن الحسن عن النبي ﷺ: «لولا قول الله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ لما أطاقت الألسن أن تتكلم به». وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل.

أي: ولقد سهلنا لفظه، ويسرنا معناه، وملأناه بأنواع العبر والمواعظ ليتعظ به من شاء، ويتدبر من أراد. ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أي: فهل من متعظ به مزدجر عن معاصيه، أي: ما أقل من تذكر به، واتعظ بأمره ونهيه. فهو استفهام إنكار، ونفي للمتعظ على أبلغ وجه

---

(١) تنوير المقباس.

وآكده. قال أبو بكر الوراق: فهل من طالب خير وعلم فيعان عليه. وفيه[1] الحث على تعليم القرآن، والاشتغال به، لأنّه قد يسره الله، وسهله على من شاء من عباده بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربي والعجمي، وغيرهم.

قال في «برهان القرآن»: قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ إلخ، ختم به قصة نوح، وعاد، وثمود، ولوط لما في كل واحدة منها من التخويف، والتحذير، وما حل بهم ليتعظ به حافظ القرآن وتاليه، ويعظ غيره، انتهى.

وفي «الفتوحات»: وفائدة تكرير هاتين الآيتين مع كل قصة أن يجددوا عند سماع كل نبأ اتعاظهم. وهذا حكم التكرير في ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ عند كل نعمة عدها، و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ عند كل آية أوردها. وكذا تكرير القصص لتكون العبرة حاضرة مصورة للأذهان غير منسية في كل أوان، اهـ عمادي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ بإدغام الذال المعجمة في الدال المهملة المبدلة من تاء الافتعال. وقرأ قتادة فيما نقل ابن عطية بالذال، أدغمه بعد قلب الثاني إلى الأول. وقال صاحب كتاب «اللوامح»: قرأ قتادة ﴿فهل من مذّكر﴾ اسم فاعل من التذكير؛ أي: من يذكر نفسه أو غيره بما مضى من القصص، انتهى. وقرىء ﴿مذتكر﴾ على الأصل.

قصة عاد قوم هود عليه السلام

تقدمت قصة عاد مطولة ومتوسطة، وهنا ذكرها الله تعالى موجزة كما ذكر قصة نوح موجزة. ولما لم يكن لقوم نوح علم. . ذكر قوم مضافاً إلى نوح. ولما كانت عاد علماً لقوم هود ذكر العلم؛ لأنه أبلغ في الذكر من التعريف بالإضافة، ذكره أبو حيان.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾؛ أي: هوداً عليه السلام، ولم يتعرض إلى كيفية تكذيبهم له روماً للاختصار، ومسارعة إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لهم ﴿و﴾ كيف كان ﴿نذر﴾؛ أي: إنذاري لهم. فالنذر جمع نذير بمعنى الإنذار. والغرض من هذا توجيه قلوب السامعين، نحو الإصغاء إلى ما يلقى إليهم قبل ذكره، وتهويله، وتعظيمه، وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما فيما قبله وما بعده.

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

كأنه قيل: كذّبت عاد فهل سمعتموهم، أو فاسمعوا كيف كان عذابي لهم، وإنذاري إيّاهم.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل هنا: فكذبوا هوداً كما قال في قصة نوح: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾؟

أجيب: بأن تكذيب قوم نوح أبلغ لطول مقامه فيهم وكثرة عنادهم. وإما لأن قصة عاد ذكرت مختصرة، اهـ خطيب.

والمعنى: أي كذبت عاد نبيهم هوداً عليه السلام، فيما أتاهم به عن الله كما كذبت قوم نوح من قبلهم نبيهم. فانظروا يا معشر قريش كيف كان عذابي إياهم، وعقابي لهم على كفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله هوداً، وإنذاري من سلك سبيلهم، وتمادى في الغيّ والضلال بحلول مثل ذلك العقاب به.

ثم فصل ما أجمله أولاً بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا﴾ وسلطنا ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾؛ أي: ريحاً باردة أو شديدة الصوت والهبوب. وهي ريح الدبور. والصرصر من الصر. وهو البرد، أو من صر الباب إذا صوت. ﴿فِي يَوْمِ﴾ ذي ﴿نَحْسٍ﴾ وشؤم عليهم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ صفة ليوم أو نحس، أي: مستمر شؤمه عليهم أوابد الدهر. فإن الناس يتشاءمون بأربعاء آخر الشهر.

قال ابن الشيخ[1]: واشتهر بين بعض الناس التشاؤم بالأربعاء الذي يكون في آخر الشهر بناءً على قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾. ومعلوم: أنه ليس المراد أنه نحس على المصلحين بل على المفسدين، حيث لم تظهر نحوسته في حق الأنبياء والمؤمنين. وفي «الروضة»: الأربعاء مشؤوم عندهم، والذي لا يدور وهو آخر أربعاء في الشهر أشأم. وعن ابن عباس يرفعه «آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر». قال الشاعر:

لِقَاؤكَ لِلْمُبَكِّرِ فَالُ سُوْءٍ ... وَوَجْهُكَ أَرْبِعَاءُ لاَ يَدُورُ

والمعنى: مستمر عليهم شؤمه ونحوسته أزمنة ممتدة إلى أن أهلكهم. فاليوم بمعنى الحين، وإلا فاليوم الواحد لا يمكن أن يستمر سبع ليال وثمانية أيام. والاستمرار على هذا الوجه بحسب الزمان. أو المعنى شامل لجميعهم، كبيرهم،

---

(١) روح البيان.

وصغيرهم. فالمستمر بمعنى المطرد بالنسبة إلى الأشخاص، أو مشتد مرارته؛ أي: بشاعته. وقيل: هو من المرة بمعنى القوة؛ أي: في يوم قويّ الشؤم مستحكمه كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه. والظاهر[1]: أنه من الاستمرار، لا من المرارة، ولا من المرة؛ أي: دام عليهم عذابه حتى أهلكهم وشمل بهلاكه كبيرهم وصغيرهم. وكان ابتداؤه يوم الأربعاء آخر الشهر إلى غروب الأربعاء الآخر. وروي: أنه كان آخر أيامهم الثمانية في العذاب يوم الأربعاء، وكان سلخ صفر. وهي الحسوم في سورة الحاقّة؛ أي: المتتابعة.

والمعنى[2]: إنّا بعثنا إلى عاد إذ تمادوا في طغيانهم وكفرهم بربهم ريحاً شديدة العصوف في برد، لصوتها صرير في زمن شؤم ونحس عليهم. إذ ما زالت مستمرة حتى أهلكتهم. ونحو الآية قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾، وقوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾؛ أي: متتابعة.

تنبيه: وما روي عن شؤم بعض الأيام فلا يصح شيء منه. فالأيام كلها لله، لا ضرر فيها لذاتها، ولا محذور منها، ولا سعد فيها، ولا نحس. فما من يوم يمر إلا وهو سعد على قوم ونحس على آخرين باعتبار ما يحدثه الله فيه من الخير والشرّ لهم. فكل منها يتصف بالأمرين.

ألا إنَّـمـا الأَيَّـامُ أبْـنَـاءُ وَاحِـدِ ... وَهَـذِيْ الـلَّـيَـالِـيْ كُـلُّـهَـا أَخَـوَاتُ

وتخصيص كل يوم بعمل كما يزعم بعض الناس، وينسبون في ذلك أبياتاً إلى علي كرم الله وجهه لا يصح منه شيء.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ بإضافة يوم إلى نحس. وقرأ الحسن بتنوين ﴿يوم﴾ وكسر الحاء على أن ﴿نَحِسٍ﴾ صفة له. وقرأ هارون بكسر الحاء. وقال أبو حيان: والذي يظهر أنه ليس يوماً معيناً، بل أريد به الزمان والوقت كأنه قيل: في وقت نحس. ويدل على ذلك أنّه قال في سورة فصلت: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

﴿أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾، وقال في الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾. إلا أن يكون ابتداء الريح في يوم الأربعاء، فعبر بوقت الابتداء. وهو يوم الأربعاء. فيمكن الجمع بينها.

وجملة قوله: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ في محل نصب على أنها صفة لـ ﴿رِيحًا﴾ أي: ريحاً تقلعهم، أو حال منها. ويجوز أن يكون استئنافاً؛ أي: تقلع الناس من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها. روي: أنهم دخلوا الشعاب والحفر، وتمسك بعضهم ببعض، فنزعتهم الريح، وصرعتهم موتى. وقال مقاتل: تنزع أرواحهم من أجسادهم، وقال السهيلي: دامت عليهم سبع ليال وثمانية أيّام، كيلا ينجو منهم أحد ممن هو في كهف أو سرب. فأهلكت من كان ظاهراً بارزاً، وانتزعت من البيوت من كان في البيوت، أو هدمتها عليهم، وأهلكت من كان في الكهوف والأسراب بالجوع والعطش. ولذلك قال: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾؛ أي: فهل يمكن أن يبقى بعد هذه الثمانية الأيّام باقية منهم.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ وأصول ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾؛ أي: منقلع من الأرض. حال[1] من الناس؛ أي: تنزع الناس حال كونهم شبيهين بأصول نخل منقلع من مغارسه. قيل: شبهوا بأعجاز النخل، وهو أصولها بلا فروع؛ لأنَّ الريح كانت تقلع رؤوسهم، فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رؤوس. وقال بعضهم: كانت الريح تقلعهم، وتصرعهم على رؤوسهم. فتدق رقابهم، فيبين الرأس من الجسد. وفيه إشارة إلى قوتهم وثباتهم في الأرض. فكأنهم بحسب قوتهم وجسامتهم يجعلون أرجلهم غائرة نافذة في الأرض، ويقصدون به المقاومة على الريح، ثم إن الريح لما صرعتهم فكأنها قلعت أعجاز نخل منقعر. وقال أبو الليث: صرعتهم، وكبتهم على وجوههم كأنهم أصول نخل منقلعة من الأرض. فشبههم لطولهم بالنخل الساقطة، وقرأ أبو نهيك ﴿أَعْجُزُ﴾ على وزن أفعل، نحو: ضبع وأضبع، ذكره أبو حيان. قال مقاتل[2]: كان طول كل واحد منهم اثني عشر ذراعاً، وقال في رواية الكلبيّ: كان طول كل واحد منهم سبعين ذراعاً. فاستهزؤوا حين ذكر لهم الريح، فخرجوا إلى الفضاء، وضربوا بأرجلهم الأرض، وغيبوها فيها إلى قريب من الركبة، فقالوا قالاً

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

للريح حتى ترفعنا فجاءت الريح، فدخلت تحت الأرض، وجعلت ترفع كل اثنين، وتضرب أحدهما بالآخر بعد ما رفعتهما في الهواء، ثم تلقيهما في الأرض، والباقون ينظرون إليهما، حتى رفعتهم كلهم، ثم رمت بالرمل والتراب عليهم. وكان يسمع أنينهم من تحت التراب كذا وكذا يوماً.

فائدة: ذكَّر[1] وصف النخل هنا، حيث قال ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾، وأنثه في الحاقة، حيث قال: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ رعاية للفواصل في الموضعين. وجاز فيه الأمران؛ لأنّه نظر إلى لفظ النخل تارةً، فذكره، وإلى معناه أخرى فأنثه. نظير قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾، ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾.

وفي الآية إيماء[2] إلى أن الريح كانت تقتلع رؤوسهم، فتبقي الأجسام، ولا رؤوس لها، وإلى أنهم كانوا ذوي جثث عظام طوال كالنخل، وإلى أنهم أعملوا أرجلهم في الأرض، وقصدوا بذلك مقاومة الريح، وإلى أن الريح جعلتهم كأنهم خشب يابسة لشدة بردها.

ثم هول من أمر العذاب والإنذار بعد بيانهما، فقال: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦﴾؛ أي: فانظروا كيف كان عذابي لهم، وإنذاري إياهم. وقد كرره تعظيماً لشأنهما، وتعجيباً من أمرهما.

وهذا سنة في بليغ الكلام في باب النصح والإرشاد، وباب الوعد والوعيد. وقال في «برهان القرآن»: أعاد في قصة عاد ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦﴾ مرتين؛ لأنَّ الأول في عذاب الدنيا، والثاني في عذاب الآخرة، كما قال في قصتهم في آية أخرى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾. وقيل: الأول لتحذيرهم قبل هلاكهم، والثاني لتحذير غيرهم بعد هلاكهم، انتهى.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه ﴿لِلذِّكۡرِ﴾؛ أي: ليتذكر به من شاء، ويتدبر فيه من أراد. ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾؛ أي: فهل من متعظ به، مزدجرٍ عن معاصي الله سبحانه.

---

(١) فتح الرحمن. (٢) المراغي.

وإنما كرر هذه الآية في هذه السورة للتنبيه والإفهام[١].

وقيل: إن الله سبحانه اقتص في هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم، وقصص المرسلين، وما عاملهم به الأمم، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين، فكان في كل قصة ونبأ ذكر للمستمع؛ أي: لو تذكر. وقيل: إنما كرر هذه الآية عند كل قصة بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ لأنّ كل كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم، وجعلها حجة عليهم. فاللام من ﴿هل﴾ للاستعراض، والهاء للاستخراج، قاله أبو بكر الوراق.

فائدة: ثم اعلم[٢]: أن حكمة هلاك عاد بالريح اعتمادهم على قوتهم، والريح أشد الأشياء قوة. فاستأصلهم الله تعالى بها، حتى يحصل الاعتبار لمن بعدهم من القرون، فلا يعتمدوا على قواهم. وفيه إشارة إلى أن الريح هو الهواء المتحرك، فالخلاص من ذلك الهواء إنما هو بترك الهوى، ومتابعة الهدى، نسأل الله سبحانه من فضله ذلك.

قصة ثمود قوم صالح عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: بالإنذارات والمواعظ التي سمعوها من صالح عليه السلام، أو كذبوا بالرسل الذين بعثهم الله لخلقه، وهم وإن كذبوا صالحاً فحسب، لكن تكذيبه تكذيب لهم جميعاً لاتفاقهم على الأصول العامة للتشريع، وهي التوحيد، ومجيء الرسل، واليوم الآخر.

ثم فصل تكذيبهم، وحكى عنهم مقالهم فقال: ﴿فَقَالُوٓا﴾ في تكذيبه ﴿أ﴾ نتبع ﴿بشراً﴾؛ أي: آدميًا لا ملكاً ﴿مِّنَّا﴾؛ أي: كائناً من جنسنا. وانتصابه بفعل يفسّره ما بعده. فأداة الاستفهام داخلة على الفعل، وإن كان تقديراً كما هو الأصل. ﴿وَٰحِدًا﴾؛ أي: منفرداً لا تبع له، أو واحداً من آحادهم، لا من أشرافهم. وتأخير[٣] هذه الصفة عن ﴿مِّنَّا﴾ للتنبيه على أن كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع، ولو قدمت عليه.. لفاتت هذه النكتة. ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ في أمره ﴿إِنَّآ إِذًا﴾؛ أي:

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

على تقدير اتباعنا له. وهو منفرد ونحن أمة، وأيضاً ليس بملك لما كان في اعتقاد الكفرة من التنافي بين الرسالة والبشرية ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ وخطأ عن الصواب والحق ﴿وَسُعُرٍ﴾؛ أي: جنون. فإن ذلك بمعزل عن مقتضى العقل.

والاستفهام في قوله: ﴿أَبَشَرًا﴾ للإنكار؛ أي: كيف نتبع بشراً كائناً من جنسنا منفرداً وحده، لا متابع له على ما يدعو إليه. وقيل: كان يقول لهم: إن لم تتبعوني.. كنتم في ضلال عن الحق وسعر؛ أي: نيران، جمع سعير. فعكسوا عليه لغلبة عتوّهم، فقالوا: إن اتبعناك كنا إذن كما تقول، وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشراً منهم واحداً؟

قلت: قالوا: ﴿أَبَشَرًا﴾ إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر، وهم الملائكة. وقالوا: ﴿مِّنَّا﴾ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى. وقالوا: ﴿وَٰحِدًا﴾ إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً. وأرادوا من أبنائهم ليس بأشرفهم، ولا أفضلهم. ويدل عليه قوله: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: بنصب ﴿أَبَشَرًا﴾ على الاشتغال. وقرأ أبو السمال، والداني، وأبو الأشهب، وابن السميقع بالرفع على الابتداء. و﴿واحدٌ﴾ صفته، و﴿نتبعه﴾ خبره. وروي عن أبي السمال: أنه قرأ برفع ﴿بشرا﴾، ونصب ﴿واحداً﴾ على الحال.

والمعنى: أي[2] أنتبع واحداً من الدهماء، لا من علية القوم، ولا من أشرافهم، وليس له ميزة عن امرىء منا بعلم ظاهر، ولا ثروة وغنى تجعله يدعي أن يكون الزعيم لنا إنا لو اتبعناه نكون قد ضللنا الصراط السوي، وجانبنا الصواب، وصرنا لا محالة إلى الجنون الذي لا يرضى به عاقل لنفسه.

ثم بالغوا في العتو والإنكار، وتعجبوا من أمره، ونسبوه إلى الاختلاق والكذب، فقالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ﴾؛ أي: أأنزل الكتاب، والوحي ﴿عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة، والاستفهام فيه للإنكار و﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ حال من ضمير ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: أخص بالرسالة منفرداً من بين آل ثمود، والحال أنَّ فيهم من

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

هو أكثر مالاً، وأحسن حالاً منه. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؛ أي: بطر بوزن فرح، اسم فاعل؛ أي: ليس الأمر كذلك، بل هو كذا، وكذا حمله بطره على الترفع علينا بما ادعاه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَشِرٌ﴾ بوزن فرح بكسر العين، اسم فاعل. وقرأ أبو قلابة وأبو جعفر، وقتادة ﴿بل هُوَ الكَذَّابُ الأَشَرُّ﴾ بلام التعريف فيهما، وبفتح الشين وتشديد الراء، على أنه أفعل تفضيل، وإتمام خير وشر في أفعل التفضيل قليل. ونقل الكسائي عن مجاهد: أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة.

والمعنى: أي أأنزل عليه الوحي من بيننا، وأوتي النبوة، وهو واحد منّا، ولم اختصه الله سبحانه بإنزال الشرائع عليه. وهو ليس بملك مكرم، والحق إنه لكذاب متجبر، يريد أن تكون له السيطرة والسلطان علينا، ويود أن يكون الرئيس المطاع، وما ذاك إلا بما زينته له نفسه، وأغواه به الشيطان، ولا يستند إلى وحي سماويٍّ ولا أمر إلهيّ.

ثم حكى سبحانه ما قاله لصالح وعداً له، ووعيداً لقومه فقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾؛ أي: عن قريب حين يحل بهم الهلاك الدنيوي ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾؛ أي: البَطِرُ الذي حَملَه بطره على ما فَعَل، أصالحٌ في دعواه الرسالةَ من ربه، وأنه أمره بالتبليغِ لهدايةِ قومِهِ إلى الحق، وإلى طريق مستقيم، أم هم في تكذيبهم إياه، ودعواهم عليه الاختلاقَ والكذبَ.

وقصارى ذلك: سيتبين لهم أنهم هم الكذّابون الأشرون. والسين[2] لتقريب مضمون الجملة، وتأكيده. والغد اليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه. والمراد به: وقت نزول العذاب في الزمان المستقبل، لا يوم بعينه، ولا يوم القيامة؛ لأن قوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ استئناف لبيان مبادي الموعود حتماً.

والمعنى: سيعلمون ألبتة عن قريب من الكذاب الأشر الذي حمله أشره وبطره على الترفع والتجبر أصالح أم من كذبه. وفيه تشريف لصالح، حيث إن الله تعالى سلب عنه بنفسه الوصف الذي أسندوه إليه من الكذب والأشر. فإنَّ معناه: لست أنت بكذاب أشر، بل هم.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وأورد الكلام على طريق الإبهام للإشارة إلى أنه مما لا يخفى جرياً على أساليبهم كقوله تعالى آمراً لرسوله أن يقول للمشركين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وقرأ عليّ، والجمهور[1] ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بالتحتية إخباراً من الله سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدّة. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة بالفوقية على أنه خطاب من صالح لقومه؛ أي: قل لهم: يا صالح.

وجملة ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ مستأنفة لبيان ما تقدم إجماله من الوعيد؛ أي: إنا نحن مخرجو الناقة من الهضبة التي سألوا الإخراج عنها. والهضبة: الجبل المنبسط على الأرض أو جبل خلق من صخرة واحدة أو الجبل الطويل الممتنع المنفرد. ولا يكون إلا في حمر الجبال، كما في «القاموس». روي[2]: أنّهم سألوه متعنتين أن يخرج من صخرة منفردة في ناحية الجبل، يقال لها: الكاثبة، ناقة حمراء جوفاء وبراء عشراء. وهي التي أتت عليها عشرة أشهر من يوم أرسل عليها الفحل. فأوحى الله إليه: إنا مخرجو الناقة على ما وصفوا ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾؛ أي: امتحاناً لهم. فإنَّ المعجزة محنة واختبار؛ إذ بها يتميز المثاب من المعذب ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾؛ أي: فانتظرهم، وتبصر ما يصنعون ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذيتهم صبراً بليغاً. ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾؛ أي: أخبرهم ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: مقسوم بين ثمود، وبين الناقة. لها يوم، ولهم يوم. فالقسمة: مصدر بمعنى اسم المفعول كضرب الأمير. وقرأ الجمهور ﴿قِسْمَةٌۢ﴾ بكسر القاف، ومعاذ بن أبي عمرو بفتحها. وقال: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بضمير العقلاء تغليباً. ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾؛ أي: كل نصيب من الماء، ونوبة، الانتفاع منه ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضره صاحبه في نوبته. فليس معنى كون الماء مقسوماً بين القوم، والناقة أنه جعل قسمين: قسم لها، وقسم لهم. بل معناه: جعل الشرب بينهم على طريق المناوبة يحضره القوم يوماً، وتحضره الناقة يوماً، وقسمة الماء إما لأن الناقة عظيمة الخلق ينفر منها حيواناتهم، أو لقلة الماء. والشرب بكسر السين: الحظ من الماء. قال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم، فيشربون، ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون لبنها.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

والمعنى: أي إنا مخرجو[1] الناقة من الهضبة التي طلبوا من نبيّهم بعثها منها لتكون آية لهم، وحجة على صدقه في ادعائه النبوة، وتكون فتنة واختباراً لهم أيؤمنون بالله، ويتبعونه فيما أمرهم به من توحيد؟ أم يكذّبونه ويكفرون به، فانتظر ماذا يفعلون، وأبصر ماذا يصنعون، واصبر على أذاهم، ولا تعجل حتى يأتي أمر الله؛ فإن الله ناصرك، ومهلك عدوك، وأخبرهم أن ماء بئرهم مقسوم بينهم وبين الناقة لها يوم، ولهم يوم. كل حصة منه يحضر صاحبها ليأخذها في نوبته، فتحضر الناقة تارةً، ويحضرون هم أخرى. وقد جعلت القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر؛ لأنَّ حيوان القوم كانت تنفر منها، ولا ترد الماء وهي عليه، فصعب ذلك عليهم فملوا من هذه القسمة، وأرادوا الخلاص منها.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾؛ أي: نادى ثمود صاحبهم. وهو قدار بن سالف عاقر الناقة، ودعوه ليعقر الناقة. وكان أشدّهم، وحضوه على عقرها، فلبى طلبهم. ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾؛ أي: تناول الناقة بالعقر ﴿فَعَقَرَ﴾ ها، أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر، فعقر. قال محمد بن إسحاق: كمن لها في أصل شجرة على طريقها، فرماها بسهم، انتظم به عضلة ساقها، ثم شد عليها بالسيف، فكسر عرقوبها ثم نحرها. والتعاطي[2]: تناول الشيء بتكلف، وما يتكلف فيه لا بُدَّ أن يكون أمراً هائلاً، لا يباشره أحد إلا بالجراءة عليه. فالتعاطي مجاز عن الاجتراء.

وبهذا المجاز يظهر وجه التعقيب بالفاء في ﴿فَعَقَرَ﴾، وإلا فالعقر لا يتفرع على نفس مباشرة القتل، والخوض فيه. يقال: عقر البعير والفرس بالسيف فانعقر؛ أي: ضرب به قوائمه، وبابه ضرب كما سيأتي.

والمعنى: فاجترأ صاحبهم قدار بن سالف على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له، فأحدث العقر بالناقة. وقدار بن سالف ـ بضم القاف وبالدال المهملة ـ وهو مشؤوم آل ثمود، ولذا كانت العرب تسمى الجزّار قداراً تشبيهاً له بقدار بن سالف. لأنّه كان عاقر الناقة، وكان قصيراً شرّيراً، أزرق، أشقر، أحمر. وكان يلقب بأحيمر ثمود، تصغير أحمر.

---

(١) المراغي.　　(٢) روح البيان.

ثم ذكر عقابهم الفظيع، فقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لهم ﴿وَنُذُرِ﴾؛ أي: إنذاري إيّاهم على لسان رسولي صالح عليه السلام، وقد سبق تفسير هذا فلا عود ولا إعادة.

ثم فصل هذا العذاب بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾ وسلطنا ﴿عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: صيحة جبريل عليه السلام. وذلك لأنّها هي الجزاء الوفاق لفعلهم. فإنّهم صاروا سبباً لصيحة ولد الناقة بقتل أمه. ﴿فَكَانُوا﴾؛ أي: فصاروا لأجل تلك الصيحة بعد أن كانوا في نضارة وطيب عيش ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ الهشم[1]: كسر الشيء الرخو، كالنبات. والهشيم بمعنى المهشوم؛ أي: المكسور، وهو اليابس المتكسر من الشجر وغيره. والحظر: جمع الشيء في حظيرة، والمحظور الممنوع، والمحتظر بكسر الظاء الذي يعمل الحظيرة ويتخذها. قال الجوهري: الحظيرة التي تعمل للإبل من الشجر لتقيها البرد والريح. والحظيرة في الأرميا «دلي».

والمعنى: إنا نحن أرسلنا جبريل ليصيح بهم، فصاح عليهم صيحة واحدة، فصاروا كالشجر اليابس الذي يتخذه من يعمل الحظيرة وقاية لإبله من الريح والبرد، فتساقط على الأرض، فتكسر، وتفتت. أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لأكل ماشيته، فداست عليه، فتفتت، فصار كالغبار.

روي: أن جبريل صاح في طرف منازلهم في اليوم الرابع من عقر الناقة؛ لأنه كان في يوم الثلاثاء، ونزول العذاب بهم كان في يوم السبت، فصاروا كالحشيش البالي الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته، كأنهم هلكوا من أمد بعيد.

وقصارى ذلك: أنهم بادوا عن آخرهم، ولم تبق منهم باقية، وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بكسر الظاء، اسم فاعل، وهو الذي يعمل الحظيرة، وهشيمه ما سقط منه من دقاق الشجر، وأغصانه حالة العمل، وتكسر، وتفتت، وصار كالغبار. وقرأ أبو حيوة، وأبو السمال، وأبو رجاء، وأبو عمرو بن عبيد بفتحها. وهو موضع الاحتظار. وقيل: هو مصدر؛ أي: كهشيم

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

الاحتظار. وهو ما تفتت حالة الاحتظار والبناء للحظيرة، والحظيرة تصنعها العرب، وأهل البوادي للمواشي، والسكنى من الأغصان، والشجر المورق، والقصب، والحظر: المنع. وعن ابن عباس، وقتادة: أنَّ المحتظر هو المحترق. قال قتادة: كهشيمٍ محترقٍ. وعن ابن جبير: هو التراب الذي يسقط من الحائط البالي. وقيل: المحتظَر بفتح الظاء: هو الهشيم نفسه. فيكون من إضافة الموصوف إلى صفته كمسجد الجامع عند من تأوله كذلك.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ وسهلناه لفظاً ومعنى ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: لتذكير من تذكر به ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أي: متعظ يتعظ به. وقد سبق تفسير هذا في هذه السورة غير مرة، فلتراجعه.

قصص قوم لوط

ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كذبوا رسل الله، كما كذبهم غيرهم فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: بالإنذارات أو بالمنذرين، كما سبق. ثم أعقبه بذكر جزائهم على هذا التكذيب، ونجاة من آمن منهم فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾؛ أي: ريحاً تحصبهم؛ أي: ترميهم بالحصباء. وهي حجارة دون ملء الكف. فالحصب: الرمي بالحصى الصغار، ومنه: المحصب موضع بمكة، والحاصب: اسم فاعل بمعنى رامي الحصباء. وتذكيره مع إسناده إلى ضمير الريح وهي مؤنث مجازي لتأويلها بالعذاب.

يقول الفقير[1]: لعل حكمة تعذيبهم بالحجارة؛ لأنهم حجروا ومنعوا من اللواطة، فلم يمتنعوا، بل رموا نطفهم إلى غير محل الحرث، فرماهم الله تعالى بالحجر، ومن ثم ذهب أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى إلى أنَّ حكم اللوطي أن يرجم، وإن كان غير محصن. وأيضاً أنهم يجلسون في مجالسهم، وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصًى، فإذا مرَّ بهم عابر سبيل حذفوه، فأيهم أصابه كان أولى به، وأمَّا الريح؛ فلأنهم كانوا يضرطون في مجالسهم علانية، ولا يتحاشون، وأما انقلاب قراهم؛ فلأنهم كانوا يقلبون المرد عند اللواطة، فجازاهم الله بحسب

---

(١) المراغي.

أعمالهم، وأيضاً قلبوا الحقيقة وعكسوها بأن تركوا محل الحرث، وأتوا الأدبار.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ وهم أهل بيته الذين نجوا من العذاب، وكانوا ثلاثة عشر. وقيل: يعني: لوطاً وابنتيه. وفي «كشف الأسرار»: يعني: بناته، ومن آمن به من أزواجهن. ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾؛ أي: نجينا آل لوط ﴿بِسَحَرٍ﴾؛ أي: في سحر[1] من الأسحار. وهو آخر الليل، أو السدس الأخير منه. وانصرف «سحر»؛ لأنّه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة، ولو قصد معيناً لامتنع. ويجوز أن يكون حالاً؛ أي: متلبسين بسحر. روي: أنَّ الله أمره، حتى خرج بهم بقطع من الليل، فجاء العذابُ قومَه وقت السحر. والاستثناء منقطع؛ لأنّه مستثنى من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾. وهو للمكذّبين من قوم لوط. ولا يدخل فيهم آل لوط؛ لأنّ المراد به: من تبعه على دينه. وانتصاب ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ على العلة لـ ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾، أي: نجيناهم إنعاما منا على لوط ومن تبعه، أو على المصدرية من فعله، أي: أنعمناهم إنعاماً من عندنا، أو من مَعنِيَ نجيناهم؛ أي: نجيناهم تنجية من عندنا لأن تنجيتهم إنعام.

والمعنى[2]: أي إنا عاقبناهم بإرسال ريح تحمل الحصباء، وما زالت بهم حتى دمرتهم إلا من آمن منهم، فإنا أمرناهم بالخروج آخر الليل؛ لينجوا من الهلاك. ثم بين أن سبب إنجاء المؤمنين هو شكرانهم للنعمة، فقال: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾؛ أي: أنعمنا عليهم بالنجاة كرامة لهم منّا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة. يعني: كذلك ننجي المؤمنين. والمعنى: هكذا نجزي من شكرنا على نعمتنا، وأطاعنا، وائتمر بأمرنا وانتهى عمّا نهينا عنه.

ثم ذكر أنه ما أهلك من أهلك إلا بعد أن أنذرهم عذابه، وخوفهم بأسه فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي. . لقد أنذرهم، وخوفهم نبيهم لوط عليه السلام ﴿بَطْشَتَنَا﴾؛ أي: أخذتنا الشديدة بالعذاب. ﴿فَتَمَارَوْا﴾؛ أي: فكذّبوا ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ متشاكين. ضمن[3] ﴿فَتَمَارَوْا﴾ معنى التكذيب، فعدي تعديته، من المرية.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وأصله: تماريوا على وزن تفاعلوا، كما سيأتي.

والمعنى: أي ولقد أنذرهم نبيهم بأس الله وعذابه قبل حلوله بهم، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه، وتماروا به.

ثم بين جرمهم الذي استحقوا به العذاب، فقال: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد طالب قوم لوط نبيهم لوطاً عليه السلام بالتمكين لهم ﴿عَن ضَيْفِهِۦ﴾؛ أي: طلبوا منه ضيوفه. وهم الملائكة الذين جاؤوا في صورة شباب مرد حسان محنة من الله لهم. إذ قد بعثت إليهم امرأته عجوزة السوء، فأعلمتهم بأضيافه، فأقبلوا إليه يهرعون من كل مكان، فأغلق لوط عليهم الباب، فجعلوا يعالجونه ليكسروه، وهو يدافعهم، ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فقالوا له: لقد علمت ما لنا في بناتك أرب، وإنك لتعلم ما نريد؛ فلما اشتد بينهم الصراع، وأبوا إلا الدخول طمس الله أبصارهم، فلم يروا شيئاً. وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾؛ أي: فمسحناها، وسويناها كسائر الوجه، بحيث لم ير لها شق. روي: أنهم لما دخلوا داره عنوة صفقهم جبريل بجناحه صفقة، فتركتهم يترددون لا يهتدون إلى الباب، حتى أخرجهم لوط. والصفق: الضرب الذي ليس له صوت.

والخلاصة: ولقد أرادوا من لوط تمكينهم ممن أتاه من أضيافه. وهم الملائكة في صورة الشبان، ومعهم جبريل. وقصدوا الفجور بهم ظنًّا منهم أنهم بشر، فطمسنا أعينهم، فجعل بعضهم يجول في بعض، ولا يرون شيئاً، ويقولون: أين ضيوفك؟. وقد تقدم تفصيل ذلك في سورة هود.

والمعنى: صيّرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شق، كما تطمس الريح الأعلام بما تسف عليها من التراب. وقيل: أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم، فلم يروا الرسل، فرجعوا. وقرأ الجمهور ﴿فَطَمَسْنَآ﴾ بتخفيف الميم، وابن مقسم بتشديدها.

﴿فَذُوقُوا۟﴾؛ أي: فقلنا لهم على ألسنة ملائكتنا: ﴿ذوقوا عذابي﴾؛ أي: عذاب طمس الأعين، وما بعده مما سيأتي. ﴿وَنُذُرِ﴾؛ أي: وجزاء إبائكم وامتناعكم من قبول إنذارتي بعد أن أنذرتكم على سوء أفعالكم، وقبيح خلالكم.

ثم بين وقت مجيء العذاب، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾؛ أي: أول النهار وباكره؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد جاءهم وقت الصبح ﴿عَذَابٌ﴾؛ أي: الخسف والحجارة ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾؛ أي: يستقر بهم، ويثبت لا يفارقهم، حتى يفضي بهم إلى النار. يعني: جاءهم عذاب دائم متصل بعذاب الآخرة. وفي وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن ما قبله من عذاب الطمس ينتهي به؛ أي: مستقر لم يكشفه عنهم كاشف، بل اتصل بموتهم، ثم بما بعد ذلك من عذاب القبر، ثم عذاب جهنم.

وقرأ الجمهور: ﴿بُكْرَةً﴾ بالتنوين. أراد بكرة من البكر، فصرف. وقرأ زيد بن عليّ بغير تنوين.

والحاصل: أن العذاب الذي هو قلب قريتهم عليهم، وجعل أعلاها أسفلها، ورميهم بالحجارة غير العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين، فإنه عذاب دنيوي غير موصول بعذاب الآخرة، وأما عذاب الخسف والحجارة فموصول به؛ لأنّهم بهذا العذاب ينتقلون إلى البرزخ الموصول بالآخرة، كما أشار إليه قوله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» من حيث اتصال زمان الموت بزمان القيامة. كما أنَّ أزمنة الدنيا يتصل بعضها ببعض.

والمعنى: ولقد نزل بهم العذاب وقت البكور، وما زال ملحاً عليهم حتى أخمدهم، وبلغ غايته في دمارهم وهلاكهم.

ثم حكى ما قيل لهم بعد التصبيح من جهته تعالى تشديداً للعذاب فقال: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ أي: فذوقوا جزاء أفعالكم من عذاب عاجل، وما لزم من إنذاركم من عذاب آجل.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ هذه الجملة القسمية وردت في آخر كل قصة من القصص الأربع تقريراً لمضمون ما سبق من قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾، وتنبيهاً إلى أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الإدكار، كافية في الازدجار، ولم يحصل بها مع هذا عظة واعتبار. وقد مر ما في هذه الآية من الكلام، وفيه استئناف للتنبيه والإيقاظ، لئلا يغلبهم السهو، والغفلة، وكذا تكرير قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ في سورة الرحمن، وقوله في سورة المرسلات: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ونحوهما من الأنباء، والقصص،

والمواعيد، والزواجر، والقواطع كما مر، فإن في التكرير تقريراً للمعاني في الأسماع والقلوب، وتثبيتاً لها في الصدور، وكلما زاد تكرير الشيء، وترديده كان أقر له في القلب، وأمكن في الصدور، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد من النسيان.

الإعراب

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾.

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ما قبله. ﴿وَإِن﴾ الواو: استئنافية، ﴿إنْ﴾ حرف شرط جازم، ﴿يَرَوْا۟﴾ فعل، وفاعل، مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿ءَايَةً﴾ مفعول به، لأنَّ رأى بصرية، ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ فعل، وفاعل، مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواب الشرط. والجملة الشرطية مستأنفة. ﴿وَيَقُولُوا۟﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿يُعْرِضُوا۟﴾. ﴿سِحْرٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا سحر، ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ صفة لسحر. والجملة في محل النصب، مقول لـ ﴿يقولوا﴾. ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿كَذَّبُوا۟﴾ فعل، وفاعل، معطوف على جملة ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿كل أمر﴾ مبتدأ، ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿جَآءَهُم﴾ فعل، ومفعول به، ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ حال من ﴿مَا﴾ ﴿ما﴾ اسم موصول في محل الرفع، فاعل، ﴿فِيهِ﴾ خبر مقدم، ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة صلة الموصول، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿حِكْمَةٌۢ﴾ خبر لمبتدأ، أو بدل من ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ صفة لـ ﴿حِكْمَةٌۢ﴾. ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿ما﴾. نافية أو استفهامية للإنكار، في محل النصب مفعول مطلق لتغني؛ أي: فأيُّ إغناء تغني النذر. ﴿تُغْنِ﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لفظاً لالتقاء الساكنين المحذوفة خطاً تبعا للفظ، منع من

ظهورها الثقل؛ لأنّه فعل معتل بالياء. ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ فاعل. والجملة الفعلية معطوفة على جواب القسم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

﴿فَتَوَلَّ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿تول﴾ فعل أمر، مبني على حذف حرف العلّة، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿تولّ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿تُغْنِ﴾. ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر أو بـ ﴿يَخْرُجُونَ﴾، ﴿يَدْعُ﴾ فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمّة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين لفظاً المحذوفة خطًّا تبعاً للفظ، ﴿ٱلدَّاعِ﴾ فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لفظاً تبعاً لخط المصحف العثماني. والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ﴿يَدْعُ﴾، ﴿نُّكُرٍ﴾ صفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾. ﴿خُشَّعًا﴾ حال من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾، ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ فاعل ﴿خُشَّعًا﴾، ﴿يَخْرُجُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ متعلق بـ ﴿يَخْرُجُونَ﴾، ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿جَرَادٌ﴾ خبره، ﴿مُّنتَشِرٌ﴾ صفة ﴿جَرَادٌ﴾. وجملة ﴿كأنّ﴾ في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾. ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ حال ثالثة من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾. ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ متعلق بـ ﴿مُّهْطِعِينَ﴾، ﴿ٱلدَّاعِ﴾ مجرور بـ ﴿إِلَىٰ﴾، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء المحذوفة لفظاً تبعاً للرسم العثماني. ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً وقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فما يكون حينئذٍ؟ فقيل: يقول الكافرون الخ. وجوز بعضهم أن تكون الجملة حالاً من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾. فالأحوال من ﴿الواو﴾ حينئذٍ أربعة. واحد مقدم، وثلاثة مؤخرة. ﴿هَٰذَا يَوْمٌ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿عَسِرٌ﴾ صفة ﴿يَوْمٌ﴾. والجملة في محل النصب مقول يقولون.

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾.

﴿كَذَّبَتْ﴾ فعل ماض، ﴿قَبْلَهُمْ﴾ ظرف مضاف، متعلق بـ ﴿كَذَّبَتْ﴾، ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾

فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فَكَذَّبُوا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿كذبوا﴾ فعل، وفاعل، ﴿عَبْدَنَا﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿كَذَّبَتْ﴾. ﴿وَقَالُوا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿كذبوا﴾، ﴿مَجْنُونٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو مجنون. والجملة في محل النصب مقول قالوا. ﴿وَازْدُجِرَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿ازدجر﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على نوح. والجملة الفعلية في محل النصب، معطوفة على جملة هو مجنون على كونها مقولاً لـ ﴿قالوا﴾؛ أي: قالوا: هو مجنون، وازدجرته الجنّ؛ أي: تخبطته، وذهبت بلبّه. ﴿فَدَعَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿دعا ربه﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على نوح، ومفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿كذّبوا﴾. ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أنّ﴾ وما في حيّزها في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: بأنّي مغلوب على حكاية المعنى، ولو جاء على حكاية اللفظ لقال: أنّه مغلوب. ﴿فَانْتَصِرْ﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿انتصر﴾ فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ على تضمين دعا بمعنى قال. ﴿فَفَتَحْنَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿فتحنا﴾ فعل، وفاعل، ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿دعا﴾. ﴿بِمَاءٍ﴾ متعلق بفتحنا، والباء: للتعدية على المبالغة، حيث جعل الماء كالآلة التي يفتح بها، كما تقول: فتحت بالمفتاح. ويجوز أن تكون الباء للملابسة، متعلقة بمحذوف حال من ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: متلبسة بماء منهمر. ﴿مُنْهَمِرٍ﴾ صفة ﴿ماء﴾، ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿فتحنا﴾، ﴿عُيُونًا﴾ تمييز محول عن المفعول، ﴿فَالْتَقَى﴾ الفاء: عاطفة، ﴿التقى الماء﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿فجرنا﴾، ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾ متعلق بـ ﴿التقى﴾، و﴿عَلَى﴾ للتعليل؛ أي: اجتمع الماء لأجل إغراقهم المقضي أزلاً. وجملة ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ صفة لأمر. ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على جملة قوله: ﴿فَالْتَقَى﴾. ﴿عَلَى ذَاتِ﴾ متعلق بـ ﴿حملنا﴾، ﴿أَلْوَاحٍ﴾ مضاف إليه، ﴿وَدُسُرٍ﴾ معطوف على ﴿أَلْوَاحٍ﴾.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)﴾.

﴿تَجْرِي﴾ فعل مضارع، مرفوع، وفعله ضمير يعود على سفينة ذات ألواح. والجملة الفعلية في محل الجر، صفة ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾. ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ حال من فاعل

﴿تَجۡرِي﴾؛ أي: حالة كونها محفوظة ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، ﴿جَزَآءٗ﴾ مفعول لأجله لمحذوف، تقديره: فعلنا ذلك جزاء، ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال. ﴿لِّمَن﴾ متعلق بـ ﴿جَزَآءٗ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة ﴿لِّمَن﴾، وجملة ﴿كُفِرَ﴾، خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿وَلَقَد﴾ الواو: استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. والضمير يعود على الفعلة. وهي إغراقهم على الشكل المذكور. وأجاز الزمخشري أن يعود على السفينة. و﴿ءَايَةٗ﴾ حال من ضمير المفعول أو مفعول ثان لـ ﴿تركنا﴾، إذا كان تركنا بمعنى جعلناها. ﴿فَهَلۡ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿هل﴾ حرف استفهام للإنكار، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿مُّدَّكِرٖ﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: موجود. والجملة معطوفة على جملة ﴿تَّرَكۡنَٰهَآ﴾. ﴿فَكَيۡفَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا علمتم ما حل بهم جميعاً جزاء وفاقاً لعملهم، وأردتم التعجب من ذلك فأقول لكم كيف كان عذابي. ﴿كيف﴾ اسم استفهام، في محل النصب، خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، ﴿كَانَ عَذَابِي﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿وَنُذُرِ﴾ معطوف على ﴿عَذَابِي﴾ تبعه بالرفع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء التمكلم المحذوفة؛ اجتزاء عنها بكسرة المناسبة لضرورة الفاصلة، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَلَقَدۡ﴾ الواو: عاطفة، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿يَسَّرۡنَا﴾ فعل، وفاعل، ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ مفعول به، ﴿لِلذِّكۡرِ﴾ متعلق بـ ﴿يَسَّرۡنَا﴾. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم السابق. ﴿فَهَلۡ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿هل﴾ حرف استفهام، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿مُّدَّكِرٖ﴾ مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: موجود. والجملة معطوفة على جملة القسم.

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾.

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿فَكَيۡفَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت تكذيبهم وعقوبتهم على ذلك التكذيب، وأردت التعجّب من ذلك فأقول لك كيف كان. ﴿كيف﴾ اسم استفهام في محل النصب، خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، ﴿عَذَابِي﴾ اسمها، ﴿وَنُذُرِ﴾ معطوف

على ﴿عَذَابِي﴾، وجملة كان في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ خبره، وجملة ﴿إِنّ﴾ مستأنفة، مسوقة لبيان تعذيبهم. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿رِيحًا﴾ مفعول به، ﴿صَرْصَرًا﴾ صفة ﴿رِيحًا﴾، ﴿فِي يَوْمِ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أيضاً، ﴿نَحْسٍ﴾ مضاف إليه، أو صفة لـ ﴿يَوْمِ﴾، ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ صفة لـ ﴿نَحْسٍ﴾ أو لـ ﴿يَوْمِ﴾.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿الريح﴾، ومفعول به. والجملة صفة ثانية لـ ﴿رِيحًا﴾. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ خبره، ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ صفة لـ ﴿نَخْلٍ﴾. وجملة التشبيه في محل النصب، حال من ﴿ٱلنَّاسَ﴾. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ تقدم إعرابه قريباً فجدد به عهداً. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ متعلق بـ ﴿كَذَّبَتْ﴾، ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ الفاء: عاطفة، ﴿قالوا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿كَذَّبَتْ﴾. ﴿أَبَشَرًا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿بشرا﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يفسره ما بعده، تقديره: أنتبع بشراً. والجملة المحذوفة في محل النصب، مقول قالوا. ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ ﴿بشرا﴾، ﴿وَٰحِدًا﴾ صفة ثانية لـ ﴿بشرا﴾، إلا أنّه يشكل عليه تقديم الصفة المؤولة على الصفة الصريحة، ويجاب بأن ﴿مِّنَّا﴾ حينئذٍ ليس وصفاً، بل حال من ﴿وَٰحِدًا﴾ قدم عليه، أو حال من الهاء في ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾. وجملة ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، ﴿إِذًا﴾ حرف جواب وجزاء، مهمل لعدم الفعل بعدها، ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ جار ومجرور، خبر ﴿إِنّ﴾، ﴿وَسُعُرٍ﴾ معطوف على ضلال. وجملة ﴿إِنّ﴾ تعليلية مسوقة لتعليل النفي المفهوم من الاستفهام، لا محل لها من الإعراب.

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَءُلْقِىَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿ألقي﴾ فعل ماض، مغيّر الصيغة، ﴿عَلَيْهِ﴾

متعلق به، ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾ نائب فاعل، ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ جار ومجرور، حال من ضمير ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أي: منفرداً. وجملة الاستفهام في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾ ﴿بَلۡ﴾ حرف عطف وإضراب، ﴿هُوَ كَذَّابٌ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿أَشِرٞ﴾ صفة ﴿كَذَّابٌ﴾. والجملة الاسمية معطوفة على جملة الاستفهام على كونها مقولاً لـ ﴿قالوا﴾. ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾ السين حرف استقبال، ﴿يعلمون﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿غَدٗا﴾ ظرف زمان، منصوب، متعلق بـ ﴿يعلمون﴾، ﴿من﴾ اسم استفهام، في محل الرفع، مبتدأ، ﴿ٱلۡكَذَّابُ﴾ خبره، ﴿ٱلۡأَشِرُ﴾ صفة ﴿ٱلۡكَذَّابُ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب سدّت مسدّ مفعولي ﴿يعلمون﴾؛ لأنّه علق عنه باسم الاستفهام. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ خبره، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿فِتۡنَةٗ﴾ مفعول لأجله، منصوب بـ ﴿مُرۡسِلُواْ﴾ ﴿لَّهُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿فِتۡنَةٗ﴾، ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنا مرسلوا الناقة فتنة واختباراً لهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك ارتقبهم. ﴿ارتقب﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، يعود على صالح عليه السلام، والهاء: مفعول به. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة. ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿ارتقبهم﴾.

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾ الواو: عاطفة، ﴿نبئهم﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به أول. والجملة معطوفة على جملة ﴿ارتقبهم﴾. ﴿أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ﴾ ناصب واسمه وخبره. ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿قِسۡمَةُۢ﴾؛ لأنّه بمعنى مقسوم بينهم. وجملة ﴿أَنَّ﴾ وما في حيّزها في تأويل مصدر ساد مسد المفعول الثاني والثالث لـ ﴿نبّأ﴾. ﴿كُلُّ شِرۡبٖ﴾ مبتدأ، ﴿مُّحۡتَضَرٞ﴾ خبره. والجملة الاسمية في محل النصب، بدل من جملة ﴿أَنَّ﴾. ﴿فَنَادَوۡاْ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف، تقديره: فبقوا على ذلك مدّة، ثم ملوا من نضوب الماء، وتشاوروا في شأنها، واتفقوا على عقرها. ﴿نادوا﴾ فعل ماض، وفاعل، ﴿صَاحِبَهُمۡ﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ويصحّ كونها فصيحة. ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿تعاطى﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على

﴿صَاحِبَهُمْ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿نادوا﴾. ﴿فَعَقَرَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿عقر﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على صاحبهم، معطوف على ﴿تعاطى﴾. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ تقدم إعرابه قريباً. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿صَيْحَةً﴾ مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿وَاحِدَةً﴾ صفة ﴿صَيْحَةً﴾، ﴿فَكَانُوا۟﴾ الفاء: عاطفة، ﴿كانوا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف، خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾. وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ تقدم إعرابه، فجدد به عهداً.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ﴾ فعل وفاعل، ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ متعلق بـ ﴿كَذَّبَتْ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ خبره. والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان العذاب اللازم للتكذيب. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿حَاصِبًا﴾ مفعول به، ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء منقطع أو متصل، ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ مستثنى من ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل الاستثناء، ﴿بِسَحَرٍ﴾ متعلق بـ ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾، ﴿نِّعْمَةً﴾ مفعول مطلق معنوي ملاق لعامله في المعنى. وهو ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾. إذ التنجية نعمة، أو مفعول لأجله لـ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾. ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ صفة لـ ﴿نِّعْمَةً﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف، ﴿نَجْزِى﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به لـ ﴿نَجْزِى﴾، وجملة ﴿شَكَرَ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والتقدير: نجزي من شكر جزاء مثل الجزاء المذكور. والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿أَنذَرَهُم﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول أول، ﴿بَطْشَتَنَا﴾ مفعول ثان.

والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿فَتَمَارَوْاْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿تماروا﴾ فعل ماض، وفاعل، ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ متعلق بـ ﴿تماروا﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنذَرَهُم﴾. ﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿عَن ضَيْفِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَطَمَسْنَآ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿رَٰوَدُوهُ﴾، ﴿أَعْيُنَهُمْ﴾ مفعول به. ﴿فَذُوقُواْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿ذوقوا﴾ فعل أمر، وفاعل، ﴿عَذَابِى﴾ مفعول به، ﴿وَنُذُرِ﴾ معطوف على ﴿عَذَابِى﴾. والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف المعطوف على ﴿طمسنا﴾؛ أي: فطمسنا أعينهم فقلنا لهم: ذوقوا عذابي ونذري. ﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: عاطفة، واللام: موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿صَبَّحَهُم﴾ فعل ماض، ومفعول به ﴿بُكْرَةً﴾ ظرف، متعلق بصبحهم ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل، ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ صفة لـ ﴿عَذَابٌ﴾. والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على القسم السابق. وقوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ تقدم إعرابه قريباً فجدد به عهداً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾؛ أي: دنت، وقربت. ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة. والساعة: جزء من أجزاء الزمان، عبَّر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها، أو لأنّها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنّها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم، أو لغير ذلك. كما بين فيما سبق.

﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾؛ أي: انفصل بعضه من بعض، وصار فرقتين. ﴿وَإِن يَرَوْاْ﴾ أصله: يرئيوا بوزن يفعلوا، نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت تخفيفاً، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فاجتمع ساكنان فحذفت الألف لذلك. ﴿ءَايَةً﴾؛ أي: علامة دالة على نبوتك. ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾؛ أي: مطرد دائم، اسم فاعل من استمر السداسي. وأصله: مستَمْرِر بوزن مستفعل، نقلت حركة الراء الأولى إلى الميم فسكنت فأدغمت في الراء الثانية.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فيه إدغام فاء الكلمة في تاء الافتعال. ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ الهمزة فيه مبدلة من ياء لوقوعها متطرفة إثر ألف زائدة. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ جمع

نبأ. وهو خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنّ.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ مصدر ميمي من الزجر، إلا أنّ التاء أبدلت دالاً ليوافق الزاي بالجهر، ولك أن تعتبره اسم مكان؛ أي: مكان اتعاظ. واعلم: أن تاء الافتعال تقلب دالاً مع الدال، والذال، والزاي للتناسب في المخرج أو لتحصيل التناسب. فإنَّ التاء مهموسة، وهذه الحروف مجهورة. يعني: أصله مزتجر، لأنّه مفتعل من الزجر، قلبت التاء دالاً. لأنّ الزاي حرف مجهور، والتاء حرف مهموس، والذال تناسب الزاي في الجهر، وتناسب التاء في المخرج. يقال: زجره، وازدجره؛ أي: نهاه عن السوء، ووعظه غير أنّ افتعل أبلغ في المعنى من فعل. قال الراغب: الزجر: طرد بصوت، يقال: زجرته فانزجر. ثم يستعمل في الطرد تارةً، وفي الصوت تارةً. وقوله تعالى: ﴿مُزْدَجَرٌ﴾؛ أي: طرد، ومنع عن ارتكاب المأثم.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ وفي «القاموس»: الحكمة بالكسر: العدل، والعلم، والحلم. والنبوة، والقرآن، وفي «المفردات»: الحكمة: إصابة الحق بالعلم، والفعل. والحكمة من الله معرفة الأشياء أو إيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات، وفعل الخيرات.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ جمع نذير بمعنى المنذر، أو مصدر بمعنى الإنذار. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا تجادلهم، ولا تحاجّهم. ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾ تقدم في سورة الشورى أنّ ﴿الواو﴾ حذفت منه بغير داع، وفي نظائره: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾.

﴿شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ بضمتين وبسكون ثانيه، وكلاهما بمعنى المنكر؛ أي: منكر فظيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله. ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث محركة. وهو القبر. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ﴾ سمي جراداً لجرده الأرض من النبات، يقال: أرض مجرودة؛ أي: أكل ما عليها، حتى تجردت، كما في «المفردات».

﴿مُّهْطِعِينَ﴾ فيه إعلال بحذف همزة أفعل من الوصف؛ لأنّ أصله: مؤهطعين، يقال: هطع الرجل إذا أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه، وأهطع إذا مد عنقه، وصوب رأسه، وأهطع في عدوه إذا أسرع، كما في «الجوهري». والإهطاع: هو

الإسراع مع مد الأعناق، والتشوف بالأنظار بصورة دائمة لا تقلع عن التحديق. وهي صورة حية مجسدة للفزع المرتاع الذي يتطلع إلى ما يرتقبه من أهوال.

﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ فيه إعلال بإبدال تاء الافتعال دالاً لوقوعها بعد الزاي كما تقدم في ﴿مُزْدَجَرٌ﴾. ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ المنهمر: المنصب بشدة وغزارة. وفي «المختار»: وهمر الدمع، والماء صبه، وبابه نصر، وانهمر الماء إذا سال.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ والتفجير: تشقيق الأرض عن الماء. ﴿عُيُونًا﴾ جمع عين الماء. وهي ما يفور من الأرض مستديراً كاستدارة عين الحيوان. فالعين مشتركة بين عين الحيوان، وعين الماء، وعين الذهب، وعين السحاب، وعين الركية. ويقال للعين: ينبوع، والجمع ينابيع، والمنبع بفتح الميم والباء: مخرج الماء، والجمع منابع.

﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ جمع لوح. وهو كل صحيفة عريضة خشباً أو عظماً. وكانت سفينة نوح من شجر الساج. والساج في الأرميا «ودَّيْسُ». ﴿وَدُسُرٍ﴾ والدسر: المسامير التي تشدّ بها ألواح السفينة. واحدها دسار، ككتب وكتاب. ودسير، ودسرت السفينة أدسرها دسراً إذا شددتها. وفي «المختار»: الدسر: الدفع، وبابه نصر. ويمكن التوفيق بين القولين؛ لأنَّ المسمار يدفع في منفذه.

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: بحراستنا وحفظنا. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أي: متذكر متعظ. فيه إبدال تاء الافتعال دالاً، وإدغامها في الدال فاء الكلمة، فأصله: مذتكر بوزن مفتعل، أبدلت التاء دالاً، وأبدلت الذال دالاً، وأدغمت في الدال كما قال في «الخلاصة»:

طَا تَا ٱفْتِعَالٍ رُدَّ إِثْرَ مُطْبَقِ ... فِيْ ٱدَّانَ وَٱزْدَدْ وَٱدَّكِرْ دَالاً بَقِيْ

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ ونذر اسم مفرد، وهو مصدر؛ لأنه أجاز بعضهم مجيء المصدر على فعل بضمتين. وبعضهم قال: هو جمع نذير بمعنى إنذار. فهو مصدر مجموع، لا مفرد، ذكره في «الفتوحات».

﴿صَرْصَرًا﴾ الصرصر: الريح الشديدة الهبوب حتى يسمع صوتها، وهو مضاعف صر، يقال: صر الباب، والقلم إذا صوت. وتكرير الأحرف إشعار بتكرير العمل. مثله: كب وكبكب.

﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾ جمع عجز، وعجز الإنسان مؤخره، وبه شبه مؤخر غيره. ومنه: العجز؛ لأنّه يؤدي إلى تأخر الأمور. والنخل يذكر ويؤنث، وهو من أسماء الجنس الذي يفرق بينه وبين واحده بالتاء. واللفظ مفرد لكنه كثيراً ما يسمى جمعاً نظراً إلى المعنى الجنسي.

﴿مُّنقَعِرٍ﴾؛ أي: منقلع عن أصله؛ لأن قعر الشيء قراره. ومنه: تقعر فلان في كلامه إذا تعمق فيه. يقال: قعرت النخلة إذا قلعتها من أصلها، وانقعرت؛ أي: انقلعت. وفي «المفردت»: ﴿مُّنقَعِرٍ﴾؛ أي: ذاهب في قعر الأرض. وإنما أراد تعالى أن هؤلاء اجتثوا كما اجتثت النخل الذاهب في قعر الأرض، فلم يبق لهم رسم، ولا أثر. انتهى.

﴿وَسُعُرٍ﴾ يجوز أن يكون مفرداً؛ أي: جنون. يقال: ناقة مسعورة كالمجنونة في سيرها قال:

كَـأَنَّ بِـهَـا سُـعُـرَاً إِذَا ٱلْـعِـيْـسُ هَـزَّهَـا ... ذَمِـيْـلٌ وَإِرْخَـاءٌ مِـنَ الـسَّـيْـرِ مُـتْـعِـبُ

يقول: كأنَّ بناقتي جنوناً لقوة سيرها. فالعيس: جمع عيساء، كبيض جمع بيضاء. وهي النوق البيض، حركها ذميل وإرخاء. وهو ضربان من السير، متعب كل منهما. وإسناد الهز إليهما مجاز عقلي من باب الإسناد إلى السبب. ويجوز أن يكون جمع سعير بمعنى نار.

﴿ٱلۡأَشِرُ﴾ هو الشديد البطر والتكبّر. فهي صيغة مبالغة. وقيل: إنه صفة مشبهة، كحذر، ويقظ، ووطف، وعجز. وفي «المختار»: وأشر وبطر من باب طرب أو فرح.

﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ أصله: اصتبر بوزن افتعل، أبدلت تاء الافتعال طاء لوقوعها بعد حرف إطباق، وهو الصاد، كما دل عليه بيت ابن مالك الذي قدمنا قريباً.

﴿مُّحۡتَضَرٞ﴾؛ أي: يحضره صاحبه في نوبته. وهو اسم مفعول من احتضر بمعنى حضر. لأن الماء كان مقسوماً بينهم. واحتضر، وحضر بمعنى واحد. ﴿قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ﴾؛ أي: مقسوم بينهم، لها يوم، ولهم يوم. فالماء قسم من قبيل تسمية المفعول بالمصدر، كضرب الأمير. و﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾ لتغليب العقلاء.

﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾ أصله: ناديوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت

الألف لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة. ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فيه إعلال بالقلب. أصله: تعاطي بوزن تفاعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح؛ أي: فتناول السيف، وعقرها. ﴿فَعَقَرَ﴾ يقال: عقر البعير والفرس بالسيف فانعقر؛ أي: ضرب به قوائمه، وبابه ضرب.

﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ الهشم: كسر الشيء الرخو، كالنبات. والهشيم بمعنى المهشوم؛ أي: المكسور. وهو اليابس المتكسر من الشجر وغيره. والحظر: جمع الشيء في حظيرة. والمحظور: الممنوع. والمحتظر بكسر الظاء: اسم فاعل، وهو الذي يتخذ حظيرة من الحطب وغيره، والحظيرة: الزريبة، وفي «المختار»: الحظيرة التي تعمل للإبل من شجر لتقيها البرد والريح. والمحتظر بكسر الظاء الذي يعملها. والمعنى: صاروا كيبيس الشجر المتفتت إذ تفتت.

﴿حَاصِبًا﴾؛ أي: ريحاً حصبتهم؛ أي: رمتهم بالحجارة، والحصباء. قال الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِيْنَ شِمَالَ ٱلشَّامِ تَضْرِبُنَا   بِحَاصِبٍ كَنَدِيْفِ ٱلْقُطْنِ مَنْثُوْرِ

وفي «المختار»: الحصباء بالمد: الحصى. ومنه: المحصب. وهو موضع بالحجاز. والحاصب: الريح الشديدة تثير الحصى. والحصب بفتحتين: ما تحصب به النار؛ أي: ترمي. وكل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به، وبابه ضرب.

﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ سحر إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار. يقال: رأيت زيداً سحراً من الأسحار. ولو أريد من يوم معين لمنع من الصرف. لأنه معرفة معدول عن السحر، فمنع منه للتعريف والعدل. لأن حقه أن يستعمل في المعرفة بأل. وفي «المفردات»: السحر: اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار، وجعل اسماً لذلك الوقت، وهو آخر الليل، أو السدس الأخير.

فائدة: وقد اختلف في تعريف سحر الممنوع من الصرف، فقيل: إنه ممنوع من الصرف للتعريف والعدل، أما التعريف ففيه خلاف، فقيل: هو معرفة بالعلمية. لأنه جعل علما لهذا الوقت. وقيل: يشبه العلميّة؛ لأنه تعريف بغير أداة ظاهرة، كالعلم، وأما العدل فإن صيغته معدولة عن السحر المقرون بأل، لأنه لما أريد به معين كان الأصل فيه أن يذكر معرفاً بأل، فعدل عن اللفظ بأل، وقصد به التعريف، فمنع من الصرف. وقال السهيلي والشلوبين: الصغير معرف معروف. واختلف في

منع تنوينه. فقال السهيلي: هو على نية الإضافة. وقال الشلوبين: على نية أل.

﴿فَتَمَارَوْا﴾ أصله: تماريوا بوزن تفاعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ﴾ المراودة: أن تنازع غيرك في الإرادة، فترود غير ما يروده. ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ الطمس: المحو، واستئصال أثر الشيء.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المبالغة في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ لأنَّ فيه زيادة مبالغة على قرب، كما أن في اقتدر زيادة مبالغة على قدر؛ لأن أصل افتعل إعداد المعنى بالمبالغة، نحو اشتوى إذا اتخذ شواء بالمبالغة في إعداده.

ومنها: الإتيان بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الانشقاق في زمن النبي ﷺ. ويدل عليه قراءة حذيفة رضي الله عنه ﴿وقد انشق القمر﴾، كما مرّ.

ومنها: العدول عن المضارع إلى الماضي في قوله: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا﴾ بلفظ المستقبل مع أنَّ السياق يقتضي الإتيان بهما بلفظ المضارع لكونهما معطوفين على ﴿يُعْرِضُوا﴾ للإشعار بأنهما من عاداتهم القديمة.

ومنها: التشبيه المرسل المفصل في قوله: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ لأنَّ الأركان الأربعة موجودة فيه، فقد شبههم بالجراد في الكثرة، والتموج.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾.

ومنها: التلويح بقوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ بأنّ المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة من الشدّة، بل ذلك اليوم يوم يسير لهم، حيث أسند القول إلى الكفار فقط.

ومنها: التفصيل بقوله: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ بعد الإجمال في قوله ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.

ومنها: الإضافة إلى العظمة في قوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ تفخيماً لشأن نوح عليه السلام، وإشعاراً لرفعة منزلته، وزيادة تشنيع لمكذّبيه؛ فإن تكذيب عبد السلطان أشنع من تكذيب عبد غيره، وإشارة إلى أنه لا شيء أشرف من العبودية.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شبه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء، وانشق بها أديم الخضراء بطريق الاستعارة التمثيلية.

ومنها: إنابة الصفة مناب الموصوف في قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾ فإنه كناية عن موصوف محذوف، تقديره وحملناه على سفينة ذات ألواح ومسامير.

ومنها: تكرير قوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ حثًّا على تجديد الاتعاظ عند سماع كل نبأ.

ومنها: الاستفهام عن الحال في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦﴾ تعظيماً للعذاب والإنذارات، أي: كانا على كيفية هائلة، بحيث لا يحيط بها الوصف.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾. ومثله قوله: ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾؛ أي: في إفنائهم، وإهلاكهم.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؛ أي: كثير الكذب، عظيم البطر؛ لأنَّ فعالاً وفعلاً للمبالغة.

ومنها: إطلاق المصدر، وإرادة اسم المفعول في قوله: ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: مقسوم بينهم.

ومنها: تغليب العقلاء على غيرهم في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بينها، وبينهم.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾ ليكون الوعيد أحفل بالانتقام، والتهديد أشد أثراً في النفوس. وأورده مورد الإبهام، وإن كانوا هم المعنيين؛ لأنه أراد وقت الموت، ولم يرد غداً بعينه. وهو شائع في كلام العرب نثراً ونظماً.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله[1] سبحانه وتعالى لمّا ذكر قصص قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون، وفصّل ما أصيبوا به من عذاب الله الذي لا مرد له بسبب كفرهم بآياته، وتكذيبهم لرسله.. أعقب هذا بتنبيه كفار قريش إلى أنهم إن لم يتوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا عن غيهم، فستحل بهم سنتنا، ويحيق بهم من البلاء مثل ما حل بأضرابهم من المكذبين من قبلهم، ولا يجدون عنه محيصاً ولا مهرباً. ثم خاطبهم خطاب إنكار وتوبيخ، فقال لهم: علام تتكلون؟ وماذا تظنون أأنتم خير ممن سبقكم عدداً وكثرة مال وبطشاً وقوة؛ أم لديكم صك من ربكم بأنه لن يعذبكم مهما أشركتم واجترحتم من السيئات أم تظنون أنكم جمع كثير لا يمكن أن ينال بسوء، ولا تصل إلى أذاكم يد مهما أوتيت من القوة. كلا إن شيئاً من هذا ليس بكائن، وإنكم ستنهزمون، وتولون الأدبار في الدنيا، وسيحل بكم قضاء الله الذي لا مفر منه، وما سترونه في الآخرة أشد نكالاً، وأعظم وبالاً، فأفيقوا من غفلتكم، وأنيبوا إلى ربكم عسى أن يرحمكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر تكذيب الأمم الماضية

---

(١) المراغي.

لرسلها، كما كذبت قريش نبيها وأعقبه بذكر ما أصابهم في الدنيا من العذاب والهوان.. أردف ذلك بذكر ما سينالهم من النكال والوبال في الآخرة، فبين أنهم سيساقون على وجوههم إلى جهنم سوقاً إهانة، وتحقيراً لهم، ويقال لهم حينئذٍ توبيخاً وتعنيفاً: ذوقوا عذاب النار، وشديد حرها، ثم أعقبه ببيان أن كل شيء فهو بقضاء الله وقدره، وإذا أراد الله أمراً فإنما يقول له: كن، فيكون. ثم نبههم إلى ما كان يجب عليهم أن يتنبهوا له من هلاك أمثالهم من الأمم التي كذبت رسلها من قبله، وفعلت فعلها، فأخذها أخذ عزيز مقتدر.

ثم ختم السورة بذكر ما يتمتع به المتقون في جنات النعيم من إجلال وتعظيم، ويرون ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالوا يوم بدر: نحن جميع منتصر، فنزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧﴾ سبب نزولها: ما أخرجه مسلم، والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝٤١﴾ اكتفى بذكرهم عن ذكره، للعلم بأنّه أولى بالنذر، أي: وعزّتي وجلالي، لقد جاءهم الإنذارات التي أنذرهم بها موسى وهارون عليهما السلام. والمراد بها: الآيات التسع التي تقدم ذكرها. كأنه قيل: فماذا فعلوا حينئذٍ؟ فقال: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يعني: الآيات التسع. وهي اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وحلّ عقدة من لسانه،

---

(١) لباب النقول.

وانفلاق البحر، وانفجار الماء من الحجر.

﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ بالعذاب عند التكذيب ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يغالب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يعجزه شيء. والمراد: أنَّ الله سبحانه هو العزيز المقتدر، ولذا أخذهم بتكذيبهم، ولم يمنعه من ذلك مانع. والمراد بالعذاب: هو الإغراق في بحر القلزم أو النيل.

يقول الفقير: لعلَّ[1] سر الغرق أن فرعون وصل إلى موسى بسبب الماء الذي ساقه إليه في تابوته، فلم يشكر لا نعمة الماء ولا نعمة موسى، فانقلب الحال عليه بضد ذلك، حيث أهلكه الله وقومَه بالماء الذي هو سبب الحياة لغيرهم.

والاستفهام في قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ للإنكار، أي: هل كفاركم يا معشر العرب خير عند الله تعالى قوة، وشدة، وعُدَّة، وعِدَّة ﴿مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الكفار المعدودين قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وآل فرعون.

والمعنى: أنه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريتهم منكم فيما ذكر من الأمور، فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك، وأنتم شر منهم مكاناً، وأسوأ حالاً.

أي[2]: أكفّاركم يا معشر قريش خير من أولئكم الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح، وعاد، وثمود، فيأملوا أن ينجوا من عذابي، ونقمتي على كفرهم بي، وتكذيبهم رسولي.

وتلخيص المعنى: ما كفاركم خير ممن سبقهم. فهم ليسوا بأكثر منهم قوّةً، ولا أوفر عدداً، ولا ألين شكيمة في الكفر، والعصيان، والضلال، والطغيان.

وقد أصاب من هم خير منهم ما أصابهم، فكيف يطمعون في المهرب من مثل ذلك. فليتوبوا إلى رشدهم، وليرجعوا عن غيهم قبل أن يندموا ولات ساعة مندم.

ثم انتقل من توبيخهم الأوّل إلى توبيخ أشد منه، فقال: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ و﴿أم﴾ منقطعة بمعنى همزة الإنكار، وبل الإضرابية، فهو[3] إضراب وانتقال

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

من التبكيت بما ذكر إلى التبكيت بوجه آخر، أي: بل ألكم براءة، وأمن من عذاب الله بمقابلة كفركم، ومعاصيكم، نازلة في الكتب السماوية، فلذلك تصرون على ما أنتم عليه، وتأمنون بتلك البراءة.

والمعنى به: الإنكار. يعني: لم ينزل لكم في الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو في أمن من عذاب الله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ جهلاً منهم ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ تبكيت آخر. والالتفات فيه للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم، وإسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية قبائحهم لغيرهم. يقال: نصره من عدوه فانتصر؛ أي: منعه فامتنع؛ أي: بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن أولو حزم ورأي، أمرنا مجتمع لا نرام ولا نضام، أو منتصر من الأعداء منتقم منهم لا نغلب، أو متناصر ينصر بعضنا بعضاً على أن يكون افتعل بمعنى تفعل، كاختصم. والإفراد في ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ باعتبار لفظ الجميع. قال أبو جهل - وقد ركب يوم بدر فرساً كميتاً كان يعلفه كل يوم فرقاً من ذرةٍ، وقد حلف أنه يقتل محمداً ﷺ -: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه، فقتلوه يومئذٍ، وجر رأسه إلى رسول الله ابن مسعود رضي الله عنه.

والمعنى[1]: أي أم لكم صك بالبراءة من تبعات ما تجترحون من السيئات، وأن ربكم لن يعاقبكم على ما تدسون به أنفسكم من الشرور والآثام، فأنتم على هذا الصك تعتمدون، وبهذا الوعد آمنون، حقاً إنكم لتطمعون في غير مطمع، وليس بين أيديكم ولا قلامة ظفر من هذا، فعلام تتكلون، أو إلام تستندون؟.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: بل هم يقولون نحن واثقون بشوكتنا. فنحن قوم أمرنا مجتمع لا نرام ولا نضام، وإنا منصورون على من قصدنا بسوء، أو أراد حربنا وتفريق جمعنا.

وجماع القول: إنه تعالى سد عليهم المسالك، ونقض جميع المعاذير التي ربما تعللوا بها في عدم تصديقهم بالرسول، وفي كفرهم بآيات ربهم، فقال لهم: لم لا تخافون أن يحل بكم مثل ما حل بمن قبلكم؟ أأنتم أقل كفراً وعناداً منهم،

---

(١) المراغي.

فيكون ذلك سبب الأمن من حلول مثل عذابهم بكم، أم أعطاكم الله براءة من عذابه أم أنتم أعز منهم جنداً، فأنتم تنتصرون على جند الله؟.

ثم رد عليهم مقالهم، وأبان لهم أنهم يعشيون في بحر من الأوهام، وأن قضاء الله سيحل بهم، وسيهزمون ويولون الأدبار متى جاء قضاؤه، فقال: ﴿سَيُهْزَمُ﴾ ويفرق، ويشتت ﴿ٱلْجَمْعُ﴾؛ أي: جمع قريش. وهذا رد وإبطال لما سبق. والسين للتأكيد، أي: سيهزم جمع كفار مكة، أو جمع كفار العرب على العموم. ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾؛ أي: الأدبار. والتوحيد لإرادة الجنس، يعني: ينصرفون عن الحرب منهزمين، وينصر الله رسوله والمؤمنين، وقد كان كذلك يوم بدر.

والمعنى[1]: أي سيفرق شملهم، ويغلبون حين يلتقي جيشهم وجيش المؤمنين. وقد صدق وعده، فانهزموا، وولوا الأدبار يوم بدر. وكان هذا علماً من أعلام النبوة؛ فإن الآية نزلت بمكة، ولم يكن له ﷺ يومئذٍ جيش، بل كان أتباعه مشردين في الآفاق، يلاقون العذاب من المشركين في كل صوب.

قال سعيد بن المسيب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ كنت لا أدري أي جمع، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يلبس الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾، فعرفت تأويلها. وهذا من معجزاته ﷺ. لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين نزول هذه الآية وبين يوم بدر سبع سنين. فالآية على هذا مكيّة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بياء الغيبة التفاتاً، وكذا ما بعده للغائب، وقرأ أبو حيوة، وموسى الأسواري، وأبو البرهشيم بتاء الخطاب للكفّار إتباعاً لما تقدم من خطابهم، وقرأوا ﴿ستَهزِم الجمعَ﴾ بفتح التاء وكسر الزاي، وفتح العين خطاباً لرسول الله ﷺ.

وقرأ أبو حيوة أيضاً، ويعقوب بالنون مفتوحةً، وكسر الزاي وفتح العين.

وقرأ الجمهور ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ بالياء مبنياً للمفعول، وضمّ العين، وعن أبي

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

حيوة، وابن أبي عبلة أيضاً بفتح الياء مبنياً للفاعل، ونصب العين؛ أي: سيهزم الله الجمع، وقرأ الجمهور ﴿وَيُوَلُّونَ﴾ بياء الغيبة، وأبو حيوة، وداود بن أبي سالم عن أبي عمرو بتاء الخطاب. والدبر هنا اسم جنس، وجاء في موضع آخر ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾. وهو الأصل، وحسن اسم الجنس هنا كونه فاصلةً، قال الزمخشري: وقرىء ﴿ويولون الأدبار﴾ بالجمع.

ثم بين أن هذا عذاب الدنيا، وسيلاقون يوم القيامة ما هو أشد منه نكالاً، فقال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾؛ أي[1]: ليس هذا تمام عقوبتهم، بل القيامة موعد أصل عذابهم، وهذا من طلائعه. ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة إظهارها في موضع إضمارها لتربية تهويلها. ﴿أَدْهَىٰ﴾؛ أي: أعظم داهية، وفي أقصى غاية من الفظاعة. والداهية: الأمر الفظيع الذي لا يهتدى إلى الخلاص منه. ﴿وَأَمَرُّ﴾؛ أي: أشد مرارة، وفي أقصى نهاية من المرارة.

وحاصله: إن موقف القيامة أهول من موقف بدر، وعذابها أشد وأعظم من عذابه؛ لأن عذاب الدنيا مثل الأسر، والقتل، والهزيمة، ونحوها أنموذج من عذاب الآخرة. كما أن نارها جزء من سبعين جزأ من نارها.

والمعنى[2]: أي إن ما سيلاقونه من العذاب في الدنيا من الهزيمة، والقتل، والأسر هين إذا ما قيس على ما سيلاقونه من العذاب في الآخرة، فإن ذا أشد وآلم. فهو عذاب خالد دائم، وسيأتي بعد وصف ما فيه من فظاعة ونكر.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ النبي ﷺ قال وهو في قبّة له يوم بدر: «أنشدك عهدك، ووعدك، اللهم إن شئت لن تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، فخرج وهو يثب في الدرع، ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: إنّ المشركين من الأولين والآخرين ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ وخطأ عن الحق في الدنيا ﴿و﴾ في ﴿سعر﴾؛ أي: نيران مسعرة في الآخرة، جمع سعير.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أو في ضلال عن الحق، وجنون في الشرك.

والمعنى: أي إن المشركين بالله المكذبين لرسله في ضلال عن الصراط المستقيم، وعماية عن الهدى في الدنيا، وعذاب أليم في نار جهنم يوم القيامة.

ثم بين ما يلحقهم من الإهانة، والإذلال حينئذٍ، فقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ والظرف[1] منصوب إما بما يفهم من قوله ﴿في ضلال﴾؛ أي: كائنون في ضلال وسعر يوم يجرّون ﴿فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾. وإما بقول مقدر بعده؛ أي: يوم يسحبون يقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾؛ أي: قاسوا حر سقر، وشدة ألمها، فإن مسها سبب للتألم بها، فمس سقر مجاز عن ألمها بعلاقة السببية، وفي «القاموس»: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾؛ أي: أوّل ما ينالكم منها، كقولك: وجد مسَّ الحمى؛ أي: ألمها، وحرارتها، انتهى. وسقر علم لجهنم، ولذلك لم يصرف. وقيل: اسم لطبقتها الخامسة. والمس كاللمس: إدراك الشيء بظاهر البشرة كما سيأتي.

وقرأ محبوب عن أبي عمرو[2]: ﴿مسقر﴾ بإدغام سين ﴿مس﴾ في سين ﴿سقر﴾. قال ابن مجاهد إدغامه خطأ. لأنه مشدد، انتهى. والظن بأبي عمرو أنه لم يدغم حتى حذف إحدى السينين لاجتماع الأمثال، ثم أدغم.

والمعنى[3]: أي يعذبون، ويهانون يوم يجرون على وجوههم في النار. ويقال لهم إيلاماً، وتضيفاً: ذوقوا حر النار، وآلامها جزاء وفاقاً لتكذيبكم رسل ربكم في كل ما جاؤوا به من الإنذار بهذا اليوم، والتحذير مما يقع فيه للكافرين من العذاب، والتبشير بما للمتقين فيه من ثواب.

ثم بين أن كل ما يوجد في هذه الحياة.. فهو لا يحدث اتفاقاً، وإنما يحصل بقضاء الله سبحانه وقدره. فقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء. وهو منصوب بفعل مقدر يفسره ما بعده. ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ حال كون ذلك الشيء متلبساً ﴿بِقَدَرٍ﴾ متعين، اقتضته الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين. فقدر بمعنى التقدير[4].

وهو تسوية صورته، وشكله، وصفاته الظاهرة والباطنة على مقدار مخصوص

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

اقتضته الحكمة، وترتبت عليه المنفعة المنوطة بخلقه. أو خلقناه مقدرا مكتوباً في اللوح قبل وقوعه، لا يغير ولا يبدل.

والمعنى: أنَّ كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه متلبساً بقدر قدره أزلاً، وقضاءٍ قضاه سبق في علمه، مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه فيما لا يزال. والقدر: التقدير الأزلي. والقضاء إيجاده فيما لا يزال على وقف القدر السابق أزلاً. فالمراد بالقدر: تقديره في علمه الأزليّ، وكتبه في اللوح المحفوظ، وهو القدر المستعمل في جنب القضاء. وقيل: القضاء: وجود جميع المخلوقات في اللوح المحفوظ مجتمعة. والقدر: وجودها متفرقة في الأعيان بعد وجود شرائطها، ولذا عبّر بالخلق؛ فإنه إنما يتعلق بالوجود الظاهري في الوقت المعيّن. وقيل: هما مترادفان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بالنصب على الاشتغال. وقرأ أبو السمال، وقال ابن عطية، وقوم من أهل السنة بالرفع.

قال النواويّ رحمه الله تعالى: اعلم أنَّ مذهب أهل الحق إثبات القدر. ومعناه: أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه، وعلى صفات مخصوصة. فهي تقع على حسب ما قدرها تعالى أزلاً. وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه سبحانه وتعالى لم يقدرها، ولم يتقدم علمه بها، وأنها مستأنفة العلم؛ أي: إنما يعلمها سبحانه وتعالى بعد وقوعها. وكذبوا على الله سبحانه وتعالى عن أقوالهم الباطلة علواً كبيراً، انتهى.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾ لشيء نريد تكوينه. والمراد بالأمر هنا: ضد النهي بدليل ذكر متعلقه بقولنا: ﴿شَيْءٍ﴾. والشيء هو المأمور به بأن يوجد أو يعدم. ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾؛ أي:[2] كلمة واحدة لا تثنى سريعة التكوين. وهو قوله تعالى: ﴿كُن﴾، أو إلا فعلة واحدة. وهو الإيجاد بلا معالجة ومعاناة ﴿كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ في اليسر، والسرعة. فإن اللمح: النظر بالعجلة، فمعنى ﴿كَلَمْحٍ﴾: كنظر سريع. قال في «القاموس»: لمح إليه كمنع اختلس النظر كألمح. وفي «المفردات»: اللمح: لمعان البرق، ورأيته لمحة برق.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

قال ابن الشيخ: لما اشتملت الآيات السابقة على وعيد كفار أهل مكة بالإهلاك عاجلاً وآجلاً، والوعد للمؤمنين بالانتصار منهم جيء بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ تأكيداً للوعيد والوعد. يعني: أنّ هذا الوعيد والوعد حق وصدق، والموعود مثبت في اللوح المحفوظ مقدر عند الله تعالى، لا يزيد، ولا ينقص، وذلك على الله يسير؛ لأن قضاءه في خلقه أسرع من لمح البصر.

وقيل معنى الآية: أي معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾؛ أي: وما أمر الساعة إلا كلمح البصر.

والمعنى: أي إنا إذا أردنا أمراً قلنا له: كن، فإذا هو كائن. ولا يحتاج إلى تأكيد الأمر بثانية، ولا ثالثة. ولله در القائل:

إِذَا أَرَادَ ٱللهُ أَمْــراً فَــإِنَّمَــا ... يَقُوْلُ لَهُ قَوْلَ «كُنْ» فَيَكُوْنُ

وهذا[1]: تمثيل لسرعة نفاذ المشيئة في إيجاد الخلق. فهي في السرعة كلمح البصر، لا إبطاء ولا تأخير.

ثم أنبهم على ما هم فيه من غفلة وعماية عن الحق بعد وضوحه، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ﴾ وأفنينا، واستأصلنا ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ وأشباهكم، ونظراءكم في الكفر بي، والتكذيب لرسلي ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ومتعظ يتعظ بذلك، فيخاف العقوبة، وأن يحل به مثل ما حل بهم. والأشياع: جمع شيعة، وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره، كما سيأتي.

والمعنى: أي وعزتي وجلالي.. لقد أهلكنا، وأفنينا، واستأصلنا أشباهكم ونظراءكم يا معشر قريش من المكذبين لأنبيائهم من الأمم الخالية، المتتابعة في مذهب ودين، واستأصلنا شأفتهم بحسب سنتنا في أمثالهم بشتى العقوبات، ومختلف الوسائل ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾. أفما كان لكم في ذلك مزدجر تعتبرون به، فتنيبوا إلى ربكم وتسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون، ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

---

(١) روح البيان.

ثم بين لهم أن كل أعمالهم محصاة عليهم، وسيحاسبون على النقير والقطمير فقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ من الكفر، والمعاصي، مكتوب على التفصيل ﴿فِي الزُّبُرِ﴾؛ أي: في ديوان الحفظة. جمع زبور بمعنى الكتاب. فهو بمعنى مزبور، كالكتاب بمعنى المكتوب. أو في اللوح المحفوظ عبر عنه بالجمع تفخيماً لشأنه؛ أي: جميع ما فعلته الأمم من خير أو شر مكتوب في اللوح المحفوظ، أو في كتب الحفظة.

وقال الغزالي رحمه الله تعالى: كل شيء فعلته الأمم في كتب أنبيائهم المنزلة عليهم، كأفعال كفار زماننا في كتابنا، انتهى.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ وحقير، وجليل من الأعمال ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾؛ أي: مسطور في اللوح المحفوظ بتفاصيله؛ أي: وكل شيء من أعمال الخلق أقوالهم وأفعالهم مكتوب في اللوح المحفوظ صغيره، وكبيره، جليله، وحقيره.

والمعنى: أي وكل شيء يفعلونه، فيدسون به أنفسهم من الكفر والمعاصي ويدنسونها به من الأرجاس والآثام، فهو مقيد لدى الكرام الكاتبين، كما قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾. فما من صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مسطورة في دواوينهم، وصحائف أعمالهم. فليحذروا ما هم عليه قادمون من الحساب العسير على الجليل والحقير ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً». وقد قيل:

لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيْرَا ... إِنَّ الصَّغِيْرَ غَداً يَعُودُ كَبِيْرَا
إِنَّ الصَّغِيْرَ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... عِنْدَ الإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيْرَا
فَاسْأَلْ هِدَايَتَكَ الإِلَهَ فَتَتَّئِدْ ... فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيَاً وَنَصِيْرَا

ولقد أحسن من قال:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيْرَهَا ... وَكَبِيْرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى

لاَ تَــحْــقِــرَنَّ صَــغِــيْــرَةً   إنَّ ٱلْـجِـبَـالَ مِـنَ ٱلْـحَـصَـىٰ

وقرأ الأعمش[١]، وعمران بن حدير، وعصمة عن أبي بكر بشد راء ﴿مستطرٌّ﴾.

قال صاحب «اللوامح»: يجوز أن يكون من طر النبات والشارب إذا ظهر ونبت بمعنى كل شيء ظاهر في اللوح المحفوظ، مثبت فيه. ويجوز أن يكون من الاستطار، لكن شدد الراء للوقف على لغة من يقول: جعفر، وتفعل بالتشيد وقفاً، انتهى. ووزنه على التوجيه الأول استفعل، وعلى الثاني افتعل.

وبعد أن ألمع إلى ما يصيب الكافرين من الإهانة في ذلك اليوم، أردفه بما يناله المتقون من الكرامة عند ربهم، وما يحفظون به من الشرف والزلفى بحسب سنة القرآن من ذكر الثواب إثر العقاب، والعكس بالعكس. فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: من الكفر، والمعاصي ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين عظيمة الشأن بحيث لا يوصف نعيمها، وما أعد فيها لأهلها. ﴿وَنَهَرٍ﴾؛ أي: أنهار كذلك. يعني: أنهار الماء، واللبن، والخمر، والعسل. والإفراد للأفراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿وَنَهَرٍ﴾ على الإفراد، والهاء مفتوحة. والأعرج، ومجاهد، وحميد، وأبو السمال، والفياض بن غزوان بسكونها. والمراد به: الجنس إن أريد الأنهار، أو يكون معنى ﴿وَنَهَرٍ﴾، أي: وسعة في الأرزاق والمنازل. وقرأ[٣] زهير العرقبي، والأعمش، وأبو نهيك، وأبو مجلز، واليماني بضم النون والهاء، جمع نهر، كرهن ورهن، أو نهر كأسد وأسد. وهو المناسب لجمع جنات. وقيل: نهر جمع نهار. ولا ليل في الجنة وهو بعيد.

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ خبر بعد خبر. وهو[٤] من إضافة الموصوف إلى الصفة، كمسجد الجامع. والصدق بمعنى الجودة؛ أي: في مكان مرضي، ومجلس حقٍّ سالم من اللغو والتأثيم. بخلاف مجالس الدنيا، فقل أن تسلم من ذلك. حال

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

كونهم ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ والمراد من العندية: قرب المنزلة والمكان، لا قرب المكان والمسافة. والمليك أبلغ من المالك. والتنكير فيه للتعظيم.

والمعنى: حال كونهم مقربين عند عزيز الملك واسعه لا يقادر قدر ملكه، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته، فأي منزلة أكرم من تلك، وأجمع للغبطة كلها، والسعادة بأسرها، وقرأ الجمهور ﴿فِي مَقْعَدِ﴾ بالإفراد، يراد به: اسم الجنس، وقرأ عثمان البتي ﴿في مقاعد﴾ على الجمع. ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾؛ أي: قادر لا يعجزه شيء، عال أمره في الاقتدار.

والمعنى[1]: أي إن الذين اتقوا عقاب ربهم، فأطاعوه، وأدوا فرائضه، واجتنبوا معاصيه، وأخلصوا له العمل في السر والعلن، يثبهم بما عملوا جنات تجري من تحتها الأنهار، يحلون فيها من أساور من ذهب، ويجلسون على فرش بطائنها من إستبرق، ويجدون فيها من النعيم ما لا يخطر على قلب بشر كفاء ما بذلوا من الصبر على شاق الطاعات، وحرموا منه أنفسهم من اللذات. كما قيل للربيع بن خيثم، وقد صلى حتى ورمت قدماه، وتهجد حتى غارت عيناه: أتعبت نفسك، فقال: راحتها أطلب. كما ينالون الزلفى عند ربهم القادر على جزائهم بإحسانه وجوده ومنته، فكل شيء تحت قبضته وسلطانه، لا يمانع، ولا يغالب. وهو العزيز الحكيم.

اللهم احشرنا في زمرتهم، واجعلنا ممن يسمعون القول، فيتبعون أحسنه. إنّك أنت السميع المجيب ذو الطول العظيم.

الإعراب

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿جَآءَ﴾ فعل ماض، ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ مفعول به، ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ فاعل. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم مستأنفة. ﴿كَذَّبُوا﴾ فعل، وفاعل، ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿كَذَّبُوا﴾، ﴿كُلِّهَا﴾ توكيد لـ

(١) المراغي.

﴿أياتنا﴾، مجرور، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانيّاً واقعاً في جواب سؤال مقدر نشأ من حكاية مجيء النذر، كأنّه قيل: فماذا فعلوا حينئذٍ؟ فقيل: كذّبوا بآياتنا. ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾. ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿أخذناهم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ مفعول مطلق، ﴿عَزِيزٍ﴾ مضاف إليه. وهو من إضافة مصدر إلى فاعله. ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ صفة ﴿عَزِيزٍ﴾.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، ﴿كفاركم﴾ مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى همزة الإنكار، وبل الإضرابية، ﴿لَكُم﴾ خبر مقدم، ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ صفة لـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾. والجملة جملة إضرابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَمْ﴾ منقطعة أيضاً بمعنى همزة الإنكار، وبل الإضرابية، ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة إضرابية. ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ ﴿جَمِيعٌ﴾ خبره، ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ صفة ﴿جَمِيعٌ﴾. لأنّه بمعنى جميع. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ليقولون. ﴿سَيُهْزَمُ﴾ السين حرف استقبال، ﴿يهزم﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة، ﴿ٱلْجَمْعُ﴾ نائب فاعل. والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿وَيُوَلُّونَ﴾ فعل، ونائب فاعل، معطوف على ﴿يهزم﴾، ﴿ٱلدُّبُرَ﴾ مفعول به. ولم يقل: الأدبار، لموافقة رؤوس الآي، ولأنّه اسم جنس، كما مر. ﴿بَلِ﴾ حرف ابتداء وإضراب، ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ مبتدأ، ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ خبره. والجملة إضرابية. ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ الواو: عاطفة، ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ مبتدأ، ﴿أَدْهَىٰ﴾ خبر، ﴿وَأَمَرُّ﴾ معطوف على أدهى. والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ولك أن تجعل ﴿الواو﴾ للحال. ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ خبره، ﴿وَسُعُرٍ﴾ معطوف على ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بقول محذوف، تقديره: يقال لهم: يوم يسحبون. ﴿يُسْحَبُونَ﴾ فعل مضارع، ونائب فاعل ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾، متعلق بـ﴿يُسْحَبُونَ﴾،

وجملة ﴿يُسْحَبُونَ﴾ في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ جار ومجرور، حال من واو ﴿يُسْحَبُونَ﴾. ﴿ذُوقُوا۟﴾ فعل أمر، مبنيّ على حذف النون، والواو: فاعل، ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ مفعول به، ﴿سَقَرَ﴾ مضاف إليه، مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث المعنوي. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول للقول المقدر. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ منصوب على الاشغال بفعل محذوف وجوباً، يفسّره المذكور، تقديره: إنّا أوجدنا كل شيء، وجملة الفعل المحذوف في محل الرفع خبر ﴿إِنَّا﴾. وجملة ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ مفسرة، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿بِقَدَرٍ﴾ متعلق بمحذوف حال من ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ أي: حالة كونه مقدّراً محكماً مرتباً. ﴿وَمَآ﴾ الواو: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿أَمْرُنَآ﴾ مبتدأ، ﴿إلا﴾ أداة حصر ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ خبر أمرنا. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إِنَّا﴾. ﴿كَلَمْحٍ﴾ حال من متعلق الأمر. وهو الشيء المأمور بالوجود، أي: حال كونه يوجد سريعاً، و﴿بِٱلْبَصَرِ﴾ متعلق بـ ﴿لمح﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿فَهَلْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿هل﴾ حرف استفهام، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: موجود. والجملة معطوفة على جواب القسم قبلها. ﴿وَكُلُّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿كلُّ شيءٍ﴾ مبتدأ ومضاف إليه، وجملة ﴿فَعَلُوهُ﴾ صفة لـ ﴿شَىْءٍ﴾، ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ خبر. والجملة الاسمية معطوفة على جملة جواب القسم. ﴿وَكُلُّ﴾ الواو: عاطفة، ﴿كُلُّ﴾ مبتدأ، ﴿صَغِيرٍ﴾ مضاف إليه، ﴿وَكَبِيرٍ﴾ معطوف على ﴿صَغِيرٍ﴾، ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ خبر المبتدأ. والجملة معطوفة على جواب القسم. ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَنَهَرٍ﴾ معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، بدل من قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ بدل بعض من كل، لأنّ المقعد بعض الجنات. ولك أن تجعله خبراً ثانياً لـ ﴿إِنَّ﴾. ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ ظرف متعلق بمحذوف،

صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أو لـ ﴿مَقْعَدِ﴾، وقيل: هو خبر ثان أو ثالث لـ ﴿إِنَّ﴾، ﴿مُّقْتَدِرِۭ﴾ صفة لـ ﴿مَلِيكٍ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ النذر بمعنى الإنذار، أو جمع نذير باعتبار الآيات التسع، فإنَّ كل واحدة منها نذير؛ أي: إنذار على حدة، اهـ كرخي.

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ مصدر مضاف إلى فاعله؛ أي: أخذ غالب لا يغالب، ولا يغلب. ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾؛ أي: لا يعجزه شيء. ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أصله: يوليون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت للتخفيف، فالتقى ساكنان فحذفت الياء وضمت اللام لمناسبة الواو. ﴿بَرَآءَةٌ﴾؛ أي: صك مكتوب بالنجاة من العذاب. ﴿في الزبر﴾ أي: في الكتب السماوية. جمع زبور بمعنى مزبور؛ أي: مكتوب. ﴿جميع منتصر﴾ اسم فاعل من انتصر الخماسي، يقال: نصره من عدوه فانتصر؛ أي: منعه فامتنع.

﴿ٱلدُّبُرَ﴾؛ أي: الأدبار. والدبر هنا اسم جنس. لأن كل واحد يولي دبره. وحسن إفراده كونه فاصلة. ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ أفعل التفضيل من الداهية. وفيه إعلال بالقلب، أصله: أدهى بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَأَمَرُّ﴾؛ أي: أشد مرارة، أصله: أَمْرَر بوزن أفعل، نقلت حركة الراء الأولى إلى الميم فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. وهو أفعل التفضيل أيضاً من المرارة، أي: أشد مرارة في الذوق. والمراد: الشدة والهول.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المراد بهم: المشركون، كما جاء في قوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾. من الإجرام بمعنى القطع. ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ في الدنيا عن الحق. ﴿وَسُعُرٍ﴾؛ أي: نيران في الآخرة، جمع سعير بمعنى نار مسعرة؛ أي: موقدة. ﴿يُسْحَبُونَ﴾ يجرون. ﴿مَسَّ﴾ مسها حرها. ﴿سَقَرَ﴾ علم لجهنم، مشتق من سقرته الشمس أو النار، أي: لوحته أي: غيرته، ويقال: صقرته بالصاد، وهي مبدلة من السين. وهي غير منصرف للعلمية والتأنيث. والمس كاللمس. وهو إدراك الشيء بظاهر البشرة، كما مر.

﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ واللمح: النظر بالعجلة. وفي «المصباح»: لمحه إذا أبصره بنظر خفيف، أي: فكما أن لمح أحدكم ببصره لا كلفة عليه فيه، فكذلك الأفعال

كلها عندنا، بل أيسر، اهـ خطيب. وفي «القاموس»: لمح إليه كمنع اختلس النظر كألمح. وفي «المفردات»: اللمح: لمعان البرق، ورأيته لمحة برق، اهـ.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ جمع شيعة. وهم من يتقوى بهم الإنسان من الأتباع. وفي «القاموس»: شيعة الرجل بالكسر أتباعه، وأنصاره، والفرقة على حدة، ويقع على الواحد، والاثنين، والجمع، والمذكر، والمؤنث. ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ اسم مفعول من استطره إذا كتبه، كما في «القاموس». ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ هو من إضافة الموصوف إلى صفته، كمسجد الجامع، وصلاة الوسطى؛ أي: مكان مرضيٌّ.

﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ صيغة مبالغة من ملك الثلاثي؛ أي: عزيز الملك واسعه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم، وإسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية قبائحهم لغيرهم.

ومنها: الإفراد في قوله: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ حيث لم يقل: منصورون لرعاية الفاصلة.

ومنها: الإفراد في قوله: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ حيث لم يقل: الأدبار لإرادة الجنس. لأنَّ كل واحد يولي دبره. وحسن إفراده كونه فاصلةً، وقد جاء مجموعاً في قوله: ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ لتربية تهويلها، وزيادة تخويفها.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَأَمَرُّ﴾ لأنه استعارة لصعوبة الشيء على النفس.

ومنها: المقابلة بين المجرمين والمتقين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ لأنه مجاز عن حرارتها وألمها بعلاقة السببية، والظاهر من تقرير الكشاف: أنه من الاستعارة بالكناية، اهـ كرخي.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ حذف منه وجه الشبه. فهو مجمل.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾.

ومنها: الإفراد في قوله: ﴿وَنَهَرٍ﴾ للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل، وكان مقتضى السياق أن يقال وأنهار لمناسبة جنات.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ لأنه كناية عن تقريب المكانة والرتبة؛ أي: مقربين عند من تعالى أمره في الملك والاقتدار.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مَلِيكٍ﴾ للتعظيم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على الموضوعات التالية:

١ ـ الإخبار بقرب مجيء الساعة.

٢ ـ تكذيب المشركين للرسول، وقولهم في معجزاته: إنها سحر مفترى.

٣ ـ غفلتهم عمّا في القرآن من الزواجر.

٤ ـ أمر الرسول ﷺ بالإعراض عنهم، حتى يأتي قضاء الله فيهم.

٥ ـ إنذارهم بأنهم سيحشرون أذلاء ناكسي الرؤوس مسرعين كأنهم جراد منتشر.

٦ ـ قصص المكذّبين من سالفي الأمم: كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم فرعون، وما لا قوه من الجزاء على تكذيبهم.

٧ ـ توبيخ المشركين على ما هم فيه من الغفلة عن الاعتبار بهذه النذر.

٨ ـ ما يلاقونه من الجزاء في الآخرة إهانة وتحقيراً لهم.

٩ ـ بيان أن كل ما في الوجود فهو بقضاء الله، وقدره.

١٠ ـ نفاذ مشيئة الله، وسلطانه في الكون.

١١ ـ بيان أن كل أعمال المرء في كتاب الله، قد خطّه الكرام الكاتبون.

١٢ ـ ما أوتيه المتقون من الكرامة عند ربهم، وما لهم من الزلفى لديه[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) قد فرغت من تسويد هذه السورة في الليلة الثالثة من رجب الفرد في أواخر الساعة الرابعة ليلة الإثنين من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة ٣/ ٧/ ١٤١٥ هـ في مكة المكرمة في المسفلة من الهجرة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيّات.

سورة الرحمن

سورة الرحمن، وتسمى عروس القرآن، مكية، نزلت بعد سورة الرعد. قال القرطبيّ: كلها مكية في قول الحسن، وعروة بن الزبير، وعكرمة، وعطاء، وجابر. قال: قال ابن عباس: مكية إلا آيةً منها، وهي قوله: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية. وقال ابن مسعود، ومقاتل: هي مدنية كلها. والأول[1] أصح. ويدل عليه ما أخرجه النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرحمن بمكة.

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: أنزل بمكة سورة الرحمن، ويؤيّد القول الثاني ما أخرجه ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرحمن بالمدينة. ويمكن الجمع بين القولين بأنّه نزل بعضها بمكة، وبعضها بالمدينة.

وآيها ست أو سبع أو ثمان وسبعون آية، **وكلماتها** ثلاث مئة وإحدى وخمسون كلمة، **وحروفها** ألف وست مئة وستة وثلاثون حرفاً. وسميت سورة الرحمن لابتدائها بلفظ الرحمن.

مناسبة هذه السورة لما قبلها من أوجه[2]:

١ ـ أن فيها تفصيل أحوال المجرمين، والمتقين التي أشير إليها في السورة السابقة إجمالاً في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾.

٢ ـ أنّه عدد في السورة ما نزل بالأمم التي قد خلت من ضروب النقم، وبين عقب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لتذكر الناس، وإيقاظهم، ثم نعى عليهم إعراضهم. وهنا عدد ما أفاض الله على عباده من ضروب النعم الدينية والدنيوية في

---

(١) الشوكاني.　　(٢) المراغي.

الأنفس والآفاق، وأنكر عليهم إثر كل منها إخلالهم بموجب شكرها.

٣ ـ أن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ كأنه جواب سائل يقول: ماذا صنع المليك المقتدر؟ وما أفاد برحمته أهل الأرض؟.

وعبارة أبي حيّان: مناسبة هذه لما قبلها[1]: أنه تعالى لما ذكر مقر المتقين في جنات ونهر عند مليك مقتدر ذكر شيئاً من آيات الملك، وآثار القدرة. ثم ذكر مقر الفريقين على جهة الإسهاب. إذ كان في آخر السورة ذكره على جهة الاختصار والإيجاز.

ولما ذكر قوله: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ فأبرز هاتين الصفتين بصورة التنكير، فكأنه قيل: من المتصف بذلك فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ فذكر ما نشأ من صفة الرحمة. وهو تعليم القرآن الذي هو شفاء للقلوب، انتهى. قال محمد بن حزم رحمه الله تعالى: جميع هذه السورة محكم، لا ناسخ ولا منسوخ فيها.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه البيهقي في «الشعب» عن عليّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن الرحمن».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا
تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ
مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ
مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ
(٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ
اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(٣٦) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ
عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ
بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ
بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾.

المناسبة

مناسبة أوّل هذه السورة لأوّل ما تقدم كما مرّ: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر في آخر السابقة المليك المقتدر بيّن[1] هنا ما صنعه المليك المقتدر من النعم لعباده رحمةً بهم، فأفاد:

١ ـ أنه علم القرآن، وأحكام الشرائع لهداية الخلق، وإتمام سعادتهم في

(١) المراغي.

معاشهم ومعادهم.

٢ ـ أنه خلق الإنسان على أحسن تقويم، وكمله بالعقل والمعرفة.

٣ ـ أنه علم النطق، وإفهام غيره، ولا يتم هذا إلا بنفس وعقل.

٤ ـ أنه سخَّر له الشمس والقمر والنجوم على نظام بديع، ووضع أنيق لحاجته إليها في دنياه ودينه.

٥ ـ أنه سخر النجم والشجر ليقتات منهما.

٦ ـ أنه رفع السماء، وأقامها بالحكمة والنظام.

٧ ـ أنه أوجد الأرض وما فيها من نخل، وفاكهة، وحبّ ذي عصف وريحان.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا عدد كثيراً من النعم، وكان بعضها يحتاج إلى زيادة إيضاح وبيان كخلق الإنسان، وحساب الشمس والقمر، وأسباب نمو الزرع والشجر.. فصل أحوالها على الترتيب السابق.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما[1] ذكر النعم التي أنعم بها على عباده في البر والبحر، وفي السماء والأرض.. أردف ذلك ببيان أنَّ هذه النعم تفنى، ولا تبقى، فكل شيء يفنى إلا ذاته تعالى، وكل من في الوجود مفتقر إليه. فهو المدبر أمره والمتصرف فيه. فهو يحيي قوماً ويميت آخرين، ويرفع قوماً، ويخفض آخرين.

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما عدد نعماءه على عباده في البر والبحر، وفي الأرض والسماء ليشكروه على ما أنعم، ويعبدوه وحده على ما أعطى وتمم، وذكر أنهم مفتقرون إليه تعالى آناء الليل وأطراف النهار، ثم أرشد إلى أن هذه النعم لا تدوم، بل هي إلى زوال، فكل ما على وجه الأرض سيفنى، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات.. نبههم إلى أنه في يوم القيامة سيلقى كل عامل جزاء ما عمل، وثواب ما اكتسب، ولا مهرب حينئذٍ من العقاب، ولا سبيل إلى الامتناع منه، وسيكون جزاء المشركين به العاصين لأوامره ناراً تلظى، لا يصلاها إلا الأشقى الذي كفر بربه، وكذب

---

(١) المراغي.

برسله. فاستعدوا لهذا اليوم قبل أن تندموا ولات ساعة مندم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما عدد نعماءه على عباده[1]، وما يجب من شكرهم عليها، ثم أرشدهم إلى أن هذه النعم لا بقاء لها، ولا ثبات، ثم ذكر أن الناس محاسبون على الصغير والكبير من أعمالهم، وسيلقون الجزاء عليها، ولا مهرب حينئذٍ منها، ولا نصير لهم ينقذهم مما سيحل بهم من العذاب.. ذكر هنا أنه إذا جاء ذلك اليوم اختل نظام العالم، فتتصدع السموات، ويحمر لونها، وتصير مذابة غير متماسكة، كالزيت ونحوه مما يدهن به، ويكون للمجرمين حينئذٍ علامات يمتازون بها عن سواهم، فيتعرفهم الرائي لهم دون حاجة إلى سؤال نكالاً وخزياً لهم، ثم يجرون إلى جهنم من نواصيهم وأرجلهم، ويقال لهم توبيخاً وتقريعاً: هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها، وينتقل بهم من جهنم إلى ماء حار كالمهل يشوي الوجوه، ومن عذاب إلى ما هو أشد منه.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة فيما قال مقاتل[2]: أنه لما نزل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية، قالوا: ما نعرف الرحمن. فنزلت: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

وقيل: لما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ أكذبهم الله تعالى، وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

التفسير وأوجه القراءة

ولمّا[3] كانت هذه السورة الكاملة شاملة لتعداد النعم الدنيوية والأخروية، والجسمانية والروحانية.. طرزها بطراز اسم الرحمن الذي هو اسم الذات المشتمل على جميع الأسماء والصفات ليسند إليه النعم المختلفة بعده، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١﴾ مرفوع على أنه مبتدأ، وما بعده من الأفعال مع ضمائرها أخبار له. وإخلاؤها عن العاطف لمجيئها على نمط التعداد، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي:

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

المليك المقتدر هو الرحمن سبحانه وتعالى. قال الغزالي رحمه الله تعالى: الرحمن هو العطوف على العباد بالإيجاد أوّلاً، وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة ثانياً، وبالإسعاد في الآخرة ثالثاً، والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعاً، انتهى.

ولمّا[1] كان القرآن أعظم النعم شأناً لأنه مدار جميع السعادات، ولذا قال ﷺ: «أشراف أمتي حملة القرآن»؛ أي: ملازمو قراءته، وأصحاب الليل، وقال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وفيه جميع حقائق الكتب السماوية. وكان تعليمه من آثار الرحمة الواسعة، وأحكامها بدأ به. فقال: ﴿عَلَّمَ﴾ محمداً ﷺ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ بواسطة جبريل عليه السلام، وبواسطة محمد ﷺ علم غيره من الأمة. وقيل: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾؛ أي[2]: يسره للذكر ليحفظ ويتلى. وذلك أن الله سبحانه عدد نعمه على عباده، فقدم أعظمها نعمة، وأعلاها رتبة. وهو القرآن العزيز؛ لأنه أعظم وحي الله تعالى إلى أنبيائه، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه، وأكثره ذكراً، وأحسنه في أبواب الدين. وهو سنام الكتب المنزلة على أفضل البرية.

قال ابن عطاء رحمه الله تعالى: لما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أراد أن يخص أمة محمد ﷺ بخاصية مثله، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾؛ أي: الذي علم آدم الأسماء وفضله بها على الملائكة هو الذي علمكم القرآن، وفضلكم به على سائر الأمم.

وفي الآية: إشارة إلى أن التعليم والتسهيل إنما هو من الله تعالى، لا من المعلمين والحافظين. وقد علم آدم الأسماء، ووفقه لتعلمها، وسهله بإذنه، وعلم داود صنعة الدرع كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، وعلم عيسى علم الطب كما قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، وعلم الخضر العلم اللدني كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، وعلم نبينا محمداً ﷺ القرآن، وأسرار الألوهية كما قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، وعلم الإنسان البيان.

قال في «فتح الرحمن»: ومن الدليل على أن القرآن غير مخلوق: أن الله تعالى ذكره في كتابه العزيز في أربعة وخمسين موضعاً ما فيها موضع صرح فيه بلفظ

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

الخلق، ولا أشار إليه. وذكر الإنسان في ثمانية عشر موضعاً كلها يدل على خلقه، وقد اقترنا في هذه السورة على هذا النحو، قاله المولى أبو السعود رحمه الله تعالى.

ثم امتن بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التي هي مناط كل الأمور، ومرجع جميع الأشياء، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: آدم من أديم الأرض، قاله ابن عباس. ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾؛ أي: ألهمه الله سبحانه وتعالى بيان كل شيء، وأسماء كل دابة تكون على وجه الأرض. وفي «بحر العلوم»: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: آدم، وعلمه الأسماء واللغات كلها، وكان آدم يتكلم بسبع مئة لغة، أفضلها العربية، انتهى.

يقول الفقير: وفيه إشارة إلى أن الله تعالى قد تكلم بجميع اللغات سواء كان التعليم بواسطة أم لا، فإن قلت[1]: كيف يتكلم الله باللغات المختلفة، والكلام النفسي عار عن جميع الأكسية؟

قلت: نعم، ولكنه في مراتب التنزلات والاسترسالات لا بد له من الكسوة. فالعربية مثلاً كسوة عارضة بالنسبة إلى الكلام في نفسه، وقد ذقنا في أنفسنا أنه يجيء الإلهام والخطاب تارة باللفظ العربي، وأخرى بالفارسيّ، وبالتركي مع كونه بلا واسطة ملك؛ لأنَّ الأخذ عن الله لا ينقطع إلى يوم القيامة. وذلك بلا واسطة، وإن كان الغالب وساطة الملك من حيث لا يرى، فاعرف ذلك.

وقيل[2]: المراد بالإنسان: الجنس، وأراد به جميع الناس. فعلى هذا يكون معنى ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾؛ أي: علمه النطق الذي يتميز به عن سائر الحيوانات، وقيل: علمه الكتابة، والفهم، والإفهام، حتى عرف ما يقول، وما يقال له. وقيل: علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به. وقيل: أراد بالإنسان: محمداً ﷺ ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ يعني: بيان ما يكون وما كان. لأنّه ﷺ ينبىء عن خبر الأولين والآخرين، وعن يوم الدين. وقيل: علمه بيان الأحكام من الحلال والحرام، والحدود والأحكام. والأولى حمل الإنسان على الجنس، وحمل البيان على تعليم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به.

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

والمعنى[1]: أي إنَّ الله سبحانه وتعالى علم محمداً ﷺ القرآن بواسطة جبريل، وعلم أمته بواسطته، وخلق هذا الجنس الإنساني، وعلمه التعبير عما يختلج بخاطره ويدور بخلده، ولولا ذلك ما علم محمد القرآن لأمته.

ولما كان الإنسان مدنياً بطبعه لا يعيش إلا مجتمعاً بسواه كان لا بد له من لغة يتفاهم بها مع سواه من أبناء جنسه، ويكتب إليه في الأقطار النائية، والبلاد النازحة، ويحفظ علوم السلف لينتفع بها الخلف، ويزيد فيها اللاحق على ما فعل السابق. وهذه منة روحية كبرى، لا تعدلها منة أخرى في هذه الحياة. ومن ثم قدمها على النعم الأخرى الآتية.

وقد بدأ أوّلاً بما يتعلم، وهو القرآن الذي به السعادة، ثم ثنى بالتعلم، ثم ثلث بطريق التعلم وكيفيته، ثم انتقل إلى ذكر الأجرام العلوية التي ينتفع بها الناس في معاشهم. فقال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ يجريان ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ مبتدأ وخبر، أي: يجريان بحسبان مقدر معلوم في بروجهما ومنازلهما، بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية، ويختلف الفصول والأوقات، ويعلم السنون والحساب، فالسنة القمرية ثلاث مئة وأربعة وخمسون يوماً، والشمسية ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً وربع يوم أو أقل. وبهذا[2] الحسبان انتفع بهما الناس في شؤون الزراعات كمواعيد البذر والحصاد، وما ينفع منها في كل فصل من الفصول الأربعة، وفي الأمور المالية من بيع وشراء لآجال محدودة من شهور وسنين، وفي تقدير الأعمار والآجال التي تقدمت، وجاءت في أخبار الماضين، والتي ستكون للحاضرين. ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب. لأن الدهر يكون كله ليلاً أو نهاراً.

وبعد أن ذكر أن الشمس والقمر طوع قدرته، وقد جعل لهما النظم الدقيقة في الحسبان.. أردفه بانقياد العوالم الأرضية له، فقال: ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾؛ أي: النبات الذي ينجم؛ أي: يطلع من الأرض ولا ساق له. مثل القمح والشعير، والقرع، والبطيخ، ونحو ذلك. وقيل[3]: النجم: هو الكوكب، وسجوده طلوعه. والقول الأول أظهر؛

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

لأنه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر، ولأنهما أرضيان في مقابلة سمائيين.

﴿وَالشَّجَرُ﴾ الذي له ساق يبقى في الشتاء. وفي «المنتقى»: كل نابت إذا ترك حتى يبرز انقطع.. فليس بشجر، وكل شيء يبرز ولا ينقطع من سنته فهو شجر. ﴿يَسْجُدَانِ﴾؛ أي: ينقادان له تعالى فيما يريد بهما طبعاً انقياد الساجد من المكلفين طوعاً أو يسجد ظلهما على ما بين في قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾.

وذكر سبحانه هنا في مقابلة النعمتين السماويتين اللتين هما الشمس والقمر نعمتين أرضيتين[1]، وهما: النجم والشجر، وكلاهما من قبيل النبات الذي هو أصل الرزق من الحبوب، والثمار، والحشيش للدوابّ. وإخلاء الجمل الأولى عن العطف لورودها على منهاج التعداد تنبيهاً على تقاعده في الشكر، كما في قولك: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد. وأما عطف جملة ﴿وَالنَّجْمُ﴾ على ما قبلها فلتناسبها من حيث التقابل لما أن الشمس والقمر علويان، والنجم والشجر سفليان، ومن حيث إن كلا من حال العُلويين وحال السفليين من باب الانقياد لأمر الله تعالى. ولما كانت هذه الأربعة مغايرة لجنس الإنسان في ذاته وصفاته غير النظم بإيرادها في صورة الاسمية تحقيقاً للتغاير بينهما وضعاً، وطبعاً، وصورة، ومعنى.

والمعنى[2]: أي والزرع والشجر ينقادان لله سبحانه فيما أراد بهما طبعاً كما ينقاد المكلف اختياراً. فما اختلاف ثمرهما في الشكل، والهيئة، واللون، والمقدار، والطعم، والرائحة إلا انقياد للقدرة التي أرادت ذلك. وقال الفرّاء[3]: المراد بسجودهما: أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يميلان معها حين ينكسر الفيء. وقال الزجاج: سجودهما دوران الظل معهما، كما في قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾. وقال الحسن، ومجاهد: المراد بالنجم: نجم السماء، وسجوده طلوعه.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

ورجح ابن جرير هذا، ومر ما فيه آنفاً.

وقيل: سجوده أفوله، وسجود الشجر تمكينها من الاجتناء لثمارها، وهذه الجملة والتي قبلها خبران آخران لـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾، وترك الرابط فيهما لظهوره، كأنّه قيل: الشمس والقمر بحسبانه، والنجم والشجر يسجدان له.

ولما ذكر ما به حياة الأرواح من تعليم القرآن.. ذكر ما به حياة الأشباح من النبات الذي له ساق. وكان تقديم النجم، وهو ما لا ساق له؛ لأنّه أصل القوت، والذي له ساق ثمره يتفكه به غالباً.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾؛ أي: خلقها مرفوعة فوق الأرض، حيث جعلها مصدر قضاياه، ومسكن ملائكته الذين ينزلون بالوحي على أنبيائه. ونبه بذلك على عظم شأنه، وملكه. وقرأ الجمهور[1] ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ بالنصب على الاشتغال روعي مشاكلة الجملة التي تليه، وهي ﴿يَسۡجُدَانِ﴾. وقرأ أبو السمال ﴿وٱلسَّمَاءُ﴾ بالرفع، راعى مشاكلة الجملة الابتدائية.

أي: خلقها مرفوعة محلًا، كما هو محسوس مشاهد، وكذا رتبه، حيث جعلها منشأ أحكامه، وقضاياه، وتنزل أوامره، ومحل ملائكته. وقال بعضهم: رفعها من السفل إلى العلو سقفاً لمصالح العباد، وجعل ما بينهما مسيرة خمس مئة عام. وذلك لأنّ السماء دخان فار به موج الماء الذي كان تحت الأرض.

﴿وَوَضَعَ﴾ الله سبحانه في الأرض ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾؛ أي[2]: شرع العدل وأمر به بأن وفر كل مستحق لما استحقه، ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم به أمر العالم، واستقام. كما قال عليه السلام: «بالعدل قامت السموات والأرض». قيل: فعلى هذا الميزان هو القرآن. وقيل: هو ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان، ومكيال، ونحوهما. فالمعنى: خلق كل ما توزن به الأشياء، ويعرف به مقاديرها موضوعاً مخفوضاً على الأرض، حيث علق به أحكام عباده، وقضاياهم، وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم. قال سعدي المفتي: وأنت خبير بأن قوله: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ أشد ملاءمة

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) روح البيان.

لهذا المعنى، ولهذا اقتصر عليه الزمخشري.

و﴿أن﴾ في قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨﴾ ناصبة، و«لا» نافية، ولام العلة مقدرة متعلقة بوضع الميزان، أي: وضع الله سبحانه الميزان في الأرض لئلا تطغوا وتعتدوا، ولا تجاوزوا الإنصاف.

قال ابن الشيخ[1]: الطغيان: مجاوزة الحد. فمن قال: الميزان العدل.. قال: طغيانه الجور، ومن قال: إنه الميزان الذي هو آلة التسوية قال: طغيانه البخس؛ أي: النقص، وقيل: ﴿أن﴾ مفسرة لأنّ في الوضع معنى القول. وقرأ الجمهور ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ فعلاً ماضياً ناصباً الميزان؛ أي: أقره وأثبته. وقرأ إبراهيم ﴿وَوَضْعِ الْمِيزَانِ﴾ بالخفض وإسكان الضاد، انتهى من «البحر».

ومعنى الآية[2]: أي وجعل العالم العلوي رفيع القدر. إذ هو مبتدأ أحكامه، ومتنزل أوامره ونواهيه لعباده، وسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه. وجعل نظم العالم الأرضيّ تسير على نهج العدل فعدل في الاعتقاد كالتوحيد إذ هو وسط بين إنكار الإله والشرك به، وعدل في العبادات والفضائل والآداب، وعدل بين القوى الروحية والبدنية، فأمر عباده بتزكية نفوسهم، وأباح لهم كثيراً من الطيبات لحفظ البدن، ونهى عن الغلو في الدين، والإسراف في حب الدنيا. وهكذا ترى أن عدله شامل لكل ما في هذا العالم، لا يغادر الصغير منه، ولا الكبير. وقوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨﴾؛ أي: فعل ذلك لئلا تعتدوا، وتتجاوزوا ما ينبغي من العدل والنصفة، وجري الأمور وفق ما وضع لكم من سنن الميزان في كل أمر، فترقى شؤونكم، وتنتظم أعمالكم وأخلاقكم.

قال قتادة في هذه الآية: اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل عليك، وأوف كما تحب أن يوفى لك. فإنّ في العدل صلاح الناس.

ثم أكد هذا بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾؛ أي: قوموا وزنكم ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل؛ أي: اجعلوه مستقيماً له. وفي «المفردات»: الوزن: معرفة قدر الشيء، والمتعارف في الوزن عند العامة ما يقدر بالقسطاس والقبان. وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ إشارة إلى مراعاة العدل في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال، وقيل: المعنى: أقيموا لسان الميزان بالعدل. وقيل: المعنى: إنه وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾؛ أي: لا تنقصوه؛ لأنَّ من حقه أن يسوى؛ لأنه المقصود من وضعه. قال سعدي المفتي: المراد: لا تنقصوا الموزون في الميزان لا الميزان نفسه، أمر أوّلاً بالتسوية، ثم نهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة، ثم عن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان، وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به، وتأكيداً للأمر باستعماله، والحث عليه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُخْسِرُوا۟﴾ بضم التاء وكسر السين، من أخسر إذا أفسد ونقص، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾؛ أي: ينقصون. وقرأ بلال بن أبي برزة، وأبان بن عثمان، وزيد بن عليّ ﴿تَخْسَرُوا﴾ بفتح التاء والسين من خسر من باب سمع. وهما لغتان، يقال: أخسرت الميزان، وخسرته، وقرىء أيضاً ﴿تَخْسُرُوا﴾ بفتح التاء وضم السين لما منع من الزيادة. وهو الطغيان.

وفي «فتح الرحمن»: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ قرنه برفع السماء؛ لأنّه تعالى عدد نعمه على عباده، ومن أجلها الميزان الذي هو العدل الذي به نظام العالم وقوامه، وقيل: هو القرآن، وقيل: هو العقل، وقيل: ما يعرف به المقادير كالميزان المعروف، والمكيال والذراع.

إن قلت: ما فائدة تكرار لفظ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ ثلاث مرات مع أن القياس بعد الأولى الإضمار؟

قلت: فائدته بيان أنَّ كلًّا من الآيات مستقلة بنفسها، أو أن كلًّا من الألفاظ الثلاثة مغاير لكل من الآخرين، إذ الأول ميزان الدنيا، والثاني ميزان الآخرة، والثالث ميزان العقل؛ أي: العدل.

فإن قلت: قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾؛ أي: لا تجاوزوا فيه العدل، مغن عن الجملتين المذكورتين بعده؟

---

(١) البحر المحيط.

قلت: الطغيان فيه أخذ الزائد، والإخسار: إعطاء الناقص، والقسط: التوسط بين الطرفين المذمومين، انتهى.

وبعد أن ذكر نعمه الدالة على قدرته برفع السماء ذكر مقابلها، وهو الأرض. فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: والأرض بسطها على وجه الماء لسكنى الحيوان من كل ما له روح، وفيه حياة لينتفع بما في ظاهرها ومافي باطنها في معايشه على ضروب مختلفة وأشكال لا حصر لها. ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجن كما قيل. وهو جمع لا واحد له من لفظه بمعنى الخلق، والجن، والإنس مما على الأرض كما في «القاموس». فهي كالفراش والمهاد لهم، يتقلبون عليها، ويتصرفون فوقها. وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ بالنصب على الاشتغال. وقرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء.

وجملة قوله: ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿فَٰكِهَةٌ﴾؛ أي: ضروب كثيرة مما يتفكه به، ويتلذذ من أنواع الثمار، فلفظ فاكهة يشعر باختلاف الأنواع، في محل نصب على أنها حال مقدرة من الأرض، وقيل: مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التي قبلها.

ثم أفرد سبحانه النخل بالذكر لشرفه، ومزيد فائدته على سائر الفواكه، فقال: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾؛ أي: وفيها النخل صاحبة الغلاف الذي يكون فيه الثمر أول ظهوره. والأكمام: جمع كم بالكسر. وهو وعاء الثمر. قال الحسن: ذات الأكمام؛ أي: ذات الليف. فإن النخلة تكتم بالليف، وكمامها ليفها، وقال ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتق، وقال عكرمة: ذات الأحمال؛ أي: وفيها النخل ذات الأوعية لثمرها حين ظهوره، وأفردها بالذكر لكثرتها بالبلاد العربية، وكثرة فوائدها؛ لأنّه ينتفع بثمارها رطبة ويابسة، وينتفع بجميع أجزائها، فيتخذ من خوصها السلال والزنابيل، ومن ليفها الحبال، ومن جريدها سقف البيوت، ويؤكل جمارها. ومن ثم ذكرها باسمها، وذكر الفاكهة دون أشجارها.

﴿و﴾ فيها ﴿الحب﴾؛ أي: جميع الحبوب التي يقتات بها: كالحنطة،

---

(١) البحر المحيط.

والشعير، والذرة. ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾؛ أي: صاحب الورق على سنابلها، وسوقها لعلف الدواب. ﴿وَ﴾ فيها ﴿الريحان﴾؛ أي: كل نبت مشموم تطيب رائحته. وقال الحسن: الريحان: هو ريحانكم هذا الذي يشم. وهو كل ما طابت رائحته من النبات، وعند الفقهاء: الريحان: ما لساقه رائحة طيبة كما لورقه، والورد ما لورقه رائحة طيبة فقط، كالياسمين، كذا في المغرب. وقال ابن الشيخ: الريحان: كل بقلة طيبة الرائحة، سميت ريحاناً، لأن الإنسان يراح لها رائحة طيبة أي: يشم.

وذكر أولاً الفاكهة(١)؛ لأنها للتفكه فحسب، ثم النخل لأن ثمرها فاكهة وغذاء، ثم الحب الذي عليه المعول في الغذاء في جميع البلاد. فهو أتم نعمة لموافقته لمزاج الإنسان. ومن ثم خلقه الله تعالى في سائر البلاد، وجعل النخل في البلاد الحارة دون غيرها.

قال أبو حيان: ويدأ بقوله(٢): ﴿فَاكِهَةٌ﴾ إذ هو من باب الابتداء بالأدنى، والترقي إلى الأعلى. ونكر لفظها؛ لأن الانتفاع بها دون الانتفاع بما يذكر بعدها. ثم ثنى بالنخل، فذكر الأصل، ولم يذكر ثمرتها، وهو التمر لكثرة الانتفاع بها من ليف، وسعف، وجريد، وجذوع، وجمار، وثمر. ثم أتى ثالثاً بالحب الذي هو قوام عيش الإنسان في أكثر الأقاليم. وهو البر، والشعير وكل ما له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه. ووصفه بقوله: ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم من الحب، ويوقت بهائمهم من ورقه الذي هو التبن. وبدأ بالفاكهة، وختم بالمشموم، وبينهما النخل والحب ليحصل ما به يتفكه، وما به يتقوت، وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة. وذكر النخل باسمها، والفاكهة دون شجرها لعظم المنفعة بالنخل من جهات متعددة، وشجرة الفاكهة بالنسبة إلى ثمرتها حقيرة، فنص على ما يعظم به الانتفاع من شجرة النخل، ومن الفاكهة دون شجرتها، انتهى.

وقرأ الجمهور(٣): ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ برفع الثلاثة عطفاً على المرفوع قبله. وقرأ ابن عامر، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة بنصب الثلاثة؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

وخلق الحب. وجوزوا أن يكون ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ حالة الرفع، وحالة النصب على حذف مضاف؛ أي: وذو الريحان، حذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه. وقرأ حمزة، والكسائي، والأصمعيُّ عن أبي عمرو ﴿والرَّيحَانِ﴾ بالجر.

والمعنى: والحبّ ذو العصف الذي هو علف البهائم، والريحان الذي هو مطعم الناس. ويبعد دخول المشموم في قراءة الجر.

ولما عدد تعالى نعمه خاطب الثقلين بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: إن نعمه كثيرة لا تحصى، فبأيها تكذبان أيها الثقلان. وكان هذا الخطاب للثقلين؛ لأنهما داخلان في الأنام على أصح الأقوال، ثم خصص بهذا الخطاب من يعقل. ولقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾. ويدل عليه قوله فيما سيأتي. ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ وهذا ما عليه جمهور المفسرين. وقيل: الخطاب للإنس، وثناه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ التثنية، كما في قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ كما مر.

والآلاء: جمع إلى، وألى مثل معى وعصى. قال في «بحر العلوم»: الآلاء: النعم الظاهرة والباطنة الواصلة إلى الفريقين. وبهذا يظهر فساد ما قيل: من أن الآلاء هي النعم الظاهرة، والنعماء هي النعم الباطنة. والصواب أنهما من الألفاظ المترادفة، كالأسود والليوث، والفلك والسفن. ومعنى تكذيبهم بالآلاء كفرهم بها. والتعبير عن الكفر بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك، فكفرهم بها تكذيب بها لا محالة. والفاء فيه للإفصاح؛ أي: فإذا كان الأمر كما فصل فبأي فرد من أفراد نعم ربكما، ومالككما، ومربيكما بتلك الآلاء أيها الجن، والإنس تنكران أنها ليست من الله، مع أن كلًّا منها ناطق بالحق، شاهد بالصدق، أفبتلك النعم المذكورة هنا أم بغيرها. والاستفهام للتقرير؛ أي: للحمل على الإقرار بتلك النعم، ووجوب الشكر عليها. وتكرار هذه الآية في هذه السورة لطرد الغفلة، وتأكيد الحجة، وتذكير النعمة، وتقرير الكرامة من قولهم: كم نعمة كانت لكم، كم وكم، وكقولك لرجل أحسنت إليه بأنواع الأيادي، وهو ينكرها، ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا، ألم تكن عرياناً فكسوتك أفتنكر هذا، ألم تكن خاملاً فعززتك، أفتنكر هذا؟ وهذا أسلوب كثير الاستعمال في كلام العرب. فكأنه تعالى قال: ألم أخلق الإنسان، وأعلمه البيان، وأجعل الشمس

والقمر بحسبان، وأنوع الشجر، وأبدع الثمر، وأعممها في البدو والحضر لمن آمن بي وكفر، وأسقيها حيناً بالمطر، وآونة بالجداول والنهر أفتنكرون ذلك أيها الإنس والجن. وقد جاء مثل هذا في أشعارهم. انظر قول مهلهل يرثي أخاه كليباً:

عَلَيَّ أنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ   إِذَا مَاضِيْمَ جِيْرَانُ ٱلْمُجِيْرِ
عَلَيَّ أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ   إِذَا خَرَجَتْ مُخَبَّأَةُ ٱلْخُدُوْرِ
عَلَيَّ أنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ   إِذَا خِيْفَ ٱلْمَخُوْفُ مِنَ ٱلثُّغُوْرِ
عَلَيَّ أنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ   إِذَا مَا خَارَ جَأْشُ ٱلْمُسْتَجِيْرِ

وهي قصيدة طويلة على هذا النسق، ولها نظائر أيضاً في رثائه، ولولا خشية التطويل لأوردنا شيئاً منها. وعدلاً؛ أي: مثلاً ونظيراً.

والمعنى(١): أي فبأي النعم المتقدمة يا معشر الثقلين من الجن والإنس تكذّبان، وتنكران. والمراد من تكذيب آلائه: كفرهم بربهم؛ لأنَّ إشراكهم آلهتهم به تعالى في العبادة دليل عى كفرانهم بها. إذ من حق النعم أن تشكر. والشكر إنما يكون بعبادة من أسداها إليهم، والتعبير بالرب للإشارة إلى أنها نعم صادرة من المالك المربي لهما الذي ينميهما أجساماً وعقولاً، فهو الحقيق بالحمد والشكر على ما أولى وأنعم، والعبادة له دون سواه. وقال في «برهان القرآن»: تكررت(٢) هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، ثمان منها ذكرها عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق، ومعادهم، ثم سبع منها عقيب آيات فيها ذكر النار، وشدائدها على عدد أبواب جهنم. وحسن ذكر الآلاء عقيبها؛ لأنَّ في خوفها ودفعها نعماً توازي النعم المذكورة؛ أو لأنها حلت بالأعداء، وذلك يعد من أكبر النعماء. وبعد هذه السبع ثمان في وصف الجنات وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمان أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما. فمن اعتقد الثماني الأولى، وعمل بموجبها استحق كلتا الثمانيتين من الله تعالى، ووقاه الله تعالى السبع السابقة.

يقول الفقير: من لطائف أسرار هذا المقام: أن لفظ أل في أول اسم الرحمن المعنون به هذه السورة الجليلة دل على تلك الإحدى والثلاثين، انتهى. قال

---

(١) المراغي.   (٢) روح البيان.

القتيبي: إنَّ الله عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه. ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم، ويقررهم بها، كما تقول لمن تتابع له إحسانك وهو يكفره: ألم تكن فقيراً فأغنيتك... إلخ.

ويسن لسامع القارىء لهذه السورة أن يجيبه كلما قرأ هذه الآية[1]. وهي مكررة في أحد وثلاثين موضعاً بأن يقول: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد؛ لأن رسول الله ﷺ أقر الجن على ذلك الجواب فيما روي عن جابر رضي الله عنه: أنه قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، قال: «ما لي أراكم سكوتاً، لَلجن كانوا أحسن منكم ردّاً ما قرأت عليهم هذه الآية مرة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ إلاَّ قالوا ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد». أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب.

ولما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير وهو السماء والأرض وما فيهما ذكر العالم الصغير، فقال: ﴿خَلَقَ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: آدم. فالمراد بالإنسان هنا: آدم. قال القرطبي باتفاق من أهل التأويل: ولا يبعد أن يراد[2] الجنس لأن بني آدم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم. ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ أي: من طين يابس له صلصلة؛ أي: صوت إذا نقر لشدة يبسه. وقيل: هو طين خلط برمل. وقيل: هو الطين المنتن. ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾؛ أي: شبيه بالخزف الذي طبخ بالنار في صوته إذا نقر، كأنه[3] صور بصورة من يكثر التفاخر، أو لأنه أجوف. وقد خلق الله آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً، ثم حمأ مسنوناً، ثم صلصالاً، ثم صب عليه ماء الأحزان، فلا ترى ابن آدم إلا ويكابد حزناً.

والمعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه في يبسه الخزف.

فإن قلت[4]: كيف قال ذلك هنا، وقال في الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾؛ أي: من طين أسود متغير، وقال في الصافات: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾؛ أي: لازم يلصق باليد، وقال في آل عمران: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾؟

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) متشابه القرآن.

قلت: الآيات كلها متفقة المعنى؛ لأنه تعالى خلقه من تراب، ثم جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً، ثم صلصالاً. فهذه مراحل وأطوار في خلق الإنسان، وفي كل سورة إشارة إلى بعض هذه الأطوار. فإنه تعالى أخذه من تراب الأرض، فعجنه بالماء، فصار طيناً لازباً؛ أي: متلاصقاً يلصق باليد، ثم تركه حتى صار حمأ مسنوناً أي: طيناً أسود متناً، ثم يبس، فصار كالفخار، له صوت وصلصلة.

إيضاح هذا[1]: أن الطين المطبوخ مركب من الطين والحرارة التي أنضجته وسوته لتخفظ كيانه، وهكذا الإنسان، له شهوة الطعام والشراب والتزاوج، لتبقى بنيته، وتدوم حياته بالمادة الأرضية التي اجتذبها النبات من الأرض، وله قوة غضبية تورثه الشجاعة والقوة؛ ليحافظ على بقائه وحياته، ويمنع عن نفسه عاديات الكواسر، ومهاجمات الجيوش، والأعداء المحيطة به من كل جانب. وهذه القوة في الإنسان تقابل طبخ الطعام ليصير فخاراً، فتتماسك أجزاؤه، ولولاها لما استطاع المحافظة علي هيكله المنصوب، وجسمه المحبوب من الكواسر، وأهل القسوة من بني الإنسان. ولأصبح قتيلاً في الفلوات تأكله الطير، أو تهوي بأجزائه الريح في مكان سحيق. كما أن الطين إذا لم يطبخ يتفتت، وتذروه الرياح، أو يذوب في أجزاء الأرض.

﴿وَخَلَقَ﴾ سبحانه ﴿الْجَآنَّ﴾؛ أي: الجن أو أبا الجن أو إبليس، وبه قال الضحاك. وفي «الكشف»: الجان: أبو الجن، كما أن الإنسان أبو الإنس، وإبليس أبو الشياطين. ﴿مِن مَّارِجٍ﴾؛ أي: من لهب صاف من الدخان. وقال مجاهد: المارج: هو المختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر، والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا وقدت من مرج أمر القوم إذا اختلط واضطرب. فمعنى ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ من لهب مختلط. ﴿مِّن نَّارٍ﴾ بيان لـ﴿مَّارِجٍ﴾. كأنه قيل: من صاف من نار، أو مختلط من نار. وفي «كشف الأسرار»: خلق الجن من مارج من نار، والملائكة من نورها، والشياطين من دخانها.

أي[2]: وخلق الجن من النار الصافية المختلط بعضها ببعض، فمن لهب أصفر إلى أحمر إلى مشوب بالخضرة. فكما أن الإنسان من عناصر مختلفات

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

فالجان من أنواع من اللهب مختلطات. ولقد أظهر الكشف الحديث أنَّ الضوء مركب من ألوان سبعة، ولفظ ﴿المارج﴾ يشير إلى ذلك، وإلى أن اللهب مضطرب دائماً.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ أيها الثقلان أمِمَّا أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم حتى صيركما أفضل المركبات، وخلاصة الكائنات، أم من غيره تكذبان، فإنه أنعم عليكما في تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ قرأ الجمهور[1] ﴿رَبُّ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الذي فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة رب مشرقي الصيف والشتاء، ومغربيهما، ومن قضيته أن يكون رب ما بينهما من الموجودات قاطبة. يعني: أن ذكر غاية ارتفاعهما، وغاية انحطاطهما إشارة إلى أن الطرفين يتناولان ما بينهما، كما إذا قلت في وصف ملك عظيم الملك: له المشرق والمغرب، فإنه يفهم منه أن له ما بينهما أيضاً. وقيل: مبتدأ، خبره ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، وما بينهما اعتراض. والأول أولى. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة بالخفض بدلاً من ﴿رَبِّكُمَا﴾. قال في «كشف الأسرار»: أحد المشرقين هو الذي تطلع منه الشمس في أطول يوم من السنة، والثاني الذي تطلع منه في أقصر يوم، وبينهما مئة وثمانون مشرقاً، وكذا الكلام في المغربين. وقيل: أحد المشرقين للشمس، والثاني للقمر.

فإن قلت[2]: لِمَ كرر ذكر الرب هنا دون سورتي المعارج والمزمل؟

قلت: كرره هنا تأكيداً. وخص ما هنا بالتأكيد لأنه موضع الامتنان، وتعديد النعم، ولأن الخطاب فيه من جنسين، هما الإنس والجن، بخلاف ذينك.

والمعنى[3]: أي هو سبحانه رب مشرقي الصيف والشتاء، ومغربيهما اللذين يترتب عليهما تقلب الفصول الأربعة، وتقلب الهواء، وتنوعه، وما يلي ذلك من الأمطار، والشجر، والنبات، والأنهار الجاريات، فبأي نعمة من هذه النعم تكذبان أيها الثقلان، أفتنكران الأمطار وفوائدها؟ أم تنكران ما لاختلاف الفصول من منافع

---

(١) البحر المحيط.

(٢) متشابه القرآن.

(٣) المراغي.

فيها تختلف صنوف المزروعات من صيفية إلى شتوية، أم تنكران ما لاختلاف الأجواء من مزايا في تنظيم مزاج الإنسان والحيوان.

ولما ذكر نعمه التي تترى على عباده في البر أعقبها بنعمه عليهم في البحر، فقال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: أرسلهما من منبعهما، من مرجت الدابة إذا أرسلتها، وخليتها للرعي.

والمعنى: والله سبحانه أرسل البحر الملح، والبحر العذب ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ حال من البحرين، قريبة من الحال المقدرة؛ أي[1] حال كونهما يتجاوران، ويتماس سطوحهما، لا فصل بينهما في مرأى العين. وذلك كدجلة تدخل البحر، فتشقه، فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها. وقيل: أرسل بحر فارس والروم يلتيقان في المحيط؛ لأنهما خليجان يتشعبان منه. قال سعدي المفتي: وعلى هذا فقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ إما حال مقدرة إن كان المراد: إرسالهما إلى المحيط، أو المعنى: اتحاد أصليهما إن كان المراد: إرسالهما منه. فلكل وجه. وقال ابن جريج: هما البحر المالح، والأنهار العذبة. وقيل: بحر المشرق والمغرب. وقيل: بحر اللؤلؤ والمرجان. وقيل: بحر الأرض، وبحر السماء. قال سعيد بن جبير: يلتقيان في كل عام. وقيل: يلتقي طرفاهما.

والمعنى[2]: أنه أرسل كل واحد منهما يلتقيان؛ أي: يتجاوران، لا فصل بينهما في رأي العين، ومع ذلك فلم يختلطا، ولهذا قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾؛ أي: حاجز من قدرة الله أو من الأرض يحجز بينهما. والجملة الاسمية يجوز أن تكون مستأنفة أو حالاً. ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾؛ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة، وإبطال الخاصية مع أن شأنهما الاختلاط على الفور، بل يبقيان على حالهما زماناً يسيراً مع أن شأنهما الاختلاط، وانفعال كل واحد منهما عن الآخر على الفور، أو لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما من الأرض لتكون الأرض بارزة يتخذها أهلها مسكناً ومهاداً. فقوله: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ إما من الابتغاء، وهو الطلب؛ أي: لا يطلبان غير ما قدر لهما، أو من البغي، وهو مجاوزة كل واحد منهما ما حد له.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

والمعنى[1]: أي أرسل سبحانه البحر الملح، والبحر العذب متجاورين متلاقيين، لا يبغي أحدهما على الآخر، فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحاً، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله. فقد حجر بينهما ربهما بحاجز من قدرته، أو بحاجز من الأجرام الأرضية، فترى نهر النيل بمصر يخرج من جبال الحبشة، ويجري شمالاً، حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط، ولا يبغي أحدهما على الآخر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فبأيّ هذه المنافع تكذبان إذ لو بغى الملح على العذب لم نجد ماء للشرب، ولا لسقي الحيوان والنبات، ولم نجد ما نقتات به، فنهلك جوعاً. ولو بغى العذب على الملح.. لم نجد ما يصلح الهواء ويمنع عاديات الجراثيم التي فيه. وليس من البحرين شيء يقبل التكذيب لما فيه من الفوائد والعبر، هذا وهما جمادان لا نطق لهما، ولا إدراك، فكيف يبغي بعضكم على بعض أيها العقلاء!.

وقال الخطيب: ومعنى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾؛ أي: لا يتجاوز كل واحد منهما ما حده له خالقه، لا في الظاهر ولا في الباطن، حتى إن العذب الداخل في الملح باق على حاله لم يمتزج بالملح. فمتى حفرت في جنب الملح في بعض الأماكن.. وجدت الماء العذب. قال البقاعي: بل كلما قربت الحفرة من الملح كان الماء الخارج منها أحلى. فخلطهما الله تعالى في رأي العين، وحجز بينهما في غيب القدرة، اهـ.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾؛ أي: من البحرين ﴿اللُّؤْلُؤُ﴾؛ أي: الدر المخلوق في الأصداف. ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾؛ أي: الخرز الأحمر المشهور. وقيل: اللؤلؤ كبار الدر، والمرجان صغاره.

واعلم[2]: أنه إن أريد بالبحرين هنا بحر فارس، وبحر الروم، فلا حاجة في قوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ إلى التأويل. إذ اللؤلؤ والمرجان بمعنييه يخرجان منهما. لأن كلا منهما ملح، ولا عذب في البحار السبعة إلا على قول من قال في الآية: يخرج من

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

مالح بحري فارس والروم، ومن عذب بحر الصين. وفي «بحر العلوم»: أنَّ اللؤلؤ يخرج من بحر فارس، والمرجان يخرج من بحر الروم. يعني: لا من كليهما. وقال أبو علي الفارسي: الكلام على حذف مضاف؛ أي: يخرجان من أحدهما، وهو المالح. لأنه إذا خرج من أحدهما.. فقد خرج منهما. كما يقال: يخرج الولد من الذكر والأنثى، وإنما تلده الأنثى. وقيل: يخرج؛ أي: يحدث، ويتكون من التقائهما واجتماعهما اللؤلؤ والمرجان كما قال الرازي: يكون العذب كاللقاح للملح. ونقل عن ابن عباس، وعكرمة مولاهُ: تتكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر؛ لأن الصدف تفتح أفواهها للمطر، فيكون الأصداف كالأرحام للنطف، وماء البحر كالجسد الغادي. ويدل على أنه من المطر ما اشتهر من أن السنة إذا أجدبت.. هزلت الحيتان، وقلت الأصداف والجواهر. وعلى هذا فالبحران: بحر السماء وبحر الأرض، فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤاً فصار خارجاً منهما.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَخْرُجُ﴾ مبنياً للفاعل. ونافع، وأبو عمرو، وأهل المدينة مبنياً للمفعول. والجعفي عن أبي عمرو بالياء مضمومة، وكسر الراء؛ أي: يخرج الله. وعنه، وعن أبي عمرو، وعن ابن مقسم ﴿نخرج﴾ بالنون واللؤلؤ والمرجان نصب في هاتين القراءتين. وقرأ طلحة ﴿اللُّؤْلِؤُ﴾ بكسر اللام الثالثة. وهي لغة. وعبد الولي بقلب الهمزة المتطرفة ياء ساكنة بعد كسرة ما قبلها. وهي لغة، قاله أبو الفضل الرازي.

وقد ثبت في الكشف[2]: أن اللؤلؤ كما يستخرج من البحر الملح يستخرج من البحر العذب، وكذلك المرجان، وإن كان الغالب أنه لا يستخرج إلا من الماء الملح. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فبأيّ هذه النعم تكذبان. فإن في ذلك من الآيات ما لا يستطيع أحد تكذيبه، ولا يقدر على إنكاره؛ أي: أبكثرة النعم من خلق المنافع في البحر، وإخراج الحلي العجيبة أم بغيرها.

﴿وَلَهُ﴾ سبحانه السفن ﴿الْجَوَارِ﴾ في البحر. وهذه[3] اللام لها معنيان:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

أحدهما: أنها لام الملك، والثاني: أنها لام الاستحسان والتعجب، كقولهم: لله أنت، لله درك كما في «كشف الأسرار». و﴿الْجَوَارِ﴾[1] بكسر الراء. أصله: الجواري بالياء: جمع جارية. وهي السفن. وقرىء بحذف الياء ورفع الراء كقول الشاعر:

لَهَا ثَنَايَا أَرْبَعٌ حِسَانُ   وَأَرْبَعٌ فَكُلُّهَا ثَمَانُ

والمعنى: وله السفن الجاريات في البحر. فحذف[2] الموصوف وأقيمت الصفة مقامه. قال ابن الشيخ: واعلم: أنَّ الأركان أربعة: التراب، والماء، والهواء، والنار. فالله سبحانه وتعالى بين بقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾ أن التراب أصل لمخلوق شريف مكرم عجيب الشأن. وبين بقوله: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ أن النار أيضاً أصل لمخلوق آخر عجيب الشأن. وبين بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ أن الماء أيضاً أصل لمخلوق آخر، له قدر وقيمة. ثم ذكر أن الهواء له تأثير عظيم في جري السفينة كالأعلام، فقال: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾. وخصها بالذكر مع أن جميع ما في السموات والأرض له لا لغيره؛ لأنَّ جريانها في البحر لا صنع للبشر فيه، وهم معترفون بذلك فيقولون: «لك الفلك ولك الملك». وإذا خافوا الغرق دعوا الله خاصة. وسميت السفينة جارية؛ لأن شأنها الجري في البحر، وإن كانت واقفة في السواحل والمراسي. كما تُسَمَّى المملوكة أيضاً جارية؛ لأنَّ شأنها الجري والسعي في حوائج سيدها.

وقرأ الجمهور: ﴿الْجَوَارِ﴾ بكسر الراء، وحذف الياء لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن مسعود، والحسن، وأبو عمر في رواية عنه برفع الراء تناسياً للحذف. وقرأ يعقوب بإثبات الياء.

﴿الْمُنشَآتُ﴾ قرأ الجمهور[3] بفتح الشين اسم مفعول بمعنى المحدثات؛ أي: أنشأها الله تعالى، وأحدثها أو الناس أو المرفوعات الشرع؛ أي: القلع على أنه من أنشأه إذا رفعه. والشرع بضمتين: جمع شراع، نظير كتب وكتاب؛ أي: المرفوعات التي رفع بعض خشبها على بعض، وركب حتى ارتفعت وطالت، حتى صارت في

(١) البيضاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

البحر كالأعلام. وهي الجبال. ولا يبعد أن يكون معنى ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾؛ أي: المرفوعات على الماء، فتكون جاريةً على ما هي له. وقرأ الأعمش، وحمزة، وزيد بن عليّ، وطلحة، وأبو بكر بخلاف عنه بكسر الشين؛ أي: الرافعات الشراع، أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن، أو التي تنشىء السفر إقبالاً وإدباراً، وشدد الشين ابن أبي عبلة، وقرأ الحسن ﴿المنشاة﴾ وحَّد الصفة، ودل على الجمع الموصوف، كقوله: أزواج مطهرة، وقلب الهمزة ألفاً.

والمعنى: وله الجواري المنشئات؛ أي: المصنوعات ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ حالة كونها ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ جمع علم. وهو الجبل الطويل؛ أي: كالجبال الشاهقة عظماً وارتفاعاً، وهو حال من ضمير ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾. والسفن في البحر كالجبال في البر، كما أن الإبل في البر كالسفن في البحر.

والمعنى: أي وله تعالى السفن الكبار التي رفعت شرعها في الهواء كالجبال الشاهقة تجري في البحر بما ينفع الناس، فتنقل المتاجر من بلد إلى آخر، والأقوات من إقليم هي كثيرة فيه إلى آخر هو محروم منها. وبذا يتم تبادل السلع، وسد حاجات الأمم في أقواتها ومشاربها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي:[١] فبأيّ هذه النعم تكذّبان أبخلق مواد السفن، أم بكيفية تركيبها، أم بإجرائها في البحر يابسات بأسباب لا يقدر عليها غيره سبحانه لقطع المسافات الكثيرة في الأوقات القليلة.

أي: عبادي هل ظننتم أن مجرد الإيمان كاف لكم في شكر هذه النعم؟ فهل خلقت الشمس والقمر، والنجم، والشجر، والزرع، والحب، والأنهار، والبحار، والدر، والمرجان لقوم لا يعقلون أم خلقتها لقوم يقبلون مني النعمة، وكيف يقبلونها دون أن يعرفوها.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على الأرض من الحيوانات والمركبات. فعبر[٢] بمن تغليباً للعقلاء أو من الإنس والجن. والضمير عائد على الأرض في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ وإن بعد. ﴿فَانٍ﴾؛ أي: هالك لا محالة. والفناء عبارة عن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

إعدام جميع الموجودات من حيوان وغيره.

ولما نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلك بنو آدم، فلما نزلت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ أيقنوا بهلاك أنفسهم. فإن لهم أجساماً لطيفة، وأرواحاً متعلقة بتلك الأجسام كأرواح الإنسان. وأما الأرواح المجردة المهيمنة العالية فلا تفنى.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ أي: ذات ربك يا محمد أو أيها المخاطب. والوجه هنا بمعنى الذات، نظير قولهم: كرم الله وجهه؛ أي: ذاته. فالوجه عبارة عن العضو المعروف، استعير للذات؛ لأنه أشرف الأعضاء، ومجمع المشاعر، وموضع السجود، ومظهر آثار الخشوع.

قال القاضي: ولو استقريت جهات الموجودات، وتفحصت وجوهها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها، إلا وجه الله الذي يلي جهته، انتهى، أي: يلي مقصده، ويحتمل[1] أن يكون الوجه بمعنى القصد؛ أي: ويبقى كل ما يقصد، وينوى به الله سبحانه، وأن يكون بمعنى الجهة؛ أي: كل من عليها من الثقلين، وما اكتسبوه من الأعمال هالك منعدم إلا ما توجهوا به جهة الله، وعملوه ابتغاء لمرضاته.

وقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾؛ أي: ذو الاستغناء المطلق أو ذو العظمة في ذاته وصفاته. ومعناه: الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه. ﴿و﴾ ذو ﴿الإكرام﴾؛ أي: ذو الفضل التام، والطول العام، ومعناه: المكرم لأنبيائه وأوليائه وجميع خلقه بلطفه وإحسانه إليهم مع جلاله وعظمته، اهـ من «الخازن». صفة لوجه. وقرأ الجمهور ﴿ذُو﴾ بالواو صفة للوجه. وقرأ أبي، وعبد الله ﴿ذي﴾ بالياء صفة للرب. والظاهر: أن الخطاب في قوله: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ للرسول ﷺ. وفيه تشريف عظيم له ﷺ. وقيل: الخطاب لكل سامع. ومعنى ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه، وعن أفعالهم، أو الذي يتعجب من جلاله، أو الذي عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده. قال الطيبي: كيف[2] أفرد الضمير في قوله: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾، وثناه في ﴿رَبِّكُمَا﴾ والمخاطب واحد؟

قلت: اقتضى الأول تعميم الخطاب لكل من يصلح للخطاب لعظم الأمر وفخامته، فيندرج فيه الثقلان اندراجاً أولياً، ولا كذلك الثاني، فتركه على ظاهره.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي إنَّ جميع أهل الأرض يذهبون ويموتون، وكذلك أهل السموات. ولا يبقى سوى وجه ربك الجليل الكريم، فإنه الحي الذي لا يموت أبداً. قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فان. وقد ورد في الدعاء المأثور: «يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك».

ثم وصف سبحانه نفسه بالاستغناء المطلق، والفضل العام، وأنه ذو الجود والكبرياء، يعطي خلقه من النعم والإكرام ما يليق بحالهم، ولا يحجب فضله عن مخلوق خلقه، انظر إلى[2] هذه النجوم الثواقب في ظلمات الليل تراها مشرقة ساطعة تتلألأ نوراً تنشرح له الصدور، وتقر به العيون، فتتجلى لك عظمة الخالق وكبرياؤه، تموت الأحياء وتلك النجوم باقية، والأرض لم تتغير على ما نشاهد، وهذا مظهر الجلال والعظمة، جمال في النجوم، بهجة في الإشراق، مناظر باهرة، أنوار ساطعة، أجسام عظيمة، أحوال تتقلب، وأهوال تتعاقب، والناس من بينها يخرون صعقين. فهذا لعمرك هو الجلال والعظمة، فسبحان الخلاق العظيم!.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فبأيّ هذه النعم تكذّبان، فالفناء باب للبقاء، وللحياة الأبدية، والنعم السرمدية، ولولا تحليل أجسامنا بالموت لتعطلت الحياة؛ إذ المادة الأرضية إذا بقيت على حال واحدة كانت قواها محدودة، لكن انبعاث الصور الكثيرة، وتعاقبها جيلاً بعد جيل يلبس المادة جميع الصور والأشكال، ويجعل العالم في تجدد مستمر، وقال مقاتل: وجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت، ومع الموت تستوي الأقدام. انظر إلى بني الإنسان مثلاً إذ توالدوا جيلاً بعد جيل، ولم يمت منهم أحد فلا تمضي إلا أجيال معدودة، حتى يكون على القدم ألف قدم، وتمتلىء الأرض بالآدميين، فلا يكفيهم حيوان أرضي ولا نبات مأكول، ولا يجدون وسيلة للعيش، إلا أن يأكل بعضهم بعضاً، وتمتلىء الأرض رمماً آدمية من السغب والمخمصة.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

والخلاصة: أنّ في الفناء نعمتين: نعمة الرحمة بتعاقب الأجيال، ونعمة الخروج من سجن المادة إلى فسيح العالم الروحيّ، وإلى التمتع بنعيم آخر بعد الموت.

ولما كان ما ذكر يتضمن الافتقار المتجدد إليه تعالى أوضحه بقوله: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ قاطبة من ملك وإنس وجن ما يحتاجون إليه من ذواتهم ووجوداتهم حدوثاً وبقاءً، وسائر أحوالهم سؤالاً مستمراً بلسان المقال أو بلسان لحال، فلا يستغني أحد منهم عنه تعالى. فإنهم من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود، وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرة، بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الإلهية من العلائق.. لم يشموا رائحة الوجود أصلاً، فهم في كل آنٍ مستمرون على الاستدعاء والسؤال.

قال ابن عباس رضي الله عنه: فأهل السماء يسألونه لأهل الأرض المغفرة، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة، وقيل: كل أحد يسأله الرحمة، وما يحتاج إليه في دينه أو دنياه، وفيه إشارة إلى كمال قدرته تعالى، وأن كل مخلوق وإن جل وعظم، فهو عاجز عن تحصيل ما يحتاج إليه، مفتقر إلى الله تعالى.

والحاصل: أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال، أو بلسان الحال ما يطلبونه من خيري الدنيا والآخرة أو من خيري إحداهما.

﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾؛ أي: كل وقت من الأوقات[1]. وهو اليوم الإلهي الذي هو الآن الغير المنقسم. ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فِي شَأْنٍ﴾ من الشؤون، وأمر من الأمور التي من جملتها إعطاء ما سألوا. فإنه تعالى لا يزال ينشىء أشخاصاً، ويفني آخرين، ويأتي بأحوال، ويذهب بأحوال من الغنى، والفقر، والعزة، والذلة، والنصب، والعزل، والصحة، والمرض، ونحو ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح البالغة. وانتصاب ﴿كُلَّ﴾ بالاستقرار الذي تضمنه الخبر، والتقدير: استقر سبحانه في شأن كل وقت من الأوقات.

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن مما خلق

---

(١) روح البيان.

عز وجل لوحاً من درة بيضاء ودفتاه من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور ينظر الله فيه كل يوم ثلاث مئة وستين نظرة، يخلق ويرزق، يحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء. فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

وقال سفيان بن عيينة: الدهر عند الله سبحانه يومان:

يوم الدنيا، وشأنه فيه الاختبار بالأمر والنهي، والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع.

وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب، والثواب والعقاب.

وقال الحسين بن الفضل: هو سوق المقادير إلى المواقيت، ومعناه: أنه تعالى كتب ما يكون في كل يوم، وقدر ما هو كائن، فإذا جاء ذلك الوقت تعلقت إرادته بالفعل، فيوجده في ذلك الوقت.

وعن عبد الله بن منيب قال: تلا علينا رسول الله ﷺ هذه الآية، فقلنا: يا رسول الله وما ذلك الشأن؟ قال: «أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين». أخرجه الحسن بن سفيان، والبزّار، وابن جرير، والطبراني، وأبو نعيم، وابن عساكر. وسأل عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية وما صح من قوله ﷺ: «جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة». فقال: شؤون يبديها، لا شؤون يبتديها.

والحاصل[1]: أنّ المادّة دائماً تلبس جديداً، وتخلع قديماً. فأجسامنا، وأجسام الحيوان على هذا المنوال فهما في حاجة إلى بقاء الأجسام، وتغذيتها. وإذا انحل جسم افتقر إلى شيء يعوض ما ذهب. فالتغيرات المستمرة افتقار، وهذا الافتقار مستمر في كل لحظة. وذلك يدعو إلى السؤال من الواهب المعطي، إما بالنطق، وإما بتوجه النفس، وطلبها العون والمدد والفيض من فضله.

وجماع القول: أنّ المادّة مفتقرة إلى بقاء ما يناسبها، فالنبات في كل لحظة مفتقر إلى ما يبقيه من ماء، وهواء، ومواد أخرى، والحيوان يطلب ما يحتاج إليه، والإنسان يسأل ما هو في حاجة إليه إما سؤال حال، وإما سؤال مقال في كل وقت

(١) المراغي.

وأوان.

﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ فمن شؤونه أنه يحيي ويميت، يخلق ويرزق، يعز ويذل، يمرض ويشفي، يعطي ويمنع، يغفر ويعاقب، يرحم ويغضب إلى نحو أولئك. ومن شؤونه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبون منه على اختلاف حاجاتهم، وتباين أغراضهم. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ مع مشاهدتكم لما ذكر من إحسانه، أي: فبأيّ هذه النعم تكذّبان. فكم من سؤال أجبته، وكم من جديد أحدثته، وكم من ضعيف في الحياة أرحته، إما بصحة تسعده، أو بموت من سجن المادة يخرجه.

ولما ذكر تعالى ما أنعم به من تعليم العلم، وخلق الإنسان والسماء والأرض، وما أودع فيهما، وفناء ما على الأرض ذكر ما يتعلق بأحوال الآخرة، والجزاء. فقال: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾؛ أي[1]: سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة عند انتهاء شؤون الخلق المشار إليها بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾. فلا يبقى حينئذٍ إلا شأن واحد. وهو الجزاء. فعبر عنه بالفراغ لهم على المجاز المرسل. فإن الفراغ يلزمه التجرد، وإلا فليس المراد الفراغ من الشغل؛ لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن. وقيل: هو مستعار من قول المهدد لصاحبه سأفرغ لك؛ أي: سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنه. والمراد: التهيؤ للنكاية فيه، والانتقام منه، وعلى هذا فالخطاب للمجرمين منهما، بخلافه على الأول.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَنَفۡرُغُ﴾ بنون العظمة، وضمّ الراء، من فرغ بفتح الراء. وهي لغة الحجاز. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو حيوة، وزيد بن عليّ بالتحتية مفتوحة مع ضمّ الراء؛ أي: ﴿سيفرُغ﴾ الله تعالى لكم. وقرأ قتادة، والأعرج بالنون وفتح الراء، مضارع فرغ بكسرها. وهي لغة تميمية، وقرأ عيسى الثقفي، وأبو السمال بكسر النون وفتح الراء، قال أبو حاتم: وهي سفلى مضر. وقرأ الأعمش، وأبو حيوة بخلاف عنهما، وابن أبي عبلة، والزعفراني وإبراهيم بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول. وقرأ عيسى أيضاً بفتح النون وكسر الراء، والأعرج أيضاً بفتح الياء، وفتح الراء، وهي رواية يونس، والجعفي وعبد الوارث عن أبي عمرو.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾؛ أي: أيها الإنس والجن. سميا[1] بذلك لأنهما ثقلا الأرض. يعني: أنهما شبها بثقل الدابة. وفي حواشي ابن الشيخ: شبه الأرض بالحمولة التي تحمل الأثقال، والإنس والجن جعلا أثقالاً محمولة عليها، وجعل ما سواهما كالعلاوة، أو لرزانة آرائهما، أو لأنهما مثقلان بالتكليف أو لعظم قدرهما في الأرض. كما في الحديث: «إني خلفت فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي». وقال جعفر الصادق: سميا ثقلين؛ لأنهما يثقلان بالذنوب، أو لما فيهما من الثقل. وهو عين تأخرهما بالوجود؛ لأنَّ من عادة الثقيل الإبطاء، كما أن من عادة الخفيف الإسراع، والإنس أثقل من الجن، للركن الأغلب عليهم أو لثقل الإنس، وسمي الجن ثقلاً لمجاورة الأنس.

وجمع في قوله[2]: ﴿لَكُمْ﴾، ثم قال: ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾؛ لأنهما فريقان. وكل فريق جمع. وقرأ الجمهور ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ بفتح الهاء. وقرأ أهل الشام بضمها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ التي من جملتها التنبيه على ما سيلقونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ بأقوالكما، وأفعالكما. قال في «كشف الأسرار»: اعلم: أن بعض هذه السورة ذكر فيه الشدائد والعذاب والنار، والنعمة فيها من وجهين:

أحدهما: في صرفه عن المؤمنين إلى الكفار. وتلك نعمة عظيمة تقتضي شكراً عظيماً.

والثاني: أن في التخويف منها، والتنبيه عليها نعمة عظيمة. لأن اجتهاد الإنسان رهبة مما يؤلمه أكثر من اجتهاده رغبة فيما ينعمه.

والمعنى[3]: أي سنقصد لحسابكم، ومجازاتكم على أعمالكم، وهذا وعيد شديد، وتهديد من الله لعباده. كما يقول القائل لمن يهدده: إذاً أتفرغ لك؛ أي: أقصد قصدك، والفراغ هنا بمعنى القصد للشيء، لا بمعنى الفراغ منه؛ إذ معنى الفراغ من الشيء بذل المجهود فيه. وهذا لا يقال في حقه تعالى، هذا وإن شأن

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

الآخرة ما هو إلا شأن من الشؤون، فلا يشغله شأن عن شأن، وهو القائل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، والقائل: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾. فبأيّ نعم ربكما تكذبان يا معشر الثقلين. ومن جملتها التنبيه إلى ما ستلقونه من الجزاء في هذا اليوم تحذيراً مما سيؤدي إلى سوء الحساب، وشديد العقاب. ثم ذكر أنه لا مهرب في هذا اليوم من جزاء كل عامل على عمله، فقال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾؛ أي: يا جماعة الإنس والجنّ. وهذا[1] كالترجمة لقوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير؛ ولأنّ الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة. فخوطبوا بما ينبيء عن ذلك؛ لبيان أن قدرتهم لا تفي لما كلفوه. والمعشر: الجماعة العظيمة، كما سيأتي في مبحث اللغة. وقدم الجن على الإنس في هذه الآية لتقدم خلقه. لأن أباهم الجان خلق قبل آدم. وقدم الإنس على الجن في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ لفضله. فإن التقديم يقتضي الأفضلية.

قال ابن الشيخ: لما بين الله تعالى أنه سيجيء وقت يتجرد فيه لمحاسبتهم ومجازاتهم، وهددهم بما يدل على شدة اهتمامه بها، كان مظنة أن يقال: فلم ذلك مع ما له من كمال الاهتمام به؟ فأشار إلى جوابه بما محصوله: هم جميعاً في قبضة قدرته وتصرفه، لا يفوته منهم أحد، فلم يتحقق باعث يبعثه على الاستعجال؛ لأن ما يبعث المستعجل إنما هو خوف الفوات، وحيث لم يخف ذلك قسم الدهر كله إلى قسمين. أحدهما: مدة أيام الدنيا، والآخر: يوم القيامة. وجعل المدة الأولى أيام التكليف والابتلاء، والمدة الثانية للحساب والجزاء. وجعل كل واحدة من الدارين محل الرزايا، والمصائب، ومنبع البلايا، والنوائب. ولم يجعل لواحد من الثقلين سبيلاً للفرار منهما، والهرب مما قضاه فيهما. فقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ متعلق بقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، فكانا بمنزلة كلام واحد.

﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ لم يقل[2]: إن استطعتما بلفظ التثنية؛ لأن كل واحد منهما فريق، كقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: كل فريق منهم يختصم فجمع الضمير هنا نظراً إلى معنى الثقلين، وثناه في قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ كما سيأتي نظراً

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

إلى اللفظ؛ أي: إن قدرتم على ﴿أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض، ونواحيهما هاربين من الله تعالى، فارين من قضائه ﴿فَٱنفُذُواْ﴾؛ أي: فاخرجوا منها، وخلصوا أنفسكم من عقابي، وهو أمر تعجيز، والمراد: أنهم لا يفوتونه، ولا يعجزونه، حتى لا يقدر عليهم.

والمعنى[1]: إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض فاهربو، واخرجوا منها، فحيثما كنتم يدرككم الموت. وقيل: يقال لهم: هذا يوم القيامة.

والمعنى: إن استطعتم أن تخرجوا من أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فاخرجوا. وقيل: معناه: إن استطعتم أن تهربوا من قضائي، وتخرجوا من ملكي، ومن سمائي وأرضي فافعلوا.

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾؛ أي: لا تقدرون على النفوذ والخروج ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: إلا بقوّة، وقهر، وغلبة. وأنى لكم ذلك؟ لأنكم حيثما توجهتم كنتم في ملكي وسلطاني، وأنتم من ذلك بمعزل بعيد.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموا، ولن تعلموه إلا بسلطان؛ أي: إلا ببينة من الله تعالى نصبها، فتعرجون عليها أفكاركم، روي: أن الملائكة تنزل، فتحيط بجميع الخلائق، فيهرب الإنس والجن، فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به، فتقول لهم الملائكة ذلك، فكما لا يقدر أحد على الفرار يوم القيامة، كذلك لا يقدر في الدنيا، فيدركه الموت والقضاء لا محالة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ التي من جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد. فإنها تزيد المحسن إحساناً، وتكف المسيء عن إساءته. والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة. ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ وتنكران، وقرأ الجمهور ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ على خطاب الجماعة. لأنّ كلًّا من الفريقين تحته أفراد كثيرة، كقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾. وقرأ زيد بن علي ﴿إن استطعتما﴾ على خطاب تثنية الثقلين، ومراعاة

---

(١) الخازن.

الجن والإنس.

والخلاصة[1]: أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من عقاب الله، فارين من عذابه فافعلوا، والمراد أنكم لا تسطيعون ذلك. فهو محيط بكم لا تقدرون على الخلاص منه، فأينما ذهبتم أحيط بكم. ثم بين السبب في عدم إمكان الهرب، فقال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: إنّ المهرب إنما يكون بالقوة والقهر، وأنى لكم بهما، وممن تستمدونهما، وأنتم لا تجدون إذ ذاك حولاً ولا طولاً. فبأيّ نعم ربكما التي من جملتها التحذير، والتهديد تكذّبان مع أن من حذركم، وأنذركم قادر على الإيقاع بكم دون مهلة، والعفو عن المذنب مع كمال القدرة عليه من أجل النعم التي يسديها الله تعالى إلى عباده.

ثم بين السبب في طلب المهرب فقال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ أيها الثقلان ﴿شُوَاظٌ﴾؛ أي: لهب خالص لا دخان فيه. وقيل: هو اللهب الأخضر المنقطع من النار ﴿مِّن نَّارٍ﴾ صفة لشواظ ﴿وَنُحَاسٌ﴾؛ أي: دخان لا لهب معه أو صفر مذاب يصب على رؤوسهم، يسوقانكما إلى المحشر. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾؛ أي: لا تمتنعان من ذلك العذاب؛ أي: لا تقدران على الامتناع من عذاب الله تعالى.

والمعنى: أي يُصب عليكما ألوان من النيران، فمن لهب خالص يضيء كضوء السراج إلى نار مختلطة بالدخان، فلا تستطيعان المهرب منها، بل يسوقكم إلى المحشر سوقا.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُرْسَلُ﴾ بالتحتية، مبنياً للمفعول. وقرأ زيد بن عليّ ﴿نُرْسل﴾ بالنون مبنياً للفاعل، ﴿عَلَيْكُمَا شُواظاً﴾ بالنصب من نار، و﴿نحاسا﴾ بالنصب عطفاً على ﴿شواظاً﴾. وقرأ الجمهور ﴿شُوَاظٌ﴾ بضم الشين. وقرأ عيسى، وابن كثير وشبل بكسرها. وقرأ الجمهور ﴿وَنُحَاسٌ﴾ بالرفع عطفاً على شواظ، وقرأ ابن أبي إسحاق، والنخعيّ، وابن كثير، وأبو عمرو بالجر عطفاً على نار. وقرأ الكلبي، وطلحة، ومجاهد بكسر نون نحاس والسين. وقرأ ابن جبير ﴿ونحس﴾ كما تقول: يوم نحس. وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة، وابن أبي إسحاق أيضاً

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

بالحركات الثلاث في الحاء على التخيير. وقرأ حنظلة بن نعمان، ﴿ونَحسٍ﴾ بفتح النون وكسر السين. وقرأ الحسن، وإسماعيل ﴿ونُحُسٌ﴾ بضمتين والكسر.

والنحاس[1]: الصفر المذاب، يصب على رؤوسهم، قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، وقال سعيد بن جبير: هو الدخان الذي لا لهب له، وبه قال الخليل، وقال الضحاك: هو درديُّ الزيت المغلي، وقال الكسائي: هو النار التي لها ريح شديدة، وقيل: هو المهل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾؛ أي: فبأيّ هذه النعم ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التهديد لطف. والتمييز بين المطيع والعاصي بالإنعام على الأول، والانتقام من الثاني من أجل نعم الإله القادر على جزاء عباده.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: انصدعت يوم القيامة، وانفك بعضها من بعض لقيام الساعة أو انفرجت، فصارت أبواباً لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾؛ أي: صارت كوردة حمراء في اللون، وهي الزهرة المعروفة التي تشم، والغالب على الوردة الحمرة، قال الماوردي: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل، وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق. ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ خبر ثان لكانت، أي[2]: كدهن الزيت، فكانت في حمرة الوردة، وفي جريان الدهن؛ أي: تذوب، وتجري كذوبان الدهن وجريه، فتصير حمراء من حرارة جهنم، وتصير مثل الدهن في رقته، وذوبانه. وهو إما جمع دهن أو اسم لما يدهن به كالإدام لما يؤتدم به. وجواب إذا محذوف؛ أي: يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال. قال سعدي المفتي: ناصب إذا محذوف؛ أي: كان ما كان من الأمر الهائل الذي لا يحيط به نطاق العبارة، أو رأيت أمراً عظيماً هائلاً. وبهذا الاعتبار تتسبب هذه الجملة عما قبلها؛ لأن إرسال الشواظ يكون سبباً لحدوث الأمر الهائل أو رؤيته في ذلك الوقت.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾ مع عظم شأنها؛ فإن من جملتها ما في هذا

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

التهديد والتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير، والإعراض عن الشر. وقرأ عبيد بن عمير ﴿وَرْدَةٌ﴾ بالرفع بمعنى: فحصلت سماء وردة. وهو من الكلام الذي يسمى بالتجريد.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾؛ أي[1]: يوم إذا انشقت السماء حسب ما ذكر ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم، فلا يحتاج في تمييز المذنب عن غيره إلى أن يسأل عن ذنبه إن أراد أحد أن يطلع على أحوال أهل المحشر، وذلك أول ما يخرجون من القبور، ويحشرون إلى الموقف فوجاً فوجاً على اختلاف مراتبهم. وأما قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ ونحوه في موقف المناقشة والحساب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسألهم هل عملتم كذا، وكذا. فإنه أعلم بذلك منهم، ولكن يسألهم لم عملتم كذا، وكذا، وعنه أيضاً: لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ. وضمير ﴿ذَنۢبِهِۦٓ﴾ للإنس لتقدمه رتبةً. وإفراده لما أن المراد فرد من الإنس. كأنه قيل: لا يسأل عن ذنبه إنسي ولا جني. وأراد بالجان: الجن، كما يقال: تميم، ويراد ولده.

والمعنى[2]: فيوم إذ انشقت السماء لا يسأل أحد من الإنس، ولا من الجن عن ذنبه. لأنهم يعرفون عند خروجهم من قبورهم. ونحو الآية قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. والجمع بين هذه الآية، وبين نحو قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ أنَّ ما هنا يكون في موقف، والسؤال يكون في موقف آخر. لأن مواقف القيامة مختلفة الأحوال والأهوال. وقرأ الحسن[3]، وعمرو بن عبيد ﴿ولا جأن﴾ بالهمز فراراً من التقاء الساكنين، وإن كان التقاؤهما على حده.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: فبأيّ هذه النعم تكذّبان؛ فإن تخويف المجرم نعمة عليه، حتى يرتدع عن ذنبه، ويثوب إلى رشده، ويثوب إلى ربه.

وجملة قوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل عدم السؤال. والسيماء: العلامة، كما سيأتي؛ أي: يعرف المشركون يومئذٍ بعلاقاتهم، وهي سواد

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

الوجوه، وزرقة العيون، وقيل: بما يعلوهم من الكآبة والحزن، كما يعرف الصالحون بأضداد ذلك، وقرأ حماد بن أبي سليمان ﴿بسيمائهم﴾ بالمد، والجمهور ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ بالقصر.

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى﴾ جمع ناصية[1]. وهي مقدم الرأس، والمراد هنا: شعرها، والجار والمجرور هو القائم مقام الفاعل. ﴿وَٱلْأَقْدَامِ﴾ جمع قدم. يقال: أخذه إذا كان المأخوذ مقصوداً بالأخذ، ومنه: قوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾، ونحوه. وأخذ به إذا كان المأخوذ شيئاً من ملابسات المقصود بالأخذ. ومنه: قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾، وقول المستغيث: خذ بيدي أخذ الله بيدك.

والمعنى: تأخذ الملائكة بنواصيهم؛ أي: بشعور مقدم رؤوسهم، وأقدامهم، فيقذفونهم في النار، أو تسحبهم الملائكة إلى النار تارةً تأخذ بالنواصي، وتجرهم على وجوههم، أو يجمع بين نواصيهم وأقدامهم في سلسلة من وراء ظهورهم.

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾ من المواعظ والزواجر، فإن من جملتها هذا الترهيب الشديد، والوعيد البالغ الذي ترجف له القلوب، وتضطرب لهوله الأحشاء.

والمعنى[2]: أي يعرف المجرمون حينئذٍ بعلامات يمتازون بها عن سواهم، فلا حاجة حينئذٍ إلى السؤال والجواب؛ لأنَّ السيما ميزت كل مجرم بنوع جرمه، ولقد اهتدى الإنسان بعقله إلى فوائد هذه العلامات في الدنيا، فأنشأت الحكومات إدرات خاصة لعلامات المشتبه في سلوكهم، ومعتادي الإجرام فتأخذ إبهاماتهم، وتحفظها في أضابير خاصة بهم. ولكل امرىء خطوط في إبهامه، لا تشابه خطوط غيره فيه، ولا يحصل فيها التباس، فمتى أحدث أحدهم حدثاً، وجاء بجرم روجع ملفه الخاص، واستخرجت صورة إبهامه من ملفه، وطبقت على الصورة الخارجية، ولاقى في المحاكم ما يستحقه من عقاب.

والخلاصة: أنّ لكل امرىء أحوالاً تخصه في جسمه، وعقله، وأخلاقه. يعرف الناس منها الآن قليلاً، وبقية علمها عند الله تعالى، يعلمها ملائكته يوم القيامة، فيعرفون المجرمين بها.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ثم تسحبهم الملائكة تارة بأخذ النواصي، وأخرى بأخذ الأقدام. روي عن الضحاك: أن الملك يجمع بين ناصية أحدهم وقدميه في سلسلة من وراء ظهره، ثم يكسر ظهره، ويلقيه في النار، وقيل: تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحباً بالناصية، وبعضهم سحباً بالقدم، ولا نجزم بشيء من ذلك إلا بالنص القاطع، وهذا الوضع معهم سبيل من سبل الإهانة، والإذلال، والنكال.

ويقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ النار التي تلقون فيها الآن ﴿جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: جهنم التي كنتم تكذبون بها في الدنيا، فها أنتم الآن قد شاهدتموها، ورأيتموها رأي العين. فذوقوا عذابها، وهذه الجملة مستأنفة[1] واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصي والأقدام؟ فقيل: يقال لهم: هذه جهنم تقريعاً لهم، وتوبيخاً.

وجملة قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾؛ أي: بين جهنم، فتحرقهم ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ فتصب على وجوههم. حال من المجرمين أو مستأنفة؛ أي: يدورون بين النار، يحرقون بها، وبين حميم آن؛ أي: ماء بالغ من الحرراة أقصاها ونهايتها، يصب عليهم أو يسقون منه؛ أي: يطوفون من النار إلى الحميم، ومن الحميم إلى النار دهشاً وعطشاً أبداً. والحميم: الماء الحار. والآني الذي قد انتهى حره، وبلغ غايته، من أنى يأني فهو آنٍ. مثل: قضى يقضي فهو قاض. قال أبو الليث: يسلط عليهم الجوع، فيؤتى بهم إلى الزقوم التي طلعها كرؤوس الشياطين، فأكلوا منها، فأخذت في حلوقهم، فاستغاثوا بالماء، فأوتوا به من الحميم. فإذا قربوه إلى وجوههم تناثر لحم وجوههم، ويشربون، فتغلي أجوافهم، ويخرج جميع ما فيها. ثم يلقى عليهم الجوع، فمرة يذهب بهم إلى الحميم، ومرة إلى الزقوم، وقيل: هو واد من أودية جهنم، يجمع فيه صديد أهل النار، فيغمسون فيه، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾ فإنَّ من جملتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف، وما يحصل به من الترغيب في الخير، والترهيب من الشر.

فإن قلت[2]: هذه الأمور المذكورة في هذه الآيات من قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ إلى هنا ليست نعماً، فكيف عقبها بقوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾؟

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

قلت: المذكور في هذه الآيات مواعظ، وزواجر، وتخويف. وكل ذلك نعمة من الله تعالى، لأنها تزجر العبد عن المعاصي، فصارت نعماً. فحسن ختم كل آية منها بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾.

وقرأ عليٌّ، والسلميّ[1]: ﴿يطافون﴾. والأعمش، وطلحة، وابن مقسم ﴿يُطوِّفون﴾ بضم الياء، وفتح الطاء، وكسر ﴿الواو﴾ مشدّدة. وقرىء ﴿يطوفون﴾ أصله: يتطوفون. وقرأ الجمهور ﴿يَطُوفُونَ﴾ مضارع طاف الثلاثي.

الإعراب

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾ مبتدأ، وجملة ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ خبره. وقد تعددت الأخبار في الأفعال التي وردت خالية من العاطف على نمط التعديد وإقامة الحجة على الكافرين. وهذا عند من لا يرى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾ آية. ومن عدّها آية أعرب ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الله الرحمن أو مبتدأ خبره محذوف؛ أي: الرحمن ربّنا. و﴿عَلَّمَ﴾ يتعدّى إلى مفعولين، حذف أولهما لشموله؛ أي: علم من يتعلم. وهذا أولى من تخصيص المفعول الأول المحذوف بواحد معين. ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿عَلَّمَ﴾، على كونها خبر المبتدأ. ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعولان، معطوف على جملة ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾. ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ مبتدأ، ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾ معطوف عليه، ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ خبر المبتدأ. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾. ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ الواو: عاطفة، ﴿النجم﴾ مبتدأ، ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ معطوف عليه، وجملة ﴿يَسْجُدَانِ﴾ خبر المبتدأ، وما عطف إليه. والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾. ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يفسّره المذكور بعد، أي: ورفع السماء.

---

(١) البحر المحيط.

والجملة معطوفة على جملة ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾. ﴿رَفَعَهَا﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة مفسّرة، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾.
﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾ مصدرية، ﴿لا﴾ نافية، ﴿تَطْغَوْا﴾ فعل مضارع منصوب بأن المصدرية، والواو: فاعل. والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدّرة، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿وضع﴾، على كونه مفعولاً لأجله؛ أي: وضع لأجل عدم طغيانكم. ويجوز أن تكون ﴿أن﴾ مفسّرة، و﴿لا﴾ ناهية، و﴿تَطْغَوْا﴾ مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية. فإن قيل: إنَّ من شرط المفسرة أن تكون مسبوقة بجملة فيها معنى القول دون حروفه. قلنا: إنّ ﴿وضع الميزان﴾ يستدعي كلاماً من الأمر بالعدل فيه. ﴿فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ متعقان بـ ﴿تَطْغَوْا﴾.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أقيموا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل، ﴿ٱلْوَزْنَ﴾ مفعول به، ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ حال من الوزن؛ أي: أقيموه حال كونه متلبساً بالقسط والعدل. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾. ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿لا﴾ ناهية، ﴿تُخْسِرُوا۟﴾ فعل، وفاعل، مجزوم بلا الناهية، ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿الأرض﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، تقديره: ووضع الأرض. والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾. ﴿وَضَعَهَا﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿لِلْأَنَامِ﴾ متعلق به والجملة مفسرة، لا محل لها من الإعراب. ﴿فِيهَا﴾ خبر مقدم، ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ مبتدأ مؤخّر. والجملة في محل النصب، حال من الأرض. ﴿وَٱلنَّخْلُ﴾ معطوف على فاكهة، ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ صفة لـ﴿النخل﴾، ﴿وَٱلْحَبُّ﴾ معطوف على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ صفة لـ ﴿الحب﴾، ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ معطوف على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ أيضاً. هذا على قراءة الرفع. وأما على قراءة النصب، فالثلاثة منصوبة بفعل محذوف، تقديره: خلق. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم من النعم،

وأردتم تذكيركم وتنبيهكم فأقول لكم: بأيّ آلاء ربكما. ﴿بأي﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تُكَذِّبَانِ﴾، ﴿أيّ﴾ مضاف ﴿ءَالَآءِ﴾ مضاف إليه، ﴿ءَالَآءِ﴾ مضاف، ﴿رَبِّكُمَا﴾ مضاف إليه، ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبات النون، وألف التثنية فاعل، والخطاب للثقلين: الإنس والجن. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. والاستفهام فيه للتقرير.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾ فعل، وفاعل مستتر، يعود على الله، ومفعول به، ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾، ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ صفة لصلصال. والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لتوبيخهم على إخلائهم بواجب شكر المنعم على إنعامه. ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾. ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾، و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، ﴿مِّن نَّارٍ﴾ صفة لـ ﴿مَّارِجٍ﴾، و﴿مِن﴾ للبيان أو للتبعيض. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ تقدم إعراب هذه الآية آنفاً. ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو رب المشرقين، ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ معطوف عليه، والجملة مستأنفة. وقيل: هو مبتدأ، خبره جملة ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾. والأوّل أولى. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة الفعلية مستأنفة. وجملة ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ في محل النصب حال من البحرين. وهي قريبة من الحال المقدرة. ويجوز أن تكون مقارنة. ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ظرف، ومضاف، متعلق بمحذوف، خبر مقدم، ﴿بَرْزَخٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في محل النصب، حال من الضمير في ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾، أو مستأنفة. ﴿لَّا﴾ نافية، ﴿يَبْغِيَانِ﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾. ومعنى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ كل منهما لا يتعدى حدوده. فالعذب منفرد بعذوبته، والملح منفرد بملوحته. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ تقدّم إعرابها. ﴿يَخْرُجُ﴾ فعل مضارع، ﴿مِنْهُمَا﴾ متعلق بـ ﴿يَخْرُجُ﴾، ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ فاعل، ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ معطوف عليه. والجملة مستأنفة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ تقدّم إعرابها.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَهُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿له﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ مبتدأ مؤخر، مرفوع، وعلامة رفعه ضمّة مقدرة على الياء المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين، منع من ظهورها الثقل؛ لأنّه اسم منقوص، وحذفت الياء خطّاً تبعاً لرسم المصحف العثماني. والجملة مستأنفة. ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْجَوَارِ﴾، ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متعلق بـ ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾. ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ حال من الجوار أو من الضمير في ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾ تقدّم إعرابها. ﴿كُلُّ﴾ مبتدأ، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول، في محل الجر مضاف إليه، ﴿عَلَيْهَا﴾ جار ومجرور، صلة لمن الموصولة. ﴿فَانٍ﴾ خبر ﴿كُلُّ﴾ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة للتخلّص من التقاء الساكنين، منع من ظهورها الثقل؛ لأنه اسم منقوص. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَيَبْقَىٰ﴾ الواو: عاطفة، ﴿يبقى﴾ فعل مضارع، ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ فاعل، ومضاف إليه. والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية. ﴿ذُو﴾ صفة: لـ ﴿وَجْهُ﴾، ﴿ٱلْجَلَـٰلِ﴾ مضاف إليه، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ معطوف على الجلال. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾ فعل مضارع، ومفعول أوّل، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: يسأله من في السموات المغفرة لأهل الأرض، ومن في الأرض المغفرة والرزق. ﴿مَن﴾ اسم موصول، فاعل، ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ صلته، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على السماوات. والجملة مستأنفة. ولك أن تجعله حالاً من ﴿وَجْهُ﴾، والعامل فيه ﴿يبقى﴾؛ أي: يبقى وجه ربّك حال كونه مسؤولاً لأهل السموات والأرض. ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ ظرف، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر هو، و﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿فِى شَأْنٍ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ تقدّم إعرابها.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿سَنَفْرُغُ﴾ السين: حرف استقبال، ﴿نفرغ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود

على الله، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿نفرغ﴾. والجملة مستأنفة. مسوقة للتهديد والوعيد. ﴿أَيُّهَ﴾ ﴿أيّ﴾ منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء، والهاء: حرف تنبيه، زائد تعويضاً عمّا فات أيّ من الإضافة، مبنيّ بسكون على الألف المحذوفة لفظاً لالتقاء الساكنين، وخطّاً تبعاً لرسم المصحف العثماني. ﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾ بدل من «أيّ». وجملة النداء جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿معشر الجن﴾ منادى مضاف، ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْجِنِّ﴾ وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِنِ﴾ حرف شرط، ﴿ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فعل، وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿تَنفُذُوا۟﴾ فعل مضارع، وفاعل، منصوب بـ ﴿أن﴾. والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إن استطعتم نفوذكم من أقطار السموات والأرض. ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ ﴿تَنفُذُوا۟﴾ ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ الفاء: رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿لا﴾ نافية، ﴿تَنفُذُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع، والواو: فاعل، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ متعلق بـ ﴿تَنفُذُونَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ تقدم إعرابها.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿يُرْسَلُ﴾ فعل مضارع، مغيّر الصيغة، ﴿عَلَيْكُمَا﴾ متعلق بـ ﴿يُرْسَلُ﴾، ﴿شُوَاظٌ﴾ نائب فاعل، ﴿مِّن نَّارٍ﴾ صفة لـ ﴿شُوَاظٌ﴾، ﴿وَنُحَاسٌ﴾ بالرفع معطوف على ﴿شُوَاظٌ﴾. وقرىء بالجرّ عطفاً على ﴿نَّارٍ﴾، ولكنه على حذف موصوف؛ أي: وشيء من نحاس، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿فَلَا﴾ الفاء: عاطفة، و﴿لا﴾ نافية، ﴿تَنتَصِرَانِ﴾ فعل مضارع، مرفوع بالنون، والألف فاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرْسَلُ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿فَكَانَتْ﴾ الفاء: عاطفة،

﴿كانت﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على السماء، ﴿وَرۡدَةً﴾ خبرها، ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ صفة لـ ﴿وَرۡدَةً﴾، أو خبر ثان لكان أو حال من اسم ﴿كانت﴾. وجملة ﴿كانت﴾ معطوفة على جملة ﴿ٱنشَقَّتِ﴾، وجواب إذا محذوف، تقديره: رأيت أمراً عظيماً، وأهوالاً هائلة، وجملة إذا مستأنفة، أو الجواب جملة قوله: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠﴾ تقدم إعرابها. ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ الفاء: استئنافية، أو رابطة لجواب إذا الشرطية جوازاً، ﴿يومَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿يُسۡـَٔلُ﴾ الآتي، ﴿ويوم﴾ مضاف، ﴿إذٍ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر، مضاف إليه، بنيّ بسكون مقدّر، منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلّص من التقاء الساكنين، ﴿لَّا﴾ نافية، ﴿يُسۡـَٔلُ﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة، ﴿عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿يُسۡـَٔلُ﴾، ﴿إِنسٞ﴾ نائب فاعل، ﴿وَلَا جَآنّٞ﴾ معطوف عليه. والجملة الفعلية مستأنفة. أو جواب إذا، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥﴾ تقدم إعرابها.

﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥﴾.

﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فعل، ونائب فاعل. والجملة مستأنفة. ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُعۡرَفُ﴾. والجملة مستأنفة، ﴿فَيُؤۡخَذُ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿يؤخذ﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة، ﴿بِٱلنَّوَٰصِي﴾ جار ومجرور، في محل الرفع، نائب فاعل، لـ ﴿يؤخذ﴾، ﴿وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ معطوف على النواصي. والجملة معطوفة على جملة ﴿يُعۡرَفُ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥﴾ تقدم إعرابها. ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّتِي﴾ صفة لجهنم، ﴿يُكَذِّبُ﴾ فعل مضارع، ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ ﴿يُكَذِّبُ﴾، ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فاعل لـ ﴿يُكَذِّبُ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿يَطُوفُونَ﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب، حال من المجرمين، أو مستأنفة. ﴿بَيۡنَهَا﴾ ظرف متعلق بـ ﴿يَطُوفُونَ﴾، ﴿وَبَيۡنَ حَمِيمٍ﴾ ظرف، ومضاف إليه، معطوف على بينها، و﴿ءَانٖ﴾ صف لـ ﴿حَمِيمٍ﴾، مجرور، وعلامة جرّه كسرة مقدرة على الياء المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين، منع من ظهورها الثقل. لأنّه اسم منقوص نظير قاض. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥﴾ تقدم إعرابها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾ اسم من أسماء الله تعالى الحسنى. ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾ والإنسان هو هذا النوع المعرّف بالحيوان الناطق. ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ والبيان في اللغة: هو المنطق الفصيح المعرب عمّا في الضمير. وفي الاصطلاح: أحد فنون البلاغة الثلاثة، وهو يبحث في التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والكناية، وقد تقدمت أمثلتها من القرآن في هذا الكتاب غير ما مرّة، وقال الراغب: البيان: هو الكشف عن الشيء، وهو أعم من النطق؛ لأنّ النطق مختص بالإنسان، وسمي الكلام بياناً لكشفه عن المعنى المقصود، وإظهاره، انتهى. والمراد بالبيان هنا تعبير الإنسان عمّا في ضميره، وإفهامه لغيره.

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾؛ أي: يجريان بحساب دقيق منظم، والحساب يجوز فيه وجهان.

أحدهما: كونه مصدراً بمعنى الحساب كالغفران، والكفران، والشكران، والرجحان. يقال: حسبه إذا عده، وبابه نصر حساباً بالكسر، وحسباناً بالضم. وأما الحسبان بالكسر فمصدر بمعنى الظن، من حسب بالكسر بمعنى ظن.

والثاني: أنه جمع حساب كشهاب وشهبان، ورغيف ورغفان.

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ﴾ والنجم: ما ليس له ساق قويّ، ولا يدوم فوق سنة أو سنتين كالزروع من الحنطة، والشعير، ونحوهما، وسائر العشب، والبقول، والأبازير. وأصل النجم الطلوع، يقال: نجم القرن والنبات إذاطلعا، وبه سمي نجم السماء. وقيل: المراد به: نجم السماء، وحده وأراد به جميع النجوم. والمراد بسجوده: أفوله من جانب الغرب. والشجر: ما له ساق قوي، ويدوم أكثر من سنتين فما فوق كالنخل، والمشمش، والتفاح، والتين، والزيتون.

﴿يَسۡجُدَانِ﴾؛ أي: ينقادان لله طبعاً كما ينقاد المكلفون اختياراً. ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾؛ أي: خلقها مرفوعة المحل والمرتبة. ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾؛ أي: أثبت العدل، وشرعه، وأوجبه. والميزان: العدل في النظام. وأصله: الموزان، لأنه من وزن فهو مفعال من الوزن، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة. ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ

﴿٨﴾ أصله: تطغيوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لالتقاء الساكنين.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾ أصله: وأقوموا، نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد، وفي «المفردات»: الوزن: معرفة قدر الشيء. والمتعارف في الوزن عند العامّة ما يقدر بالقسطاس والقبان. ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: اجعلوه مستقيماً بالعدل، وقال أبو عبيدة: الإقامة باليد، والقسط بالقلب. ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ يقال خسرت الشيء بالفتح، وأخسرته نقصته، وبابه ضرب. وأما خسر في البيع فبالكسر كما في «المختار». وقال في «القاموس»: خسر كفرح، وضرب ضل. والخسر والإخسار: النقص؛ أي: لا تنقصوه. لأن من حقه أن يسوى. لأنه المقصود من وضعه.

فائدة: والفرق بين الطغيان والإخسار والقسط أن الطغيان: أخذ الزائد، والإخسار: إعطاء الناقص، والقسط: التوسط بين الطرفين المذمومين، اهـ كرخي.

﴿لِلْأَنَامِ﴾؛ أي: لمنافع الأنام. وهو جمع لا واحد له من لفظه بمعنى الخلق والجن، والإنس مما على الأرض، كما في «القاموس». ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ والفاكهة: كل ما يتفكه به الإنسان من الثمار. ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ والأكمام: جمع كم بالكسر. وهو وعاء الزهرة قبل التفتق، وفي «الصحاح»: والكم بالكسر والكمامة: وعاء الطلع، وغطاء النور، والجمع كمام، وأكمة، وأكمام، وأكاميم أيضاً والكمام بالكسر والكمامة أيضاً: ما يكم به فم البعير لئلا يعض. يقال منه: بعير مكموم؛ أي: محجوم، وتكممت الشيء غطيته. والكم: ما ستر شيئاً، وغطاه، ومنه: كم القميص بالضم. والجمع كمام، وكممة. والكمة: القلنسوة المدورة لأنها تغطي الرأس.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ والحب: كل ما يتغذى به، ويقتات كالحنطة والشعير ونحوهما. والعصف: ورق الزرع أو ورق النبات اليابس. وقيل: ورق النبات على السنبلة كالتبن. وقيل: العصف: كل ما يعصف فيؤكل من الزرع. وقيل: ورق كل شيء يخرج منه الحب. ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ والريحان: كل مشموم طيب الرائحة من النبات. وقال في «المفردات»: الريحان: كل ما له رائحة. وقيل: الرزق، ثم يقال

للحب المأكول ريحان كما في قوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾. وقيل: للأعرابيّ: إلى أين؟ قال: أطلب ريحان الله؛ أي: رزقه. والأصل: ما ذكرنا، انتهى. والريحان عند الفقهاء: ما لساقه رائحة طيبة كما لورقه. كالآس. والورد: ما لورقه رائحة طيبة فقط، كالياسمين. كذا في المغرب. قال ابن الشيخ: الريحان: كل بقلة طيبة الرائحة، سميت ريحاناً لأن الإنسان يراح لها رائحة طيبة؛ أي: يشم، يقال: راح الشيء يراحه، ويرحيه، وأراح الشيء يريحه إذا وجد ريحه، والريحان في الأصل: ريوحان كفيعلان، من روح، فقلبت الواو ياء وأدغم، ثم خفف بحذف عين الكلمة كما في ميت، أو كفوعلان قلبت واوه ياء للتخفيف أو للفرق بينه وبين الروحان. وهو ما له روح.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ الآلاء جمع إلى بكسر الهمزة وسكون اللام، كحمل وأحمال وأجمع ألى بضم الهمزة وسكون اللام كقفل وأقفال أو جمع إلى كمعي وأمعاء، أو جمع ألى كعصي. أربع لغات. أصله: أألا أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة، وأبدلت الهمزة الساكنة الثانية حرف مد لوقوعها إثر فتح، فصار آلاء. وتكرار هذه الآية في هذه السورة لطرد الغفلة، وتأكيد الحجة، وتذكير النعمة، وتقريرها. كما في قوله:

لاَ تَقْطَعَنَّ الصَّدِيْقَ مَا طَرَفَتْ ... عَيْنَاكَ مِنْ قَوْلِ كَاشِحٍ أَشِرِ
وَلاَ تَمَلَّنَّ مِنْ زِيَارَتِهِ ... زُرْهُ وَزُرْهُ زُرْ ثُمَّ زُرْ وَزُرِ

﴿صَلْصَـٰلٍ﴾ والصلصال: الطين اليابس له صلصلة؛ أي: صوت ليبسه إذا نقر. ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ الفخار: الخزف. وهو الطين المطبوخ بالنار كالآجر. ﴿ٱلْجَآنَّ﴾ أبو الجنّ. وأل فيه للجنس. ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ المارج: اللهب الصافي الذي لا دخان فيه. وقيل: هو المختلط بسواد النار من مرج الشيء إذا اضطرب، واختلط. ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ أي: مشرقي الشمس صيفاً وشتاءً. ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي: مغربيهما كذلك.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: أرسلهما، وأجراهما من قولك: مرجت الدابة في المرعى؛ أي: أرسلتها فيه. وقيل: معنى ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: خلطهما العذب والملح في مرأى العين. ومع ذلك لا يتجاوز أحدهما على الآخر، وأصل المرج: الإهمال كما تمرج الدابة في المرعى. وفي «المصباح»: والمرج أرض ذات نبات

ومرعى، والجمع مروج. مثل: فلس وفلوس، ومرجت الدابة تمرج مرجاً من باب قتل رعت في المرج ومرجتها مرجاً أرسلتها ترعى في المرج يتعدى، ولا يتعدى. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾؛ أي: يتجاوزان، وتتماس سطوحهما، لا فصل بينهما في رأي العين.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾؛ أي: حاجز. والبرزخ: الحائل بين الشيئين، وجمعه برازخ. ومنه: سمي القبر برزخاً؛ لأنه بين الدنيا والآخرة، وقيل للوسوسة: برزخ الإيمان. لأنها طائفة بين الشك واليقين. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ واللؤلؤ: الدر المخلوق في الأصداف، والمرجان: الخرز الأحمر. وهو اسم أعجمي معرب. وقيل: عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف. وقال في «خريدة العجائب»: اللؤلؤ يتكوَّن في بحر الهند وفارس. والمرجان ينبت في البحر كالشجر، وإذا كلس المرجان عقد الزئبق، فمنه: أبيض، ومنه: أحمر، ومنه: أسود، وهو يقوي البصر كحلاً، وينشف رطوبة العين. انتهى. وقيل: اللؤلؤ: كبار الدر، والمرجان: صغاره.

﴿الْجَوَارِ﴾ السفن الكبار، جمع جارية. ﴿الْمُنْشَآتُ﴾؛ أي: المصنوعات. ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ الجبال، واحدها علم، وهو الجبل العالي كما في قول الخنساء:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِيْ رَأْسِهِ نَارُ

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ أصله: فاني، أستثقلت الضمة على الياء ثم حذفت فالتقى ساكنان، ثم حذفت الياء لبقاء دالها وهو كسرة النون، فصار فان. ﴿وَيَبْقَى﴾ فيه إعلال بالقلب. أصله: يبقى بوزن يفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾، أي: يطلبون منه ما يحتاجون إليه في ذواتهم حدوثاً وبقاءً، وفي سائر أحوالهم بلسان المقال أو بلسان الحال، ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾؛ أي: في أمر من الأمور، فيحدث أشخاصاً، ويجدد أحوالاً. ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾؛ أي: سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة. والمراد: التوفر على الجزاء والانتقام منهما. قال الزجاج: الفراغ في اللغة على ضربين. أحدهما: الفراغ من الشغل، والآخر: القصد إلى الشيء، والإقبال عليه كما هنا اهـ. ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ قال الراغب: الثقل والخفة متقابلان، وكل ما يترجح على ما يوزن به أو يقدر به. يقال: هو ثقيل. وأصله في الأجسام، ثم يقال في المعاني، أثقله الغرم،

الوزر، انتهى. والمراد هنا: الإنس والجن. سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض، يعني: أنهما شبهاً بثقل الدابة، وهو تثنية ثقل بفتحتين فعل بمعنى مفعل، لأنهما أثقلا الأرض أو بمعنى مفعول؛ لأنهما أثقلا بالتكاليف؛ أي: أتعبا، اهـ شيخنا.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ والمعشر: الجماعة العظيمة، سميت به لبلوغه غاية الكثرة، فإن العشر هو العدد الكامل الكثير الذي لا عدد بعده إلا بتركيبه بما فيه من الآحاد، تقول: أحد عشر، واثنا عشر وعشرون وثلاثون؛ أي: اثنتا عشرات وثلاث عشرات. فإذا قيل: معشر فكأنه قيل: محل العشر الذي هو الكثرة الكاملة.

﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أصله: استطوعتم، بوزن استفعلت، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت، لكنها حذفت لما التقت ساكنة بآخر الفعل المسكن، لمناسبة إسناد الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك. ﴿أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال في «القاموس»: النفاذ: جواز الشيء عن الشيء، والخلوص منه كالنفوذ. ومخالطة السهم جوف الرمية، وخروج طرفه من الشق الآخر، وسائره فيه كالنفذ ونفذهم جازهم وتخلفهم، كأنفذهم، والنافذ الماضي في جميع أموره، انتهى. الأقطار: جمع قطر. وهو الناحية. يقال: طعنه فقطره، إذا ألقاه على أحد قطريه. وهما جانباه. ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: بقوة، وقهر، وغلبة. ﴿شُوَاظٌ﴾ الشواظ بضم الشين وكسرها. قال أبو عبيدة: هو اللهب الخالص الذي لا دخان فيه. ﴿وَنُحَاسٌ﴾ والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه قال النابغة الذبياني:

تُضِيءُ كَضَوْءِ ٱلسِّرَاجِ ٱلسَّلِيـ ... ـطِ لَمْ يَجْعَلِ ٱللهُ فِيْهِ نُحَاسَا

وقيل: النحاس: الصفر المذاب، يصب على رؤوسهم. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾؛ أي: فلا تمتنعان من الله، ولا يكون لكما منه ناصر. ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: انصدعت، وانفك بعضها من بعض. ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾؛ أي: كوردة حمراء في اللون. وهي الزهرة المعروفة التي تشم. والغالب على الورد الحمرة، قال الشاعر:

وَلَوْ كُنْتُ وَرْدَاً لَوْنُهُ لَعَشِقْتَنِيْ ... وَلَكِنَّ رَبِّيْ شَانَنِيْ بِسَوَادِيَا

﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ إما جمع دهن أو اسم لما يدهن به كالإدام لما يؤتدم به كما مر. وقيل: هو الأديم الأحمر.

﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ السيما بالكسر والقصر، والسيماء بالكسر والمد: العلامة، وزنه عفلي بتقديم عين الكلمة على فائها. لأنه من الوسم، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة. فالأصل: وسمي، ثم صار سومي، ثم صار سيمي. ففيه قلب مكاني، وقلب حرفي، ﴿بِٱلنَّوَٰصِى﴾ جمع ناصية. وهو مقدم الرأس، والمراد هنا: شعرها. ﴿يَطُوفُونَ﴾ أصله: يطوفون بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد. ﴿ءَانٍ﴾ وزنه فاع لحذف لامه بسبب التقاء الساكنين. لأنه من أنى يأني، مثل: قضى يقضي فهو قاض إذا انتهى. في الحر والفيح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الحذف إفادة للعموم في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ فقد حذف المفعول الأول لدلالة المعنى عليه؛ لأنَّ النعمة في التعليم، لا في تعليم شخص دون شخص. كما يقال: فلان يطعم إشارة إلى كرمه، ولا يبين من أطعمه.

ومنها: الإيهام في قوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ وهو عبارة عن إتيان المتكلم بكلام يوهم أنه أراد بالكلمة معنى يناسب ما قبلها، أو ما بعدها مع أنه ليس مراداً له؛ فإن ذكر الشمس والقمر يوهم السامع أن النجم أحد نجوم السماءمع أن المراد به: النبت الذي لا ساق له.

ومنها: الجناس بين النجم والشجر.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾، وكذلك المقابلة بين ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾، وبين ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾.

ومنها: تكرير لفظ ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ تشديداً للتوصية به، وتأكيداً للأمر باستعماله، والحث عليه.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ لأنّ الوضع حقيقة في الترك، فاستعاره للتشريع. فاشتق من الوضع بمعنى التشريع وضع بمعنى شرع على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: ذكر الخاص في قوله: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ بعد العام في قوله: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ إظهاراً لمزيته لما فيه من كثير الفوائد، كما مرّ.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ تقريراً للنعم المعدودة، وتأكيداً في التذكير بها كلها.

ومنها: الجناس المماثل بين الوزن والميزان في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ لأنّه على تقدير لام العلة؛ أي: لئلا تطغوا.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: كالجبال في العظم. فقد ذكر أداة الشبه، وحذف وجه الشبه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ أي: ذاته. فإنه من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

ومنها: المقابلة بين الفناء والبقاء اللذين هما ضدان في قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ ويسمى هذا فن الافتنان، وهو أن يأتي المتكلم في كلامه بفنين إما متضادين كما هنا أو مختلفين أو متفقين، وقد جمع سبحانه بين التعزية والفخر إذ عَزّى جميع المخلوقات، وتمدح بالانفراد بالبقاء بعد فناء الموجودات مع وصفه ذاته بعد انفراده بالبقاء بالجلال والإكرام.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ حيث شبه انتهاء الدنيا، وما فيها من تدبير شؤون الخلق بالأمر والنهي، والإماتة، والإحياء، والمنع، والإعطاء، ومجيء أمر الآخرة من الأخذ في الجزاء، وإيصال الثواب والعقاب إلى المكلفين، وبقاء شأن واحد. وهو محاسبة الإنس والجن بفراغ من

يشغله شأن عن شأن على سبيل التمثيل. لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ لأن الثقل الذي هو مفرد الثقلين حقيقة في حمل الدابة، قال ابن الشيخ: شبه الأرض بالحمولة التي تحمل الأثقال، وجعل الجن والإنس أثقالاً محمولة عليها.

ومنها: الأمر التعجيزي في قوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟﴾ ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ فالأمر فيه أمر تعجيز.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: كالوردة في الحمرة حذف وجه الشبه وأداة التشبيه، فصار بليغاً.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ حيث شبه تلون السماء حال انشقاقها بالوردة، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن، واختلاف ألوانه.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ حيث استعاره للدخان مع أنه حقيقة في الصفر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ
(٥٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَآءُ
ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦)
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ
خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ
خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٧٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لمّا ذكر[1] ما يراه المشركون بربّهم والعاصون لأوامره ونواهيه من الأهوال من إرسال الشواظ من النار عليهم، ومن أخذهم بالنواصي والأقدام إهانة لهم واحتقاراً، ومن التنقل بهم بين النار والحميم الآني الذي يشوي الوجوه.. ذكر هنا ما أعده من النعيم الروحي والجسماني لمن خشي ربه، وراقبه في السر والعلن، من جنات متشابهة الثمار، والفواكه تجري من تحتها الأنهار جناها دان لمن طلبه وأحب نيله يجلس فيها على فرش بطائنها من الديباج، ومن نساء حسان لم يقرب منهن أحد لا من الإنس ولا من الجن، وهن كالياقوت صفاء، واللؤلؤ بياضاً. وذلك كفاء ما قدموا من صالح العمل، وما أسلفوا في الأيام الخالية، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ . . .﴾ الآيات إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أنها تتميم لوصف الجنات بما يشوق الراغبين فيها ليعملوا ما يوصلهم إليها، ويرضي ربهم عنهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما روي عن ابن الزبير رضي الله عنه: أنه قال: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حين شرب لبناً على ظمأ، فأعجبه، ثم أخبر أنه من غير حل فاستقاء، فقال ﷺ لما سمعه: «رحمك الله، لقد أنزلت فيك آية». يعني: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾. ودخل فيها كل من يهم بالمعصية، فيذكر الله، فيدعها من مخافة الله تعالى. ذكره في «عين المعاني».

التفسير وأوجه القراءة

ولما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين ذكر نعمه الأخروية التي أنعم بها عليهم. فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾؛ أي: موقف ربه سبحانه. وهو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾. فالإضافة للاختصاص الملكي، إذ لا ملك يومئذٍ إلا لله تعالى. والمقام: اسم مكان كما فسرناه، أو مصدر ميمي؛ أي: خاف قيامه بين يدي ربه، وجزاءه على الأعمال خيراً أو شراً. وقيل: المعنى[2]: خاف قيام ربه عليه. وهو إشرافه على أحواله، واطلاعه على أفعاله وأقواله، كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾. قال مجاهد، والنخعي: هو الرجل يهم بالمعصية، فيذكر الله فيدعها من خوفه.

والمعنى[3]: أي ولمن خشي ربه، وراقبه في أعماله، وأيقن بأنه مجازيه عليها يوم العرض والحساب يوم تجزى كل نفس بما كسبت، فإذا هو هم بمعصية ذكر

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

الله، وأنه عليم بسره ونجواه، فتركها مخافة عقابه وشديد حسابه، فعل الخير وأحب الخير للناس.

﴿جَنَّتَانِ﴾ جنة روحية تصل به إلى حظيرة القدس، وجمال الملكوت، ورضا الله عنه ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. وجنة جسمانية بمقدار ما عمل في الدنيا من خير، وقدم من صالح عمل. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: بأي نعم ربكما أيها الثقلان تنكران، فإثابته المحسن منكم بما وصف، وعقابه العاصي بما عاقب من النعم العظمى والمنن الكبرى.

واختلف في الجنتين[1]، فقال مقاتل: يعني: جنّة عدن، وجنّة النعيم. وقيل: إحداهما التي خلقت له، والأخرى التي ورثها. وقيل: إحداهما: منزله، والأخرى: منزل أزواجه. وقيل: إحداهما: أسافل القصور، والأخرى: أعاليها. وقيل: جنة للخائف الإنسي، وجنة للخائف الجني على طريق التوزيع. فإن الخطاب للفريقين، والمعنى: لكل خائفين منكما جنة.

وفيه[2] نظر لقوله ﷺ: «إنَّ مؤمني الجن لهم ثواب، وعليهم عقاب، وليسوا من أهل الجنة مع أمة محمد، هم على الأعراف حائط الجنة، تجري فيه الأنهار، وتنبت فيه الأشجار والثمار». يقول الفقير: قد سبق في أواخر الأحقاف أن المذهب أن الجن في حكم بني آدم ثواباً وعقاباً؛ لأنهم مكلفون مثلهم، وإن لم نعلم كيفية ثوابهم. فارجع إلى التفصيل في تلك السورة. وقيل: جنة لعقيدته التي يعتقدها، وأخرى لعمله الذي يعمله. أو جنة لفعل الطاعات، وأخرى لترك المعاصي. أو جنة يثاب بها، وأخرى يتفضل بها عليه. وكذا ما جاء مثنى بعد. وقال الفراء: إنما هي جنة واحدة، والتثنية لأجل موافقة رؤوس الآي. قال النحاس: وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله تعالى. فإن الله يقول: ﴿جَنَّتَانِ﴾ ويصفهما بقوله: ﴿فِيهِمَا﴾ إلخ.

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ صفة لجنتان[3]، وما بينهما اعتراض وسط تنبيهاً على أن

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

تكذيب كل من الموصوف والصفة موجب للإنكار والتوبيخ. و﴿ذَوَاتَآ﴾ تثنية ذات بمعنى صاحبة. والأفنان جمع فنّ. وهو النوع من كل شيء، أي: ذواتا أنواع من الأشجار والثمار. أو جمع فنن. وهو الغصن المستقيم طولاً أو الذي يتشعب من فروع الشجرة؛ أي: ذواتا أغصان متشعبة من فروع الشجرة، وتخصيصها بالذكر؛ لأنها التي تورق، وتثمر، وتمد الظل، وتجتنى منها الثمار. يعني: أن في الوصف تذكيراً لها على سبيل الكناية، كأنّه قيل: ذواتا أوراق وأثمار وأظلال. وقيل[1]: معنى ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾: ذواتا فضل وسعة على ما سواهما، قاله قتادة. وقيل: الأفنان: ظل الأغصان على الحيطان، روي هذا عن مجاهد، وعكرمة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾ فإن كل واحد منهما.. ليس بمحل لتكذيب، ولا بموضع للإنكار.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ صفة أخرى لجنتان، فصل بينهما بقوله: ﴿فبأيّ...﴾ إلخ، مع أنه لم يفصل به بين الصفات الكائنة من قبيل العذاب، حيث قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ مع أن إرسال النحاس غير إرسال الشواظ.

أي: في كل واحدة من الجنتين عين جارية من ماء غير آسن، وعين من خمر لذة للشاربين، قاله عطية. وقال الحسن: إحداهما السلسبيل، والأخرى التسنيم تجريان، وتسيلان، وتسقيان تلك الأشجار والأغصان. وقال[2] أبو بكر الوراق رحمه الله: فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عزّ وجل، فتجريان في كل مكان شاء صاحبها، وإن علا مكانه كما تصعد المياه في الأشجار في كل غصن منها، وإن زاد علوها. وقيل: كل واحدة منهما مثل الدنيا أضعافاً مضاعفة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾ فإنَّ من جملتها هذه النعمة الكائنة في الجنة لأهل السعادة.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾؛ أي: صنفان رطب ويابس، لا ينقص أحدهما عن الآخر لذّة وطيباً، بخلاف ثمار الدنيا؛ فإنّ الطازج فيها ألذ طعماً، وأشهى مأكلاً. وقيل: صنفان معهود وغريب، لم يره أحد، ولم يسمع به. وقيل: صنفان حلو وحامض. وقيل: لونان. وقيل: صنفان في المنظر دون المطعم.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما في الدنيا حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنّة، حتى الحنظلة، إلا أنه حلو؛ لأن ما في الجنة خلق من حلاوة العبادة والطاعات، فلا يوجد فيها المر المخلوق من مرارة السيئات كزقوم جهنم، ونحوه. ولكون الجنة دار الجمال لا يوجد فيها اللون الأسود أيضاً، لأنه من آثار الجلال. وهذه الجملة صفة ثالثة لجنتان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾؛ أي: من هذه النعم اللذيذة. فإن في مجرد تعداد هذه النعم، ووصفها في هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير، والترهيب من فعل الشر، ما لا يخفى على من يفهم. وذلك نعمة عظمى، ومنة كبرى. فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه.

وبعد أن ذكر طعامهم ذكر فراشهم، فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من فاعل قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾. وإنما جمع حملاً على معنى ﴿من﴾. وقيل: عاملها محذوف، والتقدير: يتنعمون متكئين جالسين جلوس المتمكن المستريح.

والمعنى: يحصل لهم جنتان متكئين؛ أي: جالسين جلسة الملوك، جلوس راحة ودعة معتمدين ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ جمع فراش بالكسر. وهو ما يفرش، ويبسط، ويستمهد للجلوس والنوم. ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ ما يلي الأرض منها. جمع بطانة. وهي بالكسر من الثوب خلاف ظهارته. قال الزجاج: هي هنا ما يلي الأرض من الفرش. ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ وهو ما غلظ من ثياب الحرير. وإذا كانت البطائن من إستبرق فكيف تكون الظهائر. قيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظهائر؟ قال: هذا مما قال الله فيه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. قيل: إنما اقتصر على البطائن؛ لأنّه لم يكن أحد في الأرض يعرف ما في الظهائر. وقال الحسن: بطائنها من إستبرق، وظهائرها من نور جامد. وقيل: ظهائرها من سندس.

والمعنى: مضطجعين على فرش بطائنها من ديباج ثخين، وحيث كانت بطائنها كذلك فما ظنك بظهائرها؟ يعني: أنَّ الظهارة أشرف وأعلى. كما قال ﷺ: «لَمَناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذه الحلة». فذكر المنديل دون غيره تنبيهاً بالأدنى على الأعلى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿على فُرُش﴾ بضمتين. وأبو حيوة بسكون الراء. وقرأ ورش عن نافع، ورويس عن يعقوب ﴿من استبرق﴾ بحذف الألف وكسر النون لإلقاء حركة الهمزة عليها. والباقون بإسكان النون وكسر الألف وقطعها.

وإنما ذكر الإتكاء[2]؛ لأنه هيئة تدل على صحة الجسم، وفراغ القلب. إذ العليل لا يستطيع أن يستلقي أو يستند إلى شيء وهو مشغول القلب يتحرك تحرك المحضر للعقاب.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾؛ أي: وثمرهما قريب منهم متى شاؤوا. فهي لا تمتنع ممن أرادها، بل تنحط إليه من أغصانها. ومثل الآية قوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، وقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾. وجنى[3] بفتح الجيم اسم بمعنى المجني كالقبض بمعنى المقبوض. كما قال عليّ رضي الله عنه:

هَـذَا جَـنَـايَ وَخِـيَـارُهُ فِـيْـهِ وَكُـلُّ جَـانٍ يَـدُهُ إِلَـىٰ فِـيْـهِ

ودان من الدنو. وهو القرب. أصله: دانوا، مثل: غازوا، أي: ما يجتنى من أشجارها من الثمار، قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع. قال ابن عباس رضي الله عنه: تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله إن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء مضطجعاً. وقال قتادة: لا يرد يده بُعْدٌ ولا شوك.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿جَنى﴾ بفتح الجيم. وقرأ عيسى بن عمر بكسرها. وقرأ عيسى أيضاً بكسر النون مع فتح الجيم، كأنه أمال النون، وإن كانت الألف قد حذفت في اللفظ، كما أمال أبو عمرو ﴿حتى نرى الله﴾. يقول الفقير: إنَّ البعد إنما ينشأ من كثافة الجسم، ولا كثافة في الجنة، وأهلها أجسام لطيفة نورانية في صورة الأرواح. وأيضاً إن الطاعات في الدنيا كانت في مشيئة المطيع، فثمراتها أيضاً في الجنة تكون كذلك. فيتناولها بلا مشقة، بل لا تناول أصلاً فإن سهولة التناول تصوير لسهولة الأكل، فتلك الثمار تقع في الفم بلا أخذ على ما قاله البعض.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

والمعنى[1]: أي وثمر الجنتين قريب، يناله القاعد والقائم في وقت واحد، ومكان واحد. فإن العجائب كلها من خواص الجنة، فكانت أشجارها دائرة عليهم سائرة إليهم، وهم ساكنون على خلاف ما كان في جنات الدنيا. فإن الإنسان فيها متحرك، ومطلوبه ساكن. والولي قد تصير الدنيا له أنموذجاً من الجنة، فإنه يكون ساكناً في بيته، ويأتيه الرزق متحركاً إليه، دائراً حواليه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ من هذه الآلاء اللذيذة الباقية، أبقدرة الله تعالى على ثني الأغصان، وتقريب الثمار تنكران أم بغيرها؟.

ثم ذكر أوصاف النساء اللواتي يمتعون بهن، فقال: ﴿فِيهِنَّ﴾؛ أي: في تلك الجنان المدلول عليها بقوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾. لما عرفت أنهما لكل خائفين من الثقلين، أو لكل خائف حسب تعدد عمله. وقد اعتبر الجمعية في قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ إذ كل[2] فرد فرد له جنتان. فصح أنها جنان كثيرة، وإن كانت الجنتان. أريد بهما حقيقة التثنية، وأن لكل جنس من الجن والإنس جنة واحدة، فالضمير يعود على ما اشتملت عليه الجنة من المجالس، والقصور، والمنازل، وقيل: على الفرش؛ أي: فيهن معدات للاستمتاع. وهو قول حسن، قريب المأخذ.

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ من[3] إضافة اسم الفاعل إلى منصوبه تخفيفاً، ومتعلق القصر محذوف للعلم به، تقديره: على أزواجهن.

والمعنى: فيهن نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، وتقول كل منهن لزوجها: وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلك زوجي، وجعلني زوجك. وقصر الطرف أيضاً من الحياء والغنج، وقد يقال: المعنى: قاصرات طرف غيرهن عليهن؛ أي: إذا رآهن أحد لم يتجاوز طرفه إلى غيرهن لكمال حسنهن.

والمعنى[4]: أي في الجنان نساء مانعات أعينهن من النظر إلى غير بعلهن. وللجنة اعتبارات ثلاثة، فلاتصال أشجارها، وعدم الأراضي الغامرة كأنها جنة

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) المراح.

واحدة، ولاشتمالها على النوعين ما في الدنيا وما ليس فيها، وما يعرف وما لا يعرف، وما يقدر على وصفه وما لا يقدر، ولذات جسمانية ولذات روحانية كأنها جنتان، ولسعتها وكثرة أماكنها، وأشجارها، وأنهارها، كأنها جنات كثيرة، فالضمير هنا عائد إلى الجنتين، اهـ من «المراح».

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾؛ أي: لم يجامع تلك القاصرات ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل أزواجهن ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ والجملة[1] صفة لقاصرات الطرف؛ لأن إضافتها لفظية.

والمعنى: أي في تلك الجنات نساء غضيضات الطرف عن غير أزواجهن. فلا يرين فيها شيئاً أحسن منهم. وهن أبكار لم يسمهن أحد قبل أزواجهن، لا من الجن ولا من الإنس؛ أي: لم يمس الإنسيات منهن أحد من الإنس، ولا الجنيات أحد من الجن. يقال: طمث المرأة من باب ضرب إذا افتضها بالتدمية لها؛ أي: أزال بكارتها. الطمث: الجماع المؤدي إلى خروج دم البكر، ثم أطلق على كل جماع طمث، وإن لم يكن معه دم، كما سيأتي.

فهن كالرياض الأنف[2]. وهي التي لم ترعها الدواب قط، وفيه ترغيب لتحصيلهن، إذ الرغبة للأبكار فوق الرغبة بالثيِّبات. ودليل على أن الجن من أهل الجنة، وأنهم يطمثون كما يطمث الإنس. فإن مقام الإمتنان يقتضي ذلك، إذ لو لم يطمثوا كمن قبلهم لم يحصل لهم الامتنان به. ولكن ليس له ماء كماء الإنسان، بل لهم هواء بدل الماء، وبه يحصل العلوق في أرحام إناثهن، كما في «الفتوحات المكية». وهذا يستدعي أنه لا تصح المناكحة بين الإنس والجن، وكذا العكس. وقد ذهب إلى صحتها جم غفير من العلماء. منهم: صاحب «آكام المرجان».

ثم إن هؤلاء؛ أي: قاصرات الطرف من حور الجنة المخلوقات ما يبتذلن، ولم يمسسن، وهذا قول الجمهور وهو المشهور[3]. وقال الشعبي والكلبيُّ: من نساء الدنيا؛ أي: لم يجامعهن بعد النشأة الثانية أحد، سواء كن في الدنيا ثيبات أو أبكاراً.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ بكسر الميم في الموضعين، وطلحة، وعيسى، وأصحاب عبد الله، وعلي، والكسائي بضمها. وقرأ ناس بضم الأول وكسر الثاني، وناس بالعكس، وناس بالتخيير. وقرأ الجحدري بفتح الميم في الموضعين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾؛ أي: فبأيّ نوع من أنواع هذه النعم تنكران، فإن في مجرد هذا الترغيب في هذه النعم نعمة جليلة، ومنة عظيمة؛ فإن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة، والفرار من الأعمال الطالحة، فكيف بالوصول إلى هذه النعم، والتنعم بها في جنات النعيم بلا انقطاع ولا زوال.

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ والجملة صفة ثانية لقاصرات الطرف أو حال من ﴿هن﴾. شبههن سبحانه في صفاء اللون مع حمرته بالياقوت والمرجان. قد سبق بيان المرجان، وأما الياقوت، فهو حجر صلب شديد اليبس رزين صاف منه: أحمر، وأبيض، وأصفر، وأخضر، وأزرق، وهو حجر لا تعمل فيه النار لقلة دهنيته، ولا يثقب لغلظة رطومته، ولا تعمل فيه المبارد لصلابته، بل يزداد حسناً على مر الليالي والأيام، وهو عزيز، قليل الوجود، سيما الأحمر وبعده الأصفر أصبر على النار من سائر أصنافه. وأما الأخضر: فلا صبر له على النار.

ومعنى الآية[2]: مشبهات بالياقوت في حمرة الوجنة والمرجان؛ أي: صفار الدر في بياض البشرة، وصفائها؛ فإن صغار الدر أنصع بياضاً من كباره. وقال قتادة: في صفاء الياقوت، وبياض المرجان.

وأخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم، وصححه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ قال: «تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب. وإنه يكون عليها سبعون ثوباً، وينفذها بصره، حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك».

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾ فإنَّ نعمه كلها لا يمكن تكذيب شيء منها

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

كانت ما كانت، فكيف بهذه النعم الجليلة، والمنن الجزيلة؟

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾؛ أي: ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب، واعلم أن ﴿هَلْ﴾ يجيء[1] على أربعة أوجه. الأول: بمعنى قد، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾. والثاني: بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؛ أي: فانتهوا. والثالث: بمعنى الاستفهام، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾. والرابع: بمعنى ما النافية، كما في هذه الآية. ونحو الآية قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

وعن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾، وقال: «هل تدرون ما قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنّة». أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، وروي عن ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾ فإن من جملتها الإحسان إليكم في الدنيا والآخرة بالخلق، والرزق، والإرشاد إلى العمل الصالح، والزجر عن العمل الذي لا يرضاه.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ مبتدأ وخبر[2]؛ أي: ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين جنتان أخريان لمن دونهم في الدرجة من أصحاب اليمين، فالخائفون قسمان: المقربون، وأصحاب اليمين، وهم دون المقربين بحسب الفضائل العلمية والعملية، ودون بمعنى الأدنى مرتبة ومنزلة، لا بمعنى غير. فالجنتان الأوليان أفضل من الأخريين، كفضل المقربين على الأبرار. وقيل: ليس «دون» من الدناءة، بل من الدنو. وهو القرب؛ أي: ومن دون هاتين الجنتين إلى العرش؛ أي: أقرب إليه منهما، وأرفع منهما؛ أي[3]: من أمامهما ومن قبلهما. وحمل بعض المفسرين ﴿دون﴾ على معنى غير. وقيل الجنتان الأوليان جنة عدن،

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

وجنة النعيم. والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى. قال ابن جريج: هي أربع جنان جنتان منها للسابقين المقربين فيهما من كل فاكهة زوجان، وعينان تجريان. وجنتان لأصحاب اليمين، فيهما فاكهة، ونخل، ورمان، وفيهما عينان نضاختان. قال ابن زيد: إن الأوليين من ذهب للمقربين، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ فإنها كلها حق ونعم لا يمكن جحدها.

ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين، فقال: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝﴾ صفة لجنتان، وما بينهما اعتراض؛ أي[1]: سوداوان يعني: علا لونها دهمة وسواد من شدة الخضرة والري. وإن شئت.. قلت: خضراوان، تضربان إلى السواد من شدة الخضرة.

فائدة: والنظر إلى الخضرة يجلو البصر، كما قال ﷺ: «ثلاث يجلون البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن». قال ابن عباس رضي الله عنهما: والإثمد عند النوم. وهو الكحل الأسود. وأجوده الأصفهاني. وهو بارد يابس ينفع العين اكتحالاً، ويقوي أعصابها، ويمنع عنها كثيراً من الآفات والأوجاع سيما الشيوخ والعجائز، وإن جعل معه شيء من المسك.. كان غاية في النفع، وينفع من حرق النار طلاء مع الشحم، ويقطع النزف، ويمنع الرعاف إذا كان من أغشية الدماغ. وفي الحديث: «خير أكحالكم الإثمد، ينبت الشعر، ويجلو البصر». اهـ «خريدة العجائب».

وفي قوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝﴾ إشعار[2] بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض، وعلى الأوليين الأشجار والفواكه. ودل هذا على فضل الأوليين على الأخريين.

والمعنى: أي ومن وراء هاتين الجنتين وأقل منهما فضلاً جنتان تنبتان النبات، والرياحين الخضراء التي تضرب إلى السواد من شدة خضرتها لكثرة الريّ. وأما الجنتان السابقتان ففيهما أشجار وفواكه. وفرق ما بين الجنتين. فبأيّ هذه النعم تكذّبان، وهي نعم واضحة لا تجحد، تتمتع أبصاركم بخضرة نباتات هاتين الجنتين،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

وتنتفع أنوفكم بشم رياحينهما. وعن أبي أيوب الأنصاري قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾. قال: خضراوان، أخرجه الطبري، وابن مردويه.

قال الفقهاء: إذا قرأ في الصلاة آية واحدة هي كلمة واحدة، نحو قوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ أو حرف واحد نحو ﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿نٓ﴾. فإن كل حرف منها آية عند البعض. فالأصح أنه لا يجزىء عن فرض القراءة. لأنه لا يسمى قارئاً؛ لأن القراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل.

﴿فِيهِمَا﴾؛ أي: في هاتين الجنتين ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾؛ أي: فوارتان بالماء، لا تنقطعان. من نضحه كمنعه رشه، ونضح الماء اشتد فورانه من ينبوعه.

قال الحسن، ومجاهد: تنضخ على أولياء الله بالمسك، والعنبر، والكافور في دور أهل الجنة، كما ينضح رش المطر. وهذا يدل أيضاً على فضل الأوليين على الأخريين. لأنه تعالى قال في الأوليين: ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وفي الأخريين ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾. والنضخ دون الجري؛ لأن النضخ هو الفوران، وهو يتحقق بأن يكون الماء بحيث لو أخذ منه شيء فار آخر مكانه. ولا يكفي هذا القدر في جريانه. فلا شك أن الجري أبلغ منه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نضّاختان بالمسك والعنبر. وقال الكلبي: بالخير والبركة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧﴾ فإنها ليست بموضع للتكذيب، ولا بمكان لجحد، حيث يحصل لكم الريُّ من شراب تينك العينين.

﴿فِيهِمَا﴾؛ أي: في هاتين الجنتين ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ عطف الأخيرين على الفاكهة، كعطف جبريل، وميكائيل على الملائكة بياناً لفضلهما. فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء، والرمان فاكهة ودواء، ولأنهما يوجدان في الخريف والشتاء، ولأنهما فاكهة وإدام. فيحنث بأكل أحدهما من حلف لا يأكل فاكهة، كما قاله الشافعي، وأكثر العلماء خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله. يعني: بحسب[1] حال الدنيا، وإلاّ فالكل في الجنة للتفكه. والرمان من الأشجار، هي التي لا تقوى إلا بالبلاد الحارة، وأجوده الكبار الحلو، وهو حار رطب يلين الصدر والحلق، ويجلو المعدة، وينفع من الخفقان، ويزيد في الباءة. وقشره تهرب منه الهوام.

---

(١) روح البيان.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى ضعف استعداد أهل اليمين بالنسبة إلى المقربين؛ لأنَّ الرمان للدواء لا للتفكه، وتهيئة الدواء في البيت تدل على ضعف مزاج ساكن البيت.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ حيث هيَّأ لكم ما به تتلذذون من الفواكه. ومن جملتها هذه النعم التي في جنات النعيم، ومجرد الحكاية لها أثر في نفوس السامعين، وتجذبهم إلى طاعة رب العالمين.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ وهي صفة أخرى لجنتان كالجملة التي قبلها. والكلام في جمع الضمير كالذي مر فيما مرّ، و﴿خَيْرَٰتٌ﴾ مخففة من خيرات جمع خيّرة. لأنَّ خيراً الذي بمعنى أخير لا يجمع، فلا يقال فيه: خيرون، ولا خيرات.

أي: في تلك[1] الجنان نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه. روى الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت: قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾. قال: خيرات الأخلاق، حسان الوجوه. وقال الرازي: في باطنهن الخير، وفي ظاهرهن الحسن. وروي: أن الحور يغنين نحن الخيرات الحسان خلقن لأزواج كرام. وقيل في تفسير الخيرات[2]؛ أي: لسن بدمرات، الدمر: النتن، ولا بخرات البخر بالتحريك: النتن في الفم، والإبط، وغيرهما. ولا متطلعات من التطلع على كلام من تكلم، ومنه قولهم: عافى الله من لم يتطلع في فمك؛ أي: لم يتعقب كلامك. ولا متشوفات من تشوف من السطح إذا تطاول، ونظر، وأشرف. ولا ذربات جمع ذربة بالكسر: السليطة اللسان من ذرب من باب فرح. ولا سليطات السلط والسليط: الشديد والطويل اللسان. ولا طماحات من طمح بصره كمنع، ارتفع. يقال: طمحت المرأة إذا نشزت. ولا طوافات في الطرق؛ أي: دوارات. حسان جمع حسنة وحسناء، أي: حسان الخلق والخلق. وهن من الحور، وقيل: من المؤمنات الخيرات. ويدل على الأول ما بعد الآية. وفي الحديث: «لو أن المرأة من نساء أهل الجنة.. اطلعت على السموات والأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولعصابتها على رأسها خير من الدنيا وما فيها».

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وروي: «لو أن حوراء بزقت في بحر لعذب ذلك البحر من عذوبة ريقها». وروي: «أنهن يقلن: نحن الناعمات، فلا نبأس الراضيات فلا نسخط، نحن الخالدات فلا نبيد، طوبى لمن كنا له وكان لنا». وفي الأثر: «إذا قلن هذه المقالة أجابتهن المؤمنات من نساء الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، فغلبنهن والله غلبنهن».

وفي هذا بيان أن هاتين الجنتين دون الأوليين[1]؛ لأنه تعالى قال في الأوليين في صفة الحور العين: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾، وفي الآخريين: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾. وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ بالتخفيف. وقرأ قتادة، وابن السميقع، وأبو رجاء العطارديُّ، وبكر بن حبيب السهمي، وابن مقسم، وأبو عثمان النهديُّ بالتشديد. فعلى القراءة الأولى هي جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين، ويقال امرأة خيرة، وأخرى شرة أو جمع خيرة مخفف خيرة، وعلى القراءة الثانية جمع خيرة بالتشديد.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ وقد أنعم عليكم بما فيه تستمتعون من النساء. فإنَّ شيئاً منها كائناً ما كان لا يقبل التكذيب.

﴿حُورٌ﴾ بدل[3] من ﴿خَيْرَٰتٌ﴾، جمع حوراء. وهي البيضاء، ووصفت في غير هذه الآية بالعِين. وهي جمع عيناء بمعنى واسعة العين. ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ قصرن في خدورهن، وحبسن فيها. يقال: امرأة مقصورة؛ أي: مخدرة مستورة لا تخرج، ومقصورات الطرف على أزواجهن لا يبغين بهم بدلاً. وفيه إشارة إلى أنهن لايظهرن لغير المحارم، وإن لم تكن الجنة دار التكليف؛ وذلك لأنهن من قبيل الأسرار، وهي تصان عن الأغيار غيرة عليها، والخيام جمع خيمة، وهي القبة المضروبة على الأعواد، هكذا جمع خيام الدنيا. وهي لا تشبه خيام الدنيا إلا بالاسم، فإنه قد قيل: إن الخيمة من خيامهن درة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهلون، ما يرون إلا حين يطوف عليهم المؤمنون. وقال ابن مسعود: لكل زوجة

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

خيمة، طولها ستون ميلاً.

والمعنى: أي وهؤلاء الخيرات الحسان واسعات العيون، مع صفاء البياض حول السواد محبوسات في الحجال، فلسن بطوافات في الطرقات. والعرب يمدحون النساء اللازمات للبيوت للدلالة على شدة الصيانة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾ وقد خلق من النعم ما هن مقصورة ومحبوسة لكم. فإنها كلها نعم لا تكفر، ومنن لا تجحد.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ ولم يجامعهن ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل أصحاب الجنتين دل عليهم ذكر الجنتين، أو قبل أزواجهن. ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ والكلام هنا كالذي مر في نظيره في جميع الوجوه. قال في «كشف الأسرار»[1]: كرر ذلك زيادة في التشويق، وتأكيداً للرغبة. وفيه إنه ليس بتكرير؛ لأنَّ الأول في أزواج المقربين وهذا في أزواج الأبرار. قال محمد بن كعب: إن المؤمن يزوج ألف ثيب، وألف بكر، وألف حوراء.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾ مع أنها ليست كنعم الدنيا. إذ قد تطمث المرأة في الدنيا، ثم يتزوجها آخر ثيباً فهن نعم باكورة. فيا لها من طيب وصالها، وبالها، وبراعة جمالها، لا يقدر أحد على حكايتها، ولا يبلغ وصف إلى نهايتها، والعقول فيها حيارى، والقلوب سكارى.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال صاحبه محذوف، يدل عليه الضمير في ﴿قَبْلَهُمْ﴾، تقديره: لم يطمثهن أحد غير أزواجهن حال كونهم متكئين وجالسين ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ وفرش ﴿خُضْرٍ﴾ والرفرف[2] إما اسم جنس أو اسم جمع، واحده رفرفة. قيل: هو ما تدلى من الأسرة من عالي الثياب، أو ضرب من البسط أو الوسائد، أو الرقيق من الديباج.

قال في «المفردات»: الرفرف ضرب من الثياب، مشبه بالرياض، انتهى. ومن معاني الرفرف: الرياض. وكان بساط أنو شروان ستين ذراعا في ستين ذراعاً، يبسط له في إيوانه منظوماً باللؤلؤ والجواهر الملونة على ألوان زهر الربيع، وينشر إذا

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

عدمت الزهور.

وقرأ الجمهور ﴿رَفۡرَفٍ﴾ بالأفراد. وقرأ[1] عثمان بن عفان، والحسن، ونصر بن عاصم، والجحدري ومالك بن دينار، وابن محيصن، وزهير العرقي وغيرهم ﴿رفارف﴾ على صيغة منتهى الجموع. والخضر صفة لرفرف، وهو بسكون الضاد جمع أخضر، كحمر جمع أحمر، أي: صاحب خضرة. والخضرة: اللون بين البياض والسواد والحمرة. وهو إلى السواد أقرب، فلهذا سمي الأسود أخضر، والأخضر أسود. وقرأ ابن هرمز ﴿خضُر﴾ بضم الضاد. قال صاحب «اللوامح»: وهي لغة قليلة، انتهى.

﴿وَعَبۡقَرِيٍّ﴾ معطوف على ﴿رَفۡرَفٍ﴾، والمراد به: الجنس، ولذا وصف بالجمع وهو قوله: ﴿حِسَانٖ﴾ حملاً على المعنى. وهو جمع حسن. والعبقري منسوب إلى عبقر، تزعم العرب أنه اسم بلد كثير الجن، فينسبون إليه كل شيء نفيس عجيب. وقال قطرب: ليس هو من المنسوب، بل هو بمنزلة كرسي، وبختيٍّ. قال في «القاموس»: عبقر موضع كثير الجن، وقرية ثيابها في غاية الحسن. والعبقريُّ ضرب من البسط، كالعباقري. انتهى.

وفي «فتح الرحمن»: العبقريُّ: بسط حسان، فيهاصور، وغير ذلك. وقرأ الجمهور ﴿وعبقريٍّ﴾. وقرأ عثمان بن عفان، والحسن، والجحدريُّ ﴿عباقريٍّ﴾. وقرىء ﴿عباقر﴾.

والمعنى: حال كونهم متكئين[2] على ثياب ناعمة، وفرش رقيقة النسج من الديباج، ووسائد عظيمة، وبسط لها أطراف فاخرة غاية في كمال الصنعة، وحسن المنظر. وخص[3] الأخضر بالذكر؛ لأن النفس أميل إليها في الدنيا، ولأنه يحصل فيه الألوان الثلاثة: الأبيض، والأسود، والأحمر. فالأبيض يفرق البصر، والأسود يجمع البصر، كالأحمر. فلما اجتمع في الأخضر الأمور الثلاثة دفع بعضها أذى بعض.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

وقوله تعالى في الأوليين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ مع ترك ذكر الظهارة لرفعة شأنها، وخروجها عن كونها مدركة بالعقول والأفهام. وفي الأخريين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ﴾ يعلم به تفاوت ما بينهما.

قال أبو عبد الله الحكيم الترمذي: روي لنا في حديث المعراج: أن رسول الله ﷺ لما بلغ سدرة المنتهى.. جاءه الرفرف، فتناوله من جبريل، وطار به إلى مستقر العرش، وذكر أنه قال: «طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بين يدي ربي، ثم لما حان الانصراف.. تناوله فطار به خفضاً ورفعاً يهوي به، حتى أداه إلى جبريل صلوات الله عليهما، وجبريل يبكي، ويرفع صوته بالتحميد». والرفرف خادم من الخدم بين يدي الله تعالى، له خواص الأمور في محل الدنو والقرب، كما أن البراق دابة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه، فهذا الرفرف الذي سخره الله لأهل الجنتين وهو متكأهم وفرشهم، يرفرف بالولي، ويطير به على حافات تلك الأنهار، وحيث يشاء من خيامه، وأزواجه، وقصوره. انتهى من «نوادر الأصول» في الأصل التاسع والثمانين.

وقال الترمذي الحكيم أيضاً: وبلغنا في الرواية: أن سحابة مطرت من العرش، فخلقت الحور من قطرات الرحمة، ثم ضرب على كل واحدة منهن خيمة على شاطىء الأنهار، سعتها أربعون ميلاً، وليس لها باب حتى إذا دخل ولي الله الجنة، انصدعت الخيمة عن باب، ليعلم ولي الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدام لم تأخذها، فهي مقصورة قد قصرها بها عن أبصار المخلوقين. وهو معنى قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾. والله أعلم. اهـ قرطبي.

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي[1]: بأيِّ نعم ربكما المحسن الذي لا محسن غيره، ولا إحسان إلا منه تكذبان أبشيء من هذه النعم أم بغيرها، وقد هيأ لكم ما تتكئون عليه، فتستريحون، فإن كل واحد منها أجل أن يتطرق إليه التكذيب، وأعظم من أن يجحده جاحد أو ينكره منكر.

وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾؛ أي: تقدس، وتنزه عن كل ما لا يليق به تقديسٌ

---

(١) الخطيب.

وتنزيهٌ له تعالى[1]. فيه تقرير لما ذكر في السورة الكريمة من آلائه الفائضة على الأنام، أي: تعالى اسمه الجليل الذي من جملته ما صدرت به السورة من اسم الرحمن المنبيء عن إفاضة الآلاء المفصلة، وارتفع عما لا يليق بشأنه من الأمور التي من جملتها: جحود نعمائه، وتكذيبها. وإذا كان حال اسمه بملابسة دلالته عليه، كذلك فما ظنك ذاته الأقدس الأعلى؟ وقيل: الاسم بمعنى الصفة؛ أي: تنزهت، وتقدست صفات ربك عن النقائص، كالعلم من الجهل، والقدرة من العجز. وقيل: لفظ ﴿اسم﴾ مقحم كقوله:

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السلامِ عليكُما ... وَمَن يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فقَدِ اعْتَذَرْ

أي: ثم السلام عليكما.

والمعنى: تقدس، وتنزه، وتعالى ربك عن كل ما لا يليق به من جميع النقائص. وقال في «فتح الرحمن»: وهذا الموضع مما أريد فيه بالاسم مسماه؛ أي: تبارك مسمى ربك، وذاته الأقدس عن النقائص. وفي «التأويلات النجمية»: وهذا يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأن المتعالي هو المسمى في ذاته لا الاسم، وكذا الموصوف بالقهر، واللطف، والجلال، والإكرام هو المسمى فحسب، انتهى.

وقوله: ﴿ذِى الْجَلَالِ﴾؛ أي: ذي العظمة والكبرياء ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾؛ أي: ذي الإفضال التام والإحسان العام. وصف به الرب عز وجل تكميلاً لما ذكر من التنزيه والتقرير.

قال الزروقي: من عرف أنه تعالى ذو الجلال والإكرام هابه لمكان الجلال، وأنس به لمكان الإكرام، فكان بين الخوف والرجاء. وهو اسم الله الأعظم. وقال بعضهم: أسماء الله تعالى كلها أعظم لدلالتها على العظيم، فإنه إذا عظم الذات والمسمى عظم الأسماء والصفات، ويا ذا الجلال والإكرام من الأسماء التي جاء في الحديث أن يدعى الله بها، فقد قال ﷺ: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام». وقرأ الجمهور ﴿ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ على أنه صفة لربك، وابن عامر، وأهل الشام ﴿ذو﴾

---

(١) روح البيان.

صفة للاسم. وفي حرف عبد الله، وأبي ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ كقراءتهما في الموضع الأول.

والمعنى[1]: أي تعالى ربك ذو الجلال والعظمة والتكريم على ما أنعم به، وتفضل من نعم غوال، ومنن عظام. وهذا تعليم منه لعباده بأن كل هذا من رحمته، فهو قد خلق السماء، والأرض، والجنة، والنار. وعذب العاصين، وأثاب المطيعين، وآتاهم من فضله ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الإعراب

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلِمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لمن﴾ جار ومجرور، خبر مقدم، ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿جَنَّتَانِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿ذَوَاتَآ﴾ صفة لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾، مرفوع بالألف؛ لأنه مثنى ذات، ﴿أَفْنَانٍ﴾ مضاف إليه. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ تقدم إعرابه. ﴿فِيهِمَا﴾ خبر مقدم، ﴿عَيْنَانِ﴾ مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿تَجْرِيَانِ﴾ صفة لـ ﴿عَيْنَانِ﴾. والجملة الاسمية صفة ثانية لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ، تقدّم إعرابه. ﴿فِيهِمَا﴾ خبر مقدم، ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ حال من ﴿زَوْجَانِ﴾؛ لأنّه صفة قدمت على النكرة، ﴿زَوْجَانِ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية صفة لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾؛ لأنَّ ﴿مَنْ﴾ فيها معنى الجمع، وقيل: عاملها محذوف، دل عليه قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾؛ أي: يتنعمون فيهما حال كونهم متكئين؛ أي: مضطجعين

---

(١) المراغي.

أو متربعين. ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ﴾ متعلق بـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ مبتدأ، ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر. والجملة الاسمية صفة لـ ﴿فُرُشٍ﴾. ﴿وَجَنَى﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة أو حالية، ﴿جنى الجنتين﴾ مبتدأ ومضاف إليه، ﴿دَانٍ﴾ خبر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾، أو حال من الضمير المستكن في الخبر من الجملة المذكورة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿فِيهِنَّ﴾ خبر مقدم، والضمير إلى ﴿ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ لأنه بمعنى الجنان، كما مر. ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع صفة لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ جازم، وفعل مضارع، ومفعول به، ﴿إِنسٌ﴾ فاعل، ﴿قَبْلَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾، ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ معطوف على ﴿إِنسٌ﴾. والجملة صفة لـ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ لأنَّ إضافته لفظية أو حال منه، لأنه تخصص بالإضافة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ ناصب واسمه، ﴿ٱلْيَاقُوتُ﴾ خبره، ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ معطوف على ﴿ٱلْيَاقُوتُ﴾. والجملة صفة ثانية لـ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿هَلْ﴾ حرف استفهام للاستفهام الإنكاري؛ لأنّه بمعنى النفي، ﴿جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ، تقدم إعرابه.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٥ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾.

﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿من دونهما﴾ خبر مقدم، ﴿جَنَّتَانِ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابها. ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ صفة لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابها. ﴿فِيهِمَا﴾ خبر مقدم، ﴿عَيْنَانِ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ صفة ﴿عَيْنَانِ﴾. والجملة صفة ثانية لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابها. ﴿فِيهِمَا﴾ خبر مقدم، ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ معطوفان على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ عطف خاص

على عام، والجملة صفة أخرى لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿فِيهِنَّ﴾ خبر مقدم ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿حِسَانٌ﴾ صفة ﴿خَيْرَٰتٌ﴾. والجملة صفة أخرى لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾ لأنَّ الجنتين بمعنى الجنان. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿حُورٌ﴾ بدل من ﴿خَيْرَٰتٌ﴾، ويجوز لك أن تعرب حوراً خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هن حور، ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ صفة ﴿حُورٌ﴾، ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ متعلق بـ ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ فعل، ومفعول، ﴿إِنسٌ﴾ فاعل، ﴿قَبْلَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾، ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ معطوف على ﴿إِنسٌ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع، صفة أخرى لـ ﴿حُورٌ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال، عامله محذوف يدلّ عليه قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، تقديره: يتنعمون فيها حال كونهم ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾. ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ متعلق بـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، ﴿خُضْرٍ﴾ نعت لـ ﴿رَفْرَفٍ﴾. لأنه جمع رفرفة، ﴿وَعَبْقَرِىٍّ﴾ معطوف على ﴿رَفْرَفٍ﴾، ﴿حِسَانٍ﴾ صفة ﴿عبقري﴾. لأنّه جمع عبقرية. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدّم إعرابه. ﴿تَبَٰرَكَ﴾ فعل ماض، ﴿ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ فاعل. والجملة مستأنفة. ﴿ذِى﴾ صفة لـ ﴿رَبِّكَ﴾، ﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾ مضاف إليه، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ معطوف على الجلال. وقيل: اسم مقحم. والمعنى: تبارك ربّك؛ أي: تزايد خيره وإحسانه. والله أعلم بأسرار كتابه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ الخوف في الأصل: توقع المكروه عند ظهور أمارة مظنونة أو محققة. وضده الأمن. ويراد به هنا: الكف عن المعاصي مع فعل الطاعات. و﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ قيامه عليه، وإطلاعه على أعماله.

وفي تفسير المقام ثلاث احتمالات:

الأوّل: أنه اسم مكان بمعنى موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

والثاني: أنه مصدر بمعنى قيامه تعالى، وإطلاعه على أعمال عباده.

والثالث: أنه مصدر بمعنى قيام الخلائق بين يديه تعالى.

﴿جَنَّتَانِ﴾؛ أي: جنة روحية لقلبه، وجنة جسمانية على شاكلة ما عمل في

الدنيا. وقيل: إنهما منزلان، يتنقل بينهما لتتوفر دواعي لذته، وتظهر آثار كرامته.

﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾﴾ وذوات مثنى ذات بمعنى صاحبة، وأصل ذات: ذوية، قلبت ﴿الواو﴾ ألفاً لتحركها بعد فتح. وفي تثنيتها لغتان. الرد على الأصل، فإن أصلها ذوية؛ لأنها مؤنثة ذوي. والتثنية على اللفظ بأن يقال: ذاتا. والأفنان: جمع فن بمعنى نوع؛ أي: ذواتا أنواع من الأشجار والثمار. يقال: افتن فلان في حديثه إذا أخذ في فنون منه، وضروب مختلفة، أو جمع فنن بمعنى غصن؛ أي: ذواتا أغصان دقيقة التي تتفرع من فروع الشجر، وخصت بالذكر؛ لأنها التي تورق، وتثمر، وتمد الظل.

﴿زَوۡجَانِ﴾؛ أي: صنفان، رطب ويابس. ولا يقصر يابسه عن رطبه في الفضل والطيب. ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ﴾ جمع فراش. وهو البساط ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمع بطانة ضد الظهارة، ولكن المراد هنا: ما يلي الأرض، كما مرّ. والهمزة فيه مبدلة عن الألف الواقعة حرف مد ثالثاً زائداً في اسم مؤنث جمع على فعائل.

﴿مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ والإستبرق: ما غلظ من الحرير. قيل: استفعل من البريق. وهو الإضاءة. وقيل: من البرقة. وهو اجتماع ألوان، وجعل اسماً وأعرب إعرابه.

﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾ والجنى: الثمرة التي قد أدركت على الشجرة. وهو اسم بمعنى المجني، كالقبض بمعنى المقبوض. وفيه إعلال بالقلب، أصله: جني قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. وقوله: ﴿دَانٖ﴾ من الدنو بمعنى القرب، أصله: دانوا، مثل: غازو، فوزنه فاع لأعلاله إعلال غاز.

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ وهو من إضافة اسم الفاعل إلى منصوبه تخفيفاً، ومتعلق القصر محذوف، كما مر؛ أي: نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم. والطرف: أصله مصدر، فلذلك وحد. وقيل: الطرف طرف غيرهن؛ أي: قصرن عيني من ينظر إليهن عن النظر إلى غيرهن.

﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ﴾؛ أي: لم يفتضهن. يقال: طمث المرأة من باب ضرب إذا افتضها بالتدمية؛ أي: أزال بكارتها. فالطمث: الجماع المؤدي إلى خروج دم البكر، ثم أطلق على كل جماع طمث، وإن لم يكن معه. وفي «المصباح»: طمث

الرجل امرأته طمثاً من بابي ضرب وقتل افتضها، وافترعها. ولا يكون الطمث نكاحاً إلا بالتدمية. وعليه قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾، اهـ. وفي «القاموس»: الطمث: المس. والمعنى: لم يمس الإنسيّات أحد من الإنس، ولا الجنيّات أحد من الجن.

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ﴾ الياقوت: جوهر نفيس أحمر اللون. يقال: إن النار لا تؤثر فيه، من خواصه: أنه يقطع جميع الحجارة إلا الماس. فإنه يقطعه لصلابته، وقلة مائه، وشدة الشعاع، والثقل، والصبر على النار. قال بعضهم في مليح: اسمه ياقوتٌ:

يَاقُوتُ يَا قُوتَ قَلْبِ ٱلْمُسْتَهَامِ بِهِ ... مِنَ ٱلْمُرُوءَةِ أَنْ لاَ يُمْنَعَ ٱلْقُوتُ
سَكَنْتَ قَلْبِيْ وَمَا تَخْشَى تَلَهُّبَهُ ... وَكَيْفَ يَخْشَىٰ لَهِيْبَ ٱلنَّارِ يَاقُوْتُ

﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ صغار اللؤلؤ. وهو أشد بياضاً، أي: كأنهن الياقوت في الصفاء، والمرجان في البياض.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ مثنى مدهامة. وهي مؤنث مدهام، وصف من ادهام السداسي اسم فاعل. والأصل: مدهاممتان، أدغمت الميم الأولى في الثانية. يقال: ادهام الشيء يدهام ادهياماً فهو مدهام، ذكره في «تاج المصادر» في باب الإفعيلال. وفي «المختار»: دهمهم الأمر غشيهم، وبابه فهم، وكذا دهمتهم الخيل، ودهمهم بفتح الهاء لغة. والدهمة: السواد يقال: فرس أدهم، وبعير أدهم، وناقة دهماء. وادهام ادهياماً؛ أي: اسود قال الله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: سوداوان من شدة الخضرة من الري. والعرب تقول لكل شيء أخضر: أسود. وسميت قرى العراق سواداً لكثرة خضرتها. والشاة الدهماء الحمراء الخالصة الحمرة. ويقال للقيد: أدهم. وفي «القاموس»: حديقه دهماء، ومدهامة خضراء تضرب إلى السواد نعمةً وريًّا. ومنه: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾.

﴿نَضَّاخَتَانِ﴾؛ أي: فوارتان بالماء لا تنقطعان. والنضخ أكثر من النضح؛ لأن النضح بالحاء المهملة: الرش، وبالخاء المعجمة كالبزل والنضاخة: الفوارة التي ترمي بالماء صعداً.

﴿حُورٌ﴾ واحدتهن حوراء؛ أي: بيضاء. قال ابن الأثير: الحوراء: هي

الشديدة بياض العين، والشديدة سوادها. ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ قصرن، وحبسن في خدورهن، يقال: امرأة قصيرة، وقصورة، ومقصورة؛ أي: مخدرة. ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ في «القاموس»: والخيمة: أكمة فوق أبانين، وكل بيت مستدير، أو ثلاثة أعواد، أو أربعة يلقى عليها الثمام، ويستظل بها في الحر أو كل بيت يبني من عيدان الشجر. والجمع خيمات، وخيام، وخيم، وخَيَم بالفتح، وكعنب. يقال: أخامها وأخيمها بناها، وخيموا دخلوا فيها، وبالمكان أقاموا. وخيم الشيء غطاه بشيء كي يعبق، وخام عنه يخيم خيماً وخيماناً وخيوماً وخيومة وخياماً نكص، وجبن. وكاد كيداً فرجع عليه. وفي «القرطبي»: قال عمر رضي الله عنه: الخيمة: درة مجوفة.

﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ والرفرف: اسم جمع أو اسم جنس جمعي، وكذا يقال: في ﴿عبقري﴾. وعبارة «السمين»: الرفرف اسم جنس. وقيل: اسم جمع نقلهما مكي. والواحدة رفرفة. وهي ما تدلى من الأسرة من غالي الثياب. واشتقاقه من رفرف الطائر؛ أي: ارتفع في الهواء، انتهت. وقال غيره: الرفرف: بسط أو وسائد «مخدات». ﴿وَعَبْقَرِىٍّ﴾ والعبقري: العجيب النادر الموشى من البسط، منسوب إلى عبقر. وتزعم العرب أنه اسم لبلد الجن، فينسبون إليه كل شيء عجيب.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾؛ أي: تقدس، وتنزه ربنا الذي أفاض على عباده نعمه الجليلة والحقيرة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة في قوله: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ للدلالة على الاختصاص الملكي؛ إذ لا ملك يومئذٍ إلا لله تعالى.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿وجنى الجنتين﴾ لتغير الشكل، والحروف.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ فإنَّ فيه حذف الموصوف، وإبقاء الصفة؛ أي: نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن. وفيه أيضاً

إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله طلباً للتخفيف اللفظي.

ومنها: الإرداف في قوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص، وتابعه قريب من لفظ المعنى الخاص قرب الرديف من الردف.

والمعنى في الآية: فيهن عفيفات قد قصرت عفتهن طرفهن على بعولتهن. وعدل عن المعنى الخاص إلى لفظ الإرداف؛ لأن كل من عف غض الطرف عن الطموح. فقد يمتد نظر الإنسان إلى شيء، وتشتهيه نفسه، ويعف عنه مع القدرة عليه لأمر آخر. وقصر طرف المرأة على بعلها أو قصر طرفها حياء وخفراً، أو قصر عيني من ينظر إليهن عن النظر إلى غيرهن أمر زائد على العفة؛ لأنَّ من لا يطمح طرفها لغير بعلها، أو لا يطمح حياء وخفراً: فإنها ضرورة تكون عفيفة. فكل قاصرة الطرف عفيفة، وليست كل عفيفة قاصرة الطرف. فلذلك عدل عن اللفظ الخاص إلى لفظ الإرداف.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ لذكر الأداة، وحذف وجه الشبه. وهو الصفاء والبياض.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ إظهاراً لفضله، وميزته. فإن في فصلهما بالواو عن الفاكهة بياناً لفضلها على سائر الفواكه، كما مرَّ. حتى كأنهما من المزيّة جنسان آخران، كقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾. ولكن اختلف هل هو من عطف الخاص على العام أو عطف ما تضمنه الأول عليه. والظاهر: أن الآية ليست من عطف الخاص على العام؛ لأنَّ النكرة في سياق الإثبات لا تعم عموماً شموليًا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة

١ ـ ذكر تعليم القرآن، وخلق الإنسان، وتعليمه البيان.

٢ ـ ذكر جريان الشمس والقمر بحسبان، وسجود النجم والشجر خضوعاً له تعالى.

٣ ـ وضع الميزان، والأمر بإقامته، وعدم الإخسار فيه.

٤ ـ بسط الأرض للأنام مع خلق ضروب الفواكه، وأنواع الزورع فيها لهم.

٥ ـ بيان مادة خلق الإنسان، ومادة خلق الجان.

٦ ـ ذكر ما يتعلق بالبحرين.

٧ ـ ذكر فناء المخلوق، وبقاء الخالق.

٨ ـ ذكر احتياج من في السموات والأرض إليه وكونه سبحانه في تدبير شؤونهم.

٩ ـ أمر الثقلين بخروجهم من أقطار السموات والأرض أمر تعجيز.

١٠ ـ ذكر أحوال يوم القيامة، وبيان أحوال المجرمين فيه.

١١ ـ ذكر ما أعده للمقربين والأبرار من الثقلين مطعماً، وملبساً، ومنكحاً إلى آخر السورة. اللهم يا ذا الجلال والإكرام صل وسلم على من أرسلته رحمة للأنام سيدنا محمد، وآله، وصحبه الكرام ما تعاقبت الليالي والأيام صلاة وسلاماً متلازمين دائماً بلا انصرام[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) وقع الفراغ من تفسير هذه السورة في اليوم السابع والعشرين من شهر الله الفرد رجب، منتصف الساعة التاسعة في تاريخ ٢٧/٧/١٤١٥ ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات، وأزكى التحيّات. آمين يا رب آمين.

سورة الواقعة

سورة الواقعة مكية، نزلت بعد طه في قول الحسن[1]، وعكرمة، وجابر، وعطاء، وقال ابن عباس، وقتادة: مكية إلا آية منها نزلت بالمدينة. وهي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾. وقال الكلبيّ: إنها مكيّة، إلاّ أربع آيات منها: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وآيها: ست أو سبع وتسعون آية[2]. وكلماتها: ثلاث مئة وثمان وسبعون كلمة. وحروفها: ألف وسبع مئة وثلاثة أحرف.

مناسبتها لما قبلها من ثلاثة أوجه[3]:

١ ـ إنّ في كل منهما وصف القيامة، والجنة، والنار.

٢ ـ إنه ذكر في السورة السابقة عذاب المجرمين، ونعيم المتقين، وفاضل بين جنتي بعض المؤمنين، وجنتي بعض آخر منهم، وبيّن هنا انقسام المكلفين إذ ذاك إلى أصحاب ميمنة، وأصحاب مشئمة، وسابقين.

٣ ـ إنه ذكر في سورة الرحمن انشقاق السماء، وذكر هنا رج الأرض. فكأن السورتين لتلازمهما، واتحادهما موضوعاً سورة واحدة مع عكس في الترتيب. فقد ذكر في أول هذه ما في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك.

وعبارة أبي حيان: مناسبة هذه السورة لما قبلها[4]: أنَّ ما قبلها تتضمن العذاب للمجرمين، والنعيم للمؤمنين، وفاضل بين جنتي بعض المؤمنين، وجنتي

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

بعض بقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾. فانقسم العالم بذلك إلى كافر ومؤمن مفضول ومؤمن فاضل. وهكذا جاء ابتداء هذا السورة من كونهم أصحاب ميمنة وأصحاب مشئمة وسباق. وهم المقربون وأصحاب اليمين، والمكذبون المختتم بهم آخر هذه السورة.

الناسخ والمنسوخ منها: أجمع[1] المفسّرون على أن لا ناسخ فيها، ولا منسوخ إلا قول مقاتل بن سليمان، فإنه قال نسخ منها قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ الآية (١٤) من الواقعة، نسخ بقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الآية (٤٠) من الواقعة.

واسمها: سورة الواقعة، سميت بها لذكر الواقعة فيها. وهو اسم من أسماء القيامة.

ومن **فضائلها**: ما أخرجه أبو يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً». ومنها: ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «سورة الواقعة سورة الغنى فاقرؤوها، وعلموها أولادكم». وأخرج الديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا نساؤكم سورة الواقعة، فإنها سورة الغنى».

ومنها: ما روى هلال بن يساف عن مسروق قال: من أراد أن يعلم نبأ الأولين والأخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة فليقرأ سورة الواقعة.

ومنها: ما ذكر أبو عمر ابن عبد البر في «التمهيد» و«التعليق»، والثعلبيُّ أيضاً: أن عثمان دخل على ابن مسعود يعوده في مرضه الذي مات منه، فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: أفلا نأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه، حبسته عني في حياتي، وتدفعه عند مماتي. قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على

---

(١) ابن حزم.

بناتي الفاقة من بعدي، إني أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة. فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»، اهـ قرطبيّ. وقد روى هذا الحديث البيهقيُّ، وغيره كما مرّ آنفاً، وإنما أعدناه لهذه القصة. قال سعدي المفتي: هذا حديث صحيح.

وفي رواية أخرى: من داوم على قراءة سورة الواقعة لم يفتقر أبداً. قال ابن عطية: فيها ذكر القيامة، وحظوظ الناس في الآخرة، وفهم ذلك غنى لا فقر معه، ومن فهمه يشتغل بالاستعداد للآخرة.

قال الغزالي رحمه الله تعالى في «منهاج العابدين»: قراءة هذه السورة عند الشدّة في أمر الرزق والخصاصة شيء وردت به الأخبار المأثورة عن النبيّ ﷺ، وعن الصحابة رضي الله تعالى عنهم، حتى ابن مسعود رضي الله عنه حين عوتب في أمر أولاده؛ إذ لم يترك لهم في الدنيا، قال: لقد خلفت لهم سورة الواقعة.

فإن قلت: إرادة متاع الدنيا بعمل الآخرة لا تصح.

قلت: مراده أن يرزقهم الله تعالى قناعة أو قوة يكون لهم عدة على عبادة الله تعالى، وقوّة على درس العلم. وهذا من جملة إرادة الخير دون الدنيا فلا رياء، انتهى كلامه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا
(٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ
أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ
(١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥)
مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا
يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ
(٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا
قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦) وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩)
وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ
(٣٤) إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ
ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ
مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ
ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨)
قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ
(٥١) لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٥٣) فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (٥٤) فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ
ٱلْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (٥٦)﴾.

المناسبة

بدأ سبحانه هذه السورة بأنه حين تقع الواقعة، ويجيء يوم القيامة لا تكذب نفس على الله، فتنكره. إذ تحقق بالمعاينة، وشهده كل أحد. أمّا في الدنيا فما أكثر النفوس المكذّبة المنكرة له؛ لأنهم لم يذوقوا العذاب كما عاينه المعذبون في الآخرة.

ثم وصف هذه الواقعة بأنها تخفض أقواماً، وترفع آخرين، وأن الأرض حينئذٍ

تزلزل، فيندك ما عليها من جبال وأبنية، وأنَّ الجبال تتفتت، وتصير كالغبار المنتشر في الجو، وأن الناس إذ ذاك ينقسمون أفواجاً ثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشئمة، والسابقون.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر[1] أنَّ الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: سابقون، وأصحاب ميمنة، وأصحاب مشأمة.. أعقب ذلك بذكر ما يتمتع به السابقون من النعيم في فرشهم، وطعامهم، وشرابهم، ونسائهم، وأحاديثهم التي تدل على صفاء النفس، وأدب الخلق، وسمو العقل.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر حال السابقين، وبين ما لهم من نعيم مقيم في جنّات النعيم.. أردف ذلك بذكر حال أصحاب اليمين، فبين أنهم في جنات يتخللها السدر المخضود، والموز المنضد بعضه فوق بعض، والفاكهة الكثيرة التي لا تنقطع أبداً، ولا تمتنع عنهم متى شاؤوا، وفيها فرش وثيرة مرتفعة عالية، ونساء حسان أبكار في سن واحدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر زوجين من الأزواج الثلاثة، وبين ما يلقاه كل منهم من عز مقيم وشرف عظيم في جنات ونعيم، في جملة شؤونهم في مآكلهم، ومشاربهم، وفرشهم، وأزواجهم.. أردف ذلك بذكر الزوج الثالث، وبين ما يلقاه من النكال، والوبال، وسوء الحال. فهو يتلظى في السموم، ويشرب ماء كالمهل يشوي الوجوه، ثم أعقبه بذكر السبب في هذا بأنهم كانوا في دنياهم مترفين غارقين في ذنوبهم، منكرين هذا اليوم يوم الجزاء. ثم أمره أن يخبرهم بأن هذا اليوم واقع حتماً، وأن مأكلهم سيكون من شجر الزقوم، يملؤون منه البطون، ثم يشربون، ولا يرتوون كالإبل الهيم. وهذا ما أعد لهم من كرم وحسن وفادة في هذا اليوم.

---

(١) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم بسند فيه من لا يعرف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ شق ذلك على المسلمين، فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾.

وأخرج ابن عساكر في «تاريخ دمشق» بسند فيه نظر من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ وذكر فيها ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ قال عمر: يا رسول الله ثلة من الأوّلين وقليل منّا. فأمسك آخر السورة سنة، ثم نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾. فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر تعال، فاسمع ما أنزل الله تعالى، أنزل: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾». وأخرجه ابن أبي حاتم عن عروة بن رويم مرسلاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه، والبيهقي في «البعث» عن عطاء ومجاهد قالا: لمّا سأل أهل الطائف الوادي يحمى لهم، وفيه عسل ففعل، وهو واد معجب، فسمعوا الناس يقولون: إن في الجنة كذا وكذا. قالوا: يا ليت لنا في الجنّة مثل هذا الوادي، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ . . .﴾ الآيات.

وأخرج البيهقي من وجه آخر عن مجاهد قال: كانوا يعجبون بوج «واد بالطائف»، وظلاله، وطلحه، وسدره. فأنزل الله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ وانتصاب ﴿إِذَا﴾ بجوابها المحذوفة، تقديره: إذا

---

(١) لباب النقول.

قامت القيامة، وحدثت، وحصلت وذلك عند النفخة الثانية يكون من الأهوال ما لا يفي به المقال.

سمّاها[1] واقعة مع أنَّ دلالة اسم الفاعل على الحال، والقيامة مما سيقع في الاستقبال لتحقق وقوعها. ولذا اختار ﴿إِذَا﴾، وصيغة الماضي. فالواقعة من أسماء القيامة، كالصاخة، والطامة، والآزفة. سميت واقعة؛ لأنها كائنة لا محالة، أو لقرب وقوعها، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد. وقال أبو الليث: سميت القيامة واقعة لصوتها. وقيل: منصوب باذكر محذوف، أي: اذكر وقت وقوع الواقعة، أو بالنفي المفهوم من قوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾؛ أي: لا يكون عند وقوعها تكذيب. والكاذبة مصدر كالعاقبة، أي: ليس لمجيئها وظهورها كذب أصلاً. وقيل: إنها شرطية، والعامل فيها الفعل الذي بعدها على تقدير فاء الربط لكون الجواب فعلاً جامداً؛ أي: إذا وقعت الواقعة.. فليس هناك تكذيب لوقوعها لمشاهدتها كما وقع تكذيبها في الدنيا من المشركين. ويحتمل أن يكون الكاذبة اسم فاعل، واللام للتوقيت، والمعنى؛ أي: لا يكون عند وقوعها نفس تكذب على الله، وتفتري بالشريك، والولد، والصاحبة، وبأنه لا يبعث الموتى. لأن كل نفس حينئذٍ مؤمنة صادقة مصدقة، وأكثر النفوس اليوم كاذبة مكذبة.

ومعنى الآية[2]: أنها إذا وقت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلاً، أو لا يكون هناك نفس تكذب على الله، وتكذب بما أخبر عنه من أمور الآخرة. وقال الزجاج ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾؛ أي: لا يردها شيء، وبه قال الحسن، وقتادة. وقال الثوري: ليس لوقعتها أحد يكذب بها. وقال الكسائي: ليس لها تكذيب؛ أي: لا ينبغي أن يكذب بها أحد.

وعبارة «المراغي»: أي إذا قامت القيامة ليس لوقعتها ارتداد، ولا رجعة كالحملة الصادرة من ذي سطوة قاهر. قاله الحسن، وقتادة. وقد يكون المعنى: ليس في وقت وقوعها كذب. لأنّه حق لا شبهة فيه.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

ثم هول شأنها، وعظم أمرها. فقال: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾؛ أي: هي خافضة لأقوام. رافعة لآخرين. وهو[1] تقرير لعظمتها على سبيل المجاز؛ فإن الوقائع العظام يرتفع فيها أناس إلى مراتب، ويتضع أناس. وتقديم الخفض على الرفع للتشديد في التهويل. قال بعضهم: خافضة لأعداء الله إلى النار، رافعة لأولياء الله إلى الجنة، أو تخفض أقواماً بالعدل، وترفع أقواماً بالفضل. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: تخفض أقواماً كانوا مرتفعين في الدنيا، وترفع أقوماً كانوا متضعين فيها، اهـ. كما يشاهد ذلك في تبدل الدول من ذل الأعزة وعز الأذلة. وفي هذا إيماء إلى ما يكون يومئذٍ من حط الأشقياء إلى الدركات ورفع السعداء إلى درجات الجنات. ومن ثم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياءه إلى الجنة.

وقرأ الجمهور: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ برفعهما[2] على إضمار مبتدأ، أي: هي خافضة رافعة. وقرأ زيد بن عليّ، والحسن، وعيسى الثقفي، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، وابن مقسم، والزعفراني، واليزيدي في اختياره بنصبهما على الحال، وصاحب الحال الواقعة، والعامل فيها ﴿وَقَعَتِ﴾. وتستعمل العرب الخفض والرفع في المكان والمكانة، والعز، والإهانة. ونسبة الخفض والرفع إليها على سبيل المجاز، كما مرّ؛ لأن الخافض والرافع في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

والظرف في قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾؛ أي: زلزلت الأرض زلزالاً، متعلق[3] بـ ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾، مجردة عن معنى الشرط؛ أي: خافضة رافعة إذا حركت الأرض تحريكاً شديداً، بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل، ولا تسكن زلزلتها حتى تلقي جميع ما في بطنها على ظهرها. والرج: تحريك الشيء، وازعاجه؛ أي: تخفض، وترفع وقت رج الأرض، وبس الجبال؛ لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض، وينخفض ما هو مرتفع. وقيل: إن الظرف بدل من الظرف الأول، ذكره الزجاج. فيكون معنى وقوع الواقعة: هو رج الأرض، وبس الجبال.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

وقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾؛ أي: فتت الجبال فتا، معطوف على ﴿رُجَّتِ﴾؛ أي: فتتت حتى صارت كالدقيق المبسوس؛ أي: المبلول؛ أي: مثل السويق الملتوت من بس السويق إذا لته، والبسيسة: سويق يلت، فيتخذ زاداً، وقيل: صارت كثيباً مهيلاً بعد أن كانت شامخة. وقيل: معناه: قلعت من أصلها، وسيّرت على وجه الأرض حتى ذهب بها. ﴿فَكَانَتْ﴾؛ أي: صارت الجبال بسبب ذلك ﴿هباءً﴾؛ أي: غباراً. وهو ما يسطع من حوافر الخيل، أو الذي يرى في شعاع الكوّة، أو الهباء: ما يتطاير من شرر النار، أو ما ذرته الريح من الأوراق. ﴿مُّنۢبَثًّا﴾؛ أي: منتشراً متفرّقاً. وروي: أن الله تعالى يبعث ريحاً من تحت الجنة، فتحمل الأرض والجبال، وتضرب بعضها ببعض، ولا تزال كذلك حتى تصير غباراً، ويسقط ذلك الغبار على وجوه الكفار. كقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠﴾. وقال بعضهم: إنّ هذه الغبرة هي التراب الذي أشار إليه تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾. وسيجيء تحقيقه في محله. والكلام على التشبيه؛ أي: فصارت كالهباء المنبث الذي ذرته الريح، وفرقته.

وقرأ زيد بن علي[1]: ﴿رَجَّت﴾ و﴿بسَّتْ﴾ مبنياً للفاعل. و﴿إذا رجَّت﴾ بدل من ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾، وجواب الشرط عندي ملفوظ به. وهو قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾.

والمعنى: إذا كان كذا وكذا، فأصحاب الميمنة ما أسعدهم، وما أعظم ما يجازون به، أي: إن سعادتهم، وعظم رتبتهم عند الله تعالى تظهر في ذلك الوقت الشديد الصعب على العالم. وقرأ الجمهور ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ بالثاء المثلثة. وقرأ مسروق، والنخعيُّ، وأبو حيوة ﴿منبتاً﴾ بالتاء المثناة من فوق؛ أي: منقطعاً من قولهم: بتّه الله؛ أي: قطعه.

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس، واختلافهم. فقال: ﴿وَكُنتُمْ﴾ إمَّا خطاب للأمة الحاضرة، والأمم السالفة تغليباً أو للحاضرة فقط ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: أصنافاً ﴿ثَلَٰثَةً﴾ اثنان في الجنة، وواحد في النار. وكل صنف يكون مع صنف آخر في الوجود، أو في الذكر يسمى زوجاً فرداً كان كالعينين والرجلين. فكل منهما يسمى زوجاً، وهما

(١) البحر المحيط.

معاً زوجانَ أو شفعاً كما هنا. فههنا أزواج ثلاثة.

ثم فصل سبحانه هذه الأصناف الثلاثة، فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾؛ أي: أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين. ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ، خبره ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ على أنَّ ﴿مَآ﴾ الاستفهامية مبتدأ ثان، وما بعده خبره. وتكرير المبتدأ هنا بلفظه مغن عن الضمير الرابط، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾، و﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾. والاستفهام للتعظيم والتفخيم. والأصل: ما هم؛ أي: أيُّ شيء هم في حالهم وصفتهم. ولا يجوز مثل هذا إلا في مواضع التفخيم والتعظيم أو التهويل والتفظيع. والكلام في قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩﴾ كالكلام في قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾.

وأصحاب الميمنة: هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم. وأصحاب المشأمة: هم الذين يأخذون بشمائلهم. أو الذين يكونون على يمين العرش، فيأخذون طريق الجنة، والذين يكونون على شمال العرش فيفضى بهم إلى النار. أو أصحاب الميمنة: أصحاب المنزلة السنيّة، وأصحاب المشأمة: أصحاب المنزلة الدنيّة أخذاً من تيّمنهم بالميامن؛ أي: بطرف اليمين، وتشؤمهم بالشمائل؛ أي: بجانب الشمال. كما تقول: فلان منّي باليمين، أو بالشمال. إذا وصفته عندك بالرفعة أو الضعة. تريد ما يلزم من جهتي اليمين والشمال من رفعة القدر وانحطاطه. أو أصحاب اليمن، وأصحاب الشؤم. فإن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم، والأشقياء مشائيم عليها بمعاصيهم، أو أصحاب الميمنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق، حين أخرجت ذريته من صلبه، قال تعالى في حقهم: «هؤلاء من أهل الجنة ولا أبالي». وأصحاب المشأمة: هم الذين كانوا على شماله، وقال تعالى فيهم: «هؤلاء من أهل النار ولا أبالي».

والمراد من هذا الكلام: تعجيب السامع من حال الفريقين في الفخامة، والفظاعة. كأنَّه قيل: فأصحاب الميمنة في نهاية السعادة، وحسن الحال. وأصحاب المشأمة في نهاية الشقاوة، وسوء الحال. فكأنه قيل: ما عرفت حاله، أي شيء هي، فاعرفها وتعجب منها.

ثم ذكر سبحانه الصنف الثالث، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ والتكرير فيه

للتفخيم والتعظيم، كما مر في القسمين الأوليين. كما تقول: أنت أنت، وزيد زيد. وهم القسم الثالث من الأزواج الثلاثة. أخر ذكرهم ليقترن ببين محاسن أحوالهم.

وأصل السبق: التقدم في السير، ثم تجوز به في غيره من التقدم. والجملة مبتدأ وخبر.

والمعنى: والسابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم، وعرفت محاسنهم. كقوله: أنا أبو النجم وشعري شعري. أو السابقون الأول مبتدأ، والثاني تأكيد له، كرر تعظيماً لهم، والخبر جملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلخ. وفي البرهان: التقدير عند بعضهم: السابقون ما السابقون، فحذف ﴿ما﴾ لدلالة ما قبله عليه.

ومعنى الآيات: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾؛ أي[1]: وصرتم أيها الخلائق في ذلك اليوم ثلاثة أصناف: اثنان في الجنة، وواحد في النار. ثم بينهم بقوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ...﴾ إلخ؛ أي: فأهل الجنة الذين يعطون كتابهم بيمينهم، أيُّ شيء هم في حالهم. فهم في غاية حسن الحال في الكرامة، والسرور، وأهل النار الذين يعطون كتابهم بشمالهم أيُّ شيء هم في حالهم فهم في غاية سوء الحال، وهم في الهوان والعذاب. والسابقون الذين لا حساب عليهم هم الذين اشتهرت أحوالهم، وعرفت محاسنهم. فهم يسبقون الخلق إلى الجنّة من غير حساب. فالسابقون إلى الخيرات في الدنيا هم السابقون إلى الجنّة في العقبى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم السابقون إلى الهجرة، السابقون في الآخرة إلى الجنّة. وقيل: هم السابقون إلى الإسلام. وقيل: هم الذين صلُّوا إلى القبلتين من المهاجرين والأنصار. وقيل: هم السابقون إلى الصلوات الخمس. وقيل: إلى الجهاد. وقيل: هم المسارعون إلى التوبة، وإلى ما دعا الله إليه من أعمال البرّ والخير. وقيل: هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة.

فإن قلت[2]: لم أخر ذكر السابقين، وكانوا أولى بالتقديم على أصحاب اليمين؟

قلت: فيه لطيفة، وذلك أنَّ الله تعالى ذكر في أوّل السورة من الأمور الهائلة

---

(١) المراح. (٢) الخازن.

عند قيام الساعة تخويفاً لعباده. فأما المحسن فيزداد رغبة في الثواب، وأما المسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب. فلذلك قدم ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ليسمعوا، ويرغبوا. ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا. ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليجتهد أصحاب اليمين في القرب من درجتهم.

وقيل[1]: وجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأولين ليقرنه بما هو لهم المذكور بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفة الجليلة. وهو مبتدأ، خبره ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ أي: الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم، وأعليت مراتبهم، ورقيت إلى حظائر القدس نفوسهم الزكية. يقول الفقير: عرف هذا المعنى من قوله ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»: فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن. فإنه يظهر منه أن الفردوس مقام المقربين لقربه من العرش الذي هو سقف الجنة. ولم يقل: أولئك المتقرّبون؛ لأنهم بتقريب ربهم سبقوا لا بتقرب أنفسهم. ففيه إشارة إلى الفضل العظيم في حقّ هؤلاء، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ⑫﴾ إما[2] متعلق بـ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ أي: مقرّبون عند الله في جنات النعيم، أو خبر ثان لأولئك، أو حال من الضمير في ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: كائنين في جنّات النعيم.

والمعنى[3]: أي والسابقون الذين يتقدّمون غيرهم إلى الطاعات هم الذين اشتهرت أحوالهم، وعرفت فخامة أمورهم. وقد يكون المعنى: والسابقون إلى طاعة الله تعالى هم السابقون إلى رحمته سبحانه. فمن سبق في هذه الدنيا إلى فعل الخير كان في الآخرة من السابقين إلى دار الكرامة. فالجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الذين إذا أعطوا الحق

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم». أخرجه أحمد. أولئك المتصفون بذلك الوصف الجليل «السَّبْق» هم الذي نالوا حظوةً عند ربهم، وهم في جنات النعيم يتمتعون فيها بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فِي جَنَّٰتِ﴾ بالجمع. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿في جنّة﴾ بالإفراد. وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه كما يقال: دار الضيافة، ودار الدعوة، ودار العدل.

وارتفاع: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم أمم كثيرة، وجماعة من الأولين غير محصورة العدد، أي: أولئك السابقون جماعة من الأولين، وهم الأمم السالفة من لدن آدم إلى نبيّنا عليهما السلام، وعلى من بينهما من الأنبياء العظام، وهذا التفسير مبنيّ على أن يراد بالسابقين: غير الأنبياء. و[2] اشتقاق الثلة من الثل. وهو الكسر. وجماعة السابقين مع كثرتهم مقطوعة مكسورة من جملة بني آدم. وقال الراغب: الثلة: قطعة مجتمعة من الصوف، ولذلك قيل للغنم: ثلة، ولاعتبار الاجتماع قيل: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾؛ أي: جماعة منهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾؛ أي: من هذه الأمّة. ولا يعارضه قوله ﷺ: «إن أمتي يكثرون سائر الأمم» أي: يغلبونهم بالكثرة. فإن أكثرية سابقي الأمم السالفة من سابقي هذه الأمّة لا تمنع أكثرية تابعي هؤلاء من تابعي أولئك مثل أن يكون سابقوهم ألفين، وتابعوهم ألفاً. فالمجموع ثلاثة آلاف. ويكون سابقوا هذه الأمّة ألفاً وتابعوهم ثلاثة آلاف. فالمجموع أربعة آلاف فرضاً. وهذا المجوع أكثر من المجموع الأوّل. وفي الحديث: «أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة».

والحاصل: أن المراد بالأولين في قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ هم[3] الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبيّنا محمد ﷺ، وبالآخرين في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾؛ أي: من هذه الأمة المحمدية. وسموا قليلاً بالنسبة إلى من كان قبلهم.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم، وكثرة من أجابهم. قال الحسن: سابقوا مَنْ مضى أكثر من سابقينا.

قال الزجاج: الذين عاينوا جميع الأنبياء، وصدقوا بهم أكثر ممن عاين النبي ﷺ. ولا يخالف هذا ما ثبت في «الصحيح» من قوله ﷺ: «إنّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثم قال: ثلث أهل الجنة، ثم قال: نصف أهل الجنة»؛ لأنّ قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ إنما هو تفصيل للسابقين فقط، كما سيأتي في ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلّة من الأوّلين، وثلة من الآخرين، فلا يمتنع أن يكون في أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم، فيجتمع من قليل سابقي هذه الأمّة، ومن ثلّة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة. والمقابلة بين الثُّلَّتين في أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال: هذه الثلة أكثر من هذه الثلة، كما يقال: هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة، وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة. وبهذا تعرف أنه لم يصب من قال: إن هذه الآية منسوخة بالحديث المذكور.

والمعنى: أي هم جماعة كثيرة من سالفي الأمم، وقليل من أمّة محمد ﷺ. ويستأنس لهذا بقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة».

ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين، فقال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ حال أخرى من المقربين، أو خبر آخر للضمير المحذوف، كما في «البيضاوي». والسرر: جمع سرير، مثل: كثب جمع كثيب، أي: حال كونهم على سرر منسوجة بالذهب، مشبكة بالدر والياقوت من الوضن. وهو نسج الدرع، أو[1] موصولة بالذهب والفضة، منسوجة بالدر والياقوت. ويقال: أرضها من الذهب الممدود، وقوائمها من الجواهر النفيسة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سُرُرٍ﴾ بضم السين، والراء الأولى. وقرأ زيد بن علي وأبو السمال بفتح السين، وهي لغة لبعض بني تميم، وكلب، يفتحون عين فعل

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

جمع فعيل المضعف. نحو: سرير.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ حالان[1] من الضمير المستكن فيما تعلق به ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ﴾. والتقابل أن يقبل بعضهم على بعض إما بالذات، وإما بالعناية والمودة؛ أي: مستقرين على سرر حال كونهم متكئين عليها؛ أي: قاعدين على تلك السرر قعود الملوك للاستراحة متقابلين لا ينظر بعضهم من أقفاء بعض. وهو وصف لهم بحسن العشرة، وتهذيب الأخلاق والآداب. وقال أبو الليث: متقابلين في الزيارة.

وجملة قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: يدور حولهم للخدمة حال الشرب وغيره ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾ جمع وليد. وخدمة الوليد أمتع من خدمة الكبير ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾؛ أي: مبقون أبداً على شكل الولدان، وطراوتهم، لا يتحولون عنها. لأنهم خلقوا للبقاء، ومن خلق للبقاء لا يتغير، وهم خلقوا للخدمة قط، والحور العين للخدمة والمتعة، في محل النصب على الحال من المقربين أو مستأنفة لبيان بعض ما أعد الله لهم من النعيم.

والمعنى[2]: مستقرون عل سرر موضونة حال كونهم متكئين عليها، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض، فهم في صفاء، وعيش، ورغد، وحسن معاشرة، لا يوجد في نفوسهم من الشحناء، والبغضاء ما يوجب الافتراق، يدور عليهم غلمان وخدم على صفة واحدة لا يكبرون، ولا يتغيرون. فهم دائماً على الصفة التي تسر المخدوم إذا رأى الخادم، يعني: أنهم مخدومون في شرابهم وطعامهم، مكفيون مؤنة ما يريدون. فهم في غاية ترف ونعيم. قيل: هم ولدان المسلمين يموتون صغاراً، لا حسنة لهم ولا سيئة. وقيل: هم أطفال المشركين. ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين في الجنة للقيام بهذه الخدمة.

وقوله: ﴿بِأَكۡوَابٖ...﴾ إلخ، متعلق بيطوف، أي: يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب من الذهب والجواهر؛ أي[3]: بآنية لا عرى لها، ولا خراطيم. وهي الأباريق الواسعة الرأس، لا خرطوم لها، ولا يعوق الشارب منها عائق عن شرب من أي موضع أراد منها، فلا يحتاج أن يحول الإناء من الحالة التي تناوله بها

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

ليشرب. ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق. وهو الإناء الذي له عروة، وخرطوم يبرق لونه من صفائه. وقيل: إنها أعجمية معربة آبْ ري؛ أي: بآنية ذات عرى وخراطيم. ويقال: الكوب للماء وغيره. والإبريق لغسل الأيدي، والكأس لشرب الخمر. كما قال: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾؛ أي: وبكأس من خمر جارية من العيون. أخبر أن خمر الآخرة ليست كخمر الدنيا، تستخرج بتكلف وعلاج وتكون في أوعية، بل هي كثيرة جارية. كما قال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾. والكأس: القدح إذا كان فيها شراب، وإلا فهو قدح. يقال: معن الماء إذا جرى، فهو فعيل بمعنى الفاعل؛ أي: ظاهرة تراها العيون في الأنهار كالماء المعين.

فإن قلت: كيف جمع الأكواب والأباريق، وأفرد الكأس؟

فالجواب: أن ذلك على عادة أهل الشراب. فإنهم يعدون الخمر في الأواني المتعددة، ويشربون بكأس واحدة.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾؛ أي:[1] لا تتصدع رؤوسهم، ولا تتوجع من شربها؛ أي: لا ينالهم بسبب شربها صداع كما ينالهم ذلك من خمر الدنيا. والصداع: هو الداء المعروف الذي يلحق الإنسان في رأسه. وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. وليست هذه الخصال في خمر الجنة، بل هي لذّة بلا أذى.

وقرأ مجاهد ﴿لا يَصَّدعون﴾ بفتح الياء، وشدِّ الصاد. وأصله: يتصدَّعون، أدغم التاء في الصاد؛ أي: لا يتفرقون عنها كما يتفرق الشراب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾. وقرأ الجمهور[2] بضم الياء، وتخفيف الصاد. والجملة مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم، أو في محل النصب على الحال.

وجملة ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، أي: لا يسكرون بشربها، فتذهب عقولهم، أو لا ينفد شرابهم، من أنزف الشارب، إذا نفد عقله، أو شرابه. فالنفاد إما للعقل، وهو من عيوب خمر الدنيا، أو للشراب فإن بنفادها تختل الصحبة. وقرأ الجمهور: ﴿ولا يُنْزَفُون﴾ مبنياً للمفعول، من أنزف الشارب إذا نفد

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

عقله. وقرأ ابن أبي إسحاق بفتح الياء، وكسر الزاي من نزف البئر استفرغ ماءها. فالمعنى: لا تفرغ خمرهم. وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً، وعبد الله، والسلمي، والجحدري، والأعمش، وطلحة، وعيسى بضم الياء، وكسر الزاي؛ أي: لا يفنى لهم شراب.

والمعنى[1]: يطوفون عليهم بأداة الشراب كاملة من أكواب وأباريق، وخمر تجري من العيون، ولا تعصر عصراً. فهي صافية نقية، لا تنقطع أبداً. وهم يطلبون منها ما يريدون، ولا صداع في شرابها، ولا ذهاب منها للعقل، كما في خمور الدنيا.

وبعد أن وصف الشراب وصف الطعام، فقال: ﴿وَفَٰكِهَةٖ﴾ معطوف على ﴿بِأَكۡوَابٖ﴾؛ أي: يطوف عليهم ولدان بفاكهة كائنة ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾؛ أي: مما يختارونه، ويأخذون خيره، وأفضله من ألوانها. وكلها خيار. والفاكهة: ما يؤكل من الثمار تلذذاً، لا لحفظ الصحة لاستغنائهم عن حفظ الصحة بالغذاء في الجنة، وليس ذلك كقوت الدنيا الذي يتناوله من يضطر إليه. وهو إشارة إلى أنه يتناول المأكولات التي يتنعم بها.

ثم ذكر اللحم الذي هو سيد الإدام، وكانت العرب يتوسعون بلحوم الإبل، ويعز عندهم لحم الطير الذي هو أطيب اللحوم، ويسمعون بها عند الملوك فوعدوها، فقيل: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ﴾؛ أي: ويطوفون عليهم بلحم طير كائن ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ أي: مما يتمنونه، وتشتهيه أنفسهم مشويًّا أو مطبوخاً. يتناولونها مشتهين لها، لا مضطرين ولا كارهين.

وقرأ الجمهور[2] بجر ﴿وَفَٰكِهَةٖ﴾ ﴿وَلَحۡمِ﴾ عطفاً على أكواب. وقرأ زيد بن عليّ، وأبو عبد الرحمن برفعهما على الابتداء، والخبر مقدّر؛ أي: ولهم فاكهة، ولحم طير.

والمعنى: ويطوفون عليهم بألوان من الفاكهة المختلفة المطاعم، يختارون منها ما تميل إليه نفوسهم، وبأنواع من لحوم الطير مما لذ وطاب. فيأخذون منها ما

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

يشتهون، وفيه يرغبون، وفي «الأسئلة المقحمة»: إنما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ فغاير بين اللفظين. فالجواب: لأنَّ الفواكه كما تكون للأكل تكون أيضاً للنظر والشم، وأما لحم الطير فمختلف الشهوات في أكل بعض أجزائه دون بعض.

وبعد أن ذكر طعامهم، وشرابهم أعقبه بذكر نسائهم. لأنَّ الجماع كان أشهى شيء بعدهما. فقال: ﴿و﴾ لهم فيها ﴿حور عين﴾ معطوف[1] على ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾، أو مبتدأ محذوف الخبر؛ أي: وفيها أو لهم حور. وهي جمع حوراء، وهي البيضاء أو الشديدة بياض العين، والشديدة سوادها. وعين جمع عيناء. وهي الواسعة الحسنة العين، وهن خلقن من تسبيح الملائكة، كما في «عين المعاني».

والمعنى: أي ولهم فيها نساء بيض، واسعات الأعين، مشرقات الوجوه، تبدو عليهن نضرة النعيم. وكأنهن اللالىء صفاء وبهجة. وقرأ الجمهور ﴿وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾﴾ برفعهما، وخرج على أن يكون معطوفاً على ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾ أو على الضمير المستكن في ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ أو على مبتدأ محذوف هو وخبره، تقديره: لهم هذا كله، وحور عين أو على حذف خبر فقط؛ أي: ولهم حور أو فيها حور. وقرأ السلميّ، والحسن، وعمرو بن عبيد، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش، وطلحة، والمفضل وأبان، وعصمة، والكسائي بجرهما. والنخعيّ ﴿وحير عين﴾ بقلب الواو ياء، وجرهما. والجر عطف على المجرور، أي: يطوف عليهم ولدان بكذا، وكذا، وحور عين. وقيل: هو على معنى: وينعمون بهذا كله، وبحور عين. وقال: الزمخشري: عطفاً على ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. كأنه قال: هم في جنات، وفاكهة، ولحم، وحور. انتهى. وهذا فيه بعد وتفكيك كلام مرتبط بعضه ببعض. وهو فهم أعجمي. وقرأ أبي، وعبد الله ﴿وحوراً عيناً﴾ بنصبهما. قالوا: على معنى: ويعطون هذا كله، وحورا عيناً. وقرأ قتادة ﴿وحور عينٍ﴾ بالرفع مضافاً إلى ﴿عين﴾. وابن مقسم بالنصب مضافاً إلى ﴿عين﴾. وعكرمة ﴿وحوراء عيناء﴾ على التوحيد، اسم جنس، وبفتح الهمزة فيهما. فاحتمل أن يكون مجروراً عطفاً على المجرور السابق، واحتمل أن يكون منصوباً كقراءة أبي، وعبد الله ﴿وحوراً عيناً﴾. ورجح أبو عبيد، وأبو حاتم

---

(١) روح البيان.

قراءة الجمهور.

ثم شبههن سبحانه باللؤلؤ المكنون، فقال: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ صفة لحور أو حال؛ أي: كائنات كأمثال الدر المخزون في الصدف الذي لم تمسه الأيدي، ولا وقع عليه الغبار، ولم تره الأعين. أو المصون عما يضرُّ به، ويدنسه في الصفاء والنقاء. ولما بالغ في وصف جزائهم بالحسن والصفاء دل على أن أعمالهم كانت كذلك، لأن الجزاء من جنس العمل. فقال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مفعول لأجله[1] أي: يفعل بهم ذلك كله جزاء بأعمالهم الصالحة في الدنيا، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان. فالمنازل منقسمة على قدر الأعمال. وأما نفس دخول الجنة فبفضل الله ورحمته، لا بعمل عامل. ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لفعل محذوف؛ أي: يجزون جزاء... إلخ؛ أي:[2] جازاهم ربهم على ما عملوا، وأثابهم بما كسبوا في الدنيا، وزكوا به أنفسهم من صالح الأعمال، ونصبوا له بأداء الفرائض على أتم الوجوه وأكملها، فهم كانوا قوامين في الليل، صوامين في النهار ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

وبعد أن وصف النساء وصف حينئذٍ حديثهم، فقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿لَغْوًا﴾؛ أي: كلاماً لا ينفع، قاله في «المفردات». واللغو من الكلام: ما لا يعتد به وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللغا. وهو صوت العصافير، ونحوها من الطيور. ﴿وَلَا﴾ يسمعون ﴿تَأْثِيمًا﴾؛ أي: شيئاً منسوباً إلى الإثم، كالشتم أو نسبتهم إلى الإثم بمعنى: لا يقال لهم: أثمتم؛ لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم، كما يتكلم به أهل الدنيا. أو المعنى: لا يأتون تأثيماً؛ أي: ما هو سبب التأثيم من قول أو فعل قبيح. والإثم: اسم للأفعال المبطئة عن الثواب، والجمع آثام.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا قِيلًا﴾؛ أي: قولاً ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ بدل من ﴿قِيلًا﴾ منقطع؛ أي: لكنهم يسمعون فيها قولاً سلاماً سلاماً. ومعنى سماعهم السلام: أنهم يفشون السلام، فيسلمون سلاماً بعد سلام، أو لا يسمع كل من المسلِّم والمسلَّم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

عليه إلا سلام الآخر بدأ ورداً. وقيل: تسلم عليهم الملائكة، أو يرسل الرب سبحانه بالسلام إليهم.

والمعنى: لا يسمعون فيها من غيرهم كلاماً لغواً ساقطاً، ولا كلاماً يأثم به صاحبه، ولا يقولون كلاماً لغواً ساقطاً، ولا كلاماً يأثمون به لو كانوا في الدنيا. ولكن يقولون كلاماً هو سلام بعضهم على بعض، أو لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قولاً هو سلام الملائكة عليهم أو سلام الرب سبحانه عليهم؛ أي: لا يسمعون اللغو الهراء من الحديث، ولا هجر القول، وما تتقزز منه النفوس الراقية ذات الأخلاق العالية، ولكن يسمعون أطيب السلام، وسامي الكلام مما يستساغ، كما قال سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾. وقرىء ﴿سلام سلام﴾ بالرفع. قال مكي: ويجوز الرفع على معنى سلام عليكم مبتدأ وخبر.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أن جنات السابقين المقربين صافية عن الكدورات المنغصة لساكنيها، فارغة عن العاملات المعبسة لقاطنيها، لا يقول أهلها إلا مع الحق، ولا يسمعون إلا من الحق، تجلى الحق لهم عن اسمه السلام المشتمل على السلامة من النقائص، والآفات المتضمن للقربات والكرامات.

ولما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين، وما أعده لهم من النعيم المقيم ذكر أحوال أصحاب اليمين. فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ وهذا شروع في تفصيل ما أجمل عند التقسيم من شؤونهم الفاضلة إثر تفصيل شؤون السابقين. وهو مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: لا تدري ما لهم من الخير والبركة بسبب فواضل صفاتهم، وكوامل محاسنهم. وقوله: ﴿فِى سِدْرٍ﴾ خبر ثان، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم في سدر ﴿مَّخْضُودٍ﴾؛ أي: غير ذي شوك، خال منه، لا كسدر الدنيا. فإن سدر الدنيا مخلوق بشوك، وسدر الجنة بلا شوك، كأنه خضد شوكه؛ أي: قطع، ونزع عنه. فقوله[2]: ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ إما من باب المبالغة في التشبيه، أو مجاز بعلاقة السببية؛ فإن الخضد سبب لانقطاع الشوك. وقيل: «مخضود»؛ أي: مثنى أغصانه لكثرة حمله، من خضد الغصن إذا ثناه. وهو رطب. فمخضود على هذا الوجه من حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه. وقال الضحاك،

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

ومجاهد، ومقاتل بن حيان: إن السدر المخضود الموقر حملاً. والسدر: شجر النبق. وهو ثمر معروف، محبوب عند العرب، يتخذون من ورقه الحرض. وفي «المفردات»: السدر: شجر قليل الغذاء عند الأكل، وقد يخضد، ويستظل به. فجعل ذلك مثلاً لظل الجنة ونعيمها. قال بعضهم: ليس شيء من ثمر الجنة في غلف كما يكون في الدنيا من الباقلاء وغيره، بل كلها مأكول، ومشروب، ومشموم، ومنظور إليه.

﴿و﴾ في ﴿طلح﴾؛ أي: موز ﴿مَّنضُودٍ﴾؛ أي: مملوء بحمله، وثماره من أسفله إلى أعلاه؛ أي: نضد حمله، وتراكب بعضه على بعض من أسفله إلى أعلاه، ليست له سوق بارزة. وهو شجر الموز. وهو شجر له أوراق كبار، وظل بارد. كما أن أوراق السدر صغار، أو هو أم غيلان. وله أنوار كثيرة منتظمة طيبة الرائحة، تقصد العرب منه النزهة والزينة، وإن كان لا يؤكل منه شيء.

وعن السدي: هو شجر يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل. وعن مجاهد: كان لأهل الطائف واد معجب فيه الطلح والسدر، فقالوا: يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي، فنزلت هذه الآية، وقد قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾. وذكر لكل قوم ما يعجبهم، ويحبون مثله. وفضل طلح الجنة وسدرها على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا.

﴿و﴾ في ﴿ظل ممدود﴾؛ أي: دائم باق، لا يزول، ولا تنسخه الشمس، لا ينقص، ولا يتفاوت كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. والعرب تقول للشيء الذي لا ينقطع: ممدود، كقول لبيد:

غَلَبَ الْعَزَاءَ وَكَانَ غَيْرَ مُغَلَّبِ   دَهْرٌ طَوِيلٌ دَائِمٌ مَمْدُودُ

وفي الحديث: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شجرة في الجنة على ساق يخرج إليها أهل الجنة، فيتحدثون في أصلها، ويتذكر بعضهم، ويشتهي لهو الدنيا، فيرسل الله تعالى ريحاً من الجنة، فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا.

وقال في «كشف الأسرار»: ويحتمل أن الظل عبارة عن الحفظ. تقول: فلان

في ظل فلان أي: في كنفه وحفظه ورعايته. لأنه لا شمس في الجنة. انتهى. يقول الفقير[1]: بل المراد من الظل: الراحة. كما في قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾. لأنّه إنما يجلس المرؤ في الظل للاستراحة، وكانت العرب يرغبون فيه لقلّته في بلادهم، وغلبة حرارة الشمس. ومنه قوله ﷺ: «السلطان ظل الله في أرضه، يأوي إليه كل مظلوم» أي: يستريح عند عدله. ومنه: قولهم: مدَّ الله ظلاله؛ أي: ظلال عدله ورأفته، حتى يصل أثر الاستراحة إلى الناس كلهم.

﴿و﴾ في ﴿ماء مسكوب﴾؛ أي: منصب، يسكب لهم، ويصب عليهم، يجري أينما شاؤوا، وكيفما أرادوا بلا تعب، لا ينقطع عنهم أبداً. فهو مسكوب يسكبه الله سبحانه في مجاريه، أو مصبوب سائل، يجري على وجه الأرض في غير أخدود. يعني: كون الماء مسكوباً كثيراً إما عبارة عن كونه ظاهراً مكشوفاً غير مختص ببعض الأماكن والكيفيات أو عن كونه جارياً. وأكثر ماء العرب من الآبار والبرك، فلا يسكب. فلا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء، فوعدوا بالماء الكثير الجاري، حتى يجري في الهواء على حسب الاشتهاء. كأنه مثل حال السابقين بأقصى ما يتصور لأهل المدن، وحال أصحاب اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البواد إيذاناً بالتفاوت بين الحالين. فكما أنَّ بينهما تفاوتاً فكذا بين حاليهما.

﴿و﴾ في ﴿فاكهة كثيرة﴾ بحسب الأنواع، والأجناس، والألوان، والطعوم والروائح. دائمة في جميع الأوقات ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ في وقت من الأوقات كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الأوقات. ﴿و﴾ مباحة لهم ﴿لا ممنوعة﴾ عمن أراد تناولها بوجه من الوجوه، كبعد المتناول، وانعدام ما يشتري به، وشوك في الشجر يؤذي من يقصد تناولها، وحائط يمنع الدخول إليها، ونحوها من المحظورات. بل هي معدة لمن أرادها، لا يحول بينه وبينها حائل. وفي الحديث: «ما قطعت ثمرة من ثمار الجنة إلا أبدل الله مكانها ضعفين». وقرىء ﴿فاكهة كثيرة﴾ برفعهما؛ أي: وهناك فاكهة كثيرة.

﴿و﴾ في ﴿فرش﴾ جمع فراش. وهو ما يبسط، ويفرش. وقرأ الجمهور[2] بضم الراء، وأبو حيوة بسكونها؛ أي: هم في بسط ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾؛ أي: مرفوع بعضها

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

فوق بعض أو مرفوعة على الأسرة أو رفيعة القدر أو مرتفعة وارتفاعها كما بين السماء والأرض. وهو مسيرة خمس مئة عام. والظاهر: أنَّ الفراش هو ما يفترش للجلوس عليه، والنوم. وقال أبو عبيدة، وغيره: إنَّ الفرش هنا كناية عن النساء اللواتي في الجنة؛ لأن المرأة يكنى عنها بالفراش، وباللباس وبالإزار. وفي الحديث: «الولد للفراش». فسمى المرأة فراشاً. وارتفاعهن كونهن على الأرائك، أو كونهن مرتفعات القدر في الحسن، والكمال. دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾؛ لأن الضمير عائد على الفرش في قول أبي عبيدة، إذ هن النساء عنده. وعلى مادل عليه الفرش إذا كان المراد بالفرش ظاهر ما يدل عليه لفظ الفرش من الملابس التي تفرش، ويضطجع عليها. وهو النساء؛ أي: ابتدأنا خلقهن ابتداء جديداً من غير ولادة إبداء وإعادة. أما الإبداء فكما في الحور العين؛ لأنهن أنشأهن الله في الجنة من غير ولادة. وأمّا الإعادة فكما في نساء الدنيا المقبوضة عجائز. وفي الحديث: «هنّ اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطاً» جمع شمطاء. والشمط: بياض شعر الرَّأس يخالطه سواد. «رُمْصاً» جمع رمصاء. والرمص بالتحريك: وسخ يجتمع في الموق. جعلهن الله تعالى بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد في الاستواء، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً. فلما سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك قالت: وَا وجعاه. فقال النبي ﷺ: «ليس هناك وجعٌ». وقد فعل الله في الدنيا بزكريا عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾. سئل الحسن عن ذلك الصلاح، فقال: جعلها شابة بعد أن كانت عجوزاً، وولوداً بعد أن كانت عقيماً.

وذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ﴾ بعد أن كن عجائز ثيبات ﴿أَبْكَارًا﴾؛ أي: شواب أبكاراً؛ أي: عذارى، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان. جمع بكر. والمصدر البكارة بالفتح. وسميت التي لم تفتض بكراً اعتباراً بالثيب لتقدمها عليها فيما يراد له النساء. قال سعدي المفتي: إن أريد بالإنشاء معنى الإبداء، فالجعل بمعنى الخلق، وقوله: ﴿أَبْكَارًا﴾ حال. وإن أريد به: الإعادة فهو بمعنى التصيير، و﴿أَبْكَارًا﴾ مفعوله الثاني. قال بعضهم: دل قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ على أن المراد بهن: نساء الدنيا؛ لأن المخلوقة ابتداء معلوم أنها بكر. وهن أفضل، وأحسن من حور الجنة؛ لأنهن عملن الصالحات في الدنيا، بخلاف الحور. وعن الحسن رحمه الله تعالى عنه: قالت عجوز عند عائشة رضي الله عنها من بني عامر: يا رسول الله أدع الله أن

يدخلني الجنة، فقال: «يا أم فلان، إن الجنة لا يدخلها عجوز، فولت وهي تبكي، فقال: النبي ﷺ: أخبروها أنها ليست يومئذٍ بعجوز»، وقرأ الآية: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾. وهو حديث مرسل، رواه البغوي بسنده.

﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب، كرسل جمع رسول. وهي المتحببة إلى زوجها، الحسنة التنقل. وفي «المفردات»: امرأة عروبة؛ أي: معربة بحالها عن عفتها، ومحبة زوجها، من أعرب إذا بين. وفي بعض التفاسير: ﴿عُرُبًا﴾ كلامهن عربي. وقال زيد بن أسلم: هي الحسنة الكلام.

وقرأ حمزة[1]، وناس منهم: شجاع، وعباس، والأصمعي عن أبي عمرو، وناس منهم: خارجة، وكردم، وأبو خليد عن نافع، وناس منهم: أبو بكر، وحمّاد وأبان عن عاصم بسكون الراء. وهي لغة تميم، وقرأ باقي السبعة بضمها. وهما لغتان في جمع فعول.

﴿أَتْرَابًا﴾؛ أي: أقراناً وأمثالاً في الشكل، والقد. والأتراب[2]: هن اللواتي على ميلاد واحد، وسن واحد. وقال مجاهد: ﴿أَتْرَابًا﴾ أمثالاً وأشكالاً. وقال السدي: أتراباً في الأخلاق، لا تباغض بينهن، ولا تحاسد. جمع ترب. وهي اللدة، والسن، ومن ولد معك. والمعنى؛ أي: مستويات في سن بنت ثلاث وثلاثين سنة، وكذا أزواجهن. والقامة ستون ذراعاً في سبعة أذرع عل قامة أبيهم آدم، شباب جرد مكحولون أحسنهم كالقمر ليلة البدر، وآخرهم كالكوكب الدري في السماء، يبصر وجهه في وجهها، وتبصر وجهها في وجهه. لا يبزقون، ولا يتمخطون، وما كان فوق ذلك من الأذى فهو أبعد. وفي الحديث: «إنَّ الرجل ليفتض في الغداة سبعين عذراء ثم ينشئهن الله أبكاراً». وفي الحديث: «أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم، واثنتان وسبعون زوجة، وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء». والجابية بالجيم: بلد بالشام. وصنعاء: بلد باليمن، كثيرة الأشجار والمياه، تشبه دمشق.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وقوله: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٨﴾ أعاد ذكره للتأكيد والتحقيق. وهو متعلق[1] بـ ﴿أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾ أو بـ ﴿جعلنا﴾ أو بـ ﴿أَتۡرَابٗا﴾.

والمعنى: أنَّ الله سبحانه أنشأهنّ لأجلهم أو خلقهن لأجلهم أو هن مساويات لأصحاب اليمين في السن، أو هو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هن لأصحاب اليمين.

وقوله: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٠﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧﴾. وهو خبر مبتدأ محذوف.

والمعنى: هم ـ أي: أصحاب اليمين ـ جماعة، أو أمة أو فرقة، أو قطعة من الأوّلين؛ أي: من الأمم السالفة من لدن آدم إلى نبيّنا محمد ﷺ، وجماعة أو أمّة أو فرقة أو قطعة من الآخرين؛ أي: من أمة محمد ﷺ.

وقال أبو العالية، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾؛ أي: من سابقي هذه الأمّة، ﴿وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٠﴾؛ أي: من أخرى هذه الأمة. وفي الحديث[2]: «هم جميعاً من أمتي»؛ أي: الثلتان من أمتي. فعلى هذا التابعون بإحسان، ومن جرى مجراهم ثلة أولى. وسائر الأمة ثلة أخرى إلى آخر الزمان. وإنما لم يقل في حق هؤلاء: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ كما قال ذلك في حقّ السابقين إشارة إلى أن عملهم لقصوره عن عمل السابقين لم يعتبر اعتباره.

وحاصل معنى الآيات[3]: هم ـ أي: أصحاب اليمين ـ يتمتعون بجنات فيها السدر الذين قطع شوكه، لا كسدر البرية في الدنيا، وفيها الموز الذي مليء ثمراً، فلا تظهر له سيقان، وفيها ظل ظليل يقيهم شديد الحر، ووهج الشمس، وفيها ماء مصبوب لا يحتاج أهلها إلى نصب وتعب للحصول عليه، وفيها ضروب من الفاكهة التي لا تنقطع أبداً، ولا تمتنع عنهم في وقت، فهم يجدونها متى شاؤوا، وهم يجلسون على فرش وثيرة عالية وطيئة، لا تتعب الجالس عليها.

ثم ذكر ما يتمتعون به من النساء، فقال: إنا أعددناهن نساء أبكاراً متحببات

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

إلى أزواجهن، إذ هن يحسن التبعل كلهن في سن واحدة، لا تمتاز واحدة عن أخرى، وأعطيناهن لأصحاب اليمين جماعة من مؤمني الأمم السالفة، وجماعة من مؤمني أمة محمد ﷺ.

ولما فرغ الله سبحانه مما أعده لأصحاب اليمين.. شرع في ذكر أصحاب الشمال، وما أعده لهم. فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ وهم الكفار لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾. وهو مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ والاستفهام فيه للإنكار؛ أي: لا تدري ما لهم من الشر، وشدة الحال يوم القيامة. هم ﴿فِى سَمُومٍ﴾؛ أي: في حر نار تنفذ في المسام. وهي ثقب البدن، وتحرق الأجساد والأكباد. وهو إما خبر ثان لأصحاب الشمال أو خبر مبتدأ محذوف. وفي «القاموس»: السموم: الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن، وتكون غالباً في النهار. والحرور: الريح الحارة بالليل، وقد تكون بالنهار. انتهى ﴿و﴾ في ﴿حميم﴾؛ أي: في ماء حار بالغ نهاية الحرارة. ﴿و﴾ في ﴿ظل من يحموم﴾؛ أي: من دخان أسود بهيم. فإن اليحموم: الدخان، والأسود من كل شيء كما في «القاموس». وهو يفعول من الحمة بالضم. وهو الفحم أو من الأحم وهو الأسود، كما سيأتي. تقول العرب: أسود يحموم إذا كان شديد السواد. قال الضحاك: النار سوداء، وأهلها سود، وكل شيء فيها أسود. ولذا لا يكون في الجنة الأسود إلا الخال، وأشفار العين، والحاجب.

والمعنى: أنهم يفزعون إلى الظل، فيجدونه ظلًّا من دخان جهنم شديد السواد.

يقول الفقير[1]: ففيه تحذير من شرب الدخان الشائع في هذه الأعصار. فإنه يرتفع حين شربه، ويكون كالظل فوق شاربه مع ما لشربه من الغوائل الكثيرة ليس هذا موضع ذكرها، فنسأل الله العافية لمن ابتلي به. إذ هو مما تستخبثه الطباع السليمة، وهو حرام كما عليه أكثر العلماء، إلا من شذَّ وعاند.

ثم وصف هذا الظل بقوله: ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كسائر الظلال التي تكون باردة، بل هو

---

(١) روح البيان.

حارّ؛ لأنه من دخان نار جهنم. ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾؛ أي[1]: ولا نافع من أذى الحر لمن يأوي إليه نفى بذلك ما أوهم الظل من الاسترواح. يعني: أنه سماه ظلًّا، ثم نفى عنه. وصيغة البرد والكرم الذي عبر به عن دفع أذى الحر لتحقيق أنه ليس بظل. والكرم صفة لكل ما يرضي، ويجري في بابه. والظل يقصد لفائدتين: لبرودته، ودفع أذى الحر، وإن لم تحصل الاستراحة بالبرد لعدمه. كما في البيوت المسدودة الأطراف، بحيث لا يتحرك فيها الهواء؛ فإن من يأوي إليها يتخلص بها من أذى حر الشمس، وإن لم يستروح ببردها. وفيه تهكم بأصحاب المشأمة، وأنهم لا يستأهلون للظل البارد والكريم الذي هو لأضدادهم في الجنة. قال سعيد بن المسيب: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾؛ أي: ليس فيه حسن منظر، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم. وقال الضحاك: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾؛ أي: ولا عذب. وقرأ الجمهور[2] ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ بجرهما، وابن أبي عبلة برفعهما، أي: لا هو بارد ولا كريم.

ومعنى الآيات[3]: أي أصحاب الشمال في حال لا يستطاع وصفها، ولا يقادر قدرها من نكال ووبال وسوء منقلب. ثم فسر هذا المبهم بقوله: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ...﴾ إلخ؛ أي: هم في حرٍّ ينفذ في المسامّ، وماء متناه في الحرارة، وظل من دخان أسود ليس بطيب الهبوب ولا حسن المنظر؛ لأنه دخان من سعير جهنم، يؤلم من يستظل به.

قال ابن جرير: العرب تتبع هذه اللفظة ﴿الكريم﴾ في النفي، فيقولون: هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم، وهذا اللحم ليس بسمين ولا كريم، وهذه الدار ليست بواسعة ولا كريمة، اهـ. وذكر السموم الذي هو الريح المتعفن يتحرك من جانب إلى جانب، فإذا شم الإنسان منه يفسد قلبه بسبب العفونة، ويقتل الإنسان. والحميم: الذي هو الماء الحار، ولم يذكر النار إشارة بالأدنى إلى الأعلى؛ فإن هواءهم إذا كان سموماً، وماءهم الذي يستغيثون به حميماً، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنفعها، فما ظنك بنارهم؟. فكأنه قال: إن أبرد الأشياء لديهم أحرها، فما بالك بحالهم مع أحرها؟. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

والخلاصة[1]: أنَّ السموم تضربهم فيعطشون، وتلتهب تارةً أحشاؤهم فيشربون الماء فيقطع أمعاءهم، ويريدون الاستظلال بظل فيكون ظل اليحموم.

ثم ذكر سبحانه أعمالهم التي استحقوا بها هذا العذاب. فقال: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن أصحاب الشمال ﴿كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: قبل ما ذكر من سوء العذاب النازل بهم ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي[2]: منعمين بأنواع النعم من المآكل، والمشارب، والمساكن الطيبة، والمقامات الكريمة، منهمكين في الشهوات. فلا جرم عذبوا بنقائضها. يقال: ترف كفرح، تنعم وأترفته النعمة أطغته وأنعمته، والمترف كمكرم المتروك يصنع ما يشاء فلا يمنع، كما في «القاموس». وهذه الجملة تعليل لما قبلها ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ﴾ ويداومون ويواظبون ﴿عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: على الذنب العظيم الذي هو الشرك. ومنه: قولهم: بلغ الغلام الحنث؛ أي: الحلم، ووقت المؤاخذة بالذنب. وحنث في يمينه خلاف برَّ فيها. وقال بعضهم: الحنث هنا: الكذب؛ لأنهم كانوا يحلفون بالله مع شركهم لا يبعث الله من يموت. يقول الفقير: يدل على هذا ما يأتي من قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾.

والحكمة في ذكر سبب عذابهم ـ مع أنه لم يذكر في أصحاب اليمين سبب ثوابهم، فلم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين ـ: التنبيه على أن ذلك الثواب منه تعالى فضل، لا تستوجبه طاعة مطيع، وشكر شاكر، وإن العقاب منه تعالى عدل. فإذا لم يعلم سبب العقاب يظن أن هناك ظلماً.

﴿وَكَانُوا۟﴾ مع شركهم ﴿يَقُولُونَ﴾ لغاية عتوّهم وعنادهم ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ والهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف هو متعلق ﴿إذا﴾، دل عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؛ أي: أنبعث إذا متنا. ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا﴾؛ أي: أنبعث إذا كان بعض أجزائنا من اللحم والجلد تراباً، وبعضها عظاماً نخرة بالية. وتقديم[3] التراب

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

لعراقته في الاستبعاد، وانقلابه من الأجزاء البادية. و﴿إذا﴾ ممحضة للظرفية، والعامل فيها ما دل عليه قوله سبحانه: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، لا نفسه. لأن ما بعد «إنَّ، واللام، والهمزة» لا يعمل فيما قبلها. وهو البعث، كما مرَّ تقديره آنفاً. وهو المرجع للإنكار والاستبعاد، وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص إنكاره به فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت، وإن كان البدن على حاله، بل لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية بالكلية. وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين في المبعوثية بالفعل في حال كونهم تراباً وعظاماً، بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له، ومرجعه إلى إنكار البعث بعد تلك الحالة.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ للإنكار والاستبعاد أيضاً، داخلة على محذوف، والواو: للعطف على المستكن في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ لوقوع الفصل بينهما بالهمزة، والتقدير: ألمبعوثون نحن وآباؤنا الأولون؟.

والمعنى: أن بعث آبائهم الأولين أبعد لتقدم موتهم. وقرىء[1] ﴿وآبائنا﴾ بلا همزة. وقرأ نافع، وابن عامر «أو» بالسكون. وقد سبق مثله، ذكره البيضاوي.

ومعنى الآيات[2]: أي إنهم كانوا في الدنيا منعمين بألوان من المآكل، والمشارب، والمساكن الطيبة، والمقامات الكريمة، منهمكين في الشهوات، فلا جرم عذبوا بنقائضها، إلى أنهم كانوا ينكرون هذا اليوم، ويقولون: أنبعث نحن وآباؤنا الأولون، ونعود كرة أخرى، وقد صرنا أجساداً بالية، وعظاماً نخرة.

والخلاصة: أنهم كانوا يمتعون بوافر النعم، وجزيل المنن. وهم مع ذلك أصروا على كفرانهم، ولم يشكروا أنعم الله عليهم، فاستحقوا عذاب ربهم، وكانوا مكذبين بهذا اليوم، مستبعدين وقوعه، وركبوا رؤوسهم فلم يلووا على شيء، وهاموا في أودية الضلالة، وساروا في سبيل الغواية، ولا رقيب ولا حسيب.

وقد جرت سنّة القرآن أن يذكر أسباب العقاب[3]، ولا يذكر أسباب الثواب؛ لأنَّ الثواب فضل، والعقاب عدل، والفضل ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم في

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

المتفضل به نقص ولا ظلم، أما العدل إن لم يعلم سببه فربما يظن أنه ضرب من الظلم، كما مر آنفاً في بيان الحكمة، وقد ذكروا لاستبعاد هذا البعث أسباباً:

١ ـ الحياة بعد الموت.

٢ ـ طول العهد بعد الموت، حتى صارت اللحوم تراباً، والعظام رفاتاً.

٣ ـ بلغ الأمر منهم أن قالوا متعجبين: أو يبعث آباءنا الأولون؟.

فرد الله سبحانه عليهم كل هذا، وأمر رسوله أن يجيبهم ويرد عليهم استبعادهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ردًا لإنكارهم، وتحقيقاً للحق. ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في الزمن من الأمم الماضية ﴿وَٱلْآخِرِينَ﴾ فيه الذين أنتم من جملتهم، وفي تقديم[1] ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مبالغة في الرد، حيث كان إنكارهم لبعث آباءهم أشد من إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودي. ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد الموت، وكأنه ضمن الجمع معنى السوق، فعدى تعديته بإلى. وقرىء ﴿لمجمعون﴾، ولذا قال: ﴿إلى ميقات يوم معلوم﴾؛ أي: إلى ما وقتت به الدنيا، وحدت من يوم معلوم لله، معين عنده. وهو يوم القيامة. والإضافة بمعنى من، كخاتم فضة. والميقات هو الوقت المضروب للشي ينتهي عنده أو يبتدأ فيه، ويوم القيامة ميقات تنتهي الدنيا عنده، وأول جزء منه. فالميقات الوقت المحدود، وقد يستعار للمكان. ومنه: مواقيت الإحرام للحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً.

والمعنى[2]: أي أجبهم أيها الرسول الكريم قائلاً لهم: إن الأولين الذين تستبعدون بعثهم أشد الاستبعاد، والآخرين الذين تظنون أن لن يبعثوا ليجمعون في صعيد واحد في ذلك اليوم المعلوم، ولا شك أن اجتماع عدد لا يحصي كثرة أعجب من البعث نفسه. ونحو الآية قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

ثم بين ما يلقاه أولئك المكذبون من الجزاء في مآكلهم، ومشاربهم فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ الخطاب[3] لأهل مكة، وأضرابهم، وهو معطوف على ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، داخل

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

تحت القول. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي زماناً أو رتبة. ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الحق والهدى ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: البعث. ووصفهم بوصفين قبيحين. وهما الضلال عن الحق، والتكذيب له. ﴿لَآكِلُونَ﴾ بعد البعث، والجمع، ودخول جهنم ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ من الأولى لابتداء الغاية، والثانية لبيان الشجر. وتفسيره؛ أي: مبتدئون الأكل من شجر هو الزقوم. وهو شجر كريه المنظر والطعم، حار في اللمس، منتن في الرائحة، وهي الشجرة الملعونة في القرآن، ويقال: سدرة المنتهى، أغصانها نعيم لأهل الجنة، وأصولها زقوم لأهل النار. فهي مبدأ اللطف، والقهر، والجمال، والجلال، ولا أصل لهذا الكلام، ويجوز[1] أن تكون «من» الأولى مزيدة، والثانية بيانية، وأن تكون الثانية مزيدة والأولى للابتداء.

﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ يقال: ملأ الإناء فهو مملوء، من باب قطع، والملاء بالكسر: مقدار ما يأخذ الإناء إذا امتلأ. ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من تلك الشجرة. والتأنيث باعتبار المعنى. ﴿ٱلْبُطُونَ﴾؛ أي: بطونكم لما يلحقكم من شدة الجوع أو بالقسر. وفيه[2] بيان لزيادة العذاب، وكماله؛ أي: لا يكتفى منكم بنفس الأكل كما يكتفي من يأكل الشيء تحلة القسم بمسمى الأكل، بل تلزمون بأن تملؤوا منها البطون؛ أي: يملأ كل واحد منكم بطنه أو بطون الأمعاء، والأول أظهر، والثاني أدخل في التعذيب.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على شجر الزقوم؛ أي: عقب ذلك بلا ريث لعطشكم الغالب. وتذكير الضمير هنا باعتبار لفظ الشجر؛ لأنه يذكر ويؤنث أو عائد إلى الزقوم. ويجوز[3] أن يعود إلى الأكل المدلول عليه بقوله: ﴿لَآكِلُونَ﴾؛ أي: فشاربون على الزقوم عقب أكله ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾؛ أي: من الماء الحار البالغ الغاية في الحرارة. وقرىء ﴿من شجرة﴾ بالإفراد. ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾؛ أي: شرباً كشرب الإبل العطاش التي لا تروى لداء أصابها. وهذه الجملة كالتفسير والبيان لما قبلها؛ أي: لا يكون شربكم شرباً معتاداً، بل يكون مثل شرب الهيم. وهي الإبل التي بها الهيام، وهو داء[4] يصيبها، يشبه الاستسقاء فتشرب ولا تروي إلى أن تموت أو تسقم سقماً شديداً، والهيم: جمع أهيم وهيماء، كحمر وأحمر وحمراء. فأصله:

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

هيم بضم الهاء بوزن حمر، فقلبت الضمة كسرة لتصح الياء، فصار نظير بيض. قال قيس بن الملوح:

يُـقَـالُ بِـهِ دَاءُ ٱلْـهُـيَـامِ أَصَـابَـهُ وَقَـدْ عَـلِـمَـتْ نَـفْـسِـيْ مَـكَـانَ شِـفَـائِـيَـا

وقيل: جمع هائم وهائمة، وجمع فاعل على فعل كباذل وبذل، عائذ وعوذ شاذ. وقال الضحاك[1]، وابن عيينة، والأخفش، وابن كيسان: الهيم: الأرض السهلة ذات الرمل.

والمعنى عليه: أنهم يشربون كما تشرب هذه الأرض الماء، ولا يظهر له فيها أثر.

ومعنى هذا الكلام[2]: أنه يسلط عليهم من الجوع والتهاب النار في أحشائهم ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل. فإذا ملؤوا منه بطونهم، وهو في غاية الحرارة، والمرارة سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم، فيشربونه شرب الإبل العطاش. وفيه بيان لزيادة العذاب أيضاً؛ أي: لا يكون شربكم أيها الضالون كشرب من يشرب ماء حاراً منتناً، فإنه يمسك عنه إذا وجده مؤلماً معذباً بخلاف شربكم، فإنكم تلزمون بأن تشربوا منه مثل ما يشرب الجمل الأهيم، فإنه يشرب ولا يروى.

﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكر من الزقوم والحميم أوّل ما يلقونه من العذاب ﴿نُزُلُهُمْ﴾؛ أي: رزقهم المعدّ لهم؛ أي: كالنزل الذي يعد للنازل مما حضر مكرمة له. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء. فإذا كان ذلك نزلهم فما ظنك بحالهم بعد ما استقر لهم القرار، واطمأنت بهم الدار في النار؟. وفيه من التهكم بهم، والتوبيخ لهم ما لا يخفى، كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن ما يعد لهم في جهنم ليس مكرمة لهم، كما قال:

وَكُـنَّـا إِذَا ٱلْـجَـبَّـارُ بِـٱلْـجَـيْـشِ ضَـافَـنَـا جَـعَـلْـنَـا ٱلْـقَـنَـا وَٱلْـمُـرْهَـفَـاتِ لَـهُ نُـزُلاَ

والجملة مسوقة من جهته تعالى بطريق الفذلكة، مقررة لمضمون الكلام الملقن غير داخلة تحت القول.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾. وقرأ عبد الله ﴿من شجرة﴾، كما مرت الإشارة إليه. والضمير في قوله: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا﴾ عائد على شجر. إذ هو اسم جنس يؤنث ويذكر. وعلى قراءة عبد الله فهو واضح. ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ قال الزمخشري: ذكر على لفظ الشجر كما أنَّث على المعنى في ﴿مِنْهَا﴾، قال: ومن قرأ ﴿من شجرة﴾ فقد جعل الضميرين للشجرة، وإنما ذكر الثاني على تأويل الزقوم؛ لأنه يفسرها، وهي في معناه. وقال ابن عطية: الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على المأكول أو على الأكل، انتهى، فلم يجعله عائداً على شجر. قال الزمخشري: فإن قلت[2]: كيف يصح عطف الشاربين على الشاربين وهما لذوات متفقة، وصفتان متفقتان، فكان عطفاً للشي على نفَسه؟

قلت: ليستا بمتفقتين من حيث كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة، وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً، فكانتا صفتين مختلفتين، انتهى.

والفاء تقتضي التعقيب في الشربين، وأنهم أوّلاً لمَّا عطشوا شربوا من الحميم ظنًّا أنه يسكن عطشهم، فازداد العطش بحرارة الحميم، فشربوا بعده شرباً لا يقع به ري أبداً، وهو مثل شرب الهيم، فهما شربان من الحميم، لا شرب واحد، اختلفت صفتاه فعطف، والمقصود الصفة، والمشروب منه في ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ محذوف لفهم المعنى، تقديره: فشاربون منه شرب الهيم.

وقرأ نافع وعاصم وحمزة[3]: ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ بضم الشين. وهو مصدر سماعي، وقيل: اسم لما يشرب. وقرأ مجاهد، وأبو عثمان النهدي بكسرها. وهو بمعنى المشروب اسم لا مصدر، كالطحن والري، وقرأ الأعرج، وابن المسيب، وحبيب بن الحبحاب، ومالك بن دينار، وباقي السبعة بفتحها. وهو مصدر مقيس. وقرأ الجمهور:[4] ﴿نُزُلُهم﴾ بضمتين. وقرأ ابن محيصن، وخارجة عن نافع، ونعيم، ومحبوب، وأبو زيد، وهارون، وعصمة، وعباس كلهم عن أبي عمرو بضم النون وسكون الزاي.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الكشاف.

(٣) البحر المحيط.

(٤) البحر المحيط.

ومعنى الآيات: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّآلُّونَ...﴾ إلخ؛ أي[1]: أيها الذين ضللتم فأصررتم على الذنب العظيم؛ إذ لم توحدوا الله سبحانه، ولم تفعلوا ما يوجب تعظيمه. ثم كذبتم رسله، فأنكرتم البعث والجزاء في هذا اليوم، إنكم لآكلون من شجر الزقوم فمالئون منها بطونكم، فشاربون بعد ذلك من ماء حار، لغلبة العطش عليكم، ولكنه شرب لا يشفي الغليل، ومن ثم تشربون، ولا ترتوون فكأنكم الإبل التي أصيبت بداء الهيام، فلا يروي لها الماء غليلاً، ثم بين أنه ليس هذا كل العذاب، بل هو أوله وقطعة منه. فقال: هذا الزقوم المأكول، والحميم المشروب أول الضيافة التي تقدم لهم، كما يقدم للنازل مما حضر. فما بالك بهم بعد ما يستقر بهم المقام في الدار؟.

وفي الآية: إشارة إلى إفراط النفس والهوى في شرب ماء حميم الجهل والضلال، وفي أكل زقوم المشتهيات المورثة للوبال، ولغاية حرصها لا تزيد إلا جوعاً وعطشاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.

الإعراب

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦)﴾.

﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب المحذوف، تقديره: إذا وقعت الواقعة وقامت القيامة تكون يومئذٍ الأهوال الهائلة، والفظائع المختلفة، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية مستأنفة، وفي إعراب ﴿إِذَا﴾ هنا أوجه:

١ ـ إنها ظرف محض ليس فيها معنى الشرط، والعامل فيها ما في ليس من معنى النفي، كأنّه قيل: ينتفي التكذيب بوقوعها إذا وقعت، وعليه الزمخشري. وقد ردوا عليه بما لا يسعه كتابنا.

٢ ـ إن العامل فيها اذكر مقدراً.

---

(١) المراغي.

٣ ـ إنها شرطية والعامل فيها الفعل الذي بعدها ويليها وهو اختيار أبي حيان.

٤ ـ إنها شرطية وجوابها مقدر؛ أي: إذا وقعت الواقعة كان كيت وكيت. وهو العامل فيها، وعليه إعرابنا السابق.

٥ ـ إنها مبتدأ، و﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ خبرها. وهذا على القول: بأنها تتصرف.

٦ ـ إنها ظرف لـ ﴿خَافِضَةٌ﴾، ﴿رَّافِعَةٌ﴾. قاله أبو البقاء.

٧ ـ إنها ظرف لـ ﴿رُجَّتِ﴾، و﴿إِذَا﴾ الثانية إما بدل من الأولى أو تكرير لها.

٨ ـ إن العامل فيها ما دل عليه قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؛ أي: إذا وقعت بانت أحوال الناس فيها.

٩ ـ إن جواب الشرط قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾.

١٠ ـ إنها صلة؛ أي: وقعت الواقعة مثل: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، و﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾. وهو كما يقال: قد جاء الصوم؛ أي: دنا واقترب، قاله الجرجاني. ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لِوَقْعَتِهَا﴾ خبرها مقدم، واللام بمعنى في على تقدير مضاف، و﴿كَاذِبَةٌ﴾ اسمها مؤخر، و﴿كَاذِبَةٌ﴾ صفة لموصوف محذوف؛ أي: ليس نفس كاذبة توجد في وقت وقوعها. وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل النصب حال من الواقعة؛ أي: إذا وقعت الواقعة حالة كونها موصوفة بعدم وقوع كاذبة في وقت وقوعها تكون الأهوال الهائلة. ﴿خَافِضَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي خافضة لأناس، ﴿رَّافِعَةٌ﴾ خبر ثان لذلك المحذوف. والجملة الاسمية في محل النصب، حال ثانية من الواقعة؛ أي: حالة كونها خافضة لأناس، رافعة لآخرين. ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ فعل مغير الصيغة، ونائب فاعل، ﴿رَجًّا﴾ مفعول مطلق. و﴿إِذَا﴾ يجوز أن تكون بدلاً من ﴿إِذَا﴾ الأولى، وجوابها محذوف كالأولى أو تأكيد لها. ويجوز أن تكون ظرفاً محضاً متعلقاً بـ ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾؛ أي: تخفض وترفع وقت رج الأرض، وبس الجبال. ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ﴾ فعل، ونائب فاعل، معطوف على ﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾، ﴿بَسًّا﴾ مفعول مطلق، ﴿فَكَانَتْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿كانت﴾ فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على الجبال، ﴿هَبَآءً﴾ خبرها، ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ صفة ﴿هَبَآءً﴾. وجملة كان معطوفة على جملة ﴿بست الجبال﴾.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾.

﴿وَكُنتُمْ﴾ الواو: عاطفة، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿أَزْوَٰجًا﴾ خبرها، ﴿ثَلَٰثَةً﴾ صفة ﴿أَزْوَٰجًا﴾. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾. ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنكم تكونون أزواجاً ثلاثة، وأردتم بيان تلك الثلاثة فأقول لكم: أصحاب الميمنة. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ أوّل، ومضاف إليه، ﴿مَآ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ثان، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ خبره. والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأوّل. وجملة الأوّل مع خبره في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. والغرض من هذا الاستفهام: التعظيم، والتفخيم، وتكرير المبتدأ بلفظه أغنى عن الضمير الرابط. مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾. ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾. ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ مبتدأ أوّل، ﴿مَآ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ثان، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الأول مع خبره في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾. ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ خبره؛ أي: السابقون إلى الخير في الدنيا هم السابقون في الآخرة إلى الجنة. والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، وقيل: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأول: مبتدأ، والثاني: تأكيد له أو نعت، وجملة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ خبره. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ خبره. والجملة في محل الرفع خبر ثان لـ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأوّل أو خبر له.

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨﴾.

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾ خبر ثان لـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أو حال من الضمير في ﴿ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾. ﴿ثُلَّةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ نعت لـ ﴿ثُلَّةٌ﴾؛ أي: هم ثلّة من الأوّلين. والجملة مستأنفة. ﴿وَقَلِيلٌ﴾ معطوف على ﴿ثُلَّةٌ﴾، ﴿مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ نعت لـ ﴿قليل﴾، ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ نعت ثان لـ ﴿ثُلَّةٌ﴾ أو خبر ثان للمبتدأ المحذوف،

﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ صفة لـ ﴿سُرُرٍ﴾، ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير المستكن في متعلق الجار والمجرور في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾. ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق بـ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ حال ثانية من ذلك المستكن، أو من الضمير المستكن في ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾. ﴿يَطُوفُ﴾ فعل مضارع، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ فاعل، ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ صفة لـ ﴿وِلْدَٰنٌ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة، أو حال من الضمير المستكن في ﴿جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَطُوفُ﴾، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ معطوف على ﴿أكواب﴾، مجرور بالفتحة. لأنه ممنوع من الصرف لصيغة منتهى الجموع. ﴿وَكَأْسٍ﴾ معطوف على ﴿أكواب﴾ أيضاً، ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ صفة لـ ﴿كأس﴾.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾
وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿لَّا﴾ نافية، ﴿يُصَدَّعُونَ﴾ فعل مضارع، مغيّر الصيغة، والواو: نائب فاعل، ﴿عَنْهَا﴾ متعلق بـ ﴿يُصَدَّعُونَ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿يُصَدَّعُونَ﴾. ﴿وَفَـٰكِهَةٍ﴾ معطوف على ﴿أكواب﴾، ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور، صفة لـ ﴿فاكهة﴾، وجملة ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: يتخيّرونه. ﴿وَلَحْمِ﴾ معطوف على ﴿أكواب﴾ أيضاً، ﴿طَيْرٍ﴾ مضاف إليها، ﴿مِّمَّا﴾ صفة للحم، وجملة ﴿يَشْتَهُونَ﴾ صلة لما الموصولة. ﴿وَحُورٌ﴾ مبتدأ، خبره محذوف تقديره: ولهم حور. ﴿عِينٌ﴾ صفة لـ ﴿حور﴾، أو معطوف على ﴿وِلْدَٰنٌ﴾؛ أي: ويطوف عليهم حور عين للتنعيم لا للخدمة، أو ثم حور عين أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: ونساؤهم حور عين. وقرىء بالنصب على تقدير: ويجزون حوراً عيناً. والجملة على جميع التقادير مستأنفة. وقرىء بالجر عطفاً على ﴿جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: وفي حور عين. ﴿كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ﴾ جار ومجرور، ومضاف، صفة ثانية لـ ﴿حور﴾، ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾ صفة لـ ﴿ٱللُّؤْلُؤِ﴾، ﴿جَزَآءًۢ﴾ مفعول لأجله لفعل محذوف، تقديره: يفعل بهم ذلك كله لأجل جزائهم، أو مفعول مطلق لفعل محذوف؛ أي: يجزون ذلك جزاء. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿جَزَآءًۢ﴾، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره. وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَسْمَعُونَ﴾ فعل، وفاعل، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾، ﴿لَغْوًا﴾ مفعول به، ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾

معطوف على ﴿لَغْوًا﴾. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء منقطع، ﴿قِيلًا﴾ مستثنى منقطع واجب النصب، ﴿سَلَٰمًا﴾ إما بدل من ﴿قِيلًا﴾؛ أي: لا يسمعون فيها إلا سلاماً سلاماً أو نعت لـ ﴿قِيلًا﴾، منصوب بـ ﴿قيلا﴾ لأنه مصدر؛ أي: إلاّ أن يقولوا: سلاماً سلاماً، أو مفعول مطلق لفعل محذوف؛ أي: يسلّمون تسليماً ﴿سَلَٰمًا﴾ مؤكدة للأولى.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ مبتدأ أول، ﴿مَآ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ثان، ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ خبره. والجملة في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول وخبره مستأنفة. ﴿فِى سِدْرٍ﴾ خبر ثان لـ ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، ﴿مَّخْضُودٍ﴾ صفة لـ ﴿سِدْرٍ﴾، ﴿وَطَلْحٍ﴾ معطوف على ﴿سِدْرٍ﴾، ﴿مَّنضُودٍ﴾ صفة لـ ﴿طلح﴾، ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ معطوفان أيضاً على ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾، ﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾ معطوف عليه أيضاً، ﴿كَثِيرَةٍ﴾ صفة لـ ﴿فاكهة﴾، ﴿لَّا﴾ نافية، ﴿مَقْطُوعَةٍ﴾ صفة ثانية لـ ﴿فاكهة﴾، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ معطوف على ﴿مَقْطُوعَةٍ﴾ على كونه صفة لـ ﴿فاكهة﴾، و﴿لا﴾ للنفي، ولذلك كررت. نظير قوله: مررت برجل لا طويل ولا قصير. ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ معطوف على ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾.

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، ﴿إِنشَآءً﴾ مفعول مطلق والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول أول، ﴿أَبْكَارًا﴾ مفعول ثان. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾. ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ نعتان لـ ﴿أَبْكَارًا﴾، ﴿لأصحاب اليمين﴾ متعلق بـ ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾، ﴿ثُلَّةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم ثلّة ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ صفة لـ ﴿ثُلَّةٌ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿وَثُلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿ثُلَّةٌ﴾، ﴿مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ صفة لـ ﴿ثُلَّةٌ﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟
يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ تقدم إعراب نظيره قريباً، فجدّد به عهداً. والكلام مستأنف مسوق للشروع في تفصيل ما أجمله من أحوالهم بعد أن فصل حال أهل اليمين. ﴿فِى سَمُومٍ﴾ خبر ثان لـ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم في سموم، وقد تقدم نظيره. ﴿وَحَمِيمٍ﴾ معطوف على ﴿سَمُومٍ﴾، ﴿وَظِلٍّ﴾ معطوف على ﴿سَمُومٍ﴾ أيضاً، ﴿مِّن يَحْمُومٍ﴾ صفة لـ ﴿ظل﴾، ﴿لَّا﴾ نافية، ﴿بَارِدٍ﴾ صفة ثانية لـ ﴿ظل﴾، ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ معطوف على ﴿بَارِدٍ﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ ظرف، متعلق بمحذوف حال من اسم ﴿كان﴾ أو بـ ﴿مُتْرَفِينَ﴾. و﴿مُتْرَفِينَ﴾ خبر ﴿كَانُوا۟﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر إنّ، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَكَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يُصِرُّونَ﴾ خبره. وجملة ﴿كَانُوا۟﴾ معطوفة على ﴿كان﴾ الأول. ﴿عَلَى ٱلْحِنثِ﴾ متعلق بـ ﴿يُصِرُّونَ﴾، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْحِنثِ﴾. ﴿وَكَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، معطوف على ﴿كان﴾ الأوّل أيضاً، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ خبر ﴿كَانُوا۟﴾. ﴿أَئِذَا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، دل عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، تقديره: أنبعث. ﴿إذا﴾ ظرف مجرد عن الشرط متعلق بذلك المقدر، ﴿مِتْنَا﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾. ﴿وَكُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿تُرَابًا﴾ خبر ﴿كان﴾، ﴿وَعِظَٰمًا﴾ معطوف على ﴿تُرَابًا﴾. وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿مِتْنَا﴾. ﴿أَءِنَّا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿إنا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿مبعوثون﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جملة استفهامية، مفسرة لذلك المحذوف. ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو: عاطفة، ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ معطوف على الضمير المستكن في ﴿مبعوثون﴾. وحسن العطف على الضمير من غير تأكيد بنحن وجود الفاصل الذي هو الهمزة. والتقدير: المبعوثون نحن وآباؤنا. ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ صفة لـ ﴿ءَابَآؤُنَا﴾.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ
ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾.

﴿قُلۡ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر. والجملة مستأنفة، مسوقة للرد على إنكارهم، وتحقيقاً للحق. ﴿إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾. ﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿مجموعون﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ﴾ متعلق بـ ﴿مجموعون﴾، ﴿يَوۡمٍ﴾ مضاف إليه، ﴿مَّعۡلُومٍ﴾ صفة لـ ﴿يَوۡمٍ﴾. وقد ضمن الجمع معنى السوق، فعدّاه بإلى، وإلاّ فكان الظاهر تعديته بفي. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿إِنَّكُمۡ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَيُّهَا﴾ ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، والهاء: حرف تنبيه، ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ بدل من ﴿أيّ﴾ أو نعت لها. وجملة النداء معترضة. ﴿ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾، ﴿لَأٓكِلُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿آكلون﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى. ﴿مِن شَجَرٖ﴾ متعلق بـ ﴿آكلون﴾، ﴿مِّن زَقُّومٖ﴾ نعت لـ ﴿شَجَرٖ﴾، أو بدل من ﴿مِن شَجَرٖ﴾، ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ الفاء: عاطفة ﴿مالئون﴾ معطوف على ﴿آكلون﴾، ﴿مِنۡهَا﴾ متعلق بـ ﴿مالئون﴾، ﴿ٱلۡبُطُونَ﴾ مفعول به لـ ﴿مالئون﴾. لأنّه اسم فاعل يعمل عمل الفعل. ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿شاربون﴾ معطوف على ﴿مالئون﴾، ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق بـ ﴿شاربون﴾، ﴿مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ متعلق به أيضاً. ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿شاربون﴾ معطوف على ﴿شاربون﴾، ﴿شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ مفعول مطلق. ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، ﴿نُزُلُهُمۡ﴾ خبره، ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿نُزُلُهُمۡ﴾؛ أي: حال كونه كائناً في ذلك اليوم العصيب، أو من الضمير؛ أي: حال كونهم كائنين في ذلك اليوم الرهيب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١﴾؛ أي: قامت القيامة. وصفت بأنها تقع لا محالة، أو كأنها واقعة في نفسها. ﴿رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾ الرج: تحريك الشيء، وإزعاجه. والرجرجة: الاضطراب؛ أي: خافضة رافعة إذا حركت الأرض تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل، كما مرّ. أصله: رجججت مبنياً للمفعول، أدغمت عين الكلمة في لامها، وكذلك ﴿رَجّٗا﴾ أدغمت عين المصدر في لامه، فوزنه فعل. وكذلك القول في ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥﴾؛ أي: فتتت حتى صارت مثل

السويق الملتوت. من بس السويق إذا لته. والبسيسة: سويق يلت فيتخذ زاداً، أو سيقت وسيرت من أماكنها من بس الغنم إذا ساقها، وفي «المصباح»: بسست الحنطة وغيرها بسّاً من باب قتل. وهو الفت. فهي بسيسة فعيلة بمعنى مفعولة.

﴿هَبَآءً﴾ الهباء: غبار كالشعاع في الرقة، وكثيراً ما يخرج شعاع الشمس من الكوّة النافذة، وفيه إعلال بالإبدال. أصله: هباو، أبدلت ﴿الواو﴾ همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿مُنۢبَثًّا﴾؛ أي: منتشراً متفرقاً بنفسه من غير حاجة إلى هواء يفرقه. ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: أصنافاً. قال الراغب: الزوج يكون لكل من القرينين الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة، ولكل قرينين منها، ومن غيرها كالخف والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً، اهـ.

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ والميمنة: ناحية اليمين. والمشأمة: ناحية الشمال. والعرب يتيمنون بالميامن، ويتشاءمون بالشمائل. والمراد: أصحاب المرتبة السنية الرفيعة. وفي «القاموس»: اليمن: البركة كالميمنة، بمن فهو ميمون، وأيمن. والجمع ميامين، وأيامن واليمين ضد اليسار، والجمع أيمن، وأيمان، وأيامن، وأيامين، والبركة، والقوة. والشؤم ضد اليمن، والمشأمة ضد الميمنة، انتهى.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ الثلة: الجماعة قلت أو كثرت، وقيل: الجماعة الكثيرة من الناس، كما قال:

وَجَاءَتْ إِلَيْهِمْ ثُلَّةٌ خِنْدِفِيَّةٌ ... بِجَيْشٍ كَتَيَّارٍ مِنَ ٱلسَّيْلِ مُزْبِدِ

وفي «القاموس»: الثلة بالضم: الجماعة من الناس، والكثير من الدراهم. وقد تفتح. وبالكسر: الهلكة. والجمع ثلل، كعنب، اهـ. واشتقاقه من الثل؛ وهو الكسر، وجماعة السابقين مع كثرتهم مقطوعة مكسورة من جملة بني آدم، وقال الراغب: الثلة: قطعة مجتمعة من الصوف، ولذلك قيل للغنم: ثلة، ولاعتبار الاجتماع قيل: ثلة من الأولين.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير. وهو ما يجعل للإنسان من المقاعد العالية الموضوعة للراحة والكرامة، اهـ خطيب. ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ من الوضن. وهو النسج. وفي «القاموس»: وضن الشيء يضنه فهو موضون ووضين ثني بعضه على بعض، وضاعفه. ووضن الغزل نسجه، والموضونة، الدرع المنسوجة، أو المتقاربة النسج،

أو المنسوجة حلقتين حلقتين، أو المنسوجة من قضبان الذهب، مشتبكة بالجواهر.

والمعنى: منسوجة متداخلة، كصفة الدرع. قال الأعشى:

وَمِنْ نَسْجِ دَاوُوْدَ مَوْضُوْنَةٍ   تُسَاقُ إِلَىٰ ٱلْحَيِّ عِيْراً فَعِيْرَا

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على السرر على الجنب أو غيره كحال من يكون على كرسيّ فيوضع تحته شيء آخر للاتكاء عليه، اهـ خطيب. ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾؛ أي: فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض. وقال مجاهد، وغيره: هذا في المؤمن، وزوجته وأهله. وقال الكلبي: طول كل سرير ثلاث مئة ذراع. فإذا أراد العبد أن يجلس عليه.. تواضع وانخفض له، فإذا جلس عليه ارتفع، اهـ خطيب.

﴿يَطُوفُ﴾ أصله: يطوف بوزن يفعل بضم العين، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد نظير يقول. ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ بكسر الواو كصبيان باتفاق القراء جمع وليد بمعنى مولود، والولد يجمع على أولاد، كسبب وأسباب، اهـ من «المصباح». والصحيح: أنهم ولدان خلقوا في الجنة لخدمة أهل الجنة من غير ولادة أحد، كما خلقت الحور العين من غير ولادة. وأطلق عليهم اسم الولدان؛ لأنَّ العرب تسمى الغلام وليداً ما لم يحتلم، والأمة وليدة وإن أسنت. ﴿مخلدون﴾؛ أي: باقون، لا يموتون، ولا يهرمون، ولا يتغيرون. وقيل: من الخلد. وهو القرط. قال امرؤ القيس:

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إلاَّ سَعِيْدٌ مُخَلَّدٌ   قَلِيْلُ ٱلْهُمُوْمِ مَا يَبِيْتُ بِأَوْجَالِ

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب؛ أي: بآنية لا عرا لها، ولا خراطيم. ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع آب ريْ إفعيل، مشتق من البريق. وهو اللمعان لصفاء لونه. وقيل: أعجمية معربة أبازير. وهي آنية لها عراً وخراطيم. والعرا: ما يمسك بها المسماة بالآذان. والخراطيم: هي ما يصب منها المسماة بالبزابيز، اهـ شيخنا. قال عديّ بن الرقاع:

وَدَعَوْا بِٱلصَّبُوحِ يَوْمَاً فَجَاءَتْ   بِهِ قَيْنَةٌ فِيْ يَمِيْنِهَا إِبْرِيْقُ

﴿وَكَأْسٍ﴾ والكأس: القدح إذا كان فيها شراب، وإلا فهو قدح. ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: من خمر جارية من منبع لا يفيض، ولا ينقطع أبداً. يقال: معن الماء إذ جرى، فهو فعيل بمعنى فاعل، أو ظاهرة تراها العيون في الأنهار، كالماء المعين. وهو الظاهر الجاري. فيكون بمعنى مفعول من المعاينة، من عانه إذا شخصه وميزه

بعينه. قال في «القاموس»: المعن: الماء الظاهر، ومعن الماء أساله، وأمعن الماء جرى. والمعنان بالضم: مجاري الماء في الوادي. والمراد: أنها لم تعصر كخمر الدنيا.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾؛ أي: لا يحصل لهم صداع بسبب شربها، كما يحدث ذلك في خمر الدنيا. والصداع: هو الداء الذي يأخذ الإنسان في رأسه، والخمر تؤثر فيه. والصدع: شق في الأجسام الصلبة كالزجاج، والحديد، ونحوهما. ومنه استعير الصداع. وهو الانشقاق في الرأس من الوجع. ومنه: الصديع للفجر.

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ من أنزف الشارب إذا نفد عقله أو شرابه. فالنفاد إما للعقل. وهو من عيوب خمر الدنيا. أو للشراب. فإن بنفادهما تختل الصحبة. يقال: نزف الرجل بالبناء للمجهول؛ أي: ذهب عقله سكراً. ويقال للسكران: نزيف ومنزوف. ونزف الرجل دما رعف فخرج دمه كله، كلاهما وارد.

﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: يختارون، ويرضون. يقال: تخيرت الشيء أخذت خيره. ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أصله: يشتهيون بوزن يفتعلون، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فلما سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء لذلك.

﴿وَحُورٌ﴾ جمع حوراء، كحمر جمع حمراء. فمعنى الحور: النساء شديدات البياض؛ أي: بياض أجسادهن. والعين: جمع عيناء. فمعنى العين: شديدات سواد العيون مع سعتها، مثل: أعين الظباء والبقر.

قال الأصمعي: وليس في بني آدم حور عين، وإنما قيل للنساء: حور تشبيهاً بالظباء والبقر، اهـ.

وقوله: ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء، كسرت فاؤه لمناسبة الياء، وإلا فقياسه أن يجمع كما جمعت حمراء. فأصل «عين» عين بضم العين؛ لأنه نظير حمر جمع حمراء، فخفف بإبدال ضمة فائه كسرة لتصح الياء، وإنما لم تبدل ياؤه واواً وكما فعلوا في موقن وموسر. أصلها: ميقن وميسر، لأن الجمع أثقل من المفرد، والواو أثقل من الياء. فيجتمع حينئذٍ ثقلان. قال في الخلاصة:

وَيُكْسَرُ ٱلْمَضْمُومُ فِيْ جَمْعٍ كَمَا يُقَالُ هِيْمٌ عِنْدَ جَمْعِ أَهْيَمَا

﴿ٱلۡمَكۡنُونِ﴾؛ أي: المصون الذي لم تمسه الأيدي. وهو أصفى، وأبعد من

التغير. ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ الهمزة فيه مبدلة من ياء لتطرفها إثر ألف زائدة. فأصله: جزاي. ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾؛ أي: باطلاً. قال في «القاموس»: اللغو واللغا: السقط، وما لا يعتد به من كلامٍ وغيره، كما مر بسطه. ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾؛ أي: ما يقال حين سماعه: وقعتم في الإثم. والإثم: الأفعال المبطئة عن الثواب. والجمع آثام. ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ فيه إعلال بالقلب أصله: قولاً، قلبت ﴿الواو﴾ ياء لسكونها إثر كسرة.

﴿أَبْكَارًا﴾ جمع بكر. والمصدر البكارة. قال الراغب: البكرة: أول النهار، وتصور منها معنى التعجيل لتقدمها على سائر أوقات النهار. فقيل لكل متعجل: بكر. وسميت التي لم تفتض بكراً اعتباراً بالثيب لتقدمها عليها، فيما يراد به النساء. ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب، كرسل جمع رسول. وهي المتحببة إلى زوجها، الحسنة التنقل، واشتقاقه من أعرب إذا بين. والعرب تبين محبتها لزوجها. ﴿أَتْرَابًا﴾ جمع ترب بالكسر. وهي اللدة، والسن. وفي «السمين»: الترب: هو المساوي لك في سنك؛ لأنه يمس جلدهما التراب في وقت واحد. وهو آكد في الائتلاف. وهو من الأسماء التي لا تتعرف بالإضافة لأنه في معنى الصفة. إذ معناه: مساويك، ومثله: خدنك؛ لأنه في معنى صاحبك، اهـ سمين.

﴿فِى سَمُومٍ﴾ السموم: حر نار ينفذ في المسام. قال في «القاموس»: السموم: الريح الحارة تكون غالباً في النهار. والحرور: الريح الحارة بالليل، وقد تكون بالنهار. ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وهو الماء المتناهي في الحرارة. ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ وزنه يفعول، قال أبو البقاء: من الحم بالضم، أو من الحميم. واليحموم قيل: هو الدخان الأسود البهيم. وقيل: واد في جهنم. وقيل: اسم من أسمائها. والأول أظهر، اهـ سمين. وفي «المختار»: وحممه تحميماً سخم وجهه بالفحم، والحمم: الرماد، والفحم، وكل ما احترق من النار. الواحدة حممة، اليحموم: الدخان، اهـ.

﴿يُصِرُّونَ﴾ أصله: يصررون بوزن يفعلون، نقلت حركة الراء الأولى إلى الصاد فسكنت، فأدغمت في الراء الثانية. ﴿عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: الذنب العظيم. وهو الشرك بالله، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله تعالى.

﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ قرىء ﴿مُتنا﴾ بضم الميم. لأنَّ المستعمل الفاشي في هذه الفاعل: مات يموت بوزن فعل يفعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ولما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك التقى ساكنان: الألف والتاء لام الكلمة، فحذفت الألف لذلك، فاحتيج إلى معرفة هذه العين المحذوفة من الفعل الأجوف هل هي واو أو ياء؟ فحذفت حركة الفاء، وعوض عنها حركة مجانسة لتلك العين المحذوفة. وهي الضمة؛ لأن العين واو، فقيل: متنا بوزن فلنا. أما من قرأ ﴿مِتْنَا﴾ بكسر الميم فتوجيه ذلك أن في هذا الفعل لغة على فعل يفعل بكسر العين في الماضي والمضارع، ولما حذفت عينه لالتقاء الساكنين، كسرت فاؤه لتدل الكسرة على أن العين المحذوفة مكسورة كما قالوا: كلت من الكيل، وخفت من الخوف. فقولهم: متنا بكسر الميم كثير الاستعمال شاذ في القياس. وقوله: ﴿متنا﴾ بضم الميم قليل الاستعمال غير شاذ في القياس، وفي الفعل أيضاً لغة ثالثة، حكاها الكوفيون. وهي أنه من باب فعل بكسر العين في الماضي، وفتحها في المضارع. وعليه يتجه أيضاً كسر الميم كما في خفت.

﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ أصله: موقات، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة. والميقات: هو الوقت المضروب للشيء ينتهي عنده أو يبتدأ فيه. ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ والزقوم: هو من أخبث الشجر المر ينبت في الدنيا بتهامة، وفي الآخرة ينبت في أصل الجحيم. وهو كريه المنظر، مر الطعم، منتن الرائحة. ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ اسم فاعل من ملأ الثلاثي. يقال: ملأ الإناء فهو مملوء من باب قطع. والمليء بالكسر: مقدار ما يأخذه الإناء إذا امتلأ. ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ وعبارة السمين: والهيم بكسر الهاء جمع أهيم للمذكر، وهيماء للمؤنث كحمر وأحمر وحمراء. وهو الجمل والناقة التي أصابها الهيام. وهو داء معطش تشرب الإبل منه إلى أن تموت، أو تسقم سقماً شديداً. والأصل: هيم بضم الهاء كحمر، قلبت الضمة كسرة لتصح الياء. وذلك نحو: بيض في أبيض، وبيضاء وفعل بضم الفاء جمع لأفعل، وفعلاء على حد قول ابن مالك:

فُـعْـلٌ لِـنَـحْـوِ أَحْـمَـرٍ وحَـمْـرَا   وفِـعْـلَـةٌ جَـمْـعاً بِـنَـقْـلٍ يُـدْرَىٰ

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾.

ومنها: التعبير باسم الفاعل الذي حقيقة في الحال عند الإطلاق عما في المستقبل. وهو القيامة إشعاراً بتحقق وقوعها. ولذا اختيرت إذا دون إن الشرطية، واختيرت صيغة الماضي أيضاً.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ وفيه أيضاً المجاز العقلي؛ لأن الخافض والرافع في الحقيقة هو الله تعالى، يرفع أولياءه، ويخفض أعداءه. وفي إسنادهما إلى القيامة مجاز عقلي؛ لما فيه من إسناد الشيء إلى زمانه كقولهم: نهاره صائم.

ومنها: تقديم الخفض على الرفع في قوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ مبالغة في التهويل منها.

ومنها: حذف الفاعل في قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ لعلمه، وإفادة للتهويل منها.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، و﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ وبين: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ﴾.

ومنها: التفخيم والتعظيم في قوله: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧﴾ على طريق الاستفهام.

ومنها: التحقير والإهانة في قوله: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾.

ومنها: التفنّن في قوله: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ إلخ، بعد قوله أولاً: ﴿أصحاب الميمنة﴾ الخ، وقوله: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ إلخ.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾؛ أي: كأمثال اللؤلؤ في بياضه وصفائه، حذف منه وجه الشبه. فهو مرسل مجمل.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥﴾ من الوضن. وهو حقيقة

في نسج الدرع. ثم استعير لكل نسج محكم.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ فجمع في هاتين الكلمتين جميع عيوب الخمر في الدنيا.

ومنها: توافق الفواصل في الحرف الأخير في قوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾.

وقوله: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ وهو مما يزيد في رونق الكلام، وحسنه. وهو المسمى عندهم بالسجع المرصع؛ أي: غير المتكلف به. وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: المبالغة في التشبيه في قوله: ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾؛ لأنّ المخضود في سدر الدنيا، المقطوع المزال عنه شوكه. فإن سدر الدنيا مخلوق بشوك، والذي أزيل عنه شوكه يسمى مخضوداً. وسدر الجنة خلق بلا شوك، كأنه خضد شوكه؛ أي: قطع ونزع عنه. فقوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ إما من باب المبالغة في التشبيه أو مجاز بعلاقة السببية، فإن الخضد سبب لانقطاع الشوك.

ومنها: تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ لأن السلام ليس من جنس اللغو والتأثيم. فهو مدح لهم بإفشاء السلام. وهذا كقول القائل: ولا ذنب لي إلا محبتك.

ومنها: التهكم بأصحاب المشأمة في قوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ إشعارا بأنهم لا يستأهلون للظل البارد الكريم الذي هو لأضدادهم في الجنة.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: كالنزل الذي يعد للنازل مما أحضر مكرمة له.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ
(٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ
(٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ
ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا
فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ (٧٢)
نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤) ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ
ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا
يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ
رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٨٧) فَأَمَّآ
إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠)
فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣)
وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧)...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله تعالى لما ذكر[١] الأزواج الثلاثة، وبين مآل كل منها، وفصل ما يلقاه السابقون وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم، وذكر ما يلقاه أصحاب المشأمة من عذاب لازب في حميم وغساق، وذكر أن ذلك إنما نالهم لأنهم أشركوا بربهم، وعبدوا معه غيره، وكذبوارسله، وأنكروا البعث والجزاء.. أردف ذلك بإقامة الأدلة على الألوهية من خلق ورزق لطعام وشراب، وأقام الدليل على البعث والجزاء. ثم أثبت الأصل الثالث ـ وهو النبوة ـ فيما بعد.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر الأدلة على الألوهية والبعث والجزاء. . أعقب ذلك بذكر الأدلة على النبوة، وصدق القرآن الكريم. وأقسم على هذا بما يرونه في مشاهداتهم من مساقط النجوم، إنه لكتاب كريم لا يمسّه إلا المطهرون، وأنه نزل من لدن حضرة القدس على يد جبريل عليه السلام. فكيف تتهاونون في اتباع أوامره، والانتهاء عن نواهيه، وتجعلون شكركم على هذا تكذيبكم بنعم الله تعالى، وجزيل فضله عليكم.

قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] جحود الكافرين بآياته، وتكذيبهم رسوله وكتابه، وقولهم فيه: إنه سحر أو افتراء، واعتقادهم أن رزقهم من الأنواء. . أردف ذلك بتوبيخهم على ما يعتقدون، فإنه إذا كان لا بد للفعل من فاعل، وقد جحدتم الله، وكذبتم رسوله فالفاعل لهذا كله أنتم؛ لأنَّ الخالق إما الله وإما أنتم، فإذا نفيتم الله فأنتم الخالقون، وإذاً فلماذا لا ترجعون الروح لميتكم؟ وهو يعالج سكرات الموت. فإن كنتم صادقين فارجعوها، الحق إنكم لا تعقلون الدليل والبرهان، بل لا تفهمون إلا المحسوسات فلما لم تروا الفاعل كذبتم به، وهذا من شيمة الجهال. إذ للعلم وسائل عديدة. فليس عدم رؤية الشيء دليلاً عل عدم وجوده.

ثم بين حال المتوفى، ومن أي الأزواج الثلاثة هو؟. فإن كان من السابقين. . فله روح واطمئنان نفس علماً منه بما سيلقاه من الجزاء، ورزق طيب في جنات النعيم. فيرى فيها ما تلذ الأنفس، وتقر به الأعين، وإن كان من أصحاب اليمين. . فتسلم عليه الملائكة، وتعطيه أماناً من ربه، وإن كان من أصحاب الشمال. . فضيافته ماء حميم، وعذاب في النار أبداً.

ثم بين لرسوله ﷺ أن الخبر الذي أخبر به هو الحق اليقين، وعليه أن ينزه ربه العظيم عن كل ما لا يليق به.

---

(١) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه مسلم، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر». قالوا: هذه رحمة وضعها الله. وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، وكذا. فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾. وأصل الحديث بدون ذكر أنه سبب نزول الآية ثابت في «الصحيحين» من حديث زيد بن خالد الجهني، ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

التفسير وأوجه القراءة

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أيها الكفرة ﴿فَلَوْلَا﴾؛ أي: فهلا ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ بالخلق فإن ما لا يحققه العمل، ولا يساعده، بل ينبىء عن خلافه ليس من التصديق في شيء أو بالبعث، فإن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة. قال مقاتل: خلقناكم، ولم تكونوا شيئاً، وأنتم تعلمون ذلك فهلا تصدقون بالبعث. قال القاضي زكريا: فإن قلت: كيف قال ذلك مع أنهم مصدقون بذلك بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؟ قلت: هم، وإن صدقوا بألسنتهم لكن لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق كانوا كأنهم مكذبون به، أو أن ذلك تحضيض على التصديق بالبعث بعد الموت بالاستدلال بالخلق الأول، فكأنّه قال: هو خلقكم أولاً باعترافكم، فلا يمتنع عليه أن يعيدكم ثانياً. فهلا تصدقون بذلك؟ انتهى.

واعلم[2]: أنَّ الله سبحانه وتعالى إذا أخبر عن نفسه بلفظ الجمع يشير به إلى ذاته وصفاته وأسمائه كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾، وكما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾. وإذا أخبر عن نفسه بلفظ المفرد يشير إلى ذاته المطلقة كما قال: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. هذا إذا كان القائل المخبر هو الله تعالى، وأما إذا كان العبد فينبغي أن يقول: أنت يا رب، لا أنتم؛ لإيهامه الشرك المنافي

---

(١) الشوكاني بتصرف.   (٢) روح البيان.

لتوحيد الله القائل، ولذا يقال: أشهد أن لا إله إلا الله؛ ليدل على شهادته بخصوصه، فتعين توحيده، ويظهر تصديقه.

وفي قوله[1]: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ التفات من الله سبحانه إلى خطاب الكفرة تبكيتاً لهم، وإلزاماً للحجة.

والمعنى[2]: أي نحن بدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى، فهلا تصدقون بالبعث. وفي هذا تقرير للمعاد، ورد على المكذبين به المستبعدين له من أهل الزيغ والإلحاد الذين قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

ثم أعاد الدليل فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾؛ أي: ما تقذفونه، وتصبونه في أرحام النساء من النطف التي يكون منها الولد. فقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ بمعنى أخبروني، و﴿مَّا تُمْنُونَ﴾ مفعوله الأول. والجملة الاستفهامية أعني: قوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ إلخ، مفعوله الثاني. يقال: أمنى الرجل يمني لا غير، ومنيت الشيء أمنيه إذا قضيته. وسمي المني منيًّا؛ لأن الخلق منه يقضى. ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾؛ أي: تقدرونه، وتصورونه بشراً سويًّا في بطون النساء ذكراً، أو أنثى ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ له؛ أي: أم نحن المقدرون المصورون له من غير دخل شيء فيه، و﴿أَمْ﴾ هي المتصلة، وهي أولى. وقيل: منقطعة ما بعدها جملة. فالمعنى: بل أنحن الخالقون على أن الاستفهام للتقرير. ومجيء الخالقون بعد ﴿نَحْنُ﴾ بطريق التأكيد لا بطريق الخبرية أصالة.

وفيه[3]: إشارة إلى معنى: أن وقوع نطف الأعمال، والأفعال، وموادها في أرحام قلوبكم ونفوسكم بخلقي، وإرادتي لا بخلقكم وإرادتكم. ففيه تخصيص مواد الخواطر المقتضية للأفعال والأعمال والأقوال إلى نفسه، وقدرته، وسلبها عن الخلق.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿تُمْنُونَ﴾ بضم الفوقانية، من أمنى يمني. وقرأ ابن عباس،

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) الشوكاني.

وأبو السمال، ومحمد بن السميقع، والأشهب العقيلي بفتحها، من مني يمني. وهما لغتان. وقيل: معناهما مختلف. يقال: أمنى إذا أنزل عن جماع، ومني إذا أنزل عن احتلام. وسمي المني منياً؛ لأنه يمنى؛ أي: يراق، وقد سبق في عبارة الروح معنى غير ما هنا.

وعبارة أبي حيان هنا[1]: وجاء ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ هنا مصرحاً بمفعولها الأول، ومجيء جملة الاستفهام في موضع المفعول الثاني على ما هو المقرر فيها إذا كانت بمعنى أخبروني، وجاء بعد ﴿أَمْ﴾ جملة فقيل: ﴿أَمْ﴾ منقطعة. وليست المعادلة للهمزة، وذلك في أربعة مواضع هنا ليكون ذلك على استفهامين. فجواب الأول لا، وجواب الثاني نعم. فتقدر ﴿أَمْ﴾ على هذا: بل أنحن الخالقون؟ فجوابه نعم. وقال قوم من النحاة: ﴿أَمْ﴾ هنا معادلة للهمزة، وكان ما جاء من الخبر بعد ﴿نَحْنُ﴾ جيء به على سبيل التوكيد. إذ لو قال: أَمْ نحن.. لوقع الاكتفاء به دون ذكر الخبر، انتهى.

ومعنى الآية[2]: أي أخبروني عمّا قذفتم به في الأرحام من النطف أأنتم تقدرونه بشراً سويًّا تام الخلق أم الله الخالق لذلك؟. ولا شك أنهم لا يجدون إلا جواباً واحداً، لا ثاني له.

والخلاصة: أخبروني أيها المنكرون قدرة الله على إحيائكم بعد مماتكم عن النطف التي تمنون في أرحام نسائكم أأنتم تخلقونها أم نحن الخالقون لها؟

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ قرأ الجمهور[3]: ﴿قَدَّرْنَا﴾ بالتشديد. وقرأ مجاهد، وحميد، وابن محيصن وابن كثير بالتخفيف. وهما لغتان. يقال: قدرت الشيء، وقدرته؛ أي: قسمنا. ﴿بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ وكتبناه عليكم، ووقتنا موت كل واحد بوقت معين حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة. فمنهم من يموت صغيراً، ومنهم من يموت كبيراً.

وعبارة الخطيب هنا: أي قضينا به، وأوجبناه، وكتبناه فلم نترك أحداً منكم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

بغير حصة منه. وأقتنا موت كل واحد بوقت معين لا يتعداه، فقصرنا عمر هذا، وربما كان في الأوج «ضد الهبوط» من قوة البدن، وصحة المزاج. فلو اجتمع الخلق كلهم على إطالة عمره.. ما قدروا أن يؤخروه لحظة، وأطلنا عمر هذا، وربما كان في الحضيض من ضعف البدن، واضطراب المزاج، فلو تمالؤوا على تقصيره طرفة عين.. لعجزوا، اهـ، أي: والقادر على هذا كله قادر على إعادتكم وبعثكم.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ أي: بمغلوبين، بل قادرين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ منكم ﴿أَمْثَٰلَكُمْ﴾؛ أي: أشباهكم؛ أي: لا يغلبنا أحد على أن نذهبكم، ونأتي مكانكم بأشباهكم من الخلق. يقال: سبقته على كذا؛ أي: غلبته عليه، وغلب فلان فلاناً على الشيء إذا أخذه منه بالغلبة. وقال الضحاك: معناه: أنه جعل أهل السماء، وأهل الأرض فيه سواء، وما نحن بمسبوقين على أن نأتي بخلق مثلكم. وقال الزجاج: إن أردنا أن نخلق خلقاً غيركم.. لم يسبقنا سابق، ولا يفوتنا. وقال ابن جرير: المعنى: نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم، وما نحن بمسبوقين في آجالكم؛ أي: لا يتقدم متأخر ولا يتأخر متقدم. ﴿وَ﴾ على أن ﴿ننشئكم﴾ ونوجدكم ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الأطوار، والصور، والهيئات. لا تعهدون بمثلها. وقال الحسن؛ أي: على أن نجعلكم قردة وخنازير، كما فعلنا بأقوام قبلكم إن لم تؤمنوا برسلنا. يعني: لسنا عاجزين عن خلق أمثالكم بدلاً منكم، ومسخكم من صوركم إلى غيرها. وقيل: المعنى: ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا. وقال مجاهد: ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: في أي خلق شئنا. ومن كان قادراً على هذا فهو قادر على البعث. وقال سعيد بن المسيب: ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: في حواصل طيور سود تكون ببرهوت، كأنها الخطاطيف. وبرهوت واد باليمن، اهـ.

والمعنى[١]: أي نحن قسمنا الموت بينكم، ووقتنا موت كل واحد بميقات معين لا يعدوه بحسب ما اقتضته مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة. وما نحن بعاجزين عن أن نذهبكم، ونأتي بأشباهكم من الخلق، وننشئكم فيما لا تعلمون من

(١) المراغي.

الأطوار، والأحوال التي لا تعهدونها.

والخلاصة: نحن قدرنا بينكم الموت؛ لأن نبدل منكم أمثالكم بعد مهلككم، ونجيء بآخرين من جنسكم، فنحن نميت طائفة، ونبدلها بطائفة أخرى قرناً بعد قرن، وجيلا بعد جيل.

ثم ذكر دليلاً آخر على البعث. فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ واللام للقسم؛ أي: وعزتي وجلالي لقد علمتم أيّها الكفرة ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾؛ أي: الخلقة ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ هي خلقتهم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ولم تكونوا قبل ذلك شيئاً. وقيل: هي فطرة آدم من التراب.

وعبارة الخطيب هنا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الترابية لأبيكم آدم، واللحمية لأمكم حواء، والنطفية لكم. وكل منها تحويل من شيء إلى غيره. فإن الذي شاهدتم قدرته على ذلك قادر على إعادتكم.

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: فهلا تذكرون قدرة الله على النشأة الأخيرة، وتقيسونها على النشأة الأولى؛ فإن[1] من قدر على الأولى التي كانت بلا مواد قدر على الأخيرة حتماً فإنها أقل صنعاً لحصول المواد، وتخصص الأجزاء وسبق المثال.

وفي الخبر: «عجباً كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة؛ وهو يرى النشأة الأولى، وعجباً للمصدق بالنشأة الآخرة، وهو يسعى لدار الغرور». وفي الآية دليل على صحة القياس، حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى. وترك القياس إذا كان جهلاً.. كان القياس علماً، وكل ما كان من قبيل العلم فهو صحيح. قال أبو حيان: ولا تدل إلا على قياس الأولى لا على جميع أنواع القياس.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ بالقصر. وقرأ مجاهد، والحسن، وابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين في النشأة، وبألف بعدها فهمزة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بتخفيف الذال من ﴿تذكَّرون﴾. والباقون بالتشديد. وقرىء ﴿تذْكُرون﴾ بسكون الذال، وضم الكاف من ذكر الثلاثي.

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

والمعنى[1]: والله لقد علمتم. أنَّ الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار، والأفئدة فهلا تتذكرون، وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداية قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾﴾.

ثم أردف ذلك بدليل آخر في الرزق في المطعوم فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾؛ أي: أخبروني يا أهل مكة ﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾؛ أي: ما تبذرون، وتطرحون من الحبوب في أرضكم، وتعملون فيها بالسقي ونحوه. والحرثة: إلقاء البذر في الأرض، وتهيئتها للزرع. ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾؛ أي: تنبتونه، وتجعلونه زرعا ونباتاً يربو، وينمو إلى يبلغ الغاية. فيكون فيه السنبل والحب ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾؛ أي: بل نحن المنبتون له، الجاعلون له زرعاً لا أنتم. والاستفهام المفهوم من ﴿أَمْ﴾ للإنكار. والزرع: الإنبات، وحقيقة ذلك يكون بالأمور الإلهية دون البشرية، ولذا نسب الحرث إليهم، ونفى عنهم الزرع، ونسبه إلى نفسه. وفي الحديث: «لا يقولون أحدكم زرعت، وليقل حرثت، فإن الزارع هو الله».

والمعنى[2]: أي أخبروني أيها المشركون عن الحرث الذي تحرثونه: أأنتم تنبتونه أم نحن الذين ننبته؟ أي: أأنتم تصيرونه زرعاً أم نحن الذين نصيره كذلك؟ فإذا أقررتم بهذا فكيف تنكرون البعث؟. ورُوي عن حجر المنذريّ: أنه كان إذا قرأ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾، وأمثالها يقول: بل أنت يا ربّ.

والحاصل[3]: أن الحرث فعلهم من حيث إن اختيارهم له مدخل في الحرث، والزرع خالص فعل الله سبحانه. فإن إنبات السنبل والحب لا مدخل فيه لاختيار العبد أصلاً، وإذا نسب الزرع إلى العبد، فلكونه فاعلاً للأسباب التي هي سبب الزرع والإنبات. وفي «الأسئلة المقحمة»: الأصح: أن الحرث والزرع واحد، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾. فهلا أضاف الحرث إلى نفسه أيضاً؟.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

والجواب: أن إضافة الحرث إلينا إضافة الاكتساب، وإضافته إلى نفسه إضافة الخلق والإبداع. كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾.

قال الحليمي: يستحب لكل من ألقى في الأرض بذراً أن يقرأ بعد الاستعاذة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾. ثم يقول: الله الزارع، والمنبت، والمبلغ. اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، وارزقنا ثمره، وجنبنا ضرره، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين. ويقال: إنّ هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات الدود، والجراد، وغير ذلك ببركة تلك الآيات، ولا مانع من ذلك، وإن كان لا أصل له.

وفي الآية[١]: امتنان ليشكروا على نعمة الزرع، واستدلال بأن من قدر على الإنبات قادر على الإعادة. فكما أنه ينبت الحب في الأرض، وينبت بذر النطفة في الرحم فكذا ينبت من حب عجب الذنب في القبر. فإن كلها حب، وذلك لأن بذر النطفة، وكذا عظم عجب الذنب شيء كخردلة.

﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ ﴿لَوْ﴾ للمضي، وإن دخل على المضارع، ولذا لا يجزمه، فهو شرط غير جازم؛ أي: لو أردنا ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: الزرع بمعنى المزروع ﴿حُطَٰمًا﴾ هشيماً؛ أي: يابساً متفتتاً متكسراً بعد ما أنبتناه، واخضر بحيث طمعتم في حيازة غلاله، وجمعها من بعد ظهوره وقبل اشتداد حبه. ﴿فَظَلْتُمْ﴾؛ أي: فصرتم بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾؛ أي: تتعجبون من سوء حاله إثر ما شاهدتموه على أحسن ما يكون من الحال، أو تندمون على ما فعلتم فيه من الاجتهاد، وأنفقتم عليه، أو تندمون على ما أصبتم لأجله من المعاصي فتتحدثون فيه.

والحطام[٢]: الهشيم الذي لا ينتفع به، ولا يحصل منه حب، ولا شيء مما يطلب من الحرث. وقال الفراء: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون فيما نزل بكم في زرعكم. وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: معنى الآية: تعجبون من ذهابها، وتندمون مما حل بكم. وقال عكرمة: تلاومون، وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله. وقال ابن زيد: تفجعون. وهذا[٣] كله تفسير باللازم. ومعنى ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: تطرحون

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

الفكاهة عن أنفسكم. وهي المسرة. ورجل فكه، منبسط النفس، غير مكترث بشيء. وتفكه من أخوات تحرج وتحوب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بفتح الظاء مع لام واحدة. وقرأ أبو حيوة، وأبو بكر في رواية الفيكي عنه بكسرها كما قالوا: مسست بفتح الميم وكسرها. وحكاها الثوريّ من ابن مسعود، وجاءت عن الأعمش، وقرأ ابن عباس، والجحدري ﴿فظللتم﴾ بلامين. أولاهما مكسورة على الأصل. وقرأ الجحدري أيضاً بفتحها. وهي لغة. والمشهور: ظللت بالكسر. وقرأ الجمهور ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ بالهاء. وقرأ أبو حزام العكلي: ﴿تفكنون﴾ بالنون بدل الهاء؛ أي: تندمون. قال ابن خالويه: ﴿تفكه﴾ تعجب تفكن تندم وفي «المصباح»: التفكن: التندم. ومنه: الحديث: «مثل العالم كمثل الحمة يأتيها البعداء، ويتركها القرباء. فبينا هم إذ غار ماؤها، فانتفع بها قوم يتفكنون» أي يتندمون. والحمة: العين الحارة من الحمم. وهو الماء الحار يستشفي به الأعلاء والمرضى.

وقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾؛ أي: فظلتم تفكهون حال كونكم قائلين: إنا لملزمون غرامة ما أنفقنا، والغرامة أن يلزم الإنسان ما ليس في ذمته، وعليه. كما في «المغرب». أو مهلكون بهلاك زرعنا، أبو بشؤم معاصينا، أو معذبون من الغرام، وهو أشد العذاب. قال الشاعر:

إنْ يُعَذِّبْ يَكُنْ غَرَامَاً وَإنْ يُعْطِ جِزِيْلاً فَإنَّهُ لاَ يُبَالِيْ

وقرأ الجمهور[2]: ﴿إِنَّآ﴾ بهمزة واحدة على الخبر. وقرأ الأعمش، وأبو بكر، والجحدري، والمفضل، وزر بن حبيش بهمزتين على الاستفهام.

والظاهر من السياق المعنى الأول[3]. أعني: ملزمون غرما بما هلك من زرعنا، أي: إنا لمغرمون بذهاب ما حرثناه، ومصيره حطاماً. جمع مغرم. والمغرم: الذي ذهب ماله بغير عوض، ثم أضربوا عن قولهم هذا، وانتقلوا فقالوا:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ حرمنا زرقنا بهلاك زرعنا. والمحروم: الممنوع من الرزق الذي لا حظ له فيه، أو محدودون لا مجدودون؛ أي: ممنوعون من الحد وهو المنع؛ أي: لا حظ لنا، ولا جد، ولا بخت. ولو كنا مجدودين.. لما فسد علينا هذا.

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ بأرض الأنصار، فقال: «ما يمنعكم من الحرث»؟ قالوا: الجدوبة. قال: «أفلا تفعلون فإن الله تعالى يقول: أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء، وإن شئت زرعت بالريح، وإن شئت زرعت بالبذر». ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ الآية. ففي الحديث إشارة إلى أن الله تعالى هو الذي يعطي ويمنع بأسباب وبغيرها. فالتوحيد هو أن يعتقد أن التأثير من الله تعالى لا من غيره، كالكوكب ونحوه، فإنه يتهم النفس بالمعصية القاطعة للرزق.

وفي الحديث: «ما سنة بأمطر من أخرى، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي، والبحار». وفي الحديث: «دُم على الطهارة يوسع عليك الرزق». فإذا كان توسيع الرزق في الطهارة، فتضييقه في خلافها، والرزق ظاهر وباطن، وكذا الطهارة والنجاسة. فلا بد لطالب الرزق مطلقاً أن يكون على طهارة مطلقة دائماً.

فإن قلت: فما حال أكثر السلف؛ فإنهم كانوا فقراء مع دوام الطهارة؟

قلت: كان السلف في الرزق المعنوي أكثر من الخلف، وهو المقصود الأصلي من الرزق. وإنما كانوا فقراء في الظاهر لكمال افتقارهم الحقيقي، كما قال عليه السلام: «اللهم أغنني بالافتقار إليك». فمنعوا عن الغنى الصوري تطبيقاً لكل من الظاهر والباطن بالآخر، فهم أغنى الأغنياء في صورة الفقراء، وعداهم ممن ليس على صفتهم أفقر الفقراء في صورة الأغنياء، فالمرزوق من رزق غذاء الروح من الإلهامات، والعلوم، والفيوض، والمحروم: من حرمه، فاعرفه.

والمعنى: أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم. ولو شئنا.. لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده؛ فأصبح لا ينتفع به في مطعم، ولا في غذاء. فصرتم تعجبون من سوء حاله إثر ما شاهدتم فيه من الخضرة، والنضرة، والبهجة، والرواء،

وتقولون: حقًّا إنا لمعذبون مهلكون لهلاك أرزاقنا؟ لا بل هذا أمر قدر علينا لنحس طالعنا، وسوء حظنا.

ثم أعقبه بدليل آخر في المشروب. فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾؛ أي: أخبروني أيها الناس ﴿ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ عذباً فراتاً، فتسكنون به ما يلحقكم من العطش، وتدفعون به ما ينزل بكم من الظمأ. واقتصر سبحانه على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء، ومنافعه؛ لأنه أعظم فوائده، وأجل منافعه. ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾؛ أي: من السحاب. واحده مزنة. وقيل: هو السحاب، وماؤه أعذب. والمراد به: المطر. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ له بقدرتنا دون غيرنا. فإذا عرفتم ذلك فكيف لا تقرون بالتوحيد، وتصدقون بالبعث. والرؤية[1] إن كانت بمعنى العلم، فمعلقة بالاستفهام، وإن كانت بمعنى الإبصار، أو المعرفة فالجملة الاستفهامية استئناف. وهذا هو اختيار الرضي.

ثم بين لهم سبحانه أنه لو يشاء لسلبهم هذه النعمة. فقال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: جعلنا ذلك الماء النازل من المزن ﴿أُجَاجًا﴾؛ أي: ملحاً زعافاً، لا يمكن شربه. والأجاج[2]: الماء الشديد الملوحة الذي لا يمكن شربه. وقال الحسن: هو الماء المر الذي لا ينتفعون به في شرب، ولا زرع، ولا غيرهما. وحذف[3] اللام ههنا، وأثبتها في الشرطية الأولى للفرق بين المطعوم والمشروب في الأهمية، وصعوبة الفقد. يعني: أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب وأن الوعيد بفقده أشد، وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم. وقيل: ذكر اللام في جواب لو في الزرع عملاً بالأصل، وحذفها منه في الماء اختصاراً لدلالة الأول عليه.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: فهلا تشكرون ما ذكر جميعاً من المطعوم والمشروب بتوحيد منعمه، وإطاعة أمره. أو فلولا تشكرون على أن جعلناه عذباً؛ أي: فهلا تشكرون نعمة الله الذي خلق لكم ماء عذباً تشربون منه، وتنتفعون به.

والمعنى[4]: أي أفرأيتم أيها الناس الماء العذب الذي تشربونه أأنتم أنزلتموه

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

من السحاب الذي فوقكم إلى قرار الأرض، أم نحن منزلوه لكم لو نشاء لجعلناه ملحاً زعافاً لا تنتفعون به في شرب، ولا غرس، ولا زرع. فهلا تشكرون ربكم على إنزاله المطر عذباً زلالاً. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر رحمه الله عنه: أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذباً فرتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن تحت العرش بحراً تنزل منه أرزاق الحيوانات يوحي الله سبحانه إليه، فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى سماء الدنيا، ويوحي إلى السماء أن غربليه فتغربله، فليس من قطرة تقطر إلا معها ملك يضعها موضعاً، ولا ينزل من السماء قطرة إلا بكيل معلوم ووزن معلوم إلا ما كان من يوم الطوفان. فإنه نزل بغير كيل ولا وزن. وقال بعض الحكماء: إن المطر يأخذه قوس الله من البحر إلى السحاب، ثم ينزل من السحاب إلى الأرض. قال بعضهم: هو أدخل في القدرة. لأن ماء البحر مر، فيصعد ملحاً، وينزل عذباً.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أن بعض بلاد العرب ليس لها آبار، ولا أنهار جارية. فلا يشرب أهلها إلا من المطر في المصانع.

فمنها: القدس الشريف، وينبع، وجدة المحروسة، ونحوها. وللماء العذب مزيد فضل من هذه البلاد، ولذا امتن الله به على العباد.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ أيها الكفرة ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾؛ أي: أخبروني عن النار التي تقدحونها، وتستخرجونها من الزناد. والعرب تقدح بعودين، تحك أحدهما على الآخر، ويسمون الأعلى الزند، والأسفل الزندة. شبهوهما بالفحل والطروقة. يقال: ناقة طروقة؛ أي: بلغت أن يضربها الفحل. لأن الطرق الضرب. ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ﴾ وأوجدتم ﴿شَجَرَتَهَآ﴾ التي منها الزناد. وهي المرخ، والعقار، كما مر في سورة يسٓ.

---

(١) روح البيان.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ لها بقدرتنا دونكم، ومعنى الإنشاء: الخلق، وعبر عنه بالإنشاء للدلالة على ما في ذلك من بديع الصنعة، وعجيب القدرة. ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾؛ أي: جعلنا هذه النار التي في الدنيا ﴿تَذْكِرَةً﴾ لنار جهنم الكبرى؛ أي: جعلنا نار الزناد تذكيراً لنار جهنم من حيث إنه علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها، ويذكروا ما أوعدوا به من نار جهنم. أو تذكرة وموعظة وأنموذجا من جهنم؛ لما روي عن النبيّ ﷺ: «ناركم هذه التي يوقدها بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من حر نار جهنم». وقيل: تبصرة في أمر البعث. فإنه ليس أبدع من إخراج النار من الشيء الرطب. وفي «عين المعاني»: وهو حجة على منكري عذاب القبر، حيث تضمن النار ما لا يحرق ظاهره. ﴿وَمَتَٰعًا﴾؛ أي: منفعة، وبلغة. لأن حمل النار يشق. ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾؛ أي: للذين ينزلون القواء بالفتح، وهو القفر الخالي عن الماء، والكلاء، والعمارة، وهم المسافرون، وتخصيصهم بذلك؛ لأنهم أحوج إليها ليهرب منها السباع، ويصطلوا من البرد، ويجففوا ثيابهم، ويصلحوا طعامهم. فإن المقيمين أو النازلين بقرب منهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد. وتأخير هذه المنفعة للتنبيه على أن الأهم هو النفع الأخروي.

والمعنى[1]: أي أفرأيتم النار التي تقدحونها، وتستخرجونها من الزناد أأنتم أنشأتم شجرتها التي منها الزناد أم نحن المنشئون لها بقدرتنا؟ وكانت العرب توقد النار بطريق احتكاك المرخ بالعقار «نوعان من الشجر» فيأتون بعود من العقار، وبقطعة عريضة من المرخ. يحفرون في وسطها حفرة ثم يضعون عود العقار في هذه الفجوة. ويأت فتى من فتيان القبيلة، ويحرك عود العقار فيها بالتوالي، ويأتي بعده آخر، ويصنع صنيع سابقه، ولا يزالون يفعلون هكذا حتى تشتعل النار من كثرة الاحتكاك.

وهذه عملية شاقة عسرة، ومن ثم كان البيت في القبيلة إذا رأى النار موقدة استعار جذوة منها. وإلى هذا أشار بقوله سبحانه في قصص موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾. ثم

---

(١) المراغي.

بين منافع هذه النار، فقال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا . . .﴾ إلخ؛ أي: نحن جعلنا النار تبصرة في أمر البعث، حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها، ويذكروا بها ما أوعدوا به؛ لأنَّ من أخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها فهو قادر على إعادة ما تفرقت مواده، وجعلناها منفعة لمن ينزلون القواء والمفاوز من المسافرين. فكم من قوم سافروا، ثم أرملوا فأججوا ناراً، فاستدفئوا، وانتفعوا بها. وقد كان من لطف الله أن أودعها الأحجار، وخالص الحديد فيتمكن المسافر من حملها في متاعه وبين ثيابه. وإذا احتاج إليها في منزله أخرج زنده، وأورى، وأوقد ناراً، فطبخ بها، واصطلى واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها في وجوه المنافع المختلفة.

وفي الحديث: «المسلمون شركاء في ثلاثة: النار، والكلأ، والماء». وفي «فتح الرحمن»: بدأ سبحانه بذكر خلق الإنسان، ثم بما لا غنى له عنه. وهو الحب الذي منه قوته. ثم بالماء الذي به سوغه، وعجنه. ثم بالنار التي بها نضجه، وصلاحه. وذكر عقب كل من الثلاثة الأولى ما يفسده، فقال في الأولى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، وفي الثانية: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، وفي الثالثة: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾. ولم يقل في الرابعة ما يفسدها بل قال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ انتهى.

والفاء في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ للإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أيها الإنسان جميع ما عددته لك من النعم التي أنعمت بها على عبادي، وجحود المشركين لها، وتكذيبهم بها، وأردت بيان ما هو اللازم لك في الشكر فأقول لك: سبح؛ أي: نزه، وقدس اسم ربك عما لا يليق به كمشاركة غيره تعالى له في ذلك الاسم: كالإله، والرحمن والخالق. كما تنزه ذاته عن جميع النقائص؛ لأن ما ثبت للمسمى من التنزيه والتقديس فهو ثابت للاسم؛ لأن اسمه تعالى مهاب محترم معظم منزه، كما أن ذاته كذلك.

أي[1]: لا تقل لغيره تعالى: إنه إله. فإن الاسم يتبع المعنى، والحقيقة؛ أي: إن الكفار اعترفوا بأن الأمور من الله تعالى، وإذا طولبوا بالوحدانية قالوا: نحن لا نشرك في المعنى، وإنما نتخذ أصناماً آلهة في الاسم، ونسميها آلهة، والله هو الذي

(١) المراح.

خلقها، فنحن ننزهه تعالى في الحقيقة. فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾؛ أي: فكما أنت أيها العاقل اعترفت بعدم اشتراك الله مع غيره في الحقيقة اعترفت بعدم اشتراكهما في الاسم والمعنى. تعجب من أمرهم، وقل: سبحان الله العظيم.

ولم يقل[1]: فسبح ربك لأن سبح منزل منزلة اللازم، ولم يعتبر تعلقه بالمفعول، ومعناه: فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى بإضمار المضاف شكراً على تلك النعم، وإن جحدها الجاحدون، أو أحدث التسبيح بذكره تعالى على المجاز؛ فإن إطلاق الاسم للشيء ذكر له. والباء للاستعانة، أو للملابسة، والمراد بذكر ربّه هنا: تلاوة القرآن، والعظيم صفة للاسم أو الرب.

قال ابن عطاء رحمه الله تعالى: سبحه إن الله أعظم من أن يلحقه تسبيحك، أو يحتاج إلى شيء منك، لكنه شرف عبيده بأن أمرهم أن يسبحوه ليطهروا أنفسهم بما ينزهونه به، انتهى.

وفي «فتح الرحمن»: قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾؛ أي[2]: نزه ربك. فقوله: «باسم» زائد. أو المعنى: نزه اسم ربك. فالباء زائدة، والاسم باق على معناه أو هو بمعنى الذات أو بمعنى الذكر. أو الباء متعلقة بمحذوف حال.

قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ ذهب[3] جمهور المفسرين إلا أنَّ ﴿لا﴾ مزيدة للتأكيد، وتقوية الكلام كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. والمعنى: فأقسم. ويؤيد هذا القول قوله فيما بعد: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾. وقال جماعة من المفسرين: إنها للنفي، وإن المنفي بها محذوف. وهو كلام الكفار الجاحدين. وقال الفراء: هي نفي.

والمعنى: ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف فقال: أقسم. وضعف هذا القول بأن حذف اسم لا وخبرها غير جائز، كما قاله أبو حيان وغيره. وقيل إنها لام الابتداء. والأصل: فلأنا أقسم بذلك. فحذف المبتدأ، وأشبعت فتحة لام الابتداء، فتولد منها ألف، كقول الشاعر:

---

(١) روح البيان.

(٢) فتح الرحمن.

(٣) الشوكاني.

وقد قرأ هكذا ﴿فلأقسم﴾ بدون ألف الحسن، وحميد، وعيسى بن عمر. وقيل: ﴿لا﴾ هنا على ظاهرها، وإنها لنفي القسم.

والمعنى: فلا أقسم على هذا إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم خصوصاً إلى مثل هذا القسم العظيم. وهذا القول مدفوع بتعيين المقسم به بقوله: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، وتفخيم شأنه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

وقوله: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾؛ أي[1]: بمساقطها. وهي مغاربها. وتخصيصها بالقسم لما في غروبها من زوال أثرها، والدّلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير، أو لأن ذلك وقت قيام المتهجّدين، والمبتهلين إليه، وأوان نزول الرحمة والرضوان عليهم. أو بمنازلهما ومجاريهما. فإن له تعالى في ذلك من الدليل على عظم قدرته، وكمال حكمته ما لا يحيط به البيان. وقيل: المراد بالنجوم: نجوم القرآن، ومواقعها أوقات نزولها، وإليه ذهب ابن عباس رضي الله عنهما وقيل: المراد بالنجوم: الصحابة، والعلماء الهادون بعدهم، ومواقعهم مقابرهم. وقيل: غير ذلك.

والمعنى: أقسم بمساقط النجوم، ومغاربها على أن هذا المنزل عليك لقرآن كريم، وله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وقد أقسم سبحانه على كثير من مخلوقاته العظيمة دلالة على عظم مبدعها، فأقسم بالشمس، والقمر، والليل، والنهار، ويوم القيامة، والتين، والزتيون، كما أقسم بالأمكنة. فأقسم بطور سينين، ومكة المكرمة.

وقرأ الجمهور: ﴿بِمَوَٰقِعِ﴾ جمعاً. وقرأ عمر، وعبد الله، وابن عباس، وأهل المدينة، وحمزة، والكسائي، وابن محيصن، وورش عن يعقوب ﴿بموقع﴾. قال المبرد: موقع ههنا مصدر، فهو يصلح للواحد والجمع.

فائدة: المناسبة بين المقسم به وهو النجوم، وبين المقسم عليه وهو القرآن الكريم في هذه الآية أن النجوم جعلها الله سبحانه ليهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والضلالة، وتلك ظلمات

---

(١) روح البيان.

حسية، وهذه ظلمات معنوية. فالقسم هنا جاء جامعاً بين الهدايتين: الحسية للنجوم، والمعنوية للقرآن. فهذا وجه المناسبة.

ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم، وتفخيمه. فقال: ﴿وإنه﴾؛ أي: وإن هذا القسم المذكور ﴿لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لما في المقسم به من الدلالة على عظم القدرة، وكمال الحكمة، وفرط الرحمة. ومن مقتضيات رحمته أن لا يترك عباده سدى بغير كتاب. وجملة ﴿إِنَّ﴾ معترضة بين المقسم به، والمقسم عليه. وجملة ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ معترضة بين الصفة والموصوف لتأكيد تعظيم المحلوف به. فهو اعتراض في اعتراض، وجواب ﴿لو﴾ متروك، أريد به نفي علمهم أو محذوف ثقة بظهوره؛ أي: لعظمتموه أو لعلمتم بموجبه، ففيه تنبيه على تقصير المخاطبين في الأمر، قال الفرّاء، والزجاج: وهذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم: نزول القرآن. والضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على القسم الذي يدل عليه ﴿أُقْسِمُ﴾، والمعنى: أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون.

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه، فقال: ﴿إِنَّهُ﴾؛ أي: إن هذا الكتاب المنزل عليك يا محمد ﴿لَقُرْءَانٌ﴾؛ أي: لكتاب ﴿كَرِيمٌ﴾ كرمه الله سبحانه، وأعزه، ورفع قدره على جميع الكتب، وكرمه عن أن يكون سحراً أو كهانة أو كذباً، وقيل: إنه كريم لدلالته على مكارم الأخلاق، ومعالي الأمور، وشرائف الأفعال. وقيل: لأنّه يكرم حافظه، ويعظم قارئه. وقيل: لأنّه كتاب كثير الخير والنفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة في صلاح المعاش والمعاد على أن يستعار الكرم ممن يقوم به الكرم من ذوي العقول إلى غيرهم. قال الأزهريّ: الكريم اسم جامع لما يحمد. والقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى، والبيان، والعلم، والحكمة. ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾؛ أي: مصون من غير المقربين من الملائكة، أي: لا يطلع عليه من سواهم، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: محفوظ عن الباطل، وقال عكرمة: هو التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن، ومن ينزل عليه. وقال السدي: هو الزبور، وقال مجاهد، وقتادة: هو المصحف الذي في أيدينا.

فإن قلت: القرآن صفة قديمة قائمة بذات الله تعالى، فكيف يكون حالًا في كتاب مكنون؛ أي: لوح محفوظ أو مصحف؟

قلت: لا يلزم من كتابته في كتاب حلوله فيه كما لو كتب على شيء ألف دينار لا يلزم منه وجودها فيه، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾. فثبت أنه ليس حالًا في شيء من ذلك، بل هو كلام الله تعالى، وكلامه صفة قديمة قائمة به لا تفارقه.

فإن قلت: إذا لم تفارقه فكيف سمّاه منزلاً؟.

قلت: معنى إنزاله تعالى له: إنه علمه جبريل، وأمره أن يعلمه النبي ﷺ ويأمره أن يعلمه لأمته مع أنه لم يزل، ولا يزال صفة لله تعالى قائمة به لا تفارقه.

وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ إمَّا[١] صفة لكتاب فالمراد بالمطهرين الملائكة المنزهون من الكدورات الجسمانية، وأوضار الأوزار أو للقرآن، فالمراد المطهرون من الأحداث مطلقاً. فيكون نفياً بمعنى النهي؛ أي: لا ينبغي أن يمسه إلا من كان على طهارة من الأدناس كالحدث والجنابة ونحوهما على طريقة قوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه»؛ أي: لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه إلى من يظلمه. فالمراد من القرآن: المصحف، سماه قرآناً على قرب الجوار والاتساع، كما روي أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، وأراد به: المصحف.

وفي الفقه: لا يجوز لمحدث بالحدث الأصغر ـ وهو ما يوجب الوضوء ـ مس المصحف إلا بغلافه المنفصل الغير المشرز كالخريطة ونحوها؛ لأن مسه ليس مسّاً بالقرآن حقيقة إلا المتصل في الصحيح. وهو المجلد المشرز؛ لأنه من المصحف يعني: تبع له، حتى يدخل في بيعه بلا ذكر، وهذا أقرب إلى التعظيم، وكره المس بالكم؛ لأنه تابع للحامل، فلا يكون حائلاً، ولهذا لو حلف لا يجلس على الأرض، فجلس وذيله بينه وبين الأرض حنث، وإنما منع الأصغر عن مس المصحف دون تلاوته؛ لأنه حل اليد دون الفم، ولهذا لم يجب غسله في الوضوء، والجنابة كانت حالة كليهما. ولا يرد العين؛ لأنّ الجنب حل نظره إلى مصحف بلا قراءة، وكذا لا يجوز لمحدث مس درهم فيه سورة إلا بصرته، ولا لجنب دخول

---

(١) روح البيان.

المسجد إلا لضرورة، فإن احتاج إلى الدخول تيمم، ودخل؛ لأنه طهارة عند عدم الماء، ولا قراءة القرآن، ولو دون آية لأن ما دونها شيء من القرآن أيضاً إلا على وجه الدعاء أو الثناء أو التبرك كالبسملة والحمدلة.

وفي «الأشباه»: لو قرأ الفاتحة في صلاته على الجنازة على قول الشعبي، ومن وافقه إن قصد الدعاء والثناء لم يكره، وإن قصد التلاوة كره، وفيه إشارة إلى أن حكم القراءة يتغير بالقصد، ويجوز للجنب الذكر والتسبيح، والدعاء. والحائض والنفساء كالجنب في الأحكام المذكورة، ويدفع المصحف إلى الصبيّ؛ إذ في الأمر بالوضوء حرج بهم، وفي المنع تضييع حفظ القرآن؛ إذ الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر، وفي «الأشباه»: ويمنع الصبي من مس المصحف، انتهى. والتوفيق ظاهر.

وفي «كشف الأسرار»: وأما الصبيان فلأصحابنا فيهم وجهان:

أحدهما: أنهم يمنعون منه كالبالغين.

والثاني: أنهم لا يمنعون لمعنيين:

أولاً: أن الصبي لو منع ذلك.. أدى إلى أن لا يتعلم القرآن، ولا يحفظه. لأن وقت تعلمه، وحفظه حال الصغر.

ثانياً: أن الصبي وإن كانت له طهارة.. فليست بكاملة؛ لأن النية لا تصح منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهر كامل جاز أن يحمله محدثاً، انتهى.

هذا وقد ذهب جمهور العلماء[١] إلى منع المحدث، وكذا الجنب والحائض من مس المصحف، وحمله، وبذلك قال عليٌّ، وابن مسعود، وسعد ابن أبي وقّاص، وعطاء، وطاوس، وسالم، والقاسم، وجماعة من الفقهاء منهم: مالك، والشافعي، ويدل عليه ما روى مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «أن لا تمس القرآن إلا طاهراً». أخرجه مالك مرسلاً. وقد جاء موصولاً عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده: أنَّ رسول الله ﷺ كتب إلى أهل

---

(١) الخازن.

اليمن بهذا، والصحيح فيه الإرسال. وروى الدارقطني بسنده عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمس القرآن إلا طاهر». والمراد بالقرآن: المصحف. وقال الحكم، وحماد، وأبو حنيفة: يجوز للمحدث، والجنب حمل المصحف، ومسه بغلافه، فإن قلت: إذا كان الأصح: أن المراد من الكتاب هو اللوح المحفوظ، وأن المراد من لا يمسه إلا المطهرون هم الملائكة. ولو كان المراد نفي الحدث.. لقال: لا يمسه إلا المتطهرون، من التطهر، كيف يصح قول الشافعي: لا يجوز للمحدث مس المصحف؟.

قلت: من قال: إن الشافعي أخذه من صريح الآية حمله على التفسير الثاني. وهو القول: بأن المراد من الكتاب هو المصحف. ومن قال: إنه أخذه من طريق الاستنباط قال: المس بطهر صفة دالة على التعظيم، والمس بغير طهر نوع استهانة، وهذا لا يليق بمباشرة المصحف الكريم، والصحيح: أنه أخذه من السنة. ودليله ما تقدم من الأحاديث. والله أعلم.

ومعنى الآيات: فأقسم بمساقط النجوم، ومغاربها، وإنَّ هذا القسم قسم عظيم لو تعلمون عظمته.. لانتفعتم بذلك، أو فاعلموا عظمته؛ أي: أقسم بمواقعها إنه لقرآن كريم؛ أي: عزيز مكرم مستقر في كتاب مكنون؛ أي: مصون مستور عند الله تعالى؛ أي: في لوح محفوظ من أن يناله الشيطان بسوء، أو في مصحف مصون محفوظ من التبديل والتحريف. والقول الأول أصح. لا يمس ذلك الكتاب المكنون أعني: اللوح المحفوظ إلا الملائكة المطهرون. وهذا مروي عن ابن عباس، وأنس. وهو قول سعيد بن جبير، وأبي العالية، وقتادة، وابن زيد. أو لا يمس ذلك المصحف إلا المطهرون من الشرك. يعني: لا يمكن أهل الشرك من قراءته. قال الفراء: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به، أو لا يمسه إلا المطهرن من الأحداث والجنابات. وقال الحسين بن الفضل: المراد: أنه لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق. وفي حرف ابن مسعود[1]: ﴿ما يمسه إلا المطهرون﴾.

وقرأ الجمهور ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ بتخفيف الطاء، وتشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول من طهر مشدداً، وقرأ عيسى كذلك مخففاً اسم مفعول من أطهر. ورويت عن نافع

---

(١) البحر المحيط.

وأبي عمرو، وقرأ سلمان الفارسي ﴿المُطَهِّرُون﴾ بتخفيف الطاء، وشد الهاء وكسرها اسم فاعل من طهر المضاعف؛ أي: المطهرون أنفسهم. وقرأ الحسن، وزيد بن عليّ، وعبد الله بن عوف بتشديد الطاء والهاء وكسر الهاء. أصله: المتطهرون فأدغمت التاء في الطاء. وقرىء ﴿المتطهرون﴾.

وقرأ الجمهور ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ بالرفع[1] على أنه صفة ثالثة لقرآن، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرىء بالنصب على الحال، أو على المصدرية بفعله المحذوف؛ أي: نزل تنزيلاً. أي: هذا القرآن منزل من عند رب العالمين منجماً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة؛ لأن صيغة التفعيل تدل على التكرير، فليس بالسحر، ولا بالكهانة، ولا بالشعر، وهو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه شيء نافع.

وبعد أن بين مزاياه، وأنه من لدن عليم خبير ذكر أنه لا ينبغي التهاون في أوامره ونواهيه، بل ينبغي التمسك به، فقال: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه وإجلاله، وهو القرآن الكريم، وسماه حديثاً؛ لأن فيه حوادث الأمور، كما في «كشف الأسرار». وهو متعلق بقوله: ﴿مُّدْهِنُونَ﴾. وجاز تقديمه على المبتدأ، لأنَّ عامله يجوز فيه ذلك. والأصل: أفأنتم مدهنون بهذا الحديث. ﴿أَنتُم﴾ يا أهل مكة ﴿مُّدْهِنُونَ﴾؛ أي:[2] متهاونون، مستحقرون كمن يدهن في الأمر؛ أي: يلين جانبه، ولا يتصلب فيه تهاوناً به، والتدهين كالمداهنة عبارة عن المداراة، والملاينة، وترك الجد، قال في «الإحياء»: الفرق بين المداهنة، والمداراة يكون بالنظر إلى الغرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيت لسلامة دينك، ولما ترى فيه من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار، وإن أغضيت لحظ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنا لنبش في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتغلنهم، وهذا معنى المداراة. وهو منع شر من يخاف شره.

والمعنى[3]: أي فبهذا القرآن تتهاونون، وتمالئون من يتكلم فيه، ولا تظهرون

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

له المخالفة، وعدم الرضا.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾؛ أي: شكر رزقكم بتقدير المضاف ليصح المعنى، كما حكاه الوادي عن المفسرين. والرزق[1] في الأصل مصدر سمي به ما يرزق، والمراد: نعمة القرآن، أي: تجعلون شكر رزقكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بنعمة الله فتضعون التكذيب لرازقه موضع الشكر، أو تجعلون شكر رزقكم الصوري أنكم تكذبون بكونه من الله، حيث تنسبونه إلى الأنواء، وكان ﷺ يقول: «لو حبس الله القطر عن أمتي عشر سنين ثم أنزل.. لأصبحت طائفة منهم يقولون: سقينا بنوء كذا». وقال ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي حيف الأئمة، والتكذيب بالقدر، والإيمان بالنجوم». وقال الهيثم: إن أزدشنوءة يقولون: ما رزق فلان؛ أي: ما شكر.

وعلى هذه اللغة لا يكون في الآية مضاف محذوف، بل معنى الرزق: الشكر. ومما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقاهم الله تعالى، وأنزل عليهم المطر: سقينا بنوء كذا، ومطرنا بنوء كذا.

ووجه التعبير بالرزق عن الشكر[2]: أن الشكر يفيض زيادة الرزق، فيكون الشكر رزقاً تعبيراً بالسبب عن المسبب، وقال الأزهري: معنى الآية: وتجعلون بدل شكركم رزقكم الذي رزقكم الله تعالى التكذيب بأنه من عند الله الرازق. وقال أبو حيان[3]: المعنى: وتجعلون شكر ما رزقكم الله من إنزال القرآن عليكم تكذيبكم به؛ أي: تضعون مكان الشكر التكذيب. ومن هذا المعنى قول الراجز:

مَكَانُ شُكْرِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ ٱلْمِنَنْ   كَيُّ ٱلصَّحِيْحَاتِ وَفَقْءُ ٱلأَعْيُنِ

وقرأ علي، وابن عباس ﴿وتجعلون شكركم﴾. وذلك على سبيل التفسير لمخالفته السواد. وقرأ الجمهور[4] ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بالتشديد من التكذيب. فالمعنى: أنه ليس من عند الله؛ أي: القرآن أو المطر، حيث ينسبون ذلك إلى النجوم. وقرأ

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

(٤) البحر المحيط.

عليّ، والمفضل عن عاصم بالتخفيف من الكذب. والمراد بالكذب: قولهم في القرآن: سحر وافتراء، وفي المطر من الأنواء.

والخلاصة[1]: أنكم تضعون الكذب موضع الشكر. وهذا على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾؛ أي: لم يكونوا يصلون، لكنهم كانوا يصفرون، ويصفقون مكان الصلاة. قال القرطبي: وفي هذا بيان بأن ما يصيب العباد من خير، فلا ينبغي أن يروه من قبل الوسائط التي جرت العادة بأن تكون أسباباً، بل ينبغي أن يروه من قبل الله تعالى، ثم يقابلوه بالشكر إن كان نعمة، وبالصبر إن كان مكروهاً تعبداً له وتذلّلاً، اهـ.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ لولا[2] للتحضيض لإظهار عجزهم. و«إذا» ظرفية مجردة أو مضمنة معنى الشرط. والحلقوم: مجرى الطعام. وفي «كشف الأسرار»: مجرى النفس. والبلعوم: مجرى الطعام. وجواب لولا هو ما سيأتي بقوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾. والضمير في ﴿بَلَغَتِ﴾ عائد إلى غير مذكور. وهو الروح، ولم يتقدم لها ذكر. لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاؤوا بمثل هذه العبارة؛ أي: فهلا إذا بلغت النفس؛ أي: الروح أو نفس أحدكم، وروحه الحلقوم وتداعت إلى الخروج. وفي الحديث: «إن ملك الموت له أعوان يقطعون العروق، ويجمعون الروح شيئاً فشيئاً حتى ينتهى بها إلى الحلقوم، فيتوفاها ملك الموت». ﴿وَأَنتُمْ﴾ ﴿الواو﴾ للحال من فاعل ﴿بَلَغَتِ﴾؛ أي: والحال أنتم أيها الحاضرون حول صاحبها ﴿حِينَئِذٍ﴾؛ أي: حين إذ بلغت الروح الحلقوم ﴿تَنظُرُونَ﴾ إلى ما هو فيه من الغمرات والسكرات. ولكم تعطف عليه، وشفقة ووفور رغبة في إنجائه من المهالك. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى ذلك المحتضر علماً، وقدرة، وتصرفاً. قال بعضهم: عبر عن العلم بالقرب الذي هو أقوى سبب الاطلاع. ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الحاضرون حوله، حيث لا تعرفون حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة من غير أن تقفوا عن كنهها، وكيفيتها، وأسبابها، ولا أن تقدروا على دفع أدنى شي منها. ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا، أو بملائكة الموت الذين يقبضون روحه ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

لا تدركون، ولا تعلمون كنه ما يجري عليه لجهلكم بشؤوننا. فقوله: ﴿لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ من البصيرة، لا من البصر. والأقرب تفسيره بقوله: لا تدركون كوننا أعلم به منكم، كما في «حواشي سعديّ المفتي».

﴿فَلَوۡلَآ﴾ بمعنى هلا أيضاً ﴿إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾؛ أي: غير مربوبين مملوكين أذلاء، من دان السلطان رعيته إذا سامهم، واستعبدهم. وفي «المفردت»: أو غير مجزيين؛ فإن الدين الجزاء أيضاً. وهو ناظر إلى قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾. فإن التحضيض يستدعي عدم المحضّض عليه حتماً. ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ أي[1]: النفس إلى مقرها، وتردون روح ميتكم إلى بدنه من الرجع. وهو الردّ، وهو العامل في ﴿إِذَا﴾، والمحضّض عليه بلولا الأولى. والثانية مكررة للتأكيد. وهي مع ما في حيّزها دليل جواب الشرط.

والمعنى: إن كنتم غير مربوبين، كما ينبىء عنه عدم تصديقم بخلقنا إيّاكم فهلا ترجعون النفس إلى مقرّها عند بلوغها الحلقوم ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في اعتقادكم. فإن عدم تصديقهم بخالقيته تعالى لهم عبارة عن تصديقهم بعدم خالقيته تعالى بموجب مذهبهم.

أي: فإذا لم يمكنكم ذلك، فاعلموا أن الأمر إلى غيركم، وهو الله تعالى. فآمنوا به. وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ تكرير للتأكيد، لا من اعتراض الشرط. إذ لا معنى له هنا.

والمعنى[2]: أي فهلا إذا بلغت النفوس عند خروجها من أجساد موتاكم حلاقيمهم، وأنتم ومن حضركم من أهليكم تنظرون إليهم، ورسلنا الذين يقبضون أرواحهم أقرب إليهم منكم، ولكن لا تبصرون. وجواب لولا قوله الآتي: ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾.

وخلاصة المعنى: إذا لم يكن لكم خالق وأنتم الخالقون فهلا ترجعون النفوس

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

إلى أجسادها حين خروجها من حلاقيمها؟ ثم كرر الحث والتحضيض مرة أخرى. فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾؛ أي: فهلا ترجعون النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرّها من الجسد إن كنتم غير مصدقين أنكم تبعثون، وتحاسبون، وتجزون، ولن ترجعوها. فبطل زعمكم أنكم غير مربوبين، ولا مملوكين.

وبعد أن ذكر حال المحتضرين في الدنيا أردفها بذكر حالهم بعد الوفاة وقسمهم أزواجاً ثلاثة. فقال:

١ - ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾؛ أي: من الذين قربهم ربهم من جواره في جناته لفعله ما أمر به، وتركه ما نهي عنه، وهم أجل الأزواج الثلاثة. ﴿فَرَوْحٌ﴾؛ أي: فله استراحة وطمأنينة نفس ﴿وَرَيْحَانٌ﴾؛ أي: رزق واسع من عند الله تعالى. ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾؛ أي: بستان ذات تنعم ليس فيها غيره. وتبشره الملائكة بجنات النعيم، وقد جاء في حديث البراء بن عازب: «إن ملائكة الرحمة تقول: أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينيه فاخرجي إلى روح، وريحان، ورب غير غضبان». وقرأ الجمهور[1] ﴿فَرَوْحٌ﴾ بفتح الراء.

والمعنى: الراحة من الدنيا، والاستراحة من أحوالها. وقال الحسن: الروح: الرحمة. وقال مجاهد: الروح: الفرح، وقرأ ابن عباس، وعائشة، والحسن، وقتادة، ونصر بن عاصم، والجحدري، ونوح القارىء، والضحاك، والأشهب، وشعيب بن الحبحاب، وسليمان التيمي، والربيع بن خيثم، ومحمد بن عليّ، وأبو عمران الجوني، وغيرهم ﴿فرُوح﴾ بضم الراء. قيل: ومعنى هذه القراءة: الرحمة؛ لأنها كالحياة للمرحوم. والريحان: الرزق، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، ومقاتل. وقال الحسن: الريحان هو الريحان المعروف الذي يشم. قال قتادة، والربيع بن خيثم: هذا عند الموت، والجنة مخبوءة إلى أن يبعث.

٢ - ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ عبر عن السابقين بالمقربين لكونه أجل أوصافهم، وعبر عن أصحاب اليمين بالعنوان السابق. إذ لم يذكر لهم

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.

فيما سبق وصف واحد ينبيء عن شأنهم سواه كما ذكر للفريقين الأخرين. واستعير اليمين للتيمن والسعادة، قاله الراغب. ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾؛ أي: فتبشره الملائكة، وتقول له: سلام لك يا صاحب اليمين ﴿مِنْ﴾ إخوانك ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ يسلمون عليك عند الموت وبعده. فيكون السلام إشارة له إلى أنه من أهل الجنة، قال في «الإرشاد»: هذا إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض، كما يفصح عنه اللام. لا حكاية لإنشاء سلام بعضهم على بعض، وإلا لقيل: عليك. والالفتات إلى خطاب كل واحد منهم للتشريف.

٣ ـ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالحق ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الهدى، وهم أصحاب الشمال. عبر عنهم بذلك حسبما وصفوا به عند بيان أحوالهم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ ذمًّا لهم بذلك، وإشعاراً بسبب ما ابتلوا به من العذاب. وهو تكذيب البعث ونحوه ﴿فَنُزُلٌ﴾؛ أي: فله نزل كائن ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: من ماء حار يشرب بعد أكل الزقوم، كما فصل من قبل. ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾؛ أي: وإدخال في النار. وقيل: إقامة فيها، ومقاساة لألوان عذابها. وقيل: ذلك ما يجده في القبر من سموم النار، ودخانها. وهو مصدر مضاف إلى المفعول.

والمعنى: أي فيقدم ضيافة له ماء حميم يصهر به ما في بطنه والجلود، ويدخل في النار التي تغمره من جميع جهاته.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَتَصْلِيَةُ﴾ رفعاً عطفاً على ﴿فَنُزُلٌ﴾. وقرأ أحمد بن موسى، والمتقري، واللؤلؤي عن أبي عمرو بجر التاء عطفاً على ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: فنزل من حميم ومن تصلية جحيم.

ولما انقضى الإخبار بتقسيم أحوالهم، وما آل إليه كل قسم منهم أكد ذلك بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكر في هذه السورة من أمر البعث الذي كذبوا به، ومن قيام الأدلّة عليه، ومن حال المقربين، وأصحاب اليمين، وحال المكذبين الضالين. ﴿لَهُوَ حَقُّ﴾ الخبر ﴿ٱلْيَقِينِ﴾ الذي لا شك فيه لتظاهر الأدلة القاطعة عليه، كأنه

---

(١) البحر المحيط.

مشاهد رأي العين. وهذا[1] على مذهب البصريين. فيجعلون المضاف إليه محذوفاً، والتقدير: حق الأمر اليقين، أو الخبر اليقين. وأما الكوفيون فيقولون: فهو من إضافة الشيء إلى نفسه؛ أي: لهو محض اليقين، وخالصه. قال المبرد: هو كقولك: عين اليقين، ومحض اليقين.

ولما[2] أعاد التقسيم موجزاً الكلام فيه أمره أيضاً بتسبيحه، وتنزيهه، والإقبال على عبادة ربه، والإعراض عن أقوال الكفرة المنكرين للبعث والحساب والجزاء. فقال: ﴿فَسَبِّحْ﴾ يا محمد أو أيها المخاطب؛ أي: نزه الله سبحانه عما لا يليق بشأنه حال كونك متلبساً ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: بذكره للتبرك به. وقيل: المعنى: فصل بذكر ربك. فالباء[3] متعلقة بمحذوف، كما قدرنا. وقيل: زائدة. والاسم بمعنى الذات. وقيل: هي للتعدية. لأن ﴿سَبِّحِ﴾ يتعدى تارة بنفسه كقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، وتارة بحرف الجر كقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾. والأول أولى. والعظيم يجوز أن يكون صفة لاسم، ويجوز أن يكون صفة لربك، لأن كلا منهما مجرور.

والفاء في قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ لترتيب التسبيح أو الأمر به على ما قبلها؛ فإن حقية ما فصل في تضاعيف السورة الكريمة يوجب تنزيهه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل من الأمور التي من جملتها الإشراك، والتكذيب بآياته الناطقة بالحقّ. وقال أبو عثمان: فسبح شكراً لما وفقنا أمتك إليه من التمسك بسنتك.

والمعنى[4]: أي فبعد أن استبان لك الحق، وظهر لك اليقين، فنزه ربك عما لا يليق به مما ينسبه الكفار إليه تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن ماجة عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ قال: «اجعلوها في

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

(٤) المراغي.

ركوعكم». ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم». وكان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم»، وفي سجوده «سبحان ربي الأعلى».

وسر اختصاص سبحان ربي العظيم بالركوع، والأعلى بالسجود[1] أن الأول إشارة إلى مرتبة الحيوان. والثاني: إشارة إلى مرتبة النبات والجماد. فلا بد من الترقي في التنزيه، والحق سبحانه فوق التحت كما أنه فوق الفوق. ونسبة الجهات إليه على السواء لنزاهته عن التقيد بالجهات، فلهذا شرع التسبيح في الهبوط. واختلف الأئمة في التسبيح المذكور في الصلاة. فقال أحمد: هو واجب، تبطل الصلاة بتركه عمداً، ويسجد لتركه سهواً. والواجب عنده مرة واحدة، وأدنى الكمال ثلاث. وقال أبو حنيفة، والشافعي: هو سنة. وقال مالك: يكره لزوم ذلك لئلا يعد واجباً فرضاً.

الإعراب

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾.

﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿فَلَوْلَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿لولا﴾ حرف تحضيض بمعنى هلّا، ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ فعل مضارع، مرفوع بالنون، والواو: فاعل. والجملة التحضيضة معطوفة على ما قبلها. ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿رأيتم﴾ فعل، وفاعل، بمعنى أخبروني. والتقدير: أتنكرون البعث، وخلقي إيّاكم فأخبروني عمّا تمنون الخ. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿مَّآ﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول أول لـ ﴿رأيتم﴾، وجملة ﴿تُمْنُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَّآ﴾، والعائد محذوف، تقديره: ما تمنونه. ﴿ءَأَنتُمْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاريّ، ﴿أنتم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ خبر. والجملة الاستفهامية في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿رأيتم﴾. ويجوزإعراب ﴿أنتم﴾ فاعلاً بفعل مقدر؛ أي: أتخلقونه أنتم. فلما حذف الفعل لدلالة ما بعده عليه انفصل الضمير، وهو من باب الاشتغال. ولعله من جهة

---

(١) روح البيان.

القواعد أمكن لأجل أداة الاستفهام. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام التقريري، ﴿نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة جملة إضرابية، لا محل لها من الإعراب؛ أي: بل نحن الخالقون لا أنتم، ويكون الكلام حينئذٍ مشتملاً على استفهامين. الأول: أأنتم تخلقونه. وجوابه لا. والثاني: مأخوذ من ﴿أَمْ﴾؛ أي: بل أنحن الخالقون، وجوابه نعم. ويجوز أن تكون ﴿أَمْ﴾ متصلة معادلة للهمزة، ويجاب عن وقوع الجملة بعدها بأن الخبر الذي بعد ﴿نَحْنُ﴾ أتي به على سبيل التأكيد، لا لتصحيح الكلام؛ إذ لو قيل: أم نحن لاكتفى به بدون الخبر. ويؤيد كونها متصلة أن الكلام يؤول إلى أي الأمرين واقع، وإذا صح ذلك كانت متصلة. إذا الجملة في تأويل المفرد، اهـ سمين.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾.

﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ، ﴿قَدَّرْنَا﴾ فعل، وفاعل، ﴿بَيْنَكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿قَدَّرْنَا﴾ ﴿الْمَوْتَ﴾ مفعول به؛ أي: أوجبناه، وكتبناه عليكم. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة أو اعتراضية، ﴿مَا﴾ حجازية، ﴿نَحْنُ﴾ اسمها، ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ خبرها، والباء: زائدة. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾، أو معترضة لاعتراضها بين الجار والمجرور الآتي، ومتعلقه الذي هو ﴿قَدَّرْنَا﴾. ﴿عَلَىٰ﴾ حرف جر، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿نُّبَدِّلَ﴾ فعل، وفاعل مستتر، منصوب بـ﴿أن﴾، ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ مفعول به. والجملة في تأويل مصدر مجرور بعلى؛ أي: على تبديلنا أمثالكم. والجار والمجرور متعلق بمسبوقين، أو بـ ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾. ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿نُّبَدِّلَ﴾، ﴿فِي مَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿ننشئكم﴾، وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، أي: ننشئكم في صور لا تعلمونها من الحيوانات الممتهنة المرتطمة بالأقدار كالقردة والخنازير. ﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿عَلِمْتُمُ﴾ فعل، وفاعل، ﴿النَّشْأَةَ﴾ مفعول به، ﴿الْأُولَىٰ﴾ صفة لـ ﴿النَّشْأَةَ﴾. والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿فَلَوْلَا﴾

الفاء: عاطفة، ﴿لولا﴾ حرف تحضيض، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة معطوفة على جملة جواب القسم. ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ تقدم إعراب نظير هذه الجملة آنفاً، فجدد به عهداً. ﴿لَوْ﴾ شرطية، ﴿نَشَآءُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾، ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾، ﴿جعلناه حطاماً﴾ فعل، وفاعل، ومفعولان. والجملة جواب لو الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿فَظَلْتُمْ﴾ الفاء: عاطفة ﴿ظلتم﴾ فعل ناقص من أخوات كان والتاء اسمها. أصله: ظللتم بكسر اللام الأولى، فحذفت العين تخفيفاً. ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ فعل مضارع، وفاعل. أصله: تتفكهون. والجملة في محل النصب خبر ﴿ظل﴾، وجملة ﴿ظل﴾ معطوفة على جواب لو الشرطية. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ خبره، واللام حرف ابتداء. وجملة إن في محل النصب، مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾، كما مرّ، تقديره: فظلتم تفكهون حال كونكم قائلين: إنّا لمغرمون. ﴿بَلْ﴾ حرف عطف وإضراب، ﴿نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لقول محذوف.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ﴾ تقدّم إعراب نظيرها، ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة لـ ﴿ٱلْمَآءَ﴾، وجملة ﴿تَشْرَبُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف. ﴿ءَأَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أَنزَلْتُمُوهُ﴾ خبره. والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿رأيتم﴾. ﴿مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ متعلق بـ ﴿أَنزَلْتُمُوهُ﴾. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ تقدم اعراب نظيرها ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿نَشَآءُ﴾ فعل شرط لها، ﴿جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ فعل، وفاعل، ومفعولان. والجملة جواب لو، وجملة لو مستأنفة. ﴿فَلَوْلَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿لولا﴾ حرف تحضيض، ﴿تَشْكُرُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ تقدم نظيرها، ﴿ٱلنَّارَ﴾ مفعول أول لـ ﴿رأيتم﴾، ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة لـ

﴿ٱلنَّارَ﴾، وجملة ﴿تُورُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿ءَأَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أَنشَأْتُمْ﴾ خبره، ﴿شَجَرَتَهَآ﴾ مفعول به. والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿رأيتم﴾. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ مبتدأ وخبر، معطوف على ما قبله. ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿تَذْكِرَةً﴾ مفعول ثان لـ ﴿جعلنا﴾، ﴿وَمَتَٰعًا﴾ معطوف عليه، ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ متعلق بـ ﴿متاعا﴾ أو صفة له. ﴿فَسَبِّحْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، وتقديره: إذا عرفت النعم المذكورة، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: ﴿سبح﴾. ﴿سبح﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ ﴿سبح﴾ أو بمحذوف حال؛ أي: متبركاً. وقيل اسم مقحم، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿اسم﴾ أو لـ ﴿رَبِّكَ﴾. والجملة الفعلية مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلَآ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، و﴿لا﴾ زائدة لتأكيد معنى القسم؛ أي: فأقسم، ﴿أُقْسِمُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر. والجملة مستأنفة. ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ متعلق بـ ﴿أقسم﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ الواو: اعتراضية، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَقَسَمٌ﴾ خبره، واللام حرف ابتداء. والجملة معترضة لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ فعل شرط لها، وجواب لو محذوف، تقديره: لو كنتم من ذوي العلم لعلمتم عظم هذا القسم. وجملة لو معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين الصفة والموصوف. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ﴿قسم﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَقُرْءَانٌ﴾ خبره، واللام: حرف ابتداء، ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة أولى ﴿لَقُرْءَانٌ﴾. وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ صفة ثانية ﴿لَقُرْءَانٌ﴾، ﴿مَّكْنُونٍ﴾ صفة لـ ﴿كِتَٰبٍ﴾، ﴿لَّا﴾ نافية ﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾ فعل مضارع، ومفعول به، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ فاعل. والجملة صفة ثالثة ﴿لَقُرْءَانٌ﴾. ﴿تَنزِيلٌ﴾ صفة رابعة ﴿لَقُرْءَانٌ﴾، ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صفة لـ ﴿تَنزِيلٌ﴾ أو متعلق به. ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي داخلة على محذوف، تقديره: أأنتم مكذّبون رسولي. والجملة مستأنفة. والفاء: عاطفة على

ذلك المحذوف، ﴿بهذا الحديث﴾ متعلق بـ ﴿مُّدْهِنُونَ﴾. ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ بدل من اسم الإشارة. ﴿أَنتُم﴾ مبتدأ، ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ خبره. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. والتقدير: أأنتم مكذّبون رسولي، فأنتم مدهنون بهذا الحديث. ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾ فعل، وفاعل، ﴿رِزْقَكُمْ﴾ مفعول أول. والجملة الفعلية معطوفة على ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿أَنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ خبره. وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولا ثانياً لـ ﴿تجعلون﴾، ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: وتجعلون شكر رزقكم تكذيب رازقه.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَلَوْلَآ﴾ الفاء: استئنافية، ﴿لولا﴾ حرف تحضيض بمعنى هلّا، ﴿إِذَا﴾ ظرف مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، ﴿بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ فعل، ومفعول به على الاتساع وفاعله ضمير يعود على النفس؛ أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم. ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو: حالية، ﴿أَنتُم﴾ مبتدأ، ﴿حِينَئِذٍ﴾ ظرف مضاف إلى مثله، منصوب ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر مضاف إليه، مبني بسكون مقدر، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة المضافة إليها ﴿إذ﴾؛ أي: حين إذ بلغت الروح الحلقوم، والظرف متعلق بتنظرون، وجملة ﴿تَنظُرُونَ﴾ في محل الرفع، خبر عن ﴿أَنتُم﴾، ومتعلق النظر محذوف؛ أي: إليه؛ أي: إلى المحتضر. وجملة ﴿أَنتُم﴾ حال من فاعل ﴿بَلَغَتِ﴾. ﴿وَنَحْنُ﴾ الواو: حالية، أو استئنافية، ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، ﴿إِلَيْهِ﴾، ﴿مِنكُمْ﴾ متعلّقان بـ ﴿أَقْرَبُ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿تَنظُرُونَ﴾ أو مستأنفة معترضة. ﴿وَلَٰكِن﴾ الواو: عاطفة، ﴿لكن﴾ حرف استدراك ﴿لا﴾ نافية، ﴿تُبْصِرُونَ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تَنظُرُونَ﴾؛ أي: لا تعلمون أنا أقرب إليه منكم بالعلم، أو لا تعلمون ما هو فيه من المشقة والكرب.

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿فَلَوْلَآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لولا﴾ حرف تحضيض مؤكّدة لـ ﴿لولا﴾ الأولى تأكيداً لفظياً، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، في محل

الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ فعل مضارع، مرفوع بالنون، والواو: فاعل، والهاء: مفعول به. والجملة الفعلية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. و﴿لولا﴾ تحضيضية، وهي للطلب. والمعنى: فارجعوا روح المحتضر إلى مقرّها وجسدها وقت بلوغها الحلقوم للنزع إن كنتم غير مدينين. ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها، وجوابها معلوم مما قبلها؛ أي: إن كنتم صادقين في نفي البعث فارجعوها إلى جسدها. وهي مؤكّدة لجملة ﴿إن﴾ الشرطية الأولى. وملخص الكلام إن صدقتم في نفي البعث فردوا روح المحتضر إلى جسده لينتفي عنه الموت، فينتفي البعث. اهـ «سمين».

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾.

﴿فَأَمَّآ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حال المتوفّى عند وفاته، وأردت بيان حاله إثر وفاته فأقول لك: أما إن كان من المقربين إلخ. ﴿أمّا﴾ حرف شرط أبداً، وتفصيل غالباً، نائبه عن مهما الشرطية وفعل شرطها، ﴿إن﴾ حرف شرط جازم، ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على المتوفى، ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ خبرها. وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف لدلالة جواب أمّا عليه. والتقدير: إن كان من المقربين يجزى بالروح والريحان وجنة نعيم، وجملة إن الشرطية معترضة بين ﴿أمّا﴾، وجوابها، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَرَوْحٌ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿أمّا﴾ وجوباً، ﴿روح﴾ مبتدأ، خبره محذوف، مقدم عليه، تقديره: فله روح. ﴿وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ معطوفان على ﴿روح﴾. والجملة الاسمية جواب ﴿أمّا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿أما﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. والمعنى: فأقول لك مهما يكن من شيء، فللمتوفى روح وريحان، وجنة نعيم إن كان من المقربين، وسلام من أصحاب اليمين إن كان منهم الخ. ﴿وَأَمَّآ﴾ الواو: عاطفة، ﴿أمّا﴾ حرف شرط، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص في محل

الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على المتوفى، ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾، خبرها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كان من أصحاب اليمين يسلّم عليه. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة. ﴿فَسَلَامٌ﴾ الفاء: رابطة لجواب أمّا، ﴿سلام﴾ مبتدأ. سوغ الابتداء به ما فيه من معنى الدعاء. ﴿لَكَ﴾ خبر عن ﴿سلام﴾ ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ نعت لـ ﴿سلام﴾ أو حال منه. والجملة الاسمية جواب أمّا، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿أمّا﴾ في محل النصب، معطوفة على جملة أمّا الأولى.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أمّا﴾. حرف شرط، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على المتوفى، ﴿مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ خبرها، ﴿الضَّالِّينَ﴾ صفة لـ ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾. وجواب ﴿إن﴾ محذوف، تقديره: إن كان المتوفى من المكذبين يجزى بالحميم والجحيم. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين ﴿أمّا﴾ وجوابها. ﴿فَنُزُلٌ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿أمّا﴾ الشرطية، ﴿نزل﴾ مبتدأ، حذف خبره المقدم، ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ صفة لـ ﴿حميم﴾، ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ معطوف على ﴿نزل﴾. والجملة الاسمية جواب ﴿أمّا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب. والتقدير: مهما يكن من شيء فللمتوفى نزل من حميم، وتصلية جحيم إن كان من المكذبين الضالّين. وجملة ﴿أمّا﴾ في محل النصب، معطوفة على جملة أما الأولى. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَهُوَ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿هو﴾ ضمير فصل، أو مبتدأ، و﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ خبر ﴿إن﴾ أو خبر هو. والجملة الاسمية خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة. وإضافة حق إلى اليقين من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: الحق المتيقّن الذي لا شك فيه. ﴿فَسَبِّحْ﴾ الخ، تقدم إعرابه، ولكن نعيده لزيادة بعض الفوائد. فنقول: الفاء: فاء الإفصاح كما مرّ، ﴿سبح﴾ فعل أمر بمعنى نزه، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بِاسْمِ﴾ الباء: حرف جر، ﴿اسم﴾ زائد، ﴿رَبِّكَ﴾ مجرور بالباء؛ أي: سبح بربك العظيم. ويجوز أن تكون الباء للحال؛ أي: حال كونك متلبساً باسم ربك أو متبركاً به، ويجوز أن تكون الباء للتعدية بناء على أنَّ ﴿سبح﴾ يتعدى تارة

بنفسه، وتارة أخرى بحرف الجر. ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ صفة.

فائدة: أثبتوا ألف الوصل هنا في اسم ربك؛ لأنه لم يكثر دورانها هنا كثرته في البسملة، وحذفوها من البسملة لكثرة دورانها. وهم شأنهم الإيجاز، وتقليل الكثير إذا عرف معناه. وهذا معروف لا يجهل. وإثبات ما أثبت من أشكاله مما لا يكثر دليل الحذف منه، ولذا لا تحذف مع غير الباء في اسم الله، ولا مع الباء في غير الجلالة الكريمة من الأسماء. اهـ خطيب انتهى من الفتوحات.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مَّا تُمۡنُونَ﴾؛ أي: ما تقذفونه في الأرحام من النطف. قرأ العامة بضم التاء، من أمنى الرباعي يمني إمناء. وقرىء بفتح التاء من مني الثلاثي يمني من باب رمى. كلاهما بمعنى قذف المني في الرحم. وأصله من المني. وهو التقدير. قال الشاعر:

لا تَـأمَـنْ وَإِنْ أَمْـسَـيْـتَ فِـي حَـرَمٍ   حَتَّـىٰ تُـلاقِيَ مَا يُـمْـنِـيْ لَـكَ ٱلْـمَـانِـيْ

ومنه: المنيَّة. لأنَّها مقدرة تأتي على مقدار. وفي «المختار»: وقد يقال: منى من باب رمى، وأمنى أيضاً. اهـ. وأصل ﴿تُمۡنُونَ﴾: تمنيون بوزن تفعلون، أستثقلت الضمة على الياء فحذفت، ثم حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، وضمت النون لمناسبة الواو.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾؛ أي: نميتكم دفعة واحدة، ونخلق أشباهكم. ويجوز في ﴿أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه جمع مثل بكسر الميم، وسكون الثاء؛ أي: نحن قادرون على أن نعدمكم، ونخلق قوماً آخرين أمثالكم. ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾.

والثاني: أنه جمع مثل بفتحتين. وهو الصفة؛ أي: نغير صفاتكم التي أنتم عليها خلقاً، وننشئكم في صفات غيرها، اهـ سمين.

﴿فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: في صورة لا تعلمونها في جنسكم كتبديل صوركم بصورة القردة والخنازير. قال الحسن؛ أي: نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام

قبلكم. و﴿مَآ﴾ مقطوعة في الرسم على القاعدة من أن ﴿مَآ﴾ الموصولة مفصولة، اهـ خطيب.

﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾؛ أي: تبذرون حبه، وتعملون في أرضه. قال الراغب: الحرث: تهيئة الزراعة، وإلقاء البذر فيها، اهـ.

والمعنى: المناسب هنا تفسير ما بالبذر، ومعنى تحرثون البذر؛ أي: تلقونه في الأرض فكأنه قال: أفرأيتم البذر الذي تلقونه في الطين أأنتم تزرعونه؛ أي: تنبتونه. وفي «المختار»: الزرع: طرح البذر. والزرع أيضاً: الإنبات، يقال: زرعه الله؛ أي: أنبته. ومنه قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾. وبابه قطع، اهـ.

﴿حُطَٰمًا﴾؛ أي: هشيماً متكسّراً متفتتاً لشدة يبسه، والحطام: الهشيم الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء. وأصل الحطم: كسر الشيء مثل الهشم، ونحوه. ثم استعمل لكل كسر متناه.

﴿فَظَلْتُمْ﴾ فيه إعلال بحذف عينه، إذ أصله: ظللتم بوزن فعلتم، حذفت عينه، وبقيت فاؤه، كما هي لغة فيه. وفيه لغة أخرى. وهي حذف العين، وكسر الفاء ظِلت. وهكذا كل فعل ثلاثي مكسور العين ماض عينه، ولامه من جنس واحد فيه ثلاث استعمالات، وهي استعماله تامًّا، كقولك: ظللت، وحذف عينه، وإبقاء حركة فائه كما هي. وحذف العين وكسر الفاء، كما تقدم.

﴿تَفَكَّهُونَ﴾ فيه حذف إحدى التاءين، كما تقدم. فأصله: تتفكهون حذفت إحدى التاءين تخفيفاً. وأصل التفكه: تناول ضروب الفواكه للأكل. والفكاهة: المزاح. ومنه: حديث زيد كان من أفكه الناس مع أهله، ورجل فكه طيب النفس. وقد استعير هنا للتنقل في الحديث. وقيل: معناه: تندمون. وحقيقته تلقون الفكاهة عن أنفسكم. ولا تلقي الفكاهة إلا من الحزن. فهو من باب تحرج وتأثم. وقيل: تفكهون تعجبون. وقيل: تتلاومون. وقيل: تتفجعون. كله من باب التفسير باللازم.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ جمع مغرم. والمغرم: هو الذي ذهب ماله بغير عوض. وأصل الباب اللزوم. والغرام: العذاب اللازم. والغرامة: أن يلزم الإنسان ما ليس عليه، ولا في ذمته.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ الإيراء: إظهار النار بالقدح. يقال: أورى يوري، ووريت بك زنادي، أي: أضاء بك أمري. ويقال: قدح فأورى إذا ظهرت النار، فإذا لم يور يقال: قدح فأكبى. وفي «المصباح»: ورى الزند يرى ورياً من باب وعى. وفي لغة ورى يرى بكسرهما، وأورى بالألف. وذلك إذا أخرج ناره. وفي «المختار»: وأوراه غيره أخرج ناره. وفي «معاجم اللغة»: تستخرجون النار من الزناد. وهو جمع زند. والزند: العود الذي يقدح به النار. وهو الأعلى. والزندة السفلى، فيها ثقب، وهي الأنثى. فإذا اجتمعا قيل: زندان، والجمع زناد. والعرب تقدح بعودين، تحك أحدهما على الآخر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال: ما من شجر، ولا عود إلّا فيه النار سوى العناب، اهـ. وأصل ﴿تُورُونَ﴾: توريون مضارع أورى الرباعيّ، وفيه إعلال بالحذف ثلاث مرات:

أولاً: حذفت منه همزة أفعل، كما تقدم غير مرة.

وثانياً: حذفت الضمة التي على الياء للتخفيف.

وثالثاً: لما سكنت الياء بعد حذف حركتها حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الراء لمناسبة الواو.

﴿ٱلْمُزْنِ﴾ السحاب، جمع مزنة. وفي «القاموس»: المزن بالضم: السحاب أو أبيضه أو ذو الماء، والقطعة مزنة. ﴿أُجَاجًا﴾ في «المختار»: ماء أجاج: مر شديد الملوحة. وقد أج يؤج أجوجاً بالضم.

﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾؛ أي: للمسافرين الذين يسكنون القواء؛ أي: القفر، والمفاوز؛ أي: جعلناها ينتفع بها المسافرون. وخصوا بالذكر لأن منفعتهم بها أكثر من المقيمين. وأصل المقوين: المقويين اسم فاعل من أقوى الرباعي استثقلت الكسرة على الواو، وبعدها ياء مكسورة، وأخرى ساكنة، فحذفت كسرة الياء الأولى لام الكلمة، فلما سكنت حذفت لالتقائها ساكنة مع ياء الجمع فوزنه مفعين.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ أصله: يمسسه، نقلت حركة السين الأولى إلى الميم، فسكنت فأدغمت في السين الثانية. والظاهر والله أعلم: أن ضمة السين ضمة إعراب، وأنَّ ﴿لا﴾ نافية. وهذا أحد وجهين، ذكرهما السمين. ثم قال: والثاني: أن ﴿لا﴾ ناهية، والفعل بعدها مجزوم. لأنه لو فك عن الادغام.. لظهر ذلك، كقوله تعالى:

﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾، ولكنه أدغم، ولما أدغم حرك آخره بالضم لأجل هاء ضمير المذكر الغائب. فضمته ضمة إتباع لحركة الهاء.

﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ قال الراغب: والإدهان في الأصل مثل التدهين، لكن جعل عبارة عن المداراة، والملاينة، وترك الجد. وقال المؤرخ: المدهن: المنافق أو الكافر الذي يلين جانبه ليخفي كفره. والإدهان والمداهنة: التكذيب، والنفاق، وأصله: اللين، وأن يضمر خلاف ما يظهر، وادهن داهن بمعنى واحد. وقال قوم: داهنت بمعنى واريت، وأدهنت بمعنى غششت. وفي «الشهاب»: وأصل الإدهان جعل الأديم، ونحوه مدهوناً بشيء من الدهن. ولما كان ذلك مليناً له ليناً محسوساً أريد به: اللين المعنوي على أنه تُجُوِّز به عن مطلق اللين، أو استعير له، ولذا سميت المداراة، والملاينة مداهنة. وهذا مجاز معروف، ولشهرته صار حقيقة عرفية، فلذا تجوز به هنا عن التهاون أيضاً؛ لأن المتهاون بالأمر لا يتصلب فيه، اهـ «شهاب».

﴿غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ جمع مدين، اسم مفعول من دان يدين. والأصل: مديونين، نقلت حركة الياء إلى الدال، فلما سكنت حذفت واو مفعول لالتقاء الساكنين، ثم كسرت الدال لمناسبة الياء الساكنة بعدها. فهو مثال مبيع.

﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾ الروح بالفتح: الراحة، والرحمة، ونسيم الريح. والريحان: الرحمة، والرزق كما في «المختار». وفي «القاموس»: والريحان: نبت طيب الرائحة، أو كل نبت كذلك، أو أطرافه أو ورقه، والولد، والرزق. وأصله ريحان بوزن فعلان، والياء فيه منقلبة عن واو على غير قياس لعدم وجود سبب للقلب. وقيل: أصله: ريوحان لتصغيره على رويحان. فلما اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء، وأدغمت فيها الياء، فصار ريحان بتشديد الياء، ثم خففت الياء لتسهيل اللفظ فصار ريحان. وقيل: إن الكلمة لا قلب فيها، ولا إدغام، أن الياء أصل، وهي عين الفعل بدليل جمعها على رياحين، وتصغيره على ريحين.

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ ترسم ﴿جنَّت﴾ هنا مجرورة التاء. ووقف عليها بالهاء ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، والباقون بالتاء على الرسم، اهـ خطيب. ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾؛ أي: احتراق بها. وهو بوزن تفعلة مصدر قياسي لفعَّل المضعف

المعتل اللام: كزكى تزكية، وولى تولية.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التحضيض في قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ حثاً لهم على الاعتراف بالبعث والإعادة كاعترافهم بالخلق الأولى.

ومنها: تكرار ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ في مواضعها احتجاجاً على المشركين، وإلزاماً لهم بالحجة.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾. وجناس الاشتقاق بين ﴿ننشئكم﴾، وبين ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾.

ومنها: فن صحة الإقسام في الآيات المذكورة من قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾. وهو عبارة استيفاء المتكلم جميع الأقسام للمعنى المذكور الآخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئاً.

ومنها: العدول من لفظ الحرمان والمنع إلى لفظ هو ردفه، وتابعه. وهو لفظ الجعل في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾.

ومنها: تأكيد الفعل باللام في قوله في الزرع: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، وعدم تأكيده في الماء، حيث قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾؛ لأنّ الزرع، ونباته، وجفافه بعد النضارة حتى يعود حطاماً لما كان يحتمل أن يتوهم أنه من فعل الزارع، ولهذا قال سبحانه: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾، أو يتوهم أن خصبه من سقي الماء، وأن جفافه من حرارة الشمس وعدم السقي، أو تواتر مرور الإعصار. أخبر سبحانه أنه هو الفاعل لذلك كله على الحقيقة، وأنه قادر على جعله.. لو شاء حطاماً في حالة نموه، وزمن شبيبته ونضارته، فلما كان هذا التوهم محتملاً..

أوجبت البلاغة تأكيد فعل الجعل فيه باللام، وإسناده لزارعه على الحقيقة، ومنشئه لرفع هذا التوهم، ولما كان إنزال المطر من السماء محالاً بما لا يتطرق احتمال توهم متوهم أن أحداً من جميع الخلق قادر عليه لم يحتج إلى تأكيد الفعل في جعله أجاجاً. فإنه لا يمكن أن يتوهم أحد أن أحداً ينزل المطر من السماء أجاجاً، ولا عذباً الذي هو أسهل من الأول، وأهون.

ومنها: فن التسهيم في هذه الآيات أيضاً. وهو وأن يكون ما تقدم من الكلام دليلاً على ما تأخر منه أو بالعكس فقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ يقتضي أوائل هذه الآيات أواخرها اقتضاء لفظيًّا ومعنوياً. كما ائتلفت الألفاظ فيها بمعانيها المجاورة ائتلاف الملائم بالملائم، والمناسب بالمناسب؛ لأن ذكر الحرث يلائم ذكر الزرع، وذكر كونه سبحانه لم يجعله حطاماً ملائم لحصول التفكه به، وعلى هذه الآية يقاس نظم أختها.

ومنها: زيادة لفظ ﴿اسم﴾ في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾، وزيادة ﴿لا﴾ في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ تأكيداً للكلام.

ومنها: الاعتراض بالجملة الاسمية بين القسم والمقسم عليه في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

ومنها: الاعتراض بين الصفة والموصوف في قوله: ﴿لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ حيث استعار الكرم ممن يقوم به الكرم من ذوي العقول للقران بجامع كثرة النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة في صلاح المعاش والمعاد.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾؛ أي: شكر رزقكم.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ كأنما الروح شيء مجسم يبلغ الحلقوم في حركة محسوسة.

ومنها: تكرار لولا التحضيضية في قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾

لغرض التأكيد اللفظي.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ لغرض الرد على المنكرين.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ لغرض التشريف.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة موضوعات هذه السورة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ اضطراب الأرض، وتفتت الجبال حين قيام الساعة.

٢ ـ إن الناس عند الحساب أزواج ثلاثة.

٣ ـ اجتماع الأولين والآخرين في هذا اليوم.

٤ ـ إقامة الأدلة على وجود الخالق.

٥ ـ إقامة البراهين على البعث، والنشور، والحساب.

٦ ـ إثبات أن هذه الأخبار حق لا شك فيها.

٧ ـ تبكيت المكذبين على إنكار الخالق.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة الحديد

سورة الحديد مدنية. نزلت بعد الزلزلة. قال القرطبيّ في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الحديد بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وقيل: مكية.

وآيها تسع وعشرون آية. وكلماتها خمس مئة وأربع وأربعون كلمة. وحروفها ألفان وأربع مئة وستة وسبعون حرفاً.

المناسبة: مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة(١)؛ لأنه تعالى أمر بالتسبيح، ثم أخبر أن التسبيح المأمور به قد فعله والتزمه كل من في السموات والأرض.

وعبارة المراغي هنا: مناسبتها لما قبلها من وجهين(٢):

١ ـ إن هذه بدئت بالتسبيح، وتلك ختم به.

٢ ـ إن أول هذه واقع موقع العلة لآخر ما قبلها من الأمر بالتسبيح. فكأنه قيل: سبح باسم ربك العظيم. لأنه سبح له ما في السموات والأرض.

التسمية: سميت هذه السورة سورة الحديد لذكر الحديد فيها. وهو قوة الإنسان في السلم والحرب، وعدته في البنيان والعمران فمن الحديد تبنى الجسور الضخة، وبه تشاد العمائر، ومنه تصنع الدروع والسيوف والرماح، وتكون منه الدبابات، والغواصات، والسيارات، والطائرات، والمدافع الثقيلة إلى غير ما هنالك من المنافع التي كادت أن لا تحصى.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال ابن حزم: سورة الحديد كلها مدنية إلا في قول

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

الكلبي. فإنه قال: إنها مكية، وكلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. ويرد[1] على القول بأنها مدنية ما نقل في سبب إسلام عمر بن الخطاب: أنه لما قرأ هذه الآيات من أول هذه السورة إلى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وكانت مكتوبة في صحيفة عند أخته.. أسلم. فهذا يقتضي أن هذه الآيات مكية. فعلى هذا تستثنى على القول بأن السورة مدنية، تأمل.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه أحمد[2]، والترمذي، وحسنه، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن العرباض بن سارية: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية». وفي إسناده بقية بن الوليد. وفيه مقال معروف. وقد أخرجه النسائي عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله ﷺ، ولم يذكر العرباض بن سارية، فهو مرسل.

وأخرج ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير قال: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ المسبحات، وكان يقول: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية». قال يحيى: فنراها الآية التي في آخر الحشر. قال ابن كثير في تفسيره: والآية المشار إليها، والله أعلم هي قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ...﴾ الآية، والمسبحات المذكورة هي: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الفتوحات. (٢) الشوكاني.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ
وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾
هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا
يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ لَّهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۚ وَهُوَ
عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ
مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى
ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ
لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ
وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنٗا
فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ
ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٞ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ
وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ
بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ
أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا
يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوْلَىٰكُمْۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن
قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٞ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَاۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

المناسبة

مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها قد تقدم آنفاً.

وأما قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] أنواعاً من الأدلة تثبت وحدانيته، وعلمه، وقدرته.. فبين أن كل ما في السموات والأرض فهو في قبضته يصرفه كيفما يشاء على ما تقتضيه حكمته. ثم ذكر أنواعاً من الظواهر في الأنفس ترشد إلى هذا، وأومأ إلى النظر والتأمل فيها. أعقب بذكر التكاليف الدينية فأمر بدوام الإيمان الكامل الذي له آثاره العملية من إخبات النفس لله، وإخلاص العمل له، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

ثم طلب إنفاق المال في سبيله، وأبان أن المال عارية مستردة فهو ملك له، وأنتم خلفاؤه في تثميره في الوجوه التي فيها خير لكم، ولأمتكم، ولدينكم. ولكم على ذلك الأجر الجزيل الذي يضاعفه إلى سبع مئة ضعف. ثم حث على ذلك بأن جعل هذا صفوة دعوة الرسول، وقد أخذ عليكم العهد به، وآيات كتابه هادية لكم تخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. والله رؤوف بكم إذ أنقذكم من هاوية الشرك، وهداكم إلى طاعته. ثم ذكر فضل السابقين الأوّلين الذين أسلموا قبل فتح مكة، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله حين عز النصير، وقل المعين. فهؤلاء يستوون مع من فعل ذلك بعد الفتح، وبعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، وهؤلاء وأولئك لهم المثوبة الحسنى والأجر الكريم عند ربهم. ثم حث على الإنفاق مرة أخرى، وسماه قرضاً حسناً له، وأنه سيرد هذا القرض، ويجازي به أجل الأجر يوم تبيض وجوه، وتسود وجوه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمر[2] بالإيمان والإنفاق في سبيل الله، وحث على كل مهما بوجود موجباته.. فحث على الإيمان بوجود الأسباب التي تساعد عليه. وهي وجود الرسول بين أظهرهم، وكتابه الذي يتلى بين أيديهم، وحث على الإنفاق، فأبان أن المال مال الله، وهو عارية بين أيديهم، ثم يرد إليه، وأنهم ينالون على إنفاقه الأجر العظيم في جنات النعيم، ثم ذكر أن المنفقين أول الإسلام لهم من الأجر أكثر ممن أنفقوا من بعد، حين النصير

(١) المراغي. (٢) المراغي.

والمعين.. ذكر هنا حال المؤمنين المنفقين يوم القيامة. فبين أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، ليرشدهم إلى الجنة، وأنهم يبشرون بجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ثم أردفه بذكر حال المنافقين إذ ذاك، وأنهم يطلبون من المؤمنين شيئاً من الضوء يستنيرون به ليهديهم سواء السبيل؛ فيتهكم بهم المؤمنون، ويخيبوا آمالهم، ويقولون لهم: ارجعوا إلى الدنيا، فالتمسوا نوراً بتحصيل العلوم والمعارف، فلا نور إلا منها.

ثم أرشد إلى أنه يضرب بين الفريقين حاجز باطنه مما يلي المؤمنين، فيه الرحمة، ومما يلي المنافقين فيه العذاب، لأنه في النار. ثم ذكر السبب فيما صاروا إليه، وأنهم أهلكوا أنفسهم بالنفاق والمعاصي، وانتظروا أن تدور على المؤمنين الدوائر فينطفيء نور الإيمان، وشكوا في أمر البعث، وغرهم الشيطان فأوقعهم في مهاوي الردى.

ثم أعقبه ببيان أنه لا أمل في النجاة لهم إذ ذاك فلا تجدي الفدية، كما تنفع في الدنيا. فلا مأوى لهم إلا النار، وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فرق ما بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، وأن الأولين لهم نور يهديهم إلى طريق الجنة، وأن الآخرين يطلبون منهم أن يأتوهم قبساً من نورهم يهديهم إلى سبيل النجاة، فيردونهم خائبين، ويقولون لهم: ارجعوا ورائكم فالتمسوا نوراً.. أردف هذا[1] بعتاب قوم من المؤمنين، فترت همتهم عن القيام بما ندبوا له من الخشوع، ورقة القلوب بسماع المواعظ وسماع القرآن، ثم حذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب الذين طال العهد بينهم وبين أنبيائهم، فقست قلوبهم، وأعرضوا عن أوامر الدين ونواهيه. ثم أبان لهم بضرب المثل: أن القلوب القاسية تحيا بالذكر، وتلاوة القرآن كما تحيا الأرض الميتة بالغيث، والمطر.

---

(١) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه بن أبي شيبة في «المصنف» عن عبد العزيز بن أبي روّاد: أن أصحاب النبي ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك.. فنزلت هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾... الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: كان أصحاب النبي ﷺ قد أخذوا في شيء من المزاح، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

وأخرج عن السدي عن القاسم قال: مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة، فقالوا: حدثنا يا رسول الله. فأنزل الله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾. ثم ملوا ملة، فقالوا: حدثنا يا رسول الله. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قال: لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد أن كانوا في جهد جهيد. فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه، فعوتبوا، فنزلت الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾؛ أي: نزه لله سبحانه وتعالى، وقدسه عن كل ما لا يليق به ذاتاً وصفات وأفعالاً، ومجده، وعظمه بكل الكمالات ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع المخلوقات في السموات والأرض حيواناً وجماداً عقلاء وغير عقلاء، إما بلسان المقال أو بلسان الحال.

ومعنى التسبيح[2]: هو تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولاً وفعلاً عمَّا لا يليق بجنابه سبحانه[3]، عبر هنا، وفي الحشر والصف بالماضي، وفي الجمعة والتغابن بالمضارع، وفي الأعلى بالأمر، وفي الإسراء بالمصدر استيعاباً للجهات المشهورة

---

(١) لباب النقول.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

لهذه الكلمة، وبدأ بالمصدر في الإسراء؛ لأنه الأصل، ثم بالماضي في الحديد، والحشر، والصف؛ لأنه أسبق الزمانين. ثم بالمضارع في الجمعة والتغابن لشموله الحال والمستقبل، ثم بالأمر في الأعلى لخصوصه بالحال مع تأخره في النطق به في قولهم: فعل يفعل إفعل.

وفيه تعليم[1] عباده استمرار وجود التسبيح منهم في جميع الأزمنة، والأوقات.

والحاصل: أن كلًّا من صيغتي الماضي والمضارع جردت عن الدلالة على مدلولها من الزمان المخصوص. فأشعر باستمراره في الأزمنة لعدم ترجح البعض على البعض. فالمكونات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود، مسبحة في كل الأوقات، لا يختص تسبيحها بوقت دون وقت، بل هي مسبحة دائماً في الماضي، وتكون مسبحة أبداً في المستقبل.

وفي الحديث: «أفضل الكلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. لا يضرك بأيهن بدأت». والمراد[2] بالتسبيح المسند إلى ما في السماوات والأرض من العقلاء، وغيرهم، والحيوانات، والجمادات: هو ما يعم التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة، والإنس، والجن. وبلسان الحال كتسبيح غيرهم. فإن كل موجود يدل على الصانع. وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة. وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة، وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة. فلِمَ قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؟ وإنّما هو تسبيح مقال، واستدل بقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾. فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة.

وفعل التسبيح قد يتعدى بنفسه تارةً كما في قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾، وباللام أخرى كهذه الآية. واللام إما مزيدة للتأكيد كما في نصحت له، وشكرت له في نصحته وشكرته أو للتعليل، والفعل منزل منزلة اللازم؛ أي: فعل ما في السموات والأرض التسبيح، وأوقعه، وأحدثه لأجل الله تعالى وخالصاً لوجهه. وعبر بما التي لغير

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

العاقل دون من التي للعاقل تغليباً لغير العقلاء لكثرتهم. وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ قاله[1] هنا بحذف ﴿ما﴾ الثانية موافقة لقوله بعد: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾. وقاله في الحشر، والصف، والجمعة، والتغابن بإثباتها عملاً بالأصل.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب بقدرته، وسلطانه لا يمانعه، ولا ينازعه شيء. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بلطفه وتدبيره، لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة. وفيه إشعار بعلية الحكم. فإن العزة، وهي الغلبة على كل شيء تدل على كمال القدرة. والحكمة تدل على كمال العلم. والعقل يحكم بأن الموصوف بهما يكون منزها عن كل نقص كالعجز والجهل ونحوهما. ولذا كان الأمن كفراً؛ لأن فيه نسبة العجز إلى الله تعالى، وكذا اليأس؛ لأن فيه نسبة البخل إلى الله الجواد.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾؛ أي: له سبحانه لا لغيره التصرف الكلي، ونفوذ الأمر فيهما، وما فيهما من الموجودات من حيث الإيجاد والإعدام، وسائر التصرفات مما نعلم وما لا نعلم. يتصرف فيهما وحده، ولا ينفُذ غير تصرفه وأمره. وقيل: أراد خزائن المطر، والنبات، وسائر الأرزاق.

يقول الفقير: فإن قلت[2] كيف أضاف الملك إلى ما هو متناه، وكمال ملكه تعالى غير متناه؟.

قلت: إن للسموات والأرض ظاهراً وهو ما كان حاضراً، ومرئيًّا من عالم الملك وهو متناه؛ لأنّه من قبيل الأجسام والصور، وباطناً وهو ما كان غائباً غير محسوس من أسرارهما وحقائقهما، وهو غير متناه؛ لأنه من عالم الملكوت والمعاني، فإضافة الملك إلى الله تعالى إضافة مطلقة يندرج تحتها الملك والملكوت، وهما غير متناهيين في الحقيقة؛ ألا ترى أن القرآن لا تنقضي عجائبه. فهو بحر لا ساحل له، من حيث أسراره، ومن حيث أن المتكلم به هو الذي لا نهاية له، وإن كان القرآن متناهياً في الظاهر والحس. فالمراد بالملك: هو الملك

---

(١) فتح الرحمن. (٢) روح البيان.

الحقيقي؛ لأن ملك البشر مجاز. فإن قلت[1]: قوله: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذكره مرتين، فهو مكرر.

قلت: لا تكرار فيه؛ لأنَّ الأول في الدنيا بدليل قوله عقبه: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، والثاني في العقبى لقوله عقبه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

وهذه الجملة مستأنفة، لا محل لها من الإعراب. وقوله: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مستأنفة أيضاً لبيان بعض أحكام الملك. أو في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو في محل نصب على الحال من ضمير ﴿له﴾. والمعنى: يحيي الموتى بالبعث، والنطف، والبيض في الدنيا، ويميت الأحياء في الدنيا. ومعنى الإحياء، والإماتة: جعل الشيء حيًّا، وجعله ميتاً. وقد يستعاران للهداية وللإضلال في نحو قوله[2]: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها: ما ذكر من الإحياء والإماتة على مقتضى الحكمة والإرادة ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: تام القدرة، لا يعجزه شيء كائناً ما كان، فإن الصيغة للمبالغة.

ومعنى الآيات[3]: أي إن ما دونه من خلقه ينزهه عن كل نقص تعظيماً له، وإقراراً بربوبيته، وإذعانا لطاعته. وهو القادر الغالب الذي لا ينازعه شيء. الحكيم في تدبير أمور خلقه، وتصريفها فيما شاء، وأحب له التصرف والسلطان فيهما. وهو نافذ الأمر، ماضي الحكم، فلا شيء فيهن يمتنع منه. يحيي ما يشاء من الخلق كيف شاء، فيحدث من النطفة الميتة حيواناً ينفخ فيه الروح، ويميت ما يشاء من الأحياء حين بلوغ أجله. وهو سبحانه ذو قدرة تامّة لا يتعذر عليه شيء أراده من إحياء، وإماتة، وإعزاز، وإذلال إلى نحو أولئك.

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾؛ أي[4]: السابق على سائر الموجودات بالذات والصفات لما أنه مبدئها ومبدعها. فالمراد بالسبق، والأولية: هو الذاتي لا الزماني. فإن الزمان من جملة الحوادث أيضاً. ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾؛ أي: الباقي بعد فنائها

---

(١) فتح الرحمن.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

حقيقة أو نظرا إلى ذاتها مع قطع النظر عن مبقيها؛ فإن جميع الموجودات الممكنة إذا قطع النظر عن علتها، فهي فانية. وقيل: الأول[1] هو الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة. والآخر: هو الدائم الذي ليس له نهاية منقضية. وقيل: الأول الذي كان قبل كل شيء. والآخر الذي يبقى بعد هلاك كل شيء. وقال أبو بكر الوراق: الأول بالأزلية، والآخر بالأبدية. ﴿والظاهر﴾ وجوداً لكثرة دلائله الواضحة، أو العلي الغالب على كل شيء. من ظهر عليه إذا علاه، وغلبه. ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ حقيقة، فلا يحوم العقل حول إدراك كنهه، وليس يعرف الله إلا الله. وتلك الباطنية سواء في الدنيا والآخرة. فاضمحل ما في «الكشاف» من أن فيه حجة على من جوز إدراكه في الآخرة بالحاسة. وذلك فإن كونه باطناً بكنه حقيقته لا ينافي كونه مرئياً في الآخرة من حيث صفاته. أو العالم بما بطن، وخفي من الأمور، من قولهم: فلان يبطن أمر فلان؛ أي: يعلم داخلة أمره.

وقد فسر هذه الأسماء الأربعة رسول الله ﷺ، فيتعين المصير إليه[2]. وهو ما أخرجه ابن أبي شيبة، ومسلم، والترمذي، والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ تسأله خادماً. فقال قولي: «اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، وربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس قبلك شيء. اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر».

وقال الزمخشري: فإن قلت: فما معنى ﴿الواو﴾ في هذه الأسماء؟

قلت: الواو الأولى معناها: الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية، والثانية على أنه الجامع بين الظهور والخفاء. وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين، ومجموع الصفتين الأخريين، فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية، وهو في جميعها ظاهر وباطن، جامع الظهور بالأدلة والخفاء، فلا يدرك بالحواس.

---

(١) البحر المحيط.   (٢) الشوكاني.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر والخفي. فإنَّ ﴿عَلِيمٌ﴾ صيغة مبالغة، تدل على أنه تعالى تام العلم بكل شيء جليه وخفيه.

والمعنى: أي: وهو ذو علم تامّ بكل شيء فلا يخفى عليه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: أنشأهما، وأبدعهما على غير مثال سابق بقدرته الكاملة وحكمته البالغة ﴿فِي﴾ قدر ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الآخرة، أو من أيام الدنيا تعليماً للعباد التأني في الأمور. قال ابن عطية: وهذا الأخير أصوب. أولها: الأحد، وآخرها الجمعة. وهذا بيان لبعض ملكه للسموات والأرض. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾؛ أي: ارتفع، وعلا استواء يليق به من غير كيف ولا تمثيل ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ المحيط بجميع الأجسام.

والمعنى[1]: هو الذي أنشأ السموات السبع والأرضين. فدبَّرهنَّ وما فيهن في ستة أطوار مختلفات، ثم استوى على عرشه، فارتفع عليه ارتفاعاً يليق بجنابه لا نكيفه ولا نمثله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه ﴿مَا يَلِجُ﴾ ويدخل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كالكنوز، والدفائن والموتى، والبذور، وكالغيث ينفذ في موضع وينبع في الآخر. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾؛ أي: من الأرض كالجواهر من الذهب، والفضة، والنحاس، وغيرها، والزروع، والحيوانات، والماء، وكالكنوز والموتى يوم القيامة. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كالكتب، والملائكة، والأقضية، والصواعق، والأمطار، والثلوج. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ أي: وما يصعد إليها كالملائكة الذين يكتبون الأعمال، والدعوات، والأعمال، والأرواح السعيدة، والأبخرة، والأدخنة. وقد تقدم تفسيره مستوفى في سورة الأعراف، وفي غيرها.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿مَعَكُمْ﴾ بقدرته، وعلمه، وسلطانه ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾؛ أي: في أي مكان كنتم فيه من الأرض من برّ وبحر. وهذا تمثيل[2] لإحاطة علمه بهم،

---

(١) المراغي.   (٢) روح البيان.

وتصوير لعدم خروجهم عن قبضته أينما داروا. وفي الحديث: «أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان». وقال موسى عله السلام: «أين أجدك يا رب؟ قال: يا موسى إذا قصدت إلي فقد وصلت إلي».

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم عليه ثواباً وعقاباً، وهو عبارة عن إحاطته بأعمالهم، فتأخيره عن الخلق لما أن المراد: ما يدور عليه الجزاء من العلم التابع للمعلوم، لا لما قيل: من أن الخلق دليل على العلم، فبالخلق يستدل على العلم، والدليل يتقدم على المدلول.

وفي الآية: إيقاظ للغافلين، وتنشيط للمتيقظين، ودلالة لهم على الخشية والحياء من رب العالمين، وإشارة لهم إلى أن أعمالهم محفوظة، وأنهم مجزيون بها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. قال بعض الكبار: ﴿والله بما تعملون بصير﴾؛ لأنه العامل بكم وفيكم، ولا بد لكل عامل أن يبصر عمله، وما يتعلق به.

والمعنى[1]: أي وهو رقيب عليكم، سميع لكلامكم، يعلم سركم ونجواكم. كما قال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾.

وفي «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وقال عمر رضي الله عنه: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: زودني حكمة أعيش بها، فقال: «استح الله كما تستحي رجلاً من صالحي عشيرتك لا يفارقك». وكان الإمام أحمد كثيراً ما ينشد هذين البيتين:

إِذَا مَا خَلَوْتَ ٱلدَّهْرَ يَوْماً فَلاَ تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ يَغْفَلُ سَاعَةً ... وَلاَ أَنَّ مَا تُخْفِيْ عَلَيْهِ يَغِيْبُ

وقوله: ﴿لَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: سلطنتهما والتصرف فيهما. تكرير للتأكيد كما مر الجواب عنه، وتمهيد لقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه، لا إلى غيره استقلالاً، واشتراكاً ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ أي: ترد جميع الأمور.

---

(١) المراغي.

فاستعدوا للقائه باختيار أرشد الأمور، وأحسنها عند الله تعالى. وقرأ الجمهور[١] ﴿تُرْجَعُ﴾ مبنياً للمفعول، فيكون بمعنى ترد، وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، والأعرج مبنياً للفاعل، فيكون بمعنى تصير. والأمور عام في جميع الموجودات أعراضها وجواهرها.

ومعنى الآية: أي هو سبحانه المالك لما فيهما، والمدبر لأمورهما، والنافذ حكمه فيهما، وإليه مصير جميع خلقه، فيقضي بينهم بحكمه، كما قال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣﴾، وقال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾.

﴿يُولِجُ﴾؛ أي: يدخل سبحانه وتعالى: ﴿اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾؛ أي[٢]: يدخل بعض ساعات الليل في النهار حتى يصير النهار أطول ما يكون خمس عشرة ساعة، والليل أقصر ما يكون تسع ساعات. ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾؛ أي: بعض ساعاته ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ بحسب اختلاف الفصول، واختلاف مطالع الشمس ومغاربها حتى يصير الليل أطول ما يكون خمس عشرة ساعة، والنهار أقصر ما يكون تسع ساعات. ومجموع الليل والنهار أربع وعشرون ساعة دائماً.

والمعنى: أي يقلب الله سبحانه الليل والنهار، ويقدرهما بحكمته كما يشاء. فتارة يطول الليل ويقصر النهار، والعكس بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وحيناً يجعل الفصل شتاء أو ربيعاً أو صيفاً أو خريفاً، وكل ذلك بتدبيره، وفائدة خلقه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: مبالغ في العلم ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بخطرات قلوب العباد، ومكنوناتها اللازمة لها من الأسرار، والمعتقدات. وذلك أغمض ما يكون، وأخفاه؛ أي: عليم بالسرائر، وإن دقت وخفيت. فهو يعلم نوايا خلقه كما يعلم ظواهر أعمالهم من خير أو شرّ. وفي ذلك حث لنا على النظر والتأمل، ثم الشكر على ما أولى وأنعم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال[٣]: اسم الله الأعظم في أول سورة

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

الحديد في ست آيات من أولها. فإذا علقت على المقاتل في الصف لم ينفذ إليه حديد، كما في فتح الرحمن. ولكن لا أصل له.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ﴾؛ أي: صدقوا بوحدانية الله يا معشر الكفار ﴿و﴾ صدقوا برسالة ﴿رسوله﴾ ﷺ. وهذا خطاب لكفار العرب. ويجوز أن يكون خطاباً للجميع، ويكون المراد بالأمر بالإيمان في حق المسلمين: الاستمرار عليه أو الإزدياد منه.

ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإنفاق في سبيل الله فقال: ﴿وَأَنفِقُوا﴾؛ أي: واصرفوا أيها المؤمنون في طاعة الله ﴿مِمَّا جَعَلَكُم﴾؛ أي: من المال الذي جعلكم الله تعالى ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾؛ أي؛ خلفاء في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقةً. فإن المال مال الله، والعباد خلفاء الله في أمواله فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه.

عبر[1] عما بأيديهم من الأموال والأرزاق بذلك تحقيقاً للحق، وترغيباً لهم في الإنفاق. فإن من علم أنها لله، وأنه بمنزلة الوكيل والنائب بحيث يصرفوها إلى ما عينه الله تعالى من المصارف.. هان عليه الإنفاق أو جعلكم خلفاء من قبلكم فيما كان بأيديهم بتوريثه إياكم، فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم، وسينتقل منكم إلى من بعدكم، فلا تبخلوا به. قال الشاعر:

وَيَكْفِيْكَ قَوْلُ النَّاسِ فِيْمَا مَلَكْتَهُ   لَقَدْ كَانَ هَذَا مَرَّةً لِفُلاَنِ

فلا بد من إنفاق الأموال التي هي للغير، وستعود إلى الغير. فكما أن الإنفاق من مال الغير يهون على النفس إذا أذن فيه صاحبه، فكذا من المال الذي على شرف الزوال.

روي: أن الآية نزلت في غزوة ذي العشيرة، وهي غزوة تبوك، والظاهر[2] أن معنى الآية: الترغيب في الإنفاق في الخير، وما يرضاه الله على العموم. وقيل: هو خاص بالزكاة المفروضة، ولا وجه لهذا التخصيص.

ومعنى الآية: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي:[3] أقروا بوحدانية الله، وصدقوا

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

رسوله فيما جاءكم به عن ربكم، تنالوا الفوز برضوانه، وتدخلوا فراديس جنانه، وتسعدوا بما لم يدر لكم بخلد، ولم يخطر لكم ببال، وأنفقوا مما هو معكم من المال على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، واستعملوه في طاعته وإلا حاسبكم على ذلك حساباً عسيراً. ولله در لبيد إذ يقول:

وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلأَهْلُونَ إِلاَّ وَدَائِعٌ وَلاَ بُدَّ يَوْماً أَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

وفي هذا الترغيب أيما ترغيب في الإنفاق. لأن من علم أن المال لم يبق لمن قبله، وانتقل إليه علم أنه لا يدوم له بل ينتقل إلى غيره. وبذا يسهل عليه إنفاقه.

قال شعبة: سمعت عن قتادة يحدث عن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب، وتاركه للناس». رواه مسلم.

ثم حث على ما تقدم من الإيمان، والإنفاق في سبيل الله تعالى، فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ بالله، وصدقوا رسوله ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾ مما خولهم الله عمن قبلهم في سبيل الله حسبما أمروا به ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: ثواب عظيم عند ربهم، وهو الجنة. وهناك يرون من الكرامة، والمثوبة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثم وبخهم على ترك الإيمان الذي أمروا به، وأبان أنه ليس لهم في ذلك من عذر. فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: وأي عذر لكم، وأي مانع من الإيمان، وقد أزيحت عنكم العلل. و﴿ما﴾ مبتدأ، و﴿لَكُمْ﴾ خبره. والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع. وجملة ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، والعامل فيه ما فيه من معنى الفعل، وهو الاستقرار؛ أي[1]: أي شيء ثبت لكم، وحصل حال كونكم غير مؤمنين، وحقيقته ما سبب عدم إيمانكم بالله على توجيه الإنكار، والنفي إلى السبب فقط مع تحقق المسبب.

وقيل المعنى: أي شي لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا؟. وجملة قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿لَا

---

(١) روح البيان.

﴿تُؤْمِنُونَ﴾ مفيدة لتوبيخهم على الكفر مع تحقق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يوجبه؛ أي: وأي عذر في ترك الإيمان، والحال أن الرسول يدعوكم إليه، وينبهكم على صحة ما جاءكم به بالحجج والآيات. فإن الدعوة المجردة لا تفيد. فلو لم يجب الداعي دعوة مجردة، وترك ما دعاه إليه لم يستحق الملامة والتوبيخ، فلام ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ بمعنى إلى، ولا يبعد حملها على التعليلية؛ أي: يدعوكم إلى الإيمان لأجل أن تؤمنوا.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾ الله سبحانه ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ وعهدكم المؤكد باليمين على الإيمان من قبل دعوة الرسول إيّاكم إليه بنصب الأدلة والتمكين من النظر، حال من مفعول ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أو من فاعله على التداخل. وحمله بعضهم على الميثاق المأخوذ يوم الذر، حين أخرجهم من صلب آدم في صورة الذر. وهي النمل الصغير. والمعنى؛ أي: والحال أن الله قد أخذ ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾ مبنياً للفاعل، وهو الله لتقدم ذكره ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ بالنصب. وقرأ أبو عمرو مبنياً للمفعول، ﴿مِيثَاقُكُمْ﴾ بالرفع.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما. فإن هذا موجب لا موجب وراءه. وفي «عين المعاني»؛ أي: إن كنتم مصدقين بالميثاق. وفي «فتح الرحمن»؛ أي: إن دمتم على ما بدأتم به، وفي «الشوكاني»: إن كنتم مؤمنين بما أخذ عليكم من الميثاق، أو بالحجج والدلائل، أو كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب، فهذا من أعظم أسبابه، وأوضح موجباته، وقال أبو حيان: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط جوابه محذوف، تقديره: إن كنتم مؤمنين لموجب ما، فهذا هو الموجب لإيمانكم، أو إن كنتم ممن يؤمن فما لكم لا تؤمنون، والحالة هذه، وهي دعاء الرسول، وأخذ الميثاق. وقال الطبري: إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال، فالآن فإنه قد تطابقت الدلائل النقلية والعقلية، وبلغت مبلغاً لا يمكن الزيادة عليها.

والمعنى[2]: أي وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك، ويبين لكم الحجج، والبراهين على صحة ما جاءكم به، وقد أخذ الله

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

عليكم الميثاق بما نصب لكم من الأدلة على وحدانيته في الكون أرضه وسمائه، بره وبحره، وفي الأنفس بما تشاهدن فيها من بديع صنعها، وعظيم خلقها إن كنتم تؤمنون بالدليل العقلي والنقلي.

وصفوة القول: إن الأدلة تظاهرت على وجوب الإيمان بالله ورسوله، فقد نصب في الكون ما يرشد إلى وجوده، وأرسل الرسل يدعون إلى ذلك، وأقاموا البراهين على صدق ما يقولون، فما عذركم، وإلام تستندون في رد هذا؟ الآن قد تبين الرشد من الغيّ، وأفصح لذي عينين. وماذا بعد الحق إلا الضلال «فهل من مدّكر».

ثم قطع عليهم الحجة، وأزال معذرتهم. فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿الَّذِي يُنَزِّلُ﴾ بواسطة جبرئيل عليه السلام، وقرىء[1] في السبعة ﴿يَنزِلُ﴾ مضارعاً. فبعض ثقل، وبعض خفف. وقرأ الحسن بالوجهين. وقرأ زيد بن علي، والأعمش ﴿أنزل﴾ ماضياً. ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ محمد ﷺ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات من الأمر والنهي، والحلال، والحرام وهي الآيات القرآنية. وقيل: المعجزات، والقرآن أعظمها. ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ الله سبحانه أيها المؤمنون بتلك الآيات ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي[2]: من ظلمات الكفر، والشرك، والشك، والجهل، والمخالفة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: إلى نور الإيمان، والتوحيد، واليقين، والعلم، والموافقة. أو ليخرجكم عبده محمد ﷺ بتلك الآيات أو بالدعوة. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لكثير الرأفة والرحمة بليغهما، حيث هداكم إلى سعادة الدارين بإنزال كتبه، وإرسال رسله لهداية عباده بعد نصب الحجج العقلية، فلا رأفة، ولا رحمة أبلغ من هذا. والرأفة: أشد الرحمة.

والمعنى: أي هو الذي ينزل على رسوله دلائل واضحات، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن الضلالة إلى الهدى، ولرأفته بكم، ورحمته لكم مكن لكم من النظر في الأنفس، والآفاق لتهتدوا إلى معرفته على أتم وجه، وأهون سبيل.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وبعد أن وبخهم على ترك الإيمان، وبخهم على ترك الإنفاق، وأبان أنه لا معذرة لهم في ذلك. فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ ﴿ما﴾ مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾ خبره. والاستفهام للتقريع والتوبيخ؛ أي: وأي عذر لكم في ﴿أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟. وأي شيء يمنعكم من أن تنفقوا فيما هو قربة إلى الله ما هو له في الحقيقة، وإنما أنتم خلفاؤه في صرفه إلى ما عينه من المصارف. فقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مستعار لما يكون قربة إليه، وقال بعضهم: معناه: لأجل الله، والأصل في «أن لا تنفقوا» كما أشرنا إليه في الحل.

وقيل[1]: إنَّ ﴿أن﴾ زائدة. وجملة قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿أَلَّا تُنفِقُوا﴾ أو من مفعوله المحذوف. والمعنى: وأي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، والحال أنه لا يبقى لكم منها شيء، بل تبقى كلها لله بعد فناء الخلق. وإذا كان كذلك.. فإنفاقها بحيث تستخلف عوضاً يبقى، وهو الثواب كان أولى من الإمساك؛ لأنها إذاً تخرج من أيديكم مجاناً بلا عوض، ولا فائدة. قال الراغب: وصف الله نفسه بأنه الوارث من حيث إن الأشياء كلها صائرة إليه؛ وقال أبو الليث: إنما ذكر لفظ الميراث؛ لأن العرب تعرف أن ما ترك الإنسان يكون ميراثاً، فخاطبهم بما يعرفون فيما بينهم.

والخلاصة[2]: أنفقوا أموالكم في سبيل الله قبل أن تموتوا؛ ليكون ذلك ذخراً لكم عند ربكم. فبعد الموت لا تقدرون على ذلك. إذ تصير الأموال ميراثاً لمن له السماوات والأرض.

ثم بين سبحانه تفاوت درجات المنفقين بحسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق. فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم﴾ يا معشر المؤمنين. روي أن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنفقوا نفقات كثيرة حتى قال ناس: هؤلاء أعظم أجراً من كل من أنفق قديماً، فنزلت الآية مبينة أن النفقة قبل فتح مكة أعظم أجراً؛ أي: لا يستوي منكم معشر المؤمنين ﴿مَّنْ﴾ آمن، وهاجر، و﴿أَنفَقَ﴾ ماله في سبيل الله ﴿مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾؛ أي: قبل فتح مكة الذي أزال الهجرة ﴿وَقَاتَلَ﴾ لإعلاء كلمة الله؛ أي: لا يستوي هو ومن

---

(1) الشوكاني.
(2) المراغي.

أنفق بعد الفتح، وقاتل العدو تحت لواء رسول الله ﷺ. والاستواء[1] يقتضي شيئين. فقسيم ﴿من آمن﴾ محذوف لوضوحه، ودلالة ما بعده عليه؛ أي: لا يستوي في الفضل والثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن أنفق من بعده وقاتل. وقرأ الجمهور ﴿مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾. وقرأ زيد بن علي ﴿قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ بغير من.

وإنما كانت النفقة، والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعد الفتح؛ لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر، وهم أقل وأضعف، ولم يؤمن إذ ذاك إلا الصديقون. أما بعد الفتح فقد انتشر الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وتقديم الإنفاق على القتال للإيذان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة، فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم، ولا يجدون ما يجودون به من الأموال، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى ﴿من﴾ باعتبار معناها، وهو مبتدأ، وخبره ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾؛ أي: أرفع منزلة عند الله، وأعلى رتبة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ﴾ أموالهم في سبيل الله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾؛ أي: من بعد فتح مكة. ﴿وَقَٰتَلُواْۚ﴾ مع رسول الله ﷺ. قال الزجاج: لأن المتقدمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ.

وقال الشعبي، والزهري: فتح الحديبية. قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك.

والمعنى[2]: أي أولئك المنفقون المقاتلون قبل الفتح، وهم السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار أعظم درجة، وأرفع منزلة عند الله، وبعظم الدرجة يكون عظم صاحبها. فالدرجة بمعنى المرتبة والطبقة، وجمعها درجات، كما سيأتي. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾؛ لأنهم إنما فعلوا من الإنفاق، والقتال قبل عزة الإسلام، وقوّة أهله عند كمال الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال، وهؤلاء فعلوا ما فعلوا بعد ظهور الدين، ودخول الناس فيه أفواجاً، وقلة الحاجة إلى الإنفاق

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

والقتال. وقد صرح ﷺ بفضل الأوّلين بقوله: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

﴿وَكُلًّا﴾؛ أي: كل واحد من الفريقين. وهو مفعول أول لقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: المثوبة الحسنى. وهي الجنة. لا الأوّلين فقط، ولكن الدرجات متفاوتة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها العباد ﴿خَبِيرٌ﴾ بظواهره وبواطنه، ويجازيكم بحسبه.

قال في «المناسبات»: لما كان زكاة الأعمال إنما هو بالنيات، وكان التفضيل مناط العلم قال مرغّباً في حسن النيات، مرهّباً من التقصير فيها: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: تجددون عمله على ممر الأوقات ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بباطنه وظاهره علماً لا مزيد عليه بوجه. فهو يجعل جزاء الأعمال على قدر النيّات التي هي أرواح صورها. وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَكُلًّا﴾ بالنصب، وقرأ ابن عامر، وعبد الوارث بالرفع على أنه مبتدأ.

والمعنى[2]: أي وكل من المنفقين قبل الفتح وبعده لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في مقدار الجزاء، كما قال في آية أخرى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ الآية. ثم وعدوا وأوعد. فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: والله عليم بظواهر أحوالكم وبواطنها فيجازيكم بذلك، ولخبرته تعالى بكم فضل أعمال من أنفق من قبل الفتح وقاتل، على من أنفق بعده وقاتل، وما ذاك إلا لعلمه بإخلاص الأول في إنفاقه في حال الجهد والضيق. ولأبي بكر الصديق رضي الله عنه الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها، إذ أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله تعالى، ولم يكن لأحد عنده من نعمة يجزيه بها.

ثم ندب إلى الإنفاق في سبيله، ووبخ على تركه. فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ من[3] مبتدأ، خبره ﴿ذَا﴾، و﴿ٱلَّذِى﴾ صفة ﴿ذَا﴾، أو بدله.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

والإقراض حقيقة: إعطاء العين على وجه يطلب بدله. و﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مفعول مطلق له بمعنى إقراضاً حسناً. وهو الإخلاص في الإنفاق؛ أي؛ الإعطاء لله، وتحري أكرم المال، وأفضل الجهات.

والمعنى: من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله رجاء أن يعوضه. فإنه كمن يقرضه. وقال في «كشف الأسرار»: كل من قدم عملاً صالحاً يستحق به مثوبة، فقد أقرض، ومنه قولهم: الأيادي قروض، وكذلك كل من قدم عملاً سيئاً يستوجب به عقوبة فقد أقرض، فلذلك قال تعالى: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾. لأنّ المعصية قرض سيء. قال أمية:

لاَ تَخْلُطَنَّ خَبِيثَاتٍ بِطَيِّبَةٍ وَٱخْلَعْ ثِيَابَكَ مِنْهَا وَٱنْجُ عُرْيَانَا
كُلُّ ٱمْرِىءٍ سَوْفَ يُجْزَىٰ قَرْضَه حَسَناً أَوْ سَيِّئاً وَيُدَانُ مِثْلَ مَا دَانَا

وقيل: المراد بالقرض: الصدقة، انتهى. وههنا وجه آخر، وهو أن القرض في الأصل: القطع من قرض الثوب بالمقراض إذا قطعه به، ثم سمي به ما يقطعه الرجل من أمواله، فيعطيه عيناً بشرط رد بدله، فعلى هذا يكون ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مفعولاً به.

والمعنى: من ذا الذي يقرض الله مالاً حسناً؛ أي: حلالاً طيباً. فإنه تعالى لا يقبل إلا الحلال الطيب.

فائدة: قال بعض العلماء: لا يكون القرض حسناً حتى يجمع أوصافاً عشرة: وهو أن يكون المال من الحلال؛ وأن يكون من أجود المال، وأن تتصدق به وأنت محتاج إليه، وأنت تصرف صدقتك إلى الأحوج إليها، وأن تكتم الصدقة ما أمكنك، وأن لا تتبعها بالمن والأذى، وأن تقصد بها وجه الله تعالى ولا ترائي بها الناس، وأن تستحقر ما تعطي وإن كان كثيراً، وأن يكون من أحب أموالك إليك، وأن لا ترى عز نفسك وذل الفقير. فهذه عشرة خصال، إذا اجتمعت في الصدقة كانت قرضاً حسناً، انتهى ذكره في «الفتوحات» نقلاً عن القرطبي. وقيل: القرض الحسن هو الخالص عن شوائب الرياء. أما القرض الذي يدفع إلى الإنسان من المال بشرط بدله فهو سنة مؤكدة. قد يجب للمضطر، ويحرم على من يستعين به على معصية.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار المعنى. كأنّه قيل:

أيقرض الله أحد فيضاعفه له؛ أي: فيعطيه أجره أضعافاً من فضله، وإنّما قلنا: باعتبار المعنى؛ لأنَّ ﴿الفاء﴾ إنما تنصب فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه كما قال أبو علي الفارسي. وههنا السؤال لم يقع عن القرض، بل عن فاعله. ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم حسن طيب مرضي في نفسه، حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون، وإن لم يضاعف فكيف وقد ضوعف أضعافاً كثيرة.

والمعنى[1]: أي من هذا الذي ينفق أمواله في سبيل الله محتسباً أجره عند ربه بلا من ولا أذى، فيضاعف له ذلك القرض، فيجعل له بالحسنة الواحدة سبع مئة، وله بعد ذلك جزاء كريم بمثبوته بالجنة، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا. . .﴾ الآية، قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض، قال: «نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله قال: فناوله يده قال: إني أقرضت ربي حائطي - بستاني - وكان له حائط فيه ست مئة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها. قال أبو الدحداح: فناديتها يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال أخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل، قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح. ونقلت منها متاعها وصبيانها. فقال رسول الله ﷺ: «كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح».

وهذا الأسلوب يستعمل في الأمر العزيز النادر، فيقال: من ذا الذي يفعل كذا إذا كان أمراً عظيماً. وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾.

وقرأ ابن عامر، وابن كثير[2]: ﴿فيُضعِّفه﴾ بإسقاط الألف مع التضعيف، إلا ابن عامر، ويعقوب نصبوا الفاء. وقرأ نافع، وأهل الكوفة والبصرة ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ بالألف وتخفيف العين، إلا أن عاصماً نصب ﴿الفاء﴾ ورفع الباقون. قال ابن عطية: الرفع على العطف على ﴿يُقۡرِضُ﴾ أو الاستئناف، والنصب لكون ﴿الفاء﴾ في جواب الاستفهام. وضَعَّف النصب أبو علي الفارسي، قال: لأن السؤال لم يقع عن القرض، وإنما وقع عن فاعل القرض، وإنما تنصب ﴿الفاء﴾ فعلاً مردوداً على فعل

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

مستفهم عنه، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى: كأن قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ بمنزلة قوله: أيقرض الله أحد، كما مرّ آنفاً. قال أبو حيان[١]: وهذا الذي ذهب إليه أبو علي الفارسي ليس بصيحح، بل يجوز النصب إذا كان الاستفهام بأدواته الاسمية نحو: من يدعوني فاستجيبَ له، وأين بيتك فأزورَك، ومتى تسير فأرافقَك، وكيف تكون فأصحبَك. فالاستفهام هنا واقع عن ذات الداعي، وعن ظرف المكان وظرف الزمان، والحال، لا عن الفعل، وحكى ابن كيسان عن العرب: أين ذهب زيد فنتبعه، وكذلك كم مالك فنعرفه، ومن أبوك فنكرمه بالنصب بعد الفاء. وقراءة ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ بالنصب قراءة متواترة. وإذا جاز النصب في نحو هذا فجوازه في المثل السابقة أحرى، مع أن سماع ابن كيسان ذلك محكيًا عن العرب يؤيد ذلك، انتهى.

والظرف في قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ منصوب بإضمار اذكر تفخيماً لذلك اليوم، أو بـ ﴿كَرِيمٌ﴾ أو بـ ﴿يضاعفه﴾ أو بالعامل في ﴿لَهُمْ﴾. وهو الاستقرار. والخطاب لكل من يصلح. وقوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ في محل نصب على الحال من مفعول ﴿تَرَى﴾. والنور: هو الضياء الذي يرى. والسعي: هو المشي السريع؛ أي: واذكر أيها المخاطب وقت رؤية المؤمنين والمؤمنات على الصراط، وهو يوم القيامة حال كونهم يسعى نور إيمانهم وطاعتهم ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ جمع يمين بمعنى الجارحة. والمراد هنا: جهة اليمين. و﴿بَيْنَ﴾ ظرف للسعي. قال أبو الليث: يكون النور بين أيديهم، وبأيمانهم، وعن شمائلهم إلا أن ذكر الشمال مضمر.

قال في «فتح الرحمن»: وخص بين الأيدي بالذكر؛ لأنه موضع حاجة الإنسان إلى النور، وخص ذكر جهة اليمين تشريفاً، وناب ذلك مناب أن يقول: وفي جميع جهاته. وفي «كشف الأسرار»: لأن طريق الجنة يمنةٌ، وتجاههم، وطريق أهل النار يسرة ذات شمال، وفي الحديث: «بينا أنا على حوضي أنادي هلم إذا أناس أخذتهم الشمال، فاختلجوا دوني، فأنادي ألا هلم فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً».

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿ٱلنُّورُ﴾ أصله يكون بأيمانهم، والذي بين أيديهم هو

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

الضوء المنبسط من ذلك النور. وقيل: الباء بمعنى عن؛ أي: عن أيمانهم. وقال الزمخشري: وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأنّ السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم، ووراء ظهورهم. وقرأ الجهور ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ بفتح الهمزة، جمع يمين. وقرأ سهل بن سعد الساعدي، وأبو حيوة ﴿بإيمانهم﴾ بكسرها وعطف هذا المصدر على الظرف؛ لأنَّ الظرف متعلق بمحذوف؛ أي: كائناً بين أيديهم، وكائناً بسبب إيمانهم. والمراد بالإيمان: ضد الكفر. وقيل: هو القرآن.

وتقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم: ﴿بُشْرَىٰكُمُ﴾؛ أي: ما تبشرون به اليوم. وعبارة الخطيب هنا؛ أي: بشارتكم العظيمة في جيمع ما يستقبلكم من الزمان. ﴿جَنَّٰتٌ﴾؛ أي: بساتين أو بشراكم دخول جنات، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب. ﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها، وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة المعروفة في الجنة: اللبن، والماء، والخمر، والعسل. حال كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنات. ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من النور والبشرى بالجنات المخلدة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا يقادر قدره، حتى كأنه لا فوز غيره، ولا اعتداد بما سواه لكونهم ظفروا كل ما أرادوا.

ومعنى الآية(١): أي لهم الأجر الكريم حين ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى بين أيديهم ما يكون السبب في نجاتهم، وهدايتهم إلى سبيل الجنة من العلوم التي كملوا بها أنفسهم في الدنيا: كالاعتقاد، بالتوحيد، وخلع الأنداد والأوثان، والقبور، والأعمال الصالحة التي زكوا بها أنفسهم، وبها أخبتوا لربهم، وأنابوا إليه مخلصين له الدين، وبأيمانهم تكون كتبهم. كما جاء في آية أخرى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾. وتقول لهم الملائكة: أبشروا بجنات تجري من تحتها الأنهار جزاء وفاقاً لما قدمتم من صالح الأعمال، وجاهدتم به أنفسكم في ترك الشرك والآثام، وكنتم تذكرون الله بالليل والناس نيام، فطوبى لكم وهنيئاً بما عملتم. ونحو الآية قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ

---

(١) المراغي.

عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾. ذلك الخلود في الجنات التي سمعتم أوصافها هو النجح العظيم الذي كنتم تطلبونه بعد النجاة من عقاب الله.

وبعد أن ذكر حال المؤمنين في موقف القيامة أتبعه ببيان حال المنافقين. فقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾؛ أي: اذكر يا محمد لقومك أو اذكر أيها المخاطب أهوال يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: أخلصوا الإيمان بكل ما يجب الإيمان به: ﴿ٱنظُرُونَا﴾؛ أي: انتظرونا. يقولون ذلك لما رأوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تزف بهم، وهؤلاء مشاة أو انظروا إلينا. فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، فيستضيئون بالنور الذي بين أيديهم. فانظرونا على هذا الوجه من باب الحذف والإيصال؛ لأن النظر بمعنى الإبصار لا يتعدى بنفسه، وإنما يتعدى بإلى. وهذان المعنيان على قراءة الجمهور. فإنهم قرأوا ﴿ٱنظُرُونَا﴾ أمراً بوصل[1] الهمزة وضم الظاء، من نظر الثلاثي. وقرأ زيد بن علي، وابن وثاب، والأعمش، وطلحة، وحمزة ﴿أنظرونا﴾ بقطع الهمزة وكسر الظاء، من أنظر الرباعي؛ أي: أنظرونا وأخرونا. لأن الإنظار: الإمهال على أن تأنّيهم في المضي ليلحقوا بهم إنظار لهم وإمهال؛ أي: تأخروا لأجلنا، ولا تسرعوا في مضيكم ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾؛ أي: نستضيء منه، ونمش فيه معكم. وأصله: اتخاذ القبس. وهو محركة شعلة نار تقتبس من معظم النار كالمقباس، كما سيأتي. وقيل: ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾؛ أي: نأخذ من نوركم قبساً سراجاً وشعلة.

﴿قِيلَ﴾ طرداً لهم، وتهكّماً بهم من جهة المؤمنين، أو من جهة الملائكة ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾؛ أي: إلى الموقف ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾؛ أي: فاطلبوا نوراً. فإنه من ثمة يقتبس، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل مباديه من الإيمان والأعمال الصالحة.

والمعنى[2]: قال لهم المؤمنون أو الملائكة زجراً لهم، وتهكماً بهم: ارجعوا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

ورائكم إلى الموضع الذي أخذنا منه النور. فالتمسوا واطلبوا هنالك نوراً لأنفسكم. فإنه من هنالك يقتبس. وقيل: المعنى: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بما التمسناه من الإيمان والأعمال الصالحة. وقيل: أرادوا بالنور: ما ورائهم من الظلمة تهكماً بهم.

وعن أبي أمامة الباهليّ رضي الله عنه: أنه قال: بينا العباد يوم القيامة عند الصراط إذ غشيهم ظلمة، يقسم الله النور بين عباده، فيعي الله المؤمن نوراً، ويبقي المنافق والكافر لا يعطيان نوراً. فكما لا يستضيء الأعمى بنور البصير لا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن. فيقولون: انظرونا نقتبس من نوركم. فيقولون لهم: ارجعوا حيث قسم النور، فيرجعون فلا يجدون شيئاً، فيرجعون وقد ضرب بينهم بسور، أو ارجعوا خائبين خاسئين، وتنحوا عنا فالتمسوا نوراً آخر، وقد علموا أن لا نور ورائهم، وإنما قالوه تخييباً لهم أو أرادوا بالنور ما ورائهم من الظلمة الكثيفة تهكماً بهم.

وحاصل معنى الآية: في ذلك اليوم يقول[1] المنافقون والمنافقات: أيها الذين نجوتم بإيمانكم بربكم، وفزتم برضوانه حتى دخلتم فسيح جناته، انتظرونا نلحق بكم، ونقتبس من نوركم حتى نخرج من ذلك الظلام الدامس، والعذاب الأليم الذي نحن مقبلون عليه، فيجابون بما يخيب آمالهم، ويلحق بهم الحسرة والندامة، كما قال: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾؛ أي: ارجعوا من حيث أتيتم واطلبوا لأنفسكم هناك نوراً. فإنه لا سبيل إلى الاقتباس من نورنا الذي كان بما قدمنا لأنفسنا، وادخرنا لها من عمل صالح. فهيهات هيهات أن تنالوا نوراً، إذ لا ينفع المرء حينئذٍ إلا عمله. ولله درّ القائل:

صَاحِ هَلْ رَأَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعِ   رَدَّ فِيْ ٱلضَّرْعِ مَا قَرَىٰ فِيْ ٱلْحِلَابِ

ولا يخفي ما في هذا من التهكم بهم والاستهزاء بطلبهم كما استهزؤوا بالمؤمنين في الدنيا حين قالوا: آمنا، وما هم بمؤمنين. وذلك ما عناه سبحانه بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾؛ أي: حين يقال لهم: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾.

---

(١) المراغي.

ثم ذكر ما يكون بعد هذه المقالة، فقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾؛ أي[1]: بني بين الفريقين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ الباء زائدة أي: حائط بين الجنة والنار كما قاله قتادة، أو حجاب كما في سورة الأعراف كما قاله مجاهد، وقال: من قال: ارجعوا إلى الدنيا المراد بضرب السور امتناع العود إلى الدنيا؛ أي: ضربته الملائكة بينهم بأمر إلٰهي.

ولما[2] كان البناء مما يحتاج إلى ضرب باليد ونحوها من الآلات عبر عنه بالضرب، ومثله: ضرب الخيمة كضرب أوتادها بالمطرقة. ﴿بِسُورٍ﴾؛ أي: حائط بين شق الجنة وشق النار؛ فإن سور المدينة حائطها المشتمل عليها لحفظها، وقال بعضهم: هو سور بين أهل الجنة والنار، يقف عليه أصحاب الأعراف يشرفون على أهل الجنة وأهل النار، وهو السور الذي يذبح عليه الموت، يراه الفريقان معاً.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿فَضُرِبَ﴾ مبنياً للمفعول. وقرأ زيد بن عليّ، وعبيد بن عمير مبنياً للفاعل؛ أي: ضرب الله سبحانه وتعالى. ويبعد قول من قال: إن هذا السور هو الجدار الشرقي من مسجد بيت المقدس، وهو مروي عن عبادة بن الصامت، وابن عباس، وعبد الله بن عمر، وكعب الأحبار. ولعله لا يصح عنهم.

ثم وصف سبحانه السور المذكور، فقال: ﴿لَّهُۥ﴾؛ أي: لذلك السور ﴿بَابُۢ﴾ يدخل فيه المؤمنون. فيكون السور بينهم باعتبار ثاني الحال أعني: بعد الدخول لا حين الضرب. ﴿بَاطِنُهُۥ﴾؛ أي: باطن ذلك السور، أو باطن الباب ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ لأنّه يلي الجنة ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ﴾؛ أي: من جهته، وعنده ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ لأنه يلي النار؛ أي: من جهته عذاب جهنم. وقيل: إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة، والمنافقون يحصلون في العذاب، وبينهم السور. وقيل: إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين.

والمعنى: أي فضرب بين الفريقين حاجز جانبه الذي يلي مكان المؤمنين وهو الجنة، فيه الرحمة وجانبه الذي يلي المنافقين وهو النار فيه العذاب.

ولما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانه عما قاله

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

المنافقون إذ ذاك فقال: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ استئناف واقع في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا يفعلون بعد ضرب السور، ومشاهدة العذاب؟ فقيل: ينادي المنافقون المؤمنين من وراء السور ﴿أَلَمْ نَكُن﴾ في الدنيا ﴿مَعَكُمْ﴾ يريدون به موافقتهم لهم في الأمور الظاهرة: كالصلاة، والصوم، والمناكحة، والموارثة، ونحوها.

ثم أخبر سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال المؤمنون: ﴿بَلَىٰ﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ أيها المافقون ﴿فَتَنتُمْ﴾ وابتليتم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ ومحنتموها بالنفاق، وأهلكتموها. وإضافة[1] الفتنة إلى النفس إضافة الميل والشهوة، وإلى الشيطان في قوله: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ إضافة الوسوسة، وإلى الله تعالى في قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ إضافة الخلق. لأنه خلق الضلال فيه ليفتتن. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر. والتربص: الانتظار. وقال مقاتل: وتربصتم بمحمد ﷺ الموت، وقلتم: يوشك أن يموت فنستريح منه. وهو وصف قبيح؛ لأن انتظار موت وسائل الخير، ووسائط الحق من عظيم الجرم والقباحة. إذ شأنهم أن يرجى طول حياتهم ليستفاد منهم، ويغتنم بمجالستهم. ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككتم في أمر الدين أو في النبوة، أو في هذا اليوم، ولم تصدقوا ما نزل من القرآن، ولا بالمعجزات الظاهرة. ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ الفارغة الباطلة التي من جملتها: الطمع في انتكاس أمر الإسلام. جمع أمنية كأضحية. وفي «عين المعاني»: وغرتكم خدع الشيطان. وقال أبو الليث: أباطيل الدنيا. ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾؛ أي: الموت. وقيل: نصره سبحانه لنبيه ﷺ. وقال قتادة: هو إلقاؤهم في النار. ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ﴾ الكريم ﴿الْغَرُورُ﴾؛ أي: الشيطان؛ أي: غركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم. قال قتادة: ما زالوا على خدعة من الشيطان، حتى قذفهم الله تعالى في النار. قال الزجاج: الغرور على وزن فعول. وهو من أسماء المبالغة، يقال: فلان أكول كثير الأكل، وكذا الشيطان الغرور. لأنه يغر ابن آدم كثيراً. قال في «المفردات»: الغرور: كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسر بالشيطان؛ إذ هو أخبث الغارين بالدنيا لما قيل: الدنيا تغر، وتضر، وتمر.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿الْغَرُورُ﴾ بفتح الغين، وهو صفة على فعول، والمراد به:

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

الشيطان؛ أي: خدعكم بحلم الله وإمهاله الشيطان. وقرأ أبو حيوة، ومحمد بن السميفع، وسماك بن حرب بضمها، وهو مصدر.

ومعنى الآية[1]: أي يناد‌ي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في دار الدنيا نصلي معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ فيجيبهم المؤمنون قائلين لهم: بلى كنتم معنا ولكنكم أهلكتم أنفسكم باللذات والمعاصي، وأخرتم التوبة، وشككتم في أمر البعث بعد الموت، وغرتكم الأماني فقلتم: سيغفر لنا، وما زلتم كذلك حتى حضركم الموت، وغركم الشيطان فقال لكم: إن الله عفو كريم لا يعذبكم.

والخلاصة: أنكم كنتم معنا بأبدانكم لا بقلوبكم، وكنتم في حيرة من أمركم فلا تذكرون الله إلا قليلاً.

ثم أيأسوهم من عاقبة أمرهم، وأنهم هالكون لا محالة، ولا سبيل إلى الخلاص من النار. فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: ففي هذا اليوم الحاضر. وهو يوم القيامة ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾؛ أي: فداء تدفعون به العذاب عن أنفسكم. والفداء: حفظ الإنسان نفسه من النائبة بما يبذله من مال أو نفس؛ أي: لا يؤخذ منكم دية، ولا نفس أخرى مكان أنفسكم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ بالياء. وقرأ أبو جعفر، والحسن، وابن أبي إسحاق، والأعرج، وابن عامر، وهارون عن أبي عمرو ﴿تُؤخَذ﴾ بالتاء لتأنيث الفدية. ﴿وَلَا﴾ تؤخذ فدية أيضا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ظاهراً وباطناً. وفيه[3] دلالة على أن الناس ثلاثة أقسام: مؤمن ظاهراً وباطناً وهو المخلص، ومؤمن ظاهراً لا باطناً، وهو المنافق، وكافر ظاهراً وباطناً. ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾؛ أي: مرجعكم، ومقركم، ومنزلكم الذي تأوون إليه أيها المنافقون ومرجع الكفار أيضاً ﴿ٱلنَّارُ﴾؛ أي: نار جهنم لا ترجعون إلى غيرها أبداً. ﴿هِىَ﴾؛ أي: النار ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾؛ أي: والية أموركم تتصرف فيكم تصرف الموالي في عبيدهم لما أسلفتم من المعاصي. والمولى في الأصل: من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن يلازمه. وقيل: معنى ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾:

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

مكانكم عن قرب من الولي. وهو القرب. وقيل: إن الله يركب في النار الحياة والعقل فهي تتميز غيظاً على الكفار. وقيل: هي ناصركم على طريقة قول الشاعر:

تَـحِـيَّـةُ بـيـنـهـم ضـرب وجـيـع

فإن مقصوده نفي التحية فيما بينهم قطعاً؛ لأن الضرب الوجيع ليس بتحية، فيلزم أن لا تحية ألبتة، فكذا إذا قيل لأهل النار: هي ناصركم يراد به أن لا ناصر لكم ألبتة. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع الذي تصيرون إليه، وهو النار.

والمعنى[1]: أي فاليوم لو جاء أحدكم بملء الأرض ذهباً، ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه. فمصيركم إلى النار، وإليها متقلبكم ومثواكم، وهي أولى بكم من كل منزل آخر لكفركم وارتيابكم، وساءت مصيراً ومآلاً.

والخلاصة: أنّ لا مناص من النار، فلا فداء ولا فكاك منها.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ للتوبيخ والتقرير. ﴿يَأْنِ﴾ فعل مضارع مجزوم من[2] أنى الأمر يأني أنياً من باب رمى إذا جاء إناه أي: وقته، وحان حينه؛ أي: ألم يأت، ولم يجيء، ولم يقرب للذين آمنوا بالله ورسوله ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: ألم يأت وقت خشوع قلوبهم وخضوعها لذكره تعالى، ومواعظه، وطمأنينتها به، ومسارعتها إلى طاعته بالامتثال لأوامره، والانتهاء عما نهوا عنه من غير توان، ولا فتور. قال بعضهم: الذكر إن كان غير القرآن يكون المعنى: أن ترق، وتلين قلوبهم إذا ذكر الله، فإن ذكر الله سبب لخشوع القلوب أي سبب. فالذكر مضاف إلي مفعوله، واللام بمعنى الوقت، والمعنى: ألم يأت للذين آمنوا خشوع قلوبهم وقت ذكرهم إياه تعالى، وإن كان القرآن فهو مضاف إلى الفاعل، واللام للعلة.

والمعنى[3]: ألم يأت للذين آمنوا وقت خشوعهم لذكر الله تعالى، ومواعظة التي ذكرها في القرآن، ولآياته التي تتلى فيه. ﴿و﴾ أن تخشع لـ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: من القرآن. وهو معطوف على ﴿ذكر الله﴾ فإن كان هو المراد به أيضاً فالعطف

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

لتغاير العنوانين. فإنه ذكر وموعظة، كأنه حق نازل من السماء. وإلا فالعطف كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾. ومعنى الخشوع لما نزل: الانقياد التام لأوامره ونواهيه، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام التي من جملتها ما سبق، وما لحق من الإنفاق في سبيل الله.

قرأ الجمهور[1]: ﴿أَلَمْ﴾. وقرأ الحسن، وأبو السمّال ﴿ألمّا﴾. وقرأ الجمهور ﴿يأن﴾ مضارع أن إذا حان. وقرأ الحسن ﴿يئن﴾ بكسر الهمزة وسكون النون مضارع آن إذا حان أيضاً. وقرأ الجمهور، وأبو بكر عن عاصم ﴿وما نزّل﴾ بتشديد الزاي؛ أي: ولما نزله الله من القرآن. وقرأ نافع، وحفص مخففاً. والجحدري، وأبو جعفر، والأعمش، وأبو عمرو في رواية يونس، وعباس عنه مبنيًّا للمفعول مشدداً، وقرأ عبد الله ﴿أنزل﴾ بهمزة النقل مبنيًّا للفاعل.

وعبارة الشوكاني: والمعنى: أنه[2] ينبغي أن يورثهم الذكر خشوعاً ورقة، ولا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر، ولا يخشع له. ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ معطوف على ﴿ذكر الله﴾. والمراد بما نزل من الحق: القرآن. فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عداه مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان، أو خطور بالقلب. وقيل: المراد بالذكر: هو القرآن، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير أو بتغاير المفهومين، انتهى.

وقرأ الجمهور[3] قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ بالتحتانية على الغيبة جرياً على ما تقدم عطفاً على ﴿أَن تَخْشَعَ﴾. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة، وإسماعيل عن أبي جعفر، وعن شيبة، ويعقوب، وحمزة في رواية عن سليم عنه ﴿ولا تكونوا﴾ بالفوقانية على الخطاب التفاتاً، وبها قرأ عيسى، وابن إسحاق إما نهياً وإما عطفاً على ﴿أَن تَخْشَعَ﴾؛ أي: ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم ولا يكونوا كالذين... إلخ.

والمعنى: النهي لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

والإنجيل من قبل نزول القرآن. ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾؛ أي: طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم، أو الأعمار والآمال، وغلبهم الجفاء والقسوة، وزالت عنهم الروعة التي كانت تأتيهم من التوراة والإنجيل إذا تلوهما أو سمعوهما. وقرأ الجمهور[1] ﴿ٱلْأَمَدُ﴾ بتخفيف الدال. وهي الغاية من الزمان. وقرأ ابن كثير في رواية عنه بتشديدها. وهو الزمان بعينه الأطول. وقيل: المراد بالأمد عل القراءة الأولى: الأجل والغاية، يقال: أمد فلان كذا؛ أي: غايته. ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: تصلبت وغلظت بذلك السبب بحيث لا تنفعل للخير والطاعة، فهي كالحجارة أو أشد قسوة. فلذلك حرفوا وبدلوا. فنهى الله سبحانه أمة محمد ﷺ أن يكونوا مثلهم. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل الكتاب ﴿فَٰسِقُونَ﴾؛ أي: خارجون عن طاعة الله تعالى؛ لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم، وحرفوا، وبدلوا، ولم يؤمنوا بما نزل على محمد ﷺ لفرط الجفاء والقسوة. قيل: هم الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد ﷺ. وقيل: هم الذين ابتدعوا الرهبانية. وهم أصحاب الصوامع.

وفيه[2]: إشارة إلى أن عدم الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفسق في آخر الأمر، وروي عن عيسى عليه السلام قال: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسوا قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله تعالى، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان: مبتلى ومعافى. فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية.

ومعنى الآية[3]: أي أما آن للمؤمنين أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن والمواعظ، فتفهمه، وتنقاد له، وتطيع أوامره، وتنتهي عن نواهيه. وإذا كان المؤمنون قد أصابهم الوهن، ولم يمض على الإسلام أكثر من ثلاث عشرة سنة، كما قال ابن عباس: فما بالهم اليوم وقد مضى عليهم أكثر من ثلاثة عشر قرناً؟. فتعبير الآية عن حالهم الآن بالأولى. فالوهن الآن أضعاف مضاعفة عما كان في تلك الحقبة، ومن ثم أفرط الأفاريج في إذلالهم واستعبادهم، وصاروا غرباء في ديارهم، والأمر والنهي فيها لسواهم.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وَيُقْضَى ٱلأَمْرُ حِيْنَ تَغِيْبُ تَيْمٌ ... وَلاَ يُسْتَأْذَنُوْنَ وَهُمْ شُهُوْدُ

ثم حذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب قبلهم فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ الآية؛ أي: لا يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، حين طال الأمد بينهم وبين أنبيائهم، فقست قلوبهم، ولم تقبل موعظة، ولم يؤثر فيها وعد ولا وعيد، وبدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلدوا في دين دون دليل ولا برهان، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وكثير منهم خرج عن أوامر الدين في الأعمال والأقوال. كما قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فسدت قلوبهم فقست، وصار سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، فتركوا الأعمال التي أمروا بها، واجترحوا ما نهوا عنه.

والخلاصة: أن الله نهى المؤمنين أن يكونوا حين سماع القرآن غير متدبرين مواعظه كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم، لما طال العهد بينهم وبين أنبيائهم.

ثم ضرب المثل لتأثير المواعظ وتلاوة القرآن في القلوب. فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾؛ أي[1]: يلين القلوب بالخشوع الناشيء عن الذكر، وتلاوة القرآن بعد قساوتها كما يحيي الله سبحانه الأرض بالغيث بعد يبسها، وكذلك يحيي الله الموتى من القبور بالمطر. وهذا تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر، والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة. ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ وأوضحنا ﴿لَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على باهر قدرتنا، وبليغ حكمتنا التي من جملتها هذه الآيات. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لكي تعقلوا ما فيها، وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارين.

والمعنى[2]: أي إن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي النفوس

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها ببراهين القرآن ودلائله، وبالمواعظ والنصائح التي تلين الصخر الأصم، ويحييها بعد موتها كما يحيي الأرض الهامدة المجدبة بالغيث الوابل الهتان، وقد ضرب لكم الأمثال كي تتدبروا، وتكمل عقولكم. فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال. وهو الفعال لما يشاء، الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير المتعال.

الإعراب

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾.

﴿سَبَّحَ﴾ فعل ماض، مبني على الفتح، ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق به. وقيل: اللام زائدة في المفعول. وقد تقدم القول في هذا الفعل، وأنه يتعدّى تارة بنفسه، وتارة باللام. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع، فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ متعلق بمحذوف صلة الموصول، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾. ﴿وَهُوَ﴾ الواو: حالية أو استئنافية ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿الْعَزِيزُ﴾ خبر أول ﴿الْحَكِيمُ﴾ خبر ثان، والجملة الاسمية إما حال من لفظ الجلالة أو مستأنفة. ﴿لَهُ﴾ خبر مقدم، ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ معطوف على السموات. والجملة مستأنفة. ﴿يُحْيِي﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿وَيُمِيتُ﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير ﴿لَهُ﴾، أو مستأنفة، ﴿وَهُوَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿يُحْيِي﴾. ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة. ﴿وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ معطوفات على الأوّل. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾، و﴿عَلِيمٌ﴾ خبر المبتدأ. والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿الَّذِي﴾ خبر. والجملة مستأنفة. ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَالْأَرْضَ﴾ معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾،

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ متعلق به. والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾. ﴿يَعْلَمُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. والجملة مستأنفة أو حال من فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به، ﴿يَلِجُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَا﴾، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ ﴿يَلِجُ﴾. والجملة صلة الموصول. ﴿وَمَا يَخْرُجُ﴾ معطوف على ﴿مَا يَلِجُ﴾، ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَخْرُجُ﴾، ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿مَا﴾ معطوف على ﴿ما﴾ الأولى، وجملة ﴿يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ معطوف على ﴿ما﴾ الأولى.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾.

﴿وَهُوَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿هو﴾ مبتدأ، ﴿مَعَكُمْ﴾ ظرف كان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على ما قبلها أو مستأنفة. ﴿أَيْنَ مَا﴾ اسم شرط جازم في محل النصب على الظرفية المكانية مبنيٌ على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنويًا، والظرف متعلق بالجواب المحذوف، دل عليه ما قبله، تقديره: يكن معكم. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل تامّ، وفاعله في محل الجزم بـ ﴿أَيْنَ﴾ على كونه فعل شرط لها، وجملة الشرط مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ متعلق بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ و﴿بَصِيرٌ﴾ خبره. والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿لَّهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على السماوات، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تُرْجَعُ﴾. ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فعل، ونائب فاعل. والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿يُولِجُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿ٱلَّيْلَ﴾ مفعول به، ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾ متعلق بـ ﴿يُولِجُ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ معطوف على ما قبله، ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر المبتدأ. والجملة معطوفة أو مستأنفة. ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾.

﴿ءَامِنُوا﴾ فعل أمر، وفاعل. والجملة مستأنفة مسوقة للشروع في مخاطبة كفّار قريش، وأمرهم بالإيمان بعد أن ذكر أنواعاً من دلائل التوحيد. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿ءَامِنُوا﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ معطوف على الجلالة، ﴿وَأَنفِقُوا﴾ فعل أمر، وفاعل، معطوف على ﴿ءَامِنُوا﴾، ﴿مِمَّا﴾ متعلق بـ ﴿أنفقوا﴾، ﴿جَعَلَكُم﴾ فعل، وفاعل مستتر يعود على ﴿الله﴾، ومفعول أول، ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ مفعول ثان، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم الأمر المذكور، وأردتم بيان جزاء من فعل ذلك فأقول لكم. ﴿الذين﴾ مبتدأ، ﴿ءَامِنُوا﴾ صلته، ﴿وَأَنفِقُوا﴾ معطوف على ﴿ءَامِنُوا﴾، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿أَجْرٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿كَبِيرٌ﴾ صفة أجر. والجملة في محل الرفع خبر عن الموصول، وجملة الموصول في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية، ﴿ما﴾ اسم استفهام للإنكار والتوبيخ، في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾ خبره. والجملة مستأفنة. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ فعل، وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به. والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير ﴿لَكُمْ﴾. والمعنى: أيّ شيء ثبت لكم حال كونكم غير مؤمنين. ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾ الواو: حالية، ﴿الرسول﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ﴿الواو﴾ في ﴿تُؤْمِنُونَ﴾. ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ اللام: حرف جرّ وتعليل، ﴿تؤمنوا﴾ فعل، وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَدْعُوكُمْ﴾، واللام بمعنى إلىٰ؛ أي: يدعوكم إلى الإيمان. ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿تؤمنوا﴾. ﴿وَقَدْ﴾ الواو: حالية، ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿أَخَذَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على الرسول أو على الله، ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب على الحال من فاعل ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ على التداخل أو على الحال من ﴿رَبِّكُمْ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم، ﴿كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن كنتم مؤمنين فالآن

ظهرت أعلام اليقين، ووضحت الدلائل والبراهين. والجملة الشرطية مستأنفة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة. ﴿يُنَزِّلُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ متعلق بـ﴿يُنَزِّلُ﴾، ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾ مفعول به، ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ صفة ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ اللام: حرف جر وتعليل، ﴿يخرجكم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود على الله، ومفعول به، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ متعلق بـ﴿يخرج﴾، ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ متعلق بـ﴿يخرجكم﴾ أيضاً، وجملة ﴿يخرجكم﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإخراجه إيّاكم من الظلمات إلى النور، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُنَزِّلُ﴾. ﴿وَإِنَّ﴾ الواو: عاطفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿بِكُمْ﴾ متعلق بـ﴿رؤوف﴾، ﴿لَرَءُوفٌ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿رؤوف﴾ خبر أول. لأنّ ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثان لها. وجملة إنَّ معطوفة على جملة قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾ اسم استفهام إنكاري في محل الرفع، مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿لا﴾ نافية، ﴿تُنفِقُوا۟﴾ فعل، وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جرّ محذوف، تقديره: وأيّ شيء ثبت لكم في عدم إنفاقكم في سبيل الله، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿تُنفِقُوا۟﴾. ﴿وَلِلَّهِ﴾ خبر مقدم، ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل الاستقرار أو مفعوله؛ أي: وأيّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، والحال أن ميراث السموات والأرض له تعالى. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَسْتَوِى﴾ فعل مضارع، ﴿مِنكُم﴾ حال من ﴿مَّنْ﴾ الموصولة الواقعة فاعلاً، ﴿مَّنْ﴾ اسم موصول في محل الرفع، فاعل ﴿يَسْتَوِى﴾، ﴿أَنفَقَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر.

والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بـ ﴿أَنفَقَ﴾ ﴿وَقَٰتَلَ﴾ معطوف على ﴿أَنفَقَ﴾، ومقابله محذوف لدلالة الاستواء عليه؛ لأنّه لا يقال إلا في شيئين فأكثر؛ أي: لا يستوي منكم من أنفق، ومن لم ينفق، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿أَعْظَمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿دَرَجَةً﴾ تمييز من الذين متعلق بـ ﴿أَعْظَمُ﴾، وجملة ﴿أَنفَقُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿أَنفَقُواْ﴾، ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ معطوف على ﴿أَنفَقُواْ﴾، ﴿وَكُلًّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿كلا﴾ مفعول به أوّل مقدم لـ ﴿وَعَدَ﴾، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مفعول ثان لـ ﴿وَعَدَ﴾. والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿خَبِيرٌ﴾، و﴿خَبِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة الموصول، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. ﴿مَّن﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ذَا﴾ اسم إشارة خبره، ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة لاسم الإشارة أو بدل منه. والجملة مستأنفة، ويصح أن يكون ﴿مَّن ذَا﴾ اسم استفهام مركّباً في محل الرفع مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبره، ويصح أن تكون ﴿ذا﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ صفة، و﴿مَّن﴾ خبر المبتدأ مقدم عليه لما فيه من معنى الاستفهام. ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿قَرْضًا﴾ مفعول مطلق، ﴿حَسَنًا﴾ صفة ﴿قَرْضًا﴾. والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ الفاء: عاطفة سببية، ﴿يضاعفه﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿الفاء﴾ السببية الواقعة في جواب الاستفهام، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿يضاعف﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيّد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: من ذا الذي يكن إقراضه لله فمضاعفته له، وقرىء بالرفع على الاستئناف أو على العطف. ﴿وَلَهُۥٓ﴾ الواو: حالية ﴿له﴾ خبر مقدم، ﴿أَجْرٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة ﴿أَجْرٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ضمير ﴿لَهُۥ﴾.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق باذكر محذوفاً أو متعلق بـ ﴿يضاعفه﴾، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به. لأن رأى بصرية. ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. والجملة في محل الجر مضاف إليه ليوم. ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ فعل، وفاعل. والجملة في محل النصب، حال من ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿يَسْعَىٰ﴾، ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ معطوف على ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾. ﴿بُشْرَىٰكُمُ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف متعلق بالبشرى. لأنه مصدر بمعنى المبشر به. وقيل: متعلق بالقول المقدر، وفيه خفاء. ﴿جَنَّٰتٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول للقول المحذوف؛ أي: يقال لهم: بشراكم في هذا اليوم جنات الخ. أو يقال لهم في ذلك اليوم: بشراكم جنات الخ. ﴿تَجْرِى﴾ فعل مضارع، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ متعلق به، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل، والجملة صفة لـ ﴿جَنَّٰتٌ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير المخاطبين المقدر مع العامل فيها، والتقدير: بشراكم دخولكم جنات حالة كونكم خالدين فيها، فحذف الفاعل وهو ضمير المخاطبين، وأضيف المصدر إلى مفعوله، فصار دخول جنات، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب. ﴿فِيهَاۚ﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ثان، ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ خبره. والجملة خبر ﴿ذَٰلِكَ﴾، وجملة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مستأنفة. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.

﴿يَوْمَ﴾ ظرف بدل من ﴿يَوْمَ﴾ قبله. وقال ابن عطية: ويظهر لي أن العامل فيه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، كأنه يقول: إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا، وكذا. ورده أبو حيان. ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه. ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق بـ﴿يَقُولُ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿انظروا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل، و﴿نا﴾ ضمير متصل في محل النصب مفعول به. والجملة

الفعلية في محل النصب، مقول لـ ﴿يَقُولُ﴾. وإن شئت قلت: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ مقول محكيّ. ﴿نَقْتَبِسْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بالطلب السابق، ﴿مِن نُّورِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿نَقْتَبِسْ﴾، والجملة جزاء المقول، لا محل لها من الإعراب. ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ نائب فاعل محكيّ لـ ﴿قِيلَ﴾. وجملة ﴿قِيلَ﴾ مستأنفة. وإن شئت قلت: ﴿ارْجِعُوا﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو: فاعل، ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ ظرف متعلّق بـ ﴿ارْجِعُوا﴾. والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾. ﴿فَالْتَمِسُوا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿التمسوا﴾ فعل أمر، وفاعل، معطوف على ﴿ارْجِعُوا﴾، ﴿نُورًا﴾ مفعول به. ﴿فَضُرِبَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿ضرب﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ﴿بَيْنَهُم﴾ متعلق بـ ﴿ضرب﴾، ﴿بِسُورٍ﴾ جار ومجرور، في محل الرفع نائب فاعل، وقيل: الباء: زائدة، ﴿سور﴾ نائب فاعل. والجملة الفعلية معطوفة على ﴿قِيلَ﴾. ﴿لَّهُ﴾ خبر مقدم، ﴿بَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة صفة لـ ﴿سور﴾، ﴿بَاطِنُهُ﴾ مبتدأ، ﴿فِيهِ﴾ خبر مقدم، ﴿الرَّحْمَةُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر لـ ﴿بَاطِنُهُ﴾، وجملة ﴿بَاطِنُهُ﴾ صفة ثانية لـ ﴿سور﴾ أو صفة لـ ﴿بَابٌ﴾، ولعله أولى لقربه. ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ مبتدأ، ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ خبر مقدم، ﴿الْعَذَابُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿ظاهره﴾، وجملة ﴿ظاهره﴾ معطوفة على جملة ﴿بَاطِنُهُ﴾، ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة مستأنفة أو حال من الضمير في ﴿بَيْنَهُم﴾، ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، و﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿نَكُن﴾ فعل ناقص مجزوم بلم، واسمه ضمير يعود على المتكلمين، ﴿مَّعَكُمْ﴾ خبر ﴿نَكُن﴾. وجملة الاستفهام جملة مفسرة لجملة النداء، لا محل لها من الإعراب، أو منصوبة بقول مقدّر. ﴿قَالُوا﴾ فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب قائم مقام الجواب المحذوف، تقديره: كنتم معنا. وجملة الجواب جزء مقول.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)﴾.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ الواو: عاطفة، ﴿لكنكم﴾ ناصب واسمه، ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة الجواب المحذوف على كونها مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ فعل، وفاعل،

معطوف على ﴿فَتَنتُمْ﴾، ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿فَتَنتُمْ﴾ أيضاً، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ فعل، ومفعول به، وفاعل، معطوف على ﴿فَتَنتُمْ﴾ أيضاً. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية، ﴿جَآءَ﴾ فعل ماض في محل النصب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فاعل. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بحتى بمعنى إلى، تقديره: إلى مجيء أمر الله، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿غرتكم﴾. ﴿وَغَرَّكُم﴾ فعل، ومفعول، ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿غركم﴾، ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على ﴿غرتكم﴾. ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أحوالكم الدنيوية، وأردتم بيان مآلكم الأخروية فأقول لكم اليوم لا يؤخذ. و﴿اليوم﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿يُؤْخَذُ﴾. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يُؤْخَذُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ﴿مِنكُمْ﴾ متعلق به، ﴿فِدْيَةٌ﴾ نائب فاعل، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور، معطوف على ﴿مِنكُمْ﴾ وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلنَّارُ﴾ مبتدأ مؤخر، أو بالعكس. والجملة مستأنفة أو حال من ضمير ﴿مِنكُمْ﴾. ﴿هي﴾ مبتدأ، ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ خبر، والجملة في محل النصب حال من النار أو مستأنفة. ﴿وَبِئْسَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿بئس﴾ فعل ماض من أفعال الذمّ، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ فاعل، والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: النار. والجملة الفعلية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ﴾.

﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري التوبيخي، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿يَأْنِ﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه حذف حرف العلّة، ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلّق به، وجملة ﴿أمنوا﴾ صلة الموصول، ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ ناصب، وفعل منصوب، وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، والتقدير: ألم يأن للذين آمنوا خشوع قلوبهم. والجملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَخْشَعَ﴾، ﴿وَمَا﴾ معطوف على ﴿ذكر الله﴾، وجملة ﴿نَزَلَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ حال من فاعل ﴿نَزَلَ﴾، ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يَكُونُوا۟﴾ فعل

ناقص واسمه، معطوف على ﴿تَخْشَعَ﴾ ﴿كَالَّذِينَ﴾ خبر ﴿يَكُونُوا﴾، ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله، ومفعول ثان. والجملة صلة الموصول. ﴿مِن قَبْلُ﴾ تعلق بـ ﴿أُوتُوا﴾.

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَطَالَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿طال﴾ فعل ماض، ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق به، ﴿الْأَمَدُ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أُوتُوا﴾. ﴿فَقَسَتْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿قست﴾ فعل ماض، ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ فاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿طال﴾. ﴿وَكَثِيرٌ﴾ مبتدأ، ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة له. وهو المسوّغ للابتداء بالنكرة. ﴿فَاسِقُونَ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿اعْلَمُوا﴾ فعل أمر، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ متعلق به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسدّ مفعولي ﴿اعْلَمُوا﴾. ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿بَيَّنَّا﴾ فعل، وفاعل، ﴿لَكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿بَيَّنَّا﴾ ﴿الْآيَاتِ﴾ مفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ خبره. وجملة ﴿لعل﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ والتسبيح: تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولاً وفعلاً عما لا يليق بجنابه سبحانه وتعالى من صفات المحدثين: كإثبات شريك له أو ند، وكون الملائكة بنات له، وكون عيسى ابناً له، هذا في حق العقلاء، وأما تسبيح غيرهم فهو دلالة وجوده على عظم خالقه، وانقياده له في كل آنٍ.

﴿الْعَزِيزُ﴾ هو الذي لا ينازعه في ملكه شيء. ﴿الْحَكِيمُ﴾ هو الذي يفعل أفعاله وفق الحكمة والصواب. ﴿يُحْيِي﴾ النطف، فيجعلها أشخاصاً عقلاء فاهمين ناطقين. ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء. وأصله: يموت بوزن يفعل نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت إثر كسرة فقلبت ياء، ففيه إعلال بالنقل والتسكين.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾؛ أي: السابق على سائر الموجودات. ﴿وَالْآخِرُ﴾؛ أي: الباقي

بعد فنائها. ﴿وَٱلظَّاهِرُ﴾؛ أي: الذي ظهرت دلائل وجوده، وتكاثرت، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله، وظاهر بغلبته على مخلوقاته وتسخيرها لإرادته. ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾؛ أي: الذي خفي عنا كنه ذاته، فلم تره العيون، فهو باطن بذاته، ومشرق بجماله وكماله، وباطن بعلمه بما خفي من مخلوقاته، فلا تخفى عليه خافية.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أصله: أيوام بوزن أفعال، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت فيها الياء، فصار أيَّام بوزن أعال.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الولوج. وهو الدخول في مضيق، وفي «المناسبات»: الولوج: الدخول في الساتر لجملة الداخل، وفيه إعلال بالحذف، أصله: يولج بوزن يفعل، حذفت فاؤه في المضارع لوقوعها بين ياء مفتوحة وكسرة، وهي الواو. إذ ماضيه ولج، فهو مثال واويّ.

﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ قرىء مبنيًّا للمفعول من رجع رجعاً؛ أي: رد ردًّا وبالبناء للفاعل من رجع رجوعاً إذا صار إليه. ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾ من أولج الرباعي، والإيلاج: الإدخال. يستعمل في المحسوسات كإيلاج الحشفة في الفرج، وفي «المعنويات» كإيلاج الليل في النهار.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ والميثاق: العهد المؤكد باليمين. وأصله: موثاقكم، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة. ﴿مِيرَاثُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أصله: موراث، من الوراثة، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة، فصارت حرف مدٍّ.

﴿أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾؛ أي: أرفع منزلة عند الله تعالى، وبعظم الدرجة يكون عظم صاحبها. فالدرجة بمعنى المرتبة والطبقة، وجمعها درجات. وإذا كانت بمعنى المرقاة فجمعها درج.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ والإقراض حقيقته: إعطاء العين على أن يرد بدله من القرض. وهو في الأصل: القطع، من قرض الثوب بالمقراض إذا قطعه به، ثم سمي به ما يقطعه الرجل من أمواله فيعطيه عيناً بشرط رد بدله. فعلى هذا يكون ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مفعولاً به.

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أصله: يسعى بوزن يفعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت

ألفاً. ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ جمع يمين بمعنى الجهة، والمراد: جميع الجهات من إطلاق البعض وإرادة الكل.

﴿ٱنظُرُونَا﴾ أمر من النظر. والنظر: هو تقليب العين إلى الجهة التي فيها المرئي. والمراد: رؤيته. ومادة «نظرت» وما تصرف منه يستعمل على ضروب:

أحدها: أن تريد به نظرت إلى الشيء، فتحذف الجار، وتصل الفعل. ومن ذلك ما أنشده أبو الحسن:

ظَاهِرَاتُ ٱلْجَمَالِ وَٱلْحُسْنِ يَنْظُرْ نَ كَمَا يَنْظُرُ ٱلأَرَاكَ ٱلظِّبَاءُ

والمعنى: ينظرن إلى الأراك، فحذف الجار.

والثاني: أن تريد به: تأملت وتدبرت، وهو فعل غير متعد. فمن ذلك قولهم: اذهب فانظر زيد أبو من هو. فهذا يراد به: التأمل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، و﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾. وقد يتعدى هذا بالجار كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ فهذا حض على التأمّل. وقد يتعدى هذا بفي نحو قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

والثالث: أن تريد به: انتظرته. ومن ذلك قوله: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾.

والرابع: أن يكون نظرت بمعنى أنظرت، تريد بقولك: نظرت التنفيس الذين يطلب به الانتظار. فمن ذلك قول عمرو بن كلثوم:

أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ ٱلْيَقِينَا

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾. إنّما هو طلب الإمهال والتسويف.

﴿نَقۡتَبِسۡ﴾ وأصل الاقتباس: طلب القبس؛ أي: الجذوة من النار. والجذوة: شعلة نار تقتبس من معظم النار. قال بعضهم: النار والنور من أصل واحد. وهو الضوء المنتشر يعين على الإبصار. وكثيراً ما يتلازمان، لكن النار متاع للمقوين في الدنيا، والنور متاع لهم في الدنيا والآخرة. ولأجل ذلك استعمل في النور الاقتباس، وقيل: ﴿نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾؛ أي: نأخذ من نوركم قبساً وسراجاً وشعلة.

﴿بِسُورٍ﴾ والسور: الحاجز. ﴿مِّن قِبَلِهِ﴾ من جهته. ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: كنتم معنا. ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أهلكتموها بالمعاصي والشهوات. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ انتظرتم بالمؤمنين مصايب الزمان وحوادثه. ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: بوب، تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً يدل على ذلك تصغيره على بويب، وجمعه على أبواب.

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أصله: يناديونهم بوزن يفاعلون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت فسكنت فحذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الدال لمناسبة الواو.

﴿وَارْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككتم في أمر البعث، أصله: ارتيب بوزن افتعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، فصار ارتاب، ثم أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك فسكن آخره فالتقى ساكنان، فحذفت الألف.

﴿الْأَمَانِيُّ﴾ الأباطيل التي لا أصل لها من طول الآمال، الطمع في انتكاس الإسلام. جمع أمنية كأضحية وأضاحي، وأصل أمنية: أمنوية بضم الهمزة، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء، ثم كسرت النون لمناسبة الياء.

وقرأه أبو جعفر بتخفيف الياء ساكنة، فلم يعتد بحرف المد الموجود في المفرد الذي هو سبب التشديد عند الجمهور.

﴿الْغَرُورُ﴾ بالفتح: الشيطان. ﴿فِدْيَةٌ﴾ والفدية والفداء: ما يبذل لحفظ النفس أو المال من الهلاك. ﴿مَأْوَاكُمُ﴾؛ أي: منزلكم الذي تأوون إليه. وأصله: مأويكم بوزن مفعل بفتح العين، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أصله: موليكم بوزن مفعل بفتح العين، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بسكون الهمزة وكسر النون مضارع أنى من باب رمى، يقال: أنى الأمر يأني كرمى يرمي رمياً وأناءً وأني إذا جاء أناه؛ أي: وقته. فهو معتل حذفت منه الياء التي هي لامه للجازم، فوزنه يفع لحذف لامه.

وقرأ الحسن ﴿يَئِنْ﴾ بكسر الهمزة وسكون النون مضارع آن من باب باع، يقال: آن يئين مثل: باع يبيع، فجزم بسكون النون، ومعنى ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾؛ أي: ألم يقرب وقت خشوع قلوبهم، ويجيء وقته. ومنه: قول الشاعر:

أَلَمْ يَأْنِ لِيَ يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الجَهْلاَ   وَأَنْ يُحْدِثَ الشَّيْبُ المُنِيرُ لَنَا عَقْلا

﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أصله: أءتيوا، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت للتخفيف، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، وضمت التاء لمناسبة الواو، وأبدلت الهمزة الساكنة واواً حرف مد للأولى.

﴿فَطَالَ﴾ أصله: طول، من باب فعل المضموم، فقلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ففيه إعلال بالقلب. ﴿فَقَسَتْ﴾ أصله: قسو، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقائها مع تاء التأنيث الساكنة لما لحقت الفعل، فوزنه فعت. والقسوة: غلظ القلب، وعدم لينه لقبول الخير كما مر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، وبين ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ﴾ وبين ﴿الظاهر والباطن﴾.

ومنها: المقابلة بين ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، وبين ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

ومنها: رد العجز على الصدر في قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

ومنها: حذف مفعول ﴿أَنفِقُوا۟﴾ في قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ للمبالغة في الحث على الإنفاق، وعدم البخل بالمال. وحذف مفعول ﴿تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لما تقدم ولتشديد التوبيخ؛ أي: وأيّ شيء لكم في أن لا تنفقوا ما هو قربة لله تعالى.

ومنها: الاستعارة التصريحية في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأن السبيل حقيقة في الممر، فاستعير لكل خير يوصلهم إليه تعالى.

ومنها: حذف ثاني الاستوائين لأن الاستواء لا يتم إلا بعد شيئين، فلا بد من تقدير ثان، تقديره: لا يستوي منكم من أنفق من قبل فتح مكة، وقوّة الإسلام، ومن

أنفق من بعد الفتح. فحذف لوضوح الدلالة عليه، ويسمى هذا الحذف بالإيجاز.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: ليخرجكم من ظلمات الشرب إلى نور الإيمان. فاستعار لفظ الظلمات للكفر والضلالة، ولفظ النور للإيمان والهداية.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فقد شبه الإنفاق في سبيل الله بإقراضه، ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به، والجامع بينهما إعطاء شيء بعوض.

ومنها: حذف متعلق الظرف في قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أعني اذكر تفخيماً لشأن ذلك اليوم، كما في «الروح».

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ حيث استعار النور للهدى والرضوان الذي هم فيه، فحذف المشبه وأبقى المشبه به.

ومنها: تخصيص الإيمان بالذكر في قوله: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ ولم يذكر الشمائل مع أن المراد: جميع الجهات إظهاراً لشرفها على الشمائل.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ بعد قوله: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ حيث استعار الضرب للبناء لكون البناء مما يحتاج إلى ضرب باليد، ونحوها من الدلالات.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ أيضاً حيث شبه بقاء المنافقين في حندس نفاقهم وظلامه بمن ضرب بينهم، وبين النور الهادي سور يحجب كل نور.

ومنها: الطباق بين باطنه وظاهره وبين الرحمة والعذاب في قوله: ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

ومنها: حذف الجواب في قوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ إقامة لحرف الجواب مقامه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾؛ أي: لا ولي لكم ولا ناصر إلا نار جهنم. وهو تهكم بهم.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ حيث شبه تليين القلوب بالذكر والتلاوة بعد قساوتها ونبوها عن استماع الحق والعمل بأوامره بإحياء الأرض الميتة بالغيث من حيث اشتمال كل واحد منهما على بلوغ الشيء إلى كماله المتوقع بعد خلوه عنه، أو يكون استعارة تمثيلية لإحياء الأموات، بأن شبه إحياءها بإحياء الأرض الميتة، وأن من قدر على الثاني قادر على الأول. فحقه أن تخشع القلوب لذكره.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ
﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ
فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ
إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ
أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ
فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا
ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ
﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ
وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ
رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ
بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ
وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] وازن بين المؤمنين والمنافقين فيما مضى، وأبان ما يكون

(١) المراغي.

بينهما من فارق يوم القيامة.. ذكر هنا التفاوت بين حال المؤمنين وحال الكافرين.

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا بشر المؤمنين بأن نورهم يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وحثهم على بذل الجهد وترك الغفلة، وذكر ثواب المتصدقين والمتصدقات.. أردف ذلك بوصف حال الدنيا، وسرعة زوالها، وتقضيها، وضرب لذلك مثل الأرض ينزل عليها المطر، فتنبت الزرع البهيج الناضر الذي يعجب الزرّاع لنمائه وجودة غلته، وبينما هو على تلك الحال إذا به يصفر بعد النضرة والخضرة، ويجف ثم يتكسر ويتفتت، وما الحياة الدنيا إلا مزرعة للآخرة، فمن أجاد زرعه حصد وربح، ومن توانى وكسل ندم ولات حين مندم.

قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة فنعم المتاع، ونعم الوسيلة، ثم حث سبحانه على عمل ما يوصل إلى مغفرة الله ورضوانه، ويمهد إلى الدخول في جنات عرضها السموات والأرض، أعدها لمن آمن به وبرسله فضلاً منه ورحمة، وهو المنعم عظيم الفضل.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين[1] أن متاع هذه الدنيا زائل فان، وأن ما فيها من خير أو شر لا يدوم.. أردف ذلك بتهوين المصايب على المؤمنين، فذلك يكون مصدر سعادة نفوسهم واطمئنانها، وبدونه يكون شقاؤها وكآبتها. وآية ذلك أن لا يحزنوا على فائت، ولا يفرحوا بما يصل إليهم من لذاتها الفانية.

ثم بين أن المختالين الذين يبخلون بأموالهم على ذوي الحاجة والبائسين، ويأمرون بذلك، ويعرضون عن الإنفاق لا يبخلون إلا على أنفسهم، والله غني عنهم، وهو المحمود على نعمه التي لا تدخل تحت حد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات، وأنه أنزل الميزان

---

(١) المراغي.

والحديد، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرة رسله؛ أتبع ذلك ببيان ما أنعم به على أنبيائه من النعم الجسام، فذكر أنه شرف نوحاً وإبراهيم عليهما السلام بالرسالة، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتاب، فما جاء أحد بعدهما بالنبوة إلا كان من سلائلهما.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن من آمنوا من أهل الكتاب إيماناً صحيحاً لهم أجرهم عند ربهم. ذكر هنا من آمنوا منهم بعيسى أولاً، وبمحمد ﷺ ثانياً يؤتيهم أجرهم مرتين لإيمانهم بنبيهم، ثم بمحمد من بعده، ثم ذكر أن النبوة فضل من الله ورحمة منه، لا يخص به قوماً دون قوم، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، لا كما يقول اليهود: إن الوحي والرسالة فينا، لا تعدونا إلى سوانا، فنحن شعب الله المختار، ونحن أبناء الله وأحبّاؤه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه الطبراني في الأوسط بسند فيه من لا يعرف عن ابن عباس: أنّ أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبي ﷺ، فشهدوا معه أحداً، فكانت فيهم جراحات، ولم يقتل منهم أحد، فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا: يا رسول الله إنا أهل ميسرة، فأذن لنا نجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين، فأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾ الآيات، فلمّا نزلت قالوا: يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم. فأنزل الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: لما نزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ...﴾ الآية، فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: لنا أجران ولكم أجر، فاشتد ذلك على الصحابة، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ

---

(١) لباب النقول.

ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ...﴾ الآية. فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن جرير عن قتادة قال: بلغنا أنه لما نزلت: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾.. حسد أهل الكتاب المسلمين عليها، فأنزل الله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ....﴾ الآية.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: قالت اليهود: يوشك أن يخرج منا نبيٌّ فيقطع الأيدي، والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا. فأنزل الله سبحانه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآية. يعني بالفضل: النبوّة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ قرأ الجمهور[1] بتشديد الصاد والدال في الموضعين، من الصدقة، وأصله: المتصدقين والمتصدقات، فأدغمت التاء في الصاد، وقرأ أبي ﴿المتصدقين والمتصدقات﴾ بإثبات التاء على الأصل.

والمعنى على هاتين القراءتين: إن الذين آمنوا من الرجال والنساء، وتصدقوا صدقة واجبة أو تطوعاً.

وقرأ ابن كثير، وأبو بكر، والمفضل، وأبان، وأبو عمرو في رواية هارون بتخفيف الصاد وتشديد الدال من التصديق؛ أي: إن الذين صدقوا رسول الله ﷺ فيما جاء به عن الله، واللاتي صدقنه كذلك.

وقوله: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ معطوفة على اسم الفاعل في المصدقين؛ لأنه وقع صلة للألف واللام الموصولة، حل محل الفعل، فصح العطف عليه، نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾. والإقراض[2] الحسن عبارة عن التصدق من الطيب عن طيبة النفس، وخلوص النية على المستحق للصدقة.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

والمعنى على القراءتين الأوليين: إن الناس الذي تصدقوا، واللاتي تصدقن أي صدقة سواء كانت حسنة أم لا، والذين أقرضوا الله قرضاً حسناً واللاتي أقرضن كذلك، فاندفع ما يتوهم من التكرار؛ لأن الإقراض تصدق مقيد، وما قبله تصدق مطلق، وأما على القراءة الثالثة فلا إيهام، ولا إشكال.

وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ على البناء للمفعول، مسند إلى ما بعده من الجار والمجرور. وقيل: إلى مصدر ما في حيز الصلة على حذف مضاف؛ أي: يضاعف لهم ثواب التصدق والإقراض الحسن، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، والمضاعفة هنا أن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وقوله: ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: لأولئك المتصدقين والمقرضين ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: ثواب حسن في الجنة. والأجر الكريم: هو الذي يقترن به رضا وإقبال.

وهذا العطف أعني: عطف ﴿أقرضوا﴾ على صلة الألف واللام على مذهب أبي عليّ الفارسي، ومن وافقه كالزمخشري، قال أبو حيّان[1]: ولا يصح أن يكون معطوفاً على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾؛ لأن المعطوف على الصلة صلة، وقد فصل بينهما بمعطوف، وهو قوله: ﴿وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾. ولا يصح أيضاً أن يكون معطوفاً على صلة أل في ﴿المصدقات﴾ لاختلاف الضمائر. إذ ضمير المتصدقات مؤنث، وضمير ﴿وَأَقْرَضُوا﴾ مذكر. فالأولى أن يتخرج ما هنا على حذف الموصول لدلالة ما قبله عليه، فكأنّه قيل: والذين أقرضوا الله. فيكون مثل قوله:

فَمَنْ يَهْجُوْ رَسُوْلَ ٱللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

يريد: ومن يمدحه. وقيل: جملة ﴿وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ﴾ معترضة بين اسم ﴿إنّ﴾ وخبرها، وهو ﴿يُضَٰعَفُ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ بالبناء للمفعول. وقرأ الأعمش[2] ﴿يضاعفه لهم﴾ بكسر العين على صيغة المعلوم، وزيادة الهاء. والفاعل ضمير يعود على الله. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب ﴿يُضَعَّفُ لهم﴾ بتشديد العين وفتحها.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

والمعنى: أي[1] إنَّ المتصدقين والمتصدقات بأموالهم ابتغاء مرضات الله تعالى، لا يريدون جزاءاً ولا شكوراً، يضاعف لهم ربهم ثواب إنفاقهم فيقابل الحسنة بعشر أمثالها، ويضاعف ذلك إلى سبع مئة ضعف، ولهم ثواب جزيل ومرجع صالح.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ جميعاً. وهو مبتدأ أول. والإشارة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إلى الموصول، وهو مبتدأ ثان. ﴿هُمُ﴾ مبتدأ ثالث، خبره قوله: ﴿الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ﴾. وهو مع خبره خبر لأولئك، والجملة خبر للموصول؛ أي: أولئك ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بمنزلة الصدّيقين والشهداء، المشهورين بعلو المرتبة ورفعة المحل، وهم الذين سبقوا إلى التصديق، واستشهدوا في سبيل الله تعالى، فالكلام على التشبيه البليغ، والصديق[2] من أبنية المبالغة. قال الزجاج: ولا يكون فيما أحفظ إلا من ثلاثي. وقال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صديق. وقال المقاتلان: هم الذين لم يشكوا في الرسل حين أخبروهم، ولم يكذبوهم، وقال في «فتح الرحمن»: الصديق نعت لمن كثر منه الصدق، وهم ثمانية نفر من هذه الأمة، سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام: أبو بكر، وعلي، وزيد وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وحمزة. وتاسعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، ألحقه الله بهم، وإن تم به الأربعون لما عرف من صدق نيته.

وقيل: الشهداء على ثلاث درجات[3]:

الدرجة الأولى: الشهيد بين الصفين، وهو أكبرهم درجة.

والدرجة الثانية: ثم كل من قضى بقارعة أو بلية، مثل: الغرق، والحرق، والهالك في الهدم، والمطعون، والمبطون، والغريب، والميتة بالوضع، والميت يوم الجمعة وليلة الجمعة، والميت على الطهارة.

والدرجة الثالثة: ما نطقت به هذه الآية العامة للمؤمنين. وقال بعضهم في معنى الآية: هم المبالغون في الصدق، حيث آمنوا، وصدقوا جميع أخباره تعالى

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

ورسله، والقائمون بالشهادة لله بالوحدانية، ولهم بالإيمان أو على الأمم يوم القيامة. وقال مجاهد: هذه الآية للشهداء خاصة، وهم الأنبياء الذين يشهدون للأمم وعليهم. واختار هذه القول الفراء، والزجاج. وقال مقاتل بن سليمان: هم الذين استشهدوا في سبيل الله، وكذا قال ابن جرير. وقيل: هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ.

والظاهر[1]: أنّ معنى الآية: إن الذين آمنوا بالله ورسله جميعاً بمنزلة الصدّيقين والشهداء، المشهورين بعلو الدرجة عند الله تعالى.

ثم بين سبحانه ما لهم من الخير بسبب ما اتصفوا به من الإيمان بالله ورسله. فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة خبر ثان للموصول، والضمير الأول على الوجه الأول أعني: كون الكلام على التشبيه راجع للموصول، والأخيران للصدّيقين والشهداء. ولا بأس بتشتيت الضمائر عند الأمن. وهذه الجملة بيان لثمرات ما وصفوا به من نعوت الكمال.

والمعنى[2]: أي للذين آمنوا مثل أجر الصديقين والشهداء، ونورهم المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوّة المماثلة وبلوغها حد الإتحاد، فالمماثلة بين تمام ما للأول من الأصل والأضعاف، وبين ما للأخيرين من الأصل بدون الأضعاف؛ ليحصل التفاوت. وأما[3] على قول من قال: إن الذين آمنوا بالله ورسله هم نفس الصديقين والشهداء. فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شيء واحد. والمعنى: لهم الأجر والنور الموعودان لهم.

وهذا المعنى المذكور على القول: بأن الشهداء معطوف على الصديقين. ويجوز أن يكون الوقف على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأ، وما بعده خبره، ومعنى الآية عليه؛ أي:[4] والذين أقروا بوحدانية الله، وصدقوا رسله، وآمنوا بما جاؤوهم به من عند ربهم أولئك هم في حكم الله بمنزلة الصديقين، والذين استشهدوا في سبيل الله لهم أجر جزيل، ونور عظيم يسعى بين أيديهم. وهم

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) الشوكاني.

(٤) المراغي.

يتفاوتون في ذلك بحسب ما كانوا عليه في الدنيا من الأعمال.

والخلاصة: أن العاملين أقسام. فمنهم: النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾.

ولما ذكر الله سبحانه السعداء ومآلهم.. أردف ذلك بذكر حال الأشقياء ومصيرهم. فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسله ﴿وكذبوا بأياتنا﴾؛ أي: كذبوا بآيات الله، وحججه، وبراهينه الدالة على وحدانيته وصدق رسله ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات القبيحة المذكورة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: أصحاب النار، خالدين فيها أبدا لا يفارقونها، يعذبون بها، ولا أجر لهم ولا نور، بل لهم عذاب مقيم وظلمة دائمة.

وفيه[1]: دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار، من حيث إن التركيب يشعر بالاختصاص، والصحبة تدل على الملازمة عرفاً، وأراد بالكفر: الكفر بالله، فهو في مقابلة الإيمان بالله، وبتكذيب الآيات: تكذيب ما بأيدي الرسل من الآيات الإلهية، وتكذيبها تكذيبهم فهو في مقابلة الإيمان والتصديق بالرسل. ففيه وصف لهم بالوصفين القبيحين اللذين هما: الكفر والتكذيب.

ولما ذكر سبحانه حال الفريق الثاني، وما وقع منهم من الكفر والتكذيب، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وإيثارها بين لهم حقارتها، وأنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة. فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيها المكبون على الدنيا المعرضون عن الآخرة ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ لفظ الحياة زائد، والمضاف مضمر، و﴿ما﴾ صلة؛ أي: اعلموا أن أمور الدنيا وشؤونها لعب إلخ، ويجوز أن تجعل الحياة الدنيا مجازاً عن أمورها بعلاقة اللزوم. وفي «كشف الأسرار»: الحياة القربى في الدار الأولى. فإن المقصود الحياة في هذه الدار، فكل ما قبل الموت دنيا، وكل ما تأخر عنه أخرى. ﴿لَعِبٌ﴾؛ أي: عمل باطل تتعبون فيه أنفسكم إتعاب اللاعب بلا فائدة. واللعب[2] في أصله: هو فعل الصبيان الذين يتعبون أنفسهم جدًّا، ثم إن تلك الملاعب تنقضي من غير

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

فائدة. ﴿وَلَهْوٌ﴾ تلهون به أنفسكم، وتشغلونها عما يهمكم من أعمال الآخرة. واللهو في أصله: هو فعل الشبان، فبعد انقضائه لا يبقى إلا التحزن؛ لأنَّ العاقل يرى المال ذاهباً والعمر ذاهباً، وقال مجاهد: كل لعب لهو، وقيل: اللعب ما رغب في الدنيا، واللهو ما ألهى عن الآخرة. ﴿وَزِينَةٌ﴾ من الملابس، والمراكب، والمنازل الحسنة تتزينون بها. والزينة في أصله: دأب النسوان؛ لأن المطلوب من الزينة تحسين القبيح وتكميل الناقص. ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ بالأنساب والأحساب، تتفاخرون بها كتفاخر الأقران، يفتخر بعضهم على بعض بالنسب، أو بالقوة، أو بالقدرة، أو بالعساكر. وكلها ذاهبة، كما هو شأن العرب، والتفاخر في أصله: هو دأب الأقران، ومعنى الفخر: المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه، ويعبر عن كل نفس بالفاخر، كما في «المفردات». وقرأ الجمهور[1] بتنوين ﴿تفاخر﴾، والظرف صفة له أو معمول له، وقرأ السلمي بالإضافة. ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾؛ أي: مغالبة في الكثرة ﴿فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ وتطاول بكثرة العَدَد والعُدَد، ومباهاة بكثرتهما. لا سيما التطاول بها على الفقراء والمساكين، فإنهم كانوا يتكاثرون بأموالهم وأولادهم، ويتطاولون بذلك على الفقراء، والتكاثر في أصله: شأن الدهقان «بضم الدال وكسرها: التاجر، ورئيس الإقليم، معرب». فالحياة[2] الدنيا غير مذمومة، وإنما المذموم من صرف هذه الحياة إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى، لا إلى طاعة الله تعالى.

والمعنى: اعلموا أن شغل البال بالحياة الدنيا دائر بين هذه الأمور الخمسة، وقيل: الدنيا لعب كلعب الصبيان، وزينة كزينة النسوان، وتفاخر كتفاخر الأقران، وتكاثر كتكاثر الدهقان.

قال علي بن أبي طالب لعمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما: لا تحزن على الدنيا، فإن الدنيا ستة أشياء: مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومشموم، ومركوب، ومنكوح. فأكبر طعامها العسل: وهو ريقة ذبابة، وأكبر شرابها الماء، ويستوي فيه جميع الحيوان، وأكبر الملبوس الديباج: وهو نسج دودة، وأكبر المشموم المسك: وهو دم ظبية، وأكبر المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأكبر المنكوح النساء،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

وهو مبال في مبال، وفي الحديث: «ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا، كراكب قام في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها».

والخلاصة[1]: أي اعلموا أيها الناس أن متاع الدنيا ما هو إلا لعب ولهو تتفكهون به، وزينة تتزينون بها، وبها يفخر بعضكم على بعض، وتتابهون فيها بكثرة الأموال والأولاد.

ثم ضرب مثلاً يبين أنها زهرة فانية، ونعمة زائلة، فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾؛ أي: كمثل مطر ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾؛ أي: الزراع ﴿نَبَاتُهُۥ﴾؛ أي: النبات الحاصل بذلك المطر. ومحل[2] الكاف النصب على الحالية من الضمير في ﴿لعب﴾؛ لأنَّ فيه معنى الوصف؛ أي: تثبت لها هذه الأوصاف حال كونها مشبهة غيثاً، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي كمثل أو خبر بعد خبر للحياة الدنيا. والغيث؛ مطر محتاج إليه، يغيث الناس من الجدب عند قلة المياه، فهو مخصوص بالمطر النافع، بخلاف المطر، فإنه عام. والمراد بالكفار هنا: الحراث، والعرب تقول للزارع: كافر لأنه يكفر، أي: يستر بذره بتراب الأرض، والكفر لغة: الستر، كما سيأتي. وقيل[3]: المراد بهم. الكافرون بالله؛ لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا، ولأن المؤمن إذا رأى معجباً.. انتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها، والكافر لا يتخطى فكره عما أحسن به فيستغرق فيه إعجاباً، وقد منع في بعض المواضع عن إظهار الزينة صوناً لقلوب الضعفاء، كما في الأعراس ونحوها.

أي: صفة الدنيا في إعجابها كصفة مطر أعجب الزراع النبات الحاصل بذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾؛ أي: يجف ذلك النبات وييبس بعد خضرته ونضارته بآفة سماوية أو أرضية. ﴿فَتَرَىٰهُ﴾؛ أي: فترى أيها المخاطب ذلك النبات بعد ما رأيته ناضراً ﴿مُصْفَرًّا﴾؛ أي: متغيراً عما كان عليه من الخضرة والرونق إلى لون الصفرة والذبول. وإنما لم يقل: فيصفر إيذاناً بأن اصفراره مقارن لجفافه، وإنما المرتب عليه رؤيته كذلك، وقرىء ﴿مُصْفَارًّا﴾. ﴿ثُمَّ يَكُونُ﴾ ذلك النبات المصفر ﴿حُطَٰمًا﴾؛

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

أي: فتاتاً هشيماً متكسراً متحطماً بعد يبسه؛ أي: مثل الحياة الدنيا كمثل الزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته وكثرة نضارته، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً تبناً كأن لم يكن. وحطام[1] صيغة مبالغة كعجاب.

وحاصل المعنى: أي ما مثل هذه الحياة الدنيا في سرعة فنائها وانقضائها على عجل، إلا مثل أرض أصابها مطر وابل فأنبتت من النبات ما أعجب الزراع، وجعلهم في غبطة وحبور وبهجة وسرور، وبينما هو على تلك الحال إذا هو يصوح، ويأخذ في الجفاف واليبس، ثم يكون هشيماً تذروه الرياح. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم ذكر عاقبة المنهمكين فيها، الطالبين لتحصيل لذاتها، المتهالكين في جمع حطامها، والمعرضين عنها الطالبين لرضوان ربهم. فقال: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن أقبل عليها، ولم يطلب بها الآخرة، وقدم ذكر العذاب لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الحياة الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ كثير منه تعالى، لا يقادر قدره لمن أعرض عنها، وقصد بها الآخرة، بل الله تعالى لأن الدنيا والآخرة ليستا مقصودتين لأهل الله؛ أي: وفي الآخرة إما عذاب شديد دائم لمن انهمك في لذاتها، وأعرض عن صالح الأعمال، ودسّ نفسه بالشرك، والآثام، وإما مغفرة من الله ورضوان من لدنه لمن زكي وأخبت لربه وأناب إليه.

قَدِّمْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ ٱلْخَطْوِ مَوْضِعَهَا ... فَمَنْ عَلاَ زَلَقاً عَنْ غِرَّةٍ زَلَجَا

ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب والترغيب حقارة الدنيا، فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾؛ أي: إلا كالمتاع الذي يغر ويخدع به الغير أي: إلا مثل[2] المتاع الذي يتخذ من نحو الزجاج، والخزف مما يسرع فناؤه يميل إليه الطبع أول

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

ما رآه، فإذا أخذه، وأراد أن ينتفع به ينكسر ويفنى.

والمعنى: أي وما هذه الحياة الدنيا إلا متاع فانٍ زائل خادع من ركن إليه، واغتر به، وأعجبه حتى اعتقد أن لا دار سواها، ولا معاد وراءها، واطمأن بها ولم يجعلها ذريعة إلى الآخرة، وأما من اشتغل بطلب الآخرة.. فهي له متاع بلاغ إلى ما هو خير منها، وهي الجنة، والدنيا غير مقصودة لذاتها بل لأجر الآخرة، وفي الحديث: نعم المال الصالح للرجل الصالح» فما شغل العبد عن الآخرة.. فهو من الدنيا، وما لا.. فهو من الآخرة.

وهذه[1] الجملة مقررة للمثل المتقدم ومؤكدة له. ولما أبان أن الآخرة قريبة، وفيها العذاب الأليم، والنعيم حث على المبادرة إلى فعل الخيرات، فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾؛ أي: سارعوا أيها الناس مسارعة السابقين لأقرانهم في المضمار، وهو الميدان. ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ومالككم، أي: سارعوا إلى أسبابها وموجباتها كالاستغفار وسائر الأعمال الصالحة؛ أي: بحسب وعد الله، وإلا فالعمل نفسه غير موجب، وفي دعائه ﷺ «أسألك عزائم مغفرتك»؛ أي: أن توفقني للأعمال التي تغفر لصاحبها لا محالة، ويدخل فيها المسابقة إلى تكبيرة الإحرام مع الإمام، قاله مكحول. وقيل: المراد الصف الأول، ولا وجه لتخصيص ما في هذه الآية بمثل هذا بل هو من جملة ما تصدق عليه صدقاً شمولياً أو بدليًا.

﴿و﴾ إلى ﴿جنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾؛ أي: كعرض سبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض على أن يكون اللام في ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ للاستغراق، وإذا كان عرضها كذلك فما ظنك بطولها؛ فإن طول كل شيء أكثر من عرضه. وفي «البحر»: ﴿عَرۡضُهَا﴾؛ أي: مساحتها في السعة اهـ. ويقال: هذا التشبيه[2] تمثيل للعباد بما يعقلون، وبما يقع في نفوسهم من مقدار السموات والأرض، وتقديم المغفرة على الجنة لتقدم التخلية على التحلية، وقيل: المراد بالجنة التي عرضها هذا العرض هي جنة كل واحد من أهل الجنة، وقال ابن كيسان: عني به: جنة واحدة من الجنات؛ أي: سابقوا أقرانكم في مضمار الأعمال الصالحة، وأدوا ما كلفتم به من أوامر الشريعة، واتركوا نواهيها يدخلكم ربكم بما

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

قدمتم لأنفسكم جنة سعتها كسعة السموات والأرض.

ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى، فقال: ﴿أُعِدَّتْ﴾؛ أي: هيئت ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ سبحانه ﴿و﴾ بجميع ﴿رسله﴾ كافة عليهم الصلاة والسلام. ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة، وفيه[1] دليل على أن الجنة مخلوقة بالفعل كما هو مذهب أهل السنة، وأن الإيمان وحده كاف في استحقاقه إذ لم يذكر مع الإيمان شيء آخر، ولكن الدرجات بالأعمال، وفيه شيء لأن هذا مقيد بالأدلة الدالة على أنه لا يستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه، واجتنب عما نهاه الله عنه، وهي أدلة كثيرة في الكتاب والسنة، ولأن الإيمان بالرسل لا يكمل إلا بالإيمان بما في أيديهم من الكتب الإلهية والعمل بما فيها.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما وعد الله من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ وعطاؤه. وهو ابتداء لطف بلا علة ﴿يُؤْتِيهِ﴾؛ أي: يعطيه تفضلاً وإحساناً ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إيتاءه إياه من غير إيجاب، لا كما زعمه أهل الاعتزال؛ أي[2]: هذا الذي أعده الله تعالى لهم هو من فضله ورحمته ومنته عليهم، وفي الصحيح: أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور «الأموال» بالأجور والدرجات العلا، والنعيم المقيم، قال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون ولا نتصدّق، ويعتقون ولا نعتق، قال: «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه.. سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم، تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين»، قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: والله واسع العطاء، عظيم الفضل، فيعطي من يشاء ما شاء كرماً منه وفضلاً، ويبسط له الرزق في الدنيا، ويهب لهم النعم، ويعرفهم مواضع الشكر، ثم يجزيهم في الآخرة ما أعده لهم مما وصفه قبل.

ثم بين سبحانه أن ما يصاب به العباد من المصائب، قد سبق بذلك قضاؤه

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وقدره، وثبت في أم الكتاب. فقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «ما» نافية. والمراد بالمصيبة هنا: النائبة. و﴿من﴾ زائدة؛أي: مصيبة، وذكر[1] فعلها وهو جائز التذكير والتأنيث، ومن التأنيث ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾. ولفظ ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ يدل على الشر؛ لأنَّ عرفها ذلك كما مر آنفاً. قال ابن عباس: ما معناه: أنه أراد عرف المصيبة، وهو استعمالها في الشر، وخصها بالذكر؛ لأنها أهم على البشر، والمصيبة في الأرض مثل القحط، والزلزلة، وعاهة الزرع، واحتلال الأجانب الظالمين، واستيلاء الحكام الفاسقين، وفي الأنفس: الأسقام والموت. وقيل: المراد بالمصيبة[2]: الحوادث كلها من خير أو شر؛ أي: ما حدثت حادثة كائنة في الأرض كجدب وعاهات في الزروع والثمار. ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أيها العباد كمرض، وآفة وموت ولد، وخوف عدو، وجوع. وقوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ في محل نصب على الحال من مصيبة؛ أي: إلا حال كونها مكتوبة مثبتة في علم الله سبحانه، أو في اللوح المحفوظ.

وجملة قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾؛ أي: من قبل أن نخلق الأنفس أو المصائب أو الأرض في محل جر، صفة لكتاب، والضمير في ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ عائد إلى المصيبة أو إلى الأنفس أو إلى الأرض أو إلى الجميع. و﴿نَّبْرَأَهَآ﴾؛ أي: نخلقها، فإن البرء في اللغة: هو الخلق، والباريء: الخالق.

وذكر[3] ربيع بن صالح الأسلمي قال: دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحجاج حين أراد قتله، فبكى رجل من قومه، فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: ما أصابك، قال: فلا تبك قد كان في علم الله أن يكون هذا ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾؟ قال في «الروضة»: رؤي الحجاج في المنام بعد وفاته، فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني بكل قتيل قتلة. وبسعيد بن جبير سبعين قتلة. وفصل المصيبة هنا بقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وأجمل في التغابن حيث قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ موافقة لما قبلها. لأنه فصَّل هنا بقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ

---

(1) البحر المحيط.

(2) البحر المحيط.

(3) روح البيان.

﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ الآية، بخلافه ثَمَّ.

وفي الآية: دليل على أن جميع الحوادث الأرضية قبل دخولها، كذا جميع أعمال الخلق بتفاصيلها مكتوبة في اللوح المحفوظ، ليستدل الملائكة بذلك المكتوب على كونه تعالى عالماً بجميع الأشياء قبل وجودها، وليعرفوا حلمه؛ فإنه تعالى مع علمه أنهم يقومون على المعاصي خلقهم، ورزقهم وأمهلهم، وليحذروا من أمثال تلك المعاصي، وليشكروا الله تعالى على توفيقه إياهم للطاعات وعصمته إياهم من المعاصي، وفيها دليل أيضاً على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها؛ لأن إثباتها في الكتاب قبل علمها محال، ولو سأل سائل: أن الله تعالى هل يعلم عدد أنفاس أهل الجنة؟ يقال له: إن الله يعلم أنه لا عدد لأنفاسهم.

والمعنى(١): أي ما أصابكم أيها الناس من مصائب في آفاق الأرض كقحط وجدب وفساد زرع، أو في أنفسكم من أوصاب وأسقام إلا في أم الكتاب من قبل أن نبرأ هذه الخليقة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إثباتها في كتاب مع كثرتها ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَسِيرٞ﴾ غير عسير لاستغنائه فيه عن العدة والمدة، وإن كان عسيراً على العباد. والمعنى؛ أي: إن علمه بالأشياء قبل وجودها وكتابته لها طبق ما توجد في حينها يسير عليه تعالى؛ لأنه يعلم ما كان، وما سيكون وما لا يكون، أخرج الحاكم وصححه عن أبي حسان: أن رجلين دخلا على عائشة رضي الله عنها، فقالا: إن أبا هريرة يحدث أن النبي ﷺ كان يقول: «إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار»، فقالت: والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ﷺ ما كان يقول هكذا، كان يقول: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار». ثم قرأ: و﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾.

ففي الآية(٢): توطين للنفوس على الرضا بالقضاء والصبر على البلاء، وحمل لها على شهود المبتلى في عين البلاء، فإن به يسهل التحمل، وإلا فمن كان غافلاً عن مبدأ اللطف، والقهر فهو غافل في اللطف والقهر، ولذا تعظم عليه المصيبة،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بخلاف حال أهل الحضور؛ فإنهم يلتذون بالبلاء التذاذهم بالعافية، بل ولذة البلاء فوق لذة العافية، ومن أمثال العرب ضرب الحبيب زبيب؛ أي: لذيذ.

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ يقال: أسى على مصيبة يأسى أسى من باب علم إذا حزن والجار والمجرور فيه متعلق بمحذوف، تقديره: أخبرناكم بإثباتها وكتابتها في كتاب لكيلا يحصل لكم الحزن والألم، أي: لكيلا تحزنوا حزناً يوجب القنوط كما يقيد بذلك في الفرح، وإلا فالحزن والفرح: الطبيعيان لا يخلو عنهما الإنسان. ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نعم الدنيا كالمال والخصب والصحة والعافية. ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ أي: أعطاكم الله منها. فإن من علم أن كلا من المصيبة والنعمة مقدر يفوت ما قدر فواته، ويأتي ما قدر إتيانه لا محالة، لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آتٍ؛ إذ يجوز أن يقدر ذهابه عن قريب، وكل زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله، ولا يحزن على فواته.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ بالمد؛ أي: أعطاكم. وقرأ عبد الله ﴿بما أوتيتم﴾ مبنياً للمفعول؛ أي: أعطيتم. وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم، وأبو عمرو ﴿بما أتاكم﴾ بالقصر؛ أي: جاءكم. واختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار القراءة الأخيرة أبو عبيد.

ومعنى الآية[2]: أي أعلمناكم بتقدم علمنا، وسبق كتابتنا للأشياء قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تحزنوا على فائت، ولا تفرحوا بآت.

والخلاصة: أن كل شيء قدر في الكتاب فكيف نفرح أو نحزن. قال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح أو يحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً.

وقال حكيم: الصبر مخرج من الشقاء فلا سعادة إلا بالصبر، ووصول النفس إلى كمالها الخلقي بحيث يمر المال والولد والقوة والعلم عليها، فيصيبها مرة ويخطئها أخرى، وهي مطمئنة لا يدخلها زهو ولا إعجاب بما نالت ولا حزن على ما فاتها، اهـ.

---

(١) الشوكاني والبحر المحيط. (٢) المراغي.

وفي الآية[1]: إشارة إى أنه يلزم أن يثبت الإنسان على حالة واحدة في السراء والضراء، فإن كان لا بد له من فرح فليفرح شكراً على إعطائه لا بطراً، وإن كان لا بد من حزن فليحزن صبراً على قضائه لا ضجراً، وفي تخصيص[2] التذييل بالنهي عن الفرح المذكور إيذان بأنه أقبح من الأسى. قال قتيبة بن سعيد: دخلت على بعض أحياء العرب فإذا أنا بفضاء مملوء من الإبل الميتة بحيث لا تحصى، ورأيت شخصاً على تل يغزل صوفاً فسألته فقال: كانت باسمي فارتجعها من أعطاها، ثم أنشأ يقول:

لاَ وٱلَّـذِيْ أَنَـا عَـبْـدٌ مِـنْ خَـلاَئِـقِـهِ   وَٱلْمَرْءُ فِيْ ٱلدَّهْرِ نَصَبُ ٱلرِّزْءِ وَٱلْمِحَنِ
مَـا سَرَّنِـيْ أَنَّ إِبْـلِـيْ فِـيْ مَـبَـارِكِـهَـا   وَمَـا جَـرَىٰ مِـنْ قَـضَـاءِ ٱللهِ لَـمْ يَـكُـنِ

وبالجملة[3]: فالحزن المذموم هو ما يخرج بصاحبه إلى ما يذهب عنه الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب، والفرح المنهي عنه هو الذي يطغى على صاحبه ويلهيه عن الشكر، ولذا عقب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾؛ أي: متكبر بما أوتي من الدنيا ﴿فَخُورٍ﴾؛ أي: مبالغ في الفخر به على الناس؛ فإن من فرح بالحظوظ الدنيوية، وعظمت في نفسه اختال، وافتخر بها لا محالة والمختال[4]: المتكبر المعجب وهو من الخيلاء، وهو التكبر من تخيل فضيلة تتراءى للإنسان من نفسه؛ أي: لا يحب الله من اتصف بهاتين الصفتين وهما: الاختيال والافتخار، وقيل: المختال الذي ينظر إلى نفسه، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاستحقار.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾؛ أي: يمسكون أموالهم، ولا يخرجون منها حق الله تعالى؛ فإن البخل إمساك المقتنيات عما يحق إخراجها فيه، ويقابله الجود. ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾؛ أي: بإمساك أموالهم عن إخراجها في الحقوق الواجبة بدل من ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾. وقيل: هو مستأنف، لا تعلق له بما قبله، وهو في محل رفع بالابتداء، والخبر مقدر، فيكون بيانا لصفة اليهود.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

والمعنى عليه[1]: الذين يبخلون ببيان صفة النبي ﷺ التي في كتبهم لئلا يؤمن به الناس فتذهب مأكلتهم، ويأمرون الناس بالبخل به، لهم عذاب شديد، أو فإن الله غني عنهم، ويدل على هذا قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾. قال سعيد بن جبير: هم الذين يبخلون بالعلم، ويأمرون الناس بالبخل به لئلا يعلموا الناس تلك المعجزة على يده.

أي: ولقد أرسلنا رسلنا إلى الأمم مؤيدين بالمعجزات الدالة على صدقهم في دعواهم. ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: جنس الكتب الشامل للكل لتبيين الحق وتمييز صواب العمل؛ أي: لتكميل القوة النظرية والعملية.

وقوله: ﴿مَعَهُمُ﴾ يجعل على تفسير الرسل بالأنبياء حالاً مقدرة من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾. أي: مقدراً كونه معهم، وإلا فالأنبياء لم ينزلوا حتى ينزل معهم الكتاب. فالنزول مع الكتاب شأن الملائكة، والإنزال إليهم شأن الأنبياء، ولذا قدم الوجه الأول؛ إذ لو كان المعنى: لقد أرسلنا الأنبياء إلى الأمم.. لكان الظاهر أن يقال: وأنزلنا إليهم الكتاب. ﴿و﴾ أمرناهم بـ ﴿الميزان﴾؛ أي: بالعدل ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: ليتعامل الناس فيما بينهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل إيفاء واستيفاء، ولا يظلم أحد أحداً في ذلك. ومعنى إنزاله: إنزال أسبابه، والأمر بأعداده، وإلا فالميزان من مصنوعات البشر، وليس بمنزل من السَّماء. وعلى القول: بأن المراد به: الآلة التي يوزن بها يكون معنى إنزاله إرشاد الناس إليه، وإلهامهم الوزن به، ويكون الكلام من باب علفتها تبناً وماء بارداً».

وروي: أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان نفسه فدفعه إلى نوح عليه السلام، وقال: مر قومك يزنوا به.

والمعنى: أي ولقد أرسلنا الأنبياء إلى أممهم، ومعهم البراهين الدالة على صدقهم، المؤيدة لبعثهم من عند ربهم، ومعهم كتب الشرائع التي فيها هداية البشر وصلاحهم في دينهم ودنياهم، وأمرناهم بالعدل ليعملوا به فيما بينهم، ولا يظلم بعضهم بعضاً.

---

(١) المراح.

ولما كان الناس فريقين: فريقاً يقوده العلم والحكمة، وفريقاً يقوده السيف والعصا، وكان ما يزع الشيطان أكثر مما يزع القرآن، وكان العدل والقانون لا بد له من حام يحميه، وهو الدولة والملك وأعوانه والجند، وهؤلاء لا بدل لهم من عدة يحمون بها القانون والعدل في داخل البلاد، وفي خارجها أعقب بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾؛ أي: خلقناه كما في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، والمعنى: أنه خلقه في المعادن، وعلم الناس صنعته واستخراجه من معدنه. وذلك أن أوامره وقضاياه وأحكامه تنزل من السماء، قاله الحسن. وأصل الحديد: ماء نزل من السماء، فتجمد في معادنه، ولذلك احتاج في صوغه إلى النار، كما أن الماء المثلج يحتاج إلى الحرارة في ذوبه. وقال بعضهم: وأخرجنا الحديد من المعادن؛ لأن العدل إنما يكون بالسياسة، والسياسة مفتقرة إلى العدة، والعدة مفتقرة إلى الحديد، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثة أشياء نزلت مع آدم عليه السلام: الحجر الأسود وهو أشد بياضاً من الثلج، وعصا موسى، وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع، والحديد. ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في الحديد ﴿بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: قوة شديدة يعني: السلاح للحرب؛ لأن آلات الحرب، إنما تتخذ منه. قال الزجاج: يمتنع به ويحارب.

والمعنى: أنه تتخذ منه آلة للدفع، وآلة للضرب. قال مجاهد: فيه جنة وسلاح. ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: وفيه منافع كثيرة للنَّاس، فإنهم ينتفعون بالحديد في كثير من أمور معاشهم كالسكين، والفأس والإبرة، وآلات الزراعة والصناعة، ونحوها. فإنه ما من صنعة إلا، والحديد أو ما يعمل بالحديد آلتها كالمراكب، والبواخر، والطوائر، والسوائر. وفيه إشارة إلى أن القيام بالقسط كما يحتاج إلى القائم بالسيف يحتاج أيضاً إلى ما به قوام التعايش من الصنائع وآلات المحترقة.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ معطوف[1] على قوله: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: لقد أرسلنا رسلنا، وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس بالقسط، وليعلم الله.. إلخ. أو معطوف[2] على علة مقدرة يدل عليها ما قبله، فإنه حال متضمنة للتعليل كأنه قيل: وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد، ومنافع للناس ليستعملوه، وينتفعوا

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

به، وليعلم الله علماً يتعلق بالجزاء من ينصره ورسله باستعمال السيوف والرماح، والمدافع، والبنادق، وسائر الأسلحة في مجاهدة أعدائه. وقال الشوكاني: والأول أولى؛ لأن عدم التقدير أولى من التقدير.

وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من فاعل ﴿يَنصُرُهُ﴾؛ أي: ليعلم الله سبحانه من ينصر دينه، وينصر رسله حال كونهم غائبين عن الله تعالى مشاهدين له، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينصرونه ولا يبصرونه. وإنما يحمد ويثاب من أطاع بالغيب من غير معاينة للمطاع، أو حال من مفعوله؛ أي: حال كونه تعالى غائباً عنهم غير مرئي لهم[1]، أو حال من ﴿رسله﴾؛ أي: وإنما فعل ذلك ليراكم ناصري دينه باستعمال السلاح، والكراع لمجاهدة أعدائه وناصري رسله، وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم.

روى أحمد، وأبو داود عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿قَوِيٌّ﴾ على إهلاك من أراد إهلاكه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يفتقر إلى نصرة الغير، وإنما أمرهم بالجهاد، لينتفعوا به ويستوجبوا ثواب الامتثال فيه؛ أي: إنّ الله قوي قادر يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته غالب على أمره لا يقدر أحد على دفع العقوبة حتى أحلها بأحد من خلقه، وليس له حاجة إلى أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله، بل كلفهم بذلك، لينتفعوا به إذا امتثلوا، ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين. قال الزروقي رحمه الله تعالى[2]: القوي هو الذي لا يلحقه ضعف في ذاته وصفاته، ولا في أفعاله، فلا يمسه نصب ولا تعب، ولا يدركه قصور، ولا عجز في نقض ولا إبرام. وخاصية هذا الاسم ظهور القوة في الوجود، فما تلاه ذو همة ضعيفة إلا وجد القوة، ولا ذو جسم ضعيف إلا كان له ذلك، ولو ذكره مظلوم بقصد إهلاك الظالم ألف مرة كان له ذلك، وكفى أمره. وخاصية الاسم العزيز: وجود الغنى، والعز صورة أو معنى، فمن ذكره أربعين يوماً في كل يوم أربعين مرة أعانه الله وأعزه، فلم يحوجه إلى أحد من

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

خلقه. وقال السهرودي رحمه الله تعالى: من قرأه سبعة أيام متواليات كل يوم ألفاً أهلك خصمه، وإن ذكره في وجه العسكر سبعين مرة ويشير إليهم بيده؛ فإنهم ينهزمون.

ولما ذكر سبحانه إرسال الرسل إجمالاً أشار هنا إلى نوع تفصيل، فذكر رسالته لنوح وإبراهيم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ وكرر القسم للتأكيد؛ أي: وعزّتي وجلالي.. لقد بعثنا ﴿نُوحًا﴾ إلى قومه. وهم[1] بنوا قابيل، وهو الأب الثاني للبشر. ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قومه أيضاً، وهم نمرود ومن تبعه. ذكر الله رسالتهما تشريفاً لهما بالذكر، ولأنهما من أول الرسل وأبوان للأنبياء عليهم السلام، فالبشر كلهم من ولد نوح. والعرب والعبرانيون كلهم من ولد إبراهيم. ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾؛ أي: في نسلهما ﴿النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استنبأنا بعض ذريتهما، وأوحينا إلهم الكتب مثل: هود، وصالح، وموسى، وهارون، وداود، وغيرهم، فلا يوجد نبي ولا كتاب إلا وهو مدل إليهما بأمتن الأنساب، وأعظم الإنسان.

أي: جعلنا فيهم النبوّة، والكتب المنزلة على الأنبياء منهم، وقيل: جعل بعضهم أنبياء، وجعل بعضهم يتلون الكتاب.

والمعنى: ولقد بعثنا نوحاً إلى طائفة من خلقنا، ثم بعثنا إبراهيم من بعده إلى قوم آخرين، ولم يرسل بعدهما رسلاً بشرائع إلا من ذريتهما.

ثم بين أن هذه الذرية افترقت فرقتين ﴿فَمِنْهُم﴾؛ أي: فمن ذريتهما ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى الحق مستبصر ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾؛ أي: ضلال خارجون عن طاعة الله تعالى، ذاهبون إلى طاعة الشيطان، مدسون أنفسهم باجتراح الآثام، وفي الآية إيماء إلى أنهم خرجوا من الطريق المستقيم بعد أن تمكنوا من الوصول إليه، وبعد أن عرفوه حق المعرفة، وهذا أبلغ في الذم وأشد في الاستهجان لعملهم.

والمعنى: أي فمن الذرية من اهتدى بهدي نوح وإبراهيم. وقيل: المعنى: فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى، وكثير منهم خارجون عن طاعتنا. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾؛ أي:[2] أتبعنا على آثار الذرية، أو

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

على آثار نوح، وإبراهيم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى، والياس، وداود، وسليمان، وغيرهم. فالضمير[1] لنوح وإبراهيم، ومن أرسلا إليهم من الأمم؛ أي: أرسلنا بعد نوح هوداً وصالحاً، وبعد إبراهيم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف مثلاً. وفي «الروح»: الضمير لا يرجع إلى الذرية؛ فإن الرسل المقفى بهم من الذرية. يقال: قفا[2] أثره أتبعه، وقفى على أثره بفلان؛ أي: أتبعه إياه وجاء به بعده. والآثار جمع إثر بالكسر، كما سيأتي. تقول: خرجت على إثره؛ أي: عقبه. فالمعنى: أتبعنا من بعدهم واحداً بعد واحد من الرسل.

والخلاصة[3]: أي ثم بعثنا بعدهم رسولاً بعد رسول على توالي العصور والأيام.

ثم خص من أولئك الرسل عيسى لشهرة شريعته في عصر التنزيل ولوجود أتباعه في جزيرة العرب وغيرها، فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾؛ أي: أتبعنا أولئك الرسل الذين قفيناهم بعد نوح وإبراهيم ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾؛ أي: أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم، فأتينا به بعدهم؛ أي: جعلناه تابعاً لهم؛ أي: متأخراً عنهم في الزمان. فأول أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى عليهما السلام، وهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه. ونسبه إلى أمه على حقيقة الإخبار. ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ﴾؛ أي: أعطينا عيسى ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ دفعة واحدة، وهو الكتاب الذي أنزله الله عليه، وقد تقدَّم ذكر اشتقاقه في سورة آل عمران، وقرأ الجمهور[4] ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ بكسر الهمزة. وقرأ الحسن بفتحها. قال أبو الفتح: وهو مثال لا نظير له، انتهى، وهي لفظة أعجمية فلا يلزم فيها أن تكون على أبنية كلم العرب. وقال الزمخشري: أمره أهون من أمر برطيل، يعني: أنه بفتح الباء، وكأنّه عربيّ، وأما الإنجيل فأعجمي.

والمعنى: أي ثم أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى عليه السلام، وأعطيناه الإنجيل الذي أوحيناه إليه، وفيه شريعته ووصاياه، وقد جاء ما فيه مكملاً لما في التوراة، ومخفّفاً بعض أحكامها التي شرعت تغليظاً على بني إسرائيل

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

(٤) البحر المحيط.

لنقضهم العهد والميثاق كما جاء في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

ثم بين صفات أتباع عيسى، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾؛ أي: اتبعوا عيسى في دينه كالحواريين وأتباعهم. ﴿رَأْفَةً﴾؛ أي: ليناً. وقرىء ﴿رآفة﴾ بوزن فعالة، كما في «البيضاوي». ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ أي: شفقة؛ أي[1]: جعلنا في قلوبهم رأفة؛ أي: أشد رقة ولين على من كان يتسبب إلى الاتصال بهم، والاتباع لهم ورحمة؛ أي: رقة وعطفاً وشفقة على من لم يكن له سبب في الاتصال بهم والاتباع لهم، أي: يعطفون على جميع الناس من وافقهم في الدين، ومن لم يوافقهم، كما كان الصحابة رضي الله عنهم رحماء بينهم حتى كانوا أذلة على المؤمنين مع أن قلوبهم في غاية الصلابة، فهم أعزة على الكافرين. قيل: أمروا في الإنجيل بالصفح، والإعراض عن مكافأة الناس على الأذى. وقيل: لهم من لطم خدك الأيمن فوله خدك الأيسر، ومن سلب ردائك فأعطه قميصك، ولم يكن لهم قصاص على جناية في نفس أو طرف. فاتبعوا هذه الأوامر، وأطاعوا الله تعالى، وكانوا متوادين ومتراحمين. ووصفوا بالرحمة خلاف اليهود الذين وصفوا بالقسوة.

وقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوب[2] على الاشتغال بفعل مضمر يفسره المذكور بعده؛ أي: وابتدع أتباع عيسى رهبانية ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾؛ أي: اخترعوها من قبل أنفسهم، وباختيارهم لا بأمر من الله، فيكون الكلام مستأنفاً؛ أي: حملوا أنفسهم على العمل بها. والرهبانية: المبالغة في العبادة بمواصلة الصوم، ولبس المسوح، وترك أكل اللحم، والامتناع عن المطعم والمشرب والملبس والمنكح، والتعبد في الغيران، والتخلي في الصوامع. ومعناها: ابتدعوا الفعلة المنسوبة إلى الرهبان بفتح الراء: وهو الخائف، فإن الرهبة مخافة مع تحزن واضطراب كما في «المفردات»، وهو فعلان من رهب كخشيان من خشي. وقيل: معطوفة على ما قبلها، وجملة ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ صفة لها؛ أي: وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة مخترعة من عندهم؛ أي: وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية، واستحداثها لينجوا من

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

فتنة بولس اليهودي. والأوّل أولى[1]، ورجحه أبو علي الفارسي وغيره.

وجملة ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ صفة ثانية لـ ﴿رهبانية﴾ أو مستأنفة مقررة لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم. والمعنى: ما فرضنا عليهم تلك الرهبانية في كتابهم، ولا على لسان رسولهم.

وسبب ابتداعهم إياها[2]: أن الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى، فقاتلوا ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا قليل، فخافوا أن يفتتنوا في دينهم، فاختاروا الرهبانية في قلل الجبال، فارين بدينهم، مخلصين أنفسهم للعبادة، منتظرين البعثة النبوية التي وعدها لهم عيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الآية.

وروي: أن الله تعالى لما أغرق فرعون وجنوده استأذن الذين كانوا آمنوا من السحرة موسى عليه السلام في الرجوع إلى الأهل والمال بمصر، فأذن لهم ودعا لهم فترهبوا في رؤوس الجبال، فكانوا أول من ترهب، وبقيت طائفة منهم مع موسى عليه السلام حتى توفاه الله تعالى؛ ثم انقطعت الرهبانية بعدهم حتى ابتدعها بعد ذلك أصحاب عيسى عليه السلام.

والرهبانية[3] بفتح الراء وضمها، وقد قرىء بهما، وهي بالفتح من الرهب. وهو الخوف. وبالضم منسوبة إلى الرهبان، وذلك لأنهم غلوا في العبادة، وحملوا على أنفسهم المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والملبس والمنكح، وتعلقوا بالكهوف والصوامع؛ لأن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقي منهم نفر قليل، فترهبوا وتبتلوا. ذكر معناه الضحاك، وقتادة وغيرهما.

وحاصل المعنى[4]: أن اتباع عيسى الذين ساروا على نهجه وشريعته اتصفوا بما يأتي:

١ ـ الرأفة بين بعضهم وبعض فيدفعون الشر ما استطاعوا إلى ذلك سبيل، ويصلحون ما فسد من أمورهم.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

(٤) المراغي.

٢ ـ الرحمة فيجلب بعضهم لبعض الخير، كما قال تعالى في حق أصحاب النبيّ ﷺ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٣ ـ الرهبانية المبتدعة فقد انقطعوا عن الناس في الفلوات والصوامع معتزلين الخلق، وحرموا على أنفسهم النساء، ولبسوا الملابس الخشنة تبتلا إلى الله وإخباتاً له، ما فرضنا عليهم هذه الرهبانية ولكنهم استحدثوها طلباً لمرضاة الله والزلفى إليه.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا﴾ منقطع؛ أي؛ لكن ابتدعوها ﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: لطلب رضا الله تعالى. وقال الزجاج[(١)]: ما كتبناها عليهم معناه: لم نكتب عليهم شيئاً البتة. قال: ويكون قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ بدلاً من الهاء في ﴿كَتَبْنَٰهَا﴾.

والمعنى: ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله. فيكون الاستثناء متصلاً. ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾؛ أي: فما حفظ العيسويون الرهبانية ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾؛ أي: حق حفظها؛ لأنهم أتوها لطلب الدنيا والرياء والسمعة؛ أي: فما رعوا[(٢)] جميعاً حق رعايتها، بل أفسدوها بضم التثليث والقول بالاتحاد، وقصد السمعة، والكفر بمحمد ﷺ، ونحوها إليها. وروي عنه ﷺ: أنه قال: «من آمن بي وصدقني.. فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يؤمن بي.. فأولئك هم الهالكون». قال مقاتل: لما استضعفوا بعد عيسى عليه السلام التزموا الغيران فما صبروا وأكلوا الخنازير، وشربوا الخمور، ودخلوا مع الفساق، اهـ. وفي «المناسبات» ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾؛ أي: لم يحفظها المقتدون بهم بعدهم كما أوجبوا على أنفسهم حق رعايتها؛ أي: بكمالها، بل قصروا فيها ورجعوا عنها، ودخلوا في دين ملوكهم، ولم يبق على دين عيسى عليه السلام إلا قليلا منهم، ذمهم الله تعالى بذلك من حيث إن النذر عهد مع الله لا يحل نكثه سيما إذا قصد رضاء الله تعالى.

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: فأعطينا الذين آمنوا إيماناً صحيحاً ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من العيسيين، وهو الإيمان بمحمد ﷺ بعد رعاية رهبانيتهم لا مجرد رعايتها؛ فإنها بعد البعثة لغو محض، وكفر بحت، وأنى لهم استتباع الأجر. قال في «كشف

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

الأسرار»: لما بعث محمد ﷺ ولم يبق منهم إلا قليل حط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب الدير من ديره، فآمنوا به ﷺ، وهم المرادون بقوله: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾. والصومعة: كل بناء متصومع الرأس؛ أي: متلاصقه. والدير: خان النصارى، وصاحبه ديار.

أي: فآتينا الذين آمنوا منهم ﴿أَجْرَهُمْ﴾ الذي يستحقونه بالإيمان، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى، وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد ﷺ لما بعثه الله تعالى؛ أي: أعطيناهم ما يحسن، ويليق بهم من الأجر، وهو الرضوان الذي طلبوه برهبانيتهم، وبإيمانهم بمحمد ﷺ.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من العيسيين، وهم الذين ابتدعوا فضيعوا، وكفروا بمحمد ﷺ ﴿فَـٰسِقُونَ﴾؛ أي: خارجون عن حد الاتباع، وهم الذين تهودوا وتنصروا؛ أي: خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به؛ ووجه[1] الذم لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع، أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة، وأن الله يرضاها، فكان تركها، وعدم رعايتها حق الرعاية يدل على عدم مبالاتهم بما يعتقدونه ديناً، وأما على القول: بأن الاستثناء متصل؛ وأن التقدير: ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله بعد أن وفقناهم لابتداعها، فوجه الذم ظاهر.

والمعنى[2]: أي فما حافظوا على هذه الرهبانية المبتدعة، وما قاموا بما التزموه حق القيام، بل ضيعوها وكفروا بدين عيسى بن مريم، فضموا إليه التثليث، ودخلوا في دين الملوك الذين غيروا وبدلوا. وفي هذا ذم لهم من وجهين:

١ - أنهم ابتدعوا في دين الله ما لم يأمر به.

٢ - أنهم لم يقوموا بما فرضوه على أنفسهم بما زعموا أنه قربة يقربهم إلى ربهم. وقد كان ذلك كالنذر الذي يجب رعايته، والعهد الذي يجب الوفاء به.

روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: «قال لي رسول الله ﷺ: يا ابن مسعود قلت: لبيك يا رسول الله قال: «اختلف من كان قبلنا على إحدى وسبعين

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

فرقة نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم، فرقة من الثلاث وازت الملوك، وقاتلتهم على دين الله، ودين عيسى ابن مريم صلوات الله عليه، فقتلتهم الملوك، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك، فأقاموا بين ظهراني قومهم يدعونهم إلى دين الله، ودين عيسى ابن مريم صلوات الله عليه، فقتلتهم الملوك بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك، ولا بالمقام بين ظهراني قومهم يدعونهم إلى دين الله، ودين عيسى ابن مريم صلوات الله عليه فلحقوا بالبراري، والجبال فترهبوا فيها، فهو قول الله عزّ وجلّ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية. فمن آمن بي، واتبعني وصدقني فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون».

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾ الآية؛ أي: فأعطينا الذين آمنوا منهم إيماناً صحيحاً طبعت آثاره في أعمالهم، فزكوا أنفسهم وأخبتوا لربهم، وأدوا فرائضه أجورهم التي استحقوها كفاء ما عملوا، وكثير منهم فسقوا عن أمر الله واجترحوا الشرور والآثام، وظهر فسادهم في البر والبحر، بما كسبت أيديهم فكبكبوا في النار، وباءوا بغضب من الله، ولهم عذاب عظيم.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسل المتقدمين بالتقوى والإيمان بمحمد ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: بالرسل المتقدمة ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: بمحمد ﷺ، وفي إطلاقه إيذان بأنه علم فرد له في الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره. ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾؛ أي: نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل، لكن لا على أن شريعتهم باقية بعد البعثة بل على أنها كانت حقًّا قبل النسخ. ونقل عن الراغب: الكفل: الحظ الذي فيه الكفالة، كأنّه تكفل بأمره، والكفلان هما النصيبان المرغوب فيهما بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ انتهى.

وقيل[1]: النداء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نداء لمن آمن به من أمة محمد ﷺ، فمعنى ﴿ءَامِنُوا۟﴾: داوموا واثبتوا على إيمانكم، وهكذا المعنى في كل أمر يكون المأمور متلبساً بما أمر به يؤتكم كفلين. قال أبو موسى الأشعري: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ ضعفين بلسان الحبشة، انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى: أنه يؤتكم مثل ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ إذ أنتم مثلهم في الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله. وروي: أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، وادعوا الفضل عليهم فنزلت هذه الآية.

وقيل: النداء للمنافقين.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم اتقوا الله، وآمنوا بقلوبكم إيماناً صحيحاً. ويؤيد المعنى الأول ما رواه الشعبي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق مواليه، وحق الله عز وجل، ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها، فأحسن تأديبها، وعلمها، وأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران» متفق عليه.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ على الصراط وبين الناس حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ فهو[1] الضياء الذي يمشون به على الصراط إلى أن يصلوا إلى الجنة.

وذلك لأن جهنم خلقت من الظلمة، إذ هي صورة النفس الأمّارة بالسوء، وهي ظلمانية، فنور الإيمان والتقوى يدفعها ويزيلها. وقيل المعنى: ويجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدوا به ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما أسلفتم من الذنوب والمعاصي. فأما حسنات الكفار فمقبولة بعد إسلامهم على ما ورد في الحديث الصحيح، كما رواه مسلم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي مبالغ في المغفرة والرحمة.

والمعنى[2]: أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله من أهل الكتابين: التوراة والإنجيل، خافوا الله بأداء طاعته واجتناب معاصيه، وآمنوا بمحمد ﷺ يعطكم ضعفين من الأجر لإيمانكم بعيسى، والأنبياء قبل محمد ﷺ ثم بإيمانكم بمحمد بعد أن بعث نبياً، ويجعل لكم نوراً تستبصرون به من العمى والجهالة، ويغفر لكم ما أسلفتم من الذنوب، وما فرطتم في جنب الله، والله واسع المغفرة لمن يشاء، رحيم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

بعباده يقبل توبتهم متى أنابوا إليه وخشعت له قلوبهم.

والخلاصة[1]: أنه تعالى وعد المؤمنين برسوله بعد إيمانهم بالأنبياء قبله بأمور ثلاثة:

١ ـ أن يضاعف لهم الأجر والثواب.

٢ ـ أن يجعل لهم نوراً بين أيديهم، وعن شمائلهم يوم القيامة يهديهم إلى الصرط السوي ويوصلهم إلى الجنة.

٣ ـ أن يغفر لهم ما اجترحوا من الذنوب والآثام.

ثم رد على أهل الكتاب الذين خصوا فضل الرسالة بهم، فقال: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ﴾ واللام[2] فيه متعلقة بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة معنى الشرط، إذ التقدير: إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله.. يؤتكم كذا وكذا لئلا يعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب؛ أي: ليعلموا، و﴿لا﴾ مزيدة كهي في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ كما ينبىء عنه قراءة ﴿ليعلم﴾، وقراءة ﴿لكي يعلم﴾، وقراءة ﴿لأن يعلم﴾ بإدغام النون في الياء. قال في «كشف الأسرار»: وإنما يحسن إدخالها في كلام يدخل في أواخره، أو في أوائله جحد، اهـ. و﴿أن﴾ في قوله: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، وجملتها في حيز النصب علي أنها مفعول ﴿يَعْلَمَ﴾؛ أي: ليعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله الذي تفضل به على من آمن، بمحمد ﷺ من الكفلين والنور والمغفرة، ولا يتمكنون من نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذي هو الإيمان بمحمد ﷺ، ولا يقدرون على دفع ذلك الفضل الذي تفضل الله به على المستحقين له. وجملة ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى معطوفة على جملة ﴿أن﴾ المخففة؛ أي: ليعلموا أنهم لا يقدرون، وليعلموا أن الفضل بيد الله سبحانه. وقوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ خبر ثان؛ لأنَّ أو هو الخبر، والجار والمجرور في محل نصب على الحال. وجملة قوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها؛ أي: والله واسع الفضل، كثير العطاء، يمنحه من شاء من عباده،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

لا يخص به قوماً دون آخرين، ولا شعباً دون آخر. والمراد بالفضل هنا: ما تفضل به على الذين اتقوا، وآمنوا برسوله ﷺ من الأجر المضاعف، وقال الكلبيّ: هو رزق الله، وقيل: نعم الله التي لا تحصى، وقيل: هو الإسلام. وقيل[1]: إن ﴿لا﴾ في ﴿لئلا﴾ غير مزيدة، وضمير ﴿لا يقدرون﴾ للنبيّ ﷺ وأصحابه، والمعنى: لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي، والمؤمنون على شيء من فضل الله الذي هو عبارة عما أوتوه. والأول أولى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ بلا المزيدة. وقرأ خطاب بن عبد الله ﴿لأن يعلم﴾. وقرأ عبد الله، وابن عباس، وعكرمة، وعبد الله بن سلمة ﴿ليعلم﴾ وقرأ الجحدري ﴿لِيَنْيَعَلَمَ﴾، أصله: لأن يعلم، قلبت الهمزة ياء لكسرة ما قبلها، وأدغم النون في الياء بغير غنة كقراءة خلف ﴿أن يَضْرب﴾ بغير غنّةٍ، وروى ابن مجاهد عن الحسن ﴿لَيْلاَ﴾ مثل: ليلى اسم امرأة، ﴿يعلم﴾ برفع الميم، أصله: لأن لا بفتح لام الجر، وهي لغة فحذفت الهمزة اعتباطاً، وأدغمت النون في اللام، فاجتمعت الأمثال وثقل النطق بها فأبدلوا من الساكنة ياء، فصار ليلاً ورفع الميم لأن ﴿أن﴾ هي المخففة من الثقيلة لا الناصبة للمضارع، إذ الأصل لأنه لا يعلم. وروى قطرب عن الحسن أيضاً ﴿لئلا﴾ بكسر اللام، وتوجيهه كالذي قبله إلا أنه كسر اللام على اللغة المشهورة في لام الجر. وعن ابن عباس ﴿كَيْ يَعْلَم﴾، وعنه: ﴿لِكَيْلا يعلم﴾. وعن عبد الله، وابن جبير، وعكرمة ﴿لكي يعلم﴾. وقرأ الجمهور[3] ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ بالنون، فأن هي المخففة من الثقيلة. وقرأ عبد الله بحذفها، فأن هي الناصبة للمضارع. والله أعلم.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾،

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

﴿وَأَقْرَضُواْ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على صلة أل في ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾، والتقدير: إن الذين اصدقوا وأقرضوا الله، ولفظ الجلالة الله مفعول به، و﴿قَرْضًا﴾ مفعول مطلق، ﴿حَسَنًا﴾ صفة ﴿قَرْضًا﴾، ﴿يُضَٰعَفُ﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، ويجوز أن يكون نائب الفاعل ضمير التصدق، ولكنه على تقدير مضاف. ﴿وَلَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يُضَٰعَفُ﴾؛ أي: يضاعف لهم ثواب التصدق. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿أَجْرٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة ﴿أَجْرٌ﴾. والجملة الاسمية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿يُضَٰعَفُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَرُسُلِهِۦٓ﴾ معطوف على الجلالة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثان، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وخبره خبر الأوّل. ويجوز أن يكون ﴿هُمُ﴾ مبتدأ ثالثاً، و﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ خبره، و﴿هُمُ﴾ مع خبره خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول. ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ إمّا معطوف على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ والوقف عنده تام أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء، ويجوز أن تكون ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأ، وخبره إما الظرف بعده أعني: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والثاني: أنه قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿أَجْرُهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿نُورُهُمْ﴾ معطوف على ﴿أَجْرُهُمْ﴾، و﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال من أجرهم؛ أي: حال كونه مدّخراً لهم عند ربهم. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلته، ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلق بـ ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثان، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. والجملة خبر الموصول، وجملة الموصول مستأنفة.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فعل أمر، و﴿الواو﴾ فاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتحقير الدنيا، وبيان هوان أمرها. ﴿أَنَّمَا﴾ ﴿أنّ﴾ مكفوفة، و﴿ما﴾ كافّة، ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ صفة، ﴿لَعِبٞ﴾ خبر. والجملة الاسمية سادة مسد مفعولي ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾. ﴿وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ﴾ معطوفات على ﴿لَعِبٞ﴾، ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ ظرف متعلق بمحذوف، صفة لـ ﴿تفاخر﴾، و﴿تكاثر﴾ معطوف على ﴿لَعِبٞ﴾، ﴿فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ متعلق بـ ﴿تكاثر﴾، ﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾، ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: مثلها كمثل غيث أو حال من معنى ما تقدم؛ أي: ثبتت لها هذه الصفات حال كونها مشبهة بغيث. ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ﴾ فعل، ومفعول مقدم، ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ فاعل، والجملة في محل الجر صفة لـ ﴿غَيۡثٍ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع التراخي، ﴿يَهِيجُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على النبات، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَعۡجَبَ﴾. ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿ترى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير المخاطب، والهاء: مفعول له، ﴿مُصۡفَرّٗا﴾ حال. لأن الرؤية هنا بصرية، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَهِيجُ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، ﴿يَكُونُ﴾ فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على النبات، ﴿حُطَٰمٗاۖ﴾ خبره. والجملة معطوفة على جملة ﴿تراه﴾. ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الواو: عاطفة، ﴿في الآخرة﴾ خبر مقدم، ﴿عَذَابٞ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿شَدِيدٞ﴾ صفة لـ ﴿عَذَابٞ﴾. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾. ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ معطوف على ﴿عَذَابٞ﴾، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ ﴿مغفرة﴾، ﴿وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾ معطوف على ﴿مغفرة﴾. ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلدُّنۡيَآ﴾ صفة لـ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿مَتَٰعُ﴾ خبر المبتدأ، ﴿ٱلۡغُرُورِ﴾ مضاف إليه. والإضافة فيه بيانية. والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (٢١)﴾.

﴿سَابِقُوٓاْ﴾ فعل أمر، وفاعل. والجملة مستأنفة مسوقة لبيان أسباب المفاخرة الحقيقية التي يصح التفاخر بها. ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ متعلق بـ ﴿سَابِقُوٓاْ﴾، ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ صفة لـ ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾، ﴿وَجَنَّةٍ﴾ معطوف على ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾، ﴿عَرۡضُهَا﴾ مبتدأ، ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه خبر المبتدأ، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

والجملة صفة لـ﴿جنة﴾، ﴿أُعِدَّتْ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود إلى الجنّة. والجملة صفة ثانية لـ ﴿جنة﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة. ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أُعِدَّتْ﴾، ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ معطوف على الجلالة. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿يُؤْتِيهِ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، ومفعول أول، ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مفعول ثان، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿يُؤْتِيهِ﴾ حال من ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ﴾ خبره، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْفَضْلِ﴾. والجملة مستأنفة.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾.

﴿مَا﴾ نافية، ﴿أَصَابَ﴾ فعل ماض، ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾ فاعل، و﴿مِن﴾ زائدة، وذكّر الفعل لأن المصيبة مجازيّ التأنيث، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صفة لـ ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ أو متعلق بها، أو متعلق بـ ﴿أَصَابَ﴾، ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ معطوف على في الأرض. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ حال من مصيبة لتخصصها بالوصف، أو بالعمل، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: إلا وهي كائنة في كتاب، والجملة أيضاً حال من ﴿مُّصِيبَةٍ﴾. ﴿مِن قَبْلِ﴾ متعلق بما تعلق به قوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾؛ أي: إلا ثابتة في كتاب من قبل أن نبرأها، أو صفة لكتاب؛ أي: كتاب كائن من قبل أن نبرأها، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ فعل مضارع، ومفعول به، وفاعله ضمير المتكلم المعظم نفسه، يعود على الله سبحانه، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من قبل برئنا إياها. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَسِيرٌ﴾، و﴿يَسِيرٌ﴾ خبره. وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿لِّكَيْلَا﴾ اللام: حرف جرّ وتعليل، ﴿كي﴾ حرف نصب ومصدر بمنزلة أن المصدرية وليست للتعليل لئلا يلزم علينا اجتماع حرفي تعليل في معلّل واحد، و﴿لا﴾ نافية ﴿تَأْسَوْا۟﴾ فعل مضارع منصوب بكي، وعلامة نصبه حذف النون، والواو: فاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أعلمناكم ذلك أو أخبرناكم لكيلا تأسوا؛ أي لعدم أساكم. ﴿عَلَىٰ مَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تَأْسَوْا۟﴾، ﴿فَاتَكُمْ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَا﴾، ومفعول به،

والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٍ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَفْرَحُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿تَأْسَوْاْ﴾، و﴿لَا﴾ نافية، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿تَفْرَحُواْ﴾، وجملة ﴿ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ومتعلق ﴿فَاتَكُمْ﴾ و﴿ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ محذوف، تقديره: من النعم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُحِبُّ﴾ خبره. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿كُلَّ مُخْتَالٖ﴾ مفعول به، ﴿فَخُورٍ﴾ نعت مختال، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من قوله: ﴿كُلَّ مُخْتَالٖ﴾؛ أي: لا يحب الذين يبخلون، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين يبخلون، أو منصوب على الذمّ، وجملة ﴿يَبْخَلُونَ﴾ صلة الموصول. ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول معطوف على ﴿يَبْخَلُونَ﴾، ﴿بِٱلْبُخْلِۗ﴾ متعلق بـ ﴿يأمرون﴾، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ الواو: استئنافية، ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع، مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما، ﴿يَتَوَلَّ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلّة. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطة وجوباً لكون الجواب جملة اسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، وفي قراءة سقوطه وهو مما يرجح كونه فصلاً لا مبتدأ، ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ خبر ثان لها، والجملة الاسمية في محل الجزم على كونها جواباً لمن الشرطية، وجملة من الشرطية مستأنفة.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ﴾ اللام: موطئة للقسم، ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فعل، وفاعل، ﴿رُسُلَنَا﴾ مفعول به، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ حال من ﴿رُسُلَنَا﴾؛ أي: حال كونهم مؤيدون بالمعجزات، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿مَعَهُمُ﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال مقدرة من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول به؛ أي: وأنزلنا الكتاب حال كونه آيلاً وصائراً،

لأن يكون معهم إذا وصل إليهم في الأرض. ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ معطوف على الكتاب، ﴿لِيَقُومَ﴾ اللام: حرف جرّ وتعليل، ﴿يقوم﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ﴿ٱلنَّاسُ﴾ فاعل، ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ متعلق بـ ﴿يقوم﴾. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لقيام الناس بالقسط، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أنزلنا﴾ و﴿أَرۡسَلۡنَا﴾. لأنه علة للإرسال والإنزال. ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ﴿فِيهِ﴾ خبر مقدم، ﴿بَأۡسٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلۡحَدِيدَ﴾؛ أي: فيه قوة ومنعة، ﴿شَدِيدٌ﴾ صفة ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ معطوف على بأس، ﴿لِلنَّاسِ﴾ صفة لـ ﴿منافع﴾، ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ الواو: عاطفة على محذوف، واللام: حرف جرّ وتعليل، ﴿يعلم﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، و﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَنصُرُهُۥ﴾ صلة لمن، ﴿وَرُسُلَهُۥ﴾ معطوف على الهاء؛ أي: وينصر رسله أيضاً، ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حال من مفعول ينصره؛ أي: غائباً عنهم غير مرئيّ لهم في الدنيا، وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور معطوف على تعليل محذوف، دل عليه ما قبله، تقديره: وأنزلنا الحديد ليستعملوه وينتفعوا به وليعلم الله علماً يتعلق بالجزاء من ينصره ورسله باستعمال السيوف والرماح في مجاهدة أعدائه، أو معطوف على قوله: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾. والأوّل أولى خلافاً لما قاله الشوكاني كما مرّ؛ لأن هذا ليس علة للإرسال. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ خبران له، والجملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم السابق. ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ معطوف على ﴿نُوحًا﴾، ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ في موضع المفعول الثاني لـ ﴿جعلنا﴾، ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ مفعول أوّل لـ ﴿جعلنا﴾، ﴿وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ معطوف على ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾، ﴿فَمِنۡهُم﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت

إرسالنا، وجعلنا المذكور وأردت بيان مآلهم بعد ذلك فأقول لك. ﴿مِّنۡهُم﴾ خبر مقدم، ﴿مُّهۡتَدٍ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَكَثِيرٌ﴾ مبتدأ، ﴿مِّنۡهُم﴾ صفة لـ ﴿كثير﴾، ﴿فَٰسِقُونَ﴾ خبره. والجملة معطوفة على قوله: ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٍ﴾.

﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةً وَرَحۡمَةً وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٌ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب، ﴿قَفَّيۡنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿جعلنا﴾، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ متعلق بـ ﴿قَفَّيۡنَا﴾، ﴿بِرُسُلِنَا﴾ مفعول به لـ ﴿قَفَّيۡنَا﴾، والباء: زائدة، ﴿وَقَفَّيۡنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿قَفَّيۡنَا﴾ الأول، ﴿بِعِيسَى﴾ مفعول به، والباء: زائدة، ﴿ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ صفة لـ ﴿عيسى﴾، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعولان معطوف على ﴿قَفَّيۡنَا﴾ الثاني، ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿آتيناه﴾، ﴿فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه في موضع المفعول الثاني لـ ﴿جعلنا﴾، ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿رَأۡفَةً﴾ مفعول أول لـ ﴿جعلنا﴾ ﴿وَرَحۡمَةً وَرَهۡبَانِيَّةً﴾ معطوفان على ﴿رَأۡفَةً﴾ ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة صفة لـ ﴿رهبانية﴾. ويجوز أن يكون ﴿رهبانية﴾ منصوباً على الاشتغال بفعل محذوف يفسّره المذكور بعده، تقديره: وابتدعوا رهبانية، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿جعلنا﴾. وجملة ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ جملة مفسرة، لا محل لها من الإعراب. والرهبانية: رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن، واتخاذ الصوامع. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿كَتَبۡنَٰهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلق بـ ﴿كتبنا﴾. والجملة صفة ثانية لـ ﴿رهبانية﴾ أو مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ منصوب على الاستثناء، إن قلنا: إن الاستثناء منقطع بمعنى لكن، أو منصوب على أنه مفعول لأجله إن قلنا: إن الاستثناء متصل؛ أي: ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا لابتغاء مرضاة الله تعالى، ويكون ﴿كتب﴾ بمعنى قضى. ﴿رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿رَعَوۡهَا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾، ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿رِعَايَتِهَا﴾ مضاف

إليه، ﴿فَـَٔاتَيۡنَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿آتينا الذين﴾ فعل، وفاعل، ومفعول أول، معطوف على قوله: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل، وفاعل، صلة الموصول، ﴿مِنۡهُمۡ﴾ حال من الموصول، ﴿أَجۡرَهُمۡۖ﴾ مفعول ثان لـ ﴿آتينا﴾، ﴿وَكَثِيرٞ﴾ الواو: استئنافية، ﴿كثير﴾ مبتدأ، ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ صفة له، ﴿فَٰسِقُونَ﴾ خبر، والجملة مستأنفة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، والهاء،: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ ﴿أيّ﴾ أو بدل منه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل ماض، وفاعل والجملة صلة الموصول، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل أمر، وفاعل، ومفعول به، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَءَامِنُواْ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿ٱتَّقُواْ﴾، ﴿بِرَسُولِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿وَءَامِنُواْ﴾ ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود على الله، ومفعول أول مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف حرف العلة. والجملة جواب الطلب، لا محل لها من الإعراب، ﴿كِفۡلَيۡنِ﴾ مفعول ثان لـ ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾، ﴿مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ صفة لـ ﴿كِفۡلَيۡنِ﴾، ﴿وَيَجۡعَل﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾ ﴿لَّكُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿يجعل﴾، وهو في موضع المفعول الثاني، ﴿نُورٗا﴾ مفعول أول لـ ﴿يجعل﴾، وجملة ﴿تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ صفة لـ ﴿نُورٗا﴾، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ معطوف على ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾ أيضاً، ﴿لَكُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿يغفر﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، ﴿غَفُورٞ﴾ خبر أول، ﴿رَّحِيمٞ﴾ خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لِّئَلَّا﴾ اللام: حرف جر وتعليل، ﴿أن﴾ حرف مصدر ونصب، و﴿لا﴾ زائدة، ﴿يَعۡلَمَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن المصدرية، ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فاعل، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لعلم أهل الكتاب، الجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: إن تتقوا الله، وتؤمنوا برسوله يؤتكم كذا وكذا لعلم أهل الكتاب؛ أي: ليعلموا. ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ﴾ ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة،

واسمها ضمير الشأن، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يَقْدِرُونَ﴾ فعل وفاعل، ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَقْدِرُونَ﴾، ﴿مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾، وجملة ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿علم﴾؛ أي: فعلنا ذلك بكم ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على شيء من فضل الله. ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ ناصب واسمه، ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ خبره، وجملة أن معطوفة على ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾، داخل في حيز المعلوم. وجملة ﴿يُؤْتِيهِ﴾ مستأنفة، أو خبر ثان لـ ﴿أنّ﴾، والهاء مفعول أول لـ ﴿يُؤْتِيهِ﴾، لأنّه بمعنى أعطى. ﴿من﴾ اسم موصول مفعول ثان ليؤتيه، جملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلته. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْفَضْلِ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ قرىء بتشديد الصاد والدال فيهما اسم فاعل من تصدق الخماسي من باب تفعل، وأصله: المتصدّقين والمتصدّقات أبدلت التاء صاداً، ثم أدغمت في الصاد فاء الكلمة. وقرىء ﴿إِنَّ ٱلْمُصَدِّقِينَ وَٱلْمُصَدِّقَاتِ﴾ بتخفيف الصاد فيهما اسم فاعل من صدّق الرباعي من باب فعّل المضعّف العين. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مصدر حذفت زوائده، أصله: إقراضاً حسناً نظير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾؛ أي: إنباتاً، والإقراض الحسن: هو عبارة عن الدفع بالمال الطيّب بطيب نفس، وخلوص نيّة ابتغاء مرضاة الله تعالى، لا يريدون جزاء ممن أعطوه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ جمع صديق، وهو من أوزان المبالغة ولا يجيء إلا من ثلاثي غالباً، اهـ سمين. وفرقوا بين الصديق، والصادق بأن الصادق كالمخلص بالكسر من تخلص من شوائب الصفات النفسانية مطلقاً كالرياء، والسمعة والصديق كالمخلص بالفتح من تخلص أيضاً عن شوائب الغيرية، والثاني أوسع فلكاً، وأكثر إحاطة، فكل صديق ومخلص بالفتح صادق ومخلص بالكسر من غير عكس، اهـ من الروح.

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ واللعب: إتعاب النفس بلا فائدة كفعل الصبيان، واللهو: شغل النفس عما يهمك من أعمال الآخرة، والتفاخر بالأنساب والأحساب، والفخر:

المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان: كالمال والجاه.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ والغيث: المطر المحتاج إليه؛ لأنّه يغيث الناس من الجدب عند قلة المياه، فهو مخصوص بالمطر النافع بخلاف المطر؛ فإنه عام. ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾؛ أي: الحرّاث والزرّاع. قال الأزهري: والعرب تقول للزارع: كافر، لأنه يكفر؛ أي: يستر بذره بتراب الأرض، والكفر في اللغة: التغطية، ولهذا سمي الكافر كافراً؛ لأنه يغطي الحق بالباطل، والكفر أيضاً: القبر لسترها الناس.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يقال: هاج النبت هيجاً وهيجاناً، وهياجاً بالكسر إذا يبس، والهائجة: أرض يبس بقلها أو اصفر، وأهاجه أيبسه وأهيجها وجدها هائجة للنبات. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ قال في «القاموس»: الحطم: الكسر أو خاص باليابس.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أصله: أعتددت، قلبت التاء دالاً فأدغمت الدال في الدال فصار أعدت؛ أي: هيئت. ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ والمصيبة أصلها في الرمية، يقال: أصاب السهم إذا وصل إلى المرمى الصواب، ثم اختص بالنائبة والحادثة. وأصل ﴿أَصَابَ﴾ أصوب بوزن أفعل، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الصاد، فسكنت لكنها أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن. ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ أصله: مصوبة بوزن مفعلة اسم فاعل من أصاب الرباعي، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الصاد فسكنت إثر كسرة فقلبت ياء حرف مد.

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ مضارع منصوب بحذف النون، والواو: فاعل. وأصله: تأسيون، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصارت تأساون، فالتقى ساكنان: الألف والواو التي هي الفاعل، فحذفت لالتقاء الساكنين، فصار وزنه تفعون، لأن لامه التي هي الياء المنقلبة ألفاً قد حذفت. والمصدر أسى مقصور، فيقال: أسي أسىً مثل: جوي جوىً من باب تعب. فقول بعض النحاة عند الاستشهاد بهذه الآية في باب النواصب. والتقدير: لأجل عدم إساءتكم فيه نظر؛ لما علمت من أن مصدر هذا الفعل أسىً لا إساءة، اهـ شيخنا. وفي «المصباح»: أسي أسىً من باب تعب حزن، فهو أسي على فعيل مثل: حزين اهـ. وفي «المختار»: وأسي على مصيبته من باب عدا أي: حزن، وأسي له أي: حزن له، اهـ.

﴿مَا فَاتَكُمْ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: فوتكم تحركت ﴿الواو﴾ انفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فصار فاتكم. ﴿ءَاتَنكُمْۗ﴾ فيه إعلالان، أصله: أأتيكم بوزن أفعل، أبدلت الهمزة الثانية ألفاً حرف مد مجانساً لحركة الأولى، وقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿مُخْتَالٍ﴾ اسم فاعل من اختال من باب افتعل الخماسي، أصله: مختيل قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. والمختال: هو المتكبر بسبب فضيلة تراءت له من نفسه. والفخور: هو المباهي بالأشياء العارضة: كالمال والجاه، وهو صيغة مبالغة.

﴿بِٱلْبُخْلِۗ﴾ والبخل: إمساك المال عما يجب إخراجه فيه.

﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أصله: موزان بوزن مفعال، من الوزن قلبت ﴿الواو﴾ ياء حرف مد لسكونها إثر كسرة.

﴿قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ والتقفية: جعل الشيء في إثر الشيء على الاستمرار، ولهذا قيل لمقاطع الشعر: قواف. إذ كانت تتبع البيت على أثره مستمرة على منهاجه. وفي المختار: وقفا أثره اتبعه، وبابه عدا، وقفى على أثره بفلان أي: أتبعه إياه، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾، ومنه الكلام المقفى.

﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ والمراد من الرأفة: دفع الشر، ومن الرحمة: جلب الخير، وبذا يكون بينهم مودة.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ والرهبانية: المبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس. وهي هنا عبارة عن ترهبهم في الجبال فارّين بدينهم من الفتنة، مخلصين أنفسهم للعبادة متحملين المشاق من الخلوة واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعبد في الغيران والكهوف. منسوبة إلى الرهبان بفتح الراء، وهو المبالغ في الخوف من رهب، كالخشيان من خشي، ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، وهو الخائف فإن الرهبة: مخافة مع تحزن واضطراب، كما في «المفردات». وهو فعلان من رهب كخشيان من خشي. وقرئت بالضم كأنها نسبت إلى الرهبان جمع راهب كراكب وركبان. وعبارة «القاموس»: والراهب واحد رهبان النصارى، ومصدره الرهبة والرهبانية، أو الرهبان بالضم قد يكون واحداً، وجمعه راهبين ورهابنة ورهبانون. ولا رهبانية في الإسلام، هي كالإخصاء، واعتناق السلاسل، ولبس

المسوح، وترك اللحم، ونحوها، اهـ.

﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ استحدثوها، ولم تكن في دينهم. ﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: طلباً لرضاه، ومحبته، وفيه إعلال بالإبدال، أصله: ابتغاى أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة.

﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾؛ أي: ما حافظوا عليها، أصله: رعيوها، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة.

﴿كِفْلَيْنِ﴾؛ أي: نصيبين ضخمين. والكفل: الحظ. قال المؤرخ السدوسي: الكفل: النصيب بلغة هذيل. وقال غيره: بل بلغة الحبشة. وقال المفضل الضبي: أصل الكفل: كساء يديره الراكب حول سنام البعير، ليتمكن من القعود عليه، والنوم إذا أراده، فيحفظه من السقوط، ففيه حظ من التحرز.

﴿تَمْشُونَ﴾ أصله: تمشيون بوزن تفعلون، أستثقلت الضمة على الياء فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الشين لمناسبة الواو.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ فقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة، وبلوغها حد الاتحاد، كما فعل ذلك أوّلاً حيث قال: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾. وليست المماثلة بين ما للفريق الأول من الأجر والنور، وبين تمام ما للأخيرين من الأصل بدون الإضعاف، فيحصل التفاوت، كذا في «روح البيان»، فراجعه إن شئت.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ...﴾ الآية، حيث مثل الحياة الدنيا في سرعة انقضائها، وقلة جدواها بحال نبات أنبته الغيث فاستوى، وأعجب به الحراث. فوجه التشبيه منتزع من متعدد.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ...﴾ إلخ، فقد طابق بين العذاب والمغفرة في قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ ولكنه طابق بين واحد وشيئين،

فهو من باب: لن يغلب عسر بين يسرين، وسيأتي تفصيله في سورة الانشراح.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾؛ أي: إلا كالمتاع الذي يتخذ من نحو الزجاج، والخزف في كونه مزخرف الظاهر فحذف الأداة ووجه الشبه.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حيث شبه مبادرتهم إلى الطاعات بمسابقة الفرسان في الميدان.

ومنها: التنوين للتعظيم في قوله: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ومنها: التشبه في قوله: ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تمثيلاً للعباد بما يعقلون، ويقع في نفوسهم.

ومنها: تقديم المغفرة على الجنة في قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا﴾ إلخ، لتقدم التخلية على التحلية.

ومنها: الاقتصار على الإيمان في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ إشعاراً بأن مجرد الإيمان كاف في استحقاق الجنة. إذ لم يذكر مع الإيمان شيئاً آخر، ولكن الدرجات مختلفة باختلاف الأعمال.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

ومنها: تخصيص التذييل بالنهي عن الفرح المذكور إيذاناً بأنه أقبح من الأسى.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿يَبْخَلُونَ﴾ و﴿البخل﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾.

ومنها: التهديد في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف.

ومنها: السجع المرصع كأنه الدر المنظوم في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

١ ـ صفات الله وأسماؤه الحسنى، وظهور آثاره في بدائع خلقه.

٢ ـ الحض على الإنفاق.

٣ ـ بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة.

٤ ـ ثواب المتصدقين الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً.

٥ ـ ذم الدنيا وأنها لهو ولعب.

٦ ـ الترغيب في الآخرة وتشمير العزيمة للعمل لها.

٧ ـ التسلية على المصايب.

٨ ـ ذم الاختيال والفخر والبخل.

٩ ـ الحث على العدل.

١٠ ـ الاعتبار بالأمم السالفة.

١١ ـ قصص نوح وإبراهيم.

١٢ ـ إن أهل الكتاب الذين آمنوا برسلهم، وآمنوا بمحمد ﷺ يضاعف لهم الأجر عند ربهم.

١٣ ـ الله يصطفي من رسله من يشاء فهو أعلم حيث يجعل رسالته[١].

والله أعلم

* * *

(١) والحمد لله أوّلاً وآخراً وباطناً وظاهراً وسرّاً وجهراً على إتمام تفسير هذا الجزء السابع والعشرين، لقد بذلت جهدي، وطاقتي على حسب القوى البشرية في تلخيصه وتهذيبه وتنقيحه، فرحم الله أمرءاً نظر فيه بعين الإنصاف، فسامح ووقف في التصحيح على خطأ فأصلح، وأعوذ بالله من حاسد إذا حسد وبغى، واستغفره جل اسمه من قلم زل، وسهى أو حرف شيئاً عن موضعه وطغى، وهو حسبي ونعم الوكيل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم تسليماً كثيراً =

شعرٌ

الـعَـفْـوُ يُـرْجَـىٰ مِـنْ بَـنِـيْ آدَمٍ   فَـكَـيْـفَ لاَ أَرْتَـجِـيْ مِـنْ رَبِّـيْ
فَـإِنَّـهُ أَرْأَفُ بِـيْ مِـنْـهُـمْ   حَـسْـبِـيْ بِـهِ حَـسْـبِـيْ بِـهِ حَـسْـبِـيْ

آخرُ

يَـا مَـنْ مَـلَـكُـوْتُ كُـلِّ شَـيْءٍ بِـيَـدِهْ   طُـوْبَـىٰ لِـمَـنِ ٱرْتَـضَـاكَ ذُخْـرَاً لِـغَـدِهْ

آخرُ

سُـبْـحَـانَـكَ لاَ عِـلْـمَ لَـنَـا   إِلاَّ مَـا أَلْـهَـمْـتَ لَـنَـا
سُـبْـحَـانَـكَ بِـعَـدِّ مَـا   سَـيَـكُـوْنُ وَكَـانَـا

= وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمكة المكرمة في المسفلة، حارة الرشد، أواخر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من رمضان الليلة الثانية والعشرين منه، من شهور سنة خمس عشرة بعد الأربع مئة والألف ١٤١٥/٩/٢٢ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيّات.

تَمّ بعون الله وتوفيقه المجلد الثامن والعشرون من تفسير «حدائق الروح والريحان»، ويليه المجلد التاسع والعشرون، وأوّله سورة المجادلة.

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد التاسع والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

جَزَىٰ ٱللَّهُ خَيْراً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ   وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ   وَفِطْنَتِهِ، أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخرُ

ٱلصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرَجَّىٰ   وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُوْنُ
وَرُبَّمَا نِيْلَ بِاصْطِبَارٍ   مَا قِيْلَ: هَيْهَاتَ لاَ يَكُوْنُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن موعظة وشفاء لما في الصدور، وجعله منهلاً عذباً للورود والصدور، جمع فيه علوم الأولين والآخرين، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، والصلاة والسلام على من أوحي إليه ذلك القرآن من لوح الوجوب والأمر والشأن، سيدنا محمد الذي أجرى من مُسجَّلِهِ ما يحاكي السلسبيل والرحيق، وأفحم بلاغته كل متكلم منطيق، وفسر الآيات في الأنفس والآفاق، على مراد الله الملك الخلاق، وعلى آله وأصحابه المقتبسين من مشكاة أنواره، المغترفين من بحار أسراره، ومن تبعهم بإحسان ممن تخلق بالقرآن في كل زمان.

أما بعدُ: فيقول العبد الفقير المعترف بذنبه وخطاه، المنادي لربه في عفوه وعطاه، الراجي في إسبال سجاف الندى عليه، المناجي في إرسال رسول الهدى إليه، حفظه الله سبحانه وأخلاءه وأعاذه وإياهم من الشيطان الرجيم، وجعل يومه خيراً من أمسه إلى الإياس من حياة نفسه سمّي محمد الأمين الهرري: إني لمّا فرغت من تفسير الجزء السابع والعشرين من القرآن الكريم عزمت - إن شاء الله تعالى - على الشروع في تفسير الجزء الثامن والعشرين، وإن كان علم التفسير لا يقحم في معاركه كل ذمير وإن كان أسداً، ولا يحمل لواءه كلّ أمير وإن مات حسداً، وذلك أظهر من أن يورد عليه دليل كالنيرين لغير كليل، ومع خطر هذا الأمر فالأمد قصير، وفي العبد تقصير وكم ترى من نحرير كامل في التحرير والتقرير قد أصابه سهم القضاء قبل بلوغ الأمل، وذلك بحلول ريب المنون والأجل، أو بتطاول يد الزمان، فإن الدنيا لا تصفو لشارب وإن كانت ماء الحيوان، وأي وجود لا ينسج عليه عناكب العاهات، وأي نعيم لا يكدره الدهر؟ هيهات، هيهات:

مِحَنُ الزَّمَانِ كَثِيرَةٌ لاَ تَنْقَضِيْ   وَسُرُوْرُهُ يَأْتِيْكَ كَالأَعْيَادِ

اللهم: كما عوّدتني في الأول خيراً كثيراً فيسر لي الأمر في الآخر تيسيراً، واجعل رقيمي هذا سبباً لبياض الوجه يوم تبيض وجوه أولئك، وامح مسودات صحائف أعمالي بحق كتابك الكريم، واعف عني بكل حرف كتبته منه ألف ألف سيئة، واكتب لي بكل حرف رقمته منه ألف ألف حسنة، وارفع لي بكل سطر سطرته

منه ألف ألف درجة في فراديس جنتك ودار كرامتك، ولم أكن بدعائك رب شقياً بكرةً وعشياً ما دمت حياً، فلك الحمد ـ يا إلٰهي ـ في الأولى والأخرى على عنايتك الكبرى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وبتوفيقه أقول، وقولي هذا:

سورة المجادلة

سورة المجادلة نزلت بعد المنافقون، وهي مدنيّةٌ، قال القرطبي: في قول الجميع إلاّ روايةً عن عطاء: أن العشر الأول منها مدني، وباقيها مكّي. وقال الكلبي: نزلت جميعها بالمدينة إلا قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾. فنزلت بمكّة.

وهي اثنتان وعشرون آية وأربع مئة وثلاث وسبعون كلمة، وألف وسبع مئة واثنتان وتسعون حرفاً.

التسميةُ: سميت بالمجادلة ـ بكسر الدال، اسم فاعل على الأصح كما سيأتي عن الشهاب ـ لبيانها قصة المرأة المجادلة ـ خولة بنت ثعلبة ـ في شأن زوجها الذي ظاهر على عادة أهل الجاهلية في تحريم الزوجة بالظهار منها.

المناسبةُ: مناسبتها لما قبلها من وجهين(١):

١ ـ أنّ الأولى ختمت بفضل الله، وافتتحت هذه بما هو من هذاالوادي.

٢ ـ أنه ذكر في مطلع الأولى صفاته الجليلة، ومنها: الظاهر والباطن، وذكر في مطلع هذه أنّه سميع قول المجادلة التي شكت إليه تعالى.

الناسخُ والمنسوخُ فيها: قال محمد بن حزم: سورة المجادلة كلها محكم إلا آية واحدة؛ وهي: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً...﴾ الآية (١٢) من المجادلة، نسخت بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ...﴾ الآية (١٣). فنسخ الله تعالى ذلك بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والطاعة لله وللرسول.

---

(١) المراغي.

سبب نزولها: ما أخرجه أحمد في «المسند» عن عروة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه كل الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا . . .﴾ إلى آخر الآية».

وأخرجه البخاري تعليقاً، والنسائي وابن ماجه وابن جرير والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى
وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن
نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ
مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ
يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ
إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ
بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا
يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا
تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا
ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا
قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن
لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ
عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

المناسبةُ

تقدم لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السابقة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما:

أن الله سبحانه لما ذكر أحكام كفّارة الظهار، وبين أنه إنما شرعها تغليظاً على الناس حتى يتركوا الظهار ـ وقد كان ديدنهم في الجاهلية ـ ويتبعوا أوامر الشريعة، ويلين قيادهم لها، ويخلصوا لله ربهم في جميع أعمالهم، فتصفو نفوسهم وتزكو بصالح الأعمال.. أردف هذا ببيان أنّ من يشاق الله ورسوله، ويعصي أوامره يلحق به الخزي والهوان في الدنيا، وله في الآخرة العذاب المهين في نار جهنم، ثم أعقب ذلك بالوعيد الشديد، فبين أنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو عليم بمناجاة المتناجين، فإن كانوا ثلاثة.. فهو رابعهم، وإن كانوا خمسة.. فهو سادسهم، وإن كانوا أقل من ذلك أو أكثر.. فهو معهم أينما كانوا، فلا تظنوا أنه تخفى عليه أعمالكم وسينبئكم بها عند العرض والحساب، وحين ينصب الميزان، فتلقون جزاء ما كسبت أيديكم، وتندمون ولات ساعة مندم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله[1] سبحانه لمّا ذكر أنّه عليم بالسر والنجوى، وأنه لا تخفى عليه خافية من أمرهم، فهو عليم بما يكون من التناجي بين الثلاثة والخمسة والأكثر والأقل، ومجازيهم على ما يكون به التناجي.. خاطب رسوله معجباً له من اليهود والمنافقين الذين نهوا عن التناجي دون المؤمنين، فعادوا لما نهوا عنه، وما كان تناجيهم إلا بما هو إثم وعدوان على غيرهم، ثم ذكر أنهم كانوا إذا جاؤوا الرسول.. حيوه بغير تحية الله، فيقولون: السام عليك ـ يريدون الموت، ثم يقولون في أنفسهم: لو كان رسولاً.. لعذبنا الله؛ للاستخفاف به، وإن جهنم لكافية جدّ الكفاية لعذابهم، ثم نهى المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم، بل يتناجون بالبرّ والتقوى. ثم بين أن التناجي بالإثم والعدوان من الشيطان، ولن يضيرهم شيء منه إلا بإذن الله، فعليه فليتوكلوا.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما نهى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض من التناجي بالإثم والعدوان.. أمرهم بما يكون سبب التوادّ والتوافق بين بعض المؤمنين وبعضٍ، من التوسع في المجالس حين إقبال الوافد، والانصراف إذا طلب

(١) المراغي.

منكم ذلك. فإذا فعلتم ذلك.. رفع الله سبحانه منازلكم في جنّاته، وجعلكم من الأبرار الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أنّه لما كان المؤمنون يتنافسون في القرب من مجلس الرسول ﷺ لسماع أحاديثه ولمناجاته في أمور الدّين، وأكثروا في ذلك حتّى شق عليه ﷺ، وشغلوا أوقاته التي يجب أن تكون موزعة بين إبلاغ الرسالة والعبادة والقيام ببعض وظائفه الخاصة، فإنه بشر يحتاج إلى قسط من الراحة، وإلى التحنث إلى ربّه في خلواته.. أمرهم الله سبحانه وتعالى بتقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول والحديث معه؛ لما في ذلك من منافع ومزايا:

١ ـ إعظام الرسول، وإعظام مناجاته؛ فإن الشيء إذا نيل مع المشقة استعظم، وإن نيل بسهولة لم يكن له منزله ورفعة شأن.

٢ ـ نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقات المقدمة قبل المناجاة.

٣ ـ وتمييز المنافقين الذين يحبون المال ويريدون عرض الدنيا من المؤمنين حق الإيمان الذين يريدون الآخرة وما عند الله من نعيم مقيم.

قال ابن عباس: أكثروا المسائل على رسول الله ـ ﷺ ـ حتى شقوا عليه، وأراد الله أن يخفّف عن نبيه، وأنزل هذه الآيات، فكفّ كثير من الناس عن المناجاة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات[1]: ما أخرجه الحاكم، وصححه عن عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وتقول: يا رسول الله! أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فما

(١) لباب النقول.

برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ وهو أوس بن الصامت.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان، قال: (كان بين النبي - ﷺ - وبين اليهود موادعة، فكانوا إذا مرّ بهم رجل من الصحابة جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنّهم يتناجون بقتله أو بما يكرهه، فنهاهم النبي - ﷺ - عن النجوى فلم ينتهوا، فأنزل الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه أحمد، والبزار والطبراني بسند جيّد عن عبد الله بن عمرو: أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله - ﷺ -: السام عليكم، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذّبنا الله بما نقول. فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ...﴾ الآية. وفي الباب عن أنس وعائشة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن قتادة قال: كان المنافقون يتناجون بينهم، وكان ذلك يغيظ المؤمنين ويَكْبُر عليهم، فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ...﴾، الآية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير - أيضاً - عن قتادة قال: كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنوا بمجلسهم عند رسول الله - ﷺ -، فنزلت هذه الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل: أنها نزلت يوم الجمعة، وقد جاء ناس من أهل بدر وفي المكان ضيق فلم يفسح لهم، فقاموا على أرجلهم، فأقام - ﷺ - نفراً بعدتهم وأجلسهم مكانهم، فكره أولئك النفر ذلك، فنزلت.

قوله تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ...﴾ الآية فلما نزلت صبر كثير من الناس، وكفوا عن المسألة، فأنزل الله ذلك: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ ...﴾ الآية.

وأخرج الترمذي - وحسنه - وغيره عن علي قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾. قال لي النبي - ﷺ -: «ما ترى ديناراً»؟ قلت: لا يطيقونه، قال: «فنصف دينار»، قلت: لا يطيقونه، قال: «فكم»؟

قلت: شعيرة، قال: «إنك لزهيد»؟ فنزلت: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ...﴾ الآية. فخفف الله عن هذه الأمّة. قال الترمذي: حسن.

التفسير وأوجهُ القراءةِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، وأجاب: ﴿قَوْلَ ٱلَّتِى﴾؛ أي: دعاء المرأة التي ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ وتخاصمك وتراجعك أيّها الرسول الكريم الكلام ﴿فِى﴾ شأن ﴿زَوْجِهَا﴾ أوس بن الصامت. واسمها خولة بنت ثعلبة ـ كما مرّ ـ وتلك المجادَلة: أنّها كلما قال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: «حرمت عليه».. كانت تقول: والله ما ذكر طلاقاً؛ أي: أجاب الله سبحانه دعاءها؛ بأن أنزل سبحانه حكم الظهار على ما يوافق مطلوبها. و﴿سَمِعَ﴾ هنا مجاز مرسل[1] عن أجاب بعلاقة السببية.

والمجادلة: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، والمراد هنا: المكالمة ومراجعة الكلام؛ أي: معاودته.

والمعنى: أي قد أجاب الله دعاء المرأة التي تكالمك في حق زوجها استفتاء، وتراجعك الكلام في شأنه وفيما صدر عنه في حقها من ظهاره إياها بغير وجه مشروع وسبب مقبول.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿قَدْ سَّمِعَ﴾ بإدغام الدال في السين. وقرأ الجمهور بالإظهار. قال خلف بن هشام البزار: سمعت الكسائي يقول: من قرأ ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ فأظهر الدال عند السين.. فلسانه أعجمي ليس بعربيّ. ولا يلتفت إلى هذا القول؛ لأن الجمهور على الإظهار.

﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه: عطف على ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾؛ أي: تتضرع إلى الله تعالى، وتظهر ما بها من المكروه والمشقة. وفي[2] ذكر ﴿قَدْ﴾ إشعار بأن الرسول والمجادلة كانا يتوقعان أن ينزل الله حكم الحادثة، ويفرج عنها كربها؛ لأنها إنما تدخل على ماض متوقع.

وقد مرّ لك أن المجادلة هي خولة بنت ثعلبة بن مالك بن خزاعة الخزرجية،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة. روي: أنّها كانت حسنة البدن، فرآها أوس وهي تصلي، فاشتهى مواقعتها، فلما سلمت.. راودها فأبت وكان به خفّة عقل ـ فغضب عليها بمقتضى البشرية، وقال: أنت عليّ كظهر أمي ـ وكان أول ظهار وقع في الإسلام ـ ثم ندم على ما قال، بناء على أن الظهار والإيلاء كانا من طلاق الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلي وقد حرمت علي، فشقّ ذلك عليها، فأتت رسول الله ـ ﷺ ـ وعائشة رضي الله عنها تغسل شق رأسه ـ فقالت: يا رسول الله! إن زوجي أوس بن الصامت، أبو ولدي، وابن عمي، وأحب الناس إلي، ظاهر مني وما ذكر طلاقاً، وقد ندم على فعله، فهل من شيء يجمعني وإياه؟ فقال ـ ﷺ ـ: «ما أراك إلا وقد حرمت عليه» فقالت: لا تقل ذلك يا رسول الله، وذكرت فاقتها ووحدتها بتفاني أهلها، وأن لها صبية صغاراً، فقالت: إن ضممتهم إليّ جاعوا، وإن ضممتهم إلى أبيهم ضاعوا. فأعاد النبي ـ ﷺ ـ قوله الأول وهو: «حرمت عليه» فجعلت تراجع رسول الله ـ ﷺ ـ مقالتها الأولى، وكلما قال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: «حرمت عليه» هتفت، وقالت: أشكو إلى الله مما لقيت من زوجي حال فاقتي ووحدتي، وقد طالت معه صحبتي ونفضت له بطني؛ تريد بذلك: أني قد بلغت عنده سنّ الكبر وصرت عقيماً لا ألد بعد، وكانت في ذلك ترفع رأسها إلى السماء على ما هو عادة الناس استنزالاً للأمر الإلٰهي من جانب العرش وتقول: اللهم أنزل على لسان نبيك، فقامت عائشة تغسل الشق الآخر من رأسه ـ ﷺ ـ، وهي ما زالت في مراجعة الكلام مع رسول الله ـ ﷺ ـ وبث الشكوى إلى الله سبحانه حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات الأربع سمعاً لدعائها وقبولاً لشكواها، وكانت سبباً لظهور حكم الظهار.

وجملة قوله: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ في محل نصب على الحال من الجلالة، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها، كما سيأتي؛ أي: والله يعلم[1] تراجعكما في الكلام، وتخاطبكما، وتجاوبكما في أمر الظهار. فإن التحاور بمعنى التجاوب، وهو رجع الكلام وجوابه من الحور؛ بمعنى: الرجوع. وذلك كان برجوع الرسول إلى الحكم بالحرمة مرة بعد أخرى، وبرجوع المجادلة إلى طلب التحليل كذلك.

(١) روح البيان.

ومثله: المحاورة في البحث ومنه قولهم في الدعاء: نعوذ بالله من الحور بعد الكور؛ أي: الرجوع إلى النقصان بعد الوصول إلى الزيادة، أو إلى الوحشة بعد الأنس. وقال الراغب: الحور: التردد، إما بالذات وإما بالتفكر. وقيل: نعوذ بالله من الحور بعد الكور؛ أي: من التردد في الأمر بعد المضي فيه، أو من نقصان وتردد في الحال بعد الزيادة فيها. وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدده. وفي نظمها في سلك الخطاب مع أفضل البريّات تغليب، إذ القياس: تحاورها وتحاورك، تشريفاً لها من جهتين. والجملة استئناف جار مجرى التعليل لما قبلها كما مرّ آنفاً. فإن إلحافها في المسألة ومبالغتها في التضرع إلى الله، ومدافعته عليه السلام إياها بجواب منبىء عن التوقف وترقب الوحي، وعلمه تعالى بحالهما.. من دواعي الإجابة. وفي «كشف الأسرار»: ليس هذا تكراراً؛ لأن الأول لما حكته عن زوجها، والثاني لما كان يجري بينها وبين رسول الله - ﷺ -؛ لأن الأول ماضٍ، والثاني مستقبل.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾؛ أي: مبالغ في السمع، يسمع كل مسموع. ﴿بَصِيرٌ﴾؛ أي: مبالغ في الإبصار يبصر كل مبصر، ومن جملة ذلك ما جادلتك به هذه المرأة؛ أي: ومن قضيته أن يسمع تحاورهما، ويرى ما يقارنه من الهيئات التي من جملتها رفع رأسها إلى السماء وسائر آثار التضرع.

وفي الآية دليل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق، ولم يبق له في مهمه أحد سوى ربه، وصدق في دعائه وشكواه.. كفاه الله في ذلك، ومن كان أضعف.. فالرب به ألطف. ولقد أجاد من قال:

يَا مَنْ يَرَىٰ مَا فِيْ ٱلضَّمِيْرِ وَيَسْمَعُ ... أَنْتَ ٱلْمُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرَجَّىٰ لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... يَا مَنْ إِلَيْهِ ٱلْمُشْتَكَىٰ وَٱلْمَفْزَعُ
مَا لِي سِوَىٰ قَرْعِيْ لِبَابِكَ حِيْلَةٌ ... وَلَئِنْ رُدِدْتُ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ
حَاشَا لِجُوْدِكَ أَنْ تُقَنِّطَ عَاصِيًا ... ٱلْفَضْلُ أَجْزَلُ وَٱلْمَوَاهِبُ أَوْسَعُ

وقد شاهدنا مشهداً عجيباً في إجابة الدعاء عند قراءة هذه الأبيات في الشدائد والنوائب، وفي المعارك.

وفي الآية أيضاً: أن من استمع الله ورسوله والورثة إلى كلامه.. فسائر الناس أولى.

روي: أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مر بهذه المرأة في خلافته، وهو على حمار والناس معه، فاستوقفته طويلاً ووعظته، وقالت: يا عمر! قد كنت تدعى عميراً، ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر؛ فإنه من أيقن الموت.. خاف الفوت، ومن أيقن الحساب.. خاف العذاب. وهو واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف الطويل؟ فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره ما زلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة، سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟!

ثم اعلم: أنه من أكبر الذنوب أن يقول الرجل لأخيه: اتق الله، فيقول في جوابه: عليك نفسك؛ أي: الزم نفسك، أنت تأمرني بهذا؟! وذلك لأنه إذا ذكر اسم الله.. يلزم التعظيم له، سواء صدر من مسلم أو كافر، وأعلم الناس لا يستغني عن تنبيه وإيقاظ، وقد قيل: اللائق بالعاقل أن يكون كالنحل يأخذ من كل شيء ثم يخرجه عسلاً، فيه شفاء من كل داء، وشمعاً له منافع لا سيما الضياء، فطالب الحكمة يأخذها من كل مقام سواء قعد أو قام.

ٱلْمَرْءُ لَوْلاَ عُرْفُهُ فَهُوَ ٱلدُّمَىٰ   وَٱلْمِسْكُ لَوْلاَ عَرْفُهُ فَهُوَ ٱلدَّمُ

العرف الأول ـ بالضم ـ بمعنى المعروف، والثاني ـ بالفتح ـ: الرائحة الطيبة. والدمى ـ بضم الدال وفتح الميم ـ: جمع دمية، كالدجى جمع دجية، وهي الصورة المنقشة من رخام أو عاج.

ومعنى الآية: أي قد قبل الله سبحانه شكوى المرأة التي تجادلك يا محمد في شأن زوجها، وبث أمرها إلى ربها، وسمع ما سمع من تحاورها معك، والله سميع لما يقال، خبير بحال عباده، فأنزل فيها ما أزال غصتها، وفرج كربتها، وأقر به عينها، وبلّ به ريقها، وأرجع إلى كنفها صبيتها الذين كانوا مصدر شقوتها، وبهم اعتلت ـ تعللت واحتجت ـ على رسوله ﷺ.

ثم بيّن سبحانه شأن الظهار في نفسه، وذكر حكمه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ أيها المؤمنون؛ أي: يحرمون نساءهم على أنفسهم كتحريم الله عليهم ظهور

أمهاتهم، فلا يلحق بهم الذمي؛ لأنه ليس من أهل الكفارة لغلبة جهة العبادة فيها، فلا يصح ظهاره؛ أي: الذين يقع منهم الظهار ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾؛ أي: من زوجاتهم، فيقول أحدهم لامرأته: أنت علي كظهر أمي يريد: أنك علي حرام كما أن أمي عليّ حرام، مخطئون فيما صنعوا.

ثم بيّن وجه خطئهم بقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ...﴾ إلخ. وفي «فتح الرحمٰن»: قال ذلك هنا، وقال بعده: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ لأنّ الأوّل خطاب للعرب خاصة، وكان طلاقهم في الجاهلية الظهار، والثاني بيان أحكام الظهار للناس عامة، انتهى.

وهذا شروع في بيان الظهار نفسه(١)، وحكمه المترتب عليه شرعاً بطريق الاستئناف.

والظهار لغة: مصدر ظاهر الرجل؛ أي: قال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، والظهر: العضو، والجارحة، ويعبر عن البطن بالظهر؛ أي: أنت عليّ حرام كبطن أمي؛ أي: فكنّى عن البطن بالظهر الذي هو عمود البطن لئلا يذكر ما يقارب الفرج، تأدباً.

واعلم: أنه ألحق الفقهاء بالظهر نحو البطن والفخذ والفرج، مما يحرم النظر إليه من الأم، فمن قال: أنت عليّ كبطن أمي أو فخذها أو فرجها.. كان ظهاراً، بخلاف مثل اليد أو الرجل، وكذا ألحقوا بالأم سائر المحارم، فلو وضع المُظاهر مكان الأم ذات رحم محرم منه من نسب، كالخالة والعمة، أو رضاع، أو صهر.. كان ظهاراً؛ مثل أن يقول: أنت عليّ كظهر خالتي أو عمتي أو أختي، نسباً أو رضاعاً، أو كظهر امرأة أبي أو ابني. ولو شبّهها بالخمر أو الخنزير أو الدم أو الميتة، أو قتل المسلم، أو الغيبة أو النميمة، أو الزنا، أو الربا، أو الرشوة.. فإنه ظهار إذا نوى. وفي أنت عليّ كأمي: صح نية الكرامة؛ أي: استحقاق البرّ، فلا يقع طلاق ولا ظهار، وصح نية الظهار؛ بأن يقصد التشبيه بالأمّ في الحرمة.. فيترتب عليه أحكام الظهار لا غير. ونية الطلاق؛ بأن يقصد إيجاب الحرمة، فإن لم

---

(١) روح البيان.

ينو شيئاً.. لغا. وأنت عليّ حرام كأمي: صحّ فيه ما نوى من ظهار أو طلاق أو إيلاء، ولو قال: أنت أمي أو أختي أو بنتي، بدون التشبيه.. فهو ليس بظهار، يعني: إن قال: إن فعلت كذا فأنت أمي، ففعلته.. فهو باطل وإن نوى التحريم. ولو قالت لزوجها: أنت عليّ كظهر أمّي.. فإنه ليس بشيء، وقال الحسن: إنه يمين. والكلام على الظهار مبسوط في كتب الفروع، فراجعها إن أردت الخوض فيه.

وفي إيراد[1] ﴿مِنكُم﴾ مع كفاية ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ مزيد توبيخ للعرب، وتقبيح لعادتهم في الظهار، فإنه كان من أيمان جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم، فلا يليق بهم بعد الإسلام أن يراعوا تلك العادة المستهجنة، فكأنه قيل: منكم على عادتكم القبيحة المستنكرة. ويحتمل أن يكون لتخصيص نفع الحكم الشرعي للمؤمنين بالقبول والاقتداء به؛ أي: منكم أيها المؤمنون المصدّقون بكلام الله، المؤتمرون بأمر الله، إذ الكافرون لايستمعون الخطاب، ولا يعلمون بالصواب.

وفي قوله: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ إشارة إلى أن الظهار لا يكون في الأمة، ومن ذلك قالوا: إن للظهار ركناً، وهو: التشبيه المذكور، وشرطاً وهو: أن يكون المشبه منكوحةً؛ حتى لا يصح من الأمة، وأهلاً وهو: من كان من أهل الكفارة؛ حتى لا يصح من الذمي والصبي والمجنون، وحكماً وهو: حرمة الوطء، حتى يكفّر مع بقاء أصل الملك.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يظّهّرون﴾ بالتشديد مع فتح حرف المضارعة. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَظّاهرون﴾ بفتح الياء، وتشديد الظاء، وزيادة ألف. وقرأ أبو العالية، وعاصم، وزر بن حبيش: ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء، وكسر الهاء. وقد تقدم مثل هذا في سورة الأحزاب. وقرأ أبيّ: ﴿يتظاهرون﴾ بفك الإدغام.

وجملة قوله: ﴿مَّا هُنَّ﴾؛ أي: ما نساؤهم ﴿أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ خبر الموصول؛ أي: ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة، فهو كذب بحت؛ يعني: أنّ من قال لامرأته:

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

أنت عليّ كظهر أمي.. ملحق في كلامه هذا للزوج بالأمّ، وجاعلها مثلها، وهذا تشبيه باطل لتباين الحالين، وكانوا يريدون بالتشبيه الحرمة في المُظَاهر منها كالحرمة في الأم تغليظاً وتشديداً. فإن قيل: فحاصل الظهار مثلاً: أنت محرّمة عليّ كما حرمت علي أمي، وليس فيه دعوى الأمومة حتى تنفى وتثبت للوالدات.. يقال: إن ذلك التحريم في حكم دعوى الأمومة، وأنّ المراد: نفي المشابهة، لكن نفي الأمومة للمبالغة فيه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ بالنصب على اللغة الحجازية في إعمال (ما) عمل (ليس). وقرأ أبو عمرو، والسلمي، والمفضل عن عاصم بالرفع على عدم الإعمال، وهي لغة نجد وبني أسد. وقرأ ابن مسعود ﴿بأمهاتهم﴾ بزيادة الباء.

ثم بيّن سبحانه لهم أمهاتهم على الحقيقة فقال: ﴿إن﴾ نافية بمعنى: (ما) ﴿أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ في الحقيقة والصدق ﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي﴾ جمع التي. أي: ما أمهاتهم إلا النساء اللاتي ﴿وَلَدْنَهُمْ﴾؛ أي: ولدن المظاهرين، فلا تشبه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الشرع بهن من أزواج النبي - ﷺ - والمرضعات، ومنكوحات الآباء لكرامتهن، وحرمتهن، فدخلن بذلك في حكم الأمهات، وأما الزوجات.. فأبعد شيء من الأمومة فلا تلحق بهنّ في وجه من الوجوه.

ثم زاد سبحانه في توبيخهم وتقريعهم، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: وإن المظاهرين منكم ﴿لَيَقُولُونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: فظيعاً قبيحاً من القول، ينكره الشرع، على[2] أنَّ مناط التأكيد ليس صدور القول منهم فإنه أمر محقق، بل كونه منكراً؛ أي: عند الشرع وعند العقل والطبع أيضاً، كما يشعر به تنكيره؛ وذلك لأنّ زوجته ليست بأمه حقيقة، ولا ممن ألحقه الشرع بها، فكان التشبيه بها إلحاقاً لأحد المتباينين بالآخر، فكان منكراً مطلقاً غير معروف ﴿وَزُورًا﴾؛ أي: كذباً باطلاً منحرفاً عن الحق. فإنّ الزور بالتحريك: الميل، فقيل للكذب: زور بالضم لكونه مائلاً عن الحق. قال بعضهم: ولعلَّ قوله: ﴿وَزُورًا﴾ من قبيل عطف السبب على المسبب.

---

(١) الشوكاني والبحر المحيط. (٢) روح البيان.

فإن قلت: قوله: أنت علي كظهر أمي، إنشاء لتحريم الاستمتاع بها وليس بخبر، والإنشاء لا يوصف بالكذب.

قلت: هذا الإنشاء يتضمن إلحاق الزوجة المحللة بالأم المحرمة أبداً، وهذا إلحاق مناف لمقتضى الزوجية، فيكون كاذباً. وقال بعضهم: لمّا كان مبنى طلاق الجاهلية الأمر المنكر الزور لم يجعله الله طلاقاً، ولم تبق الحرمة إلا إلى وقت التكفير.

والمعنى[1]: أي وإنهم ليقولون قولاً منكراً لا يجيزه شرع ولا يرضى به عقل ولا يوافق عليه ذو طبع سليم، فكيف تشبه من يسكن إليها، وتسكن إليه، وجعل بينه وبينها مودةً ورحمة وصلة خاصة لا تكون لأم ولا لأخت بمن جعل صلتها بابنها صلة الكرامة والحنو والإجلال والتعظيم؟ إلى أن الرجل قوام على المرأة، له حق تأديبها إذا اعوجت، وهجرانها في المضاجع إذا جمحت. ولم يعط ذلك الابن ليعامل به أمه؟ فهذا زور وبهتان عظيم. ولا يخفى ما في هذا من الاستهجان وشديد التشنيع على صدور هذا القول منهم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ أي: لكثير العفو والمغفرة لما سلف من الذنب متى تاب فاعله منه؛ إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم عن هذا القول المنكر الزور. والفرق بين المغفرة والعفو: أن العفو محو للذنوب عن صحف الملائكة، والمغفرة سترها عن أعينهم.

ثم فصل حكم الظهار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾؛ أي: والذين يقولون ذلك القول المنكر الفظيع لنسائهم ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾؛ أي: ثم يريدون العود إلى ما حرموا على أنفسهم بلفظ الظهار من الاستمتاع. ففيه تنزيل القول منزلة المقول فيه، واللام فيه بمعنى إلى، لأنّهما قد يتقارضان. أو يعودون لما قالوا إما بالسكوت عن الطلاق بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلقها فيه، كما قاله الشافعي، أو إما باستباحة الوطء والملامسة والنظر إليها بالشهوة ـ كما قاله أبو حنيفة ـ أو بالعزم على جماعها، كما قاله مالك ـ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ أي[2]: فالواجب عليهم إعتاق

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

رقبة مؤمنة، فلا تجزىء كافرة قياساً على كفّارة القتل على ما ذهب إليه الشافعي ومالك، واشترطا أيضاً: سلامتها من كل عيب. أو إعتاق أي رقبة مؤمنة كانت أو كافرة، وإن كان الأولى تحرير المؤمنة على ما قاله أبو حنيفة، وهو الظاهر.

والتحرير: جعل الإنسان حراً، وهو خلاف الرقيق. والرقبة: ذات مرقوق مملوك، سواء كان مؤمناً أو كافراً، ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، هندياً أو رومياً، عربياً أو حبشياً. فيعتقها مقروناً بالنية، وإن كان محتاجاً إلى خدمتها، فلو نوى بعد العتق أو لم ينو.. لم يجزىء، وإن وجد ثمن الرقبة وهو محتاج إليه.. فله الصيام، كما في «الكواشي». ولا يجزىء إعتاق أمّ الولد، والمدبر، والمكاتب الذي أدّى شيئاً، فإن لم يؤدّ.. جاز. ويجب أن تكون سليمة من العيوب الفاحشة بالاتفاق. واشترط الشافعي الإيمان قياساً على كفّارة القتل، كما قال تعالى فيها: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾. قلنا: حمل المطلق على المقيد إنما هو عند اتحاد الحادثتين واتحاد الحكم أيضاً، وهنا ليس كذلك.

و﴿الفاء﴾: فيه رابطة الخبر بالمبتدأ لشبهه بالشرط، وفيها معنى السببية. ومن فوائدها[1]: الدلالة على تكرر وجوب التحرير بتكرر الظهار؛ لأن تكرر السبب يوجب تكرر المسبب، كقراءة آية السجدة في موضعين. فلو ظاهر من امرأته مرتين أو ثلاثاً في مجلس واحد، أو مجالس متفرقة.. لزمه بكل ظهار كفارة. هذا عند الأحناف ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾؛ أي: من قبل أن يستمتع كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر جماعاً وتقبيلاً ولمساً، ونظراً إلى الفرج بشهوة، ذلك لأنّ اسم التماس، يتناول الكلّي، وإن وقع شيء من ذلك قبل التكفير.. يجب عليه أن يستغفر، لأنه ارتكب الحرام. ولا يعود حتى يكفر وليس عليه شيء سوى الكفارة الأولى بالاتفاق. وإن أعتق بعض الرقبة ثمّ مسّ.. فعليه أن يستأنف عند أبي حنيفة، ولا تسقط الكفارة بل يأتي بها على وجه القضاء، كما لو أخّر الصلاة عن وقتها فإنه لا يسقط عنه الإتيان بها بل يلزمه قضاؤها.

وفي الآية دليل على أنّ المرأة لا يجوز لها أن تدع الزوج أن يقربها قبل الكفارة؛ لأنه نهاهما جميعاً عن المسيس قبل الكفارة. قال القهستاني: لها مطالبة

---

(١) روح البيان.

التكفير والحاكم يجبر عليه بالحبس ثم بالضرب، فالنكاح باقٍ والحرمة لا تزول إلا بالتكفير. وكذا لو طلقها ثم تزوجها بعد العدة أو زوج آخر.. حرم وطؤها قبل التكفير، ثم العود الموجب لكفارة الظهار عند أبي حنيفة هو: العزم على جماعها، كما مر. فمتى عزم على ذلك لم تحل له حتى يكفر، ولو مات بعد مدة قبل أن يكفر.. سقطت عنه الكفارة؛ لفوت العزم على جماعها.

والمعنى[1]: أي والذين يقولون هذا القول المنكر الزور ثم يتداركونه بنقضه ويرجعون عمّا قالوا فيريدون المسيس.. فعلى كل منهم عتق عبد أو أمة قبل التماس إن كان ذلك لديه.

ثم بيّن السبب في شرع هذا الحكم، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحكم بالكفارة أيها المؤمنون. وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: تؤمرون به أو تزجرون به؛ لأن الوعظ زجر يقترن بتخويف؛ أي: تزجرون به من ارتكاب المنكر المذكور. فإن الغرامات مزاجر من تعاطي الجنايات. والمراد بذكره: بيان أنّ المقصود من شرع هذا الحكم ليس تعريضكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقبة الذي هو علم في استتباع الثواب العظيم، بل هو ردعكم وزجركم عن مباشرة ما يوجبه.

والحاصل: أن في المؤاخذة الدنيوية نفعاً لكلّ من المظاهر وغير المظاهر؛ بأن يحصل للمُظاهر الكفارة والتدارك، ولغير المُظاهر الاحتياط والاجتناب. وقال الزَّجاج: معنى الآية: ذلكم التغليظ في الكفارة توعظون به؛ أي: إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار، انتهى.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من جناية الظهار والتكفير ونحو ذلك من قليل وكثير ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بظواهرها وبواطنها، ومجازيكم بها، فحافظوا حدود ما شرع لكم، ولا تخلوا بشيء منها.

والمعنى: أي إنه شرع لكم حكم الكفارة عند طلب العودة إلى المسيس ليكون ذلك زاجراً لكم من ارتكاب المنكر، فإن الكفارة تمنع من وقوع الجرم. والله خبير بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها، وهو مجازيكم بها، فانتهوا عن قول المنكر،

---

(١) المراغي.

وحافظوا على ما شرع لكم من الحدود، ولا تخلوا بشيء منها.

ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن التكفير بالإعتاق، فقال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾؛ أي[1]: فالمُظاهر الذي لم يجد الرقبة في ملكه وعجز عن قيمتها فاضلاً عمّا لا بدّ له منه من مسكن وثياب وقوت، والذي غاب ماله.. فهو واجد بأن كان فقيراً وقت التكفير، وهو من حين العزم إلى أن تقرب الشمس من الغروب من اليوم الأخير مما صام فيه من الشهرين، فلا يتحقق العجز الحقيقي إلا بذلك.

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾؛ أي: فعليه صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾؛ أي: متواليين ليس فيهما رمضان ولا الأيام الخمسة المحرم صومها؛ أي: يوما العيد وأيام التشريق الثلاثة فيصومهما بحيث لا يفصل يوماً عن يوم ولا شهراً عن شهر بالإفطار، فإن أفطر فيهما يوماً أو أكثر بعذر أو بغير عذر.. استأنف، ولم يحسب ما صام إلا بالحيض، كما سيأتي. قال الشافعي ومالك وغيرهما: إن أفطر بعذر كمرض وسفر.. لا يستأنف بل يبني على ما صام؛ أي: فعليه صيام شهرين متتابعين ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾؛ أي: من قبل أن يتجامع المظاهِر والمظاهَر منها، ليلاً أو نهاراً، عمداً أو خطأ. ولو جامع زوجةً أخرى ناسياً.. لا يستأنف، ولو أفطرت المرأة للحيض في كفّارة القتل أو الفطر في رمضان.. لا تستأنف، لكنها تصل صومها بأيام الحيض. وقال الشافعي: ولو وطىء ليلاً.. لا يستأنف؛ لأنه ليس محلاً للصوم. والأول أولى[2]. ثم إنه إن صام بالأهلة.. أجزأه، وإن صام ثمانية وخمسين؛ بأن كان كل من الشهرين ناقصاً، وإن صامها بغيرها.. فلا بد من ستين يوماً، حتى لو أفطر صبيحة تسعة وخمسين.. وجب عليه الاستئناف.

والمعنى: أي فمن لم يجد رقبة، ولا ثمنها فاضلاً عن قدر كفايته.. فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين من قبل التماس، فإن أفطر يوماً من الشهرين ولو اليوم الأخير ولو بعذر مرض أو سفر.. لزمه الاستئناف بصوم جديد لزوال التتابع.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ صيام شهرين متتابعين بسبب من الأسباب[3]، كالهرم، والمرض المزمن؛ أي: الممتد الغير المرجو برؤه.. فإنه بمنزلة العاجز من كبر

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

السن، وإن كان يرجى برؤه واشتدت حاجته إلى وطء امرأته.. فالمختار أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام، ولو كفر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام.. أجزأه. ومن الأعذار: الشبق المفرط، وهو: أن لا يصبر عن الجماع، فإنه - ﷺ - رخّص للأعرابي أن يعطي الفدية لأجله. ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾؛ أي: فعليه إطعام ستين مسكيناً من قبل أن يتماسا، حملاً للمطلق هنا على المقيد في الإعتاق والصيام عند غير أبي حنيفة، فيجب تقديمه على المسيس عند غيره، ولو وطىء في خلال الإطعام.. استأنف. وأما عند أبي حنيفة: فلا يستأنف، لأنه تعالى لم يذكر التماس مع الإطعام، وقيد المسكين اتفاقي؛ لجواز صرفه إلى غيره من مصارف الزكاة.

يقول الفقير: إنما خصّ المسكين بالذكر لكونه أحق بالصدقة من سائر مصارف الزكاة. وإطعام ستين مسكيناً يشمل ما كان حقيقياً وما كان حكمياً؛ بأن يطعم واحداً ستين يوماً، فإنه في حكم ستين مسكيناً، وإن أعطاه في يوم واحد وبدفعات لا يجوز على الصحيح.

والإطعام: جعل الغير طاعماً، ففيه رمز إلى جواز التمليك والإباحة في الكفارة. والمسكين - ويفتح ميمه - من لا شيء له - أو له ما لا يكفيه وأسكنه الفقر؛ أي: قلل حركته - والذليل والضعيف.

أي: فعليه أن يطعم ستين مسكيناً، لكل مسكين مدّان، وهما: نصف صاع. وبه قال أبو حنيفة وأصحابه. قال الشافعي وغيره: لكل مسكين مدّ. والظاهر من الآية: أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة، أو يدفع إليهم ما يشبعهم، ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين في يوم وبعضهم في يوم آخر.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم ذكره من الأحكام. وهو مبتدأ خبره مقدر؛ أي: ذلك البيان والتعليم للأحكام، والتنبيه عليها واقع كائن، ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. ويجوز أن يكون اسم الإشارة في محل النصب بفعل محذوف، والتقدير: فعلنا ذلك لتصدقوا بالله ورسوله، وتعملوا بشرائعه التي شرعها لكم، وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليتكم، وتقفوا عند حدود الشرع، ولا تتعدوها، ولا تعودوا إلى الظهار الذي هو منكر من القول.

وإن قيل[1]: إذا كان ترك الظهار مفروضاً فما بال الفقهاء يجعلونه باباً في الفقه؟

أجيب: بأن الله تعالى، وإن أنكر الظهار وشنع على من تعوّد به من الجاهلين، إلا أنه تعالى وضع له أحكاماً يعمل بها من ابتلي به من الغافلين، فبهذا الاعتبار جعلوه باباً ليبينوا تلك الأحكام، وزادوا قدر ما يحتاج إليه مع أن المحققين قالوا: إن أكثر الأحكام الشرعية للجهال؛ فإن الناس لو احترزوا عن سوء المقال والفعال.. لما احتيج إلى تكثير القيل والقال.

ودلّت الآية على أن الظهار أكثر خطأ من الحنث في اليمين، لكون كفارته أغلظ من كفارة الحنث. واللام في ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ للحكمة والمصلحة؛ لأنها إذا قارنت فعل الله تكون للمصلحة؛ لأنه الغني المطلق، وإذا قارنت فعل العبد تكون للغرض؛ لأنه المحتاج المطلق.

والإشارة في قوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ إلى الأحكام المذكورة، وهو مبتدأ خبره ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: وتلك الأحكام المذكورة من تحريم الظهار، وإيجاب العتق للواجد، وإيجاب الصوم لغير الواجد إن استطاع، وإيجاب الإطعام لمن لم يستطع.. حدود الله التي لا يجوز تعديها، وشرائعه الموضوعة لعباده التي لا يجوز تجاوزها إلى ما يخالفها. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يقفون عند حدود الله، ولا يعملون بها، ولا يقبلونها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم موجع. والأليم: بمعنى المؤلم، كالبديع بمعنى المبدع، أو بمعنى المتألم، لكن أسند مجازاً إلى العذاب مبالغةً، كأنه في الشدة بدرجة تتألم بها نفسه. وفي إثبات العذاب للكافرين حث للمؤمنين على قبول الطاعة. وعبر عن ترك العمل بمقتضى الظهار بالكفر للتغليظ على طريقة قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾؛ يعني: أن إطلاق الكفر لتأكيد الوجوب والتغليظ على تارك العمل، لا لأنه كفر حقيقة كما يزعمه الخوارج. قال بعضهم في قوله - ﷺ -: «من ترك الصلاة فقد كفر»؛ أي: قارب الكفر، كما يقال: دخل البلدة، لمن قاربها.

(١) روح البيان.

وختم الآية[١] هنا بـ﴿أَلِيمٌ﴾، وفيما بعده بـ﴿مُّهِينٌ﴾؛ لأن الأول متصل بضده وهو الإيمان، فتوعدهم على الكفر بالعذاب الأليم الذي هو جزاء الكافرين، والثاني متصل بقوله: ﴿كُبِتُوا﴾، وهو الإذلال والإهانة، فوصف العذاب بمثل ذلك فقال: ﴿مُّهِينٌ﴾.

والمعنى[٢]: أي ذلك الذي بيناه لكم من وجوب الكفارة حين الظهار لتقروا بتوحيد الله، وتصدقوا رسوله، وتنتهوا عن قول الزور والكذب، وتتبعوا ما حده الدين من حدود الله، وبينه لكم من فرائض، وللجاحدين بهذه الحدود وغيرها من فرائض الله عذاب مؤلم على كفرهم بها. وأطلق اسم الكافر على متعدي هذه الحدود تغليظاً للزجر، كما مرّ آنفاً، كما قال في المتهاون في أداء فريضة الحج: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

والخلاصة[٣]: أي ولمن جحد هذه الأحكام، وكذب بها عذاب أليم، فإن عجز عن جميع خصال الكفارة.. لم تسقط عنه، بل هي باقية في ذمته إلى أن يقدر على شيء منها، ولا ينبغي للمرأة أن تدعه يقربها حتى يكفر، كما مرّ، فإن تهاون بالتكفير.. حال الإمام بينه وبينها، وأجبره على التكفير وإن كان الإجبار بالضرب، ولا شيء من الكفّارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها؛ لأن ترك التكفير إضرار بالمرأة، وامتناع من إيفاء حقها.

وروي[٤]: أنه لما نزلت هذه الآيات الأربع تلاها رسول الله - ﷺ -، فقال لأوس بن الصامت - رضي الله عنه -: «هل تستطيع عتق رقبة؟» قال: إذن يذهب جلّ مالي، قال: «فصيام شهرين متتابعين» قال: يا رسول الله! إذا لم آكل في اليوم ثلاث مرات.. كلّ بصري وخشيت أن تعشو عيني، قال: «فإطعام ستين مسكيناً»، قال: لا، إلا أن تعينني عليه، قال: «أعينك بخمسة عشر صاعاً، وأنا داعٍ لك بالبركة». وتلك البركة بقيت في آله، كما في «عين المعاني».

ولما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين، فقال: ﴿إِنَّ

---

(١) برهان القرآن.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

﴿ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: محمداً ـ ﷺ ـ؛ أي: يعادونهما، ويشاقونهما، ويخالفونهما فيما أمرا به ونهيا عنه. وقال الزجاج: المحادة أن تكون في حد يخالف صاحبك وأصلها: الممانعة. ومنه الحديد، ومنه: الحداد للبواب. وفي إيراد[1] المحادة في أثناء ذكر حدود الله دون المعاداة والمشاقة من حسن الموقع ما لا غاية وراءه.

وقال بعضهم في معنى الآية: إن الذين يحادون؛ أي: يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما. ففيه وعيد عظيم للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا أموراً خلاف ما حده الشرع، وسموها: القانون والنظام.

﴿كُبِتُوا۟﴾؛ أي: أذلوا وأخزوا. وذلك كما وقع للمشركين يوم بدر، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر والقهر. يقال: كبت الله فلاناً إذا أذله. وقال أبو عبيدة والأخفش: أهلكوا، وقال ابن زيد: عذبوا، وقال السدي: لعنوا، وقال ابن الشيخ: يصلح لأن يكون دعاء عليهم وإخباراً عما سيكون بالماضي لتحققه؛ أي: سيكبتون. ويدخل فيهم المنافقون والكافرون جميعاً. أما الكافرون: فمحادتهم في الظاهر والباطن. وأمّا المنافقون: ففي الباطن فقط.

﴿كَمَا كُبِتَ﴾ وأذل وأهلك وعذب ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم الماضية المعادين المحادين للرسل عليهم الصلاة والسلام، مثل: أقوام نوح، وهود، وصالح وغيرهم. وكان السريّ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: عجبت من ضعيف عصىٰ قوياً، فيقال له: كيف ذلك؟ ويقول: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ حال[2] من واو ﴿كُبِتُوا۟﴾؛ أي: كبتوا لمحادّتهم الله ورسوله، والحال أنّا قد أنزلنا آياتٍ واضحات فيمن حاد الله ورسوله ممن قبلهم من الأمم، وفيما فعلنا بهم، أو آيات بينات تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به.

والسؤال بأنّ الإنزال نقل الشيء من الأعلى إلى الأسفل، وهو إنما يتصور في الأجسام والآيات التي هي من الكلام من الأعراض الغير القارّة، فكيف يتصور

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

الإنزال فيها؟

يجاب عنه: بأن المراد منه إنزال من يتلقّف من الله ويرسل إلى عباده تعالى. فيسند إليها مجازاً لكونها المقصودة منه. أو المراد منه: الإيصال، والإعلام، على سبيل الاستعارة.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بتلك الآيات أو بكل ما يجب الإيمان به ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم، من الإهانة بمعنى التحقير. والمراد: عذاب الكبت الذي هو في الدنيا، فيكون ابتداء كلام، أو عذاب الآخرة، فيكون للعطف، بمعنى: أن لهم الكبت في الدنيا ولهم عذاب مهين في الآخرة، فهم معذبون في الدارين. وقال بعضهم: وصف الله تعالى العذاب الملحق بالكافرين أولاً بالإيلام وثانياً بالإهانة لأن الإيلام يلحق بهم أولاً ثم يهانون به، وإذا كانت الإهانة ما في الآخرة.. فالتقديم ظاهر، وقد سبق غير هذا.

ومعنى الآية(١): أي أن الذين يختارون لأنفسهم حدوداً غير ما حده الله ورسوله ويضعون شرائع غير ما شرعه الله سيلحقهم الخزي والنكال في الدنيا كما لحق من قبلهم من كفار الأمم الماضية الذين حادوا الله ورسله، وقد تحقق ذلك. وفي هذا بشارة عظيمة للمؤمنين بظهورهم على عدوهم ونصر الله لهم، كما أن فيه وعيداً عظيماً للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا قوانين وشرائع وضعية غير ما شرع الله، وألزموا رعاياهم العمل بها والجري على نهجها، وعينوا لذلك قضاةً يحكمون بها، ونبذوا ما جاء في شرعهم، والله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. نعم: إنه لا بأس بالقوانين السياسية إذا وقعت باتفاق ذوي الآراء من أهل الحل والعقد على وجه يكون به انتظام شمل الجماعات، إذا كانت لا تخالف في أحكامها روح التشريع الديني؛ كتعيين مراتب التأديب للزجر عن المعاصي والجنايات التي لم ينص الشارع فيها على حدّ معين، بل فوض الأمر فيها للإمام، وليس في ذلك محادة لله ورسوله، بل فيها استيفاء لحق الله على الوجه الأكمل. وبالجملة: فلا بأس في النظام الذي لا يخالف روح الشرع، من ترتيب أحوال الداخلية والخارجية، مما لا بد منه في الحياة

---

(١) المراغي.

الاجتماعية.

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؛ أي: وكيف يفعلون ذلك، وقد أقمنا دلائل واضحات تبين معالم الشريعة، وتوضح حدودها، وتفصل أحكامها، وتبين سر تشريعها. فلا عذر لهم في مخالفتها، والانحراف عن سننها، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: وللجاحدين بتلك الآيات عذاب يذهب بعزهم وكبريائهم.

والخلاصة: أن لهؤلاء المحادين عذاباً في الدنيا بالخزي والهوان، وعذاباً في الآخرة في جهنم، وبئس القرار.

والظرف في قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ منصوب[1] باذكر المقدر تعظيماً لذلك اليوم وتهويلاً، أو بـ﴿مُّهِينٌ﴾ أو بما تعلق به اللام من الاستقرار، أو بـ﴿أَحْصَاهُ﴾ المذكور بعده، والمراد به: يوم القيامة؛ أي: واذكر لقومك ـ يا محمد ـ أهوال يوم يحييهم الله فيه بعد الموت للجزاء ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: كلهم، بحيث لا يبقى منهم أحد غير مبعوث، فيكون تأكيداً للضمير، أو يبعثهم مجتمعين في حالة واحدة، فيكون حالاً منه. ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾؛ أي: فيخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوٓا﴾ في الدنيا من الأعمال القبيحة، ببيان صدورها منهم أو بتصويرها في تلك النشأة بما يليق بها من الصور الهائلة على رؤوس الأشهاد، توبيخاً لهم وتخجيلاً لهم، وتشهيراً لحالهم وتشديداً لعذابهم، ولتكميل الحجة عليهم، وإلا.. فلا فائدة في نفس الإنباء لينبهوا على ما صدر منهم.

وجملة قوله: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ مستأنفة[2] واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: كيف ينبئهم بأعمالهم على كثرتها واختلاف أنواعها، وهي أعراض منقضية متلاشية؟ فقيل: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾؛ أي: أحصى الله سبحانه عمل عبده، وأحاط به عدداً، وحفظه كما عمله، لم يفت منه شيء، ولم يغب عنه. ﴿و﴾ الحال أنهم قد ﴿نسوه﴾؛ أي: نسوا عملهم، ولم يحفظوه؛ لكثرته أو لتهاونهم حين ارتكبوه لعدم اعتقادهم المجازاة؛ أي: وجدوه حاضراً مكتوباً في صحائف أعمالهم. ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ أي: حاضر مطلع عليه، لا يغيب عنه أمر من

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

الأمور، فالشهيد بمعنى الشاهد، من الشهود بمعنى الحضور. فالعاقل لا بد له من استحضار الذنوب، والبكاء عليها، وطلب التوبة من الله تعالى الذي يحصي كل شيء، ولا ينساه، قبل أن يجيء يوم يفتضح فيه المصرّ على رؤوس الأشهاد، ولا يقبل الدعاء والمعذرة من العباد.

ومعنى الآية[1]: أي واذكر لهم ـ أيها الرسول ـ حالهم يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيخبرهم بما كسبت أيديهم تشهيراً لهم وخزياً على رؤوس الأشهاد، والله قد حفظه وضبطه، وهم قد نسوه، والله شهيد على كل شيء، فلا يغيب عنه شيء ولا ينسى شيئاً، وفي هذا شديد الوعيد والتقريع العظيم ليعرفوا أن ما حاق بهم من العذاب إنما كان من جزاء أعمالهم وقبيح أفعالهم.

ثم أكد ما سبق من إحاطة علمه تعالى بكل شيء، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والاستفهام فيه تقريري. وفي «الروح»: ﴿الهمزة﴾: فيه للإنكار المقرر بالرؤية لما أن الإنكار نفي معنيٌّ، ونفي النفي يقرر الإثبات، فتكون الرؤية ثابتة مقررة. والخطاب للرسول ـ ﷺ ـ، أو لكل من يستحق الخطاب.

والمعنى[2]: ألم تعلم علماً يقينياً بمرتبة المشاهدة أنه تعالى يعلم ما في السماوات وما في الأرض من الموجودات، سواء كان بالاستقرار فيهما أو بالجزئية منهما.

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية. كانوا يوماً يتحدثون فقال أحدهم: أترى الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً، وقال الثالث: إن كان يعلم بعضه فهو يعلم كله ـ وصدق؛ لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها؛ لأنَّ كونه عالماً بغير سبب ثابت له مع كل معلوم ـ فنزلت الآية.

وجملة قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلخ، مستأنفة لتقرير شمول علمه، وإحاطته بكل المعلومات. و﴿ما﴾ نافية، و﴿يَكُونُ﴾ تامة، بمعنى: يوجد ويقع. و﴿مِن﴾ مقحمة، و﴿نَّجْوَىٰ﴾ فاعله، وهو مصدر بمعنى التناجي، مضاف إلى فاعله؛

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أي: ما يقع تناجي ثلاثة نفر ومسارّتهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَابِعُهُمْ﴾؛ أي: جاعلهم أربعة من حيث إنه تعالى يشاركهم في الاطلاع عليها، كما قال الحسين النوري: إلا هو رابعهم علماً وحكماً، لا نفساً وذاتاً. وهو استثناء مفرغ من أعمّ الأحوال؛ أي: ما يوجد في حال من الأحوال إلا في هذه الحال. وفي الكلام اعتبار التصيير. قال النصر أبادي: من شهد معيّة الحق معه.. زجره عن كل مخالفة وعن ارتكاب كل محذور، ومن لا يشاهد معيته.. فإنه متخط إلى الشبهات والمحارم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَكُونُ﴾ بالتحتية، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، والأعرج وأبو حيوة بالفوقية نظراً إلى تأنيث النجوى، والتذكير على قراءة العامة؛ لأنه مسند إلى ﴿مِن نَّجْوَىٰ﴾ وهو يقتضي الجنس، وذلك مذكر، وليس الأكثر في هذا الباب التذكير، لأن ﴿من﴾ زائدة، فالفعل مسند إلى مؤنث، فالأكثر التأنيث، وهو القياس. قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾. و﴿نَّجْوَىٰ﴾: احتمل أن تكون مصدراً مضافاً إلى ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾؛ أي: من تناجي ثلاثة، أو مصدراً على حذف مضاف؛ أي: من ذوي نجوى، أو مصدراً أطلق على الجماعة المتناجين؛ أي: ما يكون من جماعة متناجين. فـ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ على هذين التقديرين قال ابن عطية: بدل أو صفة. وقرأ ابن أبي عبلة ثلاثة وخمسة بالنصب على الحال، والعامل ﴿يتناجون﴾ مضمرة، يدل عليه ﴿نَّجْوَىٰ﴾. قال الفراء[2]: ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت أضفت ﴿نَّجْوَىٰ﴾ إليها، ولو نصبت على إضمار فعل.. جاز، وهي قراءة ابن أبي عبلة. ويجوز رفع ثلاثة على البدل من موضع نجوى.

﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾؛ أي: ولا نجوى خمسة نفر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿سَادِسُهُمْ﴾؛ أي: إلا وهو تعالى جاعلهم ستة في الاطلاع على ما وقع بينهم. وتخصيص[3] العددين بالذكر لخصوص الواقعة؛ لأن المنافقين المجتمعين في النجوى كانوا مرة ثلاثة وأخرى خمسة، ويقال: إن التشاور غالباً إنما يكون من ثلاثة إلى ستة ليكونوا أقل لفظاً وأجدر رأياً وأكتم سراً، ولذا ترك عمر رضي الله عنه حين علم بالموت

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

أمر الخلافة شورى بين ستة؛ أي: على أن يكون أمر الخلافة بين ستة ومشاورتهم واتفاق رأيهم. قال الفراء: العدد غير مقصود؛ لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر يعلم السر والجهر، لا تخفى عليه خافية، ولذا عمم الحكم، فقال: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ...﴾ إلخ؛ أي: ولا يكون نجوى عدد أقل مما ذكر من الثلاثة كالاثنين والواحد، فإن الواحد أيضاً يناجي نفسه ﴿وَلَآ﴾ نجوى ﴿أَكْثَرَ﴾ من ذلك المذكور من الخمسة كالستة والسبعة ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿مَعَهُمْ﴾؛ أي: مع المتناجين بالعلم والسماع، يعلم ما يتناجون به، ولا يخفى عليه ما هم فيه، فكأنه مشاهدهم، ومحاضرهم، تعالى الله عن المشاهدة والحضور معهم حضوراً جسمانياً. ومما يدل على أن المراد بالمعية، معية العلم لا معيّة الذات: أنه تعالى بدأ الآية بالعلم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾. ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾؛ أي: في أي مكان كانوا فيه من الأماكن، ولو كانوا تحت الأرض، فإن علمه تعالى بالأشياء ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة قرباً وبعداً.

وفي «كشف ما يلتبس من القرآن»: إن قلت: لِمَ خص[1] الثلاثة والخمسة بالذكر؟

قلت: لأن قوماً من المنافقين تحلقوا للتناجي فيما بينهم، يوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم فيحزنون لذلك، وكانوا بعدة العدد المذكور، فلما طال ذلك، وكثر.. شكوا إلى رسول الله - ﷺ -، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله هذه الآيات بصفة حالهم عند تناجيهم. أو لأن الفرد أشرف من الزوج؛ لأنه الله تعالى، وتر يحب الوتر، فخصص العددان المذكوران بالذكر تنبيهاً على أنه لا بد من رعاية الأمور الإلهية في جميع الأمور، ثم بعد ذكرهما زيد عليهما ما يعم غيرهما من المتناجين بقوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾ تعميماً للفائدة، انتهى بزيادة فيه.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ بالجر بالفتحة عطفاً على لفظ ﴿نَّجْوَىٰ﴾. وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، والأعمش، وأبو حيوة، وسلام، ويعقوب، وأبو العالية، ونصر، وعيسى بن عمر بالرفع عطفاً على محل ﴿نَّجْوَىٰ﴾ إن أريد به

---

(١) فتح الرحمٰن.

المتناجون. ومن جعله مصدراً محضاً فعلى حذف مضاف؛ أي: ولا نجوى أدنى أو أكثر ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فأعرب بإعرابه. ويجوز أن يكون ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ﴾ مبتدأ والخبر ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾. فهو من عطف الجمل. وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ بالمثلثة. وقرأ الحسن أيضاً، ومجاهد، والخليل بن أحمد، ويعقوب أيضاً ﴿ولا أكبر﴾ بالباء الموحدة والرفع، واحتمل الإعرابين: العطف على الموضع، والرفع بالابتداء.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾؛ أي: ثم بعد بعثهم يخبرهم بالذي عملوه في الدنيا ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تفضيحاً لهم، وإظهاراً لما يوجب عذابهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ من المعلومات ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: مبالغ في علمه، لا يخفى عليه شيء كائناً ما كان. وقرىء: ﴿يُنْبِئُهُم﴾ بالتخفيف والهمز. وقرأ زيد بن علي بالتخفيف وترك الهمز وكسر الهاء، والجمهور بالتشديد والهمز وضم الهاء.

ومجمل معنى الآية[2]: أي ألم تعلم أنه تعالى يعلم ما في السماوات وما في الأرض، فلا يتناجى ثلاثة إلا والله معهم ويعلم ما يقولون وما يدبرون ولا خمسة إلا وهو سادسهم يعلم ما به يتناجون، ولا نجوى أكثر من هذه الأعداد، ولا أقل منها إلا وهو عليم بها وعليم بزمانها ومكانها، لا يخفى عليه شيء من أمرها. وإنما خص هذه الأعداد لأن أقل ما لا بد منه في المشاورة التي يكون الغرض منها تدبير المصالح العامة ثلاثة، فيكون الاثنان كالمتنازعين نفياً وإثباتاً، والثالث كالحكم بينهما، وحينئذٍ تكمن المشورة ويتم الغرض، وهكذا في كل جمع اجتمعوا للمشورة لا بد من واحد يكون حكماً مقبول القول، ومن ثم يكون عدد رجال المشورة فرداً، كما جاء في الآية ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ...﴾ إلخ؛ أي: ثم ينبىء هؤلاء المتناجين بما عملوا من عمل يحبه أو يسخطه يوم القيامة، وإنه لعليم بنجواهم وإسرارهم، لا تخفى عليه خافية من أمرهم.

وقد علمت أن هذا الإنباء إنما هو لزيادة التقريع والتوبيخ على مرأى ومسمع من أهل الموقف، فيكون ذلك أنكى وأشد إيلاماً لهم. ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾؛ أي: ألم تنظر يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ﴾ ومنعوا ﴿عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ والمحادثة فيما بينهم دون المؤمنين

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ ويرجعون ﴿لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من تلك النجوى مرة بعد مرة إيقاعاً للحزن في قلوب المؤمنين، وإيهاماً لهم بأنّهم يتشاورون عليهم وهؤلاء هم من تقدم ذكرهم من اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون فيما بينهم، ويتحلقون ثلاثة وخمسة ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين يريدون أن يغيظوهم، فنهاهم رسول الله - ﷺ - ثم عادوا لمثل فعلهم والخطاب[1] للرسول - ﷺ - و﴿الهمزة﴾: للتعجب من حالهم، وصيغة المضارع للدلالة على تكرر عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة. قال أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه -: خرج - ﷺ - ذات ليلة ونحن نتحدث، فقال: «ما هذه النجوى، ألم تنهوا عن النجوى»؟ فقلنا: تبنا إلى الله إنا كنا في حديث الدجال، قال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم منه؟ هو الشرك الخفي» يعني: المراءاة.

﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ﴾؛ أي: بما هو إثم في نفسه، كالكذب ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ للمؤمنين ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: ومخالفة الرسول - ﷺ -. وهو معطوف على قوله: ﴿يَعُودُونَ﴾، داخل في حكمه، وبيان لما نهوا عنه لضرره في الدين؛ أي: يتحدثون سراً بما هو إثم في نفسه، وعدوان للمؤمنين، وتواص بمعصية الرسول. والعدوان: الظلم والجور، والمعصية: خلاف الطاعة، كما سيأتي.

فائدة: رسمت ﴿معصيت﴾ هذه والتي بعدها بالتاء المبسوطة، وإذا وقف عليها فأبو عمرو، وابن كثير والكسائي يقفون بالهاء، غير أن الكسائي يقف بالإمالة على أصله، والباقون يقفون بالتاء على الرسم، واتفقوا في الوصل على التاء. ا هـ. «خطيب».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يتناجون﴾ بوزن يتفاعلون، واختار هذه القراءة أبو عبيدة، وأبو حاتم لقوله فيما بعد: ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ﴾. وقرأ حمزة، وخلف، وورش عن يعقوب ﴿وينتجون﴾ بوزن يفتعلون مضارع ﴿انتجى﴾ وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه. وحكى سيبويه: أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد، نحو: تخاصموا واختصموا، وتقاتلوا واقتتلوا. وقرأ الجمهور ﴿وَمَعۡصِيَتِ﴾ بالإفراد. وقرأ الضحاك وحميد ومجاهد: ﴿ومعصيات﴾ بالجمع.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ﴾؛ أي: وإذا جاءك يا محمد هؤلاء المتناجون من اليهود ﴿حَيَّوْكَ﴾؛ أي: خاطبوك، وعظّموك، وسلموك ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: بشيء لم يقع من الله أن يحييك به؛ أي: بتحية لم يأذن الله فيه أن يقال لك، فيقولون: السام عليك؛ أي: إنهم يقولون إذا جاؤوك في تحيتهم إياك: السام عليك يا محمد، وهم يوهمون أنهم يقولون: السلام عليك، فيرد النبي - ﷺ - فيقول: «عليكم» - بدون الواو -. ورواية: «وعليكم» بالواو خطأ، كذا في «عين المعاني». والسام بلغة اليهود: الموت. أو يقولون: أنعم صباحاً، وهو تحية الجاهلية، من النعومة؛ أي: ليصر صباحك ناعماً ليناً لا بؤس فيه. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

واختلفوا في رد السلام على أهل الذمة[1]: فقال ابن عباس، والشعبي وقتادة: هو واجب؛ لظاهر الأمر بذلك. وقال مالك: ليس بواجب فإن رددت فقل: عليك. وقال بعضهم: يقول في الرد: علاك السلام؛ أي: ارتفع عنك. وقال بعض المالكية: يقول في الرد: السلام عليك - بكسر السين -، يعني: الحجارة.

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: فيما بينهم إذا خرجوا من عندك ﴿لَوْلَا﴾ تحضيضية؛ أي: هلا ﴿يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ لمحمد؛ أي: هلا يغضب علينا، ويقهرنا بجزائنا على الدعاء بالشر على محمد لو كان نبياً حقاً، وقيل: المعنى: لو كان نبياً. لاستجيب له فينا حيث يقول: وعليكم ووقع علينا الموت عند ذلك.

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً، مبتدأ وخبر[2]؛ أي: محسبهم وكافيهم جهنم في التعذيب، من أحسبه إذ كفاه. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾؛ أي: يدخلونها ويقاسون حرها لا محالة، وإن لم يعجل تعذيبهم لحكمة. والمراد: الاستهزاء بهم، والاستخفاف بشأنهم لكفرهم وعدم إيمانهم ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجع لهم، والمخصوص بالذم ﴿جَهَنَّمُ﴾. قال في «برهان القرآن»: الإتيان بالفاء لما فيه من معنى التعقيب؛ أي: فبئس المصير ما صاروا إليه، وهو جهنم، انتهى. وقال بعض المفسرين: وقولهم ذلك من جملة ما غفلوا عمّا عندهم من العلم، فإنهم كانوا أهل كتاب يعلمون أن

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

بعض الأنبياء قد عصاه أمته وآذوه، ولم يعجل تعذيبهم لحكمة ومصلحة، علمها عند الله تعالى، انتهى.

ثم إن الله سبحانه يستجيب دعاء الرسول عليه السلام، كما روي: أن عائشة رضي الله عنها سمعت قول اليهود، فقالت: عليكم السام والذام واللعن، فقال عليه السلام: «يا عائشة ارفقي؛ فإن الله يحب الرفق في كل شيء، ولا يحب الفحش والتفحش، أما سمعت ما رددت عليهم فقلت: عليكم، فيستجاب لي فيهم».

والمعنى: أي يفعلون ذلك، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام، وهم يريدون شتمه، ويحدثون أنفسهم أنه لو كان نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول؛ لأن الله يعلم ما نسره، فلو كان نبياً حقاً.. لعاجلنا بالعقوبة في الدنيا، فرد الله عليهم بقوله: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: وإن جهنم وما فيها من العذاب الأليم لكافية لعقابهم ونكالهم، وقد أجّل عذابهم إلى هذا اليوم.

ثم قال تعالى مؤدباً عباده المؤمنين: أن لا يكونوا مثل اليهود والمنافقين، فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بألسنتهم وقلوبهم ﴿إِذَا تَنَجَيْتُمْ﴾ وتحدثتم في أنديتكم وخلواتكم ﴿فَلَا تَتَنَجَوْا﴾؛ أي: لا تتحدثوا ﴿بِالْإِثْمِ﴾ والكذب، والمكر، والكيد بالرسول - ﷺ - ﴿وَ﴾ لا بـ﴿العدوان﴾ على المؤمنين باللمز والطعن والتعيير بهم ﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: ولا بمعصية الرسول ومخالفته، كما يفعله المنافقون واليهود. ثم بين لهم ما يتناجون به في أنديتهم وخلواتهم فقال: ﴿وَتَنَجَوْا بِالْبِرِّ﴾ أي: بما يتضمن خير المؤمنين ﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾ أي: وبما يتضمن الإتقاء عن معصية الرسول - ﷺ -. قال سهل رحمه الله: وتناجوا بذكر الله وقراءة القرآن، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وقرأ الجمهور(١): ﴿فَلَا تَتَنَجَوْا﴾. وأدغم ابن محيصن التاء في التاء وقرأ الكوفيون، والأعمش، وأبو حيوة، ورويس: ﴿فلا تنتجوا﴾ مضارع انتجى. وقرأ الجمهور بضم عين ﴿العدوان﴾، وأبو حيوة بكسرها حيث وقع. وقرأ الضحاك: ﴿ومعصيات الرسول﴾ بالجمع، والجمهور على الإفراد. وقرأ عبد الله: ﴿إذا انتجيتم

---

(١) البحر المحيط.

فلا تنتجوا﴾.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوا أيها المؤمنون عقاب الله ﴿الَّذِي إِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره استقلالاً، ولا اشتراكاً فيجازيكم بكل ما تأتون وما تذرون.

والمعنى[1]: أي إذا حدث منكم - أيها المؤمنون - تناج ومسارّة في أنديتكم وخلواتكم.. فلا تفعلوا كما يفعل أولئك الكفار من أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين، وتناجوا بما هو خير، واتقوا الله فيما تأتون وما تذرون، فإليه تحشرون فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي أحصاها عليكم، وسيجزيكم بها.

ودلت الآية[2] على أن التناجي ليس بمنهي عنه مطلقاً، بل مأمور به في بعض الوجوه، إيجاباً واستحباباً وإباحة، على مقتضى المقام.

فإن قيل: كيف يأمر الله بالاتقاء عنه، وهو المولى الرحيم، والقرب منه ألذ المطالب، والأنس به أقصى المآرب، فالتقوى توجب الاجتناب، والحشر إليه يستدعي الإقبال إليه؟

يجاب عنه: بأن في الكلام مضافاً؛ إذ التقدير: واتقوا عذاب الله، أو قهر الله، أو غيرهما.

فإن قيل: إن العبد لو قدر على الخلاص من العذاب والقهر لأسرع إليه، لكنه ليس بقادر عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، والأمر إنما يكون بالمقدور ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؟

أجيب عنه: بأن المراد: الاتقاء عن السبب من الذنوب والمعاصي الصادرة عن العبد العاصي، فالمراد: اتقوا ما يفضي إلى عذاب الله، ويقتضي قهره في الدارين، من الإثم والعدوان ومعصية الرسول التي هي السبب الموجب لذلك. فالمراد: النهي عن مباشرة الأسباب، والأمر بالاجتناب عنها.

وإن قيل: إن ذلك الاتقاء إنما يكون بتوفيق الله له، فإن وفق العبد له فلا حاجة إلى الأمر به، وإن لم يوفقه فلا قدرة له عليه، والأمر إنما يحسن في

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

المقدرو؟

أجيب: بأنه تعالى علَّمَهُ الحق أولاً، ووهب له إرادةً جزئية يقدر بها على اختيار شيء، فله الاختيار السابق على إرادة الله تعالى، ووجود الاختيار في الفاعل المختار أمر يطلع عليه كل أحد حتى الصبيان، والله أعلم.

ثم بين سبحانه أن ما يفعله اليهود والمنافقون من التناجي هو من جهة الشيطان، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ المعهودة التي هي التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول بقرينة قوله: ﴿لِيَحْزُنَ﴾. ولأن ﴿أل﴾ فيه للعهد. ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لا من غيره، فإنه المزين لها، والحامل عليها فكأنها منه؛ أي: من تزيينه وتسويله. ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خبر آخر[1]. من الحُزن ـ بضم ـ فسكون متعد من الباب الأول، من الحَزَن بفتحتين لازماً من الباب الرابع؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾. فيكون الموصول مفعوله. قال الراغب: والحُزن: خشونة في النفس، لما يحصل فيها من الغمّ، ويضاده الفرح.

والمعنى: إنما هي ليجعل الشيطانُ المؤمنين محزونين بتوهمهم أنهم في نكبة أصابتهم في سيرتهم، يعني: أن غزاتهم غلبوا، وأن أقاربهم قتلوا متألمين، بذلك فاترين في تدبير الغزو، إلى غير ذلك مما يشوش قلوب المؤمنين. وفي الحديث: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما إلا بإذنه؛ فإن ذلك يحزنه». متفق عليه.

﴿وَلَيْسَ﴾؛ أي: الشيطان أو التناجي ﴿بِضَآرِّهِمْ﴾؛ أي: بالذي يضر المؤمنين ﴿شَيْـًٔا﴾ من الأشياء أو شيئاً من الضرر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ سبحانه وتعالى، أي: إلا بمشيئته وإرادته؛ أي: ما أراده من حزن أو وسوسة. وفي «**الكشاف**» ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بمشيئته، وهو: أن يقضي الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة.

والمعنى: أي إنما فعل ذلك ليسوء المؤمنين بإيهامهم أن ذلك في نكبة أصابتهم وليس الشيطان بضار المؤمنين شيئاً إلا بإرادة الله ومشيئته.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه خاصة ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليعتمد المؤمنون عليه

---

(١) روح البيان.

تعالى في شؤونهم، وليفوضوا أمورهم إليه، وليثقوا به، ولا يبالوا بنجوى أعدائهم، فإنه تعالى يعصمهم من شرها وضررها، فينبغي للعبد التوكل التام، فإن المؤثر في كل شيء هو الله تعالى.

والمعنى[1]: أي إن ما يتناجى به المنافقون مما يحزن المؤمنين ـ إن وقع ـ فإنما يكون بإرادة الله ومشيئته، فلا يكترثن المؤمنون بتناجيهم، وليتوكلن على الله ولا يحزنن، فإن من توكل عليه لا يخيب أمله، ولا يبطل سعيه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعني المخلصين ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ من أي قائل كان من الإخوان ﴿تَفَسَّحُواْ﴾؛ أي: توسعوا ﴿فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾؛ أي: في أماكن الجلوس، متعلق بـ﴿تَفَسَّحُواْ﴾، وقال في «الإرشاد»: متعلق بـ﴿قِيلَ﴾، والأول أولى؛ لأن التفسح يتعدى بـ(في). ﴿فَٱفْسَحُواْ﴾؛ أي: فوسعوا وأنتم جالسون أو قائمون. يقال: افسح عني، تنح وتباعد عني. ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَكُمْ﴾ في الجنة، أو في كل ما تريدون التفسح فيه من الرزق، والصدر، والقبر، وغيرها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، أمرهم الله سبحانه بحسن الأدب مع بعضهم بعضاً بالتوسعة في المجلس وعدم التضايق فيه.

والآية عامة في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر، سواء كان مجلس رسول الله ـ ﷺ ـ وكانوا يتضامُّون فيه تنافساً في القرب منه ـ ﷺ ـ وحرصاً على استماع كلامه أو مجلس حرب إذا اصطفوا للقتال كانوا يتشاحون على الصف الأول، فلا يوسع بعضهم لبعض ويأتي الرجل الصف ويقول: تفسحوا، ويأبون لحرصهم على الشهادة، أو مجلس ذكر، أو مجلس يوم الجمعة. وإن كل واحدٍ، وإن كان أحق بالمكان الذي سبق إليه لكنه يوسع لأخيه ما لم يتأذ لذلك، فيخرجه الضيق من موضعه. وفي الحديث: «لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يخلفه فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَفَسَّحُواْ﴾. وداوود بن أبي هند، وقتادة، وعيسى: ﴿تفاسحوا﴾. وقرأ الجمهور: ﴿في المجلس﴾ بالإفراد. قرأ السلمي، وزر بن

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

حبيش، وعاصم ﴿فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ على الجمع؛ لأن لكل واحد منهم مجلساً في بيت رسول الله ﷺ. وقرىء ﴿في المجلس﴾ بفتح اللام، وهو الجلوس؛ أي: توسعوا في جلوسكم، ولا تتضايقوا فيه.

والمعنى: أي يا أيها الذين آمنوا بالله، وصدقوا برسوله إذا قيل لكم: توسعوا في مجالس رسول الله - ﷺ - أو في مجالس القتال.. فافسحوا يفسح الله في منازلكم في الجنة، أو في قبوركم، أو في قلوبكم، أو في الدنيا والآخرة، أقوال.

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: كان رسول الله - ﷺ - يوم الجمعة في الصفة وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناسٌ، منهم: ثابت بن قيس، وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله - ﷺ - فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد النبي - ﷺ -، ثم سلموا على القوم، فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فلم يفسحوا لهم، فشق ذلك على رسول الله - ﷺ -، فقال لبعض من حوله: «قم يا فلان قم يا فلان» فأقام نفراً بمقدار من قدم، فشق ذلك عليهم، وعرفت كراهيته في وجوههم، وطعن المنافقون وقالوا: والله ما عدل محمد على هؤلاء، إن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه أقامهم وأجلس من أبطأ عنه. فنزلت الآية.

ويستفاد من الآية أمور(١):

١ - أن الصحابة كانوا يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله - ﷺ - لسماع حديثه؛ لما فيه من الخير العميم والفضل العظيم، ومن ثم قال - ﷺ -: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهى».

٢ - الأمر بالتفسح في المجالس، وعدم التضام فيها متى وجد إلى ذلك سبيل؛ لأن ذلك يدخل المحبة في القلوب، والاشتراك في سماع أحكام الدِّين.

٣ - أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة.. وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة. وبالجملة: فالآية تشتمل التوسع في إيصال جميع أنواع الخير إلى المسلم، وإدخال السرور عليه ومن ثم قال - ﷺ -: «لا يزال الله في عون

---

(١) المراغي.

العبد ما دام العبد في عون أخيه».

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم أيها المؤمنون، سواء كان القائل رسول الله ـ ﷺ ـ أو غيره ﴿انشُزُوا﴾ مِنْ نشز الرجل إذا نهض وارتفع في المكان؛ أي[1]: وإذا قيل لكم: قوموا للتوسعة على المقبلين؛ أي: على من جاء بعدكم.. ﴿فَانشُزُوا﴾؛ أي: فارتفعوا وقوموا؛ يعني: إذا كثرت المزاحمة، وكانت بحيث لا تحصل التوسعة، بتنحي أحد الشخصين عن الآخر حال قعود الجماعة وقيل: قوموا جميعاً، تفسحوا حال القيام.. فانشزوا وانهضوا، ولا تثاقلوا عن القيام. أو إذا قيل لكم: قوموا عن مواضعكم فانتقلوا منها إلى موضع آخر لضرورة داعية إليه.. أطيعوا من أمركم به، وقوموا من مجالسكم وتوسعوا لإخوانكم. ويؤيده: أنه ـ ﷺ ـ كان يكرم أهل بدر، فأقبلت جماعة، منهم: ثابت بن قيس، فلم يوسعوا لهم... إلى آخر ما مر في الحديث السابق آنفاً. فأنزل الله الآية، فالقائل هو الرسول ـ ﷺ ـ.

ويقال: وإذا قيل: انشزوا ـ أي: انهضوا ـ عن مجلس رسول الله؛ أي: أمرتم بالنهوض عنه.. فانهضوا، ولا تملوا رسول الله ـ ﷺ ـ بالارتكان فيه. أو قيل لكم: انهضوا إلى الصلاة، أو إلى الجهاد، أو الشهادة أو غير ذلك من أعمال الخير.. انهضوا ولا تفرطوا، فالقائل يعم الرسول وغيره.

والظاهر[2]: حمل الآية على العموم، والمعنى: إذا قيل لكم: انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية.. فانهضوا، ولا تتثاقلوا. ولا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصاً، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو الحق.

وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والأعرج، وابن عامر، ونافع، وحفص بضم الشين في الموضعين. وقرأ الحسن، والأعمش، وطلحة، وباقي السبعة بكسرها فيهما. وهما لغتان بمعنى واحد.

وقال المراغي: والمعنى[3]: أي وإذا دعيتم إلى القيام عن مجلس رسول الله ـ ﷺ ـ.. فقوموا؛ لأن الرسول ـ ﷺ ـ كان يؤثر الانفراد أحياناً لتدبير شؤون الدين، أو لأداء وظائف تخصه لا تؤدى أو لا يكمل أداؤها إلا بالانفراد. وقد

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

عمموا هذا الحكم، فقالوا: إذا قال صاحب مجلس لمن في مجلسه: قوموا.. ينبغي أن يجاب، ولا ينبغي لقادم أن يقيم أحداً ليجلس في مجلسه؛ فقد أخرج مالك، والبخاري، والترمذي، عن ابن عمر: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يقم الرجل الرجل من مجلسه، ولكن تفسّحوا وتوسعوا».

وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون بامتثال أوامره وأوامر رسوله في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ـ جواب[1] للأمر ـ أي؛ من فعل ذلك طاعة للأمر وتوسعة للإخوان يرفعهم الله تعالى بالنصر، وحسن الذكر في الدنيا، والإيواء إلى غرف الجنان في الآخرة؛ لأن من تواضع رفعه الله، ومن تكبر وضعه، فالمراد: الرفعة المطلقة الشاملة للرفعة الصورية والمعنوية. وقوله: ﴿و﴾ يرفع ﴿الذين أوتوا العلم﴾ منكم، معطوف على الموصول الأول، عطف خاص على عام، للدلالة على علو شأنهم وسمو مكانهم حتى كأنهم جنس آخر؛ أي: ويرفع الله الذين أوتوا العلم الديني منكم ﴿دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: طبقات عالية، ومراتب مرتفعة، بسبب ما جمعوا من العلم والعمل، فإن العلم لعلو درجته يقتضي للعمل المقرون به مزيد رفعة لا يدرك شأوه العمل العاري عنه وإن كان في غاية الصلاح، ولذا يقتدى بالعالم في أفعاله، ولا يقتدى بغيره. فعلم من هذا التقرير أنه لا شركة للمعطوف عليه في الدرجات، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: تم الكلام عند قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ وينتصب ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بفعل مضمر؛ أي: ويرفعهم درجات، وانتصاب ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ إما على إسقاط الخافض؛ أي: إلى درجات، أو على المصدرية؛ أي: رفع درجات، فحذف المضاف، أو على الحالية من الموصول؛ أي: ذوي درجات، أو على التمييز.

وفي هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله، وقد دلّ على فضله وفضلهم آيات قرآنية وأحاديث نبوية، كما بسطناها في كتابنا: «سلم المعراج على خطبة المنهاج».

وعبارة الشوكاني هنا: ومعنى الآية[2]: أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم.. رفعه الله بإيمانه درجات ثم رفعه بعلمه درجات. وقيل: المراد بالذين

---

(١) روح البيان.

(٢) فتح القدير.

آمنوا من الصحابة، وكذلك الذين أوتوا العلم. وقيل: المراد بالذين أوتوا العلم: الذين قرأوا القرآن. والأولى حمل الآية على العموم في كل مؤمن وكل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة. ولا دليل يدل على تخصيص الآية بالبعض دون الآخر. ا هـ.

والخلاصة[1]: إنكم أيها المؤمنون إذا فسح أحدكم لأخيه إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج.. فلا يظنن أن ذلك نقص في حقه، بل هو رفعةٌ وزيادة قربى عند ربه، والله تعالى لا يضيع ذلك بل يجزي به في الدنيا والآخرة؛ فإن من تواضع لأمر الله.. رفع الله قدره، ونشر ذكره.

ويعلم من الآية سرّ تقدم العالم على غيره في المجالس والمحاضر[2]؛ لأن الله تعالى قدمه وأعلاه، حيث جعل درجاته عالية. وفي الحديث: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»؛ أي: فضل العالم الباقي بالله على العابد الفاني في الله، كما في «التأويلات النجمية».

قال بعضهم: المتعبد بغير علم كحمار الطاحونة يدور ولا يقطع المسافة. وحيث مدح العلم فالمراد به: العلم المقرون بالعمل. قال بعض الحكماء: ليت شعري أيَّ شيء أدْرَكَ من فَاته العلم، وأيُّ شيءٍ فات من أدرك العلم، وكل علم لم يوطَّد بعمل.. فإلى ذلّ يصير. وعن الزهري: العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكورة الرجال. قال مقاتل: إذا انتهى المؤمن إلى باب الجنة يقال له: لست بعالم، ادخل الجنة بعملك، ويقال للعالم: قف على باب الجنة واشفع للناس.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لأن أَعلَم مسألة أحب إلي من أن أصلي مئة ركعة، ولأن أُعلِّم مسألة أحب إلي من أن أصلي ألف ركعة. وعن أبي هريرة وأبي ذر الغفاري رضي الله عنهما قالا: سمعنا رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إذا جاء الموت طالب العلم على هذه الحال.. مات وهو شهيد».

﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بعملكم أو بالذي تعملونه ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم ببواطنه كظواهره، لا يخفى عليه شيء منه، لا ذاته جنساً أو

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

نوعاً، ولا كيفيته إخلاصاً أو نفاقاً أو رياء أو سمعة ولا كميته قلة أو كثرة، فهو خبير بتفسّحكم ونشزكم ونيتكم فيهما، فلا تضيع عند الله سبحانه. وجعله بعضهم تهديداً لمن لم يمتثل بالأمر أو استكرهه، فلا بد من التفسح والطاعة وطلب العلم الشريف.

والمعنى: والله تعالى ذو خبرة بأعمالكم، لا يخفى عليه المطيع منكم من العاصي، وهو مجازيكم جميعاً بأعمالكم، فالمحسن بإحسانه، والمسيء بالذي هو أهله أو يعفو.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله، وأخلصوا في إيمانهم ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً - ﷺ - أي: إذا كلمتموه سرّاً في بعض شؤونكم المهمة الداعية إلى مناجاته - ﷺ -، ومكالمته سرّاً. والمناجاة: المحادثة سرّاً.. ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾؛ أي: فتصدقوا قبلها على المستحق.

والمعنى: إذا أردتم مساررة الرسول في أمر من أموركم.. فقدموا بين يدي مساررتكم له صدقة. والآية نزلت حين أكثر الناس عليه السؤال، حتى أسأموه وأملّوه، فأمرهم الله بتقديم الصدقة عند المناجاة، فكف كثير من الناس عن مناجاته، أما الفقير: فلعسرته، وأما الغني: فلشحّه. وقرىء: ﴿صدقات﴾ بالجمع كما في الآتي.

وفي هذا الأمر تعظيم الرسول، ونفع الفقراء، والزجر عن الإفراط في السؤال، والتمييز بين المخلص والمنافق، ومحب الآخرة ومحب الدنيا(١). واختلف في أنه للندب أو للوجوب، لكنه نسخ بقوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ ...﴾ الآية، وهو وإن كان متصلاً به تلاوةً لكنه متراخ عنه نزولاً على ما هو شأن الناسخ. واختلف في مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ، فقيل: كان ساعة من النهار، والظاهر: أنه عشرة أيام؛ لما روي عن علي رضي الله عنه، كما قاله مقاتل بن حيان. وقال الكلبي: كان ذلك ليلة واحدة. وقال قتادة: ما كان ذلك إلا ساعة من نهار ثم نسخ. وهذا لا ينافي الجلوس في مجلسه المبارك، والتكلم معه لمصلحة دينية أو دنيوية بدون

---

(١) روح البيان.

النجوى، إذ المناجاة تكلم خاص، وعدم الخاص لا يقتضي عدم العام.

والمعنى[1]: أي أيها المؤمنون إذا أراد أحد منكم أن يناجي الرسول ويسارّه فيما بينه وبينه.. فليقدم صدقة قبل هذا؛ لما في ذلك من تعظيم أمر الرسول - ﷺ -، ونفع الفقراء والتمييز بين المؤمن حقاً والمنافق، ومن دفع التكاثر عليه - ﷺ - من غير حاجة ملحة إلى ذلك.

ثم ذكر العلة في هذا فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ التصدق بين يدي نجواكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أيها المؤمنون من إمساكه؛ لما فيه من طاعة الله تعالى، ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لأنفسكم من دنس الريبة ودرن البخل الناشيء من حب المال الذي هو من أعظم حب الدنيا، وهو رأس كل خطيئة. وتقييد[2] الأمر بكون امتثاله خيراً لهم من عدم الامتثال وأطهر لنفوسهم... يدل على أنه أمر ندب لا أمر وجوب، لكن قوله فيما بعد: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ منبيء عن الوجوب، لأنه ترخيص لمن لم يجد، والظاهر: عدم الوجوب.

والمعنى: أن في هذا التقديم خيراً لكم؛ لما فيه من الثواب العظيم عند ربكم، ومن تزكية النفوس وتطهيرها من الجشع في جمع المال وحب ادّخاره، وتعويدها بذله في المصالح العامة؛ كإغاثة ملهوف، ودفع خصاصة فقير، وإعانة ذي حاجة والنفقة في كل ما يرقي شأن الأمة ويرفع من قدرها ويعلي كلمتها، ويؤيد الدين، وينشر دعوته.

ثم أقام العذر للفقراء، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ أيها الفقراء ما تتصدقون به بين يدي نجواكم، وعجزتم عن ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن لم يجده ﴿رَّحِيمٌ﴾ به حيث رخّص له المناجاة بلا تصدق؛ لأنه ما أمر بها إلا من قدر عليها، وقد شرع هذا الحكم لتمييز المخلص من المنافق، فلما تمّ هذاالغرض انتهى ذلك الحكم، ورخّص في المناجاة بدون تقديم صدقة، فقال: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾؛ أي: أبخلتم وخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم الصدقات بين يدي نجواكم، ووسوس لكم الشيطان أن في هذا الإنفاق ضياعاً للمال. والاستفهام[3] فيه للتقرير، كأن بعضهم ترك المناجاة للإشفاق لا مخالفة للأمر. والإشفاق: الخوف من

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

المكروه. وجمع ﴿صَدَقَٰتٍۚ﴾ هنا نظراً إلى كثرة المخاطبين. قال بعض المفسرين: أفرد الصدقة أولاً لكفاية شيء منها، وجمع ثانياً نظراً إلى كثرة التناجي والمناجي.

والمعنى[1]: أخفتم الفقر - يا أهل الغنى - من تقديم الصدقات، فيكون المفعول محذوفاً للاختصار. و﴿أَن تُقَدِّمُواْ﴾ في تقدير: لأن تقدموا. أو: أخفتم التقديم لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر. قال الشاعر:

هَوِّنْ عَلَيْكَ وَلاَ تُوْلَعْ بِإِشْفَاقِ ... فَإِنَّمَا مَالُنَا لِلْوَارِثِ ٱلْبَاقِيْ

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾ ما أمرتم به، وشقّ عليكم ذلك ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخص لكم في أن لا تفعلوه، وأسقط عنكم تقديم الصدقة. وذلك لأنه لا وجه لحملها على قبول التوبة حقيقة؛ إذ لم يقع منهم التقصير في حق هذا الحكم، بأن وقعت المناجاة بلا تصدق، وهذا هو الناسخ للآية السابقة. وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى منهم من الانفعال ما قام مقام توبتهم. و﴿إِذْ﴾ على معناها من الظرفية والمضي بمعنى: أنكم تركتم ذلك فيما مضى وتجاوز الله عنكم بفضله، فتداركوه بما تؤمرون به بعد هذا. وقيل: بمعنى (إذا) للمستقبل، كما في قوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾. أو بمعنى إن الشرطية، وهو قريب مما قبله إلا أنّ ﴿إن﴾ تستعمل فيما يحتمل وقوعه واللاوقوعه. وقوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على ﴿لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾. وقوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ جواب ﴿إذ﴾ مسبب عن قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾؛ أي: فإذا فرطتم فيما أمرتم به من تقديم الصدقات، وتجاوز الله عنكم.. فتداركوه بالمواظبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المفروضة. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سائر الأوامر، فإن القيام بها كالجابر لما وقع في ذلك من التفريط. والتعميم بعد التخصيص لتتميم النفع. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ جملة حالية، أو استئنافية معترضة بين الشرط وجوابه. وهذه الجملة هي التي فيها نسخ الوجوب كما تقدم، تأمل. انتهى.

والمعنى: أي فحين لم تفعلوا ما أمرتم به، وشق ذلك عليكم، وخفف عنكم ربكم فرخص لكم في المناجاة من غير تقديم صدقة، فأدوا الصلاة، وقوموها بأدائها

---

(١) روح البيان.

على أكمل الوجوه؛ لما فيها من الإخبات والإنابة إليه، والإخلاص له في القول والعمل، ونهيها عن الفحشاء والمنكر، ولما في الزكاة من تطهير النفوس وإزالة الشحّ بالمال المستحوذ على القلوب الدافع لها إلى ارتكاب الشرور والآثام، وأطيعوا الله فيما يأمركم به من الفرائض والواجبات وينهاكم عنه من الموبقات.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: عالم بالذي تعملون من الأعمال الظاهرة والباطنة، لا تخفى عليه خافية فيجازيكم عليه، فاعملوا ما أمركم به ابتغاء لمرضاته لا لرياء وسمعة، وتضرعوا إليه خوفاً من عقوباته خصوصاً بالجماعة يوم الجمعة. وقرأ عياش عن أبي عمرو[١]: ﴿يعملون﴾ بالتحتية، والجمهور بالفوقية. ومن الأدعية النبوية: «اللهم: طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة. إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور».

وفي تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر من بين العبادات المرادة بالأمر بالإطاعة العامة إشارة إلى علو شأنهما وإنافة قدرهما[٢]؛ لأن الصلاة رئيس الأعمال البدنية، جامعة لجميع أنواع العبادات، من القيام والركوع والسجود والقعود، ومن التعوذ والبسملة والقراءة والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، والصلاة على النبي - ﷺ -، ومن الدعاء الذي هو مخّ العبادة، ومن ذلك سميت صلاة، وهي الدعاء لغةً. فهي عبادة من عبد الله تعالى بها.. فهو محفوظ بعبادة العابدين من أهل السماوات والأرضين، ومن تركها.. فهو محروم منها. فطوبى لأهل الصلاة، وويل لتاركها. وإن الزكاة هي أمّ الأعمال المالية، بها يطهر القلب من دنس البخل، والمال من خبث الحرمة، فعلى هذا هي بمعنى الطهارة، وبها ينمو المال في الدنيا بنفسه؛ لأنه: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾، وفي الآخرة بأجره؛ لأنه تعالى يضاعف لمن يشاء. وفي الحديث: «من تصدق بقدر تمرة من كسب حلال - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه، حتى تكون مثل الجبل». فعلى هذا هي من الزكاء، بمعنى النماء؛ أي: الزيادة.

فإن قلت: لم قدم المعمول على عامله في قوله السابق: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

﴿خَبِيرٌ﴾، وأخّره هنا حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. فما الفرق بين الموضعين؟

قلتُ: فَعَلَ ما فَعَلَ في الموضعين رعاية للفواصل التي كانت بعدهما؛ لأنه بعد الأول وقع ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، و﴿رَّحِيمٌ﴾ بوزن خبير ـ وإن كان الحرف الأخير مختلفاً ـ وبعد الموضع الثاني الفواصل نفس ما فيه.

وقيل: قدم في الأول تأكيداً للتهديد المفهوم من الجملة؛ لأنها وقعت تعليلاً للأوامر العزائم قبلها، وفي الموضع الثاني لا حاجة إلى التأكيد المذكور؛ لأن الجملة وإن وقعت تعليلاً لما قبلها؛ لأن الأوامر قبلها إنما وقعت للترخيص وقيل: للتفنن. فليتأمل، هكذا وقع في فهمي السقيم، والله أعلم بأسرار كتابه.

الإعراب

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ①﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿سَمِعَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿قَوْلَ ٱلَّتِى﴾: مفعول به، ومضاف إليه ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الموصول، ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ومن هذا سميت السورة سورة المجادلة بكسر الدال، على أنها اسم فاعل. وقيل: بفتحها وكسرها كما في «حاشية الشهاب على البيضاوي». والكسر أرجح على كل حال؛ لأنه أنسب بالسياق. ﴿فِى زَوْجِهَا﴾: متعلق بـ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾: ولا بد من حذف مضاف؛ أي: في شأن زوجها. ﴿وَتَشْتَكِىٓ﴾: معطوف على ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾. ويجوز أن تكون الواو حالية، والجملة في موضع نصب على الحال من فاعل ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿تشتكي﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿الله﴾: مبتدأ وجملة ﴿يَسْمَعُ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ أيضاً. ﴿يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن الجلالة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿سَمِيعٌۢ﴾: خبر أول له، ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر ثان. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، لا محل لها من الإعراب.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ صلته. ﴿مِنكُم﴾: حال من فاعل ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾؛ أي: حال كونهم منكم. ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾: متعلق بـ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾. ﴿مَّا﴾: حجازية، ﴿هُنَّ﴾: اسمها. ﴿أُمَّهَٰتِهِمْ﴾: خبرها، نصب بالكسرة نيابةً عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. وجملة ﴿مَّا﴾ الحجازية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الابتدائية مستأنفة مسوقة لبيان أحكام المظاهر. ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾: ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿أُمَّهَٰتُهُمْ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾: اسم موصول للجمع المؤنث، في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَدْنَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إنهم﴾: ناصب واسمه، ﴿لَيَقُولُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾. ﴿مُنكَرًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: قولاً منكراً ﴿مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ صفة لـ﴿مُنكَرًا﴾، ﴿وَزُورًا﴾: معطوف على ﴿مُنكَرًا﴾، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنَّ الله﴾: ناصب واسمه، ﴿لَعَفُوٌّ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿عفو﴾: خبر أول لـ﴿إنَّ﴾، ﴿غَفُورٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنَّ﴾ الأولى.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ صلة الموصول. ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، وجملة ﴿يَعُودُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾. ﴿لِمَا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، وجملة ﴿قَالُوا۟﴾: صلة ﴿ما﴾ المصدرية، والمصدر المؤول من ﴿ما﴾ المصدرية وصلتها مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَعُودُونَ﴾، ولك أن تجعل ﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف؛ أي: لما قالوه. ﴿فَتَحْرِيرُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ؛ لما في المبتدأ من معنى الشرط، ﴿تَحْرِيرُ رقبة﴾: مبتدأ، خبره محذوف تقديره: فتحرير رقبة واجب عليهم، والجملة الاسمية في محل

الرفع خبر عن الموصول، وجملة الموصول مستأنفة. ﴿مِّن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الضمير المستكن في الخبر؛ أي: فتحرير رقبة واجب هو عليهم حال كون ذلك التحرير من قَبْلِ تماسهما. أو متعلق بـ﴿تحرير﴾. ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿يَتَمَآسَّاۚ﴾: فعل وفاعل، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من قبل تماسهما. ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تُوعَظُونَ﴾ من الفعل المغير، ونائبه في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿بِهِۦۚ﴾: متعلق بـ﴿تُوعَظُونَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة أو المصدرية، ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر عن الجلالة، وجملة الجلالة مستأنفة أو معطوفة على ما قبلها.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾.

﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿لَّمۡ يَجِدۡ﴾: صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿يَجِدۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمۡ﴾: وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿فَصِيَامُ﴾: ﴿الفاء﴾؛ رابطة الخبر بالمبتدأ لشبهه الشرط، ﴿صيام﴾: مبتدأ، ﴿شَهۡرَيۡنِ﴾: مضاف إليه، ﴿مُتَتَابِعَيۡنِ﴾: صفة له، والخبر محذوف تقديره: واجب عليه، والجملة خبر لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، وجملة ﴿من﴾: الموصولة معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾. ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من الضمير المستكن في الخبر؛ أي: حال كون ذلك الصوم من قبل أن يتماسا، وجملة ﴿أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه. ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿من﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾: صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿فَإِطۡعَامُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ، ﴿إطعام﴾: مبتدأ، ﴿سِتِّينَ﴾: مضاف إليه، مجرور بالياء، ﴿مِسۡكِينٗاۚ﴾: تمييز لـ﴿سِتِّينَ﴾: منصوب به، والخبر محذوف تقديره: فإطعام ستين مسكيناً واجب عليه، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، وجملة ﴿من﴾ الموصولة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿لِتُؤۡمِنُواْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تؤمنوا﴾ فعل مضارع، وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تؤمنوا﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦۚ﴾:

معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام: تقديره: ذلك واقع أو واجب لطلب إيمانكم بالله ورسوله، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَتِلْكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿تلك﴾: مبتدأ، ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿للكافرين﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة عذاب، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَرَسُولَهُ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿كُبِتُوا﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿و﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لزفّ البشرى إلى رسول الله - ﷺ - والمؤمنين بكبت أعدائهم وإذلالهم. ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جرّ وتشبيه، ﴿ما﴾: مصدرية ﴿كُبِتَ الَّذِينَ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل. والجملة صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: كبتوا كبتاً كائناً ككبت الذين من قبلهم. و﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف صلة الموصول، ﴿وَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿آيَاتٍ﴾: مفعول به، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾: صفة لآيات، والجملة الفعلية في محل النصب حال من واو ﴿كُبِتُوا﴾، والتقدير: كبتوا لمحادتهم، والحال أنا قد أنزلنا آيات بينات تدل على صدق الرسول كما في «أبي السعود». ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿للكافرين﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مُّهِينٌ﴾: صفة عذاب، والجملة مستأنفة.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: ظرف منصوب، متعلق بمحذوف تقديره: اذكرهم، أو متعلق بـ﴿مُّهِينٌ﴾، أو بـ﴿عَذَابٌ﴾، أو بالاستقرار الذي تعلق به ﴿للكافرين﴾. ﴿يَبْعَثُهُمُ

﴿ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من مفعول ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ أو تأكيد له، ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ينبئهم﴾: فعل مضارع، ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿ينبئهم﴾ على أنه مفعول ثان له، وجملة ﴿عَمِلُوٓاْ﴾ صلة الموصول، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض، ومفعول به وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَنَسُوهُۚ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿نسوه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿أَحْصَىٰهُ﴾، ولكنه على تقدير: قد. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الله﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿شَهِيدٌ﴾، و﴿شَهِيدٌ﴾: خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل الإحصاء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ⑦﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري التعجبي؛ ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطَب. والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾: خبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر سادّ مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾؛ أي: ألم تعلم علم الله. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع تام، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿نَّجْوَىٰ﴾: فاعل، ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾: مضاف، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتقرير سعة علمه تعالى، وبيان كيفيته. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿رَابِعُهُمْ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾؛ أي: إلا حالة كونهم مصطحبين الله، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، كما مر. ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾: معطوف على ثلاثة ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿سَادِسُهُمْ﴾: خبر، والجملة في محل النصب حال من ﴿خَمْسَةٍ﴾، ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية، ﴿أَدْنَىٰ﴾: معطوف على ﴿نَّجْوَىٰ﴾، ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ﴿أَدْنَىٰ﴾، ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾: معطوف على أدنى. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر،

﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. والجملة في محل النصب حال من ﴿أَدْنَىٰ﴾ و﴿أَكْثَرَ﴾. ﴿أَيْنَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية، و﴿ما﴾: زائدة، والظرف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به ﴿مَعَهُمْ﴾؛ أي: مصاحب لهم بعلمه في أي مكان استقروا فيه. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل تام، وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿أَيْنَ﴾؛ لأن ﴿مَا﴾ زائدة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿يُنَبِّئُهُم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ على أنه مفعول ثان له، وجملة ﴿عَمِلُوٓا۟﴾ صلة الموصول، و﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ أيضاً، وجملة ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ معطوفة على جملة ﴿يَعْلَمُ﴾ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، وما بينهما اعتراض. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. و﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، أو على أي مخاطَب، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿تَرَ﴾، لأنه بمعنى النظر، فيتعدى بإلى. وجملة ﴿نُهُوا۟﴾: صلة الموصول، وهو فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل ﴿عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾: متعلق بـ﴿نُهُوا۟﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿يَعُودُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نُهُوا۟﴾. وعدل عن صيغة الماضي إلى المضارع لاستحضار صورة العود الماضي. ﴿لِمَا﴾ متعلق بـ﴿يَعُودُونَ﴾، وجملة ﴿نُهُوا۟﴾ صلة لـ﴿ما﴾، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق بـ﴿نُهُوا۟﴾، ﴿وَيَتَنَـٰجَوْنَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَعُودُونَ﴾، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: متعلق بـ﴿يتناجون﴾، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾: معطوفان على ﴿الإثم﴾. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لِما يُستقبل من الزمان، ﴿جَآءُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة في محل الخفض بـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿حَيَّوْكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من

الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حَيَّوْكَ﴾. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم، ﴿يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمْ﴾ وعلامة جزمه حذف حرف العلة، و﴿الكاف﴾: مفعول به، و﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿يُحَيِّكَ﴾ ولفظ الجلالة فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿حَيَّوْكَ﴾، أو حال من فاعل ﴿حَيَّوْكَ﴾، ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يقولون﴾، ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض ﴿يُعَذِّبُنَا﴾: فعل ومفعول به مقدم، ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿يُعَذِّبُنَا﴾، وجملة ﴿نَقُولُ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من ﴿جَهَنَّمُ﴾. ﴿فَبِئْسَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿بئسَ المصير﴾: فعل وفاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾، ولكنها على تقدير القول؛ أي: حالة كونها يصلونها، وحالة كونها مقولاً فيها: بئس المصير. ويصح أن تكون الفاء استئنافية، والمخصوص بالذمِّ محذوف وجوباً تقديره: هي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾ أو بدل منه، وجملة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: صلة الموصول. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿تَنَٰجَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تَتَنَٰجَوْاْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾: لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: متعلق بـ﴿تَتَنَٰجَوْاْ﴾، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾: معطوفان على ﴿الإثم﴾.

﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَتَنَٰجَوْاْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿تناجوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة معطوفة على ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ﴾. ﴿بِٱلْبِرِّ﴾: متعلق

بـ﴿تناجوا﴾، ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾: معطوف عليه، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل أمر، وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ﴾. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة للجلالة ﴿إِلَيۡهِ﴾: متعلق بـ﴿تُحۡشَرُونَ﴾، وجملة ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ صلة الموصول. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾: مبتدأ، ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: خبر، و﴿مِنَ﴾: فيه ابتدائية، والجملة مستأنفة. ﴿لِيَحۡزُنَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يحزن﴾: فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة (أن) المضمرة، (أن) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لحزنه الذين آمنوا، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ثان لـ﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ صلة الموصول. وقيل: إن الموصول فاعل بـ﴿يحزن﴾. ﴿وَلَيۡسَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿ليس﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، ﴿بِضَآرِّهِمۡ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة، ﴿ضارهم﴾: خبر ﴿ليس﴾. ﴿شَيۡـًٔا﴾: مفعول مطلق؛ أي: شيئاً من الضرر. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ضارهم﴾، وجملة ﴿ليس﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿يحزن﴾. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿عَلَىٰ اللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يتوكل﴾، ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾: ﴿الفاء﴾: زائدة، و﴿اللام﴾: لام الأمر، ﴿يتوكل﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تقدم إعرابه قريباً. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَكُمۡ﴾: متعلق به، ﴿تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. وإن شئت قلت: ﴿تَفَسَّحُواْ﴾: فعل أمر، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾: متعلق بـ﴿تَفَسَّحُواْ﴾. ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ ﴿افسحوا﴾: فعل أمر، وفاعل والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿يَفۡسَحِ﴾: فعل مضارع مجزوم

بالطلب، ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَفْسَحِ﴾، والجملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يُستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿ٱنشُزُوا۟﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. وإن شئت قلت: ﴿ٱنشُزُوا۟﴾: فعل أمر، وفاعل والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿فَٱنشُزُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة، ﴿ٱنشُزُوا۟﴾: فعل أمر، وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ الأولى. ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بالطلب، لا محل له من الإعراب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلته، ﴿مِنكُمْ﴾: حال من فاعل ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول، ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ماض، ونائب فاعل، ﴿ٱلْعِلْمَ﴾: مفعول ثان لـ﴿أُوتُوا۟﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: منصوب بنزع الخافض أو تمييز. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾، ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: تقدم إعرابه مراراً. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَقَدِّمُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾، ﴿قدموا﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿بَيْنَ﴾: ظرف، متعلق بـ﴿قدموا﴾، ﴿بَيْنَ﴾: مضاف، ﴿يَدَىْ﴾: مضاف إليه مجرور بالياء، ﴿يَدَىْ﴾: مضاف، ﴿نَجْوَىٰكُمْ﴾: مضاف إليه، ﴿نجوى﴾: مضاف، والكاف: مضاف إليه. وكثرة الإضافة لا تخرج الكلام عن الفصاحة لورودها في الكتاب والسنة. وجملة ﴿قدموا﴾: جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب النداء، ﴿صَدَقَةً﴾: مفعول قدموا. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر والجملة مستأنفة. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بخير، ﴿وَأَطْهَرُ﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فقدموا بين يدي نجواكم صدقة إن وجدتم ما تتصدقون به، فإن لم تجدوا إلخ. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿لَّمْ﴾: حرف

جزم، ﴿تَجِدُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة في محل الجزم بإن الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لـ﴿إنَّ﴾، ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿أشفقتم﴾: فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: أأشفقتم وخفتم الفقر والعيلة. والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تُقَدِّمُواْ﴾: فعل مضارع، منصوب بـ﴿أن﴾، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تُقَدِّمُواْ﴾، ﴿صَدَقَٰتٍ﴾: مفعول ﴿تُقَدِّمُواْ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جرّ محذوف، تقديره: أخفتم الفقر من تقديم الصدقات بين يدي نجواكم. والجار والمجرور متعلق بـ﴿أشفقتم﴾. ﴿فَإِذْ﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَفْعَلُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذ﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿وَتَابَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، أو استئنافية، أو اعتراضية، ﴿تاب الله﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿تاب﴾، والجملة في محل النصب على الحال من فاعل ﴿تَفْعَلُواْ﴾ أو معترضة بين الشرط وجوابه، ﴿فَأَقِيمُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿أقيموا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب ﴿إذ﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذ﴾ مستأنفة. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أقيموا الصلاة﴾، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أقيموا﴾، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿خَبِيرٌۢ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌۢ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: تعملونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أجاب وقَبِلَ، كما يقال: سمع الله لِمَنْ حمده. ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾؛ أي: تراجعك الكلام في شأن زوجها، وما صدر منه في شأنها، وأصله من جدلت الحبل؛ أي: أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كلّ واحد منهما الآخر عن رأيه. والمراد هنا: المكالمة، ومراجعة الكلام؛ أي: معاودته.

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: تتضرع إلى الله تعالى، وتُظهر ما بها من المكروه. قال في «المفردات»: الشكاية، والشكاة، والشكوى: إظهار البث. يقال: شكوت واشتكيت. وأصل الشكوى: فتح الشكوة وإظهار ما فيها. وهي سقاء صغير يجعل فيه الماء. وكان في الأصل استعارة، كقولك: بثثت له ما في وعائي، ونفضت ما في جرابي، إذا أظهرت ما في قلبك. وفي «كشف الأسرار»: الفرق بين الشكوى والاشتكاء: أن الاشتكاء إظهار ما يقع بالإنسان من المكروه، والشكوى: إظهار ما يصنعه غيره به. والمعنى هنا أي: تبث إليه ما انطوت عليه نفسها من غم وهم، وتتضرع إليه أن يزيل كربها.

﴿تَحَاوُرَكُمَآ﴾؛ أي: تراجعكما الكلام، وتخاطبكما، وتجاوبكما في أمر الظهار. والحوار في الكلام معروف. وفي «المصباح»: وحاورته: راجعته الكلام، وتحاورا وأحار الرجل الجواب بالألف: رده، وما أحاره: ما رده، انتهى. والتحاور: المرادة في الكلام، والكلام المردد. كما يقال: كلمته فما رجع إليّ حوار؛ أي: ما رد عليّ بشيء.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾: مضارعُ ظاهَرَ، من باب فاعل. والظهار لغة: مصدر ظاهَرَ، ويراد به معان مختلفة باختلاف الأغراض، فيقال: ظاهر فلان فلاناً؛ أي: نصره وظاهر بين ثوبين؛ أي: لبس أحدهما فوق الآخر، وظاهر من امرأته؛ أي: قال لها: أنت علي كظهر أمي؛ أي: محرمة، وكان هذا أشد طلاق في الجاهلية. والظهار شرعاً: تشبيه المرأة أو عضو منها بامرأة محرمة نسباً، أو رضاعاً، أو مصاهرة، بقصد التحريم لا بقصد الكرامة، ولهذا المعنى نزلت الآية.

﴿مُنكَرًا﴾: والمنكر: ما ينكره الشرع والعقل والطبع، ﴿وَزُورًا﴾؛ أي: كذباً. ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ أي: عتق عبد أو أمة. والتحرير: هو جعل الإنسان حراً،

وهو خلاف الرقيق. والرقبة: ذات مرقوق مملوك كما مر.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ أي: من قبل أن يجتمعا اجتماع الأزواج. أصله: يتماسَسَا، فكرهوا توالي المثلين فأدغمت السين الأولى في الثانية.

﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ﴾ والياء في الصيام منقلبة عن واو، لأنّ أصله: صوام فقلبت الواو ياء لوقوعها بعد كسرة كقوام في قيام. ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ الوعظ: زجر يقترن بتخويف.

﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾ والإطعام: جعله الغير طاعماً. والمسكين بكسر الميم، وقد تفتح: من لا شيء له من المال، أو له ما لا يكفيه، سمي به لأنه أسكنه الفقر أي: قلل حركته وأذله، ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ أي: أحكام شرعه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يشاقون، ويعادون. وأصل المحادة: الممانعة، ومنه قيل للبواب: حداد. وأصله: يحادون بوزن يفاعلون بدالين، أدغمت الأولى منهما في الثانية لكراهة توالي المثلين.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والأليم بمعنى المؤلم؛ أي: الموجع، كالبديع بمعنى المبدع أو بمعنى المتألم، كما مر.

﴿كُبِتُوا﴾ وفي «المفردات»: الكبت: الرد بعنف، وتذليل. وفي «القاموس»: كبته يكبته ـ من باب ضرب ـ صرعه، وأخزاه، وصرفه، وكسره، ورد العدو بغيظه، وأذله، اهـ.

﴿مُّهِينٞ﴾ اسم فاعل من أهان الرباعي أصله: مهون بوزن مفعل، نقلت حركة الواو إلى الهاء فسكنت إثر كسرة فقلبت ياء حرف مد.

﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: أحاط الله به علماً، وحفظه كما عمله، لم يفت منه شيء، ولم يغب. قال الراغب: الإحصاء: التحصين بالعدد، يقال: أحصيت كذا. وذلك من لفظ الحصي، واستعمال ذلك فيه؛ لأنهم كانوا يعتمدون اعتمادنا فيه على الأصابع. وقال بعضهم: الإحصاء: عد بإحاطة وضبط؛ إذ أصله: العدد بآحاد الحصىٰ للتقوي في الضبط، فهو أخص من العد لعدم لزوم الإحاطة فيه. وفيه إعلال بالقلب، أصله: أحصي بوزن أفعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا.

﴿وَنَسُوهُ﴾ أصله: نسيوه، استثلقت الضمة على الياء فحذفت فلما سكنت حذفت لالتقائها ساكنة مع واوِ الجماعة، وضمت السين لمناسبة الواو.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أصله: نهيوا بوزن فعلوا استثقلت الضمة على الياء فحذفت ثم حذفت لما التقت ساكنة بواو الجماعة، وضمت الهاء لمناسبة الواو.

﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أصله: يتناجيون بوزن يتفاعلون، قبلت الياء فيه ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنةً مع واو الجماعة. والمناجاة: المحادثة سراً، والنجوى مصدر بمعنى التناجي، كالشكوى بمعنى الشكاية. يقال: نجاه نَجوى ونِجوى: سارّه كناجاه مناجاة. والنجوى: السر الذي يكتم، اسم مصدر كما في «القاموس». وأصله: أن تخلو في نجوة من الأرض؛ أي: مكان مرتفع منفصل بارتفاعه عما حوله، كأن المتناجي بنجوة من الأرض لئلا يطلع عليه أحد. والفرق بين الإثم والعدوان، ومعصية الرسول: أن الإثم مخالفة أوامر الله ونواهيه؛ بتركها أو بارتكابها، والعدوان: التعدي على المؤمنين، ومعصية الرسول: إساءة أدبه وعدم احترامه؛ بالطعن فيه وسبه.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ﴾: أصله: حييوك، بوزن فعلوك، قلبت الياء الأخيرة لام الفعل ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أصله؛ يصليونها، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أصله: المصير، بوزن مفعل، نقلت حركة الياء إلى الصاد، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مدّ.

وقوله: ﴿حَيَّوْكَ﴾: أيضاً أي: خاطبوك بتحية، ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ﴾؛ أي: بتحية لم يأذن الله أن تخاطب بها. والتحية في الأصل: مصدر حياك، على الإخبار، من الحياة، فمعنى: حياك الله: جعل لك حياة، ثم استعمل للدعاء بها، ثم قيل لكل دعاء فغلب في السلام، فكل دعاء تحية، لكون جميعه غير خارج عن حصول حياة أو سبب حياة، إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟﴾: أصله: تتناجيون، حذفت منه نون

الرفع لدخول أداة الجزم ﴿لا﴾ عليه، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، لكنها حذفت لما التقت بواو الجماعة لالتقاء الساكنين. ﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أصله: تناجيون، حذفت نون الرفع لبناء الأمر، ثم قلبت الياء ألفاً، وحذفت لالتقاء الساكنين.

﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: وفي «القاموس»: الحزن بالضم، ويحرك: الهم والجمع: أحزان، وحزن كفرح، وحزنه الأمر حزناً ـ بالضم ـ وأحزنه: جعله حزيناً، وحزنه: جعل فيه حزناً. وقال الراغب: الحُزْنُ والحَزَن: خشونة في الأرض، وخشونة في النَّفْس؛ لما يحصل فيها من الغم، ويضاده الفرح، ولاعتبار الخشونة بالغمّ قيل: خشنت بصدره، إذا أحزنته.

﴿بِضَآرِّهِمْ﴾: الأصل: بضاررهم، أدغمت الراء في الراء للقاعدة المقررة عندهم؛ وهي: أن كل مثلين متحركين في كلمة يدغم الأول منهما في الثاني إلا ما استثني من ذلك، كما هو مقرر في محله.

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ﴾؛ أي: توسعوا، وليفسح بعضكم عن بعض، ولا تتضاموا من قولهم: أفسح عني؛ أي: تنحّ، وأنت في فسحة من دِينك؛ أي: في وسعة ورخصة، وفلان فسيح الخلق؛ أي: واسع الخلق. ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ﴾؛ أي: في رحمته، ويوسع لكم في أرزاقكم. ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾؛ أي: انهضوا للتوسعة على المقبلين. ﴿فَٱنشُزُواْ﴾؛ أي: فانهضوا، ولا تتباطؤوا. يقال: نشز الرجل إذا نهض، وارتفع في المكان نشزاً. والنشز كالفلس، وكذا النشز ـ بفتحتين ـ: المكان المرتفع من الأرض، ونشز فلان إذا قصد نشزاً، ومنه: نشز فلان عن مقره، وقلب ناشز: ارتفع عن مكانه رعباً.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: أصل ﴿تاب﴾: توب بوزن فعل، تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، نظيرَ: قال. ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الأصل فيه: أقوموا بوزن افعلوا، نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أصله: أأتيوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت التاء لمناسبة الواو، وأبدلت الهمزة الساكنة ألفاً حرف مدّ للهمزة المفتوحة. ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: الألف منقلبة عن واو؛ ولذلك ترسم بالواو.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أصله: أطوعوا، بوزن أفعلوا، نقلت حركة الواو إلى الطاء، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد، والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، لأنه مجاز عن (أجاب الله) بعلاقة السببية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأن الشكوى حقيقة في فتح الشكوة، وإخراج ما فيها، وهي: سقاء صغير يجعل فيه ماء، ثم استعير لإظهار ما في قلب الإنسان من الغم والحزن، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿تَحَاوُرَكُمَآ﴾ حيث نظمها في سلك الخطاب مع أفضل البريات تشريفاً لها؛ إذ القياس: يسمع تحاورها وتحاورك.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، وفي قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ إفادة أنه منكر عند العقل والطبع، كما أنه منكر في الشرع.

ومنها: فن السلب والإيجاب في قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ﴾. وهو فن عجيب من فنون البلاغة، وهو: بناء الكلام على نفي الشيء من جهة وإيجابه من جهة أخرى. وفي الكلام هنا نفي لصيرورة المرأة أماً بالظهار، وإثبات الأمومة للتي ولدت الولد.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾؛ لأن المعنى: عَلِمَهُ اللَّهُ وجهِلُوهُ، وفي قوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾؛ لأن معنى ﴿أَدْنَىٰ﴾: أقل، فحصل الطباق بينه وبين ﴿أَكْثَرَ﴾.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿ٱلنَّجْوَىٰ﴾، ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾. وفيه الإطناب أيضاً بتكرار ﴿نُهُوا۟﴾.

ومنها: الاستهزاء في قولهم: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾؛ لأن فيه استخفافاً بشأنهم، لكفرهم وعدم إيمانهم.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ للدلالة على علو شأن العلماء وسمو مكانتهم، حتى كأنهم جنس آخر.

ومنها: صيغة المضارع في قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ للدلالة على تمكن عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة. وكذلك صيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ﴾. فإن اليدين استعيرت لمعنى (قبل) على سبيل التخييل، فقوله: ﴿نَجْوَىٰكُمْ﴾ استعارة بالكناية و﴿بَيْنَ يَدَىْ﴾ تخييلية، كذا في «الروح».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما ذكر أن أصحاب رسول الله - ﷺ - كانوا يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله - ﷺ - لتلقي الدِّين عنه والاهتداء بهديه، حتى كان يضيق بهم المجلس فأمروا أن يتوسعوا ولا يتضاموا.. ذكر هنا حال قوم من المنافقين يوادّون اليهود، ويطلعونهم على أسرار المؤمنين، فهم عيون لهم عليهم، وإذا لاقوا المؤمنين.. قالوا لهم: إنا معكم نؤيدكم على أعدائكم بكل ما أوتينا من قوة وهم كاذبون في كل ما يقولون، وقد جعلوا الأيمان وقاية لستر ما يبطنون، فأمنوا من المؤاخذة، وجاسوا خلال ضعفاء المؤمنين يصدونهم عن الدِّين، ويذكرون لهم ما يبغضهم فيه. ثم أبان أن الله قد أعد لمثل هؤلاء عذاباً شديداً يوم القيامة، وما هم فيه من مال وولد في الدنيا لن يغني عنهم شيئاً حينئذٍ. ثم ذكر أن

---

(١) المراغي.

الذي جرأهم على ما فعلوا هو الشيطان؛ فقد استولى على عقولهم وزين لهم قبيح أعمالهم، فأنساهم عذاب اليوم الآخِر. ثم ذكر أن أولئك هم جند الشيطان، وجنود الشيطان لن تفلح في شيء، وسيرد الله سبحانه عليهم كيدهم في نحورهم، ويحبط سعيهم، ويظهر نور دينه ولو كره الكافرون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال أولئك المنافقين الذين يحلفون كذباً أنهم مؤمنون، ويمالئون المؤمنين طوراً واليهود طوراً آخر اكتساباً لرضا الفريقين، ثم بين أن الذي حملهم على ذلك هو الشيطان؛ إذ غلبهم على أمرهم حتى أنساهم ذكر الله وما يجب له من تعظيم والإيمانَ باليوم الآخر، ثم حكم عليهم بأن صفقتهم خاسرة؛ لأنهم باعوا الباقي بالفاني، والزائل الذي لا دوام له بما هو دائم أبداً سرمداً.. بين هنا سبب خسرانهم، وهو: أنهم شاقّوا الله ورسوله، وعصوا أمرهما، فكتب عليهم الذلة في الدنيا والآخرة؛ إذ قَضى بأن العزة والغلب له ولرسله، والذلة لأعدائه. ثم ذكر أن الإيمان الحق لا يجتمع مع موالاة أعدائه، مهما قرب بهم النسب، بأن كانوا آباء أو أبناء أو إخواناً أو من ذوي العشيرة؛ لأن المحادين كتبت عليهم الذلة، وأولئك كتبت لهم العزة، وقواهم ربهم بالطمأنينة والثبات على الإيمان، وهم جند الله وناصرو دينه، وحزب الله مفلح لا محالة، وقد كتبت لهم السعادة في الدارين، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه أحمد، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: كان رسول الله - ﷺ - جالساً في ظلّ حُجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين فقال: «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاءكم.. فلا تكلموه»، فلم

(١) لباب النقول.

يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق أعور فقال حين رآه: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فقال: ذرني آتيك بهم، فحلفوا واعتذروا. فأنزل الله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ...﴾ الآية، والتي بعدها.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «سننه» عن عبد الله بن شوذب قال: جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر. قصده أبو عبيدة، فقتله. فنزلت هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ...﴾ إلى آخرها.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج، قال: حدثت أن أبا قحافة سبّ النبي - ﷺ -، فصكه أبو بكر صكة شديدة، فسقط. فذكر ذلك للنبي - ﷺ - فقال: «أوفعلته يا أبا بكر؟ فقال: والله لو كان السيف قريباً مني.. لضربته به. فنزلت: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا...﴾ الآية.

وقيل[1]: نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ابن سلول؛ وذلك أنه كان جالساً إلى جنب رسول الله - ﷺ -، فشرب رسول الله - ﷺ - ماء، فقال عبد الله: يا رسول الله، أبق فضلة من شرابك، قال: «وما تصنع بها»؟ قال: أسقيها أبي لعل الله سبحانه يطهر قلبه، ففعل، فأتى بها أباه، فقال: ما هذا؟ قال: فضلة من شراب رسول الله - ﷺ -، جئتك بها لتشربها، لعل الله يطهر قلبك، فقال: هلا جئتني ببول أمك؟ فرجع إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا رسول الله، ائذن لي في قتل أبي، قال: فقال رسول الله - ﷺ -: «ارفق به، وأحسن إليه». فنزلت هذه الآية. قاله السدي.

وقيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكّة يخبرهم أن رسول الله - ﷺ - قد عزم على قصدهم، قاله مقاتل، واختاره الفراء والزجاج.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: تعجيب[2] من حال المنافقين الذين يتخذون اليهود أولياء،

---

(١) زاد المسير.
(٢) روح البيان.

ويناصحونهم، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين. والخطاب للرسول ـ ﷺ ـ، أو لكل من يسمع ويعقل. وتعدية الرؤية بـ﴿إِلَى﴾ لكونها بمعنى النظر؛ أي: ألم تنظر يا محمد ﴿إِلَى﴾ حال المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾؛ أي: والوا، من التولي، بمعنى الموالاة، لا بمعنى الإعراض؛ أي: اتخذوا ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أولياء وأصدقاء وهم اليهود، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾. ينقلون؛ أي: المنافقون أسرار المؤمنين إليهم؛ أي: إلى اليهود. والغضب: حركة للنفس مبدؤها إرادة الانتقام، وهو بالنسبة إليه تعالى نقيض الرضا، أو إرادة الانتقام، أو تحقيق الوعيد، أو الأخذ الأليم، والبطش الشديد، أو هتك الأستار والتعذيب بالنار، أو تغيير النعمة، هكذا قالوا.

والأسلم الذي عليه السلف: أن الغضب صفة ثابتة لله تعالى، نعتقده ولا نكيّفه ولا نمثله، ولكن أثرها الانتقام من أعدائه. ﴿مَّا هُم﴾؛ أي: ما أولئك المنافقون الذين يوالون اليهود ﴿مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون في الحقيقة؛ لأنهم يبطنون الكفر، ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: ولا من القوم المغضوب عليهم؛ لأنهم يظهرون الإسلام مذبذبون بين ذلك. فهم وإن كانوا كفاراً في الواقع لكنهم ليسوا من اليهود حالاً؛ لعدم اعتقادهم بما اعتقدوا وعدم وفائهم لهم، ومآلاً؛ لأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار. وهذه الجملة مستأنفة معترضة.

وقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾: معطوف على ﴿تَوَلَّوْا﴾، داخل في حكم التعجب. وصيغة المضارع للدلالة على تكرر الحلف وتجدده، حسب تكرر ما يقتضيه؛ أي: ويحلفون لكم على الكذب، ويقولون: والله إنا لمسلمون، فالكذب المحلوف عليه هو ادعاء الإسلام. أو يحلفون أنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود. وجملة قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿فَيَحْلِفُونَ﴾، مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا؛ فإن الحلف على ما يعلم أنه كذب في غاية القبح. وفي هذا التقييد دلالة على أن الكذب يعمّ ما يعلم المخبر عدم مطابقته للواقع وما لا يعلمه، فيكون حجة على النَّظَّام والجاحظ. أي: والحال أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، وأنه كذب لا حقيقة له؛ أي: يوالونهم، ويحلفون لكم على أنهم مسلمون منكم، والحال أنهم يعلمون أن المحلوف عليه كذب، كمن يحلف بالغَموس؛ وهو: الحلف على فعل أو ترك ماض كاذباً عمداً، سمي بالغموس لأنه يغمس صاحبه في

الإثم ثم في النار. ولم يجعل حلفهم غموساً؛ لأن الغموس حلف على الماضي، وحلفهم هذا على الحال.

والمعنى[1]: أي ألم تنظر يا محمد، أو أيها المخاطب إلى حال هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا اليهود أولياء يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، إن حالهم لتستدعي العجب، يقابلون كل قوم بوجه؛ فهم مع اليهود نصحاء أمناء، يبلغونهم ما يعرفونه من دخائل المؤمنين اكتساباً لصداقتهم وودهم، ومع المؤمنين مؤمنون مخلصون، قد بلغ الإيمان قرارة نفوسهم وملك عليهم مشاعرهم وحواسهم، وفي الحقيقة إنهم يخدعون الفريقين، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: فلا هم بالمؤمنين حقاً، بل هم مؤمنون من طرف اللسان مداراةً للمؤمنين وخوفاً من بطشهم، ولا هم باليهود؛ لأنهم لا يعتقدون أنهم على الدِّين الحق، ولكنهم يريدون أن ينتفعوا بما عندهم من عرض الدنيا، وأن يحتفظوا بمودّتهم إذا احتاجوا إليها، فهم كما قال الله فيهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾. وفي الحديث: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين» أي: المترددة بين قطيعين ـ لا تدري أيهما تتبع».

ثم ذكر أنهم يؤكدون إيمانهم وإخلاصهم بالأيمان الكاذبة، فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: إنّا آمنّا، وإذا جاء الرسول حلفوا وقالوا له: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يقولون، لأنهم لا يعتقدون صِدقه.

ثم ذكر مآلهم، وبيّن ما يلقون من النكال والوبال، فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: أرصد، وهيأ ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المنافقين بسبب هذا التولي والحلف الباطل ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا والآخرة.

والمراد نوعاً عظيماً من العذاب[2]. فالنوعية مستفادة من تنكير ﴿عَذَابًا﴾، والعظيم من توصيفه بالشدة. ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن هؤلاء المنافقين ﴿سَآءَ﴾ وقبح ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ساء ما تمرنوا عليه وأصروا وتمرنهم أي: اعتيادهم واستمرارهم

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

على مثل ما عملوه في الحال من العمل السوء، مستفاد من ﴿كان﴾ الدالة على الزمان الماضي؛ أي: العمل السيء دأبهم.

والمعنى: أي أرصد الله لهم نكالاً وعذاباً أليماً، جزاء صنيعهم بغش المسلمين وإطلاع أعدائهم على أسرارهم ونصحهم لهم.

ثم ذكر ما جعلوه تكأة لهم على تصديقهم فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ الفاجرة التي يحلفون بها عند الحاجة. واليمين في الحلف مستعار من اليد، اعتباراً بما يفعله المحالف، والمعاهد عنده. ﴿جُنَّةً﴾؛ أي: كالجنّة وهي الترس الذي يجن صاحبه من السلاح؛ أي: يستره. أي: جعلوها وقاية وسترة يستترون بها من المؤمنين ومن قتلهم ونهب أموالهم.

قرأ الجمهور[1]: ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ بفتح الهمزة، جمع يمين. وهي: ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين، توقِّياً من القتل. فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دمائهم، كما يجعل المقاتل الجُنة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو سهم. وقرأ الحسن، وأبو العالية: ﴿إيمانهم﴾ بكسر الهمزة، أي: جعلوا تصديقهم جُنة من القتل، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل، ولم تؤمن قلوبهم.

فالاتخاذ[2] عبارة عن إعدادهم لأيمانهم الكاذبة وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة، ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة، لا عن استعمالها بالفعل. فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية، والخيانة، واتخاذ الجنّة لا بد أن يكون قبل المؤاخذة، وعن سببها أيضاً، كما تعرب عنه الفاء في قوله: ﴿فَصَدُّواْ﴾؛ أي: منعوا الناس وصرفوهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن دينه في خلال أمنهم وسلامتهم، بسبب ما يصدر عنهم من التثبط وتهوين أمر المسلمين، وتضعيف شوكتهم عندهم.

وقيل المعنى: فصدوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام.

﴿فَلَهُمۡ﴾؛ أي: فلهؤلاء المنافقين بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: يهينهم ويخزيهم بين أهل المحشر. وعيد ثانٍ بوصف آخر لعذابهم.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

قيل: هو تكرير لقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ للتأكيد. وقيل: الأول عذاب القبر، وهذا عذاب الآخرة. ولا وجه للقول بالتكرار، فإن العذاب الموصوف بالإهانة غير العذاب الموصوف بالشدة.

والمعنى[1]: أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وتستروا بالأيمان الكاذبة. فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم أنهم صادقون، وبهذه الوسيلة صدوا كثيراً من الناس عن سبيل الله، وبتثبيط من لقوا عن الدخول في الإسلام، بتحقير شأنه في نظرهم. ثم بيّن ما كافأهم به على عملهم فقال: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: عذاب يلحقهم به الذل والهوان في النار، جزاء ما امتهنوا اسمه الكريم بالحلف به كذباً.

ثم أرشد إلى أنّ ما ظنوه منجياً لهم من عذاب الله من المال والأولاد ليس بنافع لهم حينئذٍ، فقال: ﴿لَّن تُغْنِيَ﴾ ولن تدفع ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن هؤلاء المنافقين ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ الكثيرة ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ العديدة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من عذاب الله سبحانه يوم القيامة ﴿شَيْـًٔا﴾ قليلاً من الإغناء والدفع. يقال: أغنى عنه كذا إذا كفاه، يعني: أنهم يحلفون كاذبين للوقاية المذكورة، ولا تنفعهم إذا دخلوا النار أموالهم ولا أولادهم التي صانوها وافتخروا بها في الدنيا. أو يقولون: إن كان ما يقول محمد حقاً. لندفعنّ العذاب عن أنفسنا بأموالنا وأولادنا. فأكذبهم الله تعالى بهذه الآية، فإن يوم القيامة يومٌ لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولا يكفي أحد أحداً في شأن من الشؤون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الموصوفون بما ذكر من الصفات القبيحة. قال في «برهان القرآن» بغير واو موافقة للجمل التي قبلها، ولقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ملازموها ومقارنوها أو مالكوها، لكونها حاصلهم وكسبهم الذي اكتسبوه في الدنيا بالسيئة المردية المؤدية إلى التعذيب. ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبداً. وضمير ﴿هُمْ﴾ لتقوية الإسناد ورعاية الفاصلة، لا للحصر؛ لخلود غير المنافقين فيها من الكفار.

والمعنى: لن تغني عن هؤلاء المنافقين الأموال، فيفتدوا بها من عذاب الله،

---

(١) المراغي.

ولا الأولاد فينصروهم وينقذوهم من العذاب إذا هو عاقبهم. فأولئك هم أهل النار، وهم خالدون فيها أبداً.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ منصوب باذكر، ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المفعول، بمعنى مجموعين. ﴿فَيَحْلِفُونَ﴾ في ذلك اليوم، وهو يوم القيامة ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لله سبحانه وتعالى على أنهم مسلمون مخلصون، كما قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا.

وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم[1]؛ فإن يوم القيامة قد انكشفت فيه الحقائق، وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة، فكيف يجترئون على أن يكذبوا في ذلك الموقف ويحلفون على الكذب؟

والمعنى: واذكر له ـ أيها الرسول ـ حالهم يوم يبعثهم الله جميعاً من قبورهم أحياء كهيئتهم قبل مماتهم، فيحلفون له قائلين: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا أنهم مؤمنون مثلكم.

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿أَنَّهُمْ﴾ بتلك الأيمان الكاذبة ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من جلب منفعة أو دفع مضرّة، كما كانوا عليه في الدنيا؛ حيث كانوا يدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم، ويستجلبون بها فوائد دنيوية. ﴿أَلَآ﴾؛ أي: انتبهوا أيها المخاطبون، واعلموا ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: المبالغون في الكذب إلى غاية لا مطمح وراءها؛ حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب، وزعموا أن أيمانهم الفاجرة تروج الكذب لديه كما تروجه عند الغافلين من المؤمنين. و﴿أَلَآ﴾: حرف تنبيه، والمراد[2]: التنبيه على توغلهم في النفاق وتعودهم به؛ حيث لا ينفكون عنه موتاً ولا حياة. ولو ردوا.. لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون.

والمعنى[3]: أي ويعتقدون أن ذلك نافع لهم، فيجلب لهم الخير ويدفع عنهم الضير، كما كان ذلك في شأنهم في الدنيا؛ إذ كانوا يدفعون بتلك الأيمان الفاجرة عن أرواحهم وأموالهم. ويحصلون على فوائد دنيوية أخرى، ثم أنكر عليهم أعمالهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ فيما يحلفون عليه زعماً منهم أن أيمانهم

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

الفاجرة تروج الكذب لديه تعالى، كما تروجه لدى المؤمنين في الدنيا. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم بيّن السبب الذي أوقعهم في الردى، وأوصلهم إلى قرارة جهنم فقال: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: غلب على عقولهم ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بوسوسته وتزيينه ﴿فـ﴾ اتبعوه حتى ﴿أنساهم ذكر الله﴾ تعالى، فلم يُمكنهم من ذِكر الله واتباع أوامره وترك نواهيه بما زين لهم من الشهوات فأوقعهم في دركات جهنم، وبئس المصير.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: غلب عليهم، واستعلى واستولى. قال المبرد: استحوذ على الشيء حواه، وأحاط به؛ أي: أحاط بهم من كل جهة، وغلب على نفوسهم، واستولى عليها. وقيل: قوي عليهم. وقيل: جمعهم، يقال: أحوذ الشيء؛ أي: جمعه، وضم بعضه إلى بعض. والمعاني متقاربة؛ لأنه إذا جمعهم فقد قوي عليهم وغلبهم واستعلى عليهم واستولى وأحاط بهم. وتقدمت هذه المادة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ في سورة النساء، وأنها من حاذ الحمار العانة إذا ساقها وجمعها غالباً لها، ومنه كان عمر أحوذيّاً نسيج وحده كما سيأتي، وقرأ عمر[1]: ﴿استحاذ﴾. أخرجه على الأصل والقياس. واستحوذ: شاذ في القياس، فصيح في الاستعمال. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ فهم لا يذكرونه لا بقلوبهم ولا بألسنتهم. وقيل: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أوامره والعمل بطاعته، فلم يذكروا شيئاً من ذلك. وقيل: زواجره في النهي عن معاصيه. و﴿ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول؛ أي: كان سبباً بالاستيلاء لنسيانه تعالى، فلم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنافقون الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: جنود الشيطان وأتباعه الساعون فيما أمرهم به. والحزب: الفريق الذي يجمعه مذهب واحد، كما سيأتي. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: الموصوفون بالخسران الذي لا غاية وراءه؛ حيث فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم، وأخذوا بدله العذاب الأليم.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى[1]: أي أولئك هم جنود الشيطان وأعوانه، وإن جنده لهم الهالكون المغبونون في صفقتهم، إذ هم قد فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم، واستبدلوا به العذاب الأليم، وليس من دأب العاقل أن يقبل مثل هذا لنفسه. أو: هم الكاملون في الخسران، حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران؛ لأنهم باعوا الجنة والهدى بالضلالة والعذاب، وكذبوا على الله وعلى نبيه وحلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة.

قال بعض المشايخ ـ بوأه الله الدرجات الشوامخ ـ: علامة استحواذ الشيطان على العبد: أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والملابس والمراكب والمفارش، ويشغل قلبه عن التفكر في آلاء الله ونعمه عليه والقيام بشكرها، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب واللغو والغيبة والبهتان، وسمعه عن الحق باستماع اللهو والملاهي والفيديو والتلافيز، كما هو ديدن أهل زماننا ودأب أهل عصورنا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ أي[2]: يعادونهما، ويخالفون أمرهما، ويتعدون حدودهما ويفعلون معهما فعل من ينازع آخر في أرض فيغلب على طائفة منها، فيجعل لها حداً لا يتعداه خصمه.

ولما كانوا لا يفعلون ذلك إلا لكثرة أعوانهم وأتباعهم فيظن من رآهم أنهم الأعزاء الذين لا أحد أعزّ منهم. قال تعالى نفياً لهذا الغرور الظاهر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأباعد والأسافل بما فعلوا من المحادة ﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾؛ أي: في جملة من هو أذل خلق الله من الأولين والآخرين، لا ترى أحداً أذل منهم؛ لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزّة الآخر، حيث كانت عزة الله غير متناهية كانت ذلة من يحاده كذلك، وذلك بالسبي، والقتل في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، سواء كانوا فارس والروم أو أعظم منهم، سوقة كانوا أو ملوكاً.

والمعنى: أي إن الذين يخالفون أوامر الله ونواهيه، ويمتنعون عن أداء ما فرض عليهم من فرائضه هم في جملة أهل الذلة؛ لأن الغلبة لله ولرسوله، وذلهم في الدنيا يكون بالقتل والأسر والإخراج من الديار، كما حصل للمشركين واليهود، وفي

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الآخرة بالخزي والنكال والعذاب الأليم، كما قال سبحانه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾. وفي هذا بشارة للمؤمنين بأنه سيظهرهم على عدوهم، ويكتب لهم الفوز، ويكونون هم الأعزاء وسواهم الأذلاء.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، استئناف وارد لتعليل كونهم في الأذلين؛ أي: كتب الله سبحانه، وأثبت في اللوح المحفوظ. ولما جرى ذلك مجرى القَسَم.. أجيبَ بما يُجاب به القَسَم، حيث قال: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾، أكده لما لهم من ظن الغلبة بالكثرة والقوة، والمراد: الغلبة بالحجة والسيف أو بأحدهما. والغلبة بالحجة ثابتة لجميع الرسل؛ لأنهم الفائزون بالعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة. وأما الغلبة بالسيف: فهي ليست ثابتة للجميع؛ لأن منهم من لم يؤمر بالحرب. قال الزجاج: غلبة الرسول على نوعين: من بعث منهم بالحرب.. فهو غالب بالحرب، ومن لم يؤمر بالحرب.. فهو غالب بالحُجة. وإذا انضم إلى الغلبة بالحجة الغلبة بالسيف. كان أقوى.

أي: كتب الله في اللوح المحفوظ وقضى في سابق علمه لأغلبن أنا ورسلي بالحجة والسيف. وعن مقاتل: أنه لما قال المؤمنون: لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله تعالى على فارس والروم.. قال رئيس المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول: أتظنون الروم وبعض فارس كبعض القرى التي غلبتم عليها؟ والله إنهم لأكثر عدداً وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ...﴾ الآية، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

وحاصل المعنى: أي قضى الله وحكم في أمّ الكتاب بأن الغلبة بالحجة والسيف، وما يجري مجراهما تكون لله ورسله، فقد أهلك كثيراً من أعدائهم بأنواع من العذاب: كقوم نوح وقوم صالح، وقوم لوط وغيرهم. والحرب بين نبينا وبين المشركين وإن كانت سجالاً كانت العاقبة فيها له - ﷺ -، ثم تكون لأتباعه من بعده ما داموا على سننه، محافظين على الحدود التي أمروا بها، وجاهدوا عدوهم جهاداً خالصاً لله على نحو جهاد الرسل، لا لطلب ملك وسلطان، ولا لطلب دنيا ومال، ولا لطلب جاه ومقام عال.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه، تعليل للقهر والغلبة، أكده لأن أفعالهم مع أوليائه أفعال من يظن ضعفه ﴿قَوِيٌّ﴾ على نصر أنبيائه. قال بعضهم: القوي: هو الذي لا يلحقه ضعف في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا يمسه نصب ولا تعب، ولا يدركه قصور ولا عجز في نقض ولا إبرام. والقوة في الأصل: عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف، ويراد بها: القدرة بالنسبة إلى الله تعالى. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلب عليه في مراده.

والمعنى: أن الله الذي له الأمر كله - قوي على نصر رسله، لا يُغلب على مراده، فمتى أراد شيئاً.. كان، ولم يجد معارضاً ولا ممانعاً، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

فإن قلت[1]: فإذا كان الله قوياً عزيزاً غير عاجز. فما وجه انهزام المسلمين في بعض الأحيان وقد وعد النصر لأوليائه؟

قلت: إن النصرة والغلبة منصب شريف فلا يليق بالكافر، لكن الله تعالى تارة يشدد المحنة على الكفار، وأخرى على المؤمنين، لأنه لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات.. لحصل العلم الضروري بأن الإيمان حق وما سواه باطل ولو كان كذلك.. لبطل التكليف والثواب والعقاب. فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان، وأخرى على أهل الكفر، لتكون الشبهات باقية، والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام، فيعظم ثوابه عند الله تعالى.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾: الخطاب للنبي - ﷺ - أو لكل أحد. و﴿تَجِدُ﴾ إما متعد إلى اثنين، فقوله: ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ مفعوله الثاني، أو إلى واحدٍ؛ بأن كان بمعنى: صادف، فهو حال من مفعوله، لتخصيصه بالصفة، وهو ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. والموادة: المحابة، مفاعلة من المودة، بمعنى: المحبة، وهي: حالة تكون في القلب أولاً، ويظهر آثارها في القالب ثانياً. والمراد بمن حاد الله ورسوله: المنافقون، واليهود، والفساق، والظلمة، والمبتدعة. والمراد

---

(١) روح البيان.

بنفي الوجدان: نفي الموادة على معنى أنه لا ينبغي أن يتحقق ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال وإن جد في طلبه كل أحد، وجعل ما لا ينبغي وجوده غير موجود لشركته في فقد الخير. ويجوز أن يقال: لا تجد قوماً كاملي الإيمان على ما يدل عليه سياق النظم، فعدم الوجدان على حقيقته.

أي: لا تجد يا محمد، أو أيها المخاطب قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان، موادين ومحبين من حاد الله ورسوله، وخالفهما في أوامرهما ونواهيهما ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ﴾؛ أي: من حاد الله ورسوله. والجمع باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾ كما أن الإفراد فيما قبله باعتبار لفظها. ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾؛ أي: آباء الموادين ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ قدم الأقدم حرمة ثم الأحكم محبة ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ نسباً ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾؛ أي: أقاربهم؛ أي: ولو كان المحادون لله ورسوله آباء الموادين.. إلخ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك، ويمنع منه، ورعايته أقوى من رعاية الأبوة والبنوة والأخوة والعشيرة.

والمعنى[1]: أي لا تجد قوماً يجمعون بين الإيمان بالله واليوم الآخر، ومودة أعداء الله ورسوله؛ لأن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين، إذ من كان مؤمناً حقاً لا يوالي كافراً، فمن أحب أحداً.. امتنع أن يوالي عدوه. والمراد من موالاته: مناصحته وإرادة الخير له في الدِّين والدنيا. أما المخالطة والمعاشرة: فليست بمحظورة، ولقد أصاب المسلمين اليوم من ذلك بلاء شديد، فإنا نرى الأمم الإسلامية أصبحت في أخريات الأمم، ويصادقون الأفارج والنصارى، وينصرونهم على أبناء جنسهم، ويقتدون بهم في عاداتهم وأخلاقهم، ولو كان في ذلك ذل لهم ولدينهم وأمتهم، ولن تزول هذه الغفلة إلا بالاستشعار بالعزة الدينية والكرامة القومية، والدفاع عن حوزة الدِّين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ثم بالغ في الزجر، وأبان أنه لا ينبغي لمؤمن أن يفعل ذلك ولو مع الأقارب، كالآباء الذين يجب طاعتهم ومصاحبتهم في الدنيا بالمعروف، أو الأبناء الذين هم فلذات الأكباد، أو الإخوان الذين هم الناصرون لهم، أو العشيرة الذين يعتمد عليهم بعد الإخوان.

والخلاصة: أنه لا يجتمع إيمان مع موادة أعداء الله؛ لأن من أحب أحداً.. امتنع من محبة عدوه، فإذا حصل في القلب مودّة أعداء الله.. لم يحصل فيه

---

(١) المراغي.

الإيمان الصحيح، وكان صاحبه منافقاً.

أخرج الطبراني والحاكم والترمذي مرفوعاً: يقول الله تبارك وتعالى: «وعزتي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعاد أعدائي».

وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اللّهم لا تجعل لفاجر ولا لغاش عليّ يداً ولا نعمة فيوده قلبي، فإني وجدت فيما أوحيت إليّ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

تتمّة: وبدأ بالآباء[1]؛ لأنهم الواجب على الأولاد طاعتهم، فنهاهم عن مودتهم، وقال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ﴾، ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾. ثم ثنى بالأبناء؛ لأنهم أعلق بالقلوب، ثم أتى ثالثاً بالإخوان؛ لأن بهم التعاضد، كما قيل:

أَخَـاكَ أَخَـاكَ إِنَّ مَـنْ لا أَخَـا لَـهُ ... كَسَـاعٍ إِلَـىٰ ٱلْـهَـيْـجَـا بِـغَـيْـرِ سِـلاَحِ

ثم رابعاً بالعشيرة؛ لأن بها التناصر، وبهم المقاتلة والتغلب، والتسرع إلى ما دعوا إليه كما قال:

لاَ يَسْـأَلُـوْنَ أَخَـاهُـمْ حِيْـنَ يَـنْـدُبُـهُـمْ ... فِيْ ٱلنَّـائِـبَـاتِ عَـلَـىٰ مَا قَـالَ بُـرْهَـانـا

وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ﴾ على الإفراد، وأبو رجاء على الجمع ﴿عَشِيْرَاتِهم﴾.

ورويت هذه القراءة عن عاصم.

ثم بيّن العلة في عدم اجتماع الإيمان، ومودة أعدائه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين سلفت أوصافهم. فهو إشارة إلى الذين لا يوادونهم وإن كانوا أقرب الناس إليهم وأمسهم رحماً. ﴿كَتَبَ﴾ الله سبحانه؛ أي: خلق، وأثبت، وأركز ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ وهو[2] الإيمان الوهبي الذي وهبه الله لهم قبل خلق الأصلاب والأرحام، إذ لا يزال أبداً بحال كالإيمان المستعار. وفيه دلالة على خروج العمل من مفهوم الإيمان، فإن الجزء الثابت في القلب ثابت فيه قطعاً، ولا شيء من أعمال الجوارح

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

يثبت فيه. وفيه حجة ظاهرة على القدرية حيث زعموا أن الإيمان والكفر يستقل بعملهما العبد، وهم القائلون بنفي كون الخير والشر كله بتقدير الله ومشيئته، يعني: هم الذين يزعمون أن كلّ عبد خالق لفعله، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله. وسموا بذلك لمبالغتهم في نفيه وكثرة مدافعتهم إياه. وقيل: لإثباتهم للعبد قدرة الإيجاد، وليس بشيء، لأن المناسب حينئذٍ القدري بضمّ القاف.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كَتَبَ﴾ مبنياً للفاعل ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ نصباً على المفعولية؛ أي: كتب الله. وقرأ أبو حيوة، وزرّ بن حبيش، والمفضل عن عاصم: ﴿كُتِبَ﴾ مبنياً للمفعول، ورفع ﴿الإيمانُ﴾ على النيابة.

والمعنى: أي أولئك الذين لا يوادون مَنْ حاد الله ورسوله أثبت[2] الله سبحانه في قلوبهم الإيمان، والإيمان نعمة عظيمة لا تحصل لمن يواد من حاد الله ورسوله. وفي هذا مبالغة عظيمة في الزجر عن موادة أعداء الله.

ثم ذكر سبباً آخر يمنع من موادتهم، فقال: ﴿وَأَيَّدَهُم﴾؛ أي: قواهم الله سبحانه. وأصله: قوّى يدهم ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾؛ أي[3]: من عند الله تعالى. و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، وهو نور القرآن، أو النصر على العدوّ؛ أي: قوّى يدهم بنصر منه على عدوهم في الدنيا. وسمى نصره لهم روحاً لأن به يحيا أمرهم. وقيل: هو نور القلب. وهو بإدراك حقيقة الحال، والرغبة في الارتقاء إلى المدارج الرفيعة الروحانية، والخلاص من درك عالم الطبيعة الدنية. وكل ذلك سمي روحاً لكونه سبباً للحياة. وقيل: بجبريل. وقيل: برحمة. وقيل[4]: الضمير للإيمان؛ فإنه سبب لحياة القلب.

أي: إنه قوَّاهم بطمأنينة القلب، والثبات على الحق. فلا يبالون بموادة أعداء الله، ولا يأبهون لهم.

ثم ذكر ما أعده لهم من النعيم المقيم، فقال: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها أو

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) البيضاوي.

قصورها ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الأربعة: الماء، واللبن،والخمر، والعسل، حال كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ أي[1]: ماكثين فيها أبدَ الآباد لا يقرب منهم زوال، ولا موت، ولا مرض، ولا فقر، كما قال - ﷺ -: «ينادي منادٍ: آن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وآن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وآن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وآن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً».

ثم ذكر السبب فيما أفاض عليهم من نعمه، فقال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: قبل أعمالهم، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة. والرضى: ضد السخط. ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾؛ أي: فرحوا بما أعطاهم عاجلاً وآجلاً.

والمعنى[2]: أي رضي الله عنهم، فأغدق عليهم رحمته العاجلة والآجلة، فأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ورضوا لابتهاجهم بما أوتوا عاجلاً وآجلاً، فإنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى.. عوضهم بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم.

ثم أشاد بتشريفهم فجعلهم جنده تعالى، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات السابقة ﴿حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: جنده الذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه وينصرون أولياءه. وفي إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم وتكريم فخيم. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾ وأعوانه ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ أي: الناجون من المكروه والفائزون بالمحبوب، دون غيرهم المقابلين لهم من حزب الشيطان المخصوصين بالخذلان والخسران، وهو بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة النشأتين وخير الدارين.

والمعنى[3]: أي هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، الكاملون في الفلاح، الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كَلاَ فلاح.

الإعراب

﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري التعجبي، ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾ وعلامة جزمه: حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى محمد، أو إلى أي مخاطَب، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿تَرَ﴾ وهو متعد بإلى؛ لأنه بمعنى: تنظر. والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة للتعجب من حال المنافقين الذين اتخذوا اليهود أولياء. ﴿تَوَلَّوْا﴾: فعل ماض وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ صفة قوماً، ﴿مَّا﴾: نافية حجازية، ﴿هُم﴾: اسمها، ﴿مِّنكُمْ﴾: خبرها. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿مِنْهُمْ﴾: معطوف على ﴿مِّنكُمْ﴾، وجملة ﴿مَّا﴾ الحجازية مستأنفة، أو صفة ثانية لـ﴿قَوْمًا﴾، أو حال من فاعل ﴿تَوَلَّوْا﴾. ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَوَلَّوْا﴾. وهو داخل في حيّز الصلة. ﴿عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ متعلق بـ﴿يحلفون﴾، ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يحلفون﴾. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به، ﴿شَدِيدًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿سَآءَ﴾: فعل ماض بمعنى قبح، مجرد عن معنى الإنشاء، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿سَآءَ﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، وجملة ﴿سَآءَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓا﴾: فعل وفاعل، من أخوات ظنّ، ﴿أَيْمَٰنَهُمْ﴾: مفعول أول لـ﴿اتخذ﴾، ﴿جُنَّةً﴾: مفعول ثان له، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فَصَدُّوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿صدوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱتَّخَذُوٓا﴾، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿صدوا﴾، ﴿فَلَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لهم﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مُّهِينٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿صدوا﴾ ﴿لَّن﴾: حرف نصب واستقبال، ﴿تُغْنِىَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لَّن﴾، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿تُغْنِىَ﴾، ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾: فاعل، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾: معطوف على ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾، ﴿مِّنَ

﴿اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تُغْنِيَ﴾، ﴿شَيْئًا﴾: مفعول مطلق؛ أي: قليلاً من الاغناء. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿أَصْحَابُ﴾: خبره، ﴿النَّارِ﴾: مضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَالِدُونَ﴾، و﴿خَالِدُونَ﴾: خبرهم، والجملة في محل النصب حال من ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب بفعل محذوف، تقديره: اذكر، والجملة مستأنفة، ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾: فعل ومفعول مقدم ﴿اللَّهُ﴾: فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير المفعول؛ أي: مجتمعين. ﴿فَيَحْلِفُونَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿يحلفون﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾، ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿يحلفون﴾، ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿يَحْلِفُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَحْلِفُونَ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: كحلفهم لكم. والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: فيحلفون له حلفاً مثل حلفهم لكم. ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب حال من الواو في ﴿يَحْلِفُونَ﴾؛ أي: يحلفون له حال كونهم ظانين أنّ حلفهم في الآخرة يجديهم من عذابها. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾: خبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر سادّ مسد مفعولي حسب، أي: ويحسبون كونهم على شيء، ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه واستفتاح. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ، ﴿الْكَاذِبُونَ﴾: خبر ﴿إن﴾ على الأول، وخبر ﴿هُمُ﴾ على الثاني، والجملة خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿اسْتَحْوَذَ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق بـ﴿اسْتَحْوَذَ﴾، ﴿الشَّيْطَانُ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان استيلاء الشيطان عليهم. ﴿فَأَنْسَاهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أنساهم﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿الشَّيْطَانُ﴾، ومفعول به أول، والجملة معطوفة على جملة ﴿اسْتَحْوَذَ﴾، ﴿ذِكْرَ اللَّهِ﴾: مفعول ثان لـ﴿أنساهم﴾، ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾: خبره. والجملة مستأنفة. ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح وتنبيه. ﴿إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ﴾ ناصب

واسمه، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ، ﴿الْخَاسِرُونَ﴾: خبر على الحالين، كما مر آنفاً. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَرَسُولَهُ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة صلة الموصول، ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿فِي الْأَذَلِّينَ﴾: خبر. والجملة الابتدائية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وقد تضمن ﴿كَتَبَ﴾: معنى فعل القسم، وأجيب عنه بقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾. كأنه قيل: أقسم بالله لأغلبن أنا.. إلخ. ﴿لَأَغْلِبَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أغلبن﴾: فعل مضارع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنا، والجملة جواب القسم المضمن في ﴿كَتَبَ﴾، لا محل لها من الإعراب. و﴿أَنَا﴾: تأكيد لفاعل ﴿أغلبن﴾، ﴿وَرُسُلِي﴾: معطوف على الضمير المستتر في ﴿أغلبن﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿قَوِيٌّ﴾: خبر أول، ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر ثان له. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَا﴾: نافية، ﴿تَجِدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنت، والجملة مستأنفة. ﴿قَوْمًا﴾: مفعول أول، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: صفة قوماً، ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَالْيَوْمِ﴾: معطوف على الجلالة، ﴿الْآخِرِ﴾: صفة اليوم، ﴿يُوَادُّونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿تَجِدُ﴾، ﴿حَادَّ اللَّهَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَرَسُولَهُ﴾: معطوف على الجلالة.

هذا إن كان وجد بمعنى علم، وإن كان بمعنى صادف.. فجملة ﴿يُوَآدُّونَ﴾: حال من ﴿قَوْمًا﴾، لتخصصه بالصفة. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على محذوف تقديره: لا يوادون من حاد الله ورسوله لو كانوا غير آبائهم أو أبنائهم، إلخ، لا يوادونهم. وجملة الشرط المحذوف في محل النصب حال من ﴿مَنْ﴾ الموصولة في قوله: ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ناقص، ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾: خبر كان، ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾: معطوفات على ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾. وجملة ﴿كان﴾ فعل شرط لـ﴿لو﴾ الشرطية، وجوابها محذوف تقديره: لا يوادونهم. وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لو﴾ المحذوفة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿كَتَبَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على اللّه، ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْإِيمَٰنَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿كَتَبَ﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَأَيَّدَهُم﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿كَتَبَ﴾، ﴿بِرُوحٍ﴾: متعلق بـ﴿أيد﴾، ﴿مِّنْهُ﴾: صفة روح، ﴿وَيُدْخِلُهُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به أول، معطوف على ﴿كَتَبَ﴾، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ثان على السعة، ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق به، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من هاء ﴿يدخلهم﴾، ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿رَضِىَ﴾، ﴿وَرَضُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿رَضِىَ﴾، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق بـ﴿وَرَضُواْ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَآ﴾: أداة استفتاح. ﴿إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، أو مبتدأ، ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ أو خبر ﴿هُمُ﴾، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ﴾: من التولي، بمعنى الموالاة، لا بمعنى الإعراض. والموالاة: المودة، والمحبة، والصداقة. وأصله: توليوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار: ﴿تولوا﴾. ﴿قَوْمًا﴾: هم اليهود. ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾: غضب الله: سخطه، وطرده من رحمته. والغضب

في الأصل: حركة للنفس مبدؤها إرادة الانتقام ممن أساء لك. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾: والحلف: العهد بين القوم، والمحالفة: العهد. والحلف أصله: اليمين التي يأخذ بعضهم من بعض بها العهد، ثم عبر به عن كل يمين.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾: أصله: أعدد، نقلت حركة الدال الأولى، إلى العين فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية. ﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أصله: سوأ، بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿جُنَّةً﴾: الجنة - بضم الجيم -: الترس؛ لأنه يجن صاحبه ويقيه من السلاح. ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ فالاتخاذ عبارة عن إعدادهم لأيمانهم الكاذبة وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة، ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة، ا هـ من «الروح». ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ من الإغناء، يقال: أغنى عنه كذا، إذا كفاه. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ مصدره الحسبان، وهو أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه ويعقد عليه الأصبع، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، يقاربه الظن، لكن الظن: أن يخطر النقيضان بباله، فيغلب أحدهما على الآخر. ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ من حذت الإبل، إذا استوليت عليها وجمعتها وسقتها سوقاً عنيفاً، وهو مما جاء على الأصل، كاستصوب واستنوق؛ أي: على خلاف القياس، فإن القياس أن يقال: استحاذ، بقلب الواو ألفاً، كاستقام واستعاذ، فهو فصيح استعمالاً وشاذ قياساً. ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «كان عمر أحوذياً نسيج وحده»؛ أي: سائماً ضابطاً للأمور، لا نظير له. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول؛ أي: لم يمكنهم من ذكرهم إياه تعالى بما زين لهم من الشهوات. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ والحزب: الفريق الذي يجمعه مذهب واحد. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ أي: يعادونهما، ويخالفون أمرهما، من حادّه محادّةً، كشاقه مشاقة. وكلّ منهما: المخالفة، والمعاداة، والمنازعة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾؛ أي: في جملة أذل خلق الله وأحقره؛ لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزّة الآخر. ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾: ﴿تَجِدُ﴾: فيه إعلال بالحذف، إذ قياسه: توجد، من وجد المثالي، من باب فعل بفتح العين، يفعل بكسرها، نظير وعد يعد، لكن فاء هذا الفعل حذفت من المضارع حذفاً مطرداً. ﴿يُوَآدُّونَ﴾ أصله: يوادون، بوزن يفاعلون، سكنت الدال الأولى وأدغمت في الثانية. ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ أصله: حادد بوزن فاعل، كرهوا توالي المثلين فسكنوا الدال

الأولى، فأدغموها في الثانية. ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ العشيرة: أهل الرجل الذين يتكثّر بهم؛ أي: يصيرون بمنزلة الكامل. وذلك أن العشرة هو العدد الكامل، فصار العشيرة لكل جماعة من أقارب الرجل يتكثر بهم. والعشير: المعاشر قريباً أو معارفاً. وفي «القاموس»: عشيرة الرجل بنو أبيه الأدنون أو قبيلته، انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ للدلالة على تكرر الحلف وتجدده حسب تكرر ما يقتضيه.

ومنها: التقييد بقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: دلالة على أن الكذب يعم ما يعلم المخبر عدم مطابقته للواقع وما لا يعلمه، فيكون حُجة على النظّام، والجاحظ، كما مر.

فائدة: ذكر علماء البلاغة في حد الصدق والكذب أقوالاً أربعة:

أولاً ـ إن الصدق مطابقة حكم الخبر للواقع، والكذب عدم مطابقته له. ولو كان الاعتقاد بخلاف ذلك في الحالين.

ثانياً ـ وهو للنظّام من كبار المعتزلة ـ: أن الصدق المطابقة لاعتقاد المخبر، ولو خطأ، والكذب: عدم مطابقته للاعتقاد، ولو صواباً. وما الاعتقاد معه على هذا القول داخل في الكذب بلا واسطة.

ثالثاً ـ وهو للجاحظ، أحد شيوخ المعتزلة أيضاً ـ: أن الصدق المطابقة للخارج مع اعتقاد المخبر المطابقة. والكذب عدم المطابقة للواقع مع اعتقاد عدمها. وما عدا ذلك ليس بصدق ولا كذب ـ أي: واسطة بينهما ـ. وهو أربع صور: المطابق ولا اعتقاد لشيء، والمطابق مع اعتقاد عدم المطابقة، وغير المطابق مع اعتقاد المطابقة، وغيره ولا اعتقاد.

رابعاً ـ وهو للراغب ـ: وهو مثل قول الجاحظ، غير أنه وَصَف الصور الأربع بالصدق والكذب باعتبارين؛ فالصدق باعتبار المطابقة للخارج أو للاعتقاد، والكذب من حيث انتفاء المطابقة للخارج أو للاعتقاد. وحجة ما لكل من الأقوال مذكورة

في محله.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إفادة لنوعية العذاب؛ لأنه يدل على أنه نوع من أنواع العذاب الشديد.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية، أو التشبيه البليغ في قوله: ﴿جُنَّةً﴾ من قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾؛ لأنه حقيقة في الترس، فاستعير لما هو وقاية للشيء، أو كالجنة.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿يَعْلَمُونَ﴾، و﴿يَعْمَلُونَ﴾ لتغيير الرسم.

ومنها: التشبيه المرسل في قوله: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾؛ لأنه حذف منه وجه الشبه، وهو عدم النفع في كل من الحلفين.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، وفي قوله: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وبين قوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

ومنها: توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل: ﴿الْخَاسِرُونَ﴾، ﴿الْكَاذِبُونَ﴾، ﴿خَالِدُونَ﴾، ﴿يَعْمَلُونَ﴾.

ومنها: رعاية الترتيب العجيب في قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ إلخ. فقد بدأ أولاً بالآباء؛ لأنهم أدعى إلى الاهتمام بهم، لوجوب إخلاص الطاعة لهم، ثم ثنى بالأبناء؛ لأنهم أعلق بحبات القلوب ثم ثلث بالإخوان؛ لأنهم هم المثابة عند الحاجة والناصر عند نشوب الأزمات، ثم ربع بالعشيرة؛ لأنها المستغاث في الشدائد، وهي الموئل والمفزع في النوائب، وهم المسرعون إلى النجدة. كما مر.

ومنها: الزيادة الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ ألفة الأزواج في المنازل.

٢ ـ ألفة الأصحاب في المجالس.

٣ ـ الأدب مع الحكام؛ بترك مضايقتهم لكثرة أعمالهم.

٤ ـ رفق الحكام بالمحكومين عليهم إذا رأوا أمراً يثقلهم.

٥ ـ مجانبة خيانة الأمة بموالاة أعدائها، وبالنفاق والشقاق، فإن ذلك يضعفها، ويفرق جمعها، ويذلها(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تمّ بعون الله تعالى، وتوفيقه تفسير سورة المجادلة في أوائل يوم الاثنين المبارك، اليوم الخامس من شهر شوال، من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة ٥/ ١٠/ ١٤١٥ هـ، من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، آمين.

سورة الحشر

سورة الحشر نزلت بعد سورة البيّنة، وتسمى: سورة النضير.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، فقال: قل: سورة النضير؛ يعني: أنها نزلت في بني النضير كما صرح بذلك في بعض الروايات. وهي مدنيّة ـ قال القرطبي ـ: في قول الجميع.

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي، عن ابن عباس قال: (نزلت سورة الحشر بالمدينة).

وآيها أربع وعشرون آية، وكلماتها سبع مئة، وخمس وأربعون كلمة، وحروفها ألف وتسع مئة وثلاثة عشر حرفاً.

مناسبتها لما قبلها من وجوه[1]:

١ ـ أن في آخر السالفة قال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾، وفي أول هذه قال: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾.

٢ ـ أن في السابقة ذكر من حاد الله ورسوله، وفي أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله.

٣ ـ أن في السابقة ذكر حال المنافقين واليهود وتولي بعضهم بعضاً، وفي هذه ذكر ما حل باليهود وبيان عدم فائدة تولي المنافقين إياهم.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها[2]: أنه لما ذكر في السابقة حال المنافقين واليهود وتولي بعضهم بعضاً.. ذكر هنا أيضاً ما حلّ باليهود من غضب الله عليهم وجلائلهم، وإمكان الله تعالى رسوله ـ ﷺ ـ ممن حاد الله ورسوله رام الغدر بالرسول ـ ﷺ ـ، وأظهر العداوة بحلفهم مع قريش.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

تسميتها: سميت سورة الحشر، وسورة النضير؛ لذكر حشر بني النضير، وإخراجهم من المدينة إلى الشام فيها.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الحشر ليس فيها منسوخ، وفيها ناسخ، وهو قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ...﴾ الآية (٧)، نسخ الله تعالى بها آية الأنفال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ...﴾ الآية (١) من سورة الأنفال.

فضائلها[١]: ومما ورد في فضلها: ما أخرجه الترمذي عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر.. وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات من يومه.. مات شهيداً، ومن قرأها حين يمسي.. فكذلك». وقال: حديث حسن غريب.

ومنه: ما روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من قرأ سورة الحشر.. لم يبق شيء من الجنة والنار، والعرش والكرسي، والسموات والأرض، والهوام والريح، والسحاب، والطير والدواب، والشجر والجبال، والشمس والقمر، والملائكة، إلا صلوا عليه واستغفروا له، فإن مات في يومه أو ليلته.. مات شهيداً». أخرجه الثعلبي، وفيه مقال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الفتوحات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ
وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ
الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ
يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ
الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ
مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)
لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠)﴾.

المناسبة

قد عرفتَ مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما[1]: أن الله سبحانه لما بين ما حل ببني النضير من العذاب العاجل؛ كتخريب بيوتهم بأيديهم، وتحريق نخيلهم وتقطيعها، ثم إجلائهم من بعد ذلك عن الديار إلى الشام دون أن يحملوا إلا القليل من المتاع.. ذكر هنا حكم ما أخذ من أموالهم،

---

(١) المراغي.

فجعله فيئاً لله ورسوله، ينفق منه على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله، ولا يقسم بين المقاتلة كالغنيمة؛ لأنهم لم يقاتلوا لأجله.

روي: أن الصحابة رضي الله عنهم طلبوا من الرسول - ﷺ - أن يقسم الفيء بينهم كما قسم الغنيمة في بدر وغيرها بينهم، فبيّن سبحانه الفرق بين الأمرين: بأن الغنيمة تكون فيما أتعبتم أنفسكم في تحصيله وأوجفتم عليه الخيل والركاب، والفيء فيما لم تتحملوا في تحصيله تعباً. وحينئذٍ يكون أمره مفوّضاً إلى الرسول - ﷺ - يضعه حيث يشاء.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بيّن مصارف الفيء فيما سلف، وذكر أنه لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين.. ذكر هنا أنه أراد بهم فقراء المهاجرين الذين لهم هذه الصفات السامية والمناقب الرفيعة، ثم مدح الأنصار ساكني المدينة، وبالغ في مدحهم. فذكر لهم هذه الفضائل:

١ - أنهم يحبون المهاجرين.

٢ - أنهم ليس في قلوبهم حقد ولا حسد لهم.

٣ - أنهم يفضلونهم على أنفسهم، ويعطونهم ما هم في أشد الحاجة إليه. وما ذاك إلا لأن الله عصمهم من الشحّ المردي والبخل المهلك الذي يدنِّس النفوس ويمنعها من اكتساب الخير وعمل البر. ثم ذكر أن التابعين لهم بإحسان - وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة - يَدْعُون لأنفسهم ومن سبقهم من المؤمنين بالمغفرة. ويطلبون من الله أن لا يجعل في قلوبهم حقداً وحسداً لهم.

أسباب النزول

سورة الحشر سبب نزولها(١): ما أخرجه البخاري عن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل ومنهم

---

(١) أسباب النزول.

ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر، قلت: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير». الحديث أخرجه مسلم أيضاً.

وما أخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقرّه الذهبي، والبيهقي في «دلائل النبوة» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت غزوة بني النضير - وهم: طائفة من اليهود - على رأس ستة أشهر من غزوة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله - ﷺ - حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلّتِ الإبلُ من الأمتعة والأموال إلا الحلقة؛ يعني: السلاح. فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾. فقاتلهم النبي - ﷺ - حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، كان الله قد كتب عليهم ذلك. ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي. وأما قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ فكان ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام.

تنبيه: الحديث - أي: حديث الحاكم - ليس على شرط الشيخين؛ لأنهما لم يُخرجا لزيد بن المبارك ومحمد بن ثور، وهما ثقتان. فالحديث صحيح، لكن في قوله: (على شرطهما) نظر.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه البخاري عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: حرق رسول الله - ﷺ - نخل بني النضير، وقطع وهي البويرة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الحديث، أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وأبو داود، وأحمد، وابن جرير، والبيهقي في «دلائل النبوة» عن ابن عباس في قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ قال: اللينة: النخلة، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: استنزلوهم من حصونهم، قال: وأمروا بقطع النخل، فحك في صدورهم، فقالوا: قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، ولنسألن رسول الله - ﷺ - هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله سبحانه: ﴿مَا قَطَعْتُم

(١) أسباب النزول.

﴿مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رجلاً أتى النبي - ﷺ - فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله - ﷺ -: «من يضم أو يضيف هذا»؟ فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله - ﷺ -، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها، ونوّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته فجعلا يريانه كأنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله - ﷺ -، فقال: ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعالكما. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وأخرج ابن المنذر عن أبي المتوكل الناجي: أن رجلاً من المسلمين... فذكر نحوه، وفيه أن الرجل الذي أضاف هو: ثابت بن قيس بن شماس. فنزلت فيه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إن جميع ما في السماوات والأرض من الأشياء يقدسه سبحانه، ويمجّده، إما[1] باللسان أو بالقلب أو بدلالة الحال لانقياده لتصريفه له كيف شاء، لا معقب لحكمه. والتسبيح معناه: تبعيد الله عن السوء، وتطهيره عمّا لا يليق بشأن ألوهيته. ويكون بالجنان واللسان والحال:

الأول: اعتقاد العبد بتعاليه عمّا لا يليق بالألوهية، وذلك لأن من معاني التفعيل الاعتقاد بشيء والحكم به؛ مثل: التوحيد، والتمجيد، والتعظيم؛ بمعنى: الاعتقاد بالوحدة، والمجد، والعظمة، والحكم بها.

والثاني: القول بما يدل على تعاليه؛ مثل: التكبير، والتهليل، والتأمين؛ بمعنى: أن يقول: الله أكبر، ولا إله إلا الله، وآمين. وهو المشهور عند الناس.

---

(١) روح البيان.

والثالث: دلالة المصنوعات على أن صانعها متصف بنعوت الجلال، مقدس عن الإمكان وما يتبعه.

وقال مجاهد: كل الأشياء تسبح لله، حيّاً كان أو جماداً، وتسبيحها: سبحان الله وبحمده. وهذا على الإطلاق. وأما بالنسبة إلى كل موجود: فالتسابيح مختلفة، فلكل موجود تسبيح مخصوص به من حيث ما يقتضيه نشأته، كما قال بعض الكبار. فإذا رأيت هؤلاء العوالم مشتغلين بالذكر الذي أنت عليه.. فكشفك خيالي غير صحيح لا حقيقي، وإنما ذلك خيالك أقيم لك في الموجودات، فإذا شهدت في هؤلاء تنوعات الأذكار.. فهو الكشف الصحيح، انتهى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: ذو العزة القاهرة ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أي: ذو الحكمة الباهرة. وفي إيراد الوصفين بعد التسبيح إشارة إلى الباعث له والداعي إليه؛ لأن العزة أثر الجلال، والحكمة أثر الجمال، فله تعالى الاتصاف بصفات الكمال.

قال المفسرون[1]: نزلت هذه السورة في بني النضير ـ وهم: طائفة من اليهود من ذرية هارون أخي موسى عليه السلام ـ وكان بنو النضير، وقريظة وبنو قينقاع في وسط أرض العرب من الحجاز وإن كانوا يهوداً، والسبب في ذلك: أن بني إسرائيل كانت تُغِير عليهم العماليق في أرض الحجاز، وكانت منازلهم: يثرب والجحفة إلى مكة، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى موسى عليه السلام، فوجه إليهم جيشاً وأمرهم أن يقتلوهم ولا يبقوا منهم أحداً، ففعلوا ذلك، وترك منهم ابن مَلِكٍ لهم كان غلاماً حسناً، فرقوا له. ثم رجعوا إلى الشام وموسى قد مات، فقالت بنو إسرائيل: قد عصيتم وخالفتم فلا نؤويكم، فقالوا: نرجع إلى البلاد التي غلبنا عليها ونكون بها، فرجعوا إلى يثرب، فاستوطنوها وتناسلوا بها إلى أن نزل عليهم الأوس والخزرج بعد سيل العرم، فكانوا معهم إلى الإسلام، فلما هاجر النبي ـ ﷺ ـ.. صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فقبل ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ منهم، فلما غزا رسول الله ـ ﷺ ـ بدراً وظهر على المشركين.. قال بنو النضير: والله إنه النبي الأمي الذي نجد نعته في التوراة، لا تُردُّ له راية. فلما غزا أُحداً وهزم المسلمون.. ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ـ ﷺ ـ وللمؤمنين، ونقضوا

---

(١) الخازن بتصرف.

العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله - ﷺ -، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة فأتوا قريشاً، فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد - ﷺ -، ودخل أبو سفيان في أربعين من قريش، وكعبُ بن الأشرف في الأربعين من اليهود المسجد الحرام، وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين أستار الكعبة، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة، فنزل جبريل عليه السلام فأخبر النبي - ﷺ - بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، وأمره بقتل كعب بن الأشرف، فقتله محمد بن مسلمة - بفتح الميم - الأنصاري، وكان أخا كعب من الرضاعة، فقتله غيلةً - أي: خدعة - وذلك أنه أتاه ليلاً فاستخرجه من بيته بقوله: إني أتيتك لأستقرض منك شيئاً من التمر، فخرج إليه فقتله، ورجع إلى النبي - ﷺ - فأخبره، ففرح النبي - ﷺ - به؛ لأنه أضعف قلوبهم، وسلب قوتهم، وكان النبي - ﷺ - قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم يستعينهم في دية الرجلين المسلمين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري في منصرفه من بئر معونة، فهموا بطرح حَجَر على النبي - ﷺ - من الحصن، فعصمه الله سبحانه منهم، وأخبره بذلك جبريل عليه السلام.

فلما قتل كعب بن الأشرف.. أصبح رسول الله - ﷺ -، وأمر الناس بالمسير إلى بني النضير، وكانوا بقرية يقال لها: زهرة، فلما سار إليهم النبي - ﷺ - وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد! واعية على إثر واعية، وباكية على إثر باكية، قال: «نعم». فقالوا: ذرنا نبك شجونا ثم ائتمر أمرك، فقال النبي - ﷺ -: «اخرجوا من المدينة»، فقالوا: الموت أقرب إلينا من ذلك، ثم تنادوا بالحرب وأَذَّنوا بالقتال، ودس المنافقون عبد الله بن أبي وأصحابه إليهم أن لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم.. فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم، ولئن أخرجتم.. لنخرجن معكم. فدربوا على الأزقة وحصنوها، ثم إنهم أجمعوا على الغدر برسول الله - ﷺ - فأرسلوا إليه أن اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك.. آمنا كلنا. فخرج النبي - ﷺ - في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من اليهود، حتى كانوا في براز من الأرض، فقال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب الموت قبله، ولكن أرسلوا إليه كيف نفهم ونحن ستون؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك،

ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فيسمعون منك، فإن آمنوا بك.. آمنا بك وصدقناك، فخرج رسول الله - ﷺ - في ثلاثة من أصحابه، وخرج ثلاثة من اليهود معهم الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله - ﷺ - فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها - وهو رجل مسلم من الأنصار - فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله - ﷺ -، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي - ﷺ - فساره بخبرهم قبل أن يصل إليهم، فرجع النبي - ﷺ -، فلما كان من الغد صبحهم رسول الله - ﷺ - بالكتائب، فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وأيسوا من نصر المنافقين، فسألوا رسول الله - ﷺ - الصلح، فأبى عليهم إلا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به، فقبلوا ذلك، فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة - وهي: السلاح - وعلى أن يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم. قال ابن عباس: على أن يحمل كل أهل بيت على بعير ما شاؤوا من متاعهم، وللنبي - ﷺ - ما بقي. وقيل: أعطي كل ثلاثة نفر بعيراً وسقاء، ففعلوا ذلك، وخرجوا من ديارهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام إلا أهل بيتين منهم: آل أبي الحقيق وآل حييّ بن أخطب؛ فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة.

فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني النضير ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾؛ أي: من بيوتهم التي كانت بالمدينة.

قال ابن إسحاق: كان إجلاء بني النضير مرجع النبي - ﷺ - من أحد، وفتح قريظة مرجعه من الأحزاب، وبينهما سنتان، انتهى. أي: أمر بإخراج أهل التوراة؛ يعني: بني النضير من ديارهم. جمع دار. والفرق بين الدار والبيت: أن الدار دار وإن زالت حوائطها، والبيت ليس ببيت بعدما انهدم جدرانها؛ لأن البيت اسم لمبنى مسقف، مدخله من جانب واحد بني للبيتوتة، سواء كان حيطانه أربعة أو ثلاثة. وهذا المعنى موجود في الصُّفَّة إلا أن مدخلها واسع، فيتناولها اسم البيت. والبيوت اسم أخص بالمسكن، والأبيات بالشِّعر.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ للتوقيت كاللام في قوله: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾، متعلقة بـ﴿أَخْرَجَ﴾؛ أي: عند أول حشرهم وسوقهم إلى الشام، وفي «كشف الأسرار»: اللام لام العلة؛ أي: أخرجوا من ديارهم ليكون حشرهم إلى

الشام أول الحشر، والحشر معناه: إخراج جمع من مكان إلى آخر، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط، إذ كان انتقالهم من بلاد الشام إلى جانب المدينة عن اختيار منهم، وهم أول من أخرج به من جزيرة العرب إلى الشام، فعلى هذا الوجه ليس الأول مقابلاً للآخر.

وسميت جزيرة؛ لأنه أحاط بها بحر الحبشة وبحر فارس ودجلة والفرات. قال الخليل بن أحمد: مبدأ الجزيرة من حفر أبي موسى، إلى اليمن في الطول، ومن رمل بِبِريش - وهو موضع بحذاء الإحساء - إلى منقطع السماوة في العرض. والسماوة بالفتح: موضع بين الكوفة والشام. أو يقال: هذا أول حشرهم، وآخر حشرهم إجلاء عمر - رضي الله عنه - إياهم من خيبر إلى الشام، وذلك حين بلغه الخبر عن النبي - ﷺ -: «لا يبقين دينان في جزيرة العرب». وقيل: آخر الحشر: حشر جمع الناس يوم القيامة؛ لأن المحشر يكون بالشام. قال عكرمة: من شك أن المحشر يوم القيامة في الشام.. فليقرأ هذه الآية، فإن النبي - ﷺ - لما قال لهم: «اخرجوا».. قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر». قال ابن العربي: الحشر أوّل وأوسط وآخر. فالأول: إجلاء بني النضير، والأوسط: إجلاء أهل خيبر، والآخر: يوم القيامة، انتهى.

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾؛ أي[1]: أن يخرج بنو النضير من ديارهم وبيوتهم بهذا الذل والهوان؛ بشدة بأسهم ووثاقة حصونهم؛ لأنهم كانوا أهل حصون مانعة، وعقار ونخيل واسعة، وأهل عَدد كثيرة وعُدد وافرة. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾؛ أي: ظن بنو النضير ظناً قوياً هو بمرتبة اليقين؛ لأن ﴿أَنَّ﴾ لا تقع إلا بعد فعل اليقين أو ما نزل منزلته. ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ﴾ وحافظتهم ﴿حُصُونُهُم﴾ وقلاعهم ﴿مِّنَ﴾ بأس ﴿ٱللَّهِ﴾ وعذابه وبطشه؛ أي: وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله وقهره وبطشه. وقوله: ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿حُصُونُهُم﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿أَنَّهُم﴾. وقدم الخبر وأسند الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها واعتقادهم في أنفسهم في عزة ومنعة لا يبالى بسببها، فتقديم المسند يفيد قصر المسند إليه على المسند. فإن معنى قائم زيد: أن زيداً مقصور على القيام لا

(١) روح البيان.

يتجاوزه إلى القعود، وكذا معنى الآية: أن حصونهم ليس لها صفة غير المانعية، ويجوز أن يكون ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ خبر ﴿أَنَّهُم﴾، و﴿حُصُونُهُم﴾ فاعل ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ لاعتماده على المبتدأ. ورجح الثاني أبو حيان، والأول أولى.

فإن قيل: ما المانع من جعل ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ مبتدأ ﴿حُصُونُهُم﴾ خبراً، فإن كليهما معرفة؟

قلت: كون ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ نكرةً؛ لأن إضافتها غير مخصصة، وأن القصد إلى الإخبار عن الحصون.

﴿فَأَتَنٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أتى بني النضير أمرُ الله وقدره المقدور لهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ ولم يظنوا ولم يخطر ببالهم؛ أي: أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة، وهو: أنه سبحانه أمر نبيه - ﷺ - بقتالهم وإجلائهم، وكانوا لا يظنون ذلك. وقيل: هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرة على يد أخيه، قاله ابن جريج، والسدي، وأبو صالح؛ فإنّ قَتْلَهُ ممَّا أضعف قوتهم، وقل شوكتهم، وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب. و﴿الفاء﴾: إما للتعقيب إشارة إلى أن البأس لم يكن متراخياً عن ظنهم، أو للسبب إشارة إلى أنهم إنما أخذوا بسبب إعجابهم بأنفسهم وقطعهم النظر إلى قدرة الله وقوّته.

﴿وَقَذَفَ﴾؛ أي: ألقى الله سبحانه وتعالى، وأركز، وأثبت ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾؛ أي: في قلوب بني النضير ﴿ٱلرُّعْبَ﴾؛ أي: الخوف الذي أرعبها وملأها، بحيث غير عقلهم، وأعجز أنفسهم، وشوش رأيهم، وفرق تدبيرهم؛ أي: ألقى في قلوبهم الخوف من المسلمين. والمراد[1] بالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم هو: الذي ثبت في «الصحيح» من قوله - ﷺ -: «نصرت بالرعب مسيرة شهر».

وجملة قوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ مستأنفة لبيان حالهم عند الرعب أو في محل النصب على الحال؛ أي: يخربونها بأيديهم ليسدوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الأزقة، ولئلا تبقى بعد جلائهم مساكن للمسلمين، وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء.. حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فجعلوا يخربونها

(١) الشوكاني.

من داخل والمسلمون من خارج، ولينقلوا معهم بعض آلاتها المرغوب فيها مما يقبل النقل. ﴿و﴾ بـ﴿أيدي المؤمنين﴾ حيث كانوا يخربونها إزالة لمتحصنهم ومتمنعهم، وتوسيعاً لمجال القتال، وإضراراً بهم، وإسناد هذا إليهم لما أنهم السبب فيه، فكأنهم كلفوهم إياه، وأمروهم به، وهذا كقوله ـ ﷺ ـ: «من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل والديه»، فقالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ فقال: «يساب الرجل، فيسب أباه فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

وقال الضحَّاك وقتادة: كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، واليهود من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم.

وقال الزهري، وابن زيد، وعروة بن الزبير: لما صالحهم النبي ـ ﷺ ـ على أن لهم ما أقلت الإبل.. كانوا يستحسنون الخشبة أو العمود، فيهدمون بيوتهم ويحملون ذلك على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها.

وقال الزهري أيضاً: يخربون بيوتهم بنقض المعاهدة، وأيدي المؤمنين بالمقاتلة.

وقال أبو عمرو: بأيديهم بتركهم لها، وبأيدي المؤمنين بإجلائهم عنها.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿يخْربون﴾ بالتخفيف. وقرأ الحسن، والسلمي، ونصر بن عاصم، وأبو العالية، وأبو عمرو، وقتادة، والجحدري، ومجاهد، وأبو حيوة، وعيسى: ﴿يخرِّبون﴾ بالتشديد. والقراءاتان بمعنى واحد، إلا أن في التشديد معنى التكثير. وفيه إشارة إلى أن استناد الكفار إلى الحصون والأحجار والسلاح، وأن اعتماد المؤمنين على الله الملك الغفار؟ ولا شك أن من اعتمد على المأمن الحقيقي ظفر بمراده في دنياه وآخرته، وأن ما استند إلى ما سوى الله تعالى خسر خسراناً مبيناً في تجارته.

﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾؛ أي: فاتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجه لا تكاد تهتدي إليه الأفكار. ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ والعقول والبصائر الكاملة، واتقوا مباشرة ما أدّاهم إليه من الكفر والمعاصي، وانتقلوا من حال الفريقين إلى حال

---

(١) البحر المحيط.

أنفسكم، فلا تعولوا على تعاضد الأسباب كبني النضير الذين اعتمدوا على حصونهم ونحوها، بل توكلوا على الله تعالى. وفي «عين المعاني»: فاعتبروا بها خراب جميع الدنيا.

ومعنى الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي[1]: هو الذي أجلى بني النضير من المدينة بقوته وعزته وعظيم سلطانه. وكان هذا أول مرة حشروا فيها وأخرجوا من جزيرة العرب، لم يصبهم الذل قبلها؛ لأنهم كانوا أهل عزة ومنعة: وآخر حشر لهم: إجلاء عمر - رضي الله عنه - لهم من خيبر إلى الشام.

ثم بيّن فضل الله على المؤمنين ونعمته عليهم في إخراج عدوهم من ديارهم ولم يكن ذلك منتظراً، فقال: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾؛ أي: ما خطر لكم ذلك - أيها المؤمنون - ببال؛ لشدة بأسهم ومنعتهم، وقوة حصونهم، وكثرة عَددهم وعُددهم. وفي ذكر هذا تعظيم النعمة؛ فإن النعمة إذا جاءت من حيث لا ترتقب.. كانت مكانتها في النفوس أعظم وكانت بها أشد سروراً وابتهاجاً، والمسلمون ما ظنوا أن يبلغ الأمر بهم إلى إخراج اليهود من ديارهم، ويتخلصوا من مكايدهم وأشراكهم التي ما فتئوا ينصبونها للمؤمنين. وبذا قضى الله عليهم قضاءه الذي لا مرد له، وصدق الله ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

ثم ذكر ما جرأهم على مشاكسة النبي - ﷺ - وتأليب المشركين عليه، فقال: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وظن بنو النضير أن حصونهم المنيعة القوية تمنعهم من أن ينالهم عدو بسوء، فلا يستطيع جيش مهما أوتي من بأس أن يصل إليهم بأذى، فاطمأنوا إلى تلك القوة، وأوقدوا نار الفتنة بين الرسول - ﷺ - والمشركين طمعاً في القضاء عليه بعد أن أصبحت له الزعامة الدينية والسياسية في المدينة، وسيكون في ذلك القضاء عليهم لو صبروا، وقد غبروا وهم أصحاب السلطان فيها، لأنهم من وجه أهل كتاب، ومن وجه آخر أرباب النفوذ المالي فيها وأصحاب الثروة والجاه العريض.

ثم أكد ما سلف وقرره بقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾؛ أي: فجاءهم بأس الله وقدرته التي لاتدفع من حيث لم يخطر ذلك لهم ببال، وصدق

---

(١) المراغي.

فيهم ما قيل: قد يؤتى الحَذِرُ من مأمنه. فأجلاهم النبي - ﷺ - من المدينة، فذهبت طائفة منهم إلى أذرعات من أعالي الشام، وطائفة إلى خيبر، على أن يأخذوا معهم ما حملت إبلهم.

ثم بيّن أسباب هذا الاستسلام السريع والنزول على حكم الرسول على مناعة الحصون وكثرة العَدد والعُدَد فقال: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾؛ أي: بث في قلوبهم الهلع والخوف حين جاء رسول الله - ﷺ - وأصحابه إليهم، فلم يستطيعوا إلى المقاومة سبيلاً، ومما كان له بالغ الأثر في هذا الخوف: قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غيلة، وما رأوه من كذب وعد عبد الله بن أبي رأس المنافقين في نصرتهم وإرسال المدد إليهم وتغريره بهم، وتوسيع مسافة الخلف بينهم وبين الرسول - ﷺ -. فهم قد أوقدوا ناراً كانوا هم حطب لهبها، وفتحوا ثغرة برؤوسهم قد سدوها، ووقعوا في حفرة هم الذين كانوا قد حفروها، فابتلعتهم لا إلى رجعة.

ثم بيّن مدى ما لحقهم من الهلع والجزع، وكيف حاروا في الدفاع عن أنفسهم، فقال: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ...﴾ إلخ؛ أي: يخربون بيوتهم بأيديهم. ليسدوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الأزقة، حتى لا يدخلها العدو، وحتى لا تبقى صالحة لسكنى المؤمنين بعد جلائهم، ولينقلوا بعض أدواتها التي تصلح للاستعمال في جهات أخرى؛ كالخشب والعمد والأبواب. ويخربها المؤمنون من خارج؛ ليدخلوها عليهم، ويزيلوا تحصنهم بها، وليتسع مجال القتال، ويكون في ذلك عظيم التنكيل والغيظ لهم.

ثم ذكر ما يجب أن يجعله العاقل نصب عينيه من عظة واعتبار، فقال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: فاتعظوا يا ذوي البصائر السليمة والعقول الراجحة بما جرى لهؤلاء، من أمور عظام وبلاء ما كان يخطر لهم ببال، وأسباب تحار في فهمها العقول، ولا يصل إلى كنه حقيقتها ذوو الآراء الحصيفة. وابتعدوا عن الكفر والمعاصي التي أوقعتهم في هذه المهالك، فالسعيد من وعظ بغيره وإياكم والغدر والاعتماد على غير الله، فما اعتمد أحد على غيره إلا ذلّ.

ثم بيّن أن الجلاء الذي كتب عليهم كان أخف من القتل والأسر، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ وحكم في سابق علمه ﴿عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: على بني النضير

﴿ٱلْجَلَآءَ﴾؛ أي: الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه الفظيع. و﴿لولا﴾[1] امتناعية، وما بعدها مبتدأ محذوف الخبر. فإن ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المقدر؛ أي: ولولا أنه، و﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: خبرها، وجملة ﴿أَنْ﴾ في محل رفع على الابتداء، والخبر محذوف، والتقدير: ولولا كتاب الله عليهم الجلاء واقع في علمه أو في لوحه.. ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي، كما فعل ببني قريظة إخوانهم من اليهود.

قال بعضهم: لما استحقوا بجرمهم العظيم قهراً عظيماً.. أخذوا بالجلاء الذي جعل عديلاً لقتل النفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ مع أن فيه احتمال إيمان بعضهم بعد مدة وإيمان من يتولد منهم.

وكان[2] بنو النضير من الجيش الذين عصوا موسى عليه السلام في كونهم لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق، تركوه لجماله وعقله، وقال موسى عليه السلام: لا تستحيوا منهم أحداً، فلما رجعوا إلى الشام.. وجدوا موسى عليه السلام قد مات، فقال لهم بنو إسرائيل: أنتم عصاة، والله لا دخلتم علينا بلادنا. فانصرفوا إلى الحجاز، فكانوا فيه فلم يجر عليهم الجلاء الذي أجراه بختنصر على أهل الشام؛ فإنه أجلى معظمهم من بلاد الشام إلى العراق، وكان الله قد كتب على بني إسرائيل جلاء، فنالهم هذا الجلاء على يد محمد ـ ﷺ ـ، ولولا ذلك.. لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، كأهل بدر وغيرهم. ويقال: جلا القوم عن منازلهم، وأجلاهم غيرهم. قيل: والفرق بين الجلاء والإخراج: أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج: قد يكون مع بقاء الأهل والولد. وقال الماوردي: الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج قد يكون لجماعة ولواحد.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْجَلَآءَ﴾ ممدوداً، والحسن بن صالح، وأخوه عليّ بن صالح مقصوراً. وقرأ طلحة مهموزاً من غير ألف كـ﴿النبأ﴾.

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: إن نجوا من عذاب الدنيا.. لم ينجوا في

---

(١) روح البيان.　　(٢) البحر المحيط.

الآخرة. والجملة[1] مستأنفة غير متعلقة بجواب ﴿لولا﴾ إذ لو كانت معطوفة عليه.. لزم أن ينجوا من عذاب الآخرة أيضاً؛ لأن ﴿لولا﴾ تقتضي انتفاء الجزاء لحصول الشرط، وإنما جيء به لبيان أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا بكتابة الجلاء.. لا نجاة لهم من عذاب الآخرة. يقول الفقير: لا يلزم من نجاتهم من عذاب الدنيا أن لا يكون جلاؤهم من قبيل العذاب، وإنما لم يكن منه بالنسبة إلى عذاب الاستئصال. والحكمة في جلائهم: أنهم قصدوا قتل النبي - ﷺ -، وقتله شر من ألف قتل، فأخذوا بالجلاء ليموتوا كل يوم ألف مرة؛ لأن انقطاع النفس عن مألوفاتها بمنزلة موتها، فجاء الجزاء من جنس العمل.

والمعنى[2]: أي ولولا أن الله قدر الجلاء من المدينة وخروجهم من أوطانهم على هذا الوجه المهين.. لعذبهم في الدنيا بما هو أفظع منه، من قتل وأسر، كما فعل مع المشركين في وقعة بدر، وكما فعل مع بني قريظة في سنة خمس من الهجرة، كفاء غدرهم وخيانتهم، وتأليب المشركين على المؤمنين، والسعي في إطفاء نور الإسلام حتى لا تقوم لهم قائمة، إلى ما أعد لهم في الآخرة من عذاب مقيم ونكال وجحيم، حين تقوم الساعة وتجازى كل نفس بما كسبت.

ثم بيّن السبب فيما حل بهم، وذكر علته بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما حاق بهم من الجلاء، وسيحيق من عذاب الآخرة. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: خالفوا أمرهما، وفعلوا ما فعلوا مما حكي عنهم من القبائح. والمشاقة: كون الإنسان في شق ومخالفه في شق آخر. ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ كائناً من كان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ له. فهو[3] نفس الجواب بحذف العائد، أو تعليل للجزاء المحذوف؛ أي: يعاقبه الله، فإن الله شديد العقاب، فإذاً لهم عقاب شديد أيضاً لكونهم من المشاقين، وأيا ما كان، فالشرطية تحقيق للسببية بالطريق البرهانيّ. وفيه إشعار بأنّ المخالفة تقتضي المؤاخذة بقدر قوتها وضعفها، فليحذر المؤمنون من العصيان مطلقاً. واقتصر ههنا على مشاقة الله؛ لأنَّ مشاقته مشاقة لرسوله. وقيل: بينهما فرق، فإن مشاقة الله: الامتناع من امتثال المأمورات بإنكارها، كالامتناع من أداء الصلوات لجحدها، وكذا للزكاة والحج مثلاً. ومشاقة

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

الرسول: المنازعة معه في حكمة أمره ونهيه، مثل أسرار الصلوات الخمس واختلاف أعدادها، واختلاف قراءتها جهراً وسرّاً، ومثل: أسرار الزكاة واختلاف أحكامها، ومثل: أحكام الحج ومناسكه. ونحن أمرنا بمحض الامتثال والانقياد، وما كلفنا بمعرفة أسرارها وحقائقها، والنبي - ﷺ - مع كمال عرفانه وجلال برهانه يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، وقال: «نحن نحكم بالظواهر والله يعلم السرائر».

وقرأ الجمهور: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ بالإدغام. وقرأ طلحة بن مصرف ومحمد بن السميفع ﴿يشاقق﴾ بالإظهار، كالمتفق عليه في الأنفال.

والمعنى: أي إنه تعالى إنما فعل ذلك بهم، وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله، وكذبوا بما أنزله على رسله المتقدمين من البشارة بمحمد - ﷺ -، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. ثم ذكر مآل من يعادي الله ورسوله، فقال: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: ومن يعاد الله فإن الله يعاقبه أشد العقاب، وينزل به الخزي والهوان في الدنيا، والنكال السرمدي في الآخرة.

ثم ذكر أن كل شيء بقضاء الله وقدره، فقال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾: ﴿مَا﴾شرطية، نصب بـ﴿قَطَعْتُم﴾. واللينة: وزان فعلة، نظير حنطة، وهي: النخلة الكريمة الشجرة، بكونها قريبة من الأرض والطيبة الثمرة، ولا تختص بنوع من النخل دون نوع، كما قاله الراغب. وقيل: اللينة ضروب النخل كلها، ما خلا العجوة والبرنية، وهما أجود النخل.

والمعنى: أي شيء قطعتم من نخلة من نخيلهم بأنواعها ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الضمير لـ﴿مَا﴾ وتأنيثه لتفسيره باللينة كما في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾. ﴿قَآئِمَةً﴾: في حال من ضمير المفعول ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ وسوقها كما كانت، من غير أن تتعرضوا لها بشيء من القطع. جمع أصل، وهو ما يتشعب منه الفرع. ﴿فـ﴾ ـذاك ﴿بإذن الله﴾ تعالى؛ أي: قطعُها وتركُها واقع بأمر الله وإرادته، فلا جناح عليكم فيه؛ فإن في كل من القطع والترك حكمة ومصلحة.

وقال محمد بن إسحاق: إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة، فقال بنو النضير -

وهم أهل كتاب ـ: يا محمد! ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض؟ فشق ذلك على رسول الله ـ ﷺ ـ، ووجد المسلمون في أنفسهم شيئاً. فنزلت هذه الآية.

أي: أي شيء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن الله تعالى. فجعل أمر الرسول ـ ﷺ ـ أمر الله تعالى؛ لأنه ما ينطق عن الهوى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿قَآئِمَةً﴾ أنث قائمة، والضمير في ﴿تَرَكْتُمُوهَا﴾ على معنى ﴿مَا﴾ وقرأ عبد الله والأعمش وزيد بن علي ﴿قوماً﴾ بفتحتين على وزن فعل، جمع قائم، وقرىء ﴿قائماً﴾ اسم فاعل، فذكر على لفظ ﴿مَا﴾ وقرأ الجمهور ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ بالجمع، وقرىء ﴿على أصلها﴾ بغير واو على الإفراد.

و﴿اللام﴾: في قوله: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ علة لمحذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على علة محذوفة، والتقدير: أذن في قطعها ليسر المؤمنين ويعزهم، ويخزي الفاسقين، أي: وليذل اليهود الخارجين عن دائرة الإسلام؛ لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف أحبوا، ويتصرفون فيها حسبما شاؤوا من القطع والترك.. يزدادون غيظاً ويتضاعفون حسرة.

وتخصيص[2] اللينة بالقطع إن كانت من الألوان.. ليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية هما كرام النخل، وإن كانت هي الكرام.. ليكون غيظهم أشد.

ويقال: إن العتيق والعجوة كانتا مع نوح في السفينة. والعتيق الفحل، وكانت العجوة أصل الإناث كلها. فلذا شق على اليهود قطعها، وظهر من هذا أن اللون هو ما عدا العجوة، والبرني من أنواع التمر بالمدينة. ومن أنواع التمر بالمدينة: الصيحاني. وفي «شرح مسلم» للنواوي: أنواع التمر مئة وعشرون. وفي «تاريخ المدينة الكبير» للسيد السمنودي: أن أنواع التمر بالمدينة التي أمكن جمعها بلغت مئة، وبضعاً وثلاثين. ويوافقه قول بعضهم: اختبرناها فوجدنا أكثر مما ذكره النواوي، قال: ولعل ما زاد على ما ذكر حدث بعد ذلك، وأما أنواع التمر بغير

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

المدينة، كالمغرب.. فلا تكاد تنحصر. وكانت العجوة خير أموال بني النضير؛ لأنهم كانوا يقتاتونها، ولما قطعت العجوة.. شق النساء الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل كما في «إنسان العيون».

واستدل بهذه الآية على جواز هدم ديار الكفرة، وقطع أشجارهم مثمرة كانت أو غير مثمرة، وإحراق زروعهم زيادة لغيظهم، وعلى جواز الاجتهاد وعلى تصويب المجتهدين. والكلام فيه مبسوط في كتب الأصول.

والمعنى: وقد أذن الله في ذلك ليعز المؤمنين، وليخزي الفاسقين ويذلهم، ويزيد غيظهم، ويضاعف حسرتهم بنفاذ حكم أعدائهم في أعز أموالهم.

والخلاصة: أنكم بأمر الله قطعتم، ولم يكن ذلك فساداً، بل نعمة من الله ليخزيهم ويذلهم بسبب فسقهم وخروجهم من طاعة الله ومخالفة أمره ونهيه.

ولما جلا بنو النضير عن أوطانهم[١]، وتركوا أرباعهم وأموالهم.. طلب المسلمون تخميسها كغنائم بدر. فنزلت: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ...﴾. فبين أن أموالهم فيء لم يوجف عليها خيل ولا ركاب ولا قطعت مسافة، إنما كانوا ميلين من المدينة مشوا مشياً، ولم يركب إلا رسول الله - ﷺ -.

وهذا شروع في[٢] بيان حال ما أخذ من أموالهم بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل، وما فعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع. و﴿ما﴾ موصولة، وقوله: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ﴾ خبره. ويجوز جعلها شرطية، وقوله: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ﴾ جواباً. والفيء في الأصل بمعنى الرجوع، وأفاء: أعاد وأرجع فهو على أصل معناه هنا.

والمعنى: وما أعاده الله على رسوله ورده، وأرجع إليه من مالهم؛ أي: جعله عائداً إليه، ففيه إشعار بأنه كان حقيقاً بأن يكون له - ﷺ -، وإنما وقع في أيديهم بغير حق، فرجعه الله إلى مستحقه؛ لأنه تعالى خلق الناس لعبادته، وخلق ما خلق ليتوسلوا به إلى طاعته، فهو جدير بأن يكون للمطيعين، وهو - ﷺ - رأسهم ورئيسهم، وبه أطاع من أطاع، فكان أحق به. فالعود على هذا بمعنى: أن يتحول

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

الشيء إلى ما فارق عنه، وهو الأشهر. ويجوز أن يكون معناه: صيّره له، فالعود على هذا بمعنى: أن يتحول الشيء إلى ما فارق عنه، وإن لم يكن ذلك التحول مسبوقاً بالحصول له قبل. والحمل هنا على هذا المعنى لا يحوج إلى تكلف توجيه بخلاف الأول. وكلمة ﴿على﴾ تؤيد المعنى الثاني.

قال بعضهم: سمى ذلك المال فيئاً تشبيهاً له بالفيء، الذي هو الظل، تنبيهاً على أن أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظل زائل. قال المطرزي في «المُغْرِب»: الفرق بين الغنيمة، والفيء، والنفل: أن الغنيمة: ما نيل من أهل الشرك عنوة والحرب قائمة، وحكمها: أن تخمس، وسائرها بعد الخمس للغانمين خاصة. والفيء: ما نيل منهم بعدما تضع الحرب أوزارها، وتصير الدار دار إسلام، ومنه الجزية، ومال أهل الصلح والخراج من أموالهم. وحكمه: أن يكون لكافة المسلمين، ولا يخمس. والنَّفَلُ ـ بالتحريك ـ: ما ينفلُه الغازي؛ أي: يعطاه زائداً على سهمه؛ لكثرة نكايته في الأعداء، وكأن يقول الإمام أو الأمير: من قتل قتيلاً.. فله سلبه، أو قال للسرية: ما أصبتم.. فلكم ربعه أو نصفه، ولا يخمس. وعلى الإمام الوفاء به.

﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من بني النضير ﴿فَمَآ﴾ نافية ﴿أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أجريتم على تحصيله وتغنمه من الوجيف، وهو سرعة السير. ﴿مِنْ خَيْلٍ﴾: ﴿مِنْ﴾زائدة بعد النفي للتأكيد؛ أي: خيلاً. وهو جماعة الأفراس، لا واحد له من لفظه، كما سيأتي. ﴿وَلَا رِكَابٍ﴾؛ أي: ولا ركاباً؛ أي: جملاً. والركاب هو: ما يركب من الإبل خاصة، كما أن الراكب عندهم راكبها لا غير. وأما راكب الفرس فإنهم يسمونه فارساً، ولا واحد لها من لفظها، وإنما الواحد منها: راحلة.

والمعنى: أي وما أفاء الله على رسوله من أموال بني النضير[1]، فما قطعتم لها شقة بعيدة، ولا لقيتم مشقة شديدة، ولا قتالاً شديداً، وذلك أنه كانت قرى بني النضير على ميلين من المدينة، وهي ساعة واحدة بحساب الساعات النجومية، فذهبوا إليها مشياً، وما كان فيهم راكب إلا النبي ـ ﷺ ـ، وكان يركب حماراً مخطوماً بليف أو جملاً، فافتتحها صلحاً من غير أن يجري بينهم مسايفة. كأنه قال:

---

(١) روح البيان.

وما أفاء الله على رسوله منهم، فما حصلتموه بكد اليمين وعرق الجبين.

والمعنى[1]: أي ما صيره الله إلى رسوله من أموال بني النضير.. فهو لله ورسوله، ولا يجعل غنيمة للجيش يقسم تقسيم الغنائم؛ لأنه لم تقاتل فيه الأعداء بالمبارزة والمصاولة، بل نزلوا على حكم الرسول فرقاً ورعباً، ولهذا: يصرف في وجوه البرّ والمنافع العامة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآيات.

أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، وغيرهم عن عمر بن الخطاب قال: (كانت أموال بني النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله تعالى).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه؛ أي: ولكن جرت سنة الله تعالى بأن ﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ من أعدائه، ويقذف الرعب في قلوبهم، فيستسلمون لهم بلا قتال، ولا مصاولة، كما سلط محمداً - ﷺ - على هؤلاء، فنزلوا على حكمه دون اقتحام مضايق الخطوب ولا مقاومة شدائد الحروب، فلا حق للمقاتلة في الفيء، بل يكون أمره مفوضاً إلى الرسول، يصرفه كيف شاء ولا يقسمه تقسيم الغنائم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء، تارة على ما يعهد من السنن، وأخرى على غير ما يعهد منها، كما جرى لبني النضير من استسلامهم بلا قتال، على مناعة حصونهم وكثرة عددهم وعُددهم من سلاح وكراع، وما كان المسلمون يظنون أن هذا سيكون.

وبعد أن أتمّ الكلام في إجلاء بني النضير وفيئهم أعقبه بالكلام في حكم ما أفاء الله على رسوله من قرى الكفار عامة، فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ورده ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ - ﷺ - ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: من أموال الكفار أهل القرى. قال ابن عباس: هي قريظة، والنضير، وفدك، وخيبر وقرى عرينة، وينبع. وهذا بيان لمصارف الفيء بعد بيان إفاءته على رسول الله - ﷺ - من غير أن يكون للمقاتلة فيه حق، ولذا لم يعطف عليه، كأنه لما قيل: ما أفاء على رسوله من أموال بني النضير

---

(١) المراغي.

شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة، فلا يقسم قسمة الغنائم. قيل: فكيف يقسم؟ فقيل: ما أفاء الله.. إلخ. قال في «برهان القرآن»: قوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ﴾، وبعده ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ بغير واو؛ لأن الأول معطوف على قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، والثاني استئناف لبيان مصارف مطلق الفيء، وليس له به تعلق. وقول من قال: بدل من الأولى، مزيف عند أكثر المفسرين، انتهى. وإعادة عين العبارة الأولى لزيادة التقرير والتأكيد. ووضع أهل القرى موضع قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من بني النضير؛ للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم، بل هو حكم عام على كل قرية يفتحها رسول الله - ﷺ - صلحاً، ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب.

والمعنى: ما رده الله سبحانه على رسوله من كفار أهل القرى، كقريظة، والنضير، وفدك، وخيبر، يصرف في وجوه البرّ والخير، ولا يقسم تقسيم الغنائم؛ أي: لا تعطى أربعة أخماسه للمقاتلة؛ لأن القتال ليس موجوداً في الفيء، بل يخمس الفيء كالغنائم أيضاً، ولكن يصرف أربعة أخماسه في مصالح المسلمين، من سد الثغور، وحفر الأنهار، وبناء القناطر، والمدارس والمساجد، يقدم الأهم فالأهم. وأما الخمس الباقي: فيخمس أيضاً، فتصرف أخماسه في المصارف المذكورة بقوله: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾؛ أي: يصرف خمس الخمس لله وللرسول يأمران فيه بما أحبّا. وذكر الله للتشريف والتعظيم والتبرك. والمراد: يصرف هذا الخمس لرسول الله - ﷺ - ينفق منه أهل بيته قوت سنة، وما بقي في مصالح المسلمين من السلاح والكراع.

وقال الواحدي في تفسيره «الوجيز على القرآن العزيز»: وكان الفيء يخمس خمسة أخماس، فكانت أربعة أخماسه لرسول الله - ﷺ - يفعل فيها ما يشاء، والخمس الباقي يقسم بين المذكورين في هذه الآية. فأما اليوم فما كان للنبي - ﷺ - من الفيء يصرف إلى أهل الثغور والمترصدين للقتال في أحد قولي الشافعي، انتهى.

والمراد: أن للرسول من الفيء خمس، والأربعة الأخماس، يعني: أن لهؤلاء الأصناف المذكورة هنا أربعة أخماس الخمس والباقي للرسول - ﷺ - في حياته، وهو أربعة أخماس الفيء وخمس الخمس، وبعده - ﷺ - أربعة أخماس الفيء للمرتزقة، وخمس الخمس لمصالحنا. اهـ. «شيخنا» انتهى من «الفتوحات».

﴿و﴾ يصرف الخمس الثاني ﴿لذي القربى﴾؛ أي: لذوي قربى رسول الله ـ ﷺ ـ من مؤمني بني هاشم وبني المطلب، الفقراء منهم، قيل: ولو كانوا أغنياء؛ لأنهم قد منعوا من الزكاة فجعل لهم حقاً في الفيء. وقال في «شرح الآثار» عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: أن الصدقات كلها جائزة على بني هاشم وبني المطلب، والحرمة عليهم كانت في عهد النبي ـ ﷺ ـ لوصول خمس الخمس إليهم، فلما سقط ذلك بموته ـ ﷺ ـ. حلت لهم الصدقات. قال الطحاوي: وبالجواز نأخذ، كذا في «شرح الوقاية» لابن الملك. ﴿و﴾ يصرف الخمس الثالث لـ﴿اليتامى﴾؛ أي: يتامى المسلمين؛ أي: أطفال المسلمين الذين هلكت آباؤهم وهم فقراء. جمع يتيم، وهو: صغير لا أب له، وإن كان له جد أو أمّ. ﴿و﴾ يصرف الخمس الرابع لـ﴿المساكين﴾؛ أي: مساكين المسلمين ذوي الحاجة. ﴿و﴾ يصرف الخمس الخامس لـ﴿ابن السبيل﴾؛ أي: للمسافر المنقطع عن ماله ووطنه، ولا يمكن له أن يصل إليه لبعد الشقّة، وانقطاع طرق المواصلات وقد كان ذلك حين كانت طرق الوصول شاقة لكنها الآن سهلة، وهي على أساليب شتى، فيمكن المرء أن يطلب ما شاء بحوالة على أي مصرف في أي بلد على سطح الكرة الأرضية. ومن ثم فهذا النوع لا يوجد الآن.

ثم علل هذا التقسيم بقوله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ﴾ الفيء، ﴿دُولَةًۢ﴾: علة لمحذوف، تقديره: أي[1] جعل الله سبحانه الفيء قسمة لمن ذكر من الأصناف؛ لأجل أن لا يكون الفيء شيئاً متداولاً ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾؛ أي: شيئاً مخصوصاً بهم يكاثرون به أموالهم، لا يخرجونه إلى المستحقين، ولا يصرفونه للفقراء والمساكين يعيشون بها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ﴾ بالياء التحتية. ﴿دُولَةًۢ﴾ ـ بضم الدال ونصب التاء ـ؛ أي: كي لا يكون الفيء دولة. وقال الخطيب: وترسم ﴿كي﴾ هنا مفصولة من ﴿لا﴾ انتهى. وقرأ عبد الله، وأبو جعفر، وهشام، والأعرج، وأبو حيوة ﴿تكون﴾ بالتاء الفوقية، و﴿دَولة﴾ بفتح الدال ورفع التاء. قال عيسى بن عمر، ويونس، والأصمعي، ﴿دولة﴾ بضمها وفتحها، لغتان بمعنى واحد. وقال أبو عمرو بن العلاء: الدولة ـ بالفتح ـ: الذي يتداول من الأموال، وبالضم: الفعل.

---

(١) المراح (كذا في الأصل). (٢) البحر المحيط والشوكاني.

وكذا قال أبو عبيدة. وقال الكسائي، وحذاق البصرة: الدَّولة ـ بالفتح ـ في المُلك ـ بضم الميم ـ؛ لأنها الفِعْلة في الدهر، وبالضم في المِلك بكسرِ الميمِ. والضمير في ﴿تكون﴾ بالتأنيث مع نصب ﴿دولةً﴾ على معنى ﴿مَّا﴾ إذ المراد به: الأموال، والمغانم. وذلك الضمير اسم ﴿تكون﴾. وكذلك من قرأ بالياء أعاد الضمير على لفظ: ﴿مَّا﴾ أي: يكون الفيء، وانتصب ﴿دُولَةَۢ﴾ على الخبر. ومن رفع ﴿دولةٌ﴾ فتكون تامة، و﴿دولةٌ﴾ فاعل، و﴿كَىۡ لَا يَكُونَ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾. أي: فالفيء وحكمه لله وللرسول، يقسمه على ما أمره الله تعالى؛ كي لا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى للفقراء بلغة يعيشون بها متداولاً بين الأغنياء يتكاثرون به. أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم، كما كان رؤساؤهم يستأثرون بالغنائم، ويقولون: من عزّ بزّ.

والمعنى: كي لا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية، قاله أبو حيان. وعبارة «الخازن»: وذلك أن الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة، أخذ الرئيس ربعها لنفسه وهو المرباع، ثم يصطفي بعد المرباع منها ما شاء، فجعله الله سبحانه لرسوله ـ ﷺ ـ يقسمه على ما أمره الله به. اهـ.

والمعنى[١]: أي وإنما حكمنا بذلك وجعلناه مقسماً بين هؤلاء المذكورين لئلا يأخذه الأغنياء ويتداولوه فيما بينهم ويتكاثرون به، كما كان ذلك دأبهم في الجاهلية، ولا يصيب الفقراء من ذلك شيء.

ثم لما بيّن لهم سبحانه مصارف هذا المال.. أمرهم بالاقتداء برسوله ـ ﷺ ـ، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾؛ أي: وما أعطاكم ـ أيها المؤمنون ـ الرسولُ من أموال الفيء وغيره ﴿فَخُذُوهُ﴾ منه، فهو لكم حلال ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾؛ أي: عن أخذه ﴿فَٱنتَهُواْ﴾ عنه؛ أي: فابتعدوا عنه، ولا تطلبوه، ولا تقربوه، فإن الرسول لا ينطق عن الهوى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾.

وقال ابن جريج[٢]: ما آتاكم من طاعتي.. فافعلوه، وما نهاكم عنه من معصيتي.. فاجتنبوه.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

والحق: أن هذه الآية في كل شيء يأتي به رسول الله - ﷺ - من أمر أو نهي أو قول أو فعل، وإن كان السبب خاصاً، كما سيأتي، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وكل شيء أتانا به من الشرع.. فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها.

أخرج الشيخان، وأبو داوود، والترمذي في جماعة، عن ابن مسعود قال: (لعن الله تعالى الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيّرات لخلق الله. فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، كانت تقرأ القرآن، فقالت: بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله - ﷺ - وهو في كتاب الله عزّ وجل، فقالت: لقد قرأت ما بين لوْحي المصحف فما وجدته، قال: إن كنت قرأته.. فقد وجدته، أما قرأت قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟. قالت: بلى، قال: فإنه - ﷺ - قد نهى عنه).

وعن أبي رافع: أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدته في كتاب الله اتبعناه».

وروي في سبب نزول هذه الآية[1]: أن قوماً من الأنصار تكلموا في هذه القرى المفتتحة، وقالوا: لنا منها سهمنا. فنزل ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ...﴾ الآية. وهذا عام يدخل فيه قسمة ما أفاء الله والغنائم وغيرها، حتى أنه قد استدل بهذا العموم على تحريم الخمر، وحكم الواشمة والمستوشمة، وتحريم المخيط للمحرم.

ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرسول وترك ما نهاهم عنه.. أمرهم بتقواه وخوفهم شدة عقوبته، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، وخالف أمره، وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه. ورسوله ترجمان عما يريده لخير عباده

---

(١) البحر المحيط.

وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾قيل[1]: هو بدل من قوله: ﴿لذي القربى﴾ وما عطف عليه؛ أي: وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى للفقراء المهاجرين. ولا يصح أن يكون بدلاً من ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ لئلا يلزم وصف الله تعالى والرسول بالفقر.

والمعنى عليه: أنه أراد بهؤلاء الأربعة السالفين: فقراء المهاجرين الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وترك أموالهم، طلباً لمرضاة الله، ونيلاً لثوابه، ونصرة لله ورسوله، وإعلاء لشأن دينه.

وقيل: تقدير الكلام: كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، ولكن يكون للفقراء المهاجرين.

وقيل[2]: متعلق بمحذوف، تقديره: تعجبوا من حال الفقراء المهاجرين، ويكون خطاباً لكل من يصلح منه التعجب والتأمل في حال المهاجرين، حيث تركوا أوطانهم، وأموالهم، وتحملوا الضيق والتغرب في حب النبي - ﷺ - والإسلام. وفي هذا نوع تخويف ونوع توبيخ للكفار والمنافقين القاطنين بأوطانهم مع الأمن والسعة، ولم يؤمنوا، فليتهم اعتبروا بالمهاجرين.

ومعنى ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾؛ أي: الذين هاجروا وارتحلوا من أوطانهم إلى رسول الله - ﷺ - رغبة في الدّين ونصرة له. ومعنى ﴿أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ أي: أخرجهم كفار مكة منها، واضطروهم إلى الخروج وكانوا مئة رجل. وقال قتادة: هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار والأموال والأهلين حال كونهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى في الدنيا ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ منه في الآخرة؛ أي[3]: حال كونهم طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا ومرضاة في الآخرة. وصفوا أولاً بما يدل على استحقاقهم للفيء من الإخراج من الديار، وقد أعاد ذلك ثانياً بما يوجب تفخيم شأنهم، ويؤكده، فهو حال من واو ﴿أُخْرِجُوا۟﴾. وفي ذكر حالهم ترقّ من العالي إلى الأعلى، فإن رضوان الله أكبر من عطاء الدنيا.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عطف على ﴿يَبْتَغُونَ﴾، فهي حال مقدرة؛ أي: ناوين

---

(١) الشوكاني. (٢) الفتوحات. (٣) روح البيان.

نصرة الله بإعلاء دينه، ونصرة رسوله ببذل وجودهم في طاعته أو مقارنة، فإن خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة نصرة، وأي نصرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المهاجرون الموصوفون بما ذكر من الصفات الحميدة، وهو مبتدأ، وخبره ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الصدق الراسخون فيه، حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهوراً بيناً كأنّ الصدق مقصور عليهم لكمال آثاره.

أي: هؤلاء[1] هم الصادقون في إيمانهم؛ إذ قد فعلوا ما يدل على الإخلاص فيه والرغبة الصادقة من نيل المغفرة والكرامة عند ربهم، فهم قد أخرجوا من ديارهم وهي العزيزة على النفوس المحببة إلى القلوب.

بِلاَدِيْ وَإِنْ جَارَتْ عَلَيَّ عَزِيزَةٌ   وَأَهْلِي وَإِنْ ضَنُّوا عَلَيَّ كِرَامُ

وتركوا الأموال، والمال شقيق الروح، وكثيراً ما يقتل المرء في سبيل الذود عنه وانتزاعه من أيدي غاصبيه، وما فعلوا ذلك إلا لإعلاء منار الدِّين ورفعة شأنه، وذيوع ذكره. فحق لهم من ربهم النعيم المقيم وجزيل الثواب، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال وعظيم الخلال.

روي: أن رجلاً منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ منهم الحفيرة في الشتاء، ماله دثار غيرها.! وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بشروا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، يدخلون الجنة قبل الناس بنصف يوم، وذلك خمس مئة سنة». أخرجه أبو داود.

ثم مدح سبحانه الأنصار، وأثنى عليهم حين طابت نفوسهم على الفيء، إذ جعل للمهاجرين دونهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾؛ أي: لزموا دار الهجرة، وهي المدينة، ﴿و﴾ أخلصوا ﴿الإيمان﴾ لله تعالى، مبتدأ خبره سيأتي. وهو كلام مستأنف مسوق لمدح الأنصار بخصال حميدة، من جملتها: محبتهم للمهاجرين، ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسن رضا وأكمله. ويجوز نصبه على المدح.

---

(١) المراغي.

وجملة ﴿يُحِبُّونَ﴾ في محل النصب على الحال.

والأنصار[1]: بنو الأوس والخزرج، ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نيت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. قال في «القاموس»: قحطان بن عامر بن شالخ أبو حيّ انتهى. وهو أصل العرب العرباء. ومن الأنصار: غسان، كشداد، ماء قرب الجحفة نزل عليه قوم من ولد الأزد، فشربوا منه، فنسبوا إليه. يقال: تبوأ المكان، إذا اتخذه منزلاً واستقر فيه. والدار هي المدينة، وتسمي قديماً: يثرب، وحديثاً: طيبة وطابة.

ومعنى تبوئهم الدار والإيمان: أنهم اتخذوا المدينة والإيمان مباءة، وتمكنوا فيهما أشد تمكن، على تنزيل الحال منزلة المكان. وقيل: ضُمِّنَ التبوؤ معنى اللزوم. وقيل: تبؤوا الدار وأخلصوا الإيمان، أو قبلوه، أو آثروه، كقول من قال:

عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً

أي: وسقيتها ماء بارداً فاختصر الكلام، وقيل: غير ذلك.

يقول الفقير: لعل أصل الكلام: والذين تبؤوا دار الإيمان. فإن المدينة يقال لها: دار الإيمان لكونها مظهره ومأوى أصله، كما يقال لها: دار الهجرة. وإنما عدل إلى ما ذكر من صورة العطف تنصيصاً على إيمانهم، إذ مجرد التبوُّء لا يكفي في المدح.

﴿مِن قَبْلِهِم﴾؛ أي: من قبل هجرة المهاجرين، فلا بدّ من تقدير مضاف، لأن الأنصار لم يؤمنوا قبل إيمان المهاجرين، بل منهم من آمن قبل الهجرة ومنهم من آمن بعدها. قال في «الإرشاد»: يجوز أن يجعل اتخاذ الإيمان مباءة، ولزومه وإخلاصه عبارة عن إقامة كافة حقوقه، التي من جملتها إظهار عامة شعائره، وأحكامه، ولا ريب في تقدم الأنصار في ذلك على المهاجرين؛ لظهور عجزهم عن إظهار بعضها، لا عن إخلاصه قلباً واعتقاداً؛ إذ لا يتصور تقدمهم عليهم في ذلك.

وجملة قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ خبر[2] عن الموصول؛ أي: يحبونهم

---

(1) روح البيان.   (2) روح البيان.

من حيث مهاجرتهم إليهم لمحبتهم الإيمان، ولأن الله وحبيبه أحباؤهم، وحبيب الحبيب حبيب. ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾؛ أي: ولا يجد الأنصار ﴿فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾؛ أي: وجداً وحسداً وغيظاً وحزازة ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾؛ أي: مما أوتي المهاجرون دونهم، من الفيء وغيره بل طابت أنفسهم بذلك. وفي الكلام مضاف محذوف؛ أي: لا يجدون في صدورهم مس حاجة أو أثر حاجة، وكل ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إليه.. فهو حاجة. وكان المهاجرون في دور الأنصار، فلما غنم النبي - ﷺ - بني النضير.. دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين، من إنزالهم إياهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم، ثم قال: إن أحببتم قسمت ما أفاء الله علي من بني النضير بينكم وبين المهاجرين، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم والمشاركة لكم في أموالكم. وإن أحببتم أعطيتهم ذلك وخرجوا من دياركم. فرضوا بقسمة ذلك في المهاجرين، وطابت أنفسهم.

﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾؛ أي: يقدمون المهاجرين، فالمفعول محذوف. والإيثار[1]: تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة. يقال: آثرته بكذا؛ أي: خصصته به. أي: ويقدم الأنصار المهاجرين ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في كل شيء من أسباب المعاش، جوداً وكرماً، حتى إن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداهما، ويزوجها واحداً منهم. والإيثار أيضاً: عطاؤك ما أنت تحتاج إليه. وفي الخبر: «لم يجتمع في الدنيا قوم إلا وفيهم أسخياء وبخلاء إلا في الأنصار، فإن كلهم أسخياء، ما فيهم من بخيل». ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ أي: حاجة وخلة وفقر. مأخوذة من خصاص البيت، وهي: الفرج التي تكون فيه. شبه حالة الفقر والحاجة ببيت ذي فرج في الاشتمال على مواضع الحاجة. والخص: بيت من قصب وشجر. وجملة قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ في محل نصب على الحال.

وعن أنس رضي الله عنه: أنه قال: (أهدي لرجل من الأنصار رأس شاة، وكان مجهوداً، فوجه به إلى جار له زاعماً أنه أحوج إليه منه، فوجه جاره أيضاً إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداول ذلك الرأس سبعة بيوت إلى أن رجع إلى المجهود الأول).

---

(١) الشوكاني.

قال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمّ لي ومعي شيء من الماء وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به، فقلت: أسقيك، فأشار برأسه أن نعم، فإذا برجل يقول: آه آه، فأشار إلي ابن عمي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك، فأشار أن نعم، فسمع آخر يقول: آه آه، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئت إليه، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات». وهذا من قبيل الإيثار بالنفس، وهو فوق الإيثار بالمال.

وقال في «التكملة»: والصحيح: أن الآية نزلت في أبي طلحة الأنصاري - رضي الله عنه - حين نزل برسول الله - ﷺ - ضيف، ولم يكن عنده ما يضيفه به، فقال: ألا رجلاً يضيف هذا رحمه الله، فقام أبو طلحة فانطلق به إلى رحله وقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله - ﷺ -، فنوّمت الصبية وأطفأت السراج، وجعل الضيف يأكل، وهما يُرِيان أنهما يأكلان معه ولا يفعلان، فنزلت الآية. وكانت قناعة السلف أوفر ونفوسهم أقنع وبركتهم أكثر، ونحن نؤثر أنفسنا على الغير، فإذا وضعت مائدة بين أيدينا.. يريد كل منا أن يأكل قبل الآخر، ويأخذ أكثر مما يأخذ الرفيق، ولذلك لم توجد بركة الطعام، وينفد سريعاً.

والمعنى: أي والذين سكنوا المدينة وأشربت قلوبهم حب الإيمان من قبل هجرة أولئك المهاجرين، لهم صفات كريمة وشيم جليلة تدل على كرم النفوس ونبل الطباع. فهم:

١ - يحبون المهاجرين ويتمنون لهم من الخير ما يتمنون لأنفسهم.

٢ - لا يطمحون إلى شيء مما أعطيه أولئك المهاجرون من الفيء وغيره.

٣ - يقدمون ذوي الحاجة على أنفسهم، ويبدؤون بسواهم قبلهم، حتى إن من كان عنده امرأتان ينزل عن إحداهما، ويزوجها واحداً من المهاجرين.

ثم بيّن سوء عاقبة الشح، فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره. والشُّح - بالضم والكسر -: بخل مع حرص، فيكون جامعاً بين ذميمتين من صفات النفس. وإضافته إلى النفس لأنه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذي هو البخل. وقيل: الشح أشد من البخل. قال مقاتل: شح نفسه،

حرص نفسه. وقال سعيد بن جبير: شح النفس: أخذ الحرام، ومنع الزكاة. وقال ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه، ولم يمنع شيئاً أمره الله بأدائه.. فقد وقي شح نفسه. وقال طاووس: البخل: أن يبخل الإنسان بما في يده، والشح: أن يشح بما في أيدي الناس. وقال ابن عيينة: الشح: الظلم. وقال الليث: ترك الفرائض وانتهاك المحارم.

والظاهر من الآية: أن الفلاح مترتب على عدم شح النفس بشيء من الأشياء التي يقبح الشح بها شرعاً، من زكاة أو صدقة أو صلة رحم أو نحو ذلك، كما تفيده إضافة الشح إلى النفس؛ أي: ومن يحفظ بتوفيق الله شحها وبخلها حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

والإشارة بقوله: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾ إلى ﴿مَنْ﴾ باعتبار معناها وهومبتدأ وخبره ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: فأولئك المحفوظون من الشح هم الفائزون بكل مطلوب،الناجون من كل مكروه. والفلاح اسم لسعادة الدارين. والجملة[1] اعتراض وارد لمدح الأنصار، والثناء عليهم. فإن الفتوة هي الأوصاف المذكورة في حقهم، فلهم جلائل الصفات ودقائق الأحوال؛ ولذا قال ـ ﷺ ـ: «آية الإيمان: حب الأنصار، وآية النفاق: بغض الأنصار». وقال ـ ﷺ ـ: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُوقَ﴾ بسكون الواو وتخفيف القاف، من الوقاية. وقرأ ابن أبي عبلة، وأبو حيوة بفتح الواو وتشديد القاف. وقرأ الجمهور ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ بضم الشين. وقرأ ابن عمر، وابن أبي عبلة بكسرها.

والمعنى[3]: أي ومن يحفظوا أنفسهم من الحرص على المال والبخل به.. فأولئك هم الفائزون بكل مطلوب، الناجون من كل مكروه.

أخرج الترمذي وأبو يعلى وابن مردويه، عن أنس مرفوعاً: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان نار جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الإيمان والشح في قلب عبد أبداً».

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

وأخرج أحمد والبخاري في «الأدب» ومسلم والبيهقي، عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله - ﷺ - قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح قد أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

وروى الأموي عن ابن مسعود: (أن رجلاً أتاه، قال: إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ وأنا رجل شحيح، لا أكاد أخرج من يدي شيئاً، فقال ابن مسعود: ليس ذاك الذي ذكر الله تعالى، وإنما الشح: أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل، وبئس الشيء البخل). ففرق بين الشح والبخل.

وليس المراد من تقوى الشح الجودُ بكل ما يملك؛ فقد روى أنس بن مالك: أن رسول الله - ﷺ - قال: «بريء من الشح من أدى الزكاة، وقَرَى الضيف، وأعطى في النائبة».

ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين والأنصار.. ذكر ما ينبغي أن يقوله من جاء بعدهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾؛ أي: من بعد هجرة المهاجرين الأولين، ومن بعد قوة إيمان الأنصار، وهم: التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة. وقيل: هم الذين هاجروا بعدما قوي الإسلام. والظاهر: شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم في عصر النبوة، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة؛ لأنه يصدق على الكل أنهم جاؤوا بعد المهاجرين الأولين والأنصار. والموصول[1] مبتدأ، وخبره ﴿يَقُولُونَ﴾، والجملة مسوقة لمدحهم بمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين، ومراعاتهم لحقوق الأخوة في الدين والسبق بالإيمان ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ فيكون ﴿يَقُولُونَ﴾ في محل النصب على الحال، أو مستأنف. والمراد بالأخوة هنا: أخوة الدين، أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم ولمن تقدمهم من المهاجرين والأنصار.

---

(١) روح البيان.

أي: والذين جاؤوا من بعدهم يدعون لهم قائلين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منا ﴿وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾؛ أي: في الدِّين، الذي هو أعزّ وأشرف عندهم من النسب. ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم. قدموا أنفسهم في طلب المغفرة لما في المشهور من أن العبد لا بد أن يكون مغفوراً له حتى يستجاب دعاؤه لغيره. وفيه حكم بعدم قَبول دعاء العاصين قبل أن يُغْفَرَ لهم، وليس كذلك كما دلت عليه الأخبار. فلعل الوجه: أن تقديم النفس كونها أقرب النفوس إليه مع أن في الاستغفار إقراراً بالذنب، فالأحسن للعبد أن يرى أولاً ذنب نفسه، كذا في بعض التفاسير.

يقول الفقير: نفس المرء أقرب إليه من نفس غيره، فكل جلب أو دفع فهو إنما يطلبه أولاً لنفسه لإعطاء حق الأقدم، وأما غيره.. فهو بعده ومتأخر عنه. وأيضاً: إن ذنب نفسه مقطوع بالنسبة إليه، وأما ذنب غيره.. فمحتمل، فلعل الله قد غفر له وهو لا يدري. وأيضاً: تقديمهم في مثل هذا المقام لا يخلو عن سوء أدب وسوء ظن في حق السلف.

ويقال: إنما بدؤوا بأنفسهم؛ لقوله ـ ﷺ ـ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول». ويدعون لأنفسهم قائلين: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا﴾؛ أي: حقداً وبغضاً وحسداً. وقرىء: ﴿غمراً﴾. ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله على الإطلاق، صحابة أو غيرهم. وفيه إشارة إلى أن الحقد على غيرهم جائز لغيرة الدِّين، وإن لم يكن الحسد جائزاً. أمرهم الله سبحانه[1]. بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغل للذين آمنوا على الإطلاق، فيدخل في ذلك الصحابة دخولاً أوليّا؛ لكونهم أشرف المؤمنين، ولكون السياق فيهم، فمن لم يتسغفر للصحابة على العموم، ويطلب رضوان الله لهم.. فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية، فإن وجد في قلبه غلاً لهم.. فقد أصابه نزغ من الشيطان، وحل به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه، وخير أمة نبيه ـ ﷺ ـ، وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجأ إلى الله سبحانه، والاستغاثة به، والتوبة منه، والعياذ من ذلك كله بالله تعالى.

---

(١) الشوكاني.

والحقد والحسد هما رأس كل خطيئة، وينبوع كل معصية، فهما يوجبان سفك الدماء، والبغي، والظلم، والسرقة، وسائر أنواع الفجور.

ونحو الآية قوله تعالى في سورة براءة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: ربنا إنك عظيم الرأفة بعبادك، كثير الرحمة لهم، فحقيق بأن تجيب دعاءنا، فأجب دعاءنا يا إلهنا ويا مالك أمرنا. وفي الآية[1] حث على الدعاء للصحابة وصفاء القلوب من بغض أحد منهم، ودليل على أن الترحم والاستغفار واجب على المؤمنين الآخرين للسابقين منهم، لا سيما لآبائهم ولمعلمهم أمور الدّين. قالت عائشة رضي الله عنها: «أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم». وفي الحديث: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها»، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع رجلاً وهو يتناول بعض المهاجرين، فقرأ عليه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ثم قال: هؤلاء المهاجرون، أفمنهم أنت؟ قال: لا. ثم قرأ عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ الآية، ثم قال: هؤلاء الأنصار، فأنت منهم؟ قال: لا. ثم قرأ عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ...﴾ الآية، ثم قال: أفمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو، قال: ليس من هؤلاء من سب هؤلاء.

وفي تكرير: ﴿رَبَّنَآ﴾ إظهار لكمال الضراعة. وفي الأثر: «من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا.. أنجاه الله مما يخاف».

الإعراب

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿سَبَّحَ﴾: فعل ماض، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، وقيل: ﴿اللام﴾: زائدة، ﴿مَا﴾ فاعل، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾:

---

(١) روح البيان.

خبر ثان، والجملة في محل النصب حال من الجلالة، أو مستأنفة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أَخْرَجَ﴾، ﴿لِأَوَّلِ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتوقيت، بمعنى: عند متعلق بـ﴿أَخْرَجَ﴾ أيضاً، ﴿أول الحشر﴾: مجرور ومضاف إليه ﴿مَا﴾ نافية، ﴿ظَنَنتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يَخْرُجُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾المصدرية مع مدخولها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظن، أي: ما ظننتم خروجهم. ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ظنوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾، ﴿أَنَّهُم﴾: ناصب واسمه، ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿حُصُونُهُم﴾: مبتدأ مؤخر. ويجوز أن يكون ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ خبر ﴿أَنَّهُم﴾، ﴿حُصُونُهُم﴾: فاعل مانعتهم؛ لاعتماده على المخبر عنه. وجملة ﴿أن﴾من اسمها وخبرها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظن؛ أي: وظنوا منع حصونهم من الله تعالى. و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

﴿فَأَتَىٰهُمُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أتاهم الله﴾: فعل ومفعول، وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ظنوا﴾، ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: متعلق بـ﴿أتاهم﴾، وجملة ﴿لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾. ﴿وَقَذَفَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على ﴿فَأَتَىٰهُمُ﴾، ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾: متعلق بـ﴿قذف﴾، ﴿ٱلرُّعْبَ﴾: مفعول قذف ﴿يُخْرِبُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿قُلُوبِهِمُ﴾؛ لأن المضاف كان جزءاً من المضاف إليه، أو مستأنفة لبيان الرعب. ﴿بُيُوتَهُم﴾: مفعول به، ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يُخْرِبُونَ﴾، ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوف على ﴿أيديهم﴾. ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما فعل الله بهم وعقلتموه وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: اعتبروا يا أولي الأبصار، ﴿اعتبروا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿يَٰٓأُو۟لِى﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أولي﴾: منادى مضاف

منصوب، وعلامة نصبه الياء المحذوفة لفظاً للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأنه اسم جمع ملحق بجمع المذكر السالم. ﴿أولي﴾: مضاف ﴿ٱلْأَبْصَٰرِ﴾: مضاف إليه، وجملة النداء جواب الطلب، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَيْهِمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿كَتَبَ﴾. ﴿ٱلْجَلَآءَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿كَتَبَ﴾ في محل الرفع خبر لـ﴿أن﴾ المخففة وجملة ﴿أن﴾ المخففة في تأويل مصدر مرفوع على أنه مبتدأ خبره محذوف، تقديره: ولولا كتاب الله الجلاء عليهم موجود ﴿لَعَذَّبَهُمْ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿عذّبهم﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على الله ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بـ: عذب، والجملة الفعلية جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة. ﴿وَلَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لهم﴾: خبر مقدم، ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: حال من ﴿عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾، و﴿عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية مستأنفة. ولا يجوز عطفها على ﴿عذَّبَهُمْ في الدنيا﴾؛ لأن ذلك يقتضي أن ينجوا من عذاب الآخرة أيضاً؛ لأن ﴿لولا﴾ تقتضي انتفاء الجزاء بحصول الشرط. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، ﴿أنهم﴾: ناصب واسمه، ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف على الجلالة. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، والتقدير: ذلك كائن بسبب مشاقتهم الله ورسوله. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع، مبتدأ، والخبر جملة فعل الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يُشَآقِّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿من﴾ الشرطية، ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: خبره. وجملة ﴿إنّ﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ على كونها

مستأنفة، ويجوز أن تجعل الفاء تعليلية للجواب المحذوف، تقديره: ومن يشاق الله يعاقب؛ لأن الله شديد العقاب.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.

﴿مَا﴾ اسم شرط جازم في محل النصب، مفعول مقدم لـ﴿قَطَعْتُم﴾، ﴿قَطَعْتُم﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿مَا﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾: حال من ﴿مَا﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتقسيم ﴿تَرَكْتُمُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿قَطَعْتُم﴾، ﴿قَآئِمَةً﴾: مفعول ثان لترك، أو حال من ضمير المفعول، ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾: متعلق بـ﴿قَآئِمَةً﴾، ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَا﴾الشرطية، ﴿بإذن الله﴾: متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فقطعها أو تركها كائن بإذن الله وإرادته. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَا﴾الشرطية على كونها جواب الشرط لها، وجملة ﴿مَا﴾الشرطية مستأنفة، ﴿وَلِيُخْزِىَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على علة محذوفة متعلقة بمعلول محذوف، تقديره: أذن الله في قطعها ليسر المؤمنين، ويعزّهم وليخزي الفاسقين. و﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يخزي﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: أذن في قطعها لإعزاز المؤمنين وإخزاء الفاسقين، والجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور المقدر قبله على كونه تعليلاً لمحذوف.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع، مبتدأ ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وما أفاءه الله. ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أفاء﴾، ﴿مِنْهُمْ﴾ حال من العائد المحذوف؛ أي: ما أفاءه الله على رسوله حال كونه من أموالهم، فهو على تقدير مضاف، أو متعلق بـ﴿أَفَآءَ﴾ ﴿فَمَآ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ لشبه المبتدأ

بالشرط، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَوْجَفْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أَوْجَفْتُمْ﴾، ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿خَيْلٍ﴾: مفعول به، ﴿وَلَا رِكَابٍ﴾: معطوف على ﴿خَيْلٍ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، ولكنه خبر سببيّ، والتقدير: والذي أفاءه الله على رسوله منهم فغير مجيفين أنتم عليه خيلاً ولا ركاباً. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أو مستأنفة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكنّ﴾، وجملة ﴿لكنّ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾. ﴿عَلَىٰ مَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُسَلِّطُ﴾. وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الابتدائية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿مَّآ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾: صلة لـ﴿مَّآ﴾، والعائد محذوف؛ أي: ما أفاءه الله. ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أَفَآءَ﴾، ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾: حال من ﴿مَّآ﴾ أو من العائد المحذوف، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: حال كونه من أموال أهل القرى، ﴿فَلِلَّهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ، لشبه المبتدأ بالشرط، ﴿لله﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ؛ أي: فكائن لله. والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لبيان مصارف الفيء. ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: معطوفان على ﴿لله﴾، ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ﴾: معطوفات على ﴿ذي القربى﴾.

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿كَىْ﴾: حرف جر وتعليل بمعنى اللام، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد كي التعليلية، واسمها ضمير يعود على الفيء. ﴿دُولَةًۢ﴾: خبر ﴿يَكُونَ﴾، ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ﴿دُولَةًۢ﴾، ﴿مِنكُمْ﴾: حال من الأغنياء، وجملة ﴿يَكُونَ﴾: صلة أن المضمرة، (أن) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿مَّآ﴾ التعليلية؛ أي: لعدم كونه دولة بين الأغنياء. والجار

والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر في قوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: اسم موصول منصوب المحل على الاشتغال بفعل محذوف يفسره المذكور بعده، تقديره: خذوا ما آتاكم الرسول. ﴿ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف، لأن ﴿آتى﴾ بمعنى أعطى، يتعدى إلى مفعولين؛ أي: وخذوا ما آتاكم الرسول إياه. والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. ويجوز رفع ﴿ما﴾ على الابتداء، وجملة ﴿فَخُذُوهُ﴾ خبره. ﴿فَخُذُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لما في الموصول من شبه اسم الشرط، ﴿خذوه﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به والجملة جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، أو في محل الرفع خبر لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾: معطوفة على ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾. فهو نظيره في الإعراب. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿اتقوا الله﴾ فعل أمر، وفاعل ومفعول به. والجملة مستأنفة، أو معطوفة على قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾: جار ومجرور، بدل من قوله: ﴿لذي القربى﴾ على مذهب أبي حنيفة، ومقتضاه اشتراط الفقر في استحقاق ذي القربى. ومن جنح إلى مذهب الشافعي علقه بمحذوف تقديره: اعجبوا للفقراء، ومقتضاه عدم اشتراط الفقر، وأنّ الاستحقاق يكون بالقرابة، فيأخذ ذو القربى الفقير لقرابته، كما مر. وعلى هذا نهج السيوطي، وغيره. والمعنى: اعجبوا لهؤلاء المهاجرين حيث تركوا أوطانهم وأموالهم. ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾: نعت للفقراء، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: نعت ثان للفقراء، ﴿أُخْرِجُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل صلة الموصول، ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أُخْرِجُوا۟﴾، ﴿وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾: معطوف على ﴿دِيَٰرِهِمْ﴾، ﴿يَبْتَغُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿فَضْلًا﴾: مفعول به، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أو بمحذوف نعت لـ﴿فَضْلًا﴾، ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾: معطوف على ﴿فَضْلًا﴾، والجملة الفعلية حال من مرفوع ﴿أُخْرِجُوا۟﴾؛ أي: حال كونهم طالبين فضلاً ورضواناً. ﴿وَيَنصُرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَبْتَغُونَ﴾، ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به، ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾: معطوف عليه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير

فصل، أو مبتدأ ثان، ﴿ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾: خبر لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أو خبر لـ﴿هُمُ﴾، والجملة خبر ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، وجملة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الذين﴾: مبتدأ، ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾: فعل وفاعل، ومفعول به صلة الموصول، أو منصوب على المدح؛ أي: أمدح الذين تبؤوا الدار، أو في محل الجر معطوف على الفقراء، ﴿وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾: مفعول به لفعل محذوف، تقديره: وأخلصوا الإيمان، على حد قوله:

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبْـنـاً ومَـاءً بَـارِداً

أي: سقيتها ماء بارداً، ويكون من عطف الجمل؛ لأن الإيمان لا يتخذ منزلاً، فاختصر الكلام. وقيل: هو على حذف مضاف؛ أي: والذين تبؤوا دار الهجرة ودار الإيمان. فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان وأقيم المضاف إليه مقامه، أو منصوب بـ﴿تَبَوَّءُو﴾ على تضمينه معنى لزموا، كأنه قال: لزموا الدار ولزموا الإيمان. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: حال من فاعل ﴿تَبَوَّءُو﴾.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿يُحِبُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿تَبَوَّءُو﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿هَاجَرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق به. والجملة صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوفة على ﴿يُحِبُّونَ﴾، ﴿وَلَا﴾: نافية، ﴿فِى صُدُورِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يَجِدُونَ﴾، ﴿حَاجَةً﴾: مفعول به، ﴿مِّمَّآ﴾: نعت لحاجة، وجملة ﴿أُوتُوا۟﴾ صلة لـ﴿ما﴾، والعائد محذوف؛ أي: مما أوتوه. ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُحِبُّونَ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يؤثرون﴾، ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لو﴾: حرف شرط مجرد عن معنى الشرط لا جواب لها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿بِهِمْ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها، ﴿خَصَاصَةٌ﴾: اسمها مؤخر.

وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿يؤثرون﴾؛ أي: يؤثرون المهاجرين على أنفسهم حالة كون الخصاصة بهم. ويصحّ أن تكون ﴿الواو﴾ عاطفة على شرط محذوف، و﴿لو﴾: حرف شرط على بابها، والتقدير: ويؤثرون على أنفسهم إن لم تكن بهم خصاصة، ولو كانت بهم خصاصة يؤثرونهم على أنفسهم. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يُوقَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾: مفعول ثان، ومضاف إليه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿جَآءُو﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿جَآءُو﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾: خبر الذين، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء للتخفيف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿ٱغْفِرْ﴾: فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع الباريء سبحانه، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، ﴿لَنَا﴾: متعلق بـ﴿ٱغْفِرْ﴾، ﴿وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾: معطوف على ﴿لَنَا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿إخواننا﴾، وجملة ﴿سَبَقُونَا﴾ صلة الموصول، ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ متعلق بـ﴿سَبَقُونَا﴾ ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: دعائية، سلوكاً مسلك الأدب مع الباريء سبحانه، ﴿تَجْعَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الدعائية، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱغْفِرْ﴾، ﴿فِى قُلُوبِنَا﴾: متعلق بـ﴿تَجْعَلْ﴾. وهو في موضع المفعول الثاني لـ﴿تَجْعَلْ﴾، ﴿غِلًّا﴾: مفعوله الأول، ﴿لِّلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿غِلًّا﴾، لأنه مصدر بمعنى: بغضاً. وقيل: نعت لـ﴿غِلًّا﴾. وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول.

﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾، وكرره للتأكيد، ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب، واسمه، ﴿رَءُوفٌ﴾: خبره، ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها تعليلية للدعاء المذكور قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والتسبيح: تبعيد الله عن السوء، وتنزيهه عما لا يليق بشأن ألوهيته، قولاً وفعلاً وقلباً كما مر. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: هم بنو النضير، بزنة: أمير، قبيلة عظيمة من اليهود كبني قريظة. ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ والحشر: إخراج جمع من مكان إلى آخر، أي: في أول حشرهم؛ أي: جمعهم وإخراجهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى بلاد الشام. وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام. ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾: جمع دار، وهو: المكان الذي حوط ودور به للنزول فيه وإن لم يكن مسقفاً بخلاف البيت، وهو اسم لمبنى مسقف مدخله من جانب واحد للبيتوتة فيه، كما مرّ في مبحث التفسير بيان الفرق بينهما ﴿حُصُونُهُم﴾: جمع حصن، وهو القصر الشاهق والقلعة المشيدة. وفي «الروح»: الحصون: جمع حصن - بكسر فسكون - وهو كل موضع حصين لا يوصل إلى جوفه، والقلعة: الحصن الممتنع على الجبل. فالأول أعم من الثاني. ويقال: تحصن، إذا اتخذ الحصن مسكناً، ثم تجوز به فقيل: درع حصينة؛ لكونها حصناً للبدن، وفرس حصان؛ لكونه حصناً لراكبه. ﴿مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من بأسه وعقابه. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: جاءهم عذابه وبأسه. ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾؛ أي: من حيث لم يخطر لهم ببال؛ أي: من الجهة التي لم تخطر ببالهم، فالجهة هي المؤمنون، كانوا لا يخطر ببالهم أن الذل يأتيهم من جهة المؤمنين الضعفاء بالنسبة إليهم في ذلك الوقت. اهـ. «شيخنا».

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾؛ أي: أنزله فيها إنزالاً شديداً، كأنه قد قذف الحجارة فيها. اهـ. «خطيب». وقَذْفُ الشيء: رميه بقوة. والمراد هنا: إثباته وركزه في قلوبهم، كما في «الكشاف»، ومنه قالوا في صفة الأسد: مقذف، لما أن قذف باللحم قذفاً، لاكتنازه وتداخل أجزائه. والرعب: الخوف الذي يملأ الصدور،

فيغيّر العقل، ويعجز النفس، ويشوش الرأي.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ بالتشديد من التخريب، وبالتخفيف من الإخراب. والإخراب والتخريب بمعنى واحد يقال: خرب المكان خراباً، وهو ضد العمارة. وقد أخربه وخربه؛ أي: أفسده بالنقض والهدم غير أن في التشديد مبالغة من حيث التكثير، لكثرة البيوت، وهو قراءة أبي عمرو. وفرق أبو عمرو بين الإخراب والتخريب، فقال: خرب ـ بالتشديد ـ بمعنى هدم ونقض وأفسد، وأخرب ـ بالهمزة ـ ترك الموضع. وقال ـ أي: أبو عمرو ـ: وإنما اخترت التشديد لأن الإخراب ترك الشيء خراباً بغير ساكن.

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾؛ أي: فاتعظوا بحالهم، ولا تغتروا، ولا تعتمدوا على غير الله. ا هـ. «بيضاوي». والاعتبار: مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء. ولهذا سميت العبرة عبرة؛ لأنها تنتقل من العين إلى الخد، وسمي علم التعبير؛ لأن صاحبه ينتقل من المتخيل إلى المعقول، وسميت الألفاظ عبارات؛ لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع. ويقال: السعيد من اعتبر بغيره؛ لأنه ينقل بواسطة عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه، ومن لم يعتبر بغيره.. اعتبر به غيره. ولهذا قال القشيري: الاعتبار هو: النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها؛ ليعرف بالنظر فيها شيء آخر. ا هـ. «خطيب». ﴿الْأَبْصَارُ﴾: جمع بصر، يقال للجارحة: الناظرة، وللقوة التي فيها، ويقال للقلب المدركة: بصيرة وبصر، ولا يكاد يقال للجارحة: بصيرة، كما في المفردات.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الجلاء: الخروج من الوطن والجولان في الأرض. يقال: أجليت القوم عن منازلهم؛ أي: أخرجتهم منها، وجلوا منها خرجوا. وقد فرقوا بين الإجلاء والإخراج من وجهين:

١ ـ أن الأول لا يكون إلا لجماعة، والثاني يكون لواحد ولجماعة.

٢ ـ أو أن الأول ما كان مع الأهل والولد، والثاني يكون مع بقائهما. وفي «المختار»: الجلاء ـ بالفتح والمد ـ: الأمر الجلي، تقول منه: جلا الخبر، يجلو جلاء، إذا وضح. والجلاء أيضاً: الخروج من البلد والإخراج أيضاً. وقد جلوا عن

أوطانهم، وجلاهم غيرهم. يتعدى، ويلزم. ا هـ. وفي «المصباح»: والفاعل من الثلاثي جال، مثل قاض، والجماعة جالية، ومنه قيل لأهل الذمة الذين أجلاهم عمر - رضي الله عنه - من جزيرة العرب: جالية. ثم نقلت الجالية إلى الجزية التي أخذت منهم، ثم استعملت في كل جزية تؤخذ وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه فيقال: استعمل فلان على الجالية؛ أي: على أخذها من أهلها. والجمع: جوالي. ا هـ.

قلت: ومن هذه المادة سمّت الجُبُوش الأرُميا بالجالّا، إخفاء لحسبهم ونسبهم ووطنهم، فالجالا: هم الذين أخرجوا من وطنهم وأسكنوا في وطن الغير بالجزية. ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من المشاقة، وهو كون الإنسان في شق ومخالفه في شق آخر. ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ واللينة فعلة، نحو: حنطة، من اللون، على أن أصلها لونة، فياؤها مقلوبة عن واو لكسر ما قبلها، نحو: ديمة، قيمة. وتجمع على: ألوان، وهي ضروب النخل كلها. وقيل: من اللين، وتجمع على لين وأليان، وهي النخلة الكريمة الشجرة، لكونها قريبة من الأرض، والطيبة الثمرة. قال الراغب في «المفردات»: اللين ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخُلق ولغيره من المعاني، فيقال: فلان لين وفلان خشن، وكل واحد منهما يمدح به طوراً، ويذم به طوراً، بحسب اختلاف المواضع والمقام. ا هـ. وفي «الفتوحات»: واللينة في معناها خلاف كثير، فقيل: هي النخلة مطلقاً، وقيل: هي النخلة ما لم تكن عجوة ولا برنية، وقيل: هي النخلة الكريمة، وقيل: هي العجوة، وقيل: هي أغصان الشجر للينها. وفي عين ﴿لِّينَةٍ﴾ قولان:

أحدهما: أنها واو؛ لأنها من اللّون، وإنما قلبت ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، كديمة وقيمة.

والثاني: أنها ياء؛ لأنها من اللين، وجمع اللينة لين؛ لأنه من باب اسم الجنس، كتمر وتمرة. وقد تكسر على ليان، وهو شاذ؛ لأن تكسير ما يفرق فيه بتاء التأنيث شاذ، كرطبة ورطب وأرطاب. ا هـ. «سمين».

﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾: جمع: أصل، وهو ما يتشعب منه الفرع. ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: وليذلهم. يقال: خزي الرجل لحقه انكسار، إما من نفسه؛ وهو: الحياء المفرط ومصدره الخزاية، وإما من غيره وهو ضرب من الاستخفاف، ومصدره الخزي. ا هـ. «روح».

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال المبرد: يقال: فاء يفيء إذا رجع، وأفاءه الله إليه؛ أي: رده وصيره إليه. والفيء لغة: الرجوع، وشرعاً: ما أخذ من أموال الكفار من غير قتال، ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير. ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ﴾ يقال: وجف الفرس والبعير يجف وجفاً وجيفاً إذا أسرع، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع. وفي «القاموس»: الوجيف: ضرب من سير الخيل والإبل. والخيل: جماعة الأفراس، لا واحد له، أو واحده خائل؛ لأنه يختال، والجمع: أخيال، وخيول، كما في «القاموس». وقال الراغب: الخيلاء: التكبر، من تخيل فضيلة تتراءى للإنسان من نفسه. ومنها: تتأول لفظة الخيل لما قيل: إنه لا يركب أحد فرساً إلا وجد في نفسه نخوة. وللخيل نوعان: عتيق وهجين:

فالعتيق: ما أبواه عربيان؛ سمي بذلك لعتقه من العيوب وسلامته من الطعن فيه بالأمور المنقصة، وسميت الكعبة بالبيت العتيق لسلامتها من عيب الرق؛ لأنه لم يملكها ملك قط.

والهجين: الذي أبوه عربي وأمه عجمية. والفرق: أن عظم البرذونة أعظم من عظم الفرس، وعظم الفرس أصلب وأثقل، والبرذونة أحمل من الفرس، والفرس أسرع منه، والعتيق بمنزلة الغزال، والبرذونة بمنزلة الشاة.

﴿وَلَا رِكَابٍ﴾ والركاب: ما يركب من الإبل خاصة، واحدتها راحلة، ولا واحد لها من لفظها. والعرب لا تطلق لفظ الراكب، إلا على راكب البعير، ويسمون راكب الفرس فارساً. قال في «المفردات»: الركوب في الأصل: كون الإنسان على ظهر حيوان، وقد يستعمل في السفينة والراكب اختص في التعارف بممتطي البعير، جمعه: ركب وركبان وركوب، واختص الركاب بالمركوب، انتهى.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ﴾؛ أي: على أعدائه من غير قتال، ولا مصاولة، بل بإلقاء الرعب في القلوب، فيكون الفيء للرسول يصرفه في مصارفه التي ستعلمها

بعد. ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: من أهل البلدان التي تفتح هكذا بلا قتال. ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: لبني هاشم وبني المطلب، والقربى: مصدر سماعي، لقرب قرباً وقربىٰ؛ أي: قرابة. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع يتيم. واليتم: انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه، وفي سائر الحيوانات من قبيل أمه.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: جمع مسكين، ويفتح ميمه، وهو من لا شيء له، أو له ما لا يكفيه. سمي بذلك؛ لأن الفقر أسكنه؛ أي: قلل حركته، وهو من السكون، فنونه أصلية لا نون جمع، ولذلك تجري عليه حركات الإعراب الثلاثة. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: المسافر البعيد عن ماله، وسمي به لملازمته له، كما تقول لِلُصِّ القاطع: ابن الطريق، وللمعمر: ابن الليالي، ولطير الماء: ابن الماء، وللغراب: ابن دأبة، بإضافة الابن إلى دأبة البعير؛ لكثرة وقوعه عليها إذا دبرت، والدأبة: الجنب.

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ بضم الدال وقرىء بفتحها، وهي: ما يدول للإنسان؛ أي: يدور، من الغنى، والجد والغلبة. قال المبرد: الدولة ـ بالضم ـ: الشيء الذي يتداوله القوم بينهم، يكون كذا مرة وكذا أخرى. والدولة ـ بالفتح ـ: انتقال حال سارة من قوم إلى قوم؛ أي: فالأول: اسم لما يتداول من المال والثانية: اسم لما ينتقل من الحال.

﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ والتبوؤ: النزول في المكان، ومنه: المباءة للمنزل. وأصل البواء: مساواة الأجزاء في المكان، خلاف النبو الذي هو منافاة الأجزاء يقال: مكان بواء إذا لم يكن نابياً بنازله، وبوأت له مكاناً: سويت. والمراد بالدار: المدينة. والمراد بالحاجة: الحسد والغيظ. ﴿أُوتُوا۟﴾؛ أي: أعطي المهاجرون دون الأنصار. ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾؛ أي: يقدمون ويفضلون. ﴿خَصَاصَةٌ﴾ والخصاصة: الحاجة، من خصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج، وكذا كل خرق في منخل أو باب أو سحاب أو برقع. ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ والشح: اللؤم، وهو: أن تكون النفس كزة حريصة على المنع. قال شاعرهم:

يُمَارِسُ نَفْساً بَيْنَ جَنْبَيْهِ كَزَّةً ... إِذَا هَمَّ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلاً

قال الراغب: البخل: المنع والشح: الحال النفسية التي تقتضي ذلك. وقيل: الشح: الحرص على المال. والفرق بينه وبين البخل: أن الشح غريزة، والبخل

المنع نفسه، فهو أعم؛ لأنه قد يوجد البخل ولا شح له، ولا ينعكس. وفي الصحاح: والشح: البخل مع حرص.

﴿وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾ جمع أخ. وفي «المصباح»: الأخ لامه محذوفة، وهي واو، وترد في التثنية على الأشهر، فيقال: أخوان. وفي لغة يستعمل منقوصاً، فيقال: أخان. وجمعه: إخوة وإخوان، بكسر الهمزة فيهما، وضمها لغة. وقيل: جمعه بالواو والنون، وعلى آخاء بوزن آباء أقل. والأنثى: أخت وجمعها: أخوات، وهو جمع مؤنث سالم. ا هـ.

﴿غِلًّا﴾؛ أي: حقداً، وهو حرارة وغليان يوجب الانتقام. ا هـ. «خطيب». وفي «المصباح»: الحقد: الانطواء على العدواة والبغضاء، وحقد عليه: من باب ضرب. وفي لغة: من باب تعب، والجمع: أحقاد. وقال الراغب: الغل والغلول تدرع الخيانة والعداوة؛ لأن الغلالة اسم ما يلبس بين الشعار والدثار، وتستعار للدرع كما تستعار الدرع لها.

ملحقات بالآيات من بعض أحكام الصرف نسيناها أولاً

﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾: الياء فيه منقلبة عن الواو؛ لأن مفرده: دار، أصله دور، قلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ بدليل تصغيره على دويرة، ثم حمل الجمع على المفرد في الإعلال، فأعل الواو بقلبه ياء لما وقع بعد كسرة وقبل ألف. ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾: فيه إعلال بالإبدال أصله: الجلاو، أبدلت الواو همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: الياء فيه مبدلة من (واو) إن قلنا: إنه من الدنو بمعنى القرب لقرب زوالها أو أصلية إن قلنا إنه من الدنيء؛ لدناءتها وخستها عند الله تعالى. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾ أصله: شاققوا، سكنت القاف الأولى وأدغمت في الثانية، وكذلك القول في: ﴿يُشَآقِّ﴾ أصله: يشاقق.

﴿أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾: ﴿قَآئِمَةً﴾: فيه إعلال بالإبدال، وأصله: قاومة، أبدلت الواو همزة حملاً للوصف في الإعلال على فعله قام، حيث أعل بقلب الواو ألفاً أصل قام قوم. ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أصله: أفيأ، بوزن أفعل، نقلت حركة الياء إلى الفاء، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ فيه إعلالان، لأن أصله: أأتيكم، أبدلت الهمزة

الساكنة ألفاً حرف مد مجانساً لحركة الأولى، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.
﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾أصله: نهيكم، بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.
﴿فَٱنتَهُواْ﴾ أصله: فانتهيوا، أمر من انتهى الخماسي، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت.. حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الهاء لمناسبة الواو.
﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أصله: يبتغيون، بوزن يفتعلون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت للتخفيف، فلما سكنت.. التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الغين لمناسبة الواو.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: طباق السلب في قوله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾. إن قلنا: إن ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ خبر مقدم، و﴿حُصُونُهُم﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿أَنَّهُم﴾. فإن تقديم المسند على المسند إليه يفيد قصر المسند إليه على المسند، فإن معنى قولك: (قائم زيد) أن زيداً مقصور على القيام لا يتجاوزه إلى القعود، وكذا معنى الآية أن حصونهم ليس لها صفة غير المانعية.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وبين ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾؛ لأن القذف حقيقة في الرمي البعيد، فاستعير لإلقاء الرعب وإثباته في قلوبهم.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن إسناد تخريب المؤمنين إليهم لما أنهم تسببوا في ذلك، فكأنهم كلفوهم إياه وأمروهم به.

ومنها: الطباق بين القطع والترك في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا

﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ لأن فيه حذف المعطوف عليه؛ فإن أصل الكلام: ليعز المؤمنين وليخزي الفاسقين.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾. وهو إعادة عين العبارة الأولى لزيادة التقرير.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾. فإن المراد: قرى بني النضير، ومقتضى السياق أن يقال: منهم، ولكنه أظهر للإشعار بشمول ما لعقاراتهم.

ومنها: الفصل في هذه الآية، أعني قوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾. والفصل عند علماء المعاني: ترك عطف جملة على أخرى. وضده الوصل، وهو: عطف بعض الجمل على بعض. وهذا الباب أغمض أبواب علم المعاني، حتى قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل والوصل. قال:

الْفَصْلُ تَرْكُ عَطْفِ جُمْلَةٍ أَتَتْ   مِنْ بَعْدِ أُخْرَى عَكْسَ وَصْلٍ قَدْ ثَبَتْ

ولكل منهما مواضع نلخصها فيما يلي:

مواضع الفصل: يجب الفصل في خمسة مواضع:

١ ـ أن يكون بين الجملتين اتحاد تام، بأن تكون الثانية بدلاً من الأولى؛ كالآية التي نحن بصددها، أو بياناً لها، نحو: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾، أو مؤكدة لها، نحو: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾. ويقال في هذا الموضع: إن بين الجملتين كمال الاتصال.

٢ ـ أن يكون بين الجملتين تباين تام؛ بأن تختلفا خبراً، وإنشاء، كقوله:

لاَ تَسْأَلِ ٱلْمَرْءَ عَنْ خَلاَئِقِهِ   فِيْ وَجْهِهِ شَاهِدٌ يُغْنِي عَنِ ٱلْخَبَرِ

٣ ـ كون الجملة الثانية جواباً عن سؤال نشأ من الجملة الأولى، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

٤ ـ أن تسبق جملة بجملتين يصح عطفها على إحداهما لوجود المناسبة، وفي عطفها على الأخرى فساد، فيترك العطف دفعاً للوهم، كقوله:

وَتَـظُـنُّ سَـلْـمَـىٰ أَنَّـنِـي أَبْـغِـيْ بِـهَـا   بَـدَلاً أَرَاهَـا فِـيْ الـضَّـلاَلِ تَـهِـيْـمُ

٥ ـ أن لا يقصد تشريك الجملتين في الحكم لقيام مانع، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ فجملة ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ لا يصح عطفها على ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ لاقتضائه أنه من مقولهم، ولا على جملة ﴿قَالُوٓا﴾ لاقتضائه أن استهزاء الله بهم مقيد بحال خلوهم إلى شياطينهم.

وللوصل مواضع كثيرة أيضاً مذكورة في كتب المعاني، ليس هذا الكتاب موضعها، فراجعها إن أردت الخوض فيها.

ومنها: الترقي في ذكر حال المهاجرين من العالي إلى الأعلى في قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، فإن رضوان الله أكبر من عطاء الدنيا.

ومنها: الإتيان بضمير الفصل في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ لإفادة الحصر، فكأن الصدق مقصور عليهم لكمال آثار صدقهم.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾. شبه الإيمان المتمكن في نفوسهم بمنزل ومستقر للإنسان نزل فيه وتمكن منه حتى صار منزلاً له، وهو من لطيف الاستعارة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ
ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا
يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ
تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ
ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ
إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ
فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ
﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ
هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ
ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ
ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى(١) لما ذكر ما حدث لبني النضير من الاستسلام خوفاً ورهبةً لما قذفه في قلوبهم من الرعب، ثم ذكر مصارف الفيء التي تقدمت.. أردفه بذكر ما حصل من مناصحة المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول، ورفقته لأولئك اليهود، وتشجيعهم لهم على الدفاع عن ديارهم، ومحاربتهم رسول الله ـ ﷺ ـ، بما قصه الله علينا وفصله أتم تفصيل ليكون في ذلك عبرة لنا. وإنا لنشاهد كل يوم أن

---

(١) المراغي.

الناس يضل بعضهم بعضاً ويغوونهم ثم يتركونهم في حيرة من أمرهم، لا يجدون لهم مخلصاً مما وقعوا فيه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر المضلين من المنافقين، وبين أن ما يقولون غير ما يبطنون، وأن مثلهم كمثل الشيطان في الإغواء والإضلال، ثم أعقبه بذكر الضالين من بني النضير، وكيف خدعوا بتلك الوعود الخلابة التي كانت عليهم وبالاً ونكالاً، وكان فيها سوء حالهم في دنياهم ودِينهم.. شرع ينصح المؤمنين بلزوم التقوى، وأن يعملوا في دنياهم ما ينفعهم في أخراهم حتى ينالوا الثواب العظيم والنعيم المقيم، وأن لا ينسوا حقوق الله فيجعل الله الران على قلوبهم، فلا يقدموا لأنفسهم ما به رشادهم وفلاحهم.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فرق المضلين من المنافقين والضالين من اليهود وغيرهم، وأمر عباده المؤمنين بالتقوى استعداداً ليوم القيامة.. ذكر هنا أن لهم مرشداً عظيماً، وإماماً هادياً؛ هو القرآن الذي يجب أن تخشع لهيبته القلوب، وتتصدع لدى سماع عظاته الأفئدة؛ لما فيه من وعد ووعيد، وبشارة وإنذار، وحكم وأحكام، فلو أنا ألهمنا الجبل عقلاً وفهمه وتدبر ما فيه.. لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف بكم أيها البشر لا تلين قلوبكم، ولا تخشع، ولا تتصدع من خشيته؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟. وبعد أن وصف القرآن بالعظم أتبعه بوصف عظمة المنزل للقرآن ذي الأسماء الحسنى الذي يخضع له ما في السماوات والأرض، وينقادون لحكمه وأمره ونهيه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه ابن إسحاق، وابن المنذر، وأبو نعيم عن ابن عباس، أنه قال: نزلت هذه الآيات في رهط من بني عوف، منهم: عبد الله بن أبي ابن سلول. ووديعة بن مالك وسويد وداعس، بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لا نسلمكم، وإن قوتلتم.. قاتلنا معكم، وإن أخرجتم.. خرجنا معكم، فتربصوا ذلك

من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله - ﷺ - أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة، ففعل، فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعير فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام.

التفسير وأوجه القراءة

ولما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاثة من المؤمنين.. ذكر ما جرى بين المنافقين واليهود من المقاولة الكاذبة والأحوال الفاسدة؛ لتعجيب المؤمنين من حالهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والخطاب لرسول الله - ﷺ -، أو لكل من يصلح له؛ أي: ألم تنظر يا محمد، أو أيها المخاطب - ﴿إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾؛ أي: إلى أقوالهم الكاذبة، ومواعيدهم العاطلة، وأحوالهم الفاسدة، وهم: عبد الله بن أبيّ وأصحابه. وجملة قوله: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ مستأنفة لبيان المتعجب منه. والتعبير[1] بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية أو للدلالة على الاستمرار. والمراد بإخوانهم: بنو النضير، وبأخوَّتهم: إما توافقهم في الكفر، فإن الكفر ملة واحدة وإن اختلفت أنواعه. و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمُ﴾ هي لام التبليغ وفي قوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ موطئة للقسم. وهي اللام الداخلة على حرف الشرط بعد تمام القسم ظاهراً، أو مقدراً ليؤذن أن الجواب له لا للشرط، وقد تدخل على غير الشرط.

والمعنى: يقولون لهم: والله لئن أخرجتم.. أيها الإخوان.. من داركم وقراركم قسراً بإخراج محمد وأصحابه إياكم منها ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ ألبتة، ونذهبن في صحبتكم أينما ذهبتم لتمام المحبة بيننا وبينكم. وهو جواب القسم، وكررت اللام للتأكيد، وجواب الشرط مضمر. ولما كان جواب القسم وجواب الشرط متماثلين.. اقتصر على جواب القسم، وأضمر جواب الشرط، وجعل المذكور جواباً للقسم بسعة. وكذا قوله: ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾، وقوله: ﴿لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ كل واحد منهما جواب القسم؛ ولذلك رفعت الأفعال ولم تجزم، وحذف جواب الشرط

(١) روح البيان.

لدلالة جواب القسم عليه. ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾؛ أي: في شأنكم. وهو[1] معطوف على جملة ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾، وكذا قوله: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾. فمقولهم ثلاث جمل. ﴿أَحَدًا﴾ يمنعنا من الخروج معكم من محمد وأصحابه ﴿أَبَدًا﴾ وإن طال الزمان. وهو ظرف للنفي لا للمنفي، ونصبه على الظرفية، وهو[2] لاستغراق المستقبل، كما أن الأزل لاستغراق الماضي. ولاستعمالهما في طول الزمانين جداً قد يضافان إلى جمعهما، فيقال: أبد الآباد وأزل الآزال، وأما السرمد: فلاستغراق الماضي والمستقبل، يعني: لاستمرار الوجود لا إلى نهاية في جانبهما.

ثم لما وعدوهم بالخروج معهم.. وعدوهم بالنصرة لهم، فقالوا: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾؛ أي: قاتلكم محمد وأصحابه، حذفت منه اللام الموطئة. ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾؛ أي: لنعاوننكم على عدوكم، ولا نخذلكم. ثم كذبهم سبحانه، فقال: ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه ﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في مواعيدهم المؤكدة بالأيمان الفاجرة، من الخروج معهم والنصرة لهم.

ثم لما أجمل كذبهم فيما وعدوا به.. فصّل ما كذبوا فيه، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾ قهراً وإذلالاً ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ وهذا مع ما بعده تكذيب لهم في كل وا-تد من أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم في الكل على الإجمال بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمر كذلك، فإن ابن أبيّ وأصحابه أرسلوا إلى بني النضير، وذلك سراً ثم أخلفوهم، يعني: أن ابن أبيّ أرسل إليهم: لا تخرجوا من دياركم، وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون حصنكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان. فطمع بنو النضير فيما قاله اللعين، وهو جالس في بيته، حتى قال أحد سادات بني النضير - وهو سلاّم بن مشكم - لحيي بن أخطب الذي كان هو المتولي لأمر بني النضير: والله يا حيي! إن قول ابن أبيّ لباطل وليس بشيء، وإنما يريد أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمداً، فيجلس في بيته ويتركك. فقال حيي: نأبى إلا عدواة محمد، وإلا قتاله. فقال سلام: فهو والله جلاؤنا من أرضنا، وذهاب أموالنا وشرفنا، وسبي ذرارينا مع قتل مقاتلينا. فكان ما كان كما سبق في

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

أول السورة.

وفيه حجة بيّنة لصحة النبوة وإعجاز القرآن، أما الأول: فلأنه أخبر عما سيقع فوقع كما أخبر؛ وذلك لأنّ نزول الآية مقدم على الواقعة. وعليه يدل النظم، فإن كلمة ﴿إن﴾ للاستقبال. وأما الثاني: فمن حيث الإخبار عن الغيب.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على سبيل الفرض والتقدير؛ أي: لو قدر وجود نصرهم إياهم؛ لأن ما نفاه الله تعالى لا يجوز وجوده. قال الزجاج: معناه: لو قصدوا نصر اليهود ﴿لَيُوَلُّنَّ﴾ المنافقون ﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾؛ أي: الأقفاء منهزمين فارين. جمع دبر، ودبر الشيء خلاف القُبل؛ أي: الخلف. وتولية الأدبار كناية عن الانهزام الملزوم لتولية الأدبار. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ أي: المنافقون بعد ذلك؛ أي: يهلكهم الله تعالى، ولا ينفعهم نفاقهم؛ لظهور كفرهم بنصرهم اليهود، أو لينهزمن اليهود ثم لا تنفعهم نصرة المنافقين.

وفي الآية تنبيه على أن من عصى الله ورسوله وخالف الأمر.. فهو مقهور في الدنيا والآخرة وإن كان سلطاناً ذا منعة، وما يقع أحياناً من الفرصة فاستدراج، وغايته إلى الخذلان.

والحاصل(١): أن المراد من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا...﴾ إلخ.. تعجيب المخاطب من حال المحدث عنه، وأن أمره غاية في الغرابة، وموضع للدهشة والحيرة.

فهؤلاء قوم من منافقي المدينة لهم أقوال تخالف ما يبطنون، منهم: عبد الله بن أبيّ وشيعته، رأوا رسول الله ـ ﷺ ـ يحاصر بني النضير ويقاتلهم، فأرسلوا إليهم يقولون لهم: إنا قادمون لمساعدتكم بخيلنا ورجلنا، ولا نسلمكم لمحمد أبداً، فجدوا في قتالهم ولا تهنوا في الدفاع عن دياركم وأموالكم، حتى إذا اشتد الحصار وأوغل المسلمون في ديارهم، وجدّوا في تحريق نخيلهم وهدم بيوتهم.. رأى بنو النضير أن تلك الوعود ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾. وأنهم بين أمرين:

---

(١) المراغي.

١ ـ الاستسلام، وقبول حكم محمد عليهم.

٢ ـ فناؤهم، وتخريب ديارهم.

وقد أدخل الله الرعب في قلوبهم فاختاروا الدنية، وقبلوا الجلاء عن الديار، واستبان لهم أن المنافقين كانوا كاذبين لا عهود لهم، ولا وعود، كما هو دأبهم في كل زمان ومكان.

وبعد أن كذبهم على سبيل الإجمال.. كذبهم تفصيلاً ليزيد تعجيب المخاطب من حالهم، وليبين لهم مبلغ خبث طويتهم. وشدة جبنهم وفزعهم من القتال، وأن هذه الوعود أقوال كاذبة لاكتها ألسنتهم، وقلوبهم منها براء، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ...﴾ إلخ.

أي: والله! لئن أخرج بنو النضير من ديارهم فأجلوا عنها.. لا يخرج معهم المنافقون الذين وعدوهم بالخروج معهم من ديارهم ولئن قاتلهم محمد ـ ﷺ ـ.. لا ينصرونهم، ولئن نصروهم.. ليولن الأدبار منهزمين عن محمد وأصحابه، هاربين منهم خاذلين لهم، ثم لا ينصر الله بني النضير.

وهذا إخبار بالغيب، ودليل من دلائل النبوة، ووجه من وجوه الإعجاز؛ فإنه قد كان الأمر كما أخبر الله قبل وقوعه.

والخلاصة: أن بني النضير أخرجوا فلم يخرج معهم المنافقون، وقوتلوا فما نصروهم. ولو كانوا قد نصروهم.. لتركوا النصرة،وانهزموا، وتركوا أولئك اليهود في أيدي الأعداء.

ثم ذكر السبب في عدم نصرتهم لليهود والدخول مع المؤمنين في قتال فقال: ﴿لَأَنتُمْ﴾ يا معشر المسلمين ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾؛ أي: مرهوبية ﴿فِى صُدُورِهِم﴾؛ أي: في قلوب المنافقين، أو في صدور اليهود، أو صدور الجميع ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من رهبة الله، بمعنى: مرهوبيته. والرهبة: مخافة مع تحزّن واضطراب وهي هنا مصدر من المبنيّ للمفعول، وهو رهب؛ أي: أشد مرهوبية. وذلك لأن ﴿أنتم﴾ خطاب للمسلمين، والخوف ليس واقعاً منهم بل من المنافقين، فالمخاطبون مرهوبون غير خائفين. وهذه الجملة في المعنى كالتعليل لقوله: ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ كأنه قال: إنهم لا يقدرون على مقاتلتكم، لأنكم أشد رهبة... إلخ.

قال في «الكشاف»: قوله: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ دال على نفاقهم؛ يعني: أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله، وأنتم أهيب في صدورهم من الله.

فإن قلت: كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشد.

قلت: معناه: أن رهبتهم في السرّ منكم أشد من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم، وكانوا يظهرون رهبة شديدة من الله.

يقول الفقير: إنما رهبوا من المؤمنين لظهور نور الله فيهم، فكما أن الظلمة تنفر من النور ولا تقاومه، فكذا أهل الظلمة ينفر من أهل النور ولا يقوم معه. ومرادنا بالظلمة: ظلمة الشرك، والكفر، والرياء والنفاق. وبالنور: نور التوحيد، والإيمان، والإخلاص، والتقوى. ولذلك قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، حيث إن الله تعالى أثبت معيته لأهل التقوى، فنصرهم على مخالفيهم.

ثم ذكر سبب الرهبة منهم من دون الله، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من كون رهبتهم منكم أشد من رهبة الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً من الأشياء حتى يعلموا عظمة الله تعالى، فيخشوه حق خشيته، ولو كان لهم فقه.. لعلموا أن الله سبحانه هو الذي سلطكم عليهم، فهو أحق بالرهبة منه دونكم.

وفي «فتح الرحمٰن»: ختمه هنا بـ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ وفيما بعد بـ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأن الأول متصل بقوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: لأنهم يفقهون ظاهر الشيء بدون باطنه، والفقه: معرفة الظاهر والباطن، فناسب نفي الفقه عنهم. والثاني متصل بقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ...﴾ إلخ؛ أي: لو عقلوا.. لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا، فناسب نفي العقل عنهم، انتهى.

وفيه تنبيه على أن من علامات الفقه[1]: أن يكون خوف العبد من الله أشد من خوفه من الغير، وتقبيح لحال أكثر الناس على ما ترى وتشاهد. وعنه ـ ﷺ ـ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

قال بعضهم: لا ينقص الكمل من الرجال خوفهم من سبع أو ظالم أو نحو ذلك؛ لأن الجزع في النشأة الإنسانية أصلي، فالنفوس أبداً مجبولة على الخوف،

(١) روح البيان.

ولذة الوجود بعد العدم لا يعدلها لذة، وتوهم العدم العيني له ألم شديد في النفوس، لا يعرف قدره إلا العلماء.

ثم أكد جبن اليهود والمنافقين وشديد خوفهم منهم، فقال: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾؛ أي: لا يقاتلكم أيها المسلمون اليهود والمنافقون، بمعنى: لا يقدرون على قتالكم، ولا يجترئون عليه. ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين متفقين في موطن من المواطن ﴿إِلَّا فِي قُرًى﴾: جمع قرية، وهي مجتمع الناس للتوطن ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾؛ أي: محكمة بالدروب والخنادق، وما أشبه ذلك؛ كالسور. قال الراغب؛ أي: مجعولة بالإحكام، كالحصون. والدروب: جمع درب، وهو الباب الكبير. ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾؛ أي: من خلف حيطان، دون أن يحضروا لكم ويبارزوكم؛ أي: يشافهوكم بالمحاربة لفرط رهبتهم. جمع جدار، وهو كالحائط، إلا أن الحائط يقال اعتباراً بالإحاطة بالمكان، والجدار يقال اعتباراً بالنتوّ والارتفاع؛ ولذا قيل: جدر الشجر، إذا خرج ورقه، كأنه حمص، وجدر الصبي، إذا خرج جدريه، تشبيهاً بجدر الشجر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿جُدُرٍۭ﴾ بضمتين، جمع جدار. وأبو رجاء والحسن وابن وثاب بإسكان الدال تخفيفاً. ورويت عن ابن كثير وعاصم والأعمش. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير وكثير من المكيين ﴿جدار﴾ بالألف وكسر الجيم. وقرأ كثير من المكيين وهارون عن ابن كثير ﴿جَدْر﴾ بفتح الجيم وسكون الدال. وقال ابن عطية: ومعناه: أصل بنيان، كالسور ونحوه.

والمعنى[2]: أي إن هؤلاء اليهود والمنافقين قد ألقى الله الرعب في قلوبهم، فلا يواجهونكم بقتال مجتمعين؛ لأن الخوف والهلع بلغا منهم كل مبلغ، بل يقاتلونكم في قرى محصنة بالدروب والخنادق ونحوها، ومن وراء الجدر والحيطان وهم محاصرون.

ثم بين أن من أسباب هذا الجبن والخوف: التخاذل وعدم الاتحاد حين اشتداد الخطوب، فقال: ﴿بَأْسُهُم﴾؛ أي: قتالهم فيما ﴿بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ إذا قاتلوا قومهم؛ أي: بعضهم غليظ فظّ على بعض وقلوبهم مختلفة ونياتهم متباينة. قال السدي: المراد: اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وقال مجاهد: بأسهم بينهم شديد بالكلام والوعيد ليفعلن كذا.

والمعنى: أنهم إذا انفردوا.. نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس، وإذا لاقوا عدواً.. ذلوا وخضعوا وانهزموا. والأول أولى؛ لقوله تعالى فيما بعد: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ فإنه يدل على أن اجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن.

وعبارة «الروح»: قوله: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾: استئناف[1] سيق لبيان أن ما ذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم في أنفسهم، فإن بأسهم وحربهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، وإنما ضعفهم وجبنهم بالنسبة إليكم بما قذف الله في قلوبهم من الرعب. وأيضاً: إن الشجاع يجبن والعزيز يذل إذا حارب الله ورسوله.

قال في «كشف الأسرار»: إذا أراد الله نصرة قوم.. استأسد أرنبهم، وإذا أراد الله قهر قوم.. استرنب أسدهم. اهـ.

وإن قيل: إن البأس شدة الحرب، فما الحاجة إلى الحكم عليه بـ﴿شَدِيدٌ﴾؟

أجيب: بأنه أريد من البأس هنا مطلق الحرب، فأخبر بشدته لتصريح الشدة، أو أريد المبالغة في إثبات الشدة لبأسهم مبالغة في شدة بأس المؤمنين، لغلبته على بأسهم بتأييد الله ونصرته لهم عليهم.

والظرف متعلق بـ﴿شَدِيدٌ﴾، والتقديم للحصر. ويجوز أن يكون متعلقاً بمقدر صفة أو حالاً؛ أي: بأسهم الواقع بينهم، أو واقعاً بينهم. فقولهم: الظرف الواقع بعد المعرفة يكون حالاً ألبتة، ليس بمرضي، فإن الأمرين جائزان، بل قد ترجح الصفة.

والمعنى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾؛ أي: بعضهم لبعض عدو، فلا يمكن أن يقاتلوا عدواً لهم، وهم في تخاذل وانحلال، ومن ثم استكانوا وذلوا.

وفي هذا[2]: عبرة للمسلمين في كل زمان ومكان؛ فإن الدول الإسلامية ما هدد كيانها وأضعفها أمام أعدائها إلا تخاذلها أفراداً وجماعات وانفراط عقد وحدتها، ومن ثم طمع الأعداء في بلادهم، ودخلوها فاتحين، وأذاقوا أهلها كؤوس

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الذل والهوان، وفرقوهم شذر مذر، وجعلوهم عبيداً أذلاء في بلادهم، والتهموا ثرواتهم، ولم يبقوا لهم إلا النفاية وفتات الموائد، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وعسى الله أن يأتي بالفتح ونصر من عنده، فيستيقظ المسلمون من سباتهم، ويثوبوا إلى رشدهم، فيستعيدوا سابق مجدهم، وتدول الدولة لهم:

فَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ عَلَيْنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

ثم زاد ما سلف توكيداً، فقال: ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ يا محمد، أو يا كلّ من يسمع ويعقل ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين متفقين، ذوي ألفة واتحاد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾؛ أي: والحال أن قلوبهم متفرقة لا ألفة بينها، وهم بخلاف من وصفهم الله بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾. جمع شتيت، كمرض ومريض، وهذا التخالف هو البأس السابق الذي بينهم الموصوف بالشدة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿شَتَّىٰ﴾ بألف التأنيث، ومبشر بن عبيد منوناً، جعلها ألف الإلحاق وعبد الله ﴿وقلوبهم أشت﴾؛ أي: أشد تفرقاً. ومما ورد في استعمال ﴿شَتَّىٰ﴾ في كلام العرب قول الشاعر:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فِتْيَةً شَقَّتِ الْعَصَا ... هِيَ الْيَوْمَ شَتَّى وَهْيَ أَمْسِ جَمِيْعُ

والمعنى: أي إنك أيها الرسول إذا رأيتهم مجتمعين.. خلتهم متفقين وهو مختلفون غاية الاختلاف لما بينهم من إحن وعداوات. فهم لا يتعاضدون ولا يتساندون ولا يرمون عن قوس واحدة.

وفي هذا: تشجيع للمؤمنين على قتالهم، وحث للعزائم الصادقة على حربهم؛ فإن المقاتل متى عرف ضعف خصمه.. ازداد نشاطاً، وازدادت حميته، وكل ذلك من أسباب نصرته عليه.

تنبيه[2]: على أن اللائق بالمؤمن الاتفاق والاتحاد صورة ومعنى، كما كان المؤمنون متفقين في عهد النبي - ﷺ -. ويقال: الاتفاق قوة، والافتراق هلكة، والعدو إبليس يظفر في الافتراق بمراده. قال سهل: أهل الحق مجتمعون أبداً موافقون، وإن تفرقوا بالأبدان وتباينوا بالظواهر، وأهل الباطل متفرقون أبداً وإن

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

اجتمعوا بالأبدان وتوافقوا بالظواهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿تَحْسَبُهُمْ ...﴾ إلخ.

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي ما ذكر من تشتت قلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لا يعقلون شيئاً حتى يعرفوا الحق، ويتبعوه وتطمئن به قلوبهم، وتتحد به كلمتهم، ويرموا عن قوس واحدة، فيقعون في تيه الضلال، وتشتت قلوبهم حسب تشتت طرقه وتفرق فنونه، وتشتت القلوب يوهن قواهم؛ لأن صلاح القلب يؤدي إلى صلاح الجسد، وفساده إلى فساده. كما قالوا: كل إناء يترشح بما فيه.

واعلم(١): أن الله تعالى ذم الكفار في القرآن بكل من: عدم الفقه والعلم والعقل. قال الراغب: الفقه هو: التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد. فهو أخصّ من العلم. والعلم: إدراك الشيء بحقيقته، وهو نظري وعملي، وأيضاً عقلي وسمعيّ. والعقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوى: عقل.

والمعنى(٢): أي ذلك التفرق من جراء أن أفئدتهم هواء، وأنهم لا يفقهون سر نظم هذه الحياة، ولا يعلمون أن الوحدة هي سر النجاح، ومن ثم تخاذلوا وتفرقت كلمتهم، واختلف جمعهم، واستهان بهم عدوهم، ودارت عليهم الدائرة.

ثم أرشد إلى أن هؤلاء ليسوا ببدع في الكافرين بل قد سبقهم غيرهم ممن كان حقه أن يكون عبرة لهم، فقال: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: مثل اليهود من بني النضير كائن كمثل الذين من قبلهم؛ أي: صفتهم الغريبة وحالهم العجيبة، وهي ما وقع لهم من الإجلاء والذل كمثل وصفة وحال المشركين من أهل مكة فيما وقع لهم أيضاً يوم بدر من الهزيمة والأسر والقتل.

وقوله: ﴿قَرِيبًا﴾: ظرف زمان متعلق بالاستقرار المحذوف الذي تعلق به ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾. ولك أن تعلقه بـ﴿ذَاقُوا﴾ المذكور بعده. وعلقه الزمخشري بمضاف مقدر في الخبر؛ أي: كوجود وحصول ووقوع مثل أهل بدر قريباً.

أي: مثل اليهود من بني النضير فيما وقع لهم من الإجلاء والذل والمهانة

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

كمثل أهل مكة فيما وقع لهم قريباً يوم بدر من الهزيمة والأسر والقتل، وليس قوله ببعيد.

﴿ذَاقُوا﴾؛ أي: ذاق الذين من قبلهم، وهذا بيان لمثل الذين من قبلهم؛ أي: ذاقوا في الدنيا ببدر ﴿وَبَالَ﴾؛ أي: عقوبة ﴿أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: كفرهم، وهو عذاب القتل والأسر ببدر. وكانت غزوة بدر في رمضان من السنة الثانية من الهجرة قبل غزوة بني النضير، وكانت غزوة بني النضير في ربيع الأول من السنة الرابعة، وكان ما بينهما نحو سنة ونصف. ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة؛ أي: للذين من قبلهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم لا يقادر قدره حيث يكون ما في الدنيا بالنسبة إليه كالذوق بالنسبة إلى الأكل. وفي «الفتوحات»: والمقصود تشبيه حال اليهود، وهي ما حصل لهم في الدنيا من الوبال، وما سيحصل لهم في الآخرة من العذاب بحال المشركين في هذين الأمرين.

والخلاصة: أن حال هؤلاء كحال أولئك في الدنيا والآخرة، ولكن لا على أن حال كلهم كحالهم، بل حال بعضهم الذين هم اليهود كذلك.

وأما حال المنافقين: فهو ما تعلق به قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ فإنه خبر ثان[1] للمبتدأ المقدر، مبين لحالهم، متضمن لحال أخرى لليهود. وهي اغترارهم بمقالة المنافقين أولاً، وخيبتهم آخراً. وقد أجمل في النظم الكريم؛ حيث أسند كل من الخبرين إلى المقدر المضاف إلى ضمير الفريقين من غير تعيين ما أسند إليه بِخصوصه، ثقة بأن السامع يرد كلاً من المثلين إلى ما يماثله، كأنه قيل: مثل اليهود في حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم، ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما حكي عنهم ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾، ﴿إِذْ قَالَ﴾؛ أي: الشيطان ﴿لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾. وقول الشيطان مجاز عن الإغواء والإغراء؛ أي: إذ أغراه على الكفر إغراء الآمر المأمور على المأمور به. ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ الإنسان المذكور إطاعة لإغوائه وتبعاً لأهوائه ﴿قَالَ﴾ الشيطان: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾؛ أي: بعيد عن عملك وأملك غير راض بكفرك وشركك.

---

(١) روح البيان.

قال العلماء: إن أريد بالإنسان الجنس فهذا التبرّي من الشيطان يكون يوم القيامة، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وهذه الجملة تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره، وإن أريد به أبو جهل.. على كون اللام للعهد.. فمعنى قوله: ﴿ٱكْفُرْ﴾: دم على الكفر، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ إلخ، عبارة عن قول إبليس له يوم بدر: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾. يعني: لما قاتلوا ورأى إبليس جبريل مع محمد عليهما السلام.. خافه، وتبرأ منهم، وانهزم. قال بعضهم: هذا من كذبات إبليس، وإنه لو خاف الله حقيقة وقال صدقاً.. لما استمر على ما أدى إلى الخوف بعد ذلك، كيف وقد طلب الإنظار إلى البعث للإغواء؟!.

وقال أبو الليث: قال ذلك على وجه الاستهزاء، ولا بعد أن يقول له: ليوقعه في الحسرة والحرقة، انتهى.

يقول الفقير: الظاهر أن الشيطان يستشعر في بعض المواد جلال الله تعالى وعظمته، فيخافه حذراً من المؤاخذة العاجلة وإن كان منظراً، ولا شك أن كل أحد يخاف السطوة الإلٰهية عند ظهور أماراتها، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. على أن نحو قاطع الطريق وقاتل النفس ربما فعل ما فعل، وهو خائف من الأخذ.

وقيل: المراد بالإنسان: هو عابد كان في بني إسرائيل، حمله الشيطان على الكفر فأطاعه. والجمهور على أن الشيطان والإنسان اسما جنس يورطه في المعصية ثم يفر منه. وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنِّى﴾ بسكون الياء. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتحها.

والمعنى: أي مثل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود من بني النضير النصرة إن قوتلوا أو الخروج معهم إن أخرجوا، ومثل بني النضير في غرورهم بوعودهم

---

(١) الشوكاني.

وإسلامهم إياهم في أشد حاجتهم إليهم وإلى نصرتهم.. كمثل الشيطان الذي غر إنساناً ووعده النصرة عند الحاجة إليه إذا هو كفر بالله، واتبعه وأطاعه، فلما احتاج إلى نصرته.. أسلمه وتبرأ منه، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. إذا أنا نصرتك لئلا يشركني معك في العذاب.

والخلاصة: أن مثل اليهود في اغترارهم بمن وعدوهم النصرة من المنافقين بقولهم لهم: ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾، ولما جد الجد واشتد الحصار والقتال.. تخلوا عنهم وأسلموا للهلكة، كمثل الشيطان إذ سول للإنسان الكفر والعصيان، فلما دخل فيه.. تبرأ منه وتنصل وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. ولا تجد مثلاً أشد وقعاً على النفوس، ولا أنكى جرحاً في القلوب من هذا المثل لمن اعتبر وادكر، ولكنهم قوم لا يعقلون.

ثم ذكر عاقبة الناصح والمنصوح له، فقال: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾؛ أي: عاقبة الشيطان وذلك الإنسان. قرأ الجمهور بنصب ﴿عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ على أنه خبر ﴿كان﴾ مقدم على اسمها، واسمها قوله: ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾. وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد وسليم بن أرقم برفعه، على أنه اسم ﴿كان﴾، والخبر ما بعده. وهو أوضح في المعنى.

والمعنى: فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران إلى النار حال كونهما ﴿خَٰلِدَيۡنِ﴾؛ أي: ماكثين ﴿فِيهَاۚ﴾؛ أي: في النار مكثاً مؤبداً لا يبرحان عنها. وهو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور. وقرأ الجمهور ﴿خَٰلِدَيۡنِ﴾ بالياء نصباً على الحال. وقرأ عبد الله وزيد بن علي والأعمش، وابن أبي عبلة ﴿خالدان﴾ بالألف رفعاً على أنه خبر ﴿أن﴾. والظرف لغو متعلق به. ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: الخلود في النار ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على الإطلاق دون هؤلاء خاصة.

والمعنى: أي فكان عاقبة الآمر بالكفر والداخل فيه الخلود في النار أبداً، وهكذا جزاء الظالمين لأنفسهم بالكفر، كيهود بني النضير والمنافقين الذين وعدوهم بالنصرة.

ثم رجع سبحانه وتعالى إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله، إيماناً خالصاً، ويقيناً صادقاً ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: اتقوا عقاب الله في كل ما تأتون، وما تذرون، فتحرزوا عن العصيان بالطاعة، وتجنبوا عن الكفران بالشكر، وتوقوا عن النسيان بالذكر، واحذروا عن الاحتجاب عنه بأفعالكم وصفاتكم بشهود أفعاله وصفاته في كل شيء.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله سبحانه، فافعلوا ما به أمر، واتركوا ما عنه نهى، وزجر، أو: اتقوا الله بفعل المأمورات، كما سيأتي مقابله.

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾؛ أي: ولتتفكر كل نفس - برة أو فاجرة - ولتبحث وتفتش ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾؛ أي: عما تقدمه ليوم القيامة من الأعمال الصالحة أو السيئة، فتختاره وتفعله؛ أي: لينظر أحدكم أي شيء يقدمه لنفسه من الأعمال، وليفكر فيه، وليحصله؛ أي: فليختر هل يقدم لها عملاً صالحاً ينجيها أو سيئاً يوبقها، فإن الدنيا دار الزراعة، والآخرة دار الحصاد، فلا تحصد في الآخرة إلا ما زرعته في الدنيا.

والمتبادر من معنى الغد أنه عبارة عن يوم بينك وبينه ليلة، ويطلق أيضاً على مطلق الزمان المستقبل كقوله:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ ٱلْيَوْمِ وَٱلأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنَّنِيْ عَنْ عِلْمِ مَا فِيْ غَدٍ عَمِي

وأطلق[1] هنا اسم الغد في قوله: ﴿لِغَدٍ﴾ على يوم القيامة تقريباً له؛ كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ فكأنه لقربه شبه بما ليس بينك وبينه إلا ليلة واحدة، أو لأن الدنيا - أي: زمانها - كيوم والآخرة كغده، لاختصاص كل منهما بأحكام وأحوال متشابهة وتعقيب الثاني للأول، فلفظ الغد حينئذٍ استعارة كما سيأتي. وفائدة تنكير النفس: إفادة أن الأنفس الناظرة في معادها قليلة جداً، كأنه قيل: ولتنظر نفس واحدة في ذلك، وأين تلك النفس؟

يقول الفقير[2]: إنما كانت الآخرة كالغد لأن الناس في الدنيا نيام، ولا انتباه إلا عند الموت الذي هو مقدمة القيامة كما ورد به الخبر، فكلٌ من الموت والقيامة كالصباح بالنسبة إلى الغافل، كما أن الغد صباح بالنسبة إلى النائم في الليل. ودل هذا على أن الدنيا ظلمانية والآخرة نورانية، انتهى.

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

وفائدة تنكير الغد تعظيمه، وتفخيمه وتهويله، كأنه قيل: لغد لا تعرف كل نفس كنه عظمته وغاية هوله، فالتنكير فيه للتعظيم، وفي النفس للتقليل أو للتعريض بغفلة كلهم عن هذا النظر الواجب. وأصله: غدو، حذفوا الواو بلا تعويض عنها كما سيأتي في مبحث التصريف.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلْتَنظُرْ﴾ أمراً، واللام ساكنة. وقرأ أبو حيوة، ويحيى بن الحارث بكسرها. وروي ذلك عن حفص عن عاصم. وقرأ الحسن بكسرها وفتح الراء، جعلها لام كي، ذكره في «البحر».

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى. كرره للتأكيد والاهتمام في شأن التقوى، وإشارة إلى أن اللائق بالعبد أن يكون كل أمره مسبوقاً بالتقوى ومختوماً بها. أو الأول في أداء الواجبات، كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل كما سبق، والثاني في ترك المحارم، كما يؤذن به الوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عالم بما تعملونه من المعاصي، فيجازيكم عليها يوم الجزاء.

والتقوى هو: التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك. وقال بعض الكبار: التقوى: وقاية النفس في الدنيا عن ترتب الضرر في الآخرة. فتقوى العامة عن ضرر الأفعال، وتقوى الخاصة عن ضرر الصفات، وتقوى أخص الخواص عن جميع ما سوى الله تعالى.

وفي الآية ترغيب في الأعمال الصالحة.

والمعنى[1]: أي ولتنظروا ماذا قدمتم لآخرتكم مما ينفعكم يوم الحساب والجزاء، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكنهم من توقع العذاب سكارى. واتقوا الله إنه خبير عليم بأحوالكم، لا يخفى عليه شيء من شؤونكم، فراقبوه في جليل أعمالكم، وحقيرها، واعلموا أنه سبحانه سيحاسبكم على النقير والقطمير، والقليل والكثير، ولا يفوته شيء من ذلك.

---

(١) المراغي.

ثم ضرب لهم الأمثال تحذيراً وإنذاراً، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ قرأ الجمهور[1]: ﴿لا تكونوا﴾ بتاء الخطاب، وأبو حيوة بياء الغيبة على سبيل الالتفات؛ أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ﴾؛ أي: كاليهود والمنافقين. فالمراد بالموصول[2]: المعهودون بمعونة المقام، أو الجنس كائناً من كان من الكفار، أمواتاً أو أحياء. ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ فيه حذف المضاف؛ أي: نسوا حقوقه تعالى، وما قدروه حق قدره، ولم يراعوا مواجب أموره ونواهيه حق رعايتها ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: جعلهم ناسين لها، فلم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها، فالمضي على أصله. أو أراهم يوم القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسهم، فالمضي باعتبار التحقق.

قال الراغب: النسيان: ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، أو عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره. وكل نسيان من الإنسان ذمّه الله به.. فهو ما كان أصله من تعمد وما عذر فيه، نحو: ما روي عن النبي - ﷺ -: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان». فهو ما لم يكن سببه منه. فقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ هو ما كان سببه عن تعمد منهم وتركه على طريق الإهانة. وإذا نسب ذلك إلى الله.. فهو تركه إياهم استهانة بهم مجازاة لما تركوه، كما قال في «اللباب»: قد يطلق النسيان على الترك ومنه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾؛ أي: تركوا طاعة الله ترك الناسي، فتركهم الله.

وقال بعض المفسرين: إن قيل: النسيان يكون بعد الذِّكر، وهو ضد الذِّكر، لأنه السهو الحاصل بعد حصول العِلم، فهل كان الكفار يذكرون حق الله ويعترفون بربوبيته حتى ينسوا بعد؟

أجيب: بأنهم اعترفوا وقالوا: بلى يوم الميثاق، ثم نسوا ذلك بعدما خلقوا، والمؤمنون اعترفوا بها بعد الخلق، كما اعترفوا قبله بهداية الله، وراعوا حقها قل أو كثر جلّ أو صغر، ثم إن قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا...﴾ إلخ، تنبيه على أن الإنسان بمعرفته لنفسه يعرف الله، فنسيانه هو من نسيانه لنفسه، كما قال في «فتح الرحمٰن»: لفظ هذه الآية على أنه من عرف نفسه ولم ينسها.. عرف ربه. وقد قال علي رضي

---

(1) البحر المحيط.
(2) روح البيان.

الله عنه: (اعرف نفسك تعرف ربك). وقال سهل: معنى الآية: نسوا الله عند الذنوب فأنساهم الله أنفسهم عند الاعتذار وطلب التوبة.

والخلاصة[1]: ولا يكن حالكم كحال قوم تركوا العمل بحقوق الله التي أوجبها على عباده، فران على قلوبهم، وأنساهم العمل الصالح الذي ينجيهم من عقابه، فضلوا ضلالاً بعيداً، فجازاهم بما هم له أهل وما هم له مستحقون جزاءً وفاقاً؛ لما دسّوا به أنفسهم وأوقعوها في المعاصي والآثام.

ومن ثم حكم عليهم بالهلاك، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الناسون المخذولون بالإنساء ﴿هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الفسوق والخروج عن طريق الطاعة، و﴿هم﴾ للحصر، فأفاد أن فسقهم كان بحيث أن فسق الغير كأنه ليس بفسق بالنسبة إليه. فالمراد بهم هنا: الكافرون لكن على المؤمن الغافل عن رعاية حق ربوبية الله ومراعاة حظ نفسه من السعادة الأبدية والقربة إلى جنابه تعالى خوف شديد وخطر عظيم.

والمعنى[2]: أي أولئك هم الذين خرجوا عن طاعة الله تعالى فاستحقوا عقابه يوم القيامة، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾.

ثم وازن بين من يعمل الحسنات ومن يجترم السيئات، فقال: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين نسوا الله، فاستحقوا الخلود في النار ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ الذين اتقوا الله، فاستحقوا الخلود في الجنة.

قال في «الإرشاد»[3]: لعل تقديم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبىء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم، فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصاناً وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد، لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص، وعليه قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ إلى غير ذلك من المواضع. وأما قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ فلعل تقديم

---

(١) المراغي. (٢) المراغي. (٣) أبو السعود.

الفاضل فيه لأن صلته ملكة والأعدام مسبوقة بملكاتها.

وقال بعضهم[1]: قدم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ لذكر الذين نسوا الله قبله، ولكثرة أهلها.

ولفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ باللام من أعلام جهنم، كالساعة للقيامة. ولذا كثيراً ما تذكر في مقابلة الجنة، كما في هذا المقام. وجاء في الشعر:

الْجَنَّةُ ٱلدَّارُ فَٱعْلَمْ إنْ عَمِلْتَ بِمَا ... يُرَضِي ٱلإلَهَ وَإِنِ فرّطْتَ فَٱلنَّارُ

هُمَا مَحَلاَّنِ مَا لِلنَّاسِ غَيْرُهُمَا ... فَٱنْظُرْ لِنَفْسِكَ مَاذَا أَنْتَ تَخْتَارُ

والصحبة في الأصل: اقتران الشيء بالشيء، في زمان ما، قل أو كثر. وبذلك يكون كل منهما صاحب الآخر. وإن كانت على المداومة والملازمة.. يكون كمال الصحبة، ويكون الصاحب المصاحب عرفاً، وقد يطلق على الطرفين حينئذٍ صاحب ومصاحب أيضاً. ومن ذلك يكنى عن الزوجة بالصاحبة. وقد يطلق الصاحب على المالك؛ لكثرة صحبته بمملوكه كما قيل له: الربّ؛ لوقوع تربية المالك على مملوكه، فيقال: صاحب المال كما يقال: رب المال. فإطلاق ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ و﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ على أهلهما إما باعتبار الصحبة الأبدية والاقتران الدائم، حتى لا يقال للعصاة المعذبين بالنار مقدار ما شاء الله تعالى: أصحاب النار. أو باعتبار الملك، مبالغة ورمزاً إلى أنهما جزاء لأهلهما، باعتبار كسبهما بأعمالهم الحسنة أو السيئة.

ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾، وقوله: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

والمعنى[2]: أي لا يستوي الذين نسوا الله فاستحقوا الخلود في النار، والذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود في الجنة.

ثم بين عدم استوائهما، فقال: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ بكل مطلوب الناجون من كل مكروه. وهو استئناف مبين لكيفية عدم الاستواء بين الفريقين.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

فالفوز: الظفر مع حصول السلامة، فهم أهل الكرامة في الدارين. وأصحاب النار هم أهل الهوان فيهما.

وفي هذا تنبيه[1] للناس بأنهم لفرط غفلتهم ومحبتهم العاجلة واتباع الشهوات.. كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار، وبين أصحابهما حتى احتاجوا إلى الإخبار بعدم الاستواء، كما تقول لمن يعق أباه: هو أبوك، تجعله بمنزلة من لا يعرفه، فتنبه بذلك على حق الأبوة الذي يقتضي البرّ والتعطف، فكذا نبه الله تعالى الناس بتذكير سوء حال أهل النار وحسن حال أهل الجنة، على الاعتبار والاحتراز عن الغفلة، ورفع الرأس عن المعاصي، والتحاشي من عدم المبالاة. وروي عن النبي - ﷺ -: «إن أدنى أهل الجنة منزلة: من ينظر إلى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله: من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم قرأ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾. وقال - ﷺ -: «إن أهون أهل النار عذاباً، من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً».

ولما فرغ سبحانه وتعالى من ذكر أهل الجنة وأهل النار، وبين عدم استوائهم في شيء من الأشياء.. ذكر تعظيم كتابه الكريم وأخبر عن جلالته وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وترق له الأفئدة، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ العظيم الشأن المنزل عليكم أيها الناس، المنطوي على فنون القوارع أو المنزل عليك يا محمد، أو على محمد، بحسب الالتفات في الخطاب. ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال، وهو كل وتد للأرض عظم وطال، كما سيأتي.

ثم إنه لا يلزم في الإشارة وجودُ جملة المشار إليه ذي الأبعاض المترتبة وجوداً، بل يكفي وجود بعض الإشارة حقيقة ووجود بعض آخر حكماً. ويحتمل أن يكون المشار إليه هنا الآية السابقة من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ. فإن لفظ القرآن كما يطلق على المجموع.. يطلق على البعض منه حقيقة، بالاشتراك، أو باللغة، أو مجازاً بالعلاقة، فيكون التذكير باعتبار تذكير المشار إليه.

---

(١) روح البيان.

﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ﴾؛ أي: لرأيت ذلك الجبل ـ يا محمد، أو يا من يتأتى منه الرؤية ـ مع كونه علماً في القسوة وعدم التأثر مما يصادمه. ﴿خَٰشِعٗا﴾؛ أي: خاضعاً ذليلاً. وهو حال من الضمير المنصوب في قوله: ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ﴾؛ لأنه من الرؤية البصرية. ﴿مُّتَصَدِّعٗا﴾؛ أي: متشققاً ﴿مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ سبحانه وخوفه أن يعصيه فيعاقبه.

أي[1]: من شأنه وعظمته، وجودة ألفاظه وقوة مبانيه، وبلاغته، واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب، أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض.. لرأيته ـ مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم ـ خاشعاً متصدعاً؛ أي: متشققاً من خشية الله سبحانه، حذراً وخوفاً من أن لا يؤدّي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله تعالى. وقرأ طلحة ﴿مصدعاً﴾ بإدغام التاء في الصاد.

والخلاصة[2]: لو ركب في الجبل عقل وشعور كما ركب فيكم أيها الناس، ثم أنزل عليه القرآن ووعد وأوعد حسب حالكم.. لخشع وخضع وتذلل وتصدع من خشية الله تعالى، حذراً من أن لا يؤدّي حق الله تعالى، في تعظيم القرآن والامتثال لما فيه من أمره ونهيه، والكافر المنكر أقسى منه، ولذا لا يتأثر أصلاً. قال العلماء: وهذا بيان وتمثيل وتصوير لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ، أريد به توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة تدبره فيه.

ويدل على هذا قوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ إشارة إلى هذا المثل المذكور هنا وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل؛ أي: هذا القول الغريب في بيان عظمة القرآن ودناءة حال الإنسان وبيان صفتهما العجيبة، وسائر الأمثال الواقعة في القرآن. فإن لفظ المثل حقيقة عرفية في القول السائر، ثم يستعار لكل أمر غريب وصفة عجيبة الشأن، تشبيهاً له بالقول السائر في الغرابة؛ لأنه لا يخلو عن غرابة. ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾؛ أي: نبيّنها لهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويتدبرون فيما يجب عليهم التفكر فيه، ليتعظوا بالمواعظ، وينزجروا بالزواجر. وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن، ولا اتعظوا بمواعظه، ولا انزجروا بزواجره.

أي: نبينها لمصلحة التفكر ومنفعة التذكر. ولا يقتضي كون الفعل معللاً

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

بالحكمة والمصلحة أن يكون معللاً بالغرض حتى تكون أفعاله تعالى معللة بالأغراض؛ إذ الغرض من الاحتياج والحكمة: اللطف بالمحتاج، وبينهما فرق.

فإن قلت[1]: قال في سورة الزمر: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ بصيغة المضي والإخبار عن الماضي مع أنها مكية، وقال هنا: ﴿نَضْرِبُهَا﴾ بصيغة المضارع والاستقبال مع أن السورة مدنية.

قلت: لعل الأول من قبيل عد ما سيحقق مما حقق لتحققه بلا خلف، والثاني من قبيل التعبير عن الماضي بالمضارع؛ لإحضار الحال الماضية، أو لإرادة الاستمرار على الأحوال، بمعنى: أن شأننا أن نضرب الأمثال للناس.

وفي الحديث: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة »قالوا: ما حظها من العبادة يا رسول الله؟ قال: «النظر في المصحف، والتفكر فيه، والاعتبار عند عجائبه». وعن ابن عباس رضي عنهما: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب. وعن الحسن البصري رحمه الله: من لم يكن كلامه حكمة.. فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً.. فهو سهو، ومن لم يكن نظره عبرة.. فهو لهو. وعن أبي سليمان رحمه الله: الفكرة في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتحيي القلب. وكثيراً ما ينشد سفيان بن عيينة، ويقول:

إِذَا ٱلْمَرْءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ   فَفِيْ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ

وعن بعضهم أنه قال: من عجز عن ثمانية.. فعليه بثمانية أخرى لينال فضلها. من أراد فضل صلاة الليل، وهو نائم.. فلا يعص بالنهار، ومن أراد فضل صيام التطوع وهو مفطر.. فليحفظ لسانه عما لا يعنيه، ومن أراد فضل العلماء.. فعليه بالتفكر، ومن أراد فضل المجاهدين والغزاة وهو قاعد في بيته.. فليجاهد الشيطان، ومن أراد فضل الصدقة وهو عاجز.. فليعلم الناس ما سمع من العلم، ومن أراد فضل الحجّ وهو عاجز.. فليلتزم الجمعة، ومن أراد فضل العابدين.. فليصلح بين الناس ولا يوقع العداوة، ومن أراد فضل الأبدال.. فليضع يده على صدره ويرضى لأخيه ما يرضى لنفسه.

---

(١) روح البيان.

واعلم[1]: أن التفكر إما أن يكون في الخالق أو في الخلق:

والأول: إما في ذاته، أو في صفاته، أو في أفعاله. أما في ذاته.. فممنوع؛ لأنه لا يعرف الله إلا الله، إلا أن يكون التفكر في ذاته باعتبار عظمته وجلاله وكبريائه، من حيث وجوب الوجود ودوام البقاء، وامتناع الإمكان والفناء، والصمدية التي هي الاستغناء عن الكل. وأما في صفاته: فهو فيها باعتبار كمالها بحيث يحيط علمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع الأشياء، وإرادته بجميع الكائنات وسمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، ونحو ذلك. وأما في أفعاله: فهو فيها بحسب شمولها، وكثرتها، ومتانتها، ووقوعها على الوجه الأتم، كل يوم هو في شأن.

والثاني: إما أن يكون فيما كان من العلويات والسفليات، أو فيما سيكون من أهوال يوم القيامة وأحوال الآخرة إلى أبد الآباد.

والمعنى: أي وهذه الأمثال التي أودعناها القرآن، وذكرناها في مواضعها التي ضربت لأجلها واقتضاها الحال، من نحو قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾ الآية.. جعلناها تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فمن الناس من وفقه الله واهتدى بها إلى سواء السبيل، وفاز بما يرضي ربه عنه، ومنهم من أعرض عنها ونأى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، وأدخله في سقر، وما أدراك ما سقر؟ لا تبقي ولا تذر.

وقيل[2]: الخطاب في الآية للنبي - ﷺ - والمعنى عليه أي: لو أنزلنا هذا القرآن - يا محمد - على جبل لَمَا ثبت، ولتصدع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له، وقويناك عليه. فيكون على هذا من باب الامتنان على النبي - ﷺ -، لأن

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

الله سبحانه ثبته لما لا تثبت له الجبال الرواسي.

ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود بحق في الوجود، هو الإله ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه. وفي هذا تقرير للتوحيد ودفع للشرك. هو سبحانه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: عالم ما غاب عن الإحساس وما حضر. وقيل: عالم السرّ والعلانية، وقيل: عالم ما كان وما سيكون. وقيل: الآخرة والدنيا. وقدم الغيب على الشهادة لكونه متقدماً وجوداً. وتعلق العلم القديم به من حيث كونه موجوداً. قال الراغب: ما غاب عن حواس الناس وأبصارهم وما شهدوه بهما.

واعلم[1]: أن ما ورد من إسناد الغيب إلى الله فهو الغيب بالنسبة إلينا، لا بالنسبة إليه تعالى؛ لأنه لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء، وإذا انتفى الغيب بالنسبة إليه تعالى.. انتفى العلم به أيضاً، وأيضاً لما سقطت جميع الغيب والإضافات في مرتبة الذات البحت والهوية الصرفة.. انتفت النسبة العلمية مطلقاً، فانتفى العلم بالغيب، فافهم.

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: كثير الرحمة لعباده بجلائل النعم. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: كثير الرحمة لعباده بدقائق النِّعم.

كرر ﴿هُوَ﴾ لأن له شأناً شريفاً، ومقاماً منيفاً؛ لدلالته على التوحيد. من اشتغل به.. ملك، ومن أعرض عنه.. هلك. والله تعالى رحمته الدنيوية عامة لكل إنسي وجني، مؤمناً كان أو كافراً، على ما قال ـ ﷺ ـ: «أيها الناس! إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل قادر، يحق فيها الحق ويبطل الباطل، كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها ولدها»، ولذلك يقال: يا رحمٰن الدنيا؛ لأن ما فيه زيادة حرف يراد به زيادة في المعنى. ورحمته الأخروية خاصة بالمؤمنين، ولذا يقال: يا رحيم الآخرة. فعلى هذا في معنى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ زيادة باعتبار المنعم عليه، ونقصان باعتبار الأنواع والأفراد. وفي تخصيص هذين الاسمين المنبئين، عن وفور

---

(١) روح البيان.

رحمته في الدارين تنبيه على سبق رحمته، وتبشير للعاصين أن لا يقنطوا من رحمة الله، وتنشيط للمطيعين بأنه يقبل القليل، ويعطي الجزيل.

وحظ العبد من اسم الرحمٰن الرحيم أن يكون كثير الرحمة، بأن يرحم نفسه أولاً ظاهراً وباطناً، ثم يرحم غيره بتحصيل مراده وإرشاده والنظر إليه بعين الرحمة، كما قال بعضهم:

وَٱرْحَمْ بُنَيَّ جَمِيعَ ٱلْخَلْقِ كُلَّهِمِ وَٱنْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ ٱللُّطْفِ وَٱلشَّفَقَهْ
وَقِّرْ كَبِيْرَهُمُ وَٱرْحَمْ صَغِيْرَهُمُ وَرَاعِ فِيْ كُلِّ خَلْقٍ حَقَّ مَنْ خَلَقَهْ

ومعنى الآية[1]: أي إنه تعالى لا رب غيره، ولا إله في الوجود سواه، فكل ما يعبد من دونه من شجر أو حجر أو صنم أو ملك.. فهو باطل. وهو يعلم جميع الكائنات الشاهدة لنا والغائبة عنا، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماوات، وهو ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات،فهو رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

واعلم[2]: أن لفظ ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في أصل وضعه كناية عن المفرد المذكر الغائب، وهي: كناية عن المفردة المؤنثة الغائبة. وكثيراً ما يكنى به عمن لا يتصور فيه الذكورة والأنوثة، كما هو ههنا، فإنه راجع إلى الله تعالى للعلم به. ولك أن تقول: هو: موضوع لمفرد ليس فيه تأنيث حقيقة وحكماً، وهي: لمفرد يكون فيه ذلك. و﴿هُوَ﴾: مبتدأ، خبره لفظة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ بمعنى: هو المعبود بالحق، المسمى بهذا الاسم الأعظم، الدال على جلال الذات وكمال الصفات، فلا يلزم أن يتحد المبتدأ أو الخبر بأن يكون التقدير: الله الله؛ إذ لا فائدة فيه. أو ﴿ٱللَّهُ﴾ بدل من ﴿هُوَ﴾، والموصول مع صلته خبر المبتدأ، أو ﴿هُوَ﴾ إشارة إلى الشأن، و﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبره، والجملة خبر عن ضمير الشأن. و﴿لَآ﴾ في كلمة التوحيد لنفي أفراد الجنس على الشمول والاستغراق. و﴿إِلَٰهَ﴾ مبني على الفتح بها، مرفوع المحل على الابتداء، والمراد به: جنس المعبود بالحق، لا مطلق جنس المعبود، حقاً أو باطلاً، وإلا.. فلا يصح في

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

نفسه؛ لتعدد الآلهة الباطلة، ولا يفيد التوحيد الحق. و﴿إِلَّا هُوَ﴾ مرفوع على: البدلية في محل المنفي، أو من ضمير الخبر المقدر لـ﴿لَآ﴾والخبر قد يقدر: موجود، فيتوهم أن التوحيد يكون باعتبار الوجود لا الإمكان، فإن نفي وجود إله غير الله لا يستلزم نفي إمكانه. وقد يقدر: ممكن، فيتوهم أن إثبات الإمكان لا يقتضي الوقوع، فكم من شيء ممكن لم يقع. وقد يقدر: لنا، فيتوهم أنه لا بد من مقدر، فيعود الكلام أيضاً.

والجواب: أنه إذا كان المراد بالإله المعبود بالحق كما ذكر.. فهو لا يكون إلا رب العالمين مستحقاً لعبادة المكلفين، فإذا نفيت الألوهية على هذا المعنى عن غيره تعالى، وأثبتت له سبحانه.. يندفع التوهم على التقادير كلها.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرره للتأكيد والتقرير، ولإبراز الاعتناء بالتوحيد؛ لكونه حقيقاً بذلك. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾؛ أي: المتصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه، المالك لهم، فهم تحت ملكه وقهره وإرادته. ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾؛ أي: الطاهر عن كل عيب، المنزه عما لا يليق به. وقيل: هو الذي كثرت بركته، أو البليغ في النزاهة عما يوجب نقصاناً ما.

وقرأ الجمهور(١): ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ بضم القاف. وقرأ أبو السمال، وأبو دينار الأعرابي بفتحها. وكان سيبويه يقول: سبوح قدوس بفتح أولهما، وحكى أبو حاتم عن يعقوب، أنه سمع عند الكسائي أعرابياً فصيحاً يقرأ: القَدوس بفتح القاف. قال ثعلب: كل اسم على فعول.. فهو مفتوح الأول إلا السبوح، القدوس، فإن الضم فيهما أكثر، وقد يفتحان. وقال بعضهم: المفتوح قليل في الصفات كثير في الأسماء، مثل التنور والسمور والسفود وغيرها.

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾؛ أي: الذي سلم من كل النقائص، وكل آفة تلحق الخلق. فإن قلت(٢): على هذا التفسير لا يبقى بين القدوس والسلام فرق، فيكون كالتكرار، وذلك لا يليق بفصاحة القرآن؟.

قلت: الفرق بينهما: أن القدوس إشارة إلى براءته عن جميع العيوب

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) الخازن.

والنقائص، في الماضي والحاضر، والسلام إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شيء من العيوب والنقائص في المستقبل، فإن الذي يطرأ عليه شيء من ذلك تزول سلامته ولا يبقى سليماً. وقيل: السلام هو المسلم على عباده في الجنة، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ وقيل: الذي سلم الخلق من ظلمه، وبه قال الأكثر. وقيل: المسلم لعباده، وهو مصدر وصف به مبالغة.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾؛ أي: الذي وهبَ لعباده الأمن من عذابه. وقيل: المصدق لرسله بإظهار المعجزات. وقيل: المصدق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، والمصدق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب.. وقال مجاهد: المؤمن الذي وحد نفسه بقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ بكسر الميم على صيغة اسم الفاعل من آمن؛ بمعنى: أمن. وقرأ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين ـ وقيل: أبو جعفر المدائني ـ: بفتحها؛ بمعنى: المؤمن به، على الحذف. وقال أبو حاتم: لا تجوز هذه القراءة؛ لأن معناه: أنه كان خائفاً فأمنه غيره.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ قال ابن عباس: أي الشهيد على عباده بأعمالهم، الرقيب عليهم الذي لا يغيب عنه شيء. وقيل[2]: هو القائم على خلقه برزقه، وأنشد في معناه:

أَلاَ إِنَّ خَيْرَ ٱلنَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِ ... مُهَيْمِنُهُ ٱلتَّالِيهِ فِيْ ٱلْعُرْفِ وَٱلنُّكْرِ

يقال: هيمن يهيمن، فهو مهيمن إذا كان رقيباً على الشيء. قال الواحدي: وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله: مؤيمن، بوزن مفيعل، من آمن يؤمن، فقلبت همزته هاء، فيكون بمعنى المؤمن. والأول أولى. وقيل: المهيمن اسم من أسماء الله تعالى، هو أعلم بتأويله، وأنشدوا في معناه:

جَلَّ ٱلْمُهَيْمِنُ عَنْ صِفَاتِ عَبِيْدِهِ ... وَلَقَدْ تَعَالَى عَنْ عُقُولِ أُوْلِي ٱلنُّهَىٰ

رَامُوا بِزَعْمِهِمُ صِفَاتِ مَلِيْكِهِمْ ... وَٱلْوَصْفُ يَعْجَزُ عَنْ مَلِيْكٍ لاَ يُرَى

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي لا يوجد له نظير، وقيل: القاهر، وقيل: الغالب الذي لا يغالب، وقيل: القوي. ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: قال ابن عباس: الجبار هو العظيم،

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

وجبروت الله: عظمته. فعلى هذا[1]: هو صفة ذات. وقيل: هو من الجبر، وهو الإصلاح، يقال: جبرت العظم أصلحته بعد الكسر، يعني: الذي يغني الفقير ويجبر الكسير. فعلى هذا هو صفة فعل. وهو سبحانه وتعالى كذلك، يجبر كل كسير ويغني كل فقير، وقيل: هو الذي يجبر الخلق ويقهرهم على ما أراد. قال الفراء: من أجبره على الأمر.. قهره، قال: ولم أسمع فعالاً من أفعل إلا في جبار من أجبر، ودراك من أدرك. وسئل بعضهم عن معنى الجبّار، فقال: هو القهار الذي إذا أراد أمراً.. فعله، لا يحجزه عنه حاجز. وقيل: الجبار هو الذي لا ينال ولا يداني. والجبار في صفة الله تعالى صفة مدح، وفي صفة الناس صفة ذم. وكذلك ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ في صفة الناس صفة ذم؛ لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر والعلو، وذلك نقص في حقه؛ لأنه ليس له كبر وعلو، بل له الحقارة والذلة، فإذا أظهر الكبر.. كان كذاباً في فعله، فكان مذموماً في حق الناس. وأما المتكبر في صفة الله تعالى.. فهو صفة مدح، لأن له جميع صفات العلو والعظمة، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تنزيهاً له تعالى عما يشركون به أو عن إشراكهم، فكأنه قيل: إن بعض الخلق يتكبر فيكون ذلك نقصاً في حقه، أما الله تعالى.. فله العلو والعظمة والعزة والكبرياء، فإن أظهر ذلك.. كان ضم كمال إلى كمال. قال ابن عباس: المتكبر هو الذي تكبر بربوبيته فلا شيء. وقيل: هو الذي تكبر عن كل سوء. وقيل: هو المتعظم عما لا يليق بجماله وجلاله. وقيل: هو المتكبر عن ظلم عباده. وقيل: الكبر والكبرياء: الامتناع. وقيل: هو ذو الكبرياء. وهو الملك سبحان الله عما يشركون؛ أي: من ادعاء الكبر لأنفسهم.

ومعنى الآية[2]: أي هو الله سبحانه، المالك لجميع الأشياء، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، المنزه عن كل عيب ونقص، الذي أمن خلقه أن يظلمهم، وهو الرقيب عليهم كما قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، وقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾. والذي عزّ على كل شيء فقهره، وغلب الأشياء بعظمته وجبروته، فلا تليق الجبروتية إلا له ولا التكبر إلا لعظمته، كما ورد في «الصحيح»: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي. فمن نازعني واحداً منهما عذّبته». تنزه ربنا عما

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

يقوله المشركون من الصاحبة والولد، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

ومعنى ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ. . .﴾ إلخ[1]: سبحوا الله تسبيحاً، ونزهوه تنزيهاً عما يشركه الكفار به من المخلوقات. فالله تعالى أورده لإظهار كمال كبريائه، أو للتعجب من إثبات الشريك بعد ما عاينوا آثار اتصافه بجلال الكبرياء وكمال العظمة.

﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود بحق في الوجود، كرره اعتناء بشأن التوحيد كما مر. ﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾؛ أي: المقدر[2] للأشياء على مقتضى حكمته ووفق مشيئته. فإن أصل معنى الخلق: التقدير، يقال: خلق النعل إذا قدرها وسواها بمقياس، وإن شاع في معنى الإيجاد على تقدير واستواء، سواء كان من مادة، كخلق الإنسان من نطفة ونحوه، أو من غير مادة؛ كخلق السماوات والأرض. وخاصية هذا الاسم: أن يذكر في جوف الليل ساعة فما فوقها فيتنور قلب ذاكره ووجهه.

﴿ٱلْبَارِئُ﴾؛ أي: الموجد للأشياء بريئةً من التفاوت، فإن البرء: الإيجاد على وجه يكون الموجد بريئاً من التفاوت والنقصان، عما يقتضيه التقدير على الحكمة البالغة والمصلحة الكاملة. وخاصية هذا الاسم: أن يذكره سبعة أيام متوالية، كل يوم مئة مرة للسلامة من الآفات. قال السهروردي: يفتح لذاكره أبواب الغنى والعز والسلامة من الآفات.

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾؛ أي: الموجد لصور الأشياء وكيفياتها وأشكالها وألوانها كما أراد، كما يصور الأولاد في الأرحام، بالشكل واللون المخصوص. فإن معنى التصوير: تخصيص الخلق بالصور المتميزة، والأشكال المتعينة، والألوان المتفرقة.

قال الراغب: الصورة ما تتميز به الأعيان عن غيرها. وهي: إما محسوسة؛ كصورة الإنسان وألوانه، وإما معقولة؛ كالعقل وغيره من المعاني، انتهى.

وقوله ـ ﷺ ـ: «إن الله خلق آدم على صورته» أي: على صورة آدم؛ أي: على

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الصورة المختصة به، أراد بالصورة: ما خص الإنسان به من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة، وبها فضله على كثير من خلقه.

يقول الفقير: الضمير المجرور في صورته يرجع إلى الله سبحانه لا إلى آدم، والصورة الإلهية عبارة عن الصفات السبع المرتبة، وهي: الحياة والعلم، والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام. وآدم مظهر هذه الصفات بالفعل، بخلاف سائر الموجودات. وإضافته إلى الله على سبيل الملك لا على سبيل البعضية والتشبيه بل على سبيل التشريف له كقوله: بيت الله، وناقة الله وروح الله.

وحاصل ما في المقام: أن الخالق هنا المقدر على الحكمة الملائمة لنظام العالم والبارىء الموجد على ذلك التقدير، والمصور المبدع لصور الكائنات وأشكال المحدثات بحيث يترتب عليها خواصهم ويتم بها كمالهم. وبهذا ظهر وجه الترتيب بينها. واستلزام التصورِ البَرءَ، والبرء: الخلق، استلزام الموقوف للموقوف عليه، كما قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: قد يظن أن هذه الأسماء مترادفة، وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع. ولا ينبغي أن يكون كذلك، بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود يفتقر إلى التقدير أولاً، وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانياً، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً. والله سبحانه وتعالى خالق من حيث إنه مقدر وبارىء من حيث إنه مخترع موجد، ومصور من حيث إنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب. وهذا كالبناء مثلاً، فإنه محتاج إلى مقدر يقدر ما لا بد منه من الخشب واللبن ومساحة الأرض وعدد الشقق والغرف وطولها وعرضها. وهذا يتولاه المهندس، فيرسمه ويصوره، ثم يحتاج إلى بنّاء يتولى الأعمال التي عندها تحدث وتحصل أصول الأبنية، ثم يحتاج إلى مزيِّن ينقش ظاهره، ويزين صورته، فيتولاه غير البناء. هذه العادة في التقدير والبناء والتصوير، وليس كذلك في أفعال الله تعالى، بل هو المقدر والموجد والمزين، فهو الخالق البارىء المصور.

فقدم ذكر[1] الخالق على البارىء؛ لأن الإرادة والتقدير متقدمة على تأثير القدرة، وقدم البارىء على المصور؛ لأن إيجاد الذات متقدم على إيجاد الصفات والألوان. وخاصية الاسم المصور: الإعانة على الصنائع العجيبة وظهور الثمار

---

(١) روح البيان.

ونحوها، حتى إن العاقر إذا ذكرته في كل يوم إحدى وعشرين مرة على صوم بعدَ الغروب وقبل الإفطار سبعة أيام.. زال عقمها، وتصور الولد في رحمها بإذن الله تعالى.

وقرأ عليٌّ وحاطب بن أبي بلتعة، والحسن وابن السميفع[1]: ﴿المصوَّر﴾ بفتح الواو ونصب الراء، على أنه مفعول به للبارىء، وأراد به جنس المصور؛ أي: الذي برأ المصور؛ أي: ميزه. وروي عن علي: فتح الواو وكسر الراء، على إضافة اسم الفاعل إلى المفعول، ونحو: الضارب الغلام.

﴿لَهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الأسماء الدالة على المعاني الحسنة والصفات الكاملة. و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ صيغة تفضيل؛ لأنها تأنيث الأحسن؛ كالعليا، في تأنيث الأعلى. وتوصيف الأسماء بها للزيادة المطلقة، إذ لا نسبة لأسمائه إلى أسماء الغير، كما لا نسبة لذاته إلى ذوات الغير، وأسماء الله تعالى تسعة وتسعون على ما ورد في الحديث، كما سردها الترمذي في «صحيحه».

واعلم: أنه قال العلماء: الاسم هو اللفظ الدال على المعنى بالوضع. والمسمى: هو المعنى الموضع له، والتسمية: وضع اللفظ له أو إطلاقه عليه. وإطلاق الاسم على الله تعالى توقيفي عند البعض، بحيث لا يصح إطلاق شيء منه عليه تعالى إلا بعد أن كان وارداً في القرآن أو الحديث الصحيح. وقال آخرون: كل لفظ دل على معنى يليق بجلال الله وشأنه.. فهو جائز الإطلاق، وإلا.. فلا.

ومن أدلة الأولين[2]: أن الله عالم بلا مرية، فيقال له: عالم، وعليم، وعلام؛ لوروده في الشرع، ولا يقال له: عارف أو فقيه أو متيقن، إلى غير ذلك مما يفيد معنى العلم.

ومن أدلة الآخرين: أن أسماء الله تعالى وصفاته مذكورة بالفارسية والتركية والهندية والأرُمية وغيرها، مع أنها لم ترد في القرآن والحديث ولا في الأخبار، وأن المسلمين أجمعوا على جواز إطلاقها عليه بتلك اللغة، ومنها: أن الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾. والاسم لا يحسن إلا لدلالته على صفات

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

الكمال ونعوت الجلال، فكل اسم دل على هذه المعاني.. كان اسماً حسناً، وأنه لا فائدة في الألفاظ إلا رعاية المعاني، فإذا كانت المعاني صحيحة.. كان المنع من إطلاق اللفظ المفيد غير لائق به تعالى.

والمعنى: أي هو الله الخالق لجميع الأشياء، المبرز لها إلى عالم الوجود على الصفة التي أرادها، كما قال: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾. وله الصفات التي وصف بها نفسه، لا يشركه فيها أحد سواه.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾؛ أي: ينزهه سبحانه وتعالى من جميع النقائص ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أي: جميع ما فيهما، إما بلسان المقال أو بلسان الحال. أي: ينطق بتنزهه تعالى تنزهاً ظاهراً عن جميع النقائص، وقد مر الكلام على هذا التسبيح مراراً كثيراً. وجمهور المحققين على أنه تسبيح عبارة،وهو لا ينافي تسبيح الإشارة، وكذا العكس.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب لغيره الذي لا يغالبه مغالب. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في كل ما دبره في الأمور التي يقضي بها، وإنما مدح الله سبحانه نفسه بهذه الصفات العظام تعليماً لعباده المدح له بصفاته العلى بعد فهم معانيها ومعرفة استحقاقه بذلك، طلباً لزيادة تقربهم إليه.

قال أبو الليث في «تفسيره»: فإن قال قائل: قد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ فما الحكمة في أن الله تعالى نهى عباده عن مدح أنفسهم ومدح نفسه؟ قيل له: عن هذا السؤال جوابان:

أحدهما: أن العبد وإن كان فيه خصال الخير فهو ناقص، وإذا كان ناقصاً.. لا يجوز له أن يمدح نفسه، والله تعالى تام الملك والقدرة فيستوجب بهما المدح، فمدح نفسه ليعلم عباده فيمدحوه.

والجواب الآخر: أن العبد وإن كان فيه خصال الخير، فتلك إفضال من الله تعالى وإحسان منه، ولم يكن ذلك بقوة العبد وقدرته؛ فلهذا لا يجوز أن يمدح نفسه، ونظير هذا: أن الله تعالى نهى عباده أن يمنوا على أحد بالمعروف، وقد منّ على عباده للمعنى الذي ذكر في المدح.

قال بعض الكبار: تزكية الإنسان لنفسه سم قاتل، وهي من باب شهادة الزور؛

لجهله بمقامه عند الله، إلا أن يترتب على ذلك مصلحة دينية.. فللإنسان ذلك، كما قال ـ ﷺ ـ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»، أي: لا أفتخر عليكم بالسيادة، إنما الفخر بالعبودية، والفخر بالذات لا يكون إلا لله وحده، وأما الفخر في عباده.. فإنما للرتب، فيقال: صفة العلم أفضل من صفة الجهل، ونحو ذلك.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري التعجبي، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد أو على أي مخاطب، مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه: حذف حرف العلة، ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿تَرَ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما جرى بين المنافقين واليهود. والرؤية هنا نظرية تتعدى بإلى ﴿نَافَقُوا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة لبيان المتعجب منه، والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة القول وتجدده. ﴿لِإِخْوَانِهِمُ﴾: متعلق بـ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿الَّذِينَ﴾: صفة ﴿لِإِخْوَانِهِمُ﴾ وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة ﴿الَّذِينَ﴾، ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: حال من ﴿إخوانهم﴾، ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم بصيغة اسم الفاعل؛ أي: مؤذنة وممهدة للقسم، لأنها آذنت بأن ما بعدها جواب للقسم لا جواب للشرط ومهدته له. ﴿إنْ﴾ حرف شرط جازم، ﴿أُخْرِجْتُمْ﴾: فعل ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، دلّ عليه جواب القسم، جرياً على القاعدة المشهورة عندهم من أنه إذا اجتمع شرط وقسم.. فالجواب للمتقدم منهما، وجواب المتأخر محذوف، تقديره: إن أخرجتم.. نخرج معكم. وجملة الشرط مع جوابه معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿لَنَخْرُجَنَّ﴾: ﴿اللام﴾ لام القسم مؤكدة للأولى، ﴿نخرجن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً يعود على المنافقين، تقديره: نحن. ﴿مَعَكُمْ﴾: ظرف مضاف متعلق

بـ﴿نخرجن﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿نُطِيعُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر يعود على المنافقين، ﴿فِيكُمْ﴾: متعلق بـ﴿نُطِيعُ﴾ ولكنه على حذف مضاف؛ أي: في خذلانكم. ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به، ﴿أَبَدًا﴾: ظرف للنفي، متعلق بـ﴿نُطِيعُ﴾ أيضاً، والجملة الفعلية معطوفة على ﴿نخرجن﴾ على كونها جواب القسم. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنْ﴾: حرف شرط جازم، ﴿قُوتِلْتُمْ﴾: فعل، ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: ننصركم. وجملة الشرط ـ أيضاً ـ معترضة بين القسم المقدر قبلها وجوابه، لا محل لها من الإعراب. ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿ننصرن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على المنافقين، و﴿الكاف﴾: مفعول به، والجملة جواب للقسم المقدر قبل ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة القسم في محل النصب معطوفة على القسم المذكور قبله على كونه مقولاً لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الله﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَشْهَدُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكَاذِبُونَ﴾: خبره، و﴿اللام﴾ لام الابتداء مزحلقة عن محلها، ولأجلها كسرت همزة ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مفعول ﴿يَشْهَدُ﴾؛ لأنه في معنى القول.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَئِنْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿أُخْرِجُوا﴾: فعل ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: إن أخرجوا.. لا يخرجون معهم. وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية معترضة بين القسم وجوابه. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَخْرُجُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مَعَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية جواب القسم، لا

محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إنْ﴾ حرف شرط ﴿قُوتِلُوا﴾: فعل ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن قوتلوا.. لا ينصرونهم. وجملة الشرط معترضة. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَنصُرُونَهُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول، والجملة جواب القَسم، وجملة القَسم معطوفة على القَسم المذكور قبله. ﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿نَّصَرُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: وإن نصروهم.. يولون الأدبار، وجملة الشرط معترضة، ﴿لَيُوَلُّنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿يولن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، ﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم المذكور قبله. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُنصَرُونَ﴾: فعل مضارع، ونائب فاعل مرفوع بالنون، معطوف على ﴿يولن﴾.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَأَنتُمْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿أنتم﴾ مبتدأ، ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، ﴿رَهْبَةً﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، ﴿فِى صُدُورِهِم﴾ صفة لرهبة، أو متعلق به، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أَشَدُّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿قَوْمٌ﴾: خبره، وجملة ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمٌ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب عدم فقههم لمصالحهم الدينية والدنيوية.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل ومفعول به، وضمير الفاعل يعود على اليهود، والجملة مستأنفة. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من فاعل ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾؛ أي:

مجتمعين. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿فِي قُرًى﴾: متعلق بـ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾: صفة لقرى، ﴿أو﴾ حرف عطف وتفصيل، ﴿مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على قوله: ﴿فِي قُرًى﴾. ﴿بَأْسُهُم﴾: مبتدأ، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف متعلق بـ﴿شَدِيدٌ﴾، و﴿شَدِيدٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان حالهم. ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾: فعل مضارع من أخوات ظن، وفاعل مستتر يعود على محمد مثلاً، ومفعول أول، ﴿جَمِيعًا﴾: مفعول ثان، والجملة مستأنفة، ﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قلوبهم﴾: مبتدأ، ﴿شَتَّىٰ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من الهاء في ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: خبر، والجملة مستأنفة، ﴿أنهم﴾: ناصب واسمه، ﴿قَوْمٌ﴾ خبره، وجملة ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾: صفة قوم، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾، تقديره: ذلك كائن بسبب عدم عقلهم.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: مثلهم كائن كمثل الذين إلخ. والجملة مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه ﴿مِن قَبْلِهِم﴾: صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿قَرِيبًا﴾: ظرف متعلق بالاستقرار المحذوف الذي تعلق به ﴿مِن قَبْلِهِم﴾. ولك أن تعلقه بـ﴿ذَاقُوا۟﴾ المذكور بعده. وعلقه الزمخشري بمضاف مقدر في الخبر؛ أي: كوجوه مثل الذين من قبلهم. أي: مثل اليهود من بني النضير فيما وقع لهم من الإجلاء والذل كمثل أهل مكة فيما وقع لهم يوم بدر قريباً من الهزيمة والقتل والأسر. ﴿ذَاقُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو من الضمير المستكن في الصلة. ﴿وَلَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لهم﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال كائن ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، والجملة مستأنفة ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ولك أن تعلقه بمحذوف على أنه

حال من ﴿مثل الشيطان﴾ كأنه بيان له. وجملة ﴿قَالَ﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليه، ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿ٱكْفُرْ﴾ مقول لـ﴿قال﴾، ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فكفر، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الإنسان، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الشيطان، والجملة جواب الشرط لـ﴿لما﴾. وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، ﴿مِّنكَ﴾: متعلق بـ﴿بَرِىٓءٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَخَافُ ٱللَّهَ﴾: خبره ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة للجلالة أو بدل منه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ أيضاً.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَكَانَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، ﴿عَٰقِبَتَهُمَآ﴾: خبرها المقدم؛ أي: عاقبة الغاوي والمغوي. ﴿أَنَّهُمَا﴾: ناصب واسمه، ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾: خبره، ﴿خَٰلِدَيْنِ﴾: حال من الضمير المستكن في خبر ﴿أن﴾. أعني: الجار والمجرور. وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مرفوع على أنه اسم كان مؤخر، تقديره: فكان كونهما في النار خالدين فيها عاقبتهما، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾. وقرىء ﴿عاقبتُهما﴾ بالرفع على أنه هو الاسم. و﴿أن﴾ وما في حيزها هو الخبر. ﴿فِيهَا﴾ متعلقان بـ: خالدين ﴿وَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ذلك﴾: مبتدأ، ﴿جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: خبر، ومضاف إليه. والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة أي، وجملة النداء مستأنفة. وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَلْتَنظُرْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: لام الأمر، ﴿تنظر﴾:

فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، ﴿نَفْسٌ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿تنظر﴾ وجملة ﴿قَدَّمَتْ﴾ صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما قدمته. ﴿لِغَدٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدَّمَتْ﴾، وأطلق الغد على يوم القيامة تقريباً له. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على اتقوا الأول. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿خَبِيرٌ﴾: خبره، ﴿بِمَا﴾: متعلق بخبير، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة أو المصدرية. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالتقوى.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكُونُوا﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿كَالَّذِينَ﴾: خبر تكونوا، وجملة النهي معطوفة على جملة ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، وجملة ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾: صلة الموصول، ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أنساهم﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهَ﴾ ومفعول به أول، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، أو مبتدأ ثان، ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: خبر المبتدأ، أو خبر ﴿هُمُ﴾، والجملة خبر ﴿أُولَٰئِكَ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَسْتَوِي﴾: فعل مضارع، ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ فاعل، ومضاف إليه ﴿وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ معطوفة على ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، أو مبتدأ ثان، ﴿الْفَائِزُونَ﴾: خبر المبتدأ، أو خبر ﴿هُمُ﴾. والجملة مستأنفة.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾.

﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾. ﴿هَٰذَا﴾: مفعول به، ﴿الْقُرْآنَ﴾: بدل منه، ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلْنَا﴾، ﴿لَّرَأَيْتَهُ﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿رأيته﴾، فعل وفاعل ومفعول، ﴿خَاشِعًا﴾: مفعول ثان أو حال؛ لأن الرؤية تحتمل القلبية والبصرية.

﴿مُّتَصَدِّعًا﴾: نعت لـ﴿خَٰشِعًا﴾ أو حال ثانية ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾، وجملة رأى جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَتِلْكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿تلك﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْأَمْثَٰلُ﴾: بدل، وجملة ﴿نَضْرِبُهَا﴾: خبر، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿نَضْرِبُهَا﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر أول، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلَّذِى﴾: نعت للجلالة، ﴿لَآ﴾: نافية لجنس الخبر تعمل عمل إن، ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً، تقديره: موجود، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع، بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾ المحذوف، وجملة ﴿لا﴾ من اسمها، وخبرها صلة الذي. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: خبر ثان لـ﴿هو﴾. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْغَيْبِ﴾، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: خبر أول له، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان به. والجملة مستأنفة.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر، ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للجلالة. والجملة الابتدائية مستأنفة، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صلة ﴿ٱلَّذِى﴾. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾: خبر ثان لـ﴿هو﴾، ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: خبر ثالث، ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: خبر رابع، ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: خبر خامس، ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: خبر سادس، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر سابع، ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: خبر ثامن، ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾: خبر تاسع، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: أسبّح الله سبحاناً، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿عَمَّا﴾: متعلق بـ﴿سُبْحَٰنَ﴾، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: عن الذي يشركونه به، أو لما المصدرية. أي: عن إشراكهم. ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾: مبتدأ وخبر،

والجملة مستأنفة. كرره اعتناءً بالتوحيد، ﴿ٱلۡخَٰلِقُ﴾: خبر ثان لـ﴿هُوَ﴾ ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾: خبر ثالث، ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾: خبر رابع، ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾: صفة للأسماء. والحسنى ضد السوءى. والجملة مستأنفة. ﴿يُسَبِّحُ﴾: فعل مضارع، ﴿لَهُ﴾ متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: معطوفة على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: خبر أول له، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾؛ أي: أظهروا غير ما أضمروا، وبالغوا في إخفاء عقائدهم. قال الراغب: النفق: الطريق النافذ، والسرب في الأرض النافذ، ومنه: نافقاء اليربوع، وقد نافق اليربوع، ونفق، ومنه: النفاق، وهو: الدخول في الشرع في باب والخروج عنه من باب نبه على هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن الشرع.

﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾: جمع أخ في الدِّين، أو الصداقة، أو المعاملة. وأما الأخ من النسب فجمعه: إخوة. ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ﴾: و﴿اللام﴾: فيه موطئة للقسم بصيغة اسم الفاعل المؤنث؛ أي: مؤذنة بأن الجواب بعدها مبني على قسم مقدر قبلها، لا مبني على الشرط المذكور تقديره: والله لئن أخرجتم إلخ. ومن ثم تسمى: اللام المؤذنة، والموطئة، والممهدة؛ لأنها وطأت الجواب للقسم؛ أي: مهدته وهيأته له. ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ﴾: أصله، وإن قاتلوكم، ولما ضم أول الفعل لبنائه للمجهول قلبت الألف واواً. ﴿لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾: أي لنعاوننكم. ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ﴾: الواو فيه مبدلة من ألف فاعل، أصله: قاتلوا. فلما بني الفعل للمجهول وضم أوله قلبت الألف واواً لمناسبة الضمة. ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾: أصله ليوليونن، بثلاث نونات: الأولى نون الرفع، ثم نون التوكيد الثقيلة التي بمنزلة نونين، فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، فصار اللفظ: ليوليون، فالتقى ساكنان، فحذفت الواو، فصار: ليولين، فاستثقلت الضمة على الياء، ثم نقلت إلى ما قبلها، فالتقى ساكنان، فحذفت فصار وزنه: يفعن؛ أي: ليفرن هاربين. ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ﴾ والرهبة: مخافة مع تحزن واضطراب،

وهي هنا مصدر من رهب المبني للمفعول. أي: أشد مرهوبية. وذلك لأن ﴿أنتم﴾ خطاب للمسلمين، والخوف ليس واقعاً منهم بل من المنافقين، فالمخاطبون مرهوبون غير خائفين.

﴿إِلَّا فِي قُرًى﴾: جمع قرية، وهي مجتمع الناس للتوطن، وأصله: قري، بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف وصلاً لالتقائها ساكنة بنون التنوين. ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾؛ أي: محكمة بالدروب، والأبواب الواسعة، والخنادق، وما أشبه ذلك. أو محفوظة بالسوْر. ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾: جمع جدار، وهو كما مر كالحائط إلا أن الحائط يقال اعتباراً بالإحاطة بالمكان، والجدار يقال اعتباراً بالنتو والارتفاع، ولذا قيل: جدر الشجر، إذا خرج ورقه كأنه حمص، وجدر الصبي إذا خرج جدريه، تشبيهاً بجدر الشجر.

﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾: جمع شتيت، كمرضى جمع مريض. يقال: شت يشت شتاً، وشتاتاً وشتيتاً: فرق وافترق كانشت وتشتت، وجاؤوا أشتاتاً؛ أي: متفرقين في النظام، والعامة في ﴿شَتَّىٰ﴾ بلا تنوين؛ لأنها ألف تأنيث. ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ ﴿ذَاقُوا۟﴾ فيه القلب، أصله: ذوقوا، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. قال الراغب: الوبل والوابل: المطر الثقيل القطار، ولمراعاة الثقل قيل للأمر الذي يخاف ضرره: وبال. وطعام وبيل. ﴿أَمْرِهِمْ﴾: والأمر واحد الأمور لا الأوامر. أي: ذاقوا سوء عاقبة كفرهم. ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ يقال: برىء يبرأ فهو بريء، وأصل البرء والبراءة، والتبري: التقصي مما يكره مجاورته.

﴿لِغَدٍ﴾؛ أي: ليوم القيامة سمي بذلك لقربه، فكل آت قريب، كما قال:

وَإِنَّ غَـداً لِـنَـاظِـرِهِ قَـرِيْـبُ

وأصله: غدو، حذفوا الواو بلا عوض، واستشهد عليه بقول لبيد:

وَمَا ٱلنَّاسُ إلاَّ كَٱلدِّيَارِ وَأَهْلِهَا ... بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدْواً بَلاقِعُ

إذ جاء به على أصله، والبيت من أبيات العبرة.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أصل ﴿تَكُونُوا۟﴾: تكونون، بوزن تفعلون، نقلت حركة الواو إلى الكاف فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مد. ثم حذفت نون الرفع

للجازم. ﴿كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾: أصله: نسيوا، بوزن فعلوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، ثم حذفت لما التقت ساكنة بواو الجماعة، وضمت السين لمناسبة الواو. ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾: فيه إعلال بالقلب، أصله: أنسيهم، بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: الألف في ﴿النَّارِ﴾ منقلبة عن واو لتصغيرها على نويرة.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾: جمع فائز، وفيه إعلال بالإبدال، أصله: الفاوزون، أبدلت الواو همزة في الوصف حملاً له على الفعل فاز في الإعلال، حيث أعلّ فاز بقلب الواو ألفاً. ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال، وهو محركاً كل وتد للأرض عظم وطال، فإن انفرد.. فأكمة وقنة ـ بضم القاف ـ قيل: عدد جبال الدنيا ستة آلاف وست مئة وثلاثة وسبعون جبلاً سوى التلال، كما في «زهرة الرياض» ﴿لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا﴾؛ أي: خاضعاً منقاداً متذللاً. قال بعضهم: الخشوع: انقياد الباطن للحق، والخضوع: انقياد الظاهر له. وقال بعضهم: الخضوع في البدن، والخشوع في الصوت والبصر. قال الراغب: الخشوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل فيما يوجد في الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب. ولذلك قيل فيما روي: إذا ضرع القلب.. خشعت الجوارح. ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾؛ أي: متشققاً ﴿مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾؛ أي: من خوفه أن تعصيه فيعاقبه. والصدع: شق في الأجسام الصلبة، كالزجاج والحديد ونحوها، ومنه استعير الصداع، وهو: الانشقاق في الرأس من الوجع.

﴿الْغَيْبِ﴾: ما غاب عن الحس من العوالم التي لا نراها. ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾: ما حضر من الأجرام المادية التي نشاهدها. ﴿الْقُدُّوسُ﴾: المنزه عن النقص. قال بعضهم: حقيقة القدس: الاعتلاء عن قبول التغير، ومنه: الأرض المقدسة؛ لأنها لا تتغير بملك الكافر كما يتغير غيرها من الأرضين. وأتبع هذا الاسم اسم الملك لما يعرض للملوك من تغير أحوالهم بالجور والظلم والاعتداء في الأحكام وفيما يترتب عليها. فإن ملكه تعالى لا يعرض له ما يغيره؛ لاستحالة ذلك في وصفه. ﴿السَّلَامُ﴾؛ أي: الذي سلم الخلق من ظلمه، إذ جعلهم على نظم كفيلة برقيهم. ﴿الْمُؤْمِنُ﴾؛ أي: واهب الأمن. فكل مخلوق يعيش في أمن، فالطائر في جوه، والحية في وكرها، والسمك في البحر تعيش كذلك، ولا يعيش قوم على الأرض ما

لم يكن هناك حراس يحرسون قراهم، وإلا . . هلكوا. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب على أمره. قال بعضهم: مِنْ عز، إذا غلب، فمرجعه القدرة المتعالية عن المعارضة والممانعة. أو من عز عزازة، إذا قل، فالمراد: عديم المثل، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾؛ أي: الذي جبر خلقه على ما أراد وقسرهم عليه أي: قهرهم وأكرههم عليه. أو جبر أحوالهم أي: أصلحها. فعلى هذا يكون الجبار من الثلاثي لا من الإفعال. وجبر بمعنى أجبر لغة تميم وكثير من الحجازيين. واستدل بورود الجبار من يقول: إن أمثلة المبالغة تأتي من المزيد على الثلاثي، فإنه من أجبره على كذا أي: قهره. وقال الفراء: لم أسمع فعالاً من أفعل إلا في جبار ودراك، فإنهما من أجبر وأدرك.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾؛ أي: الذي تكبر وتعظم عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً، أو البليغ الكبرياء والعظمة. يعني: أن صيغة التفعل للتكلف بما لم يكن، فإذا قيل: تكبر وتسخى. . يدل على أنه يري ويظهر الكبر والسخاء، وليس بكبير ولا سخي. والتكلف بما لم يكن كان مستحيلاً في حق الله تعالى، وحمل على لازمه، وهو: أن يكون ما قام به من الفعل على أتم ما يكون وأكمله من غير أن يكون هناك تكلف واعتمال حقيقة. ومنه: ترحمت على إبراهيم؛ بمعنى: رحمته كمال الرحمة وأتممتها عليه. فإذا قيل: إنه تعالى متكبر. . كان المعنى: إنه البالغ في الكبر والعظمة أقصى المراتب.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تنزه ربنا عما يصفه به المشركون. ﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾؛ أي: المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة. ﴿ٱلْبَارِئُ﴾؛ أي: المبرز لها على صفحة الوجود بحسب السنن التي وضعها والغرض الذي خلقت له. ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾؛ أي: الموجد للأشياء على صورها، ومختلف أشكالها، وألوانها كما أراد. فالتصوير آخراً، والتقدير أولاً، والبرء بينهما. اهـ. «كرخي». وفي «المختار»: وبرأ الله الخلق، من باب قطع؛ أي: خلقها. وفي «المصباح»: وأصل الخلق: التقدير، يقال: خلقت الأديم للسقاء، إذا قدرته له. اهـ.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الأسماء الدالة على محاسن المعاني التي تظهر في مظاهر هذا الوجود. فنظم هذه الحياة وبدائع ما فيها دليل على كمال صفاته،

وكمال الصفة يرشد إلى كمال الموصوف. ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: مؤنث الأحسن، الذي هو أفعل تفضيل، لا مؤنث أحسن المقابل لامرأة حسناء. وفي «القاموس»: ولا تقل رجل أحسن في مقابلة امرأة حسناء، وعكسه غلام أمرد، ولا يقال: جارية مرداء وإنما يقال: هو الأحسن على إرادة أفعل التفضيل، وجمعه: أحاسن. و﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: بضم الحاء والقصر: ضد السوءى. ا هـ. وفي «البحر» في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ ما نصه: قال الزمخشري: ولله الأسماء الحسنى التي هي أحسن الأسماء، لأنها تدل على معان حسنة، من تحميد وتقديس وغير ذلك. ا هـ. فالحسنى هنا تأنيث الأحسن، ووَصَفَ الجَمْعَ الذي لا يَعقِلُ بما توصف به الواحدة، كقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، وهو فصيح، ولو جاء على المطابقة للجمع.. لكان التركيب: الحُسَنَ، على وزن الأُخَرَ؛ كقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. لأن جمع ما لا يعقل يخبر عنه، ويوصف بجمع المؤنث وإن كان المفرد مذكراً. ا هـ.

تتمة: ونقل صاحب «اللباب» عن الإمام الرازي أنه قال: رأيت في بعض كتب الذِّكر أن لله تعالى أربعة آلاف اسم: ألف منها في القرآن والأخبار الصحيحة وألف منها في التوراة، وألف منها في الإنجيل، وألف منها في الزبور. ا هـ. فلعل كونها تسعة وتسعين بالنظر إلى الأشهر الأشرف الأجمع. وتعدد الأسماء لا يدل على تعدد المسمى، لأن الواحد يسمى أباً من وجه، وجداً من وجه، وخالاً من وجه، وعالماً من وجه، وكريماً من وجه، وشجاعاً من وجه وذاته متحدة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التقريري التعجبي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ للدلالة على استمرار قولهم، أو لاستحضار صورته الماضية.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾؛ لأنه كناية عن الانهزام الملزوم لتولية الأدبار.

ومنها: الإطناب، بتكرار القسم في قوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ إلى آخر القسمات المذكورة هنا لغرض تأكيد الكلام.

ومنها: حذف جواب الشرط في كل القسمات المذكورة اختصاراً لدلالة جواب القسم عليه.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ لما فيه من إسناد ما للمفعول إلى الفاعل؛ لأن المخاطبين ـ وهم المسلمون ـ مرهوبون لا راهبون.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾؛ لأن الظرف متعلق بـ﴿شَدِيدٌ﴾، فتقديم المعمول على عامله يفيد الحصر.

ومنها: الطباق بين ﴿جَمِيعًا﴾ و﴿شَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

ومنها: ما في هذه الآية من اللطائف والنكت، وهو تشجيع قلوب المؤمنين على قتالهم، وتجسير لهم، وأن اللائق بهم الاتفاق والاتحاد صورة ومعنى، كما كان المؤمنون متفقين في عهد النبي - ﷺ -.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾؛ لأن الكفر مجاز عن الإغواء والإغراء، ففيه إطلاق المسبب وإرادة السبب؛ لأن الإغواء سبب للكفر.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، حيث استعار الغد الذي هو اسم لليوم الذي بعد يومك ليوم القيامة بجامع القرب في كل، وإن كان القرب في يوم القيامة مجازياً، لأن كل آتٍ قريب.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ وجه الشبه منتزع من أمور متعددة.

ومنها: الإتيان بضمير الفصل في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ إفادة للحصر؛ لأنه يستفاد منه: أن فسقهم كان بحيث إن فسق الغير كأنه ليس بفسق بالنسبة إليه.

ومنها: تقديم أصحاب النار في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ على أصحاب الجنة للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبىء عنه عدم الاستواء

من جهتهم لا من جهة مقابليهم، كما مر في مبحث التفسير مبسوطاً.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: نسوا حقوق الله تعالى، فأنساهم حظوظ أنفسهم.

ومنها: الطباق بين أصحاب النار وأصحاب الجنة في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ﴾ إلخ، وبين الجنة والنار أيضاً، وبين الغيب والشهادة في قوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ﴾؛ لأن لفظ المثل صار حقيقة عرفية في القول السائر، ثم استعير هنا لكل أمر غريب وصفة عجيبة الشأن تشبيهاً له بالقول السائر في الغرابة، لأنه لا يخلو عن غرابة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة من المقاصد والأغراض

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ تنزيه الله لنفسه عن كل نقص.

٢ ـ ذكر غلبة الله ورسوله لأعدائه.

٣ ـ تقسيم الفيء الذي أخذ من بني النضير مع ذكر المصارف التي يوضع فيها.

٤ ـ أخلاق المنافقين المضلين، وأخلاق أهل الكتاب الضالين مع ضرب المثل لهم.

٥ ـ ذكر نصائح للمؤمنين.

٦ ـ إعظام شأن القرآن، وإجلال قدره.

٧ ـ وصف الله سبحانه نفسه بأوصاف الجلال والكمال.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تم تفسير هذه السورة الكريمة بعون الله وتوفيقه قبيل صلاة المغرب من اليوم التاسع والعشرين من شهر شوال، يوم الخميس من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمسة عشر من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الممتحنة

سورة الممتحنة مدنية، نزلت بعد الأحزاب، قال القرطبي: في قول الجميع، وأخرج[1] ابن الضريس والنحاس وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الممتحنة بالمدينة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. والممتحنة ـ بكسر الحاء ـ اسم فاعل، أضيف الفعل إليها مجازاً، كما سميت: سورة براءة، والفاضحة؛ لكشفها عن عيوب المنافقين. وقيل: الممتحَنة ـ بفتح الحاء ـ اسم مفعول، أضافها إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، لقوله: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ . . .﴾ الآية. وهي امرأة عبد الرحمٰن بن عوف، والدة إبراهيم بن عبد الرحمٰن. ا هـ. «قرطبي». وفي «زاده»: الممتحِنة ـ بكسر الحاء ـ: المختبرة، أضيفت السورة إلى الجماعة الممتحنة من حيث إنه ذكر فيها أمر جماعة المؤمنين بالامتحان، وإن فتحت الحاء.. يكون المعنى: سورة المرأة المهاجرة التي نزلت فيها آية الامتحان. ا هـ.

وآياتها: ثلاث عشرة آية، وكلماتها: ثلاث مئة وثمان وأربعون كلمة، وحروفها: ألف وخمس مئة وعشر.

تسميتها: تسمى سورة الممتحنة كما مرّ لذكر الامتحان فيها. وتسمى[2] سورة براءة، وسورة المبعثرة، وسورة الفاضحة.

مناسبتها لما قبلها من وجهين[3]:

١ ـ أنه ذكر في السابقة موالاة الذين نافقوا للذين كفروا من أهل الكتاب، وذكر هنا نهي المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء لئلا يشبهوا المنافقين.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

٢ ـ أنه ذكر في السابقة المعاهدين من أهل الكتاب، وذكر هنا المعاهدين من المشركين.

وعبارة أبي حيان هنا[١]: ومناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه لما ذكر فيما قبلها حالة المنافقين والكفار افتتح هذه بالنهي عن موالاة الكفار والتودد إليهم. انتهت.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال ابن حزم[٢]: سورة الممتحنة فيها من المنسوخ ثلاث آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ...﴾ الآية (٨)، نسخت بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ...﴾ الآية (٩). وهذا مما نسخ فيه العموم بتفسير الخصوص.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ...﴾ الآية (١٠)، فنسخت بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ...﴾ الآية (١٠). وقيل: نسخت بقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ...﴾ الآية.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ...﴾ الآية (١١)، نسخت بآية السيف.

فضلها: ومما ورد في فضلها: ما روي[٣] عن النبي ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة الممتحنة.. كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة». ذكره «البيضاوي» ولكن هذا حديث لا أصل له.

فائدة: في ذكر تسمية هذه السورة بالممتحنة ـ بكسر الحاء ـ على صيغة اسم الفاعل: لعل[٤] هذا الاسم مأخوذ من قوله تعالى فيما بعد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾. أمر الله المؤمنين هناك بالامتحان، فهم الممتحنون ـ بكسر الحاء ـ حقيقة، وأضيف الامتحان إلى السورة مجازاً، فسميت بسورة الممتحنة للمبالغة. ويحتمل أن يكون المراد الجماعة

---

(١) البحر المحيط.
(٢) ابن حزم.
(٣) البيضاوي.
(٤) روح البيان بتصرف.

الممتحنة؛ أي: المأمور بامتحانها. ويؤيده ما روي: أنه قد تفتح الحاء، فيكون المراد النساء المختبرة، فالإضافة بمعنى اللام التخصيصية؛ أي: السورة التي تذكر فيها النساء الممتحنة؛ أي: المختبرة، مثل: سورة البقرة وأمثالها. ويحتمل أن يكون مصدراً ميمياً بمعنى الامتحان، على ما هو المشهور من أن المصدر الميمي وأسماء المفعول والزمان والمكان فيما زاد على الثلاثي تكون على صيغة واحدة؛ أي: سورة الامتحان، مثل سورة الإسراء وغيرها. انتهى من «الروح».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا
جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي
وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ
سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ
تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
(٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ
إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)
لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ (٦) ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (٧) لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ
وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم
مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾.

المناسبة

قد سبق لك قريباً بيان المناسبة بين هذه السورة والسابقة. وأما قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾ الآيات، فمناسبتها لما قبلها: أن الله[1] سبحانه وتعالى لما أنكر عليهم موالاتهم للكافرين، وذكر لهم الموانع التي تمنع من ذلك؛ كإخراجهم من الديار، وتمني الكفر لهم، وصدهم عن هداية الدِّين، وكفرهم بالرسول وبما جاء به، وأنهم متى وجدوا سبيلاً لأذاهم بقول أو فكر سلكوه غير آبهين لصلة رحم ولا قربى.. أكد هنا ذلك فأمرهم أن يأتسوا بإبراهيم

(١) المراغي.

وأصحابه؛ إذ تبرؤوا من قومهم وعادوهم، وقالوا لهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾. قال الفراء فكأنه يقول: أفلا تأسيت ـ يا حاطب ـ بإبراهيم حين تبرأ من أهله، ولتعلم أن الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرا الإيمان.

قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نهاهم عن موالاة الكفار وإلقاء المودة إليهم، وضرب لهم المثل بإبراهيم وقومه حملهم ذلك على أن يظهروا براءتهم من أقربائهم والتشدد في معاداتهم ومقاطعتهم، وكان ذلك عزيزاً على نفوسهم ويتمنون أن يجدوا المخلص منه.. أردف ذلك سبحانه أنه سيغير من طباع المشركين ويغرس في قلوبهم محبة الإسلام، فيتم التواد والتصافي بينكم وبينهم، وفي ذلك إزالة الوحشة من قلوب المؤمنين، وتطييب لقلوبهم. وقد أنجز الله وعده، فأتاح للمسلمين فتح مكة، فأسلم قومهم وتمّ لهم ما كانوا يريدون من التحاب والتواد. ثم رخص لهم في صلة الذين لم يقاتلوهم من الكفار ولم يخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا على إخراجهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما: أن سارة ـ التي كانت مغنية ونائحة بمكَّة ـ أتت المدينة تشكو الحاجة، فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ بني عبد المطلب أن يعطوها ما يدفع حاجتها، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها، فجاءها حاطب بن أبي بلتعة ـ مولى عبد الله بن حميد بن عبد العزى ـ فأعطاها عشرة دنانير، وكتب معها كتاباً ـ إلى أهل مكة، هذا صورته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة: إن رسول الله ـ ﷺ ـ يريدكم، فخذوا حذركم. فأخبره جبرئيل به، فبعث إليها علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرشد ـ وكانوا فرساناً ـ وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ـ موضع ـ فإن بها ظعينة امرأة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها وخلوها، فإن أبت.. فاضربوا عنقها. فأدركوها، فجحدت وحلفت فهموا بالرجوع، فقال علي: والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ـ ﷺ ـ، وسل سيفه وقال لها: أخرجي الكتاب أو ألقي ما معك من الثياب، فأخرجته من

عقاص شعرها، فأحضر رسول الله ـ ﷺ ـ حاطباً وقال له: ما حملك عليه؟ فقال: يا رسول الله! لا تعجل عليَّ، ما كنتُ كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرأً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني. فصدقه رسول الله ـ ﷺ ـ وقبل عذره. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال ـ ﷺ ـ: إنه شهد بدراً، وما يدريك؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ...﴾ الآيات.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: أتتني أمي راغبة، فسألت النبي ـ ﷺ ـ: أأَصِلها. قال: «نعم». فأنزل الله سبحانه فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

وأخرج أحمد والبزار والحاكم، وصححه عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قُتيلة ـ مصغراً ـ بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية، فقدمت بهدايا صنابٍ ـ صباغ يتخذ من الخردل أو الزبيب وأقط وسمن ـ وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخل بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن تسأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن هذا، فسألت، فأنزل الله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ...﴾ الآية، فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها.

وقال الحسن وأبو صالح: نزلت الآية في خزاعة، وبني الحارث بن كعب، وكنانة، ومزينة، وقبائل من العرب كانوا صالحوا رسول الله ـ ﷺ ـ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾؛ أي: لا تجعلوا ﴿عَدُوِّى﴾ في الدين، مفعول أول، ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ في القتل، معطوف عليه، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي:

أصدقاء لأنفسكم، مفعول ثان. وأضاف[1] سبحانه العدوّ إلى نفسه تعظيماً لجرمهم. والعدو مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة. والآية تدل على النهي عن موالاة الكفار ومصادقتهم بوجه من الوجوه. وقد تقدم ذكر القصة التي نزلت فيها الآية، وفي تلك القصة إشارة[2] إلى جواز هتك ستر الجواسيس وهتك أستار المفسدين إذا كان فيه مصلحة أو في ستره مفسدة، وأن من تعاطى أمراً محظوراً ثم ادعى له تأويلاً محتملاً.. قبل منه، وأن العذر مقبول عند كرام الناس.

روي: أن حاطباً - رضي الله عنه - لما سمع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان، لما علم أن الكتاب المذكور ما أخرجه عن الإيمان؛ لسلامة عقيدته. ودل قوله: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ على إخلاصه؛ فإن الكافر ليس بعدو للمنافق بل للمخلص.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم﴾؛ أي: توصلون إلى أولئك الأعداء ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾؛ أي: بالمحبة بالكتاب. والمودة: محبة الشيء وتمني كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين. أي: توصلون محبتكم بالمكاتبة ونحوها من الأسباب التي تدل على المودة، على أن الباء زائدة في المفعول، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾. أو تلقون إليهم أخبار النبي - ﷺ - وأسراره بسبب المودة، التي بينكم وبينهم. فيكون المفعول محذوفاً للعلم به، والباء للسببية، والجملة حال من فاعل ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾؛ أي: لا تتخذوهم أولياء حال كونكم ملقين المودة إليهم. ويجوز[3] أن تكون الجملة مستأنفة لقصد الإخبار بما تضمنته، أو لتفسير موالاتهم إياهم. ويجوز أن تكون في محل نصب صفة لأولياء. وفي «فتح الرحمٰن»: بدأه هنا بـ﴿تُلْقُونَ﴾ وفيما سيأتي بـ﴿تُسِرُّونَ﴾ تنبيهاً بالأول على ذم مودة الأعداء جهراً وسراً، وبالثاني على تأكيد ذمها سراً، وخص الأول بالعموم لتقدمه.

فإن قلت[4]: قد نهوا عن اتخاذهم أولياء مطلقاً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾، والتقييد بالحال يوهم جواز اتخاذهم أولياء إذا

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

انتفى الحال.

قلت: عدم جوازه مطلقاً لما علم من القواعد الشرعية تبين أنه لا مفهوم للحال هنا ألبتة.

فإن قلت: كيف قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ والعداوة والمحبة لكونهما متنافيين لا يجتمعان في محل واحد، والنهي عن الجمع بينهما فرع إمكان اجتماعهما؟

قلت: إنما كان الكفار أعداء للمؤمنين بالنسبة إلى معاداتهم لله ورسوله، ومع ذلك يجوز أن يتحقق بينهم الموالاة والصداقة بالنسبة إلى الأمور الدنيوية والأغراض النفسانية، فنهى الله عن ذلك.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ حال من فاعل ﴿تُلْقُونَ﴾ أو من فاعل ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان حال الكفار. و﴿الْحَقِّ﴾ هو القرآن، أو دين الإسلام، أو الرسول - ﷺ -.

وقرأ الجمهور[1] ﴿بِمَا جَاءَكُمْ﴾ بالباء الموحدة. وقرأ الجحدري والمعلى عن عاصم ﴿لما جاءكم﴾ باللام مكان الباء. أي: لأجل ما جاءكم من الحق، على حذف المكفور به. أي: كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سبباً للكفر توبيخاً لهم.

والمعنى[2]: يا أيها الذين آمنوا لا تجعلوا الكفار أنصاراً وأعواناً وأصدقاء لكم، حال كونكم توصلون إليهم أخبار الرسول - ﷺ - التي لا ينبغي لأعدائه أن يطلعوا عليها، من خطط حربية أو أعمال نافعة في نشر دِينه وبث دعوته، بسبب ما بينكم وبينهم من مودة.

ثم ذكر مما يمنع هذا الاتخاذ أمرين:

١ - ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ...﴾ إلخ. أي: والحال أنهم قد كفروا بالله ورسوله، وكتابه الذي أنزله عليكم، فكيف بكم بعد هذا تجعلونهم أنصاراً وتسرون إليهم بما ينفعهم ويضر رسولكم ويعوق نشر دينكم!؟

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

٢ - ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ حال من فاعل كفروا؛ أي: كفروا مخرجين الرسول وإياكم من مكة. والمضارع لاستحضار الصورة الماضية.

وقوله تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليل للإخراج. أي: يخرجونكم لأجل إيمانكم، أو كراهة أن تؤمنوا. وفيه[١] تغليب المخاطب على الغائب. أي: على الرسول. والالتفات من التكلم إلى الغيبة، حيث لم يقل: أن تؤمنوا بي للإشعار بما يوجب الإيمان من الألوهية والربوبية؛ أي: يخرجون الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، ولم يكن لهم جريمة سوى ذلك. وفي هذا تهييج لهم على عداوتهم وعدم موالاتهم.

ثم زادهم تهييجاً بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ من مكة إلى المدينة ﴿جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى﴾ ونشر ديني ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾؛ أي: وطلباً لمرضاتي. وهذا مرتبط بـ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾، وجواب الشرط محذوف؛ أي: إن كنتم كذلك.. فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، فكأنه قيل: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي. وانتصاب ﴿جِهَـٰدًا﴾. ﴿وَٱبْتِغَآءَ﴾ على أنهما مفعولان لأجله لـ﴿خَرَجْتُمْ﴾. أي: إن كنتم خرجتم عن أوطانكم لأجل هذين.. فلا تتخذوهم أولياء، ولا تلقوا إليهم بالمودة. أو على الحال؛ أي[٢]: إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين مرضاتي عنكم.. فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم. والجهاد - بالكسر -: القتال مع العدو، كالمجاهدة، كما سيأتي بسطه. والمرضاة: مصدر كالرضا. وفي عطف ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ على ﴿جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى﴾ تصريح بما علم التزاماً. فإن الجهاد في سبيل الله إنما هو لإعلاء دين الله لا لغرض آخر. وإسناد الخروج إليهم معللاً بالجهاد والابتغاء يدل على أن المراد من إخراج الكفرة كونهم سبباً لخروجهم بأذيتهم لهم، فلا ينافي تلك السببية كون إرادة الجهاد والابتغاء علة له.

وقوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ والنصيحة، استئناف وارد على[٣] نهج العتاب والتوبيخ، كأنهم سألوا: ماذا صدر عنا حتى عوتبنا؟ فقيل: تلقون إليهم بالمودة سراً على أن الباء صلة جيء بها لتأكيد التعدية، أو الإخبار بسبب المودة، ويجوز أن يكون تعدية الإسرار بالباء لحمله على نقيضه الذي هو الجهر. وقيل: هو بدل من

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

قوله: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم﴾ بدل بعض لأن إلقاء المحبة يكون سراً وجهراً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَاْ أَعْلَمُ﴾ حال من فاعل ﴿تُسِرُّونَ﴾؛ أي: تسرون إليهم بالمودة والنصيحة، والحال أني أعلم منكم ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾؛ أي: بما أضمرتم في صدوركم من مودة الأعداء ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾؛ أي: وما أظهرتم بألسنتكم من الاعتذار وغير ذلك. فإذا علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي.. فأي فائدة في الإسرار والاعتذار. والباء في ﴿بِمَآ﴾ زائدة، يقال: علمت كذا، وعلمت بكذا. وهذا على أن ﴿أَعْلَمُ﴾ مضارع. وقيل: هو أفعل تفضيل. أي: أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون.

ثم توعد من يفعل ذلك، وشدد النكير عليه، وذكر ما فيه أعظم الزجر، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ﴾؛ أي: يفعل الاتخاذ المنهي عنه. أي: ومن يفعل ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ما نهيت عنه من موالاتهم. والأقرب عَوْدُ الضمير إلى الإسرار. أي: ومن يفعل إسرار النصيحة للكفار ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: طريق الحق والصواب الموصل إلى الفوز بالسعادة الأبدية. وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف. و﴿ضَلَّ﴾ متعد، و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ مفعوله. ويجوز أن يجعل قاصراً وينتصب ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ على الظرفية.

قال القرطبي(١): هذا كله معاتبة لحاطب وهو يدل على فضله ونصيحته لرسول الله - ﷺ - وصدق إيمانه، فإن المعاتبة لا تكون إلا من حبيب لحبيب كما قيل من الوافر:

إِذَا ذَهَبَ ٱلْعِتَابُ فَلَيْسَ وُدٌّ ... وَيَبْقَىٰ ٱلْوُدُّ مَا بَقِيَ ٱلْعِتَابُ

والعتاب: إظهار الغضب على أحد لشيء مع بقاء المحبة بالترك. وقال بعضهم: العتاب: لوم الحبيب حبيبه على أمر غير لائق به، كما في الدمنهوري في العروض.

وفي الآية(٢) إشارة إلى عداوة النفس والهوى والشيطان، فإنها تبغض عبادة الله، وتبغض عباد الله أيضاً إذا لم يكونوا مطيعين لها في إنفاذ شهواتها وتحصيل

---

(١) قرطبي. (٢) روح البيان.

مراداتها. وأصل عداوة النفس: أن تقطعها من مألوفاتها، وتحبسها في مجلس المجاهدة. وعلامة حب الله: بغض عدو الله. وقال ـ ﷺ ـ: «أفضل الإيمان: الحب في الله والبغض في الله».

والمعنى[1]: ومن يفعل هذه الموالاة، ويبلغ أخبار الرسول ـ ﷺ ـ لأعدائه.. فقد جار عن قصد الطريق التي توصل إلى الجنة ورضوان الله تعالى.

ثم ذكر أموراً أخرى تمنع موالاتهم، فقال:

١ ـ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾؛ أي: يظفروا بكم، ويتمكنوا منكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾؛ أي: يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة، ويرتبوا عليها أحكامها، ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم. أو إن يلقوكم ويصادفوكم.. يظهروا لكم العداوة. والمعنيان متقاربان. والثَّقَفُ[2]: الحذق في إدراك الشيء وفعله، ومنه: المثاقفة: وهي: طلب مصادفة الغرة في المسابقة؛ أي: إن يظفر بكم هؤلاء الذين تسرون إليهم بالمودة.. يكونوا حرباً عليكم ويفعلوا بكم الأفاعيل.

٢ ـ ﴿وَيَبْسُطُوا﴾ يمدوا ويطيلوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالسوء. أي: بالقتل والأسر والضرب. ﴿و﴾ يبسطوا إليكم ﴿ألسنتهم بالسوء﴾؛ أي: بالشتم والسب والطعن في دينكم.

والمعنى: أي ويمدوا أيديهم وألسنتهم لقتالكم وأذاكم وسبكم وشتمكم، فكيف ترونهم على هذه الحال، وتتخذونهم أصدقاء وأولياء؟!. ﴿وَوَدُّوا﴾؛ أي: تمنوا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ بربكم؛ أي: ارتدادكم وكونكم مثلهم في الكفر الذي هم عليه، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾. فكلمة ﴿لَوْ﴾ هنا مصدرية وصيغة الماضي للإيذان بتحقق ودادتهم قبل أن يثقفوهم أيضاً، فهو معطوف على ﴿يبسطوا﴾.

والخلاصة: أن هؤلاء يودون لكم كل ضرر وأذى في دينكم ودنياكم، فكيف بكم بعد هذا تمدون إليهم حبال المودة وتوثقون عرا الإخاء؟ فهذا مما لا يرشد إليه عقل، ولا يهدي إليه دين.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ثم ذكر أن ما جعلوه سبباً من المحافظة على الأهل والأولاد لا ينبغي أن يقدم على شؤون الدِّين، فقال: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾؛ أي: قراباتكم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذين توالون المشركين لأجلهم. وتتقربون إليهم محاماة عليهم. جمع ولد، بمعنى: المولود، يعم الذكر والأنثى. وخصهم بالذِّكر[1] مع دخولهم في الأرحام لمزيد المحبة لهم والحنو عليهم. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بجلب نفع أو دفع ضر. ظرف لقوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾، فيوقف عليه ويبتدأ بما بعده.

ثم بين السبب في عدم نفعهم، فقال: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ استئناف لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد يومئذ. أي: يفرق الله بينكم بما اعتراكم من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر. حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ الآية. فما لكم ترفضون حق الله تعالى أي فكيف ترفضون أوامر الله تعالى لمراعاة حق من يفر منكم غداً؟. وقيل: يفرق بين الوالد وولده وبين القريب وقريبه، فيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار.

والمعنى[2]: أن هؤلاء لا ينفعونكم حتى توالوا الكفار لأجلهم، كما وقع في قصة حاطب بن أبي بلتعة، بل الذي ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار وترك موالاتهم. وقيل: الظرف متعلق بما بعده؛ أي: يفصل بينكم يوم القيامة.

ثم أوعد من يفعل ذلك، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وتقولون: ﴿بَصِيرٌ﴾ سميع، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأقوالكم فيجازيكم على ذلك. وهو أبلغ من خبير؛ لأنه جعله كالمحسوس بحاسة البصر، مع أن المعلوم هنا أكثره المبصرات من الكتاب والإتيان بمن يحمل الكتاب وإعطاء الأجرة للحمل وغيرها، فهو تعالى محيط بأعمالكم جميعها ومجازيكم عليها إن خيراً.. فخير وإن شراً فشر، فاتقوا الله في أنفسكم واحذروه.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿يُفْصَلُ﴾ بالياء مخففاً مبنياً للمفعول. وقرأ الأعرج، وعيسى، وابن عامر كذلك، إلا أنه مشدد، والمرفوع إما: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وهو مبني على الفتح لإضافته إلى مبني، وإما ضمير المصدر المفهوم من ﴿يَفْصِلُ﴾؛ أي: يفصل

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

هو؛ أي: الفصل. وقرأ عاصم والحسن والأعمش ﴿يَفْصِلُ﴾ بالياء مخففاً مبنياً للفاعل. وحمزة والكسائي وابن وثاب مبنياً للفاعل بالياء المضمومة مشدداً. وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة كذلك إلا أنه بالنون مشدداً. وهما أيضاً وزيد بن علي بالنون المفتوحة مخففاً مبنياً للفاعل، وأبو حيوة أيضاً بالنون المضمومة. فهذه ثمان قراءات.

ولما نهى عن موالاة الكفار.. ذكر قصة إبراهيم عليه السلام،وأن من سيرته: التبرؤ من الكفار؛ ليقتدوا به في ذلك، ويتأسوا، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ أي: خصلة حميدة ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل عليه السلام، تقتدون بها وتتبعونه فيها. وقرأ الجمهور[1]: ﴿إسوة﴾ بكسر الهمزة في الموضعين. وقرأ عاصم بضمها كذلك. وهما لغتان. قال الراغب: الإسوة والأسوة بالضم والكسر كالقدوة والقدوة، هي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره، إن حسناً وإن قبيحاً، وإن ساراً وإن ضاراً. والأسى ـ بالقصر ـ: الحزن، وحقيقته: إتباع الفائت بالغم. وقوله: ﴿أُسْوَةٌ﴾: اسم كانت و﴿لَكُمْ﴾ خبرها، و﴿حَسَنَةٌ﴾: صفة أسوة، مقيدة إن عمت الأسوة المحمودة والمذمومة، وكاشفة مادحة إن لم تعم. و﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: صفة ثانية لأسوة، أو متعلق بأسوة أو بحسنة، أو حال من الضمير المستتر في ﴿حَسَنَةٌ﴾، أو خبر كان، و﴿لَكُمْ﴾: للبيان. ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾؛ أي: مع إبراهيم. معطوف على إبراهيم، وهم أصحابه المؤمنون. وقال ابن زيد: هم الأنبياء. قال الفراء: فكأنه يقول: أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم فتتبرأ من أهلك كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه.

وفي «كشف ما يلتبس من القرآن»[2]: قاله هنا بتأنيث الفعل مع الفاصل لقربه وإن جاز التذكير، وأعاده في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ بتذكيره مع الفاصل لكثرته وإن جاز التأنيث. وإنما كرر ذلك لأن الأول في القول والثاني في الفعل، وقيل: الأول في إبراهيم والثاني في محمد ـ ﷺ ـ. انتهى.

والمعنى[3]: قد كانت خصلة حميدة حقيقة بأن يؤتسى ويقتدى بها، ويتبع أثرها في إبراهيم والذين معه. وقولهم: لي في فلان أسوة؛ أي: قدوة، من باب

---

(١) الشوكاني. (٢) فتح الرحمٰن. (٣) روح البيان.

التجريد، لا أن فلاناً نفسه هو القدوة. ويجوز أن يكون على حذف المضاف؛ أي: لي في سنته وأفعاله وأقواله. وقيل: المراد بالذين معه الأنبياء الذين كانوا في عصره وقريباً منه. وقال ابن عطية: وهذا القول أرجح؛ لأنه لم يرد أن إبراهيم كان له أتباع مؤمنون في مكافحة نمرود. وفي البخاري: أنه قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجراً بلاد نمرود: ما على الأرض من يعبد الله غيري وغيرك.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ ظرف[1] لخبر كان، ومعمول له أو لكان نفسها عند من جوّز عملها في الظرف، وهو الأصح. أو بدل اشتمال من إبراهيم والذين معه. أي: وقت قولهم ﴿لِقَوْمِهِمْ﴾ أي: لقرابتهم الكفار مع أنهم أكثر من عدوكم وأقوى، وقد كان من آمن بإبراهيم أقل منكم وأضعف. ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾: جمع بريء مثل: شركاء وشريك، وظريف وظرفاء. أي: بريئون من صحبتكم وقرابتكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام؛ أي: من عبادتها معكم. أظهروا البراءة أولاً من أنفسهم مبالغة، وثانياً من عملهم الشرك، إذ المقصود من البراءة أولاً من معبودهم هو البراءة من عبادته. ويحتمل أن تكون البراءة منهم أن لا يصاحبوهم، ولا يخالطوهم، ومن معبودهم أن لا يقربوا منه ولا يلتفتوا نحوه. ويحتمل أن تكون البراءة منهم بمعنى البراءة من قرابتهم؛ لأن الشرك يفصل بين القرابات ويقطع الموالاة.

والمعنى[2]: أي قد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمٰن، تقتدون به وبالذين معه من أتباعه المؤمنين حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله وعبدوا الطاغوت: أيها القوم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد.

وحاصل معنى الآية: هلاً فعلتم كما فعل إبراهيم، حيث تبرأ هو والمؤمنون معه من أبيه وقومه لكفرهم بالله وآياته؟

وقرأ الجمهور[3]: ﴿بُرَءَٰٓؤُا۟﴾ بضم الباء وفتح الراء وألف بين همزتين، جمع بريء، كظريف وظرفاء. وقرأ عيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق: ﴿براء﴾ بكسر

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

الباء وهمزة واحدة بعد ألف، جمع بريء أيضاً، كظريف وظراف، وكريم وكرام. وقرأ أبو جعفر: ﴿براء﴾ بضم الباء وهمزة بعد ألف كتؤام وظؤار. وهم اسم جمع، الواحد: بريء، وتؤم، وظئر. ورويت عن عيسى، قال أبو حاتم: زعموا أن عيسى الهمداني رووا عنه ﴿بَرَاء﴾ على وزن فعال كالذي في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ في الزخرف. وهو مصدر على فعال، يوصف به المفرد والجمع.

ثم فسر هذه البراءة بقوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: أنكرنا دينكم فلا نعتد بشأنكم وبآلهتكم، فهو على حذف المضاف. والكفر مجاز عن عدم الاعتداد والجحد والإنكار، فإن الدِّين الباطل ليس بشيء؛ إذ الدِّين الحق عند الله هو الإسلام. ﴿وَبَدَا﴾؛ أي: ظهر ﴿بَيْنَنَا﴾ ظرف لـ﴿بدا﴾ ﴿وَبَيْنَكُمُ﴾: معطوف عليه ﴿الْعَدَاوَةُ﴾ الظاهرة، وهي: المباينة في الأفعال والأقوال. ﴿وَالْبَغْضَاءُ﴾؛ أي: العداوة الباطنة. وهي: المباينة بالقلوب. ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: على الدوام. أي: هذا دأبنا معكم لا نتركه. والبغض: ضد الحب. ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لـ ﴿بدا﴾. ﴿تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك، فتنقلب العداوة حينئذٍ ولاية، والبغضاء محبة، والمقت مِقة، والوحشة ألفة. فالبغض: نفور النفس من الشيء الذي ترغب عنه. والحب: انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه.

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ ولا بدّ في الإيمان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؟

قلت: الإيمان بالله في حال وحدته يستلزم الإيمان بالجميع، مع أن المراد الوحدة الإلٰهية رداً للأصنام.

قال بعض المشايخ: أسوة إبراهيم: خلة الله، والتبرؤ مما سوى الله، والتخلق بخلق الله، والتأوه والبكاء من شوق الله. وقال ابن عطاء رحمه الله تعالى: الأسوة القدوة بالخليل في الظاهر من الأخلاق الشريفة، وهو: السخاء، وحسن الخلق، واتباع ما أمر به على الكرب، وفي الباطن: الإخلاص في جميع الأفعال، والإقبال عليه في كل الأوقات، وطرح الكل في ذات الله تعالى. وأسوة رسول الله - ﷺ - في الظاهر العبادات، دون البواطن والأسرار؛ لأن أسراره لا يطيقها أحد من الخلق؛ لأنه باين الأمة بالمكان ليلة المعراج ووقع عليه تجلي الذات. انتهى.

أمر الله سبحانه وتعالى أصحاب رسول الله - ﷺ - أن يقتدوا بسيدنا إبراهيم عليه السلام ومن معه من الأنبياء والأولياء. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يا أبي، فليس لكم الاقتداء بإبراهيم في ذلك الاستغفار، لأنه إنما استغفر لأبيه لأجل موعدة وعدها إياه؛ لأنه ظن أنه أسلم، فلما مات على الكفر.. تبرأ منه، وأنتم لا تظنون إسلام الكفار الذين اتخذتموهم أولياء، فهو استثناء متصل من قوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وصح ذلك؛ لأن القول من جملة الأسوة، كأنه قيل: قد كانت أسوة حسنة في إبراهيم في جميع أقواله وأفعاله إلا قوله لأبيه. أو من قوله: ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بتقدير مضاف محذوف ليصحّ الاستثناء؛ أي: قد كانت لكم أسوة حسنة في مقالات إبراهيم، إلا قوله لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾. أو من التبرؤ والقطيعة التي ذكرت؛ أي: لم يواصله إلا قوله. ذكر هذا ابن عطية. أو منقطع؛ أي: لكن قول إبراهيم لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فلا تتأسوا به فتستغفرون للمشركين، فإنه كان من موعدة وعدها إياه. أو أن ذلك إنما وقع منه لأنه ظنّ أنه قد أسلم، فلما تبين له أنه عدو الله.. تبرأ منه، كما تقدم آنفاً.

والمعنى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: جحدنا ما أنتم عليه من الكفر، وأنكرنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله. فلا نعتد بكم ولا بآلهتكم، فإن ما أنتم عليه لا تقره العقول الراجحة ولا الأحلام الحصيفة، فما قيمة الأحجار والأصنام التي تتخذونها معبودات ترجون منها النفع والضرّ؟! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ...﴾ إلخ.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ أي[1]: وها نحن أولاء قد أعلنا الحرب عليكم، فلا هوادة بيننا وبينكم، وسيكون هذا دأبنا معكم لا نترككم بحال حتى تتركوا ما أنتم عليه من الشرك فتنقلب العداوة ولاية والبغضاء محبة. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ...﴾ إلخ؛ أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو الله.. تبرأ منه.

وقد كان بعض المؤمنين يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه.. فأنزل الله عز وجلّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ

---

(١) المراغي.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ...﴾ الآيتين في سورة براءة.

والخلاصة: لا تجاملوهم ولا تبدوا لهم الرأفة، وتستغفروا لهم كما فعل إبراهيم لأبيه؛ لأنه إنما استغفر له قبل أن يتبين له أنه عدو الله، فلما مات على الكفر.. تبين له ذلك فترك الاستغفار، وأنتم قد استبانت لكم عداوتهم بكفرهم بالرسول وإخراجكم من الديار فلا ينبغي أن تستغفروا لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ من تمام القول المستثنى، فمحله النصب على أنه حال من فاعل لأستغفرن لك؛ أي: أستغفر لك، وليس في طاقتي إلا الاستغفار دون منع العذاب إن لم تؤمن. فمورد الاستثناء نفس الاستغفار لا قيده الذي هو في نفسه من خصال الخير؛ لكونه إظهاراً للعجز وتفويضاً للأمر إلى الله تعالى.

وفي هذه الآية[1] دلالة بينة على تفضيل نبينا محمد - ﷺ - وذلك أنه حين أمر بالاقتداء به أمر على الإطلاق ولم يستثن، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، وحين أمر بالاقتداء بإبراهيم استثنى، وأيضاً قال تعالى في سورة الأحـــزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾. فأطلق الاقتداء ولم يقيده بشيء.

والخلاصة: أي وليس في وسعي إلا الاستغفار لك، ولا أستطيع أن أنفعك بأكثر من هذا، فإن أراد الله عقوبتك على كفرك.. فلا أدفعها عنك.

ثم أخبر عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم، ولجؤوا إلى الله وتضرعوا إليه، فقال: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ إلخ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان من دعاء إبراهيم وأصحابه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ واعتمدنا في جميع أمورنا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ بالتوبة عن المعصية والإقبال على الطاعة؛ أي: المرجع في الآخرة. وتقديم الجار والمجرور في الثلاثة لقصر التوكل والإنابة والمصير على الله تعالى. وهذا من دعاء إبراهيم وأصحابه، ومما فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها. وقيل: هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول. والتوكل: هو تفويض الأمور إلى

---

(١) روح البيان.

الله. والإنابة: الرجوع إليه بالتوبة. والمصير: المرجع إليه في الآخرة للمجازاة.

وعبارة «الكشَّاف»: فإن قلت: بم اتصل به قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾؟

قلت: بما قبل الاستثناء، وهو من جملة الأسوة الحسنة. ويجوز أن يكون المعنى: قولوا ربنا ـ أمراً من الله تعالى للمؤمنين بأن يقولوه وتعليماً منه لهم ـ تتميماً لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار، والاستئساء بإبراهيم وقومه في البراءة منهم، وتنبيهاً على الإنابة إلى الله، والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر، والاستغفار مما فرط منهم. أي: فهو مقول لقول محذوف. انتهى.

والمعنى[1]: أي ربنا اعتمدنا عليك في قضاء أمورنا، ورجعنا إليك بالتوبة مما تكره إلى ما تحب وترضى، ومصيرنا إليك يوم تبعثنا من قبورنا وتحشرنا إلى موقف العرض والحساب.

قالوه بعد المجاهدة وشق العصا التجاءً إلى الله تعالى في جميع أمورهم، لا سيما في مدافعة الكفرة وكفاية شرورهم، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ بدل من الأول، وكذا قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ فيما بعده. ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾؛ أي: مفتونين ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: بأيديهم بأن تسلطهم علينا فيفتونا بعذاب لا نطيقه، فالفتنة بمعنى المفعول، وقال الزجاج[2]: لا تظهرهم علينا، فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك، وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا، وقال بعضهم: ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا فتقتر علينا الرزق وتبسطه عليهم فيظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل. ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منا من الذنوب وإلا كان سبباً لظهور العيوب وباعثاً للابتلاء المهروب ﴿رَبَّنَا﴾ تكرير النداء للمبالغة في التضرع والجؤار، فيكون لاحقاً بما قبله، ويجوز أن يكون سابقاً لما بعده توسلاً إلى الثناء بإثبات العزة والحكمة، والأول أظهر وعليه ميل السجاوندي حيث وضع علامة الوقف الجائز على ﴿رَبَّنَا﴾ وهو في اصطلاحه ما يجوز فيه الوصل، والفصل باعتبارين، وتلك العلامة الجيم بمسماه وهو «ج». ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه، ولا يخيب رجاء من توكل عليه. ﴿الْحَكِيمُ﴾ لايفعل إلا ما فيه حكمة بالغة.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

والمعنى: واستر لنا ذنوبنا بعفوك عنها، إنك أنت الذي لا يضام من لاذ بجنابه، الحكيم في تدبير خلقه وصرفه إياهم فيما فيه صلاحهم.

ثم أعاد ما تقدم مبالغة في الحث على الائتساء بإبراهيم عليه السلام، ومن معه، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في إبراهيم ومن معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وقدوة حميدة. وكرر[1] هذا للمبالغة في الحث على الائتساء به عليه السلام، ولذلك صدر بالقسم. وجعله الطيبي من التعميم بعد التخصيص. وفي «برهان القرآن»: كرر لأن الأول في القول والثاني في الفعل. وفي «فتح الرحمٰن»: الأولى أسوة في العداوة، والثانية في الخوف والخشية. وفي «كشف الأسرار»: الأولى متعلقة بالبراءة من الكفار ومن فعلهم، والثانية أمر بالائتساء بهم لينالوا من ثوابهم ما نالوا وينقلبوا إلى الآخرة كانقلابهم. ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ سبحانه بالإيمان بلقائه ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ بالتصديق بوقوعه. وقيل: يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة. أو يطمع في الخير من الله في الدنيا والآخرة؛ لأن الرجاء والخوف يتلازمان. والرجاء[2]: ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة. وفي «المفردات»: الرجاء والطمع: توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة. والخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، كما سيأتي.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ...﴾ إلخ: بدل من ﴿لَكُمْ﴾ بدل بعض من كل، وفائدته: الإيذان بأن من آمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم، وإنَّ تَرْكَه مِنْ مخايل عدم الإيمان بهما كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾؛ أي: يعرض عن الائتساء بهم، ويمل إلى مودة الكفار، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿الْغَنِيُّ﴾ عنه وعن سائر خلقه ﴿الْحَمِيدُ﴾؛ أي: المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله، فإنه مما يوعد بأمثاله الكفرة.

أي: ومن يعرض عن الاقتداء بهم في التبرؤ من الكفار ومن والاهم.. فإن الله هو الغني وحده عن خلقه وعن موالاتهم ونصرتهم لأهل دينه، لم يتعبدهم لحاجته إليهم، بل هو ولي دينه وناصر حزبه، وهو الحميد المستحق للحمد في ذاته.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وحاصل معنى الآية[1]: أي لقد كان لكم - أيها المؤمنون - قدوة حسنة في إبراهيم ومن آمن معه من أتباعه المؤمنين، لمن كان منكم يرجو لقاء الله وجزيل ثوابه والنجاة في اليوم الآخر. ومن أعرض عما ندبه الله إليه منكم وأدبر واستكبر ووالى أعداء الله وألقى إليهم بالمودة.. فلا يضرن إلا نفسه، فإن الله غني عن إيمانه وطاعته، بل عن جميع خلقه، محمود بأياديه وآلائه عليهم. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

وقال مقاتل[2]: لما أمر الله تعالى المؤمنين بعداوة الكفار شددوا في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقاربهم.. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: حقق الله سبحانه وتعالى ﴿أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ أيهاالمؤمنون ﴿وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ من كفار مكة ﴿مَّوَدَّةً﴾؛ أي: محبة وصلة بمخالطتهم من أهل الإسلام، وذلك بأن أسلموا فيصيروا من أهل دينكم، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة، وحسن إسلامهم، ووقعت بينهم وبين من تقدمهم في الإسلام مودة، وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقربة إلى الله سبحانه، منهم: أبو سفيان بن حرب، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام. ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾؛ أي[3]: مبالغ في القدرة، فيقدر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾: فيغفر لمن أسلم من المشركين. ﴿رَّحِيمٌ﴾: فيرحمهم بقلب معاداة قلوبهم موالاة. وقيل: غفور لما فرط منكم في موالاتهم من قبل، ولما بقي في قلوبكم من ميل رحيم.

والمعنى[4]: حقق الله أن يجعل بينكم وبين أعدائكم من كفار مكة محبة بعد البغض، ومودة بعد النفرة، وألفة بعد الفرقة، والله قدير على ما يشاء، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة، غفور لخطيئة من ألقى إليهم بالمودة إذا تابوا منها، رحيم بهم أن يعذبهم بعد التوبة. وقد تم ذلك بفتح مكة حين دخل المشركون في دين الله أفواجاً، وتم بينهم التصافي والتصاهر، وكان بينهم أتم ما يكون من وثيق الصلات. كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾. وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

ثم أباح لهم صلة الذين لم يقاتلوهم من الكفار، فقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ﴾ صلة ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ أي: على الدين، أو في حق الدِّين وإطفاء نوره ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ وأوطانكم؛ أي: لا ينهاكم الله سبحانه عن مبرة هؤلاء، فإن قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ وتحسنوا إليهم بدل من[1] الموصول بدل اشتمال. لأن بينهم وبين البرّ ملابسة بغير الكلية والجزئية، فكان المنهي عنه برهم بالقول وحسن المعاشرة، والصلة، بالمال لا أنفسهم. وقوله: ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ تفسير لتبروا معطوف عليه. وضمن تقسطوا معنى الإفضاء، فعدي تعديته. أي: تفضوا إليهم بالقسط والعدل ولا تظلموهم، وناهيك بتوصية الله المؤمنين أن يستعملوا القسط مع المشركين ويتحاموا ظلمهم مترجمة عن حال مسلم يجترىء على ظلم أخيه المسلم كما في «الكشاف». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ أي: العادلين في المعاملات كلها.

ومعنى الآية[2]: أن الله سبحانه لا ينهر عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل. قال ابن زيد: كان هذا في أول الإسلام، عند الموادعة وترك الأمر بالقتال، ثم نسخ. قال قتادة: نسختها آية: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾. وقيل: هذا الحكم كان باقياً في الصلح بين النبي - ﷺ - وبين قريش، فلما زال الصلح بفتح مكة.. نسخ الحكم. وقيل: هي خاصة في حلفاء النبي - ﷺ - ومن بينه وبينه عهد، قاله الحسن. وقال الكلبي: هم خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناف. وقال مجاهد: هي خاصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا. وقيل: هي خاصة بالنساء والصبيان. وحكى القرطبي - عن أكثر أهل التأويل - أنها محكمة.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

وعبارة المراغي: ومعنى الآية[1]: أي لا ينهاكم الله عن الإحسان إلى الكفار الذين لم يقاتلوكم في الدِّين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يعاونوا على إخراجكم، وهم: خزاعة وغيرهم ممن كانوا عاهدوا رسول الله - ﷺ - على ترك القتال والإخراج من الديار، فأمر الله رسوله - ﷺ - بالبر والوفاء لهم إلى مدة أجلهم.

وفي الآية مدح للعدل؛ لأن المرء به يصير محبوباً لله سبحانه. ومن الأحاديث الصحيحة: قوله - ﷺ -: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمٰن وكلتا يديه يمين». والمراد بهم الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا عليه.

ثم زاد الأمر إيضاحاً وبياناً، فقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ وإطفاء نوره ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ وهم عتاة أهل مكة وجبابرتهم ﴿وَظَٰهَرُوا۟﴾؛ أي: عاونوا الذين قاتلوكم ﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ وهم سائر أهل مكة ومن دخل معهم في عهدهم ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ وتناصروهم. بدل اشتمال من الموصول، كما سبق. أي: إنما ينهاكم أن تتولوهم. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾؛ أي: ومن يحبهم ويناصرهم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ﴾ لا غيرهم ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بإقبالها على العذاب. أي: الكاملون في الظلم؛ لأنهم تولوا من يستحق المعاداة لكونه عدواً لله ولرسوله ولكتابه، فوضعوا المحبة موضع العداوة، فظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب. وحساب المتولي أكبر وفساد التولي أكثر، ولذلك أورد كلمة الحصر تغليظاً، وجمع الخبر باعتبار معنى المبتدأ.

والخلاصة[2]: أي إنما ينهاكم عن موالاة الذين ناصبوكم العداوة، فقاتلوكم وأخرجوكم، أو عاونوا على إخراجكم كمشركي مكة؛ فإن بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين، وبعضهم أعان المخرجين. وأكد الوعيد على موالاتهم بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنهم تولوا غير الذين يجوز لهم أن يتولوهم، ووضعوا ولايتهم في غير موضعها، وخالفوا أمر الله في ذلك.

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿ها﴾: حرف تنبيه، جملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أي﴾، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَتَّخِذُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، و﴿الواو﴾: فاعل، وجملة النهي جواب النداء. ﴿عَدُوِّى﴾: مفعول أول، ومضاف إليه، ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾: معطوف على ﴿عَدُوِّى﴾، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول ثان، ﴿تُلْقُونَ﴾: فعل، وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾. ويجوز أن تكون في موضع نصب، صفةً لأولياء ويجوز أن تكون تفسيرية، لا محل لها من الإعراب؛ لموالاتهم إياهم. وقيل: هي مستأنفة للإخبار بذلك. ﴿إِلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿تُلْقُونَ﴾. ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾: متعلق بـ﴿تُلْقُونَ﴾ أيضاً، ﴿وَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة حال من ضمير ﴿إِلَيْهِم﴾ أو من ﴿عَدُوِّى﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾، وجملة ﴿جَآءَكُم﴾ من الفعل والفاعل المستتر صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾: حال من فاعل ﴿جَآءَكُم﴾.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾: معطوف على الرسول. والجملة مستأنفة أو مفسرة لكفرهم، فلا محل لها من الإعراب على الحالين. ويجوز أن تكون حالاً من فاعل ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تُؤْمِنُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تُؤْمِنُواْ﴾، ﴿رَبِّكُمْ﴾: بدل من الجلالة، وجملة ﴿أن﴾: المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على أنه مفعول لأجله؛ أي: يخرجون الرسول وإياكم لإيمانكم بالله ربكم. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه

فعل شرط لها، وجملة ﴿خَرَجْتُمْ﴾ خبر ﴿كنتم﴾، و﴿جِهَٰدًا﴾: مفعول لأجله؛ أي: لأجل الجهاد، أو حال من فاعل خرجتم؛ أي: حال كونكم مجاهدين في سبيلي. ﴿فِي سَبِيلِي﴾: متعلق بـ﴿جِهَٰدًا﴾، ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾: معطوف على جهاداً، وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أي: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، وابتغاء مرضاتي. . فلا تتخذوهم أولياء. وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿تُسِرُّونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْهِم﴾: متعلق به، ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾: متعلق به أيضاً، والمفعول محذوف؛ أي: تسرون إليهم النصيحة، أو ﴿الباء﴾: زائدة في المفعول، والجملة الفعلية إما مستأنفة أو بدل من ﴿تُلْقُونَ﴾ بدل بعض من كل، لأن إلقاء المودة أعم من السرّ والجهر، ﴿وَأَنَا۠﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿أنا﴾: مبتدأ، ﴿أَعْلَمُ﴾: خبر على أنه اسم تفضيل، و﴿بِمَآ﴾ متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿أَخْفَيْتُمْ﴾ صلة ﴿ما﴾ والعائد محذوف تقديره: بما أخفيتموه ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ معطوف على ﴿أَخْفَيْتُمْ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿تُسِرُّونَ﴾. ويجوز أن يكون ﴿أَعْلَمُ﴾ فعلاً مضارعاً. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَفْعَلْهُ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً لاقتران الجواب بـ﴿قد﴾ الحرفية، ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: مفعول به، وقيل: منصوب على الظرفية إن قلنا: إن ﴿ضَلَّ﴾: لازم، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿يَكُونُوا﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿لَكُمْ﴾: حال من أعداء؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿أَعْدَآءً﴾: خبر ﴿يَكُونُوا﴾، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَيَبْسُطُوٓا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَكُونُوا﴾. ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يبسطوا﴾، ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾: مفعول به، ﴿وَأَلْسِنَتَهُم﴾: معطوف عليه، ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: متعلق بمحذوف حال

من الأيدي والألسنة، أي: حالة كونها متلبسة بالسوء. ﴿وَوَدُّوا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ودوا﴾: فعل ماض وفاعل، ﴿لَوْ﴾: مصدرية، وجملة ﴿تَكْفُرُونَ﴾ صلتها، وجملة ﴿لَوْ﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ أي: وودوا كفركم. والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ③﴾.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾: فعل، ومفعول به ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾: فاعل، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾: معطوف على أرحامكم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تَنفَعَكُمْ﴾؛ أي: لن تنفعكم يوم القيامة أرحامكم، فيوقف عليه. أو متعلق بما بعده؛ أي: يفصل بينكم يوم القيامة. والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿يَفْصِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿بَيْنَكُمْ﴾ متعلق بـ: يفصل ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة أو المصدرية، و﴿بَصِيرٌ﴾: خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لَكُمْ﴾: خبرها المقدم، ﴿أُسْوَةٌ﴾: اسمها المؤخر، ﴿حَسَنَةٌ﴾: نعت لـ﴿أُسْوَةٌ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: نعت آخر لـ﴿أُسْوَةٌ﴾، أو حال منها؛ لأنها وصفت، أو حال من الضمير المستكن في ﴿حَسَنَةٌ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على إبراهيم، ﴿مَعَهُۥٓ﴾: ظرف صلة ﴿الذين﴾، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، بدل اشتمال من قوله: ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وجملة ﴿قَالُوا﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها، ﴿لِقَوْمِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿قَالُوا﴾، ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾. وإن شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه ﴿بُرَءَٰٓؤُا﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا﴾، ﴿مِنكُمْ﴾: متعلق بـ﴿بُرَءَٰٓؤُا﴾، ﴿وَمِمَّا﴾: معطوف على ﴿مِنكُمْ﴾ وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من العائد المحذوف، أو

من ﴿ما﴾، ﴿كَفَرْنَا﴾ فعل وفاعل، و﴿بِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿كَفَرْنَا﴾، والجملة مفسرة للتبرؤ منهم ومما يعبدون، أو حال من الضمير المستكن في ﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾؛ أي: تبرأنا منكم حال كوننا كافرين بكم. ﴿وَبَدَا﴾: فعل ماض، ﴿بَيْنَنَا﴾: ظرف متعلق بـ﴿بَدَا﴾، ﴿وَبَيْنَكُمُ﴾: معطوف على ﴿بَيْنَنَا﴾، ﴿ٱلْعَدَٰوَةُ﴾: فاعل، ﴿وَٱلْبَغْضَآءُ﴾: معطوف عليه، ﴿أَبَدًا﴾: متعلق بـ﴿بَدَا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿كَفَرْنَا﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿تُؤْمِنُواْ﴾: فعل وفاعل، منصوب بـ: أن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تُؤْمِنُواْ﴾، ﴿وَحْدَهُۥٓ﴾: حال من الجلالة. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾؛ أي: إلى إيمانكم بالله وحده، الجار والمجرور متعلق بكل من ﴿كَفَرْنَا﴾ ﴿وَبَدَا﴾.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء متصل، ﴿قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: مستثنى من ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: منصوب، لأن القول من جملة الأسوة، فكأنه قيل: لكم فيه أسوة حسنة في جميع أحواله، من قول وفعل إلا قوله كذا. وقيل: هو استثناء منقطع، والمعنى: لكن قول إبراهيم لأبيه: لأستغفرن لك، فلا تتأسوا فيه. ﴿لِأَبِيهِ﴾: متعلق بـ﴿قَوْلَ﴾، ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أستغفرن﴾: فعل مضارع، في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنا. والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ﴿أستغفرن﴾، ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: حالية أو عاطفة؛ لأن الجملة من تمام قول إبراهيم. ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَمْلِكُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على إبراهيم ﴿لك﴾: متعلق بـ﴿أَمْلِكُ﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بمحذوف حال ﴿مِن شَىْءٍ﴾؛ لأنه في الأصل صفة لشيء، ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿شَىْءٍ﴾: مفعول أملك، وجملة ﴿أَمْلِكُ﴾: في محل النصب حال من فاعل ﴿أستغفرن﴾؛ أي: لأستغفرن لك حالة كوني غير مالك لك من الله شيئاً غير استغفاري، أو معطوفة على ﴿أستغفرن﴾. ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا . . .﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾؛ لأنه من تتمة مقول إبراهيم ومن معه، فهو من جملة المستثنى منه، فيتأسى بهم فيه، فهو من المعنى مقدم على الاستثناء، وجملة الاستثناء اعتراضية في خلال المستثنى منه. وإن شئت

قلت: ﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف، وجملة النداء، وما بعدها في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿تَوَكَّلْنَا﴾، و﴿تَوَكَّلْنَا﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا﴾، ﴿وَإِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أَنَبْنَا﴾ وجملة ﴿أَنَبْنَا﴾ معطوف على ﴿تَوَكَّلْنَا﴾. ﴿وَإِلَيْكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إليك﴾: خبر مقدم، ﴿الْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)﴾.

﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف أيضاً، ﴿لَا﴾: ناهية؛ أي: دعائية، سلوكاً مسلك الأدب مع الباري سبحانه، ﴿تَجْعَلْنَا﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به أول، مجزوم بـ﴿لَا﴾ الدعائية، ﴿فِتْنَةً﴾: مفعول ثان، وهو مصدر بمعنى المفعول كما قاله «البيضاوي»؛ أي: لا تجعلنا مفتونين بهم، بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا طاقة لنا باحتماله، أو بمعنى الفاعل؛ أي: لا تجعلنا فاتنين لهم بأن ينتصروا علينا، وتسول لهم أنفسهم أنهم على حق. ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿فِتْنَةً﴾ على الحالين، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا﴾ على كونها جواب النداء، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، كرره للتأكيد. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنْتَ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ، ﴿الْعَزِيزُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ أو خبر ﴿أَنْتَ﴾ والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿الْحَكِيمُ﴾: خبر ثان على كل حال.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾.

﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم لها، ﴿فِيهِمْ﴾: حال من ﴿أُسْوَةٌ﴾ أو متعلق بـ﴿كَانَ﴾. ﴿أُسْوَةٌ﴾: اسمها مؤخر، ﴿حَسَنَةٌ﴾: صفة ﴿أُسْوَةٌ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة مؤكدة للأولى. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور بدل بعض من كل من قوله: ﴿لَكُمْ﴾ بإعادة الجار. وقيل: بدل اشتمال ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾، وجملة ﴿يَرْجُو اللَّهَ﴾: خبر كان، ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾: معطوف على لفظ الجلالة، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول، ﴿وَمَنْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَتَوَلَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾

على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة للجواب، والجواب محذوف تقديره: فإن وبال توليه على نفسه. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ، ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾: خبر لـ﴿إن﴾ أو لـ﴿هُوَ﴾، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إن﴾ مسوقة لتعليل الجواب المحذوف.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾.

﴿عَسَى﴾: فعل ماض من أفعال الرجاء، ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب، ﴿يَجْعَلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف في موضع المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾، ﴿وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿عَادَيْتُم﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف؛ أي: وبين الذين عاديتموهم، ﴿مِّنْهُم﴾: حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أو من العائد المحذوف، ﴿مَّوَدَّةً﴾: مفعول أول لـ﴿يَجْعَلَ﴾، وجملة ﴿يَجْعَلَ﴾: صلة ﴿أنْ﴾ المصدرية ﴿أنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونها خبر ﴿عَسَى﴾، ولكنه على تأويل المشتق؛ أي: عسى الله جاعلاً، أو على حذف مضاف؛ أي: ذا جعل، أو عسى، بمعنى: حق، والمصدر المؤول مفعول به؛ أي: حقق الله جَعْلَ مودة بينكم وبينهم. وجملة ﴿عَسَى﴾ مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان للجلالة.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾.

﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل، ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَنْهَىٰكُمُ﴾، وجملة ﴿لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ صلة الموصول، ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿يُقَٰتِلُوكُمْ﴾، ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم﴾: معطوف على ﴿لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾، ﴿مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يُخْرِجُوكُم﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب، ﴿تَبَرُّوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بـ﴿أنْ﴾، وعلامة نصبه حذف النون، وجملة ﴿أنْ﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور على أنه بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل اشتمال؛ أي: لا ينهاكم عن برهم وصلتهم. ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تَبَرُّوهُمْ﴾، ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿تقسطوا﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَنْهَىٰكُمُ﴾، وجملة ﴿قَٰتَلُوكُمْ﴾ صلة الموصول، ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿قَٰتَلُوكُمْ﴾، ﴿وَأَخْرَجُوكُم﴾: معطوف على ﴿قَٰتَلُوكُمْ﴾، ﴿مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أخرجوكم﴾، ﴿وَظَٰهَرُوا۟﴾: معطوف على ﴿قاتلوكم﴾ أيضاً، ﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿ظاهروا﴾، وجملة ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ في تأويل مصدر مجرور على أنه بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل اشتمال مثل ما مر آنفاً. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَتَوَلَّهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعول به، مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، ﴿أولئك﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: خبر المبتدأ، أو خبر ﴿هُمُ﴾ والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾؛ أي: ترسلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التي بينكم وبينهم. وأصله: تلقيون بوزن تفعلون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت. . التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت القاف لمناسبة الواو. ﴿تسرون﴾: أصله: تسررون بوزن تفعلون، نقلت حركة الراء الأولى إلى السين، فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾: الود: محبة الشيء وتمني كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين. ﴿جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾: والجهاد ـ بالكسر ـ: القتال مع العدو كالمجاهدة، وفي «التعريفات»: هو الدعاء إلى الدّين الحق. وفي «المفردات»: الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، وهو جهاد العدو الظاهر، وجهاد الشيطان، وجهاد النفس، ويكون باليد واللسان. والمرضاة مصدر كالرضا. ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾: أفعل تفضيل؛ أي: من كل أحد. ويصح أن يكون فعلاً مضارعاً عدي بالباء؛ لأنك تقول: علمت بكذا. ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ في «المصباح»:

ثقفت الشيء ثقفاً من باب تعب: أخذته، وثقفت الرجل في الحرب: أدركته، وثقفته: ظفرت به، وثقفت الحديث: فهمته بسرعة، والفاعل: ثقيف. ا هـ. وفي «الروح»: الثقف: الحذق في إدراك الشيء وفعله، وثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر، ثم قد تجوز به فاستعمل في الإدراك وإن لم يكن معه ثقافة كما في هذا الموضع ونحوه. ا هـ.

﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾؛ أي: يظهروا العداوة لكم. وفيه إعلال بالإبدال، أصله: أعداو أبدلت الواو همزة لتطرفها إثر ألف أفعال الزائدة. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: أخطأ طريق الحق والصواب، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، و﴿ضَلَّ﴾: متعد، و﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: مفعوله كما مر. ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾: أصله، وددوا، أدغمت الدال الأولى بعد تسكينها في الثانية، فهو من باب فعل، بكسر العين في الماضي، وفتحها في المستقبل. ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾؛ أي: قراباتكم. قال الراغب: الرحم: رحم المرأة، وهي في الأصل: وعاء الولد في بطن أمه. ومنه: استعير الرحم للقرابة، لكونهم خارجين من رحم واحد. ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾: جمع ولد، بمعنى المولود، يعم الذكر والأنثى. ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ قال الراغب: الإسوة: بالكسر والأسوة بالضم كالقدوة والقدوة وزنا ومعنى، وهي: الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. يجمع على أسى، بضم الهمزة وكسرها. والأسى: الحزن. وحقيقته: إتباع الفائت بالغم. ﴿بُرَآءُ مِنْكُمْ﴾: جمع بريء، كظريف وظرفاء. ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا﴾ يقال: بدا الشيء بدوا وبداءً؛ أي: ظهر ظهوراً بيناً، والبادية: كل مكان يبدو ما يعن فيه؛ أي: يعرض. ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ وفي «المفردات»: الرجاء والطمع: توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة. والخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة. وفي بعض كتب التفاسير: الرجاء يجيء بمعنى توقع الخير، وهو الأمل، وبمعنى توقع الشر، وهو الخوف، وبمعنى التوقع مطلقاً. وهو في الأول حقيقة، وفي الأخيرين مجاز، وفي الثاني من قبيل ذكر الشيء وإرادة ضده، وهو جائز، وفي الثالث من قبيل ذكر الخاص وإرادة العام، وهو كثير.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾: فيه إعلال بالقلب، أصله: ينهيكم بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿تَبَرُّوهُمْ﴾: أصله: تبررونهم، حذفت نون الرفع للناصب

﴿أَن﴾ ثم نقلت حركة الراء الأولى إلى الباء فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. فهو مضارع بر، من باب فعل بكسر العين، يفعل بفتحها. ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أصله: تتوليونهم، حذفت نون الرفع لدخول الناصب، وحذفت إحدى التاءين للتخفيف، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم لما التقت ساكنة مع واو الجماعة.. حذفت.

﴿يَتَوَلَّهُمْ﴾: أصله: يتولي بوزن يتفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وحذفت للجازم، فوزنه يتفع.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: صيغة المضارع في قوله: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ لاستحضار الصورة الماضية.

ومنها: تغليب المخاطب على الغائب أي: على الرسول في قوله: ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.

ومنها: الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، حيث لم يقل؛ أن تؤمنوا بي، للإشعار بما يوجب الإيمان من الألوهية والربوبية.

ومنها: عطف ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ على ﴿جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾ تصريحاً بما علم التزاماً. فإن الجهاد في سبيل الله إنما هو لإعلاء كلمة الله ودينه، لا لغرض آخر.

ومنها: إسناد الخروج إليهم في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾ إلخ. معللاً بالجهاد والابتغاء للدلالة على أن المراد من إخراج الكفرة كونهم سبباً لخروجهم بأذيتهم لهم، فلا ينافي تلك السببية كون إرادة الجهاد والابتغاء علة له.

ومنها: الطباق بين ﴿أَخْفَيْتُمْ﴾ و﴿أَعْلَنتُمْ﴾ في قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ للإيذان بتحقق ودادتهم قبل أن يثقفوهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾. لأن

الرحم حقيقة في وعاء الولد في بطن أمه، ثم استعير للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة.

ومنها: تقديم الجار والمجرور على عامله في قوله: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ لقصر التوكل والإنابة والمصير على الله تعالى.

ومنها: تكرير المنادى في قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ للمبالغة في التضرع والجؤار، فيكون لاحقاً بما قبله. ويجوز أن يكون سابقاً لما بعده توسلاً إلى الثناء بإثبات العزة والحكمة لله، والأول أظهر.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ...﴾ الآية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

المناسبة

واعلم: أن الكافر المعاند لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة:

١ ـ أن يستمر على عناده، وإلى مثله أشار بقوله: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ...﴾ الآية.

٢ ـ أن يرجى منه أن يترك العناد، وإلى مثله أشار بقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾.

٣ ـ أن يترك العناد ويستسلم، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر المسلمين بترك موالاة المشركين.. اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام خوفاً من موالاة الكفار، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة فبين أحكام المهاجرات من النساء بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما نهى في أول السورة عن موالاة المشركين وذكر الموانع التي تمنع من موالاتهم ثم أوعد على ذلك. ولما كان الأمر

في ذلك جد خطير في سياسة الدولة الإسلامية ونشر الملة... كرر النهي عن موالاة الكافرين مرة أخرى، يهوداً كانوا أو نصارى؛ ليكون عظة وذكرى لحاطب بن أبي بلتعة ومن نحا نحوه ممن يفضلون توثيق الصلات الدنيوية على مصلحة الدعوة الدينية ويجعلون شؤون الدنيا مقدمة على شؤون الدين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: أنه لما جرى الصلح مع مشركي مكة عام الحديبية على أن من أتى النبي - ﷺ - من أهل مكة يرده إليهم وإن كان مسلماً، جاءت سُبيعة - بصيغة التصغير - بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي بالحديبية، فأقبل زوجها - وكان كافراً، وهو صيفي بن الراهب، وقيل: مسافر المخزومي - فقال: يا محمد! أردد عليّ امرأتي فأنت شرطت ذلك، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد. فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ...﴾ الآية، ا هـ. «خطيب». فاستحلفها رسول الله - ﷺ - فحلفت، فأعطى زوجها ما أنفق، وتزوجها عمر بن الخطاب. ا هـ. «بيضاوي».

وأخرج البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: أن رسول الله - ﷺ - لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ﴾ حتى بلغ ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك. وأخرجه أيضاً من حديثهما بأطول من هذا، وفيه: وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله - ﷺ -، وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون رسول الله - ﷺ - برجعها إليهم حتى أنزل الله في المؤمنات ما أنزل.

وقد اختلف العلماء في المرأة التي كانت سبباً لنزول هذه الآية على ثلاثة أقوال[1]:

أحدها: أنها سبيعة، وقد ذكرناه عن ابن عباس.

والثاني: أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وقد ذكرناه عن جماعة من أهل

---

(١) زاد المسير.

العلم، وهو المشهور.

والثالث: أميمة بنت بشر، من بني عمرو بن عوف، ذكره أبو نعيم الأصبهاني.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن منيع من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: أسلم عمر بن الخطاب فتأخرت امرأته في المشركين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر، ومحمد بن إسحاق، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عبد الله بن عمر وزيد بن حارثة يودان رجالاً من يهود، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا...﴾ الآية.

وقيل: إن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين يتقربون إليهم بذلك ليصيبوا من ثمارهم وطعامهم فنزلت هذه الآية، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (٣١٨) بغير سند، ولم يعزه لأحد، وكذلك البغوي والخازن في «تفسيرهما».

التفسير وأوجه القراءة

ولما ذكر سبحانه حكم فريقي الكافرين في جواز البرّ والإقساط للفريق الأول دون الفريق الثاني.. ذكر حكم من يظهر الإيمان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾؛ أي[1]: بدلالة ظاهر حالهن وإقرارهن بلسانهن، أو المشارفات للإيمان. ولا بعد أن تكون التسمية بالمؤمنات لكونهن كذلك في علم الله، وذلك لا ينافي امتحان غيره تعالى حال كونهن ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ من بين الكفار، متنقلات إليكم. فهو حال من المؤمنات. وذلك أن النبي - ﷺ - لما صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاءهم من المسلمين، فلما هاجر إليه النساء.. أبى الله أن يرددن إلى المشركين وأمر بامتحانهن، فقال: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾؛ أي: فاختبروهن بما يغلب به على ظنكم موافقة قلوبهن للسانهن في

---

(١) روح البيان.

الإيمان. قيل: إنه من أرادت إضرار زوجها.. قالت سأهاجر إلى محمد ـ ﷺ ـ، فلذلك أمر النبي ـ ﷺ ـ بامتحانهن. وقرىء: ﴿مهاجرات﴾ بالرفع على البدل من المؤمنات، ذكره في «البحر».

وقد اختلف فيما كان يمتحن به[1]:

فقيل: يستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج، ولا رغبة من أرض إلى أرض،ولا لالتماس دنيا، بل حباً لله ولرسوله ورغبة في دينه. وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول للممتحنة: بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت من بغض زوج، بالله ما خرجت رغبة من أرض إلى أرض، بالله ما خرجت التماس دنيا، بالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله ورغبة في الإسلام، بالله ما خرجت عشقاً لرجل من المسلمين؟ فإذا حلفت كذلك.. أعطى النبي ـ ﷺ ـ زوجها مهرها وما أنفق عليها، ولا يردها على زوجها.

وقيل: الامتحان: هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقيل: ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول الله ـ ﷺ ـ الآية، وهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إلى آخرها.

واختلف العلماء: هل دخل النساء في عهد الهدنة أم لا، على قولين فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد، وبه قال الأكثر، وعلى القول بعدمه لا نسخ ولا تخصيص.

والمعنى[2]: أي إذا جاءكم ـ أيها المؤمنون ـ النساء اللاتي نطقن بالشهادة، ولم يظهر منهن ما يخالف ذلك، مهاجرات من بين الكفار.. فاختبروا حالهن، وانظروا هل توافق قلوبهن ألسنتهن، أو هن منافقات؟

ثم ذكر جملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ليتبين أن الامتحان يفيد معرفة الظاهر فحسب، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾؛ لأنه المطلع على ما في قلوبهن، فلا حاجة له إلى الامتحان، وليس ذلك للبشر فيحتاج إليه. وفي هذا بيان أنه لا سبيل إلى الإحاطة بحقيقة إيمانهن، فإن ذلك مما استأثر الله

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

بعلمه.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ بعد الامتحان الذي أمرتم به ﴿مُؤْمِنَٰتٍ﴾ العلم الذي يمكنكم تحصيله، وهو: الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات. وإنما سماه علماً إيذاناً بأنه جار مجرى العلم في وجوب العمل به، ففي ﴿عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ استعارة كما سيأتي. ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: من الرجع[1]، بمعنى الرد، لا من الرجوع، ولذلك عدي إلى المفعول. وهذا هو الحكم الأول.

أي: فإن غلب على ظنكم إيمانهن بالحلف وغيره مما يورث اطمئنان قلوبكم على إسلامهن.. فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين.

ثم بيّن العلة في النهي عن رجعهن إليهم بقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾؛ أي: لا المؤمنات حلاً للكفار. وقرأ طلحة: ﴿لا هن يحللن لهم﴾. ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾؛ أي: ولا الكفار يحلون للمؤمنات، يعني: لا تحل مؤمنة لكافر لشرف الإيمان، ولا نكاح كافر لمسلمة لخبث الكفر. والتكرير إما لتأكيد الحرمة، وإلا.. لكفى نفي الحل عن أحد الجانبين، أو لأن الأول لبيان زوال النكاح الأول، والثاني لبيان امتناع النكاح الجديد. ﴿وَءَاتُوهُم﴾: وهذا هو الحكم الثاني. أي: وأعطوا أزواجهن ﴿مَّآ أَنفَقُواْ﴾؛ أي: مثل ما دفعوا إليهن من المهور، وذلك[2] - أي: بيان أن المراد بـ﴿مَّآ أَنفَقُواْ﴾ هو المهور - أن النبي - ﷺ - صالح عام الحديبية كفار مكة على ترك الحرب، فأمر علياً - رضي الله عنه - أن يكتب بالصلح، فكتب: باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحوا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيه الناس على أنفسهم وأموالهم، ويكف بعضهم عن بعض، على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه.. رده إليه، ومن جاء قريشاً من محمد.. لم يردوه إليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأن لا إسلال ولا إغلال، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده.. دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم.. دخل فيه. فرد رسول الله - ﷺ - أبا جندل بن سهيل، ولم يأتِ رسول الله - ﷺ - أحد من الرجال إلا ردّه في مدة العهد وإن كان مسلماً، ثم جاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أولاهن: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

فقدم أخواها عمار والوليد فكلماه في أمرها ليردها إلى قريش، فنزلت الآية، فلم يردها - ﷺ - ثم أنكحها زيد بن حارثة.

ومن هذا تعلم: أن الآية بينت أن العهد الذي أعطي كان في الرجال دون النساء، ومن ثم لم يردهن حين جئن مؤمنات.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا هو الحكم الثالث؛ أي: لا ذنب ولا إثم عليكم أيها المؤمنون في ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ أي: تنكحوا المهاجرات وتتزوجوهن بعد الاستبراء والعدة، وإن كان لهن أزواج كفار في دار الكفر. فإن إسلامهن حال بينهن وبين أزواجهن الكفار، وقد صرن من أهل دينكم ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾؛ أي: أعطيتموهن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: مهورهن. وذلك بعد انقضاء عدتهن، كما تدل عليه أدلة وجوب العدة.

﴿إِذَآ﴾[1]: ظرفية محضة، أو شرطية جوابها محذوف دل عليه ما تقدمها، وشرط إيتاء المهر في نكاحهن إيذاناً بأن ما أعطي أزواجهن لا يقوم مقام المهر؛ لأن ظاهر النظم يقتضي إيتاءين: إيتاء إلى الأزواج، وإيتاء إليهن على سبيل المهر. وفي «التيسير»: إذا التزمتم مهورهن، ولم يرد حقيقة الأداء، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾؛ أي: يلتزموها.

والمعنى[2]: أي ولا إثم عليكم ولا حرج في نكاح هؤلاء المؤمنات المهاجرات بشرط أن تتعهدوا بالمهور، وتلتزموا بأدائها. وإنما جاز لأن الإسلام حال بينهن وبين أزواجهن الكفار فكان من المصلحة أن يكون لهن عائل من المؤمنين يكفل أمر أرزاقهن.

﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾: وهذا هو الحكم الرابع؛ أي: ولا تأخذوا بعقود الكافرات غير الكتابيات؛ أي: لا يكن بينكم وبين المشركات عصمة ولا علاقة زوجية. والعصم: جمع عصمة، وهي ما يعتصم به، من عقد وسبب، والمراد بها هنا: النكاح. والكوافر: جمع كافر. والكوافر[3]: طائفتان من النساء، طائفة قعدت عن الهجرة وثبتت على الكفر في دار الحرب، وطائفة ارتدت عن الهجرة ولحقت

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

بأزواجها الكفار. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من كانت له امرأة كافرة بمكة. . فلا يُعدَّنَّ بها من نسائه؛ أي: لا ينبغي أن تبقى علاقة من علاقات الزوجية بين المؤمنين ونسائهم المشركات الباقيات في دار الشرك؛ لأن اختلاف الدين قطع عصمتها منه، فجاز له أن يتزوج بأربع سواها وبأختها من غير تربص وعدة؛ أي: لا تعتدوا بما كان بينكم وبينهن من العقد الكائن قبل حصول اختلاف الدين. وقال النخعي: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر، فيكون قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ بمقابلة قوله: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ يعني أن قوله: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ إلخ، إشارة إلى حكم اللاتي أسلمن وخرجن من دار الكفر، وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ إلخ إشارة إلى حكم المسلمات اللاتي ارتددن وخرجن من دار الإسلام إلى دار الكفر. انتهى.

وكان[١] الكفار يزوجون المسلمين، والمسلمون يتزوجون المشركات، ثم نسخ ذلك بهذه الآية. وهذا خاص[٢] بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب. وقيل: عامة في جميع الكوافر، مخصصة بإخراج الكتابيات منها. وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثني أو كتابي. . . لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدة. وقال بعض أهل العلم: يفرق بينهما بمجرد إسلام الزوج. وهذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولاً بها. وأما إذا كانت غير مدخول بها. . فلا خلاف بين أهل العلم في انقطاع العصمة بينهما بالإسلام؛ إذ لا عدة عليها.

وقرأ الجمهور[٣]: ﴿تُمْسِكُوا﴾ بضم أوله مخففاً من أمسك الرباعي، كأكرم، واختار هذه القراءة أبو عبيد؛ لقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾. وقرأ أبو عمرو، ومجاهد بخلاف عنه، والحسن، وأبو العالية، وابن جبير، والأعرج: ﴿تُمسِّكوا﴾ مشدد، مضارع مسَّك المضعف. وقرأ الحسن أيضاً، وابن أبي ليلى، وابن عامر في رواية عبد الحميد، وأبو عمرو في رواية معاذ: ﴿تَمَسَّكُوا﴾ بفتح الثلاثة، مضارع تمسَّك الخماسي، من باب تفعل، حذفت منه إحدى التاءين، والأصل: تتمسكوا. وقرأ الحسن أيضاً: ﴿تمسِكوا﴾ بكسر السين، مضارع مسك الثلاثي.

﴿وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ﴾ وهذا هو الحكم الخامس؛ أي: واسألوا ـ أيها المؤمنون ـ الكفار، واطلبوا منهم ما أنفقتم على نسائكم المرتدات اللاحقات بالكفار من

---

(١) الشوكاني. (٢) الشوكاني. (٣) البحر المحيط.

المهور. أي: إذا ارتدت امرأة أحدكم ولحقت بدار الكفر.. فاسألوا مهرها ممن تزوجها. ولعل[1] هذا لتطرية قلوب بعض المؤمنين بالمقابلة والمعادلة وإلا.. فظاهر حال الكرام الاستغناء. ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟﴾؛ أي: وليسأل الكفار وليطلبوا منكم ﴿مَآ أَنفَقُوا۟﴾ من مهور أزواجهم المهاجرات إليكم. أي: وليسأل كل معاهد أسلمت امرأته وهاجرت إليكم ممن تزوجها منكم مهرها، والمراد: أن عليكم أن تؤدوا لهم ذلك.

وظاهر قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟﴾ يدل على أن الكفار مخاطبون بالأحكام، وهو أمر للمؤمنين بالأداء مجازاً من قبيل إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، كما في قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ فإنه بمعنى: وأغلظوا عليهم.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذُكر في هذه الآية من الأحكام، أو ما ذكر من إرجاع المهور من الجهتين ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: ما حكم الله سبحانه لأن يراعى. وقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كلام مستأنف للتأكيد والحث على الرعاية والعمل به، أو في محل النصب على الحال. قال في «فتح الرحمٰن»: ثم نسخ هذا الحكم بعد ذلك، إلا قوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه لكم، يشرع ما تقتضيه المصلحة والحكمة البالغة. قال ابن العربي: حكم الله هذا كان مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين. وقال الزهري: ولولا هذه الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله - ﷺ - وبين قريش يوم الحديبية.. لأمسك النساء ولم يردَّ الصداق، وكذا كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد.

وروي[2]: أنه لما نزلت هذه الآية.. أدى المؤمنون ما أمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين، وأبى المشركون أن يؤدوا شيئاً من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين، وقالوا: نحن لا نعلم لكم عندنا شيئاً، فإن كان لنا عندكم شيء.. فوجهوا به، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ الفوت: بُعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه. وتعديته بإلى لتضمنه معنى السبق أو الانفلات، دل عليه قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾؛ أي: إلى الكفار.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

والمعنى: وإن سبقكم وانفلت منكم؛ أي: خرج وفر منكم فجأة من غير تردد ولا تدبر. ﴿شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾؛ أي: أحد من أزواجكم ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾؛ أي: إلى دارهم. وإيقاع شيء موقع أحد للتحقير والإشباع في التعميم؛ لأن النكرة في سياق الشرط تفيد العموم، والشيء لكونه أعم من الأحد أظهر إحاطة لأصناف الزوجات؛ أي: أي نوع وصنف من النساء؛ كالعربية، أو العجمية، أو الحرة، أو الأمة، أو نحوها. أو فاتكم شيء من مهور أزواجكم على حذف المضاف ليتطابق الموصوف وصفته. والزوج هنا هي المرأة. روي: أنها نزلت في أمّ الحكم بنت أبي سفيان، فرت فتزوجها ثقفي، ولم ترتد امرأة من قريش غيرها، وأسلمت مع قريش حين أسلموا. ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: من العقبة، وهي النوبة، والمعاقبة: المناوبة، يقال: عاقب الرجل صاحبه في كذا. أي: جاء فعل كل واحد منهما بعقب فعل الآخر.

والمعنى: وجاءت عقبتكم ونوبتكم من أداء المهر، بأن هاجرت امرأة الكافر مسلمة إلى المسلمين، ولزمهم أداء مهرها إلى زوجها الكافر بعدما فاتت امرأة المسلم إلى الكفار، ولزم أن يسأل مهر زوجته المرتدة ممن تزوجها منهم. شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب ونحوه؛ أي: يتناوب، وإلا.. فأداء كل واحد من المسلمين والكفار لا يلزم أن يعقب أداء الآخر؛ لجواز أن يتوجه الأداء لأحد الفريقين مراراً متعددة من غير أن يلزم الفريق الآخر شيء وبالعكس فلا يتعاقبون في الأداء..

﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ﴾؛ أي: فأعطوا من ذهبت زوجته إلى المشركين فكفرت ولم يرد عليه المشركون مهرها كما حكم الله تعالى ﴿مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾؛ أي: مثل ذلك المهر الذي أنفقه عليها.

يعني[(١)]: إن فاتت امرأة مسلم إلى الكفار ولم يعط الكفار مهرها، فإذا فاتت امرأة كافر إلى المسلمين؛ أي: هاجرت إليهم.. وجب على المسلمين أن يعطوا المسلم الذي فاتت امرأته إلى الكفار مثل مهر زوجته الفائتة من مهر هذه المرأة المهاجرة؛ ليكون كالعوض لمهر زوجته الفائتة، ولا يجوز لهم أن يعطوا مهر هذه

---

(١) روح البيان.

المهاجرة زوجها الكافر. أو المعنى[1]: وإن ذهبت أزواجكم مرتدات إلى دار الشرك ولم يعطوكم المهور اللاتي دفعتم لهن ثم ظفرتم بالمشركين وانتصرتم عليهم. . فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم من الغنيمة مثل ما أنفقوا. روي عن ابن عباس: أنه يعطي الذي ذهبت زوجته من الغنيمة قبل أن تخمس، أي: قبل أن تقسم أخماساً، كما هي القاعدة في تقسيم الغنائم كما تقدم في سورة الأنفال.

قيل: جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان، كانت تحت عياض بن شداد الفهري. وفاطمة بنت أمية، كانت تحت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، وهي أخت أم سلمة، وبروع بنت عقبة، كانت تحت شماس بن عثمان، وعبدة بنت عبد العزى بن نضلة، وزوجها عمرو بن عبدور. وهند بنت أبي جهل، كانت تحت هشام بن العاص، وكلثوم بنت جرول، كانت تحت عمر ـ رضي الله عنه ـ. وأعطاهم رسول الله ـ ﷺ ـ مهور نسائهم من الغنيمة كما في «الكشاف».

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ﴾ لا بغيره من الجبت والطاغوت ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان به تعالى يقتضي التقوى منه تعالى. أي: وخافوا الله الذي أنتم به مصدقون، فأدوا فرائضه واجتنبوا نواهيه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ بألف. وقرأ مجاهد، والزهري، والأعرج، وعكرمة، وحميد، وأبو حيوة، والزعفراني بشد القاف وحذف الألف، والنخعي والأعرج أيضاً وأبو حيوة أيضاً، والزهري أيضاً، وابن وثاب بخلاف عنه بتخفيف القاف مفتوحة. ومسروق النخعي أيضاً، والزهري أيضاً بكسرها، ومجاهد أيضاً: ﴿فأعقبتم﴾ على وزن أفعل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾: نداء تشريف وتعظيم ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ حالة كونهن ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾؛ أي: مبايعات لك؛ أي: قاصدات لمبايعتك على الإسلام، فهي حال مقدرة. نزلت يوم الفتح. فإنه ـ ﷺ ـ لما فرغ من بيعة الرجال شرع في بيعة النساء. سميت[3] البيعة لأن المبايع يبيع نفسه بالجنة، فالمبايعة مفاعلة من البيع. ومن عادة

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

الناس حين المبايعة: أن يضع أحد المتبايعين يده على يد الآخر لتكون معاملتهم محكمة مثبتة. فسميت المعاهدة بين المعاهدين مبايعة تشبيهاً لها بها في الإحكام والإبرام.

فمعنى مبايعة الأمة رسولهم: التزام طاعته، وبذل الوسع في امتثال أوامره وأحكامه، والمعاونة له، ومبايعته إياهم الوعد بالثواب، وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم في الغلبة على أعدائهم الظاهرة والباطنة، والشفاعة لهم يوم الحساب إن كانوا ثابتين على تلك المعاهدة قائمين بما هو مقتضى المواعدة، كما يقال: بايع الرجل السلطان، إذا أوجب على نفسه الإطاعة له، وبايع السلطان الرعية، إذا قبل القيام بمصالحهم وأوجب على نفسه حفظ نفوسهم وأموالهم من أيدي الظالمين.

أي: إذا جاءك المؤمنات قاصدات مبايعتك على الإسلام و﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الأشياء كائناً ما كان، من حَجَر أو شجر، أو ملك أو إنس أو جن، أو شيئاً من الإشراك ظاهراً أو خفياً. والظاهر: أن المراد الشرك الأكبر. ويجوز التعميم له وللشرك الأصغر الذي هو الرياء.

فالمعنى: يبايعنك على أن لا يتخذن إلٰهاً غير الله، ولا يعملن إلا خالصاً لوجهه. وهذا كان يوم فتح مكة؛ فإن نساء أهل مكة أتين رسول الله ـ ﷺ ـ يبايعنه، فأمره الله تعالى أن يأخذ عليهن أن لا يشركن ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾؛ أي: ولا يأخذن مال أحد بغير حق. ويكفي في قبح السرقة أن النبي ـ ﷺ ـ لعن السارق. والسرقة لغة: أخذ ما ليس له خفية، وشرعاً: أخذ مال مخصوص، من موضع مخصوص، على وجه مخصوص، كما سيأتي. ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾: والزنا: وطء المرأة من غير عقد شرعي. قال مُظهر الدِّين: الزنا في اللُّغة: عبارة عن المجامعة في الفرج على وجه الحرام. ويدخل فيه اللواطة، وإتيان البهائم، انتهى. قال ـ ﷺ ـ: «يقتل الفاعل والمفعول به». وثبت أن علياً رضي الله عنه أحرقهما، وأن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ هدم عليهما حائطاً. وذلك بحسب ما رأيا من المصلحة. وقال ـ ﷺ ـ: «ملعون من أتى امرأته في دبرها». وأما الإتيان من دبرها في قبلها.. فمباح.

قال في «اللباب»: اتفق المسلمون على حرمة الجماع في زمن الحيض، واختلفوا في وجوب الكفارة على من جامع فيه.

فذهب أكثرهم إلى أنه لا كفارة عليه، فيستغفر.

وذهب قوم إلى وجوب الكفارة عليه. انتهى.

وقال ـ ﷺ ـ: «من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه». رقيل لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما شأن البهيمة؟ قال: ما سمعت فيها من رسول الله شيئاً، ولكن أكره أن يحل لحمها وينتفع بها كذلك. ولعل إسناد الفعل إليها باعتبار تمكينها للزاني ومطاعتها له.

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ بأي سبب. وأريد به هنا: ما تفعله الجاهلية من وأد البنات؛ أي: دفنهن أحياء خوف العار والفقر. وقال ـ ﷺ ـ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي». ولعل[1] إسناد الفعل إلى النساء إما باعتبار الرضا به أو بمباشرته بأمر زوجها. وقيل: معناه: ولا يشربن دواء فيسقطن حملهن كما في «تفسير أبي الليث». وفي «نصاب الاحتساب»: تمنع القابلة من المعالجة لإسقاط الولد بعدما استبان خلقه ونفخ فيه الروح. ومدة الاستبانة والنفخ مقدرة بمئة وعشرين يوماً، وأما قبله.. فقيل: لا بأس به كالعزل، وقيل: يكره؛ لأن مآل الماء الحياة، كما إذا أتلف مُحرم بيضة صيد الحرم.. ضمن؛ لأن مآلها الحياة، فلها حكم الصيد، بخلاف العزل؛ لأن ماء الرجل لا ينفخ فيه الروح إلا بعد صنع آخر، وهو الإلقاء في الرحم، فلا يكون مآله الحياة. وقرأ علي والحسن والسلمي: ﴿ولا يُقَتِّلْنَ﴾ مشدداً.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ وكذب ﴿يَفْتَرِينَهُ﴾؛ أي: يختلقنه ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ أي: بسبب صبي ملتقط من غير أزواجهن يحملنه بين أيديهن وأرجلهن؛ أي: ولا يلحقن بأزواجهن ولداً ليس منهم. والباء للتعدية. والبهتان: الكذب الذي يبهت المكذوب عليه؛ أي: يدهشه ويجعله متحيراً، فيكون أقبح أنواع الكذب. والافتراء: الاختلاق، وقوله: ﴿يَفْتَرِينَهُ﴾ إما في موضع جر على أنه صفة لبهتان، أو نصب على أنه حال من فاعل ﴿يَأْتِينَ﴾، وقوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من الضمير المنصوب في ﴿يَفْتَرِينَهُ﴾؛ أي: يختلقنه، مقدراً وجوده بين أيديهن وأرجلهن، على أن يكون المراد بالبهتان: الولد المبهوت به، كما ذهب إليه جمهور

---

(١) روح البيان.

المفسرين.

وليس المعنى على نهيهن عن أن يأتين بولد من الزنا فينسبنه إلى الأزواج؛ لأن ذلك نهى عنه بقوله: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ بل المراد: نهيهن عن أن يلحقن بأزواجهن ولداً التقطنه من بعض المواضع. وكانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك في بطني الذي بين يدي ووضعته من فرجي الذي هو بين رجلي، فكنى عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها؛ لأن بطنها الذي تحمله فيه بين يديها ومخرجه بين رجليها.

والمعنى: ولا يجئن بصبي ملتقط من غير أزواجهن، فإنه افتراء وبهتان لهم. والبهتان من الكبائر التي تتصل بالشرك.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؛ أي: ولا يخالفن أمرك فيما تأمرهن به وتنهاهن عنه، على أن المراد من المعروف: الأمور الحسنة التي عرف حسنها في الدين فيؤمر بها، والشؤون السيئة التي عرف قبحها فيه فينهى عنها. كما قيل: كل ما وافق طاعة الله فعلاً أو تركاً.. فهو معروف، وكما روي عن بعض أكابر المفسرين من أنه هو: النهي عن النياحة والدعاء بالويل، وتمزيق الثوب وحلق الشعر ونتفه ونشره، وخمش الوجه، وأن تحدث المرأة الرجال إلا ذا رحم محرم، وأن تخلو برجل غير محرم، وأن تسافر إلا مع ذي رحم محرم. فيكون هذا للتعميم بعد التخصيص. ويحتمل أن يكون المراد من المعروف: ما يقابل المنكر، ويكون ما قبله للنهي عن المنكر، وهذا للأمر بالمعروف لتكون الآية جامعة لهما.

والتقييد بالمعروف مع أن الرسول ـ ﷺ ـ لا يأمر إلا به للتنبيه على أنه لا تجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق، فإذا شرط ذلك في طاعة النبي ـ ﷺ ـ.. فكيف في حق غيره؟ وهو كقوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، كما في «عين المعاني» فدل على أن طاعة الولاة لا تجب في المنكر. ولم يقل: ولا يعصين الله؛ لأن من أطاع الرسول.. فقد أطاع الله، ومن عصاه.. فقد عصى الله. وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر في حقهن لكثرة وقوعها فيما بينهن مع اختصاص بعضها بهن. ووجه الترتيب بين هذه المنهيات: أنه قدم الأقبح على ما هو أدنى قبحاً منه ثم كذلك إلى آخرها، ولذا قدم ما هو الأظهر والأغلب فيما بينهن.

وقال صاحب «اللباب»: ذكر الله تعالى في هذه الآية لرسول الله - ﷺ - في صفة البيعة خصالاً ستاً هنّ أركان ما نهي عنه في الدين، ولم يذكر أركان ما أمر به، وهي أيضاً ست: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحجّ، والاغتسال من الجنابة. وذلك لأن النهي عنها دائم في كل زمان وفي كل حال، فكان التنبيه على اشتراط الدائم أهم وآكد.

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾: جواب لـ﴿إِذَا﴾ الشرطية، فهو العامل فيها، فإن الفاء لا تكون مانعة. وهو أمر من المبايعة. أي: إذا بايعنك على ما ذكر، وما لم يذكر؛ لوضوح أمره وظهور أصالته في المبايعة من الصلاة والزكاة وسائر أركان الدين وشعائر الإسلام.. فبايعهن بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء. فإن المبايعة من جهة الرسول هو الوعد بالثواب، ومن جهة الآخر التزام طاعته كما سبق. وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهن إليها. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: واطلب من الله سبحانه المغفرة لهن زيادة على ما في ضمن المبايعة من ضمان الثواب. والاستغفار: طلب المغفرة للذنوب والستر للعيوب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: مبالغ في المغفرة والرحمة، فيغفر لهن ويرحمهن إذا وفين بما بايعن عليه.

والمعنى[1]: أي أيها النبي: إذا جاءك النساء المؤمنات مقدمات لك الطاعة، ملتزمات أن لا يشركن بالله شيئاً من صنم أو حجر، ولا يسرقن من مال الناس شيئاً، ولا يزنين، ولا يئدن البنات كما كن يفعلن ذلك في الجاهلية، ولا يلصقن أولاد الأجانب بأزواجهن كذباً وبهتاناً، ولا يعصينك فيما تأمرهن به أو تنهاهن عنه؛ كالنوح وتمزيق الثياب وجز الشعر وشق الجيوب وخمش الوجوه، وأن لا تخلو امرأة بغير ذي رحم محرم.. فبايعهن على ذلك، والتزم لهن الوفاء بالثواب إن هنّ أطعنكم في كل ذلك، واطلب لهن المغفرة من الله، إنه هو الغفور الرحيم لهن إذا وفين بما بايعن عليه.

قال ابن الجوزي: وجملة من أحصي من المبايعات: أربع مئة وسبع وخمسون امرأة. وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (كان رسول الله - ﷺ - يبايع النساء

(١) المراغي.

بالكلام بهذه الآية على أن لا يشركن بالله شيئاً وما مست يد رسول الله - ﷺ - يد امرأة لا يمكلها). متفق عليه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا﴾؛ أي: لا تتخذوا قوماً من الكفار أولياء وأصدقاء وأحباء وأودّاء. وقوله: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه، وسخط ﴿عَلَيْهِمْ﴾ صفة قوماً. وهم[1] جميع طوائف الكفرة، وقيل: اليهود خاصة، وقيل: المنافقون خاصة. وقال الحسن: اليهود والنصارى. والأول أولى؛ لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليهم.

أي: لا تتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم واستحقوا الطرد من رحمته أولياء لكم وأصدقاء، تسرون إليهم بما يضر نشر الدعوة ويحول دون تقدم شؤون الملة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ صفة ثانية لـ﴿قَوْمًا﴾. و﴿مِنَ﴾ لابتداء الغاية؛ أي: إنهم لا يوقنون بالآخرة ألبتة بسبب كفرهم ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾؛ أي: كيأسهم من بعث موتاهم؛ لاعتقادهم عدم البعث؛ لأنهم لا يوقنون بالآخرة البتة بسبب كفرهم، فـ﴿مِنَ﴾ لابتداء الغاية.

أي: قد يئسوا من خير الآخرة وثوابها؛ لعنادهم رسول الله - ﷺ - المبشر به في كتابهم المؤيد بالآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهم قد أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم له،وعلموا أن لا سبيل لهم إلى نيل نعيمها كما يئس الكفار من بعث موتاهم؛ لأنهم لا يعتقدون ببعث ولا نشور. وقيل: كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة؛ لأنهم قد وقفوا على الحقيقة، وعلموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة. فـ﴿مِنَ﴾ بيانية على هذا المعنى. والأول أولى.

والخلاصة[2]: يا أيها الذين آمنوا: لا تتولوا قوماً مغضوباً عليهم، قد يئسوا من أن يكون لهم حظ في الآخرة؛ لعنادهم رسول الله - ﷺ - وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة، كما يئس الكفار من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء.

---

(١) الشوكاني.   (٢) النسفي.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة، و(الهاء): حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أي﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: صلته. وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿مُهَٰجِرَٰتٖ﴾: حال من ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾، ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ وجوباً، ﴿امتحنوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿الهاء﴾: مفعول به. والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿أَعۡلَمُ﴾: خبر، ﴿بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾: متعلق بـ﴿أَعۡلَمُ﴾، والجملة معترضة. ﴿فَإِنۡ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إِنۡ﴾: حرف شرط، ﴿عَلِمۡتُمُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مُؤۡمِنَٰتٖ﴾: مفعول ثان، والجملة في محل الجزم بـ﴿إِنۡ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِنۡ﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿ترجعوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿الهاء﴾: مفعول به، ﴿إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾: متعلق بـ﴿تَرۡجِعُوهُنَّ﴾. والجملة في محل الجزم بـ﴿إِنۡ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنۡ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿هُنَّ﴾: مبتدأ، ﴿حِلّٞ﴾: خبر، ﴿لَّهُمۡ﴾: متعلق بـ﴿حِلّٞ﴾، والجملة الاسمية جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها علة لقوله: ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحِلُّونَ﴾: خبره. والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها على كونها معللة للنهي المذكور قبلها. ﴿لَهُنَّۖ﴾: متعلق بـ﴿يَحِلُّونَ﴾. ﴿وَءَاتُوهُم﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿آتوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مَّآ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿لا ترجعوهن﴾، وجملة ﴿أَنفَقُواْۚ﴾: صلة لـ﴿مَّآ﴾ الموصولة، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية للجنس، ﴿جُنَاحَ﴾: في محل

النصب اسمها، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبرها، وجملة ﴿لا﴾ النافية معطوفة على ما قبلها، ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿الهاء﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية. ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: في نكاحهن، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جُنَاحَ﴾. ﴿إِذَآ﴾: ظرف مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾ أو بـ﴿جُنَاحَ﴾، ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مفعول ثان. والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها.

﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تُمْسِكُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تُمْسِكُوا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿إِذَآ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَسْـَٔلُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ما قبله، ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿أَنفَقْتُمْ﴾: صلته، والعائد محذوف، ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: لام الأمر، ﴿يسألوا﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿أَنفَقُوا﴾: صلة لـ﴿مَآ﴾، والعائد محذوف. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿يَحْكُمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهِ﴾، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَحْكُمُ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، أو حال من الجلالة. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر أول، ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان. والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ⑪﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنْ﴾: حرف شرط ﴿فَاتَكُمْ﴾: فعل ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿شَيْءٌ﴾: فاعل، ﴿مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾: صفة لـ﴿شَيْءٍ﴾، ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾: متعلق بـ﴿فَاتَكُمْ﴾، ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: ﴿الفاء﴾:

عاطفة، ﴿عاقبتم﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿فَاتَكُمْ﴾، ﴿فَـَٔاتُوا۟﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ وجوباً، ﴿أتوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول أول، والجملة الطلبية في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾: الشرطية معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية على كونها جواباً للنداء، ﴿ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾: فعل وفاعل والجملة صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿مِّثْلَ﴾: مفعول ثان لـ﴿آتوا﴾ وهو مضاف ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿أَنفَقُوا۟﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿آتوا﴾، ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة للجلالة، ﴿أَنتُم﴾: مبتدأ، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بما بعده، ﴿مُؤْمِنُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية صلة الموصول.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، (أي): منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾: بدل منه، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف مضمن معنى الشرط، ﴿جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾: فعل وفاعل، ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من المؤمنات. أي: حالة كونهن طالبات منك المبايعة. ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يُشْرِكْنَ﴾: فعل مضارع في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية، مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، والنون فاعل، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُشْرِكْنَ﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، أو مفعول مطلق. والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ تقديره: على عدم إشراكهن بالله شيئاً، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾، ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾: فعل وفاعل في محل النصب معطوف على ﴿يُشْرِكْنَ﴾، ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على ﴿يُشْرِكْنَ﴾. ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يُشْرِكْنَ﴾، ﴿وَلَا يَأْتِينَ﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على ﴿يُشْرِكْنَ﴾، ﴿بِبُهْتَـٰنٍ﴾: متعلق بـ﴿يَأْتِينَ﴾، ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿بهتان﴾، ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿يفترين﴾،

﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: معطوف على ﴿أَيْدِيهِنَّ﴾، ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿يُشْرِكْنَ﴾، ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾: متعلق بـ﴿يَعْصِينَكَ﴾.

﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية وجوباً، ﴿بايعهن﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على النبي، ومفعول به، والجملة الفعلية جواب: ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾: فعل وفاعل مستتر، معطوف على ﴿بايعهن﴾، ﴿لَهُنَّ﴾: متعلق بـ﴿استغفر﴾. ﴿اللَّهَ﴾: مفعول به: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿غَفُورٌ﴾: خبره، ﴿رَحِيمٌ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿الَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أي﴾، والجملة مستأنفة. وجملة ﴿آمَنُوا﴾: صلة الموصول، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَتَوَلَّوْا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿غَضِبَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، والجملة صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿يَئِسُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَئِسُوا﴾. والجملة الفعلية في محل النصب مفعول ثان لـ﴿قَوْمًا﴾. ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه ﴿ما﴾ مصدرية، ﴿يَئِسَ الْكُفَّارُ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾: متعلق بـ﴿يَئِسَ﴾ أو حال من ﴿الْكُفَّارِ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، أي: كيأسهم من أصحاب القبور، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: يئسوا من الآخرة يأساً كائناً كيأسهم من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾؛ أي: فاختبروهن بما يغلب به على ظنكم موافقة قلوبهن لألسنتهن في الإيمان. ﴿عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾: ظننتموهن بالحلف وظهور الأمارات. ﴿فَلَا

﴿تَرْجِعُوهُنَّ﴾؛ أي: لا تردوهن، من الرجع بمعنى: الرد، لا من الرجوع، كما مر. ﴿حِلٌّ لَّهُمْ﴾: وزنه فعل بكسر الفاء، فهو لفيف، وهو ما كان عينه ولامه من جنس واحد. ﴿يَحِلُّونَ﴾ أصله: يحللون، بوزن يفعلون، نقلت حركة اللام الأولى إلى الحاء، فسكنت فأدغمت في اللام الثانية. ﴿وَءَاتُوهُم﴾ أصله: أأتيوهم، بوزن أفعلوهم، نظير: أكرموهم، أبدلت الهمزة الثانية الساكنة ألفاً حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى، ثم حذفت حركة الياء للتخفيف، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين، وضمت التاء لمناسبة الواو، فصار آتوهم، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يقال: جنحت السفينة؛ أي: مالت إلى أحد جانبيها، وسمي الإثم المائل بالإنسان عن الحق جُناحاً، ثم سمي كل إثم جُناحاً. ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ والعصم: جمع عصمة، وهي: ما يعتصم به، من عقد وسبب، وهي هنا عقد النكاح. والكوافر: جمع كافرة، كضوارب في ضاربة.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾: فيه إعلال بالقلب، أصله: فوتكم، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. والفوت: بُعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه. ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: من العقبة، وهي النوبة، والمعاقبة: المناوبة. يقال: عاقب الرجل صاحبه في كذا؛ أي: جاء فعل كل واحد منهما بعقب فعل الآخر. والمعنى: وجاءت عقبتكم ونوبتكم من أداء المهر. ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ والسرقة: أخذ ما ليس له أخذه خفية. ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ والزنا: وطء المرأة من غير عقد شرعي أو ملك يمين، يقصر، وإذا مد.. يصح أن يكون مصدر المفاعلة. ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾ والبهتان: الكذب الذي يبهت المكذوب عليه؛ أي: يدهشه ويجعله متحيراً، فيكون أقبح أنواع الكذب. وهو في الأصل مصدر، يقال: بهت زيد عمراً بهتاً وبهتاً وبهتاناً؛ أي: قال عليه ما لم يفعله، فزيد باهت وعمرو مبهوت، والذي بهت به مبهوت به. وإذا قالت لزوجها: هذا ولدي منك، لصبي التقطته.. فقد بهتته به؛ أي: قالت عليه ما لم يفعله، جعله نفس البهتان ثم وصفه بكونه مفترى مبالغة في وصفهن بالكذب. ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾ الافتراء: الاختلاق. يقال: فرى فلان كذباً إذا خلقه، وافتراه اختلقه. ﴿فِى مَعْرُوفٍ﴾ والمعروف: ما عرف حسنه من قبل الشرع، وفي «النهاية»: المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والإحسان إلى الناس، وكل ما أمر به الشرع ونهى عنه. ا هـ. «شهاب».

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ﴾ والاستغفار: طلب المغفرة للذنوب والستر للعيوب، كما مر.

﴿لَا تَتَوَلَّوْا﴾ أصله: تتوليون، حذفت منه نون الرفع لدخول أداة الجزم ﴿لَا﴾ الناهية، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، فوزنه: تتفعوا. ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ اليأس: انقطاع الطمع ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ والقبور: جمع قبر، والقبر: مقر الميت، والمقبرة: موضع القبور.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجملة الاعتراضية في قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ الإشارة إلى أن للإنسان الظاهر، والله يتولى السرائر.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾، لأنه استعار العلم للظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات. وسماه علماً إيذاناً بأنه جار مجرى العلم في وجوب العمل به.

ومنها: العكس والتبديل في قوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. وهو من المحسنات البديعية، وفيه التكرير أيضاً إما لتأكيد الحرمة، وإلا فيكفي نفي الحل من أحد الجانبين، وإما لأن الأول لبيان زوال النكاح الأول، والثاني لبيان امتناع النكاح الجديد، كما مر.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾؛ لأنه مجاز عن أمر المؤمنين بالأداء من قبيل إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ فإنه بمعنى: واغلظوا عليهم.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

ومنها: إيقاع شيء موقع أحد في قوله: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ للتحقير والإشباع في التعميم؛ لأن النكرة في سياق الشرط تفيد العموم، كما مر.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾. شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء

أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب ونحوه. أي: يتناوب، كما مرّ بسطه.

ومنها: النداء للتشريف والتعظيم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

ومنها: الكناية اللطيفة في قوله: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ﴾. كنَّى بذلك عن اللقيط.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾. وفيه أيضاً من المحسنات البديعية ما يسمى ردّ العجز على الصدر، حيث ختم السورة بمثل ما ابتدأها به ليتناسق البدء مع الختام.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ للإشعار بعلة يأسهم، وهو الكفر.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ النهي عن موالاة المشركين مع ذكر أسباب ذلك.

٢ ـ ضرب المثل بقصص إبراهيم وقومه.

٣ ـ امتحان النساء المؤمنات المهاجرات، وعدم إرجاعهن إلى دار الكفر.

٤ ـ مبايعة النساء المؤمنات في دار الإسلام.

٥ ـ تأكيد النهي عن موالاة المشركين، حرصاً على شؤون الملة ونشر الدعوة[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) وقد تم تفسير هذه السورة الكريمة بعون الله سبحانه وتعالى يوم الأحد قبيل غروب اليوم الثالث والعشرين من شهر الله الحرام ذي القعدة، من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

سورة الصف

سورة الصف مدنية، قال الماوردي: في قول الجميع. نزلت بعد التغابن.

وأخرج ابن الضريس[١]، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصف بالمدينة. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصف بمكة. ولعل هذا لا يصح عنه. ويؤيد كونها مدنيَّة: ما أخرجه أحمد، عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله - ﷺ - فيسأله: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يقم أحد منا، فأرسل رسول الله - ﷺ - رجلاً، فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة؛ يعني: سورة الصف كلها. وأخرجه ابن أبي حاتم، وقال في آخره: فنزلت فيهم هذه السورة. وأخرجه أيضاً الترمذي وابن حبان والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي في «الشعب» و«السنن».

وآيها[٢]: أربع عشرة. وكلماتها: مئتان وإحدى وعشرون كلمة. وحروفها: تسع مئة.

ومناسبتها لما قبلها[٣]: أنها اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه، وفي ذلك تأكيد للنهي الذي تضمنته السورة السابقة من اتخاذ الكفار من دون المؤمنين.

وقال أبو حيان[٤]: مناسبتها لآخر السورة قبلها: أن في آخر تلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فاقتضى ذلك إثبات العداوة بينهم، فحض تعالى على الثبات إذا لقي المؤمنون في الحرب أعداءهم.

تسميتها: سميت سورة الصف لذكر الصف فيها. وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة الصف كلها محكمة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله أعلم

* * *

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم
مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ
أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ
وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى
ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ
عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ...﴾ الآيات، قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به؟ فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه: إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به، وإقرار برسالة نبيه. فلما نزل الجهاد.. كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره، فأنزل الله سبحانه هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى...﴾ الآية، مناسبة

هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما أنّب التاركين للقتال الهاربين منه بقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ذكر هنا أن حالهم يشبه حال بني إسرائيل مع موسى حين ندبهم إلى قتال الجبارين بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. فلم يمتثلوا، وعصوه أشد العصيان، و﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا...﴾ الآية. وقالوا أيضاً: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، وأصروا على ذلك، وآذوه أشد الإيذاء. فوبخهم على ذلك بما جاء في الآية الكريمة، وقد صرفهم الله سبحانه عن قبول الحق، وألحق بهم الضيم والذل في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى. ومثلهم أيضاً في عصيانهم مثل بني إسرائيل حين قال لهم عيسى بن مريم: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾، وجاءهم بالبينات والمعجزات الدالة على صدقه، وقال: إني مبشر برسول يأتي من بعدي يسمى: أحمد، فعصوه وكذبوه، ولم يمتثلوا أمره.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف أن الجاحدين لنبوته - ﷺ - من المشركين وأهل الكتاب لما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مفترى.. أردف ذلك ببيان أنهم دعوا إلى الإسلام والخضوع لخالق الخلق ومبدع العالم، وأقيمت لهم على ذلك الأدلة ونصب لهم المنار، لكنهم ظلموا أنفسهم وجحدوا النور الواضح والبرهان الساطع:

قَدْ تُنْكِرُ ٱلْعَيْنُ ضَوْءَ ٱلشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ ٱلْفَمُ طَعْمَ ٱلْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

ثم بين أن السبب في ذلك هو سوء استعدادهم وتدسيتهم لأنفسهم، وأن مثلهم في صد الدعوة عن الدين مثل من يريد إطفاء نور الشمس بالنفخ بفيه، وأنى له ذلك؟ فالله متم نوره ومكمل دينه مهما جد المشركون في إطفائه. فالرسول - ﷺ - ما جاء إلا بما فيه هداية البشر وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، وبالدين الحق الذي لا تجد العقول مطعناً فيه ولا طريقاً إلّا الاعتراف بما جاء به من حكم وأحكام.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ...﴾

---

(١) المراغي.

الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما حث في الآيات السابقة على الجهاد في سبيله، ونهاهم عن أن يكونوا مثل قوم موسى في التواكل والتخاذل ـ إذ قالوا له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ـ ونهاهم أيضاً عن أن يكونوا مثل قوم عيسى في العصيان بعد أن أتى لهم بالأدلة الباهرة على صدق نبوّته.. ذكر هنا أن الإيمان بالله والجهاد بالمال والنفس في سبيله تجارة رابحة، فإن المجاهد ينال الفوز العاجل والثواب الآجل، فيظفر بالنصرة في الدنيا والغلبة على العدوّ وأخذ الغنائم وكرائم الأموال، ويحظى في الآخرة بغفران الذنب ورضوان الرب والرضوان في جنات الخلود، والإقامة ولا فوز أعظم من هذا.

ثم ضرب لهم مثلاً بقوم عيسى، فقد انقسموا فرقتين: فرقة آمنت به، وهم حواريوه، وفرقة كفرت به، وهم البقية الباقية منهم. فأمد الله المؤمنين بروح من عنده، فتم لهم الفوز والنصر على الكافرين، وغلبوهم بإذن الله، كما هي سنة الله في البشر، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾، وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ إلى آخر السورة، سبب نزول هذه السورة: ما أخرجه الدارمي في «سننه» قال: أخبرنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا﴾ حتى ختمها، قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله ـ ﷺ ـ حتى ختمها، فقرأها علينا ابن سلام. قال يحيى: قرأها علينا أبو سلمة، وقرأها علينا يحيى، وقرأها علينا الأوزاعي، وقرأها علينا محمد.

قال ابن الجوزي[1]: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ في سبب

(١) زاد المسير.

نزولها خمسة أقوال:

أحدها: ما روى أبو سلمة عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عزّ وجل عملناه؟ فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ. . .﴾ إلى آخر السورة.

والثاني: أن الرجل كان يجيء إلى النبي - ﷺ - فيقول: فعلت كذا وكذا، وما فعل، فنزلت: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. رواه عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وكذلك قال الضحاك: كان الرجل يقول: قاتلت ولم يقاتل، وطعنت ولم يطعن، وصبرت ولم يصبر. فنزلت هذه الآية.

والثالث: أن ناساً من المسلمين كانوا يقولون قبل أن يفرض الجهاد: لوددنا أن الله تعالى دلنا على أحب الأعمال إليه، فلما نزل الجهاد.. كرهه ناس من المؤمنين، فنزلت هذه الآية. رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس.

والرابع: أن صهيباً قتل رجلاً يوم بدر، فجاء رجل فادعى أنه قتله وأخذ سلبه، فقال صهيب: أنا قتلته يا رسول الله، فأمره أن يدفع سلبه إلى صهيب. ونزلت هذه الآية، رواه سعيد بن المسيب عن صهيب.

والخامس: أن المنافقين كانوا يقولون للنبي وأصحابه: لو خرجتم.. خرجنا معكم ونصرناكم، فلما خرج النبي - ﷺ -.. نكصوا عنه. فنزلت هذه الآية، قاله ابن زيد.

وقال الكلبي[1]: قال المؤمنون: يا رسول الله، لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لسارعنا إليها؟ فنزلت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. فمكثوا زماناً يقولون: لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين؟ فدلهم الله تعالى عليها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ . . .﴾ الآية. فابتلوا يوم أحد ففروا، فنزلت تعيرهم بترك الوفاء.

---

(١) القرطبي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾؛ أي: نزه[1] الله سبحانه عن كل ما لا يليق بجنابه العلي العظيم ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع؛ أي: جميع ما فيها من العلويات الفاعلة. ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ من السفليات القابلة آفاقاً وأنفساً؛ أي: سبحه جميع الأشياء من غير فرق بين موجود وموجود، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾. وقد تقدم الكلام على وجه التعبير في بعض السور بلفظ الماضي كهذه السورة، وفي بعضها بلفظ المضارع، وفي بعضها بلفظ الأمر، إرشاداً إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات، ماضيها ومستقبلها وحالها. وأعاد الموصول في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ هنا وفي الحشر وفي الجمعة والتغابن جرياً على الأصل، وأسقطه في الحديد موافقة لقوله فيها: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾. ا هـ. من «المتشابه».

وفي «الخطيب»: فإن قلت: هلاً قيل: سبح لله السماوات والأرض وما فيهما، فيكون أكثر مبالغة؟

أجيب: بأن المراد بالسماء جهة العلو، فيشمل السماء وما وفيها، وبالأرض جهة السفل، فيشمل الأرض وما فيها.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يغالب، ولا يكون إلا ما يريد. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، الذي لا يفعل إلا بالحكمة، فلا عزيز ولا حكيم على الإطلاق غيره تعالى، فلذا يجب تسبيحه.

والمعنى: أي شهد له تعالى بالربوبية والوحدانية والقدرة وغيرها من صفات الكمال جميع ما في السماوات والأرض وهو الغالب على أمره القاهر فوق عباده، الحكيم في تدبير خلقه وفق ما سنّه من السنن وأرشد إليه من ضروب الهداية.

وبعد أن وصف نفسه بصفات الكمال.. ذكر ما يلحق المخلوقين من صفات النقص، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إيماناً رسمياً ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ وتعدون ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ من الخير. روي: أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا؟ فلما نزل الجهاد.. كرهوه، فنزلت تعييراً لهم بترك

---

(١) روح البيان.

الوفاء. و﴿لِمَ﴾[1] مركبة من اللام الجارة و﴿مَا﴾ الاستفهامية قد حذفت ألفها تخفيفاً لكثرة استعمالها، كما في عمَّ وفيم ونظائرها. معناها: لأي شيء، ولأي غرض تقولون: نفعل ما لا تفعلون من الخير.

قال الزمخشري: ﴿لِمَ﴾ لام الجر داخلة على ﴿مَا﴾ الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بم، فيم، ومم، وعم وإلام، وعلام، وحتام. وإنما حذفت الألف لأن ﴿مَا﴾ وحروف الجر كشيء واحد، ووقع استعمالها كثيراً في كلام المستفهم محذوفة الألف، وجاء استعمال الأصل قليلاً. ا هـ. «خطيب».

وعبارة «البيضاوي»: و﴿لِمَ﴾ مركبة من لام الجر و﴿مَا﴾ الاستفهامية، والأكثر على حذف ألفها مع حرف الجر؛ لكثرة استعمالها معاً، فلذا استحقت التخفيف، ولاعتناقهما في الدلالة على المستفهم عنه. ا هـ.

والمعروف على أن مدار التعيير والتوبيخ في الحقيقة عدم فعلهم، وإنما وجهه إلى قولهم تنبيهاً على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد به أيضاً، وقد كانوا يحسبونه معروفاً. ولو قيل: لم لا تفعلون ما تقولون.. لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود. فليس المراد من ﴿مَا﴾ حقيقة الاستفهام؛ لأن الاستفهام من الله محال؛ لأنه عالم بجميع الأشياء، بل المراد الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان من نفسه ما لا يفعله من الخير؛ لأنه إن أخبر أنه فعل في الماضي والحال، ولم يفعله.. كان كاذباً، وإن وعد أن يفعله في المستقبل ولا يفعله.. كان خلفاً، وكلاهما مذموم. كما قال في «الكشاف»: هذا الكلام يتناول الكذب وإخلاف الوعد، وهذا بخلاف ما إذا وعد فلم يفِ بميعاده لعذر من الأعذار، فإنه لا إثم عليه.

والمعنى[2]: أي لأي غرض تقولون: لوددنا أن نعمل كذا وكذا من أفعال الخير، حتى إذا طلب منكم ذلك كرهتم ولم تفعلوا؟ والتوبيخ والإنكار موجه إلى عدم فعلهم ما وعدوا به، وإنما وجه إلى القول لبيان أن معصيتهم مزدوجة إذ هم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

تركوا فعل الخير وقد وَعدوا بفعله، كما مرّ آنفاً. وبهذه الآية وبما ثبت في السنة من نحو قوله - ﷺ -: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان». استدل السلف على وجوب الوفاء بالوعد.

ثم بيّن شدة قبح ذلك، وأنه بلغ الغاية في بغض الله له، فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾؛ أي: عظم جرماً ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ سبحانه ﴿أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ذاك أن الوفاء بالوعد دليل على كريم الشيم، وجميل الخصال، وبه تكون الثقة بين الجماعات، فترتبط برباط المودة والمحبة حين يتعامل بعض أفرادها مع بعض، ويكونون يداً واحدة فيما انتووا من الأعمال، والعكس بالعكس، فإذا فشا في أمة خلف الوعد.. قلت الثقة بين أفرادها وانحلت عرا الروابط بينهم، وأصبحوا عقداً متناثراً لا ينتفع به ولا يخاف منهم عدوّ إذا اشتدت الأزمات وعظمت الخطوب؛ لما يكون بينهم من التواكل وعدم ائتمان بعضهم بعضاً.

و﴿كَبُرَ﴾ من[1] باب نعم وبئس، فيه ضمير مبهم مفسر بالنكرة بعده، و﴿أَن تَقُولُوا﴾ هو المخصوص بالذم، ويجيء الخلاف فيه، هل رفعه على الابتداء، وخبره الجملة المتقدمة عليه أو خبره محذوف، أو هو خبر مبتدأ محذوف؟ والمقت: البغض الشديد لمن يراه متعاطياً لقبيح، وكان يسمى تزوُّج امرأة الأب: نكاح المقت. و﴿مَقْتًا﴾ منتصب على التمييز و﴿عِندَ اللَّهِ﴾: ظرف للفعل، بمعنى: في علمه وحكمته. والكلام بيان لغاية قبح ما فعلوه. أي: عظم بغضاً في علمه تعالى وحكمته هذا القول المجرد، فهو أشد ممقوتية ومبغوضية، فمن مقته الله.. فله النار، ومن أحبه الله.. فله الجنة. وقيل: إنه قصد بقوله: ﴿كَبُرَ﴾ التعجب، وقد عده ابن عصفور من أفعال التعجب. وقيل: إنه ليس من أفعال الذم ولا من أفعال التعجب بل هو مسند إلى ﴿أَن تَقُولُوا﴾. و﴿مَقْتًا﴾: تمييز محول عن الفاعل.

فائدة: وأوحى الله تعالى إلى عيسى بن مريم عليهما السلام: يا ابن مريم، عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحيي مني.

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيْمُ

---

(١) روح البيان.

قال القرطبي - رحمه الله تعالى -: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾. وقد ورد الوعيد في حق من يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضاً؛ أي: كما ورد في حق من يترك العمل. فالخوف إذا كان على كل منهما في درجة متناهية فكيف على من يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف؟! أكثر الناس في هذا الزمان هكذا، والعياذ بالله تعالى. انتهى.

وبعد أن ذمّ الذين وعدوا بالقتال ونحوه من أفعال الخير ولم يفعلوا.. مدح الذين قاتلوا في سبيله وبالغوا فيه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾ أعداء الله ﴿فِى سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: في طريق مرضاته وإعلاء دينه؛ أي: يرضى عنهم ويثني عليهم. و﴿صَفًّا﴾: مصدر وقع موقع الفاعل أو المفعول، ونصبه على الحالية من فاعل يقاتلون؛ أي: حال كونهم صافين أنفسهم أو مصفوفين، أو منصوب على المصدرية بعامل محذوف، والمفعول محذوف؛ أي: يصفون أنفسهم صفّاً. والصفّ: أن يجعل الشيء على خط مستوٍ كالناس والأشجار. هذا بيان لما هو مرضي عنده تعالى بعد بيان ما هو ممقوت عنده، وهذا صريح في أن ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال. وقرأ الجمهور(1): ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ على البناء للفاعل. وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول. وقرىء ﴿يقتلون﴾ بالتشديد.

وجملة ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ أو من الضمير المستكن في الحال الأولى. قال الزمخشري: حالان متداخلان. وقال الحوفي: ﴿كَأَنَّهُم﴾ في موضع النعت لـ﴿صَفًّا﴾ انتهى؛ أي: كأنهم في تراصهم وتلاصقهم من غير فرجة ولا خلل بنيان رصّ بعضه إلى بعض. والظاهر: تشبيه الذوات في التحام بعضها ببعض بالبنيان المرصوص. وقيل: المراد: استواء نياتهم في الثبات، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص.

والبنيان: الحائط، وهو واحد لا جمع، دل عليه تذكير ﴿مَّرْصُوصٌ﴾. وقال بعضهم: بنيان جمع بنيانة، على حدّ نخل ونخلة، وهذا النحو من الجمع يصح تأنيثه

---

(1) الشوكاني.

وتذكيره. والرص: اتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يوضع الحجر على الحجر ثم يرص بأحجار صغار ثم يوضع اللبن عليه، فيسميه أهل مكة المرصوص.

والمعنى: حال كونهم مشبهين في تراصهم من غير فرجة ولا خلل ببنيان رصّ بعضه إلى بعض، ورصف حتى صار شيئاً واحداً. وقال الراغب: بنيان مرصوص؛ أي: محكم كأنما بني بالرصاص، وهو قول الفراء. وتراصوا في الصلاة؛ أي: تضايقوا فيها، كما قال ـ ﷺ ـ: «تراصوا بينكم في الصلاة، لا يتخللكم الشيطان» فالزحمة في مثل هذا المقام رحمة، فلا بد من سدّ الخلل أو المحاذاة بالمناكب كالبنيان المرصوص.

ففي الآية زجر عن التباطؤ، وحث على التسارع، ودلالة على فضيلة الجهاد.

والمعنى: إن الله سبحانه يحب الذين يصفُّون أنفسهم حين القتال، ولا يكون بينهم فُرَجٌ فيه، كأنهم بنيان متلاحم الأجزاء، كأنه قطعة واحدة قد صبت صباً، وعلى هذه الطريقة تسير الجيوش في العصر الحاضر، وسر هذا أنهم إذا كانوا كذلك.. زادت قوتهم المعنوية، وتنافسوا في الطعان والنزال والكرّ والفرّ إلى ما في ذلك من إدخال الروع والفزع في نفوس العدوّ؛ إلى ما لحسن النظام من إمضاء العمل والدقة والإحكام، ومن ثم أمرنا بتسوية الصفوف في الصلاة، وأن لا يجلس المصلي في صف خلفيّ إلا إذا اكتمل ما في الصف الأمامي، وهكذا تراعي الأمم في عصرنا الحاضر النظام في كل أعمالها، في أكلها ونومها، ورياضتها وتربية أولادها، بحيث لا يطغى عمل على عمل، فللجد وقت لا يعدوه، وللرياضة وقت آخر، وللنوم كذلك؛ ولهذا لا يوجد تواكل، ولا تراخ في الأعمال ولا تخاذل فيها، ومن ثم جاء الأثر: «أفضل الأعمال إلى الله: أدومها، وإن قل».

ولما ذكر سبحانه أنه يحب المقاتلين في سبيله أراد أن يبين أن موسى وعيسى عليهما السلام أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وحل العقاب بمن خالفهما، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ كلام مستأنف مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال. ﴿وَإِذْ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به ـ ﷺ ـ بطريق التلوين.

أي[1]: اذكر لهؤلاء المؤمنين المتقاعدين عن القتال وقت قول موسى ـ عليه

السلام ـ لبني إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾. فلم يمتثلوا بأمره، وعصوه أشد عصيان، حيث قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، وأصروا على ذلك، وآذوه ـ عليه السلام ـ كل الأذية، وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ أصله، يا قومي، ولذا كسرت الميم، ولولا تقدير الياء.. لقيل: يا قوم بالضم؛ لأنه يكون حينئذ مفرداً معرفة. وهو نداء رفق وشفقة، كما هو شأن الأنبياء ومن يليهم. ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾ بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم. والأذى: ما يصل إلى الإنسان من ضرر، إما في نفسه أو في جسمه أو في أسرته، دنيوياً كان أو أخروياً، كما سيأتي بسطه.

يقول الفقير: لا شك أن قتل الأعداء من باب التسبيح؛ لأنهم الذين قالوا: اتخذ الله ولداً، وعبدوا معه الأصنام، فكان في مقابلتهم توسيع ساحة التنزيه، ولذا بدأ الله تعالى في عنوان السورة بالتسبيح، وأشار بلفظ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ إلى أن القتال من باب الحكمة، وأنه من باب دفع القضاء بالقضاء، على ما يُعرِّفه أهل المعرفة، وبلفظ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، إلى غلبة المؤمنين المقاتلين. ثم إنهم كرهوا ذلك كأنهم لم يثقوا بوعد الله بالغلبة، ووقعوا من حيث لم يحتسبوا في ورطة نسبة العجز إلى الله تعالى، ولذا تقاعدوا عن القتال، وبهذا التقاعد حصلت الأذية له عليه السلام، لأن مخالفة أولي الأمر أذية لهم، فأشار الحق سبحانه بقصة موسى إلى أن الرسول حق، وأن الخروج عن طاعته فسق، وأن الفاسق مغضوب لله تعالى؛ لأن الهداية من باب الرحمة وعدمها من باب السخط، والعياذ بالله تعالى من سخطه وغضبه وأليم عقابه وعذابه.

وجملة النداء مع ما بعدها مقول القول؛ أي[1]: إذ قال موسى: يا قوم، لم تؤذونني بمخالفة ما أمرتكم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم؛ أو: لم تؤذونني بالشتم والانتقاص، ومن ذلك رميه بالأدرة، وقد تقدم بيان هذا في سورة الأحزاب.

وجملة قوله: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ جملة[2] حالية مؤكدة

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

لإنكار الأذية ونفي سببها. ﴿وَقَد﴾ لتحقيق العلم، لا للتوقع، ولا للتقريب ولا للتقليل. فإنهم قالوا: إن (قد) إذا دخلت على الحال تكون للتحقيق، وإذا دخلت على الاستقبال تكون للتقليل. وصيغة المضارع للدلالة على استمرار العلم؛ أي: كيف تؤذونني والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً مستمراً بمشاهدة ما ظهر بيدي من المعجزات أني مرسل من الله إليكم لأرشدكم إلى خير الدنيا والآخرة، ومن قضية علمكم بذلك: أن تبالغوا في تعظيمي، وتسارعوا إلى طاعتي، فإن تعظيمي تعظيم لله وإطاعتي إطاعة له. وفيه تسلية للنبي - ﷺ - بأن الأذية قد كانت من الأمم السالفة أيضاً لأنبيائهم والبلاء إذا عم.. خفّ.

وحاصل المعنى[1]: واذكر - يا محمد - لقومك خبر عبده ورسوله موسى بن عمران كليم الله، حين قال لقومه: لم تؤذونني وتخالفون أمري، فتتركوا القتال وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من رسالة ربي؟ وفي هذا تسلية لرسوله - ﷺ - على ما أصابه من قومه الكافرين ومن غيرهم، وأمر له بالصبر، ولهذا قال - ﷺ -: «رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر». كما أن فيه نهياً للمؤمنين أن ينالوا من النبي - ﷺ - أو يوصلوا إليه أذى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾. وذلك أنه ﷺ - لما قسم غنائم الطائف.. قال بعض المنافقين: هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله، فتغير وجهه الشريف وقال ذلك.

ثم بيّن عاقبة عصيانهم ومخالفة أمره بقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾؛ أي: أصروا على الزيغ والميل عن الحق الذي جاء به موسى، واستمروا عليه ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿قُلُوبَهُمْۚ﴾؛ أي: صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب؛ لصرف اختيارهم نحو الغي والضلال. وقال الراغب في «المفردات»؛ أي: لما فارقوا الاستقامة عاملهم بذلك، وقال جعفر: لما تركوا أوامر الخدمة نزع الله من قلوبهم نور الإيمان، وجعل للشيطان إليهم طريقاً، فأزاغهم عن طريق الحق وأدخلهم في مسالك الباطل. وقال الواسطي: لما زاغوا عن القربة في العلم أزاغ الله قلوبهم في الخلقة. وقال بعضهم: لما زاغوا عن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة. يقول

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الفقير: لما زاغوا عن رسالة موسى ونبوته أزاغ الله قلوبهم عن ولايته. فهم رأوا موسى على أنه موسى لا على أنه رسول نبي، فحرموا من رؤية الحق تعالى.

والمعنى: أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، وأصروا على ذلك.. صرف الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الحيرة والشك، جزاء وفاقاً لما دسوا به أنفسهم من الذنوب والآثام ومخالفة أوامر رسوله وانهماكهم في الطغيان والمعاصي، فران على قلوبهم، وطمس على أعينهم فلم تنظر إلى ما تشاهد من دليل ولا تبصر ما ترى من برهان، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم أكد إزاغته لقلوبهم وبيّن علتها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها من الإزاغة، وتذييل مؤذن بعليته؛ أي[1]: لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المصرين على الغواية هداية موصلة إلى البغية، لا هداية موصلة إلى ما يوصل إليها، فإنها شاملة للكل. والمراد: جنس الفاسقين، وهم داخلون في حكمهم دخولاً أولياً. ووصفهم بالفسق نظراً إلى قوله تعالى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. قال الإمام: وهذه الآية تدل على عظم أذى الرسول، حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى، انتهى. ويتبعه أذى العالمين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، فأذاهم في حكم أذاهم.

والمعنى: أي والله لا يوفق لإصابة الحق من اختار الكفر ونبذ طاعة الله ورسوله بما يرين على قلبه من الضلالة، فيحرمه النظر إلى الأدلة التي نصبت في الكون، وجعلت مناراً للعقول، وشفاء للصدور.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ إما معطوف على ﴿إذ﴾ الأولى معمول لعاملها، وإما معمول لمضمر معطوف على عاملها. ولفظ ﴿ٱبْنُ﴾ هنا وفي ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بإثبات الألف خطاً لندرة وقوعه بين رب وعبد وذكر وأنثى. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: ناداهم بذلك استمالة لقلوبهم إلى تصديقه في قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾. فإن تصديقه عليه السلام إياها من أقوى الدواعي إلى

---

(١) روح البيان.

تصديقهم إياه؛ أي: أرسلت إليكم لتبليغ أحكامه التي لا بدّ منها في صلاح أموركم الدينية والدنيوية؛ لأني لم آتكم بشيء يخالف التوراة، بل هي مشتملة على التبشير بي، فكيف تنفرون عني وتخالفوني؟.

وقال أبو الليث: يعني أقرأ عليكم الإنجيل موافقاً للتوراة في التوحيد وبعض الشرائع. قال القاضي في «تفسيره»: ولعله لم يقل: يا قوم، كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم. إذ النسب إلى الآباء، وإلا فمريم من بني إسرائيل؛ لأن إسرائيل لَقَبُ يعقوب ومريم من نسله، ثم إن هذا يدل على أن تصديق المتقدم من الأنبياء والكتب من شعائر أهل الصدق، ففيه مدح لأمة محمد ـ ﷺ ـ حيث صدقوا الكل. وانتصاب ﴿مُّصَدِّقًا﴾ على الحال.

﴿و﴾ كذا ﴿مبشراً﴾ والعامل فيهما ما في الرسول من معنى الإرسال.

والمعنى: إني أرسلت إليكم حال كوني مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى﴾ وهذا أيضاً داع إلى تصديقه عليه السلام من حيث إن البشارة به واقعة في التوراة. أي: وحالة كوني مبشراً بمن يأتي من بعدي من رسول، وكان بين مولده وبين الهجرة ست مئة وثلاثون سنة. وقال: بشرهم به ليؤمنوا به عند مجيئه، أو ليكون معجزة لعيسى عند ظهوره. والتبشير به تبشير بالقرآن أيضاً، وتصديق له كالتوراة.

﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾؛ أي: محمد ـ ﷺ ـ يريد عيسى عليه السلام: أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر، فذكر أول الكتب المشهورة الذي يحكم به النبيون والنبي الذي هو خاتم النبيين. وقال القشيري: بشر كل نبي قومه بنبينا محمد ـ ﷺ ـ، والله أفرد عيسى بالذِّكر في هذا الموضع؛ لأنه آخر نبي قبل نبينا ـ ﷺ ـ، فبيّن أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام.

وقال بعضهم(١): كان بين رفع المسيح ومولد النبي ـ ﷺ ـ خمس مئة وخمس وأربعون سنة تقريباً. وعاش المسيح إلى أن رفع ثلاثاً وثلاثين سنة، وبين رفعه والهجرة الشريفة خمس مئة وثمان وتسعون سنة، وأمته النصارى على اختلافهم،

(١) روح البيان.

ونزل عليه جبرائيل عشر مرات، ونزل على نبينا محمد - ﷺ - أربعةً وعشرين مرة، وأمته أمة مرحومة جامعة لجميع المسلكات الفاضلة. قيل: قال الحواريون لعيسى عليه السلام: يا روح الله! هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم، أمة محمد، حكماء علماء، أبرار أتقياء؛ كأنهم من الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله عنهم باليسير من العمل.

وأحمد اسم نبينا ﷺ، ويحتمل أن يكون منقولاً من المضارع المبدوء بالهمزة، وأن يكون منقولاً من صفة. وهي أفعل التفضيل، وهو الظاهر. قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

صَلَّىٰ الإِلٰهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَىٰ ٱلْمُبَارَكِ أَحْمَدِ

وكذا محمد، فإنه منقول من الصفة أيضاً، وهو في معنى: محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فإنه محمود في الدنيا بما هدي إليه ونفع به من العلم والحكمة، ومحمود في الآخرة بالشفاعة. ومعنى أحمد: أحمد الحامدين لربه، ومعنى محمد: محمود عند ربه وعند الخلائق. وخص أحمد بالذكر هنا لتقدمه على محمد في المعنى؛ لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له. وقال الراغب: أحمد إشارة للنبي - ﷺ - باسمه تنبيهاً على أنه كما وجد اسمه أحمد يوجد جسمه، وهو محمود في أخلاقه وأفعاله وأقواله. وخص لفظ أحمد فيما بشر به عيسى تنبيهاً على أنه أحمد منه ومن الذين قبله، انتهى. وقيل: خصه بالذكر لأنه في الإنجيل مسمى بهذا الاسم؛ ولأن اسمه في السماء أحمد فذكر باسمه السماوي. وقال الشوكاني: وأحمد اسم نبينا - ﷺ -، وهو عَلم منقول من الصفة، وهي تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل، فيكون معناها: أنه أكثر حمداً لله من غيره، أو من المفعول، فيكون معناها: أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبوعمرو، والسلمي، وزر بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم[1]: ﴿مِنۢ بَعۡدِي﴾ بفتح الياء. وقرأ الباقون بإسكانها.

قال في «فتح الرحمٰن»: لم يسم بأحمد أحد غيره - ﷺ - ولا دعي به مدعو

---

(١) الشوكاني.

قبله، وكذلك محمد أيضاً لم يسم به أحد من العرب، ولا غيرهم، إلى أن شاع قبيل وجوده ـ ﷺ ـ وميلاده؛ أي: من الكهان والأحبار أن نبينا يبعث اسمه محمد، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو، وهم: محمد بن أحيحة بن الجلاح بن سفيان، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ومحمد بن البراء البكراوي، ومحمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن حمدان الجعفي، ومحمد بن خزاعة السلمي. فهم ستة لا سابع لهم. ثم حمى الله سبحانه كل من تسمى به أن يدعي النبوة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره حتى تحققت السمتان له ـ ﷺ ـ ولم ينازع فيهما، انتهى.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾؛ أي[1]: الرسول المبشر به الذي اسمه أحمد، كما تدل عليه الآيات اللاحقة. وأما إرجاعه إلى عيسى كما فعله بعض المفسرين، كـ«الشوكاني» و«البيضاوي» و«الخازن» وغيرهم.. فبعيد جداً، وكون ضمير الجمع راجعاً إلى بني إسرائيل لا ينافي ما ذكرنا، لأن نبينا ـ ﷺ ـ مبعوث إلى الناس كافة. ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الظاهرة كالقرآن، ونحوه، والباء للتعدية، ويجوز أن تكون للملابسة. ﴿قَالُواْ هَـٰذَا﴾ مشيرين إلى ما جاء به، أو إليه ـ ﷺ ـ ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر سحريته بلا مرية، وتسميته ـ ﷺ ـ سحراً للمبالغة، ويؤيده قراءة من قرأ: ﴿هذا ساحر﴾.

والمعنى: أي فحين جاءهم أحمد المبشر به بالأدلة الواضحة والمعجزات الباهرة.. فاجؤوه بالتكذيب والإعراض عنه استكباراً وعناداً، وقالوا: إن ما جئت به ما هو إلا ترهات وأباطيل وسحر واضح لا شك. ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ...﴾ الآية.

وقرأ الجمهور: ﴿سِحْرٌ﴾؛ أي: ما جاء به من البينات سحر. وقرأ[2] عبد الله، وطلحة، والأعمش، وابن وثاب، وحمزة، والكسائي: ﴿ساحر﴾؛ أي: هذا الجائي ساحر.

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: والفرق[1] بين الكذب والافتراء: هو أن الافتراء افتعال الكذب من قول نفسه، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه. وقاله هنا بتعريف الكذب إشارة إلى قول اليهود: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقاله في مواضع بالتنكير، كقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ جرياً على الأكثر من استعمال المصدر منكراً.

والاستفهام فيه للإنكار؛ أي: وأي الناس من المفترين أشد ظلماً وأكثر جرماً ممن اختلق على الله الكذب بنسبة الشريك والولد والصاحبة إليه؟ ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾؛ أي: والحال أنه يدعى إلى الإسلام الذي يوصله إلى سعادة الدارين، فيضع موضع الإجابة الافتراء على الله بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق: هذا سحر. فاللام في ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ للعهد؛ أي: لا أحد من المفترين أظلم منه؛ أي: وهو أظلم من كل ظالم، وإن لم يتعرض ظاهر الكلام لنفي المساويء. ومن الافتراء على الله: الكذب في دعوى النسب، والكذب في الرؤيا، والكذب في الإخبار عن رسول الله - ﷺ -.

واعلم: أن الداعي في الحقيقة هو الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ بأمره الرسول - ﷺ -، كما قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

قرأ الجمهور[2]: وهو ﴿يُدْعَىٰٓ﴾ مبنياً للمفعول، من الدعاء. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿يدعي﴾ مبنياً للفاعل، بفتح الياء وتشديد الدال، من الادعاء، وادعى يتعدى بنفسه إلى المفعول به، لكنه لما ضمن معنى الانتماء والانتساب.. عدي بإلى.

أي: ومن[3] أشد ظلماً وعدواناً ممن اختلق على الله الكذب، وجعل له أنداداً وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص.

وتلخيص المعنى: أيُّ الناس أشد ظلماً ممن يُدعى إلى الإسلام والخضوع فلا يجيب الداعي، بل يفتري على الله الكذب بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحراً. والمراد: أنه أظلم من كل ظالم؛ لأنه قد أهدر عقله، وركب هواه، وألقى الأدلة

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

وراءه ظهرياً.

ثم بين سبب ظلمهم وفساد عقائدهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها؛ أي: والله لا يرشد الظالمين لأنفسهم إلى ما فيه صلاحهم ورشادهم؛ لعدم توجههم إليه؛ لأنهم دسوها باجتراح السيئات وارتكاب الموبقات، فختم على قلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة فلا تفهم الأدلة المنصوبة في الكون وتهتدي بهدى العقل، بل تسير في عماية وتمشي في ظلام دامس لا تلوي على شيء.

ثم ذكر جدهم واجتهادهم في إبطال الدين، واستهزأ بما اتخذوه من الوسائل، فقال: ﴿يُرِيدُونَ﴾؛ أي: يريد المفترون ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ ودينه ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وأقوالهم الباطلة. والإطفاء: الإخماد، وأصله في النار، واستعير لما يجري مجراها من الظهور والضياء؛ أي: يريدون أن يطفئوا دينه، أو كتابه، أو حجته النيرة. و﴿اللام﴾[1]: مزيدة لما فيها من معنى الإرادة، تأكيداً لها، كما زيدت لما فيها من معنى الإضافة تأكيداً لها في: (لا أبا لك). أو لام علة، والمفعول محذوف.

والمعنى: يريدون الافتراء ليطفئوا نور الله. وقيل: إنها بمعنى أن الناصبة وأنها ناصبة بنفسها. قال الفراء: العرب تجعل لام كي في موضع أن.. في أراد وأمر، وإليه ذهب الكسائي. ومثل هذا قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾. قال الراغب في «المفردات»: الفرق بين زيادة اللام وعدمها: أن المعنى في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾: يقصدون إخفاء نور الله، وفي قوله: ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ﴾: يقصدون أمراً يتوصلون به إلى إطفاء نور الله. وقال الشوكاني: والمراد بنور الله: القرآن؛ أي: يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول، أو الإسلام، أو محمداً - ﷺ -، أو الحجج والدلائل، أو جميع ما ذكر. ومعنى ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: بأقوالهم الخارجة من أفواههم المتضمنة للطعن. مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس ليطفئه.

وجملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ جملة حالية من مفعول ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يريدون إطفاءه، والله متمه ومبلغه إلى غايته بنشره في الآفاق وإعلائه ﴿وَلَوۡ كَرِهَ

---

(١) روح البيان.

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إتمامه، إرغاماً لهم وزيادة في مرض قلوبهم. و﴿لو﴾ بمعنى: إن، وجوابه محذوف؛ أي: وإن كرهوا ذلك، فالله يفعله لا محالة.

وقرأ العربيان[1] - أبو عمرو وابن عامر - ونافع وأبو بكر والحسن وطلحة والأعرج وابن محيصن: ﴿متمٌ...﴾ بالتنوين، ﴿نورَه﴾ بالنصب. وباقي السبعة والأعمش بالإضافة.

ومعنى الآية: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ؛ أي[2]: إن مثلهم في مقاومتهم لدعوة الدين وجدهم في إخماد نوره مثل من ينفخ في الشمس بفيه ليطفىء نورها ويحجب ضياءها، وأنى له ذلك؟ فما هو إلا كمن يضرب في حديد بارد، أو كمن يريد أن يضرم النار في الرماد، أو كمن يريد أن يصطاد العنقاء:

أَرَىٰ ٱلْـعَـنْـقَـاءَ تُـكْـبُـرُ أَنْ تُـصَـادَا فَـعَـانِـدْ مَـنْ تُـطِـيْـقُ لَـهُ عِـنَـادَا

والله معلن الحق، ومظهر دِينه، وناصر محمداً - ﷺ - على من عاداه ولو كره ذلك الكافرون. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوحي أبطأ أربعين يوماً، فقال كعب بن الأشرف: يا معشر اليهود! أبشروا، أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان الله ليتم نوره، فحزن الرسول - ﷺ -، فنزلت: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

ثم بيّن العلة في إخماد دعوتهم، وأنه لا سبيل لقبولها لدى العقول، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه الإلٰه ﴿ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمداً - ﷺ -. وقرىء: ﴿نبيه﴾. ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: بالقرآن أو بالمعجزة. فالهدى بمعنى: ما به الاهتداء إلى الصراط المستقيم. ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: وبالملة الحنيفية التي اختارها لرسوله ولأمته. وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، مثل: عذاب الحريق. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك الإظهار فيظهره. ولقد أنجز الله سبحانه، وعده؛ حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام، فليس المراد أنه لا يبقى دين آخر من الأديان، بل العلو والغلبة. والأديان[3] خمسة: اليهودية والنصرانية والمجوسية والشرك، والإسلام. كما في «عين المعاني» للسجاوندي.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

والمعنى[1]: أي هو الله الذي أرسل محمداً - ﷺ - بالقرآن والملة الحنيفية ليعليه على جميع الأديان المخالفة له، وإنما قال أولاً: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. وقال ثانياً: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لأنه ذكر أولاً النور وإطفاءه فاللائق به الكفر؛ لأنه ستر وتغطية؛، وذكر ثانياً الحاسدين للرسول - ﷺ - وأكثرهم من قريش، فناسب ذكر المشركين.

وعبارة «الخطيب»: أجيب عنه: بأنه تعالى أرسل رسوله وهو من نعم الله تعالى والكافرون كلهم في كفران النعم سواء؛ فلهذا قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. لأن لفظ الكافر أعمّ من المشرك. فالمراد بالكافرين هنا: اليهود والنصارى والمشركون، فلفظ الكافر أليق به. وأما قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ فذلك عند إنكارهم التوحيد وإصرارهم عليه؛ لأنه - ﷺ - في ابتداء الدعوة أمر بالتوحيد بلا إله إلا الله، فلم يقولوها، فلهذا قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾. انتهى.

وقيل[2]: إيراد الكافرين أولاً لما أن إتمام الله نوره يكون بنسخ غير الإسلام، والكافرون كلهم يكرهون ذلك، وإيراد المشركين ثانياً لما أن إظهار دين الحق يكون بإعلاء كلمة الله وإشاعة التوحيد المنبىء عن بطلان الآلهة الباطلة، وأشد الكارهين لذلك المشركون، والله أعلم بأسرار كلامه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ سيأتي بيان معناها ﴿تُنجِيكُم﴾؛ أي: تكون سبباً لإنجاء الله إياكم وتخليصه. وأفادت الصفة المقيدة أن من التجارة ما يكون على عكسها، كما أشار إليها قوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾. فإن بوار التجارة وكسادها يكون لصاحبها عذاباً أليماً، كجمع المال وحفظه ومنع حقوقه، فإنه وبال في الآخرة؛ فهي تجارة خاسرة. وكذا الأعمال التي لم تكن على وجه الشرع والسنة أو أريد بها غير الله، فجعل العمل الآتي بمنزلة التجارة؛ لأنهم يربحون فيه كما يربحون في التجارة. وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار. ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: مؤلم جسماني، وهو ظاهر وروحاني، وهو: التحسر والتضجر.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿تُنجِيكُم﴾ مخففاً، من الإنجاء وقرأ الحسن، وابن أبي

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

إسحاق، والأعرج، وابن عامر، وأبو حيوة مشدداً، من التنجية.

ثم بيّن سبحانه هذه التجارة التي دل عليها، فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ﴾. وهذا[1] كلام مستأنف واقع في جواب سؤال مقدر، فكأنهم قالوا: كيف نعمل، أو ماذا نصنع؟ فقيل: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إلخ. وقدم الأموال على الأنفس لأنها هي التي يبدأ بها في الإنفاق والتجهز إلى الجهاد، أو لأن الإنسان ربما يضن بنفسه أو للترقي من الأدنى إلى الأعلى، أو لأنه إذا كان له مال فإنه يؤخذ به النفس لتغزو. وهذا خبر بمعنى الأمر، جيء به للإيذان بوجوب الامتثال، فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه، كما تقول: غفر الله لهم، ويغفر الله لهم، جعلت المغفرة حاصلة لقوة الرجاء كأنها كانت ووجدت. وقس عليه نحو: سلمكم الله، وعافاكم الله، وأعاذكم الله.

وفي الحديث: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم». ومعنى الجهاد بالألسنة: إسماعهم ما يكرهونه ويشق عليهم سماعه، من هجو وكلام غليظ ونحو ذلك. وأخَّرَ الجهاد بالألسنة لأنه أضعف الجهاد وأدناه. ويجوز أن يقال: إن اللسان أحد وأشد تأثيراً من السيف والسنان. قال علي ـ رضي الله عنه ـ:

جِرَاحَاتُ ٱلسِّنَانِ لَهَا ٱلْتِئَامُ ... وَلاَ يَلْتَامُ مَا جَرَحَ ٱللِّسَانُ

فيكون من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى. وكان حسان ـ رضي الله عنه ـ يجلس على المنبر فيهجو قريشاً بإذن رسول الله ـ ﷺ ـ. ثم إن التجارة: التصرف في رأس المال طلباً للربح، والتاجر هو الذي يبيع ويشتري، وليس في كلام العرب تاء بعدها جيم غير هذه اللفظة. وأما تجاه: فأصله وجاه، وتجوب، وهي قبيلة من حمير، فالتاء للمضارعة.

قال ابن الشيخ: جعل ذلك تجارة تشبيهاً له في الاشتمال على معنى المبادلة والمعاوضة، طلباً لنيل الفضل والزيادة، فإن التجارة هي معاوضة المال بالمال لطمع الربح، والإيمان والجهاد شبها بها من حيث إن فيهما بذل النفس والمال طمعاً لنيل رضى الله تعالى والنجاة من عذابه.

---

(١) روح البيان.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾، فوجه المبرد هذه القراءة على أنه خبر بمعنى الأمر، بمعنى: آمنوا وجاهدوا. ولذلك جاء ﴿يَغْفِرْ﴾ مجزوماً، فصورته صورة الخبر، ومعناه: الأمر. ويدل عليه قراءة عبد الله. وقرأ عبد الله: ﴿آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا﴾ بصيغة الأمر. وقرأ زيد بن علي: ﴿تؤمنوا بالله ورسوله وتجاهدوا﴾ بالتاء فيهما مع حذف النون. فتوجه هذه القراءة على حذف لام الأمر، والتقدير: لتؤمنوا وتجاهدوا، كقول الشاعر:

قُلْتُ لِبَوَّابٍ عَلَىٰ بَابِهَا   تَأْذَنْ لِي إِنِّي مِنْ أَحْمَائِهَا

يريد: لتأذن لي.

واعلم[٢]: أن الجهاد له ضروب شتى: جهاد للعدو في ميدان القتال لنصرة الدين، وجهاد للنفس بقهرها ومنعها عن شهواتها التي ترديها، وجهاد بين النفس والخلق بترك الطمع في أموالهم والشفقة عليهم والرحمة بهم، وجهاد بين المرء والدنيا بأن لا يتكالب على جمع حطامها وأن لا ينفق المال إلا فيما تجيزه الشرائع وتقره العقول السليمة.

والمعنى[٣]: يا أيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله.. ألا أدلكم على صفقة رابحة وتجارة نافعة، تنالون بها الربح العظيم. والنجح الخالد الباقي؟ اثبتوا على إيمانكم، وأخلصوا لله العمل، وجاهدوا بالأنفس والأموال في سبيل الله بنشر دينه وإعلاء كلمته. وهذا أسلوب يفيد التشويق والاهتمام بما يأتي بعده، كما تقول: هل أدلك على عالم عظيم ذي خلق حسن وعلم فياض؟ هو فلان. فيكون ذلك أروع في الخطاب وأجلب لقَبوله.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من الإيمان والجهاد بقسميه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ على الإطلاق، أو من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي[٤]: إن كنتم من أهل العلم، فإن الجهلة لا يعتد بأفعالهم. أو إن كنتم تعلمون أنه خير لكم حينئذٍ؛ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه.. أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

فتخلصون وتفلحون. فعلى العاقل تبديل الفاني بالباقي، فإنه خير له. وروي: أنه جاء رجل بناقة مخطومة وقال: هذه في سبيل الله، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «لك بها يوم القيامة سبع مئة ناقة، كلها مخطومة».

أي: هذا الإيمان والجهاد خير لكم من كل شيء، من نفس ومال، وولد، إن كنتم من أهل الإدراك والعلم بوجوه المنافع وفهم المقاصد، فإن الأمور إنما تتفاضل بغاياتها ونتائجها، ولهذه التجارة فوائد عاجلة وأخرى آجلة، وقد فصّل كلا الأمرين، وقدم الثانية فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ في الدنيا، وهو جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الخير، ويجوز أن يكون جواباً لشرط أو لاستفهام دل عليه الكلام، تقديره: إن تؤمنوا وتجاهدوا.. يغفر لكم، أو هل تقبلون وتفعلون ما دللتكم عليه. وقال الفراء: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جواب الاستفهام، فجعله مجزوماً لكونه جواب الاستفهام. وقد غلطه بعض أهل العلم؛ لأن مجرد الدلالة لا يوجب المغفرة. وقال الرازي في توجيه قول الفراء: إن ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ في معنى الأمر عنده، يقال: هل أنت ساكت؛ أي: اسكت. وبيانه: أن ﴿هَلْ﴾ بمعنى الاستفهام، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاً وحثاً بمعنى: ألا، والحث كالإغراء، والإغراء أمر.

وقرأ بعضهم بالإدغام[1] في ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾. والأولى ترك الإدغام؛ لأن الراء حرف متكرر فلا يحسن إدغامه في اللام.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: كل واحد منكم جنّة. ولا بعد من لطفه تعالى أن يدخله جنات؛ بأن يجعلها خاصة له داخلة تحت تصرفه. والجنة في اللغة: البستان الذي فيه أشجار متكاثفة مظللة تستر ما تحتها. ﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها. بمعنى[2] تحت أغصان أشجارها في أصولها على عروقها، أو من تحت قصورها وغرفها. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة في الجنة؛ من اللبن، والعسل، والخمر، والماء الصافي ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾؛ أي: ويدخلكم مساكن طيبة ومنازل نزهة كائنة ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؛ أي: إقامة وخلود، بحيث لايخرج منها من دخلها بعارض من العوارض. وهذا ظرف صفة مختصة بـ﴿مساكن﴾.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

قال الراغب: أصل الطيب: ما تستلذه الحواس. ومعنى ﴿مساكن طيبة﴾؛ أي: طاهرة زكية مستلذة. وقال بعضهم: طيبتها: سعتها ودوام أمرها.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنات المذكورة بما ذكر من الأوصاف الجميلة ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، والظفر الذي لا ظفر يماثله.

والمعنى[1]: إن فعلتم ذلك، فآمنتم بالله وصدقتم رسوله، وجاهدتم في سبيله.. ستر لكم ذنوبكم ومحاها، وأدخلكم فراديس جنانه، وأسكنكم مساكن تطيب لدى النفوس وتقرّ بها العيون في دار الخلد الأبدي، وهذا منتهى ما تسمو إليه النفوس من الفوز الذي لا فوز بعده. قال[2] بعض المفسرين: الفوز يكون بمعنى النجاة من المكروه، وبمعنى الظفر بالبغية، والأول يحصل بالمغفرة، والثاني بإدخال الجنة والتنعيم فيها، وعظمه باعتبار أنه نجاة لا ألم بعده، وظفر لا نقصان فيه، شأناً وزماناً ومكاناً؛ لأنه في غاية الكمال على الدوام في مقام النعيم.

واعلم: أن الآية الكريمة أفادت أن التجارة دنيوية وأخروية، فالدنيا موسم التجارة والعمر مدتها، والأعضاء والقوى رأس المال، والعبد هو المشتري من وجه والبائع من وجه، فمن صرف رأس ماله إلى المنافع الدنيوية التي تنقطع عند الموت.. فتجارته دنيوية كاسدة خاسرة، وإن كان تحصيل علم دين أو كسب علم صالح فضلاً عن غيرهما، فإن الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى، ومن صرفه إلى المقاصد الأخروية التي لا تنقطع أبداً.. فتجارته رائجة رابحة، حرية بأن يقال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾. وذلك هو الفوز العظيم.

ولعل المراد من التجارة هنا[3]: بذل المال والنفس في سبيل الله، وذكر الإيمان لكونه أصلاً في الأعمال ووسيلة في قبول الآمال. وتوصيف التجارة بالإنجاء لأن النجاة يتوقف عليها الانتفاع، فيكون قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببيان سبب الإنجاء، وقوله: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾ بما يتعلق به بيان المنفعة الحاصلة من التجارة، مع أن التجارة الدنيوية تكون سبباً للنجاة من الفقر المنقطع، والتجارة الأخروية تكون سبباً

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

للنجاة من الفقر الغير المنقطع. وقال النبي ـ ﷺ ـ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». يعني: أن نعمتي الصحة والفراغ كرأس المال للمكلف، فينبغي أن يعامل الله سبحانه بالإيمان به وبرسوله، ويجاهد مع النفس لئلا يغبن، ويربح في الدنيا والآخرة، ويجتنب معاملة الشيطان؛ لئلا يضيع رأس ماله مع الربح.

ثم ذكر الفوز العاجل في الدنيا، فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ﴾؛ أي: ولكم مع هذه النعمة العظيمة نعمة أخرى عاجلة. فـ﴿أخرى﴾ مبتدأ خبره محذوف، والجملة معطوفة على: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ على المعنى، أو في محل خفض معطوفة على ﴿تِجَارَةٍ﴾؛ أي: وهل أدلكم على خصلة أخرى ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وترغبون فيها في العاجل مع ثواب الآخرة. وقيل: في محل نصب؛ أي: ويعطيكم خصلة أخرى. وفي قوله: ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل، وتوبيخ على محبته، وهو صفة بعد صفة لذلك المحذوف.

ثم بيّن سبحانه هذه الأخرى، فقال: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هي نصر من الله لكم على عدوكم قريش وغيرهم. وقيل: ﴿نَصْرٌ﴾ بدل، أو عطف بيان لتلك النعمة الأخرى على تقدير كونها في محل رفع؛ أي: ولكم نصر من الله. ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾؛ أي: عاجل. معطوف على ﴿نَصْرٌ﴾. قال الكلبي: يعني النصر على قريش، وفتح مكة. وقال عطاء: يريد فتح فارس والروم. وقوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: قل ـ يا محمد ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ...﴾ إلخ، وبشرهم بأنواع البشارة الدنيوية والأخروية، فلهم فضل من الله وإحسان في الدارين. أو معطوف على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، لأنه في معنى الأمر.

والمعنى[1]: أي وبشر ـ يا محمد ـ المؤمنين بالنصر والفتح، أو: وبشرهم بالنصر في الدنيا والفتح وبالجنة في الآخرة، أو: وبشرهم بالجنة في الآخرة.

وفي هذا[2]: دلالة على صدق النبي ـ ﷺ ـ؛ لأنه أخبر عما يحصل ويقع في المستقبل من الأيام على ما أخبره.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والخلاصة: أي ولكم مع هذا المذكور فوز آخر في الدنيا بنصركم على عدوكم، وفتحكم للبلاد، وتمكينكم منها حتى تدين لكم مشارق الأرض ومغاربها. وقد أنجز الله سبحانه وعده، فرفعت الراية الإسلامية على جميع المعمور من العالم في زمن يسير لم يعهد التاريخ نظيره، وامتلكوا بلاد القياصرة والأباطرة، وساسوا العالم سياسة شهد لهم بفضلها العدو قبل الصديق.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَصْرٌ﴾ بالرفع، وكذا، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. وقرأ ابن أبي عبلة[2] بالنصب فيها ثلاثتها، ووصف أخرى بـ﴿تُحِبُّونَهَا﴾؛ لأن النفس قد وكلت بحب العاجل.

ثم أمرهم بأن يكونوا أنصار الله في كل حين، فلا يتخاذلوا ولا يتواكلوا، فيكتب لهم النصر على أعدائهم كما فعل حواريو عيسى، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿كُونُوٓا۟﴾ جميعاً ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنصار دِينه. جمع نصير، كشريف وأشراف.

وقرأ الحرميان[3] ـ نافع وابن كثير ـ وأبو عمرو والأعرج وعيسى ﴿أنصاراً لله﴾ بالتنوين وترك الإضافة. وقرأ الحسن، والجحدري، وباقي السبعة بالإضافة إلى الله وترك التنوين، والرسم يحتمل القراءتين معاً، واختار أبو عبيدة قراءة الإضافة؛ لقوله؛ ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ بالإضافة؛ أي: دوموا على نصرة دين الله وإعلاء كلمته، وقولوا: نحن أنصار الله إذا قال لكم نبيكم محمد ـ ﷺ ـ: من أنصاري إلى الله ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: إذا قال لكم قولاً مثل قول عيسى ﴿لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: من جندي وأعواني متوجهاً إلى نصرة دين الله. فـ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وأعوان دِينه. وفي «فتح الرحمٰن»: ظاهره تشبيه كونهم أنصار الله بقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وليس مراداً.

قلت: التشبيه محمول على المعنى، تقديره: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصاراً لعيسى حين قال لهم: من أنصاري إلى الله. وإنما قلنا في الحل: مَنْ جندي متوجهاً إلى نصرة الله كما يقتضيه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط. (٣) البحر المحيط.

﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأن[1] قول عيسى لا يطابق جواب الحواريين بحسب الظاهر، فإن ظاهر قول عيسى يدل على أنه يسأل من ينصره، فكيف يطابقه جواب الحواريين بأنهم ينصرون الله وأيضاً لا وجه لبقاء قول عيسى على ظاهره؛ لأن النصرة لا تتعدى بإلى، فحمل الأنصار في سؤاله على الجند؛ لأنهم ينصرون ملكهم ويعينونه في مراده، ومراده عليه السلام نصرة دين الله، فسأل من يتبعه ويعينه في ذلك المراد، ويشاركه فيه. فقولنا: (متوجهاً) حال من ياء المتكلم في جندي، و﴿إِلَى﴾ متعلق به لا بالنصرة، والإضافة الأولى إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لما بينهما من الاختصاص، أعني: الملابسة المصححة للإضافة المجازية، لظهور أن الاختصاص الذي تقتضيه الإضافة حقيقة غير متحقق في إضافة ﴿أَنصَارِىٓ﴾. والإضافة الثانية إضافة الفاعل إلى المفعول، والتشبيه باعتبار المعنى. أي: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم: من أنصاري إلى الله، أو قل لهم كما قال عيسى للحواريين. وقيل: التقدير: من أنصاري فيما يقرب إلى الله؟

وقصارى ذلك[2]: كونوا أنصار الله في جميع أعمالكم وأقوالكم وأنفسكم وأموالكم كما استجاب الحواريون لعيسى. والحواريون هم أنصار عيسى، وخلص أصحابه، وأول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً. قال بعض العلماء: إنما سموا حواريين لصفاء عقائدهم عن التردد والتلوين، أو لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدِّين والعلم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ من الحَوَرِ، وهو البياض الخالص.

﴿فَـ﴾ لمّا بلّغ عيسى عليه السلام رسالة ربه إلى قومه، ووازره من الحواريين من وازره ﴿آمنت﴾ واهتدت ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: جماعة منهم بما جاءهم به؛ أي: آمنوا بعيسى وأطاعوه فيما أمرهم به من نصرة الدين ﴿وَكَفَرَت﴾؛ أي: ضلت ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ أخرى، وجحدوا به، وقاتلوه. وهم الذين أضلهم بولس. وذلك[3] أنه لما رفع عيسى إلى السماء.. تفرق قومه ثلاث فرق:

فرقة تقول: كان عيسى هو الله، فارتفع.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) المراح.

وفرقة تقول: كان ابن الله، فرفعه إليه.

وفرقة تقول: كان عبد الله ورسوله، فرفعه إليه. فاقتتلوا، وظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتى بعث الله محمداً - ﷺ -. فظهرت الفرقة المؤمنة على الفرقة الكافرة. فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: قوينا مؤمني قومه بالحجة، أو بالسيف ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾؛ أي: على الذين كفروا، وهو الظاهر، فإيراد العدو إعلام منه أن الكافرين عدو للمؤمنين عداوة دينية. ﴿فَأَصْبَحُوا﴾؛ أي: فصار الذين آمنوا ﴿ظَاهِرِينَ﴾؛ أي[1]: غالبين عليهم عالين، من قولهم: ظهرت على الحائط، علوته. وقال قتادة: فأصبحوا ظاهرين بالحجة والبرهان كما سبق؛ لأنهم قالوا فيما روي: ألستم تعلمون أن عيسى عليه السلام كان ينام، والله تعالى لا ينام، وأنه يأكل ويشرب، والله منزه عن ذلك.

وقيل المعنى[2]: فأيدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالتين جميعاً.

والمعنى[3]: أي فنصرنا المؤمنين على من عاداهم، وأمددناهم بروح من عندنا على مقتضى سنتنا. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فغلبوا أعداءهم، وظهروا عليهم، كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وعبارة «الخطيب» هنا: أي صاروا بعدما كانوا فيه من الذلّ ظاهرين، أي: غالبين قاهرين في أقوالهم وأفعالهم، لا يخافون أحداً، ولا يستخفون منه.

الإعراب

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2)﴾.

﴿سَبَّحَ﴾: فعل ماض، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول فاعل، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: صلته، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوف عليه. والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿الْحَكِيمُ﴾: خبر ثان. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية. ﴿يَا أَيُّهَا﴾: منادى، ﴿الَّذِينَ﴾: بدل من المنادى، وجملة النداء مستأنفة.

---

(1) روح البيان. (2) الشوكاني. (3) المراغي.

﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل والجملة صلة ﴿الَّذِينَ﴾. ﴿لِمَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، ﴿م﴾: اسم استفهام يفيد الإنكار والتوبيخ، في محل الجر باللام، مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين الموصولة، الجار والمجرور متعلق، بـ﴿تَقُولُونَ﴾. ﴿تَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة الاستفهامية جواب النداء، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿تَقُولُونَ﴾، ﴿لا﴾: نافية، وجملة ﴿تَفْعَلُونَ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾، والعائد محذوف؛ أي: ما لا تفعلونه.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿كَبُرَ﴾: فعل ماض، ﴿مَقْتًا﴾: تمييز محول عن الفاعل، ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ﴿مَقْتًا﴾ أو حال، و﴿أَن تَقُولُوا﴾: في تأويل مصدر مرفوع على أنه فاعل ﴿كَبُرَ﴾؛ أي: كبر قولكم مقتاً عند الله. أي: كبر مقت قولكم؛ أي: المقت المترتب على قولكم ما لا تفعلون. ويجوز أن يكون ﴿كَبُرَ﴾ من باب نعم وبئس، فيكون الفاعل ضميراً مستتراً مفسراً بالتمييز النكرة، و﴿أَن تَقُولُوا﴾: مبتدأ خبره الجملة قبله؛ لأنه المخصوص بالذم. ﴿مَا﴾: مفعول به، وجملة ﴿لَا تَفْعَلُونَ﴾ صلته. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يُحِبُّ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿يُقَاتِلُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿صَفًّا﴾: حال من فاعل ﴿يُقَاتِلُونَ﴾، ﴿كَأَنَّهُم﴾: ناصب واسمه، ﴿بُنْيَانٌ﴾: خبره، ﴿مَّرْصُوصٌ﴾: صفة ﴿بُنْيَانٌ﴾، وجملة ﴿كأن﴾ حال ثانية من الضمير في ﴿صَفًّا﴾، لأنه بمعنى: صافين أنفسهم. فهي حال متداخلة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة ﴿إذ قال موسى لقومه﴾. والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية نبينا محمد - ﷺ -، وتوطينه على الصبر. ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ﴿لِقَوْمِهِ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه

لـ﴿إِذْ﴾، ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول قال: ﴿لِمَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، ﴿م﴾ اسم استفهام للاستفهام التوبيخي في محل الجرّ باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُؤْذُونَنِي﴾، ﴿تُؤْذُونَنِي﴾: فعل مضارع مرفوع بثبات النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿النون﴾ للوقاية، و﴿الياء﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قال على كونها جواب النداء. ﴿وَقَد﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿تَّعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿تؤذون﴾. ﴿أَنِّي﴾: ناصب واسمه ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: خبره ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق برسول الله، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تَّعْلَمُونَ﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم ﴿زَاغُوٓا﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾، ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة. ﴿قُلُوبَهُمْ﴾: مفعول به، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر إذ قال عيسى، والجملة المحذوفة معطوفة على الجملة المحذوفة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾. ﴿قَالَ عِيسَى﴾: فعل وفاعل ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾: صفة لـ﴿عِيسَى﴾ أو بدل، أو عطف بيان منه، والجملة في محل الخفض مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول قال. ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمهُ وخبره ﴿إِلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول قال على كونه جواب النداء. ﴿مُّصَدِّقًا﴾: حال من الضمير المستكن في رسول؛ لأنه بمعنى: مرسل ﴿لِّمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿مُّصَدِّقًا﴾، ﴿بَيْنَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾ ﴿بَيْنَ﴾ مضاف، ﴿يَدَىَّ﴾: مضاف إليه مجرور بالياء؛ لأنه مثنى. ﴿وَمُبَشِّرًۢا﴾: معطوف على ﴿مُّصَدِّقًا﴾، ﴿بِرَسُولٍ﴾: متعلق بـ﴿مبشراً﴾، ﴿يَأْتِى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾ متعلق بـ﴿يَأْتِى﴾. والجملة في محل الجر صفة لـ﴿رَسُولٍ﴾. ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صفة ثانية لـ﴿رسول﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿جَآءَهُم﴾: فعل

ومفعول به، وفاعله ضمير مستتر يعود على الرسول المبشر به، والجملة فعل شرط لـ﴿لمَّا﴾، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿جاء﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، جواب ﴿لمَّا﴾، وجملة ﴿لمَّا﴾ مستأنفة. ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿سِحْرٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم استفهام للإنكار في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَظْلَمُ﴾: خبر، ﴿مِمَّنِ﴾: متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول به، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هو﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُدْعَىٰٓ﴾: خبر ﴿هو﴾. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾. ﴿إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾: متعلق بـ﴿يُدْعَىٰٓ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الله﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: خبر عن الجلالة. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمَ﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بثبوت النون، والجملة مستأنفة، ﴿لِيُطْفِـُٔواْ﴾: ﴿اللام﴾: زائدة للتأكيد ﴿يطفئوا﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام الزائدة، وعلامة نصبه: حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به، والجملة صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريدون إطفاء نور الله ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يطفئوا﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿مُتِمُّ﴾: خبره. ﴿نُورِهِۦ﴾: مضاف إليه. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يُرِيدُونَ﴾. أو ﴿يطفئوا﴾، أو من ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾، وهو الأوضح كما مر. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، وجوابها محذوف تقديره: ولو كره الكافرون.. أتمه وأظهره. وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب حال من ﴿نُورِهِۦ﴾؛ أي: والله متم نوره حالة كون الكافرين كارهين

إتمامه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾: متعلق بـ﴿أَرۡسَلَ﴾ أو حال من ﴿رَسُولَهُۥ﴾، ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾: معطوف على ﴿الهدى﴾، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يظهر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعودعلى ﴿الله﴾، و﴿الهاء﴾: مفعول به، ﴿عَلَى ٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿يظهر﴾، ﴿كُلِّهِۦ﴾: تأكيد للدين، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام وتقديره: لإظهاره على الدين كله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَرۡسَلَ﴾. ﴿وَلَوۡ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، وجوابها محذوف، تقديره: أظهره. وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب حال من مفعول يظهره.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل منه، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، وجملة النداء مستأنفة. ﴿هَلۡ﴾: حرف استفهام بمعنى: ألا، فتكون للعرض، وهو الطلب برفق ولين. ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعول به، وجملة الاستفهام جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿عَلَىٰ تِجَـٰرَةٖ﴾: متعلق بـ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾، وجملة ﴿تُنجِيكُم﴾ صفة ﴿تِجَـٰرَةٖ﴾، ﴿مِّنۡ عَذَابٍ﴾: متعلق بـ﴿تُنجِيكُم﴾، ﴿أَلِيمٖ﴾: صفة ﴿عَذَابٍ﴾.

﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١﴾.

﴿تُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي تؤمنون، أو مستأنفة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ما هي التجارة؟. ﴿وَتُجَـٰهِدُونَ﴾: معطوف على ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تجاهدون﴾، أو بمحذوف حال،

﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿تجاهدون﴾، ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾: معطوف على ﴿أموالكم﴾، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ خبر كان، ومفعوله محذوف، تقديره: إن كنتم تعلمون أنه خير لكم، وجوابه محذوف أيضاً، تقديره: إن كنتم تعلمون ذلك فافعلوه. وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَغْفِرْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بالطلب المفهوم من قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنه في تأويل آمنوا بالله ورسوله يغفر لكم ذنوبكم. أو جواب لشرط مقدر تقديره: إن تؤمنوا يغفر لكم. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَغْفِرْ﴾، ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾: مفعول به، ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿يَغْفِرْ﴾، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ثان على السعة لـ﴿يدخلكم﴾، ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾. معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿طَيِّبَةً﴾: صفة لـ﴿مساكن﴾، ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: صفة ثانية لـ﴿مساكن﴾. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة للفوز. والجملة مستأنفة.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة، ﴿أخرى﴾: مبتدأ مؤخر لخبر مقدم محذوف، تقديره: ولكم نعمة أخرى أو مثوبة أخرى، وجملة ﴿تُحِبُّونَهَا﴾: صفة لأخرى، والجملة الاسمية مستأنفة أو معطوفة على ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ على المعنى. ﴿نَصْرٌ﴾: بدل من ﴿أخرى﴾، أو خبر لمحذوف؛ أي: وتلك الأخرى ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾. و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: صفة لنصر، ﴿وَفَتْحٌ﴾: معطوف على ﴿نَصْرٌ﴾، ﴿قَرِيبٌ﴾: صفة لـ﴿فتح﴾، ﴿وَبَشِّرِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿بشر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: وقل يا محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ...﴾ إلخ. وبشرهم بأنواع البشارات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل منه وجملة النداء مستأنفة، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول، ﴿كُونُوٓاْ﴾: فعل أمر ناقص، مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: اسمها: ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾: خبرها، والجملة الطلبية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾ مصدرية مدخولها محذوف، تقديره: كما كان الحواريون أنصار الله. وجملة كان المحذوفة صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: كونوا أنصار الله كوناً كائناً ككون الحواريين أنصار الله. ﴿قَالَ عِيسَى﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾: بدل من عيسى، ﴿لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾، وجملة ﴿قَالَ﴾ في محل الخفض بإضافة الظرف المقدر، تقديره: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله، حين قال لهم عيسى ابن مريم: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، والظرف المقدر متعلق بكان المحذوفة. ﴿مَنۡ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَنصَارِيٓ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول قال ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ياء المتكلم. أي: حالة كوني متوجهاً إلى الله. ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿قَالَ عِيسَى﴾؛ أي: حين قال لهم عيسى: من أنصاري إلى الله وقال الحواريون: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ ﴿نَحۡنُ﴾: مبتدأ، ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول قال. ﴿فَـَٔامَنَت﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿آمنت طائفة﴾: فعل وفاعل، ﴿مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: صفة لـ﴿طَّآئِفَةٞ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾، أو معطوفة على محذوف، تقديره: فلما رفع عيسى إلى السماء.. افترق الناس فيه فرقتين ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ﴾، ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿فَـَٔامَنَت﴾. ﴿فَأَيَّدۡنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف أيضاً، تقديره: فاقتتلت الطائفتان، ﴿أيدنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلته، ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾: متعلق بـ﴿أيدنا﴾، ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾: فعل ناقص،

واسمه معطوف على ﴿أيدنا﴾، ﴿ظَٰهِرِينَ﴾: خبره.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ أصله: لما؛ لأن ما الاستفهامية إذا جرت.. حذفت ألفها فرقاً بينها وبين الموصولة، كما مر، وإن وقف عليها.. وقف بهاء السكت. قال ابن مالك:

وَمَا فِي ٱلاسْتِفْهَامِ إِنْ جُرَّتْ حُذِفْ   أَلِفُهَا وَأَوْلِهَا ٱلْهَا إِنْ تَقِفْ

وقد وقف عليها البزي عن ابن كثير بخُلف عنه بالهاء هي ونظائرها. قال الشاطبي:

وَفِيْمَهْ وَمِمَّهْ قِفْ وَعَمَّهْ لِمَهْ بِمَهْ   بِخُلْفٍ عَنِ ٱلْبَزِّيِّ وَٱدْفَعْ مُجَهِّلاً

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ والمقت: البغض الشديد لمن يراه متعاطياً لقبيح، يقال: مقته، فهو مقيت وممقوت، إذا كان يبغضه كل أحد. ﴿صَفًّا﴾ والصف: أن يجعل الشيء على خط مستوٍ، كالناس والأشجار والأعمدة. ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ﴾ والبنيان: الحائط. وفي «القاموس»: البناء ضد الهدم، يقال: بناه بنياً، وبناء وبنياناً، وبنية وبناية، والبناء: المبني. والبنيان واحد لا جمع دل عليه تذكير مرصوص كما مرّ بسطه مع ذكر الخلاف فيه. ﴿مَّرْصُوصٌ﴾؛ أي: ملزق بعضه على بعض، كأنما بني بالرصاص. وقيل: المرصوص: المتلاحم الأجزاء المستويها، وقيل: المعقود بالرصاص، وقيل: المتضام، من تراص الأسنان، مأخوذ من الرصّ. وفي «المصباح»: الرصّ: اتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه، وبابه: رد، والمرصوص: المحكم. قال المبرد: تقول: رصصت البناء إذا لأمت بين أجزائه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة.

﴿يَٰقَوْمِ﴾ الأصل: يا قومي، حذفت ياء المتكلم منه، ومن أمثاله اجتزاء عنها بالكسرة. ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾؛ أي: لم تخالفون أمري بترك القتال مع الجبابرة، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا﴾؛ أي: أصروا على الزيغ والانحراف عن الحق الذي جاء به موسى عليه السلام. أصله: زيغوا بوزن فَعَلُوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وكذلك القول في قوله: ﴿أَزَاغَ﴾ أصله: أَزْيَغَ، قلبت ياؤه ألفاً بعد نقل حركتها إلى الزاي لتحركها

في الأصل وفتح ما قبلها في الحال.

﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ والفرق بين الكذب والافتراء: أن الافتراء افتعال الكذب واختلاقه من قبل نفسه، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه. ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أصله: يدعي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد الفتح، والأصل في يائه الواو، قلبت ياء حملاً للفعل على اسم الفاعل. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ﴾ أصله: يرودون، بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى الراء، فسكنت إثر كسرة فقلبت ياء حرف مدّ. والإطفاء: الإخماد. ويستعملان في النار، ويستعملان فيما يجري مجراها من الضياء والظهور. ويفترق الإطفاء والإخماد من وجه، وهو: أن الإطفاء يستعمل في القليل، فيقال: أطفأت السراج ولا يقال: أخمدت السراج. ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أصله: متمم، بوزن مفعل: اسم فاعل من أتم الرباعي، نقلت حركة الميم الأولى إلى التاء فسكنت، فأدغمت في الميم الثانية. ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ أصله: أدللكم بوزن أفعل، نقلت حركة اللام الأولى إلى الدال فسكنت فأدغمت في الثانية. والتجارة: التصرف في رأس المال طلباً للربح، والتاجر الذي يبيع ويشتري، وليس في كلام العرب تاء بعدها جيم إلا هذه اللفظة كما مرّ. ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى﴾ جمع جنة، والجنة في اللغة: البستان الذي فيه أشجار متكاثفة مظلة تستر ما تحتها. ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ جمع مسكن بمعنى المقام. والسكون: ثبوت الشيء بعد التحرك، ويستعمل في الاستيطان، يقال: سكن فلان في مكان كذا، استوطنه، واسم المكان مسكن، فمن الأول يقال: سكنت، ومن الثاني: سكنته. قال الراغب: أصل الطيب: ما يستلذه الحواس، وزنه: فيعلة، أدغمت ياء فيعل في ياء عين الكلمة.

﴿تُحِبُّونَهَا﴾ الأصل: تحببونها، بوزن تفعلون، نقلت حركة الباء الأولى إلى الحاء فسكنت فأدغمت في الباء الثانية. ﴿كُونُوٓا أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ جمع نصير، كأشراف وشريف. وأنصار الله هم الناصرون لدينه. ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ جمع حواري من الحور وهو البياض الخالص، وحواري الرجل: صفيه وخليله. ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ﴾؛ أي: جماعة، وهي أقل من الفرقة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾. ﴿فَأَصْبَحُوا ظَٰهِرِينَ﴾ من ظهرت على الحائط إذا عَلوت عليه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي التعييري في قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

ومنها: الإطناب بتكرار قوله: ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وهو لفظ واحد في كلام واحد، ومن فوائد التكرار: التهويل والإعظام، وإلا فقد كان الكلام مستقلاً لو قيل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ذلك فما إعادته إلا لمكان هذه الفائدة.

ومنها: التشبيه المرسل المفصل في قوله: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾؛ أي: في المتانة والتراص.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للدلالة على استمرار العلم.

ومنها: الإتيان بالجملة الاعتراضية التذييلية في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لتقرير مضمون ما قبلها من الإزاغة، وإيذاناً بعليته.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾. مثل حالهم في اجتهادهم في إبطال الحق بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئها، تهكماً وسخرية بهم. وقيل: الاستعارة تصريحية، شبه شرع الله ودينه بالنور الحسي بجامع الإضاءة في كل. والإطفاء ترشيح.

ومنها: التورية في قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ أي: بأقوالهم: إنه سحر، وشعر، وكهانة، والتورية: أن يكون للكلمة معنيان بعيد وقريب، ويراد البعيد دون القريب، وهو من المحسنات اللفظية.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾؛ أي: مظهر دينه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾.

ومنها: إضافة الموصوف إلى صفته في قوله: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ لغرض الإيضاح،

مثل: عذاب الحريق.

ومنها: الاستفهام للترغيب والتشويق في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾. حيث شبّه الإيمان والعمل الصالح بالتجارة بجامع الربح والخسران في كل، فاستعار له لفظ التجارة.

قال ابن الشيخ: جعل ذلك تجارة، تشبيهاً له في الاشتمال على معنى المبادلة والمعاوضة، طمعاً لنيل الفضل والزيادة، فإن التجارة هي معاوضة المال بالمال لطمع الربح. والإيمان والجهاد شبها بها من حيث إن فيهما بذل النفس والمال طمعاً لنيل رضى الله تعالى والنجاة من عذابه انتهى.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿تُحِبُّونَهَا﴾، لأن فيه تعريضاً بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل، وتوبيخاً على محبته.

ومنها: إضافة الوصف إلى مفعوله في ﴿كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾؛ أي: أنصار دِينه.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ﴾، ﴿وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾.

ومنها: إيراد العدو في قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ إعلاماً بأن الكافرين عدو للمؤمنين عداوة دينية أياً كان.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

موضوعات هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ اللوم والتعنيف على مخالفة القول للعمل.

٢ ـ البشارة بمحمد ـ ﷺ ـ على لسان عيسى عليه السلام.

٣ ـ إرسال محمد ـ ﷺ ـ بالهدى ودين الحق.

٤ ـ التجارة الرابحة عند الله تعالى هي الإيمان والجهاد في سبيله.

٥ ـ الأمر بنصرة الدين كما نصر الحواريون دينهم[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) وكان الفراغ من تفسير هذه السورة في يوم الاثنين وقت الضحوة اليوم الثالث من شهر ذي الحجة من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية في تاريخ ٣/ ١٢/ ١٤١٥ هـ. وصلّى الله وسلم على محمد وآله وصحبه أجمعين آمين.

سورة الجمعة

سورة الجمعة مدنية، قال القرطبي: في قول الجميع، نزلت بعد الصف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (نزلت سورة الجمعة بالمدينة). وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله.

وآيها: إحدى عشرة آية. وكلماتها: مئة وثمانون كلمة. وحروفها: سبع مئة وثمانية[1] وأربعون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ أنه ذكر في السورة قبلها حال موسى مع قومه بإيذائهم له ناعياً عليهم ذلك، وذكر في هذه حال الرسول ـ ﷺ ـ وفضل أمته تشريفاً لهم ليعلم الفرق بين الأمتين.

٢ ـ أنه حكى في السورة قبلها قول عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وذكر هنا ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى أنه هو الذي بشر به عيسى عليه السلام.

٣ ـ أنه لما ختم السورة قبلها بالأمر بالجهاد وسماه تجارة.. ختم هذه السورة بالأمر بالجمعة، وأخبر أن ذلك خير من التجارة الدنيوية.

وعبارة أبي حيان[3]: مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر تأييد من آمن على أعدائهم.. أتبعه بذكر التنزيه لله تعالى وسعة ملكه وتقديسه، وذكر ما أنعم به على أمة محمد ـ ﷺ ـ من بعثته إليهم وتلاوته عليهم كتابه وتزكيتهم، فصارت أمته غالبة على سائر الأمم قاهرة لها منتشرة الدعوة كما انتشرت دعوة الحواريين في زمانهم، انتهى.

---

(١) المراح. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

تسميتها: سميت سورة الجمعة لذكر يوم الجمعة فيها. وقال محمد بن حزم: سورة الجمعة كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضائلها: ومن فضائلها: ما أخرجه مسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة قال: (سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ في الجمعة سورة الجمعة، وإذا جاءك المنافقون). وأخرج مسلم وأهل السنن عن ابن عباس نحوه.

ومنها: ما أخرجه ابن حبان، والبيهقي في «سننه» عن جابر بن سمرة قال: (كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون).

وأخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة». وعنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له ـ قال: يوم الجمعة ـ فاليوم لنا وغداً لليهود وبعد غدٍ للنصارى».

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾.

المناسبة

قد تقدم لك ذكر مناسبة هذه السورة لما قبلها آنفاً، وأما قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ...﴾ الآيات، مناسبته لما قبله: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] أثبت التوحيد والنبوة وذكر أنه بعث محمداً - ﷺ - للأميين، وقال اليهود: إن الرسول لم يبعث لنا.. رد عليهم مقالهم بأنهم لو فهموا التوراة حق الفهم، وعملوا بما فيها لرأوا فيها نعت الرسول - ﷺ - والبشارة به، وأنه يجب عليهم اتّباعه، وما مثلهم في حملهم للتوراة وتركهم العمل بها إلا مثل الحمار يحمل الكتب ولا يجديه حملها نفعاً.

ثم رد عليهم مقالاً آخر، إذ قالوا: نحن أحباء الله وأولياؤه، وأنه لن يدخلنا

(١) المراغي.

النار إلا أياماً معدودات؛ بأنه لو كان ما تقولونه حقاً، لتمنيتم الموت حتى تخلصوا من هذه الدار دار الأكدار وتذهبوا إلى دار النعيم، وإنكم لن تفعلوا ذلك، فأنتم كاذبون فيما تدعون، ولم تفرون منه وهو ملاقيكم ولا محالة، وهناك ترجعون إلى ربكم فينبئكم بما قدمتم من عمل ويجازيكم عليه إن خيراً وإن شراً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نعى على اليهود فرارهم من الموت حباً في الدنيا والتمتع بطيباتها.. ذكر هنا أن المؤمن لا يمنع من اجتناء ثمار الدنيا، وخيراتها مع السعي لما ينفعه في الآخرة؛ كالصلاة يوم الجمعة في المسجد مع الجماعة، فعليه أن يعمل للدنيا والآخرة معاً، فما الدنيا إلا مزرعة الآخرة، كما ورد في الأثر: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

ثم نعى على المسلمين في عهد الرسول - ﷺ - تشاغلهم عن سماع عظاته - وهو يخطب على المنبر - بأمور الدنيا، من تجارة وضرب دف وغناء بالمزامير ونحو ذلك. وأبان لهم أن ما عند الله تعالى من الثواب والنعيم المقيم خير لهم من خيرات الدنيا والتمتع بلذاتها الفانية.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه الشيخان عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: (كان النبي - ﷺ - يخطب يوم الجمعة، إذ أقبلت عير قد قدمت، فخرجوا إليها حتى لم يبق معه - ﷺ - إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزل ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾.

وفي «الدر المنثور» (٦/ ٢٢١): أن النبي - ﷺ - يخطب يوم الجمعة، فإذا كان نكاح.. لعب أهله وعزفوا ومروا باللهو على المسجد، وإذا نزلت بالبطحاء جلب - قال: وكانت البطحاء مجلساً بفناء المسجد الذي يلي بقيع الغرقد، وكانت

(١) لباب النقول.

الأعراب إذا جلبوا الخيل والإبل، والغنم وبضائع الأعرابِ.. نزلوا البطحاء، فإذا سمع ذلك من يقعد للخطبة.. قاموا للهو والتجارة وتركوه قائماً. فعاتب المؤمنين لنبيه - ﷺ - فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾.

وإنما نقلته من «الدر المنثور» لأن فيه الجمع بين السببين، ولأن عبارته أوضح من عبارة غيره كالطبري.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: ينزهه تعالى عن كل النقائص، ويذكره بلسان المقال وبلسان الحال بأنواع الذكر، من التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد ﴿مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ جميعاً، من حي وجامد، تسبيحات مستمرة لا تنقطع، أداء لحقّ الألوهية وقياماً بحق الربوبية. فما في السماوات هي البدائع العلوية، وما في الأرض هي الكوائن السفلية، فلكل نسبة إلى الله تعالى بالحياة والتسبيح.

أي[1]: كل ما في السماوات والأرض إذا نظرت إليه.. دلت على وحدانية خالقه وعظيم قدرته، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

﴿الْمَلِكِ﴾؛ أي: المالك لما في السماوات والأرض، المتصرف فيهما بقدرته وحكمته. ﴿الْقُدُّوسِ﴾؛ أي: المنزه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله، من شريك وولد وصاحبة. ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب في ملكه بالنقمة لمن لا يؤمن به، أو الغالب على عباده المسخر لهم بقدرته على ما يشاء. ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبير شؤونهم فيما هو أعلم به من مصالحهم الموصلة إلى سعادتهم في معاشهم ومعادهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿الْمَلِكِ﴾ وما بعده من الصفات بالجر، على أنها نعت للجلالة، وقيل: على البدل، والأول أولى. وقرأ أبو وائل، ومسلمة بن محارب، ورؤبة، وأبو العالية، ونصر بن عاصم، وأبو الدينار الأعرابي بالرفع على أنه خبر مبتدأ تقديره: هو، وحسنه الفصل الذي فيه طول بين الموصوف والصفة، وكذلك جاء عن يعقوب. وقرأ أبو الدينار، وزيد بن علي: ﴿القدوس﴾ بفتح القاف،

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

والجمهور بالضم.

ثم وصف الرسول ـ ﷺ ـ بصفات المدح والكمال، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ﴾ وأرسل ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ في الأقوام الذين لا يكتبون ولا يقرؤون، وهم العرب. ﴿رَسُولًا﴾ كائناً ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من جملتهم وجنسهم ونسبهم، عربياً أمياً مثلهم، وما كان حي من أحياء العرب إلا ولرسول الله ـ ﷺ ـ فيهم قرابة. ووجه الامتنان بكونه منهم: أن ذلك أقرب إلى الموافقة؛ لأن الجنس أميل إلى جنسه وأقرب إليه. والمراد بالأميين: العرب، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لا يحسنها؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب. والأمي في الأصل: من لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وكان غالب العرب كذلك.

والأميون[1]: جمع أمي، منسوب إلى أمة العرب. وهم قسمان: إسماعيلي ويمني. فعرب الحجاز من عدنان ترجع إلى إسماعيل عليه السلام، وعرب اليمن ترجع إلى قحطان. وكل منهم قبائل كثيرة. والمشهور عند أهل التفسير: أن الأميّ: من لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، كما مرّ، وعند أهل الفقه: من لا يعلم شيئاً من القرآن، كأنه بقي على ما تعلمه من أمه من الكلام الذي يتعلمه الإنسان بالضرورة عند المعاشرة. والنبي الأميّ منسوب إلى الأمة الذين لم يكتبوا؛ لكونه على عاداتهم، كقولك: عاميّ لكونه على عادة العامّة. وقيل: سمي بذلك لأنه لم يكتب ولم يقرأ من كتاب، وذلك فضيلة له لاستغنائه بحفظه واعتماده على ضمان الله له عنه بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾. وقيل: سمي بذلك بالنسبة إلى أم القرى. وفي «كشف الأسرار»: سمي العرب أميين لأنهم كانوا على نعت أمهاتهم مذ كانت، بلا خط ولا كتاب نسبوا إلى ما ولدوا عليه من أمهاتهم؛ لأن الخط والقراءة والتعلم دون ما جبل الخلق عليه. ومن يحسن الكتابة من العرب فإنه أيضاً أميّ؛ لأنه لم يكن لهم في الأصل خط ولا كتابة.

قيل: بدئت الكتابة بالطائف، تعلمها ثقيف وأهل الطائف من أهل الحيرة ـ بكسر الحاء وسكون التحتانية ـ بلد قرب الكوفة، وأهل الحيرة أخذوها من أهل الأنبار، وهي مدينة قديمة على الفرات، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ. ولم يكن

---

(١) روح البيان.

في أصحاب رسول الله - ﷺ - كاتب إلا حنظلة الذي يقال له: غسيل الملائكة ويسمى حنظلة الكاتب. ثم ظهر الخط في الصحابة بعد في معاوية بن أبي سفيان وزيد بن ثابت، وكانا يكتبان لرسول الله - ﷺ -، وكان له كتّاب أيضاً غيرهما. واختلفوا في رسول الله - ﷺ - أنه هل تعلم الكتابة بآخرة من عمره أو لا؟ لعلمائنا فيها وجهان، وليس فيه حديث صحيح ولا نقل صريح.

ولما[1] كان الخط صنعة ذهنية وقوة طبيعية صدرت بالآلة الجسمانية.. لم يحتج إليه من كان القلم الأعلى منبعه واللوح المحفوظ مصحفه ومرجعه، وعدم كتابته مع علمه بها معجزة باهرة له - ﷺ -؛ إذ كان يعلم الكتاب علم الخط وأهل الحرف حرفتهم، وكان أعلم بكل كمال أخروي أو دنيوي.

ومعنى الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾؛ أي: في العرب؛ لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون من بين الأمم، فغلب الأكثر، وإنما قلنا: أكثرهم لأنه كان فيهم من يكتب ويقرأ وإن كانوا على قلة. رسولاً من جنسهم ونسبهم. والبعث في الأميين لا ينافي عموم دعوته - ﷺ -، فالتخصيص بالذكر لا مفهوم له. ولو سلم.. فلا يعارض منطوق قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ على أنه فرق بين البعث في الأميين والبعث إلى الأميين، فبطل احتجاج أهل الكتاب بهذه الآية على أنه - ﷺ - كان رسول الله إلى العرب خاصة، ورد الله بذلك ما قال اليهود للعرب طعناً فيه: نحن أهل الكتاب وأنتم أميون لا كتاب لكم.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ القرآنية، مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولا تعلم ذلك من أحد. والجملة[2] صفة لـ﴿رَسُولًا﴾، وكذا قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال ابن جريج ومقاتل؛ أي: يطهرهم من دنس الكفر والذنوب. وقال السدي: يأخذ زكاة أموالهم. وقيل: يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: هذه صفة ثالثة لـ﴿رَسُولًا﴾. والمراد بالكتاب: القرآن وبالحكمة: السنة، كذا قال الحسن. وقيل: الكتاب: الخط بالقلم، والحكمة: الفقه في الدين، كذا قال مالك بن أنس. ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾؛ أي: وقد كانوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثه فيهم ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وخطأ ظاهر، وشرك بيّن، وذهاب عن الحق.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ والفرق بين التلاوة والقراءة: أن التلاوة قراءة القرآن متتابعة كالدراسة، والقراءة أعم؛ لأنها جمع الحروف باللفظ لا إتباعها. وقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ أي: يحملهم على ما يصيرون به أزكياء من خبائث العقائد والأعمال. وفيه إشارة إلى قاعدة التشريع، فإن المزكي في الحقيقة وإن كان هو الله تعالى كما قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، إلا أن الإنسان الكامل مظهر الصفات الإلٰهية جميعاً، ويؤيد هذا المعنى: إطلاق نحو قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾. قال بعضهم: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: الشريعة، وهي ما شرع الله لعباده من الأحكام. وقيل: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: لفظه، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: معناه. وإنما وسط بين التلاوة والتعليم بالتزكية التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب قوتها العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصلة بالعلم المترتب على التلاوة، مع أن التعليم مترتب في الوجود على التلاوة للإيذان بأن كلاً من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر، فلو روعي ترتيب الوجود.. لتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة، وهو السر في التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتاب والحكمة رمزاً إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: ﴿إِنْ﴾[1] ليست شرطية ولا نافية، بل هي المخففة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية.

والمعنى: وإن الشأن: كان الأميون من قبل بعثه ومجيئه لفي ضلال مبين من الشرك وخبث الجاهلية، لا ترى ضلالاً أعظم منه. وقيل: ﴿إن﴾ بمعنى: قد، كما مرت الإشارة إليه.

وهو بيان لشدة افتقارهم إلى من يرشدهم، وإزاحة لما عسى يتوهم من تعلمه - ﷺ - من الغير، فإن المبعوث فيهم إذا كانوا في ضلال قبل البعثة.. زال توهم أنه تعلم ذلك من أحد منهم. قال سعدي المفتي: والظاهر: أن نسبة الكون في الضلال إلى الجميع من باب التغليب، وإلا.. فقد كان فيهم مهتدون، مثل: ورقة بن نوفل، وزيد بن نفيل، وقس بن ساعدة وغيرهم ممن قال رسول الله - ﷺ - في كل منهم

---

(١) روح البيان.

يبعث أمة وحده.

يقول الفقير: هو اعتراض على معنى لإزاحة المذكور، لكنه ليس بشيء، فإن اهتداء من ذكره من نحو ورقة إنما كان في باب التوحيد فقط، فقد كانوا في ضلال من الشرائع والأحكام، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ مع أنه - ﷺ - لم يصدر منه قبل البعثة شرك ولا غيره من السرقة والزنا واللغو واللهو، فكونهم مهتدين من وجه لا ينافي كونهم ضالين من وجه آخر، دلّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ إلخ. فإن التلاوة وتعليم الأحكام والشرائع حصَّل تزكية النفس والنجاة من الضلال مطلقاً، فتدبر.

ومعنى الآية[1]: هو الذي أرسل رسوله محمداً - ﷺ - إلى الأمة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب، وهم العرب. أخرج البخاري، ومسلم وأبو داود، والنسائي، عن ابن عمر، عن النبي - ﷺ - قال: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»، وهذا الرسول من جملتهم؛ أي: مثلهم، ومع ذلك يتلو عليهم آيات الكتاب ليجعلهم طاهرين من خبائث العقائد والأعمال، ويعلمهم الشرائع والأمور العقلية التي تكمل النفوس وتهذبها.

وتخصيص الأميين بالذكر لا يدل على أنه لم يرسل إلى غيرهم، فقد جاء العموم في آيات أخرى، كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾. ومن حكمته تعالى أنه أرسله عربياً مثلهم ليفهموا ما أرسل به إليهم، ويعرفوا صفاته وأخلاقه، ليسهل اقتناعهم بدعوته.

وخلاصة ما سلف[2]: أنه ذكر الغرض من بعثة هذا الرسول وأجملها في أمور ثلاثة:

١ - أنه يتلو عليهم آيات القرآن التي فيها هدايتهم وإرشادهم لخير الدارين مع كونه أمياً لا يكتب ولا يقرأ؛ لئلا يكون هناك مطعن في نبوته بأن يقولوا: إنه نقله من كتب الأولين، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

٢ ـ أنه يطهرهم من أدناس الشرك وأخلاق الجاهلية، ويجعلهم منيبين إلى الله مخبتين له في أعمالهم وأقوالهم، لا يخضعون لسلطة مخلوق غيره من ملك أو بشر أو حجر.

٣ ـ أنه يعلمهم الشرائع والأحكام وحكمتها وأسرارها، فلا يتلقون عنه شيئاً إلا وهم يعلمون الغاية منه والغرض الذي يفعله لأجله، فيقبلون إليه بشوق واطمئنان، وقد تقدم مثل هذا في سورة آل عمران: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ذاك أن العرب قديماً كانوا على دين إبراهيم فبدلوا وغيروا واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله تعالى، فكان من الحكمة أن يبعث سبحانه محمداً ـ ﷺ ـ بشرع عظيم، فيه هداية للبشر، وبيان ما هم في حاجة إليه من أمور معاشهم ومعادهم، ودعوتهم إلى ما فيه رضوان ربهم، والتمتع بنعيم جناته، ونهيهم عما يوجب سخطه ويقربهم إلى النار.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ جمع[1] آخر، بمعنى غير، وهومعطوف على ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾؛ أي: بعثه في الأميين الذين في عهده وفي آخرين من الأميين. أو على المنصوب في ﴿يعلمهم﴾؛ أي: يعلمهم ويعلم آخرين منهم، أو في ﴿يزكيهم﴾؛ أي: يزكيهم ويزكي آخرين منهم. وهم الذين جاؤوا من العرب، فـ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بالصفة لآخرين؛ أي: وآخرين كائنين منهم مثلهم في العربية والأمية. وإن كان المراد العجم. . فـ﴿مِنْهُمْ﴾ يكون متعلقاً بـ﴿آخرين﴾؛ أي: ويعلم أقواماً مغايرين لهم؛ أي: للعرب، وهم العجم.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ﴾ صفة لآخرين؛ أي: لم يلحقوا بالأميين بعد ولم يكونوا في زمانهم، وسيلحقون بهم، ويكونون بعدهم عرباً وعجماً. وذلك أن منفيَّ (لمَّا) لا بدّ أن يكون مستمر النفي إلى الحال، وأن يكون متوقع الثبوت بخلاف منفي (لَمْ) فإنه يحتمل الاتصال، نحو: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، والانقطاع مثل: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾. ولهذا: جاز لم يكن ثم كان، ولم يجز لما

(١) روح البيان.

يكن ثم كان، بل يقال: لما يكن وقد يكون، كما هو مبسوط في محله.

وقيل[1]: لما يلحقوا بهم في الفضل والمسابقة؛ لأن التابعين لا يدركون شيئاً مع الصحابة، وكذلك العجم مع العرب. ومن شرائط الدِّين: معرفة فضل العرب عن العجم، وحبهم، ورعاية حقوقهم. وفي الآية دليل على أن رسول الله - ﷺ - رسول نفسه وبلاغه حجة لأهل زمانه ومن بلغ، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

وقال الشوكاني: والضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ و﴿بِهِمْ﴾ راجع إلى الأميين، وهذا يؤيد أن المراد بـ﴿الآخرين﴾ هم من يأتي بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة، وهو - ﷺ - وإن كان مرسلاً إلى جميع الثقلين فتخصيص العرب ههنا لقصد الامتنان عليهم، وذلك لا ينافي عموم الرسالة. ويجوز أن يراد بالآخرين العجم؛ لأنهم وإن لم يكونوا من العرب فقد صاروا بالإسلام منهم، والمسلمون كلهم أمة واحدة، وإن اختلفت أجناسهم. انتهى.

والمعنى: أي وبعثه في آخرين أي: في غيرهم من المؤمنين إلى يوم القيامة. وهم من جاؤوا بعد الصحابة إلى يوم الدين، من جميع الأمم، كالفرس والروم والترك والتكرور، والأرميا والأفارقة، أو يعلم آخرين غير الصحابة من التابعين فمن بعدهم، قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة، لكن بواسطة ورثة أمته وكمل أهل دينه وملته.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: المبالغ في العزة والغلبة، ولذلك مكن رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: المبالغ في الحكمة ورعاية المصلحة، ولذلك اصطفاه من بين كافة البشر. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي امتاز به محمد - ﷺ - من بين سائر الأفراد. وهو أن يكون نبي أبناء عصره ونبي أبناء العصور الغوابر. ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وإحسانه ﴿يُؤْتِيهِ﴾؛ أي: يعطي فضله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إعطاءه من عباده، تفضلاً وتكرماً، وعطية لا تأثير للأسباب فيه، فكان الكرم منه صرفاً لا تمازجه العلل، ولا تكسبه الحيل. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والعطاء الجسيم

---

(١) روح البيان.

الذي يستحقر دونه نعم الدنيا ونعم الآخرة. وفي «كشف الأسرار»: والله ذو الفضل العظيم على محمد وذو الفضل العظيم على الخلق بإرسال محمد - ﷺ - إليهم وتوفيقهم لمبايعته، انتهى.

يقول الفقير: وأيضاً: والله ذو الفضل العظيم على أهل الاستعداد من أمة محمد - ﷺ - بإرسال ورثة محمد في كل عصر إليهم وتوفيقهم للعمل بموجب إرشادهم، ولولا أهل الإرشاد والدلالة والدعوة.. لبقي الناس كالعميان، لا يدرون أين يذهبون، وإنما كان هذا الفضل عظيماً لأن غايته الوصول إلى الله العظيم.

وعبارة المراغي هنا: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: وهو ذو العزة والسلطان، القادر أن يجعل هذه الأمة المستضعفة صاحبة النفوذ والقوة التي تنشر في غيرها من الأمم روح العدل والنظام، بإرسال رسول من أبنائها ينقذ الناس من الضلالة إلى الهدى ومن الظلمات إلى النور. وهو الحكيم فيما يفعل من تدبير أمور الخلق لما فيه خيرهم وفلاحهم.

ثم ذكر سبحانه أن إرسال هذا الرسول فضل منه ورحمة فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إرسال هذا الرسول إلى البشر مزكياً مطهراً لهم هادياً معلماً ﴿فَضْلُ﴾ من ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وإحسان منه إلى عباده، يعطيه من يشاء ممن يصطفيه من خلقه بحسب ما يعلمه من استعداده وصفاء نفسه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته. وهو سبحانه ذو الفضل العظيم عليهم في جميع أمورهم، في دنياهم وآخرتهم، في معاشهم ومعادهم، فلا يجعلهم في حيرة من أمرهم، تنتابهم الشكوك والأوهام ولا يجدون للخلاص منها سبيلاً، ولا يجعل قويهم يبطش بضعيفهم ويغتصب أموالهم، ويسعى في الأرض بالفساد، ويهلك الحرث والنسل، فيكون العالم ككرة تتقاذفها أكف اللاعبين، فهو أرحم بعباده من أن يتركهم سدًى هملاً ولا صلاح لهم في دين ولا دنيا، انتهى.

ثم ضرب سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلاً، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾؛ أي: كلفوا القيام بها والعمل بما فيها، وهم اليهود ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾؛ أي: لم يعملوا بما في تضاعيفها من الآيات التي من جملتها الآيات الناطقة بنبوة محمد - ﷺ -، واقتنعوا بمجرد قراءتها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾:

﴿الكاف﴾: فيه زائدة كما في «الكواشي». والحمار: حيوان معروف يعبر به عن الجاهل، كقولهم: هو أكفر من الحمير؛ أي: أجهل، لأن الكفر من الجهالة. فالتشبيه لزيادة التحقير والإهانة، ولنهاية التهكم والتوبيخ بالبلادة؛ إذ الحمير تذكر بها. والبقر وإن كان مشهوراً بالبلادة إلا أنه لا يلائم الحمل. ولقد أجاد من قال:

تَعَلَّمْ يَا فَتَىٰ فَالْجَهْلُ عَارٌ ... وَلاَ يَرْضَىٰ بِهِ إلاَّ حِمَارُ

أي: صفتهم العجيبة كصفة الحمار حال كونه ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾؛ أي: كتباً كباراً من العلم، يتعب بحملها ولا ينتفع بها. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبل، فهكذا اليهود. والأسفار: جمع سفر ـ بكسر السين ـ وهو: الكتاب الكبير، كشبر وأشبار. وجملة ﴿يَحْمِلُ﴾ في محل نصب على الحال أو صفة للحمار، إذ ليس المراد به حماراً معيناً فهو في حكم النكرة، كما في قول الشاعر:

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلىٰ اللَّئِيمِ يَسُبُّنِيْ ... فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لاَ يَعْنِيْنِيْ

والأصح: أن قولهم: الجمل بعد المعارف أحوال، وبعد النكرات صفات ليس مطرداً كما قدمنا بسطه. قال الراغب: السفر: الكتاب الذي يسفر عن الحقائق؛ أي: يكشف. وخص[1] لفظ الأسفار في الآية تنبيهاً على أن التوراة وإن كانت تكشف عن معانيها إذا قرئت وتحقق ما فيها فالجاهل لا يكاد يستبينها كالحمار الحامل لها. وفي هذا تنبيه من الله على أنه ينبغي لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه ويعمل به؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء.

يقول[2] سبحانه ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها: ما مثل هؤلاء إلا كمثل الحمار، يحمل الكتب لا يدري ما فيها ولا كنه ما يحمل، بل هم أسوأ حالاً من الحمر، لأن الحمر لا فهم لها، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها فيما ينفعهم، إذ حرفوا التوراة فأولوها وبدلوها، فهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

وصفوة القول: أن هذا النبي الذي تقولون: إنه أرسل إلى العرب خاصة هو

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

ذلك النبي المنعوت في التوراة والمبشر به فيها، فكيف تنكرون نبوته وكتابكم يحض على الإيمان به؟!. فما مثلكم في حملكم للتوراة مع عدم العمل بما فيها إلا مثل الحمار، يحمل الكتب ولا يدري ما فيها، فأنتم إذ لم تعملوا بما فيها وهي حجة عليكم إلا مثل الحمار ليس له إلا ثقل الحمل من غير انتفاع له بما حمل.

والخلاصة[1]: أي صفة الذين أمروا بأن يعملوا بما في التوراة ثم لم يعملوا بما أمروا فيها كصفة الحمار، يحمل كتباً كباراً في عدم انتفاعه بها. وقال أهل المعاني: هذا المثل مثل من يفهم معاني القرآن ولم يعمل به وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه.

ثم بين قُبح هذا المثل وشديد وقعه على من يعقله ويتدبره، فقال: ﴿بِئْسَ﴾ وقبح مثلاً ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، على[2] أن التمييز محذوف، والفاعل المفسر به مضمر و﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾: هو المخصوص بالذم، أو ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾: فاعل ﴿بِئْسَ﴾، والمخصوص بالذم: الموصول بعده على حذف مضاف؛ أي: مثل الذين كذبوا. ويجوز أن يكون الموصول صفة للقوم، فيكون في محل جرّ، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء، وهؤلاء هم اليهود الذين كفروا بما في التوراة من الآيات الشاهدة بصحة نبوة محمد - ﷺ -.

والمعنى[3]: أي ما أقبح هذا مثلاً لهم، لتكذيبهم بآيات الله التي جاءت على لسان رسوله، لو كانوا يتدبرون ويتفكرون؛ إذ لم يكن لهم ما يشبههم من ذوي العقول والحجا من ملك أو إنس، بل لا شبيه لهم إلا ما هو أحقر الحيوان وأذلّه، وهو الحمار:

وَلاَ يُقِيمُ عَلَىٰ ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ ... إِلاَّ الأَذَلاَّنِ: عَيْرُ ٱلْحَيِّ وَٱلْوَتَدُ
هَذَا عَلَىٰ ٱلْخَسْفِ مَرْبُوطٍ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِي لَهُ أَحَدُ

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الواضعين[4] للكتذيب في موضع التصديق، أو

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد، باختيار الضلالة على الهداية، والشقاوة على السعادة، والعداوة على الولاية، كاليهود ونظائرهم. وفيه تقبيح لهم بتشبيه حالهم بحال الحمار، والمشبه بالقبيح قبيح، فصوت الجاهل والمدعي منكراً كصوت الحمار وأضل وأنزل، فهو ضار محض، وفي الحمار نفع؛ لأنه يحمل الأثقال ويركبه النساء والرجال.

والمعنى[1]: والله لا يهدي القوم الظالمين لأنفسهم، إذ هم دسوها حتى أحاطت بهم خطيئتهم وأعمت أبصارهم ورانت على قلوبهم فلم تر نور الحق ولم تشعر بحجة ولا برهان، بل هي في ظلام دامس، لا تهتدي لطريق ولا تصل إلى غاية.

ولما كان من شأن من لم يعمل بالكتاب الذي أنزل إليه أن يكون محباً للحياة تاركاً لكل ما ينفعه في الآخرة.. قال آمراً رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾؛ أي: تهودوا وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. من هاد يهود، بمعنى: تهود؛ أي: تمسك بدين اليهود. وقال بعضهم: أي: مالوا عن الإسلام والحق إلى اليهودية، وهي من الأديان الباطلة.

ثم إن الله سبحانه خاطب الكفار في أكثر المواضع بالواسطة، ومنها: هذه الآية؛ لأنهم أدخلوا الواسطة بينهم وبين الله تعالى، وهي الأصنام. وأما المؤمنون فإن الله تعالى خاطبهم في أغلب المواضع بلا واسطة، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لأنهم أسقطوا الوسائط فأسقط الله بينه وبينهم الواسطات. ﴿إِن زَعَمْتُمْ﴾ وقلتم، والزعم: هو القول بلا دليل. ﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ وأحباؤه، جمع ولي، بمعنى حبيب. ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ صفة أولياء؛ أي: من دون الأميين وغيرهم ممن ليس من بني إسرائيل. وقال بعضهم: من دون المؤمنين من العرب والعجم، يريد بذلك ما كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، ويدعون أن الدار الآخرة لهم عند الله خالصة، وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾، فأمر رسوله ـ ﷺ ـ بأن يقول لهم إظهاراً لكذبهم: إن زعمتم ذلك ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾؛ أي: فتمنوا من الله واطلبوا منه أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى دار الكرامة، وقولوا: اللهم أمتنا

---

(١) المراغي.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: إن كنتم صادقين في زعمكم واثقين بأنه حق فتمنوا الموت، فإن من أيقن أنه من أهل الجنة، أحب أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي قرارة أكدار، ولا يصل إليها أحد إلا بالموت.

روي: أنه لما ظهر رسول الله ﷺ.. كتبت يهود المدينة ليهود خيبر: إن اتبعتموه.. أطعناكم وإن خالفتموه.. خالفناه. فقالوا لهم: نحن أبناء خليل الرحمٰن، ومنا عزير ابن الله والأنبياء، ومتى كانت النبوة في العرب؟ نحن أحق بها من محمد، ولا سبيل إلى اتباعه. فنزلت: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟...﴾ الآية.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ بضم الواو. وقرأ ابن السميفع، وابن يعمر وابن أبي إسحاق بكسرها، وعن ابن السميفع أيضاً: فتحها تخفيفاً. وحكى الكسائي عن بعض الأعراب: أنه قرأ بالهمز مضمومة بدل الواو، وهذا كقراءة من قرأ ﴿تلؤون﴾ بالهمز بدل الواو.

والمعنى[2]: قل لهم يا محمد: أيها اليهود، إن كنتم تزعمون أنكم على هدى من ربكم وأن محمداً وأصحابه على ضلالة.. فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين فيما تزعمون. وقد تقدم الكلام في مثل هذه المباهلة ـ الملاعنة ـ لليهود في سورة البقرة في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾، كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران في قوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ...﴾ الآية، ومباهلة المشركين في سورة مريم: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾.

ثم أخبر بأنهم لن يتمنوه أبداً؛ لما يعلمون من سوء أفعالهم وقبيح أعمالهم، فقال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾: إخبار بما سيكون منهم. و﴿أَبَدًۢا﴾: ظرف بمعنى الزمان المتطاول، لا بمعنى مطلق الزمان. والمراد به: ما داموا في الدنيا. وفي البقرة: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾؛ لأن دعواهم في البقرة بالغة قاطعة، وهي: كون الجنة لهم بصفة الخلوص، فبالغ في الرد عليهم بـ﴿لن﴾، وهو أبلغ ألفاظ النفي. ودعواهم في

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الجمعة قاصرة مترددة، وهي: زعمهم أنهم أولياء لله، فاقتصر على ﴿لا﴾ كما في برهان القرآن. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: و﴿الباء﴾: سببية متعلقة بما يدل عليه النفي. أي: يأبون التمني بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي، والتحريف والتبديل وتغيير النعت النبوي، الموجبة لدخول النار، وهم يعرفون أنهم بعد الموت يعذبون بمثل هذه المعاصي.

ولما[1] كانت اليد من بين جوارح الإنسان مناط عامة أفاعيله.. عبر بها تارة عن النفس كما هنا، وأخرى عن القدرة. يعني: أن الأيدي هنا بمعنى الذوات، استعملت فيها لزيادة احتياجها إليها، فكأنها هي.

﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم في كل أمورهم؛ أي: عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي المفضية إلى أفانين العذاب، وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدي إلى ذلك. فوقع الأمر كما ذكر، فلم يتمن منهم أحد موته، ولا يخفى ما في هذا من شديد التهديد والوعيد.

روي عنه - ﷺ - في حق اليهود: «لو تمنوا الموت.. لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على وجه الأرض يهودي». وروي: أنه - ﷺ - قال لهم: «والذي نفسي بيده لا يتمناها أحد منكم إلا غص بريقه» فلم يتمن أحد منهم لعلمهم بصدقه، وأيقنوا أنهم لو تمنوه لماتوا لساعتهم وحق عليه الوعيد وحل بهم العذاب الشديد.

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تجسرون على أن تتمنوه مخافة أن تؤخذوا بوبال كفركم. ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه. و﴿الفاء﴾[2]: لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف. أي: باعتبار كون الموصوف بالموصول في حكم الموصول. أي: إن فررتم من الموت.. فإنه ملاقيكم، كأن الفرار سبب لملاقاته وسرعة لحوقه، إذ لا يجد الفارّ بركة في عمره بل يفرّ إلى جانب الموت فيلاقيه الموت ويستقبله. وقيل: إذا أدبر الأمر.. كان

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

العطب في الحيلة. ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت الاضطراري الطبيعي ﴿تُرَدُّونَ﴾ من الردّ، وهو: صرف الشيء بذاته أو بحالة من أحواله، يقال: رددته فارتد. والآية من الرد بالذات، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، ومن الرد إلى حالة كان عليها قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾. ﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ الذي لا تخفى عليه أحوالكم؛ أي: ترجعون إلى حيث لا حاكم ولا مالك سواه. وإنما وصف ذاته بكونه عالم الغيب والشهادة باعتبار أحوالهم الباطنة وأعمالهم الظاهرة. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فيخبركم سبحانه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي، والفواحش الظاهرة والباطنة بأن يجازيكم بها.

ومعنى الآية[1]: وماذا يجديكم الفرار من الموت؟ ولماذا تمتنعون من المباهلة خوفاً على الحياة؟ فإنه سيلاقيكم البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه، فإن كنتم على الحق.. فلا تحفلوا بالحياة، فإن أيام الحياة مهما طال أمدها لا بد من نفاذها، ثم ترجعون بعد مماتكم إلى عالم غيب السماوات والأرض. فيخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من حسن وسيء، ثم يجازيكم على كل بما تستحقون. ولا يخفى ما في هذا من شديد التهديد، وعظيم الوعيد لو كانوا يعقلون.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَإِنَّهُ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ بالفاء الرابطة، لتضمن الاسم معنى الشرط كما مرّ آنفاً. وقد منع هذا قوم منهم: الفراء، وجعلوا الفاء زائدة. وقرأ زيد بن علي ﴿إنه ملاقيكم﴾ بغير فاء، وخرّجه الزمخشري عى الاستئناف، وخبر ﴿إنّ﴾: هو الذي، كأنه قال: قل إن الموت هو الذي تفرون منه، انتهى. ويحتمل أن يكون خبر ﴿إنّ﴾ هو قوله: إنه ملاقيكم، فالجملة خبر ﴿إنّ﴾، ويحتمل أن يكون ﴿إنه﴾ توكيداً لـ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ﴾، و﴿مُلَـٰقِيكُمْ﴾ خبر ﴿إن﴾، لما طال الكلام أكد الحرف مصحوباً بضمير الاسم الذي لـ﴿إن﴾، ذكره أبو حيان. وفي قراءة[3] ابن مسعود: ﴿تفرون منه ملاقيكم﴾ من غير ﴿فإنه﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ﴾ وأذن ﴿لِلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: لصلاة الجمعة. والنداء: رفع الصوت وظهوره، ونداء الصلاة مخصوص في الشرع بالألفاظ المعروفة. والمراد بالصلاة: صلاة الجمعة، والمراد بالأذان عند الجمهور: الأذان

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) المراح.

إذا جلس الإمام على المنبر؛ لأنه لم يكن على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ نداء سواه. وقد كان لرسول[1] الله ـ ﷺ ـ مؤذن واحد، فكان إذا جلس على المنبر.. أذّن على باب المسجد، فإذا نزل.. أقام الصلاة، ثم كان أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ على ذلك، حتى إذا كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ وكثر الناس وتباعدت المنازل.. زاد مؤذناً آخر، فأمر بالتأذين الأول على دار له بالسوق يقال لها: الزوراء؛ ليسمع الناس، فإذا جلس على المنبر.. أذن المؤذن الثاني، فإذا نزل.. أقام الصلاة، فلم يعب عليه ذلك أحد من الصحابة. والأصح عند الحنفية: أن المراد بالأذان: الأذان الأول؛ لأن الإعلام إنما يحصل به لا بالأذان بين يدي المنبر، والمراد بالصلاة: صلاة الجمعة، كما يدل عليه قوله: ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ و﴿من﴾ بيان لـ﴿إذا﴾ وتفسير لها. أي: لا بمعنى أنها لبيان الجنس على ما هو المتبادر، فإن وقت النداء جزء من يوم الجمعة، فلا يحمل عليه، فكيف يكون بياناً له؟ بل المقصود أنها لبيان أن ذلك الوقت في أي يوم من الأيام، إذ فيه إبهام، فتجامع كونها بمعنى (في) كما ذهب إليه بعضهم، وكونها (للتبعيض) كما ذهب إليه البعض الآخر. وقال أبو البقاء: إن ﴿من﴾ هنا بمعنى (في) كما في قوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في الأرض.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْجُمُعَةِ﴾ بضم الميم[2]. وقرأ ابن الزبير، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، وأبو عمرو في رواية، وزيد بن علي، والأعمش بسكونها تخفيفاً، وهي لغة تميم، ولغة بفتحها لم يقرأ بها، وهي لغة عقيل. وجمعها: جمع وجمعات. وإنما سمي جمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة، فهو على هذا اسم إسلامي. وقيل: سميت جمعة لأن الله جمع فيها خلق آدم. وقيل: لأن الله فرغ فيها من خلق كل شيء، فاجتمعت فيها جميع المخلوقات. وقيل: أول من سماه جمعة كعب بن لؤي ـ بالهمزة تصغير لأي ـ سماه بها لاجتماع قريش فيه إليه. وكانت العرب قبل ذلك تسميه العروبة، بمعنى الظهور وعروبة.

وقيل: إن[3] الأنصار قالوا قبل الهجرة: لليهود يوم يجتمعون فيه في كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فهلموا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر ونصلي فيه،

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زراة رضي الله عنه بضم الزاي ـ فصلى بهم ركعتين وذكرهم، فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه. وحين اجتمعوا.. ذبح لهم شاة، فتعشوا وتغدوا منها لقلتهم، وبقي في أكثر القرى التي تقام فيها الجمعة عادة الإطعام بعد الصلاة إلى يومنا هذا، فأنزل الله آية الجمعة. فهي أول جمعة في الإسلام.

وأما أول جمعة جمعها رسول الله ـ ﷺ ـ فهي: أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف، يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين امتد الضحى، ومن تلك السنة يعد التاريخ الإسلامي، فأقام بها يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً، فخطب وصلى الجمعة، وهي أول خطبة خطبها رسول الله ـ ﷺ ـ، وقال فيها:

«الحمد لله، وأستعينه، وأستهديه، وأومن به، ولا أكفره، وأعادي من يكفر به، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق، والنور والموعظة والحكمة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله.. فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله.. فقد غوى وفرط وضلّ ضلالاً بعيداً.

أوصيكم بتقوى الله، فإن خير ما أوصى به المسلم المسلم، أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، وأحذر ما حذركم الله من نفسه، فإن تقوى من عمل به ومخافته من ربه عنوان صدق على ما يبغيه من الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السرّ والعلانية لا ينوي به إلا وجه الله.. يكون له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان مما سوى ذلك.. يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً. ويحذركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد، هو الذي صدق قوله، وأنجز وعده، ولا خُلْفَ لذلك، فإنه يقول: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ

---

(١) روح البيان.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٢٩﴾. فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية، فإنه من يتق الله.. يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً، ومن يتق الله.. فقد فاز فوزاً عظيماً. وإن تقوى الله توقي مقته وتوقي عقوبته وتوقي سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه وترضي الرب وترفع الدرجة. فخذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، فقد علمكم في كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداء الله، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة. ولا حول ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإن من يصلح ما بينه وبين الله.. يكفر الله ما بينه وبين الناس. ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس، ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». انتهت الخطبة النبوية.

ثم إن هذه الآية رد لليهود في طعنهم للعرب، وقولهم: لنا السبت ولا سبت لكم.

﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾؛ أي: فامشوا، واقصدوا وامضوا ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: إلى الخطبة والصلاة، لاشتمال كل منهما على ذكر الله. وما كان من ذكر رسول الله والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير.. فهو في حكم ذكر الله، وأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم وهم أحقاء بعكس ذلك.. فمن ذكر الشيطان، وهو من ذكر الله على مراحل، كما في «الكشاف» وعن الحسن ـ رحمه الله ـ: أما والله! ما هو السعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنيات والخشوع والابتكار. ولقد ذكر الزمخشري في الابتكار قولاً وافياً، حيث قال: وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصة؛ أي: مملوءة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج.

وقال الفراء[1]: السعي والمضي والذهاب في معنى واحد، ويدل على ذلك قراءة عمر بن الخطاب وابن مسعود: ﴿فامضوا إلى ذكر الله﴾. وقيل: السعي هو

---

(١) الشوكاني.

العمل، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾. قال القرطبي: وهذا قول الجمهور: أي: فاعملوا على المضي إلى ذكر الله،واشتغلوا بأسبابه، من الغسل، والوضوء، والتوجه إليه تعالى.

وعبر[1] بالسعي إشارةً إلى النهي عن التثاقل عنها، وحثاً على الذهاب بصفاء قلب وهمة، لا بكسل نفس وغمة. وهذا بالنسبة إلى غير المريض والأعمى، والعبد والمرأة، والمقعد والمسافر، فإنهم ليسوا بمكلفين بها.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾؛ أي: واتركوا المعاملة بالبيع، ويلحق به سائر المعاملات، من الشراء والسلم والإجارة والقراض والمساقاة. قال الحسن: إذا أذن المؤذن يوم الجمعة.. لم يحل الشراء والبيع، ويجوز أن يجعل البيع مجازاً عن المعاملة كلها. وقال بعضهم: النهي عن البيع يتضمن النهي عن الشراء؛ لأنهما متضايفان لا يعقلان إلا معاً، فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر. والمراد: الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا، تجارة وصناعة وحرفة وزراعة وغيرها. وإنما خص البيع والشراء من بينها لأن يوم الجمعة يوم تجتمع فيه الناس من كل ناحية، فإذا دنا وقت الظهيرة.. يتكاثر البيع والشراء، فلما كان ذلك الوقت مظنة الذهول عن ذِكر الله والمضي إلى المسجد.. قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة، واتركوا تجارة الدنيا، واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح، وذروا البيع الذي نفعه يسير وربحه قليل.

وقرأ كبراء من الصحابة والتابعين[2]: ﴿فامضوا﴾ بدل ﴿فَٱسْعَوْا۟﴾ وينبغي أن يحمل على التفسير من حيث إنه لا يراد بالسعي هنا الإسراع في المشي، ففسروه بالمضي، فلا يكون قرآناً؛ لمخالفته سواد ما أجمع عليه المسلمون.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من السعي إلى ذِكر الله وترك البيع مبتدأ، خبره ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أيها المؤمنون من مباشرته. فإن نفع الآخرة أجلّ وأبقى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر الحقيقيين. فافعلوا ما أمرتكم به، واتركوا ما نهيتكم عنه.

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

روي: أنه ـ ﷺ ـ خطب، فقال: «إن الله افترض عليكم الجمعة في يومي هذا وفي مقامي هذا، فمن تركها في حياتي وبعد مماتي وله إمام عادل أو جائر من غير عذر.. فلا بارك الله له، ولا جمع شمله، ألا فلا حجّ له، ألا فلا صوم له، ومن تاب.. تاب الله عليه».

ومعنى الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾؛ أي: إذا[1] أذّن المؤذن بين يدي الإمام وهو على المنبر في يوم الجمعة للصلاة.. فاتركوا البيع واسعوا إلى موضع الجمعة، واذهبوا إليه لتسمعوا موعظة الإمام في خطبته، وعليكم أن تمشوا الهوينى، بسكينة ووقار حتى تصلوا إلى المسجد.

روى الشيخان عن أبي هريرة: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا أقيمت الصلاة.. فلا تأتوها وأنتم تسعون ـ تسرعون ـ وأتوها وأنتم تمشون، وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم.. فصلوا وما فاتكم.. فأتموا».

وعن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع النبي ـ ﷺ ـ إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: «ما شأنكم»؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، قال: فلا تفعلوا، إذا أتيتم فامشوا، وعليكم السكينة، فما أدركتم.. فصلوا وما فاتكم.. فأتموا». رواه البخاري ومسلم.

ذالكم السعي وترك البيع خير لكم من التشاغل بالبيع وابتغاء النفع الدنيوي، فإن منافع الآخرة خير لكم وأبقى، فهي المنافع الباقية. وأما منافع الدنيا: فهي زائلة. وما عند الله خير لكم إن كنتم من ذوي العلم الصحيح بما يضر وما ينفع.

ثم ذكر ما يفعلون بعد الصلاة، فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ التي نوديتم لها أي: أديت وفرغ منها ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾؛ أي: تفرقوا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لإقامة مصالحكم والتصرف في حوائجكم بأن يذهب كل منكم إلى موضع فيه حاجة من الحوائج المشروعة التي لا بدّ من تحصيلها للمعيشة، من التجارة والصناعة والزراعة.

فإن قلت[2]: ما معنى هذا الأمر، فإنه لو لبث في المسجد إلى الليل يجوز، بل هو مستحبّ؟.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

فالجواب: أن هذا أمر الرخصة لا أمر العزيمة؛ أي: لا جناح عليكم في الانتشار بعد ما أديتم حق الصلاة.

﴿وَٱبْتَغُوا۟﴾؛ أي: واطلبوا لأنفسكم وأهليكم ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وعطائه؛ أي: من الرزق الحلال، بأي وجه يتيسر لكم من التجارة وغيرها من المكاسب المشروعة. دل على هذا المعنى سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً﴾ الخ، كما سيأتي قريباً.

فالأمر بعد الحظر للإطلاق؛ أي: للإباحة لا للإيجاب، كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾. وذكر الإمام السرخسي: أن الأمر للإيجاب؛ لما روي: أنه - ﷺ - قال: «طلب الكسب بعد الصلاة هو الفريضة بعد الفريضة، وتلا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾. وقيل: إنه للندب، فعن سعيد بن جبير: إذا انصرفت من الجمعة.. فساوم بشيء وإن لم تشتره. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة أخ في الله. وعن الحسن، وسعيد بن المسيب: هو طلب العلم. وقيل: صلاة التطوع.

والظاهر(١): أن مثل هذا إرشاد للناس إلى ما هو الأولى، ولا شك في أولوية المكاسب الأخروية مع أن طلب الكفاف من الحلال عبادة، وربما يكون فرضاً عند الاضطرار.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه بالجنان واللسان ﴿كَثِيرًا﴾؛ أي: ذكراً كثيراً أو زماناً كثيراً، ولا تخصوا ذكره تعالى بالصلاة؛ أي: واذكروه بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروي والدنيوي، واذكروه أيضاً بما يقربكم إليه من الأذكار؛ كالحمد، والتسبيح، والتكبير، والاستغفار ونحو ذلك. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: كي تفوزوا بخير الدارين وتظفروا به.

والمعنى(٢): أي فإذا أديتم الصلاة.. فتفرقوا لأداء مصالحكم الدنيوية بعد أن أديتم ما ينفعكم في آخرتكم، واطلبوا الثواب من ربكم، واذكروا الله وراقبوه في جميع شؤونكم، فهو العليم بالسر والنجوى، لا تخفى عليه خافية من أموركم،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

لعلكم تفوزون بالفلاح في دنياكم وآخرتكم. وفي هذا إيماء إلى شيئين:

١ ـ مراقبة الله في أعمال الدنيا حتى لا يطغى عليهم حبها بجمع حطامها بأي الوسائل من حلال وحرام.

٢ ـ أن في مراقبته تعالى الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: فلأن من راقبه لا يغش في كيل ولا وزن، ولا يغير سلعة بأخرى، ولا يكذب في مساومة، ولا يحلف كذباً، ولا يخلف موعداً، ومتى كان كذلك.. شهر بين الناس بحسن المعاملة وأحبوه، وصار له من حسن الأحدوثة ما يضاعف له الله به الرزق.

وأما في الآخرة: فيفوز برضوان ربه ورضوان من الله أكبر، وبجنات تجري من تحتها الأنهار، ونعم أجر العاملين. وعن عراك بن مالك رضي الله عنه: أنه كان إذا صلى الجمعة.. انصرف فوقف على باب المسجد، وقال: اللهم أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين.

ثم عاتب سبحانه المؤمنين على ما كان منهم من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذٍ، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا﴾؛ أي: وإذا رأى المؤمنون وعلموا ﴿تِجَـٰرَةً﴾؛ أي: عير تجارة، وهي تجارة دحية بن خليفة الكلبي. ﴿أَوْ﴾ سمعوا ﴿لَهْوًا﴾ وهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. يقال: ألهى عن كذا إذا شغله عمّا هو أهمّ. والمراد هنا: صوت الطبل، ويقال له: اللهو الغليظ. وكان دحية إذا قدم.. ضرب الطبل ليعلم الناس بقدومه فيخرجوا ليبتاعوا منه. وقيل: كانوا إذا أقبلت العير استقبلوها؛ أي: أهلها بالطبول والدفوف والتصفيق، وهو المراد باللهو هنا ﴿انفَضُّوٓا﴾؛ أي: انتشروا، وتفرقوا خارجين ﴿إِلَيْهَا﴾؛ أي: إلى التجارة، والذي سوغ لهم الخروج وترك رسول الله ـ ﷺ ـ يخطب: أنهم ظنوا أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز لانقضاء المقصود، وهو الصلاة؛ لأنه كان ـ ﷺ ـ أول الإسلام يصلي الجمعة قبل الخطبة كالعيدين، فلما وقعت هذه الواقعة ونزلت الآية.. قدم الخطبة وأخّر الصلاة، انتهى. «خطيب».

وأفرد[1] الضمير لأن العطف بـ﴿أو﴾ لا يثنى معه الضمير، وكان المناسب إرجاعه إلى أحد الشيئين من غير تعيين على أن تخصيص التجارة برد الضمير إليها، لأنها المقصودة، أو للدلالة على أن الانفضاض إليها مع الحاجة إليها والانتفاع بها إذا كان مذموماً، فما ظنك بالانفضاض إلى اللهو وهو مذموم في نفسه؟ ويجوز أن يكون الترديد للدلالة على أن منهم من انفضّ لمجرد سماع الطبل، ورؤيته فإذا كان الطبل من اللهو وإن كان غليظاً فما ظنك بالمزمار ونحوه؟. وقد يقال: الضمير للرؤية المدلول عليها بقوله: رأوا.

وقرىء: ﴿إليهما﴾[2] بالتثنية للضمير، كقوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾. وتخريجه على أن يتجوز بـ﴿أو﴾ فتكون بمعنى الواو. وقيل: التقدير على القراءة المشهورة: وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهواً انفضوا إليه. فحذف الثاني لدلالة الأول عليه، كما في قول الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَٱلرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

روي: أن دحية بن خليفة الكلبي قدم المدينة بتجارة من الشام، وكان ذلك قبل إسلامه، وكان بالمدينة مجاعة وغلاء سعر، وكان معه جميع ما يحتاج إليه من برّ ودقيق وزيت وغيرها، والنبي - ﷺ - يخطب يوم الجمعة، فلما علم أهل المسجد ذلك.. قاموا إليه خشية أن يسبقوا إليه، فما بقي معه - ﷺ - إلا ثمانية، أو أحد عشر، أو اثنا عشر، أو أربعون، فيهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، وبلال بن رباح، وعبد الله بن مسعود، وفي رواية: عمار بن ياسر بدل عبد الله. وذكر مسلم: أن جابراً كان فيهم، وكان منهم سبع نسوة فقال النبي - ﷺ -: «والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعاً.. لأضرم الله عليهم الوادي ناراً». وفي «عين المعاني»: «لولا الباقون لنزلت عليهم الحجارة». وقال الخطيب: فهذه الروايات المختلفة منشأ الخلاف بين الأئمة في العدد الذي تنعقد به الجمعة. ا هـ. من «القرطبي».

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

﴿وَتَرَكُوكَ﴾ حال كونك ﴿قَآئِمًا﴾: أي على المنبر. روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان النبي - ﷺ - يخطب يوم الجمعة خطبتين قائماً يفصل بينهما بجلوس، ومن ثمة كانت السنة في الخطبة ذلك، وأول من استراح في الخطبة: عثمان، وأول من خطب جالساً: معاوية. وفيه إشعار بأن الأحسن في الوعظ على المنبر يوم الجمعة القيام، وإن جاز القعود فيه؛ لأنه والخطبة من وادٍ واحدٍ لاشتماله على الحمد والثناء والصلاة والنصيحة والدعاء.

ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للآخرة خير من العمل للدنيا، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الجزاء العظيم على استماع الخطبة، ولزوم مجلس الرسول - ﷺ -، وهو: الجنة. و﴿ما﴾: موصولة. خاطبهم الله سبحانه بواسطة النبي - ﷺ - لأن الخطاب هنا مشوب بالعتاب. ﴿خَيْرٌ﴾ لكم ﴿مِّنَ﴾ استماع ﴿ٱللَّهْوِ وَمِنَ﴾ نفع ﴿ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ اللذين ذهبتم إليهما، وتركتم البقاء في المسجد وسماع خطبة النبي - ﷺ - لأجلهما، فإن نفع ذلك محقق مخلد، بخلاف ما فيهما من النفع المتوهم، فنفع اللهو ليس بمحقق، ونفع التجارة ليس بمخلد، وما ليس بمخلد فمن قبيل الظن. ومنه يعلم وجه تقديم اللهو، فإنَّ للأعدام تقدماً على الملكات. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وأفضلهم، فمنه اطلبوا الرزق، وإليه توسلوا بعمل الطاعة، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق، وأعظم ما يجلبه.

قال بعضهم[1]: قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ﴾ وقوله: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ من قبيل الفرض والتقدير: إذ لا خيرية في اللهو ولا رازق غيره فكأن المعنى إن وجد في اللهو خير فما عند الله أشد خيراً منه، وإن وجد رازقون غير الله.. فالله خيرهم وأقواهم وأولاهم عطية. والرزق: هو المنتفع به، مباحاً كان أو محظوراً. قيل لبعضهم: من أين تأكل؟ فقال: من خزانة ملك لا يدخلها اللصوص، ولا يأكلها السوس.

قال أبو حيان: وناسب ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنهم كانوا قد مسهم شيء من غلاء الأسعار، كما تقدم في سبب النزول.

والمعنى[2]: أي قل لهم - مبيناً خطأ ما عملوا -: ما عند الله مما ينفعكم في

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

الآخرة خير لكم مما يفيدكم في الدنيا، من التمتع بخيراتها وكسب لذاتها، فتلك باقية وهذه فانية، والله خير الرازقين وأفضلهم وأوسعهم رزقاً، فإليه سبحانه فاسعوا ومنه فاطلبوا الرزق، ولن يفوتكم ذلك بسماع عظاته، فالله كفيل برزقكم ولم ينقص بترككم البيع والشراء حين الصلاة وحين سماع العظات والنصائح، والله أعلم.

الإعراب

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُ﴾: فعل مضارع، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿ما﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿ٱلْمَلِكِ﴾: صفة للجلالة، أو بدل منه، وكذا قوله: ﴿ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: صفات له، أو بدل منه. ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿بَعَثَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، صلة الموصول، ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: متعلق بـ﴿بَعَثَ﴾، ﴿رَسُولًا﴾: مفعول به، ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لـ﴿رَسُولًا﴾، ﴿يَتْلُوا۟﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الرسول، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يَتْلُوا۟﴾، ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به، والجملة نعت ثان لـ﴿رَسُولًا﴾ أو حال منه لتخصصه بالصفة. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿يَتْلُوا۟﴾، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعولان، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والجملة معطوفة على ﴿يَتْلُوا۟﴾ أيضاً. ﴿وَإِن﴾: الواو: حالية، ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: وإنه، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ﴿كَانُوا۟﴾ أو حال من الواو، ﴿لَفِى﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿في ضلال﴾: خبر كان، ﴿مُّبِينٍ﴾: نعت ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر لـ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة في محل النصب حال من هاء ﴿يعلمهم﴾ أو مستأنفة.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَءَاخَرِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿آخرين﴾: معطوف على ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، مجرور بالياء، أو معطوف على الضمير في ﴿يعلمهم﴾ منصوب بالياء؛ أي: ويعلم آخرين. ﴿مِنۡهُمۡ﴾: حال من آخرين؛ أي: حال كون الآخرين من مطلق الأميين، كذا قالوا. ولكن الأصح أن يكون الجار والمجرور صفة لآخرين؛ أي: كائنين منهم، أو متعلقاً بـ﴿آخرين﴾؛ لأن ﴿آخرين﴾ نكرة. ﴿لما﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَلۡحَقُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لما﴾، وعلامة جزمه حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿بِهِمۡۚ﴾ متعلق بـ﴿يَلۡحَقُواْ﴾، والجملة صفة لـ﴿آخرين﴾. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: خبر أول، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿يُؤۡتِيهِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول أول، والجملة في محل النصب حال من الجلالة، أو خبر ثان عن اسم الإشارة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لآتي، وجملة ﴿يَشَآءُۚ﴾ صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿حُمِّلُواْ﴾: فعل ونائب فاعل والجملة صلة الموصول، ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾: مفعول ثان لـ﴿حُمِّلُواْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿لَمۡ﴾: حرف جزم، ﴿يَحۡمِلُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به مجزوم بـ﴿لَمۡ﴾، والجملة معطوفة على ﴿حُمِّلُواْ﴾ على كونها صلة الموصول، ﴿كَمَثَلِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ في محل النصب على الحال من ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾. ويجوز أن تكون في محل جرّ صفة لـ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾ لجريانه مجرى النكرة، أو لأن القاعدة في مثل هذا غير مطردة كما مرّ. ﴿بِئۡسَ﴾: فعل ماض لإنشاء الذم، ﴿مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾: فاعل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾، والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿كَذَّبُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ متعلق بـ﴿كَذَّبُواْ﴾، والمخصوص بالذم محذوف أو خبر عن المخصوص بالذم المحذوف، أي: هذا المثل، وهو مبتدأ خبره جملة ﴿بِئۡسَ﴾، وفيه أوجه أخر. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ـ ﷺ ـ، والجملة مستأنفة. ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أيُّ﴾، وجملة ﴿هَادُوٓاْ﴾: صلة الموصول، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم، ﴿زَعَمْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿أَنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَوْلِيَآءُ﴾: خبر ﴿لِلَّهِ﴾ صفة لـ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ أو متعلق بـ﴿أَوْلِيَآءُ﴾، ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾: صفة ثانية لـ﴿أَوْلِيَآءُ﴾، أو حال منه. وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿زَعَمْتُمْ﴾. ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿تمنوا﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿ٱلْمَوْتَ﴾: مفعول به، والجملة في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، والجواب محذوف معلوم مما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين فتمنوا الموت. والجملة الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، مرفوع بثبات النون، والجملة معطوفة على جملة ﴿قُلْ﴾. ﴿أَبَدًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾، ﴿بما﴾: جار ومجرور متعلق بما في معنى النفي، لأنه سبب لنفي التمني، أي: يأبون من التمني بسبب ما قدمت أيديهم. ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، والعائد محذوف؛ أي: بسبب ما قدمته أيديهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ﴾: ناصب واسمه، ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَوْتَ﴾، ﴿تَفِرُّونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ﴿تَفِرُّونَ﴾، وهو العائد على الموصول، ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالاسم لما في الموصول من معنى الشرط. لأن الصفة والموصوف كالشيء، أو زائدة. ﴿إنه﴾: ناصب واسمه، ﴿مُلَٰقِيكُمْ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الرفع خبر لـ﴿إِنَّ﴾ الأولى. وقد منع هذا قوم، منهم: الفراء، وجعلوا الفاء زائدة. وقيل: الخبر هو نفس ﴿ٱلَّذِى﴾ وما بعده استئناف، كأنه قيل: إن الموت هو الشيء الذي تفرون منه. وإلى هذا نحا الزمخشري، ويؤيده قراءة زيد بن علي بلا فاء. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿تُرَدُّونَ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: متعلق بـ﴿تُرَدُّونَ﴾، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْغَيْبِ﴾، وجملة ﴿تُرَدُّونَ﴾: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ينبئكم﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾، ﴿الكاف﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿تُرَدُّونَ﴾، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿ينبئكم﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة كان صلة الموصول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من المنادى، وجملة ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾: صلة الموصول، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنى الشرط، ﴿نُودِىَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿لِلصَّلَوٰةِ﴾: جار ومجرور، نائب فاعل ﴿مِن﴾: بمعنى في ﴿يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾: مجرور بـ﴿من﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿نُودِىَ﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَٱسْعَوْا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿اسعوا﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿اسعوا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾: فعل أمر، وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿اسعوا﴾، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر، ﴿لَّكُمْ﴾:

متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب مقول قل. ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية محذوف معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم تعلمون الخير.. فاسعوا إلى ذكر الله. وجملة الشرط في محل النصب مقول قل.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ﴾: فعل، ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿فَانتَشِرُوا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة، ﴿انتشروا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى. ﴿وَابْتَغُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿انتشروا﴾، ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ابتغوا﴾، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿انتشروا﴾. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: ذكراً كثيراً، أو ظرف محذوف؛ أي: زماناً كثيراً، ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج وتعليل، بمعنى: كي، و﴿الكاف﴾: اسمها، وجملة ﴿تُفْلِحُونَ﴾ خبرها، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿رَأَوْا﴾ فعل ماض، وفاعل، ﴿تِجَارَةً﴾: مفعول به، ﴿أَوْ لَهْوًا﴾: معطوف على ﴿تِجَارَةً﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب ﴿انفَضُّوا﴾: فعل ماض وفاعل، ﴿إِلَيْهَا﴾ متعلق به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿وَتَرَكُوكَ﴾: فعل ماض، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿انفَضُّوا﴾، ﴿قَائِمًا﴾: حال من كاف

المخاطب، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة لـ﴿ما﴾، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، ﴿مِّنَ ٱللَّهْوِ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ﴾: معطوف على ﴿مِّنَ ٱللَّهْوِ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على الجملة قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾: بضم القاف وتشديد الدال، من أسماء الله تعالى؛ أي: الطاهر، أو المبارك، أو المنزه عن كل النقائص المتصف بكل كمال. وكل فعول مفتوح الفاء غير القدوس وسبوح وذروح وفروج فبالضمّ ويفتحن.

﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: هم العرب، جمع أمي، نسبة إلى الأم التي ولدته، لأنه على الحال التي ولد عليها لم يتعلم الكتابة والحساب، فهو على الجبلة الأولى.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ والفرق بين التلاوة والقراءة: أن التلاوة قراءة متتابعة متسلسلة؛ كقراءة القرآن والحديث ودراسة العلم، والقراءة أعم من التلاوة؛ لأنها جمع الحروف باللفظ، ولو في كلمة، لا اتباعها، ذكره في «الروح». ﴿وَءَاخَرِينَ﴾: جمع آخر، بمعنى غير. ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾؛ أي: علموها، وكلفوا العمل بها. ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾؛ أي: لم يعملوا بها، ولم ينتفعوا بها. ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾ والحمار: حيوان معروف، يعبر به عن الجهل، كقولهم: هو أكفر من الحمير؛ أي: أجهل، لأن الكفر من الجهالة. قال الشاعر:

تَعَلَّمْ يَا فَتَىٰ فَٱلْجَهْلُ عَارُ وَلاَ يَرْضَىٰ بِهِ إِلاَّ ٱلْحِمَارُ

﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾: جمع سفر ـ بكسر السين ـ كشبر وأشبار. قال الراغب: السفر: الكتاب الكبير الذي يسفر عن الحقائق؛ أي: يكشف عنها. وخصّ لفظ الأسفار في الآية إشارة إلى أن التوراة وإن كانت تكشف عن معانيها إذا قرئت وتحقق ما فيها فالجاهل لا يكاد يستبينها، كالحمار الحامل لها. وفي «القاموس»: السفر: الكتاب الكبير، أو جزء من أجزاء التوراة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾؛ أي: تهودوا. أي: صاروا يهوداً، من هاد يهود

هوداً، كقال يقول قولاً. قال الراغب: الهود: الرجوع برفق، وصار في التعارف التوبة. قال بعضهم: يهود في الأصل من قولهم: إنا هدنا إليك، أي: تبنا. وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح، كما أن النصارى في الأصل من قولهم: نحن أنصار الله، ثم صار لازماً لهم بعد نسخ شريعتهم. وفي «هادوا» إعلال بالقلب، أصله: هودوا قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾: من التمني، وهو: تقدير الشيء في النفس وتصويره فيها. قال بعضهم: الفرق بين التمني والاشتهاء: أن التمني أعم من الاشتهاء؛ لأنه يكون في الممتنعات دون الاشتهاء، لأن التمني طلب أمر مستحيل؛ كـ:

لَيْتَ ٱلشَّبَابَ يَعُوْدُ يَوْماً

أو مستبعد الحصول؛ كقول الفقير: ليت لي مالاً فأحجّ منه. وأصل تمنوا تمنيوا، أمر من التمني، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ أصله: يتمنيونه، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أصله: تفررون بوزن تفعلون، نقلت حركة الراء الأولى إلى الفاء فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. ﴿تُرَدُّونَ﴾: من الرد، وهو صرف الشيء بذاته أو بحالة من أحواله، يقال: رددته فارتد، والآية من الردّ بالذات كما مرّ، وأصله: ترددون، بوزن تفعلون، نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء فسكنت فأدغمت في الدال الثانية. ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ النداء: رفع الصوت وظهوره كما مرّ. وأصله: نادي، بوزن فاعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ولما بني الفعل للمجهول.. ضم أوله فقلبت الألف الأولى واواً، ولما كسر ما قبل آخره.. قلبت الأخيرة ياء. ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. قال الراغب: السعي: المشي السريع، وهو دون العدو، وهو هنا بمعنى المشي المعتاد، وأصله: اسعيوا، بوزن افعلوا، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ يقال: فلان يذر الشيء؛ أي: يقذفه لقلة اعتداده به، ولم يستعمل ماضيه، وهو وذر؛ أي: اتركوا المعاملة.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً﴾ أصله: رأيوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقى

ساكنان الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف. والتجارة: تقليب المال بالبيع والشراء لطلب الربح. ﴿أَوْ لَهْوًا﴾، واللهو: كل ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه؛ كالمزمار والتلفزيون والفيديو، وسائر آلات الملاهي المحرمة. والمراد في هذه الواقعة: صوت الطبل؛ لأنه هو الذي ضربه دحية الكلبي، كما مر. يقال: ألهى عن كذا، إذا شغله عما هو أهم. ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ الفضّ: كسر الشيء وتفريق بين بعضه وبعض، كفض ختم الكتاب، ومنه: استعير انفض القوم؛ أي: تفرقوا وانتشروا. ﴿قَائِمًا﴾: فيه إعلال بالإبدال، أصله: قاوما بالواو، أبدلت الواو همزة في الوصف حملاً له على فعله في الإعلال، حيث أعل الفعل قوم بقلب الواو ألفاً، فقيل: قام. ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ من الرزق، والرزق: كل ما ينتفع به، حلالاً كان أو حراماً، مطعماً كان أو مشرباً أو ملبساً أو مفرشاً، كما قال أحمد بن رسلان في «زبده»:

وَالرِّزْقُ مَا يَنْفَعُ وَلَوْ مُحَرَّماً ... يَرْزُقُ مَنْ شَاءَ وَمَنْ شَا أَحْرَمَا

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾. فقد شبه اليهود حيث لم ينتفعوا بما في التوراة من الدلالة على الإيمان بمحمد - ﷺ - والإلماع إلى بعثته - ﷺ - بالحمار الذي يحمل الكتب ولا يدري ما فيها. ووجه الشبه: عدم الانتفاع بما هو حاصل وكائن، فالحمار يمشي في طريقه وهو لا يحس بشيء مما يحمله على ظهره إلا بالكدّ والتعب، وكذلك اليهود قرؤوا التوراة أو حفظوها ثم أشاحوا عما انطوت عليه من دلائل، وإرهاصات على نبوة محمد - ﷺ -.

ومنها: تخصيص التشبيه فيه بالحمار لزيادة التحقير والإهانة ولنهاية التهكم والتوبيخ بالبلادة؛ إذ الحمار هو الذي يذكر بالبلادة، والبقر وإن كان مشهوراً بالبلادة إلا أنه لا يلائم الحمل كما مرّ.

ومنها: تأكيد التشبيه بزيادة الكاف كما في «الكواشي».

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾، و﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾.

ومنها: الطباق بين الغيب والشهادة في قوله: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ حيث أطلق الأيدي وأراد الأنفس لعلاقة الكلية والجزئية لكون أكثر الأعمال تزاول بها.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ للتسجيل عليهم بالظلم في كل أمورهم، وكان مقتضى السياق أن يقال: والله عليم بهم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾، حيث أطلق البيع الذي هو تمليك بعوض بلفظ بيع. وأراد جميع أنواع المعاملة، والصناعة والحرف، والزراعة وغيرها لعلاقة الجزئية.

ومنها: التفنن بتقديم الأهم في الذكر في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾؛ لأن المقصود الأساسي في الانفضاض هو التجارة، فقدمها، ثم قال: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ﴾. فقدم اللهو على التجارة؛ لأن الخسارة بما لا نفع فيه أعظم، فقدم ما هو أهم في الموضعين.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾؛ لأن الفض حقيقة في كسر الشيء وفصل بعضه عن بعض، فاستعاره للتفرق والانتشار.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ وصفه تعالى نفسه بصفات الكمال.

٢ ـ صفات النبي الأمي الذي بعثه رحمة للعالمين.

٣ ـ النعي على اليهود لتركهم العمل بأحكام التوراة.

٤ ـ طلب مباهلة اليهود.

٥ ـ الحث على السعي للصلاة يوم الجمعة حين النداء والإمام على المنبر.

٦ ـ الأمر بالسعي على الأرزاق بعد انقضاء الصلاة.

٧ ـ عتاب المؤمنين على تركهم النبي ـ ﷺ ـ وهو يخطب قائماً وتفرقهم لرؤية التجارة واللهو.[١]

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) وقد فرغنا من تفسير هذه السورة الكريمة عصر يوم الجمعة، السادس من شهر ذي الحجة، من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمسة عشر، من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ٦/١٢/١٤١٥ هـ. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، واغفر لنا وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين، آمين.

سورة المنافقون

سورة المنافقون مدنية، قال القرطبي: في قول الجميع، نزلت بعد الحج. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والنحاس والبيهقي: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة المنافقين بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآيها: إحدى عشرة آية، وكلماتها: مئة وثمانون كلمة، وحروفها: تسع مئة، وستة وسبعون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها: أنه ذكر[1] في السورة السابقة حال المؤمنين الذي بعث إليهم النبي الأمي يتلو عليهم كتابه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وأمرهم بالصلاة وترك البيع حين أدائها، وفي هذه ذكر أضدادهم، وهم المنافقون الذين يشهدون كذباً بأن محمداً رسول الله - ﷺ - ويحلفون الأيمان المحرجة على ذلك، ومن ثم كان النبي - ﷺ - يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى بسورة الجمعة، فيحرض بها المؤمنين على العبادة، وفي الركعة الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين.

وعبارة أبي حيان: مناسبة هذه السورة لما قبلها[2]: أنه لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة ربما كان حاصلاً عن المنافقين واتبعهم ناس كثير من المؤمنين في ذلك، وذلك لسرورهم بالعير التي قدمت بالميرة، إذ كان وقت مجاعة.. جاء ذكر المنافقين، وما هم عليه من كراهة أهل الإيمان، وأتبعه بقبائح أفعالهم وقولهم: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ إذ كانوا هم أصحاب أموال والمهاجرون فقراء، قد تركوا أموالهم ومتاجرهم وهاجروا إلى الله سبحانه وإلى رسوله - ﷺ -، طلباً لمرضاته.

تسميتها: سميت سورة المنافقين لذكرهم فيها.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه[3] سعيد بن منصور، والطبراني في

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

«الأوسط» ـ قال القرطبي ـ: بسند حسن عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة في الركعة الأولى، فيحرض بها المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين، فيقرع بها المنافقين. وأخرج البزار والطبراني عن أبي عنبة الخولاني مرفوعاً نحوه. وروي عن النبي ـ ﷺ ـ: أنه قال: «من قرأ سورة المنافقين.. بريء من النفاق».

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة المنافقين كلها محكم ليس فيها منسوخ، وفيها ناسخ، وهو قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾ الآية (٦). فإنه لما نزلت آية براءة: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾. قال النبي ـ ﷺ ـ: «قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم» فأنزل الله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية نسخاً لقول النبي ـ ﷺ ـ: «لأستغفرن لهم أكثر من سبعين».

سبب نزولها: سبب نزول[1] هذه السورة مذكور في قصة طويلة من مضمونها: أن اثنين من الصحابة ازدحما على ماء، وذلك في غزوة بني المصطلق، فشج أحدهما الآخر، فدعا المشجوج: يا للأنصار، والشاج: يا للمهاجرين، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول، ما حكى الله تعالى، عنه من قوله: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾، وقوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ وعنى بالأعز نفسه وكلاماً قبيحاً، فسمعه زيد بن أرقم، ونقل ذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فلام رسول الله ـ ﷺ ـ عبد الله بن أبي، فحلف ما قال شيئاً من ذلك، فاتُّهِمَ زيد، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ تصديقاً لزيد وتكذيباً لعبد الله بن أبيّ. هذا خلاصة ما في القصة الطويلة ذكره أبو حيان في «البحر المحيط».

والله أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان مناسبة هذه السورة للسورة المتقدمة قريباً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما(١) ذكر كذب المنافقين في قولهم للرسول - ﷺ -: نشهد إنك لرسول الله، وبيّن أنهم يسترون نفاقهم بالأيمان الفاجرة، ثم أعقبه بذكر جبنهم وصلفهم، وأنهم أجسام البغال وأحلام العصافير، ثم أردفه ببيان أنهم أعداء الله حقاً. أعقب هذا بذكر ما صدر منهم مما يثبت كذبهم ونفاقهم بما لا يدع شبهة لمن يلتمس المعاذير ويبرئهم من النفاق، فمن ذلك:

---

(١) المراغي.

١ ـ أنهم إذا طلب منهم أن يتقدموا إلى الرسول ـ ﷺ ـ ليستغفر لهم على ما فرط منهم من الذنوب.. أمالوا رؤوسهم وأعرضوا استكباراً وأنفة أن يفعلوا.

٢ ـ أنهم قالوا: لئن رجعنا من وقعة بني المصطلق ـ قبيلة من اليهود ـ إلى المدينة.. لنخرجن الأذلاء محمداً وأصحابه منها.

ثم نعى عليهم ما قالوا بأنهم قوم لا حلوم لهم، ولا هم يفقهون جليل قدرة الله وبديع صنعه.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حكى مقال المنافقين من أنهم الأعزاء وأن المؤمنين هم الأذلاء اغتراراً بما لهم من مال ونشب، وأن ذلك هو الذي صدهم عن طاعة الله وجعلهم يعرضون عن الإيمان بالله إيماناً حقاً، ويؤدون فرائضه ويقومون بما يقربهم من رضوانه.. أردف ذلك نهي المؤمنين أن يكونوا مثلهم في ذلك، بل عليهم أن يلهجوا بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، ويؤدوا ما فرض عليهم من العبادات، ولا يشغلهم عن ذلك زخرف هذه الحياة من مال ونشب أولاد وجاه، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. ثم أمرهم أن ينفقوا أموالهم في أعمال البر والخير ولا يؤخروا ذلك حتى يحل الموت فيندموا، حيث لا ينفع الندم، ويتمنوا أن يطيل الله أعمارهم ليعوضوا بعض ما فاتهم، ولكن أنى لهم ذلك؟ ولكل نفس أجل محدود لا تعدوه، والله خبير بما يعملون، وهو مجازيهم على أعمالهم، إن خيراً وإن شراً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه البخاري (ج/١٠ ـ ص/٢٩٦) عن أبي إسحاق، عن زيد بن أرقم قال: كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أبيّ يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت لعمي أو لعمر، فذكره للنبي ـ ﷺ ـ، فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ـ ﷺ ـ إلى عبد الله بن أبيّ

(١) البخاري.

وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ـ ﷺ ـ وصدقه فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ـ ﷺ ـ ومقتك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، فبعث إليَّ النبي ـ ﷺ ـ، فقرأ فقال: إن الله قد صدقك يا زيد.. الحديث. أخرجه مسلم، والترمذي، وأحمد، والحاكم أطول مما ها هنا، وقال: صحيح، وأقرّه الذهبي وابن جرير.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري ـ أيضاً ـ عن محمد بن كعب القرظي قال: سمعت زيد بن أرقم رضي الله عنه لما قال عبد الله بن أبي: لا تنفقوا على من عند رسول الله، وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينة، أخبرت به النبي ـ ﷺ ـ، فلامني الأنصار، وحلف عبد الله بن أبي ما قال ذلك، فرجعت إلى المنزل، فنمت، فدعاني رسول الله ـ ﷺ ـ، فأتيته، فقال: إن الله قد صدقك ونزَّل: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ...﴾ الحديث أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا جَآءَكَ﴾ وحضرك ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾؛ أي[1]: حضروا مجلسك ووصلوا إليك. جمع منافق، والمنافق: هو الذي يضمر الكفر اعتقاداً ويظهر الإيمان قولاً. والنفاق: إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر في الجنان. وفي «المفردات»: النفاق: الدخول في الشرع من باب والخروج منه من باب. ﴿قَالُوا۟﴾: مؤكدين كلامهم بـ﴿إن﴾ و﴿اللام﴾: للإيذان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوص اعتقادهم ووفور رغبتهم ونشاطهم.

والظاهر: أنه الجواب؛ لأن الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾. وقيل: جوابه محذوف، و﴿قَالُوا۟﴾ حال، والتقدير: جاؤوك قائلين كيت وكيت، فلا تقبل منهم. وقيل: الجواب ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ وهو بعيد، وقيل: جوابه قوله: ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾، وقيل: استئناف لبيان طريق خدعتهم؛ أي: قالوا:

---

(١) روح البيان.

﴿نَشْهَدُ﴾ الآن أو على الاستمرار ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ والشهادة قول صادر عن علم حصل بشهادة بصر أو بصيرة. والمراد بالمنافقين: عبد الله بن أبي وأصحابه. ومعنى ﴿نَشْهَدُ﴾[1]: نحلف، فهو يجري مجرى القسم، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم. ومن هذا: قول قيس بن ذريح:

وَأَشْـهَـدُ عِـنْـدَ ٱللَّـهِ إِنِّـي أُحِـبُّـهَـا ... فَـهَـذَا لَـهَـا عِـنْـدِيْ فَـمَـا عِـنْـدَهَـا لِـيَـا

ومثل نشهد: نعلم، فإنه يجري مجرى القسم، كما في قول الشاعر:

وَلَـقَـدْ عَـلِـمْـتُ لَـتَـأْتِـيَـنَّ مَـنِـيَّـتِـيْ ... إِنَّ ٱلْـمَـنَـايَـا لاَ تَـطِـيْـشُ سِـهَـامُـهَـا

وجملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ اعتراض[2] مقرر لمنطوق كلامهم؛ لكونه مطابقاً للواقع، ولإزالة إيهام أن قولهم هذا كذب؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ...﴾ إلخ. وفيه تعظيم للنبي - ﷺ -. وقال أبو الليث: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ من غير قولهم: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾.

واعلم: أن كل ما جاء في القرآن بعد العلم من لفظة ﴿أن﴾ فهي بفتح الهمزة لكونها في حكم المفرد، إلا في موضعين:

أحدهما: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ في هذه السورة.

والثاني: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ في سورة الأنعام. وإنما كان كذلك في هذين الموضعين لأنه يأتي بعدهما لام الخبر، فانكسرا.

أي: لأن اللام لتأكيد معنى الجملة، ولا جملة إلا في صورة المكسورة. وقال بعضهم: إذا دخلت لام الابتداء على خبرها.. تكون مكسورة؛ لاقتضاء لام الابتداء الصدارة، كما يقال: لزيدٌ قائم. وأخرت اللام لئلا يجتمع حرفا التأكيد، واختير تأخيرها لترجيح إن في التقديم لعامليته، فكسرت لأجل اللام.

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ شهادة حقة ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: إنهم لكاذبون فيما أضمروه من أنك غير رسول. والإظهار[3] في موضع الإضمار لذمهم والإشعار بعلية الحكم. أو لكاذبون فيما ضمنوا مقالتهم من أنها صادرة عن اعتقاد وطمأنينة قلب.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

فإن الشهادة وضعت للإخبار الذي طابق فيه اللسان اعتقاد القلب، وإطلاقها على الزور مجاز، كإطلاق البيع على الفاسد. نظيره: قولك لمن يقول: أنا أقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾: كذبت، فالتكذيب بالنسبة إلى قراءته لا بالنسبة إلى المقروء الذي هو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. ومن هنا يقال: إن من استهزأ بالمؤذن لا يكفر، بخلاف من استهزأ بالأذان، فإنه يكفر. قال بعضهم: الشهادة حجة شرعية تظهر الحق ولا توجبه، فهي الإخبار بما علمه بلفظ خاص، ولذلك صدق المشهود به وكذبهم في الشهادة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ...﴾ إلخ.

ودلت الآية على أن العبرة بالقلب وبالإخلاص، وبخلوصه يحصل الخلاص. وكان - ﷺ - يقبل من المنافقين ظاهر الإسلام.

ومعنى الآية[1]: أي إذا حضر مجلسك المنافقون، كعبد الله بن أبي وأصحابه.. قالوا: نشهد شهادة لا نشك في صدقها أنك رسول من عند الله حقاً، أوحى إليك وحيه، وأنزل عليك كتابه رحمة منه بعباده.

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها تحقيقاً لرسالته، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً؛ لتنقذهم من الضلال إلى الهدى.

ثم بيّن كذبهم في مقالهم الذي حدثوا به، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما أخبروا به؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما يقولون، ولا تواطىء قلوبهم ألسنتهم في هذه الشهادة.

ثم ذكر أنهم يحتالون على تصديق الناس لهم بكل يمين محرجة، فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾؛ أي: اتخذ المنافقون ﴿أَيْمَٰنَهُمْ﴾ الفاجرة، التي من جملتها ما حكي عنهم. لأن الشهادة تجري مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد. جمع يمين، واليمين في الحلف مستعار من اليمين التي بمعنى اليد اعتباراً بما يفعله المحالف والمعاهد عنده. واليمين بالله الصادقة جائزة وقت الحاجة، صدرت من النبي - ﷺ -، كقوله: «والله، والذي نفسي بيده». ولكن إذا لم تكن ضرورة قوية.. يصان اسم الله العزيز عن الابتذال.

---

(١) المراغي.

أي: اتخذوا أيمانهم كلها، من شهادتهم هذه، وكل يمين سواها ﴿جُنَّةً﴾؛ أي: وقاية وترساً عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل والأسر والسبي، أو غير ذلك. واتخاذها جنة عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة، ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة، لا عن استعمالها بالفعل، فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية، واتخاذ الجنة لا بدّ أن يكون قبل المؤاخذة. وعن سببها كما يفصح عنه الفاء في قوله: ﴿فَصَدُّوا﴾؛ أي: فمنعوا وصرفوا من أراد الدخول في الإسلام بأنه - ﷺ - ليس برسول، ومن أراد الإنفاق في سبيل الله بالنهي ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه كماسيحكي عنهم. ولا ريب في أن هذا الصد منهم متقدم على حلفهم بالفعل.

وقرأ الجمهور: ﴿أَيْمَـٰنَهُمْ﴾: بفتح الهمزة، جمع يمين. وقرأ الحسن بكسرها مصدر آمن، ولما ذكر أنهم كاذبون.. أتبعهم بموجب كفرهم، وهو اتخاذ أيمانهم جنة يستترون بها ويذبون بها عن أنفسهم وأموالهم، كما قال بعض الشعراء:

وَمَا انْتَسَبُوا إِلَىٰ الإِسْلَامِ إِلاَّ   لِصَوْنِ دِمَائِهِمْ أَنْ لاَ تُسَالاَ

ومن أيمانهم: أيمان عبد الله بن أبيّ ومن حلف معه من قومه أنه ما قال ما نقله زيد بن أرقم إلى رسول الله - ﷺ -. وقال الأعشى الهمداني:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَجْعَلْ لِعَرْضِكَ جُنَّةً   مِنَ ٱلْمَالِ سَارَ ٱلْقَوْمُ كُلَّ مَسِيْرِ

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ساء الشيء الذي كانوا يعملونه من النفاق والصد. وفي ﴿سَآءَ﴾ معنى التعجب. ومعنى الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾؛ أي: جعلوا أيمانهم الكاذبة وقاية وستراً لحقن دمائهم وحفظ أموالهم، فيحلفون بالله إنهم لمنكم، ويقولون: نشهد إنك لرسول الله، حتى لا تجري عليهم أحكام الكفار من القتل والأسر وأخذ الأموال غنيمة. قال قتادة: كلما ظهر عليهم ما يوجب مؤاخذتهم.. حلفوا كاذبين، عصمة لدمائهم وأموالهم. وفي هذا تعداد لقبائح أفعالهم، وأن من عادتهم أن يستجنوا بالأيمان الكاذبة كما استجنوا بالشهادة الكاذبة. ثم حكى عنهم جريمة أخرى، وهي إضلال الناس، وصدهم عن الإسلام، فقال: ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، أي: منعوا الناس عن الإيمان والجهاد وأعمال الطاعة، بسبب ما يصدر منهم من

التشكيك والقدح في النبوة. هذا معنى الصد الذي بمعنى الصرف. ويجوز أن يكون من الصدود؛ أي: أعرضوا عن الدخول في سبيل الله وإقامة أحكامه.

وقصارى ذلك[1]: أنهم أجرموا جريمتين:

١ ـ أعدوا الأيمان الكاذبة وهيؤوها لوقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة.

٢ ـ أنهم يمنعون الناس عن الدخول في الإسلام، وينفرونهم منه متى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ثم بيّن قبح مغبة ما يعملون ووبال ما يصنعون، فقال: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: قبح فعلهم؛ إذ آثروا الكفر على الإيمان، وأظهروا خلاف ما أضمروا، وسيلقون نكالاً ووبالاً في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فسيفضحهم على رؤوس الأشهاد، ويظهر نفاقهم للمؤمنين بنحو قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. وأما في الآخرة: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

ثم ذكر ما جرأهم على الكذب والاستخفاف بالأيمان المحرجة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ القول الشاهد بأنهم أسوأ الناس أعمالاً، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من يدخل في الإسلام. ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: ظهر كفرهم بما شوهد منهم من شواهد الكفر ودلائل من قولهم: إن كان ما يقوله محمد حقاً.. فنحن حمير! وقولهم في غزوة تبوك: أيطمع هذا الرجل أن يفتح له قصور كسرى وقيصر؟ هيهات. فـ﴿ثمّ﴾ للتراخي، أو: كفروا سراً، فـ﴿ثمّ﴾ للاستبعاد. ويجوز أن يراد بهذه الآية أهل الردة منهم، كما في «الكشاف». والأول أولى.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ختم عليها حتى تمرنوا على الكفر واطمأنوا به، وصارت بحيث لا يدخلها الإيمان، جزاء على نفاقهم ومعاقبة على سوء أفعالهم. ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون حقيقة الإيمان، ولا يعرفون حقيقته أصلاً كما يعرفه المؤمنون. أي: لا يعرفون ما فيه صلاحهم ورشادهم، وهو الإيمان.

---

(١) المراغي.

ودلت الآية[1] على أن ذكر بعض مساوىء العاصي عند احتمال الفائدة لا يعد من الغيبة المنهي عنها، بل قد يكون مصلحة مهمة على ما روي عنه - ﷺ -: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس». وفي «المقاصد الحسنة»: ثلاثة ليست لهم غيبة: الإمام الجائر، والفاسق المعلن فسقه، والمبتدع الذي يدعو الناس إلى بدعته.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَطُبِعَ﴾ بالبناء للمفعول، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور بعده. وقرأ زيد بن علي على البناء للفاعل، والفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه. ويدل على هذا قراءة الأعمش ﴿فطبع الله على قلوبهم﴾.

والمعنى: أي ذلك الذي فعلوه لسوء سريرتهم وقبح طويتهم، فاستهانوا بما يأتون وما يذرون، ولم يكن همهم إلا المحافظة على دمائهم وأموالهم، ومن ثم أظهروا للناس إيماناً وأبطنوا كفراً، وقد ختم على قلوبهم، فلا تهتدي إلى حق ولا يصل إليها خير، ومن جراء ذلك عموا عما نصب من الأدلة على صدق الرسول، وصمّت آذانهم عن سماع ما يوجب الإيمان، فهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ثم ذكر ما لهم من جمال في الصورة واعتدال في القوام، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾؛ أي: رأيت أولئك المنافقين. والرؤية بصرية والخطاب للنبي - ﷺ -، وقيل: لكل من يصلح له. ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿يُسْمَع﴾ على البناء للمفعول. ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾؛ أي: هيئآتهم ومناظرهم. يعني: أن لهم أجساماً تعجب من يراها؛ لما فيها من النضارة والرونق وصباحة الوجه. ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ فتحسب أن قولهم حق وصدق؛ لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم. وقد كان عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، وكان يحضر مجلس النبي - ﷺ -، فإذا قال.. سمع النبي - ﷺ - مقالته. قال الكلبي المراد عبد الله بن أبيّ، وجد بن قيس، ومعتب بن قيس، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة. و﴿اللام﴾[3]: في قوله: ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ صلة. وقيل: تصغي إلى قولهم. وكان عبد الله بن أبيّ ونفر من أمثاله - وهم -: رؤساء المدينة - يحضرون مجلس النبي - ﷺ -، وكان النبي - ﷺ

---

(1) روح البيان. (2) الشوكاني. (3) روح البيان.

ـ ومن معه يعجبون بهياكلهم، ويسمعون إلى كلامهم. وإن الصباحة وحسن المنظر لا يكون إلا من صفاء الفطرة في الأصل، ولذا قال عليه السلام: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه» أي: غالباً. وكم من رجل قبيح الوجه قضاء للحوائج. قال بعضهم:

يَدُلُّ عَلَىٰ مَعْرُوفِهِ حُسْنُ وَجْهِهِ وَمَا زَالَ حُسْنُ ٱلْوَجْهِ إِحْدَىٰ ٱلشَّوَاهِدِ

وفي الحديث: «إذا بعثتم إليَّ رجلاً.. فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم». ثم لما رأى النبي ـ ﷺ ـ غلبة الرين على قلوب المنافقين، وانطفاء نور استعدادهم، وإبطال الهيئات الدنية العارضية خواصهم الأصلية.. أيس منهم وتركهم على حالهم.

وروي عن بعض الحكماء: أنه رأى غلاماً حسناً وجهه، فاستنطقه لظنه ذكاء فطنته، فما وجد عنده معنى: فقال: ما أحسن هذا البيت لو كان فيه ساكن!

وجملة قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ مستأنفة لتقرير ما تقدم من أن أجسامهم تعجب الرائي، وتروق الناظر. ويجوز أن تكون في محل الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف. أي: هم كأنهم إلخ. والخشب ـ بضمتين ـ: جمع خشبة وهي ما غلظ من العيدان. والإسناد: الإمالة، ومسندة للتكثير. فإن التسنيد تكثير الإسناد بكثرة المحال؛ أي: كأنها أسندت في مواضع. شبهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله ـ ﷺ ـ مستندين فيها بأخشاب منصوبة مسندة إلى الحائط في كونها أشباحاً خالية عن العلم والخير والانتفاع. ولذا اعتبر في الخشب التسنيد؛ لأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، فكما أن مثل هذا الخشب لا نفع فيه فكذا هم لا نفع فيهم.

يقول الفقير: فيه إشارة إلى أن الاستناد في مجالس الأكابر أو في مجالس العلم مِن ترك الأدب؛ ولذا منع الإمام مالك رحمه الله هارون الرشيد من الاستناد حين سمع منه «الموطأ». ودلت الآية وكذا قول النبي ـ ﷺ ـ: إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، على أن العبرة في الكمال والنقصان بالأصغرين: اللسان والقلب، لا بالأكبرين: الرأس والجسد، فإن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأموال، بل إلى القلوب والأعمال، فرب صورة مصغرة، عند الله بمثابة الذهب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَسْمَعْ﴾ بتاء الخطاب. وقرأ عكرمة، وعطية العوفي ﴿يسمع﴾ بالياء مبنياً للمجهول، ولقولهم: الجار والمجرور هو المفعول الذي لم يُسمَّ فاعله، وليست اللام زائدة، بل ضمن ﴿يسمع﴾ معنى يصغ ويمل، تعدى باللام وليست زائدة، فيكون: قولهم هو المسموع. وقرأ الجمهور: ﴿خُشُبٌ﴾ بضمتين والبراء بن عازب والنحويان: أبو عمرو والكسائي، وابن كثير بإسكان الشين مخففة: ﴿خشب﴾ المضموم. وقيل: جمع خشباء، كحمر جمع حمراء، وهي: الخشبة التي نخر جوفها شبهوا بها في فساد بواطنهم. وقرأ ابن المسيب، وابن جبير: ﴿خشب﴾ بفتحتين، اسم جنس، الواحد خشبة، وأنث وصفه، كقوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام.

والمعنى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾؛ أي[2]: لاستواء خلقهم وجمال صورهم، كما وصفهم بالفصاحة وذرابة اللسان فقال: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لحلاوة منطقهم وحسن توقيع حديثهم، فإذا سمعهم سامع.. أحب أن يصغي إليهم وأن يطول حديثهم جهد الاستطاعة. ثم وصفهم بأن أفئدتهم هواء، لا عقول لهم ولا أحلام، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾؛ أي: هم أشباح بلا أرواح، لهم جمال في المنظر وقبح في المخبر، فسدت بواطنهم وحسنت ظواهرهم، فكانت كالخشب الجوفاء التي نخرها السوس، فهي مع حسنها لا ينتفع فيها بعمل ولا يستفاد منها خير. ولله در أبي نواس:

لاَ تَخْدَعَنْكَ اللُّحَىٰ وَلاَ الصُّوْرُ ... تِسْعَةُ أَعْشَارِ مَنْ تَرَىٰ بَقَرُ
تَرَاهُم كَالسَّحَابِ مُنْتَشِراً ... وَلَيْسَ فِيْهِ لِطَالِبٍ مَطَرُ
فِي شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمُ مَثَلٌ ... لَهُ رُوَاءٌ وَمَا لَهُ ثَمَرُ

ثم وصفهم بالجبن والذلة، فقال: ﴿يَحْسَبُونَ﴾؛ أي: يظنون ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾؛ أي: كل صوت مرتفع. وهو مفعول أول لـ﴿يَحْسَبُونَ﴾، والمفعول الثاني قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: واقعة عليهم ضارة لهم. وقال بعضهم: إذا نادى مناد في العسكر لمصلحة، أو انفلتت دابة، أو نشدت ضالة، أو وقعت جلبة بين الناس.. ظنوه

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

إيقاعاً بهم، لجبنهم واستقرار الرعب في قلوبهم، والخائن خائف. وفي هذا زيادة تحقير لهم وتخفيف لقدرهم، كما قيل:

إِذَا رَأَىٰ غَـيْـرَ شَـيْءٍ ظَـنَّـهُ رَجُـلاً

وقيل: كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم. ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾؛ أي: هم الكاملون في العداوة الراسخون فيها. فإن أعدى الأعادي: العدو المكاشر الذي يكاشرك؛ أي: يبتسم، وتحت ضلوعه داء لا يبرح بل يلزم مكانه. ولم يقل: هم الأعداء؛ لأن العدو لكونه بزنة المصادر يقع على الواحد وما فوقه. والجملة[1] مستأنفة لبيان أنهم الكاملون في العداوة.

ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يأخذ حذره منهم، فقال: ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾؛ أي: فاحذر أن تثق بقولهم وتميل إلى كلامهم، أو: فاحذر ممايلتهم لأعدائك وتخذيلهم بأصحابك، فإنهم يفشون سرك إلى الكفار. أو: فاحذر أن يتمكنوا من فرصة منك أو يطلعوا على شيء من أسرارك؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار.

ثم دعا عليهم، فقال: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لعنهم وطردهم من رحمته، دعا عليهم وطلب من ذاته تعالى أن يلعنهم ويطردهم ويخزيهم ويميتهم على الهوان والخذلان. قال سعدي المفتي: ولا طلب هناك حقيقة، بل عبارة الطلب للدلالة على أن اللعن عليهم مما لا بد منه. وقال الطيبي: إنه من أسلوب التجريد، كقراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿ومن كفر فأمتعه يا قادر﴾. ويجوز أن يكون تعليماً للمؤمنين بأن يدعو عليهم بذلك. ففيه دلالة على أن للدعاء على أهل الفساد محلاً يحسن فيه، فقاتل الله المبتدعين الضالين المضلين، فإنهم شر الخصماء وأضر الأعداء. وإيراده في صورة الإخبار مع أنه إنشاء معنى للدلالة على وقوعه. وقال بعضهم: أهلكهم الله، وهودعاء يتضمن الاقتضاء والمنابذة وتمني الشر لهم. وقيل: هي كلمة ذم وتوبيخ بين الناس، وقد تقول العرب: قاتله الله ما أشعره! فيضعونه موضع التعجب. وقيل: أحلهم محل من قاتله عدو قاهر لكل معاند يهلكه؛ لأن الله تعالى قاهر لكل معاند، فإذا قاتلهم أهلكهم.

---

(١) روح البيان.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تعجيب من حالهم؛ أي: كيف يصرفون عن الحق والنور إلى ما هم عليه من الكفر والضلال والظلمة بعد قيام البرهان.

والمعنى: قاتلهم الله بالخزي والحرمان والسوء والخذلان، كيف يعدلون عن طريق الدين الصدق وعن سبيل الهدى والرشد؟

ومعنى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ...﴾ إلى آخر الآية؛ أي[1]: كلما نادى مناد في العسكر، أو انفلتت دابة، أو نشدت ضالة.. ظنوا أن العدو قد فاجأهم وأن أمرهم قد افتضح، وأنهم هالكون لا محالة. وقد قالوا: يكاد المريب يقول: خذوني، ويكاد السارق يقول إذا رأى القيد: ضعوه في يدي؛ لما ألقي من الرعب في قلوبهم. فهم يخافون أن تهتك أستارهم وتكشف أسرارهم، ويتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾. وقد نظر المتنبي إلى الآية في قوله:

وَضَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّىٰ كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَىٰ غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلاً

﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ الذي بلغ الغاية في العداوة، ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ ولا تأمنهم على سر، ولا تلتفت إلى ظاهرهم. فقلوبهم متحرقة حسداً وبغضاً، وأعدى الأعادي: العدو والمداجي، الذي يكاشرك - يبتسم لك - وتحت ضلوعه الداء الدوي والشر المستطير.

ثم زاد سبحانه في ذمهم وتوبيخهم وعجب من حالهم، فقال: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: لعنهم الله وطردهم من رحمته، فما أفظع حالهم وما أشدهم غفلة عن مآلهم. وهذا تعليم منه لعباده المؤمنين أن يلعنوهم. فكأنه قال: قولوا: قاتلهم الله. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل؟ وقد كان لهم مدكر فيما حولهم وفيما أمامهم من صدق الداعي بما أتى به من البينات الدالة على أنه مرسل من ربه. وإن تعجب من شيء.. فاعجب من جهالتهم وظنهم الفاسد أنهم على الحق، فما أعظمها محنة وأعجب بهم نقمة، جازاهم الله بها على سوء

---

(١) المراغي.

أعمالهم وقبح فعالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عند ظهور جناياتهم بطريق النصيحة؛ أي: قال لهم واحد من المؤمنين: قد نزل فيكم ما نزل فتوبوا إلى الله ورسوله و﴿تَعَالَوْاْ﴾ وأقبلوا إلى رسول الله - ﷺ - ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ - ﷺ -، بالجزم. جواب الأمر. أي: يدع الله لكم ويطلب منه أن يغفر بلطفه ذنوبكم، ويستر عيوبكم. وهو من إعمال الثاني. لأن ﴿تَعَالَوْاْ﴾ يطلب رسول الله مجروراً بـ إلى؛ أي: تعالوا إلى رسول الله، و﴿يَسْتَغْفِرْ﴾: يطلب، فاعلاً، فأعمل الثاني، ولذلك رفعه وحذف من الأول، إذ التقدير: تعالوا إليه. ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾؛ أي: حركوها استهزاء لذلك، وأمالوها وعطفوها رغبة عن الاستغفار.

وقرأ مجاهد ونافع(١)، وأهل المدينة وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، والمفضل، وأبان عن عاصم، والحسن ويعقوب بخلاف عنهما: ﴿لووا﴾ بفتح الواو مخففاً. وقرأ أبو جعفر، والأعمش، وطلحة، وعيسى، وأبو رجاء، والأعرج، وباقي السبعة بشدها للتكثير، واختار هذه القراءة أبو عبيد.

﴿ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ من الصدود بمعنى الإعراض؛ أي: يعرضون عن القائل، أو عن الاستغفار. وجملة ﴿يَصُدُّونَ﴾ حال من ضمير الغائبين؛ لأن الرؤية بصرية، وأتت بالمضارع ليدل على استمرارهم. ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن ذلك؛ لغلبة الشيطنة، واستيلاء القوة الوهمية، واحتجابهم بالأنانية وتصور الخيرية. وفي الحديث: «إذا رأيت الرجل لجوجاً معجباً برأيه.. فقد تمت خسارته». والجملة أيضاً حال من فاعل الحالة الأولى، والمعنى: ورأيتهم صادين مستكبرين.

ومعنى الآية: أي وإذا قيل(٢) لجماعة المنافقين، كعبد الله بن أبيّ: هلموا إلى رسول الله - ﷺ - يطلب لكم من ربكم غفران ذنوبكم.. صدوا وأعرضوا. قال الكلبي: لما نزل القرآن بصفة المنافقين.. مشى إليهم عشائرهم من المؤمنين وقالوا لهم: ويلكم افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم، فأتوا رسول الله - ﷺ - وتوبوا إليه من النفاق واسألوه أن يغفر لكم، فأبوا ذلك وزهدوا في الاستغفار، فنزلت الآية.

وقال ابن عباس: لما رجع عبد الله بن أبيّ من أحد بكثير من الناس، مقته

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

المسلمون وعنفوه وأسمعوه ما يكره، فقال له بنو أبيه: لو أتيت رسول الله - ﷺ - حتى يستغفر لك ويرضى عنك؟ قال: لا أذهب إليه ولا أريد أن يستغفر لي، وجعل يلوي رأسه، فنزلت.

ثم أيأسهم من جدوى الاستغفار لهم، فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ يا محمد كما[1] إذا جاؤوك معتذرين من جناياتهم. وفي «كشف الأسرار»: كان - ﷺ - يستغفر لهم على معنى سؤاله لهم بتوفيق الإيمان ومغفرة العصيان. و﴿سَوَآءٌ﴾ اسم بمعنى مستو، خبر مقدم، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، وما بعده من المعطوف عليه والمعطوف مبتدأ بتأويل المصدر لإخراج الاستفهام عن مقامه. فالهمزة في ﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾ للاستفهام، ولذا فتحت وقطعت، والأصل: ﴿أأستغفرت﴾ فحذفت همزة الوصل التي هي همزة الاستفعال للتخفيف ولعدم اللبس. ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ كما إذا أصروا على قبائحهم واستكبروا عن الاعتذار والاستغفار؛ أي: استغفارك لهم وعدمه سيان لا ينفعهم ذلك، لإصرارهم على النفاق واستمرارهم على الكفر.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾ بهمزة التسوية التي أصلها همزة الاستفهام وطرح ألف الوصل. وقرأ أبو جعفر بمدة على الهمزة، قيل: هي عوض من همزة الوصل، وهي مثل المدة في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ لكن هذه المدة في الاسم لئلا يلتبس الاستفهام بالخبر، ولا يحتاج إلى ذلك في الفعل؛ لأن همزة الوصل فيه مكسورة. وعن أبي جعفر أيضاً ضم ميم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إذ أصلها الضم ووصل الهمزة. وروى معاذ بن معاذ العنبري عن أبي عمرو كسر الميم على أصل التقاء الساكنين ووصل الهمزة، فتسقط في القراءتين، واللفظ خبر، والمعنى على الاستفهام، والمراد: التسوية. وجاز حذف الهمزة لدلالة ﴿أمْ﴾ عليها، كما دلت على حذفها في قوله:

بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الْجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

يريد أبسبع.

﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أبداً؛ لإصرارهم على الفسق، ورسوخهم في الكفر، وخروجهم عن دين الفطرة القيم؛ لأن الله كتب عليهم الشقاء بما كسبت أيديهم وبما اجترحت من الفسوق والعصيان، وبما ران على قلوبهم من الجحود والطغيان.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: الكاملين في الفسق، الخارجين عن دائرة الاستصلاح، المنهمكين في الكفر والنفاق، أو الخارجين من دائرة المحقين الداخلين في دائرة الباطلين المبطلين؛ لأن الله لا يهدي من أحاطت به خطيئته، فلم تجد الهداية إلى قلبه سبيلاً تسلكه، ولا المواعظ والنصائح متسعاً في فؤاده، فأنى للقلب أن يهتدي وللعقل أن يرعوي؟ وماذا تفيد الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون؟

ثم ذكر هنة أخرى لهم، فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾؛ أي: للأنصار، وهو استئناف جار مجرى التعليل لفسقهم أو لعدم مغفرته تعالى لهم، وهو حكاية نص كلامهم. ﴿لَا تُنفِقُواْ﴾؛ أي: لا تعطوا النفقة التي يتعيش بها ﴿عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعنون: فقراء المهاجرين. وقولهم: ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، إما للهزء والتهكم، أو لكونه كاللقب له - ﷺ - واشتهاره به، فلو كانوا مقرين برسالته.. لما صدر عنهم ما صدر. ويجوز أن ينطقوا بغيره، لكن الله تعالى عبر به إكراماً له وإجلالاً. ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾؛ أي: يتفرقوا عنه ويرجعوا إلى قبائلهم وعشائرهم. وهذا إشارة إلى ابن سلول ومن وافقه من قومه. وإنما قالوه لاحتجابهم بأفعالهم عن رؤية فعل الله وبما في أيديهم عما في خزائن الله، فيتوهمون الإنفاق منهم لجهلهم؛ أي: هم الذين يقولون للأنصار: لا تطعموا محمداً وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة فيتركوا نبيهم حين يعضّهم الجوع بنابه.

ثم رد عليهم وخطأهم فيما يقولون، فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: ولله جميع ما في السماوات والأرض من شيء، وبيده مفاتيح أرزاق العباد، لا يقدر أحد أن يعطي أحداً شيئاً إلاّ بمشيئته.

وهذا رد(١) وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم يؤدي إلى انفضاض الفقراء من حوله - ﷺ -، ببيان أن خزائن الأرزاق بيد الله خاصة، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء. ومن تلك الخزائن المطر والنبات. قال الراغب: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارة منه إلى قدرته تعالى على ما يريد إيجاده، أو إلى الحالة التي أشير إليها بقوله - ﷺ -: «فرغ ربكم من الخلق والأجل والرزق». والمراد من

---

(١) روح البيان.

الفراغ: إتمام القضاء، فهو مذكور بطريق التمثيل. يعني: أتم قضاء هذه الكليات في علمه السابق. والخزائن: جمع خزانة، وهي: ما يخزن فيه الأموال النفيسة ويحفظ، كما سيأتي.

قرأ الجمهور[1]: ﴿يَنفَضُّواْ﴾ من الانفضاض، وهو التفرق. وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي: ﴿يُنْفِضُوا﴾ من أنفض القوم إذا فنيت أزوادهم، يقال: نَفَضَ الرجل وعاءه من الزاد فأَنْفَضَ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك؛ لجهلهم بالله وبشؤونه، ولذلك يقولون من مقالات الكفر ما يقولون، ولا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد الله عز وجل، وأنه الباسط القابض المعطي المانع، لجهلهم بسنن الله في خلقه، وأن الله قد كفل الأرزاق لعباده في أي مكان كانوا، متى عملوا وجدوا في الحصول عليها.

ثم ذكر هنة ثالثة لهم، وهي أعظمها، فقال: ﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: يقول المنافقون ـ عبد الله بن أبيّ وأصحابه ـ: والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ والمراد: رجوعهم من غزوة بني المصطلق، كما مر. وإنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل واحداً من أفرادهم، وهو عبد الله بن أبيّ لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم، وهم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون. ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ﴾ يريد أنفسهم ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من المدينة ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾ يريد النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه. ثم رد الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه لا لغيره ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾ والقدرة التامة والغلبة والقوة ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم، كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من المنافقين والكافرين؛ أي: فالعزة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحي عباده لا لغيرهم.

قال الواسطي ـ رحمه الله تعالى ـ[2]: عزة الله: أن لا يكون شيء إلا بمشيئته وإرادته، وعزة المرسلين: أنهم آمنون من زوال الإيمان، وعزة المؤمنين: أنهم آمنون من دوام العقوبة. وقال عزة الله: العظمة والقدرة، وعزة الرسول: النبوة والشفاعة، وعزة المؤمنين: التواضع والسخاء والعبودية. دل عليه قوله ـ ﷺ ـ: «أنا سيد ولد

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

آدم ولا فخر»؛ أي: لا أفتخر بالسيادة، بل افتخر بالعبودية، وفيها عزتي، إذ لا عزة إلا في طاعة الله ولا ذل إلا في معصية الله. وقال بعضهم: عزة الله: قهره من دونه، وعزة رسوله: بظهور دينه على سائر الأديان كلها، وعزة المؤمنين: استذلالهم اليهود والنصارى، كما قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وقيل: عزة الله: الولاية، لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾، وعزة رسوله: الكفاية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾، وعزة المؤمنين: الرفعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

يقول الفقير: أشار تعالى بالترتيب إلى أن العزة له بالأصالة والدوام، وصار الرسول مظهراً له في تلك العزة، ثم صار المؤمنون مظاهر له - ﷺ - فيها. فعزة الرسول بواسطة عزة الله وعزة المؤمنين بواسطة الرسول، سواء أعاصروه - ﷺ - أم أتوا بعده، إلى قيام الساعة. وجميع العزة لله، لأن عزة الله له تعالى صفة، وعزة الرسول وعزة المؤمنين فعلاً ومنةً وفضلاً. كما قال القشيري - رحمه الله تعالى -: العز الذي للرسول وللمؤمنين هو لله تعالى خلقاً وملكاً، وعزه سبحانه له وصفاً، فإذا العزة كلها لله. وبهذا يجمع بين قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن أدب مَنْ عرف أنه تعالى هو العزيز: أن لا يعتقد لمخلوق إجلالاً؛ ولهذا قال - ﷺ -: «من تواضع لغني لأجل غناه.. ذهب ثلثا دِينه». قال أبو علي الدقاق - رحمه الله -: إنما قال: «ثلثا دينه» لأن التواضع يكون بثلاثة أشياء: بلسانه، وبدنه، وقلبه. فإذا تواضع له بلسانه وبدنه ولم يعتقد له العظمة بقلبه.. ذهب ثلثا دِينه، فإن اعتقدها بقلبه أيضاً.. ذهب كل دِينه. ولهذا قيل: إذا عظم الرب في القلب.. صغر الخلق في العين. ومتى عرفت أنه معز.. لم تطلب العز إلا منه، ولا يكون العز إلا في طاعته.

والمعنى[1]: أي يقول عبد الله بن أبيّ ومن يلوذ به من صحبه: لئن عدناإلى المدينة.. لنخرجنكم منها أيها المؤمنين، فإننا الأقوياء الأشداء الأعزاء وأنتم الضعفاء الأذلاء، فرد الله عليهم مقالهم، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛

(١) المراغي.

أي: ولله الغلبة والقوة ولمن أعزه الله من الرسول والمؤمنين.

روي: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي - وكان مؤمناً مخلصاً - سل سيفه على أبيه عندما أشرفوا على المدينة. وقال: لله علي أن لا أغمده حتى تقول محمد الأعز وأنا الأذل، فلم يبرح حتى قال ذلك.

وروي: أنه وقف واستل سيفه، وجعل الناس يمرون عليه حتى جاء أبوه، فقال: وراءك، قال: ما لك ويلك؟، قال: والله لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله - ﷺ -، فإنه العزيز وأنت الذليل، فرجع حتى لقي رسول الله - ﷺ -، وكان إنما يسير ساقه - في آخر الجيش - فشكا إليه ما صنع ابنه، فأرسل إليه النبي - ﷺ - أن خل عنه يدخل، ففعل. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم، فيهذون ما يهذون. أي: لا يعلمون أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن العاقبة للمتقين، وأن الله ينصر من ينصره، كما قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾. وسننه تعالى لا تبديل فيها ولا تغيير، وهو لا بدّ جاعل عباده المؤمنين هم الأعزاء كما وعد وجعل مخالفيه هم الأذلاء، ولا دخل للمال والنشب، ولا للحسب والنسب في تلك القوة التي يمد بها من يشاء والنصرة التي يمنحها عباده المخلصين، وأن الله منجز وعده لنبيه كما أنجزه لمن قبله من رسله، وقد تم لهم الظفر على أعدائهم الضالين.

ولعل ختم[1] الآية الأولى بـ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، والثانية بـ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ للتفنن المعتبر في البلاغة، مع أن في الأول بيان عدم كياستهم وفهمهم،وفي الثاني بيان حماقتهم وجهلهم. وفي «برهان القرآن»: الأول متصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفيه غموض يحتاج إلى فطنة، والمنافق لا فطنة له، والثاني متصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله معز أوليائه ومذل أعدائه.

وعبارة «فتح الرحمٰن»: ختم هنا بـ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وفيما مر بـ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، لأن الأول متصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي معرفتها غموض

---

(١) روح البيان.

يحتاج إلى فطنة وفقه، فناسب نفي الفقه في الأول، والثاني متصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾ وفي معرفتها غموض زائد يحتاج إلى علم، فناسب نفي العلم عنهم.

فالمعنى: لايعلمون أن الله معز أوليائه ومذل أعدائه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ بالبناء للفاعل، فالأعز فاعل والأذل مفعول. وقرأ الحسن وابن أبي عبلة: ﴿لنُخرجَنَّ﴾ بالنون، ونصب الأعز والأذل، فالأعز مفعول والأذل حال. وقرأ الحسن فيما ذكر أبو عمرو الداني ﴿لنَخرُجَنَّ﴾ بنون الجماعة مفتوحة وضم الراء، ونصب الأعز على الاختصاص، كما قالوا: نحن العرب أقرى الناس للضيف. ونصب الأذل على الحال، وحكى هذه القراءة أبو حاتم، وحكى الكسائي والفراء: أن قوماً قرأوا: ﴿ليَخرُجَنَّ﴾ بالياء المفتوحة وضم الراء، فالفاعل: الأعز، ونصب الأذل على الحال. وقرىء مبنياً للمفعول وبالياء، الأعز مرفوع به، الأذل نصباً على الحال ومجيء الحال بصورة المعرفة متأول عند البصريين. فما كان منها بأل فعلى زيادتها، لا أنها معرفة.

ولما ذكر سبحانه وتعالى قبائح المنافقين.. رجع إلى خطاب المؤمنين، مرغباً لهم في ذكره فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله إيماناً صادقاً ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ﴾؛ أي: لا تشغلكم ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَـٰدُكُمۡ﴾؛ أي: الاعتناء بها والتمتع بها ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: عن أداء فرائضه من الصلاة، والزكاة، والحج وسائر ما أوجبه عليكم. يقال: ألهاه الشيء، إذا شغله؛ أي: لا يشغلكم[2] الاهتمام بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال بذكره تعالى من الصلاة وسائر العبادات المذكرة للمعبود. ففي ذكر الله مجاز، أطلق السبب وأريد المسبب.

قال بعضهم: الذكر بالقلب: خوف الله، وباللسان: قراءة القرآن، والتسبيح والتهليل، والتمجيد والتكبير، وتعلم علم الدين وتعليمه، وغيرها وبالأبدان: الصلاة وسائر الطاعات. **والمراد**: نهيهم عن التلهي بها؛ أي: عن ترك ذكر الله بسبب الاشتغال بها. وتوجيه النهي إليها للمبالغة بالتجوز بالسبب عن المسبب، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾. وقد ثبت أن المجاز أبلغ. وقال بعضهم: هو

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

كناية؛ لأن الانتقال من لا تلهكم إلى معنى قولنا: لا تلهوا.. انتقال من اللازم إلى الملزوم.

وقد كان المنافقون بخلاء بأموالهم؛ ولذا قالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ومتعززين بأولادهم وعشائرهم، مشغولين بهم وبأموالهم عن الله، وطاعته وتعاون رسوله - ﷺ - فنهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم في ذلك. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: التلهي بالدنيا عن الدين، والاشتغال بما سواه عنه ولو في أقل حين. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الخسران، حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني. وفي الحديث: «ما طلعت الشمس إلا بجنبيها ملكان يناديان ويسمعان الخلائق غير الثقلين: يا أيها الناس! هلموا إلى ربكم، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

ومعنى الآية[(١)]: أي لا يشغلكم تدبير أموالكم والعناية بشؤون أولادكم عن القيام بحقوق ربكم وأداء فرائضه التي طلبها منكم، واجعلوا للدنيا حظاً من اهتمامكم وللآخرة مثله. وهذا ما عناه الحديث: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وبهذا امتازت الملة الحنيفية السمحة، فما طلب من المؤمنين أن يكونوا ماديين يتكالبون على جمع حطام الدنيا كما يفعل اليهود، ولا أن يكونوا روحانيين يجردون أنفسهم من لذات هذه الحياة ويتبتلون إلى ربهم كما يفعل المسيحيون، كما يرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. ثم توعد من يفعل ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ أي: ومن تلّه بالدنيا وشغلته عن حقوق الله.. فقد باء بغضب من ربه وخسرت تجارته، إذ باع خالداً باقياً واشترى فانياً زائلاً، وكيف يرضى عاقل بمثل هذه التجارة الخاسرة.

ومن[(٢)] أهم ما يقرب العبد من ربه ويجعله يفوز برضوانه: رحمة البائسين من عباده، وبذل المال في الوجوه التي فيها سعادة الأمة وإعلاء شأن الملة وانتشار

(١) المراغي. (٢) المراغي.

الدعوة، ومن ثم قال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾؛ أي: بعض ما أعطيناكم تفضلاً من غير أن يكون حصوله من جهتكم، ادخاراً للآخرة. **فالمراد**[1]: الإنفاق الواجب، نظراً إلى ظاهر الأمر، كما في «الكشاف»، ولعل التعميم أولى وأنسب بالمقام. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ بأن يشاهد دلائله ويعاين أماراته ومخايله. وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام بما تقدم والتشويق إلى ما تأخر ولم يقل: من قبل أن يأتيكم الموت فتقولوا، إشارة إلى أن الموت يأتيهم واحداً بعد واحد حتى يحيط بالكل. ﴿فَيَقُولَ﴾ عند تيقنه بحلوله: يا ﴿رَبِّ﴾؛ أي: يا ربي ويا مالك أمري ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾؛ أي: هلا أخرتني وأمهلتني، فـ﴿لَوْلَآ﴾ للتحضيض. وقيل: لا زائدة للتأكيد ولو للتمني؛ بمعنى: لو أخرتني؛ أي: هلا أمهلتني وأخرت موتي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وأمد قصير وساعة أخرى قليلة، وقال أبو الليث: يا سيدي! ردني إلى الدنيا وأبقني زماناً غير طويل. وفي «عين المعاني»: مثل ما أجلت لي في الدنيا. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾؛ أي: فأتصدق بمالي. وهو بقطع الهمزة؛ لأنها للتكلم وهمزته مقطوعة، وبتشديد الصاد؛ لأن أصله: أتصدق من التصدق، فأدغمت التاء في الصاد، وبالنصب؛ لأنه مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء في جواب التحضيض. أو التمني في قوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾. ﴿وَأَكُن مِّنَ﴾ عبادك ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المراعين لحقوق الله وحقوق العباد، بالجزم عطفاً في محل ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، كأنه قيل: إن أخرتني أصدق وأكن من الصالحين. وفيه إشارة إلى أن التصدق من أسباب الصلاح والطاعة، كما أن تركه من أسباب الفساد والفسق.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ بإدغام التاء في الصاد، وانتصابه على أنه جواب التمني. وقرأ أبيّ، وابن مسعود، وسعيد بن جبير: ﴿فأتصدق﴾ بالتاء بدون إدغام على الأصل. وقرأ الجمهور السبعة: ﴿وَأَكُن﴾ بالجزم عطفاً على محل ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، كأنه قيل: إن أخرتني.. أصدق وأكن. وقرأ الحسن وابن جبير، وأبو رجاء، وابن أبي إسحاق، ومالك بن دينار، والأعمش، وابن محيصن وعبد الله بن الحسن العنبري، وأبو عمرو: ﴿وأكون﴾ بالنصب عطفاً على ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ وكذا في مصحف عبد الله وأبي، ولكن قال أبو عبيد: رأيت في مصحف عثمان ﴿أكن﴾ بغير

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

واو، وقرأ عبيد بن عمير: ﴿وأكون﴾ بضم النون على الاستئناف؛ أي: وأنا أكون، وهو وعد الصلاح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من كان له مال تجب فيه الزكاة فلم يزكه، أو مال يبلغه إلى بيت الله فلم يحج.. يسأل عند الموت الرجعة.

فائدة: والفرق بين التصدق والهدية: أن التصدق للمحتاج بطريق الترحم والهدية للحبيب لأجل المودة. ولذا كان - ﷺ - يقبل الهدية لا الصدقة، فرضاً كانت أو نفلاً.

ومعنى الآية[1]: أي وأنفقوا بعض ما أعطيناكم من فضلنا من الأموال شكراً على النعمة ورحمة بالفقراء من عباده، وادخروا ذلك ليوم العرض والحساب فتجنوا ثمار ما عملتم، ولا تدخروه في صناديقكم لوارثكم فربما أضاعه فيما لا يكسبكم حمداً ولا مدحاً، بل يكسبكم ذماً وقدحاً. وقد جاء في الخبر: «أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»، وجاء أيضاً: «يا ابن آدم»! ليس لك من مالك إلا ما لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت، أو تصدقت فأبقيت». ولا تنتظروا حتى يحين وقت الاحتضار، وتروا الموت رأي العين، ثم تتمنون أن لو مد الله في الأجل وأطال العمر لتتداركوا ما فات وتحسنوا العمل وتساعدوا البائسين، وذوي الحاجة، فهيهات هيهات، فليس ذا وقت الندم:

نَـدِمَ ٱلْبُـغَـاةُ وَلاَتَ سَـاعَـةَ مَـنْـدَمِ ... وَٱلْبَـغْـيُ مَـرْتَـعُ مُـبْـتَـغِـيـهِ وَخِـيـمُ

فأنى للعمر أن يطول، وللحياة أن تزيد ولكل نفس أجل لا تعدوه، وعمر لا يزيد ولا ينقص، فماذا يفيد التمني، وماذا ينفع الندم والحسرة؟ وذلك ما عناه سبحانه بقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿نَفْسًا﴾؛ أي: لن يؤخر نفساً ولن يمهلها، مطيعة أو عاصية، صغيرة أو كبيرة ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ﴾؛ أي: آخر عمرها، أو انتهى، إن أريد بالأجل الزمان الممتد من أول العمر إلى آخره. فعليكم أن تستعدوا قبل حلول الأجل، وهيئوا الزاد ليوم المعاد ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا

---

(١) المراغي.

هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾. وفي هذا عبرة لمن اعتبر ولم يفرط في أداء الحقوق والواجبات. واستنبط[١] بعضهم عمر النبي - ﷺ - من هذه الآية، فالسورة رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده.

ثم حذرهم وأنذرهم بأنه رقيب عليهم في كل ما يأتون وما يذرون، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء منه، فمجازيكم على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة إعراضاً عنكم وسخطاً وبعداً عن رضوانه. إنك لا تجني من الشوك العنب، فسارعوا في الخيرات، واستعدوا لما هو آت.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بالفوقية، خطاباً للناس كلهم. وقرأ أبو بكر عن عامر، والسلمي بالتحتية، خص الكفار بالوعيد، ويحتمل العموم.

الإعراب

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه منصوب بجوابه، ﴿جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿نَشۡهَدُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿رسول الله﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب. لأن معنى ﴿نَشۡهَدُ﴾: نحلف فهو جارٍ مجرى القسم. وعبّر عن الحلف بالشهادة؛ لأن كل واحد منهما إثبات لأمر معين. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: اعتراضية، ﴿الله﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية اعتراضية لاعتراضها بين قولهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وبين قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَرَسُولُهُۥ﴾: خبره. ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ سادة مسد مفعولي ﴿يَعۡلَمُ﴾. ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾: ﴿الواو﴾:

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

عاطفة، ﴿الله﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَشْهَدُ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكَاذِبُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿كاذبون﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم المعنوي لأن ﴿يَشْهَدُ﴾ بمعنى: يحلف، فيجري مجرى فعل القسم.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣)﴾.

﴿اتَّخَذُوا﴾: فعل ماض وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان كذبهم وحلفهم عليه. ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾: مفعول به، ﴿جُنَّةً﴾: مفعول ثان، ﴿فَصَدُّوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿صدوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿اتَّخَذُوا﴾، ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿صدوا﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿سَاءَ﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿سَاءَ﴾ فعل ماض بمعنى: قبح ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: جار ومجرور خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أنهم﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿آمَنُوا﴾ خبر ﴿أَنَّ﴾، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾: معطوف على آمنوا، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء السببية؛ أي: بسبب إيمانهم ثُمَّ كُفرهم. ﴿فَطُبِعَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿طبع﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَفَرُوا﴾. ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿طبع﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل، ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿تُعْجِبُكَ﴾: فعل مضارع، ومفعول به، ﴿أَجْسَامُهُمْ﴾: فاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿وَإِنْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿يَقُولُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إنْ﴾، ﴿تَسْمَعْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها ﴿لِقَوْلِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿تَسْمَعْ﴾، وجملة

﴿إنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾: حرف نصب وتشبيه واسمه، ﴿خُشُبٌ﴾: خبره، ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾: صفة ﴿خُشُبٌ﴾، وجملة ﴿كأن﴾ مستأنفة، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم مشبهون بخشب مسندة، أو حال من الضمير في ﴿قولهم﴾، ﴿يَحْسَبُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بثبوت النون، ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾: مفعول أول لـ﴿حسب﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور في موضع المفعول الثاني لـ﴿حسب﴾؛ أي: كائنة عليهم. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم عدو لك وأردت بيان ماهو الأصلح لك.. فأقول لك: احذرهم. ﴿احذر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، و﴿الهاء﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل، والجملة جملة دعائية لا محل لها من الإعراب، ﴿أَنَّى﴾: اسم استفهام بمعنى: كيف في محل النصب على الحال، مبني على السكون، ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: فعل مضارع ونائب فاعل، والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، وجملة ﴿قِيلَ﴾ في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها. وإن شئت قلت: ﴿تَعَالَوْا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿يَسْتَغْفِرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾: فاعل. و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾: تنازع فيه كل من ﴿تَعَالَوْا﴾، و﴿يَسْتَغْفِرْ﴾؛ لأن ﴿تَعَالَوْا﴾ يطلبه مجروراً بإلى، و﴿يَسْتَغْفِرْ﴾ يطلبه فاعلاً؛ أي: تعالوا إلى رسول الله،

يستغفر لكم رسول الله. ﴿لَوَّوْا﴾: فعل ماض، وفاعل، ﴿رُءُوسَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿ورَأَيْتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿لَوَّوْا﴾. والرؤية بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، وجملة ﴿يَصُدُّونَ﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿رأيتهم﴾، وجملة ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ في محل النصب حال من الواو في ﴿يَصُدُّونَ﴾.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَوَآءٌ﴾: خبر مقدم، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، ﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾: ﴿الهمزة﴾: حرف تسوية وسبك واستفهام، ﴿أستغفرت﴾: فعل وفاعل، وقد استغني بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أستغفرت﴾، والجملة الفعلية مع همزة التسوية في تأويل مصدر مرفوع، على أنه مبتدأ مؤخر، والتقدير: وسواء عليهم استغفارك لهم وعدمه. والجملة مستأنفة. ﴿أَمْ﴾: هي المعادلة لهمزة التسوية، وهي حرف عطف، ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَسْتَغْفِرْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أستغفرت﴾؛ أي: استغفارك لهم وعدم استغفارك لهم سيان. ﴿لَن﴾: حرف نفي ونصب واستقبال. ﴿يَغْفِرَ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل منصوب بـ﴿لَن﴾، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿يَقُولُونَ﴾: صلة الموصول، ﴿لَا تُنفِقُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾. وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُنفِقُوا۟﴾: فعل مضارع، وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿عَلَىٰ مَنْ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يَنفَضُّوا۟﴾: فعل مضارع، وفاعل منصوب بأن المضمرة وجوباً بعد

حتى الجارة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى اللام، والجار والمجرور متعلق بـ﴿لَا تُنفِقُوا﴾؛ أي: لا تنفقوا عليهم لأجل انفضاضهم. ﴿وَلِلَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لله﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَقُولُونَ﴾، ولكنها حالة سببية؛ أي: قالوا ما ذُكر، والحال: أن الرزق بيده تعالى. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾: اسمه، وجملة ﴿لَا يَفۡقَهُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على الجملة الاسمية قبلها.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف بعاطف مقدر على ﴿يَقُولُونَ﴾ الأول؛ لأن سبب القولين وقائلهما واحد. ﴿لَئِن﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿رَّجَعۡنَآ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾: متعلق بـ﴿رَّجَعۡنَآ﴾، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، تقديره: إن رجعنا إلى المدينة.. يخرج الأعز منها الأذل، وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه. ﴿لَيُخۡرِجَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى ﴿يخرجن﴾ فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ﴿ٱلۡأَعَزُّ﴾: فاعل، ﴿مِنۡهَا﴾: متعلق بـ﴿يخرجن﴾، ﴿ٱلۡأَذَلَّۚ﴾: مفعول به. والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿وَلِلَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لله﴾ خبر مقدم: ﴿ٱلۡعِزَّةُ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ معطوفان على ﴿للّه﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل لـ﴿يَقُولُونَ﴾، كما مر نظيره آنفاً؛ أي: قالوا ما ذُكر، والحال: أن كل من له نوع بصيرة يعلم أن العزة لله... إلخ. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن المنافقين﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من أي، وجملة النداء مستأنفة. وجملة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: صلة الموصول، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُلۡهِكُمۡ﴾: فعل مضارع، مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، والكاف مفعول به، ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾: فاعل، ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾: معطوف على ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: متعلق بـ﴿تُلۡهِكُمۡ﴾، ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يَفۡعَلۡ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مفعول به، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿أولئك﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواب شرط لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة النهي.

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾.

﴿وَأَنفِقُواْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أنفقوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿مِن مَّا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة أيضاً على جملة النهي، على كونها جواب النداء، ﴿رَزَقۡنَٰكُم﴾: فعل، وفاعل ومفعول به، والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة والعائد محذوف تقديره: رزقناكموه، ﴿مِّن قَبۡلِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿أنفقوا﴾ أو متعلق بـ﴿أنفقوا﴾، ﴿أَن﴾: حرف مصدر ونصب ﴿يَأۡتِيَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، ﴿أَحَدَكُمُ﴾: مفعول به، ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: أنفقوا من قبل إتيان الموت أحدكم. ﴿فَيَقُولَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿يقول﴾: فعل مضارع معطوف على يأتي، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿أَحَدَكُمُ﴾، ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء للتخفيف، وياء الإضافة اجتزاء عنها بالكسرة، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾. ﴿لَوۡلَآ﴾: حرف تحضيض، أو ﴿لو﴾: حرف تمن، و﴿لا﴾ زائدة كما مر، ﴿أَخَّرۡتَنِيٓ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ونون وقاية، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾: متعلق به، ﴿قَرِيبٖ﴾: صفة ﴿أَجَلٖ﴾، والجملة التحضيضية في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾ على كونه جواب النداء،

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أصدق﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب التحضيض أو التمني، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنا، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى؛ تقديره: لولا تأخيرك إياي إلى أجل قريب فتصدقي. ﴿وَأَكُن﴾: على قراءة الجزم: مجزوم بالعطف على محل قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾؛ لأنه في تقدير: إن أخرتني.. أصدق وأكن من الصالحين. وعلى قراءة النصب: معطوف على لفظ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾. وعلى قراءة الرفع: فعلى الاستئناف، كما مر جميع ذلك في مبحث القراءة. واسم ﴿أكن﴾ ضمير مستتر يعود على المتكلم ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: خبره.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على مقدر تقديره: فلا يؤخر هذا المتمني ولن يؤخر الله... إلخ. فكأنه عطف علة على معلول؛ أي: لا يؤخر هذا المتمني؛ لأن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها. ﴿يُؤَخِّرَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لن﴾، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، ﴿نَفْسًا﴾: مفعول به، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿يُؤَخِّرَ﴾، ﴿جَآءَ أَجَلُهَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها؛ أي: لا يؤخرها وقت مجيء أجلها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿خَبِيرٌۢ﴾: خبره، والجملة مستأنفة مسوقة للتهديد، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌۢ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: جمع منافق، اسم فاعل من نافق الرباعي، ينافق نفاقاً، والنفاق: إظهار الإيمان باللسان، وكتمان الكفر بالقلب. فالمنافق: هو الذي يضمر الكفر اعتقاداً ويظهر الإيمان قولاً. وفي «المفردات»: النفاق: الدخول في الشرع من باب والخروج منه من باب آخر من النافقاء، إحدى حجرتي اليربوع والثعلب والضب، يكتمها ويظهر غيرها، فإذا أتي من قبل القاصعاء ـ وهو الذي يدخل منه ـ ضرب النافقاء برأسه فانتفق. والنفق: هو السرب في الأرض النافذ. ﴿نَشْهَدُ﴾ والشهادة: قول صادر عن علم حصل بشهادة بصر أو بصيرة. ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقال: صده عن الأمر صداً؛ أي: منعه وصرفه، وصد عنه صدوداً؛ أي:

أعرض. ﴿جُنَّةً﴾؛ أي: وقاية وترساً عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل والسبي. وأصل الجن: ستر الشيء عن الحاسة، يقال: جنه الليل، وأجنه، والجنان ـ بالفتح ـ: القلب لكونه مستوراً عن الحاسة، والمجن والجنة: الترس الذي يجن صاحبه، والجنة بالفتح: كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض. ﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ساء هذه هي الجارية مجرى بئس في إفادة الذم، ومع ذلك ففيها معنى التعجب وتعظيم أمرهم عند السامعين: كما في «أبي السعود».

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ من الطبع، والطبع: أن يصور الشيء بصورة ما، كطبع السكة وطبع الدراهم. وهو أعم من الختم وأخص من النقش، كما في «المفردات»؛ أي: ختم على قلوبهم كما يختم بالطابع على ما يراد حفظه حتى لا يؤخذ منه شيء. ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾؛ أي: لصباحتها وتناسب أعضائها، أصله من العجب، والشيء العجيب هو الذي يعظم في النفس أمره لغرابته. والتعجب: حيرة تعرض للنفس بواسطة ما يتعجب منه. ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ والخشب بضمتين: جمع خشبة، كأكم وأكمة، أو جمع خشب محركة، كأسد وأسد. وهو ما غلظ من العيدان. والإسناد: الإمالة، والتعبير بـ﴿مسندة﴾ للتكثير؛ فإن التسنيد تكثير الإسناد بكثرة المَحَالّ؛ أي: كأنها أسندت إلى مواضع. ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ والصيحة: رفع الصوت. وفي «القاموس»: الصيحة. الصوت بأقصى الطاقة. ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: من الأفك بفتح الهمزة، بمعنى الصرف عن الشيء؛ لأن الإفك بالكسر بمعنى الكذب. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟﴾: أصله تعاليوا، فأعل بالقلب والحذف، إلا أن واحد الماضي: تعالى، بإثبات الألف المقلوبة عن الياء المقلوبة عن الواو الواقعة رابعة، وواحد الأمر: تعال، بحذفها وقفاً وفتح اللام. وأصل معنى التعالي: الارتفاع، فإذا أمرت منه قلت: تعال وتعالوا، فتعالوا جمع أمر الحاضر في صورة الماضي، ومعناه: ارتفعوا، فيقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم كثر واتسع فيه حتى استعمل في كل داع يطلب المجيء في المفرد وغيره، لما فيه من حسن الأدب؛ أي: هلموا وأتوا. ومن الأدب أن لا يقال: تعال فلان، أو تعاليت يا فلان، أو أنا متعال، أو فلان متعال، بأي معنى أريد؛ لأنه مما اشتهر به الله سبحانه، فتعالى الله الملك الحق علواً كبيراً.

﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ يقال: لوى الرجل رأسه، أماله، والتشديد للتكثير لكثرة

المَحالُّ، وهي الرؤوس. وأصله: لويوا، بوزن فعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لالتقائها ساكنة بواو الجماعة. ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾؛ أي: يعرضون، من الصدود بمعنى الإعراض. أصله: يصددون، بوزن يفعلون، نقلت حركة الدال الأولى إلى الصاد فسكنت فأدغمت في الدال الثانية.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ وسواء: اسم بمعنى مستو، والهمزة فيه مبدلة من ياء. وقوله: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾: حذفت منه همزة الوصل للاستغناء عنها بهمزة الاستفهام. ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والخزائن: جمع خزانة ـ بالكسر ـ كعصائب وعصابة، وهي ما يخزن فيه الأموال النفيسة وتحفظ، وكذا المخزن ـ بالفتح ـ وقد سبق البسط فيه في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾. ﴿ٱلْأَعَزُّ﴾: اسم تفضيل على وزن أفعل، وأصله: الأعزز، نقلت حركة الزاي الأولى إلى العين فسكنت فأدغمت في الثانية. ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾: كذلك أيضاً صيغة تفضيل، أصله: الأذلل، نقلت حركة اللام الأولى إلى الذال، فسكنت فأدغمت في اللام الثانية. ﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ في «الصحاح»: لهت عن الشيء ـ بالكسر ـ ألهى لهياً ولهياناً، إذا سلوت وتركت ذكره وأضربت عنه. وفي «القاموس»: لها كدعا، وسلا، وغفل، وترك ذكره، كتلهى وألهاه شغله، ولهوت بالشيء ـ بالفتح ـ ألهو لهواً إذا لعبت به. ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ أصله: فأتصدق، أبدلت التاء صاداً وأدغمت في الصاد. ﴿وَأَكُن﴾ قرىء: ﴿وأكون﴾ بالنصب، وهو معطوف على ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ لفظاً، لأن ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ منصوب بإضمار ﴿أن﴾ لوقوعه في جواب التمني؛ لأن ﴿لَوْلَآ﴾ هنا معناها التمني، وقرىء: ﴿وَأَكُن﴾ بالجزم، وهو معطوف على موضع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، لأن موضعه قبل دخول الفاء الجزم؛ لأنه جواب التمني، وجواب التمني إذا كان بغير فاء، ولا واو.. حكمه الجزم؛ لأنه غير واجب، ففيه مشابهة للشرط وجوابه، ولذلك يجزم كما يجزم جواب الشرط؛ لأنه غير واجب، إذ يجوز أن يقع ويجوز أن لا يقع.

فالمعنى على هذا: إن أخرتني.. أصدق وأكن. انظر «الكشف عن وجوه القراءات وعللها» لمكي بن أبي طالب (ج/٢ ـ ص/٣٢٣) ولكن في قوله: إن ﴿لولا﴾ هنا معناها التمني، فيه نظر، والذي يظهر: أن معناها التحضيض؛ كما مرّ.

قلت: وهذا مما يسميه النحاة عطف التوهم، فكأن المتكلم توهم أن الفاء لم

تدخل فجزم الفعل على الأصل، وأصله: وأكون، فلما جزم الفعل.. صار أكون، فاجتمع ساكنان فحذفت الواو، حكاه سيبويه عن الخليل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تأكيد المنافقين كلامهم بـ﴿إنَّ﴾، و﴿اللام﴾: في قوله: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ للإيذان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوص اعتقادهم كما مر.

ومنها: التأكيد بالقسم، و﴿إنَّ﴾ و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

ومنها: الجملة الاعتراضية في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾. جاءت معترضة بين الشرط وجوابه؛ لبيان أنهم ما قالوا ذلك عن اعتقاد، ولدفع توهم تكذيبهم في دعواهم الشهادة بالرسالة. والأصل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾. فجاءت الجملة الاعتراضية تقريراً لمنطوق كلامهم لكونه مطابقاً للواقع.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ لغرض ذمهم والإشعار بعلية الحكم، وكان الظاهر أن يقال: إنهم لكاذبون، لسبق المرجع.

ومنها: إطلاق الشهادة التي هي الإخبار عن حق على زورهم مجازاً، كإطلاق البيع على الفاسد.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾، لأن اليمين حقيقة في الجارحة، فاستعير للحلف اعتباراً بما يفعله المحالف عنده من المصافحة.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿جُنَّةً﴾، لأن الجنّة حقيقة فيما يستتر به ويتقى به من المحذور كالترس، ثم استعير لما يجعلونه وقاية لدمائهم

وأموالهم من إظهار الإسلام.

ومنها: الطباق بين ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وبين ﴿الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل التمثيلي في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ فالمشبه: هم، أي: رؤوساء المنافقين من المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ـ ﷺ ـ، ويستندون فيه إلى الجدر، وكان النبي ومن حضر يتعجبون من هياكلهم المنصوبة. والمشبه به هو: الخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط. ووجه الشبه: كون الجانبين أشباحاً خالية عن العلم والنظر، على حدّ قول حسان ـ رضي الله عنه ـ:

لاَ بَأْسَ بِالْقَوْمِ مِنْ طُولٍ وَمِنْ عِظَمٍ ... جِسْمُ الْبِغَالِ وَأَحْلاَمُ الْعَصَافِيرِ

ومنها: التشبيه التمثيلي أيضاً في قوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: إنهم لجبنهم وهلع نفوسهم واضطراب قلوبهم إذا نادى مناد في المعسكر، أو انفلتت دابة، أو نشدت ضالّة.. وجفت قلوبهم وزايلهم رشدهم، وحسبوا أن هناك شراً يتربص بهم وكيداً ينتظر الإيقاع بأرواحهم. وقد رمق الأخطل سماء هذا المعنى، فقال:

مَا زِلْتَ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ ... خَيْلاً تَكِرُّ عَلَيْهِمُ وَرِجَالاً

يقول الأخطل: لا زلت يا جرير تظن كل شيء بعد خذلان قومك خيلاً تكر؛ أي: ترجع بسرعة عليهم لكثرة ما يساورك من الخوف. وغلا المتنبي في هذا المعنى، فقال:

وَضَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّىٰ صَارَ هَارِبُهُمْ ... إِذَا رَأَىٰ غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلاً

ويمكن أن يقال: إن وجه الشبه هو عزوب أحلامهم وفراغ قلوبهم من الإيمان. ولم يكتف بالتشبيه بالخشب بل جعلها مسندة إلى الحائط لعدم الانتفاع بها، لأنها إذا كانت في سقف أو مكان.. ينتفع بها.

ومنها: أسلوب التجريد في قوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ كقراءة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿ومن كفر فأمتعه يا قادر﴾.

ومنها: إيراد اللعنة في صورة الإخبار مع أنه إنشاء معنى في قوله: ﴿قَاتَلَهُمُ

﴿ٱللَّهُ﴾ للدلالة على وقوعه وتحققه.

منها: طباق السلب في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾.

ومنها: القول بالموجب في قوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾، لأن حقيقة القول بالموجب: رد الخصم كلام خصمه من فحوى كلامه، فإن موجب قول المنافقين الآنف ذكره في الآية: إخراج الرسول المنافقين من المدينة، وقد كان ذلك، ألا ترى أن الله تعالى قال على إثر ذلك: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. ومن أمثلته قول ابن الحجاج البغدادي:

قُلْتُ ثَقَّلْتُ إذْ أَتَيْتُ مِرَاراً   قَالَ ثَقَّلْتَ كَاهِلِيْ بِالأَيَادِي

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾؛ لأن الانتقال فيه من ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ﴾ إلى معنى قولنا: لا تلهوا انتقال من اللازم إلى الملزوم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن المراد بالذكر فرائضه ومأموراته، حيث أطلق المسبب وأريد السبب.

ومنها: تقديم المفعول على الفاعل في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ للاهتمام بما تقدم والتشويق إلى ما تأخر.

ومنها: العدول عن قول: من قبل أن يأتيكم الموت إلى قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ للإشارة إلى أن الموت يأتيهم واحداً بعد واحد حتى يحيط بالكل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ وصف المنافقين وبيان سيء خصالهم من الكذب والأيمان الفاجرة والجبن.

٢ ـ حث المؤمنين على الطاعة وإنفاق المال قبل انقضاء الأجل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة التغابن

سورة التغابن نزلت بعد التحريم، قال «البيضاوي»: سورة التغابن مختلف فيها. وهي[1] مدنية في قول الأكثرين، وقال الضحَّاك: هي مكية، وقال الكلبي: هي مدنية ومكية. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بمكة، إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله - ﷺ - جفاء أهله وولده، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ...﴾ إلى آخر السورة ثلاث آيات. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار نحوه.

وآيها: ثماني عشرة آية، وكلماتها: مئتان وإحدى وأربعون كلمة، وحروفها: ألف وسبعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها من ثلاثة أوجه[2]:

١ - أنه في السورة قبلها ذكر حال المنافقين وخاطب بعد ذلك المؤمنين، وهنا قسم الناس قسمين: مؤمناً وكافراً.

٢ - نهى هناك عن الاشتغال بالأولاد عن ذِكر الله، وهنا ذكر أن الأموال والأولاد فتنة.

٣ - في السورة السابقة حث على الإنفاق في سبيل الله، وفي ذكر التغابن حث عليه أيضاً.

وقال أبو حيان[3]: مناسبة هذه السورة لما قبلها: أن ما قبلها مشتمل على

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

حال المنافقين، وفي آخرها خطاب المؤمنين، فأتبعه بما يناسبه من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾. وهذا تقسيم في الإيمان والكفر بالنظر إلى الاكتساب عند جماعة من المتأولين لقوله ـ ﷺ ـ: «كل مولود يولد على الفطرة»، وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ انتهى.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله، محمد بن حزم: سورة التغابن ليس فيها منسوخ وفيها ناسخ، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ...﴾ الآية (١٦) نسخ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، لمَّا اشتكى المسلمون من ذلك.

تسميتها: سميت بلفظ التغابن لِذِكره فيها.

ومن فضائلها: ما أخرجه البخاري في «تاريخه» عن عبد بن عمرو قال: ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن. ومنها: ما روي عن النبي ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة التغابن.. دفع عنه موت الفجأة».

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا
تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ
أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا
وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ
بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
(٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ
وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا
أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ
عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا
أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا
وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (١٨)﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان مناسبة أول هذه السورة لآخر السابقة. وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه لما[1] بسط الأدلة على عظيم قدرته وواسع علمه، وأنه خلق السماوات والأرض

---

(١) المراغي.

وأنه صورهم فأحسن صورهم، وأنه يعلم السر والنجوى.. حذر المشركين من كفار مكة على تماديهم في الكفر والجحود بآياته وإنكار رسالة نبيه محمد - ﷺ -، وبين لهم عاقبة ما يحل بهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وضرب لهم الأمثال بالأمم المكذبة من قبلهم، فقد كذبوا رسلهم وتمادوا في عنادهم وقالوا: أيرسل الله من البشر رسلاً؟ فحلت بهم نقمة ربهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأصبحت ديارهم خراباً يباساً، كأن لم يغنوا بالأمس، فهلا يكون ذلك عبرة لهم فيثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا إلى ربهم لو كانوا من أرباب النهى؟

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف إنكار المشركين للألوهية ثم إنكارهم للنبوة بقولهم: أبشر يهدوننا، ثم أعقبه بأنهم سيلقون الوبال والنكال جزاء ما فعلوا.. أردف ذلك بذكر إنكارهم للبعث، ثم إثبات تحققه، وأنه كائن لا محالة، وأن كل أمرىء سيجازى بما فعل يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد حين يغبن الكفار في شرائهم؛ لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، ويفوز المؤمنون في تجارتهم بالصفقة الرابحة، لأن الله اشترى منهم أموالهم وأنفسهم بالجنة فضلاًمنه ورحمة.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] ذكر فيما سلف أن الناس قسمان: كافر بالله مكذب لرسله لا يألو جهداً في إيصال الأذى بهم، ومؤمن بالله مصدق لرسله، وهو يعمل الصالحات.. أردف ذلك ببيان أن ما يصيب الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره بحسب النظم التي وضعها في الكون، فعلى الإنسان أن يجد ويعمل ثم لا يبالي بعد ذلك بما يأتي به القضاء؛ لعلمه بأن ما فوق ذلك ليس في طاقته ولن يهوله أمره ولن يحزن عليه. ثم أمر بعد ذلك بطاعة الله وطاعة الرسول، وأبان أن تولي الكافرين عن الرسول لن يضيره شيئاً فإنه قد أدى رسالته، وما على الرسول إلا البلاغ، وأن على المؤمن أن يتوكل على الله وحده، وهو يكفيه شر ما أهمه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ...﴾ إلى آخر

---

(١) المراغي.

السورة. مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] أمر بطاعة الله وطاعة رسوله، وذكر أن المؤمن ينبغي له أن يتوكل على الله تعالى ولا يعتمد إلا عليه.. ذكر هنا أن من الأولاد والزوجات أعداء لآبائهم وأزواجهم، يثبطونهم عن الطاعة ويصدونهم عن تلبية الدعوة لما فيه رفعة شأن الدين وإعلاء كلمته، فعليكم أن تحذروهم ولا تتعبوا أهواءهم حتى لا تكونوا إخوان الشياطين يزينون لكم المعاصي، ويصدونكم عن الطاعة. ثم أردف هذا ببيان أن الإنسان مفتون بماله وولده، فإنه ربما عصى الله تعالى بسببهما فغصب المال أو غيره لأجلهما، فعليه أن يتقي الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ولينفق ذو سعة من سعته، فمن جاد بماله ووقى نفسه الشحّ.. فهو الفائز بخيري الدنيا والآخرة، ومن أقرض الله سبحانه قرضاً حسناً.. فالله يضاعف له الحسنة بعشرة أضعافها إلى سبع مئة ضعف، وهو عالم بما يغيب عن الإنسان وما يشاهد له، وهو العزيز الحكيم في تدبير شؤون عباده.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه الترمذي والحاكم، وصححاه عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، قال: نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ...﴾ الآية. في قوم من أهل مكة أسلموا فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا المدينة، فلما قدموا على رسول الله - ﷺ -.. رأوا الناس قد فقهوا، فهَمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التغابن كلها بمكة، إلا هؤلاء الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ...﴾ نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، كان ذا أهل وولد، فكان إذا أراد الغزو.. بكوا إليه ووقفوه، فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق ويقيم. فنزلت هذه الآية وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة.

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ سبحانه ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: جميع ما فيهن من الروحانيات ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وجميع ما فيها من الجسمانيات؛ أي: ينزهه سبحانه جميع ما فيهما من المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه وعظمته، تنزيهاً مستمراً، إما بلسان المقال؛ كأن يقول: سبحان الله وبحمده، وإما بلسان الحال، وهو: الدلالة على وجوده وقدرته. ﴿لَهُ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ الدائم الذي لا يزول ولا يحول. والملك: كمال القدرة ونفاذ التصرف. ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه لا لغيره ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ الحقيقي؛ لأنه الصانع المختار؛ أي[1]: له حمد الحامدين، وهو: الثناء بذكر الأوصاف الجميلة والأفعال الجزيلة. وتقديم الجار والمجرور لدلالة على تأكيد الاختصاص، وإزاحة للشبهة بالكلية، فإن اللام مشعر بأصل الاختصاص، قدم أو أخر؛ أي: له الملك وله الحمد لا لغيره، إذ هو المبدىء لكل شيء، وهو القائم به، والمهيمن عليه المتصرف فيه كيف يشاء، وهو المولي لأصول النعم وفروعها، ولولا أنه أنعم بها على عباده لما قدر أحد على أدنى شيء، فالمؤمنون يحمدونه على نعمه، وله الحمد في الأولى والآخرة. وأما ملك غيره فاسترعاء من جنابه، وتسليط منه، وحمد غيره اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده، فللبشر ملك وحمد من حيث الصورة لا من حيث الحقيقة.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أراده ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء عما أراد؛ لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكل سواء، فهو القادر على الإيجاد والإعدام والإسقام والإبراء، والإعزاز والإذلال، والتبييض والتسويد، ونحو ذلك من الأمور الغير المتناهية. قال بعضهم: قدرة الله تصلح للخلق، وقدرة العبد تصلح

(١) روح البيان.

ح للكسب، فالعبد لا يوصف بالقدرة على الخلق، والحق لا يوصف بالقدرة على الكسب، فمن عرف أنه تعالى قادر.. خشي من سطوات عقوبته عند مخالفته، وأمل لطائف نعمته ورحمته عند سؤال حاجته، لا بوسيلة طاعته بل بكرمه ومنته.

وكرر[1] ﴿مَا﴾ هنا وفي قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ تأكيداً وتعميماً للاختلاف، فناسب ذكر ما فيهما؛ لأن تسبيح ما في السماوات مخالف لتسبيح ما في الأرض، كثرة وقلة، ووقوعاً من حيوان وجماد، وأسرارنا مخالفة لعلانيتنا فناسب ذكر ﴿مَا﴾ فيهما. ولم يكررها في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لعدم اختلاف علمه تعالى، إذ علمه بما تحت الأرض كعلمه بما فوقها، وعلمه بما سيكون كعلمه بما كان، فناسب حذفها فيه.

والمعنى[2]: إن وجود ما في السماوات والأرض دال على تنزيه الله وكماله، وأن هذه المخلوقات مسخرة منقادة له، فهو المتصرف في جميع الكائنات والمحمود على جميع ما يخلق ويقدر؛ لأنه مصدر الخيرات ومفيض البركات، وهو على كل شيء قدير. فما أراد.. كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ.. لم يكن.

ثم ذكر بعض مقدوراته تعالى، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾؛ أي: هو الذي أوجدكم كما شاء على ما شاء؛ أي: خلقكم أيها الناس خلقاً بديعاً حاوياً لجميع مبادىء الكمالات العلمية والعملية. ثم قسم هذا المخلوق، فقال: ﴿فَمِنكُمْ﴾؛ أي: فبعضكم، أو فبعض منكم ﴿كَافِرٌ﴾؛ أي: مختار للكفر كاسب به حسبما تقتضيه خلقته. ويندرج فيه المنافق؛ لأنه كافر مضمِر. وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتفرع عليها من سائر النعم. ﴿وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: مختار للإيمان كاسب له، ويندرج فيه مرتكب الكبيرة الغير التائب والمبتدع الذي لا تُفضي بدعته إلى الكفر.

وتقديم الكفر[3] عليه لأنه الأنسب بمقام التوبيخ والأغلب فيما بينهم، ولذا يقول الله سبحانه في موقف القيامة لآدم: «يا آدم أخرج بعث النار» يعني: ميز أهلها

---

(١) كشف ما يلتبس من القرآن.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

المبعوث إليها. قال: وما بعث النار - أي: عدده -؟ قال الله: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون. وفي التنزيل: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. والإيمان أعظم شعب الشكر.

قال في «فتح الرحمٰن»: الكفر فعل الكافر، والإيمان فعل المؤمن، والكفر والإيمان اكتساب العبد؛ لقول النبي - ﷺ -: «كل مولود يولد على الفطرة» وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار، وكسبه واختياره بتقدير الله ومشيئته. فالمؤمن بعد خلق الله إياه يختار الإيمان، لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدره عليه وعلمه منه، والكافر بعد خلق الله إياه يختار الكفر؛ لأن الله تعالى قدر عليه ذلك وعلمه منه. وهذا طريق أهل السنة، انتهى.

ومعنى قوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾؛ أي[1]: فبعضكم مختار للكفر كاسب له على خلاف ما تقتضيه فطرته، وبعضكم مختار للإيمان كاسب له بحسب ما تدعو إليه الفطرة، كما جاء في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه». وقد كانت الأدلة الكونية في الأنفس والآفاق كفيلة أن تردكم إلى الحق، فتختاروا الإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتبعهما من سائر النعم، ولكنكم ما فعلتم ذلك، بل تفرقتم شيعاً وجحدتم الخالق وكفرتم بأنعمه عليكم بعد أن أفصح الصبح لذي عينين.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مطلقاً ﴿بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بذلك، فاختاروا منه ما يجديكم من الإيمان والطاعة وإياكم وما يرديكم من الكفر والعصيان؛ أي: وهو البصير بمن هو مستعد للهداية لصفاء نفسه وزكاء روحه، فيعطيه ما هوله أهل، ومن خبثت طويته وفسدت سجيته ودسّ نفسه بكبائر الذنوب والآثام.. سيجزى بما هو به حقيق من العذاب الأليم في جهنم ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر نعمة خلق الإنسان.. ذكر النعمة الشاملة بخلق العالم كله على أتم ما يكون من الحكمة والعدل، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أبدعهما وأوجدهما حال كون خلقهما متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكمة البالغة المتضمنة

---

(١) المراغي.

لمنافع الدين والدنيا والمراد: السماوات السبع والأرضون السبع، كما يدل عليه التصريح في بعض المواضع، قال تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

فإن قلت[1]: ما وجه عدم ذكر العرش والكرسي في أمثال هذا الموضع مع عظم خلقهما؟

قلت: إنهما، وإن كانا من السماء لأن السماء هو الفَلك والفَلك جسم شفاف محيط بالعالم، وهما أوسع الأفلاك إحاطة إلا أن آثارهما غير ظاهرة مكشوفة، بخلاف السماوات والأرض وما بينهما، فإنهما أقرب إلى المخاطبين المكلفين ومعلوم حالها عندهم، ومكشوفة آثارها ومنفعتها؛ ولهذا قالوا: إن الشمس تنضج الفواكه والقمر يلونها والكواكب تعطيها الطعم؛ إلى غير ذلك مما لا يتناهى، على أن التغيرات فيها أظهر، فهي على عظم القدرة أدل. وقد قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، وأكثر هذه الشؤون في عالم الكون والفساد الذي هو عبارة عن السماوات والأرض.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ و﴿الفاء﴾ للتفسير؛ أي: صوركم أيها الناس أحسن تصوير وخلقكم في أحسن تقويم، حيث أودع فيكم من القوى، والمشاعر الظاهرة والباطنة ما نيط به جميع الكمالات البارزة والكامنة، وزينكم بصفوة صفات مصنوعاته، وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته، وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته في هذه النشأة، فلكم جمال الصورة وأحسن الأشكال، ولذا لا يتمنى الإنسان أن تكون صورته على خلاف ما هو عليه لكون صورته أحسن من سائر الصور ومن حسن صورته: امتداد قامته، وانتصاب خلقته. ولا يقدح في حسنه كون بعض الصور قبيحاً بالنسبة إلى البعض الآخر منهم؛ لأن الحُسْن ـ وهو: الجمال في الخلق ـ والخلق على مراتب، فالإنسان يضم روحاً هو من عالم الأرواح وبدناً هو من عالم الأجسام. وأنشدوا:

وَتَـزْعُـمُ أَنَّـكَ جِـرْمٌ صَـغِـيْـرٌ ... وَفِـيْـكَ ٱنْـطَـوَىٰ ٱلْـعَـالَـمُ ٱلأَكْـبَـرُ

---

(١) روح البيان.

وقرأ الجمهور: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بضم الصاد. وزيد بن علي والأعمش، وأبو رزين بكسرها، والقياس الضم. والتصوير: التخطيط والتشكيل.

﴿وَإِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: الرجوع في النشأة الأخرى لا إلى غيره استقلالاً أو اشتراكاً، فأحسنوا سرائركم باستعمال تلك القوى والمشاعر فيما خلقن له، حتى يجازيكم بالإنعام لا بالانتقام، فكم من صورة حسناء تكون في العقبى شوهاء بقبح السريرة والسيرة، وكم من صورة قبيحة تكون حسناء بحسنهما. وقد ثبت أن ضرس الكافر يوم القيامة مثل جبل أحد، وأن غلظ جسده مسافة ثلاثة أيام، وأنه يسوء خلقه فتغلظ شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته. وأن أهل الحنة ضوء وجوههم كضوء القمر ليلة البدر أو على أحسن كوكب دري في السماء، وهم جرْد مرْد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين، فطوبى لأهل اللطافة، وويل لأهل الكثافة.

﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الأمور الكلية والجزئية، والأحوال الجلية والخفية، فلا تخفى عليه خافية من أمرها، وهو يدبرها بحسب علمه الواسع وقدرته الشاملة. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم خص بعض يعلمه عناية بأمره، إذ عليه الثواب والعقاب، فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ أي: ما تسرونه فيما بينكم وما تظهرونه من الأمور فاجعلوا أعمالكم ظاهرها وباطنها وفق ما يطلبه منكم الدين والشرع لتنالوا الفوز برضوان الله وجميل مثوبته.

والتصريح(١) به مع اندراجه فيما قبله لأنه الذي يدور عليه الجزاء، ففيه تأكيد للوعد والوعيد وتشديد لهما. قال في «برهان القرآن»: إنما كرر ﴿مَا﴾ في أول السورة لاختلاف تسبيح أهل الأرض وأهل السماء في الكثرة والقلة والبعد والقرب من المعصية والطاعة، وكذلك اختلاف ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فإنهما ضدان، ولم يكرر ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأن الكل بالإضافة إلى علم الله جنس واحد،

---

(١) روح البيان.

لا يخفى عليه شيء، كما مر لك في أول السورة ذكره.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بتاء الخطاب وعبيد عن أبي عمرو وأبان عن عاصم بالياء.

ثم علل علمه بما ذكر بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: محيط علمه بجميع المضمرات المستكنة في صدور الناس بحيث لا تفارقها أصلاً، فكيف يخفى عليه ما يسرونه وما يعلنونه؟ لأنه تعالى محيط بجميع ما أضمره المرء في صدره واستكن في قلبه، فلا يخفى عليه ما يسر وما يعلن. وهذه الجملة مقررة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم، وهي تعليلية كما مرّ آنفاً. وإنما قيل لها: ذات الصدور وصاحبتها لملابستها لها وكونها مخزونة فيها. ففي الآية ترق من الأظهر إلى الأخفى؛ لأنه عالم بما في السماوات وما في الأرض وبما يصدر من بني آدم سراً وعلناً، وبما لم يصدر بعد بل هو مكنون في الصدور.

وإظهار الجلالة للإشعار بعلية الحكم وتأكيد استقلال الجملة قبل، وتقديم القدرة على العلم، لأن دلالة المخلوقات على قدرته بالذات وعلى علمه بما فيها من الاتفاق والاختصاص ببعض الجهات الظاهرة، مثل كون السماء في العلو والأرض في السفل، أو الباطنة؛ مثل: أن تكون السماء متحركة والأرض ساكنة إلى غير ذلك.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها المشركون، و﴿الهمزة﴾ للاستفهام، و﴿لم﴾ للجحد، ومعناه: التحقيق والتقرير. ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: خبر قوم نوح ومن بعدهم من الأمم المصرة على الكفر ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلكم، فيكون متعلقاً بـ﴿كَفَرُوا۟﴾ أو من قبل هذا الوقت أو هذا العصيان والمعاداة، فيكون ظرفاً لـ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾. ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ عطف على ﴿كَفَرُوا۟﴾. والذوق وإن كان في التعارف للقليل لكنه مستصلح للكثير. والوبال: الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور والعقوبة وأمرهم كفرهم فهو واحد الأمور، عبر عنه بذلك للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى[1]: فذاقوا في الدنيا من غير مهلة ما يستتبعه كفرهم من الضرر والعقوبة، وأحسوه إحساس الذائق للطعوم. وفي إيراد الذوق رمز إلى أن ذلك المذوق العاجل شيء حقير بالنسبة إلى ما سيصيرون إليه من العذاب الأليم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم لا يقادر قدره. وفيه إخبار بأن ما أصابهم في الدنيا من الآلام والأوجاع والمصائب لم يكن كفارة لذنوبهم. وإلا.. لم يعذبوا في الآخرة، بخلاف المؤمنين، فإن ما أصابهم في الدنيا من ذلك يكون كفارة لذنوبهم على ما ورد في الأخبار الصحيحة.

ومعنى الآية[2]: ألم يبلغكم أيها المشركون من أهل مكة نبأ الذين كفروا بالرسل من قبلكم؛ كقوم نوح وهود وصالح، وغيرهم من الأمم التي أصرت على الكفر والعناد، كيف حلّ بهم عقاب ربهم وعظيم نقمته، وأرسل عليهم ألواناً من العذاب لا قِبل لهم بها فمن صاعقة من السماء تجتاحهم إلى رجفة في الأرض تهلكهم إلى صيحة تصم الآذان تبيدهم وتجعلهم كأمس الدابر وتمحوهم من صفحة الوجود إلى طوفان يعم الأرض ويبتلعهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وسيكون لهم عظيم النكال والوبال يوم تجزى كل نفس بما كسبت، إن الله سريع الحساب. وفي هذا الأسلوب تعجيب من حالهم، وأنه قد كان لهم في ذلك مدَّكَرٌ لو كانوا يستبصرون، وعبرة لو كانوا يعتبرون.

ثم بيّن أسباب ما حل بهم من النقم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقون في الآخرة. وهو مبتدأ، خبره ﴿بِأَنَّهُۥ﴾؛ أي: بسبب أن الشأن ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الظاهرة، والباء إما للملابسة أو للتعدية. ﴿فَقَالُوٓا۟﴾: عطف على ﴿كَانَت﴾. ﴿أَبَشَرٌ﴾؛ أي: آدمي مثلنا ﴿يَهْدُونَنَا﴾؛ أي: يرشدوننا إلى الله. والاستفهام للإنكار؛ أي[3]: قال كل قوم من المذكورين في حق رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات، منكرين لكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك: أبشر وآدمي مثلنا يهدينا ويرشدنا إلى الدين أو إلى الله، والتقرب منه؟! كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾. أنكروا أن يكون الرسول بشراً، ولم ينكروا أن يكون المعبود حجراً! وقد أجمل في الحكاية فأسند

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

القول إلى جميع الأقوام، وأريد بالبشر الجنس فوصف بالجمع، كما أجمل الخطاب والأمر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وارتفاع ﴿بشر﴾ عى أنه فاعل فعل مضمر يفسره ما بعده، فيكون من باب الاشتغال، وهو أولى من جعله مبتدأ وما بعده خبراً؛ لأن أداة الاستفهام تطلب الفعل ظاهراً أو مضمراً.

﴿فَكَفَرُوا﴾؛ أي[1]: بالرسل بسبب هذا القول؛ لأنهم قالوه استصغاراً لهم، ولم يعلموا الحكمة في اختيار الرسل بشراً. ﴿وَتَوَلَّوا﴾؛ أي: أعرضوا عن التدبر فيما أتوا به من البينات، وعن الإيمان بهم. ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾؛ أي: أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم حيث أهلكهم وقطع دابرهم، ولولا غناه تعالى عنهما.. لما فعل ذلك. وقال سعدي المفتي: هو حال، بتقدير ﴿قد﴾ وهو بمعنى (غني) الثلاثي، وليس استفعل هنا للطلب. والمراد: كمال الغنى، إذ الطلب يلزمه الكمال. وقال مقاتل: ﴿استغنى الله﴾ بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه من المعجزات. وقيل: استغنى بسلطانه عن طاعة عباده.

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن العالمين فضلاً عن إيمانهم وطاعتهم، ﴿حَمِيدٌ﴾: يحمده كل مخلوق بلسان الحال ويدل على اتصافه بالصفات الكمالية أو يحمده أولياؤه وإن امتنع أعداؤه. والحمد: هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال. ومن عرف أنه الحميد في ذاته وصفاته وأفعاله.. شغله ذكره والثناء عليه.

والمعنى[2]: إن ما حل بهم من سوء العذاب كان من جراء تكذيبهم بالرسل بعد أن جاؤوهم بالأدلة الواضحة والمعجزات الباهرة. وقالوا: إن من العجب العجاب أن يكون هدينا على يدي بشر منا لا ميزة لهم عنا بعقل راجح ولا بسلطان يتملكون به قيادنا ويجعل لهم بسطة النفوذ علينا، كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾؟! وقد جهلوا أن النبوة رسالة يصطفى بها الله من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

وبعد أن طال عنادهم وتمادوا في غيّهم.. أهلكهم الله بسلطانه وجبروته وقطع دابرهم واستغنى عن إيمانهم، وهو الغني عن العالمين جميعاً، والغني عن إيمانهم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وطاعتهم، وهو الحقيق بالحمد على ما أنعم به على عباده من النعم المتظاهرة عليهم ظاهرة وباطنة.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ والزعم[1]: ادعاء العلم، فمعنى أزعمُ زيداً قائماً: أقول إنه كذا، ففي تصدير الجملة بقوله: أزعمُ، إشعار بأنه لا سند للحكم سوى ادعائه إياه وقوله به. ويتعدى إلى مفعولين تعدي العلم وقد قام هنا مقامهما ﴿أنْ﴾ المخففة مع ما في حيزها، فـ﴿إنْ﴾ مخففة لا ناصبة لئلا يدخل ناصب على مثله، والمراد بالموصول كفار مكة؛ أي: زعم كفار مكة وادعوا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم أبداً ولن يقاموا ويخرجوا من قبورهم. وعن شريح: لكل شيء كنية، وكنية الكذب زعموا. وقال بعض المخضرمين لابنه: هب لي من كلامك كلمتين: زعم وسوف، انتهى.

ويكره[2] للرجل أن يكثر لفظ الزعم وأمثاله، فإنه تحديث بكل ما سمع، وكفى بذلك كذباً، وإذا أراد أن يتكلم.. تكلم بما هو محقق، لا بما هو مشتبه. وبذلك يتخلص من أن يحدث بكلِّ ما سمع، فيكون معصوماً من الكذب.. كذا في «المقاصد الحسنة».

ثم أمر سبحانه رسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم ويبطل زعمهم فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد رداً لهم وإبطالاً لزعمهم بإثبات ما نفوه: ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: تبعثون. فإن ﴿بَلَىٰ﴾ لإيجاب النفي الذي قبله. ﴿وَرَبِّي﴾؛ أي: أقسمت لكم بربي ومالك أمري؛ أي: أقسمت لكم بربي: بلى تبعثون من قبوركم. وظاهر كلام «اللباب» أن يكون ﴿وَرَبِّي﴾ قسماً متعلقاً بما قبله قد تم الكلام عنده، وحسن الوقف عليه. ويجعل ﴿لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ جواب قسم آخر مقدر مستأنف لتأكيد الأول؛ أي: والله لتبعثن وتخرجن من قبوركم، ثم لتخبرن بما عملتم في الدنيا ثم تجازون عليه في الآخرة لا محالة. و﴿ثُمَّ﴾[3] لتراخي المدة لطول يوم القيامة، أو لتراخي الرتبة. ولعل فائدة الإخبار بالقسم مع أن المشركين ينكرون الرسالة كما ينكرون البعث إبطالٌ لزعمهم بالتشديد والتأكيد؛ ليتأثر من قدر الله له الإنصاف، وتتأكد الحجة على من لم يقدر له وكان محروماً بالكلية. قال بعضهم: ولعل حكمة اختيار لفظ الرب في القَسم

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

ههنا الإشارة إلى أن في البعث إظهار كمال الربوبية المفيدة لتمام المعرفة وإلى دوام التربية بالنعم الجسمانية الظاهرة والنعم الروحانية الباطنة. وقوله: ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ مع ما بعده جملة مستقلة داخلة تحت الأمر، واردة لتأكيد ما أفادته كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ من إثبات البعث، ولبيان تحقق أمر آخر متفرع عليه منوط به، ففيه تأكيد البعث بوجهين؛ أي: قل لهم: والله لتبعثن ثم لتخبرن بأعمالكم وتحاسبون عليها وتجزون بها. وأصل ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ لتبعثونن، حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال وواو الجماعة لالتقاء الساكنين، كما سيأتي بسطه في مباحث الصرف.

﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من البعث والجزاء ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿يَسِيرٌ﴾؛ أي: سهل لتحقق القدرة التامة وقَبول المادة. والمعنى؛ أي: ادعى المشركون أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، فقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾، وقالوا: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾. فأمر الله رسولَه بالرد عليهم وإبطال زعمهم بقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى...﴾ إلخ؛ أي: قل لهم: إن البعث كائن لا محالة وإنكم، وربي الذي برأ الخلق وأنشأهم من العدم، ستحاسبن على أعمالكم وتجزون على الكثير والقليل والنقير والقطمير، وذلك هين على الله يسير.

وبعد أن أبان لهم أدلة التوحيد والنبوة بما لا مجال معه للإنكار.. طالبهم بالإيمان بهما، فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ و﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر هكذا، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: يا أهل مكة صدقوا بالله الباعث من القبور المجازي على كل عمل ظاهر أو مستور، وبرسوله محمد - ﷺ - الذي أخبر عن شؤون الله تعالى وصفاته. ولم يقل: وباليوم الآخر على ما هو المناسب لقوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إلخ، اكتفاء بقوله: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ﴾ فإنه مشتمل على البعث والحساب. ا هـ. «شيخنا». ﴿و﴾ آمنوا بـ﴿النور الذي أنزلنا﴾ على رسولنا محمد - ﷺ -، وهو القرآن الهادي لكم إلى سواء السبيل إذا تراكمت ظلمات الشبهات، والمنقذ لكم من الضلالة إذا أحاطت بكم الخطيئات. سمي نوراً لأنه بإعجازه بين بنفسه أنه حق نازل من عند الله تعالى، مبين لغيره ومظهر للحلال والحرام، كما أن النور كذلك. والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية.

ثم توعدهم على ما يأتون وما يذرون، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الامتثال

بالأمر وعدمه ﴿خَبِيرٌ﴾ فمجازيكم عليه، فلا تخفى عليه أعمالكم، وسيحاسبكم على ما كسبت أيديكم من خير أو اكتسبت من شر، فراقبوه وخافوا شديد عقابه.

والظرف[1] في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ قاله النحاس. وقال غيره: العامل فيه ﴿خَبِيرٌ﴾. وقيل: العامل فيه محذوف، تقديره: اذكر. وقال أبو البقاء: العامل فيه ما دل عليه الكلام؛ أي: تتفاوتون يوم يجمعكم.

وقرأ الجمهور: ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ بفتح الياء وضم العين. وروي عن أبي عمرو إسكانها، ولا وجه لذلك إلا التخفيف وإن لم يكن هذا موضعاً له. وقرأ زيد بن علي، والشعبي، ويعقوب، ونصر، وابن أبي إسحاق، والجحدري ﴿نجمعكم﴾ بالنون.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ بمعنى في الظرفية، أو بمعنى اللام التعليلية؛ أي: واذكروا يوم يجمعكم الله سبحانه في يوم الجمع، وهو يوم القيامة، يجمع فيه الأولون والآخرون، من الجن والأنس، وأهل السماء وأهل الأرض. أو يجمع فيه الأولين والآخرين لأجل ما فيه من الحساب والجزاء.

﴿ذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾؛ أي[2]: يوم ظهور غبن كل كافر بترك الإيمان وغبن كل مؤمن بتقصيره في الطاعات. وفي الحديث: «ما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء؛ ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن، ليزداد حسرة». أو المعنى[3]: يوم يغبن فيه أهل الجنة أهل النار بأخذهم منازلهم التي كانت لهم في الجنة لو آمنوا، ويغبن فيه من ارتفعت منزلته في الجنة من كان دون منزلته، فيظهر في ذلك اليوم غبن كل كافر بتركه الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان. والتغابن: تفاعل، من الغبن، وهو: أن تخسر صاحبك في معاملة بينك وبينه، بضرب من الإخفاء والتدليس. والتغابن: أن يغبن بعضهم بعضاً، ويوم القيامة يوم غبن بعض الناس بعضاً، بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء، وبالعكس. وفيه تهكم؛ لأن نزول الأشقياء منازل السعداء من النار لو كانوا أشقياء ليس غبناً.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح. (٣) الواحدي.

وتخصيص[1] التغابن بذلك اليوم للإيذان بأن التغابن في الحقيقة هو التغابن فيما يتعلق بأمور الآخرة لا فيما يتعلق بأمور الدنيا. فـ اللام فيه للعهد الذي يشار به عند عدم المعهود الخارجي إلى الفرد الكامل؛ أي: ذلك يوم التغابن الكامل العظيم الذي لا تغابن فوقه.

والمعنى[2]: وتذكروا يوم يجمع الأولين والآخرين للحساب والجزاء في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر؛ لتجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم، إن الله سريع الحساب. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ فالكافرون قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فخسرت صفقتهم ولم يربحوا فيها، والمؤمنون باعوا أنفسهم بالجنة فربحت صفقتهم وما كانوا خاسرين.

والخلاصة: أنه لا غبن أعظم من أن قوماً ينعمون وقوماً يعذبون، وأن قوماً مغبونون في الدنيا أصبحوا في الآخرة غابنين لمن غبنوهم فيها.

ثم بيّن هذا التغابن وفصله بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بالصدق والإخلاص بحسب نور استعداده ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؛ أي: عملاً صالحاً بمقتضى إيمانه، فإن العمل إنما يكون بقدر الإيمان، وهو: أي العمل الصالح ـ ما يبتغى به وجه الله فرضاً أو نفلاً. ﴿يُكَفِّرْ﴾؛ أي: يغفر الله ويمح ﴿عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ يوم القيامة، فلا يفضحه بها. ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ بفضله وكرمه لا بالإيجاب ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين على حسب درجات أعماله ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت قصورها أو أشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة الجارية في الجنة، حال كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: في تلك الجنات. حال من الهاء في ﴿يدخله﴾. وَحَّدَ أولاً حملاً على لفظ ﴿من﴾ ثم جمع حملاً على معناه. ﴿أَبَدًا﴾ ظرف متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، وهو تأكيد للخلود. ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من تكفير السيئات وإدخال الجنات ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه؛ لانطوائه على النجاة من أعظم الهلكات، والظفر بأجل الطيبات، فيكون أعلى حالاً من الفوز الكبير، لأنه يكون بجلب المنافع، كما في سورة البروج.

وفي «فتح الرحمٰن»: قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ إلى قوله: ﴿أَبَدًا﴾

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ذكر مثل ما هنا في سورة الطلاق، لكن زاد هنا: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِۦ﴾؛ لأن ما هنا تقدمه ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ الآيات، وأخبر فيها عن الكفار سيئات تحتاج إلى تكفير، فناسب ذكر ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِۦ﴾ بخلاف ما في الطلاق لم يتقدمه شيء من ذلك.

وقرأ الجمهور ﴿يُكَفِّرْ﴾ ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ بالتحتية. وقرأ نافع، وابن عامر، والأعرج، وشيبة، وأبو جعفر وطلحة، والمفضل عن عاصم، وزيد بن علي، والحسن بخلاف عنه: ﴿نكفر﴾ و﴿ندخله﴾ بالنون فيهما.

والمعنى[1]: ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته وينته إلى أمره ونهيه.. يمح عنه ذنوبه ويدخله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار لابثين فيها أبداً، لا يموتون ولا يخرجون منها، وذلك هو الفوز الذي لا فوز بعده؛ لانطوائه على النجاة من أعظم المهالك وأجل المخاطر.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ تصريح بما علم التزاماً. والمراد بالآيات: إما القرآن أو المعجزات، فإن كلاً منهما آية لصدق الرسول. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ أي: أهل النار، إما بمعنى مصاحبوها لخلودهم فيها، أو مالكوها تنزيلاً لهم منزلة الملاك للتهكم. حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: أبداً، بقرينة المقابلة ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع. والمخصوص بالذم: النار، كأن هاتين الآيتين الكريمتين بيان لكيفية التغابن، وإنما قلنا: (كأن) لأن الواو يمانع الحمل على البيان كما عرف في فن المعاني، إذ لو كان للبيان.. لقال: من يؤمن بالله؛ أو فمن يؤمن بالله؛ أي: والذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا بأدلته وآي كتابه الذي أنزله على عبده محمد - ﷺ - أولئك أصحاب النار خالدين فيها أبداً، وبئس النار مصيراً لهم.

﴿مَا﴾ نافية[2] ولذا زاد ﴿مِن﴾ المؤكدة. ﴿أَصَابَ﴾ الخلق ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾ وبلية وشدة من المصائب الدنيوية في الأبدان والأولاد والأموال ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى. استثناء مفرغ منصوب المحل على الحال؛ أي: ما أصابت مصيبة متلبسة بشيء من الأشياء إلا حالة كونها متلبسة بإذن الله تعالى؛ أي: بتقديره وإرادته كأنها

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بذاتها متوجهة إلى الإنسان متوقفة على إذنه تعالى أن تصيبه.

وهذا لا يعارض قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾؛ أي: بسبب معاصيكم، ويتجاوز عن كثير منها ولا يعاقب عليها. أما أولاً: فلأن هذا القول في حق المجرمين، فكم من مصيبة تصيب من أصابته لأمر آخر من كثرة الأجر للصبر وتكفير السيئات لتوفية الأجر، إلى غير ذلك، وما أصاب المؤمنين فمن هذا القبيل. وأما ثانياً: فلأن ما أصاب من ساء بسوء فعله فهو لم يصب إلا بإذن الله وإرادته أيضاً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إيجاداً وإيصالاً، فسبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

والمعنى: أي ما أصاب كل أحد مصيبة من المصائب إلا بإذن الله تعالى؛ أي: بقضائه وقدره. قال الفراء: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمر الله. وقيل: إلا بعلم الله.

قيل: سبب نزولها: أن الكفار قالوا[1]: لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في أموالهم وأبدانهم في الدنيا. فبين الله سبحانه أن ذلك إنما يصيبهم بتقديره ومشيئته، وفي إصابتها حكمة لا يعرفها إلا هو:

منها: تحصيل اليقين بأن ليس شيء من الأمر في أيديهم، فيبرؤون بذلك من حولهم وقوتهم إلى حول الله وقوته.

ومنها: ما سبق آنفاً من تكفير ذنوبهم وتكثير مثوباتهم بالصبر عليها والرضا بقضاء الله تعالى إلى غير ذلك.

ولو لم يصب الأنبياء والأولياء محن الدنيا وما يطرأ على الأجسام من الآلام والأوجاع.. لافتتن الخلق بما ظهر على أيديهم من المعجزات والكرامات.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: يصدق به، ويعلم أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله. والاكتفاء بالإيمان بالله لأنه الأصل ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾؛ أي: يوفق قلبه عند إصابتها للثبات والاسترجاع، فيثبت ولا يضطرب بأن يقول قولاً ويظهر وصفاً يدل على التضجر من قضاء الله وعدم الرضا به، ويسترجع ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. ومن عرف

---

(١) روح البيان.

الله واعتقد أنه رب العالمين.. يرضى بقضائه ويصبر على بلائه، فإن التربية كما تكون بما يلائم الطبع تكون بما يتنفّر عنه الطبع. وقيل: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾؛ أي: يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأ لم يكن ليصيبه، فيرضى بقضائه ويسلم لحكمه. وقيل: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾؛ أي: يلطف به ويشرحه لازدياد الطاعة والخير.

وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلت: كيف قال ذلك مع أن الهداية سابقة على الإيمان؟

قلت: ليس المراد يهد قلبه للإيمان، بل المراد: يهد لليقين عند نزول المصائب، فيعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه. أويهد للرضى والتسليم عند وجود المصائب، أو للاسترجاع عند نزولها؛ بأن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.. انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَهْدِ﴾ بفتح الياء وكسر الدال، مضارعاً لهدى، مجزوماً على جواب الشرط؛ أي: يهده الله. وقرأ قتادة، والسلمي، والضحاك، وأبو جعفر، وأبو عبد الرحمٰن: ﴿يُهْدَ﴾ بضم الياء وفتح الدال مبنياً للمفعول، ﴿قَلْبُه﴾ بالرفع، وقرأ ابن جبير، وطلحة بن مصرف، وابن هرمز، والأزرق عن حمزة: ﴿نَهْدِ قَلْبَه﴾ بالنصب. وقرأ عكرمة، وعمرو بن دينار، ومالك بن دينار: ﴿يَهدأ﴾ بهمزة ساكنة، ﴿قَلْبُه﴾ بالرفع؛ أي: يطمئن قلبه ويسكن بإيمانه ولا يكون فيه اضطراب. وقرأ عمرو بن فائد: ﴿يَهْدَا﴾ بألف بدلاً من الهمزة الساكنة. وقرأ عكرمة، ومالك بن دينار أيضاً: ﴿يَهْدَ﴾ بحذف الألف بعد إبدالها من الهمزة الساكنة، وإبدال الهمزة ألفاً في مثل: يهدأ، ويقرأ ليس بقياس، خلافاً لمن أجاز ذلك قياساً، وبني عليه جواز حذف تلك الألف للجازم تشبيهاً بألف يخشى إذا دخل الجازم عليه. وقرىء: ﴿يَهِدَّ﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، ورفع ﴿قلبُه﴾ أيضاً بمعنى: يهتد، كقوله تعالى: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾. فجملة القراءات في ﴿يَهْدِ﴾ سبع، المختار منها قراءة الجمهور.

---

(١) البحر المحيط.

وقال أبو بكر الوراق: ومن يؤمن بالله عند الشدة والبلاء فيعلم أنها من عدل الله.. يهد قلبه إلى حقائق الرضى وزوائد اليقين. وقال أبو عثمان: ومن صحح إيمانه بالله.. يهد قلبه لاتباع سنن نبيه - ﷺ -. وعلامة صحة الإيمان: المداومة على السنن وملازمة الاتباع وترك الأهواء والآراء المضلة.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها: القلوب وأحوالها، كتسليم من انْقاد لأمره وكراهة من كرهه، وكآفاتها من العجب والريا مثلاً وخلوصها. ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية من ذلك، فيعلم إيمان المؤمن وخلوصه ويهد قلبه إلى ما ذُكر.

والمعنى: والله عليم بالأشياء كلها، فهو عليم بالقلوب وأحوالها ومطلع على سرها ونجواها، فاحذروه وراقبوه في السرّ والعلن، كما جاء في الأثر: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى إطاعة العبد لمولاه فيما يأمره وينهاه. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ محمداً - ﷺ - إطاعة الأمة لنبيها فيما يؤديه عن الله؛ أي: هونوا المصائب على أنفسكم ولا تشغلنكم عن الاشتغال بطاعته والعمل بكتابه، وعن الاشتغال بطاعة الرسول واتباع سننه، وليكن جل همتكم في السراء والضراء العمل بما شرع لكم.

وكرر[1] الأمر بالإطاعة للتأكيد والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية وتوضيح مورد التولي في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾؛ أي: أعرضتم عن إطاعة الرسول ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ محمد - ﷺ - ﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ أي: التبليغ البيّن. والجملة الاسمية تعليل للجواب المحذوف؛ أي: فإن توليتم.. فلا بأس ولا مؤاخذة عليه بإعراضكم إذ ما عليه إلا التبليغ المبين، وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه، وإظهار الرسول مضافاً إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه - ﷺ - والإشعار بمدار الحلم الذي هو كون وظيفته - ﷺ - محض البلاغ لاالإجبار على الإيمان، ولزيادة تشنيع التولي عنه.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: وأطيعوا الله فيما شرع، وأطيعوا رسوله فيما بلغ، وافعلوا ما به أمر، واتركوا ما عنه نهى، وزجر، فإن أعرضتم عن ذلك.. فإنما عليه أداء ما حمل من الرسالة، وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة، وهو قد أدى ما عليه ولا يكلف شيئاً بعد ذلك.

ثم أرشد إلى التوحيد والتوكل، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، مبتدأ خبره جملة قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه؛ أي: الله سبحانه هو المستحق للمعبودية لا غيره، وهو القادر على الهداية والضلالة، لا شريك له في الإرشاد والإضلال، وليس بيد الرسول شيء من ذلك. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى خاصة دون غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في تثبيت قلوبهم على الإيمان والصبر على المصائب.

والمعنى: وحدوا الله، وأخلصوا له العمل، وتوكلوا عليه. والآية كالخاتمة والفذلكة لما تقدم. وإظهار[1] الجلالة في موضع الإضمار للإشعار بعلية التوكل، والأمر به، فإن الألوهية مقتضية للتبتل إليه تعالى بالكلية وقطع التعلق عما سواه بالمرة. وفي الآية حث لرسول الله - ﷺ - وللمؤمنين على الثبات على التوكل والازدياد فيه حتى ينصرهم على المكذبين وعلى من تولى عن الطاعة وقَبول أحكام الدين.

واعلم: أن التوكل من المقامات العالية، وهو إظهار العجز وترك الاعتماد على الغير. وفي «الحدائق»: التوكل هو: الثقة بما عند الله، واليأس مما في أيدي الناس. وظاهر الأمر وجوب التوكل مع أنه غير موجود في أكثر الناس، فيلزم أن يكونوا عاصين. ولعل المأمور به هو التوكل العقلي، وهو: أن يعتقد العبد أنه ما من مراد من مراداته الدنيوية والأخروية إلا وهو يحصل من الله، فيثق به في حصوله ويرجو منه، وإن كانت النفس تلتفت إلى الغير وتتوقع منه، نظراً إلى اعتقاد سببيته والله مسبب الأسباب. وأما التوكل الطبيعي الذي لا يكون ثقة صاحبه طبعاً إلا بالله وحده، ولا اعتماده إلا عليه في جميع مقاصده مع قطع النظر عن الأغيار كلها رأساً.. فهو عسير، قلما يوجد إلا في الأنبياء والكمل من الأولياء.

---

(١) روح البيان.

ولما قال تعالى[1]: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله حذر مما يلحق الرجل من امرأته وولده بسبب ما يصدر من بعضهم من العداوة.. ولا أعدى على الرجل من زوجته وولده إذا كانا عدوين. وذلك في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا.. فبإذهاب ماله وعرضه، وأما في الآخرة: فبما يسعى في اكتسابه من الحرام لهما، وبما يكسبانه منه بسبب جاهه. وكم من امرأة قتلت زوجها وأفسدت عقله، وكم من ولد قتل أباه، وفي التواريخ وفيما شاهدناه من ذلك كثير.. فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ إيماناً خالصاً ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ جمع زوج يعم الحليل والحليلة، كما سيأتي عن «اللباب». لكن المراد هنا: الزوجة، بقرينة سبب النزول كما مر. ﴿وَأَوْلَـٰدِكُمْ﴾ جمع ولد يعم الابن والبنت ﴿عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يشغلونكم عن طاعة الله تعالى، وإن لم يكن لهم عداوة ظاهرة، فإن العدو لا يكون عدواً بذاته وإنما يكون عدواً بفعله. فإذا فعل الزوج والولد فِعل العدو.. كان عدواً، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد والطاعة، ويدخل في ذلك سبب النزول دخولاً أولياً، وهو: أن رجالاً من مكة أسلموا وأرادوا أن يهاجروا فلم يدعهم أزواجهم ولا أولادهم، فأمر الله سبحانه بأن يحذروهم فلا يطيعوهم في شيء مما يريدونه منهم مما فيه مخالفة لما يريده الله تعالى، أو يخاصمونكم[2] في أمور الدين أو الدنيا، وأشد المكر ما يكون في الدين، فإن ضرره أشد من ضرر ما يكون في الدنيا. وجاء في الخبر: «ليس عدوك الذي لقيته فقتلته وآجرك الله على قتله، ولكن أعدى عدوك: نفسك التي بين جنبيك، وامرأتك التي تضاجعك على فراشك، وولدك من صلبك». وقدم الأزواج على الأولاد؛ لأنها مصادر الأولاد ولكونها محل الشهوات وألصق بقلوب الناس وأشد إشغالاً لهم عن العبودية، ولذا قدمها الله سبحانه في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وفي «اللباب»: إن قوله: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ يدخل فيه الذَّكر، فكما أن الرجل تكون زوجته وولده عدواً له.. كذلك المرأة يكون زوجها عدواً لها بهذا المعنى، فيكون الخطاب هنا عاماً على التغليب، ويحتمل أن يكون الدخول باعتبار الحكم لا باعتبار الخطاب. انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وأفادت ﴿مِنْ﴾ التبعيضية في قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ إلخ، أن منها ما ليس بعدُ، كما قال النبي ـ ﷺ ـ: «الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»، وقال ـ ﷺ ـ: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها.. أطاعته، وإن نظر إليها.. سرته، وإن أقسم عليها.. أبرّته، وإن غاب عنها.. نصحته في نفسها وماله». فإذا كانت المرأة على هذه الأوصاف فهي ميمونة مباركة. وإلا.. فهي مشؤومة منحوسة.

والضمير في قوله[1]: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ يعود إلى العدو أو إلى الأزواج والأولاد لكن لا على العموم بل إلى المتصفين بالعداوة منهم، وإنما جاز جمع الضمير على الوجه الأول؛ لأن العدو يطلق على الواحد والاثنين والجماعة. والحذر[2] الاحتراز عن المخيف؛ أي: احفظوا أنفسكم من محبتهم وشدة التعلق والاحتجاب بهم، ولا تؤثروا حقوقهم على حقوق الله تعالى. وفي الحديث: «إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم أسخياءكم، وأمركم شورى بينكم ـ أي: ذا تشاور لا ينفرد أحد برأي دون صاحبه ـ فظهر الأرض خير لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأمركم إلى نسائكم.. فبطن الأرض خير لكم من ظهرها». وفي الحديث: «شاوروهن وخالفوهن»[3].

والمعنى[4]: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله! إن من أزواجكم وأولادكم أعداء لكم، يحولون بينكم وبين الطاعات التي تقربكم من ربكم والأعمال الصالحة التي تنفعكم في آخرتكم، وربما حملوكم على السعي في اكتساب الحرام واكتساب الآثام لمنفعة أنفسهم. وروي: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يأتي زمان على أمتي يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده، يعيرانه بالفقر، فيركب مراكب السوء فيهلك». ومن الناس من يحمله حبهم، والشفقة عليهم ليكونوا في عيش رغد في حياته وبعد مماته، فيرتكب المحظورات لتحصيل ما يكون سبباً لذلك، وإن لم يطالبوه، فيهلك.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) هذا ليس بحديث وربما كان أثراً عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. اهـ.

(٤) المراغي.

ومن المفسرين من حمل العداوة على العداوة الدنيوية، وقالوا: إن الزوجات والأولاد ربما آذوا أزواجهم وآباءهم، وجرعوهم الغصص والآلام، وربما جرّ ذلك إلى وضع السم في الدسم أو إلى قتلهم، وفي المشاهد أكبر عبرة لمن اعتبر.

والخلاصة[1]: أنه إما أن يراد بالعداوة العداوة الأخروية، فإن الأزواج والأولاد ربما أضرّوا بأزواجهم وآبائهم فيها إذا منعوهم عن عمل الخير لها، وإما أن يراد العداوة في الدنيا، فتكون عداوة حقيقية بينهم لها آثارها الدنيوية.

ثم أرشدهم إلى التجاوز عن بعض هناتهم فقال: ﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو؛ بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا أو بأمور الدين، لكن مقارنة للتوبة. ﴿وَتَصْفَحُواْ﴾؛ أي: تعرضوا عنها بترك التثريب والتعيير. يقال: صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه والتثريب عليه. ﴿وَتَغْفِرُواْ﴾ بإخفائها وتمهيد عذرها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: بليغ المغفرة والرحمة لكم ولهم، يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم.

قيل: كان رجل ثبطه أزواجه وأولاده عن الهجرة، لما رأى الناس قد سبقوه إليها وفقهوا في الدين.. هم أن يعاقب أزواجه وأولاده، فأنزل الله ﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾ الآية، والآية تعم وإن كان السبب خاصاً.

وحكي أن الحطيئة ـ شاعر مشهور ـ أراد سفراً، فقال لامرأته:

عُدِّي ٱلسِّنِيّنَ لِغَيْبَتِي وَتَصَبَّرِيْ ... وَذَرِي ٱلشُّهُورَ فَإِنَّهُنَّ قِصَارُ

فأجابته:

وَٱذْكُرْ صَبَابَتَنَا إِلَيْكَ وَشَوْقَنَا ... وَٱرْحَمْ بَنَاتِكَ إِنَّهُنَّ صِغَارُ

والمعنى: أي وإن تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها بترك المعاقبة، وتصفحوا بالإعراض عنها وترك التثريب عليها، وتغفروا بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها.. فهو خير لكم، فإن الله رحيم بكم وبهم، ويعاملكم بمثل ما عاملتم ويتفضل عليكم.

ثم أخبر سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: بلاء واختبار ومحنة، يحملونكم على كسب الحرام ومنع حق الله، فلا تطيعوهم في معصية الله.

---

(١) المراغي.

والمعنى: إنما حبكم لأموالكم وأولادكم ابتلاء واختبار، إذ كثيراً ما يترتب على ذلك الوقوع في الآثام وارتكاب كبير المحظورات. وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

أخرج أحمد، والطبراني، والحاكم، والترمذي عن كعب بن عياض قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال». ولم يذكر ﴿مِنْ﴾ في ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما. وترك ذكر الأزواج في الفتنة ـ قال البقاعي ـ: لأن منهن من يكن صلاحاً وعوناً على الآخرة.

وجيء[1] بـ﴿إِنَّمَآ﴾ للحصر؛ لأن جميع الأموال والأولاد فتنة؛ لأنه لا يرجع إلى مال أو ولد إلا وهو مشتمل على فتنة واشتغال قلب. وتأخير الأولاد من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى؛ لأن الأولاد ألصق بالقلوب من الأموال لكونهم من أجزاء الآباء بخلاف الأموال؛ فإنها من توابع الوجود وملحقاته.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن آثر محبته وطاعته على محبة الأموال والأولاد والتدبير في مصالحهم وعلى طاعتهم، فلا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد، ولا تؤاثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم، زهدهم في الدنيا بذكر عيبها، ورغبهم في الآخرة بذكر نعيمها.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لا يقولن أحدكم: اللهم اعصمني من الفتنة، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وولد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن ليقل: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن.

روي: أن أول ما يتعلق بالرجل يوم القيامة أهله وأولاده، فيوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون: يا ربنا! خذ بحقنا منه، فإنه ما علمنا ما نجهل، وكان يطعمنا الحرام، ونحن لا نعلم، فيقضى لهم منه، وتأخذ عياله حسناته، فلا يبقى له حسنة.

وعن بعض السلف: العيال سوس الطاعات وهو: دود يقع في الطعام والثوب

---

(١) روح البيان.

وغيرهما. ومن ثم ترك كثير من السلف المال، والأهل رأساً، وأعرضوا عنها بالكلية؛ لأن كل شيء يشغل عن الله فهو مشؤوم على صاحبه.

ثم أمرهم سبحانه بالتقوى والطاعة، فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾؛ أي: ما أطقتم وبلغ إليه جهدكم؛ أي: ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم، و﴿الفاء﴾ فيه للإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا علمتم ما ذكرت لكم وانتصحتم به.. فأقول لكم: اتقوا ما يكون سبباً لمؤاخذة الله إياكم من تدبير أمورهما، ولا ترتكبوا ما يخالف أمره تعالى من فعل أو ترك. وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ لما اشتد عليهم بأن قاموا حتى ورمت أقدامهم وتقرحت جباههم، فنزلت تيسيراً لعباد الله. وممن قال بالنسخ: قتادة، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد. وعن ابن عباس: أنها آية محكمة لا ناسخ فيها. ولعله - رضي الله عنه - جمع بين الآيتين بأن يقول هنا وهنالك: فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم، واجتهدوا في الإنصاف به بقدر طاقتكم، فإنه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والمعنى: ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم. إذا أمرتكم بأمر.. فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه.

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ مواعظه ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامره ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ مما رزقكم في الوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها خالصاً لوجهه. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن المراد إنفاق الزكاة، والظاهر(١) العموم، وهو مندرج في الإطاعة. ولعل إفراده بالذكر لِما أن الاحتياج إليه كان أشد حينئذٍ، وأن المال شقيق الروح ومحبوب النفس، ومن ذلك قدم الأموال على الأولاد في جميع المواضع. وقال مقاتل: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾؛ أي: أصغوا إلى ما ينزل عليكم. ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ لرسوله فيما يأمركم وينهاكم. وقيل: معنى ﴿اسمعوا﴾ اقبلوا ما تسمعون؛ لأنه لا فائدة في مجرد السماع. ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ من أموالكم التي رزقكم الله إياها في وجوه الخير ولا تبخلوا بها. ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ خبر لـ﴿يكن﴾ المقدر جواباً للأوامر المذكورة؛ أي: يكن ما ذُكر من السمع والطاعة، والإنفاق خيراً لأنفسكم. أو مفعول لفعل محذوف؛ أي: ائتوا وافعلوا

---

(١) روح البيان.

خيراً لأنفسكم واقصدوا ما هو أنفع لها. وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر، وبيان لكون الأمور المذكورة خيراً لأنفسهم من الأموال والأولاد، وما هم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا.

والمعنى: ﴿وَٱسْمَعُواْ..﴾ إلخ؛ أي: كونوا منقادين لما يأمركم الله ورسوله به، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا ترتكبوا ما نهيتم عنه، وابذلوا مما رزقكم الله على الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وفي الوجوه التي يكون فيها صلاح الأمة والملة وسعادة الدين والدنيا، يكن ذلك خيراً لأنفسكم من الأموال والأولاد. وهذا حث على البذل، وبيان أن الامتثال خير لا محالة.

ثم زاد في الحث على الإنفاق، فقال: ﴿وَمَن يُوقَ﴾ ويعصم ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: بُخْلَ نفسه عن الإنفاق؛ أي: ومن يقه الله سبحانه ويعصمه من بخل نفسه الذي هو الرذيلة المعجونة في طينه النفس. وهو مضارع مجهول مجزوم الآخر بـ﴿من﴾ الشرطية من الوقاية المتعدية إلى مفعولين. و﴿شُحَّ﴾ مفعول ثان له باق على النصب والأول: الضمير القائم مقام الفاعل. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموقون شح النفس ﴿هُمُ﴾ لا غيرهم ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزون بكل خير.

والمعنى[(١)]: ومن يبتعد عن البخل والحرص على المال.. يكن من الفائزين بكل ما يرجو ونيل كل ما يبغي في دينه ودنياه، فيكون محبباً إلى الناس قرير العين برضاهم عنه وحنوهم عليه، سعيداً في الآخرة بالقرب من ربه ومحبته ورضوانه ودخول جنانه.

ثم بالغ في الحث على الإنفاق أيضاً، فقال: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى بصرف أموالكم إلى المصارف التي عينها. وذِكرُ القرض تلطفٌ في الاستدعاء. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ أي[(٢)]: قرضاً مقروناً بالإخلاص وطيب النفس. والقرض في العرف: أن يعطي أحداً شيئاً من ماله ليرد بدله، وإقراض الله مثل لتقديم العمل الذي يطلب ثوابه من الله. و﴿قَرْضًا﴾ إن كان بمعنى إقراضاً.. كان نصبه على المصدرية وإن كان بمعنى مقرضاً من النفقة.. كان مفعولاً ثانياً لـ﴿تُقْرِضُواْ﴾ لأن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الإقراض يتعدى إلى مفعولين، ففي التعبير عن الإنفاق بالإقراض وجعله متعلقاً بالله الغني مطلقاً، والتعبير عن النفقة بالقرض إشارة إلى حسن قَبول الله ورضاه، وإلى عدم الضياع، وبشارة باستحقاق المنفق ببركة إنفاقه لتمام الاستحقاق. ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ من المضاعفة، بمعنى التضعيف؛ أي: التكثير، فليس المفاعلة هنا للاشتراك؛ أي: إن تصرفوا أموالكم في سبيل الله ووجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس.. يجعل لكم أجره مضاعفاً، ويكتب بالواحد عشرة، أو سبعين، أو سبع مئة، أو أكثر بمقتضى مشيئته على حسب النيات والأوقات والمحال. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ببركة الإنفاق ما فرط منكم من بعض الذنوب؛ أي: يضم لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم.

ثم بيّن علة المضاعفة ورغب في النفقة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿شَكُورٌ﴾ يعطي الكثير بمقابلة اليسير من الطاعة، أو يجازي العبد على الشكر. وهو الاعتراف بالنعمة على سبيل الخضوع، فسمى جزاء الشكر شكراً، أو الله شكور، بمعنى: أنه كثير الثناء على عبده، بذكر أفعاله الحسنة وطاعته، فالشكر: الثناء على المحسن بذِكر إحسانه. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم بالبخل والإمساك ونحوهما، فيحلم حتى يظن الجاهل أنه ليس يعلم، ويستر حتى يتوهم الغافل أنه ليس يبصر. قال الإمام الغزالي رحمه الله: الحليم: هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر، ثم لا يتسفزه غضب ولا يعتريه غيظة، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام ـ مع غاية الاقتدار ـ عجلةٌ وطيش، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

ثم ذكر ما يزيد في الترغيب في النفقة أيضاً، فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ خبر بعد خبر؛ أي: عالم ما غاب عنا وما شوهد لنا، لا تخفى عليه من خافية. وقد سبق الكلام عليه في أواخر سورة الحشر. ولعل تقديم الغيب على الشهادة، لأن عالمَ الغيب أعمّ والعِلم به أتم. وهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب القاهر الذي لا يغالب، ولا يمانع من تنفيذ مراده. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أي: ذو الحكمة البالغة في تدبير أمور خلقه.

والمعنى: هو العليم بما غاب عنكم وبما تشهدونه، فكل ما تعملون فهو محفوظ لديه في أمّ الكتاب، لا يعزب عنه مثقال ذرة، وسيثيبكم عليه ويجازيكم به أحسن الجزاء، وهو ذو العزّة والقدرة، النافذ الإرادة، الحكيم في تدبير خلقه على

ما يعلم من المصلحة.

الإعراب

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُ﴾ فعل مضارع، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق به، أو (اللام) زائدة في المفعول، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ(ما) الموصولة، ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب حال من لفظ الجلالة في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾. ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾: معطوف على ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر ﴿هو﴾. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، وجملة ﴿خَلَقَكُمۡ﴾ صلة الموصول. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَمِنكُمۡ﴾: (الفاء): عاطفة، (منكم) خبر مقدم، و﴿كَافِرٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة، أعني، ﴿خَلَقَكُمۡ﴾، أو على الجملة الاسمية، أعني قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ...﴾ إلخ ظاهر تقديرهم أنه معطوف على الصلة، ولا يضره عدم العائد؛ لأن المعطوف بالفاء يكفيه وجود العائد في إحدى الجملتين. أو تقول: هي معطوفة على جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِي...﴾ إلخ. اهـ «شهاب». قال الخطيب: والتقدير: هو الذي خلقكم ثم وصفكم فقال: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾. وقوله: ﴿وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾: معطوف على قوله: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ صلة لـ(ما)، و﴿بَصِيرٌ﴾: خبر عن الجلالة. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾: معطوف على

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾ أو من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، و(الباء): للملابسة. ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾: معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، ﴿فَأَحْسَنَ﴾: (الفاء): عاطفة، (أحسن صوركم) فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿صوَّركم﴾ عطفاً تفسيرياً، ﴿وَإِلَيْهِ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على قوله: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿الله﴾، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وجملة ﴿تُسِرُّونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾: معطوف على ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ متعلق بـ﴿عَلِيمٌۢ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ ﴿١﴾﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري التوبيخي، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَأْتِكُمْ﴾: فعل ومفعول به مجزوم بـ(لم)، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ﴿نَبَؤُا۟﴾: فاعل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ﴿كَفَرُوا۟﴾، أو حال من فاعل ﴿كَفَرُوا۟﴾. ﴿فَذَاقُوا۟﴾: (الفاء): عاطفة، (ذاقوا) فعل، وفاعل معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾، ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿ذاقوا﴾ عطف تفسير.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُۥ﴾: خبر، والجملة مستأنفة؛ أي: ذلك كائن بسبب أنه كانت... إلخ. ﴿أنه﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَت﴾: فعل ناقص واسمها ضمير يعود

على ﴿الرسل﴾، ﴿تَّأۡتِيهِمۡ﴾: فعل مضارع ومفعول به ﴿رُسُلُهُم﴾: فاعل ﴿تَّأۡتِيهِمۡ﴾، ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿تَّأۡتِيهِمۡ﴾، وجملة ﴿تَّأۡتِيهِمۡ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر (أنّ)، وجملة (أن) في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب إتيان رسلهم إياهم، بالبينات ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾. ﴿فَقَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَانَت﴾، ﴿أَبَشَرٞ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري، (بشر) مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة دخول الاستفهام عليه، وجوزوا أن يكون مرفوعاً على الفاعلية بفعل محذوف يفسره ما بعده، فتكون المسألة من باب الاشتغال، والتقدير: أيهدينا بشر؟ وجملة ﴿يَهۡدُونَنَا﴾ في محل الرفع خبر على الوجه الأول، ولا محل لها من الإعراب على الوجه الثاني؛ لأنها مفسرة. وجملة الاستفهام في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿فَكَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قالوا﴾، ﴿وَتَوَلَّواْۚ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كفروا﴾، ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تولوا﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿غَنِيٌّ﴾: خبر أول، ﴿حَمِيدٞ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، وجملة ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ صلة الموصول ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: أنه. ﴿لَّن﴾: حرف نصب، ﴿يُبۡعَثُواْۚ﴾: فعل ونائب فاعل منصوب بـ﴿لن﴾، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿زَعَمَ﴾؛ أي: زعم الذين كفروا عدم بعثهم من القبور. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد - ﷺ -، والجملة مستأنفة. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات النفي، قائم مقام الجواب، تقديره: قل: بلى تبعثون، وجملة الجواب المحذوف في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿وَرَبِّي﴾: (الواو): حرف جرّوقسم، (ربي): مجرور بواو القسم، ومضاف إلى الياء، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً، تقديره: أقسم بربي. ﴿لَتُبۡعَثُنَّ﴾: (اللام): موطئة للقسم، (تبعثن)؛ فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، نائب فاعل. والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة

القسم في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، (اللام): موطئة للقسم، (تنبؤن): فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع بثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، و﴿الواو﴾: نائب فاعل، والجملة معطوفة على (تبعثن)، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ(تنبؤن)، وجملة ﴿عَمِلْتُمْ﴾ صلة الموصول، ﴿وَذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَسِيرٌ﴾، و﴿يَسِيرٌ﴾: خبر (ذلك)، والجملة مستأنفة.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٨﴾.

﴿فَـَٔامِنُواْ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كذلك وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: آمنوا. ﴿آمنوا﴾: فعل أمر، وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ(آمنوا)، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱلنُّورِ﴾: معطوف على الجلالة أيضاً، ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة لـ﴿النور﴾، وجملة ﴿أَنزَلْنَاۚ﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: والنور الذي أنزلناه. و﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾، و﴿خَبِيرٌ﴾: خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٩﴾.

﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾، أو بمحذوف دل عليه سياق الكلام؛ أي: تتفاوتون يوم يجمعكم. أو مفعول به لفعل محذوف تقديره: اذكروا يوم. وجملة ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ﴾: متعلق بـ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: (الواو): استئنافية، (مَنْ) اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يُؤْمِنۢ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يُؤْمِنۢ﴾، ﴿وَيَعْمَلْ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُؤْمِنۢ﴾، ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، أو نعت لمصدر محذوف؛ أي: عملاً صالحاً. ﴿يُكَفِّرْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق بـ﴿يُكَفِّرْ﴾، ﴿سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾: مفعول به،

وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿يُكَفِّرْ﴾، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ثان على السعة، ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل والجملة نعت لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿يدخله﴾. وجمعه نظراً لمعنى (من). ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿أَبَدًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: خبره، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْفَوْزُ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾: معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: متعلق بـ﴿كذبوا﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: خبره، والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره خبر عن الأول، وجملة الأول معطوفة على ما قبلها. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من أصحاب النار، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: (الواو) استئنافية، ﴿بئس المصير﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: هي؛ أي: النار.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَصَابَ﴾: فعل ماض، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿مُّصِيبَةٍ﴾: فاعل، ومفعول أصاب محذوف، تقديره: ما أصابت مصيبة أحداً من الناس. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أَصَابَ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة للرد على الكفار الذين قالوا: لو كان المسلمون على حق لصانهم الله من المصائب في الدنيا. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يُؤْمِنۢ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنۢ﴾، ﴿يَهْدِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿قَلْبَهُۥ﴾: مفعول به، والجملة الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَآ أَصَابَ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، و﴿عَلِيمٌ﴾: خبر عن الجلالة،

والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَأَطِيعُوا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿أطيعوا الله﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة الشرط، أو مستأنفة. ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ما قبله. ﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف تقديره: فلا بأس على رسولنا. وجملة الشرط مع جوابه مستأنفة، ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إنما﴾: أداة حصر، ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾: خبر مقدم، ﴿الْبَلَاغُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿الْمُبِينُ﴾: صفة للبلاغ، والجملة الاسمية جملة تعليلية للجواب المحذوف، لا محل لها من الإعراب.

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة، وقد تقدم لك إعراب الكلمة المشرفة في غير ما موضع. ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾: (الواو): زائدة، ﴿على اللّه﴾ متعلق بـ﴿يتوكل﴾، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾: (الفاء): عاطفة، و﴿اللام﴾: لام الأمر، ﴿يتوكل﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾: فاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. ﴿يَا أَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، والجملة مستأنفة، ﴿الَّذِينَ﴾: بدل من ﴿أيُّ﴾، وجملة ﴿آمَنُوا﴾ صلة الموصول، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَأَوْلَادِكُمْ﴾: معطوف على ﴿أَزْوَاجِكُمْ﴾، ﴿عَدُوًّا﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، ﴿لَّكُمْ﴾: صفة لـ﴿عَدُوًّا﴾ أو متعلق به، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ذلك وأردتم بيان اللازم لكم.. فأقول لكم: احذروهم. ﴿احذروا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و﴿الهاء﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة

مستأنفة. ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿تَعْفُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف النون، و﴿الواو﴾ فاعل. ﴿وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾: معطوفان على ﴿تَعْفُوا﴾، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: خبران له، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦)﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿أَمْوَالُكُمْ﴾: مبتدأ أول، ﴿وَأَوْلَادُكُمْ﴾ معطوفة. ﴿فِتْنَةٌ﴾: خبر ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ﴾: خبر مقدم، ﴿أَجْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿أَجْرٌ﴾، والجملة في محل الرفع خبر عن الجلالة، وجملة الجلالة مستأنفة. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، وتقديره: إذا علمتم أنه تعالى جعل أموالكم وأولادكم فتنة لكم شاغلة عن الآخرة، وأردتم بيان النصيحة لكم.. فأقول لكم: اتقوا الله. ﴿اتقوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ولفظ الجلالة مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ﴿مَا﴾: مصدرية ﴿اسْتَطَعْتُمْ﴾: فعل، وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، وجملة ﴿ما﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: فاتقوا الله استطاعتكم وجهدكم، ولكنه على تقدير مضاف. أي: بقدر استطاعتكم. ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا﴾: معطوفات على ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ﴿خَيْرًا﴾: خبر لـ﴿يكن﴾ المحذوفة، المجزوم بالطلب السابق، تقديره: يكن ذلك الإنفاق خيراً لأنفسكم، كما قاله أبو عبيد أو مفعول به لفعل محذوف تقديره: وأتوا خيراً لأنفسكم. كقوله: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ كما قاله سيبويه. أو نعت لمصدر محذوف؛ أي: إنفاقاً خيراً، كما قاله الكسائي والفراء. أو منصوب على الحال، كما قاله الكوفيون. أو منصوب بأنفقوا؛ أي: أنفقوا مالاً خيراً، وقوله: ﴿لِّأَنفُسِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾. ﴿وَمَن يُوقَ﴾:

﴿الواو﴾: استئنافية ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يُوقَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿شُحَّ﴾: مفعول به ثان لـ﴿يُوقَ﴾، ﴿نَفْسِهِۦ﴾: مضاف إليه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط وجوباً، ﴿أولئك﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، أو مبتدأ ثان، ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: خبر المبتدأ، أو خبر لـ﴿هم﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إن﴾: حرف شرط ﴿تُقْرِضُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به، ﴿قَرْضًا﴾: مفعول مطلق، ﴿حَسَنًا﴾: صفة ﴿قَرْضًا﴾، ﴿يُضَٰعِفْهُ﴾: فعل مضارع، ومفعول به مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يضاعف﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَيَغْفِرْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يضاعف﴾: مجزوم على أنه جواب الشرط، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الله﴾: مبتدأ، ﴿شَكُورٌ﴾: خبر أول، ﴿حَلِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو عالم الغيب، و﴿ٱلْغَيْبِ﴾: مضاف إليه، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: معطوف عليه، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها أيضاً، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر ثان لذلك المحذوف، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثالث له. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ والملك ـ بضم الميم ـ هو: الاستيلاء والتمكن من التصرف في كل شيء على حسب ما أراده في الأزل. قال الرازي: المُلك: تمام القدرة واستحكامها، يقال: ملِك بين المُلك بالضم، ومالك بين المِلك بالكسر. ﴿هُوَ ٱلَّذِى

﴿خَلَقَكُمْ﴾؛ أي: قدر خلقكم في الأزل. وكذا قوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾؛ أي: مقضي بكفره وإيمانه أزلاً. ﴿بِالْحَقِّ﴾: الباء للملابسة؛ أي: خلقاً متلبساً بالحق؛ أي: بالحكمة البالغة. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ أصله: تسررون، بوزن تفعلون، نقلت حركة الراء الأولى إلى السين فسكنت فأدغمت في الثانية. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ هذا الاستفهام للتعجيب من حالهم. والنبأ: الخبر الهام. ﴿فَذَاقُوا﴾ أصله: ذوقوا، بوزن فعلوا، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. والذوق وإن كان معروفاً في القليل فهو مستعمل في الكثير أيضاً. ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: عقوبة كفرهم. والوبال: الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور. والوبل والوابل: المطر الثقيل القطار، مقابل الطل، وهو: المطر الخفيف، ومنه: الوبيل، للطعام الثقيل على المعدة. و﴿أمرهم﴾: كفرهم، فهو واحد الأمور، عبر عنه بذلك للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة. ﴿يَهْدُونَنَا﴾ أصله: يهديوننا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما حذفت التقى ساكنان فحذفت لذلك، وضمت الدال لمناسبة الواو. ﴿وَتَوَلَّوا﴾ أصله: توليوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾؛ أي: أظهر غناه عنهم إذ أهلكهم وقطع دابرهم. وأصله: استغنى بوزن استفعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والزعم: ادعاء العلم بالشيء، وأكثر ما يستعمل للادعاء الباطل، فمعنى زعم فلان كذا: ادعي علمه بحصوله، فمعنى زعمت زيداً قائماً: أقول إنه كذا. ففي تصدير الجملة بقوله: (زعمت) إشعار بأنه لا سند للحكم سوى ادعائه إياه وقوله به. ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾: ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، ﴿لَن﴾: ناصبة؛ لئلا يدخل ناصب على ناصب. ﴿بَلَى﴾: كلمة للجواب تقع بعد النفي لإثبات ما بعده، كما وقع في الآية. ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾؛ أي: لتحاسبن، وتجزون بأعمالكم. أصله: لتبعثون، بنون واحدة، ثم اتصلت به نون التوكيد الثقيلة فصار لتبعثوننّ بثلاث نونات فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال فصار لتبعثونّ فالتقى ساكنان فحذفت الواو لذلك، وكذا القول في قوله: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ لا يختلفان.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ والتغابن تفاعل من الغبن، وليس على بابه، يقال: تغابن القوم في التجارة، إذا غبن بعضهم بعضاً في معاملة بينهم بضرب من التدليس؛ كأن يبيع أحدهم الشيء بأقل من قيمته، فهذا غبن البائع، أو يشتريه بأكثر من قيمته،

وهذا غبن للمشتري. والمراد بالمغبون هنا: من غبن عن منازله ومنازل أهله في الجنة، فيظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان. وهو هنا مستعار من تغابن القوم في التجارة، كما سيأتي. ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ﴾ أصله: تعفوون، بوزن تفعلون، حذفت منه نون الرفع لدخول أداة الجزم، ثم سكنت الواو الأولى لام الكلمة لتكون حرف مد لوقوعها إثر ضمة، فلما سكنت التقى ساكنان؛ لأن واو الجماعة التي بعدها ساكنة فحذفت الواو لام الكلمة، فوزنه: تفعو.

﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾: أصل هذه المادة: (و ق ي)؛ لأن المصدر منها الوقاية. وأصل اتقوا: اوتقيوا، أبدلت الواو فاء الكلمة تاءً وأدغمت في تاء الافتعال، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت للتخفيف، فلما سكنت حذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، فحذفت وضمت القاف لمناسبة الواو، وهذا بعد حذف نون الرفع عند بناء الأمر من الأفعال الخمسة. قوله: ﴿اسْتَطَعْتُمْ﴾ فيه إعلال بالنقل والحذف، أصله: استطوع، بوزن استفعل، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت الواو لما سلبت حركتها، ثم لما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك سكن آخره فالتقى ساكنان حينئذٍ، وهما: الواو عين الفعل، والعين لامه، فحذفت الواو، فوزنه: استفلتم. قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أصله: وأطوعوا، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد. ﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾: يوق بوزن يفع؛ لحذف لامه للجازم؛ أي: يكف ويحفظ ويعصم؛ أي: يكفه الله شح نفسه، فيفعل في ماله جميع ما أمر به موقناً به مطمئناً إليه، حتى ترتفع عن قلبه الأخطار. والشح: خُلق باطني، هو الداء العضال، والبخل: فعل ظاهر ينشأ عن الشح. والنفس تارة تشح بترك المعاصي بأن تفعلها، وتارة تشح بالطاعات فتتركها، وتارة تشح بإعطاء المال. ومن فعل ما فرض عليه.. خرج عن الشح. اهـ. «خطيب».

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ والقرض الحسن هو: التصدق من الحلال بإخلاص وطيب نفس. قال في «اللباب»: القرض: القطع، ومنه: المقراض لما يقطع، وانقرض القوم إذا هلكوا، وانقطع أثرهم. وقيل للقرض: قرض، لأنه قطع شيء من المال، هذا أصل الاشتقاق. ثم اختلفوا فيه، فقيل: اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء، سمي قرضاً من حيث التزام الله سبحانه المجازاة عليه. وفي تسميته قرضاً أيضاً مزيد

ترغيب في الصدقة؛ حيث جعلها قرضاً لله مع أن العبد إنما يقرض نفسه؛ لأن النفع عائد عليه. ا هـ. «شيخنا». قال القشيري: ويتوجه الخطاب بهذا على الأغنياء في بذل أموالهم، وعلى الفقراء في عدم إخلاء أوقاتهم عن مراد الحق ومراقبته على مراد أنفسهم. فالغني يقال له: آثر حكمي على مرادك في مالك وغيره، والفقير يقال له: آثر حكمي في نفسك وقلبك ووقتك. ا هـ. «خطيب». ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ من المضاعفة، بمعنى التضعيف؛ أي: التكثير، فليس المفاعلة هنا للاشتراك. ﴿شَكُورٌ﴾ والشكور مبالغة الشاكر. والشكر على أقسام: شكر بالبدن؛ وهو: أن لا تستعمل جوارحك في غير طاعته، وشكر بالقلب، وهو: أن لا تشغل قلبك بغير ذكره ومعرفته، وشكر باللسان؛ وهو: أن لا تستعمله في غير ثنائه ومدحه، وشكر بالمال؛ وهو: أن لا تنفقه في غير رضاه ومحبته. وأحسن وجوه الشكر لنعم الله أن لا تستعملها في معاصيه بل في طاعته.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تكرار (ما) في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾. إفادة للتأكيد والتعميم، وإيذاناً للاختلاف؛ لأن تسبيح ما في السماوات مخالف لتسبيح ما في الأرض كثرة وقلة، وإسرارنا مخالف لعلانيتنا. ولم تُكرر ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لعدم اختلاف علمه تعالى؛ إذ علمه بما تحت الأرض كعلمه بما فوقها، وعلمه بما يكون كعلمه بما كان.

ومنها: تقديم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾ للدلالة على اختصاص الأمرين به تعالى من حيث الحقيقة؛ لأنه مبدؤ كل شيء ومبدعه، فكان الملك له حقيقة دون غيره، ولأن أصول النِّعم وفروعها منه تعالى. فالحمد له تعالى حقيقة، وحمد غيره إنما يقع من حيث ظاهر الحال وجريان النِّعم على يديه. ا هـ. «كرخي».

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿الأرض﴾ وبين ﴿كَافِرٞ﴾ و﴿مُّؤۡمِنٞۚ﴾، وبين ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾.

ومنها: تقديم الأعم ثم الأخص في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾؛ لأن كل واحدة من هذه الثلاث أخص مما قبلها، وجمع بينهما إشارة إلى أن علمه تعالى محيط بالجزئيات والكليات لا يعزب عنه شيء من الأشياء. ا هـ. «خطيب».

ومنها: عطف المسبب على السبب في قوله: ﴿كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾؛ لأن الذوق مسبب عن الكفر.

ومنها: الترقي من الأظهر إلى الأخفى في هذه الثلاثة المذكورة، لأنه تعالى عالم بما في السماوات وما في الأرض، وبما يصدر من بني آدم سراً وعلناً، وبما لم يصدر بعد بل هو مكنون في الصدور.

ومنها: إظهارالجلالة في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ للإشعار بعلية الحكم وتأكيد استقلال الجملة قبل.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لاختلاف الحركات في الشكل.

ومنها: التعبير بالذوق في قوله: ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ إشارة إلى أن ذلك المذوق العاجل شيء حقير بالنسبة إلى ما سيرون من العذاب الآجل.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾؛ لأن الوبال حقيقة في الثقل، فاستعاره للعقوبة، لأنها كالشيء الثقيل المحسوس.

ومنها: التعبير عن كفرهم بالأمر في قوله: ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: كفرهم؛ للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾. أطلق على القرآن النور بطريق الاستعارة التصريحية بجامع الإزالة في كلّ، فإن القرآن يزيل الشبهات كما يزيل النور الظلمات.

ومنها: الالتفات إلى نون العظمة في قوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾ لإبراز كمال العناية.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾.

ومنها: المقابلة بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا...﴾ الآية، وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾. شبهت حال الفريقين المتمكنين من اختيار ما يؤدي إلى سعادة الآخرة، فاختار كل فريق ما يشتهيه مما كان قادراً عليه بدل ما اختاره الآخر. وشبهه بحال المتبادلين بالتجارة، وشبه ما يتفرع عليه من نزول كل منهما منزلة الآخر بالتغابن؛ لأن التغابن تفاعل من الغبن، وهو أخذ الشيء من صاحبه بأقل من قيمته، وهو لا يكون إلا في عقد المعاوضة ولا معاوضة في الآخرة فإطلاق التغابن على ما يكون فيها إنما هو بطريق الاستعارة التمثيلية. وفي الآية أيضاً فن التهكم؛ لأنه يتهكم بالأشقياء، لأن نزولهم منازلهم في النار ليس بغبن.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ للتأكيد والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية، وتوضيح مورد التولي في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: أعرضتم عن إطاعة الرسول، كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: إظهار الرسول مضافاً إلى نون العظيمة في مقام إضماره؛ لتشريفه - ﷺ -، والإشعار بمدار الحلم الذي هو كون وظيفته - ﷺ - محض البلاغ، ولزيادة تشنيع التولي عنه - ﷺ -.

ومنها: إظهار الجلالة في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الإضمار، للإشعار بعلية التوكل، والأمر به. فإن الألوهية مقتضية للتبتل إليه تعالى، وقطع التعلق عما سواه بالمرة.

ومنها: الإتيان بـ﴿مِنْ﴾ التبعيضية في قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ﴾ إشعاراً بأن منها ما ليس بعدو بل هو عون على الدنيا والآخرة.

ومنها: الحث على العفو والصفح في قوله: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟﴾ إشعاراً بأنه ليس المراد من الأمر بالحذر وتركهم بالكلية والإعراض عن معاشرتهم ومصاحبتهم، كيف؟ والنساء من أعظم نعم الجنة، وبها نظام العالم. فإنه لولا الأزواج لما وجد الأنبياء والأولياء والعلماء والصلحاء، وإنما يحذر من التعلق بها،

ومحبتها الشاغلة عن محبة الله تعالى.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ﴾؛ لأن جميع الأموال والأولاد فتنة؛ لأنه لا يرجع إلى مال أو ولد إلا وهو مشغول القلب به.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾؛ شبه الإنفاق في سبيل الله والتصدق على الفقراء بمن يقرض الله قرضاً حسناً وأحب الوفاء، وذلك بطريق التمثيل، وهو من لطيف الاستعارة وبديع العبارة، وقيل في قوله: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ استعارة تصريحية تبعية، وفي قوله: ﴿قَرۡضًا حَسَنًا﴾ استعارة تصريحية أصلية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على ما يلي:

١ ـ صفات الله الحسنى.

٢ ـ إنذار المشركين بذكر ما حل بمن قبلهم من الأمم.

٣ ـ إنكار المشركين للبعث.

٤ ـ بيان أن ما يحدث في الكون فهو بأمر الله وتقديره.

٥ ـ تسلية الرسول ـ ﷺ ـ بأنه لا يضيره إصرارهم على الكفر.

٦ ـ أن من الأزواج والأولاد أعداء للمرء.

٧ ـ الأموال والأولاد فتنة.

٨ ـ الحث على التقوى والإنفاق في سبيل الله تعالى.

والله أعلم

* * *

سورة الطلاق

سورة الطلاق مدنية، نزلت بعد سورة الإنسان. قال القرطبي: مدنية في قول الجميع. وهي إحدى عشرة آية، وقيل: اثنتا عشرة. وكلماتها: مئتان وتسع وأربعون كلمة. وحروفها: ألف ومئة وسبعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أنه قال في السورة السابقة: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾، ولما كانت هذه العداوة قد تفضي إلى الطلاق.. أرشد هنا إلى أحكام الطلاق والانفصال عن الأزواج على أجمل وجه.

وقال أبو حيان(١): مناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر الفتنة بالمال والولد أشار إلى الفتنة بالنساء، وأنهن قد يعرضن الرجال للفتنة حتى لا يجد مخلصاً منها إلا بالطلاق.. فذكر أنه ينفصل منهن بالوجه الجميل؛ بأن لا يكون بينهن اتصال لا بطلب ولد ولا حمل، انتهى.

التسمية: وسميت سورة الطلاق لذِكر الطلاق فيها، وتسمى سورة النساء الصغرى.

الناسخ والمنسوخ: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة الطلاق كلها محكم،ليس فيها منسوخ ولا ناسخ.

والله أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا
تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ
حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ
فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ
ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾
وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ
لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ
وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ
يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾
أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟
عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ
فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا
يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا
وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾
أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا
يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن
يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ
رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم لك آنفاً بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها. وأما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما

---

(١) المراغي.

أمر[1] بإيقاع الطلاق واحدة فواحدة، ومنع الخروج من المنزل والإخراج منه إلا إذا أتين بفاحشة مبينة، ونهى عن تعدي تلك الحدود حتى لا يحصل الضرر والندم.. خيّر الرجل إذا شارفت عدة امرأته على الانتهاء بين أمرين: إما أن يراجعها ويعاشرها بإحسان، وإما أن يفارقها مع أداء حقوقها التي لها من التفضل والإكرام. فإذا اختار الرجعة.. فليشهد على ذلك شاهدين عدلين، قطعاً للنزاع ودفعاً للريبة، ثم أبان أن هذه الأحكام إنما شرعت للفائدة والمصلحة، وأرشد إلى أن تقوى الله تفتح السبل للمرء وتخرجه عن كل ضيق وتهديه إلى الطريق المستقيم في دينه ودنياه، وأن من يتوكل على ربه يكفيه ما أهمه ويفرج عنه كربه. ثم ذكر أن أمور الحياة جميعاً بقضاء الله وقدره، فلا يجزع المؤمن مما يصيبه من النوائب، ولا يفرح ولا يبطر بما يناله من خيراتها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سبق أن الطلاق السني إنما يكون في طهر لا وقاع فيه ولم يبين مقدار العدة، وكان قد ذكر في سورة البقرة التي نزلت قبل هذه أن عدة الحائض ثلاثة قروء.. ذكر هنا عدة الصغار اللاتي لم يحضن والكبار اللاتي يئسن من المحيض تكون ثلاثة أشهر، وعدة الحامل تكون بوضع الحمل، سواء كانت مطلقة أو متوفى عنها زوجها.

قوله تعالى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر مقدار العدة للصغار والكبار والحوامل.. أرشد إلى ما يجب للمعتدة من النفقة والسكنى على مقدار الطاقة. ثم أردف ذلك ببيان: أن الحوامل لهن النفقة والسكنى مدة الحمل بالغة ما بلغت، فإذا هن ولدن.. وجب لهن الأجر على إرضاع المولود، فإن لم يتفقا عليه أتى بمرضع أخرى يدفع الأب نفقتها، والأم أحق بالإرضاع إذا هي رضيت بمثل أجرتها. والنفقة لكل من الموسر والمعسر على قدر ما يستطيع فالله لا يكلف نفساً إلا ما تطيق.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[2] لما ذكر أن الطلاق لا يكون إلا في أوقات مخصوصة، وأنه يجب انقضاء العدة حتى تحل المرأة لزوج آخر، وذكر مدة العدة

---

(١) المراغي.

وما يجب للمعتدة من النفقة والكسوة، ونهى عن تجاوز حدود الله تعالى، وأن من يتجاوزها يكون قد ظلم نفسه.. توعد هنا من خالفوا أمره وكذبوا رسله، وسلكوا غير ما شرعه، وأنذرهم بأن يحل بهم مثل ما حل بالأمم السالفة التي كذبت رسلها فأخذها أخذ عزيز مقتدر وأصبحت كأمس الدابر وصارت مثلاً في الآخرين.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما أنذر مشركي مكة بأنهم إن لم يتبعوا أوامر الرسول - ﷺ - يحل بساحتهم مثل ما حل بسائر الأمم قبلهم ممن كذبوا رسلهم وعتوا عن أمر ربهم فاستؤصلوا وبادوا في الدنيا، وسيحل بهم العذاب الذي لا مرد له في الآخرة.. ذكر هنا عظيم قدرته وسلطانه وبديع خلقه للعالم العلوي والسفلي؛ ليكون ذلك باعثاً لهم على استجابة دعوة الرسول والعمل بما أنزل عليه من تشريع فيه سعادة الدارين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق قتادة عن أنس قال: (طلق رسول الله - ﷺ - حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ...﴾ الآية. فقيل له: راجعها، فإنها صوامة قوامة). وأخرجه ابن جرير عن قتادة أيضاً مرسلاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه الحاكم عن جابر قال: نزلت هذه الآية، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ في رجل من أشجع كان فقيراً، خفيف ذات اليد، كثير العيال، فأتى رسول الله - ﷺ -، فسأله، فقال له: «اتق الله واصبر»، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم، وكان العدو أصابوه، فأتى رسول الله - ﷺ -، فأخبره خبرها، فقال: «كلها»، فنزلت الآية. قال الذهبي: حديث منكر له شاهد.

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال:

---

(١) لباب النقول.

جاء عوف بن مالك الأشجعي، فقال: يا رسول الله، إن ابني أسره العدو وجزعت أمه، فما تأمرني؟ قال: «آمرك وإياها أن تستكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله» فقالت المرأة: نِعم ما أمرك، فجعلا يكثران منها، فتغفل عنه العدو فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه، وهي أربعة آلاف شاة، فنزلت ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا. . .﴾ الآية. وأخرجه الخطيب في «تاريخه» من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ . . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البيهقي، والحاكم في جماعة آخرين عن أبي بن كعب: أن ناساً من أهل المدينة لما نزلت آية البقرة في عِدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عدد لم تذكر في القرآن؛ الصغار، والكبار اللاتي قد انقطع عنهن الحيض، وذوات الحمل؟ فأنزل الله تعالى في سورة النساء الصغرى ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ . . .﴾ الآية. وروي: أن قوماً، منهم: أبي بن كعب وخلاد بن النعمان، لما سمعوا قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ قالوا: يا رسول الله، فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبر؟ فنزلت: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ . . .﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الكريم ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾؛ أي[1]: إذا أردتم تطليق النساء المدخول بهن المعتدات بالأقراء، وعزمتم عليه بقرينة ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ مستقبلات ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ متوجهات إليها، وهي الحيض عند الحنفية. فاللام متعلقة بمحذوف دل عليه معنى الكلام، والمراد أن يطلقن في طهر لم يقع فيه جماع ثم يتركن حتى تنقضي عدتهن. فإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم على القرء الأول من أقرائها.. فقد طلقت مستقبلة لعدتها. والأقراء عند أبي حنيفة هي الحيض. وقال الجرجاني: واللام في قوله: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ بمعنى (في)؛ أي: طلقوهن في زمن استئناف عدتهن، وهو الطهر الذي لم يجامع فيه، كما عليه الشافعي، فالأقراء عند الشافعي هي الأطهار، فإذا طلقوهن هكذا.. فقد طلقوهن في عدتهن.

---

(١) روح البيان.

وتخصيص النداء به ـ ﷺ ـ مع عموم الخطاب لأمته أيضاً لتحقيق أنه المخاطب حقيقة، ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه ـ ﷺ ـ إياهم وتغليبه عليهم، ففيه تغليب المخاطب على الغائب.

والمعنى: إذا طلقت أنت وأمَّتك. وقيل: خصه بالنداء أولاً تشريفاً له ثم خاطبه مع أمَّته، أو: الخطاب له خاصة، والجمع للتعظيم، وأمَّته أسوته في ذلك. وفي «الكشاف»: خص النبي ـ ﷺ ـ بالنداء وعمم بالخطاب لأن النبي إمام أمته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان، افعلوا كيت وكيت، إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه، وأنه لسان قومه، فكأنه هو وحده في حكم كلهم لصدورهم عن رأيه، كما قال البقلي: إذا خاطب السيد.. بان شرفه على الجمهور: إذ جَمَعَ الجميع في اسمه. ففيه إشارة إلى سر الإتحاد.

وفي «كشف الأسرار»: في هذا الخطاب أربعة أقوال:

أحدها: أنه خطاب للرسول ـ ﷺ ـ، وذكر بلفظ الجمع تعظيماً له، كما يخاطب الملوك بلفظ الجمع.

والثاني: أنه خطاب له، والمراد أمَّته.

والثالث: أن التقدير: يا أيها النبي والمؤمنون إذا طلقتم، فحذف لأن الحكم يدل عليه.

والرابع: معناه: يا أيها النبي قل للمؤمنين: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، انتهى. يقول الفقير: هذا الأخير أنسب بالمقام، فيكون مثل قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾؛ لأن النبي ـ ﷺ ـ، وإن كان أصيلاً في المأمورات كما أن أمته أصيل في المنهيات؛ إلا أن الطلاق لما كان أبغض المباحات إلى الله تعالى.. كان الأولى أن يسند التطليق إلى أمته دونه ـ ﷺ ـ مع أنه ـ ﷺ ـ قد صدر منه التطليق، فإنه طلق حفصة بنت عمر ـ رضي الله عنهما ـ واحدة، فلما نزلت الآية.. راجعها، وكانت علَّامةً كثيرة الحديثِ قريباً منزلتها من منزلة عائشة ـ رضي الله عنهما ـ: فقيل له ـ ﷺ ـ: راجعها، فإنها صوامة قوامة، وإنها من نسائك في الجنة، حكاه الطبري. وفي الحديث بيان فضل العلم وحفظ الحديث، ومحبة الصيام والقيام، وكرامة أهلهما عنده تعالى.

قال في «المفردات»: أصل الطلاق: التخلية من وثاق، ويقال: أطلقت البعير من عقاله، وطلقته، وهو طالق وطلق بلا قيد، ومنه استعير: طلقت المرأة إذا خليتها، فهي طالق؛ أي: مخلاة عن حبالة النكاح، انتهى. والطلاق اسم مصدر بمعنى كالتطليق كالسلام بمعنى التسليم، والكلام بمعنى التكليم، وفي ذلك قالوا: المستعمل في المرأة لفظ التطليق، وفي غيرها لفظ الإطلاق؛ حتى لو قال: أطلقتك.. لم يقع الطلاق ما لم ينو. ولو قال: طلقتك.. وقع نوى أو لم ينو.

والعدة[1]: مصدر عدّه يعده. وفي الحديث: سئل رسول الله - ﷺ - متى تكون القيامة؟ قال: «إذا تكاملت العدتان»؛ أي: عدة أهل الجنة وعدة أهل النار؛ أي: عددهم. وسمي الزمان الذي تتربص المرأة عقيب الطلاق أو الموت عدة؛ لأنها تعد الأيام المضروبة عليها، وتنتظر أوان الفرج الموعود لها.

والمعنى[2]: أي أيها المؤمنون: إذا أردتم طلاق نسائكم.. فطلقوهن لزمان محسوب من عدتهن، وهو طهر لا قربان فيه؛ حتى لا يطول عليهن زمان العدة، فإن طلقتموهن في زمان الحيض.. كان الطلاق طلاقاً بدعياً حراماً. والمراد بالنساء: المدخول بهن من ذوات الأقراء. أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن، وذات الأشهر سيأتي حكمهن فيما بعد.

أخرج الشيخان، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في آخرين عن ابن عمر: أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمرُ لرسول الله - ﷺ -، فتغيظ منه، ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، فإن بدا له أن يطلقها.. فليطلقها قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء».

والخلاصة: أن السنة في الطلاق: أن تطلق المرأة وهي طاهرة، دون أن يكون الرجل لامسها في هذا الطهر، أو أن يطلقها وهي حامل حملاً مستبيناً. ومن هذا قسم الفقهاء الطلاق أقساماً ثلاثة:

١ - طلاق سنة، وهو: أن يطلقها طاهرة من غير قربان، أو حاملاً حملاً قد استبان.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

٢ ـ طلاق بدعة، وهو: أن يطلقها حين الحيض، أو في طهر قد واقعها فيه فلا يدري أحملت أم لا؟ والسرّ في هذا[1]: أنه بعمله هذا أطال عليها العدة؛ لأن هذه الحيضة لا تحسب في العدة، وكذا الطهر الذي بعدها؛ لأنها إنما تكون بثلاث حيضات كوامل.

٣ ـ طلاق لا هو سنة ولا بدعة، وهو: طلاق الصغيرة، والآيسة من الحيض، وغير المدخول بها. وقد روي عن إبراهيم النخعي: أن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ كانوا يستحبون أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة، ثم لا يطلقون غير ذلك حتى تنقضي العدة، وما كان أخس عندهم من أن يطلق الرجل ثلاث تطليقات. وقال مالك بن أنس: لا أعرف طلاقاً إلا واحدة، وكان يكره الثلاث متفرقة أومجموعة. وأبو حنيفة وأصحابه يكرهون ما زاد على الواحدة في طهر واحد. وعند الشافعي: لا بأس بإرسال الثلاث، وقال: لا أعرف في عدد الطلاق سُنة، ولا بدعة، بل هو مباح.

والخلاصة: أن مالكاً يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت، وأن أبا حنيفة يراعي التفريق والوقت، والشافعي يراعي الوقت وحده.

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾؛ أي: واحفظوا عدة الأقراء بحفظ الوقت الذي وقع فيه الطلاق، وأكملوها ثلاثة أقراء كوامل لا نقصان فيهن؛ أي: ثلاث حيض، كما عند أبي حنيفة؛ لأن الغرض من العدة استبراء الرحم، وكماله بالحيض الثلاث لا بالأطهار، كما يغسل الشيء ثلاث مرات لكمال الطهارة؛ أي: واحفظوا العدة واحفظوا الوقت الذي وقع في الطلاق، واعرفوا ابتداءها وانتهاءها؛ لئلا تطول على المرأة، واحفظوا الأحكام والحقوق التي تجب فيها.

والمخاطب بالإحصاء هم الأزواج لا الزوجات ولا المسلمون كما قيل، وإلا.. يلزم تفكيك الضمائر، ولكن الزوجات داخلة فيه بالإلحاق، وإنما خوطب الأزواج بذلك دون النساء؛ لأنهم هم الذين تلزمهم الحقوق والمؤن المرتبة عليها.

وقال أبو الليث: أمر الرجال بحفظ العدة: لأن في النساء غفلة، فربما لا

---

(١) المراغي.

تحفظ عدتها، فالزوج يحصي ليتمكن من تفريق الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثاً. فإن إرسال الثلاث في طهر واحد مكروه عند أبي حنيفة وأصحابه وإن كان لا بأس به عند الشافعي وأتباعه، حيث قال: لا أعرف في عدد الطلاق سُنة ولا بدعة، وهو مباح، وليعلم بقاء زمان الرجعة ليراجع إن حدثت له الرغبة فيها، وليعلم زمان وجوب الإنفاق عليه وانقضاءه، وليعلم أنها هل تستحق عليه أن يسكنها في البيت أو له أن يخرجها؟ وليتمكن من إلحاق نسب ولدها به وقطعه عنه.

قالوا(١): وعلى الرجال في بعض المواضع العدة:

منها: أنه إذا كان للرجل أربع نسوة، فطلق إحداهن.. لا يحل له أن يتزوج بامرأة أخرى ما لم تنقض عدتها.

ومنها: أنه إذا كان له امرأة ولها أخت، فطلق امرأته.. لا يحل له أن يتزوج بأختها ما دامت في العدة.

ومنها: أنه إذا اشترى جارية.. لا يحل له أن يقربها ما لم يستبرئها بحيضة.

ومنها: أنه إذا تزوج حربية.. لا يحل له أن يقربها ما لم يستبرئها بحيضة.

ومنها: أنه إذا بلغ المرأةَ وفاةُ زوجها فاعتدت وتزوجت وولدت، ثم جاء زوجها الأول.. فهي امرأته، لأنها كانت منكوحته ولم يعترض شيء من أسباب الفرقة فبقيت على النكاح السابق، ولكن لا يقربها حتى تنقضي عدتها من النكاح الثاني، ووجوب العدة لا يتوقف على صحة النكاح إذا وقع الدخول، بل تجب العدة في صورة النكاح الفاسد أيضاً، على تقدير الدخول.

ومنها: أنه إذا تزوج امرأة وهي حائض.. لا يحل له أن يقربها حتى تتطهر من حيضها.

ومنها: أنه إذا تزوج بامرأة نفساء.. لا يحل له أن يقربها حتى تتطهر من نفاسها.

ومنها: إذا زنى بامرأة ثم تزوجها.. لا يحل له أن يقربها ما لم يستبرئها

---

(١) روح البيان.

بحيضة.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدة عليهن والإضرار بهن بإيقاع طلاق ثان بعد الرجعة، فالأمر بالتقوى متعلق بما قبله. والتقوى في الأصل[1]: اتخاذ الوقاية، وهي ما يقي الإنسان مما يكرهه ويؤمل أن يحفظه ويحول بينه وبين ذلك المكروه؛ كالترس ونحوه، ثم استعير في الشرع لاتخاذ ما يقي العبد بوعد الله ولطفه من قهره، ويكون سبباً لنجاته من المضار الدائمة وحياته بالمنافع القائمة، وللتقوى فضائل كثيرة ومراتب عديدة.

والمعنى: أي واخشوا الله ربكم ومالككم، فلا تعصوه فيما أمركم به من الطلاق لعدتهن وفي القيام بما للمعتدات من الحقوق، وفي وصفه تعالى بالربوبية مبالغة في وجوب الامتثال لأمره لما في لفظ الرب من التربية التي هي الإنعام والإكرام على ضروب لا حصر لها.

ثم بيّن بعض هذه الحقوق فقال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾؛ أي: لا تخرجوا أيها الأزواج المعتدات ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾؛ أي: من مساكنهن التي يسكنها قبل العدة؛ أي: لا تخرجوهن من مساكنكم عند الفراق إلى أن تنقضي عدتهن. وإنما أضيفت إليهن مع أنها لأزواجهن لتأكيد النهي ببيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها أملاكهن، مثل قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾. وفي ذكر البيوت دون الدار إشارة إلى أن اللازم على الزوج في سكناهن ما تحصل المعيشة فيه؛ لأن الدار ما يشتمل على البيوت.

والمعنى: أي لا تخرجوا المعتدات من المساكن التي كنتم تساكنونهن، فيها قبل الطلاق غضباً عليهن أو كراهة لمساكنتهن أو لحاجة لكم إلى المساكن؛ لأن تلك السكنى حق الله تعالى، أوجبه للزوجات، فليس لكم أن تتعدوه إلا لضرورة؛ كانهدام المنزل، أو الحريق، أو السيل، أو خوف الفتنة في الدين.

ثم لما نهى الله سبحانه الأزواج عن إخراجهن من البيوت التي وقع الطلاق فيها.. نهى الزوجات عن الخروج أيضاً، فقال: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ المعتدات من بيوتهن

---

(١) روح البيان.

ولو بإذن منكم، فإن الإذن بالخروج في حكم الإخراج ولا أثر لاتفاقهما على الانتقال؛ لأن وجوب ملازمة مسكن الفراق حق الله تعالى ولا يسقط بإسقاط العبد، كما قال في «الكشاف»: فإن قلت: ما معنى الإخراج وخروجهن؟

قلت: معنى الإخراج أي: لا يخرجهن البعولة غضباً عليهن وكراهة لمساكنتهن أو لحاجة لهم إلى المساكن، وأن لا يأذنوا لهن في الخروج إذا طلبن ذلك، إيذاناً بأن إذنهم لا أثر له في دفع الحظر، ولا يخرجن بأنفسهم إن أردن ذلك، انتهى. وقيل: المراد: لا يخرجن بأنفسهن إلا إذا أذن لهن الأزواج فلا بأس، والأول أولى.

فإن خرجت المعتدة لغير ضرورة أو حاجة.. أثمت، فإن وقعت ضرورة؛ بأن خافت هدماً أو حرقاً.. لها أن تخرج إلى منزل آخر، وكذلك إن كانت لها حاجة من بيع غزل أو شراء قطن فيجوز لها الخروج نهاراً لا ليلاً، فإن خرجت ليلاً.. أثمت.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾؛ أي: بالزنا، فيخرجن لإقامة الحد عليهن ثم يعدن. قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا: الزنا، وقال الشافعي وغيره: هي البذاء في اللسان والاستطالة بها على من هو ساكن معها في ذلك البيت، ويؤيد هذا ما قال عكرمة: إن في مصحف أبيّ: ﴿إلا أن يفحشن عليكم﴾. وقال بعضهم: ﴿مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ هنا بالكسر لازم؛ بمعنى: بيّن متبينة، كمبين من الإبانة؛ بمعنى: بين. والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وهو الزنا في هذا المقام، وقيل: البذاء - بالمد -. وهو: القول القبيح وإطالة اللسان، فإنه في حكم النشوز في إسقاط حقهن. فالمعنى: إلا أن يبذون عن الأزواج وأقاربهم، كالأب والأخ، فيحل حينئذٍ إخراجهن. وعن ابن عباس: هو كل معصية.

وهو استثناء من الأول: لا تخرجوهن في حال من الأحوال، إلا حال كونهن آتيات بفاحشة، أو من الثاني للمبالغة في النهي عن الخروج ببيان أن خروجها فاحشة. أي: لا يخرجن إلا إذا ارتكبن الفاحشة بالخروج. يعني: أن من خرجت.. أتت بفاحشة، كما يقال: لا تكذب إلا أن تكون فاسقاً، يعني: إن تكذب.. تكن فاسقاً.

والمعنى: أي لا يخرجن من بيوتهن إلا إذا فعلن ما يوجب حدّا، من زنا أو سرقة أو غيرهما، كما أخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب، أو يبدون على الأحماء أو الأزواج. فيحل إخراجهن من بيوتهن لبذائهن وسوء خلقهن. أو خرجن متجولات عن منازلهن اللائي يجب عليهن أن يكملن العدة فيها، فأي ذلك فعلن فللأزواج إخراجهن من البيوت لإتيانهن بالفاحشة الواضحة التي ارتكبنها.

﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ وأحكامه التي عينها لعباده. والحد: الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر؛ أي: هذه الأمور التي بينتها لكم، من الطلاق للعدة، وإحصاء العدة، والأمر باتقاء الله، وأن لا تخرج المطلقة من بيتها إلا أن تأتي بفاحشة مبينة.. هي حدود الله وأحكامه التي حدّها لكم، فلا تتعدوها ولا تتجاوزوها.

ثم بيّن عاقبة تجاوز تلك الحدود، فقال: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾ أصله[1]: يتعدى، فحذفت اللام بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، وهو من التعدي بمعنى التجاوز؛ أي: ومن يتجاوز ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ أي: حدوده المذكورة وأحكامه، بأن أخل بشيء منها، والإظهار في مقام الإضمار لتهويل أمر التعدي، والإشعار بعلية الحكم في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾؛ أي: أضر بها؛ أي: ومن يتجاوز ما شرع الله لعباده من شرائع وما أبيح له إلى ما لم يبح له.. فقد ظلم نفسه وأضر بها من حيث لا يدري.

ثم بيّن علة هذا الضرر، فقال: ﴿لَا تَدْرِي﴾ ولا تعلم أيها المرء. تعليل لمضمون الشرطية؛ أي: فإنك أيها المطلق المتعدّي لا تدري ولا تعلم عاقبة أمرك وأمر المطلقة. ومفعول الدراية محذوف كما قدرنا. وجملة ﴿لَعَلَّ اللَّهَ...﴾ إلخ، مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها؛ لأن الجمهور لم يعدوا ﴿لَعَلَّ﴾ من المعلقات، كما في «السمين». و﴿لَعَلَّ﴾ بمعنى: ﴿إِنَّ﴾ الناصبة؛ أي: لا تدري ولاتعلم أيها المطلق المتعدي بإيقاع ثلاث طلقات عاقبة أمرك وأمر المطلقة، فإن الله سبحانه ربما ﴿يُحْدِثُ﴾ ويوجد في قلبك ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الذي فعلت من التعدي عليها وإيقاع ثلاث طلقات ﴿أَمْرًا﴾ يقتضي خلاف ما فعلته من التعدي، فيبدل ببغضها محبة وبالإعراض عنها إقبالاً إليها، ولا يمكن تداركه برجعة أو استئناف نكاح، فإن القلوب بين

---

(١) روح البيان.

أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء. وإحداث الأمر: إيجاده بعد أن لم يكن. فالأمر الذي يحدثه الله تعالى أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدي إلى خلافه. فالظلم عبارة عن ضرر دنيوي يلحقه بسبب تعديه ولا يمكنه تداركه، أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوي والأخروي. ويخص التعليل بالدنيوي لكون احتراز الناس منه أشد واهتمامهم بدفعه أقوى. وقيل: ﴿لَعَلَّ﴾ معلقة لـ﴿تَدْرِي﴾ عن العمل في اللفظ، فجملتها في محل نصب سادة مسد المفعولين. والمقصود من الكلام: التحريض على طلاق الواحدة أو الثنتين، والنهي عن الثلاثة. وقوله: ﴿لَا تَدْرِي﴾ خطاب للمتعدي بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي لا للنبي - ﷺ - كما توهم.

والمعنى: ومن يتعد حدود الله.. فقد أضر بنفسه؛ فإنك لا تدري أيها المطلق المتعدي بإيقاع الثلاث وبإخراجها من البيوت أن الله ربما يحدث في قلبك بعد ذلك الذي فعلت - من التعدي بإيقاع الثلاث - أمراً يقتضي خلاف ما فعلت، فيبدل ببغضها محبة وبالإعراض عنها إقبالاً، ولا يمكنك تدارك ما فعلت من التعدي فتندم.

وفي الآية دلالة[1] على كراهة التطليق ثلاثاً بمرة واحدة؛ لأن إحداث الرجعة لا يمكن بعد الثلاث، ففي إيقاع الثلاث عون للشيطان، وفي تركها رغم له، فإن الطلاق من أهم مقاصده، كما روى مسلم من حديث جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن عرش إبليس على البحر فيبعث سراياه - أي: جنوده وأعوانه من الشياطين - فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده الأعظم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيدنيه منه ويقول: نِعْمَ أنت»؛ أي: نِعم المضل أنت، أو الشرير أنت. فيكون (نِعم) بكسر النون فعل مدح حذف المخصوص به، أو نَعَمْ أنت ذاك الذي يستحق الإكرام، فيكون بفتح النون حرف إيجاب.

والخلاصة[2]: أن من يتعد حدود الله.. فقد أساء إلى نفسه؛ فإنه لا يدري

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

عاقبة ما هو فاعل، فلعل الله يحدث في قلبه بعد ذلك التعدي أمراً يدعو إلى عكس ما فعل؟ فيبدل البغض محبّة والإعراض إقبالاً، ولا يمكن له تدارك ذلك برجعة أو استئناف نكاح، فتضيع الفرصة ويندم، ولات ساعة مندم.

تنبيه: الشريعة الإسلامية وإن أباحت الطلاق.. بغضت فيه وقبحته وبينت أنه ضرورة لا يلجأ إليها إلا بعد استنفاد جميع الوسائل؛ لبقاء رباط الزوجية الذي حببت فيه وجعلته من أجل النِّعم، فرغبت في إرسال حَكَم من أهله وحَكَم من أهلها قبل حدوث الطلاق؛ لعلهما يزيلان ما بين الزوجين من نفور، كما رغبت في أن تكون الطلقات الثلاث متفرقات؛ لعل النفوس تصفو بعد الكدر والقلوب ترعوي عن غيها، ولعلهما يندمان على ما فرط منهما، فتكون الفرصة مواتية ويمكن الرجوع إلى ما كانا عليه، بل قد يعودان إلى حال أحسن مما كانا عليه.

روى أبو داود عن محارب بن دثار: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ماأحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق». وروى الثعلبي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق». وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تطلقوا النساء إلا من ريبة، فإن الله عزّ وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات»، وعن ثوبان: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس به.. حرم الله عليها رائحة الجنة» أخرجه أبو داود والترمذي.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ﴾؛ أي: شارفن وقاربن ﴿أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: آخر عدتهن وانقضاء أجلها ومدتها، وهي[1]: مضي ثلاثة أقراء، ولو لم تغتسل من الحيضة الثالثة، وذلك لأنه لا يمكن الرجعة بعد بلوغهن آخر العدة، فحمل البلوغ على المشارفة، كما قال في «المفردات»: البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى القصد والمبتغى، مكاناً كان أو زماناً، أو أمراً من الأمور المقدرة، وربما يعبر به عن المشارفة عليه وإن لم ينته إليه؛ مثل: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ ...﴾ إلخ، فإنه للمشارفة، فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل.. لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها. والأجل: المدة المضروبة للشيء. وقرأ الجمهور: ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ بالإفراد والضحاك وابن سيرين: ﴿أجالهن﴾ بالجمع.

---

(١) روح البيان.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾؛ أي: فأنتم بالخيار، فإن شئتم فراجعوهن. والرجعة تحصل بالقول، وكذا[1] عند أبي حنيفة بالوطىء واللمس والنظر إلى الفرج بشهوة فيهما؛ أي: راجعوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: بحُسن معاشرة وإنفاق لائق، ورغبة فيهن من غير قصد إلى مضارة لهن. وفي الحديث: «أكمل المؤمنين: أحسنهن خلقاً وألطفهن بأهله». ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾؛ أي: اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن نفوسهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: مع إيفاء مالهن عليكم من الحقوق وترك المضارة لهن؛ أي: فارقوهن بإيفاء حقوقهن واتقاء ضرارهن بأن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً للعدة. ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ أيها الأزواج؛ أي: على الرجعة وعلى الطلاق قطعاً للتنازع، إذ قد تنكر المرأة بعد انقضاء العدة رجعته فيها، وربما يموت أحدهما بعد الفرقة، ويدعي الباقي منهما ثبوت الزوجية لأخذ الميراث. ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ﴾؛ أي: صاحبي عدالة. تثنية ذا بمعنى صاحب، منصوب بالياء؛ أي: أشهدوا اثنين صاحبي عدالة ﴿منكم﴾؛ أي: من المسلمين، كما قاله الحسن، أو من أحراركم كما قاله قتادة، يكونان عادلين لا ظالمين ولا فاسقين؛ أي[2]: وأشهدوا عادلين منكم على الرجعة، وقيل: على الطلاق، وقيل: عليهما، قطعاً للتنازع وحسماً لمادة الخصومة. والأمر للندب، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾. وقيل: إنه للوجوب، وإليه ذهب الشافعي، قال: الإشهاد واجب في الرجعة، مندوب إليه في الفرقة، وإليه ذهب أحمد بن حنبل. وفي قول للشافعي: إن الرجعة لا تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق. وروي نحو هذا عن أبي حنيفة وأحمد. والعدالة: هي الاجتناب عن الكبائر كلها، وعدم الإصرار على الصغائر، وغلبة الحسنات على السيئات، والآثام من غير إصرار لا يقدح في العدالة؛ إذ لا يوجد من البشر من هو معصوم سوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كذا في «الفروع».

ومعنى الآية[3]: فإذا قاربت العدة على الانتهاء، فإن شئتم.. فأمسكوهن وراجعوهن، مع الإحسان في الصحبة، وحسن العشرة، وأداء الحقوق من النفقة والكسوة، وإن صممتم على المفارقة.. فلتكن بالمعروف، وعلى وجه لا عنف فيه ولا مشاكسة، مع إيفاء ما لهن من حقوق لديكم؛ كمؤخر صداق وإعطاء متعة حسنة

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

تذكركن بفضلها، ويتحدث الناس بحسن أحدوثتها، ويكون فيها جبر لخاطرهن لما لحقهن من ضرر بالفراق، وليكون فيها بعض السلوة لهن عما فقدنه من العشير والأنيس.

ثم ذكر ما يحسن إذا أرادوا الرجعة، فقال: ﴿وَأَشْهِدُواْ...﴾ إلخ؛ أي: وأشهدوا على الرجعة - إن اخترتموها - شاهدين من ذوي العدالة، حسماً للنزاع فيما بعد، إذ ربما يموت الزوج فيدعي الورثة أن مورثهم لم يراجع؛ ليمنعوها ميراثها، ودفعاً للقيل والقال وتهمة الريبة، ومخافة أن تنكر المرأة الرجعة لتقضي عدتها وتنكح زوجاً غيره.

ثم خاطب الشهداء زجراً لهم، فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾؛ أي: وأدوا - أيها الشهداء - الشهادة عند الحاجة إلى أدائها خالصة لله تعالى؛ وذلك بأن يؤدوها لله لا للمشهود له وعليه، ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الظلم، فلو شهد لغرض لا لله.. بريء بها من وبال كتم الشهادة، لكن لا يثاب عليها؛ لأن الأعمال بالنيات.

والحاصل[1]: أن الشهادة أمانة، فلا بد من تأدية الأمانة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾. فلو كتمها فقد خان، والخيانة من الكبائر، دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾؛ أي: وأشهدوا على الحق إذا استشهدتم، وأدوا الشهادة على الصحة، إذ أنتم دعيتم إلى أدائها. وإنما حث على أداء الشهادة لما قد يكون فيه من العسر على الشهود؛ إذ ربما يؤدي ذلك إلى أن يترك الشاهد مهام أموره، ولما فيه من عسر لقاء الحاكم الذي تُؤدَّىٰ الشهادة عنده، وقد يبعد المكان أو يكون للشاهد عوائق تحول بينه وبين أدائها.

وهذا[2] أمر للشهود بأن يأتوا بما شاهدوا به تقرباً إلى الله تعالى. وقيل: الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة؛ أي: الشهود عند الرجعة، فيكون قوله: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أمراً بنفس الإشهاد، ويكون قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أمراً بأن تكون خالصة لله.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الحث على الشهادة والإقامة، أو على جميع ما في الآية من إيقاع الطلاق على وجه السنة، وإحصاء العدة، والكف عن الإخراج والخروج، والإشهاد، وإقامة الشهادة بإدائها على وجهها من غير تبديل ولا تغيير. وهو مبتدأ خبره ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ الوعظ: زجر يقترن بتخويف؛ أي: يتعظ به ﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وخص[1] المؤمن بالله واليوم الآخر، لأنه المتنفع بذلك دون غيره، ولأنه المقصود تذكيره. ولم يقل: ذلكم توعظون به كما في سورة المجادلة لتهييج المؤمنين على الغيرة، فإن من لا غيرة له لا دين له. ومِنْ مقتضى الإيمان بالله: مراعاة حقوق المعبودية والربوبية، وباليوم الآخر: الخوف من الحساب والعذاب، والرجاء للفضل والثواب. فالمؤمن بهما يستحيي من الخالق والخلق فلا يترك العمل بما وعظ به.

والمعنى[2]: أي هذا الذي أمرتكم به وعرفتكم عنه، من أمر الطلاق والواجب لبعضكم على بعض حين الفراق أو الإمساك، عظة منا لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ ليعمل على نهجها وطريقتها.

ودلت الآية[3] على أن للإنسان يومين: اليوم الأول وهو يوم الدنيا، واليوم الآخر وهو يوم الآخرة. واليوم عرفاً: زمان طلوع الشمس إلى غروبها، وشرعاً: زمان طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس. وهذان المعنيان ليسا بمرادين هنا، وهو ظاهر، فيكون المراد مطلق الزمان، ليلاً كان أو نهاراً، طويلاً كان أو قصيراً. وذلك الزمان إما محدود؛ وهو زمان الدنيا المراد باليوم الأول، أو غير محدود؛ وهو زمان الآخرة المراد باليوم الآخر الذي لا آخر له لتأخره عن يوم الدنيا.

ثم أتى بجملة معترضة بين ما سلف وما سيأتي لتأكيد ما سبق من الأحكام والخروج من مشاكلها بعد اتقاء الله سبحانه فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ سبحانه في طلاق البدعة، فطلق للسنة ولم يضار المعتدة، ولم يخرجها من مسكنها، واحتاط في الإشهاد وغيره من الأمور ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ مصدر ميمي؛ أي: خروجاً وخَلاصاً مما عسى يقع في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق، ويفرج عنه ما يعتريه من الكروب. وقال بعضهم: هو عام؛ أي: ومن يتق الله في كل ما يأتي وما

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

يذر.. يجعل له خروجاً من كل ضيق يشوش البال ويكدر الحال، وخلاصاً من غموم الدنيا والآخرة، فيندرج فيه ما نحن فيه اندراجاً أولياً. وقيل: معناه: ومن يتق الله.. فليطلق للسنة، يجعل له مخرجاً إلى الرجعة، وعن النبي - ﷺ -: أنه قرأها، فقال: «مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة». وفي «الجلالين»: من الشدة إلى الرخاء، ومن الحرام إلى الحلال، ومن النار إلى الجنة، أو اسم مكان بمعنى يخرجه إلى مكان يستريح فيه. وسئل ابن عباس - رضي الله عنهما - عمن طلق امرأته ثلاثاً أو ألفاً، هل له من مخرج؟ فقال: لم يتق الله فلم يجعل له مخرجاً، بانت منه بثلاث، والزيادة إثم في عنقه.

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ بعد ذلك الجعل ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ولا يظن. ﴿مِنْ﴾ ابتدائية متعلقة بـ﴿يرزقه﴾؛ أي: من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه، فيوفي المهر ويؤدي الحقوق ويعطي النفقات. قال في «عين المعاني»: من حيث لا يرتقب من الظن، أو يعتد من الحساب.

والمعنى(۱): أي ومن يخش الله، فلا يطلّق في الحيض حتى لا تطول عدتها، ولا يضار المعتدة، فلا يخرجها من مسكنها، ويحتاط بالإشهاد حين الرجعة.. يجعل الله له مخلصاً مما عسى أن يقع فيه من الغم، ويفرج عنه ما يعتريه من الكرب، ويرزقه من جهة لا تخطر بباله ولا يحتسبها.

والخلاصة: من اتقى الله.. جعل له مخلصاً من غمّ الدنيا وهم الآخرة، وغمرات الموت وشدائد يوم القيامة. وفي الآية إيماء إلى أن التقوى ملاك الأمر عند الله، وبها نيطت السعادة في الدارين، وإلى أن الطلاق من الأمور التي تحتاج إلى فضل تقوى، إذ هو أبغض الحلال إلى الله؛ لما يتضمنه من إيحاش الزوجة وقطع الألفة بينها وبين زوجها، ولما في الاحتياط في العدة من المحافظة على الأنساب وهي من أجل مقاصد الدين، ومن ثم شدد في إحصاء العدة حتى لا تختلط ويكون أمرها فوضى. روي عن ابن مسعود: أنه قال: إن أجمع آية في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، وإن أكبر آية في القرآن فرجاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾.

---

(۱) المراغي.

وقيل المعنى[1]: أي ومن يتق عذاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والوقوف على حدوده التي حدها لعباده وعدم مجاوزتها.. يجعل له مخرجاً مما وقع فيه من الشدائد والمحن، ويرزقه من جهة لا يخطر بباله ولا يكون في حسابه.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في جميع أحواله، ويعتمد عليه في جميع أموره ﴿فَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿حَسْبُهُۥٓ﴾؛ أي: كافي المتوكل عليه في جميع أموره ومعطيه حوائجه حتى يقول: حسبي. أو: من وثق بالله فيما نابه.. كفاه ما أهمه. والتوكل: سكون القلب في كل موجود ومفقود، وقطع القلب عن كل علاقة، والتعلق بالله في جميع الأحوال. و﴿حسبه﴾ بمعنى: محسب؛ أي: كاف.

فإن قلت: إذا كان حكم الله في الرزق لا يتغير، فما معنى التوكل؟

قلت: معناه: أن المتوكل يكون فارغ القلب ساكن الجأش غير كاره لحكم الله، فلهذا كان التوكل محموداً.

والمعنى[2]: أي ومن يكل أمره إلى الله ويفوض إليه الخلاص منه.. كفاه ما أهمه في دنياه ودينه، والمراد بذلك: أن العبد يأخذ في الأسباب التي جعلها من سننه في هذه الحياة، ويؤديها على أمثل الطرق، ثم يكل أمره إلى الله فيما لا يعلمه من أسباب لا يستطيع الوصول إلى علمها، كتوكل الزارع بعد إلقاء الحب في الأرض. وكان السلف يقولون: اتّجروا واكتسبوا، فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم.. كان أول ما يأكل دينه. وربما رأوا رجلاً في جماعة جنازة، فقالوا له: اذهب إلى دكانك. وليس المراد أن يلقي الأمور على عواهنها ويترك السعي والعمل ويفوض الأمر إلى الله، فما بهذا أمر الدين؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾، وقوله - ﷺ -: «اعقلها وتوكل» إلى نحو ذلك مما هو مستفيض في الكتاب والسنة.

وروي عن ابن عباس: أنه ركب خلف رسول الله - ﷺ - يوماً، فقال له رسول الله - ﷺ -: «يا غلام! إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت.. فاسأل الله، وإذا استعنت.. فاستعن بالله، واعلم: أن الأمة

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

لو اجتمعت على أن ينفعوك.. لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك.. لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ثم ذكر السبب في وجوب التوكل عليه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ بالإضافة؛ أي: منفذ أمره ومتم مراده، وممضي قضائه في خلقه، فيمن توكل عليه وفيمن لم يتوكل عليه، إلا أن من توكل عليه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بالغ﴾ بالتنوين، ﴿أمرَه﴾ بالنصب.

وقرأ حفص والمفضل، وأبان، وجبلة وابن أبي عبلة، وجماعة عن أبي عمرو، ويعقوب، وابن مصرف، وزيد بن علي بالإضافة.

وقرأ ابن أبي عبلة أيضاً، وداود بن أبي هند، وعصمة عن أبي عمرو: ﴿بالغ أمرُه﴾ بتنوين ﴿بالغٌ﴾ ورفع ﴿أمرُه﴾ على أنه فاعل بالغ أو على أن ﴿أمره﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿بالغ﴾ خبر مقدم، وقال الفراء في توجيه هذه القراءة: أي أمره بالغ.

والمعنى على القراءة الأولى والثانية: أن الله سبحانه بالغ ما يريده من الأمر، لا يفوته شيء ولا يعجزه مطلوب. وعلى القراءة الثالثة: أن الله نافذ أمره لا يرده شيء.

وقرأ المفضل ﴿بالغاً﴾ بالنصب على الحال، ويكون خبر ﴿إنَّ﴾ قوله: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ ويجوز أن تخرج هذه القراءة على قول من ينصب بإن الجزئين، كقوله:

إِذَا ٱسْوَدَّ جُنْحُ ٱللَّيْلِ فَلْتَأْتِ وَلْتَكُنْ ... خُطَاكَ خِفَافاً إِنَّ حُرَّاسَنَا أُسْدَا

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِكُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الشدة والرخاء، والفقر والغنى، والموت والحياة، ونحو ذلك ﴿قَدۡرٗا﴾؛ أي: تقديراً، متعلقاً بنفس ذاته وبزمانه ومكانه، وبجميع كيفياته وأوصافه، وأنه بالغ ذلك المقدر على حسب ما قدره. أو جعل له مقداراً وحدًّا معيناً، أو وقتاً وأجلاً ونهاية ينتهي إليه، لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه ولا يتأتى تغييره. وفي «التأويلات النجمية»: أي رتبة وكمالاً

---

(١) البحر المحيط.

يليق بذلك الشيء. وقرأ جناح بن حبيش ﴿قدراً﴾ بفتح الدال، والجمهور بإسكانها.

والمعنى: أي إن الله سبحانه وتعالى منفذ أحكامه في خلقه بما يشاء، وقد جعل لكل شيء مقداراً ووقتاً، فلا تحزن أيها المؤمن إذا فاتك شيء مما كنت تؤمل وترجو، فالأمور مرهونة بأوقاتها ومقدرة بمقادير خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

وقال القاشاني: معنى الآية[1]: ومن يتوكل على الله بقطع النظر عن الوسائط والانقطاع إليه من الوسائل.. فهو كافيه يوصل إليه ما قدر له، ويسوق إليه ما قسم لأجله من أنصبة الدنيا والآخرة، إن الله يبلغ ما أراد من أمره لا مانع له ولا عائق، فمن تيقن ذلك.. ما خاف أحداً ولا رجا، وفوض أمره إليه ونجا، وقد عين الله لكل أمر حدّاً معيناً، ووقتاً معيناً في الأزل، لا يزيد بسعي ساع ولا ينتقص بمنع مانع وتقصير مقصر، ولا يتأخر عن وقته ولا يتقدم عليه، والمتيقن لهذا الشاهد له متوكل بالحقيقة، انتهى.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي﴾ من الموصولات، جمع: التي؛ أي: واللاتي ﴿يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ لكبرهن ويأسهن؛ أي: انقطع رجاؤها من رؤية الدم لبلوغها سن اليأس. والمحيض[2]: اسم أو مصدر، ومنه: الحوض؛ لأن الماء يسيل إليه. والحيضة: المرة. وفي الشرع: دم ينفضه رحم امرأة بالغة لا داء بها ولا إياس لها. و﴿مِنَ﴾ لابتداء الغاية، متعلقة بالفعل قبلها. حال كونها ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ وزوجاتكم اللاتي دخلتم بهن. و﴿مِن﴾ للتبيين، متعلقة بمحذوف. ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككتم في عدتهن، وأشكل عليكم حكمهن لانقطاع دمهن بكبر السن، وجهلتم كيف عدتهن. والمراد بالشك: الجهل، وقيد به لموافقة الواقع، فلا مفهوم له، بل عدتها ما ذكر سواء علموا أو جهلوا، لكن الواقع في نفس الأمر أن السائلين عن عدة الآيسة كانوا جاهلين بقدرها، فالآية مخرجة على سبب. ا هـ «شيخنا». ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ فقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي﴾ مبتدأ، خبره قوله: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾، وقوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ اعتراض، وجواب الشرط محذوف تقديره: أي إن ارتبتم فيها.. فاعلموا أنها ثلاثة أشهر، كذا قالوا. والأشهر: جمع شهر، وهو مدة معروفة مشهورة بإهلال الهلال، أو باعتبار

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

جزء من اثني عشر جزءاً من دوران الشمس من نقطة إلى تلك النقطة. قال في «القاموس»: الشهر: العدد المعروف من الأيام؛ لأنه يشهر بالقمر. ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾؛ أي: ما رأين الدم لصغرهن وعدم بلوغهن سن المحيض. وهو مبتدأ، خبره محذوف؛ أي: فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً، وحذف هذا ثقة بدلالة ما قبله عليه. والأولى[1] أن يقدر مثل: أولئك أو كذلك، فيكون المقدر مفرداً. والشابة التي كانت تحيض فارتفع حيضها بعذر من الأعذار قبل بلوغها سن الآيسات.. فعند أبي حنيفة والشافعي لا تنقضي عدتها حتى يعاودها الدم، فتعتد بثلاثة أقراء، أو حتى تبلغ سن الآيسات، فتعتد بثلاثة أشهر.

وقال أبو حيان: والظاهر: أن قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ يشمل من لم يحضن لصغر ومن لا يكون لها حيض ألبتة، وهو موجود في النساء، وهو أنها تعيش إلى أن تموت ولا تحيض. ومن أتى عليها زمان الحيض وما بلغت به، ولم تحض.. فقيل: هذه تعتد بسنة، انتهى.

ووضع[2] السجاوندي الطاء الدالة على الوقف المطلق على وضعه وقانونه في ﴿لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ لانقطاعه عما بعده، وكان الظاهر أن يضع الميم الدالة على الوقف اللازم؛ لأن المتبادر الاتصال الموهم معنى فاسداً. لعله نظر إلى ظهور عدم حمل التي لم تحض لصغرها؟

والمعنى: أي واللائي بلغن سن اليأس فانقطع حيضهن لكبرهن؛ بأن بلغن سن الخامسة والخمسين فما فوقها.. فعدتهن ثلاثة أشهر، وكذا الصغار اللائي لم يحضن إن شككتم وجهلتم كيف تكون عدتهن وما قدرها.. فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً.

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ اسم جمع، واحدتها ذات؛ بمعنى: صاحبة، والأحمال جمع حَمْلَ - بالفتح -، وهو الولد في البطن؛ أي: ذوات الأحمال من النساء والحبالى منهن ﴿أَجَلُهُنَّ﴾؛ أي: منتهى عدتهن ﴿أَن يَضَعۡنَ﴾ ويلدن ﴿حَمۡلَهُنَّۚ﴾؛ أي: جنينهن سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن. فلو ولدت[3] المرأة

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

حملها؛ أي: حطت ما في بطنها بعد طلاق زوجها أو وفاته بلحظة.. انقضت عدتها وحلت للأزواج، فكيف بعد ساعة أو يوم أو شهر؟ وقد نسخ بهذه الآية عموم قوله تعالى في البقرة: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ لتراخي نزولها عنه. وقد صح أن سبيعية بنت الحارث ولدت بعد وفاة زوجها بليال، فذكرت ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ، فقال: «قد حللت فتزوجي». وقرأ الجمهور ﴿حَمْلَهُنَّ﴾ مفرداً، والضحاك: ﴿أحمالهن﴾ جمعاً.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ سبحانه في شأن أحكامه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾؛ أي: يسهل عليه أمره، يوفقه للخير، ويعصمه من المعاصي والشر بسبب التقوى. فـ﴿مَنْ﴾ للبيان، قدم على المبين للفواصل، أو بمعنى: في. وقال الضحاك: من يتق الله فليطلّق للسنة، يجعل له من أمره يسراً في الرجعة.

وحاصل معنى الآية[1]: أي وعدة الحوامل أن يضعن حملهن، سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن، كما روي عن عمر وابنه: فقد أخرج مالك، والشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عمر: أنه سئل عن المرأة يتوفى عنها زوجها وهي حامل، فقال: إذا وضعت حملها.. فقد حلت، فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب قال: لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن.. حلت.

وهكذا روي عن ابن مسعود: فقد أخرج عنه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه: أنه قال: من شاء لاعنته أن الآية التي في النساء الصغرى ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ...﴾ الآية، نزلت بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهراً، وكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها.. فأجلها أن تضع حملها.

وروي: أن سبيعية بنت الحارث الأسلمية كانت تحت سعد بن خولة، فتوفي عنها في حَجة الوداع وهي حامل، فوضعت بعد وفاته بثلاثة وعشرين يوماً، فاختضبت، واكتحلت، وتزينت تريد الزواج، فأنكر ذلك عليها، فسئل النبي ـ ﷺ ـ

---

(١) المراغي.

فقال: «إن تفعل فقد خلا أجلها».

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ...﴾ الخ؛ أي: ومن يخف الله ويرهبه فيؤدي فرائضه **ويجتنب** نواهيه.. يسهل عليه أموره، ويجعل له من كل ضيق فرجاً، وينزله طريق الهدى **في** كل ما يعرض له من المشكلات، فإن في قلب المؤمن نوراً يهديه إلى حلِّ عويصات الأمور. وفي الآية إيماء إلى فضيلة التقوى في أمور الدنيا والآخرة، وأنها المخرج من كل ضيق يعرض المرء فيهما.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأحكام. وإفراد[1] الكاف مع أن الخطاب للجمع كما يفصح عنه ما بعده، لما أنها لمجرد الفرق بين الحاضر والمنقضي لا لتعيين خصوصية المخاطبين. ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حكمه الشرعي ﴿أَنزَلَهُۥٓ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: إلى جانبكم. وقال أبو الليث: أنزله في القرآن على نبيكم لتستعدوا للعمل به، فإياكم ومخالفته.

والمعنى: أي هذا الذي شرع لكم من الأحكام السابقة في الطلاق والسكنى والعدة هو أمر الله الذي أمركم به، وأنزله إليكم لتأتمروا به وتعملوا وفق نهجه.

ثم كرر الأمر بالتقوى؛ لأنها ملاك الأمر وعماده في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالمحافظة على أحكامه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾؛ أي: يسترها لرضاه عنه باتقائه، وربما يبدلها حسنات. ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ بالمضاعفة، وهو الجنة. قال بعضهم: يعطيه أجراً عظيماً أيَّ أجرٍ كان، ولذلك نُكِّرَ، فالتنكير للتعميم المنبىء عن التعميم.

والمعنى: أي ومن يخف الله فيؤد فرائضه ويجتنب نواهيه.. يمسح عنه ذنوبه، كما وعد ذلك في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ويجزل له الثواب على يسير الأعمال.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَيُعْظِمْ﴾ بالياء مضارع أعظم، وقرأ الأعمش: ﴿نعظم﴾ بالنون، خروجاً من الغيبة إلى التكلم، وقرأ ابن مقسم بالياء والتشديد، مضارع عظم مشدداً.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

قال في «برهان القرآن»: أمر بالتقوى في أحكام الطلاق ثلاث مرات وعدَّ في كل مرة نوعاً من الجزاء، فقال أولاً: يجعل له مخرجاً يخرجه مما دخل فيه، وهو يكرهه، ويهيء له محبوبه من حيث لا يؤمل. وقال في الثاني: يسهل عليه الصعب من أمره، ويفتح له خيراً ممن طلقها. والثالث: وعد عليه الجزاء بأفضل الجزاء، وهو ما يكون في الآخرة من النعماء، إشارة إلى تعداد النعم المترتبة على التقوى.

وقوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾: كلام مستأنف[1] وقع جواباً لسؤال مقدر نشأ مما قبله من الحث على التقوى، كأنه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات؟ فقيل: أسكنوهن ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾؛ أي: بعض مكان سكناكم. والخطاب للمؤمنين المطلقين. ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾؛ أي: من وسعكم وطاقتكم؛ أي: مما تطيقونه. قال الفراء: فإن كان موسعاً عليه.. وسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً.. فعلى قدر ذلك. قال قتادة: إن لم تجد إلا ناحية بيتك، فأسكنها فيه، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وتفسير له.

وفي «عين المعاني»: و﴿مِنْ﴾ لتبيين الجنس لما في ﴿حَيْثُ﴾ من الإبهام، انتهى. واعترض عليه أبو حيان: بأنه لم يعهد في عطف البيان إعادة العامل، إنما عهد ذلك في البدل، فالوجه جعله بدلاً.

قال صاحب «اللباب»: إن كانت الدار التي طلقها فيها ملكه.. يجب عليه أن يخرج منها ويترك الدار لها مدة عدتها، وإن كانت الدار بإجارة.. فعليه الأجرة، وإن كانت عارية فرجع المعير.. فعليه أن يكتري لها داراً تسكنها. قال في «كشف الأسرار»: وأما المعتدة من وطء الشبهة والمفسوخ نكاحها بعيب أو خيار عتق.. فلا سكنى لها ولا نفقة وإن كانت حاملاً، انتهى. وقد اختلف[2] أهل العلم في المطلقة ثلاثاً هل لها سكنى ونفقة أم لا؟ فذهب مالك والشافعي أن لها السكنى ولا نفقة لها، وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة، وذهب أحمد وإسحاق، وأبو ثور أنه لا نفقة لها ولا سكنى، وهذا هو الحق، قاله الشوكاني.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿مِنْ وُجْدِكُم﴾ بضم الواو. وقرأ الحسن، والأعرج وابن

---

(١) روح البيان. (٢) فتح القدير. (٣) البحر المحيط.

أبي عبلة، وأبو حيوة بفتحها. وقرأ الفياض بن غزوان، وعمرو بن ميمون، ويعقوب بكسرها، وذكرها المهدوي عن الأعرج. وهي لغات ثلاث. بمعنى الوسع، والوجد ـ بالفتح ـ يستعمل في الحزن والغضب والحب، والوُجد بالضم: الغنى والقدرة.

والمعنى: أي أسكنوا مطلقات نسائكم في الموضع الذي تسكنون فيه على مقدار حالكم، فإن لم تجدوا إلا حجرة بجانب حجرتكم.. فأسكنوها فيها. وإنما أمر الرجال بذلك لأن السكنى نوع من النفقة، وهي واجبة على الأزواج.

ثم نهى عن مضارة المطلقات في السكنى، فقال: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾؛ أي: ولا تقصدوا أيها الأزواج إدخال الضرر عليهن في السكنى بأي وجه كان. فالمفاعلة هنا ليست على بابها. ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ في المسكن ببعض الأسباب، من إنزال من لا يوافقهن معهن، أو بشغل مكانهن، أو غير ذلك، وتلجئوهن إلى الخروج.

والمعنى: ولا تستعملوا معهن الضرار في السكنى، بشغل المكان أو بإسكان غيرهن معهن ممن لا يحببن السكنى معه؛ لتلجئوهن إلى الخروج من مساكنهن. وفيه حث على المروءة والمرحمة، ودلالة على رعاية الحق السابق حتى يتيسر لها التدارك في أمر المعيشة من تزوج آخر أو غيره.

ثم بين نفقة الحوامل، فقال: ﴿وَإِن كُنَّ﴾؛ أي: المطلقات ﴿أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ﴾؛ أي: ذوات حبل؛ أي: حاملات. و﴿أُوْلَٰتِ﴾ منصوب بالكسر؛ لأنه ملحق بجمع المؤنث السالم. وتنوين ﴿حَمۡلٖ﴾ للتعميم؛ يعني أيّ حمل كان قريب الوضع أو بعيده. ﴿فَأَنفِقُواْ﴾ أيها المطلِّقون ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾؛ أي: على المطلقات الحوامل ﴿حَتَّىٰ يَضَعۡنَ﴾ ويلدن ﴿حَمۡلَهُنَّۚ﴾ وحبلهن، فيخرجن من العدة، وتخلصوا من كلفة الإحصاء، ويحل لهن تزوج غيركم إن شئن؛ لأنه بالوضع تنقضي العدة. وهذا حكم المطلَّقة طلقة بائنة، أما المطلقة طلقة رجعية.. فتستحق النفقة وإن لم تكن حاملاً.

واعلم[1]: أن البائن بالطلاق إذا كانت حاملاً لها النفقة والسكنى بالاتفاق، وأما البائن الحائل؛ أي: غير الحامل.. فتستحق النفقة والسكنى عند أبي حنيفة كالحامل، إلى أن تنقضي عدتها بالحيض أو بالأشهر، لما روي عن عمر ـ رضي الله

---

(١) روح البيان.

عنه ـ: أنه قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول في المبتوتة: «لها النفقة والسكنى»؛ لأن ذلك جزاء الاحتباس وهو مشترك بين الحامل وغيرها، خلافاً للأئمة الثلاثة. وأما المتوفى عنهن أزواجهن: فلا نفقة لهن من التركة ولا سكنى، بل تعتد حيث تشاء وإن كن أولات حمل؛ لوقوع الإجماع على أن من أجبر الرجل في حياته على النفقة عليه من امرأة أو ولد صغير لا يجب أن ينفق عليه من ماله بعد موته، فكذا المتوفى عنها الحامل، وهو قول الأكثرين. وقال أبو حنيفة: تجب النفقة والسكنى لكل مطلقة، سواء كانت مطلقة بثلاث أو بواحدة، رجعية أو بائنة ما دامت في العدة، أما المطلقة الرجعية: فلأنها منكوحة كما كانت، وإنما يزول النكاح بمضي العدة، وكونه في معرض الزوال بمضي العدة لا يسقط نفقتها، كما لو آلى وعلق طلاقها بمضي شهر. فالمطلقة الرجعية لها النفقة والسكنى بالإجماع، وأما المبتوتة: فعند أبي حنيفة لها النفقة والسكنى ما دامت في العدة؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾؛ إذ المعنى: أسكنوا المعتدات مكاناً من المواضع التي تسكنونها، وأنفقوا عليهن في العدة من سعتكم، لما قرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم وأنفقوا عليهن من وجدكم﴾. وعند الشافعي: لها السكنى؛ لهذه الآية، ولا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ...﴾ إلخ.

فإن قلت: فإذا كانت كل مطلقة عند أبي حنيفة يجب لها النفقة، فما فائدة الشرط في قوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ...﴾ إلخ؟

قلت: فائدته: أن مدة الحمل ربما طالت، فظن ظان أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحامل، فنفى ذلك الوهم، كما في «الكشاف».

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ﴾ هؤلاء المطلقات ﴿لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ولداً من غيرهن أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية وعلاقة النكاح. وإنما قال: ﴿لَكُمْ﴾ ولم يقل أولادكم لما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾. فالأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئراً، إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه. ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع إن طلبن أو رَجَوْنَ، فإن حكمهن في ذلك حكم الأظآر حينئذ. قال في «اللباب»: فإن طلقها.. فلا يجب عليها الإرضاع إلا أن لا يقبل الولد ثدي غيرها،

فيلزمها حينئذٍ. فإن اختلفا في الأجرة: فإنْ دعت إلى أجرة المثل وامتنع الأب إلا تبرعاً.. فالأم أولى بأجر المثل؛ إذ لم يجد الأب متبرعة، وإن دعا الأب إلى أجر المثل وامتنعت الأم لتطلب شططاً.. فالأب أولى به، فإن أعسر الأب بأجرتها.. أجبرت على إرضاع ولدها، انتهى.

﴿وَأْتَمِرُوا﴾ أيها الآباء والأمهات، وتشاوروا فيما ﴿بَيْنَكُم﴾ في شؤون أولادكم، وافعلوا فيهم ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: بما هو معروف وجميل وإحسان ومتعارف بين الناس غير منكر عندهم؛ أي: ليأمر بعضكم بعضاً بجميل في الإرضاع والأجر، وهو المسامحة. ولا يكن من الأب مماكسة، ولا من الأم معاسرة؛ لأنه ولدهما معاً، وهما شريكان فيه في وجوب الإشفاق عليه.

ومعنى الآية[1]: أي فإن أرضعن لكم وهن طوالق قد بِنَّ بانقضاء عدتهن.. فلهن حينئذ أن يرضعن الأولاد، ولهن أن يمتنعن، فإن أرضعن.. فلهن أجر المثل، ويتفقن مع الآباء أو الأولياء عليه. وفي هذا إيماء إلى أن حق الرضاع والنفقة للأولاد على الأزواج، وحق الإمساك والحضانة على الزوجات. ﴿وَأْتَمِرُوا﴾؛ أي: وتشاوروا فيما بينكم أيها الآباء والأمهات في شؤون الأولاد بما هو أصلح لهم في أمورهم الصحية والخلقية والثقافية، ولا تجعلوا المال عقبة في سبيل إصلاحهم، ولا يكن من الآباء مماكسة في الأجر وسائر النفقات، ولا من الأمهات معاسرة وإحراج للآباء، فالأولاد هم فلذات أكبادهم، فليحافظوا عليهم جهد المستطاع.

ثم أرشد إلى ما يجب أن يعمل إذا لم يحصل الوفاق بين الأبوين في الإنفاق، فقال: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أيها الآباء والأمهات؛ أي: تضايقتم وتشاكستم وتنازعتم في أجر الرضاع؛ كأن أبى الأب أن يعطي الأم أجرة إرضاعها، وأبت الأم أن ترضع الولد مجاناً ﴿فَسَتُرْضِعُ﴾ الولد ﴿لَهُ﴾؛ أي: لوالده امرأة ﴿أُخْرَىٰ﴾ فليس له إكراه الأم على إرضاعه بل يستأجر الأب للصبي مرضعة غير أمه. وهذا أصل في وجوب نفقة الولد على الوالد دون الأم. والضمير[2] في ﴿لَهُ﴾ للأب كما في «الكشاف» وهو الموافق لقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾، أو للصبي والولد كما في «الجلالين» وفيه: أن الظاهر حينئذ أن يقول: فسترضعه، وفيه معاتبة للأم على المعاسرة، كما تقول لمن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

تستقضيه حاجة فيتواني: سيقضيها غيرك، تريد: إن تبق غير مقضية فأنت ملوم.

قال سعدي المفتي: ولا يخلو من معاتبة الأب أيضاً، حيث أسقط في الجواب عن حيز شرف الخطاب مع الإشارة إلى أنه إن ضويقت الأم في الأجر فامتنعت من الإرضاع لذلك.. فلا بد من إرضاع امرأة أخرى، وهي أيضاً تطلب الأجر في الأغلب الأكثر، والأم أشفق وأحن، فهي به أولى.

وبما ذكرنا يظهر كمال الارتباط بين الشرط والجزاء. وإنما خص الأم بالعتاب، لأن المبذول من جهتها هو لبنها لولدها، وهو ليس بمال ولا مما يضن به في العرف، ولا سيما من الأم، والمبذول من جهة الأب هو المال، وهو مضنون به في العادة، فهي إذاً أجدر باللوم وأحق بالعتب.

والمعنى: أي وإن ضيق بعضكم على بعض؛ بأن شاحَّ الأب في الأجر، أو اشتطت الأم في طلب زيادة لا يؤديها أمثاله.. فليحضر الأب مرضعاً أخرى تقوم بالإرضاع، فإن رضيت الأم بمثل ما استؤجرت به الأجنبية.. فهي أحق بولدها. وهذا إذا قبل الولد ثدي مرضع أخرى، فإن لم يقبل إلا ثدي الأم.. وجب عليها الإرضاع بالأجر.

ثم بين مقدار الإنفاق بقوله: ﴿لِيُنفِقْ﴾ والد ﴿ذُو سَعَةٍ﴾ ويسار على المرضع التي طلقت منه ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿ينفق﴾؛ أي: بقدر سعته وغناه، وفيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم وغناهم. ﴿وَمَن قُدِرَ﴾ وضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ وقوته ﴿فَلْيُنفِقْ﴾ على المرضعة ﴿مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: مما أعطاه الله من الرزق ليس عليه غير ذلك وإن قلّ.

والمعنى: لينفق كل من الموسر والمعسر ما يبلغه وسعه ويطيقه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه تعالى ﴿نَفْسًا﴾ معسرة ﴿إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾؛ أي: إلا بإنفاق ما أعطاها من الرزق، فلا يكلف الفقير أن ينفق ما ليس في وسعه، بل عليه ما يقدر عليه وتبلغ إليه طاقته مما أعطاه الله من الرزق.

والمعنى: أي لا يكلف الله سبحانه أحداً من النفقة على من تلزمه نفقته بالقرابة والرحم والنكاح إلا بمقدار ما آتاه من الرزق، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني.

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه عاجلاً وآجلاً؛ إذ ليس في (السين) دلالة على تعين

زمان، وكل آت قريب ولو كان الآخرة. ﴿بَعْدَ عُسْرٍ﴾ وضيق ﴿يُسْرًا﴾؛ أي: سعة؛ أي: سيجعل بعد شدة رخاء، ومن بعد ضيق سعة، ومن بعد فقر غنى، فالدنيا لا تدوم على حال كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾، وهذا كالبشرى للمؤمنين الذين كان يغلب عليهم الفقر والفاقة في ذلك الوقت.

أي: فلينتظر المعسر اليسر وفرج الله، فإن الانتظار عبادة، وفيه: تطييب لقلب المعسر، وترغيب له في بذل مجهوده، ووعد لفقراء الأزواج لا لفقراء ذلك الوقت عموماً، كما جوزه الزمخشري، حيث قال: وعد لفقراء ذلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم، أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه، ولم يقصروا.

ولو عجز عن نفقة زوجته يفرق بينهما، قاله أبو هريرة، والحسن، وابن المسيب، ومالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق. وقال عمر بن عبد العزيز وجماعة: لا يفرق بينهما.

وقرأ الجمهور: ﴿لِيُنفِقْ﴾ بلام لأمر. وحكى أبو معاذ: (لينفقَ) بلام كي ونصب القاف، ويتعلق بمحذوف تقديره: شرعنا ذلك لينفقَ. وقرأ الجمهور: ﴿قُدِرَ﴾ مخففاً، وابن أبي عبلة مشدد الدال.

ولما ذكر سبحانه ما تقدم من الأحكام.. حذر من مخالفتها، وذكر عتو قوم خالفوا أوامره، فحل بهم عذابه، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾؛ أي: وكثير من أهل قرية. و﴿كأين﴾ بمعنى (كم) الخبرية في كونها للتكثير. والقرية: اسم لموضع اجتماع الناس،فهو من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ثم وصفه بصفته، أو من المجاز العقلي والإسناد إلى المكان. وهذه الآية تحذير للناس عن المخالفة في الأحكام المذكورة وتأكيد لإيجابها عليهم.

﴿عَتَتْ﴾؛ أي: استكبرت وأعرضت ﴿عَنْ﴾ امتثال ﴿أَمْرِ رَبِّهَا﴾ وإجابة دعوة ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ تعالى بسبب التجاوز عن الحد في التكبر والعناد. والعتو: الاستكبار ومجاوزة الحد فيه. والعتو لا يتعدى بـ﴿عَنْ﴾، وإنما عُدِّيَ بها لتضمينه معنى الإعراض؛ كأنه قيل: أعرضت عن أمر ربها وأمر رسل ربها، بسبب التجاوز عن الحد في التكبر والعناد.

وفي إيراده[1] صفة الرب توبيخ لهم، وتجهيل لما أن عصيان العبيد لربهم ومولاهم طغيان وجهل بشأن سيدهم ومالكهم وبمرتبة أنفسهم ودوام احتياجهم إليه في التربية. وقوله: ﴿وَكَأَيِّن﴾ مبتدأ، و﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ بيان له، و﴿عَتَتْ﴾ خبر المبتدأ. ﴿فَحَاسَبْنَاهَا﴾ في الدنيا ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾؛ أي: ناقشناها في الحساب مناقشة شديدة، وضيقنا وشددنا عليها، وأخذناها في الدنيا بدقائق ذنوبها وجرائمها من غير عفو، بنحو القحط والجوع، والأمراض والأوجاع، والسيف وتسليط الأعداء عليها، وغير ذلك من البلايا مقدماً معجلاً على استئصالها وذوقها العذاب الأكبرلترجع إلى الله تعالى؛ لأن البلاء كالسوط للسوق، فلم تفعل ولم ترفع رأساً، فابتلاها الله بما فوق ذلك، كما قال: ﴿وَعَذَّبْنَاهَا﴾؛ أي: استئصلناها بالعذاب ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾؛ أي: استئصالاً عظيماً منكراً هائلاً منفراً عنه بالطبع، لشدته وإيلامه، أو غير متوقع، فإنهم كانوا لا يتوقعونه، ولو قيل لهم.. لما يصدقونه. والقهر الغير المتوقع أشد ألماً، واللطف الغير المتوقع أتم لذة، وهو العذاب العاجل بالاستئصال، بنحو الإغراق والإحراق، والريح والصيحة، فالنكر: الأمر الصعب الذي لا يعرف، والإنكار ضد العرفان. وقرأ الجمهور بسكون الكاف، وقرىء بضمها.

وقال مقاتل: حاسبنا أهلها في الدنيا على عملها بالأخذ الشديد، وعذبناها في الآخرة عذاباً منكراً فظيعاً بجهنم. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ أي: عذبنا أهلها في الدنيا عذاباً نكراً، بالجوع والقحط والسيف، والخسف والمسخ، وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً على أعمالهم. ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾؛ أي: ضرر كفرها وثقل عقوبة معاصيها؛ أي: أحسته إحساس الذائق المطعوم. ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ هائلاً لا خسر وراءه؛ أي: وكان عاقبة أمرها هلاكاً في الدنيا وعذاباً في الآخرة فتجارتهم خسارة لا ربح فيها، لتضييعهم بضاعة العمر والصحة والفراغ بصرفها في المخالفات. والخسر وكذا الخسران في الأصل: انتقاص رأس المال، كما سيأتي.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ مع ذلك في الآخرة. ولام ﴿لَهُمْ﴾ لام التخصيص، لا لام النفع، كما في قولهم: دعا له، في مقابلة دعا عليه. ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وهو عذاب

---

(١) روح البيان.

النار. والتكرير للتأكيد؛ أي[1]: قدر العذاب الشديد عليهم في علمه على حسب حكمته، أو هيأ أسبابه في جهنم بحيث لا يوصف كنهه، فهم أهل الحساب والعذاب في الدنيا والآخرة لا في الدنيا فقط، فإن ما أصابهم في الدنيا لم يكن كفارة لذنوبهم؛ لعدم رجوعهم عن الكفر، فعذبوا عذاب الآخرة أيضاً. وهذا المعنى من قوله: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا﴾ إلى هنا هو اللائق بالنظم الكريم، هكذا ألهمت به حين المطالعة، ثم وجدت في تفسير «الكواشي» و«كشف الأسرار» و«أبي الليث» و«الأسئلة المقحمة» ما يدل على ذلك. والحمد الله تعالى، فلا حاجة إلى أن يقال: إن فيه تقديماً وتأخيراً، وإن المعنى: عذبناها عذاباً شديداً في الدنيا، وحاسبناها حساباً شديداً في الآخرة، على أن لفظ الماضي للتحقيق، كأكثر ألفاظ القيامة.

ومعنى الآية[2]: أي وكثير من أهل القرى خالفوا أمر ربهم، فكذبوا الرسل الذين أرسلوا إليهم ولجوا في طغيانهم يعمهون، وسنحاسبهم حساباً عسيراً، ونستقصي عليهم ذنوبهم، ونناقشهم على النقير والقطمير، ونعذبهم عذاباً نكراً في الآخرة. وعبر بالماضي عن المستقبل دلالة على التحقق، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، ثم بين أن هذا جزاء ما كسبت أيديهم، فقال: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا...﴾ إلخ؛ أي: وستجني ثمار ما غرست أيديها، ولا يجنى من الشر إلا الشر، كما جاء في أمثالهم: لا تجني من الشوك العنب. فكان عاقبة أمرها الخسران والنكال الذي لا يقادر قدره. ثم أكد هذا الوعيد بقوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ أي: هيأ الله لهم العذاب المرتقب؛ لتماديهم في طغيانهم وإعراضهم عن اتباع الرسل فيما جاؤوا به من عند ربهم.

ثم نبه المؤمنين إلى تقوى الله حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم، فقالوا: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: فخافوا عقاب الله سبحانه ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: يا أصحاب العقول الراجحة والفطر السليمة ﴿الَّذِينَ﴾ لرجاحة عقولهم وسلامة فطرهم ﴿آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، واحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بمن قبلكم وتذكروا فإن الذكرى تنفع المؤمنين. والموصول في محل النصب نعت للمنادى، أو عطف بيان له، أو منصوب بتقدير: أعني.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي

والظاهر[1]: أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مبتدأ، خبره قوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ﴾. والخطاب فيه من قبيل الالتفات من الغيبة؛ أي: قد أنزل الله إليهم ﴿ذِكْرًا﴾ هو القرآن، وأرسل إليهم ﴿رَّسُولًا﴾ هو محمد ﷺ فهو منصوب بفعل مقدر على حد:

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبْـنَـاً وَمَـاءً بَـارِدَاً

وقرىء: ﴿رسولٌ﴾ بالرفع؛ أي: هو رسول، على إضمار هو. وجملة قوله: ﴿يَتْلُوا﴾؛ أي: يقرأ ويعرض ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا أولي الألباب، أو يا أيها المؤمنون، أو ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الالتفات السابق صفة ﴿رَّسُولًا﴾. ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: القرآن ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ بالكسر؛ أي: حال كون تلك الآيات مبينات ومظهرات لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام. أو بالفتح؛ أي: واضحات لا خفاء في معانيها عند الأهالي، أو لا مرية في إعجازها عند البلغاء المنصفين.

وقرأ الجمهور[2]: بالفتح على صيغة اسم المفعول. وقرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي بالكسر على صيغة اسم الفاعل. ورجح القراءة الأولى أبو حاتم وأبو عبيد؛ لقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾.

وإنما يتلوها، أو أنزله ﴿لِّيُخْرِجَ﴾ الرسولُ، ويخلِّصَ، أو اللّهُ تعالى. قال بعضهم: اللام متعلقة بـ﴿أَنزَلَ﴾ لا بقوله: ﴿يَتْلُوا﴾؛ لأن ﴿يَتْلُوا﴾ مذكور على سبيل التبعية دون ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الموصول عبارة عن المؤمنين بعد إنزاله، وإلا.. فإخراج الموصوفين بالإيمان من الكفر لا يمكن إذ لا كفر فيهم حتى يخرجوا منه؛ أي: ليحصل لهم الرسول ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح بإخراجهم عما كانوا عليه. أو ليخرج الله من علم أو قدر أنه سيؤمن، أو أطلق عليهم ﴿ءَامَنُوا﴾ باعتبار ما آل أمرهم إليه. ولم يقل[3]: ليخرجكم إظهاراً لشرف الإيمان والعمل والصالح، وبياناً لسبب الإخراج وحثاً على التحقق بهما. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: من الضلالة إلى الهدى، ومن الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الشبهات إلى الدلائل والبراهين، ومن الغفلة إلى اليقظة.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

والمعنى[1]: أي قد أنزل الله سبحانه إليكم ـ يا ذوي البصائر ـ ذكرا لكم، وهو القرآن الكريم يذكركم به لتستمسكوا بحبله المتين، وتعملوا بطاعته، وأرسل إليكم رسولاً يتلو عليكم آيات هذا الكتاب الذي أنزل عليه، وهي واضحات لمن تدبرها وعقلها كي يخرج من لديه استعداد للهدى من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان إذا هو أمعن في النظر فيها، وأجال الفكر في أسرارها ومغازيها، فهي النبراس الساطع والضوء اللامع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم بيّن جزاء الإيمان والعمل الصالح، فقال: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ﴾ ويصدق ﴿بِاللَّهِ﴾ سبحانه وعظيم قدرته وبديع حكمته ﴿وَيَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾؛ أي: خالصاً من الرياء والتصنع والغرض. وهو استئناف لبيان شرف الإيمان والعمل الصالح، ونهاية أمر من اتصف بهما، تنشيطاً وترغيباً لغير أهلهما لهما؛ أي: ومن يجمع بين التصديق والعمل بما فرضه الله عليه مع اجتناب ما نهاه عنه ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت قصورها أو أشجارها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ الأربعة المذكورة في سورة محمد ﷺ.

وقرأ الجمهور: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بالتحتية. وقرأ نافع، وابن عامر بالنون.

حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾؛ أي: مقيمين ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنات إقامة مؤبدة دائمين فيها. وهو حال من مفعول ﴿يُدْخِلْهُ﴾. والجمع[2] باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾ كما أن الإفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها. ﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان بمعنى دائماً غير منقطع، فيكون تأكيداً للخلود؛ لئلا يتوهم أن المراد به المكث الطويل المنقطع آخراً.

وجملة قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿خَالِدِينَ﴾ على التداخل، أو من مفعول ﴿يُدْخِلْهُ﴾ على الترادف. ومعنى ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾؛ أي: وسع له رزقه في الجنة. وفيه[3] معنى التعجب والتعظيم لما رزقه الله سبحانه المؤمنين من الثواب؛ لأن الجملة الخبرية إذا لم يحصل منها فائدة الخبر ولا لازمها.. تحمل على التعجب إذا اقتضاه المقام؛ كأنه قيل: ما أحسن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

رزقهم الذي رزقهم الله تعالى، وما أعظمه. فرزقاً ظاهره المفعولية لأحسن، والتنوين للتعظيم؛ لإعداده تعالى فيها ما هو خارج عن الوصف، أو للتكثير عدداً؛ لما فيه مما تشتهيه الأنفس من الرزق والأنفس، أو مدداً؛ لأن أكلها دائم لا ينقطع ولا بعد في أن يكون ﴿لَهُۥ﴾ بمعنى: إليه، ويكون ﴿رِزْقًا﴾ تمييزاً، بمعنى: قد هيأ له وأعد ما يحسن إليه به من جهة الرزق.

ومعنى الآية[1]: أي ومن يصدق بوحدانية الله وعظيم قدرته وبديع حكمته، ويعمل بطاعته.. ويدخله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبداً، لا يموتون ولا يخرجون منها، وقد وسع الله لهم فيها الأرزاق من مطاعم ومشارب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ الاسم الشريف مبتدأ، والموصول مع صلته خبره؛ أي: المعبود الذي يستحق منكم العبادة هو الإله القادر، الذي خلق وأبدع على غير مثال سابق سبع طبقات علوية. ونكرها للتعظيم المفيد لكمال قدرة صانعها، أو لكفايته في المقصود من إثبات قدرته الكاملة على وفق حكمته الشاملة، وذلك يحصل بإخبار خلقه تعالى سبع سمٰوات من غير نظر إلى التعيين. ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وخلق من الأرض ﴿مِثْلَهُنَّ﴾؛ أي: مثل السمٰوات السبع في العدد والطباق، فقوله: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ منصوب بفعل مضمر بعد الواو، دل عليه الناصب لسبع سمٰوات، وليس بمعطوف على سبع سمٰوات؛ لأنه يستلزم الفصل بين حرف العطف ـ وهو الواو ـ وبين المعطوف بالجار والمجرور، وصرح سيبويه وأبو علي بكراهيته في غير موضع الضرورة.

واختلف في كيفية طبقات الأرض[2]: قال القرطبي في «تفسيره»: واختلف فيهن على قولين:

أحدهما ـ وهو قول الجمهور ـ: أنها سبع أرضين طباقاً، بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض، وفي كل أرض سكان من خلق الله.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وقال الضحاك: إنها مطبقة بعضها فوق بعض من غير فتوق ولا فرجة بخلاف السمٰوات.

والقول الأول أصح؛ لأن الأخبار الصحيحة دالة عليه:

منها: ما في «صحيح مسلم» عن سعيد بن زيد قال: سمعت النبي - ﷺ - يقول: «من أخذ شبراً من الأرض ظلماً.. فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين...» إلى آخر كلامه.

ومنها: ما روي عن ابن مسعود: أن النبي - ﷺ - قال: «ما السمٰوات السبع وما فيهن وما بينهن، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الشعب» من طريق أبي الضحى عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قال: سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. قال البيهقي: هذا إسناده صحيح، وهو شاذ بمرة لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً. قال أبو حيان: وهذا حديث لا شك في وضعه.

وقرأ الجمهور: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أو على تقدير فعل؛ أي: وخلق من الأرض مثلهن. وقرأ عاصم في رواية وعصمة عن أبي بكر عنه بالرفع على الابتداء والجار والمجرور قبله خبره.

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: أمر الله، واللام عوض عن المضاف إليه. وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَتَنَزَّلُ﴾ مضارع تنزل وبرفع ﴿ٱلْأَمْرُ﴾. وقرأ عيسى وأبو عمر في رواية ﴿ينزِّل﴾ مضارع نزل مشدداً، ﴿الأمر﴾ بالنصب، والفاعل ﴿الله﴾ سبحانه. وقرىء: ﴿ينزِل﴾ مخففاً، مضارع أنزل. ﴿بَيْنَهُنَّ﴾؛ أي: بين السمٰوات السبع والأرضين السبع.

والظاهر[2]: أن الجملة استئنافية للإخبار عن شمول جريان حكمه ونفوذ أمره في العلويات والسفليات كلها، فالأمر عند الأكثرين القضاء والقدر، بمعنى: يجري

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

قضاؤه وينفذ حكمه بين السماء السابعة التي هي أعلى السمٰوات وبين الأرض السابعة التي هي أسفل الأرضين، ولا يقتضي ذلك أن لا يجري في العرش والكرسي؛ لأن المقام اقتضى ذِكر ما ذَكره، والتخصيص بالذِّكر لا يقتضي التخصيص بالحكم.

وقال قتادة: في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه. وقيل: هو يدبر فيهن من عجيب تدبيره. فينزل المطر ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء ويخلق المخلوقات على اختلاف ألوانها وهيئاتها، فينقلهم من حالٍ إلى حال.

والمعنى: يجري أمر الله وقضاؤه وقدره، وينفذ حكمه فيهن، فهو يدبر ما فيها وفق علمه الواسع وحكمته في إقامة نظمها بحسب العدل والمصلحة.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ متعلق[1] بـ﴿خَلَقَ﴾، أو بـ﴿يَتَنَزَّلُ﴾ أو بما يعمهما؛ أي: فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذكر.. قادر على كل شيء، ومنه البعث للحساب والجزاء، فتطيعوا أمره وتقبلوا حكمه، وتستعدوا لكسب السعادة والخلاص من الشقاوة. واللام لام المصلحة والحكمة؛ لأن فعله تعالى خال عن العبث، لا لام الغرض، فإنه تعالى منزه عن الغرض؛ إذ هو لمن له الاحتياج، والله تعالى غني عن العالمين. ﴿و﴾ لتعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ كما أحاط به قدرة؛ لاستحالة صدور الأفعال المذكورة ممن ليس كذلك. والإحاطة: العلم البالغ، فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان. ويجوز أن يكون العامل في اللام بيان ما ذكر من الخلق وتنزل الأمر؛ أي: أوحى ذلك وبينه لتعلموا بما ذكر من الأمور التي تشاهدونها والتي تتلقونها من الوحي من عجائب المصنوعات أنه لا يخرج عن علمه وقدرته شيء ما أصلاً. وقوله: ﴿عِلْمًا﴾ نصب على التمييز المحول عن الفاعل؛ أي: ﴿أَحَاطَ﴾ علمه بكل شيء كما في «عين المعاني» أو على المصدر المؤكد لأن ﴿أَحَاطَ﴾بمعنى علم؛ أي: وأن الله قد علم كل شيء علماً كما في «فتح الرحمٰن» أو على أنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: أحاط إحاطة علماً، كما في «الشوكاني».

---

(١) روح البيان.

وروي عن الإمام أبي حنيفة: أن هذه الآية من أخوف الآيات في القرآن.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ بتاء الخطاب. وقرئ بياء الغيبة.

والمعنى[2]: ينزل قضاء الله وأمره بين ذلك كي تعلموا أيها الناس كنه قدرته وسلطانه، وأنه لا يتعذر عليه شيء أراده، ولا يمتنع عليه أمر شاءه، فهو على ما يشاء قدير. ولتعلموا أن الله بكل شيء من خلقه محيط علماً، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. فخافوا أيها المخالفون أمر ربكم؛ فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع، وهو قادر على ذلك ومحيط بأعمالكم، لا يخفى عليه منها خاف، وهو محصيها عليكم ليجازيكم بها يوم تجزى كل نفس بما كسبت واكتسبت.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لـ﴿أيُّ﴾ أو بدل منه، أو عطف بيان، وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إذا﴾ ﴿طلقوهن﴾: فعل وفاعل، ومفعول به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من مفعول ﴿طلقوهن﴾؛ أي: حالة كونهن مستأنفات ومستقبلات لعدتهن ومتوجهات إليها. وهذا أولى ما قيل في بيان متعلق اللام. وقيل: متعلق بـ﴿طلقوهن﴾ على تقدير مضاف؛ أي: طلقوهن لاستقبال عدتهن ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ﴾: فعل وفاعل، ومفعول، معطوف على ﴿طلقوهن﴾، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف أيضاً على ﴿طلقوهن﴾، ﴿رَبَّكُمْ ۖ﴾: بدل من الجلالة، ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾: فعل مضارع، وفاعل،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية معطوف على ﴿طلقوهن﴾ بعاطف مقدر، ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿يَخۡرُجۡنَ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، ونون الإناث في محل الرفع فاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾. وإنما جمع بين النهيين إشارة إلى أن الزوج لو أذن لها في الخروج لا يجوز لها الخروج. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء من أعم الأحوال، ﴿أَن﴾ حرف مصدر ونصب، ﴿يَأۡتِينَ﴾: فعل مضارع في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل، ﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾: متعلق بـ﴿يَأۡتِينَ﴾، ﴿مُّبَيِّنَةٖۚ﴾: صفة لـ﴿فاحشة﴾. والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على الحال من فاعل ﴿لا يخرجن﴾، ومن مفعول ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾ ولكنه في تأويل مشتق تقديره: لا تخرجوهن، ولا يخرجن في حال من الأحوال إلا في حال كونهن آتيات بفاحشة مبينة.

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾.

﴿وَتِلۡكَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿تلك﴾: مبتدأ، ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يَتَعَدَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به. ﴿فَقَدۡ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب (مَنْ) الشرطية وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونه جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تَدۡرِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على المطلق، ومفعول الدراية محذوف تقديره: لا تدري أيها المطلق عاقبة أمرك وأمرها. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل مضمون جواب الشرط. ﴿لَعَلَّ﴾: حرف نصب بمعنى ﴿إنّ﴾ مجرد عن معنى الترجي، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿يُحۡدِثُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ﴿يُحۡدِثُ﴾، ﴿أَمۡرٗا﴾: مفعول به، وجملة ﴿يُحۡدِثُ﴾ في محل

الرفع خبر ﴿لَعَلَّ﴾، وجملة ﴿لَعَلَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل جملة الدراية، كما مرّ في مبحث التفسير.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾.

﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته من أحكام الطلاق، وأردت بيان حكم الرجعة، فأقول لك: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿بَلَغْنَ﴾: فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، ونون النسوة فاعل، ﴿أَجَلَهُنَّ﴾: مفعول به، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط، ﴿أمسكوهن﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول به، والجملة جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: حال من ضمير الإناث، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: حال كون إمساكهن متلبساً بمعروف. ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾: معطوف على ﴿أمسكوهن بمعروف﴾، ﴿وَأَشْهِدُوا﴾: فعل أمر، وفاعل، معطوف على ﴿أمسكوهن﴾، ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ﴾: مفعول به منصوب بالياء؛ لأنه تثنية ذا؛ بمعنى صاحب ﴿مِنْكُمْ﴾: صفة لـ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ﴾؛ أي: كائنين منكم. ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول به معطوف على ﴿أشهدوا﴾، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿وَأَقِيمُوا﴾؛ أي: لوجه الله.

﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾.

﴿ذَلِكُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُوعَظُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿يُوعَظُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿يُوعَظُ﴾، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُوعَظُ﴾، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمها ضمير مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ وجملة ﴿يُؤْمِنُ﴾ في محل نصب خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يُؤْمِنُ﴾، ﴿وَالْيَوْمِ﴾: معطوف على الجلالة، ﴿الْآخِرِ﴾: صفة لـ﴿اليوم﴾، ﴿وَمَنْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو اعتراضية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في

محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿يَجْعَل﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿لَّهُۥ﴾ متعلق بـ﴿يَجْعَل﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿مَخْرَجًا﴾: مفعول أول له، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة سيقت استطراداً لذكر المؤمنين، أو اعتراضية لاعتراضها بين أحكام المطلقات.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿يَجْعَل﴾، ﴿مِنْ حَيْثُ﴾: متعلق بـ﴿يرزق﴾، وجملة ﴿لَا يَحْتَسِبُ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾، ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿يَتَوَكَّلْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستترمجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَتَوَكَّلْ﴾، ﴿فَهُوَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿حَسْبُهُۥٓ﴾: خبر. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿بَـٰلِغُ﴾: خبره، ﴿أَمْرِهِۦ﴾: مضاف إليه أو مفعول به، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿لِكُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له إن كانت بمعنى التصيير، ﴿قَدْرًا﴾: مفعول ثان له. والجملة الفعلية في محل الرفع بدل من ﴿بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ على كونه خبر لـ﴿إنّ﴾.

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللائي﴾: اسم موصول للجمع المؤنث في محل الرفع مبتدأ، ﴿يَئِسْنَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾: متعلق بـ﴿يَئِسْنَ﴾، ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾: حال من فاعل ﴿يَئِسْنَ﴾، ﴿إِنِ﴾: حرف شرط،

﴿ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: فعل، وفاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية، ﴿عدتهن﴾: مبتدأ، ﴿ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوابها في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. وقيل: الجملة الاسمية خبر اللاتي، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فاعلموا أنها ثلاثة أشهر، وتكون جملة الشرط وجوابه معترضة. والأول أولى؛ لسهولته ولاستغنائه عن التقدير. ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللائي﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: فكذلك أو مثلهن؛ أي: فعدتهن ثلاثة أشهر. ولو قيل: إنه معطوف على ﴿اللائي يئسن﴾ عطف المفردات، وأخبر عن الجميع بقوله: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾.. لكان وجهاً حسناً. ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾: مبتدأ أول، ومضاف إليه ﴿أَجَلُهُنَّ﴾: مبتدأ ثان، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يَضَعۡنَ﴾: فعل مضارع في محل النصب مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل، ﴿حَمۡلَهُنَّۚ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية، تقديره: أجلُهن وضعُهن حملَهن. وجملة المبتدأ الثاني في محل الرفع خبر عن الأول، وجملة الأول معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾ شرطية في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، وجملة ﴿يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾: فعل شرط لها، وجملة ﴿يَجۡعَل﴾ جوابها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿لَّهُۥ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾: حال من ﴿يُسۡرٗا﴾، و﴿يُسۡرٗا﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنزَلَهُۥٓ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿إِلَيۡكُمۡۚ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَهُۥٓ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَمَن يَتَّقِ﴾: اسم شرط وفعله، ﴿ٱللَّهَ﴾ لفظ الجلالة مفعول و﴿يُكَفِّرۡ﴾: جوابه، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى. ﴿عَنۡهُ﴾: متعلق بـ﴿يُكَفِّرۡ﴾، ﴿سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾: مفعول به. ﴿وَيُعۡظِمۡ﴾: معطوف على جواب الشرط، ﴿لَهُۥٓ﴾ متعلق بـ﴿يعظم﴾، ﴿أَجۡرًا﴾: مفعول به.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ متعلق بـ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾، وجملة ﴿سَكَنتُم﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾، ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾: بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُضَآرُّوهُنَّ﴾: فعل مضارع، وفاعل، ومفعول به، مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾. ﴿لِتُضَيِّقُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تضيقوا﴾: فعل مضارع، ومفعول تضيقوا محذوف، تقديره: لتضيقوا المساكن أو النفقة. وجملة ﴿تضيقوا﴾ صلة أن المضمرة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتضييق المساكن، ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُضَآرُّوهُنَّ﴾.

﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿كُنَّ﴾: فعل ماض ناقص في محل جزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، مبني بسكون على النون المدغمة في نون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع اسمها، ﴿أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ﴾: خبرها. ﴿فَأَنفِقُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية، ﴿أنفقوا﴾: فعل أمر في محل جزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية، على كونه جواباً لها، مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿أنفقوا﴾، والجملة مستأنفة أو معطوفة على ما قبلها. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿يَضَعْنَ﴾: فعل مضارع في محل النصب بأن المضمرة بعد حتى، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل، ﴿حَمْلَهُنَّ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، بمعنى إلى، تقديره: إلى وضعهن حملهن، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أنفقوا﴾، ﴿فَإِنْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حكم إنفاقهن، وأردتم بيان حكم إرضاع الولد.. فأقول لكم: إن أرضعن لكم. ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿أَرْضَعْنَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث فاعل، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَرْضَعْنَ﴾ ومفعول ﴿أَرْضَعْنَ﴾

محذوف، تقديره: ولداً منهن. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿آتوهن﴾: فعل أمر، وفاعل ومفعول أول، ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مفعول ثان لأن ﴿آتى﴾ بمعنى أعطى، وجملة الأمر في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَأْتَمِرُواْ﴾: فعل أمر، وفاعل، معطوف على ﴿آتوهن﴾؛ أي: ليأمر بعضكم بعضاً. ﴿بَيْنَكُم﴾: ظرف متعلق بـ﴿ائتمروا﴾، ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: متعلق بـ﴿ائتمروا﴾ أيضاً. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنْ﴾ حرف شرط، ﴿تَعَاسَرْتُمْ﴾: فعل، وفاعل في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿فَسَتُرْضِعُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً لاقترانه بحرف التنفيس، و﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿ترضع﴾: فعل مضارع مرفوع، ﴿لَهُۥٓ﴾: متعلق بـ﴿ترضع﴾، ﴿أُخْرَىٰ﴾: فاعل. والجملة في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية معطوفة على ما قبلها.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿لِيُنفِقْ﴾: ﴿اللام﴾: لام أمر، ﴿ينفق﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، ﴿ذُو سَعَةٍ﴾: فاعل مرفوع بالواو، لأنه من الأسماء الستة، ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿ينفق﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿قُدِرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿قُدِرَ﴾، ﴿رِزْقُهُۥ﴾: نائب فاعل، ﴿فَلْيُنفِقْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية، و﴿اللام﴾: لام الأمر، ﴿ينفق﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ الشرطية ﴿مِمَّآ﴾: متعلق بـ﴿ينفق﴾ وجملة ﴿ينفق﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿لِيُنفِقْ﴾ لاشتمالها على الطلب أيضاً، وجملة ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾: صفة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾: فعل وفاعل، ومفعول أول، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ما﴾: مفعول به ثان لـ﴿يُكَلِّفُ﴾، وجملة ﴿ءَاتَىٰهَا﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة،

﴿سَيَجۡعَلُ﴾: ﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿يجعل الله﴾: فعل مضارع، وفاعل، ﴿بَعۡدَ عُسۡرٍ﴾: ظرف متعلق بمحذوف، وهو المفعول الثاني لـ﴿يجعل﴾. ﴿يُسۡرًا﴾: مفعول أول لـ﴿يجعل﴾، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتأكيد الوعد للفقراء بفتح أبواب الرزق.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابًا نُّكۡرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كأين﴾: اسم مبهم، بمعنى كم الخبرية، في محل الرفع مبتدأ، ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾: تمييز لـ﴿كأين﴾، و﴿مِنۡ﴾ زائدة، وجملة ﴿عَتَتۡ﴾؛ أي: أعرضت، خبرها. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿عَنۡ أَمۡرِ﴾: متعلق بـ﴿عَتَتۡ﴾، ﴿رَبِّهَا﴾: مضاف إليه، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوف على ﴿رَبِّهَا﴾، ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿حاسبناها﴾: فعل وفاعل، ومفعول به، ﴿حِسَابًا﴾: مفعول مطلق، ﴿شَدِيدًا﴾: صفة ﴿حِسَابًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَتَتۡ﴾، ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿حاسبناها﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق، ﴿نُّكۡرًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾. ﴿فَذَاقَتۡ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ذاقت﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿قَرۡيَةٍ﴾، معطوف على ﴿عذبنا﴾، ﴿وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾: مفعول به، ومضاف إليه، ﴿وَكَانَ﴾: فعل ماض ناقص، معطوف على ﴿ذاقت﴾، ﴿عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا﴾: اسمها، ﴿خُسۡرًا﴾: خبرها.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، ﴿لَهُمۡ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به، ﴿شَدِيدًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾، والجملة مفسرة لما تقدم تأكيداً للوعيد، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما ذكر من استئصال الأمم الماضية بمخالفة أمر ربها ورسله، وأردتم بيان ما هو النجاة لكم من ذلك.. فأقول لكم: اتقوا الله. ﴿اتقوا الله﴾: فعل أمر، وفاعل، ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿يَٰٓأُوْلِي﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أولي﴾:

منادى مضاف منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة على كونها جواب الأمر السابق. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: نعت للمنادى، أو بدل منه، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة له، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿ذِكْرًا﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة.

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾.

﴿رَّسُولًا﴾: منصوب بفعل مقدر لدلالة ما قبله عليه، تقديره: أرسل إليكم رسولاً، والجملة معطوفة بعاطف مقدر على ﴿أَنزَلَ﴾، على حد قوله:

عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِداً   حَتَّىٰ غَدَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا

أي: وسقيتها ماء بارداً، وفيه أوجه كثيرة من الإعراب مذكورة في المطولات.

وجملة ﴿يَتْلُوا۟﴾: في محل النصب صفة لـ﴿رَّسُولًا﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ﴿يَتْلُوا۟﴾، ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مفعول به، ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾: حال من ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ﴿لِّيُخْرِجَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يخرج﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لإخراجه الذين آمنوا، الجار والمجرورمتعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾ أو بـ﴿يَتْلُوا۟﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل نصب مفعول به. وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿يخرج﴾، ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾: متعلق بـ﴿يخرج﴾ أيضاً، ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة جواب الشرط أو الجواب، ﴿يُؤْمِنۢ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنۢ﴾، ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿يُؤْمِنۢ﴾، ﴿يُدْخِلْهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية، على كونه جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول به ثان على السعة لـ﴿يُدْخِلْهُ﴾، ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، ﴿مِن

﴿تَحْتِهَا﴾: متعلق بـ﴿تَجْرِي﴾، ﴿الْأَنْهَارُ﴾: فاعل، والجملة صفة لـ﴿جَنَّاتٍ﴾، ﴿خَالِدِينَ﴾: حال من الهاء في ﴿يُدْخِلْهُ﴾، روعي فيه معنى ﴿مَنْ﴾ الشرطية بعد مراعاة لفظها، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَالِدِينَ﴾، ﴿أَبَدًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿خَالِدِينَ﴾، ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿أَحْسَنَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿أَحْسَنَ﴾، ﴿رِزْقًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال ثانية من الهاء في ﴿يُدْخِلْهُ﴾. وقد روعي فيها لفظ ﴿مَنْ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿الَّذِي﴾: خبره، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿خَلَقَ﴾: صلة الموصول ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ﴾: حال من ﴿مِثْلَهُنَّ﴾، و﴿مِثْلَهُنَّ﴾: مفعول به لفعل محذوف، تقديره: وخلق من الأرض مثلهن، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾. ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بَيْنَهُنَّ﴾: متعلق بـ﴿يَتَنَزَّلُ﴾، ﴿لِتَعْلَمُوا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تعلموا﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وعلامة نصبه حذف النون، والواو: فاعل، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لعلمكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَتَنَزَّلُ﴾. ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تعلموا﴾، تقديره: لتعلموا قدرة الله على كل شيء، و﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿أَحَاطَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهَ﴾، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿أَحَاطَ﴾، ﴿عِلْمًا﴾: تمييز محول عن الفاعل منصوب بـ﴿أَحَاطَ﴾، وجملة ﴿أَحَاطَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ معطوفة على جملة أنَّ الأولى على كونها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي تعلموا، تقديره: وإحاطة علمه تعالى بكل شيء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾: قال في «المفردات». أصل الطلاق: التخلية من وثاق. ويقال: أطلقت البعير من عقاله، وطلقته، وهو طالق وطلق بلا قيد، ومنه: استعير: طلقت المرأة، إذا خليتها، فهي طالق؛ أي: مخلاة من حبالة النكاح. والطلاق اسم

مصدر بمعنى التطليق، كالسلام والكلام بمعنى التسليم والتكليم. وفي ذلك قالوا: المستعمل في المرأة لفظ التطليق، وفي غيرها لفظ الإطلاق، حتى لو قال: أطلقتك.. لم يقع الطلاق ما لم ينوه، ولو قال: طلقتك.. وقع نوى أو لم ينوه.

﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ العدة مصدر عده يعده، كشده يشده شدة، وشرعاً: اسم لمدة تتربص فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها غالباً؛ أي: مستقبلين لعدتهن؛ بأن تطلقوهن في طهر لا قربان فيه. ﴿وَأَحْصُواْ الْعِدَّةَ﴾؛ أي: اضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء كوامل. وأصل الإحصاء: العد بالحصى كما كان يستعمل ذلك قديماً، ثم استعمل في مطلق العد والضبط، وأصله: أحصيوا، بوزن أفعلوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت الياء حذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، ثم ضمت الصاد لمناسبة الواو.

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾: والتقوى في الأصل: اتخاذ الوقاية، وهي: ما يقي الإنسان مما يكرهه، ويؤمل أن يحفظه، ويحول بينه وبين ذلك المكروه، كالترس ونحوه، ثم استعير في الشرع لاتخاذ ما يقي العبد بوعد الله ولطفه من قهره، ويكون سبباً لنجاته من المضار الدائمة وحياته بالمنافع القائمة.

﴿بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ - بالكسر - اسم فاعل، من بين اللازم، بمعنى تبين. والفاحشة: كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وهو الزنا في هذا المقام. وقيل: البذاء على الأحماء، أو على الزوج، أو الخروج قبل انقضاء العدة.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: شرائعه التي أمر بفعلها، ونهى عن ارتكابها، وهي جمع حدّ، والحد: الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾: ﴿يَتَعَدَّ﴾: فيه إعلال بالحذف، فحذف حرف العلة عنه للجازم. ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾؛ أي: أضر بها.

﴿يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ والحدوث: كون الشيء بعد أن لم يكن، عرضاً كان ذلك أو جوهراً، وإحداثه: إيجاده. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وفي «المفردات»: البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى القصد والمبتغى، مكاناً كان أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدرة، وربما يعبر به عن المشارفة عليه، وإن لم ينته إليه مثل: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ ...﴾ إلخ كما مرّ. ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ﴾ والعدالة: هي الاجتناب عن الكبائر كلها، وعدم

الإصرار على الصغائر، وغلبة الحسنات على السيئات. ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾: الوعظ: زجر يقترن بتخويف. ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾: المخرج مصدر ميمي؛ أي: خروجاً وخلاصاً مما عسى يقع في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضائق، ويفرج عنه ما يعتريه من الكروب.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التوكل: سكون القلب في كل موجود ومفقود. ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾؛ أي: محسبه؛ أي: كافيه. ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾: ﴿يَئِسْنَ﴾ فعل ماض، والنون للنسوة. واليأس: القنوط ضد الرجاء، يقال: يئس من مراده ييأس يأساً، وفي معناه: أيس يأيس يأساً، وإياساً لا أيساً، وفاعلهما: آيس، لا يائس، يقال: امرأة آيس، إذا كان يأسها من الحيض دون آيسة؛ لأن التاء إنما زيدت في المؤنث، إذا استعملت الكلمة للمذكر أيضاً فرقاً بينهما، وإذا لم تستعمل له.. فأي حاجة إلى الزيادة؟ ومن ذلك يقال: امرأة حائض وطالق وحامل، بلا تاء إذا كان حملها من الولد، وأما إذا كان يأسها وحملها من غير الحيض وحمل الولد.. يقال: آيسة وحاملة. وفي «المغرب»: اليأس: انقطاع الرجاء، وأما الإياس في مصدر الآيسة من الحيض.. فهو في الأصل: ائياس على وزن إفعال، حذفت منه الهمزة التي هي عين الكلمة تخفيفاً.

﴿ٱلْمَحِيضِ﴾: الحيض: وهو في اللغة مصدر حاضت الأنثى، فهي حائض وحائضة؛ أي: خرج الدم من قُبلها، ويكون للأرنب والضبع والخفاش، كما ذكره الجاحظ. وفي «القاموس»: حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحيضاً ومحاضاً، فهي حائض. والمحيض: مصدر ميمي بمعنى الحيض، على وزن مفعل بفتح الميم وكسر العين، نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت إثر كسرة فصارت حرف مد. ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ الهمزة فيه مبدلة من واو لظهور الواو في نسوة ونسوان. ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أصله: ارتيب، بوزن افتعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لما سكن آخر الفعل عند الإسناد إلى ضمير الرفع المتحرك لالتقاء الساكنين.

﴿ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ والأشهر: جمع شهر، وهو مدة معروفة مشهورة بإهلال الهلال، ما مرّ بسطه. ﴿وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾. ﴿وَأُو۟لَـٰتُ﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه، واحدتها: ذات، بمعنى صاحبة. والأحمال: جمع حمل - بفتح الحاء - كصحب وأصحاب. وفي «المختار»: الحمل - بالفتح -: ما كان في البطن أو على

رأس شجر، والحمل ـ بالكسر ـ: ما كان على ظهر أو رأس. ا هـ. والمراد به هنا الحَبَل؛ أي: الثقل المحمول في البطن، وهو الولد في البطن. والمعنى: والحبالى منهن. ﴿أَن يَضَعۡنَ﴾ مضارع وضع، وقياس مضارعه: يوضع، لكنهم حذفوا فائه التي هي الواو حملاً له على المثالي المكسور العين. ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ بضم الواو باتفاق القراء. والوجد: القدرة والغنى، يقال: افتقر فلان بعد وجده؛ أي: غناه. وفي «المختار»: وجد في المال وجداً، بضم الواو وفتحها وكسرها، وجدة أيضاً بالكسر؛ أي: استغنى. ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ أصله: تضاررونهن، حذفت نون الرفع لدخول الجازم، وهو ﴿لا﴾ الناهية، ثم أدغمت الراء الأولى في الثانية.

﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ﴾ الرضاع لغة: شرب اللبن من الضرع أو الثدي، وشرعاً: وصول لبن آدمية مخصوصة جوف طفل مخصوص على وجه مخصوص. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾ أصله: فائتيوهن، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت الياء حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت التاء لمناسبة واو الجماعة، وأبدلت الهمزة الثانية ألفاً، وحذفت نون الرفع. ﴿وَأۡتَمِرُواْ﴾ الأصل: ائتمروا، بهمزة وصل قبل الهمزة فاء الفعل من ائتمر الخماسي، فلما دخلت الواو استغني بها عن همزة الوصل للتمكن من النطق عند وجودها. وقرىء: ﴿وَأۡتَمِرُواْ﴾ بإبدال الهمزة ألفاً حرف مدّ للواو، فالائتمار بمعنى التآمر، كاشتوار بمعنى التشاور، يقال: ائتمر القوم وتآمروا، إذا أمر بعضهم بعضاً. يعني: الافتعال قد يكون بمعنى التفاعل، وهذا منه.

﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ﴾ قوله: ﴿سَعَةٖ﴾ فيه إعلال بالحذف، أصله: وسعة، حذفت الفاء من المصدر حملاً له على المضارع، فوزنه (عَلَةٌ) ظهرت الفتحة على السين عين الكلمة؛ لأن الفعل من باب فعل بكسر العين، يفعل بفتحها، والتاء عوض عن الواو المحذوفة. ﴿مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ أصله: أءتيه، بوزن أفعل، أبدلت الهمزة الساكنة ألفاً حرف مد للأولى، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وكذلك القول في قوله: ﴿ءَاتَىٰهُ﴾. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾. و﴿كأين﴾ كـ(كم) الخبرية في كونها للتكثير. والقرية: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس. والمعنى: وكثير من أهل قرية. ﴿عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ قال في «المفردات»: العتو: النبو عن الطاعة. وفي «القاموس»: عتا يعتو عتواً، وعتياً وعتيًّا: استكبر وجاوز الحد، فهو عاتٍ وعتيٌّ. انتهى. وأصل عتا: عتو، بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لما اتصلت

بالفعل تاء التأنيث الساكنة لالتقاء الساكنين.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾: و﴿ذاقت﴾ فيه إعلال بالقلب أصله: ذوقت، قلبت الواو لتحركها بعد فتح. ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ والخسر والخسران: انتقاص رأس المال، وينسب إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، أصله: أعدد، نقلت حركة الدال الأولى إلى العين فسكنت فأدغمت في الدال الثانية.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تخصيص النبي - ﷺ - بالنداء، وتعميم المؤمنين بالخطاب في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه؛ لأنه إمام أمّته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان، افعلوا كيت وكيت.

ومنها: تغليب المخاطب على الغائب في قوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ إظهاراً لشرفه واستتباعه إياهم؛ لأن المعنى إذا طلقت أنت وأمّتك.

ومنها: وصفه تعالى بصفة ربوبيته لهم في قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ تأكيداً للأمر بالتقوى، ومبالغة في إيجاب الاتقاء.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾.

ومنها: إضافة البيوت إليهن في قوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ مع أنها للأزواج؛ لتأكيد النهي عن الإخراج ببيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها أملاكهن.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بعد قوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ لتهويل أمر التعدي والإشعار بعلية الحكم في قوله: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. ونكتته مشافهة المتعدي بالخطاب لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي، والظاهر: أن يكون بطريق الغيبة: (لا يدري).

ومنها: مجاز المشارفة في قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: قاربن انقضاء

عدتهم؛ لأنه لا يؤمر بالإمساك بعد انقضاء العدة.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾. وكذلك في قوله: ﴿بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ حذف منه الخبر؛ أي: فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ للتعظيم؛ أي: أجراً عظيماً، وللتعميم المنبىء عن التتميم؛ أي: أيّ أجر كان.

ومنها: تكرار الأمر بالتقوى ثلاث مرات اهتماماً بشأن التقوى في أحكام الطلاق.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ يراد بها أهل القرية، فهو من باب إطلاق المحل وإرادة الحال، علاقته المحلية.

ومنها: إيراد صفة الرب في قوله: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ توبيخاً لهم وتجهيلاً لما أن عصيان العبيد لربهم ومولاهم طغيان وجهل بشأن سيدهم، ومالكهم، وبمرتبة أنفسهم ودوام احتياجهم إليه في التربية.

ومنها: تكرار الوعيد للتفظيع والترهيب في قوله: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ﴾.

ومنها: في قوله: ﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. استعارتان تصريحيتان. استعار الظلمات للضلال والكفر، واستعار النور للهدى والإيمان. حيث شبه الكفر بالظلمات ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به، وشبه الإيمان بالنور وحذف المشبه وأبقى المشبه به أيضاً.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ من الغيبة إلى الخطاب، وكان مقتضى السياق: قد أنزل الله إليهم ذكراً، وكذا في قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. أكد الخلود فيها بقوله: ﴿أَبَدًا﴾ لئلا يتوهم أن المراد به: المكث الطويل المنقطع آخراً.

ومنها: التعجب في قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾؛ لأن فيه معنى التعجب

والتعظيم لما رزق الله المؤمنين من الثواب؛ لأن الجملة الخبرية إذا لم يحصل منها فائدة الخبر ولازمها تُحمل على التعجب، إذا اقتضاه المقام، كأنه قيل: ما أحسن رزقهم الذي رزقهم الله، وما أعظمه! والتنوين في ﴿رِزْقًا﴾ للتعظيم لإعداده تعالى فيها ما هو خارج عن الوصف، أو للتكثير عدداً لما فيه مما تشتهيه الأنفس من الرزق، أو مدداً؛ لأن أكلها دائم لا ينقطع.

والله أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من الشؤون

اشتملت هذه السورة على أحكام شرعية، ومناهج دينية، وفتاوى إسلامية وضعت لإقامة العدل بين الخلق، وما أهل الأرض ولا أحكامهم ولا شرائعهم ولا دياناتهم إلا لمحة من نور العدل العام، وقبضة من فيضه، وزهرة من شجرته، فكم بين السمٰوات والأرض من قضاء في هذا الفضاء الواسع الصامت لفظاً، الناطق معنى؟ وكم من حكم بيننا نرى أثره، ولا نسمع النطق به؟ ترى الشمس محكوماً عليها أن تطلع من مواضع في المشرق وتغيبَ في مواضع في المغرب لا تجوزها، وترى الرياح محكوماً عليها والسحب مأمورة والأنهار جارية، والمزارع قد حكم عليها أن تكون في زمن خاص وأمكنة خاصة، فليس للقطن أن ينبت في البلاد الباردة، ولا أن يثمر في زمن الشتاء، ولا للنخل أن يثمر إلا بعد عدد من السنين، وكل ذلك حكم لمصلحة الناس وسعادتهم في دنياهم.

فانظر أيّ الحكمين أكثر منفعة، أَحُكْمٌ لمصلحةِ أشخاصٍ متنازِعِينَ، أم حكمٌ بسعادة هؤلاء المتنازعين من كل أهل ملة ودين؟

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة التحريم

سورة التحريم مدنية، قال القرطبي في قول الجميع: نزلت بعد الحجرات، وتسمى[1] سورة النبي.

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة التحريم بالمدينة، ولفظ ابن مردويه: سورة المحرم. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت بالمدينة سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾.

وآيها[2]: اثنتا عشرة آية، **وكلماتها**: مئتان وسبع وأربعون كلمة، **وحروفها**: ألف وستون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها[3]:

١ ـ أن سورة الطلاق في حسن معاشرة النساء والقيام بحقوقهن، وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبي ﷺ؛ تعليماً لأمته أن يحذروا أمر النساء وأن يعاملوهن بسياسة اللين، كما عاملهن النبي ـ ﷺ ـ بذلك، وأن ينصحوهن نصحاً مؤثراً.

٢ ـ أن كلتيهما افتتحت بخطاب النبي ﷺ.

٣ ـ أن تلك في خصام نساء الأمة، وهذه في خصام نساء النبي ﷺ، وقد أفردن بالذكر تعظيماً لمكانتهن.

وقال أبو حيان[4]: والمناسبة بينها وبين السورة التي قبلها: أنه لما ذكر جملة من أحكام زوجات المؤمنين.. ذكر هنا ما جرى من زوجات رسول الله ﷺ.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة التحريم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

التسمية: وسميت سورة التحريم؛ لأنه ذكر فيها تحريم النبي - ﷺ - ما أحل الله له مع العتاب عليه.

فضلها: وذكر في فضلها أنه - ﷺ - قال: «من قرأ سورة التحريم.. آتاه الله توبة نصوحاً». وفيه مقال.

قال العلماء[1]: **والصحيح في سبب نزولها**: أنها في قصة العسل لا في قصة مارية المروية في غير «الصحيحين»، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح. قال النسائي: إسناد حديث عائشة في العسل جيد صحيح غايةً.

والله أعلم

* * *

---

(١) البيضاوي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ
فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ
حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ
هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ
ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ
أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا (٥)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ
لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّمَا
تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ
عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآۖ إِنَّكَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ
جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا
تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ
مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ
بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ
أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ
(١٢)﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها. وأما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[1] بعض نساء النبي - ﷺ - بالتوبة عما فرطن من

---

(١) المراغي.

الزلات، وأبان لهن أن الله كالىء رسوله وناصره فلا يضره تظاهرهن عليه، ثم حذرهن من التمادي في مخالفته - ﷺ - خوفاً من الطلاق وحرمانهن من الشرف العظيم بكونهن أمهات المؤمنين، ومن استبدال غيرهن بهن من صالحات المؤمنات.. أمر المؤمنين عامة بوقاية أنفسهم وأهليهم من نار وقودها الناس والحجارة يوم القيامة، يقال للكافرين: لا تعتذروا فقد فات الأوان، وإنما تلقون جزاء ما عملتم في الدنيا، ثم أمر المؤمنين أن يقلعوا عن زلّاتهم وأن يتوبوا توبة نصوحاً، فيندموا على ما فرط منهم من الهفوات، ويعزموا على عدم العودة فيما هو آت، ليكفر الله عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر[1] المؤمنين بالتوبة النصوح والرجوع إلى الله والإخبات له.. أمر رسوله بقتال الكفار الذين يقفون في سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله، وبوعيد المنافقين والغلظة عليهم حتى يثوبوا إلى رشدهم، وذكر أن جزاءهم في الآخرة جهنم وبئس المقيل والمأوى.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر عباده المؤمنين بالتوبة النصوح، بالندم على ما فات وعدم العودة فيما هو آت، وأمر رسوله بجهاد الكافرين والمنافقين والغلظة عليهم في القول والعمل.. ذكر هنا أن النفوس إن لم تكن مستعدة لقَبول الإيمان وفي جوهرها صفاء ونقاء.. فلا يجدي فيها الغلظة والعبرة ولا مخالطة المؤمنين المتقين، وضرب لذلك المثل بامرأة نوح وامرأة لوط، فقد كانتا في بيت النبوة ولم يلن قلبهما للإيمان والإسلام، كذلك إذا كان جوهر النفس نقياً خالصاً من كدورة الكفر والنفاق فمجاورتها للكفرة وعشرتها إياهم لا تغير من حالها شيئاً، ولا يؤثر فيها ضلال الضالين، ولا عتو الظالمين، وضرب لذلك مثلاً بامرأة فرعون التي ألحف عليها فرعون وقومه أن تعتنق الوثنية التي كانوا يدينون بها، وتعتقد ألوهيته هو، فأبت وجاهدت في الله حق جهاد حتى لاقت ربها، وهي آمنة مطمئنة قريرة العين بما دخل في قلبها من نور الإيمان،

---

(١) المراغي.

وكذلك مريم بنة عمران التي عفت فآتاها الله سبحانه الشرف والكرامة وأنجبت نبي الله عيسى، وصدقت بجميع شرائعه وكتبه، وكانت من العابدين القانتين.

وفي هذا المثل إيماء إلى أن قرابة المشركين للنبي - ﷺ - لا تجديهم نفعاً بعد كفرهم وعداوتهم له وللمؤمنين، فإن الكفر قد قطع العلائق بينه وبينهم، وجعلهم كالأجانب بل أبعد منهم، كحال امرأة نوح وامرأة لوط لما خانتاهما، كما تضمن التعريض بأُمَّي المؤمنين حفصة وعائشة لما فرط منهما، والتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات: ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي - ﷺ - كان يمكث عند زينب بنة جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواصيتُ أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها رسول الله - ﷺ - فلتقل: إني لأجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال: «لا بأس، شربت عسلاً عند زينب بنة جحش، ولن أعود له» فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ إلى ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً». الحديث، أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه مختصراً ومطولاً.

وأخرج النسائي كما في «تفسير ابن كثير»، والحاكم، وقال: على شرط مسلم، عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله - ﷺ - كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً، فأنزل الله هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ...﴾ إلى آخر الآية.

وفي «مجمع الزوائد» عن ابن عباس قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ قال: نزلت هذه في سريته، رواه البزار بالإسنادين والطبراني، ورجال البزار رجال الصحيح غير بشر بن آدم، وهو ثقة.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين

معاً. ا هـ. أي: بسبب تحريمه العسل وتحريمه جاريته. وقال الشوكاني في «تفسيره»: فهذان سببان صحيحان لنزول الآية. والجمع ممكن بوقوع القصتين، قصة العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحد منها أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه مسلم عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم. قال: لما اعتزل نبي الله ـ ﷺ ـ نساءه قال: دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله ـ ﷺ ـ نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب ـ فقلت: لأعلمن ذلك اليوم، قال: فدخلت عليَّ عائشة فقلت: يا ابنة أبي بكر! أقد بلغ شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ فقالت: ما لي وما لك يا ابن الخطاب عليك بعيبتك، قال: فدخلتُ على حفصة فقلت لها: يا حفصة؛ أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ والله لقد علمت أن رسول الله ـ ﷺ ـ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك رسول الله ﷺ، فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله ﷺ؟ قالت: هو في خزانته في المشربة، فدخلت فإذا أنا برباحٍ ـ غلام رسول الله ﷺ ـ قاعداً على أُسْكُفَّةِ المشربة مدلٍّ رجليه على نقير من خشب ـ وهو جذع يرقى عليه رسول الله ﷺ وينحدر ـ فناديت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليّ فلم يقل شيئاً، ثم قلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إلي فلم يقل شيئاً، ثم رفعت صوتي فقلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فإني أظن أن رسول الله ـ ﷺ ـ ظنّ أني إنما جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرني رسول الله ﷺ بضرب عنقها لأضربن عنقها، ورفعت صوتي، فأومأ إليَّ أن إرقه، فدخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مضطجع على حصير، فجلست فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قرظاً، وإذا أفيق معلق، قال: فابتدرت عيناي، قال: «ما يبكيك يا ابن الخطاب» قلت: يا نبي الله! وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثر في جسمك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ـ ﷺ ـ وصفوته وهذه خزانتك، فقال:

«يا ابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا»؟ قلت: بلى، قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب فقلت: يا رسول الله! ما يشق عليك من شأن النساء، فإنْ كنت طلقتهن.. فإن الله معك، وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت، وأحمد الله بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول، ونزلت الآية؛ آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾. وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء رسول الله - ﷺ - فقلت: يا رسول الله، أطلقتهن؟ قال: «لا» قلت: يا رسول الله! إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى، يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: «نعم، إن شئت» فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه وحتى كشر فضحك وكان من أحسن الناس ثغراً، ثم نزل رسول الله - ﷺ - ونزلت، فنزلت أتثبت بالجذع، ونزل رسول الله - ﷺ - كأنما يمشي على الأرض ما يَسِمُه بيده، فقلت: يا رسول الله! إنما كنتَ في الغرفة تسعة وعشرين، قال: «إن الشهر يكون تسعاً وعشرين»، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله - ﷺ - نساءه ونزلت هذه الآية ﴿أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾. فكنتُ أنا استنبطت ذلك الأمر، وأنزل الله عز وجل آية التخيير.

وقد تقدم في سورة البقرة قول عمر: وافقت ربي في ثلاث، وذكر منها: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ الكريم محمد - ﷺ - ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ على نفسك ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَكَ﴾؛ أي: لأي شيء تمتنع من الانتفاع بما أحل الله لك؛ أي: لم تمتنع من شرب العسل الذي أحل الله لك، أو من وقاع مارية القبطية التي أهداها المقوقس ملك مصر. حال كونك ﴿تَبْتَغِى﴾ وتطلب وتقصد بذلك الامتناع ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾؛ أي: إرضاءهن عنك وتبشيرهن. وهذا عتاب من الله سبحانه لرسوله ﷺ على فعله ذلك؛ لأنه لم يكن عن باعث مرضي، بل كان طلباً لمرضات الأزواج.

وفي هذا[(١)] تنبيه إلى أن ما صدر منه ـ ﷺ ـ لم يكن مما ينبغي لمقامه الشريف أن يفعله. وفي ندائه ـ ﷺ ـ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ في مفتتح العتاب حسن تلطف، وتنويه بشأنه ـ ﷺ ـ على نحو ما جاء في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾. ومعنى ﴿تُحَرِّمُ﴾: تمتنع، وليس التحريم المشروع بوحي من الله، وإنما هو امتناع لتطييب خاطر بعض أزواجه. وأصل ﴿لِمَ﴾ لما، والاستفهام لإنكار التحريم. وجملة ﴿تَبۡتَغِي﴾ في محل نصب حال من فاعل ﴿تُحَرِّمُ﴾؛ أي: مبتغياً به مرضاة أزواجك، أو مفسرة لقوله: ﴿تُحَرِّمُ﴾ أو مستأنفة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ أي: والله غفور لذنوب التائبين من عباده وقد غفر لك امتناعك عما أحله لك رحيم بهم أن يعاقبهم على ما تابوا منه من الذنوب، وإنما عاتبه على الامتناع من الحلال، وهو مباح سواء كان مع اليمين أو بدونه، تعظيماً لقدره الشريف وإجلالاً لمنصبه أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما ألف من لطف الله به، وإيماء إلى أن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامي يعد كالذنب وإن لم يكن في نفسه كذلك.

واختلفوا[(٢)] فيما إذا قال لزوجته: أنت عليّ حرام، أو: الحلال عليّ حرام، ولا يستثني زوجته.

فقال جماعة ـ منهم الشعبي، ومسروق، وربيعة، وأبو سلمة، وأصبغ ـ: هو كتحريم الماء والطعام، وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ والزوجة من الطيبات ومما أحله الله تعالى.

وقال أبو بكر، وعمر، وزيد، وابن عباس، وابن مسعود، وعائشة، وابن المسيب، وعطاء، وسليمان بن يسار، وطاووس، وابن جبير، وقتادة، والحسن، والأوزاعي، وأبو ثور، وجماعة: هو يمين يكفرها.

وقال ابن مسعود، وابن عباس أيضاً في إحدى روايتيه وللشافعي في أحد قوليه: فيه تكفير يمين، وليس بيمين.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وقال أبو حنيفة والكوفيون: هذا ما أراد من الطلاق، فإن لم يرد طلاقها.. فهو لا شيء.

وإنما جَمْعُ[1] ﴿الأزواج﴾ مع أن من أرضاها النبي - ﷺ - في هذه القصة عائشة وحفصة رضي الله عنهما، إما لأن إرضاءهما في الأمر المذكور إرضاء لكلهن، لأن النساء في طبقة واحدة في مثل تلك الغيرة؛ لأنهن جبلن عليها، أو لأن الجمع قد يطلق على الاثنين، أو للتحذير عن إرضاء من تطلب منه - ﷺ - ما لا يحسن وتلح عليه، أيتهن كانت؛ لأنه - ﷺ - كان حيياً كريماً.

والجملة حال من ضمير ﴿تُحَرِّمُ﴾، كما مر، والمعنى: حال كونك مبتغياً وطالباً لرضى أزواجك، والحال أنهن أحق بابتغاء رضاك منك، فإنما فضيلتهن بك. فالإنكار وارد على مجموع القيد والمقيد دفعة واحدة، فمجموع الابتغاء والتحريم منك، نظيره قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾. وفيه إشارة إلى فضل مارية والعسل. وفي الحديث: «أول نعمة ترفع من الأرض العسل»، وقد بين ذلك في سورة النحل.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾؛ أي: مبالغ في الغفران، قد غفر لك وستر ما فعلت من التحريم وقصدت من الرضىٰ؛ لأن الامتناع من الانتفاع بإحسان المولى الكريم يشبه عدم قبول إحسانه. ﴿رَّحِيمٌ﴾ قد رحمك ولم يؤاخذك به، وإنما عاتبك محافظة على عصمتك. وقال في «كشف الأسرار»: هذا أشد ماعوتب به رسول الله - ﷺ - في القرآن.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ﴾؛ أي: قد شرع الله سبحانه وتعالى، وبين ﴿لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾؛ أي: تحليل أيمانكم وتكفيرها بالإطعام، أو الكسوة، أو العتق، أو الصوم على ما مر تفصيله في سورة المائدة. والفرض هنا بمعنى الشرع والتبيين؛ لأن ﴿فَرَضَ﴾ بمعنى أوجب إنما يتعدى بعلى. والتحلة: مصدر حلّل المضعف العين، أصله: تحللة، ككرّم تكرمة، وفرق تفرقة، والمراد: تحليل اليمين وفكها، كأن اليمين عقد والكفارة حلّ. يقال: حلّل اليمين تحليلاً: كفّرها؛ أي: فعل ما يوجبه الحنث.

والمعنى: قد بيّن الله لكم ما تنحل به عقدة اليمين من الكفارة في سورة

---

(١) روح البيان.

المائدة، فكفروها إذا حنثتم وخالفتم ما حلفتم عليه بفعله أو تركه.

قال بعضهم[١]: لَمْ يثبتْ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال لِما أحله الله: هو حرام علي، وإنما امتنع من مارية ليمين تقدمت منه، وهو قوله: والله لا أقربها بعد اليوم، فقيل له: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾؛ أي: لم تمتنع منه بسبب اليمين. يعني: أقدم على ما حلفت عليه، وكفر عن يمينك. وظاهر قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أنه كانت منه يمين.

فإن قلت: هل كفر رسول الله لذلك؟

قلت: عن الحسن البصري أنه لم يكفر؛ لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإنما هو تعليم للمؤمنين. وعن مقاتل: أنه أعتق رقبة في تحريم مارية وعاودها؛ لأنه لا ينافي كونه مغفوراً أن يكفر، فهو والأمة سواء في الأحكام ظاهراً. وقرىء[٢]: ﴿قد فرض الله لكم كفارة أيمانكم﴾، والمعنى: قد شرع الله لكم تحليل أيمانكم بالكفارة عنها، فعليك أن تكفر عن يمينك. وقد روي: أنه ﷺ كفر عن يمينه فأعتق رقبة، عبداً أو أمة.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ أي: متولي أموركم بنصركم على أعدائكم، ومسهل لكم سبيل الفلاح في دنياكم وآخرتكم، ومنير لكم طوق الهداية إلى ما فيه سعادتكم في معاشكم ومعادكم. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم، فيشرعه لكم. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير أموركم، فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا وفق ما تقتضيه المصلحة.

ثم ساق ما هو كالدليل على علمه، فقال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ والإسرار[٣]: ضد الإعلان، والسر: هو الحديث المكتم في النفس، ويقال: أسررت إلى فلان حديثاً: أفضيت به إليه في خفية. فالإسرار إلى الغير يقتضي إظهار ذلك لمن يفضي إليه السر، وإن كان يقتضي إخفاءه من غيره. فإذاً قولهم: أسررت إلى فلان، يقتضي من وجه الإظهار ومن وجه الإخفاء.

و﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: هو رسول الله ﷺ، فإن اللام للعهد. و﴿إِذْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف؛ اي: اذكر الحادث وقت الإسرار، والأكثر المشهور أنه مفعول به؛ أي:

---

(١) روح البيان. (٢) المراح. (٣) روح البيان.

واذكر يا محمد وقت إسرار النبي وإخفاءه حديثاً إلى بعض أزواجه على وجه التأنيب والعتاب. أو: واذكروا أيها المؤمنون. فالخطاب إن كان له ﷺ.. فالإظهار في مقام الإضمار، بأن قيل: وإذ أسررت، للتعظيم بإيراد وصف ينبىء عن وجوب رعاية حرمته ولزوم حماية حرمه عما يكرهه، وإن كان لغيره عموماً على الاشتراك، أو خصوصاً على الانفراد.. فذكره بوصف النبي للإشعار بصدقه في دعوة النبوة.

﴿إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ وهي حفصة رضي الله عنها. تزوجها النبي - ﷺ - في شعبان على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة قبل أحد بشهرين، وكانت ولادتها قبل النبوة بخمس سنين، وقريش تبني البيت وماتت بالمدينة في شعبان سنة خمس وأربعين، وصلى عليها مروان بن الحكم، وهو أمير المدينة يومئذ، وحمل سريرها، وحمله أبو هريرة أيضاً، وقد بلغت ثلاثاً وستين سنة، وأبو حفص أبوها عمر رضي الله عنه كناه رسول الله - ﷺ - به، والحفص ولد الأسد. ﴿حَدِيثًا﴾ قال الراغب: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له: حديث. والمراد: حديث تحريم مارية، أو العسل، أو أمر الخلافة. قال الكلبي: أسر إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدي. قال سعدي المفتي فيه: أن تحريم العسل ليس مما أسر إلى حفصة، بل كان ذلك عند عائشة، وسودة وصفية رضي الله تعالى عنهن. ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾؛ أي: أخبرت حفصة صاحبتها التي هي عائشة ﴿بِهِ﴾؛ أي: بالحديث الذي أسره إليها رسول الله - ﷺ - وأفشته إليها.

وقرأ الجمهور: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾. وقرأ طلحة: ﴿أنبأت﴾، ﴿وَأَظْهَرَهُ﴾ ﷺ ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على إفشاء حفصة ذلك الحديث إلى عائشة؛ أي: أطلع الله سبحانه نبيه على إفشاء حفصة ذلك الحديث على لسان جبريل، فالضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ راجع إلى الحديث، بتقدير المضاف المذكور، وضمن ﴿أظهر﴾ معنى أطلع، فعداه بـ﴿على﴾ إلى المفعول الثاني، من ظهر فلان السطح، إذا علاه، وحقيقته: صار على ظهره، وأظهره على السطح؛ أي: رفعه عليه، فاستعير للاطلاع على الشيء، وهو من باب الإفعال.

﴿عَرَّفَ﴾ النبي - ﷺ - حفصة. وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَرَّفَ﴾ بتشديد الراء من

---

(١) البحر المحيط.

التعريف يعني أعلمها به وأنبأها عليه، وقرأ السلمي، والحسن، وقتادة، وطلحة، والكسائي، وأبو عمرو في رواية هارون عنه بتخفيف الراء؛ أي: جازى بالعتب واللوم، كما تقول لمن يؤذيك: لأعرفن لك ذلك؛ أي: لأجازينك. وقيل: إنه طلق حفصة وأمر بمراجعتها، وقيل: عاتبها ولم يطلقها، وقرأ ابن المسيب، وعكرمة ﴿عَرَاف﴾ بألف بعد الراء، وهي إشباع، قال ابن خالويه: يقال: إنها لغة يمانية، ومثالها قوله:

أَعُـوذُ بِـٱلـلَّـهِ مِـنَ ٱلْـعَـقْـرَابِ ٱلـشَّـائِـلَاتِ عُـقَـدَ ٱلأَذْنَـابِ

يريد من العقرب.

أي: عرف النبي - ﷺ - حفصة ﴿بَعۡضَهُۥ﴾؛ أي: بعض الحديث الذي أفشته إلى صاحبتها على طريق العتاب؛ بأن قال لها: ألم أك أمرتك أن تكتمي سري، ولا تبديه لأحد وهو حديث الإمامة. روي: أنه عليه السلام لما عاتبها.. قالت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي.. فرحاً بالكرامة التي خص الله بها أباها، وبعض الشيء جزء منه. واختار أبو عبيد[1]، وأبو حاتم القراءة الأولى؛ لقوله: ﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾؛ أي: لم يعرفها إياه، ولو كان مخففاً لقال في ضده: وأنكر. ﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾؛ أي: عن تعريف بعض تكرماً وحياء وحسن عشرة، وهو حديث مارية، وقال بعضهم: عرف تحريم الأمة وأعرض عن تعريف أمر الخلافة، كراهة أن يُنشر ذلك في الناس، وتكرماً منه وحلماً. وفيه حث على ترك الاستقصاء فيما جرى من ترك الأدب، فإنه صفة الكرام. قال الحسن: ما استقصى كريم قط. وقال بعضهم: ما زال التغافل من فعل الكرام.

ومعنى الآية[2]: أي واذكر يا محمد حين أسر النبي - ﷺ - إلى حفصة أنه كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، وقال: «لن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا»، فلما أخبرت عائشة بما استكتمها من السر، وأطلعه الله على ما دار بين حفصة وعائشة بما كان قد طلب من حفصة أن تكتمه، أخبر حفصة ببعض الحديث الذي أفشته، وهو قوله لها: كنت شربت عسلاً عند زينب بنت جحش فلن

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أعود، وأعرض عن بعض الحديث وهو قوله: «وقد حلفت» فلم يخبرها به، تكرماً منه؛ لما فيه من مزيد خجلتها، ولأنه - ﷺ - ما كان يود أن يشاع عنه اهتمامه بمرضاة أزواجه إلى حدّ امتناعه عن تناول ماأحل الله له.

﴿فَلَمَّا﴾[1] أفشت حفصة الحديث لعائشة، واكتتمتها إياه و﴿نَبَّأَهَا﴾ الرسول ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: أخبر النبي - ﷺ - حفصة بالحديث الذي أفشته، بما أظهره الله عليه من أنها أفشت سره.. ظنت حفصة أن عائشة فضحتها فـ﴿قَالَتْ﴾ حفصة له - ﷺ -: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾؛ أي: من أخبرك هذا الخبر عني؟ على سبيل التثبت. وفيه تعجب واستبعاد من إخبار عائشة بذلك؛ لأنها أوصتها بالكتم. ولم يقل: من نبأك؛ ليوافق ما قبله للتفنن. ﴿قَالَ﴾ النبي - ﷺ - ﴿نَبَّأَنِيَ﴾ بفتح ياء المتكلم؛ أي: أخبرني الله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بظواهر الأشياء ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطنها، الذي لا تخفى عليه خافية، فسكتت وسلمت. ونبأ أيضاً من قبيل التفنن، يقال: إنَّ أنبأ ونبأ يتعديان إلى مفعولين: إلى الأول بنفسهما، وإلى الثاني بالباء، وقد يحذف الأول للعلم به، وقد يحذف الجار ويتعدى الفعل إلى الثاني بنفسه أيضاً، فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ على الاستعمال الأول، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ على الاستعمال الثاني، وقوله: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ﴾ على الاستعمال الثالث.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ هو والعالم والعلام من أسمائه سبحانه، ومن أدب من علم أنه سبحانه عالم بكل شيء حتى بخطرات الضمائر ووساوس الخواطر أن يستحي منه، ويكف عن معاصيه، ولا يغتر بجميل ستره، ويخشى بغتات قهره ومفاجأة مكره، والخبير بمعنى العليم.

والمعنى[2]: أي فلما أخبر النبي - ﷺ - حفصة بما دار بينها وبين عائشة من الحديث.. قالت: من أنبأك هذا؟ ظناً منها أن عائشة قد فضحتها بإخبارها رسول الله ﷺ، قال: أخبرني ربي العليم بالسر والنجوى، الخبير بما في الأرض والسماء، لا يخفى عليه شيء فيهما.

وفي الآية إيماء إلى أمور اجتماعية هامة:

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

١ ـ أنه لا مانع من الإباحة بالأسرار إلى من تركن إليه من زوجة أو صديق.

٢ ـ أنه يجب على من استكتم الحديث أن يكتمه.

٣ ـ أنه يحسن التطلف مع الزوجات في العتب والإعراض عن الاستقصاء في الذنب.

ثم وجه الخطاب إلى حفصة وعائشة مبالغة في العتب، فقال: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه. خطاب لحفصة وعائشة رضي الله عنهما، فالالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الخطاب، لكن العتاب يكون للأولياء كما أن العقاب يكون للأعداء، كما قيل:

إِذَا ذَهَبَ ٱلْعِتَابُ فَلَيْسَ وُدٌّ وَيَبْقَىٰ ٱلْوُدُّ مَا بَقِيَ ٱلْعِتَابُ

ففيه إرادة الخير لحفصة وعائشة بإرشادهما إلى ما هو أوضح لهما، وجواب الشرط محذوف. و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ لتعليل[1] الجواب المحذوف، كما في قولك: اعبد ربك؛ فالعبادة حق، وإلا فالجزاء يجب أن يكون مرتباً على الشرط مسبباً عنه، وصغو قلوبهما كان سابقاً على الشرط وكذا الكلام في ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا...﴾ إلخ.

والمعنى: إن تتوبا إلى الله فقد وجد منكما ما يوجب التوبة؛ لأنه قد صغت قلوبكما ومالت وعدلت عما يجب عليكما من مخالصة رسول الله ـ ﷺ ـ وحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه، حيث حصل منكما إفشاء سر الرسول ـ ﷺ ـ يقال: صغا عن الحق، يصغو صغواً، إذا مال وعدل عنه. أو المعنى: فقد صغت ومالت قلوبكما إلى ما يجب للرسول ـ ﷺ ـ من إجلال وتعظيم. وجمع القلوب فراراً من كراهة اجتماع تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة لو قال: قلباكما؛ لأن العرب تكره ذلك، والجمع[2] في مثل هذا أكثر استعمالاً من المثنى والتثنية دون الجمع، كما قال الشاعر:

فَتَخَالَسَا نَفْسَيْهِمَا بِنَوَافِذٍ كَنَوَافِذِ ٱلْعَبِطِ ٱلَّتِي لاَ تُرْقَعُ

وكان هذا هو القياس؛ لأن الأصل: أن يعبر عن المثنى بالمثنى، لكن كرهوا

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

اجتماع تثنيتين، فعدلوا إلى الجمع، لأن التنثية جمع في المعنى، والإفراد لا يجوز عند أصحابنا إلا في الشعر، كقوله:

حَمَامَةَ بَطْنِ ٱلْوَادِيَيْنِ تَرَنَّمِيْ

يريد: بطني. وغلط ابن مالك فقال في «التسهيل»: ونختار لفظ الإفراد على لفظ التثنية.

﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ قرأ الجمهور[1]: ﴿تَظَاهَرَا﴾ بحذف إحدى التاءين تخفيفاً، أصله: تتظاهرا. وقرأ عكرمة: ﴿تتظاهرا﴾ على الأصل. وقرأ أبو رجاء، والحسن، وطلحة، وعاصم، ونافع في رواية عنهما ﴿تظّهّرا﴾ بشد الظاء والهاء بدون ألف. وهو تفاعل، من الظَهْر؛ لأنه أقوى الأعضاء؛ أي: فإن تتعاونا على النبي - ﷺ - بما يسوؤه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره. وكانت كل منكما ظهراً لصاحبتها فيه، وجواب الشرط محذوف، كما أشرنا إليه سابقاً، تقديره: فلن يعدم هو؛ أي: النبي - ﷺ - من يظاهره. و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ لتعليل ذلك الجواب المحذوف، والتقدير: وإن تظاهرا وتعاونا على إفشاء سره - ﷺ - وإظهار ما يكرهه.. فلن يعدم - ﷺ - من يظاهره ويعاونه؛ لأن الله سبحانه وتعالى ناصره ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ رئيس الملائكة المقربين قرينه ورفيقه. ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ومن صلح من المؤمنين، أتباعه وأعوانه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مع تكاثر عددهم وامتلاء السماوات من جموعهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد نصرة الله، وناموسه الأعظم، وصالح المؤمنين. وفيه تعظيم لنصرتهم؛ لأنها من الخوارق كما وقعت في بدر، ولا يلزم منه أفضلية الملائكة على البشر. ﴿ظَهِيرٌ﴾؛ أي: فوج مظاهر له معين، كأنهم يد واحدة على من يعاديه، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظهراءه وأعوانه؟ وقوله: ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، جيء به لتقوية الحكم لا للحصر، وإلا لانحصرت الولاية له - ﷺ - في الله تعالى، فلا يصح عطف ما بعده عليه. ﴿وَجِبْرِيلُ﴾: عطف على موضع اسم إن بعد استكمالها خبرها، وكذا قوله: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وإليه مال السجاوندي؛ إذ وضع علامة الوقف على المؤمنين.

---

(١) الشوكاني والبحر المحيط.

والظاهر[1]: أن ﴿صالح﴾ مفرد، ولذلك كتبت الحاء بدون واو الجمع، ومنهم من جوز كونه بالواو والنون، وحذفت النون بالإضافة وسقطت واو الجمع في التلفظ لالتقاء الساكنين، وسقطت في الكتابة أيضاً حملاً للكتابة على اللفظ، نحو ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾، ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، و﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ إلى غير ذلك. وعلى تقدير عطف ﴿جبريل﴾ وما بعده على اسم إن يكونان داخلين في الولاية لرسول الله ـ ﷺ ـ، ويكون ﴿جبريل﴾ أيضاً ظهيراً له بدخوله في عموم الملائكة. ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله: ﴿مَوْلَىٰهُ﴾، ويكون ﴿جبريل﴾ مبتدأ، وما بعده عطفاً عليه، و﴿ظَهِيرٌ﴾ خبر للجميع، فتختص الولاية بالله. وقد تقرر في علم النحو: أن فعيل كظهير وجريح وخبير، يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع.

قيل: المراد بصالح المؤمنين: أبو بكر وعمر، وقيل: علي بن أبي طالب، وقيل: الأنبياء. وقال السهيلي: لفظ الآية عام، فالأولى حملها على العموم.

قال بعضهم: لعل ذكر غير الله مع أن الإخبار بكونه تعالى مولاه كاف في تهديدهما لتذكير كمال رفعة شأن النبي ـ ﷺ ـ عند الله وعند الناس وعند الملائكة أجمعين.

ويقول الفقير ـ أمده الله القدير ـ هذا ما قالوا، والظاهر: أن الله مع كفاية نصرته ذكر بعد نفسه من كان أقوى في نصرته ـ ﷺ ـ من المخلوقات؛ لكون المقام مقام التظاهر، لكون عائشة وحفصة متظاهرتين. وزاد في الظهير لكون المقام مقام التهديد أيضاً، وقدم ﴿جبريل﴾ على الصلحاء لكونه أول نصير له ـ ﷺ ـ من المخلوقات وسفيراً بينه وبين ربه سبحانه. وقدم الصلحاء على الملائكة لفضلهم عليهم في باب النصرة؛ لأن نصرة الملائكة نصرة بالفعل القالبي، ونصرة الصلحاء نصرة به وبالهمة، وهي أشد، وما يفيده البعدية من أفضلية تظاهرهم على تظاهر الصلحاء، فمن حيث الظاهر؛ إذ هم أقدر على الأفعال الشاقة من البشر، فاقتضى مقام التهديد ذكر البعدية.

ومعنى الآية: أي إن تتوبا من ذنبكما، وتقلعا عن مخالفة رسوله ـ ﷺ ـ،

---

(١) روح البيان.

فتحبا ما أحبه وتكرها ما كرهه.. فقد مالت قلوبكما إلى الحق والخير، وأديتما ما يجب عليكما نحوه - ﷺ - من إجلال وتكريم لمنصبه الشريف. ثم ذكر سبحانه أنه حافظه وحارسه، فلا يضره أذى مخلوق، فقال: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ...﴾ إلخ؛ أي: وإن تتعاونا على العمل بما يؤذيه ويسؤوه، من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره.. فلن يضره ذلك شيئاً؛ فإن الله ناصره في أمر دِينه وسائر شؤونه على كل من يتصدى لما يكرهه، وجبريل والمؤمنون الصالحون والملائكة مظاهرون له ومعينون.

وقد أعظم[1] الله سبحانه شأن نصرة نبيه على هاتين الضعيفتين للإشارة إلى عظم مكر النساء، وللمبالغة في قطع أطماعهما، في أنه ربما شفع لهما مكانتهما عند رسول الله - ﷺ - وعند المؤمنين لأمومتهما لهم، وكرامة له - ﷺ -، ورعاية لأبويهما، ولتوهين أمر تظاهرهما، ودفع ما عسى أن يتوهمه المنافقون من ضرره في أمر النبوة، وقهر أعداء الدين؛ إذ قد جرت العادة بأن الشؤون المنزلية تشغل بال الرجال، وتضيع زمناً في تفكيرهم فيها، وقد كانوا أحق بالتفكير فيما هو أجدى نفعاً وأجل فائدة.

ثم شرع سبحانه في تخويفهما، بأن ذكر لهما أنه - ﷺ - يحتمل أن يطلّقكما، ثم إنه إن طلقكما لا يعود ضرر ذلك إلا إليكما؛ لأنه يبدله أزواجاً خيراً منكما، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾؛ أي: حقق رب محمد - ﷺ - ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ وهذا شرط معترض بين اسم ﴿عَسَىٰ﴾ وخبرها، وجوابه محذوف تقديره: إن طلقكن.. يبدله أزواجاً خيراً منكن، أو متقدم على ﴿عَسَىٰ﴾؛ أي: إن طلقكن.. فعسى أن يبدله. ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾؛ أي: أن يعطي الله سبحانه محمداً - ﷺ - بدلكن ﴿أَزْوَٰجًا﴾ مفعول ثان ليبدله وقوله: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ صفة للأزواج، وكذا ما بعده من قوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ إلى ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾. وفيه تغليب المخاطب على الغائبات، فالتقدير: إن طلقكما وغيركما، أو تعميم الخطاب لكل الأزواج بأن يكن كلهن مخاطبات لما عاتبهما بأنه قد صغت قلوبكما، وذلك يوجب التوبة.

فإن قلت: كيف أثبت الخيرية لهن بالصفات المذكورة بقوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ إلى

---

(١) المراغي.

آخره مع اتصاف أزواجه - ﷺ - بها أيضاً؟

قلت: المراد خيراً منكن في حفظ قلبه ومتابعة رضاه مع اتصافهن بهذه الصفات.

وليس[1] في الآية ما يدل على أنه - ﷺ - لم يطلق حفصة، وعلى أن النساء خيراً منهن، فإن تعليق الطلاق للكل لا ينافي تطليق واحدة، وما علق بما لم يقع لا يجب وقوعه. يعني: أن هذه الخيرية لما علقت بما لم يقع لم تكن واقعة في نفسها، وكان الله عالماً بأنه - ﷺ - لا يطلقهن، ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن طلقهن.. أبدله خيراً منهن، تخويفاً لهن، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾، فإنه إخبار عن القدرة وتخويف لهم، لا أن في الوجود من هو خير من أصحاب محمد ﷺ.

قيل: كل ﴿عَسَىٰ﴾ في القرآن واجب إلا هذا. وقيل: هو أيضاً واجب، ولكن الله علقه بشرط، وهو: التطليق، ولم يطلقهن. وفي «فتح الرحمٰن»: ﴿عَسَىٰ﴾ تكون للوجوب في ألفاظ القرآن إلا في موضعين:

أحدهما: في سورة محمد ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: علمتم أو تمنيتم.

والثاني: هنا، ليس بواجب؛ لأن الطلاق معلق بالشرط، فلما لم يوجد الشرط.. لم يوجد الإبدال، انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿طَلَّقَكُنَّ﴾ بفتح القاف، وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس بإدغامها في الكاف.

ثم وصف سبحانه الأزواج بقوله: ﴿مُسْلِمَاتٍ﴾؛ أي: مقرات باللسان ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾؛ أي: مخلصات بالجَنان.. فليس من قبيل التكرار - أو منقادات انقياداً ظاهرياً بالجوارح مصدقات بالقلوب، أو قائمات بفرائض الإسلام، مصدقات بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. ﴿قَانِتَاتٍ﴾؛ أي: مطيعات؛ أي: مواظبات على الطاعة، أو مصليات ﴿تَائِبَاتٍ﴾ من الذنوب ﴿عَابِدَاتٍ﴾؛ أي: متعبدات، أو متذللات لأمر الرسول - ﷺ - ﴿سَائِحَاتٍ﴾؛ أي:

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

صائمات. سمى الصائم سائحاً، لأنه يسيح في النهار بلا زاد، فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه، فشبه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره.

وقال بعضهم[1]: الصوم ضربان:

صوم حقيقي، وهو: ترك المطعم والمشرب والمنكح.

وصوم حكمي، وهو: حفظ الجوارح من المعاصي، كالسمع والبصر واللسان والسائح هو الذي يصوم هذا الصوم دون الأول. انتهى. أو مهاجرات من مكة إلى المدينة، إذ في الهجرة مزيد شرف ليس في غيرها، كما قال ابن زيد: ليس في أمة محمد سياحة إلا الهجرة، والسياحة في الأصل: الجولان في الأرض.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾، وعمرو بن فائد ﴿سَيِّحات﴾. وهذه الصفات السابقة تجتمع، وأما الثيوبة والبكارة فلا يجتمعان في ذات واحدة لتنافيهما، فلذلك عطف أحدهما على الآخر في قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾. ولو لم يعطف.. لاختل المعنى، فكأنه قيل: أزواجاً خيراً منكن متصفات بهذه الصفات المذكورة المحمودة، كائنات بعضها ثيبات، تعريضاً لغير عائشة، وبعضها أبكاراً تعريضاً لها، فإنه - ﷺ - تزوجها وحدها بكراً، وهو الوجه في إيراد ﴿الواو﴾ الواصلة دون ﴿أو﴾ الفاصلة؛ لأنها توهم أن الكل ثيبات أو كلها أبكار. الثيب تمدح من جهة أنها أكثر تجربة وعقلاً وأسرع حبلاً غالباً، والبكر تمدح من جهة أنها أطهر وأطيب وأكثر ملاعبة ومداعبة غالباً. وسميت الثيب ثيباً؛ لأنها ثابت؛ أي: رجعت إلى بيت أبويها، وسميت العذراء بكراً، لأنها على أول حالتها التي خلقت بها.

قال السيوطي - رحمه الله تعالى -[3]: ذكر بعض أهل العلم أن في هذا إشارة إلى مريم البتول، وهي البكر، وإلى آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وأن الله سيزوجه عليه السلام إياهما في الجنة، كما روي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال أبو الليث: تكون وليمة في الجنة، وسيجتمع عليها أهل الجنة، فيزوج الله هاتين المرأتين؛ يعني: آسية ومريم، من محمد - ﷺ - كما رواه معاذ بن جبل عن النبي - ﷺ -. وبدأ بالثيب قبل البكر؛ لأن زمن آسية قبل زمن مريم، ولأن أزواج

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

النبي - ﷺ - كلهن ثيب إلا واحدة، وأفضلهن خديجة، وهي ثيب. فتكون هذه القبلية من قبلية الفضل والزمان أيضاً؛ لأنه تزوج الثيب منهن قبل البكر.

ثم إن المراد من الإبدال أن يكون في الدنيا، كما أفاده قوله تعالى: ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾؛ لأن نساء الجنة يكن أبكاراً، سواء كن في الدنيا ثيبات أو أبكاراً.

ومعنى الآية[1]: أي عسى الله أن يعطيه - ﷺ - بدلكن أزواجاً خيراً منكن إسلاماً وإيماناً، ومواظبة على العبادة، وإقلاعاً عن الذنوب، وخضوعاً لأوامر الرسول، بعضهن ثيبات وبعضهن أبكاراً، إن هو قد طلقكن.

والخلاصة: احذرن أيتها الأزواج من إيذاء رسول الله - ﷺ - والتألب عليه والعمل على ما يسؤوه؛ فإنه ربما أحرج صدره فطلقكن، فأبدله الله من هو خير منكن في الدين والصلاح والتقوى وفي الشؤون الزوجية، فأعطاه بعضهن أبكاراً وبعضهن ثيبات.

ولا شيء أشد على المرأة من الطلاق، ولا سيما إذا استبدل خير منها بها.

ثم اعلم[2]: أن في الآيات المتقدمة فوائد:

منها: أن تحريم الحلال غير مرضي، كما أن ابتغاء رضى الزوج بغير وجهه وجه ليس بحسن.

ومنها: أن إفشاء السر ليس في المروءة، خصوصاً إفشاء أسرار السلاطين الصورية والمعنوية لا يعفى، وكل سرّ جاوز الاثنين.. شاع؛ أي: المسر والمسر إليه، أو الشفتين.

ومنها: أن من الواجب على أهل الزلة التوبة والرجوع قبل الرسوخ واشتداد القساوة.

ومنها: أن البكارة وجمال الصورة وطلاقة اللسان ونحوها، وإن كانت نفاسة جسمانية مرغوبة عند الناس، لكن الإيمان والإسلام والقنوت والتوبة ونحوها نفاسة روحانية مقبولة عند الله، وشرف الحسب أفضل من شرف النسب، والعلم الديني

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والأدب الشرعي هما الحسب المحسوب من الفضائل. فعلى العاقل: أن يتحلى بالورع، وهو: الاجتناب عن الشبهات، والتقوى وهو: الاجتناب عن المحرمات، ويتزين بزين المكارم والأخلاق الحسنة، والأوصاف الشريفة المستحسنة.

ولما وعظ سبحانه أزواج النبي - ﷺ - موعظة خاصة.. أتبع ذلك بموعظة عامة للمؤمنين وأهليهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ أي: احفظوا أنفسكم،وبعِّدوها من النار بترك المعاصي، وفعل الطاعات أمر من الوقاية، بمعنى الحفظ والحماية كما سيأتي. والأنفس: جمع نفس، والمراد بالنفس هنا: ذات الإنسان، لا النفس الأمارة، ﴿وَ﴾ قوا ﴿أَهۡلِيكُمۡ﴾ بالنصح والتأديب؛ لأن رب المنزل راع، وكل راع مسؤول عن رعيته. ومعنى وقايتهم: حملهم على طاعة الله وإلزامهم أداء ما فرض عليهم.

وقرىء[1]: ﴿وأهلوكم﴾ بالواو عطفاً على الضمير في ﴿قُوٓاْ﴾، وحسن العطف للفصل بالمفعول، و﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ واقع بعده في التقدير؛ أي: قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم، ولما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه فجعلت ضميرهما معاً على لفظ المخاطب. وأصله: أهلين، جمع أهل، حذفت النون للإضافة، وقد يجمع على أهالي على غير قياس، وهو كل من في عيال الرجل ونفقته، من المرأة والولد، والعبد والأمة،ويفسر بالأصحاب.

﴿نَارٗا﴾ عظيمة هائلة ﴿وَقُودُهَا﴾؛ أي[2]: ما توقد به تلك النار يعني: حطبها. فالوقود - بالفتح -: اسم لما توقد به النار من الحطب وغيره والوقود - بالضم - مصدر بمعنى الاتقاد. وقرىء به على تقدير مضاف؛ أي: أسباب وقودها، أو بالحمل على المبالغة. ﴿ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: كفار الإنس والجن، وإنما لم يذكر الجن أيضاً لأن المقصود تحذير الإنس، ولأن كفار الجن تابع لكفار الإنس، لأن التكذيب إنما صدر أولاً من الإنس. ﴿وَٱلۡحِجَارَةُ﴾؛ أي: تتقد بالحجارة أيضاً اتقاد غيرها بالحطب. ففيه بيان لغاية إحراقها وشدة قوتها، فإن اتقاد النار بالحجارة مكان الحطب من الشجر يكون من زيادة حرها. لذلك قال النبي - ﷺ -: «ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم».

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

وعن ابن عباس: هي حجارة الكبريت، وهي أشد الأشياء حراً إذا أوقد عليها، ولها سرعة الاتقاد ونتن الرائحة وكثرة الدخان وشدة الالتصاق بالأبدان، فيكون العذاب أشد. وقيل: وقودها الناس إذا صاروا إليها، والحجارة قبل أن يصيروا إليها. وقرن الناس بالحجارة لأنهم نحتوها، واتخذوها أرباباً من دون الله، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

والمعنى[1]: يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله! ليعلم بعضكم بعضاً ما تتقون به النار وتدفعونها عنكم، إنه طاعة الله تعالى وامتثال أوامره، ولتعلموا أهليكم من العمل بطاعته ما يقون به أنفسهم منها، واحملوهم على ذلك بالنصح والأدب. قال ابن جرير: فعلينا أن نعلم أولادنا الدِّين والخير وما لا يستغنى عنه من الأدب. ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾. روي: أن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال حين نزلت هذه الآية: نقي أنفسنا، فكيف لنا بأهلينا؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «تنهونهن عما نهاكم الله عنه، وتأمرونهن بما أمركم الله به، فيكون ذلك وقاية بينهم وبين النار». وأخرج ابن المنذر، والحاكم في جماعة آخرين عن علي رضي الله عنه: أنه قال في الآية: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم.

وفي الآية إيماء إلى أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من فرائض الدين وتعليمها لهؤلاء. وجاء في الحديث: «رحم الله رجلاً قال: يا أهلاه! صلاتَكم، صيامَكم، زكاتَكم، مسكينَكم، يتيمَكم، جيرانَكم؛ لعل الله يجمعكم معهم في الجنة».

﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي: على تلك النار العظيمة ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ تلي أمرها وتعذيب أهلها، وهم: الزبانية التسعة عشر وأعوانهم، فليس[2] المراد بـ﴿على﴾ الاستعلاء الحسي، بل الولاية والقيام، والاستيلاء والغلبة على ما فيها من الأمور. ﴿غِلَاظٌ﴾؛ أي: غلاظ القلوب. جمع غليظ، بمعنى خشن خال قلبه من الشفقة والرحمة. ﴿شِدَادٌ﴾؛ أي: شداد القوى. جمع شديد، بمعنى القوي؛ لأنهم أقوياء لا يعجزون عن الانتقام من أعداء الله على ما أمروا به. وقيل: غلاظ الأقوال، شداد الأفعال،

---

(١) المراغي.   (٢) روح البيان.

أقوياء على الأفعال الشديدة، يعملون بأرجلهم كما يعملون بأيديهم. وقيل: غلاظ على أهل النار، شداد عليهم لا يرحمونهم إذا استرحموهم؛ لأن الله سبحانه خلقهم من غضبه، وحبب إليهم تعذيب خلقه لا لذة لهم إلا فيه، فمقتضى جبلّتهم تعذيب الخلق بلا مرحمة كما أن مقتضى جبلة الحيوان الأكل والشرب، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة، أو كما بين المشرق والمغرب، يضرب أحدهم بمقمعة ضربة واحدة، فيهوون في النار سبعين ألفاً من أهل النار.

وقيل: الغلاظ: ضخام الأجسام، والشداد: الأقوياء.

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿مَآ أَمَرَهُمْ﴾؛ أي[1]: لا يعصون أمره في عقوبة الكفار وغيرها، على أنه بدل اشتمال من ﴿ٱللَّهَ﴾، و﴿مَآ﴾ مصدرية؛ أو: لا يعصونه فيما أمرهم به، على نزع الخافض، و﴿مَآ﴾ موصولة؛ أي: لا يمتنعون من قبول الأمر كأعوان ملوك الدنيا يمتنعون بالرشوة، بل يلتزمونه ويعزمون على إتيانه. فليست هذه الجملة مع التي بعدها في معنى واحد. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: يؤدون ما يؤمرون به من تعذيب الكفار من غير تثاقل وتوان، وتأخير وزيادة ونقصان. وقال القاضي: لا يعصون الله ما أمرهم فيما مضى، ويستمرون على فعل ما يؤمرون به في المستقبل. وقال الزمخشري. فإن قلت[2]: أليست الجملتان في معنى واحد؟

قلت: لا، فإن معنى الأولى: أنهم يتقبلون أوامره، يلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها، ومعنى الثانية: أنهم يؤدون ما يؤمرون به من تعذيب الكفار، لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه، انتهى.

وقال بعضهم[3]: لعل التعبير في الأمر أولاً بالماضي مع نفي العصيان بالمستقبل؛ لما أن العصيان وعدمه يكونان بعد الأمر، وثانياً بالمستقبل؛ لما أن أمرهم بعذاب الأشقياء يكون مرة بعد مرة. قال بعض الكبار: في هذه الآية دليل على عصمة جميع الملائكة السماوية، وذلك لأنهم عقول مجردة بلا منازع ولا شهوة فيهم مطيعون بالذات، بخلاف البشر والملائكة الأرضية الذين لا يصعدون إلى

---

(١) روح البيان. (٢) الكشاف. (٣) روح البيان.

السماء، فإن من الملائكة من لا يصعد من الأرض إلى السماء أبداً، كما أن منهم من لا ينزل من السماء إلى الأرض أبداً.

والحاصل: أن الجملة الأولى قد أفادت نفي العناد والاستكبار عنهم، فهي كقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، وأفادت الثانية نفي الكسل عنهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

وخلاصة ذلك: يمتثلون الأمر ولا يمتنعون عن تنفيذه، بل يؤدونه من غير تثاقل ولا توانٍ.

وبعد أن ذكر شدة العذاب في النار واشتداد الملائكة في الانتقام من أعداء الله الكافرين.. بين أنه يقال للكافرين: لا فائدة في الاعتذار؛ لأنه توبة، والتوبة غير مقبولة بعد الدخول في النار، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: تقول الملائكة للذين كفروا عند إدخالهم النار حسبما أمروا به: لا تعتذروا في هذا اليوم عن كفركم ومعاصيكم، فقد فات الأوان ولا يجدي رجاء ولا اعتذار، فلات ساعة مندم:

نَدِمَ ٱلْبُغَاةُ وَلَاتَ سَاعَةَ مَنْدَمِ ... وَٱلْبَغْيُ مَرْتَعُ مُبْتَغِيْهِ وَخِيمُ

قال الراغب: العذر: تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه. وذلك ثلاثة أضرب: أن يقول: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا ـ فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنباً ـ أو يقول: فعلت ولا أعود، ونحو ذلك، وهذا الثالث هو التوبة، فكل توبة عذر وليس كل عذر توبة، واعتذرت إليه: أتيت بعذر، وعذرته: قبلت عذره.

ثم بيّن السبب في عدم فائدة الندم، فقال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ﴾ اليوم ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي بعد ما نهيتم عنها أشد النهي، وأمرتم بالإيمان والطاعة، فلا عذر لكم قطعاً؛ أي: حقيقة. وفي بعض التفاسير: لا تعتذروا اليوم؛ لما أنه ليس لكم عذر يعتد به حتى يقبل فينفعكم. وهذا النهي لهم إن كان قبل وقوع الاعتذار منهم.. فهو لا يوافق ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾، وإن كان بعده.. فيؤول هذا القول ويقال: لا يؤذن لهم أن يتموا اعتذارهم ولا يسمع إليه.

والمعنى: أي لا تعتذروا لأنكم، إنما تثابون اليوم، وتعطون جزاء أعمالكم

التي عملتموها في الدنيا، فلا تطلبوا المعاذير منها.

والخلاصة: أن هذه الدار دار جزاء لا دار عمل، وأنتم قد دسيتم أنفسكم في الدنيا بالكفر والمعاصي بعد أن نهيتم عنها، فاجنوا ثمر ما غرستم واشربوا من الكأس التي قد ملأتم.

وبعد أن ذكر أن التوبة في هذا اليوم لا تجدي نفعاً.. نبه عباده المؤمنين إلى المبادرة بالتوبة النصوح، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله ﴿تُوبُوٓاْ﴾ وارجعوا من فعل المعاصي ﴿إِلَى﴾ طاعة ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾؛ أي: رجوعاً خالصاً من جميع الشوائب المفسدة للتوبة من قولهم: عسل ناصح؛ أي: خالص من الشمع، أو من النصاحة وهي الخياطة؛ أي: قد أحكمها وأوثقها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته وتوثيقه. والنصح: تحري قول أو فعل فيه صلاح صاحبه، والنصوح فعول، من أبنية المبالغة، كقولهم: رجل صبور وشكور؛ أي: توبة بالغة في النصح لصاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه، وصفت بذلك على الإسناد المجازي، وهو وصف التائبين، وهو: أن ينصحوا أنفسهم بالتوبة، فيأتوا بها على طريقتها وشروطها، وذلك بأن يتوبوا من القبائح لقبحها، نادمين عليها، مغتمين أشد الاغتمام لارتكابها، عازمين على أنهم لا يعودون في قبيح من القبائح إلا أن يعود اللبن في الضرع، وكذا لو حزوا بالسيف وأحرقوا بالنار، موطنين أنفسهم على ذلك بحيث لا يلويهم عنه صارف أصلاً.

وقرأ زيد بن علي[1]: ﴿توباً﴾ بغير تاء. وقرأ الجمهور: ﴿نَّصُوحًا﴾ بفتح النون وصفاً لتوبة. وقرأ الحسن، والأعرج، وعيسى، وأبو بكر عن عاصم، وخارجة عن نافع بضمها، وهو مصدر وصف به، ووصفها بالنصح على سبيل المجاز؛ إذ النصح صفة للتائب، وهو أن ينصح نفسه بالتوبة فيأتي بها على طريقها، وهي خلوصها من جميع الشوائب المفسدة لها. ويجوز أن يكون بالضم، جمع ناصح. قال المبرد: أراد توبة ذات نصح.

---

(١) البحر المحيط.

فصل في التوبة[1]

وقال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب على الفور، ولا يجوز تأخيرها، سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي.. فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً. فإذا اجتمعت هذه الشروط في التوبة.. كانت نصوحاً.

وإن فقد شرط منها.. لم تصح توبته. فإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي.. فشروطها أربعة: هذه الثلاثة المتقدمة.

والرابع: أن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت المعصية مالاً ونحوه.. رده إلى صاحبه، وإن كان حدّ قذف أو نحوه.. مكنه من نفسه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة.. أستحله منها. ويجب أن يتوب العبد من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها.. صحت توبته من ذلك الذنب، وبقي عليه ما لم يتب منه. وهذا مذهب أهل السنة، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة.

وعن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم مئة مرة» أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «والله! إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» أخرجه البخاري.

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة...» الحديث متفق عليه.

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله

---

(١) الخازن.

يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» أخرجه مسلم.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر». أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن.

والمعنى: أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله سبحانه وإلى ما يرضيه عنكم، رجوعاً لا تعودون فيه أبداً.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: حقق ربكم ﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؛ أي: أن يستر ويمحو عنه سيئات أعمالكم التي سلفت منكم، بل يبدلها حسنات. ﴿و﴾ أن ﴿يدخلكم جنات﴾؛ أي: بساتين ﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ الأربعة المعهودة. وجمَع جنات إما لكثرة المخاطبين؛ لأن لكل منهم جنة، أو لتعددها لكل منهم من الأنواع. قال في «الإرشاد»: ورود[1] صيغة الإطماع والترجية للجري على سنن الكبراء، فإن الملوك يجيبون بلعل وعسى، ويقع ذلك موقع القطع وللإشعار بأنه تفضل، والتوبة غير موجبة له، وأن العبد ينبغي له أن يكون بين الخوف والرجاء، وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة.

يقول الفقير: التكفير إشارة إلى الخلاص من الجحيم؛ لأن السيئات هي سبب العذاب، فإذا زال السبب.. زال المسبب، وإدخال الجنات إشارة إلى التقريب؛ لأن الجنان موضع القرب والكرامة، وجريان الأنهار إشارة إلى الحياة الأبدية؛ لأن الماء أصل الحياة وعنصرها، فلا بد للإنسان في مقابلة هذه الأنهار من ماء العلم ولبن الفطرة وعسل الإلهام وخمر الحال، فكما أن الحياة المعنوية في الدنيا إنما تحصل بهذه الأسباب.. فكذا الحياة الصورية في الآخرة إنما تحصل بصورها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿أَن يُكَفِّرَ﴾. وقرىء بالجزم، وقال الزمخشري: عطفاً على محل ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ﴾ كأنه قيل: توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم، انتهى. والأولى أن يكون حذف الحركة تخفيفاً

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وتشبيهاً لما هو من كلمتين بالكلمة الواحدة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ ولا يذله، ظرف ليدخلكم؛ أي: يدخلكم يوم لا يخزي الله النبي، وهو يوم القيامة. ولا يخزي: تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق والنبي هو: محمد - ﷺ -. قال بعض أهل التفسير[1]: ﴿يُخْزِي﴾: إما في الخزي، وهو الفضاحة، فيكون تعريضاً للكفرة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. أو من الخزاية، بمعنى الحياء والخجل، وهو الأنسب هنا بالنظر إلى شأن الرسول خصوصاً إذا تم الكلام في النبي وإن أريد المعنى الأول.. حينئذ يجوز أن يكون باعتبار أن خزي الأمة لا يخلو عن إنشاء خزي ما في الرسول على ما يشعر به قوله - ﷺ - في دعائه: «اللهم لا تخزنا يوم القيامة ولا تفضحنا يوم اللقاء» بعض الإشعار حيث لم يقل: لا تخزني، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ليكون دعاؤه عاماً لأمته من قوة رحمته، وأدخل فيهم نفسه العالية من كمال مروءته. قيل: الخزي كناية عن العذاب لملازمة بينهما. والأولى العموم لكل خزي يكون بسبب من الأسباب، من الحساب والميزان والعقاب وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ معطوف على النبي، و﴿مَعَهُۥ﴾ صلة لا يخزي؛ أي: لا يخزي الله معه الذين آمنوا؛ أي: يعمهم بأن لا يخزيهم، أو حال من الموصول، بمعنى كائنين معه. أو متعلق بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: صاحبوه في الإيمان، وهو الموافق لقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾.

والمعنى: أي ولا يخزي الذين اتبعوه في الإيمان، كما قال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. وذلك[2] الخزي بسوء الحساب، والتعيير والعتاب وذل الحجاب، ورد الجواب، فيحاسبهم حساباً يسيراً، بل ويرفع الحساب عن بعضهم، ويلاطفهم، ويكشف لهم جماله، ويعطي مأمولهم من الشفاعة لأقاربهم وإخوانهم ونحولهم. والكلام تم عند قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾، وفيه تعريض بمن أخزاهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق كما سبق واستحماد إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم. قيل:

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مبتدأ، خبره ما بعده من قوله ﴿نُورُهُمْ﴾ إلخ، أو خبره ﴿مَعَهُۥ﴾. والمراد بالإيمان هو الكامل حينئذٍ، حتى لا يلزم أن لا يدخل عصاة المؤمنين النار.

﴿نُورُهُمْ﴾ مبتدأ على الوجه الأول، وهو الأولى وخبره ﴿يَسْعَىٰ﴾ ويضيء ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: قدامهم. والجملة الاسمية حال، أو مستأنفة لبيان حالهم؛ أي: نور إيمانهم وطاعتهم يضيء ويمشي بين أيديهم. والسعي: المشي السريع القوي، وفيه إشارة إلى كمال اللمعان. والأيدي: جمع يد، يراد بها قدام الشيء. فالجمع إما بإطلاقه على التثنية أو بكثرة أيدي العباد. ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ جمع يمين، مقابل الشمال؛ أي: عن أيمانهم وشمائلهم على وجه الإضمار. يعني: جهة أيمانهم وشمائلهم، أو عن جميع جهاتهم. وإنما[1] اكتفى بذكرهما لأنهما أشرف الجهات. وقال بعضهم: تخصيص الأيدي والأيمان لأن أرباب السعادة يؤتون صحائف أعمالهم منهما، كما أن أهل الشقاوة يؤتون من شمائلهم ووراء ظهورهم فيكون ذلك علامة لذلك وقائداً على الصراط إلى دخول الجنة وزينة لهم فيها.

وقرأ سهل بن شعيب، وأبو حيوة[2]: ﴿وبإيمانهم﴾ بكسر الهمزة.

والمعنى: أي نورهم يسعى بين أيديهم حين يمشون وبإيمانهم حين الحساب، لأنهم يؤتون الكتاب بأيمانهم. وفيه نور وخير لهم.

ثم بيّن ما يطلبونه من ربهم، فقال: ﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: يقول المؤمنون ـ وهو الظاهر ـ، أو الرسول لأمته، والمؤمنون لأنفسهم، إذا طفىء نور المنافقين إشفاقاً على نورهم؛ أي: يشفقون على العادة البشرية على نورهم أن ينطفىء ويتفكرون فيما مضى منهم من الذنوب، فيقولون: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ أي: متولي أمورنا ﴿أَتْمِمْ لَنَا﴾؛ أي: أدم لنا ﴿نُورَنَا﴾ ولا تطفئه عنا كنور المنافقين، فيكون المراد بالإتمام: الإدامة إلى أن يصلوا إلى دار السلام. وجملة القول في محل النصب على الحال أيضاً. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ ذنوبنا، ﴿إِنَّكَ﴾ يا رب ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإتمام والمغفرة وغيرهما. وقيل: يدعون تقرباً إلى الله تعالى مع تمام نورهم، كقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

﴿لِذَنۢبِكَ﴾ وهو مغفور له.

قال في «الكشاف»: كيف يتقربون وليست الدار دار تقرب؟

قلت: لما كانت حالهم كحال المتقربين يطلبون ما هو حاصل لهم من الرحمة.. سماه تقرباً. وقيل: يتفاوت نورهم بحسب أعمالهم، فيسألون إتمامه تفضلاً، فيكون قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ من باب: بنو فلان قتلوا زيداً.

والمعنى[1]: أي يسألون ربهم أن يبقي لهم نورهم فلا يطفئه، حتى يجوزوا الصراط حين يقول لهم المنافقون والمنافقات: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، وقد تقدم نحو هذا في سورة الحديد. ويطلبون أيضاً منه أن يستر عليهم ذنوبهم، لا يفضحهم بعقوبتهم عليها حين الحساب. ثم ذكروا ما يطمعهم في إجابة الدعاء، فقالوا: إنك على إتمام نورنا، وغفران ذنوبنا، وكل ما نرجو منك ونطمع، قدير يا ربنا، فاللهم: أجب دعاءنا ولاتخيب رجاءنا.

وقد روي: أن أدناهم منزلة من يكون نوره بقدر ما يبصر موطىء قدمه؛ لأن النور على قدر العمل. وروي: أن السابقين إلى الجنة يمرون على الصراط مثل البرق، ويمر بعضهم كالريح، وبعضهم يحبو حبواً أو يزحف زحفاً، وهم الذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الكريم ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ المجاهرين للكفر بالسيف والسنان، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ أي: المبطنين للكفر، بالحجة واللسان، أو بالوعيد والتهديد، أو بإلقائهم بوجه قهر، أو بإفشاء سرهم. قيل: النفاق مستتر في القلب، ولم يكن للنبي - ﷺ - سبيل إلى ما في القلوب من النفاق والإخلاص إلا بعد إعلام من قبل الله، فأمر عليه السلام بمجاهدة من علمه منافقاً بإعلام الله إياه باللسان دون السيف لحرمة تلفظه بالشهادتين، وأن يجري عليه أحكام المسلمين ما دام ذلك إلى أن يموت.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: واشدد على الفريقين، واستعمل الخشونة فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة. قال الحسن: أي جاهدهم بإقامة الحدود عليهم، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود. وفيه[2] إشارة إلى أن الغلظة على

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أعداء الله من حسن الخلق، فإن أشفق الخلق إذا كان مأموراً بالغلظة عليهم، فما ظنك بغيره؟ فهي لا تنافي الرحمة على الأحباب. كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: مقرهم ومنزلهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ ومصيرهم إليها، سيرون فيها عذاباً غليظاً. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع الذي يرجعون إليه. والمخصوص بالذم جهنم وفيه تصريح بما علم التزاماً مبالغة.

يقول الفقير: إذا كان الأعداء الظاهرون يحتاجون إلى الغلظة والشدة.. فما ظنك بأعدى الأعداء، وهي النفس الأمارة بالسوء، ففي الغلظة عليها نجاة، وفي اللين هلاك، وفي المثل: العصا لمن عصا.

والمعنى[1]: أي جاهد الكفار بالسيف، وقاتلهم قتالاً لا هوادة فيه، وجاهد المنافقين بالإنذار والوعيد وبيان سوء المنقلب وعنفهم بفضيحة عاجلة تبين قبح طواياهم وخبث نفوسهم كما حدث منه - ﷺ - في المسجد الجامع لبعض المنافقين على ملأ من الناس، فقال: اخرج يا فلان، اخرج يا فلان، وأخرج منهم عدداً كثيراً، ثم بيّن سوء عاقبتهم، فقال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: وسيكون مسكنهم جهنم وبئس المثوى والمقيل.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: شبهاً. وهو المفعول الثاني لضرب؛ لأنه بمعنى: جعل، و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متعلق بـ﴿مَثَلًا﴾، وقوله: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾؛ أي: حالهما. مفعوله الأول أُخِّر عنه ليتصل به ما هو شرح وتفسير لحالهما، ويتضح بذلك حال هؤلاء الكفرة.

وضرب المثل[2] في أمثال هذه المواضع عبارة عن إيراد حالة غريبة ليعرف بها حالة أخرى مماثلة لها في الغرابة؛ أي: ضرب الله سبحانه وجعل حال امرأة نوح وامرأة لوط مثلاً وشبهاً لحال هؤلاء الكفرة في خيانتهم لرسول الله - ﷺ - بالكفر والعصيان مع تمكنهم التام من الإيمان والطاعة. وامرأة نوح هي: واعلة بالعين المهملة، أو والعة. وامرأة لوط هي: واهلة بالهاء. ﴿كَانَتَا﴾؛ أي: كانت المرأتان ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ بيان لحالهما الداعية لهما إلى الخير

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والصلاح. والمراد بكونهما تحتهما: كونهما في حكمهما وتصرفهما بعلاقة النكاح والزواج. و﴿صَٰلِحَيۡنِ﴾ صفة عبدين؛ أي: كانتا تحت نكاح نبيّين، وفي عصمة رسولين عظيمي الشأن، متمكنين من تحصيل خيري الدنيا والآخرة وحيازة سعادتهما. وإظهار العبدين المراد بهما نوح ولوط لتعظيمهما بالإضافة التشريفية إلى ضمير التعظيم والوصف بالصلاح. وإلا.. فيكفي أن يقال: تحتهما. وفيه بيان شرف العبودية والصلاح.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بيان لما صدر عنهما من الخيانة العظيمة مع تحقق ما ينفيها من صحبة النبي. والخيانة ضد الأمانة، فهي إنما تقال اعتباراً بالعهد والأمانة؛ أي: فوقعت منهما الخيانة لهما بالكفر والنفاق، والنسبة إلى الجنون، والدلالة على الأضياف ليتعرضوا لهم بالفجور لا بالبغاء، فإنه ما بغت امرأة نبيّ قط. فالبغاء للزوجة أشد في إيراث الأنفة لأهل العار والناموس من الكفر، وإن كان الكفر أشد منه في أن يكون جرماً يؤاخذ به العبد يوم القيامة، وهذا تصوير لحالهما المحاكية لحال هؤلاء الكفرة في خيانتهم لرسول الله - ﷺ - كما مرّ.

﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا...﴾ إلخ بيان لما أدى إليه خيانتهما؛ أي: فلم يغن النبيَّان ﴿عَنۡهُمَا﴾؛ أي: عن تينك المرأتين بحق الزواج ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من عذابه تعالى ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الإغناء؛ أي: لم يدفعا العذاب عنهما. ﴿وَقِيلَ﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة. وصيغة الماضي للتحقيق؛ أي: قالت الملائكة الموكلون بالعذاب لهما: ﴿ٱدۡخُلَا﴾ أي: أيها المرأتان ﴿ٱلنَّارَ﴾؛ أي: نار جهنم ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾؛ أي: مع سائر الداخلين لها من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين أولياء الله. ذكرن[1] بلفظ جمع المذكر السالم، لأنهن لا ينفردن بالدخول، فإذا اجتمعا.. فالغلبة للذكور.

وقطعت هذه الآية طمع من يرتكب المعصية أن ينفعه صلاح غيره من غير موافقة له في الطريقة والسيرة، وإن كان بينه وبينه لحمة نسب أو صلة صهر

وفي هذا المثل[2]: تعريض بأمي المؤمنين عائشة وحفصة وما فرط منهما، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده حين تظاهرتا على رسول الله - ﷺ -، وما

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

أحسن قول من قال[1]: إن ذكر امرأتي النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله - ﷺ - يرشد أتم إرشاد ويلوح أبلغ تلويح إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله، وخاتم رسله.. فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئاً، وقد عصمهما الله تعالى عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة.

ومعنى الآية[2]: أي ضرب الله مثلاً يبين به حال الكافرين الذين لم ينتفعوا بعظات المؤمنين الصادقين من النبيين والمرسلين؛ لظلمة قلوبهم وسوء استعدادهم وفساد فطرتهم، امرأة نوح وامرأة لوط؛ إذ كانتا في عصمة نبيّين يمكنهما أن ينتفعا بهديهما ويحصلا ما فيه سعادتهما في معاشهما ومعادهما، لكنهما أبتا ذلك وعملتا ما يدل على الخيانة والكفر، فاتهمت الأولى زوجها بالجنون، وكانت الثانية ترشد قوم لوط إلى ضيوفه لمآرب خبيثة، فلم يدفع عنهما قربهما من ذينك العبدين الصالحين شيئاً، وحاق بهما سوء ما عملتا، وسيحل بهما عقاب الله، وسيدخلان النار في زمرة داخليها، جزاء وفاقاً لما اجترحتا من السيئات وما دستا به أنفسهما من كبير الآثام وعظيم المعاصي.

وبعد أن ضرب مثلاً يبين به أن وصلة الكافرين بالمؤمنين لا تفيدهم شيئاً.. أرشد إلى عكس هذا، فأفاد أن اتصال المؤمنين بالكافرين لا يضرهم شيئاً، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثان، قدمه للاهتمام به. ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: جعل الله حالها مثلاً لحال المؤمنين، ترغيباً لهم في الثبات على الطاعة والتمسك بالدين والصبر في الشدة، وأن وصلة الكفار وصولتهم لا تضرهم كما لم تضر امرأة فرعون، وقد كانت تحت أكفر الكافرين، وصارت بإيمانها بالله سبحانه في أعلى غرف الجنان. والمراد بها: آسية بنت مزاحم. يقال: رجل آسي وامرأة آسية، من الأسى. وهو الحزن. قال بعضهم: الحزن حلية الأدباء، ومن لم يذق طعام الحزن.. لم يذق لذة العبادة على أنواعها. أو من الأسو، وهو: المداوة، والآسي - بالمد -: الطبيب.

﴿إِذْ قَالَتْ﴾: ظرف للمثل المذكور؛ أي: ضرب الله مثلاً للمؤمنين حالها إذ

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي﴾[1] على أيدي الملائكة، أو بيد قدرتك، فإنه روي: أن الله تعالى خلق جنة عدن بيده من غير واسطة، وغرس شجرة طوبى بيده. ﴿عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: قريباً من رحمتك، على أن الظرف حال من ضمير المتكلم، أو ابن لي في أعلى درجات المقربين، فيكون ﴿عند﴾ ظرفاً للفعل، و﴿فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ صفة لـ﴿بَيْتًا﴾. وفي «عين المعاني»: ﴿عِندَكَ﴾؛ أي: من عندك بلا استحقاق مني بل كرامة منك. وروي: أنها لما قالت ذلك.. رفعت الحجب حتى رأت بيتها في الجنة من درة بيضاء، وانتزع روحها. ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ﴾ الجاهل ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ الباطل؛ أي: من نفسه الخبيثة وسوء جوارها، ومن عمله السيء الذي هو كفره ومعاصيه. ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: من القبط التابعين له في الظلم. روي: أنه لما غلب موسى عليه السلام السحرة.. آمنت امرأة فرعون، وقيل: هي عمّة موسى آمنت به، فلما تبين لفرعون إسلامها طلب منها أن ترجع عن إيمانها، فأبت، فأوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وربطها، وألقاها في الشمس وأراها الله بيتها في الجنة، ونسيت ماهي فيه من العذاب، فضحكت، فعند ذلك قالوا: هي مجنونة، تضحك وهي في العذاب!

وأخرج ابن أبي شيبة[2]، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الشعب» عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها.. أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة: إن فرعون وَتَدَ لامرأته أربعة أوتاد، وأضجعها على ظهرها، وجعل على صدرها رحى، واستقبل بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء فـ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ففرج الله لها عن بيتها في الجنة، فرأته. وقيل: اشتاقت إلى الجنة وملت من صحبة فرعون، فسألت ذلك. وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

وذكر[1] المفسرون أنواعاً مضطربة في تعذيبها، وليس في القرآن نص بأنها عذبت، والله أعلم. وقال بعض الظرفاء، وقد سئل أين في القرآن مثل قولهم: الجار قبل الدار؟ قال: قوله تعالى: ﴿ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾، فـ﴿عِندَكَ﴾ هو المجاورة، و﴿بَيْتًا﴾ في الجنة هو الدار، وقد تقدم ﴿عِندَكَ﴾ على قوله: ﴿بَيْتًا﴾.

ومعنى الآية[2]: أي وجعل الله حال امرأة فرعون مثلاً يبين به أن وصلة المؤمنين بالكافرين لا تضرهم شيئا إذا كانت النفوس خالصة من الأكدار؛ فقد كانت تحت أعدى أعداء الله في الدنيا، وطلبت النجاة منه ومن عمله، وقالت في دعائها: رب اجعلني قريباً من رحمتك، وابن لي بيتاً في الجنة، وخلصني من أعمال فرعون الخبيثة، وأنقذني من قومه الظالمين. وفي هذا دليل على أنها كانت مؤمنة مصدقة بالبعث، ومن سنن الله أن: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وأن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ معطوف على امرأة فرعون. وجمع في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها نسلية للأرامل وتطييباً لأنفسهن. وسميت مريم في القرآن باسمها في سبعة مواضع، ولم يسم غيرها من النساء؛ لأنها أقامت نفسها في الطاعة كالرجل الكامل. ومريم بمعنى العابدة. وقد سمى الله أيضاً زيداً في القرآن كما سبق في سورة الأحزاب. وقرأ الجمهور: ﴿ٱبْنَتَ﴾ بفتح التاء، وأيوب السختياني: ﴿ابنه﴾ بسكون الهاء وصلاً، إجراء مجرى الوقف.

والمعنى[3]: وضرب الله سبحانه مثلاً للذين آمنوا حال مريم ابنة عمران والدة عيسى عليهما السلام، وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع كون قومها كفاراً. ﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ﴾ وحفظت ﴿فَرْجَهَا﴾ عن مساس الرجال مطلقاً، حراماً وحلالاً على آكد الحفظ. والإحصان: العفاف. والفرج: ما بين الرِّجْلَين، وكنى به عن السوءة وكثر حتى صار كالصريح فيه. قال بعضهم: صانته عن الفجور كما صان الله آسية عن مباشرة فرعون؛ لأنه كان عنّيناً ـ وهو من لا يقدر على الجماع لمرض أو كبر سن، أو يصل إلى الثيب دون البكر ـ فالتعبير عن آسية بالثيب كما مرّ في ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ لكونها في صورة الثيب من حيث إن لها بعلاً.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

وقال السهيلي: إحصان الفرج معناه: طهارة الثوب، يريد فرج القميص؛ أي: لم يعلق بثوبها ريبة؛ أي: إنها طاهرة الأثواب، فكنى بإحصان فرج القميص عن طهارة الثوب من الريبة. وفروج القميص أربعة: الكمان، والأعلى، والأسفل، فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا، لأن القرآن أنزه معنى وأوجز لفظاً وألطف إشارة وأحسن عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل، انتهى. قال في «الكشاف»: ومن بدع التفاسير: أن الفرج هو جيب الدرع ومعنى أحصنته: منعته.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾: ﴿الفاء﴾: للسببية. والنفخ: نفخ الريح في الشيء؛ أي: فنفخنا بسبب ذلك في فرجها، على أن يكون المراد بالفرج هنا الجيب. وقال السجاوندي في «عين المعاني»: أي فيما انفرج من جيبها، وكذا قال أبو القاسم في «الأسئلة»: ولم يقل: فيها؛ لأن المراد بالكناية جيب درعها، وهو إلى التذكير أقرب، فيكون قوله: ﴿فِيهِ﴾ من باب الاستخدام؛ لأن الظاهر: أن المراد بلفظ الفرج العضو، وأريد بضميره معنى آخر للفرج، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾. وكذا يكون إسناد النفخ إلى الضمير مجازياً؛ أي: نفخ جبريل بأمرنا، وهو إنما نفخ في جيب درعها. ﴿مِن رُّوحِنَا﴾؛ أي[1]: من روح خلقناه بلا توسط أصل. وأضاف الروح إلى ذاته تعالى، تفخيماً لها ولعيسى، كقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾، وفي سورة الأنبياء ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في مريم؛ أي: أحيينا عيسى في جوفها من الروح الذي هو من أمرنا. وقال بعضهم: أحيينا في فرجها، وأوجدنا في بطنها ولداً من الروح الذي هو بأمرنا وحده، بلا سببية أصل وتوسل نسل على العادة العامة، أو من جهة روحنا جبريل؛ لأنه نفخ من جيب درعها، فوصل النفخ إلى جوفها. أو ففعلنا النفخ فيه. وقرىء: ﴿فيها﴾ على وفاق ما في سورة الأنبياء؛ أي: في مريم، والمآل واحد، انتهى.

يقول الفقير: يلوح لي هاهنا سر خفي، وهو: أن النفخ وإن كان في الجيب إلا أن عيسى لما كان متولداً من الماءين: الماء المتحقق، وهو ماء مريم، والماء المتوهم، وهو ما حصل بالنفخ.. كان النفخ في الجيب بمنزلة صب الماء في الفرج، فالروح المنفوخ في الجيب كالماء المصبوب في الفرج، والماء المصبوب،

---

(١) روح البيان.

وإن لم يكن الروح عينه إلا أنه في حكم الروح؛ لأنه يخلق منه الروح، ولذا قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾؛ أي: في الفرج، سواء قلت: إنه فرج القميص أو العضو، فاعرف، ولا يقبله إلا الألباء الربانيون.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾؛ أي: في الفرج. وقرأ عبد الله: ﴿فيها﴾ كما في سورة الأنبياء؛ أي: في الجملة.

﴿وَصَدَّقَتْ﴾ معطوف على ﴿أَحْصَنَتْ﴾، ﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بالصحف المنزلة على الأنبياء عليهم السلام. وفي «كشف الأسرار»: يعني بالشرائع التي شرعها الله تعالى لعباده بكلماته المنزلة. ويقال: صدقت بالبشارات التي بشر بها جبريل، وهي: قول جبريل لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾. وقال مقاتل: يعني بالكلمات: عيسى. ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾؛ أي: بجميع كتبه المنزلة الشاملة للصحف وغيرها من الكتب الإلهية، متقدمة أو متأخرة. ﴿وَكَانَتْ﴾ مريم ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾؛ أي: من عداد المواظبين على الطاعة. فـ﴿مِن﴾ للتبعيض. وفي «عين المعاني»: من المطيعين المعتكفين في المسجد الأقصى. وقال عطاء: من المصلين، كانت تصلي بين المغرب والعشاء، أو كانت من القانتين؛ أي: من نسلهم، يريد رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة؛ لأنها من أعقاب هارون أخِ موسى عليه السلام. فـ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية. وقال: ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ ولم يقل: من القانتات؛ لتغليب الذكور على الإناث، وللإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعات الرجال حتى عدت من جملتهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ بتشديد الدال. وقرأ يعقوب وأبو مجلز، وقتادة، وعصمة عن عاصم بتخفيفها؛ أي: كانت صادقة بما أخبرت به من أمر عيسى عليه السلام، وما أظهر الله له من الكرامات.

وقرأ الجمهور: ﴿بِكَلِمَٰتِ﴾ جمعاً، فاحتمل أن تكون الصحف المنزلة على إدريس وغيره، وسماها كلمات لقصرها ويكون المراد: بكتبه الكتب الأربعة، ويحتمل أن تكون الكلمات ما صدر في أمر عيسى عليه السلام. وقرأ الحسن،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

ومجاهد، والجحدري: ﴿بكلمة﴾ على التوحيد، فاحتمل أن يكون اسم جنس، واحتمل أن تكون كناية عن عيسى؛ لأنه قد أطلق عليه أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم.

وقرأ أبو عمرو وحفص: ﴿وكتبه﴾ جمعاً، ورواه كذلك خارجة عن نافع. وقرأ باقي السبعة: ﴿وكتابه﴾ على الإفراد، فاحتمل أن يراد به الجنس وأن يراد به الإنجيل، لا سيما إن فسرت الكلمة بعيسى. وقرأ أبو رجاء: ﴿وكتبه﴾ بسكون التاء. قال ابن عطية مراداً به الإنجيل والتوراة. وقال صاحب «اللوامح»: وقرأ أبو رجاء: ﴿وكَتْبه﴾ بفتح الكاف وهو مصدر أقيم مقام الاسم. وقال سهل: ﴿وَكَتْبه﴾ أجمع من كتابه؛ لأن فيه وضع المضاف موضع الجنس، فالكتب عام والكتاب هو الإنجيل فقط.

ومعنى الآية[1]: أي وضرب الله مثلاً للذين آمنوا حال مريم - وما أوتيت من كرامة الدنيا وكرامة الآخرة، فاصطفاها ربها مع أن أكثر قومها كانوا كفاراً من قبل - أنها منعت جيب درعها جبريل عليه السلام، وقالت له: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾. فأثبتت بذلك عفتها وكمال طهارتها، فنفخ جبريل فيه، فحملت بنبي الله وكلمته عيسى صلوات الله عليه، وصدقت بشرائع الله وكتبه التي أنزلها على أنبيائه وكانت في عداد القانتين العابدين المخبتين لربهم المطيعين له.

روى أحمد في «مسنده»: «سيدة نساء أهل الجنة: مريم، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم عائشة». وفي «الصحيح»: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة كفضل الثريد على سائر الطعام»، وإنما فضل الثريد لأنه مع اللحم غذاء جامع بين اللذة وسهولة التناول وقلة المؤنة في المضغ وسرعة المرور على المريء، فضربه مثلاً ليؤذن بأنها رضي الله عنها أعطيت مع حسن الخلق حلاوة المنطق وفصاحة الكلام، وجودة القريحة ورزانة الرأي ورصانة العقل، والتحبب للبعل، وبحسبك أنها عقلت من النبي - ﷺ - ما لم يعقل غيرها من النساء، وروت ما لم يرو مثله الرجال.

---

(١) المراغي.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ① قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ②﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: بدل من ﴿أي﴾ أو عطف بيان له، أو نعت له، وجملة النداء مستأنفة. ﴿لِمَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، ﴿مَآ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الجر باللام مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين (ما) الموصولة، الجار والمجرورمتعلق بـ﴿تُحَرِّمُ﴾، ﴿تُحَرِّمُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما أحله لك، ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أَحَلَّ﴾، ﴿تَبۡتَغِي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تُحَرِّمُ﴾، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿رَّحِيمٞ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق، ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لَكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿فَرَضَ﴾، ﴿تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَرَضَ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ③﴾.

﴿وَإِذۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد قصة.....، والجملة المحذوفة مستأنفة: ﴿أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَسَرَّ﴾، ﴿حَدِيثٗا﴾: مفعول به. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿نَبَّأَتۡ﴾: فعل ماض، و﴿التاء﴾: علامة تأنيث الفاعل، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى بعض أزواجه،

والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، لا محل لها من الإعراب. والأصل في نبأ وأنبأ، وأخبر وخبّر وحدث أن تتعدى إلى مفعول واحد بأنفسها وإلى ثان بحرف جر، ويجوز حذفه كما هنا، لأنه محذوف هنا، تقديره: غيرها، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نبأ﴾ على أنه مفعول ثان. وقوله: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾؛ أي: بهذا، و﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: به فإذا ضمنت معنى أعلم.. تعدت إلى ثلاثة مفاعيل، كما هو مقرر في محله. ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿نَبَّأَتْ﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أظهر﴾، ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على النبي، ومفعول به، والجملة جواب ﴿لما﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿إذ أسر﴾. ﴿وَأَعْرَضَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿عَرَّفَ﴾، ﴿عَنۢ بَعْضٍ﴾ متعلق بـ﴿أعرض﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لما﴾ حرف شرط، ﴿نَبَّأَهَا﴾: فعل، وفاعل مستتر ومفعول به فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿نبأ﴾ على أنه مفعول ثان. ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ الأولى. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام للاستفهام الاستخباري في محل الرفع، مبتدأ، ﴿أَنۢبَأَكَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول أول، و﴿هَٰذَا﴾: مفعول ثان لـ﴿أنبأ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ﴿مَنْ﴾ الاستفهامية، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على النبي، والجملة مستأنفة، ﴿نَبَّأَنِيَ﴾: فعل ماض، ونون وقاية، ومفعول به أول، والثاني محذوف، تقديره: نبأني به، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: فاعل، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: صفته، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِن﴾: حرف شرط جازم، ﴿تَتُوبَآ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾: الشرطية على أنه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والألف فاعل ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، وجواب الشرط محذوف، تقديره: يتب عليكما. وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿صَغَتْ﴾: فعل ماض مبني بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة للتخلص من

التقاء الساكنين منع من ظهورها التعذر، و﴿التاء﴾: علامة تأنيث الفاعل، ﴿قُلُوبُكُمَا﴾: فاعل، والجملة الفعلية جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.
﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿تَظَاهَرَا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف النون، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿تَظَاهَرَا﴾، وجواب الشرط محذوف، تقديره: يجد ناصراً. وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إنْ﴾ الأولى. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿مَوْلَاهُ﴾: خبر ﴿إن﴾، والوقف تام هنا، وجملة ﴿إنَّ﴾ تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَجِبْرِيلُ﴾: مبتدأ، ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوف عليه. ﴿وَصَالِحُ﴾: اسم جنس لا جمع، ولذلك جاء من غير واو بعد الحاء، وجوزوا أن يكون جمعاً بالواو والنون، وحذفت النون للإضافة، وكتبت دون واو اعتباراً بلفظه؛ لأن الواو ساقطة لالتقاء الساكنين، ولا داعي لهذا التكلف.
﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾: معطوف على ﴿جبريل﴾ أيضاً، ﴿ظَهِيرٌ﴾: خبر عن الجميع؛ لأن فعيلاً يستوي فيه الواحد والجمع كما مر. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ على كونها تعليلية، ويجوز أن تعطف ﴿جبريل وصالح المؤمنين﴾ على محل ﴿إنّ﴾ واسمها، فالخبر عن الجميع، ﴿مَوْلَاهُ﴾ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ حينئذٍ مبتدأ، ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾: متعلق بـ﴿ظَهِيرٌ﴾، و﴿ظَهِيرٌ﴾: خبر عن الملائكة، والجملة معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ أيضاً.

﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

﴿عَسَى﴾: فعل ماض من أفعال الرجاء، ﴿رَبُّهُ﴾: اسمها، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿طَلَّقَكُنَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن طلقكن يبدله أزواجاً خيراً منكن، وحملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين ﴿عَسَى﴾ وخبرها، لا محل لها من الإعراب. ﴿أنْ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يُبْدِلَهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به أول، ﴿أَزْوَاجًا﴾: مفعول به ثان، ﴿خَيْرًا﴾: صفة لـ﴿أَزْوَاجًا﴾، ﴿مِّنكُنَّ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على أنه خبر ﴿عَسَى﴾، ولكنه على تأويل اسم الفاعل ليصح الإخبار،

تقديره: عسى ربه مبدلاً إياه أزواجاً خيراً منكن، وجملة ﴿عَسَىٰ﴾ مستأنفة. وفصل بين عسى وخبرها بالشرط اهتماماً بالأمر وتخويفاً لهن. ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾: نعت ثان لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾، ويجوز نصبه على أنه حال من الضمير المستتر في ﴿خَيْرًا﴾، ونصبه بعضهم على الاختصاص، ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾: صفة ثالثة، ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾: رابعة، ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾: خامسة، ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾: سادسة، ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾: سابعة، ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾: ثامنة، ﴿وَأَبْكَارًا﴾: معطوف على ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾. ووسطت الواو بين ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ ﴿وَأَبْكَارًا﴾ لتنافي الوصفين فيه دون سائر الصفات، وليست هي واو الثمانية، كما توهمه بعضهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيها﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿قُوٓا۟﴾: فعل أمر، من الوقاية، فوزنه: عوا، كما سيأتي، مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿أَنفُسَكُمْ﴾: مفعول به أول، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾: معطوف على ﴿أَنفُسَكُمْ﴾، وعلامة نصبه الياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿نَارًا﴾: مفعول ثان، ﴿وَقُودُهَا﴾: مبتدأ، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: خبره، ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾: معطوف عليه، والجملة صفة لـ﴿نَارًا﴾، ﴿عَلَيْهَا﴾: خبر مقدم، ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صفة ثانية لـ﴿نَارًا﴾، ﴿غِلَاظٌ﴾: صفة أولى لـ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾، و﴿شِدَادٌ﴾: صفة ثانية لـ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة صفة ثالثة لـ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾، ﴿مَآ﴾ مصدرية، ﴿أَمَرَهُمْ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾ المصدرية، ﴿مَآ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على أنه بدل اشتمال من الجلالة، كأنه قيل: لا يعصون أمره. وأجاز أبو حيان نصبه على نزع الخافض؛ أي: فيما أمرهم. ﴿وَيَفْعَلُونَ﴾: فعل، وفاعل مرفوع بثبوت النون، ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يفعلون﴾ في محل الرفع صفة رابعة لـ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾، وجملة ﴿يُؤْمَرُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: يؤمرون به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَعۡتَذِرُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، و﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تَعۡتَذِرُواْ﴾، والجملة جواب النداء. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع بالنون، و﴿الواو﴾: نائب فاعل له، و﴿مَا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية جملة تعليلية مسوقة لتعليل النهي، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُنتُمۡ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، وجملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: خبر كان الناقصة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول، ﴿تُوبُوٓاْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل. والجملة جواب النداء، ﴿تَوۡبَةٗ﴾: مفعول مطلق، ﴿نَّصُوحًا﴾: نعت لـ﴿تَوۡبَةٗ﴾، ﴿عَسَىٰ﴾: فعل ناقص من أفعال الرجاء، ﴿رَبُّكُمۡ﴾: اسمها، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يُكَفِّرَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿عَنكُمۡ﴾: متعلق به، ﴿سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾: مفعول به والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على أنه خبر ﴿عَسَىٰ﴾ ولكنه مع التأويل بمشتق تقديره: عسى ربكم مكفراً عنكم سيئاتكم، ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿يُكَفِّرَ﴾، ﴿جَنَّٰتٖ﴾: مفعول به ثان على السعة، ﴿تَجۡرِي﴾: فعل مضارع، ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة صفة لـ﴿جَنَّٰتٖ﴾، ﴿يَوۡمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يدخلكم﴾ أو بفعل محذوف، تقديره: اذكر، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يُخۡزِي ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾: مفعول به، والجملة في محل الجرّ مضاف إليه لـ﴿يَوۡمَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿الذين﴾: معطوف على ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿مَعَهُۥ﴾: حال من فاعل ﴿ءَامَنُواْ﴾، أو متعلق به.

﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿نُورُهُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَسۡعَىٰ﴾: خبره والجملة الاسمية مستأنفة أو حالية.

ويجوز أن تكون الواو استئنافية، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾: خبره، ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَسْعَىٰ﴾، ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾: معطوف على ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، متعلق بما تعلق به، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبر ثان عن الموصول أو حال منه، ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿أَتْمِمْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر، ﴿لَنَا﴾ متعلق به، ﴿نُورَنَا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾: معطوف على ﴿أَتْمِمْ لَنَا﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة إن في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها معللة للدعاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، والجملة مستأنفة، ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾، ﴿وَٱغْلُظْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾، معطوف على ﴿جَٰهِدِ﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿اغلظ﴾، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿مأواهم﴾: مبتدأ، ﴿جَهَنَّمُ﴾: خبر، والجملة مستأنفة، ﴿وَبِئْسَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿بئس﴾: فعل ماض جامد لإنشاء الذم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: فاعل، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي، وهو مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿بئس﴾ خبره مقدم عليه، والتقدير: هي؛ أي: جهنم مقول فيها: بئس المصير، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، ﴿مَثَلًا﴾: مفعول ثان مقدم، ﴿لِّلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿مَثَلًا﴾، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾: مفعول به أول، ﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾: معطوف على امرأة نوح، والجملة مستأنفة مسوقة لإيراد حالة

غريبة، ﴿كَانَتَا﴾: فعل ناقص، و﴿التاء﴾: علامة تأنيث اسمها، والألف اسم كان، ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾: ظرف متعلق بمحذوف خبر كان، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿عَبْدَيْنِ﴾، وجملة كانتا جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب سيقت لتفسير ضرب المثل. ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿كَانَتَا﴾، ﴿فَلَمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يُغْنِيَا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾ وعلامة جزمه حذف النون، والألف فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿خانتاهما﴾، ﴿عَنْهُمَا﴾: متعلق بـ﴿يُغْنِيَا﴾، ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: حال من شيئاً؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿شَيْئًا﴾: مفعول مطلق، أو مفعول به، ﴿وَقِيلَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿قيل﴾: فعل ماض، ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾: نائب محكي لـ﴿قيل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾. وإن شئت قلت: ﴿ادْخُلَا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الألف﴾: فاعل، ﴿النَّارَ﴾: مفعول به على السعة، ﴿مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿ادْخُلَا﴾، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول ثان، ﴿لِلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿مَثَلًا﴾، وجملة ﴿آمَنُوا﴾: صلة الموصول، ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾: مفعول أول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ﴿إِذْ﴾: ظرف متعلق بـ﴿مَثَلًا﴾. ولعل الأولى أن يقال: إنه متعلق بمحذوف بدل من مثلاً، أو نعت له، وجملة ﴿قَالَتْ﴾: في محل الجرّ بإضافة الظرف إليه، ﴿رَبِّ ابْنِ لِي﴾: إلى قوله: ﴿وَمَرْيَمَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَتْ﴾، ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، حذفت منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾، ﴿ابْنِ﴾: فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، ﴿لِي﴾: متعلق بـ﴿ابْنِ﴾، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالَتْ﴾، ﴿عِنْدَكَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ضمير المتكلم، أو من ﴿بَيْتًا﴾ لتقدمه عليه، ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾: عطف بيان أو بدل من قوله: ﴿عِنْدَكَ﴾، أو متعلق بـ﴿ابْنِ﴾، ﴿وَنَجِّنِي﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر ونون وقاية، ومفعول به معطوف على ﴿ابْنِ﴾. ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ﴿نجني﴾، ﴿وَعَمَلِهِ﴾: معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، ﴿وَنَجِّنِي﴾: معطوف على ﴿نجني﴾ الأول، ﴿مِنَ الْقَوْمِ﴾:

متعلق بـ﴿نجني﴾، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: نعت للقوم.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَرْيَمَ﴾: معطوف على ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾، ﴿ٱبْنَتَ﴾: بدل، أو نعت لـ﴿مريم﴾، ﴿عِمْرَٰنَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة لزيادة الألف والنون، ﴿ٱلَّتِيٓ﴾: صفة ثانية لـ﴿مريم﴾، ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿فَنَفَخْنَا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿أَحْصَنَتْ﴾، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿نفخنا﴾، ﴿مِن رُّوحِنَا﴾: صفة لمفعول محذوف؛ أي: روحاً كائناً من روحنا. ﴿وَصَدَّقَتْ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مريم﴾، معطوف على مقدر مناسب للسياق؛ أي: فحملت بعيسى. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿صدقت﴾، ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾: معطوف على ﴿كلمات﴾، ﴿وَكَانَتْ﴾: فعل ناقص، واسمها ضمير مستتر يعود على مريم، ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾: خبرها، والجملة معطوفة على ﴿صدقت﴾، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ أصل ﴿لِمَ﴾ لما، مركبة من (لام) الجر و(ما) الاستفهامية. ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ أصل أحل: أحلل، بوزن أفعل، نقلت حركة اللام الأولى إلى الحاء فسكنت فأدغمت في الثانية. ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾: الابتغاء: الطلب. والمرضاة: مصدر كالرضا، وفيه إعلال بالقلب، أصله: مرضية بوزن مفعلة، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وأصل الياء واو، من الرضوان، أعل بالقلب حملاً له في الإعلال على اسم الفاعل، والماضي: رضي، أصله: رضو، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة. والأزواج: جمع زوج، فإنه يطلق على المرأة أيضاً، بل هو الفصيح كما قال في «المفردات»: وزوجة لغة رديئة. ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾: مصدر لحلل الرباعي، فأصله: تحللة، بوزن تفعلة، كتكرمة من كرم، وتفرقة من فرق، فأدغمت، ولكنه غير مقيس، فإن قياس مصدره التفعيل إذا كان صحيحاً غير مهموز، فأما معتل اللام، كزكى، ومهموز اللام كنبأ.. فمصدرهما تفعلة، كتزكية وتنبئة، على أنه قد جاء التفعيل في المعتل كاملاً، نحو قوله:

بَـاتَـتْ تُـنَـزِّي دَلْـوَهَـا تَـنْـزِّيَـا   كَـمَـا تُـنَـزِّي شَـهْـلَـةٌ صَـبِـيّـاً

وعبارة «الروح» هنا: الفرض هنا بمعنى الشرع والتبيين، كما دل عليه ﴿لَكُمْ﴾، فإن فرض بمعنى: أوجب، إنما يتعدى بعلى. والتحلة: مصدر حلل، بتضعيف العين، بمعنى التحليل، أصله: تحلة، كتكرمة، وتعلة، وتبصرة، وتذكرة، من كرم وعلل وبصر وذكر، بمعنى: التكريم والتعليل والتبصير والتذكير، إلا أن هذا المصدر من الصحيح خارج عن القياس، فإنه من المعتل اللام، نحو: سمي تسمية، أو مهموز اللام مثل: جزّأ تجزئة. والمراد: تحليل اليمين، كأن اليمين عقد والكفارة حله. انتهى.

وتحلة القسم يستعمل على وجهين:

أحدهما: تحليله بالكفارة كما في الآية.

ثانيهما: بمعنى الشيء القليل، وهذا هو الأكثر، كما جاء في الحديث: «لن يلج النار إلا تحلة القسم»؛ أي: إلا زمناً يسيراً.

قوله تعالى: ﴿أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ أصله: أسرر، بوزن أفعل، نقلت حركة الراء الأولى إلى السين، فسكنت فأدغمت في الثانية. والإسرار: خلاف الإعلان، ويستعمل في الأعيان والمعاني والسر هو: الحديث المكتتم في النفس، وأسررت إلى فلان حديثاً: أفضيت به في الخفية، فالإسرار إلى الغير يقتضي إظهار ذلك لمن يفضي إليه بالسر وإن كان يقتضي إخفاءه عن غيره، فإذاً قولهم: أسررت إلى فلان، يقتضي من وجه الإظهار ومن وجه الإخفاء. و﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: هو رسول الله ـ ﷺ ـ، فاللام للعهد. ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾؛ أي: وليكم وناصركم. ﴿حَدِيثًا﴾ قال الراغب: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له: حديث: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ضمن أظهر معنى أطلع، من ظهر فلان السطح إذا علاه، وحقيقته: صار على ظهره، وأظهره على السطح؛ أي: رفعه عليه، فاستعير للإطلاع على الشيء، وهو من باب الإفعال. قال الراغب: ظهر الشيء، أصله: أن يحصل شيء على ظهر الأرض، فلا يخفى، وبطن إذا حصل في بطنان الأرض فيخفى، ثم صار مستعملاً في كل بارز للبصر والبصيرة. ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ وبعض الشيء: جزء منه.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أصله: تتوبان، حذفت نون الرفع للجازم، ثم نقلت حركة

الواو إلى التاء؛ لأن الأصل: تتوبان، لوزن تفعلان، فسكنت الواو إثر ضمة فصارت حرف مد، فوزنه تفعلان. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أصله صغي، بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فلما اتصلت بالفعل تاء التأنيث الساكنة.. حذفت الألف لالتقاء الساكنين، يقال: صغا يصغو صغوا، إذا مال، وأصغى إليه: مال بسمعه. قال الشاعر:

تُصْغِي ٱلْقُلُوبُ إِلَىٰ أَغَرَّ مُبَارَكٍ مِنْ آلِ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبْ

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أصله: تتظاهران ـ بتاءين ـ وحذفت منه نون الرفع للجازم وإحدى التاءين للتخفيف، ماضيه: تظاهر، من باب تفاعل من الظهر؛ لأنه أقوى الأعضاء. ﴿ظَهِيرٌ﴾؛ أي: ظهراء معاونون وأنصار مساعدون. ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾ أصله عسي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾؛ أي: خاضعات لله منقادات له بالطاعة. ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾؛ أي: مصدقات بتوحيد الله مخلصات له. ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾؛ أي: مواظبات على القنوت والعبادة. ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾؛ أي: مقلعات عن الذنوب، وفيه إعلال بالإبدال، أصله: تاوبات، من تاب يتوب أبدلت الواو في الجمع والمفرد همزة حملاً للوصف في الإعلال على فعله حيث أعل بقلب الواو ألفاً في الفعل لأن أصل تاب توب، كقال أصله: قول ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ أي: متعبدات متذللات لأمر الرسول ﷺ. ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: صائمات، وسمي الصائم بذلك من حيث أن السائح لا زاد معه ولا يزال ممسكا حتى يجد الطعام، كالصائم، ثم لا يزال كذلك حتى يجيء وقت الإفطار. وفيه إعلال بالإبدال، أصله: سايحات، أبدلت الياء همزة في الجمع أيضاً حملاً للوصف في الإعلال على فعله: سيح، حيث قلبت الياء ألفاً، والسياحة في اللغة: الجولان في الأرض. ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ جمع ثيب، والثيب الرجل الداخل بامرأة. والمرأة المدخول بها، يستوي فيه المذكر والمؤنث، فيجمع المذكر على ثيبين، والمؤنث على ثيبات، من ثاب إذا رجع، سميت به المرأة لأنها راجعة إلى زوجها إن أقام بها، وإلى غيره إن فارقها، أو إلى حالتها الأولى، وهي: أنه لا زوج لها، فهي لا تخلو عن الثوب، أي: الرجوع، وقس عليها الرجل.

وأصل ثيب: ثيوب كسيّد وميّت، أصلهما سيود وميوت، ووزن ثيبات فيعلات، أدغمت ياء فيعل في عين الكلمة كما هو رأي صاحب «القاموس»

و«اللسان».

وقيل: ثيوبات، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما ساكنة فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء، وهذا رأي الجوهري، والراغب الأصفهاني.

﴿وَأَبْكَارًا﴾؛ أي: عذارى، وسميت العذراء بالبكر لأنها على أول حالتها التي طلعت عليها. قال الراغب: سميت التي لم تفتض بكراً اعتباراً بالثيب؛ لتقدمها عليها فيما يراد له النساء، ففي البكر معنى الأولية والتقدم، ولذا يقال: البكرة لأول النهار، والباكورة للفاكهة التي تدرك أولاً. ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال الراغب: الصلاح: ضد الفساد الذي هو خروج الشيء عن الاعتدال والانتفاع، قل أو كثر، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل الصلاح في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة.

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: أمر من الوقاية، بمعنى الحفظ والحماية والصيانة. أصله: أوقيوا، كاضربوا؛ لأنه أمر من وقى يقي وقاية، وهذا الفعل لفيف مفروق، ماضيه: وقى، ومضارعه: يقي، مع أن القياس أن يكون المضارع يوقي بوزن يفعل ـ بكسر العين ـ لكن فاء الفعل الواو حذفت من المضارع لوقوعها بين عدوتيها، ، الياء المفتوحة والكسرة، ولما بني منه أمر مسند إلى واو الجماعة.. حذف منه حرف المضارعة وحذفت الواو، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت للتخفيف؛ لأن اللفظ صار بعد حذف نون الرفع عند بناء الأمر من الأفعال الخمسة، صار: قيوا، فلما حذفت حركة الياء.. سكنت، فالتقت ساكنة مع واو الجماعة، فحذفت لذلك، فصار وزنه: عوا، وهكذا شأن كل لفيف مفروق بني منه الأمر لم يبق من أصله إلا العين فقط؛ لأن الفاء تحذف قياساً إذا كانت واواً، واللام: حرف علة تحذف لبناء الأمر على حذف حرف العلة من المعتل، أو لالتقاء الساكنين كما هنا.

﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ أصله: أهلين، جمع أهل، حذفت النون للإضافة، وقد يجمع على أهالي ـ على غير قياس ـ: وهو كل من في عيال الرجل، ونفقته، من المرأة والولد، والأخ والأخت، والعم وابنه، والخادم، ويفسر بالأصحاب أيضاً. ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ الوقود ـ بفتح الواو ـ: اسم لما توقد به النار من الحطب وغيره، وبالضم: مصدر بمعنى الاتقاد.

﴿غِلَاظٌ﴾: جمع غليظ، بمعنى خشن خال قلبه عن الشفقة والرحمة. ﴿شِدَادٌ﴾ جمع شديد، ككرام جمع كريم، وهو القوي الجسم. ﴿لَّا يَعۡصُونَ﴾ أصله: يعصيون، بوزن يفعلون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الصاد لمناسبة الواو. ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾ يقال: اعتذرت إلى فلان من جرمي، ويعدى بـ﴿من﴾. والمعتذر قد يكون محقاً وغير محق. قال الراغب: العذر: تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه. ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ﴾ أصله: تجزيون، بوزن تفعلون، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة. ﴿تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ والتوبة: أبلغ وجوه الاعتذار، بأن يقول: فعلت وأسأت وقد أقلت، وفي الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة كما مر. ﴿نَّصُوحًا﴾ والنصوح: فعول، من أبنية المبالغة، كقولهم: رجل صبور وشكور؛ أي: مبالغة في النصح، وصفت التوبة بذلك على الإسناد المجازي، والنصح: تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه. ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُمۡ﴾ والسعي: المشي القوي السريع. ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾: جمع يد، يراد بها قدام الشيء. ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ جمع يمين، مقابل الشمال. ﴿كَانَتَا﴾: أصل كان: كون، بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، والتحق بها هنا تاء التأنيث الساكنة، ولكنها حركت بالفتح لالتقائها ساكنة مع ألف الاثنين وكان تحريكها؛ أي: التاء بالفتح ليناسب الألف، وكذلك القول في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أصله: خون، قلبت الواو ألفاً، ثم لحقت الفعل تاء التأنيث الساكنة وحركت لمناسبة ألف الاثنين الساكنة، واختير لها الفتح لمناسبة الألف. ﴿ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾الإحصان: العفاف، والفَرْجُ: ما بين الرِّجْلَين، وكنى به عن السوأة، وكثر حتى صار كالصريح فيه. ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ﴾ والنفخ: نفخ الريح في الشيء.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿حرم﴾ و﴿أَحَلَّ﴾ في قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في ﴿لِمَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿عَرَّفَ﴾ و﴿أعرض﴾، وبين ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ و﴿أبكاراً﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ﴾؛ لأن الإظهار: رفع الشيء على نحو السطح، فاستعير للاطلاع على الشيء.

ومنها: التفنن في قوله أولاً: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا﴾، ثم قوله ثانياً: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ﴾، ثم قوله ثالثاً: ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ زيادة في اللوم والعتاب.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؛ لأن جواب الشرط محذوف، تقديره: إن تتوبا فقد وجد منكما ما يوجب التوبة.

ومنها: جمع القلوب فيه، فراراً من كراهة اجتماع تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة لو قال: فقد صغى قلباكما، لكراهة العرب اجتماع ذلك.

ومنها: تغليب المخاطب على الغائبات أو تعميم الخطاب لكل الأزواج في قوله: ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، إذ التقدير: إن طلقكما وغيركما، أو كون كلهن مخاطبات لما عاتبهما بأنه قد صغت قلوبكما.

ومنها: توسيط العاطف بين ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ و﴿أبكاراً﴾ دون غيرهما، إشعاراً بتنافيهما وعدم اجتماعهما في ذات واحدة، كما مرّ.

ومنها: التعريض لغير عائشة بقوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ ولها بقوله: ﴿أبكاراً﴾.

ومنها: ذكر العام بعد الخاص في قوله: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. فقد خص جبريل بالذكر أولاً تشريفاً له، ثم ذكره ثانياً مع العموم اعتناء بشأن الرسول ﷺ.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ حيث ذكر المسبب وأراد السبب؛ أي: لازموا على الطاعة لتقوا أنفسكم وأهليكم من عذاب الله تعالى.

ومنها: السلب والإيجاب في قوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وهو بناء الكلام على نفي الشيء من جهة وإيجابه من جهة أخرى. أو أمر بشيء من جهة ونهي عنه من غير تلك الجهة، وهذا المعنى في الآية ظاهر، فقد سلب عزّ وجل عن هؤلاء الموصوفين العصيان وأوجب لهم الطاعة.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾، حيث أسند النصح إلى التوبة مجازاً للمبالغة، وإنما النصح من التائب.

ومنها: المقابلة بين مصير أهل الطغيان ومصير أهل الإيمان في ضرب المثل في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

ومنها: إيراد صيغة الماضي في قوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ إفادة لتحقق وقوعه.

ومنها: تغليب الذكور على الإناث في قوله: ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾؛ لأنهن لا ينفردن بالدخول.

ومنها: التصريح بما علم التزاماً في قوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مبالغة في ذمهم.

ومنها: إظهار العبدين في قوله: ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾ المراد بهما نوح ولوط لتعظيمهما بالإضافة التشريفية إلى ضمير التعظيم والوصف بالصلاح، وإلا.. فيكفي أن يقول: تحتهما، وفيه بيان شرف العبودية والصلاح.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ مبالغة في الدعاء.

ومنها: الاستخدام في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾؛ لأن المراد بلفظ الفرج، العضو، وأريد بضميره معنى آخر، وهو: الجيب، وهو من المحسنات البديعية. وفيه أيضاً الإسناد المجازي، حيث أسند النفخ إلى الضمير مع أن النافخ هو جبريل عليه السلام.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ تفخيماً لها ولعيسى عليهما السلام - كقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾.

ومنها: تغليب الذكور في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ إشعاراً بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال حتى عدت من جملتهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على شيئين:

١ - أخبار نساء النبي - ﷺ - وحلفه - ﷺ - أن لا يشربن العسل إرضاء لبعضهن، وإطلاع الله له على ما أفشين من سرّ أمرهن بكتمه.

٢ - ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين(١).

* * *

(١) وكان الفراغ من تسويد هذا الجزء في (المسفلة) بحارة الرشد من (مكة المكرّمة) جوار الحرم الشريف، في اليوم الخامس عشر وقت الضحوة من يوم الجمعة المبارك، من شهر الله المحرم، من شهور سنة ألف وأربع مئة وست عشرة ١٤١٦/١/١٥ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

إلى هنا تمّ المجلدُ التاسعُ والعشرونَ. ويليه المجلد الثلاثون أوله سورة الملك.

شعرٌ

أَلاَ أَيُّـهَـا ٱلْـمَـأْمُـولُ فِـي كُـلِّ حَـاجَـةٍ إِلَيْكَ شَكَوْتُ ٱلضُّرَّ، فَٱرْحَمْ شِكَايَتِي
أَلاَ يَـا رَجَـائِـي أَنْـتَ كَـاشِـفُ كُـرْبَـتِـي فَهَبْ لِي ذُنُوبِيْ كُلَّهَا وَٱقْضِ حَاجَتِيْ
فَـزَادِي قَـلِـيْـلٌ مَـا أَرَاهُ مُـبَـلِّـغِـي عَلَىٰ ٱلزَّادِ أَبْكِيْ أَمْ لِبُعْدِ مَسَافَتِي
أَتَـيْـتُ بِـأَعْـمَـالٍ قِـبَـاحٍ رَدِيْـئَـةٍ وَمَا فِي ٱلْوَرَىٰ خَلْقٌ جَنَىٰ كَجِنَايَتِي

آخرُ

يَا خَادِمَ ٱلْجِسْمِ كَمْ تَسْعَىٰ لِخِدْمَتِهِ وَتَـطْـلُـبُ ٱلـرِّبْـحَ بِـمَـا فِـيْـهِ خُـسْـرَانُ
عَلَيْكَ بِٱلنَّفْسِ فَٱسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا فَأَنْتَ بِٱلنَّفْسِ لاَ بِٱلْجِسْمِ إِنْسَانُ

آخرُ

سُـبْـحَـانَـكَ لاَ عِـلْـمَ لَـنَـا إِلاَّ مَـا أَلْـهَـمْـتَـنَـا إِلْـهَـامَـا
إِنِّـي إِذَا مَـا قَـدْ خَـتَـمْـتُ خَـتْـمـاً أَقُـولُ: يَـا ٱلـلَّـهُـمَّ يـا ٱلـلَّـهَـمَّـا

آخرُ

لَـكَ الـحَـمْـدُ حَـمْـداً يُـوَافِـي وَلَـكَ ٱلـشُّـكْـرُ شُـكْـراً يُـكَـافِـي

الفهرس

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الثلاثون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على إفضاله، والشكر له على نواله، والصلاة والسلام على نبيه وآله وأصحابه وجميع أتباعه، وكل مرشد إلى دينه، إلى يوم جمعه وجزائه.

أما بعد: فيقول العبيد الفقير ـ أيدهُ الله المفيض القدير ـ: إني لما فرغت ـ بعون الله سبحانه ـ من تفسير الجزء الثامن والعشرين.. تفرغت بتوفيقه لتفسير الجزء التاسع والعشرين مستمداً من فيوضاته الهاطلة ومستمطراً من سحائب جوده الماطرة، فقلت، وهذا قولي:

سورة الملك

سورة الملك مكيّة، قال القرطبي: نزلت بعد سورة الطور.

التسمية: تسمى: سورة الواقية والمنجية؛ لأنها تقي وتنجي قارءها من عذاب القبر، وتسمى سورة تبارك، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّه كان يسميها المجادلة؛ لأنّها تجادل عن قارئها في القبر، وتدعى في التوراة المانعة.

وآيها: ثلاثون آية. وكلماتها: ثلاث مئة وخمسٌ وثلاثون كلمة. وحروفها: ألفٌ وثلاث مئة وثلاثة عشر حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها(١): أنّه سبحانه لمَّا ضرب مثلاً للكفّار بتينك المرأتين اللتين قدر لهما الشقاء وإن كانتا تحت عبدين صالحين، ومثلاً للمؤمنين بآسية ومريم، وقد كتب لهما السعادة وإن كان أكثر قومهما كفّاراً، وكان ذلك تصرفاً في ملكه على ما سبق قضاؤه.. افتتح هذه السورة بما يدل على إحاطة علمه عزَّ وجلَّ وقهره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه، فقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال ابن حزم رحمه الله تعالى: سورة الملك كلُّها محكمة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها(٢): وممّا ورد في فضلها: ما أخرجه أحمد، وأبو داوود، والترمذي،

---

(١) البحر المحيط.   (٢) الشوكاني.

والنسائي، وابن ماجه، وابن الضريس، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ سورة من كتاب الله ما هي إلاّ ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» قال الترمذي هذا حديث حسن.

وما أخرجه الطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه، والضياء في «المختارة»، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾».

وما أخرجه الترمذي، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، وابن نصر، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب بعض أصحاب النبيّ ﷺ خباءه على قبر، وهو لا يحسب أنّه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر»، قال الترمذي بعد إخراجه: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

ومنه: ما أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تبارك هي المانعة من عذاب القبر»، وأخرجه أيضاً النسائي وصحَّحه، والحاكم رحمهم الله تعالى.

ومنه: ما أخرجه ابن مردويه عن رافع بن خديج وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «أنزلت عليَّ سورة تبارك، وهي ثلاثون آيةً جملةً واحدةً، وهي المانعة في القبور».

ومنه: ما أخرجه عبد بن حميد في مسنده، والطبرانيّ، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّه قال لرجلٍ: ألا أتحفك بحديث تفرح به؟ قال: بلى، قال: اقرأ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك؛ فإنها المنجية والمجادلة، تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له أن ينجيه الله من عذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر، قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي».

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ
أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن
تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ
حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)
وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧)
تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ
فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا
فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ
خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ
وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي
السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ
(١٩) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا
الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن
يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن
يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠)﴾.

المناسبة

تقدّم لك بيان مناسبة هذه السورة لما قبلها، ثم إن الله سبحانه بدأ هذه السورة بأنْ مجد نفسه، وأخبر بأن بيده الملك والتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل؛ لقهره وحكمته وعدله، وهو القدير على كل شيء. ثم أخبر بأنه قدر الموت والحياة ليبلوكم فينظر من منكم أخلص له عملاً، وهو ذو العزة الغالب على أمره الغفور لمن أذنب ذنباً ثم تاب وأقلع عنه، ثم أردف ذلك بأنه خلق سبع سموات بعضها فوق بعض لا خلل فيها ولا عيب، فانظر أيها الرائي أترى فيها شقًّا أو عيباً؟ ثم أعد النظر وحدق بالبصر، لتستيقن تمام تناسبها واستواء خلقها. وقد زينا أقرب السموات إليكم بالكواكب يهتدي بها الساري، ويعلم بها عدد السنين والحساب، وعليها تتوقف حياة الحيوان والنبات، وهي أيضاً سبب الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الإنس والجنّ، وهؤلاء قد استمدوا شيطنتهم من مظاهر الطبيعة بوساطة الحرارة والضوء من الكواكب، وبذا أعد لها عذاب السعير جزاء ما اقترفوا في حياتهم الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] أنّ شياطين الإنس والجنّ قد أعد لهم عذاب السعير.. أردف ذلك ببيان أن هذه النار قد أعدها لكل جاحد بوحدانيته مكذّبٍ رسله منكر للبعث واليوم الآخر، ثم وصف هذه النار بأوصاف تشيب من هولها الولدان، وتصطك لسماعها الأسنان، منها:

١ ـ أنه يسمع لها شهيق حين يلقى الكافرون فيها.

٢ ـ أنها تفور بهم كما يفور ما في المرجل حين يغلي.

٣ ـ أنها تكون شديدة الغيظ والحنق على من فيها.

٤ ـ أن خزنتها يسألون داخليها: ألم تأتكم رسل منكم فتبعدكم عن هذا العذاب.

٥ ـ أن أهلها يعترفون بأن الله ما عذبهم ظلماً بل قد جاءهم الرسل، فكذبوهم

---

(١) المراغي.

وقالوا لهم: أنتم في ضلال بعيد.

٦ ـ دعاء الملائكة عليهم بالبعد من رحمة الله وألطافه وكرمه وإحسانه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لمّا أوعد[1] الكفّار بما أوعد، وبالغ في ترهيبهم بما بالغ.. وعد المؤمنين بالمغفرة والأجر الكريم، ثم عاد إلى تهديد الكافرين بأنّه عليم بما يصدر منهم في السرّ والعلن، وأقام الدليل على ذلك بأنّه هو الخالق فلا يخفى عليه شيء من أمرهم، بل يصل علمه إلى ظواهر أمورهم وبواطنها، ثم عدد نعماءه عليهم فذكر أنه عبّد لهم الأرض وذللها لهم، وهيّأ لهم فيها منافع من زروع وثمار ومعادن، فليتمتعوا بما أوتوا ثم إلى ربهم مرجعهم وإليه بعثهم ونشورهم.

قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما أعدّه للكافرين من نار تلظّى، ووصف هذه النار بما تشيب من هوله الولدان.. أردف ذلك بترهيبهم وتخويفهم بأنهم لا يأمنون أن يحل بهم في الدنيا ما حل بالمكذبين بالرسل من قبلهم من: خسف عاجل تمور به الأرض موراً، أو ريح حاصب تهلك الحرث والنسل ولا تبقي منهم ديّاراً ولا نافخ نار، ثم ضرب لهم المثل بما حل بالأمم قبلهم من ضروب المحن والبلاء، فقد: أهلكت ثمود بصاعقة لم تبق ولم تذر، وأهلكت عاد بالريح الصرصر العاتية التي سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ـ متتابعة ـ وأهلك فرعون وقومه بالغرق في بحر القلزم ـ البحر الأحمر ـ. ثم لفت أنظارهم إلى باهر قدرته وعظيم منته على عباده، فطلب منهم أن يروا الطير وهي تبسط أجنحتها في الجو تارةً، وتضمها أخرى بتسخير الله وتعليمه ما هي في حاجة إليه.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم ....﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لـمّا أبان للمشركين عجائب قدرته فيما يشاهدونه من أحوال الطير، ووبخهم على ترك التأمل فيها.. أردفه بتوبيخهم على

---

(١) المراغي.

عبادتهم غيره تعالى يبتغون منه نصراً ورزقاً، منكراً عليهم ما اعتقدوه، مبيناً لهم أنهم لا يصلون إلى ما أمَّلوه، وإلا فليبينوا هذا الناصر والمعين والرازق إذا هو أمسك رزقه. أما وقد وضح الحق لذي عينين.. فهم في لجاج وعناد بعد وضوح الحجة وتبين المحجة، ثم ضرب مثلاً يبين حالي المشرك والموحد: فمثل حال الأول بحال من يمشي منحنياً إلى الأمام على وجهه فلا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؛ فيكون حائراً وضالاً، ومثل حال الثاني بحال من يمشي منتصب القامة على الطريق الواضح فيرى ما أمامه ويهتدي إلى ما يريد، ثم أعقب هذا بذكر الدلائل على تفرده بالألوهية، بذكر خلق الإنسان في الأرض وإعطائه نعمة السمع والبصر، وأرشد إلى أن القليل من الناس شكور لهذه النعم. ثم أردف هذا بذكر سؤال المشركين للرسول ﷺ عن ميقات البعث استهزاء به وإجابته إياهم بأن علمه عند الله وليس له من علمه شيء، وإنما هو نذير مبين، وذكر أنه حين تقوم الساعة ويعرف المشركون قرب وقوع ما كانوا ينكرون تعلو وجوههم غبرة ترهقها قترة، ويقال لهم: إن ما كنتم تستعجلون قد وقع ولا مرد له، فماذا أنتم فاعلون؟

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا . . .﴾ الآيات، روي: أنّ كفّار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، كما حكى الله عنهم في آية أخرى بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾، وقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.. فنزلت الآية، ثم أمره أن يقول لهم: إنا آمنا بربنا وتوكلنا عليه وستعلمون غداً من الهالك. ثم أمره أن يقول لهم: إن غار ماؤكم في الأرض ولم تصل إليه الدلاء فمن يأتيكم بماء عذب زلال تشربونه؟!

التفسير وأوجه القراءة

﴿تَبَٰرَكَ﴾؛ أي: تعالى عن النقائص في ذاته وصفاته وأفعاله، واتصف بالكمالات فيها، فهو تعالى الإله ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ والسلطنة والتصرف العام. وتبارك تفاعل من البركة، والبركة: النماء والزيادة: حسّيّة أو عقليّة، ونسبتها إلى الله

تعالى باعتبار تعاليه عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله، يعني: أنّ البركة تتضمن معنى الزيادة، وهي تقتضي التعالي عن الغير، كما قال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ أي: في ذاته لوجوب وجوده، وفي صفاته وأفعاله لكماله فيهما. وأما قوله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله» فباعتبار اللوازم وبقدر الاستعداد، لا باعتبار الحقيقة والكنه؛ فإن الاتصاف بها بهذا الاعتبار مخصوص بالله تعالى، فأين إحياء عيسى عليه السلام الأموات من إحياء الله تعالى؟ فإنّه من الله بدعائه؛ فالمعجزة استجابة مثل هذا الدعاء ومظهريته له بقدر استعداده، وبهذا التقرير ظهر معنى قول بعض المفسّرين: تزايد في ذاته؛ فإن التزايد في ذاته لا يكون إلا باعتبار تعاليه بوجوده الواجب، وتنزهه عن الفناء والتغير.

وصيغة ﴿تَبَارَكَ﴾ بالدلالة على غاية الكمال وإنبائها عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها في غيره تعالى، ولا استعمال غيرها من الصيغ في حقه تبارك وتعالى. وإسنادها إلى الموصول للاستدلال بما في حيز الصلة على تحقق مضمونها. والموصولات معارف، ولا شك أن المؤمنين يعرفونه بكون الملك بيده، وأما غيرهم... فهم في حكم العارفين؛ لأنّ الأدلة القطعية لما دلت على ذلك كان في قوة المعلوم عند العاقل.

وقال الحسن: ﴿تَبَارَكَ﴾ تقدس، وصيغة التفاعل للمبالغة، واليد مجاز عن القدرة التامة والاستيلاء الكامل؛ لما أن أثرها يظهر في الأغلب من اليد، يقال: فلان بيده الأمر والنهي والحل والعقد.

والمعنى: أي تقدس الذي له القدرة الغالبة والتصرف العام والحكم النافذ.

وفي «عين المعاني»: واليد صلةٌ. انتهى. والباء بمعنى اللام؛ أي: تبارك الذي له الملك.

والمذهب الأسلم الذي عليه السلف ونلقى عليه الرب: أن اليد صفة ثابتة له تعالى بلا تأويل ولا تكيف ولا تمثيل، نثبتها ونعتقدها بلا تمثيل ولا تعطيل ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾. والملك بمعنى التصرف والسلطنة كما مر. واللام فيه للاستغراق، والمعنى: تعالى وتعاظم بالذات عن كل ما سواه ذاتاً وصفةً وفعلاً الذي بقبضة يده التصرف الكليّ في كل الأمور لا بقبضة غيره، فيأمر وينهى، ويعطي ويمنع، ويحيي

ويميت، ويعز ويذل، ويفقر ويغني، ويمرض ويشفي، ويقرب ويبعد، ويعمر ويخرب، ويفرق ويصل، ويكشف ويحجب، وإلى غير ذلك من شؤون العظمة وآثار القدرة الإلهية والسلطنة الأزلية والأبدية.

وقال بعضهم: البركة: كثرة الخير ودوامه؛ فنسبتها إلى الله تعالى باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته من فنون الخيرات، والمعنى أي: تكاثر خير الذي بيده الملك، وتزايد إنعامه وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

قال الراغب: البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمبارك: ما فيه ذلك الخير. ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر.. قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مبارك، وفيه بركة، وإلى هذه الزيادة أشير بما روي: «لا ينقص مال من صدقة».

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى وحده ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء، وعلى كل مقدور من الإنعام والانتقام وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: مبالغ في القدرة عليه، ومنته إلى أقصاها، يتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة. والجملة معطوفة على الصلة، مقررة لمضمونها، مفيدة لجريان أحكام ملكه تعالى في جلائل الأمور ودقائقها.

قال بعضهم: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ما يمكن أن تتعلق به المشيئة من المعدومات الممكنة؛ لأن الموجود الواجب لا يحتاج في وجوده إلى شيء ويمتنع زواله أزلاً وأبداً، والموجود الممكن لا يراد وجوده؛ إذ هو تحصيل الحاصل، والمعدوم الممتنع لا يمكن وجوده فلا تتعلق به المشيئة. فتعلق القدرة بالمعدوم بالإيجاد، وبالموجود بالإبقاء. والتحويل من حال إلى حال.

ومعنى الآية(١): تعالى ربنا الذي بيده ملك الدنيا والآخرة، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويرفع أقواماً ويخفض آخرين وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة، لا يمنعه مانع ولا يحول بينه وبين ما يريد عجز، فله التصرف التام في الموجودات

---

(١) المراغي.

على مقتضى إرادته ومشيئته بلا منازع ولا مدافع.

والخلاصة: تعاظم عن صفات المخلوقين من بيده الملك والتصرف في كل شيء، وهو قدير يتصرف في ملكه كيف يريد؛ مِن انتقامٍ ورفعٍ ووضعٍ وإعطاءٍ ومنعٍ.

ثم شرع يفصل بعض أحكام الملك وآثار القدرة، ويبين ابتناءهما على الحكم والمصالح، وأنهما يستتبعان غايات جليلة، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ وقدم الموت على الحياة، لأنه[1] هو المخلوق أوّلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لأن الموت في عالم الملك ذاتي، والحياة عرضية؛ يعني: أن الموت أسبق؛ لأن الأشياء كانت أمواتاً ثم عرضت لها الحياة، كالنطفة على ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ إلخ؛ ولأنه أدعى إلى إحسان العمل، وأقرب إلى قهر النفوس؛ فمن جعله نصب عينيه أفلح، وفي الحديث: «لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه: الفقر والمرض والموت».

قيل[2]: الموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته له. والحياة: تعلق الروح بالبدن واتصاله به، وقيل: هي ما يصح بوجوده الإحساس، وقيل: ما يوجب كون الشيء حيّاً. وقيل: المراد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة. وقال مقاتل: خلق الموت يعني: النطفة والمضغة والعلقة، والحياة يعني: خلقه إنساناً، وخلق الروح فيه. وقيل: خلق الموت على صورة كبش لا يمر على شيء إلا مات، وخلق الحياة عل صورة فرس لا تمر بشيء إلا حيي، قاله مقاتل والكلبي. وقد ورد في التنزيل: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، وغير ذلك من الآيات. وفي «الإرشاد»: (الأقرب أنَّ المراد بالموت: الطارىء، وبالحياة: ما قبله وما بعده لظهور مداريتهما كما ينطق به ما بعد الآية ﴿لِيَبْلُوَكُمْ...﴾ إلخ؛ فإن استدعاء ملاحظتها لإحسان العمل مما لا ريب فيه، مع أن نفس العمل لا يتحقق بدون الحياة الدنيوية) انتهى.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

ثم إن الألف واللام في ﴿ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ عِوَضٌ عن المضاف إليه، أي: موتكم وحياتكم أيها المكلفون؛ لأن خلق موت غير المكلفين وحياتهم لابتلاء المكلفين لا معنى له.

واللام في قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: خلق الموت والحياة ليعاملكم معاملة من يختبركم ليعلم أيكم أحسن عملاً، فيجازيكم على ذلك.

وظاهر هذه اللام يدل على أنّ أفعال الله معللة بمصالح العباد، وأنه تعالى يفعل الفعل لغرض كما ذهب إليه المعتزلة، وعند أهل السُّنَّة ليس هي على ظاهرها، بل معناها: أن الله تعالى فعل فعلاً لو كان يفعله من يراعي المصالح.. لم يفعله إلا لتلك المصلحة والغرض فمثل هذه اللام لام العلة عقلاً، ولام الحكمة والمصلحة شرعاً. و﴿أَيُّكُمۡ﴾ مبتدأ، و﴿أَحۡسَنُ﴾ خبره. و﴿عَمَلٗاۚ﴾ تمييز، والجملة الاسمية سادة مسد المفعول الثاني لفعل البلوى، عدي إليه بلا واسطة؛ لتضمنه معنى العلم باعتبار عاقبته، وإلا فهو لا يتعدى بلا واسطة إلا إلى مفعول واحد، فليس هو من قبيل التعليق المشهور الذي يقتضي عدم إيراد المفعول أصلاً ـ وقد ذكر المفعول الأول هنا وهو (كُمْ) مع اختصاصه بأفعال القلوب، ولا من التضمين المصطلح عليه بل هو مستعار لمعنى العلم، والبلوى: الاختبار، وليس هنا على حقيقته؛ لأنّه إنّما يتصور ممن تخفى عليه عواقب الأمور، فالابتلاء من الله أن يظهر من العبد ما كان يعلم منه في الغيب.

والمعنى كما مر: الذي قدر الموت وقدر الحياة، وجعل لكل منهما مواقيت لا يعلمها إلا هو؛ يعاملكم معاملة من يختبر حاله، وينظر أيكم أخلص في عمله، فيجازيكم بذلك بحسب تفاوت مراتبكم وأعمالكم، سواء أكانت أعمال القلب أم كانت أعمال الجوارح.

وقد ورد في تفسير الآية عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعته عزّ وجلّ»؛ يعني: أيكم أتم فهماً لما يصدر من حضرة القدس وأكمل ضبطاً لما يؤخذ من خطابه، وأيكم أبعد عن ملابسة الكبائر، وأسرع في إجابة داعي الله. وفيه ترغيب في الطاعات، وزجر عن المعاصي

كما لا يخفى على ذوي الألباب.

ثم إن المراد أيكم عمله أحسن من عمل غيره، وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح، لا إلى الحسن والأحسن فقط، للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصليَّ من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين مع تحقق أصل الإيمان والطاعة في الباقين أيضاً.

وقال بعضهم: أحسن الأعمال ما كان أخلص بأن يكون لوجه الله خالصاً، وأصوب بأن يكون موافقاً للسنة؛ أي: وارداً للنهج الذي ورد عن الشارع، فالعمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً لم يقبل؛ ولذا قال ﷺ للأعرابيّ: «قُمْ صَلِّ فإنّك لم تُصلِّ»، وكذا إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل أيضاً؛ ولذا جعل الله أعمال أهل الرياء والنفاق هباء منثوراً. وقول بعضهم: «حُسْنُ العمل: نسيان العمل ورؤية الفضل»: هو من مراتب الإخلاص، فإن الإخلاص سر عظيم من أسرار الله تعالى لا يناله إلا الخواص.

ولم يقل: أيكم[1] أكثر عملاً؛ لأنّه لا عبرة بالكثرة مع القبح، قالوا: والحسن إنما يدرك بالشرع؛ فما حسنه الشرع فهو حسن، وما قبحه فهو قبيح. وقال بعضهم: ليبلوكم أيكم أحسن أخذاً من حياته لموته، وأحسن أهبة في دنياه لآخرته.

﴿وَهُوَ﴾ أي: والحال أنه وحده ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يغالب، ولا يفوته من أساء العمل ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب وأناب ممن شاء منهم بالتوبة، وكذا بالفضل.

قال بعضهم: ولما كان العزيز منا يهلك كل من خالفه إذا علم بمخالفته... قال ـ مرغباً للمسيء في التوبة حتى لا يقول: «مثلي لا يصلح للخدمة لمالي من القاطعة» قال: «هو الغفور الذي يستر ذنوب المسيء، ويتلقى من أقبل إليه أحسن تلقٍّ»، كما قال في الحديث القدسي: «ومَنْ أتاني يَمْشِي أتَيْتُه هَرْولةً».

والمعنى[2]: وهو القوي الشديد الانتقام ممن عصاه وخالف أمره، الغفور لذنوب من أناب إليه وأقلع عنها. وقد قرن سبحانه الترهيب بالترغيب في مواضع

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

كثيرة من كتابه كقوله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾. وإثبات العزة والغفران له يتضمن كونه قادراً على كل المقدورات، عالماً بكل المعلومات؛ ليجازي المحسن والمسيء بالثواب والعقاب؛ ويعلم المطيع من العاصي؛ فلا يقع خطأ في إيصال الحق إلى من يستحقه، ثواباً كان أو عقاباً.

ثم ذكر دلائل قدرته، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ الموصول(١) يجوز أن يكون تابعا للعزيز الغفور، نعتاً أو بياناً أو بدلاً، وأنْ يكون منقطعاً عنه على أنّه خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح؛ أي: هو سبحانه وتعالى الإله الذي خلق وأوجد وأبدع السموات السبع على غير مثال سبق حالة كونهن ﴿طِبَاقًا﴾؛ أي: بعضها فوق بعض في جو الهواء، بلا عماد ولا علاق ولا رابط يربط بعضها ببعض، مع اختصاص كل منها بحيز معين ونظم ثابتة لا تتغير بل بنظام الجاذبية البديع بين أجرام الأرضين والسموات كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقوله: ﴿طِبَاقًا﴾ يجوز(٢) أن يكون صفة لسبع سموات، وقولهم: الصفة في الأعداد تكون للمضاف إليه كما في قوله سبحانه: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ لا يطرد، ويجوز جعله حالاً؛ لأنّ ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ معرفة لشمولها الكل، وهو مصدر بمعنى الفاعل، يقال: طابقه مطابقة، وطباق الشيء مثل كتاب مطابقة بكسر الباء، وطابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو واحد وألزقتهما، والباب يدل على وضع شيء مبسوط على مثله حتى يغطيه؛ والمعنى: مطابقة بعضها فوق بعض، وسماء فوق سماء، غلظ كل سماء خمس مئة عام، وكذا جوها بلا علاقة ولا عماد ولا مماسة؛ السماء الدنيا موج مكفوف؛ أي: ممنوع من السيلان، والثانية من درة بيضاء، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس أو صُفْر، والخامسة من فضة، والسادسة من ذهب، والسابعة من ياقوتة حمراء، وبين السابعة وما فوقها من الكرسي، والعرش بحار من نور، ولكن ما ورد فيه نقل.

قال الجمهور: إنّ الأرض مستديرة كالكرة، وإن السماء الدنيا محيطة بها من

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

كل جانب إحاطة البيضة بالمح، فالصفرة بمنزلة الأرض، وبياضها بمنزلة الماء، وقشرها بمنزلة السماء، غير أن خلقها ليس فيه استطالة كاستطالة البيضة، بل هي مستديرة كاستدارة الكرة المستديرة الخرط حتى قال مهندسوهم: لو حفر في الوهم وجه الأرض.. لأدى إلى الوجه الآخر، ولو ثقب مثلاً بأرض الأندلس.. لنفذ الثقب بأرض الصين، وأنَّ السماء الثانية محيطة بالدنيا، وهكذا إلى أن يكون العرش محيطاً بالكل، والكرسي الذي هو أقربها إليه بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة، فما ظنك بما تحته وكل سماء في التي فوقها بهذه النسبة، والله أعلم.

وجملة قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۢ﴾ صفة ثانية لسبع سموات أو مستأنفة لتقرير ما قبلها، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب. ووضع ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ موضع الضمير؛ إذ المقام مقام أن يقال: (في خلقه) وهي السموات على أن يكون بمعنى المخلوق، والإضافة بمعنى اللام للإشعار بأنه تعالى خلقها بقدرته القاهرة رحمةً وتفضّلاً. و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد النفي؛ أي: ما ترى فيه شيئاً من اختلاف واضطراب في الخلقة وعدم تناسب بل هو مستوٍ مستقيم.

قال القاشاني: سلب التفاوت عنها بساطتها واستدارتها ومطابقة بعضها بعضاً وحسن انتظامها وتناسبها، وهو من الفوت؛ فإن كلًّا من المتفاوتين يفوت منه بعض ما في الآخر، فلا يناسبه ولا يلائمه. انتهى. وقيل: معنى ﴿مِن تَفَٰوُتٍۢ﴾ أي: من خلل وعيب، وإلا فالتفاوت بين المخلوقات بالصغر والكبر وغيرهما كثير. وجعل بعض العلماء ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عامّاً، فسئل بأن المخلوقات بأسرها على غاية التفاوت؛ لأنَّ الليل غير النهار إلى غير ذلك من الأضداد. ثم أجاب بأن ليس فيها تناقص أو زيادة غير محتاج إليها أو نقصان محتاجٌ إليه، بل لكل مستقيمة مستوية دالة على أن خالقها عالم انتهى.

وقرأ الجمهور(١): ﴿مِن تَفَٰوُتٍۢ﴾ بألف مصدر تفاوَتَ من باب تفاعل. وقرأ عبد الله، وعلقمة، والأسود، وابن جبير، وطلحة، والأعمش، وحمزة، والكسائي بشد الواو تفوُّت مصدر تفوَّت من باب تفعل، وهما لغتان كالتعاهد والتّعهد

---

(١) البحر المحيط.

والتحامل والتحمّل. وحكى أبو زيد عن العربي ﴿تفاوُتاً﴾ بضمّ الواو وفتحها وكسرها، والفتح والكسر شاذّان.

والمعنى على كلا القراءتين[1]: ما ترى في خلق الرحمن من تناقض ولا تباين ولا تخالف ولا اعوجاج ولا تناقص، بل هي مستقيمة دالة على خالقها، وإن اختلفت صورها وصفاتها.. فقد اتفقت من هذه الحيثية.

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾؛ أي: رد بصرك أيها الرائي إلى رؤية السماء ونظرها حتى يتضح ذلك بالمعاينة، ولا يبقى عندك شبهة ما. و(رجع) يجيء[2] لازماً ومتعدّياً كما هنا، يقال: رجع بنفسه رجوعاً، وهو العود إلى ما منه البدء، مكاناً كان أو فعلاً أو قولاً، بذاته كان رجوعه أو بجزءٍ من أجزائه أو بفعل من أفعاله ورجعه غيره رجعاً أي: رده وأعاده.

﴿هَلْ تَرَىٰ﴾ فيها ﴿مِن فُطُورٍ﴾؛ أي: من شقوق وصدوع وخروق لامتناع خرقها والتئامها، قاله القاشاني. ولو كان لها فروج.. لفاتت المنافع التي رتبت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضها، أو كمالها كما في المناسبات. فإذا لم ير في السماء فطور وهي مخلوقة؛ فالخالق أشد امتناعاً من خواص الجسمانيات.

والمعنى[3]: اردد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعاينة، أخبر أوّلاً بأنه لا تفاوت في خلقه، ثم أمر ثانياً بترديد البصر في ذلك لزيادة التأكيد وحصول الطمأنينة. قال مجاهد والضحاك: الفطور: الشقوق، جمع فطر؛ وهو الشق. وقال قتادة: هل ترى من خلل. وقال السدي: هل ترى من خروق، وأصله: من التفطر والانفطار، وهو التشقق والانشقاق، ومنه قول الشاعر:

بَنى لَكُمُ بِلاَ عَمَدٍ سَمَاءً ... وزيَّنَهَا فما فِيها فُطُورُ

وقول الآخر:

شَقَقْتُ القَلْبَ ثُم ذَرَرْتُ فِيهِ ... هَوَاكَ فَلِيطَ فَالْتَأمَ الفُطُورُ

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

وحاصل معنى الآية[1]: لا ترى أيها الرائي تفاوتاً وعدم تناسب؛ فلا يتجاوز شيء منه الحد الذي يجب له زيادة أو نقصاً على نحو ما قيل:

تَنَاسَبَتِ ٱلأَعْضَاءُ فِيهِ فَلاَ تَرَى بِهِنَّ ٱخْتِلافاً بَلْ أَتَيْنَ عَلى قَدْرِ

فإن كنت في ريب من هذا فارجع البصر والنظر حتى تتضح لك الحال، ولا يبقى لك شبهة في تحقق ذلك التناسب والسلامة من الاختلاف والشقوق بينها، وإنّما قال: ﴿فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ دون أن يقول: (ما ترى فيها) تعظيماً لخلقهن وتنبيهاً إلى سبب سلامتهن من التفاوت بأنهن من خلق الرحمن، وأنه خلقهن بباهر قدرته وواسع رحمته تفضّلاً منه وإحساناً، وأنَّ هذه الرحمة عامة في هذه العوالم جميعاً كما مرَّ آنفاً.

ثم أمره بتكرير البصر في خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع هل يجد فيه عيباً وخللاً؟ فقال: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ والنظر إلى السماء ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ أي: رجعتين أخريين وأعد النظر مرة بعد مرة في طلب الخلل والعيب فيها.

والمراد بالتثنية[2]: التكرير والتكثير كما في (لبّيك وسعديك) يعني: إجابات كثيرة وإعانات وفيرة بعضها في إثر بعض؛ وذلك لأنَّ الكلال الآتي لا يقع بالمرّتين، أي: رجعةً بعد رجعةٍ وإن كثرت، وانتصاب ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ على المصدر، قال الحسن: لو كررته مرة بعد مرة إلى يوم القيامة لم تر فيه فطوراً، وقال الواسطي: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: قلباً وبصراً؛ لأنَّ الأول كان بالعين خاصة. ووجه[3] الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب في النظرة الأولى، ولا في الثانية، ولهذا قال أوّلاً؛ ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ ثمّ قال ثانياً: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ ثم قال ثالثاً: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾؛ فيكون ذلك أبلغ في إفادة الحجة وأقطع للمعذرة.

﴿يَنقَلِبْ﴾ وينصرف ويرجع ﴿إِلَيْكَ﴾ أيها الرائي ﴿ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: ذليلاً صاغراً بعيداً محروماً من إصابة شيء مما التمسه من العيب والخلل؛ كأنه يطرد عن

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

ذلك طرداً بالصغار والذلة، يقال: خسأت الكلب أي: أبعدته وطردته.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَنقَلِبْ﴾ جزماً على أنه جواب الأمر، وقرأ الخوارزمي عن الكسائي برفع الباء على الاستئناف؛ أي: فهو ينقلب، على حذف الفاء، أو على أنّه في موضع حال مقدرة. و﴿خَاسِئًا﴾ حال من ﴿ٱلْبَصَرَ﴾. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل وبالغ غاية الإعياء؛ لطول المعاودة وكثرة المراجعة، وهو فعيل بمعنى الفاعل، من الحسور الذي هو الإعياء. والجملة حال من البصر، أو من الضمير المستتر في ﴿خَاسِئًا﴾ فيكون من قبيل الأحوال المتداخلة.

والمعنى[2]: أنَّك إذا كررت النظر.. لم يرجع إليك البصر بما طلبته من وجود الخلل والعيب، بل يرجع إليك صاغراً ذليلاً لم ير ما يهوى منهما حتى كأنّه طرد، وهو كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة.

وبعد أن بين خلو السماوات من العيب، ذكر أنها الغاية في الحسن والبهاء؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي.. لقد زيّنّا أقرب السموات إلى الأرض وإلى الناس، وجملناها ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي[3]: بكواكب مضيئة بالليل إضاءة السّراج، من السيّارات والثوابت، تتراءى كلّها مركوزة في السماء الدنيا، مع أنّ بعضها في سائر السموات، لأنَّ السموات إذا كانت شفّافةً وأجراماً صافية.. فالكواكب ـ سواء كانت في السماء الدنيا أو في سموات أخرى ـ لا بد وأن تظهر في السماء الدنيا وتلوح منها؛ فعلى التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح، ودخل في المصابيح القمر؛ لأنّه أعظم نيّر يضيء بالليل. وسمّيت الكواكب مصابيح؛ لأنّها تضيء كإضاءَةِ السراج. وصدر[4] الجملة بالقسم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها. والمصابيح: جمع مصباح، وهو السراج، وتنكيره للتعظيم والمدح.

فائدة: وإذا جعل الله سبحانه الكواكب زينة السماء التي هي سقف الدنيا فليجعل العباد المصابيح والقناديل زينة سقوف المساجد والجوامع ولا سرف وفي الخير، وذكر أن مسجد الرسول ﷺ كان إذا جاء العشاء يوقد فيه بسعف النخل، فلما قدم تميم الداري رضي الله عنه المدينة صحب معه قناديل وحبالاً وزيتاً، وعلق

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.

تلك القناديل بسواري المسجد وأوقدت، فقال عليه السلام: نورت مسجدنا نور الله عليك، أما والله لو كان لي ابنة.. لأنكحتكها، وسمّاه سراجاً، وكان اسمه الأول فتحاً، ثم أكثرها عمر رضي الله عنه حين جمع الناس على أبي بن كعب رضي الله عنه في صلاة التراويح، فلمّا رآها عليٌّ رضي الله عنه تزهر قال: نورت مسجدنا نور الله قبرك يا بن الخطاب.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾؛ أي: المصابيح المعبر بها عن النجوم؛ أي: بعضها كما في تفسير أبي الليث. ﴿رُجُومًا﴾ يرجم بها الشياطين. جمع رجم بالفتح، وهو ما يرجم به ويرمى للطرد والزجر، أو جمع راجم كـ (سجودٍ) جمع ساجدٍ. ﴿لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ هم كفار الجن يخرجون الإنس من النور إلى الظلمات. وجمع الشياطين على صيغة التكثير لكثرتهم في الواقع.

والمعنى[1]: وجعلنا لها فائدة أخرى هي رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المقتبسة من الكواكب عند استراق السمع، لا بالكوكب نفسها؛ فإنّها قارّة في الفلك على حالها؛ منهم من يقتله الشهاب، ومنهم من يفسد عضواً من أعضائه أو عقله. والشهاب: شعلة ساطعة من نار، وهو ههنا شعلة نارٍ تفصل من النجم، فأطلق عليها النجم ولفظ المصباح ولفظ الكوكب. ويكون معنى ﴿جعلناها رجوماً﴾ جعلنا منها رجوماً؛ وهي تلك الشهب، ومما يؤيد أنّ الشعلة منفصلة من النجوم، ما جاء عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: أن النجوم كلها كالقناديل معلقة في السماء الدنيا كتعليق القناديل في المساجد، مخلوقة من نار. وقالت الفلاسفة: إنّ الشهب إنما هي أجزاء نارية تحصل في الجوّ عند ارتفاع الأبخرة المتصاعدة واتصالها بالنار التي دون الفلك، وقد سبق بيان هذا المقام مفصّلاً في أوائل الصافّات والحجر، فلا عود ولا إعادة. والذي يلوح أن مذهب الفلاسفة قريب في هذه المادّة من مذهب أهل الحقائق، وقد مرّ بيان مذهبهم في الصافات، والله أعلم بالخفيات.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾؛ أي: هيّأنا لهؤلاء الشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: عذاب جهنم الموقدة المشعّلة؛ فالسعير بمعنى مفعول كما سيأتي.

---

(١) روح البيان.

وحاصل معنى الآيات: ولقد زيّنا السماء القربى من الأرض؛ وهي التي يراها الناس بكواكب مضيئة بالليل كما يزين الناس منازلهم ومساجدهم بالسرج، ولكن أنى لسرج الدنيا أن تكون كسرج الله تعالى.

والخلاصة: أن نظام السموات لا خلل فيه، بل هو أعظم من ذلك؛ فقد زينت سماؤه القريبة منا بمصابيح هي بهجة للناظرين وعبرة للمعتبرين. ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾؛ أي: وهذه الكواكب لا تقف عند حدّ الزينة بل بضوئها يكون ما في الأرض من رزق وحياة وموت بحسب الناموس الذي سنناه والقدر الذي أمضيناه، ويكون في العالم الإنساني، وعالم الجن نفوس تتقاذفها الأهواء، وتتجاذبها اللذات والشهوات التي تتنجم من العناصر المتفاعلة بسبب الأضواء المشعلة النازلة من عالم الكواكب المشرقة في السماء.

وقصارى القول: أنّ هذه الكواكب كما هي زينة الدنيا، وأسبابٌ لرزقِ ذوي الصلاح من الأنبياء والعلماء والحكماء، هي أيضاً سبب لتكون الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الإنس والجنّ؛ فهذا العالم قد اختلط فيه الضر بالنفع، وأعطي لكلّ ما استعد له، فالنفوس الفاضلة والنفوس الشريرة استمدت من هذه المادة المسخرة المقهورة؛ فصارت سبباً لثواب النفوس الطيّبة وعذاب النفوس الخبيثة من مظاهر الطبيعة الناشئة من الحرارة والضوء.

ويرى بعض المفسرين: أن المراد أن المصابيح التي زيَّن الله بها السماء الدنيا لا تزول عن مكانها ولا يرجم بها؛ بل ينفصل من الكواكب شهاب يقتل الجنّي أو يخبله؛ فالشهاب كقبس يؤخذ من النار والنار باقية لا تنقص.

والظاهر: أن الشياطين هم مسترقوا السمع وأن الرجم حقيقة ـ يرمون بالشهب ـ قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوم للشيطاين، وعلامات يُهتدى بها في البر والبحر، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم وتعدّى وظلم. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: وهيأنا لهؤلاء الشياطين في الآخرة عذاب النار الموقدة كفاء ما اكتسبوا من اللذات، وانجذبوا من الشهوات، وغفلوا عن جمال هذه العوالم التي لم يعرفوا منها إلاّ شهواتهم، أمّا عقولهم فقد احتجبت عنها.

والخلاصة[1]: أنّ السماء قد أضاءت على البر والفاجر؛ فالفجّار حصروا أنفسهم في شهواتهم؛ فلم ينظروا إليها نظر فكرٍ وعقلٍ، بل نظروا إليها باعتبار أن بها تقوم حياتهم، وهؤلاء أعتدنا لهم عذاب السعير في الآخرة؛ لأنَّ هذا يشاكل حالهم في الدنيا؛ إذ هم فيها قد حبسوا أنفسهم في نيران البخل والحقد والطمع؛ فتحولت إلى نار مبصرة يرون عذابها في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ والسعير: اسم للدركة الرابعة من دركات النار السبع؛ وهي جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، ولكن كلاً من هذه الأسماء يطلق على الآخر؛ فيعبّر عن النار تارةً بالسَّعير، وتارةً بجهنم وأخرى بآخر.

واعلم[2]: أنَّ في كل دركة منها فرقة من فرق العصاة، كعصاة أهل التوحيد والنصارى واليهود والصابئة والمجوس والمشركين والمنافقين، ولم يذكروا الشياطين في واحدة من الدركات السبع، ولعلهم يقسمون على مراتب إضلالهم؛ فيدخل كل قسم منهم مع قسم تبعهُ في إضلاله، فكان سبباً لدخوله في دركة من الدركات الست التحتانية جزاء لضلاله وإضلاله وأذيّةٍ لمن تبعه فيما دعا إليه بمصاحبته ومقارنته، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: مع شياطينهم.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ من كفّار بني آدم، أو من كفّار الإنس والجنّ والشياطين، وقال سعدي المفتي: الأظهر حمله على الكفرة غير الشياطين، كما يشعر به ما بعده، ولئلا يلزم شبه التكرار. ﴿عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: الدركة النارية التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة، يقال: رجل جهم الوجه: كالح منقبض، وفيه إشارة إلى أنّ عذابه تعالى وانتقامه خارج عن العادة لكونه ليس بسيف ولا سوط ولا عصا ولا نحوها، بل بالنار الخارجة عن الانطفاء، وليس للكافر المعذّب من الخلاص رجاء. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع لهم. والمخصوص بالذم جهنم. وقال بعضهم: جهنم من الجهنام، وهي بئر بعيدة القعر.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بالرفع، والوقف على ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ تامٌّ. وقرأ الضحاك، والأعرج، وأُسيد بن أسيد المزني، والحسن في رواية هارون عنه بالنصب عطفاً على ﴿عذاب السعير﴾ كما أنّ ﴿للذين﴾ عطف على ﴿لهم﴾؛ أي: وأعتدنا للذين كفروا عذاب جهنم، والكلام حينئذٍ من عطف المفرد على المفرد، وعلى هذا فالوقف على ﴿السعير﴾ جائز.

قال في «فتح الرحمن»: تضمّنت هذه الآية أنَّ عذاب جهنم للكافرين المخلدين، وقد جاء في الأثر: أنه يمر على جهنم زمن تخفق أبوابها قد أخلتها الشفاعة؛ فالذي في هذه الآية يحمل على جهنم بأسرها؛ أي: جميع الطبقات، والتي في الأثر هي الطبقة العليا؛ لأنها مقر العصاة. انتهى. وهو مراد من قال من الكبار: يأتي زمان تبقى جهنم خالية من أهلها، وهم عصاة الموحدين، ويأتي على جهنم زمان ينبت في قعرها الجرجير، وهي بقلة معروفة.

ومعنى الآية: قد سبق قضاؤنا وجرت سنتنا أن من أشرك بنا، وكذب رسلنا؛ فقد استحق عذاب جهم وبئس المآل والمنقلب.

ثم ذكر فظائع أحوال هذه النار، فقال: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ أي: إذا ألقي الذين كفروا في جهنم، وطرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة. وفي[2] إيراد الإلقاء دون الإدخال إشعار بتحقيرهم وكون جهنم سفلية. ﴿سَمِعُوا۟﴾؛ أي: سمع الكفّار ﴿لَهَا﴾؛ أي: لجهنم نفسها، وهو متعلق بمحذوف وقع حالاً مِنْ قوله سبحانه: ﴿شَهِيقًا﴾؛ لأنَّه في الأصل صفة، فلما قدمت صارت حالاً؛ أي سمعوها كائنا لها شهيقاً. أي: صوتاً كصوت الحمير الذي هو أنكر الأصوات وأفظعها غضباً عليهم، وهو حسيسها المنكر الفظيع كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

قالوا: الشهيق في الصدر، والزفير في الحلق، أو شهيق الحمار آخر صوته، والزفير أوّله، والشهيق: رد النفس، والزفير إخراجه. ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي: والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل بما فيها من شدة التّلهب والتسعر؛ فهم لا يزالون صاعدين

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

هابطين كالحبّ إذا كان الماء يغلي به لا قرار لهم أصلاً، والفور: شدّة الغليان كما سيأتي، ويقال ذلك في النار وفي القدر، ومنه: قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

تَـرَكْـتُـمْ قِـدْرَكُـمْ لاَ شَـيءَ فِـيْـهِ   وَقِـدْرُ ٱلْـقَـوْمِ حَـامِـيَـةٌ تَـفُـوْرُ

قال بعضهم: نطقتِ الآيةُ بأنَّ سماعهم يكون وقتَ الإلقاء؛ على ما هو المفهوم من ﴿إذا﴾، وعلى المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أن يكون بعده اللهم إلا أن تغلي بما فيها كائناً ما كان، ويؤول ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟﴾ بـ إذا أريد الإلقاء أو إذا قربوا من الإلقاء بناءً على أنّ صوت الشهيق يقتضي أن يسمع قبل الإلقاء انتهى.

وجملة قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ خبرٌ آخر لـ (هي). ﴿تَمَيَّزُ﴾ أصله: تتميز: بتاءَين. والتميز: الانقطاع والانفصال بين المتشابهات. والغيظ: أشد الغضب.

والمعنى: تكاد جهنم تتفرّق وتتقطع من شدّة الغضب عليهم؛ أي: يقرب أن يتمزق تركيبها، وينفصل بعضها عن بعض. شبّه اشتعال النار بهم في قوة تأثيرها فيهم. وإيصال الضرر إليهم باغتياظ المغتاظ على غيره المبالغ في إيصال الضرر إليه، فاستعير اسم الغيظ لذلك الاشتعال استعارة تصريحيَّة. قال الإمام: لعل سبب هذا المجاز أنّ دم القلب يغلي عند الغضب، فيعظم مقداره، فيزداد امتلاء العروق حتى يكاد يتمزّق.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَمَيَّزُ﴾ بتاء واحدة مخففة، والأصل: تتميز بتاءين، وقرأ طلحة ﴿تتميّز﴾ بتاءين على الأصل وقرأ البزّيُّ عن ابن كثير بتشديدها، بإدغام إحدى التاءين في الأخرى، وقرأ أبو عمرو بإدغام الدال في التاء، وقرأ الضحاك ﴿تمايز﴾ على وزن تفاعل، وأصله: تتمايز بتاءين. وقرأ زيد بن عليّ، وابن أبي عبلة (تَمِيْزُ) من مازَ مِنَ الغيظِ يَمِيْزُ من باب باعَ جعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم، ومثل هذا في التجوز قول الشاعر:

فِـي كَـلْـبٍ يَـشْـتَـدُّ فِـي جَـرْيِـهِ   يَـكَـادُ أنْ يَـخْـرُجَ مِـنْ إهَـابِـهِ

---

(١) البحر المحيط.

وجملة قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٌ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال أهلها بعد بيان حال نفسها، أو في محل نصب على الحال من فاعل ﴿تميز﴾. والفوج: الجماعة الكثيرة من الناس؛ أي: كلّما ألقي وطرح فيها؛ أي: في جهنم فوج؛ أي: جماعة من الكفرة بدفع الزبانية لهم؛ الذين هم أغيظ عليهم من النار. ﴿سَأَلَهُمۡ﴾؛ أي: سأل الفوج سؤال توبيخ وتقريع، وضمير الجمع باعتبار المعنى. ﴿خَزَنَتُهَآ﴾؛ أي: خزنة النار؛ وهي مالك وأعوانه من الزبانية، ليزدادوا عذاباً فوق عذاب وحسرة؛ أي: ليزدادوا العذاب الروحاني على العذاب الجسمانيّ، والخزنة: جمع خازن بمعنى الحافظ والموكّل؛ أي: سألت الخزنة لهم عن سبب دخولهم النار، وقالوا لهم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ أيها الكفرة الفجرة في الدنيا ﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: منذر يتلو عليكم آيات ربكم، وينذركم لقاء يومكم هذا، ويحذركم منه. والإنذار: الإبلاغ، ولا يكون إلا في التخويف.

وجملة قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ اعترافاً بأنّه تعالى قد أزاح عللهم بالكلية ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه، مستأنفة[1] واقعة في جواب سؤال مقدّر كأنّه قيل: فماذا قالوا بعد هذا السؤال؟ فقال: قالوا: بلى قد جاءنا نذير فأنذرنا وخوّفنا وأخبرنا بهذا اليوم، فكذّبنا النذير. ﴿بَلَىٰ﴾ لإيجاب نفي إتيان النذير. ﴿قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ جمعوا بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها مبالغةً في الاعتراف، وتحسّراً على فوت سعادة التصديق، وتمهيداً لبيان التفريط الواقع منهم؛ أي: قال كلُّ فوج من تلك الأفواج: قد جاءنا نذير؛ أي: واحدٌ حقيقةً أو حكماً كأنبياء بني إسرائيل؛ فإنهم في حكم نذير واحد، فأنذرنا وتلا علينا ما نزل الله عليه من آياته. روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد». ﴿فَكَذَّبۡنَا﴾ ذلك النذير في كونه نذيراً من جهته تعالى. فإن قلت[2]: هذا يقتضي أن لا يدخلها الفاسق المصر؛ لأنّه لم يكذب النذير.

قلت: قد دلّت الأدلة السمعية على تعذيب العصاة مطلقاً، والمراد بالفوج هنا بعض من ألقي فيها، وهم الكفرة كما سبق. ﴿وَقُلۡنَا﴾ في حق ما تلاه علينا من الآيات إفراطاً في التكذيب وتمادياً في الكبر بسبب الاشتغال في الأمور الدنيوية

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

والأحكام الرسومية الخلقية: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ على أحد ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الأشياء فضلاً عن تنزيل الآيات عليكم. وقال بعضهم: ما نزل الله من كتاب ولا رسول. ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾؛ أي: ما أنتم يا معشر الرسل في ادّعاء أن الله تعالى نزل عليكم آيات تنذروننا بما فيها ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾؛ أي: بعيد عن الحق والصواب، وجمع ضمير الخطاب مع أن مخاطب كل فوج نذيره لتغليبه على أمثاله، مبالغة في التكذيب وتمادياً في التضليل، كما ينبىء عنه تعميم المنزل مع ترك ذكر المنزل عليه؛ فإنه ملوح بعمومه حتماً.

والمعنى[1]: أنه قال كل فوج من تلك الأفواج حاكياً لخزنة جهنم ما قاله لمن أرسل إليه: ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنتم أيها الرسل فيما تدعون أنَّ الله نزل عليكم آيات تنذروننا بها إلا في ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب كبير لا يقادر قدره.

ثم حكى عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة؛ فقال: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع أو يعقل: ﴿لَوْ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَسْمَعُ﴾ كلاماً ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ شيئاً، وفيه دليل على أنّ العقل حجة التوحيد كالسمع، وقدم السمع لأنه لا بد أولاً من سماع ثم تعقل المسموع.؛ أي: لو كنا نسمع ما خاطبنا به الرسل أو نعقل شيئاً من ذلك ﴿مَا كُنَّا﴾ اليوم ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: في عداد أهل النار الموقدة وأتباعهم، ومن جملة من يعذب بالسعير، وهم الشياطين لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾. وكأن الخزنة قالوا لهم في تضاعيف التوبيخ ألم تسمعوا آيات ربكم من ألسنة الرسل، ولم تعقلوا معانيها حتى لا تكذّبوا بها فأجابوا بذلك. وفي «التأويلات النجمية»: لو كنا نسمع بأسماع قلوبنا أو نعقل بعقول أرواحنا.. ما كنّا اليوم في أصحاب السعير، ولكنّا سمعنا بأسماع مختومة وعقول معلولة مقفولة.

والمعنى[2]: وقالوا: لو كانت لنا عقول ننتفع بها، أو آذان تسمع ما أنزل الله من الحقّ.. ما كنّا على ما نحن عليه من الكفر بالله والاغترار باللذات التي كنا منهمكين بها في دنيانا؛ فبُؤْنا بسخط ربنا وغضبه، وحل بنا عقابه الأليم، وقد نفوا عن أنفسهم السماع والعقل تنزيلاً لما عندهم منهما منزلة العدم حين لم ينتفعوا بهما.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وقصارى ما سلف: أنهم قالوا لو كنّا سمعنا كلام النذير، وقبلناه اعتماداً على ما لاح من صدقه، وفكّرنا فيه تفكير المستبصر، وعملنا به.. ما كنّا في زمرة المعذّبين، ولكن هيهات هيهات؛ فلا يجدي الاعتراف بالذنب، ولا يفيد الندم، فقد فات أوانه وسبق ما حُمَّ به القضاء.

صَاحِ هَلْ رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعٍ رَدَّ فِي ٱلضَّرْعِ ما قَرَى فِي ٱلْحِلَابِ

ومن ثم أحل بهم سبحانه نقمته؛ فقال: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ﴾؛ أي: أقروا اضطراراً حين لا ينفعهم الاعتراف، وهو إقرار عن معرفة. ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ اختياراًبصرف قواهم إلى سوء الاقتراف، وهو كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ورسله. وقال بعضهم[1]: أفرد الذنب؛ لأنّه يفيد فائدة الجمع، بكونه اسم جنس شامل للقليل والكثير، أو أريد به الكفر؛ وهو وإن كان على أنواع فهو ملّة واحدة في كونه نهاية الجرم واقتضاء الخلود الأبديّ في النار. ﴿فَسُحۡقٗا﴾ مصدرٌ مؤكدٌ، إما لفعل متعدٍّ من المزيد بحذف الزوائد؛ أي: فأسحقهم الله؛ أي: أبعدهم من رحمته سحقاً؛ أي: إسحاقاً وإبعاداً بسبب ذنبهم أو لفعل مرتّب على ذلك الفعل؛ أي: فأسحقهم الله فسحقوا؛ أي: بعدوا سحقاً؛ أي: بعداً، ويقال: سحق الشيء مثل: كرم فهو سحيق، أي: بعد فهو بعيد، قيل: هو تحقيق، وقيل: هو على الدعاء، وتعليم من الله لعباده أن يدعوا عليهم به، كما في التيسير، وقال بعضهم: هو دعاء عليهم من الله إشعاراً بأن المدعو عليهم مستحقون لهذا الدعاء، وسيقع عليهم المدعو به من البعد والهلاك، وقال سعيد بن جبير وأبو صالح: هو وادٍ في جهنم، يقال له: السحق.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فسحقا﴾ بسكون الحاء، وقرأ عليٌّ، وأبو جعفر، والكسائي بخلاف عن أبي الحارث عنه بضمها؛ وهما لغتان مثل: السحت والرعب.

واللام في قوله: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للبيان كما في هيت لك، والمراد بهم الشياطين والداخلون من الكفرة، وفيه إشارة إلى أنّ الله تعالى بعد أهل الحجاب من

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

جنة القرب وقربهم من جهنم البعد.

والمعنى[1]: فاعترفوا بما كان منهم من تكذيب الرسل، وأنى يفيدهم ذلك؛ فبعداً لهم من رحمتي جحدوا أو اعترفوا؛ فهو ليس بمغن عنهم شيئاً؛ فقد وقعت الواقعة وحلَّ بهم من بأسي ما ليس له من دافع. روى أحمد عن أبي البحتري الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم» وجاء في حديث آخر: «لا يدخل أحدٌ النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة».

ولما فرغ سبحانه وتعالى من ذكر أحوال أهل النار ذكر أهل الجنّة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: يخافون عذابه، وهو عذاب يوم القيامة ويوم الموت، ويوم القبر؛ خوفاً وراء عيونهم حال كون ذلك العذاب غائباً عنهم ولم يعاينوه بعد على أن ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حالٌ من المضاف المقدر أو غائبين عنه تعالى؛ أي: عن معاينة عذابه وأحكام الآخرة، أو عن أعين الناس لأنهم ليسوا كالمنافقين الذين إذا لقوا المؤمنين قالوا: ﴿ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ على أنه حال من الفاعل، وهو ضمير ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾، أو خائفين بما خفي منهم، وهو قلوبهم، فالباء للاستعانة متعلقة بـ ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾، والألف واللام اسم موصولٌ.

وعبارة الشوكاني: قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إما حال من الفاعل أو من المفعول؛ أي: غائبين عنه أو غائباً عنهم.

والمعنى: أنهم يخشون عذابهم ولم يروه فيؤمنون به خوفاً من عذابه، ويجوز أن يكون المعنى: يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس، وذلك في خلواتهم، أو المراد بالغيب كون العذاب غائباً عنهم؛ لأنهم في الدنيا، وهو إنما يكون يوم القيامة، فتكون الباء على هذا سببية. انتهى.

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة تشمل جميع ذنوبهم، ولما كان السرور إنّما يتم بالإعطاء قال: ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾؛ أي: ثواب عظيم في الآخرة فضلاً منه تعالى، يكون لهم به

---

(١) المراغي.

من الإكرام ما ينسيهم ما قاسوه في الدنيا من شدائد الآلام، وتصغر في جنبه لذائذ الدنيا؛ وهو الجنة ونعيمها.

ومعنى الآية[1]: أنّ الذين يخافون مقام ربهم فيما بينهم وبينه إذا كانوا غائبين عن أعين الناس، فيكفون أنفسهم عن المعاصي، ويقومون بطاعته حيث لا يراهم إلا هو، مراقبين له في السر والعلن، واضعين نصب أعينهم ما جاء في الحديث الشريف «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» يكفر عنهم ما ألموا به من الذنوب والآثام، ويجزيهم جزيل الثواب، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، كفاء ما أسلفوا في الأيام الخالية، وقد ورد في الحديث: «سبعةٌ يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

ثم نبه إلى أنه مطلع على السرائر، فقال سبحانه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تساوي الإسرار والجهر بالنسبة إلى علم الله سبحانه.

والمعنى: إنْ أخفيتم كلامكم أو جهرتم به في أمر رسول الله ﷺ فكل ذلك يعلمه الله سبحانه؛ لا تخفى عليه خافية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء في شأن رسول الله ﷺ فيظهر الله رسوله عليها، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم كيلا يسمع رب محمد فيخبره بما تقولون، فقيل لهم أسروا ذلك أو اجهروا فإن الله يعلمه، وإسرار الأقوال وإعلانها مستويان عنده تعالى في تعلق علمه، والأمر للتهديد لا للتكليف، وتقديم[2] السر على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرون من أول الأمر والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط بجميع المعلومات، كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية، فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كلّ شيء في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى، أو لأنَّ مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر؛ إذ ما

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

من شيء يجهر به إلا وهو أو مباديه مضمر في القلب يتعلق به الإسرار غالباً، فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية.

وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل[1] للاستواء المذكور، وذات الصدور: هي مضمرات القلوب؛ أي: أنه تعالى مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم، بحيث لا تكاد تفارقها أصلاً، فكيف يخفى عليه ما تسرونه وتجهرون به؟ ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب التي في الصدور.

والمعنى: أنه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها، ولم يقل[2]: ذوات الصدور لإرادة الجنس و(ذات) هنا تأنيث ذي بمعنى صاحب، حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه؛ أي: عليم بالمضمرات صاحبة الصدور، وهي الخواطر القائمة بالقلب من الدواعي والصوارف الموجودة فيه، وجعلت صاحبة الصدور بملازمتها لها وحلولها فيها كما يقال لِلّبن: ذو الإناء، ولولد المرأة وهو جنين: ذو بطنها.

والخلاصة[3]: أنه تعالى محيط بمضمرات النفوس وأسرارها الخفية المستكنة في الصدور، فكيف لا يعلم ما تسرون وما تجهرون به؟!.

ثم نصب الأدلة على إحاطة علمه بجميع الأشياء، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ أي: ألا يعلم السر والجهر من خلق وأوجد بحكمته جميع الأشياء التي هما من جملتها، والاستفهام فيه للإنكار والنفي لعدم إحاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر، فالموصول عبارة عن الخالق، وهو فاعل يعلم، ويجوز أن يكون عبارة عن المخلوق، وهو حينئذٍ منصوب على المفعولية ليعلم والفاعل ضمير يعود على الله، أي: ألا يعلم الله سبحانه المخلوق الذي هو من جملة خلقه؛ فإن الإسرار والجهر ومضمرات القلوب من جملة خلقه.

وجملة قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

﴿يَعْلَمُ﴾؛ أي: والحال أنّه تعالى وحده اللطيف؛ أي: العالم بدقائق الأشياء يرى أثر النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ أي: العالم ببواطنها. قال الفاشاني: هو المحيط ببواطن ما خلق وظواهره، أي: هو الذي لطف علمه بما في القلوب، الخبير بما تسرّه وتضمره من الأمور، لا تخفى عليه من ذلك خافية.

والحاصل: أنّ الاستفهام للإنكار لا للنفي في قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾؛ أي: كيف لا يعلم السرّ والجهر من أوجد بحكمته وواسع علمه وعظيم قدرته جميع الأشياء، وهو النافذ علمه إلى ما ظهر منها وما بطن، وكأنّه سبحانه يقول: ألا يعلم سركم وجهركم من يعلم الدقائق والخفايا جملها وتفاصيلها؟!.

فإن قلت:[1] ذكر الخبير بعد اللطيف تكرار.

قلت: لا تكرار فيه، فإنه كما قال الغزالي رحمه الله: إنّما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما دق منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح على سبيل الرفق دون العنف، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تم معنى اللطف، ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلاّ لله تعالى، والخبير هو الذي لا يعزب عنه الأخبار الباطنة، فلا يجري في الملك والملكوت شيءٌ، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن، إلا ويكون عنده خبرها، وهو بمعنى العليم، لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة يسمى خبرةً، ويسمى صاحبها خبيراً.

واعلم: أنه سبحانه وتعالى لطيف بعباده، ومن لطفه بهم أنه يوصل إليهم ما يحتاجون إليه بسهولة، فمن قوته رغيف، لو تفكر فيه يعلم كم عين سهرت فيه من أول الأمر حتى تم وصلح للأكل، من الحارث والباذر للبذر والحاصد والدائس والمذري والطاحن والعاجن والخابز، ويتشعب من ذلك الآلات التي تتوقف عليها هذه الأعمال من الأخشاب والحجارة والحديد والحبال والدّواب بحيث لا تكاد تنحصر، وهكذا كل شيء ينعم به على عبده من مطعوم ومشروب وملبوس فيه

---

(١) روح البيان.

مقدمات كثيرة لو احتاج العبد إلى مباشرتها بنفسه لعجز عن ذلك.

ومن سنة الله سبحانه حفظ كل لطيفة في طي كل كثيفةٍ، كصيانة الودائع في المواضع المجهولة؛ ألا ترى أنه جعل التراب الكثيف معدن الذهب والفضة وغيرهما من الجواهر، والصدف معدن الدر، والنحل معدن الشهد، والدود معدن الحرير، وكذا جعل قلب العبد محلاً ومعدناً لمعرفته ومحبته، وهو مضغة لحم؛ فالقلب خلق لهذا لا لغيره؛ فعلى العبد أن يطهره من لوث التعلق بما سوى الله تعالى، فإنّ الله تعالى لطف به بإيجاده ذلك القلب في جوفه، ووصف نفسه بأنّه لطيف خبير مطلع على ما في الباطن، فإذا كان هو المنظر الإلهي وجب تخليته عن الأفكار والأغيار، وتحليته بأنواع المعارف والعلوم والأسرار، نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينيلنا نواله ويرينا جماله.

ثم نبه إلى نعمه على عباده، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وحده الإله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ أي: لمنافعكم ﴿ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: ليّنةً منقادة غاية الانقياد لما تفهمه صيغة المبالغة، يسهل عليكم السلوك فيها لتصلوا إلى ما ينفعكم، ولو جعلها صخرة خشنة تعسَّر المشي عليها، أو جعلها لينة منبتة يمكن فيها حفر الآبار وشق العيون والأنهار وبناء الأبنية وزرع الحبوب وغرس الأشجار، ولو كانت صخرة صلبةً لتعذر ذلك، ولكانت حارّةً في الصيف جدّاً وباردةً في الشتاء؛ فلا تكون كفاتاً للأحياء والأموات، وأيضاً ثبتها بالجبال الراسيات كيلا تتمايل وتنقلب بأهلها، ولو كانت مضطربة متمايلة لما كانت منقادة لنا، فكانت على صورة الإنسان الكامل في سكوتها وسكونها.

والحاصل: أنَّ الله تعالى جعل الأرض بحيث ينتفع بها، وقسمها إلى سهول وجبال وبرار وبحار وأنهار وعيون، وملح وعذب، وزرع وشجر، وتراب وحجر ورمال، ومدر وذات سباعٍ وحيات، وفارغة، وغير ذلك بحكمته وقدرته. قال سهل رحمه الله: خلق الله الأنفس ذلولاً، فمن أذلّها بمخالفتها فقد نجّاها من الفتن والبلاء والمحن، ومن لم يذلها واتبعها أذلته نفسه وأهلكته. انتهى.

واختلفوا في مبلغ الأرض وكميتها، فروي عن مكحول أنّه قال: ما بين أقصى الدنيا إلى أدناها مسيرة خمس مئة سنة؛ مئتان من ذلك في البحر، ومئتان ليس

يسكنها أحد، وثمانون فيها يأجوج ومأجوج، وعشرون فيها سائر الخلق. وعن قتادة أنه قال عن الدنيا: إنّ بسيطتها من حيث يحيط بها البحر المحيط: أربعة وعشرون ألف فرسخٍ، فملك السودان منها: اثنا عشر ألف فرسخ، وملك الروم: ثمانية آلاف فرسخ، وملك العجم والترك: ثلاثة آلاف فرسخ، وملك العرب: ألف فرسخ. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّه قال: ربع من لا يلبس الثياب من السودان أكثر من جميع الناس، والله أعلم بحقيقتها وقدرها.

والفاء في قوله: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ لترتيب الأمر بالمشي على الجعل المذكور، والأمر للإباحة عند بعض أي: فاسلكوا في جوانبها، وخبر في صورة الأمر عند آخرين؛ أي: تمشون في أطرافها. قال مجاهد والكلبيّ ومقاتل: مناكبها: طرقها وأطرافها وجوانبها، وقال قتادة وشهر بن حوشب مناكبها: جبالها، وأصل المنكب: الجانب، ومنه منكب الرجل وهو مجتمع ما بين العضد والكتف، ومنه استعير للأرض هنا؛ يعني أن الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنّ الله سبحانه جعلها لكم ذلولاً لانتفاعكم بها، وأردتم بيان كيفية الانتفاع بها.. فأقول لكم: فامشوا في نواحيها وأطرافها، والتمسوا من نعم الله فيها من الحبوب والفواكه ونحوها. ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ سبحانه؛ أي: وكلوا مما خلقه الله رزقاً لكم. والأمر فيه إن كان أمر إباحة فالرزق ما يكون حلالاً، وإن كان خبراً في صورة الأمر بمعنى (تأكلون).. فيجوز أن يكون شاملاً للحرام أيضاً؛ فإنه من رزقه أيضاً وإن كان التناول منه حراماً؛ لأنّ الرزق عند أهل السنة ما ينتفع به ولو محرّماً كما قال أحمد بن رسلان في زبده:

وَٱلرِّزْقُ ما يُنْفَعُ وَلَوْ مُحَرَّمَا ... يَرْزُقُ مَنْ شَاءَ وَمَنْ شَا أَحْرَمَا

﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي: وإلى الله وحده لا إلى غيره ﴿ٱلنُّشُورُ﴾؛ أي: المرجع بعد البعث، فبالغوا في شكر نعمه، فيسألكم عن شكر هذه النعمة عليكم، وفي هذا وعيد شديد.

والمعنى(١): أنّ ربكم هو الذي سخر لكم الأرض وذللها لكم، فجعلها قارة

---

(١) المراغي.

ساكنة لا تميد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأوجد فيها من العيون لسقيكم وسقي أنعامكم وزروعكم وثماركم، وسلك فيها السبل، فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أرجائها لأنواع المكاسب والتجارات، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضله من واسع الأرزاق. والسعي في الأرزاق لا ينافي التوكل على الله، روى أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم توكّلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»، فأثبت لها غدوّاً ورواحاً لطلب الرزق مع توكلها على الله عزّ وجلّ، وهو المسخر الميسر المسبب.

وأخرج الحكيم الترمذي عن معاوية بن قرّة قال: مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون، قال: بل أنتم المتأكلون، إنما المتوكل رجل ألقى حبه في بطن الأرض وتوكل على الله عز وجل. وجاء في الأثر: «إنّ الله يحبّ العبد المؤمن المحترف».

وفي الآية: إيماء إلى ندب التجارة والتكّسب بجميع ضروبه، وفيها تهديد للكافرين؛ كأنّه قال لهم: إني عالم بسركم وجهركم فاحترسوا من عقابي، فهذه الأرض التي تمشون في مناكبها أنا الذي ذللتها لكم وجعلتها سبباً لنفعكم، وإن شئت.. خسفتها بكم، وأنزلت عليها ألواناً من المحن والبلاء. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: وإليه المرجع يوم القيامة؛ فينبغي أن تعلموا أنَّ مكثكم في الأرض وأكلكم مما رزقكم الله فيها مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله ويستيقن أن مصيره إليه؛ فاحذروا الكفر والمعاصي في السر والعلن.

والهمزة الأولى[1] في قوله: ﴿ءَأَمِنتُم﴾ للاستفهام التوبيخيّ، والثانية فاء الكلمة؛ أي: هل أمنتم أيها المشركون ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى قال في «فتح الرحمن»: هذا المحل من المتشابه الذي استأثر الله بعلمِهِ، ونؤمن به ولا نتعرضُ لمعناه، ونكل العلم فيه إلى الله. (قلت): والمذهب الأسلم الذي عليه السلف أن نثبت الظرفية في السماء لله تعالى، فإذاً نقول الكون في السماء صفة ثابتة لله تعالى نثبتها ونعتقدها، ولا نكيّفها، ولا نمثّلها، كما أن الاستواء على

---

(١) روح البيان.

العرش صفة ثابتة له نثبتها ونعتقدها. وقيل: على تأويل من في السماء أمره وسلطانه وقضاؤه وهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾. وحقيقته[1] أأمنتم خالق السماء ومالكها.

وفي «الأسئلة المقحمة»: خصّ السماء بالذكر إشعاراً بأنّ الأصنام التي في الأرض ليست بآلهة، لا لأنّه تعالى في جهة من الجهات؛ لأنّ ذلك من صفات الأجسام، وأراد أنه فوق السماء والأرض فوقيّة القدرة والسلطنة لا فوقية الجهة انتهى. على أنّه لا يلزم من الإيمان بالفوقية الجهة، فقد ثبت، لأنّ فوقيته ليست كفوقية المخلوق لا نمثّلها ولا نكيّفها كما أنّ ظرفيته في السماء ليست كظرفية بعض المخلوقات في بعض، تعالى الله سبحانه عن صفات المخلوقين علوّاً كبيراً. وقيل: خصّ السماء بالذكر؛ لأنّها مسكن ملائكته، ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه. وقيل: الظرفية باعتبار زعم العرب حيث كانوا يزعمون أنّه تعالى في السماء؛

أي: أأمنتم من تزعمون أنّه في السماء، وأنّه متعال عن المكان، وأمّا رفع الأيدي إلى السماء في الدعاء؛ فلكونها محلّ البركات، وقبلة الدعاء كما أنّ الكعبة قبلة الصلاة وجناب الله قبلة القلب، وقيل: المراد بمن في السماء الملائكة الموكّلون بتدبير هذا العالم. وقيل: المراد بمن في السماء جبريل عليه السلام؛ لأنّه يأتي بالخسف والعذاب. والقول الأسلم الأرجح الذي عليه أهل السنة القول الأوّل كما ذكرناه سابقاً، وقال ابن عباس[2]: أأمنتم عذاب من في السماء، وهو الله عزّ وجلّ.

أي: هل أمنتم أيّها المشركون الإله الذي في السماء إن عصيتموه ﴿أَن﴾ ﴿يَخْسِفَ﴾ ويقلع ﴿بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ ويغيّبكم فيها، بعد ما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها، وتأكلون من رزقه لكفرانكم تلك النعمة؛ أي: يقلبها متلبسة بكم فيغيّبكم فيها كما فعل بقارون، وهو بدل اشتمال من ﴿مَنْ﴾ الموصولة، أي: أأمنتم من في السماء خسفه بكم الأرض إن عصيتموه، أو على حذف (مِنْ) الجارَّة؛ أي: مِنْ أن يخسف بكم، والباء للملابسة، وفي «القاموس»: خسف الله بفلان الأرض غيبه

(١) روح البيان.
(٢) زاد المسير.

فيها، وخسفها ذهابها في السفل. والمشهور أنّ الباء في مثل هذا الموضع للتعدية؛ أي: يدخلكم ويذهبكم فيها. ﴿فَإِذَا﴾ فجائية ﴿هِىَ﴾ أي: الأرض ﴿تَمُورُ﴾ أي: تضطرب وتتحرّك ذهاباً ومجيئا على خلاف ما كانت عليه من الذلّ والاطمئنان، أو تذهب كما يذهب التراب في الريح. وقال بعضهم: معناه: فإذا الأرض تدور بكم إلى الأرض السفلى، وبعضهم قال: تتكّشف تارة للخوض فيها وتلتئم أخرى للتعذيب بها. والاستفهام للتوبيخ المضمَّن للإنكار، أي: لا تأمنوا مكره وخسفه بكم إن عصيتموه. وقال الخازن: المعنى: أنّ الله تعالى يحرّك الأرض عند الخسف بهم حتى تقلبهم إلى أسفل، وتعلو الأرض عليهم وتمور فوقهم؛ أي: تجيء وتذهب.

قرأ نافع وأبو عمرو والبزّي[1]: ﴿أأمنتم﴾ بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية، وأدخل أبو عمرو وقالون بينهما ألفاً. وقرأ قنبل بإبدال الأولى واواً لضمة ما قبلها، وعنه وعن ورش أوجه غير هذه، والكوفيون وابن عامر بتحقيقهما.

والمعنى: أأمنتم أن يخسف ربكم بكم الأرض كما خسفها بقارون؛ فإذا هي تتحرك بكم حين الخسف، وتبتلعكم وتمور فوقكم جيئة وذهاباً.

ثم انتقل سبحانه من التهديد بهذا إلى التهديد بوجه آخر، فقال: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾ أم منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أضرب بها عن التهديد بما سبق إلى التهديد بأمر آخر؛ أي: بل هل أمنتم الإله الذي في السماء أن يرسل وينزل عليكم أيها المشركون حاصباً؛ أي: حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوطٍ وأصحاب الفيل؛ أي: أم أمنتم من في السماء إرساله عليكم حاصباً على أنّ قوله: ﴿أَن يُرْسِلَ﴾ بدل اشتمال من ﴿مَنْ﴾ أيضاً.

والمعنى[2]: هل جعل لكم من هذين أمان، وإذ لا أمان لكم، فما معنى تماديكم في شرككم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ألبتة ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾؛ أي: كيف كان إنذاري بالعذاب عند مشاهدتكم للمنذر به أهو واقع أم لا أم شديد أم ضعيف؟!

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

يعني: حين حقَّقْتم المنذر به تعلمون أنه لا خلف لخبري، وأنّ عذابي لشديد، وأنه لا دافع له، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذٍ. فالنذير وكذا النكير الآتي مصدران بمعنى الإنذار والإنكار، وأصلهما: نذيري ونكيري بياء الإضافة، فحذفت اكتفاء بكسر ما قبلها، قال في «برهان القرآن»: خوفهم بالخسف أوّلاً لكونهم على الأرض، وأنها أقرب إليهم من السماء ثم بالحاصب من السماء، فلذلك جاء ثانياً.

وقال القاضي في «كشف ما التبس من القرآن»: هذه الآية ليست تكراراً مع الآية التي قبلها؛ لأنَّ الأولى في تخويفهم بخسف الأرض بهم، والثانية في تخويفهم بالحصب من السماء، وقدم الأولى؛ لأن الأرض التي جعلها الله مقرّاً لهم وعبدوا فيها غيره تعالى أقرب إليهم من السماء البعيدة عنهم. فإن قلت: كيف قال: ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؟ مع أنّه تعالى ليس فيها ولا في غيرها؟ بل هو تعالى منزه عن كل مكان.

قلت: المعنى: من ملكوته في السماء التي هي مسكن ملائكته ومحل عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ والقلم، ومنه تنزل أقضيه كتبه. انتهى.

وأثبت[١]: ورش ياء (نذيري) و(نكيري)، وحذفها باقي السبعة. والمعنى أي: بل أأمنتم أن يرسل عليكم ريحاً فيها حصباء حجارة صغار كما فعل بقوم لوط، وحينئذٍ تعلمون كيف يكون عقابي إذا شاهدتموه، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذٍ.

والخلاصة[٢]: كيف تأمنون من في السماء أن يصب عليكم العذاب من فوقكم أو من تحت أرجلكم، وقد ذلّل لكم الأرض وزيّن لكم السماء بمصابيح، فإذا لم تشكروا النعم فأنتم جريون بأن يرسل عليكم النقم، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

ثم لفت أنظارهم إلى ما حل بالأمم قبلهم، لعله يكون فيه مزدجر لهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: وعزّتي وجلالي لقد كذّب الذين من قبلهم؛ أي: من قبل كفّار مكة من كفّار الأمم السابقة، كقوم نوح وعاد وأضرابهم، والالتفات إلى الغيبة لإبراز الإعراض عنهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: إنكاري عليهم بإنزال العذاب؛ أي: كان على غاية الهول والفظاعة، وهذا مورد التأكيد القسمي لا

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

تكذيبهم فقط، وإنكار الله تعالى على عبده أن يفعل به أمراً صعباً وفعلاً هائلاً لا يعرف. وفي الآية تسليةٌ للرسول ﷺ وتهديد لقومه.

والمعنى[1]: ولقد كذب من قبلهم من الأمم السالفة والقرون الغابرة من أرسلناهم من رسلنا، فحاق بهم من سوء العذاب ما لا مرد له، وحل بهم من اليأس ما لم يجدوا له دافعاً على شدة هوله وعظيم فظاعته.

والخلاصة: أنّ الكفار قبلهم شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون.

ولما حذرهم[2] ما يمكن إحلاله بهم من الخسف وإرسال الحاصب.. نبههم على الاعتبار بالطير وما أحكم من خلقها، وعلى عجز آلهتهم عن شيء من ذلك، وناسب ذلك الاعتبار بالطير، إذ قد تقدمه ذكر الحاصب، وقد أهلك الله أصحاب الفيل بالطير، والحاصب الذي رمتهم به؛ ففيه إذكار قريش بهذه القصة، وأنه تعالى لو شاء لأهلكهم بحاصب ترمي به الطير كما فعل بأصحاب الفيل؛ فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ﴿الهمزة﴾ فيه للاستفهام التوبيخي المضمن للتقرير، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾ عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفل أهل مكة عن التفكر والنظر في مصنوعات الله تعالى ودلائل قدرته، ولم يروا وينظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ فالرؤية[3] بصريّة لأنّها تتعدى بـ ﴿إلى﴾، وأمّا القلبية فتعديتها بـ (في)، والطير يطلق على جنس الطائر ـ وهو كلّ ذي جناح يسبح في الهواء كما سيأتي ـ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً ليروا، وأن يكون حالاً من الطير؛ أي: حالة كونها كائنات فوقهم ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من الطير. والصف: أن يجعل الشيء على خط مستو كالناس والأشجار، ومفعول ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ وكذا ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ إنّما هو أجنحة الطير لا أنفسها.

والمعنى: ألم يروا إلى الطير فوقهم حالة كونهن صافات وباسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن، فإنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفّاً؛ وقوادم الطير: مقاديم ريشه؛ وهي عشر في كل جناح، والواحدة قادمه. ﴿و﴾ حالة كونهن

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

﴿يقبضن﴾ أجنحتها؛ أي: يضممنها إلى جنوبهن إذا ضربنها بها حيناً فحيناً للاستظهار والاستعانة به على التحرك والطيران، قال ابن الشيخ: ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ معطوف على صافاتٍ، لأنّه معنى وقابضات، وإلا لما عطف الفعل على الاسم.

فإن قلت: لِمَ لَمْ يعبّر[1] باسم الفاعل ابتداء فيقال: وقابضات؟

قلت: لأن الأصل في الطيران هو وصف الأجنحة؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارىءٌ على البسط للاستظهار به على التحرك؛ فجيء بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل الدال على التجدد على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح، قاله الزمخشري. اهـ، خطيب. وقيل: إن معنى ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ قبضهن لأجنحتهن عند الوقوف من الطيران لا قبضها حال الطيران. وجملة قوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾: في محل[2] النصب على الحال من فاعل ﴿يقبضن﴾ أو مستأنفة لبيان كمال قدرة الله سبحانه وتعالى. والمعنى: أنّه ما يمسكهن في الهواء، وما يمنعهن عن السقوط عند الصف والقبض، على خلاف مقتضى الطبع الجسماني؛ فإنه يقتضي الهبوط إلى السفل.

﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ الواسع رحمته كل شيء القادر على كل شيء بأن برأهن على أشكال وخصائص، وهيأهن للجري في الهواء. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءِۭ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ كائناً ما كان، يعلم إبداع المبدعات وتدبير العجائب، والبصير هو الذي يشاهد ويرى، لا يعزب عنه ما تحت الثرى، وهو في حقه تعالى عبارة عن الوصف الذي ينكشف به كمال نعوت المبصرات؛ فالبصر صفة زائدة على علمه تعالى خلافاً للقدريّة؛ فمن عرف هذه الصفة كان المراد به دوام المراقبة ومطالبة النفس بدقيق المحاسبة والمراقبة إحدى ثمرات الإيمان. وقرأ الجمهور[3] ﴿ما يُمْسِكُهُنّ﴾ مخفّفاً.

ومعنى الآية: أغفلوا عن قدرتنا ولم ينظروا إلى الطير فوقهم وهي باسطات

---

(١) الفتوحات.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

أجنحتهن في الجو حين طيرانها تارة، وقابضات لها تارةً أخرى، وما يمسكهن في الجو حين الصف والقبض على خلاف مقتضى طبيعة الأجسام الثقيلة من النزول إلى الأرض والانجذاب إليها إلا واسع رحمة من برأهن على أشكال وخصائص هو العليم بها، وألهمهن حركات تساعد على الجري في الهواء، المسافات البعيدة لتحصيل أقواتهن والبحث عن أرزاقهن.

ثم بين علة هذا فقال: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ أي: إنه سبحانه عليم بدقيق الأشياء وجليلها، فيعلم كيف يبدع خلقها على السنن التي هو عليم بفائدتها لعباده.

والخلاصة: أنكم رأيتم بعض العجائب التي أبرزناها، والحِكَمِ التي أظهرناها؛ فهل أنتم آمنون أن ندبّر بحكمتنا عذاباً نصبه عليكم صبًّا؟ ولا معقّب لحكمنا ولا دافع لقضائنا.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ ﴿أَمَّنْ﴾ أصله[1]: ﴿أم مَنْ﴾ على أنّ ﴿أمْ﴾ منقطعة مقدرة بـ ﴿بل﴾ المفيدة للانتقال من توبيخهم على ترك التأمّل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله إلى التبكيت بما ذكر. والالتفات فيه للتشديد في ذلك، والاستفهام متوجه لتبكيتهم بإظهار عجزهم عن تعيينه، ولا سبيل هنا إلى تقدير الهمزة مع بل؛ لأنّ ما بعدها (مَنْ) الاستفهامية، ولا يدخل الاستفهام على الاستفهام. و(مَن) مبتدأ، و﴿هذا﴾ خبره، والموصول مع صلته صفته، وإيثار لفظ هذا لتحقير المشار إليه. و﴿يَنصُرُكُم﴾ صفة لجند باعتبار لفظه، و(الجند): جمع معد للحرب.

والمعنى: بل من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم وعسكر وعون من آلهتكم وغيرها ينصركم عند نزول العذاب والآفات حال كونه ﴿مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: متجاوزاً نصر الرحمن. فـ ﴿مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ حال من فاعل ﴿يَنصُرُكُم﴾ و﴿دُونِ﴾ بمعنى غير، أو ينصركم نصراً كائناً من دون نصره تعالى، على أنّه نعت لمصدره. أو ينصركم من عذاب كائن من عند الله على أنّه متعلق بـ ﴿يَنصُرُكُم﴾ وقد تجعل ﴿مِنَ﴾ موصولة مبتدأ، و﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ ثانياً، والموصول مع صلته خبره، والجملة صلة

---

(١) روح البيان.

﴿مَنْ﴾ بتقدير القول و﴿ينصركم﴾ و﴿أَمْ﴾ منقطعة أو متصلة، والقرينة محذوفة بدلالة السياق، على أن يكون المعنى: الله الذي له هذه الأوصاف الكاملة والقدرة الشاملة ينصركم وينجيكم من الخسف والحصب إن أصابكم أم الذي يشار إليه ويقال في حقه هذا الذي تزعمون أنّه جندٌ لكم ينصركم من دون الله سبحانه؟ وإيثار الرحمن للدلالة على أنّ رحمة الله هي المنجية من غضبه لا غير.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَمَّنْ﴾ بإدغام ميم (أم) في ميم (مَنْ) إذ الأصل: أمْ مَنْ، وقرأ طلحة (أَمَنْ) بتخفيف الميم.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿إنْ﴾ نافية بمعنى ما؛ أي: ما هم في زعمهم أنّهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه تعالى فقط، أو أنّ آلهتهم تحفظهم من بأس الله. ﴿إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ عظيم أو ضلالٍ فاحشٍ من جهة الشيطان، ليس لهم في ذلك شيء يعتد به في الجملة. وجملة قوله: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلخ، معترضة مقررة لما قبلها، ناعيةً عليهم ما هم فيه من الضلال، والالتفات[2] إلى الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم وبيان قبائحهم لغيرهم، والإظهار في موضع الإضمار لذمّهم بالكفر وتعليل غرورهم به.

والمعنى: بل مَنْ هذا الذي يعينكم في دفع العذاب عنكم إذا أراد بكم سوءاً؟ فما أنتم في زعمكم أنكم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتكم لا بحفظ الله لكم إلاّ في ضلال مبين، وقد أغواكم الشيطان، وغرّكم بهذه الأمانيّ الباطلة. وفي قوله: ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إشارةٌ إلى أنه برحمته أبقى الناس في الأرض مع ظلمهم وجهالتهم؛ إذ رحمته وسعت كل شيء، فوسعت البر والفاجر والطير في السماء والأنعام في الأرض.

ثم انتقل من توبيخهم على دعوى ناصر سواه إلى توبيخهم على دعوى رازقٍ غيره، فقال: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ أي: بل من هذا الذي يعطيكم الرزق ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ الرحمن، وحبس ﴿رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر ومباديه، ولو كان الرزق موجوداً أو كثيراً وسهل التناول فوضع الأكلة في فمه فأمسك الله عنه قوة الابتلاع لعجز أهل

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

السموات والأرض عن أن يسوغوه تلك اللقمة. وإعرابه كإعراب ما سبق.

والمعنى[1]: على تقدير كون (من) موصولة: الله الرازق ذو القوة المتين يرزقكم أم الذي يقال في حقه: هذا الحقير المهين الذي تدعون أنّه يرزقكم؟ وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه. أي: إن أمسك رِزقَهُ فمن يرزقكم غيره.

قال بعض المفسرين: كان الكفّار يمتنعون عن الإيمان، ويعاندون الرسول ﷺ معتمدين على شيئين.

أحدهما: اعتمادهم على مالهم وعددهم.

والثاني: اعتقادهم أنّ الأوثان توصل إليهم جميع الخيرات، وتدفع عنهم جميع الآفات؛ فأبطل الله عليهم الأوّل بقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ . . .﴾ إلخ، ورد عليهم الثاني بقوله: ﴿أمّن هذا الذي يرزقكم. . .﴾ إلخ.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ إضراب عن مقدر يستدعيه المقام كأنّه قيل؛ إثر التبكيت والتعجيز لم يتأثروا بذلك ولم يذعنوا للحق ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ وتمادوا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي: عنادٍ واستكبار وطغيان ﴿وَنُفُورٍ﴾ أي: شراد عن الحق، وتباعد وإعراض عنه لمضادتهم الحق بالباطل الذي أقاموا عليه. فاللجاج: التمادي في العناد في تعاطي الفعل المزجور عنه. والعتو: التجاوز عن الحد. والنفور: الفرار من الحق. ففيه تحقير لهم، وإشارةٌ إلى أنهم ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝٥١﴾.

والمعنى[2]: بل من هذا الذي يرزقكم إن منع ربكم عنكم أسباب رزقه من الأمطار وغيرها، أو وقف الهواء فلم تجر الرياح، أو جعل ماء البحر غوراً.

والخلاصة: أنه لا جند لكم ينصركم إن هو عذبكم، ولا رازق يرزقكم إن هو حرمكم أرزاقكم. وبعد أن حصحص الحق قال مبيناً عتوهم وطغيانهم ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: إنهم يعلمون ذلك حق العلم ويعبدون غيره، فما هذا منهم إلا عنادٌ واستكبارٌ ونفورٌ عن قبول الحق، وما جرأهم على هذا إلا الشيطان الذي غرهم بوسوسته، فظنوا أن آلهتهم تنفعهم تدفع الضر عنهم، وتقربهم إلى ربهم زلفى.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ثم ضرب مثلاً يبين به الفارق بين حالي المشرك والموحد، جعل فيه المعقول بصورة المحسوس، ليكون أبين للحجة وأوضح لطريق المحجة؛ فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، والفاء[1] لترتيب ذلك على ما ظهر من سوء حالهم، وتقديم الهمزة عليها لفظاً إنما هو لملازمتها الصدارة، وأما بحسب المعنى.. فالأمر بالعكس حتى لو كان مكان الهمزة (هل) لقيل: فهل من يمشي مكباً... إلخ. والمكُبُّ: الساقط على وجهه، وهو حالٌ من فاعل ﴿يَمْشِي﴾. ويقال في المعنى: الفاء فاء الفصيحة لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت سوء حال المشركين وحسن حال المؤمنين، وأردت ضرب المثل لحال الفريقين؛ فأقول لك: من يمشي وهو يعثر في كلّ ساعة ويخر على وجهه في كلّ خطوةٍ لتوعر طريقه واختلال قواه ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ أي: أشدّ هداية ورشداً إلى المقصد الذي يؤمه ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي: أهو أهدى أمن يمشي قائماً سالماً من الخبط والعثار ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق مستوي الأجزاء، لا عوج فيه ولا انحراف. أي: أيّهما أهدى هل الأوّل أم الثاني؟ فالجواب: الثاني هو المهتدي، والأوّل هو الضال. وقيل: المكب هو الذي يكب رأسه فلا ينظر يميناً ولا شمالاً ولا أماماً فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه. وقيل: أراد به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فلا يزال مشيه ينكسه على وجهه. وقال قتادة: المكبّ هو الكافر أكب على معاصي الله في الدنيا، فحشره الله على وجهه إلى النار في العقبى، والمؤمن استقام على أمر الله في الدنيا فحشره الله على قدميه إلى الجنة في الآخرة.

والحاصل: أنه سبحانه شبه المؤمن[2] في تمسّكه بالدين الحق ومشيه على منهاجه بمن يمشي في الطريق المعتدل الذي ليس فيه ما يتعثّر به، وشبه الكافر في ركوبه ومشيه على الدين الباطل بمن يمشي في الطريق الذي فيه حفر وارتفاع وانخفاض؛ فيتعثر ويسقط على وجهه، كلما تخلص من عثرة وقع في أخرى. فالمذكور في الآية هو المشبه به، والمشبه محذوف لدلالة السياق عليه. و﴿مَنْ﴾ الثانية معطوفة على ﴿مَنْ﴾ الأولى، لأنّ ﴿أم﴾ هنا متصلة معادلة للهمزة؛ فيكون

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات.

عطف مفردٍ على مفرد، ووحّد الخبر لأنّ ﴿أم﴾ لأحد الشيئين.

ومعنى الآية[١]: أفمن يمشي وهو يتعثر في كل ساعة ويخر على وجهه في كل خطوة لتوعر طريقه واختلاف أجزائها انخفاضا وارتفاعاً أهدى سبيلاً وأرشد إلى المقصد الذي يؤمّه أم من يمشي سالماً من التخبط والعثار على الطريق السويّ الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، فهذا المكب على وجهه هو المشرك الذي يمشي على وجهه في النار يوم القيامة، والذي يمشي سويّاً هو الموحد الذي يحشر على قدميه إلى الجنة.

وبعد أن امتن على عباده بما آتاهم من زينة السماء وتذليل الأرض وإمساك الطير في الهواء أخذ يذكر ما هو أقرب إلينا، وهو خلق أنفسنا فقال آمراً رسوله: أن يبين لهم ذلك ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى وحده الإله ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أيها الكفار، كما دل السباق والسياق، ويندرج فيه الإنسان الغافل أيضاً؛ أي[٢]: أنشأكم إنشاء بريعاً بديعاً لا مثيل له، وابتدأ خلقكم على أحسن خلق بأن صوركم وأحسن صوركم. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ وأعطى لكم الأذن لتسمعوا آيات الله التنزيلية، وتعملوا بموجبها. وقدم السمع؛ لأنه شرط النبوّة، ولذلك ما بعث رسولاً أصم، وأفرده دون الأبصار؛ لأنّه مصدر يطلق بلفظه على القليل والكثير. ﴿و﴾ جعل لكم ﴿الأبصار﴾ لتنظروا بها إلى الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله تعالى، ولتبصروا جميع مظاهره تعالى في غاية الكمال ونهاية الإتقان. ﴿و﴾ جعل لم ﴿الأفئدة﴾ والقلوب لتتفكروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه من الآيات التنزيلية والتكوينية، وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة. والأفئدة: جمع فؤاد وهو القلب. وخصَّ[٣] هذه الثلاثة بالذكر لأنّ العلوم والمعارف بها تحصل، كما في كشف الأسرار؛ ولأنّ القلب كالحوض حيث ينصب إليه ما حصل من طريق السمع والبصر، فذكر سبحانه هنا أنّه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات، إيضاحاً للحجة وقطعاً للمعذرة وذمّاً لهم على عدم شكر نعم الله، ولهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ باستعمالها فيما خلقت لأجله من الأمور المذكورة.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

و﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمحذوف، و﴿مَّا﴾ مزيدة لتأكيد القلّة؛ أي: شكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تشكرون، وقيل: القلّة عبارة عن العدم، قال سعدي المفتي: القلّة بمعنى النفي إن كان الخطاب للكفرة، أو بمعناها المعروف إن كان للكلّ، يقال: قلّما أفعل كذا أي: لا أفعله. قال بعض أهل المعرفة:

لَوْ عِشْتُ أَلْفَ عَامٍ فِيْ سَجْدَةٍ لِرَبِّي شُكْرَاً لِفَضْلِ يَوْمٍ لَمْ أَقْضِ بِالتَّمَامِ
وَالْعَامُ أَلْفُ شَهْرٍ وَالشَّهْرُ أَلْفُ يَوْمٍ وَالْيَومُ أَلْفُ حِيْنٍ وَالْحِيْنُ أَلْفُ عَامِ

قال بعضهم: من وظائف السمع في الشكر: التعلم من العلماء والحكماء الإصغاء إلى الموعظة، ومن وظائف الأبصار فيه: النظر إلى المصاحف وكتب الدين ومعابد المؤمنين ومسالك المسلمين، وإلى وجوه العلماء والصالحين والفقراء والمساكين بعين الرحمة، ومن وظائف الأفئدة: الفكر في جلال الله وكماله وجماله ونواله، والخوف والرجاء منه والمحبة والاشتياق إلى لقائه والمحبّة لأنبيائه وأوليائه والبغض لأعدائه، والنظر في المسائل والدلائل، والاهتمام في حوائج العيال، ونحو ذلك مما فيه فائدة.

والمعنى(١): قل لهم يا محمد: إنّ ربكم هو الذي برأكم وجعل لكم السمع لتسمعوا به المواعظ، والأبصار لتنظروا بها بدائع صنع الخالق، والأفئدة لتتفكروا في كلّ هذا، وتستفيدوا منه الفوائد العقلية والمادّية.

ثم أبان أنّ الإنسان لنعمة ربّه لكنود، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم بها ربكم عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره، وذلك هو شكرانها.

ثم لخص هذا كله بقوله آمراً رسوله: ﴿قُلْ﴾ لهم أيّها الرسول ﴿هُوَ﴾ سبحانه وحده الإله ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ وخلقكم وكثّركم وبثكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وفرقكم فيها ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى لا إلى غيره اشتراكاً أو استقلالاً ﴿تُحْشَرُونَ﴾ حشراً جسمانياً، أي: تجمعون وتبعثون للحساب والجزاء شيئاً فشيئاً إلى البرزخ دفعةً واحدة يوم البعث، فابنوا أموركم على ذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ فبين أن جميع الدلائل

---

(١) المراغي.

المذكورة إنما هو لإثبات هذا المطلوب.

والمعنى: قل لهم يا محمد منبهاً على خطئهم: إن ربكم هو الذي برأكم في الأرض وبثكم في أرجائها على اختلاف ألسنتكم وألوانِكم وأشكالكم وصوركم، ثم يجمعكم كما فرقكم، ويعيدكم كما بدأكم للحساب والجزاء، فيجزي كل نفس بما كسبت إنه سريع الحساب.

وبعد أن ذكر أن إليه المرجع والمآب.. أردفه بذكر مقالة الكافرين المنكرين لذلك، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: ويقول المشركون من فرط عنادهم واستكبارهم، أو بطريق الاستهزاء كما دل عليه لفظ ﴿هذا﴾ في قوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: متى الحشر الموعود؟ كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، فالوعد بمعنى الموعود، والمشار إليه: الحشر، وقيل: ما خوفوا به من الخسف والحاصب، واختيار[1] لفظ المضارع في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إما لأن المقصود بيان ما يوجد من الكفار من هذا القول في المستقبل، وإما لأن المعنى: وكانوا يقولون. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تخبرونه من الحشر، يخاطبون به النبي ﷺ والمؤمنين، حيث كانوا مشاركين له ﷺ في الوعد وتلاوة الآيات المتضمّنة له، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم صادقين فيما تخبرونه من مجيء الساعة والحشر فبينوا وقته. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقته كائن ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ الذي قدر الأشياء، ودبر الأمور، لا يطلع عليه غيره. ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوف ظاهر بلغة تعرفونها، ومظهر للحق كاشف عن الواقع، أنذركم وقوع الموعود لا محالة، وأما العلم بوقت وقوعه فليس من وظائف الإنذار، قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: أخفى علمه في عباده وعن عباده، وكل يتبع أمره على جهة الاشتباه لا يعلم ما سبق له، وبماذا يختم له، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ.

ومعنى الآيتين[2]: ويسألون الرسول استهزاء وتهكُّماً متى يقع ما تعدنا به مِنَ الخسف والحاصب في الدنيا والحشر والعذاب في الآخرة، إن كنت صادقاً فيما تدّعي وتقول، فأمر رسوله أن يجيبهم بأن علم ذلك عند بارىء النسم، فقال: قل يا محمد: إنما علم ذلك على وجه التعيين عند ربي لا يعلمه إلا هو، وقد أمرني أن

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أخبركم بأن ذلك كائن لا محالة، فاحذروه. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ثم بين وظيفة الرسول، فقال: وإنما أنا منذر من عند ربي، أبين لكم شرائعه ما حلل منها وما حرم، لتكونوا على بينةٍ من أمركم، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم.

ثم بين حالهم حين نزول ذلك الوعد الموعود، فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الفاء عاطفة لجملة ﴿لما﴾ على جملتين محذوفتين، والرؤية بصرية، وعبّر[1] بصيغة الماضي عمّا في المستقبل تنزيلاً لغير الواقع منزلة الواقع لتحققه، والتقدير: وأتاهم الحشر والعذاب الموعود فرأوه، فلما رأوه ﴿زُلْفَةً﴾ حال من مفعول رأوا؛ لأن رأى بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، كما ذكرناه آنفاً إما بتقدير مضاف، أي ذا زلفة وقرب، أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل؛ أي: مزدلفاً قريباً. معنى قرب الحشر هو قرب ما أعد لهم فيه، أو ظرف؛ أي: رأوه في مكان ذي زلفة. قال مجاهد: فلما رأوه زلفةً أي: قريباً. وقال الحسن: عياناً، قال أكثر المفسرين: المراد به عذاب يوم القيامة. وقال مجاهد: المراد عذاب بدر. وقيل: فلما رأوا ما وعدوا به من الحشر قريباً منهم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. وقيل: فلما رأوا عملهم السيء قريباً ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ واسودت، وعبست ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وعلتها الكآبة، ورهقها القتر، وغشيتها الذلة. قال الزَّجّاج: المعنى: تبين فيها السوء والحزن؛ أي: ساءهم ذلك العذاب؛ فظهر عليهم بسببه في وجوههم ما يدل على كفرهم؛ وهو السواد والقتر والذلة كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

وخص الوجوه بالذكر؛ لأنّ الوجه هو الذي يظهر عليه أثر المسرّة والمساءة، ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمّهم بالكفر وتعليل المساءة به، وأصل الكلام: ساءت رؤية الموعود وجوههم، فكانت كوجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب، من ساءه الشيء يسوؤه سوءاً ومساءةً، ضد سره، ثم بني للمفعول، والفعل في الحقيقة مسند إلى أصحاب الوجوه بمعنى ساؤُوا وقبحوا.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ بكسر السين بدون إشمام، أي: أخلصوا كسرتها. وأشمها الضم أبو جعفر، والحسن، وأبو رجاء، وشيبة، وابن وثاب، وطلحة، وابن

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

عامر، ونافع، والكسائي، وابن محيصن.

﴿وَقِيلَ﴾ لهم توبيخاً لهم وتشديداً لعذابهم بالنار الروحانية قبل الإحراق بالنار الجسمانية، والقائلون هم الزبانية، وإيراد[1] المجهول لكون المراد بيان المقول لا بيان القائل. ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، أشير به إلى ما رأوه زلفة، وخبره قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾: أي: هذا العذاب المشاهد لكم هو الذي كنتم تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه، إنكاراً واستهزاءاً، على أنه تفتعلون من الدعاء، والباء على هذا صلة الفعل، يقال: دعا بكذا، إذا استدعاه، وقيل: هو من الدعوى؛ أي: كنتم بسبب ذكر النبي ﷺ والمؤمنين العذاب لكم يوم القيامة تدعون أن لا بعث ولا حشر، فالباء للسببية.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَدَّعُونَ﴾ بشد الدال مفتوحة، والمعنى: أنهم يدعون أنه لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار. وقرأ قتادة، وابن أبي إسحاق ويعقوب والضحاك والحسن وعبد الله بن مسلم وسلام ﴿تَدْعُون﴾ بسكون الدال، وهي قراءة ابن أبي عبلة وأبي زيد وعصمة عن أبي بكر والأصمعيّ عن نافع. قال قتادة: هو قولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾، وقال الضحاك: هو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية. قال النَّحَّاس: ﴿تَدَّعُونَ﴾ و﴿تَدْعُون﴾ بمعنى واحدٍ؛ كما تقول: قدر واقتدر، وغدا واغتدى.

والمعنى[3]: فلما رأوا العذاب الموعود قريباً - وكل آت قريب وإن طال زمنه - ساءهم ذلك، وعلت وجوههم الكآبة والخسران، وغشيتها القترة والسواد؛ إذ جاءهم من أمر الله ما لم يكونوا يحتسبون، ويقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: هذا الذي كنتم تستعجلون وقوعه وتقولون لرسوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وروي[4]: أنّ الكفار كانوا يدعون على الرسول ﷺ وأصحابه بالهلاك، وقيل:

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

كانوا يتآمرون بينهم بأن يهلكوهم بالقتل ونحوه، فأمره أن يقول لهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني خبراً أنتم في الوثوق به على ما هو كالرؤية، قال بعضهم: لمّا كانت الرؤية سببا للإخبار عبَّر بها عنه، وقال بعضهم: لما كان الإخبار قويّاً بالرؤية شاع أرأيت في معنى أخبر؛ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بموت أو قتل؛ أي: إن أماتني الله ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين، وحصل مقصودكم، والتعبير[1] عن الموت بالإهلاك ما كانوا يدعون عليه ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، ويتربّصون به ريب المنون، ويقولون: إنّ أمر محمد لا يتم ولا يبقى بل يزول عن قريب. ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا، وحصل مقصودنا فنحن في جوار رحمته، متربّصون لإحدى الحسنيين إما أن نهلك فننقلب إلى الجنة أو نرحم بالنصرة والإدالة للإسلام، كما نرجو فأنتم ما تصنعون؟ وأيُّ راحة لكم في موتنا؟ وأيُّ منفعة؟ وغايتكم إلى العذاب كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ وينجي، وينقذ ويخلص ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم شديد الإيلام؛ أي: لا ينجيكم أحد من عذابه إذا نزل بكم سواءً متنا أو بقينا، إنما النجاة بالإيمان والعمل الصالح.

ووضع[2] الكافرين موضع ضمير هم للتسجيل عليهم بالكفر وتعليل نفي الإنجاء به، وقال بعضهم: كيف قال: ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ، بعد أن علم أنه تعالى لا يهلك الأنبياء والمؤمنين؟

قلت: فيه مبالغة في التخويف كأنه قيل: نحن معاشر الأنبياء والمؤمنين، نخاف الله أن يأخذنا بذنوبنا فمن يمنعكم من عذابه وأنتم كافرون؟ وكيف لا تخافون وأنتم بهذه المشابة من الإجرام؛ فيكون معنى أهلكنا عذبنا بعذاب، ومعنى ﴿رَحِمَنَا﴾ غفر لنا، كما في الجلالين.

والحاصل: أنه تعالى[3] أجاب عن تمني المشركين موته ﷺ وموت من معه بوجهين:

بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ، يعني: قل لهم موبخاً: أخبروني

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

عن فائدة موتي لكم سواء أماتني الله ومن معي أو أخّر أجلنا؛ فأي راحة لكم في ذلك؟ وأي منفعة لكم فيه؟ ومن ذا الذي يجيركم من عذاب الله إذ نزل بكم؟ أتظنون أن الأصنام أو غيرها تجيركم؟ وهلا تمسكتم بما يخلصكم من العذاب فتقروا بالتوحيد والنبوة والبعث؟!

وخلاصة هذا: أنه لا مجير لكم من عذاب الله بسبب كفركم الموجب لهذا العذاب، سواء هلكنا كما تتمنون ففزنا برحمة الله، أو انتصرنا عليكم ورفعنا شأن الإسلام كما نرجو، فكلا الأمرين فيه ظفر بما ينبغي، ونيل لما نحب ونهوى، وفي هذا إيماء إلى أمرين:

١ ـ حثهم على طلب الخلاص بالإيمان الخالص لله والإخبات إليه.

٢ ـ أنّه كان ينبغي أن يكون ما هم فيه شاغلاً لهم عن تمنّي هلاك النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هُوَ﴾؛ أي: الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الرحيم مولي النعم كلها، وموصلها إلى الخلق كلهم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وحده لما علمنا أن كل ما سواه فإما نعمة أو مُنْعَمٌ عليه، ولم نكفر به كما كفرتم، على أن يكون وقوع ﴿آمنا﴾ مقدماً على ﴿به﴾ تعريضاً للكفّار، حيث ورد عقيب ذكرهم. ﴿وَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: اعتمدنا؛ أي: فوّضنا أمورنا إليه لا إلى غيره أصلاً كما فعلتم أنتم حيث توكّلتم على رجالكم وأموالكم، لعلمنا بأن ما عداه كائناً ما كان بمعزل من النفع والضرّ؛ فوقوع ﴿عليه﴾ مقدّماً يدل على الاختصاص، قال الزمخشري: فإن قلت: لِمَ أخَّر مفعول ﴿ءَامَنَّا﴾ وقدم مفعول ﴿تَوَكَّلْنَا﴾؟

قلت: لوقوع ﴿ءَامَنَّا﴾ تعريضاً بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم؛ كأنّه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصاً لم نتوكل على ما أنتم متوكلون عليه من رجالكم وأموالكم.. كرخي. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ يا كفّار مكة عن قريب ألبتة عند معاينة العذاب ﴿مَنْ﴾ استفهامية أو موصولة ﴿هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ منّا ومنكم، أي: خطأ ظاهر. أي: قل لهم: آمنّا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكّلنا في جميع أمورنا، وهو سيجيرنا من عذاب الآخرة، وفي هذا تعريض بهم حيث اتّكلوا على أولادهم وأموالهم ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾

وإشارة إلى أنهم لا يرحمون في الدارين؛ لأنهم كفروا بالله وتوكلوا على غيره، ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما قبله فقال: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فسيتبين لكم من الضال منا ومن المهتدي، ولمن تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة. وقرأ الجمهور ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ بتاء الخطاب، نظراً إلى الخطاب في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾. وقرأ الكسائي بالتحتية على الخبر نظراً إلى قوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ولما ذكر أنه يجب التوكل عليه لا على غيره.. أقام الدليل على ذلك؛ فقال آمراً رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ﴾ أي: إن صار ماؤكم الذي تشربونه وتنتفعون به. وكان ماء أهل مكة من بئرين: بئر زمزم، وبئر ميمون الحضرمي. ﴿غَوْرًا﴾ خبر أصبح، وهو مصدر وصف به؛ أي: غائراً في الأرض بالكلية ذاهباً ونازلاً فيها، وقيل: بحيث لا تناله الدلاء، ولا يمكن لكم نيله بنوع حيلة، كما يدل عليه الوصف بالمصدر. ﴿فَمَن يَأْتِيكُم﴾ على ضعفكم حينئذٍ ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾؛ أي: بماء جار على وجه الأرض من عان الماء من باب باع أو من معن، كلاهما بمعنى جرى، وقيل: معن بمعنى كثر، وعان بمعنى جرى، والمعنيان متقاربان. أوظاهر للعيون سهل المأخذ، يعني: تناوله الأيدي، فهو على هذا اسم مفعول من العين بمعنى الباصرة كمبيع من البيع.

ولعل تكرير الأمر بـ ﴿قُلْ﴾ لتأكيد المقول، وتنشيط المقول له. فإن قلت: كيف خص ذكراً لنعمته بالماء من بين سائر نعمه؟ قلت: لأن الماء أهون موجود وأعز مفقود؛ كما في «الأسئلة المقحمة»، روي: أن هذه الآية تليت عند بعض المستهزئين، فقال: تجيء به الفؤوس والمعاويل فذهب ماء عينيه، نعوذ بالله من الجراءة على الله وبيناته وترك حرمة القرآن وآياته، وإنّما عوقب بذهاب ماء عينيه؛ لأنّ الجزاء من جنس العمل. وقرأ ابن عباس ﴿فمن يأتيكم بماء عذب﴾.

والمعنى: قل لهم يا محمد: أخبروني يا أهل مكة إن ذهب ماؤكم في الأرض ولم تصل إليه الدلاء فمن يأتيكم بماء جار تشربونه عذباً زلالاً، ولا جواب لكم إلا أن تقولوا هو الله سبحانه، وإذاً فلم تجعلون ما لا يقدر على شيء شريكاً في العبادة لمن هو قادر على كلّ شيء؟! وفي هذا طلب إقرار منهم ببعض نعمه ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر.

وقصارى ذلك: أنه تعالى فضلاً منه وكرما أنبع لكم المياه، وأجراها في سائر الأقطار، بحسب حاجتكم إليها قلة وكثرة، فلله الحمد والمنّة على جميع النعمة.

الإعراب

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى﴾ فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿بِيَدِهِ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة الموصول؛ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُوَ﴾ الواو عاطفة، ﴿هو﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة الصلة مقررة لمضمونها، ﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من الموصول الأوّل، ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ والجملة صلة الموصول، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ اللام حرف جرّ وتعليل، ﴿يبلوكم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿أَيُّكُمْ﴾ مبتدأ، ﴿أَحْسَنُ﴾ خبر، ﴿عَمَلًا﴾ تمييز محوّل عن المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ وجملة ﴿يبلوكم﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لبلائه إياكم، الجار والجرور متعلق بخلق من حيث تعلقه بـ ﴿الحياة﴾؛ إذ هي محل الاختبار والتكليف، وأما الموت فلا شيء من ذلك فيه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ خبر ثان، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل خلق.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى﴾ بدل ثان من الموصول الأول، وقيل: بدل من ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ وقيل: نعت لهما، أو أنه في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف أو منصوب على المدح. ﴿خَلَقَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ مفعول به ﴿طِبَاقًا﴾ صفة لسبع

سموات أو حال منه؛ لأنّه تخصص بالإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب. ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ ما نافية، ﴿تَرَىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد أو على كل من يصلح للخطاب ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ متعلق بـ ﴿تَرَىٰ﴾، ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ من زائدة، ﴿تَفَٰوُتٍ﴾ مفعول به لـ ﴿تَرَىٰ﴾، وترى بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، وجملة النفي مستأنفة مسوقة لتأكيد استقامة خلقه تعالى. ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت عدم التفاوت في خلق الرحمن، وأردت الاستثبات فيه والعيان بعد الإخبار. فأقول لك: ارجع البصر. ﴿ارجع﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ﴿ٱلْبَصَرَ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿هَلْ﴾ حرف استفهام ﴿تَرَىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿فُطُورٍ﴾ مفعول به والجملة الفعلية في محل نصب مفعول لفعل محذوف تقديره: فانظر هل ترى من فطور؟ ولكنّه علّق عنها بحرف الاستفهام. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة في محل نصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾. ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنّه بمعنى رجعتين، وهو وإن كان مثنّى لفظاً لا يقصد به معنى التثنية، بل المقصود به التكثير؛ أي: كرّات ﴿يَنقَلِبْ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ فاعل، ﴿خَاسِئًا﴾ حال من ﴿ٱلْبَصَرُ﴾، والجملة جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُوَ﴾ الواو حالية، ﴿هو حسير﴾ مبتدأ وخبر، والجملة حال من ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ أيضاً، أو من الضمير المستكن في ﴿خَاسِئًا﴾، فتكون حالاً متداخلة.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾، استئنافية واللام موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿زَيَّنَّا﴾ فعل، وفاعل ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ مفعول به، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للسماء، ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ متعلق بـ ﴿زَيَّنَّا﴾، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة مسوقة لبيان دلائل أخرى على كمال قدرته تعالى. ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول أوّل، ﴿رُجُومًا﴾ مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿زَيَّنَّا﴾،

﴿لِلشَّيَٰطِينِ﴾ متعلق بـ ﴿رُجُومًا﴾، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ فعل، وفاعل معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾. ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أعتدنا﴾، ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ مفعول به، ﴿وَلِلَّذِينَ﴾ الواو عاطفة، ﴿للذين﴾ خبر مقدم، ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿كَفَرُوا۟﴾، ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة معطوفة على جملة القسم. ﴿وَبِئْسَ﴾ الواو عاطفة، ﴿بئس﴾ فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية خبر عن المخصوص بالذمّ، وهو محذوف تقديره: هي، وجملة المخصوص معطوفة على ما قبلها، أو مستأنفة مسوقة لإنشاء الذمّ.

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿أُلْقُوا۟﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعل، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿أُلْقُوا۟﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿سَمِعُوا۟﴾ فعل وفاعل، ﴿لَهَا﴾ حال من ﴿شَهِيقًا﴾: لأنه صفة نكرة قدّمت عليها، ﴿شَهِيقًا﴾ مفعول ﴿سَمِعُوا۟﴾، وجملة ﴿سَمِعُوا۟﴾ جواب إذا، وجملة ﴿إِذَآ﴾ مستأنفة. ﴿وَهِىَ﴾ الواو حالية، ﴿هي﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَفُورُ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الهاء في ﴿لَهَا﴾. ﴿تَكَادُ﴾ فعل مضارع، وهي من أفعال المقاربة تعمل عمل ﴿كَانَ﴾، واسمها ضمير مستتر يعود على جهنم، ﴿تَمَيَّزُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، وأصله: تتميز، حذفت إحدى التاءين للتخفيف، ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ متعلق بـ ﴿تَمَيَّزُ﴾، وجملة تميّز في محل النصب خبر تكاد، وجملة تكاد مستأنفة. ﴿كُلَّمَآ﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على السكون، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿أُلْقِىَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، ﴿فَوْجٌ﴾ نائب فاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿كُلَّمَآ﴾ في محل جر بالإضافة، ﴿سَأَلَهُمْ﴾ فعلٌ ماض، ومفعول به، ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ فاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿كُلَّمَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَآ﴾ مستأنفة. ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريريّ التوبيخي، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿يَأْتِكُمْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لم﴾، والكاف مفعول به، ﴿نَذِيرٌ﴾ فاعل، والجملة الاستفهامية في محل نصب مفعول ثان لسأل.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنّه قيل: ماذا قالوا بعد السؤال؟ فقال: قالوا. ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب لإثبات النفي مبني على السكون ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿جَآءَنَا﴾ فعل، ومفعول به ﴿نَذِيرٌ﴾ فاعل، والجملة في محل نصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿جَآءَنَا﴾، ﴿وَقُلْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على كذّبنا، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ فعل، وفاعل، ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من زائدة، ﴿شَيْءٍ﴾ مفعول به، والجملة في محل نصب مقول لـ ﴿قلنا﴾، ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ خبر المبتدأ، ﴿كَبِيرٍ﴾ صفة ضلال، والجملة الاسمية في محل نصب مقول ﴿قلنا﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿نَسْمَعُ﴾ خبره، ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ معطوف على ﴿نَسْمَعُ﴾، وجملة كان فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾، لا محل لها من الإعراب، و﴿مَا﴾ نافية، ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ خبره، والجملة الناقصة جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل نصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿فَٱعْتَرَفُواْ﴾ الفاء عاطفة، ﴿اعترفوا﴾ فعل وفاعل، ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قالوا﴾، ﴿فَسُحْقًا﴾ الفاء عاطفة، ﴿سحقاً﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً تقديره: فسحقهم الله سحقاً؛ أي: أبعدهم الله من رحمته بعداً، ويجوز أن يكون مفعولاً به لفعل محذوف تقديره: ألزمهم الله سحقاً، والجملة معطوفة على جملة اعترفوا، ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿سحقاً﴾ أو صفة له، واللام فيه للبيان كاللام في سقياً لك وجدعاً له.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ فعل وفاعل، ومفعول به،

والجملة صلة الموصول، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من الواو في ﴿يَخْشَوْنَ﴾، أو من ﴿رَبَّهُم﴾، ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم، ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿وَأَجْرٌ﴾ معطوف على مغفرة، ﴿كَبِيرٌ﴾ صفة ﴿أجر﴾، والجملة الاسمية في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ مستأنفة. ﴿وَأَسِرُّوا۟﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿أسرّوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، ﴿قَوْلَكُمْ﴾ مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿أَوِ﴾ حرف عطف، ﴿ٱجْهَرُوا۟﴾ فعل أمر، وفاعل، معطوف على أسرّوا، ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿اجهروا﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿عَلِيمٌۢ﴾ خبره، ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ متعلق بـ ﴿عَلِيمٌۢ﴾، وجملة إنّ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بتساوي السرّ والجهر بالنسبة إلى علمه تعالى. ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يَعْلَمُ﴾ فعل مضارع، و﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل، ومفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ محذوف تقديره: سرّكم وجهركم، وجملة ﴿خَلَقَ﴾ صلة الموصول، ومفعول ﴿خَلَقَ﴾ محذوف أيضاً تقديره: ألا يعلم سرّكم وجهركم من خلقهما، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُوَ﴾ الواو حالية، ﴿هو﴾ مبتدأ، ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ خبره، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ خبر ثانٍ له، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ﴿لَكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿ذَلُولًا﴾، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ مفعول أوّل لـ ﴿جَعَلَ﴾، ﴿ذَلُولًا﴾ مفعول ثان له، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿فَٱمْشُوا۟﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنَّ الله جعل لكم الأرض ذلولاً لتنتفعوا بها، وأردتم بيان كيفية الانتفاع بها.. فأقول لكم: ﴿امشوا في مناكبها﴾. ﴿امشوا﴾ فعل أمر، وفاعل، ﴿فِى مَنَاكِبِهَا﴾ متعلق بـ ﴿امشوا﴾، والجملة الفعلية في محل نصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة. ﴿وَكُلُوا۟﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿فَٱمْشُوا۟﴾، ﴿مِن رِّزْقِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿كلوا﴾، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ خبر مقدم ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿كلوا﴾؛ أي: حالة كون نشوركم إليه، أو مستأنفة.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ

أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ءَأَمِنتُم﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿أَمِنتُم﴾ فعل، وفاعل، ﴿مَّن﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به، و﴿مَّن﴾ عبارة عن الله تعالى، ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ جار ومجرور صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة، ﴿أَن يَخْسِفَ﴾ ناصب وفعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿بِكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿يَخْسِفَ﴾، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ مفعول به، والجملة في تأويل مصدر منصوب على أنّه بدل اشتمال من الموصولة؛ أي: أأمنتم خسفه بكم الأرض، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿فَإِذَا﴾ الفاء عاطفة، ﴿إذا﴾ حرف فجاءة، ﴿هِيَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَمُورُ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَن يَخْسِفَ﴾ على أنها بدل اشتمال؛ أي: أأمنتم خسفه بكم الأرض فمورها بكم. ﴿أَمْ﴾ عاطفة بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكاري، ﴿أَمِنتُم﴾ فعل وفاعل، ﴿مَّن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ صلة لـ ﴿مَّن﴾ الموصولة، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَأَمِنتُم﴾، وجملة ﴿أَن يُرْسِلَ﴾ في تأويل مصدر منصوب على أنّه بدل اشتمال مِنْ ﴿مَّن﴾ الموصولة؛ أي: أأمنتم إرساله عليكم حاصباً. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يُرْسِلَ﴾، ﴿حَاصِبًا﴾ مفعول به، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ الفاء استئنافية، والسين حرف استقبال، ﴿تعلمون﴾ فعل وفاعل، مرفوع بالنون، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لبيان التخويف بعذاب الآخرة، ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم، ﴿نَذِيرٌ﴾ مبتدأ مؤخّر مرفوع بضمّة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بكسرة المناسبة، وهو مضاف، وياء المتكلم المحذوفة في محل الجر مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب سادّة مسدّ مفعولي ﴿تعلمون﴾، وقد علّق عنها الفعل بالاستفهام.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾،

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ صلة الموصول، ﴿فَكَيْفَ﴾ الفاء عاطفة، ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل نصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿نَكِيرِ﴾ اسم كان مرفوع، وعلامة رفعه ضمّة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة،

وهو مضاف، والياء المحذوفة مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة القسم. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف تقديره: أغفلوا ولم يروا. والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. والواو: عاطفة على تلك المحذوفة، ﴿لم يروا﴾ جازم وفعل وفاعل، معطوف على تلك المحذوفة، ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ متعلق بـ ﴿يروا﴾، ﴿فَوْقَهُمْ﴾ ظرف متعلّق بصافات، و﴿صَافَّاتٍ﴾ حال من الطير، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ الواو عاطفة، ﴿يقبضن﴾ فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون النسوة فاعل، ومفعول ﴿يقبضن﴾ و﴿صَافَّاتٍ﴾ محذوف تقديره: أجنحتهنّ، وجملة يقبضن في محل النصب على الحال، معطوفة على ﴿صَافَّاتٍ﴾؛ أي: حالة كونهنّ صافّات أجنحتهنّ تارة وقابضات أجنحتهنّ أخرى. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾ فعل ومفعول به، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿بَصِيرٌ﴾، و﴿بَصِيرٌ﴾ خبره، وجملة إنّ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَمَّنْ﴾: أم حرف عطف بمعنى بل فقط، لا بمعنى بل وهمزة الاستفهام؛ لأنّ الاستفهام لا يدخل على الاستفهام، فهي منقطعة، ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿الَّذِي﴾ بدل من اسم الإشارة، أو نعت له، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿جُندٌ﴾ خبره، والجملة الاسمية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، ﴿لَّكُمْ﴾ صفة أولىٰ لـ﴿جُندٌ﴾ وجملة ﴿يَنصُرُكُم﴾ نعت ثان له أو حال منه، ﴿مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل ﴿يَنصُرُكُم﴾، ﴿إِنِ﴾ نافية مهملة، ﴿الْكَافِرُونَ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿فِي غُرُورٍ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿أَمَّنْ﴾ أم منقطعة بمعنى بل فقط، عاطفة على ما تقدم، ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام مبتدأ، ﴿هَٰذَا﴾ خبره، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿الَّذِي﴾ بدل من اسم الإشارة، وجملة ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ صلة الموصول، ﴿إِنْ﴾ حرف شرط جازم، ﴿أَمْسَكَ﴾ فعل ماض في محل الجزم، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿رِزْقَهُ﴾ مفعول به، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله تقديره: إن أمسك الله

رزقه عنكم.. فمن يرزقكم من دونه، وجملة الشرط مستأنفة لا محل لها من الإعراب، ﴿بَل﴾ حرف عطف وإضراب على مقدر يستدعيه المقام تقديره: إنهم لم يتأثروا بذلك، ولم يذعنوا للحق بل لجّوا. ﴿لَّجُّواْ﴾ فعل ماض وفاعل، ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ متعلق به، ﴿وَنُفُورٍ﴾ معطوف على ﴿عُتُوٍّ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي المتضمن للإنكار، مقدمة على محلها للزومها الصدارة، وإلا فمحلها بعد الفاء، حتى لو كان بدل الهمزة هل لقيل: فهل من يمشي إلخ. والفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفت سوء حال المشركين وحسن حال المؤمنين، وأردت ضرب المثل لحال الفريقين.. فأقول لك: من يمشي. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ، وجملة ﴿يَمْشِي﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿مُكِبًّا﴾ حال من فاعل يمشي، ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ متعلق بـ﴿مُكِبًّا﴾، ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ خبر، ﴿أَمَّنْ﴾ ﴿أم﴾ حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام، ﴿مَنْ﴾ معطوف على ﴿مَنْ﴾ الأول، وجملة ﴿يَمْشِي﴾ صلتها، ﴿سَوِيًّا﴾ حال من فاعل ﴿يَمْشِي﴾، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَمْشِي﴾، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَنشَأَكُمْ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَجَعَلَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿أَنشَأَكُمْ﴾. ﴿لَكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿جعل﴾ إن كان بمعنى الخلق، أو في محل المفعول الثاني إن كان بمعنى التصيير، ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ مفعول به، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ معطوفان على ﴿ٱلسَّمْعَ﴾. ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: شكراً قليلاً، أو لزمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً. ﴿مَّا﴾ زائدة لتأكيد القلّة. ﴿تَشْكُرُونَ﴾

فعل وفاعل، والجملة في محل نصب حال مقدرة من ضمير ﴿لَكُمُ﴾. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿محمّد﴾، والجملة مستأنفة، ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ ﴿ذَرَأَكُمْ﴾. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿إليه﴾ متعلق بـ ﴿تُحْشَرُونَ﴾، و﴿تُحْشَرُونَ﴾ فعلٌ مضارعٌ، ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ذَرَأَكُمْ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ الواو استئنافية، ﴿يقولون﴾ فعلٌ، وفاعل مرفوع بالنون، والجملة مستأنفة ﴿مَتَىٰ﴾ ظرف زمان في محل نصب على الظرفية مبني على السكون، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ مؤخّر، ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ بدل منه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول؛ ﴿إِنْ﴾ حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص في محل جَزْمٍ بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، والتاء اسم كان، ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبرها، وجواب الشرط محذوفٌ تقديره: إن كنتم صادقين فيما تخبرونه من أمر القيامة والحشر. . فبينوا وقته على وجه التحديد، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل نصب مقول القول. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، ﴿ٱلْعِلْمُ﴾ مبتدأ، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَإِنَّمَآ﴾ الواو عاطفة، ﴿إنّما﴾ أداة حصر، ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأ، ﴿نَذِيرٌ﴾ خبره، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة لـ﴿نَذِيرٌ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها، ﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: وأتاهم الحشر والعذاب الموعود فرأوه فلما رأوه إلخ، ﴿لمّا﴾ اسم شرط غير جازم، ﴿رَأَوْهُ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، ورأى هنا بصرية تتعدى لمفعول واحد، ﴿زُلْفَةً﴾ حال من مفعول ﴿رَأَوْهُ﴾، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: ذا زلفة أو بتأويله بمشتقٍ؛ أي: مزدلفاً قريباً، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾ في محل جر بالإضافة، ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ﴾ نائب فاعل، ومضاف إليه، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول. ﴿وَقِيلَ﴾ الواو عاطفة، ﴿قيل﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة،

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم﴾ إلخ، نائب فاعل محكيّ لـ ﴿قيل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿سِيٓـَٔتْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، ﴿ٱلَّذِى﴾ خبره، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قيل﴾، ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تَدَّعُونَ﴾، وجملة ﴿تَدَّعُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان صلة الموصول.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخيّ، ﴿رأيتم﴾ فعل، وفاعل، بمعنى أخبروني، والجملة الفعلية في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿إِنْ﴾ حرف شرط جازم ﴿أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ ﴿أهلك﴾ فعل ماض في محل جزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، والنون للوقاية، والياء مفعول به، ولفظ الجلالة فاعل ﴿وَمَن﴾، والواو عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب معطوف على الياء، ﴿مَّعِىَ﴾ ظرف متعلق بمحذوف، صلة من الموصولة، ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فلا فائدة لكم في ذلك ولا نفع يعود عليكم، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية سادّة مسدّ مفعولي ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾. ﴿فَمَن﴾ الفاء تعليلية، ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، والاستفهام إنكاري بمعنى النفي، ﴿يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾ متعلق بـ﴿يُجِيرُ﴾، ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة ﴿عَذَابَ﴾، وجملة ﴿يُجِيرُ﴾ في محل رفع خبر ﴿مَنْ﴾ الاستفهامية، والجملة الاستفهامية جملة تعليلية مسوقة لتعليل الجواب المحذوف؛ أي: لا فائدة لكم في ذلك؛ لأنّه لا أحد ﴿يُجِيرُ﴾ الكافرين من عذاب أليم.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمرٍ، وفاعل مستتر والجملة مستأنفة ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿ءَامَنَّا﴾، والجملة خبر ثان لـ ﴿هُوَ﴾، ﴿وَعَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾، وجملة ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ معطوفة على ﴿ءَامَنَّا﴾، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب

شرط مقدر تقديره: إذا أبيتم عن الإيمان وأصررتم على الكفر، وأردتم معرفة من هو على الضلال منا ومنكم.. فأقول لكم ﴿ستعلمون﴾: السين حرف استقبال، ﴿تعلمون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ أول، ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المذكر الغائب في محل رفع مبتدأ ثان، ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وجملة المبتدأ الثاني خبر للأول، وجملة الأول في محل النصب سادّة مسدّ مفعولي ﴿تعلمون﴾ المعلّقة بالاستفهام. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فعل، وفاعل، بمعنى أخبروني، والجملة في محل نصب مقول قل، ﴿إِنْ﴾ حرف شرط، ﴿أَصْبَحَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مَآؤُكُمْ﴾ اسمها، ﴿غَوْرًا﴾ خبرها، ﴿فَمَن﴾ الفاء رابطة الجواب وجوباً، ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، وجملة ﴿يَأْتِيكُم﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، ﴿بِمَآءٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَأْتِيكُم﴾، ﴿مَّعِينٍ﴾ صفة ﴿ماء﴾، وجملة إن الشرطية في محل النصب سادة مسد مفعولي ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَبَٰرَكَ﴾ تفاعل من البركة؛ وهي الزيادة والنماء حسّية أو معنوية. وقال بعضهم: البركة: كثرة الخير ودوامه، فنسبتها إلى الله تعالى باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته من فنون الخيرات؛ أي: تكاثر خير الذي بيده الملك، وتزايد نعمه وإحسانه، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾. قال الراغب: البركة. ثبوت الخير الإلهيّ في الشيء. ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ والموت عند أهل السنة: صفة وجودية مضادة للحياة كالحرارة والبرودة، والحياة: صفة وجودية زائدة على نفس الذات مغايرة للعلم والقدرة مصحّحة لاتصاف الذات بهما.

﴿طِبَاقًا﴾ جمع طبقة كرحبة ورحاب، أو جمع طبق كجمل وجمال وجبل وجبال، وفي المصباح: وأصل الطبق الشيء على مقدار الشيء مطبقاً له من جميع جوانبه، وقيل: هو مصدر بمعنى الفاعل، يقال: طابقه طباقاً ومطابقة، وطباق الشيء مثل كتاب مطابقة بكسر الباء، وطابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو

واحد وألزقتهما، والباب يدل على وضع شيء مبسوط على مثله حتى يغطّيه، والمعنى: مطابقة بعضها فوق بعض وسماء فوق سماء.

﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ﴾ والإضافة فيه من إضافة المصدر إلى فاعله، والمفعول محذوفٌ تقديره: في خلق الرحمن لهن أو لغيرهن. ﴿مِن تَفَاوُتٍ﴾ قال الراغب: التفاوت: الاختلاف في الأوصاف، كأنّه يفوت وصف أحدهما الآخر أو وصف كلّ واحد منهما الآخر، وحكى أبو زيد: تفاوت الشيء تفاوتاً بضم الواو وفتحها وكسرها، والقياس هو الضم كالتقابل، والفتح والكسر شاذان. والتفاوت: عدم التناسب؛ لأن بعض الأجزاء يفوت الآخر.

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾؛ أي: ردّه إلى رؤية السماء. و﴿رَجَعَ﴾ يجيء لازماً ومتعدّياً يقال: رجع بنفسه رجوعاً، وهو العود إلى ما منه البدء، مكاناً أو فعلاً أو قولاً، بذاته كان رجوعه أو بجزء من أجزائه أو بفعل من أفعاله، ورجعه غير رجعاً؛ أي: رده وأعاده. ﴿مِن فُطُورٍ﴾ جمع فطر، كما في القاموس. وهو الشق، يقال: فطره فانفطر؛ أي: شقّه فانشقّ؛ والمعنى: من شقوق وصدوع لامتناع خرقها والتئامها. وفي المختار: والفطر: الشق، يقال: فطره فانفطر وتفطر الشيء: تشقق، وبابه نصر.

﴿كَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: رجعتين أخريين، والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما في لبيك، أي: أجبت لك إجابات كثيرة بعضها إثر بعض، وذلك لأنّ الكلال الآتي لا يقع بالمرّتين؛ أي: رجعة بعد رجعة وإن كثرت، وهو مصدر من كرَّ من باب ردَّ، يقال: كرّ على عدوّه بعد ما فرّ، كرّا وكرورا، والكرّة مرّة منه.

﴿خَاسِئًا﴾ اسم فاعل من خسَأ بمعنى تباعد وهرب، وفيه معنى الصغار والذلة، فإذا قيل: خَسَأَ الكلب خَسْأً فمعناه: تباعد من هوانه وخوفه كأنّه زجر وطرد عن مكانه الأول بالصغار، وخَسأ يجيء متعدّياً أيضاً يقال: خَسأت الكلب فخسأ؛ أي: باعدته وطردته وزجرته مستهيناً به فانزجر، وذلك إذا قيل له: اخسأ. قال الراغب: ومنه: خسأ البصر؛ أي: انقبض من مهانةٍ، وفي القاموس: الخاسيءُ من الكلاب والخنازير: المبعد لا يترك أن يدنو من الناس، ولا يكون ﴿خَاسِئًا﴾ في الآية من المتعدي إلا بأن يكون بمعنى المفعول؛ أي: مبعداً.

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾؛ أي: كليل، وهو فعيل بمعنى الفاعل من الحسور الذي هو الإعياء، وفي «المختار»: وحسر بصره: انقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك، فهو حسير ومحسور أيضاً، وبابه: جلس، وهو فعيل بمعنى فاعل من الحسور، وهو الإعياء.

﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ الياء فيه مبدلة من الألف في المفرد، لأنّه جمع مصباح لوقوعها بعد كسرة. ﴿رُجُومًا﴾ الرجوم: جمع رجم بالفتح، وهو مصدر سمّي به المفعول؛ أي: ما يرجم به ويرمى للطرد والزجر، ويجوز أن يكون باقياً على مصدريته، ويقدر مضاف؛ أي: ذات رجوم، وإنّما جمع المصدر باعتبار أنواعه أو جمع راجم، كسجود جمع ساجد.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: عذاب جهنم الموقدة المشعّلة، فالسعير فعيل بمعنى مفعول من سعرت النار إذا أوقدتها، ولذلك لم يؤت بالتاء في آخره مع أنّه اسم للدركة الرابعة من دركات النار السبع، وهي: جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية، ولكن كل من هذه الأسماء يطلق على الآخر، فيعبّر عن النار تارة بالسعير وتارة بجهنم وأخرى بآخر.

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ أصله: ألقيوا بوزن أفعلوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت ولما سكنت التقى ساكنان فحذفت الياء لذلك، وضمت القاف لمناسبة الواو. ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أصله: تفور بوزن تفعل، نقلت حركة الواو إلى الفاء فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مدّ. ﴿تَكَادُ﴾ أصله: تكود مضارع كود بكسر العين في الماضي وفتحها في المستقبل، نقلت حركة الواو إلى الكاف فسكنت، لكنّها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿تَمَيَّزُ﴾ أصله: تتميز حذفت منه إحدى التاءين كما تقدم.

﴿جَهَنَّمَ﴾؛ أي: الدركة النارية التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة، يقال: رجل جهم؛ أي: كالحٌ منقبض، وقال بعضهم: جهنم من الجهنام، وهي بئر بعيدة القعر. ﴿شَهِيقًا﴾؛ أي: صوتاً كصوت الحمير، وقيل: الشهيق في الصدر، والزفير في الحلق، أو شهيق الحمار آخر صوته، والزفير أوّله. وقيل: الشهيق رد النفس، والزفير إخراجه. ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ الفور: شدّة الغليان، ويقال ذلك في النار، وفي القدر

وفي الغضب، وفوارات الماء سميت تشبيهاً بغليان القدر، وفعلت كذا من فوري؛ أي: من غليان الحال، وفارة المسك تشبيهاً به في الهيئة كما في «المفردات». ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ والتميّز: الانقطاع والانفصال بين المتشابهات، والغيظ: أشد الغضب، يقال: يكاد فلان ينشقّ من غيظه إذا وصف بالإفراط في الغضب. ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ جمع خازن بمعنى الحافظ، والموكل بالشيء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ أصله: يخشيون، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح فالتقى ساكنان: الألف والواو، فحذفت الألف. ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ﴾ أصله: أسرروا بوزن أفعلوا، نقلت حركة الراء الأولى إلى السين فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. ﴿ذَلُولًا﴾ هو فعول بمعنى مفعول؛ أي: مذلّلة مسخرة منقادة لما تريدون، يقال: دابة ذلول بينة الذل؛ أي: الانقياد. وهو ضد الصعوبة، وفي «القاموس»: الذل بمعنى ضد الصعوبة بالضم والكسر والذل بمعنى الهوان بالضم فقط، والذلول فعول بمعنى فاعل، ولذا عرى عن علامة التأنيث مع أن الأرض مؤنث سماعي.

﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أصل ﴿امشوا﴾ امشيوا بوزن افعلوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت للتخفيف ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، وضمّت الشين لمناسبة الواو ضمّاً عارضاً، ولذلك عند الابتداء به يبدأ بهمزة وصل مكسورة؛ لأن ضم الحرف الثالث عارض غير أصليّ، والعارض لا يعتد به في غالب الأحوال. ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ المناكب: جمع منكب، وهو مجتمع رأس الكتف والعضد، يقال: تشابهت منهم المناكب والرؤوس؛ أي: ليس فيهم مفضَّل، قال الراغب: المنكب: مجتمع ما بين العضد والكتف، ومنه: استعير للأرض في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ كاستعارة الظهر لها في قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ انتهى، أو في جبالها وشبهت بالمناكب من حيث الارتفاع.

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ يقال: نشر الله الميت نشراً: أحياه بعد موته، ونشر الميت بنفسه نشوراً فهو يتعدى ولا يتعدى كرجعه رجعاً ورجع بنفسه رجوعاً إلا أنّ الميت لا يحيى بنفسه بدون إحياء الله تعالى؛ إذ هو محال.

﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ قال الجوهري: خسف المكان يخسف خسوفاً؛ ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسفاً: غاب به فيها. وفي «القاموس» أيضاً:

خسف الله بفلان الأرض: غيبه فيها. ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أصله: تمور بوزن تفعل، نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مدّ. قال في «القاموس»: المَوْر: الاضطراب والجريان على وجه الأرض والتحرك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ والطير يطلق على جنس الطائر، وهو كل ذي جناح يسبح في الهواء إما لكون جمعه في الأصل كركب وراكب أو مصدره جعل اسماً لجنسه، فباعتبار تكثره في المعنى وُصف بـ ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، وفي «المفردات»: إنه جمع طائر. ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ والصف: أن يجعل الشيء على خط مستو كالناس والأشجار ونحو ذلك، كما مرّ. ﴿جُندٌ لَّكُمْ﴾ والجند: جمع معد للحرب.

﴿لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أصله: لججوا بجيمين بوزن فعلوا، أدغمت الجيم الأولى في الثانية. والعتو: التجاوز عن الحد، أصله: عتوو بوزن فعول بضم الفاء، أدغمت واو فعول في الواو لام الكلمة، والنفور: الفرار.

﴿مُكِبًّا﴾ اسم فاعل من أكب الرباعي، وأصله: مكبب، نقلت حركة الباء الأولى إلى الكاف فسكنت فأدغمت في الباء الثانية، والمكب: الساقط على وجهه، يقال: كببته فأكب وانكب، وقيل: هو الذي يكب رأسه فلا ينظر يميناً ولا شمالاً ولا أماماً، فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه، فهو اسم فاعل من أكب اللازم المطاوع لكبه، يقال: كبّه الله على وجهه في النار فأكبّ؛ أي: سقط، وهذا على خلاف القاعدة في أنّ الهمزة إذا دخلت على اللازم تصيّره متعدّياً وهذه قد دخلت على المتعدي فصيرته لازماً. ﴿سَوِيًّا﴾ أصله: سوييا بوزن فعيل، أدغمت ياء فعيل في الياء لام الكلمة.

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ جمع فؤاد، قال في «القاموس»: من التفؤد، وهو التحرّك والتوقد، ومنه: الفؤاد للقلب مذكَّر، والجمع أفئدة انتهى. ﴿ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال في «القاموس»: ذرأ كـ ﴿جعل﴾: خلق، وذرأ الشيء: كثره، ومنه: الذرّيّة مثلثة لنسل الثقلين. ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من ساءه الشيء يسوؤه سوءاً ومساءة نقيض سره ثم بني للمفعول، وفي «القاموس»: ساءه فعل به ما يكره، فيكون متعدياً، ويجوز أن يكون لازماً بمعنى قبح، ومنه: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ وسيء إذا قبح. وأصل ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ سوىء بوزن فعل: مبني للمجهول، استثقل الانتقال من ضمة إلى

كسرة فنقلت كسرة الواو إلى السين فسكنت الواو إثر كسرة فقلبت ياءً، وهكذا كل فعل أجوف بني للمجهول، وكانت عينه واواً، وكذلك ما كانت عينه ياءً إلا أن هناك اختلافا يسيراً في التصريف. ﴿وَقِيلَ﴾ القول فيه كالقول في سِيْءَ.

﴿تَدَّعُونَ﴾ فيه إبدال تاء الافتعال دالا وإدغام الدّال فاء الكلمة فيها، فالأصل: تدتعيون، استثقلت الحركة على الياء فحذفت فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين وضمت العين لمناسبة الواو. ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وفي «القاموس»: أجاره إذا أنقذه وأعاذَهُ. ﴿غَوْرًا﴾ وهو مصدر وصف به؛ أي: غائراً في الأرض بالكلية ذاهباً ونازلاً فيها، يقال: غار الماء غوراً من باب قال إذا نضب، وفي المفردات: الغور: المنهبط من الأرض.

﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾؛ أي: ظاهر تتراءاه العيون، وأصله: معيون بوزن مفعول كمبيع أصله: مبيوع، فنقلت ضمة الياء إلى العين لتصح الياء، وقيل: هو من معن الماء؛ أي: كثر، فهو على هذا الاعتبار فعيل لا مفعول، والميم أصلية، أمّا على الأول فالميم زائدة؛ لأنّ الفعل عين. وصاحب القاموس يميل إلى الثاني، والراغب الأصفهاني إلى الأول.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: إسناد البركة إلى الموصول في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ للاستشهاد بما في حيّز الصلة على تحقّق مضمونها، والموصولات معارف، ولا شك أن المؤمنين يعرفونه بكون الملك بيده، وأمّا غيرهم فهم في حكم العارفين؛ لأنّ الأدلة القطعية لما دلت على ذلك كان في قوة المعلوم عند العاقل.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ وبين ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟﴾، وبين ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية التبعية في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾، حيث شبه حالهم في تكليفه تعالى إياهم بتكاليفه وخلق الموت والحياة لهم وإثابته لهم

وعقوبته بحال المختبر مع من جرَّبه واختبره، لينظر مدى طاعته أو عصيانه فيكرمه أو يهينه.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾؛ لأنّ مقتضى السياق أن يقال: في خلقه للإشعار بأنّه تعالى خلقها بقدرته القاهرة رحمةً وتفضلاً.

ومنها: زيادة ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ لتأكيد النفي. والمعنى: ما ترى فيه شيئاً من اختلاف واضطراب في الخلقة.

ومنها: الإطناب بتكرار الجملة مرتين زيادةً في التذكير والتنبيه في قوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾، ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، وكذلك قوله: ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

ومنها: تصدير الجملة بالقسم في قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾، حيث شبه الكواكب والنجوم بمصابيح، وحذف المشبه وأبقى المشبه به على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية؛ لأنَّ الناس يزينون مساجدهم ودورهم بإثقاب المصابيح، ولكنها مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءةً.

ومنها: تنكير ﴿مصابيح﴾ للتعظيم والتفخيم؛ أي: بكواكب مضيئة بالليل.

ومنها: إيراد الإلقاء في قوله: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾ دون الإدخال إشعاراً بتحقيرهم وكون جهنم سفلية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿شَهِيقًا﴾، حيث شبه صوت جهنم بصوت الحمار، لأنّ الشهيق حقيقةٌ في صوت الحمار.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾، حيث شبه هيجان جهنم بغليان القدر وفورانها.

ومنها: الاستعارة المكنية التبعية في قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، حيث شبه جهنم في شدّة غليانها ولهبها بإنسان شديد الغيظ والحنق على عدوه يكاد يتقطع من

شدّة الغيظ، وحذف المشبّه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الغيظ الشديد، بطريق الاستعارة المكنية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، حيث شبه اشتعال النار بهم في قوة تأثيرها فيهم وإيصال الضرر إليهم باغتياظ المغتاظ على غيره المبالغ في إيصال الضرر إليه، فاستعير اسم الغيظ لذلك الاشتعال استعارةً تصريحية أصلية وفي هذه الآية أيضاً فنُّ حسن الإتباع فقد جرى الشعراء على نهجها، فولعوا بإسناد أفعال من يعقل إلى ما لا يعقل.

ومنها: الاستفهام الإنكاري، للتقريع والتوبيخ في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، قابله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وهي من المحسّنات البديعية.

ومنها: الجمع بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها، مبالغة في الاعتراف وتحسراً على فوت سعادة التصديق وتمهيداً لبيان التفريط الواقع منهم.

ومنها: جمع ضمير الخطاب في قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ﴾ مع أنّ مخاطب كل فوج نذيره لتغليبه على أمثاله مبالغةً في التكذيب وتمادياً في التضليل كما ينبىء عنه تعميم المنزل في قوله: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ مع ترك ذكر المنزل عليه.

ومنها: تقديم السرّ على الجهر في قوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرون من أوّل الأمر، والمبالغة في بيان شمول علمه تعالى المحيط بجميع المعلومات، كأنّ علمه تعالى بما يسرّونه أقدم منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿ذَلُولًا﴾، شبّه الأرض المسخّرة للانتفاع بها بالدابّة المنقادة لراكبها بجامع السهولة في كلّ.

ومنها: استعارة المناكب للأرض في قوله: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾؛ لأنَّ المناكب جمع منكب حقيقة في الإنسان، فاستعير للجبال من الأرض بجامع الارتفاع في كلّ.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الخطاب إلى الغيبة، لإبراز الإعراض عنهم.

ومنها: الالتفات إلى الخطاب في قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ للتشديد في تبكيتهم وتعجيزهم.

ومنها: إيثار الرحمن في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ للدلالة على أنَّ رحمة الله هي المنجية من غضبه لا غير.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ للدلالة على عظمه وفحشه لكونه من جهة الشيطان.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿يَنصُرُكُم﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنّ الاسم الظاهر من قبيل الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم بالإعراض عنهم وبيان قبائحهم لغيرهم، وفيه أيضاً الإظهار في مقام الإضمار لذمّهم بالكفر وتعليل غرورهم به؛ لأنّ مقتضى السياق أن يقال: إنْ هم إلا في غرور.

ومنها: تخصيص الثلاثة المذكورة في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ بالذكر؛ لأنّ العلوم والمعارف بها تحصل كما مرّ.

ومنها: اختيار لفظ المضارع على الماضي في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ إمّا لأنّ المقصود بيان ما يوجد من الكفّار من هذا القول في المستقبل، وإمّا لأنّ المعنى: وكانوا يقولون.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾، حيث مثل للمؤمن والكافر. فالكافر أعمى لا يهتدي إلى الطريق بل يمشي متعسفاً فلا يزال يعثر وينكب على وجهه، والمؤمن صحيح البصر يمشي في طريق واضحة مستقيمة سالماً من العثور والخرور على وجهه، وهكذا تتجلى طريقة القرآن في التجسد.

ومنها: تخصيص الوجوه في قوله: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لكون الوجه هو الذي يظهر عليه أثر المسرَّة والمساءة.

ومنها: وضع الموصول فيه موضع ضميرهم لذمّهم بالكفر وتعليل المساءة به.

ومنها: إيراد صيغة المجهول في قوله: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ لكون المراد بيان القول لا بيان القائل.

ومنها: وضع الكافرين موضع ضميرهم في قوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ للتسجيل عليهم بالكفر وتعليل نفي الإنجاء به.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ لأنّ تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر.

ومنها: تكرير الأمر بـ ﴿قُلْ﴾ في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ...﴾ إلخ، وفي قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ...﴾ إلخ، لتأكيد المقول وتنشيط المقول له.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

١ ـ وصف السموات.

٢ ـ بيان أنّ نظام العالم لا عِوَج فيه ولا اختلاف.

٣ ـ وصف عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة.

٤ ـ التذكير بخلق الإنسان ورزقه وأشباه ذلك[1].

والله أعلم

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الملك، وصلّى الله وسلّم على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين. في الليلة الرابعة عشرة قبيل صلاة العشاء من شهر صفر من شهور سنة ألفٍ وأربع مئة وستّ عشرةَ (١٤/ ٢/ ١٤١٦) من الهجرة الشريفة، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة ن

سورة القلم، وتسمّى سورة نَ: مكيّة[1] في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. ورُوي عن ابن عباس وقتادة: أنّ من أولها إلى قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ مكيّ، وبعد ذلك إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ مدنيّ، وباقيها مكيّ أيضاً، كذا قال الماورديّ.

وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورةٍ بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما نزل من القرآن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، ثم ﴿نٓ﴾ ثمّ ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ثم ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. وأخرج النحّاس وابن مردويه، والبيهقي عنه قال: نزلت سورة ﴿نٓ﴾بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله.

وآيها: اثنتان وخمسون آيةً، وكلماتها: ثلاث مئة كلمة، وحروفها: ألف ومئتان وستة وخمسون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ أنه ذكر في آخر الملك تهديد المشركين بتغوير مائهم في الأرض، وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك. وهو ثمر البستان الذي طاف عليه طائف، فأهلكه وأهلك أهله وهم نائمون.

٢ ـ أنه ذكر فيما قبل أحوال السعداء والأشقياء، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع، وأنه لو شاء.. لخسف بهم الأرض أو أرسل عليهم حاصباً. وكان ما أخبر به هو ما أوحى به إلى رسوله وكان المشركون ينسبونه في ذلك مرّةً إلى الشعر وأخرى إلى السحر وثالثة إلى الجنون، فبرّأهُ الله في هذه السورة مما نسبوه إليه، وأعظم أجره على صبره على أذاهم، وأثنى على خلقه.

وعبارة أبي حيّان[3]: مناسبتها لما قبلها: أنّه سبحانه ذكر فيما قبلها أشياء من

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

أحوال السعداء والأشقياء، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع، وأنّه تعالى لو شاء.. لخسف بهم أو لأرسل عليهم حاصباً. وكان ما أخبر تعالى به هو ما تلقفه رسول الله ﷺ بالوحي، وكان الكفّار ينسبونه مرّةً إلى الشعر ومرّة إلى السحر ومرّة إلى الجنون. فبدأ سبحانه وتعالى هذه السورة ببراءته مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون وتعظيم أجره على صبره على أذاهم، وبالثناء على خلقه العظيم. انتهى.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة ﴿نٓ﴾ محكم كلّها إلا آيتين:

إحداهما: قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ نسخت بآية السيف.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ...﴾ الآية، نسخت أيضاً بآية السيف.

والله أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ
(٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ (٤) فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ
بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ
(٩) وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ (١١) مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلِّۭ بَعۡدَ
ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٥)
سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ (١٨)
فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ
حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ (٢٤) وَغَدَوۡاْ
عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا
تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا
كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ
كَانُواْ يَعۡلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمۡ كَيۡفَ
تَحۡكُمُونَ (٣٦) أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ (٣٩) سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ
صَٰدِقِينَ (٤١) يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ (٤٢) خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ
وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ (٤٣) فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا
يَعۡلَمُونَ (٤٤) وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ (٤٦) أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ
فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ (٤٧) فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ (٤٨) لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ
نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ (٤٩) فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ (٥٢)﴾.

المناسبة

قد تقدم قريباً بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، وقد بدأ سبحانه هذه السورة بأنّه أقسم بالقلم، وما يسطر به من الكتب، إنّ محمّداً الذي أنعم عليه بنعمة

النبوة، ليس بالمجنون كما تدّعون، وكيف يكون مجنوناً والكتب والأقلام أعدّت لكتابة ما ينزل عليه من الوحي؟. وقد أقسم سبحانه بالقلم والكتب فتحاً لباب التعليم بهما، ولا يقسم ربّنا إلا بالأمور العظام، فإذا أقسم بالشمس والقمر والليل والفجر، فإنّما ذلك لعظمة الخلق وجمال الصنع، وإذا أقسم بالقلم والكتب فإنما ذاك ليعم العلم والعرفان، وبه تتهذّب النفوس، وترقى شؤوننا الاجتماعية والعمرانية، ونكون كما وصف الله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ثم وعد رسوله بما سيكون له من جزيل الأجر على صبره على احتمال أذى المشركين، وأردف هذا بوصفه بحسن الخلق ورفقه بالناس امتثالاً لأمره ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن.

ثم هدد المشركين وتوعدهم بما سيَتَبَيَّنُ لهم من عاقبة أمره وأمرهم، وأنّه سيكون العزيز المهيب في القلوب وسيكونون الأذلاء، وأنه سيستولي عليهم ويأسر فريقاً منهم ويقتل آخر، وسيعلمون حينئذٍ من المجنون، والله هو العليم بالمجانين الذين ضلوا عن سبيله، والعقلاء الذين اهتدوا بهديه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر مقالة المشركين في الرسول بنسبته إلى الجنون مع ما أنعم الله به عليه من الكمال في الدين والخلق، أردفه بما يقوّي قلبه ويدعوه إلى التشدد مع قومه مع قلة العدد، وكثرة الكفار؛ إذ هذه السورة من أوائل ما نزل كما مرّ، فنهاهم عن طاعتهم عامةً. ثم أعاد النهي عن طاعة المكذبين الذين اتصفوا بالأخلاق الذميمة التي ذكرت في هذه الآيات خاصة دلالة على قبح سيرتهم، وضعة نفوسهم وتدسيتهم لها بعظيم الذنوب والآثام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف أن ذا المال والبنين كفر وعصى وتمرّد لما آتاه الله من النعم أردف هذا ببيان أنّ ما أوتيه إنما كان ابتلاء وامتحاناً، ليرى أيصرف ذلك في طاعة الله وشكره، فيزيد له في النعمة أم يكفر بها، فيقطعها عنه ويصبّ عليه ألوان البلاء والعذاب، كما أنّ أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعاصي دمَّر الله جنتهم، فما بالك بمن حاد الله ورسوله وأصر على الكفر والمعصية؟.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوه، وخالفوا أمره، أعقب هذا ببيان أن لمن اتقاه وأطاعه جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفنى في الدار الآخرة، ثم رد على من قال من الكفار: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد وأصحابه لم يفضلونا، بل نكون أحسن منهم حالاً؛ لأن من أحسن إلينا في الدنيا يحسن إلينا في الآخرة بأنكم كيف تسوون بين المطيع والعاصي فضلاً أن تفضلوا العاصي عليه؟.

ثم أخذ يقطع عليهم الحجة فقال: أتلقيتم كتاباً من السماء، فقرأتم فيه أنكم تختارون ما تشاؤون، وتكونون وأنتم مجرمون كالمسلمين الصالحين؟ أم أعطيناكم عهوداً أكّدناها بالإيمان فاستوثقتم بها، هي ثابتة لكم إلى يوم القيامة؟ أم لكم أناس يذهبون مذهبكم في هذا القول. وإن صح أن لكم ذلك فلتأتوا بهم يوم يشتد الأمر، ويصعب الخطب، وتدعونهم حينئذٍ إلى السجود فلا يستطيعون، وتكون أبصارهم خاشعة ذليلة وقد كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود وهم سالمون أصحاء، فيأبون كل الإباء.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ. . .﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا خوف الكفّار من هول يوم القيامة، خوفهم مما في قدرته من القهر، فقال لرسوله ﷺ مؤنباً لهم وموبخاً: خل بيني وبين من يكذب بهذا القرآن، فإني عالم بما ينبغي أن أفعل بهم، فلا تشغل قلبك بهم وتوكل عليَّ في الانتقام منهم،إنا سندنيهم من العذاب درجةً فدرجةً، ونورطهم فيه بما نوليهم من النعم، ونرزقهم من الصحة والعافية فتزداد معاصيهم من حيث لا يشعرون، فكلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها. ثم قال لرسوله: ماذا ينقمون منك؟ أأنت تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة يثقل عليهم فامتنعوا عن إجابة دعوتك؟ أم عندهم علم الغيب المكتوب في اللوح المحفوظ، فهم يكتبون منه ما يحكمون به؟ كلاً، لا هذا ولا ذاك، إذاً فالقوم معاندون فلم يبق إلا أن تصبر لحكم ربك، وقد حكم بإمهالهم، وتأخير نصرتك، وهم إن أمهلوا فلن يهملوا.

ثم نهى رسوله أن يكون كيونس عليه السلام حين غضب على قومه، فارقهم ونزل في السفينة، فابتلعه الحوت، ودعا ربه وقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهو مملوء غيظاً وحنقاً. ثم أخبر رسوله بأن الكافرين ينظرون إليه شزراً حين يسمعون منه القرآن، ويقولون حسداً على ما آتاه الله من النبوة: إنك لمجنون تنفيراً منه ومن دعوته. وما القرآن إلاّ عظة للجنّ والإنس جميعاً لا يفهمها إلا من كان أهلاً لها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾ سبب نزوله[1]: ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: إنه مجنون ثم شيطان، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ سبب نزوله: ما أخرجه أبو نعيم في الدلائل، والواحدي بسند رواه عن عائشة قالت: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته، إلا قال: لبيك، فلذلك أنزل الله سبحانه هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ سبب نزوله: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدّي قال: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق، وأخرج ابن المنذر عن الكلبيّ مثله، وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: نزلت في الأسود بن عبد يغوث، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: نزلت على النبيّ ﷺ ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١﴾ فلم نعرفه حتى نزل بعد ذلك ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ سبب نزوله: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن جريج أنّ أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً فاربطوهم في الحال، ولا تقتلوا منهم أحداً، فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ ...﴾ يقول في قدرتهم عليهم كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة.

---

(١) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿نٓ﴾؛ أي: هذه السورة[1] نون أو بحق ﴿نٓ﴾، وهي هذه السورة أقسم الله بها على سبيل التأكيد في إثبات الحكم الآتي على ما عليه عادة الخلق مع ما فيه من بيان شأن المقسم به، وإلا فكما أنه تعالى لا يليق القسم بشأنه العالي فكذا لا يصح لغيره أن يكون مقسماً به.

واختلف في معنى النون. قيل: إنه اسم لهذه السورة، وقيل: إنه مقتطع من اسمه تعالى الرحمن أو النصير أو الناصر أو النور، وقيل: اسم للحوت الذي جعل الله على ظهره الأرض، وقيل: المراد به الدواة التي يكتب بها، وقيل: اسم للقرآن. والأرجح كما مر غير مرة أنه من المتشابه الذي اختص الله بعلمه كسائر حروف الهجاء التي افتتح بها كثير من السور. وفي المراغي: إنَّ أرجح الآراء في معنى الحروف المقطعة التي وقعت في أوائل السور أنها حروف تنبيه، نحو: ألا وأما. وقرأ الجمهور أبو بكر، وورش، وابن عامر، والكسائي، وابن محيصن، وابن هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها في واو ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ بغنّة، وقوم بغير غنّة. وقرأ الباقون[2]: حمزة، وأبو عمرو، وابن كثير، وقالون، وحفص بالإظهار. وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحاق، والحسن، وأبو السمال، ونصر بكسر النون لالتقاء الساكنين، أو بإضمار حرف قسم.

وقرأ سعيد بن جبير، وعيسى بخلاف عنه بفتحها، فاحتمل أن تكون حركة إعراب بإضمار فعل. وقرأ محمّد بن السميفع وهارون بضمّها على البناء.

والواو في قوله: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ واو القسم، أقسم الله سبحانه بالقلم لما فيه من البيان، وهو واقع على كلّ قلم يكتب به. وقال جماعة من المفسرين: المراد به القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ، أقسم الله به تعظيماً له.

وفي «الخطيب»: تنبيه: في القلم المقسم به قولان:

أحدهما: أنَّ المراد به جنس القلم الشامل للأقلام التي يكتب بها في الأرض والسماء. قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾، لأنه ينتفع به كما

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

ينتفع بالمنطق قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾، فالقلم يبينك ما يبين اللسان في المخاطبة بالمكاتبة للغائب والحاضر، ولهذا قيل: القلم أحد اللسانين.

والثاني: أنه القلم الذي جاء في الخبر عن ابن عباس: «أول ما خلق الله القلم ثم قال له: اكتب، قال: ما أكتب، قال: اكتب ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: ثم ختم فم القلم فلم ينطق، ولا ينطق إلى يوم القيامة، وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض». وروى مجاهد: أول ما خلق الله تعالى القلم، قال: اكتب المقادير، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، وما يجري بين الناس، فهو أمر قد فرغ منه انتهى.

وقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ معطوف على القلم، و﴿ما﴾ موصول اسميّ، والواو عائد على أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره، لأنَّ ذكر آلة الكتابة يدل على الكاتب.

والمعنى: وبالكتاب الذي يسطره الكاتبون من الملائكة وغيرهم؛ أي: وبما تكتبه الملائكة في صحفهم التي يكتبون فيها المقادير التي تقع في العالم ينتسخون ذلك من اللوح المحفوظ، أو المراد به ما تكتبه الحفظة الموكلون ببني آدم من أعمالهم، كذا في القرطبي. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: وبسطرهم وكتابتهم. فأقسم أوّلاً بالقلم، ثم بسطر الملائكة أو بمسطورهم، فالمقسم به شيئان على ثلاثة أشياء: نفي الجنون عنه، وثبوت الأجر له، وكونه على دين الإسلام اهـ شيخنا.

والمعنى: أقسم بالقلم وبما يكتب به من الكتب. قال الزمخشري: ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه، ويكون الضمير في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ لهم، كأنّه قيل: أقسم بأصحاب القلم ومسطوراتهم أو تسطيرهم انتهى. فيكون كقوله تعالى: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾؛ أي: وكذا ظلمات، ولهذا عاد عليه الضمير في قوله: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾. وقيل: إن الضمير في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة وإجرائها مجرى العقلاء. كأنّه قيل: أقسم بالقلم وما يسطره القلم. والسطر: الصفّ

من الكتابة، ومن الشجر المغروس، ومن القوم الوقوف. وسطر فلان كذا؛ أي: كتبه سطراً سطراً. وعن بعض الحكماء[١]: قوام أمور الدين والدنيا بشيئين: القلم والسيف، والسيف تحت القلم لولا القلم ما قام دين ولا صلح عيش. قال بعضهم:

إن يَخْدُمِ ٱلْقَلَمُ ٱلسَّيْفَ ٱلَّذِيْ خَضَعَتْ ... لَـهُ الـرِّقَـابُ وَدَانَـتْ خَـوْفَـهُ ٱلأُمَـمُ
كَـذَا قَـضَـىٰ الـلَّـهُ لـلأقْـلاَمِ مُـذْ بُـرِيَـتْ ... أنَّ ٱلـسُّـيُـوفَ لَـهَـا مُـذ أُرْهِـفَـتْ خَـدَمُ

وقال بعضهم:

إِذَا أَقْـسَـمَ ٱلأَبْـطَـالُ يَـوْمـاً بِـسَـيْـفِـهِـمْ ... وَعَـدُّوهُ مِـمَّـا يَـجْـلِـبُ ٱلْـمَـجْـدَ وَٱلْـكَـرَمْ
كَـفَـىٰ قَـلَـمَ ٱلْـكُـتَّـابِ فَـخْـراً وَرِفْـعَـةً ... مَـدَىٰ ٱلـدَّهْـرِ أنَّ الله أَقْـسَـمَ بِـٱلْـقَـلَـمْ

وجواب القسم قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ ﴿مَآ﴾ نافية، و﴿أَنتَ﴾ اسمها، و﴿بِمَجْنُونٍ﴾ خبرها، والباء: في ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ متعلقة بمحذوف هو حال من الضمير في خبر ﴿مَآ﴾ وهو ﴿مجنون﴾، والعامل فيها معنى النفي، كأنّه قيل: انتفى عنك الجنون يا محمد، وأنت بريء منه متلبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرياسة العامة. والمراد تنزيهه عليه السلام عما كانوا ينسبونه إليه ﷺ من الجنون حسداً وعداوةً ومكابرةً مع جزمهم بأنه ﷺ في غاية الغايات من حصافة العقل، ورزانة الرأي، والجنون حائل بين النفس والعقل، كما سيأتي.

قال أبو حيّان[٢]: قوله: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ قسم اعترض به بين المحكوم عليه والحكم على سبيل التأكيد، والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذميم عنه ﷺ، وذهب إلى القسم أيضاً الشيخ نجم الدين في «تأويلاته». والمعنى؛ أي: وما أنت ونعمة ربك بمجنون. وقيل: النعمة هنا الرحمة، والآية رد على الكفار حيث قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

ومعنى الآية: أنك لست بالمجنون كما يزعمون، فقد أنعم الله عليك بالنبوة وحصافة العقل وحسن الخلق.

ثم بين بعض نعمه عليه، فقال:

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

١ ـ ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا محمد بمقابلة مقاساتك ألوان الشدائد من جهتهم وتحملك لأعباء الرسالة ﴿لَأَجْرًا﴾؛ أي: لثواباً عظيماً. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع ولا منقوص مع عظمه، كقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. ومنه قيل: المنون للمنيَّة؛ لأنها تنقص العدد، وتقطع المدد، يقال: مننت الحبل إذا قطعته. وقال مجاهد: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير محسوب. وقال الحسن: غير مكدَّر بالمن. وقال الضحاك: أجراً بغير عمل. وقيل: غير مقدر، وقيل: غير ممنون به عليك من جهة الناس. ويقال: أجر النبي مثل أجر الأمة قاطبة غير منقوص. وقال بعضهم: أجره قبول شفاعته، وهي غير منقطعة عن أهل الكبائر من أمّته، لا يخيب الله رجاءه ﷺ في غفرانهم جميعاً بلا عتاب ولا عذاب.

والمعنى: أي وإنّ لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على الأذى ومقاساة الشدائد.

٢ ـ ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: إنك على طبع كريم. قال الماوردي: وهذا هو الظاهر. وحقيقة الخلق في اللغة: ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب؛ أي: خلقت على خلق عظيم لا يدرك شأوه أحد من الخلق، ولذلك تحتمل من جهتهم ما لا يكاد يحتمله البشر. قال بعضهم: لكونك متخلقاً بأخلاق الله وأخلاق كلامه القديم ومتأيّداً بالتأييد القدسي، فلا تتأثر بافترائهم، ولا تتأذى بأذاهم، إذ بالله تصبر لا بنفسك، كما قال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، ولا أحد أصبر من الله. وكلمة ﴿على﴾ للاستعلاء فدلت على أنه ﷺ مشتمل على الأخلاق الحميدة، ومستول على الأفعال المرضية حتى صارت بمنزلة الأمور الطبيعية له، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾؛ أي: لست متكلفاً فيما يظهر لكم من أخلاقي، لأنّ المتكلف لا يدوم أمره طويلاً بل يرجع إليه الطبع. وقد ثبت في «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها: أنها سئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن، أرادت به أنه ﷺ كان متحلياً بما في القرآن من مكارم الأخلاق ومحاسن الأوصاف، ومتخلّياً عما يزجر عنه من السيئات وسفاسف الخصال. وقد جمع الله سبحانه وتعالى فيه ما كان متفرّقاً في غيره من الأنبياء، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ اقْتَدِهْ﴾. فهذه درجة عالية لم يتيسر لأحد من الأنبياء عليهم السلام، فلا جرم وقد وصفه الله تعالى بكونه على خلق

عظيم، كما قال بعضهم:

لِكُلِّ نَبِيٍّ فِي ٱلأَنَامِ فَضِيْلَةٌ وَجُمْلَتُهَا مَجْمُوْعَةٌ لِمُحَمَّدِ

وهذه الجملة والتي قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم.

والمعنى: وإنَّك يا محمد قد بَرأك الله سبحانه وتعالى على الحياءِ والكرم، والشجاعة والصفح، والحلم، وكل خلق كريم. روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفّ قطّ، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته». وروى أحمد عن عائشة رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قطّ، ولا ضرب امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قطّ، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خير بين شيئين قطّ إلا كان أحبهما إليه أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلاّ أن تنتهك حرمات الله فينتقم له.

وفي الآية: رمز إلى أنّ الأخلاق الحسنة لا تكون مع الجنون، وكلما كان الإنسان أحسن أخلاقاً كان أبعد من الجنون.

ثم توعدهم بما يحل بهم من النكال، والوبال في الدنيا والآخرة فقال: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ يا محمد ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ أي[1]: ويبصر الكفّار إذا تبيّن الحقّ وانكشف الغطاء، وذلك يوم القيامة. يقال: أبصرته وبصرت به: علمته وأدركته، فالمعنى: فستعلم يا محمد، ويعلمون يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل.

وقال الفاشاني: فستبصر ويبصرون عند كشف الغطاء بالموت. وقال قتادة: هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر، والمعنى: سترى ويرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر بأيّكم المفتون. وهذا هو الأوضح. ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾؛ أي: أيّكم الذي ابتلي بفتنة الجنون. ﴿فأيّكم﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ بمعنى المجنون خبره، والباء مزيدة في المبتدأ كما في بحسبك درهم. وقيل: الباء: ليست زائدة، والمفتون مصدر بمعنى الفتون، وهو الجنون، جاء على وزن مفعول كالمعقول والميسور والمجلود بمعنى العقل كما في قوله:

---

(١) روح البيان.

حَـتَّـىٰ إِذَا لَـمْ يَـتْـرُكُـوْا لِـعِـظَـامِـهِ   لَـحْـمَـاً وَلاَ لِـفُـؤَادِه مَـعْـقُـولاً

أي: عقلاً. والجلادة واليسر. وعلى هذا الباء إما للإلصاق نحو قولهم: به داء؛ أي: بأيّ الفريقين منكم المجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين؛ وقال الفرّاء: إنَّ الباء بمعنى في، والمفتون بمعنى المجنون مبتدأ مؤخّر. أي: في أيّكم المفتون أفي الفريق الذي أنت فيه أم في الفريق الآخر؟. ويؤيد هذا قراءة ابن أبي عبلة ﴿في أيكم المفتون﴾. وقال الأخفش: الكلام على حذف مضاف؛ أي: بأيكم فتن المفتون، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: المفتون: المعذب من قول العرب: فتنت الذهب بالنار إذا أحميته، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾. وقيل: المفتون هو الشيطان، لأنّه مفتون في دينه، والمعنى: بأيّكم المفتون، والأمة داخلة في خطاب ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ بالتبعية، لا يختص به ﷺ، وهو تعريض لصناديد قريش كأبي جهل وأضرابه.

والمعنى[1]: فستعلم أيها الرسول وسيعلم مكذّبوك من المفتون الضال منكم ومنهم؟. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: أصالح عليه السلام أم قومه؟ وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

والخلاصة: ستبصر ويبصرون غلبة الإسلام واستيلاءك عليهم بالقتل والأسر، وهيبتك في أعين الناس أجمعين، وصيرورتهم أذلاء صاغرين. وهذا يشمل ما كان في بدر وغيرها من الوقائع التي كان فيها النصر المبين للمؤمنين، والخزي والهوان وذهاب صولة المشركين مما كان عبرة ومثلاً للآخرين.

ثم أكد ما تضمنه الكلام السابق من الوعد والوعيد، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ. . .﴾ إلخ. وهذه الجملة تعليل للجملة التي قبلها، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم في العاجل والآجل، واختيارهم ما فيه ضررهم فيهما.

والمعنى: أي إنّ ربك يا محمد هو وحده أعلم ﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ سبحانه الذي هو التوحيد الموصل إلى سعادة الدارين، وهام في تيه الضلال متوجهاً

---

(١) المراغي.

إلى ما يفضيه إلى الشقاوة الأبدية. وهذا هو المجنون الذي لا يفرق بين النفع والضر، بل يحسب الضر نفعا فيؤثره والنفع ضرّاً فيهجره. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلى سبيله الموصلة إلى السعادة العاجلة والآجلة، الفائزين بكل مطلوب الناجين من كلّ محذور. وهم العقلاء المراجيح، فيجزي كلّاً من الفريقين حسبما يستحقه من العقاب والثواب، وإعادة ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ لزيادة التقرير. وفي[1] الآية إشعار بأنّ المجنون في الحقيقة هو العاصي لا المطيع.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما تقدم لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: لا تطع المكذبين؛ أي: دم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم فيما يدعونك إليه من الكفّ عنهم ليكفّوا عنك، وتصلب في ذلك. نهاه سبحانه عن ممايلة المشركين، وهم رؤساء كفار مكة؛ لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائهم، فنهاه الله عن طاعتهم. أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفّار. أو المراد بالطاعة مجرّد المداراة بإظهار خلاف ما في الضمير. فنهاه الله عن ذلك، كما يدل عليه قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾؛ أي: أحبوا لو تلاينهم وتسامحهم في بعض الأمور وترك الدعوة إلى الله سبحانه ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾؛ أي: فهم يداهنونك حينئذٍ ويلاينونك، ويسامحونك بترك الطعن في دينك، وترك رميك بالجنون والكهانة والسحر، فإنَّ الإدهان هو الملاينة والمسامحة والمداراة، كذا قال الفرّاء والكلبي. وقال الضحاك والسدّي: ودّوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر. وقال الربيع بن أنس: ودّوا لو تكذب فيكذبون. وقال قتادة: ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك. وقال الحسن[2]: ودّوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك. وقال مجاهد: ودّوا لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحقّ فيما يلونك. قال ابن قتيبة: كانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مدّة، ويعبدوا الله مدة. و﴿لو﴾ مصدرية؛ أي: ودّوا ادهانك فهم الآن يدهنون لطمعهم في إدهانك. والفاء في ﴿يدهنون﴾ للعطف على ﴿تُدْهِنُ﴾، فيكون ﴿يدهنون﴾ داخلاً في حيّز ﴿لو﴾، ولذا لم ينصب ﴿يدهنون﴾ بسقوط النون جواباً للتمنّي. قال سيبويه: وزعم قالون أنّها في بعض المصاحف ﴿ودّوا لو تدهن

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

فيدهنوا﴾ بدون نون، والنصب على جواب التمنّي المفهوم من ﴿وَدُّوا﴾.

وقال بعضهم: المعنى[1]: لا توافقهم في الظاهر كما لا توافقهم في الباطن. قال: موافقة الظاهر أثر موافقة الباطن وكذا المخالفة، وإلا كان نفاقاً سريع الزوال ومصانعة وشيكة الانقضاء، وأما هم فلانهماكهم في الرذائل وتعمقهم في التلون والاختلاف لتشعب أهوائهم، وتفرق أمانيهم يصانعون، ويضمون تلك الرذيلة إلى رذيلتهم طمعاً في مداهنتك معهم، ومصانعتك إيّاهم. قال بعضهم[2]: المداهنة يبيع الدين بالدنيا فهي من السيئات، والمداراة يبيع الدنيا بالدين فهي من الحسنات. ويقال: الإدهان: الملاينة لمن لا ينبغي له ذلك، وهو لا ينافي الأمر بالمداراة كما قال ﷺ: «أمرت بمداراة الناس كما أمرت بالتبليغ». وفرّق الإمام الغزالي بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء. فإن أغضيت لسلامة دينك، ولِمَا ترى فيه من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار، وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنا لنبشّ في وجوه أقوامٍ وإنّ قلوبنا لتلعنهم. وهذا معنى المداراة، وهو مع من يخاف شره.

ومعنى الآية: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾؛ أي: دم على ما أنت عليه من عدم طاعة المكذّبين عامّةً، وتشدد في ذلك. وفي هذا النهي إيماء إلى النهي عن مداراتهم، ومداهنتهم استجلاباً لقلوبهم وجذباً لهم إلى اتباعه. ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾؛ أي: ودَّ المشركون لو تلين لهم في دينك بالركون إلى آلهتهم فيلينون لك في عبادة إلهك. روى: أنَّ رؤساء مكة دعوه إلى دين آبائه، فنهاه عن طاعتهم.

وخلاصة ذلك[3]: ودّوا لو تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلون مثل ذلك، ويتركون بعض ما لا ترضى، فتلين لهم ويلينون لك، وترك بعض الدين أو كله كفر بواح. والمراد من هذا النهي التهييج والتشدّد في المخالفة، والتصميم على معاداتهم. ونحو الآية قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

ثم خص من هؤلاء المكذبين أصنافاً هانت عليهم نفوسهم، فأفسدوا فطرتها تشهيراً بهم، فقال:

١ ـ ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾؛ أي: ولا تطع يا محمد المكثار من الحلف في الحق، وفي الباطل لجهله حرمة اليمين وعدم مبالاته من الحنث لسوء عقيدته، الكاذب الذي يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترىء بها على الله ضعفه ومهانته أمام الحق، وتقديم هذا الوصف على سائر الأوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه أدخل في الزجر. قال في «الكشاف»: وكفى به مزجرةً لمن اعتاد الحلف، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ انتهى. ودخل[1] فيه الحلف بغير الله تعالى، فإنه من الكبائر. وأصل الحلف: اليمين الذي يأخذ بعضهم من بعض بها الحلف؛ أي: العهد. ثم عبر بها عن كل يمين.

٢ ـ ﴿مَّهِينٍ﴾ فعيل من المهانة، وهي القلّة والحقارة؛ أي: حقير الرأي والتدبير؛ لأنَّه لا يعرف عظمة الله سبحانه، ولذا أقدم على كثرة الحلف. ويجوز أن يراد به الكذّاب؛ لأنّه حقير عند الناس. والكذب أس كل شر ومصدر كل معصية.

٣ ـ ﴿هَمَّازٍ﴾؛ أي؛ عياب طعان مغتاب للناس، وهو مبالغة هامز من الهمز، وهو الضرب والطعن والكسر والعيب، فاستعير للمغتاب الذي يذكر الناس بالمكروه ويظهر عيوبهم ويكسر أعراضهم، كأنّه يضربهم بأذاه إيَّاهم. وقيل[2]: الهمَّاز الذي يذكر الناس في وجوههم، واللماز الذي يذكرهم في مغيبهم، كذا قال أبو العالية والحسن، وعطاء بن أبي رباح. وقال مقاتل عكس هذا. قال الحسن: يلوي شدقيه في أقفية الناس. وفي الحديث: «لا يكون المؤمن طعّاناً ولا لعّاناً، وفي حديث آخر: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس». يعني: من ينظر إلى عيب نفسه، فيكون ذلك مانعاً له عن النظر إلى عيب غيره وتعييبه به، وذلك لا يقتضي أن لا ينهى العاصي عن معصيته اقتداءً بأمر الله تعالى بالنهي عن المنكر لا إعجاباً بنفسه وازدراء لقدر غيره عند الله تعالى.

٤ ـ ﴿مَّشَّآءِ﴾ أي: ساع بين الناس ﴿بِنَمِيمٍ﴾؛ أي: بنميمة. والنميم كالنميمة:

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

نقل كلام الناس من بعضهم إلى بعض على وجه الإفساد، وهو من الكبائر. ومنه: قول الشاعر:

وَمَولَى كَبَيْتِ ٱلنَّمْلِ لاَ خَيْرَ عِنْدَهُ ... لِمَوْلاَهُ إلاَّ سَعْيُهُ بِنَمِيْمِ

والمعنى: أي نقّال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم. أمّا[1] نقل الكلام بقصد النصيحة فواجب كقول من قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾. وفي الحديث: «لا يدخل الجنة نمام».

٥ ـ ﴿مَّنَّاعٍ﴾ مبالغة مانع ﴿لِّلْخَيْرِ﴾؛ أي: بخيل بالمال، والخير: المال؛ أي: بخيل بماله ممسك له لا يجود به لدى البأساء والضرّاء، فهو لا يدفع عوز المعوزين، ولا يساعد المحتاجين، ولا ينجد الأمّة إذا حزبها الأمر، وضاقت بها السبل كدفع عدوٍّ يهاجم البلاد أو دفع كارثة نزلت بها تحتاج إلى بذل المال. أو منّاع للناس من الخير الذي هو الإيمان، والطاعة. وكان للوليد بن المغيرة عشرة من البنين، وكان يقول لهم ولأقاربه: من تبع منكم دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً. وكان الوليد موسراً له تسعة آلاف مثقال فضة، وكانت له حديقة في الطائف.

٦ ـ ﴿مُعْتَدٍ﴾؛ أي: متجاوز لما حدّه الله سبحانه من أوامر ونواه. فهو يخوض في الباطل خوضه في الحقّ، ولا يتحرج عن ارتكاب المآثم والمظالم، وفي «التأويلات النجمية»: متجاوز في الظلم على نفسه بانغماسه في بحر الشهوات، وانهماكه في ظلمة المنهيات.

٧ ـ ﴿أَثِيمٍ﴾؛ أي: كثير الآثام، ديدنه ذلك، فهو لا يبالي بما ارتكب ولا بما اجترح، وفي «التأويلات النجمية»: كثير الآثام بالركون إلى الأخلاق الرديئة والرغبة في الصفات المردودة.

٨ ـ ﴿عُتُلٍّ﴾؛ أي: جاف غليظ القلب، يعامل الناس بالغلظة والفظاظة. من عتله إذا قاده بعنف وغلظة. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: هو بعد ما عدّ من مقابحه ومعايبه ﴿زَنِيمٍ﴾؛ أي: دعي ملصق بالقوم وملحق بهم بالنسب، وليس منهم. فالزنيم هو الذي تبنّاه أحد؛ أي: اتخذه ابنا وليس بابن له من نسبه في الحقيقة، قال تعالى:

---

(١) روح البيان.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ﴾. قال الراغب: الزنيم والمزنّم: الزائد في القوم، وليس منهم؛ أي: المنتسب إلى قوم، وهو معلّق بهم لا منهم تشبيهاً بالزنمتين من الشاة، وهما المتدلّيتان من أذنها ومن الحلق. وفي «الكشاف»: الزنيم من الزنمة، وهي الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلى معلقة في حلقها؛ لأنه زيادة معلقة بغير أهله. والظاهر من قول ابن عباس رضي الله عنهما الحقيقة حيث قال: إنه لم يعرف حتى قيل: زنيم فعرف أنه كان له زنمة في حلقه. ويقال: كان يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها. وقال مجاهد: كانت له ستة أصابع في يده في كل إبهام إصبع زائدة. والظاهر: أنّ هذه الأوصاف ليست لمعين. قال العتيبيُّ: لا نعلم أن الله سبحانه وصف أحداً، ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً. وفي قوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ دلالة على أن دعوته أشد معايبه وأقبح قبائحه. وكان الوليد دعيًّا في قريش، وليس من نسبهم وسنخهم؛ أي: أصلهم. ادعاه أبوه المغيرة بعد ثماني عشرة سنة من مولده. وقيل: بغت أم الوليد ولم يعرف، حتى نزلت هذه الآية. فمعنى ﴿زَنِيمٍ﴾ حينئذٍ: ولد الزنا. قال الشاعر:

زَنِـيْـمٌ لَـيْـسَ يُـعْـرَفُ مَـنْ أَبُـوهُ ... بَـغِـيُّ ٱلأُمِّ ذُو حَـسَـبٍ لَـئِـيْـمُ

وقال سعيد بن جبير: الزنيم: المعروف بالشرّ. وقيل: هو رجل من قريش، كان له زنمة كزنمة الشاة. وقيل: هو الظلوم. وقيل: نزلت الآية في الأخنس بن شريق، واسمه أبيّ، وكان ثقفياً مصطلقيًا في قريش، فلذلك قال: زنيم لا على جهة الذمّ لنسبه، ولكن على جهة التعريف به، ذكره السهيلي. قال ابن عطية: وظاهر اللفظ عموم من بهذه الصفة، والمخاطبة بهذا مستمرّة باقي الزمن لا سيّما لولاة الأمور. فقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ههنا نظير ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من حيث إنها للتراخي رتبة.

ثم هذا الترتيب إنما هو في قول الواصف لا في حصول تلك الصفات في الموصوف، وإلا فكونه عتلاً هو قبل كونه صاحب خير يمنعه. وفي «برهان القرآن»: قوله: ﴿حَلَّافٍ﴾ إلى قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾ أوصاف تسعة، ولم يدخل بينها واو العطف، ولا بعد السابع، فدل على أن ضعف القول بواو الثمانية صحيح. وقرأ الحسن ﴿عتل﴾ برفع اللام على الذمّ، والجمهور بجرّها.

ثم ذكر بعض ما ربما دعاه إلى طاعتهم، فقال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ على تقدير الجار؛ أي: لا تطع يا محمد من هذه مثالبه ومعايبه، لأنه كان مشمولاً ذا مال كثير مستظهراً بالبنين؛ أي: لا تطعه من جراء ماله وكثرة أولاده وتقويه بهم، فإن ذلك لا يجديه نفعاً عند ربه، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر، والمغيرة، وأبو حيوة ﴿آن كان﴾ بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام. وقرأ حمزة وأبو بكر والمفضل ﴿أأن كان﴾ بهمزتين مخففتين. وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر. وعلى قراءة الاستفهام يكون المراد به التوبيخ والتقريع، حيث جعل شكر نعمة الله الكفر به وبرسوله. وقرأ نافع في رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط.

ثم ذكر سبب النهي عن طاعته، فقال: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ استئناف جار مجرى التعليل للنهي؛ أي: إذا تقرأ عليه آيات كلامنا القديم. يعني: القرآن ﴿قَالَ﴾ ذلك الحلاف المهين هي ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: أحاديث لا نظام لها، اكتتبها الأقدمون كذباً فيما زعموه لقوله تعالى: ﴿ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾. قال السدي: أساجيع الأوّلين؛ أي: جعل مجازاة النعم التي خولناها من المال والبنين، وشكرها الكفر بآياتنا. قال المبرد: الأساطير جمع أسطورة نحو: أحدوثة وأحاديث.

والمعنى: أي إذا تلي عليه القرآن قال: ما هو إلا من كلام البشر، ومن قصص الأولين التي دونت في الكتب، وليس هو من عند الله تعالى.

وبعد أن ذكر قبائح أفعاله توعده، فقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: سنجعل له سمةً وعلامةً يعرف بها بالكيّ على أكرم مواضعه لغاية إهانته وإذلاله. وأصل[1] ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ سنوسمه، كما سيأتي. من الوسم، وهو إحداث السمة بالكسر؛ أي: العلامة بالميسم، والميسم بالكسر: المكواة؛ أي: آلة الكيّ. والخرطوم كزنبور: الأنف أو مقدمه. وفي التعبير عن الأنف بلفظ الخرطوم استهانة بصاحبه واستقباح له، لأنّه لا يستعمل إلاّ في الفيل والخنزير، وكلما كان الحيوان أخبث وأقبح كانت

---

(١) روح البيان.

الاستهانة والاستقباح أشد وأكثر. قيل: أصاب أنف الوليد جراحة يوم بدر، فبقيت علامتها. قال صاحب «الكشف»: هو ضعيف، فإنّ الوليد مات قبله فلم يوسم بوسم بقي أثره مدة حياته.

والمراد: أنّا سنبين أمره بياناً واضحاً حتى لا يخفى على أحد كما لا يخفى ذو السمة على الخرطوم. وفي هذا إذلالٌ ومهانة له؛ لأنّ السمة على الوجه شين، فما بالك بها في أكرم موضع؟ وهو الأنف الذي هو مكان العزّة والحمية والأنفة، ومن ثم قالوا: الأنف في الأنف، وقالوا: حمي أنفه، وقالوا: هو شامخ العرنين. وعلى عكسه قالوا في الذليل: جدع أنفه ورغم أنفه. قال جرير:

لـمَّـا وَضَـعْـتُ عـلـى ٱلْـفَـرَزْدَقِ مَـيْـسِـمِـيْ   وَعَـلَـىٰ ٱلْـبُـعَـيْـثِ جَـدَعْـتُ أَنْـفَ ٱلأَخْـطَـلِ

وفي التعبير بلفظ الخرطوم، استخفاف به؛ لأنّه لا يستعمل إلا في الفيل والخنزير، كما مرّ. وفي استعمال أعضاء الحيوان للإنسان كالمشفر للشفة، والظلف للقدم دلالة على التحقير كما لا يخفى.

والخلاصة: سنذله في الدنيا غاية الإذلال، ونجعله ممقوتاً مذموماً مشهوراً بالشرّ، ونسمُهُ يوم القيامة على أنفه ليعرف بذلك كفره وانحطاط درجته؛ أي: سنُعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يعلم بها من سائر الكفرة بأن نسود وجهه غاية التسويد، إذ كان بالغاً في عداوة سيد المرسلين عليه وعليهم السلام أقصى مراتب العداوة. فيكون الخرطوم مجازاً عن الوجه على طريق ذكر الجزء وإرادة الكلّ.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: إنّا نحن ابتلينا وامتحنا كفار مكة بالقحط والجوع. والابتلاء: الاختبار. وهذا كلام مرتب على محذوف تقديره: أعطينا أهل مكة الأموال ليشكروا لا ليبطروا، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط سبع سنين بدعوة رسول الله ﷺ حتى أكلوا الجيف والجلود والعظام والدم لتمردهم وكفرانهم نعم الله تعالى. ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي[1]: ابتلاء مثل ابتلاء أصحاب الجنة المعروف. خبرها عندهم، واللام في الجنة للعهد، والكاف في موضع النصب على أنها نعت لمصدر محذوف، و﴿ما﴾ مصدرية. والجنة: البستان، وأصحاب الجنة: قوم من

(١) روح البيان.

أهل صنعاء اليمن، وذلك أنّها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدي حقَّ الله منها، فمات وصارت إلى أولاده فمنعوا الناس خيرها، وبخلوا بحق الله فيها. قال الواحدي: هم قوم من ثقيف، كانوا باليمن مسلمين، ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزروع ونخيل، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظّاً للمساكين عند الحصاد والصرام، فقال بنوه: المال قليل والعيال كثير، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا، وعزموا على حرمان المساكين، فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله سبحانه في كتابه. قال الكلبي: كان بينهم وبين صنعاء فرسخان، ابتلاهم الله تعالى أن حرق جنتهم. وقيل: هي جنة كانت بصوران وصوران على فراسخ من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير.

وقوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ وحلفوا. ظرف لبلونا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾؛ أي: والله ليصرمن ثمارها من الرطب والعنب، ويقطعنها، ويجمعن محصولها من الزرع وغيره ﴿مُصْبِحِينَ﴾؛ أي: حال كونهم داخلين في الصباح مبكرين إليها، وسواد الليل باق. و﴿يصرمنها﴾ جواب القسم، و﴿مُصْبِحِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يصرمنها﴾ وجاء جواب القسم على خلاف منطوقهم، ولو جاء على منطوقهم.. لقيل: لنصرمنها بنون التكلم. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ⑱﴾؛ أي: لا يقولون: إن شاء الله. وتسميته استثناء مع أنه شرط من حيث إن مؤداه مؤدى الاستثناء، فإن قولك: لأخرجن إن شاء الله، ولا أخرج إلا إن شاء الله بمعنى واحد، والجملة مستأنفة، أو حال بعد حال.

والأظهر أنَّ المعنى[1]: ولا يستثنون حصة المساكين، أي: لا يميزونها ولا يخرجونها كما يفعله أبوهم. وقال أبو حيان: ولا يثنون عما عزموا عليه من منع المساكين، ولعل إيراد الاستثناء بعد إيراد إقسامهم على فعل مضمر لمقصودهم مستنكر عند أرباب المروءة، وأصحاب الفتوة لتقبيح شأنهم بذكر السببين لحرمانهم، وإن كان أحدهما كافياً فيه، لكن ذكر الإقسام على أمر مستنكر أولاً، وجعل ترك الاستثناء حالاً منه ثانياً يفيد أصالته وقوته في اقتضاء الحرمان.

ومعنى الآية[2]: أنّا امتحنا كفار مكة بما تظاهر عليهم من النعم والآلاء وما رحمناهم به من واسع العطاء لنرى حالهم أيشكرون هذه النعم، ويؤدون حقها

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وينيبون إلى ربهم ويتبعون الداعي لهم إلى سبيل الرشاد؛ وهو الرسول ﷺ الذي بعثناه لهم هادياً وبشيراً ونذيراً، أم يكفرون به ويكذبونه فيجحدون حق الله عليهم فيبتليهم بعذاب من عنده، ويبيد تلك النعم جزاء كفرانهم وجحودهم كما اختبرنا أصحاب ذلك البستان الذين منعوا حق الله فيه، وعزموا على أن لا يؤدوا زكاته لبائس ولا فقير، فحق عليهم من الجزاء ما هم له أهل. ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾... إلخ؛ أي: حين حلفوا ليجدُّن ثمرها غدوة حتى لا يعلم بهم سائل ولا فقير فيتوافر لهم ما كان يأخذه هؤلاء الفقراء، ولم يثنوا عما همُّوا به.

ثم أخبر سبحانه عما جازاهم لكفرانهم بهذه النعم ومنعهم حق الفقراء فقال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على تلك الجنة؛ أي: أحاط بها ﴿طَآئِفٌ﴾؛ أي: بلاء طائف كقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾. وذلك إذ لا يكون الطائف إلا بالليل، وأيضاً دل عليه ما بعده من ذكر النوم. وكان ذلك الطائف ناراً نزلت من السماء، فأحرقتها. وقيل: الطائف جبريل اقتلعها. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: مبتدىء من جهته تعالى. قال الراغب: الطوف: الدّوران حول الشيء، ومنه: الطائف لمن يدور حول البيت حافظاً، ومنه: استعير الطائف من الجن والحبال والخادم وغيرها. قال تعالى: ﴿فَطَافَ﴾ إلخ، تعريضاً بما نالهم من النائبة انتهى. ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ في محل نصب على الحال؛ أي: وهم[1] غافلون عما جرت به المقادير، أو غافلون عن طوافه بالنوم الذي هو أخو الموت. والنوم: استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، أو أن يتوفى الله النفس من غير موت؛ أي: أن يقطع ضوء الروح عن ظاهر الجسد دون باطنه، أو النوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل. وكلّ هذه التعريفات صحيحة. ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾؛ أي: فصارت تلك الجنة بالاحتراق ﴿كَالصَّرِيمِ﴾؛ أي: شبيهة بالبستان الذي صرمت وقطعت ثماره بحيث لم يبق منها شيء؛ لأنَّ النار السماوية أحرقتها، أو صارت كالليل في اسودادها، لأنّ الليل يقال له: الصريم؛ أي: صارت سوداء كالليل لاحتراقها، أو كالنهار في ابيضاضها من فرط اليبس، والصريم فعيل بمعنى مفعول.

والمعنى[2]: فطرق تلك الجنة طارق من أمر الله ليلاً، وهم نيام، إذ أرسل

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

عليها صاعقة فاحترقت وصارت تشبه الليل البهيم في السواد. أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إيّاكم والمعصية، فإنّ العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل، وإنّ العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيّء له، ثم تلا ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾... الآية. قد حرموا خير جنتهم بذنبهم».

﴿فَتَنَادَوْا﴾؛ أي: نادى بعضهم بعضاً حال كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾؛ أي: داخلين في الصباح ﴿أَنِ اغْدُوا﴾؛ أي:[1] أنّ اغدوا وبكروا على أن ﴿أَنِ﴾ مفسرة؛ لأنَّ في التنادي معنى القول، أو بأن اغدوا وبكّروا على أنّها مصدرية؛ أي: اخرجوا غدوة وأول النهار. ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ وبستانكم وضيعتكم والمراد بالحرث: الثمار والزروع. يقول الفقير: فالحرث يجوز أن يراد به الحاصل مطلقاً، وأن يراد به الزرع خصوصاً؛ لأنّه أعزُّ شيء يعيش به الإنسان. وتعدية الغدو بعلى لتضمنه معنى الإقبال والاستيلاء. وقال بعضهم: إنه يتعدى بعلى كما في «القاموس»: غدا عليه غدوّاً وغدوة بالضم واغتدى: بكر. قال الراغب: الحرث: إلقاء البذر في الأرض وتهيئتها للزرع، ويسمى المحروث: حرثاً. قال تعالى: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾؛ أي: قاصدين للصرم وقطع الثمرة، وجمع المحصول. وجواب الشرط محذوف؛ أي: إن كنتم صارمين فاغدوا. وقيل: معنى ﴿صَارِمِينَ﴾ ماضين في العزم من قولهم: سيف صارم.

والمعنى[2]: فنادى بعضهم بعضاً عند طلوع الفجر؛ أي: هلموا واذهبوا إلى الثمار والزروع والأعناب فاصرموها؛ إن كنتم قاصدين للصرم، ولا تخبروا المساكين. وقد أحكموا التدبير، وأخذوا الأمر جد الخفية حتى لا يستمع لهم أحد، كما قال: ﴿فَانطَلَقُوا﴾؛ أي: فمضوا وذهبوا إلى جنتهم وحرثهم ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال أنّهم ﴿يَتَخَافَتُونَ﴾ ويسرون الكلام بينهم؛ لئلا يعلم أحد بهم. وقيل[3]: المعنى: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد. والأوّل أولى لقوله: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.

المساكين فضلاً عن أن يكثروا. لأنَّ ﴿أن﴾ هي المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول.

والمعنى: يسرّ بعضهم إلى بعض هذا القول، وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم.

والمعنى(١): يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة والسر كي لا يسمع أحد بهم، ولا يدخل عليهم. وقرأ عبد الله وابن أبي عبلة ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ بإسقاط أن على إضمار يقولون. والمسكين: هو الذي لا شيء له، وهو أبلغ من الفقير، والمراد بنهي المسكين عن الدخول المبالغة في النهي عن تمكينه من الدخول كقولهم: لا أرينك ههنا، فإنّ دخول المسكين عليهم لازم لتمكينهم إيّاه من الدخول كما أنَّ رؤية المتكلم المخاطب لازم لحضوره عنده، فذكر اللازم لينتقل منه إلى الملزوم.

﴿وَغَدَوْا﴾؛ أي: مشوا بكرة مصممين ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾؛ أي: على منع المساكين وحرمانهم. والحرد: المنع عن حدة وغضب، يقال: نزل فلان حريداً، أي: ممتنعاً من مخالطة القوم، وحاردت السنة: منعت قطرها، والناقة: منعت درها، وحرد: غضب. وقرأ الجمهور ﴿حَرْدٍ﴾ بسكون الراء، وقرأ أبو العالية، وابن السميفع بفتحها. ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال مقدرة من فاعل ﴿غدوا﴾، فإنَّ القدرة مع الفعل عند أهل الحقّ.

والمعنى: أي وخرجوا أول الصباح مصممين على امتناع من أن يتناول المساكين من جنتهم حال كونهم قادرين على نفعهم أو على الاجتناء، والصرم بزعمهم، فلم يحصل إلاّ الكُد والحرمان، فهم قد تعجلوا الحرمان، وكان أولى بهم أنت تكون هممهم متوجهة إلى النفع الذي هم قادرون عليه. ولكن(٢) واخيبة أملاه، وواضياع مسعاهم، ويا هول ما رأوه مما لا تصدقه العين، ولا يخطر لهم ببال بستان كان بالأمس عامراً زاخراً بالخير والبركة أصبح قاعاً صفصفاً قد تغيرت معالمه، ودرست رسومه حتى تشككوا فيه حين رأوه، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾؛ أي: فلما صاروا إلى جنتهم ورأوها محترقة أنكروها، وشكوا فيها، و﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قال بعضهم لبعضٍ: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ عن طريق جنتنا، وما هي بها لما رأوا من هلاكها، أي: قالوا: أبستاننا هذا أم نحن ضالون طريقه؟. ولكن بعد أن تبينت لهم معالمه

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

واستيقنوها عادوا على أنفسهم بالملامة، وقالوا مضربين عن قولهم الأوّل: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: لسنا بضالين بل نحن قد حرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا بشؤم عزمنا على البخل، ومنع مساعدة البائسين والمعوزين، وندموا على ما فرط منهم حيث لا ينفع الندم، كما يرشد إلى ذلك قوله سبحانه حاكياً عنهم: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾؛ أي: أرجحهم رأياً وأحسنهم تدبيراً ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يا قوم ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾؛ أي: هلا تذكرون الله سبحانه بالتسبيح والتلهيل والتكبير وغيرها، وتشكرونه على ما أولاكم من النعم، فتؤدّوا حق البائس الفقير، وتتوبون إليه من خبث نيتكم ليبارك لكم فيما أنعم وتفضل، ولكنكم أعرضتم عما أظهرتُ لكم به من الرأي، وضربتم به عرض الحائط، وقد كان قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وانتقامه من المجرمين، وتوبوا إليه من هذه العزيمة الخبيثة من فوركم، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة، فعصوه فعيرهم.

وفي الآية[١]: دليل على أنّ العزم على المعصية مما يؤاخذ به الإنسان، لأنهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ والعزم: قوة قصد الفعل والجزم به، والمحققون على أنه يؤاخذ به. وأما الهم وهو ترجيح قصد الفعل فمرفوع.

وبعد اللتيا والتي[٢] وبعد ضياع الفرصة تبين لهم خطأ ما كانوا عزموا عليه، واعترفوا بذنوبهم، كما حكى عنهم سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾؛ أي: تنزيهاً لربنا عن أن يكون ظالماً فيما صنع بجنتنا؛ أي: قالوا معترفين بالذنب، والاعتراف به يعد من التوبة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾؛ أي: تنزه مالك أمرنا عن كل سوء ونقصان سيما عن أن يكون ظالماً فيما فعل بنا. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا بقصد حرمان المساكين اتباعاً لشح النفس، كأنهم قالوا: نستغفر الله من سوء صنيعنا، ونتوب إليه من خبث نيتنا حيث قصدنا عدم إخراج حق المساكين من غلة بستاننا، ولو تكلموا بهذه الكلمة قبل نزول العذاب لنجوا من نزوله، لكنّهم تكلّموا بعد خراب البصرة، هيهات هيهات فقد ضاعت الفرصة، وحل مكانها الغصة. وهكذا شأن الإنسان.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وبعد أن حدث ما حدث ألقى كلّ منهم تبعة ما وقع على غيره، وتشاحنوا وهذا ما أشار إليه بقوله سبحانه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ حالك كونهم ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾؛ أي: يلوم[1] بعضهم بعضاً على ما فعلوا، فإنَّ منهم من أشار بذلك، ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكت راضياً به، ومنهم من أنكره. فيقول هذا لهذا: أنت الذي أشرت علينا بهذا الرأي، ويقول ذاك لهذا: أنت الذي خوفتنا الفقر، ويقول الثالث لغيره: أنت الذي رغّبتني في جمع المال.

ثم نادوا على أنفسهم بالويل والثبور، كما أشار إلى ذلك سبحانه حاكياً عنهم ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ﴾ ويا هلاكنا أقبل إلينا لنتعجب منك؛ أي: قالوا: أقبل أيها الهلاك فلا نستحق غيرك. ثم بينوا علة هذا الدعاء بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾؛ أي: عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء. قال ابن كيسان أي: طغينا في نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل.

ثم رجعوا إلى الله، وسألوه أن يعوّضهم بخير منها، فقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ﴾؛ أي: نترجَّى ربنا ﴿أَن يُبْدِلَنَا﴾ ويعطينا بدلاً ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: من جنتنا بتوبتنا من زلاَّتنا، ويكفر عنا سيئاتنا. قيل: إنهم تعاقدوا فيما بينهم، وقالوا: إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعن كما صنع أبونا، فدعوا الله وتضرّعوا إليه، فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها. قيل: إنَّ الله أمر جبريل أن يقتلع تلك الجنة المحترقة، ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها. وقرأ الجمهور[2] ﴿يُبْدِلَنَا﴾ بالتخفيف من الإبدال. وقرأ أبو عمرو وأهل المدينة بالتشديد من التبديل، وهما لغتان. والإبدال: رفع الشيء جملةً ووضع آخر مكانه. والتبديل: تغيير ذات الشيء أو تغيير صفته.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾؛ أي: راجون العفو منه، طالبون الخير منه، راجعون إليه تعالى. و﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاء الرغبة، لأنّ الله تعالى منتهى رجائهم، وطلبهم أو لتضمنها معنى الرجوع، وإلاّ فالمشهور أن تتعدى الرغبة بكلمة في أو عن دون إلى. روى عن مجاهد: أنّهم تابوا فأبدلهم الله تعالى خيراً منها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مقدم لإفادة القصر ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ مبتدأ مؤخر، والألف واللام فيه

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

للعهد؛ أي: مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة، وأصحاب الجنة المذكورة العذاب؛ أي: عذاب الدنيا النازل فيها على من طغى بمنع حقوق الله تعالى. وفي «كشف الأسرار»: كذلك أفعل بأمتك يا محمد إذا لم تعطف أغنياؤهم على فقرائهم بأن أمنعهم القطر، وأرسل عليهم الجوائح، وأرفع البركة من زروعهم وتجارتهم. ففيه وعيد لمانعي الزكاة والصدقة بإهلاك المال، وإنزال العذاب بأيّ طريق كان.

والمعنى[1]: وهكذا عذاب من خالف أمر الله تعالى، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق البائس الفقير، وإذا كانت هذه حال من فعل الذنب اليسير كأصحاب الجنة، فما بالكم بذنب من يعاند الرسول ويصر على الكفر والمعصية.

وبعد أن أبان لهم أن عذاب الدنيا كما سمعتم، ورأيتم أشار إلى عذاب الآخرة، فقال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ المعد للكفرة والطغاة ﴿أَكْبَرُ﴾؛ أي: أشدُّ وأعظم لبقائه ودوامه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لو كان المشركون يعلمون أنه أكبر وأعظم لاحترزوا عما يؤديهم إليه، ويطرحهم ويرميهم فيه، ولكنهم لا يعلمون ذلك، ولذلك أصروا على إشراكهم وتكذيبهم للنبي ﷺ. وجواب الشرط محذوف كما قدرنا.

والخلاصة: أنَّ عذاب الآخرة أشد وأنكى من عذاب الدنيا، فما عذاب هذه إلا هلاك الأموال والثمرات، وعذاب تلك نار وقودها الناس والحجارة، لو كانوا من ذوي العلم والمعرفة.. لارتدعوا عن غيّهم، وثابوا إلى رشدهم، وهذا نعي عليهم بالغفلة، وأنهم ليسوا من أرباب النهى والمعرفة.

ولما فرغ سبحانه وتعالى من ذكر حال الكفّار وتشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة.. ذكر حال المتقين، وما أعده لهم من الخير، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما يوجب سخطه من الكفر والمعاصي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ سبحانه وتعالى في الدار الآخرة ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الخالص الذي لا يشوبه كدر، ولا ينغّصه خوف زوال. وذكر[2] ﴿عِندَ﴾ للتشريف والتكريم، وذلك لأنه لا ملك فيها حقيقة ولا صورة إلا لله تعالى، فكأنها حاضرة عنده تعالى يتصرف فيها كيف يشاء، وإلا فمحال كون عندية الجنة بالنسبة إلى الله تعالى مكانيةً، وهي ظرف معمول للاستقرار الذي تعلق به للمتقين.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف منصوب على الحالية من المنويّ في قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولا يجوز أن يكون حالاً من جنات لعدم العامل. والأظهر: أنّ معنى ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في جوار القدس، فالمراد عنديّة المكانة المنزهّة عن الجهة والتحيز لا عندية المكان، كما في قوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، إذ للمقرّبين قرب معنويّ من الله تعالى. ومعنى ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص عن شائبة ما ينغصه من الكدورات وخوف الزوال، كما عليه نعيم الدنيا. واستفيد الحصر من الإضافة اللامية الاختصاصية، فإنها تفيد اختصاص المضاف إليه.

وكان صناديد كفار قريش يرون وفور حظهم في الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها، فإذا سمعوا ذكر الآخرة، وما وعد الله المسلمين فيها قالوا: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالناً وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساوونا. فرد الله سبحانه عليهم مكذّباً لهم بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾... إلخ. والهمزة[1] فيه للاستفهام الإنكاري داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنحيف في الحكم فنجعل المؤمنين كالكافرين في حصول النجاة والوصول إلى الدرجات، فنسوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء، كلا ورب الأرض والسماء. والمراد[2] بالمجرمين الكافرون على ما دل عليه سبب النزول، وهم المجرمون الكاملون الذين أجرموا بالكفر والشرك، وإلا فالإجرام في الجملة لا ينافي الإسلام نعم المسلم المطيع ليس كالمسلم الفاسق. ففيه وعظ للعاقل وزجر للمتبصر.

ثم قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الرد وتشديده: ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيها المجرمون ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الأعوج الأقبح، كأنَّ أمر الجزاء مفوض إليكم فتحكمون فيه بما شئتم. وهذا تعجيب من حكمهم، واستبعاد له، وإيذان بأنّه لا يصدر عن عاقل. و﴿مَا﴾ الاستفهامية في موضع رفع بالابتداء، والاستفهام للإنكار؛ أي: لإنكار أن يكون لهم وجه مقبول يُعْتَدّ به في دعواهم حتى يتمسّك به، و﴿لَكُمْ﴾ خبرها.

والمعنى: أيّ شيء ظهر لكم حتى حكمتم هذا الحكم القبيح كأنَّ أمر الجزاء مفوّض إليكم فتحكمون فيه بما شئتم. ومعنى ﴿كَيْفَ﴾ في أيّ حال حكمتم أفي حال

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

العلم حكمتم أم في حال الجهل؟ فيكون ظرفاً أو أعالمين حكمتم أم جاهلين؟ فيكون حالاً.

والخلاصة: أي ماذا حصل لكم من فساد الرأي وخبل العقل حتى قلتم ما قلتم؟

ثم سد عليهم طريق القول، وقطع عليهم كلَّ حجة يستندون إليها فيما يدّعون، فقال: ﴿أَمۡ لَكُمۡ﴾؛ أي: بل ألكم ﴿كِتَٰبٌ﴾ نازل من السماء. و﴿أَمۡ﴾ فيه منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الإنكار. ﴿فِيهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿تَدۡرُسُونَ﴾ أي: تقرؤون فيه ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ﴾ أي: في ذلك الكتاب، أو في يوم القيام ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ وتشتهون؛ أي: بل ألكم كتاب نازل من السماء فيه تقرؤون أنّ لكم في ذلك الكتاب ما تشتهونه في الآخرة. وأصل الكلام: ﴿أنّ لكم﴾ بالفتح؛ لأنّه مدروس فيكون مفعولاً واقعاً مَوْقِعَ المفرد، وتكون لام الابتداء زائدة. فلا تكسر همزة ﴿إنّ﴾ ولكن لما جيءَ باللام كسرت، فإن لام الابتداء لا تدخل على ما هو في حيّز ﴿أنّ﴾ المفتوحة، وهذه اللام للابتداء، داخلة على اسم ﴿إنّ﴾.

والمعنى: تدرسون في الكتاب أنّ لكم في الآخرة ما تختارونه لأنفسكم، وأن يكون العاصي كالمطيع بل أرفع حالاً منه، فأتوا بكتاب إن كنتم صادقين. ويجوز أن يكون حكاية للمدروس كما هو كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾، فيكون الموضع من مواضع كسر همزة ﴿إنّ﴾ لعدم وقوعها موقع المفرد، حكاه الله في القرآن بصورته. والفرق بين الوجهين: أنّ المدروس في الأول ما انسبك من الجملة، وفي الثاني الجملة بلفظها. وقوله: ﴿فِيهِ﴾ لا يستغنىٰ عنه بفيه أوّلاً، فقد يكتب المؤلف في كتابه ترغيباً للناس في مطالعته أنّ في هذا الكتاب كذا وكذا.

قال سعديٌّ المفتي: لك أن تمنع كون الضمير للكتاب، بل الظاهر أنّه ليوم القيام المعلوم بدلالة المقام.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنَّ لَكُمۡ﴾ بكسر الهمزة، فقيل: هو استئناف قول على معنى: إنّ لكم كتاباً فلكم فيه متخيَّر. وقيل: ﴿أنَّ﴾ معمولة لتدرسون؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.

تدرسون في الكتاب أنّ لكم لما تخيّرون؛ أي: تختارون من النعيم. وكسرت الهمزة من ﴿إنّ﴾ لدخول اللام في الخبر، وهي بمعنى ﴿أنّ﴾ بفتح الهمزة، قاله الزمخشريّ، وبدأ به، وقال: ويجوز أن تكون حكاية للمدروس كما هو كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ﴾ انتهى. وقرأ طلحة بن مصرف والضحاك ﴿أن لكم﴾ بفتح الهمزة، واللام في ﴿لَمَا﴾ زائدة كهي في قراءة من قرأ ﴿ألا أنهم ليأكلون الطعام﴾ بفتح همزة أنهم. وقرأ الأعرج ﴿أأنّ لكم﴾ على الاستفهام.

وحاصل معنى الآية[1]: أفبأيديكم كتاب نزل من السماء تدرسونه، وتتداولونه ينقله الخلف من السلف، يتضمن حكماً مؤكّداً كما تدّعون أن لكم ما تختارون وتشتهون، وأنَّ الأمر مفوّض إليكم لا إلى غيركم.

وخلاصة هذا: أفسدت عقولكم حتى حكمتم بهذا؟ أم جاءكم كتاب فيه تخييركم، وتفويض الأمر إليه.

ثم زاد سبحانه في التوبيخ، فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ﴾؛ أي: بل ألكم أيّها المشركون ﴿أَيْمَانٌ﴾؛ أي: مواثيق وعهود مؤكّدة بالأيمان مضمونة لكم ﴿عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾ نهاية الصحة وغاية الجودة، لا نخرج من عهدتها ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ على ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ وتشتهون. و﴿أَمْ﴾ منقطعة تقدر بـ(بل) الإضرابية وهمزة الإنكار، نظير ما مرّ. و﴿عَلَيْنَا﴾[2] صفة ﴿أَيْمَانٌ﴾، وكذا ﴿بَالِغَةٌ﴾؛ أي: متناهية في التوكيد والصحة؛ لأنّ كل شيء يكون في نهاية الجودة وغاية الصحة يوصف بأنّه بالغ، يقال لفلان عليَّ يمين بكذا إذا ضمنت وكفلت له به، وحلفت له على الوفاء به؛ أي: بل أضمنا لكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة، فثبت لكم علينا عهود مؤكدة بالأيمان مستمرة إلى يوم القيامة لا نخرج من عهدتها إلا بوفائها. وقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ متعلّق بالمقدر في ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا نخرج من عهدتها حتى نحكمكم يومئذٍ، ونعطيكم ما تحكمون، أو متعلق بـ﴿بَالِغَةٌ﴾؛ أي: أيمان تبلغ ذلك اليوم وتنتهي إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه الذي هو التحكيم واتباعنا لحكمهم.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وعبارة الخازن هنا: معناه: ألكم عهود ومواثيق مؤكَّدة عاهدناكم عليها فاستوثقتم بها منا إلى يوم القيامة؛ أي: لا تنقطع تلك الأيمان والعهود إلى يوم القيامة إن لكم في ذلك العهد لما تحكمون لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله تعالى، انتهى.

وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جواب القسم، وقيل: قد تمّ الكلام عند قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: ليس الأمر كذلك.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بَالِغَةٌ﴾ بالرفع على النعت لـ﴿أَيْمَانٌ﴾. وقرأ الحسن وزيد بن علي بنصبها على الحال من ﴿أَيْمَانٌ﴾، لأنها قد تخصّصت بالوصف، أو من الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، أو من الضمير في ﴿عَلَيْنَا﴾. وقرأ الأعرج ﴿إن لكم علي﴾ كالتي قبلها على الاستفهام.

والمعنى: أم معكم عهود منا مؤكدة لا نخرج من عهدتها إلى يوم القيامة على أنه سيحصل لكم كل ما تهوون وتشتهون.

وخلاصة ذلك: أم أقسمنا لكم قسما على أنَّ لكم كل ما تحبون.

ثم طلب إلى رسوله ﷺ أن يسألهم على طريق التوبيخ والتقريع، فقال: ﴿سَلْهُمْ﴾ أمر من[2] سأل يسأل بحذف العين وهمزة الوصل. وهو تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله ﷺ بإسقاطهم عن درجة الخطاب؛ أي: سل يا محمّد هؤلاء المشركين مبكتاً لهم ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحكم الخارج عن المعقول ﴿زَعِيمٌ﴾؛ أي: كفيل متصدٍّ لتصحيحه كفيل لهم بأنَّ لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها. والزعيم: هو القائم بالدعوى وإقامة الحجة عليها؛ أي: قل لهم: من الكفيل لهم بتنفيذ هذا الحكم الخارج عن الصواب.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾؛ أي: بل ألهم ناس يشاركونهم في هذا الرأي والقول الفاسد، ويذهبون مذهبهم، وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين في الآخرة. وإن كان الأمر كذلك ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ وموافقيهم في هذا الرأي القبيح ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم، وقولهم هذا، إذ لا أقل من التقليد. وهو أمر تعجيز،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. يعني[(١)]: أنه كما ليس لهم دليل عقلي في إثبات هذا المذهب، وهو التسوية بين المحسن والمسيء كما قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾، ولا دليل نقلي، وهو كتاب يدرسونه، ولا عهود موثقة بالأيمان فليس لهم من يوافقهم من العقلاء على هذا القول حتى يقلدوهم، وإن كان التقليد لا يفلح من تشبث بذيله. فثبت أن ما زعموا باطل من كل الوجوه. وقيل: المعنى[(٢)] أم لهم شركاء وآلهة يجعلونهم مثل المسلمين في الآخرة.

وقصارى هذا الحجاج[(٣)]: نفي جميع ما يمكن أن يتعلقوا به في تحقيق دعواهم، فنبه أوّلاً إلى نفي الدليل العقلي بقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ ثم إلى نفي الدليل النقلي بقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ثم إلى نفي الوعد بذلك ووعد الكريم دين عليه بقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾ ثم إلى نفي التقليد الذي هو أوهن من حبال القمر بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾.

وقرأ الجمهور[(٤)]: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ وقرأ عبد الله وابن أبي عبلة ﴿فليأتوا بشركهم﴾. قيل: والمراد في القراءتين الأصنام، أو ناس يشاركونهم في قولهم ويوافقونهم فيه؛ أي: لا أحد يقول بقولهم كما أنه لا كتاب لهم ولا عهد من الله، ولا زعيم بذلك فليأتوا بشركائهم. وهذا استدعاء وتوقيف وتعجيز.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ منصوب بـ(اذكر) المقدر، و﴿عَن سَاقٍ﴾ نائب فاعل لـ﴿يُكْشَفُ﴾، والمراد به يوم القيامة؛ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين ولسائر أمّتك أهوال يوم يكشف الله سبحانه عن ساقه، ويتجلى لعباده، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة. وقيل: الساق متعلق بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾ أي: فليأتوا بشركائهم، وآلهتهم يوم يكشف عن ساق ليشفعوا لهم. وقيل: التقدير: يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت، حذف للتهويل العظيم بما يكون فيه من الحوادث. ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ أي: ويُدعى الكفّار والمنافقون ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ له تعالى توبيخاً وتعنيفاً لهم على تركهم إيّاه في الدنيا، وتحسيراً لهم على تفريطهم في ذلك، لا على سبيل التكليف والتعبّد؛ لأنّ يوم القيامة ليس دار تعبّد وتكليف. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ أي: الكفرة والمنافقون على

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

السجود لزوال القدرة الحقيقية عليه عنهم. وفيه دلالة على أنهم يقصدون السجود فلا يتأتى منهم ذلك. قال ابن مسعود رضي الله عنه: تعقم أصلابهم؛ أي: ترد عظاماً بلا مفاصل لا تنثني عند الرفع والخفض، فيبقون قياماً على حالهم حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على تفريطهم في الدنيا.

قال الواحدي: قال المفسرون: يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدةً، ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون، لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود. قال الربيع بن أنس: يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله في الدنيا فيسجدون له، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون، لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله في الدنيا.

فصل في الاختلاف في معنى الساق

وهذا التفسير الذي ذكرناه في بيان معنى الساق وإيضاح معنى الآية هو المذهب الأسلم الذي عليه السلف، ونلقى عليه الرب سبحانه. فساق الله صفة ثابتة له نثبتها، ونعتقدها لا نكيفها ولا نمثلها ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. ومعنى كشف الساق رفع الحجاب بينه وبين عابده. وقد دلت على هذا المعنى أحاديث مرفوعة صحيحة.

وقد أخرج البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»، وهذا الحديث ثابت من طرق كثيرة في «الصحيحين» وغيرهما، وله ألفاظ في بعضها طول، وهو حديث مشهور معروف.

وأخرج ابن منده عن أبي هريرة رضي الله عنه في الآية قال: «يكشف الله عز وجل عن ساقه». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن منده عن ابن مسعود في الآية قال: يكشف عن ساقه تبارك وتعالى. وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في «الأسماء والصفات»،وضعفه وابن عساكر عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «عن نور عظيم فيخرون له سجداً».

وقيل: معنى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يوم يشتد الأمر، ويصعب الخطب. وكشف الساق مثل في ذلك، ولا كشف ولا ساق ثمة كما تقول للأقطع الشحيح: يده

مغلولة ولا يد ثمة ولا غل، وإنما هو مثل في البخل بأن شبهت حال البخيل في عدم تيسر الإنفاق له بحال من غلت يده، وكذا شبهت هنا حال من اشتد عليه الأمر في الموقف بالمخدرات اللاتي اشتد عليهن الأمر، فاحتجن إلى تشمير سوقهن في الهرب بسبب وقوع أمر هائل بالغ إلى نهاية الشدة مع أنهن لا يخرجن من بيوتهن، ولا يبدين زينتهن لغير محارمهن لغاية خوفهن، وزوال عقلهن من دهشتهن، وفرارهن لخلاص أنفسهن، فاستعمل في حق أهل الموقف من الأشقياء ما يستعمل في حقهن من غير تصرف في مفردات التركيب، بل التصرف إنما هو في الهيئة التركيبية. فكشف الساق استعارةٌ تمثيلية في اشتداد الأمر وصعوبته.

ومعنى الآية على هذا القول: فليأتوا بهؤلاء الشركاء ليعاونوهم إذا اشتد الهول وعظم الخطب يوم القيامة، ويدعون إلى السجود توبيخاً لهم على تركهم إيّاه في الدنيا فلا يستطيعون، فتزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه حين دعوا إليه في الدنيا، وهم سالمون أصحاء فلم يفعلوا.

وقيل: الساق التي كشفت لهم عبارة عن أمر عظيم من أهوال يوم القيامة تقول العرب: كشفت الحرب عن ساقها إذا عظم أمرها، وتقول لمن وقع في أمر عظيم شديد يحتاج فيه إلى جهد ومقاساة؛ شمر عن ساقك، وكذلك التفت الساق بالساق؛ أي: دخلت الأهوال والأمور العظام بعضها إلى بعض يوم القيامة.

والمعنى عليه: يوم يكشف عن أمر عظيم من أهوال يوم القيامة. وتنكيره على هذا الوجه للتهويل؛ لأنَّ يوم القيامة يوم يقع فيه أمر فظيع هائل منكر خارج عن المألوف.

وقيل: ساق الشيء أصله الذي به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان، فإنَّ ساق الشجر مثلاً أصله والأغصان تنبت على ذلك الأصل وتقوم به.

والمعنى عليه: يوم يكشف عن ساق الأمور وأصولها وحقائقها بحيث تظهر وتصير عيانا. وعلى هذا فالتنوين للتعظيم. وقيل: يكشف عن ساق جهنم، وقيل: عن ساق العرش، وقيل: هو عبارة عن القرب، وقيل: يكشف الرب عن نوره. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فقال: إذا خفي عليكم شيء

من القرآن فابتغوه في الشعر، فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر:

سَنَّ لَنَا قَوْمُكَ ضَرْبَ ٱلأَعْنَاقِ ... وَقَامَتِ ٱلْحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقِ

قال ابن عباس: هذا يوم كرب شديد، روي عنه نحو هذا من طرق أخرى، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله ﷺ كما عرفت، وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً، فليس كمثله شيء، ولقد أجاد من قال:

دَعُوا كُلَّ قولٍ عِنْدَ قَوْلِ مُحَمَّدٍ ... فَمَا آمِنٌ فِي دِينِهِ كَمُخَاطِرِ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُكْشَفُ﴾ بالتحتية مبنياً للمفعول. وقرأ ابن مسعود وابن عباس، وابن أبي عبلة ﴿تكشف﴾ بفتح الفوقية مبنياً للفاعل، أي: الشدّة والساعة. وقرأ ابن عباس وابن مسعود أيضاً، وابن هرمز بالنون. وقرىء بالفوقية مبنياً للمفعول. وقرىء ﴿يكشف﴾ بالياء المضمومة وكسر الشين من أكشف إذا دخل في الكشف، ومنه: أكشف الرجل: انقلبت شفته العليا.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال من ضمير ﴿يُدْعَوْنَ﴾ على أنَّ ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ مرتفع به على الفاعلية. ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها، وإلا فالأعضاء أيضاً خاشعة ذليلة متواضعة بل الخاشع في الحقيقة هو القلب لكونه مبدأ الخشوع. وذلك أن المسلمين إذا رفعوا رؤوسهم من السجود صارت بيضاء كالثلج، فلما نظر إليهم اليهود والنصارى والمنافقون، وهم الذين لم يقدروا على السجود حزنوا واغتموا واسودت وجوههم، كما قال تعالى: ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تلحقهم وتغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ شديدة تخزيهم وحسرة وندامة، كأنّه تفسير لخشوع أبصارهم. ﴿وَقَدْ كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ﴾ دعوة التكليف ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ أي: إليه. والإظهار[2] في موضع الإضمار لزيادة التقرير، أو لأنّ المراد به الصلاة أو ما فيها من السجود. وخص السجود بالذكر من حيث إنه أعظم الطاعات. قال بعضهم: يدعون بدعوة الله صريحاً مثل قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ أو ضمنا مثل قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فإن الدعوة إلى الصلاة دعوة إلى السجود، وبدعوة الرسول ﷺ صريحاً

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

كقوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء». قالوا؛ أي: السجود. أو ضمناً كقوله ﷺ: «صلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم». وبدعوة علماء كل عصر ومن أعظم الدعوة إلى السجود أذان المؤذنين وإقامتهم، فإن قولهم: حي على الصلاة دعوة بلا مرية، فطوبى لمن أجاب دعوتهم بطوع لا بإكراه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾. والجملة حال من ضمير ﴿يُدْعَوْنَ﴾، وجملة قوله: ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ حال من مرفوع يدعون الثاني؛ أي: أصحاء في الدنيا معافون من العلل، سلمت أعضاؤهم ومفاصلهم من الآفات والعلل، متمكنون من الفعل وأداء السجدة وقبول الدعوة أقوى تمكن؛ أي: فلا يجيبون إليه، ويأبونه. وإنما ترك ذكره ثقة بظهوره. وفي الآية وعيد لمن ترك الصلاة المفروضة أو تخلف عن الجماعة المشروعة. قال رجل لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مرافقتك في الجنة، فقال: أعني بكثرة السجود. وكان السلف يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتهم التكبيرة الأولى مع الإمام، وسبعة أيام إذا فاتهم الجماعة.

والمعنى[1]: يدعون إلى السجود، وتكون أبصارهم خاشعة وتغشاهم ذلة في ذلك اليوم، وقد كانوا في الدنيا متكبرين متجبرين، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه في الدنيا ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾؛ أي: إنهم لمّا دعوا إلى السجود في الدنيا، فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامة أبدانهم عوقبوا في الآخرة بعدم قدرتهم عليه، فإذا تجلى الرب سجد له المؤمنون ولم يستطع أحد من الكافرين والمنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، فكلّما همّ السجود خرّ لقفاه بعكس السجود في الدنيا. وقال النخعي، والشعبيّ: المراد بالسجود الصلوات المفروضة. وقال آخرون: إنّ المراد جميع العبادات.

والفاء في قوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حالهم في الدنيا والآخرة، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: ذرني ومن يكذب.. إلخ. و﴿مَنْ﴾[2] الموصولة في محل النصب على أنه معطوف على ضمير المتكلم أو على أنّه مفعول معه، وهو مرجوح

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

لإمكان العطف من غير ضعف؛ أي: إذا كان حالهم في الآخرة كذلك فذرني؛ أي: دعني واتركني ومن يكذب بالقرآن وخلّ بيني وبينه، ولا تشغل قلبك بشأنه، وتوكل عليّ في الانتقام منه، فإنّي عالم بما يستحقه من العذاب، ويطيق له وكافيك أمره. يقال: ذرني وإيّاه يريدون كله إلي فإني أكفيك. قال في «فتح الرحمن»: وعيد ولم يكن ثمّة مانع ولكنه كما تقول: دعني مع فلان؛ أي: سأعاقبه. والمراد بالحديث هنا القرآن؛ لأنَّ كلَّ كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له: حديث.

والمعنى[1]: كِلْ أيها الرسول أمر هؤلاء المكذّبين بالقرآن إليَّ ولا تشغل قلبك بشأنهم، فأنا أكفيك أمرهم، وهذا كما يقول القائل لمن يتوعد رجلاً: دعني وإياه وخلّني وإياه، وأنا أعلم بمساءته والانتقام منه، وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ، وتهديد للمشركين، كما لا يخفى. والخلاصة: حسبك انتقاماً منهم أن تكل أمرهم إليّ، وتخليَ بيني وبينهم.

ثم بين كيف يكون ذلك التعذيب المستفاد إجمالاً من الكلام السابق، فقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ أي: سنتنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإحسان وإدامة الصحة وازدياد النعمة حتى نوقعهم فيه. فاستدراج[2] الشخص إلى العذاب عبارة عن هذا الاستنزال والاستدناء، يقال: استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة درجة حتى يورطه فيه. ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من الجهة التي لا يشعرون أنّه استدراج، وهو الإنعام عليهم، لأنّهم يحسبونه إيثاراً لهم وتفضيلاً على المؤمنين، وهو سبب لهلاكهم في العاقبة. وهذه الجملة[3] مستأنفة مسوقة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ والضمير عائد إلى ﴿مَنْ﴾ باعتبار معناها، والمعنى: سنأخذهم بالعذاب على غفلة، ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج؛ لأنّهم يظنونه إنعاماً ولا يفكرون في عاقبته وما سيلقون في نهايته. قال سفيان الثوري: يسبغ عليهم النعم، وينسيهم الشكر. وقال الحسن: كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

وكم من مغرور بالستر عليه. والاستدراج: ترك المعاجلة، وأصله: النقل من حال إلى حال.

وفي الحديث: «إذا رأيت الله ينعم على عبد، وهو مقيم على معصيته، فاعلم أنه مستدرج، وتلا هذه الآية. وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «من وسع عليه دنياه، فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع من عقله». قال بعض أهل المعرفة من المكر الإلهي بالعبد أن يرزق العلم ويحرم العمل به أو يرزق العمل ويحرم الإخلاص فيه، فمن علم اتصافه بهذا من نفسه فليعلم أنه ممكور به، وأخفى ما يكون المكر الإلهي في المتأولين من أهل الاجتهاد وغيرهم، ومن يعتقد أن كل مجتهد مصيب يدعو الناس على بصيرة وعلم قطعي. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين، فقال: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ﴾؛ أي: وأمهلهم بإطالة العمر، وتأخير الأجل ليزدادوا إثماً وهم يزعمون أنّ ذلك لإرادة الخير بهم. ﴿إِنَّ كَيْدِى﴾ بالإمهال المؤدّي إلى العذاب ﴿مَتِينٌ﴾ أي: قويّ شديد لا يطاق، ولا يدفع بشيء.

والمعنى: أمهلهم وأؤخرهم وأنسيء في آجالهم ملاوة ومدة من الزمان على كفرهم، وتمردهم عليَّ لتتكامل حججي عليهم، وإنّ كيدي لأهل الكفر لقوي شديد. وسمى سبحانه إحسانه إليهم كيداً. والكيد: ضرب من الاحتيال لكونه في صورته من قبل أنه تعالى يفعل بهم ما هو نفع لهم ظاهراً، وهو يريد الضرر لما علم من حيث طويتهم، وسوء استمدادهم وتماديهم في الكفر وتدسيتهم أنفسهم بالآثام والمعاصي.

وفي «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

وفي «الكشاف»: سمي إحسانه وتمكينه لهم كيداً كما سمّاه استدراجاً لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للتورط في الهلكة، ووصفه بالمتانة لقوة أثر

إحسانه في التسبب للهلاك. قال بعضهم: الكيد: إظهار النفع وإبطان الضر للمكيد. وفي «التعريفات»: الكيد؛ إرادة مضرة الغير خفية. وهو من الخلق الحِيْلَةُ السيئة، ومن الله التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق من حيث لا يعرف.

قلت: والقول الأصح الأسلم الموافق لمذهب السلف. أن يقال في تعريف الكيد في حقه تعالى: إنه صفة ثابتة لله سبحانه وتعالى نثبتها ونعتقدها لا نكيفها ولا نمثلها بها مجازاة الخلق على أعمالهم السيئة في الدنيا.

ثم ذكر من الشبه ما ربما يكون هو المانع لهم عن قبول الحق فقال:

١ - ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ معطوف في المعنى على قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾؛ أي: بل أتسأل أيها الرسول هؤلاء المكذبين لك ﴿أَجْرًا﴾؛ أي: ثواباً دنيوياً وتلتمس منهم مكافاة على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله سبحانه. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾؛ أي: من غرامة ذلك الأجر وحملها ﴿مُّثْقَلُونَ﴾؛ أي: مكلّفون حملاً ثقيلاً فيعرضون عنك، أي: يثقل عليهم حمله لشحهم ببذل المال، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب. والاستفهام هنا كسابقه فيما مرّ للإنكار؛ أي: لا تسأل منهم ذلك فليس لهم عذر في إعراضهم وفرارهم منك. والمغرم مصدر ميميّ بمعنى الغرامة، والغرامة(١): هي ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر بغير جناية منه.

والمعنى: بل أتسأل أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله على ما آتيتهم من النصيحة والدعوة إلى الحق أجراً دنيويّاً، فهم من غرم ذلك الأجر مثقلون بأدائه، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك، وتجنّبوا لعظم ما أصابهم من الغرم الدخول في الدين الذي دعوتهم إليه.

وخلاصة ذلك: أن أمرهم لعجيب، فإنك لتدعوهم إلى الله بلا أجر تأخذه منهم بل ترجو ثواب ذلك من ربك، وهم مع ذلك يكذّبونك فيما جئتهم به من الحق جهلاً وعناداً.

٢ - ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾؛ أي: اللوح المحفوظ، أو كل ما غاب عنهم ﴿فَهُمْ﴾ من ذلك الغيب ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ما يريدون من الحجج التي يزعمون أنها تدل على ما

---

(١) روح البيان.

يقولون من التسوية بين المؤمن والكافر، ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك، ويحكمون لأنفسهم بما يريدون، ويستغنون بذلك عن الإجابة لك والامتثال لما تقوله.

ولما بالغ في تزييف طريق الكافرين، وزجرهم عمّا هم عليه أمر رسوله بالصبر على أذاهم، فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾؛ أي: لقضائه الذي قد قضاه في سابق علمه. قيل: والحكم هو إمهالهم وتأخير نصرته عليهم. وقيل: هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة. قيل: وهذا منسوخ بآية السيف كما مرَّ في أول السورة عن ابن حزم.

والمعنى: فاصبر على قضاء ربك وحكمه فيك، وفي هؤلاء المشركين، وامض لما أمرك به ولا يثنك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تكذيبهم لك، وأذاهم إيّاك. روي: أنه ﷺ أراد أن يدعو على ثقيف لما آذوه حين عرض نفسه على القبائل بمكة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن﴾ أيها الرسول الكريم في التضجر والعجلة بعقوبة قومك ﴿كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ يونس بن متّى عليه السلام؛ أي: مثله. ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾ صاحب الحوت داعياً إلى الله في بطن الحوت بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾؛ أي: مملوء غيظاً وغما، والجملة حال من فاعل ﴿نَادَىٰ﴾، وعليها يدور النهي، لأنّها عبارة عن الضجرة والمغاضبة المذكورة صريحاً في قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾. لا على النداء، فإنه أمر مستحسن، ولذلك لم يذكر المنادى. و﴿إِذۡ﴾ منصوب بمضاف محذوف؛ أي: لا يكن حالك كحاله وقت ندائه، أي: لا يوجد منك ما وجد منه من الضجرة والمغاضبة، فتبتلى ببلائه، وهو التقام الحوت أو بنحو ذلك. قال قتادة: إنّ الله سبحانه يعزي نبيه ﷺ، ويأمره بالصبر، ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت. وقد تقدّم بيان قصته في سورة الأنبياء، ويونس والصافات.

ومعنى الآية(١): ولا تكن يا محمد كيونس بن متّى حين ذهب مغاضباً لقومه، فكان من أمره ما كان من ركوب البحر، والتقام الحوت له، وشروده به في البحار، فنادى ربه في الظلمات من بطن الحوت، وهو مملوء غيظاً من قومه إذ لم يؤمنوا

---

(١) المراغي.

حين دعاهم إلى الإيمان، وجاء في الآية الأخرى ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

وقال بعضهم: المعنى[1]: فاصبر لحكم ربك بسعادة من سعد وشقاوة من شقي ونجاة من نجا وهلاك من هلك، ولا تكن كصاحب الحوت في استيلاء صفات النفس عليه، وغلبة الطيش والغضب للاحتجاب عن حكم الرب حتى رد عن جناب القدس إلى مقر الطبع، فالتقمه حوت الطبيعة السفلية في مقام النفس، وابتلي بالاجتنان في بطن حوت الرحم انتهى.

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ﴾؛ أي: ناله، وبلغه، ووصل إليه ﴿نِعۡمَةٞ﴾؛ أي: رحمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ سبحانه، وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه. وحسن تذكير الفعل للفصل بالضمير، و﴿أن﴾ المصدرية مع الفعل في تأويل مصدر مرفوع على أنه مبتدأ خبره محذوف تقديره: ولولا تدارك نعمة من ربه حاصل ﴿لَنُبِذَ﴾؛ أي: طرح من بطن الحوت، فإن النبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به. ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾ أي: بالأرض الخالية من الأشجار. قال الراغب: العراء: مكان لا سترة به. ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ أي مليم مطرود من الرحمة والكرامة، لكنّه رحم فنبذ غير مذموم بل سقيماً من جهة الجسد. والجملة حال من مرفوع ﴿نبذ﴾ عليها يعتمد جواب ﴿لَّوۡلَآ﴾، لأنها هي المنفية لا النبذ بالعراء، كما في الحال الأولى، لأنه نبذ غير مذموم بل محمود. ومليم من ألام الرجل بمعنى أتى ما يلام عليه، ودخل في اللوم. **فإن قلت**: فسر المذموم بالمليم وقد أثبته الله تعالى بقوله: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾﴾.

أجيب: عن ذلك التفسير: بأن الإلامة حين الالتقام لا تستلزم الإلامة حين النبذ، إذ التدارك نفاها، فالتفت على ما هو حكم لولا الامتناعية، كما أشير إليه في تصوير المعنى آنفاً.

والخلاصة: أي لولا أنْ تداركته نعمة الله بتوفيقه للتوبة وقبولها منه.. لطرح بالفضاء من بطن الحوت وهو مليم مطرود من الرحمة والكرامة.

وقرأ الجمهور: ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ فعلاً ماضياً، ولم تلحقه علامة التأنيث لتحسين

---

(١) روح البيان.

الفصل وقرأ أبي، وابن مسعود، وابن عباس ﴿تداركته﴾ بتاء التأنيث. وقرأ الحسن، وابن هرمز، والأعمش بتشديد الدال، والأصل: تتداركه بتاءين مضارعاً، فأدغم، وتكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية.

وقوله: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ معطوف على مقدّر، أي: فتداركته نعمة ورحمة من ربه، فاصطفاه وجمعه إليه، وقرّبه بالتوبة عليه بأن رد إليه الوحي، وأرسله إلى مئة ألف أو يزيدون. يقال: جببت الماء في الحوض: جمعته، والحوض الجامع له جابية، والاجتباء: الجمع على طرق الاصطفاء. وقيل: معناه: استنبأه إن صح أنه لم يكن نبيًّا قبل هذه الواقعة، ومن أنكر الكرامات والإرهاص لا بد أن يختار القول الأول؛ لأنّ احتباسه في بطن الحوت وعدم موته هناك لما لم يكن إرهاصاً ولا كرامة لا بد أن يكون معجزة، وذلك يقتضي أن يكون رسولاً قبل هذه الواقعة؛ أي: استخلصه واصطفاه واختاره للنبوة. ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي؛ من الكاملين في الصلاح بأن عصمه من أن يفعل فعلاً يكون تركه أولى. وقيل: رد إليه النبوة وشفعه في نفسه وفي قومه، وأرسله إلى مئة ألف أو يزيدون كما تقدم. رُوي: أنها نزلت بأحد حين همَّ رسول الله ﷺ أن يدعو على المنهزمين، فتكون الآية مدنية. وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف، كما مرّ. ودلت الآية على فضيلة الصبر، وعلى أن ترك الأولى يصدر من الأنبياء عليهم السلام، وإلا لما كان يونس عليه السلام مليماً، وعلى أن الندم على ما فرط من العبد والتضرع إلى الله لذلك من وسائل الإكرام، وعلى أن توفيق الله نعمة باطنة منه، وعلى أن الصلاح درجة عالية لا ينالها إلا أهل الاجتباء، وعلى أن فعل العبد مخلوق لله لدلالة قوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وعلى أن الصلاح إنما يكون بجعل الله وخلقه، وإن كان للعبد مدخل فيه بسبب الكسب بصرف إرادته الجزئية خلافاً للمعتزلة.

ثم بين سبحانه بالغ عداوتهم له ﷺ، فذكر أنها سرت من القلب إلى النظر، فقال: ﴿وَإِن﴾ مخففة من الثقيلة، واللام دليل عليها؛ أي: وإن الشأن والحال ﴿يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من كفّار مكة؛ أي: يقرب الذين كفروا ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ وينظرونك ﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ نظراً شديداً بمؤخر العين لشدة عداوتهم وبغضهم إياك، بحيث يصيبونك بعيونهم ويصرعونك على الأرض كالمغمى عليه. وقيل: معنى ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ ليأخذونك بالعين.

وقرأ الجمهور: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بضم الياء من أزلقه إذا أزل رجله. وقرأ نافع وأهل المدينة بفتحها من: زلق عن موضعه إذا تنحى. وقرأ ابن مسعود وابن عباس، والأعمش، وعيسى، ومجاهد، وأبو وائل ﴿ليزهقونك﴾. أي: يهلكونك بأبصارهم، ذكره في البحر.

وذلك[1] أن الكفار أرادوا أن يصيبوا النبي ﷺ بالعين، فنظرت قريش إليه وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه. والمعنى: وإن يكاد الذين كفروا ليصيبونك بعيونهم عند سماع القرآن منك كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه لشدّة حسدهم وبغضهم إياك. وروي: أنّه كان في بني أسد عيّانون، فأراد بعضهم أن يعين رسول الله ﷺ فعصمه الله، وأنزل عليه هذه الآية. قيل: كانت العين في بني أسد حتى إن كانت الناقة، أو البقرة لتمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول لجاريته: خذي المكتل والدراهم فائتنا بلحم من لحم هذه، فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر. وقيل: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل، فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط ما عناه، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ويفعل به مثل ذلك، فعصم الله نبيه ﷺ، وأنزل ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: ينفذونك ويطعنونك بأبصارهم لشدّة بغضهم إيّاك. وقيل: يصرعونك بأبصارهم على الأرض كالمغمى عليه. وقيل: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة.

وإنما أراد سبحانه أنهم ينظرون إليك إذا قرأت نظراً شديداً بالعداوة والبغض يكاد يسقطك على الأرض، ومنه: قولهم: نظر إليَّ نظراً: يكاد يصرعني أو يكاد يهلكني، يدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهو قوله: ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ لأنهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، ويحدون النظر إليه بالبغضاء. ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: يقول بعضهم لبعض: إذا سمعوه يقرأ القرآن: ﴿إِنَّهُ﴾؛ أي: إن محمداً ﷺ ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ حيرةً في أمره وتنفيراً للناس منه.

أي: ﴿وَيَقُولُونَ﴾[2] لغاية حيرتهم في أمره ﷺ ونهاية جهلهم بما في القرآن من

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

بدائع العلوم، لتنفير الناس منه، وإلا فقد علموا أنه أعقلهم: ﴿إِنَّهُۥ﴾ ﷺ ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ أي: مصابٌ بريح من الجن. والظاهر أنه مثل قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾؛ أي: يأتيه رئي من الجن فيعلمه. ولما كان مدار حكمهم الباطل ما سمعوا منه ﷺ. . رد ذلك ببيان علو شأنه وسطوع برهانه، فقال: ﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ من الجن والإنس. والجملة حال من فاعل ﴿يقولون﴾، مفيدة[1] لغاية بطلان قولهم، وتعجيب للسامعين من جراءتهم على التفوّه بتلك الجريمة العظيمة؛ أي: يقولون ذلك، والحال أنَّ القرآن ذكر للعالمين من الثقلين؛ أي: تذكير وعظة لهم، وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، فأين من أنزل عليه ذلك، وهو مطلع على أسراره طرًّا؟ ومحيط بجميع حقائقه خبراً مما قالوا في حقه من الجنون؛ أي: إن هذا القرآن من أولى الأمور الدالة على كمال عقله وعلو شأنه، فمن نسب إليه القصور فإنما هو من جهله وجنته، فإن الفضل لا يعرفه إلا ذووه.

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ عَيْنٌ صَحِيْحَةٌ   فَلاَ غَرْوَ أَنْ يَرْتَابَ وَالصُّبْحُ مُسْفِرُ

وقيل معناه: وما هو إلا فضل وشرف للعالمين لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾. وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ وكونه ذكراً وشرفاً للعالمين لا ريب فيه. وفيه إشارة إلى سادات أمته وأركان دينه.

خاتمة

وعن الحسن البصريّ قال: دواء من أصابته العين أن تقرأ عليه هذه الآية. وفي «الأسرار المحمدية» قيل: إنَّ في هذه الآية خاصية لدفع العين حملا وغسلاً وشرباً انتهى. وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حقّ»، زاد البخاري و«نهى عن الوشم». وأخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «العين حقّ، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا».

وعن عبيد الله بن رفاعة الزرقي رضي الله عنه: أنّ أسماء بنت عميس كانت

---

(١) روح البيان.

تقول: يا رسول الله إنّ ولد جعفر تسرع إليهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: نعم، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين» أخرجه الترمذي؛ أي: «لو كان شيء مهلكاً أو مضراً بغير قضاء الله وقدره.. لكان العين» أي: إصابتها لشدة ضررها. ومعنى «العين حقّ» أي: أثرها في المعين واقع، ولما كان ظهور القضاء بعد العين.. أضيف ذلك إليها.

وقد صح من عدة طرق حديث: «أنّ العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر». وروى أحمد عن أبي ذرّ مرفوعاً: «أن العين لتولع بالرجل بإذن الله حتى يصعد حالقاً ثم يتردى منه».

والأحاديث في هذه الباب كثيرة، وسرُّ هذا أنَّ من خصائص بعض النفوس أن تؤثر في غيرها بوساطة العين لما فيها من كهربية خاصة يكون بها تأثير فيما تنظر إليه، والله يختص ما شاء بما شاء، وشبيه بهذا تأثير بعض النفوس في بعض بوساطة التنويم المغناطيسي الذي أصبح الآن فنًّا له أساليب علمية لا يمكن إنكارها.

ولا تختص العين بالإنس بل تكون في الجن أيضاً. وقيل: عيونهم أنفذ من أسنة الرماح. وعن أمّ سلمة رضي الله عنها: أنَّ النبي ﷺ رأى في بيتها جارية تشتكي وفي وجهها صفرة، فقال: «استرقوا لها، فإن بها النظرة» وأراد بها العين «أصابتها من الجن». وورد في الرقية عنها أحاديث منها: حديث أم سلمة هذا.

ومنها: حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ في أوّل النهار، فرأيته شديد الوجع، ثم عدت إليه آخر النهار فوجدته معافى فقال: إن جبريل أتاني فرقاني، فقال: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ومن كل عين وحاسد، الله يشفيك، قال النبي ﷺ فأفقت. والرقية مصدر رقاهُ الراقي رقيا ورقية إذا عوذه ونفث في عوذته، فالرقية القراءة على المريض، وينفث عليه. وإنما تكره الرقية إذا كانت بغير لسان العرب، ولا يدرى ما هو ولعله يدخله سحر أو كفر. وأما ما كان بآي من القرآن، أو بشيء من الدعوات والأذكار، وأسماء الله تعالى فلا بأس به، كما في حديث عبادة بن الصامت.

ويجوز التعوذ والتحصن منها، فقد كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين، فيقول: أعوذ بكلمات الله التامة من كلّ شيطان وهامّة، ومن كلّ عين لامّة، ويقول:

هكذا كان يعوّذ إبراهيم إسماعيل وإسحاق عليهم السلام. ويجوز الاحتراز منها، فقد كان يعقوب عليه السلام خاف على أولاده من العين، لأنهم كانوا أعطوا جمالاً وقوةً وامتداد قامة، وكانوا ولد رجل واحد، فقال: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾. فأمرهم أن يتفرقوا في دخولها لئلا يصابوا بالعين.

ومما يدفع العين ما روي: أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه رأى صبيًّا مليحاً فقال: دسموا نونته لئلا تصيبه العين؛ أي: سودوا نقرة ذقنه. قالوا: ومن هذا القبيل نصب عظام الرؤوس في المزارع والكروم، ووجهه أن النظر الشؤم يقع عليها أوّلاً فتكسر سورته فلا يظهر أثره.

ومن الشفاء من العين: أن يقرأ على ماء في إناء نظيف قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾، والفاتحة، وآية الكرسي، وست آيات الشفاء، وهي: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾. ويسقى المريض من ذلك الماء، ويغسل به.

ومن الشفاء: أن يؤمر العائن فيغتسل، أو يتوضأ بماء ثم يغتسل به المعين، كما ورد به الحديث.

قيل وجه إصابة العين: أن الناظر إذا نظر إلى شيء واستحسنه، ولم يرجع إلى الله، وإلى رؤية صنعه قد يحدث الله سبحانه في المنظور علة بجناية نظره على غفلة ابتلاء لعباده، ليقول المحق؛ إنه من الله وغيره من غيره، فيؤاخذ الناظر لكونه سببها.

ووجَّهها بعضهم(١): بأن العائن قد ينبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد، كما قيل ذلك في بعض الحيّات، وبه يحصل الجواب عمن أنكر إصابة العين، كبعض المعتزلة وقال: إنها لا حقيقة لها، لأن تأثير الجسم في الجسم لا يعقل إلا بواسطة المماسة ولا مماسة هنا، فامتنع حصول التأثير انتهى.

وفائدة الرقي: أن الروح إذا تكيفت به، وقويت واستعانت بالنفث والتفل

---

(١) روح البيان.

قابلت ذلك الأثر الذي حصل من النفوس الخبيثة والخواص الفاسدة فأزالته.

والحاصل: أن الرقية بما ليس بشرك مشروعة، لكن التحرز من العين لازم، وأنه واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبرك ويقول: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه، فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة، ومن عرف بإصابة العين منع مداخلة الناس دفعاً لضرره. وفي هذا المقام مباحث كثيرة نافعة جداً من المسائل الفقهية والطبية ضربنا عنها صفحاً خوفاً من الإطالة.

الإعراب

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣﴾.

﴿نٓۚ﴾: تقدم غير مرّة أنّ الأصح الأسلم في الحروف المقطعة في أوائل السور أنها من المشتبهات التي استأثر الله سبحانه بعلمها، فليس معناها معلوماً لنا، فإذاً لا إعراب لها؛ لأنّ الإعراب فرع عن إدراك المعنى. ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿القلم﴾ مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بالقلم. وجملة القسم مستأنفة استئنافاً نحويًا، أقسم تعالى به تعظيماً لشأنه. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية، معطوفة على ﴿القلم﴾، وجملة ﴿يَسۡطُرُونَ﴾ صلة للموصول الاسميّ، والعائد محذوف؛ أي: وما يسطرونه، والتقدير: أقسم بالقلم أوّلاً، ثم بمسطور الملائكة. أو صلة للموصول الحرفيّ، والتقدير: أقسم بالقلم، ثم بسطر الملائكة، فالمقسم به شيئان على ثلاثة أشياء: نفي الجنون عنه، وثبوت الأجر له، وكونه على الملة الحنيفية السمحاء. ﴿مَآ﴾ نافية حجازية، ﴿أَنتَ﴾ اسمها، ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمعنى النفي المدلول عليه بـ ﴿ما﴾، والباء سببية، ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾ خبر ﴿ما﴾ الحجازية، والباء زائدة في خبرها، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، والمعنى: انتفى عنك الجنون بسبب إنعام ربّك عليك بالنبوة. ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿لَكَ﴾ خبرها مقدم، ﴿لَأَجۡرًا﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿أجرا﴾ اسمها مؤخر، ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ صفة ﴿أجراً﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿مَآ﴾ الحجازية على كونها جواب القسم.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

﴿وَإِنَّكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ﴾ جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾، واللام: حرف ابتداء، ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة ﴿خُلُقٍ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة أيضاً على جملة ﴿ما﴾ الحجازية على كونها جواب القسم. ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ الفاء: استئنافية والسين حرف استقبال، ﴿تبصر﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على جملة ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾. ﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ اختلف المعربون في إعرابه اختلافاً كثيراً، ونورد أرجح الأقوال منها، وهي أربعة:

الأوّل: أنّ الباء مزيدة في المبتدأ، و﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ خبره، والتقدير: أيّكم المفتون. فزيدت الباء كزيادتها في نحو: بحسبك درهم.

والثاني: أنّ الباء بمعنى في الظرفية، وهي مع مجرورها خبر مقدم، ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ مبتدأ مؤخّر نظير قولك: زيد بالبصرة؛ أي: فيها. والمعنى أي: في أيّ فرقة وطائفة منكم المفتون.

والثالث: أنّه على حذف مضاف؛ أي: بأيّكم فتن المفتون، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وتكون الباء سببية.

والرابع: أنَّ المفتون مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور، والتقدير: بأيّكم الفتون. والجملة على كل التقادير في محل النصب معمولة لما قبلها، لأنه معلق عنها باسم الاستفهام.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿أَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة الابتدائية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿بِمَن﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ وجملة ﴿ضَلَّ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ متعلق بضلّ، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ مبتد وخبر، والجملة في محل الرفع معطوفة على ما قبلها على كونها خبر لـ ﴿إِنَّ﴾، ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ ﴿فَلَا تُطِعِ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك من علم الله بحال كل من الفريقين، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: لا

تطع. ﴿لَا﴾ ناهية جازمة، ﴿تُطِعِ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمّد مجزوم بلا الناهية، ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَدُّوا﴾ فعل ماض، والواو: فاعل، ﴿لَوْ﴾ مصدرية، ﴿تُدْهِنُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة صلة لـ ﴿لو﴾ المصدرية، ﴿لو﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ودّوا إدهانك معهم. ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والفاء: عاطفة سببية، والجملة معطوفة على صلة ﴿لو﴾ المصدرية، والتقدير: تمنّوا إدهانك معهم فإدهانهم معك. فالمتمنىٰ شيئان، ثانيهما متسبب عن الأوّل. وجملة ﴿ودّوا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة على كونها معلّلة لجملة النهي قبلها.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ ناهية، ﴿تُطِعْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾. ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، ﴿مَّهِينٍ﴾ صفة أولى لـ ﴿حَلَّافٍ﴾ ﴿هَمَّازٍ﴾ صفة ثانية له، ﴿مَّشَّاءٍ﴾ ثالثة، ﴿بِنَمِيمٍ﴾ متعلق بـ ﴿مَّشَّاءٍ﴾، ﴿مَّنَّاعٍ﴾ رابعة، ﴿لِّلْخَيْرِ﴾ متعلق بـ ﴿مَّنَّاعٍ﴾، ﴿مُعْتَدٍ﴾ خامسة، ﴿أَثِيمٍ﴾ سادسة، ﴿عُتُلٍّ﴾ سابعة، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿زَنِيمٍ﴾، و﴿زَنِيمٍ﴾ صفة ثامنة، وهذه البعدية في الرتبة؛ أي: هذا الوصف، وهو زنيم متأخر في الرتبة والشناعة عن الصفات السابقة. فـ﴿بَعْدَ﴾ هنا كـ ثمّ التي للترتيب والتراخي في الرتبة، كما مرّ. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل النصب بـ﴿أنْ﴾، واسمها ضمير يعود على كلّ حلاف، ﴿ذَا مَالٍ﴾ خبرها، ﴿وَبَنِينَ﴾ معطوف على مال، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: لكونه ذا مال وبنين. قال الزمخشري: الجار والمجرور متعلّق بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾: أي: لا تطعه مع هذه المثالب لكونه ذا مال وبنين. وقيل: متعلق بما دل عليه إذا تتلى؛ أي: كذّب بآياتنا لكونه ذا مال وبنين، ولا يصحُّ أن يكون معمولاً لـ﴿قال﴾ الذي هو جواب الشرط؛ لأنَّ ما بعد أداة الشرط لا يعمل

فيما قبلها، ولا أن يكون معمولاً لفعل الشرط؛ لأنّ إذا تضاف للجملة بعدها، والمضاف إليه لا يعمل فيما قبل المضاف. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿تُتْلَىٰ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿تُتْلَىٰ﴾، ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ نائب فاعل لـ﴿تُتْلَىٰ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾ على كونه فِعْلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الحلاف، وجملة قال جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي أساطير الأوّلين، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ السين حرف استقبال، ﴿نسمه﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ متعلق بـ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والهاء: عائد إلى أهل مكة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿كَمَا﴾ الكاف حرف جرّ وتشبيه، و﴿ما﴾ مصدرية، ﴿بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، وجملة ﴿ما﴾ المصدرية مع مدخولها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: إنا بلوناهم بلاء كائناً كبلائنا أصحاب الجنة. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، مجرّد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿بلونا﴾ الثاني، ﴿أَقْسَمُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ اللام موطئة للقسم ﴿يصرمن﴾ فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، أصله: ليصرموننها، والهاء مفعول به، ﴿مُصْبِحِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يصرمنها﴾، وهو اسم فاعل من أصبح التامة بمعنى دخل في الصباح، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية أو استئنافية، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يَسْتَثْنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل أقسموا أو مستأنفة، أي: لا يستثنون في أيمانهم. ويضعف كون الواو حالية من حيث إن المضارع المنفيّ بـ ﴿لا﴾ كالمثبت في عدم دخول الواو عليه، وإلا فبإضمار مبتدأ قبله حتى تكون الجملة اسمية.

﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَطَافَ﴾ الفاء عاطفة، ﴿طاف﴾ فعل ماض، ﴿عَلَيۡهَا﴾ متعلق بطاف، ﴿طَآئِفٌ﴾ فاعل، ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ صفة لطائف، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَقۡسَمُواْ﴾. ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير عليها على تقدير صاحب الحال؛ أي: على جنتهم. ﴿فَأَصۡبَحَتۡ﴾ الفاء عاطفة، ﴿أصبحت﴾ فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على الجنة، تقديره: هي. ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ خبرها، والجملة معطوفة على جملة ﴿طاف﴾. ﴿فَتَنَادَوۡاْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿تنادوا﴾ فعل ماض وفاعل، ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تنادوا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَقۡسَمُواْ﴾، ﴿أَنِ﴾ مفسرة؛ لأنّها مسبوقة بما فيه معنى القول دون حروفه، ويجوز أن تكون مصدرية، فتكون هي ومدخولها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، والجار المقدر متعلق بـ ﴿تنادوا﴾، أي: تنادوا بالغدوّ ﴿ٱغۡدُواْ﴾ فعل أمر، ﴿والواو﴾: فاعل، ﴿عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾ متعلق به، الجملة مفسرة لـ ﴿تنادوا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿إنْ﴾ حرف شرط ﴿كُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، ﴿صَٰرِمِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم صارمين فاغدوا على حرثكم، وجملة الشرط معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿تنادوا﴾، ﴿وَهُمۡ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿انطلقوا﴾، ﴿أَن﴾ مفسّرة أو مصدرية ﴿لَّا﴾ نافية، ﴿يَدۡخُلَنَّهَا﴾ ﴿يدخلن﴾ فعل مضارع في محل الرفع، أو في محل النصب مبنيّ على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والهاء: مفعول به على السعة، و﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿يدخلن﴾، ﴿عَلَيۡكُم﴾ متعلق به أيضاً، ﴿مِّسۡكِينٞ﴾ فاعل، والجملة مفسرة لـ ﴿تنادوا﴾ أيضاً، لا محل لها من الإعراب. أو في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: فتنادوا بأن لا يدخلنها عليكم مسكين، أي: بعدم دخول مسكين فيها عليكم. ﴿وَغَدَوۡاْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿انطلقوا﴾، ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ متعلق بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾، و﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال من فاعل ﴿غدوا﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ

﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لما﴾ اسم شرط غير جازم، في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان ﴿رَأَوْهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول به والجملة فعل شرط لـ ﴿لمّا﴾، في محل جر بالإضافة والرؤية هنا بصرية، ﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل جواب لمّا، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لمّا﴾ معطوفة على جملة ﴿غدوا﴾. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَضَآلُّونَ﴾ خبره، واللام: حرف ابتداء، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿بَلْ﴾ حرف عطف وإضراب، ﴿نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريريّ، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿أَقُل﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على المتكلم مجزوم بـ ﴿لم﴾، ﴿لَّكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض بمعنى هلاّ، ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: تسبّحون الله. والجملة في محل النصب مقول ﴿أَقُل﴾، وإن شئت قلت: مقول محكيّ لـ﴿أَقُل﴾. ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿سُبْحَـٰنَ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً تقديره: نسبّح ربّنا تسبيحاً، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، و﴿رَبِّنَآ﴾ مضاف إليه، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿ظَـٰلِمِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿فَأَقْبَلَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أقبل بعضهم﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ متعلق بـ ﴿أقبل﴾، وجملة ﴿يَتَلَـٰوَمُونَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿أقبل﴾. ﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿يَـٰوَيْلَنَآ﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿ويلنا﴾ منادىٰ مضاف والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كُنَّا طَـٰغِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾ على كونها جواب النداء. ﴿عَسَىٰ﴾ فعل ماض ناقص من أفعال الرجاء، و﴿رَبُّنَآ﴾ اسمها، ﴿أَن﴾ حرف نصب ﴿يُبْدِلَنَا﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أن﴾، و﴿نا﴾ مفعول أوّل، وفاعله ضمير يعود على الربّ سبحانه، ﴿خَيْرًا﴾ مفعول ثان، ﴿مِّنْهَآ﴾ متعلق بـ

﴿خَيْرًا﴾، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع مدخولها في تأويل مصدر منصوب على كونه خبراً لعسى، ولكنّه في تأويل اسم الفاعل؛ أي: عسى ربنا إبدالنا؛ أي: مبدلاً إيّانا خيراً منها. وجملة ﴿عَسَىٰ﴾ في محل النصب مقول قالوا، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ متعلق بـ ﴿رَٰغِبُونَ﴾، و﴿رَٰغِبُونَ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول قالوا على كونها معلّلة لما قبلها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام حرف ابتداء، ﴿عذاب الآخرة﴾ مبتدأ، ﴿أَكْبَرُ﴾ خبر، والجملة مستأنفة أيضاً. ﴿لَوْ﴾ حرف شرط، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبره، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف دل عليه سياق الكلام، تقديره: لو كانوا يعلمون أنّه أكبر لما فرط منهم ما سلف من ظلم وإحجام عن الاستثناء، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبرها مقدم، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من جنات أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخّر ومضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما أعدّ الله للمتقين يوم القيامة. ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالمجرمين، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿نجعل﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على تلك المحذوفة، ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ مفعول أوّل، ﴿كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في موضع المفعول الثاني، وهذا أوّل توبيخ وتقريع للكافرين، ستأتي بعده ستة توبيخات أخرى. وقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ هو التقريع الثاني. ﴿مَآ﴾ اسم استفهام، مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾ خبر، والجملة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل النصب على الحال من فاعل ﴿تَحْكُمُونَ﴾، و﴿تَحْكُمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب على الحال من ضمير ﴿لَكُمْ﴾، وهذا هو التقريع الثالث. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابيّة وهمزة الإنكار، وهذا هو التقريع الرابع، ﴿لَكُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿كِتَٰبٌ﴾ مبتدأ مؤخّر، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَدْرُسُونَ﴾، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿تَدْرُسُونَ﴾ فعل

وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿لكم﴾ أو مستأنفة.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب قائم مقام ﴿أنّ﴾ المفتوحة في كونه معمولاً لما قبله، ولكن كسرت همزته لمكان اللام بعدها، ﴿لَكُمْ﴾ خبرها مقدم، ﴿فِيهِ﴾ حال من ﴿ما﴾ الموصولة المذكورة بعده، ﴿لَمَا﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب اسمها مؤخر، وجملة ﴿تَخَيَّرُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مفعول ﴿تَدْرُسُونَ﴾، علق عنها باللام، لأنها هي المدروسة. ﴿أَمْ لَكُمْ﴾ هذا هو التقريع الخامس، ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل، وهمزة الإنكار، ﴿لَكُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿أَيْمَانٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿عَلَيْنَا﴾ صفة أولى لـ ﴿أَيْمَانٌ﴾، ﴿بَالِغَةٌ﴾ صفة ثانية، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر أعني: ﴿لَكُمْ﴾ أو بـ ﴿بَالِغَةٌ﴾؛ أي: تبلغ إلى ذلك اليوم، وتنتهي إليه. وفي قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ...﴾ إلخ، معنى القسم كأنّه قيل: أقسمنا لكم أيماناً موثقة، وجملة قوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جواب القسم الملحوظ، فلا محل لها من الإعراب، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لَكُمْ﴾ خبرها مقدم، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿مَا﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخّر، وجملة ﴿تَحْكُمُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾. ﴿سَلْهُمْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول أوّل، والجملة مستأنفة. ﴿أَيُّهُم﴾ مبتدأ، ﴿بِذَٰلِكَ﴾ متعلق بزعيم، و﴿زَعِيمٌ﴾ خبر ﴿أَيُّهُم﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿سأل﴾، لأنّها تنصب مفعولين، علّقت عن العمل في لفظه بالاستفهام الذي هو التقريع السادس.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ هذا هو التقريع السابع، ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل، وهمزة الإنكار ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿شُرَكَاءُ﴾ مبتدأ مؤخّر، وهذه الجملة معطوفة في المعنى على جملة ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾. ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا كان الأمر كذلك، وأردت بيان ما هو اللازم لهم.. فأقول لك: ﴿ليأتوا بشركائهم﴾. واللام لام الأمر، ﴿يأتوا﴾ فعل مضارع، مجزوم بلام

الأمر، والواو: فاعل، ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿يأتوا﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ فعل ناقص واسمه، وخبره في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، تقديره: إن كانوا صادقين فليأتوا بشركائهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة. ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ اذكر مقدّراً؛ أي: واذكر لهم أهوال يوم يكشف عن ساق، أو متعلق بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾، ﴿يُكْشَفُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿عَن سَاقٍ﴾ نائب فاعل له، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿يدعون﴾ فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿يُكْشَفُ﴾، ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ متعلق بـ﴿يدعون﴾، ﴿فَلَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يدعون﴾، ﴿خَٰشِعَةً﴾ حال من ضمير ﴿يدعون﴾، ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ فاعل ﴿خَٰشِعَةً﴾، ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ فعل مضارع ومفعول به، ﴿ذِلَّةٌ﴾ فاعل، والجملة في محل النصب حال ثانية من ﴿واو﴾ ﴿يُدْعَوْنَ﴾، ﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يُدْعَوْنَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾ في محل النصب حال ثالثة من ﴿واو﴾ ﴿يُدْعَوْنَ﴾ الأوّل، ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ متعلق بـ﴿يدعون﴾، ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم سالمون﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ﴿واو﴾ ﴿يدعون﴾ الثاني.

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَذَرْنِى﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا كانت أحوالهم كذلك، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: ذرني. وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿ذرني﴾ فعل أمر، ونون وقاية، ومفعول به، وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب، معطوف على الياء، أو في محل النصب مفعول معه، والأوّل أرجح كما مرّ. ﴿يُكَذِّبُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر والجملة صلة الموصول، ﴿بِهَٰذَا﴾ متعلق بـ ﴿يُكَذِّبُ﴾، ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ بدل من اسم الإشارة. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ السين حرف استقبال، ﴿نستدرجهم﴾ فعل مضارع وفاعل

مستتر ومفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية التعذيب المستفاد من الأمر السابق إجمالاً، والضمير لـ﴿مَن﴾، والجمع باعتبار معناها كما أنَّ الإفراد في ﴿يُكَذِّبُ﴾ باعتبار لفظها، ﴿مِّنْ حَيْثُ﴾ جار ومجرور متعلّق بـ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الجر بإضافة الظرف إليه، ﴿وَأُمْلِي﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أملي﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿كَيْدِي﴾ اسمها، ﴿مَتِينٌ﴾ خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ حرف عطف بمعنى بل وهمزة الاستفهام، ﴿تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعولان، والجملة معطوفة من حيث المعنى على قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾. ﴿فَهُم﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وسبب، ﴿هم﴾ مبتدأ، ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ متعلق بـ﴿مُّثْقَلُونَ﴾، و﴿مُّثْقَلُونَ﴾ خبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها مسبّبة عنها. ﴿أَمْ﴾ حرف عطف بمعنى بل وهمزة الاستفهام، ﴿عِندَهُمُ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾، ﴿فَهُم﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَكْتُبُونَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿فَٱصْبِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: اصبر. ﴿اصبر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ ﴿اصبر﴾ ومضاف إليه، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَكُن﴾ فعل مضارع ناقص، مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، واسمها ضمير يعود على محمد، ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر ﴿تَكُن﴾، وجملة ﴿تَكُن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿اصبر﴾، ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمضاف محذوف تقديره؛ أي: ولا يكن حالك كحال يونس إذ نادى، وقصتك كقصته في وقت ندائه، والمعنى: لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائِهِ. ﴿نَادَىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذ﴾، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هو مكظوم﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نادى﴾.

﴿لَوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لَوْلَآ﴾ حرف امتناع لوجود مضمّن معنى الشرط، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ فعل ماض، ومفعول به في محل النصب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿نِعْمَةٌ﴾ فاعل، ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ صفة لنعمة، وذكر الفعل لأنَّ تأنيث النعمة غير حقيقي. والجملة الفعليّة مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ خبره محذوف وجوباً تقديره: لولا تدارك نعمة من ربّه موجود ﴿لَنُبِذَ﴾ اللام رابطة لجواب ﴿لولا﴾، ﴿نبذ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿يونس﴾، ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ متعلق بـ ﴿نبذ﴾. أي: بالأرض الفضاء الجرداء، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْلَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْلَآ﴾ مستأنفة. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هو مذموم﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من مرفوع ﴿نبذ﴾.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على مقدر معلوم من السياق تقديره: فأدركته نعمة من ربه فاجتباه. ﴿اجتبى﴾ فعل ماض، والهاء: مفعول به، ﴿رَبُّهُۥ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿جعله﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أوّل، ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في موضع المفعول الثاني، والجملة معطوفة على جملة ﴿اجتباه﴾. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إِنْ﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: وإنّه، ﴿يَكَادُ﴾ فعل مضارع من أفعال المقاربة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿يزلقونك﴾ فعل مضارع مرفوع بثبات النون، ﴿والواو﴾: فاعل، الكاف: مفعول به، ﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ متعلق به، وجملة ﴿يزلقونك﴾ في محل النصب خبر ﴿كاد﴾، وجملة ﴿كاد﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة مستأنفة. ﴿لَمَّا﴾ ظرف بمعنى حين في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بـ ﴿يزلقونك﴾ ﴿سَمِعُوا۟﴾ فعل وفاعل، ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ مفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿لَمَّا﴾، أو ﴿لَمَّا﴾ شرطية وجوابها محذوف تقديره: لمّا سمعوا الذكر كادوا يزلقونك، والأوّل أولى بل هو المتعين من حيث المعنى. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ فعل،

وفاعل، معطوف على ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿مجنون﴾ خبره، الجملة في محل النصب مقول ﴿يقولون﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿ما﴾ نافية مهملة لانتقاض نفيها بـ ﴿إِلَّا﴾، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ذِكْرٌ﴾ خبر المبتدأ، ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ صفة لـ﴿ذِكْرٌ﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يقولون﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ والقلم: ما يكتب به، وعن بعض الحكماء: قوام أمور الدين والدنيا بشيئين: القلم والسيف، والسيف تحت القلم ولولا القلم.. لما قام دين، ولا صلح عيش، كما مرّ. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾؛ أي: وما يكتبون. والسطر: الصفّ من الكتابة ومن الشجر المغروس، ومن القوم الوقوف. ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ والجنون: شيء حائل بين النفس والعقل، وجنّ فلان إذا أصابه الجنّ أو أصاب جنانه أو حيل بين نفسه وعقله، فجن عقله ذلك. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع، يقال: منه السير إذا أضعفه، والمنين: الضعيف. ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ يقال: أبصرته وبصرت به: علمته وأدركته، فإن البصر يقال للجارحة الناظرة ولقوة القلب المدركة، ولا يكاد يقال للجارحة: بصيرة. ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ المفتون إما اسم مفعول بمعنى المجنون، أو مصدر بمعنى الفتون، وهو الجنون كالمعقول بمعنى العقل. والمجنون: هو من لا يفرق بين ما يضره وينفعه، فيحسب الضر نفعاً والنفع ضراً، والضال كذلك.

﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿ضلّ﴾ أصله: ضلل بوزن فعل، أدغمت اللام الأولى في الثانية، وقوله: ﴿المهتدين﴾ فيه إعلال بالحذف، أصله: المهتديين بياءين: الأولى لام الكلمة، والثانية ياء الجمع، حذفت حركة الياء الأولى للتخفيف فسكنت فحذفت لالتقائها ساكنة مع ياء الجمع الساكنة. ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ أصله: تطوع، نقلت حركة الواو إلى الطاء، فسكنت فالتقت ساكنة مع آخر الفعل المجزوم لدخول الجازم، وهو ﴿لا﴾ الناهية، فحذفت الواو لذلك. ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ﴾ من الإدهان، والإدهان في الأصل مثل التدهين، واشتقاقهما من الدهن، لكن جعل عبارة عن الملاينة وترك الجد. وقال الليث: الإدهان: اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام. وقال المبرد: يقال: داهن الرجل في دينه، وداهن في أمره إذا

أظهر خلاف ما يضمر.

﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾؛ أي: كثير الحلف في الحقّ والباطل. ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير الرأي والتدبير، من المهانة، وهي الذلّة والحقارة. ﴿هَمَّازٍ﴾؛ أي: عيّاب طعّان مغتاب. وقيل: الهمّاز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، والهمّاز مبالغة هامز، والهمز: الطعن والضرب والكسر والعيب. وفي «المختار»: واللمز: العيب، وأصله: الإشارة بالعين ونحوها، وبابه: ضرب ونصر. وقرىء بهما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. ورجل لمّازٌ لُمزة بوزن هُمزة أي: عيّاب، وفيه أيضاً، والهمز كاللمز وزناً ومعنى، يقال: رجل هُمزة وامرأة هُمزة، ومنه: المهمز والمهماز بكسر الميم: حديدة تطعن بها الدابّة، قيل لأعرابيّ: أتهمز الفأرة؟ قال: السنور يهمزها. ﴿مَّشَّآءٍ﴾ صيغة مبالغة؛ أي: ساع بالكلام بين الناس على وجه الإفساد بينهم. ﴿بِنَمِيمٍ﴾ النميم قيل: هو مصدر كالنميمة، وقيل: هو اسم جنس لها كتمرة وتمر، وهو نقل الكلام الذي يسوء سامعه ويحرش بين الناس لتأريث نار البغضاء في الصدور. وفي «المصباح»: نمَّ الرجل الحديث نما من بابي قتل وضرب: سعى به ليوقع فتنة أو وحشة، فالرجل نم تسمية له بالمصدر، ونمّام مبالغة، والاسم: النميمة والنميم أيضاً. وقال الزمخشري: النميم والنميمة: السعاية بين الناس بالإفساد.

وقوله: ﴿مَّشَّآءٍ﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: مشّاي، أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾؛ أي: بخيل بالمال، والخير هنا يراد به عموم ما يطلق عليه. ﴿عُتُلٍّ﴾؛ أي: غليظ جاف. قيل: في الطبع، وقيل: في الجسم. وقال أبو عبيدة: هو الفاحش اللئيم، وقيل: الغليظ الجافي اهـ. وقيل: الشديد الخصومة الفظّ الغليظ، ووزنه فعل بضمتين وتشديد اللام. ﴿مُعْتَدٍ﴾ والمعتدي الذي يتجاوز الحق ويسير في الباطل. ﴿أَثِيمٍ﴾ والأثيم: كثير الآثام والذنوب. قوله: ﴿عُتُلٍّ﴾ أيضاً من عتله إذا قاده بعنف وغلظة. قال الراغب: العتل: الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر كمثل البعير. وفي «القاموس»: العتل بضمتين مشددة اللام الأكول المنيع الجافي الغليظ. ﴿زَنِيمٍ﴾ والزنيم الذي يعرف بالشر واللؤم، كما تعرف الشاة بزنمتها «الجزء المسترخي من أذنها حين تشق، ويبقىٰ كالشيء المعلق». قال الراغب: الزنيم والمزنم: الزائد في القوم وليس منهم والدعي. قال حسان بن ثابت:

وَأَنْـتَ زَنِـيـمٌ نِـيْـطَ فِـي آلِ هَـاشِـمٍ كَمَا نِيْطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ

يخاطب حسّان بهذا البيت الوليد بن المغيرة، فيقول: إنّه زنيم؛ أي: معلق في آل هاشم كالزنمة في الإهاب، وهي قطعة جلد صغيرة تترك معلقة بطرفه فشبهه بها، وشبهه بالقدح المنفرد الفازع المعلق خلف الراكب. ويروى: أنه لما نزلت هذه الآية قال الوليد لأمه: إن محمداً وصفني بتسع صفات أعرفها غير التاسع منها، فإن لم تصدقيني الخبر ضربت عنقك، فقالت له: إن أباك عنين فخفت على المال، فمكنت الراعي من نفسي، فأنت منه.

﴿سَنَسِمُهُ﴾ أصله: سنوسمه، من الوسم، وهو إحداث السمة بالكسر؛ أي: العلامة، والميسم بالكسر؛ المكواة؛ أي: آلة الكي، وفيه إعلال بالحذف أصله في القياس: «سنوسمه، لأنّه مضارع وسم المثاليّ، لكن فاؤه حذفت من المضارع اطراداً لوقوعها بين فتحة وكسرة. ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ الخرطوم: أنف السباع، وغالب ما يستعمل في أنف الفيل والخنزير. وفي «القاموس»: الخرطوم بوزن زنبور: الأنف أو مقدمه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾؛ أي: امتحنّاهم واختبرناهم. يقال: بلي الثوب بلياً؛ أي: خلق بلوته: اختبرته كأني أخلقته من كثرة اختباري له، والبلايا: اختبارات. ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ الصرام والصرم: قطع ثمار النخيل من صرمه إذا قطعه، يقال: صرم العذق عن النخلة، وأصرم النخل؛ أي: حان صرامه مثل: أركب المهر، وأحصد الزرع؛ أي: حان ركوبه وحصاده. وفي «المختار»: صرم النخل: جذه، وبابه: ضرب، وأصرم النخل: حان له أن يُصْرَمَ، والانصرام: الانقطاع، والتصارم: التقاطع، والتصرم: التقطع. وقوله: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ فيه إعلال بالحذف، أصله: ليصرمونها فدخلت نون التوكيد الثقيلة على الفعل فصار ليصرموننها، فاجتمع ثلاث نونات فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال فصار ليصرمونّها، فالتقى ساكنان فحذفت الواو، ولذلك الفعل هنا معرب لعدم مباشرة نون التوكيد، لأنَّ المحذوف لعلة صرفية مقدَّر.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ أصله: يستثنيون بوزن يستفعلون، استثقلت الضمّة على الياء، فحذفت للتخفيف فالتقى ساكنان فحذفت الياء، وضمت النون لمناسبة الواو. قال الراغب: الاستثناء: إيراد لفظ يقتضي رفع بعض ما يوجبه عموم لفظ متقدم أو

يقتضي رفع حكم اللفظ، كما هو فمن الأوّل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾، ومن الثاني قوله: «لأفعلن كذا إن شاء الله، وعبده عتيق وامرأته طالق إن شاء الله.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الراغب: الطوف: الدوران حول الشيء، ومنه: الطائف لمن يدور حول البيت حافظاً كما مرّ، وأصله: طوف قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. وقوله: ﴿طَآئِفٌ﴾ فيه إعلال بإبدال الواو همزة، أصله: طاوف أبدلت الواو همزة حملاً للوصف على الفعل في الإعلال.

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ جمع نائم، وأصله: ناوم من نام ينام، وأصل نام: نوم قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، وأصل ﴿نَآئِمُونَ﴾ على هذا: ناومون أبدلت الواو همزةً حملاً للوصف على الفعل في الإعلال. والنوم: استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، أو أن يتوفَّى الله النفسَ من غير موت إلى آخر ما تقدم. ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ فعيل بمعنى مفعول؛ أي: كالبستان الذي صرمت ثماره بحيث لم يبق فيها شيء. ﴿فَتَنَادَوْا﴾ أصله: تناديوا قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنة بواو الجماعة. ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أصله: اغدووا، حذفت حركة الواو لام الكلمة للتخفيف فلما سكنت وبعدها واو الجماعة الساكنة حذفت لام الكلمة، فوزنه: افعوا. قال الراغب: الحرث: إلقاء البذر في الأرض وتهيئتها للزرع، ويسمى المحروث حرثاً، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾. ﴿وَغَدَوْا﴾ أصله: غدووا، قلبت الواو الأولى ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنة بواو الجماعة، فوزنه: فعوا. ﴿مِّسْكِينٌ﴾ والمسكين: هو الذي لا شيء له، وهو أبلغ من الفقير. ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ الحرد: المنع عن حدة وغضب، يقال: نزل فلان حريداً؛ أي: ممتنعاً عن مخالطة القوم، وحاردت السنة: منعت قطرها، والناقة: منعت درّا، وحرد: غضب. وفي «المختار»: حرد قصد، وبابه: ضرب، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾؛ أي: على قصد وقيل: على منع، والحرد بالتحريك: الغضب. وقال أبو نصر صاحب الأصمعيّ: هو مخفف، فعلى هذا بابه: فهم. وقال ابن السكيت: وقد يحرك، وعلى هذا بابه: طرب، فهو حارد وحردان. ﴿قَٰدِرِينَ﴾ إما من القدرة، وهو الظاهر، وإما من التقدير وهو التضييق، أي: مضيقين على المساكين.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ أي: يتسارُّون فيما بينهم، وخفي وخفت وخفد ثلاثتها في معنى الكتم. ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا﴾ أصله: رأيوها، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ الأصل: لضاللون، أدغمت اللام الأولى في الثانية. ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾؛ أي: أعدلهم وخيرهم من قولهم: فلان من وسطة قومه، وأعطني من وسطات مالك، ومنه: قوله تعالى: ﴿أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾. قال الراغب: الوسط تارةً يقال فيما له طرفان مذمومان كالجود الذي بين البخل والسرف، فيستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتفريط، فيمدح به، نحو: السواء والعدل، ونحو: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾، وعلى ذلك ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾. وتارةً يقال فيما له طرف محمود، وطرف مذموم كالخير والشر، ويكنى به عن الرذل، نحو قولهم: وسط بين الرجال تنبيهاً على أنه قد خرج من حد الخير. ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أصله طاغيين بياءين، الأولى لام الكلمة، والثانية ياء الجمع، حذفت حركة الياء الأولى للتخفيف فالتقى ساكنان فحذفت الياء الأولى، فوزنه: فاعين.

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ قال الراغب: ﴿عِندَ﴾ لفظ موضوع للقرب، فتارةً يستعمل في المكان، وتارةً يستعمل في الاعتقاد نحو: عندي كذا، وتارةً في الزلفى والقرب والمنزلة كقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، وعلى ذلك قيل: الملائكة المقربون انتهى. ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ٣٨﴾ أصله: تتخيرون فحذفت منه إحدى التاءين. تخيّر الشيء واختياره: أخذ خيره. قال الراغب: الاختيار: طلب ما هو خير فعله، وقد يقال ما يراه الإنسان: خيراً وإن لم يكن خيراً. ﴿كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾ قال في «المفردات»: درس الشيء معناه: بقي أثره، ودرست العلم: تناولت أثره بالحفظ. ولما كان تناول ذلك بمداومة القراءة عبَّر عن إدامة القراءة بالدرس. ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ﴾ يقال: لفلان عليَّ يمين بكذا إذا ضمنت وكفلت له به وحلفت له على الوفاء. ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ٤٠﴾ أمر من سأل يسأل بحذف العين وهمزة الوصل، قياس هذا الأمر أن يقال: اسألهم بهمزة الوصل وإثبات عين الكلمة الهمزة، لكن الهمزة في بعض الأحيان نقلت حركتها إلى السين، ثم حذفت تخفيفاً فاستغني عن همزة الوصل لتحرك الفاء، فقيل: سلهم بوزن فلهم. وفي بعض الأحيان يأتي الفعل على الأصل فيقال: اسأل، قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، لكن همزة الوصل حذفت من الخط في رسم المصحف مراعاةً لقراءة من

قرأ ﴿سَلْهُمْ﴾ بدون همزة. و﴿الزعيم﴾ بمعنى القائم بالدعوة وإقامة الحجة عليها. قال الراغب: قوله: ﴿زَعِيمٌ﴾ إمّا من الزعامة؛ أي: الكفالة أو من الزعم بالقول، وهو حكاية قول يكون مظنة للكذب. وقيل للمتكفل والرئيس: زعيم للاعتقاد في قولهم: إنه مظنة للكذب. ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ أصله: فليأتيوا استثقلت الضمة على الياء فحذفت فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين وضمّت التاء لمناسبة الواو. ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ والساق فيه إعلال بالقلب، فالألف فيه منقلبة عن واو، أصله: سوق، وساق الشيء: أصله الذي به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان كما مرّ.

﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ أصله: يدعوون بوزن يفعلون، قلبت الواو لام الكلمة ألفاً لتحركها بعد فتح ثمّ حذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: يستطوعون نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت إثر كسرة فقلبت ياء حرف مدّ. ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ والرهق: غشيان الشيء الشيء. ﴿ذِلَّةٌ﴾ يقال: ذلّ يذلّ ذلا بالضم، وذلة بالكسر وهو ذليل يعني: خوار. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقال: استدرجه إلى كذا إذا استنزله درجة درجة حتى يورطه، واستدرجه إلى كذا: قربه إليه ورقاه من درجة إلى درجة وجعله يدرج على الأرض. قال الخطيب: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ أي: سنأخذهم بعظمتنا على التدريج لا على غرّة في عذاب لا شك فيه. ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ قال بعضهم: الكيد: إظهار النفع وإبطان الضر للمكيد. وفي «المفردات»: الكيد ضرب من الاحتيال، وقد يكون محموداً ومذموماً، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر، وكذلك الاستدراج والمكر. ولكون بعض ذلك محموداً قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، قال بعضهم: أراد بالكيد العذاب والصحيح: أنه الإمهال المؤدّي إلى العذاب انتهى. وفي «التعريفات» الكيد: إرادة مضرّة الغير خفيةً، وهو من الخلق: الحيلة، ومن الله: التدبير بالحق في الخلق كما مرّ ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾؛ أي: مملوء غمًّا وكرباً. قال الماوردي: والفرق بينهما أن الغم في القلب، والكرب في الأنفاس. وقيل: مكظوم: محبوس، والكظم: الحبس، قال المبرد: إنه المأخوذ بكظمه، وهو مجرى النفس، ويقال: كظم السقاء إذا ملأه وشدّ رأسه. ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ﴾ والنبذ: إلقاء الشيء وطرحه لقلّة الاعتداد به، والعراء: الأرض الخالية من الأشجار. قال الراغب: العراء: مكان لا سترة فيه، والهمزة فيه مبدلة من ياء أصله: العراي، أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة، كما تقدم أنَّ ذلك

مطرد في الواو والياء. ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ يقال: جبيت الماء في الحوض: جمعته، والحوض الجامع له: جابية، والاجتباء: الجمع على طريق الاصطفاء. ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أصل يكاد: يكود، قلبت حركة الواو إلى الكاف ثم أبدلت ألفا لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾؛ أي: ينظرون إليك نظراً شديداً يكاد يصرعك ويسقطك من مكانك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المناسبة اللفظيَّة في قوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ①﴾ إلى قوله: ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾، وهي عبارة عن الإتيان بلفظات متّزنات مقّفات.

ومنها: الجناس الناقص بين لفظي ﴿مجنون﴾ و﴿مَمۡنُونٖ﴾ لاختلاف الحرف الثاني.

ومنها: الوعيد والتهديد في قوله: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ⑤﴾ وحذف المفعول فيه للتهويل؛ أي: يوم القيامة.

ومنها: إعادة ﴿أَعۡلَمُ﴾ في قوله: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ لزيادة التقرير والتأكيد.

ومنها: التهييج للتصميم على مباينتهم ومخالفتهم في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ⑧﴾.

ومنها: صيغ المبالغة في قوله: ﴿كُلَّ حَلَّافٖ﴾ ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ﴾ ﴿مَّنَّاعٖ﴾ ﴿أَثِيمٍ﴾ ﴿زَنِيمٍ﴾.

ومنها: المناسبة في مجيء هذه الصفات مسرودة على نمط عجيب خلاب، فجاء ﴿حَلَّافٖ﴾ وما بعده ﴿مَّهِينٍ﴾؛ لأنّ النون فيها مع الميم تراخ، ثم جاء ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ⑪﴾ بصفتي المبالغة ثم جاء ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ⑫﴾، وبعد ما عد له من المثالب والنقائص أتى بصفتين من أشد معايبه.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿هَمَّازٖ﴾، لأنه حقيقة في الضراب والطعان، فاستعير للمغتاب الذي يذكر الناس بالمكروه ويظهر عيوبهم ويكسر أعراضهم كأنّه يضربهم بأذاه إيّاهم.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾ لأنّه كناية عن الإهانة والإذلال والاستيلاد؛ إذ صار كالبهيمة لا يملك الدفع عن وسمه في الأنف، وإذا كان الوسم في الوجه شيناً فكيف به في أكرم عضو فيه؟ وقد قيل: الجمال في الأنف، قال بعضهم:

وَحُسْنُ ٱلْفتىٰ في ٱلأَنْفِ وَالأنفُ عَاطِلٌ فَكَيْفَ إِذَا مَا ٱلْخَالُ كَانَ لَهُ حَلْيا

وجعلها الرازي استعارة، استعار الخرطوم للأنف؛ لأنَّ الخرطوم حقيقة في أنف الفيل والخنزير، فاستعير لأنف الإنسان. وفي «السمين»: وهو هنا عبارة عن الوجه كله من التعبير عن الكل باسم الجزء، لأنّه أظهر ما فيه وأعلاه، فيكون مجازاً مرسلاً.

ومنها: الطباق بين ﴿ضَلَّ﴾ و﴿المهتدين﴾، وبين ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ و﴿المجرمين﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾.

ومنها: تنكير ﴿طَآئِفٌ﴾ للإبهام تعظيماً لما أصاب جنّتهم.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾.

ومنها: التقريع والتوبيخ في قوله: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ٣٧﴾ والجمل التي بعدها.

ومنها: التشبيه المقلوب بجعل المشبه به مشبّهاً والعكس في قوله: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥﴾؛ لأنّ الأصل: أفنجعل المجرمين كالمسلمين في الأجر والمثوبة، فقلب التشبيه ليكون أبلغ وأروع.

ومنها: تقدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾ لإفادة الحصر.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ١٥٤﴾ لتأكيد الرد وتشديده.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ﴾ على ما قالوا: شبهت حال من اشتد عليه الأمر في الموقف بالمخدّرات اللاتي اشتد عليهنّ الأمر، فاحتجن إلى تشمير سوقهنّ في الهرب بسبب وقوع أمر هائل بالغ إلى نهاية الشدّة مع أنهنّ لا يخرجن من بيوتهنّ، ولا يبدين زينتهن لغير محارمهنّ لغاية خوفهنّ، وزوال

عقلهنّ من دهشتهن وفرارهن لخلاص أنفسهن، فاستعمل في حق أهل الموقف من الأشقياء ما يستعمل في حقهن من غير تصرف في مفردات التركيب، بل التصرف إنما هو في الهيئة التركيبية، فكشف الساق استعارةٌ تمثيلية في اشتداد الأمر وصعوبته. قال الفناري في تفسير سورة الفاتحة: فالساق التي كشفت لهم عبارة عن أمر عظيم من أهوال يوم القيامة.

ومنها: تنكير الساق لغرض الإبهام مبالغة في الدلالة على أنّه أمر مبهم في الشدّة منكر خارج عن المألوف المعتاد.

ومنها: المجاز العقلي، في قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾؛ لأنّ نسبة الخشوع إلى الأبصار مجاز عقلي، لأنّ ما في القلب يُعْرف من العين.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ لزيادة التقرير، أو لأن المراد بالسجود هنا الصلاة، وخص السجود حينئذٍ بالذكر؛ لأنّه أعظم أركانها.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾، سمى إمهاله إياهم ومرادفة النعم والآلاء عليهم كيداً، لأنّه سبب التورط والهلاك؛ لأنّ الكيد إيصال الضرر إلى الغير بطريق خفي.

ومنها: المجاز المرسل أيضاً في قوله: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: مملوء، لأنَّ اللوم في الحقيقة سبب للذم، فالعلاقة السببية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

تضمنت هذه السورة المقاصد التالية:

١ ـ محاسن الأخلاق النبوية إلى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

٢ ـ سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم من قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

٣ ـ ضرب المثل لهم بأصحاب الجنة من قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

٤ ـ تقريع المجرمين وتوبيخهم وإقامة الحجج عليهم.

٥ ـ تهديد المشركين المكذّبين بالقرآن بقوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ﴾ إلخ.

٦ ـ أمره ﷺ بالصبر على أذى المشركين حتى لا يكون كصاحب الحوت.

وصلى الله سبحانه وتعالى، وسلم على سيّدنا ونبينا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين[١].

والله أعلم

* * *

(١) قد تم الفراغ من تفسير هذه السورة الكريمة في تمام الساعة الخامسة من يوم السبت الرابع والعشرين من شهر صفر من شهور سنة ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة، في تاريخ: ٢٤/ ٢/ ١٤١٦ هـ.

سورة الحاقّة

سورة الحاقّة مكيّة، قال القرطبي: في قول الجميع، نزلت بعد سورة الملك. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس: نزلت سورة الحاقّة بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

مناسبتها لما قبلها من وجوه:

١ ـ أنّه[١] وقع في ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ﴾ ذكر يوم القيامة مجملاً، وهنا فصّل نبأه وذكر شأنه العظيم.

٢ ـ أنّه ذكر فيما قبلها من كذّب بالقرآن وما توعّده به، وهنا ذكر أحوال أمم كذبوا الرسل، وما جرى عليهم ليزدجر المكذّبون المعاصرون له ﷺ.

وعبارة أبي حيّان: مناسبتها لما قبلها[٢]: أنه لما ذكر شيئاً من أحوال السعداء والأشقياء وقال: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِۖ﴾، ذكر حديث القيامة، وما أعد الله تعالى لأهل السعادة، وأهل الشقاوة، وأدرج بينهما شيئاً من أحوال الذين كذّبوا الرسل: كعاد، وثمود، وفرعون. ليزدجر بذكرهم، وما جرى عليهم الكفّار الذين عاصروا رسول الله ﷺ. وكانت العرب عالمةً بهلاك عاد وثمود وفرعون، فقص عليهم ذلك.

وآياتها[٣]: إحدى أو اثنتان وخمسون آية، وكلماتها: مئتان وستّ وخمسون كلمة، وحروفها: ألف وأربع مئة وثمانون حرفاً. وسميت الحاقة لذكر الحاقة فيها.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم: سورة الحاقة كلها محكم، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: ومما يدل على فضلها ما أخرجه الطبراني عن أبي برزة: أنّ النبيّ ﷺ كان يقرأ في الفجر بالحاقّة ونحوها.

والله أعلم

* * *

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) الخازن.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَاقَّةُ (١) مَا ٱلْحَاقَّةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا
ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ
لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ
بَاقِيَةٍ (٨) وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠)
إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١٥) وَٱنشَقَّتِ
ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ
تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ (١٩) إِنِّى
ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا۟
وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ
كِتَـٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧) مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى
سُلْطَـٰنِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ (٣٢)
إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا
طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ (٣٧) فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ
لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢)
تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ
ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ
(٤٩) وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٥٢)﴾.

المناسبة

تقدّم لك ذكر مناسبة هذه السورة لما قبلها، وذكر سبحانه في بدايتها أنّ[1] يوم

---

(١) المراغي.

القيامة حق لا شك فيه، وأن الأمم التي عصت رسلها، وكذّبتهم أصابها الهلاك والاستئصال بألوان من العذاب، فثمود أهلكت بالصاعقة، وعاد أهلكت بريح صرصر عاتية، سلّطها عليهم سبع ليال وثمانية أيّام متتابعة، فصاروا صرعى كأنّهم أصول نخل جوفاء، لم يبق منهم ديار ولا نافخ نار، وكذلك أهلك فرعون وقومه بالغرق، وقوم لوط بالزلزال الشديد الذي قلب قراهم، وجعل عاليها سافلها، وأهلك قوم نوح بالطوفان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما قص هذه القصص الثلاثة، ونبه بها على ثبوت القدرة والحكمة، وبها ثبت إمكان وقوع يوم القيامة. . شرع يذكر تفاصيل أحوال هذا اليوم، وما يكون فيه من أهوال.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنهم يعرضون على الله ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم. . فصَّل أحكام هذا العرض، فأخبر بأن من يؤتى كتابه بيمينه يشتد فرحه حتى يقول لكل من لقيه: خذ كتابي واقرأه، لأنه يعلم ما فيه من خير وفضل من الله، ويقول: إني كنت أعلم أنَّ هذا اليوم آت لا ريب فيه، وأني سأحاسب على ما أعمل، وحينئذٍ يكون جزاؤه عند ربه جنة عالية ذات ثمار دانية، ويقال له ولأمثاله: كلوا واشربوا هنيئاً مما قدمتم لأنفسكم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر سرور السعداء بصحائف أعمالهم ثم بين حسن أحوالهم في معايشهم ومساكنهم. . أردف ذلك بذكر غمّ الأشقياء الكافرين وحزنهم بوضع الأغلال والقيود في أعناقهم وأيديهم وإعطائهم الغسلين طعاماً، ثم أعقبه بذكر سبب هذا، وهو أنهم كانوا لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحثّون على مساعدة ذوي الحاجة والبائسين.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا أقام الدليل على إمكان القيامة؛ ثم على وقوعها، ثم ذكر أحوال المؤمنين السعداء والكافرين الأشقياء. . أردف ذلك بتعظيم القرآن والرسول

المنزل عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤...﴾ إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أثبت أن القرآن تنزيل من رب العالمين، وليس بشعر ولا كهانة... أكد هذا بأن محمداً لا يستطيع أن يفتعله؛ إذ لو فعل ذلك لأبطلنا حجته وأمتنا دعوته، أو سلبناه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب، أو قتلناه فلم يستطع نشر الأكاذيب، وقد جرت سنتنا بأن كل متكلف للقول لا يقبل قوله، ولا يصغي السامعون إلى كلامه، كما قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾. ولا يستطيع أحد بعدئذٍ أن يدافع عنه.

ثم ذكر أن القرآن عظة لمن يتقي الله ويخشي عذابه، وأنه حسرة على الكافرين حينما يرون ثواب المؤمنين، وإنه لحق لا ريب فيه. ثم أمر رسوله بأن يقدس ربه ويشكره على ما آتاه من النعم، وعلى ما أوحى به إليه من القرآن العظيم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾... إلخ، قال مقاتل: سبب نزول هذه الآيات: أنّ الوليد بن المغيرة قال: إنّ محمداً ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عقبة: كاهن. فنزلت الآيات ردّا عليهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ هي من أسماء القيامة من حق الشيء إذا ثبت ووجب، أي: الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء. سمّيت الساعة حاقّة لوجوب مجيئها وثبوت وقوعها. وهو مبتدأ، و﴿مَا﴾ مبتدأ ثان ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ خبر للمبتدأ الثاني، والجملة خبر للمبتدأ الأول، والرابط تكرير المبتدأ بلفظه، هذا ما ذكروه في إعراب هذه الجملة ونظائرها؛ أي: الحاقة أي شيء هي في حالها وصفتها تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها.

ومقتضى التحقيق: أن تكون ﴿ما﴾ الاستفهامية خبراً لما بعدها، فإن مناط الفائدة بيان أن الحاقة أمر بديع وخطب فظيع، كما يفيده كون ﴿ما﴾ خبراً، لا بيان

أن أمراً بديعاً، الحاقة كما يفيده كونها مبتدأ وكون الحاقة خبراً، كذا في الإرشاد.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾؛ أي: وأيُّ شيء أعلمك يا محمد ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾؛ أي: جواب أي شي هي، فلا علم لك بحقيقتها؛ إذ بلغت من الشدة والهول أن لا يبلغها علم المخلوقين. وقوله: ﴿مَآ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ خبرها، وجملة ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ معطوفة على جملة ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾، و﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في موضع المفعول الثاني لـ ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾؛ والجملة[1] الكبرى تأكيد لهول الساعة وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علم المخلوقات على معنى، أن عظم شأنها ومدى هولها، وشدَّتها بحيث لا يكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه، وكيفما قدرت حالها، فهي أعظم من ذلك وأعظم، فلا يتسنى الإعلام. قال بعضهم: إنّ النبي ﷺ وإن كان عالماً بوقوعها ولكن لم يكن عالماً بكمال كيفيتها. ويحتمل أن يقال ذلك للنبي ﷺ إسماعاً لغيره.

قال المراغي[2]: وهذا أسلوب من الكلام يفيد التفخيم والمبالغة في الغرض الذي يساق له الكلام، فكأنه قيل: أي شيء هي في حالها وصفتها، فإن ﴿ما﴾ يسأل بها عن الصفة والحال لا عن الحقيقة. ثم زاد سبحانه في تفظيع شأنها وتفخيم أمرها وتهويل حالها، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾؛ أي: أي شي أعلمك ما هي، فهي خارجة عن دائرة علم المخلوقات لعظم شأنها، ومدى هولها وشدتها، فلا تبلغها دراية أحد، ولا وهمه، فكيفما قدرت حالها فهي فوق ذلك وأعظم؟. قال سفيان بن عيينة: كل ما في القرآن قال فيه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾، فإنه ﷺ أُخبر به، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾، فإنه لم يخبر به.

قال الواحدي[3]: الحاقة هي القيامة في قول كل المفسرين، وسمّيت بذلك؛ لأنّها ذات الحواق من الأمور، وهي الصادقة الواجبة الصدق، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود.

قال الكسائي والمؤرخ: الحاقة يوم الحقّ. وقيل: سميت بذلك؛ لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله، وقيل: سميت بذلك؛ لأنها أحقت لقوم النار

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

وأحقت لقوم الجنة.

ثم ذكر بعض الأمم التي كذبت بها، وما حاق بها من العذاب، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾؛ أي: قوم صالح، من الثمد، وهو الماء القليل الذي لا مادة له، لأنهم نازلون عليه. ﴿وَعَادٌ﴾؛ أي: قوم هود، وهي قبيلة أيضاً، وتمنع كما في «القاموس» ﴿بِالْقَارِعَةِ﴾؛ أي: بالقيامة، وهي من[1] جملة أسماء الساعة أيضاً. سميت بذلك؛ لأنها تقرع الناس؛ أي تضربهم بفنون الأفزاع والأهوال؛ أي: تصيبهم بها كأنها تقرعهم بها والسماء بالانشقاق والانفطار والأرض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار. ووضعت موضع ضمير الحاقة للدلالة على معنى القرع فيها زيادة في وصف شدتها، فإن في القارعة ما ليس في الحاقة من الوصف، يقال: أصابتهم قوارع الدهر؛ أي: أهواله وشدائده، قيل: منها قوارع القرآن للآيات التي تقرأ حين الفزع من الجن والإنس، لقرع قلوب المؤذين بذكر جلال الله والاستمداد من رحمته وحمايته، مثل: آية الكرسيّ ونحوها.

وفي الآية: تخويف لأهل مكة من عاقبة تكذيبهم بالبعث والحشر، وهذه الجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقّة.

ثم فصل ما نزل بكل أمة من العذاب، فقال:

١ - ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وكانوا عرباً، منازلهم بالحجر بين الشام والحجاز يراها حجاج الشام ذهاباً وإياباً. ﴿فَأُهْلِكُوا﴾؛ أي: أهلكهم الله سبحانه لتكذيبهم. فأخبر عن الفعل؛ لأنه المراد دون الفاعل؛ لأنه معلوم.

وقرأ الجمهور ﴿فَأُهْلِكُوا﴾ رباعياً مبنياً للمفعول. وقرأ زيد بن عليّ ﴿فهلكوا﴾ ثلاثياً مبنياً للفاعل، ذكره في البحر. ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾؛ أي: بالصيحة التي جاوزت عن حد سائر الصيحات في الشدّة، فرجفت منها الأرض والقلوب، وتزلزلت. فاندفع ما يقال من التعارض بين قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ والقصة واحدة.

٢ - ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾ وكانت منازلهم بالأحقاف، وهي الرمل بين عمان إلى

---

(١) روح البيان.

حضرموت واليمن، وكانوا عرباً أيضاً ذوي بسطة في الخلق، وكان أطولهم مئة ذراع، وأقصرهم ستين، وأوسطهم ما بين ذلك. وكان رأس الرجل منهم كالقبة يفرخ في عينيه ومنخره السباع. وتأخيره عن ثمود مع تقدّمهم زماناً من قبيل الترقّي من الضالّ الشديد إلى الأضلّ الأشدّ. ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ﴾ هي الدبور لقوله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور» ﴿صَرْصَرٍ﴾؛ أي: شديدة الصوت، لها صرصرة في هبوبها. أو شديدة البرد تحرق ببردها النبات والحرث، فإن الصر بالكسر: شدة البرد. ولم يقل: صرصرة كما قال: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ مع أن الريح مؤنثة، لأن الصرصر وصف مختص بالريح، فأشبه باب: حائض وطامث وحامل، بخلاف عاتية فإنها غير الريح من الأسماء المؤنثة يوصف به، ذكره في مشتبه القرآن. ﴿عَاتِيَةٍ﴾؛ أي: مجاوزة للحد في شدّة العصيان؛ كأنها عتت على خزانها، فلم يتمكنوا من ضبطها. والرياح مسخرة لميكائيل تهب بإذنه وتنقطع بإذنه، وله أعوان كأعوان ملك الموت.

روي[1]: أنه ما يخرج من الريح شيء إلا بقدر معلوم، ولما اشتد غضب الله على قوم عاد أصابتهم ريح خارجة عن ضبط الخزّان، ولذلك سمّيت ﴿عَاتِيَةٍ﴾. أو المعنى: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ على عاد فلم يقدروا على ردّها بحيلة من استتار ببناء أو لياذ بجبل أو اختفاء في حفرة، فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ التسخير: سوق الشيء إلى الغرض المختصّ به قهراً، والمسخر هو المقيض للفعل. والمعنى: سلط الله تلك الريح الموصوفة على قوم عاد بقدرته القاهرة كما شاء.

والظاهر: أن هذه الجملة صفة أخرى لـ ﴿ريح﴾، ويجوز أن تكون حالاً منها لتخصّصها بالصفة. وقيل: هي مستأنفة لدفع ما يتوهم من كونها باتصالات فلكيّة مع أنه لو كان كذلك.. لكان بتسبّبه وتقديره، فلا يخرج من تسخيره تعالى. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ﴾ منصوب على الظرفية لقوله: ﴿سَخَّرَهَا﴾، وذكر اسم العدد لكون المعدود مؤنثاً؛ لأن الليالي جمع ليلة، وهي مؤنثة، وتجمع الليلة على الليالي بزيادة الياء على غير القياس، فيحذف ياؤها حالة التنكير بالإعلال، مثل: الأهالي والأهال في

---

(١) روح البيان.

جمع أهل، إلا في حالة النصب نحو قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾؛ لأنّه غير منصرف، والفتح خفيف. ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ أنّث اسم العدد لكون المعدود مذكّراً، لأنّ الأيام جمع يوم، وهو مذكر. وهو معطوف على ﴿سَبْعَ لَيَالٍ﴾. ﴿حُسُومًاۖ﴾ جمع[1] حاسم كشهود جمع شاهد، وهو حال من مفعول ﴿سَخَّرَهَا﴾ بمعنى حاسمات. عبّر عن الريح الصرصر بلفظ الجمع لتكثرها باعتبار وقوعها في تلك الليالي والأيّام. وقال بعضهم: صفة لما قبله، والمعنى على الأول: حال كون تلك الريح متتابعات ما خفق هبوبها في تلك المدة ساعة حتى أهلكتهم تمثيلا لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكيّ على داء الدابة مرة بعد أخرى حتى ينحسم وينقطع الدم، فهو من استعمال المقيد في المطلق؛ إذ الحسم هو تتابع الكيّ. أو حسمات حسمت كل خير واستأصلته أو قاطعات قطعت دابرهم.

والحاصل: أن تلك الرياح فيها ثلاث حيثيات:

الأولى: تتابع هبوبها.

والثانية: كونها قاطعة لكل خير ومستأصلة لكل بركة أتت عليها.

والثالثة: كونها قاطعة دابرهم، فسميت حسماً بمعنى حاسمات إما تشبيهاً لها بمن يحسم الداء في تتابع الفعل؛ وإما لأن الحسم في اللغة: القطع والاستئصال وسمي السيف حساما لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته. وقرأ الجمهور ﴿حُسُومًاۖ﴾ بضم الحاء. وقرأ السدّي: ﴿حَسُوْمًا﴾ بفتحها، ومنه قول الشاعر:

فَأَرْسَلْتِ رِيْحاً دَبُوْراً عَقِيْمَا ... فَدَارَتْ عَلَيْهِمْ فَكَانَتْ حَسُوْمَا

قال ابن زيد: أي حسمتهم فلم تبق منهم أحداً. واختلف في أولها فقيل: غداة الأحد، وقيل: غداة الجمعة، وقيل: غداة الأربعاء لثمان بقين من شوال، وقيل: آخر أسبوع من شهر صفر إلى غروب الأربعاء الآخر، وهو آخر الشهر.

وتلك الأيام هي التي تسميها العرب أيام العجوز. وإنّما سميت عجوزاً لأن عجوزاً من عاد توارت في سرب؛ أي: في بيت في الأرض، فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها. وقيل: هي أيام العجز، وهي آخر الشتاء ذات برد ورياح

---

(١) روح البيان.

شديدة. فمن نظر إلى الأول قال: برد العجوز، ومن نظر إلى الثاني قال: برد العجز. وفي «روضة الأخيار»: رغبت عجوز إلى أولادها أن يزوجوها، وكان لها سبعة بنين، فقالوا لها: إلى أن تصبري على البرد عارية لكل واحد منا ليلة، ففعلت. فلما كانت في السابعة ماتت، فسميت تلك الأيام أيام العجوز. وأسماء هذه الأيام الصن، وهو بالكسر: أول أيام العجوز كما في «القاموس»: والصنبر وهي الريح الباردة، والثاني من أيام العجوز كما في «القاموس»، والوبر وهو ثالث أيام العجوز، والمعلل لمحدث وهو الرابع من أيّامها، ومطفىء الجمر وهو خامس أيام العجوز، أو رابعها كما في «القاموس»: وقيل: مكفىء الظعن؛ أي: مملبها، وهم جمع ظعينة، وهو الهودج فيه امرأة أم لا، والآمر والمؤتمر. قال في «القاموس»: آمر ومؤتمر: آخر أيام العجوز، قال الشاعر:

كَسَعَ ٱلشِّتَاءُ بِسَبْعَةٍ غَبَرِ ... أَيَّامَ شَهْلَتِنَا مِنَ الشَّهرِ
فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ شَهْلَتِنَا ... بِٱلصِّنّ والصِّنْبَرِ وٱلوَبَرِ
وَبَآمِرٍ وَأَخِيْهِ مؤتمر ... ومعللٍ وبمطفىء الجمرِ
ذهبَ الشتاءُ مُولياً هَرباً ... وأتتك موقدةٌ من الحرِ

قال في «الكواشي»: ولم يسم الثامن؛ لأنَّ هلاكهم وإهلاكهم كان فيه. وفي «عين المعاني»: إنّ الثامن هو مكفىء الظعن ثم قال في «الكواشي»: ويجوز أنها سميت أيام العجوز لعجزهم عما حل بهم فيها، ولم يُسمّ الثامن على هذا لإهلاكهم فيه، والذي لم يُسمّ هو الأول وإن كان العذاب واقعاً في ابتدائه، لأن ليلته غير مذكورة فلم يسم اليوم تبعاً لليلة؛ لأن التاريخ يكون بالليالي دون الأيام. فالصنُّ ثاني الأيام أول الأيام المذكورة لياليها انتهى.

يقول الفقير: وسرّ العدد أن عمر الدنيا بالنسبة إلى الإنس سبعة أيام من أيام الآخرة، وفي اليوم الثامن تقع القيامة ويعم الهلاك.

﴿فَتَرَى﴾ يا محمد أو يا من شأنه أن يرى ويبصر لو كنت حاضراً وقتئذٍ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾؛ أي: قوم عاد، فاللام للعهد. ﴿فِيهَا﴾ أي: في محال هبوب تلك الريح أو في تلك الليالي والأيام، ورجحه أبو حيان للقرب وصراحة الذكر. ﴿صَرْعَىٰ﴾؛ أي: موتى. جمع صريع كقتلى وقتيل، حال من القوم، لأنّ الرؤية بصرية. والصريع

بمعنى المصروع؛ أي: المطروح على الأرض الساقط عليها، لأن الصرع: الطرح، وقد صرعوا بموتهم. وجملة كأن في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في موضع الحال إما من القوم على قول من جوز حالين من ذي حال واحد أو من المنويّ في ﴿صَرْعَىٰ﴾ عند من لم يجوز ذلك؛ أي: ترى القوم حال كونهم مصروعين مشبهين بـ ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾؛ أي: بأصول نخل، كما قال في «القاموس». وأعجاز النخل أصولها انتهى. والنخل: اسم جنس مفرد لفظاً وجمع معنى، واحدتها: نخلة. ﴿خَاوِيَةٍ﴾؛ أي: متآكلة الأجواف خاليتها لا شيء فيها، بمعنى أنهم متساقطون على الأرض أمواتاً طوالاً غلاظاً كأنهم أصول نخل مجوفة بلا فروع. شبهوا بها من حيث إن أبدانهم خوت، وخلت من أرواحهم كالنخل الخاوية. وقيل: كانت الريح تدخل من أفواههم، فتخرج ما في أجوافهم من أدبارهم، فصاروا كالنخل الخاوية. وأصل الخوى: الخلاء، يقال: خوى بطنه من الطعام إذا خلا. وفيه إشارة إلى عظم خلقهم وضخامة أجسادهم، ولذا كانوا يقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وإلى أنّ تلك الريح أبلتهم فصاروا كالنخل الموصوفة. وقرأ أبو نهيك[1] ﴿أعجز﴾ على وزن أفعل كضبع وأضبع. وحكى الأخفش أنّه قرىء ﴿نخيل خاوية﴾. وقال ابن جريج: كانوا في سبعة أيام في عذاب ثم في الثامن ماتوا، وألقتهم الريح في البحر، فذلك قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ والاستفهام[2] لإنكار الرؤية. والباقية اسم كالبقية لا وصف والتاء للنقل إلى الاسميّة، و﴿مِّنۢ﴾ زائدة، و﴿بَاقِيَةٍ﴾ مفعول ترى. أي: ما ترى منهم بقية من صغارهم وكبارهم وذكورهم وإناثهم غير المؤمنين. ويجوز أن يكون صفة موصوف محذوف بمعنى نفس باقية أو مصدراً بمعنى البقاء كالكاذبة والطاغية. والبقاء: ثبات الشيء على الحالة الأولى، وهو يضاد الفناء.

ومعنى الآية: فترى قوم عاد في تلك السبع الليالي والثمانية الأيّام المتتابعة صرعى هالكين، كأنهم أصول نخل متأكلة الأجواف لم يبق منهم ولا من نسلهم أحد. وجاء في آية أخرى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾.

٣ - ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ﴾؛ أي: فرعون موسى. أفرده بالذكر لغاية علوّه واستكباره.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾؛ أي: ومن تقدمه من الكفرة غير عاد وثمود. فهو من قبيل التعميم بعد التخصيص. و﴿مَنْ﴾ موصولة، و﴿قبل﴾ نقيض بعد.

وقرأ أبو رجاء[1] وطلحة، والجحدري، والحسن بخلاف عنه، وعاصم في رواية أبان، والنحويّان: أبو عمرو والكسائي، ويعقوب ﴿ومِنْ قِبَلِه﴾ بكسر القاف وفتح الباء بمعنى: ومن معه من القبط من أهل مصر. وقرأ باقي السبعة، وأبو جعفر، وشيبة، والسلمي ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ بفتح القاف وسكون الباء؛ أي: ومن تقدمه من القرون الماضية والأمم الخالية. واختار[2] أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود وأبي ﴿ومن معه﴾، وقراءة أبي موسى الأشعري ﴿ومن تِلْقَاه﴾.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾؛ أي: وجاءت المؤتفكات؛ أي: أهل قرى قوم لوط؛ لأنّها عطفت على ما قبلها من فرعون. ومن قبله من[3] ائتفكت البلدة بأهلها؛ أي: انقلبت، والله تعالى قلب قرى قوم لوط عليهم، فهي المنقلبات بالخسف. وهي خمس قريات: صعبه، وسعده، وعمرة، ودوما، وسدوم وهي أعظم القرى. ثم هذا من قبيل التخصيص بعد التعميم للتتميم؛ لأنَّ قوم لوط أتوا بفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين. وقرأ الجمهور ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ بالجمع. وقرأ الحسن والجحدري ﴿والمؤتفكة﴾ بالإفراد، واللام للجنس، فهي في معنى الجمع.

والمعنى: وجاءت المؤتفكات ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾؛ أي: بالفعلة الخاطئة، أو بالأفعال ذات الخطأ العظيم التي من جملتها تكذيب البعث والقيامة. فالخاطئة على هذين صفة لمحذوف، ويكون الكلام من المجاز العقليّ كشعر شاعر، قاله مجاهد. أو بالخطأ فيكون الخاطئة مصدراً جاء على وزن فاعله كالعاقبة والكاذبة، قاله الجرجاني. والباء للملابسة أو التعدية، وهو الأظهر. والمراد أنّ هؤلاء الأمم المذكورة جاؤوا بالخاطئة؛ أي: بالشرك وأنواع المعاصي.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: فعصت كل أمة رسولها المرسل إليها حين نهاهم عما كانوا يتعاطونه من القبائح. فالرسول هنا بمعنى الجمع؛ لأن فعولاً وفعيلاً يستوي فيهما المذكر والمؤنث والواحد والجمع، فهو من مقابلة الجمع بالجمع

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

المستدعية لانقسام الآحاد على الآحاد، فالإضافة ليست للعهد بل للجنس.

﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ الله تعالى بالعقوبة، أي: أخذ كل قوم منهم ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾؛ أي: زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفّار، أو على القدر المعروف عند الناس لما زادت معاصيهم في القبح على معاصي سائرة الكفرة. والمعنى: فعاقبهم عقوبة شديدة أغرق من كذّب نوحاً، وهم كل أهل الأرض غير من ركب معه في السفينة، وحمل مدائن قوم لوط بعد أن نتقها من الأرض على متن الريح بواسطة من أمره بذلك من الملائكة، ثم قلبها وأتبعها بالحجارة، وخسف بها وغمرها بالماء المنتن الذي ليس في الأرض ما يشبهه. وأغرق فرعون وجنوده أيضاً في بحر القلزم أو في النيل، وهكذا عاقب كل أمة عاصية بحسب أعمالهم القبيحة، وجازاهم جزاء وفاقاً. وفي كل ذلك تخويف لقريش، وتحذير لهم عن التكذيب، وفيه عبرة موقظة لأولي الألباب.

والمعنى: وجاء فرعون ومن تقدمه من الأمم التي كفرت بآيات الله كقوم نوح وعاد وثمود، والقرى التي ائتفكت بأهلها، وصار عاليها سافلها بسبب خطيئتها ومعصيتها. ثم بين هذه الخطيئة بقوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: فعصى هؤلاء الذين تقدم ذكرهم رسل الله الذين أرسلوا إليهم، ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ وأذاقهم وبال أمرهم بعقوبة زائدة على عقوبة سائر الكفّار، كما زادت قبائحهم على قبائح غيرهم. ونحو الآية قوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ المعهود وقت الطوفان؛ أي: جاوز حدّه المعتاد حتى ارتفع على كلّ شيء خمس مئة ذراع، وقال بعضهم: ارتفع على أرفع جبل في الدنيا خمسة عشر ذراعاً. أو جاوز حدّه في المعاملة مع خزّانه من الملائكة بحيث لم يقدروا على ضبطه. وذلك الطغيان ومجاوزة الحدّ بسبب إصرار قوم نوح على فنون الكفر والمعاصي ومبالغتهم في تكذيبه فيما أوحي إليه من الأحكام التي من جملتها أحوال القيامة، فانتقم الله منهم بالإغراق. ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أيّها الناس، أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، فكأنّكم محمولون بأشخاصكم. وفيه تنبيه على المنّة في الحمل؛ لأنّ نجاة آبائهم سبب ولادتهم. ﴿فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ يعني: في سفينة نوح؛ لأنّ من شأنها أن تجري على الماء. والمراد بحملهم فيها رفعهم فوق الماء إلى انقضاء أيام الطوفان، لا مجرد رفعهم إلى السفينة كما يعرب عنه كلمة ﴿في﴾، فإنها ليست بعلّة

للحمل، بل متعلقة بمحذوف هو حال من مفعوله؛ أي: رفعناكم فوق الماء، وحفظناكم حال كونكم في السفينة الجارية بأمرنا، وحفظنا من غير غرق ولا خرق. وفيه تنبيه على أنّ مدار نجاتهم محض عصمته تعالى، وإنّما السفينة سبب صوري.

﴿لِنَجْعَلَهَا﴾؛ أي: لنجعل الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين ﴿لَكُمْ﴾ أيتها الأمة المحمدية ﴿تَذْكِرَةً﴾؛ أي: عبرةً ودلالةً على كمال قدرة الصانع وحكمته وقوة قهره وسعة رحمته. فضمير ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ إلى الفعلة والقصة بدلالة ما بعد الآية من الوعي، وقد أدرك السفينة أوائل هذه الأمّة، وكان ألواحها على الجوديّ أو لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم يا أمة محمد عبرةً وعظةً، تستدلّون بها على عظيم قدرة الله وبديع صنعه.

﴿وَتَعِيَهَآ﴾؛ أي: وتعي هذه القصة، وتحفظها ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾؛ أي: أذن من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه بتذكره والتفكر فيه، ولا تضيعه بترك العمل به. والوعي: أن تحفظ العلم، يقال: وعيت ما قلته؛ أي: حفظت، ومنه قوله ﷺ: «لا خير في العيش إلاّ لعالم ناطق ومستمع واع» والإيعاء: أن تحفظه في غير نفسك من وعاء، يقال: أوعيت المتاع في الوعاء، ومنه قوله ﷺ لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: «لا توعي فيوعي الله عليك أرضخي ما استطعت» قال الشاعر:

ٱلْـخَـيْـرُ يَـبْـقَـىٰ وَإِنْ طَـالَ ٱلـزَّمَـانُ بِـهِ ... وَٱلـشَّـرُّ أَخْـبَـثُ مَـا أَوْعَـيْـتَ مِـنْ زَادِ

ويقال: الوعي فعل القلب، ولكن الآذان تؤدي الحديث إلى القلوب الواعية، فنعتت الآذان بنعت القلوب. والتنكير والتوحيد حيث لم يقل: الآذان الواعية للدلالة على قلّتها، وأن من هذا شأنه مع قلته يتسبَّبُ لنجاة الجم الغفير وإدامة نسلهم. يعني: أنّ من وعى هذه القصة إنّما يعيها، ويحفظها لأجل أن يذكرها للناس ويرغّبهم في الإيمان المنجي، ويحذّرهم عن الكفر المردي، فيكون سبباً للنجاة والإدامة المذكورتين.

قال في «الكشاف»: الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالي بهم وإن ملَؤُوا ما بين الخافقين. وفي الحديث: «أفلح من جعل الله له قلباً واعياً». وروي: أنَّ النبي ﷺ قال لعلي: «إني دعوت الله أن يجعلها أذنك يا علي». قال علي كرم الله وجهه: فما سمعت شيئاً

فنسيته، وما كان لي أن أنسى إذ هو الحافظ للأسرار الإلهية، وقد قال: ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة. وفي رواية: أخذ بأذن عليّ بن أبي طالب وقال: هي هذه ذكره النقاش، ولكن لا يصح هذا الحديث.

والمعنى[١]: لنجعل نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين عظة وعبرة لكم لدلالتها على كمال قدرة الصانع وحكمته وسعة رحمته، وتفهمها أذن حافظة سامعة عن الله، فتنتفع بما سمعت من كتابه، ولا تضيع العمل بما فيه، وتبلغها إلى من يأتي بعد.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ بكسر العين وفتح الياء مخفّفة. وقرأ طلحة بن مصرف، وحميد، والأعرج، وأبو عمرو في رواية هارون، وخارجة، وقنبل بخلاف عنه بإسكان العين وفتح الياء مخفّفة. وقرأ حمزة بإخفاء الحركة ووجه الإسكان التشبيه في الفعل بما كان على وزن فعل في الاسم والفعل، نحو: كبد وفخذ وعلم وسمع. وتعي ليس على وزن فعل، بل هو مضارع وعي فصار إلى فعل، وأصله: يفعل حذفت واوه. وروي عن عاصم عصمة وحمزة الأرزق ﴿وتعيها﴾ بتشديد الياء. قيل: وهو خطأ، وينبغي أن يتأوّل على أنه أريد شدة بيان الياء احترازاً ممن سكنها لا إدغام حرف في حرف، ولا ينبغي أن يجعل ذلك من باب التضعيف في الوقف، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف وإن كان قد ذهب إلى ذلك بعضهم. وروي عن حمزة وعن موسى بن عبد الله العنسي ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ بإسكان الياء. فاحتمل الاستئناف، وهو الظاهر، واحتمل أن يكون مثل قراءة ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ بسكون الياء.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ وهذا شروع[٣] في بيان الحاقّة وكيفية وقوعها بعد بيان عظم شأنها بإهلاك مكذّبيها. والنفخ: إرسال الريح من الفم. والصور: قرن من نور أوسع من السماوات، ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله، فيحدث صوت عظيم، فإذا سمع الناس ذلك الصوت يصيحون، ثمّ يموتون إلاّ من شاء الله تعالى. والمصدر المبهم هو الذي يكون لمجرد التأكيد، وإن كان لا يقام مقام الفاعل فلا يقال: ضرب ضرب؛ إذ لا يفيد أمراً زائداً على مدلول الفعل، إلاّ أنه حسن إسناد الفعل في الآية إلى المصدر وهو النفخة لكونها نفخاً مقيداً بالوحدة

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

والمرة لا نفخاً مجرداً مبهماً.

والمراد بها ههنا: النفخة الأولى التي لا يبقى عندها حيوان إلاّ مات، ويكون عندها خراب العالم لما دل عليه الحمل والدك الآتيان. وفي «الكشاف»: فإن قلت: هما نفختان فلم قيل واحدة؟

قلت: معناه: أنها لا تثنى في وقتها انتهى. يعني. أنَّ حدوث الأمر العظيم بالنفخة، وعلى عقبها إنما استعظم من حيث وقوع النفخ مرة واحدة، لا من حيث إنه نفخ. فنبه على ذلك بقوله: «واحدة».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ بالرفع فيهما على أنَّ ﴿نَفْخَةٌ﴾ مرتفعة على النيابة، و﴿وَٰحِدَةٌ﴾ تأكيد لها. وحسن تذكير الفعل لوقوع الفصل؛ ولأنّ تأنيث النفخ مجازيٌّ. وقرأ أبو السمال بنصبهما على أن النائب هو الجار والمجرور، قال الزجاج: ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ يقوم مقام ما لم يسم فاعله.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾؛ أي: قلعت ورفعت من أماكنها بمجرد القدرة الإلهية أو بالريح العاصفة، فإن الريح من قوة عصفها تحمل الأرض والجبال كما حملت أرض وجود قوم عاد وجبال جمالهم مع هوادجها أو بواسطة الملائكة. وقرأ الجمهور ﴿وَحُمِلَتِ﴾ بتخفيف الميم، وابن أبي عبلة، وابن مقسم والأعمش، وابن عامر في رواية يحيى بتشديدها للتكثير أو للتعدية.

﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها، أو فضربت[2] الجملتان جملة الأرضين وجملة الجبال إثر رفعها بعضها ببعض ضربة واحدة بلا احتياج إلى تكرار الضرب وتثنية الدك حتى تندق وترجع كثيباًمهيلاً وهباء منبثاً. قال الفراء: ولم يقل: فدككن مع كونه مقتضى الظاهر لإسناد الفعل إلى الأرض والجبال، وهي أمور متعددة، لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة والأرض كذلك، فثنى الضمير نظيره.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ حيث لم يقل: كن. وقيل: ﴿دكتا﴾: بسطتا بسطةً واحدةً، ومنه: اندكّ سنام البعير إذا انفرش على ظهره.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

﴿فَيَوۡمَئِذٍ﴾؛ أي: فحينئذٍ، وهو منصوب بقوله: ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾؛ أي: قامت القيامة. فالواقعة اسم من أسماء القيامة بالغلبة لتحقق وقوعها، وبهذا الاعتبار أسند إليه ﴿وَقَعَتِ﴾؛ أي: إذا كان الأمر كذلك قامت القيامة التي توعدون بها أو نزلت النازلة العظيمة التي هي صيحة القيامة. وهو جواب لقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، و﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بدل، من ﴿إذا﴾، كرّر لطول الكلام، والعامل فيهما ﴿وَقَعَتِ﴾. ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: تشققت وانفرجت لنزول الملائكة لأمر عظيم أراده الله تعالى كما قال في آية أخرى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾. أو بسبب شدّة ذلك اليوم، وهو معطوف على ﴿وَقَعَتِ﴾. ﴿فَهِيَ﴾؛ أي السماء ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ انشقت ﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: ضعيفة مسترخية ساقطة القوة جداً كالغزل المنقوض بعد ما كانت محكمة مستمسكة، وإن كانت قابلة للخرق والالتئام.

ومعنى الآيات: فإذا نفخ إسرافيل النفخة الأولى التي عندها خراب العالم، ورفعت الأرض والجبال مِنْ أماكنها، ولا ندري كيف رفعت؛ لأنّ ذلك من أنباء الغيب، فقد يكون ذلك بريح يبلغ من قوة عصفها أن تحملهما أو أنَّ ملكاً يحملهما أو بقدرة الله من غير سبب ظاهر، أو بمصادمة بعض الأجرام كذوات الأذناب، فتنفصل الجبال؛ وترتفع من شدّة المصادمة، وترتفع الأرض من حيّزها، فضرب بعضهما ببعض ضربة واحدة حتى تقطعت أوصالها وصارتا كثيباً مهيلاً وهباء منبثاً، لا يتميز شيء من أجزائهما عن الآخر، فحينئذٍ تقوم القيامة وتتصدع السماء؛ لأنها يومئذٍ ضعيفة المنة كالعهن المنفوش بعد أن كانت شديدة الأسر عظيمة القوة.

﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾؛ أي: والملائكة ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾؛ أي: على جوانب السماء ينظرون إلى أهل الأرض، ولا ندري كيف ذلك، ولا الحكمة فيه؛ فندع تفصيل ذلك ونؤمن به، كما جاء في الكتاب ولا نزيد عليه.

ومعنى ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾؛ أي: الخلق المعروف بالملك، وهو أعم من الملائكة، ألا ترى إلى قولك: ما من ملك إلا وهو شاهد أعم من قولك: من ملائكة.

قال الزمخشري: فإن قلت[1]: ما الفرق بين قولك: والملك وبين أن يقال:

---

(١) الكشّاف.

والملائكة؟

قلت: الملك أعم من الملائكة ألا ترى أن قولك: ما من ملك إلا وهو شاهد أعم من قولك: ما من ملائكة انتهى. ولا يظهر[1] أن الملك أعم من الملائكة؛ لأن المفرد المحلى بالألف واللام الجنسية قصاراه أن يراد به الجمع المحلى بهما، ولذلك صح الاستثناء منه، فقصاراه أن يكون كالجمع المحلى بهما. وأما دعواه أنه أعم منه بقوله: ألا ترى إلخ، فليس دليلاً على دعواه؛ لأن (من ملك) نكرة مفردة في سياق النفي قد دخلت عليها (من) المخلصة للاستغراق، فشملت كل ملك، فاندرج تحتها الجمع لوجود الفرد فيه، فانتفى كل فرد فرد بخلاف من ملائكة فإن (من) دخلت على جمع منكر فعم كل جمع جمع من الملائكة، ولا يلزم من ذلك انتفاء كل فرد فرد من الملائكة. لو قلت: ما في الدار من رجال جاز أن يكون فيها واحد، لأن النفي إنما انسحب على جمع ولا يلزم من انتفاء الجمع أن ينتفي المفرد. والملك في الآية ليس في سياق نفي دخلت عليه ﴿مِنْ﴾، فيكون أعم من جمع دخلت عليه ﴿مِنْ﴾، وإنما جيء به مفرداً؛ لأنه أخف، ولأن قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآۚ﴾ يدل على الجمع لأن الواحد بما هو واحد لا يمكن أن يكون على أرجائها في وقت واحد بل في أوقات. والمراد ـ والله تعالى أعلم ـ أن الملائكة على أرجائها، لا أنه ملك واحد ينتقل على أرجائها في أوقات.

أي: جنس[2] الملك على أطرافها وجوانبها، وهي جمع رجا مقصور وتثنيته رجوان مثل: قفا وقفوان.

والمعنى: أنها لما تشققت السماء وهي مناسكنهم لجؤوا إلى أطرافها. قال الضحاك: إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت، وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الرب فينزلون إلى الأرض، ويحيطون بالأرض ومن عليها. وقال سعيد بن جبير: المعنى: والملك على حافات الدنيا؛ أي: ينزلون إلى الأرض، وقيل: إذا صارت السماء قطعاً تقف الملائكة على تلك القطع التي ليست متشققة في أنفسها. قالوا: وقوفهم لحظة على أرجائها وموتهم بعدها، فإن الملائكة يموتون عند النفخة الأولى لا ينافي التعقيب المدلول عليه بالفاء في قوله: ﴿فَهِىَ﴾.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ﴾ يا محمد. وهو الفلك التاسع، وهو جسم عظيم لا يعلم عظمه إلا الله تعالى. والفائدة[1] في ذكر العرش عقيب ما تقدم أن العرش بحاله خلاف السماء والأرض، ولذلك لا يفنى. وعن عليّ بن الحسن رضي الله عنهما قال: إن الله خلق العرش رابعة لم يخلق قبله إلا ثلاثة: الهواء، والقلم، والنور ثم خلق العرش من أنوار مختلفة من ذلك نور أخضر منه اخضرت الخضرة، ونور أصفر منه اصفرت الصفرة، ونور أحمر منه احمرت الحمرة، ونور أبيض وهو نور الأنوار، ومنه ضوء النهار. ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾؛ أي: فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء أو فوق الثمانية؛ أي: ويحملون العرش فوق أنفسهم، فالمحمول لا يلزم أن يكون فوق الحامل فقد يكون في يده، وقد يكون في جيبه، وكل واحد من قوله: ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾. و﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ ظرف لقوله: ﴿يحمل﴾، وأما على التقدير الأول فالظاهر أن ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ حال من ﴿ثَمَٰنِيَةٞ﴾ قدمت عليها لكونها نكرة. ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثَمَٰنِيَةٞ﴾ من الملائكة. وعن النبي ﷺ: «هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيّدهم الله بأربعة أخرى فيكون ثمانية».

وفي «الشوكاني»: أي يحمله[2] فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية أملاك. وقيل: ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عددهم إلاّ الله عز وجل. وقيل: ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة، قاله الكلبي وغيره انتهى. ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ العامل فيه قوله: ﴿تُعۡرَضُونَ﴾ على الله؛ أي:[3] تسألون وتحاسبون. عبّر عنه بذلك تشبيهاً له بعرض السلطان العسكر لتعرّف أحوالهم، يقال: عرض الجند إذاأمرهم عليه ونظر ما حالهم. والخطاب عامّ للكلّ على التغليب؛ أي: يومئذٍ يعرض العباد على الله لحسابهم، ومثله قوله: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾. وليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالماً به، وإنما هو عرض الاختبار والتوبيخ بالأعمال.

روي: أن في يوم القيامة ثلاث عرضات. فأما عرضتان فاعتذار واحتاج وتوبيخ، وأمّا الثالثة ففيها تنشر الكتب، فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك بشماله. أخرجه أحمد والترمذي بلفظ آخر. وهذا العرض، وإن كان بعد النفخة الثانية لكن لما كان اليوم اسماً لزمان متسع يقع فيه النفختان والصعقة والنشور والحساب

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

وإدخال أهل الجنة الجنة، وإدخال أهل النار النار صح جعله ظرفاً للكل، كما تقول: جئت عام كذا، وإنما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته.

وجملة قوله: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿تُعْرَضُونَ﴾، و﴿مِنكُمْ﴾ كان في الأصل صفة لـ ﴿خَافِيَةٌ﴾ فقدم للفاصلة، فتحول حالاً.

والمعنى: تعرضون على الله حال كونكم غير خاف عليه تعالى فعلة خفيّة منكم تخفونها عن غيركم؛ أي: سر من أسراركم، لأنّ العرض لإفشاء الحال والمبالغة في العدل، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾. فقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ يعلق بما قبله وبما بعده على التجاذب. قال في «الكشاف»: ﴿خَافِيَةٌ﴾؛ أي؛ سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا بستر الله عليكم، والسر والسريرة هو الذي يكتم ويخفى، فتظهر يوم القيامة أحوال المؤمنين، فيتكامل بذلك سرورهم وتظهر أحوال غيرهم فيحصل الحزن والافتضاح. ففي الآية زجر عظيم عن المعصية لتأديتها إلى الافتضاح على رؤوس الخلائق، فقلب الإنسان ينبغي أن يكون بحال لو وضع في طبق وأدير على الناس لما وجد فيه ما يورث الخجالة، وهو صفة أهل الإخلاص والنصيحة.

وقرأ الجمهور[(١)]: ﴿لَا تَخْفَىٰ﴾ بتاء التأنيث. وقرأ عليّ، وابن وثّاب، وطلحة، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وابن مقسم عن عاصم، وابن سعدان بالياء.

والمعنى[(٢)]: فيومئذٍ تحاسبون وتسألون لا يخفى على الله شيء من أموركـ، فإنه تعالى عليم بكل شيء لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، كما جاء في آية أخرى ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾. وفي هذا تهديد شديد، وزجر عظيم، ومبالغة لا تخفى، وفضيحة للكافرين، وسرور للمؤمنين بظهور ما كان خفيًّا عليهم من أعمالهم، وبذلك يتكامل حبورهم وسرورهم. وفي هذا العرض إقامة للحجة، ومبالغة في إظهار العدل.

أخرج الإمام أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجة، وابن مردويه

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله» وقال الترمذي: لا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ.

ولما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه، فقال: ﴿فَأَمَّا﴾ تفصيل لأحكام العرض ﴿مَنْ﴾ موصولة ﴿أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾؛ أي: أعطي مكتوبه الذي كتبت الحفظة فيه تفاصيل أعماله. ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ تعظيماً له؛ لأنّ اليمين يتيمن بها أخذاً وعطاء. والباء بمعنى في أو للإلصاق، وهو الأوجه، والمراد بهم الأبرار، فإن المقربين لا كتاب لهم، ولا حساب لهم لمكانتهم من الله سبحانه وتعالى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب، وله شعاع كشعاع الشمس، قيل له: فأين أبو بكر؟ فقال: هيهات زفته الملائكة إلى الجنة». يقول الفقير: لعل هذا مكافأة له حين أخذ سيفه بيده، وخرج من دار الأرقم وهو يظهر الإسلام على ملاء من قريش، فبسيفه ظهر الإسلام رضي الله عنه. دل الحديث على أن رتبة أبي بكر فوق رتبة غيره؛ لأن الصديقية تلي النبوة كما في حديث: «أثبت أحد فإنما عليك نبيّ وصديق وشهيدان» وكان عليه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فتحرك الجبل، فقال له ذلك.

﴿فَيَقُولُ﴾ فرحاً وسروراً، فإنه لما أوتي كتابه بيمينه.. علم أنه من الناجين من النار، ومن الفائزين بالجنة، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله. ﴿هَآؤُمُ﴾؛ أي: خذوا يا أهل بيتي وقرابتي وأصحابي كتابي، وتناولوه و﴿اقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ و«هاء» اسم فعل أمر بمعنى خذ، يقال: هاء يا رجل بفتح الهمزة وهاء يا امرأة بكسرها، هاؤما يا رجلان أو امرأتان، وهاؤم يا رجال وهاؤنّ يا نسوة بمعنى: خذ خذا خذوا خذي خذا خذن. وقد يكون فعلاً صريحاً لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها، وفيه ثلاث لغات كما هو معروف في علم الإعراب. ومفعوله هنا محذوف دل عليه مفعول ﴿اقْرَءُوا۟﴾ و﴿كتابي﴾ مفعول ﴿اقْرَءُوا۟﴾، لأنّه أقرب العاملين،

فهو أولى بالعمل في المذكور كما هو مذهب البصريّين لكونه بمنزلة العلة القريبة. وأصله: هاؤمو كتابي، واقرؤوا كتابي فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، نظيره قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾.

مبحث هاء السكت

والهاء في ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ للوقف والاستراحة والسكت، تثبت في الوقف وتسقط في الوصل، كما هو الأصل في هاء السكت؛ لأنّها إنّما جيء بها حفظاً للحركة؛ أي: لتحفظ حركة الموقوف عليه، إذ لولا الهاء لسقطت الحركة في الوقف، فتثبت حال الوقف، إذ لا حاجة إليها في حال الوصل، فلذلك كان حقّها أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل. إلاّ أن القراء السبعة اتفقوا في كل المواضع على إثباتها وقفاً ووصلاً إجراء للوصل مجرى الوقف، واتباعاً لرسم الإمام، فإنها ثابتة في المصحف في كل المواضع. وهي ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ و﴿حِسَابِيَهۡ﴾، و﴿مَالِيَهۡۜ﴾، و﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾، و﴿مَا هِيَهۡ﴾ في القارعة. وما كان ثابتاً فيه لا بدّ أن يكون مثبتاً في اللفظ، إلا أن حمزة أسقط الهاء من ثلاث كلم وصلاً، وهي: ﴿مَالِيَهۡۜ﴾ و﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ و﴿مَا هِيَهۡ﴾، وأثبتها وقفاً على الأصل، ولم يعمل بالأصل في ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ و﴿حِسَابِيَهۡ﴾، وأثبتها في الحالين جمعاً بين اللغتين. وتبين من هذا التقرير أن المستحب إيثار الوقف إتباعاً للوصل، وأن إثباتها وصلاً أنما هو لاتباع المصحف.

قال في «القاموس»: هاء السكت هي اللاحقة لبيان حركة أو حرف نحو: ﴿مَا هِيَهۡ﴾، وها هناه، وأصلها أن يوقف عليها، وربما وصلت بنية الوقف انتهى. وهذه الهاء لا تكون إلا ساكنة، وتحريكها لحن؛ أي: خطأ، لأنه لا يجوز الوقف على المتحرك. وهاء[1] السكت في القرآن في سبعة مواضع: في ﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾، وفي ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾، وفي ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾، وفي ﴿حِسَابِيَهۡ﴾، وفي ﴿مَالِيَهۡۜ﴾، وفي ﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾، وفي ﴿مَا هِيَهۡ﴾. وأما الهاء التي في ﴿ٱلۡقَاضِيَةَ﴾، وفي ﴿هَاوِيَةٞ﴾، وفي ﴿خَاوِيَةٌ﴾ و﴿ثَمَٰنِيَةٞ﴾ و﴿عَالِيَةٖ﴾ و﴿دَانِيَةٞ﴾، وأمثالها فللتأنيث فيوقف عليهن بالهاء يوصلن بالتاء.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾؛ أي: علمت وأيقنت ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾؛ أي: حساب أعمالي.

---

(١) روح البيان.

والحساب بمعنى المحاسبة، وهو عد أعمال العباد في الآخرة خيراً وشرّاً للمجازاة؛ أي: علمت وأيقنت في الدنيا أني مصادف حسابي في ديوان الحساب الإلهي، وأني أحاسب على أعمالي في الآخرة. والظن هنا بمعنى العلم واليقين، فإن الظن قد أتى بمعنى اليقين في مواضع كثيرة من القرآن:

منها: هذا الموضع.

ومنها: قوله تعالى حكاية: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾ وهم المؤمنون بالآخرة.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾؛ أي: علم وأيقن بالعلامة القوية، وقوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾. ولعل التعبير عن العلم بالظن للإشعار بأنه لا يقدح في الاعتقاد، وما يهجس في النفس من الخطرات التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً. يعني: أن الظن استعير للعلم الاستدلالي، لأنه لا يخلو عن الخطرات والوساوس عند الذهول عما قاد إليه من الدليل للإشعار المذكور. وفي «الكشاف»: وإنما أجري الظن مجرى العلم؛ لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام، ويقال: أظن ظناً كاليقين أن الأمر كيت وكيت.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كِتَابِيَهْ﴾ و﴿حِسَابِيَهْ﴾ في موضعيهما، و﴿مَالِيَهْ﴾ و﴿سُلْطَانِيَهْ﴾ وفي القارعة و﴿مَا هِيَهْ﴾ بإثبات هاء السكت وقفاً ووصلاً لمراعاة خط المصحف. وقرأ ابن محيصن بحذفها وصلاً ووقفاً وإسكان الياء، وذلك ﴿كتابي﴾ و﴿حسابي﴾ و﴿مالي﴾ و﴿سلطاني﴾، ولم ينقل ذلك فيما وقفت عليه في ﴿مَا هِيَهْ﴾ في القارعة وقرأ ابن أبي إسحاق والأعمش بطرح الهاء فيهما في الوصل لا في الوقف. وطرحها حمزة في ﴿مالي﴾ و﴿سلطاني﴾ و﴿ماهي﴾ في الوصل لا في الوقف وفتح الياء فيهن. وما قاله الزهراوي من أن إثبات الهاء في الوصل لحن لا يجوز عند أحد علته ليس كما قال، بل ذلك منقول نقل التواتر، فوجب قبوله.

ومعنى الآية[2]: أي فأما من أعطي كتابه بيمينه فيقول: تعالوا يا أصحابي اقرؤوا كتابي فرحاً به؛ لأنه لما أوتيه باليمين علم أنه من الناجين الفائزين بالنعيم؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

فأحب أن يظهره لغيره حتى يفرحوا بما نال. ثم ذكر العلة في حسن حاله فقال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾؛ أي: إني فرح مسرور الآن، لأنّي علمت في الدنيا أن ربي سيحاسبني حساباً يسيراً، وقد حاسبني كذلك، فالله عند ظن عبده به. قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك. وقال مجاهد: ظن الآخرة يقين، وظن الدنيا شك. وقال الحسن في الآية: إنّ المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل للآخرة، وإن الكافر أساء الظن بربه فأساء العمل لها.

ثم بين عاقبة أمره، فقال: ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: من أوتي كتابه بيمينه ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: في عيشة وحياة مرضية لا مكروهة، أو في عيشة ذات رضى يرضاها صاحبها؛ أي: من يعيش فيها. وفي «التأويلات النجمية»: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾: هنيئة مريئة صافية عن شوائب الكدر طاهرة عن نوائب الحذر.

وقوله: ﴿فِي عِيشَةٍ﴾؛ أي: في نوع فخيم من العيش. والعيش[1] بالفتح وكذا العيشة والمعاش والمعيش: الحياة المختصة بالحيوان، وهو أخص من الحياة؛ لأن الحياة تقال في الحيوان وفي البازي وفي الملك، ويشتق منه المعيشة لما يتعيش منه. ﴿رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: ذات رضى يرضاها صاحبها على معنى النسبة بالصيغة، فإن النسبة نسبتان نسبة بالحرف كمكي ومدني، ونسبة بالصيغة كلابن وتامر بمعنى ذي لبن وذي تمر. ويجوز أن يجعل الفعل لها، وهو لصاحبها، فيكون من قبيل الإسناد المجازي. ومآل الوجهين كون العيشة مرضية.

وكون العيشة مرضية لاشتمالها على أمور ثلاثة:

الأول: كونها منفعة صافية عن الشوائب.

والثاني: كونها دائمة لا يترقب زوالها وانقطاعها.

والثالث: كونها بحيث يقصد بها تعظيم من رضي بها وإكرامه، وإلا يكون استهزاء واستدراجاً. وعيشة من أعطيَ كتابه بيمينه جامعة لهذه الأمور الثلاثة، فتكون مرضيًّا كمال الرضا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعيشون فلا يموتون،

---

(١) روح البيان.

ويصحون فلا يمرضون، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً.

والمعنى: فهو يعيش عيشة مرضية خالية مما يكدرها مع دوامها، وما فيها من إجلال وتعظيم.

ثم فصل ذلك بقوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: مرتفعة المكان؛ لأنها في السماء كما أن النار سافلة، لأنها تحت الأرض. أو مرتفعة الدرجات أو الأبنية والأشجار، فيكون عالية من الصفات الجارية على غير من هي له، وهو بدل من ﴿عِيشَةٍ﴾ بإعادة الجار. ويجوز كونه متعلقاً بـ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: يعيش عيشاً مرضيًّا في جنة عالية. ﴿قُطُوفُهَا﴾؛ أي: ثمرات تلك الجنة، جمع قطف بالكسر، وهو ما يقطف ويجتنى بسرعة، والقطف بالفتح مصدر. قال سعدي المفتي: اعتبار السرعة في مفهوم القطف محل خلاف، قال ابن الشيخ: معنى السرعة قطع الكل بمرّة. وفي «القاموس»: القطف بالكسر: العنقود، واسم للثمار المقطوفة انتهى. فلا حاجة إلى أن يقال: غلب هنا في جميع ما يجتني من الثمر عنباً كان أو غيره. ﴿دَانِيَةٌ﴾؛ أي: قريبة من مريدها وآخذها، ينالها القائم والقاعد والمضطجع من غير تعب ولا كدّ. وقيل معناه: لا يتأخّر إدراكها انتهى. وإذا أراد أن تدنو إلى فيه دنت بخلاف ثمار الدنيا، فإن في قطفها وتحصيلها تعباً ومشقة غالباً، وكذا لا تؤكل إلا بمزاولة اليد. يقول الفقير: أشجار الجنة على صورة الإنسان. يعني: أن أصل الإنسان رأسه، وهي في طرف العلو، ورجله فرعه مع أنها في طرف السفل، فكذلك أصول أشجار الجنة في طرف العلو، وأغصانها متدلية إلى جانب السفل، ولذا لا يرون تعباً في القطف على أن نعيم الجنة تابع لإرادة المتنعم به، فيصرف فيه كيف يشاء من غير مشقّة.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مقول لقول مضمر، والجمع بعد قوله: ﴿فَهُوَ﴾ باعتبار المعنى، والأمر أمر امتنان وإباحة لا أمر تكليف ضرورة أنَّ الآخرة ليست بدار تكليف. وجمع بين الأكل والشرب؛ لأن أحدهما شقيق الآخر فلا ينفك عنه، ولذا لم يذكر هنا الملابس، وإن ذكرت في موضع آخر. والمعنى؛ أي: يقال لمن أوتي كتابه بيمينه: كلوا من طعام الجنة وثمارها واشربوا من شرابها مطلقاً. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ أي: أكلاً وشرباً هنيئاً؛ أي: سائغاً لا تنغيص فيه في الحلقوم، وجعل الهنيء صفة لهما؛ لأن المصدر يتناول المثنى أيضاً، من هنؤ الطعام والشراب؛

أي: صار هنيئاً سائغاً. وإسناد الهناءة إلى الأكل والشرب مجاز للمبالغة، لأنّها للمأكول والمشروب. وقولهم: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ عند شرب الماء ونحوه بمعنى صحة وعافية؛ لأن السائغ محظوظ منه بسبب الصحة والعافية غالباً. ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾؛ أي: بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة أو بدله أو بسببه. ومعنى الإسلاف في اللغة: تقديم ما ترجو أن يعود عليك بخير، فهو كالإقراض، ومنه: يقال: أسلف في كذا إذا قدم فيه ماله، وأسلم. ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾؛ أي: الماضية في الدنيا. وعن مجاهد: أيام الصيام، فيكون المعنى: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله في أيام الصيام لا سيما في الأيام الحارة، وهو الأولى، لأن الجزاء لا بد وأن يكون من جنس العمل وملائماً له.

والمعنى: أي ويقول لهم ربهم جل ثناؤه: كلوا يا معشر من رضيت عنه فأدخلته جنتي من ثمارها وطيب ما فيها من الأطعمة، واشربوا من أشربتها أكلاً وشرباً هنيئاً، لا تتأذون بما تأكلون وما تشربون جزاء من الله وثواباً على ما قدمتم في دنياكم لآخرتكم من العمل بطاعتي.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ﴾ وأعطي ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾؛ أي: كتاب أعماله ﴿بِشِمَالِهِۦ﴾ تحقيراً له، لأنّ الشمال يتشاءم بها بأن تلوى يساره إلى خلف ظهره، فيأخذه بها، ويرى ما فيه من قبائح الأعمال. ﴿فَيَقُولُ﴾ تحزّناً وتحسّراً وخوفاً مما فيه من السيئات، وهو من قبيل الألم الروحانيّ الذي هو أشدّ من الألم الجسمانيّ. ﴿يا﴾ هؤلاء يا معشر المحشر ﴿ليتني﴾ من التمني بالمحال؛ أي: أتمنّى أنّي ﴿لَمْ أُوتَ﴾ مضارع مبني للمتكلم المجهول من الإيتاء بمعنى لم أعط. ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾؛ أي: كتابي هذا الذي جمع جميع سيئاتي. ﴿وَلَمْ أَدْرِ﴾ مضارع مبني للمتكلم المعلوم من الدراية بمعنى العلم، أي: ولم أعلم ﴿مَا حِسَابِيَهْ﴾؛ أي: أيّ شيء حسابي من ذكر العمل وذكر الجزاء عليه، لأن كله عليه. فـ﴿ما﴾ استفهامية علق بها الفعل عن العمل، ويجوز أن تكون موصولة بتقدير المبتدأ في الصلة. ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ تكرير للتمني وتجديد للتحسر، أي: يا هؤلاء ليت الموتة التي متّها وذقتها ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾؛ أي: القاطعة لحياتي وأمري، ولم أبعث بعدها، ولم ألق ما ألقى. والمعنى: أنه تمنّى دوام الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب، فالضمير في ﴿ليتها﴾ يعود إلى الموتة التي قد كان ماتها، وإن لم تكن مذكورة، لأنها لظهورها كانت كالمذكورة.

قال قتادة: تمنى الموت ولم يكن في الدنيا شيء عنده أكره منه، وشر من الموت ما يطلب منه الموت. قال الشاعر:

وَشَــرٌّ مِــنَ ٱلْـمَـوْتِ ٱلَّـذِيْ إِنْ لَـقِـيْـتَـهُ   تَـمَـنَّـيْـتَ مِـنْـهُ ٱلْـمَـوْتَ وَٱلْـمَـوْتُ أَعْـظَـمُ

وقيل: الضمير يعود إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب.

والمعنى: يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضيت عليّ، يتمنى أن يكون بدل تلك الحالة الموتة القاطعة للحياة، لما أنه وجد تلك الحالة أمر من الموت، فتمناه عندها، وكان في الدنيا أشد كراهية للموت.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى﴾؛ أي: لم يدفع عنّي شيئاً من عذاب الآخرة على أنّ ﴿مَا﴾ نافية، والمفعول محذوف. ﴿مَالِيَهْ﴾؛ أي: الشيء الذي كان لي في الدنيا من المال والأتباع، على أنّ ﴿ما﴾ موصولة، واللام جارة داخلة على ياء المتكلم ليعم مثل الأتباع، فإنه إذا كان اسماً مضافاً إلى ياء المتكلم لم يعم. وفي «الكشاف»: ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ نفي واستفهام على وجه الإنكار؛ أي: أيّ شيء أغنى عنّي ما كان لي من اليسار انتهى. حتى ضيعت عمري فيه؛ أي: لم ينفعني ولم يدفع عنّي شيئاً من العذاب. فـ﴿مَآ﴾ استفهامية منصوبة المحل على أنها مفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾.

يقول الفقير: الظاهر أنَّ ﴿مَالِيَهْ﴾ هو المال المضاف إلى ياء المتكلم؛ أي: لم يغن عنّي المال الذي جمعته في الدنيا شيئاً من العذاب، بل ألهاني عن الآخرة وضرّني، فضلاً عن أن ينفعني. وذلك ليوافق قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾، وقوله: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾، وقوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ وأنظار ذلك. فما ذهب إليه أكثر أهل التفسير من التعميم عدول عمّا ورد به ظاهر القرآن.

﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ والسلطان يطلق على الملك والتسلّط على الناس، ويطلق على الحجة. والمعنى على الأول: ذهب ملكي وتسلّطي على الناس، وبقيت فقيراً ذليلاً. وعلى الثاني: ضلّت عني حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا عليهم. ورجح هذا المعنى بأن من أوتي كتابه بشماله لا اختصاص له بالملوك بل هو عام لجميع أهل الشقاوة. يقول الفقير قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾ يدل على الأول على أنّ فيه تعريضاً بنحو الوليد من رؤساء قريش وأهل ثروتهم. ويجوز أن

يكون المعنى: ذهب عنّي تسلّطي على القوى والآلات، فعجزت عن استعمالها في العبادات، وذلك لأنّ كل أحد كان له سلطان على نفسه وماله وجوارحه، يزول في القيامة سلطانه فلا يملك لنفسه نفعاً.

وقوله: ﴿خُذُوهُ﴾ حكاية لما يقول الله سبحانه يومئذٍ لخزنة النار، وهم الزبانية الموكّلون على عذابه. والهاء راجع إلى ﴿من﴾ الثاني؛ أي: يقول سبحانه لخزنة جهنم: خذوا هذا العاصي الذي أعطي كتابه بشماله ﴿فَغُلُّوهُ﴾ بلا مهلة؛ أي: أجمعوا يديه إلى عنقه بالقيد والحديد وشدّوه بالأغلال، جمع غلّ، وهو بالضمّ: الطوق من حديد الجامع لليد إلى العنق المانع من تحرك الرأس. ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: أدخلوه الجحيم لا غيرها، وهي النار العظيمة. دل التقديم على التخصيص، والمعنى: لا تصلّوه؛ أي: لا تدخلوه إلا الجحيم، ولا تحرقوه إلا فيها، وهي النار العظمى، ليكون الجزاء على وفق المعصية حيث كان يتعظم على الناس. قال سعدي المفتي: فيكون مخصوصاً بالمتعظمين، وفيه بحث انتهى. وقد مر جوابه عند قولنا: بأن من أوتي كتابه بشماله لا اختصاص له بالملوك بل هو عام لجميع أهل الشقاوة.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ من نار، وهي حلق منتظمة كل حلقة منها في حلقة، والجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾، والفاء ليست بمانعة من التعلق. ﴿ذَرْعُهَا﴾؛ أي: ذرع تلك السلسلة؛ أي: قياسها وقدر طولها. والذراع ككتاب: ما يذرع به حديداً أو قضيباً. وفي «المفردات»: والذراع: العضو المعروف، ويعبر عن المذروع والممسوح، ويقال: ذراع من الثوب والأرض. وقوله: ﴿ذَرْعُهَا﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿سَبْعُونَ﴾ والجملة في محل الجر على أنها صفة لـ ﴿سِلْسِلَةٍ﴾، وقوله: ﴿ذِرَاعًا﴾ تمييز لاسم العدد، منصوب به. ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾؛ أي: فأدخلوه. فالسلك: هو الإدخال في الطريق والخيط والقيد وغيرها.

ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ الدلالة على تفاوت ما بين العذابين الغل وتصلية الجحيم وما بينهما، وبين السلك في السلسلة في الشدّة، لا على تراخي المدة. يعني: أن ﴿ثُمَّ﴾ أخرج عن معنى المهلة لاقتضاء مقام التهويل ذلك؛ إذ لا يناسب التوعد بتفرق العذاب. قال ابن الشيخ[1]: إن كلمتي: ثم والفاء، إن كانتا لعطف جملة ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾

---

(١) روح البيان.

لزم اجتماع حرفي العطف وتواردهما على معطوف واحد، ولا وجه له، فينبغي أن تكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لعطف مضمر على مضمر قبل قوله: ﴿خُذُوهُ﴾؛ أي: قيل لخزنة النار: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ ثم قيل لهم: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ فيكون الفاء لعطف المقول على المقول مع إفادة معنى التعقيب، وكلمة ثم لعطف القول على القول مع الدلالة على أن الأمر الأخير أشد وأهول مما قبله من الأوامر مع تعاقب المأمور بها من الأخذ، وجعل يده مغلولة إلى عنقه وتصلية الجحيم وسلكهم إياه السلسلة الموصوفة.

والمعنى: فأدخلوه فيها بأن تلقوها على جسده، وتجعلوه محاطاً بها، فهو فيما بينها مرهق مضيق عليه، لا يستطيع حراكاً مّا، كما روِي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أهل النار يكونون في السلسلة كما يكون الثعلب في الجلبة. والثعلب: طرف خشبة الرمح الداخل في الجلبة. والجلبة: السنان. والسلسلة: الدرع. وذلك أنّما يكون رهقا؛ أي: غشية.

قال أبو حيان[1]: وأما ﴿ثُمَّ﴾ فيمكن بقاؤها على موضوعها من المهلة الزمانية، وأنه أولاً يؤخذ فيغل، ولما لم يعذب بالعجلة صارت له استراحة، ثم جاء تصلية الجحيم فكان ذلك أبلغ في عذابه، إذ جاءه ذلك وقد سكنت نفسه قليلاً، ثم جاء سلكه بعد ذلك بعد كونه مغلولاً معذّباً في النار، لكنه كان انتقال من مكان إلى مكان فيجد بذلك بعض تنفس، فلما سلك في السلسلة كان ذلك أشد ما عليه من العذاب حيث صار لا حراك له ولا انتقال وأنه يضيق عليه غاية التضييق، فهذا يصح فيه أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ على موضوعها من المهلة الزمانية انتهى.

وتقديم[2] السلسلة على السلك كتقديم الجحيم على التصلية في الدلالة على الاختصاص والاهتمام بذكر ألوان ما يعذب به، أي: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة؛ لأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم. ووصفها بسبعين ذراعاً لإرادة المبالغة في طولها، وإن لم تبلغ هذا العدد، كما قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ يريد مرات كثيرة لا خصوص العدد المذكور؛ لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد، فهو كناية عن زيادة الطول لشيوع استعمال السبعة والسبعين والسبع مئة في

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

التكثير. ويجوز أن يراد ظاهره من العدد. وقال ابن عباس وابن جريج، ومحمد بن المنكدر بذراع الملك. وقال نوف البكالي: كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان نوف في رحبة مسجد الكوفة. وهذا يحتاج إلى نقل صحيح. قال الحسن: الله أعلم بأيّ ذراع هي. وقيل: بالذراع المعروف عندنا، وإنّما خوطبنا بما نعرفه ونحصله. وعن كعب: لو جمع حديد الدنيا. ما وزن حلقة منها، ولو وضعت منها حلقة على جبل.. لذاب مثل الرصاص تدخل السلسلة في فيه وتخرج من دبره، ويلوى فضلها على عنقه وجسده، ويقرن بها بينه وبين شيطانه.

يقول الفقير: هذا يقتضي أن يكون ذلك عذاب الكافر؛ لأن جسده يكون في العظم مسيرة ثلاثة أيام، وضرسه مثل جبل أحد كما ورد في الحديث.

والمعنى(١): أي فيقال لخزنة جهنم: خذوه فضعوا الغل في عنقه، ثم أدخلوه في النار الموقدة كفاء كفره بالله واجتراحه عظيم الآثام، ثم أدخلوه في سلسلة طولها سبعون ذراعاً تلف على جميع جسمه حتى لا يستطيع تحركاً ولا انفلاتاً، والعرب إذا أرادت الكثرة عبرت بالسبعة والسبعين والسبع مئة والمقصود إثبات أنها طويلة المدى.

ثم بين سبب استحقاق هذا العذاب، فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن هذا الكافر ﴿كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وصفه تعالى بالعظيم للإيذان بأنه المستحق للعظمة فحسب، فمن نسبها إلى نفسه استحق أعظم العقوبات. والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ما له يعذب بهذا العذاب الشديد؟ فأجيب: بأنه كان لا يؤمن بالله العظيم. والمعنى: افعلوا ذلك به جزاء له على كفره بالله في الدنيا وإشراكه به سواه وعدم القيام بحق عبادته وأداء فرائضه. ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: ولا يحثّ الناس على إطعام المسكنة والحاجة فضلاً عن بذل المال لهم. والحضّ: الحث على الفعل بالحرص على وقوعه. والمراد من الطعام(٢) العين، ولا بد من تقدير مضاف مثل: إعطاء أو بذل، لأن الحث والتحريض لا يتعلق بالأعيان بل بالأحداث، وأضيف الطعام إلى المسكين من حيث أن له إليه نسبة. والمعنى: ولا يحث أهله وغيرهم على إعطاء طعام يطعم به الفقير فضلاً عن

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أن يعطي ويبذل من ماله. أو المعنى: ولا يحثهم على إطعامه على أن يكون الطعام اسماً وضع موضع الإطعام، كما يوضع العطاء موضع الإعطاء، كما قال الشاعر:

أَكُـفْـراً بَـعْـدَ رَدِّ ٱلْـمَـوْتِ عَـنِّـيْ وَبَـعْـدَ عَـطَـائِـكَ ٱلْـمِـئَـةَ ٱلـرِّتَـاعَـا

أي: بعد إعطائك. فالإضافة حينئذٍ إلى المفعول، وذكر الحضّ دون الفعل، ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل. يعني: يكون ترك الفعل أشد في أن يكون سبب المؤاخذة الشديدة. وجعل حرمان المسكين قرينة للكفر، حيث عطفه عليه للدلالة على عظم الجرم، فتخصيص الأمرين بالذكر لما أن أقبح العقائد الكفر، وأشنع الرذائل البخل. والعطف للدلالة على أن حرمان المسكين صفة الكفرة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾. فلا يلزم أن يكون الكفار مخاطبين بالفروع.

وقال ابن الشيخ(١): فيه دليل على تكليف الكفار بالفروع على معنى أنهم يعاقبون على ترك الامتثال بها كعدم إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والانتهاء عن الفواحش والمنكرات، لا على معنى أنّهم يطالبون بها حال كفرهم، فإنهم غير مكلفين بالفروع بهذا المعنى لانعدام أهلية الأداء فيهم. لأن مدار أهلية الأداء هو استحقاق الثواب بالأداء، ولا ثواب لأعمال الكفّار، وأهلية الوجوب لا تستلزم أهلية الأداء، كما تقرر في الأصول انتهى.

والحاصل: أن الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذة لا غير.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين، وكان يقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها الآخر بالإطعام والحضّ عليه؟

والمعنى(٢): أنّه لا يحث نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين، وفي جعل هذا قريناً لترك الإيمان بالله من الترغيب في الصدقة على المساكين، وسدّ

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

فاقتهم وحثّ النفس والناس على ذلك ما يدل أبلغ دلالة ويفيد أكمل فائدة على أن منعهم من أعظم الجرائم وأشد المآثم.

﴿فَلَيْسَ لَهُ﴾؛ أي: لذلك الكافر ﴿الْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم، وهو يوم القيامة ﴿هَاهُنَا﴾؛ أي: في هذا المكان، وهو مكان الأخذ والغلّ. ﴿حَمِيمٌ﴾؛ أي: قريب نسباً أو وداً يحيمه ويدفع عنه العذاب ويحزن عليه، لأنّ أولياءه يتحامونه ويفرون منه كقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾. وقال في «عين المعاني»: قريب يحترق له قلبه من حميم الماء. وقال الفاشانيّ: لاستيحاشه من نفسه فكيف لا يستوحش منه غيره وهو من تتمة ما يقال للزبانية في حقه إعلاماً بأنه محروم من الرحمة وحثًّا لهم على بطشه. ﴿وَلَا طَعَامٌ﴾ له ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ والغسلين فعلين من الغسل، وفي «القاموس»: الغسلين بالكسر: ما يغسل من الثوب ونحوه كالغسالة، وما يسيل من جلود أهل النار، والشديد الحرّ، وشجر في النار انتهى. والمعنى: وليس له طعام يأكله إلا من غسالة أهل النار وما يسل من أبدانهم من الصديد والدم بعصر قوة الحرارة الناريّة منهم.

روي: «أنه لو وقعت قطرة منه على الأرض.. لأفسدت على الناس معايشهم».

وقوله: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ صفة لـ ﴿غِسْلِينٍ﴾. والتعبير[1] بالأكل باعتبار ذكر الطعام؛ أي: لا يأكل ذلك الغسلين إلاّ الآثمون أصحاب الخطايا، وهم المشركون، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما. ويحتمل أن يراد بهم الذين يتخطون الحق إلى الباطل، ويتعدون حدود الله تعالى من خطىء الرجل من باب علم إذا تعمد الخطأ؛ أي: الذنب، فالخاطىء هو الذي يفعل ضدّ الصواب متعمداً لذلك، والمخطىء هو الذي يفعله غير متعمد؛ أي: يريد الصواب فيصير إلى غيره من غير قصد، كما يقال: المجتهد يخطىء وقد يصيب. وفي «عين المعاني»: الخاطئون طريق التوحيد. وقرأ الجمهور[2] ﴿الْخَاطِئُونَ﴾ بالهمز اسم فاعل من خطىء، وهو الذي يفعل ضدّ الصواب متعمداً لذلك كما ذكرنا آنفاً. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، وطلحة، ونافع بخلاف عنه ﴿الخاطون﴾ بضمّ الطاء دون همز، فالظاهر اسم فاعل

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

من خطىء كقراءة من همز.

وقال الزمخشري: ويجوز أن يراد الذين يتخطّون الحق إلى الباطل، ويتعدون حدود الله انتهى. فيكون اسم فعل من خطا يخطو كقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ من خطا إلى المعاصي يخطو.

فإن قلت: كيف التوفيق بين[1] قوله: ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ وبين قوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾، وفي أخرى ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾، وفي أخرى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؟

قلت: لا منافاة إذ يجوز أن يكون طعامهم جميع ذلك، أو أن العذاب أنواع والمعذبون طبقاتٌ. فمنهم أكلة غسلين، ومنهم أكلة الضريع، ومنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة النار. لكل منهم جزء مقسوم.

وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: بما تشاهدونه من المبصرات ﴿و﴾ بـ ﴿ما لا تبصرون﴾؛ أي: بما لا تشاهدونه من المغيبات. ردّ لكلام[2] المشركين، كأنّه قال: ليس الأمر كما تقولونه من كون القرآن شعراً أو كهانة، فأقسم إنه لقول رسول كريم... إلخ. ﴿فَلَآ﴾ زائدة. قال قتادة: أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر، فيدخل في هذا جميع المخلوقات. وقيل: إنّ ﴿لا﴾ ليست زائدة بل هي لنفي القسم؛ أي: لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحق في ذلك. والأول أولى. وقال بعضهم: الكلام[3] جملتان، و﴿لا﴾ نافية لمحذوف والتقدير: وما قاله المكذبون فلا يصح إذ هو قول باطل ثمّ قال: أقسم بما تبصرون، وما لا تبصرون. يعني[4]: بما ترون وتشاهدون وبما لا ترون وما لا تشاهدون أقسم بالأشياء كلها، فيدخل فيه جميع المكوّنات والموجودات. وقيل: أقسم بالدنيا والآخرة، وقيل: بما تبصرون يعني: على ظهر الأرض وما لا تبصرون؛ أي: ما في بطنها. وقيل: بما تبصرون يعني: الأجسام وما لا تبصرون يعني: الأرواح. وقيل: بما تبصرون يعني: الإنس وما لا تبصرون يعني: الملائكة والجنّ. وقيل: بما تبصرون من النعم

---

(١) فتح الرحمن.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) الخازن.

الظاهرة وما لا تبصرون من النعم الباطنة. وقيل: بما تبصرون هو ما أظهره الله لملائكته من مكنون غيبه من الملكوت واللوح، والقلم وجميع خلقه وما لا تبصرون هو ما استأثر الله بعلمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه. والإقسام بغير الله إنّما نهي عنه في حقّنا، وأما هو تعالى فيقسم بما شاء على ما شاء.

ثم ذكر المقسم عليه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ هذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾؛ أي: لتلاوة نبيّ مرسل منّا إليكم ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى، وهو محمد ﷺ. فهو في غاية الكرم الذي هو البعد عن مساوىء الأخلاق، بإظهار معاليها لشرف النفس وشرف الإباء. وكرم الشيء اجتماع الكمالات اللائقة به فيه. يدل على هذا المعنى مقابلة رسول بشاعر وكاهن؛ لأنَّ المعنى على إثبات أنه رسول لا شاعر ولا كاهن، ولم يقولوا لجبريل: شاعر ولا كاهن. وقيل: المعنى: أنّه لتبليغ ملك مرسل منّا إلى محمد ﷺ كريم عظيم عند الله تعالى، هو جبريل عليه السلام، وما هو من تلقاء محمد كما تزعمون وتدعون أنه شاعر أو كاهن. ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾. وعلى كلا التقديرين فالقرآن ليس من قول محمد ﷺ، ولا من قول جبريل عليه السلام بل هو قول الله فلا بدّ من تقدير التلاوة أو التبليغ كما قدرنا.

فإن قلت[1]: قد توجه ههنا سؤال، وهو أن جمهور الأمّة، وهم أهل السنة مجمعون على أن القرآن كلام الله، فكيف يصح إضافته إلى الرسول؟.

قلت: أما إضافته إلى الله تعالى فلأنّه هو المتكلم به، وأما إضافته إلى الرسول؛ فلأنّه هو المبلغ عن الله تعالى ما أوحي إليه، ولهذا أكّده بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ليزول هذا الإشكال. قال ابن قتيبة: لم يرد أنّه قول الرسول وإنّما أراد أنّه قول الرسول المبلّغ عن الله تعالى، وفي ﴿الرسول﴾ ما يدل على ذلك، فاكتفى به عن أن يقول: عن الله تعالى.

﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: وما هذا القرآن ﴿بِقَوْلِ﴾ رجل ﴿شَاعِرٍ﴾ ولا هو من ضروب الشعر ولا تركيبه كما تزعمون ذلك تارةً. والشاعر: هو الذي يأتي بكلام مقفى

---

(١) الخازن.

موزون بقصد الوزن. ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إيماناً قليلاً تؤمنون بالقرآن وكونه كلام الله أو بالرسول، وكونه مرسلاً من الله تعالى، والمراد بالقلة: النفي، أي: لا تؤمنون أصلاً كقولك لمن لا يزورك: قلّما تأتينا وأنت تريد لا تأتينا أصلاً. يقول الفقير: يجوز عندي أن تكون قلة الإيمان باعتبار قلة المؤمن بمعنى أنّ القليل منكم يؤمنون، وقس عليه نظائره. وقال بعضهم[1]: المراد بالإيمان القليل إيمانهم واستيقانهم بأنفهسم، وقد جحدوا بألسنتهم لا معنى النفي. وقال بعضهم: إن كان المراد منه الإيمان الشرعي فالتقليل للنفي، وإن كان اللغوي فالتقليل على حاله؛ لأنهم كانوا يصدقون ببعض أحكام القرآن كصلة الرحم وإطعام الجائع والعفاف ونحوها، ويكذّبون ببعضها كالتوحيد والرسالة والبعث ونحوها، وعلى هذا التذكر.

والحاصل: أن القرآن كلام الله حقيقة أظهره في اللوح المحفوظ وكلام جبريل أيضاً من حيث إنه أنزله من السماوات إلى الأرض، وتلاه على خاتم النبين، وكلام سيد المرسلين أيضاً من حيث إنه أظهره للخلق، ودعا الناس إلى الإيمان به وجعله حجة لنبوته.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما تدعون ذلك تارةً أخرى ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تتفكرون؛ أي: تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تتذكرون، و﴿ما﴾ زائدة؛ أي: لا تتذكرون أصلاً، فالقلة بمعنى النفي كسابقه. وقرأ الجمهور بالتاء في الفعلين لمناسبة ﴿تُبْصِرُونَ﴾. وقرأ ابن كثير[2] وابن عامر، ويعقوب بالياء فيهما التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة. قال مقاتل: سبب نزول هذه الآية أنّ الوليد بن المغيرة قال: إنّ محمداً ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عقبة: كاهن. فردّ الله عليهم بذلك كما مر.

والكاهن[3]: هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان، ويدّعي معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب. وفي «كشف الأسرار»: الكاهن هو الذي يزعم أنَّ له خدماً من الجن يأتونه بضرب من الوحي، وقد انقطعت الكهانة بعد نبيّنا محمد ﷺ؛ لأنّ الجنَّ حبسوا ومنعوا من الاستماع انتهى.

وقال الراغب في «المفردات»: الكاهن هو الذي يخبر بالأخبار الماضية الخفية

---

(١) روح البيان. (٢) البيضاوي. (٣) روح البيان.

بضرب من الظنّ كالعرّاف الذي يخبر بالأخبار المستقبلة على نحو ذلك. ولكون هاتين الصناعتين مبنيتين على الظن الذي يخطىء ويصيب قال ﷺ: «من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدّقه بما قال.. فقد كفر بما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ». وفي «شرح المشارق» لابن الملك: العرّاف من يخبر بما أخفي من المسروق، ومكان الضالّة، والكاهن: من يخبر بما يكون في المستقبل. وفي «الصحاح»: العرّاف هو الكاهن.

فإن قلت: لِمَ خص ذكر الإيمان مع نفي الشاعريّة والتذكر مع نفي الكاهنيّة؟

قلت: إن عدم مشابهة القرآن الشعر أمر بين لكونه نثراً لا ينكره إلا معاند فلا مجال فيه لتوهم عذر لترك الإيمان، فلذلك وبخوا عليه وعجب منه بخلاف مباينته للكهانة، فإنها تتوقف على تذكر أحواله ﷺ ومعاني القرآن المنافية لطريقة الكهنة ومعاني أقوالهم، فالكاهن ينصب نفسه للدلالة على الضوائع والإخبار بالمغيبات يصدق فيها تارة ويكذب كثيراً، ويأخذ جعلاً على ذلك ويقتصر على من يسأله، وليس واحد منها من دأبه ﷺ.

والحاصل: أنّ(١) الكاهن من يأتيه الشياطين، ويلقون إليه من أخبار السماء، فيخبر الناس بما سمعه منهم، وما يلقيه ﷺ من الكلام مشتمل على ذم الشياطين وسبهم، فكيف يمكن أن يكون ذلك بإلقاء الشياطين، فإنهم لا ينزلون شيئاً فيه ذمهم وسبهم لا سيما على من يلعنهم ويطعن فيهم، وكذا معاني ما يلقيه ﷺ منافية لمعاني أقوال الكهنة، فإنهم لا يدعون إلى تهذيب الأخلاق وتصحيح العقائد والأعمال المتعلقة بالمبدأ والمعاد، بخلاف معاني قوله ﷺ. فلو تذكر أهل مكة معاني القرآن ومعاني أقوال الكهنة.. لما قالوا بأنّه ﷺ كاهن. وفي «برهان القرآن»: خص ذكر الشعر بقوله: ﴿مَا تُؤْمِنُونَ﴾ لأن من قال: القرآن شعر ومحمد شاعر بعد ما علم اختلاف آيات القرآن في الطول والقصر واختلاف حروف مقاطعه، فلكفره وقلة إيمانه، فإن الشعر كلام موزون مقفى. وخص ذكر الكهانة بقول: ﴿مَا تَذَكَّرُونَ﴾، لأن من ذهب إلى أن القرآن كهانة، وأن محمداً ﷺ كاهن فهو ذاهل عن ذكر كلام الكهان، فإنه أسجاع لا معاني تحتها، وأوضاع تنبو الطباع عنها، ولا يكون في

---

(١) روح البيان.

كلامهم ذكر الله انتهى. قال أبو السعود في «الإرشاد»: وأنت خبير بأن ذلك أيضاً مما لا يتوقف على تأمل قطعاً انتهى. أي: فتعليلهم بالفرق غير صحيح، وفيه أن الإنابة شرط للتذكر كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾. والكافر ليس من أهل الإنابة، وأيضاً ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: أولو العقول الزاكية والقلوب الطاهرة، والكافر ليس منهم فليس من أهل التذكر، ولا شك أن كون الشيء أمراً بينا لا ينافي التذكر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ مع أن شواهد الألوهية ظاهرة لكل بصير باهرة عندكل خبير على أنه يظهر من تقريراتهم أنه لا بد من التذكر في نفي الكهانة لخفاء أمرها في الجملة بالنسبة إلى الشعر، والعلم عند الله العلام.

وحاصل معنى الآيات: فأقسم لكم بالأشياء كلها ما يبصر منها، وما لا يبصر إن هذا القرآن كلام الله سبحانه ووحيه أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، وما هو بقول شاعر؛ لأنَّ محمداً لا يحسن قول الشعر. تؤمنون بذلك القرآن إيماناً قليلاً، والمراد أنهم لا يؤمنون أصلاً، أو يؤمنون بقلوبهم قليلاً، ثم يرجعون عنه سريعاً، ولا بقول كاهن كما تزعمون؛ لأنه سب الشياطين وشتمهم فلا يمكن أن يكون بإلهامهم، ولكنكم لما لم تستطيعوا فهم أسرار نظمه قلتم من كلام الكهّان.

ثم أكد ما تقدم بقوله: ﴿تَنزِيلٌ﴾؛ أي: بل كتاب منزل ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وإله الأوّلين والآخرين، أنزله على لسان جبريل تربية للسعداء وتبشيراً لهم وإنذاراً للأشقياء، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾. فعبر عن اسم المفعول بالمصدر مبالغة.

وقرأ[(١)] ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو بخلاف عنهما، والجحدريّ، والحسن ﴿يؤمنون﴾، ﴿يذكرون﴾ بالياء فيهما، وباقي السبعة بتاء الخطاب. وقرأ أبيّ ﴿تتذكرون﴾ بتاءين كما مرّ بعضه قريباً نقلاً عن «البيضاوي». وقرأ الجمهور ﴿تَنزِيلٌ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو تنزيل. وأبو السّمال ﴿تنزيلا﴾ بالنصب على المصدرية بإضمار فعل؛ أي: نزل تنزيلاً. والمعنى: أنه لقول رسول كريم، وهو تنزيل من رب العالمين على لسانه.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ ذلك الرسول، وهو محمد ﷺ أو جبريل عليه السلام على ما تقدم. والتقوّل: تكلّف القول؛ أي: اختلق ﴿عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ كما يتقوله الشعراء؛ أي[1]: ولو ادعى محمد علينا شيئاً لم نقله كما تزعمون كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾. وفي ذكر البعض إشارة إلى أن القليل كاف في المؤاخذة الآتية فضلاً عن الكثير. سمّي الافتراء تقولا وهو بناء التكلف، لأنه قول متكلف كما قال صاحب «الكشاف»: التقول افتعال القول واختراعه من عند نفسه، لأنّ فيه تكلفاً من المفتعل. وسميت[2] الأقوال المفتراة أقاويل تحقيراً لها؛ لأنَّ صيغة أفعولة إنما تطلق على محقرات الأمور وغرائبها كالأعجوبة مما يتعجب منه، والأضحوكة لما يضحك منه، وكان الأقاويل جمع أقوولة من القول وإن لم يثبت عن نقلة اللغة، ولم يكن أقوولة مستعملاً لكن كونه على صورة جمع أفعولة كاف في التحقير. ويؤيد أنه ليس جمع الأقوال لزوم أن لا يعاقب بما دون ثلاثة أقوال، فالأقاويل ههنا بمعنى الأقوال لا أنه جمعه. وفي «حواشي ابن الشيخ»: الظاهر أن الأقاويل جمع أقوال كأناعيم جمع أنعام جمع نعم، وأبابيت جمع أبيات جمع بيت.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ بوزن تفعل مبنياً للفاعل. والتقول: أن يقول الإنسان عن آخر، إنه قال شيئاً لم يقله. وقرأ ذكوان وابن محمد ﴿يقول﴾ مضارع قال، وهذه القراءة معترضة بما صرحت به قراءة الجمهور، وقرىء ﴿ولو تُقُول﴾ مبنياً للمفعول، وحذف الفاعل، وقام المفعول مقامه، وهو ﴿بعض﴾ إن كان قرىء مرفوعاً، وإن كان قرىء منصوباً فـ﴿علينا﴾ قام مقام الفاعل.

والمعنى: ولو تقول علينا متقول ولا يكون الضمير في ﴿تقول﴾ عائداً على الرسول محمد ﷺ لاستحالة وقوع ذلك منه، فنحن نمنع أن يكون ذلك على سبيل الفرض في حقه ﷺ، ذكره في «البحر».

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ﴾ حال من قوله: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾؛ أي[4]: لأخذنا بيده اليمين منه. قال ابن جرير: إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب. وقال الفراء والمبرد والزجاج وابن قتيبة: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾؛ أي:

---

(1) روح البيان.
(2) روح البيان.
(3) البحر المحيط.
(4) الشوكاني.

بالقوة والقدرة. قال ابن قتيبة: وإنما أقام اليمين مقام القوة؛ لأنّ قوة كل شيء في ميامنه، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

إِذَا مَـارَايَـةٌ نُـصِـبَـتْ لِـمَـجْـدِ   تَـلَـقَّـاهَـا عَـرَابَـةُ بِـٱلْـيَـمِـيْـنِ

وقول الآخر:

وَلَـمَّـا رَأَيْـتُ ٱلـشَّـمْـسَ أَشْـرَقَ نُـوْرُهَـا   تَـنَـاوَلْـتُ مِـنْـهَـا حَـاجَـتِـيْ بِـٱلْـيَـمِـيْـنِ

وفي «البحر»: والظاهر أن قوله: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ المراد به الجارحة، فقال الحسن: المعنى: قطعناه عيرةً ونكالاً، والياء على هذا زائدة، وقيل: الأخذ على ظاهره انتهى. وفي «المفردات»: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ أي: منعناه ودفعناه، فعبر عن ذلك بالأخذ باليمين كقولك: خذ بيمين فلان انتهى. وقيل: اليمين بمعنى القوة، فالمعنى: لانتقمنا منه بقوتنا وقدرتنا. وقيل المعنى حينئذٍ: لأخذنا منه اليمين وسلبنا منه القوة والقدرة على التكلم بذلك، على أن الباء صلة؛ أي: زائدة. وعبر عن القوة باليمين؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه كما مر، فيكون من قبيل ذكر المحل، وإرادة الحال، أو ذكر الملزوم وإرادة اللازم.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: نياط قلبه بضرب عنقه. والنياط: عرق أبيض غليظ كالقصبة، علق به القلب تصادفه شفرة الناحر، إذا انقطع مات صاحبه. ولم يقل: لأهلكناه أو لضربنا عنقه؛ لأنه تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه، وهو أن يأخذ القتال بيمينه ويكفحه أي: يواجهه بالسيف، ويضرب عنقه. فإنه إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جيده؛ أي عنقه وأن يكفحه؛ أي: يواجهه بالسيف، وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه، فلذا خص اليمين دون اليسار.

قال الزمخشري: والمعنى: ولو ادعى مدعٍ علينا شيئاً لم نقله.. لقتلناه صبراً كما تفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معالجة بالسخط والانتقام، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول، وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته.

ومعنى الآية(١): أي ولو افترى محمد علينا بعض الأقوال الباطلة، ونسبها

---

(١) المراغي.

إلينا. . لعاجلناه بالعقوبة وانتقمنا منه أشد الانتقام، والأخذ باليمين يكون عند ضرب الرقبة وإزهاق الروح، وقد جرى ذكر هذا على التمثيل بما يفعله الملوك بمن يتكذب عليهم، فإنهم لا يمهلونه بل يضربون رقبته على الفور، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، وهو عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر، والمراد أنه لو كذب علينا. . لأزهقنا روحه. . فكان كمن قطع وتينه.

﴿فَمَا مِنكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾؛ أي: عن القتل أو عن المقتول، وهو متعلق بقوله: ﴿حَٰجِزِينَ﴾؛ أي: دافعين. فهو وصف لأحد، فإنه عام لوقوعه في سياق النفي، إذ هو في معنى الجماعة، فيقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كما جاء في قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾، وقوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. فـ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾[1] في محل الرفع بالابتداء، و﴿مِّنْ﴾ زائدة لتأكيد النفي، و﴿مِنكُم﴾ خبره، و﴿حَٰجِزِينَ﴾ صفة لـ﴿أَحَدٍ﴾.

والمعنى: فما منكم قوم يحجزون؛ أي: يمنعون ويدفعون عن المقتول أو عن قتله وإهلاكه المدلول عليه بقوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: لا يقدر أحد على الحجز والدفع عنه، فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم مع علمه أنه لو تكلف ذلك. . لعاقبناه ولا تقدرون على الدفع عنه. وهذا مبنيّ على أصل لغة بني تميم، فإنهم لا يعملون ﴿ما﴾ لدخولها على القبيلتين الاسم والفعل، وقد يجعل ﴿حَٰجِزِينَ﴾ خبراً لـ ﴿ما﴾ على اللغة الحجازية، ولعله أولى. فتكون كلمة ﴿ما﴾ هي المشبهة بليس، فـ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ اسم ﴿ما﴾، و﴿حَٰجِزِينَ﴾ خبرها، منصوب، و﴿مِنكُم﴾ حال مقدم وكان في الأصل صفة لـ﴿أَحَدٍ﴾. وفي الآية تنبيه على أنَّ النبي ﷺ لو قال من عند نفسه شيئاً أو زاد أو نقص حرفاً واحداً على ما أوحي إليه. . لعاقبه الله، وهو أكرم الناس عليه، فما ظنك بغيره ممن قصد تغيير شيء من كتاب الله بتأويله أو قال شيئاً من قبل نفسه؟ كما ضل بذلك بعض الفرق الضالة.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن هذا القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: لموعظة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: للذين اتقوا الشرك والمعاصي وحب الدنيا، فإنه يتذكر بهذا القرآن وينتفع به بخلاف المشركين، ومن مال إلى الدنيا وغلبه حبها، فإنه يكذّب به ولا ينتفع به. ﴿وَإِنَّا

---

(١) روح البيان.

﴿لَنَعْلَمُ﴾ في الأول ﴿أَنَّ مِنكُم﴾ أيها الناس ﴿مُّكَذِّبِينَ﴾ بالقرآن، فنجازيهم على تكذيبهم. قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: ما أشد هذه الآية على هذه الأمة. وفي الآية وعيد شديد لا يخفى. والظاهر[1]: أن قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ وما بعده معطوف على جواب القسم، فهو من جملة المقسم عليه، وما بينهما اعتراض اهـ شيخنا.

والمعنى: أي وإنّ هذا القرآن.. لعظة وذكرى لمن يخشى عقاب الله فيطيع أوامره وينتهي عما نهى عنه. وخص المتقين بالتذكرة والعظة؛ لأنّهم هم الذين ينتفعون بها. ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ له بسبب حبكم للدنيا وحسدكم للداعي، وإنا لنجازيكم على ذلك بما تستحقون إظهاراً للعدل.

والخلاصة: أنّ منكم من اتقى الله فتذكر بهذا القرآن وانتفع به، ومنكم من مال إلى الدنيا فكذب به وأعرض عنه.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن هذا القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ﴾ وندامة ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المكذبين له يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين المصدقين به، أو حسرة عليهم في الدنيا حين رأوا دولة المؤمنين أو حين لم يقدروا على معارضته عند تحديهم بأن يأتوا بأقصر سورة من مثله. ويجوز[2] أن يعود الضمير إلى التكذيب المدلول عليه بقوله ﴿مُّكَذِّبِينَ﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن هذا القرآن ككونه من عند الله ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾؛ أي: للحق اليقين الذي لا يحول حوله ريب، ولا يتطرق إليه شك في أنه من عند الله، لم يتقوله محمد ﷺ. فالحق واليقين صفتان بمعنى واحد، أضيف أحدهما إلى الآخر إضافة الشيء إلى نفسه كحب الحصيد للتأكيد، فإن الحق هو الثابت الذي لا يتطرق إليه الريب، وكذا اليقين.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾؛ أي: فسبح الله سبحانه وتعالى يا محمد ونزهه عما لا يليق به بذكر اسمه العظيم بأن تقول سبحان الله تنزيهاً له عن الرضى بالتقول عليه وشكراً له على ما أوحى به إليك من هذا القرآن الجليل الشأن. فمفعول سبح محذوف، والباء في ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ للاستعانة[3] كما في ضربته

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

بالسوط، فهو مفعول ثان بواسطة حرف الجر على حذف المضاف، و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة الاسم، ويحتمل أن يكون صفة ﴿رَبِّكَ﴾، و﴿اسم﴾ مقحم، ويؤيده ما روى: أنّ رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: «اجعلوها في ركوعكم». فالتزم ذلك بعض العلماء، كما في «فتح الرحمن». وفي «التأويلات النجمية»: نزه تنزيهاً وقدس عن التشبيه اسم ربك؛ أي: مسمى ربك؛ إذ الاسم عين المسمى عند أرباب الحق وأهل الذوق انتهى. وقيل: إن لفظة ﴿بِٱسْمِ﴾ زائدة. وعبارة «الخازن»؛ أي: نزه ربك العظيم، واشكره على أنْ جعلك أهلاً لأن يوحى إليك تأمل، انتهت.

الإعراب

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾.

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ مبتدأ أوّل أو صفة لمحذوف؛ أي: القيامة الحاقة أو الساعة الحاقة. ﴿مَا﴾ اسم استفهام تعظيمي في محل الرفع مبتدأ ثان، ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ خبر لـ ﴿ما﴾ الاستفهامية، والجملة خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول جملة كبرى في ضمنها جملة صغرى مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ اسم استفهام للتعظيم أيضاً في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والكاف مفعول أول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ ﴿مَا﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مستأنفة. ﴿مَا﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ خبر لـ ﴿مَا﴾، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني والثالث لـ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾، لأنّ أدرى بمعنى أعلم، ينصب ثلاثة مفاعيل، وقد علّقت ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ عن العمل بالاستفهام.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ فعل وفاعل، ﴿وَعَادٌۢ﴾ معطوف على ثمود، ﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾ متعلق بـ ﴿كَذَّبَتْ﴾ والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحوال الحاقة. ﴿فَأَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن ثمود وعاداً كذبتا، وأردت بيان عاقبة تكذيبهما فأقول لك. ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل، ﴿ثَمُودُ﴾ مبتدأ، ﴿فَأُهْلِكُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أمّا﴾، واقعة في

غير موضعها؛ لأن موضعها موضع أما، حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿أهلكوا﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة ونائب فاعل، ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ متعلق بـ ﴿أهلكوا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر جواب ﴿أما﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانيًّا، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل ﴿عَادٌ﴾ مبتدأ، ﴿فَأُهۡلِكُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أمّا﴾، وجملة ﴿أهلكوا﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿أمّا﴾ وجملة ﴿أمّا﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أمّا﴾ الأولى. ﴿بِرِيحٖ﴾ متعلق بـ ﴿أهلكوا﴾، ﴿صَرۡصَرٍ﴾ صفة أولى لريح، ﴿عَاتِيَةٖ﴾ صفة ثانية لها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾﴾.

• ﴿سَخَّرَهَا﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الله تعالى، ومفعول به، ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلق بـ ﴿سَخَّرَهَا﴾، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثالثة لـ ﴿ريح﴾، ولكنها سببية، ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿سَخَّرَهَا﴾، ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ معطوف عليه، ﴿حُسُومٗاۖ﴾ صفة لـ ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ﴾. ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾؛ أي: متتابعات أو منصوب على المصدرية بفعل محذوف من لفظه؛ أي: تحسمهم حسوماً أو حال من مفعول ﴿سَخَّرَهَا﴾؛ أي: ذات حسوم. ﴿فَتَرَى﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ترى﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمّد ﷺ، أو على من يصلح للخطاب، ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿سَخَّرَهَا﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿ترى﴾، والضمير على الليالي والأيّام أو على الريح، ﴿صَرۡعَىٰ﴾ حال من القوم؛ لأن الرؤية هنا بصرية ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾ خبره ومضاف إليه، ﴿خَاوِيَةٖ﴾ صفة ﴿نَخۡلٍ﴾، وجملة ﴿كأن﴾ في محل النصب حال ثانية من القوم. ﴿فَهَلۡ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿هل﴾ حرف استفهام للاستفهام الإنكاري، ﴿تَرَىٰ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد أو على؛ أي مخاطب، ﴿لَهُم﴾ متعلق بـ ﴿تَرَىٰ﴾، ﴿مِّنۢ﴾ زائدة، ﴿بَاقِيَةٖ﴾ مفعول ﴿ترى﴾، أي: من نفس باقية، والجملة مستأنفة.

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾

إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على سابقها، ﴿وَمَن﴾ معطوف على ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾، ﴿قَبۡلَهُۥ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صلة من الموصولة، ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ معطوف أيضاً على ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾، ﴿بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ متعلق بـ ﴿جاء﴾، ﴿فَعَصَوۡاْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿عصوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿جاء﴾، ﴿رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾ مفعول به، ﴿فَأَخَذَهُمۡ﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، معطوف على ﴿عصوا﴾. ﴿أَخۡذَةٗ﴾ مفعول مطلق، ﴿رَّابِيَةً﴾ صفة لـ ﴿أَخۡذَةٗ﴾؛ لأنها مصدر مّرة، وليست مصدر هيئة، وإنما يستفاد معنى الهيئة من الصفة. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمَّا﴾ اسم شرط غير جازم، أو ظرفية بمعنى حين، ﴿طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾، ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، أو في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿لَمَّا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ متعلق بـ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ﴾، ﴿لِنَجۡعَلَهَا﴾ اللام حرف جرّ وتعليل، ﴿نجعلها﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة، ﴿لَكُمۡ﴾ حال من ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ لأنّها صفة نكرة قدمت عليها، ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ مفعول ثان لـ ﴿نجعل﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لجعلنا إيّاها تذكرة لكم، والضمير في ﴿نجعلها﴾ عائد على الفعلة، وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ﴾، ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ فعل ومفعول به، معطوف على ﴿نجعلها﴾ ﴿أُذُنٞ﴾ فاعل ﴿وَٰعِيَةٞ﴾ صفة ﴿أُذُنٞ﴾، ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿نُفِخَ﴾ فعل ماض مجهول، ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ متعلق بـ ﴿نُفِخَ﴾ ﴿نَفۡخَةٞ﴾ نائب فاعل، ﴿وَٰحِدَةٞ﴾ صفة ﴿نَفۡخَةٞ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بـ﴿وَقَعَتِ﴾ الآتي. ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ فعل ونائب فاعل في محل الجر، معطوف على ﴿نُفِخَ﴾، ﴿وَٱلۡجِبَالُ﴾ معطوف على الأرض، ﴿فَدُكَّتَا﴾ الفاء عاطفة، ﴿دك﴾ فعل ماض مغير الصيغة، والتاء: علامة تأنيث نائب الفاعل، والألف نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿حملت﴾، ﴿دَكَّةٗ﴾ مفعول مطلق، ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ صفة ﴿دَكَّةٗ﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿يوم﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، وهو مضاف، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، والتنوين عوض عن جملة مكونة من جملتي ﴿نُفِخَ﴾ و﴿حملت﴾، والظرف متعلق بـ﴿وَقَعَتِ﴾ على كونه بدلاً من ﴿إذا﴾. ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿وَقَعَتِ﴾، ﴿فَهِىَ﴾ مبتدأ، والفاء: عاطفة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف مضاف إلى مثله متعلق بـ﴿وَاهِيَةٌ﴾، و﴿وَاهِيَةٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿انشقت﴾. ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة ﴿انشقت﴾ أو حال من ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ فعل مضارع ومفعول به، ﴿فَوْقَهُمْ﴾ ظرف، متعلق بمحذوف حال من العرش؛ أي: حال كونه فوق الملائكة، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف أضيف إلى مثله، متعلق بـ ﴿يحمل﴾، ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ فاعل يحمل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَقَعَتِ﴾، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف متعلق بـ﴿تُعْرَضُونَ﴾، و﴿تُعْرَضُونَ﴾ فعل ونائب فاعل مرفوع بالنون، والجملة مستأنفة. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تَخْفَىٰ﴾ فعل مضارع، ﴿مِنكُمْ﴾ حال من ﴿خَافِيَةٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة تقدمت عليها، ﴿خَافِيَةٌ﴾ فاعل، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿تُعْرَضُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾.

﴿فَأَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنكم تعرضون على الله وأردتم بيان حالكم بعد العرض.. فأقول لكم: ﴿أمّا﴾. ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ، ﴿أُوتِىَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ مفعول ثان لـ ﴿أُوتِىَ﴾، لأنّه بمعنى أعطي. ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿أُوتِىَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَيَقُولُ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿أمّا﴾، واقعة في غير موضعها، ﴿يقول﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ، والخبر

جواب ﴿أَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ من فعل شرطها، وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿هَآؤُمُ﴾ ﴿ها﴾: اسم فعل أمر بمعنى خذوا، مبني على السكون، والهمزة حرف دالّ على خطاب جماعة الذكور مبني على الضمّ؛ لأنها عوض عن كاف الخطاب، والميم حرف دال على جمع الذكور، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين حرف متولّد من إشباع ضمة الميم، وجملة اسم الفعل في محل النصب مقول القول. ﴿اقْرَءُوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ مفعول به، تنازع فيه ﴿هَآؤُمُ﴾ و﴿اقْرَءُوا﴾، فأعمل الأول عند الكوفيين لسبقه، والثاني عند البصريين لقربه، وأضمر للآخر تقديره: هاؤم اقرأوه كتابيه، أو هاؤموه اقرأوا كتابيه، وأصله: (كتابي). ﴿كتابي﴾ مفعول منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، ﴿كتاب﴾ مضاف، وياء المتكلم في محل الجر مضاف إليه مبني على الفتح، وأدخلت عليه هاء السكت لتظهر فتحة الباء، وقد تقدم بحث هاء السكت، فراجعه.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾.

﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿ظَنَنتُ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول القول، ﴿أَنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿مُلَٰقٍ﴾ خبره، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين منع من ظهورها الثقل، وجملة ﴿أنَّ﴾ المفتوحة في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿ظَنَنتُ﴾، ﴿حِسَابِيَهْ﴾ مفعول به لـ ﴿مُلَٰقٍ﴾، لأنّه اسم فاعل، والياء: مضاف إليه، والهاء: حرف زائد للسكت، ﴿فَهُوَ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم مقالته وأردتم بيان عاقبته.. فأقول لكم: فهو في عيشة راضية، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿هو﴾ مبتدأ، ﴿فِي عِيشَةٍ﴾ خبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، و﴿رَّاضِيَةٍ﴾ صفة لـ ﴿عِيشَةٍ﴾، ﴿فِي جَنَّةٍ﴾ جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿فِي عِيشَةٍ﴾، ﴿عَالِيَةٍ﴾ صفة لـ ﴿جَنَّةٍ﴾، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣)﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صفة ثانية لـ ﴿جَنَّةٍ﴾، ﴿كُلُوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، ﴿والواو﴾: فاعل، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف أي: يقال

لهم: ﴿كُلُوا﴾. ﴿وَاشْرَبُوا﴾ معطوف على ﴿كُلُوا﴾، ﴿هَنِيٓئًا﴾ حال من فاعل ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾؛ أي: مهنئين، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: أكلاً وشرباً هنيئاً، أو منصوب بفعل محذوف؛ أي: هنئتم هنيئاً، ﴿بِمَآ﴾: ﴿الباء﴾ حرف جرّ وسبب، ﴿ما﴾ موصولة، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿هَنِيٓئًا﴾ أو بـ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، وجملة ﴿أَسْلَفْتُمْ﴾ صلة لـ ﴿مَآ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما أسلفتموه ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ﴾ متعلق بـ ﴿أَسْلَفْتُمْ﴾، ﴿ٱلْخَالِيَةِ﴾ صفة لـ ﴿أيام﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧)﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أمّا﴾ حرف شرط، ﴿مَنْ﴾ مبتدأ، ﴿أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ﴾ فعل مغيّر ونائب فاعل ومفعول به ثان، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿بِشِمَالِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿أُوتِىَ﴾، ﴿فَيَقُولُ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿أمّا﴾، وجملة ﴿يقول﴾ خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر جواب ﴿أمّا﴾، وجملة ﴿أمّا﴾ معطوفة على جملة ﴿أمّا﴾ الأولى، ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء، والمنادى محذوف؛ أي: يا أهل المحشر ليتني... إلخ. وجملة النداء في محل النصب مقول القول أو ﴿يا﴾ حرف تنبيه، ﴿ليت﴾ حرف تمنّ ونصب، تعمل عمل ﴿إنّ﴾، والنون للوقاية، والياء اسمها، وجملة ﴿لَمْ أُوتَ﴾ خبرها، و﴿ليت﴾ في محل النصب مقول القول، ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ مفعول به ثان، والأوّل نائب فاعل مستتر، ﴿وَلَمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لم﴾ حرف نفي وجزم، ﴿أَدْرِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر، ﴿مَا﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿حِسَابِيَهْ﴾ خبرها، ﴿والها﴾: للسكت، والجملة الاسمية سدّت مسدّ مفعولي ﴿أَدْرِ﴾، علقت عنها باسم الاستفهام، والاستفهام للتعظيم والتهويل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿لَمْ أُوتَ﴾. ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء أو حرف تنبيه كما تقدم آنفاً، ﴿ليت﴾ حرف تمنّ ونصب، والهاء اسمها، والضمير يعود على الموتة في الدنيا، وجملة ﴿كَانَتِ﴾ خبر ﴿ليت﴾، وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول القول، واسم كان ضمير مستتر يعود على الموتة في الدنيا، ﴿ٱلْقَاضِيَةَ﴾ خبر ﴿كان﴾.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ

﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَغْنَىٰ﴾ فعل ماض، ﴿عَنِّي﴾ متعلق بـ ﴿أَغْنَىٰ﴾، ﴿مَالِيَهْ﴾ فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾، ومفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾ محذوف؛ أي: ما دفع عنّي العذاب، والجملة في محل النصب مقول القول، وإن شئت قلت: ﴿مَآ﴾ اسم استفهام للتوبيخ وبَّخ نفسه في محل النصب على المفعولية المطلقة لـ ﴿أَغْنَىٰ﴾، أي: أيّ إغناء أغنى عنّي ما كان في الدنيا من المال والأتباع، ويجوز في ﴿مَالِيَهْ﴾ أن تكون ﴿مَآ﴾ اسم موصول، هي فاعل أغنى، ﴿ليه﴾ جار ومجرور صلة لـ ﴿مَآ﴾ الموصولة؛ أي؛ الذي ثبت واستقر لي في الدنيا، والأوّل أرجح. ﴿هَلَكَ﴾ فعل ماض، ﴿عَنِّي﴾ متعلق بـ ﴿هَلَكَ﴾، ﴿سُلْطَانِيَهْ﴾ فاعل ﴿هَلَكَ﴾، والجملة الفعلية مقول القول، ﴿سُلْطَانِيَهْ﴾ مضاف والياء: ضمير المتكلم مضاف إليه، والهاء: للسكت. ﴿خُذُوهُ﴾ فعل أمر، والواو: فاعل، والهاء مفعول به، والجملة مقول لقول مقدر تقديره: ويقال للزبانية: خذوه، وجملة القول المقدر مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر كأنّه قيل: وما يفعل به بعد هذا التحسر الصادر منه؟ فقيل: يقال: خذوه. ﴿فَغُلُّوهُ﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول به، معطوف على خذوه، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع التراخي كما مرّ البحث عنه، ﴿الْجَحِيمَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية أو على أنه مفعول به على السعة، ﴿صَلُّوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَغُلُّوهُ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع التراخي، والمعطوف بها قول مقدر معطوف على قول مقدر فيما قبلها، تقديره: قيل لخزنة جهنم: خذوه فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم قيل لهم: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ...﴾ إلخ. فتكون الفاء لعطف المقول على المقول، و﴿ثم﴾ لعطف القول على القول، ﴿فِي سِلْسِلَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿اسلكوه﴾، ﴿ذَرْعُهَا﴾ مبتدأ، ﴿سَبْعُونَ﴾ خبره، ﴿ذِرَاعًا﴾ تمييز، والجملة الاسمية في محل الجرّ صفة لـ ﴿سِلْسِلَةٍ﴾. ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿اسلكوه﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿صَلُّوهُ﴾.

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة إنّ

مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، واسم ﴿كَانَ﴾ ضمير مستتر يعود على هذا الكافر، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُؤْمِنُ﴾، ﴿الْعَظِيمِ﴾ صفة للجلالة، ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على جملة ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾، ﴿عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ متعلق بـ ﴿يَحُضُّ﴾ ومضاف إليه، ﴿فَلَيْسَ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿ليس﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لَهُ﴾ خبر مقدم لـ ﴿ليس﴾، ﴿الْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ليس، ﴿هَاهُنَا﴾ ﴿ها﴾ حرف تنبيه ﴿هنا﴾ اسم إشارة يشار به للمكان القريب في محل النصب على الظرفية المكانية متعلق بما تعلق به الظرف قبله أيضاً، ﴿حَمِيمٌ﴾ اسم ﴿ليس﴾ مؤخر، وجملة ﴿ليس﴾ معطوفة مفرّعة على جملة ﴿لا يحض﴾، ﴿وَلَا طَعَامٌ﴾ معطوف على ﴿حَمِيمٌ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مِنْ غِسْلِينٍ﴾ صفة لـ ﴿طَعَامٌ﴾، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَأْكُلُهُ﴾ فعل ومفعول به، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿الْخَاطِئُونَ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ ﴿غِسْلِينٍ﴾.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾.

﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لا﴾ زائدة، ﴿أُقْسِمُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾ متعلق بأقسم، وجملة ﴿تُبْصِرُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما تبصرونه. ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩)﴾ معطوف على ﴿ما تبصرون﴾. ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَقَوْلُ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿قول﴾ خبر ﴿إنّ﴾ ﴿رَسُولٍ﴾ مضاف إليه، ﴿كَرِيمٍ﴾ صفة ﴿رَسُولٍ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾، عاطفة، ﴿مَا﴾ حجازية، ﴿هُوَ﴾ اسمها، ﴿بِقَوْلِ﴾ خبر ﴿مَا﴾ الحجازية، والباء زائدة، ﴿شَاعِرٍ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿مَا﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾، ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: إيماناً قليلاً، أو صفة لزمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً، ﴿مَا﴾ زائدة لتأكيد القلّة، ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معترضة. ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ معطوف على ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف، ﴿مَا﴾ زائدة، وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ مستأنفة. ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو تنزيل، ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ متعلق بـ

﴿تَنزِيلٌ﴾، ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾ حرف شرط، ﴿تَقَوَّلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلقان بـ﴿تَقَوَّلَ﴾ ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ مفعول به ومضاف إليه، ﴿لَأَخَذْنَا﴾ اللام رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿أخذنا﴾ فعل وفاعل، ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بـ ﴿أخذنا﴾. ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ مفعول به، والباء: زائدة، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، واللام رابطة مؤكّدة للأولى، ﴿لَقَطَعْنَا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿أخذنا﴾، ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بـ﴿لَقَطَعْنَا﴾، ﴿ٱلْوَتِينَ﴾ مفعول به.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾ نافية حجازية، ﴿مِنكُم﴾ حال ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾، لأنّه كان في الأصل صفة لـ ﴿أَحَدٍ﴾، فلما تقدم عليه صار حالاً منه، ﴿مِّنْ﴾ زائدة، ﴿أَحَدٍ﴾ اسم ﴿مَا﴾ الحجازية، ﴿عَنْهُ﴾ متعلق بـ ﴿حَٰجِزِينَ﴾، و﴿حَٰجِزِينَ﴾ خبر ﴿مَا﴾ الحجازية؛ لأنّه هو محط الفائدة، والجملة معطوفة على جملة ﴿قطعنا﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنّه﴾ ناصب واسمه، ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾ خبره، واللام: حرف ابتداء، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ متعلق بـ ﴿تذكرة﴾ والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ لأنّه من جملة المقسم عليه، وما بينهما اعتراض. ﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَنَعْلَمُ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿نعلم﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾؛ وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة أيضاً على جواب القسم أوّل السورة، ﴿أَنَّ﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿مِنكُم﴾ خبرها مقدم، ﴿مُّكَذِّبِينَ﴾ اسمها مؤخّر، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿نعلم﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَحَسْرَةٌ﴾ خبره. والجملة معطوفة على جواب القسم ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة لـ ﴿حسرة﴾ أو متعلق به، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ خبره، واللام حرف ابتداء، والجملة معطوفة على جواب القسم أيضاً. ﴿فَسَبِّحْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: ﴿سبح﴾. ﴿سبّح﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ﴿سبح﴾ أو الباء: زائدة، و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿رَبِّكَ﴾، وجملة التسبيح في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ من أسماء القيامة، اسم فاعل من حقّ الشيء يحقّ بالكسر إذا وجب وثبت؛ أي: الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء. وأصله: الحاققة أدغمت القاف الأولى في الثانية. ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾؛ أي: أيّ شيء هي تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾؛ أي: أيّ شيء أعلمك ما هي، فلا عِلْمَ لك بحقيقتها، إذ بلغت من الشدة والهول إلى ما لا يبلغها علم المخلوقين. و﴿أدراك﴾ من الدراية بمعنى العلم، يقال: دراه، ودرى به دراية من باب رمى، وأدراه: أعلمه. وأصله: أدريك بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ والقارعة هي الحاقّة؛ أي: الساعة. والقيامة سمّيت بالقارعة؛ لأنّها تقرع قلوب الناس وتفزعها بفنون الأفزاع والأهوال. والقرع في اللغة: نوع من الضرب، وهو إمساس جسم لجسم بعنف. وفي «المصباح»: وقرعت الباب من باب نفع: طرقته ونقرت عليه. ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾؛ أي: بالصيحة التي جاوزت حدَّ سائر الصيحات في الشدّة، فرجفت منها الأرض، والمراد بها الصاعقة. ﴿بِرِيحٍ﴾ والياء فيه منقلبة عن واو، وأصله: روح لجمعه على أرواح، فلمّا سكنت الواو في المفرد بعد الكسرة قلبت ياء، كما قلبت ياء في الجمع فقيل: الرياح لوقوعها بعد كسرة، وقبل ألف كصيام. ﴿صَرْصَرٍ﴾ أي: شديدة الصوت التي لها صرصرة، أو شديدة البرد من الصرّ، وهو البرد. ﴿عَاتِيَةٍ﴾؛ أي: بالغة نهاية القوّة والشدّة، أو التي عتت عن الطاعة، فكأنّها عتت على خزّانها، فلم تطعهم، ولم يقدروا على ردّها لشدّة هبوبها، أو عتت على عادٍ، فلم يقدروا على دفعها بل أهلكتهم.

وفي قوله: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ إعلال بالقلب، أصله: عاتوة من عتا يعتو، فلما تطرفت الواو بعد كسرة قلبت ياء. ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: سلّطها عليهم، من التسخير، وهو سوق الشيء إلى الغرض المختصّ به قهراً. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ﴾ ذكر العدد؛ لأنَّ المعدود وهو ليلة مؤنّث، لأنّ الآحاد من أسماء العدد تجري على خلاف القياس لكون الليالي جمع ليلة، وهي مؤنثّة، وتجمع الليلة على الليالي بزيادة الياء على غير

القياس فتحذف ياؤها حالة التنكير بالإعلال مثل الأهالي، والأهال في جمع أهل، إلا في حالة النصب كقوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾، لأنه غير منصرف، والفتح خفيف. ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ أنث اسم العدد؛ لأنّ المعدود مذكّر، لأنّ الأيّام جمع يوم وهو مذكر. ﴿حُسُومًا﴾ جمع حاسم كشهود جمع شاهد، وهو حال من مفعول ﴿سَخَّرَهَا﴾ بمعنى حاسمات؛ أي: متتابعات أو مستأصلات، من الحسم، وهو القطع والاستئصال. وسمي السيف حساماً؛ لأنّه يحسم العدو عما يريد من عدواته. ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾؛ أي: موتى، جمع صريع كقتلى وقتيل، وصريع فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مصروع. أي مطروح على الأرض ساقط عليها، لأن الصرع: الطرح.

﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ جمع عجز، وهو الأصل. وفي «القاموس»: العجز مثلثة وكندس والندس بوزن عضد: الفرح وككتف مؤخر الشي، وأعجاز النخل: أصولها انتهى. والنخل اسم جنس مفرد لفظاً وجمع معنى، واحدتها نخلة. ﴿خَاوِيَةٍ﴾؛ أي: خالية الأجواف لا شيء فيها، وأصل الخوى: الخلاء، يقال: خوى بطنه من الطعام؛ أي: خلا. ﴿مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ والباقية اسم كالبقيّة، لا وصف، والتاء للنقل إلى الاسميّة، أو مصدر بمعنى البقاء كالكاذبة والعاقبة.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾؛ أي: المنقلبات، وهي قرى قوم لوط، جعل الله عاليها سافلها بالزلزلة، يقال: أفكه عن الشيء؛ أي: قلبه، وائتفكت البلدة بأهلها؛ أي: انقلبت. ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ مصدر بمعنى الخطأ كالعاقبة. ﴿رَّابِيَةً﴾؛ أي: زائدة في الشدّة على عقوبات سائر الكفّار. يقال: ربا الشي يربو إذا زاد، ومنه: الربا الشرعيّ، وهو الفضل الذي يأخذه آكل الربا.

﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أصله: عصيوا بوزن فعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. وقوله: ﴿رَّابِيَةً﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: رابوه من ربا يربو قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة. ﴿لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ تجاوز حدّه وارتفع، وفيه إعلال بالقلب، أصله: طغي بوزن فعل قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾؛ أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم. ﴿فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ وهي السفينة التي تجري في الماء. ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾؛ أي: تحفظها وتقول لكل ما حفظته في

نفسك: وعيته، وتقول لكل ما حفظته في غير نفسك: أوعيته. فيقال: أوعيت المتاع في الوعاء كما مرّ. ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ الأصل في تاء التأنيث المتصلة بالفعل الماضي السكون، لكنها إذا اتصل بها ألف كما هنا حركت بالفتح لمناسبة الألف. والدك أبلغ من الدق.

وفي «الصحاح»: الدكّ: الدقّ، وقد دكه إذا ضربه وكسره حتى سواه بالأرض، وبابه: ردّ. وفي «المفردات»: الدكّ: الأرض اللينة السهلة، ودكّت الجبال دكّا؛ أي: جعلت بمنزلة الأرض اللينة، ومنه: الدكّان. ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي: مسترخية ضعيفة القوّة، من قولهم: وهى السقاء إذا انخرق، ومن أمثالهم قول الراجز:

خَلِّ سَبِيْلَ مَنْ وَهَى سِقَاؤُهُ ... وَمَنْ هُرِيْقَ بِٱلْفَلَاةِ مَاؤُهُ

يقال: وهى البناء يهي وهيا فهو واه إذا ضعف جداً. قال في «القاموس»: وهي كوعي وولي: تخرّق وانشق واسترخى رباطه. وفي «المفردات»: الوهي شقّ في الأديم والثوب ونحوهما. ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾؛ أي: على نواحي السماء وجوانبها، جمع رجا بالقصر، وفيه إعلال بالإبدال، أصله: أرجاو جمع رجا بمعنى الطرف والجانب، أبدلت الواو همزة لتطرّفها إثر ألف زائدة. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ أصله: أؤتي أبدلت الهمزة الساكنة حرف مدّ مجانسا لحركة الأولى. ﴿ملاق حسابيه﴾ الحساب بمعنى المحاسبة، وهو عدّ أعمال العباد في الآخرة خيراً أو شرّاً للمجازاة. قال الراغب: والظنّ اسم لما يحصل من أمارة، ومتى قويت أدّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدّاً لم تتجاوز حدّ التوهّم انتهى.

﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: راضوة من الرضوان، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة، أي: عيشةً مرضية لصاحبها، وهو مما جاء فيه فاعل بمعنى مفعول نحو قوله تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ بمعنى مدفوق بمعنى: أنّ صاحبها يرضى بها، ولا يسخطها كما جاء مفعول بمعنى فاعل كقوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾؛ أي: ساتراً. ﴿عَالِيَةٍ﴾ فيه إعلال أيضاً بالقلب، أصله: عالوة من العلوّ، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة. ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قطف بالكسر، وهو ما يُقطف ويُجنى بسرعة، والقطف بالفتح مصدر. ﴿دَانِيَةٌ﴾ أصله أيضاً: دانوة، من الدنوّ قلبت الواو ياء

لتطرفها إثر كسرة. ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ أي: قدّمتم في الدنيا من الأعمال الصالحة. ومعنى الإسلاف في اللغة: تقديم ما يرجو أنْ يعود عليك بخير، فهو كالإقراض، ومنه يقال: أسلفت إليك هذه الدراهم في كذا وكذا إذا قدم إليك رأس مال السلم. ﴿فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ الخالية فيه إعلال أيضاً بالقلب، أصله: الخالوة من خلا يخلو واويّ اللام، قلبت الواو ياء لتطرّفها إثر كسرة.

﴿فَغُلُّوهُ﴾ يقال: غلّ فلان إذا وضع في عنقه أو يده الغلّ، وهو بالضمّ: الطوق من حديد الجامع لليد إلى العنق المانع عن تحرك الرأس. ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ أصله: صليوه، استثقلت الضمة على الياء فحذفت تخفيفاً فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت اللام لمناسبة الواو. ﴿ذَرۡعُهَا﴾ أي: طولها. ﴿سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾ والذراع ككتاب: ما يذرع به حديداً كان أو قضيباً. وفي «المفردات»: الذراع: العضو المعروف ويعبّر به عن المذروع والممسوح، يقال: ذراع من الثوب أو الأرض.

﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾ السلك: هو الإدخال في الطريق أو الخيط أو القيد أو في غيرها. ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ أصله: يحضض بوزن يفعل، نقلت حركة الضاد الأولى إلى الحاء فسكنت فأدغمت في الضاد الثانية، من الحضّ وهو البعث والحثّ على الفعل والحرص على وقوعه، ومنه: حروف التحضيض المبوّب له في النحو، لأنّه يطلب به وقوع الفعل وإيجاده اهـ «سمين». ﴿إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ هو فعلين، من الغسل، فنونه وياؤه زائدتان. قال أهل اللغة: هو ما يجري من الجراح إذا غسلت، وفي كتب التفسير: هو صديد أهل النار، وقيل: هو شجر يأكلونه. وفي «الكواشي»: أو نونه غير زائدة، وهو شجر في النار، وهو من أخبث طعامهم.

﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه حذف إحدى التاءين، أصله: تتذكرون، وقرىء بتشديد الذال على أنّ التاء الثانية أدغمت في الذال. ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا﴾ التقول افتعال القول واختلاقه، لأنّ فيه تكلّفا من المفتعل. قال أبو حيان: التقوّل: أن يقول الإنسان عن آخر: إنّه قال شيئاً لم يقله. ﴿بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ الأقاويل جمع الجمع، لأنّه جمع أقوال وأقوال جمع قول كبيت وأبيات وأبابيت. قال الزمخشري: وسمّيت الأقوال المتقولة

أقاويل تصغيراً لها وتحقيراً. ﴿لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ وفي «المفردات» الوتين: عرق يسقي الكبد إذا انقطع مات صاحبه، وفي بعض كتب التفسير: الوتين: عرق في القلب يجري منه الدم إلى العروق كلّها، ويجمع على وتن وأوتنة اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإطناب بتكرار لفظ ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢﴾ للتهويل والتعظيم.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١﴾. لأنَّ المراد بها الزمان الذي يحقّ أن يتحقق فيه ما أنكر في الدنيا من البعث، فيصير فيها محسوساً مشاهداً بالعيان على حدّ قولهم: نهاره صائم وليله قائم.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢﴾ تأكيداً لهولها، الأصل: ما هي؛ أي: أيّ شيء هي في حالها وصفتها؟.

ومنها: وضع القارعة موضع ضمير الحاقة في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ للدلالة على معنى القرع فيها زيادة في وصف شدتها فإن في القارعة ما ليس في الحاقة من الوصف؛ لأنَّ الأصل أن يقال: كذّبت ثمود وعاد بها.

ومنها: الإجمال في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ ثم التفصيل بقوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦...﴾ إلخ. لزيادة البيان والإيضاح، وفيه أيضاً من المحسنات البديعية اللفّ والنشر المرتب.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿حُسُومًا﴾، لأنّه من استعمال المقيّد، وهو الحسم الذي هو تتابع الكيّ في مطلق التتابع، وقيل: فيه استعارة تصريحية تبعية، فقد شبه تتابع الريح المستأصلة بتتابع الكيّ القاطع للداء، فاستعار له الاسم الدالّ على المشبه به على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ لذكر الأداة فيه مع حذف وجه الشبه، فقد شبههم بالجذوع لطول قاماتهم، وكانت الريح تقطع رؤوسهم كما تقطع رؤوس النخل المتطاولة خلال تلك الأيّام الثمانية والليالي

السبع.

ومنها: التعبير عن الريح الصرصر، وهو مفرد بلفظ الجمع، وهو ﴿حسوماً﴾ نظراً إلى تكثّرها باعتبار وقوعها في تلك الليالي والأيّام.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ بعد التعميم في قوله: ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ لغرض التتميم، لأنَّ قوم لوط أتوا بفاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين.

ومنها: مقابلة الجمع بالجمع المستدعية لانقسام الآحاد على الآحاد في قوله: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾.

ومنها: المجاز العقليّ في قوله: ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾؛ أي: بالفعلة الخاطئة كقولهم: شعر شاعر.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، وهي من باب استعارة المعقول للمحسوس للاشتراك في أمر معقول، وهي الاستعارة المركّبة من الكثيف واللطيف، فالمستعار الطغيان، وهو الاستعلاء المنكر، والمستعار منه كلّ مستعل متكبّر متجبّر مضرّ، والمستعار له الماء، والطغيان معقول، والماء محسوس، والمستعار منه محسوس. وقيل: فيه استعارة تصريحية تبعيّة؛ لأنَّ الطغيان من صفات الإنسان، فشبّه ارتفاع الماء وكثرته بطغيان الإنسان بجامع العلّو في كلّ على طريق الاستعارة التصريحية التبعيّة.

ومنها: التنكير والتوحيد في قوله: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، حيث لم يقل الآذان الواعية للدلالة على قلتها، وأن من هذا شأنه مع قلته يتسبب لنجاة الجم الغفير، وإدامة نسلهم.

ومنها: التأكيد بذكر الواحدة في قوله: ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ وفي قوله: ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾، لأنّ النفخة والدكّة لا تكون إلاّ واحدة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿نُفِخَ﴾ ﴿نَفْخَةٌ﴾ وقوله ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً﴾ وقوله: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾؛ أي: تسألون وتحاسبون، شبه المحاسبة عند الله بعرض العسكر على الملك لتعرف أحوالهم،

فاستعار اسم المشبّه به الذي هو العرض على الملك للمشبّه الذي هو المحاسبة عند الله، فاشتق منه تعرضون بمعنى تحاسبون على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: تقديم ﴿مِنكُمْ﴾ على ﴿خَافِيَةٌ﴾ مع كونه صفة لها لرعاية الفاصلة.

ومنها: المقابلة البديعة في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ...﴾ إلخ، حيث قابلها بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ إلخ.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ لأنّ العيشة إنّما تكون مرضية لا راضية، فهو من إسناد ما للفاعل إلى المفعول.

ومنها: إسناد الهناءة إلى الأكل والشرب في قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ مجازاً للمبالغة، لأنّ الهناءة إنّما تكون للمأكول والمشروب.

ومنها: تقديم الجحيم على ﴿صَلُّوهُ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾، وتقديم ﴿سِلْسِلَةٍ﴾ على ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ لغرض التخصيص والحصر والاهتمام بذكر ألوان ما يعذب به.

ومنها: تخصيص الطول بسبعين ذراعاً مبالغة في إرادة الوصف بالطول، كما قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ يريد مرّات كثيرة؛ لأنّها إذا طالت كان الإرهاق أشدُّ، فهو كناية عن زيادة الطول.

ومنها: ذكر الحض في قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ دون الفعل، حيث لم يقل: ولا يطعم المسكين للإشعار بأنّه إذا كان تارك الحضّ بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل؟.

ومنها: عطف حرمان المسكين على ترك الإيمان في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ للدلالة على أنّ حرمان المسكين صفة للكفرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

ومنها: تكرار لفظ القول في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ مبالغة في إبطال أقاويلهم الكاذبة على القرآن الحق والرسول الصادق الأمين ﷺ.

ومنها: زيادة ﴿ما﴾ في قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ لتأكيد القلّة، أو لنفيها كما مر.

ومنها: إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول في قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾ لإفادة المبالغة.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥﴾ لأن اليمين مجاز عن القوة؛ لأنَّ قوة كل شيء في ميامنه، فيكون من قبيل ذكر المحل، وإرادة الحال أو ذكر الملزوم، وإرادة اللازم، لأنّ المعنى: سلبنا منه القوة والقدرة على التكلم بذلك.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾، لأنّه كناية عن إهلاكه وإماتته.

ومنها: الحذف والزيادة في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

خلاصة ما تضمّنته السورة الكريمة

تضمنت هذه السورة الكريمة خمسة مقاصد:

١ ـ هلاك الأمم المكذّبة لرسلها في الدنيا من أوّل السورة إلى قوله: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

٢ ـ عذاب الآخرة جزاء على التكذيب في الدنيا.

٣ ـ إثبات أن القرآن العظيم وحي من عند الله تعالى، وليس بقول شاعر ولا بقول كاهن.

٤ ـ إهلاكه ﷺ لو تقول عليه شيئاً مّا من الأقاويل الباطلة الكاذبة على سبيل الفرض والتقدير.

٥ ـ أمره ﷺ بتنزيه ربه عما يقول المشركون، شكراً له على ما أوحي إليه من الوحي الكريم والقرآن العظيم[١].

والله أعلم

* * *

(١) بعون الله تعالى وتوفيقه تمّ تفسير سورة الحاقة في اليوم الخامس من شهر ربيع الأول، قُبَيْل الغروب من شهور سنة ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ٥/ ٣/ ١٤١٦ هـ، وصلى الله تعالى وسلم على سيّدنا ومولانا محمّد خاتم النبيّين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين.

سورة المعارج

سورة المعارج ويقال لها: سورة سأل سائل، مكيّة. قال القرطبي باتفاق نزلت بعد الحاقّة. وأخرج ابن الضريس والنحاس، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سورة سأل بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: أربع وأربعون، وكلماتها[1]: مئتان وأربع وعشرون. وحروفها: تسع مئة وتسعة وعشرون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها[2]: أنّها كالتتمة لما قبلها في وصف القيامة وعذاب النار. وقال أبو حيان: مناسبة أولها لآخر ما قبلها أنّه لما ذكر فيما قبلها ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أخبر عما صدر عن بعض المكذبين بنقم الله، وإن كان السائل نوحاً عليه السلام، أو الرسول ﷺ، فناسب تكذيب المكذبين أن دعا عليهم رسولهم حتى يصابوا فيعرفوا صدق ما جاءهم، ذكره في «البحر».

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال ابن حزم: سورة المعارج كلها مكيّة، وجميعها محكم إلاّ آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ الآية (٤٢) نسخت بآية السيف.

والله أعلم

* * *

(١) الخازن. (٢) المراغي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ
ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ
يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ
حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ
﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ
﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا
﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ
أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم
مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ
مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ
مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا
لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى
يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ
ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

المناسبة

تقدم قريباً بيان مناسبة هذه السورة لما قبلها، وقد بدأ سبحانه وتعالى بأنّه كان أهل مكة يقول بعضهم لبعض: إنَّ محمداً يخوفنا بالعذاب فما هذا العذاب ولمن هو؟ فنزلت هذه الآيات إلى قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ كما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾...﴾ إلى قوله: ﴿فِى جَنَّـٰتٍ

﴿مُكْرَمُونَ﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر[1] أنه هو ذو المعارج والدرجات العالية والنعم الوفيرة التي يسبغها على عباده الأخيار، أردف هذا بذكر المؤهلات التي توصل إلى تلك المراتب، وتبعد عن ظلمة المادّة التي تدخل النفوس في النار الموقدة التي تنزع الشوى، وبين أنها عشر خصال تفكه من السلاسل التي تقيده بها غرائزه التي فطر عليها، وعاداته التي ألفها وركن إليها، وهي ترجع إلى شيئين: الحرص والجزع.

وهذه الخصال هي: (١) الصلاة. (٢) المداومة عليها في أوقاتها المعلومة. (٣) إقامتها على الوجه الأكمل بحضور القلب والخشوع للربّ ومراعاة سننها وآدابها. (٤) التصديق بيوم الجزاء بظهور أثر ذلك في نفسه اعتقاداً وعملاً (٥) إعطاء صدقات من أموالهم للفقراء والمحرومين. (٦) مراعاة العهود والمواثيق. (٧) أداء الأمانات إلى أهلها. (٨) حفظ فروجهم عن الحرام. (٩) أداء الشهادة على وجهها. (١٠) الخوف من عذاب الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وعد المؤمنين بجنات النعيم مع الكرامة والإجلال.. أردف ذلك بذكر أحوال الكافرين مع الرسول ﷺ، وأبان لهم خطأهم فيما يرجون من جنّات النعيم على ما هم عليه من كفر وجحود. ثم توعدهم بالهلاك، ولن يستطيع أحد دفعه عنهم. ثم أمر رسوله أن يدعهم وشأنهم حتى يوم البعث يوم يخرجون من قبورهم مسرعين، كأنّهم ذاهبون إلى معبوداتهم الباطلة من الأصنام والأوثان وقد كان من دأبهم أن يسرعوا حين الذهاب إليها. وهم في هذا اليوم تكون أبصارهم ذليلة، وترهق وجوههم قترةً لما تحقّقوا من عذاب لا منجاة لهم منه، وقد أوعدوه في الدنيا، فكذّبوا به.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه[2] النسائي، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾

---

(١) المراغي.

(٢) لباب النقول والمراح.

قال: هو النضر بن الحارث، حيث قال إنكاراً واستهزاءً: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. فقتل يوم بدر صبراً هو وعقبة بن أبي معيط. وقال الربيع: هو أبو جهل، حيث قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وقيل: هو الحارث بن النعمان القهريّ، وذلك أنّه لما بلغه قول رسول الله ﷺ في عليّ رضي الله عنه: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» قال: اللهم إن كان ما يقول محمّد حقّاً.. فأمطر علينا حجارةً من السماء، فما لبث حتى رماه الله تعالى بحجر، فوقع على دماغه فخرج من دبره، فمات من ساعته، فنزلت هذه الآية.

وقال الحسن وقتادة: لما بعث الله محمداً ﷺ، وخوف المشركين بالعذاب قال المشركون بعضهم لبعض: سلوا محمداً لمن هذا العذاب؟ وبمن يقع؟. فأخبره الله عنهم بقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ حكاية لسؤالهم المعتاد على طريقة قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾. قال أبو السعود: ولعلّ هذا القول أقرب.

قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ...﴾ الآيات، سبب نزولها[1] ما روي: أنه ﷺ كان يصلي عند الكعبة، ويقرأ القرآن، وكان المشركون يجتمعون حوله حلقاً حلقاً وفرقاً فرقاً يستمعون ويستهزئون ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد.. فلندخلنها قبلهم، فنزلت هذه الآيات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ من[2] السؤال بمعنى الدعاء والطلب، يقال: دعا بكذا استدعاه، وطلبه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾؛ أي: يطلبون في الجنة كل فاكهة.

والمعنى: دعا داع وطلب طالب من الله تعالى ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾؛ أي: بنزول عذاب واقع؛ أي: نازل لا محالة، سواء طلبه أو لم يطلبه لسبق نزوله في علم الله تعالى؛ أي: استدعاه وطلبه.

ومن التوسّعات الشائعة في «لسان العرب» حمل النظير على النظير، وحمل

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

النقيض على النقيض، فتعدية ﴿سَأَلَ﴾ بالباء من قبيل التعدية بحمل النظير على النظير، فإنه نظير دعا وهو يتعدى بالباء، لا من قبيل التعدية بالتضمين بأن ضمن سأل معنى دعا، فعدى تعديته كما زعمه «صاحب الكشاف»، لأنّ فائدة التضمين على ما صرح به ذلك الفاضل في تفسير سورة النحل إعطاء مجموع المعنيين، ولا فائدة في الجمع بين معنى سأل، ودعا؛ لأنّ أحدهما يغني عن الآخر.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ بالهمزة، فهي اللغة الفاشية، فهو على هذا إمّا مضمّن معنى الدعاء كما قاله الزمخشري، فلذلك عدّى بالباء، والمعنى عليه: دعا داع على نفسه بعذاب واقع. وإمّا على أصله، و(الباء) بمعنى (عن) كقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، والمعنى على هذا: بحث باحث واستفهم عن عذاب واقع. وقرأ نافع وابن عامر ﴿سال﴾ بالألف بغير همزة، فهو إما من التخفيف بقلب الهمزة ألفاً، فيكون معناها معنى قراءة الجمهور، وإمّا من السيلان، والمعنى عليه: سال سائل: وادٍ في جهنم يقال له: سائل، كما قال زيد بن ثابت، ويؤيّده قراءة ابن عباس ﴿سال سيل﴾. وقيل: إنّ سال بمعنى التمس، والمعنى عليه: التمس ملتمس عذاباً للكفار، فتكون الباء زائدة كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾. والوجه الأوّل هو الظاهر. وقر[٢] أبيٌّ وعبد الله بن مسعود ﴿سال سالٌ﴾ مثل: مال مالٌ، على أنّ الأصل: سائل فحذفت العين تخفيفاً كما قيل: شاكٌ في شائك السلاح. والمراد بهذا السائل على ما روي عن ابن عباس واختاره الجمهور: هو النضر بن الحارث من بني عبد الدار، حيث قال إنكاراً واستهزاءً: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا يعذاب أليم. وعبر[٣] بصيغة الماضي، وهو ﴿وَاقِعٍ﴾ دون سيوقع للدلالة على تحقّق وقوعه إمّا في الدنيا، وهو عذاب يوم بدر، فإنّ النضر قتل يومئذٍ صبراً، وإما في الآخرة، وهو عذاب النار.

وعن معاوية رضي الله عنه أنّه قال لرجل من أهل سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة، قال الرجل: أجهل من قومي قومك، حيث قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحقّ: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك.. فأمطر علينا حجارة

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.
(٢) البحر الميحط.
(٣) روح البيان.

من السماء، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له. وقيل: السائل هو نوح عليه السلام، دعا على الكافرين بالعذاب. وقيل: السائل هو الرسول ﷺ، استعجل بعذابهم كما يدل عليه قوله فيما بعد: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾. وسأل أن يأخذهم الله أخذاً شديداً، ويجعله سنين كسني يوسف فاستجاب الله دعوته، وأن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ يكون حكاية لسؤالهم المعهود على طريقة قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ونحوهما، إذ هو المعهود بالوقوع على الكافرين لا ما دعا به النضر. فالسؤال بمعناه، وهو التفتيش والاستفسار؛ لأنّ الكفرة كانوا يسألون النبي ﷺ وأصحابه إنكاراً واستهزاءً عن وقوعه وعلى من ينزل، ومتى ينزل. والباء بمعنى (عن) كما في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾؛ أي: فاسأل عنه؛ لأنَّ الحروف العوامل يقوم بعضها مقام بعض باتفاق العلماء.

وعن الإمام الواحدي[1]: أنّ الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾ زائدة للتأكيد كما في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾؛ أي: سأل سائل عذاباً واقعاً كقولك: سألته الشيء وسألته عن الشيء.

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إمّا بمعنى (على)؛ أي واقع على الكافرين كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾؛ أي: فعليها، أو بمعنى (الباء)؛ أي: واقع بهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: إلاّ بأن يعبدوا الله، أو على معناها، أي: نازل لأجل كفرهم. ومتعلق اللام على التقادير الثلاثة هو لفظ ﴿واقع﴾. وجملة قوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك العذاب ﴿دَافِعٌ﴾ صفة أخرى لـ ﴿عذاب﴾ أو حال منه أو مستأنفة. والمعنى: أنّه لا يدفع ذلك العذاب الواقع بهم أحد. وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إمّا متعلق بـ﴿وَاقِعٍ﴾؛ أي: واقع من جهته تعالى، أو بـ﴿دَافِعٌ﴾؛ أي: ليس له دافع من جهته تعالى إذا جاء وقته، وأوجبت الحكمة وقوعه. ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ صفة للجلالة، لأنّه من الأسماء المضافة مثل: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ﴾ ونحوهما. والمعارج جمع معرج بفتح الميم هنا بمعنى مصعد، وهو موضع الصعود. والمعنى: ذي المصاعد والدرجات التي تصعد فيها الملائكة؛ أي: خالق المعارج ومالكها. والمراد[2] بها

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

الأفلاك التسعة المرتّبة بعضها فوق بعض، وهي السموات السبع والكرسيّ والعرش. وقال الكلبيّ: هي السماوات، وسمَّاها معارج لأن الملائكة تعرج فيها. وقيل: المعارج مراتب نعم الله تعالى على الخلق. وقيل: المعارج العظمة، وقيل: هي الغرف جعلها لأوليائه في الجنة.

وقرأ ابن مسعود[١]: ﴿ذي المعاريج﴾ بزيادة الياء، يقال: معارج ومعاريج، وحكمهما واحد، مثل: مفاتح ومفاتيح.

والمعنى[٢]: أي طلب طالب عذاباً واقعاً لا محالة سواء طلب أم لم يطلب، لأنّه نازل بالكافرين في الآخرة، لا يدفعه عنهم أحد، فلماذا هم يطلبونه استهزاءً. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾؛ أي: ليس لذلك العذاب الصادر من الله دافع من جهته إذا جاء وقته، فإذا اقتضت الحكمة وقوعه امتنع أن لا يفعله، وهو ذو النعم التي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة ودرجات متفاوتة.

والخلاصة: أنَّ العذاب الذي طلبه السائلون واستبطؤوه واقع لا محالة؛ وهو سبحانه لم يفعل ذلك إلاّ لحكمة، وهي وضعهم في الدركات التي هم أهل لها بحسب استعدادهم وما دسوا به أنفسهم من سيء الأعمال والخطايا التي أحاطت بهم من كل صوب. وقد نظم سبحانه العوالم فجعل منها مصاعد ومنها دركات، فليكن هؤلاء في الدركات، وليكن المؤمنون والملائكة في الدرجات طبقاً عن طبق على نظم ثابتة اقتضتها الحكمة والمصلحة.

ثم بين مقدار ارتفاع تلك الدرجات، فقال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المأمورون بالنزول والعروج دون غيرهم من المهيّمين ونحوهم؛ لأنَّ من الملائكة من لا ينزل من السماء إلى الأرض أصلاً، ومنهم من لا يعرج من الأرض قطعاً. ﴿وَٱلرُّوحُ﴾؛ أي: جبريل عليه السلام، أفرده بالذكر إظهاراً لشرفه وفضله، فهو من عطف الخاص على العام، كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ فقد ذكر مع نزولهم في آية وعروجهم في أخرى، وأخّره هنا وقدّم في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾، لأنّ المقام هنا يقتضي تقديم الجمع على الواحد من حيث إنه مقام تخويف وتهويل اهـ

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

كرخي. ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي يعرجون إليه من مسقط الأمر، وعلم العروج إليه تعالى مغيب عنا نعتقده ونثبته ولا نكيفه ولا نمثله ولا نؤوله. وهذا المعنى هو الأصح الأسلم الذي عليه السلف، أو إلى عرشه أو إلى مهبط أمره تعالى. أي: يعرجون من مسقط الأمر إلى المحل الذي ينزل إليه أمره تعالى وتتلقاه منه الملائكة الموكلون بالتصرف في العالم. وعبارة الكرخي: إلى مهبط أمره؛ أي: إلى الموضع الذي لا يجري لأحد سواه فيه حكم.

وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ متعلق[1] بـ ﴿تعرج﴾ كـ ﴿إلى﴾، و﴿في﴾ بمعنى ﴿إلى﴾، وعبّر عنها بـ ﴿إلى﴾ فراراً من ثقل تكرار حرفين متحدي المعنى واللفظ، والكلام على حذف مضاف والتقدير: تعرج وتصعد الملائكة المأمورون بالنزول والعروج وكذا الروح من مسقط أمره إليه تعالى مدّة دوام الدنيا إلى مجيء يوم ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مما يعدّه الناس في الدنيا. وذلك اليوم هو يوم القيامة، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والقرطبيّ. وهذا هو مقدار يوم القيامة من وقت البعث إلى أن يفصل بين الخلق.

وقيل: يتعلق قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ بقوله[2]: ﴿دَافِعٌ﴾؛ أي: ليس له دافع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. وقيل: يتعلق بـ﴿وَاقِعٍ﴾، والمعنى سأل سائل بعذاب واقع للكافرين في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. وعلى هذين المعنيين يكون في الكلام تقديم وتأخير؛ أي: ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه. وقيل: المعنى تصعد الملائكة من أسفل الأرض إلى عرشه في قدر يوم من أيّامكم لو صعده غيرهم قطعه في خمسين ألف سنة، وهذا معنى قول مجاهد. وقيل: متعلق بمحذوف دلَّ عليه قوله: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي: يقع ذلك العذاب في يوم كان مقداره في علم الله تعالى خمسين ألف سنة ممّا تعدّون، وهو يوم القيامة. وعلى هذا فلا تقديم ولا تأخير، كما في «الجلالين».

وقرأ الجمهور[3]: ﴿تَعْرُجُ﴾ بالتاء الفوقية على التأنيث نظراً للفظ الملائكة. وقرأ عبد الله، والكسائيّ، وابن مقسم، وزائدة عن الأعمش بالياء التحتانية بالتذكير

---

(١) روح البيان. (٢) زاد المسير. (٣) البحر المحيط.

لتذكير الملائكة على الأصل كقراءة ﴿نَادَتْهُ﴾، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ اهـ كرخي.

وقال مجاهد: المراد بالملائكة هم ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبني آدم، لا تراهم الحفظة كما لا نرى نحن حفظتنا. وقال الجمهور: والروح هو جبريل عليه السلام، وقيل: ملك غير جبريل عظيم الخلقة. وقال أبو صالح: خلق كهيئة الناس وليسوا بالناس. وقال قبيصة بن ذؤيب: روح الميت حين تقبض. والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد إلى الله تعالى؛ أي: إلى عرشه، أو حيث يهبط منه أمره تعالى. وقيل: ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى المكان الذي هو محلّهم، وهو في السماء، لأنّها محل بره وكرامته.

والظاهر: أنَّ المعنى: أنّها تعرج في يوم من أيامكم هذه، ومقدارالمسافة أن لو عرجها آدميّ خمسون ألف سنة، قاله ابن عباس وابن إسحاق، وجماعة من الحذّاق منهم: القاضي منذر بن سعيد. قال مجاهد: إن كان العارج ملكاً فالمسافة من قعر الأرض السابعة إلى العرش، ومن جعل الروح جنس أنواع الحيوان. قال وهب: المسافة هي من وجه الأرض إلى منتهى العرش. وقال عكرمة والحكم: أراد مدّة الدنيا، فإنها خمسون ألف سنة لا يدري أحد ما مضى منها وما بقي؛ أي: تعرج الملائكة إليه في مدة الدنيا، وبقاء هذه الدنيا التي هي يوم مقداره خمسون ألف سنة. وقال ابن عباس أيضاً: هو يوم القيامة. وقيل: طوله ذلك العدد، وهذا ظاهر ما جاء في الحديث في مانع الزكاة قال: في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. وقال ابن عباس وأبو سعيد الخدري: قدره في رزاياه وهوله وشدّته للكفار ذلك العدد. وفي الحديث: «يخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة». وقال عكرمة: في يوم كان مقدار ما ينقضي فيه من الحساب قدر ما يقضى بالعدل في خمسين ألف سنة من أيّام الدنيا، وقال الحسن: نحوه. وقيل: لا يراد حقيقة العدد إنما أريد به طول الموقف يوم القيامة، وما فيه من الشدائد. والعرب تصف أيام الشدّة بالطول، وأيّام الفرح بالقصر.

والظاهر: أن قوله: ﴿فِى يَوْمٍ﴾ يتعلق بـ ﴿تَعْرُجُ﴾، وقيل: بـ ﴿دَافِعٌ﴾، والجملة من قوله: ﴿تَعْرُجُ﴾ اعتراض، ذكره أبو حيان في «البحر».

وقد قدمنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله في سورة السجدة: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ

﴿مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ بأنّ ما هناك باعتبار موطن من مواطن يوم القيامة، وما هنا باعتبار جميع المواطن؛ لأن مواطنه متعددة، أو بأن اليوم يختلف باختلاف أحوال الناس، فإنه على الكافر بقدر خمسين ألف سنة، وعلى المؤمن المطيع بقدر ما بين الظهر والعصر، وعلى المؤمن العاصي بقدر ألف سنة، فراجع ما هنالك. وقد قيل في الجمع: إنه من أسفل العالم إلى العرش خمسون ألف سنة، ومن أهل سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة؛ لأن غلظ كل سماء خمس مئة عام، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمس مئة. فالمعنى: أنّ الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة، وإن عرجوا من هذه الأرض التي نحن فيها إلى باطن هذه السماء التي هي سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة.

والمعنى: أي تعرج وتصعد في تلك المعارج الملائكة، وجبريل عليه السلام إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها.. لبقي في ذلك الصعود خمسين ألف سنة، لكنّهم يصعدون إليها في الزمن القليل، وليس المراد من ذكر الخمسين تحديد العدد بل المقصد أنّ مقام القدس الإلهي بعيد المدى عن مقام العباد، فهم في المادة مغموسون، وهناك عوالم ألطف وألطف درجات بعضها فوق بعض، وكل عالم ألطف مما قبله، كلما لطف العالم العلوي كان أشد قوة، وهكذا ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾.

ولما كانوا قد سألوا استعجال العذاب، وكان السؤال على سبيل الاستهزاء والتكذيب، وكانوا قد وعدوا به، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بالصبر، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على استهزائهم ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾؛ أي: صبراً لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله، فإن العذاب يقع في هذه المدة المتطاولة التي تعرج فيها الملائكة والروح. وعن الحسن: الصبر الجميل: هو المجاملة في الظاهر، وعن ابن بحر: انتظار الفرج بلا استعجال. وهو متعلق بـ﴿سَأَلَ﴾، لأنّ السؤال كان عن استهزاء وتعنت وتكذيب بالوحي، وذلك مما يضجره ﷺ.

والمعنى: أي إذا عرفت يا محمد تعنّتاتهم في السؤال، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبراً جميلاً، لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله تعالى. وهذا معنى الصبر الجميل.

وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدرى بأنّه مصاب. قال ابن زيد وغيره: هذه الآية منسوخة بآية السيف.

﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن أهل مكة ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾؛ أي: يرون العذاب الواقع بهم أو يرون يوم القيامة؛ أي: يزعمونه في رأيهم ﴿بَعِيدًا﴾؛ أي: غير كائن لأنهم لا يؤمنون به؛ أي: يستبعدونه بطريق الإحالة، كما كانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الآية، ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾، فلذلك يسألون به وسبب استبعادهم عدم علمهم باستحقاقهم إياه كما يقول المرء لخصمه: هذا بعيد ردّاً لوقوعه وإمكانه. ﴿وَنَرَىٰهُ﴾؛ أي: نعلم ذلك العذاب الواقع بهم ﴿قَرِيبًا﴾؛ أي: كائناً قريباً؛ لأنّ ما هو آت قريب لعلمنا باستحقاقهم إيّاه بحسب استعدادهم. وقيل: المعنى: ونراه هينا في قدرتنا غير متعسر ولا متعذر علينا، فالمراد بالبعد هو البعد عن الإمكان، وبالقرب هو القرب منه. والجملة تعليل للأمر بالصبر. وقال سهل رحمه الله تعالى: إنهم يرون المقضيّ عليهم من الموت والبعث والحساب بعيداً لبعد آمالهم ونراه قريباً، فإن كل كائن قريب والبعيد ما لا يكون. وفي الحديث: «ما الدنيا فيما مضى وما بقي إلا كثوب شق باثنين، وبقي خيط واحد، ألا وكان ذلك الخيط قد انقطع». قال الشاعر:

هَلِ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا جَمِيْعاً ... سِوَىٰ ظِلٍّ يَزُوْلُ مَعَ ٱلنَّهَارِ

وقال الآخر:

وَمِنْ عَجَبِ ٱلأَيَّامِ أَنَّكَ قَاعِدٌ ... عَلَىٰ ٱلأَرْضِ فِيْ ٱلدُّنْيَا وَأَنْتَ تَسِيْرُ
فَسَيْرُكَ يَا هَذَا كَسَيْرِ سَفِيْنَةٍ ... بِقَوْمٍ قُعُوْدٍ وَٱلْقُلُوْبُ تَطِيْرُ

والظرف في قوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يقع بهم ذلك العذاب يوم تكون السماء ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ أو متعلق بمحذوف مقدّر بعده تقديره: تكون السماء كالمهل يوم يكون من الأحوال والأهوال ما لا يوصف، والأوّل أولى. والمهل هنا: خبث الحديد، ونحوه مما يذاب على مهل وتدريج، أو درديُّ الزيت لسيلانه على مهل لثخانته. وعن ابن مسعود: كالفضة المذابة في تلونها أو كالقير والقطران في سوادهما.

وجملة قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ معطوفة على ما قبلها؛ أي: تصير

الجبال كالصوف المصبوغ ألواناً، وإنما وقع التشبيه به؛ لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش أي: المصبوغ إذا تطيرته الريح. قال في «كشف الأسرار»: أول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ثم عهنا منفوشاً ثم تصير هباء منثوراً. وقال الحسن: تكون الجبال كالعهن، وهو الصوف الأحمر، وهو أضعف الصوف، كما ذكر في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ⑩﴾؛ أي: لا يسأل قريب قريبه عن شأنه في ذلك اليوم لما نَزَل بهم من شدة الأهوال التي أذهلت القريب عن قريبه، والخليل عن خليله، كما قال سبحانه: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾. وقيل: الأصل، ولا يسأل حميم عن حيمم، فحذف الحرف، ووصل الفعل؛ أي: لا يسأل قريب قريباً عن أحواله ولا يكلمه لابتلاء كل منهم بما يشغله عن ذلك. وإذا كان الحال بين الأقارب هكذا، فكيف يكون بين الأجانب؟ والتنكير فيه للتعميم.

وقرأ الجمهور ﴿وَلَا يَسْأَلُ﴾ مبنياً للفاعل، قيل: والمفعول الثاني محذوف والتقدير؛ أي: لا يسأله نصره ولا شفاعته ولا منفعة لعلمه أنه لا يجد ذلك عنده. وقال قتادة: لا يسأله عن حاله؛ لأنّها ظاهرة. وقيل: لا يسأله أن يحمل عنه من أوزاره شيئاً ليأسه عن ذلك. وقرأ أبو حيوة، وشيبة، وأبو جعفر، والبزي بخلاف عن ثلاثتهم، وابن كثير في رواية عنه على البناء للمفعول؛ أي: لا يسأل إحضاره كل من المؤمن والكافر له سيماء يعرف بها. وقيل: عن ذنوب حميمه ليؤخذ بها بل كل إنسان يسأل عن نفسه، وعن عمله.

ومعنى هذه الآيات: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ⑤﴾؛ أي: إذا سألوا استعجال العذاب على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالوحي، وكان هذا يورث ضجرك أيها الرسول فاصبر صبراً جميلاً بلا جزع ولا شكوى؛ لأنّه أمر محقّق، وكل آتٍ قريب. ثم بين أن هذا اليوم لا شك فيه، فقال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ﴾ إلخ؛ أي: إنّ هؤلاء المشركين يرون هذا اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة بعيداً محالاً غير ممكن، ونحن نراه قريباً هيّناً غير بعيد علينا، ولا متعذّر. ثم ذكر وقت حدوثه فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ⑧﴾؛ أي: إنّ العذاب واقع بالكافرين يوم تكون السماء كأنّها عكر الزيت، والمراد أنّها تكون واهية ضعيفة غير متماسكة. ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ

﴿٩﴾؛ أي: وتكون الجبال هشّة غير متلاحمة، كأنها الصوف المنفوش إذا طيرته الريح. رُوي عن الحسن: أنها تسير مع الرياح ثم تنهد ثم تصير كالعهن، ثم تنهد فتصير هباء منثوراً. ﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: ولا يسأل قريب مشفق قريباً عن حاله، ولا يكلمه لابتلاء كل منهما بما يشغله، كما جاء في قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

وقوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ مستأنف أو صفة لقوله: ﴿حَمِيمًا﴾؛ أي: يبصر كل حميم حميمه لا يخفى منهم أحد عن أحد، وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه، ولا يتساءلون، ولا يكلم بعضهم بعضاً لاشتغال كل منهم بنفسه. وهذه الجملة مستأنفة كما مرّ آنفاً، واقعة في جواب سؤال مقدر كأنّه قيل: لعله لا يبصره فكيف يسأل عن حاله؟ فقيل: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾. والضمير الأوّل[1] للحميم الأول، والثاني للثاني، وجمع الضميرين لعموم الحميم لكل حميمين لا لحميمين اثنين، لأنّهما نكرتان في سياق النفي. قال في «تاج المصادر»: التبصير: التعريف والإيضاح، ويعدى إلى المفعول الثاني بالباء، وقد تحذف الباء، وعلى هذا جاء ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ انتهى. يعني: عدّى ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ بالتضعيف إلى ثان وقام الأول مقام الفاعل. والمعنى: يبصر الأحماء فلا يخفون عليهم ولا يمنعهم من التساؤل إلا تشاغلهم بأحوال أنفهسم، فيبصر الرجل أباه وأخاه وأقرباءه وعشيرته، ولكن لا يسأله ولا يكلمه لاشتغاله بما هو فيه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يتعارفون ساعة ثم يتناكرون ويفر بعضهم من بعض بعد ذلك.

وقال ابن زيد[2]: يبصر الله الكفار في النار الذين أضلوهم في الدنيا، وهم الرؤساء المتبوعون عبرةً وانتقاماً وحزناً. وقيل: إن قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾. يرجع إلى الملائكة؛ أي: يعرفون أحوال الناس، لا يخفون عليهم. وقرأ قتادة[3]: ﴿يُبْصِرونهم﴾ مخففاً مع كسر الصاد؛ أي: يبصر المؤمن الكافر في النار، قاله مجاهد.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾؛ أي: يتمنّى الكافر، وقيل: كلّ مذنب. ﴿لَوْ﴾ بمعنى التمنّي،

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) البحر المحيط.

فهو حكاية لودادتهم. ﴿يَفْتَدِى﴾ من الافتداء، وهو حفظ الإنسان عن النائبة بما يبذل عنه. ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾؛ أي: من العذاب الذي ابتلوا به يوم إذ كان ما ذكر، وهو بكسر الميم لإضافة العذاب إليه. وقرىء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بالفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكن. وقرأ الجمهور[1] ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ بإضافة عذاب إلى يومئذٍ. وقرأ أبو حيوة بتنوين ﴿عذابٍ﴾ وقطع الإضافة. وقرأ الجمهور ﴿يومئذ﴾ بكسر الميم. وقرأ نافع، والكسائي، والأعرج، وأبو حيوة بفتحها. ﴿بِبَنِيهِ﴾ أصله: ببنين سقطت نونه للإضافة، وجمعه؛ لأن كثرتهم محبوبة مرغوب فيها. ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾؛ أي: صاحبته التي يصاحبها ﴿وَأَخِيهِ﴾ الذي كان ظهيراً له ومعيناً.

وجملة قوله: ﴿يَوَدُّ﴾ مستأنفة[2] مسوقة لبيان أنَّ اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حيث يتمنّى أن يفتدى بأقربهم إليه وأعلقهم بقلبه ويجعله فداء لنفسه حتى ينجو هو من العذاب، فضلاً عن أن يهتم بحاله ويسأل عنها، كأنّه قيل: كيف لا يسأل مع تمكنه من السؤال؟ فقيل: ﴿يَوَدُّ﴾... إلخ.

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: وعشيرته الأقربين الذين يضمونه في النسب أو عند الشدائد، ويأوي إليهم فيلوذ بهم. قال أبو عبيد: الفصيلة دون القبيلة. وقال ثعلب: هم آباؤهم الأدنون، وهي في الأصل القطعة المفصولة من الجسد، وتطلق على الآباء الأقربين، وعلى الأولاد؛ لأنَّ الولد يكون مفصولاً من الأبوين، فلمّا كان الولد مفصولاً منهما كانا مفصولين منه أيضاً، فسمّي فصيلة لهذا السبب، والمراد بالفصيلة في الآية هو الآباء الأقربون والعشيرة الأدنون لقوله: ﴿وبنيه﴾. وقوله: ﴿تُـْٔوِيهِ﴾ من آوى إلى كذا انضمّ إليه، وآواه غيره كما قال تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾؛ أي: إلى نفسه.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين والخلائق. و﴿مَنْ﴾ للتغليب. ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ معطوف على ﴿يَفْتَدِى﴾؛ أي: يَوَدُّ لو يفتدى ثم ينجيه الافتداء. و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء. يعني: لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ثمّ ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه. وقرأ[3] الزهريّ ﴿تؤويه﴾ و﴿تنجيه﴾ بضمّ الهاءين.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

والمعنى: أي يتمنى الكافر لو ينفع أعز الناس إليه فديةً. لينجيه من ذلك العذاب، فيود لو كان أبناؤه أو زوجته أو أخوه أو عشيرته التي تضمه إليها، أو أهل الأرض جميعاً فداء له ليخلص من ذلك العذاب.

والخلاصة: يتمنى الكافر لو كان هؤلاء جميعاً في قبضة يده.. ليبذلهم فدية عن نفسه ثم ينجيه ذلك هيهات.

﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم عن الودادة والتمنّي، وتصريح بامتناع إنجاء الافتداء؛ أي: لا يكون كما يتمنّى فإنّه بهيئته الظلمانية الحاصلة من الإجرام استحق العذاب، فلا ينجو منه. وفي الحديث: «يقول الله عزّ وجلّ لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أنَّ لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدى به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي». وعن «القرطبي»: أنّ ﴿كَلَّآ﴾ يكون بمعنى الردع والزجر وبمعنى حقًّا، وكلا الوجهين جائزان هنا، فعلى الثاني يكون تمام الكلام ﴿يُنجِيهِ﴾، فيوقف عليه، ويكون ﴿كَلَّآ﴾ من الجملة الثانية التي تليه. والمحقّقون على الأول، ومن ذلك وضع السجاوندي علامة الوقف على ﴿كَلَّآ﴾. ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: إنَّ النار المدلول عليها بذكر العذاب، والمراد جهنم. ﴿لَظَىٰ﴾ علم للنار، أو للدرك الثاني منها، منقول من اللظى بمعنى اللهب الخالص الذي لا يخالطه دخان، فيكون في غاية الإحراق لقوة حرارته النارية بالصفاء. وهو خبر ﴿إن﴾ بمعنى إن النار التي أعدت لعذابه مسماة بهذا الاسم. ويجوز أن يراد بـ ﴿لَظَىٰ﴾: اللهب الخالص على الأصل، فيكون خبراً بلا تأويل؛ أي: إنَّ النار التي يعذّب بها لهب خالص ليس فيه دخان. ﴿نَزَّاعَةً﴾ خبر ثان لـ﴿أنّ﴾؛ أي: قلاعة ﴿لِلشَّوَىٰ﴾؛ أي: للأعضاء التي في أطراف الجسد كالأيدي والأرجل؛ أي: مزيلة للأعضاء عن أماكنها لقوّة حرارتها ثم تعود الأعضاء كما كانت، وهكذا أبداً، فلا تترك لحماً ولا جلداً، إلا أحرقته. من نزع الشيء إذا جذبه، وأزاله من مقرّه وموضعه. و﴿الشوى﴾: الأطراف؛ أي: الأعضاء التي ليست بمقتل كالأيدي والأرجل. أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس. يعني: أنَّ النار تنزع جلود الرأس وتقشّرها عنه، وذلك لأنّهم كانوا يسعون بالأطراف للأذى والجفاء، ويصرفون عن الحق الأعضاء الرئيسية التي تشتمل عليها الرأس خصوصاً العقل الذي كانوا لا يعقلون إلا به في الرأس.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَزَّاعَةٌ﴾ بالرفع على أنه خبر ثان لـ ﴿أنّ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي، أو تكون ﴿لَظَىٰ﴾ بدلاً من الضمير المنصوب، و﴿نزّاعة﴾ خبر ﴿إنّ﴾، أو على أنّ ﴿نزّاعة﴾ صفة لـ ﴿لَظَىٰ﴾ على تقدير عدم كونها علما، أو يكون الضمير في ﴿إِنَّهَا﴾ للقصة، ويكون ﴿لَظَىٰ﴾ مبتدأ، و﴿نزاعة﴾ خبره، والجملة خبر ﴿إنّ﴾. وقرأ حفص عن عاصم، وأبو عمرو في رواية عنه، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة والزعفرانيّ، وابن مقسم، واليزيدي في اختياره ﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنصب على الحال المؤكدة أو المبينة، والعامل فيها ﴿لَظَىٰ﴾، وإن كان علماً لما فيه من معنىٰ التلظي كما عمل العلم في الظرف في قوله:

أَنَـا أَبُـو ٱلْـمِـنْـهَـالِ بَـعْـضَ ٱلأَحْـيَـانِ

أي: المشهور بعض الأحيان. أو بالنصب على الاختصاص للتهويل، قاله الزمخشري.

﴿تَدْعُواْ﴾ تلك النار ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ومعرفته، وهو مقابل أقبل. ومعنى ﴿تَدْعُواْ﴾: تجذب إلى نفسها، وتحضر، فهو مجاز عن إحضارهم كأنها تدعوهم فتحضرهم وتقول لهم: إلي إلي يا كافر، ويا منافق، ويا زنديق فإني مستقرك. أو تدعو الكافرين، والمنافقين بلفظ فصيح بأسمائهم، ثم تلتقطهم كالتقاط الطير الحب. ويجوز أن يخلق الله فيها كلاماً كما يخلقه في جلودهم وأيديهم وأرجلهم وكما خلقه في الشجرة. أو تدعو زبانيتها على حذف المضاف أو على الإسناد المجازي حيث أسند فعل الداعي إلى المدعوّ إليه، من باب إسناد ما هو للحال إلى المحل. وقيل: هو تمثيل وتخييل، ولا دعاء في الحقيقة. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾؛ أي: أعرض عن الطاعة؛ لأنّ من أعرض يولّي وجهه. وفي «التأويلات النجمية»: من أدبر عن التوجه إلى الحق بموافقات الشريعة ومخالفات الطبيعة، وتولى عن الإقبال على الآخرة والإدبار عن الدنيا. ﴿وَجَمَعَ﴾ المال حرصاً وحبًّا للدنيا ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾؛ أي: فجعله في وعاء وكنزه، ولم يؤد زكاته وحقوقه الواجبة فيه، وتشاغل به عن الدين، وتكبر باقتنائه. وذلك لطول أمله وانعدام شفقته على عباد الله، وإلا ما ادخر بلْ بذل. وفي جمع الجمع مع الإدبار والتولي تنبيه على قباحة البخل وخساسة البخيل، وعلى أنه لا يليق بالمؤمن.

(١) البحر المحيط.

والمعنى: أي كلا لا يقبل منه فداء، ولو جاء بأهل الأرض جميعاً أو بأعز ما يجده من مال ولو بملء الأرض ذهباً أو بولده الذي كان حشاشة كبده في الدنيا، أو بزوجته وعشيرته. ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ...﴾ إلخ؛ أي: إنها النار الشديدة الحرارة التي تنزع جلدة الرأس، وتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه. وأنشدوا قول الأعشى:

قَالَتْ قُتَيْلَةُ مَالَهُ ... قَدْ جُلِّلَتْ شَيْباً شَوَاتُهُ

وهذه النار تجذب إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر أنها في الدنيا يعملون عملها من بين أهل المحشر، فدسوا أنفسهم إذ كذبوا بقلوبهم وتركوا العمل بجوارحهم، وجمعوا المال بعضه على بعض وكنزوه، ولم يؤدوا حق الله فيه، وتشاغلوا به عن فرائضه من أوامر ونواهٍ.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: جنس الإنسان ﴿خُلِقَ﴾ حال كونه ﴿هَلُوعًا﴾؛ أي: شديد الحرص سيّىء الجزع وأفحشه، مبالغة هالع من الهلع، وهو سرعة الجزع عند مسّ المكروه بحيث لا يستمسك، وسرعة المنع عند مسّ الخير، يقال: ناقة هلوع: سريعة السير، وهو من باب علم، وقد فسره أحسن تفسير على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما. قوله تعالى: ﴿إِذَا﴾ ظرف لـ﴿جَزُوعًا﴾ ﴿مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: أصابه الشر، ووصل إليه الفقر، أو المرض أو نحوهما ﴿جَزُوعًا﴾ أي: كثير الجزع، مبالغة في الجزع مُكْثِراً منه لجهله بالقدر، وهو ضد الصبر. وقال ابن عطاء: الهلوع الذي عند الموجود يرضى، وعند المفقود يسخط. وفي الحديث: «شر ما أعطي ابن آدم شح هالع، وجبن خالع» فالهالع المحزن، والخالع الذي يخلع قلبه. قال بعضهم: إنما كرهت نفوس الخلق المرض؛ لأنّه شاغل لهم عن أداء ما كلفوا به من حقوق الله تعالى؛ إذ الروح الحيواني حين يحس بالألم يغيب عن تدبير الجسد الذي يقوم بالتكليف، وإنما لم تكره نفوس العارفين الموت لما فيه من لقاء الله تعالى، فهو نعمة ومنة، ولذلك ما خير نبيٌّ في الموت إلا اختاره.

﴿وَإِذَا﴾ ظرف لـ﴿مَنُوعًا﴾ ﴿مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾؛ أي: السعة أو الصحة أو غيرهما ﴿مَنُوعًا﴾؛ أي: مبالغاً في المنع والإمساك لجهله بالقسمة وثواب الفضل. وللصحة مدخل في الشحّ، فإن الغني قد يعطي في المرض ما لا يعطيه في الصحة، ولذا كانت الصدقة حال الصحة أفضل. والأوصاف الثلاثة، وهي: ﴿هَلُوعًا﴾ و﴿جَزُوعًا﴾ و﴿مَنُوعًا﴾ أحوال مقدرة؛ لأنَّ المراد بها ما يتعلق به الذمّ والعقاب، وهو ما يدخل

تحت التكليف والاختيار، وذلك بعد البلوغ. أو محقّقة لأنها طبائع جبل الإنسان عليها، كما قال المتنبي:

ٱلظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ ٱلنُّفُوسِ فإنْ تَجِدْ   ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

ولا يلزم أن لا تفارقه بالمعالجات المذكورة في كتب الأخلاق، فإنها كبرودة الماء ليست من اللوازم المهيئة للوجود، بل إنما حصولها فيه بوضع الله تعالى وخلقه، وهو يزيلها أيضا بالأسباب التي سببها إذا أراد. قال الراغب: فإن قيل: ما الحكمة في خلق الإنسان على مساوي الأخلاق؟

قلنا: الحكمة في خلق الشهوة أن يمانع نفسه إذا نازعته نحوها، ويحارب شيطانه عند تزيينه المعصية، فيستحق من الله سبحانه مثوبة وجنة انتهى.

والمعنى: أي إنّ الإنسان جُبِلَ على الهلع، فهو قليل الصبر شديد الحرص، فإذا افتقر أو مرض أخذ في الشكاة والجزع، وإذا صار غنيًّا أو سليماً معافىً منع معروفه، وشحّ بماله، وما ذاك إلا لاشتغاله بأحواله الجسمانية العاجلة، وقد كان من الواجب عليه أن يكون مشغولاً بأحوال الآخرة، فإذا مرض، أو افتقر رضي بما قسم له علماً بأن الله يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، وإذا وجد المال والصحة صرفهما في طلب السعادة الأخروية.

والخلاصة: أنه إذا أصابه الفقر والحاجة أو المرض أو نحو ذلك.. فهو جزوع؛ أي: كثير الجزع، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة ونحو ذلك فهو كثير المنع والإمساك.

وقد استثني من هذه الحال من اتصفوا بالصفات الآتية، فقال:

١ - ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ استثناء من الإنسان، لأنّه جنس في معنى الجمع، وهذا الاستثناء باعتبار الاستمرار؛ أي: إنّ المطبوعين على الصفات الرذيلة مستمّرون عليها إلا المصلين؛ أي: المقيمين للصلاة، فإنهم بدلوا تلك الطبائع واتصفوا بأضدادها. وقيل: المراد بهم: أهل التوحيد. يعني: أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع، وأنهم على صفات محمودة وخلال مرضيّة؛ لأن إيمانهم وما تمسكوا به من التوحيد ودين الحق يزجرهم عن الاتصال بتلك الصفات، ويحملهم على الاتصاف بصفات الخير.

ثم بينهم سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ تقديم ﴿هم﴾ يفيد تقوية الحكم وتقريره في ذهن السامع كما في قولك: هو يعطي الجزيل قصداً إلى تحقيق أنّه يفعل إعطاء الجزيل. ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ لا يشغلهم عنها شاغل، ولا يصرفهم عنها صارف، فيواظبون على أدائها، وليس المراد بالدوام أنهم يصلون أبداً. وقال الحسن، وابن جريج: هو التطوع منها. وقال النخعي: المراد بالمصلين الذين يؤدّون الصلاة المكتوبة. وقيل: الذين يصلونها لوقتها. والمراد[1] بالآية جميع المؤمنين. وقيل: الصحابة خاصّة، ولا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين. وقدم الصلاة على سائر الخصال لشرفها على غيرها بعد الإيمان لقوله ﷺ: «أوّل ما افترض الله على أمتي الصلوات الخمس، وأول ما يرفع من أعمالها الصلوات، وأوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته» فإن صلحت.. فقد أفلح، وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر. ولذا ختم الله الخصال بها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾. وكان آخر ما أوصى به النبي ﷺ الصلاة، وما ملكت أيمانكم. وقرأ الجمهور ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ بالإفراد، والحسن جمعاً.

والمعنى[2]: أي إنّ الإنسان بطبعه متصف بصفات الذمّ، خليق بالمقت إلاّ من عصمهم الله ووفقهم، فهداهم إلى الخير، ويسّر لهم أسبابه، وهم المصلون الذين يحافظون على الصلوات في أوقاتها، لا يشغلهم عنها شيء من الشواغل. وفي هذا إيماء إلى فضيلة المداومة على العبادة.

أخرج ابن حبان عن أبي سلمة قال: حدّثتني عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خذوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يملّ حتى تملوا»، قالت: فكان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ ما داوم عليه، وإن قل، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها». وقرأ أبو سلمة ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾.

٢ - ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أي: وإلا الذين ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: نصيب معين يستوجبونه على أنفهسم تقرباً إلى الله تعالى، وإشفاقاً على الناس من الزكاة المفروضة، كما قاله قتادة ومحمد بن سيرين. وقال مجاهد: سوى الزكاة. وقيل: صلة الرحم. والظاهر: أنه الزكاة لوصفه بكونه معلوماً ولجعله قريناً للصلاة.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾؛ أي: الذي يسأل. ومن[1] كان له قوت يوم لا يحل له السؤال، وأما حكم الدافع له عالماً بحاله، فكان القياس أن يأثم؛ لأنه إعانة على الحرام، لكنه يجعله هبة، ولا إثم في الهبة للغني وله أن يرده برد جميل مثل أن يقول: آتاكم الله من فضله. ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي: الذي لا يسأل إما حياء أو توكلاً، فيظن أنه غني فيحرم.

والمعنى[2]: أي والذين في أموالهم نصيب معين لذوي الحاجات، والبائسين تقرّباً إلى الله وإشفاقاً على خلقه سواء سألوا، واستجدوا أو لم يسألوا تعففاً منهم، والمراد بهذا الحق المعلوم ما يوظّفه الرجل على نفسه فيؤديه كل جمعة، أو كل شهر أو كلما جدت حاجة تدعو إلى بذل المال كإغاثة فرد أو إغاثة أمة طرأ عليها ما يستدعي البذل لمصلحة هامة لها كالدفاع ضدّ عدوّ أو دفع مجاعة أو ضرورة ملحّة مفاجئة.

٣ - ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، لا يشكون فيه ولا يجحدونه بل يصدّقونه بأعمالهم، حيث يتعبون أنفسهم في الطاعات البدنيّة والمالية طمعاً في التوبة الأخروية، بحيث يستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء. فمجرد التصديق بالجنان واللسان، وإن كان ينجي من الخلود في النار، لكن لا يؤدي إلى أن يكون صاحبه مستثنى من المطبوعين بالأحوال المذكورة.

والمعنى: أي والذين يوقنون بالمعاد والحساب، فيعملون عمل من يرجو الثواب، ويخاف العقاب، وتظهر آثار ذلك في أفعالهم وأقوالهم ومعتقداتهم، فينيبون إلى الله ويخبتون إليه.

٤ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾، أي: خائفون على أنفسهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة استقصاراً لها، واستعظاماً لجنابه تعالى. وتقديم ﴿مِّنْ﴾ على متعلقه وإن كان للفاصلة يجوز أن يكون للحصر امتثالاً لأمره تعالى ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾ مع جواز أن يكون للتقوية؛ أي: والذين هم خائفون وجلون من تركهم الواجبات وإقدامهم على المحظورات، ومن يدم به الخوف والإشفاق فيما كلف به يكن حذراً

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

من التقصير حريصاً على القيام بما كلف به من علم وعمل. ونحو الآية قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

ثم ذكر الداعي لهم إلى هذا الخوف، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ وهو اعتراض مؤذن بأنه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذابه تعالى، وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد بل يكون بين الخوف والرجاء؛ لأنّه لا يعلم أحد عاقبته، ومِنْ ثم أثر عن السلف الصالح أنهم كانوا كثيري الخوف والوجل، كما يشعر بذلك قول بعضهم: لَيْتَ أمي لم تَلِدْنِي، وقول آخر: ليتني شجرةً تعضد، إلى أشباه ذلك مما يعبر عن شديد الوجل والخشية.

٥ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ﴾ فرج الرجل والمرأة سوءاتهما؛ أي: قبلهما. عبّر به عنها رعايةً للأدب في الكلام، وأدب المرء خير من ذهبه، والجار متعلق بقوله: ﴿حَافِظُونَ﴾ من الزنا؛ أي: متعفّفون عن مباشرة الحرام، كافون لها عن الحرام، فإن حفظ الفرج كناية عن العفة. ﴿إِلَّا عَلَى﴾ بمعنى (من) كما في كتب النحو. ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾ الأربع؛ أي: نسائهم المنكوحات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الجواري من غير حصر في أوقات حلها كالطهر من الحيض والنفاس ومضيّ مدة الاستبراء. وعبر عنهن بـ ﴿ما﴾ إجراءً لهن لمملوكيتهن مجرى غير العقلاء أو لأنوثتهن المنبئة عن القصور. وإيراد ما ملكت الأيمان يدل على أن المراد من الحافظين هنا الذكور، وإن كان الحفظ لازماً للإناث أيضاً، بل أشد؛ لأنه لازم عليهن على عبيدهن، وإن كانوا مما ملكت أيمانهن ترجيحاً لجانب الذكور في صيانة عرضهم. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: فإن الحافظين ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ على عدم حفظها منهنّ؛ أي: غير معيوبين شرعاً فلا يؤاخذون بذلك في الدنيا والآخرة. وفيه إشعار بأن من لم يحفظ تكفيه ملامة اللائمين، فكيف العذاب؟.

﴿فَمَنِ ابْتَغَى﴾ وطلب لنفسه الاستمتاع ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾؛ أي: وراء ما ذكر من الأزواج والمملوكات. ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المبتغون ﴿هُمُ الْعَادُونَ﴾؛ أي: المتجاوزون لحدود الله، الكاملون في العدوان المتناهون فيه؛ لأنّه من عدا عليه إذا تجاوز الحد في الظلم، ودخل فيه حرمة وطْءِ الذكران والبهائم والزنا، وقيل: يدخل فيه الاستمناء أيضاً. روي: أنَّ العرب كانوا يستمنون في الأسفار، فنزلت الآية. وفي

الحديث: «ومن لم يستطع ـ أي: التزوج ـ فعليه بالصوم». استدل به بعض المالكية على تحريم الاستمناء؛ لأن ﷺ أرشد عند العجز عن التزوج إلى الصوم الذي يقطع الشهوة، فلو كان الاستمناء مباحاً.. لكان الإرشاد إليه أسهل. وقد أباح الاستمناء طائفة من العلماء، وهو عند الحنابلة وبعض الحنفية جائزٌ لأجل تسكين الشهوة. وفي بعض حواشي البخاري: والاستمناء باليد حرام بالكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾؛ أي: الضالون المتجاوزون من الحلال إلى الحرام. قال البغوي: الآية دليل على أنَّ الاستمناء باليد حرام.

٦ ـ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾؛ أي: لما ائتمنوا عليه من الدين والدنيا. ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ فيما بينهم وبين ربهم أو فيما بينهم، وبين الناس ﴿رَاعُونَ﴾؛ أي: حافظون بالوفاء. يعني: إذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا.

قرأ الجمهور ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ بالجمع. وقرأ ابن كثير وابن محيصن ﴿لأمانتهم﴾ بالإفراد، والمراد به الجنس، أي: فالأمانة اسم لجنس ما يؤتمن عليه الإنسان سواء من جهة البارىء سبحانه، وهي أمانات الدين التي هي الشرائع والأحكام أو من جهة الخلق، وهي الودائع ونحوها. والجمع بالنظر إلى اختلاف الأنواع، وكذا العهد شامل لعهد الله وعهد الناس، وهو ما عقده الإنسان على نفسه لله أو لعباده، وهو يضاف إلى المعاهد والمعاهد فيجوز هنا الإضافة إلى الفاعل والمفعول.

٧ ـ ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ﴾ الباء: متعلقة بقوله: ﴿قَائِمُونَ﴾ سواء كانت للتعدية أم للملابسة، والجمع باعتبار أنواع الشهادة؛ أي: والذين هم يقيمون الشهادة، ويؤدونها على من كانت عليه قريب أو بعيد رفيع أو وضيع، ولا يكتمونها ولا يغيّرونها. قال النبي ﷺ: «إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع». وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات لإبانة فضلها؛ لأن في إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها، وفي كتمها وتركها تضييعها وإبطالها، وفي «الأشباه» إذا كان الحقُّ يقوم بغيرها، أو كان القاضي فاسقاً أو كان يعلم أنها لا تقبل.. جاز الكتمان.

وقرأ الجمهور ﴿بشهادتهم﴾ بالإفراد. وقرأ حفص ويعقوب، وهي رواية عن ابن كثير بالجمع. قال الواحدي: والإفراد أولى، لأنّه مصدر، ومن جمع ذهب إلى

اختلاف الشهادات. قال الفراء: ويدل على قراءة التوحيد قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَدَةَ لِلَّهِ﴾.

والمعنى: أي والذين يقومون بأداء الشهادة عند الحكام، ولا يكتمونها ولا يغيّرونها. والشهادة من جملة الأمانات، وخصَّها بالذكر لعظم شأنها؛ إذ بها تحيا الحقوق وبتركها تموت.

٨ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ تقديم ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ يفيد الاختصاص الدال عل أن محافظتهم مقصورة على صلاتهم، لا تتجاوز إلى أمور دنياهم؛ أي: يراعون شرائطها، ويكملون فرائضها وسننها ومستحباتها وآدابها، ويحفظونها من الإحباط باقتران الذنوب. فالدوام المذكور أوّلاً يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها. قال أبو حيان: وأقول: إنَّ الديمومة على الشيء والمحافظة عليه شيء واحد، لكنّه لما كانت الصلاة هي عمود الإسلام بولغ في التوكيد فيها، فذكرت أوَّل خصال الإسلام المذكورة في هذه السورة وآخرها ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني الإسلام عليها. وقال الشوكاني: والمراد يحافظون على أذكارها وأركانها وشرائطها، لا يخلون بشيء من ذلك. قال قتادة: على وضوئها وركوعها وسجودها. وقال ابن جريج: المراد: التطوع، وكرر ذكر الصلاة لاختلاف ما وصفهم به أوّلاً، وما وصفهم به ثانياً، فإن معنى الدوام هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل كما سلف، ومعنى المحافظة: أن يراعي الأمور التي لا تكون صلاةٌ بدونها. وقيل: المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها، وكرر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحق أن يستقل بموصوف منفرد.

والإشارة: بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات؛ أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات الفاضلة. ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: مستقرون في جنات لا يقادر قدرها، ولا يدرك كنهها. ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ بالثواب الأبدي والجزاء السرمدي؛ أي: سيكونون كذلك، فكأنّ الإكرام فيها واقع لهم الآن. وهو خبر ثان أو هو الخبر، و﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ متعلق به، قدم عليه لمراعاة الفواصل، أو بمضمر هو حال من الضمير في الخبر؛ أي: مكرمون حال كونهم كائنين في جنات.

والمعنى: هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال في بساتين يكرمون فيها بأنواع اللذات والمسرات، وإلى ذلك أشار الحديث: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر».

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ﴾؛ أي: فما بال الذين ﴿كَفَرُواْ﴾ وحرموا من الاتصاف بالصفات الجليلة المذكورة. و﴿ما﴾ استفهامية للإنكار في موضع رفع بالابتداء، ولـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبرها، واللام الجارة كتبت مفصولة اتباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه. ﴿قِبَلَكَ﴾ حال من المنوي في ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: فما لهم ثابتين حولك ﴿مُهْطِعِينَ﴾ حال من المستكن في ﴿قِبَلَكَ﴾. من الإهطاع، وهو الإسراع؛ أي: مسرعين نحوك؛ أي: أيّ شيء ثبت لكفّار مكة مسرعين جهتك، مادي أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك. وقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ متعلق بـ ﴿عِزِينَ﴾، لأنّه بمعنى مفترقين أو بـ ﴿مُهْطِعِينَ﴾، و﴿عِزِينَ﴾ حال بعد حال من المنوي في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي: فرقاً شتّى، جمع عزة، وهي الفرقة من الناس. وأصلها[1]: عزو من العزو بمعنى الانتماء، والانتساب، فعوضوا عن اللام الهاء كأن كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى إما في الولادة، أو في المظاهرة، فهم مفترقون. كان المشركون يتحلقون حول رسول الله ﷺ حلقاً حلقاً وفرقاً فرقاً، ويستهزئون بكلامه ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم. فنزلت هذه الآية وما بعدها، كما مرّ في الأسباب.

والمعنى[2]: فما بال كفار مكة؟ يسرعون إليك ويجلسون حواليك عن يمينك، وعن شمالك جماعات متفرقة، نافرين منك لا يلتفتون إلى ما تلقيه عليهم من رحمة الله وهديه ونصحه وإرشاده وما فيه سعادتهم في معاشهم ومعادهم. ونحو الآية قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾.

أخرج مسلم وغيره عن جابر قال: دخل علينا رسول الله ﷺ المسجد ونحن حلق متفرقون، فقال: «ما لي أراكم عزين؟ ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟» قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأول

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ويتراصون في الصف». وقد كانت عادتهم في الجاهلية أن يجلسوا حلقاً مجتمعين، قال شاعرهم:

تَـرَانَـا عِـنْـدَهُ وَٱللَّيْـلُ دَاجٍ عَـلَـىٰ أَبْـوَابِـهِ حِـلَـقـاً عَـزِيـنَـا

ثم أيأسهم من نيلهم للسعادة التي يفوز بها من يسمعون القول، فيتبعون أحسنه، فقال: ﴿أَيَطْمَعُ﴾ ويرجو ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من هؤلاء المهطعين ﴿أَن يُدْخَلَ﴾ بالإيمان ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾؛ أي: جنة ليس فيها إلا التنعم المحض من غير تكدر ولا تنغص. والاستفهام فيه للتوبيخ المضمن للإنكار؛ أي: لا يطمع. والطمع: نزوع النفس إلى الشيء شهوة له، وأكثر الطمع من جهة الهوى. وقرأ الجمهور[1] ﴿أَن يُدْخَلَ﴾ مبنياً للمفعول من الإدخال. وقرأ الحسن، وزيد بن علي، وطلحة بن مصرف، والأعرج، ويحيى بن يعمر، وأبو رجاء، وعاصم في رواية عنه مبنياً للفاعل من الدخول.

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن ذلك الطمع الفارغ؛ أي: اتركوا هذا الطمع، واقطعوا مثل هذا الكلام؛ أي: لا يدخلها.

والمعنى: أيطمع هؤلاء المشركون وهم نافرون من الرسول ﷺ، معرضون عن سماع الحق أن يدخلوا جنتي كما يدخلها المؤمنون المخبتون الذين يدعون ربهم خوفاً وطمعاً؟ كلا لا مطمع لهم في ذلك مع ما هم عليه.

ولعل[2] وجه إيراد ﴿يُدْخَلَ﴾ مجهولاً من الإدخال دون يدخل معلوماً من الدخول مع أنه الظاهر في رد قولهم: ﴿لَنَدْخُلَنَّها﴾. إشعار بأنه لا يدخل من يدخل إلا بإدخال الله، وأمره للملائكة به، وبأنهم محرومون من شفاعة تكون سبباً للدخول، وبأن إسناد الدخول إخباراً وإنشاءً، إنما يكون للمرضي عنهم، والمكرمين عند الله بإيمانهم وطاعتهم كقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾.

وفي تنكير[3] ﴿جَنَّةَ﴾ إشعاراً بأنهم مردودون عن كل جنة، وإن كانت الجنان كثيرة، وفي توصيفها بـ﴿نَعِيمٍ﴾ إشعار بأن كل جنة مملوءة بالنعمة، وأن من طرد من

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

راحة النعيم وقع في كدر الجحيم. وفي إيراد ﴿كُلُّ﴾ إشعار بأن من آمن منهم بعد قولهم هذا، وأطاع الله ورسوله حق له الطمع، وتعميم للردع لكل منهم كائناً من كان ممن لم يؤمن.

ثم ذكر السبب في تيئيسهم منها، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾؛ أي: أنشأناهم وأوجدناهم ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من النطفة القذرة التي يعلمونها، فكيف يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون: لندخلن الجنة قبلهم؟ فكيف يليق ويصح دخولهم الجنة، ولم يتصفوا بالإيمان والمعرفة. وهذا كلام مستأنف، ولذلك وضع السجاوندي علامة الطاء على ﴿كَلَّآ﴾ لتمام الكلام عنده، قد سيق تمهيداً لما بعده من بيان قدرته تعالى على أن يهلكهم لكفرهم بالبعث والجزاء واستهزائهم برسول الله ﷺ، وبما نزل عليه من الوحي وادعائهم دخول الجنة بطريق السخرية، وينشيء بدلهم قوماً آخرين. فإن قدرته تعالى على ما يعلمون من النشأة الأولى من حال النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة حجة بينة على قدرته تعالى على ذلك.

وقيل المعنى(١): إنّا خلقناهم من أجل ما يعلمون، وهو تكميل النفس بالإيمان والطاعة، فمن لم يكملها بذلك فهو بمعزل عن أن يتبوأ متبوأ الذين أخلصوا لله وحده، وبعدت نفوسهم عن دنس الشرك والمعاصي.

ثم توعدهم بأنهم إن لم يثوبوا إلى رشدهم أهلكوا، واستبدل بهم قوماً غيرهم خيراً منهم، فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾؛ أي: أقسم ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ جمع(٢) المشارق والمغارب إما لأن المراد بها مشرق كل يوم من السنة ومغربه، فيكون لكل من الصيف والشتاء مائة وثمانون مشرقاً ومغرباً أو مشرق كل كوكب ومغربه. أو المراد بالمشرق ظهور دعوة كل نبيّ، وبالمغرب موته. أو المراد أنواع الهدايات والخذلانات. ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ جواب القسم. ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: نبدلهم. حذف المفعول الأول للعلم به، و﴿خَيْرًا﴾ مفعوله الثاني بمعنى التفضيل على التسليم؛ إذ لا خير في المشركين. أو نهلكهم بالمرة حسبما تقتضيه جناياتهم، ونأتي بدلهم بخلق آخرين ليسوا على صفتهم، ولم يقع هذا التبديل، وإنما ذكر الله ذلك تهديداً لهم، لكي يؤمنوا. وقيل: بدل الله بهم الأنصار والمهاجرين. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

أي: بمغلوبين إن أردنا ذلك بل نفعل ما أردنا، لا يفوتنا شيء، ولا يعجزنا أمر، ولكن اقتضت حكمتنا البالغة، وعلمنا السابق تأخير عقوبة هؤلاء وعدم تبديلهم بخلق آخر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ على صورة ﴿لا﴾ النافية. وقرأ قوم ﴿فلأقسم﴾ بلام دون ألف. وقرأ الجمهور ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ بالجمع. وقرأ أبو حيوة وابن محيصن والجحدري وحميد ﴿المشرق والمغرب﴾ بالإفراد.

والمعنى[2]: أي أقسم برب الكواكب ومشارقها، ومغاربها إنا لقادرون على أن نخلق أمثل منهم، يستمعون دعوة الداعي ونصح الناصح، ونهلك هؤلاء، ولن يعجزنا ذلك لكن مشيئتنا اقتضت تأخير عقوبتهم.

والخلاصة: أنّ هؤلاء المشركين في تناقض واضطراب في الرأي فكيف ينكرون البعث ثم يطمعون في دخول الجنة؟ وكيف ينكرون الخالق وقد خلقهم أوّلاً مما يعلمون، وهو قادر على خلق مثلهم ثانياً. وفي هذا تهكّم بهم وتنبيه إلى تناقضهم في كلامهم، فإن الاستهزاء بالساعة ودخول الجنة مما لا يقبله إلا من عنده دخل في العقل ومجانفة لصواب الرأي.

ثم سلّى رسوله ﷺ عما يقولون ويفعلون، فقال: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾؛ أي: فخلهم وشأنهم ﴿يَخُوضُواْ﴾ ويشرعوا في باطلهم الذي من جملته ما حكي عنهم. وهو جواب الأمر، وهو تهديد لهم وتوبيخ كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾. ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ في الدنيا بالاشتغال بما لا ينفعهم، وأنت مشتغل بما أمرت به، فليس عليك إلا البلاغ. وهذه الآية منسوخة بآية السيف. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ ويعاينوا، من الملاقاة بمعنى المعانية. ﴿يَوۡمَهُمُ﴾ هو يوم البعث عند النفخة الثانية. وأضافه إليهم لأنّه يوم جمع كل الخلائق وهم منهم، أو لأن يوم القيامة يوم الكفار من حيث العذاب، ويوم المؤمنين من حيث الثواب، فكأنّه يومان: يوم للكافرين ويوم للمؤمنين. ﴿ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ الآن أو على الاستمرار. وهو من الوعد كقولهم: متى هذا الوعد، ويجوز أن يكون من الإيعاد. وقرأ الجمهور[3] ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ من الملاقاة. وقرأ أبو جعفر، وابن محيصن،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

وحميد، ومجاهد ﴿حتى يلقوا﴾ مضارع لقي.

والمعنى: دعهم في تكذيبهم وعنادهم إلى يوم البعث، وحينئذٍ يعلمون عاقبة وبالهم ويذوقون شديد نكالهم، حين يعرضون للحساب والجزاء يوم تجزى كل نفس بما عملت، يوم لا شفيع ولا نصير، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي الله بقلب سليم.

ثم فصل أحوالهم في هذا اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ بدل من ﴿يومهم﴾، ولذا حمل على يوم البعث. والأجداث: جمع جدث، وهو القبر. وقرأ الجمهور[١]: ﴿يَخْرُجُونَ﴾ مبنياً للفاعل. وقرأ السلميّ[٢] والأعمش، والمغيرة، وعاصم في رواية مبنياً للمفعول. ﴿سِرَاعًا﴾ منتصب على الحال من ضمير ﴿يَخْرُجُونَ﴾. جمع سريع كظراف جمع ظريف، أي: مسرعين إلى جانب الداعي وصوته، وهو إسرافيل ينادي على الصخرة، كما سبق. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ حال ثانية[٣] من الضمير المذكور، وهو كل ما نصب وعبد من دون الله. وعن أبي عمرو: هو شبكة يقع فيها الصيد فيسارع إليها صاحبها، واحد الأنصاب كعنق وأعناق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾. وكان للعرب حجارة تعبدها وتذبح عليها. وقال الأخفش: جمع نصب كرهن ورهن، والأنصاب جمع الجمع. ﴿يُوفِضُونَ﴾؛ أي: يسرعون أيّهم يستلمه أوّلاً من الإيفاض، وهو الإسراع. وفيه تهجين لحالهم الجاهلة، وتهكم بهم بذكر جهالتهم التي اعتادوها من الإسراع إلى ما لا يملك نفعاً ولا ضرّاً.

وقرأ الجمهور[٤]: ﴿نصب﴾ بفتح النون وسكون الصاد. وأبو عمران الجوني ومجاهد بفتحهما، وابن عامر وحفص بضمّهما، والحسن وقتادة بضم النون وسكون الصاد. والنصب: ما نصب الإنسان فهو يقصده مسرعاً إليه من علم أو بناء أو صنم، وغلب في الأصنام حتى قيل: الأنصاب هي الأصنام.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يُوفِضُونَ﴾، و﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ فاعلها على الإسناد المجازي. يعني: وصفت بالخشوع مع أنه وصف للكل لغاية ظهور آثاره فيها.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

والمعنى: ذليلة خاضعة لا يرفعونها مخافة ما يتوقعون من العذاب. ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾؛ أي: تغشاهم ذلة شديدة وحقارة عظيمة. قال قتادة: هي سواد الوجوه، ومنه: غلام مراهق إذا غشيه الاحتلام. والجملة حال أيضاً من فاعل ﴿يُوفِضُونَ﴾.

والمعنى[1]: أي يوم يخرجون من قبورهم إذا دعاهم الداعي إلى موقف الحساب سراعاً، يسابق بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه، يبتدرون أيهم يستلمه قبل مع خشوع الأبصار وذلتها لهول ما تحققوا من العذاب، تعلو وجوههم القترة لما أصابهم من الكآبة والحزن.

ثم ذكر أن ذلك العذاب الذي وقعوا فيه كانوا قد أنذروابه، ولم يأتهم بغتة، فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم المذكور الذي سيقع فيه الأهوال الهائلة. وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾؛ أي: يوعدونه في الدنيا على ألسنة الرسل، وهم يكذّبون به. فاندفع توهم التكرار؛ لأن الوعد الأول محمول على الآتي والاستمراريّ كما مرّ، وهذا الوعد محمول على الماضي بدلالة لفظ ﴿كان﴾.

والمعنى: أي ذلك اليوم وما فيه من أهوال عظام كانوا قد أنذروا في الدنيا أنهم ملاقوه، وكانوا به يكذّبون، فلا عذر لهم فيما سيموا به من سوء العذاب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ذِلَّةٌ﴾ منوناً، ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ﴾ برفع الميم، مبتدأ وخبر. وقرأ عبد الرحمن بن خلاد عن داود بن سالم عن يعقوب، والحسن بن عبد الرحمن عن التمّار ﴿ذلّة﴾ بغير تنوين مضافاً إلى ﴿ذلك﴾، و﴿اليوم﴾ بخفض الميم.

الإعراب

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾.

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق بـ ﴿سَأَلَ﴾، والباء بمعنى عن، و﴿وَاقِعٍ﴾ صفة لـ ﴿عذاب﴾، ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ متعلق بـ ﴿وَاقِعٍ﴾، واللام بمعنى على، ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لَهُ﴾ خبرها مقدم، ﴿دَافِعٌ﴾ اسمها مؤخر،

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل الجرّ صفة ثانية لـ ﴿عذاب﴾، أو حال من ﴿عذاب﴾، لأنّه تخصّص بالوصف. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بواقع؛ أي: واقع من عنده ومن جهته، أو متعلق بـ ﴿دَافِعٌ﴾ بمعنى ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته. ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ صفة للجلالة، ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فعل مضارع وفاعل، ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ معطوف على الملائكة من عطف الخاص على العام، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَعْرُجُ﴾. ﴿فِى يَوْمٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف دلَّ عليه ﴿وَاقِعٍ﴾؛ أي: يقع العذاب بهم في يوم، أو متعلق بـ ﴿تَعْرُجُ﴾، ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿خَمْسِينَ﴾ خبره، ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ تمييز خمسين، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الجر صفة لـ ﴿يَوْمٍ﴾ ولكنها سببية.

﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وتدبّرت فيه وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: اصبر. ﴿اصبر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول لجواب (إذا) المقدرة، وجملة (إذا) المقدرة مستأنفة. ﴿صَبْرًا﴾ مفعول مطلق، ﴿جَمِيلًا﴾ صفة ﴿صَبْرًا﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ خبره، والضمير لـ ﴿عذاب﴾، ﴿بَعِيدًا﴾ مفعول ثان، لأنّ الرؤية علميّة. وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعولان، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، داخلة في حيّز الخبر. ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بمحذوف تقديره: يقع بهم العذاب يوم تكون السماء كالمهل، أو متعلق بـ ﴿قَرِيبًا﴾. ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ خبره، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ معطوف على الجملة السابقة، مماثلة لها في إعرابها، ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾ فعل وفاعل ومفعول به ثان، والأوّل محذوف تقديره: شفاعته أو نصره. والجملة في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ فعل مضارع، مبني للمجهول، ﴿والواو﴾: نائب فاعل، ﴿والهاء﴾: مفعول به ثان، وعدّي بالتضعيف إلى المفعول الثاني، والجملة مستأنفة، أو حالية. ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة أو حالية ﴿لَوْ﴾ مصدرية، ﴿يَفْتَدِى﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿مِنْ عَذَابِ﴾ متعلق بـ ﴿يَفْتَدِى﴾ ﴿عَذَابِ﴾ مضاف، ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ ﴿يوم﴾ مضاف إليه، ﴿إذ﴾ مضاف إليه، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة تقديرها: يوم إذ تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن، وجملة ﴿لَوْ﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿يَوَدُّ﴾؛ أي: يودّ المجرم افتداءه من عذاب يومئذٍ ﴿بِبَنِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَفْتَدِى﴾ أيضاً، ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ﴾ معطوفات على ﴿بِبَنِيهِ﴾، ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة للفصيلة، وجملة ﴿تُـْٔوِيهِ﴾ صلة الموصول، ﴿وَمَن﴾ اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿بنيه﴾، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صلة الموصول، ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير المستقرّ في الصلة، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف للتراخي لشدَّة الهول، ﴿يُنجِيهِ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الافتداء، ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَفْتَدِى﴾؛ أي: يود لو يفتدي ثم لو ينجيه الافتداء؛ أي: يودّ افتداءه بهؤلاء المذكورين جميعاً ثم إنجاءه. و﴿ثم﴾ لاستبعاد الإنجاء كما مر.

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع وزجر لودادتهم الافتداء، وتنبيه على أن ذلك التمنّي غير وارد، وليس بذي طائل. ﴿إِنَّهَا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَظَىٰ﴾ خبرها، والضمير للنار الدال عليها العذاب، ﴿نَزَّاعَةً﴾ حال مؤكدة أو مبيّنة، أو نصبت على الاختصاص للتهويل، وعلى الحال يكون العامل فيها ما دلت عليه ﴿لَظَىٰ﴾ من معنى الفعل؛ أي: تتلظى نزاعة. وقرىء بالرفع، فهو خبر ثان لـ ﴿إن﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي نزاعة. وقيل: ﴿لَظَىٰ﴾ بدل من اسم ﴿إنّ﴾، و﴿نَزَّاعَةً﴾ خبرها، ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ متعلق بـ ﴿نَزَّاعَةً﴾، ﴿تَدْعُوا۟﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿لَظَىٰ﴾، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة حال من الضمير في ﴿نَزَّاعَةً﴾، وجملة ﴿أَدْبَرَ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ معطوف على ﴿أَدْبَرَ﴾، ﴿وَجَمَعَ﴾ معطوف أيضاً على ﴿أَدْبَرَ﴾، ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ معطوف على ﴿جمع﴾، ومعنى ﴿أوعى﴾: جمع المال فجعله في وعاء وكنزه، ولم يؤد حقه تعالى فيه.

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿خُلِقَ﴾ في محل الرفع خبره، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ﴿هَلُوعًا﴾ حال مقدرة من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، لأنّه ليس متصفاً بهذه الصفات قبل ولادته ووقت خلقه. ﴿إِذَا﴾ ظرف مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿جَزُوعًا﴾، وجملة ﴿مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾ و﴿جَزُوعًا﴾ حال من الضمير في ﴿هَلُوعًا﴾ أو نعت له، أو حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ متعلق بـ ﴿مَنُوعًا﴾، و﴿مَنُوعًا﴾ حال من الضمير في ﴿هَلُوعًا﴾ أو نعت ثان له أو حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ مستثنى من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المراد به الجنس، فهو استثناء متصل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت لـ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿دَآئِمُونَ﴾، و﴿دَآئِمُونَ﴾ خبر ﴿هُمْ﴾، والجملة الاسمية صلة الموصول.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾
وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ
﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول على كونه نعتا لـ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾، ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ خبر مقدم، ﴿حَقٌّ﴾ مبتدأ مؤخّر، و﴿مَّعْلُومٌ﴾ نعت له، والجملة الاسمية صلة الموصول، ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ نعت ثان لـ ﴿حَقٌّ﴾، ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ معطوف على السائل، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول، وجملة ﴿يُصَدِّقُونَ﴾ صلة الموصول ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ متعلق بـ ﴿يُصَدِّقُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف أيضاً على الموصول الأوّل ﴿هُم﴾ مبتدأ، ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿مُّشْفِقُونَ﴾، و﴿مُّشْفِقُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معترضة مسوقة لتعليل الإشفاق، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول أيضاً، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿حَٰفِظُونَ﴾، و﴿حَٰفِظُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ من أعم الأحوال، ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿حَٰفِظُونَ﴾؛ أي: حافظون لفروجهم من المحرمات في جميع الأحوال إلا في حال استمتاعهم بأزواجهم الخ. ﴿أَوْ﴾ حرف

عطف، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾، ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما ملكته أيمانهم. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الفاء تعليلية، ﴿إنّهم﴾ ناصب واسمه، ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الاستثناء.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَمَنِ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حكم هذا الاستثناء، وأردت بيان حكم من ابتغى وراء ذلك فأقول لك: من ابتغى. ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو الشرط أو هما، ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، فقد خرجت ﴿وَرَآءَ﴾ عن الظرفية؛ أي: طلب وراء الاستمتاع بالنكاح، أو بملك اليمين. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلْعَادُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية جواب لـ﴿من﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مقول لجواب (إذا) المقدرة، وجملة (إذا) المقدرة معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين المتعاطفين. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول أيضاً، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿رَٰعُونَ﴾، ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ معطوف على ﴿أماناتهم﴾، ﴿رَٰعُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول أيضاً، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿قَآئِمُونَ﴾، و﴿قَآئِمُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿يُحَافِظُونَ﴾، وجملة ﴿يُحَافِظُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ خبر المبتدأ، ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ خبر ثان، ولك أن تعلق ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ بـ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَمَالِ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ،

﴿للذين﴾ جار ومجرور خبر ﴿ما﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول ﴿قِبَلَكَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف حال من ﴿الَّذِينَ﴾؛ أي: متوجهين قبلك أو متعلق بـ ﴿مُهْطِعِينَ﴾، و﴿مُهْطِعِينَ﴾ حال من الموصول أيضاً؛ أي؛ مسرعين إليك. ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ جار ومجرور، حال من الموصول؛ أي: كائنين في جهة يمينك. ﴿وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾. وقيل: الجار والمجرور متعلق بـ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أو بـ ﴿عِزِينَ﴾، و﴿عِزِينَ﴾ حال من الموصول أيضاً. فالأربعة أحوال من الموصول. وقيل: غير ذلك. ﴿أَيَطْمَعُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿يطمع﴾ فعل مضارع، ﴿كُلُّ امْرِئٍ﴾ فاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾ صفة لـ ﴿امْرِئٍ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾ حرف نصب، ﴿يُدْخَلَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة منصوب بـ ﴿أن﴾، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ امْرِئٍ﴾، ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ مفعول به ثان، منصوب على السعة، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: أيطمع في دخوله جنة نعيم ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر عن طمعهم بدخول الجنة ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿خَلَقْنَاهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة خبر ﴿إِنَّا﴾. ﴿مِمَّا﴾ متعلقان بـ ﴿خَلَقْنَاهُم﴾. ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية؛ ﴿لا﴾ زائدة، ﴿أُقْسِمُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله سبحانه، والجملة مستأنفة، ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ متعلق بـ ﴿أُقْسِمُ﴾، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَقَادِرُونَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء، و﴿قادرون﴾ خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿عَلَىٰ﴾ حرف جر، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿نُّبَدِّلَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰ﴾؛ أي: على تبديلنا. الجار والمجرور متعلق بـ ﴿قادرون﴾، ﴿خَيْرًا﴾ مفعول به، ﴿مِّنْهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿خَيْرًا﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿ما﴾ حجازية، ﴿نَحْنُ﴾ اسمها، ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ خبرها، و﴿الباء﴾: زائدة، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نُّبَدِّلَ﴾.

﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَذَرۡهُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنهم لا يفوتوننا، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿ذرهم﴾. ﴿ذر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والهاء: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿يَخُوضُواْ﴾ فعل مضارع، مجزوم بالطلب السابق، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَخُوضُواْ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية، ﴿يُلَٰقُواْ﴾ فعل مضارع منصوب بـ(أن) مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿يَوۡمَهُمُ﴾ مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، تقديره: إلى ملاقاتهم يومهم الذي يوعدون، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ذرهم﴾، ﴿ٱلَّذِي﴾ نعت لـ ﴿يَوۡمَهُمُ﴾، وجملة ﴿يُوعَدُونَ﴾ من الفعل المغيّر، ونائب فاعله صلة الموصول.

﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يَوۡمَ﴾ بدل من ﴿يَوۡمَهُمُ﴾، وجملة ﴿يَخۡرُجُونَ﴾ في محل الجر بإضافة الظرف إليه ﴿مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ متعلق بـ ﴿يَخۡرُجُونَ﴾، ﴿سِرَاعٗا﴾ حال من الواو في ﴿يَخۡرُجُونَ﴾، ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه، ﴿إِلَىٰ نُصُبٖ﴾ متعلق بـ ﴿يُوفِضُونَ﴾، وجملة ﴿يُوفِضُونَ﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر ﴿كأنّ﴾، وجملة ﴿كأنّ﴾ في محل النصب حال ثانية من الواو أيضاً، فتكون مترادفةً أو من الضمير في ﴿سِرَاعٗا﴾، فتكون متداخلة ﴿خَٰشِعَةً﴾ حال من فاعل ﴿يُوفِضُونَ﴾، أو من فاعل ﴿يَخۡرُجُونَ﴾، والأوّل أقرب، ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ فاعل بـ ﴿خَٰشِعَةً﴾، ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة حال ثانية من فاعل ﴿يُوفِضُونَ﴾، ولك أن تجعلها مستأنفة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلۡيَوۡمُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة أو مفسرة لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلَّذِي﴾ صفة لـ ﴿يوم﴾، ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يُوعَدُونَ﴾ خبره، وجملة كان صلة الموصول.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ قرىء ﴿سَأَلَ﴾ بهمزة هي عين الفعل، وعليه فقوله: ﴿سَآئِلُۢ﴾ لا

إعلال فيه، اسم فاعل من سأل المهموز. وقرىء ﴿سال﴾ بألف ليّنة وتحتمل أوجهاً:

الأوّل: أن يكون من السؤال كالقراءة بالهمز، لكن الهمزة أبدلت ألفاً على غير القياس، لكنه مسموع عن العرب، ومنه: قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

سَالَتْ هُذَيْلٌ رَسُوْلَ ٱللَّهِ فَاحِشَةً ضَلَّتْ هُذَيْلُ بِمَا جَاءَتْ وَلَمْ تُصِبِ

فقوله: سَالَتْ يعني: سألت: ومنه: قول الفرزدق:

رَاحَتْ بِمَسْلَمَةَ البِغَالُ عَشِيَّةً فَارْعَيْ فَزَارَةَ لاَ هَنَاكَ المَرْتَعُ

فقوله: لا هنَّاك؛ أي: لا هنأك، فأبدل الشاعران الهمزة في البيتين ألفاً. ومن ذلك قراءة نافع وأبي عمرو البصري ﴿منساته﴾ بألف لينة. وعلى هذا فليس في ﴿سَآئِلُۢ﴾ إعلال.

والوجه الثاني: أن الألف فيه مبدلة من واو كالألف في ﴿خاف﴾، وعليه فتكون الهمزة في ﴿سَآئِلُۢ﴾ مبدلة من واو كما في خائف.

والوجه الثالث: أن تكون الألف فيه مبدلة من ياء، والأصل: سيل من السيل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح كالألف في كال، وعليه فتكون الهمزة في ﴿سَآئِلُۢ﴾ بدلاً من ياء. وفسروه بأنه واد في جهنم اسمه سائل. فالمعنى: سال هذا الوادي الذي في جهنم بعذاب، وعليه فالباء هنا في موضعها، وإذا جعل من السؤال فالباء بمعنى عن.

﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾؛ أي: المصاعد، والمعارج: جمع معرج بفتح الميم هنا بمعنى مصعد، وهو موضع الصعود. قال الراغب: العروج: ذهاب في صعود، والمعارج: المصاعد.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ﴾ أصله: يرأيونه، نقلت حركة الهمزة إلى الراء نقلاً مطرداً كما تقدم ثم حذفت للتخفيف، فصار اللفظ: يريونه فقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لما التقت ساكنة مع واو الجماعة. ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ أصله أيضاً: نرأيه فعل بالهمز ما فعل بهمزة ﴿يرونه﴾، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ولم تحذف لعدم التقاء الساكنين. ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ المهل: درديّ الزيت، وهو ما يكون في قعر الإناء منه

لسيلانه على مهل لثخانته، أو خبث الحديد ونحوه مما يذاب على مهل وتدريج. وعن ابن مسعود: كالفضة المذابة في تلونها أو كالقير والقطران في سوادهما.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ ﴿والعهن﴾: الصوف مطلقاً، وقيل: بقيد كونه أحمر، وقيل: بقيد كونه مصبوغاً، وقيل: بقيد كونه مصبوغاً بألوان شتّى اهـ سمين. وهذه الأقوال في معنى ﴿العهن﴾ في اللغة اهـ. ﴿حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ و﴿الحميم﴾: القريب. ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾؛ أي: يبصر الأحماء الأحماء، ويرونهم. ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾؛ أي: يتمنى الكافر، أصله: يودد مضارع ودد بكسر العين. وفي «المصباح»: نقلت حركة الدال إلى الواو، وهذا النقل غير معهود؛ إذ المعهود نقل حركة حرف اللين إلى الساكن الصحيح، وهنا بالعكس. فلما وقع هذا النقل سكنت الدال الأولى، وأدغمت في الثانية. ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ من الافتداء، والافتداء: حفظ الإنسان نفسه عن النائبة بما يبذل عنه. ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ الفصيلة؛ العشيرة، وقال ثعلب: الآباء الأدنون، فهي فعيلة بمعنى مفعولة؛ أي: مفصول منها. ﴿تُـْوِيهِ﴾ من أوى إلى كذا: انضم إليه، وآواه غيره، كما قال تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾؛ أي: ضمه إلى نفسه. فمعنى ﴿تُـْوِيهِ﴾: تضمه إليها في النسب، أو عند الشدائد، فيلوذ بها.

﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم عن الودادة، وتصريح بامتناع إنجاء الافتداء؛ أي: ليس الأمر كما يتمنى. ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ علم لجهنم، لأنها تتلظى؛ أي: تتلهب على من يصلاها. ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦﴾ يقال: نزع الشيء: جذبه من مقره وقلعه. والشوى: جمع شواة، وهي جلدة الرأس، وفيه إعلال بالقلب، أصله: الشوي قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ أوعى فيه إعلال بالقلب، أصله: أوعي بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿هَلُوعًا﴾ قال في «الصحاح»: الهلع في اللغة: أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه، يقال: هلع بالكسر من باب فرح، فهو هلع وهلوع على التكثير، والهلوع مبالغة هالع. وقال عكرمة: هو الضجور، وقيل غير ذلك، فالهلوع والجزوع والمنوع كل من الثلاثة صيغة مبالغة؛ لأنها على زنة فعول كضروب بمعنى: كثير الضرب. ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ أصله: المصليين بياءين، الأولى لام الكلمة والثانية ياء الجمع، حذفت حركة الياء الأولى للتخفيف، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ الأصل: داومون بالواو، أبدلت الواو همزة في الوصف حملاً له على فعله «دام» في الإعلال، فأصل دام

دوم، أعِلّ بقلب الواو ألفاً فحمل عليه الوصف فأعل بقلب الواو همزة. ﴿حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ﴾ والسائل: هو الذي يسأل ويظهر الفقر. ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ هو الذي لا يسأل إما حياء أو توكلا على الله، فيظن أنه غني فيحرم. ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ جمع فرج من الانفراج، وهو الفتحة، وفرج الرجل والمرأة سوءتهما؛ أي: قبلهما. ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ جمع ملوم، اسم مفعول من لام الثلاثي، وأصله: ملوومين نقلت حركة الواو إلى اللام فسكنت فالتقى ساكنان فحذفت واو مفعول على الصحيح. ﴿هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ جمع عاد من العدوان، يقال: عدا عليه إذا تجاوز في الظلم. ﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين نحوك مادّي أعناقهم مقبلين بأبصارهم عليك، فهو من الكلمات التي يحتاج في تفسيرها إلى جمل. وفي «القاموس»: هطع كمنع هطعاً وهطوعاً: أسرع مقبلاً خائفاً، وأقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه، وهطع: مد عنقه وصوب رأسه كاستهطع وكأمير الطريق الواسع وكمحسن من ينظر في ذل وخضوع لا يقلع بصره، أو الساكت المنطلق إلى من هتف به، وبعير مهطع في عنقه: تصويبٌ خلقةً، وقد تقدم شرح هذه المادة في سورة إبراهيم.

﴿عِزِينَ﴾ جمع عزة. قال أبو عبيدة: جماعات في تفرقة، وقيل: الجمع اليسير كثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة. وقال الأصمعي: في الدار عزون؛ أي: أصناف من الناس. وعزين: جمع عزةٍ، والهاء فيه عوض عن لام الكلمة التي قيل: إنها واو، يقال: عزاه يعزوه إذا أضافه إلى غيره، وقيل: إنها ياء يقال: عزيته بالياء أعزيه بمعنى: عزوته. وقيل: إنها هاء، والأصل: عزهة. والقولان الأولان أولى من الثالث، وعليه فلام الكلمة محذوفة، والياء الموجودة ياء الجمع، لأن هذا اللفظ من الألفاظ الملحقة بالجمع المذكر السالم، فوزنه: فعين. ﴿يَخُوضُوا﴾ أصله: يخوضوا بوزن يفعلوا، نقلت حركة الواو إلى الخاء فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد. ﴿يُلَٰقُوا﴾ أصله: يلاقيوا، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فسكنت، فالتقى ساكنان فحذفت الياء وضمت القاف لمناسبة الواو، فوزنه: يفاعوا. ﴿نُصُبٍ﴾ تقدم القول فيه مفصلاً، ونضيف إليه هنا أنه قرىء ﴿نصب﴾ بالفتح والإسكان، وقراءتنا بضمّتين، وقرىء بفتحتين، وقرىء بضم فسكون، فالأول اسم مفرد بمعنى العلم المنصوب الذي يسرع الشخص نحوه. وقال أبو عمرو: هو شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته. وأما الثانية فتحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه اسم مفرد بمعنى الصنم المنصوب للعبادة.

والثاني: أنه جمع نصاب ككتب وكتاب.

والثالث: أنه جمع نصب كرهن في رهن وسقف في سقف، وجمع الجمع: أنصاب. وأما الثالثة ففعل بمعنى مفعول؛ أي: منصوب كالقبض بمعنى المقبوض، والرابعة تخفيف من الثانية. ﴿يُوفِضُونَ﴾ من الإيفاض، وهو الإسراع.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ وقوله: ﴿تَعْرُجُ﴾ و﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾.

ومنها: إيراد صيغة تدل على الماضي في قوله: ﴿وَاقِعٍ﴾ دون سيوقع، للدلالة على تحقق وقوعه إمّا في الدنيا كما في يوم بدر، وإمّا في الآخرة وهو عذاب النار.

ومنها: فن التمثيل والتشبيه في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾، فهذا من التمثيل، فليس المراد حقيقة ذلك العدد، بل المراد الإشارة إلى أنه يبدو وللكافر طويلاً لما يلقاه خلاله من الهول والشدائد، فلا تنافي مع آية السجدة ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. والعرب تصف أيام الشدة بالطول، وأيام الفرح بالقصر. قال الشاعر:

فَقِصَارُهُنَّ مَعَ ٱلْهُمُومِ طَوِيلَةٌ ... وَطِوَالُهُنَّ مَعَ ٱلسُّرُورِ قِصَارُ

أو من باب التشبيه البليغ، والأصل كمقدار مدة خمسين ألف سنة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾، فالروح هو جبريل، أفرده بالذكر إظهاراً لشرفه وفضله.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ لحذف وجه الشبه، ووجه الشبه فيه التلون، وكذلك قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾، ووجه الشبه في هذا التطاير والتناثر. وقد رمق أبو العلاء هذه السماء العالية من البلاغة، إذ قال في رثاء أبيه:

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَخِفُّ وَقَارُهُ   إِذَا صَارَ أُحْدٌ فِي ٱلْقِيَامَةِ كَالعِهْنِ

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿بَعِيدًا﴾ و﴿قَرِيبًا﴾ وبين ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿الشمال﴾ وبين ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ و﴿المغارب﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ إفادة للتعميم.

ومنها: ذكر العام بعد الخاص في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾، جاء بالتعميم في قوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد التخصيص فيما قبله لبيان هول الموقف.

ومنها: إيراد لفظ ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تغليباً للعاقل على غيره.

ومنها: المجاز العقليّ في قوله: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾، فهو مجاز عن إحضارهم كأنها تدعوهم فتحضرهم، أو من مجاز الحذف؛ أي: تدعو زبانيتها، فهو على حذف مضاف، أو من الإسناد المجازي حيث أسند فعل الداعي إلى المدعوّ له.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾، قابله بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

ومنها: تقديم لفظ ﴿هم﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إفادة لتقوية الحكم، وتقريره في ذهن السامع كما في قولك: هو يعطي الجزيل قصداً إلى تحقيق أنّه يفعل إعطاء الجزيل.

ومنها: الطباق بين السائل والمحروم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾.

ومنها: التعبير عن سوءتي الرجل والمرأة؛ أي: قبلهما بلفظ الفروج في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾﴾، تعليماً للأدب في الكلام وأدب المرء خير من ذهبه.

ومنها: التعبير بـ﴿ما﴾ في قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الولائد إجراءً لهن لمملوكيتهن مجرى غير العقلاء، أو لأنوثتهن المنبئة عن القصور كما مرّ.

ومنها: تكرير الصلاة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ اهتماماً بشأنها وتنويهاً بفضلها، وفيه أيضاً تصدير الجملة بالضمير تقويةً للحكم وتقريراً له

في ذهن السامع.

ومنها: تقديم الجار والمجرور على الفعل إفادة للاختصاص الدال على أن محافظتهم مقصورة على صلاتهم، لا تجاوز إلى أمور دنياهم.

ومنها: فعلية الخبر، فتفيد الجملة الاسمية الدوام والاستمرار. وتفيد الجملة الفعلية التجدد مع الاستمرار. وهذا نمط عجيب انفرد به كتاب الله تعالى.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخيّ في قوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾.

ومنها: إيراد لفظ ﴿كُلُّ﴾ في قوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ﴾ إشعاراً بأن من آمن منهم بعد قولهم هذا، وأطاع الله ورسوله حق له الطمع، وتعميماً للردع لكل منهم كائناً من كان ممن لم يؤمن.

ومنها: تنكير ﴿جَنَّةَ﴾ إشعاراً بأنهم مردودون من كل جنة، وإن كانت الجنان كثيرة.

ومنها: توصيفها بنعيم إشعاراً بأن كل جنة مملوءة بالنعمة، وأن من طرد من راحة النعيم، وقع في كدر الجحيم، كما مرّ جميع ذلك.

ومنها: الكناية الفائقة الرائقة في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾، فإنّه كناية عن المنيّ القذر مع النزاهة التامّة في التعبير، وحسن الإيقاظ والتذكير بألطف عبارة وأبلغ إشارة.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، وفي هذا التشبيه تهجين لحالهم الجاهلية، وتهكّم بهم بذكر جهالتهم التي اعتادوها من الإسراع إلى ما لا يملك نفعاً ولا ضرًّا، وتعريض بسخافة عقولهم، وتسجيل عليهم بالجهل المشين، حيث أسرعوا إلى عبادة من لا يستحق العبادة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

خلاصة ما حوته السورة الكريمة من أغراض ومقاصد

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

(١) وصف يوم القيامة وأهواله.

(٢) وصف النار وعذابها.

(٣) صفات الإنسان التي أوجبت له الجحيم، وكيف يجتهد لإزالة ما به من النقص حتى يرتقي إلى المعارج، ويخرج من عالم المادّة.

(٤) وعيد الكافرين على ما يلاقونه في ذلك اليوم الرهيب من الأهوال العجيبة[١].

والله أعلم

* * *

---

(١) تم الفراغ من تفسير هذه السورة قبيل المغرب من اليوم الثاني عشر من شهر الربيع الأول من شهور سنة ١٤١٦/٣/١٢ هـ ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيّين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين، آمين يا ربّ العالمين.

سورة نوح عليه السلام

سورة نوح عليه السلام مكيّة، نزلت بعد سورة النحل. وأخرج ابن الضريس والنحاس، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت سورة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ بمكة.

وآياتها[1]: سبع أو ثمان وعشرون آية. وكلماتها: مئتان وأربع وعشرون كلمة. وحروفها: تسع مئة وتسعة وتسعون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها[2]:

١ - أنّه قال في السورة السابقة: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٤١﴾ وذكر هنا قصة نوح المشتملة على إغراقهم. إلا من قد آمن، وإبدالهم بمن هو خير منهم، فكأنَّها وقعت موقع الاستدلال على تلك الدعوى.

٢ - تواخي مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعود به الكفار.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها[3]: أنه تعالى لما أقسم على أن يبدل خيراً منهم، وكانوا قد سخروا من المؤمنين، وكذّبوا بما وعدوا به من العذاب ذكر قصة نوح وقومه معه، وكانوا أشد تمرداً من المشركين، فأخذهم الله أخذ استئصال حتى إنه لم يبق لهم نسلاً على وجه الأرض، وكانوا عباد أصنام كمشركي مكة، فحذَّر تعالى قريشاً أن يصيبهم عذاب يستأصلهم إن لم يؤمنوا.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم: سورة نوح كلها محكم، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وسميت سورة نوح لذكر قصة نوح فيها.

والله أعلم

* * *

---

(١) البيضاوي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى
لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ
يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ
وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾
فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل
لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ
خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ
ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟
مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟
مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ
أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ
وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والسورة التي قبلها، وأخبر سبحانه في بداية هذه السورة أنه أرسل نوحاً إلى قومه، وأمره أن ينذرهم بأسه قبل حلوله بهم، فقال نوح: يا قوم إني لكم نذير، فعليكم أن تعبدوا الله وحده وتطيعوه، فإن فعلتم ذلك.. غفر لكم ذنوبكم، ومد في أعماركم، ودرأ عنكم العذاب، وأمر الله إذا جاء لا يرد ولا يدفع، فهو العظيم الذي قهر كل شيء العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما

قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن نوحاً أمر أن ينذر قومه قبل أن يحل بهم بأس ربهم وعظيم بطشه، وأنه لبى نداءه، فأنذرهم وأمرهم بتقواه وطاعته ليغفر ذنوبهم ويمد في أعمارهم.. أردف ذلك بمناجاته لربه وشكواه إليه أنه أنذرهم بما أمره به، فعصوه وردوا عليه ما آتاهم به من عنده، ولم يزدهم دعاؤه، إلا إدباراً عنه وهرباً منه، وأنه كان يدعوهم تارةً جهرةً وتارة سرّاً، وأمرهم أن يطلبوا من ربهم مغفرة ذنوبهم ليرسل المطر عليهم، ويمدهم بالأموال والبنين، ويجعل لهم الجنات والأنهار. ثم نبههم إلى عظمته تعالى وواسع قدرته، ولفت أنظارهم إلى خلقه تعالى لهم أطواراً. وخلقه للسموات طباقاً، وجعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً، وجعل الأرض كالبساط، يتنقلون فيها من واد إلى واد، ومن قطر إلى قطر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها[1]: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر فيما سبق إنذار نوح قومه.. أخبر هنا عن نوح أنه أعلم ربه العليم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرّة أنه مع ما استعمله من الوسائل، والأساليب المختلفة المشتملة على الترغيب طوراً، والترهيب طوراً آخر.. كذّبوه وعصوه واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر ربه ومتع بمال وولد، وقالوا: لا نترك آلهتنا التي عبدناها نحن وآباؤنا من قبل، ولا عجب فقد أضلت الأصنام خلقاً كثيراً، فدعا عليهم: رب اخذل هؤلاء القوم الظالمين ولا تزد هم إلا ضلالاً.

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر مقالة نوح، وشكواه إليه.. أردفه بما جازاهم به من الغرق والعذاب، وأنهم لم يجدوا من يدفعهما عنهم. ثم أخبر بدعاء نوح على قومه، وعلل هذا بأنهم يضلون الناس، وأنهم لو نسلوا لم يلدوا إلا الكفرة الفجرة. ثم دعا لنفسه ولوالديه ولمن دخل سفينته من المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة، ودعا على قومه بالتبار والهلاك.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾ وبعثنا ﴿نُوحًا﴾ بالتوحيد والشرائع والأحكام ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ جميع

---

(١) المراغي.

أهل الأرض من الآدميّين أهل عصره. وروى[1] قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أوّل نبيّ أرسل نوح عليه السلام، وأرسل إلى جميع أهل الأرض، ولذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً». قال ابن عباس: وأرسل نوح وهو ابن أربعين سنة. وقال عبد الله بن شدّاد: وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة. وقال وهب: وهو ابن خمسين سنة اهـ خطيب. وقوله في الحديث: «أول نبي أرسل نوح» لعل المراد منه أنه أول نبي أرسل بالنهي عن عبادة غير الله؛ لأن عبادة غيره إنما حدثت في زمن نوح، وإلاّ فمن المعلوم أن قبله رسلاً آدم وشيث وإدريس اهـ شيخنا.

وفي «الشهاب»: ونوح أطول الأنبياء عمراً بل أطول الناس، وهو أوّل من شرعت له الشرائع، وأوّل رسول أنذر من الشرك وأهلكت أمته.

والمعنى[2]: أنّه أوّل من أرسل إلى من يعبد الأصنام، لأنّ عبادة الأصنام أوّل ما حدثت في قومه، وأرسله الله إليهم ينهاهم عن ذلك. وكان أكثر أهل الأرض في زمانه أولاد قابيل، وهم أوّل من عبدوا الأصنام، وأمّا آدم فأرسله الله سبحانه إلى أولاده بالإيمان وتعليم شرائعه، وكذا شيث وإدريس كلّ منهما أرسل إلى أولاده بالتوحيد والشرائع. وأمّا أولاد قابيل وكانوا أكثر أهل الأرض وعبدوا الأصنام، فأرسل الله إليهم نوحاً، فكانت رسالته عامّة لجميع أهل الأرض من أهل عصره.

فإن قلت: إذا كانت رسالة نوح عامّة لجميع أهل الأرض كانت مساويةً لرسالة نبيّنا محمد ﷺ؟

قلت: رسالة نوح عليه السلام عامّة لجميع أهل الأرض في زمنه، ورسالة نبيّنا محمد ﷺ عامّة لجميع من في زمنه، ومن يوجد بعد زمنه إلى يوم القيامة، فلا مساواة.

وهو[3] نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدريس بن برد بن مهلائيل بن أنوش بن فينان بن شيث بن آدم عليه السلام. ويقال له: شيخ المرسلين، وآدم الثاني. ونوح لقبه، واسمه عبد الغفّار، لقب به لكثرة نوحه على

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

نفسه أو على الناس بالدعوة إلى التوحيد، أو هو اسم سريانيّ معناه: الساكن؛ لأنّ الأرض طهرت به عن خبث الكفّار، سكنت إليه. وهو أوّل من أوتي الشريعة في قول، وأوّل أولى العزم من الرسل على قول الأكثرين، وأوّل نذير على الشرك، وكان قومه يعبدون الأصنام، وأوّل من عذِّبَتْ أمته.

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾؛ أي: بأن خوف قومك عن عبادة غير الله تعالى، فتكون ﴿أَنْ﴾ مصدرية، ويجوز أن تكون هي المفسرة؛ لأن في الإرسال معنى القول؛ أي: أنذر قومك. وقرأ ابن مسعود ﴿أنذر﴾ بدون أن، وذلك على تقدير القول؛ أي: فقلنا له: أنذرهم من قبل أن يأتيهم عذاب أليم؛ أي: خوّفهم بالنار على عبادة الأصنام كي ينتهوا عن الشرك ويؤمنوا بالله وحده.

والحاصل(١): أن ﴿أَنْ﴾ على قراءة الجمهور يجوز أن تكون مفسرة لما في الإرسال من معنى القول كما مرّ آنفاً، ويجوز أن تكون مصدرية حذف منها الجار وأوصل إليها الفعل؛ أي: بأن أنذرهم، وجعلت صلتها أمراً كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ لأنَّ مدار وصلها بصيغ الأفعال دلالتها على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبريّة والإنشائية ووجوب كون الصلة خبريّة في الموصول الاسميّ إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجمل، وهي لا توصف إلا بالجمل الخبريّة، وليس الموصول الحرفي كذلك، وحيث استوى الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر استويا في صحة الوصل بها، فيتجرد عند ذلك كل منهما عن المعنى الخاص بصيغته، فيبقى الحدث المجرد عن معنى الأمر والنهي والمضيّ والاستقبال، كأنّه قيل: أرسلناه بالإنذار كذا في «الإرشاد».

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ﴾ من الله تعالى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: عذاب شديد عاجل كالطوفان والغرق، أو آجل كعذاب الآخرة، لئلا يبقى لهم عذر ما أصلا، كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾. و﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى المؤلم أو المتألم مبالغة، والألم إمّا جسمانيّ وإما روحانيّ، والثاني أشدّ.

وجملة قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال

---

(١) روح البيان.

مقدر، كأنّه قيل: فماذا قال نوح؟ فقال: قال نوح لهم: يا قوم؛ أي: يا قومي. خاطبهم بإظهار الشفقة عليهم وإرادة الخير لهم وتطييباً لهم. ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾؛ أي: منذر مخوّف من عاقبة الكفر والمعاصي. وأفرد الإنذار بالذكر مع كونه بشيراً أيضاً؛ لأن الإنذار أقوى في تأثير الدعوة، لما أن أكثر الناس يطيعون أوّلاً بالخوف من القهر، وثانياً بالطمع في العطاء، وأقلهم يطيعون بالمحبة للكمال والجمال.

يقول الفقير: الظاهر[1] أن الإنذار أول الأمر، كما قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، والتبشير ثاني الأمر كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فالإنذار يتعلق بالكافرين، والتبشير يتعلق بالمؤمنين، وإن أمكن تبشير الكفّار بشرط الإيمان لا في حال الكفر، فإنهم في حال الكفر إنما يستحقون التبشير التهكمي كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿مُّبِينٌ﴾ موضح لحقيقة الأمر بلغة تعرفونها، أو بين الإنذار، أو مبين لما فيه نجاتكم.

والمعنى[2]: أي إنا أرسلنا نوحاً رسولاً إلى قومه، وقلنا له أنذرهم بأس الله وعذابه قبل أن يغرقهم الطوفان. ثم أخبر بأنه لما أمره بذلك امتثل الأمر فقال لقومه: يا قومي إني أنذركم عذاب الله فاحذروا أن ينزل بكم على كفركم به.

ثم فصّل ما أنذرهم به، فذكر ثلاثة أشياء:

١ - ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: آمركم بعبادة الله وحده. وهو متعلق بـ﴿نَذِيرٌ﴾، فـ﴿أَنْ﴾ هي المفسرة لـ﴿نَذِيرٌ﴾ أو هي المصدرية. والأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب والجوارح.

٢ - ﴿وَاتَّقُوهُ﴾؛ أي: وآمركم بتقواه وخوف عذابه بأن تتركوا محارمه وتجتنبوا مآثمه. والأمر بالتقوى يتناول الزجر عن جميع المحظورت والمكروهات.

٣ - ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي: وانتهوا، إلى ما آمركم به، واقبلوا نصيحتي لكم. والأمر بالطاعة يتناول أمرهم بطاعته في جميع المأمورات والمنهيّات والاعتقاديّات والعمليّات. وفي «التأويلات النجمية»: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي: في أخلاقي وصفاتي

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وأفعالي وأعمالي وأقوالي وأحوالي انتهى. وهذا وإن كان داخلاً في الأمر بعبادة الله وتقواه إلا أنه خصه بالذكر تأكيداً في ذلك التكليف ومبالغة في تقريره.

قال بعضهم: وأصله[1]: وأطيعوني بالياء، ولم يقل: وأطيعوه بالهاء مع مناسبته لما قبله. يعني: أسند الإطاعة إلى نفسه لما أنّ إطاعة الرسول إطاعة الله كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾. فإذا كانوا مأمورين بإطاعة الرسول، فكان للرسول أن يقول: وأطيعون، وأيضا أنّ الإجابة كانت تقع له في الظاهر.

ولما كلفهم بهذه الأشياء الثلاثة وعدهم عليها بشيئين، فقال:

١ - ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ جواب الأمر ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؛ أي: بعض ذنوبكم. وهو ما سلف في الجاهلية، فإنّ الإسلام يجب ما قبله لا ما تأخر عن الإسلام. فإنه يؤاخذ به، ولا يكون مغفوراً بسبب الإيمان، ولذلك لم يقل: يغفر لكم ذنوبكم بطيّ من التبعيضيّة، فإنه يعم مغفرة جميع الذنوب ما تقدم منها وما تأخّر. وقيل: المراد ببعض الذنوب بعض ما سبق على الإيمان، وهو ما لا يتعلق بحقوق العباد.

أي: إذا فعلتم[2] ما أمركم به وصدّقتم ما أرسلت به إليكم، غفر لكم ذنوبكم، وسامحكم فيما فرط منكم من الزلّات. وفي هذا وعد لهم بإزالة مضارّ الآخرة عنهم وأمنهم من مخاوفها.

٢ - ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ بالحفظ من العقوبات المهلكة كالقتل والإغراق والإحراق ونحوها من أسباب الهلاك والاستئصال، وكان اعتقادهم أنَّ من أهلك بسبب من هذه الأسباب لم يمت بأجله، فخاطبهم على المعقول عندهم. فليس يريد أنّ الإيمان يزيد في آجالهم، كذا في بعض التفاسير. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: معيّن مقدر عند الله. والأجل: المدّة المضروبة للشيء. قال في «الإرشاد»: وهو الأمد الأقصى الذي قدّره الله لهم بشرط الإيمان والطاعة. وهذا صريح في أنّ لهم أجلاً آخر لا يجاوزنه إن لم يؤمنوا به، وهو المراد بقوله الآتي: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

والمعنى: أي ويمدّ في أعماركم إلى الأمد الأقصى الذي قدّره الله إذا آمنوا وأطاعوا وراء ما قدّره لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان. واستدل العلماء بهذه الآية على أن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة، كما جاء في الحديث: «صلة الرحم تزيد في العمر». ولا ريب أن التقوى والطاعة تؤثر هذا الأثر؛ إذ طهارة الأرواح ونقاء الأشباح تطيل العمر، فبها يحفظ الأمن وتكتب الفضائل وتجتلب المنافع المادّية.

والخلاصة[(١)]: أنَّ الأجل أجلان على ما قاله الزمخشري، وعبارته: فقد قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسع مئة سنة. فقيل لهم: آمنوا يؤخّر إلى أجل مسمّى، أي: إلى وقت سمّاه الله وضربه أمداً تنتهون إليه، وهو الوقت الأطول، وهو تمام الألف اهـ.

ثم أخبر أنّه إذا جاء ذلك الأجل الأقرب المشروط ببقائهم على الكفر لا يؤخر، فقال: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ وهو[(٢)] ما قدّر لكم على تقدير بقائكم على الكفر، وهو الأجل القريب المعلق غير المبرم، بخلاف الأجل المسمى فإنه البعيد المبرم. وأضيف الأجل هنا إلى الله؛ لأنّه المقدر والخالق أسبابه، وأسند إلى العباد في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ لأنهم المبتلون المصابون. ﴿إِذَا جَآءَ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادروا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتى لا يتحقق شرطه الذي هو بقاؤكم على الكفر، فلا يجيء، ويتحقق شرط التأخير إلى الأجل المسمى، فتؤخّروا إليه. فالمحكوم عليه بالتأخير هو الأجل المشروط بشرط الإيمان والطاعة، والمحكوم عليه بامتناعه هو الأجل المشروط بشرط البقاء على الكفر، فلا تناقض لانعدام وحدة الشرط. ويجوز أن يراد به وقت إتيان العذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فإنه أجل مؤقّت له حتماً. قيل[(٣)]: المعنى: أنّ أجل الله وهو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان. وقيل: المعنى إذا جاء الموت لا يؤخّر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب.

﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: شيئاً من العلم لسارعتم إلى ما أمركم به أو لعلمتم أنّ أجل الله إذا جاء لا تأخير فيه ولا إمهال. وفيه إشارة إلى أنّهم ضيّعوا أسباب

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

العلم وآلات تحصيله بتوغلهم في حب الدنيا، وطلب لذّاتهم حتى بلغوا بذلك إلى حيث صاروا كأنّهم شاكّون في الموت.

وقيل: المراد بأجل الله في قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ الأجل الأطول.

والمعنى عليه: أي إنّ أجل الله الذي كتبه على خلقه في أمّ الكتاب إذا جاء لا يؤخّر عن ميقاته لو كنتم من أهل العلم، لكنّكم لستم من أهله، ولذا لم تسارعوا إلى العمل بما أمركم به. وفي قوله: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ زجر لهم عن حبّ الدنيا والتهالك عليها والإعراض عن أوامر الدين ونواهيه، وكأنّهم قد بلغ بهم الأمر إلى أنّهم شاكّون في الموت.

﴿قَالَ﴾ أي: نوح مناجياً لربّه وحاكياً له، وهو أعلم بحال ما جرى بينه وبين قومه من القيل والقال في تلك المدد الطوال بعد ما بذل في الدعوة غاية المجهود، وجاوز في الإنذار كل حد معهود، وضاقت عليه الحيل، وعيت به العلل. ﴿رَبِّ﴾ أي: يا ربّي ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِى﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ أي: في الليل والنهار؛ أي: دائماً من غير فتور ولا توان، فهما ظرفان لدعوت، أراد بهما الدوام على الدعوة؛ لأنّ الزمان منحصر فيهما، وكان يأتي باب أحدهم ليلاً فيقرع الباب، فيقول صاحب البيت: من على الباب؟ فيقول: أنا نوح، قل: لا إله إلا الله. ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ مما دعوتهم إليه، وتباعداً عنه. فالاستثناء فيه مفرغ، فالمستثنى منه مقدر؛ أي: فلم يزدهم دعائي شيئاً من أحوالهم التي كانوا عليها إلا فراراً؛ أي: بعداً وإعراضاً عن الإيمان، كأنّهم حمر مستنفرة اهـ خطيب.

وفي «التأويلات النجمية»: إلاّ فراراً من متابعتي وديني، وما أنا عليه من آثار وحيك. وهو مفعول ثان لقولهم: ﴿لم يزدهم﴾، لأنّه يتعدّى إلى مفعولين يقال: زاده الله خيراً، والاستثناء مفرّغ. وإسناد[1] الزيادة إلى الدعاء مع أنها فعل الله تعالى لسببيته لها.

والمعنى: أنّ الله يزيد القرار عند الدعوة بصرف المدعو اختياره إليه. قرأ

---

(١) روح البيان.

الجمهور[1] ﴿دعائي﴾ بفتح الياء. وقرأ الكوفيّون ويعقوب والدوري عن أبي عمرو بإسكانها.

والمعنى[2]: أي قال نوح عليه السلام: ربّ إنّي أنذرت قومي ولم أترك دعاءهم ليلاً ولا نهاراً امتثالاً لأمرك، وكلّما دعوتهم ليقتربوا من الحق فرّوا منه وحادوا عنه.

ثم أخبر عن أحوال أخرى لهم، تدل على الفظاظة وجفاء الطبع، فقال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾؛ أي: إلى الإيمان. وفي «التأويلات النجمية»: كلّما دعوتهم بلسان الأمر مجرّداً عن انضام الإرادة الموجبة لوقوع المأمور، فإن الأمر إذا كان مجرّداً عن الإرادة لا يجب أن يقع المأمور به، بخلاف ما إذا كان مقروناً بالإرادة، فإنه لا بد حينئذٍ من وقوع المأمور به؛ أي: كلّما دعوتهم إلى سبب المغفرة، وهو الإيمان بك والطاعة ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسببه ﴿جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلا يسمعوا صوتي؛ أي: سدّوا مسامعهم من استماع الدعوة. فالجعل المذكور كناية عن هذا السدّ، ولا مانع من الحمل على حقيقته بأن يدخلوا أصابعهم في ثقب آذانهم قصداً إلى عدم الاستماع. ﴿وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾؛ أي:[3] غطّوا بها وجوههم؛ لئلا يروني، فإن المبطل يكره رؤية المحق للتضادّ الواقع بينهما. وقيل: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي، فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة في سدّ الآذان. وقيل: هو كناية عن العداوة، يقال: لبس فلان ثياب العداوة، والاستغشاء مأخوذ من الغشاء، وهو الغطاء. وفي الأصل اشتمال من فوق، ولما كان فيه معنى الستر استعمل بمعناه، وأصل الاستغشاء طلب الغشي؛ أي: الستر، ولكن معنى الطلب هنا ليس بمقصود بل هو بمعنى التغطي والستر، وإنّما جيء بصيغته التي هي السين للمبالغة، والثياب جمع ثوب سمّي به لثوب الغزل؛ أي: رجوعه إلى الحالة التي قدر لها. والمعنى: وبالغوا في التغطّي بثيابهم كأنهم طلبوا منها أن تغشاهم؛ أي: جميع أجزاء بدنهم آلة الإبصار وغيرها، لئلا يبصروه كراهة النظر إليه. ﴿وَأَصَرُّوا﴾؛ أي: أكبّوا وأقاموا واستمروا على الكفر والمعاصي، ولم يقلعوا عنه، ولا تابوا منه. ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبول الحق وعن امتثال ما أمرهم به؛ أي: تعظموا

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

عن طاعتي واتباعي، وأخذتهم العزة في ذلك. ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ شديداً، لأنهم قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾.

والمعنى: أي وإنّي كلّما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانيتك والعمل بطاعتك، والبراءة من عبادة كلّ ما سواك لتغفر لهم ذنوبهم سدّوا مسامعهم حتى لا يسمعوا دعائي، وتغطوا بثيابهم كراهة النظر إليَّ، وأكبّوا على الكفر والمعاصي، وتعاظموا عن الإذعان للحق وقبول ما دعوتهم إليه من النصح.

ثم بين أنه ما ترك وسيلة في الدعوة إلا فعلها، قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ﴾ دعوة ﴿جِهَارًا﴾؛ أي: بأعلى صوتي. والجهر: ظهور الشيء بإفراط لحاسة البصر أو حاسة السمع؛ أي: رفعت صوتي لهم بالدعوة رفعاً بليغاً بحيث يسمعه القريب والبعيد. ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ﴾ وأظهرت ﴿لَهُمْ﴾ الدعوة مجتمعين ﴿وَأَسْرَرْتُ﴾ أي: أخفيت ﴿لَهُمْ﴾ الدعوة منفردين ﴿إِسْرَارًا﴾؛ أي: إخفاء بحيث لا يسمعها غير المدعوّ.

وفي هذا إشارة إلى ذكر عموم الحالات بعد ذكر عموم الأوقات؛ أي: دعوتهم تارة بعد تارة ومرّة غبّ مرّة على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة. و﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت الوجوه، فإنّ الجهر أشد من الإسرار، والجمع بينهما أغلظ من الإفراد. والإعلان ضدّ الإسرار، يقال: أسررت إلى فلان حديثاً: أفضيت به إليه في خفية؛ أي: من غير اطلاع أحد عليه. وجهرت به أظهرته بحيث اطلع عليه الغير. ويجوز أن يكون ﴿ثُمَّ﴾ لتراخي بعض الوجوه عن بعض بحسب الزمان بأن ابتدأ بمناصحتهم ودعوتهم في السرّ، فعاملوه بالأمور الأربعة، وهي: الجعل والتغطي والإصرار والاستكبار. ثمّ ثنى بالمجاهرة بعد ذلك، فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار؛ أي: خلط دعاءه بالعلانية بدعاء السرّ، فكما كلمهم جميعاً كلمهم واحداً واحداً سرّاً. فالجهر: النداء بالدعوة ورفع الصوت بها بلا دخول مجمعهم، والإعلان: إظهار الدعوة في مجامعهم، والإسرار: الدعوة لكل واحد منهم فرداً فرداً خفية بحيث لا يسمعه الغير.

وفي بعض التفاسير: أنّ نوحاً عليه السلام[1] لما آذوه بحيث لا يوصف حتى

(١) روح البيان.

كانوا يضربونه في اليوم مرّات عيل صبره، فسأل الله أن يواريه عن أبصارهم بحيث يسمعون كلامه، ولا يرونه فينالوه بمكروه، ففعل الله ذلك به، فدعاهم كذلك زماناً فلم يؤمنوا، فسأل الله أن يعيده إلى ما كان. وهو قوله: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

والمعنى[1]: أي ثم إني كنت أسر لهم بالدعوة تارةً، وأجهر لهم بها تارة أخرى، وطوراً كنت أجمع بين الإعلان والإسرار.

والخلاصة: أنّه عليه السلام لم يترك سبيلاً للدعوة إلا فعلها، فاستعمل طرقا ثلاثةً:

١ - بدأهم بالمناصحة في السر، فعاملوه بما ذكر في الآية السابقة من سدّ الآذان، والاستغشاء بالثياب والإصرار على الكفر والاستعظام عن سماع الدعوة.

٢ - جاهرهم بالدعوة، وأعلنهم على وجه ظاهر لا خفاء فيه.

٣ - جمع بين الإعلان والإسرار.

ثم بين ما كان يقول لهم، فقال: ﴿فَقُلْتُ﴾ لهم عقيب الدعوة، عطف على قوله: ﴿دَعَوْتُ﴾. ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾؛ أي: اطلبوا المغفرة منه لأنفسكم بالتوبة عن الكفر والمعاصي قبل الفوت بالموت.

والمعنى: أي فقلت لهم: سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم وعبادة ما سواه من الآلهة، ووحّدوه، وأخلصوا له العبادة.

﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ غَفَّارًا﴾ للتائبين بجعل ذنوبهم كأن لم تكن. والمراد[2] من كونه غفاراً في الأزل كونه مريداً للمغفرة في وقتها المقدّر، وهو وقت وجود المغفور له. والغفّار أبلغ من الغفور، وهو من الغافر، وأصل الغفر: الستر والتغطية، ومنه قيل لجنة الرأس: مغفر، لأنه يستر الرأس. والمغفرة من الله: ستره للذنوب وعفوه عنها بفضله ورحمته، لا بتوبة العباد وطاعتهم. وإنما التوبة والطاعة للعبودية وعرض الافتقار.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى: أي إنه تعالى كان غفاراً لذنوب من أناب إليه وتاب منها متى صدقت العزيمة، وخلصت النيّة وصحت التوبة فضلاً منه وجوداً وإن كانت كزبد البحر.

ولما كان الإنسان مجبولاً على محبّة الخيرات العاجلة، كما قال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ لا جرم أعلمهم أنّ إيمانهم بالله يجمع لهم إلى الحّظ الأوفر من الآخرة الخصب والغنى وكثرة الأولاد في الدنيا، ومن ثم وعدهم بخمسة أشياء:

١ - ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾؛ أي: ينزل الله سبحانه المطر، كما قال الشاعر:

إِذَا نَـزَلَ ٱلسَّمَـاءُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ ... فَـحُـلُّـوْا حَـيْـثُـمَـا نَـزَلَ ٱلسَّمَـاءُ

وقال بعضهم؛ أي: ماء السماء، فحذف المضاف. ﴿عَلَيْكُم﴾ يا قومي حال كونه ﴿مِّدْرَارًا﴾؛ أي: كثير الدُّرور؛ أي: السيلان والانصباب. وفي الإرسال مبالغة بالنسبة إلى الإنزال، وكذا المدرار صيغة مبالغة، ومفعال مما يستوي فيه المذكّر والمؤنّث كقولهم: رجل أو امرأة معطار، ولذلك لم يؤنّثه مع كون السماء مؤنّثاً معنوياً. و﴿يُرْسِلِ﴾ جواب شرط محذوف؛ أي: إن تستغفروا يرسل السماء، وفي قول النحاة في مثله جواب الأمر، وهو ههنا استغفروا تسامح في العبارة اعتماداً على وضوح المراد، وكسر اللام في الوصل لالتقاء الساكنين.

كأن قوم نوح تعللوا وقالوا(١): إن كنا على الحق فكيف نتركه؟ وإن كنا على الباطل فكيف يقيلنا بعد ما عكفنا عليه دهراً طويلاً؟. فأمرهم الله تعالى بما يمحق ما سلف منهم من المعاصي ويجلب عليهم المنافع، وهو الاستغفار، ولذلك وعدهم بالعوائد العاجلة التي هي أوقع في قلوبهم من المغفرة وأحب إليهم؛ إذ النفس حريصة بحب العاجل، ولذلك جعلها جواب الأمر بأن قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ إلخ، دون المغفرة بأن قال: ﴿ويغفر لكم﴾ ليرغبوا فيها، ويشاهدوا أن أثرها وبركتها ما يقاس عليه المغفرة، فالاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات، كما أن المعصية سبب لخراب العالم بظهور أسباب القهر الإلهي. وقيل: لما كذّبوه بعد

(١) روح البيان.

تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر، وأعقم أرحام النساء أربعين سنة، وقيل: سبعين سنة. فوعدهم إن آمنوا أن يرزقهم الله الخصب، ويدفع عنهم ما كانوا فيه.

يقول الفقير: هذا القول هو الموافق للحكمة؛ لأنَّ الله تعالى يبتلي عباده بالخير والشر ليرجعوا إليه، ألا ترى إلى قريش حيث إنّ الله جعل لهم سبع سنين كسني يوسف بدعاء النبي ﷺ.. ليرجعوا عما كانوا عليه من الشرك، فلم يرفعوا له رأساً.

والمعنى[1]: أي يرسل المطر عليكم متتابعاً، فتزرعون ما تحبون، ويكثر الخصب والغلات النافعة لكم في معاشكم من حبوب وثمار، وتحدث لكم طمأنينة وأمن وراحة لتوافر ما تشتهون مما هو سبب السعادة والهدى.

٢ ـ ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ﴾؛ أي: ويكثر لكم الأموال والخيرات على سائر ضروبها واختلاف ألوانها.

٣ ـ ﴿وَبَنِينَ﴾؛ أي: ويكثر لكم الأولاد. فقد ثبت لدى علماء الاجتماع أن النسل لا يكثر في أمة إلا إذا استتب فيها الأمن، وارتفع منها الظلم، وساد العدل بين الأفراد، وتوافرت لهم وسائل الرزق.

٤ ـ ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾؛ أي: بساتين ذوات أشجار وثمار؛ أي: ويوجد لكم بساتين عامرة تأخذون من ثمارها ما به تنتفعون، ولم يطمع الناس في الفاكهة إلا إذا وجدت لديهم الأقوات وكثرت الغلات.

٥ ـ ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ﴾ فيها ﴿أَنۡهَٰرٗا﴾ جارية بها يكثر الخصب والزرع بمختلف ألوانه وأشكاله، لا جرم أن الأمة الكثيرة البساتين والمزارع يعمها الرخاء وتسعد في حياتها الدنيوية، وتزينها بالنبات، وتحفظها عن اليبس، وتفرح القلوب وتسقي النفوس.

وكان الظاهر[2] تقديم الجنات والأنهار على الإمداد لكونهما من توابع الإرسال، وإنما أخرهما لرعاية رأس الآية، وللإشعار بأن كلا منهما نعمة الهبة على حدة. وعن الحسن البصريّ: إن رجلاً شكا إليه الجدب، فقال له: استغفر الله،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وشكا إليه آخر الفقر وقلة النسل، فقال له: استغفر الله، وشكا إليه ثالث جفاف بساتينه، فقال له: استغفر لله. فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون إليك أنواعاً من الحاجة، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فقال: ما قلت من نفسي شيئاً إنما اعتبرت قول الله عزّ وجلّ حكاية عن نبيّه نوح عليه السلام أنّه قال لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ الآية.

وبعد[1] أن أدبهم الأدب الخلقي بطلبه منهم تهذيب نفوسهم واتباعهم مكارم الأخلاق.. شرع يؤدِّبهم الأدب العلمي بدراسة التشريح وعلم النفس ودراسة أحوال العوالم العلوية والسفليّة، فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾، إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله تعالى وقاراً على أن الرجاء بمعنى الاعتقاد. والوقار: العظمة. و﴿مَّا﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي في محل الرفع مبتدأ، و﴿لَكُمْ﴾ خبرها، و﴿لَا تَرْجُونَ﴾ حال من ضمير المخاطبين، والعامل فيها معنى الاستقرار في ﴿لَكُمْ﴾، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿وَقَارًا﴾، ولو تأخر لكان صفة له.

والمعنى: أيُّ سبب حصل لكم واستقر حال كونكم غير معتقدين لله عظمةً موجبةً لتعظيمه بالإيمان والطاعة له؟ أي: لا سبب لكم في هذا مع تحقق مضمون الجملة الحالية. ومن[2] استعمال الرجاء بمعنى الخوف قول الهذيل: إذا لسعته النحل لم يرج لسعها. وقال سعيد بن جبير، وأبو العالية، وعطاء بن أبي رباح: ما لكم ترجون لله ثواباً، ولا تخافون منه عقاباً. وقال مجاهد والضحاك: ما لكم لا تبالون لله عظمةً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما لكم لا تخشون منه عقاباً، ولا ترجون منه ثواباً بتوقيركم إيّاه.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ في محل النصب على الحال من الجلالة؛ أي: والحال أنه سبحانه وتعالى قد خلقكم على أطوار مختلفة وصفات متفاوتة وحالات متنوّعة. والطور في اللغة: المرة، وقال ابن الأنباري: الطور: الحال، ويقال: فعل كذا طوراً بعد طور أي: تارة بعد تارة.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

والمعنى[1]: والحال أنكم على حالة منافية لما أنتم عليه بالكلية، وهي أنكم تعلمون أنه تعالى خلقكم وقدركم تارات؛ أي: مرّات حالاً بعد حال عناصر ثمّ أغذيةً ثم أخلاطاً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم أنشأكم خلقاً آخر. فإنّ التقصير في توقير مَنْ هذه شؤونه في القدرة القاهرة الإحسان التامّ مع العلم بها مما لا يكاد يصدر عن العاقل.

وقال بعضهم[2]: هي إشارة إلى الأطوار السبعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾. فهذه التارات والأحوال السبع المترتّب بعضها على بعض كلّ تارة أشرف مما قبلها، وحال الإنسان فيها أحسن مما تقدمها. وقيل: خلقكم صبياناً وشبّاناً وشيوخاً. وقيل: طوالاً وقصاراً، وأقوياء وضعفاء مختلفين في الخلق والخلق. وقيل غير ذلك.

والخلاصة[3]: أي ما لكم لا تخافون عظمة الله وقد خلقكم على أطوار مختلفة، فكنتم نطفة في الأرحام ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم كسا عظامكم لحماً ثم أنشأكم خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين. وقد ذكرت هذه الأطوار في سور كثيرة كسورة آل عمران وسورة المؤمنين وغيرهما.

وبعد أن ذكر النظر في الأنفس أتبعه بالنظر في العالم العلويّ والسفليّ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾ يا قومي. والاستفهام للتقرير، والرؤية بمعنى العلم، لعلهم علموا ذلك بالسماع من أهله، أو بمعنى الإبصار، والمراد مشاهدة عجائب الصنع الدال على كمال العلم والقدرة. ﴿كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ حال كونها ﴿طِبَاقًا﴾؛ أي: متطابقاً، أي: بعضها فوق بعض ملتزقة الأطراف، كما سبق في سورة المُلك. ومعنى ﴿طِبَاقًا﴾؛ أي: بعضها فوق بعض كلّ سماء مطبّقة على الأخرى كالقباب. قال الحسن: خلق الله سبع سموات على سبع أرضين، بين كلّ سماء وسماء وأرض وأرض خلق وأمر، وقد تقدم تحقيق هذا في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وانتصاب[1] ﴿طِبَاقًا﴾ على المصدرية، تقول: طابقه مطابقة وطباقاً أو على الحالية من سبع سموات لتخصّصه بالإضافة؛ أي: ذات طباق، فحذفت ذات وأقام طباقاً مقامه. وأجاز الفرّاء في غير القرآن جرّه على النعت.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾؛ أي: في السموات السبع. ونسبته[2] إلى الكل مع أنّه في السماء الدنيا؛ لأنّ كل واحدة من السموات شفّافة لا يحجب ما وراءها، فيرى الكل كأنها سماء واحدة، ومن ضرورة ذلك أن يكون ما في واحدة منها كأنّه في الكل على أنه ذهب ابن عباس وابن عمرو ووهب بن منبه رضي الله عنهم إلى أن الشمس والقمر النجوم وجوهها مما يلي السماء وظهورها مما يلي الأرض، وهو الذي يقتضيه لفظ السراج؛ لأنّ ارتفاع نوره في طرف العلو، ولولا ذلك.. لأحرقت جميع ما في الأرض بشدّة حرارتها، فجعلها الله نوراً وسراجاً لأهل الأرض والسموات. فعلى هذا ينبغي أن يكون تقدير ما بعده وجعل الشمس فيهنّ سراجاً على أنّه حذف لدلالة الأول عليه. ﴿نُورًا﴾ أي: منوّراً وجه الأرض في ظلمة الليل. ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ﴾ هي في السماء الرابعة، وقيل: في الخامسة. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: في الشتاء في الرابعة، وفي الصيف في السابعة. ولو أضاءت من الرابعة أو من السماء الدنيا لم يطق لها شيء، وهذا غريب جدّاً. ﴿سِرَاجًا﴾ من باب[3] التشبيه البليغ؛ أي: كالسراج والمصباح يزيل ظلمة الليل عند الفجر، ويبصر أهل الدنيا في ضوئها الأرض ويشاهدون الآفاق كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره، وليس القمر بهذه المثابة إنما هو نور في الجملة.

والمعنى[4]: أي ألم تروا كيف خلق السموات متطابقة بعضها فوق بعض، وجعل للقمر بروجاً ومنازل، وفاوت نوره فجعله يزداد حيناً حتى يتناهى ثم يبتدىء ينقص حتى يستتر ليدل ذلك على مضيّ الشهور والأعوام، وجعل الشمس كالسراج يزيل ظلمة الليل. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾؛ أي: إنباتاً عجيباً، وأنشأكم منها إنشاء غريباً بواسطة إنشاء أبيكم آدم منها، أو أنشأ الكل منها من حيث إنّه خلقهم من النطف المتولدة عن النبات المتولد من الأرض، استعير الإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكون من الأرض؛ لأنهم إذا كانوا نباتاً كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات.

ووضع[1] ﴿نَبَاتًا﴾ موضوع إنباتاً على أنه مصدر مؤكّد لأنبتكم بحذف الزوائد، ويسمّى اسم مصدر، دل عليه القرينة الآتية، وهي قوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾. وقال بعضهم: ﴿نَبَاتًا﴾ حال لا مصدر، ونبّه بذلك على أن الإنسان من وجه نبات من حيث إنّ بدأه ونشأته من التراب، وأنه ينمو نموّه، ويلدون ويموتون، وأيديهم وأرجلهم كأفرع النبات، وعروقهم المتشعبة في الجسم والتي يجري فيها الدم، وينتشر في الأطراف تشبه ما في الشجر، وأحوالهم مختلفة كأحوال النبات، فمنه: الحلو المرّ والطيّب والخبيث، واستعدادهم مختلف كاستعداد النبات. فلكلّ امرىء خاصّة كما أنّ لكلّ نوع من النبات خاصّةً، وإن كان له وصف زائد على النبات. والنبات: ما يخرج من الأرض، سواء كان له ساق كالشجر، أو لم يكن له كالنجم، لكن اختص في التعارف بما لا ساق له، بل اختصّ عند العامّة بما يأكله الحيوان.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأرض بالدفن عند موتكم. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿إِخْرَاجًا﴾ محقّقاً لا ريب، وذلك لمجازاة الأولياء ومحاسبة الأعداء، ولم يقل: ثم يخرجكم بل ذكر بالواو الجامعة إيّاها مع ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ رمزاً إلى أن الإخراج مع الإعادة في القبر كشيء واحد، لا يجوز أن يكون بعضها محقّق الوقوع دون بعض.

والمعنى: أي ثم يعيدكم في الأرض كما كنتم تراباً، ويخرجكم متى شاء أحياء كما كنتم بشراً.

---

(١) روح البيان.

ثم أخذ يعدّد النعم التي أعدّها للإنسان في الأرض، وذكر أنّ الأرض مهيّأة مسخّرةً لأمره كتسخير البساط للرجل يتقلّب عليه كما يشاء، ويظهر مواهبه لاستخراج ما في بطنها من المعادن المختلفة وخيراتها المتنوّعة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ كرّر الاسم الجليل للتعظيم والتيمّن به والتبرّك. ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ أي: لمنافعكم ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ سبق بيانها في سورة الملك وغيرها. ﴿بِسَاطًا﴾؛ أي: مبسوطة متسعة كالبساط والفراش، تتقلّبون عليها تقلّبكم على بسطكم في بيوتكم.

قال أبو حيان: ظاهره أن الأرض ليست كروية بل هي مبسوطة. قال سعدي المفتي: وإنما هو في التقلب على ما فسروه انتهى. وقد مرّ مراراً أن كروية الأرض لا تنافي الحرث والغرس ونحوهما لعظم دائرتها كما يظهر الفرق بين بيضة الحمامة وبيضة النعامة.

﴿لِّتَسْلُكُوا۟﴾ من السلوك، وهو الدخول لا من السلك، وهو الإدخال. ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الأرض ﴿سُبُلًا﴾ جمع سبيل؛ أي: طرقاً ﴿فِجَاجًا﴾؛ أي: واسعة. جمع فجّ، وهو الطريق الواسع، فجرد هنا لمعنى الواسع فجعل صفة لـ ﴿سُبُلًا﴾. وقيل: هو المسلك بين الجبلين. و﴿مِن﴾ متعلقة بما قبلها لما فيه من معنى الاتخاذ؛ أي: لتسلكوا متخذّين من الأرض سبلا، فتصرفوا فيها ذهاباً وإياباً أو بمضمر هو حال من ﴿سُبُلًا﴾؛ أي: سبلاً كائنة من الأرض، ولو تأخّر.. لكان صفة لها، ثم جعلها بساطاً للسلوك المذكور لا ينافي غيره من الوجوه كالنوم والاستراحة والحرث والغرس ونحوها، ثم السلوك إمّا جسماني بالحركة الأينية الموصلة إلى المقصد، وإما روحاني بالحركة الكيفية الموصلة إلى المقصود، ولكل منهما فوائد جليلة كطلب العلم والحج والتجارة وغيرها وكتحصيل المحبة والمعرفة والأنس ونحوها.

والمعنى: أي والله بسط لكم الأرض، ومهدها، وثبتها بالجبال الراسيات، ثم بين حكمة هذا فقال: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا﴾؛ أي: لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها المختلفة. وقصارى ما سلف: أن نوحاً عليه السلام أمر قومه بالنظر في علوم الأنفس والآفاق من معدن ونبات وحيوان وإنسان وسماء وأرض وشموس وأقمار.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ أعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربه. فهو بدل من

﴿قَالَ﴾ الأوّل، ولذا ترك العطف. وفي «فتح الرحمن»: قاله هنا بلا واو، وقاله فيما بعد بواو، لأنَّ الأول استئناف والثاني معطوف عليه انتهى؛ أي: قال مناجياً له تعالى: ﴿رَبِّ﴾؛ أي: يا ربي ويا معبودي ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾؛ أي: داموا على عصياني ومخالفتي فيما أمرتهم به مع ما بالغت في إرشادهم بالعظة والتذكير. ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: استمروا على اتباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرتهم أولادهم، وصارت تلك الأموال والأولاد سبباً لزيادة خسارتهم في الآخرة، فصاروا أسوة لهم في الخسار. وفي وصفهم بذلك إشعارٌ بأنهم إنما اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد، لما شاهدوا من شبهة مصححة للاتباع، كما قالت قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، فجعلوا الغنى سبباً مصححاً للاتباع.

ودل الكلام[1] على أن ازدياد المال والولد كثيراً ما يكون سبباً للهلاك الروحانيّ، ويورث الضلال في الدين أوّلاً والإضلال عن اليقين ثانياً. قال ابن الشيخ: المفهوم من نظم الآية أنّ أموالهم وأولادهم عين الخسار، وأن ازديادهما إنما ازدياد خسارهم، والأمر في الحقيقة كذلك، فإنهما وإن كانا من جملة المنافع المؤدّية إلى السعادة الأبدية بالشكر عليهما وصرفهما إلى وجوه الخير، إلا أنهما إذا أديا إلى البطر والاغترار وكفران حق المنعم بهما، وصارا وسيلتين إلى العذاب المؤبّد في الآخرة صارا كأنّهما محض الخسار؛ لأن الدنيا في جنب الآخرة كالعدم، فمن انتفع بهما في الدنيا خسر سعادة الآخرة، وصار كمن أكل لقمةً مسمومةً من الحلوى، فهلك، فإنّ تلك اللقمة في حقه هلاك محض؛ إذ لا عبرة لانتفاعه بها في جنب ما أدّت إليه.

﴿وَمَكَرُوا﴾ عطف على صلة ﴿مَن﴾، لأنّ المكر الكبار يليق بكبرائهم، والجمع باعتبار معناها. ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾؛ أي: مكراً كبيراً عظيماً في الغاية. والمكر: الحيلة الخفيّة. وقرىء ﴿كباراً﴾ بالتخفيف كما سيأتي، وهو أبلغ من الكبير نحو: طوّال وطوال وطويل. ومعنى مكرهم الكبار: احتيالهم في منع الناس عن الدين وتحريشهم لهم على أذيّة نوح عليه السلام. قال الشيخ: لمّا كان التوحيد أعظم المراتب كان

---

(١) روح البيان.

المنع منه: والأمر بالشرك أعظم الكبائر، فلذا وصفه الله تعالى بكونه مكراً كبّاراً.

وقرأ ابن الزبير[1] والحسن، والنخعيّ، والأعرج، ومجاهد، والأخوان الكسائي وحمزة، وابن كثير، وأبو عمرو، ونافع في رواية خارجة ﴿وولده﴾ بضمّ الواو وسكون اللام. وقرأ السلميّ والحسن أيضاً، وأبو رجاء، وابن وثّاب، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع، وعاصم، وابن عامر بفتحهما، وهما لغتان كبخل وبخل. وقرأ الحسن أيضاً، والجحدري، وقتادة، وزرّ، وطلحة وابن أبي إسحاق، وأبو عمرو في رواية بكسر الواو وسكون اللام. وقال أبو حاتم: يمكن أن يكون الولد بالضمّ جمع الولد كخشب وخشب، وقد قال حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

يَا بَكْرَ آمِنَةَ ٱلْمُبَارَكِ بِكْرُهَا مِنْ وُلْدِ مُحْصَنَةٍ بِسَعْدِ ٱلأَسْعَدِ

وقرأ الجمهور[2]: ﴿كُبَّارًا﴾ بتشديد الباء، وهو بناء فيه مبالغة كثيرة. قال عيسى بن عمر: هي لغة يمانيّة، ويقال: حسان وطوال وجمال. وقرأ عيسى، وابن محيصن، وأبو السمال بتخفيف الباء وهو بناء مبالغة. وقرأ زيد بن عليّ وابن محيصن فيما روى عنه أبو الأخيرط وهب بن واضح ﴿كِبَارا﴾ بكسر الكاف وفتح الباء. وقال ابن الأنباري: هو جمع كبير كأنه جعل مكراً مكان ذنوب أو أفاعيل انتهى. يعني: فلذلك وصفه بالجمع.

والمعنى: أي قال نوح: ربّ إنهم عصوني فيما أمرتهم به، وأنكروا ما دعوتهم إليه، واتبعوا رؤساءهم الذين بطروا بأموالهم واغتروا بأولادهم. فكان ذلك زيادة في خسرانهم وخروجاً عن محجة الصواب وبعداً من رحمة الله تعالى، ومكروا مكراً كبيراً، فاحتالوا في الدين، وصدوا الناس عنه بأساليب شتى، وأغروهم بأذى نوح عليه السلام.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الرؤساء للأتباع والسفلة: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ أي: لا تتركوا عبادة آلهتكم، وتعبدوا رب نوح عليه السلام. ومن عطف ﴿مكروا﴾ على ﴿اتبعوا﴾ يقول: معنى ﴿وَقَالُواْ﴾: وقال بعضهم لبعض، فالقائل ليس هو الجمع. وآلهتهم هي الأصنام والصور التي كانت لهم ثم عبدتها العرب من بعدهم، وبهذا قال الجمهور.

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

ثم فصل تلك الآلهة بقوله: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ جرَّد[1] الأخيرين عن حرف النفي؛ إذ بلغ التأكيد نهايته، وعلم أن القصد إلى كل فرد فرد لا إلى المجموع من حيث هو مجموع، والمعنى: ولا تذرن عبادة هؤلاء خصوصاً، فهو من عطف الخاص على العام خصوصاً بالذكر مع اندراجها فيما سبق؛ لأنّها كانت أكبر أصنامهم وأعظم ما عندهم.

قال محمد بن كعب[2]: هذه أسماء قوم صالحين، كانوا بين آدم ونوح، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صورتم صورهم.. كان أنشط لكم وأسوق إلى العبادة، ففعلوا. ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس: إنّ الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم. فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء؛ لأنهم صوروها على صورة أولئك القوم الصالحين.

وقد انتقلت[3] هذه الأصنام بأعيانها عنهم إلى العرب، فكان ود لكلب بدومة الجندل بضم دال دومة، ولذلك سمت العرب بعبد ودٍّ. قال الراغب: الود: صنم سمي بذلك إما لمودتهم له أو لاعتقادهم أن بينه وبين الباريء تعالى مودّة، تعالى الله عن ذلك. وكان سواع لهمدان بسكون الميم قبيلة باليمن، ويغوث لمذ حجٍ كمجلس بالذال المعجمة، وآخره جيم، ومنه: كانت العرب تسمى عبد يوث. ويعوق لمراد، وهو كغراب أبو قبيلة، سمّي به لأنّه تمرّد. ونسر لحمير بكسر الحاء وسكون الميم بوزن درهم، موضع غربيّ صنعاء اليمن.

وقيل: انتقلت أسماؤها إليهم فاتخذوا أمثالها، فعبدوها إذ يبعد بقاء أعيان تلك الأصنام، كيف وقد خربت الدنيا في زمان الطوفان، ولم يضعها نوح في السفينة؛ لأنّه بعث لنفيها. وجوابه: أنّ الطوفان دفنها في ساحل جدة فلم تزل مدفونة حتى أخرجها اللعين لمشركي العرب. نظيره: ما روي أنَّ آدم عليه السلام كتب اللغات المختلفة في طين وطبخه، فلما أصاب الأرض الغرق بقي مدفوناً، ثم وجد كل قوم كتاباً فكتبوه، فأصاب إسماعيل عليه السلام الكتاب العربي. وقيل: هي أسماء قوم رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح. وقيل: من أولاد آدم، ماتوا

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

فحزن الناس عليهم حزناً شديداً، واجتمعوا حول قبورهم لا يكادون يفارقونها، وذلك بأرض بابل، فلما رأى إبليس فعلهم ذلك جاء إليهم في صورة إنسان، وقال لهم: هل لكم أن أصور لكم صورهم إذا نظرتم إليها ذكرتموهم واستأنستم وتبركتم بهم؟ قالوا: نعم. فصور لهم صورهم من صفر ونحاس ورصاص وخشب وحجر، وسمى تلك الصور بأسمائهم. ثم لما تقادم الزمن وانقرضت الآباء والأبناء وأبناء الأبناء قال لمن حدث بعدهم: إن من قبلكم كانوا يعبدون هذه الصور، فعبدوها في زمان مهلاييل بن فينان، ثم صارت سنة في العرب في الجاهلية.

وذلك إمّا بإخراج الشيطان اللعين تلك الصور كما سبق أو بأنه كان لعمرو بن لحي، وهو أول من نصب الأوثان في الكعبة فقال له تابع من الجن: اذهب إلى جدة وائت منها بالآلهة التي كانت تعبد في زمن نوح وإدريس، وهي ود إلخ. فذهب وأتى بها إلى مكة، ودعا إلى عبادتها، فانتشرت عبادة الأوثان في العرب. وعاش عمرو بن لحي ثلاث مئة وأربعين سنة، ورأى من ولده وولد ولد ولده ألف مقاتل، ومكث هو وولده في ولاية البيت خمس مئة سنة، ثم انتقلت الولاية إلى قريش، فمكثوا فيها خمس مئة أخرى، فكان البيت بيت الأصنام ألف سنة.

وفي «التكملة»: روى تقيُّ بن مخلد: أن هذه الأسماء المذكورة في هذه السورة كانوا أبناء آدم عليه السلام من صلبه، وأن يغوث كان أكبرهم، وهي أسماء سريانية. ثم رفعت تلك الأسماء إلى أهل الهند، فسموا بها أصنامهم التي زعموا أنها على صور الدراري السبعة، وكانت الجن تكلمهم من جوفها، فاقتدوا بها. ثم أدخلها إلى أرض العرب عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس بن مضر، فمن قبله سرت إلى أرض العرب. وقيل: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، وهو طائر عظيم، لأنّه ينسر الشيء ويقتلعه.

وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة بخلاف عنهم[1]: ﴿ودّا﴾ بضمّ الواو، والحسن والأعمش وطلحة، وباقي السبعة بفتحها. وقرأ الجمهور ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ بغير تنوين، فإن كانا عربيّين فمنع الصرف للعلمية ووزن الفعل، وإن كانا عجميّين

(١) البحر المحيط.

فللعجمة والعلمية. وقرأ الأشهب ﴿ولا يغوثا ويعوقا﴾ بتنوينهما. قال «صاحب اللوامح»: جعلهما فعولاً فلذلك صرفهما، وكذلك الأعمش صرفهما. وقال ابن عطية: وذلك وهم، والأولى حمله على التناسب؛ أي: صرفا لمناسبة ما قبلهما وما بعدهما، كما قالوا في صرف سلاسلاً وأغلالاً وقوارير كما سيأتي.

وأخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت هذه الأوثان في العرب بعد. فكان: ود لكلب. وسواع لهذيل، ويغوث لغطيف بالجرف عند سبأ، ويعوق لهمدان، ونسر لحمير آل ذي الكلاع.

وهناك أصنام أخرى لأقوام آخرين[1]: اللات لثقيف بالطائف، العزّى لسليم وغطفان وجشم، ومناة لخزاعة بقديد، وإساف لأهل مكة، ونائلة لهم أيضاً، وهبل لهم أيضاً، وهو أكبر الأصنام وأعظمها عندهم، ومن ثم كان يوضع فوق الكعبة. وليس المراد أن أعيان هذه الأصنام صارت إليهم بل المراد أنهم أخذوا هذه الأسماء، وسموا بها أصنامهم.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ حال[2] من فاعل ﴿قالوا﴾؛ أي: قال الرؤساء للأتباع: لا تذرون آلهتكم، والحال أنهم قد أضلوا ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس بدعوتهم إلى الشرك. وقيل: الضمير راجع إلى الأصنام؛ أي: قد أضل الأصنام كثيراً من الناس؛ أي: ضل بسببها كثير من الناس، نظير قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾، وأجرى عليها ضمير جمع العقلاء لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل.

وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ﴾ يا ربّ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ بالإشراك؛ لأن الشرك ظلم عظيم، فأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فهل شيء أسوأ من وضع أخس المخلوق وعبادته موضع الخالق وعبادته؟ ووضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم. ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾ وبعداً وطرداً من رحمتك، معطوف على ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾؛ أي: قال ربّ إنهم عصوني، وقال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾. ومعنى ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾ أي: عذاباً، وقيل: إلا خسراناً، وقيل: إلا فتنة بالمال والولد، وقيل:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

إلا ضياعاً وهلاكاً في تمشية مكرهم وترويجه مصالح دنياهم لا في أمر دينهم حتى لا يتوجه أنه إنما بعث ليصرفهم عن الضلال، فكيف يليق به أن يدعو الله عليهم في أن يزيد ضلالهم؛ وأنّ هذا الدعاء يتضمن الرضا بكفرهم، وذلك لا يجوز في حقّ الأنبياء، وإن كان يمكن أن يجاب بأنه بعد ما أوحي إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأنّ المحذور هو الرضا المقرون باستحسان الكفر. ونظيره: دعاء موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾. قالوا: دعا نوح الأبناء بعد الآباء حتى بلغوا سبعة قرون، فلمّا أيس من إيمانهم دعا عليهم. فيكون المعنى: ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً وغيًّا ليزدادوا عقاباً.

والمعنى: أي ولا تزد الظالمين لكفرهم بآياتك إلا ضلالاً وطبعاً على قلوبهم حتى لا يهتدوا إلى حقّ، ولا يصلوا إلى رشد. وقصارى ما قاله عليه السلام: أن دعا عليهم بالخذلان، وأن دعا لنفسه بالنصر وظهور دينه كما جاء في قوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾؛ أي:[1] من أجل خطيئات قوم نوح وأعمالهم المخالفة للصواب، وهي الكفر والمعاصي. و﴿ما﴾ مزيدة بين الجار والمجرور لتأكيد الحصر المستفاد من تقديم قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾، فإنه يدل على أنَّ إغراقهم بالطوفان لم يكن إلا من أجل خطيئاتهم تكذيباً لقول المنجمين من أن ذلك كان لاقتضاء الأوضاع الفلكية إياه، ونحو ذلك. فإنه كفر لكونه مخالفاً لصريح هذه الآية. ولزيادة ﴿ما﴾ الإبهامية فائدة غير التأكيد، وهي تفخيم خطيئاتهم؛ أي: من أجل خطيئاتهم العظيمة، ومن لم ير زيادتها جعلها نكرة، وجعل ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ بدلاً منها. والخطيئات: جمع خطيئة. وقرأ أبو عمرو ﴿خطاياهم﴾ بلفظ الكثرة، لأنّ المقام مقام تكثير خطيئاتهم؛ لأنهم كفروا ألف سنة. والخطيئات لكونه جمع السلامة لا يطلق على ما فوق العشرة إلا بالقرينة. والظاهر من كلام الرضيّ: أن كلا من جمع السلامة والتكسير لمطلق الجمع من غير نظر إلى القلة والكثرة فيصلحان لهما، ولذا قيل: إنهما مشتركان بينهما، واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾.

أي: من أجل خطيئاتهم وأعمالهم الخبيثة لا لما يقوله المنجمون من اقتضاء

---

(١) روح البيان.

الأوضاع الفلكية كثرة الماء ﴿أُغۡرِقُواْ﴾ في الدنيا بالطوفان ﴿فَأُدۡخِلُواْ﴾ عقب ذلك ﴿نَارًا﴾ عظيمة هائلة. وفي هذا زجر لمرتكب الخطايا مطلقاً. وعبّر عن المستقبل بالماضي لتحقّقه. والمراد[١] إما عذاب القبر، فهو عقب الإغراق وإن كانوا في الماء، فإن من مات في ماء أو نار أو أكلته السباع أو الطير أصابه ما يصيب المقبور من العذاب. وعن الضحاك: أنهم كانوا يغرقون من جانب؛ أي: بالأبدان، ويحرقون من جانب؛ أي: بالأرواح. فجمعوا بين الماء والنار، كما قال الشاعر:

الْخَلْقُ مُجْتَمِعٌ طَوْراً ومُفْتَرِقٌ ... وَٱلْحَادِثَاتُ فُنُونٌ ذَاتُ أَطْوَارِ
لا تَعْجَبَنَّ لأضْدَادٍ إذَا اجْتَمَعَتْ ... فَالله يَجْمَعُ بَيْنَ ٱلْمَاءِ وَٱلنَّارِ

أو عذاب جهنم والتعقيب لتنزيله منزلة المتعقب لإغراقهم لاقترابه وتحقّقه لا محالة واتصال زمانه كما دل عليه قوله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته». على أنَّ النار إما نصف نار، وهي للأرواح في البرزخ، وإما تمام نار وهي للأرواح والأجسام جميعاً بعد الحشر. وقس على الجحيم النعيم.

﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم﴾؛ أي: لأنفسهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾؛ أي: لم يجد أحد منهم لنفسه واحداً من الأنصار ينصرهم على من أخذهم بالقهر والانتقام. وفيه[٢] تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله، وبأنها غير قادرة على نصرهم، وتهكّم بهم. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حال متقدّمة من قوله: ﴿نَارًا﴾، والجملة الاستئنافية أعني قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ إلى هنا من كلام الله سبحانه إشعاراً بإجابة دعوة نوح، وتسلية للرسول ﷺ وأصحابه، وتخويفاً للعاصي من العذاب وأسبابه.

والمعنى: أي من أجل معاصيهم وذنوبهم أغرقهم الله بالطوفان، وسيعذّبهم في قبورهم، ولا يجدون من آلهتهم أنصاراً ولا أعواناً يدفعون عنهم ما كتب عليهم، وبذا ضل سعيهم وخاب فألهم.

وقرأ الجمهور[٣]: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ جمعاً بالألف والتاء مهموزاً، وأبو رجاء كذلك، إلاّ أنه أبدل الهمزة ياءً وأدغم فيها ياء المد. والجحدري وعبيد عن أبي عمرو على الإفراد مهموزاً، والحسن وعيسى والأعرج بخلاف عنهم، وأبو عمرو

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

﴿خطاياهم﴾ جمع تكسير. وقرأ عبد الله ﴿من خطيئاتهم ما أغرقوا﴾ بزيادة ما بين ﴿أُغْرِقُوا﴾ و﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾. وقرأ الجمهور ﴿أُغْرِقُوا﴾ بالهمزة، وزيد بن عليّ ﴿غُرِّقُوا﴾ بالتشديد، وكلاهما للنقل.

﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ عليه السلام بعد ما قنط من اهتدائهم قنوطاً تامّاً بالأمارات الغالبة وبأخبار الله تعالى: ﴿رَبِّ﴾ أي: يا مالكي ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي؛ لا تترك على الأرض ﴿مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ لك وبما جاء من عندك. حال متقدمة من قوله: ﴿دَيَّارًا﴾ أي: أحداً يدور في الأرض، فيذهب ويجيء. أي: فأهلكهم بالاستئصال. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾، وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ اعتراض، وسّط بين دعائه عليه السلام للإيذان من أوّل الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطيئاتهم التي عددها نوح.

وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع بن أنس وابن زيد وعطية(١): إنّما قال هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم، وأعقم أرحام النساء وأصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنةً، وقيل: بأربعين سنةً. قال قتادة: لم يكن فيهم صبيّ وقت العذاب. وقال الحسن وأبو العالية: لو أهلك الله أطفالهم معهم.. كان عذاباً من الله لهم وعدلاً فيهم، ولكن أهلك ذريتهم وأطفالهم بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب. و﴿دَيَّارًا﴾ من الأسماء المستعملة(٢) في النفي العامّ، وهو فيعال من الدوران، فمعناه على هذا: لا تترك أحداً يدور في الأرض فيذهب ويجيء، أو من الدار فمعناه عليه: لا تذر أحداً ممن ينزل الدار ويسكنها، وأنكر بعضهم كونه من الدوران، وقال: لو كان من الدوران.. لم يبق على وجه الأرض جني ولا شيطان، وليس المعنى على ذلك، وإنما المعنى: أهلك كل ساكن دار من الكفّار، أي: كل إنسي منهم.

يقول الفقير: جوابه سهل فإن المراد كل من يدور على الأرض من أمة الدعوة، وليس الجن والشيطان منها؛ إذ لم يكن نوح مبعوثاً إلى الثقلين. وليس ﴿دَيَّارًا﴾ فعالاً من الدار وإلا قيل: دوّار، لأن أصل دار دور، فقلبت واوه ألفاً فلما ضعّفت عينه كان دواراً بالواو الصحيحة المشدّدة؛ إذ لا وجه لقلبها ألفاً.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

والمعنى: أي وقال نوح: ربّ لا تدع على وجه الأرض منهم أحداً إلا أهلكته.

ثم بين علة هذا الدعاء بشيئين:

١ ـ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾؛ أي: إن تتركهم على الأرض كلًا أو بعضاً ولم تهلكهم ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ الذين آمنوا بك عن طريق الحقّ. روي: أنّه كان الرجل منهم ينطلق بابنه إلى نوح، فيقول له: احذر هذا، فإنّه كذّاب وإنّ أبي حذّر بنيه وأوصاني بمثل هذه الوصيّة، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك. وهذا بيان لوجه دعائه عليهم وإظهار بأنه كان من الغيرة في الدين، لا لغلبة غضب النفس لهواها.

٢ ـ ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا﴾ يترك طاعتك ﴿كَفَّارًا﴾؛ أي: كثير الكفران لنعمتك. والمعنى: إلا من سيفجر ويكفر، فالوجه ارتفاعهم عن وجه الأرض، والعلم لك. فوصفهم بما يصيرون إليه بعد البلوغ، فهو من مجاز الأول، وكأنه اعتفارٌ مما عسى يرد عليه من أنّ الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن منكر، وإنما قاله بالوحي لقوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ قال بعضهم: لا يلد الحيّة إلا الحيّة، وذلك في الأغلب. ومن هناك قيل: إذا طاب أصل للمرء طابت فروعه، ونحوه: الولد سرّ أبيه. قال بعضهم في توجيهه: إن الولد إذا كبر إنما يتعلم من أوصاف أبيه، أو يسرق من طباعه بل قد يصحب المرء رجلاً، فيسرق من طباعه الخير والشرّ.

واعلم: أنه لا يجوز أن يدعى على كافر معيّن؛ لأنّا لا نعلم خاتمته. ويجوز على الكفار والفجار مطلقاً، وقد دعا عليه السلام على من تحزب على المؤمنين. وهذا هو الأصل في الدعاء على الكافرين.

ثم لما دعا على الكافرين أتبعه بالدعاء لنفسه، ووالديه والمؤمنين، فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ذنوبي، وهي ما صدر منه من ترك الأولى. ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ ذنوبهما، وكانا[1] مسلمين على ملّة إدريس عليه السلام، وأبوه: لامك بن متوشلخ بصيغ اسم

(١) روح البيان.

الفاعل على وزن متدحرج أو هو بضم الميم، والتاء المشدّدة المضمومة وفتح الشين المعجمة وسكون اللام، وروى بعضهم الفتح في الميم. وأمّه سمحاء بنت أنوش. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفر لنوح أب ما بينه وبين آدم. وفي «إشراق التواريخ» أمه قسوس بنت كابيل، وفي «كشف الأسرار»: هيجل بنت لاموس بن متوشلخ بنت عمّه. وقيل: المراد بوالديه آدم وحوّاء عليهما السلام، وقال سعيد بن جبير: أراد بوالديه أباه وجدّه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ بالتثنية. وقرأ سعيد بن جبير، والجحدري ﴿ولوالدي﴾ بكسر الذال وتخفيف الياء بالإفراد، فإما أن يكون خصّ أباه الأقرب، أو أراد جميع من ولدوه إلى آدم عليه السلام. وقرأ الحسين بن علي ويحيى بن يعمر والنخعي والزهري وزيد بن علي ﴿ولولديّ﴾ تثنية ولد. يعني: ساماً وحاماً.

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾؛ أي: منزلي، وقيل: مسجدي، فإنّه بيت أهل الله، وإن كان بيت الله من وجه. وقيل: سفينتي، فإنها كالبيت في حرز الحوائج وحفظ النفوس عن الحرّ والبرد وغيرهما. وقيل: لمن دخل في ديني. وقوله: ﴿مُؤْمِنًا﴾ حال من فاعل ﴿دَخَلَ﴾؛ أي: حال كون الداخل مؤمناً. أي: متصفاً بصفة الإيمان بالله سبحانهُ. وبهذا القيد خرجت امرأته واعلة وابنه كنعان، ولكن لمْ يجزم عليه السلام بخروجه إلا بعد ما قيل له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾. ثم عمم الدعوة فقال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: ولكلّ متصف بالإيمان بي، أو من لدن آدم إلى يوم القيامة من الذكور والإناث.

ثمّ عاد إلى الدعاء على الكافرين فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المتصفين بالظلم ﴿إِلَّا تَبَارًۢا﴾؛ أي: إلاّ هلاكاً وخسراناً ودماراً، وقد شمل دعاؤه هذا كلّ ظالم إلى يوم القيامة كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة.

قال في الأول[2]: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ لأنه وقع بعد قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾، وفي الثاني: ﴿إِلَّا تَبَارًۢا﴾ لأنه وقع بعد قوله: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ. فذكر

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

في كل مكان ما اقتضاه وما شاكل معناه. والظاهر: أنه عليه السلام أراد بالكافرين والظالمين الذين كانوا موجودين في زمانه متمكّنين في الأرض ما بين المشرق والمغرب، فمسؤوله أن يهلكهم الله، فاسْتُجيب دعاؤه، فعمّهم الطوفان بالغرق. وما نقل عن بعض المنجمين من أنه أراد جزيرة العرب، فوقع الطوفان عليهم دون غيرهم من الآفاق مخالف لظاهر الكلام وتفسير العلماء، وقول أصحاب التواريخ بأن الناس بعد الطوفان توالدوا وتناسلوا وانتشروا في الأطراف مغاربها ومشارقها من أهل السفينة.

ودل الكلام هنا على أنّ الظالم إذا ظهر ظلمه وأصر عليه ولم ينفعه النصح استحق أن يُدعى عليه وعلى أعوانه وأنصاره. قيل: غرق معهم صبيانهم أيضاً، لكن لا على وجه العقاب لهم بل لتشديد عذاب آبائهم وأمّهاتهم بإراءة إهلاك أطفالهم الذين كانوا أعزَّ عليهم من أنفسهم. قال النبيّ ﷺ: «يهلكون مهلكاً واحداً، ويصدرون مصادر شتّى».

ومعنى الآية: أي ربّ استر عليّ ذنوبي وعلى والديّ وعلى من دخل مسجدي ومصلاّي مصدقاً بنبوّتي، وبما فرضته عليّ وعلى المصدّقين بوحدانيتك والمصدّقات بذلك من كلّ أمة إلى يوم القيامة، ولا تزد الذين ظلموا أنفسهم بك إلاّ خسراناً وبعداً من رحمتك.

الإعراب

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾.

﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿نُوحًا﴾ مفعول به ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿أَنذِرْ﴾ فعل أمر في محل النصب بـ ﴿أَنْ﴾ المصدرية مبنيّ على السكون، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى نوح، ﴿قَوْمَكَ﴾ مفعول به، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، تقديره: إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه بإنذار قومه. والجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ويجوز أن تكون أن مفسّرة كما مرّ؛ لأنّ الإرسال في معنى القول؛ أي: قلنا له: أنذر قومك. ﴿مِن قَبْلِ﴾ جار ومجرور

متعلق بـ ﴿أَنذِرْ﴾، ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾ فعل مضارع ومفعول به منصوب بـ ﴿أن﴾، ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل، ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من قبل إتيان عذاب أليم إياهم. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، والجملة في محل النصب مقول قال، ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾، و﴿نَذِيرٌ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة نذير، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿أَنِ﴾ مصدرية ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، ﴿والواو﴾: فاعل، ولفظ الجلالة مفعول به، والجملة في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: إنّي لكم نذير بعبادة الله. ويجوز أن تكون مفسرةً لأنّ الإنذار في معنى القول؛ أي: بـ ﴿أن﴾ أقول لكم: أعبدوا الله. ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ معطوفان على ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾، وحذفت ياء المتكلم من ﴿أطيعون﴾ لمناسبة رؤوس الآي، والأصل: أطيعوني.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾.

﴿يَغْفِرْ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يَغْفِرْ﴾، ﴿مِّن﴾ اسم بمعنى بعض، في محل النصب مفعول به، و﴿ذُنُوبِكُمْ﴾ مضاف إليه؛ أي: بعض ذنوبكم. أو ﴿مِّن﴾ زائدة على رأي الأخفش المجيز زيادتها في الإثبات وغيره، وأمّا البصريّون ومعظم الكوفيّين يشترطون لزيادتها أن يسبقها نفي أو نهي، أو استفهام، وأن تدخل على النكرة. ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿يَغْفِرْ﴾. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ متعلق بـ ﴿يؤخر﴾، ﴿مُّسَمًّى﴾ صفة أجل، ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ ناصب واسمه ومضاف إليه، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمّن معنى الشرط، متعلق بالجواب الآتي، وجملة ﴿جَآءَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾ على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ من الفعل المغيّر ونائبه جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: إن أجل الله غير مؤخّر وقت مجيئه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول قال على كونها معللة لما قبلها. ﴿لَوْ﴾ حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾

خبره وجملة ﴿كان﴾ فعل شرط لـ ﴿لَوۡ﴾، وجوابها محذوف تقديره: لو كنتم تعلمون ذلك.. لآمنتم. وجملة ﴿لَوۡ﴾ في محل النصب، مقول قال. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، حذف منه حرف النداء وجملة النداء في محل النصب مقول قال، ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿دَعَوۡتُ قَوۡمِي﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ ظرفان متعلقان بـ ﴿دَعَوۡتُ﴾، وجملة ﴿دَعَوۡتُ﴾ في محل الرفع خبر إنّ، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿يَزِدۡهُمۡ﴾ فعل ومفعول به، مجزوم بـ ﴿لم﴾، ﴿دُعَآءِيٓ﴾ فاعل، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿فِرَارٗا﴾ مفعول به ثان، والجملة الفعليّة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿دَعَوۡتُ﴾.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ⑦ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ⑧ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ⑨﴾.

﴿وَإِنِّي﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿كُلَّمَا﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانيّة مبنيّ على السكون، والظرف متعلّق بالجواب الآتي، ﴿دَعَوۡتُهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لِتَغۡفِرَ﴾ اللام حرف جرّ وتعليل، ﴿تغفر﴾ فعل مضارع، منصوب بأن مضمرةً بعد لام كي، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لغفرانك لهم، الجار والمجرور متعلّق بـ ﴿دَعَوۡتُهُمۡ﴾، ﴿لَهُمۡ﴾ متعلّق بـ ﴿تغفر﴾، ﴿جَعَلُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، ﴿أَصَٰبِعَهُمۡ﴾ مفعول أوّل لـ ﴿جَعَلُوٓاْ﴾، ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ في موضع المفعول الثاني، وجملة ﴿جَعَلُوٓاْ﴾ جواب كلّما، وجملة ﴿كُلَّمَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إِنِّي﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي﴾. ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿جَعَلُوٓاْ﴾، ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿جَعَلُوٓاْ﴾، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ معطوف عليه أيضاً، ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ مفعول مطلق، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع التراخي، ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿دَعَوۡتُهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، وجملة ﴿دَعَوۡتُهُمۡ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة

﴿إنّ﴾ في قوله: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾. ﴿جِهَارًا﴾ مفعول مطلق على أنّه مصدر من المعنى؛ لأنّ الدعاء يكون جهاراً وغيره، فهو من باب رجع القهقرى. ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال؛ أي: مجاهراً أو ذا جهار، وجعل نفس المصدر مبالغة، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَعْلَنتُ﴾ خبرهُ، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على ما قبلها ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَعْلَنتُ﴾، ﴿وَأَسْرَرْتُ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿أَعْلَنتُ﴾، ﴿لَهُمْ﴾ متعلّق بـ ﴿أسررت﴾، ﴿إِسْرَارًا﴾ مفعول مطلق.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَقُلْتُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قلت﴾ معطوف على ﴿أَعْلَنتُ﴾، ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾ فعل أمر، مبنيّ على حذف النون، ﴿والواو﴾: فاعل، ﴿رَبَّكُمْ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قلت﴾، ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ غَفَّارًا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب على كونها معلّلة للأمر بالاستغفار، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، مجزوم بالطلب السابق أعني: ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾، ﴿عَلَيْكُم﴾ متعلق بـ ﴿يُرْسِلِ﴾، ﴿مِّدْرَارًا﴾ حال من ﴿السَّمَاءَ﴾، ﴿وَيُمْدِدْكُم﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿يُرْسِلِ﴾، ﴿بِأَمْوَالٍ﴾ متعلق بـ ﴿يمددكم﴾، ﴿وَبَنِينَ﴾ معطوف على ﴿بِأَمْوَالٍ﴾، ﴿وَيَجْعَل﴾ معطوف على ﴿يُرْسِلِ﴾ أيضاً، ﴿لَّكُمْ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ ﴿جَعَلَ﴾، ﴿جَنَّاتٍ﴾ مفعول به أوّل، ﴿وَيَجْعَل﴾ معطوف على يرسل، ﴿لَّكُمْ﴾ في موضع المفعول الثاني، ﴿أَنْهَارًا﴾ مفعول به أوّل.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَّا﴾ اسم استفهام للاستفهام التوبيخي في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾ خبر لـ ﴿مَّا﴾ الاستفهامية، والجملة في محل النصب مقول قلت، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تَرْجُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿الكاف﴾ في ﴿لَكُمْ﴾، ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿وَقَارًا﴾؛ لأنّه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿وَقَارًا﴾ مفعول به لـ ﴿تَرْجُونَ﴾، ﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قد﴾ حرف

تحقيق، ﴿خَلَقَكُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَرْجُونَ﴾، ﴿أَطْوَارًا﴾ حال من الكاف في ﴿خَلَقَكُمْ﴾، ولكنها في تأويل مشتقّ تقديره: حال كونكم متنقلين من حال إلى حال. ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿تَرَوْا﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لم﴾، ﴿والواو﴾: فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قلت﴾، والرؤية علمية؛ أي: لم تعتبروا، ولم تتفكّروا، ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجّبيّ في محل النصب على الحال من ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾، والعامل فيها ﴿خَلَقَ﴾، و﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ مفعول به، ﴿طِبَاقًا﴾ نعت لـ ﴿سَبْعَ﴾، وجملة خلق في محل النصب، سدّت مسدّ مفعولي ﴿تَرَوْا﴾ المعلّقة عن العمل بالاستفهام.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)﴾.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به أوّل، معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، ﴿فِيهِنَّ﴾ حال من ﴿نُورًا﴾، و﴿نُورًا﴾ مفعول به ثان لـ ﴿جعل﴾، ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعولان، معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾ خبره، والجملة في محل النصب معطوفة على قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾، على كونها مقول ﴿قلت﴾، ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ متعلق بـ ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾. ﴿نَبَاتًا﴾ مفعول مطلق، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿يُعِيدُكُمْ﴾، ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يُعِيدُكُمْ﴾، ﴿إِخْرَاجًا﴾ مفعول مطلق. ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿جَعَلَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ﴾. ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿لَكُمُ﴾ حال من ﴿بِسَاطًا﴾، ﴿الْأَرْضَ﴾ مفعول أوّل، ﴿بِسَاطًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿جَعَلَ﴾، ﴿لِتَسْلُكُوا﴾ اللام حرف جرّ وتعليل ﴿تسلكوا﴾ فعل مضارع، منصوب بـ(أن) مضمرة بعد لام كي، والواو: فاعل، ﴿مِنْهَا﴾ حال من ﴿سُبُلًا﴾؛ أي: كائنة من الأرض، ولو تأخّر.. لكان صفة لها، ﴿سُبُلًا﴾ مفعول به، ﴿فِجَاجًا﴾ نعت لـ ﴿سُبُلًا﴾، وجملة ﴿تسلكوا﴾ مع ﴿أن﴾ المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لسلوككم سبلاً

فجاجاً منها، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة أو بدل من ﴿قَالَ﴾ الأول. ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿عَصَوْنِي﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ونون وقاية، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿عَصَوْنِي﴾، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿لَمْ﴾ حرف جزم، ﴿يَزِدْهُ﴾ فعل ومفعول به مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، ﴿مَالُهُ﴾ فاعل، ﴿وَوَلَدُهُ﴾ معطوف على ﴿مَالُهُ﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿خَسَارًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿يَزِدْهُ﴾، ﴿وَمَكَرُوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿عَصَوْنِي﴾، ﴿مَكْرًا﴾ مفعول مطلق ﴿كُبَّارًا﴾ نعت لـ ﴿مَكْرًا﴾، ﴿وَقَالُوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿عَصَوْنِي﴾، ﴿لَا﴾ ناهية جازمة، ﴿تَذَرُنَّ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والنون المشدّدة نون التوكيد. ﴿آلِهَتَكُمْ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾ معطوف على ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾ الأولى، ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ ﴿وَدًّا﴾ وما عطف عليه مفعول ﴿تَذَرُنَّ﴾، ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ ممنوعان من الصرف للعلمية ووزن الفعل إن كانا عربيّين، وللعلمية والعجمة إن كانا عجميّين. وقرىء ﴿ولا يغوثا ويعوقا﴾ مصروفين لأمرين: أحدهما: أنّ صرفهما للتناسب، إذ قبلهما اسمان منصرفان وبعدهما اسم منصرف، الثاني أنّه جاء على لغة من يصرف غير المنصرف مطلقاً، وهي لغة حكاها الكسائيّ. ﴿وَنَسْرًا﴾ معطوف على ﴿وَدًّا﴾ أيضاً. ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على قوله: ﴿عَصَوْنِي﴾، على كونه خبر ﴿إِنَّهُمْ﴾ أو حال من فاعل ﴿عَصَوْنِي﴾، أو مقول لقول محذوف، معطوف على ﴿قَالَ﴾ الأول؛ أي: ﴿قال إنهم عصوني﴾ وقال ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾. ﴿كَثِيرًا﴾ مفعول به لـ ﴿أَضَلُّوا﴾، ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة، ﴿لا﴾ دعائية سلوكاً مسلك الأدب مع الباريء سبحانه، ﴿تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الدعائية، والجملة في محل النصب،

معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ضَلَٰلًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿تَزِدِ﴾.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿مِّمَّا﴾ ﴿مِنْ﴾ حرف جرّ، ﴿ما﴾ زائدة، ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ مجرور بـ ﴿مِّن﴾ التعليلية، والجار والمجرور متعلّق بـ ﴿أُغْرِقُوا۟﴾، و﴿أُغْرِقُوا۟﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعل، والجملة مستأنفة من كلام الربّ سبحانه. ﴿فَأُدْخِلُوا۟﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿أُغْرِقُوا۟﴾، ﴿نَارًا﴾ مفعول به ثان على السعة، ﴿فَلَمْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿لَمْ﴾ حرف جزم، ﴿يَجِدُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أدخلوا﴾، ﴿لَهُم﴾ في موضع المفعول الثاني لـ ﴿يَجِدُوا۟﴾، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حال من أنصارا، و﴿أَنصَارًا﴾ مفعول أوّل لـ ﴿يَجِدُوا۟﴾، ﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالَ﴾ الأول، ﴿رَّبِّ﴾ منادى مضاف، ﴿لَا﴾ دعائية جازمة، ﴿تَذَرْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الدعائية، والجملة في محل النصب مقول قال، ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلّق بـ ﴿تَذَرْ﴾، ﴿مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ حال من ﴿دَيَّارًا﴾، لأنّه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿دَيَّارًا﴾ مفعول به لـ ﴿تَذَرْ﴾، ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم، ﴿تَذَرْهُمْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿يُضِلُّوا۟﴾ فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿عِبَادَكَ﴾ مفعول به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية من فِعْلِ شرطها وجوابها في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معلّلة للنهي المذكور قبلها. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿لا﴾ نافية، ﴿يَلِدُوٓا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يُضِلُّوا۟﴾ على كونه جواب الشرط، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿فَاجِرًا﴾ مفعول ﴿يَلِدُوٓا۟﴾، ﴿كَفَّارًا﴾ نعت ﴿فَاجِرًا﴾.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿رَّبِّ﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب

مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱغْفِرْ﴾ فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على اللَّهَ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿لِي﴾ متعلق بـ ﴿ٱغْفِرْ﴾، ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ معطوف على ﴿لِي﴾، ﴿وَلِمَن﴾ معطوف أيضا على ﴿لِي﴾، وجملة ﴿دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿دَخَلَ﴾ فعل وفاعل مستتر، ﴿بَيْتِيَ﴾ مفعول به على السعة، ﴿مُؤْمِنًا﴾ حال من فاعل ﴿دَخَلَ﴾، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ معطوفان أيضاً على ﴿لِي﴾. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾ دعائية جازمة، ﴿تَزِدِ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿لا﴾ الدعائية، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفعول به أوّل، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿تَبَارًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿تَزِدِ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱغْفِرْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ الأصل: اوتقيوه، استثقلت الضمة على الياء فحذفت.. فلما سكنت التقى ساكنان؛ فحذفت الياء، وضمَّت القاف لمناسبة الواو، ثم أبدلت الواو فاء الكلمة تاء، وأدغمت في تاء الافتعال. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: معيّن مقدر عند الله، والأجل: المدة المضروبة للشيء.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾، أصله: يزيدهم بوزن يفعل، نقلت حركة الياء إلى الزاي فسكنت فدخل الجازم ﴿لم﴾ فسكن آخر الفعل فالتقى ساكنان فحذفت الياء لذلك، فوزنه يفلهم. وقوله: ﴿دُعَآءِىٓ﴾ الهمزة في مادّة الدعاء مبدلة من واو لتطرّف الواو إثر ألف زائدة، وهذا مطرود في الواو والياء. ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ والآذان: جمع أذن، أصله: أأذان على وزن أفعال، أبدلت الهمزة الساكنة ألفاً حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى. ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أصله: استغشيوا بوزن استفعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة. وقوله: ﴿ثِيَابَهُمْ﴾ الياء فيه مبدلة من واو، أصله: ثوابهم أعل هذا الإعلال بإبدال الواو ياء لوقوعها بعد كسرة، وقبل ألف في جمع معتل العين في المفرد.

﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ أصله: أصرروا بوزن أفعلوا، نقلت حركة الواو الأولى إلى الصاد فسكنت، فأدغمت في الراء الثانية. وقوله أيضاً: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ والاستغشاء مأخوذ من الغشاء، وهو الغطاء، وهو في الأصل اشتمال من فوق، ولما كان فيه

معنى الستر استعمل بمعناه، وأصل الاستغشاء: طلب الغشي؛ أي: الستر، لكن معنى الطلب هنا ليس بمقصود بل هو بمعنى التغطّي والستر، وإنما جيء بصيغته التي هي السين للمبالغة. ﴿والثياب﴾ جمع ثوب، سمّي به لثوب الغزل؛ أي: رجوعه إلى الحالة التي قدّر لها اهـ من الروح. وقوله أيضا: ﴿وَأَصَرُّواْ﴾؛ أي: أكبوا وأقاموا على الكفر والمعاصي يقال: أصر الحمار على الأتانة إذا ضم أذنيه إلى رأسه، وأقبل عليها يكدمها ويطردها طلباً للسفاد، استعير للإقبال على الكفر والمعاصي، والإكباب عليهما بتشبيه الإقبال المذكور بإصرار الحمار على الأتانة يكدمها ويطردها للسفاد، ولو لم يكن في ارتكاب المعاصي إلا التشبيه بالحمار.. لكفى به مزجرةً، فكيف والتشبيه في أسوأ حاله؟ وهو حال الكدم والطرد للسفاد. ﴿جِهَارًا﴾ والجهر: ظهور الشيء بإفراط لحاسة السمع أو لحاسة البصر. والإعلان ضدّ الإسرار. ﴿مِّدْرَارًا﴾؛ أي: كثير الدرور، وهو حال من ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾، ولم يؤنّث؛ لأنّه على زنة مفعال ومفعال يستوي فيه المذكر والمؤنث، يقال: رجل مذكار وامرأة مئناث، وهو من أوزان المبالغة، كقولهم: وإنه لمنحار بوائكها. ﴿وَقَارًا﴾ والوقار في الأصل: السكون والحلم، وهو ههنا بمعنى العظمة؛ لأنّه يتسبب عنها في الأغلب. ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ جمع طور، وهو الحال والتارة. وفي «المصباح»: والطور بالفتح: التارة مثل: ثوب وأثواب، وتعدى طوره؛ أي: حاله التي تليق به انتهى.

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أصل تروا: ترأيوا بوزن تفعلوا، نقلت حركة الهمزة إلى الراء ثم حذفت للتخفيف ثم أبدلت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾؛ أي: إنباتاً عجيباً، وأنشأكم منها إنشاء غريباً على أن ﴿نَبَاتًا﴾ وضع موضع إنباتاً على أنه مصدر مؤكد؛ لـ ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ بحذف الزوائد، ويسمى اسم مصدر. ﴿فِجَاجًا﴾؛ أي: واسعة جمع فج، وهو الطريق الواسع. وقيل: هو المسلك بين الجبلين، قال في «المفردات»: الفج: طريق يكتنفها جبلان، ويستعمل في الطريق الواسع.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أصله: عصيوني قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ فيه إدغام التاء فاء الفعل في تاء الافتعال. ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢﴾؛ أي: عظيماً. والمكر: الحيلة الخفية. وفي «كشف

الأسرار»: المكر في اللغة: غاية الحيلة، وهو من فعل الله تعالى إخفاء التدبير. ﴿كُبَّارًا﴾ بضمّ الكاف وتشديد الباء وهو بناء مبالغة، وهو أبلغ من ﴿كباراً﴾ بالضمّ والتخفيف. ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ﴾ أصله: تذرونن، الأولى نون الرفع والثانية نون التوكيد الثقيلة، فتحذف نون الرفع للجازم ﴿لَا﴾ الناهية، فصار اللفظ تذرون فاجتمع ساكنان فحذفت الواو. ﴿يَغُوثَ﴾ أصله: يغوث إن كان عربياً، نقلت حركة الواو إلى الغين فسكّنت فصارت حرف مدّ، فهو على وزن الفعل، وكذلك القول في قوله: ﴿يعوق﴾ لا يختلف. ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟﴾ أصله: أضللوا، نقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد، فسكنت فأدغمت في اللام الثانية. ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أصله: تزيد بوزن تفعل نقلت حركة الياء إلى الزاي، فسكنت ثم جزم الفعل بـ ﴿لا﴾ الناهية فسكن آخره فالتقى ساكنان فحذفت الياء، فوزنه تفل.

﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿رَبِّ﴾ أصله: ربي حذفت منه ياء الإضافة اكتفاء عنها بالكسرة. ﴿دَيَّارًا﴾ قال الزمخشري: هو من الأسماء المستعملة في النفي العام، يقال: ما بالدار ديّار وديّور كقيام وقيوم، وهو فيعال من الدوار أو من الدار، وأصله: ديوار، ففعل به ما فعل بأصل سيد وميت، ولو كان فعالاً.. لكان دوّاراً. وعبارة أبي حيان: ﴿دَيَّارًا﴾ من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي، وما أشبهه، ووزنه فيعال، أصله: ديوار، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت. وفي «القاموس»: «وما داري وديار ودوري وديور» أي: أحد.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ هذا الفعل حذفت فاؤه في جميع التصاريف، فأصل المادة: وذر، لكن الماضي منه مهجور، والمضارع والأمر حذفت منهما الفاء. وقوله: ﴿يُضِلُّوا۟﴾ أصله: يضللوا بوزن يفعلوا، نقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد فسكنت فأدغمت في اللام الثانية. ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟﴾ فيه إعلال بالحذف أصله: يولدوا بوزن يفعلوا، حذفت الواو فاء الكلمة لوقوعها بين عدوتيها الياء المفتوحة والكسرة. ﴿إِلَّا فَاجِرًا﴾ من الفجر، وهو شق الشي شقًّا واسعاً كفجر الإنسان السكر وهو بالكسر اسم لسد النهر وما سد به النهر. والفجور: شق ستر الديانة. ﴿كَفَّارًا﴾ قال الراغب: الكفار أبلغ من الكفور، وهو المبالغ في كفران النعمة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: إفراد الإنذار في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ مع كونه بشيراً أيضاً؛ لأن الإنذار أقوى في تأثير الدعوة، لما أن أكثر الناس يطيعون أوّلاً بالخوف من القهر وثانياً بالطمع في العطاء كما مرّ.

ومنها: إسناد الزيادة إلى الدعاء في قوله ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا﴾ مع أنها فعل الله تعالى لسببيته لها.

ومنها: الطباق بين ﴿لَيْلًا﴾ و﴿نهارا﴾، وبين ﴿أَعْلَنتُ﴾ و﴿أسررت﴾ وبين ﴿جِهَارًا﴾ و﴿إِسْرَارًا﴾، وبين ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ و﴿يخرجكم﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ المراد رؤوس الأصابع من إطلاق الكلّ وإرادة الجزء.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ لأنّه كناية عن المبالغة في إعراضهم عمّا دعاهم إليه، فهم بمثابة من سدّ سمعه وغشى بصره كيلا يسمع ولا يرى. وقيل: الكلام حقيقي كما مرّ.

ومنها: تكرار الدعاء في قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾﴾ تأكيداً ومبالغة في الدعاء.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ علاقته المحلية، فقد أراد بالسماء المطر؛ لأنّ المطر ينزل من السماء، كما قال الشاعر:

إذا نَزَلَ ٱلسَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ   رَعَيْنَاه وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾، لأنّه شبّههم بالنبات، فقد استعار الإنبات للإنشاء، فاشتق من الإنبات بمعنى الإنشاء أنبت بمعنى أنشأ على طريقة الاستعارة التصريحيّة التبعيّة، وكانت هذه الاستعارة ذات فائدة؛ لأنها دلت على الحدوث، فإنهم إذا كانوا نباتاً كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة أيضاً في قوله: ﴿وَأَصَرُّواْ﴾، شبه إقبالهم على الكفر والمعاصي بإقبال الحمار على الأتانة للسفاد بجامع كون كلّ منهما إقبالاً سيّئاً.

ومنها: التأكيد بالمصدر للمبالغة في قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ ﴿نَبَاتًا﴾ و﴿يخرجكم﴾، ﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارًا﴾، و﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارًا﴾، ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا﴾. ويسمى هذا في علم المعاني بالإطناب.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجًا﴾؛ أي: كالسراج، وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا﴾ كالبساط والفراش.

ومنها: تكرار لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾ بعد قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم﴾ للتعظيم والتيّمن والتبّرك.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ ﴿نَبَاتًا﴾ ﴿يخرجكم إخراجاً﴾.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ الآية، مع اندراجها فيما قبلها؛ لأنّها كانت أكبر أصنامهم وأعظم ما عندهم، وهو عند أرباب المعاني نوع من الإطناب.

ومنها: عكسه الذي هو ذكر العام بعد الخاص في قوله: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ﴾ تكريراً للدعاء للخاص.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ علاقته ما يؤول إليه؛ لأنّه لم يفجروا وقت الولادة بل بعدها بزمن طويل.

ومنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ﴾ على عامله إفادة للحصر، فإنه يدل على أنّ إغراقهم بالطوفان لم يكن إلا من أجل خطيئاتهم تكذيباً لقول المنجمين كما مرّ.

ومنها: زيادة ﴿ما﴾ الإبهامية بين الجار والمجرور لتأكيد الحصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور.

ومنها: تنكير ﴿نَارًا﴾ في قوله: ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارًا﴾ للدلالة على تعظيمها؛ أي: ناراً عظيمة وإفادة للتهويل منها.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾؛ لأنّ فيه تعريضاً باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾، لأنّه وسّط بذلك بين دعائه عليه السلام أوّلاً ودعائه عليهم فيما بعد للإيذان من أوّل الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطيئاتهم التي عدّدها نوح عليه السلام.

ومنها: التهكم بهم في قوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة على مقصدين.

الأوّل: دعوة نوح قومه إلى الإيمان وقد حوت تلك الدعوة أموراً:

١ ـ طلب تركهم للذنوب وأنّهم إذا فعلوا ذلك أكثر الله لهم الأموال والبنين.

٢ ـ النظر في خلق السموات والأرض والأنهار والبحار.

٣ ـ النظر في خلق الإنسان، وأنّه يخلق من الأرض كما يخلق النبات منها، وأنَّ الأرض مسخرة لهم يتصرّفون فيها كما يشاؤون.

والثاني: كفر قومه وعقابهم في الدنيا والآخرة[١].

فائدة: سورة نوح ثمان وعشرون آية. (ثمان) بكسر النون إن أعلَّ إعلال قاض فيكون منقوصاً، وإعرابه على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين كقولهم: جاء قاض. وبرفع النون إن حذفت الياء اعتباطاً وتخفيفاً لا لعلة تصريفية، فيكون كـ: يد ودم اهـ شيخنا.

والله أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا تمّ تفسير هذه السورة في اليوم العشرين في الساعة الرابعة يوم الأربعاء من ربيع الأول من شهور سنة ٢٠/٣/١٤١٦ ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيّة، وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً، والحمد لله ربّ العالمين آمين.

سورة الجن

سورة الجنّ مكيّة، قال القرطبيّ في قول الجميع: نزلت بعد سورة الأعراف. وأخرج ابن الضريس والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجن بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة، وابن الزبير مثله.

وهي ثمان وعشرون آية. وكلماتها[1]: مئتان وخمس وثمانون كلمة. وحروفها: ثمان مئة وسبعون حرفا.

ومناسبتها لما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ أنّه جاء في السورة السابقة ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وجاء في هذه السورة ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾.

٢ ـ أنه ذكر في هذه السورة شيء يتعلق بالسماء كالسورة التي قبلها.

٣ ـ أنه ذكر عذاب من يعصي الله سبحانه في قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وذكر هناك مثله في قوله: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾.

وقال أبو حيان[3]: مناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه لما حكى تمادي قوم نوح في الكفر وعكوفهم على عبادة الأصنام، وكان عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض كما أن محمداً ﷺ آخر رسول إلى أهل الأرض. والعرب الذين هو منهم كانوا عباد أصنام كقوم نوح حتى إنهم عبدوا أصناماً مثل أصنام أولئك في الأسماء، وكان ما جاء به محمد ﷺ من القرآن هادياً إلى الرشد، وقد سمعته العرب، وتوقّف عن الإيمان به أكثرهم. أنزل الله تعالى سورة الجن إثر سورة نوح تبكيتاً لقريش والعرب في كونهم تباطؤوا عن الإيمان؛ إذ كانت الجن خيراً منهم، وأقبل للإيمان بهذا، وهم من غير جنس الرسول ﷺ، ومع ذلك فبنفس ما سمعوا القرآن استعظموه

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

وآمنوا به للوقت، وعرفوا أنه ليس من نمط كلام الناس، بخلاف العرب؛ فإنه نزل بلسانهم، وعرفوا كونه معجزاً وهم مع ذلك مكذّبون له، ولمن جاء به حسداً وبغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده.

التسميه: وسميت سورة الجن لذكر قصة استماع الجن للقرآن فيها.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم: سورة الجن كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم بيان المناسبة بين هذه السورة، والتي قبلها آنفاً، وأمّا المناسبة بين آياتها فليست معتبرة، لأنّها نزلت في مقصد واحد.

واعلم: أنَّ الله سبحانه سمى سور كتابه بأسماء تبعث على النظر والاعتبار

وتوجب التفكير. فسمّى[1] بالأنعام وبالحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت، وبما هو ألطف من ذلك كالنور، كما سمى ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود وببعض الأخلاق كالتوبة، وببعض الكواكب العلوية كالشمس والقمر والنجم، وببعض الأوقات كالليل والفجر والضحى، وببعض المعادن كالحديد، وببعض الأماكن كالبلد، وببعض النبات كالتين، وكل ذلك مما نراه. وهنا سمى هذه السورة بعالم لا نراه، وهو عالم الجن، وهو عالم لم يعرف في الإسلام إلا من طريق الوحي، وليس للعقل دليلٌ عليه، ولقد أصبحت هذه العوالم المستترة عنا الشغل الشاغل اليوم للعلماء والباحثين، فصار علماء أوربا يدرسون عالم الملائكة، وعالم الجن وعالم الأرواح، ويطلعون على غوامض هذه العوالم، فتحدث الناس مع أرواح أصحابهم الذين ماتوا، واتصل العالم الإنسي بالعالم الجنّي، وبعالم الأرواح الطاهرة وهم الملائكة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ . . .﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات: ما أخرجه[2] البخاري، والترمذي وغيرهما عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، ولكنه انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: ما هذا إلا لشيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا هذا الذي حدث، فانطلقوا فانصرف النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا إنّا سمعنا قرآناً عجباً. فأنزل الله عزّ وجلّ على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾، وإنما أوحي إليه قول الجنّ.

وأخرج ابن الجوزي في كتاب «صفوة الصفوة» بسنده عن سهل بن عبد الله قال: كنت في ناحية ديار عاد؛ إذ رأيت مدينة من حجر منقور في وسطها قصر من

(١) المراغي.
(٢) لباب النقول.

حجارة تأويه الجن، فدخلت فإذا شيخ عظيم الخلق يصلي نحو الكعبة، وعليه جبة صوف فيها طراوة؛ فلم أتعجب من عظم خلقته كتعجبي من طراوة جبته، فسلمت عليه، فرد عليّ السلام وقال: يا سهل: إنّ الأبدان لا تخلق الثياب، وإنما تخلقها روائح الذنوب ومطاعم السحت، وإنَّ هذه الجبة عليّ من سبع مئة سنة، لقيت فيها عيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام، فآمنت بهما. فقلت له: ومن أنت؟ قال: من الذين نزلت فيهم ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن كردم عن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة، وذلك أوَّل ما ذكر رسول الله ﷺ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب، فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي، فقال: عامر الوادي جارك، فنادى مناد «لا نراه يا سرحان»، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم، فأنزل الله على رسوله بمكة ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ...﴾ الآية.

وأخرج[1] ابن سعد عن أبي رجاء العطارديّ من بني تميم قال: بعث رسول الله ﷺ، وقد رعيت على أهلي وكفيت مهنتهم، فلما بعث النبي ﷺ خرجنا هراباً، فأتينا على فلاة من الأرض، وكنا إذا أمسينا بمثلها قال شيخنا: إنا نعوذ بعزيز هذا الوادي من الجن الليلة، فقلنا ذلك، فقيل لنا: إنما سبيل هذا الرجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، من أقر بها أمن على دمه وماله، فرجعنا فدخلنا في الإسلام، قال أبو رجاء: إني لأرى هذه الآية نزلت فيَّ وفي أصحابي: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ الآية.

وروي عن مقاتل في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا...﴾ قال: نزلت في كفّار قريش حين منع المطر سبع سنين.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قالت الجن للنبيّ ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناؤون عنك؟ أو كيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك؟ فنزلت

---

(١) لباب النقول.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ. . .﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن حضرميّ: أنه ذكر له أنّ جنيًّا من الجن من أشرافهم ذا تبع قال: إنما يريد محمد أن يجيره الله وأنا أجيره، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ. . .﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك ليعرفوا بذلك أنّك مبعوث إلى الجنّ كالإنس ﴿أُوحِىَ إِلَيَّ﴾؛ أي: ألقي عليّ بطريق الوحي، وأخبرت بإعلام من الله تعالى. والإيحاء: إعلام في خفاء. وفائدة[1] إخباره بهذه الأخبار بيان أنه رسول الثقلين، والنهي عن الشرك والحث على التوحيد، فإن الجن مع تمردهم وعدم مجانستهم إذا آمنوا فكيف لا يؤمن البشر مع سهولة طبعهم ومجانستهم؟. ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الهمزة، لأنّه نائب فاعل لـ ﴿أُوحِىَ﴾. وعند الكوفيين والأخفش يجوز نيابة الجار والمجرور مع غيره، والضمير للشأن والحديث؛ أي: إنَّ الشأن والحديث ﴿ٱسْتَمَعَ﴾؛ أي: أصغى القرآن أو طه أو اقرأ وقد حذف لدلالة ما بعده عليه. والاستماع: الإصغاء، والمستمع من كان قاصداً للسماع مصغياً إليه، والسامع: من اتفق سماعه من غير قصد إليه، فكل مستمتع سامع من غير عكس. ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: جماعة منهم ما بين الثلاثة والعشرة. قال في «القاموس»: النفر: ما دون العشرة من الرجال كالنفير، والجمع أنفار. وفي «المفردات»: النفر: عدة رجال يمكنهم النفر إلى الحرب. والجن واحده جني كروم ورومي ونحوه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿قُلْ أُوحِىَ﴾ رباعياً. وقرأ ابن أبي عبلة، وأبو إياس جوبة بن عائذ الأسدي، والعتكي عن أبي عمرو ﴿وحي﴾ ثلاثياً، يقال: وحي وأوحي بمعنى واحد، وهما لغتان. وقرأ زيد بن عليّ، وجوبة فيما روى عن الكسائي، وابن أبي عبلة أيضاً ﴿أحي﴾ بإبدال الواو همزة، كما قالوا في وعد: أعد. وقال الزمخشري: وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة انتهى. وليس كما ذكر بل في

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

ذلك تفصيل، وذلك أنَّ الواو المضمومة قد تكون أوّلاً وحشوا وآخراً، ولكل منها أحكام، وفي بعضها تفصيل، وخلاف مذكور في كتب النحو. قال الزمخشري: وقد أطلقه المازني في المكسور أيضاً كإشاح وإسادة وإعاء أخيه انتهى.

واختلف[1] هل رآهم النبي ﷺ أو لم يرهم؟ فظاهر القرآن: أنّه لم يرهم لأنّ المعنى: قل يا محمد لأمّتك أوحي إليَّ علي لسان جبريل ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾. ويؤيّد هذا ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم. وقال عكرمة: والسورة التي كان يقرؤها رسول الله وهي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾. وقيل غير ذلك، كما مرّ آنفاً؛ إذ لو رآهم[2] لما أسند معرفة هذه الواقعة إلى الوحي، فإن ما عرف بالمشاهدة لا يستند إثباته إلى الوحي، وكذا لم يشعر بحضورهم وباستماعهم، ولم يقرأ عليهم. وإنّما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته، فسمعوها فأخبره الله تعالى بذلك، وقد مضى ما فيه من التفصيل في سورة الأحقاف فلا نعيده. وقال الضحاك: والجنّ ولد الجانّ وليسوا شياطين. وقال الحسن: إنهم ولد إبليس. وقيل: هم أجسام رقاق في صورة تخالف صورة الملك والإنس عاقلة كالإنس خفيّة عن أبصارهم لا يظهرون لهم، ولا يكلّمونهم إلا صاحب معجزة بل يوسوسون سائر الناس يغلب عليهم النارية أو الهوائية، ويدل على الأوّل مثل قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾، فإن المشهور أنَّ المركبات كلها من العناصر، فما يغلب فيه النار فناري كالجن، وما يغلب فيه الهواء فهوائي كالطير، وما يغلب فيه الماء فمائي كالسمك، وما يغلب فيه التراب فترابي كالإنسان، وسائر الحيوانات الأرضية. وقيل: هي نوع من الأرواح المجردة؛ أي: الملائكة. وقيل: هي النفوس البشرية المفارقة لأبدانها.

وأكثر الفلاسفة ينكرون وجود الجن في الخارج، واعترف به جمع عظيم من قدمائهم، وكذا جمهور أرباب الملل المصدّقين بالأنبياء. قال الفاشانيّ: إنّ في الوجود نفوساً أرضيّة قوية لا في غلظ النفوس السبعية والبهيمة وكثافتها وقلة إدراكها، ولا على هيئات النفوس الإنسانية واستعدادها ليلزم تعلقها بالأجرام الكثيفة

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

الغالب عليها الأرضية، ولا في صفاء النفوس المجردة ولطافتها لتتصل بالعالم العلوي، وتتجرد، أو تتعلق ببعض الأجرام السماويّة متعلقة بأجرام لطيفة غلبت عليها الهوائية، أو النارية أو الدخانية على اختلاف أحوالها. سماها بعض الحكماء الصور المعلقة، ولها علوم وإدراكات من جنس علومنا وإدراكاتنا، ولما كانت قريبة الطبع إلى الملكوت السماوي أمكنها أن تتلقي من عالمها بعض الغيب، فلا يستبعد أن ترتقي أفق السماء فتسترق السمع من كلام الملائكة؛ أي: النفوس المجردة. ولما كانت أرضيّة ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية تأثرت تلك القوى، فرجمت بتأثيرها عن بلوغ شأوها وإدراك مداها من العلوم، ولا ينكر أن تشتعل أجرامها الدخانية بأشعة الكواكب فتحترق، وتهلك أو تنزجر عن الارتقاء إلى الأفق السماوي، فتتسفل فإنها أمور ليست بخارجة عن الإمكان.

وقد اختلف[1] أهل العلم في دخول مؤمني الجن الجنة كما يدخل عصاتهم النار لقوله في سورة تبارك: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ وقول الجنّ فيما سيأتي في هذه السورة: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ وغير ذلك من الآيات. فقال الحسن: يدخلون الجنة، وقال مجاهد: لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار. والأول أولى لقوله في سورة الرحمن: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ وفي سورة الرحمن آيات غير هذه تدل على ذلك، فراجعها. وقد قدمنا أن الحق أنه لم يرسل الله إليهم رسلاً منهم بل الرسل جميعاً من الإنس، وإن أشعر قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ بخلاف هذا فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة في الكتاب العزيز دالة على أنّ الله سبحانه لم يرسل الرسل إلاّ من بني آدم. وهذه الأبحاث يطول الكلام فيها. والمراد هنا الإشارة إليها بأخصر عبارة وأوجز إشارة.

والحاصل[2]: من الكتاب والسنة: العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون متعبّدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقتهم وبحالهم، وأن النبي ﷺ رسول إلى الإنس والجن، فمن دخل في دينه فهو من المؤمنين، ومعهم في الدنيا والآخرة والجنة، ومن كفر به فهو من الشياطين المبعدين المعذبين فيها والنار مستقره.

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

والمعنى[1]: أمر الله رسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى به إليه من قصص الجن لما في علمه من فوائد ومنافع للناس منها:

١ ـ أن يعلموا أنه ﷺ كما بعث إلى الإنس بعث إلى الجن.

٢ ـ أن يعلموا أنّ الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا.

٣ ـ أن يعلموا أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان.

٤ ـ أن يعلموا أن الجن مكلفون كالإنس.

٥ ـ أن تعلم قريش أنَّ الجن على تمردها، لما سمعت القرآن عرفت إعجازه وآمنت به.

وكان استماعهم للنبي ﷺ قبل الهجرة بثلاث سنين، والذين استمعوه هم جن نصيبين قرية باليمن، وذلك في صلاة الصبح يقرأ سورة الرحمن، أو سورة اقرأ ببطن نخل موضع بين مكة والطائف. وذكر الخطيب في سورة الأحقاف أنّ صلاته ببطن نخل كانت حين رجوعه من الطائف، فإن النبي ﷺ في السنة الحادية عشرة من النبوة لما أيس من أهل مكة خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، فانصرف راجعاً إلى مكة، فأقام ببطن نخل، بينه وبين مكة مسيرة ليلة، يقرأ القرآن فمرّ به نفر من جنّ نصيبين اهـ. وعن عكرمة: أنهم كانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل.

وقد حكى سبحانه عن الجن أشياء:

١ ـ ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ لقومهم عند رجوعهم إليهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾؛ أي: كتاباً مقروءاً على لسان الرسول ﴿عَجَبًا﴾؛ أي: عجيباً؛ أي: معجباً في فصاحته وبلاغته، وقيل: في مواعظه، وقيل: في بركته. وهو مصدر بمعنى العجيب وضع موضعه للمبالغة، والعجيب ما خرج عن حدّ أشكاله ونظائره. والمعنى: كتاباً بديعاً مبايناً لكلام الناس في حسن النظم ودقّة المعنى. وقال البقليّ: كتاباً عجيباً تركبه، وفيه إشارة إلى أنهم كانوا من أهل اللسان. ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾؛ أي: إلى الحق والصواب وصلاح الدنيا والدين، كما قال عليه السلام: «اللهم ألهمني رشدي»؛ أي: الاهتداء إلى مصالح الدين والدنيا، فيدخل فيه التوحيد والتنزيه. وحقيقة الرشد هو الوصول إلى الله تعالى. والجملة صفة أخرى للقرآن.

---

(١) المراغي.

وقرأ الجمهور: ﴿الرُّشد﴾ بضم الراء وسكون الشين، وعيسى بضمّهما، وعنه أيضاً فتحهما. ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾؛ أي: بذلك القرآن، ومن ضرورة الإيمان به الإيمان بمن جاء به، أي: صدّقنا به بأنّه من عند الله تعالى. ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ﴾ بعد اليوم البتة؛ أي: بعد علمنا بالحق ﴿بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ حسبما نطق به ما فيه من دلائل التوحيد؛ أي: لا نجعل أحداً من المعبودات شريكاً له سبحانه اعتقاداً، ولا نعبد غيره. فإن تمام الإيمان إنما يكون بالبراءة من الشرك والكفر كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾. فلكونه قرآناً معجزاً بديعاً وجب الإيمان به، ولكونه يهدي إلى الرشد وجب قطع الشرك من أصله. والدخول في دين الله كله فمجموع قوله: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ مسبب عن مجموع قوله: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾، ولذا عطف ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ﴾ بالواو مع أنّ الظاهر الفاء، وفي هذا توبيخ للكفّار من بني آدم حيث آمنت الجنّ بسماع القرآن مرّةً واحدةً، وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه، وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله وآمنوا به، ولم ينتفع كفّار الإنس لا سيّما رؤوساؤهم وعظماؤهم بسماعه مرّات متعددة وتلاوته عليهم في أوقات مختلفة مع كون الرسول منهم يتلوه عليهم بلغاتهم لا جرم صرعهم الله أذل مصرع وقتلهم أقبح مقتل، ولعذاب الآخرة أشد لو كانوا يعلمون.

والمعنى[1]: أي قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم كما جاء في قولهم: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾: إنا سمعنا كتاباً بديعاً يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، فصدّقنا به، ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك بالله.

٢ - ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ بفتح الهمزة[2] وكذا ما بعده من الجمل المصدرة بـ ﴿أنّ﴾ في أحد عشر موضعاً معطوف على ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾، فيكون من جملة الكلام الموحى به على أنَّ المُوحى عين عبارة الجن بطريق الحكاية كأنّه قيل: قل أوحي إليّ كيت وكيت. وهذه العبارات فاندفع ما قيل من أنّك لو عطفت ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ و﴿إِنَّا سَمِعۡنَا﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا﴾ وشبه ذلك على أنه استمع لم يجز، لأنّه ليس مما أوحي إليه، وإنّما هو أمر أخبروا به عن أنفسهم انتهى. قلت: والذي يظهر لي أنّ ﴿أنّ﴾ المفتوحة في مواضعها كلها مستعملة استعمال إنّ المكسورة

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

توسعة لدائرة الكلام إلا في قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ فتكون فيه على بابها، وفي سائر المواضع بمعنى ﴿إن﴾ المكسورة فتكون مقولا لقوله: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾. ومن قرأ بالكسر عطف على المحكي بعد القول، وهو الأظهرلوضوح اندراج الكلّ تحت القول. وقيل: في الفتح والكسر غير ذلك، والأقرب ما قلناه.

والمعنى: وأنّ الشأن ارتفع عظمة ربّنا كما تقول في الثناء على الله: وتعالى جدّك؛ أي: ارتفع عظمتك. وفي إسناد التعالي إلى العظمة مبالغة لا تخفى من قولهم: جدّ فلان في عيني؛ أي: عظم تمكّنه أو سلطانه، لأن الملك والسلطنة غاية العظمة. أو غناه على أنه مستعار من الجد الذي هو البخت والدولة والحظوظ الدنيوية سواء استعمل بمعنى الملك والسلطان أو بمعنى الغنى، فإن الجد في اللغة كما يكون بمعنى العظمة، وبمعنى أب الأب وأب الأم يكون بمعنى الحظ والبخت، يقال: رجل مجدود؛ أي: محظوظ. شبه سلطان الله وغناه الذاتيان الأزليان ببخت الملوك والأغنياء، فأطلق اسم الجد عليه استعارة.

وقرأ الحرميّان[1]: نافع وابن كثير، والأبوان: أبو عمرو وأبو بكر بفتح الهمزة من قوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَٰلَىٰ﴾ وما بعده، وهي اثنتا عشرة آية، آخرها: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾. وباقي السبعة بالكسر، فأما الكسر فواضح؛ لأنها معطوفات على قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾، فهي داخلة في معموم القول. وأما الفتح فقال أبو حاتم: هو معطوف على مرفوع ﴿أُوحِىَ﴾، فهو كله في موضع رفع على ما لم يسم فاعله انتهى. وهذا لا يصح؛ لأن من المعطوفات ما لا يصح دخوله تحت ﴿أُوحِىَ﴾، وهو كل ما كان فيه ضمير المتكلم كقوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾، ألا ترى أنه لا يلائم ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ﴾، وكذلك باقيها. وقال الزمخشري: ومن فتح كلهن فعطفاً على محل الجار والمجرور في ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، كأنه قيل: صدقناه وصدّقنا بأنه تعالى جد ربنا، وبأنه كان يقول سفيهنا، وكذلك البواقي انتهى. ولم يتفطن لما تفطن له الفراء من أن بعضها لا يحسن أن يعمل فيه ﴿ءَامَنَّا﴾.

وتلخيص ما في هذا المقام[2]: أن ﴿إنّ﴾ المشددة في هذه السورة على قسمين:

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

القسم الأول: ليس معه واو العطف، فهذا لا خلاف بين القرّاء في فتحه أو كسره على حسب ما جاءت به التلاوة واقتضته العربية كقوله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾، لا خلاف في فتحه لوقوعه موضع المصدر، وكقوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ لا خلاف في كسره، لأنه محكي بالقول.

والقسم الثاني: أن يقترن بالواو وهو أربع عشرة كلمة: إحداها لا خلاف في فتحها، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾. والثانية: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ﴾ كسرها ابن عامر وأبو بكر، وفتحها الباقون. والاثنتا عشرة الباقية فتحها الأخوان، وابن عامر وحفص، وكسرها الباقون كما تقدم تحرير ذلك كله. والاثنتا عشرة هي قوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ﴾، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾، ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ﴾، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نَّقُولَ﴾، ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا﴾، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ﴾ اهـ سمين.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ بفتح الجيم ورفع الدال مضافاً إلى ﴿ربنا﴾؛ أي: عظمته، قاله الجمهور، وقال أنس والحسن: غناه، وقال مجاهد: ذكره، وقال ابن عباس: قدره وأمره. وقرأ عكرمة ﴿جد﴾ منوناً، ﴿ربنا﴾ مرفوع الباء كأنه قال: عظيم هو ربنا فربنا بدل، والجد في اللغة العظيم. وقرأ حميد بن قيس ﴿جدّ﴾ بضم الجيم مضافاً، ومعناه: العظيم، حكاه سيبويه، وهو من الإضافة إلى الموصوف.

والمعنى: تعالى ربنا العظيم. وقرأ عكرمة ﴿جدّا ربّنا﴾ بفتح الجيم والدال منوناً ورفع ﴿ربنا﴾، وانتصب ﴿جدّا﴾ على التمييز المحول من الفاعل، أصله: تعالى جدّ ربنا. وقرأ قتادة وعكرمة أيضاً ﴿جدّا﴾ بكسر الجيم والتنوين نصباً ﴿ربّنا﴾ رفعاً. قال ابن عطية: نصب ﴿جدّا﴾ على الحال، ومعناه: تعالى حقيقة ومتمكناً، وقال غيره: هو صفة لمصدر محذوف تقديره: تعالياً جدّاً، و﴿ربنا﴾ مرفوع بـ ﴿تعالى﴾. وقرأ ابن السميفع ﴿جَدَى ربنا﴾؛ أي: جدواه ونفعه.

وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً...﴾ أي: زوجة ﴿وَلَا وَلَدًا﴾؛ أي: ابناً ولا بنتاً. بيان[2] لحكم (تعالى جده)، كأنه قيل: ما الذي تعالى عنه؟ فقيل: ما اتخذ؛ أي:

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

لم يختر لنفسه لكمال تعاليه زوجة ولا بنتاً ولا ابناً كما يقول الظالمون: عيسى ابن الله، ومريم صاحبته، والملائكة بنات الله، وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووفقوا للتوحيد والإيمان تنبهوا للخطأ في ما اعتقده كفرة الجن من تشبيه الله بخلقه في اتخاذ الصاحبة والولد، فاستعظموه ونزهوه تعالى عنه لعظمته وسلطانه أو لغناه، فإن الصاحبة تتخذ للحاجة إليها. والولد للتكثير وإبقاء النسل بعد فوته، وهذه من لوازم الإمكان والحدوث، وأيضاً هو خارج عن دائرة التصور، والإدراك، فكيف يكيفه أحد؟ فيدخله تحت جنس حتى يتخذ صاحبة من صنف تحته أو ولداً من نوع يماثله. وقد قالت النصارى أيضاً: المسيح ابن الله واليهود عزير ابن الله، وبعض مشركي العرب الملائكة بنات الله. ويلزم من كون المسيح ابن الله على ما زعموا أن تكون مريم صاحبة له، ولذا ذكر الصاحبة. يعني: أنّ الولد يقتضي الأمّ التي هي صاحبة الأب الوالد.

والمعنى[1]: أي وإنهم كما نفوا عن أنفسهم الإشراك بالله نزّهوا ربهم عن الزوجة والولد؛ لأن الصاحبة تتخذ للحاجة إليها، ولأنها من جنس الزوج، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾. والولد للتكثّر، والاستئناس به، والحاجة إليه حين الكبر وبقاء الذكر والشهرة، كما قال:

وَكَـمْ أَبٍ قَـدْ عَـلا بـابْـنٍ ذُرَا شَـرَفٍ كَـمَـا عَـلَـتْ بِـرَسُـوْلِ الـلَّـه عَـدْنَـانُ

والله سبحانه منزه عن ذلك، تعالى ربنا علواً كبيراً.

والخلاصة: علا ملك ربنا وسلطانه أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة أو ملامسة يكون منها الولد.

٣ - ﴿وَأَنَّهُۥ﴾؛ أي: وأن الشأن ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾؛ أي: جاهلنا، وهو إبليس أو مردة الجن. فقوله: ﴿سَفِيهُنَا﴾ للجنس. والظاهر[2] أن يكون إبليس من الجنّ كما قال تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾. والسفه: خفّة النفس لنقصان العقل، ويكون في الأمور الدنيوية والأخروية، والمراد به في الآية هو السفه في الدين الذي هو السفه الأخروي، كذا في «المفرادت». ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

﴿يَقُولُ﴾، عبر بـ ﴿عَلَى﴾ لأنّ ما قالوه عليه تعالى لا له ﴿شَطَطًا﴾؛ أي: كذباً وبهتاناً وظلماً، والمراد به نسبة الصاحبة والولد إليه تعالى. وفي «المفردات»: الشطط: الإفراط في البعد عن الحق، أي: قولاً ذا شطط؛ أي: بعد عن القصد ومجاوزة الحدّ.

والمعنى: أي وقالوا: إن جهالنا كانوا يقولون ويفترون على الله قولاً بعيداً عن الحق والصواب بنسبة الولد والصاحبة إليه تعالى. وفي الآية إشارة إلى أن العالم غير العامل في حكم الجاهل، فإن إبليس كان من أهل العلم، فلما لم يعمل بمقتضى علمه جعل سفيهاً جاهلاً لا يجوز التقليد له. فالاتباع للجاهل، ومن في حكمه اتباع للشيطان، والشيطان يدعو إلى النار، لأنّه خلق منها.

٤ - ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن﴾ مخفّفة من الثقيلة؛ أي: أنّ الشأن ﴿لَّن نَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ اعتذار عن تقليدهم لسفيههم؛ أي: وقالوا: إنا كنا نظن أن الشأن والحديث لن يكذب على الله أحد أبداً، ولذلك اتبعنا قول سفيهنا وصدّقناه في أنَّ الله تعالى صاحبة وولداً، فلما سمعنا القرآن، وتبين لنا الحق بسببه علمنا قد يكذبون عليه تعالى. و﴿كَذِبًا﴾ مصدر مؤكد لـ﴿نَقُولَ﴾، لأنه نوع من القول، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: قولاً كذباً. وقرأ الجمهور[1] ﴿أَن لَّن نَقُولَ﴾ مضارع قال. وقرأ الحسن، والجحدري، وعبد الرحمن بن أبي بكرة، ويعقوب، وابن مقسم ﴿تقوّل﴾ من التقول مضارع تقوَّل من باب تفعّل، أصله: تتقول حذفت منه إحدى التاءين، فيكون ﴿كَذِبًا﴾ على هذه القراءة الشاذّة مفعولاً به.

والمعنى: أي وقالوا: إنّا كنّا نظن[2] أن لن يكذب أحد على الله تعالى، فينسب إليه الصاحبة والولد، ومن ثم اعتقدنا صحة قول السفيه، فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم كانوا كاذبين، وهذا منهم إقرار بأنهم إنما وقعوا في تلك الجهالات بسبب التقليد، وأنهم إنما تخلصوا منها بالاستدلال والبحث.

٥ - ﴿وَأَنَّهُۥ﴾؛ أي: وأوحي إلي أن الشأن والحال ﴿كَانَ﴾ في الجاهلية ﴿رِجَالٌ﴾ كائنون ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ صفة لـ﴿رِجَالٌ﴾ ﴿يَعُوذُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾؛ أي: يلتجئون ويتحصّنون ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: يعوذون بهم من شرّ الجن. قال أبو حيان: وهذا

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

والذي بعده هما من الموحى به لا من كلام الجن، فهما معطوفان على قوله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾، و﴿أن﴾ فيهما على معناها. وفيه دلالة على أن للجن نساء كالإنس، لأن لهم رجالاً، ولذا قيل في حقهم: إنهم يتوالدون، لكنهم[1] ليسوا بمنظرين كإبليس وذريّته. قال الحسن وابن زيد وغيرهما: كان العرب إذا نزل الرجل بواد قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه، فيبيت في جواره حتى يصبح، فنزلت هذه الآية. قال مقاتل: كان أوّل من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة ثم فشا ذلك في العرب. فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم.

وكان رجال الجن إذا سمعوا عوذ الإنس بهم استكبروا، وقالوا: سدنا الإنس والجن. وذلك قوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ عطف على ﴿يَعُوذُونَ﴾، والماضي للتحقّق؛ أي: فزاد الرجال العائذون الإنسيّون الجن ﴿رَهَقًا﴾ مفعول به ثان لـ ﴿زاد﴾؛ أي: تكبّراً وعتوّاً وسفهاً، فإن الرهق يجيء لمعان منها: السفه وركوب الشر والظلم. قال في آكام المرجان: وبهذا يجيبون المعزم والراقي بأسمائهم وأسماء ملوكهم، فإنه يقسم عليهم بأسماء من يعظمونه فيحصل لهم بذلك من الرياسة والشرف على الإنس ما يحملهم على أن يعطوهم بعض سؤلهم وهم يعلمون أن الإنس أشرف منهم وأعظم قدراً، فإذا خضعت الإنس لهم، واستعاذت بهم كان بمنزلة أكابر الناس إذا خضع لهم أصاغرهم يقضون لهم حاجاتهم. أو المعنى: فزاد الجن الإنس العائذين بهم غيًّا بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم، فإذا استعاذوا بهم فأمنوا ظنوا أن ذلك من الجن، فازدادوا رغبة في طاعة الشياطين وقبول وساوسهم. والفاء حينئذٍ لترتيب الإخبار، وإسناد الزيادة إلى الإنس أو الجن باعتبار السببية.

والمعنى: أي وأوحِي إلي أن رجالاً من الإنس كانوا يستعيذون في القفر برجال من الجن، فزادوا الجن بذلك طغياناً وغيًّا بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم.

وخلاصة ذلك: أنهم لما استعاذوا بالجن خوفاً منهم، ولم يستعيذوا بالله استذلوهم واجترؤوا عليهم وزادوهم ظلماً.

٦ - ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ الضمير فيه راجع إلى الجن إن قلنا: إنه من كلام الله الموحي

---

(١) روح البيان.

به، فهو معطوف على ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾؛ أي: وأوحي إلي أن الجن ﴿ظَنُّواْ﴾ أن لن يبعث الله أحداً من الرسل إلى خلقه بالتكاليف، أو أن لن يبعث الله الخلق بعد الموت للجزاء ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ من الرسل أو أحداً من الخلق للجزاء يوم القيامة. أو إلى الإنس إن قلنا: إنه من كلام مؤمني الجن لكفّارهم حين رجعوا إلى قومهم منذرين، فيكون مقولاً لـ﴿قالوا﴾، على أنّ ﴿أنّ﴾ المفتوحة مستعملة استعمال إن المكسورة، أي: فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾، وقالوا لكفّارهم حين رجعوا إليهم منذرين: إن الإنس الذين اتبعتموهم ظنوا أن لن يبعث الله أحداً من الرسل أو أحداً من الخلق للجزاء، كما ظننتم كذلك. و﴿أن﴾ في قوله: ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ مخففة من الثقيلة، والجملة[1] سادة مسد مفعولي ﴿ظَنُّواْ﴾، وأعمل الأول على مذهب الكوفيين؛ لأنّ ﴿ما﴾ في ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ مصدرية فكان الفعل بعدها في تأويل المصدر، والفعل أقوى من المصدر في العمل. والظاهر: أن المراد بعثة الرسالة؛ أي: لن يبعث الله أحداً بالرسالة بعد عيسى، أو بعد موسى يقيم به الحجة على الخلق. ثم إنه بعث محمداً ﷺ خاتم النبيين، فآمنوا به. فافعلوا أنتم يا معشر الجن مثل ما فعل الإنس. وقيل: بعد القيامة؛ أي: لن يبعث الله أحداً بعد الموت للحساب والجزاء.

٧ - ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾؛ أي: وقال الجنّ بعضهم لبعض: إنّا طلبنا بلوغ السماء لاستماع ما يقول الملائكة من الحوادث أو خبرها للإفشاء، بين الكهنة. واللمس مستعار من المسّ للطلب، شبه الطلب بالمسّ واللمس باليد في كون كل واحد منهما وسيلة إلى تعرّف حال الشيء، فعبر عنه بالمس واللمس، واللمس: إدارك بظاهر البشرة كالمس، ويعبر به عن الطلب. قال في «كشف الأسرار»: ومنه حديث: إنّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إنّ امرأتي لا تدع عنها يد لامس؛ أي: لا ترد يد طالب حاجة صفراً، يشكو تضييعها ماله. ﴿فَوَجَدْنَٰهَا﴾؛ أي: السماء اليوم ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا﴾؛ أي: حرّاساً وحفظة من الملائكة يمنعون الجن عنها. و﴿حَرَسًا﴾ محرّكاً اسم جمع لحارس بمعنى حافظ كخدم لخادم مفرد اللفظ ولذلك قيل: ﴿شَدِيدًا﴾ بالإفراد؛ أي: قويّاً، ولو كان جمعاً لقيل:

(١) روح البيان.

شدَّادا. وقوله: ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ حال من مفعول ﴿وجدناها﴾ بتقدير قد إن كان وجدنا بمعنى أصبنا وصادفنا، ومفعول ثان إن كان من أفعال القلوب؛ أي: فعلمناها مملوءة و﴿حَرَسًا﴾ تمييز. ﴿وَشُهُبًا﴾ عطف على ﴿حَرَسًا﴾، وحكمه في الإعراب حكمه. جمع شهاب، وهي الشعلة المقتبسة من نار الكواكب، هكذا قالوا، وقد مرّ تحقيقه في تفسير قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾.

والمراد من الآية: إخبار[1] الله سبحانه عن مقال الجنّ حين بعث محمّداً ﷺ، وأنزل عليه القرآن، وحفظ منهم إنّ السماء ملئت حرّاساً شدّاداً وشهباً تحرسها من سائر أرجائها، وتمنعنا من استراق السمع كما كنّا نفعل أوّلاً.

أخرج أحمد والترمذي والنسائي عن ابن عباس قال: كان للشياطين مقاعد في السماء، يسمعون فيها الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأمّا الكلمة فتكون ﴿حقّاً﴾ وأمّا ما زادوا فيكون باطلاً. فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين بمكة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا هو الحدث الذي حدث في الأرض.

٨ - ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾؛ أي: وقالوا: إنّا كنا نقعد قبل هذا ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من السماء ﴿مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾؛ أي:[2] مقاعد وأماكن خالية عن الحرس والشهب، يحصل منها مقاصدنا من استماع الأخبار للإلقاء إلى الكهنة أو صالحة للترصّد والاستماع. وقوله: ﴿لِلسَّمْعِ﴾ متعلق بـ﴿نَقْعُدُ﴾؛ أي: على الوجه الأول؛ أي: نقعد أماكن خالية عن الحرس لأجل السمع، أو بمضمر هو صفة لـ﴿مَقَاعِدَ﴾؛ أي: على الثاني؛ أي: مقاعد كائنة للسمع. وفي «كشف الأسرار»؛ أي: مواضع لاستماع الأخبار من السماء، وكان لكل حيّ من الجنّ باب في السماء يستمعون فيه. والمقاعد: جمع مقعد اسم مكان، وذلك أنّ مردة الجن كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة، فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله ﷺ بالشهب المحرقة، وهو معنى قوله: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وأخرج البخاري عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الملائكة تنزل في العنان ـ وهو بالفتح: السحاب ـ فتذكر الأمر الذي قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معه مائة كذبة من عند أنفسهم».

يقول الفقير: وجه التوفيق بين الاستراق من السماء ومن السحاب أن الملائكة مرة ينزلون في العنان فيتحدثون هناك، وأخرى يتذاكرون في السماء، ولا مانع من عروج الشياطين إلى السماء في مدة قليلة للطافة أجسامهم، وحيث كانت نارية أو هوائية أو دخانية لا يتأثرون من النار أو الهواء حين المرور بكرتهما، ولو سلم.. فعروجهم من قبيل الاستدراج. ولله في كل شيء حكمة وأسرار.

﴿فَمَن﴾ شرطية ﴿يَسْتَمِعِ﴾ في مقعد من المقاعد، ويطلب الاستماع ﴿ٱلْآنَ﴾؛ أي: في الزمان المستقبل بعد المبعث. وهو ظرف حالي استعير للاستقبال. ﴿يَجِدْ لَهُۥ﴾ جواب الشرط، والضمير لـ ﴿مَنْ﴾؛ أي: يجد لنفسه ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾؛ أي: شهاباً رصداً له أو أرصد لأجله يصده عن الاستماع بالرجم. والرصد في الأصل: الاستعداد للترقّب أو يجد له ملائكة ذوي شهاب راصدين له؛ ليرجموه بما معهم من الشهب على أنه اسم مفرد في معنى الجمع كالحرس، فيكون المراد بالشهاب الملائكة بتقدير المضاف. ويجوز نصب ﴿رَّصَدًا﴾ على المفعول له.

والمعنى[1]: أي وقالوا إنّا كنّا نقعد قبل ذلك فيها مقاعد خالية من الحرس والشهب لنسترق السمع، فطردنا منها حتى لا نسترق شيئا من القرآن، ونلقيه على ألسنة الكهان، فيلتبس الأمر ولا يدرى الصادق، فكان ذلك من لطف الله سبحانه بخلقه ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز، فمن يستمع ويرم أن يسترق السمع اليوم.. يجد له شهاباً مرصداً لا يتخطاه ولا يتعدّاه، بل يهلكه ويمحقه. وإنا لنؤمن بما جاء في الكتاب الكريم من أنّ الجن كانوا يسترقون السمع، ومنعوا من ذلك بعد بعثة النبي ﷺ، ولكن لا نعرف كيف كانوا يسترقون السمع، ولا نعرف كنه الحرس الذين منعوهم ولا المراد بالشهب التي كانت رصداً لهم. والجن أجسام نارية، فكيف تحترق من الشهب؟ والله أعلم بحقيقة الحال.

---

(١) المراغي.

وقد اختلفوا[1]: هل كانت الجنّ والشياطين ترمى بالشهب قبل المبعث أم لا؟ فقال قوم: لم يكن ذلك، وحكى الواحدي عن معمر قال: قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ الآية؟ قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ﷺ. قال ابن قتيبة: إنّ الرجم قد كان قبل مبعثه ﷺ، ولكنه لم يكن مثله في شدة الحراسة بعد مبعثه، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال، فلما بعث منعوا من ذلك أصلاً. وقال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء ورميت الشياطين بالشهب، ومنعت من الدنو إلى السماء. وقال نافع بن جبير: كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا تُرمى، فلما بعث رسول الله ﷺ. . رميت بالشهب.

٩ - ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ﴾؛ أي: وقالوا: إنا لا ندري؛ أي: قالت الجن بعضهم لبعض: لا ندري ولا نعرف ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء منّا ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؛ أي: خيراً وإصلاحاً أوفق لمصالحهم. والاستفهام لإظهار العجز عن الاطلاع على الحكمة، وارتفاع ﴿أَشَرٌّ﴾ على الاشتغال أو على الابتداء، وخبره ما بعده، والأول أولى، والجملة سادّة مسدّ مفعولي ﴿نَدْرِيٓ﴾. والأصح: أنَّ هذا من قول الجنّ فيما بينهم، وليس من قول إبليس، كما قاله ابن زيد.

والمعنى: أي إن السماء لم تحرس إلا لأحد الأمرين[2]:

الأول: إمّا لعذاب يريد الله أن ينزله على أهل الأرض بغتة.

الثاني: وإما لنبي مرشد مصلح. وكأنهم يقولون: أعذاباً أراد الله أن ينزله بأهل الأرض بمنعه إيَّانا السمع من السماء ورجمه من استمع منّا بالشهب، أم أراد بهم ربهم الهدى بأن يبعث منهم رسولاً مرشداً يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

١٠ - ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾؛ أي: وقال الجن بعضهم لبعض لما دعوا أصحابهم

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

إلى الإيمان بمحمد ﷺ: وإنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بصلاح الحال في شأن أنفسهم، وفي معاملتهم مع غيرهم، أو بما يكون إلى الخير والصلاح حسبما تقتضيه الفطرة السليمة لا إلى الشرّ والفساد، كما هو مقتضى النفوس الشريرة. والقصر ادّعائي كأنهم لم يعتدوا بصلاح غير ذلك البعض، فـ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ مبتدأ و﴿مِنَّا﴾ خبره المقدم، والجملة خبر ﴿إنّ﴾، ويجوز أن يكون ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ فاعل الجار والمجرور الجاري مجرى الظرف لاعتماده على المبتدأ. ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: قوم دون ذلك في الصلاح؛ أي: دون الموصوفين بالصلاح، فحذف الموصوف، لأنّه يجوز حذف هذا الموصوف في التفصيل بـ ﴿مِنْ﴾ حتى قالوا: مِنّا ظعن ومنّا أقام، يريدون منّا فريق ظعن ومنا فريق أقام. و﴿دُونَ﴾ ظرف، وهم المقتصدون في صلاح الحال على الوجه المذكور غير الكاملين فيه لا في الإيمان والتقوى كما توهّم، فإن هذا بيان لحالهم قبل استماع القرآن كما يعرب به عنه قوله تعالى: ﴿كُنَّا﴾ قبل استماع القرآن ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾؛ أي: جماعات متفرقة وفرقاً مختلفة أهواؤها. وقد تعددوا قالوا: في الجن قدرية، ومرجئة، وخوارج، وروافض، وشيعية وسنية.

وأما حالهم بعد استماع القرآن فيحكى بقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾؛ أي: كنا قبل هذا طرائق في اختلاف الأحوال، فهو بيان للقسمة المذكورة، ولا بدّ من تقدير مضاف؛ أي: كنّا ذوي طرائق لامتناع كون الذوات طرائق. قال في «المفردات»: الطرائق جمع طرق، والطرق جمع طريق، فهو جمع الجمع. والظاهر: أن الطرائق جمع طريقة كقصائد جمع قصيدة، والطريق في الأصل: المكان الذي يطرق؛ أي: يضرب بالأرجل، ومنه استعير كل مسلك يسلكه الإنسان في فعل محموداً كان أو مذموماً والقدد: جمع قد، وهو قطع الشيء طولاً، والقدّ أيضاً المقدود، ومنه قيل لقامة الإنسان: قدّ، والقدّة: القطعة. يعني: أنها من القد كالقطعة من القطع، وصفت الطرائق بالقدد لدلالتها على معنى التقطع والتفرق، يقال: صار القوم قدداً إذا تفرقت أحوالهم.

وقال بعض المفسرين: المراد بالصالحين السابقون بالخيرات، وبما دون ذلك؛ أي: أدنى مكان منهم المقتصدون الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، وأمّا الظالمون لأنفسهم فمندرج في قوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، فيكون تعميماً

بعد تخصيص على الاستئناف، ويحتمل أن يكون ﴿دُونَ﴾ بمعنى غير، فيندرج القسمان الأخيران فيه.

وقيل المعنى: أي وقالوا: إنّا منا المسلمون العاملون بطاعة الله ومنّا قوم دون ذلك، وأنّا كنا أهواء مختلفة وفرقاً شتى، فمنا المؤمن والفاسق والكافر، كما هي الحال في الإنس، والأول أولى.

١١ - ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾؛ أي: وقالوا: إنّا ظننا وعلمنا الآن بالاستدلال والتفكر في آيات الله. فالظن هنا بمعنى اليقين؛ لأن الإيمان لا يحصل بالظن، ولأن مقصودهم ترغيب أصحابهم وترهيبهم، وذلك بالعلم لا بالظن كما قال ﷺ: «أنا النذير العريان». ﴿أَن﴾؛ أي: أنَّ الشأن ﴿لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه عن إمضاء ما أراد بنا، كائنين ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أينما كنّا من أقطارها، فقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من فاعل ﴿نُّعْجِزَ﴾، ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ﴾ سبحانه، وقوله: ﴿هَرَبًا﴾ حال من فاعل ﴿لن نعجز﴾؛ أي: هاربين من الأرض إلى السماء وإلى البحار وإلى جبل قاف، أو لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً، ولن نعجزه هرباً إن طلبنا. فالفرار من موضع إلى موضع وعدمه سيّان في أنّ شيئاً منهما لا يفيد فواتنا منه، ولعل الفائدة في ذكر الأرض حينئذٍ الإشارة إلى أنها مع سعتها، وانبساطها ليست منجى منه تعالى ولا مهرباً.

والمعنى: أي وقالوا: إنا علمنا أن الشأن لن نعجز الله في الأرض أينما كنا في أقطارها، ولن نفوته إن أراد بنا أمراً، ولن نعجزه هاربين منها إن طلبنا فلا نفوته بحال.

والخلاصة: أنّ الله قادر علينا حيث كنا، فلا نفوته هرباً.

١٢ - ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ أي: وقالوا: إنّا لمّا سمعنا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ من غير تأخّر ولا تردّد، وصدّقنا أنّه من عند الله، ولم نكذب به كما كذبت به كفرة الإنس. ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ وبما أنزله من الهدى ﴿فَلَا يَخَافُ﴾؛ أي: فهو لا يخاف. فالكلام على تقدير مبتدإ، ولذلك دخلت الفاء، ولولا ذلك لقيل: لا يخف. وفائدة رفع الفعل ووجوب إدخال الفاء أنه دال على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة، وأنه المختص بذلك دون غيره. ﴿بَخْسًا﴾؛ أي: نقصاً في جزاء حسناته ﴿وَلَا رَهَقًا﴾؛ أي: ظلماً بزيادة في جزاء سيئاته، أو جزاء بخس

ولا رهق؛ أي: ظلم إذا لم يبخس أحداً حقّاً ولا رهقاً؛ أي: ظلم أحداً فلا يخاف جزاءهما، وفيه دلالة على أنّ من حق من آمن بالله أن يجتنب المظالم، ومنه قوله ﷺ: «المؤمن من أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم». قال الواسطي رحمه الله: حقيقة الإيمان: ما أوجب الأمان، فمن بقي في مخاوف المرتابين لم يبلغ إلى حقيقة الإيمان.

والمعنى: أي وقالوا إنّا لمّا سمعنا القرآن الذي يهدي إلى الصراط المستقيم صدّقنا به، وأقررنا بأنه من عند الله تعالى، واتبعناه، ومن يصدّق بوحدانية الله، وبما أنزله على رسله فلا يخاف نقصاً من حسناته، ولا ذنباً يحمل عليه من سيئات غيره، قاله قتادة. وقصارى ذلك: أنّه ينال جزاء وافراً كاملاً.

وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش[1]: ﴿فلا يخف﴾ بالجزم على أنه جواب الشرط ولا وجه لهذا بعد دخول الفاء. وقرأ الجمهور ﴿بَخْسًا﴾ بسكون الخاء. وقرأ يحيى بن وثّاب بفتحها.

١٣ - ﴿و﴾ قالوا ﴿أنا منا المسلمون﴾ بعد استماع القرآن ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾؛ أي: الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحقّ والهدى الذي هو الإيمان والطاعة إلى طريق الباطل والفساد الذي هو الكفر والمخالفة لأمر الله تعالى. فالقاسط هو الجائر؛ لأنّه عادل عن الحق، والمقسط: العادل، لأنه عادل إلى الحقّ، يقال: قسط إذا جار، وأقسط إذا عدل. وقد غلب[2] هذا الاسم؛ أي: القاسط على فرقة معاوية رضي الله عنه، ومنه الحديث خطاباً لعليّ رضي الله عنه: «تقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين». فالناكثون أصحاب عائشة رضي الله عنها، فإنهم الذين نكثوا البيعة مع عليّ؛ أي: نقضوها واستنزلوا عائشة، وساروا بها إلى البصرة على جمل اسمه عسكر، ولذا سميت الواقعة يوم الجمل. والقاسطون: أصحاب معاوية رضي الله عنه، لأنهم قسطوا، أي: جاروا حين حاربوا الإمام الحقّ. والوقعة تعرف بيوم صفين، والمارقون الخوارج فإنّهم الذين مرقوا، أي: خرجوا من دين الله واستحلّوا القتال مع خليفة رسول الله ﷺ، وهم عبد الله بن وهب الراسبي وحرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثدية، وتعرف تلك الواقعة

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

بيوم النهروان هي من أرض العراق على أربعة فراسخ من بغداد.

والمعنى: أي وإنّا بعد سماع القرآن مختلفون، فمنّا المخلصون في صفة الإسلام، ومنّا المائلون عن طريق الحقّ.

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾؛ أي: أخلص بالتوحيد. قال سعدي المفتي: يجوز أن يكون من كلام الجنّ، ويجوز أن يكون من كلام الله مخاطبة لرسوله، ويؤيده ما بعده من الآيات. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى من أسلم، والجمع باعتبار المعنى ﴿تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾؛ أي: قصدوا طريق حقّ وصواب. والتحرّي في الأصل: طلب الأحرى والأليق قولاً أو فعلاً؛ أي: طلبوا وقصدوا رشداً وصواباً وحقاً، يقال: رشد كنصر وفرح رشدا ورشداً ورشاداً: اهتدى اهتداء عظيماً إلى طريق الحقّ والصواب يبلغهم إلى دار الثواب، فتحري الرشد مجاز عن ذلك بعلاقة السببية. وقرأ الأعرج ﴿رشدا﴾ بضمّ الراء وسكون الشين، والجمهور بفتحهما.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾؛ أي: الجائرون عن سنن الهدى ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾؛ أي: وقوداً توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس.

فإن قيل: الجنّ مخلوقون من النار فكيف يكونون حطباً لها؟

أجيب: بأنهم وإن خلقوا منها.. لكنهم تغيروا عن تلك الكيفية، فصاروا لحماً ودماً، هكذا قيل اهـ خطيب. وأيضاً قويها قد يأكل ضعيفها، فيكون الضعيف حطباً للقوي.

والمعنى[(١)]: أي وأنا منا المؤمنون الذين أطاعوا الله وأخبتوا إليه وعملوا صالح الأعمال، ومنا الجائرون عن النهج القويم، وهو الإيمان بالله وطاعته، ومن آمن بالله وأطاعه فقد سلك الطريق الموصل إلى السعادة، وقصد ما ينجيه من العذاب. ثم ذمّ الكافرين منهم فقالوا: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾؛ أي: وأمّا الجائرون عن سنن الإسلام، فكانوا حطباً لجهنم توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس، وقد ذكر ثواب المؤمنين منهم بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾. وإلى هنا انتهى كلام الجن.

ثم عاد إلى ذكر الموحى به إلى رسوله فقال: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ هذا

---

(١) المراغي.

ليس من كلام الجنّ بل هو من جملة الموحى به قطعاً، فهو معطوف على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾. و«أن» مخففة من الثقيلة، والمعنى: وأوحي إليّ أنَّ الشأن والحال لو استقام وتمسّك وثبت واستقر الجن أو الإنس أو كلاهما على الطريقة المستقيمة التي هي طريقة دين الإسلام. ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾؛ أي: ماء كثيراً واسعاً. وقرأ الأعمش وابن وثّاب بضم واو ﴿لو﴾. وقرأ الجمهور بكسرها لالتقاء الساكنين. والإسقاء والسقي بمعنى واحد. وقال الراغب: السقي والسقيا: هو أن تعطيه ماء ليشربه والإسقاء: أن تجعل له ذلك حتى يتناوله كيف يشاء، يقال: غدق الماء من باب علم إذا غزر، وصف به للمبالغة في غزارته كرجل عدل، وتخصيص الماء الكثير بالذكر؛ لأنّه أصل السعة، وإن كان أصل المعاش هو أصل الماء لا كثرته ولعزّة وجوده بين العرب قال عمر رضي الله عنه: «أينما كان الماء.. كان العشب، وأينما كان العشب كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة».

والمعنى: لأعطيناهم مالاً كثيراً وعيشاً رغداً، ووسّعنا عليهم الرزق في الدنيا. وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين. وفيه دلالة على أن الجن يأكلون ويشربون. وقال بعضهم: وضرب الماء الغدق مثلاً؛ لأنّ الخير كلّه، والرزق بالمطر.

وقيل المعنى: وأن لو استقام أبوهم على عبادته وسجد لآدم، ولم يكفر وتبعه أولاده على الإسلام.. لأنعمنا عليهم. واختار الزجاج هذا القول.

والخلاصة: وأوحي إليّ أنّه لو استقام الإنس والجنّ على ملة الإسلام.. لوسعنا عليهم أرزاقهم، ولبسطنا لهم في الدنيا. وإنما خص الماء الغدق بالذكر؛ لأنه أصل المعاش وكثرته أصل السعة، ولندرة وجوده بين العرب. ومن ثم امتن الله سبحانه على نبيه بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ①﴾ على تفسير الكوثر بالنهر الجاري. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وسر هذا: ما عرفت غير مرّة من أن الخصب والسعة لا يوجدان إلا حيث توجد الطمأنينة والعدل، ويزول الظلم، وتكون الناس سواسية في نيل الحقوق، فلا ظلم ولا إرهاق ولا محاباة، ولا رُشاً في الأحكام.

ثم ذكر سبب البسط حينئذٍ فقال: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ أي: لنختبرهم في ذلك الإسقاء والتوسيع كيف يشكرونه، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ﴾ أو في ذلك الماء الغدق، والمآل واحد.

وقال الكلبيّ: المعنى وأن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر، فكانوا كلهم كفّاراً.. لأوسعنا أرزاقهم مكراً بهم واستدراجاً حتى يفتنوا بها، فنعذّبهم في الدنيا والآخرة، وبه قال الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، وكيسان، وأبو مجلز وغيرهم، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ الآية، والأول أولى.

وفي الآية: إشارة إلى أن المرزوق بالرزق الروحانيّ والغذاء المعنوي يجب عليه القيام بشكره أيضاً، وذلك بوظائف الطاعات وصنوف العبادات وضروب الخدمات.

والمعنى[1]: أي لنختبرهم فيه؛ أي: لنعاملهم معاملة المختبر لنرى هل يشكروننا على هذه النعم، فإن وفوها حقَّها كان لهم من الجزاء الأوفى، وإن نكصوا على أعقابهم استدرجناهم وأمهلناهم، ثم أخذناهم أخذ عزيز مقتدر، كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ﴾؛ أي: عن عبادة ربّه أو عن موعظته أو وحيه أو عن القرآن، أو عن جميع ذلك. ﴿يَسْلُكْهُ﴾؛ أي: يدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾؛ أي: عذاباً شاقّاً صعباً يتصعد عليه؛ أي: يعلو المعذب ويغلبه، فلا يطيقه على أنه مصدر وصف به للمبالغة.

أي: ومن يعرض عن القرآن وعظاته فلا يتبع أوامره ولا ينتهي عن نواهيه ندخله في العذاب الشاقّ الذي يعلوه ويغلبه، ولا يطيق له حملاً. يقال: سلكت الخيط في الإبرة إذا أدخلته فيها؛ أي: نسلكه في عذاب صعد كما قال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: أدخلهم فيها. فحذف الجار، وأوصل الفعل ثم إن كان

---

(١) المراغي.

إعراضه بعدم التصديق.. فعذابه بالتأبيد، وإلا فبقدر جريمته إن لم يغفر له.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نسلكه﴾ بالنون مفتوحة من سلكه الثلاثي. وقرأ الكوفيّون وأبو عمرو في رواية عنه بالياء التحتية من سلك الثلاثي أيضاً. واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾، ولم يقل: عن ذكرنا. وقرأ مسلم بن جندب، وطلحة بن مصرف، والأعرج ﴿نسلكه﴾ بالنون المضمومة من أسلكه الرباعي، وبعض التابعين بالياء من أسلك أيضاً. وهما لغتان سلك وأسلك. وقرأ الجمهور[2]: ﴿صَعَدٗا﴾ بفتحتين، وهو مصدر صعد المكسور، يقال: صعد صعداً وصعوداً، فوصف به العذاب مبالغةً؛ لأنه يتصعّد المعذّب؛ أي: يعلوه ويغلبه فلا يطيقه. قال أبو عبيد: الصعد مصدر؛ أي: عذاباً ذا صعد؛ أي: مشقّة. وقال عكرمة: الصعد هو صخرة ملساء في جهنم، يكلّف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم كما في قوله تعالى: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾. والصعود العقبة الكؤود. وروي: أنّ ﴿صَعَدٗا﴾ جبل في النار إذا وضع عليه يديه أو رجليه ذابتا، وإذا رفعهما عادتا. وقرأ قوم[3] ﴿صعدا﴾ بضمّتين. وقرأ ابن عباس والحسن بضمّ الصاد وفتح العين، قال الحسن: معناه: لا راحة فيه.

وقرأ الجمهور: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ بفتح الهمزة عطفاً على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾؛ أي: وأوحي إليّ أن المساجد مختصة بالله تعالى وبعبادته خصوصاً المسجد الحرام، ولذلك قيل: بيت الله. فالمراد بالمساجد[4]: المواضع التي بنيت للصلاة فيها وذكر الله، ويدخل فيها البيوت التي يبنيها أهل الملل للعبادة نحو: الكنائس والبيع ومساجد المسلمين. ثم هذا لا ينافي أن تضاف المساجد وتنسب إلى غيره تعالى بوجه آخر إما لبانيها كمسجد رسول الله ﷺ، أو لمكانها كمسجد بيت المقدس إلى غير ذلك من الاعتبارات. وأعظم المساجد حرمة المسجد الحرام، ثم مسجد المدينة، ثم مسجد بيت المقدس، ثم الجوامع، ثم مساجد المحال، ثم مساجد الشوارع، ثم مساجد البيوت. وقال الحسن: أراد بها كل البقاع؛ لأنَّ الأرض كلها مسجد، وكأنه أخذ مما في الحديث الصحيح: «جُعلت لي

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

الأرض مسجداً وطهوراً».

وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي: القدمان، والركبتان، واليدان، والجبهة. يقول: هذه أعضاء أنعم الله بها عليك، فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله، وكذا قال عطاء. وقيل: المساجد هي الصلاة؛ لأنّ السجود من جملة أركانها، قاله الحسن أيضاً. وقال الخليل: معنى الآية؛ ولأنّ المساجد لله فلا تدعوا الخ، أي: لهذا السبب، وكذلك عنده ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ أي: ولأنّ هذه.

وقرأ ابن هرمز وطلحة[1]: ﴿وإن المساجد﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف وعلى تقدير الخليل فالمعنى: فلا تدعوا مع الله أحداً في المساجد؛ لأنها لله خاصة ولعبادته.

والفاء: في قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟﴾؛ أي: لا تعبدوا فيها. ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ للسببية؛ أي: لا تجعلوا أحداً غير الله شريكاً لله في العبادة، فإذا كان الإشراك مذموماً فكيف يكون حال تخصيص العبادة بالغير.

والمعنى: أي قل أوحي إليّ أنّه استمتع نفر من الجنّ، وأن المساجد لله، فلا تعبدوا فيها أحداً غير الله تعالى كائناً ما كان، ولا تشركوا به فيها شيئاً. وعن قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله معبودات أخرى لهم، فأمرنا بهذه الآية أن نخلص لله تعالى الدعوة إذا دخلنا المساجد.

قال بعض أهل المعرفة[2]: إنما تبرأ الله سبحانه عن الشريك؛ لأنّه عدم والله وجود، فتبرّأ من العدم الذي لا يلحقه؛ إذ هو واجب الوجود لذاته، والله تعالى مع الخلق، وما الخلق مع الله، لأنّه تعالى يعلمهم وهم لا يعلمونه فهو تعالى معهم أينما كانوا في ظرفية أمكنتهم وأزمنتهم وأحوالهم، وما الخلق معه تعالى فإنهم لا يعرفونه حتى يكونوا معه، ولو عرفوه من طريق الإيمان وهم كانوا كالأعمى يعلم أنه جليس زيد، ولكن لا يراه فهو كأنّه يراه انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ بفتح الهمزة عطفاً على قوله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾. وقرأ ابن هرمز، وطلحة، ونافع، وأبو بكر بكسرها على الاستئناف. وعبد الله هو رسول الله ﷺ؛ أي: وأوحي إليَّ أن الشأن لما قام عبد الله، وهو النبي ﷺ حال كونه ﴿يَدْعُوهُ﴾ حال من فاعل قام؛ أي: حال كون عبد الله يعبد الله ويذكره. وذلك ببطن نخلة حين قام رسول الله ﷺ يصلي صلاة الفجر بأصحابه، ويتلو القرآن ﴿كَادُوا﴾؛ أي: قرب الجن ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ﴾ ﷺ ﴿لِبَدًا﴾؛ أي: مزدحمين على استماع قراءته ﷺ. جمع لبدة بالكسر نحو: قربة وقرب، وهي ما تلبد بعضه على بعض؛ أي: تراكب وتلاصق، ومنها: لبدة الأسد، وهي الشعر المتراكب بين كتفيه.

والمعنى: متراكمين يركب بعضهم بعضاً، ويقع من ازدحامهم على النبي ﷺ تعجباً مما شاهدوا من عبادته، وما سمعوا من قراءته واقتداء أصحابه به قياماً وقعوداً وسجوداً؛ لأنّهم رأوا ما لم يروا مثله قبله، وسمعوا مما لم يسمعوا بنظيره. وعلى قراءة الكسر إذا جعل من مقول الجن فضمير ﴿كَادُوا﴾ لأصحابه ﷺ الذين كانوا مقتدين به في الصلاة. أي: وقالوا: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ كاد أصحابه يكونون مزدحمين عليه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لِبَدًا﴾ بكسر اللام وفتح الباء، جمع لبدة نحو كسرة وكسر، وهي الجماعات، شبّهت بالشيء المتلبّد بعضه فوق بعض. وقرأ مجاهد وابن محيصن وابن عامر بخلاف عنه بضمّ اللام وفتح الباء، جمع لبدة كزبرة وزبر، وعن ابن محيصن أيضاً تسكين الباء وضمّ اللام. وقرأ الحسن، والجحدري وأبو حيوة، ومحمد بن السمفيع، والعقيليّ، وجماعة عن أبي عمرو بضمّتين جمع لبد كرهن ورهن، أو جمع لبود كصبور وصبر. وقرأ الحسن والجحدري بخلاف عنهما، وأبو العالية والأعرج بضمّ اللام وتشديد الباء مفتوحة. فعلى القراءة الأولى المعنى ما ذكرناه، وعلى القراءة الثانية يكون المعنى: كثيراً كما في قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

والمعنى[1]: وأوحيَ إليَّ أنه لما قام رسول الله ﷺ يعبد الله، ويذكره ببطن نخلة في صلاة الصبح كاد الجنّ، وقربوا يكونون جماعات متراكمات بعضها فوق بعض تعجّباً مما شاهدوا من عبادته، وسمعوا من قراءته واقتداء أصحابه به قياماً وركوعاً وسجوداً؛ إذ رأوا ما لم يروا مثله قطّ، وسمعوا ما لم يسمعوا مثله. وقال الحسن وقتادة: إنّه لما قام عبد الله بالرسالة يدعو الله وحده مخالفاً للمشركين في عبادتهم الأوثان كاد الكفّار لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون متراكمين جماعات جماعات.

فإن قلت:[2] لِمَ قيل: ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وهلاّ قيل: رسول الله أو النبي؟

قلتُ: لأن تقديره: وأوحي إليَّ أنه لما قام عبد الله، فلما كان واقعاً في كلام رسول الله ﷺ عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل. قال مقاتل: إن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عاديت الناس كلّهم، فارجع عن هذا، فأنزل الله قوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ﴾ وأعبد ﴿رَبِّي﴾ ومالك أمري ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ﴾ أي: بربّي في العبادة ﴿أَحَدًا﴾ فليس ذلك ببدع، فلا مستنكر يوجب التعجب أو الإطباق على عدواتي، وهذا حالي فليكن حالكم أيضاً كذلك. وقرأ الجمهور ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾؛ أي: قال عبد الله: إنما أدعو ربي وأعبده ولا أشرك به أحداً من خلقه».

أي: قال للمتظاهرين عليه من الكفّار: إنما أدعو ربي؛ أي: لم آتِكم بأمر ينكر إنما أدعو ربي وحده، وليس ذلك مما يوجب إطباقكم على عدواتي، أو قال للجن عند ازدحامهم متعجبين ليس ما ترون من عبادة الله أمراً يتعجّب منه، إنما يتعجب ممن يعبد غيره تعالى، أو قال الجن لقومهم ذلك حكاية عن رسول الله ﷺ، وهذا كله مرتب على الخلاف في عود الضمير في ﴿كادوا﴾. وقرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو بخلاف عنه ﴿قُلْ﴾؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المزدحمين عليك وهم إما الجن، وإما المشركون على اختلاف القولين في ضمير ﴿كَادُواْ﴾.

ثم بين أنه لا يملك من الأمر شيئاً فهو لا يستطيع هدايتهم ولا جلب الخير لهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ﴾؛ أي: لا أستطيع

---

(١) المراغي. (٢) الكشاف.

﴿لَكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿ضَرًّا﴾ ولا نفعاً، ولا أملك لكم غيّا ﴿وَلَا رَشَدًا﴾؛ أي: هدايةً، أي: ليس هذا كله بيدي بل بيد الله تعالى، فإنه هو الضارّ النافع الهادي المضلّ، فترك من كلا المتقابلين ما ذكر في الآخر فالآية فيها من المحسنات البديعية الاحتباك، وهو الحذف من كل متقابلين ما يدل عليه الآخر.

والمعنى: أي قل أيها الرسول لأولئك المشركين الذين ردّوا عليك ما جئتهم به من النصيحة: إنّي لا أملك لكم ضرّاً في دينكم ولا دنياكم، ولا نفعاً أجلبه لكم، وإنما الذي يملك ذلك كله هو الله الذي له ملك كلّ شيء، وهو القادر على ذلك وحده، وكأنّه عليه السلام أمر أن يقول ما أردت إلا نفعكم فقابلتموني بالإساءة، وليس في استطاعتي النفع الذي أردت، ولا الضر الذي أكافئكم به إنّما ذان لله تعالى. وفي هذا تهديد عظيم لهم، وتوكل على الله عزّ وجلّ، وإنه هو الذي يجزيه بحسن صنيعه، ويجزيهم بسوء صنيعهم. وفيه إيماء إلى أنه لا يدع التبليغ لتظاهرهم عليه.

ثم بين عجزه عن شؤون نفسه بعد عجزه عن شؤون غيره، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾؛ أي: لن ينقذني، ويخلّصني ﴿مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: من قهره وعذابه.. إن خالفت أمره وأشركت به ﴿أَحَدٌ﴾ من المخلوقات إن استنقذته، أو لن ينجيني منه أحد إن أرادني بسوء قدره عليّ من مرض أو موت أو غيرهما.

قال بعضهم: هذه لفظة تدلّ على الإخلاص في التوحيد؛ إذ التوحيد هو صرف النظر إلى الحقّ لا غير، وهذا لا يصح إلا بالإقبال على الله، والإعراض عمّا سواه والاعتماد عليه دون ما عداه.

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مُلْتَحَدًا﴾؛ أي: ملجأً ومعدلاً وحرزاً وممالاً. ويقال للملجأ: ملتحد لأن اللاجيء يميل إليه، والمعنى: ولن أجد عن الشدائد ملجأً غيره تعالى وموئلاً ومعدلاً فلا ملجأ ولا موئل ولا معدل إلا هو سبحانه وتعالى. وهذا بيان لعجزه عن شؤون نفسه بعد بيان عجزه عن شؤون غيره؛ أي: وإذ لا أملك لنفسي شيئاً، وكيف أملك لكم شيئاً؟.

وقوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناء متصل[1] من قوله: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ﴾؛ أي: من مفعوله، فإن التبليغ إرشاد ونفع؛ أي: لا أملك لكم إرشاداً ولا هداية إلا تبليغاً كائناً من الله سبحانه إليكم، فإنَّ الإرشاد والإضلال بيده تعالى، وما بينهما اعتراض مؤكّد لنفي الاستطاعة عن نفسه فلا يضرّ طول الفصل بينهما وفائدة الاستثناء المبالغة في توصيف نفسه بالتبليغ لدلالته على أنه لا يدع التبليغ الذي يستطيعه لتظاهرهم على عداوته. وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفة بلاغاً؛ أي: بلاغاً كائناً منه تعالى، وليس متعلّقاً بقوله: ﴿بَلَٰغًا﴾؛ لأنّ صلة التبليغ في المشهور إنما هي كلمة عن دون من، و﴿بَلَٰغًا﴾ واقع موقع التبليغ كما يقع السلام والكلام موقع التسليم والتكليم. أو استثناء منقطع من قوله: ﴿مُلۡتَحَدًا﴾؛ أي: لن أجد من دونه تعالى ملتحداً وملجأ إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به، فهو يجيرني؛ لأنّ البلاغ ليس ملتحداً من دون الله؛ لأنه من الله وبإعانته وتوفيقه. وقوله: ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ معطوف على ﴿بَلَٰغًا﴾ بتقدير مضاف، وهو البلاغ؛ أي: لا أملك لكم إلاّ تبليغاً كائناً منه تعالى وتبليغ رسالاته التي أرسلني بها. يعني: إلا أن أبلغ عن الله فأقول: قال الله كذا ناسباً للمقالة إليه تعالى، وإلا أن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان. وقال سعدي المفتي: لعلّ المراد من ﴿بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو ما يأخذه منه تعالى بلا واسطة، ومن رسالاته ما هو انتهى إليه بواسطة. والمراد بالرسالة هو ما أرسل به الرسول من الأمور والأحكام والأحوال، لا معنى المصدر. والظاهر أنّ المعنى: إلا التبليغ والرسالة من الله تعالى. وجمع الرسالة باعتبار تعدّد ما أرسل هو به.

والمعنى: أي قل إني لن يجيرني من الله أحد من خلقه إن أراد بي سوءاً، ولم ينصرني منه ناصر، ولا أجد من دونه ملجأً ولا معيناً، لكن إن بلغت رسالته وأطعته أجارني.

والخلاصة: أني لن يجيرني من الله أحد إن لم أبلغ رسالاته.

ثم بين جزاء العاصين لله ورسوله، فقال: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمر بالتوحيد؛ لأنّ السياق فيه؛ لأنّ الكلام في تبليغ الرسالة بأن لا يمتثل أمرهما

---

(١) روح البيان.

به ودعوتهما إليه فيشرك به. وهذا يصلح أن يكون مخصصا من العموم، فلا متمسك للمعتزلة في الآية على تخليد عصاة المؤمنين في النار. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: في النار أو في جهنم. والإفراد في ﴿له﴾ باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، والجمع في ﴿خَٰلِدِينَ﴾ باعتبار المعنى؛ أي: حال كونهم ماكثين فيها ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: أمداً طويلاً لا نهاية له. أتي به دفعاً لأن يراد بالخلود المكث الطويل.

وقرأ الجمهور[1]: بكسر همزة ﴿إنّ﴾ على أنها جملة مستأنفة. وقرأ طلحة بفتحها؛ لأنّ ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء، والتقدير: فجزاؤه أنَّ له نار جهنم أو فحكمه أنّ له نار جهنم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الدنيا، أو في الآخرة، غاية لمحذوف دل عليه حالهم من استضعاف الكفّار لأنصاره ﷺ واستقلالهم لعددهم حتى قالوا: هم بالنسبة إلينا كالحصاة من جبال. تقديره: ولا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر وعداوة النبيّ ﷺ والمؤمنين حتى إذا رأوا الذي يوعدون به من العذاب. ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حينئذٍ عند حلوله بهم ﴿مَن﴾ هو ﴿أَضۡعَفُ نَاصِرًا﴾ ينتصر به وجنداً يستعين به. ﴿و﴾ من هو ﴿أقل عددا﴾ ومدداً، أهم أم المؤمنون؟ فـ﴿مَن﴾ موصولة، و﴿أَضۡعَفُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن تكون استفهامية مرفوعة بالابتداء، و﴿أَضۡعَفُ﴾ خبره، والجملة في موضع نصب سدّت مسدّ مفعولي العلم، و﴿نَاصِرًا﴾ و﴿عَدَدًا﴾ منصوبان على التمييز.

وحمل بعضهم[2] ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ على ما رأوه يوم بدر، وأيًا ما كان.. ففيه دلالة على أنَّ الكفار مخذولون في الدنيا والآخرة، وإن كثروا عدداً وقووا جسداً؛ لأنّ الكافرين لا مولى لهم، وأنّ المؤمنين منصورون في الدارين وإن قلّوا عدداً وضعفوا جسداً؛ لأنّ الله مولاهم. والواحد على الحقّ هو السواد الأعظم، فإنّ نصره ينزل من العرش.

والمعنى[3]: أي ومن يعص الله فيما أمر به ونهى عنه، ويكذّب برسوله فإنّ له ناراً يصلاها ماكثاً فيها أبداً إلى غير نهاية، ولا محيد عنها ولا خروج منها، ولا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

يزالون يستضعفون المؤمنين ويستهزئون بهم حتى إذارأوا ما يوعدون من فنون العذاب، فيتبين لهم من المستضعفون أهم أم المؤمنون الموحّدون لله تعالى.

وقصارى ذلك: أنّ المشركين لا ناصر لهم، وهم أقل عدداً من جنود الله عزّ وجلّ، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ﴾؛ أي: ما أدري وما أعلم؛ لأنّ ﴿إِنۡ﴾ نافية. ﴿أَقَرِيبٌ﴾ خبر مقدم لقوله: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: ما أدري أقريب حصول ما توعدون من العذاب؟ ﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾؛ أي: غاية تطول مدّتها. ويجوز أن يكون ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ فاعلاً لـ ﴿قريب﴾ سادًّا مسدَّ الخبر لوقوعه بعد همزة الاستفهام، و﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف؛ أي: أقريب الذي توعدونه، نحو: أقائم الزيدان.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿رَبِّيٓ﴾ بإسكان الياء. وقرأ الحرميّان، وأبو عمرو بفتحها. والأمد، وإن كان يطلق على القريب أيضاً إلا أن المقابلة تخصّصه بالبعيد. والفرق بين الزمان والأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عامّ في المبدأ والغاية.

والمعنى: أن الموعود كائن لا محالة، وأما وقته فما أدري متى يكون؟ لأن الله لم يبينه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة، وهو ردّ لما قاله المشركون عند سماعهم ذلك متى يكون الموعود إنكاراً له واستهزاءً.

فإن قيل[٢]: أليس قال ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، فكان عالماً بقرب قيام الساعة، فكيف قال ههنا: لا أدري أقريب أم بعيد؟.

والجواب: أنّ المراد بقرب وقوعه هو أنّ ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى، فهذا القدر من القرب معلوم، وأما قربه بمعنى كونه بحيث يتوقّع في كل ساعة فغير معلوم على أن كل آت قريب، ولذا قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، وقال: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارِۭۚ﴾.

والمعنى[٣]: أنّ الله سبحانه أمر رسوله أن يقول للناس: إن الساعة آتية لا ريب فيها، ولكن وقتها غير معلوم، ولا يدرى أقريب أم يجعل له ربي أمداً بعيداً؟.

---

(١) الشوكاني.　(٢) روح البيان.　(٣) المراغي.

«وقد كان ﷺ يسأل عن الساعة فلا يجيب عنها ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابيّ كان فيما سأله أن قال يا محمّد أخبرني عن الساعة قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل؟ ولمّا ناداه ذلك الأعرابيّ بصوت جهوري فقال: يا محمد متى الساعة؟ قال: «ويحك إنّها كائنة فما أعددت لها» قال: أما إني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، قال ﷺ: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث.

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ قرأه الجمهور[١] بالرفع على أنّه بدل من ﴿رَبِّي﴾ أو بيان له، أو خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من عدم الدراية؛ أي: هو سبحانه عالم لجميع ما غاب عن الحسّ على أنَّ اللام للاستغراق. وقرىء بالنصب على المدح. وقرأ السدّي ﴿عَلِمَ الغيبَ﴾ بصيغة الفعل، ونصب الغيب. والفاء في قوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من خلقه لترتيب عدم الإظهار على تفرّده تعالى بعلم الغيب على الإطلاق؛ أي: لا يطلع على الغيب الذي يعلمه وهو ما غاب عن العباد أحداً منهم.

ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾؛ أي: إلا من ارتضاه واصطفاه واختاره من خلقه لإظهاره على بعض غيوبه حالة كون ذلك المرتضى ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ أرسله إلى خلقه أي رسول كان المتعلقة تلك الغيوب برسالته كما يعرب عنه بيان من ارتضى بالرسول تعلّقاً ما إما لكونه من مبادي رسالته بأن يكون معجزة دالة على صحتها، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامّة التكاليف الشرعية التي أمر بها المكلّفون وكيّفيات أعمالهم وأجزيتها المترتّبة عليها في الآخرة، وما تتوقّف هي عليه من أحوال الآخرة التي من جملتها قيام الساعة، والبعث والحشر، والحساب، والميزان وغير ذلك من الأمور الغيبية التي بيانها من وظائف الرسالة. وأمّا ما لا يتعلق بها[٢] على أحد الوجهين من الغيوب التي من جملتها وقت قيام الساعة، فلا يظهر عليه أحداً أبداً على أن بيان وقته مخلّ بالحكمة التشريعية التي يدور عليها فلك الرسالة.

قال القرطبي: قال العلماء: لما تمدح الله سبحانه بعلم الغيب، واستأثر به دون خلقه... كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه. ثم استثنى من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

ارتضى من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزةً لهم ودلالةً صادقةً على نبوتهم، وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى، وينظر في الكفّ وفي المسبحة، ويزجر بالطير ويخبر عن الجنّ، فيطلعه على ما يشاء من غيبه، فهو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه، وكذبه انتهى مع بعض زيادة، ولا تغتر بما ذكره الإمام الرازي في «تفسيره» هنا، كما رد عليه الإمام الشوكاني.

فإن قلت[1]: إذن قد تقرَّر بهذا الدليل القرآني أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه، فهل للرسول الذي أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته؟

قلت: نعم، ولا مانع من ذلك. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهرة، فمن ذلك ما صحَّ أنه قام مقاماً أخبر فيه بما سيكون إلى يوم القيامة، وما ترك شيئاً مما يتعلق بالفتن ونحوها. حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه. وكذلك ما ثبت: من أن حذيفة بن اليمان كان قد أخبره رسول الله ﷺ بما يحدث من الفتن بعده حتى سأله عن ذلك أكابر الصحابة، ورجعوا إليه؟

وثبت في «الصحيح» وغيره: أن عمر بن الخطاب سأله عن الفتنة التي تموج كموج البحر، فقال: إن بينك وبينها باباً مغلقاً، فقال عمر: هل يفتح أو يكسر؟ فقال: بل يكسر. فعلم عمر أنّه الباب، وأن كسره قتله كما في الحديث الصحيح: أنه قيل لحذيفة: هل كان عمر يعلم ذلك؟ فقال: نعم كان يعلم كما يعلم أن دون غد الليلة، وكذلك ما ثبت من إخباره لأبي ذر بما يحدث له، وإخباره لعليّ بن أبي طالب خبر ذي الثدية، ونحو هذا مما يكثر تعداده. وإذا تقرر. فلا مانع من أن يختص بعض صلحاء هذه الأمة بشيء من أخبار الغيب التي أظهرها الله تعالى لرسوله، وأظهرها رسوله لبعض أمته، وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل، والكل من الفيض الرباني بواسطة الجناب.

ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذي يطلع عليه الرسول، فقال: ﴿فَإِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿يَسْلُكُ﴾ ويجعل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، أي: من قدّام الرسول المرتضى ﴿وَمِنْ

---

(١) الشوكاني.

﴿خَلْفِهِۦ﴾؛ أي: ومن ورائه وسائر جوانبه ﴿رَصَدًا﴾؛ أي: حرساً وحفظةً من الملائكة، يحفظونه من تعرض الشيطان لما أظهره عليه من الغيب المتعلق برسالته. أو يجعل بين يدي الوحي وخلفه حرساً من الملائكة، يحوطونه من أن تسترقه الشياطين فتلقيه إلى الكهنةِ، والمراد من جميع الجوانب. يعني: أنَّ جبريل كان إذا نزل بالرسالة.. نزل معه ملائكة يحفظونه من أن يسمع الجن الوحي، فيلقونه إلى كهنتهم، فتخبر به الكهنة قبل الرسول، فيختلط على الناس أمر الرسالة.

والجملة[1]: تقرير وتحقيق للإظهار المستفاد من الاستثناء، وبيان لكيفيته. قال الضحاك: ما بعث الله نبيًّا إلا ومعه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك، فإذا جاءه شيطان في صورة الملك قالوا: هذا شيطان فاحذره، وإن جاءه الملك قالوا: هذا رسول ربك. قال ابن زيد: ﴿رَصَدًا﴾؛ أي: حفظة يحفظون النبي ﷺ من أمامه وورائه من الجنّ والشياطين. قال قتادة وسعيد بن المسيّب: هم أربعة من الملائكة حفظة. والرصد كالحرس وزناً ومعنىً، فهو جمع راصد بمعنى حارس حافظ، والمراد بهم هنا الملائكة الحفظة؛ أي: فإنه يجعل بين يدي من ارتضى من رسله ومن خلفهم حفظة من الملائكة، يحفظونهم من وساوس شياطين الجنّ وتخاليطهم حتى يبلغوا ما أوحي به إليهم، ومن زحمة شياطين الإنس حتى لا يؤذونهم ولا يضرّونهم.

والخلاصة: أنه يجعل حفظة من الملائكة يحفظون قواه الظاهرة والباطنة من الشياطين، ويعصمونه من وساوسهم.

ثم علل هذا الحفظ بقوله: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ واللام[2] متعلقة بـ﴿يَسْلُكُ﴾، وضمير ﴿أَبْلَغُوا۟﴾ إما للرصد فالمعنى: أنّه يسلك الرصد ويجعلهم من جميع جوانب المرتضى ليعلم الله سبحانه أنَّ الشأن قد أبلغ الرصد والملائكة رسالات ربهم إلى الرسول المرتضى سالمة عن الاختطاف والتخليط علماً حاصلاً بالفعل، وإما لمن ارتضى والمعنى: ليعلم الله أن الشأن قد أبلغ الرسل الموحى إليهم رسالات ربهم إلى أممهم، كما هي من غير اختطاف ولا تخليط بعد ما أبلغها الرصد إليهم كذلك. أو اللام[3] متعلقة بمحذوف تقديره: إنه سبحانه يحفظ رسله

---

(١) روح البيان. (٢) المراح. (٣) المراغي.

بملائكته ليتمكّنوا من أداء رسالته، ويحفظوا ما ينزله إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا الرسالات، والمراد ليعلم الله ذلك منهم علم وقوع في الخارج، كما جاء نحو هذا في قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾.

وعبارة «الروح»: قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟...﴾ الخ، متعلق بـ ﴿يَسْلُكُ﴾، غاية له من حيث إنّه مترتّب على الإبلاغ المترتّب عليه؛ إذ المراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل. و﴿أن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوف، والجملة خبرها. والإبلاغ: الإيصال. و﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ عبارة عن الغيب الذي أريد إظهار المرتضى عليه، والجمع باعتبار تعدد أفراده. وضمير ﴿أَبْلَغُوا۟﴾ إما للرصد فالمعنى: أنه تعالى يسلكهم من جميع جوانب المرتضى؛ ليعلم الله أن الشأن قد أبلغوه رسالات ربهم سالمة عن الاختطاف والتخليط علماً مستتبعاً للجزاء، وهو أن يعلمه موجوداً حاصلاً بالفعل كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾. والغاية في الحقيقة هو الإبلاغ، وإيراد علمه تعالى لإبراز اعتنائه تعالى بأمر الإبلاغ، وللإشعار بترتيب الجزاء عليه والمبالغة في الحثّ عليه والتحذير عن التفريط فيه. وإما لمن ارتضى، والجمع باعتبار معنى ﴿من﴾ كما أنّ الإفراد في الضميرين السابقين باعتبار لفظها، فالمعنى عليه: ليعلم الله أنه قد أبلغ الرسل الموحى إليهم رسالات ربهم إلى أممهم كما هي من غير اختطاف، ولا تخليط بعد ما أبلغها الرصد إليهم كذلك.

وجملة قوله: ﴿و﴾ قد ﴿أحاط بما لديهم﴾؛ أي: بما عند الرصد أو بما عند الرسل، حال من فاعل ﴿يَسْلُكُ﴾ بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور في محله، جيء بها لتحقيق استغنائه تعالى؛ أي: وقد أحاط بما لديهم من الأحوال جميعاً. وقوله: ﴿وَأَحْصَىٰ﴾ معطوف على أحاط؛ أي: وعلم علماً بالغاً إلى حدّ الإحصاء تفصيلاً. ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مما كان وما سيكون ﴿عَدَدًۢا﴾؛ أي: فرداً فرداً، فكيف لا يحيط بما لديهم؟. قال القاسم: هو أوجدها فأحصاها عدداً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أحصى ما خلق وعرف عدد ما خلق لم يفته علم شيء حتى مثاقيل الذرّ والخردل. وقوله: ﴿عَدَدًۢا﴾ تمييز محوّل عن المفعول به كقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾. والأصل: أحصى عدد كل شيء، وفائدته بيان أن علمه تعالى بالأشياء ليس على وجه كلّيّ إجمالي، بل على وجه جزئيّ تفصيليّ، فإن الإحصاء

قد يراد به الإحاطة الإجمالية كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ أي: لا تقدروا على حصرها إجمالاً فضلاً عن التفصيل؛ وذلك لأنّ أصل الإحصاء، أنَّ الحاسب إذا بلغ عقداً معيّناً من عقود الأعداد كالعشرة والمئة والألف وضع حصاة ليحفظ بها كمية ذلك العقد فيبني على ذلك حسابه.

وهذه الآية مما يستدلّ به على أن المعدوم ليس بشيء، لأنّه لو كان شيئاً.. لكانت الأشياء غير متناهية، وكونه أحصى عددها يقتضي كونها متناهيةً؛ لأنّ إحصاء العدد إنما يكون في المتناهي، فيلزم الجمع بين كونها متناهية وغير متناهية، وذلك محال، فوجب القطع بأن المعدوم ليس بشيء حتى يندفع هذا التناقض والتنافي، كذا في «حواشي» ابن الشيخ رحمه الله.

والمعنى[1]: أي وهو سبحانه قد أحاط علماً بما عند الرصد من الملائكة، وأحصى ما كان، وما سيكون فرداً فرداً، فهو عالم بجميع الأشياء منفرد بذلك على أتمّ وجه، فلا يشاركه في ذلك الملائكة الذين هم وسائط العلم.

والخلاصة: أنّ الرسول المرتضى يعلِّمه بوساطة الملائكة بعض الغيوب مما له تعلق برسالته، وهو سبحانه محيط علما بجميع أحوال أولئك الوسائط، وعالم بجميع الأشياء على وجه تفصيلي، فأين علم الوسائط من علمه تعالى؟.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ بفتح الياء مبنيّاً للفاعل. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحميد، ويعقوب، وزيد بن علي بضمّها مبنيًّا للمفعول. وقرأ الزهري وابن أبي عبلة بضمّ الياء وكسر اللام؛ أي: ليعلم الله من شاء أن يعلمه أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم. وقرأ الجمهور ﴿رِسَالَاتِ﴾ على الجمع، وأبو حيوة على الإفراد. وقرأ الجمهور ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ مبنيًّا للفاعل، وكذا ﴿أحصى﴾ مبنيًّا للفاعل؛ أي: الله، ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بالنصب. وقر ابن أبي عبلة ﴿وأحيط﴾ ﴿وأحصي﴾ مبنيًّا للمفعول، ﴿كلُّ شيء﴾ بالرفع.

والمعنى: وأحاط بما عند الرسل من الحكم والشرائع، لا يفوته منها شيء، وأحصى كلّ شيء عدداً، أي: معدوداً محصوراً، وانتصابه على الحال من ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾،

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وإن كان نكرةً لاندراج المعرفة في العموم.

ويجوز أن ينتصب نصب المصدر لـ ﴿أحصى﴾؛ لأنّه في معنى إحصاء. قال أبو البقاء: ويجوز أن يكون تمييزاً انتهى، كما مرّ. وفي ثبوته من كلام العرب خلاف.

الإعراب

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنت. والجملة مستأنفة استئنافاً نحويّاً. ﴿أُوحِيَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿إِلَيَّ﴾ جار ومجرور، متعلق به، ﴿أَنَّهُ﴾ ناصب واسمه، ﴿ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿أُوحِيَ﴾، وجملة ﴿أُوحِيَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ جار ومجرور متعلقان: بـ ﴿ٱسْتَمَعَ﴾ ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿استمع﴾، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿عَجَبًا﴾ صفة ﴿قُرْءَانًا﴾، وجملة سمع في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿يَهْدِىٓ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على القرآن، ﴿إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ متعلق بـ ﴿يَهْدِىٓ﴾، والجملة في محل النصب صفة ثانية لـ ﴿قُرْءَانًا﴾. ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿آمنا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿سَمِعْنَا﴾، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿آمنا﴾، ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لن﴾ حرف نصب، ﴿نُّشْرِكَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿لن﴾، وفاعل مستتر، ﴿بِرَبِّنَآ﴾ متعلق بـ ﴿نُّشْرِكَ﴾، ﴿أَحَدًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ﴿آمنا﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية معترضة بين اسم ﴿أنّ﴾ وخبرها. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿ٱتَّخَذَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿صَـٰحِبَةً﴾ مفعول به، ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ معطوف

على ﴿صَٰحِبَةً﴾ والجملة الفعلية، في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ المفتوحة وكذا جميع الجمل المصدّرة بـ ﴿أنّ﴾ المفتوحة، وهي أحد عشر موضعاً في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، على كونها نائب فاعل، لـ ﴿أُوحِيَ﴾، فتكون من جملة الكلام الموحى به على أن الموحى عين عبارة الجن بطريق الحكاية، كأنّه قيل: أوحي إليّ استماع نفر من الجنّ، وأوحي إليّ قول الجنّ: ﴿وَأَنَّهُ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾، وقولهم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾، وقولهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾، وقولهم: كيت وكيت كما تقدم لك بسطه في مبحث التفسير نقلاً عن «روح البيان»، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ على أنّها مقول لقالوا إجراء؛ لـ﴿أنَّ﴾ المفتوحة مجرى إنّ المكسورة على سبيل الاستقراض والاستعارة، كما مرّ أيضاً ﴿وَأَنَّهُ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمها ضمير الشأن، وتسمّى هي شأنية، ﴿يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ فعل وفاعل، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَقُولُ﴾، ﴿شَطَطًا﴾ صفة لمصدر محذوف تقديره: قولاً شططاً؛ أي: كذباً. وذلك بوصفه بالصاحبة والولد وجملة ﴿يَقُولُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾، أو في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ على التفصيل المارّ آنفاً، وكذا تقول في عطف ما سيأتي من مواضع أنَّ المفتوحة.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿ظَنَنَّآ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أَن﴾ معطوفة على ما تقدم، ﴿ظَنَنَّآ﴾ فعل وفاعل من أفعال القلوب، ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، ﴿لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ﴾ ناصب وفعل وفاعل، ﴿وَٱلْجِنُّ﴾ معطوفة على ﴿ٱلْإِنسُ﴾، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَقُولَ﴾، ﴿كَذِبًا﴾ صفة لمصدر محذوف تقديره: قولاً كذباً، وجملة ﴿تَقُولَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في محل النصب سادّة مسد مفعولي ﴿ظَنَنَّآ﴾، ﴿وَأَنَّهُ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانَ رِجَالٌ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ صفة لـ﴿ رِجَالٌ﴾، ﴿يَعُوذُونَ﴾ فعل وفاعل، ﴿بِرِجَالٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَعُوذُونَ﴾، ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ صفة لـ﴿ بِرِجَالٍ﴾، وجملة

﴿يَعُوذُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في محل الرفع، أو في محل النصب، معطوفة على ما تقدم على التفصيل المار. ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿رَهَقًا﴾ مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَانَ رِجَالٌ﴾، ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿ظَنُّوا﴾ خبره، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم، ﴿كَمَا﴾ الكاف حرف جرّ وتشبيه، ﴿ما﴾ مصدرية، وجملة ﴿ظَنَنتُمْ﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف تقديره: وأنهم ظنّوا ظنّاً كائناً كظنّكم. ﴿أَن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أي: وظنّوا أنّه ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة سادّة مسدّ مفعولي ﴿ظَنُّوا﴾، وأمّا مفعولا ﴿ظَنَنتُمْ﴾ فمحذوفان لدلالة مفعولي ﴿ظَنُّوا﴾ عليهما تقديره: كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم على التفصيل المار، ﴿فَوَجَدْنَاهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، وجملة ﴿مُلِئَتْ﴾ مفعول به ثان، وجملة وجدنا معطوفة على جملة ﴿لَمَسْنَا﴾، ﴿مُلِئَتْ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿السَّمَاءَ﴾، والتاء: علامة تأنيث نائب الفاعل، ﴿حَرَسًا﴾ تمييز محوّل عن نائب الفاعل، ﴿شَدِيدًا﴾ صفة ﴿حَرَسًا﴾، ﴿وَشُهُبًا﴾ معطوف على ﴿حَرَسًا﴾. وقيل: ﴿فَوَجَدْنَاهَا﴾ هنا متعدّية لواحد، فجملة ﴿مُلِئَتْ﴾ حال من السماء؛ لأنّ معناها: صادفناها. ﴿وَأَنَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أنا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كُنَّا﴾ خبره، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم، وجملة ﴿نَقْعُدُ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿مِنْهَا﴾ حال من ﴿مَقَاعِدَ﴾، لأنه صفة نكرة تقدمت عليها، أو متعلق بـ ﴿مَقَاعِدَ﴾، ﴿مَقَاعِدَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ ﴿نَقْعُدُ﴾، ﴿لِلسَّمْعِ﴾ متعلق بـ ﴿نَقْعُدُ﴾؛ أي: نقعد لأجل السمع أو صفة لـ ﴿مَقَاعِدَ﴾؛ أي: مقاعد كائنة للسمع. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر

تقديره: إذا عرفت أنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع أوّلاً، وأردت بيان حالها، وحالنا الآن فأقول لك: من يستمع. ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَسْتَمِعِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على من، ﴿ٱلْآنَ﴾ ظرف للزمن الحاضر، ولكنه مستعار للمستقبل في محل النصب على الظرفية مبنيّ على الفتح، والظرف متعلق بـ ﴿يستمع﴾، ﴿يَجِدْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿يَجِدْ﴾ على أنه مفعول ثان له، ﴿شِهَابًا﴾ مفعول أول لـ ﴿يَجِدْ﴾، ﴿رَّصَدًا﴾ صفة لـ ﴿شِهَابًا﴾، وهو مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: شهابا أرصد وهيّء له، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة معترضة لاعتراضها بين المتعاطفين.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا نَدْرِىٓ﴾ خبره، وجملة ﴿أَن﴾ معطوفة على ما تقدم، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿نَدْرِىٓ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على الجنّ؛ أي: نحن. ﴿أَشَرٌّ﴾ الهمزة للاستفهام الاستخباري، ﴿شرٌّ﴾ نائب فاعل لفعل محذوف يفسّره المذكور بعده؛ أي: أأريد شرٌّ. وجملة ﴿أُرِيدَ﴾ جملة مفسّرة لا محل لها من الإعراب، وقيل: ﴿شرّ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أُرِيدَ﴾ خبره، ﴿بِمَن﴾ متعلق بـ ﴿أُرِيدَ﴾، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صلة لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿أَمْ﴾ حرف عطف معادلة للهمزة، ﴿أَرَادَ﴾ فعل ماض، ﴿بِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرَادَ﴾، ﴿رَبُّهُمْ﴾ فاعل، ﴿رَشَدًا﴾ مفعول به، وجملة ﴿أَرَادَ﴾ معطوفة على جملة الاستفهام، وجملة الاستفهام مع ما عطف عليها سادّة مسدّ مفعولي ﴿نَدْرِىٓ﴾، علقت عنها بالاستفهام. ﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿مِنَّا﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم، ﴿وَمِنَّا﴾ خبر مقدم، ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لمبتدأ محذوف، تقديره: ومنا فريق كائن دون ذلك، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾. وأجاز الأخفش وغيره أن تكون ﴿دُونَ﴾ بمعنى غير؛ أي: ومنّا غير الصالحين، وهو حينئذٍ مبتدأ، وإنّما فتح لإضافته إلى غير متمكّن.

والأول أرجح. وحذف الموصوف مع من التبعيضية كثير كقولهم: منّا ظعن ومنّا أقام. ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿طَرَآئِقَ﴾ خبره، ﴿قِدَدًا﴾ صفة لـ ﴿طَرَآئِقَ﴾، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: وكنا ذوي طرائق قدداً، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾. ﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿ظَنَنَّآ﴾ خبره، وجملة ﴿أَن﴾ معطوفة على ما تقدم، ﴿أَن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. أي: أنّه. ﴿لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ ناصب وفعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من فاعل ﴿نُّعْجِزَ﴾؛ أي: كائناً في الأرض. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة سادّة مسدّ مفعولي ﴿ظَنَنَّآ﴾. ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ﴾ ناصب وفعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ما قبله، ﴿هَرَبًا﴾ حال من فاعل ﴿نُّعْجِزَهُۥ﴾، ولكنه في تأويل مشتقّ؛ أي: هاربين إلى السماء، أو إلى البحار مثلاً.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمَّا﴾ اسم شرط غير جازم، ﴿سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فعل وفاعل ومفعول، فعل شرط لـ﴿لَمَّا﴾، في محل جر بالإضافة. ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿ءَامَنَّا﴾، والجملة جواب ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قلت لك: وأردت بيان جزاء من آمن بربّه فأقول لك: ﴿مَنْ يؤمن﴾. ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يُؤْمِنۢ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فلا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَخَافُ﴾ فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿بَخْسًا﴾ مفعول به، ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ معطوف على ﴿بَخْسًا﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم جواب مَنْ الشرطية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة معترضة. ﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿مِنَّا﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْمُسْلِمُونَ﴾

مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم. ﴿وَمِنَّا﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة معطوفة على ما تقدم، ﴿فَمَنْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك وأردت بيان جزاءِ من أسلم فأقول لك: ﴿مَنْ أسلم﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم شرط مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿أَسْلَمَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فِعْل شرط لها. ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿أولئك﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَحَرَّوْا﴾ خبره، ﴿رَشَدًا﴾ مفعول به، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة معترضة. ﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أمّا﴾ حرف شرط وتفصيل، ﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ مبتدأ، ﴿فَكَانُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أمّا﴾ الشرطية واقعة في غير موضعها، ﴿كانوا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ حال من ﴿حَطَبًا﴾، لأنّه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿حَطَبًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب أمّا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أمّا﴾ معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَأَلَّوِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أنْ﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: وأنّه لو استقاموا. ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ فعل وفاعل، فعل شرط لـ ﴿لو﴾ ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ متعلق بـ ﴿ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾، ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿أسقيناهم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مَّآءً﴾ مفعول ثان، ﴿غَدَقًا﴾ صفة ﴿مَّآءً﴾، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل الرفع خبر ﴿أنْ﴾ المخفّفة وجملة ﴿أنْ﴾ المخففة في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾؛ أي: وأوحى إليّ أن لو استقاموا. ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل، ﴿نفتنهم﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام ﴿كي﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المضمرة في تأويل

مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أسقيناهم﴾، ﴿فِيهِۚ﴾ متعلق بـ ﴿نفتنهم﴾، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿يُعْرِضْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها، ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُعْرِضْ﴾، ﴿يَسْلُكْهُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿عَذَابًا﴾ منصوب بنزع الخافض؛ أي: في عذاب، ﴿صَعَدًا﴾ صفة ﴿عَذَابًا﴾. ﴿وَأَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أن المساجد﴾ ناصب واسمه، ﴿لِلَّهِ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾ ناهية جازمة، ﴿تَدْعُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَدْعُوا۟﴾، ﴿أَحَدًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة مفرّعة على جملة ﴿أنّ﴾. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿لَمَّا﴾ اسم شرط غير جازم ﴿قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿لَمَّا﴾ وجملة ﴿يَدْعُوهُ﴾ من الفعل والفاعل المستتر والمفعول في محل النصب حال من فاعل ﴿قَامَ﴾، ﴿كَادُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه جواب ﴿لمّا﴾، وجملة ﴿لما﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، ﴿يَكُونُونَ﴾ فعل ناقص واسمه مرفوع بالنون، ﴿عَلَيْهِ﴾ حال من ﴿لِبَدًا﴾، و﴿لِبَدًا﴾ خبر ﴿يكون﴾، وجملة ﴿يكون﴾ في محل النصب خبر ﴿كاد﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾
قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة مسوقة للردّ على الكفار المتظاهرين عليه ﷺ. ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر، ﴿أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَلَآ أُشْرِكُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿أُشْرِكُ﴾، ﴿أَحَدًا﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَدْعُوا۟﴾. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة أو معطوفة بعاطف مقدر على ﴿قُلْ﴾ الأول. ﴿إِنِّى﴾ ناصب واسمه، ﴿لَآ﴾ نافية ﴿أَمْلِكُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿ضَرًّا﴾، و﴿ضَرًّا﴾ مفعول ﴿أَمْلِكُ﴾، ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ معطوف على ﴿ضَرًّا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة

﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر مستأنفة أو معطوفة، ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿لَن يُجِيرَنِي﴾ ناصب وفعل مضارع، ونون وقاية، ومفعول به ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُجِيرَنِي﴾، ﴿أَحَدٌ﴾، فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لن﴾ حرف نصب، ﴿أَجِدَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، منصوب بـ ﴿لن﴾، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَن يُجِيرَنِي﴾، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ جار ومجرور في موضع المفعول الثاني لـ ﴿أَجِدَ﴾، ﴿مُلْتَحَدًا﴾ مفعول أول لـ ﴿أَجِدَ﴾.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿بَلَٰغًا﴾ استثناء من مفعول ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾؛ أي: من مجموع الأمرين، وهما: ﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾ بعد تأويلهما بـ(شيئا) كأنّه قال: لا أملك لكم شيئاً إلاّ بلاغاً، فهو استثناء متصل، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾ جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة، هكذا قرّر بعض «حواشي البيضاوي»، وفيه أوجه أخر، ومنها قيل: إنّه استثناء منقطع من ﴿مُلْتَحَدًا﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ ﴿بَلَٰغًا﴾، ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ معطوف على ﴿بَلَٰغًا﴾، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿يَعْصِ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف على الجلالة، ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم لـ ﴿أنّ﴾، ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ اسمها مؤخّر، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿لَهُۥ﴾، والعامل فيه الاستقرار الذي تعلّق به الجار والمجرور، ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿أَبَدًا﴾ ظرف متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أيضاً، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف ابتداء وغاية لمحذوف تقديره: ولا يزالون على ما هم عليه من الكفر والتكذيب، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿رَأَوْا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿رَأَوْا۟﴾، لأنّ رأى بصرية، وجملة ﴿يُوعَدُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما يوعدونه. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة

الجواب وجوبا، والسين حرف استقبال، ﴿يعلمون﴾ فعل وفاعل مرفوع، والجملة جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ولكنّها غاية لمحذوف كما قدّرنا، ﴿مَن﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَضْعَفُ﴾ خبره، والجملة الاستفهامية في محل النصب سادّة مسدّ مفعولي ﴿يعلمون﴾؛ لأنّها معلّقة للعلم قبلها، ويجوز أن تكون ﴿مَن﴾ موصولة في محل النصب مفعول به لـ ﴿يعلمون﴾؛ لأنّ العلم حينئذٍ بمعنى العرفان، ﴿أَضْعَفُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الذي هو ﴿أَضْعَفُ﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿نَاصِرًا﴾ تمييز محوّل عن المبتدأ أو عن المفعول، منصوب باسم التفضيل، ﴿وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ معطوف على ﴿أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿أَدْرِىٓ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿أَقَرِيبٌ﴾ الهمزة للاستفهام يطلب به، وبـ(أم) التعيين، ﴿قريب﴾ خبر مقدم، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخّر، وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾ صلته، والعائد محذوف؛ أي: توعدونه. ويجوز أن يكون ﴿قريب﴾ مبتدأ لاعتماده على الاستفهام، و﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ فاعل سدّ مسدّ الخبر، نحو: أقائم أبواك. والجملة الاسمية في محل النصب سادّة مسدّ مفعولي ﴿أَدْرِىٓ﴾، معلّقة عنها بالاستفهام، ﴿أَمْ﴾ عاطفة متصلة، ﴿يَجْعَلُ﴾ فعل مضارع، ﴿لَهُۥ﴾ في موضع المفعول الثاني، ﴿رَبِّىٓ﴾ فاعل، ﴿أَمَدًا﴾ مفعول أول لـ ﴿جعل﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على ﴿قريب﴾، لأنّه في تأويل أقريب ما توعدون أم بعيد يجعل له ربي أمدا. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو عالم الغيب أو بدل من ﴿ربّي﴾، ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنّه تعالى عالم الغيب، وأردت بيان أنّه يظهر على غيبه أم لا فأقول لك: لا يظهر. ﴿لا﴾ نافية، ﴿يُظْهِرُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿يُظْهِرُ﴾، ﴿أَحَدًا﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ويجوز أن تكون الفاء عاطفة.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، والاستثناء منقطع؛ أي: لكن من ارتضاه، فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه بالوحي، أو متصل؛ أي: إلاّ رسولاً ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلّقة برسالته. ﴿مَنِ﴾ اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ﴿ٱرْتَضَىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ حال من ﴿مَنِ﴾ الموصولة أو مِنْ ضمير العائد، والجملة صلة الموصول. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية ﴿إنه﴾ ناصب واسمه، ﴿يَسْلُكُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَسْلُكُ﴾، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ معطوف على ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، ﴿رَصَدًا﴾ مفعول به، وجملة ﴿يُظْهِرُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، لأنّها سيقت لتعليل الاستثناء، ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ اللام: حرف جرّ وتعليل، ﴿يعلم﴾ فعل مضارع منصوب بـ: أن مضمرة بعد لام ﴿كي﴾، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة (أن) المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَسْلُكُ﴾، غاية له من حيث إنّه مترتّب على الإبلاغ المترتّب عليه، ﴿أَن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنْ﴾ المخفّفة، وجملة ﴿أنْ﴾ المخفّفة في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿يعلم﴾؛ أي: ليعلم إبلاغهم رسلات ربّهم. ﴿وَأَحَاطَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة على مقدر معلوم من السياق تقديره: فعلم ذلك، وأحاط بما لديهم. ﴿أحاط﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على ذلك المقدر، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿أحاط﴾، ﴿لَدَيْهِمْ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَأَحْصَىٰ﴾ معطوف على ﴿أحاط﴾، ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مفعول به ﴿عَدَدًا﴾ تمييز محول عن المفعول؛ أي: أحصى عدد كل شيء، أو منصوب على الحال من كل شيء؛ أي: حال كونه معدوداً، وإن كان نكرة لاندراج المعرفة في العموم أو على المصدر؛ لأنّه في معنى إحصاء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ الإيحاء: إعلام في خفاء. وأصل أوحي أأحي، أبدلت الهمزة

الثانية واواً حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى.

﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ والاستماع: الإصغاء إلى الكلام مع قصد السماع له، والسماع: اتفاق سماعه من غير قصد إليه فكلّ مستمع سامع من غير عكس كما مرّ. ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ والنفر: الجماعة بين الثلاثة إلى العشرة، وفي «القاموس»: النفر: ما دون العشرة من الرجال كالنفير والجمع أنفار. وفي «المفردات»: النفر: عدّة رجال يمكنهم النفر إلى الحرب. وفي «شرح القاموس» قال أبو العباس: النفر والرهط والقوم هؤلاء معناها الجمع لا واحد لها من لفظها، والنسب إليه نفريّ. قال الزجاج: النفير جمع نفر كالعبيد. ﴿وَٱلْجِنُّ﴾ اسم جنس، واحده جنيّ كروم وروميّ، سمّوا بذلك لاجتنانهم عن بني آدم.

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ والسماع: حصول السمع اتفاقاً، كما مرّ آنفاً. ﴿عَجَبًا﴾ مصدر بمعنى العجيب، وضع موضعه للمبالغة؛ أي: عجيباً بديعاً مبايناً لكلام الناس في حسن النظم ودقّة المعنى. ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ وحقيقة الرشد الاهتداء إلى مصالح الدين والدنيا. قال بعضهم: الرشد كالقفل خلاف الغيّ، يقال في الأمور الدنيوية والأخروية، والرشد كالذهب يقال في الأمور الأخروية فقط. ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾؛ أي: تنزّه جلاله وعظمته عمّا نسب إليه من الصاحبة والولد. وفي «القرطبيّ»: الجد في اللغة: العظمة والجلال، ومنه قول أنس رضي الله عنه: كان الرجل إذا حَفِظ البقرة، وآل عمران جدّ في عيوننا؛ أي: عظم وجلّ. ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾؛ أي: جاهلنا، وهو إبليس أو مردة الجنّ. والسفه: خفّة الحلم، أو نقيضه أو الجهل كما في «القاموس». وقال الراغب: السفه: خفّة في البدن، واستعمل في خفّة النفس لنقصان العقل، وفي الأمور الدنيوية والأخروية. والمراد في الآية هو السفه في الدين الذي هو السفه الأخرويّ، كذا في «المفردات».

﴿شَطَطًا﴾ هو مجاوزة الحد في الظلم وغيره. وفي «المفردات»: الشطط: الإفراط في البعد؛ أي: قولاً ذا شطط؛ أي: بعد عن القصد ومجاوزة الحد، أو هو شطط في نفسه لفرط بعده عن الحقّ، فوصف بالمصدر للمبالغة، والمراد به نسبة الصاحبة والولد إليه تعالى. ﴿كَذِبًا﴾ مصدر مؤكّد لـ﴿تَقُولَ﴾، لأنّه نوع من القول. ﴿يَعُوذُونَ﴾ العوذ: الالتجاء إلى الغير والتعلق به. أصله: يعوذون بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى العين فسكنت بعد ضمة فصارت حرف مدّ. ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أصله:

زيدوهم، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً. ﴿رَهَقًا﴾؛ أي: تكبرا وعتواً وسفهاً، فإن الرهق محركاً يجيء لمعان.

منها: السفه وركوب الشر والظلم، كما مر. وفي «المختار»: رهقه: غشيه، وبابه: طرف. ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ واللمس: إدراك بظاهر البشرة كالمس. ﴿حَرَسًا﴾ اسم جمع لحارس من الحراسة، بمعنى حافظ كخدم لخادم، مفرد اللفظ، ولذلك وصفه بقوله: ﴿شَدِيدًا﴾؛ أي: قوياً، ولو كان جمعاً.. لقال: شداداً. ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شهاب ككتب وكتاب، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكواكب، كذا قالوا. والله أعلم.

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ﴾ والآن ظرف للزمان الحاضر، استعير هنا للمستقبل. ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: مرصداً مهيّأً له. ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ قال في «المفردات»: جمع الطريق طرق، وجمع الطرق طرائق، فالطرائق: جمع الجمع، والظاهر: أن الطرائق جمع طريقة كقصائد جمع قصيدة. والطريق هو المكان يطرق بالأرجل؛ أي: يضرب. ومنه: استعير كل مسلك يسلكه الإنسان في فعل شيء محموداً كان أو مذموماً. والهمزة في ﴿الطرائق﴾ مبدلة من الياء الموجودة في الاسم المؤنث لما وقعت ثالثة زائدة حرف مد فيه. ﴿قِدَدًا﴾: جمع قد، وهو قطع الشيء طولاً، وصفت الطرائق بالقدد لدلالتها على معنى التقطع والتفرق. وفي «القاموس»: القدة: الفرقة من الناس هوى كل واحد على حدة، ومنه: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾؛ أي: فرقاً مختلفة أهواؤها، يجمع على قدد كسدرة وسدر. ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أصله: أأمنّا، أبدلت الهمزة الثانية الساكنة ألفاً حرف مد مجانساً لحركة الأولى. ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أصله: يخوف مضارع خوف بكسر الواو، يخوف بفتحها نقلت حركة الواو إلى الحاء فسكنت لكنها أبدلت الفاء لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿بَخْسًا﴾؛ أي: نقصاً عن ثواب الحسنات. ﴿وَلَا رَهَقًا﴾؛ أي: ظلماً بزيادة عقاب السيئات. ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾؛ أي: الجائرون العادلون عن الحق، من قسط بمعنى جار، وأما المقسطون فهم العادلون إلى الحق من أقسط بمعنى عدل إلى الحق واتبعه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾؛ أي: قصدوا هداية وطلبوها باجتهاد، ومنه: التحري في الشيء؛ أي: الاجتهاد فيه، يقال: حرى الشيء يحريه؛ أي: قصد حراه؛ أي:

جانبه، وتحرّاه كذلك. وأصله: تحريوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثمّ حذفت الألف لالتقاء الساكنين. والتحرّي في الأصل: طلب الأحرى والأليق قولاً أو فعلاً، كما مرّ. ﴿رَشَدًا﴾ يقال: رشد كنصر وفرح رشداً رُشْدا ورشاداً: اهتدى كما في «القاموس»؛ أي: اهتداء عظيماً إلى طريق الحقّ والصواب. ﴿حَطَبًا﴾؛ أي: وقوداً للنار. والحطب: ما يعد للإيقاد.

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَٰمُوا﴾ أصله: استقوموا بوزن استفعلوا نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت لكنّها أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ الغدق بفتح الدال وكسرها لغتان في الماء الغزير، ومنه: الغيداق للماء الكثير وللرجل الكثير العدوّ والكثير النطق. وفي «المصباح»: غدقت العين غدقاً من باب تعب: كثر ماؤها، فهي غدقة، وفي التنزيل: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾؛ أي: كثيراً، وأغدقت إغداقاً كذلك، وغدق المطر غدقاً، وأغدق إغداقاً مثله، وغدقت الأرض تغدق ـ من باب ضرب ـ إذا ابتلت بالغدق. ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ الإسقاء والسقي بمعنى واحد. وقال الراغب: السقي والسقيا: هو أن تعطيه ماء ليشرب، والإسقاء: أن تجعل ذلك له حتى يتناوله كيف شاء، كما يقال: أسقيته نهراً، فالإسقاء أبلغ. وغدق من باب علم إذا غزر. ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ يقال: سلكت الخيط في الإبرة إذا أدخلته فيها، أي: يسلكه في عذاب صعد؛ أي: شاقّ. ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ أصله: قوم بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ جمع لبدة بالكسر نحو: قربة وقرب، وهي ما تلبَّد بعضه على بعض؛ أي: تراكب وتلاصق. ومنها: لبدة الأسد، وهي الشعر المتراكب بين كتفيه.

﴿كَادُوا﴾ أصله: كودوا، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿يَكُونُونَ﴾ أصله يكونون بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى الكاف فسكنت الواو إثر ضمّة، فصارت حرف مدّ. ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ والفرق بين الزمان والأمد: أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عامّ في المبدأ والغاية. ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أصله: ارتضى بوزن افتعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. وأصل الارتضاء: تناول مرضيّ الشيء: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ قال في «القاموس»: الرصد محرّكاً: الراصدون؛ أي: الراقبون، يقال للواحد والجماعة كما في «المفردات».

﴿وَأَحَاطَ﴾ أصله: أحوط بوزن أفعل، نقلت حركة الواو إلى الحاء فسكنت ثم أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أصله: أحصي بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحرّكها بعد فتح. وأصل الإحصاء: أن المحاسب إذا بلغ عقداً معيّناً من عقود الأعداد كالعشرة والمئة والألف وضع حصاة ليحفظ بها كمية ذلك العدد، فيبني على ذلك حسابه. ﴿عَدَدًا﴾ والعدد لغة: مطلق الكمّية، فيدخل فيه الواحد، واصطلاحاً: ما ساوى نصف حاشيتيه السفلى والعليا القريبتين أو البعيدتين مثلاً الأربعة له حاشية قريبة عليا، وهي خمسة، وله حاشية سفلى قريبة وهي ثلاثة. فإذا جمعت ثلاثة مع خمسة يكون ثمانية، فالأربعة حينئذٍ نصف ثمانية، وقس على ذلك غيره. فيخرج بذلك الواحد، لأنّه ليس عدداً عند الحساب بل مبدأ عدد لفقد الحاشية السفلى له.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: وصف القرآن بالمصدر في قوله: ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ للمبالغة في مدحه، أي: عجيباً في رصانة اللفظ وغزراة المعنى مباينا لكلام الناس في حسن النظم ودقّة المعنى.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ لأنّ الإيمان نفي الشرك.

ومنها: عطف المسبّب على السبب في قوله: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾، فإنَّ مجموع هذا الكلام معطوف مسبّب عن مجموع قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، حيث شبه سلطان الله وغناه الذاتيان الأزليان ببخت الملوك ودولتهم وغنى الأغنياء، فأطلق اسم الجد عليه استعارة، كذا في «الروح».

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ إفادة للتحقق والوقوع،

وفيه أيضاً إسناد الزيادة إلى الإنس والجنّ باعتبار السببية.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾؛ أي: طلبنا خبر السماء باستراقه، حيث شبه الطلب باللمس باليد في كون كلّ واحد منهما وسيلة إلى تعرّف حال الشي، فاشتقّ منه ﴿لَمَسْنَا﴾ بمعنى طلبنا على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية. ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لما بين اللفظين من الاشتقاق اللطيف.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصليّة في قوله: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ﴾، لأنّه ظرف حالي استعير للمستقبل.

ومنها: حسن رعاية الأدب مع الخالق في قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾، حيث نسبوا الخير إلى الله تعالى دون الشر سلوكاً مسلك الأدب مع الباريء بأسلوب بديع.

ومنها: القصر الادّعائيّ في قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، حيث قصروا الصلاح فيهم، كأنّهم لم يعتدوا بصلاح غيرهم.

ومنها: حذف الموصوف في التفصيل بـ ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: قوم دون أولئك الصالحين.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾، وبين ﴿ضَرًّا ورَشَدًا﴾، وبين ﴿ٱلْمُسْلِمُونَ و ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، حيث استعار الطرائق للمذاهب المختلفة، فإنه حقيقة في المكان الذي يطرق بالأرجل؛ أي: يضرب ثم استعير في كل مسلك يسلكه الإنسان في فعل محموداً كان أو مذوماً، كما مرّ.

ومنها: اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾، فهذا لف نشر عليه على ترتيبه قوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾، وهو

الحذف من أحد المتقابلين نظير ما أثبته في الآخر، كأنّه قال: لا أملك لكم ضرّاً ولا نفعاً ولا رشداً وغيًّا.

ومنها: إيراد علمه تعالى في قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ لإبراز اعتنائه تعالى بأمر الإبلاغ ولإشعار ترتب الجزاء عليه والمبالغة في الحث عليه والتحذير من التفريط فيه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

خلاصة ما تضمَّنته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على مقصدين:

١ ـ حكاية أقوال صدرت من الجن حين سمعوا القرآن كوصفهم له بأنّه كتاب يهدي إلى الرشد، وأن الرب سبحانه تنزه عن الصاحبة والولد، وأنهم ما كانوا يظنون أن أحداً يكذب على الله تعالى، وأن رجالاً من الإنس كانوا يستعيذون في القفر برجال مِنَ الجن، وأن الجن طلبوا خبر العالم العلويّ فمنعوا، وأن الجن لا يدرون ماذا يحل بالأرض من هذا المنع، وأنّ الجن منهم الأبرار، ومنهم الفجّار، ومنهم مسلمون وجائرون عادلون عن الحق.

٢ ـ ما أمر النبي ﷺ بتبليغه إلى الخلق ككونه لا يشرك بربّه أحداً، وأنّه لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، وأنه لا يمنعه أحد من الله إن عصاه، وأنه ﷺ لا يدري متى يكون وقت تعذيبهم، فالعلم لله وحده[١].

والله أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا تمّ تفسير هذه السورة أوائل ليلة الجمعة ليلة التاسع والعشرين من شهر ربيع الأوّل من شهور سنة ١٤١٦/٣/٢٩ ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، آمين يا رب.

سورة المزمل

سورة المزمل مكية، نزلت بعد سورة القلم. قال الماورديّ[1]: كلها مكية في قول الحسن، وعكرمة، وجابر، قال: وقال ابن عباس وقتادة: مكية إلاّ آيتين منها قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾، وقوله: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

وقال الثعلبيّ: وإلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ...﴾ إلى آخر السورة، فمدنيّات. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وعدد آياتها[2]: تسع عشرة أو عشرون آية. وعدد كلماتها: مئتان وخمس وثمانون كلمة. وحروفها: ثمان مئة وثمانية وثلاثون حرفا.

التسمية: وسبب تسميتها بذلك: ما أخرجه[3] البزّار والطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم في «الدلائل» عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سمّوا هذا الرجل اسماً تصدّون الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر. فتفرّق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ، فتزمّل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾. قال البزّار بعد إخراجه من طريق معلّى بن عبد الرحمن: إنّ معلى قد حدث عنه جماعة من أهل العلم، واحتملوا حديثه لكنه إذا تفرد بالأحاديث لا يتابع عليها. وأخرج أبو داود والبيهقي في «السنن» عن ابن عباس قال: بتّ عند خالتي ميمونة، فقام النبيّ ﷺ يصلي من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة، منها: ركعتا الفجر، فحزرت قيامه في كل ركعة بقدر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾.

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن. (٣) الشوكاني.

مناسبتها ووجه اتصالها بما قبلها من وجوه[1]:

١ ـ أنه سبحانه ختم سورة الجن بذكر الرسل عليهم السلام، وافتتح هذه بما يتعلق بخاتمهم عليه السلام.

٢ ـ أنه قال في السورة السابقة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، وقال في هذه: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾.

وقال أبو حيان[2]: مناسبتها لما قبلها: في آخر ما قبلها ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ...﴾ الآيات، فأتبعه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ إعلاماً بأنه ﷺ ممن ارتضاه من الرسل، وخصه بخصائص، وكفاه شرّ أعدائه.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم في الناسخ والمنسوخ: سورة المزّمل فيها ستّ آيات منسوخات.

أولاهنّ: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ نسخت بقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

الثانية: القليل بالنصف والنصف بقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾؛ أي: إلى الثلث.

الثالثة: قوله: ﴿ثَقِيلًا﴾ نسخت بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ...﴾ الآية.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ نسخت بآية السيف.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ نسخت بآية السيف.

السادسة: قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ نسخت بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية (٣٠) من سورة الإنسان، وقيل: نسخت بآية السيف.

والله أعلم

* * *

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ
الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦)
إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ
أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ
تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا
أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ
كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ
تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ
وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا
مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (٢٠)﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين أوّل هذه السورة وآخر ما قبلها، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[1] معاملة العباد ببارئهم وخالقهم من العدم.. أردف ذلك بمعاملة بعضهم بعضاً، فبين أن ذلك يكون بأحد أمرين:

١ - مخالطة فصبر جميل على الإيذاء والإيحاش.

٢ - هجرٍ جميلٍ بالمجانبة بالقلب والهوى والمخالفة في الأفعال مع المداراة

---

(١) المراغي.

والإغضاء وترك المكافأة. ثم أمر رسوله أن يترك أمر المشركين إليه، فهو الكفيل بمجازاتهم. ثم ذكر أنه سيعذبم بالأنكال والنار المستعرة والطعام ذي الغصة في يوم القيامة حتى تكون الجبال كثيبا مهيلاً.

وبعد أن خوفهم عذاب يوم القيامة خوفهم أحوال الدنيا، وأنه سيكون لهم فيها مثل ما كان للأمم المكذّبة قبلهم كقوم فرعون حين عصوا موسى، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر. ثم عاد إلى تخويفهم بالآخرة مرةً أخرى، وأبان لهم أن أهوالها بلغت حدّاً تشيب من هوله الولدان، وأن السماء تنشق منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا...﴾ إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بدأ السورة بشرح أحوال السعداء، وبين معاملتهم للمولى، ثم معاملتهم للخلق، ثم هدد الأشقياء بأنواع من العذاب في الآخرة، ثم توعدهم بعذاب الدنيا، وبعدئذٍ وصف شدة يوم القيامة. ختم السورة بتذكيرات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد، فمن شاء أن يسلك سبيل ربه بالطاعة والبعد عن المعصية، فليفعل. ثم أخبره بما يقوم به هو والمؤمنون للعبادة من ساعات الليل ثلثيه أو نصفه أو ثلثه. ثم خفف ذلك عنهم للأعذار التي تحيط بهم من مرض أو سفر للتجارة ونحوها أو جهاد للعدوّ، فليصلوا قدر ما يستطيعون، وليؤتوا زكاة أموالهم، ولسيتغفروا الله في جميع أحوالهم، فهو الغفور الرحيم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما[١] أخرجه البزار والطبراني بسند واهٍ عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالت: سموا هذا الرجل اسماً يصدر الناس عنه، قالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ، فتزمل في ثيابه فتدثر فيها، فأتاه جبريل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾.

---

(١) لباب النقول.

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعيّ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ قال: نزلت وهو في قطيفة.

قوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ سبب نزولها: ما أخرجه الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ قاموا سنة حتى ورمت أقدامهم، فأنزلت: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ أي: المتزمل؛ أي[1]: المتلفّف بثيابه، من تزمّل بثيابه إذا: تلفّف بها وتغطى، فأدغم التاء في الزاي، فقيل: المزمّل بتشديدين. كان ﷺ نائماً بالليل متزمّلاً في قطيفة؛ أي: دثار مخمل، فأمر أن يترك التزمل إلى التشمر للعبادة، ويختار التهجد على الهجود. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما جاءه جبريل خافه، فظن أن به مسّاً من الجن، فرجع من جبل حراء إلى بيت خديجة مرتعداً، وقال: زملوني. فبينما هو كذلك إذ جاءه جبريل، وناداه وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾.

وعن عكرمة أن المعنى: يا أيها الذي زمل أمراً عظيماً؛ أي: حُمِّلَهُ. يعني: النبوة والرسالة. والزمل: الحمل، وازدمله: تحمّله، وكان يقرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ بتخفيف الزاي، وفتح الميم المشددة اسم مفعول.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ بتشديد الزاي وكسر الميم المشدّدة، أصله: المتزمل، فأدغمت التاء في الزاي. وقرأ أبي بن كعب، وأبو العالية، وأبو مجلز وأبو عمران، والأعمش ﴿يا أيها المتزمّل﴾ على الأصل. وقرأ عكرمة وابن يعمر ﴿المُزَمَّلُ﴾ بتخفيف الزاي وفتح الميم المشدّدة على صيغة اسم المفعول من زمّل المضعّف. ومثل هذه القراءة قول امرىء القيس:

كَأَنَّ بَشِيْراً فِيْ أَفَانِيْنِ وَبْلِهِ ... كَبِيْرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ

قال السهيليّ: ليس المزمل من أسمائه ﷺ التي يعرف بها كما ذهب إليه بعض

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط وزاد المسير.

الناس وعده في أسمائه، وإنما المزمل مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب، وكذا المدّثر. وفي خطابه[1] ﷺ بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعليّ رضي الله عنه حين غاضب فاطمة رضي الله عنها، أي: أغضبها وأغضبته، فأتاه وهو نائم قد لصق بجنبه التراب، فقال له: قم يا أبا تراب إشعاراً بأنه غير عاتب عليه، وملاطفة له، وكذلك قوله ﷺ لحذيفة رضي الله عنه: قم يا نومان، وكان نائماً ملاطفة وإشعاراً بترك العتب والتأديب. فقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ تأنيس وملاطفة له، ليستشعر أنه غير عاتب عليه.

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله لينتبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى؛ لأنّ الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل بذلك العمل، واتصف بتلك الصفة انتهى.

وفي «فتح الرحمن»: الخطاب الخاص بالنبي ﷺ كـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ونحوه عام للأمة إلا بدليل يخصه. وهذا قول أحمد، والحنفية، والمالكية. وقال أكثر الشافعية: لا يعمهم إلا بدليل. وخطابه ﷺ لواحد من الأمة هل يعم غيره؟ قال الشافعي والحنفية والأكثر: لا يعم. وقال أبو الخطاب من أئمة الحنابلة: إن وقع جواباً عم، وإلا فلا.

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ ولا تتزمل ولا ترقد، ودع هذه الحال لما هو أفضل منها، وقم إلى الصلاة في الليل.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ بكسر الميم على أصل التقاء الساكنين. وقرأ أبو السمال بضمها إتباعاً لحركة القاف. وقرىء بفتحها طلباً للتخفيف. قال عثمان بن جنيّ: الغرض بالحركة الهرب من التقاء الساكنين، فبأي حركة تحرك الحرف حصل الغرض.

فانتصاب[3] ﴿ٱلَّيْلَ﴾ على الظرفية، وإن كان الحدث الواقع فيه أعني: القيام المأمور به يستغرق جميع الليل، ولذلك صحّ الاستثناء منه؛ إذ لو كان غير مستغرق

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

لم يصح الاستثناء منه، واستغراق جميعه بالقيام على الدوام غير ممكن، فلذلك استثني منه لراحة الجسد، فحذف (في) وأوصل الفعل إليه فنصب؛ لأن عمل الجر لا يكون في الفعل، والنصب أقرب إليه من الرفع، ومن ذلك قال بعضهم: هو مفعول نظراً إلى الظاهر في الاستعمال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ في أحد الوجهين كما سبق.

وحد الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. قال بعضهم: إنّ الله اشتاق إلى مناجاة حبيبه، فناداه أن يقوم في جوف الليل. وقد قالوا: إنّ القيام والمناجاة ليسا من الدنيا بل من الجنة لما يجده أهل الذوق من الحلاوة. وقيل: معنى[1] ﴿قُمِ﴾ صل، عبر به عنه تجوزاً.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من الليل. أي: صل الليل كله إلا يسيراً منه، والقليل من الشيء هو ما دون النصف، وقيل: ما دون السدس، وقيل: ما دون العشر. وقال مقاتل والكلبي: المراد بالقليل هنا الثلث. وقد أغنانا عن هذا الاختلاف.

قوله: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بالنصب بدل من الليل الباقي بعد الاستثناء بدل الكل. والنصف[2] أحد شقي الشيء. أي: قم نصفه. والتعبير عن النصف المخرج بالقليل لإظهار كمال الاعتداد بشأن الجزء المقارن للقيام والإيذان بفضله وكون القيام فيه بمنزلة القيام في أكثره في كثرة الثواب. يعني: أنه يجوز أن يوصف النصف المستثنى بكونه قليلاً بالنسبة إلى النصف المشغول بالعبادة مع أنهما متساويان في المقدار من حيث إن النصف الفارغ لا يساويه بحسب الفضيلة والشرف، فالاعتبار بالكيفية لا بالكمية. وقال بعضهم: إن القلة في النصف بالنسبة إلى الكل لا إلى العديل الآخر، وإلا لزم أن يكون أحد النصفين المتساويين أقل من الآخر، وفيه أنه من عرائه عن الفائدة خلاف الظاهر، كما في الإرشاد.

﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾ أي: أو انقص القيام من النصف المقارن له إلى الثلث ﴿قَلِيلًا﴾ أي نقصاناً قليلاً أو مقداراً قليلاً بحيث لا ينحط إلى نصف الليل ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي زد القيام على النصف المقارن له إلى الثلثين. فالمعنى: تخييره ﷺ بين أن يقوم نصفه أو أقل منه أو أكثر. أي: قم إلى الصلاة في الزمان المحدود المسمى بالليل إلا في

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

الجزء القليل منه، وهو نصفه أو انقص القيام من نصفه أو زد عليه، فكأنّه قال: قم ثلثي اللّيل أو نصفه أو ثلثه. وقيل: إن ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدل من قوله: ﴿قَلِيلًا﴾، ويكون الضميران في ﴿مِنۡهُ﴾ و﴿عَلَيۡهِ﴾ راجعين إلى النصف المبدل من ﴿قَلِيلًا﴾: فيكون المعنى ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ إلا نصفه أو أقل من نصفه أو أكثر من نصفه. قال الواحدي: وهذا المعنى هو الظاهر.

قيل: وهذا التخيير[1] بحسب طول الليالي وقصرها، فالنصف إذا استوى الليل والنهار، والنقص منه إذا قصر الليل، والزيادة عليه.. إذا طال الليل. فكان[2] النبيّ ﷺ وأصحابه يقومون على هذه المقادير، وكان الرجل منهم لا يدري متى ثلث الليل أو متى نصفه أو متى ثلثاه؟ فكان يقوم الليل كله حتى يصبح، مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب. واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم، فرحمهم الله تعالى، وخفف عنهم ونسخها عنهم بقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾. قيل: ليس في القرآن سورة نسخ آخرها أوّلَها إلا هذه السورة، وكان بين نزول أولها ونزول آخرها سنة، وقيل: ستة عشر شهراً. وكان قيام الليل فرضاً ثم نسخ بعد ذلك في حق الأمة بالصلوات الخمس، وثبتت فريضته على النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾.

والمعنى: يا أيها النبي المتزمل بثيابه المتهيّىء للصلاة دم عليها الليل كله إلا قليلاً. ثم فسر هذا القليل: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ إلخ؛ أي إلا قليلاً وهو النصف أو انقص من النصف، أو زد على النصف إلى الثلثين، فهو ﷺ قد خير بين الثلث والنصف والثلثين.

وقصارى ذلك: أنه أمر أن يقوم نصف الليل، أو يزيد عليه قليلاً أو ينقص منه قليلاً، ولا حرج عليه في واحد من الثلاثة.

أخرج مسلم عن سعد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة، فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. فقلت: فقيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين؟ قالت: ألست تقرأ المزّمّل؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض القيام في

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

أوّل هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة. فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة.

واختلف في الناسخ لهذا الأمر، فقيل: هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى آخر السورة. وقيل: هو قوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ وقيل: هو قوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾، وقيل غير ذلك.

وبعد أن أمره بقيام الليل للصلاة أمره بترتيل القرآن فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾ في أثناء ما ذكر من قيام الليل؛ أي: اقرأه على تؤدةٍ وتمهلٍ وتبيين حروف. ﴿تَرْتِيلًا﴾ بليغاً وتبييناً واضحاً بحيث يتمكن السامع من عدها، ولذا نهى ابن مسعود رضي الله عنه عن التعجل، وقال: ولا يكن هم أحدكم آخر السورة. يعني: لا بد للقارىء من الترتيل ليتمكن هو ومن حضره من التأمل في حقائق الآيات. فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلاله، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يقع في الرجاء والخوف، وليسلم نظم القرآن من الخلل والزلل.

قال في «الكشاف»: ترتيل القرآن قراءته على ترسّل وتؤدة بتبيين الحروف، وإشباع الحركات حتى يجيء المتلوّ منه شبيهاً بالثغر المرتّل، وهو المفلّج المشبه بنور الأقحوان، وأن لا يهزّه هزّاً، ولا يسرده سرداً. والأمر بترتيل القرآن يشعر بأنّ الأمر بقيام الليل نزل بعد ما تعلم ﷺ مقداراً منه وإن قلّ.

وقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ على الاستقبال بالنسبة إلى بقيّة القرآن. ثم الظاهر أن الأمر به يعم الأمة، لأنه أمر مهم للكل، والأمر للوجوب، كما دل عليه التأكيد بالمصدر أو للندب.

والمعنى: واقرأ القرآن على تمهّل، فإنه أعون على فهمه وتدبّره، وكذلك كان ﷺ. قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها. وجاء في الحديث: «زيّنوا القرآن بأصواتكم» ولقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود». يعني: أبا موسى الأشعريّ، فقال أبو موسى: لو كنت أعلم أنّك كنت تسمع قراءتي لحبّرته لك تحبيراً». «وعن عبد الله بن مغفّل قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح، فرجع في قراءته»، أخرجه

الشيخان. وعن جابر: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا العربي والعجمي فقال: «اقرؤوا وكلٌ حسن، وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح - السهم - يتعجلونه ولا يتأجلونه، لا يجاوز تراقيهم». رواه أبو داوُد.

قال في «فتح البيان»:[١] والمقصود من الترتيل إنّما هو حضور القلب عند القراءة، لا مجرد إخراج الحروف من الحلقوم بتعويج الوجه والفم وألحان الغناء، كما يعتاده قرّاء هذا الزمان من أهل مصر وغيرها في مكة المكرّمة، وغيرها، بل هو بدعة أحدثها البطالون الأكالون والحمقى الجاهلون بالشرائع، وأدلتها الصادقة، وليس هذا أول قارورة كسرت في الإسلام اهـ.

والحكمة في ترتيل القرآن: التمكن من التأمل في حقائق الآيات ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلاله، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف ويستنير القلب بنور الله. فإن الإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني، والنفس تبتهج بذكر الأمور الروحية، ومن سرّ بشيء أحب ذكره كما أن من أحب شيئاً لا يحب أن يمر عليه مسرعاً.

وكان ﷺ مجوّداً للقرآن كما أنزل[٢]، وتجويده تحسين ألفاظه بإخراج الحروف من مخارجها وإعطاء حقوقها من صفاتها، كالجهر والهمس واللين ونحوها، وذلك بغير تكلف، وهو ارتكاب المشقّة في قراءته بالزيادة على أداء مخرجه، والمبالغة في بيان صفته، فينبغي أن يتحفظ في الترتيل عن التمطيط، وهو التجاوز عن الحد، وفي الحد. عن الإدماج والتخليط بأن تكون قراءته بحال كأنه يلف بعض الحروف والكلمات في بعض آخر لزيادة السرعة.

واعلم: أن التجويد على ثلاث مراتب: ترتيل وحدر وتدوير:

أما الترتيل: فهو تؤدة وتأن وتمهل، وهو مختار ورش وعاصم وحمزة، ويؤيده قوله ﷺ: «من قرأ القرآن» أي ختمة «أقل من ثلاث» أي في أقل من ثلاث ليالٍ «لم يفهمه». وفي «قوت القلوب»: أفضل القراءة الترتيل، لأن فيه التدبر والتفكر، وأفضل الترتيل والتدبر للقرآن ما كان في صلاة.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لأن أقرأ البقرة أرتلها وأتدبرها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذرمةً؛ أي: سرعة.

وأما الحدر: فهو الإسراع في القراءة، كما روي: أنه ختم القرآن في ركعة واحدة أربعة من الأمة: عثمان بن عفّان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير، وأبو حنيفة رضي الله عنهم. وهذا؛ أي: الحدر مختار ابن كثير وأبي عمرو وقالون.

وأمّا التدوير: فهو التوسط بين الترتيل والحدر، وهو مختار ابن عامر والكسائي. وهذا كله إنما يتصور في مراتب الممدود.

وفي الحديث: «رب قارىء للقرآن والقرآن يلعنه». وهو[1] متناول لمن يخل بمبانيه، أو معانيه أو بالعمل بما فيه، وذلك موقوف على بيان اللحن.

وهو قسمان: جلي وخفيّ:

فالجليّ: خطأ يعرض للفظ، ويخلّ بالمعنى بأن بَدَّلَ حرفاً مكان حرف بأن يقول مثلاً: الطالحات بدل الصالحات، وبالإعراب كرفع المجرور ونصبه سواء تغيَّر المعنى به أم لا، كما إذا قرأ ﴿أنّ الله بريء من المشركين ورسوله﴾ بجرّ ﴿رسوله﴾.

والخفي: خطأ يخل باصطلاحات القراء المعروفة لديهم كترك الإخفاء والإدغام والإظهار والقلب، وكترقيق المفخّم عكسه ومد المقصور وقصر الممدود، وأمثال ذلك. ولا شك أن هذا النوع مما ليس بفرض عين يترتب عليه العقاب الشديد، وإنما فيه التهديد وخوف العقاب. قال بعضهم: اللحن الخفي هو الذي لا يعرفه إلا مهرة القراء من تكرير الراءات وتطنين النونات وتغليظ اللامات وترقيق الراءات في غير محلّها لا يتصور أن يكون من فرض العين يترتب عليه العقاب على فاعلها، لما فيه من حرج، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وقال بعض أهل العلم: ومن الفتنة أن يقول لأهل القرى والبوادي والعجائز والعبيد والإماء لا تجوز الصلاة بدون التجويد، وهم لا يقدرون على التجويد، فيتركون الصلاة رأساً. فالواجب أن يعلم مقدار ما يصح به النظم والمعنى ويتوغل في الإخلاص وحضور القلب.

---

(١) روح البيان.

ثم أتى بجملة معترضة بين الأمر بالقيام وتعليله الآتي، ليبين سهولة ما كلفه من القيام، فقال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ﴾؛ أي: سنوحي إليك. وإيثار الإلقاء عليه لقوله تعالى: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ بانطوائه على التكاليف الشاقّة، وهو القرآن العظيم المنطوي على تكاليف شاقّة ثقيلة على المكلّفين، وأيضاً إنّ القرآن قديم غير مخلوق، والحادث يذوب تحت سطوة القديم إلاّ من كان مؤيّداً كالنبيّ ﷺ.

وهذه الجملة اعتراض بين الأمر وهو ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾، وبين تعليله وهو ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ إلخ، لتسهيل ما كلفه ﷺ من القيام. يعني: أنّ في توصيف ما سيلقي عليه بالثقل إيماءً إلى أنَّ ثقل هذا التكليف بالنسبة إليه كالعدم، فإذا كان ما سيكلف أصعب وأشقّ، فقد سهل هذا التكليف.

وفي «الكشاف»: أراد بهذا الاعتراض أنَّ ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الصعبة التي ورد بها القرآن؛ لأن الليل وقت السبات والراحة والهدوء فلا بد لمن أحياه من مضادّة لطبعه ومجاهدة لنفسه، فمن استأنس بهذا التكليف لا يثقل عليه أمثاله.

والمعنى: أي إنا سننزل عليك القرآن، وفيه الأمور الشاقة عليك وعلى أتباعك من أوامر ونواه، فلا تبال بهذه المشقّة، وامْرُنْ عليها لما بعدها. وقال الحسن بن الفضل: ثقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيَّدٌ بالتوفيق، ونفس مزينة بالتوحيد. وقال ابن زيد: هو والله ثقيل مبارك كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة. وفي «فتح الرحمن»: وصف القرآن بالثقل لثقله بنزول الوحي على نبيه حتى كان يعرف في اليوم الثاني أو لثقل العمل بما فيه أو لثقله في الميزان أو لثقله على المنافقين.

وقد يكون[1] المراد أنّه ثقيل في الوحي، فقد جاء في حديث البخاري ومسلم: «إنّ الوحي كان يأتيه ﷺ أحياناً في مثل صلصلة الجرس، وهذا أشدّه عليه، فيفصم عنه ـ يفارقه ـ وقد وعى ما قال، وأحياناً يتمثّل له الملك رجلاً، فيكلّمه فيعي ما يقول، وكان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإنّ جبينه ليتفصّد عرقاً» يجري عرقه كما يجري الدم من الفاصد.

---

(١) المراغي.

ثم علّل الأمر بقيام الليل فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: إنَّ قيام الليل وعبادته التي تنشأ، وتحدث فيه على أنّ الناشئة مصدر من نشأ بمعنى: نهض وقام كالعافية بمعنى العفو. وهذا وافق لسان الحبشة، حيث يقولون: نشأ إذا قام. ﴿أَشَدُّ﴾؛ أي: أشقّ ﴿وَطۡـًٔا﴾؛ أي: تعباً وضرراً؛ أي: أثقل وأغلظ على المصلّي من صلاة النهار، فيكون أفضل وأكثر أجراً، فإن كل واحد من قيام الليل ومن العبادة التي تحدث فيه ثقيلان على العابد من قيام النهار والعبادة فيه.

ويحتمل[1] أن يكون المراد بناشئة الليل ساعاته، فإنها تحدث واحدة بعد واحدة، أي: ساعات الليل الناشئة؛ أي: الحادثة شيئاً فشيئاً، فتكون الناشئة صفة ساعات الليل أشدّ وطئاً؛ أي: بملاحظة القيام منها؛ أي: إن ساعات الليل أشد مواطأة؛ أي: أكثر موافقة بين السمع والبصر والقلب واللسان لانقطاع الحركات والأصوات فيها، وأثبت للعبادة؛ لأن الليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالمعاش وعبادته تدوم ولا تنقطع. وقال الكلبيّ: أشدّ نشاطاً وأكثر فراغاً.

ويحتمل أن يكون المعنى: إن النفس التي تنشأ وتنهض وتقوم في الليل من مضجعها إلى العبادة، من نشأ من مكانه إذا نهض. فالموصوف محذوف، والإضافة للملابسة بمعنى النفس الناشئة القائمة للصلاة في الليل. ﴿هِيَ﴾ خاصة ﴿أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾؛ أي: كلفة وثقلاً. مصدر قولك: وطىء الشيء؛ أي: داسه برجله أو جعل عليه ثقله، فإن النفس القائمة بالليل إلى العبادة أشد وطئاً وكلفةً ومشقّةً من التي تقوم بالنهار، فلا بد من قيام الليل، فإن أفضل العبادات أشقها. ويجوز أن يكون معنى ﴿أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾: أشد ثبات قدمٍ واستقرارها، فيكون المقصود بيان وجه اختيار الليل وتخصيصه بالأمر بالقيام فيه من حيث إنه تعالى جعل الليل لباساً يستر الناس، ويمنعهم عن الاضطراب والانقلاب في اكتساب المعاش، وجعل النهار معاشا يباشرون فيه أمور معاشهم، فلا تثبت فيه أقدامهم للعبادة. ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾؛ أي:[2] أصوب قراءة، وأصح قولاً من النهار لهدأة الناس وسكون الأصوات. وقيل: معناه أبين قولاً للقرآن.

والحاصل: أن عبادة الليل أشد نشاطاً، وأتم إخلاصاً، وأبعد عن الرياء،

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.

وأكثر بركة، وأبلغ في الثواب، وأدخل في القبول.

قرأ الجمهور[1]: بفتح الواو وسكون الطاء مقصوراً، واختار هذه القراءة أبو حاتم. والمعنى: إنّ الصلاة في ناشئة الليل وساعاته أثقل على المصلّي من الصلاة في ساعات النهار، لأنّ الليل وقت الراحة والنوم. وقرأ أبو العالية وابن أبي إسحاق، ومجاهد، وأبو عمرو، وابن عامر، وحميد، وابن محيصن، والمغيرة، وأبو حيوة بكسر الواو وفتح الطاء ممدوداً، واختار هذه القراءة أبو عبيد. والمعنى عليها: أنها أشد مواطأة؛ أي: موافقة بين اللسان والقلب والسمع والبصر لانقطاع الأصوات والحركات فيها من واطأت فلاناً إذا وافقته، ومنه: قوله تعالى: ﴿لِيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ليوافقوا.

﴿إِنَّ لَكَ﴾ يا محمد ﴿فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾؛ أي: تقلّباً كثيراً وتصرّفاً في مهماتك كتردد السابح في الماء، واشتغالاً كثيراً بشواغلك، فلا تستطيع أن تتفرّغ للعبادة، فعليك بها في الليل، فعليك بها في الليل. وهذا بيان للداعي الخارجيّ إلى قيام الليل بعد بيان ما في نفسه من الداعي.

وقيل معنى الآية: إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه حتى لا ينقص شيء من حظك من المناجاة لربك، ويناسبه قوله ﷺ: «من نام عن حزبه، أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنّما قرأه من الليل». وقيل: سبحاً سبحةً؛ أي: نافلةً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَبْحًا﴾ بالحاء المهملة؛ أي: تصرفا في حوائجك وإقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً في أشغالك كما يتردد السابح في الماء يقلب يديه ورجليه. قال الشاعر:

أَبَاحُوْا لَكُمْ شَرْقَ ٱلْبِلَادِ وَغَرْبَهَا ... فَفِيْهَا لَكُمْ يَا صَاحِ سَبْحٌ مِنَ ٱلسَّبْحِ

وقرأ يحيى بن يعمر، وعكرمة، وابن أبي عبلة، وأبو وائل ﴿سبخا﴾ بالخاء المعجمة. ومعناه: خِفَّةً من التكاليف وسعةً واستراحةً، يقال: سبخ الله عنك الحمى؛ أي: خففها. وقيل معنى ﴿سبخا﴾؛ أي: فراغاً وسعة لنومك وتصرّفك في

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

حوائجك، ويقال: سبخ الحر: فتر وخف، ومنه قول الشاعر:

فَسبِّخْ عَلَيْكَ ٱلهَمَّ وَٱعْلَمْ بِأَنَّهُ إذا قَدَّرَ ٱلرَّحْمَنُ شَيْئاً فَكَائِنُ

أي: خفف عنك الهم.

ومعنى الآية[1]: أي إن لك في النهار تقلباً وتصرّفاً في مهام أمورك واشتغالاً بشواغلك، فلا تستطيع أن تتفرغ فيه للعبادة، فعليك بالتهجد، فإن مناجاة الرب يعوزها الفراغ والتخلي عن العمل.

ثم أمر رسوله بمداومة الذكر والإخلاص له، فقال: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾؛ أي: ودم على ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أي وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم، خصوصاً بعد صلاة الغداة وصلاة العصر، لأنه وقت يتعاقب فيه ملائكة الليل والنهار. وقيل: ادعه بأسمائه الحسنى. وقيل: اقرأ باسم ربك في ابتداء صلاتك. وقيل: اذكر اسم ربك في وعده ووعيده لتوفر على طاعته وتبعد عن معصيته. وقال الكلبيّ: المعنى: صل لربك. ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾؛ أي: وانقطع إليه تعالى انقطاعاً بالاشتغال بعبادته من تبتل إلى الشيء إذا انقطع إليه؛ أي: وانقطع إلى ربك انقطاعاً تامّاً بالعبادة وإخلاص النية والتوجه الكلّيّ. وليس[2] هذا يعارض قوله ﷺ: «لا رهبانية ولا تبتّل في الإسلام»؛ لأنّ ما هنا هو الانقطاع عن الشواغل إلى العبادة، والمنفيّ في الحديث هو الانقطاع عن النكاح. ومنه قيل لمريم العذراء: البتول؛ أي: المنقطعة عن الرجال. ووضع ﴿تَبۡتِيلٗا﴾ مكان تبتلا لرعاية الفواصل. قال الواحدي: والتبتّل: رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله تعالى.

والمعنى: أي ودم على ذكره ليلاً ونهاراً بالتسبيح والتهليل والتحميد والصلاة وقراءة القرآن، وانقطع إليه بالعبادة، وجرّد إليه نفسك، وأعرض عمّا سواه. ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧﴾؛ أي؛ فإذا فرغت من شؤونك فانصب في طاعته وعبادته، لتكون فارغ القلب خالياً من الهواجس والوساوس الدنيوية.

ثم بين السبب في الأمر بالذكر والتبتّل فقال: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

هو ربهما وخالقهما ومالكهما وما بينهما من كل شيء. قال في «كشف الأسرار»: يريد به جنس المشارقِ والمغارب في الشتاء والصيف.

قرأ[1] حمزة، والكسائيّ، وأبو بكر، وابن عامر، ويعقوب بجر ﴿رَّبُّ﴾ على النعت لـ﴿رَبِّكَ﴾ أو البدل منه أو البيان له. وقرأ باقي السبعة برفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. وقرأ زيد بن عليّ بالنصب على المدح. وقرأ الجمهور ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ بإفرادهما. وقرأ عبد الله وأصحابه وابن عباس بجمعهما. وقال الزمخشري: وعن ابن عباس على القسم يعني: خفض ﴿رَّبُّ﴾ بإضمار حرف القسم كقولك: الله لأفعلنّ، وجوابه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، كما تقول: والله لا أحد في الدار إلا زيداً انتهى. ولعل هذا التخريج لا يصح عن ابن عباس.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئناف لبيان ربوبيته بنفي الألوهية عما سواه. والفاء: في قوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ﴾ لمصالح دينك ودنياك ﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: موكولاً ومفوّضاً إليه لإصلاحها وإتمامها، واسترح أنت. ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنه المختص بالربوبية، وأردت بيان ما هو الأصلح لك فأقول لك: اتخذه وكيلاً؛ أي: قائماً بأمورك، وعول عليه في جميعها. وقيل: كفيلاً بما وعدك من الجزاء والنصر. ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعني: قريشاً مما لا خير فيه من الخرافات والهذيانات في حق الله تعالى من الشريك والصاحبة والولد، وفي حقك من الساحر والشاعر والكاهن والمجنون، وفي حق القرآن من أنّه أساطير الأوّلين، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ تأكيد للأمر بالصبر؛ أي: واتركهم تركاً حسناً بأن تجانبهم بقلبك وهواك، وتداريهم ولا تكافئهم، وتكل أمورهم إلى ربهم، كما أعرب به ما بعد الآية. قال الحكماء: تسلح على الأعداء بحسن المداراة حتى تبصر فرصة. وقيل: الهجر الجميل الذي لا جزع فيه، وهذا كان قبل الأمر بالقتال. ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بك وبالقرآن؛ أي: دعني وإياهم، ولا تهتم بهم، فإنّي أكفيك أمرهم وأنتقم لك منهم. قيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، وهم عشرة، وقد تقدم

---

(١) البحر المحيط.

ذكرهم في سورة ﴿نٓ﴾. وقال يحيى بن سلام: هم بنو المغيرة، وقال سعيد بن جبير: أخبرت أنهم اثنا عشر.

وقال بعضهم[1]: يجوز نصب ﴿المكذبين﴾ على المعيّة؛ أي: دعني معهم وهو الظاهر. ويجوز على العطف؛ أي: دعني على أمري مما تقتضيه الحكمة ودع المكذّبين بك وبالقرآن، وهو أوفق للصناعة؛ لأن النصب إنّما يكون نصّاً في الدلالة على المصاحبة؛ إذا كان الفعل لازماً، وهنا الفعل متعد. ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ صفة لـ ﴿المكذبين﴾، وهم صناديد قريش؛ أي: أرباب الغنى والسعة والترفّه واللذة في الدنيا. ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾؛ أي: تمهيلاً قليلاً على أنه صفة لمصدر محذوف أو زماناً قليلاً على أنّه صفة لزمان محذوف. والمعنى: أمهلهم إلى انقضاء آجالهم، وقيل: إلى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر. والأوّل أولى لقوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ وما بعده، فإنّه وعيد لهم بعذاب الآخرة.

والمعنى: ودعني والمكذّبين المترفين أصحاب الأموال، فإنّي أكفيك أمرهم، وأجازيهم بما هم له أهل، وتمهل عليهم قليلاً حتى يبلغ الكتاب أجله، وسيذوقون العذاب الذي أعددته لهم. ونحو الآية: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

والخلاصة: خل بيني وبينهم فسأجازيهم بما يستحقون. روي: أنها نزلت في صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين، وقالت عائشة رضي الله عنها: لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسير حتى كانت وقعة بدر.

ثم ذكر من ألوان العذاب التي أعدها لهم أموراً أربعة:

١ - ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ في الآخرة وفيما هيّأناه للعصاة من آلات العذاب وأسبابه، وهو أولى من قول بعضهم: في علمنا وتقديرنا؛ لأنّ المقام مقام تهديد العصاة، فوجود آلات العذاب بالفعل أشد تأثيراً على أن تلك الآلات صور الأعمال القبيحة. ولا شك أن معاصري النبي ﷺ من الكفار قد قدموا تلك الآلات بما فعلوا من السيئات ﴿أَنكَالًا﴾؛ أي: قيوداً ثقالاً، يقيد بها أرجل المجرمين إهانة لهم وتعذيبا لا

---

(١) روح البيان.

خوفاً من فرارهم. جمع نكل بالكسر، وهو القيد الثقيل. والجملة تعليل[1] للأمر قبلها من حيث إنّ تعداد ما عنده من أسباب التعذيب الشديد في حكم بيان اقتداره على الانتقام منهم، فهم يتنعمون في الدنيا ولا يبالون، وعند الله العزيز المنتقم في الآخرة أمور مضادّة لتنعمهم.

٢ ـ ﴿وَجَحِيمًا﴾؛ أي: ناراً مؤجّجة مستعرة تشوي الوجوه، وقيل: كلّ نار عظيمة في مهواة. وفي «الكشاف»: هي النار الشديدة الحر والاتقاد.

٣ ـ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾؛ أي: لا يسوغ في الحلق بل ينشب فيه، فلا ينزل ولا يخرج. قال مجاهد: هو الزقّوم. وقال الزجاج: وهو الضريع. وفي «الروح»: والغصّة هو كلّ ما ينشب في الحلق، ويعلق من عظم وغيره فلا ينساغ؛ أي: طعاماً غير سائغ يأخذ بالحلق، لا هو نازل ولا هو خارج كالضريع والزقّوم، وهما في الدنيا من النباتات والأشجار سمّان قاتلان للحيوان الذي يأكلهما مستكرهان عند الناس، فما ظنّك بضريع جهنم وزقومها. وهو في مقابلة الهنيء والمريء لأهل الجنة، وإنّما ابتلوا بهما لأنّهم أكلوا نعمة الله وكفروا بها.

٤ ـ ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: نوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يقادر قدره، ولا يدرك كنهه. كما يدل عليه التنكير، كل ذلك معد لهم ومرصد، فالمراد بالعذاب سائر أنواع العذاب.

والمعنى[2]: أي إنّ لدينا لهؤلاء المكذّبين بآياتنا قيوداً ثقيلة توضع في أرجلهم، كما يفعل بالمجرمين في الدنيا إذلالاً لهم. قال الشعبيّ: أترون أن الله جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا؟ لا والله ولكنّهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استقلت بهم، وناراً مستعرة تشوي الوجوه، وطعاماً لا يستساغ، فلا هو نازل في الحلق ولا هو خارج منه كالزقوم والضريع، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾، وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾. ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: ألواناً أخرى من العذاب المؤلم الموجع الذي لا يعلم كنهه إلا علام الغيوب.

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

والخلاصة: أنّ لدنيا في الآخرة ما يضادّ تنعمهم في الدنيا، وهو النكال والجحيم والطعام الذي يغصون به، والعذاب الأليم. وعن الحسن: أنه أمسي صائماً فأتي بطعام، فعرضت له هذه الآية، فقال: ارفعه، ووضع عنده الليلة الثانية، فعرضت له، فقال: ارفعه، وكذلك الليلة الثالثة، فأخبر ثابت البنانيّ ويزيد الضبّيّ ويحيى البكاء، فجاؤوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق.

وبعد أن وصف العذاب ذكر زمانه فقال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ وتضطرب وتتحرك ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ وانتصاب[1] الظرف إمّا بـ ﴿ذرني﴾ أو بالاستقرار المتعلق به لدينا أو صفة لـ ﴿عذابا﴾، فيتعلق بمحذوف؛ أي: عذاباً واقعاً يوم ترجف الأرض، أو متعلق بـ ﴿أَلِيمًا﴾. وقرأ الجمهور ﴿تَرْجُفُ﴾ بفتح التاء وضم الجيم مبنيًّا للفاعل. وقرأ زيد بن علي بضمها مبنياً للمفعول، مأخوذ من أرجفها؛ أي: إنَّ لدينا أنكالاً وجحيماً وعذاباً أليماً يوم تتحرك وتضطرب الأرض والجبال بمن عليها، وتتزلزل زلزلةً شديدة بهيبة الله وجلاله؛ ليكون علامة لمجيء القيامة وأمارة لجريان حكم الله في مؤاخذة العاصين. والرجفة: الزلزلة، والزعزعة الشديدة. وأفرد[2] الجبال بالذكر مع كونها من الأرض لكونها أجساماً عظاماً أوتاداً لها، فإذا تزلزلت الأوتاد لم يبق للأرض قرار، وأيضاً إنّ زلزلة العلويّات أظهر من زلزلة السفليات، ومن زلزلتها تبلغ القلوب الحناجر خوفاً من الوقوع..

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ من شدّة الرجفة مع صلابتها وارتفاعها ﴿كَثِيبًا﴾؛ أي: رملا مجتمعا ﴿مَّهِيلًا﴾؛ أي: رخواً ليّناً سائلاً. وفي «القاموس»: الكثيب: التل من الرمل انتهى، من كثب الشيء إذا جمعه، كأنه فعيل بمعنى مفعول في أصله، ثم صار اسماً بالغلبة للرمل المجتمع؛ أي: صارت مثل رمل مجتمع هيل هيلاً؛ أي: نثر وأسيل بحيث لو حرك من أسفله انهال من أعلاه وسال، لتفرق أجزائه كالعهن المنفوش، ومثله هذا الرمل يمر تحت الرجل ولا يتماسك، فكونه متفرق الأجزاء منثوراً سائلاً لا ينافي كونه رملاً مجتمعاً. فـ ﴿مَّهِيلًا﴾ اسم مفعول من هال يهيل هيلا كباع يبيع بيعاً ومبيعاً، لا فعيل من مهل يمهل. وخص[3] الجبال بالتشبيه بالكثيب المهيل؛ لأنّ ذلك خاصة لها، فإن الأرض تكون مقررة في مكانها بعد الرجفة، دل عليه قوله

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

والحاصل: أنّ الأرض والجبال يدق بعضها ببعض، كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾. فترجع الجبال كثيباً مهيلاً، ثم ينسفها الريح فتصير هباء منبثاً وتبقى الأرض مكانها ثم تبدل، كما مر. وإنما عبر بالماضي في الجبال لتحقق وقوعه.

والمعنى[١]: أي ذلك العذاب في يوم تضطرب فيه الأرض، وتزلزل الجبال، وتتفرق أجزاؤها وتصير كالعهن المنفوش وكالكثيب المهيل بعد أن كانت حجارة صماء، ثم ينسفها ربي نسفاً، فلا يبقى منها شيء.

وبعد أن خوف المكذبين أولى النعمة بأهوال القيامة خوفهم بأهوال الدنيا وما لاقته الأمم المكذبة من قبلهم، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿رَسُولًا﴾ هو محمد ﷺ وكونه مرسلاً إليهم لا ينافي إرساله إلى من عداهم، فإن مكة أم القرى، فمن أرسل إلى أهل مكة فقد أرسل إلى أهل الدنيا جميعاً، ولذا نص الله تعالى عليه بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾، ليندفع أوهام أهل الوهم. ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بما صدر منكم من الكفر والعصيان، وكذا يشهد على غيركم، كما قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾. ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ هو موسى عليه السلام؛ لأنّ هارون عليه السلام ردء له وتابع، وعدم تعيينه لعدم دخله في التشبيه، وتخصيص فرعون لأنه من رؤساء أولى النعمة المترفهين المتكبرين، فبينه وبين قريش جهة جامعة ومشابهة حال ومناسبة سريرة. قيل: إنما خص موسى وفرعون بالذكر؛ لأن أخبارهما كانت منتشرة بمكة. ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: فعصى[٢] فرعون المعلوم حاله كبراً وتنعماً الرسول الذي أرسلناه إليه. ومحل الكاف النصب على أنها صفة لمصدر محذوف؛ أي: إنا أرسلنا إليكم رسولاً فعصيتموه، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ إرسالاً كائناً كإرسالنا إلى فرعون رسولاً، فعصاه بأن جحد رسالته، ولم يؤمن به. وفي إعادة فرعون والرسول مُظْهرين تفظيع لشأن عصيانه، وإن ذلك لكونه عصيان الرسول لا لكونه

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

عصيان موسى. وفي ترك ذكر أملاء فرعون إشارة إلى أن كل واحد منهم كأنه فرعون في نفسه لتمرده.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ بسبب عصيانه ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾؛ أي: ثقيلاً شديداً. والوبيل: الثقيل الغليظ، ومنه: الوابل للمطر العظيم، والكلام خارج عن التشبيه، جيء به للتنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة.

والمعنى[1]: أي إنّا أرسلنا إليكم رسولاً يشهد عليكم بإجابة من أجاب منكم دعوتي، وامتناع من امتنع من الإجابة يوم تلقونني في القيامة، كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً يدعوه إلى الحق، فعصى فرعون الرسول الذي أرسلناه إليه، فأخذناه أخذاً شديداً، فأهلكناه ومن معه بالغرق، فاحذروا أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم مثل ما أصابه.

وقصارى ذلك: كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه، فأخذناه أخذاً وبيلاً أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم، فاحذروا أن تعصوه، فيصيبكم مثل ما أصابه.

وبعد أن هددهم بعذاب الدنيا أعاد الكرّة بتخويفهم بعذاب الآخرة، فقال: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أي: كيف تتقون وتحفظون أنفسكم ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾؛ أي: إن بقيتم على كفركم ﴿يَوْمًا﴾، أي: عذاب يوم ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ والصبيان ﴿شِيبًا﴾؛ أي: شيوخاً لشدة هوله. وقرأ الجمهور ﴿يَوْمًا﴾ منونا ﴿يَجْعَلُ﴾ بالياء، والجملة صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾. وقرأ زيد بن عليّ ﴿يَوْمَ﴾ بغير تنوين، و﴿نجعل﴾ بالنون، فالظرف مضاف إلى الجملة. والشيب: جمع أشيب، وهذا يجوز أن يكون حقيقة وأنهم يصيرون كذلك أو تمثيلاً لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه، وضعفت أعضاؤه وصار كالشيخ في الضعف وسقوط القوة. وفي هذا تقريع لهم شديد وتوبيخ عظيم. و﴿يَوْمًا﴾ مفعول به لتتقون. قال ابن الأنباري: ومنهم من نصب اليوم بـ ﴿كفرتم﴾، وهذا قبيح انتهى.

قال ابن الشيخ: قوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ مرتب على الإرسال، فالعصيان، وكان الظاهر أن يقدم على قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ﴾ إلا أنه أخر زيادة في التهويل؛ إذ علم من

---

(١) المراغي.

قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ أنهم مأخوذون مثله وأشد، فإذا قيل بعده: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ كان ذلك زيادة كأنه قيل: هبوا أنكم لا تؤخذون في الدنيا أخذة فرعون وأمثاله، فكيف تتقون؟ أي: تقون أنفسكم عذاب يوم إلخ. فاتّقى هنا بمعنى وقى المتعدي إلى مفعولين؛ لأن افتعل يجيء بمعنى فعل الثلاثي. نص عليه الزمخشري في «المفصل».

ويجوز[1] أن يكون ﴿يَوْمًا﴾ ظرفاً؛ أي: فكيف لكم بالتقوى، والتوحيد في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا؟ أي: لا سبيل إليه لفوات وقته، فاتقى على حاله، وكذا ﴿إذا﴾ انتصب بـ﴿كَفَرْتُمْ﴾ على تأويل جحدتم؛ أي: فكيف تتقون الله وتخشون عقابه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ من شدة هوله وفظاعة ما فيه من الدّواهي، وهو صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾، نسب الجعل إلى اليوم للمبالغة في شدته، وإلا فنفس اليوم لا تأثير له ألبتة. و﴿ٱلْوِلْدَٰنَ﴾: جمع وليد، يقال لمن قرب عهده بالولادة، وإن كان في الأصل يصح إطلاقه على من قرب عهده بها ومن بعد. ﴿شِيبًا﴾؛ أي: شيوخاً جمع أشيب، والشيب: بياض الشعر كبيض جمع أبيض، وسيأتي تمام البحث فيه في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى، وقد سبق لك قريباً أن جعلهم شيوخاً إما محمول على الحقيقة كما ذهب إليه بعضهم.

فإن قلت: إيصال الألم والضرر إلى الصبيان يوم القيامة غير جائز بل هم لكونهم غير مكلفين معصومون محفوظون عن كل خطر.

قلت: قد يكون في القيامة من هيبة المقام ما يجثوا به الأنبياء عليهم السلام على الركب، فما ظنك بغيرهم من الأولياء والشيوخ والشبان والصبيان؟ وفي الآية مبالغة، وهي أنه إذا كان ذلك اليوم يجعل الولدان شيباً، وهم أبعد الناس من الشيخوخة لقرب عهدهم بالولادة، فغيرهم أولى بذلك. وإما محمول على التمثيل بأن شبه اليوم في شدة هوله بالزمان الذي يشيب الشبان لكثرة همومه وأهواله.

وأصله: أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على المرء.. ضعفت قواه، وأسرع فيه الشيب؛ لأنّ كثرة الهموم توجب انعصار الروح إلى داخل القلب، وذلك الانعصار يوجب انطفاء الحرارة الغريزية وضعفها وانطفاؤها يوجب بقاء الأجزاء

---

(١) روح البيان.

الغذائية غير تامة النضج، وذلك يوجب بياض الشعر ومسارعة الشيب بتقدير العزيز العليم، كما يوجب تغير القلب تغير البشرة، فتحصل الصفرة من الوجل والحمرة من الخجل والسواد من بعض الآلام، وما على البدن من الشعر تابع للبدن فتغيره يوجب تغيره. فثبت أن كثرة الهموم توجب مسارعة الشيب، كما قال المتنبي:

وَٱلْـهَـمُّ يَـخْـتَـرِمُ ٱلْـجَـسِـيْـمَ نَـحَـافَـةً   وَيُـشِـيـبُ نـاصِـيَـةَ ٱلـصَّـبِـيِّ وَيُـهْـرِمُ

وقال الآخرُ:

دَهَـتْـنـا أُمُـوْرٌ تُـشِـيـبُ الـوَلِـيـدَ   وَيَـخْـذِلُ فِـيـهَـا الـصَّـدِيـقُ الـصَّـدِيـقْ

فلما كان حصول الشيب من لوازم كثرة الهموم جعلوه كناية عن الشدّة، فجعل اليوم المذكور الولدان شيباً عبارة عن كونه يوماً شديداً غاية الشدّة.

ثم زاد في وصف ذلك اليوم بالشدّة، فقال: ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ مبتدأ، خبره قوله: ﴿مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾؛ أي: منشق بسبب ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى مسبب الأسباب، فيجوز أن يجعل شدة ذلك اليوم سبباً للانفطار، والجملة صفة أخرى لـ ﴿يَوْمًا﴾؛ والباء سببية؛ أي: متشقّقة بسببه لشدّته وعظيم هوله. وقيل: هي بمعنى في؛ أي: منفطر فيه، وقيل: بمعنى اللام؛ أي: منفطر له. وإنما قال: ﴿مُنفَطِرٌ﴾ ولم يقل: منفطرة لتنزيل السماء منزلة الشيء، لكونها قد تغيّرت، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء. وقال الفراء: السماء تذكر وتؤنث. وقيل: غير ذلك. وقيل: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد إلى الله؛ أي: منفطر بالله، والمراد منفطر بأمره تعالى. والأول أولى.

واعلم: أن الله ذكر من هول ذلك اليوم أمرين:

الأول: قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾.

والثاني: قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾؛ لأن السماء على عظمتها وقوتها إذا انشقت بسبب ذلك اليوم، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟ فالباء للسببية، وهو الظاهر. وتذكير الخبر لإجرائه على موصوف مذكر؛ أي: شيء منفطر، عبر عنها بذلك للتنبيه على أنه تبدلت سقيفتها، وزال عنها اسمها ورسمها، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ سبحانه وتعالى. فالضمير إمّا لله وإن لم يجر له ذكر للعلم به،

والمصدر مضاف إلى فاعله؛ أي: كان وعده سبحانه وتعالى بكون يوم القيامة على ما وصف به من الشدائد. ﴿مَفْعُولًا﴾ أي: كائناً متحقّقاً، لأنه لا يخلف الميعاد، فلا يجوز لعاقل أن يرتاب فيه. أو الضمير لـ﴿يوم﴾، والمصدر مضاف إلى مفعوله، والفاعل وهو الله مقدر؛ أي: كان وعد الله ذلك اليوم مفعولاً؛ أي: واجب الوقوع؛ لأن حكمته تعالى وعلمه يقتضيان إيقاعه.

والمعنى: كيف يحصل لكم أمان من يوم يحصل فيه هذا الفزع العظيم الذي تشيب من هوله الولدان، وتنشق السماء، وتنفطر بسبب شدائده وأهواله إن كفرتم.

والعرب تضرب المثل في الشدّة، فتقول: هذا يوم تشيب من هوله الولدان، وهذا يوم يشيب نواصي الأطفال. ذاك أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب، فجعلوا الشيب كناية عن الشدّة والمحنة فاحذروا هذا اليوم، فإنه كائن لا محالة كما وعد.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى الآيات المنطوية على القوارع المذكورة، وهي من قوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ إلى هنا. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: موعظة لمن يريد الخير لنفسه، والاستعداد لربه. أو إشارة إلى جميع الآيات القرآنية، لأن القرآن موعظة للمتقين وطريق للسالكين، ونجاة للهالكين، وبيان للمستبصرين، وشفاء للمتحبرين، وأمان للخائفين، وأنس للمريدين، ونور لقلوب العارفين، وهدى لمن أراد الطريق إلى رب العالمين.

﴿فَمَن شَآءَ﴾ من المتكلفين الوصول إلى مرضاة الله سبحانه والقرب إليه ﴿ٱتَّخَذَ﴾ لنفسه ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ أي: جعل لنفسه طريقاً موصلاً إلى مرضاته تعالى بالتقرب إليه بالإيمان والطاعات، فإنه المنهاج الموصل إلى مرضاته ومقام قربه والاستقرار في دار كرامته.

والمعنى(١): أي إن ما تقدم من الآيات التي ذكر فيها يوم القيامة وأهوالها، وما هو فاعل فيها بأهل الكفر عبرة لمن اعتبر وادكر، فمن شاء.. اتعظ بها واتخذ سبيلاً إلى ربه، فآمن به وعمل بطاعته، وأخبت إليه. وذلك هو النهج القويم،

(١) المراغي.

والطريق الموصل إلى مرضاته.

ثم رخص لأمته في ترك قيام الليل كله للمشقة التي تلحقهم إذا هم فعلوا ذلك، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾؛ أي: تصلي كقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾، لما كان أكثر أحوال الصلاة القيام عبر به عنها. ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: أقل منهما. فإطلاق الأدنى على الأقل مجاز[1] مرسل من قبيل إطلاق الملزوم على اللازم، لما أن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز والحدود، وإذا بعدت كثر ذلك.

روي: أنه تعالى افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام النبي ﷺ وأصحابه حولاً مع مشقة عظيمة من حيث إنه يعسر عليهم تمييز القدر الواجب حتى قام أكثر الصحابة الليل كله خوفاً من الخطأ في إصابة القدر المفروض، وصاروا بحيث انتفخت أقدامهم، واصفرت ألوانهم، وأمسك الله خاتمة السورة من قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ إلخ، اثني عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله في آخر السورة التخفيف، فنسخ تقدير القيام بالمقادير المذكورة مع بقاء فرضية أصل التهجد حسبما تيسر، ثم نسخ نفس الوجوب أيضاً بالصلوات الخمس، لما روي: أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوع.

﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿أَدْنَىٰ﴾. والثلث: أحد الأجزاء الثلاثة، والجمع أثلاث؛ أي: أنك تقوم أقل من ثلثي الليل، وتقوم نصفه وثلثه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ﴾ بضمّ اللام. وقرأ الحسن، وشيبة، وأبو حيوة، وابن السميفع، وهشام، وابن مجاهد عن قنبل فيما ذكر صاحب «الكامل» بإسكانها، وجاء ذلك عن نافع، وابن عامر فيما ذكر «صاحب اللوامح». وقرأ العربيّان: أبو عمرو وابن عامر، ونافع ﴿ونصفه وثلثه﴾ بجرهما عطفاً على ﴿ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ﴾. وقرأ باقي السبعة، وزيد بن علي بالنصب عطفاً على ﴿أَدْنَىٰ﴾؛ لأنّه منصوب على الظرف؛ أي: وقتاً أدنى من ثلثي الليل، فقراءة النصب مناسبة للتقسيم الذي في أوّل السورة؛ لأنه إذا قام الليل إلا قليلاً صدق عليه أدنى من ثلثي الليل؛ لأنّ الزمان

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الذي لم يقم فيه يكون الثلث وشيئاً من الثلثين، فيصدق عليه قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾. وأما قوله: ﴿وَنِصْفَهُ﴾ فهو مطابق لقوله أولاً: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾، وأما ثلثه فإن قوله: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾، قد ينتهي النقص في القليل إلى أن يكون الوقت ثلث الليل. وأما قوله: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ فإنه إذا زاد على النصف قليلاً كان الوقت أقل من الثلثين، فيكون قد طابق قوله: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾﴾ شرحاً لمبهم ما دل عليه قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾. والمعنى على النصب: إن ربك يعلم أنك تقوم أقل من ثلثي الليل وتقوم نصفه وتقوم ثلثه. قال الفراء: وقراءة النصب أشبه بالصواب.

وأما قراءة الجرّ فالمعنى[1]: أنه قيام مختلف مرّة أدنى من الثلثين، ومرة أدنى من النصف، ومرة أدنى من الثلث. وذلك لتعذر معرفة البشر مقادير الزمان مع عذر النوم، وتقدير الزمان حقيقة إنّما هو لله تعالى، والبشر لا يطيقون ذلك.

والمعنى عليه: أنّ ربك يعلم أنك تقوم أقل من ثلثي الليل وأقل من نصفه وأقل من ثلثه.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ مرفوع معطوف[2] على الضمير في ﴿تَقُومُ﴾ وجاز ذلك للفصل بينهما؛ أي: ويقوم معك طائفة من أصحابك الذين آمنوا معك حين فرضية قيام الليل. و﴿مِّنَ﴾ تبيينية فلا دلالة فيه على أن قيام الليل لم يكن فرضاً على الجميع.

وحاصل المعنى: يتابعك طائفة في قيام الليل، وهم أصحابك. وفيه وعد لهم بالإحسان إليهم. وفي «قوت القلوب»: قد قرن الله تعالى قوام الليل برسوله المصطفى ﷺ، وجمعهم معه في شكر المعاملة وحسن الجزاء.

والمعنى: أي إنّ ربك يا محمد لعليم بأنك تقوم أقل من ثلثي الليل، وأكثر من النصف، وتقوم النصف وتقوم الثلث أنت وطائفة من صحبك المؤمنين حين فرض عليكم قيام الليل.

﴿وَٱللَّهُ﴾ وحده ﴿يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ أي[3]: يعلم مقادير الليل والنهار على

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

حقائقها، ويحصي بذلك دون غيره، وأنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة. قال عطاء: لا يفوته علم ما تفعلون؛ أي: إنه يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم القدر الذي تقومونه من الليل.

والمعنى: لا يقدر على تقديرهما ومعرفة مقادير ساعاتهما وأوقاتهما أحد أصلاً، فإن تقديم الاسم الجليل مبتدأ وبناء ﴿يُقَدِّرُ﴾ عليه موجب للاختصاص قطعاً. قال الراغب: التقدير: تبيين كميّة الشيء. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾ إلخ. إشارة إلى[1] ما أجرى من تكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل. أي: إدخال هذا في هذا إلخ. وأن ليس أحد يمكنه معرفة ساعاتهما، وتوفية حق العبادة منهما في وقت معلوم.

والحاصل: أن العالم بمقادير ساعات الليل والنهار على حقائقها هو الله، وأنتم تعلمون بالتحري والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ، فربما يقع منكم الخطأ في إصابتها، فتقومون أقل من المقادير المذكورة. ولذا قال: ﴿عَلِمَ﴾ الله سبحانه ﴿أَن﴾ أي: أن الشأن ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾؛ أي: لن تقدروا على تقدير الأوقات على حقائقها، ولن تستطيعوا ضبط الساعات أبداً. فالضمير[2] عائد على المصدر المفهوم من ﴿يُقَدِّرُ﴾؛ أي: علم أنّه لا يمكنكم إحصاء مقدار كل واحد من أجزاء الليل والنهار على الحقيقة، ولا يمكنكم تحصيل تلك المقادير على سبيل الظن إلا مع المشقة التامة. واحتج بعضهم بهذه الآية على وقوع التلكيف بما لا يطاق، فإنه تعالى قال: ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾؛ أي: لن تطيقوه، ثم إنه كلفهم بتقدير الساعات والقيام فيها حيث قال. ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ . . .﴾ إلخ. ويمكن أن يجاب عنه: بأنّ المراد صعوبته لا أنهم لا يقدرون عليه أصلاً، كما يقال: لا أطيق أن أنظر إلى فلان إذا استثقل النظر إليه.

أي[3]: علم أنه لن تطيقوا قيامه على هذه المقادير؛ إلا بشدة ومشقة، وفي ذلك حرج. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فخفف عليكم، وأسقط عنكم فرض قيام الليل. ﴿فَٱقْرَءُوا۟﴾؛ أي: فصلوا ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ لكم ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أي: من صلاة الليل؛ أي: فصلوا ما تيسر وسهل عليكم من صلاة الليل غير مقدرة بكونها في ثلث الليل أو نحوه، ولو قدر حلب شاة، فهذا إنما يكون أربع ركعات وقد يكون ركعتين. عبّر

---

(١) روح البيان.   (٢) روح البيان.   (٣) النسفي.

عن[1] الصلاة بالقراءة كما عبّر عنها بسائر أركانها على طريق إطلاق اسم الجزء على الكل مجازاً مرسلاً، فتبين أن التهجد كان واجباً على التخيير المذكور، فعسر عليهم القيام به فنسخ بهذه الآية، ثم نسخ نفس الوجوب المفهوم منها بالصلوات الخمس. وقيل: إنه نسخ في حق الأمة وبقي فرضاً في حقه ﷺ. والأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم في حقه ﷺ، وفي حق الأمة. وفيه تفضيل صلاة الليل على سائر التطوعات، فإن التطوع بما كان فرضاً في وقت ثمّ نسخ أفضل من التطوّع بما لم يكن فرضاً أصلاً، كما قالوا: صوم يوم عاشوراء أفضل لكونه فرضاً قبل فرضيّة رمضان. وفي الحديث: «فليصلّ أحدكم من الليل، فإذا غلب عليه النوم فليرقد».

ومعنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ...﴾ إلخ؛ أي:[2] ولا يعلم مقادير الليل والنهار إلاّ الله، وأما أنتم.. فلن تستطيعوا ضبط الأوقات ولا إحصاء الساعات، فتاب عليكم بالترخيص في ترك القيام المقدّر، وعفا عنكم ورفع هذه المشقّة. قال مقاتل وغيره: لمّا نزلت: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ إلخ، شق ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه؟ فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطىء، فانتفخت أقدامهم وامتقعت ألوانهم، فرحمهم الله، وخفف عنهم فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾.

والخلاصة: الله يعلم أنكم لن تحصوا ساعات الليل إحصاء تامًّا، فإذا زدتم على المفروض.. ثقل ذلك عليكم وكلفتم ما ليس بفرض، وإن نقصتم.. شق هذا عليكم. فتاب عليكم، ورجع بكم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عسر إلى يسر، وطلب إليكم أن تصلوا ما تيسر بالليل، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾؛ أي: فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل. قال الحسن: هو ما يقرأ في صلاة المغرب والعشاء. وقال السدّي: ما تيسّر منه هو مئة آية. وفي بعض الآثار: من قرأ مئة آية في ليلة.. لم يحاجّه القرآن. وعن قيس بن حازم قال: صليت خلف ابن عباس فقرأ في أول ركعة بالحمد لله رب العالمين، وأول آية من البقرة، ثم ركع، فلما انصرفنا أقبل علينا فقال: إنّ الله يقول: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾، أخرجه

---

(1) روح البيان. (2) المراغي.

الدارقطني، والبيهقي في «سننه».

ثم ذكر أعذاراً أخرى تسوغ هذا التخفيف، فقال: ﴿عَلِمَ﴾ الله سبحانه ﴿أَن﴾ أي: أنّ الشأن ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ استئناف مبيّن لحكمة أخرى داعية إلى الترخيص والتخفيف؛ أي: علم الله سبحانه أنّه سيوجد منكم مرضى لا يستطيعون الصلاة بالليل ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطف على ﴿مَّرْضَىٰ﴾؛ أي: وسيوجد منكم أقوام آخرون ﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يسافرون في نواحي الأرض وأرجائها للتجارة حال كونهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾؛ أي: يطلبون في سفرهم ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ ورزقه. وهو الربح ما يحتاجون إليه في معاشهم، فلا يطيقون قيام الليل. وفيه[1] تصريح بما علم التزاماً، وبيان أن ما حصلوه من الرزق من فضل الله. ومحل ﴿يَبْتَغُونَ﴾ النصب على أنه حال من ﴿يَضْرِبُونَ﴾. وقد عمّ ابتغاء الفضل تحصيل العلم، فإنه من أفضل المكاسب، وفيه أن معلم الخير وهو رسول الله ﷺ كان حاضراً عندهم وقت نزول الآية، فأين يذهبون؟ إلا أن يجعل آخر السورة مدنيًّا، فقد كانوا يهاجرون من مكة إلى المدينة لطلب العلم، وأيضاً إنَّ هذا بالنسبة إلى خصوص الخطاب. وأمّا بالنسبة إلى أهل القرن الثاني، ومن بعدهم فبقاء الحكم بلا نسخ يوقعهم في الحرج. وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: أنّه قال: حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة، وأفضل من شهود ألف جنازة، ومن عيادة ألف مريض. قيل: ومن قراءة القرآن؟ قيل: وهل تنفع قراءة القرآن بلا علم؟.

﴿و﴾ علم أن سيوجد أقوام ﴿آخرون﴾ منكم عطف على ﴿مَّرْضَىٰ﴾ أيضاً ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ الأعداء ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويجاهدونهم لإعلاء كلمة الله، فلا يطيقون قيام اللّيل. وسبيل الله هو ما يوصل إلى الأجر عند الله كالجهاد. وفيه تنبيه على أنه سيؤذن لهم في القتال مع الأعداء.

والمعنى[2]: أي علم سبحانه أنه سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار لا يستطيعون معها القيام بالليل كمرض وضرب في الأرض ابتغاء الرزق من فضل الله، وغزو في سبيل الله، فهؤلاء إذا لم يناموا في الليل تتوالى عليهم أسباب المشقّة، ويظهر عليهم آثار الجهد. وفي هذا إيماء إلى أنّه لا فرق بين الجهاد في قتال العدوّ

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

والجهاد في التجارة لنفع المسلمين. قال ابن مسعود: أيّما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن الإسلام صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن عمر رضي الله عنه قال: ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله أحب إلي من أن يأتيني، وأنا بين شعبتي جبل ألتمس من فضل الله، وتلا: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

ولما ذكر سبحانه ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص، ورفع وجوب القيام عن هذه الأمّة ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص، فقال: ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ والفاء: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا كان الأمر كما ذكر من الأعذار، وتعاضدت الدواعي إلى الترخيص، وأردتم بيان ما هو الأسهل عليكم.. فأقول لكم: اقرؤوا ما تيسّر منه؛ أي: صلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، أو فاقرؤوا في صلاة الليل ما خف عليكم وتيسر لكم منه من غير تحمل المشاقّ. وهذا[1] تأكيد للأوّل، فالأوّل مفرع على قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ إلخ، وهذا مفرع على قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ إلخ. فكل من المؤكّد والمؤكّد مفرع على حكمة.

﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: صلوا الصلاة المفروضة، وأدّوها في أوقاتها، وقوموها بأركانها وشروطها وآدابها، فلا تكون قلوبكم غافلةً، ولا أفعالكم خارجةً عمّا رسمه الدين. ﴿وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: أعطوا الزكاة الواجبة في أموالكم لمستحقيها. وقيل[2]: هي زكاة الفطر، إذ لم يكن بمكة زكاة غيرها، وإنما وجبت بعدها. ومن فسّرها بالزكاة المفروضة في الأموال جعل آخر السورة مدنيًّا. وذلك إن لم نجعلها من باب ما تأخر حكمه عن نزوله ففيه دلالة على أنه سينجز وعده لرسوله، ويقيم دينه، ويظهر حتى تفرض الزكاة وتؤدي.

﴿وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ أي: أنفقوا إنفاقاً حسناً لا منّ فيه، ولا أذى من أموالكم في سبيل الخير، والتطوع للإفراد والجماعات مما هو نافع لها في رقيّها

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

المدنيّ والاجتماعيّ، وسيبقى لكم جزاء ذلك عند ربكم. والقرض ضرب من القطع، وسمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضاً، لأنه مقروض مقطوع من ماله، أريد به الإنفاقات في سبيل الخيرات غير المفروض، فإنها كالقرض الذي لا خلف في أدائه. وفيه حث على التطوع، كما قال ﷺ «إنّ في المال حقّاً سوى الزكاة». على أحسن وجه، وهو إخراجها من أطيب الأموال وأكثرها نفعاً للفقراء بحسن النية وصفاء القلب إلى أحوج الصلحاء. ونحو الآية قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

ثم حبب في الصدقة وفعل الخيرات، فقال: ﴿وَمَا﴾ شرطية ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ في الدنيا ذخرا ﴿لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي خير كان مما ذكر ومما لم يذكر ﴿تَجِدُوهُ﴾ جواب الشرط، ولذا جزم؛ أي: تجدوا ثوابه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه في الآخرة ﴿هُوَ﴾ تأكيد للضمير ﴿خَيْرًا﴾ وأنفع لكم من متاع الدنيا ﴿وَ﴾ تجدوه هو ﴿أعظم﴾؛ أي: أكثر ﴿أَجْرًا﴾ وثواباً من الذي تؤخّرونه إلى الوصية عند الموت، أي: ما تنفقونه في حال الصحة أكثر ثواباً مما تنفقونه بالوصية بعد الموت. وقوله: ﴿خَيْرًا﴾[1]، ثاني مفعولي ﴿تَجِدُوهُ﴾ و﴿هُوَ﴾ تأكيد للمفعول الأول لـ ﴿تَجِدُوهُ﴾ وفصل بينه وبين الفعول الثاني وإن لم يقع بين معرفتين فإنّ أفعل في حكم المعرفة. وذلك يمتنع من حرف التعريف وقوله: ﴿وَأَعْظَمَ﴾ عطف على ﴿خَيْرًا﴾ و﴿أَجْرًا﴾ تمييز عن نسبة الفاعل. والأجر: ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً.

وقال بعضهم: المشهور أنّ وجد إذا كان بمعنى صادف يتعدى إلى مفعول واحد، وهو ههنا بمعناه لا بمعنى علم، فلا بُدَّ أن يكون ﴿خَيْرًا﴾ حالاً من الضمير. وفي الحديث: «اعلموا أنَّ كل امرىء على ما قدم قادم، وعلى ما خلف نادم». وعنه ﷺ: «إنّ العبد إذا مات. . قال الناس: ما خلف وقالت الملائكة: ما قدم». ومر عمر ببقيع الغرقد؛ أي: مقبرة المدينة، سمّيت بذلك لأنها كانت منبت الغرقد، وهو بالغين المعجمة اسم شجر. فقال: السلام عليكم أهل القبور أخبار ما عندنا أنّ نساءكم قد تزوجن، ودوركم قد سكنت، وأموالكم قد قسمت، فأجابه هاتف يا ابن الخطاب أخبار ما عندنا أن ما قدمناه وجدناه، وما أنفقناه فقد ربحناه، وما خلفنا

(١) روح البيان.

فقد خسرنا.

قَدِّمْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ مَوتِكَ صَالِحاً وَاعْمَلْ فَلَيْسَ إِلَى الْخُلُودِ سَبِيلُ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ بنصبهما، واحتمل هو أن يكون فصلاً، وأن يكون تأكيداً لضمير النصب في ﴿تَجِدُوهُ﴾. وقرأ أبو السمال، وابن السميفع ﴿هو خير وأعظم﴾ برفعهما على أن يكون ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، و﴿خيرٌ﴾ خبره، و﴿أَعْظَمُ﴾ معطوف عليه، والجملة في محل نصب على أنها ثاني مفعولي ﴿تَجِدُوهُ﴾، إن كان بمعنى علم، أو على الحال إن كان بمعنى صادف، كما مرّ آنفاً.

والمعنى: أي وما تقدّموا لأنفسكم في دار الدنيا من صدقة أو نفقة تنفقونها في سبيل الله، أو فعلِ طاعة من صلاة أو صيام أو حج، أو غير ذلك تجدوا ثوابه عند الله يوم القيامة خيراً مما أبقيتم في دار الدنيا، وأعظم منه عائدة لكم.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾؛ أي: سلوا الله المغفرة لذنوبكم في جميع أوقاتكم. وكافّة أحوالكم، فإن الإنسان قلما يخلو عن تفريط، وكان السلف الصالح يصلون إلى طلوع الفجر، ثم يجلسون للاستغفار إلى صلاة الصبح. واستحب[2] الاستغفار على الأسماء من القرآن مثل أن يقول: أستغفر الله إنه كان توّاباً، أستغفر الله إنّ الله غفور رحيم، أستغفرُ الله إنه كان غفّاراً، رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين، واغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة لمن استغفره يغفرما دون أن يشرك به. ﴿رَحِيمٌ﴾؛ أي؛ كثير الرحمة لمن استرحمه، فيبدل السيئات حسنات.

وفي «عين المعاني»:[3] غفور يستر على أهل الجهل والتقصير، رحيم يخفف عن أهل الجهل والتوقير. ومن عرف أنّه الغفور الذي لا يتعاظمه ذنب يغفر له أكثر من الاستغفار، وهو طلب المغفرة. ثم إن كان مع الانكسار.. فهو صحيح، وإن كان مع التوبة.. فهو كامل، وإن كان عريًا عنهما.. فهو باطل. ومن كتب سيد الاستغفار وجرعه لمن صعب عليه الموت انطلق لسانه وسهل عليه الموت، وقد جرب مراراً. وسيد الاستغفار قوله: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

عبدك، وأنا على عهدك، ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة، مبني على الضمّ، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عمّا فات ﴿أيُّ﴾ من الإضافة، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ نعت لـ ﴿أيُّ﴾ أو بدل منه، ﴿قُمِ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ منصوب على الظرف، متعلق بـ ﴿قُمِ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿قَلِيلٗا﴾ منصوب على الاستثناء، وفيه دليل على أنَّ المستثنى قد يكون مبهم المقدار. ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدل من ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، أو من ﴿قَلِيلٗا﴾، فإذا كان بدلاً من ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ كان الاستثناء منه، وكان المأمور بقيامه نصف الليل إلا قليلاً. ﴿أَوِ﴾ حرف عطف وتخيير ﴿ٱنقُصۡ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿قُمِ﴾ ﴿مِنۡهُ﴾ متعلق بـ ﴿ٱنقُصۡ﴾، ﴿قَلِيلًا﴾ مفعول به، ﴿أَوۡ﴾ حرف عطف وتخيير، ﴿زِدۡ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿ٱنقُصۡ﴾، ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق بـ ﴿زِدۡ﴾، والضمير في ﴿مِنۡهُ﴾ و﴿عَلَيۡهِ﴾ عائدان على النصف. ﴿وَرَتِّلِ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾، ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ مفعول به، ﴿تَرۡتِيلًا﴾ مفعول مطلق، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿سَنُلۡقِي﴾ السين حرف استقبال، ﴿نلقي﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿عَلَيۡكَ﴾ متعلق بـ ﴿نلقي﴾، ﴿قَوۡلٗا﴾ مفعول به، ﴿ثَقِيلًا﴾ صفة ﴿قَوۡلٗا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين الأمر بقيام الليل وبين تعليله بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ. . .﴾ إلخ. ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ ناصب واسمه ومضاف إليه، ﴿هِيَ﴾ ضمير فصل أو مبتدأ، ﴿أَشَدُّ﴾ خبر ﴿إنّ﴾ أو خبر المبتدأ، والجملة خبر ﴿إنّ﴾، ﴿وَطۡـٔٗا﴾ تمييز، ﴿وَأَقۡوَمُ﴾ معطوف على أشدّ ﴿قِيلًا﴾ تمييز، وجملة إنّ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بقيام الليل.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ

وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لَكَ﴾ خبرها مقدم، ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾ حال من ﴿سَبْحًا﴾؛ لأنه كان صفة نكرة قدمت عليها، ﴿سَبْحًا﴾ اسمها مؤخر، ﴿طَوِيلًا﴾ صفة ﴿سَبْحًا﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معترضة أيضاً. ﴿وَٱذْكُرِ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾. ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ مفعول به، ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿اذكر﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿تبتل﴾، ﴿تَبْتِيلًا﴾ مفعول مطلق، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ بالرفع خبر لمبتدأ محذوف ومضاف إليه؛ أي: هو ربّ المشرق، ويقرأ بالجرّ على أنه بدل من ﴿رَبِّكَ﴾. ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾ معطوف على المشرق. ﴿لَآ﴾ نافية تعمل عمل ﴿إنّ﴾ المكسورة، ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لا﴾ محذوف تقديره: موجود، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزَّه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع بدل من الضمير المستتر في خبر ﴿لا﴾ المحذوف، وجملة ﴿لَآ﴾ في محل النصب حال من رب الشمرق، أو معطوفة على جملته بعاطف مقدر. ﴿فَٱتَّخِذْهُ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت انفراده بالربوبية والألوهيّة، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: اتخذه يا محمد وكيلا. ﴿اتخذه وكيلا﴾ فعل أمر وفاعل مستتر ومفعولان، لأنّ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ من أخوات ظنّ، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ فعل وفاعل مستتر، معطوف على اتخذه، ﴿عَلَىٰ مَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿اصبر﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، والعائد محذوف؛ أي: على ما يقولونه. ﴿وَٱهْجُرْهُمْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿اصبر﴾، ﴿هَجْرًا﴾ مفعول مطلق، ﴿جَمِيلًا﴾ صفة هجرا، ﴿وَذَرْنِي﴾ الواو: عاطفة، ﴿ذر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والنون للوقاية، والياء: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة اصبر، ﴿وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ معطوف على الياء أو مفعول معه، ﴿أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ صفة لـ ﴿المكذبين﴾، منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾ فعل

أمر، ومفعول به وفاعل مستتر، معطوف على ﴿ذرني﴾، ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: إمهالاً قليلاً أو ظرف محذوف؛ أي: زماناً قليلاً. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لَدَيْنَآ﴾ خبرها مقدم على اسمها، ﴿أَنكَالًا﴾ اسمها مؤخّر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب مسوقة لتعليل الأمر بالإمهال. ﴿وَجَحِيمًا﴾ معطوف على ﴿أَنكَالًا﴾، ﴿وَطَعَامًا﴾ معطوف عليه أيضاً، ﴿ذَا غُصَّةٍ﴾ صفة لـ ﴿طعاما﴾، منصوب بالألف، لأنّه من الأسماء الستة، ﴿وَعَذَابًا﴾ معطوف على ﴿أَنكَالًا﴾ أيضاً، ﴿أَلِيمًا﴾ صفة ﴿عذاباً﴾، ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به ﴿لَدَيْنَآ﴾ أو بمحذوف صفة لـ ﴿عذاباً﴾؛ أي: عذابا واقعاً يوم ترجف، وجملة ﴿تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿وَٱلْجِبَالُ﴾ معطوف على ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿كَثِيبًا﴾ خبره، ﴿مَّهِيلًا﴾ صفة ﴿كَثِيبًا﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿تَرْجُفُ﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ
ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ
مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾
إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾.

﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿إِلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، ﴿رَسُولًا﴾ مفعول به، ﴿شَٰهِدًا﴾ صفة ﴿رَسُولًا﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿شَٰهِدًا﴾، ﴿كَمَآ﴾ جار ومجرور، صفة لمصدر محذوف تقديره: أرسلنا إليكم رسولاً إرسالاً كائنا كإرسالنا موسى إلى فرعون. و﴿ما﴾ مصدرية، وجملة ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ صلتها، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، ﴿رَسُولًا﴾ مفعول به، ﴿فَعَصَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿عصى فرعون الرسول﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾. ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أخذناه﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿فَعَصَىٰ﴾، ﴿أَخْذًا﴾ مفعول مطلق، ﴿وَبِيلًا﴾ صفة ﴿أَخْذًا﴾، ﴿فَكَيْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿كيف﴾ اسم استفهام في محل النصب على الحال من فاعل ﴿تَتَّقُونَ﴾، ﴿تَتَّقُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع بالنون، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِن﴾ حرف شرط، ﴿كَفَرْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم على كونه فعل شرط لها، والجواب محذوف دل عليه ما قبلها؛ أي:

إن دمتم على كفركم.. فكيف تتقون؟ وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة لاعتراضها بين الفعل ومفعوله، ﴿يَوْمًا﴾ مفعول به لـ ﴿تَتَّقُونَ﴾، ﴿يَجْعَلُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿يَوْمًا﴾، ﴿ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ مفعول به أوّل لـ ﴿جعل﴾، ﴿شِيبًا﴾ مفعول ثان، وجملة ﴿يَجْعَلُ﴾ في محل النصب صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ مبتدأ، ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾ خبره ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾، والجملة في محل النصب صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾، ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿شَآءَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ومفعول ﴿شَآءَ﴾ محذوف تقديره: فمن شاء النجاة. ﴿ٱتَّخَذَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ ﴿ٱتَّخَذَ﴾، ﴿سَبِيلًا﴾ مفعول أوّل له. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿أَنَّكَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَقُومُ﴾ خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسدّ مفعولي ﴿يَعْلَمُ﴾، ﴿أَدْنَىٰ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿تَقُومُ﴾ أي: وقتاً أدنى، ﴿مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ﴾ متعلق بـ ﴿أَدْنَىٰ﴾، ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ معطوفان على ﴿أَدْنَىٰ﴾، ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ معطوف على فاعل ﴿تقوم﴾ المستتر لوجود الفاصل، ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ ﴿طائفة﴾، ﴿مَعَكَ﴾ صلة الموصول. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، ﴿يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ معطوف على ﴿ٱلَّيْلَ﴾، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾.

﴿عَلِمَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾

مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: علم أنه. ﴿لَّن﴾ حرف نصب واستقبال، ﴿تُحْصُوهُ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿عَلِمَ أَن لَّن﴾، والواو: فاعل، والهاء: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر؛ لـ ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿عَلِمَ﴾. ﴿فَتَابَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿تابَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على ﴿علم﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿تاب﴾، ﴿فَاقْرَءُوا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿اقرؤوا﴾ فعل أمر، وفاعل معطوف على ﴿تاب﴾، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَيَسَّرَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ حال من فاعل ﴿تَيَسَّرَ﴾ أو متعلق به، ﴿عَلِمَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، مستأنف، ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. أي: علم أنه. ﴿سَيَكُونُ﴾ فعل مضارع ناقص، والسين حرف استقبال، ﴿مِنكُم﴾ خبر يكون مقدم، ﴿مَّرْضَىٰ﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿يكون﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخفّفة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿عَلِمَ﴾، ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ معطوف على ﴿مرضى﴾، وجملة ﴿يَضْرِبُونَ﴾ صفة ﴿آخرون﴾، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بـ ﴿يَضْرِبُونَ﴾، وجملة ﴿يَبْتَغُونَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿يَضْرِبُونَ﴾، ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ معطوف على ﴿آخرون﴾ الأول، وجملة ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ صفة لـ ﴿آخرون﴾، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُقَاتِلُونَ﴾.

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿فَاقْرَءُوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على علم أن ﴿سَيَكُونُ﴾. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به، وجملة ﴿تَيَسَّرَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾، ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بـ ﴿تَيَسَّرَ﴾ أو حال من فاعل ﴿تَيَسَّرَ﴾. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿اقرؤوا﴾، ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ معطوف عليه أيضاً، ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف عليه أيضاً، ﴿قَرْضًا﴾ مفعول مطلق، ﴿حَسَنًا﴾ صفة ﴿قَرْضًا﴾ ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية، ﴿مَا﴾ اسم شرط جازم في محل النصب، مفعول مقدم لـ ﴿تُقَدِّمُوا﴾، ﴿تُقَدِّمُوا﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿مَا﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿والواو﴾: فاعل، ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ متعلق بـ ﴿تُقَدِّمُوا﴾، ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ حال من الضمير المحذوف في ﴿تُقَدِّمُوا﴾، ﴿تَجِدُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، مجزوم بـ ﴿مَا﴾ على

كونه جواب الشرط، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَجِدُوهُ﴾، ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل أو تأكيد للضمير، ﴿خَيْرًا﴾ مفعول به ثان لـ ﴿تَجِدُوهُ﴾، ﴿وَأَعْظَمَ﴾ معطوف على ﴿خَيْرًا﴾، ﴿أَجْرًا﴾ تمييز، وجاز أن يكون ﴿هُوَ﴾ فصلاً، وإن لم يقع بين معرفتين؛ لأنّه وقع بين معرفة ونكرة، ولكن النكرة تشبه المعرفة لامتناعه من التعريف بأداة التعريف إذا كان معه من لفظاً أو تقديراً، وهنا من مقدرة؛ أي: خيراً مِمّا خلّفتم في الدنيا، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية معترضة. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿فَٱقْرَءُوا۟﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، ﴿رَّحِيمٌۢ﴾ خبر ثان، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب مسوقة لتعليل الأمر بالاستغفار.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ أصله: المتزمّل، وهو الذي تزمّل في ثيابه؛ أي: تلفّف بها، فأبدلت التاءزاياً، وأدغمت الزاي في الزاي. وفي «المصباح»: زمّلته بثوبه تزميلاً فتزمّل مثل: لفّفته فتلفّف، وزملت الشيء: حملته، ومنه قيل للبعير: زاملة بالهاء للمبالغة، لأنّه يحمل متاع المسافر. ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ أمر من قام يقوم؛ لأن الأمر قطعة من المضارع المجزوم الذي حذف منه حرف المضارعة، والجازم؛ لأنّ مضارعه المجزوم لم يقم، فإذا حذفت منه الجازم وحرف المضارعة يكون الباقي منه قم، فهو أمر ﴿ٱلَّيْلَ﴾ هو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أمر مأخوذ من لم يزد، لأنه الباقي من المضارع بعد حذف الجازم وحرف المضارعة. ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أمر من رتل يرتل ترتيلاً من باب فعل المضعف. قال في «الكشاف»: ترتيل القرآن: قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات حتى يجيء المتلو منه شبيهاً بالثغر المرتل، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، وأن لا يهزه هزا ولا يسرده سرداً، كما مرّ.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وناشئة الليل: القيام بعد النوم، فهي صفة لمحذوف؛ أي: إن النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها للعبادة؛ أي: ترتفع وتنهض، من نشأت السحابة إذا ارتفعت. وقيل: إنها مصدر بمعنى القيام من نشأ إذا قام ونهض، فتكون كالعافية. وفي «المختار»: وناشئة الليل أول ساعاته. وقيل: ما ينشأ فيه من الطاعات. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: انقطع إليه. و﴿تَبْتِيلًا﴾ مصدر على غير القياس، وهو

واقع موقع التبتّل؛ لأن مصدر تفعل تفعلاً نحو: تصرف تصرفاً وتكرم تكرّماً، وأما التبتيل فمصدر بَتَّلَ، نحو: صرَّف تصريفاً. قال في «الخلاصة»:

وغَـيْـرُ ذي ثَـلاثَـةٍ مَـقِـيْـسُ   مَـصْـدرُهُ كَـقُـدِّسَ ٱلـتَّـقْـدِيْـسُ

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ القيل: اسم مصدر من القول بمعناه بقلب الواو ياء أي أزيد من جهة السداد والاستقامة في المقال، ومن جهة الثبات والاستقرار على الصواب. ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ قال الراغب: السبح: المر السريع في الماء، أو في الهواء، استعير لمر النجوم في الفلك كقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، ولجرى الفرس كقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾، ولسرعة الذهاب في العمل كقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾. والمعنى هنا: إنَّ لك في النهار تقلباً وتصرفاً في مهام أمورك واشتغالاً بشواغلك، فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة فعليكها في الليل. ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ والنعمة بفتح النون: التنعم وبكسرها: الإنعام وما أنعم به عليك، وبالضم: السرور. والتنعُّم: استعمال ما فيه النعومة واللين من المأكولات والملبوسات. ﴿هَجْرًا جَمِيلًا﴾ الهجر الجميل: ما لا عتاب معه. ﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾؛ أي: اتركهم برفق وتأنٍّ، ولا تهتم بشأنهم. ﴿أَنكَالًا﴾ والأنكال: جمع نكل، والنكل بكسر النون وفتحها: القيد الثقيل. قالت الخنساء:

دعــاك فَـقَـطَّـعْـتَ أَنْـكَـالَـهُ   وقَـدْ كُـنَّ قَـبْـلَـكَ لاَ تُـقْـطَـعُ

﴿وَجَحِيمًا﴾ والجحيم: النار الشديدة الإيقاد. ﴿كَثِيبًا﴾؛ أي: رملاً مجتمعاً. ﴿مَّهِيلًا﴾؛ أي: سائلاً اجتماعه. أصله: مهيول اسم مفعول من هال الثلاثي يهيل هيلا نظير: باع يبيع بيعاً فهو مبيع، نقلت حركة الياء إلى الهاء فسكنت الياء فالتقى ساكنان: الياء وواو مفعول، فحذفت واو مفعول على الصحيح ثم كسرت الهاء لمناسبة الياء الساكنة، كما قالوا: مبيع. هذا على رأي سيبويه والجمهور. أما الأخفش فإنه يرى أن المحذوف عين الكلمة، ولما حذفت كسرت الفاء وقلبت الواو ياء فرقاً بين ذوات الواو وذوات الياء. والأول أولى. وفي «المختار»: هال الدقيق في الجراب: صبه من غير كيل، وكل شيء أرسله إرسالاً من رمل أو تراب أو طعام ونحوه فقد هاله فانهار؛ أي: جرى وانصبَّ، وبابه: باع، وأهال لغة فيه فهو مهال ومهيل. ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ أعاده بالألف واللام ليعلم أنه الأول، فكأنّه قال:

فعصاه فرعون جرياً على القاعدة المشهورة عندهم المذكورة في قول بعضهم:

ثُمَّ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُشْتَهَرَه إِذَا أَتَتْ نَكِرَةٌ مُكَرَّرَه
تَغَايَرَتْ وَإِنْ يُعَرَّفْ ثَانِي تَوَافَقَا كَذَا ٱلْمُعَرَّفَانِ

﴿وَبِيلًا﴾؛ أي: ثقيلاً شديداً لا يطاق، من قولهم: كلأٌ وبيلٌ، وضيمٌ لا يستمرأ لثقله، والوبيل: العصا الضخمة، ومنه: الوابل للمطر العظيم. وفي «المصباح»: وبلت السماء وبلا من باب وعد، ووبولاً: اشتد مطرها، وكان الأصل: وبل مطر السماء، فحذف للعلم به، ولهذا يقال للمطر: وابل، والوبيل: الوضيم وزنا ومعنى. ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ والولدان: جمع وليد، يقال لمن قرب عهده: بالولادة، وإن كان في الأصل يصح إطلاقه على من قرب عهده بها، ومن بَعُدَ. ﴿شِيبًا﴾ جمع أشيب، والشيب: بياض الشعر، وأصله: أن يكون بضم الشين كحمر في جمع أحمر؛ لأن الضم يقتضي الواو فكسرت لأجل صيانة الياء فرقاً بين مثل سود وبين مثل بيض. ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ قال في «الصحاح»: الوعد يستعمل في الخير والشر، فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا في الخير: الوعد والعدة، وفي الشر: الإيعاد والوعيد، انتهى. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ بوزن تفعلة، ووزن التفعلة غير مقيس في فعل الصحيح، بل هو مقيس في معتل اللام منه كزكّى تزكية وعزّى تعزية، وقياسه هنا التذكير ولكنه جاء على سبيل النيابة كفرّق تفرقة والقياس التفريق.

﴿تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ أصله: أدنى بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَثُلُثَهُۥ﴾ والثلث: أحد أجزاء الثلاثة، والجمع أثلاث. ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: طاوفة؛ لأنّه من طاف يطوف، قلبت الواو همزة حملاً للوصف على فعله طاف في الإعلال. ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ﴾ قال الراغب: التقدير: تبيين كمية الشيء، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ﴾... إلخ، إشارة إلى ما أجرى من تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل؛ أي: إدخال هذا في هذا، كما مرّ. ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أصله: تحصيوه، استثقلت الضمة على الياء فحذفت فلما سكنت حذفت لإلتقاء الساكنين، وضمت الصاد لمناسبة الياء. قال الراغب: الإحصاء: التحصيل بالعدد. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أصله: توب بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ جمع مريض كقتلى جمع قتيل، والمرض: الخروج عن الاعتدال الخاصّ بالإنسان. ﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من ضرب في الأرض إذ سافر فيها ابتغاء الزرق. قال الراغب: الضرب في الأرض: الذهاب فيها، وهو بالأرجل. ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يطلبون من رزق الله، أصله: يبتغيون استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فسكنت فحذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الغين لمناسبة الواو. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ والقرض: ضرب من القطع، وسمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط ردّ بدله قرضاً، لأنّه مقروض مقطوع من ماله. ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تجدوه فيه إعلال بالحذف، أصله: توجدونه، حذفت نون الرفع للجازم حيث وقع جواباً لـ ﴿ما﴾ الشرطية، وحذفت فاء الكلمة من المضارع اطراداً لوقوع الواو بين عدوتيها الياء المفتوحة والكسرة. ﴿أَجْرًا﴾ الأجر: ما يعود من ثواب العلم دنيويًّا كان أو أخرويًّا، كما مرّ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾ و﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾، وبين ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾ ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾، وبين ﴿ٱلَّيْلِ﴾ ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾.

ومنها: تأكيد الفعل بالمصدر في قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، وفي قوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، وفي قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾. زيادة في البيان والإيضاح وفي هذه الأمثلة أيضاً جناس الاشتقاق.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصليّة في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾، حيث استعير السبح الذي هو المر السريع في الماء لسرعة الذهاب في طلب المعاش، وقضاء حوائج الناس بجامع التردّد في كل منهما؛ أي: إن لك في النهار تصرّفاً وتقلّباً في المهمّات كما يتردّد السابح في الماء.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إشارة إلى هوله وشدّته، بحيث لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه.

ومنها: إفرد الجبال بالذكر في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ مع كونها من الأرض لكونها أجساماً عظاماً طوالاً، تظهر فيها الزلزلة أكثر من الأرض، ومن زلزلتها تبلغ القلوب الحناجر خوفاً من الوقوع.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ إشعاراً بتحقّق وقوعه، وفيه أيضاً التشبيه البليغ؛ أي: وكانت الجبال كالثيب المهيل؛ أي: كالرمل السائل في عدم التماسك.

ومنها: تخصيص هذا التشبيه بالجبال دون الأرض؛ لأنَّ ذلك خاصة لها، فإن الأرض تكون مقررة في مكانها بعد الرجفة حتى تبدل بغيرها، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ الآية.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾. ولو جرى على مقتضى السياق.. لقال: إنا أرسلنا إليهم. والغرض من هذا الالتفات التقريع والتوبيخ على عدم الإيمان.

ومنها: عدم تعيين الرسول فيه لعدم دخله في التشبيه.

ومنها: تخصيص فرعون دون ملئِهِ؛ لأنه من رؤساء أولى النعمة المترفهين المتكبرين، فبينه وبين قريش جهة جامعة ومشابهة حال ومناسبة سريرة.

ومنها: إعادة فرعون والرسول مظهرين تفظيعا لشأن عصيانه، وأن ذلك لكونه عصيان الرسول لا لكونه عصيان موسى.

ومنها: ترك ذكر أملاء فرعون إشارةً إلى أن كل واحد منهم كأنه فرعون في نفسه لتمرده.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾، حيث أسند الجعل إلى اليوم للمبالغة في شدّته، وإلا فنفس اليوم لا تأثير له ألبتة.

وفيه أيضاً الاستعارة التمثيلية بأن شبه اليوم في شّدة هوله بالزمان الذي يشيب الشبّان لكثرة همومه وأهواله.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: أقل منهما، فإطلاق الأدنى معنى الأقرب على الأقل مجاز مرسل من قبيل إطلاق الملزوم على اللازم، لما أن المسافة بين الشيئين إذا دنت.. قل ما بينهما من الأحياز والحدود، وإذا بعدت.. كثر ذلك، ذكره في «روح البيان».

ومنها: تقدم الاسم الجليل وبناء الخبر الفعليّ عليه في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ لإفادة الاختصاص قطعاً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ﴾، حيث استعار التوبة بمعنى رفع الحرج عن التائب للتخفيف والترخيص، فاشتقّ منه تاب بمعنى: خفّف ورخّص على طريقة الاستعارة التبعية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾؛ أي: صلوا ما تيسّر من صلاة الليل، حيث أطلق الجزء على الكلّ، لأنّ القراءة أحد أجزاء الصلاة؛ أي: أركانها.

ومنها: تصريح ما علم التزاماً في قوله: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِۙ﴾، لأنّه معلوم من قوله: ﴿يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن السفر لا يكون إلا لحاجة.

ومنها: التكرار بقوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾، تأكيداً للحث على قيام الليل بما تيسر.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ حيث شبه الإنفاق لوجه الله تعالى بالإقراض المعروف من حيث إن ما أنفقه يعود إليه مع زيادة، فاستعار له اسم المشبّه به، فاشتق من الإقراض بمعنى الإنفاق في سبيل الله ﴿أقرضوا﴾ بمعنى أنفقوا في سبيل الله على طريق الاستعارة التصريحية التبعية. وفيه أيضاً جناس الاشتقاق.

ومنها: ذكر العام بعد الخاصّ في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، حيث عمم بذكره بعد أن خصص بذكر الصلاة والزكاة والإقراض الحسن.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

خلاصة ما جاء في هذه السورة من أوامر ونواه

أمر النبي ﷺ بأشياء:

١ ـ أن يقوم من الليل ثلثه أو نصفه أو ثلثيه.

٢ ـ أن يقرأ القرآن بتؤدة وتمهل.

٣ ـ أن يذكر ربه ليلاً ونهاراً بالتحميد والتسبيح والصلاة، وأن يجرد نفسه عما سواه.

٤ ـ أن يتخذه وكيلاً يكل إليه أموره متى فعل ما يجب عليه.

٥ ـ أن يصبر على ما يقولون فيه من أنه ساحر أو شاعر، وفي ربه من أن له صاحبة وولداً، وأن يهجرهم هجراً جميلاً بمجانبتهم ومداراتهم، وأن يكل أمرهم إلى ربهم، فهو الذي يكافئهم، وسيرى عاقبة أمرهم وأمره.

٦ ـ أن يخفف القيام للصلاة بالليل بعد أن شق ذلك عليهم لأعذار كثيرة، والاكتفاء بما تيسّر من صلاة الليل، ففي الصلاة غنية للأمة مع إيتاء الزكاة ودوام الاستغفار[١].

والله أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير هذه السورة الكريمة ليلة السبت بين العشائين الليلة السابعة من شهر الربيع الآخر من شهور سنة ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة ٧/ ٤/ ١٤١٦ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيّة، وصلى الله وسلم على سيّدنا ومولانا محمد خاتم النبين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين.

سورة المدثر

سورة المدثر كلها مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة المزمل. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المدّثّر بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وقيل[1]: هي مكية إلا آية من آخرها.

وآياتها: ست وخمسون آية. وكلماتها: مئتان وخمس وخمسون كلمة. وحروفها: ألف حرف وعشرة أحرف.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم: سورة المدّثّر كلها محكمة إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾، نسخت بآية السيف.

مناسبتها لما قبلها[2]:

١ ـ أنّها متواخية مع السّورة قبلها في الافتتاح بنداء النبيّ ﷺ.

٢ ـ أن صدر كلتيهما نازل في قصة واحدة.

٣ ـ أن السابقة بدئت بالأمر بقيام الليل، وهو تكميل لنفسه ﷺ بعبادة خاصة، وهذه بدئت بالإنذار لغيره، وهو تكميل لسواه.

وقال أبو حيان[3]: مناسبتها لما قبلها: أن ما في قبلها ﴿ذرني والمكذّبين﴾ وفيه أيضاً ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾، فناسب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾، وناسب ذكر يوم القيامة بعد، وذكر بعض المكذبين في قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾.

والله أعلم

* * *

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ (٥) وَلَا
تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ
لَهُۥ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُۥ فَكَّرَ
وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ
(٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ
(٢٧) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ
وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن
يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَٱلْقَمَرِ (٣٢) وَٱلَّيْلِ إِذْ
أَدْبَرَ (٣٣) وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ
يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ (٣٩) فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ (٤٠) عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ
(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٤٢) قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا
نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ
(٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ
ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ (٥٣) كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ (٥٤)
فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ (٥٦)﴾.

المناسبة

قد تقدم بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، وأمّا آياتها فنزلت في قصة واحدة، فلا حاجة إلى البحث عن المناسبة بينها، فتأمل.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ سبب نزوله[1]: ما أخرجه الشيخان عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري نزلت، فاستبطنت الوادي، فنوديت، فلم أر أحداً، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، ففزعت فرجعت إلى أهلي، فقلت: دثّروني دثروني، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾... الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه الحاكم وغيره عن ابن عباس وصححه أن النبي ﷺ قام في المسجد يصلي، والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، وهو يقرأ: ﴿حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ۝٤﴾، فلما فطن النبي ﷺ إلى استماعه.. أعاد القراءة، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه. ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: صبأ والله الوليد، ولتصبونّ قريش كلهم، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزيناً، فقال الوليد: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ فقال: وما يمنعني أن أحزن، وهذه قريش يجمعون لك نفعة يعينونك على كبر سنّك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وأنك تدخل على ابن أبي كبشة، وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم، فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أنّي من أكثرهم مالاً وولداً؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام، ثم أتى مجلس قومه مع أبي جهل، فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قطّ؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهّن قطّ؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنّه كذّاب، فهل جربتم عليه شئيا من الكذب؟ قالوا: اللهم لا وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه. ثم قالوا: فما هو؟ قال: ما

---

(١) لباب النقول.

هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله، وولده ومواليه، فهو ساحر، وما يقوله سحر يأثره عن مسيلمة وأهل بابل، فارتجّ النادي فرحاً، وتفرّقوا معجبين بقوله، متعجبين منه. فنزلت هذه الآيات.

وقد كان الوليد يسمّى الوحيد، لأنه وحيد في قومه، فماله كثير فيه الزرع والضرع والتجارة، وكان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونعم وعبيد وجوار، وله عشرة أبناء يشهدون المحامل والمجامع أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام وعمارة، وقد بسط الله له الرزق، وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة في قومه، وكان يسمى ريحانة قريش.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن البراء رضي الله عنه: أن رهطاً من اليهود سألوا بعض أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم؟ فقال: الله ورسوله أعلم، فجاء جبريل، فأخبر النبي ﷺ، فنزل عليه ساعتئذٍ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما رواه ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أبا جهل لما سمع قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع أن ابن أبي كبشة يعني: «محمداً ﷺ يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدهم ـ الشجعان ـ أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟ فقال له أبو الأشدّ بن كلدة الجمحيّ وكان شديد البطش: أيهولنكم التسعة عشر أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنّة، يقول ذلك مستهزئاً. وفي رواية: أن الحارث بن كلدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين، فنزل قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ أي: لم نجعلهم رجالاً فيتعاطون مغالبتهم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر عن السدي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالوا: لئن كان محمد صادقاً.. فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة

(١) لباب النقول.

وأمنة من النار، فنزلت: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾.

وروي: أنّ أبا جهل وجماعة من قريش قالوا: يا محمد لن نؤمن بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان، ونؤمر فيه باتباعك.

التفسير وأوجه القراءة

قال الواحدي: قال المفسّرون: لما بدىء رسول الله ﷺ بالوحي أتاه جبريل، فرآه رسول الله ﷺ على كرسيّ بين السماء والأرض كالنور المتلألىء، ففزع ووقع مغشياً عليه، فلمّا أفاق دخل على خديجة ودعا بماء، فصبه عليه وقال: «دثّروني دثّروني، فدثّروه بقطيفة». فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾؛ أي: يا أيها المتلفف بالدثار، وهو ما يلبس فوق الشعار الذي يلي الجسد، لأنه تدثّر فوق شعاره بقطيفة.

قرأ الجمهور(١) بتشديد الدال والثاء، أصله: المتدثّر فأدغم التاء في الدال. وقرأ أبيّ ﴿المتدثّر﴾ على الأصل. وقرأ عكرمة بتخفيف الدال، كما قرأ بتخفيف الزاي في المزمل، أي: الذي دثر نفسه. وعن عكرمة أيضاً فتح الثاء المثلثة اسم مفعول، قال عكرمة: والمعنى: يا أيها المدّثّر بالنبوة وأثقالها. قال ابن العربيّ: وهذا مجاز بعيد، لأنّه لم يكن نبيّاً إذ ذاك.

أي: يا أيها المتلفّف المتغشّي بدثاره ﴿قُمْ﴾ من مضجعك ﴿فَأَنذِرْ﴾؛ أي: خوّف الناس كافّةً من عذاب الله ووقائعه إن لم يؤمنوا، أو خوف أهل مكة من عذاب الله إن لم يسلموا. وقيل: قم قيام عزم وتصميم، وأعلم الناس بعذاب الله وانتقامه إن لم يوحّدوه ويصدّقوك، لأنّه ﷺ مرسل إلى الناس كافة، فلم تكن ملة من الملل إلا وقد بلغتها دعوته وقرعها إنذاره. وأفرد(٢) الإنذار بالذكر مع أنه أرسل بشيراً أيضاً؛ لأن التخلية بالمعجمة قبل التحلية بالمهملة، وكان الناس وقتئذٍ عاصين مستحقّين للتخويف، فكان أوّل الأمر بالإنذار.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾؛ أي: وخصّص ربك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء اعتقاداً وقولاً وعظمةً عمّا يقول فيه عبدة الأوثان وسائر الظالمين. وروي: أنه لمّا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

نزل قال رسول الله ﷺ: الله أكبر، فكبّرت خديجة أيضاً وفرحت، وأيقنت أنّه الوحي؛ لأن الشيطان لا يأمر بالتكبير ونحوه. ودخل فيه تكبير الصلاة وإن لم يكن في أوائل النبوة صلاة.

والفاء لمعنى الشرط كأنّه قيل: مهما يكن من شيء.. فلا تدع تكبيره ووصفه بالكبرياء، أو للدلالة على أن المقصود الأول من الأمر بالقيام أن يكبر ربه وينزهه عن الشرك، فإن أول ما يجب معرفة الصانع، ثم تنزيهه عما لا يليق بجنابه. فالفاء على هذا تعقيبية لا جزائية، وقال ابن جنيّ: الفاء: فيه زائدة كما في قولك: زيداً فاضرب؛ أي: زيداً اضرب.

وقال ابن العربي[1]: المراد به تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأضداد والأنداد، والأصنام، ولا يتخذ وليًّا غيره ولا يعبد سواه، ولا يرى لغيره فعلاً إلاّ له ولا نعمة إلا منه.

والمعنى: أي وخصّ ربك وسيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقده الكفّار وأعظم من أن يكون له صاحبةٌ أو ولدٌ.

وحاصل المعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾؛ أي:[2] يا أيّها الذي تدثّر بثيابه رعباً وفرقاً من رؤية الملك عند نزول الوحي أوّل مرّة شمر عن ساعد الجد، وأنذر أهل مكة عذاب يوم عظيم، وادعهم إلى معرفة الحق لينجوا من هول ذلك اليوم الذي تذهل فيه كلّ مرضعة عمّا أرضعت، والداعي إلى ربّه الكبير المتعالي لا يتم له ذلك إلا إذا كان متخلّقاً بجميل الخلال وحميد الصفات، ومن ثم قال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾؛ أي: عظم ربك ومالك أمورك بعبادته والرغبة إليه دون غيره من الآلهة والأنداد. ونحو الآية قوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ مما ليس بطاهر بحفظها وصيانتها من النجاسات وغسلها بالماء الطاهر بعد تلطّخها، فإنّه قبيح بالمؤمن الطيّب أن يحمل خبيثاً سواء كان في حال الصلاة أو في غيرها، وبتقصيرها أيضاً فإنّ طولها يؤدي إلى جرّ الذيول على

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

القاذورات، فيكون التطهير كناية عن التقصير، لأنّه من لوازمه.

ومعنى التقصير[1]: أن تكون إلى أنصاف الساقين، أو إلى الكعب، فإنه ﷺ جعل غاية طول الإزار إلى أعلى الكعب، وتوعّد على ما تحته بالنار، فإنّه أتقىٰ وأنقى وأبقى، وهو أوّل ما أمر به ﷺ من رفض العادات المذمومة، فإنّ المشركين ما كانوا يصونون ثيابهم من النجاسات. وفيه انتقال من تطهير الباطن إلى تطهير الظاهر؛ لأن الغالب أن من نقى باطنه أبى إلا اجتناب الخبث وإيثار الطهارة في كل شيء، فإن الدين مبنيّ على النظافة، ولا يدخل الجنة إلا نظيف، والله يحب الناسك النظيف.

قال الراغب: الطهارة ضربان: طهارة جسم وطهارة نفس، وقد حمل عليهما عامّة الآيات. وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ قيل معناه: نفسك نزهها عن المعايب انتهى. أو طهر قلبك كما في «القاموس» أو أخلاقك فحسّن، قاله الحسن. وفي الحديث: حسّن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار، أو عملك فأصلح كما في «الكواشي». ومنه: الحديث «يحشر المرء في ثوبيه اللذين مات فيهما». أي: عمليه الخبيث والطيب، كما في «عين المعاني». وإنه ليبعث في ثيابه؛ أي: أعماله كما في «القاموس». أو أهلك فطهّرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب. والعرب تسمّي الأهل ثوباً ولباساً، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾، كما في «كشف الأسرار».

وسئل[2] ابن عباس عن ذلك؟ فقال: لا تلبسها على معصية، ولا عن غدرة ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن مسلمة الثقفي؟

فَإِنِّيْ بِحَمْدِ الله لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ ... لَبِسْتُ وَلاَ مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

والعرب تقول عن الرجل إذا نكث العهد، ولم يف به: إنه لدنس الثياب، وإذا وفى ولم يغدر إنه لطاهر الثوب. قال السموءل بن عاديا اليهودي:

إِذَا ٱلْمَرءُ لَمْ يَدْنسْ مِنَ ٱللُّؤْمِ عِرْضُهُ ... فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيْلُ

ولا تزال هذه المعاني مستعملة في ديار مصر وغيرها، فيقولون: فلان طاهر

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

الذيل يريدون أنّه لا يلامس أجنبية. ويرى جمع من الأئمة أن المراد بطهارة الثياب غسلها بالماء، إن كانت نجسة، وروي عن كثير من الصحابة والتابعين، وإليه ذهب الشافعيّ، فأوجب غسل النجاسة من ثياب المصلّي.

وقد استبان للمشتغلين[1] بأصول التشريع، وعلماء الاجتماع من الأوربّيين أن أكثر الناس قذراً في أجسامهم وثيابهم أكثرهم ذنوباً وأطهرهم أبداناً وثياباً أبعدهم من الذنوب. ومن ثم أمروا المسجونين بكثرة الاستحمام، ونظافة الثياب فحسنت أخلاقهم، وخرجوا من السجون، وهم أقرب إلى الأخلاق الفاضلة منهم إلى الرذائل. وقال الاستاذ: «بِتْنَامُ» في كتابه «أصول الشرائع»: إنَّ كثرة الطهارة في دين الإسلام من ما تدعو معتنقيه إلى رقيّ الأخلاق والفضيلة إذا قاموا باتّباع أوامره خير قيلهم، ومن هذا تعلم السرّ في قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾.

﴿وَالرُّجْزَ﴾؛ أي: الأوثان ﴿فَاهْجُرْ﴾؛ أي: اترك؛ أي: وارفض عبادة الأوثان واتركها، ولا تقربها، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾. وقيل: الرجز: العذاب، أي: واهجر العذاب بالثبات على هجر ما يؤدّي إليه من المآثم، سمّي ما يؤدّي إلى العذاب رجزاً على تسمية المسبّب باسم سببه، والمراد الدوام على الهجر؛ لأنّه كان بريئاً من عبادة الأوثان ونحوها.

وقرأ الجمهور[2] ﴿والرجز﴾ بكسر الراء، وهي لغة قريش. وقرأ الحسن، ومجاهد، والسلميّ، وأبو جعفر، وأبو شيبة، وابن محيصن، وابن وثّاب، وقتادة، والنخعيّ، وابن أبي إسحاق، والأعرج، وحفص بضمّها. فقيل: هما بمعنى واحد يراد بهما الأصنام والأوثان. وقيل: الكسر للبين والنقائص والفجور، والضمّ لصنمين إساف ونائلة. وقال عكرمة ومجاهد والزهري: للأصنام عموماً، وقال ابن عباس: الرجز: السخط؛ أي: اهجر ما يؤدي إليه. وقال الحسن: كلّ معصية، والمعنى في الأمر: أثبت ودم على هجره؛ لأنّه ﷺ كان بريئاً منه، كما مرّ آنفاً.

والمعنى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ أي: اهجر المعاصي والآثام الموصلة إلى العذاب في الدنيا والآخرة، فإن النفس متى طهرت منها كانت مستعدة للإفاضة على

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

غيرها، وأقبلت بإصغاء وشوق إلى سماع ما يقول الداعي، وقد جرت العادة أن الداعي تصادفه عقبتان:

١ ـ الغرور والفخر والعظمة، فيقول: أنا مسد للنعم إليكم ومفيض للخير عليكم.

٢ ـ الأعداء وهؤلاء يؤذونه، ويتربصون به الدوائر، ويتتبعونه في كل مكان، ويتألبون عليه ليل نهار، وذلك من أكبر العوامل المثبطة للدعاة التي تجعلهم يكرّون راجعين، ويقولون: ما لنا ولقوم لا يسمعون قولنا، ولنبتعد عن الناس، فإنهم لا يعرفون قدر النعم، ولا يشكرون المنعمين.

ومن ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ برفع[1] ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾، لأنّه مستقبل في معنى الحال؛ أي: ولا تعط حال كونك مستكثراً؛ أي: رائياً لما تعطيه كثيراً أو طالباً للكثير على أنه نهي عن الاستغزار، وهو أن يهب شيئاً وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر مما أعطاه، وهو جائز، ومنه الحديث: «المستغزر يثاب من هبته»؛ أي: يعوض منها. والغزارة بالغين المعجمة وتقديم الزاي: الكثرة، فالنهي إمّا للتحريم، وهو خاص برسول الله ﷺ لعلوّ منصبه في الأخلاق الحسنة، ومن ذلك حلت الزكاة لفقراء أمته، ولم تحل له، ولأهله لشرفه أو للتنزيه للكلّ؛ أي: له ولأمّته.

قرأ الجمهور[2]: ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ بفكّ الإدغام. وقرأ الحسن، وأبو السمال والأشهب العقيليّ بالإدغام. قال ابن عباس وغيره: لا تعط عطاء لتعطى أكثر منه كأنّه من قولهم: منْ إذا أعطى. قال الضحاك: هذا خاص به ﷺ ومباح ذلك لأمته، لكنه لا أجر لهم. وعن ابن عباس أيضاً: لا تقل دعوت فلم أجب. وقرأ الجمهور[3]: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ بالرفع على أنه حال؛ أي: ولا تمنن حال كونك مستكثراً؛ أي: رائياً ما أعطيته كثيراً. وقيل: على حذف (أن)، والأصل: ولا تمنن أن تستكثر؛ أي: ولا تعط لأجل أن تأخذ كثيراً من الموهوب له بدل هبتك، فلما حذفت (أن) رفع الفعل، قال الكسائي: فإذا حذف (أن) رفع الفعل. وقرأ يحيى بن

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) الشوكاني.

وثاب، والحسن، والأعمش ﴿تستكثر﴾ بالنصب على حذف (أن) وبقاء عملها، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود ﴿ولا تمنن أن تستكثر﴾ بزيادة (أن). وقرأ الحسن أيضاً، وابن أبي عبلة ﴿تَسْتَكْثِرْ﴾ بالجزم على أنه بدل من ﴿تَمْنُن﴾ كما في قوله تعالى: ﴿يلق أثاما يضاعف له العذاب﴾، وقول الشاعر:

مَتَى تَأْتِنَا تَلْمُمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا   تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا

أو بالجزم على إجراء الوصل مجرى الوقف، كما في قول امرىء القيس:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ   إِثْماً مِنَ اللهِ وَلاَ وَاغِلِ

بتسكين أشرب. وقد اعترض على هذه القراءة؛ لأن قوله: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ لا يصح أن يكون بدلاً من ﴿تَمْنُن﴾؛ لأنّ المنَّ غير الاستكثار، ولا يصح أن يكون جواباً للنهي. واختلف السلف في معنى الآية، فقيل المعنى: لا تمنن على ربك بما تتحمله من أعباء النبوة كالذي يستكثر ما يتحمله بسبب الغير. وقيل: ولا تمنن على أصحابك بما علمتهم وبلغتهم من الوحي مستكثراً ذلك عليهم. وقيل: لا تعط عطيّة تلتمس فيها أفضل منها، قاله عكرمة وقتادة. وقال مجاهد: لا تضعف أن تستكثر من الخير من قولهم: حبل متين إذا كان ضعيفاً. وقال الربيع بن أنس: لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير. وقال ابن كيسان: لا تستكثر عملاً فتراه من نفسك إنما عملك منة من الله عليك، إذ جعل لك سبيلاً إلى عبادته. وقيل: لا تمنن بالنبوة والقرآن على الناس، فتأخذ منهم أجراً تستكثره. وقال محمد بن كعب: لا تعط مالك مصانعة. وقال زيد بن أسلم: إذا أعطيت عطيّة فأعطها لربك.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾؛ أي: ولوجه ربك فاصبر على طاعته وعبادته. وقيل: فاصبر لحكم ربك، ولا تتألم من أذية المشركين، فإن المأمور بالتبليغ لا يخلو عن أذى الناس، ولكن بالصبر يستحيل المر حلواً وبالتمرن يحصل الذوق. وقال ابن زيد: حملت أمراً عظيماً، فحاربتك العرب والعجم فاصبر عليه لله. وقيل: اصبر تحت موارد القضاء لله، وقيل: اصبر على البلوى، وقيل: على الأوامر والنواهي.

والخلاصة: لا تجزع من أذى من خالفك.

ولما أتم إرشاد رسوله أردفه بوعيد الأشقياء، فقال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ ونفخ ﴿فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ والصور نفخة البعث ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الوقت؛ أي: وقت نقر الناقور ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل

من اسم الإشارة؛ أي: يوم إذ نقر في الناقور ﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾؛ أي: شديد على الكل من المؤمنين والكافرين، كما روي: أن الأنبياء يفزعون يومئذٍ، وأن الولدان يشيبون إلا أنه يكون هول الكفار فيه أشد. وذلك قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠﴾ وعلى المؤمنين يسير.

والناقور[1]: فاعول بمعنى ما ينقر وينفخ فيه، والمراد به الصور، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل مرة للإصعاق، وأخرى للإحياء. فالناقور فاعول من النقر بمعنى التصويت، وأصله: القرع الذي هو سبب الصوت. يعني: جعل الشيء بحيث يظهر منه الصوت بنوع قرع. والمراد هنا: النفخ؛ إذ هو نوع ضرب للهواء الخارج من الحلقوم، والمعنى؛ أي: فإذا نفخ في الصور. والفاء للسببية؛ أي: سببية ما بعدها لما قبلها دون العكس، فهي بمعنى اللام السببيّة كأنّه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك عليه حين ينفخ في الصور ويومئذٍ تنال الجزاء الحسن والنعيم المقيم.

والعامل في ﴿إذا﴾ ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الوقت الذي هو ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ نقر في الناقور ﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: يوم عسر فيه الأمر على الكافرين من جهة العذاب وسوء الحساب. وذلك إشارة إلى وقت النقر. وهو مبتدأ، و﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بدل منه مبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن، وهو ﴿إذ﴾ والتقدير: إذ نقر في، والخبر يوم عسير، و﴿عَلَى﴾ متعلقة بـ ﴿عَسِيرٌ﴾، دل عليه قول تعالى: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾، كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسر عليهم.

﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ خبر بعد خبر وتأكيد لعسره عليهم لقطع احتمال يسره بوجه دون وجه مشعر بيسره على المؤمنين. ثم المراد به يوم النفخة الثانية التي يحيى الناس عندها، إذ هي التي يخص عسرها بالكافرين جميعاً، وأما النفخة الأولى فهي مختصّة بمن كان حيّاً عند وقوعها، وقد جاء في «الأخبار»: «إنّ في الصور ثقباً بعدد الأرواح كلّها، وإنها تجمع في تلك الثقب في النفخة الثانية، فيخرج عند النفخ من كل ثقبة روح إلى الجسد الذي نزع منه، فيعود الجسد حيّاً بإذن الله». وفي

---

(١) روح البيان.

الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم قرنه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر أن ينفخ فيه، فقالوا: كيف نصنع؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا».

ومعنى ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾؛ أي: يومهم عسير لا يسر فيه، ولا فيما بعده على خلاف ما جرت به العادة من أن كل عسر بعده يسر، وعسره عليهم أنهم يناقشون الحساب ويعطون كتبهم بشمائلهم وتسود وجوههم، وتتكلم جوارحهم فيفتضحون على رؤوس الأشهاد. وأمّا المؤمنون فإنه عليهم يسير، لا يناقشون فيه حساباً، ويمشون بيض الوجوه.

وقوله: ﴿ذَرْنِي﴾؛ أي: دعني واتركني ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ ه حالة كونه ﴿وَحِيدًا﴾؛ أي: منفرداً لا مال له ولا ولد. تهديد ووعيد؛ أي: دعني والذي خلقته حال كونه وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد، وهذا المعنى على أن ﴿وَحِيدًا﴾ حال من ﴿مَنْ﴾ الموصولة أو من الضمير العائد إليها المحذوف، ويحتمل أن يكون حالاً من الياء في ﴿ذَرْنِي﴾؛ أي: ذرني وحدي معه، فإني أكفيكه في الانتقام منه أو من التاء في ﴿خَلَقْتُ﴾؛ أي: خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد. والأوّل أولى. قال مقاتل: يقول الله: خلّ بيني وبينه فأنا أنفرد بهلكته. قال المفسرون: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، وإنّما خصّ بالذكر لمزيد كفره وعظيم جحوده لنعم الله عليه، وكان يلقّب في قومه بالوحيد زعماً منهم أنّه لا نظير له في وجاهته، ولا في ماله، وكان يفتخر بنفسه، ويقول: أنا الوحيد بن الوحيد ليس لي في العرب نظير، لا لأبي المغيرة نظير أيضاً. فسمّاه الله بالوحيد تهكّماً به واستهزاء بلقبه كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾، وصرفاً له عن الغرض الذي يؤمونه من مدحه إلى جهة ذمّه بكونه وحيداً من المال والولد، أو وحيداً من أبيه ونسبه، لأنّه كان زنيماً، وهو من ألحق بالقوم وليس منهم، كما مرّ. أو وحيداً في الشرارة والخيانة والدناءة.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢﴾؛ أي: مبسوطاً كثيراً، فكان له زرع وضرع وتجارة كثيرة. قال مقاتل: كان له بستان لا ينقطع ثمره شتاءً ولا صيفاً. وقال ابن عباس: كان له مال ممدود بين مكة والطائف من الإبل والخيل، والغنم والبساتين

الكثيرة التي لا تنقطع ثمارها صيفاً ولا شتاءً. وقال الزجاج[1]: مالاً غير منقطع عنه.

وقد كان الوليد بن المغيرة مشهوراً بكثرة المال على اختلاف أنواعه. قيل: كان يحصل له من غلّة أمواله ألف ألف دينار، وقيل: أربعة آلاف دينار، وقيل: ألف دينار. ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: وجعلت له بنين حضوراً بمكة معه يسافرون، ولا يحتاجون إلى التفرق لطلب الرزق لكثرة مال أبيهم، فكان مستأنساً بهم طيّب القلب بشهودهم، لا يفارقونه للتصرّف في عمل أو تجارة لكونهم مكفيّين لوفور نعمهم وكثرة خدمهم أو حضوراً معه في الأندية والمحافل لوجاهتهم واعتبارهم. وقيل معنى ﴿شُهُودًا﴾ إذا ذكر ذكروا معه. قال الضحاك: كانوا سبعة ولدوا بمكة، وخمسة ولدوا بالطائف. وقال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر ولداً. وقيل: كان له عشر بنين أسلم منهم ثلاثة. قال السهيليّ: هم: هشام بن الوليد، والوليد بن الوليد، وخالد بن الوليد الذي يقال له: سيف الله، وسيف رسوله. وأمّا غير هؤلاء ممن مات منهم على دين الجاهلية، فلم نسمّه انتهى. فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك، وهو فقير.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾؛ أي: بسطت له بسطاً، ووسعت له توسيعاً في العيش وطول العمر والرياسة في قريش والجاه العريض، فأتممت[2] عليه النعمة، فإنّ اجتماع المال والجاه هو الكمال عند أهل الدنيا، ولذا كان يلقب ريحانة قريش، والريحان: نبت طيب الرائحة، والولد والرزق. والتمهيد عند العرب: التوطئة، ومنه: مهد الصبيّ. وقال مجاهد: إنه المال بعضه فوق بعض، كما يمهد الفراش. ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾ ويرجو ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾ له على ما أوتيه من المال والولد. و﴿ثُمَّ﴾ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه، إمّا لأنّه لا مزيد على ما أوتيه سعة كثرة. يعني: أنه أوتي غاية ما أوتي عادة لأمثاله، أو لأنه مناف لما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعم؛ أي: لا يجمع له بعد اليوم بين الكفر والمزيد من النعم.

والمعنى: أي ثم بعد هذا كله يرجو الزيادة في ماله وولده لكثرة حرصه، وشدّة طمعه مع كفرانه للنعم وإشراكه بالله. وفي هذا استنكار لشديد حرصه وتكالبه

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

على جمع حطام الدنيا، كما هو شأن الإنسان، فقد جاء في الحديث: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب.. لتمنى لهما ثالثاً»، وجاء في الخبر: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال». وروي عن الحسن: أنّه كان يقول: إن كان محمد صادقاً.. فما خلقت الجنة إلا لي.

ثم أيأسه تعالى وقطع رجاءه، فقال: ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر له عن طمعه الفارغ، وقطع لرجائه الخائب، فيكون متصلاً بما قبله أو لا أفعل ولا أزيده. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾؛ أي: معانداً دافعاً منكراً لآياتنا القرآنية كافراً بما أنزلناه منها على رسولنا، يقال: عند إذا خالف الحق، ورده عارفاً به فهو عنيد وعاند؛ أي: منكر. والعنيد هنا بمعنى المعاند كالجليس والأكيل والعشير بمعنى المجالس والمؤاكل والمعاشر، وهو تعليل لما قبله على وجه الاستئناف التحقيقيّ، فإن معاندة آيات المنعم، وهي الآيات القرآنية مع وضوحها وكفران نعمه مع سبوغها مما يوجب حرمانه بالكلية، وإنما أوتي ما أوتي استدراجاً له.

وتقديم[1] ﴿لِأَيَٰتِنَا﴾ على متعلقه، وهو ﴿عَنِيدًا﴾ يدلُّ على التخصيص، فتخصيص العناد بها مع كونه تاركاً للعناد في سائر الأشياء يدل على غاية الخسران. وفي الآية إيماء إلى أن كفره كفر عناد، فهو يعرف الحقَّ بقلبه وينكره بلسانه. وهذا أقبح أنواع الكفر.

ثم بين ما يفعله به يوم القيامة، فقال: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾؛ أي: سأكلف ذلك العنيد يوم القيامة بدل ما يطمعه من الزيادة ﴿صَعُودًا﴾؛ أي: ارتقاء عقبة شاقّة المصعد، بحيث تغشاه شدّة ومشقّة من جميع الجوانب. فالكلام على حذف مضاف كما قدّرناه على أن يكون الإرهاق معناه: تكليف الشيء العظيم المشقّة بحيث تغشى المكلف شدّته ومشقته من جميع الجوانب. قال الغزالي رحمه الله: معناه: سأكلفه حالة تصعد فيها نفسه للنزع، وإن لم يتعقبه موت انتهى. وهو مثال لما يلقى من العذاب الصعب الذي لا يطاق، ويجوز أن يحمل على حقيقته كما قال ﷺ: «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوى كذا أبداً»؛ أي؛ سبعين عاماً؛ لأنّ الخريف آخر السنة، فيه تتمّ الثمار وتدرك، فصار بذلك كأنّه العام كلّه.

---

(١) روح البيان.

قال في «القاموس»: الخريف كأمير: ثلاثة أشهر بين القيظ والشتاء، تخترف فيها الثمار؛ أي: تجنى. وعنه ﷺ: «يكلف أن يصعد عقبة في النار، كلما وضع يده عليها ذابت، فإذا رفعها عادت، وإذا وضع رجله ذابت، فإذا رفعها عادت».

والمراد أنه سيلقى العذاب الشديد الذي لا يطاق، وقد جعل الله ما يسوق إليه من المصائب وأنواع المشاق شبيهاً بمن يكلّف صعود الجبال الوعرة الشاقّة. قال قتادة: سيكلّف عذاباً لا راحة فيه.

ثم حكى كيفية عناده فقال: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨﴾ تعليل لما تقدم من الوعيد؛ أي: إنه فكر في شأن النبي ﷺ، وفي شأن ما أنزل عليه من القرآن، وقدّر في نفسه واختلق ما يقول في طعنهما من المقال، وهيأه مما يوافق غرض قريش.

والخلاصة: أنه فكر وتروى ماذا يقول فيه، وبماذا يصفه به حين سئل عن ذلك؟

ثم عجب من تقديره وإصابته غرضهم، فقال: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩﴾؛ أي: لعن وعذب كيف قدر؛ أي: على أيّ حال قدر ما قدر من الكلام فيه مما لا يصح تقديره، وما لا يسوغ أن يقدره عاقل، كما يقال في الكلام: لأضربنه كيف صنع؛ أي: لعن على أيّ حال كانت منه؛ أي: فلعن في الدنيا على أيّ كيفية أوقع تقديره. والتكرير في قوله: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ للتأكيد والمبالغة في التشنيع؛ أي: ثم لعن فيما بعد الموت في البرزخ والقيامة على أيّ حال كانت تقديره، والمراد من اللعن: الدعاء عليه بالطرد والإبعاد بسبب ما قدّره، وقاله في النبيّ ﷺ من أنّه ساحر، كما مرّ في أسباب النزول.

وهذا أسلوب يراد به التعجيب والثناء على المحدَّث عنه. تقول العرب: فلان قاتله الله ما أشجعه وأخزاه الله ما أشعره، يريدون أنّه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد، ويدعو عليه حاسده بذلك. وعلى هذا النحو جاء قوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

وقصارى ذلك: أنّ هذا تعجيب من قوة خاطره وإصابته الغرض الذي كانت ترمي إليه قريش من الطعن الشديد في القرآن، فقوله جاء وفق ما كانوا يريدون وطبق ما كانوا يتمنون من القدح فيه، وفيمن جاء به. ثم كرر هذا الدعاء للتأكيد والمبالغة

في التشنيع، فقال: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾؛ أي: ثم لعن وعذب بسبب ما قدره واختلقه من الكلام فيه. و﴿ثمّ﴾ هنا للدلالة على أن الكرة الثانية في التعجيب أبلغ من الأولى؛ أي: للتراخي بحسب الرتبة، وأن اللائق في شأنه ليس إلا هذا القول دعاء عليه، وفيما بعد على أصلها من التراخي الزمانيّ.

﴿ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١﴾ في أمر القرآن مرة بعد أخرى، وتأمل فيه لعله يجول بخاطره ما يحبون ويصل إلى ما يرجون. وهو معطوف على ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، وما بينهما اعتراض. يعني: الدعاء بينهما. ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾؛ أي: قطب وغير وجهه عبوسة حين ضاقت به الحيل، ولم يجد فيه مطعناً، ولم يدر ماذا يقول. ثم أكد ما قبله فقال: ﴿وَبَسَرَ﴾؛ أي: كلح واسود وجهه، وزاد في العبوسة. قال سعد بن عبادة: لمّا أسلمت راغمتني أمي، فكانت تلقاني مرة بالبشر ومرة بالبسر. وإيراد ﴿ثُمَّ﴾ في المعطوفات لبيان أن بين الأفعال المعطوفة تراخياً. وفي هذا إيماء إلى أنه كان بقلبه صدق محمد ﷺ، وكان ينكره عناداً، فإنه لو كان يعتقد صدق ما يقول.. لفرح باستنباط ما استنبط وإدراك ما أدرك، وما ظهرت العبوسة على وجهه. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق؛ أي: صرف وجهه عن الحق ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عن اتباعه؛ أي: رجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد له والإقرار به. ثم ذكر ما استنبطه من الترهات والأباطيل بقوله: ﴿فَقَالَ﴾ عقيب توليه عن الحق: ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى ما، ولذا أورد ﴿إِلَّآ﴾ بعدها؛ أي: ما ﴿هَٰذَآ﴾ الذي يقوله محمد ﷺ. يعني: القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾؛ أي: أمور تخييلية لا حقائق لها، يروى ويتعلم وينقل من الغير، وليس هو من سحره بنفسه. قال أبو حيان: ومعنى ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾؛ أي: إلا شبيه بالسحر انتهى. يقال: أثرت الحديث آثره أثراً إذا حدّثت به عن قوم في آثارهم؛ أي: بعد ما ماتوا هذا هو الأصل، ثم كان بمعنى الرواية عمن كان، وحديث مأثور؛ أي: منقول ينقله خلف عن سلف، وأدعية مأثورة؛ أي: مروية عن الأكابر. وفي[1] تعلم السحر لحكمة رخصة، واعتقاد حقّيتِهِ والعمل به كفر، كما قيل:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَرِّ لَكِنّي لِتَوقِّيهِ ... وَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ الناسِ يَقَعْ فِيهِ

والمعنى: أي فقال ما هذا القرآن إلا سحر ينقله محمد عن غيره ممن كان قبله

---

(١) روح البيان.

من السحرة كمسيلمة وأهل بابل، ويحكيه عنهم.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا الذي يقوله محمد ﴿إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ تأكيد لما قبله، ولذا أخليَ عن العاطف. قاله تمرّداً وعناداً لا على سبيل الاعتقاد، لما روي قبل: أنّه أقر بأن القرآن ليس من كلام الإنس والجن، وأراد بالبشر يساراً وجبراً وأبا فكيهة. أما الأولان فكانا عبدين من بلاد فارس، وكانا بمكة، وكان النبي ﷺ يجلس عندهما. وأما أبو فكيهة فكان غلاماً روميًا، يتردد إلى مكة من طرف مسيلمة الكذّاب في اليمامة.

والمعنى[1]: أي إنه ملتقط من كلام غيره، وليس من كلام الله كما يدعي. ولو صح ما قال لأمكن غيره أن يقول مثله أو يعارضه بأحسن منه، ففي العرب ذوو فصاحة وذرابة لسان، وفيهم الخطباء والمقاويل الذين لا يجارون ولا يبارون، ولم يعلم أن أحداً من أهل الزكانة والمعرفة سولت له نفسه أن يعارضه بل التجؤوا إلى السيف والسنان دون المعارضة بالحجة والبرهان. وقد رووا في هذا البال مضحكات أغلبها لا يصح؛ لأنهم وهم المقاويل ذوو اللسن وقوة العارضة لا ينبغي أن ينسب إلى أحدهم مثل هذا الهذر، كقول من نسب إليه أنه عارض سورة الفيل، فقال: الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب طويل ومشفر وتيل إلخ.

قال أبو حيان[2]: وقيل: ثم نظر فيما يحتج به للقرآن، فرأى ما فيه من الإعجاز والإعلام بمرتبة الرسول ﷺ، ودام نظره في ذلك ثم عبس وبسر دلالة على تأنيه وتمهله في تأمله، إذ بين ذلك تراخ وتباعد. وكان العطف في ﴿وَبَسَرَ﴾ وفي ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ بالواو؛ لأن البسور قريب من العبوس فهو كأنّه على سبيل التوكيد، والاستكبار يظهر أنه سبب للإدبار؛ إذ الاستكبار معنى في القلب، والإدبار حقيقة من فعل الجسم، فهما سبب ومسبِّب فلا يعطف بـ ﴿ثم﴾، وقدم المسبِّب على السبب؛ لأنّه الظاهر للعين، وناسب العطف بالواو. وكان العطف في ﴿فَقَالَ﴾ بالفاء: دلالة على التعقيب، لأنه لما خطر بباله هذا القول بعد تطلبه لم يتمالك أن نطق به من غير تمهل. ومعنى ﴿يُؤْثَرُ﴾: يروى وينقل. قال الشاعر:

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

لَـقُـلْـتُ مِـنَ ٱلْـقَـوْلِ مَـا لاَ يَـزَا لُ يُـؤْثَـرُ عَـنِّـيْ بِـهِ ٱلْـمُـسْـنَـدُ

وقيل: ﴿يُؤْثَرُ﴾؛ أي: يختار ويرجّح على غيره من السحر، فيكون من الإيثار. ومعنى ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾؛ أي: شبيه بالسحر. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ تأكيد لما قبله؛ أي: يلتقط من أقوال الناس، ويظهر أن كفر الوليد إنما هو عناد، ألا ترى ثناءه على القرآن ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر والكهانة والجنون. وقصته مع رسول الله ﷺ حين قرأ أوائل سورة ﴿فصلت﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾. وناشده الله بالرحم أن يسكت انتهى.

ثم ذكر ما يلقاه من الجزاء على سوء صنيعه وفظيع عمله، فقال: ﴿سَأُصْلِيهِ﴾؛ أي: سأدخل ذلك العنيد يوم القيامة نار سقر، وأغمره فيها من جميع جهاته. قال في «الصّحاح»: سقر اسم من أسماء النار. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: اسم للطبقة السادسة من جهنم، يقال: سقرته الشمس إذا آذته وآلمته، وسميت سقر لإيلامها. وقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ بدل من ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ بدل الاشتمال سواء جعل مثلاً لما يلقى من الشدائد، أو اسم جبل من نار؛ لأنّ سقر تشتمل على كل منهما.

ثم بالغ في وصف النار وتعظيم شأنها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ ما[1] الأولى مبتدأ وجملة ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبره، و﴿ما﴾ الثانية خبر مقدم لقوله: ﴿سَقَرُ﴾ لأنّها المفيدة لما قصد إفادته من التهويل والتفظيع دون العكس، كما سبق في الحاقّة.

والمعنى: وأيّ شيء أعلمك يا محمد جواب ﴿مَا سَقَرُ﴾ في وصفها، لأنّها قد بلغت في الوصف حدّاً لا يمكن معرفته، ولا يتوصّل إلى إدراك حقيقته. يعني: أنه خارج عن دائرة إدراك العقول، ففيه تعظيم لشأنه.

ثم بين وصفها بقوله: ﴿لَا تُبْقِي﴾ لهم لحما ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ لهم عظماً، فإذا أعيد أهلها خلقاً جديداً فلا تذرهم بل تعيد إحراقهم كرّة أخرى، وهكذا أبداً كما جاء في الآية الأخرى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

وعبارة «الروح»: قوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ بيان لوصفها وحالها، وإنجاز

---

(١) روح البيان.

للوعد الضمني الذي يلوح به. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: لا تبقي شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته بالإحراق، وإذا هلك لم تذره هالكاً حتى يعاد خلقاً جديداً، فتهلكه إهلاكاً ثانياً، وهكذا أبداً، كما في قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ﴾ إلخ. أو المعنى: لا تبقي على شيء؛ أي: لا تترحّم عليه ولا تدعه من الهلاك، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة، لأنها خلقت من غضب الجبّار. وقيل: لا تبقي حيًّا ولا تذر ميّتاً كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: محرقة لظاهر البشرة، وأعلى الجلد، ومغيّرة لها مسوِّدة لونَها مشوّهةً لها؛ أي: تلفح الجلد لفحة تدعه أشد سواداً من الليل. قال ابن عباس: تلوح الجلد فتحرقه، وتغيّر لونه، يقال[1]: لاحت النار الشيء إذا أحرقته وسوّدته، ولاحه السقر أو العطش إذا غيّره. وذلك أنّ الشيء إذا كان فيه دسومة نضر، فإذا أحرق أسودّ. والبشر: جمع بشرة، وهي ظاهر جلد الإنسان. فإن قلت: لا يمكن وصفها بتسويد البشرة مع قوله: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

قلت: ليس في الآية دلالة على أنها تفني بالكلية مع أنه يجوز أن يكون الإفناء بعد التسويد. وقيل: لامحة للناس على أنّ ﴿لَوَّاحَةٞ﴾ بتاء مبالغة من لاح يلوح؛ أي: ظهر، وأن البشر بمعنى الناس. قيل: إنها تلوح للبشر من مسيرة خمس مئة عام، فهو كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾. فيصل إلى الكافر سمومها وحرورها، كما يصل إلى المؤمن ريح الجنة نسيمها من مسيرة خمس مئة عام.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَوَّاحَةٞ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي لوّاحة، وقيل: على أنه نعت لـ ﴿سَقَرَ﴾، والأول أولى. وقرأ الحسن، وعطية العوفيّ، وزيد بن علي، وابن أبي عبلة، ونصر بن عاصم، وعيسى بن عمر ﴿لواحةً﴾ بالنصب على الحال، أو الاختصاص للتهويل، فتكون حالاً مؤكّدة؛ لأنّ النار التي لا تبقي ولا تذر لا تكون إلاّ مغيّرة للأبشار.

﴿عَلَيۡهَا﴾؛ أي: على سقر ﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾؛ أي: ملكاً يتولّون أمرها، ويتسلّطون على أهلها. وهم مالك وثمانية عشر معه. قال المفسرون: يقول الله سبحانه: على

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، وقيل: تسعة عشر صنفاً من أصناف الملائكة، وقيل: تسعة عشر صفّاً من صفوفهم، وقيل: تسعة عشر نقيباً مع كلّ نقيب جماعة من الملائكة، والأول أولى. قال الثعلبيّ: ولا ينكر هذا، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ مبنيّين على الفتح على مشهور اللغة في هذا العدد. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وطلحة بن سليمان بإسكان الشين من ﴿عَشْرَ﴾، كراهة توالي الحركات. وقرأ الجمهور بفتحها. وقرأ أنس بن مالك، وابن عباس، وابن قطيب، وإبراهيم بن قنّة بضمّ التاء، وهي حركة بناء عدل إليها عن الفتح لتوالي خمس فتحات، ولا يتوهم أنها حركة إعراب، لأنّها لو كانت حركة إعراب لأعرب ﴿عشر﴾. وقرأ أنس أيضاً ﴿تسعةُ﴾ بالضم ﴿أعشرَ﴾ بالفتح. وقال صاحب «اللوامح»: فيجوز أنه جمع العشرة على أعشر، ثم أجراه مجرى تسعة عشر. وعنه أيضاً: ﴿تسعة وعشر﴾ بالضم وقلب الهمزة من أعشر واواً خالصة تخفيفاً والتاء فيهما مضمومة ضمّة بناء؛ لأنها معاقبة للفتحة فراراً من الجمع بين خمس حركات على جهة واحدة. وعن سليمان بن قنة وهو أخو إبراهيم: أنه قرأ ﴿تسعةُ أعشرٍ﴾ بضم التاء ضمة إعراب، وإضافته إلى أعشرٍ، وأعشرٍ مجرور منون، وذلك على فك التركيب. قال صاحب «اللوامح»: ويجيء على هذه القراءة وهي قراءة من قرأ ﴿أعشرَ﴾ مبنيًّا، أو معرباً من حيث هو جمع أن الملائكة الذين هم على النار تسعون ملكاً انتهى. وفيه بعض تلخيص. قال الزمخشري: وقرىء ﴿تسعةُ أعشرٍ﴾ جمع عشير مثل: يمين وأيمن انتهى.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال أبو جهل: أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوفكم محمد بتسعة عشر، وأنتم الدهم، أفيعجز كل مئة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار، فقال أبو الأشد وهو رجل من بني جمح: يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة، فأنا أمشي بين أيديكم، فادفع عشرة بمنكبي، الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر، ونمضي ندخل الجنة. فأنزل الله

(١) البحر المحيط.

سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: المدبرين لأمرها، القائمين بتعذيب أهلها. فأصحاب النار هنا غير أصحاب النار في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾. ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ ليخالفوا جنس المعذبين من الثقلين، فلا يرقوا لهم ولا يميلوا إليهم، فإن المجانسة مظنة الرأفة، فلذا بعث الرسول من جنسنا ليرحم بنا، ولأنهم أقوى الخلق وأقومهم بحق الله، وبالغضب له تعالى وأشدهم بأساً. وعن النبي ﷺ: «لقوة أحدهم مثل قوة الثقلين، يسوق أحدهم الأمّة، وعلى رقبته جبل فيرمي بهم في النار ويرمي بالجبل عليهم».

والمعنى: أي وما جعلنا المدبّرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة، فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم، وهؤلاء هم النقباء والمدبرون لأمرها. وإنما كانوا ملائكة لأنهم أقوى الخلق وأشدهم بأساً، وأقومهم بحق الله تعالى وبالغضب له سبحانه»، وليكونوا من غير جنس المعذّبين حتى لا يرقوا لهم، ويرحموهم.

ثم ذكر الحكمة في اختيار هذا العدد القليل، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾؛ أي: وما جعلنا في القرآن عددهم هذا العدد القليل ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾؛ أي: محنة وضلالة ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الذين استقلوا عددهم؛ أي: ما جعلنا تلك العدّة، وهي تسعة عشر إلا سبب فتنة وضلالة للذين كفروا حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم، ويكثر غضب الله عليهم. وفتنتهم به أنهم استقلوه واستهزؤوا به واستبعدوه، وقالوا: كيف يتولّى هذا العدد القليل تعذيب الثقلين. وقوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ مفعول لـ ﴿جعل﴾ على حذف مضاف؛ أي: إلا سبب فتنة وللذين صفة لـ﴿فِتْنَةً﴾، وليست ﴿فِتْنَةً﴾ مفعولاً له اهـ «سمين».

أي[1]: وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي تسبّب لافتتانهم ووقوعهم في الكفر، وهو التسعة عشر، فعبّر بالأثر عن المؤثّر؛ أي: عبّر بالفتنة عن العدد المخصوص تنبيهاً على التلازم بينهما، وحمل الكلام على هذا؛ لأن ﴿جعل﴾ من دواخل المبتدأ والخبر، فوجب حمل مفعوله الثاني على الأول، ولا يصح حمل افتتان الكفّار على عدد الزبانية إلا بالتوجيه المذكور، فإن عدتهم سبب للفتنة لا فتنة

---

(١) روح البيان.

نفسها. ثم ليس المراد مجرد جعل عددهم ذلك العدد المعيّن في نفس الأمر، بل جعله في القرآن أيضاً كذلك، وهو الحكم بأن عليها تسعة عشر، إذ بذلك يتحقق افتتانهم باستقلالهم له واستبعادهم لتولي هذا العدد القليل أمر الجم الغفير، واستهزائهم به حسبما ذكر، وعليه يدور ما سيأتي من استيقان أهل الكتاب وازدياد المؤمنين إيماناً.

قال الإمام الرازّي[١]: إنما صار هذا العدد سبباً لفتنة الكفّار من وجهين:

الأول: أن الكفار يستهزئون ويقولون: لم لا يكونون عشرين مثلاً، وما المقتضي لتخصيص هذا العدد؟

والثاني: أنّ الكفار يقولون: هذا العدد القليل كيف يكون وافياً بتعذيب أكثر العالم من الجن والإنس من أول ما خلق الله تعالى إلى قيام الساعة؟

وأجيب عن الأول: بأن هذا السؤال لازم عن كل عدد يفرض، وبأن أفعال الله لا تعلل فلا يقال فيها: لِمَ، وتخصيص هذا العدد لحكمة اختص الله بها.

وعن الثاني: بأنه لا يبعد أن الله تعالى يعطي ذلك العدد القليل قوة تفي بذلك، فقد اقتلع جبريل عليه السلام مدائن قوم لوط على أحد جناحيه ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء صياح ديكتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها. وأيضاً فأحوال القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا، ولا للعقل فيها مجال اهـ «خازن» و«خطيب».

وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ متعلق بالجعل الثاني على المعنى المذكور. والسين[٢] للطلب؛ أي: وجعلنا عدتهم العدد المذكور القليل الذي تسبَّب لضلال الكفار ليكتسب الذين أوتوا الكتاب اليقين بنبوته ﷺ وصدق القرآن لما شاهدوا ما فيه موافقاً لما في كتابهم. وفي «عين المعاني»: سأل اليهود رسول الله ﷺ عن خزنة النار وعددهم؟ «فأجاب عليه السلام: بأنهم تسعة عشر؛ أي: إنه سبحانه جعل عدة خزنة جهنم هذه العدّة، ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوّة محمد ﷺ لموافقة ما في القرآن لكتبهم، قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد، وغيرهم. وقيل: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾

---

(١) التفسير الكبير. (٢) روح البيان.

متعلق بفعل مضمر؛ أي: فعلنا ذلك ليستيقن الذين أوتوا الكتاب. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾؛ أي: وليزداد إيمانهم كيفيةً بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك أو كميةً بانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل. وقيل[1]: المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام. وقيل: أراد المؤمنين من أمة محمد ﷺ.

والمعنى: ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم، لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان، فإن نفي ضد الشيء بعد إثبات وقوعه أبلغ في الإثبات، ونفي لما قد يعتري المستيقن والمؤمن من شبهة ما، فيحصل له يقين جازم بحيث لا شك بعده. وإنما لم ينظم المؤمنين في سلك أهل الكتاب في نفي الارتياب حيث لم يقل: ولا يرتابوا للتنبيه على تباين النفيين حالاً، فإن انتفاء الارتياب من أهل الكتاب مقارن لما ينافيه من الجحود، ومن المؤمنين مقارن لما يقتضيه من الإيمان وكم بينهما.

والتعبير[2] عنهم باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المنبئة عن الحدوث للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده، ورسوخهم في ذلك. والمراد نفي الارتياب عنهم في الدين، أو في أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر، ولا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين، ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك من المنافقين.

والمعنى: أي ولا يشك أهل التوراة والإنجيل والمؤمنون بالله من أمّة محمد ﷺ في حقّية ذلك العدد.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك أو نفاق، فإن كلًّا منهما من الأمراض الباطنة، فيكون إخباراً بما سيكون في المدينة بعد الهجرة، إذ الاتّفاق إنما حدث بالمدينة، وكان أهل مكة إما مؤمناً حقًّا وإما مكذّباً وإمّا شاكّاً. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المصرّون على التكذيب من أهل مكة وغيرهم. فإن قلت: كيف يجوز أن يكون قولهم هذا مقصوداً لله تعالى؟.

---

(١) الشوكاني.   (٢) روح البيان.

قلت: اللام ليست على حقيقتها بل للعاقبة، فلا إشكال. ﴿مَاذَآ﴾ مجموع الكلمتين، اسم استفهام، فـ ﴿ذا﴾ ملغاة؛ أي: أي شيء ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه. وهذا الاسم المركب مفعول مقدم؛ أي: أي شيء أراد الله ﴿بِهَٰذَا﴾ العدد القليل ﴿مَثَلًاۚ﴾ حال من هذا؛ أي: أي شيء أراد الله بهذا العدد القليل المستغرب حال كونه مشابهاً للمثل في غرابته، ويصح أن تكون ﴿ما﴾ مبتدأ، و﴿ذا﴾ موصولاً خبره، و﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ صلة الموصول، و﴿مَثَلًاۚ﴾ تمييز لهذا؛ أي: ما الذي أراده الله سبحانه بهذا العدد القليل، من جهة كونه مثلاً؛ أي: شبيهاً بالمثل في غرابته. فإطلاق المثل على هذا العدد على سبيل الاستعارة، حيث شبهوه بالمثل المضروب، وهو القول السائر في الغرابة، حيث لم يكن عقداً تامّاً كعشرين أو ثلاثين. والاستفهام لإنكار أنّه من عند الله بناءً على أنّه لو كان من عنده تعالى لما جاء ناقصاً. وإفراد قولهم هذا بالتعليل مع كونه من باب فتنتهم للإشعار باستقلاله في الشناعة.

والمعنى[1]: أي وليقول الذين في قلوبهم شك في صدق الرسول ﷺ والقاطعون بكذبه: ما الذي أراد الله بهذا العدد القليل المستغرب استغراب المثل؟.

ثم بين أن الاختلاف في الدين سنة من سنن الله تعالى، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما أضل الله سبحانه هؤلاء المنافقين والمشركين القائلين عن عدّة خزنة جهنم: أيّ شيء أراد الله بهذا الخبر حتى يخوفنا بعدتهم ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه من خلقه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله، فيخذله عن إصابة الحق. ﴿و﴾ كما هدى الله سبحانه المؤمنين من أصحاب محمد ﷺ، ومن أهل الكتاب إلى هذا المثل ﴿يهدي﴾ من عباده ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته، فيوفقه لإصابة الصواب.

واسم الإشارة إلى ما تقدم ذكره، وهو قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. والكاف نعت لمصدر محذوف، والمعنى: يضل الله من خلقه من يشاء إضلاله إضلالاً كائناً كإضلال هؤلاء المنكرين لخزنة جهنم وعددهم من أبي جهل وأصحابه، ويهدي من خلقه من يشاء هدايته هداية كائنة كهداية المصدّقين لخزنة جهنم، وعددهم من أصحاب محمد ﷺ وأهل الكتاب.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: أنّ مثل هذا الإضلال يضل من يشاء إضلاله لسوء استعداده وتدسيته نفسه، وتوجيهها إلى سيّء الأعمال واجتراح السيئات حين مشاهدة الآيات الناطقة بالهدى، ويهدي من يشاء لتوجيه اختياره إلى الحسن من الأعمال وتزكيته نفسه، كلما لاح له سبيل الهدى. وقيل المعنى: كذلك يضلّ الله عن الجنة من يشاء، ويهدي إليها من يشاء.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ يا محمد؛ أي: جموع خلقه التي من جملتها الملائكة المذكورون. والجنود(١): جمع جند بالضمّ، وهو العسكر، وكل مجتمع، وكل صنف من الخلق على حدة. وفي الحديث: «إنّ لله جنوداً منها العسل». ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى لفرط كثرتها. وفي حديث موسى عليه السلام: «أنه سأل ربه عن عدد أهل السماء؟ فقال تعالى: اثنا عشر سبطاً عدد كل سبط عدد التراب». وفي «الأسرار المحمدية»: ليس في العالم موضع بيت ولا زاوية إلا وهو معمور بما لا يعلمه إلا الله، والدليل على ذلك أمر النبي ﷺ بالتستر في الخلوة، وأن لا يجامع الرجل امرأته عريانين. وفيه إشارة إلى أنَّ لله في اختيار عدد الزبانية حكمةً، وإلا فجنوده خارجة عن دائرة العدّ والضبط. قال الفاشاني: وما يعلم عدد الجنود وكمّيتها وكيفيتها وحقيقتها إلا هو لإحاطة علمه بالماهيّات وأحوالها.

والمعنى: وما يعلم عدد خلقه ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم إلا هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد. وقال عطاء: يعني: من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار، لا يعلم عدّتهم إلا الله. والمعنى: أن خزنة النار، وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه. وهذا رد على استهزائهم بكون الخزنة تسعة عشر جهلاً منهم وجه الحكمة في ذلك.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر، فقلا: ﴿وَمَا هِيَ﴾؛ أي: وما سقر، وما ذكر معها من عدد خزنتها ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾؛ أي: إلا تذكرة وموعظة وإنذاراً للبشر والإنس بسوء عاقبة الكفر والضلال. وتخصيص(٢) الإنس مع أنها تذكرة للجن أيضاً، لأنهم هم الأصل في القصد بالتذكرة. أو المعنى: وما عدة الخزنة إلا تذكرة لهم ليتذكروا، ويعلموا أن الله سبحانه قادر على أن يعذب الكثير غير المحصور من

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

كفّار الثقلين، وعصاتهم بهذا العدد القليل بل هو لا يحتاج في ذلك إلى أعوان وأنصار أصلاً، فإنّه لو قلب شعرةً واحدةً في عين ابن آدم، أو سلّط الألم على عرق واحد من عروق بدنه.. لكفاه ذلك بلاء ومحنة. وإنما عيّن العدد وخلق الجنود لحكمة لا لاحتياجٍ. ويجوز أن يعود الضمير إلى الآيات الناطقة بأحوال سقر، فإنّها تذكرة لاشتمالها على الإنذار.

ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم، فقال: ﴿كَلَّا﴾ ردع لمن أنكر سقر؛ أي: ارتدعوا وانزجروا عن إنكار سقر، فإنها حق لا سبيل لكم إلى إنكارها لتظاهر الأدلة عليها. أو إنكار ونفي لكونها تذكرة لهم، فإن كونها ذكرى للبشر لا ينافي أن بعضهم لا يتذكرون، بل يعرضون عنها بسوء اختيارهم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾؟ قال الفرّاء: ﴿كلا﴾[1] صلة للقسم التقدير أي: والقمر، وقيل المعنى: حقّاً والقمر. وقال ابن جرير: المعنى: رد زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم؛ أي: ليس الأمر كما يقول. ثم أقسم على ذلك بالقمر وبما بعده، وهذا هو الظاهر من معنى الآية. ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ مقسم به، مجرور بواو القسم. وفي «فتح الرحمن»: وهذا تخصيص تشريف، وتنبيه على النظر في عجائبه وقدرته في حركاته المختلفة التي هي مع كثرتها واختلافها على نظام واحد لا يختلّ. وقال أبو الليث: وخالق القمر يعني: الهلال بعد ثالثه. ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ معطوف على ﴿القمر﴾، وكذا ﴿الصبح﴾ ﴿إِذْ﴾ بسكون الذال، وهو ظرف لما مضى من الزمان. ﴿أَدْبَرَ﴾ على وزن أفعل؛ أي: انصرف وذهب فإنّ الإدبار ضدّ الإقبال.

وقرأ[2] ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وعطاء، وابن يعمر، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو الزناد، وقتادة، وعمر بن عبد العزيز، والحسن، وطلحة، والنحويّان والابنان، وأبو بكر ﴿إذا﴾ على أنّه ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿دبر﴾ بفتح الدال بزنة ضرب. وقرأ ابن جبير، والسلميّ، والحسن بخلاف عنهم، وابن سيرين، والأعرج، وزيد بن عليّ، وأبو شيخ، وابن مُحَيّصن، ونافع، وحمزة، وحفص ﴿إذْ﴾ بسكون الذال على أنه ظرف لما مضى من الزمان. ﴿أدبر﴾ بوزن أكرم. ودبر وأدبر لغتان، كما يقال: أقبل الزمان، وقبل الزمان، ويقال دبر الليل، وأدبر الليل

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

إذا تولى ذاهباً. وقرأ الحسن أيضاً، وأبو رزين، وأبو رجاء، وابن يعمر أيضاً، والسلميّ، وطلحة أيضاً، والأعمش، ويونس بن عبيد، ومطر ﴿إذا﴾ بالألف، ﴿أدبر﴾ بالهمز، وكذا هو في مصحف عبد الله وأبيّ، وهو مناسب لقوله: ﴿إِذَآ أَسْفَرَ﴾. ويقال: كأمس الدابر، وأمس المدبر بمعنى واحد. وقال يونس بن حبيب: ﴿دبر﴾: انقضى، وأدبر: تولّى.

﴿وَٱلصُّبْحِ﴾؛ أي: الفجر أو أوّل النهار ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. واتفقوا على ﴿إِذَآ﴾ ههنا نظراً إلى تأخره عن الليل من وجه. ﴿أَسْفَرَ﴾؛ أي: أضاء، وانكشف، وظهر. وقرأ الجمهور[1] ﴿أَسْفَرَ﴾ رباعياً. وقرأ ابن السميفع وعيسى بن الفضل ﴿سفر﴾ ثلاثيًّا، والمعنى: طرح الظلمة عن وجهه.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥﴾ جواب للقسم. و﴿ٱلْكُبَرِ﴾[2]: جمع الكبرى جعلت ألف التأنيث كتائه، وألحقت بها، فكما جمعت فعلة على فعل كركبة وركب جمعت فعلى عليها، وإلا ففعلى لا تجمع على فعل بل على فعالى كحبلى وحبالى.

والظاهر: أن الضمير عائد على سقر؛ أي: إن سقر لإحدى البلايا، أو لإحدى الدواهي الكبر الكثيرة، وهي؛ أي: سقر واحدة في العظم لا نظير لها كقولك: إنه أحد الرجال. هذا إذا كان منكراً لـ ﴿سَقَرَ﴾، وإن كان منكراً لعدة الخزنة فالمعنى: أنها من إحدى الحجج ﴿ٱلْكُبَرِ﴾، ﴿نَذِيرًا﴾ من قدرة الله على قهر العصاة من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة من الجنّ والإنس، حيث استعمل على تعذيبهم هذا العدد القليل. وإن كان منكر الآيات فالمعنى: أنها لإحدى الآيات الكبر.

وقرأ الجمهور ﴿لَإِحْدَى﴾ بالهمزة، وهي منقلبة عن واو، أصله: لوحدى، وهو بدل لازم. وقرأ نصر بن عاصم، وابن محيصن، ووهب بن جرير عن ابن كثير بحذف الهمزة، وهو لا ينقاس، وتخفيف هذه الهمزة أن تجعل بين بين.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦﴾ حال من الضمير في ﴿إِنَّهَا﴾، قاله الزجاج. وروى عنه عن الكسائي، وأبي علي الفارسيّ: أنّه حال من قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾؛ أي: قم يا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

محمد فأنذر حال كونك نذيراً للبشر. وقال الفراء: هو مصدر بمعنى الإنذار، منصوب بفعل مقدر. وقيل: إنه منتصب على التمييز من نسبة إحدى الكبر إلى اسم ﴿إنّ﴾، لأنّ معناه: أنها من معظمات الدواهي التي خلقها الله للتعذيب، فيصح أن ينتصب منه التمييز، كما تقول: هي إحدى النساء عفافاً. والنذير[1] مصدر بمعنى الإنذار كالنكير بمعنى الإنكار، والمعنى: لإحدى الكبر إنذارا: أي: من جهة الإنذار أول مما دلت عليه الجملة؛ أي: معنى قوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: كبرت منذرة، وحذف التاء مع أن فعيلاً بمعنى فاعل، يفرق فيه بين المذكر والمؤنث لكون ضمير ﴿إِنَّهَا﴾ في تأويل العذاب أو لكون النذير بمعنى ذات إنذار على معنى النسب كقولهم: امرأة طاهر؛ أي: ذات طهارة. وقيل: إنّه مفعول لأجله؛ أي: وإنها لإحدى الكبر لأجل إنذار البشر. وقرأ الجمهور بالنصب. وقرأ أبي بن كعب، وابن أبي عبلة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو نذير أو هي نذير.

ومعنى الآيات: أقسم بالقمر الوضّاح والليل إذا ولى، وذهب والصبح إذا أشرق إنّ جهنم لإحدى البلايا الكبار، والدواهي العظام لإنذار البشر.

ثم بين أصحاب النذارة، فقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ بدل من قوله: ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ بإعادة الجار، و﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ مفعول ﴿شَآءَ﴾، و﴿مِنكُمْ﴾ حال مِنْ ﴿مَنْ﴾ الموصولة؛ أي: نذيراً لمن شاء منكم أن يسبق إلى الخير والجنة والطاعة، فيهديه الله. أو لم يشأ ذلك، ويتأخّر بالمعصية، فيضله. وفيه إشارة إلى أنَّ لكسب العبد دخلاً في حصول المرحومية والمحروميّة. وقال السدي: لمن شاء منكم أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها، أو يتأخر إلى الجنة. أو المعنى[2]: لمن شاء أن يقبل النذارة أو يتولى عنها، ويردها. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وخلاصة ما سلف: ها أنتم أولاء قد علمتم سقر وعذابها وملائكتها، فمن تقدم إلى الخير أطلقناه، ومن تأخر عنه سلكناه فيها. قال ابن عباس: هذا تهديد وإعلام بأنّ من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ جوزي بثواب لا ينقطع أبداً، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمداً ﷺ عوقب عقاباً لا ينقطع أبداً. وقال الحسن:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

هذا وعيد وتهديد وإن أخرج مخرج الخبر، كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من نفوس الإنس والجنّ المكلّفين ﴿بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾؛ أي: مرهونة عند الله بكسبها محبوسة ثابتة. وفي بعض التفاسير: بسبب ما كسبت من الأعمال السيئة. وقيل: مأخوذة بعملها، ومرتهنة إما خلّصها أو أوبقها. من[1] رهن الشيء إذا دام وثبت، وارتهنته؛ أي: تركته مقيماً عنده وثابتاً. والرهن: ما وضع عندك لينوب مناب ما أخذ منك، والمرتهن: هو الذي يأخذ المرهون، ونفس المكلّف محبوسة ثابتة عند الله بما أوجبه عليه من التكاليف التي هي حق خالص له تعالى، فإن أدّاها المكلّف كما وجبت عليه فك رقبته وخلص نفسه، وإلا بقيت نفسه مرهونة محبوسة عنده. وقال بعضهم: الرهينة: اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم على أن تكون التاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية. وفي فتح الرحمن: التاء للمبالغة أو على تأنيث اللفظ لا على معنى الإنسان ونحوه، وليس أي: الرهينة صفة وإلا لقيل: رهين، لأنّ فعيلاً بمعنى مفعول لا تدخله التاء، بل يستوي فيه المذكر والمؤنث، إلا أن يحمل على ما هو بمعنى الفاعل، فإنه يؤتى في مؤنثه بالتاء كما في عكسه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ استثناء متصل[2] من ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ لكثرتها في المعنى. و﴿أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾: أهل الأعمال الصالحة من المؤمنين. أي: فإنهم فاكّون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم كما يفك الراهن رهنه بأداء الدين.

والمعنى: أي كل نفس مرتهنة بكسبها عند الله غير مفكوكة عنه كافرة كانت أو مؤمنة عاصية أو طائعة إلا أصحاب اليمين، فإنّهم فكوا رقابهم بحسن أعمالهم كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق الذي وجب عليه.

واختلف[3] في تعيين أصحاب اليمين. فقيل: هم الملائكة، وقيل: هم المؤمنون، وقيل: أولاد المسلمين، وقيل: الذين كانوا عن يمين آدم، وقيل: أصحاب الحق، وقيل: هم المعتمدون على الفضل دون العمل، وقيل: هم الذين

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

اختارهم الله لخدمته.

﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ في محل رفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم في جنّات لا يكتنه كنهها، ولا يوصف وصفها، كما دل عليه التنكير. والمراد أن كلا منهم ينال جنة منها. والجملة مستأنفة استئنافاً بيانيًّا واقعاً في جواب سؤال نشأ مما قبله، كأنّه قيل: ما بال أصحاب اليمين؟ فقيل: هم في جنات. ويجوز أن يكون ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ حالاً من ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾، وأن يكون حالاً من فاعل ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، وأن يكون ظرفا لـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾. وقوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يجوز أن يكون على بابه فيكون قوله: ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ متعلقاً بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أي: يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين. ويجوز[1] أن يكون تفاعل هنا بمعنى فعل، و﴿عَنِ﴾ في قوله: ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ زائدة؛ أي: يسألون المجرمين عن أحوالهم. وقد حذف المسؤول لكونه عين المسؤول عنه ولدلالة ما بعده عليه. ويروى: «أنّ الله يطلع أهل الجنة، وهم في الجنة حتى يروا أهل النار، فيسألونهم.

وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ مقول لقول مقدر وقع حالاً مقدرة من فاعل يتساءلون؛ أي: يسألون المجرمين عن أحوالهم حال كونهم قائلين لهم أي شيء أدخلكم في سقر؟ وأيُّ شيء كان سبباً لدخولكم فيها؟. من سلكت الخيط في الإبرة سلكاً، أي: أدخلته فيها، فهو من السلك بمعنى الإدخال لا من السلوك بمعنى الذهاب. فإن قلت: لم يسألونهم وهم عالمون بذلك؟

قلت: توبيخاً لهم وتحسيراً ولتكون حكاية الله سبحانه ذلك في كتابه تذكرة للسامعين. وقرأ أبو عمرو «سلكّم» بإدغام الكاف في الكاف، والباقون بالفكّ.

والمعنى: أي[2] هم في غرفات الجنات يسألون المجرمين، وهم في الدركات قائلين لهم: ما الذي أدخلكم في سقر؟ فأجابوهم: بأنّ هذا العذاب كان لأمور أربعة:

١ - ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال المجرمون مجيبين للسائلين ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ للصلوات الواجبة، فعدم إقرارنا بفرضيّة الصلاة وعدم أدائها سلكنا فيها. أصله:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

نكن، حذف النون للتخفيف مع كثرة الاستعمال.

والمعنى: أي لم نكن في الدنيا من المؤمنين الذين يصلّون لله، لأنّا لم نكن نعتقد بفرضيّتها.

٢ ـ ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: ولم نكن من المحسنين إلى خلقه الفقراء بفضل أموالنا المتصدّقين عليهم بما تجود به نفوسنا، وهو على معنى استمرار نفي الإطعام لا على نفي استمرار الإطعام. والمراد أيضاً الإطعام للواجب كالزكاة والكفّارة والنذر، وإلاّ فما ليس بواجب من الصلاة والإطعام لا عذاب على تركه، وكانوا يقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾. فكانوا لا يرحمون المساكين بالإطعام، ولا يحضّون عليه أيضاً. ففيه[1] ذمّ للبخل، ودلالة على أنّ الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذة في الآخرة. قال في «التوضيح»: الكفار مخاطبون بالإيمان والعقوبات والمعاملات إجماعاً، أمّا العبادات فهم مخاطبون بها في حق المؤاخذة في الآخرة اتفاقاً أيضاً لقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ الآيات، أمّا في حق وجوب الأداء فمختلف فيه. قال العراقيّون من مشايخنا: نعم، وقال مشايخ ديارنا: لا. وفي بعض التفاسير: وللحنفيّ أن يقول: هذا إنما هو تأسّف منهم على تفريطهم في كسب الخير وحرمانهم مما ناله المصلّون، والمزكّون من المؤمنين، ولا يلزم من ذلك أن يكونوا مأمورين بالعمل قبل الإيمان.

٣ ـ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ ونشرع في الباطل ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾؛ أي: مع الشارعين فيه. والمراد بالباطل ذمّ النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وغيبتهم، وقولهم: بأنّه شاعر أو ساحر أو كاهن أو غير ذلك، والطعن في القرآن وقولهم هو سحر أو شعر أو كهانة إلى نحو أولئك من الأباطيل. والخوض في الأصل: الشروع مطلقاً في أيّ شيء كان، ثم غلب في العرف بمعنى الشروع في الباطل والقبيح وما لا ينبغي. وفي الحديث: «أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم خوضاً في معصية الله».

٤ ـ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: بيوم الجزاء. أضافوه إلى الجزاء مع أنّ فيه من الدواهي والأهوال ما لا غاية له، لأنه أدهاها وأنهم ملابسوه، وقد مضت

---

(١) روح البيان.

بقية الدواهي، وتأخير جنايتهم هذه مع كونها أعظم من الكل؛ إذ هو تكذيب القيامة وإنكارها كفر، والأمور الثلاثة المتقدمة فسق لتفخيمها، وللترقّي من القبيح إلى الأقبح، كأنهم قالوا: وكنّا بعد ذلك كله مكذبين بيوم الدين، ولبيان كون تكذيبهم به مقارناً لسائر جناياتهم المعدودة مستمرًّا إلى آخر عمرهم، حسبما ينطق به قولهم: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: الموت ومقدّماته، فإنه أمر متيقن لا شك في إتيانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾. أو حتى علمنا صحة ذلك عياناً بالرجوع إلى الله في الدار الآخرة.

فإن قلت: أيريدون أن كل واحد منهم بمجموع هذه الأربع دخل النار أم دخلها بعضهم بهذه وبعضهم بهذه؟

قلت: يحتمل الأمران جميعاً كما في «الكشاف».

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: لا تنالهم شفاعة الملائكة والأنبياء والصالحين كما تنفع المؤمنين؛ أي: لو قدّر اجتماعهم على شفاعتهم على سبيل فرض المحال لا تنفعهم تلك الشفاعة، فليس المراد أنّهم يشفعون لهم فلا تنفعهم شفاعتهم؛ إذ الشفاعة يوم القيامة موقوفة على الإذن، وقابليّة المحل، فلو وقعت من المأذون للقابل قبلت، والكافر ليس بقابل لها، فلا إذن في الشفاعة له فلا شفاعة، ولا نفع في الحقيقة. وفيه دليل على صحة الشفاعة ونفعها يومئذٍ لعصاة المؤمنين، وإلا لما كان لتخصيصهم بعدم منفعة الشفاعة وجه. قال ابن مسعود رضي الله عنه: تشفع الملائكة والنبيّون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلا قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾؛ أي: فأيّ شي حصل لهم معرضين عن القرآن. والفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قبلها من موجبات الإقبال عليه والاتعاظ به من سوء حال المكذبين. و﴿مُعْرِضِينَ﴾ حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور الواقع خبراً لـ ﴿ما﴾ الاستفهامية، و﴿عَنِ﴾ متعلّقة به؛ أي: فإذا كان حال المكذبين به على ما ذكر فأيّ شيء حصل لهم معرضين عن القرآن مع تعاضد موجبات الإقبال عليه، وتأكد الدواعي للإيمان به.

والمعنى: أي أيّ شيء حصل لأهل مكة حال كونهم معرضين عن القرآن

الذي هو مشتمل على التذكرة الكبرى والموعظة العظمى. قال مقاتل: إعراضهم عن القرآن من وجهين: (١) جحودهم وإنكارهم له، (٢) ترك العمل بما فيه.

ثمّ شبّههم في نفورهم عن القرآن بالحمر، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾؛ أي: كأنّ هؤلاء المشركين في إعراضهم عن القرآن ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾؛ أي: حمر وحشية هاربة مما يفزعها. والجملة حال من الضمير المستكن في ﴿مُعْرِضِينَ﴾ على التداخل. والحمر: جمع حمار، وهو معروف، ويكون وحشيّاً، وهو المراد هنا.

وقرأ الجمهور ﴿حُمُرٌ﴾ بضمّ الميم، والأعمش بإسكانها. ومستنفرة بمعنى نافرة هاربةً، من نفرت الدابّة إذا هربت، لا من نفر الحاج، يقال: نفر واستنفر بمعنى هرب، مثل: استعجب بمعنى عجب. وقرأ الجمهور[١] ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ بكسر الفاء؛ أي: نافرة، ويناسب الكسر قوله ﴿فَرَّتْ﴾. وقرأ نافع وابن عامر بفتحها؛ أي: منفّرة مذعورة، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد. قال في «الكشاف»: المستنفرة: الشديدة النفار والهرب كأنّها تطلب النفار من نفوسها بسبب أنّهم جمعوا نفوسهم للنفار، وحملوها عليه. فأبقى السين على بابها من الطلب.

والمعنى: حال كونهم مشبهين في إعراضهم عن القرآن بحمر نافرة ﴿فَرَّتْ﴾ وهربت ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: من أسد أو من الرماة لها للاصطياد، لأنّ الوحشة إذا عاينت الأسد تهرب أشدّ الهرب، ومثل القسورة الحيدرة وزنا ومعنى وهي فَعْولَةٌ من القسر، وهو القهر والغلبة، لأنه يغلب السباع ويقهرها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: القسورة هو الأسد بلسان الحبشة، كذا قاله عطاء والكلبي. وقيل: القسورة هي جماعة الرماة الذين يتصيّدونها، ويرمونها، وهو جمع قسور، وهو الرمي، قاله سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وابن كيسان. وقيل: القسورة: أصوات الناس. وقيل: القسورة أوّل الليل؛ أي: فرت من ظلمة الليل، وبه قال عكرمة وابن الأعرابي. والتفسير الثاني أولى.

شبهوا[٢] في إعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ وشرادهم عنه بحمرٍ جدّت في نفارها مما أفزعها، وفيه من ذمهم وتهجين حالهم، ما لا يخفى.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

يعني: أن في تشبيههم بالحمر شهادة عليهم بالبله، ولا ترى مثل نفار حمر الوحش واطّرادها في العدّو إذا خافت من شيء، ومن أراد إهانة غليظة لأحد والتشنيع عليه بأشنع شيء شبهه بالحمار.

والمعنى: كأن هؤلاء المشركين في فرارهم من محمد ﷺ ومن استماع القرآن حمر وحشية هاربة من رماة يرمونها ويعقرونها لصيدها وافتراسها.

ثم بين أنهم بلغوا في العناد حدّا لا يقبله عقل ولا يستسيغه ذو نفس حاسّة، فقال: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ معطوف على مقدّر يقتضيه المقام، كأنّه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة، ولا يرضون بها عناداً ومكابرةً، بل يريد كل واحد منهم أن يؤتى قراطيس تنشر وتقرأ، وذلك أنهم؛ أي: أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أمية، وأصحابهما قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء، أو يصبح عند رأس كل رجل منا أوراق منشورة عنوانها من رب العالمين إلى فلان بن فلان، نؤمر فيها باتباعك؛ أي: بأن يقال: اتبع محمداً فإنه رسول من قبلي إليك، كما قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾. والمرء: الإنسان أو الرجل، ولا يجمع من لفظه. والصحف: جمع صحيفة، وهي الكتاب. والمنشّرة: المنشورة المفتوحة.

وقرأ الجمهور(١): ﴿صُحُفًا﴾ بضم الصاد والحاء. وقرأ سعيد بن جبير بإسكان الحاء. وقرأ الجمهور ﴿مُّنَشَّرَةً﴾ بالتشديد، وقرأ سعيد بن جبير بالتخفيف، من نشّر وأنشر، مثل: نزّل وأنزل.

والمعنى: أي هم قد بلغوا في العناد حدّاً لا تجدي معهم فيه التذكرة، فكل واحد منهم يريد أن ينزل عليه كتاب مفتوح من السماء كما أنزل على نبيّه ﷺ.

ثم ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة، وزجرهم فقال: ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم وزجر عن اقتراحهم الآيات وإرادتهم ما أرادوه، فإنهم إنما اقترحوها تعنّتاً وعناداً لا هدى ورشاداً؛ أي: فهم لا يؤتونها. وقيل: ﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقًّا. ثم بين سبحانه سبب هذا التعنت والاقتراح، فقال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾؛ أي: عذاب الآخرة

---

(١) البحر المحيط.

لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات، فلعدم خوفهم منها أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف.

والمعنى[1]: أي إنما دسّاهم وطبع على قلوبهم، وأعمى أبصارهم أنهم كانوا لا يصدّقون بالآخرة، ولا يخافون أهوالها. ومن ثم أعرضوا عن التأمل في تلك المعجزات الكثيرة، وقد كانت كافية لهم جدّ الكفاية في الدلالة على صدق دعوى محمد ﷺ للنبوة، فطلب الزيادة يكون من التعنت الذي لا مسوغ له. وقرأ الجمهور ﴿يَخَافُونَ﴾ بياء الغيبة، وأبو حيوة بتاء الخطاب التفاتاً.

ثم وبّخهم على إعراضهم عن التذكرة فقال: ﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن إعراضهم عن التذكرة ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ وفي ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ للتذكرة، لأنها بمعنى الذكر أو القرآن كالموعظة بمعنى الوعظ والصيحة بمعنى الصوت. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ بليغة كافية. فالتنوين فيه للتعظيم. وفي «برهان القرآن» أي: تذكير للحق، وعدل إليها للفاصلة؛ أي: ليس الأمر كما يقول المشركون في هذا القرآن من أنه سحر يؤثر، بل هو تذكرة من الله لخلقه، ذكّرهم به، فليس لأحد أن يعتذر بأنه لم يجد مذكراً ولا معرفاً.

ثم ما ذكر هو كالنتيجة لما سلف، فقال: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ من عباده أن يذكره، ولا ينساه، ويتعظ به قبل حلوله في رمسه. ﴿ذَكَرَهُۥ﴾؛ أي: جعله نصب عينيه، وحاز بسببه سعادة الدارين، فإنه ممكن من ذلك.

ثم ردّ سبحانه المشيئة إلى نفسه، فقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ بمجرد مشيئتهم للذكر، كما هو المفهوم من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾، إذ لا تأثير لمشيئة العبد وإرادته في أفعاله. وضمير[2] الجمع إمّا أن يعود إلى الكفرة؛ لأنّ الكلام فيهم أو إلى ﴿مَن﴾ الموصولة نظراً إلى عموم المعنى لشموله لكلّ من المكلّفين.

وقرأ نافع وسلام ويعقوب ﴿تذكرون﴾ بتاء الخطاب ساكنة الذال، وباقي السبعة وأبو جعفر والأعمش وطلحة وعيسى والأعرج ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بالياء. وروي عن

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

أبي جعفر ﴿تذكرون﴾ بالتاء وإدغام التاء في الذال. وروي عن أبي حيوة ﴿يذكرون﴾ بياء الغيبة وشدّ الذال.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أو من أعم الأحوال؛ أي: وما يذكرون لعلة من العلل، أو في حال من الأحوال إلا بأن يشاء الله أو حال أن يشاء الله ذكرهم. وهذا تصريح بأنّ أفعال العبد بمشيئة الله لا بإرادة نفسه.

والمعنى(١): أي وما يذكرون هذا القرآن، ولا يتعظون بعظاته، ويعملون بما فيه، إلا أن يشاء الله أن يذكروه، فلا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً إلا أن يعطيه الله القدرة على فعله؛ إذ لا يقع في ملكه سبحانه إلا ما يشاء، كما قال سبحانه: وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.

ثم ذكر ما هو كالعلة لما سلف، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه، والعمل بطاعاته؛ أي: حقيق بأن يتّقى عقابه ويؤمن به ويطاع. فالتقوى مصدر من المبنيّ للمفعول. ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾؛ أي: وهو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب، والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة، فيغفر ذنوبهم. وقيل: هو أهل أن تُتّقى محارمه، وأهل أن يغفر لمن اتقاه.

وعن أنس رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية، فقال: «قال ربكم: أنا أهل أن أُتّقى فلا يجعل معي إله، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً، فأنا أهل أن أغفر له». أخرجه أحمد، والدارميّ، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي، وقال: حديث غريب، وفي إسناده سهيل بن عبد الله القطيعي، وليس بالقوي في الحديث، وقد تفرّد به عن ثابت، والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الإعراب

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

---

(١) الشوكاني.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيّ﴾ مناد نكرة مقصودة، والهاء: حرف تنبيه، ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ صفة لأيّ، وجملة النداء مستأنفة. ﴿قُمۡ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمّد، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿فَأَنذِرۡ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أنذر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿قُمۡ﴾، ﴿وَرَبَّكَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ربَّك﴾ مفعول مقدم لـ ﴿كبّر﴾، ﴿فَكَبِّرۡ﴾ ﴿الفاء﴾: زائدة، ﴿كبر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿قُمۡ﴾. وقال ابن جنّي: ﴿الفاء﴾: في ﴿فَكَبِّرۡ﴾ زائدة كالفاء في قولك: زيداً فاضرب؛ أي: زيداً اضرب. وقال الزجاج: الفاء واقعة في جواب شرط مقدر يقتضيه السياق كأنّه قيل: مهما يكن من شيء فلا تدع تكبيره. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ثيابك﴾ مفعول مقدم، ومضاف إليه و﴿الفاء﴾: إما زائدة؛ أو رابطة كما تقدم آنفاً، ﴿طهر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿كبر﴾. ﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿الرجزَ﴾ مفعول مقدم، ﴿فَٱهۡجُرۡ﴾ ﴿الفاء﴾: تقدم الكلام فيها، ﴿اهجر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ما قبله، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ ناهية، ﴿تَمۡنُن﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿تَسۡتَكۡثِرُ﴾ فعل مضارع، مجزوم بالطلب السابق، أو على البدليّة من ﴿تَمۡنُن﴾، والتقدير على جعله جواباً للنهي؛ أي: إنك إن لا تمنن بعطائك تجد ثواباً كثيراً على عطيّتك لسلامة ذلك من الإبطال بالمنّ على حدّ قوله تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾. ووجه الإبدال أنه نظير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩﴾. وقُرِىء بالرفع، والجملة حينئذٍ في محل النصب حال من فاعل ﴿تَمۡنُن﴾. ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لربك﴾ متعلق بـ ﴿اصبر﴾، ﴿فاصبر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ما قبله، والفاء الكلام فيها مثل ما تقدم.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، وفيها معنى التسبب والعلّة، كأنّه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه مغبّة أذاهم وتلقى فيه عاقبة صبرك. ﴿إذا﴾

ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿نُقِرَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ﴿فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بما يدل عليه الجواب الآتي، والتقدير: فإذا نقر في الناقور اشتدّ الأمر وعسر على الكافرين. ﴿فَذَٰلِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، ﴿ذلك﴾ مبتدأ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿يوم﴾ ظرف زمان في محل الرفع، بدل من اسم الإشارة، مبنيّ على الفتح لإضافته إلى المبني، ﴿يَوْمٌ﴾ مضاف، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجرّ مضاف إليه، مبني بسكون مقدّر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلّص من التقاء الساكنين، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة؛ أي: يوم إذ نفخ في الصور. ﴿يَوْمٌ﴾ خبر المبتدأ، ﴿عَسِيرٌ﴾ صفة لـ ﴿يَوْمٌ﴾، ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق بـ ﴿عَسِيرٌ﴾، ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ نعت ثان لـ ﴿يَوْمٌ﴾، والجملة الاسميّة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها ما الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿ذَرْنِي﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، ونون وقاية ومفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ ﴿الواو﴾: واو المعيّة و﴿من﴾ مفعول معه، ويجوز أن تكون الواو عاطفة، و﴿من﴾ معطوفة على المفعول في ﴿ذَرْنِي﴾، وجملة ﴿خَلَقْتُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: خلقته، ﴿وَحِيدًا﴾ حال من العائد المحذوف، أو من الضمير المنصوب في ﴿ذَرْنِي﴾ أو من الضمير في ﴿خلقت﴾، والأول أولى؛ لأنّ المراد به الوليد بن المغيرة؛ لأنّه كان يزعم أنه وحيد قومه كما مر. ﴿وَجَعَلْتُ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿خَلَقْتُ﴾، ﴿لَهُ﴾ متعلق بـ ﴿جعلتُ﴾، وهو في محل المفعول الثاني لـ ﴿جعل﴾، ﴿مَالًا﴾ هو المفعول الأول، ﴿مَّمْدُودًا﴾ صفة ﴿مَالًا﴾، ﴿وَبَنِينَ﴾ معطوف على ﴿مَالًا﴾، ﴿شُهُودًا﴾ نعت لـ ﴿بنين﴾، ﴿وَمَهَّدتُّ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿جعلتُ﴾، ﴿لَهُ﴾ متعلق بـ ﴿مهدت﴾، ﴿تَمْهِيدًا﴾ مفعول مطلق لـ ﴿مهدت﴾، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، ﴿يَطْمَعُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿جعلت﴾، ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿أَزِيدَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، منصوب بـ ﴿أن﴾ المصدرية، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، تقديره: ثم يطمع في الزيادة، والجار والمجرور المحذوف متعلق بـ ﴿يطمع﴾.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ

﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع وزجر له لقطع رجائه وطمعه وتهالكه، ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الردع والزجر، واسم ﴿كَانَ﴾ ضمير يعود على الوليد بن المغيرة، ﴿لِآيَاتِنَا﴾ متعلق بـ ﴿عَنِيدًا﴾، و﴿عَنِيدًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿سَأُرْهِقُهُ﴾ السين: حرف استقبال، ﴿أرهقه﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أول، ﴿صَعُودًا﴾ مفعول ثاني لتضمين ﴿أرهقه﴾ معنى أكلّفه. والصعود في اللغة: العقبة الشاقّة. ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿فَكَّرَ﴾ خبره، ﴿وَقَدَّرَ﴾ معطوف على ﴿فَكَّرَ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الإرهاق، ﴿فَقُتِلَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قتل﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعل مستتر، تقديره: هو، معناه: لعن. والجملة معطوفة على ﴿فَكَّرَ﴾. ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل النصب على الحال من فاعل ﴿قَدَّرَ﴾، ﴿قَدَّرَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة جملة تعجبية لا محل لها من الإعراب، والمقصود من هذا الاستفهام توبيخه والاستهزاء به والتعجيب من تقديره. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، وأتى بها للدلالة على أنَّ هذه الجملة أبلغ من الجملة الأولى، فهي للتفاوت في الرتبة، وهي مؤكّدة لنظيرتها المتقدمة، فالتكرار للتأكيد، ﴿قُتِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل مستتر معطوف على نظيرتها المتقدمة، وجملة ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ مؤكدة أيضاً لنظيرتها المتقدمة، فتلخص أن جملتي ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ متحدتان، وإنما كرر للتأكيد.

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿نَظَرَ﴾ فعل ماض وفاعل مستر، معطوف على ما قبله، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، ﴿عَبَسَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على ما قبله، ﴿وَبَسَرَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على ﴿عَبَسَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب، ﴿أَدْبَرَ﴾ فعل ماض، معطوف على ﴿عَبَسَ﴾، ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ معطوف على ﴿أَدْبَرَ﴾، ﴿فَقَالَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿قال﴾ فعل ماض والفاعل مستتر تقديره هو ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿هَٰذَآ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿سِحْرٌ﴾ خبر، وجملة ﴿يُؤْثَرُ﴾ صفة لـ ﴿سِحْرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿هَٰذَآ﴾

مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ خبر والجملة أيضاً في محل النصب مقول قال ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ السين حرف استقبال، ﴿أصليه﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به، ﴿سَقَرَ﴾ مفعول ثان، والجملة بدل من قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَآ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر تقديره: ﴿هو﴾ يعود على ﴿مَآ﴾، ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر لـ ﴿ما﴾ الاستفهامية؛ أي: أي شيء أعلمك والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿مَا سَقَرُ﴾ ﴿ما﴾ اسم استفهام مبتدأ، و﴿سَقَرَ﴾ خبره، والجملة سادّة مسدّ المفعول الثاني لـ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ المعلقة عن العمل بالاستفهام، وقد مرّ نظيره في الحاقة. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تُبْقِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿سَقَرَ﴾، ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ معطوف على ﴿لا تبقى﴾، ومفعولاهما محذوفان تقديرهما: لا تبقي لحماً ولا تذر عظماً أو غير ذلك من التقادير التي مرت لك، وجملة ﴿لا تبقي﴾ مستأنفة، أو في محل النصب حال من ﴿سَقَرَ﴾، والعامل فيها معنى التهويل والتعظيم لأمرها، لأن الاستفهام بقوله: ﴿مَا سَقَرُ﴾ للتعظيم، فالمعنى: استعظموا ﴿سَقَرَ﴾ حال كونها ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾. ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي لوّاحة، ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ متعلق بـ ﴿لَوَّاحَةٌ﴾، والجملة حال ثانية من ﴿سَقَرَ﴾، وقرىء ﴿لواحةً﴾ بالنصب على أنه حال من ﴿سَقَرَ﴾ أو من الضمير المستكن في ﴿لَا تُبْقِى﴾ أو من الضمير في ﴿لا تذر﴾. واختار الزمخشري نصبه على الاختصاص. ﴿عَلَيْهَا﴾ خبر مقدم، ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ مبتدأ مؤخر في محل الرفع مبني على فتح الجزئين، بني الجزء الأول لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً لافتقاره إلى الجزء الثاني، وبني الجزء الثاني لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً لتضمّنه معنى حرف العطف، وإنما حركا ليعلم أن لهما أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة فتحة للخفة مع ثقل التركيب. والجملة الاسمية في محل النصب حال ثالثة أو مستأنفة.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾ نافية، ﴿جَعَلْنَآ﴾ فعل وفاعل، ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ مفعول أول ومضاف إليه، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾ مفعول ثان، والجملة مستأنفة، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول

أوّل، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿فِتْنَةً﴾ مفعول ثان على حذف مضاف؛ أي: سبب فتنة. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿لِّلَّذِينَ﴾ متعلق بـ ﴿فِتْنَةً﴾، أو صفة لها، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل، ﴿يستيقن﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام ﴿كي﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جَعَلْنَآ﴾ الثاني، وقيل: متعلق بمحذوف تقديره: فعلنا ذلك ليستيقن الذين أوتوا الكتاب. ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل ماض ونائب فاعل ومفعول ثان، والجملة صلة الموصول، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ صلة الموصول، ﴿إِيمَٰنًا﴾ مفعول به، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يزداد﴾، ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل ونائب فاعل ومفعول ثان، صلة الموصول، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام كي، معطوف على ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾، ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾ خبر مقدم، ﴿مَّرَضٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ معطوف على الموصول، ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ذا﴾ اسم موصول في محل الرفع خبر، وجملة ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف؛ أي: أراده الله. والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ ﴿يقول﴾، ﴿بِهَٰذَا﴾ متعلق بـ ﴿أَرَادَ﴾، ﴿مَثَلًا﴾ تمييز لـ ﴿هذا﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف، والتقدير: يضلّ الله إضلالاً مثل ذلك، ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف؛ أي: من يشاء إضلاله، ﴿وَيَهْدِى﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يُضِلُّ﴾، ﴿مَن﴾ مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلته، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾ نافية، ﴿يَعْلَمُ﴾ فعل

مضارع، ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾ مفعول به، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة في محل الرفع فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿هِيَ﴾ ضمير منفصل في محل الرفع مبتدأ، والضمير يعود إلى ﴿سَقَرَ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ذِكْرَىٰ﴾ خبر ﴿للبشر﴾ متعلق بـ ﴿ذِكْرَىٰ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يعلم﴾، ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر، ﴿وَالْقَمَرِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جرّ وقسم، ﴿القمرِ﴾ مقسم به مجرور بواو القسم الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالقمر، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَاللَّيْلِ﴾ جار ومجرور متعلق بفعل قسم محذوف، والتقدير: وأقسم بالليل، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضي متعلق بفعل القسم المحذوف، وجملة ﴿أَدْبَرَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿وَالصُّبْحِ﴾ مجرور بواو القسم، متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالصبح، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بفعل القسم، وجملة ﴿أَسْفَرَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾. ﴿إِنَّهَا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَإِحْدَى﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿إحدىٰ الكبرِ﴾ خبر ﴿إنّ﴾ والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿نَذِيرًا﴾ حال من ﴿إحدىٰ الكبر﴾، ﴿لِلْبَشَرِ﴾ متعلق بـ ﴿نَذِيرًا﴾، ﴿لِمَن شَاءَ﴾ جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿لِلْبَشَرِ﴾، وجملة ﴿شَاءَ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿مِنكُمْ﴾ حال من فاعل ﴿شَاءَ﴾، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَنْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ معطوف على ﴿يَتَقَدَّمَ﴾، وجملة ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿شَاءَ﴾. أي: لمن شاء منكم تقدّمه إلى الخير أو تأخره عنه.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مبتدأ ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿رَهِينَةٌ﴾، وجملة ﴿كَسَبَتْ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿رَهِينَةٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ مستثنى متصل، أو منقطع على الخلاف المذكور عندهم، منصوب، ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ حال من ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم كائنون في جنات، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة إما حال

ثانية، أو خبر ثان للمبتدأ المحذوف، ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ متعلق بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، وجملة قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، تقديره: يتساءلون عن المجرمين حال كونهم قائلين لهم: ما سلككم أيّها المجرمون في نار سقر؟ ﴿مَا﴾ اسم استفهام للاستفهام التوبيخيّ المضمّن للتعجب من حالهم في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿سَلَكَكُمْ﴾ من الفعل والفاعل المستتر والمفعول في محل الرفع خبر عن ﴿ما﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية في محل النصب مقول للقول المحذوف ﴿فِى سَقَرَ﴾ متعلق بـ ﴿سَلَكَكُمْ﴾.

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لَمْ نَكُ﴾ ﴿لَمْ﴾ حرف نفي وجزم، ﴿نَكُ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾، وعلامة جزمه السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف، لأنّها تحذف من مضارع كان المجزوم لكثرة استعمالها إذا لم يلها ساكن، واسمها ضمير مستتر تقديره: نحن. ﴿مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ خبرها، والجملة الناسخة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿وَلَمْ نَكُ﴾ جازم وفعل ناقص واسمه المستتر، وجملة ﴿نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ من الفعل والفاعل المستتر والمفعول في محل النصب خبر ﴿نكون﴾، وجملة ﴿نكون﴾ في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿وَكُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿نَخُوضُ﴾ خبره، والجملة الناقصة معطوفة على ما قبلها أيضاً، ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ مع ظرف زمان باعتبار التكلم متعلق بـ ﴿نَخُوضُ﴾، ﴿ٱلْخَآئِضِينَ﴾ مضاف إليه، ﴿وَكُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، معطوف على ما تقدم، وجملة ﴿نُكَذِّبُ﴾ خبره، ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ متعلق بـ ﴿نُكَذِّبُ﴾، ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جرّ وغاية، والغاية للأمور الأربعة الآنفة، ﴿أَتَىٰنَا﴾ فعل ماض ومفعول به مقدم في محل النصب بأن المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الجارة، ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية مع أنْ المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بمعنى إلى، تقديره: إلى إتيان اليقين والموت إيّانا، الجار والمجرور تنازع فيه كل من الأكوان الأربعة السابقة. ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿تَنفَعُهُمْ﴾ فعل مضارع ومفعول به، ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ فاعل، ومضاف إليه والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿ما﴾ اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَهُمْ﴾ خبر لـ ﴿ما﴾ الاستفهامية، ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾ متعلق بـ ﴿مُعْرِضِينَ﴾، و﴿مُعْرِضِينَ﴾ حال من ضمير ﴿لهم﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿حُمُرٌ﴾ خبره، ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ صفة لـ ﴿حُمُرٌ﴾، والجملة التشبيهية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿مُعْرِضِينَ﴾ فهي حال متداخلة، ﴿فَرَّتْ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿حُمُرٌ﴾، ﴿مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ متعلق بـ ﴿فَرَّتْ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لـ ﴿حُمُرٌ﴾. ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وانتقال عن محذوف، هو جواب الاستفهام السابق، كأنّه قيل: فلا جواب لهم عن هذا السؤال؛ أي: لا سبب لهم في الإعراض بل يريد إلخ. ﴿يُرِيدُ﴾ فعل مضارع، ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ﴾ فاعل، ومضاف إليه، ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة ﴿ٱمْرِئٍ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿أَن﴾ حرف نصب، ﴿يُؤْتَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بـ ﴿أَن﴾، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ﴾، ﴿صُحُفًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿يُؤْتَىٰ﴾، ﴿مُّنَشَّرَةً﴾ صفة ﴿صُحُفًا﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب، على أنه مفعول به لـ ﴿يُرِيدُ﴾، تقديره: بل يريد كلّ امرىء منهم إيتاء صحف منشرة.

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر عن الإرادة المذكورة، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وانتقال لبيان سبب هذا التعنّت، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به والجملة الإضرابية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع وزجر عن الإعراض، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه؛ أي: القرآن. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما ﴿شَآءَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، ومفعول ﴿شَآءَ﴾ محذوف تقديره: فمن شاء أن

يذكره، ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ على كونه جواب شرط لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿يَذْكُرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الشرطية، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء من أعمّ العلل، أو من أعمّ الأحوال، كما مرّ. ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ناصب وفعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء، ولكنه على تقدير مضاف، والتقدير: وما يذكرون في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله ذكرهم، أو لعلة من العلل إلا لعلة مشيئة الله ذكرهم. ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة، والغيبة في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ خبره ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ معطوف على ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾؛ أي: يا أيها الذي لبس الدثار، وهو ما فوق الشعار الذي يلي الجسد، وأصله: المتدثّر، أدغمت التاء بعد قلبها دالاً في الدال، كما مر في المزمل. ﴿قُمْ﴾ من مضجعك واترك التدثّر بالثياب، واشتغل بهذا المنصب الذي نصبك الله له، وهو الإنذار اهـ خطيب.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③﴾؛ أي: خصّص ربك بالتكبير والتعظيم عما لا يليق به من النقائص والشركاء. ﴿وَثِيَابَكَ﴾ الياء في ﴿ثيابك﴾ مبدلة من واو؛ لأنّ أصله: ثواب، فأبدلت الواو ياء لوقوعها إثر كسرة. ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ بكسر الراء وضمّها بمعنى وحد، يراد بهما الأصنام والأوثان. ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ فاعول من النقر، وهو الصوت كالجاسوس من التجسّس، والمراد به هنا الصور، وهو القرن. ﴿شُهُودًا﴾ جمع شاهد، مثل: قاعد وقعود، وشهده كسمعه: حضره؛ أي: بنين حضوراً معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم، لا يفارقونه للتصرّف في عمل أو تجارة، كما مرّ.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ⑭﴾ التمهيد في الأصل: التسوية والتهيئة، ويتجوز به عن بسط المال والجاه. ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ⑮﴾ أصله: أزيد بوزن أفعل، نقلت حركة الياء إلى الزاي فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مدّ. ﴿لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ يقال: عند إذا

خالف الحق ورده عارفاً به، فهو عنيد وعاند، يعني: منكراً. والمعاندة: المفارية والمجانبة والمعارضة بالخلاف كالعناد. والعنيد هنا بمعنى المعاند كالجليس والأكيل والعشير بمعنى المجالس والمؤاكل والمعاشر. ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ قال الراغب: رهقه الأمر إذا غشيه بقهر، يقال: رهقته وأرهقته مثل: ردفته وأردفته وتبعته وأتبعته، ومنه: أرهقت الصلاة؛ أي: أخرتها حتى غشي وقت الأخرى. والصعود: العقبة الشاقّة، ويستعار لكلّ مشاق. والمعنى: سأكلّفه كرهاً بدل ما يطمعه من الزيادة ارتقاء عقبة شاقّة المصعد، كما مرّ. ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ من التفكير بمعنى التفكر والتأمل.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿عَبَسَ﴾ من باب جلس، وبسر من باب دخل كما في «المختار» فيهما. وفي «السمين»: قوله: ثمّ عبس يعبس عبسا وعبوساً؛ أي: قطب وجهه، «يقال: قطب بين عينيه إذا جمع، وبابه: ضرب وجلس». والعبس: ما يبس في أذناب الإبل من البعر والبول، ويقال: بسر يبسر بسراً وبسوراً إذا قبض ما بين عينيه كراهية للشيء، واسودّ وجهه، منه يقال: وجه باسر؛ أي: منقبض أسود، وأهل اليمن يقولون: بسر المراكب، وأبسر إذا وقف، وأبسرنا؛ أي: صرنا إلى البسور. وقال الراغب: البسر استعجال الشيء قبل أوانه، نحو: بسر الرجل حاجته طلبها في غير أوانها، وماء بسر؛ أي: متناول من غدير قبل سكونه، ومنه: قيل للذي لم يدرك من الثمر بسر.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يقال: أثرت الحديث أثره أثراً إذا حدّث به عن قوم في آثارهم؛ أي: بعد ما ماتوا، هذا هو الأصل ثمّ كان بمعنى الرواية عمّن كان، وحديث مأثور؛ أي: منقول ينقله خلف عن سلف، وأدعية مأثورة؛ أي: مروية عن الأكابر. ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: أدخله جهنم، لما قال في «الصحاح»: سقر اسم من أسماء النار، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث. ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: محرقة لظاهر الجلد، وهي بناء مبالغة، وفيها معنيان، كما مرّ أحدهما من لاح يلوح؛ أي: ظهر؛ أي: إنها تظهر للبشر، وثانيهما وهو الأرجح أنّها من لوّحه؛ أي: غيّره وسوّده. والبشر: جمع بشرة كثمر وثمرة، وهو ظاهر الجلد. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أصله: يزتيد بوزن يفتعل، أبدلت تاء الافتعال دالاً وأبدلت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أصله: يرتَيبْ بوزن يفتعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها

بعد فتح. ﴿أُوتُوا﴾ أصله: أؤتيوا بوزن أفعلوا، استثقلت الضمّة على الياء فحذفت، فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾؛ أي: جموع خلقه، جمع جند بالضمّ، وهو العسكر، وكلّ مجتمع وكلّ صنف من الخلق على حدة. ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. ﴿وَٱلصُّبْحِ﴾ قال في «القاموس»: الصبح: الفجر أو أوّل النهار، والجمع أصباح. وفي «المفردات»: الصبح والصباح: أوّل النهار، وهو وقت ما أحمرّ الأفق بحاجب الشمس. ﴿إِذَآ أَسْفَرَ﴾؛ أي: ضاء وانكشف. قال الراغب: السفر: كشف الغطاء، ويختصّ ذلك بالأعيان، نحو: سفر العمامة عن الرأس والخمار عن الوجه، والأسفار يختص باللون، نحو: والصبح إذا أسفر؛ أي: أشرق لونه ووجهه. وفي «قوت القلوب»: الفجر الثاني هو انشقاق شفق الشمس، وهو بريق بياضها الذي تحت الحمرة، وهو الشفق الثاني على ضدّ غروبها؛ لأن شفقها الأول من العشاء هو الحمرة بعد الغروب وبعد الحمرة البياض، وهو الشفق الثاني من أوّل الليل، وهو آخر سلطان شعاع الشمس، وبعد البياض سواد الليل وغسقه، ثم ينقلب ذلك على الضدّ، فيكون بدء طلوعها الشفق الأول وهو البياض، وبعده الحمرة وهو شفقها الثاني، وهو أوّل سلطانها من آخر الليل وبعده طلوع قرص الشمس. فالفجر هو انفجار شعاع الشمس من الفلك الأسفل إذا ظهرت على وجه أرض الدنيا يستر عينها الجبال والبحار والأقاليم المشرفة العالية، ويظهر شعاعها منتشراً إلى وسط الدنيا عرضاً مستطيراً انتهى.

﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ والكبر: جمع الكبرى، جعلت ألف التأنيث كتائه وألحقت بها، فكما جمعت فعلة على فعل كركبة وركب جمعت فعلى عليها، وإلا ففعلىٰ لا تجمع على فعل، بل على فعالىٰ كحبلىٰ وحبالىٰ. ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: لبني آدم، سمّوا بشراً لبدوّ بشرتهم؛ أي: خلوّها عن الشعر. ﴿بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ قال الراغب: ﴿رَهِينَةٌ﴾ إنّه فعيل بمعنى فاعل؛ أي: ثابتة مقيمة. وقيل بمعنى مفعول؛ أي: كلّ نفس مقامة في جزاء ما قدّم من عملها، ولما كان الرهن يتصور من حبسه أستعير ذلك للمحتبس أي شيء كان. ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ سمّوا بهم، لأنهم يأخذون كتبهم بأيمانهم. ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ من سلكت الخيط في الإبرة سلكاً؛ أي: أدخلته فيها، فهو من السلك بمعنى الإدخال، لا من السلوك بمعنى الذهاب. ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أصله: نكون، هذا قبل نقل حركة الواو إلى الكاف؛ لأنّ الأصل:

نكون بوزن نفعل، فلما جزم الفعل المضارع الصحيح الآخر سكّن آخره، فصار نكون فالتقى ساكنان، فحذفت الواو، فصار نكن بوزن نفل، ثم حذفت النون حذفاً غير مطرد، فقيل: ﴿نَكُ﴾. وهذه النون يجوز حذفها إلا إذا اتصل بها ضمير نصب، أو كان بعدها ساكن، نحو: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. قال ابن مالك:

وَمِـنْ مُـضَـارِعٍ لِـكَـانَ مُـنْـجَـزِمْ   تُـحْـذَفُ نُـوْنٌ وَهْـوُ حَـذْفٌ مَـا ٱلْـتُـزِمْ

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: نخالط أهل الباطل في باطلهم، فكلما غوى غاوٍ غوينا معه. ﴿كنّا﴾ أصل كان: كون بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح فصار كان ثم أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك «نا» فسكن آخره لذلك فالتقى ساكنان الألف والنون آخر الفعل فحذفت الألف ثم ألغيت حركة فاء الكلمة، وعوض عنها حركة مناسبة لعين الفعل المحذوفة لتدل على العين المحذوفة، هل هي واو أو ياء، فلمّا ضمّت الفاء التي هي الكاف علم أن العين المحذوفة واو لمناسبة الضمّة للواو، وهكذا كلّ أجوف واويّ العين أسند إلى ضمير رفع متحرك. ﴿نَخُوضُ﴾ أصله: ﴿نخوض﴾ بوزن نفعل، نقلت حركة الواو إلى الخاء فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مدّ. ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: الخاوضين من خاض يخوض، أبدلت الواو همزة في الوصف حملاً له على فعله خاض في الإعلال، حيث قلبت واوه ألفا لتحركها بعد فتح. ﴿أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أصله: أتينا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾؛ أي: من أسد، وهي فعولة من القسر، وهو القهر والغلبة، لأنّه يغلب السباع ويقهرها. ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ قال في «القاموس»: المرء مثلثة الميم: لا الإنسان أو الرجل، ولا يجمع من لفظه، ومع ألف الوصل ثلاث لغات: فتح الراء دائماً وضمها دائماً وكسرها دائماً. ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة بمعنى الكتاب. ﴿مُّنَشَّرَةً﴾؛ أي: منشورة؛ أي: غير مطوية؛ أي: طرية لم تطو بل تأتينا وقت كتابتها، وهذا من زيادة تعنّتهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

منها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ لإفادة الاختصاص؛ أي: وخصّص ﴿ربّك﴾ بالتكبير، وفيه رعاية الفواصل، كما في نظائره من الآي.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿عَسِيرٌ﴾ و﴿يَسِيرٍ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤﴾.

ومنها: تقديم الجارّ على متعلقه في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ للدلالة على التخصيص، فتخصيص العناد بها مع كونه تاركاً للعناد في سائر الأشياء يدل على غاية الخسران.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصليّة في قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾؛ لأن الصعود حقيقة في العقبة الشاقّة المصعد فاستعير لكل مشاق.

ومنها: الإطناب بتكرار الجملة في قوله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ لإفادة التأكيد والمبالغة في التشنيع.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾، لأنه تأكيد لما قبله، ولذلك خلي من العاطف.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾ لإفادة التهويل والتفظيع منها.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، لأنّه تأكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان، فإن نفي ضد الشيء بعد إثبات وقوعه أبلغ في الإثبات كما مرّ.

ومنها: التعبير عن الذين آمنوا باسم الفاعل في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المنبئة من الحدوث للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم في ذلك.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وبين ﴿يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

ومنها: تخصيص الإنس في قوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ مع أنها تذكرة للجن أيضاً، لأنهم هم الأصل في القصد بالتذكرة.

ومنها: المقابلة بين ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾، وبين ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ تفخيماً لشأنها بأنها بلغت غاية لا يكتنه كنهها ولا يوصف وصفها.

ومنها: تأخير قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ عمّا قبله مع كونه أعظم جناياتهم؛ إذ هو تكذيب بالقيامة وإنكارها كفر، والأمور الثلاثة المتقدمّة فسق لتفخيم هذه الجناية، وللترقّي من القبيح إلى الأقبح، ولبيان كون تكذيبهم به مقارناً لسائر جناياتهم المعدودة قبله مستمرًّا إلى آخر عمرهم، كما مرّ.

ومنها: أسلوب التقريع والتوبيخ بطريق الاستفهام في قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

ومنها: التشبيه المرسل في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾، حيث شبههم بالحمر المستنفرة في إعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ وشرادهم عنه.

وفي ذلك مذمّة ظاهرة وتهجين لحالهم وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل، ولا ترى مثل نفار حمار الوحش وإطرادها في العدو إذا خافت من شيء.

ومنها: الإيجاز بحذف بعض الجمل في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: قائلين لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾، فحذف اعتماداً على فهم المخاطبين.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ تعظيماً لشأنه وتفخيماً له؛ أي: كلّا إن هذا القرآن تذكرةٌ بليغةٌ كافيةٌ.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما في هذه السورة من الموضوعات

١ ـ وصفه ﷺ بالتدثّر، وأمره بالإنذار والتكبير والطهارة واجتناب الأوثان والصبر.

٢ ـ التصريح بعسر يوم القيامة على الكافرين، والتعريض بيسره على المؤمنين.

٣ ـ ذكر قصة الوليد بن المغيرة مع النبي ﷺ وتهديده بعذاب سقر.

٤ ـ ذكر كون أصحاب النار المدبرين لها ملائكة وبيان عدتهم.

٥ ـ جعل عدتهم فتنة للكافرين وزيادة لإيمان المؤمنين.

٦ ـ بيان كون الإضلال والهداية بيد الله سبحانه وتعالى.

٧ ـ بيان كثرة جنود الله تعالى حتى لا يعلم عدّتهم أحد إلا الله سبحانه.

٨ ـ بيان قسمه سبحانه بما شاء من مخلوقاته.

٩ ـ بيان كون كلّ نفس مرهونة بعملها.

١٠ ـ بيان تساؤل أصحاب اليمين عن أحوال المجرمين توبيخاً لهم مع بيان جواب المجرمين عن سؤالهم.

١١ ـ تشبيه المجرمين بالحمر المستنفرة في إعراضهم عن القرآن وشرادهم عن استماعه.

١٢ ـ بيان أن الشفاعة لا تنفع الكافرين.

١٣ ـ بيان أن القرآن تذكرة لمن ذكره(١).

والله أعلم

* * *

---

(١) تمّ الفراغ من تفسير هذه السورة في الساعة الخامسة من ليلة الأربعاء الثامن عشر من شهر الربيع الآخر من شهور سنة ١٨/ ٤/ ١٤١٦ هـ ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة القيامة

سورة القيامة مكّية بلا خلاف، نزلت بعد سورة القارعة. وأخرج[1] ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة القيامة وفي لفظ سورة لا أقسم بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت سورة لا أقسم بمكة.

وآيها: تسع وثلاثون أو أربعون آية. وكلماتها[2]: مئة وتسع وتسعون كلمة. وحروفها: ستّ مئة واثنان وخمسون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها[3]: أنه ذكر في السورة السابقة قوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾، وكان عدم خوفهم منها لإنكارهم للبعث، وذكر هنا الدليل عليه بأتمّ وجه، فوصف يوم القيامة وأهواله وأحواله. ثم ما قبل ذلك من خروج الروح من البدن، ثمّ ما قبل ذلك من مبدأ الخلق.

عبارة أبي حيان[4]: مناسبتها لما قبلها: أنَّ في ما قبلها ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾، وفيها كثير من أحوال القيامة، فذكر هنا يوم القيامة وجملاً من أحوالها انتهى.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال ابن حزم: سورة القيامة جميعها محكم إلا قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾﴾، نسخ معناها لا لفظها بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾﴾ الآية (٦) من سورة الأعلى اهـ.

والله أعلم

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ (٣)
بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ (٤) بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ (٥) يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ
ٱلۡبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ
(١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ (١٤)
وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥) لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ
قُرۡءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ (١٩) كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ (٢١) وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ
(٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ (٢٣) وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ (٢٥) كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦)
وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (٢٨) وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ
وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ
فَأَوۡلَىٰٓ (٣٥) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ
(٣٨) فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ (٤٠)﴾.

المناسبة

تقدم لك آنفاً بيان المناسبة بين هذه السورة، والتي قبلها، ثم اعْلمْ أن الله سبحانه أقسم بعظمة القيامة، وبالنفس الطموحة إلى الرقي الجانحة إلى العلوّ التي لا تصل إلى مرتبة إلا طلبت ما فوقها، ولا إلى حال إلا أحبّت ما تلاها. إن هناك حالاً أخرى للنفس تنال فيها رغائبها في عالم أكمل من هذا العالم عالم السعادة الروحية للمطيعين، وعالم الشقاء للجاحدين المعاندين. وهذا القسم، وأمثاله لم يطرق آذان العرب من قبل، فهم كانوا يقسمون بالأب والقمر والكعبة ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أن المنكر للقيامة والبعث معرض عن

(١) المراغي.

آيات الله منكر لعظيم قدرته، وأنه سائر في غلوائه غير مكترث بما يصدر منه، أردفه بذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقنها والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إياها ليظهر بذلك تباين حال الفريقين من يرغب في تحصيل آيات الله، ومن يرغب عنها، وبضدّها تتبين الأشياء.

ثم عاد إلى ذكر السبب في إنكار البعث، وهو حب بني آدم للعاجلة وتركهم للآخرة، ثم ذكر ما يكون في ذلك اليوم من استبشار المؤمنين، وبسور المشركين، وملاقاتهم للشدائد والأهوال، وظنّهم أن ستتراكم عليهم الدواهي التي تكسر فقار ظهورهم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لمّا ذكر أحوال يوم القيامة، وما يرى فيها من عظيم الأهوال، ووصف سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء. بين أن الدنيا لها نهاية ونفاد، ثم تكون مرارة الموت وآلامه، وأن الكافر قد أضاع الفرصة في الدنيا، فلا هو صدق بأوامر دينه، ولا هو أدّى فرائضه، ثم أقام الدليل على صحة البعث من وجهين:

١ ـ أنه لا بد من الجزاء على صالح الأعمال وسيّئها، وثواب كل عامل بما يستحق، وإلا تساوى المطيع والعاصي، وذلك لا يليق بالحكيم العادل جلّ وعلا.

٢ ـ أنّه كما قدر على الخلق الأول وأوجد الإنسان من مني يمنى فأهون عليه أن يعيده خلقاً آخر.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما روي أن عدي بن أبي ربيعة سأل رسول الله ﷺ عن يوم القيامة متى يكون؟ وما حاله وما أمره؟. فأخبره به فقال: لو عاينت ذلك اليوم.. لم أصدّقك، ولم أومن بك، أو يجمع الله هذه العظام. فنزلت هذه الآيات، ولهذا كان النبيّ ﷺ يقول: «اللهم اكفني شر جاري السوء» يعني: عديَّ بن ربيعة والأخنس بن شريق».

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري بسنده قال: حدثنا سعيد بن جبير عن ابن

عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدّةً، وكان مما يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحركها لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرّك شفتيه. فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾، قال: جمعه له في صدره ويقرؤه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه. والحديث أخرجه مسلم والترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي، وأحمد، وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه النسائي بسنده عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ أشيءٌ قاله رسول الله ﷺ من قبل نفسه أم أمره الله به؟ قال: بل قاله رسول الله لأبي جهل من قبل نفسه، ثم أنزله الله عزّ وجلّ. وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم، أفيعجز كلّ عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحى الله تعالى إلى رسوله أن يأتي أبا جهل فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ ﴿لا﴾ صلة[1] لتوكيد القسم، وما كان لتوكيد مدخوله لا يدل على النفي، وإن كان في الأصل للنفي، قال الشاعر:

تَذَكَّرْتُ لَيْلَىٰ فَٱعْتَرَتْنِي صَبَابَةٌ ... وَكَادَ ضَمِيْرُ ٱلْقَلْبِ لا يَتَقَطَّعُ

أي: يتقطع. وزيادتها في كلام العرب كثير كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ يعني: أن تسجد. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. وقيل: هي للنفي لكن لا لنفي نفس الإقسام بل لنفي ما ينبىء هو عنه من إعظامه المقسم به وتفخيمه، كأن معنى لا أقسم بكذا لا أعظمه بإقسامي به حق إعظام، فإنه حقيق بأكثر من ذلك

(١) روح البيان.

وأكثر. أو لنفي كلام معهود قبل القسم ورده، كأنهم أنكروا البعث فقيل: لا؛ أي: ليس الأمر كذلك ثم قيل: أقسم بيوم القيامة كقولك: لا والله إن البعث حق. وأما ما قيل: من أن المعنى نفي الإقسام لوضوح الأمر، فيأباه تعيين المقسم به وتفخيم شأن القسم به. والقول الأول هو أرجح الأقوال هنا.

قال المغيرة بن شعبة: يقولون: القيامة القيامة، وإنما قيامة أحدهم موته. وشهد علقمة جنازة فلما دفن قال: أمّا هذا فقد قامت قيامته. ونظمه بعضهم:

خَرَجْتُ مِنَ الدُّنيا وقامَتْ قِيَامَتِي ... غداةَ أَقَلَّ الحامِلُونَ جِنَازَتِي

وقرأ الحسن[1] وابن كثير في رواية عنه، والزهري، وابن هرمز «لأقسم» بدون ألف على أن اللام لام الابتداء، وإقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس اللوامة، كما أقسم بيوم القيامة، فيكون الكلام في ﴿لا﴾ هذه كالكلام في الأولى، وهذا قول الجمهور. وقال الحسن: أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوّامة. قال الثعلبي: والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً. وقال في «عين المعاني»: القسم[2] بالشيء تنبيه على تعظيمه، أو على ما فيه من لطف الصنع وعظم النعمة، وتكرير ذكر القسم تنبيه على أن كلا من المقسم به مقصود مستقل بالقسم. لما أن له نوع فضل يقتضي ذلك. واللوم: عذل الإنسان بنسبة ما فيه لوم، ومعنى ﴿النفس اللوامة﴾ النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره أو تلوم جميع النفس على تقصيرها.

قال الحسن[3]: هي والله نفس المؤمن، لا يُرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكذا ما أردت بكذا، والفاجر لا يعاتب نفسه. وقال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم فتلوم نفسها على الشر لم فعلته وعلى الخير لم تركته. وقال الفرّاء: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا، وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيراً قالت: هلا ازددت، وإن كانت عملت سوءاً قالت: ليتني لم أفعل. وعلى هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس، فيكون الإقسام بها حسناً سائغاً. وقيل: اللوامة

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

هي الملومة المذمومة، فهي صفة ذمّ. وبهذا احتج من نفى أن يكون قسماً، إذ ليس لنفس العاصي خطر يقسم به. وقال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله، والأول أولى.

قال الفاشاني[1]: جمع بين القيامة والنفس اللوامة في القسم بهما تعظيماً لشأنهما وتناسباً بينهما؛ إذ النفس اللوامة هي المصدّقة بها المقرة بوقوعها المهيئة لأسبابها، لأنها تلوم نفسها أبداً في التقصير والتقاعد عن الخيرات، وإن أحسنت لحرصها على الزيادة في الخير وأعمال البر تيقنا بالجزاء، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت من بادرة غفلة ونسياناً انتهى. هذا، ودع عنك القيل والقال هنا.

وجواب القسم محذوف دل عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ وهو ليبعثن.

والمعنى: أقسم لك يا محمد بقيام القيامة ولوم النفس اللوامة ليبعثن الخلائق للمجازاة على أعمالهم. والاستفهام في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ لإنكار الحساب الواقع من الإنسان واستقباحه. والحسبان: الظن، والمراد بالإنسان الجنس، والإسناد إلى الكل بحسب البعض كثير. وقيل: الكافر. و﴿أنّ﴾ مخففة من الثقيلة، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف. والعظام: جمع عظم، وهو قصب الحيوان الذي عليه اللحم. وخص العظام بالذكر؛ لأنها قالب النفس لا يستوي الخلق إلا باستوائها.

والمعنى[2]: أيحسب الإنسان الذي ينكر البعث أن الشأن والحال لن نجمع عظامه البالية، فإن ذلك حسبان باطل، فإنّا نجمعها بعد تشتتها ورجوعها رميماً ورفاتاً مختلطاً بالتراب، وبعد ما نسفتها الرياح وطيرتها في أقطار الأرض وألقتها في البحار لمجازاته بما عمل في الدنيا. وقرأ الجمهور[3] ﴿نَّجْمَعَ﴾ بالنون، ﴿عِظَامَهُۥ﴾ بالنصب. وقرأ قتادة بالتاء مبنياً للمفعول، و﴿عظامه﴾ بالرفع.

وقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما ذكر بعد النفي السابق بقوله: ﴿لن نجمع﴾ وهو الجمع؛ أي: نجمعها حال كوننا ﴿قَٰدِرِينَ﴾ فهو حال مؤكدة من الضمير المستكن في ﴿نَّجْمَعَ﴾ المقدر بعد بلى. ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ﴾ ونركب ﴿بَنَانَهُۥ﴾؛ أي: أصابعه ومفاصله؛

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

أي: نجمع سلامياته، ونضم بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها، فكيف بكبار العظام؟ وهو جمع سلامى كحبارى، وهي العظام الصغار في اليد والرجل. وقيل: البنان: الأصابع، وهي أكثر العظام تفرقاً وأدقها أجزاء، وهي العظام التي في الأنامل ومفاصلها. وهذا عند البعث.

وقرأ الجمهور: ﴿قَٰدِرِينَ﴾ بالنصب على الحال من الضمير المستكن في الفعل المقدر، أو على أنّه خبر كان المحذوفة؛ أي: بلى كنا قادرين. وقرأ ابن أبي عبلة، وابن السميفع ﴿قادرون﴾ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: بلى نحن قادرون على أن نسوي بنانه.

ومعنى[1]: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾؛ أي: على أن نجمع بعضها إلى بعض، فنردها كما كانت مع لطافتها وصغرها، فكيف بكبار الأعضاء؟ فنبه سبحانه بالبنان، وهي الأصابع على بقية الأعضاء، وأن الاقتدار على بعثها وإرجاعها كما كانت أولى في القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق. فهذا وجه تخصيصها بالذكر، وبهذا قال الزجاج وابن قتيبة. وقال جمهور المفسرين: إن معنى الآية: أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار صفيحة واحدة لا شقوق فيها، فلا يقدر على أن ينتفع بها في الأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة والحياكة ونحوها، ولكنا فرقنا أصابعه لينتفع بها. وقيل: المعنى بلى نقدر على أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها؟ والأول أولى.

وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾ معطوف[2] على قوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾، إمّا على أنه استفهام مثله وأضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا، أو على أنّه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام، وهذا أبلغ وأولى.

والمعنى: بل يريد الإنسان ليدوم على فجوره وذنبه فيما بين يديه من الأوقات، وفيما يستقبله من الزمان، لا يرعوي عنه. فالأمام هنا مستعار للزمان من المكان، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة. وقال ابن الأنباري: يريد أن يفجر ما امتد

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

عمره، وليس في نيّته أن يرجع عن ذنب يرتكبه. قال مجاهد، والحسن، وعكرمة، والسدّي، وسعيد بن جبير: يقول: سوف أتوب، ولا يتوب حتى يأتيه الموت، وهو على أشر أحواله. وقال الضحاك: هو الأمل، يقول: سوف أعيش وأصيب من الدنيا، ولا يذكر الموت. واللام في قوله: ﴿لِيَفْجُرَ﴾ للتأكيد مثل قوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ في أنصحكم. و﴿أن يفجر﴾ مفعول ﴿يُرِيدُ﴾. والفجور أصله: الميل عن الحق، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل، ومنه: قول الأعرابي في حق عمر:

أَقْسَمَ بِاللَّهِ أَبُوْ حَفْصٍ عُمَرْ ... مَا مَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلاَ دَبَرْ
فَاغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ فَجَرْ

وحاصل معنى قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ...﴾ إلخ؛ أي:[1] أيظن ابن آدم أنه لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرّقها بلى نحن قادرون على ذلك، وأعظم منه، فنحن قادرون على أن نسوي بنانه وأطراف يديه ورجليه، ونجعلهما شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار، فلا يستطيع أن يعمل بها شيئاً مما يعمله بأصابعه المفرّقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال التي تحتاج إلى القبض والبسط والتأني في عمل ما يراد من الشؤون كالغزل والنسج والضرب على الأوتار والعيدان إلى نحو أولئك..

والخلاصة: إنا لقادرون على جمع العظام وتأليفها وإعادتها إلى مثل التركيب الأول بعد تفرقها وصيرورتها عظاماً ورفاتاً في بطون البحار وفسيح القفار، وحيثما كانت، وعلى أن نسوي أطراف يديه ورجليه ونجعلهما شيئاً واحداً، فيكون كالجمل والحمار ونحوهما، فيأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب. وفي ذلك خسران كبير له، وتشويه لخلقه، وإفساد لوظيفته التي أعد لها في الحياة. ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾؛ أي: لا يجهل ابن آدم أن ربه قادر على أن يجمع عظامه، لكنه يريد أن يمضي قدماً في المعاصي لا يثنيه عنها شيء ولا يتوب منها، بل يسّوف بالتوبة، فيقول: أعمل ثم أتوب بعد ذلك.

والخلاصة: أنه انتقل من إنكار الحسبان إلى الإخبار عن حال الإنسان

---

(١) المراغي.

الحاسب ليكون ذلك أشد في لومه وتوبيخه، كأنه قيل: دع تعنيفه على ذلك، فإنه قد بلغ من أمره أنه يريد أن يداوم على فجوره فيما يستأنف من الزمان، ولا يتخلى عنه.

ثم علل إرادته دوام الفجور بقوله: ﴿يَسْئَلُ﴾؛ أي: الإنسان سؤال استبعاد واستهزاء ﴿أَيَّانَ﴾ أصله؛ أي آن، وهو خبر مقدم لقوله: ﴿يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: متى يكون يوم القيامة؟ والجملة[1] استئناف تعليلي، كأنه قيل: ما يفعل حين يريد أن يفجر ويميل عن الحق؟ فقيل: يستهزىء ويقول: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. أو حال من الإنسان في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: ليس إنكاره للبعث لاشتباه الأمر وعدم قيام الدليل على صحة البعث بل يريد أن يستمر على فجوره في حال كونه سائلاً متى تكون القيامة؟. فدل هذا الإنكار على أن الإنسان يميل بطبعه إلى الشهوات، والفكرة في البعث تنغّصها عليه، فلا جرم ينكره ويأبى عن الإقرار به. فقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الخ، دل على الشبهة والجهل، وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ﴾... إلخ، على الشهوة والتجاهل. فالآيتان بحسب الشخصين.

والمعنى: أي يسأل سؤال متعنت مستبعد متى يكون هذا اليوم؟. ومن أنكر البعث أشد الإنكار.. ارتكب أعظم الآثام، وخب فيها، ووضع غير عابىء بعاقبة ما يصنع ولا مقدر نتائج ما يكتسب. ونحو الآية قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾، وقوله: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

وقصارى ما سلف: أنهم أنكروا البعث لوجهين:

١ - شبهة تعترض لخاطر كقولهم: إن أجزاء الجسم إذا تفرقت واختلطت بالتراب، وصارت في مشارق الأرض ومغاربها كيف يمكن تمييزها وإعادتها على النحو الذي كانت عليه أوّلاً؟. ولهؤلاء جاء الرد بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾.

٢ - حب الاسترسال في اللذات والاستكثار من الشهوات فلا يود أن يقر

---

(١) روح البيان.

بحشر ولا بعث حتى لا تتنغص عليه لذاته ولمثل هؤلاء قال ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥﴾.

وقد ذكر سبحانه من علامات يوم القيامة أموراً ثلاثة:

١ ـ فقال ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧﴾؛ أي: تحير واضطرب وجال فزعاً من أهوال يوم القيامة. من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش، ثم استعمل في كل حيرة وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق، وهو واحد بروق السحاب ولمعانه. قال الفرّاء: تقول العرب للإنسان المتحير المبهوت: قد برق. وأنشد:

فَنَفْسَكَ فَانْعَ وَلاَ تَنْعَنِيْ ... وَدَاوِ الْكُلُومَ ولا تَبْرَقِ

أي: لا تفزع من كثرة الكلوم والجروح التي أصابتك. ونحو الآية قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾؛ أي: فإذا تحير البصر ودهش فلم يطرف من شدة الهول، ومن عظم ما يشاهد. وجواب إذا قوله الآتي: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ﴾ الخ.

وقرأ الجمهور[(١)] ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء. قال عمرو بن العلاء والزجاج وغيرهما: المعنى تحير فلم يطرف. وقال الخليل والفرّاء ﴿بَرِقَ﴾ بالكسر: فزع وبهت وتحير. وقرأ زيد بن ثابت، ونصر بن عاصم، وعبد الله بن أبي إسحاق، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، والزعفراني، وابن مقسم، ونافع، وزيد بن علي، وأبان عن عاصم، وهارون، ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو، والحسن، والجحدري بخلاف عنهما بفتحها؛ أي: لمع بصره من شدة شخوصه للموت. وقال أبو عبيدة: فتح الراء وكسرها لغتان بمعنى. وقرأ أبو السمال ﴿بَلِقَ﴾ باللام بدل الراء؛ أي: انفتح وانفرج، يقال: بلق الباب وأبلقه إذا فتحه.

٢ ـ ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨﴾؛ أي: ذهب ضوءه، فإن خسف يستعمل لازماً ومتعديًا، يقال: خسف القمر وخسفه الله، أو ذهب نفسه من خسف المكان؛ أي: ذهب في الأرض، ولكن هذا المعنى لا يناسب ما بعد الآية، أي: ذهب ضوءه كما نعقله من حاله في الدنيا إلا أن الخسوف في الدنيا إلى انجلاء، وفي الآخرة لا يعود ضوءه.

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَخَسَفَ﴾ مبنياً للفاعل. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة، ويزيد بن قطيب، وزيد بن علي مبنياً للمفعول، يقال: خسف القمر وكسف الشمس قال أبو عبيدة وجماعة من أهل اللغة: الخسوف والكسوف بمعنى واحد. وقال ابن أبي أويس: الكسوف: ذهاب بعض الضوء، والخسوف جميعه.

٣ - ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝﴾. أي: جمع بينهما في الطلوع من المغرب أو في الإلقاء في النار، ليكون حسرة على من يعبدهما. وجاز[2] تكرار القمر، لأنه أخبر عنه بغير الخبر الأول، ولم يقل: وجمعت؛ لأنّ تأنيث الشمس مجازيّ قاله المبرد. وقال أبو عبيدة: هو لتغليب المذكر على المؤنث. وقال الكسائيّ: حمل على معنى جمع النيران. وقال الزجاج والفرّاء: ولم يقل: جمعت؛ لأنّ المعنى: جمع بينهما في ذهاب نورهما. وقيل: جمع بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين على ما رويَ عن ابن مسعود، وقد كان هذا مستحيلاً في الدنيا، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾. وقال عطاء بن يسار: يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر، فيكونان نار الله الكبرى. وقيل: تجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار. وقرأ ابن مسعود ﴿وجمع بين الشمس والقمر﴾.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المنكر للقيامة، وهو العامل في ﴿إذا﴾. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تقع هذه الأمور قول الآيس من حيث إنه لا يرى شيئاً من علامات ممكنة للفرار، كما يقول من أيس من وجدان زيد: أين زيد حيث لم يجد علامة إصابته. ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؛ أي: أين الفرار، والمفر مصدر بمعنى الفرار. قال الفرّاء: يجوز أن يكون موضع الفرار. قال الماوردي: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أين المفر من الله سبحانه استحياء منه.

والثاني: أين المفر من جهنم حذراً منهما.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ بفتح الميم والفاء مصدراً؛ أي: أين الفرار. وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب، والحسن بن زيد، وابن عباس، والحسن،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

وعكرمة، وأيوب السختياني، وكلثوم بن عياض، ومجاهد، وابن يعمر، وحماد بن سلمة، وأبو رجاء، وعيسى، وابن أبي إسحاق، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، والزهريّ بفتح الميم وكسر الفاء على أنه اسم مكان؛ أي: أين مكان الفرار. وقال الكسائيّ: هما لغتان مثل: مَدَبٌّ وَمدِبٌّ وَمَصَحّ ومِصَحٌّ. وقرأ الزهريّ أيضاً والحسن بكسر الميم وفتح الفاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار، وأكثر ما يستعمل هذا الوزن في الآلات، وفي صفات الخيل، كقول امرىء القيس:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ ٱلسَّيْلُ مِنْ عَلِ

أي: جيد الفر والكر.

والمعنى[1]: أي يقول الإنسان حينئذٍ لدهشته وحيرته: أين المفر من جهنم؟ وهل من ملجأ منها؟.

فأجيبوا حينئذ ﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم من طلب المفر وتمنيه. ﴿لَا وَزَرَ﴾؛ أي: لا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله سبحانه. وقال ابن جبير: لا محيص ولا منعة. والظاهر: أنّ قوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ من قول الله تعالى. وجوّز[2] أن يكون من قول الإنسان لنفسه، وهو بعيد. وخبر ﴿لا﴾ محذوف؛ أي: لا ملجأ ثمة أو في الوجود. والوزر في اللغة: ما يلجأ إليه الإنسان من جبل أو حصن أو غيرهما، ومنه قول طرفة:

وَلَقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أَنَّنَا ... فَاضِلُوا ٱلرَّأْيِ وَفِي ٱلرَّوْعِ وَزَرْ

وقال الآخر:

لَعَمْرِيَ مَا لِلْفَتَى مِنْ وَزَرْ ... مِنَ الْمَوْتِ يُدْرِكُهُ وَالْكِبَرْ

أي: لا ملجأ للفار من الموت والكبر؛ إذ كل منهما من الأمر الإلهي والأمر المحكم القضاء المبرم يدرك الإنسان لا محالة. قال السدي: كانوا إذا فزعوا في الدنيا تحصنوا بالجبال، فقال الله لهم: لا وزر يعصمكم مني يومئذٍ. و﴿كَلَّآ﴾ للردع أو لنفي ما قبلها أو بمعنى حقاً. ونحو الآية قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ثم كشف عن حقيقة الحال، وبينها بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ أي[1]: إلى ربك وحده استقرار العباد ورجوعهم ومصيرهم يوم إذ تقع تلك الأمور الهائلة. أي: لا يتوجهون إلا إلى حيث أمرهم الله تعالى من مقام حسابه، أو إلى حكمه استقرار أمرهم، فإن الملك يومئذٍ لله تعالى، فهو كقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: إلى حيث لا حاكم ولا مالك سواه تعالى. أو إلى مشيئته موضع قرارهم يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار، فيكون ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ اسم مكان، وهو مرفوع بالابتداء، ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خبره، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ معمول ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ولا يجوز أن يكون معمول ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾؛ لأنه إن كان مصدراً بمعنى الاستقرار.. فلا يتقدم معموله عليه، وإن كان اسم مكان.. فلا عمل له البتة، وكذا الكلام في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ ونحوه.

والخلاصة: أي إلى ربك مرجعك في جنة أو نار، وأمر ذلك مفوض إلى مشيئته فمن شاء أدخله الجنة ومن شاء أدخله النار.

ثم ذكر أن مآله رهن بما عمل، فقال: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ أي[2]: يخبر كل امرىء برًّا كان أو فاجراً عند وزن الأعمال وحال العرض والمحاسبة. والمخبر هو الله سبحانه أو الملك بأمره أو كتابه بنشره. ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾؛ أي: بما عمل من عمل خيراً كان أو شرّاً، فيثاب بالأول، ويعاقب بالثاني. ﴿و﴾ بما ﴿أخر﴾؛ أي: وبما لم يعمل خيراً كان أو شرّاً، فيعاقب بالأول ويثاب بالثاني. أو بما قدم من حسنة أو سيّئة، وبما أخر من حسنة أو سيئة، فعمل بها بعده. أو بما قدم من مال تصدق به في حياته، وبما أخر فخلفه، أو وقفه أو أوصى به أو بأوّل عمله وآخره.

والمعنى: أي يخبر الإنسان حين العرض والحساب ووزن الأعمال بجميع أعماله قديمها وحديثها أولها وآخرها صغيرها وكبيرها، كما قال: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

قال القشيّري: وهذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبْع يَجْرِي أجْرها للعبد بعد موته وهو في قبره:

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

من علم علماً أو أجرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس ظلاً أو بنى مسجداً أو ورّق مصحفاً أو ترك وليًّا يستغفر له بعد موته». وفي الحديث: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، ولا حجاب يحجبه، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشقّ تمرة».

ثم بين أن أعظم شاهد على المرء نفسه، فهي نعم الشاهد عليه، فقال: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مبتدأ، و﴿بَصِيرَةٌ﴾ خبره، و﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ بتقدير على أعمال نفسه، والموصوف محذوف؛ أي: بل هو حجّةٌ بصيرة وبيّنة واضحة على أعمال نفسه، شاهدة جوارحه وأعضاؤه بما صدر عنه من الأفعال السيئة، كما يعرب عنه كلمة ﴿عَلَىٰ﴾، وما سيأتي من الجملة الحالية. ووصفت الجوارح بالبصارة والشهادة مجازاً في الإسناد، كما وصفت الآيات بالإبصار في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾. أو عين بصيرة أو ذو بصيرة أو التاء للمبالغة كما في علّامة ونسّابة؛ أي: بصير شاهد على أعمال نفسه. ومعنى ﴿بَلِ﴾[1] هنا الترقي؛ أي: ينّبأ الإنسان بأعماله بل هو لا يحتاج إلى أن يخبره غيره، فإنه يومئذٍ عالم بتفاصيل أعماله وأحواله، شاهد على نفسه؛ لأنَّ جوارحه تنطق بذلك.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ حال[2] من المستكن في ﴿بَصِيرَةٌ﴾ أو من مرفوع ﴿يُنَبَّؤُا۟﴾؛ أي: هو بصيرة على نفسه تشهد عليه جوارحه، وتقبل شهادتها ولو جاء بكلّ معذرة يمكن أن يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها بأن يقول مثلاً: لم أفعل أو فعلت لأجل كذا، أو لم أعمل، أو وجد مانع أو كنت فقيراً ذا عيال أو خفت فلاناً أو طمعت في عطائه إلى غير ذلك من المعاذير غير النافعة. أو ينبأ بأعماله، ولو اعتذر بكلّ عذر في الذبّ عنها، فإنّ الذبَّ والدفع لا رواج له يومئذٍ، لأنّه يوم ظهور الحق بحقيقته. والمعاذير اسم جمع للمعذرة كالمناكير اسم جمع للمنكر. وقيل: جمع معذار، وهو الستر بلغة أهل اليمن؛ أي: ولو أرخى ستوره. يعني: أن احتجابه واستتاره عن المخلوقات في حال مباشرة المعصية في الدنيا لا يغني عنه شيئاً؛ لأنَّ عليه من نفسه بصيرةً، ومن الحفظة شهوداً. وفي «الكشاف»: لأنّه يمنع

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب. وقيل: المعاذير جمع معذرة على غير قياس كملاقيح ومذاكير جمع لقحة وذكرٍ.

والمعنى[1]: بل الإنسان حجة بينة على نفسه، فلا يحتاج إلى أن ينبئه غيره؛ لأنّ نفسه شاهدة على ما فعل، فسمعه وبصره ويداه ورجلاه وجوارحه شاهدة عليه، وسيحاسب عليه مهما أتى بالمعاذير، وجادل عنها كما قال سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾. وقال الفراء في الآية: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾، وأنشد:

كَأَنَّ عَلَىٰ ذِي ٱلْعَقْلِ عَيْناً بَصِيْرَة ... بِمَجْلِسِهِ أَوْ مَنْظَرٍ هُوَ نَاظِرُهْ

يُحَاذِرُ حَتَّى يَحْسَبُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمْ ... مِنَ ٱلْخَوْفِ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ سَرَائِرُهُ

ثم علّم الله سبحانه رسوله ﷺ كيف يتلقى الوحي من الملك؟ إذ كان يسابقه في قراءته، فأمره أن يستمع إليه إذا جاء، وقد كفل له.

١ ـ أن يحفظه له.

٢ ـ أن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه.

٣ ـ أن يبينه ويفسره له. وقد أشار إلى الأول بقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ ما دام جبريل يقرأ ويلقي عليك ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: بأخذه؛ أي: لتأخذه على عجلة مخافة أن يتفلت. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرك بحكم الوعد، بحيث لا يخفى عليك شيء من معانيه. ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ بتقدير المضاف؛ أي: إثبات قراءته بلسانك بحيث تقرأه متى شئت. فالقرآن هنا مصدر بمعنى القراءة كالغفران بمعنى المغفرة مضاف إلى مفعوله. والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وليس يقال ذلك لكل جمع، لا يقال: قرأت القوم إذا جمعتهم. قال الواسطي: جمعه في السر، وقرآنه في العلانية.

والمعنى: أي لا تحرك أيها الرسول الكريم بالقرآن لسانك وشفتيك لتأخذه على عجلة مخافة أن يتفلت منك، فإن علينا أن نجمعه لك حتى نثبته في قلبك. وقد كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي يحرك به لسانه وشفتيه، فيشتد عليه ويعرف ذلك

---

(١) المراغي.

في تحريكه شفتيه حتى نزلت هذه الآية، فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما أمره الله.

وأشار إلى الثاني بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾؛ أي: أتممنا قراءته بلسان جبريل. وإسناد القراءة إلى نون العظمة للمبالغة في إيجاب التأني. ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾؛ أي: فاشرع فيه بعد فراغ جبريل منه بلا مهلة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فإذا جمعناه وأثبتناه في صدرك فاعمل به.

والمعنى: أي فإذا تلاه عليك الملك فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك. وقد يكون المراد فإذا تلي عليك فاعمل بما فيه من شرائع وأحكام.

وأشار إلى الثالث بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾؛ أي: بيان ما أشكل عليك من معانيه وأحكامه. وسمّي ما يشرح المجمل والمبهم من الكلام بياناً لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره. وفي[1] ﴿ثم﴾ دليل على أنه يجوز تأخير البيان عن وقت الخطاب لا عن وقت الحاجة إلى العمل؛ لأنّه تكليف بما لا يطاق.

والمعنى: أي ثم إنا بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونلهمك معناه على ما أردنا وشرحنا.

وفي كتاب ابن عطية: وقرأ أبو العالية ﴿إنّ علينا جَمْعَه وقرتَه. فإذا قرته فاتبع قرته﴾ بفتح القاف والراء والتاء من غير همز ولا ألف في الثلاثة، ولم يتكلم على توجيه هذه القراءة الشاذة. ووجه اللفظ الأول: إنّه مصدر؛ أي: إنّ علينا جمعه وقراءته، فنقل حركة الهمزة إلى الراء الساكنة وحذفها، فبقي ﴿قرته﴾، كما ترى.

وأما الثاني فإنّه فعل ماض، أصله: فإذا قرأته؛ أي: أردت قراءته، فسكن الهمزة فصار قرأته ثم حذف الألف على جهة الشذوذ كما حذفت في قول العرب: ولو تر ما الصبيان يريدون، ولو ترى ما الصبيان، و(ما) زائدة. وأما اللفظ الثالث فتوجيهه توجيه اللفظ الأول؛ أي: فإذا قرأته؛ أي: أردت قراءته فاتبع قراءته بالدرس أو بالعمل.

وذكر أبو عبد الله الرازي في «تفسيره»: أن جماعةً من قدماء الروافض زعموا أنَّ القرآن قد غيّر، وبدل، وزيد فيه، ونقص منه، وأنهم احتجوا بأنه لا مناسبة بين

(١) روح البيان.

هذه الآيات وما قبلها، ولو كان التركيب من الله تعالى ما كان الأمر كذلك. ثمّ ذكر الرازي مناسبات على زعمه يوقف عليها في كتابه، ويظهر أن المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أنه تعالى لما ذكر منكر القيامة والبعث معرضاً عن آيات الله تعالى ومعجزاته، وأنه قاصر شهواته على الفجور غير مكترث بما يصدر منه ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقفها والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إياها، فظهر بذلك تباين من يرغب في تحصيل آيات الله، ومن يرغب عنها، وبضدها تتميز الأشياء. ولما كان ﷺ لمثابرته على ذلك كان يبادر للتحفظ بتحريك لسانه أخبره تعالى بأنّه يجمعه له ويوضحه.

ولما فرغ من خطابه ﷺ رجع إلى حال الإنسان السابق ذكره المنكر للبعث، وأنَّ همه إنما هو في تحصيل حطام الدنيا الفاني لا في تحصيل ثواب الآخرة الباقي؛ إذ هو منكر لذلك. فقال: ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان السابق عن الاغترار بالعاجل. ﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾ أيها الناس ﴿الْعَاجِلَةَ﴾؛ أي: تحصيل حطام الدنيا العاجلة، وترغبون في جمعها. ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١)﴾؛ أي: وتتركون الاستعداد لها بالإيمان بالله ورسوله وبالإكثار من العبادات.

قرأ الجمهور[١]: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١)﴾ بتاء الخطاب لكفار قريش المنكرين للبعث، و﴿كلا﴾ رد عليهم وعلى أقوالهم، أي ليس الأمر كما زعمتم وإنما أنتم قوم غلبت عليكم محبة شهوات الدنيا حتى تتركوا معه الآخرة، والنظر في أمرها. وقرأ مجاهد والحسن وقتادة والجحدري وابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة فيهما.

والمعنى: أي[٢] ليس الأمر كما تقولون أيها المشركون من أنكم لا تبعثون بعد مماتكم ولا تجازون بأعمالكم، ولكن الذي دعاكم إلى قيل ذلك محبتكم للدنيا العاجلة وإيثاركم شهواتها على آجل الآخرة ونعيمها، فأنتم تؤمنون بالعاجلة وتكذّبون بالآجلة. قال قتادة: اختار أكثر الناس العاجلة إلا من رحم الله وعصم.

والخلاصة: أنكم يا بني آدم خلقتم من عجل، وطبعتم عليه متعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبون العاجلة وتذرون الآخرة.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

ثم بين ما يكون من أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين، فقال: (١) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: ناعمة غضة حسنة، يقال: شجر ناضر وروض ناضر؛ أي: حسن ناعم، ونضارة العيش حسنه وبهجته. وقال الواحدي: يقول المفسّرون: مضيئة مسفرة مشرقة. وقوله: ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ، و﴿نَّاضِرَةٌ﴾ خبره، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بـ ﴿ناضرة﴾، وسوّغ وقوع النكرة مبتدأ وقوعه في معرض التفصيل. وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ متعلق بقوله: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ وهو خبر ثان للمبتدأ. والنظر: تقليب البصر، أو البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، والمراد بنظر الوجوه نظر العيون التي فيها بطريق ذكر المحل وإرادة الحال؛ أي: فوجوه المؤمنين المخلصين حين تقوم القيامة مضيئة مشرقة تشاهد عليها نضرة النعيم إلى ربها، ومالك أمرها، وخالقها ﴿نَاظِرَةٌ﴾؛ أي: تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب. قال جمهور أهل العلم: المراد بذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أنَّ العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر. قال ابن كثير: وهذا بحمد الله مجمع عليه من الصحابة والتابعين، وسلف هذه الأمّة كما هو متفق عليه بين أئمّة الإسلام وهداة الأنام اهـ.

وروى البخاري في «صحيحه»: «إنّكم سترون ربكم عياناً». وروى الشيخان عن أبي سعيد وأبي هريرة «أنّ ناساً قالوا يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنّكم سترون ربكم كذلك». وروى ابن جرير عن مجاهد أنّه قال: إنَّ النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب. قال الأزهري: قد أخطأ مجاهد، لأنّه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى انتظر، فإنّ قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلاّ رؤية عين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا: نظرته. وأشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جدّاً اهـ. قال الشاعر:

فَإِنَّكُمَا إِنْ تَنْظُرَانِيَ سَاعَةً   مِنَ ٱلدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

أراد به معنى الانتظار. وقال الآخر:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَٱلنُّجُومُ كَأَنَّهَا   مَصَابِيحُ رُهْبَانٍ تَشُبُّ لِقِفَالِ

أراد به نظر العين. وقال الآخر أيضاً:

إِنِّيْ إِلَيْكَ لِمَا وَعَدْتَ لِنَاظِرٌ   نَظَرَ ٱلْفَقِيْرِ إِلَىٰ ٱلْغَنِيِّ ٱلْمُوسِرِ

أراد به أيضاً نظر العين؛ أي: أنظر إليك نظر ذل كما ينظر الفقير إلى الغني.

٢ - ﴿وَوُجُوهٌ﴾ من الكفرة والمنافقين. مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿بَاسِرَةٌ﴾ وهو خبر المبتدأ؛ أي: كالحة عابسة كئيبة؛ أي: شديدة العبوس مظلمة ليس عليها أثر السرور أصلاً. ﴿تَظُنُّ﴾؛ أي: تتوقع أربابها بحسب الأمارات، والجملة خبر بعد خبر. ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾؛ أي: داهية عظيمة تقصم فقار الظهر، ومنه: سمي[1] الفقير، فإنَّ الفقر: كسر فقار ظهره، فجعله فقيراً؛ أي: مفقوراً. وهو كناية عن غاية الشدّة وعدم القدرة على التحمل، فهي تتوقع ذلك كما تتوقع الوجوه الناضرة أن يفعل بها كل خير بناء على أنَّ قضية المقابلة بين الآيتين تقتضي ذلك. والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر سادّ مسدَّ مفعول ظن، كما سيأتي.

ورجح أبو حيَّان، والطيبيّ، تفسير الظن بمعنى اليقين، ولا ينافيه أن المصدرية كما توهم، فإنها إنّما لا تقع بعد فعل لتحقق الصرف، أما بعد فعل الظن، أو ما يؤدي معنى العلم فتجيء المصدرية والمشدّدة والمخففة، نص عليه الرضيّ.

والمعنى: أي ووجوه الكفار تكون يوم القيامة عابسةً كالحةً مستيقنةً أنها ستصاب بداهيةٍ عظيمة تقصم فقار ظهرها وتهلكها. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر عن إيثار العاجلة على الآخرة؛ أي: ارتدعوا وانزجروا عن ذلك، وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت الذي ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة من العلاقة، فأقلعوا عن إيثار الدنيا على الآخرة، فستنقطع الصلة بينكم وبينها، وتنتقلون إلى الدار الآخرة التي ستكونون فيها مخلدين أبداً.

ثم استأنف ببيان الحال التي تفارق فيها الروح الجسد، فقال: ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾؛ أي: إذا بلغت الروح أعالي الصدر، وأشرفت النفس على الموت. قال دريد بن الصمّة:

وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دافَعْتُ عَنْهَا ... وَقَدْ بَلَغَتْ نُفُوْسُهُمُ التَّرَاقِيْ

وضمير[2] الفاعل للنفس وإن لم يجر لها ذكر، لأن الكلام الذي وقعت فيه

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

يدل عليها، والعرب تحذف من الكلام ما يدل عليه، يقولون: أرسلت يريدون أرسلت السماء المطر، ولا تكاد تسمعهم يقولون: أرسلت السماء. قال حاتم يخاطب زوجه:

أماوِيُّ مَا يُغْنِيْ ٱلثَّرَاءُ عَنِ ٱلْفَتَى   إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا ٱلصَّدْرُ

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

والمعنى: أي إذا بلغت النفس الناطقة، وهي الروح الإنساني أعالي الصدر، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال، فإذا بلغت إليها يكون وقت الغرغرة. والتراقي: جمع ترقوة بفتح التاء، والواو وسكون الراء، وضمّ القاف. قال في «القاموس»: الترقوه ولا تضم تاؤه: العظم بين ثغرة النحر والعاتق انتهى. والعاتق موضع الرداء من المنكب. قال بعضهم: لكل أحد ترقوتان، ولكن جمع التراقي باعتبار الأفراد. وبلوغ النفس التراقي كناية عن عدم الإشفاء. والعامل في ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ معنى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: إذا بلغت النفس الحلقوم رفعت وسيقت إلى الله؛ أي: إلى موضع أمر الله أن ترفع إليه.

وقوله: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ معطوف على ﴿بَلَغَتِ﴾؛ أي: وقال أهله: من يرقيه ليشفيه مما نزل به. قال قتادة: التمسوا له الأطباء، فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً. وقال أبو قلابة: ومنه قول الشاعر:

هَلْ لِلْفَتَىٰ مِنْ بَنَاتِ ٱلْمَوْتِ مِنْ وَاقِي   أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمامِ ٱلْمَوْتِ مِنْ رَاقِي

ووقف حفص على ﴿مَنْۜ﴾ وقفة يسيرة من غير تنفس. قال بعضهم: لعل وجهه استثقال الراء المشددة التي بعدها قاف غليظة التلفظ في الإدغام، واستكراه القطع التام بين المبتدأ والخبر، وبين الاستفهام والمستفهم عنه في النفس، والفرار من الإظهار دون سكتة، لأنه يعد من اللحن عند اتصال النون الساكنة بالراء بين أهل القراءة.

أي: [1] وقال من حضر صاحبها: من يرقيه وينجيه مما هو فيه من الرقية؟ وهو التعويذ بما به يحصل الشفاء، كما يقال: بسم الله أرقيك. وفعله من باب

(١) روح البيان.

ضرب. والاستفهام على هذا يحتمل أن يكون بمعنى الطلب كأنّ الذين حول ذلك الإنسان طلبوا له طبيباً يعالجه وراقياً يرقيه، ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار كما يقال عند اليأس: من الذي يقدر أن يرقي هذا الإنسان المشرف على الموت، وهو الظاهر، كما قال الراغب: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾؛ أي: من يرقيه تنبيهاً على أنّه لا راقي يرقيه فينجيه. وذلك إشارة إلى نحو ما قال:

وإذا ٱلمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا   أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

والتميمة: خرزات، كان العرب يعلقونها على أولادهم خوفاً من العين، وهو باطل لقوله ﷺ: «مَنْ علق تميمة فقد أشرك»، وإيّاها أراد صاحب هذا البيت المذكور.

وقيل: هو من كلام ملائكة الموت، يقولون: أيكم يرقى بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ من الرقيّ بمعنى الصعود، وفعله من باب علم، وقولنا: ملائكة الرحمة لا يمانعه قوله الآتي: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾ الآيات، لأنّ الضمير فيه لجنس الإنسان فلا يتعين كون المحتضر من أهل النار. وقال الكلبيّ: يحضر العبد عند الموت سبعة أملاك من ملائكة الرحمة وسبعة من ملائكة العذاب مع ملك الموت، فإذا بلغت نفس العبد التراقي نظر بعضهم إلى بعض أيهم يرقى بروحه إلى السماء؟، . فهو قوله: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ الملائكة يكرهون القرب من الكافر، فيقول ملك الموت: من يرقى بروح هذا الكافر.

﴿وَظَنَّ﴾ معطوف أيضاً على ﴿بَلَغَتِ﴾؛ أي: وأيقن المحتضر الذي بلغت روحه التراقي حين عاين ملائكة الموت ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾؛ أي: أن ما نزل به هو الفراق من الدنيا المحبوبة ونعيمها التي ضيع العمر النفيس في كسب متاعها الخسيس. وعبر عما حصل له من المعرفة حينئذٍ بالظن؛ لأن الإنسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه، فإنه يطمع في الحياة لشدّة حبه لهذه الحياة العاجلة، ولا ينقطع رجاؤه عنها، فلا يحصل له يقين الموت بل ظنه الغالب على رجاء الحياة.

قال الإمام: هذه الآية تدل على أن الروح جوهر قائم بنفسه باق بعد موت المعدن؛ لأنَّ الله تعالى سمى الموت فراقاً، والفراق إنّما يكون إذا كانت الروح باقيةً، فإن الفراق والوصال صفة، وهي تستدعي وجود الموصوف. قال المزنيّ:

دخلت على الشافعي في مرض موته، فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولسوءِ عملي مُلاقياً ولكأس المنية شارباً وعلى الله وارداً، فلا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها؟. ثم أنشأ يقول:

ولـمَّـا قَسَـا قَـلْـبِيْ وَضَـاقَـتْ مَـذَاهِـبِيْ جَـعَـلْـتُ رَجَـائِـي نَـحْـوَ عَـفْـوِك سُـلَّـمَـا
تـعـاظَـمَـنِـيْ ذَنْـبِـي فَـلـمَّـا قَـرنْـتُـهُ بِـعَـفْـوِكَ رَبِّـي كَـانَ عَـفْـوُكَ أَعْـظَـمَـا

وقال بعضهم:

فِــرَاقٌ لَـيْــسَ يُــشْـبِــهُـهُ فِــرَاقُ قَـدْ تَـقَـطَّـعَ الـرَّجَـاءَ عَـنِ الـتَّـلاَقِ

وقوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ معطوف أيضاً على ﴿بَلَغَتِ﴾؛ أي: والتفّت ساقه بساقه والْتَوت عليها عند قلق الموت. والساق: العضو المعروف، وهي ما بين الركبة والقدم، والتفافهما: اجتماعهما والتواء إحداهما بالأخرى. وعن سعيد بن المسيّب: هما ساقاه حين تلفَّان في أكفانه. وقال زَيْدُ بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت. وقيل: ماتت رجلاه، ويبست ساقاه، ولم تحملاه وقد كان جوَّالاً عليهما؛ إذ هما أول ما تخرج الروح منهما، فتبردان قبل سائر الأعضاء. وقال الضحاك: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه، وبه قال ابن زيد. وقيل: التفت شدة فراق الدنيا بشدّة إقبال الآخرة على أن الساق مثل في الشدّة. وجه المجاز[١] أنَّ الإنسان إذا دهمته شدّة شمر لها عن ساقيه، فقيل للأمر الشديد: ساق مِنْ حيث إن ظهورها لازم لظهور ذلك الأمر، وقد سبق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال النابغة الجعدي:

أَخُو الحَرْبِ إنْ عَضَّتْ بِهِ الحَرْبُ عَضَّها وإنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِها الحَرْبُ شَمَّرا

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وخالقك أيها الإنسان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تقوم القيامة ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾؛ أي: المرجع والمآب، والمراد أنّك إما صائر إلى جنة أو نار. وهذا دالٌّ على جواب إذا، وعلى ما تتم به الجملة كما مرّ، تقديره: إذا بلغت التراقي وقيل من راق، والتفت الساق بالساق يحصل المساق يومئذٍ إلى ربك، ويجد كل

---

(١) روح البيان.

إنسان ما عمله من خير أو شر حاضراً بين يديه.

أي: إلى الله، وإلى حكمه يساق الإنسان يومئذٍ، لا إلى غيره؛ أي: يساق إلى حيث لا حكم هناك إلا الله. فالمساق مصدر ميميّ بمعنى السوق، والألف واللام عوض عن المضاف إليه؛ أي: إلى ربك سوق الإنسان للمجازاة على عمله.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ عطفت[1] هذه الجملة على جملة قوله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦﴾ تعجيباً من حال الإنسان الكافر. يعني: يسأل عن يوم القيامة فلا صدق، ولا صلى ولكن كذّب وتولى؛ أي: يسأل وما استعد له إلا بما يوجب دماره وهلاكه. وأما قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ فجواب عن السؤال. وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ تخلص إلى ما استطرد من أحوال النبي ﷺ أقحم الجواب بين المعطوف والمعطوف عليه لشدّة الاهتمام به.

أي: فلا صدق الإنسان المذكور ما يجب تصديقه من الرسول، والقرآن الذي نزل عليه؛ أي: لم يصدق، فـ ﴿لا﴾ ههنا بمعنى ﴿لم﴾، وإنما[2] دخلت على الماضي لقوّة التكرار. يعني: حسن دخول ﴿لا﴾ على الماضي تكراره كما تقول: لا قام زيد ولا قعد، وقلما تقول العرب: لا وحدها حتى تتبعها بأخرى، تقول: لا زيد في الدار ولا عمرو، أو فلا صدق ماله بمعنى لا زكاه، فحيئنذٍ يطلب وجه لترجيح الزكاة على الصلاة مع أن دأب القرآن تقديم الصلاة على الزكاة، ولعل وجهه ما كان كفّار مكة عليه من منع المساكين وعدم الحضّ على طعامهم في وقت الضرورة القوية، وأيضاً في تأخير ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ مراعاة الفواصل، كما لا يخفى.

﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ ما فرض عليه. وفيه دلالة على أنَّ الكفار مخاطبون بالفروع في حقّ المؤاخذة. يعني: أنَّ الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة كما يستحقها بترك الإيمان، وإن لم يجب أداؤها عليه في الدنيا.

ولما كان عدم التصديق يصدق بالشك والسكوت والتكذيب استدرك على عمومه، وبين أن المراد منه خصوص التكذيب، فقال: ﴿وَلَـٰكِن كَذَّبَ﴾ ما ذكر من الرسول والقرآن. والاستدراك لدفع احتمال الشك، فإن نفي التصديق لا يستلزم

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

إثبات التكذيب لكون الشك بين التصديق والتكذيب، فإذاً لا تكرار في الآية. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن الطاعة لله ولرسوله.

والمعنى: أي فما صدق بالله ووحدانيته بل اتخذ الشركاء والأنداد وجحد كتبه التي أنزلها على أنبيائه، وما صلى وأدى فرائضه التي أوجبها عليه بل أعرض، وتولى عن الطاعة.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ﴾؛ أي: أهل بيته أو إلى أصحابه حال كونه ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾؛ أي: يتبختر ويختال في مشيته افتخاراً بذلك من المطّ، وهو المد، فإن المتبختر يمد خطاه. يعني: أن التمدد في المشي من لوازم التبختر، فجعل كناية عنه، فيكون أصله: يتمطط بمعنى يتمدد، أبدلت الطاء الأخيرة ياء كراهة اجتماع الأمثال، أو من المطا مقصوراً، وهو الظهر، فإنه يلويه ويحركه في تبختره، فألفه مبدلة من واو. و﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿ذَهَبَ﴾. وفي الحديث: «إذا مشت أمتي المطيطاء، وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم» والمطيطاء كحميراء: التبختر ومد اليدين في المشي، والبأس شدّة الحرب.

والمعنى؛ أي[1] ليته اقتصر على الإعراض، والتولي عن الطاعة بل هو قد ذهب إلى أهله جذلان فرحاً يمشي الخيلاء متبختراً.

والخلاصة: أنَّ هذا الكافر كان في الدنيا مكذّباً للحق بقلبه متولّياً عن العمل بجوارحه، معجباً بما فعل، فلا خير فيه لا باطناً ولا ظاهراً.

ثم هدده وتوعده، فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: ويل لك مرّةً بعد أخرى، وأهلكك الله هلاكاً أقرب لك من كل شر وهلاك.

ففي الكلام التفات[2] عن الغيبة إلى الخطاب، فالكلمة الأولى اسم فعل ماض مبنيّة على السكون، والفاعل ضمير مستتر يعود على ما يفهم من السياق، وهو كون هذه الكلمة تستعمل في الدعاء بالمكروه، واللام للتبيين؛ أي؛ لتبيين المفعول، وهي في المعنى زائدة على حدّ سقياً لك؛ أي: سقاك الله، والكاف مفعول به.

والمعنى: وليك ما تكرهه وقرب إليك، والكلمة الثانية اسم تفضيل، وهي

---

(١) المراغي.

(٢) الجلالين مع حاشية الجمل بتصرف.

خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: فهو أولى بك؛ أي: فالمكروه المدعو به عليك أولى، وأحقّ وأحرى بك من غيرك. فدلت الكلمة الأولى على الدعاء عليه بقرب المكروه منه، ودلت الثانية على الدعاء عليه بأن يكون أقرب إليه من غيره.

ثم كرر هذا الوعيد مبالغة في التهديد والوعيد، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ﴾؛ أي: ثمّ بعد المرّة الأولى وليك المكروه مرّة ثانيةً. ﴿فَأَوْلَىٰ﴾؛ أي: فهو أحق وأحرى بك من غيرك، فهو تهديد بعد تهديد ووعيد بعد وعيد. فالكلمة الأولى من الأخيرتين تأكيد للأول من الأوليين، والثانية للثانية. وهذا ما سلكه شارح «الجلالين» في تقرير هذا المقام، وانفرد به عن غيره من المفسرين، وهو حسن جدّاً اهـ شيخنا. والخلاصة: يتكرر عليك هذا الدعاء مرة بعد أخرى فأنت جدير بهذا.

قال الواحديّ[1]: قال المفسرون: أخذ رسول الله ﷺ بيد أبي جهل ثم قال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾، فقال أبو جهل: بأيّ شيء تهددني؟ لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً، وإنّي لأعز أهل هذا الوادي، فنزلت هذه الآية. وقيل معنى تكرار هذا اللفظ أربع مرّات: الويل لك حيًّا، والويل لك ميتاً، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار. وقيل: إنّ المعنى: إنّ الذمّ لك أولى لك من تركه، وقيل: غير ذلك مما يطول الكلام بذكره.

ثم أقام الدليل على البعث من وجهين:

١ ـ فقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: أيظن الكافر ﴿أَن يُتْرَكَ﴾ ويحيا في الدنيا والآخرة حال كونه ﴿سدى﴾؛ أي: مهملاً عن التكاليف والمجازاة، فلا يكلّف في الدنيا، ولا يجزى في الآخرة.

٢ ـ وقيل: أن يترك في قبره فلا يبعث. والسدى: المهمل، والاستفهام للإنكار.

والمعنى[2]: أي لا يترك الإنسان في الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره مهملاً لا يحاسب بل هو مأمور منهي محشور إلى ربه، فخالق الخلق لا يساوي الصالح المزكّي نفسه بصالح الأعمال والطالح المدسي نفسه باجتراح

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

السيئات والآثام، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾. وإذاً فلا بُدَّ من دارٍ للثواب والعقاب والبعث والقيامة.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ استئناف[1] وارد لإبطال الحسبان المذكور، فإنّ مداره.. لما كان استبعادهم للإعادة استدل على تحققها ببدء الخلق. وقال ابن الشيخ: هو استدلال على صحة البعث بدليل ثان والاستفهام للتوبيخ والنطفة بالضم: الماء الصافي قلَّ أو كثر. والمني: ماء الرجل والمرأة؛ أي: ما خلق منه حيوان، فالحبل لا يكون إلا من الماءين. وقوله: ﴿يُمْنَىٰ﴾ بالياء صفة ﴿مَّنِىٍّ﴾، وبالتاء صفة ﴿نُطْفَةً﴾ بمعنى يصب ويراق في الرحم. سميت منى كإلى وهي قرية بمكة لما يمنى فيها من دماء القرابين.

والمعنى: ألم يكن ذلك الإنسان ماء قليلاً ـ كائناً من ماء معروف بخسَّة القدر واستقذار الطبع، ولذا نكرَّهما ـ يمنى ويصب في الرحم، نبه سبحانه بهذا على خسة قدر الإنسان أوَّلاً وكمال قدرته ثانياً، حيث صيَّر مثل هذا الشيء الدنيء بشراً سويًّا. وقال بعضهم: فائدة قوله: ﴿يُمْنَىٰ﴾ للإشارة إلى حقارة حاله، كأنّه قيل: إنّه مخلوق من المنيّ الذي يجري على مخرج النجاسة، فكيف يليق بمثل هذا أن يتمرد عن طاعة الله فيما أمر به ونهى؟ إلاّ أنه تعالى عبر عن هذا المعنى على سبيل الرمز، كما في قوله تعالى في عيسى ومريم عليهما السلام: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾، والمراد منه قضاء الحاجة كنايةً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَلَمْ يَكُ﴾ بياء الغيبة، والحسن بتاء الخطاب على سبيل الالتفات. وقرأ الجمهور «تمنى» بالتاء؛ أي: النطفة يمنيها الرجل. وقرأ ابن محيصن، والجحدري، وسلام، ويعقوب، وحفص، وأبو عمرو بخلاف عنه ﴿يُمْنَىٰ﴾ بالياء؛ أي: يمنى المنيّ.

﴿ثُمَّ كَانَ﴾ المنيُّ بعد أربعين يوماً ﴿عَلَقَةً﴾؛ أي: قطعة دم جامد غليظ أحمر بقدرة الله تعالى بعد ما كان ماء أبيض، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ وهو

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

معطوف[1] على قوله: ﴿أَلَمْ يَكُ﴾؛ لأنّ إنكار عدم الكون يفيد ثبوت المكون، فالتقدير: كان الإنسان نطفة ثم كان علقة ﴿فَخَلَقَ﴾؛ أي: فقدر بأن جعلها مضغة مخلقة بعد أربعين أخرى؛ أي: قطعة لحم قابل لتفريق الأعضاء، وتمييز بعضها من بعض وجعل المضغة عظاماً تتميز بها الأعضاء بأن صلبها، فكسا العظام لحماً يحسن به خلقه وتصويره، ويستعد لإفاضة القوى ونفخ الروح.

﴿فَسَوَّىٰ﴾؛ أي: فعدَّله وكمل نشأته. وقال بعضهم: معنى التسوية والتعديل: جعل كل عضو من أعضائه الزوج معادلاً لزوجه. ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾؛ أي: من الإنسان باعتبار الجنس أو من المنيّ. وجعل بمعنى خلق، ولذا اكتفى بمفعول واحد، وهو قوله: ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾؛ أي: الصنفين من نوع الإنسان، وقد يجتمعان تارةً، وينفرد كل منهما عن الآخر تارةً، لا خصوص الفردين وإلاّ فقد تحمل المرأة بذكرين وأنثى أو بالعكس اهـ شيخنا. ثم بين ذلك بقوله: ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ بدل من الزوجين، ويجوز أن يكونا منصوبين بإضمار أعني. ولا يخفى[2] أنَّ الفاء تفيد التعقيب، فلا بدّ من مغايرةٍ بين المتعاقبين، فلعل قوله: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ محمول على مقدار مقدر من الخلق يصلح به للتفرقة بين الزوجين، وقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ﴾ على التفرقة الواقعة.

والمعنى[3]: أي أما كان هذا المنكر قدرة الله على إحيائه بعد مماته وإيجاده بعد فنائه نطفة في صلب أبيه ثم كان علقة ثم سواه بشراً ناطقاً سميعاً بصيراً ثم جعل منه أولاداً ذكوراً وإناثاً بإذنه وتقديره.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ العظيم الشأن الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: على أن يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا، فإنَّ الإعادة أهون من الابتداء وأيسر مؤنة منه في قياس العقل لوجود المادة، وهو عجب الذنب والعناصر الأصلية. والاستفهام في ﴿أَلَيْسَ﴾ للتقرير المضمن للتوبيخ لمنكر البعث.

وفي قراءة زيد بن عليّ ﴿الزوجان﴾ بالألف، وكأنه على لغة بني الحارث بن كعب ومن وافقهم من العرب من كون المثنى بالألف في جميع أحواله. وقرأ

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

الجمهور[1]: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ اسم فاعل مجروراً بالباء الزائدة. وقرأ زيد بن علي ﴿يَقْدِرُ﴾ فعلاً مضارعاً. وقرأ طلحة بن سليمان والفيّاض بن غزوان ﴿على أن يحيي﴾ بسكون الياء تخفيفاً أو على إجراء الوصل مجرى الوقف. وقرأ الجمهور بفتحها، وهي حركة إعراب لا تنحذف إلا في الوقف، وقد جاء في الشعر حذفها، وجاء عن بعضهم ﴿يحيي﴾ بنقل حركة الياء إلى الحاء وإدغام الياء في الياء. قال ابن خالويه: لا يجيز أهل البصرة سيبويه وأصحابه إدغام ﴿يحيى﴾، قالوا لسكون الياء الثانية، ولا يعتدون بالفتحة في الياء؛ لأنّها حركة إعراب غير لازمة.

والخلاصة: أي ليس الذي أنشأ هذا الخلق السويّ من هذه النطفة المذرة بقادر على أن يعيده كما بدأه، فذلك أهون من البدء في قياس العقل كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وقد جاء من عدّة طرق: أنّ النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم وبلى». وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن مردويه، والحاكم وصحّحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ وانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ المرسلات فبلغ ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ فليقل: آمنا بالله».

الإعراب

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

﴿لَآ﴾ زائدة زيدت لتأكيد معنى القسم، ﴿أُقْسِمُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر، تقديره: أنا يعود على الله سبحانه، ﴿بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلق بـ ﴿أُقْسِمُ﴾، وجملة القسم مستأنفة استئنافاً نحوياً، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَآ أُقْسِمُ﴾ معطوف على الجملة السابقة، فهو نظيرها في الإعراب، وكرّر فعل القسم تنبيهاً على أن كلا من

---

(١) البحر المحيط.

المقسم به مقصود مستقل. ﴿بِٱلنَّفۡسِ﴾ متعلق بـ ﴿أُقۡسِمُ﴾، ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾ صفة لـ ﴿النفس﴾، وجواب القسم محذوف تقديره: لتبعثن دل عليه ما بعده، وهو قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ كما مرّ. ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي، ﴿يحسب الإنسان﴾ فعل وفاعل والجملة جملة إنشائية دالة على جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، ﴿لن﴾ حرف نصب، ﴿نَّجۡمَعَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، منصوب بـ ﴿لن﴾، ﴿عِظَامَهُۥ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر أن المخففة، وجملة ﴿أنْ﴾ المخففة في محل النصب سادة مسدّ مفعولي ﴿يحسب﴾. ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب لإثبات ما بعد النفي المنسحب عليه الاستفهام، ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال من فاعل الفعل المقدّر المدلول عليه بحرف الجواب، تقديره: بل نجمعها حال كوننا قادرين، والجملة المحذوفة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب أو خبر لـ ﴿كان﴾ المحذوفة؛ أي: بلى كنّا قادرين. ﴿عَلَىٰٓ﴾ حرف جرّ، ﴿أَن﴾ حرف نصب، ﴿نُّسَوِّيَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر منصوب بـ ﴿أن﴾، ﴿بَنَانَهُۥ﴾ مفعول به ومضاف إليه والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾؛ أي: على تسويتنا بنانه، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾، ﴿بَلۡ﴾ حرف عطف وإضراب للإضراب الانتقالي، ﴿يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، فيجوز أن تكون استفهاماً مثله، وأن تكون إيجاباً اهـ سمين. ﴿لِيَفۡجُرَ﴾ اللام حرف جرّ وتعليل، ﴿يفجر﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام ﴿كي﴾، وفاعله ضمير يعود على الإنسان، ﴿أَمَامَهُۥ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿يفجر﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، واللام زائدة في المعنى، والتقدير: بل يريد الإنسان الفجور في مستقبله والاستمرار فيه. ﴿يَسۡـَٔلُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، والجملة مستأنفة أو بدل من الجملة التي قبلها، أو في محل النصب حال من ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ أي: يريد أن يستمر في فجوره في حال كونه سائلاً على سبيل الاستهزاء أيّان يوم القيامة؟ ﴿أَيَّانَ﴾ اسم استفهام في محل النصب على الظرفية الزمانية، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ مبتدأ مؤخّر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مفعول به لـ ﴿يسأل﴾.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، متعلق بالجواب الآتي وهو ﴿يَقُولُ﴾، ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجرّ مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾، على كونها فعل شرط لها. ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾. ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ فعل مغيّر، ونائب فاعل، معطوف عليه، ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف مضاف لمثله، متعلّق بـ ﴿يَقُولُ﴾، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة؛ أي: يوم إذ برق البصر إلخ. ﴿أَيْنَ﴾ اسم استفهام في محل النصب على الظرفية المكانية، مبنيّ على الفتح، والظرف متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدّماً، ﴿ٱلْمَفَرُّ﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُ﴾. ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر عن طلب الفرار، ﴿لَا﴾ نافية للجنس، ﴿وَزَرَ﴾ في محل النصب اسمها، وخبرها محذوف؛ أي: موجود. والجملة مستأنفة. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خبر مقدم، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف أضيف إلى مثله، متعلق بفعل محذوف، دل عليه ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، تقديره: يستقر الأمر، ويرجع إلى ربك يوم إذ كانت هذه الأمور المذكورة، ولا يجوز أن يتعلق بـ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، لأنّه إن كان مصدراً فلتقدّمه، وإن كان مكاناً فلا عمل له ألبتة كما مرّ. ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ نائب فاعل، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف أضيف إلى مثله، متعلق بـ ﴿يُنَبَّؤُا﴾، والجملة مستأنفة، ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿يُنَبَّؤُا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، وجملة ﴿قَدَّمَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَأَخَّرَ﴾ معطوف على ﴿قَدَّمَ﴾، ﴿بَلِ﴾ حرف عطف وإضراب انتقاليّ، ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿بَصِيرَةٌ﴾، و﴿بَصِيرَةٌ﴾؛ أي: شاهد خبر المبتدأ، والتاء فيه للمبالغة لا للتأنيث، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُنَبَّؤُا﴾، ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿لو﴾ حرف شرط، ﴿أَلْقَىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾ مفعول به، وجواب الشرط محذوف تقديره: ما قبلت منه، والجملة الشرطية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿بَصِيرَةٌ﴾، والتقدير: بل الإنسان شاهد على نفسه

حال كونه ملقياً معاذيره أو غير ملقٍ إياها.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

﴿لَا﴾ ناهية جازمة، ﴿تُحَرِّكْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تُحَرِّكْ﴾، ﴿لِسَانَكَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿لِتَعْجَلَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل، ﴿تعجل﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرةً بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تعجل﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المضمرة في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل؛ أي: لعجلتك بأخذه، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُحَرِّكْ﴾. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿عَلَيْنَا﴾ خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾ ﴿جَمْعَهُۥ﴾ اسم إن مؤخر ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ ومعطوف على ﴿جَمْعَهُۥ﴾ جملة ﴿إن﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، سيقت لتعليل النهي عن العجلة. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت النهي عن العجلة وأردت بيان ما هو الأصلح لك فأقول لك: إذا قرأناه. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قَرَأْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿فَٱتَّبِعْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة، ﴿اتبع﴾ فعل أمر وفاعل مستر، ﴿قُرْءَانَهُۥ﴾ مفعول به، ومضاف إليه والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف مع تراخ، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿عَلَيْنَا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم، ﴿بَيَانَهُۥ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخّر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب للإضراب الانتقالي، ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الإضرابية معطوفة على محذوف، تقديره: ليس الأمر كما تزعمون أيها المشركون بل تحبّون العاجلة. ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿تُحِبُّونَ﴾، ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف مضاف لمثله، والتنوين عوض عن

الجملة المحذوفة، تقديرها: يوم إذ تقوم القيامة، والظرف متعلّق بـ ﴿نَّاضِرَةٌ﴾، و﴿نَّاضِرَةٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ متعلق بـ ﴿نَاظِرَةٌ﴾، و﴿نَاظِرَةٌ﴾ خبر ثان له. ﴿وَوُجُوهٌ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بـ ﴿بَاسِرَةٌ﴾، و﴿بَاسِرَةٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿تَظُنُّ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة في محل الرفع خبر ثان للمبتدأ، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يُفْعَلَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ ﴿يُفعلَ﴾، ﴿فَاقِرَةٌ﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿ظنّ﴾. وفي الجملتين أوجه أُخَرُ من الإعراب.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿بَلَغَتِ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على الروح، ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ مفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾ على كونها فِعْلَ شرط لها. ﴿وَقِيلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، معطوف على ﴿بَلَغَتِ﴾، ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ نائب فاعل، محكي لـ ﴿قيل﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿رَاقٍ﴾ خبر مرفوع، وعلامة رفعه ضمّة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، والجملة الاسمية في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قيل﴾. ﴿وَظَنَّ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على المحتضر، ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿ظَنَّ﴾، وجملة ﴿ظَنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿بَلَغَتِ﴾. ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ﴾ فعل وفاعل، معطوف أيضاً على ﴿بَلَغَتِ﴾، ﴿بِٱلسَّاقِ﴾ متعلق بـ ﴿التَفَّتْ﴾، وجواب ﴿إذا﴾ محذوف دل عليه قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ تقديره: تساق النفس إلى حكم ربك يومئذٍ، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خبر مقدم، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾، وهو ظرف مضاف إلى مثله، والتنوين عوض عن الجمل الأربع، تقديره: إذا بلغت الروح الحلقوم، وقيل من ﴿رَاقٍ﴾ وظن أنه الفراق، والتفت الساق بالساق تساق إلى حكم ربها.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ

﴿فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿صَدَّقَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وقيل: معطوف على جملة ﴿يسأل أيّان يوم القيامة﴾. ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ معطوف على ﴿لا صدق﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾ حرف استدراك، ﴿كَذَّبَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، والجملة معطوفة على قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على ﴿كَذَّبَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿ذَهَبَ﴾ معطوف على ﴿كَذَّبَ﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿ذَهَبَ﴾، وجملة ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿ذَهَبَ﴾، ﴿أَوْلَىٰ﴾ اسم فعل ماض بمعنى وليك المكروه، مبنيّ على السكون لشبهه بالحرف شبهاً استعمالياً، وفاعله ضمير يعود على ما يفهم من السياق، تقديره: وليك المكروه لك. ﴿لَكَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرّ زائد للتبيين؛ أي: لتبيين المفعول به، والكاف: ضمير متصل في محل النصب مفعول به لاسم الفعل، وجملة اسم الفعل جملة دعائية لا محل لها من الإعراب. ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أَوْلَىٰ﴾ اسم تفضيل من الولي بمعنى القرب خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهو؛ أي: المكروه أولى وأحرى، وأحقّ بك. والجملة الاسمية معطوفة على جملة اسم الفعل، ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ معطوف على قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾، والتكرير للتأكيد.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَيَحْسَبُ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿يحسب الإنسان﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يُتْرَكَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿سُدًى﴾ حال من الضمير في ﴿يُتْرَكَ﴾، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع ما في حيّزها في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿يحسب﴾. ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريريّ، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿يَكُ﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بـ ﴿لم﴾، وعلامة جزمه السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف، واسم ﴿يكن﴾ ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾. ﴿نُطْفَةً﴾ خبرها، ﴿مِّن مَّنِيٍّ﴾

صفة لـ ﴿نُّطْفَةً﴾، وجملة ﴿يُمْنَىٰ﴾ من الفعل المغيّر ونائب فاعله في محل الجرّ صفة لـ ﴿مَّنِيٍّ﴾، وجملة ﴿يكن﴾ الناقصة جملة استفهامية لا محل لها من الإعراب. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿عَلَقَةً﴾ خبرها، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة الاستفهام، ﴿فَخَلَقَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿خلق﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة كان، والرابط بين الجملتين محذوف، تقديره: ﴿فخلقه﴾ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على خلق، والتقدير: فسوّاه.

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَجَعَلَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿مِنْهُ﴾ في موضع المفعول الثاني، ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ مفعول أوّل، ﴿ٱلذَّكَرَ﴾ بدل من الزوجين، ﴿وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ معطوف على ﴿ٱلذَّكَرَ﴾، وجملة ﴿جعل﴾ معطوف على جملة ﴿سوّى﴾. ﴿أَلَيْسَ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ﴿ليسَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسمها؛ أي: أليس ذلك الفعّال ما ذكر، ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ خبرها، والباء زائدة في خبر ﴿ليسَ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ﴾ متعلق ﴿بِقَٰدِرٍ﴾، وجملة ﴿ليس﴾ جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يُحْـِۧىَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ مفعول به، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع ما في حيّزها في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾، تقديره: على إحيائِهِ الموتى.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ والإقسام لغة: مطلق الحلف سواء كان بالخالق أو بالمخلوق أيًّا كان، وشرعاً: الحلف بالله تعالى سواء كان بالذات أو باسم من أسمائه أو صفة من صفات ذاته، يقال: أقسم بالله من باب أفعل، ولا يقال: قسم بالله من باب فعل. ﴿بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ القيامة فيه إعلال بالقلب، أصله: القوامة، قلبت الواو ياء لوقوعها إثر كسرة وقبل ألف. ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ والعظام: جمع عظم، وهو قصب الحيوان الذي عليه اللحم، ويجيء جمع عظيم أيضاً ككرام، وكريم وككبار وكبير، ومنه: الموالي العظام. ﴿بَلَىٰ﴾ كلمة يجاب بها إذا كان الكلام منفيًّا، فالمراد بها هنا نعم نجمعها بعد تفرّقها. ﴿بَنَانَهُۥ﴾ والبنان مفرد اللفظ مجموع المعنى كالثمر،

وفي «القاموس»: البنان: الأصابع أو أطرافها. قال الراغب: البنان: الأصابع، قيل: سُمِّيت بذلك؛ لأن بها إصلاح الأحوال التي يمكن للإنسان أن يُبِنَّ بها ما يريد؛ أي: يقيم. يقال: أبَنَّ بالمكان يَبِنُّ، لذلك خص بالذكر في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾، وقوله: ﴿وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾. خصه لأجل أنها يقاتل بها ويدافع.

﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ الفجر: شق الشيء شقًّا واسعاً، والفجور: شق ستر الديانة. وقال بعضهم: الفجور الميل، فالكاذب والمكذّب والفاسق فاجر؛ أي: مائل عن الحق، كما مرّ. ﴿أَمَامَهُۥ﴾ الأمام في الأصل ظرف مكان استعير هنا للزمان فالمعنى: بل يريد الإنسان ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا يرعوي عنه. ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيّان ظرف زمان بمعنى متى، مركب من أيِّ وآن؛ أي: أيّ آنٍ يوم القيامة. ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾﴾ يقال: برق بكسر الراء: إذا فزع ودهش، وأصله من برِق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره، ومنه قول ذي الرمة:

وَلَوْ أَنَّ لُقْمَانَ الحَكِيْمَ تَعرَّضَتْ ... لِعَيْنَيْهِ ميٌّ سَافِراً كاد يَبْرَقُ

وقول الأعشى:

وَكُنْتُ أَرَىٰ فِيْ وَجْهِ مَيَّةَ لُمْحَةً ... فَأَبْرَقُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ مَكَانِيَا

وبرق بفتح الراء: شق بصره، وهو من البريق؛ أي: لمع بصره من شدّة شخوصه. والبرق واحد بروق السحاب ولمعانه. ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾ قال في «فتح الرحمن»: الخسوف والكسوف معناهما واحد، وهو ذهاب ضوء أحد النيرين أو بعضه. ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ المفر مصدر ميمي بمعنى الفرار أو اسم مكان بمعنى الفرار، وأصله: مفرر بوزن مفعل بفتح الميم والعين، نقلت حركة الراء الأولى إلى الفاء فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ والوزر بفتحتين: كل ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو غيرهما. قال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا لِلْفَتَى مِنْ وَزَرْ ... مِنَ ٱلْمَوْتِ يُدْرِكُهُ وَٱلْكِبَرْ

﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ المستقر إما مصدر ميميّ بمعنى الاستقرار، أو اسم مكان بمعنى مكان الاستقرار. ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ اسم جمع للمعذرة بمعنى الاعتذار

كالمناكير اسم جمع للمنكر. وقيل: جمع معذار، وهو الستر بلغة أهل اليمن؛ أي: أرخى ستوره. ﴿جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾؛ أي: جمعه في صدرك وإثبات قراءته في لسانك. فالقرآن مصدر بمعنى القراءة كالغفران بمعنى المغفرة مضاف إلى مفعوله، والقراءة: ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، كما مرّ. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ من النضرة، وهو طراوة البشرة وجمالها، وذلك من أثر التنعم، والناضر الغض الناعم من كل شيء، ومعنى ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة مضيئة، يقال: نَضُر يَنضُر من باب دخل، ونضر ينضر من باب تعب، ونضر ينضر من باب ظرف نضراً ونضرة ونضراً ونضوراً ونضارة، نضر الوجه أو اللون أو الشجر أو غيرها إذا نعم وحسن، وكان جميلاً، فهو ناضر ونضر ونضير وأنضر العود أيضاً. قال الكميت:

وَرَتْ بِكَ عِيدَانُ ٱلْمَكَارِمِ كُلِّهَا   وَأَوْرَقَ عُودِيْ فِيْ ثَرَاكَ وَأَنْضَرَا

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ والنظر: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، والمراد بنظر الوجوه نظر العيون التي فيها بطريق ذكر المحل وإرادة الحال. ﴿بَاسِرَةٌ﴾؛ أي: شديدة العبوس مظلمة ليس عليها أثر السرور أصلاً. ﴿فَاقِرَةٌ﴾؛ أي: داهية عظيمة تكسر الظهر أو فقاره، والفقار بفتح الفاء كما في «القاموس»، وهو جمع فقارة بفتح الفاء، وفي «المصباح»: وفقرت الداهية الرجل فقرا من باب قتل: نزلت به، فهو فقير فعيل بمعنى مفعول، وفقارة الظهر بالفتح: الخرزة، والجمع فقار بحذف الهاء، مثل: سحابة وسحاب. قال ابن السكيت: ولا يقال: فقارة بالكسر، والفقرة لغة في الفقارة، وجمعها فقر وفقرات، مثل: سدرة وسدر وسدرات. وفي «القاموس»: والفقر بالكسر والفقرة والفقارة بفتحهما: ما يتصل من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجب. ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ جمع الترقوة، وهي العظم الذي في أعلى الصدر بين ثغرة النحر، وهما ترقوتان، والجمع التراقي والترايق، ويقال: ترقاه ترقاةً؛ أي: أصاب ترقوته، وقد بلغت روحه التراقي إذا شارف الموت.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ الألف فيه منقلبة عن واو لظهورها في التصغير سويق، وجمعه على سيقان لا ينافي ذلك، فالياء منقلبة عن واو لسكونها إثر كسرة. ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ اسم فاعل إما من رقي بالفتح في الماضي والكسر في المضارع من الرقية، وهو كلام معد للاستشفاء يرقى به المريض ليشفى. وفي الحديث: «وما أدراك أنها رقية» يعني: الفاتحة، وهي من أسمائها. وإما من رقي بالكسر في

الماضي والفتح في المضارع من الرّقيّ، وهو الصعود؛ أي: تقول الملائكة: من يصعد بهذا الروح. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ المساق مصدر ميمي، أصله: مسوق على وزن مفعل بفتح الميم والعين نقلت حركة الواو إلى السين فسكنت، لكنّها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال. ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ أصله: صلّي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أصله: تولي بوزن تفعل، قلبت الياء ألفا لتحركها بعد فتح. ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أصله: يتمطى بوزن يتفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. أو أصله: يتمطط، قلبت الطاء الثالثة ياء، فهو إمّا من المطا، وهو الظهر، ومعناه: يتبختر؛ أي: يمد مطاه ويلويه تبختراً في مشيته. أو من المط، وهو المد، لأنه يمد اليدين في مشيه، وإنما قلبت الطاء الثالثة ياءً لكراهة اجتماع الأمثال، ومادّة المطا (مَ طَ وَ) ومادّة الثاني: (مَ طَطَ).

﴿سُدًى﴾؛ أي: هملاً لا يكلف بالشرائع، يقال: إبلٌ سدى؛ أي: مهملةً، وأسديت حاجتي؛ أي: ضيعتها، ومعنى أسدى إليه معروفاً أنه جعله بمعنى الضائع عند المسدى إليه لا يذكره ولا يمن به عليه. وفي «المصباح»: والسدى: وزان الحصى من الثوب خلاف اللحمة، وهو ما يمد طولاً في النسج، وأسديت الثوب: أقمت سداه. والسدى أيضاً: ندى الليل، وبه يعيش الزرع، وسديت الأرض فهي سدية من باب تعب: كثر سداها، وسدا الرجل من باب غزا: مد يده نحو الشيء، وسدا البعير سدوا: مد يده في السير، وأسديته بالألف. تركته سدى؛ أي: مهملاً، وأسديت إليه معروفاً: اتخذته عنده. وأصله: سدي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ﴾ وأصل منيّ منيءٌ بوزن فعيل، أدغمت ياء فعيل في لام الكلمة. ﴿يُمْنَىٰ﴾ أصله: يمني بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿فَسَوَّىٰ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: فسوي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. والنطفة: الماء الصافي قل أو كثر، والمني: ماء الرجل والمرأة المختلط. فالحبل لا يكون إلا من الماءين، يمنى أي: يصب ويراق في الرحم، كما مرّ. والعلقة: قطعة دم جامد غليظ أحمر، سميت لتعلقه بما أصابه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع.

فمنها: فنّ التقسيم في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾، وسمّاه صاحب «المثل السائر» التناسب بين المعاني، لتناسب الأمرين المقسم بهما، فقد أقسم بيوم البعث أوّلاً ثمّ بالنفوس المجزية فيه على حقيّة البعث والجزاء، فسبحان المتكلم بهذا الكلام.

ومنها: الطباق بين ﴿قَدَّمَ﴾ و﴿أخر﴾ وبين ﴿صَدَّقَ﴾ و﴿كَذَّبَ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري لغرض التوبيخ في قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ ومثل قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾؛ لأنَّ غايته التوبيخ والتقريع.

ومنها: زيادة اللام للتأكيد مثل قوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ في أنصحكم.

ومنها: استبعاد تحقّق الأمر في قوله: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾، لأنّ الغرض من الاستفهام الاستبعاد والإنكار.

ومنها: الجناس غير التام بين قوله: ﴿بَنَانَهُۥ﴾ وقوله: ﴿بَيَانَهُۥ﴾ لاختلاف بعض الحروف.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين نضارة وجوه المؤمنين في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾، وبين عبوسة وجوه المجرمين في قوله: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ۝٢٤﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝٢٣﴾، لأنّ المراد بنظر الوجوه نظر العيون التي فيها بطريق ذكر المحلّ وإرادة الحال.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾، و﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ في قوله: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٢١﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ۝٢٥﴾؛ أي: داهية عظيمة؛ لأنّه كناية عن غاية الشدّة وعدم القدرة على التحمّل، فهي تتوقّع ذلك كما تتوقّع الوجوه الناضرة أن يفعل بها كلّ خير بناء على أنّ قضيّة المقابلة بين الآيتين تقتضي ذلك.

ومنها: الاستعارة التمثيليّة في قوله: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾، لأنّ فيه استعارةً تمثيلية لشدّة كرب الدنيا في آخر يوم منها، وشدة كرب الآخرة في أوّل يوم منها، لأنّهما يومان قد التفّا ببعضهما، واختلطا بالكرب كما تلتفّ الساق بالساق، كما يقال: شمّرت الحرب عن ساق استعارة لشدّتها.

ومنها: الجناس الناقص بين لفظي ﴿ٱلسَّاقُ﴾ و﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾ ويسمّى أيضاً جناس التبديل، وهو الذي يوجد في إحدى كلمتيه حرف لا يوجد في الأخرى، وجميع حروف الأخرى يوجد في أختها على استقامتها، وهو ثلاثة أقسام: قسم تقع الزيادة منه أوّل الكلمة كزيادة الميم في ﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾، وقسم تقع الزيادة وسط الكلمة كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾، وقسم تقع الزيادة منه في آخر الكلمة كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝٣٤﴾، لأنّ فيه التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب تقبيحاً له وتشنيعاً.

ومنها: التكرير للتأكيد في قوله: ﴿ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ۝٣٥﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة من الموضوعات

١ ـ إقسامه سبحانه بأمرين: القيامة والنفس اللوامة.

٢ ـ ذكر القيامة وأهوالها وأحوالها.

٣ ـ اهتمام النبي ﷺ بضبط القرآن عند تلاوة جبريل عليه.

٤ ـ انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين: سعدا وأشقياء. فالسعداء وجوههم ناضرة، والأشقياء وجوههم باسرة.

٥ ـ ذكر حال المرء عند الاحتضار، وما يلقاه في ذلك الوقت من الشدائد والدواهي.

٦ ـ إثبات الحشر والمعاد بالأدلّة والبراهين العقلية حيث قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ . . .﴾ إلى آخر السورة[1].

والله أعلم

* * *

(١) تمّت سورة القيامة بعون من له الرحمة العامة والفيوضات الهاطلة قبيل الغروب من اليوم الثالث من شهر الجمادى الأولى من شهور سنة ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحيّة، وصلى الله وسلم على سيّدنا وحبيبنا محمد ﷺ خاتم النبيّين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين. آمين.

سورة الإنسان

سورة الإنسان وتسمى[1] سورة هل أتى، وسورة الأمشاج، وسورة الدهر. نزلت بعد سورة الرحمن. وقال مقاتل والكلبي: وهي مكية. وأخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وقيل: فيها مكيّ من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ إلى آخر السورة، وما قبله مدنيٌّ.

وآيها: إحدى وثلاثون آية. **وكلماتها**: مئتان وأربعون كلمة. **وحروفها**: ألف وأربعة وخمسون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أنه ذكر في السابقة الأهوال التي يلقاها الفجّار يوم القيامة، وذكر في هذه ما يلقاه الأبرار من النعيم المقيم في تلك الدار.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها[2] ظاهرة جدّاً لا تحتاج إلى شرح انتهى.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم في «الناسخ والمنسوخ»: سورة الإنسان كلّها محكم إلاّ آيتين:

إحداهما: قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ نسخت بآية السيف.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ نسخ التخيير بآية السيف.

سبب نزول هذه السورة: ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «سل واستفهم، فقال: يا رسول الله فضلتم علينا بالألوان والصور والنبوة، أفرأيت إن آمنت بما آمنت به، وعملت بما عملت به أني كائن معك في الجنة؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام، ثم قال:

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

من قال: لا إله إلا الله كان له عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله وبحمده كتب له مئة ألف حسنة وأربع وعشرون ألف حسنة، ونزلت هذه السورة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿ملكا كبيرا﴾. فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عيناك في الجنة، قال نعم، فاشتكى حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يدليه في حفرته بيده».

وأخرج أحمد في الزهد عن محمد بن مطرف قال: حدثني الثقة: أن رجلاً أسود كان يسأل رسول الله ﷺ عن التسبيح والتهليل، فقال له عمر بن الخطاب: أكثرت على رسول الله ﷺ، فقال: مه يا عمر، وأنزلت على النبي ﷺ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ حتى أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرةً فخرجت نفسه، فقال النبي ﷺ: «مات شوقاً إلى الجنة». وأخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعاً مرسلاً.

وأخرج أحمد، والترمذي وحسّنه، وابن ماجه وابن منيع، وأبو الشيخ في العظمة والحاكم، وصحّحه، والضياء عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفراش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عزّ وجل».

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ
أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا
أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا
(٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)
وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا
(٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)
وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً
عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَا مِن
فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨) ۞
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)
عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ
لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا
طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا
أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩)
وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ
أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾.

المناسبة

أخبر سبحانه وتعالى أنّه قد جاء على الإنسان حين من الزمان لم يكن شيئاً يذكر، ويعرف، ثم ذكر أن أبناء آدم كانوا نطفاً في الأصلاب، ثم علقا، ثم مضغاً في الأرحام، ثم أوضح لهم السبيل، وبيّن لهم طريق الخير والشر، فمنهم الشاكر ومنهم الكفور.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما

قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] أنّه هدى الإنسان لطريق الخير وطريق الشرّ في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾، ثم أردفه ببيان أنّ الناس انقسموا في ذلك فريقين: فريق وفّقه الله، واهتدى وشكر، وفريق أضلّه الله وكفر. أعقب ذلك بما أعدّه لكل منهما يوم القيامة، فأعدّ للأوّلين جنات ونعيماً، فهم يشربون الخمر وهي ألذ شراب لديهم ممزوجة بماء عذب زلال طيب الرائحة، تأتيهم إلى غرفهم متى شاؤوا وكيف أرادوا، ويلبسون الحرير، ويجلسون على الأرائك لا يرون فيها حرّاً ولا قرّاً. ثم ذكر ما أعدوه في الدنيا لنيلهم هذا الثواب العظيم، فبين أنهم يطعمون الطعام للفقراء البائسين واليتامى والأسارى، ويؤدون ما وجب عليهم لربهم، ويخافون عذاب يوم القيامة. وأعد للآخرين سلاسل وقيوداً وناراً تشوي الوجوه والأجسام.

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر طعام أهل الجنة ولباسهم أردفه بوصف مساكنهم ثم وصف شرابهم وأوانيه وسقاته، ثم أعاد الكلام مرّةً أخرى بذكر ما تفضل به عليهم من فاخر اللباس والحليّ، ثم ألمع إلى أن هذا كان جزاء لهم على ما عملوا، وما زكوا به أنفسهم من جميل الخصال وبديع الخلال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها، أنَّ الله سبحانه لمّا ذكر أحوال الآخرة، وبيّن عذاب الكفار على سبيل الاختصار، وثواب المطيعين على سبيل الاستقصاء إرشاداً لنا إلى أن جانب الرحمة مقدم على جانب العقاب.. أردف ذلك بذكر أحوال الدنيا، وقدم أحوال المطيعين وهم: الرسول ﷺ وأمته على أحوال المتمردين والمشركين. وقبل الخوض فيما يتعلق بالرسول من الأمر والنهي أمره بالصبر على ما يناله من أذى قومه إزالةً لوحشته وتقويةً لقلبه حتى يتم فراغ قلبه، ويشتغل بطاعة ربّه، وهو على أتمّ ما يكون سروراً ونشاطاً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ سبب نزول هذه

---

(١) المراغي.

الآية: ما أخرجه[1] ابن المنذر عن ابن جرير قال: لم يكن النبيّ ﷺ يأسر أهل الإسلام، ولكنّها نزلت في أسارى أهل الشرك كانوا يأسرونهم في العذاب، فنزلت فيهم، فكان النبي ﷺ يأمرهم بالإصلاح إليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر عن عكرمة قال: دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ، وهو راقد على حصير من جريد، وقد أثّر في جنبه، فبكى عمر، فقال ﷺ له: ما يبكيك؟ قال عمر: ذكرت كسرى وملكه، وهرمز وملكه، وصاحب الحبشة وملكه، وأنت رسول الله ﷺ على حصير من جريد، فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أنّ لهم الدنيا ولنا الآخرة، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ سبب نزولها: ما أخرجه عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة: أنه بلغه أن أبا جهل قال: لئن رأيت محمداً يصلي.. لأطأنَّ عنقه، فأنزل الله قوله عزّ وجلّ ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ حكى[2] الواحدي عن المفسرين: أنّ ﴿هَلْ﴾ هنا بمعنى قد فهي للتحقيق، وليست للاستفهام أصلاً؛ أي: قد أتى ومرّ على الإنسان... إلخ. وبه قال سيبويه، والكسائي، والفراء، وأبو عبيدة. قال الفرّاء ﴿هَلْ﴾ تكون جحداً وتكون خبراً، فهذا من الخبر، لأنّك تقول: هل أعطيتك، تقرّره بأنّك أعطيته، ومن الجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا، فتحمله على معنى لا يقدر أحد غيرك على مثله. وقيل: هي وإن كان بمعنى قد ففيها معنى الاستفهام التقريري. والأصل[3]: أهل أتى، والمعنى: أقد أتى ليستفاد التقرير من همزة الاستفهام والتقريب من قد، فإنها موضوعة لتقريب الماضي إلى الحال. والدليل على أن الاستفهام غير مراد أن الاستفهام على الله تعالى محال، فلا بد من حمله على الخبر، كقولك: هل وعظتك، ومقصودك أن تحمله على الإقرار بأنّك قد وعظته؛ أي: قد مرّ ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ قيل: المراد بالإنسان هنا آدم، قاله قتادة والثوري،

---

(١) لباب النقول. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

وعكرمة، والسدي، وغيرهم. ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ والحين: زمان مطلق ووقت مبهم يصلح لجميع الأزمان طال أو قصر، كما سيأتي. والدهر: الزمان الطويل.

والمعنى: مر على آدم طائفة محدودة كائنة من الزمان الممتد. قيل: أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح. وقيل[1]: إنه خلق من طين فألقي بين مكة والطائف، فأقام أربعين سنة ثم من حمأ مسنون، فأقام أربعين سنة أخرى، ثم من صلصال فأقام أربعين سنة أخرى. فتم خلقه في مئةٍ وعشرين سنة، فنفخ فيه الروح على ما جاء في رواية الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: فما كان سنين في آدم كان أيّاماً في أولاده. وقيل: المراد بالإنسان جنس الإنسان لقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾، لأنَّ آدم لم يخلق منها، ثم المراد بالجنس بنو آدم، والمراد بالحين مدة حمله؛ لأنه كان علقة في أربعين يوماً ومضغةً في ثمانين ومنفوخاً فيه الروح في مئة وعشرين يوماً على أن يكون الحين هو الزمن الطويل الممتد الذي لا يعرف مقداره. وهذا القول أعني: حمله على أولاده أظهر؛ لأنّ المقصود تذكير الإنسان كيفية الخلق بعد أن لم يكن ليتذكر أول أمره من عدم كونه شيئاً مذكوراً أو آخر أمره من كونه شيئاً مذكوراً مخلوقاً من ماء حقير، فلا يستبعد البعث. وقيل: المراد بالجنس ما يعم آدم وبنيه على التغليب أو نسبة حال البعض إلى الكل للملابسة على المجاز. وحمل بعضهم الإنسان هنا على آدم وفيما سيأتي على أولاده.

وجملة قوله: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ إما في محل نصب على الحال من الإنسان أو في محل رفع صفة أخرى لـ﴿حِينٌ﴾ بحذف الضمير الرابط؛ أي: حين لم يكن فيه شيئاً مذكوراً. قال الفرّاء وقطرب وثعلب[2]: المعنى: أنه كان جسداً مصوّراً تراباً وطيناً لا يذكر، ولا يعرف، ولا يدرى ما اسمه، ولا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً. وقال يحيى بن سلام: لم يكن شيئاً مذكوراً في الخلق، وإن كان عند الله شيئاً مذكوراً. وقيل: ليس المراد بالذكر هنا الإخبار، فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم بل هو الذكر بمعنى الخطر والشرف كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾. قال القشيريّ: ما كان مذكوراً للخلق وإن كان مذكوراً لله سبحانه. قال الفرّاء: كان شيئاً ولم يكن مذكوراً، فجعل النفي متوجهاً إلى القيد. وقيل المعنى:

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

قد مضت أزمنة، وما كان آدم شيئاً مذكوراً، لأن خلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق بعده حيوان.

والمعنى على القول الثاني ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ بل كان[1] شيئاً منسيًا، غير مذكور بالإنسانية أصلاً نطفة في الأصلاب، فما بين كونه نطفة وكونه شيئاً مذكوراً بالإنسانية مقدار محدود من الزمان، وتقدم عالم الأرواح لا يوجب كونه شيئاً مذكوراً عند الخلق ما لم يتعلق بالبدن ولم يخرج إلى عالم الأجسام.

والمعنى[2]: أي قد أتى على هذا النوع الإنسانيّ زمن لم يكن موجوداً حتى يعرف ويذكر. وفي الآية ما يشير إلى ما قاله علماء طبقات الأرض «الجيولوجيا». من أن الإنسان لم يوجد على الأرض إلا بعد خلقها بأحقاب طوال، فقد كانت الأرض أوّلاً ملتهبةً بعد أن انفصلت من الشمس، ثم أخذت قشرتها تبرد بالتدريج، وأمكن أن ينبت فيها النبات، ثم بعض الطيور ثم بعض الحيوان الداجن ثم الإنسان.

ثم أتبع ذلك بذكر العناصر الداخلة في تكوين الإنسان، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: خلقنا جسمه، والإظهار لزيادة التقرير. ﴿مِن نُّطْفَـةٍ﴾ حتى كان علقةً في أربعين يوماً ومضغةً في ثمانين ومنفوخاً فيه الروح في مئة وعشرين يوماً، كما خلق أباهم آدم طوراً طيناً وطوراً حمأً مسنوناً وطوراً صلصالاً. والمراد بالإنسان هنا ابن آدم، قال القرطبي من غير خلاف. والنطفة: الماء الذي يقطر، وهو المنيّ وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة، وجمعها نطف. وقوله: ﴿أَمْشَاجٍ﴾؛ أي:[3] أخلاط، صفة لـ ﴿نُّطْفَةٍ﴾، وهي جمع مشج كسبب أو كتف على لغتيه، أو جمع مشيج من مشجت الشيء إذا خلطته. وصف النطفة بالجمع مع إفرادها، لما أن المراد بها مجموع الماءين يختلطان في الرحم، ولكل منهما أوصاف مختلفة من اللون والرقة والغلظ، وخواص متباينة، فإنّ ماء الرجل أبيض غليظٌ فيه قوة العقد، وماء المرأة أصفر رقيق فيه قوة الانعقاد. فيخلق منهما الولد، فأيهما علا صاحبه كان الشبه به، وما كان من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر، فمن ماء المرأة، كما روي في المرفوع. وفي الخبر: «ما من مولود إلا وقد ذر على

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

نطفته من تربة حفرته، كل واحد منهما مشيج بالآخر». وقال الحسن رحمه الله: نطفة مشيجة بدم، وهو دم الحيض، فإذا حبلت ارتفع دم الحيض، وإليه ذهب صاحب القاموس حيث قال: ونطفة أمشاج؛ أي: مختلطة بماء المرأة ودمها انتهى. فيكون النطفتان ودمها جمعاً. وقال الفراء: أمشاجٌ: اختلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم. وقيل[1]: الأمشاج لفظ مفرد كبرد أكباش، ويؤيد هذا وقوعه نعتاً لـ ﴿نُّطْفَةٍ﴾. وقيل: أخلاط الدم والبلغم والصفراء والسوداء، والنطفة أريد بها الجنس فلذلك وصفت بالجمع كقوله: ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾. ذكره أبو حيان.

وجملة قوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾؛ أي: نختبره بالخير والشرّ. حال من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾؛ أي: خلقناه حال كوننا مريدين ابتلاءه واختباره بالتكاليف فيما سيأتي، ليتعلق علمنا بأحواله تفصيلاً في العين بعد تعلقه بها إجمالاً في العلم، وليظهر أحوال بعضهم لبعض من القبول والرد والسعادة والشقاوة.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: جعلنا الإنسان ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ليتمكن من استماع الآيات التنزيلية ومشاهدة الآيات التكوينية. فهو[2] كالمسبب عن الابتلاء؛ أي: عن إرادته، فلذلك عطف على الخلق المقيد به بالفاء، كأنه قيل: إنا خلقناه مريدين تكليفه، فأعطيناه ما يصح معه التكليف والابتلاء، وهو السمع والبصر وسائر آلات التفهيم والتمييز. وطوى ذكر العقل؛ لأن المراد ذكر ما هو من أسبابه والآلة التي بها يستكمل، فطريقه الأول لأكثر الخلق من السعداء السمع ثم البصر ثم تفهم العقل.

وفي اختيار صيغة المبالغة فيهما إشارة إلى كمال إحسانه إليه وتمام إنعامه. و﴿بَصِيرًا﴾ مفعول ثان بعد ثان لـ ﴿جعلناه﴾، ويجوز[3] أن تكون جملة ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ حالاً من الإنسان، والمعنى: مقدراً ابتلاءه بالخير والشر والتكاليف. قال الفراء: معناه: والله أعلم جعلناه سميعاً بصيراً نبتليه، وهي مقدمة لفظاً مؤخرة معنى، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة. وعلى هذا تكون الحال مقدرة، وقيل: مقارنة. وقيل: معنى الابتلاء: نقله من حال إلى حال على طريقة الاستعارة، والأولّ أولى.

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

والمعنى[1]: أي إنا خلقنا الإنسان من نطفة مختلطة من ماء الرجل، وماء المرأة مريدين ابتلاءه واختباره بالتكليف فيما بعد، إذا شب وبلغ الحلم. قال الحسن: نختبر شكره في السرّاء وصبره في الضرّاء. ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء والامتحان، وهو السمع والبصر، فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾؛ أي: جعلناه كذلك ليتمكن من استماع الآيات ومشاهدة الدلائل والتعقل والتفكر. وهذه من عالم أشرف من عالم المادّة التي هي في أسفل درجات النقص والكمال إنّما نزل إليه من عالم أرقى منها، وهو العالم الروحي الإلهيّ. فهو إما يرجع إلى حب المادة والاستكانة لهذه المشاهدات، وإمّا أن يتفكر ويجد بالعلم والعمل، ليصل إلى عالم الكمال والجمال. وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

والخلاصة: نحن نعامله معاملة المختبر له أيميل إلى أصله الأرضي، فيكون حيواناً نباتيًا معدنياً شهوانيًا، أم يكون إلهيًا معتبراً بالسمع والبصر والفكر، وهي من عوالم أرقى من عالم المادة التي تكون منها.

ثم ذكر أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة، والباطنة بين له سبيل الهدى وسبيل الضلال، فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ﴾؛ أي: هدينا الإنسان المذكور وبينا له ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾؛ أي: سبيل الهدى والضلال بإنزال الآيات ونصب الدلائل، ليكون ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾؛ أي: ليكون[2] الإنسان إما مؤمناً وإما كافراً. قيل المعنى: إنا هديناه السبيل ثم جعلناه تارة شاكراً وتارةً كفوراً. وعبارة الروح: قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ مرتّب[3] على ما قبله من إعطاء الحواسّ، فإنه استئناف تعليل لـ ﴿جعله﴾ سميعاً بصيراً. يعني: أن إعطاء الحواس الظاهرة والباطنة والتحلي بها مقدم على الهداية.

والمعنى: أريناه وعرّفناه طريق الخير والشرّ والنجاة والهلاك بإنزال الآيات ونصب الدلائل، كما قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾؛ أي: بينا له طريق الخير والشر، فإن النجد الطريق الواضح المرتفع، فالمراد بالهداية مجرد الدلالة، لا الدلالة الموصلة إلى البُغية، كما في بعض التفاسير. وقوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان من مفعول ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾.

---

(١) المراغي. (٢) المراح. (٣) روح البيان.

قال في «الإرشاد»؛ أي: مكنّاه وأقدرناه على سلوك الطريق الموصل إلى البغية في حالتيه جميعاً، فأما لتفصيل ذي الحال، فإنه مجمل من حيث الدلالة على الأحوال، لا يعلم أن المراد هدايته في حال كفره، أو في حال إيمانه، وبالتفصيل تبيّن أنها تعلقت به في كل واحدة من الحالين. فالشاكر: الموحد، والكفور: الجاحد؛ لأن الشكر الإقرار بالمنعم، ورأس الكفر جحوده، ويقال: شاكر النعمة وكفورها. وإيراد الكفور دون الكافر لمراعاة الفواصل؛ أي: رؤوس الآي والإشعار بأن الإنسان قلما يخلو من كفران ما، وإنما المؤاخذ عليه الكفر المفرط والشكور قليل منهم، ولذا لم يقل: إما شكوراً وإما كفوراً أو إما شاكراً أو كافراً.

والحاصل: أن الشاكر والكفور كنايتان عن المثاب والمعاقب، ولما يكن مجرد الكفران مستلزماً للمؤاخذة لم يصح أن يجعل كناية عنها، بخلاف مجرد الشكر، فإنه ملزوم الإثابة بمقتضى وعد الكريم، فأدير أمر الإثابة على مطلق الشكر لا على المبالغة فيه كما أدير أمر المؤاخذة على المبالغة في الكفران لا على أصله. وكل ذلك بمقتضىٰ سعة رحمة الله وسبقها على غضبه انتهى.

وقرأ الجمهور(١): ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ بكسر الهمزة فيهما. وقرأ أبو السمّال وأبو العجاج وهو كثير بن عبد الله السلمي شامي ولي البصرة لهشام بن عبد الملك بفتحها فيهما، وهي لغة حكاها أبو زيد عن العرب، وهي التي عدها بعض النحاة في حروف العطف، وقيل: هي التفصيلية وجوابها مقدر.

وقال الزمخشري: وهي قراءة حسنة، والمعنى: إما شاكراً فبتوفيقنا وإما كفوراً فبسوء اختياره انتهى. فجعلها أما التفصيلية المتضمنة معنى الشرط، فلذلك تلقاها بفاء الجواب، فصار كقول العرب: أما صديقاً فصديق.

وحاصل معنى الآية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ أي:(٢) فأعطيناه السمع والبصر والفؤاد، ونصبنا له الدلائل في الأنفس والآفاق لتكون مسرحاً لشكره، ومغنماً لعقله. ثم بين أن الناس انقسموا في ذلك فريقين، فقال: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾؛ أي: فبعض اهتدى، وعرف حق النعمة فشكر، وبعض أعرض فكفر. وإجمال ذلك إنا هديناه السبيل ليتميز شكره من كفره وطاعته من معصيته. ونحو الآية قوله:

---

(١) البحر المحيط.   (٢) المراغي.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

روى مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو معتقها». وحكى[1] مكيٌّ عن الكوفيين أن قوله: ﴿إِمَّا﴾ هي ﴿إنْ﴾ الشرطية زيدت بعدها ما؛ أي: بينا له الطريق إن شكر أو كفر، واختار هذا الفراء. ولا يجيزه البصريون؛ لأن ﴿إن﴾ الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل، ولا يجوز هنا إضمار الفعل، لأنّه كان يلزم رفع ﴿شَاكِرًا﴾ و﴿كَفُورًا﴾، ويمكن أن يضمر فعل ينصب ﴿شَاكِرًا﴾ و﴿كَفُورًا﴾، تقديره: إن خلقناه شاكراً فشكور، وإن خلقناه كفوراً فكفور. وهذا على قراءة الجمهور ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ بكسر همزة إمّا.

ولما ذكر الفريقين أتبعهما بالوعيد والوعد، فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾؛ أي: هيّأنا في الآخرة، فإن الاعتداد إعداد الشيء حتى يكون عتيداً حاضراً متى احتيج إليه. ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ من أفراد الإنسان الذي هديناه السبيل ﴿سَلَاسِلَا﴾ بها[2] يقادرن إلى جهنم. وفي «كشف الأسرار»: أعتدنا للكافرين في جهم سلاسل، كل سلسلة سبعون ذراعاً، وهو بغير تنوين في قراءة حفص، وأمّا الوقف فبالألف تارةً وبدونها أخرى. يقال: تسلسل الشيء: اضطرب كأنه تصور منه تسلسل وتردد، فتردد لفظه تنبيه على تردد معناه، ومنه: السلسلة وفي «القاموس»: السلسلة بالفتح: إيصال الشيء بالشيء، وبالكسر: دائرة من حديد ونحوه. وقرأ[3] طلحة، وعمرو بن عبيد، وابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة ﴿سلاسل﴾ ممنوع الصرف وقفاً ووصلاً، وقيل: عن حمزة وأبي عمرو الوقف بالألف، وقرأ حفص وابن ذكوان بمنع الصرف، واختلف عنهم في الوقف، وكذا عن البزي. وقرأ باقي السبعة بالتنوين وصلاً، وبالألف المبدلة منه وقفاً، وهي قراءة الأعمش. قيل؛ وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كل ما لا يصرف إلا أفعل من، وهي لغة الشعراء ثم كثر حتى جرى في كلامهم، وعلل ذلك بأن هذا الجمع لما كان يجمع فقالوا: صواحبات يوسف، ونواكسي الأبصار أشبه المفرد فجرى فيه الصرف. وقال بعض الرجاز:

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

وَٱلـصَّـرْفُ فِـي ٱلْـجَـمْـعِ أَتَـىٰ كَـثِـيْـرَاً   حَـتَّـىٰ ٱدَّعَـىٰ قَـوْمٌ بِـهِ ٱلـتَّـخْـيِـيْـرَا

والصرف ثابت في مصاحف المدينة، ومكة، والكوفة، والبصرة، وفي مصحف أبي وعبد الله، كذا ﴿قوارير﴾. وروى هشام عن ابن عامر ﴿سلاسل﴾ في الوصل، و﴿سلاسلا﴾ بألف دون تنوين في الوقف. وروي: أن من العرب من يقول: رأيت عمراً بالألف في الوقف.

﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ بها يقيدون إهانة وتعذيباً لا خوفاً من الفرار. جمع غل بالضم، وهو ما تطوق به الرقبة للتعذيب، وقد سبق في الحاقة مفصلاً. ﴿وَسَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً مسعرة متقدة بها يحرقون.

وإنما[1] يجرون إلى جهنم بالسلاسل لعدم انقيادهم للحق، ويحقرون بأن يقيدوا بالأغلال لعدم تواضعهم لله، ويحرقون بالنار لعدم احتراقهم بنار الخوف من الله تعالى.

والمعنى: أي إنّا هيأنا لمن كفروا بنعمتنا، وخالفوا أمرنا سلاسل بها يقادون إلى الجحيم وأغلالاً بها تشد أيديهم إلى أعناقهم كما يفعل بالمجرمين في الدنيا، وناراً بها يحرقون. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وبعد أن ذكر ما أعده للكافرين بين ما أعده للشاكرين من شراب شهي، ولباس بهيّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾؛ أي: إن أهل البر والطاعة والإخلاص والصدق. جمع بر كرب وأرباب أو جمع بار كشاهد وأشهاد، وهو من يبر خالقه؛ أي: يطيعه. يقال: بررته أبره كعلمته وضربته. وعن الحسن رحمه الله: البر: من لا يؤذي الذر ولا يضمر الشر، كما قيل:

وَلاَ تُـؤْذِ نَـمْـلاً إنْ أَرَدْتَ كَـمَـالَـكَـا   فَإنَّ لَـهَـا نَـفْـسَـاً تَـطِـيْـبُ كَـمَـالَـكَـا

وفي «المفردات»: البر خلاف البحر، وتصور منه التوسع، فاشتق منه البر؛ أي: المتوسع من فعل الخير، وبر العبد ربه: توسع في طاعته، ويشمل الاعتقاد والأعمال الفرائض والنوافل. وفي «الصحاح» جمع البر: الأبرار، وجمع البار:

---

(١) روح البيان.

البررة. ﴿يَشْرَبُونَ﴾ في الجنة. والشرب: تناول كل مائع ماء كان أو غيره؛ أي: يشربون ابتداء كالمطيعين، أو انتهاء كالمعذّبين من المؤمنين بحكم العدل ﴿مِن كَأْسٍ﴾؛ أي: من خمر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾؛ أي: ما تمزج به ﴿كَافُورًا﴾؛ أي: ماء عين تسمى بالكافور، وهي من أنهار الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده دون طعمه، وإلا فنفس الكافور لا يشرب. ونظيره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾؛ أي: كنار. والجملة صفة لـ ﴿كَأْسٍ﴾، وقيل: إنّ كان هنا زائدة؛ أي: من كأس مزاجها كافوراً. والكأس[1] في اللغة: هو الإناء الذي فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسمّ كأساً، ولا وجه لتخصيصه بالزجاجة بل يكون من الزجاج، ومن الذهب والفضة والصينيّ وغير ذلك. وقد كانت كأسات العرب من أجناس مختلفة، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر، كما في قول الشاعر:

وَكَـأْسٍ شَـرِبْـتُ عَـلَـىٰ لَـذَّةٍ ... وَأُخْـرَىٰ تَـدَاوَيْـتُ مِـنْـهَـا بِـهَـا

﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾؛ أي: ما يمازج تلك الكأس وتخلط به، يقال: مزج الشراب يمزجه مزجاً؛ أي: خلطه يخلطه خلطاً، ومنه قول الشاعر:

كَـأَنَّ سَـبِـيَّـةً مِـنْ بَـيْـتِ رَأْسٍ ... كَـأَنَّ مِـزَاجَـهَـا عَـسَـلٌ وَمَـاءُ

ومنه: مزاج البدن، وهو ما يمازجه من الأخلاط من الصفراء والسوداء والبلغم والدم والكيفيات المناسبة لكلّ منها. ﴿كَافُورًا﴾ وهو اسم[2] عين في الجنة في المقام المحمدي، وكذا سائر العيون في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته دون طعمه. والكافور: طيب معروف يطيب به الأكفان والأموات لحسن رائحته. واشتقاقه من الكفر، وهو الستر، لأنه يغطي الأشياء برائحته كما سيأتي. وقال الكلبي: ﴿كَافُورًا﴾ اسم عين في الجنة، وصرفت لتوافق الآي. وقرأ عبد الله[3] ﴿قافورا﴾ بالقاف بدل الكاف، وهما كثيراً ما يتعاقبان في الكلمة كقولهم: عربيٌّ قح وكح.

﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿كَافُورًا﴾؛ أي: من كأس كان مزاجها عيناً. أو مفعول به ليشربون؛ أي: ماء عين يشرب بها عباد الله. أو بدل من محل كأس على حذف

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

مضاف؛ أي: يشربون خمراً خمر عين. أو منصوب على الاختصاص. والأول أولى. ولما كانت الكأس مبدأ شرابهم أتى فيها بـ ﴿من﴾. وقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ صفة عين. وعباد الله هنا[1]: الأبرار من المؤمنين؛ لأن إضافة التكريم إلى اسمه الأعظم مختصة بالمؤمن في الغالب كالإضافة إلى ضمير المتكلم كقوله: ﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾ لرعايتهم حق الربوبية، فمن لم يراعه فكأنه ليس بعبد له؛ أي: يشربون بها الخمر لكونها ممزوجةً بها، كما تقول: شربت الماء بالعسل، فيكون كناية عن قوتها في لذّتها.

والظاهر: يشربِ منها عباد الله، فالباء بمعنى من، فإنّ حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض، ونظيره: قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾؛ أي: أنزلنا من السحاب الماء، صرح به الشيخ المكي رحمه الله. ويعضده قراءة ابن أبي عبلة ﴿يشربها عباد الله﴾. وقيل: إنَّ ﴿يَشْرَبُ﴾ مضمن معنى يلتذّ، وقيل: هي متعلقة بـ ﴿يَشْرَبُ﴾، والضمير يعود إلى الكأس.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾؛ أي: يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم، كما يفيده بناء التفعيل؛ إذ التشديد للكثرة إجراءً سهلاً لا تمنع عليهم بل تجري جرياً بقوّة واندفاع، ولأن الأنهار منقادة لأهل الجنة كالأشجار وغيرها، فتفجيراً مصدر مؤكد للفعل المتضمن معنى السهولة. والجملة صفة أخرى لـ ﴿عَيْنًا﴾. يقال: فجرت العين فانفجرت، وفجرتها فتفجرت إذا أجريتها.

والمعنى: أي إنّ الذين بروا بطاعتهم ربهم فأدوا فرائضه واجتنبوا معاصيه يشربون من خمر كان مزاج ما فيها من الشراب كالكافور طيب رائحة وبرداً وبياضاً. وهذا المزاج من عين يشرب منها عباد الله المتقون، وهم في غرف الجنّات يسوقونها إليهم سوقاً سهلاً، حيث شاؤوا، وينتفعون بها كما يشاؤون، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يحبّون وصوله إليه. قال مجاهد: يقودونها حيث شاؤوا وتتبعهم حيث مالوا وجملة قوله:

١ - ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر، وكذا ما عطف عليها كأنّه قيل: ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية؟ فقيل: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف بما أوجبه الله عليهم من الصلاة والزكاة والصيام

---

(١) روح البيان.

والحجّ وغيرها. فهو مبالغة في وصفهم بالتوفّر على أداء الواجبات. والإيفاء بالشيء: هو الإتيان به تامًّا وافياً. و﴿النذر﴾: إيجاب الفعل المباح على نفسه تعظيماً لله تعالى بأن يقول: لله عليّ كذا من الصدقة وغيرها. والنذر: قربة مشروعة، ولا يصحّ إلا في الطاعة. وفي الحديث: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»؛ أي: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم، ومن أوفى بما أوجبه على نفسه فهو على الوفاء بما أوجبه الله عليه أولى.

وقصارى ذلك: أنهم يؤدون ما أوجبه الله عليهم بأصل الشرع، وبما أوجبوه على أنفسهم بالنذر. قال الفرّاء: في الكلام إضمار؛ أي: كانوا يوفون بالنذر في الدنيا.

٢ - ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿كَانَ شَرُّهُۥ﴾؛ أي: هوله وشدته وعذابه ﴿مُسْتَطِيرًا﴾؛ أي: فاشياً منتشراً في الأقطار غاية الانتشار بالغاً أقصى المبالغ من استطار الفجر إذا انتشر ضوءه، وهو أبلغ من طار بمنزلة استنفر من نفر. وأطلق الشر على أهوال القيامة، وشدائدها المنتشرة غاية الانتشار حتى ملأت السماوات والأرض مع أنها عين حكمة وصواب لكونها مضرّة بالنسبة إلى من تنزل عليه، ولا يلزم من ذلك أن لا يكون خبره ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أيضاً، فإن ليوم القيامة أموراً سارّةً كما أن له أموراً ضارّةً.

ثم ﴿يُوفُونَ...﴾ إلخ، بيان لأعمالهم وإتيانهم بجميع الواجبات، وقوله: ﴿يخافون﴾ إلخ، بيان لنياتهم حيث اعتقدوا بيوم البعث والجزاء، فخافوا منه، فإن الطاعات إنما تتم بالنيّات، وبمجموع هذين الأمرين سمّاهم الله تعالى بالأبرار. قال مقاتل: كان شره فاشياً في السماوات، فانشقت وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة. وفي الأرض نسفت الجبال وغارت المياه.

والمعنى: أي ويتركون المحرمات التي نهاهم ربهم عنها خيفة سوء الحساب يوم المعاد حين يستطير العذاب، ويفشو بين الناس إلا من رحم الله تعالى.

٣ - ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ أي: كائنين على حب الطعام والحاجة إليه، ونحوه قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. أو كائنين[1] على حب

---

(١) روح البيان.

الإطعام، فيطعمون بطيب النفس، فالضمير إلى مصدر الفعل كما في قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. أو كائنين على حب الله؛ أي: إطعاماً كائناً على حبه تعالى، وهو الأنسب لما سيأتي من قوله: ﴿لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ فالمصدر مضاف إلى المفعول، والفاعل متروك؛ أي: على حبهم لله تعالى، ويجوز أن يضاف إلى الفاعل والمفعول متروك؛ أي: على حبّ الله الإطعام. والطعام خلاف الشراب، وقد يطلق على الشراب أيضاً؛ لأن طعم الشيء: ذوقه مأكولاً أو مشروباً. والظاهر: الخصوص وإن جاز العموم، والأظهر: أن المراد من إطعام الطعام الإحسان إلى المحتاجين ومواساتهم بأيّ وجه كان، وإنما خص الطعام لكونه أشرف أنواع الإحسان لا جرم أن عبر به عن جميع وجوه المنافع.

واعلم(١): أنّ مجامع الطاعات محصورة في أمرين الطاعة لأمر الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، والشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾. فإن الطعام وهو جعل الغير طاعماً كناية عن الإحسان إلى المحتاجين والمواساة إليهم بأي وجهٍ كان، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه إلا أن الإحسان بالطعام لما كان أشرف أنواع الإحسان.. عبر عن جنس الإحسان باسم هذا النوع، كما في «حواشي ابن الشيخ».

﴿مِسْكِينًا﴾؛ أي: فقيراً لا شيء له أصلاً عاجزاً عن الكسب. ﴿وَيَتِيمًا﴾؛ أي: طفلاً لا أب له ﴿وَأَسِيرًا﴾ مأخوذاً لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة، أي أسير كان فإنه ﷺ كان يؤتى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين، فيقول: أحسن إليه، لأنه يجب إطعام الأسير الكافر والإحسان إليه في دار الإسلام عند عامّة العلماء إلى أن يرى الإمام رأيه فيه من قتل أو منّ أو فداء أو استرقاق. وفي «الخطيب»: خصّ هؤلاء الثلاثة بالذكر، لأن المسكين عاجز عن الاكتساب بنفسه لما يكفيه، واليتيم مات من يكتسب له، وبقي عاجزاً عن الكسب لصغره، والأسير لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة انتهى.

والمعنى(٢): أي ويطعمون الطعام وهم في محبة له، وشغف المسكين العاجز عن الاكتساب واليتيم الذي مات أبوه، والأسير المأخوذ من قومه المملوكة رقبته

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

الذي لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلةً. ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر أن الأبرار يحسنون إلى هؤلاء المحتاجين بين أن لهم في ذلك غرضين:

١ ـ رضي الله عنهم، أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ والجملة في موضع الحال من فاعل ﴿يطعمون﴾ على تقدير القول؛ أي: قائلين ذلك بلسان الحال، أو بلسان المقال إزاحة لتوهم المنّ المبطل للصدقة وتوقع المكافأة المنقصة للأجر؛ أي: يقولون: إنما نطعمكم. أو قائلين: إنّما نطعمكم يعني: أنهم لا يتوقعون المكافأة، ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك. قال المفسرون: لم يتكلموا بهذا، ولكن علمه الله من قلوبهم، فأثنى عليهم، وعلم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه. وعن الصديقة رضي الله عنها: أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل الرسول ما قالوا؟ فإذ ذكر دعاءهم دعت لهم بمثله ليبقى لها ثواب الصدقة خالصاً عند الله. والوجه: الجارحة(١) عبر به عن الذات لكونه أشرف الأعضاء. وقال بعضهم: الوجه مجاز عن الرضى، لأنّ الرضى معلوم في الوجه، وكذا السخط.

وجملة قوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ لنا بالمال ﴿وَلَا شُكُورًا﴾؛ أي: شكراً باللسان ومدحاً ودعاءً. مقررة مؤكدة لما قبلها، لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة، ولا يطلب الشكر له ممن أطعمه، أي: لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام، ولا نريد منكم الشكر لنا بل هو خالص لوجه الله تعالى.

والفرق بين الجزاء والأجر(٢): أن الأجر ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً، ويقال فيما كان عن عقد، وما يجري مجرى العقد، ولا يقال إلا في النافع. وأمّا الجزاء فيقال فيما كان عن عقد وغير عقد، ويقال في النافع والضارّ. والمجازاة: المكافأة، وهي مقابلة نعمة بنعمة هي كفؤها. والشكور: مصدر على وزن الدخول. قال القاشانيّ: لا نريد منكم مكافأة وثناء لعدم الاحتجاب بالأغراض والأعواض. وفي «التأويلات النجمية»: لا نريد منكم جزاء بالذكر الجميل في

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

الدنيا، ولا شكوراً عن عذاب الآخرة؛ إذ كل عمل يعمله العامل لثواب الآخرة لا يكون لوجه الله تعالى، بل يكون لحظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾. وقال ﷺ حكايةً عن الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه».

والحاصل: أن معاملة العبد المخلص إنما هي مع الله، فلا حق له على الغير، فكيف يريد ذلك؟ وفيه نصح لمن أراد النصيحة، فإن الإطعام ونحوه حرام بملاحظة الغير، وحظ النفس، فيجب أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى من غير شوب بالرياء وبحظ المنعم.

والمعنى(١): إنّما نطعمكم لوجه الله تعالى، فلا نمن عليكم، ولا نتوقع منكم مكافأةً ولا غيرها مما ينقص الأجر. ثم أكد هذا ووضحه بقوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً...﴾ إلخ؛ أي: لا نطلب منكم مجازاةً تكافئوننا بها، ولا أن تشكرونا لدى الناس. قال مجاهد، وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله من قلوبهم، فأثنى به ليرغب في ذلك راغب.

٢ - خوف يوم القيامة، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: عذاب يوم متّصف بهاتين الصفتين، فلذلك نفعل بكم ما نفعل، رجاء أن يقينا ربنا بذلك الإطعام شره، لا لإرادة مكافأتكم. فقوله(٢): ﴿إِنَّا نَخَافُ...﴾ إلخ، بدل من قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ...﴾ إلخ، في معرض التعليل لإطعامهم، فقوله: ﴿يَوْمًا﴾ مفعول ﴿نَخَافُ﴾ على تقدير مضاف، كما ذكرنا، فـ ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ حال مقدمة منه، ولو أخر.. لكان صفة له. أو مفعوله قوله: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ بواسطة حرف الجر على ما هو الأصل في تعديته، لأنّه يقال: خاف منه، فيكون ﴿يَوْمًا﴾ بدلاً من محله بدون تقدير، بناءً على التعدية بنفسه أو بتقدير ﴿نَخَافُ﴾ آخر. وقوله: ﴿عَبُوسًا﴾ من قبيل إسناد الفعل إلى زمانه.

والمعنى: يوماً تعبس فيه الوجوه كما روي: «أنَّ الكافر يعبس يومئذٍ حتى

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران». والعبوس: قطوب الوجه وتغيره من ضيق الصدر. أو معنى ﴿عَبُوسًا﴾ يشبه الأسد العبوس في الشدّة والضراوة. أي السطوة والإقدام على إيصال الضرر بالعنف والحدة بكل من رآه فهو من المبالغة في التشبيه، فإن العبوس الأسد كالعباس. ﴿قَمْطَرِيرًا﴾؛ أي: شديد العبوس. وقال مجاهد[1]: إن العبوس بالشفتين، والقَمْطَرير بالجبهة والحاجبين.

والخلاصة: أي إنا نفعل ذلك ليرحمنا ربنا، ويتلقانا بلطفه في ذلك اليوم العبوس القمطرير.

وبعد أن حكى عنهم أنهم أتوا بالطاعة لغرضين: طلب رضا الله، والخوف من يوم القيامة بين أنه أعطاهم الغرضين. فأشار إلى الثاني بقوله: ﴿فَوَقَنْهُمُ اللَّهُ﴾ سبحانه، وحفظهم ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾؛ أي: ضرره بسبب خوفهم وتحفظهم منه. فـ﴿شَرَّ﴾ مفعول ثان لوقى المتعدي إلى اثنين. وقرأ الجمهور ﴿فَوَقَنْهُمُ﴾ بتخفيف القاف، وأبو جعفر بشدّها.

والمعنى: أي فدفع الله عنهم ما كانوا في الدنيا يحذرون من شرّ ذلك اليوم العبوس بما كانوا يعملون مما يرضي ربهم عنهم من الإطعام لوجه الله تعالى.

وأشار إلى الأوّل بقوله: ﴿وَلَقَّنْهُمْ﴾ أي: أعطاهم بدل العبوس في الكفار ﴿نَضْرَةً﴾ وحسناً وإضاءة في الوجوه ﴿وَسُرُورًا﴾ وفرحاً في قلوبهم بدل حزن الفجار. وقال الضحاك: النضرة: البياض والنقاء في وجوههم. وقال سعيد بن جبير: الحسن والبهاء، وقيل: النضرة: أثر النعمة. وهما مفعولان ثانيان لـ ﴿لقاهم﴾. ونحو الآية قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾. وقد جرت العادة: أن القلب إذا سر.. استنار الوجه. قال كعب بن مالك: وكان رسول الله ﷺ إذا سرّ.. استنار وجهه كأنه فلقة قمر. وقالت عائشة رضي الله عنها: «دخل عليّ رسول الله ﷺ مسروراً تبرق أسارير وجهه...» الحديث.

﴿وَجَزَنْهُم﴾؛ أي: أعطى كلَّ واحدٍ منهم بطريق الأجر والعوض ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على مشاق التكاليف ومخالفة الشهوات. فـ ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: بسبب صبرهم

---

(١) الشوكاني.

على مشاقّ الطاعات ومهاجرة هوى النفس في اجتناب المحرمات وإيثار الأموال ﴿جَنَّةً﴾ مفعول ثان لـ ﴿جزاهم﴾؛ أي: بستاناً يأكلون منه ما شاؤوا. ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونه ويتزيّنون به. وقرأ الجمهور ﴿وَجَزَىٰهُم﴾، وعليٌّ ﴿وجازاهم﴾ على وزن فاعل. فالمراد بالجنة هنا[1] ليس دار السعادة المشتملة على جميع العطايا والكرامات، وإلا لما احتيج إلى ذكر الحرير بعد ذكر الجنة بل البستان كما ذكرنا، فذكرها لا يغني عن ذكر الملبس. ثم إن البستان في مقابلة الإطعام والصبر على الجوع، والحرير في مقابلة الصبر على العري. لأن اجتناب إيثار الأموال يؤدي إلى الجوع والعري.

والخلاصة: أي وجزاهم بصبرهم على الإيثار، وما يؤدّي إليه من الجوع والعري بستاناً فيه مأكول هنيٌّ، وحريراً منه ملبس بهيٌّ. ونحو الآية قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾؛ أي: على السرر منصوب على الحال من مفعول ﴿جزاهم﴾، والعامل فيها جزى. وجوز أبو البقاء أن يكون صفة لـ ﴿جَنَّةً﴾، ولكنها سببية، كأنه قال: جنة متكئين فيها على الآرائك.

وقيَّد المجازاة[2] بتلك الحال؛ لأنه أرفه الأحوال، فكأن غيرها لا يدخل في الجزاء. والأرائك: هي السرر في الحجال، تكون في الجنة من الدر والياقوت مزينة بقضبان الذهب والفضة وألوان الجواهر. جمع أريكة كسفينة، ولا تكون أريكة حتى تكون في حجلة، وهي بالتحريك واحدة حجال العروس، وهي بيت مزين بالثياب والستور. والظاهر أن ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلق بـ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، لأن الاتكاء يتعدى بـ (على)؛ أي: مستقرين متمكنين على الأرائك كقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ﴾. ولا يبعد أن يتعلق بمقدر، ويكون حالاً من ضمير متكئين. أي: متكئين فيها على الوسائد أو غيرها مستقرين على الأرائك، فيكون الاتكاء بمعنى الاعتماد.

وجملة قوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ في محل النصب على الحال من مفعول ﴿جزاهم﴾، فتكون من الحال المترادفة، أو من الضمير في ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، فتكون من الحال المتداخلة. أو صفة أخرى لـ ﴿جَنَّةً﴾. والزمهرير: أشد البرد.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى: إنهم لا يرون في الجنة حر الشمس، ولا برد الزمهرير. وقال ثعلب: الزمهرير: القمر بلغة طيىء.

والمعنى[1]: أي لا يرون في الجنة حرارةً ولا برودةً، كما يرون في الدنيا. لأنّ الحرارة غالبة على أرض العرب، والبرودة على أرض العجم والروم؛ أي: يمرّ عليهم هواء معتدل لا حارّ، ولا بارد مؤذ، بل جوّ واحد معتدل دائم سرمديّ فهم لا يبغون عنها حولاً. يعني: أنّ قوله: ﴿لَا يَرَوْنَ...﴾ إلخ، كناية عن هذا المعنى. وفي الحديث: «هواء الجنة سجسج لا حر فيه ولا قر». أي: معتدل لا حر فيه ولا برد، فإن القر بالضم: البرد.

وقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: قريبة إليهم ﴿ظِلَالُهَا﴾؛ أي: ظلال أشجار الجنة. والظلال: جمع ظلّ بالكسر نقيض الضح، و﴿ظِلَالُهَا﴾ فاعل ﴿وَدَانِيَةً﴾ من الدنو بمعنى القرب، إمّا بحسب الجانب أو بحسب السمك. والضمير إلى الجنّة أو إلى أشجارها.

والمعنى: إنّ ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار من جوانبهم حتى صارت الأشجار بمنزلة المظلّة عليهم، وإن كان لا شمس فيها مؤذية لتظلهم منها بمعنى أنه لو كان هناك شمس مؤذية.. لكانت أشجارها مظلة عليهم. ففيه بيان لزيادة نعيمهم، وكمال راحتهم، فإن الظل في الدنيا للراحة، ويقال: إنّ في الجنّة من الضياء ما لا يحتاجون معه إلى شمس ولا قمر، ونور الجنة من نور العرش.

وقرأ الجمور[2]: ﴿وَدَانِيَةً﴾ بالنصب عطفاً على محل ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ أو على ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ أو صفة لمحذوف؛ أي: وجنة دانية، كأنّه قال: وجزاهم جنة دانية. وقال الزجاج: هو صفة لـ ﴿جَنَّةً﴾ المتقدم ذكرها. وقال الفرّاء: هو منصوب على المدح. وقرأ أبو حيوة ﴿وَدَانيةٌ﴾ بالرفع على أنه خبر مقدم، و﴿ظِلَالُهَا﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة في موضع النصب على الحال. وقرأ ابن مسعود والأعمش ﴿ودانيا عليهم﴾ وهو كقول: ﴿خاشعا أبصارهم﴾. وقرأ أبيّ ﴿ودان﴾ مرفوعاً.

وقوله: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا﴾؛ أي: سخّرت ثمارها، وسهّل تناولها لهم. ﴿تَذْلِيلًا﴾؛

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

أي: تسخيراً وتسهيلاً تامّاً. معطوف على ﴿دانية﴾، كأنّه قال: ومذلّلة، ويجوز أن تكون الجملة في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة.

والمعنى: أنّها سخّرت ثمارها لمتناولها تسخيراً كثيراً بحيث يتناولها القائم والقاعد والمضطجع، لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك. قال النحاس: المذلل: القريب المتناول، ومنه قولهم حائط ذليل؛ أي: قصير. قال ابن قتيبة: ذللت: أدنيت من قولهم: حائط ذليل أي: كان قصير السمك. وقيل: ﴿ذللت﴾؛ أي: جعلت منقادة لا تمتنع على قطافها كيف شاؤوا.

﴿وَيُطَافُ﴾؛ أي: يدور الخدم من طافه بمعنى دار، والطواف والإطافة كلاهما لازم، وإنّما[1] جاءت التعدية هنا من الباء في قوله: ﴿بِئَانِيَةٍ﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الأبرار إذا أرادوا الشرب. والطائف: الدائر، وهو الخدم كما يجيء. ﴿بِئَانِيَةٍ﴾؛ أي: بأوعية، جمع إناء، نحو: كساء وأكسية، والأواني جمع الجمع كما في «المفردات». وفي بعض التفاسير: الباء فيها إن كانت للتعدية فهي قائمة مقام الفاعل؛ لأنّها مفعول له معنى، وإلا فالظاهر أن يكون القائم مقامه عليهم. ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ صفة لـ ﴿آنية﴾ ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب، وهو الكوز العظيم المدوّر الرأس لا أذن له ولا عروة، فيسهل الشرب منه من كلّ موضع، ولا يحتاج عند التناول إلى إدارته، وهو مستعمل الآن في بلاد العرب.

والحاصل: أنه لما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف شرابهم، وقدم عليه وصف الأواني التي يشرب بها، وذكره بلفظ المجهول، لأنّ المقصود ما يطاف به لا الطائفون. ثم ذكر الطائفين بقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ...﴾ إلخ، وجملة قوله: ﴿كَانَتْ﴾؛ أي: تلك الأكواب ﴿قَوَارِيرَا۠﴾؛ أي: كالقوارير في صفائها وشفافتها، جمع قارورة، وهو كل ما قر فيه الشراب ونحوه وكان شفّافاً. وحسن التكرير في قوله: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ لما اتصل به من بيان أصلها؛ أي: تكونت، وحدثت تلك الأكواب جامعة بين صفاء الزجاجة وشفافتها، ولين الفضة وبياضها يرى ما في داخلها من خارجها، فـ ﴿كان﴾ تامة. و﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الأول حال من فاعل ﴿كَانَتْ﴾ على المبالغة في

---

(١) روح البيان.

التشبيه، وليس المعنى: أنها قوارير زجاجية متخذة من الفضة بل الحكم عليها بأنها قوارير، وأنها من فضة من باب التشبيه البليغ، لأنها في نفسها ليست زجاجاً ولا فضة. لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن أرض الجنة من فضة، وأواني كل أرض من تربة تلك الأرض». ويستفاد من هذا الكلام وجهٌ آخر لكون تلك الأكواب من فضة، ومن قوارير، وهو أن أصل القوارير في الدنيا: الرمل، وهي سريعة الانكسار. وأصل قوارير الجنة هو فضة الجنة، فكما أنَّ الله قادر على أن يقلب الرمل الكثيف زجاجة صافية، فكذلك قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة صافية.

والغرض[1] من ذكر هذه الآية التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا كنسبة الفضة إلى الرمل، فكما أنّه لا نسبة بين هذين الأصلين، فكذا لا نسبة بين القارورتين، كذا في «حواشي ابن الشيخ».

قال بعضهم: لعل الوجه في اختيار كون ﴿كَانَتۡ﴾ تامة مع إمكان جعلها ناقصة، و﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الأول خبراًلها الإعظام بتكوين الله تعالى، فيكون فيه تفخيم الآنية بكونها أثر قدرة الله تعالى. و﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الثاني بدل من الأول على سبيل الإيضاح والتعيين. أي: قوارير مخلوقةً من فضة. ولا منافاة[2] بين كون الأواني من الفضة وبين كونها من الذهب، كما ذكر في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾ لأنّهم تارة يسقون بهذه وتارة يسقون بتلك.

وقرأ نافع، والكسائيّ، وأبو بكر[3]: ﴿قواريراً قواريراً﴾ بالتنوين فيهما مع الوصل وبالوقف عليهما بالألف، وقد تقدم وجه هذه القراءة في تفسير قوله: ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ من هذه السورة، وبيّنّا هنالك وجه صرف ما فيه صيغة منتهى الجموع، فارجع إليه. وقرأ حمزة بعدم التنوين فيهما، وعدم الوقف بالألف، ووجه هذه القراءة ظاهر، لأنّهما ممنوعان من الصرف لصيغة متنهى الجموع. وقرأ هشام بعدم التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالألف. وقرأ ابن كثير بتنوين الأول دون الثاني، والوقف على الأول بالألف دون الثاني. وقال الزمخشري[4]: وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق، لأنّه فاصلة، وفي الثاني لإتباعه الأول انتهى.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

وكذا قال في قراءة من قرأ ﴿سلاسلا﴾ بالتنوين إنه بدل من حرف الإطلاق، أجري الفواصل مجرى أبيات الشعر، فكما أنّه يدخل التنوين في القوافي المطلقة إشعاراً بترك الترنم، كما قال الرّاجز:

يَا صَاحِ مَا هَاجَ ٱلدُّمُوْعَ ٱلذُّرَّ فَنْ

فهذه النون بدل من الألف، إذ لو ترنم لوقف بألف الإطلاق. قال ابن الجزري: وكلهم وقفوا عليه بالألف، إلا حمزة وورشاً، وإنما صرفه من صرفه، لأنه وقع في مصحف الإمام بالألف، وإنما كتب في المصحف بالألف، لأنه رأس آيةٍ، فتشابه القوافي والفواصل التي تزاد فيها الألف للوقف انتهى. وقرىء الثاني بالرفع على معنى هي قوارير اهـ «روح البيان».

وجملة: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ صفة لـ﴿قَوَارِيرَا﴾. قرأ الجمهور[1] ﴿قَدَّرُوهَا﴾ بفتح القاف على البناء للفاعل؛ أي: قدّرها السقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون زيادة ولا نقصان.

وقال مجاهد وغيره: أتوا بها على قدرريهم بغير زيادة ولا نقصان. قال الكلبي: وذلك ألذ وأشهى. وقيل: قدرها الملائكة، وقيل: قدرها أهل الجنة الشاربون على مقدار شهواتهم وحاجتهم، فجاءت كما يريدون في الشكل لا تزيد ولا تنقص.

وقرأ علي، وابن عباس، والسلميّ، والشعبيّ، وزيد بن علي، وعبيد بن عمير، وأبو عمرو في رواية عنه، وابن أبزى، وقتادة، والجحدري وأبو حيوة، وعباس عن أبان، والأصمعي عن أبي عمرو، وابن عبد الخالق عن يعقوب ﴿قُدِّروها﴾ بضمّ القاف وكسر الدال مبنياً للمفعول؛ أي: جعلت لهم على قدر إرادتهم. قال أبو عليّ الفارسي: كأنَّ اللفظ قدروا عليها، وفي المعنى قلب؛ لأن حقيقة المعنى أن يقال: قدرت عليهم، فهي مثل قوله: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾. ومثل قول العرب إذا طلعت الجوزاء ألقي العود على الحرباء. وقال الزمخشري: ووجهه أن يكون قدر منقولاً من قدر، تقول: قدرت الشيء وقدرنيه فلان إذا جعلت قادراً عليه، ومعناه: وجعلوا قادرين لها كما شاؤوا، وأطلق لهم أن

---

(١) الشوكاني.

يقدروا على حسب ما اشتهوا انتهى.

وقال أبو حاتم: قدرت الأواني على قدر ريهم.

وقال أبو حيان[1]: والأقرب في تخريج هذه القراءة الشاذّة أن يكون الأصل: قدر ريهم منها تقديراً، فحذف المضاف، وهو الريّ، وأقيم الضمير مقامه، فصار التقدير: قدّروا منها، ثم اتسع في الفعل فحذف ﴿مِنْ﴾، ووصل الفعل إلى الضمير بنفسه، فصار قدروها تقديراً، فلم يكن فيه إلا حذف مضاف واتساع في المجرور انتهى.

وبعد أن وصف أواني مشروبهم وصف المشروب نفسه، فقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾؛ أي: الأبرار ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة بسقي الله، أو بسقي الطائفين بأمر الله. وفيه زيادة تعظيم لهم ليست في قوله: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ بصيغة المعلوم. ﴿كَأْسًا﴾؛ أي: خمراً. وقد تقدم أنّ الكأس هو الإناء فيه الخمر، وإذا كان خالياً من الخمر فلا يقال له: كأس. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾؛ أي: ما تمزج به، وتخلط ﴿زَنجَبِيلًا﴾ والزنجبيل[2]: عرق يسري في الأرض ونباته كالقصب والبردي، وعلم منه أن ما كان مزاجها زنجبيلا غير ما كان مزاجها كافوراً.

والمعنى: أنّ أهل الجنة يسقون في الجنة كأساً من الخمر ممزوجة بماء يشبه الزنجبيل في الطعم، وكان الشراب الممزوج به أطيب ما يستطيب العرب، وألذ ما تستلذ به. لأنه يحذو اللسان، ويهضم الطعام، كما في «عين المعاني».

ولما كان في تسمية تلك العين بالزنجبيل توهم أن ليس فيها سلاسة الانحدار في الحلق وسهولة مساغها كما هو مقتضى اللذع والإحراق أزال ذلك الوهم بقوله: ﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿زَنجَبِيلًا﴾ أو من ﴿كَأْسًا﴾ أو بفعل مقدر؛ أي: يسقون عينا ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها، فكأنَّ العين سميت بصفاتها. والسلسبيل: الشراب اللذيذ. قال بعضهم: يطلق عليها ذلك، وتوصف به لا أنه علم لها. يعني: أن ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ صفة لا اسم، وإلاّ لامتنع من الصرف للعلمية والتأنيث، ولم يقرأ به واحد من العشرة. ويقال: إنما صرف مع أنه اسم عين، وهي مؤنث معنوي لرعاية رأس الآية. وقال ابن المبارك: من طريق

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

الإشارة معنى السلسبيل سل من الله إليه سبيلاً. قال ابن الشيخ:(١) جعل الله مزاج شراب الأبرار أوّلا كافوراً وثانياً زنجبيلاً، لأنّ المقصود الأهم حال الدخول البرودة لهجوم العطش عليهم من حر العرصات، وعبور الصراط، وبعد استيفاء حظوظهم من أنواع نعيمها ومطعوماتها تميل طباعهم إلى الأشربة التي تهيج الاشتهاء وتعين على تهنئة ما تناولوه من المطعومات، ويلتذ الطبع بشربها. فلعل الوجه في تأخير ذكر ما يمزج به الزنجبيل عما يمزج به الكافور ذلك.

والخلاصة(٢): ويسقى الأبرار في الجنة خمراً ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانوا في الدنيا يحبون ذلك، ويستطيبونه، ويسقون من عين في الجنة غاية في السلاسة وسهولة الانحدار في الحلق. قال ابن الأعرابي: لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن، وكأن العين إنما سميت بذلك لسلاستها وسهولة مساغها اهـ. وهذا كله ما هو إلا أسماء لما هو شبيه بما في الدنيا، وهناك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. فالمعاني غير ما نعهد، والألفاظ لمجرد تخيل شيء مما نراه، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

ثم ذكر أوصاف السقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب، فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يدور على الأبرار ﴿وِلْدَانٌ﴾ فإنهم أخف في الخدمة. جمع وليد، وهو من قرب عهده بالولادة. ﴿مُخَلَّدُونَ﴾؛ أي: دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء، لا يتغيرون أبداً.

والمعنى: أي ويطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة، يأتون على ما هم عليه من الشباب والطراوة والنضارة، لا يهرمون، ولا يتغيرون، ولا تضعف أجسامهم عن الخدمة.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها المخاطب؛ أي: إذا رأيت هؤلاء الولدان ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾؛ أي: خلتهم لحسن ألوانهم ونضارة وجوههم وانتشارهم في قضاء حوائج سادتهم ﴿لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾؛ أي: متفرّقاً؛ أي: كأنهم اللؤلؤ المنثور؛ أي: المفرق. واللؤلؤ المنثور أجمل في النظر من اللؤلؤ المنظوم، ولأنّهم إذا كانوا كذلك كانوا سراعاً في

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الخدمة. واللؤلؤ: الجوهر المعروف، يجمع على اللآلىء، يقال: تلألأ الشيء إذا لمع لمعان اللؤلؤ.

قال أهل المعاني[1]: إنما شبهوا بالمنثور لانتشارهم في الخدمة، ولو كان صفًّا.. لشبهوا بالمنظوم. وقيل: إنما شبههم بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون، لأنهن لا يمتهن بالخدمة. وقال بعضهم: منثوراً من صدفه. يعني: أنهم شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه، وهو غير مثقوب لأنّه أحسن وأكثر ماء.

ولما ذكر نعيم أهل الجنة مما تقدم ذكر أن هناك أموراً أعلى وأعظم من ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أيها المخاطب ببصرك ﴿ثَمَّ﴾؛ أي: ما هنالك. يعني: الجنة. قال في «الإرشاد»: ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر ولا معنوي. ومآل المعنى: أينما وقع بصرك في الجنة. ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ كثيراً لا يوصف، وهو ما يتنعم به. ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ أي: عظيماً واسعاً، لا يقادر قدره، كما في الحديث: «أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه». والآية من باب[2] الترقّي والتعميم. يعني: أنّ هناك أموراً أخر أعلى وأعظم من القدر المذكور. و﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان بمعنى هنالك والعامل فيها ﴿رَأَيْتَ﴾. قال الفراء: في الكلام ﴿ما﴾ مضمرة؛ أي: وإذا رأيت ما ثمّ كقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: ما بينكم. وهذا فاسد، لأنّه من حيث جعله معمولاً لـ ﴿رَأَيْتَ﴾ لا يكون صلةً لـ ﴿ما﴾، لأنّ العامل فيه إذ ذاك محذوف؛ أي: ما استقرّ ثمّ. وقال الزجاج معترضاً على الفرّاء: إنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة، ولكن ﴿رَأَيْتَ﴾ يتعدى في المعنى إلى ﴿ثمّ﴾، والمعنى: إذا رأيت ببصرك ثمّ، ويعني: بـ ﴿ثمّ﴾ الجنة. قال السديّ: النعيم: ما يتنعّم به. والملك الكبير استئذان الملائكة عليهم، وكذا قال مقاتل والكلبي. وفي بعض التفاسير: الملك بالضمّ: هو التصرف في المأمورين بالأمر والنهي، ومنه: الملك. وأما الملك بالكسر فهو التصرف في الأعيان المملوكة بحسب المشيئة، ومنه: المالك. والأوّل جامع للثاني، لأنّ كل ملك مالك، ولا عكس اهـ.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

﴿عَالِيَهُمْ﴾ ظرف على أنه خبر مقدم ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة حال من ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يطوف على الأبرار ولدان عالياً على المطوف عليهم ثياب سندس؛ أي: فوقهم وعلى ظهوره ثياب سندس. والسندس: هو الديباج الرقيق الفاخر الحسن. وإضافة الثياب إلى السندس كإضافة الخاتم إلى الفضة. وقوله: ﴿خُضْرٌ﴾ بالرفع صفة ﴿ثِيَابُ﴾. وهو جمع أخضر كحمر جمع أحمر. والضمير في ﴿عَالِيَهُمْ﴾ للأبرار المطوف عليهم كما مرّ آنفاً، لأنّ المقام مقام تعداد نعيمهم وكرامتهم، فالمناسب أن تكون الثياب الموصوفة لهم لا للولدان الطائفين. وعن الإمام: أنَّ المراد فوق خيامهم المضروبة عليهم، والمعنى: أن حجالهم من الحرير والديباج، وهذا من علامات الملك. ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ثِيَابُ﴾ بحذف المضاف؛ أي: ثياب استبرق، وهو معرَّب استبره بمعنى الغليظ، وهو بقطع الهمزة لكونه اسما للديباج الغليظ الذي له بريق.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ثَمَّ﴾ بفتح المثلثة. وقرأ حميد والأعرج ﴿ثُمَّ﴾ بضمها حرف عطف، وجواب ﴿إذا﴾ على هذا محذوف؛ أي: وإذا رميت ببصرك ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ترى عجباً عجيباً وصنعاً بديعاً، لا يقادر قدره، ولا يدرك كنهه. وقرأ عمر[2] وابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجحدريّ، وأهل مكة، وجمهور السبعة ﴿عَالِيَهُمْ﴾ بفتح الياء وضم الهاء، على أنه ظرف في محل رفع على أنّه خبر مقدم، و﴿ثِيَابُ﴾ مبتدأ مؤخر كأنه قيل: فوقهم ثياب سندس. قال الفرّاء: إن عاليهم بمعنى فوقهم، وكذا قال ابن عطية. قال أبو حيان: عالٍ وعالية اسم فاعل، فيحتاج في كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب، وقد تقدمه إلى هذا الزجاج كما مرّ. وقال: هذا مما لا نعرفه في الظروف، ولو كان ظرفاً.. لم يجز إسكان الياء، ولكنّه نصب على الحال من شيئين. أحدهما: الهاء والميم في قوله: ﴿يطوف عليهم﴾؛ أي: على الأبرار ﴿وِلْدَانٌ﴾ عالياً الأبرار ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾؛ أي: يطوف عليهم في هذه الحال. والثاني: أن يكون حالاً من الولدان؛ أي: إذا رأيتهم.. حسبتهم لؤلؤاً منثوراً في حال علو الثياب أبدانهم. وقال أبو علي الفارسي: العامل في الحال إما ﴿لقاهم نضرة وسروراً﴾، وإما ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾، وقال: ويجوز أن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط والشوكاني.

يكون ظرفاً. وقرأ ابن عباس بخلاف عنه، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وابن محيصن، ونافع، وحمزة ﴿عاليْهِم﴾ بسكون الياء وكسر الهاء على أنه خبر مقدم، و﴿ثِيَابُ﴾ مبتدأ مؤخر، أو على أنّ ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ مبتدأ و﴿ثِيَابُ﴾ مرتفع بالفاعلية، وإن لم يعتمد الوصف، كما هو مذهب الأخفش. وقال الفرّاء: هو مرفوع بالابتداء وخبره ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾، واسم الفاعل مراد به الجمع، واختار أبو عبيد هذه القراءة لقراءة ابن مسعود ﴿عاليتهم﴾. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وطلحة، وزيد بن عليّ بالتاء مضمومة. وعن الأعمش وأبان أيضاً عن عاصم بفتح الياء. وقرأ ابن سيرين، ومجاهد، وقتادة، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، والزعفرانيّ، وأبان أيضاً ﴿عَلَيْهم﴾ حرف جرّ، وهي قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة. وقرأت عائشة رضي الله عنها ﴿عَلَتْهم﴾ بتاء التأنيث فعلاً ماضياً، فثياب فاعل.

وقرأ الجمهور بإضافة ﴿ثِيَابُ﴾ إلى ﴿سُندُسٍ﴾. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة بتنوين ﴿ثياب﴾ وقطعها عن الإضافة، ورفع ﴿سُندُسٍ﴾ و﴿خُضْرٌ﴾ و﴿استبرق﴾ على أنّ السندس نعت للثياب، لأن السندس نوع من الثياب، وعلي أن ﴿خُضْرٌ﴾ نعت لـ ﴿سُندُسٍ﴾، لأنّه يكون أخضر وغير أخضر، وعلى أنّ ﴿إستبرق﴾ معطوف على سندس؛ أي: وثِيَابُ استبرق والجمهور من القرّاء اختلفوا في ﴿خُضْرٌ﴾ و﴿استبرق﴾ مع اتفاقهم على جرّ ﴿سُندُسٍ﴾ بإضافة ﴿ثِيَابُ﴾ إليه وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن محيصن بجرّ ﴿خُضْرٌ﴾ نعتاً لـ﴿سُندُسٍ﴾ ورفع ﴿استبرق﴾ عطفاً على ﴿ثِيَابُ﴾ أي عليهم ثياب سندس ﴿سُندُسٍ﴾ وعليهم ﴿استبرق﴾ وقرأ أبو عمرو وابن عامر برفع ﴿خُضْرٌ﴾ نعتاً لـ ﴿ثِيَابُ﴾ وجرّ ﴿استبرق﴾ عطفاً على ﴿سُندُسٍ﴾. واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد، لأنّ الخضر أحسن ما كانت نعتاً لـ ﴿ثِيَابُ﴾، فهي مرفوعة، والاستبرق من جنس السندس. وقرأ نافع وحفص برفع ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾، لأنّ خضر نعت لـ ﴿ثِيَابُ﴾، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ معطوف على الثياب. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي بجرّ ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ على أن خضر نعت لـ ﴿سُندُسٍ﴾ ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ معطوف على ﴿سُندُسٍ﴾. وقرؤوا كلهم بصرف ﴿إستبرق﴾ إلا ابن محيصن، فإنّه لم يصرفه، قال: لأنّه أعجميّ، ولا وجه لهذا، لأنّه نكرة إلا أن يقول: إنه علم لهذا الجنس من الثياب. وقرىء ﴿استبرق﴾ بوصل الهمزة على أنَّ أصله استفعل من البريق، تقول: برق واستبرق كعجب واستعجب، والصواب قطع الهمزة وإجراؤه على قراءة

الجماهير؛ لأنّه معرّب مشهور تعريبه، وأن أصله: استبره كما مرّ.

وقوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ معطوف[1] على قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ وهو ماض لفظاً مستقبل معنى، و﴿أَسَاوِرَ﴾ مفعول ثان لـ ﴿حلوا﴾؛ أي: ويحلّون أساور من فضّة؛ أي: يلبسونها، ويزيّنون بها. وفيه تعظيم لهم بالنسبة إلى أن يقال: وتحلّوا. وأساور جمع أسورة في جمع سوار، وسوار المرأة أصله: دستوار. وكان الملوك في الزمان الأوّل يحلون بها، ويسورون من يكرمونه. ولا معارضة بين ما في هذه الآية من قوله: ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، وما في سورة الكهف وفاطر حيث قال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾، وما في سورة الحج حيث قال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ لإمكان الجمع بينها بأنهم يجمعون في أيديهم سوار الذهب وسوار الفضة وسوار اللؤلؤ، كما تجمع نساء الدنيا بين أنواع الحليّ، وما أحسن المعصم؛ إذ يكون فيه سواران من جنسين وزيادة كالذهب والفضّة واللؤلؤ. أو بإمكان المعاقبة في الأوقات تارةً يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضة وأخرى لؤلؤاً. أو بإمكان التبعيض في السوار بأن يكون بعضه ذهباً وبعضه فضّة وبعضه لؤلؤاً. أو بأنَّ حليّ أهل الجنة يختلف بحسب اختلاف أعمالهم، فللمقرّبين الذهب وللأبرار الفضة. أو بأن كل واحد منهم يعطى ما ترغب فيه نفسه ويميل إليه طبعه، فإن الطباع مختلفة، فربّ إنسان يكون استحسانه لبياض الفضة فوق استحسانه لصفرة الذهب. ويجوز[2] أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال من ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بتقدير قد.

ثم ذكر أنهم يسقون شراباً آخر يفوق النوعين السابقين، وهما ما يمزج بالكافور وما يمزج بالجزنبيل، فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ هو أيضاً معطوف على قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾. فهو ماض اللفظ مستقبل المعنى إشعاراً بتحقّقه ووقوعه؛ أي: ويسقيهم ربهم ﴿شَرَابًا﴾ وهو ما يشرب ﴿طَهُورًا﴾؛ أي: طاهراً، ليس بنجس كخمر الدنيا، أو مطهر لبواطنهم من الغش والغل والحسد. وهذا[3] الشراب الطهور نوع آخر يفوق النوعين السالفين كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى ربّ العالمين، وصفه بالطهورية. لأنه يطهر باطنهم عن الأخلاق الذميمة، والأشياء المؤذية كالغشّ والغلّ

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

والحسد، وينزع ما كان في أجوافهم من قذر وأذى، وبه تحصل الصفوة المهيئة لانعكاس نور الجمال الإلهيّ في قلوبهم، وهي الغاية القاصية من منازل الصدّيقين، فلذا ختم مقاله ثواب الأبرار به. فالطهور بمعنى المطهّر صيغة اسم الفاعل. وقيل: مبالغة الطاهر من حيث إنه ليس بنجس كخمر الدنيا، وما مسته الأيدي القذرة والأقدام الدنسة، ولا يؤول إلى أن يكون نجساً بل يرشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسك.

والمعنى[1]: أي وسقاهم ربهم غير ما سلف شراباً يطهّر شاربه من الميل إلى اللذّات الحسّية والركون إلى ما سوى الحقّ فيتجرد لمطالعة جماله والتلذذ بلقائه، وهذا منتهى درجات الصديقين. قال أبو قلابة: يؤتون بالطعام والشراب، فإذا كان في آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور، فيشربون، فتطهّر بذلك بطونهم، ويفيض عرق من جلودهم مثل عرق المسك، ولم يذكر الكتاب ما يبين نوع ذلك الشراب، فلندع أمره إلى الله، ونؤمن به كما أخبر به في كتابه.

وبعد أن شرح أحوال السعداء وما يلقونه من وافر النعيم الذي يتجلى في مشربهم وملبسهم ومسكنهم.. بين أنّ هذا جزاء لهم على ما قدّموا من صالح الأعمال، وما زكّوا به أنفسهم من صفات الكمال، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ على[2] إضمار القول؛ أي: يقال لهم: إنّ هذا الذي ترونه من فنون الكرامات، ويجوز أن يكون خطاباً من الله تعالى في الدنيا للأبرار؛ أي: إنّ هذا الذي ذكر من أنواع العطايا ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾؛ أي: عوضاً وثواباً بمقابلة أعمالكم الحسنة. فإن قيل؛ كيف يكون جزاء لأعمالهم وهي مخلوقة لله عند أهل السنة؟

أجيب: بأنّها لهم كسباً عنده ولله خلقاً. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ وعملكم في الدنيا بطاعة الله سبحانه ﴿مَّشْكُورًا﴾؛ أي: مرضيًّا مقبولاً مقابلاً بالثواب لخلوص نيّتكم، فيزداد بذلك فرحهم وسرورهم، كما أنَّ المعاقب يزداد غمّه إذا قيل له: هذا جزاء عملك الرديء. فالشكر مجازٌ عن هذا المعنى تشبيهاً له بالشكر من حيث إنّه مقابل للعمل، كما أنَّ الشكر مقابل للنعم. قال بعضهم: أدنى الدرجات أن يكون العبد راضياً عن ربه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾. وأعلاها كونه مرضيًّا له،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾. ولما كان كونه مرضياً أعلى الدرجات.. ختم به ذكر مراتب الأبرار.

والمعنى[1]: أي ويقال لهؤلاء الأبرار حينئذٍ: إنّ هذا الذي أعطيناكم من الكرامة كان لكم ثواباً على ما كنتم تعملون من الصالحات، وكان عملكم فيها مشكوراً، حمدكم عليه ربكم ورضيه لكم، فأثابكم بما أثابكم به من الكرامة. ومعنى شكر الله سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته. والغرض من ذكر هذا القول لهم كما مرّ زيادة سرورهم، فإنّه إذا قيل للمعاقب: هذا بعملك الرديء ازداد غمّه وألم قلبه، وإذا قيل للمثاب: هذا بطاعتك وعملك الحسن ازداد سروره، وكان تهنئة له. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾، وقوله: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْقُرْآنَ﴾ الكريم ﴿تَنزِيلًا﴾ متكرراً متفرّقاً آية بعد آية منجّماً لحكم بالغة مقتضية تخصيص كلّ شيء بوقت معيّن، لا غيرنا كما يعرب عنه تكرير الضمير مع ﴿إنّ﴾، فكأنه تعالى يقول: إنّ هؤلاء الكفّار يقولون: إنّ ذلك كهانة وسحر، فأنا الملك الحقّ أقول على سبيل التأكيد: إنّ ذلك وحي حقّ وتنزيل صدق من عندي، فلا تكترث بطعنهم، فإنّك أنت النبيّ الصادق المصدّق.

والمقصود من ذلك[2]: تثبيت قلب الرسول ﷺ وشرح صدره، وإنّ الذي أنزله إليه وحي منه لا كهانة، ولاسحر لتزول تلك الوحشة التي حصلت له من قول الكفار: إنه سحر أو كهانة أو شعر.

والمعنى[3]: أي إنا أنزلنا عليك القرآن مفرّقاً منجماً في مدى ثلاث وعشرين سنة، ليكون أسهل لحفظه وتفهمه ودراسته، ولتكون الأحكام آتية وفق الحوادث التي تجد في الكون، فتكون تثبيتاً لإيمان المؤمنين، وزيادة في تقوى المتقين. وقد يكون المعنى: نزّلنا عليك، ولم تأت به من عندك كما يدّعيه المشركون، ويراد من ذلك تثبيت قلب رسوله ﷺ وشرح صدره، وأن الذي أنزل عليه وحي لا كهانة كما مرّ.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾؛ أي: فاصبر لما ابتلاك به ربّك وامتحنك به من تأخير

---

(١) المراغي. (٢) الخازن. (٣) المراغي.

نصرك على المشركين، ومقاساة الشدائد في تبليغ رسالته ووحيه الذي أنزله عليك، فإن لذلك عاقبة حميدة وغاية يثلج لها فؤادك، ولا تستعجل في أمر المقابلة والانتقام، فإن الأمور مرهونة بأوقاتها، وكل آت قريب.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من الكفّار ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾؛ أي:[1] لا تطع كلا من مرتكب الإثم والمتجاوز الحد في الكفر، فإذا قال لك الآثم كعتبة بن ربيعة: اترك الصلاة، وأنا أزوّجك ابنتي وأسوقها إليك بلا مهر، أو قال الكفور كالوليد بن المغيرة: أنا أعطيك من المال حتى ترضى إذا رجعت عن هذا الأمر. فلا تطع واحداً منهما ولا من غيرهما، فقد وعدناك النصر في الدنيا والجنة في الآخرة.

وقصارى ذلك: لا تتبع أحداً من الآثمين إذا دعاك إلى الإثم، ولا أحداً من الكافرين إذا دعاك إلى الكفر. وهذا ما يفهم من قولك: لا تطع الظالم من أنّ المعنى: لا تتبعه في الظلم إذا دعاك إليه.

وقد روي: أنّ عتبة بن ربيعة قال للنبيّ ﷺ: ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ابنتي، وأسوقها إليك بلا مهر، فإني من أجمل قريش ولداً. وقال الوليد أنا أعطيك من مالي حتى ترضى، فإني من أكثرهم مالاً وارجع عن هذا الأمر؛ أي: عن ذكر النبوة. فقرأ عليهما رسول الله ﷺ عشر آيات من أول حم السجدة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾. فانصرفا عنه، وقال أحدهما: ظننت أنّ الكعبة ستقع عليّ.

ونهيه ﷺ عن طاعة الآثم والكفور، وهو لا يطيع واحداً منهما إشارة إلى أنّ الناس محتاجون إلى مواصلة الإرشاد، لما ركب في طباعهم من الشهوة الداعية إلى اجتراح السيئات، وأنّ أحداً لو استغنى عن توفيق الله وإرشاده لكان أحق الناس بذلك هو الرسول المعصوم، ومن ثم وجب على كل مسلم أن يرغب إلى الله، ويتضرع إليه في أن يصونه من اتّباع الشهوات، ويعصمه عن ارتكاب المحرمات لينجو من الآفات ويسلم من الزلات، ليلقى ربه أبيض الصحائف من السيئات.

و﴿أَوْ﴾[2] لأحد الشيئين والتسوية بينهما، فإذا قلت في الإثبات: جالس

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

الحسن أو ابن سيرين كان المعنى: جالس أحدهما، فكذا إذا قلت في النهي: لا تكلم زيداً أو عمراً كان التقدير: لا تكلم أحدهما. والأحد عام لكل واحد منهما. فهو في المعنى لا تكلم واحداً منهماً. فمآل المعنى في الآية: ولا تطع كل واحد من مرتكب الإثم الداعي لك إليه، ومن الغالي في الكفر الداعي إليه. فـ ﴿أو﴾ للإباحة؛ أي: للدلالة على أنّهما سيّان في استحقاق العصيان؛ أي: عصيان المخاطب للداعي إليهما، والاستقلال به. والتقسيم إلى الإثم والكفور مع أنّ الداعين يجمعهم الكفر باعتبار ما يدعونه إليه من الإثم والكفر، لا باعتبار انقسامهم في أنفسهم إلى الإثم والكفور، لأنّهم كانوا كفرةً، والكفر أخبث أنواع الإثم، فلا معنى للقسمة بحسب نفس كفرهم وإثمهم. وذلك أنَّ ترتب النهي على الوصفين مشعر بعليتهما له، فلا بد أن يكون النهي عن الإطاعة في الإثم والكفر لا فيما ليس بإثم ولا كفر، والمراد بالإثم ما عدا الكفر، إذ العام إذا قوبل بالخاصّ... يراد به ما عدا ذلك الخاص. وخص الكفر بالذكر تنبيهاً على غاية خبثه من بين أنواع الإثم، فكلّ كفور آثم وليس كلّ آثم كفورا، ولا بعد أن يراد بالآثم من هو تابع، وبالكفور من هو متبوع.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً﴾؛ أي: أوّل النهار، ﴿وَأَصِيلًا﴾؛ أي: عشيًّا، وهو آخر النهار؛ أي: وداوم على ذكره في جميع الأوقات، فالمراد بقوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الدوام، لأنّه ﷺ كان آتياً بنفس الذكر المأمور به. وقيل المعنى: صلّ لربّك أوّل النهار وآخره، فأوّل النهار صلاة الصبح، وآخره صلاة العصر. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: وفي بعض ساعات الليل ﴿فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾؛ أي: فصلّ له من غير تعيين للصلاة. وقيل: صلّ المغرب والعشاء. وتقديم(١) الظرف للاهتمام لما في صلاة الليل من مزيد كلفة وخلوص وأفضل الأعمال أشقّها وأخلصها من الرياء، فاستحقت الاهتمام بشأنها، وقدم وقتها لذلك. ثم الفاء لإفادة معنى الشرط، كأنّه قال: مهما يكن من شيء فاسجد له. ففيها وكادة أخرى لأمرها.

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾؛ أي: صلّ له صلاة التهجّد، لأنّه كان واجباً عليه في طائفة طويلة من الليل ثلثيه أو نصفه أو ثلثه. قال ابن زيد وغيره: إنّ هذه الآية

---

(١) روح البيان.

منسوخة بالصلوات الخمس. وقيل: الأمر للندب، وقيل: هو مخصوص بالنبيّ ﷺ. فقوله: ﴿لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ نصب على الظرفية. فإن قلت: انتصاب ﴿لَيۡلٗا﴾ على الظرفية، و﴿طَوِيلًا﴾ نعت له، ومعناه: سبّحه في الليل الطويل، فمن أين يفهم ما ذكرت من المعنى؟

قلت: ظاهر أن توصيف الليل بالطول ليس للاحتراز عن القصير، فإن الأمر بالتهجد يتناوله أيضاً، فهو لتطويل زمان التسبيح. وفي التعبير في التهجد بالتسبيح وتأخير ظرفه دلالة على أنه ليس في مرتبة ما قبله.

وقيل المعنى[1]: نزّهه عمّا لا يليق به، فيكون المراد الذكر بالتسبيح سواء كان في الصلاة أو في غيرها. وحاصل المعنى ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: ودم على ذكره في جميع الأوقات بقلبك ولسانك. ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾؛ أي: وصل بعض الليل كصلاة المغرب والعشاء. ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾؛ أي: وتهجّد له طائفة من الليل. ونحو هذا ما جاء في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾﴾.

ثم قال منكراً على الكفّار وأشباههم حبّ الدنيا والإقبال عليها وترك الآخرة وراءهم ظهريًّا بعد ما شرح صدره ﷺ بما ذكر من قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ إلخ. ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: كفّار مكة ومن وافقهم في دينهم ﴿يُحِبُّونَ﴾ الدار ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ الفانية، وينهمكون في لذّاتها، يعني: الدنيا. فهو الحامل لهم على الكفر والإعراض عن الاتّباع، لا اشتباه الحال عليهم. ﴿وَيَذَرُونَ﴾؛ أي: يتركون ﴿وَرَآءَهُمۡ﴾؛ أي: أمامهم لا يستعدّون. فهو[2] حال من ﴿يَوۡمٗا﴾ أو ينبذون وراء ظهورهم، فهو ظرف لـ ﴿يذرون﴾، فـ ﴿وراء﴾ يستعمل في كلّ من أمام وخلف، والظاهر في وجه الاستعمالين: أن وراء اسم للجهة المتوارية؛ أي: المستترة المختفية عنك، واستتار جهة الخلف عنك ظاهر. وما في جهة الأمام قد يكون متوارياً عنك غير مشاهد ومعاين لك، فيشبه جهة الخلف في ذلك فيستعار له اسم الوراء. ﴿يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾؛ أي: شديداً؛ أي: يتركون ويدعون خلفهم، أو أمامهم يوماً شديداً عسيراً، وهو يوم

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

القيامة، فلا يستعدون له بالإيمان والطاعات، ولا يعبؤون به، فهم كمن ينبذ الشيء وراء ظهره تهاوناً به واستخفافاً بشأنه، وإن كانوا في الحقيقة مستقبلين له، وهو أمامهم. وسمي ثقيلاً لما فيه من الشدائد والأهوال. و﴿يَوْمًا﴾ مفعول ﴿يذرون﴾، و﴿ثَقِيلًا﴾ صفته. ووصفه بالثقل مع أنه من صفات الأعيان الجسمية لا الامتدادات الوهمية لتشبيه شدّته وهوله بثقل الحمل الثقيل. ففيه استعارة تخييليّة. وفي الآية وعيد لأهل الدنيا ونعيمها خصوصاً لأهل الظلم والرشوة.

والمعنى[1]: أنَّ هؤلاء المشركين بالله يحبون الدنيا وتعجبهم زينتها، وينهمكون في لذّاتها الفانية، ويدعون خلف ظهورهم العمل لليوم الآخر وما لهم فيه النجاة من أهواله وشدائده.

والخلاصة: لا تطع الكافرين، واشتغل بالعبادة؛ لأنّ هؤلاء تركوا الآخرة للدنيا، فاترك أنت الدنيا وأهلها للآخرة.

ثم نعى عليهم تركهم للعبادة وغفلتهم عن طاعة بارئهم وموجدهم من العدم فقال: ﴿نَحْنُ﴾ لا غيرنا ﴿خَلَقْنَاهُمْ﴾؛ أي: ابتدأنا خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم، ولم يكن لغيرنا في ذلك عمل ولا سعي لا اشتراكاً ولا استقلالاً. ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾؛ أي: قوينا ربط مفاصلهم بالأعصاب؛ أي: شددنا أوصالهم ومفاصلهم، وربطنا بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب، ليتمكنوا بذلك من القيام والقعود والأخذ والدفع والحركة. وحق الخالق المنعم أن يشكر ولا يكفر. ففيه ترغيب. والأسر: الربط، ومنه: أسر الرجل إذا أوثق بالقد، وقدر المضاف وهو المفاصل. وقال الراغب: فيه إشارة إلى الحكمة في تركيب الإنسان المأمور بتدبر نفسه وتأملها في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾. وقيل المعنى: شددنا مخرج البول والغائط إذا خرج الأذى انقبض، أو معناه: أنه لا يسترخي قبل الإرادة.

والمعنى: أي كيف يغفلون عنّا، ونحن الذين خلقناهم، وأحكمنا ربط مفاصلهم بالعروق والأعصاب، أفبعد هذا نتركهم سدى؟.

---

(١) المراغي.

ثم توعدهم وهدّدهم، فقال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ تبديلهم ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾؛ أي: بدلناهم بأمثالهم بعد إهلاكهم. وإذا شئنا أهلكناهم، وأتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾.

وقد جرت سنّة الله سبحانه بأن يزيل ما لا يصلح للرقي من خلقه، فهو يهلك هؤلاء ويبدل أمثالهم، فيجعلهم مكانهم كما هي قاعدة بقاء الصلاح والأصلح وإهلاك ما لا يصلح للبقاء. والتبديل[1] يتعدى إلى مفعولين غالباً كقوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾؛ أي: يذهب بها ويأتي بدلها بحسنات.

وقوله: ﴿تَبْدِيلًا﴾ مصدر مؤكّد لعامله.

والمعنى: أي وإذا شئنا.. بدّلنا غيرهم ممن يطيع كقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾. ففيه ترهيب، فالمثلية باعتبار الصورة، ولا ينافيها الغيريّة باعتبار العمل والطاعة. و﴿إِذَا﴾ للدلالة على تحقّق القدرة وقوة الداعية، وإلاّ فالمناسب (إن)، إذ لا تحقق لهذا التبديل. أو المعنى ﴿تَبْدِيلًا﴾ عجيباً لا ريب فيه، وهو البعث، كما ينبىء عنه كلمة ﴿إِذَا﴾، فالمثلية في النشأة الأخرى إنّما هي في شدّة الأسر وباعتبار الأجزاء الأصلية، ولا ينافيها الغيرية بحسب العوارض كاللطافة والكثافة.

وبعد أن ذكر أحوال السعداء والأشقياء أرشد إلى أنَّ في هذا الذكر تذكرةً وموعظةً للخلق وفوائد جمّة لمن ألقى سمعه وأحضر قلبه، وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى إليه سمعه. فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى السورة أو الآيات القريبة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: عظة مذكرة لما لا بد منه في تحصيل السعادة الأبديّة جعلت عين التذكرة مبالغة. وفي «عين المعاني»: تذكرة؛ أي: إذكار بما غفلت عنه عقولهم. ﴿فَمَن شَآءَ﴾ منكم ومن غيركم أن يتخذ إليه تعالى سبيلاً؛ أي: وسيلةً توصله إلى ثوابه. ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ أي: تقرب إليه تعالى بالعمل بما في تضاعيف هذه السورة أو الآيات القريبة. وقال ابن الشيخ: فمن شاء النجاة من ثقل ذلك اليوم وشدّته اختار سبيلاً مقرّباً إلى مرضاة ربّه، وهو الطاعة.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[١]: أي إنَّ هذه السورة بما فيها من ترتيب بديع ونسق عجيب ووعد ووعيد وترغيب وترهيب.. تذكرة للمتأمّلين وتبصرة للمستبصرين، فمن شاء الخير لنفسه في الدنيا والآخرة.. فليتقرب إلى ربه بالطاعة ويتبع ما أمره به وينته عما نهاه عنه، ليحظى بثوابه ويبتعد عن عذابه.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ تحقيق[٢] للحقّ ببيان أن مجرد مشيئتهم غير كافية في اتخاذ السبيل، كما هو المفهوم من ظاهر الشرطية، و﴿أَن﴾ مع الفعل في حكم المصدر الصريح في قيامه مقام الظرف.

والمعنى: وما تشاؤون اتخاذ السبيل الموصلة إلى النجاة، ولا تقدرون على تحصيلها في وقت من الأوقات إلاّ وقت مشيئته تعالى تحصيلها لكم؛ أي: إلا إذا وفّقكم الله سبحانه لاكتسابها، وأعدّكم لنيلها إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا في الكسب، وإنّما التأثير والخلق لمشيئة الله تعالى، فمشيئة العبد وحدها لا تأتي بخير ولا تدفع شرّاً، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة، ويؤجر على قصد الخير، كما في حديث «إنما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرىء ما نوى».

غاية ما في الباب أن المشيئة ليست من الأفعال الاختيارية للعبد، بل هي متوقّفة على أن يشاء الله إيّاها. وذلك لا ينافي كون الفعل الذي تعلقت به مشيئة العبد اختيارياً له واقعاً بمشيئته، وإن لم تكن مشيئته مستقلة فيه. قال في «عين المعاني»: قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ إلخ، حجة تكليف العبوديّة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ إلخ، إظهار قهر الألوهية.

وقرأ العربيان[٣]: أبو عمرو وابن عامر، وابن كثير ﴿وما يشاءون﴾ بياء الغيبة. وباقي السبعة بتاء الخطاب. قال الزمخشري: فإن قلت: ما محل ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؟

قلت: النصب على الظرف، وأصله: إلا وقت مشيئة الله تعالى. وكذلك قرأ ابن مسعود ﴿إلا ما يشاء الله﴾ لأنَّ ﴿ما﴾ مع الفعل كأن معه انتهى، وفيه خلاف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: إنّ الله عليم بمن يستحقّ الهداية، فييسرها له ويقيض له أسبابها، ومن هو أهل للغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

البالغة، والحجة الدامغة. وهذا[1] بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على أساس العلم والحكمة؛ أي: إنّه تعالى مبالغ في العلم والحكمة، فيفعل ما يستأهله كل أحد، فلا يشأ لهم إلا ما يستدعيه علمه وتقتضيه حكمته.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ فيهديه ويوفّقه للطاعة بحسب استعداده. وهذا بيان لأحكام مشيئته المرتبة على علمه وحكمته؛ أي: يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها، وهو الذي يصرّف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى حيث يوفقه لما يؤدّي إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذكر؛ أي: والذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، فماتوا على شركهم ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾؛ أي: هيّأ لهم في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: متناهياً غاية الإيلام؛ أي: عذاباً مؤلماً موجعاً، هو عذاب جهنم وبئس المصير.

قال الزجاج: نصب ﴿الظالمين﴾ لأنّ ما قبله منصوب؛ أي: يدخل من يشاء في رحمته ويعذّب الظالمين، ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيراً لهذا المضمر. وختم[2] الله سبحانه السورة بالعذاب المعدّ يوم البعث والحشر ففيه حسن الاختتام لموافقته الابتداء على ما لا يخفى على أهل العقل والفهم.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نصباً بإضمار فعل يفسّره قوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تقديره: ويعذّب الظالمين، وهو من باب الاشتغال عطف جملة فعلية على جملة فعلية. وقرأ ابن الزبير، وأبان بن عثمان، وابن أبي عبلة ﴿والظالمون﴾ عطف جملة اسمية على فعلية، وهو جائز حسن. وقرأ عبد الله ﴿وللظالمين﴾ بلام الجرّ، وهو متعلق بـ ﴿أعدّ﴾ لهم توكيداً، ولا يجوز أن يكون من باب الاشتغال، ويقدّر فعل يفسره الفعل الذي بعده، فيكون التقدير: وأعدّ للظالمين، وأعدَّ لهم. وهذا مذهب الجمهور، وفيه خلاف ضعيف مذكور في النحو، فتقول: بزيد مررت به، ويكون التقدير: مررت بزيد مررت به، ويكون من باب الاشتغال، والمحفوظ المعروف عن العرب نصب الاسم وتفسير مررت المتأخّر، وما أشبهه من جهة المعنى فعلاً ماضياً.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

الإعراب

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

﴿هَلْ﴾ هنا بمعنى قد التحقيقية، فليست للاستفهام، لأنّ الاستفهام محال على الله تعالى. وقيل: للاستفهام التقريري، والجواب مقدّر، تقديره: نعم. ﴿أَتَىٰ﴾ فعل ماض، ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ متعلق به، ﴿حِينٌ﴾ فاعل، ﴿مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ صفة لـ ﴿حِينٌ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿لَمْ﴾ حرف نفي وجزم، ﴿يَكُن﴾ فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾ خبرها، ﴿مَّذْكُورًا﴾ صفة ﴿شَيْـًٔا﴾، وجملة ﴿يَكُن﴾ في محل النصب حال من الإنسان، أي: حال كونه غير مذكور، أو في محلّ الرفع صفة لـ﴿حِينٌ﴾ كقوله: ﴿يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ﴾. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ متعلق بـ﴿خَلَقْنَا﴾، ﴿أَمْشَاجٍ﴾ نعت لـ ﴿نُّطْفَةٍ﴾، وجملة ﴿خَلَقْنَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان كيفية خلق الإنسان ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾؛ أي: خلقناه حال كوننا مبتلين له، أو حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾، وصحّ ذلك لأنّ في الجملة ضميرين كلّ منهما يعود على صاحب الحال. ثم هذه الحال يجوز أن تكون مقارنةً إن كان المعنى: نبتليه بتصريفه في بطن أمّه نطفةً ثم علقةً، وأن تكون مقدرة إن كان المعنى ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ نختبره بالتكليف، لأنّه وقت خلقه غير مكلف. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ الفاء: عاطفة للترتيب مع التعقيب، ﴿جعلناه﴾ فعل وفاعل ومفعول أوّل، معطوف على ﴿خَلَقْنَا﴾، ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ مفعول به ثان وقد نزلت الكلمتان منزلة الكلمة الواحدة، لأنّهما كناية عن التمييز والفهم، إذ آلتهما سبب لذلك، وهما أشرف الحواس تدرك بهما أعظم المدركات. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الابتلاء، ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ مفعول به ثان لـ ﴿هدينا﴾، أو في محل نصب بنزع الخافض، والجار والمجرور متعلق بـ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾. ﴿إِمَّا﴾ حرف تفصيل، ﴿شَاكِرًا﴾ حال من الهاء في ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾،

﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِمَّا﴾ على ﴿إِمَّا﴾ الأولى، ﴿إِمَّا﴾ حرف عطف وتفصيل، ﴿كَفُورًا﴾ معطوف على ﴿شَاكِرًا﴾. أي: مكّنّاه وأقدرناه على حالتيه جميعاً.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَعْتَدْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، مسوقة لتعليل ما قبلها أيضاً، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أَعْتَدْنَا﴾، ﴿سَلَٰسِلَا۟﴾ مفعول به، ومنع من الصرف، لأنّه على صيغة مفاعل، وقرىء بالصرف للمناسبة مع ﴿أغلالا﴾، وهما قراءتان سبعيتان، كما سبق. ﴿وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ معطوفان على ﴿سَلَٰسِلَا۟﴾. ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَشْرَبُونَ﴾ خبرها، ﴿مِن كَأْسٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَشْرَبُونَ﴾، ومفعول ﴿يَشْرَبُونَ﴾ محذوف؛ أي: خمراً من كأس، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الجرّ صفة لـ ﴿كَأْسٍ﴾، ﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿كَافُورًا﴾، أو من محل ﴿مِن كَأْسٍ﴾، أو مفعول ﴿يَشْرَبُونَ﴾ أو منصوب على الاختصاص، وقيل: غير ذلك. وجملة ﴿يَشْرَبُ﴾ صفة لـ ﴿عَيْنًا﴾، ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَشْرَبُ﴾، ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ فاعل ﴿يَشْرَبُ﴾ ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿تَفْجِيرًا﴾ مفعول مطلق والجملة في محل النصب حال من ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿يُوفُونَ﴾ فعل وفاعل، ﴿بِٱلنَّذْرِ﴾ متعلق بـ﴿يُوفُونَ﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانيّاً كأنه قيل: بم استحقوا ذلك النعيم؟ فقيل: ﴿يُوفُونَ﴾ إلخ. ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ فعل وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿يُوفُونَ﴾، ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة في محل النصب صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾. ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يُوفُونَ﴾، ﴿عَلَىٰ﴾ حرف جر بمعنى مع، ﴿حُبِّهِۦ﴾ مجرور بـ﴿عَلَىٰ﴾ الجار والمجرور حال من فاعل ﴿يطعمون﴾؛ أي: حال كونهم محبين له، وهو مصدر مضاف إلى المفعول، والضمير لـ﴿ٱلطَّعَامَ﴾ كما مرّ. ﴿مِسْكِينًا﴾ مفعول

ثان لـ ﴿يطعمون﴾، ﴿وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ معطوفان على ﴿مِسْكِينًا﴾.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ كافّ ومكفوف، ﴿نُطْعِمُكُمْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿نُطْعِمُكُمْ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الإطعام، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿نُرِيدُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿مِنكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿نُرِيدُ﴾، ﴿جَزَآءً﴾ مفعول به، ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ معطوف عليه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نُطْعِمُكُمْ﴾. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿نَخَافُ﴾ خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾. ﴿مِن رَّبِّنَا﴾ متعلق بـ ﴿نَخَافُ﴾، ﴿يَوْمًا﴾ مفعول به، ﴿عَبُوسًا﴾ نعت ﴿يَوْمًا﴾، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ نعت ثان لـ ﴿يَوْمًا﴾، ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ الفاء: عاطفة سببية، ﴿وقاهم الله﴾ فعل ماض ومفعول مقدم، وفاعل مؤخر، ﴿شَرَّ﴾ مفعول ثان، ﴿ذَٰلِكَ﴾ مضاف إليه، ﴿ٱلْيَوْمِ﴾ بدل من اسم الإشارة، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ عطف مسبب على سبب؛ أي: فبسبب خوفهم وقاهم الله إلخ. ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿وقاهم﴾، ﴿نَضْرَةً﴾ مفعول به ثان، ﴿وَسُرُورًا﴾ معطوف على ﴿نَضْرَةً﴾، ﴿وَجَزَىٰهُم﴾ فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿وقاهم﴾ أيضاً، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿جزاهم﴾، و﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: بسبب صبرهم، ﴿صَبَرُوا۟﴾ فعل وفاعل و﴿ما﴾ وما بعدها في محل جر بالإضافة ﴿جَنَّةً﴾ مفعول به ثان، ﴿وَحَرِيرًا﴾ معطوف على ﴿جَنَّةً﴾.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من مفعول ﴿جزاهم﴾، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلق بـ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، وجملة ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ حال ثانية من مفعول ﴿جزاهم﴾، ولك أن تجعلها حالاً من الضمير في ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَرَوْنَ﴾، ﴿شَمْسًا﴾ مفعول به لـ ﴿يَرَوْنَ﴾، والرؤية بصرية تتعدّى إلى مفعول واحد، ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ معطوف على ﴿شَمْسًا﴾، ﴿وَدَانِيَةً﴾ معطوف على ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، ودخلت الواو للدلالة على أنّ الأمرين يجتمعان

لهم كأنّه قيل: وجزاهم جنة جامعين فيها بين السلامة من الحرّ والقرّ، وبين دنوّ الظلال عليهم. و﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿دانية﴾، ولا بد من تضمين على معنى ﴿من﴾، لأنّ الدنوّ لا يتعدى بـ ﴿على﴾، وإنما لم يقل منهم لأن الظلال عالية عليهم، ﴿ظِلَالُهَا﴾ فاعل ﴿دانية﴾، ومضاف إليه ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ﴿قُطُوفُهَا﴾ نائب فاعل، ومضاف إليه ﴿تَذْلِيلًا﴾ مفعول مطلق، والجملة معطوفة على ﴿دانية﴾، لأنّه في تأويل الفعل؛ أي: وأدنيت عليهم، فهي في محل نصب على الحال؛ أي: مذلّلة. وإنما خولف بعطف الفعلية على الاسمية للإشارة إلى أن التظليل أمر دائم لا يزول، لأنها لا شمس فيها بخلاف التذليل، فإنه أمر متجدّد طارىء. ﴿وَيُطَافُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، معطوف على ﴿ذللت﴾، ﴿عَلَيْهِم﴾ متعلق بـ ﴿يطاف﴾، ﴿بِآنِيَةٍ﴾ في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿يطاف﴾، لأنّه هو المفعول به في المعنى، ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ صفة لـ ﴿آنية﴾، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ معطوف على ﴿آنية﴾ من عطف الخاصّ على العامّ، ﴿كَانَتْ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿الأكواب﴾، ﴿وقواريرا﴾ خبرها، وجملة ﴿كَانَتْ﴾ في محل الجرّ صفة لـ ﴿أكواب﴾، ويجوز أن تكون كان تامّة، فيكون ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ حالاً، ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الثاني بدل من ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الأول، ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ نعت لـ ﴿قَوَارِيرَا۠﴾، وجملة ﴿قَدَّرُوهَا﴾ نعت ثان لـ ﴿قَوَارِيرَا۠﴾، ﴿تَقْدِيرًا﴾ مفعول مطلق.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، والواو: نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يطاف﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿يسقون﴾، ﴿كَأْسًا﴾ مفعول به ثان، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صفة لـ ﴿كَأْسًا﴾، ﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿كَأْسًا﴾ أو منصوب على الاختصاص، ﴿فِيهَا﴾ صفة لـ ﴿عَيْنًا﴾ وجملة ﴿تُسَمَّىٰ﴾ نعت ثان لـ ﴿عَيْنًا﴾، ﴿تُسَمَّىٰ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ونائب فاعل مستتر، تقديره: هي، يعود على ﴿عَيْنًا﴾، ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ مفعول به ثان لـ ﴿تُسَمَّىٰ﴾. ﴿وَيَطُوفُ﴾ فعل مضارع معلوم، معطوف على ما قبله، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿يطوف﴾، ﴿وِلْدَانٌ﴾ فاعل، ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ نعت لـ ﴿وِلْدَانٌ﴾، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، متعلق بالجواب الآتي، ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجرّ بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول

أول، ﴿لُؤْلُؤًا﴾ مفعول ثان، ﴿مَّنثُورًا﴾ صفة لـ ﴿لُؤْلُؤًا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، أو صفة ثانية لـ ﴿وِلْدَانٌ﴾. ﴿وإذا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمّن معنى الشرط، ﴿رَأَيْتَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان مختصّ بالمكان البعيد، متعلق بـ ﴿رَأَيْتَ﴾، وليس لـ ﴿رَأَيْتَ﴾ مفعول ظاهر ولا مقدر لإشاعة الرؤية وتعميمها كأنه قيل: وإذا أوجدت الرؤية ثمّ، والمعنى: وإذا صدرت منك الرؤية في ذلك المكان رأيت، وجملة ﴿رَأَيْتَ﴾ جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى أو مستأنفة. ﴿نَعِيمًا﴾ مفعول به لـ ﴿رَأَيْتَ﴾ الثانية، ﴿وَمُلْكًا﴾ معطوف على ﴿نَعِيمًا﴾، ﴿كَبِيرًا﴾ صفة ﴿ملكا﴾.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾.

﴿عَالِيَهُمْ﴾ ظرف مكان بمعنى فوقهم، منصوب على الظرفية، متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، ﴿خُضْرٌ﴾ صفة لـ ﴿ثِيَابُ﴾، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ معطوف على ﴿ثِيَابُ﴾ على حذف مضاف؛ أي: ثياب استبرق. والجملة في محل النصب صفة بعد صفة لـ ﴿وِلْدَانٌ﴾. وقيل: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ فاعل لـ ﴿عَالِيَهُمْ﴾؛ أي: ويطوف عليهم ولدان حال كونهم عالياً للمطوف عليهم ثياب سندس. أو حال من الهاء في ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾؛ أي: حسبتهم لؤلؤاً عالياً لهم ثياب سندس إلخ. وهنا أوجه واختلاف بين المعربين فراجع المطولات. ﴿وَحُلُّوا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿حلوا﴾ فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾. وجاز عطف الماضي على المضارع، لأنّه مستقبل المعنى، وللإيذان بتحقّقه، لأنه بمعنى يحلون. ﴿أَسَاوِرَ﴾ مفعول به، ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ صفة لـ ﴿أَسَاوِرَ﴾، ﴿وَسَقَاهُمْ﴾ فعل ومفعول به، معطوف على ﴿حلوا﴾، ﴿رَبُّهُمْ﴾ فاعل، ﴿شَرَابًا﴾ مفعول به ثان لـ ﴿سقاهم﴾، و﴿طَهُورًا﴾ نعت ﴿شَرَابًا﴾. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مقول لقول محذوف تقديره: ويقال لأهل الجنة: إنّ هذا كان لكم جزاءً إلخ. واسم ﴿كَانَ﴾ ضمير يعود على ﴿هَٰذَا﴾ تقديره: هو ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿جَزَاءً﴾،

و﴿جَزَآءً﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، معطوف على ﴿كَانَ﴾ الأولى.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿نَحْنُ﴾ تأكيد لاسم ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿نَزَّلْنَا﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر ﴿إِنَّا﴾، ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق بـ ﴿نَزَّلْنَا﴾، و﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ مفعول به، ﴿تَنزِيلًا﴾ مفعول مطلق، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ولك أن تجعل ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿نَزَّلْنَا﴾ خبره، والجملة خبر ﴿إنّ﴾. ﴿فَٱصْبِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك. اصبر. ﴿اصبر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ ﴿اصبر﴾. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾ ناهية جازمة، ﴿تُطِعْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿اصبر﴾، ﴿مِنْهُمْ﴾ حال من ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، ﴿ءَاثِمًا﴾ مفعول به، ﴿أَوْ﴾ حرف عطف، ﴿كَفُورًا﴾ معطوف على ﴿ءَاثِمًا﴾. وإنما جنح إلى ﴿أو﴾ دون الواو لإفهام النهي عن طاعتهما معاً. ﴿وَٱذْكُرِ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ف ﴿اصبر﴾، ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ مفعول به ومضاف إليه، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ظرفان متعلقان بـ ﴿اذكر﴾، والمراد الدوام على الصلاة في أوقاتها. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ متعلق بـ ﴿اسجد﴾، و﴿مِنْ﴾ للتبعيض؛ أي: اسجد وصلّ له بعض الليل، ﴿فَٱسْجُدْ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط المقدر تقديره: ومهما يكن من شيء فاسجد له. ﴿اسجد﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿اسجد﴾، وجملة ﴿اسجد﴾ في محل الجزم جواب الشرط المقدر، وجملة الشرط معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾. ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿فَٱصْبِرْ﴾، ﴿لَيْلًا﴾ ظرف متعلق بـ ﴿سبحه﴾، ﴿طَوِيلًا﴾ صفة ﴿لَيْلًا﴾.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا

﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسمها، ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها من الأمر والنهي. ﴿وَيَذَرُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يُحِبُّونَ﴾، ﴿وَرَآءَهُمۡ﴾ ظرف مكان بمعنى قدّام وأمام، متعلق بمحذوف حال من ﴿يَوۡمًا﴾، و﴿يَوۡمًا﴾ مفعول به ﴿ثَقِيلًا﴾ صفة ﴿يَوۡمًا﴾، ﴿نَّحۡنُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾. ﴿وَإِذَا شِئۡنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿شِئۡنَا﴾ فعل وفاعل، والمفعول محذوف تقديره: تبديلهم، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه، ﴿تَبۡدِيلًا﴾ مفعول مطلق، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿شَآءَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿ٱتَّخَذَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه جواب الشرط لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿ٱتَّخَذَ﴾، وهو في موضع المفعول الثاني لـ ﴿ٱتَّخَذَ﴾، ﴿سَبِيلًا﴾ مفعول أول لـ ﴿ٱتَّخَذَ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿تَشَآءُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية، ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: وما تشاؤون الطاعة. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء من أعمّ الظروف، أو أعمّ الأحوال، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فعل وفاعل، منصوب بـ ﴿أنْ﴾ المصدرية، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع ما في حيّزها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه، والتقدير: وما تشاؤون في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله، أو بإضافة الحال إليه؛ أي: وما تشاؤون في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿كَانَ﴾ فعل

ناقص واسمها ضمير مستتر فيها، ﴿عَلِيمًا﴾ خبرها، ﴿حَكِيمًا﴾ خبر ثان لها، ﴿يُدْخِلُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة أو في محل النصب حال من اسم ﴿كَانَ﴾، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءَ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء هدايته، ﴿فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ متعلق بـ﴿يُدْخِلُ﴾، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿الظالمين﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يفسّره المذكور بعده، قدّره أبو البقاء: ويعذّب الظالمين. والجملة معطوفة على جملة ﴿يُدْخِلُ﴾، وجملة ﴿أَعَدَّ﴾ جملة مفسرة، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَعَدَّ﴾، ﴿عَذَابًا﴾ مفعول به، ﴿أَلِيمًا﴾ صفة لـ ﴿عَذَابًا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ الحين: زمان مطلق، ووقت مبهم يصلح لجميع الأزمان طال أو قصر. وفي «المفردات»: الحين: وقت بلوغ الشيء وحصوله، وهو مبهم، ويتخصّص بالمضاف إليه نحو: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾. ﴿ٱلدَّهْرِ﴾ الزمان الطويل. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ أي: من مادّة، هي شيء يسير جداً من الرجل والمرأة، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة اهـ خطيب. وفي «المصباح»: نطف الماء ينطف من باب قتل: سال. وقال أبو زيد: نطفت القربة وتنطف وتنطف من بابي: ضرب ونصر نطيفاً إذا قطرت من وهي. والنطفة: ماء الرجل والمرأة، وجمعها نطف ونطاف، مثل: برمةٍ وبرم وبرام. والنطفة أيضاً: الماء الصافي قل أو كثر، ولا فعل للنطفة؛ أي: لا يستعمل لها فعل من لفظها اهـ.

﴿أَمْشَاجٍ﴾؛ أي: أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين الممتزجين. جمع مشج كسبب وأسباب أو ككتف وأكتاف أو كعدلٍ وأعدال. أو جمع مشيج كشريف وأشراف. ووقع الجمع صفة لمفرد، لأنّه في معنى الجمع، أو جعل كل جزء من النطفة نطفة فاعتبر ذلك، فوصف بالجمع. وفي «المختار»: مشج بينهما: خلط، وبابه: ضرب، والشيء مشيج، والجمع أمشاج كيتيم وأيتام، ويقال: نطفة أمشاج لماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها، وعبارة الزمخشري: نطفة أمشاج كبرمة أعشار وبرد أكباشٍ، وهي ألفاظ مفردة غير جموع، ولذلك وقعت صفة للأفراد اهـ. وفي «القرطبي»: والمعنى من نطفة قد امتزج فيها الماءان، وكل منهما

مختلف الأجزاء متباين الأوصاف في الرقة والثخن والقوام والخواص، تجتمع من الأخلاط، وهي العناصر الأربعة. ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، أيّهما علا كان الشبه له اهـ.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ قال الراغب: الكفور يقال في كافر النعمة وكافر الدين. ﴿سَلَاسِلَا﴾ جمع سلسلة بكسر أوّله، وفي «القاموس». السلسلة بالفتح: إيصال الشيء بالشيء، وبالكسر: دائرة من حديد ونحوه ﴿وَأَغْلَالًا﴾ جمع غلّ بالضمّ، وهو ما تطوق به الرقبة للتعذيب. ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ جمع برّ كربّ وأرباب، أو جمع بارّ كشاهد وأشهاد، وهو من يبر خالقه؛ أي: يطيعه، يقال: بررته أبره كعلمته وضربته. وفي «المفردات»: البر خلاف البحر، وتصور منه التوسع، فاشتقّ منه البر؛ أي: التوسع في فعل الخير، وبر العبد ربه: توسع في طاعته. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ يقال: مزج الشراب: خلطه، ومزاج البدن: ما يمازجه من الصفراء والسوداء والبلغم والدم والكيفيات المناسبة لكلّ منها. ﴿كَافُورًا﴾ والكافور: طيب معروف يطيب به الأكفان والأموات لطيب رائحته. واشتقاقه من الكفر، وهو الستر، لأنّه يغطي الأشياء برائحته، وفي «القاموس»: الكافور: طيب معروف يكون من شجر بجبال بحر الهند والصين، يظل خلقاً كثيراً، وتألفه النمورة، وخشبه أبيض انتهى. والكافور أيضاً: كمام الشجر التي تغطي ثمرتها. ﴿عَيْنًا﴾ والعين الجارية، ويقال لمنبع الماء تشبيهاً بها في الهيئة وفي سيلان الماء فيها. ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ والإيفاء بالشيء: هو الإتيان به تامّاً وافياً. والنذر: التزام قربة ليست واجبة في أصل الشرع تقرّباً إلى الله تعالى. وأصل ﴿يُوفُونَ﴾ يوفيون بوزن يفعلون، استثقلت الضمّة على الياء، فحذفت فلما سكنت التقى ساكنان فحذفت الياء وضمّت الفاء لمناسبة الواو.

﴿وَيَخَافُونَ﴾ أصله: يخوفون بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى الخاء فسكنت، لكنّها أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ قال في «القاموس» المستطير: الساطع المنتشر، يقال: استطار الفجر إذا انتشر، وهو أبلغ من طار كاستغفر من غفر، وأصله: مستطير بوزن مستفعل، نقلت حركة الياء إلى الطاء، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مدّ. وفي السمين: قوله: ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ المستطير: المنتشر، يقال: استطار يستطير استطارة فهو مستطير، وهو استفعل من الطيران.

﴿وَأَسِيرًا﴾ من الأسر، وهو الشد بالقد بكسر القاف، وهو من السير مِنَ الجلد، سمي الأسير بذلك ثمّ قيل لكل مأخوذ: مقيد؛ وإن لم يكن مشدوداً بذلك. ﴿عَبُوسًا﴾؛ أي: يوماً تعبس فيه، وتكلح وجوه أهله من طوله وشدّته، فوصف اليوم بالعبوس مجازٌ في الإسناد، كما يقال: نهاره صائم ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ القمطرير: الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه. قال الزجاج: يقال: قمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها، وجمعت قطربها وزقت بأنفها، فاشتقه من القطر، وجعل الميم زائدة. وفي «القاموس»: يوم قمطرير شديد، وأقمطر: اشتد. ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أصله: وقيهم بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أصله: لقيهم بوزن فعل قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أصله جزيهم بوزن فعل. قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة، والهمزة فيه مبدلة من الياء الموجودة في المفرد المؤنث حيث وقعت حرف مدٍّ ثالثاً زائداً. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ أصله: يرأيون، نقلت حركة الهمزة إلى الراء ثم حذفت وقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقاء الساكنين الألف وواو الجماعة. ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ والزمهرير: شدّة البرد، وازمهر اليوم: اشتد برده. ﴿وَدَانِيَةً﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: دانوة من الدنوّ، قلبت الواو ياء لتطرّفها إثر كسرة. ﴿ظِلَٰلُهَا﴾ والظلال جمع ظل بالكسر، نقيض الضحّ. ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ جمع قطف بكسر القاف وسكون الطاء بمعنى العنقود، يقال: قطفت العنب إذا قطعت عنقوده، وسمي العنقود قطفاً لأنّه يقطف ويقطع وقت الإدراك.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ من طاف يطوف طوفاً وطوافاً وطوفاناً إذا دار. أصله: يطوف بوزن يفعل مبنيّاً للمجهول، نقلت حركة الواو إلى الطاء، فسكنت لكنها أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿بِـَٔانِيَةٍ﴾؛ أي: بأوعية، جمع إناء، والأواني جمع الجمع. وأصل ﴿آنية﴾ أأنية بوزن أفعلة بهمزتين، الأولى منهما مزيدة للجمع، والثانية فاء الكلمة، فقلبت الثانية ألفاً وجوباً، نظيره من معتل اللام: كساء وأكسية وغطاء وأغطية، ومن صحيح اللام: حمار وأحمرة اهـ سمين. ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب، وهو الكوز العظيم المدور الذي لا أذن له ولا عروة كما مرّ. ﴿كَانَتْ

﴿قَوَارِيرَا۠﴾ جمع قارورة، وهي ما أقر فيه الشراب ونحوه من كل إناء رقيق صاف. وقيل: هو خاص بالزجاج. ولما كان رأس آية، وكان التعبير بالقوارير مما أفهم أنها من الزجاج، وكان في الزجاج من النقص سرعة الانكسار لإفراط الصلابة قال تعالى معيداً للفظ أول الآية الثانية للاتصاف بالصالح من أوصاف الزجاج، وبياناً لنوعها: ﴿قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾؛ أي: فجمعت صفتي الجوهرين المتباينين صفاء الزجاج وشفوفه وبريقه وبياض الفضة وشرفها ولينها اهـ خطيب.

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ أصلها: يسقيون، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿زَنجَبِيلًا﴾ والزنجبيل عرق يسري في الأرض، ونباته كالقصب كما مر. ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أصل ﴿تُسَمَّىٰ﴾ تسمي بوزن تفعل قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. والسلسبيل: ما سهل انحداره في الحلق للذة طعمه وطيب رائحته وصفاء لونه. قال في «الكواشي»: هو لفظ مفرد بوزن فعلليل كدردبيس، وقيل: وزنه فعفليل، لأن الفاء مكررة، وهو اسم أعجمي نكرة، فلذلك صرف. ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أصله: يطوف بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت إثر ضمّة فصارت حرف مدّ. ﴿وِلْدَانٌ﴾ جمع وليد، وهو من قرب عهده بالولادة كما مرّ. ﴿لُؤْلُؤًا﴾ يجمع على اللآلىء يقال: تلألأ الشيء إذا لمع لمعان اللؤلؤ. ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ والملك بالضمّ: هو التصرف في المأمورين بالأمر والنهي، ومنه: الملك. وأمّا الملك بالكسر فهو التصرف في الأعيان المملوكة بحسب المشيئة، ومنه: المالك.

﴿عَالِيَهُمْ﴾ قرىء بفتح الياء على أنّه ظرف بمعنى فوقهم، والياء فيه منقلبة عن واو لتطرّفها إثر كسرة. وقرىء ﴿عاليهم﴾ بإسكان الياء، ويقال فيه أيضاً قلبت الواو ياء، لأنّه من العلو، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة ثم سكنت وصارت حرف مدّ. ﴿ثِيَابُ﴾ الياء فيه مبدلة من واو لوقوعها إثر كسرة. ﴿سُندُسٍ﴾ وهو ما رق من الحرير، فهو البطائن جمع بطانة. ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وهو ما غلظ من الحرير، وهو الظهائر جمع ظهارة. ﴿وَحُلُّوٓا۟﴾ أصله: وحليوا بوزن فعلوا، استثقلت الضمّة على الياء فحذفت فلمّا سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمّت اللام لمناسبة الواو. ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: سقيهم بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ الهمزة فيه مبدلة من ياء، أصله: جزاي أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ أصله: تطوع بوزن تفعل، نقلت حركة الواو إلى

الطاء فسكنت الواو، ثم دخل الجازم، وهو ﴿لا﴾ الناهية فسكنت آخر الفعل فالتقى ساكنان فحذفت الواو، فصار ﴿تطع﴾. ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾؛ أي: قوينا أسرهم. والأسر كما في «القاموس»: الشدّة والغضب وشدّة الخلق والخلق، وشددنا أسرهم؛ أي: مفاصلهم. وفي «المختار»: وأسره من باب ضرب؛ أي: شده بالإسار بوزن الإزار، وهو القد بالكسر، وهو سير يقد من جلد غير مدبوغ، ومنه سمي الأسير؛ لأنهم كانوا يشدونه بالقد، فسمي كل مأخوذ أسيراً وإن لم يشد به، وأسره الله: خلقه، وبابه: ضرب، ومنه: وشددنا أسرهم؛ أي: خلقهم. والأسر بالضم: احتباس البول كالحصر في الغائط، وأسرة الرجل: أهله لأنه يتقوى بهم.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ لزيادة التقرير.

ومنها: وصف المفرد بالجمع في قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ فإنه وصف النطفة مع كونه مفرداً بالجمع، وهو أمشاج، لأن المراد بها مجموع الماءين: ماء الرجل وماء المرأة.

ومنها: الطباق بين ﴿شَاكِرًا﴾ و﴿كَفُورًا﴾ وبين ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وبين ﴿شَمْسًا﴾ و﴿زَمْهَرِيرًا﴾.

ومنها: التعبير بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾، وبصيغة المبالغة في قوله: ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حيث لم يقل: إما شاكراً وإما كافراً أو لم يقل: إما شكوراً وإما كفوراً. للدلالة على قلة من يتصف بالشكر وكثرة من يتصف بالكفر، ولرعاية الفاصلة أيضاً.

ومنها: التعبير بصيغة المبالغة في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ إشارة إلى كمال إحسانه إليه وتمام إنعامه عليه.

ومنها: اللفُّ والنشر المشوش في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟﴾ إلخ،

حيث قدّم أوّلاً ذكر الشاكر ثم الكفور في قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ثم عاد بالذكر على الثاني دون الأول. ففيه لف ونشر غير مرتب.

ومنها: إيراد الشاكرين بعنوان البر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ للإشعار بما استحقوا به ما نالوه من الكرامة السَّنِيّة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾، وفي قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

ومنها: الجناس الناقص بين قوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ وقوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾.

ومنها: المجاز العقليّ في قوله: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا﴾ حيث أسند العبوس إلى اليوم مع كونه من صفة أهله، فهو من إسناد الشيء إلى زمانه كنهاره صائم وليله قائم. والمعنى هنا: تعبس فيه الوجوه من طوله وشدّته، كما في «الخازن».

ومنها: الإتيان بصيغة المبالغة في قوله: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ للدلالة على المبالغة في طهارته ونظافته.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾؛ أي: كاللؤلؤ المفرق المنتشر.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾؛ أي: يقال لهم: إنّ هذا إلخ.

ومنها: الطباق بين ﴿يُحِبُّونَ﴾ و﴿يذرون﴾.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾، قابل بين المحبة والترّك، وبين العاجلة والباقية.

ومنها: إيراد صيغة الماضي مراداً به المستقبل في قوله: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾؛ أي: يحلون منها إشارة لتحقق وقوعه.

ومنها: التعبير عن المجازاة بالشكر في قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾، لأنّ الشكر مجاز عن المجازاة.

ومنها: تقديم الظرف على متعلقه في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ للاهتمام به، لما في صلاة الليل من مزيد كلفةٍ وإخلاص.

ومنها: الإتيان بالفاء في هذا التركيب لإفادة معنى الشرط، كأنّه قال: مهما يكن من شيء فاسجد له، ففيها وكادة أخرى لأمرها.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾، لأنّ الوراء هنا مستعار لمعنى الأمام.

ومنها: الاستعارة التصريحية التخييلية في قوله: ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾، فقد استعير الثقل لشدّة ذلك اليوم وهو له من الشيء الثقيل الباهط لحامله، مثله: قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

خطأ وقياس في غير محله: هذا ومن المضحك: أن بعضهم علق على قوله: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾، فقال: هذه الآية رد على عدم ما قاله أهل علم المعاني والبيان: إن الجمع بين الحاء والهاء مثلاً يخرج الكلمة من فصاحتها، وجعلوا من ذلك قول أبي تمام:

كَـرِيـمٌ مَـتَـىٰ أَمْـدَحْـهُ أَمْـدَحْـهُ وَٱلْـوَرَىٰ   مَـعَـيْ وَإِذَا مَـا لُـمْـتُـهُ لُـمْـتُـهُ وَحْـدِيْ

وهذا خطأ من الناقد الذي ظن أنه يبرىء القرآن الكريم من العيوب المخلة بالفصاحة بشجبه، لما قرره علماء البلاغة. وقياس في غير محله، فالفرق بين الآية والبيت واضح، وهو أن تكرار أمدحه هو الذي أخرجه عن مهيع الفصاحة لا مجرد اجتماع الحاء والهاء، وإذن فالآية سليمة من تنافر الحروف. قال الشيخ مخلوف الميناوي في «حاشيته» على شرح الشيخ أحمد الدمنهوري لمتن الإمام الأخضري: فإن منشأ الثقل هو تكرار أمدحه لا مجرد الجمع لوقوعه بين الحاء والهاء في التنزيل، نحو: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من الموضوعات

اشتملت هذه السورة الكريمة على أربعة مقاصد:

١ ـ خلق الإنسان.

٢ ـ جزاء الشاكرين والجاحدين.

٣ ـ وصف الجنة والنار.

٤ ـ أمر النبي ﷺ بالصبر، وذكر الله تعالى، والتهجد بالليل[١].

والله أعلم

* * *

(١) وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، آمين. تمت سورة الإنسان بعون الله ذي الإحسان أوائل ليلة الخميس الخامسة والعشرين من شهر الجمادى الأولى من شهور سنة ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من سني الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيات.

بعد أن عاقني منها عوائق التدريس في المدارس، لأنّي لم يصبني في هذه السنة مطر المساعدة بالتفرغ الأسبوعي له يوم الأربعاء، لأنه لما تغير المدير تغيرت الأمور، و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾. فسبحان المستعان في كل الأمور، وعليه التكلان في تقلّبات الدهور. وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين آمين آمين ألف آمين يا ربّ العالمين.

سورة المرسلات

سورة المرسلات مكية في[1] قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. قال قتادة: إلاّ آية منها، وهي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فإنّها مدنيّة. وروي هذا عن ابن عباس، وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ بمكة. وأخرج البخاري؛ ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: بينما نحن مع النبيّ ﷺ في غار بمنى إذ نزلت سورة المرسلات عرفاً، فإنّهُ ليتلوها، وإنيّ لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية، فقال النبيّ ﷺ: اقتلوها، فابتدرناه فذهبت، فقال النبي ﷺ: وقيت شركم كما وقيتم شرها. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن ابن عباس؛ أن أم الفضل سمعته وهو يقرأ والمرسلات عرفاً، فقالت: يا بني لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها آخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب.

وعدد **آيها**[2]: خمسون آية، نزلت بعد سورة الهمزة، ومئة وثمانون **كلمة**، وثمان مئة وستّة عشر **حرفاً**.

ومناسبتها لما قبلها[3]: أنه هنا أقسم على تحقيق ما تضمنته السورة قبلها من وعيد الفجّار ووعد المؤمنين الأبرار.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها ظاهرة جدّاً، وهو أنه تعالى يرحم من يشاء ويعذّب الظالمين، فهذا وعد منه صادق، فأقسم على وقوعه في هذه فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ انتهى. وقال محمد بن حزم: سورة المرسلات كلّها محكم اهـ.

* * *

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ
ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩)
وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ
بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١)
إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥)
أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)
انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ
اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا
يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ
وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ
(٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
(٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾.

المناسبة

ابتدأت[١] السورة الكريمة بقسم الله سبحانه بطوائف من الملائكة، منهم المرسلون إلى الأنبياء بالإحسان، والمعروف ليبلغوه للناس، ومنهم الذين يعصفون ما سوى الحق ويبعدونه كما تبعد العواصف التراب وغيره، ومنهم الذين ينشرون آثار رحمته في النفوس الحيّة، ومنهم الذين يفرقون بين الحق والباطل، ومنهم الملقون العلم والحكمة للإعذار والإنذار من الله. على أن يوم القيامة لا ريب فيه، وحين تمحق أنوار النجوم وتشقق السماء، وتنسف الجبال، ويعين للرسل الوقت الذي يشهدون فيه على أممهم، ويفصل بين الخلائق إبّانَ العرض والحساب يكون

---

(١) المراغي.

الخزي والعذاب على الكافرين المكذّبين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لمّا حذر الكافرين، وخوّفهم بأن يوم الفصل كائن لا محالة، وأقسم لهم بملائكته المقرّبين ورسله الطاهرين بأنه يوم سيكون، وأن فيه من الأهوال ما لا يدرك كنهه إلا علام الغيوب.. أردف ذلك بتخويفهم بأنه أهلك الكفار قبلهم بكفرهم، فإذا سلكتم سبيلهم فستكون عاقبتكم كعاقبتهم، وستعذبون في الدنيا والآخرة. ثم أعقبه بتخويفهم بنكران إحسانه إليهم، فإنه قد خلقهم من ماء مهين في قرار مكين إلى زمن معلوم، ثم أنشأهم خلقاً آخر، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ليشكروا نعم الله عليهم، فكفروا بها، وأنكروا وحدانيته، وعبدوا الأصنام والأوثان. ثم ذكرهم بنعمه في الآفاق؛ إذ خلق لهم الأرض، وجعلها تضمهم أحياء وأمواتاً، وجعل فيها الجبال لئلا تميد بهم، وجعل فيها الأنهار والعيون، ليشربوا منها ماءً عذباً زلالاً. فويل لمن كفر بهذه النعم العظام.

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن للمكذّبين بالله وأنبيائه واليوم الآخر العذاب في يوم الفصل والجزاء.. بيَّن هنا نوع العذاب بما يحار فيه أولو الألباب، ويخر من هوله كل مخبت أواب. فأخبر بأنهم يؤمرون بالانطلاق إلى ما كانوا يكذّبون به في الدنيا إلى ظل دخان جهنم المتشعب لكثرته وتفرقه إلى ثلاث شعب عظيمة، وهو لا يظلهم ولا يمنع عنهم حر اللهب المتكون من نار ترمي بشرر كأنه القصر المشيد علوّاً وارتفاعاً، وكأنه الجمال الصفر انبساطا وتفرّقاً عن غير أعداد محصورة وحركة غير معيّنة. ثم أخبر بأن الويل للمكذبين بهذا اليوم يوم لا ينطقون من شدّة الدهشة والحيرة، ولا يؤذَن لهم في الاعتذار فيعتذرون يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ويقال لهم على سبيل التأنيب والتقريع: إن كنتم تستطيعون أن تدفعوا عن أنفسكم شيئاً من العذاب فهلموا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين[1] ما يحل بالكفار من الخزي والنكال

---

(١) المراغي.

يوم القيامة.. أردفه بذكر ما يكون للمؤمنين من السعادة والكرامة حينئذٍ، فهم يكونون في ترفٍ ونعيم، ويأكلون فواكه مما يشتهون، ويقال لهم: كلوا واشربوا هنيئاً بما قدمتم في الأيام الخالية، وهذا جزاء كل محسن لعمله. ثم خاطب المكذّبين مهدِّداً لهم، فقال: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾، ولا نصيب لكم في الآخرة لأنكم كافرون. ثم ذكر أن الكفار إذا أمروا بطاعة الله والخشوع له أبوا، وأصروا على ما هم عليه من الاستكبار، فويل لهم مما يعملون، وإذا لم يؤمنوا بالقرآن والنبيّ الذي جاء به مع تظاهر الأدلة على صدقه، فبأي كلام بعده يصدّقون.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨)﴾ سبب نزولها[١]: ما أخرجه ابن المنذر عن مجاهد قال: هذه الآية نزلت في ثقيف.

التفسير وأوجه القراءة

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥)﴾

اعلم[٢]: أن المفسرين ذكروا في هذه الكلمات الخمس وجوهاً:

الأول: أن المرادبأسرها الرياح، ومعنى ﴿المرسلات عرفا﴾ الرياح التي أرسلت إرسالاً عرفاً؛ أي: إرسالاً متتابعاً كعرف الفرس. وقيل: معنى ﴿عُرْفًا﴾؛ أي: كثيراً؛ أي: إرسالاً كثيراً. ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)﴾؛ أي: الرياح الشديدة الهبوب؛ أي: فبالرياح التي تعصف عصفاً؛ أي: تهبّ هبوباً شديداً. ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣)﴾؛ أي: فبالرياح التي تنشر نشراً؛ أي: الرياح اللينة التي تهبّ هبوباً ليّناً. وقيل: الرياح التي أرسلها نشراً بين يدي رحمته. وقيل: الرياح التي تنشر السحاب، وتأتي بالمطر. ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤)﴾؛ أي: فبالرياح التي تفرّق السحاب وتبدده عند انقطاع المطر. ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥)﴾؛ أي: فبالرياح التي تلقي في قلوب العباد ذكراً وخوفاً من الله تعالى. يعني: أن الرياح إذا أرسلت عاصفة شديدة.. قلعت

---

(١) لباب النقول.
(٢) الخازن.

الأشجار، وخربت الديار، وغيرت الآثار، فيحصل بذلك خوف للعباد في القلوب، فيلجؤون إلى الله تعالى، ويذكرونه ذكراً، فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذكر، والمعرفة في القلوب عند هبوبها.

وقوله: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ بدل من ﴿ذِكْرًا﴾؛ أي: اللاتي يلقين ذكر الله تعالى في قلوب العباد إما يلقين ﴿عُذْرًا﴾؛ أي: اعتذاراً إلى الله وتوبة في حق الذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث، ويشكرونه. وإمّا يلقين ﴿نُذْرًا﴾؛ أي: إنذاراً وتخويفاً من الله في حق الذين ينسبون ذلك إلى الأنواء، ويشكرونها.

والمعنى عليه: أقسم لكم أيها العباد بالرياح المرسلة المطلقة إرسالاً عرفاً؛ أي: متتابعاً أو كثيراً كعرف الفرس، فبالرياح التي تعصف عصفاً؛ أي: تهب هبوباً شديداً، وبالرياح التي تنشر وتبسط السحاب نشراً بين يدي رحمته، فبالرياح اللاتي تفرق السحاب وتبدده وتعدمه فرقاً وإعداماً عند انقطاع المطر، فبالرياح التي تلقي في قلوب العباد ذكرا لله تعالى. إما تلقي ﴿عُذْرًا﴾؛ أي: اعتذاراً إليه تعالى بتوبتهم واستغفارهم في حق الشاكرين لنعمه، وإما تلقي ﴿نُذْرًا﴾؛ أي: إنذاراً وتخويفاً من عذابه في حق الكافرين لنعمه؛ أي: أقسم لك بصنوف هذه الرياح المذكورة إن الذي توعدون من البعث والجزاء الواقع لا محالة، وعلى هذا الوجه ذهب ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة.

والوجه الثاني: أن المراد بأسرها الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى، وبه قال ابن مسعود في رواية وأبو هريرة، وأبو صالح، ومقاتل، والفرّاء، وابن عباس في رواية. ومعنى ﴿المرسلات عرفا﴾ الملائكة الذين أرسلوا عرفاً؛ أي: بالمعروف من أمر الله ونهيه، ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢﴾ الملائكة تعصف في طيرانهم ونزولهم، وتسرع كعصف الرياح في السرعة، ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣﴾ الملائكة الذين ينشرون أجنحتهم، ويبسطونها إذا نزلوا إلى الأرض. وقيل: هم الذين ينشرون الكتب ودواوين الأعمال يوم القيامة. ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤﴾ الملائكة الذين يأتون بما يفرّق بين الحقّ والباطل، ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ الملائكة يلقون الذكر؛ أي: الوحي إلى الأنبياء إمّا بالاعتذار والتوبة، وإمّا بالإنذار والتخويف. وقيل: يجوز أن يكون الذكر هو القرآن خاصة، فعلى هذا يكون الملقي هو جبريل وحده، وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل

التعظيم.

والمعنى عليه: أقسم لكم أيها العباد بالملائكة الذين أرسلوا بعرف؛ أي: بمعروف؛ أي: الذين أرسلتهم بالإحسان والشرع والمعروف، ليبلّغوا أنبيائي ورسلي، وبالملائكة الذين يعصفون عصفاً كعصف الرياح في السرعة إلى إنفاذ أمر الله أو المبعدين للباطل بسرعة كما تعصف الرياح التراب والتِّبْنَ والهباء، وبالملائكة الذين ينشرون أجنحتهم عند النزول إلى الأرض، أو الذين ينشرون دواوين الأعمال يوم القيامة ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾؛ أي: فبالملائكة الذين يأتون بما يفرق بين الحقّ والباطل كإهلاك الكفرة وإنجاء المؤمنين، فبالملائكة الذين يلقون ذكراً ووحياً إلى الأنبياء إمّا ﴿عُذْرًا﴾ أو ﴿نُذْرًا﴾؛ أي: إمّا أمراً أو نهياً، ويقال: وعداً أو وعيداً، ويقال: تبشيراً بالجنة أو إنذاراً بالعذاب؛ أي: أقسم بهؤلاء الطوائف من الملائكة إنّ ما وعدتم به من قيام الساعة لكائن لا محالة.

والوجه الثالث: أنّ المراد بأسرها آيات القرآن. ومعنى ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ آيات القرآن المتتابعة في النزول على محمد ﷺ بكل عرف وخبر ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾ يعني آيات القرآن تعصف القلوب وتحركها وتلينها بذكر الوعيد حتى تجعلها كالعصف، وهو النبت المتكسر، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ يعني: أنّ آيات القرآن تنشر أنوار الهداية والمعرفة في قلوب المؤمنين، ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾ يعني: آيات القرآن تفرّق بين الحق والباطل، ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ يعني: آيات القرآن، وهي الذكر الحكيم الذي يلقي الإيمان والنور في قلوب المؤمنين.

والمعنى عليه: أقسم لكم يا عبادي بآيات القرآن التي أرسلت وأنزلت على محمد ﷺ بعرف وخير وهداية، فبالآيات التي تعصف وتدق وتلين القلوب بذكر الوعيد، وبالآيات التي تنشر أنوار الهداية والمعرفة في قلوب المؤمنين، فبالآيات الفارقة فرقاً؛ أي: تفرّق فرقاً بين الحق والباطل، فبالآيات التي تلقي ذكراً؛ أي: نوراً وإيماناً في قلوب المؤمنين، إما بذكر وعد أو وعيد. إنّما توعدون لواقع لا محالة.

والوجه الرابع: أنّه ليس المراد من هذه الكلمات الخمس شيئاً واحداً بعينه، فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ

﴿نَشْرًا ③﴾ الرياح، ويكون المراد بقوله: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ④ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ⑤﴾ الملائكة.

فإن قلت: وما المجانسة بين الرياح والملائكة جمع بينهما في القسم؟

قلت: الملائكة روحانيّون، فهم بسبب لطافتهم وسرعة حركاتهم شابهوا الرياح، فحصلت المجانسة بينهما من هذا الوجه، فحسن الجمع بينهما في القسم. وقوله: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥﴾؛ أي: للإعذار والإنذار من الله تعالى. وقيل: عذرا من الله ونذراً منه إلى خلقه اهـ من «الخازن» بتصرف.

وعبارة «الروح» هنا: قوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ①﴾ إلخ، ﴿الواو﴾: فيه للقسم والمرسلات بمعنى الطوائف المرسلات جمع مرسلة بمعنى طائفة مرسلة باعتبار أن ملائكة كل يوم أو كل عام أوكل حادثة طائفة. ﴿عُرْفًا﴾ بمعنى متتابعة من عرف الفرس، وهو الشعرات المتتابعة فوق عنقه، فهو من باب التشبيه البليغ بأن شبّهت الملائكة المرسلون في تتابعهم بشعر عرف الفرس. وانتصابه على الحالية؛ أي: وأقسم لكم بالطوائف المرسلة من الملائكة لتدبير العالم حالة كونهنّ جاريات بعضها إثر بعض كعرف الفرس. أو العرف بمعنى المعروف والإحسان، نقيض النكر بمعنى المنكر؛ أي: الشيء القبيح، فإنهم إن أرسلوا للرحمة فظاهر، وإن أرسلوا لعذاب الكفّار فذلك معروف للأنبياء والمؤمنين. يعني: أنَّ عذاب الأعداء إحسان للأولياء فانتصابه حينئذٍ على العلّية.

والمعنى: وأقسم لكم بالطوائف المرسلة من الملائكة إلى الأنبياء لأجل تبليغ العرف والخبر والشرع، وإيصاله إليهم. ويقال: عصفت الريح إذا اشتدّ هبوبها، و﴿عَصْفًا﴾ مصدر مؤكد، وكذا ﴿نَشْرًا﴾ ﴿فَرْقًا﴾. والفاء في قوله: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ②﴾ للدلالة على اتصال سرعة جريهنّ في نزولهنّ وهبوطهنّ بالإرسال من غير مهلة، وهي أعني: الفاء لعطف الصفة على الصفة؛ إذ الموصوف متحد. والنشر في قوله: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ③﴾ بمعنى البسط، والعدول فيه إلى الواو، لأنّها غير المرسلات. فالقسم الأول وصفهم الله تعالى بوصفين يتعقّب أحدهما على الآخر، والقسم الثاني وصفهم بثلاثة أوصاف كذلك. والفرق والفصل والإلقاء هنا بمعنى الإيصال والإنزال لا الطرح. و﴿ذِكْرًا﴾ بمعنى الوحي مفعول ﴿الملقيات﴾،

وترتيب الإلقاء بالفاء ينبغي أن يكون لتأويله بإرادة النشر والفرق، وسيأتي تمامه نقلاً عن ابن الشيخ.

والحاصل: أنه سبحانه وتعالى أقسم بطوائف من الملائكة أرسلهنّ بأوامره بنحو التدبير وإيصال الأرزاق بالتصرّف في الأمطار والرياح وكتابة أعمال العباد بالليل والنهار وقبض الأرواح، فعصفهنّ في مضيّهنّ عصف الرياح مسارعة في الامتثال بالأمر. وبطوائف أخرى نشرن أجنحتهن في الجوّ عند انحطاطهنّ بالوحي؛ أو نشرن الشرائع في الأقطار؛ أي؛ فرّقن وأشعنَ أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل أي أحيينَ بما أوحين ففرّقن بين الحق والباطل، فألقين ذكراً إلى الأنبياء ﴿عُذْرًا﴾ لأهل الحق؛ أي: معذرة لهم في الدنيا والآخرة لاتباعهم الحقّ. ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ لأهل الباطل لعدم اتباعهم الحقّ. وعذراً مصدر من عذر إذا محا الإساءة، و﴿نُذْرًا﴾ اسم مصدر من أنذر إذا خوّف، لا مصدر، لأنه لم يسمع فعل مصدراً من أفعل. وانتصابهما على البدلية من ﴿ذِكْرًا﴾. قال ابن الشيخ: إذا كان الذكر المبدل منه بمعنى جميع الوحي يكون ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ بدل البعض من الكلّ، فإنّ ما يتعلق بمغفرة المطيعين، وتخويف المعاندين بعض من جملة الوحي. وإن أريد بالذكر المبدل منه ما يتعلق بسعادة المؤمن وشقاوة الكافر خاصّة يكون بدل الكل من الكل، فإن إلقاء ما يتعلق بسعادة المؤمن متحد بالذات مع إلقاء عذره ومحو إساءته، وكذا إلقاء ما يتعلق بشقاوة الكافر متحد مع إلقاء إنذاره على كفره انتهى. أو انتصابهما على العلية للصفات المذكورة أو للأخيرة وحدها، وهو الأولى بمعنى فاللائي ألقين ذكراً لمحو ذنوب المعتذرين إلى الله بالتوبة والاستغفار، ولتخويف المبطلين المصرّين. وفي «كشف الأسرار»: لأجل الإعذار من الله إلى خلقه لئلا يكون لأحد حجة، فيقول: لم يأتني رسول، ولأجل إنذارهم من عذاب الله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ قال: يقول الله: «يا ابن آدم إنّما أمرضكم لأذكّركم، وأمحص به ذنوبكم، وأكفر به خطاياكم، وربكم أعلم أن ذلك المرض يشتدّ عليكم، وأنا في ذلك معتذر إليكم». قال بعضهم: المعنى: ورب المرسلات إلخ.

وفي «الإرشاد»: لعل تقديم نشر الشرائع ونشر النفوس والفرق على الإلقاء؛ أي: مع أنّ الظاهر أن الفرق بين الحق والباطل يكون مع النشر لا بعده، وأنّ إلقاء

الذكر إلى الأنبياء متقدم على نشر الشرائع في الأرض وإحياء النفوس الموتى والفرق بين الحقّ والباطل، فلا يظهر التعقيب بينهما. للإيذان بكونها غاية للإلقاء حقيقةً بالاعتناء بها، أو للإشعار بأن كلا من الأوصاف المذكورة مستقل بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها للتفخيم والإجلال بالإقسام بهنّ، ولو جيء بها على ترتيب الوقوع لربّما فهم أن مجموع الإلقاء والنشر والفرق هو الموجب لما ذكر من الاستحقاق، هذا وقد قيل في هذا المقام غير ذلك كما مرّ عن «الخازن»، لكن الحمل على الملائكة أوجه وأسدّ، لما ذكرنا في المدثر أن المحققين على أنه من الملائكة المرسلات والناشرات والملقيات وغير ذلك انتهى من «روح البيان».

وقرأ الجمهور(١): ﴿عُرۡفٗا﴾ بسكون الراء. وقرأ عيسى بن عمر بضمّها. وقرأ الجمهور ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ﴾ بسكون اللام وتخفيف القاف، اسم فاعل من الإلقاء. وقرأ ابن عباس بفتح اللام وتشديد القاف اسم فاعل من التلقية، وهي أيضاً إيصال الكلام إلى المخاطب، يقال: لقيته الذكر فتلقاه. وقرأ أيضاً ابن عباس فيما ذكره المهدويّ بفتح اللام والقاف مشدّدة، اسم مفعول؛ أي: تلقّته من قبل الله تعالى. وقرأ إبراهيم التيميّ، والنحويان: أبو عمرو والكسائي، وحفص ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦﴾ بسكون الذالين. وقرأ زيد بن ثابت، وابن خارجة بن زيد، وطلحة، وأبو جعفر، وأبو حيوة، وعيسى، والحسن بخلاف عنه، والأعشى عن أبي بكر بضمّهما. وقرأ أبو جعفر أيضاً، وشيبة، وزيد بن عليّ، والحرميّان. نافع وابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر بسكونها في ﴿عُذۡرًا﴾، وضمها في ﴿نُذُرًا﴾. فالسكون على أنهما مصدران مفردان، أو مصدران جمعان، فـ﴿عُذُرًا﴾ جمع عذر بمعنى المعذرة، و﴿نُذُرًا﴾ جمع نذير بمعنى الإنذار، وانتصابهما على البدل من ﴿ذِكۡرًا﴾، كأنّه قيل: فالملقيات ﴿عُذۡرًا﴾ أو ﴿نُذُرًا﴾ أو على المفعول من أجله، أو على أنّهما مصدران في موضع الحال؛ أي: عاذرين، أو منذرين. ويجوز مع الإسكان أن يكونا جمعين على ما قرّرناه. وقرأ الجمهور(٢): ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦﴾ على العطف بـ ﴿أو﴾ التفصيلية. وقرأ إبراهيم التيمي وقتادة على العطف بالواو بدون ألف.

ثم ذكر سبحانه جواب القسم، فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾؛ أي: إنّ الذي

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

توعدونه من مجيء الساعة والبعث كائن لا محالة. فـ﴿إِنَّمَا﴾[1] هذه ليست هي الحصرية بل (ما) فيها موصولة، وإن كتبت متصلةً في خط المصحف. والموعود هو مجيء القيامة؛ لأنّ المذكور عقيب هذه الآية علامات يوم القيامة. وقال الكلبيّ: المراد أن كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع نظراً إلى عموم لفظ الموصول.

ثم أخبر عن ظهور آثار يوم القيامة وحصول دلائلها لأهل الشقاوة بقوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾؛ أي: محيت ومحقت ذواتها، فإن الطمس: محو الأثر الدال على الشيء، وهو الموافق لقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾. أو محى نورها وأذهب ضوءها، فاستوت مع جرم السماء. والأوّل أولى، لأنّه لا حاجة فيه إلى الإضمار. والنجوم مرتفعة بفعل يفسره ما بعده أو بالابتداء، و﴿طُمِسَتْ﴾ خبره، والأوّل أولى، لأنّ ﴿إذا﴾ فيها معنى الشرط والشرط بالفعل أولى، ومحل الجملة على الإعرابين الجرّ بـ ﴿إذا﴾، وجواب ﴿إذا﴾ محذوف تقديره: فإذا طمست النجوم وقع ما توعدون، أو بعثتم أو جوزيتم على أعمالكم، وحذف لدلالة قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ عليه. وقرأ عمرو بن ميمون[2]: ﴿طمّست﴾ ﴿فرّجت﴾ بتشديد الميم والراء، والجمهور بتخفيفهما.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾؛ أي: فتحت وشقّت، فكانت أبواباً بالفرج، هو الشقّ، وكلّ مشقوق فرج، ومثله قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾، والمعنى؛ أي: صدعت من خوف الرحمن، وشقّقت ووقعت فيها الفروج التي نفاها بقوله: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ بسبب الإنفطار.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: قلعت من مكانها بسرعة، يقال: نسفت الشيء وأنسفته إذا أخذته بسرعة. وقال الكلبيّ: سويّت بالأرض، والعرب تقول: نسفت الناقة الكلأ إذا رعته، وقيل: جعلت كالحبّ الذي ينسف بالمنسف، وهو ما ينفض به الحب ويذرى، ومثله قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ فالبس والنسف معناهما واحد، وقيل: فرقتها الرياح، وذلك بعد التيسير، وقيل: كونها هباء.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾؛ أي: عين لهم الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

أممهم. وذلك عند مجيء يوم القيامة وحضوره؛ إذ لا يتعين لهم قبل حصوله، فإن علم ذلك إلى الله تعالى. يعني: أن تبين وقت حضورهم لهم من جملة علامات القيامة من حيث إن ذلك التعيين والتبيين لم يكن حاصلاً في الدنيا لعدم حصول الوقت، فيقال لهم عند حصوله: أحضروا للشهادة فقد جاء وقتها. أو المعنى: وإذا الرسل بلغوا الميقات الذي ينتظرونه، وهو يوم القيامة، فإن التوقيت كما يجيء بمعنى تحديد الشيء وتعيين وقته فكذا يجيء بمعنى جعل الشيء منتهياً إلى وقته المحدود، وعلى المعنى الأول لا يقع على الذوات بدون إضمار، فإن الموقت هو الأحداث لا الجثث، فلا يقال: زيد موقت إلا أن يراد موقت حضوره، وكذا توقيت الرسل إنما هو بالنسبة إلى حضورهم لا بالنسبة إلى ذواتهم؛ لأنّ الذوات قارة لا يعتبر فيها تعيين، بخلاف الزمانيات المتجددة، هكذا قالوا.

والمعنى[١]: أي جعل لهم وقت للفصل والقضاء بنيهم وبين الأمم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾. وقيل: هذا في الدنيا؛ أي: جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذّبهم، والأوّل أولى. قال أبو علي الفارسي؛ أي: جعل يوم الفصل والدين لها وقتاً. وقيل: معنى ﴿أُقِّتَتْ﴾ أرسلت لأوقات معلومة على ما علم الله به.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿أُقِّتَتْ﴾ بالهمز وشدّ القاف. وقرأ النخعيّ، والحسن، وعيسى، وخالد بتخفيف القاف والهمز. وقرأ أبو الأشهب، وعمرو بن عبيد، وعيسى أيضاً، وأبو عمرو بالواو وشدّ القاف، قال عيسى: وهي لغة سفلى مضر. وقرأ عبد الله، والحسن، وأبو جعفر بواو واحدة وتخفيف القاف. وقرأ الحسن أيضاً ﴿ووقتت﴾ بواوين على وزن فوعلت، والواو في هذا كله هي الأصل، والهمزة بدل عنها، لأنّه من الوقت.

وقوله: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾ مقول لقول مقدر تقديره؛ أي: ويقال يومئذٍ؛ لأيّ يوم أخرت الأمور المتعلقة بالرسل من تعذيب الكفار وإهانتهم وتنعيم المؤمنين ورعايتهم، وظهور ما كانت الرسل تذكره من أمور الآخرة وأحوالها وفظاعة أهوالها. والمراد بهذا تهويل أمر هذا اليوم وتعظيم شأنه، كأنه قيل؛ أي: يوم هذا

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الذي أجل اجتماع الرسل إليه إنه ليوم عظيم. قال الفاشاني ﴿وإذا الرسل﴾؛ أي: ملائكة الثواب والعقاب ﴿أُقِّتَتْ﴾؛ أي: عيّنت وبلغت ميقاتها الذي عيّن لها إما لإيصال البشرى والروح والراحة، وإما لإيصال العذاب والكرب والذلّة، يقال: ليوم عظيم أخرت عن معاجلة الثواب والعقاب في وقت الأعمال، ورسل البشر وهم الأنبياء عينت وبلغت ميقاتها الذي عيّن لهم فيه الفرق بين المطيع والعاصي والسعيد والشقي، يقال: ليوم عظيم أخرت عن نزول العذاب بمن كذبهم، فإن الرسل يعرف كلا بسيماهم انتهى.

وقوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣﴾ بيان ليوم التأجيل؛ أي: أخّرت ليوم يفصل الله فيه بين الخلائق ويقضي بالحقوق، ويحكم بين المحسن والمسيء. وقال بعضهم: يفصل فيه بين الحبيب وحبيبه إلا من كان معاملته في الله تعالى، وبين المرء وأمه وأبيه وأخيه إلا أن يكونوا متفقين على الحق والعدل.

وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ ﴿ما﴾[1] مبتدأ، وجملة ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبره. وقوله: ﴿مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ إظهار في مقام الإضمار لزيادة تفظيع وتهويل، على أنّ ﴿ما﴾ خبر مقدم، و﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ مبتدأ مؤخّر، لا بالعكس، كما اختاره سيبويه؛ لأنّ محط الفائدة بيان كون يوم الفصل أمراً بديعاً هائلاً لا يقادر قدره ولا يكتنه كنهه كما يفيده خبرية ﴿ما﴾، لا بيان كون أمر بديع من الأمور يوم الفصل كما يفيده عكسه. والمعنى؛ أي: أيّ شيء جعلك دارياً وعالماً ما هو وما كنهه؟ إذ لم تر مثله، وكذا لم ير أحد قبلك شدّته حتى تسمع منه.

ثم صرح بالمراد وأبان من سيقع عليهم النكال والوبال حينئذٍ، فقال: ﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك عظيم ثابت ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: في ذلك اليوم الهائل كائن ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بيوم يفصل فيه الرحمن بين الخلائق؛ أي: الويل والهلاك ثابت فيه لهم. والويل في الأصل مصدر منصوب سادّ مسدَّ فعل لا من لفظه، فأصله: أهلكه الله إهلاكاً، أو هلك هو هلاكاً، عدل به إلى الرفع للدلالة على ثبات الهلاك ودوامه للمدعوّ عليه، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفه أو صفته، ووضع الويل موضع الإهلاك، أو الهلاك، فجاز وقوعه مبتدأ مع كونه نكرة، فإنه لما كان مصدراً سادّاً مسدَّ فعله المتخصّص بصدوره عن

(١) روح البيان.

فاعل معيّن كانت النكرة المذكورة متخصصة بذلك الفاعل، فساغ الابتداء بها لذلك، كما قالوا: في سلام عليك. وقال بعضهم: الويل واد في جهنم، لو أرسلت الجبال لماعت من حرّه؛ أي: ذابت.

والمعنى: أي هلاك شديد وعذاب عظيم يومئذٍ كائن لمن كذب بالله ورسله وبكتبه، وبكل ما ورد على ألسنة أنبيائه وأخبروا به.

وكرّر هذه[1] الآية في هذه السورة لأنّه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر، ورب شيء كذب به هو أعظم جرماً من التكذيب بغيره، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب.

ثم ذكر سبحانه ما فعل بالكفّار من الأمم الخالية، فقال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ممن أهلكوا قبل بعثة محمد ﷺ، وذلك لتكذيبهم بيوم الفصل. وهو[2] استئناف إنكار لعدم الإهلاك إثباتاً وتقريراً له، لأنّ نفي النفي يثبت الإثبات ويحقق الإهلاك، فكأنه قيل: لم يكن عدم الإهلاك بل قد أهلكناهم، وقرأ الجمهور ﴿نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ بضم النون، وقتادة بفتحها، قال الزمخشري: من هلكه بمعنى أهلكه. ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ وهم الذين كانوا بعد بعثة محمد ﷺ.

وقرأ الجمهور ﴿نُتْبِعُهُمُ﴾ بالرفع على الاستئناف على معنى: ثم نحن نتبعهم الآخرين من نظرائهم السالكين مسلكهم في الكفر والتكذيب؛ أي: نجعلهم تابعين للأوّلين في الإهلاك. قال أبو البقاء: فليس بمعطوف على ما قبله، لأنّ العطف يوجب أن يكون المعنى: أهلكنا الأولين ثمّ أتبعناهم الآخرين في الإهلاك، وليس كذلك، لأنّ إهلاك الآخرين لم يقع بعد، فلذلك رفع ﴿نتبع﴾ على أن يكون مقطوعاً عمّا قبله، ويستأنف به الكلام على وجه الإخبار عمّا سيقع في المستقبل بإضمار المبتدأ. وفيه وعيد لكفّار مكة. ويدل على الرفع قراءة ابن مسعود ﴿ثم سنتبعهم الآخرين﴾ بسين الاستقبال. وقرأ الأعرج والعبّاس عن أبي عمرو ﴿نتبعهم﴾ بالجزم عطفاً على ﴿نُهْلِكِ﴾ ويحتمل[3] تسكينه تخفيفاً، كما سكّن ﴿وَمَا يُشْعِرْكُمْ﴾، فهو

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

استئناف، فعلى الاستئناف يكون ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الأمم التي تقدمت قريشاً أجمع، ويكون ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ من تأخر من قريش وغيرهم، وعلى التشريك يكون ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قوم نوح وإبراهيم عليهما السلام، ومن كان معهم، و﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ قوم فرعون، ومن تأخر وقرب من بعثة محمد ﷺ. والإهلاك هنا إهلاك العذاب والنكال في الدنيا، ولذلك جاء بعده ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فأتى بالصفة المقتضية لإهلاك العذاب، وهي الإجرام.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: فعلاً مثل ذلك الفعل الفظيع الذي هو الإهلاك، فمحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف. ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: بكل من أجرم وأشرك بالله سبحانه إمّا في الدنيا أو في الآخرة. وفيه تحذير من عاقبة الجرم وسوء أثره.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: عذاب عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ أهلكناهم ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله وأنبيائه، وليس فيه تكرير، لما أن الويل الأول لعذاب الآخرة، وهذا لعذاب الدنيا.

ومعنى الآيات: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: ألم نهلك من كذّب الرسل قبلكم ونعذّبهم في الدنيا بشتى أنواع العذاب، فتارة بالغرق كما حدث لقوم نوح، وأخرى بالزلزال كما كان لقوم لوط، إلى أشباه ذلك من المثلات التي حلت بالأمم قبلكم جزاء لهم على قبيح أعمالهم وسيء أعمالهم، وإن سنتنا في المكذبين لا تبديل فيها ولا تغيير، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم، وتندموا ولات ساعة مندم. ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: ثم نحن نفعل بأمثالهم من الآخرين، ونسلك بهم سبيلهم، لأنّهم فعلوا مثل أفعالهم. ثم ذكر الحكمة في إلحاقهم بهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: سنتنا في جميع المجرمين واحدة، فكما أهلكنا المتقدمين لإجرامهم وتكذيبهم نفعل بالمتأخّرين الذين حذوا حذوهم، واستنوا سنّتهم، فسنتنا تجري على وتيرة واحدة. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: هؤلاء وإن عذبوا في الدنيا بأنواع من العذاب فالطامة الكبرى معدّة لهم يوم القيامة. والتكرير للتوكيد شائع في كلام العرب، كما تقدم في سورة الرحمن.

وفي «برهان القرآن»: كرّرها في هذه السورة عشر مرّات، لأن كل واحدة منها ذكرت عقيب آية غير الأولى، فلا يكون تكراراً مستهجناً، ولو لم يكرر كان متوعداً

على بعض دون بعض. وقيل: إن من عادة العرب التكرار والإطناب كما أن عادتهم الاقتصار والإيجاز، ولأن بسط الكلام في الترغيب والترهيب أدعى إلى إدراك البغية من الإيجاز، وقد يجد كل أحد في نفسه من تأثير التكرار ما لا خفاء. قال في «فتح الرحمن»: كرّر هنا عشر مرات، والتكرار في مقام الترغيب والترهيب مستحسن، لا سيما إذا تغايرت الآيات السابقة على المرّات المكرّرة كما هنا انتهى.

ثم ذكرهم بجزيل نعمه عليهم في خلقهم وإيجادهم مما يستدعي جزيل شكرانهم، فقال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾؛ أي: ألم نحدثكم. واتفق[1] القرّاء على إدغام القاف في الكاف في هذا الحرف. وذكر النقاش أنه في قراءة ابن كثير ونافع برواية قالون، وعاصم في رواية حفص بالإظهار، قاله في الإيضاح. ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ بهوان الحدوث والإمكان والابتذال؛ أي: من نطفة قذرة مهينة حقيرة، والميم فيه أصلية كما سيأتي، ومهانته: قلته وخسته، وكل شيء ابتذلته فلم تصنه فقد امتهنته؛ أي: خلقناكم منه، ولذا عطف عليه قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: الماء ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾؛ أي: في مكان حريز يحفظ فيه المني من الآفات المفسدة له كالهواء، وهو الرحم بكسر الحاء المهملة؛ أي وعاء الولد في بطن الأمّ. فالقرار موضع الاستقرار، والمكين: الحصين؛ أي[2]: جعلنا ذلك الماء في مقرٍّ حصينٍ يتمكن فيه الماء محفوظاً سالماً من التعرض له، فمكين من المكانة بمعنى التمكن لا منها بمعنى المنزلة والمرتبة من الكون، يقال: رجل مكين في مكة؛ أي: متمكن فيها، ومكين عند الأمير؛ أي: ذو منزلة ومرتبة عنده، فيكون فعيلا لا مفيلا. ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: مقدار معلوم من الوقت الذي قدّره الله تعالى للولادة تسعة أشهر أو أقل منها، أو أكثر، وهو في موضع الحال من الضمير المنصوب في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: مؤخراً إلى مقدار معلوم من الزمان، وقيل: إلى أن يصور.

﴿فَقَدَرْنَا﴾؛ أي: فقدرناه، والمراد تقدير خلقه وجوارحه وأعضائه وألوانه ومدة حمله وحياته. وقيل: المعنى: قدرناه قصيراً أو طويلاً، وقيل معنى ﴿قدرنا﴾ ملكنا. وقرأ الجمهور ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بالتخفيف. وقرأ علي بن أبي طالب ونافع والكسائي بالتشديد من التقدير، نظير[3] قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾. قال الكسائي

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

والفرّاء: هما لغتان بمعنى واحد، تقول: قدرت كذا وقدرته. ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾؛ أي: نعم المقدرون نحن، وإلى هذا المعنى ذهب ابن مسعود رضي الله عنه. ويجوز[1] أن يكون ﴿فَقَدَرْنَا﴾ من القدرة بمعنى فقدرنا على ذلك؛ أي: على خلقه وتصويره كيف شئنا وأردنا من مثل تلك المادة الحقيرة، على أن المراد بالقدرة ما يقارن وجود المقدور بالفعل، ويعضد هذا المعنى قوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ حيث خلقناه بقدرتنا وجعلناه على أحسن الصور والهيئات.

والمعنى[2]: أي ألا تعترفون بأنكم خلقتم من نطفة مذرة منتنة وضعت في الأرحام إلى حين الولادة، ونحن قد قدرنا ذلك فنعم المقدرون، إذ خلقناكم في أحسن الصور والآيات، أفلا يستحق ذلك الخالق منكم الشكران لا الكفران والاعتراف بوحدانيته وإرساله للرسل والإقرار بالبعث، لكنكم كفرتم أنعمه، ونكلتم عن الاعتراف بوحدانيته، وعبدتم الأصنام والأوثان، وأنكرتم يوم الفصل والجزاء، فسترون في هذا اليوم عاقبة ما اجترحتم.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: خزي وعذاب عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: لمن كذب بهذه المنن العوالي، أو لمن كذب بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة. قال أبو الليث؛ أي: الشدة من العذاب لمن يرى الخلق الأول، فأنكر الخلق الثاني اهـ.

وبعد أن ذكرهم بالنعم التي أنعم بها عليهم في الأنفس ذكرهم بما أنعم عليهم في الآفاق، وأرشد إلى أمور ثلاثة:

١ - ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: مهاداً لكم، فتكفتكم وتجمعكم فيها ﴿أَحْيَآءً﴾ على ظهرها ﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ في بطنها. فالأحياء يسكنون في منازلهم، والأموات يدفنون في قبورهم. عرفهم أوّلاً نعمه الأنفسية، لأنها كالأصل، ثم أتبعها النعم الآفاقية. والكفات[3] اسم ما يكفت؛ أي: يضم ويجمع، من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه كالضمام لما يضم، والجماع لما يجمع، نحو قولهم: التقوى جماع كل خير، والخمر جماع كل إثم. و﴿كِفَاتًا﴾ مفعول ثان لـ﴿نَجْعَلِ﴾، لأنه بمعنى: ألم نصيّرها ﴿كِفَاتًا﴾ تكفت وتضم ﴿أَحْيَآءً﴾ كثيرة على ظهرها، فهو منصوب بفعل مضمر، يدل عليه كفاتاً، وهو تكفت وإلا فالأسماء الجامدة، وكذا أسماء الزمان

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

والمكان والآلة، وإن كانت مشتقة لا تعمل، وفي اسم المصدر خلاف، وأما المصدر وجمع اسم الفاعل فهما من الأسماء العاملة، فمن جعل الكفات مصدراً أو جمع اسم الفاعل، وهو كافت كصيام جمع صائم جعله عاملاً، ومن جعله اسما لما يكفت أو جمعاً للكفت بمعنى الوعاء منعه من العمل، غير الزمخشري فإنه جعل ﴿كِفَاتًا﴾ وهو اسم عاملاً، وقد طعن فيه. ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ غير محصورة في بطنها، ولهذا كانوا يسمون الأرض أُمّاً تشبيهاً لها بالأم في ضمها للناس إلى نفسها أحياء وأمواتاً كالأم التي تضم أولادها إليها وتضبطهم.

واستدل بهذا القفّال على أن النباش يقطع، لأن بطن الأرض حرز للكفن، فإذا نبش وأخذ منه فهو سارق. ولما كانوا ينضمون إليها جعلت كأنها تضمهم، وأيضاً كما أن الأرض كفات الأحياء بمعنى أنهم يسكنون فيها كذلك أنها كفات لهم بمعنى أنها تكفت ما ينفصل من الأحياء من الأمور المستقذرة، وتنكيرهما في معنى التعريف الاستغراقي لا للأفراد والنوعية، ويجوز أن يقال: الأرض وإن كانت كفاتاً لجميع أحياء الإنس وأمواتهم، لكن الأحياء والأموات غير منحصرة فيها؛ لأن بعض الحيوان يكفته الهواء والبعض الآخر يكفته الماء، فلا تكون للجميع بل للبعض، فيصح التنكير.

٢ - ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت مستقرّات، فمفعول ﴿جعلنا﴾ مقدر، و﴿رَوَاسِيَ﴾ صفة له، من رسا الشيء يرسو إذا ثبت، والجبال ثوابت على ظهر الأرض، لا تزول ولا تزلزل. ﴿شَامِخَاتٍ﴾ صفة بعد صفة. والشامخ: العالي المرتفع؛ أي: طوالاً شواهق، ومنه: شمخ بأنفه عبارة عن الكبر. وفي عين المعاني: ﴿رَوَاسِيَ﴾؛ أي: ثوابت الأصول رواسخ العروق شامخات؛ أي: مرتفعات الفروع، ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث في غير العقلاء مطرد كأشهر معلومات ونحوه. والتنكير للتفخيم أو للإشعار بأن ما يرى على ظهر الأرض من الجبال بعض منها، وإن في عداد الجبال ما لم يعرف ولم ير، فإن السماء فيها جبال أيضاً بدلالة قوله تعالى: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ انتهى.

والمعنى[1]: أي وجعلنا جبالاً ثوابت عاليات على ظهرها، لئلا تميد بكم،

---

(١) المراغي.

وهذه الجبال متصلة بالطبقة الصوانية التي هي أبعد طبقات الأرض عن سطحها، وتلك الطبقة تضم في جوفها كرة النار المشتعلة التي في باطنها، وظاهرها هذه القشرة التي نحن عليها.

٣ - ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾؛ أي: عذباً جدّاً بأن خلقنا فيها أنهاراً ومنابع؛ أي: جعلناه سقياً لكم، ومكناكم من شربه، وكذا من سقيه دوابكم ومزارعكم، وسمي نهر الكوفة فراتاً للذته. وقال أبو الليث: ماء عذباً من السماء والأرض، ويقال: الفرات للواحد والجمع، وتاؤه أصل، والتنكير للتفخيم كما سيأتي، أو لإفادة التبعيض؛ لأنَّ في السماء ماء فراتاً أيضاً، بل هي معدنه ومصبه.

والمعنى[1]: أي وأسقيناكم ماء عذباً فراتاً تشربون منه، إمّا آتيا من السحاب الذي حفظته الجبال بارتفاعها، وإمّا من العيون النابعات منها، ويمدها الثلج الذي يذوب شيئاً فشيئاً فوق ظهر الأرض متنزلاً إلى بطنها متجهاً إلى عيونها الجارية.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: عذاب عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ وقع ما توعدون ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في الدنيا بامتثال هذه النعم العظيمة.

وقوله: ﴿انطَلِقُوٓا ...﴾ إلخ، مقول لقول مقدر تقديره: يقال يومئذٍ للمكذّبين على سبيل التوبيخ والتقريع: انطلقوا واذهبوا، والقائلون هم خزنة النار وزبانية جهنم ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ من العذاب، و﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، قدّم عليه لرعاية رؤوس الآية.

والمعنى: أي تقول لهم خزنة جهنم حينئذٍ: اذهبوا إلى ما كنتم تكذّبون به من العذاب في الدنيا.

ثم بين هذا العذاب، ووصفه بجملة صفات:

١ - ﴿انطَلِقُوٓا﴾ واذهبوا خصوصاً ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾؛ أي: إلى ظل دخان نار جهنم كقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: دخان غليظ أسود. ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾؛ أي: ذي ثلاث ذوائب، جمع شعبة يتشعّب لعظمه ثلاث شعب كما هو شأن الدخان العظيم، تراه يتفرق ذوائب؛ أي: انطلقوا إلى ظل من دخان جهنم، قد سطع ثم

---

(١) المراغي.

افترق ثلاث فرق، وصار ثلاث شعب: شعبة عن يمينهم، وشعبة عن شمالهم، وشعبة من فوقهم حتى يفرغ من الحساب، والمراد أنّه أحاط بهم من كل جانب كما جاء في الآية الأخرى ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾.

فقوله: ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ كناية[1] عن كون ذلك الدخان عظيماً بناءً على أن التشعب من لوازمه. وقيل: يخرج لسان من النار، فيحيط بالكفار كسرادق، وهو ما يمد فوق صحن البيت. ويتشعب من دخانها ثلاث شعب، فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم، والمؤمنون في ظل العرش.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿انطَلِقُوٓا﴾ في الموضعين بكسر اللام على صيغة الأمر، وكرره بياناً للمنطلق إليه أو للتأكيد. وقرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضي في الثاني على معنى الخبر، فكأنهم لما أمروا بالإنطلاق امتثلوا ذلك فانطلقوا.

ثم وصف سبحانه هذا الظل تهكماً بهم، فقال:

٢ - ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾؛ أي: ليس بمظل، فلا يبقى من حر ذلك اليوم، فهو وصف أخذ من الظل للتأكيد كنوم نائم لأنه في تقدير: لا ظل ظليل؛ أي: ليس بظل مظل من الحر. وتوصيف[3] الظل بأنه لا يظل من حر ذلك اليوم، وهو حر النار، للدلالة على أن تسمية ما يغشاهم من العذاب بالظل استهزاء بهم، فإن شأن الظل أن يدفع عمن يستظل به مقاساة شدة الحر، وأن ينفعه ببرده ونسيمه، والذي أمروا بالانطلاق إليه يضاعف عليهم ما هم فيه من الحر والعذاب، فضلاً عن أن يستريحوا ببرده أو رد لما أوهمه لفظ الظل من الاسترواح.

٣ - ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: ولا يدفع من حرّ النار شيئاً، لأنّه في جهنم، فلا يظلهم من حرها، ولا يسترهم من لهيبها.

والمعنى: أي غير مغن لهم من حر اللهب كما يغني ظل الدنيا من الحر، فقوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ في موضع الجر على أنه صفة لـ ﴿ظِلٍّ﴾، ولفظ لا غير مانع للصفتية؛ أي: ظل غير ظليل، وغير مغن ومفعول ﴿يُغْنِى﴾ محذوف هو شيئاً، و﴿مِنَ﴾ لبيانه، ويغني من أغنى عني وجهه؛ أي؛ أبعده، لأن الغني عن الشيء

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

يباعده كما أن المحتاج إليه يقربه، فصح أن يعبر بإغناء شيء عن شيء عن إبعاده عنه، فكأن المعنى أن هذا الظل لا يظلكم من حرّ الشمس، ولا يدفع عنكم لهب النار. واللهب: ما يعلو على النار إذا اضطرمت من أحمر وأصفر وأخضر.

ثم وصف النار التي تحدث هذا الظل من الدخان، فقال: ﴿إِنَّهَا﴾ أي: إنّ هذه النار، فالضمير للنار، وقيل: إنه عائد على الشعب، لأنها هي المذكورة لا النار. ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ كثيرة، كل واحدة منها ﴿كَالْقَصْرِ﴾؛ أي: كقصر من القصور في عظمها، كما يدل على هذا التفسير قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: إن هذه النار يتطاير منها شرر متفرقة في جهات كثيرة كأن كل واحدة منها القصر عظماً وارتفاعاً. والشرر: جمع شررة، وهي ما تطاير من النار في الجهات متفرّقاً كالنجوم، كما قال في «القاموس»: الشرار والشرر ككتاب وجبل ما يتطاير من النار، واحدتهما بهاء انتهى. وقوله: ﴿كَالْقَصْرِ﴾ في موضع الصفة للشرر، والقصر هو البناء العالي، ووصف به الجمع باعتبار كل واحد من آحاده، والقصر أيضاً: الحطب الجزل، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: هي الخشب العظام المقطعة، وكنا نعمد إلى الخشب فنقطعها ثلاثة أذرع، وفوق ذلك، ودونه ندخرها للشتاء، فكنا نسميها القصر؛ أي: لكونها مقصورة مقطوعة من الممدودة الطويلة، تأمل في أن ناراً دخانها وشررها هكذا، فما بالك بحال أهلها؟ وعلى هذا المعنى الأخير القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل: جمر وجمرة وتمر وتمرة، وهي الواحدة من جزل الحطب الغليظ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِشَرَرٍ﴾ وقرأ عيسى ﴿بشَرَار﴾ بألف بين الرائين. وقرأ ابن عباس وابن مقسم كذلك، إلا أنه كسر الشين، فاحتمل أن يكون جمع شرر؛ أي: بشرار من العذاب. وأن يكون صفة أقيمت مقام موصوفها؛ أي؛ بشرار من الناس كما تقول: قوم شرار جمع شر غير أفعل التفضيل، قوم خيار جمع خير غير أفعل التفضيل، ويؤنث هذا فيقال للمؤنث: شرة وخيرة، بخلافهما إذا كانا للتفضيل، فلهما أحكام مذكورة في النحو. وقرأ الجمهور ﴿كَالْقَصْرِ﴾ بإسكان الصاد وهو واحد القصور. وقرأ ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والحسن، وابن مقسم،

---

(١) البحر المحيط.

والسلمي، وحميد بفتح القاف والصاد. وقرأ ابن جبير أيضاً، والحسن أيضاً ﴿كالقصر﴾ بكسر القاف وفتح الصاد جمع قصرة، مثل: بدر وبدرة وقصع وقصعة. وبعض القرّاء بفتح القاف وكسر الصاد، وابن مسعود بضمهما، كأنه مقصور من القصور كما قصروا النجم والنمر من النجوم والنمور، كما قال الراجز:

فِـيْـهَـا عَـنَـابِـيْـلُ أُسُـوْدٌ ونُـمُـرْ

﴿كَأَنَّهُۥ﴾؛ أي:[1] كأن ذلك الشرر، وفي «فتح الرحمن»: ثم رد الضمير إلى لفظ النار دون معناها، فقال: كأنه؛ أي: النار ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ جمع جمل كحجارة في جمع حجر، والتاء لتأنيث الجمع أو اسم جمع كالحجارة. والجمل: ذكر الإبل، والناقة أنثاه، وإذا لم يكن في جماعة الإبل أنثى يقال: جمالة بالكسر. والصفر: جمع أصفر، والصفرة لون من الألوان التي بين السواد والبياض، وهي إلى البياض أقرب، ولذلك قد يعبر بها عن السواد. والمعنى: كان كل شررة جمل أصفر أو كجمل أسود؛ لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، ولأن صفر الإبل يشوب رؤوس أشعارها سواد، وفي الحديث: «شرار جنهم أسود كالقير». فالأول وهو التشبيه بالقصر تشبيه في العظم، والثاني وهو التشبيه بالجمل تشبيه في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط والحركة. وفي «المفردات»: قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ قيل: جمع أصفر،وقيل: بل أراد به الصفر المخرج من المعادن، ومنه قيل للنحاس: صفر.

وقرأ الجمهور ومنهم[2]: عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ﴿جمالات﴾ بكسر الجيم وبالألف والتاء، جمع جمال جمع جمل، وهي الإبل كقولهم: رجالات قريش. وقرأ ابن عباس[3] وقتادة، وابن جبير، والحسن، وأبو رجاء بخلاف عنهم كذلك، إلاّ أنهم ضموا الجيم، وهي جمال السفن الواحد منها جملة لكونه جملة من الطاقات، ثم جمع على جمل وجمال، ثم جمع جمال ثانياً جمع سلامة، فقالوا: جمالات. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص، وأبو عمرو في رواية الأصمعيّ، وهارون عنه ﴿جمالة﴾ بكسر الجيم، لحقت جمالاً التاء لتأنيث الجمع كحجر وحجارة كما مرّ. وقرأ ابن عباس، والسلمي، والأعمش، وأبو حيوة، وأبو

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) البحر المحيط.

بحرية، وابن أبي عبلة، ورويس كذلك إلا أنهم ضموا الجيم. قال ابن عباس وابن جبير: الجمالات قلوص السفن، وهي حبالها العظام إذا اجتمعت مستديرة بعضها إلى بعض، جاء منها أجرام عظام. وقال ابن عباس أيضاً: الجمالات: قطع النحاس الكبار، وكأن اشتقاق هذه من اسم الجملة. وقرأ الحسن ﴿صفر﴾ بضمّ الفاء، والجمهور بإسكانها. قال الواحدي[1]: والصفر معناها في قول المفسرين قال الفرّاء: الصفر: سواد الإبل لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرةً، ولذلك سمت العرب سود الإبل صفراً، قيل: والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود، ومنه قول الشاعر:

تِلْكَ خَيْلِيْ وَتِلْكَ رِكَابِيْ هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيْبِ

أي: هن سود. هذا القول بعيد عند أهل اللغة والعجب لمن قال بهذا القول، وقد قال تعالى: ﴿جمالات صفر﴾.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: خزي عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ وقعت المجازاة بتلك النار ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا اليوم الذي لا يجدون فيه لدفع العذاب عنهم محيصاً.

ثم وصف اليوم الذي فيه العذاب، فقال: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى وقت دخولهم النار. و﴿يَوْمُ﴾ مرفوع عى أنه خبر ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: هذا يوم ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ فيه بشيء، لما[2] أن السؤال والجواب والحساب قد انقضت قبل ذلك، وأيضاً يوم القيامة يوم طويل له مواطن ومواقيت ينطقون في وقت دون وقت. فعبر عن كل وقت بيوم. أو لا ينطقون بشيء ينفعهم، فإن ذلك كلا نطق. قال الفاشاني: لا ينطقون لفقدان آلات النطق وعدم الإذن فيه بالختم على الأفواه. وقال بعضهم: لا ينطقون لشدّة تحيرهم وقوة دهشتهم. وقال أبو عثمان رحمه الله: أسكتهم هيبة الربوبية، وحياء الذنوب.

وقرأ الجمهور[3] برفع ﴿يَوْمُ﴾ على أنه خبر لاسم الإشارة. وقرأ الأعمش، والأعرج، وزيد بن عليّ، وعيسى، وأبو حيوة، وعاصم في رواية بفتحه على البناء لإضافته إلى الفعل، ومحله الرفع على الخبرية، والجملة المصدرة بمضارع مثبت أو

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

منفيّ، لا يجيز البصريون في الظرف المضاف إليها البناء بوجه، وإنما هذا مذهب كوفيّ. وقيل: هو منصوب على الظرفية، والإشارة بهذا إلى ما تقدم من الوعيد، كأنّه قيل: هذا العذاب المذكور كائن يوم لا ينطقون.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ في الاعتذار ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ معطوف[1] على ﴿يُؤْذَنُ﴾ منتظم في سلك النفي؛ أي: لا يكون لهم إذن واعتذار، متعقّب له من غير أن يجعل الاعتذار مسبّباً عن الإذن، كما لو نصب فيقال: فيعتذروا، والنصب يوهم أنّ لهم عذراً وقد منعوا من ذكره، وهو خلاف الواقع، إذ لو كان لهم عذر لم يمنعوا. وأيّ عذر لمن أعرض عن منعمه، وكفر بأياديه ونعمه؟

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُؤْذَنُ﴾ على البناء للمفعول. وقرأ زيد بن عليّ ﴿ولا يأذن﴾ على البناء للفاعل؛ أي: لا يأذن الله لهم؛ أي: لا يكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار. قال الفرّاء: الفاء في ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عاطفة على ﴿يُؤْذَنُ﴾ وأجيز ذلك، لأنّ أواخر الكلام بالنون، ولو قال: فيعتذروا لم يوافق الآيات. وقد قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ بالنصب، والكل صواب.

والمعنى: أي هذا يوم لا يتكلمون من الحيرة والدهشة، ولا يؤذن لهم في الاعتذار، لأنه ليس لديهم عذر صحيح، ولا جواب مستقيم. وقد يكون المعنى: هذا يوم لا ينطقون بما يفيد فكأنّهم لا ينطقون. وتقول العرب لمن ذكر ما لا يفيد: ما قلت شيئاً.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: كرب عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بما دعتهم إليه الرسل، وأنذرتهم عاقبته.

وقال القاضي في كشف ما يلتبس في القرآن: إن قلت: نفي النطق عنهم يدل على انتفاء الاعتذار منهم؛ إذ الاعتذار لا يكون إلا بالنطق، فما فائدة قوله عقبه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾؟

قلت: معناه: لا ينطقون ابتداء بعذر مقبول، ولا بعد أن يؤذن لهم في الاعتذار. لو أذن لهم فيه؛ إذ الخائف عادة قد لا ينطق لسانه بعذر وحجة لخوفه،

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

لكن إذا أذن له فيه نطق. ففائدة ذلك نفي هذا المعنى؛ أي: لا ينطقون ابتداء بعذر ولا بعد الإذن.

فإن قلت: ما ذكر ينافيه ما دل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ من وقوع الاعتذار منهم.

قلت: لا ينافيه، لأنّ يوم القيامة يوم طويل، فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في آخر. والجواب: بأن المراد بتلك الآية الظالمون من المسلمين وبما هنا الكافرون ضعيف، لتعقيب تلك الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ انتهى.

﴿هَٰذَا﴾ اليوم الذي شاهدتم أهواله وأحواله ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بين الحقّ والباطل. والجملة على تقدير القول؛ أي: يقال للمكذبين: هذا اليوم يوم يفصل فيه بين الخلائق، ويتميّز فيه الحقّ من الباطل، فيؤتى كل عامل جزاء عمله من ثواب وعقاب، ويفصل بين العباد بعضهم مع بعض، فيقتصّ من الظالم للمظلوم وتردّ له حقوقه. ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ يا أمّة محمد ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الماضية. وهذا تقرير وبيان للفصل؛ إذ الفصل بين المحقّ والمبطل والرسل لا يستحق إلا بجمع الكل، فلا بد من إحضارهم لا سيّما عند من لا يجوز القضاء على الغائب.

أي:[١] جمعنا بينكم وبين من تقدمكم من الأمم في صعيد واحد ليمكن الفصل بينكم، فيقضى لهذا على هذا، ولولا ذلك الجمع.. ما أمكن؛ إذ لا يقضى على غائب.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ﴾ أيّها المكذّبون ﴿كَيْدٌ﴾ في هذا اليوم، كما كان لكم في الدنيا ما تكيدون به دين الله وأولياءه؛ أي: حيلة تدفعون بها عنكم العذاب. والظاهر: أن هذا خطاب من الله للكفّار. ﴿فَكِيدُونِ﴾ اليوم، أصله: فيكيدوني حذف ياء المتكلم اجتزاء عنها بالكسرة والنون للوقاية، وهو أمر من كاد يكيد كيداً، وهو المكر والاحتيال والخديعة. والمعنى: واحتالوا لأنفكسم، وتخلصوا من عذابي إن قدرتم، فإن جميع من كنتم تقلّدونهم وتقتدون بهم حاضرون.

---

(١) المراغي.

وهذا أمر[١] إهانة وخطاب تعجيز، وتقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا، وتخجيل لهم بأنهم كانوا في الدنيا يدفعون الحقوق عن أنفسهم، ويبطلون حقوق الناس بضروب الحيل والمكايد والتلبيسات. فخاطبهم الله تعالى حين علموا أنّ الحيل منقطعة والتلبيسات غير ممكنة بقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾. لما ذكر من التقريع والتخجيل ولإظهار عجزهم عن الكيد، فإن لمثل هذا الكلام لا يتكلم به إلا من تيقن بعجز مخاطبه عما هو بصدده. وفي بعض التفاسير؛ أي: فإن وجد كيد نافع لكم، على أن ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿كَانَ﴾ أو نافعاً لكم على أنه حال من ﴿كَيْدٌ﴾. وقيل: المعنى فإن قدرتم على حرب فحاربون. وقيل: إنّ هذا من قول النبي ﷺ، فيكون كقول هود عليه السلام لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: غمّ وغصّة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يقال للكفّار ما ذكر ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث؛ لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه في الدنيا، فعلموا أنَّ لاحيلة لهم في الخلاص من العذاب.

ثم ذكر سبحانه المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من الكفر والتكذيب للرسل، لأنهم في مقابلة المكذّبين، ففيه رد على المعتزلة. وقال مقاتل والكلبيّ: المراد بالمتقين الذين يتقون الشرك بالله، لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقريع الكفّار على كفرهم. ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ ظليلة على الحقيقة، كما يدل عليه الإطلاق؛ أي: في ظلال الأشجار وظلال القصور، لا كالظل الذي للكفّار من الدخان، أو من النار، كما تقدم. قال بعضهم: الظاهر أنه إخبار عن كونهم تحت أشجار مثمرة لهم في جنانهم. يقول الفقير: الأظهر كونهم في ظلال كناية عن راحتهم العظمى، لأن الظل للراحلة، وكذا قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ونحوه. وإنما ذكر الله سبحانه الظل تشويقاً للقلوب، لأنّ من البلاد ما هي حارّة قليلة المياه والأشجار والظلال. وقرأ الجمهور ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ جمع ظلّ، والأعمش ﴿في ظلل﴾ جمع ظلّة، وكذا وافقه الزهري، وطلحة، والأعرج. ﴿و﴾ في ﴿عيون﴾ عذبة دافعة عنهم العطش ﴿و﴾ في ﴿فواكه﴾ لذيذة متنوّعة ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ويتمنّون، فيتناولونها تلذّذاً لا

(١) روح البيان.

عن جوع، والمراد بالعيون الأنهار، وبالفواكه ما يتفكّه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم.

والحاصل: أنهم مستقرّون في فنون الترفّه وأنواع التنعم خلاف مما عليه مخالفوهم.

والمعنى(١): أي إنّ المتقين في ظلال ظليلة وكن كنين وعيون عذبة وأنهار جارية، فلا يصيبهم أذى حرٍّ ولا قرٍّ، بخلاف الكافرين، فإنهم في ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل، ولا يغني من اللهب، كما تقدم، ولديهم فواكه يأكلون منها كلّما اشتهت نفوسهم، لا يخافون ضرَّها ولا عاقبة مكروهها.

وجملة قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ في الدنيا، مقدّرة بقول هو حال من ضمير المتقين في الخبر؛ أي: مقولاً لهم: كلوا أيّها الأبرار من نعم الجنة وثمراتها، واشربوا من مائها، وشرابها كلّما شئتم أكلاً وشرباً هنيئاً سائغاً رافهاً خالص اللذة، لا يشوبه سقم ولا تخم، ولا يكدّره تنغيص، وهو دائم لا يزول، ولا يورثكم أذىً في أبدانكم بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة خصوصاً الصيام كما مرّ في الحاقّة. وهذا أمر إكرام إظهاراً للرضى عنهم والمحبّة لهم. تمسّك(٢) القائلون بإيجاب العمل للثواب بالباء السببية، والجواب: أنّ السببية إنما هي بفضل الله سبحانه ووعده الذي لا يخلف لا بالذات بحيث يمتنع عدمه أو يوجب النقص أو الظلم.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ الجزاء العظيم ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ لطاعتنا بالإخلاص في عقائدهم وأعمالهم لا جزاء أدنى منه.

والمعنى: أي إنّا كما جزينا هؤلاء المتقين بما وصفنا من الجزاء على طاعتهم إيانا في الدنيا نجزي أهل الإحسان والإخلاص لطاعتهم وعبادتهم لنا، فلا نضيع لهم أجراً كما قال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: حسرةٌ وندامةٌ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ جوزي المتقون بما ذكر من الجزاء الأوفى ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بما أخبر الله تعالى به في كتابه من تكريم هؤلاء المتقين

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بما أكرمهم به يوم القيامة، حيث نال أعداؤهم هذا الثواب الجزيل، وهم بقوا في العذاب المخلّد الوبيل.

ثم خاطب المكذبين مهدّداً لهم، فقال: ﴿كُلُوا﴾ من نعيم الدنيا الفاني ﴿وَتَمَتَّعُوا﴾ بمتاعها تمتّعا ﴿قَلِيلًا﴾ أو زماناً قليلاً؛ أي: عيشوا مدّة قليلةً إلى منتهى آجالكم؛ لأنّ زمان الدنيا قليل كمتاعها. ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾؛ أي: كافرون مستحقّون للعذاب في الآخرة. وجملة ﴿كُلُوا﴾ في محل النصب مقول لقول مقدّر وقع حالاً من ﴿المكذبين﴾. قال في «الكواشي»: لا أحب الوقف على ﴿المكذبين﴾ إن نصبت ﴿كُلُوا﴾ إلخ، حالاً منه.

والمعنى[1]: الويل ثابت لهم مقولاً لهم ذلك في الآخرة تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا بما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع الفاني عن قريب على النعيم الخالد، فلا يرد كيف يقال لهم ذلك ولا تمتع لهم فيها؟ يعني: أنّ هذا القول لهم في الآخرة لا يكون لطلب الأكل والتمتع منهم بنعيم الدنيا حقيقةً لعدم إمكانه بل إنّما يقال لهم للتذكير المذكور، فيكون الأمر أمر توبيخ وتحسير وتحزين. وعلل ذلك بإجرامهم دلالةً على أن كل مجرم مآله هذا؛ أي: ليس له إلاّ الأكل والتمتع أيّاماً قلائل ثم البقاء في الهلاك الأبدي. أو يقال لهم هذا في الدنيا.

والمعنى عليه: أي كلوا بقية آجالكم وتمتعوا بقية أعماركم، وهي قليلة المدى، وسنستن بكم سنة من قبلكم من مجرمي الأمم الخالية التي متعت إلى حين ثم انتقمنا منهم بكفرهم وتكذيبهم لرسلنا. وهذا، وإن كان في اللفظ أمراً فهو في المعنى تهديد وزجر عظيم.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك أبديّ وحزن سرمدي ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ وقعت المجازاة على الأعمال ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين عرّضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل، وكذّبوا بما أخبرهم الله تعالى أنّه فعل بهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: للمكذبين: ﴿ارْكَعُوا﴾؛ أي: أطيعوا الله، واخشعوا، وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه، وارفضوا هذا الاستكبار والنخوة؛ لأنّ الركوع

(١) روح البيان.

والانحناء تواضع له وتعظيم، والسجود أبلغ منه في التواضع والتعظيم، ومن ذلك قالوا: إن السجود لغير الله كفر إن كان للعبادة، وخطر عظيم إن كان للتعظيم. وفي «حواشي ابن الشيخ»: الركوع في اللغة حقيقة في مطلق الانحناء الحسّيّ، وركوع الصلاة من جملة أفراده، وتفسيره بالإطاعة والخضوع مجاز لغويّ تشبيهاً له بالانحناء الحسّي. ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾؛ أي: لا يخضعون، ولا يقبلون ذلك، ويصرون على ما هم عليه من الاستكبار.

وقيل المعنى: إذا أمروا بالصلاة، أو بالركوع لا يفعلون، لما روى مقاتل: أنه نزل حين أمر رسول الله ﷺ ثقيفاً بالصلاة، فقالوا: إنّا لا نخرّ ولا نحني؛ أي: لا نقوم قيام الراكع، فإنها سبة علينا؛ أي: إنّ هيئة التجبية هيئة تظهر وترفع فيها السبّة، وهي الاست؛ أي: الدبر. وهو عار وعيب علينا، فقال ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود».

وفي بعض التفاسير: كانوا في الجاهلية يسجدون للأصنام ولا يركعون لها، فصار الركوع من أعلام صلاة المسلمين لله تعالى. وفيه دلالة على أنّ الكفّار مخاطبون بالفروع في حقّ المؤاخذة في الآخرة، كما مرّ مراراً. وفيه ذمّ عظيم لتارك الصلاة حيث لا يجيب داعي الله، أي: المؤذّن. فإنه يدعو في الأوقات الخمسة المؤمنين إلى بيت الله وإقامة الصلاة، وقس عليه سائر الداعين.

والخلاصة[1]: أي وإذا قيل لهؤلاء المكذّبين: أعبدوا الله وأطيعوه واخشوا يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار استكبروا، وأصرّوا على عنادهم.

وروى ابن جرير عن ابن عباس: أنه قال: ما يقال هذا في الآخرة حين يدعون إلى السجود، فلا يستطيعون من جراء أنهم لم يكونوا يسجدون في الدنيا.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: توبيخ عظيم وعذاب شديد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يوبّخ المكذبين، ويُعنّفون على أعمالهم الخبيثة ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأوامر الله سبحانه ونواهيه.

وبعد أن بالغ في زجر الكفّار بما تقدم ذكره، وحثّ على الانقياد للدين الحقّ ختم السورة بالتعجيب من هؤلاء المشركين الذين لم يسمعوا نصيحة الداعي، ولم

---

(١) المراغي.

يتّبعوا عظاته وما فيه رشدهم وصلاحهم في آخرتهم ودنياهم، فقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾؛ أي:[1] فبأيّ خبر يخبر بالحقّ، وينطق بما كان وما يكون على الصدق؟ ﴿بَعْدَهُ﴾؛ أي: بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين وأخبار النشأتين على نمط بديع معجز مؤسّس على حجج قاطعة وبراهين ساطعة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به؛ أي: بالقرآن الجامع لجميع الأحاديث والأخبار. فقوله: ﴿فَبِأَيِّ ...﴾ إلخ، جواب شرط محذوف، وكلمة ﴿بعد﴾ بمنزلة ثمّ في إفادة التراخي الرتبي، أي: فإذا لم يؤمنوا به وهو موصوف بما ذكر فبأي كتاب يؤمنون؟ أي: إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل على تجلّيها ووضوحها فبأي كلام بعد هذا يصدقون؟

وقصارى ذلك: أنَّ القرآن قد اشتمل على البيان الشافي، والحق الواضح، فما بالهم لا يبادرون إلى الإيمان به قبل الفوت وحلول الموت وعدم الانتفاع بعسى ولعل وليت؟. وقرأ الجمهور[2] ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالتحتية على الغيبة. وقرأ ابن عامر في رواية عنه، ويعقوب بالفوقية على الخطاب.

وقد ختم سبحانه[3] السورة بالتعجيب من الكفّار، لأن الاستفهام للتعجيب وبين أنهم في أقصى درجات التمرد والعناد، حيث لم ينقادوا لمثل هذا البرهان الساطع والدليل القاطع على حقّيّة الدين القويم من حيث كونه في أرفع درجات الفصاحة والبلاغة، وفي أقصى طبقات الإعجاز. واستدل بعض المعتزلة على أنّ القرآن ليس بقديم بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾؛ إذ الحديث ضدّ القديم؛ لأنّ الحدوث والقدم لا يجتمعان في شيء واحد، ورد بأن الحديث هنا بمعنى الخبر لا بمعنى الحادث، ولو سلم فالعبارة لا تدل على أنّ القرآن محدث لاحتمال أن يكون المراد فبأيّ حديث بعد القديم يؤمنون؟ وروي: أنّ المرسلات نزلت في غار قرب مسجد الخيف بمنى، يسمّى غار والمرسلات.

خاتمة[4]: وجاء في هذه السورة بعد كل جملة قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾، لأنّ كل جملة منها فيها إخبار الله تعالى عن أشياء من أحوال الآخرة، وتقريرات من أحوال الدنيا، فناسب أن يذكر الوعيد عقيب كلّ جملة منها للمكذّب

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

بالويل في يوم الآخرة.

ولما كان في سورة الإنسان ذكر نزراً من أحوال الكفّار في الآخرة، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها جاء في هذه السورة الإطناب في وصف الكفّار والإيجاز في وصف المؤمنين، فوقع بذلك الاعتدال بين السورتين.

الإعراب

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جرّ وقسم، ﴿المرسلات﴾ مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالمرسلات، وجملة القسم مستأنفة استئنافاً نحويّاً. و﴿عُرْفًا﴾ إما حال من الضمير المستكن في المرسلات إن كان مأخوذاً من عرف الفرس؛ أي: شعر عنق الفرس، والمعنى على التشبيه؛ أي: أقسم بالرياح المرسلات حال كونها شبيهة بعرف الفرس من حيث تلاحقها وتتابعها كما أنّه كذلك. أو منصوب على المصدرية؛ أي: والمرسلات إرسالاً عرفاً؛ أي: متتابعاً متلاحقاً. أو على أنّه مفعول لأجله إن كان بمعنى المعروف؛ أي: والمرسلات لأجل العرف؛ أي؛ أرسلت للإحسان والمعروف. وجواب القسم وما عطف عليه قوله الآتي: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾. ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة للتعقيب، ﴿العاصفات﴾ معطوف على ﴿المرسلات﴾، وهي اسم فاعل من العصف بمعنى الشدّة، ﴿عَصْفًا﴾ مصدر مؤكّد منصوب على المفعولية المطلقة بـ﴿العاصفات﴾، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ معطوف أيضاً على ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، ﴿نَشْرًا﴾ مفعول مطلق منصوب بـ﴿الناشرات﴾، ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ﴾ معطوف على ﴿الناشرات﴾، ﴿فَرْقًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بـ ﴿الفارقات﴾، ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ﴾ معطوف على ﴿الفارقات﴾، ﴿ذِكْرًا﴾ مفعول به لـ﴿الملقيات﴾. ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ منصوبان على البدلية من ﴿ذِكْرًا﴾ أو على أنّهما مفعولان لأجله أو على الحال من الضمير المستكن في ﴿الملقيات﴾ أي: معذرين ومنذرين. ﴿إِنَّمَا﴾ إنّ حرف نصب وتوكيد، ﴿مَا﴾ اسم موصول بمعنى الذي في محل النصب اسمها، ولا تكون ﴿مَا﴾ هنا مصدرية ولا كافّة، وقد مرّ لك أنها كتبت هنا متصلة بـ﴿إن﴾ إتباعاً لرسم المصحف الإمام.

وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾ من الفعل المغيّر ونائب فعله صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: إنّ الذي توعدونه من البعث والحشر، ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، واللام المزحلقة حرف ابتداء، وجملة ﴿إنّ﴾ من اسمها وخبرها جواب القسم، لا محل لها من الإعراب.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمّن معنى الشرط، ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ نائب فاعل لفعل محذوف وجوباً يفسّره ما بعده، تقديره: فإذا طمست النجوم طمست. وجملة ﴿طُمِسَتْ﴾ من الفعل المغيّر ونائب فاعله جملة مفسّرة لا محل لها من الإعراب.

وفي جواب ﴿إذا﴾ قولان:

أحدهما: أنّه محذوف تقديره: فإذا طمست النجوم وقع ما توعدون لدلالة قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ عليه.

والثاني: أنّ جوابها قوله: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾ على إضمار القول؛ أي: يقال: لأيّ يوم أجّلت. فالفعل في الحقيقة هو الجواب، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها على كلا القولين مستأنفة لا محل لها من الإعراب. وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ جمل معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾، وجرى فيها ما جرى فيه من الإعراب من الاشتغال؛ أي: وإذا فرجت السماء فرجت، وإذا نسفت الجبال نسفت، وإذا أقتت الرسل أقتت وقع ما توعدون من البعث والمجازاة. ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُجِّلَتْ﴾؛ أي: أجلت لأيّ يوم، والجملة مقول لقول محذوف في محل نصب على الحال من مرفوع ﴿أُقِّتَتْ﴾؛ أي: وإذا أقتت الرسل مقولاً فيهم: لأيّ يوم أجلت وقع ما توعدون، أو مقول لقول محذوف وقع جواباً لـ ﴿إذا﴾، فلا محل لها من الإعراب كما تقدم؛ أي: يقال لأيّ يوم أجلت. ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾ بإعادة

العامل، ولك أن تعلقه بفعل محذوف؛ أي: أجلت ليوم الفصل. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ فعل ماض ومفعول به أوّل، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، تقديره: وأي شيء مدر إياك جواب ﴿مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾، والجملة الاسمية جملة إنشائية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا﴾ استفهامية في محل الرفع مبتدأ، ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب سادّة مسد المفعول الثاني لـ﴿أَدْرَىٰكَ﴾؛ أي: شيء جعلك دارياً، جواب استفهام ﴿مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾، والاستفهام الأول معناه الاستبعاد والإنكار، والثاني للتهويل والتعظيم. ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ سوغ الابتداء به مع كونه نكرة ما فيه من معنى الدعاء، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف أضيف إلى مثله، متعلق بـ﴿وَيْلٌ﴾، لأنّه بمعنى هلاك، أو صفة له، والتنوين عوض عن جمل محذوفة تقتبس من السياق.

والتقدير: يوم إذ طمست النجوم وفرجت السماء إلخ، ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ خبر عن ﴿وَيْلٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، لأنّ الاستفهام في الأصل إنكاري، وقد دخل على نفي، ونفي النفي إثبات، ويعبّر عنه بالاستفهام التقريري. ﴿لم نهلك﴾ جازم وفاعل مضارع، مجزوم بـ ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر تقديره: نحن، يعود على الله، ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مفعول به، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع التراخي ﴿نتبعهم﴾ فعل مضارع ومفعول به، مرفوع على الاستئناف لتجرّده عن الناصب والجازم، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ مفعول به ثان، أي: ثمّ نحن نتبعهم الآخرين. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: فعلا مثل ذلك الفعل الفظيع، ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾. ﴿نَفْعَلُ﴾ فعل مضارع وفعل مستتر يعود على الله، ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ متعلق بـ﴿نَفْعَلُ﴾، والجملة مستأنفة. وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ تقدم إعرابه آنفاً فلا عود ولا إعادة، وسيأتي سر تكرارها في مبحث البلاغة.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري: ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿نَخْلُقكُّم﴾ فعل

مضارع مجزوم بـ ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على الله، ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ متعلق بـ﴿نَخۡلُقكُّم﴾، ﴿مَّهِينٍ﴾ نعت لـ﴿مَّآءٍ﴾ ومن الابتدائية إشارة إلى أنه تعالى قادر على الابتداء، والقادر على الابتداء قادر على الإعادة، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول أوّل، معطوف على الجملة الاستفهامية، ﴿فِي قَرَارٍ﴾ في موضع المفعول الثاني، ﴿مَّكِينٍ﴾ صفة لـ ﴿قَرَارٍ﴾، ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من مفعول ﴿جعلناه﴾؛ أي: مؤخّراً إلى قدر معلوم، و﴿مَّعۡلُومٍ﴾ صفة لـ﴿قَدَرٍ﴾، ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿جعلناه﴾، ﴿فَنِعۡمَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿نعم﴾ فعل ماض جامد لإنشاء المدح، ﴿ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قدرنا﴾، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: نحن. ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ تقدم إعرابها. ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريريّ، ﴿لم نجعل الأرض كفاتاً﴾ جازم وفعل مضارع وفاعل مستتر ومفعولان، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ۝٢٦﴾ مفعولان به لـ﴿كِفَاتًا﴾ إن قلنا: إنّه مصدر أو جمع كافت لأنّه اسم فاعل، و﴿جعلنا﴾ فعل وفاعل معطوف على الجملة الاستفهامية، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿جعلنا﴾ إن كان بمعنى ﴿خلقنا﴾، وفي موضع المفعول الثاني إن كان بمعنى صيرنا، ﴿رَوَٰسِيَ﴾ مفعول ﴿جعلنا﴾، ﴿شَٰمِخَٰتٖ﴾ صفة لـ ﴿رَوَٰسِيَ﴾، ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ﴾ فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على ﴿جعلنا﴾، ﴿فُرَاتٗا﴾ صفة لـ ﴿مَّآءٍ﴾. ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ تقدم إعرابها.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ۝٣٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٣٤﴾.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون، ﴿والواو﴾: فاعل، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ إلخ. وجملة القول مستأنفة، ﴿إِلَىٰ مَا﴾ متعلق بـ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كُنتُم﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد الضمير في ﴿به﴾. ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، توكيد لفظيّ لـ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ الأول، ﴿إِلَىٰ ظِلّٖ﴾ معلق بـ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، ﴿ذِي ثَلَٰثِ﴾ صفة لـ ﴿ظِلّٖ﴾،

﴿ذِى﴾ مضاف، ﴿ثَلَٰثِ﴾ مضاف إليه، ﴿ثَلَٰثِ﴾ مضاف، ﴿شُعَبٍ﴾ مضاف إليه، ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ صفة لـ ﴿ظِلٍّ﴾، و﴿لَّا﴾ متوسطة بين الصفة والموصوف لإفادة النفي؛ أي: إلى ظلّ غير ظليل. وجملة ﴿لا يغني من اللهب﴾ صفة ثانية لـ ﴿ظِلٍّ﴾؛ أي: إلى ظل غير ظليل غير مغنٍ من اللهب، و﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ متعلق بـ ﴿يغني﴾، وجيء بالصفة الأولى اسماً وبالثانية فعلاً دلالة على نفي ثبوت هذه الصفة ونفي التجدّد والحدوث للإغناء عن اللهب، كما في «السمين». ﴿إِنَّهَا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَرْمِى﴾ خبره، وجملة إنّ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب مسوقة لتعليل عدم غناء الظلّ غير الظليل. ﴿بِشَرَرٍ﴾ متعلق بـ ﴿تَرْمِى﴾، ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ نعت لـ ﴿شرر﴾، ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ خبره، ﴿صُفْرٌ﴾ صفة لـ ﴿جمالة﴾، وجملة ﴿كأن﴾ في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿شرر﴾. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ تقدم إعرابها.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و﴿يَوْمُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، وجملة ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ في محل جر بإضافة الظرف إليه، وقرىء بفتح الميم نصباً على الظرفية، وهو متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿وَلَا يُؤْذَنُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يُؤْذَنُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿يُؤْذَنُ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾. ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿يعتذرون﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يُؤْذَنُ﴾، منتظم في سلك النفي من غير تسبّب عنه، ولهذا لم ينصب، لأنّه لو نصب لـ كان مسبّباً عنه لا محالة. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ معطوف على الكاف أو مفعول معه، والجملة الفعلية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، لأنّها فسرت جملة قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾. ﴿فإن﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إنْ﴾ حرف شرط، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿لَكُمْ﴾ خبرها مقدم، ﴿كَيْدٌ﴾ اسمها مؤخر، ﴿فَكِيدُونِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿كيدون﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون للوقاية،

وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة مفعول به، وجملة ﴿كيدون﴾ في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾. تقدم إعرابها.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لذكر أحوال المؤمنين على سبيل الإيجاز، ﴿وَعُيُونٍ﴾ معطوف على ﴿ظِلَٰلٍ﴾، ﴿وَفَوَٰكِهَ﴾ معطوف على ﴿ظلال﴾، مجرور بالفتحة، لأنّه على صيغة منتهى الجموع، ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور نعت لـ ﴿فواكه﴾، وجملة ﴿يَشْتَهُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما يشتهونه. ﴿كُلُوا۟﴾ فعل أمر وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف وقع حالاً من الضمير المستكن في خبر ﴿إنّ﴾ الذي هو قوله: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾؛ أي: مستقرّون في ظلال مقولا لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ إلخ. ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ معطوف على ﴿كُلُوا۟﴾، ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: أكلاً وشرباً هنيئين، أو منصوب على الحال من فاعل ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾، أي: حال كونكم متهنّئين. ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾ ﴿كنتم﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف مقدم على عامله؛ أي: جزاء مثل ذلك الجزاء العظيم. ﴿نَجْزِى﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جملة تعليليّة، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ تقدم إعرابها. ﴿كُلُوا۟﴾ فعل أمر وفاعل، ﴿وَتَمَتَّعُوا۟﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقول محذوف وقع حالاً من ﴿المكذبين﴾، والتقدير: الويل ثابت للمكذبين حال كونهم مقولاً لهم: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾. ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لظرف محذوف تقديره: زماناً قليلاً، والظرف تنازع فيه ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾، أو صفة لمصدر محذوف أي: أكلاً قليلاً وتمتعاً قليلاً. ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ ناصب واسمه وخبره، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب مسوقة لتعليل التهديد المفهوم من الأمر

بالأكل والتمتع. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمُ﴾ متعلق بـ ﴿قِيلَ﴾، ﴿ٱرْكَعُوا۟﴾ نائب فاعل محكيّ لـ ﴿قِيلَ﴾، وجملة ﴿قيل﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، الباء، حرف جر. ﴿أيّ﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجبي، مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يؤمنون﴾، ﴿أي﴾ مضاف، ﴿حَدِيثٍ﴾ مضاف إليه، ﴿بَعْدَهُۥ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صفة لحديث، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية جملة استفهامية مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عُرْفًا﴾ وفي «القاموس»: والعرف بالضمّ: شعر عنق الفرس اهـ. ثم قال: والمعرفة كمرحلة: موضع العرف من الفرس اهـ. ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ من العصف بمعنى الشدّة، وفي «المصباح»: عصفت الريح عصفاً من باب ضرب وعصوفاً أيضاً: اشتدت. ﴿نَشْرًا﴾ مصدر نشر من باب نصر، يقال: نشرت الريح المطر إذا فرقته حيث شاء الله تعالى، وفرق بين الحق والباطل فرقاً من باب نصر، كما في «المختار». ﴿عُذْرًا﴾ مصدر من عذر إذا محا الإساءة. ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ اسم من أنذر إذا خوّف، لا مصدر، لأنّه لم يسمع فعل مصدراً من أفعل. ﴿طُمِسَتْ﴾؛ أي: محيت ومحقت وذهب نورها. ﴿فُرِجَتْ﴾؛ أي: فتحت فكانت أبواباً. ﴿نُسِفَتْ﴾؛ أي: تفتتت فصارت كالرمل السائل، وفي «المصباح»: نسفت الريح التراب نسفاً من باب ضرب: اقتلعته وفرقته اهـ. ﴿أُقِّتَتْ﴾ قرأه أبو عمرو البصري ﴿وُقِّتَتْ﴾ بالواو من الوقت، فالواو هي الأصل فاء الكلمة. وقرأه الباقون ﴿أقتت﴾ بالهمزة، وفيه إبدال الواو همزة، لأن الضمة من جنس الواو، فالجمع بينهما يجري مجرى الجمع بين المثلين، فيكون ثقيلاً، ولهذا السبب تستثقل الكسرة على الياء، ولم تبدل في نحو: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، لأنّ ضمة الواو ليست بلازمةٍ فيه. وفي «كشف الأسرار»: الألف والواو لغتان، والعرب تبدل الألف من الواو، تقول: وسادة

وإسادة وكتاب مورخ ومؤرخ وقوس موتر ومؤتر. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فيه إعلال بقلب الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، أصله: أدريك بوزن أفعل. ﴿من ماء مهين﴾ والميم فيه أصلية، ومهانته قلته وخسته، وكل شيء ابتذلته فلم تصنه فقد امتهنته؛ أي: خلقناكم منه. ﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ﴾ فالقرار موضع الاستقرار، والمكين: الحصين الحفيظ له مما يفسده كالهواء. ﴿كِفَاتًا﴾ والكفات اسم ما يكفت؛ أي: يضم ويجمع من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه كالضمام، لما يضم والجماع لما يجمع، نحو: التقوى جماع كل خير، والخمر جماع كل إثم. ﴿رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت من رسا الشيء يرسو؛ أي: ثبت. ﴿شَٰمِخَٰتٖ﴾ جمع شامخة، والشامخ: العالي المرتفع؛ أي: مرتفعات. ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث في غير العقلاء مطرد كأشهر معلومات ونحوه.

﴿مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ يقال: الفرات للواحد والجمع، وتاؤه أصلية ﴿ذي ثلاث شعب﴾ جمع شعبة بمعنى قطعة وفرقة. ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾؛ أي: لا يدفعه، واللهب: ما يعلو على النار إذا اضطرمت من أحمر وأصفر وأخضر. ترمي بشرر فالشرر جمع شررة، وهي ما تطاير من النار في الجهات متفرقاً كالنجوم. قال في «القاموس»: الشرر والشرار كجبلٍ وكتاب: ما يتطاير من النار، واحدتهما بهاء انتهى. ﴿كَٱلۡقَصۡرِ﴾ في العظم، مفرد جمعه قصور، وهو البناء العالي، ووصف به الجمع باعتبار كل واحد من أفراده، كما مرّ. ﴿جمالة صفر﴾ جمع جمل كحجارة في جمع حجر، ويقال: جمل وجمال وجمالة نحو: ذكر وذكارٍ وذكارة وحجر وحجار وحجارة. والتاء فيه لتأنيث الجمع أو اسم جمع كالحجارة. والجمل: ذكر الإبل، والناقة أنثاه. والصفر: جمع أصفر، والصفرة: لون من الألوان التي بين السواد والبياض، وهي إلى البياض أقرب، ولذلك قد يعبر بها عن السواد. ﴿فَكِيدُونِ﴾ أمر من كاد يكيد، وأصل يكيد يكيد بوزن يفعل، نقلت حركة الياء إلى الكاف فسكنت الياء إثر كسرة فصارت حرف مدّ، فلما بني منه الأمر حذف حرف المضارعة، وحذفت نون الرفع كما حذفت ياء المتكلم لرعاية الفواصل. والكيد: هو المكر والاحتيال والخديعة. ﴿فِي ظِلَٰلٖ﴾ جمع ظل كشعاب وشعب أو ظلة كقباب وقبة. ﴿يَشۡتَهُونَ﴾ أصله: يشتهيون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما حذفت حركتها سكنت فالتقى ساكنان فحذفت الياء، وضمت الهاء لمناسبة الواو.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع.

فمنها: التأكيد بذكر المصادر زيادة في البيان وتقوية للكلام في قوله: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾﴾. وهو من المحسنات اللفظية.

ومنها: الطباق بين ﴿عُذْرًا﴾ و﴿نُذْرًا﴾ وبين ﴿أَحْيَآءً﴾ و﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ وبين ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر مع الإتيان بصيغة الاستفهام في قوله: ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ لزيادة تفظيع الأمر وتهويله، وكان مقتضى السياق وما أدراك ما هو.

ومنها: تكرار آية ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ في عشر مواضع لزيادة الترهيب والتهديد، لأن التكرار في مقام الترغيب والترهيب مستساغ حسن، لا سيما إذا تغايرت الآيات السابقة على المرّات المكررة كما هنا.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ وفي قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

ومنها: الجناس الناقص بين لفظي ﴿مَّهِينٍ﴾ و﴿مَّكِينٍ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ للتفخيم، أو للإشعار بأنّ ما يرى على ظهر الأرض من الجبال بعض منها، وإنّ في عداد الجبال ما لم يعرف ولم ير، فإن في السماء جبالاً أيضاً بدلالة قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مَّآءً فُرَاتًا﴾ للتفخيم أو لإفادة التبعيض، لأنّ في السماء ماء فراتاً أيضاً، بل هي معدنه ومصبه.

ومنها: تقديم الجار والمجرور على متعلق في قوله: ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ لرعاية رؤوس الفواصل.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، لأنّه كناية عن كون ذلك الدخان عظيماً بناءً على أن التشعب من لوازمه.

ومنها: وصف الظل بالظليل في قوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ للتأكيد كنومٍ نائمٍ، وللدلالة على أن تسمية ما يغشاهم من العذاب بالظل استهزاء بهم.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ والمرسل المفصّل في قوله: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾. فالأول وهو التشبيه بالقصر تشبيه في العظم، والثاني وهو التشبيه بالجمل تشبيه في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط والحركة.

ومنها: الإهانة والتعجيز والتقريع في قوله: ﴿فَكِيدُونِ﴾، لأنّ الأمر فيه أمر إهانة، والخطاب فيه خطاب تعجيز وتقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ﴾، سميّ العذاب ظلاًّ تهكّماً وسخرية بهم.

ومنها: المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجّار في قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، قابل ذلك بقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ﴾ إلخ، من إطلاق الحال وإرادة المحل، وهو الجنة، علاقته المحلية، لأنّ الظلال تمتدّ فيها، والعيون تجري فيها، والفواكه تنضج فيها.

ومنها: المجاز المرسل أيضاً في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ علاقته البعضيّة، لأنّه سمى الصلاة باسم جزء من أجزائها، وهو الركوع، وإنما خص الركوع بالذكر مع أن الصلاة تشتمل على أفعال كثيرة، لأنّ العرب كانوا يأنفون من الركوع والسجود.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾، فقد نكّرهما مع أنها تكفت الأحياء والأموات جميعاً للتفخيم، كأنّه قيل: أحياء لا يعدون وأمواتاً لا يحصون على أنّ أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة من المقاصد

١ ـ الإخبار بأنّ يوم الفصل آتٍ لا شكّ فيه، وقد أكد ذلك بالقسم بملائكته الكرام.

٢ ـ وعيد الكافرين بأنه سيستن بهم سنة الأولين من المكذبين.

٣ ـ توبيخ المكذّبين على نكران نعم الله عليهم في الأنفس والآفاق.

٤ ـ وصف عذاب الكافرين بما تشيب من هوله الولدان.

٥ ـ وصف نعيم المتقين، وما يلقونه من الكرامة في جنات النعيم، ويتخلل ذلك وصف خلق الإنسان، والأرض والجبال وبيان عظمة الخالق وكمال قدرته[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تمت سورة المرسلات بعون خالق البريات، وصل اللهم على عبدك ورسولك محمدٍ النبيّ الأمّي، وعلى آله وصحبه وسلم.

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء في يوم الثلاثاء قبيل الغروب اليوم السابع من شهر الجمادى الأخيرة من شهورة سنة ألف وأربع مئة وستّ عشرة من الهجرة النبويّة، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيّة. بعد أن عاقني عن موالاته شواغل الدهر، فلله الحمد على كماله، والشكر له على نواله. وصلى الله تعالى على سيّدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين آمين يا ربّ العالمين ألف ألف آمين.

شعرٌ

إِنِّـيْ إِذَا مَـا خَـتَـمْـتُ خَـتْـمَـاً   أَقُـوْلُ يـا ٱلـلَّـهُـمَّ يَـا ٱلـلَّـهُـمَّـا
لَـكَ ٱلْـحَـمْـدُ حَـمْـدَاً يُـوَافِـيْ   وَلَـكَ ٱلـشُّـكْـرُ شُـكْـرَاً يُـكَـافِـيْ
عَلَىٰ مَا بِهِ مِنَ ٱلتَّفْسِيْرِ أَكْرَمْتَنِيْ   وَمَـا بِـهِ مِـنَ ٱلْـفُـنُـوْنِ أَلْـهَـمْـتَـنِـيْ

آخرُ

يَا خَادِمَ ٱلْجِسْمِ كَمْ تَسْعَىٰ لِخِدْمَتِهِ   وَتَـطْـلُـبُ ٱلـرِّبْـحَ مِـمَّـا فِـيْـهِ خُـسْـرَانُ
عَلَيْكَ بِٱلنَّفْسِ فَٱسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا   فَـأَنْـتَ بِـٱلـنَّـفْـسِ لاَ بِـٱلْـجِـسْـمِ إِنْـسَـانُ

آخرُ

وَمِـنْ عَـجَـبِ ٱلأَيَّـامِ أَنَّـكَ قَـاعِـدُ   عَـلَىٰ ٱلأَرْضِ فِيْ ٱلـدُّنْـيَـا وَأَنْـتَ تَـسِـيْـرُ
فَـسَـيْـرُكَ يَـا هَـذا كَـسَـيْـرِ سَـفِـيْـنَـةٍ   بِـقَـوْمٍ قُـعُـوْدٍ وَٱلْـقُـلُـوْبُ تَـطِـيْـرُ

آخرُ

كُـنْ مِـنَ ٱلْـخَـلْـقِ جَـانِـبَـا   وَٱرْضَ بِـٱلـلَّـهِ صَـاحِـبَـا
قَـلِّـبِ ٱلْـخَـلْـقَ كَـيْـفَ شِـئْـ   ـتَ تَـجِـدْهُ عَـقَـارِبَـا

الفهرس

سورة المرسلات ٥٢٧

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الحادي والثلاثون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل القرآن منهلاً عذباً للورود والصدور، وأنزله موعظةً وشفاءً لما في الصدور، جمع فيه علوم الأولين والآخرين، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، والصلاة والسلام علىٰ من أوحي إليه ذلك القرآن، من لوح الوجوب والأمر والشأن، سيدنا محمد الذي أجرىٰ من مسجله ما يحاكي السلسبيل والرحيق، وأفحم ببلاغته كل متكلم منطيق، وفسر الآيات في الأنفس والآفاق علىٰ مراد الله سبحان الملك الخلاق، وعلى آله وصحبه المقتبسين من مشكاة أنواره، المغترفين من بحار أسراره، ومن تبعهم بإحسان ممن تخلق بالقرآن في كل زمان.

أما بعد: فيقول العبد المعترف بذنبه وخطئه، المنادي لربه في عفوه وعطائه: إني لما فرغت من تفسير الجزء التاسع والعشرين من القرآن الكريم.. عزمت إن شاء الله تعالىٰ علىٰ الشروع في تفسير الجزء الثلاثين، وإن كان علم التفسير لا يقحم في معاركه كل ذمير، وإن كان أسداً، ولا يحمل لواءه كل أمير، وإن مات حسداً، وذلك أظهر من أن يورد عليه دليل، كالنيرين لغير كليل، ومع خطر ذاك فالأمد قصير، وفي العبد تقصير، وكم ترىٰ من نحرير كامل في التحرير والتقرير، قد أصابه سهم القضاء قبل بلوغ الأمل، وذلك بحلول ريب المنون والأجل، أو بتطاول يد الزمان، فإن الدنيا لا تصفو لشاربٍ وإن كانت ماء الحيوان، وأي وجود لا ينسج عليه عناكب الآفات والعاهات، وأي نعيم لا يكدره الدهر هيهات هيهات.

اللهم كما عودتني في الأول خيراً كثيراً، فيسر لي الأمر في الآخر تيسيراً، واجعل رقيمي هذا سبباً لبياض الوجه، كما تبيض وجوه أولئك، وامح مسودات أعمالي بحق كتابك الكريم، واجعل قراري في جنات النعيم، ولم أكن بدعائك رب شقياً، بكرة وعشياً، ما دمت حياً، فلك الحمد يا إلهي في الأولىٰ والأخرىٰ، علىٰ عنايتك الكبرىٰ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وأقول مستمداً من الله سبحانه التوفيق والهداية لأقوم الطريق:

سورة النبأ

سورة النبأ، وتسمىٰ سورة عمَّ، وسورة المعصرات، وسورة التساؤل، مكية عند الجميع[1]، نزلت بعد سورة المعارج، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة عم يتساءلون بمكة، وأخرج ابن مردويه عن الزبير مثله. وهي أربعون آية، وقيل: إحدى وأربعون آية، وكلماتها مئة وثلاث وسبعون كلمة، وحروفها تسع مئة وسبعون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ اشتمالها علىٰ إثبات القدرة على البعث الذي ذكر في السورة السالفة أن الكافرين كذبوا به.

٢ ـ أن في هذه وما قبلها تأنيباً وتقريعاً للمكذبين، فهناك قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾، وهنا قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾.

٣ ـ أن في كل منهما وصف الجنة والنار، وما ينعم به المتقون، ويعذب به المكذبون.

٤ ـ أن في هذه تفصيل ما أجمل في تلك من يوم الفصل، فهناك قال: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤﴾ وهنا قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧﴾ إلىٰ آخر السورة.

وقال أبو حيان[3]: مناسبتها لما قبلها ظاهرة لما ذكر في ما قبله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بعد الحديث الذي هو القرآن، وكانوا يتجادلون فيه ويتساءلون عنه.. قال: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم في «الناسخ والمنسوخ»: سورة النبأ محكم كلها، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

تسميتها: سميت سورة النبأ، وسورة التساؤل؛ لذكر النبأ العظيم، أو التساؤل فيها.

فضلها: ومما ورد في فضلها(١): ما روىٰ أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ عم يتساءلون.. سقاه الله برد الشراب يوم القيامة». وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «تعلموا سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾، وتعلموا ﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾، ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾، ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾﴾، فإنكم لو تعلمون ما فيهن.. لعطلتم ما أنتم عليه وتعلمتموهن، وتقربوا إلىٰ الله بهن، إن الله يغفر بهن كل ذنب إلا الشرك بالله». ولكن فيه مقال.

وعن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال قلت: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب قال: «شيبتني هودٌ، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»، وفيه إشارة إلىٰ أن من تعلم هذه السور، ينبغي له أن يتعلم معانيها أيضاً، إذ لا يحصل المقصود إلا به، وتصريح بأن الآخرة ومطالعة الوعيد يشيب الإنسان.

والله أعلم

* * *

---

(١) الخازن.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعۡلَمُونَ ٥ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ
سُبَاتٗا ٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢ وَجَعَلۡنَا
سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦
إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا
١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ
أَحۡقَابٗا ٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ٢٥ جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦ إِنَّهُمۡ
كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ٢٨ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩ فَذُوقُواْ
فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا
٣٤ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ٣٥ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا
بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ
ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا
قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾.

المناسبة

لما اختتم الله سبحانه وتعالى سورة المرسلات بذكر يوم القيامة، و وعيد المكذبين؛ حيث قال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ٥٠﴾.. افتتح هذه السورة بذكر النبأ العظيم، ويوم القيامة، ودلائل القدرة الربانية علىٰ البعث والنشور، والإعادة بعد الإبادة، والإحياء بعد الإماتة؛ ليقوم الناس لرب العالمين، فيلقىٰ كل منهم جزاء علمه.

وقد ذكر لهم من مظاهر قدرته أموراً تسعة يشاهدونها بأعينهم، لا يخفىٰ عليهم شيء منها:

١ ـ انبساط الأرض وتمهيدها لتصلح لسير الناس والأنعام.

٢ ـ ثبات الجبال صاعدة في الجو.

٣ ـ تنوع الآدميين إلى ذكور وإناث.

٤ ـ جعل النوم راحةً للإنسان من عناء الأعمال التي يزاولها عامة نهاره.

٥ ـ جعل الليل ساتراً للخلق.

٦ ـ جعل النهار وقتاً لشؤون الحياة والمعاش.

٧ ـ ارتفاع السموات فوقنا مع إحكام الوضع ودقة الصنع.

٨ ـ وجود الشمس المنيرة المتوهجة.

٩ ـ نزول المطر وما ينشأ عنه من النبات، فكل ذلك داع لهم أن يعترفوا أن من قدر علىٰ كل هذا.. فلا تعجزه إعادتهم إلى النشأة الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نبه عباده إلىٰ هذه الظواهر الباهرة، ولفت أنظارهم إلى آياته القاهرة.. أخذ يبين ما اختلفوا فيه ونازعوا في إمكان حصوله، وهو يوم الفصل، ويذكر لهم بعض ما يكون فيه، تخويفاً لهم من الاستمرار علىٰ التكذيب بعدما وضحت الأدلة، واستبان الحق، ثم أبان لهم أن هذا يوم شأن عظيم، وأمر الكائنات فيه علىٰ غير ما تعهدون، ثم ذكر منزلة المكذبين الذين جحدوا آيات الله واتخذوها هزواً، وأن جهنم مرجعهم الذي ينتهون إليه، وأنهم سيقيمون فيها أحقاباً طوالاً لا يجدون شيئاً من النعيم والراحة، ولا يذوقون فيها روحاً ينفس عنهم حر النار، ولا يذوقون من الشراب إلا الماء الحار، والصديد الذي يسيل من أجسادهم جزاء سيء أعمالهم، إذ هم كانوا لا ينظرون يوم الحساب، ومن ثم اقترفوا السيئات، وارتكبوا مختلف المعاصي، وكذبوا الدلائل التي أقامها الله تعالىٰ علىٰ صدق رسوله أشد التكذيب، وقد أحصىٰ الله كل شيء في كتاب علمه، فلم يغب عنه شيء صدر منهم، وسيوفيهم جزاء ما صنعوا، وستكون له كلمة الفصل، فيقول لهم ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين حال المكذبين.. أردفه ما يفوز به المتقون من الجنات التي وصفها ووصف ما فيها، وذكر أنها عطاء من الله تعالىٰ، وفي هذا استنهاض لعوالي الهمم بدعوتهم إلى المثابرة علىٰ أعمال الخير، وازديادهم من القربات والطاعات، كما أن فيها

إيلاماً لأنفس الضالين المكذبين.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ إلىٰ آخرِ السورة، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن يوم القيامة موعد للفصل بين الخلائق، وتنتهي به أيام الدنيا، وأن دار العذاب معدة للكافرين، وأن الفوز بالنعيم للمتقين.. أعقب ذلك بأن هذا يوم يقوم فيه جبريل والملائكة صفاً صفاً لا يتكلمون إلا إذا أذن لهم ربهم، وقالوا قولاً صحيحاً، ثم أتبعه بأن هذا اليوم حق لا ريب فيه، وأن الناس فيه فريقان: فريق بعيد من الله، ومرجعه إلىٰ النار، وفريق مآبه القرب من الله، ومنازل الكرامة، فمن كانت له مشيئة صادقة.. فليتخذ مآباً إلىٰ ربه، وليعمل عملاً صالحاً يقربه منه، ويحله محل كرامته.

ثم عاد إلىٰ تهديد المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم، وأنهم يعلمون غداً ما قدمته أيديهم، ويرونه حاضراً لديهم، وحينئذٍ يندمون، ولات ساعة مندم، ويبلغ من أَمْرِهم أن يقولوا: ليتنا كنا تراباً لم نصب حظاً من الحياة.

أسباب النزول

لما بعث رسول الله ﷺ برسالة رب العالمين إلىٰ العرب خاصة، وإلى الناس كافةً، وأمرهم بتوحيد الله عزّ وجلّ، وصدع بأمر الله وبلغهم بالبعث والنشور بعد الموت، وتلا عليهم القرآن العظيم.. جعلوا يتساءلون بينهم، فكانوا كلما اجتمعوا في ناد من أنديتهم، أو ندوة من ندواتهم.. أخذوا يتحدثون في شأن محمد ﷺ ورسالته وما جاء به من ربه، ويسأل بعضهم بعضاً، ويسألون غيرهم عن طريق الإنكار عليه، ويتعجبون منه، ويقولون ما الذي أتىٰ به محمد، وهل هو ساحر، أم شاعر، أم كاهن، أم اعتراه بعض آلهتنا بسوء؟ فنزلت هذه السورة إنكاراً عليهم، وتعجيباً من تساؤلهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿عَمَّ﴾: أصله[1]: عن ما، أدغمت النون في الميم لاشتراكهما في الغنة،

---

(١) روح البيان.

فصار عما، ثم حذفت الألف كما في لِمَ وبِمَ وفيمَ وإلامَ وعلامَ، فإنها في الأصل: لما وبما وفيما وإلى ما وعلى ما؛ إما فرقاً بين الاستفهامية وغيرها، أو قصداً للخفة لكثرة استعمالها، وقد جاءت في العشر غير محذوفة، كما ذكره أبو البقاء، ومنه قول الشاعر:

عَلَىٰ مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيْمٌ   كَخِنْزِيْرٍ تَمَرَّغَ فِيْ رَمَادِ

ولكنه قليل لا يجوز إلا لضرورة، وما فيها من الإبهام للإيذان بفخامة شأن المسؤول عنه وهوله، وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة، كأنه خفي جنسه، فيسأل عنه، فالاستفهام ليس علىٰ حقيقته، بل لمجرد التفخيم، فإن المسؤول عنه ليس بمجهول بالنسبة إلىٰ الله تعالى إذ لا تخفى عليه خافية، قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام، والمعنىٰ تفخيم القصة، كما تقول أي شيء تريد؟ إذا عظمت شأنه، وقرأ الجمهور(١): ﴿عَمَّ﴾ بحذف الألف لما ذكرنا آنفاً، وقرأ أبي وابن مسعود وعكرمة وعيسى: ﴿عما﴾ بالألف، وهو أصل: عم، ولكنه قليل كما مر آنفاً، وقرأ الضحاك وابن كثير في رواية والبزي: ﴿عمه﴾ بهاء السكت عوضاً عن الألف إجراء للوصل مجرى الوقف لأن الأكثر في الوقف علىٰ ما الاستفهامية هو إلحاق هاء السكت إذا أضيف إليها نحو: مجيء مه، والاستفهام عن هذا فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجيب، كما تقول أي رجل تريد؟ وزيد ما زيد؟ كأنه لما كان عديم النظير أو قليله خفي عليك جنسه، فأخذت تستفهم عنه، ثم جردت العبارة عن تفخيم الشيء، فجاء في القرآن، والمعنىٰ عن أي شيء عظيم يتساءلون.

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أي أهل مكة، وكانوا يتساءلون عن البعث والحشر الجسماني ويتحدثون فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكاراً واستهزاءً، لكن لا علىٰ طريق التساؤل عن حقيقته ومسماه، بل عن وقوعه الذي هو حال من أحواله، ووصف من أوصافه، فإن (ما) وإن وضعت لطلب حقائق الأشياء، ومسميات أسمائها، كما في قولك: ما المَلَك، وما الروح؟ لكنها قد يطلب بها الصفة والحال، تقول: ما زيد؟ فيقال عالم أو طبيب، وقيل: يتساءلون عن القرآن، وإنما كان عظيماً؛ لأنه ينبىء عن التوحيد وتصديق الرسول ووقوع البعث والنشور، قال الفراء: التساؤل هو أن يسأل بعضهم

---

(١) البحر المحيط.

بعضاً كالتقابل، وقد يستعمل أيضاً في أن يتحدثوا به، وإن لم يكن سؤال، قال الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١﴾ الآية، وهذا يدل على أنه التحدث. انتهىٰ.

وقرأ الجمهور: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾، وقرأ عبد الله وابن جبير: ﴿يَسَّاءلون﴾ بغير تاء وشد السين، وأصله ﴿يتساءلون﴾ بالتاء، فأدغمت التاء في السين.

ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عن ماذا، وبيَّنه فقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ والنبأ: الخبر الذي له شأن وخطر، وهو جواب وبيان لشأن المسؤول عنه، كأنه قيل: عن أي شيء يتساءلون؟ هل أخبركم به ثم قيل بطريق الجواب: عن النبأ العظيم الخارج عن دائرة علوم الخلق يتساءلون علىٰ منهاج قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

والفائدة في أن يذكر السؤال ثم أن يذكر الجواب معه(١): كون هذا الأسلوب أقرب إلىٰ التفهيم والإيضاح، فـ ﴿عَنِ﴾ متعلقة بما يدل عليه المذكور من مضمر حقه أن يقدر بعدها مسارعةً إلىٰ البيان، ومراعاة لترتيب السؤال، فإن الجار فيه مقدم علىٰ متعلقه.

وقيل: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ استفهام آخر بمعنىٰ: أعن النبأ العظيم، أم عن غيره؟ إلا أنه حذف منه حرف الاستفهام لدلالة المذكور عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾؛ أي: أهم الخالدون؟ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ وصف النبأ بعد وصفه بـ﴿الْعَظِيمِ﴾ تأكيداً لخطره إثر تأكيد، وإشعاراً بمدار السؤال عنه، فهو متصف بالعُظم، ومتصف بوقوع الاختلاف فيه، و ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ قدم عليه اهتماماً به ورعايةً للفواصل، وجعل الصلة جملة اسمية للدلالة علىٰ الثبات في الاختلاف فيه؛ أي هم راسخون في الاختلاف فيه، فمن جازم باستحالته يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾ ومن مقر يزعم أن آلهته تشفع له، كما قالوا ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾، ومن شاكٍ يقول: ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

---

(١) روح البيان.

وفي «الشوكاني»: وقد استدل علىٰ أن ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو القرآن بقوله: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ فإنهم اختلفوا في القرآن، فجعله بعضهم سحراً، وبعضهم شعراً، وبعضهم كهانةً، وبعضهم قال: هو أساطير الأولين، وأما البعث.. فقد اتفق الكفار إذا ذاك علىٰ إنكاره، ويمكن أن يقال: إنه قد وقع الاختلاف في البعث في الجملة، فصدق به المؤمنون، وكذب به الكافرون، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيثية، وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم علىٰ التسليم والتنزل. ومما يدل على أنه القرآن قوله سبحانه ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾، ومما يدل على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون، وتأباه عقولهم السخيفة.

وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يرجع إلىٰ المؤمنين والكفار؛ لأنهم جميعاً كانوا يتساءلون عنه، فأما المؤمن فيزداد يقيناً واستعداداً وبصيرةً في دينه، وأما الكافر فاستهزاءً وسخريةً، قال الرازي: ويحتمل أنهم يسألون الرسول، ويقولون: ما هذا الذي يعدنا به من أمر الآخرة؟

والمعنى[1]: أي عن أيِّ شيء يتساءل المشركون من أهل مكة وغيرهم فيما بينهم إنكاراً واستهزاءً، ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ أي: عن الخبر العظيم الشأن الذي اختلفوا فيه يتساءلون، فقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ سؤال، وقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ جواب، فالسائل والمجيب هو الله تعالىٰ، وإيراد الكلام بصورة السؤال والجواب أقرب إلىٰ التفهيم والإيضاح، وتثبيت الجواب في نفس السائل، كما مر. روي أن النبي ﷺ لما دعاهم إلىٰ التوحيد، وأخبرهم بالبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن.. جعلوا يتساءلون فيما بينهم، فيقولون ماذا جاء به محمد ﷺ؟ ويسألون الرسول والمؤمنين عنه استهزاءً. وقيل: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾: هو نبوة محمد ﷺ، وذلك لأنهم عجبوا إرسال الله محمداً إليهم.

ثم أخذ سبحانه يرد عليهم متوعداً لهم، فقال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾، فالكلام[2] فيه ردع كما يستفاد من ﴿كَلَّا﴾، ووعيد كما يستفاد من ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾؛ أي ليس أمر البعث مما ينكر أو يشك فيه، بحيث يتساءل عنه، سيعلمون أن ما يتساءلون عنه حق لا دافع له، واقع لا ريب فيه، مقطوع لا شك، وقيل: ﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقاً سيعلمون

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أي حقاً يعلم الكفار عاقبة تكذيبهم، ويعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم.

والمعنىٰ: أي: ليس[1] الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذين ينكرون البعث بعد الموت، ثم توعدهم بأنهم سيعلمون إذا ما عاينوا بأنفسهم حقيقة ما كانوا ينكرون، وتنقطع عنهم الريبة حين يسأل كل عامل عما عمل، ويفصل بين الخلائق.

وقصارىٰ ذلك: فليزدجروا عما هم فيه، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال إذا حل بهم العذاب والنكال، وأن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا شك فيه ولا ريب، ثم أكد هذا الوعيد بقوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ تكرير[2] للردع والوعيد للمبالغة في التأكيد والتشديد في الوعيد، و ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة علىٰ أن الوعيد الثاني أبلغ وأشد، يعني: أن ﴿ثُمَّ﴾ موضوعة للتراخي الزماني، وقد تستعمل مجازاً في التراخي الرتبي؛ أي: لتباعد ما بين المعطوفين في الشدة والفظاعة، وذلك لتشبيه التباعد الرتبي بالتراخي الزماني في الاشتمال علىٰ مطلق التباعد بين الأمرين، والمعنىٰ المجازي هو المراد هنا، لأن المقام مقام التشديد والتهديد، وذلك إنما يكون آكد بالحمل عليه، وبعضهم حملها علىٰ معناها الحقيقي فقال: سيعلمون حقيته عند النزع، ثم في يوم القيامة، ولا شك أن القيامة متراخية بحسب الزمان عن وقت النزع، فـ ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن التساؤل والاختلاف بالمعنيين المذكورين، و ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بطريق الاستئناف، وتعليل للردع، والسين للتقريب والتأكيد، وليس مفعوله ما ينبىء عنه المقام من وقوع ما يتساءلون عنه، ووقوع ما يختلفون فيه، بل هو عبارة عما يلاقون من فنون الدواهي والعقوبات، والتعبير عن لقائها بالعلم لوقوعه في معرض التساؤل والاختلاف، والتقدير: أي سيعلمون ما يحل بهم من فنون العقوبات.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بياء الغيبة في الموضعين، وقرأ الحسن وأبو العالية وابن دينار وابن عامر في روايةٍ عنه بالفوقية علىٰ الخطاب في الموضعين، وقرأ الضحاك: الأول بالفوقية، والثاني بالتحتية، وقال الضحاك أيضاً: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

يعني: الكافرين عاقبة التكذيب ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ يعني: المؤمنين عاقبة تصديقهم، وقيل: بالعكس، وقيل هو وعيد بعد وعيد، وقيل: المعنى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ عند النزع ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ عند البعث، كما مر.

ثم شرع يبين عظيم قدرته، وآيات رحمته التي غفل عنها هؤلاء المنكرون مع أنها بين أعينهم في كل حين؛ ليعرفوا توحيده، ويؤمنوا بما جاء به رسوله، فقال:

١ - ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ والاستفهام(١) للتقرير بمعنىٰ: جعلنا الأرض مهاداً، والمهاد: بمعنىٰ البساط والفراش، أي: ألم نجعل الأرض بساطاً ممهوداً، وفراشاً مفروشاً لكم، تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل علىٰ بساطه وفراشه؛ أي: قدرتنا علىٰ هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا علىٰ الإعادة بالبعث، والمهاد: الوطاء والفراش، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ و ﴿مِهَٰدًا﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿جَعَلَ﴾ إن كان الجعل بمعنىٰ التصيير، وحال مقدرة إن كان بمعنىٰ الخلق، وجوز أن يكون جمع مهد، ككعاب وكعب، وجمعه لاختلاف أماكن الأرض من القرى والبلاد وغيرها، أو للتصرف فيها بأن يجعل بعضها مزارع، وبعضها مساكن إلى غير ذلك.

والجملة الاستفهامية مستأنفة مسوقة لتحقيق النبأ، والمتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقيته إثر ما نبه عليها بما ذكر من الردع والوعيد، ومن هنا اتضح أن المتساءل عنه هو البعث لا القرآن، أو نبوة النبي ﷺ كما قيل، لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به علىٰ البعث.

وقرأ الجمهور ﴿مِهَٰدًا﴾ قال ابن الشيخ: المهاد: مصدر ماهدت بمعنىٰ مهدت كسافرت بمعنىٰ: سفرت، أطلق على الأرض الممهودة. وقرأ مجاهد(٢) وعيسى وبعض الكوفيين: ﴿مهدا﴾ بفتح الميم وسكون الهاء، والمعنىٰ: أنها كالمهد للصبي، وهو ما يمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر، ولم ينسب ابن عطية عيسىٰ في هذه القراءة. وقال ابن خالويه: مهداً على التوحيد عند مجاهد وعيسى

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

الهمداني، وهو الحوفي، فاحتمل أن يكون قول ابن عطية وبعض الكوفيين كنايةً عن عيسىٰ الهمداني، وإذا أطلقوا عيسىٰ، أو قالوا: عيسى البصرة.. فهو عيسى ابن عمر الثقفي.

والمعنىٰ: أي فكيف تنكرون أو تشكون أيها الجاحدون في البعث والنشور، وقد رأيتم ما يدل عليه من قدرة الله التامة، وعلمه المحيط بكل شيء، وحكمته الباهرة التي تقتضي أن لا يكون ما خلق من الخلق عبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

فمن ينعم بهذه النعم لا يمكن أن يهملها ويتركها سدىً، انظروا إلىٰ الأرض التي جعلها الله لك ممهدةً وموطأة الأكناف للناس والدواب، يقيمون عليها، ويفترشونها، وينتفعون بها بخيراتها الظاهرة والباطنة، ويبنون القصور الشامخة والعمارات السامقة، وهي بين أيديهم ذليلة لا تستعصي حتىٰ علىٰ الطفل منهم يشقها كيف يشاء، وهي في ضخامتها وعظمتها، لكن الله الذي خلقها ذللها للناس ومهدها لهم، ووطأها وألانها بين أيديهم، وجعلها ساكنة ثابتة قارَّة لا تتحرك ولا تضطرب إلا بإذنه وقدرته تعالى، ألا ينظرون إلى عظمة هذه الأرض التي منها خلقوا، وفيها سيعودون، ومنها سيخرجون تارة أخرىٰ شاؤوا أم أبوا، ألا ينظرون إلىٰ أسرار التربة التي في الأرض، وما فيها من عجائب صنع الله تعالىٰ، ففي هذا التراب الذي تحت قدميك الحلو والحامض، والدم واللحم، والعظم والخبز، والقطن والصوف، وما يأكل الناس والدواب ويلبس، فسبحان الخالق العظيم الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، واسمعوا قول الله سبحانه إذ يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ وأشباه ذلك من الآيات.

٢ ـ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾؛ أي: وجعلنا الجبال لها كالأوتاد كي لا تميل بأهلها ولا تضطرب بسكانها، كما ترسى الخيام بالأوتاد، ولولاها لكانت دائمة الاضطراب لما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان والمعادن المختلفة الأشكال والألوان، فلا تتم الحكمة في كونها مهاداً، فهو من باب التشبيه البليغ كما سيأتي، والأوتاد: جمع وتد، وهو ما يوتد ويحكم به المتزلزل المتحرك من اللوح وغيره.

فإن قيل[1]: أليست إرادة الله وقدرته كافيتين في التثبيت؟.

أجيب: بأنه نعم إلا أنه مسبب الأسباب، وذلك من كمال القدرة، وإطلاق كلمة الأرض علىٰ الكرة الأرضية اصطلاح أهل الهيئة، وليس معناها في اللغة إلا البسيط الممدود تحت أقدام المخلوقين المسمى بالبر، وهو قشر جامد علىٰ مائع مذاب، ولا بد أن يكون في معرض الميدان والاضطراب، ولولا أن الجبال أثقلته واشتبكت به أصولها، وهي من الأحجار الصلبة والصخور الجامدة.. لكانت الزلازل دائمة الحدوث، والخسف والشق وهلاك آلاف من النفوس في كل يوم متواترةً متكررةً، ولكن الحكمة الربانية اقتضت تصلب القشر الأرضي بالأحجار؛ لئلا تميد بأهلها، فسبحان الذي جعل الجبال أوتاداً، والأرض مهاداً، وسلكها ينابع وأنهاراً وسبلاً فجاجاً، جل جلاله وعز كماله.

٣ - ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾ معطوف علىٰ المضارع المنفي بلم داخل في حكمه، فإنه في قوة: إنا جعلنا الأرض مهادا، أو علىٰ ما يقتضيه الاستفهام التقريري، فإنه في قوة أن يقال: قد جعلنا الأرض مهاداً. ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: حال كونكم أصنافاً ذكراً وأنثىٰ ليسكن كل من الصنفين إلىٰ الآخر، وينتظم أمر المعاشرة والمعاش، ويتسنىٰ التناسل.

والمعنىٰ[2]: أي وجعلناكم أصنافاً ذكوراً وإناثاً ليتمتع كل منكم بالآخر، وليتم الائتناس، والتعاون علىٰ سعادة المعيشة، وحفظ الحياة بالإنسال والتوليد، وتكميلها بالتربية والتعليم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وقيل: معناه: وخلقناكم أشكالاً كل واحد شكل للآخر، وقيل: معنىٰ أصنافاً: أي: أسود وأبيض وأحمر وأصفر وصغيراً وكبيراً، إلى غير ذلك من وجوه الاختلاف بين بني آدم.

وقال بعضهم: معنىٰ الآية: وخلقناكم حال كونكم معروضين لأوصاف متقابلة، كل واحد منها مزدوج بما يقابله، كالفقر والغنىٰ، والصحة والمرض، والعلم والجهل، والقوة والضعف، والذكورة والأنوثة، والطول والقصر، إلى غير

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ذلك، وبه يصح الابتلاء، فإن الفاضل يشتغل بالشكر، والمفضول بالصبر، ويعرف قدر النعمة عند الترقي من الصبر إلىٰ الشكر، وكل ذلك دليل على كمال القدرة، ونهاية الحكمة. ا هـ.

والمعنى الأول أقرب، فالله تبارك وتعالى يذكرنا بهذه القدرة العظيمة، وبهذه النعمة الجليلة، وهو أنه خلقنا أزواجاً لنتعاون على أمور الحياة، وليقوم الرجل بوظيفته من العمل والكسب والرعاية والحماية، ولتقوم المرأة بوظيفتها من التربية والتهذيب وشؤون المنزل وأمور الزوج والأطفال، ولتعاون الرجل في هذه الأمور التي خلقت لأجلها، ولولا التعاون بين الرجل والمرأة.. لاختل نظام الحياة، وعاش كل واحد منهما في شقاء وعناء، فسبحان الله الذي خلقنا أزواجاً، وجعل بيننا مودة ورحمة، وجعل كلاً منا سكناً لصاحبه، فله الحمد، وله الشكر، وله الثناء الحسن على ما أنعم وتكرم.

٤ - ﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي: صيَّرنا ﴿نَوْمَكُمْ﴾ وهو استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعدة إليه، ولذا قل في أهل الرياضة لقلة الرطوبة ﴿سُبَاتًا﴾؛ أي: موتاً لأن النوم أحد الموتتين، ولكنه لم تفارقه الروح، أو كالموت، والمسبوت: الميت، من السبت، وهو: القطع؛ لأنه مقطوع عن الحركة، ومنه سمي يوم السبت؛ لأن الله تعالى ابتدأ بخلق السموات والأرض يوم الأحد، فخلقها في ستة أيام، فقطع عمله يوم السبت، فسمي بذلك، وقيل: معنى ﴿سُبَاتًا﴾؛ أي: راحةً لأبدانكم، قال الزجاج: السبات أن ينقطع عن الحركة والروح في بدنه؛ أي: جعلنا نومكم راحةً لكم، وقال ابن الأنباري: جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم، لأن أصل السبت: القطع، وهو - أي النوم - من نعم الله الكبرىٰ علىٰ الناس، فإن النوم بعض ساعات في اليوم يريح القوة من تعبها، وينشطها من كسلها، ويعيد إلىٰ الجسم ما فقد منه من نشاط، ولو لم يكن النوم موتاً، واليقظة بعثاً.. لم يتم هذا التجديد لقوىٰ الإنسان، بل يفقد الإنسان الطاقة علىٰ العمل، فالمرء قد يصبر علىٰ فقد الطعام والشراب أياماً، ولكنه لا يطيق الصبر على السهر، والسهر يفني الجسم ويبليه، فالله سبحانه جعل نومنا في الليل قطعاً للحركة، وإيقافاً للعمل، لتحصيل الراحة في فترة النوم من كثرة الترداد، والسعي في سحابة النهار، وإذا استرحنا في النوم.. فقد تجددت عزائمنا، ونشطت جوارحنا، وقويت أجسامنا، ونستأنف أعمالنا ونحن أقوى ما نكون، والنوم سلطان

يملكنا ولا نملكه، ويتحكم فينا، ولا نستطيع التحكم فيه.

والمعنىٰ: أي وجعلنا نومكم في الليل قطعاً للمتاعب التي تكابدونها في النهار سعياً في تحصيل أمور المعاش، فالمشاهد أن في نوم بعض ساعات الليل راحة للقوى من تعبها، ونشاطاً لها من كسلها، وإعادة لما فقد منها، ولولا ذلك لنفدت القوى وانقطع المرء عن العمل في شؤون الحياة المختلفة.

٥ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ الذي يقع فيه النوم ﴿لِبَاسًا﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس؛ أي: وجعلنا الليل بظلامه ساتراً للأجسام، ومغطياً لها كاللباس الذي يغطي الجسم ويستره، ووجه المنة في ذلك: أن ظلمته تستر الإنسان عن العيوب إذا أراد هرباً من عدو، أو إخفاء لما لا يحب أن يطلع عليه غيره، ولله در المتنبي:

وَكَمْ لِظَلَامِ ٱللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ ... تُخَبِّرُ أَنَّ ٱلْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

والمانوية: طائفة تعتقد أن الخير من النهار، والشر من الليل، وقال بعض أرباب المحبة:

ٱللَّيْلُ لِلْعَاشِقِيْنَ سِتْرٌ ... يَا لَيْتَ أَوْقَاتَهُ تَدُوْمُ

خصوصاً أهل الإحسان والطاعات الذين يحبون أن يخفوا عن الناس أعمالهم لتتجرد من الرياء، وتخلص لله سبحانه، وفي ظلام الليل فوائد كثيرة، وبالظلام ينام المرء نوماً عميقاً هادئاً يحفظ جسمه من التعب والنصب، ولولا هذا اللباس من الظلام.. لما نام الإنسان هذا المنام، ولما أصابه هذا الهدوء، ففي الظلام تستريح الأعصاب، ويستريح النظر، ويتجدد الفكر، وينمو العقل، ويتعمق المرء في التفكير الدقيق، فسبحان الذي جعل الليل لباساً، والنهار معاشاً.

٦ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ⑪﴾؛ أي: جعلناه وقتاً لتحصيل أسباب المعاش؛ لأن الناس يتقلبون فيه في حوائجهم ومكاسبهم.

والمعنى: أن الله سبحانه جعل لكم النهار مضيئاً لتسعوا فيما يقوم به معاشكم، وما قسمه الله لكم من الرزق، والله سبحانه جعل النهار مشرقاً نيراً مضيئاً، تبعث منه الحياة وتدب فيه أصولها؛ ليتمكن الناس من التصرف فيه، والذهاب للمعاش، والتكسب والتجارات والصناعات والزراعة وغيرها، فلله الفضل والمنّة، فلو جعل علينا الليل سرمداً إلىٰ يوم القيامة، فمن يأتينا بنهار غيره عزّ

وجلّ، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾.

والمعاش: مصدر بمعنىٰ العيش، وكل شيء يعاش به، ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: وقت طلب معاش، كما سيأتي البحث عنه في مبحث التصريف.

٧ - ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ﴾؛ أي: خلقنا فوق رؤوسكم ﴿سَبْعًا﴾؛ أي: سبع سموات ﴿شِدَادًا﴾ جمع شديد؛ أي: غلاظاً قوية الخلق محكمة البناء لا يؤثر فيها مر الدهور، ولا كر العصور، ليس فيها تصدع ولا فطور، غلظ كل واحدة منها مسيرة خمس مئة عام، كما ورد في الحديث، والتعبير[1] عن خلقها بالبناء مبني علىٰ تنزيلها منزلة القباب المضروبة علىٰ الخلق.

٨ - ﴿وَجَعَلْنَا﴾؛ أي: أنشأنا وأبدعنا ﴿سِرَاجًا﴾ هو الشمس، والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير عن خلق السموات بالبناء، قال الراغب: السراج: الزاهر بفتيلة ودهن، ويعبر به عن كل شيء مضيء، ويقال للسراج مصباح. ﴿وَهَّاجًا﴾؛ أي: وقاداً متلألئاً، من وهجت النار إذا أضاءت، أو بالغاً في الحرارة من الوهج وهو الحر، وهو كما قال بعض المفسرين: ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾؛ أي: مضيئاً جامعاً بين النور والحرارة، وقال بعضهم: ﴿سِرَاجًا﴾؛ أي شمساً ﴿وَهَّاجًا﴾؛ أي حاراً مضطرم الاتقاد، وقال ابن عمر: الشمس في السماء الرابعة إلينا ظهرها، ولهيبها يضطرم علواً. كذا في «البحر».

قيل[2]: إن الشمس والقمر خلقا في بدء أمرهما من نور العرش، ويرجعان في القيامة إلىٰ نور العرش، وذلك فيما روىٰ عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ألا أحدثكم بما سمعت عن رسول الله ﷺ يقول في الشمس والقمر، وبدء خلقهما، ومصير أمرهما، قال: قلنا: بلىٰ يرحمك الله، فقال: إن رسول الله ﷺ، سئل عن ذلك، فقال: «إن الله تعالىٰ لما أبرز خلقه إحكاماً، ولم يبق من خلقه غير آدم، خلق شمسين من نور عرشه، فأما ما كان في سابق علمه أن يدعها شمساً، فإنه خلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها، وما كان في سابق علمه أن يطمسها

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

ويحولها قمراً، فإنه خلقه دون الشمس في العظم، ولكن إنما يرىٰ صغرهما لشدة ارتفاعهما في السماء، وبعدهما من الأرض، فلو ترك الله الشمس والقمر كما كان خلقها في بدء أمرهما.. لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل، ولا يدري الأجير متىٰ يعمل، ومتىٰ يأخذ أجره، ولا يدري الصائم متىٰ يصوم، ولا تدري المرأة متىٰ تعتد، ولا يدري المسلمون متىٰ وقت صلاتهم، ومتىٰ وقت حجهم، فكان الرب تعالى أنظر لعباده، وأرحم بهم، فأرسل جبريل، فأمر جناحه علىٰ وجه القمر، فطمس منه الضوء، وبقي فيه النور، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فالسواد الذي ترونه في القمر شبه الخطوط فيه، فهو أثر المحو».

قال: «فإذا قامت القيامة، وقضىٰ الله بين الناس؟ وميّز بين أهل الجنة والنار، ولم يدخلوهما بعد، يدعو الرب تعالىٰ الشمس والقمر، ويجاء بهما أسودين مكورين، قد وقفا في زلازل وبلابل ترعد فرائصهما من هول ذلك اليوم، ومخافة الرحمن، فإذا كانا حيال العرش.. خرا لله ساجدين، فيقولان: إلهنا، قد علمت طاعتنا لك، ودأبنا في عبادتك، وسرعتنا للمضيّ في أمرك أيام الدنيا، فلا تعذبنا بعبادة المشركين إيانا، فقد علمت أنا لم ندعهم إلى عبادتنا، ولم نذهل عن عبادتك، فيقول الرب: صدقتما، إني قد قضيت علىٰ نفسي أن أبدىء وأعيد، وإني معيدكما إلى ما أبدأتكما منه، فارجعا إلى ما خلقتكما منه، فيقولان: ربنا مم خلقتنا، فيقول: خلقتكما من نور عرشي، فارجعا إليه، قال: فتلمح من كل واحد منهما برقة تكاد تخطف الأبصار نوراً، فيختلطان بنور العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾». كذا في «كشف الأسرار».

وقال الشيخ في «الفتح المكي»: وأما الكواكب كلها فهي في جهنم مظلمة الأجرام، عظيمة الخلق، وكذلك الشمس والقمر، والطلوع والغروب لهما في جهنم دائماً. انتهىٰ.

يقول الفقير: لعل التوفيق بين هذا وبين الخبر السابق أن كلاً من الشمس والقمر حامل لشيئين: النورية، والحرارة، فما كان فيهما من قبيل النور.. فيتصل بالعرش من غير جرم؛ لأن الجرم لا يخلو من الغلظة والظلمة والكثافة، وما كان من قبيل النار والحرارة.. فيتصل بالنار مع جرمهما، فكل منهما يرجع إلىٰ أصله.

انتهىٰ من «روح البيان»، والحديث المذكور إن كان له أصل صحيح فمقبول، وإلا فلا.

وقد جعل الله سبحانه في هذه الكواكب سر الحياة[1]، فالحرارة والضوء يطردان الأمراض، وينعشان كل حي، ولا أدل على هذا مما نشاهد من فتك الأمراض بمن يكون بمنأى عن ضوئها وحرارتها، والجراثيم لا تتوالد إلا حيث يحتجب عنها السكان، ويبتعد عنها المكان.

٩ - ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ النون[2] للعظمة وللإشارة إلىٰ جمعية الذات، والأسماء والصفات. ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾، أي: من السحائب التي انعصرت واستدرت بالرياح، أي: شارفت أن تعصرها الرياح وتدرها فتمطر ولم تعصرها بعد، فالإنزال من المستعد لا من الواقع، وإلا فيلزم تحصيل الحاصل وهمزة أعصر للحينونة، و ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ اسم فاعل، يقال: أعصر الزرع: إذا حان له أن يحصد، وأعصرت الجارية؛ أي: حان لها أن تعصر الطبيعة رحمها فتحيض، وفي «المفردات»: المعصر: بكسر الصاد المرأة التي حاضت ودخلت في عصر شبابها. انتهىٰ. ولو لم تكن للحينونة.. لكان ينبغي أن يقرأ ﴿المعصَرات﴾ بفتح الصاد، علىٰ أنه اسم مفعول؛ لأن الرياح تعصرها، ويجوز أن يكون المراد من ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾: الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب فتمطر، فهي أيضاً اسم فاعل، والهمزة للحينونة كذلك.

فإن قيل: لِمَ لم تجعل الهمزة للتعدية؟ قلنا: لأن الرياح عاصرة لا معصرة.

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي: ماءً منصباً بكثرة، والمراد: تتابع القطر حتىٰ يكثر الماء فيعظم النفع به، يقال: ثج الماء؛ أي: سال بكثرة وانصب، وثجه غيره؛ أي: أساله وصبه فهو لازم ومتعد، ومن الثاني: قوله ﷺ: «أفضل الحج العج والثج» أي: رفع الصوت بالتلبية، وصب دماء الهدي.

ولا معارضة بين ما هنا، وبين قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، فإن ابتداء المطر إن كان من السماء يكون الإنزال منها إلىٰ السحاب، ومنه إلى الأرض، وإلا فإنزاله منها باعتبار تكونه بأسباب سماوية من جملتها حرارة الشمس، فإنها تثير

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وتصعد الأجزاء المائية من أعماق الأرض الرطبة، أو من البحار والأنهار إلى جو الهواء، فتنعقد سحاباً فتمطرنا، فالإنزال من المعصرات حقيقة، ومن السماء مجاز باعتبار السببية، والله مسبب الأسباب.

والمعنىٰ: أي وأنزلنا من السحاب والغيوم التي تتحلب بالمطر ماء كثير السيلان، عظيم الانصباب، ثم بين عظيم نفع الماء وجليل فائدته فقال: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الماء؛ أي: بسبب وصوله إلىٰ الأرض، واختلاطه بها وبما فيها، وهٰذه اللام لام المصلحة، لا لام الغرض، كما تقول المعتزلة.

﴿حَبًّا﴾ كثيراً يقتات به؛ أي: يكون قوتاً للإنسان، وهو ما يقوم به بدنه؛ كالحنطة والشعير والذرة والطيف ونحوها، ﴿وَنَبَاتًا﴾ كثيراً يعتلف به؛ أي يكون علفاً للدواب؛ كالحشيش والبرسيم ونحوهما، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ وتقديم الحب مع تأخره عن النبات في الإخراج لأصالته وشرفه؛ لأن غالبه غذاء الناس. ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: بساتين ملتفاً بعضها ببعض، لتشعب أغصانها، أي: أخرجناها ليتفكه بها الإنسان، والجنات: جمع جنة، والجنة في الأصل: هي السترة من مصدر جنه إذا ستره، تطلق علىٰ النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه، وعلىٰ الأرض ذات الشجر.

قال الفراء: الجنة: ما فيه النخل، والفردوس: ما فيه الكرم، والمراد هنا: هو الأشجار لا الأرض، وقوله: ﴿أَلْفَافًا﴾؛ أي: ملتفةً تداخل بعضها في بعض، وهذا من محسنات الجنان، كما نرىٰ في بساتين الدنيا، قالوا: ولا واحد للألفاف كالأوزاع والأخياف، والأوزاع: بمعنىٰ الجماعات المتفرقة كالأخياف، فإنه أيضاً بمعنىٰ الجماعات المتفرقة المختلطة، ومنه الأخياف للإخوة من آباء شتىٰ، وأمهم واحدة، وقيل: جمع لف بكسر اللام ككن وأكنان، وقيل: جمع لفيف كشريف وأشراف، وقيل: جمع لف بضم اللام جمع لفاء كخضر وخضراء، فيكون ألفافاً جمع الجمع، وقيل: جمع ملتفة بحذف الزوائد.

والمعنىٰ: أي وأنزلنا من السحاب ماءً كثيراً، لنبدل بوساطته جدب الأرض

---

(١) روح البيان.

خصباً، فنخرج من الأرض حباً يقتات به الناس كالحنطة والشعير، ونباتاً تقتات به الدواب، وحدائق ذات أغصان ملتفة.

وقد جمع الله سبحانه في هذه الآية جميع أنواع ما تنبته الأرض، فإن ما يخرج منها؛ إما أن يكون ذا ساق، أو لا، والأول: إذا اجتمع بعضه إلىٰ بعض وكثر حتىٰ التف.. فهو الحديقة، والثاني: إما أن يكون له أكمام فيها حب، وإما أن يكون بغير ذلك، وهو النبات.

وقدم الحب لأنه غذاء أشرف أنواع الحيوان، وهو الإنسان، وأعقبه بذكر النبات؛ لأنه غذاء بقية أنواع الحيوان، وأخر الحدائق؛ لأنه مما يستغني عنها الكثير من الناس.

قال ابن الشيخ: قدم ذا الحب؛ لأنه هو الأصل في الغذاء، وثنىٰ بالنبات؛ لاحتياج سائر الحيوانات إليه، وأخرت الجنات لانعدام الحاجة الضرورية إلىٰ الفواكه.

واعلم: أن فيما ذكر من أفعاله تعالىٰ دلالةً علىٰ صحة البعث، وحقيته من وجوه ثلاثة:

الأول: باعتبار قدرته تعالى، فإن من قدر علىٰ إنشاء هذه الأفعال البديعة من غير مثال يحتذيه وقانون ينتحيه.. كان علىٰ الإعادة أقدر وأقوىٰ.

والثاني: باعتبار علمه وحكمته، فإن من أبدع هذه المصنوعات علىٰ نمط رائق مستتبع لغاية جليلة، ومنافع جميلة عائدة إلىٰ الخلق، يستحيل أن يفنيها بالكلية، ولا يجعل لها عاقبة باقية.

والثالث: باعتبار نفس الفعل، فإن اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت، يشاهدونها كل يوم، وكذا إخراج الحب والنبات من الأرض الميتة، يعاينونه كل حين، كأنه قيل: ألم نفعل هذه الأفعال الآفاقية والأنفسية الدالة بفنون الدلالات علىٰ حقية البعث الموجبة للإيمان به، فمالكم تخوضون فيه إنكاراً، وتتساءلون عنه استهزاءً؟

ثم شرع في بيان ما يتساءلون عنه، فقال ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: إن اليوم الذي يفصل الله سبحانه فيه بين الخلائق، وبين السعداء والأشقياء باعتبار تفاوت

الهيئات والصور والأخلاق والأعمال وتناسبها، ﴿كَانَ﴾ في علمه وتقديره الأزلي، وإلا فثبوت الميقاتية ليوم الفصل غير مقيد بالزمان الماضي، لأنه أمر مقرر قبل حدوث الزمان ﴿مِيقَٰتًا﴾؛ أي: ميعاداً ومجمعاً ووقتاً لبعث الأولين والآخرين، وما يترتب عليه من الجزاء ثواباً وعقاباً، لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر، فالميقات وهو الوقت المؤقت؛ أي: المعين أخص من مطلق الوقت، فهو هنا زمان مقيد بكونه وقت ظهور ما وعد الله من البعث والجزاء. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو عطف بيان له، مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله، ولا ضير في تأخر الفصل عن النفخ، فإنه زمان ممتد يقع في مبدئه النفخة، وفي بقيته الفصل ومباديه وآثاره، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني، والنفخ: نفخ الريح في الشيء، ومنه: نفخ الروح في النشأة الأولىٰ، كما قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، ويقال: انتفخ بطنه، ومنه استعير انتفخ النبات إذا ارتفع، ورجل منفوخ؛ أي: سمين، و﴿ٱلصُّورِ﴾: القرن النوراني، والنافخ فيه إسرافيل عليه السلام، وقرأ أبو عياض ﴿في الصَوَر﴾ بفتح الواو جمع صورة، أي: يرد الله الأرواح إلى الأبدان، والجمهور: بسكون الواو.

والمعنىٰ: إن يوم ينفخ في الصور نفخة ثانية للبعث حتىٰ تتصل الأرواح بالأجساد، وترجع بها إلى الحياة، كان ميقاتاً لجمع الأولين والآخرين، وقوله: ﴿فَتَأْتُونَ﴾ معطوف علىٰ جملة محذوفة ثقة، بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بغاية سرعة الإتيان، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾، أي: فضرب فانفلق، والتقدير هنا: يوم ينفخ في الصور فتبعثون من قبوركم، فتأتون إلىٰ الموقف عقيب ذلك من غير لبث أصلاً حال كونكم ﴿أَفْوَاجًا﴾؛ أي: زمراً زمراً، وجماعات جماعات مختلفة متباينة الأوضاع حسب اختلاف أعمالهم وتباينها، وهو جمع فوج، وهو جماعة من الناس، وفي المفردات: الجماعة: المارة المسرعة؛ أي: حال كونكم أمماً، كل أمة مع إمامها، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ معطوف علىٰ ﴿يُنفَخُ﴾ بمعنىٰ تفتح، وصيغة الماضي للدلالة علىٰ تحقق الوقوع، أي: شقت وصدعت من هيبة الله تعالىٰ بعد أن كانت لا فطور فيها ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾؛ أي: ذات أبواب كثيرة لنزول الملائكة نزولاً غير معتاد،

كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ وهو الغمام الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أمره وبأسه ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقيل: المراد بالفتح الكشف بإزالتها من مكانها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ وبالأبواب الطرق والمسالك؛ أي: تكشط فيصير مكانها طرقاً لا يسدها شيء وقيل: تتقطع قطعاً صغاراً حتىٰ تكون كالألواح في الأبواب المعهودة، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿فتحت﴾ مخففاً، وقرأ الباقون بالتشديد.

وحاصل معنى الآيات: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾؛ أي: إن يوم القيامة وقت وميعاد للأولين، والآخرين، يثابون فيه أو يعاقبون، ويتمايزون فيه، ويكونون مراتب ودرجاتٍ بحسب أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾، وقد جعله حداً تنتهي عنده الدنيا، وتجتمع فيه الخلائق ليرى كل امرىء ما قدمت يداه، فيجازي المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته، ثم بين هذا اليوم، وزاد في تفخيمه وتهويله، فقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ فتحيون وتبعثون من قبوركم، وتأتون إلى الموقف من غير تلبث، وإمام كل أمة رسولها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: وانشقت السماء وتصدعت، وجاء نحو هذا في آيات كثيرة، كقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ ذاك أنه يحصل اضطراب في نظام الكواكب، فيذهب التماسك بينها، ولا يكون فيما يسمىٰ سماء إلا مسالك وأبواب، لا يلتقي فيها شيء بشيء، وذلك هو خراب العالم العلوي، كما يخرب الكون السفلي ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ معطوف علىٰ ينفخ أيضاً؛ أي: وتسير الجبال عن أماكنها في الهواء، وتقلع عن مقارها. ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾؛ أي: فتكون هباءً منتشراً، يظن الناظر أنها سراب، والمسيِّر هو الله تعالىٰ، كما قال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾؛ أي: وسيرت الجبال في الجو بتسيير الله تعالىٰ وتسخيره علىٰ هيئاتها بعد قلعها عن مقارها، وذلك بعد حشر الخلائق بعد النفخة الثانية، ليشاهدوها، ثم يفرقها في الهواء، وذلك قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ والسراب ما تراه نصف النهار كأنه ماء، قال الراغب: هو اللامع في المفازة كالماء، وذلك لِانسِرَابِهِ في مرأى العين أي ذهابه وجريانه، وكأن الجبال لا حقيقة لها، كالسراب لا حقيقة له، أي:

فصارت بتسييرها، مثل السراب؛ أي: شيئاً كلا شيء؛ لتفرق أجزائها، وانبثاث جواهرها، كقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾، أي: غباراً منتشراً، وهي وإن اندكت وانصدعت عند النفخة الأولىٰ، لكن تسييرها كالسحاب، وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية.

والمعنىٰ: أي إن الجبال لا تكون في ذلك اليوم علىٰ ثباتها المعروف، بل يذهب ما كان لها من قرار، وتعود كأنها سراب يرى من بعد، فإذا قربت منه لم تجد شيئاً لتفرق أجزائها، وانبثاث جواهرها.

والخلاصة: أنه سبحانه ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة، ولكن يجمع بينها بأن تقول:

أول أحوالها: الاندكاك والانكسار، كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾.

وثانيتها: أن تصير كالعهن المنفوش، كما قال: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

وثالثتها: أن تصير كالهباء، وذلك بأن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن، كما قال: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

ورابعتها: أن تنسف وتقلع أصولها؛ لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها، والأرض تحتها غير بارزة، فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾.

وخامستها: أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيرها في الهواء كأنها غبار، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾؛ أي: تراها في رأي العين ساكنة في أماكنها، والحال أنها تمر مر السحاب التي تسيرها الرياح سيراً حثيثاً، وذلك أن الأجرام إذا تحركت نحواً من الإنحاء لا تكاد تتبين حركتها، وإن كانت في غاية السرعة لا سيما من بعيد.

وسادستها: أن تصير سراباً؛ أي لا شيء، كما في هذه الآية.

وبعد أن عدد وجوه إحسانه ودلائل قدرته علىٰ إرساله رسوله، وذكر أن يوم

الفصل بين الرسول ومعانديه سيكون يوم القيامة، وبين أهوال هذا اليوم وامتياز شؤونه وأحواله عن شؤون أيام الدنيا وأحوالها.. ذكر وعيد المكذبين، وما يلاقونه في ذلك اليوم، فقال:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ دار العذاب ﴿كَانَتْ﴾ في حكم الله سبحانه وقضائه ﴿مِرْصَادًا﴾؛ أي: موضع رصد ورقوبة يرصد فيه، ويرقب خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها، فالمرصاد: اسم للمكان الذي يرصد فيه، كالمنهاج: اسم للمكان الذي ينهج فيه؛ أي: يسلك، قال الراغب: المرصاد: موضع الرصد كالمرصد، لكن يقال للمكان الذي اختص بالترصد والترقب، وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ تنبيه علىٰ أن عليها مجاز الناس. انتهى. كأنه عمم المرصاد حيث إن الصراط محبس للأعداء وممر للأولياء، والأول أولىٰ؛ لأن الرصد في مثل ذلك المكان الهائل إنما هو للتعذيب، وهو للكفار والأشقياء. ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ متعلق بمحذوف هو؛ إما نعت لـ ﴿مِرْصَادًا﴾ أي: مرصاداً كائناً للطاغين، وقوله تعالى: ﴿مَآبًا﴾ بدل منه؛ أي: مرجعاً يرجعون إليه لا محالة، وإما حال من ﴿مَآبًا﴾ قدمت عليه لكونه نكرة، ولو تأخرت.. لكانت صفة له، قالوا: الطاغي من طغىٰ في دينه بالكفر، وفي دنياه بالظلم، وهو في اللغة من جاوز الحد في العصيان، والمراد هنا: المشركون، لما دل عليه ما بعده من الآيات وعذابهم لا يتناهىٰ لكون اعتقادهم باطلاً، وكذا إذا لم يعتقدوا شيئاً أصلاً، وإن كان الاعتقاد صحيحاً كالمؤمن العاصي، فعذابه متناهٍ.

والمعنى: أن جهنم مكان يرتقب فيه خزنتها من يستحقها بسوء أعمالهم، وخبث عقيدته وفعاله.

روىٰ ابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه قال: لا يدخل أحد الجنة حتىٰ يجتاز النار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس. ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: إنها مرجع للذين طغوا وتكبروا، ولم يستمعوا إلىٰ الداعي الذي جاءهم بالهدىٰ ونور الحق، وبعد أن ذكر أن جهنم مستقرهم بين مدة ذلك، فقال: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ حال مقدرة من الضمير المستكن في ﴿لِلطَّاغِينَ﴾؛ أي: مقدرين اللبث فيها، واللبث: أن يستقر في المكان، ولا يكاد ينفك عنه، يقال: لبث بالمكان أقام به ملازماً له. ﴿أَحْقَابًا﴾ ظرف للبثهم، وهو جمع حقب، وهو ثمانون سنة أو أكثر، والدهر والسنة والسنون، والمراد منه: التأبيد؛ أي: حال كونهم لابثين فيها دهوراً متلاحقة يتبع

بعضها بعضاً، فكلما انقضىٰ زمن.. يتجدد لهم زمن آخر، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾، ثم بين أحوالهم فيها، فقال: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ جملة مستأنفة؛ أي: لا يحسون في جهنم ﴿بَرْدًا﴾ ينتفعون به، ويميلون إليه ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يزيل عطشهم ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾؛ أي: ماءً حاراً بلغ النهاية في حره ﴿وَغَسَّاقًا﴾؛ أي: صديداً منتناً يسيل من جلودهم أي لا يذوقون في جهنم برداً يبرد حر السعير عنهم إلا غساق، ولا شراباً يرويهم من شدة العطش إلا الحميم، فهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة، أو ظل يمنع من نار، ولا يجدون شراباً يسكِّن عطشهم، ويزيل الحرقة من بواطنهم، ولكن يجدون الماء الحار المغلي، وما يسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق، وسائر الرطوبات المستقذرة.

والخلاصة(١): أنهم لا يذوقون فيها شراباً إلا الحميم البالغ الغاية في السخونة، أو الصديد المنتن، ولا برداً إلا الماء الحار المغلي، قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم، ومن الشراب الغساق، وكذا قال الربيع بن أنس فهم لا يذوقون إلا من هذا وهذا؛ أي: الحميم والغساق، أما الحميم: فهو الحار الذي انتهى حره، وزاد عن درجة الغليان، فإن طلبوا الماء.. سقوا من هذا الحميم، فقطّع أمعاءهم، وصهر ما في بطونهم والجلود، وأما الغساق.. فهو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو لا يستطاع من برد ونتن، لا يواجه نتنه وقذارته، يقال: غسق الجرح إذا سال منه ماء أصفر، فهو القيح والصديد تعافه الأنفس، وتمجه الطباع، وهم يعاقبون بالشيء وضده، فالحميم: حار في منتهىٰ الحرارة، والغساق: بارد في أشد البرودة المؤلمة. روىٰ الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن دلواً من غساق يراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»، ونقل ابن كثير في تفسير سورة صٓ عن كعب الأحبار قال: قال كعب: ﴿وَغَسَّاقًا﴾ عينٌ في جهنم، يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية وعقرب وغير ذلك، فيستنقع، فيؤتىٰ بالآدمي، فيغمس فيها غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبيه، ويجر لحمه كله كما يجر

---

(١) المراغي.

الرجل ثوبه. رواه ابن أبي حاتم، وقرأ أبو عمرو[1] والمنقري وابن يعمر: ﴿أن جهنم﴾ بفتح الهمزة، والجمهور: بكسرها، وقرأ عبد الله وعلقمة وزيد بن علي وابن وثاب وعمرو بن ميمون وعمرو بن شرحبيل وطلحة والأعمش وحمزة وقتيبة وسورة وروح: ﴿لَبِثِينَ﴾ بغير ألف بعد اللام، وقرأ الجمهور: بألف بعدها، والفرق بين القراءتين: أن فاعلاً يدل علىٰ من وجد منه الفعل ولو مرة، وفَعِلاً من شأنه ذلك، ولكن مع المبالغة، كحاذر وحذر.

فائدة: وقد ذكر الإمام الطبري في تفسيره «جامع البيان» خمسة أقوال في معنىٰ الأحقاب[2]:

أحدها: أن معنىٰ أحقاباً: لا انقطاع لها كلما مضىٰ حقب.. جاء بعده حقب آخر، والحقب: ثمانون سنة من سني الآخرة، قاله قتادة والربيع.

ثانيها: أن الأحقاب: ثلاث وأربعون حقباً، كل حقب سبعون خريفاً، كل خريف سبع مئة سنة، كل سنة ثلاث مئة وستون يوماً، كل يوم ألف سنة، قاله مجاهد.

ثالثها: أن الله تعالىٰ لم يذكر شيئاً إلا وجعل له مدة ينقطع إليها، ولم يجعل لأهل النار مدة، بل قال فيهم: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾، فوالله ما هو إلا أنه إذا مضىٰ حقب دخل آخر، ثم آخر كذلك إلى أبد الآبدين، فليس للأحقاب عدة إلا الخلود في النار، ولكن قد ذكروا أن الحقب الواحد سبعون ألف سنة، كل يوم من تلك السنين ألف سنة مما نعده، قاله الحسن.

رابعها: أن مجاز الآية ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ لا يذوقون في تلك الأحقاب برداً ولا شراباً، إلا حميماً وغساقاً، ثم يلبثون فيها لا يذوقون فيها إلا الحميم والغساق من أنواع العذاب، فهذا توقيت لأنواع العذاب، لا لمكثهم في النار، فإنه أبدي، وهذا أحسن الأقوال بنظر المفسر؛ أعني: الطبري.

خامسها: أنه يعني به أهل التوحيد، قاله خالد بن معدان. وروى نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يخرج من النار من دخلها حتىٰ يمكث فيها

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الطبري.

أحقاباً، والحقب: بضع وستون سنة، والسنة ثلاث مئة وستون يوماً كألف سنة مما تعدون، فلا يتكلن أحد أن يخرج من النار». انتهىٰ.

والحاصل: أن الأحقاب يدل علىٰ التناهي، فهو وإن كان جمع قلة.. لكنه بمنزلة جمع الكثرة، وهو الحقوب، أو بمنزلة الأحقاب المعرف بلام الاستغراق، ولو كان فيه ما يدل على خروجهم منها، فدلالته من قبل المفهوم، فلا يعارض المنطوق الدال علىٰ خلود الكفار، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾؛ لأن المنطوق يرجح علىٰ المفهوم فلا يعارضه، وقال أبو حيان المدة منسوخة بقوله: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾. انتهىٰ. ويجوز[1] أن يكون ﴿أَحْقَابًا﴾ ليس بظرف أصلاً، بل هو حال من الضمير المستكن في ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ بمعنىٰ: حقبين؛ أي: نكدين محرومين من الخير والبركة في السكون والحركة، علىٰ أن يكون جمع حقب ـ بفتح الحاء وكسر القاف ـ من حقب الرجل إذا حرم الرزق، وحقب العام: إذا قل خيره ومطره. وقوله ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ تفسير لكدهم، ولا يتوهم حينئذٍ تناهي مدة لبثهم فيها حتىٰ يحتاج إلىٰ التوجيه السابق، هذا ما قالوه في هذا المقام، وقد أطالوا فيه بما لا يسع له هذا المختصر، وقوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ مصدر مؤكد لعامله المحذوف؛ أي: جوزوا بذلك جزاءً وفاقاً، أو جازيناهم بذلك جزاءً وفاقاً لأعمالهم وأخلاقهم كأنه نفس الوفاق مبالغة، أو ذا وفاق لها علىٰ حذف المضاف، أو جزاءً موافقاً لها، أو وافقها وفاقاً، فيكون ﴿وِفَاقًا﴾ مصدراً مؤكداً لفعله كـ﴿جزاء﴾، والجملة صفة الجزاء. وجه الموافقة بينهما: أنهم أتوا بمعصية عظيمة، وهي الكفر، فعوقبوا عقاباً عظيماً، وهو التعذيب بالنار، فكما أنه لا ذنب أعظم من الشرك، فكذا لا جزاء أقوىٰ من التعذيب بالنار، كما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فتوافقا، وقيل: كان وفاقاً حيث لم يزد على قدر الاستحقاق، ولم ينقص عنه.

وقرأ الجمهور: ﴿وِفَاقًا﴾ بتخفيف الفاء. وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة بشدها من: وفقه، كذا قال سعدي المفتي.

اعلم: أن الكفار لما كان من نيتهم الاستمرار علىٰ الكفر، كما سيشير إليه

---

(١) روح البيان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ إذ معناه: أنهم كانوا مستمرين على الكفر مع توقع الحساب.. وافقه عدم تناهي العذاب واللبث فيها أحقاباً بعد أحقاب، ولما كانوا مبدلين التصديق الذي يروح النفس، ويثلج به الصدر بالتكذيب الذي هو ضده.. جوزوا بالحميم والغساق بدل ما يجعل للمؤمنين مما يروحهم من برد الجنة وشرابها.

وللمناسبة بين العلم والماء يعبر الماء في المنام بالعلم، وبعد أن بين على طريق الإجمال أن هذا الجزاء الذي أعد لهم كان وفق جرمهم.. فصل أنواع جرائمهم، فذكر أنها نوعان فقال:

١ - ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور، وبيان لفساد قوتهم العملية؛ أي: كانوا ينكرون الآخرة ولا يخافون أن يحاسبوا بأعمالهم، فلذا كانوا يقدمون على جميع المنكرات، ولا يرغبون في شيء من الطاعات، وفسر الرجاء هنا: بالخوف، لأن الحساب من أصعب الأمور على الإنسان، والشيء الصعب لا يقال فيه إنه يرجى، بل يقال: إنه يخاف ويخشى.

والمعنى: أي إنهم فعلوا من القبائح ما فعلوا، واجترحوا من السيئات ما شاءت لهم أهواؤهم؛ لأنهم ما كانوا ينتظرون يوم الحساب، ولا يتوقعونه، ورغبة المرء في فعل الخيرات، وترك المحظورات، إنما تكون غالباً لاعتقاده أنه ينتفع بذلك في الآخرة، فمن كان منكراً لها لا يقدم على شيء مما يحسن عمله، ولا يحجم عن أمر مما يقبح.

٢ - ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ بيان لفساد قوتهم النظرية. ﴿بآياتنا﴾ الناطقة بذلك، وفي بعض التفاسير: بآياتنا القولية والفعلية الظاهرة على ألسنة الرسل وأيديهم. ﴿كِذَّابًا﴾؛ أي: تكذيباً مفرطاً، ولذلك كانوا مصرين على الكفر، وفنون المعاصي، فعوقبوا بأهول العقاب جزاءً وفاقاً، وفِعّالاً: من باب فعل المضعف شائع فيما بين الفصحاء، مطرد مثل: كلم كلاماً. قال في «الصحاح»: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ هو أحد مصادر المشدد؛ لأن مصدره قد يجيء على تفعيل، مثل: التكليم، وعلى فعال، مثل:

---

(١) المراغي.

كِذّاب، وعلىٰ تفعلة، مثل: توصية، وعلىٰ مُفعَّل، مثل: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

والمعنىٰ[1]: أي وكذبوا بجميع البراهين الدالة علىٰ التوحيد والنبوة والمعاد، وبجميع ما جاء في القرآن.

والخلاصة: أنهم أقدموا علىٰ جميع المنكرات، ولم يرعووا عن فعل السيئات، وأنكروا بقلوبهم الحق، واتبعوا الباطل.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿كِذَّابًا﴾ بتشديد الذال مصدر كذب المضعف، وهي لغة لبعض العرب يمانية يقولون، في مصدر فَعَّل: فِعَّالاً، وغيرهم يجعل مصدره علىٰ تفعيل، نحو: تكذيب، ومن تلك اللغة قول الشاعر:

لَقَدْ طَالَ مَا ثَبَّطَتَنِيْ عَنْ صَحَابَتِيْ ... وَعَنْ حَاجَةٍ قِضَّاؤُهَا مِنْ شِفَائِيَا

ومن كلام أحدهم وهو يستفتي في الحج: الحلق أحب إليك أم القصار؟ يريد التقصير. وقرأ علي بن أبي طالب وعوف الأعرابي وأبو رجاء والأعمش وعيسى البصرة بخلاف عنه: ﴿كذاباً﴾ بتخفيف الذال، وذلك لغة اليمن؛ بأن يجعلوا مصدر كذب المخفف كذاباً بالتخفيف مثل؛ كتب كتاباً، فصار المصدر هنا من معنىٰ الفعل دون لفظه، مثل أعطيته عطاء، وقال الأعشىٰ:

فَصَدَّقْتُهَا وَكَذَّبْتُهَا ... وَٱلْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهْ

وقال الزمخشري: وهو مثل قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾؛ يعني: وكذبوا بآياتنا، فكذبوا كذاباً، وقرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿كُذَّابا﴾ بضم الكاف وتشديد الذال، فخرج علىٰ أنه جمع كاذب، وانتصب علىٰ الحال المؤكدة، أو علىٰ أنه مفرد صفة لمصدر محذوف؛ أي: تكذيباً كذاباً؛ أي: مفرطاً في التكذيب. وبعد أن بين فساد أحوالهم العملية والاعتقادية.. أرشد إلىٰ أنها في مقدارها وكيفيتها معلومة له تعالى، لا يغيب عنه شيء منها، فقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾؛ أي: وأحصينا كل شيء من الأشياء التي من جملتها أعمالهم، فانتصابه علىٰ الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يفسره قوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي: حفظناه وضبطناه. قرأ الجمهور[3]: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

بالنصب علىٰ الاشتغال؛ أي: وأحصينا كل شيء أحصيناه، وهو الراجح[1] لتقدم جملة فعلية، ولا يضره كون هذه الجملة معترضة كما سيجيء؛ لاعتراضها بين السبب والمسبب، أو لأن المقصود المهم هنا الإخبار عن الإحصاء، لا الإخبار عن كل شيء، وقرأ أبو السمال برفعه علىٰ الابتداء، وما بعده خبره، وانتصاب ﴿كِتَٰبًا﴾ علىٰ المصدرية، لأنه مصدر مؤكد لـ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ من غير لفظه لما أن الإحصاء والكتابة من واد واحد؛ أي: يشتركان في معنىٰ الضبط، فكأنه قال: وكل شيء أحصيناه إحصاءً مساوياً في القوة والثبات بالعلم المقيد بالكتابة، أو كتبناه كتاباً، وأثبتناه إثباتاً. ويجوز أن يكون من الاحتباك، حذف فعل الثاني بقرينة الأول، ومصدر الأول بقرينة الثاني؛ أي: أحصيناه إحصاءً، وكتبناه كتاباً، ويجوز نصبه علىٰ الحال؛ أي: أحصينا كل شيء حال كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ، أو في صحف الحفظة، وقيل: المراد به: العلم؛ لأن ما كتب كان أبعد من النسيان، والأول أولىٰ لقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، والجملة معترضة كما مر آنفاً، اعترض بها لتوكيد كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات، بأنهما محفوظان للمجازاة.

والمعنى[2]: أي إنا علمنا جميع ما عملوا علماً ثابتاً، لا يعتريه تغيير ولا تحريف، فلا يمكنهم أن يجحدوا شيئاً مما كانوا يصنعون في الحياة الدنيا حين يرون ما أعد لهم من أنواع العقوبات لأنا قد أحصينا ما فعلوه إحصاءً لا يزول منه شيء، ولا يغيب، وإن غاب عن أذهانهم ونسوه، كما قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾.

وإنما قيل: ﴿كِتَٰبًا﴾ دون أن يقال إحصاءً؛ لأن الكتابة هي السماوية في قوة العلم بالشيء، فإن من يريد أن يحصي كلام متكلم، حتىٰ لا يغيب منه شيء.. عمد إلىٰ كتابته، فكأنه تعالىٰ يقول: وكل شيء أحصيناه إحصاءً يساوي في ثباته وضبطه ما يكتب.

وبعد أن بين قبائح أفعالهم لكفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات.. رتب عليه هذا الجزاء، فقال: ﴿فَذُوقُواْ﴾ ما أنتم فيه من العذاب الأليم ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ فوق عذابكم ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ من جنسه، كما قال: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ ذاك أن

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

فيها تقريعاً وتوبيخاً لهم في يوم الفصل، وغضباً من أرحم الراحمين، والفاء في ﴿فَذُوقُوا﴾ سببية[1] دالة علىٰ أن الأمر بالذوق مسبب عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات، ومعلل به، فيكون ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ إلخ جملةً معترضة، بين السبب ومسببه، تؤكد كل واحد من الطرفين؛ لأنه كما دل علىٰ كون معاصيهم مضبوطة مكتوبة.. يدل على أن ما يتفرع عليها من العذاب كائن لا محالة مقدر علىٰ حسب استحقاقهم، وفي الالتفات المنبىء عن التشديد في التهديد، وإيراد ﴿لَن﴾ المفيدة لكون ترك الزيادة من قبيل ما لا يدخل تحت الصحة من الدلالة علىٰ تبالغ الغضب ما لا يخفىٰ.

وقد روي أن النبي ﷺ قال: «إنَّ هذه الآية أشد ما في القرآن علىٰ أهل النار»؛ أي: لأن فيها الإياس من الخروج، فكلما استغاثوا من نوع من العذاب.. أغيثوا بأشد منه، فتكون كل مرتبة منه متناهية في الشدة، وإن كانت مراتبه غير متناهية بحسب العدد والمدة، وهذا لا يعارض قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأن المراد بالمنفي التكلم باللطف والإكرام، لا بالقهر والجلال.

فإن قيل: هذه الزيادة إن كانت غير مستحقة.. كانت ظلماً، وإن كانت مستحقة.. كان تركها في أول الأمر إحساناً، والكريم لا يليق به الرجوع في إحسانه.

فالجواب: أنها مستحقة، ودوامها زيادة لثقل العذاب، وأيضاً ترك المستحق في بعض الأوقات لا يوجب الإبراء والإسقاط حتىٰ يكون إيقاعه بعده رجوعاً في الإحسان، وأيضاً كانوا يزيدون كفرهم وتكذيبهم وأذيتهم لرسول الله ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، فيزيد الله عذابهم لزيادة الاستحقاق، فلا ظلم.

فإن قيل: قوله: ﴿فَذُوقُوا...﴾ إلخ تكرار؛ لأنه ذكر سابقاً أنهم لا يذوقون إلخ. قلنا: إنه تكرار لزيادة المبالغة في تقرير الدعوىٰ، وهو كون العقاب جزاءً وفاقاً، وقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١﴾ شروع في بيان محاسن أحوال المؤمنين، وما أعده الله سبحانه لهم من الخير إثر بيان سوء أحوال الكافرين، وما أعد الله لهم؛

---

(١) روح البيان.

من الشر على ما هو العادة القرآنية، ووجه تقديم بيان حال الكفرة غني عن البيان؛ أي: إن للذين يتقون الكفر والقبائح التي هي من أعمال الكفرة مفازاً؛ أي: فوزاً وظفراً بمطالبهم، ونجاة من مكارههم، دل على هذا المعنى تفسيره بما بعده من قوله: ﴿حَدَآئِقَ﴾ إلخ، فالمفاز على هذا المعنى: مصدر ميمي، أو موضع فوز وظفر، على أنه اسم مكان.

فإن قيل: الخلاص من الهلاك أهم من الظفر باللذات[1]، فلِمَ أهمل الأهم، وذكر غير الأهم؟

قلنا: لأن الخلاص من الهلاك لا يستلزم الفوز بالنعيم، لكونه حاصلاً لأصحاب الأعراف مع أنهم غير فائزين بالنعيم، بخلاف الفوز بالنعيم، فإنه يستلزم الخلاص من الهلاك، فكان ذكره أولى، وقوله: ﴿حَدَآئِقَ﴾؛ أي: بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة، بدل من ﴿مَفَازًا﴾ بدل اشتمال، إن كان مصدراً ميمياً؛ لأن الفوز يدل عليه دلالة التزامية، أو بدل بعض، إن جعل اسم مكان، وهو جمع حديقة، وهي الروضة ذات الأشجار، وقيل: الحديقة كل بستان عليه حائط؛ أي: جدار، وفيه من النخل والثمار، وفي «المفردات»: الحديقة: قطعة من الأرض ذات ماء، سميت بذلك تشبيهاً بحدقة العين في الهيئة، وحصول الماء فيها.

﴿وَأَعْنَٰبًا﴾؛ أي: كروماً، وهو تخصيص بعد التعميم إظهاراً لفضلها جمع عنب، وهو ثمر الكرم، قال بعضهم: ذكر نفسها، ولم يذكر شجرها ـ وهو الكرم ـ لأن زيادة الشرف فيها لا في شجرها.

والمعنى: أي إن لمن اتقى محارم الله، وخاف عقابه فوزاً بالكرامة، والثواب العظيم، في جنات النعيم، ثم فسر هذا الفوز وفصله بقوله: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ٣٢﴾؛ أي: بساتين من النخيل والأعناب ومختلف الأشجار، لها أسوار محيطة بها، وفيها الأعناب اللذيذة الطعم، مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون، وقد أفردت بالذكر ـ وهو مما يكون في الحدائق ـ عناية بأمرها، كما جاء في قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾، ثم وصف ما في الحدائق والجنات فقال:

---

(١) روح البيان.

﴿وَكَوَاعِبَ﴾؛ أي: نساء[1] أبكاراً، فلكت ثديهن؛ أي: استدارت وصارت كالكعب في النتوء، يقال: فلك ثدي الجارية تفليكاً؛ أي: استدار كفلكة المغزل، جمع كاعب، يقال: كعبت المرأة كعوباً ظهر ثديها، وارتفع ارتفاع الكعب، ويقال: لهن النواهد، جمع ناهد وناهدة، وهي المرأة كعب ثديها، وبدا للارتفاع. ﴿أَتْرَابًا﴾؛ أي: لداتٍ؛ أي: مستويات في السن، ولدة الرجل تربه وقرينه في السن والميلاد، والهاء عوض عن الواو الذاهبة من أوله لأنه من الولادة، والأتراب الأقران في السن، قال الراغب: أي: لدات ينشأن معاً تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، ولوقوعهن علىٰ الأرض معاً.

والظاهر ما في تفسير «الزاهدي»: وهو كونهن بنات ست عشرة لكونها نصف سن الرجل، وأيضاً دل عليه الوصف بالكعوب، وهو ارتفاع ثديهن، والمراد: أنهن بالغات تمام كمال النساء في الحسن واللطافة، والصلاح للمصاحبة والمعاشرة، بحيث لا يكن في سن الصغر حتىٰ تضعف الشهوة لهن، ولا في سن الكبر حتى تنكسر الشهوة عنهن، بل رواء الشباب؛ أي: ماؤه جار فيهن، لم يشبن، ولم يتغير عن حد الحسن حسنهن.

وإنما ذكرن لأن بهن نظام الدنيا، ولطافة الآخرة من جهة التنعم الجسماني.

والمعنىٰ[2]: أي وحوراً كواعب لم تتدلى أثدائهن، وهن أبكار عرب أتراب، والتمتع بالنساء على هذه الشاكلة مما يتمثله المرء في الدنيا علىٰ نحو من اللذة، وإن كنا لا نعلم كنهه في الآخرة، وعلينا أن نؤمن به، وأنه تمتع يفوق ما هو مثله من لذات هذه الحياة، وأنه يشاكل أحوال العالم الأخروي.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: كأساً مملوءة بالخمر، فدهاقاً بمعنىٰ: مدهقة، وصفت به الكأس للمبالغة في امتلائها، يقال: أدهق الحوض ودهقه: ملأه؛ أي: وكأساً من الخمر مترعة ملأىٰ متتابعةً علىٰ شاربها، والمراد بالكأس الإناء المعروف، ولا يسمىٰ بالكأس إلا إذا كان فيه الشراب ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: المتقون ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الحدائق ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ واللغو: الباطل من الكلام،

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

والكذاب: الكذب؛ أي: لا ينطقون بلغو، وهو ما يلغىٰ ويطرح لعدم الفائدة فيه، ولا يكذب بعضهم بعضاً حتى يسمعوا شيئاً من ذلك، بخلاف حال أهل الدنيا في مجالسهم، لا سيما عند شربهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كِذَّابًا﴾ بالتشديد، وقرأ الكسائي هنا بالتخفيف، ووافق الجماعة علىٰ التشديد في قوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ المتقدم في هذه السورة للتصريح بفعله هناك، وقد قدمنا الخلاف في ﴿كِذَّابًا﴾، هل هو من مصادر التفعيل، أو من مصادر المفاعلة؟

والمعنىٰ: أي لا يجري بينهم حين يشربون لغو الكلام، ولا يكذب بعضهم بعضاً كما يجري بين الشرب في الدنيا لأنهم إذا شربوا لم تفتر أعصابهم، ولم تتغير عقولهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ واللغو والتكذيب مما تألم له أنفس الصادقين المخلصين، ولما ذكر أنواع النعيم.. بين أن هذا جزاء لهم على ما عملوا، وتفضل منه سبحانه فقال: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر مؤكد منصوب بمعنىٰ: إن للمتقين مفازاً فإنه في قوة أن يقال: جازى الله سبحانه المتقين على أعمالهم الصالحة بمفاز، وما بعده جزاءً عظيماً مضاعفاً كائناً من ربك علىٰ أن التنوين للتعظيم ﴿عَطَاءً﴾؛ أي: وأعطاهم الله ذلك عطاءً بلا مقابلة عمل تفضلاً وإحساناً منه تعالى عطاء ﴿حِسَابًا﴾؛ أي: كثيراً كافياً لهم صفة لـ﴿عَطَاءً﴾، بمعنىٰ: كافياً علىٰ أنه مصدر أقيم مقام الوصف؛ أي: محسباً.

والخلاصة: أي جازاهم الله سبحانه بما ذكر، وأعطاهموه بفضله وإحسانه عطاءً كافياً وافياً.

فإن قلت[2]: إن ذلك يقتضي أن الله تعالىٰ جعل الشيء الواحد جزاءً و عطاءً وهو غير ظاهر، لأن كونه جزاءً يستدعي ثبوت الاستحقاق، وكونه عطاءً يستدعي عدم الاستحقاق، فالجمع بينهما جمع بين المتنافيين.

قلت: ذلك الاستحقاق إنما يثبت بحكم الوعد، لا من حيث أن الطاعة توجب الثواب علىٰ الله، فذلك الثواب بالنظر إلى وعده تعالىٰ إياه بمقابلة الطاعة

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

يكون جزاءً، وبالنظر إلىٰ أنه لا يجب علىٰ الله لأحد شيء يكون تفضلاً وعطاء، وهذا الكلام في مقابلة قوله سابقاً: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ لأن جزاء المؤمنين من قبيل الفضل لتضاعفه، وجزاء الكافرين من قبيل العدل.

وقوله: ﴿عَطَآءً﴾ بدل من ﴿جَزَآءً﴾ بدل الكل؛ لأن العطاء والجزاء متحدان ذاتاً، وإن تغايرا في المفهوم، وفي جعله بدلاً من ﴿جَزَآءً﴾ نكتة لطيفة، وهي: أن بيان كونه عطاءً تفضلاً منه، هو المقصود، وبيان كونه جزاءً وسيلة إليه، فإن حق البدل أن يكون مقصوداً بالنسبة، وذكر المبدل منه وسيلةٌ إليه، وقال بعضهم: العطاء من الله موضع الفضل لا موضع الجزاء، فالجزاء على الأعمال، والفضل: موهبة الله يختص به الخواص من أهل وداده، وقيل: معنىٰ ﴿حِسَابًا﴾؛ أي[1]: جزاء وعطاء علىٰ حسب أعمالهم، بأن يجازي كل عملٍ بما وعد له من الأضعاف من عشرة وسبع مئة، وغير حساب، فما وعده الله تعالىٰ من المضاعفة داخل في الحسب؛ أي: المقدار؛ لأن الحسب ـ بفتح السين وسكونها ـ بمعنىٰ: القدر، والتقدير علىٰ هذا: عطاء بحساب، فحذف الجار ونصب الاسم؛ أي: عطاء بحسب وقدر ما وجب لهم في وعد الرب سبحانه، فإنه وعد للحسنة عشراً، ووعد لقوم سبع مئة، وقد وعد لقوم جزاءً بغير حساب؛ أي: لا نهاية له ولا مقدار، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقال أبو عبيدة: ﴿حِسَابًا﴾؛ أي: كافياً. وقال ابن قتيبة: كثيراً، يقال: أحسبت فلاناً؛ أي: أكثرت له العطاء. وقال الزجاج: حساباً؛ أي: ما يكفيهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿حِسَابًا﴾ بكسر الحاء وفتح السين المخففة؛ أي: كافياً، وقرأ ابن قطيب وأبو هاشم: ﴿حسابا﴾ بكسر الحاء وتشديد السين، وهو مصدر مثل كذاب، أقيم مقام الصفة؛ أي: إعطاء محسباً؛ أي: كافياً، وقرأ ابن عباس والسراج: ﴿حسنا﴾ بالنون من الحسن، وحكى عنه المهدوي: ﴿حسبا﴾ بفتح الحاء وسكون السين، وبالباء نحو قولك: حسبك كذا؛ أي: كافيك. ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل من ﴿رَبِّكَ﴾، والمراد: رب كل شيء وخالقه ومالكه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: مفيض الخير والجود علىٰ كل موجود بحسب حكمته، وبقدر استعداد

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

المرحوم، وهو بالجر: صفة للرب، وقيل: للأول، وأياً ما كان، ففي ذكر ربوبيته تعالىٰ للكل، ورحمته الواسعة إشعار بمدار الجزاء المذكور، قال الغاشاني: أي: ربهم المعطي ذلك العطاء هو الرحمن؛ لأن عطاياهم من النعم الظاهرة الجليلة دون الباطنة الدقيقة، فمشربه من اسم الرحمن دون غيره.

وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾؛ أي: لا يملك أهل السموات والأرض ﴿مِنْهُ خِطَابًا﴾؛ أي: خطابه تعالىٰ في شيء ما، استئناف[1] مقرر لما أفادته الربوبية العامة من غاية العظمة والكبرياء، واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء، من غير أن يكون لأحد قدرة عليه، وضمير ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأهل السموات والأرض، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ صلة للتأكيد علىٰ طريقة قولهم: بعت منك؛ أي: بعتك، يعني: أنه صلة خطاباً، قدم عليه فانقلب بياناً.

والمعنى: لا يملكون أن يخاطبوه تعالىٰ من تلقاء أنفسهم، كما ينبىء عنه لفظ الملك؛ إذ المملوك لا يستحق علىٰ مالكه شيئاً، خطاباً ما في شيء ما؛ لتفرده بالعظمة والكبرياء، وتوحده في ملكه بالأمر والنهي والخطاب، والمراد: نفي قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشيء من نقص العذاب، وزيادة الثواب من غير إذنه علىٰ أبلغ وجه وآكده، كأنه قيل: لا يملكون أن يخاطبوه بما سبق من الثواب والعقاب، وبه يحصل الارتباط بين هذه الآية وبين ما قبلها من وعيد الكفار، ووعد المؤمنين، ويظهر منه أن نفي أن يملكوا خطابه لا ينافي الشفاعة بإذنه.

وقيل: إن الضمير[2] في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ عائد علىٰ المشركين، قاله عطاء عن ابن عباس؛ أي: لا يخاطب المشركون الله، أما المؤمنون.. فيشفعون ويقبل الله ذلك منهم، وقيل: عائد علىٰ المؤمنين؛ أي: لا يملكون أن يخاطبوه في أمر من الأمور لعلمهم أن ما يفعله عدل منه، وقرأ عبد الله[3] وابن أبي إسحاق والأعمش وابن محيصن: وابن عامر وعاصم: ﴿رَبِّ﴾ و ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ بالجر، وقرأ الأعرج وأبو جعفر وشيبة وأبو عمرو والحرميان نافع وابن كثير برفعهما، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي: ﴿رَبِّ﴾ بالجر، و ﴿الرحمن﴾ بالرفع، وهي قراءة الحسن وابن وثاب والأعمش وابن محيص بخلاف عنهما، فالجر علىٰ البدل من ﴿رَبِّكَ﴾، و ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) البحر المحيط.

صفة أو بدل من ﴿رَبِّ﴾، أو عطف بيان، وهل يكون بدلاً من ﴿رَبِّكَ﴾؟ فيه نظر؛ لأن البدل الظاهر أنه لا يتكرر، فيكون كالصفات والرفع علىٰ إضمار: هو رب، أو علىٰ الابتداء، وخبره ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾.

والمعنىٰ: أي إنه سبحانه وتعالى المالك لشؤونهما المدبر لأمورهما، ولا يملك أحد من أهلهما مخاطبته تعالىٰ بالشفاعة إلا بإذنه، ثم أكد هذا وقرره بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ والظرف متعلق بقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾؛ أي: لا يتكلم أهل السموات والأرض يوم يقوم الروح والملائكة صفاً؛ أي: حال كونهم مصطفين لكثرتهم صفاً واحداً، وقيل: هما صفان: الروح صف، والملائكة صف، وقيل: صفوف، وهو الأوفق لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وقيامهم مما أمرهم الله به في أمر العباد، فانتصاب ﴿صَفًّا﴾ إما علىٰ الحال كما قدرنا، أو علىٰ المصدرية؛ أي: يصفون صفاً، وجملة ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ إما حال من فاعل ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ العائد إلىٰ أهل السموات والأرض، أو مستأنفة مقررة لما قبلها، وأخر[1] الملائكة هنا تعميماً بعد التخصيص، وأخر الروح في سورة القدر تخصيصاً بعد التعميم.

فالظاهر: أن الروح من جنس الملائكة، لكنه أعظم منهم خلقاً ورتبةً وشرفاً؛ إذ هو بمقابلة الروح الإنساني، كما أن الملائكة بمقابلة القوى الروحانية، ولا شك أن الروح أعظم من قواه التابعة؛ كالسلطان مع أمرائه وجنده ورعاياه، وتفسير الروح بجبريل ضعيف[2]، وإن كان هو مشهوراً بكونه روح القدس، والروح الأمين؛ إذ كونه روحاً ليس بالنسبة إلىٰ ذاته، وإلا فالملائكة كلهم روحانيون، وإن كانوا أجساماً لطيفة غير الأرواح المهمية، وإنما بالنسبة إلىٰ كونه نافخ الروح، وحامل الوحي الذي هو كالروح في الأحياء، وقد اتفقوا علىٰ أن إسرافيل أعظم من جبريل ومن غيره، فلو كان أحد يقوم صفاً واحداً.. لكان هو إسرافيل دون جبريل، والله أعلم بمراده من ﴿ٱلرُّوحُ﴾.

وفي «الشوكاني»: واختلف في ﴿ٱلرُّوحُ﴾، وقيل: إنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع، ومن الأرضين السبع، ومن الجبال، وقيل: هو جبريل، قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير، وقيل: الروح جند من جنود الله ليسوا ملائكة،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

قاله أبو صالح ومجاهد، وقيل: هم أشراف الملائكة، قاله مقاتل بن حيان، وقيل: هم حفظة على الملائكة، قاله ابن أبي نجيح، وقيل: هم بنو آدم، قاله الحسن وقتادة، وقيل: هم أرواح بني آدم، تقوم صفاً، وتقوم الملائكة صفاً، وذلك بين النفختين قبل أن ترد إلى الأجسام، قاله عطية العوفي، وقيل: إنه القرآن، قاله زيد بن أسلم. انتهى.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من ضمير ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ العائد إلى أهل السموات والأرض، الذين من جملتهم الروح والملائكة، وهو أرجح[1]؛ لكون الكلام غير موجب، والمستثنى منه مذكور، وفي مثله يختار البدل على الاستثناء، ويجوز أن يكون منصوباً على أصل الاستثناء.

والمعنى: لا يشفعون لأحد إلا من أذن له الرحمن منهم بالشفاعة للخلق، أو لا يتكلمون إلا في حق من أذن الرحمن بالشفاعة فيه، ﴿و﴾ كان ذلك الشخص المشفوع له ممن ﴿قَالَ﴾ في الدنيا ﴿صَوَابًا﴾ أي: حقاً، قاله الضحاك ومجاهد، أو: لا إله إلا الله، قاله أبو صالح، وأصل الصواب السداد من القول والفعل، وقيل: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، يعني: الملائكة والروح الذين قاموا صفاً هيبةً وإجلالاً إلا من أذن له الرحمن منهم في الشفاعة، وهم قد قالوا صواباً. قال الواحدي: فهم لا يتكلمون، يعني: الخلق كلهم، إلا من أذن له الرحمن، وهم المؤمنون والملائكة، وقال في الدنيا صواباً؛ أي: شهد بالتوحيد، ، وعبارة «الروح»: وهذه الجملة مستأنفة مقررة لمضمون قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ومؤكدة له على أن أهل السموات والأرض إذا لم يقدروا يومئذٍ على أن يتكلموا بشيء من جنس الكلام إلا من أذن الله له منهم في التكلم، وقال ذلك المأذون له قولاً صواباً؛ أي: حقاً صادقاً، أو واقعاً في محله من غير خطأ في قوله، فكيف يملكون خطاب رب العزة، مع كونه أخص من مطلق الكلام، وأعز منه مراماً، وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ﴾ إلخ منصوب على أصل الاستثناء.

والمعنى: لا يتكلمون إلا في حق شخص أذن له الرحمن، وقال ذلك الشخص صواباً؛ أي: حقاً هو التوحيد، وكلمة الشهادة دون غيره من أهل الشرك،

---

(١) روح البيان.

فإنهم لم يقولوا في الدنيا صواباً، بل تفوهوا بكلمة الكفر والشرك. وإظهار ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾[1] في موضع الإضمار؛ للإيذان بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة، لا أن أحداً يستحقه عليه تعالى.

وحاصل المعنى[2]: أن الملائكة علىٰ جلالة أقدراهم، ورفيع درجاتهم، لا يستطيعون أن يتكلموا في هذا اليوم إجلالاً لربهم، ووقوفاً عند أقدارهم، إلا إذا أذن لهم ربهم، وقالوا قولاً صدقاً وصواباً، وفي الآية دلالة علىٰ أنهم مع قربهم من ربهم لا يستطيع أحد منهم أن يشفع لأحد، أو يطلب منحة إلا من بعد أن يأذن له ربه، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب له؛ لأنه يقول الصواب، وإنما يكون الكلام ضرباً من التكريم لمن يؤذن له، ويختص به، ولا أثر له فيما أراده ألبتة. والملائكة مخلوقات غيبها الله سبحانه عنا، ولم يجعل لنا قدرة علىٰ رؤيتها، فعلينا أن نؤمن بها، وإن لم نرها، ونصدق بما جاء في كتابه من أوصافه غير باحثين عن حقيقتها، وبعد أن ذكر أحوال المكلفين في درجات الثواب والعقاب، وبين عظمة يوم القيامة.. أردف ذلك ببيان أن هذا اليوم حق لا ريب فيه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾[3] إشارة إلىٰ يوم قيامهم علىٰ الوجه المذكور، ومحله الرفع علىٰ الابتداء خبره ما بعده؛ أي: ذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الروح والملائكة مصطفين غير قادرين هم ولا غيرهم علىٰ التكلم من الهيبة والجلال. ﴿الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت المتحقق لا محالة من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه، وذلك لأنه متحقق علماً، فلا بد أن يكون متحققاً وقوعاً، كالصباح بعد مضي الليل، وفيه إشارة إلىٰ أنه واقع ثابت في جميع الأوقات والأحايين، ولكن لا يبصرون به لاشتغالهم بالنفس الملهية وهواها الشاغل، والفاء في قوله: ﴿فَمَن شَاءَ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطاً، وكون مفعولها مضمون الجزاء، وانتفاء الغرابة في تعلقه بها حسب القاعدة المستمرة، وقوله: ﴿اتَّخَذَ﴾ جواب الشرط، و ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿مَآبًا﴾؛ أي: مرجعاً، قدم عليه اهتماماً به، ورعاية للفواصل. وقال قتادة: ﴿مَآبًا﴾؛ أي: سبيلاً، وتعلق الجار والمجرور به لما فيه من معنىٰ الاقتضاء والإيصال، والتقدير: إذا كان الأمر كما ذكر

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

من تحقق اليوم المذكور، ووقوعه بلا محالة، وأردتم بيان الأصلح لكم.. فأقول لكم: من شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه الذي ذكر شأنه العظيم.. فعل ذلك بالإيمان والطاعة.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿مَـَٔابًا﴾؛ أي: مرجعاً؛ أي: رجوعاً من الدنيا إلىٰ الآخرة، ومن الآخرة إلىٰ رب الدنيا والآخرة لأنهما حرامان غير مقصودين عند أهل الله، بل غاية مقصودهم رضا ربهم، لا نعيمهما.

ومعنىٰ الآية[1]: أي ذلك اليوم متحقق لا ريب فيه، ولا مفر منه، وأنه يوم تبلىٰ فيه السرائر، وتنكشف فيه الضمائر، أما أيام الدنيا.. فأحوال الخلق فيها مكتوبة، وضمائرهم غير معلومة، فمن شاء اتخاذ مرجع حسن عند ربه.. عمل عملاً صالحاً يقربه من ربه، ويدنيه من كرامته وثوابه، ويباعد بينه وبين عقابه، ثم زاد في تخويف الكفار وإنذارهم، فقال: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾؛ أي[2]: خوفناكم بما ذكر، في هذه السورة من الآيات الناطقة بالبعث، وبما بعده من الدواهي، أو بها وبسائر القوارع الواردة في القرآن، والخطاب لمشركي العرب وكفار قريش؛ لأنهم كانوا ينكرون البعث، وفي بعض التفاسير: الظاهر عموم الخطاب كعموم ﴿من﴾ لأن في إنذار كل طائفة فائدة لهم. ﴿عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ هو عذاب الآخرة، وقربه لتحقق إتيانه حتماً، ولأنه قريب بالنسبة إليه تعالىٰ وممكن وإن رأوه بعيداً وغير ممكن، فسيرونه قريباً، لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾، وقوله: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ﴾ بدل من ﴿عَذَابٗا﴾، أو ظرف لمضمر هو صفة له؛ أي: عذاباً كائناً يوم ينظر المرء؛ أي: يشاهد ﴿مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ من خير أو شر، وهو تثنية يد، أصله: يدان، سقطت نونها بالإضافة، و ﴿مَآ﴾؛ إما موصولة منصوبة بـ ﴿يَنظُرُ﴾؛ لأنه يتعدىٰ بنفسه وبإلىٰ، والعائد محذوف؛ أي: ما قدمته، أو استفهامية منصوبة بـ ﴿قَدَّمَتۡ﴾ معلقة بـ ﴿يَنظُرُ﴾؛ أي: يوم ينظر المرء أيَّ شيء قدمت يداه، فالمرء عام للمؤمن والكافر؛ لأن كل أحد يرىٰ عمله في ذلك اليوم مثبتاً في صحيفة عمله، خيراً كان أو شراً، فيرجو المؤمن ثواب الله علىٰ صالح عمله، ويخاف الكافر عقاب الله علىٰ سيء عمله، وأما الكافر.. فكما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي﴾ وقيل:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

المراد بالمرء: الكافر؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾، فيكون الكافر ظاهراً وضع موضع المضمر؛ لزيادة الذم؛ أي: يا قوم، فالمنادىٰ محذوف، ويجوز أن تكون ﴿يا﴾ لمحض التحسر، ولمجرد التنبيه من غير قصد إلىٰ تعيين المنبه، والمراد بالكافر: الجنس العام. ﴿كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ في الدنيا، فلم أخلق، ولم أكلف، وهو في محل رفع علىٰ أنه خبر ﴿ليت﴾، أو ليتني كنت تراباً في هذا اليوم، فلم أبعث؛ لما يرىٰ مما قد أعده الله له من أنواع العذاب، كقوله: ﴿لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ إلىٰ قوله: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾، وقيل: يحشر الله الحيوان، فيقتص للجمّاء من القرناء نطحتها؛ أي: قصاص المقابلة، لا قصاص التكليف، ثم يرده تراباً، فيود الكافر حاله، كما قال ﷺ: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتىٰ يقاد للشاة الجلحاء من القرناء». وهذا صريح في حشر البهائم، وإعادتها لقصاص المقابلة، لا للجزاء ثواباً وعقاباً.

وقيل: الكافر إبليس يرىٰ آدم وولده وثوابهم، فتمنىٰ أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال: خلقتني من نار، وخلقته من طين، وقيل: تراباً؛ أي: متواضعاً لطاعة الله تعالىٰ، لا جباراً ولا متكبراً، وقيل: المراد بالكافر: أبو جهل، وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي. قال مقاتل: نزل قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ في أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ﴾ في أخيه الأسد بن عبد الأسد. وقيل: أبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، والأول أولىٰ اعتباراً بعموم اللفظ، ولا ينافيه خصوص السبب، كما تقدم غير مرة. وقرأ الجمهور: ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ بفتح الميم، وابن أبي إسحاق بضمها، وضعفها أبو حاتم، ولا ينبغي أن تضعف؛ لأنها لغة قوم يتبعون حركة الميم لحركة الهمزة، فيقولون: مرؤ ومرأ ومرىء، علىٰ حسب الإعراب، وأما مؤمنو الجن.. فلهم ثواب وعقاب، فلا يعودون تراباً، وهو الأصح، فيكون مؤمنوهم مع مؤمني الإنس في الجنة، أو في الأعراف، ونعيمهم ما يناسب مقامهم، ويكون كفارهم مع كفار الإنس في النار، وعذابهم بما يلائم شأنهم.

ومعنىٰ الآية: أي هذا العذاب القريب يوم ينظر المرء ما صنعه في حياته الأولىٰ من الأعمال، فإن كان قد آمن بربه، وعمل عمل الأبرار.. فطوبىٰ له وحسن مآب، وإن كان قد كذب به وبرسوله.. فله الويل وأليم العذاب، ويقول الكافر من شدة ما يلقىٰ، ومن هول ما يرى: ﴿ليتني كنت تراباً﴾ يريد: ليتني لم أكن من

المكلفين، بل كنت حجراً أو تراباً، لا يجري عليه تكليف حتىٰ لا يعاقب هذا العقاب، وفي الآية إيماءٌ إلى ما يكون عليه المؤمنون من الاستبشار والسرور بما رأوه.

الإعراب

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾.

﴿عَمَّ﴾: ﴿عن﴾: حرف جر ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الجر بـ ﴿عن﴾ مبني بسكون علىٰ الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ما الموصولة، وقرىء: ﴿عما﴾ بإثبات الألف علىٰ الأصل، ولكنه قليل أو ضرورة، وعليه قول حسان بن ثابت:

عَلَىٰ مَا قَامَ يَشْتِمُنِيْ لَئِيْمٌ ... كَخِنْزِيْرٍ تَمَرَّغَ فِيْ رَمَادِ

الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ و ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، والاستفهام فيه لتفخيم الشأن، كأنه قال: عن أي شيء يتساءلون، كأنه لا نظير له، نظير قولهم: ما الغول؟ وما العنقاء؟؛ أي: أيُّ شيء من الأشياء هو. ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بمحذوف دل عليه ما قبله؛ أي: يتساءلون عن النبأ العظيم، والجملة المحذوفة مستأنفة مسوقة لبيان ذلك الشيء المستفهم عنه.

﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الجر، صفة ثانية لـ﴿لنبأ﴾ ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ و ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾.

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر للمتسائلين استهزاء ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾: ﴿السين﴾: حرف استقبال وتنفيس ﴿يعلمون﴾: فعل وفاعل مرفوع بالنون، ومفعوله محذوف تقديره: ما يحل بهم، والجملة مستأنفة ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾: تأكيد لفظي للجملة التي قبلها، ولا يضر توسط حرف العطف؛ لأنه للتأكيد، والنحاة

يأبون ذلك إلا أن يكون عطفاً، وإن أفاد التأكيد، ويمكن أن يجاب عنه بأن ثمة تغايراً ملحوظاً، وهو: أن الوعيد الثاني أشد من الأول، وبهذا الاعتبار صار مغايراً لما قبله، ولذا عطف بـ ﴿ثُمَّ﴾. ﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ﴿نَجْعَلِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول أول لـ ﴿جعل﴾، ﴿مِهَٰدًا﴾: مفعول ثانٍ؛ لأن الجعل بمعنى التصيير، ويجوز أن يكون بمعنى الخلق، فيكون ﴿مِهَٰدًا﴾: حالاً مقدرة، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. مسوقة لبيان قدرته تعالى على البعث، وإيراد الدلائل عليه، وذكر منها تسعة كما عددناها بالأرقام في مبحث التفسير، ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ما قبله؛ لأنه بمعنى: وجعلنا الأرض مهاداً ﴿أَزْوَٰجًا﴾: حال من المفعول، أي: متجانسين متشابهين ذكوراً وإناثاً، ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾: فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على ما قبله أيضاً، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾: فعل وفاعل ومفعولان أيضاً، معطوف على ما سبق، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ معطوف أيضاً، وهي مماثلة لما قبلها، و ﴿مَعَاشًا﴾: مصدر ميمي بمعنى: المعيشة، وقد وقع هنا ظرفاً للزمان؛ أي: وقت معاش. ﴿وَبَنَيْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على سابقه، ﴿فَوْقَكُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بـ ﴿بنينا﴾. ﴿سَبْعًا﴾: مفعول به؛ أي: سبع سموات ﴿شِدَادًا﴾ صفة لـ ﴿سَبْعًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢﴾.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف أيضاً. ﴿وَهَّاجًا﴾: صفة ﴿سِرَاجًا﴾، والجعل هنا بمعنى الخلق، ﴿وَأَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾: متعلق بـ ﴿أَنزَلْنَا﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به ﴿ثَجَّاجًا﴾: صفة له ﴿لِّنُخْرِجَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿نخرج﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿نخرج﴾، ﴿حَبًّا﴾: مفعول به لـ ﴿نخرج﴾، ﴿وَنَبَاتًا﴾: معطوف على ﴿حَبًّا﴾ ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾: معطوف على ﴿حَبًّا﴾ أيضاً، وعلامة نصبه الكسرة؛ لأنه من جمع المؤنث السالم، ﴿أَلْفَافًا﴾: صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين ملتفة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام،

والجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَنزَلْنَا﴾ أيضاً؛ أي: أنزلنا منها ماء لإخراجنا به حباً... إلخ. ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود علىٰ ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ ﴿مِيقَـٰتًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر، كأن سائلاً سأل لما أقام الأدلة علىٰ البعث، فقال: ما وقت البعث؟ فأجاب بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ الخ. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، وأجاز أبو البقاء أن يكون بدلاً من ﴿مِيقَـٰتًا﴾، أو منصوب بفعل محذوف تقديره: أعني. ﴿يُنفَخُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾: جار ومجرور في محل الرفع، نائب فاعل لـ ﴿يُنفَخُ﴾، وجملة ﴿يُنفَخُ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿فَتَأْتُونَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿تأتون﴾: فعل مضارع مرفوع بالنون، والواو: فاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿يُنفَخُ﴾. ﴿أَفْوَاجًا﴾: حال من فاعل ﴿تأتون﴾، ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾: فعل ونائب فاعل، معطوف علىٰ ﴿تأتون﴾، وعدل فيه إلىٰ المضي إشارة إلىٰ تحقق الوقوع، وقيل: الواو حالية، والجملة في محل النصب علىٰ الحال؛ أي: فتأتون والحال أن السماء قد فتحت، ﴿فَكَانَتْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كانت﴾: فعل ماضٍ ناقص معطوف علىٰ ﴿فُتِحَتْ﴾، واسمها ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿أَبْوَٰبًا﴾: خبرها، ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾: فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿يُنفَخُ﴾، ﴿فَكَانَتْ﴾: فعل ماضٍ ناقص معطوف علىٰ ﴿سُيِّرَتْ﴾، واسمها ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾. ﴿سَرَابًا﴾: خبرها، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماضٍ ناقص، واسمها ضمير يعود علىٰ ﴿جَهَنَّمَ﴾. ﴿مِرْصَادًا﴾: خبرها؛ أي: راصدة للمعذبين بها مترقبة لهم، أو مرصدة بمعنىٰ: معدة؛ فهو إما من رصد الثلاثي بمعنىٰ ترقب، وإما من أرصد الرباعي؛ أي: أعده ﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾ متعلق بـ ﴿مِرْصَادًا﴾، و ﴿مَـَٔابًا﴾: خبر ثانٍ لـ ﴿مِرْصَادًا﴾؛ أي: مثابة يثوبون إليها ويرجعون، ويجوز تعلق ﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾ بـ ﴿مَـَٔابًا﴾.

﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿لَّـٰبِثِينَ﴾: حال مقدرة من الضمير المستكن في ﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾، ﴿فِيهَآ﴾ متعلقان به

﴿أَحْقَابًا﴾: ظرف متعلق بـ ﴿لَّٰبِثِينَ﴾، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يَذُوقُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿يَذُوقُونَ﴾. ﴿بَرْدًا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا شَرَابًا﴾: معطوف على ﴿بَرْدًا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿لَّٰبِثِينَ﴾؛ أي: لابثين هم فيها حال كونهم غير ذائقين، فهي حال متداخلة، أو صفة لـ ﴿أَحْقَابًا﴾، وقيل: مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿حَمِيمًا﴾: بدل من ﴿شَرَابًا﴾؛ لأن الكلام غير موجب، ﴿وَغَسَّاقًا﴾: معطوف علىٰ ﴿حَمِيمًا﴾، وهذا أسهل مما سلكه المفسرون، فقد قال بعضهم: إنه استثناء منقطع، وعليه جرىٰ في «الكشاف» قال: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ ينفس عنهم حر النار، ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يسكن عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميماً، وتبعه الجلال، وقال أبو حيان: والظاهر أنه متصل من قوله: ﴿وَلَا شَرَابًا﴾. ﴿جَزَآءً﴾: مصدر منصوب بفعل محذوف تقديره: جوزوا بذلك جزاء، ﴿وِفَاقًا﴾: صفة لـ ﴿جَزَآءً﴾، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿جَزَآءً﴾. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ خبرها ﴿حِسَابًا﴾: مفعول ﴿يَرْجُونَ﴾؛ أي: محاسبة. ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿كَانُوا۟﴾ علىٰ كونها خبراً؛ لأن ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿كَذَّبُوا۟﴾، ﴿كِذَّابًا﴾: مفعول مطلق منصوب بـ ﴿كَذَّبُوا۟﴾؛ أي: تكذيباً. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾، ﴿الواو﴾: اعتراضية ﴿كل شيء﴾: منصوب علىٰ الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، تقديره: وأحصينا كل شيء أحصيناه ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿كل شيء﴾: مفعول به، والجملة جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المسبب وسببه، فإن قوله الآتي ﴿فَذُوقُوا۟﴾ مسبب عن تكذيبهم، وفائدة الاعتراض تقرير ما ادعاه من قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾. ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب ﴿كِتَٰبًا﴾: يجوز أن يكون مصدراً من معنىٰ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾؛ أي: أحصيناه إحصاءً؛ أي: كتبناه كتاباً؛ لأن أحصيناه بمعنىٰ: كتبنا؛ لالتقاء الإحصاء والكتابة في معنى الضبط والتحصيل، أو يكون مصدراً لـ ﴿أحصينا﴾، ويجوز أن يكون حالاً بمعنىٰ مكتوباً، ﴿فَذُوقُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة لقول محذوف علىٰ ﴿كَذَّبُوا۟﴾ تقديره: فقيل لهم: ذوقوا إلخ ﴿ذوقوا﴾ إلخ نائب فاعل محكي لقيل المحذوف، وجملة

القول المحذوف معطوفة علىٰ ﴿كَذَّبُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ذوقوا﴾: فعل أمر وفاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لقيل، ومفعول الذوق محذوف، تقديره: فذوقوا جزاءكم، ومفعول به أوّل معطوف علىٰ ﴿ذوقوا﴾. ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ ناصب وفعل منصوب بالفتحة ومفعول به ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به ثانٍ.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: خبرها مقدم ﴿مَفَازًا﴾: اسمها مؤخر والجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان أحوال أهل الجنة، ﴿حَدَآئِقَ﴾: بدل من ﴿مَفَازًا﴾: بدل بعض من كل ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾: معطوف علىٰ ﴿حَدَآئِقَ﴾ ﴿وَكَوَاعِبَ﴾: معطوف على ﴿حَدَآئِقَ﴾ أيضاً، ﴿أَتْرَابًا﴾: صفة لـ ﴿كواعب﴾، ﴿وَكَأْسًا﴾: معطوف علىٰ ﴿حَدَآئِقَ﴾ أيضاً، ﴿دِهَاقًا﴾: صفة لـ﴿كَأْسًا﴾، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يسمعون﴾: فعل وفاعل ﴿فِيهَا﴾، متعلق بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾، ﴿لَغْوًا﴾: مفعول به، ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾: معطوف علىٰ ﴿لَغْوًا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿جَزَآءً﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: جزاهم الله بذلك جزاء، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾: صفة لـ ﴿جَزَآءً﴾، ﴿عَطَآءً﴾: بدل من ﴿جَزَآءً﴾، وفي هذا البدل سر لطيف، وهو الإلماع إلى أن ذلك تفضل وعطاء، و ﴿جَزَآءً﴾ مبني علىٰ الاستحقاق، و ﴿حِسَابًا﴾: نعت لـ ﴿عَطَآءً﴾، والمعنىٰ: كافياً، فهو مصدر أقيم مقام الوصف، كما مر، أو باقٍ على مصدريته مبالغة، ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: بدل من ﴿رَّبِّكَ﴾. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف علىٰ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف مكان، متعلق بمحذوف صلة ﴿مَآ﴾، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بدل من ﴿رَّبِّ﴾، أو نعت له ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَمْلِكُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بـ ﴿يَمْلِكُونَ﴾، ﴿خِطَابًا﴾: مفعول به ﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، أو بـ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، ﴿يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف على ﴿ٱلرُّوحُ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة الظرف إليه، ﴿صَفًّا﴾: حال من الفاعل، أي:

مصطفين، وجملة ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، أو مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع بدل من الواو في ﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾، أو في محل النصب علىٰ الاستثناء؛ لأن الكلام غير موجب ﴿أَذِنَ﴾: فعل ماضٍ ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ ﴿أَذِنَ﴾. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: فاعل، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماضٍ معطوف علىٰ ﴿أَذِنَ﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود علىٰ ﴿مَنْ﴾، ﴿صَوَابًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: قولاً صواباً.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿ٱلْيَوْمُ﴾: بدل منه، ﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصح عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا كان الأمر بهذه المثابة، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم: ﴿من شاء﴾: ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، كما مَرَّ مراراً ﴿شَآءَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، علىٰ كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود علىٰ ﴿من﴾، ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: فمن شاء اتخاذ مآبٍ إلىٰ ربه. ﴿ٱتَّخَذَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية علىٰ كونه جواباً لها، وفاعله ضمير مستتر يعود علىٰ ﴿من﴾ الشرطية، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿مَـَٔابًا﴾، و ﴿مَـَٔابًا﴾: مفعول ﴿ٱتَّخَذَ﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، ﴿أَنذَرْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول، و ﴿عَذَابًا﴾ مفعول به ثانٍ، ﴿قَرِيبًا﴾ صفة ﴿عَذَابًا﴾. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب علىٰ الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿عَذَابًا﴾؛ أي: عذاباً قريباً كائناً ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾، أو متعلق بـ ﴿عَذَابًا﴾، ﴿يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿يَنظُرُ﴾. ﴿قَدَّمَتْ﴾: فعل ماضٍ، والتاء علامة تأنيث

الفاعل ﴿يَدَاهُ﴾: فاعل ومضاف إليه مرفوع بالألف؛ لأنه مثنىٰ، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾: فعل وفاعل، معطوف علىٰ ﴿يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ ﴿يَا﴾: حرف تنبيه، أو حرف نداء، والمنادىٰ محذوف؛ أي: يا هؤلاء القوم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾، ﴿لَيْتَنِي﴾: ليت حرف تمنٍّ ونصب، والنون نون الوقاية؛ لأنها تقي حركة البناء الأصلي في الحرف، والياء ضمير المتكلم في محل النصب اسمها، ﴿كُنتُ تُرَابًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿ليت﴾ وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عَمَّ﴾ أصله: عن ما، والأصل في ﴿ما﴾ الاستفهامية أنها إذا جرت حذف ألفها، ما ذكره ابن مالك بقوله:

وَمَا فِي ٱلاسْتِفْهَامِ إِنْ جُرَّتْ حُذِفْ ... أَلِفُهَا وَأَوْلِهَا ٱلْهَا إِنْ تَقِفْ

وقد وقف عليها ابن كثير في رواية البزي عنه بهاء السكت علىٰ خلاف عنه، وفي ذلك قال الشاطبي:

وَفِيْمَهْ وَمِمَّهْ قِفْ وَعَمَّهْ لِمَهْ بِمَهْ ... بِخُلْفٍ عَنِ ٱلْبَزِّيِّ وَٱدْفَعْ مُجَهِّلَا

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾﴾؛ أي: عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً من التساؤل الذي يدل علىٰ المشاركة..

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ والنبأ: الخبر الذي يعنىٰ به ويهتم بشأنه، والمراد به: خبر البعث من القبور، والعرض علىٰ مالك يوم الدين.

﴿كَلَّا﴾ كلمة تفيد رد ما تقدم من الكلام ونفيه. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾: تأكيد لفظي لما قبله علىٰ ما قاله ابن مالك، ولا يضر توسط حرف العطف، والنحويون يمنعون هذا، ولا يسمونه إلا عطفاً، وإن أفاد التأكيد. ا هـ «سمين».

وقيل: الأول عند النزع، والثاني: في القيامة. وقيل: الأول للبعث، والثاني: للجزاء. ا هـ «بيضاوي». وقال زاده: ثم موضوعة للتراخي الزماني، وقد استعمل هنا للتراخي الرتبي تشبيهاً لتباعد الرتبة بتباعد الزمان. ا هـ.

﴿مِهَٰدًا﴾ والمهاد ـ بكسر الميم ـ: البساط والفراش، وقال بعضهم: المهاد: مصدر ماهدت بمعنىٰ مهدت، كسافرت بمعنىٰ: سفرت، أطلق على الأرض الممهودة؛ أي: المبسوطة المفروشة كالمهد للصبي، ويجوز أن يكون جمع مهد، ككعاب جمع كعب، وجمعه لاختلاف أماكن الأرض من القرى، والبلدان والصحارىٰ والعمران، أو للتصرف فيها بأن جعل بعضها مزارع وبعضها مساكن إلىٰ غير ذلك.

وقرىء: ﴿مهداً﴾ علىٰ تشبيهها بمهد الصبي، وهو ما يمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر، ففي الكلام حينئذٍ تشبيه بليغ.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ جمع وتد، كأكتاف وكتف، وهو ما يدق في الأرض ليربط إليه الحبل الذي تشد به الخيمة، وقيل: هو ما يوتد ويحكم به المتزلزل المتحرك من اللوح وغيره.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾؛ أي: أصنافاً ذكوراً وإناثاً، ليسكن كل من الصنفين إلىٰ الآخر، وينتظم أمر المعاشرة والمعاش، ويتسنىٰ التناسل، واحدها: زوج، ويطلق علىٰ الذكر والأنثى، ويقال لكل واحد من القرينين المزدوجين: حيواناً أو غيره؛ كالخف والنعل، ولا يقال للإثنين زوج، بل زوجان، ولذا كان الصواب أن يقال: قرضته بالمقراضين، وقصصته بالمقصين؛ لأنهما اثنان، لا بالمقراض وبالمقص، كذا قال الحريري في «درة الغواص»، وقال صاحب «القاموس»: يقال للاثنين: هما زوجان، وهما زوج. انتهىٰ. ولعله من قبيل الاكتفاء بأحد الشقين عن الآخر، وزوجة للمرأة لغة رديئة، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، ويقال لكل ما يقترن بآخر مماثلاً له، أو مضاداً: زوج، ولذا قال بعضهم في الآية: وخلقناكم حال كونكم معروضين لأوصاف متقابلة، كل واحد منها مزدوج بما يقابله؛ كالفقر والغنىٰ، والصحة والمرض، والعلم والجهل، والقوة والضعف، والذكورة والأنوثة، والطول والقصر، إلى غير ذلك.

وبه يصح الابتلاء، فإن الفاضل يشتغل بالشكر، والمفضول بالصبر، ويعرف قدر النعمة عند الترقي من الصبر إلىٰ الشكر، وكل ذلك دليل علىٰ كمال القدرة ونهاية الحكمة.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ والنوم: استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، ولذا قلَّ النوم في أهل رياضة النفس؛ لقلة الرطوبات فيهم. ﴿سُبَاتًا﴾؛ أي: راحةً أو موتاً؛ أي: كالموت، والمسبوت: الميت من السبت، وهو القطع؛ لأنه مقطوع عن الحركة، ومنه سمي يوم السبت؛ لأن الله تعالىٰ ابتدأ بخلق السموات والأرض يوم الأحد، فخلقها في ستة أيام، فقطع عمله يوم السبت، فسمي بذلك، وقيل: السبات ـ بضم السين ـ: قطع الحركة لتحصيل الراحة.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: كاللباس، واللباس: ما يلبسه الإنسان ليستر به جسمه ويغطيه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾؛ أي: وقتاً لتحصيل أسباب المعاش والحياة، وهو مصدر ميمي من عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشة وعيشة، وعلىٰ هذا لا بد من تقدير المضاف، ولذا قدروا لفظ الوقت، ويحتمل أن يكون اسم زمان علىٰ صيغة مفعل، فلا حاجة حينئذٍ إلى تقدير المضاف، وتفسيره بوقت معاش إبراز لمعنىٰ صيغة اسم الزمان، وتفصيل لمفهومها، وأصله: معيشاً بوزن: مفعل، نقلت حركة الياء إلىٰ العين، فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال.

﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾؛ أي: سبع سموات قوية محكمة، لا فطور فيها، ولا تصدع.

﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ والسراج: ما يضيء وينير، والوهاج: المتلألىء، والمراد به: الشمس.

﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ﴾ والمعصرات: السحائب، والغيوم إذا أعصرت؛ أي: حان وقت أن تعصر الماء، فيسقط منها. ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾؛ أي: كثير الانصباب عظيم السيلان، والمراد به: المطر، والثج: الانصباب بكثرة وشدة، ويقال: ثج الماء بنفسه؛ أي: انصب، وثججته أنا؛ أي: صببته ثجاً وثجوجاً، فيكون لازماً ومتعدياً، وفي «المختار»: ثج الماء والدم: سال، وبابه رد، ومطر ثجاجٌ؛ أي: منصب جداً، والثج أيضاً: سيلان دماء الهدي، وهو لازم، تقول منه ثج الدم يثج بالكسر ثجاً بالفتح.

﴿حَبًّا﴾ والحب: ما يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير والذرة ونحوها من

المطعومات، والحب والحبة ـ يعني بالكسر ـ يقال في بزور الرياحين.

﴿وَنَبَاتًا﴾ والنبات: ما تقتات به الدواب من التبن والحشيش.

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ والجنات: واحدها جنة، وهي الحديقة والبستان فيه الشجر أو النخل، والجنات الألفاف: الملتفة الأغصان لتقاربها، وطول أفنانها، ولا واحد لها؛ كالأوزاع والأخياف كما مر. وقيل: واحدها لف بكسر اللام وفتحها، وقال أبو عبيدة: واحدها لفيف كشريف وأشراف، والأوزاع والأخياف كلاهما بمعنىٰ الجماعات.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ هو يوم القيامة، سمي بذلك؛ لأن الله يفصل فيه بحكمه بين الخلائق ﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾؛ أي: حداً تنتهي عنده الدنيا، وأصله: موقاتاً بوزن مفعال، قلبت الواو لسكونها إثر كسرة.

﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ والصور في الأصل: البوق الذي ينفخ فيه فيحدث صوتاً، وقد جرت عادة الناس إذا سمعوه أن يهرعوا إليه، ويجتمعوا عند النافخ.

﴿أَفْوَاجًا﴾ جمع فوج، وهو جماعة من الناس، وفي «المفردات»: الفوج: الجماعة المارة المسرعة.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: انشقت وتصدعت من هيبة الله تعالىٰ بعد أن كانت لا فطور فيها.

﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾؛ أي: ذات أبواب كثيرة لنزول الملائكة.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾؛ أي: زالت عن أماكنها وتفتت صخورها.

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾؛ أي: كالسراب، فهي بعد تفتتها ترىٰ كأنها جبال، وليست بجبال، بل غباراً متراكماً، والسراب: ما تراه نصف النهار كأنه ماء، قال الراغب: هو اللامع في المفازة كالماء، وذلك لانسرابه في مرأىٰ العين؛ أي: ذهابه وجريانه، وتنعكس فيه البيوت والأشجار وغيرها، ويضرب به المثل في الكذب والخداع، يقال: هو أخدع من السراب، يعني: أنها تصير شيئاً كلا شيء، لتفرق أجزائها، وانبثاث جواهرها.

﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ والمرصاد: اسم للمكان الذي يرصد فيه؛ كالمنهاج اسم

للمكان الذي ينهج فيه؛ أي: يسلك، قال الراغب: المرصاد: موضع الرصد كالمرصد، وهو هنا: موضع يرتقب فيه خزنتها المستحقين لها.

﴿لِلطَّٰغِينَ﴾؛ أي: للذين طغوا في مخالفة ربهم، ومعارضة أوامره. ﴿أَحْقَابًا﴾ جمع حقب بضمتين، وواحد الحقب: حقبة، وهي مدة مبهمة من الزمان.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ والبرد: برد الهواء، وقد يراد به: النوم، ومن أمثالهم: منع البرد البرد؛ أي: أصابه من شدة البرد ما منعه النوم.

﴿وَلَا شَرَابًا﴾؛ أي: شراباً يسكن عطشهم، ويزيل الحرقة عن بواطنهم.

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ وهو الماء الحار المغلي. ﴿وَغَسَّاقًا﴾؛ أي: قيحاً وصديداً وعرقاً دائم السيلان من أجسادهم. ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: موافقاً أعمالهم السيئة. ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يتوقعون ﴿حِسَابًا﴾؛ أي: محاسبة على أعمالهم، أو ثواب حساب.

﴿كِذَّابًا﴾؛ أي: تكذيباً، وفعال من باب فعل المضاعف شائع فيما بين الفصحاء مطرد، مثل: كلم كلاماً.

﴿كِتَٰبًا﴾ مصدر مؤكد لـ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ من غير لفظه كما مر.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ مفازاً: مصدر ميمي من فاز الثلاثي، وأصله مفوز بوزن مفعل بفتح العين، نقلت حركة الواو إلىٰ الفاء فسكنت، ثم أبدلت ألفاً لتحركها أصالة، وفتح ما قبلها في الحال؛ أي: إن لهم فوزاً بالنعيم الدائم، والثواب الجسيم. ﴿حَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة؛ أي: بساتين، فيها أنواع الثمر والحجر، والهمزة فيه مبدلة من الياء الواقع في الاسم المفرد المؤنث الواقعة ثالثاً حرف مد زائداً.

﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ جمع: عنب، وهو ثمر الكرم.. ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب، وهي التي نهض ثدياها وتكعبا. ﴿أَتْرَابًا﴾: جمع ترب، وهي التي سنها من سن صاحبتها. ﴿وَكَأْسًا﴾ والكأس: إناء من بلور للشراب. ﴿دِهَاقًا﴾؛ أي: ممتلئة، يقال: أدهق الحوض؛ أي: ملأه، قال خداش:

أَتَــانَــا عَــامِــرٌ يَــبْــغِــيْ قِــرَانَــا   فَــأَتْــرَعْــنَــا لَــهُ كَــأْسَــاً دِهَــاقَــا

﴿لَغْوًا﴾ واللغو: الباطل من الكلام الذي يلغىٰ ولا يعتبر لعدم إفادته. ﴿وَلَا كِذَّابًا﴾؛ أي: تكذيباً. ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ الهمزة فيه مبدلة من ياء، أصله: جزاي،

أبدلت ياؤه همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿عَطَآءً﴾؛ أي: تفضلاً منه، وإحساناً، أصله: عطاو، أبدلت الواو همزة؛ لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿حِسَابًا﴾؛ أي: كافياً لهم، تقول: أعطاني فلان حتىٰ أحسبني؛ أي: حتىٰ كفاني بعطائه، قال الشاعر:

فَلَمَّا حَلَلْتُ بِهِ ضَمَّنِيْ ... فَأَوْلَىٰ جَمِيْلاً وَأَعْطَىٰ حِسَابَا

أي: أعطى ما كفىٰ. ﴿خِطَابًا﴾ الخطاب: المخاطبة والمكالمة. ﴿ٱلرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام، ﴿مَـَٔابًا﴾ المآب: المرجع. ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ الإنذار: الإخبار بالمكروه قبل وقوعه ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ والمرء: الإنسان ذكراً كان أو أنثى ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ أي: ما صنعه في حياته الأولى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإبهام في قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ للإيذان بفخامة شأن المسؤول عنه وهوله، وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة، كأنه خفي جنسه، فيسأل عنه، فالاستفهام ليس علىٰ حقيقته، بل لمجرد التفخيم، فإن المسؤول عنه ليس بمجهول بالنسبة إلى الله تعالىٰ؛ إذ لا يخفىٰ عليه خافية.

ومنها: ذكر السؤال أولاً بقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾، ثم ذكر الجواب بقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾: لأن هذا الأسلوب أقرب إلىٰ التفهيم والإيضاح.

ومنها: وصف النبأ بقوله: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ بعد وصفه بالعظيم؛ تأكيداً لخطره إثر تأكيد، وإشعاراً بمدار التساؤل عنه.

ومنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ علىٰ عامله اهتماماً به، ورعايةً للفواصل.

ومنها: جعل الصلة فيه جملة اسمية للدلالة علىٰ الثبات؛ أي: هم راسخون في الاختلاف فيه.

ومنها: الإطناب بتكرار الجملة للوعيد والتهديد في قوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ للمبالغة في التأكيد والتشديد.

ومنها: الإتيان بـ ﴿ثُمَّ﴾ في الجملة الثانية، للدلالة علىٰ أن الوعيد الثاني أبلغ وأشد.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ أصل الكلام: جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفترشه النائم، والجبال كالأوتاد التي تثبت الدعائم، فحذف أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً، ومثله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾؛ أي: كاللباس في الستر والإخفاء، فوجه الشبه: الستر؛ لأن كلاً من اللباس والليل يستر المتلبس به؛ أي: يستركم عن العيون إذا أردتم النجاة بأنفسكم من عدو يلاحقكم، أو بياتاً له، إذا أردتم إنزال الوقيعة به في منأىٰ عن العيون، أو يعينكم علىٰ إخفاء ما لا ترغبون في أن يطلع عليه أحد.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾ وبين: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ قابل بين الليل والنهار، والراحة والعمل، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾؛ أي: كالأبواب في التشقق والانصداع، فحذفت الأداة ووجه الشبه، فصار بليغاً.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾ للدلالة علىٰ التحقق، وكذا قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾؛ أي: كانت كالسراب الذي يرى نصف النهار كأنه ماء؛ أي: فصارت بتسييرها مثل السراب؛ أي: شيئاً كلا شيء.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾؛ لأنه كناية عن التأبيد؛ أي: ماكثين فيها أبداً.

ومنها: الطباق بين ﴿بَرْدًا﴾ و﴿حَمِيمًا﴾.

ومنها: الأمر الذي يراد به الإهانة والتحقير في قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾، وفيه أيضاً الالتفات من الغيبة إلىٰ الخطاب مبالغةً في التوبيخ والإهانة.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ بعد التعميم في قوله: ﴿حَدَآئِقَ﴾ إظهاراً لفضلها علىٰ سائر الفواكه.

ومنها: ذكر العام بعد الخاص في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾، والروح هو جبريل داخل في الملائكة، فقد ذكر مرتين: مرة استقلالاً، ومرة في ضمن الملائكة تنبيهاً علىٰ جلالة قدره.

ومنها: إظهار ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في موضع الإضمار في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ للإيذان، بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة، لا أن أحداً يستحقه عليه تعالى.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ اهتماماً به، ورعاية للفواصل.

ومنها: التعبير بالجزء عن الكل في قوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ إشعاراً بأن أكثر الأعمال تزوال بها.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

تضمنت هذه السورة المقاصد التالية:

١ ـ سؤال المشركين عن البعث ورسالة محمد ﷺ.

٢ ـ تهديد المشركين على إنكارهم إياه.

٣ ـ إقامة الأدلة علىٰ إمكان حصوله.

٤ ـ أحداث يوم القيامة.

٥ ـ ما يلاقيه المكذبون من العذاب.

٦ ـ فوز المتقين بجنات النعيم.

٧ ـ إن هذا اليوم حق لا ريب فيه.

٨ ـ إنذار الكافرين بالعذاب الأليم، وتمنيهم في ذلك اليوم أن لو كانوا تراباً.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً[١].

* * *

---

(١) فرغنا من تسويد هذه السورة في تاريخ: ٢/٧/ ١٤١٦هـ. سنة ألف وأربع مئة وست عشرة هجرية.

سورة النازعات

سورة النازعات ـ وتسمى: سورة الساهرة، وسورة الطامة ـ مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة النبأ، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة النازعات بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآيتها: ست أو خمس وأربعون آية، وكلماتها: مئة وثلاث وسبعون كلمةً، وحروفها: تسع مئة وثلاثة وخمسون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالىٰ أنذر الكفار في السورة السابقة بعذاب يوم القيامة، وهددهم بجهنم وساءت مصيراً، وأن عذابهم فيها جزاء موافق لتمردهم وتكذيبهم لرسوله محمد ﷺ. وأقسم في هذه السورة علىٰ أن البعث والنشور حق لا ريب فيه، وقد أقسم سبحانه في هذه السورة بأصناف من مخلوقاته علىٰ أن ما جاء به رسوله محمد ﷺ من حشر الناس، وعرضهم علىٰ ربهم لينال كل عامل جزاء عمله، حق لا ريب فيه، وأيضاً أن يوم ترجف الراجفة من مبادىء النبأ العظيم.

الناسخ والمنسوخ: وهذه السورة كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وسميت سورة النازعات؛ لذكر النازعات فيها.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾
فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا
خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ
خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ
رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ
رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾
فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ أَأَنتُمْ
أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا
جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ
﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ
الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾
إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا
﴿٤٦﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، وقد بدأ الله سبحانه هذه السورة بالحلف بأصناف من مخلوقاته، إن ما جاء به رسوله ﷺ من أمر البعث، وعرض الخلائق علىٰ ربهم لينال كل عامل جزاء عمله، حق لا ريب فيه في يوم تعظم فيه الأهوال، وتضطرب القلوب، وتخشع الأبصار، ويعجب المبعوثون من عودتهم إلىٰ حياتهم الأولى بعد أن كانوا عظاماً نخرة، تمر فيها الرياح، ويتحققون أن صفقتهم كانت في الدنيا خاسرة؛ إذ إنهم أنكروا في الدنيا معادهم.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما حكىٰ عن كفار مكة إصرارهم على إنكار البعث، وتماديهم

في العتو والطغيان، واستهزاءهم بالرسول ﷺ، وكان ذلك يشق عليه، ويصعب على نفسه.. ذكر له قصص موسى مع فرعون طاغية مصر، وبين له أنه قد بلغ في الجبروت حداً لم يبلغه قومك، فقد ادعى الألوهية، وألب قومه علىٰ موسى، وكان موسىٰ مع هذا كله يتحمل المشاق العظام في دعوته إلىٰ الإيمان، ليكون ذلك تسليةً لرسوله ﷺ، عما يلاقيه من قومه من شديد العناد، وعظيم الإعراض، يرشد إلىٰ ذلك قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾. وفي ذلك عبرة أخرىٰ لقومه، وهي أن فرعون مع أنه كان أقوى منهم شكيمة، وأشد شوكة، وأعظم سلطاناً، لما تمرد علىٰ موسى عليه السلام، وعصى أمر ربه.. أخذه الله نكال الآخرة والأولىٰ، ولم يعجزه أن يهلكه ويجعله لمن خلفه آيةً، فأنتم أيها القوم مهما عظمت حالكم، وقوي سلطانكم.. لم تبلغوا مبلغ فرعون، فأخذكم أهون على الله منه. وفي هذا تهديد لهم وإنذار بأنهم إن لم يؤمنوا بالله ورسوله.. فسيصيبهم مثل ما أصاب فرعون وقومه، كما قال في آية أخرى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قص علىٰ المشركين قصص موسىٰ عليه السلام مع فرعون، وأومأ بهذا القصص إلىٰ أنهم لا يعجزون الذي أخذ فرعون ونكل به، وجعله عبرة للباقين، وسلىٰ به رسوله حتىٰ لا يحزن لتكذيب قومه له، وعدم إيمانهم بما جاءهم به.. أخذ يخاطب منكري البعث وينبههم إلىٰ أنه لا ينبغي لهم أن يجحدوه، فإن بعثهم هين إذا أضيف إلىٰ خلق السموات التي تدل بحسن نظامها وجلالها على حكمة مبدعها وعظيم قدرته وواسع حكمته وإلى خلق الأرض التي دحاها، وجعلها معدة للسكنىٰ، وهيأ فيها وسائل المعيشة للإنسان والحيوان، فأخرج منها الماء الذي به حياة كل شيء، وأنبت فيها النبات الذي به قوام الإنسان والحيوان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله

(١) المراغي.

سبحانه لما بين[١] أنه قادر على نشر الأموات، كما قدر على خلق الأكوان.. بين صدق ما أوحى به إلىٰ نبيه من أن ذلك اليوم الذي فيه يقوم الناس لرب العالمين كائن لا بد منه، فإذا جاءت طامته الكبرىٰ التي تفوق كل طامة، حين تعرض الأعمال علىٰ العالمين، فيتذكر كل امرىء ما عمل، ويظهر الله الجحيم، وهي دار العذاب للعيان، فيراها كل ذي بصر، وفي ذلك اليوم يوزع الجزاء علىٰ العالمين؛ فأما من جاوز الحدود التي حدها الله سبحانه في شرائعه، وفضل لذائذ الدنيا علىٰ ثواب الآخرة.. فدار العذاب مستقره ومأواه، وأما من خاف مقامه بين يدي ربه في ذلك اليوم، وزجر نفسه عن هواها، فلم يجر وراء شهواتها.. فالجنة منزله ومأواه، جزاء ما قدمت يداه.

قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه لما كان المشركون يسألون الرسول عناداً واستهزاءً عن الساعة، ويطلبون إليه أن يعجل بها، كما يرشد إلى ذلك: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، وربما سألوه عن تحديد وقتها، فكان النبي ﷺ يردد في نفسه ما يقولون، ويتمنىٰ لو أمكن أن يجيب عما يسألون، كما هو شأن الحريص علىٰ الهداية المجد في الإقناع.. نهاه الله سبحانه وتعالى عن تمني ما لا يرجى، وأبان له أنه لا حاجة لك إلىٰ ذلك، فإن علمها عند ربك، وإنما شأنك أن تنذر من يخافها فتنبهه من غفلته، حتىٰ يستعد لما يلقاه حينئذٍ.

أما هؤلاء المعاندون: فدعهم في غوايتهم، ولا تشغل نفسك بالجواب عما يسألون، فإذا جاء هذا اليوم.. خيل إليهم أنهم لم يلبثوا من يوم خلقوا إلىٰ يوم البعث إلا طرفاً من نهار أوله أو آخره، ولم يلبثوا نهاراً كاملاً لمفاجأتها لهم علىٰ غير استعداد لوقوعها.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[٢] سعيد بن منصور عن محمد بن كعب قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

﴿فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠﴾.. قال كفار قريش: لئن حيينا بعد الموت لنخسرن، فنزلت: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ...﴾ إلىٰ آخر السورة سبب نزولها: ما أخرجه الحاكم وابن جرير عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة، حتىٰ أنزل عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝٤٢...﴾ إلخ فانتهىٰ.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن مشركي مكة سألوا النبي ﷺ، فقالوا: متى تقوم الساعة؟ استهزاءً منهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝٤٢...﴾ إلى آخر السورة.

وأخرج الطبراني وابن جرير عن الطارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة، حتىٰ نزلت: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۝٤٤﴾. وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن عروة.

التفسير وأوجه القراءة

افتتح سبحانه وتعالى هذه السورة الكريمة بالقسم ببعض مخلوقاته إظهاراً لعظيم شأنها، وجليل قدرها، وإتقان صنعها ونظامها، وغزارة فوائدها في هذا الكون العظيم الفسيح، وهذه المخلوقات مهما عظمت.. فهي مسخرة ومسيرة لأمر بارئها، خاضعة لسلطانه وجبروته وعظمته وحكمه وعدله وأمره جَلَّ وعلا، والقسم بغير الله لا يجوز لأحد من خلق الله، أما بالنسبة إلىٰ الله تعالى.. فهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته، لحكم عالية ومعان سامية يلفت النظر بها إلىٰ أهمية المقسم به من المخلوقات، لدلالتها على عظمة خالقها وبارئها وموجدها من العدم، وأنها مخلوقة له سبحانه وتعالى، فقال:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١﴾: الواو للقسم[(١)]، والقسم يدل علىٰ عظم شأن المقسم به، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته. تنبيهاً على ذلك العظم، كما مر آنفاً. و﴿النازعات﴾: جمع نازعة، بمعنىٰ طائفة من الملائكة نازعة، فأنث صفة الملائكة باعتبار كونهم طائفة، ثم جمعت تلك الصفة، فقيل: نازعات بمعنىٰ:

---

(١) روح البيان.

طوائف من الملائكة نازعات، وقس عليه ﴿الناشطات﴾ وما بعده، وإلا فكان الظاهر أن يقال: والنازعين، والناشطين مثلاً، والنزع: جذب الشيء من مقره بشدة، والغَرْق: مصدر معنوي لـ﴿النازعات﴾ بحذف الزوائد بمعنىٰ: الإغراق والغرق، وكذا الإغراق: الرسوب في الماء وفي البلاء، فهو مفعول مطلق لـ﴿النازعات﴾؛ لأنه نوع من النزع، فيكون شرطه موجوداً، وهو اتفاق المصدر مع عامله لفظاً أو معنىٰ، والإغراق في النزع: التوغل فيه، والبلوغ إلىٰ أقصىٰ درجاته، يقال: أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المد حتىٰ انتهىٰ إلىٰ النصل. أقسم الله تعالىٰ بطوائف من الملائكة التي تنزع أرواح الكفار من أجسادهم إغراقاً في النزع؛ أي: نزعاً شديداً، فهم ينزعونها منهم معكوساً من الأنامل والأظفار، ومن تحت كل شعرة، كما تنزع الأشجار المتفرقة العروق في أطراف الأرض، وكما يسلخ جلد الحيوان وهو حي، وكما يضرب الإنسان ألف ضربة بالسيف، بل أشد، والملائكة، وهم ملك الموت وأعوانه من ملائكة العذاب يطعنونهم بحربة مسمومة بسم جهنم، والميت يظن أن بطنه قد مليء شوكاً، وكأن نفسه تخرج من ثقب إبرة، وكأن السماء انطبقت علىٰ الأرض، وهو بينهما، فإذا نزعت نفس الكافر.. فهي أشبه شيء بالزئبق علىٰ قدر النحلة، وعلىٰ صورة عمله تأخذها الزبانية، ويعذبونها في القبر، وفي السجين، وهو العذاب الروحاني، ثم إذا قامت القيامة.. انضم الجسماني إلىٰ الروحاني، كذا قالوا، ولا أصل له، ولكن يدل على هذا التشديد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾.

فقوله[1]: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾﴾ إشارة إلىٰ كيفية قبض أرواح الكفار بشهادة مدلول اللفظ، وجواب القسم محذوف دل عليه قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾؛ لأن معناه: أنبعث إذ صرنا كذلك؟ والتقدير: أقسمت لكم أيها العباد بالملائكة التي تنزع وتقبض أرواح الكفار نزعاً شديداً، أو قبضاً عنيفاً لتبعثنَّ بعد الموت للمجازاة علىٰ أعمالكم. قال الإمام الطبري في «تفسيره»[2]: أقسم ربنا جل وعلا بـ﴿النازعات﴾، واختلف أهل التأويل فيها، وما هي، وما تنزع، فقال بعضهم: الملائكة التي تنزع نفوس بني آدم، والمنزوع نفوس الآدميين، وقال آخرون: بل هو

---

(١) روح البيان. (٢) الطبري.

الموت ينزع النفوس، وقال غيرهم: بل هي النجوم تنزع من أفق إلىٰ أفق؛ أي: تطلع وتغيب، ثم قال بعد ذكر أقوال أخرى: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالىٰ أقسم بالنازعات غرقاً، ولم يخصص نازعة دون نازعة، فكل نازعة غرقاً فداخلة في قسمه، ملكاً كان أو موتاً، أو نجماً، أو قوساً، أو غير ذلك.

والمعنىٰ: والنازعات إغراقاً، كما يغرق النازع في القوس، أي: والنازعات شدة، كما شدد النازع في القوس.

وقال الشوكاني[1]: أقسم سبحانه وتعالىٰ بهذه الأشياء التي ذكرها، وهي: الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم، كما ينزع النازع في القوس، فيبلغ بها غاية المد، وكذا المراد بـ﴿الناشطات﴾، و﴿السابحات﴾، و﴿السابقات﴾، و﴿المدبرات﴾، يعني: الملائكة، والعطف مع اتحاد الكل لتنزيل التغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي، كما في قول الشاعر:

إِلَىٰ ٱلْمَلِكِ ٱلْقَرْمِ وَٱبْنِ ٱلْهُمَامْ وَلَيْثِ ٱلْكَتِيْبَةِ فِيْ ٱلْمُزْدَحَمْ

وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، وقال السدي: ﴿النازعات﴾: هي النفوس حين تغرق في الصدور.

وقال مجاهد: هي الموت ينزع النفس. وقال قتادة: هي النجوم تنزع من أفق إلىٰ أفق، من قولهم: نزع إليه إذا ذهب، أو من قولهم: نزعت بالحبل؛ أي: إنها تغرب وتغيب، وتطلع من أفق آخر، وبه قال أبو عبيدة والأخفش وابن كيسان، وقال عطاء وعكرمة: ﴿النازعات﴾: القسي، تنزع بالسهام، وإغراق النازع في القوس: أن يمده غاية المد حتى ينتهي به إلىٰ النصل، وقال يحيى بن سلام: الغزال تنزع بين الكلأ وتنفر، وقيل: أراد بالنازعات: الغزاة؛ أي: الرماة. انتهىٰ.

وقوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطًا ۝٢﴾ قَسَم آخر معنىٰ[2] بطريق العطف، والنشط: جذب الشيء من مقره برفق ولين، ونصب ﴿نَشۡطًا﴾ علىٰ المصدرية، أقسم الله سبحانه بطوائف من الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين؛ أي: تخرجها من أبدانهم

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

برفق ولين، كما تنشط الدلو من البئر، يقال: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وكما تنشط الشعرة من السمن، وكما تنسل القطرة من السقاء، وهم ملك الموت وأعوانه من ملائكة الرحمة، ونفس المؤمن وإن كانت تجذب من أطراف البنان، ورؤس الأصابع أيضاً، لكن لا يحس بالألم، كما يحس به الكافر، وأيضاً نفس المؤمن ليس لها شدة تعلق بالبدن، كنفس الكافر؛ لكونها منجبذةً إلىٰ عالم القدس، وإنما يشتد الأمر علىٰ أهل التعلق، دون أهل التجرد، خصوصاً إذا كان ممن مات بالاختيار قبل الموت، وأيضاً حين يجذبونها يدعونها أحياناً حتىٰ تستريح؛ وليس كذلك أرواح الكفار في قبضها، لكن ربما يتعرض الشيطان للمؤمن الضعيف اليقين، والقاصر في العمل إذا بلغ التراقي، فيأتيه في صورة أبيه وأمه وأخيه، أو صديقه، فيأمره باليهودية أو النصرانية أو نحوهما، كذا قالوا ولا أصل له، والميت يرى الملائكة حينئذٍ علىٰ صورة أعماله، حسنةً أو قبيحةً، فإذا أخذوا نفس المؤمن.. يلقونها في حرير الجنة، وهي علىٰ قدر النحلة، وعلىٰ صورة عمله، ما فقد شيء من عقله وعلمه المكتسب في الدنيا، دل عليه قوله تعالىٰ حكايةً عن حبيب النجار الشهيد في أنطاكية: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ فيعرجون بها إلىٰ الهواء، ويهيئون لها أسباب التنعم في قبره، وفي عليين، وهو النعيم الروحاني، ثم إذا قام الناس من قبورهم.. ازداد النعيم بانضمام الجسماني إلىٰ الروحاني.

فقوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾ إشارة إلىٰ كيفية قبض أرواح المؤمنين بشهادة اللفظ ومدلوله أيضاً.

والمعنىٰ: وأقسمت لكم أيها العباد بالملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين قبضاً برفق ولين.. لتبعثن بعد الموت للمجازاة.

فإن قيل: قد[١] ثبت أن النبي ﷺ، أخذ روحه الطيب ببعض شدة حتىٰ قال: «واكرباه»، وقال: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات، اللهم أعني علىٰ سكرات الموت»؛ أي: غمراته، وكان يدخل يده الشريفة في قدح فيه ماء، ثم يمسح وجهه المنور بالماء، ولما رأته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ يغشاه الكرب.. قالت: واكرب

---

(١) روح البيان.

أبتاه، فقال لها النبي ﷺ: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فإذا كان أمر النبي ﷺ حين انتقاله هكذا، فما وجه ما ذكر من الرفق واللين في قبض أرواح المؤمنين؟.

أجيب: بأن مزاجه الشريف كان أعدل الأمزجة، فأحس بالألم أكثر من غيره، إذ الخفيف على الأخف ثقيل، وأيضاً: يحتمل أن يبتليه الله بذلك ليدعو الله في أن يجعل لأمته سهلاً يسيراً، وأيضاً قد روي أنه طلب من الله أن يحمل عليه بعض صعوبة الموت تخفيفاً علىٰ أمته، فإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأيضاً فيه تسلية أمته إذا وقع لأحد منهم شيء من ذلك الكرب عند الموت، وأيضاً لكي يحصل لمن شاهد من أهله، ومن غيرهم من المسلمين الثواب، لما يلحقهم عليه من المشقة، كما قيل بمثل ذلك في حكمة ما يشاهد من حال الأطفال عند الموت من الكرب الشديد، وأيضاً راحة الكمل في الشدة؛ لأنها من باب الترقي في العلوم والدرجات، وأقل الأمر للناقصين كفارة الذنوب، كذا قالوا، ولكن ما فيه نص.

وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣﴾ قسم آخر معنىً أيضاً بطريق[1] العطف، والسبح: المر السريع، في الماء أو في الهواء، و ﴿سَبۡحٗا﴾ منصوب علىٰ المصدرية بـ﴿السابحات﴾، أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بطوائف من الملائكة التي تسبح في مضيها؛ أي: تسرع فينزلون من السماء إلىٰ الأرض مسرعين، مشبهين في سرعة نزولهم بمن يسبح في الماء، وهذا من قبيل التعميم بعد التخصيص؛ لأن نزول الأولين إنما هو لقبض الأرواح مطلقاً، ونزول هؤلاء لعامة الأمور والأحوال.

والمعنىٰ: وأقسم لكم بالملائكة التي تسبح وتسرع في نزولها إلى الأرض.. لتبعثن بعد الموت.

وقوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ معطوف علىٰ ﴿السابحات﴾ بالفاء للدلالة علىٰ ترتب السبق على السبح بغير مهلة، فالموصوف واحد، ونصب ﴿سَبۡقٗا﴾ علىٰ المصدرية؛ أي: أقسم لكم بالملائكة التي تسبح وتسرع في النزول إلىٰ الأرض، وتسبق سبقاً إلىٰ ما أمروا به، ووكلوا عليه بلا مهلة؛ أي: يصلون إليه بسرعة، والسبق: كناية عن الإسراع فيما أمروا به، لأن السبق، وهو التقدم في السير من

---

(١) روح البيان.

لوازم الإسراع، فالسبق هنا لا يستلزم وجود المسبوق؛ إذ لا مسبوق هنا.

وفي «الشوكاني»: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾: الملائكة، تسبح في الأبدان لإخراج الروح، كما يسبح الغواص في البحر لإخراج شيء منه، وقال مجاهد: ﴿السابحات﴾: الموت يسبح في نفوس بني آدم، وقيل: هي الخيل السابحة في الغزو، ومنه قول عنترة:

وَٱلْخَيْلُ تُعْلَمُ حِينَ تَسْـ ... ـبَحُ فِيْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ سَبْحَا

وقال قتادة والحسن: هي النجوم تسبح في أفلاكها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وقال عطاء: هي السفن تسبح في الماء، وقيل: هي أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى الله. ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾﴾: هم الملائكة علىٰ قول الجمهور كما سلف، قال مسروق ومجاهد: تسبق الملائكة الشياطين بالوحي إلىٰ الأنبياء، وقال أبو روق: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح، وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وقيل: غير ذلك من الأقوال المتلاطمة.

وقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾[1] معطوف علىٰ ﴿السابقات﴾ بالفاء؛ للدلالة علىٰ ترتب التدبير على السبق بغير تراخ، والتدبير: التفكر في دبر الأمور وعواقبها، و ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به لـ﴿لمدبرات﴾. قال الراغب: يعني: الملائكة الموكلين بتدبير الأمور. انتهىٰ؛ أي: التي تدبر أمراً من الأمور الدنيوية والأخروية للعباد، كما رسم لهم من غير تفريط ولا تقصير، والمقسم عليه محذوف لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة.

والمعنىٰ: أقسم بالملائكة التي تدبر أمراً من أمور العباد، لتبعثن بعد الموت للمجازاة. وجه الدلالة: أن الموت يستدعي البعث للأجر والجزاء؛ لئلا يستمر الظلم والجور في الوجود: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فكأن الله تعالىٰ يقول: إن الملائكة ينزلون لقبض الأرواح عند منتهىٰ الآجال، ثم ينجر الأمر إلىٰ البعث لما ذكر، فكان من شأن من يقر بالموت أن يقر بالبعث، فلذا جمع بين القسم بـ﴿النازعات﴾ وبين البعث الذي هو الجواب، وفي عنوان هذه السورة وجوه كثيرة

---

(١) روح البيان.

صفحنا عن ذكرها، واخترنا سوق «الكشاف» فإنه هو الذي يقتضيه جزالة التنزيل.

قال الجرجاني[1]: عطف ﴿السابقات﴾ بالفاء؛ لأنها مسببة من التي قبلها؛ أي: واللاتي يسبحن فيسبقن، تقول: قام فذهب، فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب، ولو قلت: قام وذهب بالواو.. لم يكن القيام سبباً للذهاب، قال الواحدي: وهذا غير مطرد في قوله: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾؛ لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للمتدبر. قال الرازي: ويمكن الجواب عما قاله الواحدي بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فتدبرت ما أمرت بتدبيره، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض، كقوله: قام زيد فذهب، ولما سبقوا في الطاعات وسارعوا إليها.. ظهرت أمانتهم، ففوض إليهم التدبير، ويجاب عنه بأن السبق لا يكون سبباً للتدبير، كسببية السبح للسبق والقيام للذهاب، ومجرد الاتصال لا يوجب السببية والمسببية، والأولىٰ أن يقال: العطف في ﴿المدبرات﴾ طوبق به ما قبله من عطف ﴿السابقات﴾ بالفاء، ولا يحتاج إلىٰ نكتة كما احتاج إليها ما قبله؛ لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق، لا لمطابقته وموافقته. ومعنىٰ تدبير الملائكة للأمر: نزولها بالحلال والحرام وتفصيلهما، والفاعل للتدبير في الحقيقة، وإن كان هو الله عزّ وجلّ، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به، وقيل: إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك.. قيل لها: مدبرات. قال عبد الرحمن بن سابط: تدبير أمر الدنيا إلىٰ أربعة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وعزرائيل، وإسرافيل؛ فأما جبريل.. فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل: فموكل بالقطر والنبات، وأما عزرائيل: فموكل بقبض الأرواح، وأما إسرافيل: فهو ينزل بالأمر من الله عليهم، وليس في الملائكة أقرب منه.

وقوله: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ ظرف متعلق بجواب القسم المقدر، وهو: لتبعثن، أو باذكر مقدراً، والمراد بالرجفة: النفخة الأولىٰ التي ترجف عندها الأجرام الساكنة، كالأرض والجبال؛ أي: أقسمت لكم بالأمور السابقة، لتبعثن يا كفار مكة يوم ترجف الراجفة؛ أي: يوم تتحرك النفخة الأولىٰ لإماتة الأحياء حركة شديدة، وتزلزل زلزلة عظيمة من هول ذلك اليوم، أسند[2] إليها الرجف مجازاً على

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

طريق إسناد الفعل إلىٰ سببه، فإن حدوث تلك النفخة سبب لاضطراب الأجرام الساكنة من الرجفان، وهي شدة الاضطراب، ومنه: الرجفة للزلزلة، لما فيه من شدة الاضطراب وكثرة الانقلاب، وفيه إشعار بأن تغير السفلي مقدم علىٰ تغير العلوي، وإن لم يكن مقطوعاً.

وجملة قوله: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ حال مقدرة من ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ مصححة لوقوع اليوم ظرفاً للبعث، والمراد بـ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: النفخة الثانية لإحياء الأموات التي تردف الأولىٰ؛ أي: تجيء بعدها؛ لأن النفخة الثانية تجيء بعد الأولىٰ. يقال: ردفه - كسمعه ونصره - تبعه، كأردفه، وأردفته معه: أي: أركبته معه كما في «القاموس».

والمعنىٰ[1]: أي لتبعثن يوم النفخة الأولىٰ حال كون النفخة الثانية تابعةً لها، لا قبل ذلك، فإن اليوم عبارة عن الزمان الممتد الذي تقع فيه النفختان، وبينهما أربعون سنة، كما قال في «الكشاف»: لتبعثن في الوقت الواسع الذي تقع فيه النفختان، وهم يبعثون في بعض ذلك الوقت الواسع، وهو وقت النفخة الأخرىٰ. انتهى.

قال في «الإرشاد»[2]: واعتبار امتداده مع أن البعث لا يكون إلا عند النفخة الثانية لتهويل اليوم ببيان كونه موقعاً لداهيتين عظيمتين، لا يرقىٰ عند وقوع الأولىٰ حيٌّ إلا مات، ولا عند وقوع الثانية ميتٌ إلا بعث وقام.

والمعنىٰ: أي لتبعثن يوم تتحرك الأرض وتضطرب الجبال، ويسمع لها صوت عظيم، ويموت كل شيء عليها بأمر الله تبارك وتعالى، وسميت ﴿راجفة﴾ من الرجف: وهو الاضطراب الشديد؛ لأن بها يضطرب الأمر، ويختل النظام، وينتهي العالم إلىٰ نهايته. التي حددها له خالقه عزّ وجلّ، و﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: صيحة عظيمة فيها تردد واضطراب، كالرعد إذا تمخض، وتكون النفخة الأولىٰ من صور إسرافيل ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾؛ لهول تلك النفخة الكبرىٰ ثم تتبعها ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾؛ أي: النفخة الثانية التي تعقب النفخة الأولىٰ، وهي التي يبعث الله معها الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ

---

(١) روح البيان. (٢) أبو السعود.

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ فتضطرب الأرض لإحياء الموتىٰ، كما اضطربت في المرة الأولى لإماتة الأحياء، ويروى عن رسول الله ﷺ أن: «بين النفختين أربعين عاماً»، كما يروىٰ: أن في هذه الأربعين يمطر الله الأرض، ويصير ذلك الماء عليها كالنطف، وأن ذلك الماء سبب لإحياء الموتى، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، بيده الأمر وهو علىٰ كل شيء قدير.

وقوله: ﴿قُلُوبٌ﴾[1]: مبتدأ، وتنكيره يقوم مقام الوصف المخصص المجوز للابتداء بالنكرة، سواء حمل علىٰ التنويع، وإن لم يذكر النوع المقابل فإن المعنىٰ منسحب عليه، أو علىٰ التكثير، كما في قولهم: شَرٌّ أَهَرَّ ذَا نَابٍ. فإن التفخيم كما يكون بالكيفية.. يكون بالكمية أيضاً، كأنه قيل: قلوب كثيرة أو عاصية، كما قال في «التأويلات النجمية»: قلوب النفس المتمردة الشاردة النافرة عن الحق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تقع النفختان، وهو متعلق بقوله: ﴿وَاجِفَةٌ﴾ وهذا خبر المبتدأ؛ أي: شديدة الاضطراب من سوء أعمالهم وقبح أفعالهم، فإن الوجيف عبارة عن شدة اضطراب القلب وقلقه من الخوف والوجل، وعلم منه أن الواجفة ليست جميع القلوب، بل قلوب الكفار، فإن أهل الإيمان لا يخافون.

﴿أَبْصَارُهَا﴾؛ أي: أبصار أصحابها، كما دل عليه قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾، وإلا فالقلوب لا أبصار لها، وإنما أضاف الأبصار إلىٰ القلوب؛ لأنها محل الخوف وهو من صفاتها. ﴿خَاشِعَةٌ﴾، أي: ذليلة من الخوف بسبب الإعراض عن الله، والإقبال علىٰ ما سواه، يترقبون أي شيء ينزل عليهم من الأمور العظام، وأسند الخشوع إليها مجازاً؛ لأن أثره يظهر فيها.

والخلاصة: أن الله سبحانه وتعالىٰ أقسم بالنازعات والناشطات والسابحات فالسابقات فالمدبرات.. لتبعثن بعد الموت، ولتنبؤن بما عملتم، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً. ويوم ترجف الراجفة تضطرب الأرض والجبال تتبعها الرادفة وتمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً وتكون قلوب الكفار مضطربة قلقة خائفةً؛ لأنهم أبصروا ما كانوا ينكرون، ورأوا ما كانوا يوعدون، ولذا قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾، فالقلوب

---

(١) روح البيان.

الواجفة هي القلقة المضطربة اضطراباً شديداً، والخائفة خوفاً عظيماً، فلا تهدأ ولا تسكن لما ترىٰ من هول يوم القيامة وعذاب الآخرة، وذلك بعد أن رأوا ما كان رسول الله ﷺ يذكره لهم ويحذرهم منه في الدنيا، ولكنهم أنكروا وكفروا ولم يؤمنوا به، فإذا جاء وعد الله سبحانه.. هلعت قلوبهم، وانشقت مرائرهم، واضطربت نفوسهم، وخشعت أبصارهم من هول ذلك المشهد العظيم.

قال عطاء: يريد أبصار من مات علىٰ غير الإسلام، أما أهل الإيمان.. فقد ثبت بالدليل أنهم لا يخافون إذا خاف الناس، بل يثبتهم الله تعالىٰ بالقول الثابت في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ونورهم يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم. فالويل كل الويل لأولئك المكذبين بيوم الدين، وقد حكىٰ الله سبحانه عنهم أقوالاً ثلاثةً استبعدوا بها أمر البعث، واستهزؤوا فيها بالرسول والمؤمنين، فقال:

١ - ﴿يَقُولُونَ﴾ استئناف بياني؛ أي: يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت؛ أي: يقولون: الآن؟ منكرين له متعجبين منه ﴿أَءِنَّا﴾ نحن ﴿لَمَرْدُودُونَ﴾؛ أي: لمعادون بعد موتنا ﴿فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾؛ أي: إلى[1] الحافرة؛ أي: إلىٰ حالتنا الأولىٰ قبل الممات يعنون الحياة؛ أي: راجعون أحياءً كما كنا قبل مماتنا من قولهم: رجع فلان في حافرته؛ أي: في طريقته التي جاء فيها، فحفرها؛ أي: أثر فيها بمشيه، وتسميتها حافرة مع أنها محفورة، وإنما الحافر هو الماشي في تلك الطريقة، كقوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي منسوبة إلىٰ الحفر والرضىٰ أو علىٰ تشبيه القابل بالفاعل؛ أي: في تعلق الحفر والرضا بكل منهما، فأطلق اسم الثاني على الأول للمشابهة، كما يقال: صام نهاره تشبيهاً لزمان الفعل بفاعله، وقال مجاهد والخليل بن أحمد: الحافرة: هي الأرض التي يحفر فيها القبور، ولذا قال في «التأويلات النجمية»: أي حافرة أجسادنا وقبور صدورنا، ومنه قول الشاعر:

آلَيْتُ لاَ أَنْسَاكُمُ فَاعْلَمُوْا ... حَتَّىٰ يُرَدَّ ٱلنَّاسُ فِيْ ٱلْحَافِرَةْ

والمعنىٰ عليه: أئنا لمردودون في قبورنا أحياءً، وقال ابن زيد: الحافرة:

---

(١) روح البيان.

النار، واستدل بقوله: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، والاستفهام فيه للإنكار. وقرأ الجمهور: ﴿فِي الْحَافِرَةِ﴾ بالألف، وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة: ﴿في الحفرة﴾ بغير ألف، قيل: هما بمعنىٰ واحد، وقيل: الحفرة هي الأرض المنتنة المتغيرة بأجساد موتاها، من قولهم: حفرت أسنانه إذا تآكلت وتغيرت.

٢ ـ ﴿أَءِذَا﴾ والعامل[١] في ﴿إذا﴾ مضمر يدل عليه ﴿مردودون﴾؛ أي: أئذا ﴿كُنَّا﴾ نحن ﴿عِظَامًا نَّخِرَةً﴾؛ أي: بالية، نرد ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة، فهو تأكيد لإنكار الرد ونفيه بنسبته إلىٰ حالة منافية له، ظنوا أن من فساد البدن وتفرق أجزائه يلزم فساد ما هو الإنسان حقيقة، وليس كذلك، ولو سلم أن الإنسان هو هذا الهيكل المخصوص.. فلا نسلم امتناع إعادة المعدوم، فإن الله تعالى قادر على كل الممكنات، فيقدر على جمع الأجزاء العنصرية، وإعادة الحياة إليها؛ لأنها متميزة في علمه، وإن كانت غير متميزة في علم الخلق، كالماء مع اللبن، فإنهما وإن امتزجا، لكن أحدهما متميز عن الآخر في علم الله، وإن كان عقل الإنسان قاصراً عن إدراكه.

والنخر: البلىٰ، يقال: نخر العظم والخشب ـ بكسر العين ـ: إذا بلي واسترخىٰ، وصار بحيث لو مس لتفتت، ونخرة أبلغ من ناخرة؛ لكونها من صيغ المبالغة، أو صفة مشبهة دالة علىٰ الثبوت، ولذا اختارها الأكثر، والناخرة أشبه برؤوس الآي، اختارها البعض، وقيل: النخرة غير الناخرة؛ إذ النخرة بمعنىٰ البالية، وأما الناخرة.. فهي العظام الفارغة المجوفة التي يحصل فيها صوت من هبوب الريح من نخير النائم والمجنون، لا من النخر بمعنىٰ: البلىٰ. قال الراغب: النخير صوت من الأنف، وسمي خرق الأنف الذي يخرج منه النخير منخر، فالمنخران ثقبتا الأنف. وقرأ عمر[٢] وأبي وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والأخوان حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿ناخرة﴾ بألف، وقرأ أبو رجاء والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن جبير والنخعي وقتادة وابن وثاب وأيوب وأهل مكة وشبل وباقي السبعة: ﴿نَّخِرَةً﴾ بغير ألف، واختار[٣] القراءة الأولىٰ الفراء وابن جرير وأبو معاذ النحوي، واختار القراءة الثانية أبو عبيد وأبو

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) الشوكاني.

حاتم. قال أبو عمرو بن العلاء: الناخرة: التي لم تنخر بعد، أي: لم تبل، ولا بد أن تنخر، وقيل: هما بمعنى، تقول العرب: نخر الشيء فهو ناخر ونخر، وطمع فهو طامع وطمع، ونحو ذلك. قال الأخفش: هما جميعاً لغتان، أيهما قرأت فحسن، وقرأ نافع[١] وابن عامر والكسائي: ﴿إذا كنا﴾ علىٰ الخبر. وقرأ الجمهور: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ علىٰ الاستفهام، والمعنىٰ: أي: أنرد إلىٰ الحياة بعد أن نصير عظاماً بالية، لو لمست.. لتفتتت.

٣ - ﴿قَالُوا۟﴾ اختيار[٢] صيغة الماضي هنا للإيذان بأن صدور هذا الكفر منهم ليس بطريق الاستمرار، مثل كفرهم السابق المعبر عنه بالمضارع؛ أي: قالوا بطريق الاستهزاء بالحشر، ﴿تِلْكَ﴾ الردة والرجعة في الحافرة، وفيه إشعار بغاية بُعدها من الوقوع في اعتقادهم ﴿إِذًا﴾؛ أي: إن رددنا إلىٰ الحالة الأولىٰ، وصح ذلك ﴿كَرَّةٌ﴾ الكر: الرجوع، والكرة: المرة من الرجوع، والجمع: كرات. ﴿خَاسِرَةٌ﴾؛ أي: ذات خسران علىٰ إرادة النسبة من اسم الفاعل؛ أي: رجعة ذات خسران لما يقع علىٰ أصحابها من الخسران، أو خاسرة أصحابها علىٰ الإسناد المجازي؛ أي: علىٰ طريق إسناد الفعل إلىٰ ما يقاربه في الوجود، كقوله: تجارة رابحة، والربح: فعل أصحاب التجارة، وهي عقد المبادلة، والربح والتجارة متقاربان في الوجود وإلا فهم الخاسرون، والكرة مخسور فيها؛ أي: إن صحت تلك الكرة.. فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها، وهذا المعنى أفاده كلمة ﴿إِذًا﴾، فإنها حرف جواب وجزاء عند الجمهور، وإنما حمل قولهم هذا علىٰ الاستهزاء؛ لأنهم أبرزوا ما قطعوا بانتفائه واستحالته في صورة المشكوك المحتمل الوقوع.

والمعنىٰ[٣]: أي إن صح ما قلتم من البعث يوم القيامة بعد أن نصير عظاماً نخرةً.. فنحن إذاً خاسرون؛ لأنا كذبنا به، ولم نأخذ العدة له، فيا ويلنا في هذا اليوم، وهذا منهم استهزاء وتهكم اعتقاداً منهم أن ذلك لن يكون، وقيل: معنىٰ ﴿خَاسِرَةٌ﴾: كاذبة؛ أي: ليست بكائنة، كذا قال الحسن وغيره. وقال الربيع بن أنس: ﴿خَاسِرَةٌ﴾ علىٰ من كذب بها.

وقال قتادة ومحمد بن كعب: أي لئن رجعنا بعد الموت.. لنخسرن بالنار،

---

(١) البيضاوي. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ جواب[1] من الله عن مقالتهم بالإنكار، وتعليل لما يدل عليه ما تقدم من استبعادهم لبعث العظام النخرة، وإحياء الأموات؛ أي: لا تستبعدوا تلك الكرة، ولا تحسبوها صعبة علىٰ الله سبحانه، فإنها سهلة هينة في قدرته تعالى، فإنما هي؛ أي: تلك الكرة والرجعة ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾؛ أي: صيحة واحدة؛ أي: حاصلة بصيحة واحدة لا تكرر، يسمعونها وهم في بطون الأرض، وهي النفخة الثانية كنفخ واحد في صور الناس؛ لإقامة القافلة، عبر عن الكرة بالزجرة تنبيهاً علىٰ كمال اتصالها بها، كأنها عينها يقال: زجر البعير إذا صاح. ﴿فَإِذَا هُم﴾؛ أي: فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾؛ أي: علىٰ وجه الأرض. قال الواحدي[2]: المراد بالساهرة: وجه الأرض وظاهرها في قول الجميع. قال الفراء: سميت بهذا الاسم؛ لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم، يقال: سهر إذا لم ينم، وقيل: لأنه يسهر في فلاتها خوفاً منها، فسميت بذلك. وقيل: أرض من فضة لم يعص الله سبحانه فيها، خلقها الله سبحانه حينئذٍ. وقيل: الساهرة: الأرض السابعة، يأتي بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق. وقال سفيان الثوري: الساهرة: أرض الشام. وفي الحديث: «بيت المقدس أرض المحشر والمنشر». وقال قتادة: هي جهنم؛ أي: فإذا هؤلاء الكفار في جهنم، وإنما قيل لها ساهرة؛ لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم.

و﴿إذا﴾ الفجائية تقيد[3] حدوث ما أنكروه بسرعة علىٰ فجأة؛ أي: فإذا هم فاجؤوا الحصول بها، وهو بيان لحضورهم الموقف عقب الكرة التي عبر عنها بالزجرة. وقيل: الساهرة: الأرض البيضاء المستوية، سميت بذلك؛ لأن السراب يجري فيها، من قولهم: عين ساهرة؛ أي: جارية الماء، وفي ضدها نائمة، يعني: أن بياض الأرض عبارة عن خلوها عن الماء والكلأ، شبّه جريان السراب فيها بجريان الماء عليها. فقيل لها: ساهرة. وفي «التأويلات النجمية»: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: فإذا هم بظهر أرض الحياة، كما كانوا قبله ببطن أرض الممات، وقال المولىٰ الفناري في تفسير الفاتحة: إن الناس إذا قاموا من قبورهم، وأراد الله

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

سبحانه أن يبدل الأرض غير الأرض.. تمد الأرض بإذن الله، ويكون المحشر عليها، فيكون الخلق عليه عندما يبدل الله الأرض كيف يشاء؛ إما بالصورة، وإما بأرض أخرىٰ ما هم عليها، تسمىٰ بالساهرة، فيمدها سبحانه مد الأديم، ويزيد في سعتها أضعاف ما كانت من أحد وعشرين جزءاً إلىٰ تسعة وتسعين جزءاً، حتىٰ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

وحاصل المعنى[١]: ألا تستبعدوا ذلك وتظنوه عسيراً شاقاً علينا، فإنما هي صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية التي يبعث الله بها الموتىٰ، فإذا الناس كلهم علىٰ سطح الأرض أحياء، ونحو الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

وخلاصة هذا: لا تحسبوا أن هذه الرجعة عسيرة شاقة علينا، فما إعادتكم التي ظننتموها صعبة إلا أن نأمر ملكاً من ملائكتنا أن يصيح صيحة واحدة، فإذا أنتم جميعاً لدينا محضرون، لا يتخلف منكم أحد، ولا يستطيع التخلف إن أراد.

وقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ كلام مستأنف مسوق لتسلية رسول الله ﷺ على تكذيب قومه بأن يصيبهم مثل ما أصاب من كان أقوىٰ منهم وأعظم، يعني: فرعون، ومعنى[٢] هل أتاك: إن قدر أن هذا أول ما أتاه من حديثه يكون ترغيباً له في استماع حديثه، وحملاً له على طلب الإخبار، كأنه قيل: هل أتاك حديث موسى قبل هذا، أم أنا أخبرك به؟ كما قال الحسن رحمه الله تعالى: إعلام من الله لرسوله حديث موسى، كقول الرجل لصاحبه: هل بلغك ما لقي أهل البلد، وهو يعلم أنه لم يبلغه، وإنما قال ليخبره به. انتهى. وإن قدر إتيانه قبل هذا، وهو المتبادر من الإيجاز في الاقتصاص يكون تقريراً له؛ أي: حملاً له علىٰ الإقرار بأمر يعرفه قبل ذلك؛ أي: أليس قد أتاك حديثه، يعني: قد جاءك وبلغك حديثه عن قريب، كأنه لم يعلم بحديث موسىٰ، وأنه لم يأته بعد، وإلا لما كان يتحزن علىٰ إصرار الكفار علىٰ إنكار البعث، وعلىٰ استهزائهم به، بل يتسلىٰ بذلك، فـ ﴿هَلۡ﴾ بمعنىٰ قد المقربة للحكم إلى الحال، وهمزة الاستفهام قبلها محذوفة، وهي للتقرير، وزيد ليس لأنه أظهر دلالة علىٰ ذلك؛ لأنه مقدر في النظم، كأنه قيل: أليس قد أتاك

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

حديث موسى ﴿إِذْ نَادَىٰهُ﴾؛ أي: نادىٰ موسى وكلمه ﴿رَبُّهُۥ﴾ وخالقه ومالكه ظرف للحديث، والمناداة والنداء بمعنىً واحد، وفي «القاموس»: النداء: الصوت؛ أي: هل أتاك يا محمد حديث موسى وخبره الواقع حين ناداه؛ إذ المراد: خبره الحادث، فلا بد له من زمان يحدث فيه، لا ظرف للإتيان لاختلاف وقتي الإتيان والنداء؛ لأن الإتيان لم يقع في وقت النداء، أو مفعول لاذكر المقدر، وعليه وضع السجاوندي علامة الوقف اللازم علىٰ موسى، وقال: لأنه لو وصل.. صار ﴿إِذْ﴾ ظرفاً لإتيان الحديث، وهو محال. لعله لم يلتفت إلىٰ عمل حديث لكونه هنا اسماً بمعنىٰ الخبر مع وجود فعل قوي في العمل قبله، وبالجملة: لا يخلو عن إيهام، فالوجه الوقف، كما في بعض التفاسير. ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾؛ أي المبارك المطهر بتطهير الله عما لا يليق حين مكالمته مع كليمه، أو سمي مقدساً لوقوعه في حدود الأرض المقدسة المطهرة عن الشرك ونحوه، وأصل الوادي[1]: الموضع الذي يسيل فيه الماء، ومنه سمي المنفرج بين الجبلين: وادياً، والجمع: أودية، ويستعار للطريقة، كالمذهب والأسلوب، فيقال: فلان في وادٍ غير واديك. ﴿طُوًى﴾ بدل من ﴿الواد﴾ بدل كل من كل، أو عطف بيان، وهو بضم الطاء والتنوين تأويلاً له بالمكان، أو بغير تنوين تأويلاً له بالبقعة، وهو معدول من طاوٍ، كما عدل عمر عن عامر، قال الفراء: الصرف أحب إليّ من منعه إذا لم أجد في المعدول نظيراً له، أي: لم أجد اسماً من الوادي عدل عن جهته غير طوىٰ، وهو اسم للوادي الذي بين المدينة ومصر، وقيل: ﴿طُوًى﴾ معناه: يا رجل بالعبرانية، فكأنه قيل: يا رجل اذهب إلىٰ فرعون، وقيل: اسم وادٍ عند الطور بين: أيلة ومصر، وإنما سمي ﴿طُوًى﴾ لكثرة ما مشت عليه الأنبياء، وقيل: ﴿طُوًى﴾ معناه: يا رجل بالعبرانية، فكأنه قيل: يا رجل اذهب إلىٰ فرعون، وقيل: المعنىٰ: إن الوادي المقدس بورك فيه مرتين، والأول أولى.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم الطاء غير منون، وقرأ الباقون: بضم الطاء منوناً، وروى عن أبي عمرو بكسر الطاء.

وقوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: فقال له: اذهب إلىٰ فرعون، وقيل: هو

---

(١) روح البيان.

تفسير للنداء؛ أي: ناداه نداءً، هو قوله: اذهب، وقيل: هو على حذف أن المفسرة، ويؤيده قراءة ابن مسعود: ﴿أن اذهب﴾؛ لأن في النداء معنى القول، قال الحسن[1]: وكان فرعون علجاً من همدان، وعنه أيضاً: كان من أصبهان، طوله أربعة أشبار، وهو أول من اتخذ القبقاب ليمشي فيه خوفاً من أن يمشي على لحيته، وقال مجاهد: كان أهل اصطخر.

وقرأ عبد الله: ﴿أن اذهب﴾؛ لأن في النداء معنى القول كما مر آنفاً. وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تعليل للأمر بالذهاب، أو لوجوب الامتثال به، والطغيان: مجاوزة الحد؛ أي: طغىٰ على الخالق بأن كفر به، وطغىٰ على الخلق بأن تكبر عليهم واستعبدهم، فكما أن كمال العبودية لا يكون إلا بالصدق مع الحق، وحسن الخلق مع الخلق، فكذا كمال الطغيان يكون سوء المعاملة معهما. ﴿فَقُلْ﴾ له بعدما أتيته: ﴿هَل لَّكَ﴾ رغبة وتوجه ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ بحذف إحدى التائين من تتزكىٰ؛ أي: إلىٰ أن تتطهر من دنس الكفر والطغيان، ووسخ الكدورات البشرية، والقاذورات الطبيعية.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَزْكَى﴾ بالتخفيف، وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاي علىٰ إدغام التاء في الزاي، قال أبو عمر بن العلاء: معنىٰ قراءة التخفيف: تكون زكيّاً مؤمناً، ومعنى قراءة التشديد: الصدقة. وفي الكلام مبتدأ مقدر يتعلق به ﴿إِلَىٰٓ﴾، والتقدير: هل لك رغبة، أو هل لك توجه، أو هل لك سبيل إلى التزكي؟ كما مر آنفاً. ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: وأرشدك إلىٰ معرفته فتعرفه، ففي النظم مضاف مقدر، وتقديم التزكية لتقدم التخلية علىٰ التحلية. ﴿فَتَخْشَىٰ﴾؛ إذ الخشية لا تكون إلا بعد معرفته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾؛ أي: العلماء بالله، وجعل الخشية غاية للهداية، لأنها ملاك الأمر؛ لأن من خشي الله.. أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ علىٰ كل شر، كما قال النبي ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل» والإدلاج: السير أول الليل.

ثم إنه تعالىٰ[3] أمر موسى عليه السلام بأن يخاطبه بالاستفهام الذي معناه العرض، ليستدعيه بالتلطف في القول، ويستنزله بالمداراة من عتوه، وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ أما كونه ليناً..

---

(١) المراح. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

فلأنه في صورة العرض لا في صورة الأمر صريحاً، وليس فيه أيضاً ذكر نحو الشرك، والجهل والكفران من متعلقات التزكي، وأما اشتماله على بعض التفصيل فظاهر.

وحاصل معنىٰ الآيات: أي ألم يبلغك يا محمد حديث موسى مع فرعون وقومه، وقد أمره الله تعالىٰ بالتلطف في القول، واللين في الدعوة إلىٰ الحق؛ إقامة للحجة والوصول من أقرب محجة، كما جاء في سورة طه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ وكان ذلك حين ناداه ربه بالوادي المطهر المبارك من طور سيناء من برية الشام بعد مضي وقت من الليل، فقال له: اذهب إلىٰ فرعون وعظه، فإنه تجاوز الحد، وتكبر علىٰ الله، وكفر به، وتجبر علىٰ بني إسرائيل، واستعبدهم حتىٰ بلغ من أمره أن ذبح أبناءهم، واستحيىٰ نساءهم، ثم طلب إلىٰ موسى أن يلين له القول؛ ليكون ذلك أنجع في الدعوى، فقال: فقل له هل ترغب إلىٰ أن تطهر نفسك من الآثام التي انغمست فيها، وتعمل بما أدلك عليه من طرق الخير، وتبعد عما أنت فيه من اجتراح السيئات، وتخشى عاقبة مخالفة أمر ربك، حتىٰ تأمن من عقابه إذا أديت ما ألزمك به من فرائضه، واجتنبت مما نهاك عنه من معاصيه.

ثم ذكر أنه لم يخضع للدليل والبرهان، ولم يقنع بما أدلىٰ إليه موسىٰ من حجة، فاضطر إلىٰ أن يظهر له دليلاً يراه ويشاهده، فقال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ الفاء عاطفة علىٰ جمل قد طويت هنا تعويلاً علىٰ ذكرها في السور الأخرى، فإنه جرىٰ بينه وبين فرعون ما جرىٰ من المحاورات إلىٰ أن قال: ﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، والتقدير: أي: فذهب موسىٰ إلىٰ فرعون بأمره تعالىٰ، فدعاه إلىٰ التوحيد والطاعة، وطلب فرعون منه المعجزة الدالة علىٰ صدقه في دعوته، فأراه موسىٰ الآية الكبرىٰ، والمعجزة العظمىٰ، والإراءة: إما من التبصير، أو من التعريف، فإن اللعين حين أبصرها.. عرفها، وادعاء سحريتها إنما كان إراءة منه، وإظهاراً للتجلد، ونسبتها إلىٰ موسى بالنظر إلىٰ الظاهر، كما أن نسبتها إلىٰ نون العظمة في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ بالنظر إلىٰ الحقيقة، والمراد بـ﴿ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾: قلب العصا حية، والصغرىٰ: غيره من معجزاته الباقية، وذلك أن

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

القلب المذكور كان المقدم على الكل في الإراءة، فينبغي أن يكون هو المراد على ما تقتضيه الفاء التعقيبية في قوله الآتي: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

والمعنىٰ: أي فلما لم يقنع بالدليل القولي.. أظهر له آية كبرى ودليلاً يراه بعينه، وهو انقلاب العصا حية ﴿فـ﴾ مع ذلك ﴿كذب﴾ فرعون بموسىٰ، وسمىٰ معجزته سحراً عقيب رؤية الآية، من غير روية وتأمل، وطلب شاهد من عقل، وناصح من فكر وقلب؛ لغاية استكباره وتمرده ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله سبحانه بالتمرد بعدما علم صحة الأمر، ووجوب الطاعة، أشد عصيان وأقبحه، حيث اجترأ علىٰ إنكار وجود رب العالمين رأساً. فدل العطف علىٰ أن الذي ترتب علىٰ إراءة الآية الكبرىٰ هو التكذيب الذي يكون عصياناً لله تعالىٰ، وهو التكذيب باللسان، مع حصول الجزم بأن من كذبه ممن يجب تصديقه، فأما تكذيب من لا يجب تصديقه.. فلا يكون عصياناً، ويجوز أن يراد: وعصى فرعون موسى فيما أمر به، إلا أن الأول أدخل في ذمه، وتقبيح حاله، وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته تعالى، وترك دعوىٰ الربوبية، لا بإرسال بني إسرائيل من الأسر والقسر فقط.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾؛ أي: تولىٰ عن الطاعة، وأعرض عن الإيمان، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ علىٰ هذا معناها التراخي الزماني، إذ السعي في إبطال أمره يقتضي مهلة، أو انصرف عن المجلس. قال الراغب: ﴿أَدْبَرَ﴾؛ أي: أعرض وولىٰ دبره حال كونه ﴿يَسْعَىٰ﴾؛ أي: يجتهد في معارضة الآية تمرداً وعناداً، لا اعتقاداً، بأنها يمكن معارضتها، وهو حال من فاعل ﴿أَدْبَرَ﴾ بمعنىٰ: مسرعاً مجتهداً.

وقيل: أدبر هارباً من الحية حال كونه يسعىٰ خوفاً منها.

والمعنىٰ: أي فكذب فرعون موسى، ثم ولىٰ معرضاً عما دعاه إليه من طاعة ربه وخشيته، وطفق يخب في المعاصي، ويضع غير متدبر في عاقبة أمره، ولا مفكر في غده. ﴿فَحَشَرَ﴾؛ أي: فجمع فرعون جنوده للقتال والمحاربة، أو جمع السحرة للمعارضة، لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾؛ أي: ما يكاد به من السحرة وآلاتهم، أو جمع جميع الناس

---

(١) روح البيان.

ليشاهدوا ما يقع، أو جمعهم ليمنعوه من الحية ﴿فَنَادَىٰ﴾ بنفسه في المقام الذي اجتمعوا فيه معه، أو بواسطة المنادي ﴿فَقَالَ﴾ لهم بصوت عال، أو أمر من يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: لا رب فوقي ولا إله، أو أنا وليكم وقائدكم الأعلىٰ من كل من يلي أمركم علىٰ أن تكون صيغة التفضيل، بالنسبة إلىٰ من كان تحت ولايته من الملوك والأمراء، قال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً، وأمرهم بعبادتها، وقال: أنا رب أصنامكم، والأول أولىٰ؛ لقوله في آية أخرى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، والظاهر أنه لم يرد بهذا القول أنه خالق السموات والأرض، والجبال والنبات والحيوان، فإن العلم بفساد ذلك ضروري، ومن شك فيه كان مجنوناً، ولو كان مجنوناً لما جاز من الله بعثة الرسول إليه، بل الرجل كان دهرياً منكراً للصانع والحشر والنشر، وكان يقول: ليس للعالم إله حتىٰ يكون له عليكم أمر ونهي، أو يبعث إليكم رسولاً، بل المربي لكم، والمحسن إليكم أنا لا غيري. قال بعضهم: كان ينبغي له عند ظهور ذله وعجزه بانقلاب العصا حية أن لا يقول ذلك القول، فكأنه صار في ذلك الوقت كالمعتوه الذي لا يدري ما يقول، يقول الفقير: بل الأظهر حمل الربوبية علىٰ الألوهية، كما مر؛ لأن تفسير قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ بكونه أعلىٰ من كل من يلي أمركم ليس فيه كثير جدوىٰ؛ إذ لا يقتضي ادعاء الرئاسة دعوىٰ الألوهية، كسائر الدهرية والمعطلة، فلأنهم لم يتعرضوا للألوهية، وإن كانوا رؤساء. تأمل هذا المقام، فإنه مما تزل فيه الأقدام.

قال بعضهم: لم يدع أحد من الخلائق من الكمال ما ادعاه الإنسان، فإنه ادَّعىٰ الربوبية وقال: أنا ربكم الأعلىٰ، وإبليس تبرأ منها، وقال: إني أخاف الله، فلم يدع مرتبة ليست له قط؛ أي: إنه علىٰ جناح واحد، وهو الجلال فقط، وكذا الملك، فإنه علىٰ الجمال المحض بخلاف الإنسان، فإنه مخلوق باليدين. انتهىٰ. قال في «أسئلة الحكم»: فإن قلت: ما الحكمة في أن إبليس قد لعن، ولم يدع الربوبية، وفرعون وأمثاله قد ادعوا الربوبية، ولم يلعنوا تعييناً وتخصيصاً، كما لعن إبليس؟.

قيل: لأن نية إبليس شر من نية هؤلاء، وقيل: لأنه أول من سن الخلاف والشقاق قولاً وفعلاً ونيةً، والخلق بعده ادعوا الربوبية، وسنوا البغي والخلاف بوسوسته، وإبليس واجه بمخالفته حضرة الرب تعالىٰ، وهم واجهوا الأنبياء

والوسائط، وتضرعوا تارة، واعترفوا بالذنوب عند المخلوق أخرىٰ، وإبليس لم يعترف ولم يتضرع، وهو أول من سن الكفر، فوزر الكفار بعده راجع إليه إلىٰ يوم القيامة، ومظهر الضلالة والغواية بذاته بغير واسطة.

ومعنىٰ الآية[1]: أي فجمع فرعون السحرة الذين هم تحت إمرته وسلطانه؛ كما جاء في قوله: ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ فقام فيهم يقول: أنا ربكم الأعلىٰ، فلا سلطان يعلو سلطاني، ولم يزل في عتوه حتىٰ تبع موسىٰ وقومه إلى البحر الأحمر [بحر القلزم] عند خروجهم من مصر، فأغرق فيه هو وجنوده، وإلى ذلك أشار سبحانه بقوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بسبب ما ذكر، وعذبه ﴿نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾؛ أي: عذاب الآخرة، وعذاب الدنيا، والمراد بنكال الآخرة: عذاب النار، وبنكال الأولىٰ: عذاب الدنيا بالغرق، والنكال: اسم مصدر من نكل المضاعف بمعنىٰ التنكيل، كالسلام بمعنىٰ: التسليم، وهو التعذيب الذي ينكل من رآه أو سمعه، ويمنعه من تعاطي ما يفضي إليه، ومحله[2] النصب علىٰ أنه مصدر مؤكد، كوعد الله، كأنه قال: نكل الله به نكال الآخرة والأولى، وهو الإحراق في الآخرة، والإغراق في الدنيا، وأخذ مستعمل في معنىٰ مجازي، يعم الأخذ في الدنيا والآخرة، وإلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز؛ لأن الاستعمال في الأخذ الدنيوي حقيقة، وفي الآخرة مجاز لتحقق وقوعه، وإضافة النكال إلىٰ الدارين باعتبار وقوع نفس الآخذ فيهما، لا باعتبار أن ما فيه من معنىٰ المنع يكون فيهما، فإن ذلك لا يتصور في الآخرة، بل في الدنيا، فإن العقوبة الأخروية تنكل من سمعها، وتمنعه من تعاطي ما يؤدي إليها لا محالة.

ويجوز[3] أن يكون انتصابُ ﴿نَكَالَ﴾ علىٰ أنه مفعول له؛ أي: أخذه لأجل نكال، ويجوز أن يكون انتصابه بنزع الخافض؛ أي: بنكال، ورجح الزجاج: أنه مصدر مؤكد، قال: لأن معنىٰ أخذه الله: نكل الله به، فأخرج من معناه، لا من لفظه، وقال الفراء: أخذه الله أخذاً نكالاً؛ أي: للنكال، والنكال: اسم لما جعل نكالاً للغير؛ أي: عقوبةً له، يقال: نكل فلان بفلان إذا عاقبه، وقيل: المعنىٰ:

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

فعاقبه الله بكلمته الآخرة، وهي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وبكلمته الأولىٰ: وهي قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، وكان بينهما أربعون سنة علىٰ ما قيل، فالله تعالىٰ يمهل ولا يهمل، وقال السري[1]: العبد إذا تزيَّا بزي السيد صار نكالاً، ألا ترىٰ كيف ذكر الله في قصة فرعون لما ادعىٰ الربوبية، فأخذه الله... إلخ، كذبه كل شيء حتىٰ نفسه، وفي «الوسيط»: عن رسول الله ﷺ، قال موسى: يا رب، أمهلت فرعون أربع مئة سنة، ويقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، ويكذب بآياتك، ويجحد برسلك، فأوحىٰ الله إليه: كان حسن الخلق، سهل الحجاب، فأردت أن أكافئه؛ أي: مكافئة دنيوية، وكذا حسنات كل كافر، وأما المؤمن.. فأكثر ثوابه في الآخرة، ودلت الآية علىٰ أن فرعون مات كافراً، وفي «الفتوحات المكية»: فرعون ونمروذ مؤبدان في النار. انتهى. وغير هذا من أقوال بعضهم محمول على المباحثة، فصن لسانك عن الإطالة؛ فإنها من أشد ضلالة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به ﴿لَعِبۡرَةً﴾؛ أي: اعتباراً عظيماً، وعظةً بليغةً ﴿لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾؛ أي: لمن من شأنه أن يخشىٰ الله سبحانه، وهو من شأنه المعرفة، يعني: العارف بالله وشؤونه يخشىٰ، فلا يتمرد علىٰ الله، ولا على أنبيائه؛ خوفاً من نزول العذاب، والعاقل من وعظ بغيره.

والمعنىٰ[2]: أي إن فيما ذكر لموعظة لمن له عقل يتدبر به في عواقب الأمور ومصايرها، فينظر في حوادث الماضين، ويقيس بها أحوال الحاضرين ليتعظ بها.

وقوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ خطاب[3] لأهل مكة المنكرين للبعث بناءً علىٰ صعوبته في زعمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بين كمال سهولته بالنسبة إلىٰ قدرة الله تعالىٰ بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ فالشدة هنا بمعنىٰ: الصعوبة، لا بمعنىٰ: الصلابة؛ لأنها لا تلائم المقام؛ أي: أخلقكم بعد موتكم أشق وأصعب في تقديركم وزعمكم؟ وإلا فكلا الأمرين بالنسبة إلىٰ قدرة الله تعالى واحد. ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: أم خلق السماء بلا مادة علىٰ عظمها وقوة تأليفها، وانطوائها علىٰ البدائع التي تحار العقول في ملاحظة أدناها، وهو[4] استفهام تقرير ليقروا بأن خلق السماء أصعب،

---

(1) روح البيان.
(2) المراغي.
(3) روح البيان.
(4) روح البيان.

فيلزمهم بأن يقول لهم: أيها السفهاء من قدر علىٰ الأصعب الأعسر.. كيف لا يقدر علىٰ إعادتكم وحشركم وهي أسهل وأيسر، فخلقكم علىٰ وجه الإعادة أولىٰ بأن يكون مقدور الله، فكيف تنكرون ذلك، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ مبتدأ و ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، و ﴿خَلْقًا﴾: تمييز، و ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: عطف علىٰ ﴿أَنتُمْ﴾؛ وحذف خبره لدلالة خبر ﴿أَنتُمْ﴾ عليه؛ أي: أم السماء أشد خلقاً.

والمعنىٰ[1]: أي أأنتم أيها الناس، وقد خلقتكم من ماء مهين ضعافاً عاجزين لا تملكون لأنفسكم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً، أصعب إبداعاً وإنشاءً، أم هذه السماء التي ترون خلقها وبديع تركيبها وعظمة شأنها؟ إنكم لا تنازعون في أنها أشد منكم خلقاً، ومع ذلك لم نعجز عن إبداعها، فكيف تظنون أننا نعجز عن إعادتكم بعد موتكم، يرشد إلىٰ ذلك قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ وفي هذا من التقريع والتوبيخ ما لا يخفىٰ، وبعد أن أشار إلى عظيم خلق السموات إجمالاً.. شرع يبين ذلك تفصيلاً، فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾؛ أي: بنىٰ الله سبحانه وتعالىٰ السماء، وركبها من أجزاء متفرقة، وهو استئناف وتفصيل لكيفية خلقها المستفاد من قوله: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ فيتم الكلام حينئذٍ عند قوله: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، ويبتدأ من قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾، و ﴿أَمِ﴾، متصلة، وقال الكسائي والفراء والزجاج: تم الكلام عند قوله: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾؛ لأنه من صلة السماء، والتقدير: أم السماء التي بناها، فحذف التي، ومثل هذا الحذف جائز.

واستعمل البناء في موضع السقف، فإن السماء سقف مرفوع، والبناء إنما يستعمل في أسافل البناء لا في الأعالي، للإشارة إلىٰ أنه وإن كان سقفاً.. لكنه في البعد عن الاختلال والانحلال كالبناء، فإن البناء أبعد عن تطرق الاختلال إليه بالنسبة إلىٰ السقف، ومعنىٰ بناها؛ أي: جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض، وقوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ بيان للبناء؛ أي: جعل مقدار ارتفاعها من الأرض، وذهابها إلىٰ سمت العلو مديداً رفيعاً مسيرة خمس مئة عام، فإن امتداد الشيء إن أخذ من أسفله إلى أعلاه سُمي سمكاً، وإن أخذ من أعلاه إلىٰ أسفله سُمي: عمقاً، وقال بعضهم:

---

(١) المراغي.

السمك الارتفاع الذي بين سطح السماء الأسفل الذي يلينا، وسطحها الأعلىٰ الذي يلي ما فوقها، فيكون المراد: ثخنها وغلظها وهي أيضاً تلك المسيرة، وقال البغوي: رفع سمكها؛ أي: سقفها، ومعنىٰ: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾؛ أي: فجعلها مستوية الخلق، معدلة الشكل لا تفاوت فيها ولا اعوجاج، ولا فطور ولا شقوق.

ومعنى: ﴿بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: ضم أجزاءها[1] المتفرقة، وربطها بما يمسكها حتىٰ حصل عن جمعها بنية واحدة، فقد أبدع في خلق الكواكب، وجعل كل كوكب منها علىٰ نسبة من الآخر، وجعل لكل منها ما يمسكه في مداره، حتىٰ كان من مجموعها ما يشبه البناء، وهو ما نسميه بالسماء، وقد جعلها ذاهبة في العلو صعداً، وعدلها فوضع كل جزاء منها في موضعه الذي يتسحقه، ويحسن أن يكون فيه.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾؛ أي: وجعل ليلها مظلماً بمغيب كواكبها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: وأبرز نهارها، وعبر عن النهار بالضحىٰ؛ لأنه أشرف أوقاته وأطيبها، وفيه من انتعاش الأرواح ما ليس في سائرها، يقال: أغطشه الله إذا جعله مظلماً، وأغطش الليل: إذا صار مظلماً، فهو متعد ولازم، والأول هو المراد هنا؛ أي: جعله مظلماً ذاهب النور.

فإن قيل: الليل اسم لزمان الظلمة الحاصلة بسب غروب الشمس، فقوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: يرجع معناه إلىٰ أنه جعل المظلم مظلماً، وهو بعيد، والجواب: معناه أن الظلمة الحاصلة في ذلك الزمان، إنما حصلت بتدبير الله وتقديره، فلا إشكال.

وعبارة «الروح»: قوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: أبرز نهارها، عبر عنه بالضحىٰ، وهو ضوء الشمس، ووقت الضحىٰ هو الوقت الذي تشرق فيه الشمس، ويقوم سلطانها، لأنه أشرف أوقاتها وأطيبها، علىٰ تسمية المحل باسم أشرف ما حل فيه، فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان، وهو السر في تأخير ذكره عن ذكر الليل، وفي التعبير عن إحداثه بالإخراج، فإن إضافة النور بعد الظلمة أتم في الإنعام، وأكمل في الإحسان.

وإضافة[2] الليل والضحىٰ إلى السماء لدوران حدوثهما علىٰ حركتها،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والإضافة يكفيها أدنى ملابسة المضاف إليه، ويجوز أن تكون إضافة الضحىٰ إليها بواسطة الشمس؛ أي: أبرز ضوء شمسها، بتقدير المضاف، والتعبير عنه بالضحى؛ لأنه وقت قيام سلطانها، وكمال إشراقها، وتعاقب الليل والنهار، واختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات يهيء الأرض للسكنىٰ، ومن ثَمَّ قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بألفي عام؛ أي: بعدما ذكر من بناء السموات، ورفع سمكها وتسويتها ﴿دَحَىٰهَآ﴾؛ أي: دحىٰ الأرض، وبسطها ومهدها لسكنىٰ أهلها، وتقلبهم في أقطارها، وقد كانت الأرض مخلوقة غير مدحوة قبل ذلك، فلا معارضة بين هذه الآية وبين ما تقدم في سورة فصلت من قوله تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾، لأنه يمكن الجمع بينهما، بأنه سبحانه خلق الأرض غير مدحوة، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض، كما تقدم هنالك، فالآيتان ترشدان إلىٰ أن الله تعالىٰ خلق الأرض أولاً، ثم خلق السموات بعد ذلك، ثم عاد إلىٰ الأرض فمهدها ودحاها، فآية السجدة حكاية للخلق الأول ومبدئه، وهذه الآية حكاية للإصلاح الذي كان بعد الخلق.

وقال بعض أهل العلم[1]: إن ﴿بَعْدَ﴾ هنا بمعنىٰ: مع، كما في قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ وقيل: ﴿بَعْدَ﴾ بمعنىٰ قبل، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾، أي: من قبل القرآن، ولكن الجمع الذي ذكرناها أولىٰ، وهو قول ابن عباس، وغير واحد من المفسرين، واختاره ابن جرير. وقرأ الجمهور[2] بنصب ﴿الأرض﴾ و﴿الجبال﴾ علىٰ الاشتغال، وقرأ الحسن وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال وعمرو بن ميمون ونصر بن عاصم برفعهما علىٰ الابتداء، وقرأ عيسىٰ برفع ﴿الأرض﴾ فقط، ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتي سكناها من أمر المآكل والمشارب، وإمكان القرار عليها، فقال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾؛ أي: من الأرض، ﴿مَآءَهَا﴾ بأن فجر منها عيوناً، وأجرىٰ أنهاراً ﴿و﴾ أنبت منها ﴿مر عنها﴾، أي: رعيها بكسر أوله ونباتها الذي ترعاه الأنعام، وهو الكلأ،

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

والمرعىٰ في الأصل: موضع الرعي بالفتح، نسب الماء والمرعىٰ إلىٰ الأرض من حيث إنهما منها يظهران، وتجريد الجملة عن العاطف، لأنها بيان وتفسير لـ ﴿دَحَىٰهَآ﴾، أو تكملة له، فإن السكنىٰ لا تتأتىٰ بمجرد البسط والتمهيد، بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المآكل والمشارب والملابس حتماً.

والمعنىٰ[1]: أي فجّر منها العيون والينابيع والأنهار، وأنبت فيها النبات، سواء أكان قوتاً لبني آدم، كالحب والثمر، أم قوتاً للأنعام والماشية، كالعشب والحشيش. ﴿وَٱلْجِبَالَ﴾: منصوب بمضمر يفسره قوله: ﴿أَرْسَىٰهَا﴾؛ أي أثبتها وأثبت بها الأرض؛ لئلا تميد بأهلها، وهذا تحقيق للحق، وتنبيه علىٰ أن الرسو المنسوب إليها في مواضع كثيرة من التنزيل بالتعبير عنها بالرواسي، ليس من مقتضيات ذواتها، بل هو بإرسائه سبحانه وتعالى، ولولاه لما ثبتت في نفسها فضلاً عن إثباتها للأرض.

قيل: ولعل وجه تقديم ذكر الماء والمرعىٰ على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه؛ للاهتمام بأمر المآكل والمشارب، وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[2] مفعول له لفعل محذوف بمعنىٰ تمتيعاً، والأنعام جمع نعم بفتحتين، وهي المال الراعية بمعنىٰ المواشي، وفي «الصحاح»: وأكثر ما يقع هذا الاسم علىٰ الإبل، والمراد هنا: ما يكون علماً للإبل والبقر والغنم، من الضأن والمعز، والتقدير: فعلنا ذلك تمتيعاً ومنفعةً لكم ولأنعامكم؛ لأن فائدة ما ذكر من البسط والتمهيد، وإخراج الماء والمرعىٰ واصلة إليهم، وإلى أنعامهم، فإن المراد بالمرعىٰ ما يعم ما يأكل الإنسان وغيره بناءً علىٰ استعارة الرعي لتناول المأكول علىٰ الإطلاق، كاستعارة المرسن للأنف، ولهذا قيل: دل الله تعالىٰ بذكر الماء والمرعى علىٰ عامة ما يرتفق به ويستمع، مما يخرج من الأرض حتى الملح فإنه من الماء، قال العتبي: هذا أي قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ من جوامع الكلم؛ حيث ذكر شيئين دالين علىٰ جمع ما أخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام، من العشب والشجر، والحب والثمر، والملح والنار لأن النار من الشجر الأخضر، والملح من الماء، ونكتة الاستعارة: توبيخ المخاطبين المنكرين للبعث،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وإلحاقهم بالبهائم في التمتع بالدنيا، والذهول عن الآخرة.

وقيل: انتصاب ﴿مَتَٰعًا﴾ علىٰ المصدرية، أي: متعناكم بذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم، أفلا يكون خالقكم وواهبكم ما به تحيون، ورافع السماء فوقكم، وممهد الأرض تحتكم قادراً على بعثكم، وهل يليق به أن يترككم سدىٰ بعد أن دبر أمركم هذا التدبير المحكم، ووفر لكم هذا الخير الكثير.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ شروع[1] في بيان أحوال معادهم إثر بيان أحوال معاشهم، والفاء للدلالة علىٰ ترتب ما بعدها علىٰ ما قبلها عما قليل؛ كما ينبىء عنه لفظ المتاع، ويصح أن تكون فصيحةً. قال في «الصحاح»: كل شيء كثر حتىٰ علا وغلب، فقد طم، من باب رد، و ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾: تأنيث الأكبر، من كبر بالضم بمعنىٰ عظم، لا من كبر بالكسر بمعنى أسن، و ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: الداهية التي تعلو وتغلب كل الدواهي، فوصفها بالكبرىٰ يكون للتأكيد، والمراد بها: القيامة، لطمومها علىٰ كل هائلة، أو النفخة الثانية، فإنه يشاهد يوم القيامة من الآيات الهائلة الخارجة عن العادة ما ينسىٰ معه كل هائل، وعند النفخة الثانية تحشر الخلائق إلىٰ موقف القيامة، وخصت سورة النازعات بالطامة، وسورة عبس بالصاخة؛ لأن الطم إن كان بمعنىٰ النفخة الأولىٰ للإهلاك.. فهو قبل الصخ؛ أي: الصوت الشديد الذي يحيا له الناس حين يصيخون له، كما ينتبه النائم بالصوت الشديد، فهو بمعنىٰ النفخة الثانية، فجعل السابق للسورة السابقة، واللاحق للاحقة، وإن كان بمعنى النفخة الثانية.. فحسن الموقع في كلا الموضعين؛ لأن الطم ورد بعد قوله: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾، والصخ بعد ما بين عدم إصاخة النبي ﷺ لابن أم مكتوم، وجواب ﴿إذا﴾ محذوف يدل عليه التفصيل المذكور، والتقدير: إذا عرفتم حال معاشكم، وأردتم بيان حال معادكم.. فأقول لكم: إذا جاء وقت وقوع الداهية العظمىٰ التي تطم وتغلب على سائر الطامات والدواهي.. يكون من عظائم الأمور ما لا يخطر في بال، ولم تره عين، ولم تسمع به أذن.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ منصوب[2] بأعني تذكيراً وبياناً للطامة الكبرى، و ﴿مَا﴾ موصولة، وسعىٰ بمعنىٰ: عمل؛ أي: أعني بالطامة الكبرىٰ: يوم

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

يتذكر فيه كل أحد كائناً من كان ما عمله في الدنيا من خير أو شر، بأن يشاهده مدوناً في صحيفة أعماله، وقد نسيه من فرط الغفلة وطول الأمد، كما قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، وقيل: ﴿يَوْمَ﴾ بدل من ﴿فَإِذَآ﴾ في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ﴾ بدل بعض من كل علىٰ تقدير الرابط، تقديره: فيوم يتذكر الإنسان فيه ما سعى، يكون من عظائم الأمور ما لا يخطر ببال، أو بدل كل من كل، فلا حاجة إلىٰ الرابط.

وقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ معطوف علىٰ ﴿جَآءَتِ﴾؛ أي: أظهرن إظهاراً بيناً لا يخفىٰ علىٰ أحد بعد أن كانوا يسمعون بها، والمراد بها: مطلق النار المعبر عنها بجهنم، لا الدركة المخصوصة من الدركات السبع، ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ كائناً من كان علىٰ ما يفيده ﴿من﴾؛ فإنه من ألفاظ العموم، روي أنه يكشف عنها فتتلظى، فيراها كل ذي بصر مؤمن أو كافر، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾؛ فإنه يدل علىٰ أنها لا تظهر للمؤمنين؛ لأنهم يرونها حين يمرون عليها مجاوزين الصراط لا لتعذيبهم، وقيل: للكافر فقط لأن المؤمن يقول: أين النار التي توعدنا بها، فيقال: مررتموها وهي خامدة.

والمعنىٰ: أي وإذا برزت الجحيم لمن يرى.. يكون من عظام الأمور ما لا يخطر ببال.

والفاء في قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ إلخ استئنافية، والكلام بعدها مستأنف مسوق لبيان حال الناس في الدنيا، وجزائهم في الآخرة، وقيل: الجملة جواب ﴿إذا﴾ في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ مبنياً للمفعول مشدد الراء، وقرأ أبو نهيك وأبو السمال وهارون عن عمرو: ﴿وبرزت الجحيم﴾ مبنياً للفاعل مخففها، وقرأ الجمهور: ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ بياء الغيبة التحتانية، وقرأت عائشة ومالك بن دينار وعكرمة وزيد بن علي: ﴿لمن ترى﴾ بتاء الغيبة؛ أي: لمن تراه الجحيم، أو بتاء الخطاب؛ أي: لمن تراه أنت يا محمد، وقرأ ابن مسعود: ﴿لمن رأى﴾ علىٰ صيغة الفعل الماضي.

ومعنىٰ الآيات: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾؛ أي: فإذا[2] حل ذلك اليوم الذي تشيب من هوله الولدان، وتشاهد فيه النار، فينسىٰ المرء كل هول دونها.. فصل الله بين

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) المراغي.

الخلائق، فأدخل الطائعين الأبرار الجنة، وأدخل المتمردين العصاة النار، وقد وصف هذا اليوم بوصفين:

١ - ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥﴾؛ أي: أعني بذلك اليوم: حين يرى الإنسان أعماله مدونة في كتابه، وكان قد نسيها، فتعاوده الذكرىٰ، كما قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

٢ - ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦﴾؛ أي: وأظهرت النار حتىٰ يراها كل ذي عينين، سواء منهم المؤمن والكافر، سوىٰ أنها تكون مقراً للكافرين، وينجي الله المؤمنين.

والخلاصة: إذا جاء ذلك اليوم.. فصل الله بين الخلائق، كما فصله بعد بقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧﴾، أي: عتا وتمرد عن الطاعة، وتكبر عن الحق، وجاوز الحد في العصيان، كالنضر بن الحارث وأبيه الحارث، المشهورين بالغلو في الكفر والطغيان، ﴿وَءَاثَرَ﴾، أي: اختار ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: الفانية التي علىٰ جناح الفوات، فانهمك فيما متع به فيها، ولم يستعد للحياة الآخرة الأبدية بالإيمان والطاعة، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ التي ذكر شأنها ﴿هِيَ﴾ لا غيرها، وهو ضمير فصل، أو مبتدأ ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ أي: مأواه، فلا يخرج من النار كما يخرج المؤمن العاصي، فالكلام في حق الكافر، لكن في موعظة وعبرة موقظة للمؤمن، والألف[1] واللام فيه عوض عن المضاف إليه كما أشرنا إليه؛ للعلم بأن صاحب المأوىٰ هو الطاغي، نظير قولك: غض الطرف؛ أي: طرفك، فإنه لا يغض الرجل طرف غيره، وذلك لأن الخبر إذا كان جملة لا بد فيها من ضمير يربطها بالمبتدأ، فسدت اللام مسد العائد لعدم الالتباس، فلا احتياج في مثل هذا المقام إلى الرابط.

والمعنىٰ: أنها منزله الذي ينزله، ومأواه الذي يأوي إليه لا غيرها؛ أي: فأما من تكبر وتجاوز الحد، وآثر الحياة الدنيا وشهواتها علىٰ ثواب الآخرة فالنار مثواه ومستقره، ثم ذكر القسم الثاني من القسمين، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: قيامه بين يدي مالك أمره يوم الطامة الكبرىٰ، يوم يتذكر الإنسان ما سعىٰ، وذلك

---

(١) روح البيان.

لعلمه بالمبدأ والمعاد، فإن الخوف من القيام بين يديه للحساب لا بد أن يكون مسبوقاً بالعلم به تعالى، وفي بعض التفاسير: المقام؛ إما مصدر ميمي بمعنىٰ القيام، أو اسم مكان بمعنىٰ: موضع القيام؛ أي: المكان الذي عينه الله سبحانه لأن يقوم العباد فيه للحساب والجزاء. وقيل: المقام: مقحم للتأكيد، جعل الخوف مقابلاً للطغيان مع أن الظاهر مقابلته للانقياد والإطاعة بناءً علىٰ أن الخوف أول أسباب الإطاعة، ثم الرجاء، ثم المحبة، فالأول: للعوام، والثاني: للخواص، والثالث: لخواص الخواص.

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أي: زجرها عن الميل إلىٰ المعاصي والمحارم التي تشتهيها بحكم الجبلة البشرية، ولم يعتد بمتاع الحياة الدنيا وزهرتها، ولم يغتر بزخارفها وزينتها علماً منه بوخامة عاقبتها، و ﴿ٱلْهَوَىٰ﴾: ميلان النفس إلىٰ ما تشتهيه وتستلذه من غير داعية الشرع وفي الحديث: «إن أخوف ما أتخوف علىٰ أمتي الهوىٰ، وطول الأمل»؛ أما الهوى.. فيصد عن الحق، وأما طول الأمل.. فينسي الآخرة. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ﴾ ونعيمها ﴿هِيَ﴾ لا غيرها ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ له؛ أي: المنزل الذي ينزله، والمكان الذي يأوي إليه، فنهي[1] النفس عن الهوى معناه: نهيها عن جميع الهوىٰ علىٰ أن اللام للاستغراق، وإلا فلا معنىٰ للحصر؛ لأن المؤمن الفاسق قد يدخل النار أولاً، ثم يدخل الجنة، فلا يصح في حقه الحصر، اللهم إلا أن يقال: معنى الحصر: أن الجنة هي المقام الذي لا يخرج عنه من دخل فيه.

وفي بعض التفاسير: المراد بالجنة: مطلق دار الثواب، فلا يخالف قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ فإن له جنتين بفضل الله تعالى في دار الثواب جنة النعيم بالنعم الجسمانية، وجنة التلذذ باللذات الروحانية. انتهى.

والمعنىٰ[2]: أي أما من حذر وقوفه بين يدي ربه يوم القيامة، وأدرك مقدار عظمته وقهره وغلبة جبروته وسطوته، وجنب نفسه عن الوقوع في محارمه.. فالجنة مثواه وقراره، وقد ذكر سبحانه من أوصاف السعداء شيئين يضادان أوصاف الأشقياء:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

١ ـ فقوله: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ يقابل قوله: ﴿طَغَىٰ﴾.

٢ ـ وقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ يضاد قوله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾، وقد مدح الحكماء مخالفة الهوىٰ فقالوا إذا أردت الصواب.. فانظر هواك، فخالفه. وقال سهل: لا يسلم من الهوىٰ إلا الأنبياء وبعض الصديقين.

وقال عمران الميرتلي:

فَخَالِفْ هَوَاهَا وَٱعْصِهَا إِنَّ مَنْ يُطِعْ   هَـوَىٰ نَـفْـسِـهِ تَـنْـزِعْ بِـهِ كُـلَّ مَـنْـزِعِ
وَمَنْ يُطِعِ ٱلنَّفْسَ ٱللَّجُوْجَةَ تُرْدِهِ   وَتَـرْمِ بِـهِ فِـيْ مَـصْـرَعٍ أَيِّ مَـصْـرَعِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: القيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؛ أي: إرساؤها؛ أي: إقامتها، يريدون: متىٰ يقيمها الله تعالىٰ ويثبتها ويكونها؟ فأيان[1]: ظرف زمان بمعنىٰ متىٰ، وأصله، أي آن ووقت، والمرسىٰ: مصدر بمعنىٰ الإرساء وهو الإثبات، وهو مبتدأ، وأيان خبره بتقدير المضاف إذ لا يخبر بالزمان عن الحدث، والتقدير: متىٰ وقت إرسائها؟ كان المشركون يسمعون أخبار القيامة وأوصافها الهائلة، مثل: أنها طامة كبرى، وصاخة، وقارعة، فيقولون علىٰ سبيل الاستهزاء: أيان مرساها؟

والمعنىٰ: يسألك أيها الرسول هؤلاء المكذبون بالبعث عن الساعة التي تبعث فيها الموتىٰ من قبورهم، متىٰ قيامها وظهورها.

وقوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ رد وإنكار لسؤال المشركين عنها، وأصل ﴿فِيمَ﴾: فيما، كما أن أصل ﴿عَمَّ﴾: عما، وقد سبق. و﴿ذكرى﴾: مصدر بمعنىٰ: الذكر، كالبشرىٰ بمعنىٰ البشارة؛ أي: في أي شيء أنت من أن تذكر لهم وقتها، وتعلمهم حتى يسألوك بيانها، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾؛ أي: ما أنت من ذكراها لهم، وتبيين وقتها في شيء؛ لأن ذلك فرع علمك به، وأنىٰ لك ذلك، وهو مما استأثر به بعلمه علام الغيوب، فقوله: ﴿مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ فيه حذف مضاف، وصلته محذوفة، وهي: لهم، والاستفهام للإنكار، و ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ، و ﴿فِيمَ﴾ خبره قدم عليه، و ﴿مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ متعلق بما تعلق به الخبر.

---

(١) روح البيان.

والمعنىٰ: أي ما هذه الذكرى الدائمة لها، وما هذا الاهتمام الذي جعلك لا تألوا جهداً في السؤال عنها. روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لم يزل يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآية.

وتلخيص المعنى[١]: لا تشغل نفسك بهذا الأمر، ولا تكلفها عناء البحث عنه، واستكناه أسراره، ومعرفة ما حجبه الله عن خلقه من شأنه.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: انتهاء علمها ليس لأحد منه شيء ما كائناً من كان، فلأي شيء يسألونك عنها؛ أي: إلى ربك يا محمد ينتهي علم الساعة، فلا يعلم وقت قيامها غيره تعالى، ولم يعطه لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك، بيان وقت قيامها؟ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾؛ أي: وظيفتك الامتثال بما أمرت به من بيان اقترابها، وتفصيل ما فيها من فنون الأهوال، لا تعيين وقتها الذي لم يفوض إليك، فما لهم يسألونك عما ليس من وظائفك بيانه؛ أي: ما أنت إلا منذر لا يعلم وقتها، فهو من قصر الموصوف على الصفة، أو ما أنت منذر إلا من يخشاها، فهو من قصر الصفة علىٰ الموصوف.

وتخصيص ﴿من يخشى﴾ مع أنه مبعوث إلىٰ من يخشىٰ، ومن لا يخشىٰ؛ لأنهم هم المنتفعون به؛ أي: لا يؤثر الإنذار إلا فيهم، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ والجمهور على أن قوله: ﴿مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ من إضافة الصفة إلى معمولها للتخفيف علىٰ الأصل؛ لأن الأصل في الأسماء الإضافة، والعمل فيها إنما هو بالشبه، ومن قرأها بالتنوين اعتبر أن الأصل فيها الإعمال، والإضافة فيها إنما هي للتخفيف.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿مُنذِرُ مَن﴾ بالإضافة، وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر وشيبة وخالد الحذاء وابن هرمز وعيسى وطلحة وابن محيص وأبو عمرو في رواية وابن مقسم وحميد: ﴿منذرٌ﴾ بالتنوين. قال الفراء: والتنوين وتركه في ﴿مُنذِرُ﴾ صواب، كقوله: ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ وقال أبو علي الفارسي: يجوز أن تكون الإضافة

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

للماضي نحو: ضارب زيد أمس.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾؛ أي: كأن منكريها من كفار مكة ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾؛ أي: يرون القيامة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾؛ أي: لم يمكثوا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ والضحىٰ: اسم لما بين إشراق الشمس إلى استواء النهار، ثم هي عشي إلىٰ الغداة، كما في «كشف الأسرار». والجملة حال من الموصول، فإنه علىٰ تقدير الإضافة وعدمها، مفعول لـ ﴿مُنذِرُ﴾، كأنه قيل[1]: تنذرهم مشبهين يوم يرونها؛ أي: في الاعتقاد بمن لم يلبث بعد الإنذار بها إلا تلك المدة اليسيرة؛ أي: عشية يوم واحد، أو ضحاه، أي: آخر يوم أو أوله لا يوماً كاملاً علىٰ أن التنوين عوض عن المضاف إليه، فلما ترك اليوم.. أضيف ضحاه إلىٰ عشية، والضحىٰ والعشية لما كانا من يوم واحد.. تحققت بينهما ملابسة مصححة لإضافة أحدهما إلىٰ الآخر، فلذلك أضيف الضحىٰ إلى العشية.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل عشية أو ضحى، وما فائدة الإضافة؟

قلنا: لو قيل لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحى.. احتمل أن يكون العشية من يوم، والضحىٰ من يوم آخر، فيتوهم استمرار اللبث من ذلك الزمان من اليوم الأول إلى الزمان الآخر من اليوم الآخر، وأما إذا قيل: عشية أو ضحاها. لم يحتمل ذلك ألبتة. قال في «الإرشاد»[2]: واعتبار كون اللبث في الدنيا، أو في القبور لا يقتضيه المقام، وإنما الذي يقتضيه، اعتبار كونه بعد الإنذار، أو بعد الوعيد تحقيقاً للإنذار، وردا لاستبطائهم. وعبارة «الشوكاني».

قوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: لم يقيموا في الدنيا إلا قدر آخر نهار أو أوله، أو قدر الضحىٰ الذي يلي تلك العشية، والمراد: تقليل مدة الدنيا، كما قال في آية أخرىٰ: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾، وقيل: لم يلبثوا في قبورهم إلا عشية أو ضحاها. انتهىٰ.

والمعنىٰ: أي: إن هذا اليوم الذي لجوا في إنكاره سيقع ألبتة، ويرونه بأعينهم، فإذا عاينوه حسبوا أنهم لم يلبثوا ولم يقيموا في الدنيا إلا ساعة من نهار، ثم انقضت.

---

(١) روح البيان. (٢) أبو السعود.

والخلاصة: أنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلا عشية يوم، أو ضحىٰ تلك العشية، وتقول العرب: آتيك العشية أو غداتها، وآتيك الغداة أو عشيتها، والمراد: أنهم يستقصرون مدة لبثهم، ويزعمون أنهم لم يلبثوا إلا قدر آخر نهار أو أوله.

الإعراب

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم ﴿النازعات﴾: مقسم به، مجرور بـ ﴿واو﴾ القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بالنازعات، وجملة القسم مستأنفة استئنافاً نحوياً، ﴿غَرْقًا﴾: مفعول مطلق معنوي منصوب بـ ﴿النازعات﴾، ولكنه علىٰ حذف مضاف؛ أي: أقسم بالنازعات نزع إغراق وشدة، وهو مصدر حذف زوائده؛ أي: أقسم بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزع إغراق وشدة، ﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾: معطوف على ﴿النازعات﴾ ﴿نَشْطًا﴾ منصوب بـ ﴿الناشطات﴾ علىٰ المفعولية المطلقة، ﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾: معطوف أيضاً علىٰ ﴿النازعات﴾ ﴿سَبْحًا﴾: منصوب علىٰ الفعولية المطلقة بـ ﴿السابحات﴾، ﴿فَالسَّابِقَاتِ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة معطوف علىٰ ﴿السابحات﴾. ﴿سَبْقًا﴾: مفعول مطلق منصوب بـ ﴿السابقات﴾: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ﴾ معطوف علىٰ ﴿السابقات﴾. ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به لـ ﴿المدبرات﴾، واختير الفاء في الأخيرين للدلالة علىٰ ترتب كل منهما علىٰ ما قبله بغير مهملة. وجواب القسم في هذه المذكورات محذوف جوازاً، تقديره: لتبعثن يا كفار مكة ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بجواب القسم المحذوف ﴿تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾ ﴿تَتْبَعُهَا﴾: فعل ومفعول به. ﴿الرَّادِفَةُ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب حال من ﴿الرَّاجِفَةُ﴾؛ أي: حالة كون الراجفة تابعة إياها الرادفة.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿قُلُوبٌ﴾: مبتدأ أول، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف إلى مثله متعلق بـ ﴿وَاجِفَةٌ﴾، و ﴿وَاجِفَةٌ﴾: صفة لـ ﴿قُلُوبٌ﴾، وهو المسوغ للابتداء بالنكرة، ﴿أَبْصَارُهَا﴾: مبتدأ ثانٍ، ﴿خَاشِعَةٌ﴾: خبره، وهو وخبره خبر للمبتدأ الأول، وفي الكلام حذف

مضاف؛ أي: أبصار أصحاب القلوب، ويجوز أن يكون ﴿قُلُوبٌ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بالصفة المحذوفة كما مرَّ؛ أي: قلوب كافرة أو عاصية. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: متعلق بـ ﴿وَاجِفَةٌ﴾، و ﴿وَاجِفَةٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة علىٰ كلا التقديرين مستأنفة، ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾: مبتدأ وخبر، والجملة خبر ثانٍ لـ ﴿قُلُوبٌ﴾.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم يقولون، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، أو مستأنفة، ﴿أَءِنَّا﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري؛ لأنهم أنكروا الرد ونفوه ﴿إنا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَمَرْدُودُونَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿مردودون﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾: متعلق بـ ﴿مردودون﴾، و﴿في﴾ بمعنىٰ: إلىٰ، و ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾: الأرض التي قبورهم فيها: ﴿أَءِذَا﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري مؤكدة للأولىٰ. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنىٰ الشرط متعلق بمحذوف دل عليه ﴿مردودون﴾، تقديره: أنرد ونبعث وقت كوننا عظاماً نخرة مع كوننا أبعد شيء من الحياة، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿عِظَٰمًا﴾ خبره ﴿نَّخِرَةً﴾: صفة ﴿عِظَٰمًا﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجر مضاف إليه، لـ ﴿إذا﴾ ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لحكاية كفر آخر متفرع علىٰ كفرهم السابق. ﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ، والإشارة إلىٰ الرجعة في الحافرة، ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء لا عمل لها جيء بها لإفادة تأكيد الرجعة الخاسرة، ﴿كَرَّةٌ﴾: خبر لـ ﴿تِلْكَ﴾. ﴿خَاسِرَةٌ﴾: نعت لـ ﴿كَرَّةٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية لمحذوف تقديره: لا تستصعبوها علىٰ الله تعالى، ﴿إنما﴾: أداة حصر ﴿هِىَ﴾: مبتدأ ﴿زَجْرَةٌ﴾ خبر. ﴿وَٰحِدَةٌ﴾: صفة ﴿زَجْرَةٌ﴾، والجملة الاسمية جملة معللة لذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة لا محل لها من الإعراب، والمعنىٰ: لا تحسبوا تلك الكرة صعبة علىٰ الله تعالى؛ لأنها سهلة هينة بقدرته تعالىٰ؛ لأنها حاصلة بزجرة واحدة، ونفخة

واحدة، ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنها بزجرة واحدة، وأردت بيان حالهم وقتئذٍ.. فأقول لك: إذا هم بالساهرة ﴿إذا﴾: فجائية حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام التقريري، والمعنىٰ: أليس قد أتاك حديث موسىٰ ﴿أَتَىٰكَ﴾: فعل ماض، ومفعول به، ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان، متعلق بـ ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ لا بـ ﴿أَتَىٰكَ﴾ كما يتوهم لاختلاف وقتيهما، ﴿نَادَىٰهُ﴾: فعل ماضٍ، ومفعول به، ﴿ربُّهُ﴾: فاعل، ﴿بِٱلْوَادِ﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر ﴿الواد﴾: مجرور بالباء، وعلامة جره كسرة مقدرة علىٰ الياء المحذوفة لفظاً للتخلص من التقاء الساكنين، وحذفت في الخط تبعاً للفظ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نَادَىٰهُ﴾، ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾: صفة للوادي ﴿طُوًى﴾: بدل من الوادي، وقرىء بالتنوين وتركه، قال الجوهري: وطوىٰ: اسم موضع بالشام، وتكسر طاؤه وتضم، ويصرف ولا يصرف، فمن صرفه.. جعله اسم واد ومكان، وجعله نكرة، ومن لم يصرفه.. جعله اسم بلدة وبقعة، وجعله معرفة. ﴿ٱذْهَبْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود علىٰ موسىٰ، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: متعلق بـ ﴿ٱذْهَبْ﴾، والجملة مقول لقول محذوف معطوف على ﴿نَادَىٰهُ﴾ تقديره: فقال: اذهب، ويجوز أن تكون جملة مفسرة للنداء، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿طَغَىٰ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ جملة تعليلية مسوقة لتعليل الأمر بالذهاب لا محل لها من الإعراب ﴿فَقُلْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿ٱذْهَبْ﴾، ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام معناه العرض، وهو الطلب برفق ولين ﴿لَّكَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هل لك رغبة إلىٰ أن تزكى، ﴿إِلَىٰٓ﴾: حرف جر، وجملة ﴿أَن تَزَكَّىٰ﴾ مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿إلى﴾، تقديره: هل لك رغبة إلىٰ التزكية، الجار والمجرور متعلق بالمبتدأ المحذوف،

وأصل ﴿تَزَكَّىٰ﴾: تتزكىٰ؛ أي: تتطهر من الشرك، فحذفت إحدى التائين لكراهة اجتماع المثلين. ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ موسى، ومفعول به معطوف على ﴿تَزَكَّىٰ﴾. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: متعلق بـ ﴿أهديك﴾، ﴿فَتَخْشَىٰ﴾: معطوف علىٰ ﴿أهديك﴾ جعل الخشية غاية للهداية؛ لأنها ملاك الأمر، وجماع التقوىٰ، ومتى خشي الإنسان ربه لم يصدر عنه إلا الخير ﴿فَأَرَىٰهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة علىٰ محذوف تقديره: فذهب إليه.. فأراه، ﴿أراه﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، و ﴿الهاء﴾: مفعول أول لـ﴿أرى﴾، ﴿ٱلْـَٔايَةَ﴾: مفعول ثانٍ له؛ لأن الرؤية بصرية تعدىٰ إلىٰ الثاني بالهمزة ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ صفة لـ﴿ٱلْـَٔايَةَ﴾: ﴿فَكَذَّبَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كذب﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ معطوف علىٰ لـ﴿أرى﴾، ﴿وَعَصَىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر معطوف علىٰ ﴿كذب﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿أَدْبَرَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ معطوف على ﴿كذب﴾، وجملة ﴿يَسْعَىٰ﴾: حال من فاعل ﴿أَدْبَرَ﴾، ﴿فَحَشَرَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿فِرْعَوْنَ﴾، معطوف علىٰ ﴿أَدْبَرَ﴾: ﴿فَنَادَىٰ﴾: معطوف علىٰ ﴿حشر﴾.

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾.

﴿فَقَالَ﴾: معطوف علىٰ ﴿نادى﴾. ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ صفة لـ﴿رَبُّكُمُ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ماضٍ، ومفعول به مقدم، وفاعل مؤخر معطوف علىٰ ﴿قال﴾، ﴿نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: مصدر معنوي لـ ﴿أخذ﴾ منصوب علىٰ المفعولية المطلقة؛ أي: أخذه أخذ نكال، ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله؛ أي لأجل نكاله. قال الزمخشري: هو مصدر مؤكد لفعله المحذوف، كوعد الله وصبغة الله، كأنه قيل: نكل الله به نكال الآخرة والأولى: ﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: مضاف إليه، ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾: معطوف عليه. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم. ﴿لَعِبْرَةً﴾، ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿عبرة﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿لِّمَن﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿عبرة﴾، وجملة ﴿يَخْشَىٰ﴾ صلة لـ ﴿من﴾ الموصولة.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ءَأَنتُمْ﴾: الهمزة للاستفهام التقريري التوبيخي، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿أَشَدُّ﴾: خبر. ﴿خَلْقًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب ﴿أَمِ﴾: حرف عطف متصلة. ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: معطوف علىٰ ﴿أَنتُمْ﴾، ويجوز أن تعرب ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: مبتدأ، خبره محذوف تقديره: أم السماء أشد خلقاً. ﴿بَنَىٰهَا﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود علىٰ الله، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾؛ كأنه بيان لكيفية خلقها، ويجوز أن تكون مفسرة لا محل لها من الإعراب. ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود علىٰ الله، ومفعول به، والجملة بدل من جملة ﴿بَنَىٰهَا﴾ تابعة لها ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ معطوف علىٰ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾، ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر ومفعول به معطوف علىٰ ﴿سواها﴾، ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف علىٰ ما قبله، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: منصوب علىٰ الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، يفسره ما بعده، تقديره: ودحىٰ الأرض، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف مضاف متعلق بـ ﴿دَحَىٰهَآ﴾، وجملة ﴿دَحَىٰهَآ﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ
ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ
﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ
ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَخْرَجَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على الله ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ ﴿أَخْرَجَ﴾. ﴿مَآءَهَا﴾: مفعول به، ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾: معطوف على ﴿مَآءَهَا﴾، وجملة ﴿أَخْرَجَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بتقدير: قد؛ أي: والأرض دحاها حال كونه مخرجاً منها ماءها ومرعاها، وهذا قول الجمهور، ويجوز أن تكون الجملة مفسرة لما لا بد منه في تأتي سكناها، من تسوية أمر المأكل والمشرب، وإمكان القرار عليها. ﴿وَٱلْجِبَالَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ٱلْجِبَالَ﴾: منصوب علىٰ الاشتغال، بفعل محذوف وجوباً تقديره: وأرسىٰ الجبال، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾، وجملة ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب ﴿مَتَٰعًا﴾: مفعول

لأجله لفعل محذوف تقديره: فعلنا ذلك تمتيعاً لكم، والجملة المحذوفة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ويجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف تقديره: متعناكم بها تمتيعاً، و ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿مَتَٰعًا﴾. ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾: معطوف علىٰ ﴿لَكُمْ﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أحوال معاشكم، وأردتم بيان أحوال معادكم.. فأقول لكم: ﴿إذا جاءت﴾ ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط متعلق بالجواب المحذوف، ﴿جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾: فعل وفاعل ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾: صفة لـ ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إذا﴾ محذوف تقديره: يكون من عظائم الأمور ما لا يخطر ببال، وكان من عظائم الشؤون ما لم تره العيون، أو دخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ويجوز أن تكون الفاء استئنافية، ﴿يَوْمَ﴾: بدل من ﴿إذا﴾ بدل بعض من كل، أو بدل كل من كل، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾. ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فاعل. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به أو مصدرية، وجملة ﴿سَعَىٰ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما سعاه في الدنيا، أو صلة لـ ﴿مَا﴾ المصدرية؛ أي: سعيه، ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف علىٰ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، ﴿لِمَن﴾: متعلق بـ ﴿برزت﴾، وجملة ﴿يَرَىٰ﴾ صلة لـ ﴿من﴾ الموصولة. ﴿فَأَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية، أو فصيحة، ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿طَغَىٰ﴾ صلة لـ ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَءَاثَرَ﴾: معطوف علىٰ ﴿طَغَىٰ﴾. ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾: مفعول به، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾: واقعة في غير موضعها؛ لأن موضعها موضع ﴿أما﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾: اسمها. ﴿هِيَ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ. ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾: خبرها، أو خبر المبتدأ، و ﴿أل﴾ في ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ عوض عن الضمير العائد علىٰ ﴿مَنْ﴾ الموصولة؛ أي: مأواه، أو العائد محذوف؛ أي: هي المأوىٰ له، والأول: مذهب الكوفيين، والثاني: مذهب البصريين، وجملة ﴿إن﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ في قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾، وجملة المبتدأ والخبر جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ مستأنفة، أو مقول

لجواب إذا المقدرة على كون الفاء فصيحة، ﴿وَأَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أَمَّا﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿خَافَ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة: ﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ مفعول به، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف علىٰ ﴿خَافَ﴾. ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾: متعلق بـ﴿نهى﴾، ﴿فإنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿أَمَّا﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾: اسمها ﴿هِيَ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، وجملة المبتدأ جواب ﴿أَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿أما﴾ الأولىٰ.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل مضارع وفاعل ومفعول به، مرفوع بالنون. ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: متعلق بـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ علىٰ كونه مفعولاً ثانياً، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لحكاية نوع آخر من تعنتهم ﴿أَيَّانَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني علىٰ الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، لتضمنه معنىٰ همزة الاستفهام، وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم ﴿مُرْسَىٰهَا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية جملة مفسرة لسؤالهم عن الساعة لا محل لها من الإعراب؛ أي: متىٰ إرساؤها؛ أي: إقامتها وإثباتها. ﴿فِيمَ﴾: ﴿في﴾: حرف جر ﴿م﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الجر بـ ﴿في﴾ مبني بسكون علىٰ الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ﴿ما﴾ الموصولة، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾: متعلق بما تعلق به الخبر، والمعنىٰ: أنت في أي شيء من ذكراها، والجملة جملة إنشائية إنكارية لا محل لها من الإعراب، كأنها إنكار ورد لسؤالهم عن الساعة، وبيان لبطلان السؤال ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: خبر مقدم. ﴿مُنتَهَىٰهَآ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل الإنكار قبلها ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر، ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ ﴿مُنذِرُ﴾: خبر، والجملة مستأنفة، ﴿مُنذِرُ﴾: مضاف، و ﴿مَنْ﴾ الموصولة في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿يَخْشَىٰهَا﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: ﴿كأن﴾: حرف نصب وتشبيه، و ﴿الهاء﴾ ضمير الغائبين في محل النصب اسمها. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب علىٰ الظرفية، متعلق بما في ﴿كأن﴾ من معنىٰ التشبيه، وجملة ﴿يَرَوْنَهَا﴾

في محل الجر بإضافة الظرف إليها، وجملة: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا﴾ في محل الرفع خبر ﴿كأن﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿عَشِيَّةً﴾: ظرف زمان متعلق بـ ﴿يَلْبَثُوٓا﴾، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه وهو يوم، ﴿أَوْ﴾ حرف عطف. ﴿ضُحَىٰهَا﴾: معطوف علىٰ ﴿عَشِيَّةً﴾، وجملة التشبيه في محل النصب حال من الموصول في قوله: ﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾؛ كأنه قيل: تنذرهم مشبهين يوم يرونها بمن لم يلبث إلا تلك المدة كما مر.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾؛ أي: الكواكب الجاريات علىٰ نظام معين في سيرها؛ كالشمس والقمر، يقال: نزعت الخيل إذا جرت.

﴿غَرْقًا﴾؛ أي: مغرقة، أي: مجدة مسرعة في جريها لتقطع مسافة فلكها حتى تصل إلى أقصى المغرب، وفي «القرطبي»: ﴿غَرْقًا﴾ بمعنىٰ: إغراقاً، وإغراق النازع في القوس: أن يبلغ غاية المد حتىٰ ينتهي إلىٰ النصل. وفي «القاموس»: يقال: أغرق: إذا استوفىٰ مدها، وذلك بأن ينتهي إلى العقب الذي عند النصل الملفوف عليه، والاستغراق: الاستيعاب. ا هـ.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾؛ أي: الخارجات من برج إلى برج خروجاً، من قولهم: نشط النور إذا خرج. وفي «القاموس»: نشط ـ الدلو من باب ضرب ـ إذا نزعها بلا بكرة إذا كان متعدياً، وأما إذا كان لازماً كما هنا علىٰ هذا المعنىٰ المذكور، فهو من باب تعب. وفي «المصباح»: نشط في عمله ينشط من باب تعب خف وأسرع نشاطاً، وهو نشيط، ونشطت الحبل نشطاً من باب ضرب: عقدته بأنشوطة، والأنشوطة ـ بضم الهمزة ـ: ربطة دون العقدة، إذا مدت بأحد طرفيها انفتحت، وأنشطت الأنشوطة ـ بالألف ـ: حللتها، وأنشطت العقال: حللته، وأنشطت البعير من عقاله: أطلقته.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾﴾؛ أي: السائرات في أفلاكها سيراً هادئاً لا اضطراب فيه ولا اختلال، وقد جعل مرورها في جوائها كالسبح في الماء، كما جاء في قوله: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. وفي «المختار»: السباحة ـ بالكسر ـ: العوم، وقد سبح يسبح بالفتح، والسبح: الفراغ، والسبح أيضاً: التصرف في المعاش، وبابه:

قطع وقتل. ا هـ.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾؛ أي: المسرعات عن غيرها في سبحها، فتتم دورتها حول ما تدور عليه في مدة أسرع مما يتم غيرها؛ كالقمر، فإنه يتم دورته في شهر قمري، والشمس تتم دورتها في سنة شمسية، وهكذا غيرها من السيارات السريعة، ومنها ما لا يتم دورته إلا في سنين.

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾؛ أي: فالكواكب التي تدبر بعض الأمور الكونية في عالمنا الأرضي بظهور بعض آثارها، فسبق القمر علمنا حساب شهوره، وله الأثر العظيم في السحاب والمطر، وفي البحر من المد والجزر، ولضيائه حين امتلائه فوائد في تصريف منافع الناس والحيوان. وسبق الشمس في أبراجها علمنا حساب الشهور، وسبقها إلىٰ تتميم دورتها السنوية علمنا حساب السنين، والخلاف بين فصول السنة، واختلاف الفصول من أسباب حياة النبات والحيوان، وقد نسب إليها التدبير؛ لأنها أسباب ما نستفيده منها، والمدبر الحكيم هو الله سبحانه العزيز العليم الذي جل ذكره وعظم شأنه.

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾؛ أي: تضطرب النفخة الأولىٰ، بها يرجف كل شيء من الأجرام الساكنة؛ كالأرض والجبال، وصفت النفخة بما يحدث منها.

﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾؛ أي: النفخة الثانية، وبينهما أربعون سنة، وقيل: المعنىٰ: ﴿تَرۡجُفُ﴾؛ أي: تضطرب وتتحرك ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾؛ أي: الأرض بمن عليها.

﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾؛ أي: السماء وما فيها تردفها وتتبعها، فإنها تنشق وتنثر كواكبها. وفي «المختار»: الرجفة: الزلزلة، وقد رجفت الأرض من باب نصر. ا هـ. وفي «القرطبي»: وأصل الرجفة: الحركة، قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ﴾: وليست الرجفة ههنا من الحركة فقط، بل من قولهم: رجف الرعد يرجف رجفاً ورجيفاً أي أظهر الصوت والحركة، ومنه سميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها، وإفاضة الناس بها. ا هـ. وفي «القاموس» ردفه ـ كسمعه ونصره ـ تبعه كأردفه. ا هـ.

﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾؛ أي: شديدة الاضطراب والخوف. وفي «المختار»: وجف الشيء يجف بالكسر وجيفاً اضطرب، وقلب واجف؛ أي:

خائف. ا هـ. ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ أي ذليلة.

﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ الحافرة: الطريق التي يرجع الإنسان فيها من حيث جاء، يقال: رجع في حافرته وعلىٰ حافرته إذا رجع في طريقه التي جاء منها، وأصله: أن الإنسان إذا رجع في طريقه أثرت قدماه فيها حفراً. وقال الراغب: وقوله في الحافرة: مثل لمن يرد من حيث جاء أي أنرد إلىٰ الحياة بعد أن نموت. وقيل: الحافرة: الحياة الأولىٰ، أي: نرد إلىٰ الحياة بعد الموت. وقد ظنوها حياتهم الأولى، و ﴿فِي﴾ بمعنىٰ إلىٰ، علىٰ هذا التفسير.

﴿عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾؛ أي: بالية من نخر العظم فهو نخر وناخر، وهو البالي الأجوف الذي تمر به الريح فيسمع له نخير. ا هـ أبو السعود. وفي «المصباح»: نخر العظم نخراً ـ من باب تعب ـ بلي وتفتت، فهو نخرٌ وناخر. ا هـ ونخرة: أبلغ من ناخرة لكونها من صيغ المبالغة، أو صفة مشبهة دالة علىٰ الثبوت كما مر في مبحث التفسير.

﴿كَرَّةٌ﴾ الكر: الرجوع، والكرة: المرة من الرجوع، والجمع كرات كمرة ومرات.

﴿خَاسِرَةٌ﴾ والخاسرة: هي التي يخسر أصحابها ولا يربحون ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ والزجرة: الصيحة، والمراد بها: النفخة الثانية يبعث بها الأموات.

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ والساهرة: الأرض البيضاء المستوية، لأن السراب يجري فيها، وسميت بذلك؛ لأن شدة الخوف التي تعتري من عليها تطير النوم من أعينهم، فلا يذوقون نوماً، فهي ساهرة: أي: ساهر من عليها. قال الأشعث بن قيس:

وَسَاهِرَةٍ يَضْحَىٰ ٱلسَّرَابُ مُجَلِّلاً   لأَقْطَارِهَا قَدْ جِئْتُهَا مُتَلَثِّمَا

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ ناداه: فيه إعلال بالقلب، أصله: ناديه، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد الفتح.

﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾؛ أي: المبارك المطهر، والوادي المقدس: هو وادٍ بأسفل جبل طور سينا من برية الشام. ﴿طُوًى﴾ وادٍ بين أيلة ومصر. قرىء بالتنوين مصروفاً هنا وفي طه علىٰ أنه اسم للوادي، وأصله: طوي، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد

الفتح، وقرىء بغير تنوين علىٰ أنه اسم للبقعة أو الأرض، فلا ينصرف للعلمية والتأنيث، وعليه فيكون فيه تسمية المؤنث بمذكر؛ حيث سميت البقعة بالوادي.

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ أي: تجاوز الحد فتكبر على الله سبحانه وكفر به. ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: تتزكى وتتطهر من العيوب أصله: تتزكى بوزن تتفعل بتاءين، دخلت عليه أداة النصب ﴿أَن﴾ ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وحذفت منه إحدى التاءين، وقرىء بالتشديد أدغمت التاء الثانية في الزاي، وأما علىٰ التخفيف.. فتحذف إحدى التاءين.

﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أصله: تخشي بوزن تفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿فَأَرَىٰهُ﴾ أصله أرأيه، نقلت حركة الهمزة إلى الراء فسكنت، ثم حذفت للتخفيف، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أصله: يسعىٰ بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ أصله: نادىٰ، بوزن فاعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أصله: الأعلو من العلو، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾؛ أي: أصعب خلقاً بالنسبة لاعتقاد المخاطبين اهـ «شهاب». أصله: أشدد بوزن أفعل، نقلت حركة الدال إلى الشين فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية.

﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ أصله: بنيها، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح، والبناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بما يمسكها حتىٰ يكون منها بنية واحدة.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ والسمك: قامة كل شيء ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾؛ أي: جعل كل جزء موضوع في موضعه، أصله: سويها بوزن فعل المضعف، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾؛ أي: أظلمها. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: ونورها وضياء شمسها،

والألف فيه منقلبة عن واو، وإنما رسمت ياء؛ لأن الاسم الثلاثي المضموم الأول يجوز فيه وجان: رسمه بالألف الطويلة المنقلبة عن الواو، ورسمه بالياء.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾؛ أي: مهدها وبسطها وجعلها قابلة للسكنىٰ.

قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِيْ لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ ٱلْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالَا
دَحَاهَا فَلَمَّا ٱسْتَوَتْ شَدَّهَا بِأَيْدٍ وَأَرْسَىٰ عَلَيْهِ ٱلْجِبَالَا

وقوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ الألف فيه منقلبة عن واو، وكتبت ياء علىٰ غير قياس، أو أصلها: ياء.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾؛ أي: نباتها، أصله: مرعيها بوزن مفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢﴾ أصله: من الرسو، فقلبت الواو ياء لوقوعها رابعة، ثم قلبت ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿مَتَٰعًا﴾؛ أي: متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤﴾، أي: الداهية العظمىٰ التي تطم علىٰ الدواهي؛ أي: تغلب وتعلوه، وهي النفخة الثانية التي يكون معها البعث، قاله ابن عباس كما مر. وهي اسم فاعل من طم ككافة، وأصله: طاممة أدغمت الميم الأولىٰ في الثانية.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧﴾ أصله: طغي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: اسم مكان علىٰ وزن مفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: جلاله وعظمته، أصل خاف: خوف بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، وأصل ﴿مَقَامَ﴾: مقوم، نقلت حركة الواو إلىٰ القاف فسكن، ثم قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها الآن.

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أي زجرها وكفها عن هواها المردي لها بميلها إلى الشهوات، أصله: نهي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وقوله: ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أصله: الهوي، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، والهوى: ميل النفس إلىٰ

ما تشتهيه وتستلذه من غير داعية الشرع.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾﴾ أصله: منتهيها بوزن مفتعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح؛ أي: إن منتهىٰ علم وقت حصولها عند ربك لم يؤته أحداً من خلقه.

﴿مَن يَخْشَاهَا﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: يخشيها قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أصله: يرأيونها، نقلت حركة الهمزة إلىٰ الراء فسكنت، ثم حذفت للتخفيف، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ واللبث: الإقامة، والعشية: طرف النهار من آخره، والضحىٰ: طرفه من أوله، وأصل عشية: عشيوة بوزن فعيلة، فلام الكلمة واو اجتمعت ساكنة مع الياء فقلبت ياء، وأدغمت فيها الياء.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾﴾؛ حيث استعار ﴿السابحات﴾ للملائكة التي تسرع في نزولها من السماء إلى الأرض، أو الكواكب التي تسرع في سيرها لأنها حقيقة في الحيوانات السابحات في الماء بجامع السرعة في كل. وفيه أيضاً: التعميم بعد التخصيص لأن نزول الأولين إنما هو لقبض الأرواح مطلقاً، ونزول هؤلاء لعامة الأمور والأحوال. ا هـ من «الروح».

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾؛ لأن المدبر حقيقة هو الله سبحانه وتعالى، ففيه إسناد الشيء إلىٰ سببه.

ومنها أيضاً: الإسناد المجازي في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾، أي: النفخة الأولى: لأن النفخة كانت سبباً لرجف الأجرام الهادئة وحركتها، فجعل سبب الرجف راجفاً.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾.

ومنها: إضافة ما للشيء إلى جزئه في قوله: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾؛ حيث

أضاف الأبصار إلى ضمير القلوب أي أبصار أصحاب تلك القلوب؛ كما دل عليه قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾، وإلا فالقلوب لا أبصار لها، وإنما أضاف الأبصار إلى القلوب؛ لأنها محل الخوف وهو من صفاتها.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ حيث أسند الخشوع إلىٰ الأبصار مجازاً؛ لأن أثره يظهر فيها.

ومنها: إطلاق فاعلة علىٰ مفعولة في قوله: ﴿فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾؛ أي: إلى الحالة الأولى، وهي الحياة، يقال: رجع فلان في حافرته؛ أي: طريقته التي جاء فيها فحفرها؛ أي أثر فيها بمشيه، وتسميتها حافرة مع أنها محفورة، وإنما الحافر هو الماشي في تلك الطريقة، كقوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: مرضية، أو هو من تشبيه القابل بالفاعل، أي: في تعلق الحفر بكل منها، فأطلق اسم الثاني على الأول للمشابهة، كما يقال: صام نهاره تشبيهاً لزمان الفعل بفاعله.

ومنها: مجاز بالحذف في قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ أي: أنبعث ونرد إذا كنا عظاماً نخرة؟

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ فقد أسند الخسران للكرة، والمراد: أصحابها، وكذلك في قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أسند السهر إلىٰ الأرض البيضاء مجازاً، كما أسندوا إليها النوم في ضدها لأن السائر فيها ساهر لا ينام خوف الهلكة، فهو مجاز عقلي.

ومنها: اختيار صيغة الماضي في قوله: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ للإيذان بأن صدور هذا الكفر منهم ليس بطريق الاستمرار مثل كفرهم السابق المعبر عنه بالمضارع؛ أي: قالوا بطريق الاستهزاء بالحشر. اهـ «الروح».

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾، وبين قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾، وكذلك المقابلة بين قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾، وبين قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ الآيات.

ومنها: أسلوب التشويق في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ فإن المراد منه التشويق إلىٰ معرفة القصة.

ومنها: الطباق بين الآخرة والأولىٰ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾؛ لأن المراد كلمتاه الشنيعتان: الأولىٰ والآخرة.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ و ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾، وبين ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾؛ لأنه أطلق المرعىٰ علىٰ ما يأكله الناس، فاستعمل المرعىٰ في مطلق المأكول للإنسان وغيره، والعلاقة استعمال المقيد في المطلق، ويجوز أن يكون استعارة تصريحية؛ حيث شبه أكل الناس برعي الدواب، وإلىٰ هذا جنح الزمخشري فقال: وأراد بمرعاها: ما يأكل الناس والأنعام، واستعير الرعي للإنسان، كما استعير الرتع له في قوله تعالى: ﴿نرتع ونلعب﴾ في سورة يوسف بجامع أكل كل من الإنسان والحيوان من النبات.

ومنها: استعمال البناء في موضع السقف في قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ فإنَّ السماء سقف مرفوع، والبناء إنما يستعمل في أسافل البناء، لا في الأعالي؛ للإشارة إلىٰ أنه وإن كان سقفاً، لكنه في البعد عن الاختلال والانحلال كالبناء، فإنَّ البناء أبعد عن تطرق الاختلال إليه بالنسبة إلىٰ السقف.

ومنها: التعبير عن النهار بالضحىٰ، وهو ضوء الشمس أول النهار في قوله ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: أبرز نهارها، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها علىٰ طريقة تسمية المحل باسم أشرف ما حل فيه، فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان، وهو السر في تأخير ذكره عن ذكر الليل.

ومنها: إضافة الليل والضحىٰ إلىٰ السماء لدوران حدوثهما علىٰ حركتها، والإضافة يكفيها أدنىٰ ملابسة المضاف إليه، ويجوز أن تكون إضافة الضحىٰ إليها بواسطة الشمس، أي: أبرز ضوء شمسها بتقدير المضاف، فيكون من مجاز الحذف، والتعبير عنه بالضحى؛ لأنه وقت قيام سلطانها، وكمال إشرافها.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، فقد استعار الإرساء للساعة، وهو لا يستعمل إلا فيما له ثقل من الأجرام كالسفينة.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ فهو إما من قصر الموصوف علىٰ الصفة، فيكون المعنى: ما أنت إلا منذر لا يعلم وقتها، أو من قصر الصفة علىٰ الموصوف، فيكون المعنىٰ: ما أنت منذر إلا من يخشاها.

ومنها: تخصيص ﴿من يخشى﴾ مع أنه مبعوث إلى من يخشى ومن لا يخشى؛ لأنهم هم المنتفعون به؛ أي: لا يؤثر الإنذار إلا فيهم.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

موضوعات هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على الموضوعات التالية:

١ ـ إثبات البعث.

٢ ـ مقالة المشركين في إنكاره، والرد عليهم.

٣ ـ قصص موسىٰ مع فرعون، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ.

٤ ـ إقامة البرهان علىٰ إثبات البعث.

٥ ـ أهوال يوم القيامة.

٦ ـ الناس في هذا اليوم فريقان: سعداء وأشقياء، بحسب أعمالهم في الدنيا.

٧ ـ سؤال المشركين عن الساعة وميقاتها.

٨ ـ نهي النبي ﷺ عن البحث عنها، واشتغاله بأمرها.

٩ ـ ذهول المشركين من شدة الهول عن مقدار ما لبثوا في الدنيا[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، تم تفسير هذه السورة في تاريخ: ٢٣/ ٧/ ١٤١٦هـ.

سورة عبس

سورة عبس، وتسمى: سورة السفرة، نزلت بعد سورة النجم، وهي مكية في قول الجميع.

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة عبس بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: إحدى وأربعون، أو اثنان وأربعون آية، وكلماتها: مئة وثلاث وثلاثون كلمة. وحروفها: خمس مئة وثلاثون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في ما قبلها أنه ﷺ منذر من يخشاها، وذكر في هذه حال من ينفعه الإنذار من عباد الله المخلصين، فيسعىٰ إلىٰ الخير بنفسه، ويعمل ما يزكي نفسه ويطهر قلبه، وذكر من لا ينفعه الإنذار وهم الذين كان رسول الله ﷺ يناجيهم في أمر الإسلام: عقبة بن ربيعة وأبو جهل وأبي وأمية ابنا خلف، ويدعوهم إليه.

والقصد الأهم في التعليم وفي تبليغ الرسالة إنما هو تعليم من جاء يسعىٰ، وهو يرغب ويخشى، ومثل هذا تنفعه الذكرىٰ، فيزكىٰ من كل ما يشين خلقه، أو يمس دينه، ومثل هذا الخاشع الخاضع ينذره الرسول ﷺ ويبشره ويذكره، فيذكر ويشكر، ويصبر ويصابر حتىٰ يلقىٰ الله سبحانه وهو على ذلك.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة عبس كلها محكم إلا قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ [الآية: ١١ـ ١٢] نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [٢٩ سورة التكوير].

تسميتها: سميت بسورة عبس؛ لذكر لفظ ﴿عَبَسَ﴾ فيها.

والله أعلم

* * *

(١) النقول.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ (٢) وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ
(٤) أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ (٨) وَهُوَ
يَخۡشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ (١٣) مَّرۡفُوعَةٖ
مُّطَهَّرَةِۢ (١٤) بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ (١٥) كِرَامِۢ بَرَرَةٖ (١٦) قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (١٧) مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن
نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ
مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا (٢٥) ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا (٢٦) فَأَنۢبَتۡنَا
فِيهَا حَبّٗا (٢٧) وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا (٢٨) وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا (٣٠) وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا (٣١) مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ
وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (٣٢) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ
(٣٦) لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ (٣٧) وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ (٣٨) ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ (٣٩) وَوُجُوهٞ
يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ (٤٠) تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ (٤٢)﴾

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة وآخر ما قبلها قريباً.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢)...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] حادث ابن أم مكتوم، وعَتْبَهُ علىٰ رسله فيما كان منه معه.. أردف ذلك ببيان أن الهداية التي يسوقها الله سبحانه إلىٰ البشر علىٰ ألسنة رسوله ليست من الأمور التي يحتال لتقريرها في النفوس، وتثبيتها في القلوب، وإنما هي تذكرة يقصد بها تنبيه الغافل إلىٰ ما جبل عليه الخلق من معرفة توحيده، فمن أعرض عن ذلك.. فإنه معاند يقاوم ما يدعوه إليه حسه، وتنازعه إليه نفسه، فما عليك إلا أن تبلغ ما عرفت عن ربك لتذكر به الناس، وتنبه الغافل، أما أن تحابي القوي المعاند ظناً منك أن مداجاته ترده عن عناده.. فذلك ليس من شأنك، ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ (٩)﴾ وهذه الهداية أودعها سبحانه في

(١) المراغي.

الصحف الإلهية الشريفة القدر، المطهرة من النقائص والعيوب، وأنزلها علىٰ الناس بوساطة ملائكته الكرام البررة.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين حال القرآن، وذكر أنه كتاب الذكرىٰ والموعظة، وأن في استطاعة كل أحد أن ينتفع بعظاته لو أراد.. أردف[1] ذلك ببيان أنه لا يسوغ للإنسان مهما كثر ماله، ونبه شأنه، أن يتكبر ويتعاظم ويعطي نفسه ما تهواه، ولا يفكر في منتهاه، ولا فيمن أنعم عليه بنعمة الخلق والإيجاد، وصوَّره في أحسن الصور في أطوار مختلفة، وأشكال متعددة، ثم لا يلبث إلا قليلاً علىٰ ظهر البسيطة حتىٰ يعود إلىٰ التراب كما كان، ويوضع في لحده إلىٰ أمد قدره الله تعالىٰ في علمه، ثم يبعثه من قبره ويحاسبه علىٰ ما عمل في الدار الأولى، ويستوفي جزاءه، إن خيراً وإن شراً؛ فإما إلى الجنة، وإما إلىٰ النار، لكنه ما أكفره بنعمة ربه، وما أبعده عن اتباع أوامره واجتناب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر الدلائل علىٰ قدرته، وهي كامنة في نفس الإنسان، يراها في يومه بعد أمسه.. أردفها بذكر الآيات المنبثة في الآفاق الناطقة ببديع صنعه وباهر حكمته.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ...﴾ إلىٰ آخر السورة مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما عدد آلاءه علىٰ عباده، وذكَّرهم بإحسانه إليهم في هذه الحياة، وبين أنه لا ينبغي للعاقل بعد كل ما رأى أن يتمرد عن طاعة صاحب هذه النعم الجسام.. أعقب[2] هذا بتفصيل بعض أحوال يوم القيامة، وأهوالها التي توجب الفزع والخوف منه؛ ليدعوه ذلك إلى التأمل فيما مضىٰ من الدلائل التي ترشد إلىٰ وحدانيته وقدرته، وصحة البعث، وأخبار يوم القيامة التي جاءت علىٰ ألسنة رسله، ويتزود بصالح الأعمال التي تكون نبراساً يضيء أمامه في ظلمات هذا اليوم، وذكر أن الناس حينئذٍ فريقان: فريق ضاحك مستبشر فَرِحٌ فَرَحَ المحب يلقىٰ حبيبه، وهو من كان يعتقد الحق ويعمل للحق، وفريق تعلو وجهه الغبرة، وترهقه

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

القترة، وهو الذي تمرد علىٰ الله ورسوله، وأعرض عن قبول ما جاءه من الحق، ولم يعمل بما أمر به من صالح الأعمال.

أسباب النزول

أجمع المفسرون علىٰ أن سبب نزول هذه السورة الصحابي الجليل عبد الله ابن أم مكتوم، وهو ابن خال خديجة الكبرىٰ رضي الله عنهما، وكان أعمىٰ، وهو من المهاجرين الأولين، وقد استخلفه النبي ﷺ على المدينة أكثر من مرة يصلي بالناس، ويؤمهم في أهم ركن من أركان دينهم، وهو الصلاة المكتوبة، وكان يتولىٰ الأذان بنفسه، ولكنه كان يؤذن بعد بلال في الفجر.

وخلاصة قصته هنا: أنه رضي الله عنه أتىٰ النبي ﷺ، وهو بمكة المكرمة، وكان مع النبي ﷺ صناديد قريش، ووجوه مكة وكبراؤها، وفيهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، وكان النبي ﷺ يحدثهم حديث الإيمان، ويدعوهم إلى الإسلام، ويذكرهم بالله عزّ وجلّ، ويحذرهم بطشه وعذابه وغضبه، ويعدهم أحسن المثوبة وأجزل العطاء، وأعلى المنازل، إن هم أسلموا وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وكان النبي ﷺ راغباً في إسلامهم، حريصاً علىٰ إيمانهم؛ لأنه ﷺ علم أنه سيسلم بإسلامهم كثير من الناس؛ إذ هم سادة قريش وقادتهم، وبيدهم أمورهم، وفي حالة تحدث الرسول ﷺ معهم، ودعوتهم لهم، جاء ابن أم مكتوم، ونادى الرسولَ وهو لا يعلم تشاغله بالقول، فقال: يا رسول الله، أقرئني، وعلمني مما علمك الله تعالىٰ، وكرر ذلك مراراً، فكره الرسول ﷺ قطعه لكلامه معهم، وظهرت في وجهه الكراهة، فعبس وأعرض عن هذا الأعمى، واستمر في دعوته مع هؤلاء القوم، فنزلت هذه السورة، وفيها العتاب من رب العزة لنبيه وحبيبه محمد ﷺ علىٰ موقفه من هذا الذي جاء يزكّىٰ، ويذكر فتنفعه الذكرىٰ، وهو يخشىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ سبب نزوله[1]: ما أخرجه ابن المنذر عن عكرمة قال: نزل في عتبة بن أبي لهب حين قال: كفرنا برب النجم.

---

(١) لباب المنقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿عَبَسَ﴾ الرسول الكريم محمد ﷺ؛ أي: قطب وكلح، وغير لون وجهه، وانقبض لأجل أن جاءه الأعمى ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: أعرض بوجهه عنه لأجل ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ ولم يلتفت إليه، والضمير لمحمد ﷺ، وهو علة التولي على رأي البصريين لقربه منه، ولـ﴿عَبَسَ﴾ على رأي الكوفيين لسبقه، والمختار: مذهب البصريين؛ لعدم الإضمار في الثاني، وجاء في[1] هذه المواضع بضمائر الغائب إجلالاً له ﷺ، ولطفاً به لما في المشافهة بتاء الخطاب مما لا يخفى، وجاء بلفظ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ إشعاراً بما يناسب من الرفق به، والإصغاء لما يقصده. ا هـ «البحر».
والأعمى من اتصف بالعمى، والعمى: افتقاد البصر، ويقال في افتقاد البصيرة أيضاً، ولام[2] الأعمى للعهد، فيراد به: أعمى معروف، وهو ابن مكتوم المؤذِّن الثاني لرسول الله ﷺ في أذان الفجر، ولذلك قال ﷺ: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم». وكان من المهاجرين الأولين، استخلفه النبي ﷺ على المدينة مرتين حين خرج غازياً، وقيل: ثلاث مرات، مات بالمدينة، وقيل: شهيداً بالقادسية في خلافة عمر، وهي قرية فوق الكوفة.

واختلفوا في اسم ابن أم مكتوم، فقيل: هو عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي، وقيل: عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم من بني عامر بن هلال، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها، وأم مكتوم اسم أم أبيه كما في «الكشاف»، وقال السعدي: هو وهم، فقد نص ابن عبد البر وغيره أنها أمه، واسمها: عاتكة بنت عامر بن مخزوم.

وقد تقدم لك في أسباب النزول ما روي أن ابن أم مكتوم أتى رسول الله ﷺ، وذلك في مكة، وعنده صناديد قريش - كما مر بيان أسمائهم هناك - يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم؛ لأن عادة الناس أنه إذا مال أكابرهم إلى أمر.. مال إليه غيرهم، كما قيل: الناس على دين ملوكهم، فقال له: يا رسول الله علمني مما علمك الله أنتفع به، وكرر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله ﷺ بالقوم إذ

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

السمع لا يكفي في العلم بالتشاغل، بل لا بد من الإبصار علىٰ أنه يجوز أنهم كانوا يخفضون أصواتهم عند المكالمة، أو جاء الأعمىٰ في منقطع من الكلام، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، واشتغاله به عنه، وعبس وأعرض عنه، وأقبل علىٰ القوم الذين يكلِّمهم، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد: إنما اتبعه العميان والعبيد والسفلة، فرجع ابن أم مكتوم محزوناً خائفاً أن يكون عبوسه وإعراضه عنه إنما هو لشيء أنكره الله منه، فنزلت هذه الآيات.

فإن قيل[1]: ابن أم مكتوم قد استحق التأديب والزجر؛ لأنه وإن كان لا يرىٰ القوم، لكنه لشدة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول معهم، ويعرف بذلك شدة اهتمامه بشأنهم، فيكون إقدامه علىٰ قطع كلام رسول الله ﷺ إيذاءً له، وهو معصية، وأيضاً: الأهم مقدم علىٰ المهم؛ لأن إسلامهم سبب لإسلام جمع عظيم، فكان الاشتغال بهم، وتقدير الدلائل لهم أهم، فكيف عاتب الله تعالى رسوله على التولي عنه؟

أجيب: بأن ما فعله يوهم ظاهره تقديم الأغنياء علىٰ الفقراء، وقلة المبالاة بانكسار قلوب الفقراء، وليس ذكره بلفظ الأعمىٰ مقتضياً لتحقيره، بل لبيان عذره في الإقدام علىٰ قطع كلام رسول الله ﷺ، والدلالة علىٰ أنه أحق بالرأفة والرفق، كما مر. ا هـ «زاده».

وكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» أي: لامني مع بقاء المحبة، ويقول: «هل لك من حاجة»، ويقال: إن رسول الله ﷺ لم يغتم في عمره كغمه حين أنزلت عليه سورة عبس؛ لأن فيها عتباً شديداً علىٰ مثله؛ لأنه الحبيب الرشيد، ومع ذلك فلم يجعل ذلك بينه وبينه، فيكون أيسر للعتاب، بل كشف ذلك للمؤمنين، ونبه علىٰ فعله عباده المتقين.

ولذلك روي أن عمر بن خطاب رضي الله عنه بلغه أن بعض المنافقين يؤم قومه، فلا يقرأ فيهم إلا سورة عبس، فأرسل إليه فضرب عنقه، لما استدل بذلك علىٰ كفره، ووضع مرتبته عنده وعند قومه، قال ابن زيد: لو جاز له أن يكتم شيئاً

---

(١) زاده.

من الوحي.. لكان هذا، وكذا نحو قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾، ونحو قوله: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَبَسَ﴾ مخففاً، ﴿أَن﴾ بهمزة واحد. وقرأ زيد بن علي: ﴿عبس﴾ بتشديد الباء للمبالغة، وقرأ زيد بن علي والحسن وأبو عمران الجوني وعيسى: ﴿آن﴾ بهمزة ومدة بعدها. وقرأ بعض القراء بهمزتين مخففتين، والهمزة في هاتين القراءتين للاستفهام الإنكاري، وفيهما يوقف علىٰ ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾. والمعنىٰ: ألأن جاء الأعمىٰ كان كذا وكذا.

واعلم[2]: أنه كان ما فعله ﷺ من باب ترك الأولىٰ، فلا يعد ذنباً لأن اجتهاده ﷺ في طلب الأولى، والتعرض لعنوان عماه، مع أن ذكر الإنسان بهذا الوصف يقتضي تحقير شأنه، وهو ينافي تعظيمه المفهوم من العتاب علىٰ العبوس في وجهه؛ إما لتمهيد عذره في الإقدام علىٰ قطع كلامه ﷺ للقوم، والإيذان باستحقاقه الرفق والرأفة لا الغلظة كما مر، وإما لزيادة الإنكار، فإن أصل الإنكار حصل من دلالة المقام كأنه تولىٰ لكونه أعمىٰ، وهو لا يليق بخلقه العظيم، كما أن الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لذلك، فإن المشافهة أدخل في تشديد العتاب، كمن يشكو إلىٰ الناس جانياً جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ؛ أي: وأيُّ شيء يجعلك يا محمد دارياً وعالماً بحاله، ويطلعك على باطن أمره، حتىٰ تعرض عنه؛ أي: لا يدريك شيء، فتم الكلام عنده فيوقف عليه، وليس ما بعده مفعوله، بل هو ابتداء كلام. وقال السهيلي[3] ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: انظر كيف نزلت الآية بلفظ الإخبار عن الغائب، فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ①﴾، ولم يقل: عبست وتوليت، وهذا شبيه حال الغائب المعرض، ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب، فقال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ علماً منه تعالى أنه لم يقصد بالإعراض منه إلا الرغبة في الخير، ودخول ذلك المشرك في الإسلام، وهو الوليد، أو أمية، وكان مثله يسلم بإسلامه بشر كثير، فكلم نبيه ﷺ حين ابتداء الكلام بما يشبه كلام المعرض عنه العاتب، ثم واجهه بالخطاب تأنيساً له ﷺ بعد الإيحاش، فإنه قيل: إن ابن أم مكتوم كان قد أسلم، وتعلم ما كان يحتاج إليه

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

من أمور الدين، وأما أولئك الكفار.. فما كانوا قد أسلموا، وكان إسلامهم سبباً لإسلام جمع عظيم، فكلامه في البين سبب لقطع ذلك الخير العظيم لغرض قليل، وذلك محرم، والأهم مقدم على المهم، فثبت بهذا أن فعل ابن أم مكتوم كان ذنباً ومعصيةً، وما فعله النبي ﷺ كان واجباً، فكيف عاتبه الله سبحانه وتعالى علىٰ ذلك؟.

قيل: إن الأمر وإن كان كما ذكر، إلا أن ظاهر ما فعله الرسول ﷺ يوهم تقديم الأغنياء علىٰ الفقراء، وقلة المبالاة بانكسار قلوب الفقراء، وهو لا يليق بمنصب النبوة، لأنه ترك الأفضل، كما أشير إليه سابقاً، فلذا عاتبه الله تعالى. انتهى.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى عاتب نبيه ﷺ بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لا ينبغي أن يكون باعثاً علىٰ كراهة كلامه، والإعراض عنه لأن ذلك يورث انكسار قلوب الفقراء، وهو مطالب بتأليف قلوبهم، كما قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، وقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾. ولأنه كان ذكي الفؤاد، إذا سمع الحكمة.. وعاها، فيتطهر بها من أوضار الآثام، وتصفو بها نفسه، أو يذكر بها ويتعظ، فتنفعه العظة في مستأنف أيامه. أما أولئك الأغنياء.. فأكثرهم جحدة أغبياء، فلا ينبغي التصدي لهم طمعاً في إقبالهم علىٰ الإسلام ليتبعهم غيرهم، وقوة الإنسان إنما هي في ذكاء لبه وحياة قلبه، وإذعانه للحق متىٰ لاحت له أمارته، أما المال والنسب والحشم والأعوان.. فهي عوار تجيء وترتحل، وتقر حيناً، ثم تنتقل.

والخلاصة: أن الله سبحانه عاتب نبيه وأمره بأن يقبل علىٰ ذي العقل الذكي، ونهاه أن ينصرف عنه إلىٰ ذي الجاه القوي، فإن الأول حي بطبعه، والثاني غائب بحسه. ﴿لَعَلَّهُ﴾؛ أي: لعل ذلك الأعمى ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ بتشديدين، أصله: يتزكىٰ؛ أي: لعله يتطهر بما يسمعه منك، ويتلقاه عنك، ويقتبس منك من أوصار الآثام والأوزار

---

(١) المراغي.

بالكلية، وكلمة ﴿لعل﴾[1] مع تحقق التزكّي وارد على سنن الكبراء، فإن لعل في كلام العظماء يراد به القطع والتحقق، أو على اعتبار معنى الترجي بالنسبة إليه ﷺ للتنبيه على أن الإعراض عنه عند كونه مرجو التزكي مما لا يجوز، فكيف إذا كان مقطوعاً بالتزكي، كما في قولك: لعلك ستندم على ما فعلت، وجملة ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ مستأنفة لبيان أنَّ له شأناً ينافي الإعراض عنه، فالضمير في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ راجع للأعمى كما مر آنفاً، وقيل[2]: هو راجع إلى الكافر؛ أي: وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر، والأول أولى، قال أبو حيان: وهذا القول الأخير ينزه عنه حمل القرآن عليه.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ بتشديدين أيضاً، أصله: يتذكر، والتذكر: الاتعاظ؛ أي: أو يتعظ. ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾؛ أي: فتنفعه ذكراك وموعِظتك إن لم يبلغ درجة التزكي التام، وفي «الكشاف»: المعنى: إنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزك أو تذكر، ولو دريت لما فرط ذلك منك. انتهى.

أشار بذلك إلى أن قوله: ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ من باب التخلية من الأثام، وقوله: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ من باب التحلية ببعض الطاعات، ولهذا دخلت كلمة الترديد، فقوله: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾، عطف على ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ داخل معه في حكم الترجي، وقوله: ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ بالنصب على جواب لعل تشبيهاً له بليت، كقوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، وفيه إشارة إلى أن من تصدى لتزكيتهم وتذكيرهم من المشركين، لا يرجى منهم التزكي ولا التذكر أصلاً، وإشعار بأن اللائق بالعالم أن يقصد بتعليمه تزكية متعلمه، ولا ينظر إلى شبحه وصورته، كما ينظر العوام، وبالمتعلم أن يريد بتعلمه تزكية نفسه عن أرجاس الضلالة، وتطهير قلبه من أدناس الجهالة، لا أحكام الدنيا الدنية.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ بتشديد الذال والكاف، وأصله يتذكر ـ كما مر ـ فأدغم. وقرأ الأعرج وعاصم في رواية: ﴿أو يذكر﴾ بسكون الذال وضم الكاف.

وقرأ الجمهور ﴿فَتَنْفَعُهُ﴾ برفع العين، عطفاً على ﴿أو يذكرُ﴾. وقرأ عاصم في المشهور والأعرج وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني بنصبهما. ثم ذكر أن أمره

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

مع الحاضرين في مجلسه انحصر في شيئين:

١ - ﴿أَمَّا﴾ للتفصيل ﴿من استغنى﴾ عن الإيمان، وعما عندك من العلوم والمعارف التي ينطوي عليها القرآن ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ بحذف إحدى التائين تخفيفاً، أي: فأنت له تتصدىٰ وتتهيأ له وتتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده واستصلاحه دون الأعمى، وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال علىٰ المدبر ليس من شيم الكرام، والتصدي للشيء التعرض له والتقيد به، والاهتمام بشأنه، وضده الشاغل عنه. وفي «المفردات»: التصدي: أن يقابل الشيء مقابلة الصدىٰ؛ أي: الصوت الراجع من الجبال، وفي «كشف الأسرار»: التصدي: التعرض للشيء علىٰ حرص كتعرض الصديان للماء؛ أي: العطشان، وعن بعضهم: أصل تصدى تصدد من الصدد، وهو ما استقبلك وجاء قبالتك، فأبدل أحد الأمثال حرف علة.

والمعنىٰ: أي أما من استغنى بماله وقوته عن الإيمان، وعما عندك من المعارف التي يشتمل عليها الكتاب المنزل عليك، فأنت تقبل عليه حرصاً علىٰ إسلامه، ومزيد الرغبة في إيمانه ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾؛ أي: وليس عليك بأس ووزر ووبال في ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾؛ أي: في أن لا يتزكىٰ ذلك المستغني عن الإسلام حتىٰ تهتم بأمره، وتعرض عمن أسلم، إن عليك إلا البلاغ، وكيف تحرص على إسلام من ليس له قابلية، وقد خلق علىٰ حب الدنيا، والعمىٰ عن الآخرة، وفيه استهانة لمن أعرض عنه، وتحقير لأمره، وحض على الإعراض عنه، وترك الاهتمام به.

﴿فَمَا﴾ نافية، وكلمة في المقدرة متعلقة باسم ﴿ما﴾، وهو محذوف، والجملة حال من ضمير ﴿تَصَدَّىٰ﴾ مقررة لجهة الإنكار، ويجوز أن تكون ﴿مَآ﴾ استفهامية؛ أي: أي شيء عليك في أن لا يسلم ولا يهتدي، فإنه ليس عليك إلا البلاغ.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة والأعرج وعيسىٰ والأعمش وجمهور السبعة: ﴿تَصَدَّىٰ﴾ بتخفيف الصاد، وأصله: تتصدى، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، وقرأ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

الحرميان نافع وابن كثير بتشديدها، أدغمت التاء في الصاد. وقرأ أبو جعفر: ﴿تصدى﴾ بضم التاء وتخفيف الصاد؛ أي: يصديك حرصك علىٰ إسلامه، يقال: تصدى الرجل وصديته.

وحاصل المعنىٰ: أي وإن الذي استغنىٰ عن الإيمان بالله، وعن طاعته وطاعة رسوله، واستغنى بماله وجاهه عن قبول الحق، وعن استماع النصيحة، وعن سماع القرآن، فأنت تتعرض له، وتشغل نفسك بوعظه والإقبال عليه، مع أنك رسول مبلغ، وما عليك إلا البلاغ، وقد أديت ما يجب عليك، فإن كان المغرور قد ظن في ماله غنىٰ عن هداية الله تعالىٰ، ورضي لنفسه أن يبقىٰ في دنس الكفر، فما عليك عيب في بقائه كذلك، فما بالك يشتد عليك الحرص علىٰ إسلامه.

وقصارىٰ ذلك: لا يبلغن بك الحرص علىٰ إسلامهم، والاشتغال بدعوتهم أن تعرض عن الذين سبقت لهم منا الحسنىٰ.

٢ - ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ﴾ حال كونه ﴿يَسْعَىٰ﴾ ويمشي بسرعة في أمر دينه؛ أي: حال كونه مسرعاً طالباً لما عندك من أحكام الرشد، وخصال الخير، ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أنه ﴿يَخْشَىٰ﴾ الله سبحانه وتعالى، أو يخشىٰ الكفار وأذاهم بإتيانك، أو يخاف العثار والسقوط؛ لكونه أعمىٰ، وقد جاء بلا قائد يقوده. قال سعدي[(١)] المفتي الظاهر أن النظم من الاحتباك، ذكر الغنى أولاً للدلالة علىٰ الفقر ثانياً، وذكر المجيء والخشية ثانياً للدلالة علىٰ ضدهما أولاً ﴿فَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَنْهُ﴾؛ أي: ذلك الجائي الخاشي ﴿تَلَهَّىٰ﴾ بحذف إحدى التاءين تخفيفاً؛ أي: تتهلىٰ[(٢)] وتتشاغل من لهي عن الشيء - بكسر الهاء بوزن رضي - يلهى لهياً: أعرض عنه، لا من لهوت بالشيء بالفتح ألهو لهواً إذا لعبت به؛ لأن الفعل مسند إلىٰ ضمير النبي ﷺ، ولا يليق بشأنه الرفيع أن ينسب إليه التفعل من اللهو بخلاف الاشتغال عن الشيء لمصلحة، وفي بعض التفاسير: ولو أخذ من اللهو، وجعل التشاغل بأهل التغافل من جنس اللهو واللعب؛ لكونه عبثاً لا يترتب عليه نفع لم يخل عن وجه. انتهى.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وفيه أنه يلزم منه أن يكون الاشتغال بالدعوة عبثاً، ولا يقول به المؤمن، وذلك لأنه لا يجوز للنبي ﷺ التشاغل بأهل التغافل إلا بطريق التبليغ والإرشاد، فكيف لا يترتب عليه نفع، وفي تقديم ضميره ﷺ، وهو ﴿أنت﴾ علىٰ الفعلين تنبيه علىٰ أن مناط الإنكار خصوصيته ﷺ؛ أي: مثلك خصوصاً لا ينبغي أن يتصدىٰ للمستغني، ويتلهىٰ عن الفقير الطالب للخير، وفي تقديم ﴿لَهُۥ﴾ و ﴿عَنْهُ﴾ للتعريض باهتمامه ﷺ بمضمونهما تنبيه؛ حيث أفادت القصة أن العبرة بالأرواح والأحوال، لا بالأشباح والأموال، والعزيز: من أعزه الله بالإيمان والطاعة، وإن كان بين الناس ذليلاً، والذليل: من أذله الله بالكفر والمعصية، وإن كان بين الناس عزيزاً.

روي: أنه ﷺ ما عبس بعد ذلك في وجه فقير قط، ولا تصدىٰ لغني، وكان الفقراء في مجلسه ﷺ أمراء، يعني: كان يحترمهم كل الاحترام، وفيه تأديب للصغير بالكبير، فحملة العلم والشرع والحكام مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير، وتقديمه علىٰ الشريف العاري عن الخير بمثل ما خوطب به النبي ﷺ في هذه السورة، وقرأ الجمهور: ﴿تَلَهَّىٰ﴾ والبزي عن ابن كثير: ﴿عنه تلهى﴾ بإدغام تاء المضارعة في تاء تفعل، وأبو جعفر بضمها مبنياً للمفعول؛ أي: يشغلك دعاء الكافر للإسلام، وطلحة بتاءين، وعنه: بتاء واحدة وسكون اللام. ا هـ من «البحر».

وخلاصة المعنىٰ: أي وأما من جاءك مسرعاً في طلب الهداية، والقرب من ربه، وهو يخشاه، ويحذر الوقوع في الغواية، فأنت تتهلىٰ عنه، وتتغافل عن إجابته إلىٰ مطلبه.

وقوله: ﴿كَلَّآ﴾ ردع[1] له ﷺ عما عوتب عليه؛ أي: لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير، والتصدي للغني، والتشاغل به مع كونه ليس ممن يتزكىٰ عن إرشاد من جاءك من أهل التزكي والقبول للموعظة، وهذا الواقع من النبي ﷺ هو من باب ترك الأولىٰ والأفضل، فأرشده الله سبحانه إلىٰ ما هو الأولىٰ به.

---

(١) الشوكاني.

والمعنىٰ: أي انزجر عن التصدي للمستغني، والإعراض عن إرشاد المسترشد. قال الحسن: لما تلا جبريل هذه الآيات علىٰ النبي ﷺ.. عاد وجهه كأنما استعب فيه الرماد؛ أي: تغير كأنما ذر عليه الرماد، ينتظر ما يحكم الله عليه، فلما قال: ﴿كَلَّآ﴾ سري عنه؛ أي: لا تفعل مثل ذلك فإنه غير لائق بك ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي إن هذه الآيات أو السورة أو القرآن، والتأنيث باعتبار الخبر، وهو قوله: ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾؛ أي: موعظة حقها أن تتعظ بها، وتقبلها، وتعمل بموجبها، ويعمل بها كل أمتك.

والمعنىٰ: أي ليس الأمر كما تعمل أيها الرسول بأن تعبس في وجه من جاءك يسعىٰ وهو يخشىٰ، وتقبل علىٰ من استغنى، بل الهداية المودعة في الكتب الإلهية، وأجلها القرآن تذكير ووعظ وتنبيه لمن غافل عن آيات ربه.

وقد وصف سبحانه تلك التذكرة بأوصاف تدل علىٰ مالها من عظيم الشأن، فقال:

١ ـ ﴿فَمَن شَآءَ﴾؛ أي؛ فمن رغب فيها ﴿ذَكَرَهُۥ﴾؛ أي: القرآن؛ أي: حفظه، ولم ينسه، وعمل بموجبه؛ أي: فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة إلىٰ الاهتمام بأمره، قيل[1]: الضميران في ﴿إِنَّهَا﴾، وفي ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ للقرآن، وتأنيث الأول لتأنيث خبره، وقيل: الأول للسورة أو للآيات السابقة، والثاني: للتذكرة؛ لأنها في معنى الذكر، وقيل: إن معنىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتىٰ يذكره ويتعظ به، والأول أولىٰ.

وحاصل المعنى: أي إن التذكرة بينة ظاهرة، فلو أن إنساناً أراد أن يتدبرها ويتفهم معناها، ويتعظ بها، ويعمل بموجبها لقدر علىٰ ذلك واستطاعه، ولا يمنعه عن الاهتداء بها إلا عدم المشيئة عناداً واستكباراً، ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة وجلالتها، فقال:

٢ ـ ﴿فِي صُحُفٖ﴾: إنها تذكرة كائنة في صحف جمع صحيفة، وكل مكتوب عند العرب صحيفة، فالجار[2] والمجرور متعلق بمحذوف، وهو صفة لـ ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾، وما

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف، جيء به للترغيب فيها، والحث علىٰ حفظها؛ أي: إنها تذكرة كائنة في صحف منتسخة من اللوح، أو خبر ثانٍ لـ ﴿إن﴾، فالجملة معترضة بين الخبرين. ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾: صفة لـ ﴿صُحُفٍ﴾؛ أي: مكرمة مشرفة عند الله تعالىٰ لما فيها من العلم والحكمة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ، وقيل: صحف القرآن المكرم؛ لأن الصحف يطلق علىٰ كتب الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾. ومعنى: ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر والذكر عند الله تعالى، فإنها في المشهور موضوعة في السماء الدنيا في مكان يقال له: بيت العزة، وقيل: مرفوعة في السماء السابعة. قال الواحدي[١]: قال المفسرون ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ يعني: اللوح المحفوظ ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ يعني: في السماء السابعة. وقال ابن جرير: مرفوعة القدر والذكر، وقيل: مرفوعة عن الشبهة والتناقض ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾؛ أي: منزهة عن مساس أيدي الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون، وفيه: أن الصحف بأيدي الملائكة في السماء الدنيا، والشياطين لا يصلون إلى السماء، فلا يظهر مدح الصحف بتطهرها عن مسهم. وقال الحسن: مطهرة من كل دنس ونقص. وقال السدي: مصانة من الكفار لا ينالونها.

والظاهر[٢]: أن الجار والمجرور في قوله: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ صفة لـ ﴿صُحُفٍ﴾؛ أي: في صحف كائنة بأيدي سفرة، أو مكتوبة بأيدي كتبة من الملائكة ينتسخونها من اللوح المحفوظ، ومن هذا[٣] وقف بعضهم علىٰ ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ وقفاً لازماً هرباً من توهم تعلق الباء به، وقيل: الباء متعلقة بـ ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾. قال القفال في توجيهه: لما لم يمسها إلا الملائكة المطهرون. . أضيف التطهير إليها لطهارة من يمسها، وقال القرطبي: إن المراد بقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾: هؤلاء السفرة الكرام البررة، و﴿السفرة﴾: جمع سافر، ككتبة وكاتب، من السفر، وهو الكتب؛ إذ في الكتابة معنىٰ السفر؛ أي: الكشف والتوضيح، والكاتب سافر؛ لأنه يبين الشيء ويوضحه، وسمي السفر بفتحتين سفراً؛ لأنه يسفر ويكشف عن أخلاق المرء، قالوا: وهذه اللفظة مختصة بالملائكة، لا تكاد تطلق علىٰ غيرهم، وإن جاز الإطلاق بحسب اللغة.

وقال الفراء: السفرة هنا: الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله تعالىٰ

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

ورسله من السفارة، وهو السعي بين القوم ﴿كِرَامٍ﴾ عند الله تعالىٰ بالقرب والشرف، فهو من الكرامة جمع كريم، أو متعطفين علىٰ المؤمنين يستغفرون لهم، فهو من الكرم ضد اللؤم. وقال ابن عطاء رحمه الله: يريد أنهم يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا مع زوجته للجماع، وعند قضاء الحاجة، يشير إلىٰ أنهم هم الملائكة الموصوفون بقوله: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾، وفيه تأمل. ﴿بَرَرَةٍ﴾؛ أي: أتقياء مطيعين لربهم، صادقين في إيمانهم، من بر في يمينه جمع بار، مثل: فجرة وفاجر، وكفرة وكافر.

وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء[1] عليه بأشنع الدعوات، فإن القتل غاية شدائد الدنيا وأفظعها، ومن فسر القتل باللعن.. أراد به الإهلاك الروحاني، فإنه أشد العقوبات؛ أي: لعن الإنسان الكافر، وفي «عين المعاني»: عذب، والمراد به: عتبة بن أبي لهب، وقيل: المراد بالإنسان من تقدم ذكره في قوله: أما من استغنىٰ، وقيل: المراد به: الجنس، وهذا هو الأولى، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر، ويدخل تحته من كان سبباً لنزول الآية دخولاً أولياً ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؛ أي: ما أشد كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه، وهذا تعجب من إفراطه في الكفران؛ أي: على صورته، فإن حقيقة التعجب إنما تتصور من الجاهل بسبب ما خفي عليه من سبب الشيء، والذي أحاط علمه بجميع المعلومات لا يتصور منه ذلك، فهو في الحقيقة تعجيب من الله وبيان لاستحقاقه للدعاء عليه؛ أي: اعجبوا من كفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه، وادعوا عليه بالقتل واللعن ونحو ذلك لاستحقاقه لذلك، قال بعضهم: لعن الله الكافر، وعظم كفره؛ حيث لم يعرف صانعه، ولم يعرف نفسه التي لو عرفها.. عرف صانعها.

وقال ابن الشيخ: هذا الدعاء وارد علىٰ أسلوب كلام العرب، فهو ليس من قبيل دعاء من يعجز عن انتقام من يسؤوه، وكذا هذا التعجب ليس علىٰ حقيقته؛ لأنه تعالى منزه عن العجز والجهل، بل المقصود بإيراد ما هو في صورة الدعاء: الدلالة علىٰ سخطه العظيم، والتنبيه علىٰ أنه استحق أهوال العقوبات وأشنعها، وبإيراد صيغة التعجب الذم البليغ له من حيث ارتكابه أقبح القبائح، ولا شك أن السخط يجوز من الله، وكذا الذم.

---

(١) الشوكاني.

ويجوز[1] أن يكون ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ استفهاماً بمعنىٰ: التقريع والتوبيخ؛ أي: أيُّ شيء حمله على الكفر، ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغي لهذا الكافر أن ينظر فيه حتىٰ ينزجر عن كفره، ويكف عن طغيانه، فقال: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: من أيِّ شيء خلق الله هذا الكافر، والاستفهام للتقرير، ثم فسر ذلك فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾: أي: من نطفة قذرة أنشأه وأوجده، فمن كان أصله مثل هذا الشيء الحقير. كيف يليق به التكبر والتجبر والكفران بحق المنعم الذي كسا ذلك الحقير بمثل هذه الصورة البهية وهذا تحقير له. قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتين. وعن بعضهم: كيف تكبر الإنسان وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بين الوقتين حمال عذرة.

ومعنىٰ: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾؛ أي: فسواه وهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال، فخلق له اليدين والرجلين[2] والعينين، وسائر الآلات والحواس؛ أي: أحدثه بمقدر معلوم من الأعضاء والأشكال والكمية والكيفية، فجعله مستعداً لأن ينتهي فيه إلى القدر اللائق بمصلحته، فلا يلزم عطف الشيء علىٰ نفسه، وذلك أن خلق الشيء أيضاً تقديره وإحداثه بمقدار معلوم من الكمية والكيفية. وقيل: أطواراً من حال إلىٰ حال، نطفةً ثم علقة إلىٰ أن تم خلقه، فالتقدير المفرع علىٰ الخلق مأخوذ من القدر بمعنىٰ الطور؛ أي: أوجده علىٰ التقدير الأول، ثم جعله ذا طور من علقة مضغة إلىٰ آخر أطواره ذكراً أو أنثىٰ، شقياً أو سعيداً. قال بعضهم: وعلىٰ الوجهين، فالفاء للتفصيل فإن التقدير يتضمنه علىٰ المعنيين.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ منصوب[3] علىٰ الاشتغال بفعل محذوف يفسره المذكور تقديره: ثم يسر السبيل يسره؛ أي: سهل مخرجه من البطن بأن فتح فم الرحم، وكان غير مفتوح قبل الولادة، وألهمه أن ينتكس بأن ينقلب ويصير رجله من فوق، ورأسه من تحت، ولولا ذلك لا يمكنها أن تلد، أو يسر له سبيل الخير والشر في الدين، ومكنه من السلوك فيهما، كما قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾، وذلك بالإقدار والتعريف له بما هو نافع وضار، وبالعقل وبعثة الأنبياء، وإنزال الكتب، ونحو ذلك. وتعريف السبيل باللام دون الإضافة بأن يقال: سبيله للإشعار بعمومه؛

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

لأنه عام للإنس والجن علىٰ المعنى الثاني، وللحيوانات أيضاً علىٰ المعنى الأول، قال ابن عطاء: يسر علىٰ من قدر التوفيق طلب رشده، واتباع نجاته. وقال أبو بكر بن طاهر: يسر علىٰ كل أحد ما خلقه له وقدره عليه.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾؛ أي: قبض روحه عند تمام أجله المقدر المسمىٰ ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾؛ أي: جعله في قبر يواریٰ فيه تكرمة له، ولم يدعه مطروحاً علىٰ وجه الأرض جزراً؛ أي: قطعاً للسباع والطير كسائر الحيوان. قال في «كشف الأسرار»: لم يجعله مما يطرح للسباع، أو يلقىٰ للنواويس، والقبر مما يكرم به المسلمون. انتهىٰ. يقال: قبر الميت إذا دفنه بيده، والقابر: هو الدافن، ومنه قول الأعشى:

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلَىٰ صَدْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَىٰ قَابِرِ

والقبر: هو مقر الميت، وأقبره إذا أمر بدفنه، أو مكن منه. فالمقبر هو الله سبحانه؛ لأنه الآمر بالدفن في القبور. قال في «المفردات»: أقبرته جعلت له مكاناً يقبر فيه، نحو: أسقيته جعلت له ماء يستقي منه. وقيل: معناه: ألهم كيف يدفن. انتهى.

وعد الإماتة من النعم بالنسبة إلىٰ المؤمن(١)، فإن بالموت يتخلص من سجن الدنيا، وأيضاً إن شأن الموت أن يكون تحفة ووصلة إلىٰ الحياة الأبدية، والنعيم المقيم، وإنما كان مفتاح كل بلاء ومحنة في حق الكافر من سوء اعتقاده وسيئات أعماله.

وفي بعض التفاسير: ذكر الإماتة؛ إما لأنها مقدمة الإقبار، وإما للتخويف والتذكير بأن الحياة الدنيوية فانية آخرها الموت. وعن الشافعي رحمه الله تعالى:

فَلَا تَمْشِيَنْ فِيْ مَنْكِبِ ٱلْأَرْضِ فَاخِرَاً فَعَمَّا قَلِيْلٍ يَحْتَوِيْكَ تُرَابُهَا

وإما للحث علىٰ الاستعداد، وإما لرعاية المقابلة بينه وبين ﴿أنشره﴾ تنبيهاً علىٰ كمال قدرت، وتمام حكمته. ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ﴾ سبحانه وتعالى إنشاره وإحياءه وبعثه ﴿أَنشَرَهُۥ﴾ وأحياه وبعثه؛ أي: وإذا جاء الوقت الذي شاء الله تعالى، وهو يوم القيامة أنشره، وفي تعليق(٢) الإنشار بمشيئته له إيذانٌ بأن وقته غير متعين في نفسه، بل هو

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

تابع لها، بخلاف وقت الموت، فإنا نجزم بأن أحداً من أبناء الزمان لا يتجاوز مئة وخمسين سنة مثلاً، وليس لأحد مثل هذا الجزم في النشور، هكذا قالوا.

وفيه: إن الموت أيضاً له سن معلوم، وأجل محدود، فكيف يتعين في نفسه، ويجزم بوقوعه في سن كذا؛ بحيث لا يكون موكولاً إلىٰ مجرد مشيئته تعالىٰ، ولعل تقييد الإنشار بالمشيئة لا ينافي تقييد الموت بها أيضاً؛ إذ لا يجري عليه تعالىٰ زمان، وإنه من مقدمات القيامة، ولذا قال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»، أي: لاتصال زمان الموت بزمان القيامة، فهو قيامة صغرىٰ مجهولة؛ كالقيامة الكبرى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَنشَرَهُۥ﴾ بالألف، وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة ﴿نشره﴾ بغير ألف، وهما لغتان فصيحتان.

والمعنىٰ[2]: أي ثم قبض روحه، ولم يتركه مطروحاً علىٰ الأرض جزراً للسباع، بل تفضل عليه في غريزة نوعه أن يوارىٰ ميته تكرمةً له، ثم إذا شاء بعثه بعد موته للحساب والجزاء في الوقت الذي قدره في علمه. وفي قوله: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ إشعارٌ[3] بأن وقت الساعة لا يعلمه إلا هو، فهو الذي استأثر بعلمه، وهوالقادر علىٰ تقديمه وتأخيره، وهو القاهر فوق عباده، وذو السلطان عليهم في إحيائهم وإماتتهم، وبعثهم وحشرهم، وحسابهم على ما قدموا من عمل خيراً كان أو شراً، ثم أكد كفرانه بالنعم، فقال: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر للإنسان الكافر عما هو عليه؛ أي: ليس الأمر كما يقول الكافر المستغني، فلينزجر وليرتدع عما هو عليه من الكفران والعصيان لربه. والوقف علىٰ ﴿كَلَّا﴾ حيئنذ. وفي «الخازن»: ﴿كَلَّا﴾: ردع وزجر للإنسان عما هو عليه من التكبر والتجبر والترفع والإصرار علىٰ إنكار التوحيد، وإنكار البعث والحساب. اهـ.

وقوله: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ بيان[4] لسبب الردع والزجر، كما في «أبي السعود»؛ أي: لم يفعل الإنسان المذكور من أول مدة تكليفه إلىٰ حين إقباره ما أمره الله به مما فرضه الله عليه من الإيمان والطاعة، ولم يؤد ولم يعرف ولم يعمل به،

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) الفتوحات.

وعدم[1] القضاء محمول على عموم النفي؛ إما علىٰ أن المحكوم عليه هو المستغني، أو هو الجنس، لكن لا علىٰ الإطلاق، بل علىٰ أن مصداق الحكم بعدم القضاء بعض أفراده، وقد أسند إلىٰ الكل، فلا شياع في اللوم بحكم المجانسة، وإما علىٰ أن مصداقه الكل من حيث هو كل بطريق رفع الإيجاب الكلي دون السلب الكلي، فالمعنىٰ: لم يقض جميع أفراده ما أمره، بل أخل به بعضها بالكفر، وبعضها بالعصيان، وما قضى ما أمره إلا القليل، مع أن مقتضىٰ ما فصل من فنون النعماء الشامل للكل أن لا يتخلف عنه أحد أصلاً.

وقال الحسن: حقاً لم يفعل ما أمره به، فـ﴿كَلَّا﴾: بمعنىٰ: حقاً. قال ابن الأنباري: فالوقف على ﴿كَلَّا﴾ حينئذٍ قبيح، فيكون ﴿كَلَّا﴾ تابعاً لما بعده، فالوقف علىٰ ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾ حينئذٍ. وقال بعض أهل التفاسير: ﴿ما﴾ في قوله: ﴿لَمَّا﴾ صلة دخلت للتأكيد، كقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فـ ﴿لَمَّا﴾ بمعنىٰ: لم، وليس فيه معنىٰ التوقع. و ﴿مَآ﴾ في ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾ موصولة، وعائدها يجوز أن يكون محذوفاً، والتقدير: ما أمره به، فحذف الجار أولاً، فبقي ما أمره هو، ثم حذف الهاء العائد ثانياً، ويجوز أن يكون باقياً علىٰ أن المحذوف من الهاءين هو العائد إلى الإنسان، والباقي هو العائد إلىٰ الموصول، فاعرف وقس عليه أمثاله.

وحاصل معنى الآية: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي[2]: حقاً أن حال الإنسان لتدعو إلىٰ العجب، فإنه بعد أن رأىٰ في نفسه مما عددناه من عظيم الآيات، وشاهد من جلائل الآثار ما يحرك الأنظار، ويسير بها إلىٰ صواب الآراء، وصحيح الأفكار لم يقض ما أمره به ربه من التأمل في دلائل قدرته، والتدبر في معالم هذا الكون المنبئة بوحدانية خالقه، الناطقة بأن لها موجداً يستحق أن يقصده وحده دون سواه، ويتوجه إليه بالعبادة والامتثال إلىٰ ما يأمره به.

والخلاصة[3]: أن الإنسان قد بلغ في جحده آيات خالقه مبلغاً لا ينتهي منه العجب؛ إذ قد رأىٰ في نفسه، وفي السموات والأرض، وسائر ما يحيط به من العوالم الآيات الناطقة بوحدانية الخالق الدالة علىٰ عظيم قدرته، ثم لا يزال مستمراً في نكران نعمته عليه، فإذا ذكر لا يتذكر، وإذا أرشد إلىٰ الهدى لم يسلك سبيله

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) المراغي.

الأقوم، ولا يزال يرتكب ما نهي عنه، ويترك ما أمر به.

ثم شرع سبحانه في تعداد نعمه علىٰ عباده ليشكروها، وينزجروا عن كفرانها بعد ذكر النعم المتعلِّقة بحدوثه، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: فلينظر كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعد بها للسعادة الأخروية. قال مجاهد: معناه: فلينظر الإنسان إلىٰ طعامه؛ أي: إلى مدخله ومخرجه، والأول أولىٰ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فلينظر الإنسان إلىٰ طعامه؛ ليعلم خسة قدره وفناء عمره. وفي الحديث: «إن مطعم ابن آدم جعله الله مثلاً للدنيا، وإن قَزَحه ومَلَحه، فانظر إلى ماذا يصير». يقال: قزح القدر: جعل التابل فيها، وهو كصاحب وهاجر، إبراز الطعام، وملحها: جعل الملح فيها.

والمعنىٰ: أي فليتدبر الإنسان شأن نفسه، وليفكر في أمر طعامه وتدبيره وتهيئته حتى يكون غذاءً صالحاً تقوم به بنيته، ويجد في تناوله لذة تدفعه إليه ليحفظ بذلك قوته مدى الحياة التي قدرت له، وقد فصل ذلك بقوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ وأنزلنا ﴿ٱلْمَآءَ﴾؛ أي: الغيث: وهو المطر المحتاج إليه من السحاب ﴿صَبًّا﴾ عجيباً وإنزالاً وافياً، بعد أن بقي حيناً في جو السماء مع ثقله.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إنا﴾ بكسر الهمزة علىٰ الاستئناف في ذكر تعداد أسباب الوصول إلىٰ الطعام. وقرأ الكوفيون والأعرج وابن وثاب والأعمش ورويس عن يعقوب ﴿أَنَّا﴾ بفتحها علىٰ أنه بدل من طعامه بدل الاشتمال؛ لكون نزول المطر سبباً لحصول الطعام، فهو كالمشتمل عليه، فالثاني مشتمل علىٰ الأوّل؛ إذ لا يلزم فيه أن يكون المبدل منه مشتملاً علىٰ البدل، فحينئذٍ العائد محذوف، والتقدير: أنا صببنا له الماء.

والمعنىٰ عليه: فلينظر الإنسان إلىٰ أنا صببنا الماء صباً.

وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما[2]: ﴿أنى﴾ بالفتح، والإمالة علىٰ معنىٰ: فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر ﴿شَقًّا﴾ بديعاً لائقاً

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

بما يخرج منه في الصغر والكبر والشكل والهيئة، مشاهداً مرئياً لمن نظر إليها بعد أن كانت متماسكة الأجزاء، وقد اقتضت حكمته ذلك ليدخل الهواء والضياء في جوفها، ويهيئها لتغذية النبات، وقيل: المراد بالشق: شق الفلاح بما جرت العادة أن يشق به، ولما كان الشق بعد الصب.. أورد كلمة ﴿ثُمَّ﴾ ثم بين سبب هذا الشق، وما وقع لأجله، وذكر ثمانية أنواع من النبات، فقال: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض المشقوقة بالنبات، والفاء للتعقيب.

١ ـ ﴿حَبًّا﴾: فإن انشقاق الأرض بالنبات لا يزال يتزايد ويتسع إلىٰ أن يتكامل النمو وينعقد الحب، والحب: كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما، وهو جنس الحبة؛ كالتمر والتمرة، فيشمل القليل والكثير، قدمه علىٰ ما بعده؛ لأنه الأصل في الغذاء.

وقوله:

٢ ـ ﴿وَعِنَبًا﴾ معطوف على ﴿حَبًّا﴾؛ أي: وأنبتنا فيها عنباً، قيل: وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه، فلا ضير في خلو إنبات العنب عن شق الأرض، وكذا في أمثاله كذا قال في «الإرشاد»؛ ولعل شق الأرض فيه باعتبار أصله أول خروجه منها، فإن المراد هنا: شجرة العنب، وإنما ذكره والزيتون باسم الثمرة؛ لشهرتهما بها، ووقوع كل منهما بعدما يؤكل نفسه. فاعرف.

وأفرد العنب بالذكر من بين الثمار؛ لأنه فاكهة من وجه يتلذذ به، وطعام يتغذىٰ به، وهو من أصلح الأغذية.

٣ ـ ﴿وَقَضۡبًا﴾ أي: وَ قَتّاً رطباً، والقضب: هو القتُّ الرطب الذي يقضب؛ أي: يقطع مرة بعد أخرى تعلف به الدواب، ويقال له: الفصفصة، سميت بمصدر قضبه؛ أي: قطعه، مبالغة كأنها لتكرر قطعها وتكثره إذا تقضب مرة بعد أخرى في السنة نفس القطع.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنه الرطب التي تقضب من النخل، ورجحه

---

(١) روح البيان.

بعضهم لمناسبته بالعنب، وقال بعضهم: هو مثل النعناع والطرخون والكراث وغيرها، التي يقطع ساقها من أصلها، يعني: للأكل، وقال بعضهم: هو القت الرطب، أفرده بالذكر تنبيهاً علىٰ اختلاف النباتات، وأن منها ما إذا قطع عاد، ومنها ما لا يعود، والقت: حب الغاسول، وهو الأشنان. وقيل: هو حب يابس أسود يدفن فيلين قشره ويطحن ويخبز بفتاته أعراب طيء، وقال بعضهم: هو ما يؤكل رطباً كالبطيخ والخيار والباذنجان والدباء. وقال الخليل: القضب: الفصفصة الرطبة، فإذا يبست فهي القت. قال في «الصحاح»: والقضبة والقضب: الرطبة. قال: والموضع الذي ينبت فيه: مقضبة.

٤ ـ ﴿وَزَيۡتُونٗا﴾: وهو ما يعصر منه الزيت، والمراد: شجرته، وتعمر ثلاثة آلاف سنة، خصه بالذكر لكثرة فوائده خصوصاً لأهالي بلاد العرب، فإنهم ينتفعون به أكلاً وادهاناً، واستضاءة وتطهراً، فإنه يجعل في الصابون، وكان ﷺ يتطيب به في بعض الأوقات.

٥ ـ ﴿وَنَخۡلٗا﴾: هو شجر التمر جمع نخلة، والرطب والتمر من أنفع الغذاء، وفي العجوة منه خاصية دفع السم والسحر، كما في الحديث، وشجرته قيل: من فضلة طينة آدم عليه السلام، كما سبق مفصلاً.

٦ ـ ﴿وَحَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة، وهي البستان من النخل والشجر، أو الروضة ذات الأشجار، أو كل ما أحاط به البناء، أو القطعة من النخل كما في «القاموس»، وهي هنا: من قبيل التعميم بعد التخصيص، وقوله: ﴿غُلۡبٗا﴾ صفة لـ ﴿حَدَآئِقَ﴾؛ أي: عظام الأشجار غلاظها. وقال مجاهد ومقاتل: الغلب الملتف بعضها إلى بعض، وهو جمع أغلب كحمر جمع أحمر أو حمراء، مستعار من وصف الرقاب، يقال رجل أغلب، وأسد أغلب؛ أي: غليظ العنق.

والمعنىٰ[1]: أي وبساتين ذات أشجار ضخمة مثمرة ذات حوائط تحيط بها، وعظم الحدائق؛ إما بالتفاف أشجارها وكثرتها، وإما بعظم كل شجرة وغلظها وكبرها، وفي ذكرها بهذا الوصف إيماء إلىٰ أن النعمة في الأشجار بجملتها،

---

(١) المراغي.

وليست في ثمرها خاصة، فمن خشبها يتخذ أرقىٰ أنواع الأثاث، وأدوات العمل وآلاته لمختلف الحرف والصناعات، وكذا الوقود لتدبير الطعام، والخبز علىٰ ضروب شتىٰ، وتستعمل في صهر الحديد وأنواع المعادن المختلفة، وفي «كشف الأسرار»: الغلب من الشجر التي لا تثمر، كالشمار والأرز والعرعر والدرداء.

٧ ـ ﴿وَفَٰكِهَةٗ﴾ كثيرة غير ما ذكر، يتمتع بلذتها الإنسان خاصة، كالتين والتفاح والخوخ والبرتقال والمشمس والموز وغيرها، فهو معطوف علىٰ ﴿عنباً﴾ عطف عام علىٰ خاص، ويصح عطفه علىٰ ﴿حَدَآئِقَ﴾ كما هو المتبادر، فيكون عطف خاص علىٰ عام كما لا يخفىٰ.

قال أبو حنيفة[١]: إن نحو العنب والرطب؛ لكونه مما يؤكل غذاء يحقق القصور في معنىٰ التفكه به؛ أي: التنعم به بعد الطعام وقبله، فلا يتناوله اسم الفاكهة علىٰ الإطلاق حتىٰ لو حلف لا يأكل فاكهة لا يحنث بأكله؛ لكونه غذاء من وجه، وإن كان فاكهة من وجه آخر، وعطف الفاكهة عليه لا ينافي كونه فاكهة من وجه؛ لأن المراد بالفاكهة المعطوفة ما هو فاكهة من كل وجه، ولا يخفىٰ أن الفاكهة من كل وجه مغايرة لما هو فاكهة من وجه دون وجه، فيصح عطفها عليه، أو عطفه عليها كما في مواضع من القرآن.

٨ ـ ﴿وَأَبّٗا﴾؛ أي: مرعىٰ للحيوان خاصة، فالفاكهة ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار، كالعنب والتين مثلاً، والأبُّ: كل ما أنبت الأرض، مما لا يأكله الناس، ولا يزرعون من الكلأ وسائر أنواع المرعىٰ، من أبّه إذا أمَّه؛ أي: قصده؛ لأنه يؤم ويقصد جزه للدواب، كما سيأتي، وقيل الأبُّ: الفاكهة اليابسة تؤبُّ للشتاء؛ أي: تعد وتهيأ، وهو الملائم لما قبله، وفي الحديث: «خلقتم من سبع، ورزقتم من سبع، فاسجدوا لله على سبع» أراد بقوله: خلقتم من سبع؛ أي: من نطفة، ثم من علقة... إلخ، وهي التارات السبع، وبقوله: زرقتم من سبع، قوله: ﴿حَبّٗا﴾ و﴿عنباً﴾ إلىٰ ﴿أباً﴾، ولعل الحدائق خارجة عن الحساب؛ لأنها منابت تلك المزروعات، وبقوله: فاسجدوا لله علىٰ سبع: الأعضاء السبعة الوجه، واليدان، والركبتان، والرجلان.

---

(١) روح البيان.

ثم ذكر الحكمة في خلق هذه الأشياء فقال: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ مفعول لأجله لـ ﴿أنبتنا﴾؛ أي: أنبتنا ذلك المذكور تمتيعاً لكم ولمواشيكم، فإن بعض النعم المعدودة طعام لهم، وبعضها علف لدوابهم، والالتفات لتكميل الامتنان؛ أي: لتتمتعوا به وتنتفعوا به أنتم وأنعامكم منه ما ينتفع به الإنسان، ومنه ما يأكله الدواب.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ شروع[1] في بيان أحوال معادهم، إثر بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم، والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها علىٰ ما قبلها من فناء النعم عن قريب، كما يشعر لفظ المتاع بسرعة زوالها، وقرب اضمحلالها، و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: هي القيامة، والداهية العظيمة التي يصخ لها الخلائق؛ أي: يصيخون لها، من صخ لحديثه: إذا أصاخ واستمع، وصفت به النفخة الثانية؛ لأن الناس يصخون لها في قبورهم، فأسند الاستماع إلىٰ المسموع مجازاً، وقيل: هي الصيحة التي تصم الآذان لشدة وقعها، وقيل: هي مأخوذة من صخه بالحجر؛ أي: صكه، فتكون الصاخة حقيقة في النفخة، وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله: لكل امرىء منهم إلخ، تقديره: فإذا جاءت الصاخة ـ أي: القيامة ـ اشتغل كل امرىء بنفسه، والظرف في قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾؛ إما بدل من ﴿إِذَا جَآءَتِ﴾، أو منصوب بمقدر؛ أي: أعني، ويكون تفسيراً لـ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، أو بدلاً منها مبني علىٰ الفتح؛ أي: أعني بالصاخة: يوم يعرض الإنسان عن هؤلاء المذكورين، ولا يصاحبهم ولا يسأل عن حالهم، كما في الدنيا؛ لاشتغاله بحال نفسه، ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً، وخص[2] هؤلاء بالذكر لأنهم أخص القرابة وأولاهم بالحنو والرأفة، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع.

وتأخير الأحب للمبالغة[3]؛ لأن الأبوين أقرب من الأخ، وتعلق القلب بالصاحبة والأولاد أشد من تعلقه بالأبوين، وهذه الآية تشمل النساء كما تشمل الرجال، ولكنها خرجت مخرج كلام العرب؛ حيث تدرج النساء في الرجال في الكلام كثيراً.

قال عبد الله بن طاهر الأبهري ـ رحمه الله تعالى ـ: يفر منهم إذا ظهر له عجزهم وقلة حيلتهم إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه، ولو ظهر له

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

ذلك في الدنيا.. لما اعتمد على سوى ربه الذي لا يعجزه شيء، وتمكن من فسحة التوكل، واستراح في ظل التفويض ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾.

والمعنى[1]: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾؛ أي: فإذا جاء يوم القيامة حين يحدث ذلك الصوت الهائل الذي يصخ الأسماع ويصكها بشدته، فما أعظم أسف الكافر، وما أشد ندمهم، ثم فصل بعض أهوال ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾ إلخ؛ أي: أعني بذلك اليوم: يوم يشغل كل امرىءٍ ما يصيبه من الأهوال، فيفر ممن يتوهم أنه يتعلق به، ويطلب معونته على ما هو فيه، فيتوارى من أخيه، بل من أمه وأبيه، بل من زوجه التي هي ألصق الناس به، وقد كان في الدنيا يبذل النفس والنفيس في الدفاع عنها، بل من بنيه وهم فلذات كبده، وقد كان في الحياة الأولى يفديهم بماله وروحه، وهم ريحانة الدنيا ونور الحياة أمام عينه. ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ﴾؛ أي: لكل إنسان ﴿مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: من هؤلاء الأقرباء وغيرهم ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾؛ أي: يوم إذ تكون هذه الداهية الصاخة ﴿شَأۡنٞ﴾، أي: شغل ﴿يُغۡنِيهِ﴾؛ أي: يكفيه في الاهتمام به، أو عمل يصرفه عن الاهتمام بقرابته ويشغله، كما قاله ابن قتيبة، ومنه قولهم: أغنِ عنِّي وجهك. أي: اصرفه، والشأن[2]: لا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور؛ أي: لكل واحد من المذكورين شغل شاغل وخطب هائل، يكفيه في الاهتمام به، قال ابن الشيخ: إن الهم الذي حصل له قد ملأ صدره، فلم يبق فيه متسع، فصار بذلك شبيهاً بالغني في أنه ملك شيئاً كثيراً.

وقيل: إنما يفر منهم حذراً من مطالبتهم إياه بما بينهم، وقيل: يفر عنهم لئلا يروا ما هو فيه من الشدة، وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الفرار.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿يُغۡنِيهِ﴾ بضم الياء وبالغين المعجمة؛ أي: يغنيه عن النظر في شأن الآخر من الإغناء، وقرأ الزهري وابن محيصن وابن أبي عبلة وحميد وابن السميفع: ﴿يعنيه﴾ بفتح الياء وبالعين المهملة؛ أي: يهمه من عناه الأمر: إذا أهمه.

وبعد أن ذكر الأهوال التي تعرض للإنسان في ذلك اليوم، وأنها لا تسعف

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

أحداً بمواساة أحدٍ، ولا بالالتفات إليه مهما يكن عطفه عليه، واتصاله به.. أردفه ببيان أن الناس في ذلك اليوم سعداء وأشقياء، وأشار إلى الأولين بقوله: ﴿وُجُوهٌ﴾ كثيرة، وهو مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يفر المرء من أقربائه، وهو ظرف مضاف لمثله، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة كما قدرنا متعلق بقوله: ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾؛ أي: مضيئة متهللة، وهو خبر المبتدأ، وقول «الشوكاني» وغيره هنا: الظرف متعلق بـ ﴿وُجُوهٌ﴾.. غير صواب؛ لأن الوجوه جمع وجه، وهو من أسماء الأعيان التي ليست فيها رائحة الفعل، فكيف يتعلق به الجار والمجرور، ومعنىٰ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ مشرقة مضيئة، من: أسفر الصبح إذا أضاء، وهو من الأفعال اللازمة، وهي وجوه المؤمنين؛ لأنهم قد علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم والكرامة. قال الضحاك: مسفرة من آثار الوضوء، وقيل: من قيام الليل. وفي الحديث: «من كثرت صلاته بالليل.. حسن وجهه بالنهار»، وقيل: من طول ما اغبرت في سبيل الله.

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ بما تشاهده من النعيم المقيم، والبهجة الدائمة، وفي بعض[1] التفاسير ﴿ضَاحِكَةٌ﴾؛ أي: مسرورة فرحة لما علموا من الفوز والسعادة، أو لفراغهم من الحساب بالوجه اليسير ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ أي: ذات بشارة بالخير، فكأنه بيان لقوله: ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ انتهى. وهما خبران آخران لـ ﴿وُجُوهٌ﴾، وفي «عين المعاني»: ضاحكة من مسرة العين، مستبشرة من مسرة القلب، يقول الفقير: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨﴾ لابيضاضها في الدنيا بالتزكية والتصفية، وزوال كدوراتها ﴿ضَاحِكَةٌ﴾؛ لأنها بكت في الله أيام دنياها حتىٰ صارت عمياء عن رؤية ما سوىٰ الله تعالى مطلقاً، كما وقع لشعيب ويعقوب عليهما السلام. ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ لأمنها بدل خوفها في الدنيا، ولذا قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بأن تقول لهم الملائكة: لا تخافوا وأبشروا بالجنة والرؤية. والضحك: هو انبساط الوجه وتكشر الأسنان من سرور النفس، ولظهور الأسنان عنده.. سميت مقدمة الأسنان ضواحك، ويستعمل في السرور المجرد كما في الآية.

والمعنىٰ[2]: أي وجوه يومئذٍ متهللة ضاحكة فرحة بما تجد من برد اليقين بأنها

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ستوفىٰ ما وعدت به جزاء إيمانها، وما قدمت من عمل صالح، وبشكرها لنعم ربها وآلائه، وإيثارها ما أمرها به علىٰ ما تهواه.

وأشار إلىٰ الآخرين بقوله: ﴿وَوُجُوهٌ﴾ أخر، وهو مبتدأ، أول. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يفر المرء عن أقربائه، وهو متعلق بـ ﴿تَرْهَقُهَا﴾ ﴿عَلَيْهَا﴾: خبر مقدم ﴿غَبَرَةٌ﴾؛ أي: غبار وكدورة لما تراه مما أعده الله لها من العذاب الأليم، وهو مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿وُجُوهٌ﴾. ﴿تَرْهَقُهَا﴾؛ أي: يغشاها ويعلوها ﴿قَتَرَةٌ﴾؛ أي: سواد وظلمة كالدخان، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما إذا اغبر وجه الزنجي، قال سهل رحمه الله تعالى: غلب عليها إعراض الله عنها ومقته إياها، فهي تزداد في كل وقت ظلمة وقترة، والجملة الفعلية خبر ثانٍ لـ ﴿وُجُوهٌ﴾. ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بسواد الوجه وغبرته ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾؛ أي: الجامعون بين الكفر والفجور، فلذا جمع الله سبحانه إلىٰ سواد وجوههم الغبرة، وفي الحديث: «إن البهائم إذا صارت تراباً يوم القيامة حول ذلك التراب في وجوه الكفار»، وفي «عين المعاني»: أولئك هم الكفرة في حقوق الله، الفجرة في حقوق العباد. انتهىٰ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿قَتَرَةٌ﴾ بفتح التاء، وابن أبي عبلة بإسكانها، وفيه إشارة إلىٰ أن الفجور الغير المقارن بالكفر ليس في درجة المقارن في المذمومية، والسببية للحقارة والمهانة والخذلان، إذ أصل الفجور: الكذب والميل عن الحق، ويستعمل فيه الذنب الكبير، وكثيراً ما يقع ذلك من المؤمن العاصي، لكن ينبغي أن يخاف منه ويحذر عنه؛ لأن كبائر الذنب تجر إلىٰ الكفر، كما أن صغائره تجر إلىٰ الكبائر.

والمعنىٰ[2]: أي ووجوه أخرىٰ يعلوها غبار الذل، وسواد الغم والحزن، وهي وجوه الكفار الذين لم يؤمنوا بالله، وبما جاء به أنبياؤه، وخرجوا عن حدود شرائعه، واجترحوا السيئات، واقترفوا المعاصي.

وقصارىٰ ما سلف: أن الناس إذ ذاك فريقان:

١ ـ فريق كان في دنياه يطلب الحق، وينظر في الحجة، ويعمل ما استقام عليه الدليل، لا يثنيه عن الأخذ به قلة الآخذين، ولا قوة المعاندين، وهؤلاء سيطمئنون

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

إلى ما أدركوا، ويفرحون بما نالوا، وتظهر على أسارير وجوههم علامات البشر والسرور.

٢ ـ فريق احتقر عقله، وأهمل النظر في نعم الله عليه، وارتضىٰ الجهل، وانصرف عن الاستدلال إلى اقتفاء آثار الآباء والأجداد، وظل يخب ويضع في أهوائه الباطلة، وعقائده الزائفة، وهؤلاء سيجدون كل شيء علىٰ ما كانوا يعرفون، فتظهر عليهم آثار الكآبة والخيبة والفشل، وتعلو وجوههم الغبرة، وترهقها القترة؛ لأنهم كانوا في حياتهم الدنيا كفرة فجرة.

اللهم احشرنا يوم القيامة ووجوهنا مسفرة ضاحكة مستبشرة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الإعراب

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④﴾.

﴿عَبَسَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً، وأتى هنا وفي الموضعين بعده بصيغة الغيبة إجلالاً له ﷺ، ولطفاً به لما في المشافهة بتاء الخطاب من الغلظة والشدة، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، معطوف علىٰ ﴿عَبَسَ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿جَآءَهُ﴾: فعل ماض في محل النصب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية، و ﴿الهاء﴾ مفعول به مقدم ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾: فاعل مؤخر، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: عبس لمجيء الأعمىٰ إياه، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿عَبَسَ﴾؛ لأن المجيء ليس من أفعال القلوب، فاختل شرط من شروط المفعول لأجله ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿مَآ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿يُدْرِيكَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَآ﴾، ومفعول أول لأدرىٰ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ ﴿مَآ﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية معطوفة علىٰ جملة ﴿عَبَسَ﴾. ﴿لَعَلَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ خبره، وجملة الترجي في محل النصب مفعول ثانٍ لـ ﴿يُدْرِيكَ﴾، وقيل: المفعول الثاني لأدرى محذوف تقديره: وما يدريك أمره ومغبة حاله، وجملة ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾: مستأنفة ﴿أَوْ﴾: حرف

عطف، وجملة ﴿يَذَّكَّرُ﴾ معطوفة على جملة ﴿يزكى﴾. ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ بالنصب ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية ﴿تنفعه﴾: فعل مضارع ومفعول به، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب الترجي. ﴿ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾: فاعل، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة،أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف علىٰ مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: أترجىٰ تزكيته، أو تذكره، فنفع الذكرىٰ إياه، والجملة المقدرة مستأنفة، وقرىء ﴿فتنفعُه﴾ بالرفع عطفاً على ﴿يَذَّكَّرُ﴾، والفاء لمجرد العطف حينئذٍ.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾.

﴿أَمَّا﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾ صلة ﴿مَنِ﴾ الموصولة، ﴿فَأَنتَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أَمَّا﴾، واقعة في غير موضعها للثقل؛ لأن موضعها موضع ﴿أَمَّا﴾. ﴿أَنتَ﴾: ضمير رفع منفصل في محل الرفع مبتدأ ثانٍ ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ ﴿تَصَدَّىٰ﴾، قدم عليه لرعاية الفاصلة، وجملة ﴿تَصَدَّىٰ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنت﴾، والجملة الاسمية خبر ﴿مَنِ﴾ الموصولة، وجملة ﴿مَنِ﴾ الموصولة من المبتدأ والخبر جواب ﴿أَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ مستأنفة ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿مَا﴾: نافية، ﴿عَلَيْكَ﴾: خبر مقدم ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَزَّكَّىٰ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَنِ﴾ الموصولة، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع علىٰ كونه مبتدأ مؤخراً؛ أي: وما عليك عدم التزكية؛ أي: ليس عليك بأس في عدم تزكيته بالإسلام، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل، ﴿تصدى﴾. واختار أبو حيان أن تكون ﴿مَا﴾ استفهامية للإنكار، فتكون مبتدأ، و ﴿عَلَيْكَ﴾: خبرها، و ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ منصوب بنزع الخافض، والجار والمجرور متعلق بما تعلق به ﴿عَلَيْكَ﴾؛ أعني: الاستقرار، والجملة حينئذٍ جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿أَمَّا﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿جَآءَكَ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿يَسْعَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة حال من فاعل ﴿جَآءَكَ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية: ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَخْشَىٰ﴾: خبره، والجملة الاسمية

في محل النصب حال من فاعل ﴿يَسْعَىٰ﴾ فهي حال متداخلة، ﴿فَأَنتَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أَمَّا﴾، ﴿أنت﴾: مبتدأ ﴿عَنْهُ﴾: متعلق بـ ﴿تَلَهَّىٰ﴾، ﴿تَلَهَّىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع أصله: تتلهىٰ، كما مر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، وجملة ﴿تَلَهَّىٰ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية خبر ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿من﴾ الموصولة جواب ﴿أَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿أَمَّا﴾ الأولىٰ.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر لكل إنسان عن ارتكاب مثل المعاتب عليه ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: اعتراضية ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر فعل الشرط، أو جوابه، أو هما ﴿شَآءَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية علىٰ كونها فعل شرط لها، ﴿ذَكَرَهُۥ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، ومفعول به في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية علىٰ كونه جواب الشرط، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المبتدأ والخبر ﴿فِى صُحُفٍ﴾: خبر ثانٍ لـ ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: إنها كائنة في صحف، وقوله: ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾: صفة أولىٰ لـ ﴿صُحُفٍ﴾ ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ صفة ثانية لها، ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾: صفة ثالثة لها. ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة رابعة لها أيضاً، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي كائنة بأيدي سفرة، ﴿كِرَامٍۭ﴾: صفة أولىٰ لـ ﴿سَفَرَةٍ﴾. ﴿بَرَرَةٍ﴾: صفة ثانية لها ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة دعائية لا محل لها من الإعراب ﴿مَآ﴾: تعجبية في محل الرفع مبتدأ ﴿أَكْفَرَهُۥ﴾: فعل ماضٍ ومفعول به، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً لجريانه مجرىٰ المثل يعود علىٰ ﴿مَآ﴾ التعجبية، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن ﴿مَآ﴾ التعجبية، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب؛ لدلالتها علىٰ إنشاء التعجب نظير قولهم: قاتله الله ما أخبثه، وأخزاه الله ما أظلمه. والمعنىٰ: اعجبوا من كفر الإنسان بجميع ما ذكرنا بعد هذا، وقيل:

﴿مَآ﴾: استفهامية في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أكفره﴾ خبر ﴿مَآ﴾؛ أي: أي شيء دعاه إلىٰ الكفر، وهو استفهام توبيخ، ولا داعي لهذا؛ لأنه تعجب من إفراطه في كفره، والتعجب بالنسبة إلىٰ المخلوقين؛ إذ هو مستحيل في حقه تعالى. ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿خَلَقَهُۥ﴾، و ﴿خَلَقَهُۥ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما أنعم عليه بعد المبالغة في وصفه بكفران نعم خالقه، والاستفهام للتقرير مع التحقير. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ المذكور بعده، ﴿خَلَقَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به بدل من ﴿خَلَقَهُۥ﴾ الأول بإعادة الجار. ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿قدره﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف علىٰ ﴿خَلَقَهُۥ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع التراخي ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: منصوب على الاشتغال بفعل مضمر يفسره المذكور بعده، والجملة المحذوفة معطوفة علىٰ جملة ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾، والتقدير: ثم يسر السبيل يسره، والتعريف في السبيل لإفادة العموم، وجملة ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، وعبارة «السمين»: قوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ يجوز أن يكون الضمير للإنسان، و﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: ظرف، أي: يسر للإنسان الطريق؛ أي: طريق الخير أو الشر، كقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف مع تراخٍ ﴿أَمَاتَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف علىٰ ﴿يَسَّرَهُۥ﴾، ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة مفيدة للتعقيب ﴿أقبره﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف علىٰ ﴿أَمَاتَهُۥ﴾، ﴿ثم﴾: حرف عطف وتراخٍ، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان متعلق بجوابه، ﴿شَآءَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: إذا شاء إنشاره، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿أَنشَرَهُۥ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿أقبره﴾. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر للإنسان المسترسل في عمايته، المغتر باغتراره المتطاول ﴿لَمَّا﴾: حرف نفي وجزم ﴿يَقْضِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَمَّا﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على الإنسان، وجزم بـ ﴿لَمَّا﴾ دون ﴿لم﴾ للدلالة علىٰ أن العجب والكبر ما زالا يلازمان الإنسان حتىٰ الساعة ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿أَمَرَهُۥ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: به، وجملة ﴿يَقْضِ﴾ مستأنفة.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: لام أمر وجزم ﴿ينظر﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فاعل ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾: متعلق بـ ﴿ينظر﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لتعداد النعم المترادفة علىٰ الإنسان ﴿أَنَّا﴾: ـ بفتح الهمزة ـ ناصب واسمه ﴿صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿صَبًّا﴾: مفعول مطلق، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور علىٰ أنه بدل اشتمال من ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾، والتقدير: فلينظر الإنسان إلىٰ طعامه.. إلىٰ صببنا الماء صباً، وقرىء بكسرها على الاستئناف المبين لكيفية إحداث الطعام ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ ﴿شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿شَقًّا﴾: مفعول مطلق، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿صَبَبْنَا﴾، ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أنبتنا﴾: فعل وفاعل، معطوف علىٰ ﴿شَقَقْنَا﴾. ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ ﴿أنبتنا﴾: ﴿حَبًّا﴾: مفعول به. وقوله: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ معطوفات علىٰ ﴿حَبًّا﴾. ﴿غُلْبًا﴾: صفة ﴿حَدَآئِقَ﴾. ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ معطوفان أيضاً علىٰ ﴿حَبًّا﴾. ﴿مَّتَٰعًا﴾: مصدر مؤكد لـ ﴿أنبتنا﴾؛ لأن إنباته الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات الحية، أو مفعول لأجله معلل لفعل محذوف تقديره: فعلنا ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿مَّتَٰعًا﴾، ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾: معطوف على ﴿لَّكُمْ﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط متعلق بالجواب المحذوف المفهوم من قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ تقديره: فإذا جاءت الصاخة.. اشتغل كل إنسان بنفسه، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة مسوقة لبيان أحوالهم يوم المعاد، ويصح أن تكون الفاء فصيحة تقديره: إذا عرفت أحوالهم في الدنيا، وأردت بيان أحوالهم في المعاد.. فأقول لك: إذا جاءت الصاخة.. اشتغل

كل واحد بحال نفسه. ﴿جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿يَوۡمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية بدل من ﴿إذا﴾ بدل كل من كل على كونه متعلقاً بالجواب المحذوف. ﴿يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوۡمَ﴾: ﴿مِنۡ أَخِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَفِرُّ﴾ ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾: معطوفات على ﴿أَخِيهِ﴾، ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ﴾: خبر مقدم، ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: صفة ﴿امرىء﴾، ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف أضيف إلى مثله، متعلق بـ﴿يُغۡنِيهِ﴾، ﴿شَأۡنٞ﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يُغۡنِيهِ﴾: صفة لـ ﴿شَأۡنٞ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وُجُوهٞ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف مضاف لمثله متعلق بـ ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾، وأخطأ من قال: إنه متعلق بـ﴿وُجُوهٞ﴾، كما مرَّ. ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾: خبر المبتدأ و﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩﴾: خبران آخران لـ ﴿وُجُوهٞ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لتفصيل أحوالهم، ﴿وَوُجُوهٞ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿وُجُوهٞ﴾: مبتدأ. ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: ظرف أضيف لمثله متعلق بـ ﴿تَرۡهَقُهَا﴾ ﴿عَلَيۡهَا﴾: خبر مقدم، ﴿غَبَرَةٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿وُجُوهٞ﴾، وجملة ﴿وُجُوهٞ﴾ معطوفة على جملة ﴿وُجُوهٞ﴾ الأولى. ﴿تَرۡهَقُهَا﴾: فعل مضارع ومفعول به ﴿قَتَرَةٌ﴾: فاعل مؤخر، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثانٍ لـ ﴿وُجُوهٞ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، أو مبتدأ ثانٍ، ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾: خبران لـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أو لـ ﴿هُمُ﴾، والجملة خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عَبَسَ﴾؛ أي: قطب وجهه وغير لونه من ضيق الصدر ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ أي: أعرض والتفت عن جهة إلى جهة أخرى، وأصله: تولي، أعل بقلب الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢﴾ وهو من اتصف بالعمى، والعمى: افتقاد البصر، ولام الأعمى للعهد الحضوري، وأصله: الأعمي، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾؛ أي: أي شيء يعرفك حال هذا الأعمى ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ أصله يتزكى، أبدلت تاء التفعل زاياً، وأدغمت في الزاي فاء الكلمة، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ومعنى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ أي: يتطهر بما يلقن من الشرائع. ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾؛ أي: يتعظ من التذكر، وهو الاتعاظ أصله: يتذكر. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥﴾ بماله وقوته

عن سماع القرآن، فيه إعلال بالقلب، أصله: استغني، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أصله: تتصدىٰ بتاءين حذفت إحدىٰ التاءين للتخفيف، وقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، والتصدي للشيء: التعرض والتقيد به، والاهتمام بشأنه، وضده التشاغل عنه، وفي «المفردات»: التصدي أن يقابل الشيء مقابلة الصدىٰ؛ أي: الصوت الراجع من الجبال المسموع في الأماكن الخالية والأجرام الصلبة، وقيل: من الصدى، وهو العطش، والمعنىٰ هنا: علىٰ التعرض كما في «السمين». وقال بعضهم: أصله: تصدد من الصدد، وهو ما استقبلك وصار قبالتك، فأبدل أحد الأمثال حرف علة نحو: تقضىٰ البازي.

﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أصله: يتزكى بوزن يتفعل، أبدلت تاء التفعل زاياً، وأدغمت في الزاي كما مر آنفاً، والمعنى: ليس عليك بأس في عدم تزكيته بالإسلام على أن ﴿مَآ﴾ نافية، وفي «البحر»: وأي شيء عليك في كونه لا يفلح ولا يتطهر من دنس الكفر علىٰ أن ﴿مَآ﴾ للاستفهام الإنكاري.

﴿مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾؛ أي: يسرع ويمشي في طلب الخير والمعالي، أصله: يسعي بوزن يفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ أصله: يخشي؛ لأنه من باب رضي يرضىٰ، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾؛ أي: تتشاغل عنه بدعاء صناديد قريش إلى الإسلام؛ لأنه من لهي بكذا يلهىٰ - كرضي يرضىٰ - إذا تشاغل به، وليس هو من اللهو في شيء، ولم يجعل من اللهو؛ لأنه مسند إلىٰ النبي ﷺ، ولا يليق بمنصبه الكريم أن ينسب إليه الفعل من اللهو، بخلاف الاشتغال فإنه يجوز أن يصدر منه في بعض الأحيان، ولا ينبغي أن يعتقد غير هذا. ا هـ «سمين»، وأصله: تتلهى، حذفت منه إحدى التاءين تخفيفاً، وقلبت ياؤه ألفاً لتحركها وفتح ما قبلها.

والحاصل: أنه من لهي عن الشيء بكسر الهاء يلهى بفتحها لهياً إذا أعرض عنه، لا من لهوت بالشيء - بالفتح - ألهو لهواً. إذا لعبت به، وفي «القاموس»: لها لهواً: لعب، كالتهىٰ وألهاه ذلك، ولهي به - كرضي - أحبه، وعنه: سلا وغفل وترك ذكره، ولها - كدعا - لهياً ولهياناً. انتهى.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ جمع سافر بمعنىٰ: كاتب، نظير كتبة وكاتب؛ لأنهم ينسخونها من اللوح المحفوظ. ﴿كِرَامٍ﴾؛ أي: مكرمين معظمين عنده تعالىٰ من الكرامة بمعنىٰ: التوقير، كما في «الشهاب».

﴿بَرَرَةٍ﴾: جمع بار، مثل كافر وكفرة، وساحر وسحرة، وفاجر وفجرة، يقال: هو بر وبار إذا كان أهلاً للصدق، ومنه بر فلان في يمينه؛ أي: صدق، وفلان يبر خالقه؛ أي: يطيعه، ومعنىٰ ﴿بَرَرَةٍ﴾: مطيعين الله.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾ أصله: أموته بوزن أفعل، نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال. ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾، ولم يقل: فقبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، والمقبر: هو الله تعالىٰ، يقال: قبر الميت: إذا دفنه بيده، وأقبره: إذا أمر غيره أن يجعله في قبره.

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ جمع: حديقة، والهمزة فيه مبدلة من ياء فعيلة في المفرد، لوقوعها حرف مد ثالثاً زائداً في اسم مؤنث. ﴿غُلْبًا﴾ جمع أغلب، كحمر في أحمر وحمراء، يقال: حديقة غلباء؛ أي: غليظة الشجر، ملتفة الحدائق، فالحدائق ذات أشجار غلاظ، فهو مجاز مرسل، كالمرسن بمعنىٰ: الغليظ مطلقاً، وفيه تجوز في الإسناد أيضاً؛ لأن الحدائق نفسها ليست غليظة، بل الغليظ أشجارها.

﴿وَأَبًّا﴾ في «المصباح»: الأبُّ: المرعىٰ الذي لم يزرعه الناس، مما تأكله الدواب والأنعام، ويبدو أنَّه: مأخوذ من أبه إذا قصده؛ لأنه يؤم وينتجع له، أو من أبَّ لكذا: إذا تهيأ له؛ لأنه متهيء للرعي.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ اسم فاعل مؤنث، أصله: الصاخخة بخاءين، أدغمت الأولىٰ في الثانية.

﴿مُسْفِرَةٌ﴾ اسم فاعل من أسفر الصبح إذا أضاء، فهو من لوازم الأفعال، قال في «المفردات»: الإسفار يختص باللون، ومعنىٰ ﴿مُسْفِرَةٌ﴾: مشرق لونها. ﴿ضَاحِكَةٌ﴾: اسم فاعل من الضحك، والضحك: انبساط الوجه وتكثر الأسنان من سرور النفس، كما مر.

﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ قال الراغب: واستبشر؛ أي: وجد ما يبشره من الفرح، وبشرته:

أخبرته بسار بسط بشرة وجهه، وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم انتشار الماء في الشجرة. ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾؛ أي: غبار ﴿تَرۡهَقُهَا﴾ في «المختار»: رهقه: غشيه، وبابه طرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾. ﴿قَتَرَةٌ﴾؛ أي: ظلمة وسواد، وهذا تفسير ابن عباس، وعليه: فالفرق بين الغبار والقترة ظاهر، وقيل: القترة والغبرة معناهما واحد، وعليه فيفرق بأن القترة ما ارتفع من الغبار إلى السماء، والغبرة: ما انحط منه إلىٰ الأرض. تأمل.

﴿هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ جمع كافر وفاجر: وهو الكاذب والمفتري علىٰ الله تعالى، فجمع الله تعالى إلى سواد وجوههم الغبرة، كما جمعوا الفجور إلىٰ الكفر. ا هـ. «خطيب».

وفي «القرطبي»: الفاجر: الكاذب المفتري علىٰ الله تعالى، وقيل: الفاسق. ا هـ. وفي «المختار: وفجر: فسق، وفجر: كذب، وبابهما دخل، وأصله: الميل، والفاجر: المائل. ا هـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجيء بضمائر الغيبة في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾﴾ حيث لم يقل: عبست وتوليت أن جاءك الأعمىٰ إجلالاً له ﷺ، ولطفاً به؛ لما في المشافهة بتاء الخطاب من الغلظة والشدة.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلىٰ الخطاب زيادةً في العتاب؛ حيث قال أولاً: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ ثم قال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ فالتفت تنبيهاً للرسول ﷺ إلىٰ العناية بشأن الأعمى.

ومنها: تقديم التزكية في قوله: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ علىٰ التذكر في قوله: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ تقديماً للتخلية علىٰ التحلية؛ لأن الأول من باب التخلية من الآثام، والثاني من باب التحلية بالطاعات.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿يَذَّكَّرُ﴾، وبين ﴿ذِكْرَىٰ﴾.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ و ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ فإنه ذكر الغنىٰ أولاً للدلالة علىٰ الفقر ثانياً، وذكر المجيء والخشية ثانياً؛ للدلالة علىٰ ضدهما أولاً.

ومنها: الطباق بين ﴿تَصَدَّىٰ﴾ وبين ﴿تَلَهَّىٰ﴾؛ لأن المراد بهما تتعرض له وتشغل عنه.

ومنها: تقديم الجار والمجرور علىٰ متعلقه في قوله: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾، وقوله: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ رعاية للفاصلة.

ومنها: تقديم ضميره ﷺ، وهو: ﴿أَنتَ﴾ علىٰ الفعلين في الموضعين تنبيهاً علىٰ أن مناط الإنكار خصوصيته ﷺ؛ أي: مثلك خصوصاً لا ينبغي له أن يتصدىٰ للمستغني، ويتلهىٰ عن الفقير الطالب للخير، كما في «روح البيان».

ومنها: الكناية الرائقة في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾ كنىٰ بالسبيل عن خروجه من فرج أمه.

ومنها: تعريف ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ باللام دون الإضافة بأن يقول: ثم سبيله يسر بإضافته إلىٰ ضمير الإنسان؛ للإشعار بالعموم؛ أي: بعمومه سبيل الخير أو الشر، كقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

ومنها: الإجمال في قوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨﴾ ثم التفصيل بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾ إلخ؛ لأن ذكر الشيء مجملاً، ثم ذكره مفصلاً، أوقع في النفس وأرسخ فيها.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾، ففيه إسناد مجازي، فقد أسند تعالىٰ الشق إلىٰ نفسه من باب إسناد الفعل إلىٰ السبب، وقيل: الإسناد حقيقي، وإن القول بمجازيته هو من أقوال المعتزلة، ولكن البيضاوي نفسه يتبع الزمخشري في مجازية الإسناد، فيقول: أسند تعالى الشق إلىٰ نفسه إسناد الفعل

إلى سببه، والحق مع الزمخشري في هذا، فإن مجازيته لا تعني أن أفعال العباد مخلوقة لهم؛ لأن الفعل إنما يسند حقيقة لمن قام به، لا لمن أوجده، فالاعتراض عليه تعسف.

ومنها: التعميم بعد التخصيص في قوله: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠﴾؛ لأنه عام لجميع ما قبله.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿غُلۡبٗا﴾؛ لأن الغلب صفة للأشجار لا للحدائق، فأطلق ما للحال علىٰ المحل، علاقته المحلية.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾.

ومنها: تأخير الأحب للمبالغة في قوله: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾؛ لأن الأبوين أقرب من الأخ، وتعلق القلب بالصحابة والأولاد أشد من تعلقه بالأبوين.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين السعداء والأشقياء في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨﴾ إلخ قابلها بقوله: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠...﴾ إلخ.

فائدة: اقتبس بعض الأدباء من قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾ هذين البيتين:

يَتَمَنَّىٰ ٱلْمَرْءُ فِيْ ٱلصَّيْفِ ٱلشِّتَاءْ   فَإِذَا جَاءَ ٱلشِّتَاءُ أَنْكَرَهْ
فَهْوَ لَا يَرْضَىٰ بِحَالٍ وَاحِدٍ   قُتِلَ ٱلإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهْ

والله أعلم

* * *

خلاصة ما جاء في هذه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ عتاب الرسول ﷺ ما حدث منه مع ابن أم مكتوم الأعمىٰ.

٢ ـ أن القرآن ذكرى أو موعظة لمن عقل وتدبر.

٣ ـ إقامة الأدلة علىٰ وحدانية الله تعالى بخلق الإنسان، والنظر في طعامه وشرابه.

٤ ـ أهوال يوم القيامة.

٥ ـ الناس في هذا اليوم فريقان: سعداء وأشقياء، وذكر حال كل منهما حينئذٍ[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير هذه السورة الكريمة بتوفيق الله تعالى ومعونته في اليوم السادس، من شهر الله شعبان من شهور سنة: ١٤١٦/٨/٦ ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلوات، وأزكى التحيات والصلات، وصلىٰ الله تعالى وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين. أمين.

سورة التكوير

سورة التكوير مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة المسد، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة إذا الشمس كورت بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة وابن الزبير مثله.

وآياتها: تسع وعشرون آية. وكلماتها: مئة وأربع كلمات. وحروفها: خمس مئة وثلاثة وثلاثون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أن كلتيهما تشرح أحوال يوم القيامة وأهوالها، وهذه السورة محكم كلها، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: ومما ورد في فضلها: ما أخرجه الإمام أحمد، والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلىٰ يوم القيامة كأنه رأي عين.. فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾»، وهي اشتملت علىٰ بيان حقيقتين: حقيقة القيامة وما يصاحبها من انقلاب الكون، وحقيقة الوحي، وما يتعلق بها من صفة الملك الذي تحمله، وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه، ومع خالقهم الذي فطرهم وأنزل الوحي إليهم.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

المناسبة

لما ختم الله سبحانه وتعالىٰ سورة عبس بذكر يوم القيامة وأهوالها.. افتتح هذه السورة أيضاً بذكر علاماتها وأحوالها وأهوالها، وذكر ما يكون فيه من حوادث عظام، ليفخم شأنه، وبين أنه حين تقع هذه الحوادث تعلم كل نفس ما قدمت من عمل خير أو شر، ووجدت ذلك أمامها ماثلاً، ورأت ما أعدّ لها من جزاء، وتمنت إن كانت من أهل الخير أن لو كانت زادت منه، وإن كانت من أهل الشر أن لو لم تكن فعلته، واستبان لها أن الوعد الذي جاء علىٰ ألسنة الرسل كان وعيداً صادقاً، لا تهويل فيه ولا تضليل.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر من أحوال يوم القيامة وأهوالها ما ذكر، وبيَّن أن الناس حينئذٍ يقفون على حقائق أعمالهم في النشأة الأولىٰ، ويستبين لهم ما هو مقبول منها، وما هو مردود عليهم.. أردف ذلك ببيان أنَّ ما يحدثهم به الرسول ﷺ، هو القرآن الذي أنزل عليه، وهو آيات بينات من الهدىٰ، وأن ما رميتموه من المعايب كقولكم: إنه ساحر، أو مجنون، أو كذاب، أو شاعر ما هو

إلا محض افتراء، وأن لجاجكم في عداوته، وتألبكم عليه ما هو إلا عناد واستكبار، وأنكم في قرارة نفوسكم عالمون حقيقة أمره، ودخيلة دعوته.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ ولفت ومحي ضوؤها، وسقطت من مقرها حين خراب العالم الذي يعيش فيه الحي في حياته الدنيا، ولا يبقىٰ في عالمه الآخر الذي ينقلب إليه شيء من هذه الأجرام، وارتفاع[1] ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ علىٰ أنه فاعل لفعل مضمر يفسره ما بعده على الاشتغال، وهذا عند البصريين، لا فاعله؛ لأن الفاعل لا يتقدم على فعله، وأما عند الكوفيين والأخفش.. فهو مرفوع علىٰ الابتداء؛ لأن التقدير خلاف الأصل، والأول أولىٰ؛ لأن ﴿إِذَا﴾ فيها معنى الشرط، والشرط مختص بالفعل، وعلى الوجهين الجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها.

والحاصل: أن ﴿إِذَا﴾ في هذه المواضع الاثني عشر: ظرف مضمن معنىٰ الشرط، وجوابها ﴿عَلِمَتْ﴾، كما سيأتي، ومعنى ﴿كُوِّرَتْ﴾: لفت، من كورت العمامة إذا لففتها بضم بعض أجزائها إلى بعض علىٰ جهة الاستدارة، على أن المراد بذلك، إما رفعها وإزالتها من مقرها، فإن الثوب إذا أريد رفعه عن مكانه، وستره بجعله في صندوق أو غيره.. يلف لفاً ويطوىٰ، نظير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ فكان بين السماء والرفع علاقة اللزوم، فتكويرها كناية عن رفعها. قال سعدي المفتي: ولا منع من إرادة المعنىٰ الحقيقي أيضاً، وكون الشمس كرة مصمتة علىٰ تسليم صحته لا يمنع من تلك الإرادة؛ لجواز أن يحدث الله فيها قابلية التكوير، بأن يصيرها منبسطة، ثم يكورها، إن الله على كل شيءٍ قدير. انتهىٰ.

وأما لف ضوئها المنبسط في الآفاق، المنتشر في الأقطار، بأن يكون إسناد كورت إلىٰ ضمير الشمس مجازياً، أو بتقدير مضاف علىٰ أنه عبارة عن إزالتها، والذهاب بها بحكم استلزام زوال اللازم لزوال الملزوم، فاللف علىٰ هذا مجاز عن الإعدام، إذ لا مساغ لإرادة المعنىٰ الحقيقي؛ لأن الضوء لكونه من الأعراض لا يتصور فيه اللف، وقيل: معنى ﴿كُوِّرَتْ﴾: ألقيت من فلكها على وجه الأرض، كما

---

(١) روح البيان.

وصفت النجوم بالانكدار مأخوذ من طعنه فكوره إذا ألقاه علىٰ الأرض.

فالحاصل: أن التكوير، إما بمعنىٰ لف جرمها، أو لف ضوئها، أو الرمي بها. وفي الحديث: «إن الشمس والقمر نوران مكوران في النار يوم القيامة»؛ أي: مرميان فيها لازدياد الحر في جهنم، وكذا قال الطيبي: تكويرهما فيها ليعذب بهما أهل النار، لا سيما عباد الأنوار، لا ليعذبهما في النار، فإنهما بمعزل عن التكليف، بل سبيلهما في النار سبيل النار نفسها، وسبيل الملائكة الموكلين بها. انتهىٰ. وكذا قال في تفسير الفاتحة للفناري: إن السماء إذا طويت واحدة بعد واحدة.. يرمىٰ بكواكبها في النار.

فإن قيل: كيف يمكن تكويرهما في النار، وقد ثبت بالهندسة أن قرص الشمس في العظم يساوي كرة الأرض مئة وستين مرة وربع الأرض وثمنها؟.

أجيب: بأن الله تعالى قادر على أن يدخلها في قشرة جوزة علىٰ ذلك العظم، يقول الفقير[1]: قد ثبت أن الله تعالى يمد الأرض يوم القيامة، فتكون أضعاف ما كانت عليه على أن وسعة الدارين ثابتة لكثرة أهلهما ووسعتهم، لأنه ثبت أن ضرس الكافر مثل جبل أُحد، وجسمه مسيرة ثلاثة أيام، فإذا كان جسد كل كافر علىٰ هذا الغلظ والعظم.. فاعتبر منه ووسعة جهنم، فقرص الشمس في النار كجوزة في وسط بيت واسع، ولا يعرف حد الدارين إلا الله تعالى.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾؛ أي: وإذا النجوم تناثرت وذهب لألؤها، كما جاء في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ يقال: انكدر الطائر من الهواء إذا انقض، والأصل في الانكدار: الانصباب، قال أبو عبيدة: انصبت كما ينصب العقاب. قال الكلبي وعطاء: تمطر السماء يومئذٍ نجوماً، فلا يبقىٰ نجم في السماء إلا وقع علىٰ الأرض، وقيل: انكدارها: طمس نورها. و﴿ٱلنُّجُومُ﴾: جمع نجم، وهو الكوكب الطالع، وبه شبه طلوع النبات والرأي، فيقال: نجم النبت والرأي نجماً ونجوماً، فالنجم اسم مرة، ومصدر أخرى، وذلك أن النجوم ـ علىٰ ما روى ابن عباس رضي الله عنهما ـ قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور، وتلك السلاسل

---

(١) روح البيان.

بأيدي ملائكة من نور، فإذا مات من في السموات ومن في الأرض.. تساقطت تلك الكواكب من أيديهم؛ لأنه مات من يمسكها.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾؛ أي: وإذا الجبال قلعت عن أماكنها، ورفعت عن وجه الأرض، وأبعدت عن أماكنها، وسيرت في الهواء كالسحاب بالرجفة الحاصلة حين زلزلت الأرض، فتقطع أوصالها، وتقذف في الفضاء، وذلك حين النفخة الثانية، ونحو الآية قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾؛ أي: النوق الحوامل التي في بطونها أولادها، وهي أكرم الأموال لديهم وأعزها عندهم ﴿عُطِّلَتْ﴾؛ أي: أهملت ولم يعن بشأنها لاشتداد الخطب وفداحة الهول، و﴿الْعِشَارُ﴾: جمع عشراء، كنفاس ونفساء، وليس فعلاء يجمع علىٰ فعال غير عشراء ونفساء، كما في «القاموس». والعشراء: هي الناقة التي أتىٰ على حملها عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها إلى أن تضع لتمام السنة، وخص العشار؛ لأنها أنفس أموال العرب وأعزها عندهم، ومنها معظم أسباب معاشهم، ومعنىٰ: ﴿عُطِّلَتْ﴾: تركت هملاً بلا راع، والعطل: فقدان الزينة والشغل، ويقال لمن يجعل العالم بزعمه فارغاً عن صانع أتقنه وزينه ورتبه: معطل، وعطل الدار عن ساكنيها، والإبل عن راعيها.

والمعنى[1]: وإذا العشار تركت مسيبة مهملة غير منظور إليها مع كونها محبوبة مرغوبة عند أهلها؛ لاشتغال أهلها بأنفسهم، وذلك عند مجيء مقدمات قيام الساعة، فإن الناس حينئذٍ يتركون الأموال والأملاك، ويشتغلون بأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨﴾، وقال الإمام أبو الليث وغيره: هذا علىٰ وجه المثل، لأنه في القيامة لا تكون ناقة عشراء، يعني: إن هول القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء.. لعطلها، واشتغل بنفسه، لعلهم جعلوا يوم القيامة ما بعد النفخة الثانية، أو مبادي الساعة من القيامة، لكن يمكن وجود العشراء في المبادي، فلا يكون تمثيلاً، فيكون ذلك في الدنيا، وقيل:[2] العشار: السحاب، فإن العرب تشبهها بالحامل، ومنه قوله تعالى؛ ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢﴾ ومعنىٰ تعطيلها: عدم

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

إمطارها، وقيل: المراد أن الديار تعطل فلا تسكن، وقيل: الأرض التي تعشر زرعها تعطل فلا تزرع، وقيل: إذا قاموا من القبور.. شاهدوا الوحوش والدواب محشورة، وعشارهم فيها التي كانت كرائم أموالهم لم يعبؤوا بها لشغلهم بأنفسهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عُطِّلَتْ﴾ بالتشديد، وقرأ ابن كثير في رواية عنه بالتخفيف، وقيل: هو وهم، وعَطَلَت بفتحتين، بمعنىٰ: تعطلت؛ لأن التشديد فيه للتعدي، يقال منه: عطلت الشيء وأعطلته فعطل بنفسه، وعطلت المرأة فهي عاطل: إذا لم يكن عليها الحلي، فلعل هذه القراءة عن ابن كثير لغة استوى فيها فعلت وأفعلت، والله أعلم. انتهى.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ قال في «القاموس»: الوحش: حيوان البر كالوحيش، والجمع: وحوش وحشان، والواحد: وحشي، قال ابن الشيخ[2]: هو اسم لما يستأنس بالإنسان من حيوان البر، والمكان الذي لا أنيس فيه وحشي، وخلاف الوحشي: الأهلي. ﴿حُشِرَتْ﴾؛ أي: جمعت من كل جانب، واختلط بعضها ببعض وبالناس مع نفرة بعضها عن البعض وعن الناس أيضاً، وتفرقها في الصحارىٰ والقفار، وذلك الجمع من هول ذلك اليوم، وقيل: بعثت للقصاص إظهاراً للعدل. قال قتادة: يحشر كل شيء حتىٰ الذباب للقصاص، فيقتص للجماء من القرناء، فإذا قضي بينها.. ردت تراباً، فلا يبقىٰ منها إلا ما فيه سرور لبني آدم، وإعجاب بصورته، أو بصوته، كالطاووس والبلبل ونحوهما، فإذا بعثت الحيوانات للقصاص تحقيقاً لمقتضىٰ العدل، فكيف يجوز مع هذا أن لا يحشر المكلفون من الإنس والجن، وقيل: حشرها: موتها.

والمعنىٰ: أي ماتت وهلكت، تقول العرب إذا أضرت السنة بالناس، وأصابتهم بالقحط والجدب.. حشرتهم السنة؛ أي: أهلكتهم، وهلاكها يكون من هول ذلك الحادث العظيم.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿حُشِرَتْ﴾ بالتخفيف، وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

بالتشديد.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾؛ أي: أوقدت فصارت ناراً تضطرم، من سجر التنور: إذا ملأه بالحطب ليحميه. ووجه الإيقاد: أن جهنم في قعور البحار، وتحت أطباق الأرض، إلا أنها الآن مطبقة لا يصل أثر حرارتها إلى ما فوقها من البحار؛ ليتيسر انتفاع أهل الأرض بها، فإذا انتهت مدة الدنيا.. يرفع الحجاب، فيصل تأثير تلك النيران إلىٰ البحار، فتسخن فتصير حميماً لأهل النار، أو تبعث عليها ريح الدبور، فتنفخها وتضرمها، فتصير ناراً علىٰ ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما في وجه الإيقاد، فالمراد[1] من تسجيرها: إضرامها ناراً، فإن ما في باطن الأرض من النار يظهر بتشققها، وتمزق طبقاتها العليا، وحينئذٍ يصير الماء بخاراً، ولا يبقىٰ إلا النار.

وقد أثبت البحث العلمي غليان البراكين، وهي جبال النار التي في باطن الأرض، وتشهد لذلك الزلازل الشديدة التي تشق الأرض والجبال في بعض الأطراف، كما ظهر في مسِّينا بإيطاليا سنة (١٩٠٩م)، وحدث في اليابان بعد ذلك، وفي جاوا، وفي أغادير بالمغرب، وفي تركيا وإيران وجيانا، وجاء في بعض الأخبار: إن البحر غطاء جهنم، وقال الفراء: معنى سجرت: ملئت بأن صارت بحراً واحداً وكثر ماؤها

ووجه الامتلاء[2]: أن الجبال تندك وتفرق أجزاؤها، وتصير كالتراب الهائل الغير المتماسك، فلا جرم تنصب أجزاؤها في أسافلها، فتمتلىء المواضع الغائرة من الأرض، فيصير وجه الأرض مستوياً مع البحار، فتصير البحار بحراً واحداً مسجوراً؛ أي: ممتلئاً، وبه قال الربيع بن خثيم والكلبي ومقاتل والحسن والضحاك، وقال بعضهم: ملئت بإرسال عذبها علىٰ مالحها؛ أي: فجر الزلزال ما بينها حتى اختلطت وعادت بحراً واحداً، ثم أسيلت حتىٰ بلغت الثور، فابتلعها، فلما بلغت إلىٰ جوفه نفدت، وقال الحسن: يذهب ماؤها حتىٰ لا يبقىٰ فيها قطرة، قال الراغب: وإنما يكون كذلك لتسجير النار فيها؛ أي: إضرامها، وقيل: معنىٰ ﴿سُجِّرَتْ﴾: أنها صارت حمراء كالدم من قولهم: عين سجراء؛ أي: حمراء.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سُجِّرَتۡ﴾ بالتشديد، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف.

والتشديد[2] في مثل هذه الأفعال قد يكون لتكثير الفعل وتكريره، والتخفيف يحتمل القليل والكثير.

وخصت هذه السورة بـ ﴿سُجِّرَتۡ﴾ موافقة لقوله: ﴿سُعِّرَتۡ﴾، لأن معنىٰ ﴿سُجِّرَتۡ﴾ عند أكثر المفسرين: أوقدت فصارت ناراً، فيقع التوعد بتسجير النار، وتسجير البحار، وخصت سورة الانفطار بـ ﴿فُجِّرَتۡ﴾ موافقة لقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾، لأن في كلٍّ من تساقط الكواكب، وسيلان المياه علىٰ وجه الأرض، وبعثرة القبور؛ أي: قلب ترابها مزايلة الشيء عن مكانها.

وبعد أن عدد ما يحدث من مقدمات الفناء، وبطلان الحياة في الأرض، وامتناع المعيشة فيها.. أخذ يذكر ما يكون بعد ذلك من البعث والنشور، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ﴾ الظاهر: نفوس الإنسان، ويحتمل أن تعم الجن أيضاً، كما في بعض التفاسير. ﴿زُوِّجَتۡ﴾ التزويج: جعل أحد زوجاً لآخر، وهو يقتضي المقارنة؛ أي: قرنت الأرواح بأجسادها بأن ردت إليها حين النشأة الآخرة، قاله عكرمة والضحاك والشعبي. وفي[3] هذا إيماء إلىٰ أن النفوس كانت باقية من حين الموت إلى حين المعاد، فبعد أن كانت منفردة عن البدن.. تعود إليه، أو قرنت كل نفس[4] بشكلها، وبمن كان في طبقتها في الخير والشر، فيضم الصالح إلى الصالح في الجنة، ويضم رجل السوء إلى رجل السوء في النار، أو قرنت بكتابها أو بعملها، فالنفوس المتمردة زوجت بأعمالها السيئة، والمطمئنة بأعمالها الحسنة، أو نفوس المؤمنين بحور العين، ونفوس الكفرة بالشياطين، وقيل: قرن كل رجل إلىٰ من كان يلازمه من ملك أو سلطان، كما في قوله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، أو قرن كل عابد بمعبوده من دون الله تعالى، أو قرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان، وقرن المطيع بمن دعاه إلىٰ الطاعة من الأنبياء والمؤمنين.

وقرأ الجمهور: بواو مشددة، وقرأ عاصم في رواية: ﴿زووجت﴾ علىٰ وزن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

فوعلت، والمفاعلة تكون بين الإثنين. ا هـ من «البحر».

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾؛ أي: البنت المدفونة حية، يقال: وأد بنته يئدها وأداً، وهي مؤودة إذا دفنها في القبر وهي حية، وكانت العرب تئد البنات مخافة الإملاق أو الاسترقاق أو لحوق العار بهم من أجلهن، وكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به، فهو أحق بهم، فقد كان الوأد يتم في صورة بشعة قاسية تقشعر لهولها الأبدان، وتذوب لها القلوب حسرات. قال في «الكشاف»[1]: فقد كان الرجل الجاهلي، إذا ولدت له بنت، فأراد أن يستحييها، ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعىٰ له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية؛ أي: بلغت من العمر ست سنوات.. قال لأمها: طيبيها وزينيها حتىٰ أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فيأخذها من أمها المسكينة الحزينة، فيذهب بها حتىٰ يبلغ بها البئر، هذا الوالد القاسي الذي هو الوحش الكاسر بعينه، فيقول لها وهو واقف علىٰ حافة البئر: انظري فيها، فتنظر الفريسة المسكينة فيها، فيدفعها من خلفها، ويسقطها في البئر، ثم يهيل عليها التراب حتىٰ تستوي البئر بالأرض، فيالله ما أعظم هذه القسوة، وما أبشع هذه الجريمة، وما أغلظ هذه القلوب التي قدت من صخر، إذ تقتل البريئات، وتسفك دم الطفلات الطاهرات بغير جرم سوىٰ خوف الفقر أو خوف العار، ويروىٰ أنه كانت المرأة في الجاهلية إذا قرب أوان وضعها حفرت الحفرة، فتمخضت علىٰ رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابناً حبسته وأبقته إليها، وكانت هذه حال العرب قبل الإسلام، حتىٰ جاءهم الله تعالى بهذا الدين العظيم، فلما خالطت بشاشة قلوبهم غيرتها إلىٰ قلوب رحيمة رقيقة كريمة جياشة بالرأفة والحنان، فمحا الإسلام عنهم وصمة هذا العار و هذا الخزي، فما أعظم نعمة الإسلام علىٰ الإنسانية بأسرها؛ لمحوه هذه العادة القبيحة منهم، وغيرها من سيء العادات.

﴿سُئِلَتْ﴾؛ أي: سألها الله سبحانه وتعالى بنفسه إظهاراً للعدل، أو بأمره للملك ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ﴾ من الذنوب الموجبة للقتل عقلاً ونقلاً ﴿قُتِلَتْ﴾؛ أي: قتلها أبوها حيةً فعلاً أو رضىٰ، وتوجيه السؤال إليها لتسليتها، وإظهار كمال الغيظ والسخط

---

(١) الكشاف بتصرف وزيادة.

لوائدها، وإسقاطه عن درجة الخطاب، والمبالغة في تبكيته، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾، ولذا لم يسأل الوائد عن موجب قتله لها.

وجه التبكيت: أن المجني عليه إذا سئل بمحضر من الجاني، ونسب إليه الجناية دون الجاني.. كان ذلك بعثاً للجاني علىٰ التفكر في حال نفسه وحال المجني عليه، فيعثر علىٰ براءة ساحة صاحبه، وعلىٰ أنه هو المستحق لكل نكالٍ فيفحم، وهذا النوع من الاستدراج واقع علىٰ سبيل التعريض، وهو أبلغ، فلذلك اختير علىٰ التصريح، وإنما قال: ﴿قُتِلَتْ﴾ علىٰ الغيبة لما أن الكلام إخبار عنها، لا حكاية لما خوطبت به حين سئلت، فيقال: قتلت علىٰ الخطاب، وعلى قراءة: ﴿سألت﴾: أي: الله، أو قاتلها، لا حكاية لكلامها حين سألت فيقال: قتلت علىٰ الحكاية عن نفسها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه سئل عن أطفال المشركين، فقال: لا يعذبون، احتج بهذه الآية، فإنه ثبت بها أن التعذيب لا يستحق إلا بالذنب، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن الوائدة والموؤودة في النار؛ أي: إذا كانت الموؤودة بالغةً.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ بهمزة بين الواوين اسم مفعول. وقرأ البزي في رواية: ﴿الموؤدة﴾ بهمزة مضمومة علىٰ الواو، فاحتمل أن يكون الأصل: الموؤودة، كقراءة الجمهور، ثم نقل حركة الهمزة إلىٰ الواو بعد حذف الهمزة، ثم همز الواو المنقول إليها الحركة، واحتمل أن يكون اسم مفعول من آد، فالأصل: مأوودة، فحذفت إحدى الواوين علىٰ الخلاف الذي فيه المحذوف واو المد، أو الواو التي هي عين الكلمة نحو: مقوول؛ حيث قالوا فيه: مقول. وقرىء ﴿الموودة﴾ بضم الواو الأولىٰ، وتسهيل الهمزة، أعني: التسهيل بالحذف ونقل حركتها إلىٰ الواو، وقرأ الأعمش: المودة بسكون الواو علىٰ وزن الفعلة كالمودة، وكذا وقف حمزة بن مجاهد، ونقل الفراء: أن حمزة يقف عليها، كالموودة؛ لأجل الخط؛ لأنها رسمت كذلك، والرسم سنة متبعة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سُئِلَتْ﴾ مبنياً للمفعول، ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ كذلك بتخفيف التاء، وبتاء التأنيث فيهما. وقرأ الحسن والأعرج: ﴿سيلت﴾ بكسر السين

---

(١) البحر المحيط.

من سال يسيل، وذلك على لغة من قال سال بغير همزة. وقرأ أبو جعفر بشد الياء، لأن الموؤودة اسم جنس، فناسب التكثير باعتبار الأشخاص. وقرأ ابن مسعود وعلي وابن عباس وجابر بن زيد وأبو الضحى ومجاهد: ﴿سألت﴾ مبنياً للفاعل ﴿قتلت﴾ بسكون اللام وضم التاء حكايةً لكلامها حين سألت، وعن أبي وابن مسعود أيضاً والربيع بن خيثم وابن يعمر ﴿سألت﴾ مبنياً للفاعل، ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ مبنياً للمفعول بتاء التأنيث فيهما إخباراً عنها، ولو حكي كلامها.. لكان قتلت بضم التاء، وفي مصحف أبي: ﴿وإذا الموؤودة سألت بأي ذنب قتلتني﴾. ومعنى: سألت على قراءة البناء للفاعل: أن المقتولة تتعلق بأبيها يوم القيامة، فتقول: بأي ذنب قتلتني، فلا يكون له عذر، قاله ابن عباس، وروى عكرمة عن ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقاً ولدها بثدييها، ملطخاً بدمائه، فيقول: يا رب هذه أمي، وهذه قتلتني».

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾؛ أي: صحف[1] الأعمال ﴿نُشِرَتْ﴾؛ أي: فتحت للحساب، فإنها تطوى عند الموت، وتنشر عند الحساب؛ أي: تفتح فيعطاها الإنسان منشورةً بأيمانهم وشمائلهم، فيقف على ما فيها، وتحصى عليه جميع أعماله، فيقول: مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وعن أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة»، فقلت يا رسول الله: فكيف بالنساء؟ قال: «شغل الناس يا أم سلمة»، قلت: وما شغلهم؟ قال: «نشر الصحف فيها مثاقيل الذر، ومثاقيل الخردل». ونقل الزمخشري قول المرشد بن وداعة قال: إذا كان يوم القيامة.. تطايرت الصحف من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية، وتقع صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم؛ أي: مكتوب فيها ذلك، وهي صحف غير صحف الأعمال.

وقرأ أبو رجاء[2]، وقتادة والحسن والأعرج وشيبة وأبو جعفر ونافع وابن عامر وعاصم ﴿نُشِرَتْ﴾ بتخفيف الشين، وباقي السبعة: بتشديدها.

والمعنى[3]: أي وإذا صحف الأعمال ظهرت للعاملين في موقف الحساب، حتى لا يرتابوا فيها، ولا ينبغي أن نبحث عن تلك الصحف؛ لنعلم أهي على مثال

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

الأوراق التي تكتب فيها في الدنيا، أم تشبه الألواح أو نحو ذلك مما جرىٰ استعماله في الكتابة، فإن ذلك مما لا يصل إليه علمنا، ولم يجيء نص قاطع عن المعصوم ﷺ يفسر ذلك.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١﴾؛ أي: قلعت[1] وأزيلت بحيث ظهر ما وراءها، وهو الجنة والعرش، كما يكشط الإهاب عن الذبيحة، والغطاء عن الشيء المستور به، والكشط: قلع عن شدة التزاق، والقشط بالقاف: لغة فيه، وهي قراءة ابن مسعود، قال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف، وقال الفراء: نزعت فطويت.

والمعنىٰ: أزيلت فلم يبق غطاء ولا سماء، ولم يوجد ما يطلق عليه اسم الأعلىٰ والأسفل.

وقرأ عبد الله: ﴿قشطت﴾ بالقاف، وهما كثيراً ما يتعاقبان، كقولهم: عربي قح وكح، وتقدمت قراءته ﴿قافوراً﴾؛ أي: كافوراً.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِرَتۡ ۝١٢﴾، أي: أوقدت للكافرين إيقاداً شديداً لتحرقهم إحراقاً أبدياً، سعرها غضب الله تعالىٰ وخطايا بني آدم، فإسعار النار: زيادة التهابها لا حدوثها ابتداءً، وبه يندفع احتجاج من قال: النار غير مخلوقة الآن؛ لأنها تدل علىٰ أن تسعرها معلق بيوم القيامة، وذلك لأن فيه الزيادة والاشتداد.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص وابن ذكوان[2]: ﴿سُعِّرَتۡ﴾ بالتشديد؛ لأنها أوقدت مرة بعد مرة، وقرأ باقي السبعة وعلي بالتخفيف.

والمعنىٰ: أي وإذا جهنم التي يعاقب فيها أهل الكفر والطغيان.. أوقدت إيقاداً شديداً، فيكون ألم من يدخل فيها من أشد الآلام التي تحدث عن مس النيران للأجسام الحية، وقد جاء في سورة البقرة: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣﴾ أي: قربت[3] إلى المتقين، وأدنيت منهم ليدخلوها، كقوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾، وقال الحسن: إنهم يقربون منها، لا أنها تزول عن موضعها، فالمراد من التقريب التعكيس للمبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ حيث تعرض النار عليهم تحقيراً وتحسيراً

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

فقلب مبالغة، ويحتمل أن يكون المراد التقريب المعنوي، وهو جعل أهلها مستحقين لدخولها مكرمين فيها، والأول أولىٰ. قيل: هذه الأمور الاثنا عشر ستة منها في الدنيا؛ أي: فيما بين النفختين، وهي من أول السورة إلى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ وستة في الآخرة؛ أي: بعد النفخة الثانية، وهي: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ إلىٰ هنا. وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: ستة آيات قبل القيامة، بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال علىٰ وجه الأرض فتحركت واضطربت وفزعت الجن إلىٰ الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، وماج بعضهم في بعض، فحينئذٍ تقول الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فينطلقون إلىٰ البحر، فإذا هو نار تتأجج؛ أي: تتلهب، قال: فبينما هم كذلك إذ صدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم. كذا في «المعالم».

وجواب الجميع قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ وقدمت علىٰ أن المراد بها زمان واحد متسع محيط بما ذكر من أول السورة إلىٰ هنا من الاثني عشر شيئاً، مبدأه النفخة الأولىٰ، ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق، لكن لا بمعنىٰ أنها تعلم ما تعمل في كل جزء من أجزاء ذلك الوقت المديد، أو عند وقوع داهية من تلك الدواهي، بل عند نشر الصحف إلا أنه لما كان بعض تلك الدواهي من مباديه، وبعضها من روادفه نسب علمها بذلك إلىٰ زمان وقوع كلها تهويلاً للخطب، وتفظيعاً للحال؛ أي: علمت ما أحضرته في صحيفة عملها، وما أحضرته في موقف المحاسبة وعند الميزان؛ لأن الأعمال أعراض لا يمكن إحضارها. اهـ «زاده».
أي: علمت[1] كل نفس من النفوس ما أحضرته واكتسبته من الأعمال خيراً أو شراً، علىٰ حذف العائد إلى الموصول، فـ﴿نَفْسٌ﴾ في معنى العموم، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾، وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾، وقولهم ـ: إن النكرة في سياق الإثبات لا تعم، بل هي للأفراد النوعية ـ غير مطرد، ويجوز أن يكون التنوين للأفراد الشخصية إشعاراً بأنه إذا

---

(١) روح البيان.

علمت حينئذٍ نفس من النفوس ما أحضرت.. وجب علىٰ كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هي التي علمت ما أحضرت، فكيف وكل نفس تعلمه علىٰ طريقة قولك لمن تنصحه: لعلك ستندم علىٰ ما فعلت، وربما ندم الإنسان علىٰ ما فعل، فإنك لا تقصد بذلك أن ندمه مرجو للوجود لا متيقن به، أو نادر الوقوع، بل تريد أن العاقل يجب عليه أن يجتنب أمراً يرجىٰ فيه الندم، أو قلما يقع فيه، فكيف إذا كان قطعي الوجود كثير الوقوع.

والمراد بـ﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾: أعمالها من الخير والشر، وبحضورها: إما حضور صحائفها كما يعرب عنه نشرها، وإما حضور أنفسها لأن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح علىٰ كيفيات مخصوصة وهيئات معينة، وإسناد حضورها إلىٰ النفس مع أنها تحضر بأمر الله، لما أنها عملتها في الدنيا كأنها أحضرتها في الموقف، ومعنىٰ علمها بها حينئذٍ: أنها تشاهدها علىٰ ما هي عليه في الحقيقة، فإن كانت صالحة.. تشاهدها علىٰ صور أحسن مما كانت تشاهدها عليه في الدنيا؛ لأن الطاعة لا تخلو فيها عن نوع مشقة، وقد ورد: «حفت الجنة بالمكاره»، وإن كانت سيئة تشاهدها علىٰ ما هي عليه ههنا؛ لأنها كانت مزينة لها موافقة لهواها، كما ورد: «وحفت النار بالشهوات». وقال بعضهم[1]: العلم بالأعمال كناية عن المجازاة عليها من حيث إن العلم لازم للمجازاة.

والمعنىٰ[2]: أي إذا حصل كل ما تقدم من الأحداث السالفة.. تعلم كل ما كان من عملها متقبلاً، وما كان منه مردوداً عليها، فكثير من الناس كانوا في الحياة الدنيا مغرورين بما تزينه لهم الشياطين، وسيجدون أعمالهم يوم القيامة غير مقبولة ولا مرضي عنها، بل هي مبعدة من الله مستحقة لغضبه، فالذين يعملون أعمالهم رئآء الناس ليس لهم من عملهم إلا الجهد والمشقة، ولا تكون متقبلة عند ربهم، فعلينا أن ننظر إلىٰ الأعمال بمنظار الشرع، ونزنها بميزانه الصحيح، والله لا يتقبل من الأعمال إلا ما صدر عن قلب مليء بالإيمان عامر بحبه والرغبة في رضاه، والحرص علىٰ أداء واجباته التي فرضها عليه.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ ﴿لا﴾ صلة؛ أي: زائدة، أورد لكلام سابق؛ أي: ليس الأمر كما تزعمون أيها الكفرة من أن القرآن سحر أو شعر أو أساطير، ثم ابتدأ فقال: أقسم ﴿بِٱلۡخُنَّسِ﴾؛ أي: بالكواكب الرواجع من آخر الفلك إلى أوله ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾؛ أي: التي تجري مع الشمس والقمر ﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾؛ أي: التي تختفي تحت ضوء الشمس. والخنس: جمع خانس، وهو المتأخر، من خنس الرجل عن القوم خنوساً ـ من باب دخل ـ: إذا تأخر، وأصل الخنس: الرجوع إلىٰ خلف، والخناس: الشيطان؛ لأنه يضع خرطومه علىٰ قلب العبد، فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل عاد إلىٰ الوسوسة.

والمعنىٰ: أقسم بالكواكب الرواجع من آخر الفلك إلى أوله، وهي ما عدا النيرين من السبعة السيارة، وهي الدراري الخمسة، وهي: زحل، ويسمى: كيوان أيضاً، وهو في السماء السابعة، والمشتري، ويسمى: راويس وبرجيس أيضاً، وهو في السماء السادسة، والمريخ ـ بكسر الميم ـ، ويسمىٰ: بهرام أيضاً، وهو في السماء الخامسة، والشمس في الرابعة، والزهرة، وتسمىٰ: أناهيذ أيضاً، وهي في السماء الثالثة، وعطارد، ويسمىٰ: الكاتب أيضاً، وهو في السماء الثانية، والقمر في السماء الدنيا؛ أي: الأولى، ونظمها بعضهم في بيت واحد على ترتيبها في السموات:

زُحَلٌ شَرَىٰ مِرِّيْخَهُ مِنْ شَمْسِهِ ... فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدَ ٱلأَقْمَارُ

وهي[1] الكواكب السبعة السيارة، كل منها يجري في فلك، فزحل في السابع، وما يليه في السادس، والجواري حذفت منه الياء في رسم المصحف تبعاً للفظ، جمع: جارية بمعنىٰ: سائرة. و ﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾: جمع كانس، وهو الداخل في الكناس؛ أي: في الحجاب والستارة المستتر به، وصفت الخنس بالجوار الكنس؛ لأنها تجري في أفلاكها، أو بأنفسها علىٰ ما عليه أهل الظواهر مع الشمس والقمر، وترجع حتىٰ تخفىٰ تحت ضوء الشمس، فخنوسها رجوعها بينا ترىٰ النجم في آخر البرج إذ كرَّ راجعاً في أوله، فرجوعه من آخر البرج إلىٰ أوله هو الخنوس، وكنوسها: اختفاؤها تحت ضوئها، وأما القمران.. فلا يكنسان بهذا المعنىٰ، وقال

---

(١) روح البيان.

في «عين المعاني»: لخنوسها في مجراها، واستتارها في كناسها؛ أي: في موضع استتارها فيه، كما تكنس الظباء. انتهى. من كنس الوحش ـ من باب جلس ـ إذا دخل كناسه، وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر، وقيل: جميع الكواكب تخنس بالنهار، فتغيب عن العيون، وتكنس بالليل؛ أي: تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها، وقيل: المراد[1] بها: بقر الوحش؛ لأنها تتصف بالخنس وبالجوار وبالكنس. وقال عكرمة: الخنس البقر، والكنس الظباء، فهي تخنس إذا رأت الإنسان، وتنقبض وتتأخر وتدخل كناسها. وقيل: هي الملائكة، والأول أولىٰ لذكر الليل والصبح بعد هذا.

ووجه تخصيص هذه الخمسة بالذكر من بين سائر النجوم: أنها تستقبل الشمس، وتقطع المجرة؛ أي: الفلك. وقال في «الصحاح»: الخنس: الكواكب كلها؛ لأنها تخنس بالنهار فتغيب عن العيون، وتكنس بالليل؛ أي: تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها، وقد أقسم بها سبحانه لما في حركتها وظهورها طوراً، واختفائها طوراً آخر من الدلائل على قدرة مصرفها، وبديع صنعه، وإحكام نظامه، ولله سبحانه وتعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان أو جماد، وإن لم يُعلم وجه الحكمة في ذلك، أما العبد.. فليس له ذلك، إذ لا يجوز له أن يقسم إلا بالله تعالى.

﴿وَالَّيْلِ﴾ معطوف على ﴿الخنس﴾، ﴿إِذَا عَسْعَسَ﴾؛ أي: أدبر[2] ظلامه، لأن إقبال الصبح يكون بإدبار الليل، كما قال في «الوسيط»: لما كان طلوع الصبح متصلاً بإدبار الليل.. كان المناسب أن يفسر عسعس بأدبر؛ ليكون التعاقب في الذكر علىٰ حسب التعاقب في الوجود. انتهى. أو أقبل، فإنه من الأضداد كذلك سعسع، وذلك في مبدأ الليل، وهذا المعنى أنسب لمراعاة المقابلة مع قرينه، وقال المبرد: عسعس الليل: أقبل أو أدبر، وهو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلىٰ شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره.

﴿وَالصُّبْحِ﴾ معطوف عليه ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾، أي: أضاء وأشرق، والعامل في ﴿إذا﴾ معنىٰ القسم، و ﴿إذا﴾ وما بعدها في موضع الحال؛ أي: وأقسم بالليل مدبراً،

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

وبالصبح مضيئاً، يقال: تنفس الصبح إذا تبلج؛ أي: أسفر وأضاء. جعل تنفس الصبح عبارةً عن طلوعه وانبساطه تحت ضوئه، بحيث زال معه عسعسة الليل، وهي الغبرة الحاصلة في آخره، والنفس في الأصل: ريح مخصوص يروح القلب ويفرج عنه بهبوبه عليه.

والمعنىٰ[1]: أي وأقسم بالليل إذا أدبر وولىٰ، وفي إدباره زوال الغمة التي تغمر كثيراً من الأحياء إذا ما دهمها الليل، وخيم عليها بظلامه المرهب المخيف، فإذا انجابت الظلمة وانحسر الليل وأدبر.. ارتاحت النفوس الخائفة، وتنفست باستقبال فجر جديد ويوم جديد، وأقسم بالصبح إذا أسفر وأضاء وظهر نوره في الوجود، وفي انشقاق الفجر وانبلاج ضوئه، وانفلاق صبحه بشرىٰ للأنفس البشرية بحياة جديدة في نهار جديد، إذ تنطلق الإرادات لتحصيل الرغبات، وسد الحاجات، واستدراك ما فات، والاستعداد لما هو آت، بعملها الجديد في جنات معروشات، قال الزمخشري: إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفساً له علىٰ سبيل المجاز كما سيأتي في مبحث البلاغة، ثم ذكر المحلوف عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي:[2] إن هذا القرآن الكريم الناطق بما ذكر من الدواهي الهائلة، فالضمير للقرآن، وإن لم يجر له ذكر للعلم به، أو إن ما أخبركم به محمد ﷺ من أمر الساعة علىٰ ما ذكر في هذه السورة وغيرها. ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ عظيم، وسفير ﴿كَرِيمٍ﴾ بين الله سبحانه وبين رسله بسر وحيه هو جبريل عليه السلام، أتاه به من عند الله سبحانه إلى محمد ﷺ، ليس بكهانة ولا اختلاق من عند محمد ﷺ، بل هو قول نزل به جبريل وحياً من ربه، فأضافه إلىٰ جبريل الذي هو أمين وحيه، وهو في الحقيقة قول الله؛ لأنه جاء به من عند الله تعالىٰ، فإسناده إليه باعتبار السببية الظاهرة في الإنزال والإيصال، ويدل علىٰ أن المراد بالرسول هو جبريل ما بعده من ذكر قوته ونحوها. قال السهيلي: ولا يجوز أن يراد بالرسول النبي ﷺ، وإن كان رسولاً كريماً؛ لأن الآية نزلت في معرض الرد والتكذيب لمقالة الكفار الذين قالوا: إن محمداً ﷺ تقوله، وهو قوله، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ جبريل الأمين عليه السلام. ووصفه بـ﴿رَسُولٍ﴾؛ لأنه رسول عن الله إلى الأنبياء، ثم وصف هذا

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الرسول بأوصاف خمسة[1]:

١ - ﴿كَرِيمٍ﴾؛ أي: عزيز على ربه عظيم عنده، إذ أعطاه أفضل العطايا، وهي الهداية والإرشاد، وأمره أن يوصلها إلىٰ أنبيائه ليبلغوها لعباده، وكذا كريم عند الناس؛ لأنه يجيء إليهم بواسطة الرسول بأفضل العطايا، وهو المعرفة والهداية، ويتعطف علىٰ المؤمنين ويقهر الأعداء.

٢ - ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ قوية في الحفظ والبعد عن النسيان والخطأ، وقد جاء في آية أخرى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾؛ أي: ذي[2] قدرة شديدة علىٰ ما يكلف به، لا عجز ولا ضعف، روي أنه ﷺ قال لجبريل: «ذكر الله سبحانه قوتك، فأخبرني بشيء من آثارها» قال: رفعت قريات قوم لوط الأربع من الماء الأسود بقوادم جناحي، حتىٰ سمع أهل السماء نباح الكلب، وأصوات الديكة، ثم قلبتها. ومن قوته: أنه صاح صيحةً واحدةً بثمود فأصبحوا جاثمين، وأنه يهبط من السماء إلىٰ الأرض ويصعد في أسرع من الطرف، وأنه رأىٰ شيطاناً يقال له: الأبيض صاحب الأنبياء، قصد أن يتعرض للنبي ﷺ، فدفعه دفعة رفيقة وقع بها من مكة إلىٰ أقصىٰ الهند. وقيل: المراد بالقوة: القوة في أداء طاعة الله، وترك الإخلال بها من أول الخلق إلىٰ آخر زمان التكليف.

٣ - ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ وخالقه ومالكه، والظرف متعلق بقوله: ﴿مَكِينٍ﴾؛ أي: ذي مكانة رفيعة، ومنزلة عظيمة، وجاه عظيم عند مالك العرش وخالقه، فالعندية عندية إكرام وتشريف، لا عندية مكان وجهة، فإنه تعالىٰ منزه عن أماثلها، ونظيره قوله: «أنا عند المنكسرة قلوبهم» فإن المراد به: القرب والإكرام، ومن مكانته عند الله تعالى ومرتبته أنه جعله تالي نفسه في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فله عظيم منزلة عندية، فأين منزلة من يلازم السلطان عند سرير الملك من مرتبة من يلازمه عند الوضوء ونحوه.

٤- ﴿مُّطَاعٍ﴾ فيما بين الملائكة المقربين، يصدرون عن أمره، ويرجعون إلى رأيه لعلمهم بمنزلته عند الله تعالىٰ، قال: في «فتح الرحمن»: ومن طاعتهم له أنهم

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

فتحوا أبواب السماء ليلة المعراج بقوله لرسول الله ﷺ، وطاعة جبريل فريضة علىٰ أهل السموات؛ كما أن طاعة محمد ﷺ فريضة علىٰ أهل الأرض ﴿ثَمَّ﴾؛ أي: عند ذي العرش.

٥ - ﴿أَمِينٍ﴾ علىٰ سر وحيه، وتبليغ رسالته إلى أنبيائه قد عصمه الله تعالى من الخيانة فيما يبلِّغه، والزلل فيما يقوم به من الأعمال، و ﴿ثَمَّ﴾ بفتح المثلثة: ظرف مكان؛ إما لما قبله؛ أي: مطاع هناك؛ أي: في السموات، وإما لما بعده؛ أي: مؤتمن عند الله تعالى علىٰ وحيه ورسالاته إلىٰ أنبيائه، فيكون إشارةً إلىٰ عند ذي العرش؛ أي: أمين عند ذي العرش جل وعلا.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿ثم﴾ بفتح المثلثة علىٰ أنها ظرف مكان للبعيد، والعامل فيها: ﴿مُّطَاعٍ﴾ أو ما بعده كما مر آنفاً، وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وأبو برهشيم وابن مقسم: ﴿ثم﴾ بضمها حرف عطف علىٰ أنها عاطفة للترتيب والتراخي في الرتبة؛ لأن ما بعدها أعظم مما قبلها، وقال صاحب «اللوامح»: ﴿ثم﴾ هنا بمعنىٰ الواو العاطفة لأن معنى المهلة والتراخي لا يصلح هنا، وذلك لأن جبريل عليه السلام كان متصفاً بالصفتين معاً في حال واحدة، فهو مطاع أمين معاً، فلو ذهب ذاهب إلىٰ الترتيب والمهلة في هذا العطف بمعنىٰ مطاع في الملأ الأعلىٰ، ثم أمين عند انفصاله عنهم حال وحيه إلى الأنبياء عليهم السلام.. لجاز أن لو ورد به أثر. انتهىٰ.

وبعد أن وصف الرسول وصف المرسل إليه، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يا أهل مكة وهو رسول الله ﷺ، معطوف علىٰ جواب القسم، ولذا قال في «فتح الرحمن»: وهذا أيضاً جواب القسم ﴿بِمَجْنُونٍ﴾؛ أي: صاحب جنون؛ أي: وليس[٢] محمد ﷺ بالمجنون، كما كانت ترميه قريش بذلك حين كانت تسمع منه غريب الأخبار عن اليوم الآخر، مما لم يكن معروفاً لهم، كما حكي عنهم في قوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾، وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾، وهذه الجملة داخلة في جواب القسم كما مر، فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل، وأن محمداً ﷺ ليس كما يقولون من أنه مجنون، وأنه يأتي بالقرآن من جهته، وفي التعرض لعنوان المصاحبة تلويح بإحاطتهم بتفاصيل أحواله ﷺ خبراً، وعلمهم بنزاهته ﷺ عما نسبوه إليه بالكلية، واستدلال[1] عليهم، وإقامة للحجة علىٰ كذبهم في دعواهم، فإنه إذا كان صاحبهم، وكانوا قد خالطوه وعاشروه، وعرفوا عنه ما لم يعرفه سواهم من استقامة وصدق لهجة وكمال عقل ووفور حلم، وتفوق علىٰ جميع الأنداد والأتراب في صفات الخير.. لم يكن ادعاؤهم عليه ما يناقض ذلك إلا باطلاً من القول وزوراً.

وقد استدل بهذا[2] على فضل جبريل عليه السلام علىٰ رسول الله ﷺ، حيث وصف جبريل بست خصال، كل واحدة منها تدل علىٰ كمال الشرف ونباهة الشأن، واقتصر في ذكر رسول الله ﷺ علىٰ نفي الجنون عنه، وبين الذكرين تفاوت عظيم.

ولكن هذه الاستدلال ضعيف؛ إذ المقصود هنا: رد قول الكفرة في حقه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ لا تعداد فضائلهما، والموازنة بينهما، علىٰ أن في توصيف جبريل بهذه الصفات بياناً لشرف سيد المرسلين بالنسبة إليه من حيث إن جبريل مع هذه الصفات هو الذي يؤيده، ويبلغ الرسالة إليه، فأي رتبة أعلىٰ من مرتبته بعد ما ثبت أن السفير بينه وبين ذي العرش مثل هذا الملك المقرب؟.

وقال سعدي المفتي: الكلام مسوق لحقية المنزل دلالة علىٰ صدق ما ذكر فيه من أهوال القيامة على ما يدل عليه الفاء السببية في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾، ولا شك أن ذلك يقتضي وصف الآتي، فلذلك بولغ فيه دون وصف من أنزل عليه، فلذلك اقتصر فيه علىٰ نفي ما بهتوه. انتهى.

واللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ موطئة للقسم؛ أي: وعزتي وجلالي لقد رأىٰ وأبصر محمد ﷺ جبريل عليه السلام علىٰ صورته الأصلية بالأفق المبين؛ أي: بمطلع الشمس الأعلىٰ من قبل المشرق، فالمراد[3] بالأفق هنا: حيث

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

تطلع الشمس، استدلالاً بوصفه بـ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾، فإن نفس الأفق لا مدخل له في تبين الأشياء وظهورها، وإنما يكون له مدخل في ذلك من حيث كونه مطلعاً لكوكب نير يبين الأشياء، والكوكب المبين هو الشمس، إسناد الإبانة إلىٰ مطلعها مجاز باعتبار سببيته لها في الجملة، فإن البيان في الحقيقة لضياء الطالع منه، ثم خصَّ من بين المطالع ما هو أعلىٰ المطالع وأرفعها، وهو المطلع الذي إذا طلعت الشمس منه تكون في غاية الارتفاع، والنهار في غاية الطول والامتداد، وذلك عندما تكون الشمس عند رأس السرطان قبل تحولها إلىٰ برج الأسد، وتوجه النهار إلى انتقاص، وإنما فعل ذلك حملاً للمبين علىٰ الكمال، فإنه كلما كان الكوكب أرفع وأعلى، وكلما كان النهار أطول.. كان البيان والإظهار أتم وأكمل. وإنما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ مع أنه قد رآه غير مرة؛ لأنه رآه هذه المرة في صورته، له ست مئة جناح. قال سفيان: إنه رآه في أفق السماء الشرقي، وقال ابن بحر: في أفق السماء الغربي، وقال مجاهد: رآه نحو أجياد، وهو مشرق مكة. روي أن الرسول ﷺ: سأل جبريل أن يتراءىٰ له في صورته التي خلقه الله عليه، فقال: ما أقدر علىٰ ذلك، وما ذاك إليَّ، فأذن له، فأتاه عليها، وذلك في جبل حراء في أوائل البعثة، فرآه رسول الله ﷺ قد ملأ الآفاق بكُلْكُل ـ الكلكل بوزن هدهد: الجسم الكبير الغليظ ـ رجلاه في الأرض، ورأسه في السماء، جناح له بالمشرق، وجناح له بالمغرب، وله ست مئة جناح من الزبرجد الأخضر، فغشي عليه ﷺ، فتحول جبريل في صورة بني آدم، وضمه إلىٰ نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، فقيل لرسول الله ﷺ: ما رأيناك منذ بعثت أحسن منك اليوم، فقال: «جاءني جبريل في صورته، فعلق بي هذا من حسنه». قالوا: ما رآه أحد من الأنبياء غيره ﷺ في صورته التي جبل عليها، فهو من خصائصه ﷺ. قيل: هذه الرؤية بعد أمر غار حراء حين رآه علىٰ كرسي بين السماء والأرض في صورته، له ست مئة جناح، وقيل: هي الرؤية التي رآه فيها عند سدرة المنتهىٰ.

وقد ذكرت هذه الرؤية في سورة النجم في قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾. ﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: وما محمد ﷺ، ﴿عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾، أي: علىٰ ما يخبره من الوحي إليه وغيره من الغيوب مما كان علمه غائباً عن أهل مكة ﴿بِضَنِينٖ﴾؛ أي: ببخيل؛ أي: لا يبخل

بالوحي فيزوي بعضه غير مبلغه، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده عن أهله، حتىٰ يأخذ حلواناً؛ أي: أجرة، أو يسأل تعليمه فلا يعلمه، وفيه إشارة إلىٰ أن إمساك العلم عن أهله بخل، مأخوذ من ضن بالشيء يضن ـ بالفتح ـ ضناً بالكسر وضنانة ـ بالفتح ـ: إذا بخل، فيكون من باب علم، كما سيأتي بسطه في مبحث التصريف.

وهكذا قرأ: ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضاد المعجمة عثمان وابن عباس أيضاً، والحسن وأبو رجاء والأعرج وأبو جعفر وشيبة وجماعة غيرهم وجمهور السبعة: نافع وعاصم وحمزة وابن عامر. قال في «النشر»: هو كذلك في جميع خطوط المصاحف التي يتداولها الناس، وقرأ عبد الله وابن جبير وعروة وهشام بن جندب ومجاهد وغيرهم، ومن السبعة: ابن كثير وأبو عمرو الكسائي: ﴿بظنين﴾ بالظاء المشالة علىٰ أنه فعيل بمعنىٰ: مفعول، أي: بمتهم، من الظنة ـ بكسر الظاء ـ: وهي التهمة، واختار أبو عبيدة هذه القراءة؛ لأن الكفار لم يبخلوه، وإنما اتهموه، فنفي التهمة أولىٰ من نفي البخل، ولأن البخل يتعدىٰ بالباء لا بعلىٰ، والمعنىٰ علىٰ هذه القراءة: أي: وليس محمد بمتهم علىٰ القرآن، وما فيه من قصص وأنباء وأحكام، بل هو ثقة أمين، لا يأتي به من عند نفسه، ولا يبدل منه حرفاً بحرف، ولا معنى بمعنى، إذ لم يعرف عنه الكذب في ماضي حياته، فهو غير متهم فيما يحكيه عن رؤية جبريل، وسماع الشرائع منه، وفي «الكشاف»: هو في مصحف عبد الله بالظاء، وفي مصحف أبي بالضاد، وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهما، ولا بد للقارىء من معرفة مخرجي الضاد والظاء، فإن مخرج الضاد: من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، ومخرج الظاء: من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا.

فإن قيل[1]: فإن وضع المصلي أحد الحرفين مكانه، فهل تبطل الصلاة؟.

قلنا: قال في «المحيط البرهاني»: إذا أتىٰ بالظاء مكان الضاد، أو علىٰ العكس، فالقياس أن تفسد صلاته، وهو قول عامة المشايخ، وقال مشايخنا بعدم الفساد للضرورة في حق العامة، خصوصاً العجم، فإن أكثرهم لا يفرقون بين الحرفين، وإن فرقوا ففرقاً غير صواب.

---

(١) روح البيان.

وفي «الخلاصة»: لو قرأ بالظاء مكان الضاد، أو بالضاد مكان الظاء تفسد صلاته عند أبي حنيفة ومحمد، وأما عند عامة المشايخ كأبي مطيع البلخي، ومحمد بن سلمة، لا تفسد صلاته.

ثم نفىٰ عنه فرية أخرىٰ كانوا يتقولونها عليه، فقال: ﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: وما هذا القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ﴾ من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب ﴿رَّجِيمٍ﴾؛ أي: مطرود من رحمة الله تعالى، مرمي بالشهب. قال الكلبي: يقول: إن القرآن ليس بشعر ولا كهانة، كما قالت قريش. قال عطاء: يريد بالشيطان: الشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبي ﷺ في صورة جبريل، يريد أن يفتنه، وهو الذي يأتي الأنبياء لافتتانهم.

والمعنىٰ[1]: أي وما هذا الذي يتكلم به محمد ﷺ بقول ألقاه الشيطان علىٰ لسانه حين خالط عقله، كما تزعمون، فإنه قد عرف بصحة العقل، وبالأمانة علىٰ الغيب، فلا يكون ما يحدِّث به من خبر الآخرة والجنة والنار من قول الشياطين.

وقد حكىٰ الله سبحانه علىٰ الأمم جميعاً أنهم رموا أنبياءهم بالجنون، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾، ثم ذكر أنهم قوم قد ضلوا طريق التدبر، وجهلوا سبيل الحكمة، فقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وهذا[2] استضلال لهم فيما يسلكونه من أمر القرآن، والفاء لترتيب ما بعدها علىٰ ما قبلها من ظهور أنه وحي مبين، وليس مما يقولون في شيء، كما تقولون لمن ترك الجادة بعد ظهورها: هذا الطريق الواضح، فأين تذهب؟ شبهت حالهم بحال من يترك الجادة، وهو معظم الطريق، ويتعسف إلىٰ غير المسلك، فإنه يقال له: أين تذهب؟ استظلالاً له، وإنكاراً علىٰ تعسفه، فقيل لمن يقول في حق القرآن ما لا ينبغي بعد وضوح كونه وَحْياً حقاً: أيَّ طريق تسلكون آمن من هذه الطريقة التي ظهرت حقيتها، ووضحت استقامتها و ﴿أين﴾ ظرف مكان مبهم منصوب بـ ﴿تَذْهَبُونَ﴾، قال أبو البقاء: التقدير: إلى أين تذهبون؟ فحذف حرف الجر، ويجوز أن لا يصار إلىٰ الحذف، بل إلى طريق التضمين، فكأنه قيل: أين تؤمون؟

---

(١) المراغي.　　(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: فأي سبيل تسلكونها، وقد سدت عليكم السبل، وأحاط بكم الحق من جميع الجوانب، وبطلت مفترياتكم، فلم يبق لكم سبيل تستطيعون الهرب منها.

ثم بين حقيقة القرآن، فقال: ﴿إِنْ هُوَ﴾: ﴿إِنْ﴾: نافية، والضمير عائد إلىٰ القرآن؛ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: موعظة وتذكير لهم، والمراد الإنس والجن بدلالة العقل، فإنهم المحتاجون إلى الوعظ والتذكير.

والمعنىٰ: أي: وما هذا القرآن إلا عظة للخلق كافة، يتذكرون بها ما غرز في طباعهم من حب الخير، وإنما أنساهم ذكره ما طرأ عليهم بمقتضىٰ الإلف والعادة من ملكات السوء التي تحدثها أمراض البيئة والمجتمع، والقدوة السيئة.

ثم بين أنه لا ينتفع بهذه النظم كل العالمين فقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ أيها المكلفون بالإيمان والطاعة، وهو[2] بدل من ﴿العالمين﴾ بإعادة الجار، بدل البعض من الكل، ولا تخالف بين الأصل المتبوع والفرع التابع؛ لأن الأول باعتبار الذات، والثاني باعتبار التبع. وقوله: ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ مفعول المشيئة؛ أي: لمن شاء منكم الاستقامة والثبات علىٰ الحق والإيمان والطاعة، وإبداله من ﴿العالمين﴾ مع أنه ذكر شامل لجميع المكلفين؛ لأنهم هم المنتفعون بالتذكير دون غيرهم، فكأنه مختص بهم، ولم يوعظ به غيرهم.

والمعنى[3]: أنه ذكر يتذكر به من وجه إرادته للاستقامة علىٰ جادة الحق والصواب، أما من انحرف عن ذلك.. فلا يؤثر فيه هذا الذكر، ولا يخرجه من غفلته.

والخلاصة: أن علىٰ مشيئة المكلف تتوقف الهداية، وقد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق، ويطلبه ويجد في كسب الخير ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً.

ثم رفع توهم أن إرادة الإنسان مستقلة في فعل ما يريد، وله الاختيار التام فيما يفعل، وهو منقطع العلاقة في إرادته من سلطان ربه، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾؛

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

أي[1]: الاستقامة مشيئةٌ مستتبعةٌ لها في وقت من الأوقات، يا من يشاؤها، وذلك أن الخطاب في قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ يدل على أن منهم من يشاء الاستقامة، ومنهم من لا يشاؤها، فالخطاب هنا لمن يشاؤها منهم، يروى أن أبا جهل لما سمع قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾. قال: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ إلخ. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى من إقامة المصدر موقع الزمان؛ أي: إلا وقت أن يشاء الله تعالى تلك المشيئة المستتبعة للاستقامة، فإن مشيئتكم لا تستتبعها بدون مشيئة الله لها؛ لأن المشيئة الاختيارية مشيئة حادثة، فلا بد لها من محدث، فيتوقف حدوثها على أن يشاء محدثها إيجادها، فظهر أن فعل الاستقامة موقوف على إرادة الاستقامة، وهذه الإرادة موقوفة الحصول على أن يريد الله أن يعطيه تلك الإرادة، والموقوف على الموقوف على الشيء موقوف على ذلك الشيء، فأفعال العباد ثبوتاً ونفياً موقوفة الحصول على مشيئة الله، كما عليه أهل السنّة. ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: مالك الخلق ومربيهم أجمعين بالأرزاق الجسمانية والروحانية، وفي الحديث القدسي: «يا ابن آدم، تريد وأريد، فتتعب فيما تريد، ولا يكون إلا ما أريد»، قال وهب بن منبه: قرأت في كتب كثيرة: مما أنزل الله على الأنبياء «إنه من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة.. فقد كفر». قال أبو بكر الواسطي رحمه الله: أعجزك في جميع صفاتك، فلا تشاء إلا في مشيئته، ولا تعمل إلا بقوته، ولا تطيع إلا بفضله، ولا تعصي إلا بخذلانه، فماذا يبقى لك، وبما تفتخر من أعمالك، وليس منها شيء إليك إلا بتوفيقه. انتهى.

والمعنى[2]: أي إنَّ إرادتكم الخير لا تحصل لديكم إلا بعد أن يخلقها الله تعالى فيكم بقدرته الموافقة لإرادته، فهو الذي يودع فيكم إرادة فعل الخير، فتنصرف هممكم إليه، ولو شاء لسلبكم هذه الإرادة، وجعلكم كالحيوانات لا إرادة لها. وفي قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيان لعلة هذا؛ فإنه لما كان رب العالمين هو الذي مَنَحَكُم كل ما تتمتعون به من القوى كالإرادة وغيرها، وهو صاحب السلطان عليكم.. كانت إرادتكم مستندة إلى إرادته، وخاضعة لسلطانه، فلو شاء أن يوجهها إلى غير ما

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وجهت له.. توجهت، ولو شاء أن يمحوها.. محيت، فله الأمر وله الحكم، وهو علىٰ كل شيء قدير.

والخلاصة: وما تشاؤون الاستقامة يا من شاؤوها في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله تعالىٰ إياها منكم.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، والآياتُ القرآنية في هذا المعنىٰ كثيرة.

الإعراب

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط في محل النصب علىٰ الظرفية متعلق بالجواب، وجوابها في الاثني عشر موضعاً التي وقعت فيها.. قوله الآتي: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾. ﴿ٱلشَّمْسُ﴾: نائب فاعل مرفوع علىٰ الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده تقديره: إذا كورت الشمس كورت، وإلى هذا جنح الزمخشري، ومنع الرفع علىٰ الابتداء؛ لأن ﴿إِذَا﴾ تقتضي الفعل لما فيها من معنىٰ الشرط، وجوز ما منعه الزمخشري الكوفيون، والأخفش من البصريين، والجملة المحذوفة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، وجوابها جملة ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ الآتي، ﴿كُوِّرَتْ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلشَّمْسُ﴾، والجملة جملة مفسرة للمحذوفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿ٱلنُّجُومُ﴾: مرفوع على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً تقديره: وإذا انكدرت النجوم، والجملة المحذوفة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، وجوابها ﴿عَلِمَتْ﴾ الآتي، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿إذا﴾

المذكورة قبلها، وجملة ﴿انكدرت﴾ مفسرة للمحذوف، لا محل لها من الإعراب. وكذا جملة قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ معطوفة على جملة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾، والتقدير فيهما: وإذا سيرت الجبال سيرت، وإذا عطلت العشار عطلت، وكذا الجمل في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ معطوفات على قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾، والتقدير فيها: وإذا حشرت الوحوش حشرت، وإذا سجرت البحار سجرت، وإذا زوجت النفوس زوجت، وإذا سئلت المؤودة سئلت، فهي مماثلة لها في إعرابها المتقدم. ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿قُتِلَتْ﴾، وجملة ﴿قُتِلَتْ﴾ سدت مسد المفعول الثاني لـ ﴿سُئِلَتْ﴾، والجمل في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ معطوفات على ما تقدم أيضاً، والتقدير فيها: وإذا نشرت الصحف نشرت، وإذا كشطت السماء كشطت، وإذا سعرت الجحيم سعرت، وإذا أزلفت الجنة أزلفت. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية في المواضع المذكورة، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ الأولى مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب، وما بعدها معطوفة عليها. ﴿مَّآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿عَلِمَتْ﴾؛ لأن العلم هنا عرفانية، وجملة: ﴿أَحْضَرَتْ﴾ صلة لـ ﴿مَّآ﴾ الموصولة لا محل لها من الإعراب.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾.

﴿فَلَآ﴾: ﴿الفاء﴾. استئنافية ﴿لا﴾: زائدة لتأكيد القسم ﴿أُقْسِمُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنا، والجملة الفعلية جملة قسم مستأنفة لا محل له من الإعراب ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُقْسِمُ﴾. ﴿ٱلْجَوَارِ﴾: صفة لـ ﴿الخنس﴾ أو بدل منه، والصفة تتبع الموصوف تبعه بالجر، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين منع من ظهورها الثقل لأنه اسم منقوص، وحذفت الياء خطاً تبعاً لحذفها في اللفظ. ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾: نعت لـ ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ مجرور بالكسرة، ﴿وَٱلَّيْلِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ٱلَّيْلِ﴾ معطوف على ﴿الخنس﴾، أو يقال: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿ٱلَّيْلِ﴾: مجرور بواو القسم،

الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بالليل. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط ﴿عَسْعَسَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلَّيْلِ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والظرف متعلق بفعل القسم المحذوف؛ أي: أقسم بالليل وقت عسعسته، ﴿وَٱلصُّبْحِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على ﴿ٱلَّيْلِ﴾، أو واو قسم، ﴿الصُّبْحِ﴾: مقسم به مجرور بواو القسم ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنىٰ الشرط ﴿تَنَفَّسَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿وَٱلصُّبْحِ﴾، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والظرف متعلق بفعل القسم المحذوف؛ أي: وأقسم بالصبح وقت تنفسه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَقَوْلُ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿قول﴾: خبر ﴿إن﴾ ﴿رَسُولٍ﴾: مضاف إليه ﴿كَرِيمٍ﴾: صفة أولىٰ لـ ﴿رَسُولٍ﴾، وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وفي قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ أقوال متلاطمة في إعرابها ضربت عنها صفحاً؛ لأنه لا طائل تحتها، فلترجع إلى الكتب الباحثة عنها إن شئت. ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ صفة ثانية لـ ﴿رَسُولٍ﴾، ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من ﴿مَكِينٍ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، فأعربت حالاً. ﴿مَكِينٍ﴾ صفة ثالثة ﴿مُّطَاعٍ﴾ صفة رابعة ﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان بمعنىٰ هناك، متعلق بـ ﴿مُّطَاعٍ﴾ أو بـ ﴿أمين﴾. ﴿أمين﴾ صفة خامسة لـ ﴿رَسُولٍ﴾.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَآ﴾: نافية حجازية، ﴿صَاحِبُكُم﴾: اسمها، ﴿بِمَجْنُونٍ﴾: خبرها، و﴿الباء﴾ زائدة، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ علىٰ كونها جواب القسم، ﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿رَءَاهُ﴾: ﴿رأىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير مستتر يعود علىٰ محمد، و﴿الهاء﴾: ضمير عائد علىٰ جبريل في محل النصب مفعول به لـ ﴿رآىٰ﴾؛ لأن رأىٰ هنا بصرية. ﴿بِٱلْأُفُقِ﴾: متعلق بـ ﴿رأى﴾. ﴿ٱلْمُبِينِ﴾: صفة لـ ﴿الأفق﴾، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ علىٰ كونها جواب القسم، ﴿وما﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَآ﴾: حجازية، ﴿هُوَ﴾ في محل الرفع اسمها ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ متعلق بـ ﴿ضنين﴾،

﴿علىٰ﴾ بمعنىٰ: الباء، و﴿بِضَنِينٍ﴾: خبر ﴿مَآ﴾، و ﴿الباء﴾ زائدة، والجملة معطوفة أيضاً علىٰ جواب القسم، ﴿وما﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَآ﴾: حجازية ﴿هُوَ﴾: اسمها، ﴿بِقَوْلِ﴾: خبرها، و ﴿الباء﴾ زائدة ﴿شَيْطَٰنٍ﴾: مضاف إليه ﴿رَّجِيمٍ﴾: صفة ﴿شَيْطَٰنٍ﴾، والجملة معطوفة أيضاً علىٰ جواب القسم، ﴿فَأَيْنَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿أين﴾: اسم استفهام عن المكان المبهم في محل النصب علىٰ الظرفية مبني على الفتح، والظرف متعلق بـ ﴿تَذْهَبُونَ﴾، و ﴿تَذْهَبُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِنْ﴾: نافية ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر ﴿ذِكْرٌ﴾: خبر ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بـ ﴿ذِكْرٌ﴾، أو نعت له، والجملة مستأنفة، ﴿لِمَن﴾: بدل من قوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بإعادة الجار، وجملة ﴿شَآءَ﴾ صلة لـ ﴿من﴾ الموصولة لا محل من الإعراب، ﴿مِنكُمْ﴾: حال من فاعل ﴿شَآءَ﴾، وجملة ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب علىٰ المفعولية لـ ﴿شَآءَ﴾؛ أي: لمن شاء منكم استقامته. ﴿وما﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَآ﴾ نافية ﴿تَشَآءُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء من أعم الأوقات ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾ المصدرية ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: بدل من الجلالة، أو نعت له، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه، والظرف المقدر منصوب علىٰ الاستثناء من أعم الأوقات، والتقدير: وما تشاؤون في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله تعالىٰ إياها؛ أي: مشيئتكم الاستقامة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾؛ أي: لفت وذهب بضوئها، وفي «المصباح»: كار الرجل العمامة كوراً - من باب قال - أدارها علىٰ رأسه، وكل دور كور تسمية بالمصدر، والجمع: أكوار مثل ثوب وأثواب، وكورها بالتشديد مبالغةً، ومنه يقال: كورت الشيء إذا لففته علىٰ وجه الاستدارة، وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾ المراد به: طويت كطي السجل: وعبارة الزمخشري في التكوير وجهان:

أولاً: أن يكون من كورت العمامة إذا لففتها؛ أي: يلف ضوؤها لفاً، فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها؛ لأنها ما دامت

باقيةً كان ضياؤها منبسطاً غير ملفوف.

ثانياً: أو يكون لفها عبارةً عن رفعها وسترها؛ لأن الثوب إذا أريد رفعه لف وطوي، ونحوه قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾، وأن يكون من: طعنه فجوره وكوره إذا ألقاه؛ أي: تلقىٰ وتطرح عن فلكها، كما وصفت النجوم بالانكدار. ويتلخص مما أوردته معاجم اللغة ما يلي: وكار العمامة علىٰ رأس يكور كوراً إذا لفها وأدارها، وكور الله الليل علىٰ النهار: أدخل هذا في هذا، وكورت الشمس: جمع ضوؤها، ولف كما تلف العمامة. قيل: اضمحلت وذهبت.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾؛ أي: انقضت وتساقطت علىٰ الأرض، والأصل في الانكدار: الانصباب، وقال أبو عبيدة: انكدرت: انصبت، كما تنصب العقاب إذا كسرت، فانكدار النجوم: انتشارها وتساقطها حتىٰ تذهب ويمحى ضوؤها.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ وتسيير الجبال يكون حين الرجفة التي تزلزل الأرض، فتقطع أوصالها، وتفصل منها جبالها، وتقذفها في الفضاء. والسير: المضي في الأرض، والسير ضربان: باختيار وإرادة من السائر، نحو: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾، وبقهر وتسخير، كتسيير الجبال.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ جمع عشراء ـ بضم العين وفتح الشين ـ النوق الحوامل، كالنفاس في جمع النفساء، وليس فعلاء يجمع علىٰ فعال غير عشراء ونفساء، كما في «القاموس». والعشراء: هي الناقة التي أتىٰ علىٰ حملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلىٰ أن تضع لتمام السنّة، وهي أنفس ما يكون عند أهلها، وروي أنه ﷺ مر في أصحابه بعشار من النوق، فغض بصره، فقيل له: هذه أنفس أموالنا، فلم تنظر إليها؟ فقال: «قد نهاني الله عن ذلك» ثم تلا: «﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ. . .﴾ الآية». قال الأعشىٰ في المدح:

هُوَ ٱلْوَاهِبُ ٱلْمِئَةِ ٱلْمُصْطَفَا ... ةِ إِمَّا مَخَاضاً وَإِمَّا عِشَارَا

﴿عُطِّلَتْ﴾؛ أي: تركت معطلة مهملة غير منظور إليها، وتعطيلها: إهمالها، وذهابها حيث تشاء؛ لعظم الهول وشدة الكرب، من التعطيل: وهو التفريغ والإهمال.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ جمع وحش، والوحش: حيوان البر الذي ليس في طبعه

التآنس ببني آدم، يجمع علىٰ: وحوش ووحشان، والواحد: وحشي كما مر عن «القاموس». والأهليّ: خلاف الوحشي.

﴿حُشِرَتۡ﴾؛ أي: جمعت واختلط بعضها ببعض من هول ذلك اليوم، أو ماتت وهلكت.

﴿سُجِّرَتۡ﴾ يقال: سجر التنور يسجر سجراً ـ من باب نصر ـ: إذا ملأه وقوداً وأحماه، وسجر الماء النهر إذا ملأه، وسجر البحر: فاض، وسجر الماء في حلقه: صبه، وسجر الكلب: شده بالساجور، وسجر الشيء: أرسله، هذا ما ذكرته معاجم اللغة بصدد هذه المادة، وكلب مسجور: أي مطوق بالساجور، وهو طوق من حديد، مسمر بمسامير حديدة الأطراف، وقد أحصىٰ القرطبي الأقوال في تسجير البحار كمادته، ونشير إليها بإيجاز: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦﴾؛ أي:

١ ـ ملئت من الماء، فيفيض بعضها إلى بعض، فتصير شيئاً واحداً.

٢ ـ وقيل: أرسل عذبها علىٰ مالحها حتىٰ امتلأت.

٣ ـ وقيل: صارت بحراً واحداً.

٤ ـ وقيل: يبست فلا يبقىٰ من مائها قطرة.

٥ ـ وقيل: أوقدت فصارت ناراً.

٦ ـ وقيل: هي حمرة مائها حتىٰ تصير كأنها الدم.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾؛ أي: قرنت الأرواح بأجسادها.

﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨﴾ والموءودة: هي التي دفنت وهي صغيرة، وقد كان ذلك عادة فاشية في جاهلية العرب، وكان ذوو الشرف منهم يمنعون من هذا، حتىٰ افتخر بذلك الفرزدق فقال:

وَجَدِّيْ ٱلَّذِيْ مَنَعَ ٱلْوَائِدَاتِ وَأَحْيَا ٱلْوَئِيْدَ فَلَمْ يُوْءَدِ

والفرزدق: هو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة، افتخر بجده صعصعة، إذ كان منع وأد البنات، وكان يشتريهن من آبائهن، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موؤودة، قال في «الأساس»: وأد ابنته: أثقلها بالتراب، وأصله من الثقل، كأنها تثقل من التراب حتىٰ تموت، ومنه: اتئد؛ أي: توفر وأثقل، فالابنة وئيد ووئيدة

وموءودة. وقال الزمخشري في «الكشاف»: وأد يئد مقلوب من آد يؤود: إذا أثقل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾؛ لأنه إثقال بالتراب.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ والمراد بالصحف: صحف الأعمال التي تنشر على العباد حين يقفون للحساب.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾؛ أي: كشفت وأزيلت عما فوقها، كما يكشط جلد الذبيحة عنها. قال الراغب: هو من كشط الناقة؛ أي: تنحية الجلد عنها، والكشط: التقشير، يقال: كشطت جلد الشاة. سلخته عنها.

﴿سُعِّرَتْ﴾؛ أي: أوقدت إيقاداً شديداً. ﴿أُزْلِفَتْ﴾؛ أي: أدنيت من أهلها وقربت منهم.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ جمع: خانس، وهو المنقبض المستخفي، يقال: خنس فلان بين القوم إذا انقبض واختفى، والخنوس: الانقباض والاستخفاء، وبابه: دخل، وفي «الصحاح»: الخنس: الكواكب كلها؛ لأنها تخنس في المغيب، ولأنها تخفى نهاراً.

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ جمع: جارية؛ أي: سائرة، حذفت ياؤه في رسم المصحف تبعاً للفظ.

﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ جمع كانس أو كانسة، من قولهم: كنس الظبي كنوساً ـ من باب نزل ـ إذا دخل كناسه بكسر الكاف، وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر، وتكنس الظبي: تغيب واستمر في كناسه، وتكنس الرجل: دخل في الخيمة، وتكنست المرأة: دخلت في الهودج. والمراد ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾: جميع الكواكب، وخنوسها: غيوبتها عن البصر نهاراً، وكنوسها: ظهورها للبصر ليلاً، فهي تظهر في أفلاكها، كما تظهر الظباء في كنسها.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: أقبل بظلامه أو أدبر. قال الفراء: عسعس الليل وعسس: إذا لم يبق منه إلا القليل. وقال الخليل: عسعس الليل: أقبل وأدبر.

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: أسفر، وظهر نوره. قال علقمة بن قرط:

حَتَّىٰ إِذَا ٱلصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا وَٱنْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا

وقال رؤبة:

يَـا هِـنْـدُ مَـا أَسْـرَعَ مَـا تَـسَـغْـسَـعَـا مِـنْ بَـعْـدِ مَـا كَـانَ فَـتَـىً سَـرَعْـرَعَـا

والتنفس: خروج النسيم من الجوف، واستعير للصبح، ومعناه: امتداده حتىٰ يصير نهاراً واضحاً. ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فكريم صفة تقتضي نفي المذام كلها، وإثبات صفات المدح اللائقة به. ﴿أَمِينٍ﴾؛ أي: مقبول القول يصدق فيما يقوله، مؤتمن على ما يرسل به من الوحي. ا هـ من «البحر».

﴿مَكِينٍ﴾؛ أي: ذي مكانة وجاه عند ربه، يعطيه ما سأله، يقال: مكن فلان لدىٰ فلان إذا كانت له عنده حظوة ومنزلة.

﴿مُطَاعٍ﴾: اسم مفعول من أطاع الرباعي، أصله: مطوع بوزن مفعل، نقلت حركة الواو إلىٰ الطاء فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)﴾ الظنين: المتهم، فعيل بمعنىٰ مفعول يقال: ظننت الرجل اتهمته، والضنين: البخيل، قال الشاعر:

أَجُـوْدُ بِـمَـكْـنُـوْنِ الْـحَـدِيْـثِ وَإِنَّـنِـيْ بِـسِـرِّكَ عَـنْ مَـا سَـأَلْـتَـنِـيْ لَـضَـنِـيْـنُ

﴿رَجِيمٍ﴾: مرجوم مطرود من رحمة الله تعالى.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦)﴾؛ أي: أي مسلك تسلكون، وقد قامت عليكم الحجة؟

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾؛ أي: يثبت علىٰ الطريق الواضح، وأصل ﴿شَاءَ﴾: شيء بوزن فعل بكسر العين، قلبت ياؤه ألفاً لتحرها بعد فتح، وأصل ﴿يَسْتَقِيمَ﴾: يستقوم، نقلت حركة الواو إلىٰ القاف، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)﴾؛ لأن تكويرها

عبارة عن إزالة نورها، والذهاب بها بحكم التزام زوال اللازم لزوال الملزوم، وفيه استعارة تصريحية تبعية؛ لأن التكوير حقيقة في تكوير الثوب والعمامة ولفها، فاستعير لإزالة ضوء الشمس بجامع الستر في كل، وكذا قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾؛ لأن السير حقيقة في الذهاب في الأرض والمضي فيها، فاستعير لإعدام الجبال وإزالتها عن مكانتها.

ومنها: توجيه السؤال إلىٰ الموءودة في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾.. لتسليتها، وإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها، وإسقاطه عن درجة الخطاب، والمبالغة في تبكيته، ولذا لم يسأل الوائد عن موجب قتله لها، فإن سؤالها أفظع في ظهور جناية القاتل، وإلزام الحجة عليه، فإنه إذا قيل للموءودة: إن القتل لا يجوز إلا لذنب عظيم، فما ذنبك، وبأي ذنب قتلت؟ كان جوابها: إني قتلت بغير ذنب، فيفتضح القاتل ويصير مبهوتاً. ا هـ «زاده».

ومنها: تنكير ﴿نَفْسٌ﴾ في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾؛ لإفادة العموم، وقد يعترض معترض بأن النكرة لا تفيد العموم إلا إذا كانت في سياق النفي، وهي هنا واقعة في سياق الإثبات، فلا تفيد العموم، بل تفيد الإفراد والنوعية، فكيف يتفق الإفراد مع العموم الذي يناسبه المقام؟ فالجواب: أن كونها للعموم في سياق النفي دون الإثبات أغلبي لا كلي، فلا ينافي أنه قد يقصد بها العموم في سياق الإثبات بقرينة المقام كما هنا، وقد يجاب هنا بجواب آخر: وهو أن النكرة هنا وقعت في سياق الشرط، وسياق الشرط كسياق النفي في أن النكرة للعموم إذا وقعت في كل منهما.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿الخنس﴾ و ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾، وفي الكلمتين أيضاً فن الالتزام، وهو لزوم النون فيهما قبل السين.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ فقد شبه الليل بإنسان يقبل ويدبر، ثم حذف المشبه به، وأخذ منه شيئاً من لوازمه، وهو لفظ عسعس؛ أي: أقبل وأدبر، كما شبه الصبح بحيوان حي يتنفس، فحذف المشبه به، وأتىٰ بشيء من لوازمه، وهو التنفس؛ أي: خروج النفس من الجوف، أو يقال: إنه شبه الليل بالمكروب الحزين الذي حبس بحيث لا يتحرك، فإذا تنفس وجد راحته، وهنا لما

طلع الصبح، فكأنه تخلص من الحزن كلية، فعبر عن ذلك بالتنفس.

ومنها: إسناد القول إلى جبريل في قوله: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فإسناد القول إليه باعتبار السببية الظاهرة في الإنزال والإيصال علىٰ أن المراد بالرسول هو جبريل.

ومنها: التعرض لعنوان المصاحبة في قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ للتلويح بإحاطتهم بتفاصيل أحواله ﷺ خبراً، وعلمهم بنزاهته عما نسبوه إليه بالكلية، فإنه كان بين أظهرهم في مدد طويلة، وقد جربوا عقله، فوجدوه أكمل الخلائق فيهم، ولقبوه بالأمين الصادق.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ فإن إسناد الإبانة إلىٰ مطلع الشمس مجازي باعتبار المحلية لها، فإن الإبانة في الحقيقة لضياء الطالع منه كما مر.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ حيث شبه حالهم بحال من يترك الجادة وسلك غيرها، فإنه يقال له: أين تذهب؟ استظلالاً له وإنكاراً علىٰ تعسفه كما مر.

ومنها: الطباق بين لفظ ﴿الْجَحِيمُ﴾ و ﴿الْجَنَّةُ﴾.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿أَمِينٍ﴾ و ﴿مَكِينٍ﴾.

ومنها: توافق الفواصل رعاية لرؤوس الآيات مثل ﴿كُوِّرَتْ﴾، ﴿سُيِّرَتْ﴾ ﴿سُجِّرَتْ﴾، ﴿سُعِّرَتْ﴾، ومثل ﴿الخنس﴾ و ﴿الْكُنَّسِ﴾ ومثل: ﴿عَسْعَسَ﴾ و ﴿تَنَفَّسَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الموضوعات

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ أهوال يوم القيامة.

٢ ـ الإقسام بالنجوم وبالليل وبالصبح، علىٰ أن القرآن منزل من عند الله تعالى بوساطة رسول كريم.

٣ ـ إثبات نبوة محمد ﷺ.

٤ ـ بيان أن القرآن عظة وذكرىٰ لمن أراد الهداية، وتوجهت نفسه إلىٰ فعل الخير.

٥ ـ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله سبحانه، وليس لها استقلال بالعمل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

* * *

(١) كان الفراغ من سورة التكوير بعون الملك القدير في أوساط شهر شعبان المبارك في يوم الأربعاء قبيل الغروب، اليوم التاسع عشر منه من شهور سنة: ١٩/ ٨/ ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلوات والتسليمات والصلات.

سورة الانفطار

سورة الانفطار مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة النازعات، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: تسع عشرة آية، وكلماتها: ثمانون كلمة، وحروفها: ثلاث مئة وسبعة وعشرون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها: أن الكلام في السابقة في البحث عن أهوال يوم القيامة، وهذه أيضاً، افتتحت بمثل ذلك ليتصل الكلام فيهما اتصال النظير بالنظير، والشبيه بالشبيه، وكلها محكم، فليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

ومما ورد في فضلها: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلىٰ القيامة رأي عين فليقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾»، ومنه ما أخرجه النسائي عن جابر قال: قام معاذ فصلىٰ العشاء فطول، فقال النبي ﷺ: «أفتّان أنت يا معاذ؟ أين أنت عن سبح اسم ربك الأعلىٰ، والضحى، وإذا السماء انفطرت؟». وأصل الحديث في الصحيحين، ولكن بدون ذكر: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾، وقد تفرد بها النسائي، وسميت بسورة الانفطار: أخذاً من مبدئها، وقد اشتملت هذه السورة علىٰ الكلام في البعث، والتذكير بيوم القيامة، وإن النفس تشهد فيه ما عملت، وعلىٰ مناقشة الإنسان في شأن مخالفته لربه، وتماديه في فجوره مع أنه عزّ وجلّ صاحب نعم جليلة عليه، وقد جعل له شهوداً عليه أو له، وهم عدول.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ
بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ
عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ
ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾
ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

المناسبة

افتتح[١] سبحانه هذه السورة بمثل ما افتتح به سابقتها من ذكر أمور تحدث حين خراب هذا العالم، وتكون مقدمة ليوم العرض والحساب والجزاء، وهو يوم القيامة، منها أمران علويان هما: انفطار السماء، وانتثار الكواكب. وأمران سفليان هما: تفجير البحار، وبعثرة القبور. ثم أبان أنه في ذلك اليوم تتجلىٰ للنفوس أعمالها علىٰ حقيقتها، فلا ترىٰ خيراً في صورة شر، ولا تتخيل شراً في مثال خير، كما يقع في الدنيا لأغلب النفوس، فيعرف أهل الخير أنهم وإن نجوا مقصرين، فيأسفون علىٰ ما تركوا، ويستبشرون بما عملوا، ويعض أهل السوء بنان الندم، ويوقنون بسوء المنقلب، ويتمنون أن لو كانوا تراباً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر في صدر السورة: أنه في يوم القيامة يبدل نظام هذا العالم، ويسأل الخلائق عما قدمت أيديهم، ويحاسبهم علىٰ ما اقترفوا من آثام، ويقرعهم علىٰ تكاسلهم في أداء ما أمروا به، ويجزيهم أحسن الجزاء علىٰ ما قدموا من عمل صالح.. أردف هذا بخطاب الإنسان، واستفساره عما دعاه إلىٰ مخالفة خالقه، وتماديه في فجوره وطغيانه، واسترساله مع دواعي النفس الأمارة بالسوء،

---

(١) المراغي.

مع أنه لو تدبر في نفسه، وفي خلقه.. لوجد من شواهد ربوبية خالقه ما هو جدير بشكرانه، ومداومته على طاعته، وهو الذي خلقه فسواه، وجعله علىٰ أحسن صورة، وكمله بالعقل والفهم والتدبر في عواقب الأمور ومصايرها.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ...﴾ إلىٰ آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] أن من دلائل نعمه علىٰ الإنسان خلقه علىٰ أحسن صورة، وأن ذلك يدل على أن له حياةً أخرىٰ غير هذه الحياة، فيها يجازىٰ بما عمل من خير أو شر.. أعقب هذا ببيان أنه لا شيء يمنعه عن التصديق بهذا اليوم إلا العناد والتكذيب، فالشعور النفسي يوحي به، والدليل النقلي الذي أتىٰ به الرسول يصدقه، والله لم يترك عملاً لعباده إلا أحصاه وحفظه، ليوفي كل عامل أجره، فقد وكل الكرام الكاتبين المطهرين عن الغلط والنسيان بكتابته وضبطه، ثم ذكر أن الناس في هذا اليوم فريقان: بررة مطيعون لربهم فيما به أمر وعنه نهى - وهؤلاء يتقلبون في النعيم - وفجرة يتركون أوامر الدين، وأولئك يكونون في دار العذاب والهوان، يقاسون حر النار، وأنه في هذا اليوم لا يجد المرء ما يعول عليه سوىٰ ما قدمت يداه، فيجفوه الأولياء، ويخذله الشفعاء، ويتبرأ منه الأقرباء، فلا شفيع ولا نصير ولا وزير ولا مشير، والحكم لله وحده، وهو المهيمن علىٰ عباده، وبيده تصريف أمورهم، وهو الصادق في وعده، العدل الحكيم في وعيده، فلا مهرب لعامل مما أعد له من الجزاء علىٰ عمله.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: نزلت في أبي بن خلف، والله أعلم.

وقد نقل البغوي عن الكلبي ومقاتل أنهما قالا: نزلت هذه الآية في الأسود بن شريف حين ضرب النبي ﷺ، لم يعاقب في الحالة الراهنة، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ وورد أن النبي ﷺ لما تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾.. قال: «غره جهله».. وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في

---

(١) المراغي.   (٢) لباب النقول.

هذه الآية: غره حمقه وجهله، وقرأ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾؛ أي: انشقت[1] لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾، أو لهيبة الرب جل جلاله، والانفطار كالفطر: الشق، يقال: فطرته فانفطر، ومنه: فطر ناب البعير إذا طلع، وفي «فتح الرحمن»: تشققها علىٰ غير نظام مقصود إنما هو انشقاق لتزول بنيتها، وإعرابه كإعراب ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾.

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ﴾، والنجوم ﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾؛ أي: تساقطت عن مواضعها سوداء متفرقة، كما تساقط اللآلىء إذا انقطع المسلك، وهذان من أشراط الساعة متعلقان بالعلويات، فإن السماء في هذا العالم كالسقف، والأرض كالبناء، ومن أراد تخريب دار فإنه يبدأ أولاً بتخريب السقف، وذلك هو قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾، ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾؛ أي: فجر وفتح بعضها إلىٰ بعض بزوال المانع، وحصول تزلزل الأرض وتصدعها واستوائها، وصارت البحار ـ وهي سبعة: بحر الروم، وبحر الصقالبة، وبحر جرجان، وبحر القلزم، وبحر فارس، وبحر الصين، وبحر الهند ـ بحراً واحداً، فيصب ذلك البحر الواحد في جوف الحوت الذي عليه الأرضون السبع، كما في «كشف الأسرار». وروي: أن الأرض تنشف من الماء بعد امتلاء البحار، فتصير مستوية، وهو معنىٰ التسجير عند الحسن البصري، ودخل في البحار: البحر المحيط؛ لأنه أصل الكل؛ إذ منه يتفرع الباقي، وكذا الأنهار العذبة، فإنها بحار أيضاً لتوسعها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فُجِّرَتۡ﴾ بتشديد الجيم ومجاهد وربيع بن خيثم والزعفراني والثوري بتخفيفها، وتفجيرها من أعلاها، وتفيض علىٰ ما يليها، أو من أسفلها، فيذهب الله ماءها حيث أراد، وعن مجاهد: ﴿فجرت﴾ مبنياً للفاعل مخففاً بمعنىٰ: بغت لزوال البرزخ نظراً إلىٰ قوله تعالى: ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾؛ لأن البغي والفجر متقابلان.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

ا . هـ من «البحر».

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝﴾؛ أي: قلب ترابها، وأخرج ما فيها من الموتىٰ، ولا يخالف[1] ما هنا ما سيأتي في العاديات، فإن البعثرة تجيء بمعنىٰ الاستخراج أيضاً؛ أي: كالقلب، يقال: بعثر يبعثر بعثرةً ـ من باب دحرج ـ إذا قلب التراب، ونظيره لفظاً ومعنىٰ بحثر. . يقال: بعثرت المتاع وبحثرته؛ أي: جعلت أسفله أعلاه، وجعل أسفل القبور أعلاها إنما هو بإخراج موتاها، وبعثرت الحوض وبحثرته إذا هدمته، وجعلت أعلاه أسفله، قال الفراء: ﴿بُعْثِرَتْ﴾؛ أي: أخرج ما في بطنها من الذهب والفضة، وذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها. ا هـ.

وهذان من أشراط الساعة متعلقان بالسفليات، فإنه قال: بعد تخريب السماء والكواكب يخرب كل ما علىٰ وجه الأرض بنفوذ بعض البحار في بعض، ثم يخرب نفس الأرض التي هي كالبناء بأن يقلبها ظهراً لبطن، وبطناً لظهر.

ثم ذكر سبحانه جواب ما تقدم، فقال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾؛ أي: كل نفس برة كانت أو فاجرة كما مر في السورة السابقة، وفي «فتح الرحمن»: ﴿نَفْسٌ﴾ هنا: اسم جنس، وإفرادها ليبين لذهن السامع حقارتها وضعفه عن منفعة ذاتها إلا من رحم الله تعالى. ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ في حياتها من عمل خير أو شر، فإن ﴿ما﴾ من ألفاظ العموم ﴿و﴾ ما ﴿أخرت﴾ من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده، وفي الحديث: «أيما داعٍ دعا إلى الهدى فاتبع. . فله مثل أجر من تبعه إلا أنه لا ينقص من أجورهم شيء، وأيما داعٍ دعا إلى الضلالة، فاتبع. . فله مثل أوزار من اتبعه إلا أنه لا ينقص من أوزراهم شيء» وقال قتادة: ما قدمت من معصية، وأخرت من طاعة، وقيل: ما قدم من فرض، وما أخر من فرض، وقيل: أول عمله وآخره.

فقوله: ﴿عَلِمَتْ. . .﴾ إلخ جواب ﴿إذا﴾ كما مر؛ أي: إذا وقعت هذه الأشياء وخربت الدنيا علمت كل نفس إلخ، لكن لا علىٰ أنها تعلمه عند البعث، بل عند نشر الصحف لما عرفت في السورة السابقة من أن المراد بها زمان واحد مبدأه

---

(١) روح البيان.

النفخة الأولىٰ، ومنتهاه الفصل بين الخلائق، لا أزمنة متعددة حسب تعدد كلمة ﴿إذا﴾، وإنما كررت ﴿إذا﴾ لتهويل ما في حيزها من الدواهي. فالمراد[1]: العلم التفصيلي الذي يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة، وأما العلم الإجمالي: فيحصل في أول زمان البعث والحشر؛ لأن المطيع يرىٰ آثار السعادة، والعاصي يرى آثار الشقاوة في أول الأمر، قال ابن الشيخ في «حواشيه»: العلم بجميع ذلك كناية عن المجازاة عليه، والمقصود من الكلام: الزجر عن المعصية، والترغيب في الطاعة.

والمعنى[2]: أي إذا انشقت السماء وتغير نظامها، فلم يبق نظام الكواكب علىٰ ما نرىٰ عند خراب هذا العالم بأسره، وسقطت الكواكب والنجوم وتفرقت، وهذا يجيء تالياً لما قبله، إذ متى انشقت السماء، وانتقض تركيبها، واختل نظامها.. انتشرت كواكبها، وفجرت البحار، وأزيل ما بينها من حواجز، فاختلط عذبها بملحها، وفاضت علىٰ سطح الأرض حيناً من الدهر؛ لاضطراب الأرض وزلزالها الشديد، ووقوع الخلل في جميع أجزائها، وبعثرت القبور، وقلب أسفلها أعلاها، وباطنها ظاهرها، ليخرج من فيها من الموتى أحياءً.. علم كل أحد ما قدم لنفسه من عمل، ولم يقصر فيه، وعلم ما أخره وتكاسل عن أدائه.

والخلاصة: أن هذا العالم تزول صفاته وتتبدل أحواله، فتكون الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعم جميع[3] العصاة، ولا خصوص له بالكفار؛ لوقوعه بين المجمل ومفصله؛ أي: بين ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ...﴾ إلخ، وبين ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ إلخ، وأما قوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ فمن قبيل قولهم: بنو فلان قتلوا زيداً، إذا كان القاتل واحداً منهم. قال الإمام السهيلي رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يريد أمية بن خلف، ولكن اللفظ عام يصلح له ولغيره. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، أو الأسد بن كلدة الجمحي، قصد النبي ﷺ في بطحاء مكة، فلم يتمكن منه، فلم يعاقبه الله علىٰ ذلك.

وفي «زهرة الرياض»: ضرب علىٰ يافوخ النبي ﷺ، فأخذه رسول الله ﷺ،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

وضربه علىٰ الأرض، فقال له: يا محمد، الأمان الأمان، مني الجفاء، ومنك الكرم، فإني لا أوذيك أبداً، فتركه رسول الله ﷺ ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ أي[1]: ما الذي غرك وخدعك حتىٰ كفرت بربك الكريم الذي تفضل عليك في الدنيا بإكمال خلقك وحواسك، وجعلك عاقلاً فاهماً، ورزقك وأنعم عليك بنعمه التي لا تقدر على جحد شيء منها؟ قال قتادة: غره شيطانه المسلط عليه، وقال الحسن: غره شيطانه الخبيث، وقيل: حمقه وجهله، وقيل: غره عفو الله؛ إذ لم يعاجله بالعقوبة أول مرة، كذا قال مقاتل. فـ ﴿مَآ﴾ استفهامية[2] في محل رفع بالابتداء و ﴿غَرَّكَ﴾: خبره، والاستفهام بمعنىٰ الاستهجان والتوبيخ.

والمعنىٰ: أيّ شيء خدعك وجرأك علىٰ عصيانه، وأمنك من عقابه، وقد علمت ما بين يديك من الدواهي، وما سيكون حينئذٍ من مشاهدة أعمالك كلها؟ يقال: غره بفلان إذا جرأه عليه، وأمنه المحذور من جهته، مع أنه غير مأمون.

والتعرض لعنوان كرمه تعالى للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدار الاغترار حسبما يغويه الشيطان، ويقول له: افعل ما شئت، فإن ربك كريم، قد تفضل عليك في الدنيا، وسيفعل مثله في الآخرة، فإنه قياس عقيم، وتمنية باطلة، بل كرمه مما يوجب المبالغة في الإقبال علىٰ الإيمان والطاعة، والاجتناب عن الكفر والعصيان، كأنه قيل: ما حملك علىٰ عصيان ربك الموصوف بالصفات الزاجرة عن الداعية، فظهر أن كرم الكريم لا يقتضي الاغترار به، بل هو يقتضي الخوف والحذر عن مخالفته وعصيانه، وإذا كان محض الكرم لا يقتضي الاغترار به، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر؟ ولله سبحانه الأسماء المتقابلة، ولذا قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾، وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: إذا بعثك الله يوم القيامة، وقال لك: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ...﴾ ماذا تقول؟ قال: أقول: غرني ستورك المرخاة، ونظمه ابن السماك فقال:

يَا كَاسِبَ ٱلذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحِيْ   وَٱللَّهُ فِيْ ٱلْخَلْوَةِ ثَانِيْكَا
غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهَالُهُ   وَسَتْرُهُ طُوْلَ مَسَاوِيْكَا

---

(١) الشوكاني.   (٢) روح البيان.

وقال يحيىٰ بن معاذ رحمه الله تعالى: غرني برك سالفاً وآنفاً:

يَــقُــوْلُ مَــوْلَايَ أَمَــا تَــسْــتَــحِــيْ مِــمَّــا أَرَىٰ مِــنْ سُــوْءِ أَفْــعَــالِــكَ
فَــقُــلْــتُ يَــا مَــوْلَايَ رِفْــقَــاً فَــقَــدْ أَفْــسَــدَنِــي كَــثْــرَةُ إِفْــضَــالِــكَ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَا غَرَّكَ﴾ فـ ﴿مَآ﴾ استفهامية، وقرأ ابن جبير والأعمش ﴿ما أغرك﴾ بهمزة فاحتمل أن يكون تعجباً، واحتمل أن تكون ﴿مَآ﴾ استفهامية، و ﴿أغرك﴾ بمعنىٰ أدخلك في الغرة. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾، أي: أوجدك وأنشأك من نطفة ولم تك شيئاً، فهو صفة[2] ثانية مقررة للربوبية، مبينة للكرم؛ لأن الخلق إعطاء الوجود، وهو خير من العدم، منبهة علىٰ أن من قدر علىٰ الخلق وما يليه بدءاً.. قدر عليه إعادة؛ أي: خلقك بعد أن لم تكن شيئاً ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾؛ أي: جعلك إنساناً سوياً تاماً، تسمع وتبصر وتعقل، أو جعل أعضاءك سوية سليمة معدة لمنافعها؛ أي بحيث يترتب على كل عضو منها منفعته التي خلق ذلك العضو لأجلها، كالبطش لليد، والمشي للرجل، والتكلم للسان، والإبصار للبصر، والسمع للأذن إلى غير ذلك ﴿فَعَدَلَكَ﴾؛ أي: جعلك معتدلاً قائماً حسن الصورة، أو عدل بعض تلك الأعضاء ببعض؛ أي: جعل بعضها معادلة مساوية للبعض الآخر، بحيث اعتدلت وتماثلت ولم تتفاوت، مثل أن تكون إحدىٰ اليدين أو الرجلين والأذنين أطول من الأخرىٰ، أو تكون إحدى العينين أوسع من الأخرى، أو بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، أو بعض الشعر فاحماً وبعضه أشقر.

قال علماء التشريح: إنه تعالىٰ ركب جانبي هذه الجثة علىٰ التساوي حتىٰ إنه لا تفاوت بين نصفيه، لا في العظام، ولا في أشكالها، ولا في الأوردة والشرايين والأعصاب النافذة فيها والحاجة منها، فكل ما في أحد الجانبين مساوٍ لما في الجانب الآخر. ا هـ. ويقال: عدله عن الطريق؛ أي: صرفه، فيكون المعنى: فصرفك عن الخلقة المكروهة التي هي لسائر الحيوانات، وخلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق، كما قال تعالى: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فعدَّلك﴾ بتشديد الدال؛ أي: صيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت فيه، فهو بمعنىٰ المخفف السابق، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وطلحة والأعمش وعيسى وأبو جعفر والكوفيون: بتخفيفها، واختار أبو حاتم وأبو عبيد القراءة الأولى، وقيل: معنى القراءة الأولى: أنه سبحانه جعل أعضاءه متعادلة لا تفاوت فيها، ومعنى القراءة الثانية: أنه صرفه وأماله إلىٰ أي صورة شاء إما حسناً، وإما قبحاً، وإما طويلاً، وإما قصيراً.

والمعنى[2]: أي يا أيها الإنسان العاقل الذي أوتي من قوة الفكر وبسطة القدرة ما أوتي حتىٰ صار بذلك أفضل المخلوقات، أي شيء خدعك وجرأك علىٰ عصيان ربك الكريم الذي أنعم عليك بنعمة الوجود والعقل والتدبر، ولا تزال أياديه تتوالىٰ عليك، ونعمه تترىٰ لديك، ألا تشكر من برأك وصورك فأحسن صورتك، وجعلك معتدل القامة، تام الخلق؟

ثم أجمل ما فصله أولاً بقوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾ لا بـ ﴿عدلك﴾؛ لأن ﴿أَيِّ﴾ لها صدر الكلام، فلا يعمل فيها ما قبلها، و ﴿مَّآ﴾ زائدة لتعميم النكرة، و ﴿شَآءَ﴾ صفة لـ ﴿صُورَةٖ﴾، والرابط محذوف، وإنما لم يعطف الجملة علىٰ ما قبلها، لأنها بيان لـ ﴿عدلك﴾.

والمعنىٰ: فعدلك، ركبك وألفك وجمعك في أيِّ صورة شاءها واقتضتها مشيئته وحكمته من الصور العجيبة الحسنة، أو من الصور المختلفة في الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والأنوثة والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه، كما في الحديث: «أن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم، وصورها في أي شبه شاء».

ويجوز أن يكون الجار متعلق بمحذوف من مفعول ﴿ركب﴾؛ أي: ركبك حاصلاً في أي صورة شاءها، وقال مقاتل والكلبي ومجاهد: في أيِّ شبه من أب أو أم أو خال أو عم. وقال مكحول: إن شاء ذكر، وإن شاء أنثى. وقال[3] بعض المتأولين: إنه يتعلق بقوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾، ولكنه معترض، كما مر آنفاً؛ أي: فعدلك

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

في صورة أي صورة؛ أي: كامل صورة وأحسنها، وأي تقتضي التعجيب والتعظيم، فلم يجعلك في صورة خنزير أو حمار، وعلىٰ هذا تكون ﴿مَا﴾ منصوبة بـ ﴿شَآءَ﴾ كأنه قال: أي تركيب حسن شاء ركبك، والتركيب: التأليف وجمع شيء إلى شيء، وأدغم خارجة عن نافع: ﴿ركبك كلا﴾.

والمعنى[1]: أي ركبك في صورة هي من أبهىٰ الصورة وأجملها، وأدلها علىٰ بقائك الأبدي في نشأة أخرىٰ بعد هذه النشأة، فإن الكريم يوفي كل مرتبة من الوجود حقها، فمن خص بهذا المنزلة الرفيعة.. لا ينبغي أن يعيش كما يعيش سائر الحيوان، ويموت كما يموت الوحش وصغار الذر، وإنما الذي يليق بعقله وقوة نفسه أن تكون له حياة أبدية لا حد لها. ولا فَتَأَ بعدها، يوفىٰ فيها كل ذي حق حقه، وكل عامل جزاء عمله.

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع[2] وزجر، فالوقف عليها؛ أي: ارتدعوا وانزجروا عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلىٰ الكفر والمعاصي مع كونه موجباً للشكر والطاعة، وقيل: توكيد لتحقيق ما بعده بمعنىٰ حقاً، فالوقف علىٰ ﴿رَكَّبَكَ﴾ كما رجحه السجاوندي، حيث وضع علامة الوقف المطلق على ﴿رَكَّبَكَ﴾، قال ابن الأنباري: الوقف الجيد على ﴿ٱلدِّينَ﴾، وعلى ﴿رَكَّبَكَ﴾ وعلى ﴿كَلَّا﴾ قبيح.

﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ إضراب وعطف علىٰ جملة ينساق إليها الكلام، كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض: وأنتم لا ترتدعون عن ذلك، بل تجاوزونه وتجترئون علىٰ ما هو أعظم؛ حيث تكذبون بالدين؛ أي: بالبعث والجزاء رأساً، فإنه يراد بالدين الجزاء والمكافأة، ومنه: الديان في صفة الله، أو تكذبون بدين الإسلام الذي هما من جملة أحكامه، فلا تصدقون سؤالاً ولا جواباً، ولا ثواباً ولا عقاباً، و ﴿بَلْ﴾ لنفي شيء تقدم وتحقيق غيره، وإنكار البعث قد كان معلوماً عندهم، وإن لم يجر له ذكر، قال الفراء: كلا ليس الأمر كما غررت به.

وقرأ الجمهور: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ بالتاء خطاباً للكفار. وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة وأبو جعفر وأبو بشر بياء الغيبة.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنىٰ: بل تكذبون يا أهل مكة بالدين؛ أي: بالحساب.

وجملة قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ١٠﴾ حال من فاعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: تكذبون بالجزاء، والحال أن عليكم أيها المكلفون من قبلنا ملائكة حافظين لأعمالكم، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذيبهم، والحافظون: الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم، ويكتبونها في الصحف، وجمعهم باعتبار كثرة المخاطبين، أو باعتبار أن لكل واحد منهم جمعاً من الملائكة، كما قيل اثنان بالليل، واثنان بالنهار، ثم وصفهم سبحانه بأنهم كانوا ﴿كِرَامًا﴾ جمع: كريم؛ أي: مكرمين لدينا بجبرهم في طاعتنا، أو بأداء الأمانة؛ إذ الكريم لا يكون خواناً، وفي «فتح الرحمن»: وصفهم بالكرم الذي هو نفي المذام. وقيل: معنى[1] ﴿كِرَامًا﴾: يسارعون إلىٰ كتب الحسنات، ويتوقفون في كتب السيئات رجاء أن يستغفر ويتوب، فيكتبون الذنب والتوبة منه معاً ﴿كَٰتِبِينَ﴾ لأقوالكم وأفعالكم صغيرها وكبيرها لتجازوا عليها ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لحضورهم وعدم افتراقهم عنكم ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ من الأفعال، وما تقولون من الأقوال قليلاً أو كثيراً، ويضبطون نقيراً وقطميراً لتجازوا بذلك، وخص الفعل بالذكر؛ لأنه أكثر من القول، ولأن القول قد يراد به الفعل فاندرج فيه، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿كَٰتِبِينَ﴾ أو علىٰ النعت أو مستأنفة. وفي الحديث: «أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند الحالتين الجنابة والغائط».

قال في «عين المعاني»[2]: قوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يدل علىٰ أن السهو والخطأ وما لا تبعة فيه لا يكتب، وكذا ما استغفر منه حيث لم يقل يكتبون. انتهى.

وقوله ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ وإن كان عاماً لأفعال القلوب والجوارح، لكنه عام مخصوص بأفعال الجوارح، لأن ما كان من المغيبات لا يعلمه إلا الله، وفي «كشف الأسرار»: علمهم علىٰ وجهين: فما كان من ظاهر قول أو حركة جوارح، علموه بظاهره، وكتبوه على جهته، وما كان من باطن ضمير يقال: إنهم يجدون لصالحه رائحة طيبة، ولطالحه رائحة خبيثة، فيكتبونه مجملاً عملاً صالحاً، وآخر سيئاً. انتهى. وقد مر بيان هذا المقام في سورتي الزخرف، وقٓ.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

والمعنىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ إلخ؛ أي[1]: ارتدعوا عن الاغترار بكرمي لكم، فإنكم لا تستقيمون علىٰ ما توجبه نعمي عليكم، ويدعوه إرشادي لكم، بل تجترئون علىٰ ما هو أعظم منه، فتكذبون بيوم الجزاء والحساب علىٰ القليل والكثير يوم تبعثون للفصل بينكم، فتجازىٰ كل نفس بما عملت وما قدمت وما أخرت.

ثم حذرهم من تماديهم في غيهم ببيان أن أعمالهم محصاة عليهم، فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ...﴾ إلخ؛ أي: إن أعمالكم محصاة عليكم، فقد وكل بكم ملائكة حفظة كرام كاتبون يحصون كل ما تعملون من خير أو شر، وقد ذكر ذلك في غير موضع من الكتاب الكريم، كقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، وليس علينا أن نبحث عن كنه هؤلاء الحفظة، ولا أن نعرف من أي شيء خلقوا، وما عملهم، وكيف يحفظون الأعمال، وهل عندهم أوراق وأقلام، أو هناك ألواح ترسم فيها الأعمال، أو هم أرواح تتجلىٰ فيها تلك الأعمال، فتبقى فيها بقاء المداد في القرطاس، كل ذلك لم نكلف العلم به، وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر، وتفويض الأمر في حقيقته إلى الله تعالى.

ثم ذكر نتيجة الحفظ والكتابة من الثواب والعقاب، وبين أن العالمين في ذلك اليوم فريقان، وبين مآل كل منهما فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ الذين[2] بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، جمع: بر بالفتح، وهو بمعنىٰ الصادق والمطيع والمحسن، وأحسن الحسنات: لا إله إلا الله وما يتبعها، ثم بر الوالدين. وفي «فتح الرحمن»: البر: هو الذي قد اطرد بره عموماً، فبر ربه في طاعته إياه، وبر الناس في جلب ما استطاع من الخير لهم، وغير ذلك. ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ عظيم، وهو نعيم الجنة وثوابها، والتنوين للتفخيم ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ الذين شقوا ستر الديانة، بالكفر والمعاصي، جمع: فاجر، من الفجور، وهو شق عصا الديانة ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ أي لفي نار متأججة مسعرة وعذاب هائل، والتنوين للتهويل، والجملتان مستأنفتان مسوقتان لبيان ما يكتبون لأجله، وهو أن الغاية؛ إما النعيم، وإما الجحيم، وهي كقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾، وجملة قوله: ﴿يصلونها﴾؛ أي: يصلون الجحيم

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ويدخلونها، ويقاسون حرها. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: يوم الجزاء الذي يكذبون به، إما صفة لـ﴿جَحِيمٍ﴾، أو في محل[1] نصب على الحال من الضمير المستكن في متعلَّق الجار والمجرور، أو مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر نشأ عن تهويلها كأنه قيل: ما حالهم فيها؟ فقيل: يقاسون حرها، كما قال الخليل: صلي الكافر النار؛ قاسىٰ حرها، وباشره ببدنه. ولم يصف النعيم بما يلائمه لأن ما سبق من الكلام كان في المكذبين الفجرة لأن المقام مقام التخويف، وذكر تبشير الأبرار لأنه ينكشف به حال الفجار الأشرار لأن الأشباه تعرف بأضدادها، ومعنىٰ ﴿يصلونها﴾: أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها وحرها يومئذٍ.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يصلونها﴾ مخففاً مبنياً للفاعل، مضارع صلىٰ الثلاثي، وقرأ ابن مقسم مشدداً مبنياً للمفعول.

ومعنىٰ الآيات: أي إن أهل الثواب ـ وهم الأبرار ـ يكونون في دار النعيم، وأن أهل العذاب ـ وهم الفجار ـ يكونون في دار الجحيم، دار العذاب الأليم، يقاسون أهوالها.

ثم بين أن هذا العذاب حتم لا منجاة لهم منه ولا مهرب، فقال: ﴿وَمَا هُمْ﴾؛ أي: وما الفجار ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن الجحيم ﴿بِغَآئِبِينَ﴾ طرفة عين؛ أي: إنهم لا يغيبون عنها، ولا ينفكون عن عذابها، بل هم ملازمون لها، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ فالمراد: دوام نفي الغيبة، لا نفي دوام الغيبة، وقيل: وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية، بل كانوا يجدون سمومها في قبورهم حسبما قال النبي ﷺ: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار».

ثم عاد إلىٰ تفخيم ذلك اليوم وتهويل أمره، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ وأعلمك، الخطاب لكل من يتأتىٰ منه الدراية، وقال الكلبي: الخطاب للإنسان الكافر، وقيل: للنبي ﷺ، والمعنىٰ: أي شيء أعلمك به لو لم نعرفك أحواله، و ﴿مَآ﴾: مبتدأ، و ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبره ﴿مَآ﴾ خبر قوله: ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ و ﴿ما﴾ لطلب الوصف، وإن كان وضعه لطلب الحقيقة، والمعنىٰ[3]: أيُّ شيء جعلك دارياً وعالماً ما يوم الدين؟

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

أي: شيء عجيب هو في الهول والفظاعة، أي: ما أدراك أحد الآن كنه أمره، فإنه خارج عن دائرة الخلق علىٰ أي صورة يصورونه، فهو فوقها وأضعافها.

والمعنىٰ(١): أي إن أمرك أيها الإنسان لعجيب، فأنت لاهٍ عن هذا اليوم غير مبالٍ به، وقد كنت خليقاً أن تتعرف حقيقة حاله لتأخذ لنفسك الحيطة، وتتدبر أمرك، ولا تركن إلىٰ عفو ربك وكرمه وصفحه، فإنك لا تدري ما قدر لك، ثم زاده توكيداً وتعظيماً، فقال: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ كرر بـ ﴿ثُمَّ﴾(٢) المفيدة للترقي في التوبة للتأكيد وزيادة التخويف والتهويل لأمره، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾، وقوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾، والمجموع تعجيب للمخاطبين، وتفخيم لشأن اليوم.

وإظهار ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ في مقام الإضمار تأكيد لهوله وفخامته.

والمعنى(٣): أي ثم عجيب منك أن تتهاون بنبأ هذا اليوم، كأنك قد أدركت كنهه، وعرفت وجه الخلاص مما يلقاك فيه من الأهوال، ولو عرفته حق معرفته.. للانت قناتك، ورجعت إلى ربك تائباً، وعدت إليه مستغفراً طالباً الصفح عما قدمت يداك.

ثم بين حقيقة أمره فقال: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ بيان إجمال(٤) لشأن يوم الدين إثر إبهامه، وبيان خروج عن دائرة علوم الخلق بطريق إنجاز الوعد، فإن نفي إدرائهم مشعر بالوعد الكريم بالإدراء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وكل ما فيه من قوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فقد طوىٰ عنه. و ﴿يَوۡمَ﴾: مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وحركته الفتح لإضافته إلىٰ غير متمكن، كأنه قيل: هو يوم لا تملك فيه نفس من النفوس لنفس من النفوس شيئاً من الأشياء أو منصوب بإضمار: اذكر، كأنه قيل بعد تفخيم أمر يوم الدين وتشويقه ﷺ إلىٰ معرفته: اذكر يوم لا تملك إلخ، فإنه يدريك ما هو،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

ودخل في: ﴿نَفْسٌ﴾ كل نفس ملكية وإنسية وجنية، وفي ﴿شَيْـًٔا﴾ كل ما كان من قبيل جلب المنفعة، أو دفع المضرة.

﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ كله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴿لِلَّهِ﴾ وحده، لا يملك[1] شيئاً من الأمر غيره تعالىٰ كائناً ما كان. قال مقاتل: يعني لنفس كافرة شيئاً من المنفعة. وقال قتادة: ليس ثم أحد يقضي أو يصنع شيئاً إلا الله رب العالمين.

والمعنى: أن الله تعالىٰ لا يملك أحداً في ذلك اليوم شيئاً من الأمور، كما ملكهم في الدنيا، ومثل هذا قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ والأمر[2] واحد الأوامر، فإن الأمر والحكم والقضاء من شأن الملك المطاع، والخلق كلهم مقهورون تحت سطوات الربوبية وحكمها، ويجوز أن يكون واحد الأمور، فإن أمور أهل المحشر كلها بيده تعالى لا يتصرف غيره.

أخبر تعالى بضعف الناس يومئذٍ، وأنه لا ينفعهم الأموال والأولاد والأعوان والشفعاء، كما في الدنيا، بل ينفعهم الإيمان والبر والطاعة، وأنه لا يقدر أحد أن يتكلم إلا بإذن الله وأمره؛ إذ الأمر له في الدنيا والآخرة في الحقيقة وإن كان يظهر سلطانه في الآخرة بالنسبة إلى المحجوب لأن المحجوب يرى أن الله ملكه في الدنيا وجعل له شيئاً من الأمور والأوامر، فإذا كان يوم القيامة يظهر له أن الأمر والملك لله تعالى لا يزاحمه فيه أحد ولا يشاركه ولو صورة، وفيه تهديد لأرباب الدعاوي وأصحاب المخالفة، وتنبيه على عظيم بطشه تعالى وسطوته.

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب وابن كثير وأبو عمرو[3]: ﴿يومُ لا تملك﴾ ـ برفع الميم ـ على أنه بدل من ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ كما قاله الزمخشري، أو خبر مبتدأ محذوف، وقرأ محبوب عن أبي عمرو: ﴿يوم﴾ بالقطع عن الإضافة والتنوين والتنكير، والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو يوم، و ﴿لَا تَمْلِكُ﴾: جملة في موضع الصفة، والعائد محذوف؛ أي: لا تملك فيه، وقرأ زيد بن علي والحسن وأبو جعفر وشيبه والأعرج وباقي السبعة: ﴿يَوْمَ﴾ بالفتح على الظرف، فعند البصريين

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

هي حركة الإعراب، وعند الكوفيين: يجوز أن تكون حركة بناء وهو على التقديرين في موضع رفع خبر لمحذوف تقديره: الجزاء يوم لا تملك، أو في موضع نصب على الظرف؛ أي: يدانون يوم لا تملك، أو على أنه مفعول به، أي: اذكر يوم لا تملك، ويجوز على رأي من يجيز بناءه أن يكون في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً.

وحكي أن سليمان بن عبد الملك مر بالمدينة المنوّرة وهو يريد مكة، فقال لأبي حازم: كيف القدوم عليه غداً؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم من سفره على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

الإعراب

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾.

﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه. ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: فاعل لفعل محذوف يدل عليه المذكور تقديره: إذا انفطرت السماء انفطرت، والجملة المحذوفة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط له، والظرف متعلق بالجواب الآتي، وهو ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية مستأنفة استئنافاً نحوياً، وجملة ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، ومثلها قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ تقديره: وإذا انتثرت، والجملة معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى، ومثلها أيضاً قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾، ولكن ﴿البحار﴾ و ﴿ٱلْقُبُورُ﴾ نائب فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور تقديره: وإذا فجرت البحار فجرت، وإذا بعثرت القبور بعثرت. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب شرط غير جازم ﴿مَّآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿عَلِمَتْ﴾؛ لأن العلم هنا عرفانية، وجملة ﴿قَدَّمَتْ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما قدمته، وجملة ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿قَدَّمَتْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء؛ ﴿أي﴾: منادىٰ نكرة مقصودة، و ﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: بدل من ﴿أي﴾، أو عطف بيان له، وجملة النداء مستأنفة. ﴿مَا غَرَّكَ﴾ ﴿مَآ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿غَرَّكَ﴾: فعل ماضٍ ومفعول به، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿مَآ﴾ ﴿بِرَبِّكَ﴾: متعلق بـ ﴿غرك﴾ ﴿الكريم﴾: صفة لـ ﴿ربك﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن ﴿مَآ﴾ الاستفهامية، والجملة الاستفهامية جواب النداء لا محل لها من الإعراب، وقرىء: ﴿ما أغرك﴾، فاحتمل أن تكون ﴿مَآ﴾ استفهامية، وأن تكون تعجبية. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة ثانية لـ ﴿ربك﴾ مقررة للربوبية ﴿خَلَقَكَ﴾؛ فعل ومفعول، وفاعل مستتر، والجملة صلة الموصول ﴿فسواك﴾: عطف علىٰ ﴿خَلَقَكَ﴾، ﴿فَعَدَلَكَ﴾: معطوف علىٰ ﴿سواك﴾ ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿ربك﴾، ﴿مَّآ﴾: زائدة، وجملة ﴿شَآءَ﴾: صفة لـ ﴿صُورَةٍ﴾، والرابط محذوف تقديره: شاءها، والمعنى: ركبك في أي صورة اقتضتها مشيئته من حسن ودمامة وطول وقصر وذكورة وأنوثة، و ﴿عدلك﴾؛ أي: صيرك معتدل القامة متناسب الخلقة من غير تفاوت، ويجوز أن يتعلق بمحذوف علىٰ أنه حال؛ أي: ركبك حال كونك حاصلاً في بعض صورة شاءها، و ﴿أي﴾ هنا: وصفية، وقال الزمخشري: ويجوز أن يتعلق بـ ﴿عدلك﴾، ويكون في ﴿أَىِّ﴾ معنىٰ التعجب؛ أي: فعدلك في صورة عجيبة ﴿رَكَّبَكَ﴾ معطوفة على ﴿خَلَقَكَ﴾.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر، ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب علىٰ جملة محذوفة يدل عليها السياق تقديرها: وأنتم لا ترتدعون عن ذلك، بل تكذبون بالدين ﴿تُكَذِّبُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿بِٱلدِّينِ﴾: متعلق، بـ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿وإن﴾ ﴿الواو﴾ حالية أو استئنافية، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبر مقدم لـ ﴿إِنَّ﴾ ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿حافظين﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، أو صفة لاسمها؛ أي: إن ملائكة حافظين، والجملة في محل النصب حال من الواو في ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، أو مستأنفة مسوقة لإخبارهم بذلك ليرتدعوا عما هم عليه ﴿كِرَامًا﴾: صفة أولىٰ لـ ﴿حافظين﴾، و ﴿كَٰتِبِينَ﴾: صفة ثانية له،

وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ صفة ثالثة له ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وجملة ﴿تَفْعَلُونَ﴾ صلتها، والعائد محذوف تقديره: ما تفعلونه.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى﴾: ﴿اللام﴾. حرف ابتداء ﴿في نعيم﴾. جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة للإجابة عن سؤال مقدر تقديره: لم يكتبون ذلك، فكأنه قيل: ليجازىٰ الأبرار بالنعيم، والفجار بالجحيم، ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾: خبرها، والجملة معطوفة علىٰ ما قبلها. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور في قوله: ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾، ويجوز أن تكون جملة ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ مستأنفة مسوقة للإجابة عن سؤال مقدر تقديره: وماذا يؤول إليه أمرهم في الجحيم. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿مَآ﴾: حجازية ﴿هُمْ﴾: اسمها ﴿عَنْهَا﴾: متعلق بـ ﴿غائبين﴾ ﴿بِغَآئِبِينَ﴾: خبرها، و ﴿الباء﴾: زائدة، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾، أو مستأنفة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿مَآ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: خبره، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿أدرى﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَآ﴾، و ﴿الكاف﴾: مفعول أول، ﴿مَآ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ معناه التهويل والتعظيم ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾: خبره، والجملة المعلقة بالاستفهام سدت مسد المفعول الثاني لـ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿مَآ﴾: مبتدأ، و ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: خبره والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ جملة سدت مسد المفعول الثاني ﴿يَوْمَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو إلخ، أو بدل من ﴿يَوْمُ﴾، أو منصوب علىٰ الظرفية بفعل محذوف تقديره: يجازون يوم لا تملك، أو باذكر محذوفاً. وجملة ﴿لَا

﴿تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾ ﴿لِنَفْسٍ﴾: متعلق بـ ﴿تَمْلِكُ﴾، أو حال من ﴿شَيْئًا﴾، و ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، ﴿وَالْأَمْرُ﴾: مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، متعلق بمحذوف، حال من الضمير المستكن في الخبر ﴿لِلَّهِ﴾: خبر ﴿الْأَمْرُ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿انْفَطَرَتْ﴾؛ أي: انشقت لنزول الملائكة، انفعل من فطر، وكذلك ﴿انْتَثَرَتْ﴾؛ أي: تساقطت متفرقة، افتعل من نثر، وهو التفريق.

﴿فُجِّرَتْ﴾؛ أي: فتحت وشققت جوانبها فزال ما بينها من الحواجز، واختلط عذبها بملحها من التفجير، والتضعيف للمبالغة.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)﴾؛ أي: قلب ترابها الذي حثي على موتاها وأزيل، وأخرج من دفن فيها، ونظيره: بحثر لفظاً ومعنى، يقال: بعثرت المتاع وبحثرته؛ أي: جعلت أسفله أعلاه، وجعل أسفل القبور أعلاها إنما هو بإخراج موتاها، وقيل لسورة براءة: المبعثرة؛ لأنها بعثرت أسرار المنافقين، وهما - أي: بعثر وبحثر - مركبان من البعث والبحث مع راء ضمت إليهما، وقال الراغب: من رأى تركيب الرباعي والخماسي، نحو هلل وبسمل إذا قال: لا إله إلا الله، وبسم الله، يقول: إن بعثر مركب من بعث وأثير؛ أي: قلب ترابها وأثير ما فيه، وهذا لا يبعد في هذا الحرف، فإن البعثرة تتضمن معنى بعث وأثير، وقال أبو الجراح: بحثر الشيء وبعثره؛ أي: استخرجه وكشفه، وقال الفراء: بحثر متاعه وبعثره: فرقه وقلب بعضه على بعض.

﴿مَا قَدَّمَتْ﴾؛ أي: من أعمال الخير ﴿وَأَخَّرَتْ﴾؛ أي: منها بالكسل والتسويف ﴿مَا غَرَّكَ﴾؛ أي: أيُّ شيء خدعك وجرأك على العصيان ﴿الْكَرِيمِ﴾؛ أي: العلي العظيم، وقيل: الكريم من يبادر بالنوال قبل السؤال.

﴿فَسَوَّاكَ﴾؛ أي: جعل أعضاءك سوية تامة الخلق سليمة معدة لمنافعها، وأصله: سويك بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَعَدَلَكَ﴾؛ أي: جعلك معتدلاً متناسب الخلق ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)﴾؛

أي: ركبك في صورة هي من أعجب الصور وأحكمها، وكلمة ﴿ما﴾ جاءت زائدة لتفخيم المعنىٰ وتعظيمه، وهي من طريقة متبعة في كلامهم عند إرادة التهويل، والسلوك سبيل التعظيم.

﴿كَلَّا﴾ كلمة تفيد نفي شيء قد تقدم وتحقيق غيره.

﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال الراغب: ﴿بَلْ﴾ هنا لتصحيح الثاني، وإبطال الأول، كأنه قيل: ليس هنا ما يقتضي أن يغرهم به تعالى شيء، ولكن تكذيبهم هو الذي حملهم علىٰ ما ارتكبوه. ﴿بِالدِّينِ﴾؛ أي: الجزاء.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: علىٰ أعمالكم بحيث لا يخفىٰ عليهم منها جليل ولا حقير.

﴿كِرَامًا﴾ على الله ﴿كَاتِبِينَ﴾ لهذه الأعمال في الصحف كما تكتب الشهود منكم العهود؛ ليقع الجزاء على غاية التحرير.

تنبيه: هذا الخطاب وإن كان خطاب مشافهة إلا أن الأمة أجمعت على عموم هذا الخطاب في حق المكلفين.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ جمع: بر بفتح الباء، وهو من يفعل البر بكسرها، ويتقي الله في كل أفعاله.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ جمع: فاجر، وهو التارك لما شرعه الله تعالى وحدَّه لعباده.

﴿يصلونها﴾؛ أي: يقاسون حرها، أصله: يصليونها، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين.

﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾؛ أي: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أصله: غايبين، جمع: غائب من غاب يغيب، أبدلت الياء في الوصف همزة حملاً له علىٰ الفعل في الإعلال لما قلبت ياؤه ـ غ ي ب ـ ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾؛ أي: ما أعلمك وعرفك، أصله: أدريك بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾؛ حيث شبه الكواكب بجواهر انقطع سلكها، فتناثرت متفرقة، وطوىٰ ذكر المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الانتثار علىٰ طريقة الاستعارة المكنية.

ومنها: إفراد ﴿نَفْسٌ﴾ وتنكيرها في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ للدلالة علىٰ حقارتها وضعفها عن منفعة ذاتها إلا من رحم الله تعالى.

ومنها: الطباق بين ﴿قَدَّمَتْ﴾ و﴿أخرت﴾، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الاستفهام للاستهجان والتوبيخ في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾.

ومنها: التعرض لعنوان كرمه تعالى للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدار الاغترار حسبما يغويه الشيطان، ويقول له: افعل ما شئت فإن ربك كريم قد تفضل عليك في الدنيا، وسيفعل مثله في الآخرة، فإنه قياس عقيم، بل هو مما يوجب المبالغة في الإقبال علىٰ الإيمان والطاعة، والاجتناب عن الكفر والعصيان.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين الأبرار والفجار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ فقد قابل الأبرار بالفجار، والنعيم بالجحيم.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ للتفخيم والتعظيم، وقوله: ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ للتهويل والتخويف.

ومنها: الإطناب بإعادة الجملة في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾ لتعظيم هول ذلك اليوم وبيان شدته؛ كأنه فوق الوصف والخيال.

ومنها: إظهار ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ في موضع الإضمار إظهاراً لفخامته، وتأكيداً لهوله.

ومنها: الوصل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ لما فيه من مقتضيات الوصل، وهو اتفاق الجملتين في الخبرية والإنشائية مع الاتصال؛ أي: الجامع بينهما، وهو هنا التضادُّ.

ومنها: الترجيع في هاتين الآيتين، وهو ضرب من السجع، وذلك أن تكون كل لفظة في صدر البيت، أو فقرة النثر موافقة لنظيرتها في الوزن والروي والإعراب، ومما ورد منه شعراً قول أبي فراس:

وَأَفْعَالُنَا لِلرَّاغِبِيْنَ كَرِيْمَةٌ   وَأَمْوَالُنَا لِلطَّالِبِيْنَ نِهَابُ

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

* * *

خلاصة ما في هذه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على ما يلي:

١ ـ وصف بعض أهوال يوم القيامة.

٢ ـ تقصير الإنسان في مقابلة الإحسان بالشكر.

٣ ـ بيان أن أعمال الإنسان بها موكلون كرام كاتبون.

٤ ـ بيان أن الناس في هذا اليوم العظيم إما بررة منعمون، وإما فجرة معذبون[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تم تفسير سورة الانفطار بعون مالك الأقطار، في السابع والعشرين من شهر شعبان المعظم قبيل الظهر من شهور سنة: ٢٧/٨/ ١٤١٦هـ. ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة المطففين

سورة المطففين، وتسمىٰ سورة التطفيف، نزلت بعد سورة العنكبوت بين مكة والمدينة في مهاجرته ﷺ، فاستتمت بالمدينة، قال القرطبي: وهي مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل، ومدنية في قول الحسن وعكرمة، وقال مقاتل أيضاً: هي أول سورة نزلت بالمدينة، وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية إلا ثمان آيات، من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ إلىٰ آخرها، وقال[1] الكلبي وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة،" وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المطففين بمكة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: آخر ما نزل بمكة سورة المطففين، وقيل: فيها آية مكية وهي قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا...﴾ إلخ، وأخرج ابن مردويه والبيهقي في «الشعب» قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة.. كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى؛ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

وهي[2] ست وثلاثون آية ومئة وتسع وتسعون كلمةً وسبع مئة وثمانون حرفاً، وقال ابن حزم: وكلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وسميت سورة التطفيف أخذاً من المطففين.

ومناسبتها لما قبلها[3]: أنه سبحانه قال فيما قبلها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾، وذكر هنا ما يكتبه الحافظون بقوله: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ يجعل في عليين أو في سجين، فقد فصل سبحانه في هذه السورة ما أجمله في سابقتها، فذكر فيها نوعاً من أنواع الفجور، وهو التطفيف في المكيال والميزان، ثم ذكر نوعاً آخر، وهو التكذيب بيوم

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

الدين، ثم أعقبه بذكر جزائهم علىٰ التكذيب وتوبيخهم عليه.

قال الألوسي في «تفسيره»: والمناسبة بينها وبين ما قبلها: أنه سبحانه لما ذكر فيما قبل السعداء والأشقياء ويوم الجزاء وعظم شأنه.. ذكر عزّ وجلّ هنا ما أعد جل وعلا لبعض العصاة، وذكره سبحانه بأخس ما يقع من المعصية، وهو التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئاً في تثمير المال وتنميته، مع اشتمال هذه السورة علىٰ شرح حال المكذبين المذكورين هناك علىٰ زيادة التفصيل، كما لا يخفىٰ.

وكأن هذه السورة جاءت شرحاً وتفصيلاً للسورة السابقة، وهي سورة الانفطار، وبياناً له، فسبحان الذي جعل هذا القرآن هدى للناس، وشفاء لما في الصدور، ورحمة للعالمين، وضياء للأبصار، ونوراً للقلوب، ونظاماً للحكم، ومنهاجاً للأخلاق، ودستوراً للعالمين عصمةً لمن تمسك به، ونجاةً لمن اهتدى به.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ
يُخۡسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ (٤) لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ (٥) يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
(٦) كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ (٧) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ (٨) كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ (٩) وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ
لِّلۡمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ
ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ
يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّآ إِنَّ
كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ (٢٠) يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢١)
إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسۡقَوۡنَ
مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ
(٢٧) عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ (٢٩)
وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ (٣٣) فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ
(٣٤) عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (٣٦).﴾

المناسبة

قد مر لك قريباً في بيان المناسبة بين السورتين أن الله سبحانه فصل[١] في هذه السورة ما أجمله في سابقتها، فذكر فيها نوعاً من أنواع الفجور، وهو التطفيف في المكيال والميزان، ثم ذكر نوعاً آخر، وهو التكذيب بيوم الدين، ثم أعقبه بذكر جزائهم علىٰ هذا التكذيب وتوبيخهم عليه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنه لا يقيم علىٰ التطفيف إلا من ينكر ما أوعده الله به من العرض والحساب، وعذاب الكفار والعصاة.. أمرهم بالكف عما هم

(١) المراغي.

فيه، وذكر أن الفجار قد أعد لهم كتاب أحصيت فيه جميع أعمالهم ليحاسبوا بها، فويل للمكذبين بيوم الجزاء، وما يكذب به إلا كل من تجاوز حدود الدين، وانتهك حرماته، وإذا تليت عليهم آيات القرآن قالوا: ما هي إلا أقاصيص الأولين نقله محمد عن السابقين، وليست وحياً يوحىٰ كما يدعي.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] أنهم قالوا: إن القرآن أساطيرُ الأولين، وليس وحياً من عند الله تعالى.. أردف ذلك ببيان أن الذي جرأهم علىٰ ذلك هي أفعالهم القبيحة التي مرنوا عليها، فعميت عليهم وجوه الآراء حتىٰ صاروا لا يميزون بين الأسطورة والحجة الدامغة، ثم رد عليهم فرية كانوا يقولونها ويكثرون من تردادها، وهي: إن كان ما يحدث به محمد صحيحاً.. فنحن سنكون في منزلة الكرامة عند ربنا، فأبان لهم أنهم كاذبون، فإنهم سيطردون من رحمته ولا ينالون رضاه، ثم يؤمر بهم إلىٰ النار فيدخلونها ويصلون سعيرها، ويقال لهم: هذا العذاب جزاء ما كنتم به تكذبون مما أوعدكم به الرسول.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالىٰ لما ذكر حال الفجار وحال المطففين، وبيَّن منزلتهم عند الله يوم القيامة.. أتبعه بذكر حال الأبرار الذين آمنوا بربهم، وصدقوا رسولهم فيما جاء به عن خالقهم، وعملوا الخير في الحياة الدنيا، فذكر أن الله قد أحصىٰ أعمالهم في كتاب مرقوم اسمه: عليون، يشهده المقربون من الملائكة، وبعدئذٍ عدد ما ينالون من الجزاء علىٰ البر والإحسان، وفي ذلك ترغيب في الطاعة، وحفز لعزائم المحسنين ليزدادوا إحساناً، ويدعوا الطرق المشتبهة الملتبسة، ويقيموا علىٰ الطريق المستقيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر النعيم الذي هيأه للذين آمنوا به وبرسوله، وعملوا بما كلفهم به من أعمال البر، وأرشد إلىٰ ما أعده للفجار جزاء ما اجترحوا من السيئات.. أخذ يبين ما كان الكفار يقابلون به

(١) المراغي.

المؤمنين في الحياة الدنيا، وما سيقابل به المؤمنون الكفار يوم القيامة كفاء ما صنعوا معهم في الحياة الأولىٰ.

أسباب النزول

سبب نزولها: ما أخرج النسائي وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة.. كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، فأحسنوا الكيل بعد ذلك. قال الفراء: فهم من أوفىٰ الناس كيلاً إلىٰ يومهم هذا، وورد عن ابن عباس أيضاً قال: هي أول سورة نزلت علىٰ رسول الله ﷺ ساعة نزل المدينة، وكان هذا فيهم، كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان، فلما نزلت هذه السورة انتهوا، فهم أوفىٰ الناس كيلاً إلىٰ يومهم هذا كما مر آنفاً. وقال قوم: نزلت في رجل كان بالمدينة يعرف بأبي جهينة، واسمه: عمرو، وكان له صاعان، يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر، قاله أبو هريرة رضي الله عنه.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك عظيم، وشر شديد، وعذاب أليم كائن ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾؛ أي: للناقصين[1] في المكيال والميزان بالشيء القليل التافه علىٰ سبيل الخفية. قال ابن كيسان[2]: الويل: كلمة تقال لكل مكروب واقع في البلية، فقولك: ويل لك، عبارة عن استحقاق المخاطب لنزول البلاء والمحنة عليه، الموجب له أن يقول: واويلاه ونحوه. وقيل: وي لفلان؛ أي: الحزن، فقرن بلام الإضافة تخفيفاً، وهو مبتدأ، وإن كان نكرة لوقوعه في معرض الدعاء علىٰ ما سبق بيانه في المرسلات، خبره قوله: ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾؛ أي: كائن للباخسين حقوق الناس في المكيال والميزان، فإن التطفيف البخس في الكيل والوزن، والنقص والخيانة فيهما؛ بأن لا يعطي المشتري حقه تاماً كاملاً، وذلك لأن ما يبخس شيء خفيف؛ أي: يسير حقير علىٰ وجه الخفية من جهة دناءة الكيال والوزان وخساستهما؛ إذ الكثير يظهر، فيمنع منه، ولذا سمي: مطففاً.

---

(١) المراح.　　(٢) روح البيان.

قال الراغب: يقال: طفف الكيل إذا قلل نصيب المكيل له في إيفائه واستيفائه. وقال سعدي المفتي: والظاهر: أن بناء التفعيل للتكثير؛ لأن البخس لما كان من عادتهم.. كانوا يكثرون التطفيف، ويجوز أن يكون للتعدية. انتهىٰ.

وروي: أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، وكان أهلها من أبخس الناس كيلاً، فنزلت، فخرج فقرأها عليهم وقال: «خمس بخمس، ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»؛ فعملوا بموجبها، وأحسنوا الكيل، فهم أوفىٰ الناس كيلاً إلىٰ اليوم. قال مكي بن أبي طالب[1]: والمختار في ﴿وَيْلٌ﴾ وشبهه إذا كان غير مضاف: الرفع، ويجوز النصب، فإن كان مضافاً أو معرفاً.. كان الاختيار فيه النصب نحو قوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا﴾، والمراد بالويل هنا: شدة العذاب، أو نفس العذاب، أو الشر الشديد ـ كما مر ـ أو هو وادٍ في جهنم.

ومعنى الآية: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ①﴾؛ أي: عذاب[2] وخزي شديد يوم القيامة لمن يطفف وينقص في المكيال والميزان، وقد خص سبحانه المطففين بهذا الوعيد من قبل أنه كان فاشياً منتشراً بمكة والمدينة، فكانوا يطففون المكيال ويبخسونه، ولا يوفون حق المشتري.

روي: أنه كان بالمدينة رجل يقال له: أبو جهينة، له كيلان، أحدهما كبير، والآخر صغير، فكان إذا أراد أن يشتري من أصحاب الزروع والحبوب والثمار.. اشترىٰ بالكيل الكبير، وإذا باع للناس.. كال للمشتري بالكيل الصغير. وهذا الرجل وأمثاله ممن امتلأت نفوسهم بالطمع، واستولى علىٰ نفوسهم الجشع، هم المقصودون بهذا الوعيد الشديد، وهم الذين توعدهم النبي ﷺ وتهددهم بقوله: «خمس بخمس»، كما مر آنفاً.

وقد بين سبحانه عمل المطففين الذين استحقوا عليه هذا الوعيد بقوله:

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

﴿ٱلَّذِينَ . . .﴾ إلخ[1] صفة كاشفة للمطففين، شارحة لكيفية تطفيفهم الذي استحقوا به الذم والدعاء بالويل ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: إذا أخذوا مكيلهم وحقوقهم بحكم الشراء ونحوه من الناس، والاكتيال: الأخذ بالكيل، كالاتزان: الأخذ بالميزان، ولم يقل: اتزنوا لأن الكيل والوزن المراد بهما الشراء والبيع، فأحدهما يدل على الآخر.

﴿يَسْتَوْفُونَ﴾؛ أي: يأخذونه وافياً وافراً تاماً، والاستيفاء: عبارة عن الأخذ الوافي، وتبديل كلمة من بـ ﴿عَلَى﴾ لتضمين الاكتيال معنىٰ الاستيلاء، أو للإشارة إلىٰ أنه اكتيال مضرٌّ بهم، لكن لا علىٰ اعتبار الضرر في حيز الشرط الذي تتضمنه كلمة ﴿إذا﴾ لإخلاله بالمعنىٰ، بل في نفس الأمر بموجب الجواب، فإن المراد بالاستيفاء ليس أخذ الحق وافياً من غير نقص، بل مجرد الأخذ الوافي الوافر حسبما أرادوا بأي وجه يتيسر من وجوه الحيل، وكانوا يفعلونه بكبس الكيل، وتحريك المكيال، والاحتيال في ملئه، فيسرقون أفواه المكاييل، وألسنة الموازين.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾؛ أي[2]: وإذا كالوا للناس المبيع ونحوه ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ﴾؛ أي: وزنوه للناس، فحذف الجار، وأوصل الفعل كما قال في «تاج المصادر»: وزنت فلاناً درهماً، ووزنت لفلان بمعنىٰ، والأصل اللام، ثم حذفت، فوصل الفعل، ومنه الآية. انتهىٰ.

فلفظ ﴿هم﴾ منصوب المحل علىٰ المفعولية، لا مرفوعه علىٰ التأكيد للواو؛ لأن واو الجمع، إذا اتصل به ضمير المفعول.. لا يكتب بعده الألف كما في نصروك، ومنه الآية إذا لم يكتب الألف في المصحف، وإذا وقع في الطرف بأن يكون الضمير مرفوعاً واقعاً للتأكيد.. فحينئذٍ يكتب بعده الألف؛ لأن المؤكد ليس كالجزء مما قبله بخلاف المفعول، وأما نحو: شاربوا الماء، فالأكثر علىٰ حذف الألف؛ لقلة اتصال واو الجمع بالاسم هذا.

فإن قلت: خط المصحف خارج عن القياس؟

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

قلت: الأصل في أمثاله إثباته في المصحف، فلا يعدل عنه. ويروى[1] عن عيسىٰ بن عمر وحمزة أنهما كانا يجعلان الضميرين توكيداً لما في ﴿كالوا﴾ و﴿وزنوا﴾، ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادا، ثم يقولان: ﴿هم يخسرون﴾؛ أي: إذا كالوا هم لغيرهم، أو وزنواهم لغيرهم.. ينقصون، وإثبات الألف قبل ﴿هم﴾ لو لم يكن معتاداً في زمان الصحابة.. لمنع من إثباتها في سائر الأعصار. ا هـ من «المراح».

قال أبو عبيد[2]: والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين:

إحداهما: الخط، ولذلك كتبوهما بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين.. لكانتا كالواو، أو وزنوا بالألف.

والأخرىٰ: أن يقال: كلتك، ووزنتك بمعنىٰ: كلت لك، ووزنت لك، وهو كلام عربي، كما يقال: شكرتك وشكرت لك، وقيل: هو على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، والمضاف: المكيل والموزون؛ أي: وإذا كالوا مكيلهم، أو وزنوا موزونهم ﴿يُخۡسِرُونَ﴾، أي: ينقصون حقوق الناس مع أن وضع الكيل والوزن إنما هو للتسوية والتعديل، يقال: خسر الميزان وأخسره بمعنىٰ، كقوله: ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ ولعل ذكر[3] الكيل والوزن في صورة الإخسار، والاقتصار علىٰ الاكتيال في صورة الاستيفاء، بأن لم يقل: إذا اكتالوا علىٰ الناس أو اتزنوا، لما أنهم لم يكونوا متمكنين من الاحتيال عند الاتزان تمكنهم منه عند الكيل والوزن، كما قال في «الكشاف»: كأن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة؛ لأنهم يزعزعون ويحتالون في الملء، و إذا أعطوا.. كالوا أو وزنوا؛ لتمكنهم من البخس في النوعين جميعاً. انتهى. ولأن التطفيف في الكيل يكون بشيء قليل لا يعبأ به في الأغلب، دون التطفيف في الوزن، فإن أدنىٰ حيلة فيه يفضي إلى شيء كثير، ولأن ما يوزن أكثر قيمةً في كثير من الأحوال مما يكال، ويؤيده الاقتصار علىٰ التطفيف في الكيل في الحديث المذكور سابقاً، وعدم التعرض للمكيل والموزون في الصورتين؛ لأن مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم في الأخذ والإعطاء، لا في

---

(١) المراح. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

خصوصية المأخوذ والمعطىٰ. قال أبو عثمان رحمه الله: حقيقة هذه الآية عندي: هو من يحسن العبادة علىٰ رؤية الناس ويسيء إذا خلا.

والمعنىٰ[1]: أي إذا كان لهم عند الناس حق في شيء من المكيلات.. لم يقبلوا أن يأخذوه إلا وافيًا كاملاً، وإذا كان لأحد عندهم شيء، وأرادوا أن يؤدوه له.. أعطوه ناقصاً غير وافٍ، وكما يكون التطفيف في الكيل والميزان.. يكون في أشياء أخرى، فمن استأجر عاملاً، ووقف أمامه يراقبه، ويطالبه بتجويد عمله، ثم إذا كان هو عاملاً أجيراً لم يراقب ربه في العمل، ولم يقم به على الوجه الذي ينبغي أن يقوم به.. يكون واقعاً تحت طائلة هذا الوعيد، مستوجباً لأليم العذاب مهما يكن عمله، جلَّ، أو حقر، وإذا كان هذا الإنذار للمطففين الراضين بالقليل من السحت، فما ظنك بأولئك الذين يأكلون أموال الناس بلا كيلٍ ولا وزن، بل يسلبونهم ما بأيديهم، ويغلبونهم علىٰ ثمار أعمالهم، فيحرمونهم التمتع بها اعتماداً على قوة الملك، أو نفوذ السلطان، أو باستعمال الحيل المختلفة. لا جرم أن هؤلاء لا يحسبون إلا في عداد الجاحدين المنكرين ليوم الدين، وإن زعموا بألسنتهم أنهم من المؤمنين المخبتين.

ثم هول في شأن هذا العمل وخوفهم، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ ويوقن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المطففون الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ لمجيء ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا يُقادَر قدر عظمه، وقدر عظم ما فيه من الأهوال، ومحاسبون فيه علىٰ مقدار الذرة والخردلة، والظن هنا[2]: بمعنىٰ اليقين، أي: لا يوقنون ذلك، ولو أيقنوا ما نقصوا الكيل والوزن، وقيل: الظن علىٰ بابه.

والمعنى: إن كانوا لا يستيقنون البعث.. فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه، ويبحثوا عنه، ويتركوا ما يخشون من عاقبته، فإن من يظن ذلك وإن كان ظناً ضعيفاً في حد الشك والوهم.. لا يتجاسر علىٰ أمثال هاتيك القبائح، فكيف بمن يتيقنه؟ فذكر الظن للمبالغة في المنع عن التطفيف، وإلا فالمؤمن لا يكفي له الظن في أمر البعث والمحاسبة، بل لا بد من الاعتقاد الجازم.

و ﴿أَلَآ﴾[3] هنا ليست هي التي للتنبيه؛ لأن ما بعد حرف التنبيه مثبت، وهنا

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

منفي؛ لأن ﴿أَلَآ﴾ التنبيهية إذا حذفت لا يختل المعنىٰ نحو قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾، وإذا حذفت ﴿أَلَآ﴾ هذه اختل المعنىٰ، بل الهمزة الاستفهامية الإنكارية دخلت هنا علىٰ لا النافية.

وجوز أن تكون للعرض والتخصيص علىٰ الظن، واليوم العظيم: هو يوم القيامة، ووصفه بالعظيم لكونه زماناً لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب، ودخول أهل الجنة الجنة، ودخول أهل النار النار. والمعنىٰ: أي[1]: إن تطفيف الكيل والميزان، واختلاس أموال الناس بهذه الوسيلة لا يصدر إلا عن شخص لا يظن أنه سيبعث يوم القيامة، ويحاسب على عمله؛ إذ لو ظن ذلك لما طفف الكيل، ولا بخس الميزان.

والخلاصة: أنه لا يَجْسُر علىٰ فعل هذه القبائح من كان يظن بوجود يوم يحاسب الله فيه عباده علىٰ أعمالهم، فما بالك بمن يستيقن ذلك.

ثم وصف سبحانه هذا اليوم فقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ بتقدير المضاف؛ أي: لمجرد أمره وحكمه بذلك، لا لشيء آخر، أو لمحاسبة رب العالمين ومجازاته، فيظهر هناك تطفيفهم ومجازاتهم، أو يقومون من قبورهم؛ ليرد ربّ العالمين أرواحهم إلى أجسادهم.

وانتصاب[2] الظرف بـ ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾ المذكور قبله، أو بفعل مقدر يدل عليه ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾؛ أي: يبعثون يوم يقوم الناس، أو علىٰ البدل من محل ﴿لِيَوْمٍ﴾، وإنما بني علىٰ الفتح في هذين الوجهين لإضافته إلىٰ الفعل، وفي تخصيص[3] ﴿رب العالمين﴾ من بين سائر الصفات إشعار بالمالكية والتربية، فلا يمنع عليه الظالم القوي لكونه مملوكاً مسخراً في قبضة قدرته، ولا يترك حق المظلوم الضعيف؛ لأن مقتضىٰ التربية أن لا يضيع لأحد شيئاً من الحقوق، وفي هذه التشديدات إشارة إلىٰ أن التطفيف، وإن كان يتعلق بشيء حقير، لكنه ذنب كبير، قيل: كل من نقص حق الله من زكاة وصلاة وصوم، فهو داخل تحت هذا الوعيد، وقيل: المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾: قيامهم في رشحهم إلى أنصاف آذانهم، وقيل: المراد: قيامهم بما

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

عليهم من حقوق العباد، وقيل: المراد: قيام الرسل بين يدي الله للقضاء، والأول أولىٰ.

وقوله: ﴿كَلَّآ﴾ هي للردع والزجر عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب، فيحسن الوقف عليه، فيستأنف بما بعدها، وقال أبو حاتم: إن ﴿كَلَّآ﴾ بمعنىٰ: حقاً، فتكون متصلة بما بعدها علىٰ معنى حقاً ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ علىٰ الأول تعليل للردع؛ أي: ازدجروا وكفوا مما أنتم عليه من التطفيف والغفلة عن الحساب والمجازاة، فإن الفجار سيحاسبون علىٰ أعمالهم، وقد أعد الله لهم كتاباً أحصىٰ فيه أعمالهم، وكذا جميع ما يأتي، من ﴿كَلَّآ﴾ من هذه السورة.

والحاصل: أن ﴿كَلَّآ﴾ إنْ كانت بمعنىٰ حقاً.. فهي ابتداء كلام متصلة بما بعدها، فيكون الوقف علىٰ ما قبلها، وإنْ كانت بمعنى الردع والزجر.. فهي متصلة بما قبلها متممة له، فيكون الوقف عليها.

والكتاب مصدر(١) بمعنىٰ: المكتوب، كاللباس بمعنىٰ: الملبوس، أو علىٰ حاله بمعنىٰ الكتابة، واللام للتأكيد، و ﴿سِجِّينٍ﴾ علم لكتاب جامع هو ديوان الشر، دوِّن أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الثقلين، منقول من وصف؛ أي: ساجن كحاتم، وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد، وهو التعريف، وأصله: فعيل من السجن، وهو: الحبس مبالغة الساجن، كخمير وسكير وفسيق من الخمر والسكر والفسق، كما قاله أبو عبيدة والمبرد والزجاج، أو لأنه مطروح - كما قيل - تحت الأرض السابعة في مكان مظلم وحش، وهو مكان إبليس وذريته إذلالاً لهم، وتحقيراً لشأنهم، وتشهده الشياطين المدحورون، كما أن كتاب الأبرار يشهده المقربون، فالسجين مبالغة المسجون.

والمعنى: أن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون؛ أي: ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدون فيه قبائح أعمالهم المذكورين المختص بالشر، وهو السجين.

---

(١) روح البيان.

والخلاصة: أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان المسمىٰ بالسجين، فعيل من السجن، وهو الحبس والتضييق؛ لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم، وهذا لا ينافي في كونه اسماً لجبٍّ في جهنم، أو لأسفل سبع أرضين مكان أرواح الكفار؛ لجواز الاشتراك في الاسم.

ثم ذكر ما يدل علىٰ تهويله وتعظيمه، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨﴾؛ أي: هو بحيث لا يبلغه دراية أحد، و ﴿مَآ﴾ اسم[1] استفهام إنكاري مبتدأ، و ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ خبره، و ﴿مَا سِجِّينٞ﴾ مبتدأ وخبر، و ﴿مَآ﴾ استفهامية أيضاً، والجملة سادة مسد المفعول الثاني لـ ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾، والأول الكاف، والاستفهام الأول للإنكار، والثاني للتفخيم والتعظيم، والمعنىٰ: ما أعلمك يا محمد عظمة سجين وفظاعته؛ أي: أنت لا تعلمه في الدنيا تفصيلاً، وإنما تعلمه في الآخرة، أو المراد: أنت لا تعلمه قبل نزول الوحي به عليك، وإنما علمته بالوحي. تأمل.

وقوله: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾ تفسير[2] وبيان للكتاب المذكور في قوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ وليس تفسير السجين؛ أي: هو كتاب مرقوم؛ أي: مسطور بيِّن الكتابة، بحيث كل من نظر إليه يطلع علىٰ ما فيه بلا دقة نظر، وإمعان توجه، مكتوب فيه أعمالهم، مثبت عليهم كالرقم في الثوب، لا ينسىٰ ولا يمحى حتىٰ يجازون به، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه لأهاليه؛ أي: ذلك الكتاب مشتمل على علامة دالة علىٰ شقاوة صاحبه، وكونه من أصحاب النار، وكونه علامة الشر يستفاد من المقام؛ لأنه مقام التهويل، وقيل: الرقم: الختم بلغة حمير.

وقال القفال: قوله ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾: ليس تفسير السجين، بل هو خبر ثانٍ لـ ﴿إِنَّ﴾، والمعنىٰ: إن كتاب الفجار لفي سجين، وإنه كتاب مرقوم، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨﴾ وقع معترضاً بين الخبرين.

وقصارى ما سلف[3]: إن للشر سجلاً وصحيفة دونت فيها أعمال الفجار، وهو كتاب مسطور بيِّن الكتابة، وهذا السجل يشتمل عليه السجل الكبير المسمى بسجين، كما تقول: إن كتاب حساب قرية كذا في السجل الفلاني المشتمل علىٰ

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

حسابها وحساب غيرها من القرى، فلكل فاجر من الفجار صحيفة، وهذه الصحائف في السجل العظيم المسمىٰ بسجين.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ كلام متصل بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾، وما بينهما اعتراض، والمعنىٰ: ويل عظيم، وهلاك شديد يوم إذ يقوم الناس لرب العالمين، وقال بعضهم: أي يوم إذ أعطي ذلك الكتاب واقع لمن وقع منه التكذيب بالبعث، وبما جاءت به الرسل.

ثم بيَّن سبحانه هؤلاء المكذبين، فقال: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١﴾ صفة ذم لـ﴿المكذبين﴾، أو بدل منه كقولك: فعل ذلك فلان الفاسق، الفاسق الخبيث؛ لأن تكذيبهم بيوم الدين علم من قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ إلخ.

والمعنىٰ: أي شدة عذاب لمن يكذب بيوم الجزاء، سواء كان بجحد أخباره، أو بعدم المبالاة بما يكون فيه من عقاب وعذاب، وأعظم دليل علىٰ عدم المبالاة هو الإصرار علىٰ الجرائم، والمداومة على اقتراف السيئات.

ثم بيَّن أوصاف من يكذب بهذا اليوم فقال: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ﴾؛ أي: بيوم الدين والجزاء ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾؛ أي: متجاوز عن حدود النظر والاعتبار، قال في «التقليد»: حتى استقصر قدرة الله علىٰ الإعادة مع مشاهدته للبدء، كالوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث وأضرابهما. ﴿أثيم﴾؛ أي: كثير الإثم، منهمك في الشهوات الناقصة الفانية، بحيث شغلته عما وراءها من اللذات التامة الباقية، وحملته علىٰ إنكارها، فالاعتداء دل علىٰ إهمال القوة النظرية التي كمالها أن يعرف الإنسان وحدة الصانع، واتصافه بصفات الكمال مثل العلم والإرادة والقدرة ونحوها، والإثم دل على إهمال القوة العملية التي كمالها أن يعرف الإنسان الخير لأجل العلم به.

والمعنىٰ[1]: أي وما يكذب بهذا اليوم إلا من اعتدى علىٰ الحق، وعمي عن الإنصاف، واعتاد ارتكاب الجرائم؛ إذ يصعب عليه الإذعان بأخبار الآخرة؛ لأنه يأبىٰ النظر في أدلتها، وتدبر البينات المرشدة إلىٰ صدقها إلا أنه يعلل نفسه بالإنكار، ويهون عليها الأمر بالتغافل.

---

(١) المراغي.

أما من كان ميالاً إلىٰ العدل، واقفاً عند ما حد الله لعباده في شريعته، وسننه في نظام الكون، فأيسر شيء عليه التصديق باليوم الآخر، وهو أعون له علىٰ ما تميل إليه نفسه.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ﴾ قرأ الجمهور[1]: ﴿إذا﴾، والحسن: ﴿أئذا﴾ بهمزة الاستفهام التوبيخي، وقرأ الجمهور: ﴿تُتْلَىٰ﴾ بتاء التأنيث، وأبو حيوة وابن مقسم وأبو السمال والأشهب العقيلي والسلمي بالياء التحتانية. ﴿عليه﴾؛ أي: علىٰ ذلك المعتدي ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقة بذلك ﴿قَالَ﴾ من فرط جهله وإعراضه عن الحق الذي لا محيد عنه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: هي حكايات الأولين وأخبارهم الباطلة، وأحاديثهم الكاذبة. قال في «فتح الرحمن»: هي الحكايات التي سطرت قديماً، وهي جمع أسطورة بالضم، وإسطارة بالكسر، وهي الحديث الذي لا نظام له.

والمعنىٰ: أي وإذا قرىء علىٰ هذا المعتدي الأثيم القرآن المنزل علىٰ محمد ﷺ.. أنكر كونه منزلاً من عند الله، وزعم أنه أخبار الأولين أخذها محمد من غيره من السابقين، ونحو الآية قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

وقد يكون المعنىٰ[2]: إنها أباطيل ألقيت على آبائهم الأولين فكذبوها، ولم تجز عليهم، فلسنا أول من يكذب بها حتىٰ تزعموا أن تكذيبنا بها يعتبر عجلةً منا، فإنا إنما تأسينا في تكذيبنا بها بآبائنا الأولين الذين سبقونا.

﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر للمعتدي الأثيم، يقول الزور ويزعم أن القرآن أساطير الأولين عن ذلك القول الباطل، وتكذيب له فيه، ويجوز أن تكون ردعاً عن مجموع التكذيب.

ثم بيّن السبب الذي حملهم علىٰ قولهم بأن القرآن أساطير الأولين، فقال: ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ قرأ حفص[3] عن عاصم: ﴿بَلْ﴾ بإظهار اللام مع

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

سكتة عليها خفيفة بدون القطع، ويبتدىء ﴿رَانَ﴾، وقرأ الباقون: بإدغام اللام في الراء، ومنهم حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم يميلون فتحة الراء، قال بعض المفسرين[(١)]: هرب حفص من اجتماع ثقل الراء المفخمة والإدغام. انتهى.

ويرد عليه: ﴿قُل رَّبِّ﴾ فإنه لا سكتة فيه، بل هو بإدغام أحد المتقاربين في الآخر، فالوجه: أنه إنما سكت حفص علىٰ لام ﴿بَلْ رَانَ﴾، وكذا على نون ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ خوف اشتباهه تثنية: البر، ومبالغة: مارق؛ حيث يصير: بران، ومراق، وقال الزمخشري: وقرىء بإدغام اللام في الراء، وبالإظهار والإدغام أجود، وأميلت الألف، وفخمت الراء. انتهىٰ.

قال أبو عبيدة[(٢)]: ران على قلوبهم ـ غلب عليها ـ: ريناً وريوناً، وكل ما غلبك وعلاك فقد ران بك وران عليك. قال الفراء: إنه كثرت منهم المعاصي والذنوب، فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. قال الحسن: الرين: الذنب علىٰ الذنب، حتىٰ يعمي القلب. وقال أبو معاذ النحوي: الرين: أن يسود القلب من الذنوب، والطبع: أن يطبع علىٰ القلب، وهو أشد من الرين. والإقفال: أشد من الطبع. قال الزجاج: الرين: هو كالصدأ يغشىٰ القلب كالغيم الرقيق، ومثله الغين، و﴿ما﴾ في قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ موصولة، والعائد محذوف، ومحلها الرفع علىٰ الفاعلية.

والمعنى[(٣)]: ليس في آياتنا ما يصح أن يقال في شأنها هذه المقالات الباطلة، بل ركب قلوبهم وغلب عليهم ما كانوا يكسبون من الكفر والمعاصي حتىٰ صارت كالصدأ في المرآة، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق، كما قال ﷺ: «إن العبد كلما أذنب ذنباً.. حصل في قلبه نكتة سوداء، حتى يسود قلبه».

والخلاصة[(٤)]: أي ليس الأمر كما يقولون من أنه أساطير الأولين، بل الذي جرأهم علىٰ ذلك هو أفعالهم التي دربوا عليها واعتادوها، فصارت سبباً لحصول الرين علىٰ قلوبهم، فالتبست عليهم الأمور، ولم يدركوا الفرق بين الكذب الفاضح،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

والصدق الواضح، والدليل اللائح، وبعد أن بيَّن منزلة الفجار والمكذبين بيوم الدين.. دحض ما كانوا يقولون من أن لهم الكرامة والمنزلة الرفيعة يوم القيامة، فقال: ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر عن الكسب الرائن؛ أي: الموقع في الرين ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن المكذبين، والجار في قوله: ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾، والظرف في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يقوم الناس لرب العالمين، متعلقان بقوله: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فلا يرونه؛ لأنهم بأكسابهم القبيحة صارت مرآة قلوبهم ذات صدأ، وسرت ظلمة الصدأ منها إلىٰ قوالبهم، فلم يبق محل لنور التجلي، بخلاف المؤمنين، فإنهم يرونه تعالى؛ لأنهم بأكسابهم الحسنة صارت مرآة قلوبهم مصقولة صافية، وسرىٰ نور الصقالة والصفوة منها إلىٰ قوالبهم، فصاروا مستعدين لانعكاس نور التجلي في قلوبهم وقوالبهم، وصاروا وجوهاً من جميع الجهات، بل أبصاراً بالكلية.

والمعنىٰ: أي ارتدعوا عما تقولون من أنكم يوم القيامة تكونون مقربين إلى الله، فإنكم ستطردون من رحمته، ولا تنالون رضاه، ولا تدركون ما زعمتم من القرب والزلفىٰ عنده، كما قال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾.

سئل[1] مالك بن أنس رحمه الله عن هذه الآية، فقال: لما حجب أعداءه فلم يروه، لا بد أن يتجلىٰ لأوليائه حتىٰ يروه، يعني: احتج الإمام مالك بهذه الآية علىٰ مسألة الرؤية من جهة دليل الخطاب، وإلا فلو حجب الكل.. لم يبقَ للتخصيص فائدة، فالآية من جملة أدلة الرؤية. وقال جل ثناؤه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ فأعلم جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون، وأعلم أن الكفار محجوبون، وقيل[2]: ﴿كَلَّآ﴾ بمعنىٰ حقاً؛ أي: حقاً إنهم ـ يعني: الكفار ـ عن ربهم يوم القيامة محجوبون لا يرونه أبداً، قال مقاتل: يعني: أنهم بعد العرض والحساب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم.

ثم ذكر ما يكون لهم فوق ذلك فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ مع كونهم محجوبين عن رؤية الله تعالى ﴿لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: داخلوا النار، ومباشروا حرها من غير حائل، أصله صالون، حذفت نونه للإضافة، و﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الرتبة، فإن صِلي الجحيم أشد

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

من الحجاب والإهانة والحرمان من الرحمة والكرامة، فإن الحجاب، وإن كان من قبيل العذاب الروحاني، وهو أشد من العذاب الجسماني، لكن مجرد النجاة من النار أهون من العذاب؛ لأن في العذاب الحسي حصول العذابين لما لا يخفىٰ.

والمعنىٰ: أي وبعد أن يحجبوا في عرصات القيامة عن الدنو من ربهم، وإدراك أمانيهم التي كانوا يتمنونها، يقذف بهم في النار، ويصلون سعيرها، ويقاسون حرها.

ثم أرشد إلىٰ أنهم حينئذٍ يبكّتون ويوبخون فوق ما بهم من الآلام، فقال: ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم توبيخاً وتقريعاً من جهة الزبانية، وإنما طوىٰ ذكرهم؛ لأن المقصود ذكر القول لا القائل، مع أن فيه تعميماً لاحتمال القائل، وبه يشتد الخوف؛ أي: تقول لهم خزنة جهنم توبيخاً لهم: ﴿هَٰذَا﴾ العذاب، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بقوله: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ فانظروه وذوقوه، وتقديمه لرعاية الفاصل لا للحصر، فإنهم كانوا يكذبون أحكاماً كثيرة.

والمعنى[1]: أي هذا الذي عوقبتم به هو جزاء ما كنتم تكذبون به من أخبار الرسول الصادق، كزعمكم أنكم لن تبعثوا، وأن القرآن أساطير الأولين، وأن محمداً ساحر أو كذاب، إلى نحو ذلك من مقالاتكم، والآن قد تبين لكم حقيقة أمركم، وعاينتم بأنفسكم أن ما كان يقوله نبيكم هو الحق الذي لا شك فيه، وما أشد علىٰ الإنسان إذا أصابه مكروه أن يذكر ـ وهو يتألم ـ بأن وسائل نجاته من مصابه كانت في متناول يديه، وقد أهملها وألقىٰ بها وراءه ظهرياً.

وقوله ﴿كَلَّآ﴾ ردع عما كانوا عليه بعد ردع، وزجر بعد زجر، والتكرير للتأكيد، وجملة قوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾؛ أي: إن الأعمال المكتوبة للأبرار علىٰ أن ﴿الكتابَ﴾ مصدر مضاف إلىٰ مقدر. ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما تمضنته ﴿كَلَّآ﴾ ويجوز أن تكون ﴿كَلَّآ﴾ بمعنىٰ: حقاً، والأبرار هم المطيعون، وكتابهم صحائف حسناتهم؛ أي[2]: إن كتاب أعمال الأبرار لفي عليين؛ أي: لفي ديوان جامع لجميع أعمال الأبرار، فـ ﴿عِلِّيُّونَ﴾ علم لديوان الخير الذي دون فيه ما عملته

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الملائكة وصلحاء الثقلين، منقول من جمع عِلي فِعِّيلٌ، من العلو؛ للمبالغة فيه، سمي بذلك؛ إما لأنه سبب الارتفاع إلىٰ أعالي الدرجات في الجنة، وإما لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريماً له وتعظيماً.

وروي: أن الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقلونه، فإذا انتهوا إلى ما شاء الله من سلطانه.. أوحىٰ إليهم؛ إنكم الحفظة علىٰ عبدي، وأنا الرقيب علىٰ ما في قلبه، وإنه أخلص عمله، فاجعلوه في عليين، فقد غفرت له، وإنها لتصعد بعمل العبد، فيزكونه، فإذا انتهوا به إلىٰ ما شاء الله.. أوحىٰ إليهم: أنتم الحفظة علىٰ عبدي، وأنا الرقيب علىٰ ما في قلبه، وإنه لم يخلص في عمله، فاجعلوه في السجين. وفيه إشارة إلىٰ أن الحفظة لا يطلعون علىٰ الإخلاص والرياء إلا بإطلاع الله تعالى.

ومعنىٰ الآية[1]: أي ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث، ومن أن كتاب الله أساطير الأولين، فإن كتاب أعمال الأبرار مودع في أعلىٰ الأمكنة، بحيث يشهده المقربون من الملائكة تشريفاً لهم، وتعظيماً لشأنهم، كما أن الغرض من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين إذلالهم وتحقير شأنهم، وبيان أنه لا يؤبه بهم، ولا يعنىٰ بأمرهم.

ثم عظم شأن ﴿عِلِّيِّينَ﴾، وفخم أمره، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾؛ أي: وما أعلمك يا محمد أيُّ شيء عليون علىٰ جهة التفخيم والتعظيم لعليين؛ أي: هو خارج عن دائرة دراية الخلق، ثم فسره وبين المراد منه، فقال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾؛ أي: هو[2] كتاب مسطور بيِّن الكتابة، يقرأ بلا تكلف، أو معلم بعلامة تدل علىٰ سعادة صاحبه، وفوزه بنعيم دائم، وملك لا يبلى.

ولما كان عليون علماً منقولاً من الجمع.. حكم عليه بالمفرد، وهو كتاب مرقوم، وأعرب بإعراب الجمع؛ حيث جر أولاً بـ ﴿في﴾، ورفع بالخبرية لما الاستفهامية؛ لكونه في صورة الجمع، وقيل: اسم مفرد علىٰ لفظ الجمع كعشرين وأمثاله، فليس له واحد من لفظه، وجملة: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾ صفة ثانية لـ ﴿كِتَٰبٞ﴾؛ أي: يحضر ذلك الكتاب المرقوم الملائكة المقربون عند الله سبحانه،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

قرب المكانة والكرامة، ويحفظونه من الضياع، وقيل: يشهدون بما فيه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وقال وهب وابن إسحاق[1]: المقربون هنا: إسرافيل، فإذا عمل المؤمن عمل البر.. صعدت الملائكة بالصحيفة، ولها نور يتلألأ في السموات كنور الشمس في الأرض، حتىٰ تنتهي بها إلىٰ إسرافيل، فيختم عليها. قال في «فتح الرحمن»: هم سبعة أملاك من مقربي السماء، من كل سماء ملك مقرب، فيحضر ذلك الكتاب المرقوم، ويشيعه حتىٰ يصعد به إلىٰ حيث شاء الله تعالىٰ، ويكون هذا في كل يوم. وبهذا[2] تبين سر ترك الظاهر بأن يقال: طوبى يومئذ للمصدقين، في مقابلة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾؛ لأن الإخبار بحضور الملائكة تعظيماً وإجلالاً يفيد ذلك مع زيادة، فختم كل واحد بما يصلح سواه مكانه.

والمعنىٰ[3]: أي أن كتابهم في هذا السجل الكبير الذي يشهده المقربون من الملائكة، فكما وكل سبحانه أمر اللوح المحفوظ إليهم.. وكل إليهم حفظ كتاب الأبرار، وقد يكون المراد أنهم ينقلون ما في تلك الصحائف إلىٰ ذلك الكتاب.

وبعد أن بين منزلة كتاب الأبرار.. أخذ يفصل حال الأبرار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾؛ أي: إن السعداء الأتقياء عن درن صفات النفوس ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾؛ أي: لفي تنعم عظيم لا يقادر قدره، ثم وصف كيفية ذلك النعيم بأمور ثلاثة:

أولها: قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾؛ أي: علىٰ الأسرة في الحجال، ولا يكاد تطلق الأريكة علىٰ السرير عندهم إلا عند كونه في الحجلة: وهو ـ بالتحريك ـ بيت العروس، يزين بالثياب والأسرَّة والستور، والجار والمجرور في قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ يجوز أن يكون خبراً بعد خبر لـ ﴿إِنَّ﴾، وأن يكون حالاً من المنوي في الخبر، أو من فاعل ﴿يَنظُرُونَ﴾، والتقديم حينئذٍ لرعاية فواصل الآي، وجملة قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ يجوز[4] أن تكون مستأنفة، وأن تكون حالاً، إما من المنوي في الخبر، أو في الظرف؛ أي: ناظرين، وحذف مفعول ﴿يَنظُرُونَ﴾ للتعميم؛ أي: ينظرون ما شاؤوا مد أعينهم إليه من رغائب مناظر الجنة، وإلى ما أولاهم من النعمة والكرامة، وكذا إلىٰ أعدائهم يعذبون في النار، وما تحجب الحجال أبصارهم عن الإدراك

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

للطافتها وشفوفها؛ أي: رقتها؛ وقيل: ينظرون إلى وجه الله سبحانه، قال ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: علىٰ أرائك المعرفة ينظرون إلىٰ المعروف، وعلىٰ أرائك القربة، ينظرون إلىٰ الرؤوف الرحيم.

والمعنى(١): أي إن البررة المطيعين لربهم الذين يؤمنون بالبعث والحساب، ويصدقون بما جاء علىٰ لسان رسوله ﷺ لفي لذة، وخفض عيش، وراحة بال، واطمئنان نفس، وعلى الأسِرَّة في حجالها ينظرون إلى أنواع نعيمهم في الجنة من الحور العين، والولدان، وأنواع الأطعمة والأشربة، والمراكب الفارهة إلى نحو ذلك.

وثانيها: أنه بيَّن أثر هذا النعيم علىٰ أهل الجنة فقال: ﴿تَعۡرِفُ﴾ أيها المخاطب، أو يا محمد ﴿فِي وُجُوهِهِمۡ﴾؛ أي: في وجوه أولئك الأبرار ﴿نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: بهجة التنعم، وماءه، ورونقه، وهو ثاني الأوصاف الثلاثة المذكورة سابقاً؛ أي: إنك إذا رأيتهم ونظرت إليهم.. عرفت أنهم أهل النعمة، لما ترىٰ في وجوههم من القرائن الدالة علىٰ ذلك؛ كالضحك والاستبشار، كما يرىٰ في الدنيا في وجوه الأغنياء، وأهل الترفه، فمن(٢) هذا اختير: ﴿تَعۡرِفُ﴾ علىٰ ترىٰ، مع أن المعرفة تتعلق بالخفيات غالباً، والرؤية بالجليات غالباً، والخطاب في ﴿تَعۡرِفُ﴾ لكل أحد ممن له حظ من الخطاب؛ للإيذان بأن لهم من آثار النعمة، وأحكام البهجة بحيث لا يختص برؤية راء دون راء. قال جعفر الصادق رحمه الله تعالى: يعني: لذة النظر تتلألأ مثل الشمس في وجوههم إذا رجعوا من زيارة الله إلىٰ أوطانهم، وقال بعضهم: تعرف في وجوههم رضىٰ محبوبهم عنهم قال: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿تَعۡرِفُ﴾ بفتح الفوقية وكسر الراء خطاباً للرسول الله ﷺ، أو لأي ناظر، ونصب ﴿نضرة﴾، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، ويعقوب وشيبة وطلحة وابن إسحاق والزعفراني بضم الفوقية، وفتح الراء مبنياً للمفعول، ورفع ﴿نضرةُ﴾ علىٰ النيابة، وقرأ زيد بن علي كذلك إلا أنه قرأ: ﴿يعرف﴾ بالياء التحتانية إذ تأنيث ﴿نضرة﴾ مجازي.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ثم ذكر ثالث الأوصاف، فقال: ﴿يُسْقَوْنَ﴾؛ أي: يسقىٰ الأبرار في الجنة ﴿مِن رَّحِيقٍ﴾؛ أي: من شراب خالص لا غش فيه، ولا ما يكرهه الطبع، ولا شيء يفسده، وأيضاً صافٍ من كدورة الخمار، وتغيير النكهة، وإيراث الصداع؛ أي: يسقون خمراً لا غش فيها، ولا يصيب شاربها خمار، ولا يناله منها أذىٰ، كما قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ وسقىٰ: يتعدىٰ إلىٰ مفعولين، والأول هنا ﴿الواو﴾ القائم مقام الفاعل، والثاني ﴿مِن رَّحِيقٍ﴾؛ لأن ﴿من﴾ تبعيضية، كأنه قيل: بعض رحيق، أو مقدر معلوم؛ أي: شراباً كائناً من رحيق مبتدأ منه، فـ﴿من﴾ ابتدائية، و﴿الرحيق﴾: صافي الشراب وخالصها ﴿مَّخْتُومٍ﴾ إناؤه ومغطىٰ رأسه؛ لئلا يدخله القذىٰ بغطاء بيته بقوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾، أي: ختام ذلك الشراب، وغطاؤه، أي: ما يختم ويطبع به ويغطى ﴿مِسْكٌ﴾ وهو طيب معروف؛ أي: مختوم أوانيه وأكوابه بالمسك مكان الطين، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته، وطيب رائحته. قال في «كشف الأسرار»: ما ختم به مسك رطب ينطبع فيه الخاتم، أمر الله بالختم عليه إكراماً لأصحابه، فختم ومنع أن يمسه ماس، أو تتناوله يد إلى أن يفك ختمه الأبرار، والأظهر: أنه تمثيل لكمال نفاسته، كما مر آنفاً؛ إذ الشيء النفيس يختم لا سيما إذا كان ما يختم به المسك بدل الطين. وقيل: ختام الشيء آخره وخاتمته، فمعنىٰ ختامه مسك: أن الشارب إذا رفع فاه من آخر شربه.. وجد رائحة كرائحة المسك، أو وجد رائحة المسك؛ لكونه ممزوجاً به كالأشربة الممسكة في الدنيا، فإنه يوجد فيها رائحة المسك عند خاتمة الشرب، لا في أول زمان الملابسة بالشرب. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن الرحيق شراب أبيض مثل الفضة، يختمون به آخر شربهم، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها.. لم يبق ذو روح إلا وجد طيب ريحه. انتهىٰ. وهذا النوع من الخمر غير النوع الآخر الذي يجري في الأنهار الذي أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾؛ أي: خلطه ومزاجه، قاله عبد الله وعلقمة، وقال ابن عباس وابن جبير والحسن: معناه: ختامه؛ أي: رائحته عند خاتمة الشراب رائحة المسك، وقرأ علي والنخعي والضحاك وزيد بن علي وأبو حيوة وابن أبي عبلة والكسائي: ﴿خاتمه﴾ بعد الخاء ألف وفتح التاء، وهذه بينة المعنىٰ أنه يراد الطبع علىٰ الرحيق، وعن الضحاك وعيسىٰ وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي:

كسر التاء؛ أي: آخره، مثل قوله: ﴿وخاتم النبيين﴾، وفيه حذف؛ أي: خاتم رائحته المسك، أو خاتمه الذي يختم به ويطبع، والخاتم والختام يتقاربان في المعنى، إلا أن الخاتم الاسم، والختام المصدر، كذا قاله الفراء. قال في «الصحاح»: والختام الطين الذي يختم به، وكذا قال ابن زيد. قال الفرزدق:

وَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامْ

ثم رغب في العمل لذلك النعيم، فقال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ الرحيق خاصة دون غيره من النعيم المكدر السريع الفناء، أو فيما ذكر من أحوالهم لا في أحوال غيرهم من أهل الشمال ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾؛ أي: فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى، وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنىٰ: إلىٰ؛ أي: وإلى ذلك فليتسابق المتسابقون بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

والأمر فيه للتحضيض والترغيب ظاهر[1]، وللوجوب باطناً بوجوب الإيمان والطاعة، وأصل التنافس: التغالب والتنازع في الشيء النفيس؛ أي: المرغوب، كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به، وأصله من النفس لعزتها، وقال البغوي: أصله من الشيء النفيس الذي يحرص عليه نفوس الناس، ويريده كل أحد لنفسه، وينفس به علىٰ غيره؛ أي: يبخل. وفي «المفردات»: المنافسة: مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل واللحوق بهم من غير إدخال ضرر علىٰ غيره. قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: علامة التنافس تعلق القلب به، وطيران الضمير إليه، والحركة عند ذكره، والتباعد من الناس، والأنس بالوحدة، والبكاء علىٰ ما سلف، وحلاوة سماع الذكر، والتدبر في كلام الرحمن، وتلقي النعم بالفرح والشكر، والتعرض للمناجاة.

وقوله: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ معطوف على ﴿خِتَٰمُهُ مِسْكٌ﴾ علىٰ أنه صفة أخرىٰ لـ﴿رَحِيقٍ﴾ مثله، وما بينهما اعتراض مقرر لنفاسته؛ أي[2]: ما يمزج ويخلط به ذلك الرحيق من ماء تسنيم: وهو اسم علم لعين بعينها تجري من جنة عدن، سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه: إذا رفعه؛ إما لأنها أرفع شراب في الجنة

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

قدراً، فيكون من علو المكان، وإما لأنها تأتيهم من فوق، فيكون من علو المكانة؛ أي: ومزاج ذلك الرحيق من تسنيم، وهو شراب ينصب عليهم من علو، وهو أشرف شراب الجنة، وأصل التسنيم في اللغة: الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلىٰ سفل. ومنه: سنام البعير؛ لعلوه من بدنه، ومنه: تسنيم القبور، روي: أنها تجري في الهواء متسنمة، فتنصب في أوانيهم، فإذا امتلأت أمسك الماء حتىٰ لا يقع منه قطرة علىٰ الأرض، فلا يحتاجون إلىٰ الاستقاء، ثم بين هذا التسنيم فقال: ﴿عَيْنًا﴾، وانتصابه علىٰ المدح، وقال الزجاج[1]: علىٰ الحال، وإنما جاز أن تكون ﴿عَيْنًا﴾ حالاً مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ من جناب الله قرباً معنوياً روحانياً، والباء في ﴿بِهَآ﴾؛ إما زائدة؛ أي: يشربها، أو بمعنىٰ: من؛ أي: يشرب منها، قال ابن زيد: بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش، قيل: يشرب بها المقربون صرفاً، ويمزج بها كأس أهل اليمين.

والمعنى[2]: أمدح عيناً يشرب منها الأبرار الرحيق مزاجاً إذا أرادوا، ويشرب منها المقربون صرفاً، وقد اعتاد أهل الدنيا إذا شربوا الخمر أن يمزجوها بالماء ونحوه، فبيَّن لهم أنهم في الآخرة يشربون رحيقاً قد وصف بما يجعل النفوس تتشوق إليه، وأنهم يمزجونه بماء تجيئهم به العين العالية القدر إذا شاؤوا أن يمزجوه.

ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾؛ أي: إن الذين كانوا ذوي جرم وذنب، ولا ذنب أكبر من الكفر وأذىٰ المؤمنين لإيمانهم، فالمراد بهم: رؤساء قريش، وأكابر المجرمين المشركين، كأبي جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأضرابهم ﴿كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إيماناً صادقاً ﴿يَضْحَكُونَ﴾؛ أي: يستهزئون بفقرائهم، كعمار وصهيب وبلال وخباب وغيرهم، وتقديم[3] الجار والمجرور لمراعاة الفواصل؛ أي: إن[4] المعتدين الأئمة الذين ضربت نفوسهم على الشر، وصمت آذانهم عن سماع دعوة الحق، كانوا في الدنيا يضحكون من الذين آمنوا؛ ذاك أنه حين رحم الله تعالى العالم ببعثة

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

محمد ﷺ. . كان كفار القوم وعرفاؤهم علىٰ الرأي الدهماء من عبادة الأوثان والأصنام، وكانت دعوة الحق خافتة لا يرفع بها إلا صوته ﷺ، ثم يهمس بها بعض من يلبي دعوته من الضعفاء، فيسر بها إلى من يرجو الخير فيه، ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه.

ومن شأن القوي المعتز بقوته وكثرة ماله وعزة نفره، أن يضحك ممن يخالفه في المنزع، ويدعوه إلى غير ما يعرف، كما كان ذلك شأن جماعة من قريش، كأبي جهل وشيعته، وأمثالهم كثيرون في كل زمان ومكان، متىٰ عمت البدع، وخفي طريق الحق، وتحكمت الشهوات، وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل، وإذا صار الناس إلى هذه الحال ضعف صوت الحق، وازدرىٰ السامعون منه بالداعي إليه.

وقد روي أن صناديد قريش كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف وأضرابهم، كانوا يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه، ويستهزئون بهم، ويحرضون عليهم سفهاءهم وغلمانهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ روي أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه جاء في نفر من المسلمين، فرآه بعض هؤلاء الكفار، فسخروا منه، وممن معه، وضحكوا منهم وتغامزوا بهم، ثم رجعوا إلى بقية شيعتهم من أهل الشرك، فحدثوهم بما صنعوا به وبأصحابه، فنزل قبل وصول علي إلى رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟﴾؛ أي: فقراء المؤمنين ﴿بِهِمْ﴾؛ أي: المشركين، وهم في أنديتهم، وهو الأظهر، وإن جاز العكس أيضاً. يقال: مرَّ مراً ومروراً: إذا جاز وذهب، كاستمر ومره ومر به: جاز عليه، كما في «القاموس»: ويعدىٰ بالباء وعلي ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾؛ أي: يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم، ويعيبونهم، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم، ويتركون اللذات، ويتحملون المشقات لما يرجونه في الآخرة من المثوبات، وأمر البعث والجزاء لا يقين به، وإنه بعيد كل البعد، والتغامز: تفاعل من الغمز، وهو الإشارة بالجفن والحاجب، ويكون بمعنىٰ العيب أيضاً.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾؛ أي: وإذا انقلب الكفار ورجعوا من مجالسهم ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾؛ أي: إلى أهل بيتهم وأصحابهم الجهلة الضالة التابعة لهم، والانقلاب: الانصراف

والتحول والرجوع. ﴿انقَلَبُوا﴾ ورجعوا حال كونهم ﴿فَكِهِينَ﴾؛ أي: فرحين متلذذين بذكرهم بالسوء، والسخرية منهم، وفيه إشارة إلىٰ أنهم كانوا لا يفعلون ذلك بمرأىٰ من المارين، ويكتفون حينئذٍ بالتغامز.

والمعنى[1]: أي وإذا رجعوا إلىٰ ذوي قرابتهم، وبني جلدتهم، وأشياعهم من أهل الشرك والضلالة.. رجعوا معجبين بما فعلوا من العيب علىٰ أهل الإيمان، ورميهم بالسخف وقلة العقل، ويقولون: عجباً لهم إذ يقولون لا تدعوا إلا إلهاً واحداً، ولا تتوجهوا بالطلب إلا إليه، فأين الأولياء والشفعاء، فكم ضروا وكم نفعوا إلى نحو ذلك مما يتندرون به، ويعدونه فكاهة، ويتلذذون بحكايته.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فاكهين﴾ بالألف؛ أي: أصحاب فاكهة ومزح وسرور باستخفافهم بأهل الإيمان. وقرأ أبو رجاء والحسن وعكرمة وأبو جعفر وحفص وابن القعقاع والأعرج والسلمي: ﴿فَكِهِينَ﴾ بغير ألف. قال الفراء: هما لغتان، مثل: طمع وطامع، وحذر وحاذر، وقد تقدم في سورة الدخان، أن الفكه: الأشر البطر، والفاكه: الناعم المتنعم. ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾؛ أي: وإذا رأى المشركون المسلمين أينما كانوا، فالضمير المرفوع عائد علىٰ المجرمين ﴿قَالُوٓا﴾؛ أي: قال المجرمون مشيرين إلى المؤمنين بالتحقير: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المسلمين ﴿لَضَآلُّونَ﴾ في اتباعهم محمداً ﷺ، وتمسكهم بما جاء به، وتركهم التنعم الحاضر، ويجوز أن يكون المعنى: وإذا رأىٰ المؤمنون المشركين.. قالوا هذا القول، والأول أولىٰ.

نسبوا[3] المسلمين ممن رأوهم، ومن غيرهم إلىٰ الضلال بطريق التأكيد، وقالوا: تركوا دين آبائهم القديم، ودخلوا في الدين الحادث، أو قالوا: تركوا التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب لا يدرى هل له وجود أم لا.

والمعنىٰ[4]: وإذا رأىٰ الكفار المؤمنين، قالوا: إن هؤلاء لضالون؛ إذ نبذوا ما عليه الكافة، وذهبوا يعيبون العقائد الموروثة، والمناسك التي نقلها الخلف عن السلف كابراً عن كابر، وجيلاً بعد جيل، فرد سبحانه علىٰ هؤلاء الكفار، فقال:

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾، والجملة[1] حال من واو قالوا؛ أي: قالوا ذلك، والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالىٰ موكلين بهم، يحفظون عليهم أمورهم، ويهيمنون علىٰ أعمالهم، ويشهدون برشدهم وضلالهم، وإنما أمروا بإصلاح أنفسهم، وأي نفع لهم في تتبع أحوال غيرهم، وهذا تهكم بهم، وإشعار بأن ما اجترؤوا عليه من القول من وظائف من أرسل من جهته تعالى. وقد جوِّز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين، كأنهم قالوا: إن هؤلاء لضالون، وما أرسلوا علينا حافظين إنكاراً لصدهم عن الشرك، ودعائهم إلىٰ الإسلام، وإنما قيل نقلاً له بالمعنىٰ.

والمعنىٰ[2]: أي إن الله تعالىٰ لم يرسل الكفار رقباء علىٰ المؤمنين، ولم يؤتهم سلطة محاسبتهم علىٰ أفعالهم، وتعريف باطلها من صحيحها، فلا يسوغ لهم أن يعيبوا عليهم ما يعتقدونه ضلالاً بعقولهم الفاسدة، وإنما كلفهم أن ينظروا شؤون أنفسهم فيعدلوا منها ما اعوج، فإذا فعلوا ذلك.. قاموا بما يجب عليهم في هذه الحياة.

ثم شرع يذكر معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة تسلية لهم علىٰ ما ينالهم منهم من أذىٰ، وتقويةً لقلوبهم، وشداً لعزائمهم علىٰ التذرع بالصبر، فقال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ المراد بـ ﴿اليوم﴾: اليوم الآخر ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: المعهودون من الفقراء ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ المعهودين؛ أي: المستهزئين لهم، وهو الأظهر، وإن أمكن التعميم من الجانبين ﴿يَضۡحَكُونَ﴾.

والمعنىٰ: أن المؤمنين في ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين، وغشيهم فنون الهوان والصغار بعد العز والكبر، ورهقهم ألوان العذاب بعد التنعم والترفه، يضحك الكفار منهم في الدنيا. قال[3] بعض المفسرين: لعل الفاء في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ فاء الإفصاح، واقعة في جواب شرط مقدر؛ كأنه قيل: إذا عرفتم ما ذكر، وأردتم بيان حال المؤمنين مع الكفار في ذلك اليوم.. فأقول لكم: إن في ذلك اليوم يضحك المؤمنون من الكفار جزاءً وفاقاً، فاللام في ﴿اليوم﴾: لام العهد، وهو يوم القيامة، والظرف متعلق بـ ﴿يَضۡحَكُونَ﴾، و ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾: متعلق بـ ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ أيضاً، وحرام على الوهم أن يتوهم كونه بياناً للموصول نظراً إلىٰ ظاهر الاتصال من غير تفكر في المعنى، وجملة ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ خبر المبتدأ، وهو ناصب ﴿اليوم﴾، كما قلنا آنفاً؛ لصحة المعنىٰ حينئذٍ.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ والأسرة متعلق بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾ أو حال من فاعله، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾ حال من فاعل ﴿يَضۡحَكُونَ﴾؛ أي: يضحكون منهم حال كونهم ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الحال الفظيع، والعذاب الأليم حال كونهم مستقرين علىٰ الأرائك في منازلهم من الجنة.

والحاصل[1]: أن المؤمنين في يوم الدين يضحكون من الكفار ضحك من وصل به يقينه إلىٰ مشاهدة الحق فسر به، وينكشف لهم ما كانوا يرجون من إكرام الله لهم، وخذلان أعدائهم، فضحكوا من أولئك المغرورين الجحدة الذين تجلت لهم عاقبة أعمالهم، وظهر لهم عاقبة سفه عقولهم، وفساد أقوالهم حال كونهم ينظرون علىٰ الأرائك إلىٰ ما صنع الله بأعدائهم، وتنكيله بمن كانوا يفخرون عليهم، ويهزؤون بهم.

قال الواحدي: قال المفسرون: إن أهل[2] الجنة إذا أرادوا نظروا من منازلهم إلى أعداء الله، وهم يعذبون في النار، فضحكوا منهم، كما ضحكوا منهم في الدنيا. وقال أبو صالح: يقال لأهل النار: اخرجوا، ويفتح لهم أبوابها، فإذا رأوها قد فتحت.. أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم علىٰ الأرائك، فإذا انتهوا إلىٰ أبوابها.. غلقت دونهم، فذلك قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

وقوله: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ كلام[3] مستأنف من قبل الله، أو من قبل الملائكة، والاستفهام للتقرير، وجوابه: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله. وثوب بمعنىٰ: يثوب، عبر عنه بالماضي لتحققه، والتثويب والإثابة: المجازاة، استعمل في المكافأة بالشر. قال الراغب: الإثابة تستعمل في المحبوب نحو: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ﴾، وقد قيل ذلك في المكروه، نحو: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ

---

(1) المراغي. (2) روح البيان. (3) روح البيان.

﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ على الاستعارة والتثويب في القرآن لم يجيء إلا في المكروه نحو: ﴿هَلْ ثُوِّبَ. . .﴾ إلخ. انتهىٰ. وفي «القاموس»: التثويب: التعويض. انتهىٰ. والمراد بـ ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: استهزاؤهم بالمؤمنين، وضحكهم منهم، وهو صريح في أن ضحك المؤمنين منهم في الآخرة إنما هي جزاء لضحك الكافرين منهم في الدنيا.

والمعنىٰ: يقول الله سبحانه، أو تقول الملائكة: هل ثوب؛ أي: قد ثوب الكفار، وجوزوا علىٰ ما كانوا يفعلون بالمؤمنين من استهزائهم، والضحك منهم، وهذا علىٰ سبيل التهكم، كأنه تعالىٰ يقول للمؤمنين: هل جازينا للكفار علىٰ عملهم الذي كان من جملته ضحكهم بكم، واستهزاؤهم بشريعتكم، كما جازيناكم علىٰ أعمالكم الصالحة، فيكون هذا زائداً على سرورهم، كذا في «المراح»، وعبارة القرطبي هنا: ومعنىٰ ﴿ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾؛ أي: هل جوزوا علىٰ سخريتهم في الدنيا بالمؤمنين إذا فعل بهم ذلك، فالجواب: نعم.

وفيه تسلية للمؤمنين(١) بأنه ينقلب الحال، ويكون الكفار مضحوكاً منهم، وتعظيم لهم، فإن إهانة الأعداء تعظيم للأولياء، والله ينتقم لأوليائه من أعدائهم، فإنه يغضب لأوليائه كما يغضب الليث الجريء لجروه. وعلم منه أن الضحك والاستهزاء والسخرية والغمز من الكبائر، فالخائض فيها من المجرمين الملحقين بالمشركين، نسأل الله سبحانه السلامة من غضبه وسخطه، وقيل: الجملة في محل نصب بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾ معلقاً عنها بالاستفهام بعد إسقاط حرف الجر الذي هو: إلى.

والمعنىٰ: أنهم ينظرون ليتحققوا هل جوزي الكفار بما كانوا يفعلون بهم في الدنيا، وقيل: منصوبه بقول وقع حالاً من فاعل ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ أي: على الأرائك ينظرون حال كونهم قائلين: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: يقول المؤمنون ذلك بعضهم لبعض، والله أعلم.

وقرأ الجمهور(٢): ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ بإظهار لام ﴿هَلْ﴾، وقرأ النحويان: أبو عمر والكسائي حمزة وابن محيصن بإدغامها في الثاء المثلثة، وفي قوله: ﴿مَا كَانُوا﴾. .

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

حذف، تقديره: جزاء أو عقاب ما كانوا يفعلون، وإنما سمي الجزاء علىٰ العمل ثواباً؛ لأنه يرجع إلىٰ صاحبه نظير ما عمله من خير أو شر.

الإعراب

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء به كونه دعاء ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ خبره، والجملة مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿ٱكْتَالُوا۟﴾ فعل وفاعل والجملة في محل جر بالإضافة ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱكْتَالُوا۟﴾، و ﴿عَلَى﴾: بمعنىٰ: من؛ أي: إذا قبضوا من الناس لأنفسهم، وجملة ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية صلة الموصول ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إِذَا﴾: ظرف مضمن معنىٰ الشرط، ﴿كالوا﴾: فعل وفاعل، و﴿هم﴾ ضمير متصل منصوب بنزع الخافض، والأصل: كالوا لهم، أو وزنوا لهم، وحذف الجار، وأوصل الفعل، فصار كالوهم، ومفعول ﴿كالوا﴾ محذوف تقديره: كالوا لهم الطعام، أو وزنوا لهم النقود، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ﴾: معطوف علىٰ ﴿كَالُوهُمْ﴾ مماثل له في إعرابه، وجملة ﴿يُخْسِرُونَ﴾ جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولىٰ. ﴿إذا﴾ الأولى ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، و ﴿لا﴾: نافية ﴿يَظُنُّ﴾: فعل مضارع، وظن هنا بمعنىٰ اليقين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: فاعل، والإشارة لـ ﴿المطففين﴾؛ أي: لا يوقن أولئك ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والميزان ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿ظن﴾ ﴿لِيَوْمٍ﴾: متعلق بـ ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾، واللام في بمعنىٰ في الظرفية، ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة ﴿يوم﴾، و ﴿يَوْمَ﴾، بدل من ﴿لِيَوْمٍ﴾ بدل كل من كل، تابع له علىٰ المحل، ومحله النصب بـ ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾، أو بمقدر مثله؛ لأن البدل علىٰ نية تكرار العامل، وبني على الفتح لإضافته إلىٰ الفعل، ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾: فعل

وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿لرب العالمين﴾: متعلق بـ ﴿يَقُومُ﴾، ولكنه علىٰ حذف مضاف، أي: لمحاسبة رب العالمين.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر. ﴿إِنَّ كِتَٰبَ﴾: ناصب واسمه ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾: مضاف إليه ﴿لَفِى﴾: اللام حرف ابتداء ﴿في سجين﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ والجملة مستأنفة. ﴿وما﴾: ﴿الواو﴾ اعتراضية. ﴿مَآ﴾: اسم استفهام للإنكار في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: خبره، والجملة الاسمية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين الخبرين لـ ﴿إِنَّ﴾ كما مر عن القفال، ﴿أدرىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على: ﴿مَآ﴾ الاستفهامية، والكاف في محل النصب مفعول أول ﴿لأدرى﴾، ﴿مَآ﴾: اسم استفهام للتفخيم والتعظيم في محل الرفع مبتدأ: ﴿سِجِّينٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لـ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾، ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبر ثانٍ لـ ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو كتاب مرقوم، و ﴿مَّرْقُومٌ﴾: صفة ﴿كِتَٰبٌ﴾ ﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ كما تقدم، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف أضيف إلىٰ مثله متعلق بـ ﴿وَيْلٌ﴾؛ لأنه مصدر بمعنى: هلاك ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: خبر ﴿وَيْلٌ﴾، والجملة مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ ﴿المكذبين﴾، وجملة ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ ﴿يُكَذِّبُونَ﴾، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿مَآ﴾: نافية ﴿يُكَذِّبُ﴾: فعل مضارع ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿يُكَذِّبُ﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿كُلُّ مُعْتَدٍ﴾: فاعل ﴿يُكَذِّبُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ﴿كُلُّ﴾: مضاف ﴿مُعْتَدٍ﴾: مضاف إليه مجرور بكسرة مقدرة علىٰ الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين منع من ظهورها الثقل؛ لأنه اسم منقوص أعل كقاض ﴿أَثِيمٍ﴾: صفة ﴿مُعْتَدٍ﴾، وسبق لك بيان الفرق بني الاعتداء والإثم ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُتْلَىٰ﴾، ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: نائب فاعل لـ ﴿تُتْلَىٰ﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود علىٰ

﴿كُلُّ مُعْتَدٍ﴾، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿مُعْتَدٍ﴾، ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي أساطير الأولين، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل ﴿بَل﴾: حرف عطف وإضراب على محذوف تقديره: ليس الأمر كما يقولون ﴿رَانَ﴾: فعل ماضٍ مبني على الفتح ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾: متعلق بـ ﴿رَانَ﴾، ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل بـ ﴿رَانَ﴾، والجملة معطوفة علىٰ تلك المقدرة، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿مَّا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما كانوا يكسبون، ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر عن الكسب الرائن، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿محجوبون﴾. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف أضيف إلىٰ مثله متعلق بـ ﴿محجوبون﴾ أيضاً، والتنوين ـ فيه عوض عن الجملة المحذوفة تقديرها: يوم إذ يقوم الناس، ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب لتراخي رتبة ما بعدها عما قبلها ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿لَصَالُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿صالوا﴾: خبر ﴿إن﴾ مرفوع بالواو المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأنه جمع مذكر سالم، ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿إن﴾ الأولىٰ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للترتيب والتراخي أيضاً ﴿يُقَالُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ نائب فاعل محكي لـ ﴿يُقَالُ﴾، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة ﴿إن﴾، وإن شئت قلت: ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ ﴿ٱلَّذِى﴾: خبره، والجملة الاسمية في محلِ الرفع نائب فاعل لـ ﴿يُقَالُ﴾، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر، أو بمعنىٰ: حقاً ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: ناصب واسمه، ومضاف إليه ﴿لَفِى﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿في

عليين﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، و﴿عِلِّيِّينَ﴾: مجرور بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: اعتراضية ﴿مَآ﴾ اسم استفهام للإنكار في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبره، والجملة الاسمية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين خبري ﴿إِنَّ﴾، ﴿مَآ﴾: اسم استفهام للتفخيم في محل الرفع مبتدأ، ﴿عِلِّيُّونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لـ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾، ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبر ثانٍ لـ ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو كتاب مرقوم، و﴿مَّرْقُومٌ﴾: صفة لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾، ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: متعلق بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾ في محل النصب حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إِنَّ﴾، أو مستأنفة ﴿تَعْرِفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود علىٰ أي مخاطب ﴿فِى وُجُوهِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿تَعْرِفُ﴾. ﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لإيذان المخاطب بالالتفات إليهم والتأمل في آثار النعيم.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿يُسْقَوْنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع بالنون، والواو نائب فاعل له ﴿مِن رَّحِيقٍ﴾: متعلق بـ ﴿يُسْقَوْنَ﴾ ﴿مَّخْتُومٍ﴾: صفة ﴿رَّحِيقٍ﴾؛ أي: من خمر خالصة من كل غشٍ أو شائبة، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الجر صفة ثانية لـ﴿رَّحِيقٍ﴾، ﴿وَفِى﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: متعلق بقوله: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾، و﴿الفاء﴾ عاطفة أيضاً لزيادة الاهتمام، و﴿اللام﴾ لام الأمر، ﴿يتنافس﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر ﴿ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾: فاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿يُسْقَوْنَ﴾، وقيل: الواو عاطفة لقول

محذوف تقديره: ويقولون: فليتنافس في ذلك المتنافسون، والفاء زائدة لتحسين الخط، كفاء قولهم: فقط، وقيل: الواو زائدة، والفاء عاطفة، وقيل: الواو اعتراضية، والفاء زائدة، وفي «الجمل» واستشكل في هذا العاطف، إذ لا يصح أن يقال: وفليتنافس، فقيل: إنه بتقدير القول؛ أي: ويقولون لشدة التلذذ في ذلك: فليتنافس. ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مزاجه﴾: مبتدأ ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ ﴿عَيْنًا﴾: منصوب على المدح بفعل محذوف تقديره: أمدح عيناً، أو أعني بالتسنيم عيناً، أو على الحال من ﴿تَسْنِيمٍ﴾، كما قاله الزجاج، وجملة ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ صفة لـ ﴿عَيْنًا﴾، و ﴿بِهَآ﴾: متعلق بـ ﴿يَشْرَبُ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَجْرَمُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص، واسمه ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ متعلق بـ ﴿يَضْحَكُونَ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿يَضْحَكُونَ﴾ خبر ﴿كَانُوا۟﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنى الشرط، ﴿مَرُّوا۟﴾: فعل وفاعل ﴿بِهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿مَرُّوا۟﴾، وجملة ﴿مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، وجملة ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿كَانُوا۟﴾ على كونها خبر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، ﴿وإذا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إِذَا﴾: شرطية، وجملة ﴿ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ متعلق بـ ﴿ٱنقَلَبُوٓا۟﴾، وجملة ﴿ٱنقَلَبُوا۟﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿فَكِهِينَ﴾: حال من فاعل ﴿ٱنقَلَبُوا۟﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ الأولى، ﴿وإذا﴾: ﴿إِذَا﴾: ظرف مضمن معنى الشرط، وجملة ﴿رَأَوْهُمْ﴾ في محل الخفض فعل شرط لـ ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿قَالُوٓا۟﴾ جوابها لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، و ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾ ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿مَآ﴾: نافية ﴿أُرْسِلُوا۟﴾ فعل ماضٍ، ونائب فاعل، والجملة في محل النصب حال من الواو في ﴿قَالُوٓا۟﴾: ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق

بـ ﴿حَـٰفِظِينَ﴾، و ﴿حَـٰفِظِينَ﴾ حال من الواو في ﴿أُرۡسِلُواْ﴾ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره؛ إذا عرفتم ما ذكر، وبيان حال المؤمنين مع الكفار، في ذلك اليوم.. فأقول لكم: ﴿اليوم﴾: منصوب علىٰ الظرفية، متعلق بـ ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾: متعلق بـ ﴿يَضۡحَكُونَ﴾، وجملة ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾: متعلق بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿يَضۡحَكُونَ﴾؛ أي: يضحكون حال كونهم ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الخزي والهوان، ﴿هَلۡ﴾: حرف استفهام للاستفهام التقريري ﴿ثُوِّبَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة ﴿ٱلۡكُفَّارُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ أي: ينظرون إليهم حال كونهم قائلين: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ إلخ، أو جملة ﴿ثُوِّبَ﴾ مستأنفة ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثانٍ لـ ﴿ثُوِّبَ﴾، وجملة ﴿كَانُواْ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، وجملة ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَيۡلٌ﴾؛ أي: هلاك عظيم وعذاب شديد، قال ابن كيسان: هي كلمة مكروب وقع في البلية، وأصله: وي لفلان، أي: الحزن له، فقرن بلام الإضافة، فقيل: ويل تخفيفاً.

﴿لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ جمع مطفف، وهو المنقص في الكيل أو الوزن، سمي بذلك لأن ما ينقص فيهما شيء طفيف أي: حقير، يقال: طفف الكيل: إذا نقصه قليلاً، وقال الزجاج: وإنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف؛ لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان، إلا الشيء الطفيف؛ أي: اليسير الحقير التافه.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ﴾ قال الفراء: يقال: اكتلت علىٰ الناس: استوفيت منهم، واكتلت منهم: أخذت ما عليهم فـ ﴿عَلَى﴾ بمعنىٰ من، وأصله: اكتيلوا بوزن افتعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾؛ أي: يأخذون حقوقهم وافية كاملة، وأصله: يستوفيون، استثقلت

الضمة على الياء، فحذفت للتخفيف، ثم لما التقىٰ ساكنان.. حذفت الياء، وضمت الفاء لمناسبة الواو.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾؛ أي: كالوا للناس حقوقهم، أو وزنوا لهم حقوقهم، وفيه إعلال بالقلب أيضاً، أصله: كيلوهم، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح: ﴿يُخْسِرُونَ﴾: أي: ينقصون الكيل والميزان، مع أن وضع الكيل والوزن، إنما هو للتسوية والتعديل، يقال: خسر الميزان وأخسره بمعنى، وهو يتعدَّىٰ بالهمزة، ويقال: خسر الرجل وأخسره. ا هـ «خطيب».

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾؛ أي: للعرض علىٰ خالقهم، ويطول بهم الموقف إجلالاً لعظمة ربهم.

﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ أصله: يظنن بنونين، أدغمت الأولىٰ منهما في الثانية.

﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ والسجين: علم لكتاب جامع لأعمال الشياطين، وأعمال الكفرة والفسقة من الثقلين، منقول من وصف، كحاتم، وهو منصرف؛ لأنه ليس فيه إلا سبب واحد، وهوالتعريف، واختلف في نونه، هل هي أصلية: فيكون فعيلاً من السجن، أو بدل من لام: فيكون أصله: سجيلاً من السجل، وأورد صاحب «القاموس» في مادة: سجن ما نصه: سجين، كسكين: الدائم الشديد، وموضع فيه كتاب الفجار، وواد في جهنم أعاذنا الله تعالى منها، أو حجر في الأرض السابعة. انتهىٰ.

﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾؛ أي: مكتوب مسطور، قال الراغب: الرقم: الكتابة والخط الغليظ، ومنه قول الشاعر:

سَأَرْقُمُ فِيْ الْمَاءِ الْقَرَاحِ إِلَيْكُمُ عَلَىٰ بُعْدِكُمْ إِنْ كَانَ لِلْمَاءِ رَاقِمُ

﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾؛ أي: متجاوز عن منهج الحق، أصله: معتديٌ، استثقلت الكسرة علىٰ الياء فحذفت، فالتقى ساكنان، وهما الياء والتنوين، ثم حذفت الياء لبقاء دالها، وهو كسرة الدال، فصار معتد بوزن: مفتع.

﴿أثيم﴾؛ أي: كثيرالذنوب والآثام.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾؛ أي: غلب وأحاط وغطى تغطية الغيم للسماء، وفي

«المختار»: الرين: الطبع والدنس، ويقال: ران ذنبه على قلبه ـ من باب باع ريناً وريوناً أيضاً ـ: إذا غلب، وقال أبو عبيدة: كل ما غلبك فقد ران بك، ورانك وران عليك، ورين الرجل: إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به، أي: لا طاقة له به، وعبارة الزمخشري: وران علىٰ قلوبهم: ركبها كما يركب الصدأ، وغلب عليها، وهو أن يصر علىٰ الكبائر، ويسوف التوبة حتىٰ يطبع علىٰ قلبه، فلا يقبل الخير ولا يميل إليه، وعن الحسن: الذنب بعد الذنب حتىٰ يسود القلب.

قلت: وران يائية وواوية، وهي هنا يائية، أصله: رين كبيع، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وأما الواوية فيقال فيها: ران يرون روناً ـ من باب دخل ـ يقال: ران الأمر: اشتد، ورانت الليلة: اشتد هولها أو غمها، والرون ـ بضم الراء المشددة ـ: الشدة، والجمع رؤون، ورونة الشيء ـ بالضم ـ: معظمه وشدته، يقال: كشف الله عنك رونة هذا الأمر؛ أي: شدته وغمته.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: لداخلوا النار وملازموها، أصله: لصاليون، فلما أضيف الوصف.. حذفت منه نون الجمع، فصار لصاليوا، فاستثقلت الضمة علىٰ الياء، فحذفت فسكنت، فالتقت ساكنة مع واو الجمع، فحذفت الياء، وضمت اللام لمناسبة الواو، وقد تقدم هذا في سورة: صٓ.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ أصل يقال: يقول بوزن: يفعل، نقلت حركة الواو إلىٰ القاف، ثم قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها الآن.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾ قال الزمخشري: وعليون: علم لديوان الخير الذي دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين، منقول من جمع عليّ فعيل من العلو، كسجين من السجن، سمي بذلك؛ إما لأنه سبب الارتفاع إلىٰ أعالي الدرجات في الجنة، وإما لأنه مرفوع في السماء السابعة. وعبارة أبي حيان: عليون: جمع واحده: عِلِّيٌّ مشتق من العلو، وهو المبالغة، قاله يونس وابن جني. قال أبو الفتح: وسبيله أن يقال: علية، كما قالوا للغرفة: علية، فلما حذفت التاء عوضوا عنها الجمع بالواو والنون، وقيل: هو وصف للملائكة، فلذلك جمع بالواو والنون. وقال الفراء: هو اسم موضوع علىٰ صيغة الجمع ولا واحد له من لفظه، كقولهم: عشرين وثلاثين، والعرب إذا جمعت جمعاً، ولم يكن له بناء من واحده،

ولا تثنية قالوا في المذكر والمؤنث بالواو والنون. وقيل غير ذلك.

قلت: عليون: اسم لمكان عالٍ كما أن سجيناً: اسم لمكان في نهاية السفل، فهما مكانان أودع فيهما أعمال الناجين، وأعمال الخاسرين، وليس علينا أن نعرف ما هما، أمن أوراق وأخشاب أو معادن أخرى.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ هي الأسرة في الحجال، والحجال: واحدها حجلة، وهي مثل القبة، وحجلة العروس: بيت؛ أي: خيمة تزين بالثياب والأسرَّة والستور.

و﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ بهجته ورونقه ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾؛ أي: من شراب خالص لا غش فيه، وأصل يسقون: يسقيون بوزن يفعلون، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين ﴿مَّخْتُومٍ﴾؛ أي: ختمت أوانيه وسدت.

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾؛ أي: ما يختم به رأس قارورته هو المسك بدل الطين.

﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾ وأصل التنافس: التشاجر علىٰ الشيء والتنازع فيه، بأن يحب كل واحد أن ينفرد دون صاحبه، وفي «المختار»: ونفس الشيء من باب ظرف: صار مرغوباً فيه، ونافس في الشيء منافسةً ونفاساً بالكسر: إذا رغب فيه علىٰ وجه المباراة في الكرم، وتنافسوا فيه: أي: رغبوا. اهـ. والمراد: فليستبق المتسابقون، وليجاهدوا النفوس ليلحقوا بالعاملين.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ والمزاج والمزج: الشيء الذي يمزج بغيره، والمزج: خلط أحد الشيئين بالآخر، والتسنيم: عين من ماء تجري من أعلىٰ إلىٰ أسفل، وهو أشرف شراب في الجنة، ويكون صرفاً للمقربين، ممزوجاً لأصحاب اليمين، وسائر أهل الجنة، والمقربون هم: الأبرار الذين سبق ذكرهم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾ يقال: مر مراً ومروراً إذا جاز وذهب، كاستمر ومره وبه: جاز عليه. كما في «القاموس».

﴿يَتَغَامَزُونَ﴾؛ أي: يشيرون إليهم بأجفانهم من التغامز: تفاعل من الغمز، وهو الإشارة بالجفن والحاجب، ويكون بمعنى العيب، يقال: غمز فلان فلاناً إذا عابه وذكره بسوء، ويقال: فلان لا مغمز فيه؛ أي: ليس فيه ما يعاب به.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ من الانقلاب: وهو الانصراف والتحول والرجوع.

﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾؛ أي: معجبين راضين بما فيه من الشرك والضلالة والعصيان، أو متلذذين بما كان من مكنتهم ورفعتهم التي أوصلتهم إلى الاستسخار بغيرهم، والضحك من المؤمنين.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: رقباء يتفقدونهم ويهيمنون على أعمالهم.

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ أصل رأوهم: رأيوهم، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، وأصل ﴿ضالون﴾: ضاللون بلامين، أدغمت أولاهما في الثانية.

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ من التثويب، والتثويب والإثابة: المجازاة يقال: ثوبه وأثابه إذا جازاه، كما قال الشاعر:

سَأَجْزِيْكِ أَوْ يَجْزِيْكِ عَنِّيْ مُثَوِّبٌ   وَحَسْبُكِ أَنْ يُثْنَىٰ عَلَيْكِ وَتُحْمَدِيْ

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تنكير ﴿وَيۡلٌ﴾ لإفادة التهويل والتفخيم.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾، وقوله ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ وهي مقابلة أتت على أحسن وجه وأنظمه؛ أي: إذا كان الكيل من جهة غيرهم.. استوفوه، وإذا كان الكيل من جهتهم.. أخسروه، سواء باشروه، أو لا، فالضمير لا يدل على مباشرة، ولا إشعار أيضاً بذلك، والذي يدلك على أن الضمير لا يعطي مباشرة الفعل، أن لك أن تقول: الأمراء هم الذين يقيمون الحدود لا السوقة، لست تعني أنهم يباشرون ذلك بأنفسهم، وإنما معناه: أن فعل ذلك من جهتهم خاصة. ا هـ من «الدرويش».

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ﴾؛ لأنه حذف الاتزان لعلمه من الاكتيال، لأن مقتضى المقابلة أن يقال: الذين إذا اكتالوا، أو اتزنوا على الناس يستوفون، وقد مر لك بيان حكمة حذفه في مبحث التفسير.

ومنها: الطباق بين ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ و ﴿يُخْسِرُونَ﴾؛ لأن الاستيفاء الأخذ وافياً، والإخسار: الإعطاء ناقصاً.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التعجبي في قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾ لأن ﴿أَلَآ﴾ في قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ ليست استفتاحية، بل هي همزة الاستفهام دخلت على لا النافية، فأفادت التوبيخ والإنكار والتعجيب، كما في «الرازي». وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله تعالى خاضعين، ووصف ذاته برب العالمين.. بيان بليغ لعظم الذنب، وتفاقم الإثم في التطفيف، وفيما كان مثل حاله من الحيف، وترك القيام بالقسط، والعمل علىٰ السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء، بل في كل قول وعمل. ا هـ «خطيب».

ومنها: تخصيص وصف رب العالمين من بين سائر الصفات إشعاراً بالمالكية والتربية، بحيث لا يمتنع عليه الظالم القوي؛ لكونه مملوكاً مسخراً في قبضة قدرته، ولا يترك حق المظلوم الضعيف؛ لأن مقتضىٰ التربية أن لا يضيع لأحد شيئاً من الحقوق، وفي هذه التشديدات إشارة إلى أن التطفيف، وإن كان يتعلق بشيء حقير، لكنه ذنب كبير.

ومنها: المقابلة بين حال الفجار، وحال الأبرار في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ...﴾ إلخ، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ...﴾ إلخ.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ إفادة للتهويل، وفي قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩﴾ إفادةً للتعظيم والتفخيم لمراتب الأبرار.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ حيث مثل احتجاب الله وسخطه عليهم، وإهانته بهم باحتجاب ملك من الملوك عن بعض رعيته؛ لأنه لا يؤذن علىٰ ذوي المقامات العلية والمراتب السامية إلا للمقربين المكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء الموسومون بالمهانة والقماءة والصَّغار، وقد رمق أبو تمام سماء هذا المعنىٰ، فقال مبرزاً احتجاب المعتصم عن الرعية:

لَيْسَ ٱلْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لِيْ أَمَلاً   إِنَّ ٱلسَّمَاءَ تُرَجَّىٰ حِيْنَ تَحْتَجِبُ

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

ومنها: الإطناب بذكر أوصاف نعيم المتقين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾...﴾ إلخ.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾؛ أي: كالمسك في طيب الرائحة، فحذف منه الأداة ووجه الشبه، فأصبح بليغاً.

ومنها: حذف مفعول ﴿يَنظُرُونَ﴾ في قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إفادة للتعميم؛ أي: ينظرون ما شاؤوا مد أعينهم إليه من رغائب مناظر الجنة، وإلى ما أولاهم الله تعالىٰ من النعمة والكرامة.

ومنها: تقديم الجار والمجرور علىٰ متعلقه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ لمراعاة الفواصل، أو للحصر إشعاراً بغاية شناعة ما فعلوا؛ أي: كانوا من الذين آمنوا لا من غيرهم يضحكون، مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك علىٰ منهاج قوله: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾. ا هـ «فتوحات».

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ إشعاراً بمبالغتهم في استهزائهم، وسخريتهم من المسلمين، وإنكارهم لصدهم عن الشرك، ودعائهم إلى الإسلام.

ومنها: تقديم الجار علىٰ متعلقه في قوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ﴾ إفادةً للحصر؛ أي: في ذلك لا في خمور الدنيا.

ومنها: تقديمه عليه في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ لرعاية الفواصل.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ إشعاراً بتحققه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ وعيد المطففين.

٢ ـ بيان أن صحائف أعمال الفجار في أسفل السافلين.

٣ ـ الإرشاد إلى أن صحائف أعمال الأبرار في أعلىٰ عليين.

٤ ـ وصف نعيم الأبرار في مآكلهم ومشاربهم ومساكنهم.

٥ ـ استهزاء المجرمين بالمؤمنين في الدنيا، وتغامزهم بهم، وحكمهم عليهم بالضلال.

٦ ـ تضاحك المؤمنين منهم يوم القيامة؛ نظر المؤمنين إلىٰ المجرمين وهم يلقون جزاءهم وما أعد لهم من النكال.

والله أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة المطففين بعون الملك المعين، ضحوة يوم السبت اليوم السابع من شهر رمضان المبارك من شهور سنة: ١٤١٦/٩/٧ ألف وأربع مئة وست عشر سنة من الهجرة النبوية، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التحية، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الانشقاق

سورة الانشقاق مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة الانفطار، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الانشقاق بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: ثلاث أو خمس وعشرون آية. وكلماتها: مئة وتسع كلمات. وحروفها: سبع مئة وثلاثون حرفاً. وسميت سورة الانشقاق لذكر انشقاق السماء فيها، وكلها محكمة لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

ومناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى ختم سورة المطففين بذكر أحوال القيامة، وأهوال يوم الحشر، وافتتح هذه السورة بمثل ذلك من أحوال يوم البعث والنشور، فاتصلت السورتان اتصال النظير بالنظير، والشبيه بالشبيه.

وأوجز بعضهم القول في بيان وجه ترتيب هذه السور الثلاث، فقال: إن في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ ذكر الحفظة الكرام الكاتبين، وفي سورة المطففين: بيان لمقر كتبهم، وفي سورة الانشقاق: البداية بذكر بعض أحوال يوم القيامة من الانقلابات الكونية الهائلة.

ومما ورد في فضلها: ما أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي رافع قال: صليتُ مع أبي هريرة العتمة، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ فسجد، فقلتُ له، فقال: سجدتُ خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتىٰ ألقاه.

وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ و ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾.

وأخرج ابن خزيمة والروياني في مسنده والضياء المقدسي في «المختارة» عن بريدة: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ ونحوها.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ
﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ
كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ
ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾
وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ
لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾.

المناسبة

مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في أواخر السابقة أحوال الفجار والأبرار في يوم القيامة، ثم ذكر في أوائل هذه السورة أهوال ذلك اليوم، فذكر أنه حين انشقاق السماء، واختلال نظام العالم، وانبساط الأرض بنسف ما فيها من جبال، وتخليها عما في جوفها، يلاقي المرء ربه فيوفيه حسابه، وينقسم الناس حينئذٍ فريقين:

١ ـ فريق الصالحين البررة: وهؤلاء يحاسبون حساباً يسيراً، ويرجعون مسرورين إلىٰ أهلهم.

٢ ـ فريق الكفرة والعصاة: وهؤلاء يؤتون كتبهم وراء ظهورهم، ثم يصلون حر النار؛ لأنهم كانوا فرحين بما يتمتعون به من اللذات، والجري وراء الشهوات، إذ كانوا يظنون أن لا بعث ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن الإنسان راجع إلىٰ ربه فملاقيه ومحاسبه، إما حساباً يسيراً إن كان قد عمل الصالحات، أو حساباً عسيراً إن كان قد اجترح السيئات.. أقسم بآيات له في الكائنات ظاهرات باهرات علىٰ أن البعث كائن لا

محالة، وأن الناس يلقون شدائد الأهوال حتىٰ يفرغوا من حسابهم، فيصير كل أحد إلىٰ ما أعد له من جنة أو نار.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ①﴾ إعرابه كإعراب ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ①﴾؛ أي: إذا انشقت وانفطرت وانفتحت بغمام أبيض.. يخرج منها، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾، والباء للآلة، كما في قولك: انشقت الأرض بالنبات.

وفي ذلك الغمام الملائكة ينزلون في أيديهم صحائف الأعمال، أو فيه ملائكة العذاب، وكان ذلك أشد وأفظع من حيث إنه جاء العذاب من موضع الخير، فيكون انشقاق السماء لنزول الملائكة بالأوامر الإلهية، وقيل: للسقوط والانتقاض، وقيل: لهول القيامة، وكيف لا تنشق وهي في قبضة قهره تعالىٰ أقل من خردلة، ولا مانع من جميع هذه الأقوال، فإنها تنشق لهيبة الله تعالىٰ، فتنزل الملائكة، ثم يؤول أمرها إلى الفساد والاختلال.

وعن علي رضي الله عنه: تنشق من المجرة، وهي بفتح الميم بوزن المضرة باب السماء؛ أي: البياض المستطيل في وسط السماء من جانبها، وأهل الهيئة يقولون: إنها نجوم صغار مختلطة، غير متميزة في الحسن. ا هـ من «القرطبي».

سميت بذلك لأنها كأثر المجر، والمجر: المحل الذي يجر عليه الحبل من البئر عند الاستقاء. قيل: تنشق من ذلك الموضع، كأنه مفصل ملتئم، فتصدع منه ﴿وَأَذِنَتۡ﴾؛ أي: استمعت وأصغت ﴿لِرَبِّهَا﴾؛ أي: لأمر ربها إياها بالانشقاق، وأذعنت لتأثير قدرته تعالىٰ فيها؛ حيث تعلقت قدرته بانشقاقها، وانقادت له انقياد المأمور المطواع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع، فهو استعارة تمثيلية متفرعة علىٰ المجاز المرسل، يعني: إذا أطلق الإذن، وهو: الاستماع في حق من له حاسة السمع، والاستماع بها: يراد بها الإجابة، والانقياد مجازاً، وإذا أطلق في حق نحو السماء مما ليس في شأنه الاستماع والقبول.. يكون استعارة تمثيلية، فقوله: ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ يدل علىٰ نفوذ القدرة في الإيجاد والإبداع من غير ممانعة أصلاً، وقوله: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ يدل علىٰ نفوذ القدرة في التفريق والإعدام من غير ممانعة أصلاً والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليها للإشعار بعلة الحكم ﴿وَحُقَّتۡ﴾؛ أي:

السماء؛ أي: جعلت حقيقة حرية بالاستماع والانقياد، إذ هي مربوبة ومصنوعة له تعالىٰ؛ أي: شأنها ذلك بالنسبة إلىٰ القدرة القاهرة الربانية التي يتأتىٰ بها كل مقدور، ولا يتخلف عنها أمر من الأمور، من قولهم: هو محقوق بكذا، وحقيق به، وقال الضحاك: وحقت؛ أي: أطاعت، وحق لها أن تطيع ربها؛ لأنه خلقها.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾؛ أي: بسطت بإزالة جبالها وآكامها عن مقرها، وتسويتها بحيث صارت كالصحيفة الملساء، أو زيدت سعة وبسطة من أحد وعشرين جزءاً إلىٰ تسعة وتسعين جزءاً، لوقوف الخلائق عليها للحساب، وإلا لم تسعهم، من مده: بمعنىٰ: أمده؛ أي: زاده، وفي الحديث: «إذا كان يوم القيامة.. مد الله الأرض مد الأديم، حتىٰ لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه»، يعني: لكثرة الخلائق فيها، وقوله: «مد الأديم»؛ لأن الأديم إذا مد زال عنه كل انثناء فيه واستوىٰ، وفي بعض الروايات: «مد الأديم العكاظي»، قال في «القاموس»: ـ هو كغراب ـ سوق بصحراء بين النخلة والطائف، كانت تقوم هلال ذي القعدة، وتستمر عشرين يوماً تجتمع قبائل العرب، فيتعاكظون؛ أي: يتفاخرون ويتناشدون، ومنه مد الأديم العكاظي. انتهى..

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾؛ أي: رمت ما في جوفها من الموتىٰ والكنوز إلى ظاهرها، نظير قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾، وهو من الإسناد المجازي، وإلا فالإلقاء والإخراج لله تعالى.

فإن قلت: إخراج الكنوز يكون وقت خروج الدجال لا يوم القيامة؟

قلت: يوم القيامة وقت متسع يجوز اعتباره من وقت خروجه ولو مجازاً؛ لأنه من أشراطه الكبرىٰ، فيكون إخراج الكنوز عند قرب الساعة، وإخراج الموتىٰ عند البعث ﴿وَتَخَلَّتْ﴾؛ أي: وخلت عما فيها غاية الخلو حتىٰ لا يبقىٰ فيها شيء منه، كأنها تكلفت في ذلك أقصى جهدها، كما يقال: تكرم الكريم، وترحم الرحيم، إذا بلغا جهدهما في الكرم والرحمة، وتكلفا فوق ما في طبعهما. ﴿وَأَذِنَتْ﴾ وانقادت ﴿لِرَبِّهَا﴾؛ أي: لأمر ربها في الإلقاء والتخلي. ﴿وَحُقَّتْ﴾؛ أي: جعلت حقيقة حرية بذلك الانقياد؛ أي: شأنها ذلك بالنسبة إلى القدرة الربانية، وذكره مرتين، لأن الأول متصل بالسماء، والثاني بالأرض، وإذا اتصل كل واحد بغير ما اتصل به

الآخر.. لم يكن تكراراً، وجواب ﴿إذا﴾ محذوف تقديره: أي: وإذا وقعت هذه الأمور.. كان من الأهوال ما تقصر عن بيانه العبارة، وقيل: إن الجواب قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾؛ أي: فأنت ملاقيه، وبه قال الأخفش، وقال المبرد: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً؛ أي: يا أيها الإنسان إنك كادح إلىٰ ربك كدحاً فملاقيه إذا السماء انشقت. وقال المبرد أيضاً: إن الجواب قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾، وبه قال الكسائي، والتقدير: إذا السماء انشقت، فمن أوتي كتابه بيمينه.. فحكمه كذا، وقيل: هو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ على إضمار الفاء، وقيل إنه: يا أيها الإنسان علىٰ إضمار القول؛ أي: يقال له يا أيها الإنسان، وقيل: الجواب محذوف تقديره: بعثتم، أو لاقىٰ كل إنسان عمله، وقيل: هو ما صرح به في سورة التكوير؛ أي: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

وهذا كله على تقدير: أن ﴿إذا﴾ شرطية، وقيل ليست شرطية، بل هي مجردة عن معنىٰ الشرط منصوبة بفعل محذوف؛ أي: اذكر يا محمد للناس قصة وقت انشقاق السماء، وقصة وقت مد الأرض، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته، والأول أولىٰ وأوضح.

وحاصل معنى الآيات(١): إذا انشقت السماء لفساد تركيبها، واختلال نظامها حينما يريد الله سبحانه خراب هذا العالم بحدث من الأحداث، كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من كوكب آخر، فيتجاذبان ويتصادمان، فيضطرب نظام العالم العلوي بأسره، ويحدث من ذلك غمام يظهر في مواضع متفرقة من هذا الفضاء الواسع.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾؛ أي: استمعت، وانقادت لتأثير قدرته، وفعلت فعل المطواع الذي إذا أمر أنصت وأذعن وامتثل ما أمر به، وفي الحديث: «ما أذن الله لشيء إذنه لنبي يتغنىٰ بالقرآن». ﴿وَحُقَّتْ﴾؛ أي: وحق لها أن تمتثل؛ لأنها مخلوقة من مخلوقاته، وهي في قبضته، فإن أراد تبديد نظامها.. فعل، ولم يكن لها أن تعصي إرادته.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾؛ أي: وإذا اضطربت الأرض، ودكت جبالها،

---

(١) المراغي.

وتقطعت أوصالها، وفقدت ما بينها من التماسك، فليس لها هذا الاندماج المشاهد الآن، بل تمد مد الأديم العكاظي، كما روي عن ابن عباس: والأديم: الجلد، والعكاظي: المدبوغ في عكاظ. والمراد: أنه لا انشقاق فيها، ولا اعوجاج.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾؛ أي: رمت ما في جوفها من الموتىٰ والمعادن، وأخرجت كل ذلك إلى ظاهرها، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾، وقوله: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾. ﴿وَتَخَلَّتْ﴾؛ أي: خلت من جميع ما في جوفها، وربما قذفته الحركة العنيفة إلى ما يبعد عن سطحها، فيخلو منه باطن الأرض وظاهرها، وهي في ذلك خاضعة لأوامر ربها، منقادة لمشيئته.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾؛ أي: واستمعت وأطاعت أوامره؛ لأنها في قبضة القدرة الإلهية تصرفها في الفناء، كما صرفتها في الابتداء. وجواب ﴿إِذَا﴾ الذي صدرت به السورة محذوفة، كما مر آنفاً؛ لإرادة التهويل علىٰ المخاطبين، فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذا وكذا مما تقدم ذكره.. ترون جزاء ما عملتم من خير أو شر، فاكدحوا واجتهدوا لعمل ذلك اليوم تفوزوا بالنعيم.

وقصارى ذلك(١): وصف أحوال العالم يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وأنه يكون علىٰ غير حاله التي هو عليها في هذه الحياة، فتبدل الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات، ويبرز الناس للحساب علىٰ ما قدموا في حياتهم من عمل، فيجازيهم علىٰ الإحسان إحساناً وعلى الإساءة سوءاً، وعلينا أن نؤمن بذلك كله، ونكل علم حقيقته ومعرفة كنهه إلى الله تعالى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ المراد به: جنس الإنسان، فيشمل المؤمن والكافر، وقيل: هو الإنسان الكافر، والأول أولىٰ لما سيأتي من التفصيل؛ أي: يا جنس الإنسان الشامل للمؤمن والكافر والعاصي، فالخطاب عام لكل مكلف على سبيل البدل، ويقال: هذا أبلغ من العموم؛ لأنه يقوم مقام التنصيص في النداء علىٰ مخاطبة كل

---

(١) المراغي.

واحد بعينه، كأنه قيل: يا فلان ويا فلان إلىٰ غير ذلك، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾؛ أي[1]: جاهد ومجد؛ أي: ساع باجتهاد ومشقة وكد ﴿إِلَىٰ﴾ لقاء ﴿رَبِّكَ﴾؛ أي: إلى وقت لقائه، وهو الموت وما بعده من الأحوال الممثلة باللقاء مبالغ في ذلك، وفي الخبر: أنهم قالوا يا رسول الله، فيما نكدح، وقد جفت الأقلام، ومضت المقادير، فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له»، وقوله: ﴿كَدْحًا﴾؛ أي: اجتهاداً بليغاً، مصدر مؤكد للوصف؛ أي: إنك مجتهد وساع في أشغالك من غير فرق بين أن يكون ذلك الشغل خيراً أو شراً؛ أي: مجتهد اجتهاداً بليغاً، وساع سعياً شديداً من غير فترة إلى لقاء ربك؛ أي: إلى انقضاء أجلك لا فراغ لك؛ أي: إنك مشغول بعملك مدة حياتك ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ معطوف علىٰ ﴿كَادِحٌ﴾: أي: فملاقٍ له؛ أي: لجزاء عملك من خير أو شر عقيب لقاء ربك لا محالة، من غير صارف يلويك عنه، ولا مفر لك منه، ويقال: المعنى: إنك عامل لربك عملاً فملاقٍ عملك يوم القيامة، يعني: أن جدك وسعيك إلى مباشرة الأعمال في الدنيا هو في الحقيقة سعي إلى لقاء جزائها في العقبىٰ، فملاق ذلك الجزاء لا محالة، فعليك أن تباشر في الدنيا بما ينجيك في العقبى، واحذر عما يهلكك فيها، ويوقعك في الخجالة والافتضاح من سوء المعاملة، وفي الحديث: «النادم ينتظر الرحمة، والمعجب ينتظر المقت، وكل عامل سيقدم إلى ما أسلف».

قال القتيبي: معنى الآية: إنك كادح؛ أي: إنك عامل ناصب في طلب معيشتك وكسبك عملاً شديداً لا فترة فيه إلى لقاء ربك بالموت فملاقيه؛ أي: فأنت ملاقٍ ربك بعملك، فمجازيك عليه خيراً أو شراً، وقيل: فملاق كتاب عملك؛ لأن العمل قد انقضىٰ؛ أي[2]: إنك يا ابن آدم متعب نفسك في العمل في دنياك تعباً حتى ترجع به إلىٰ ربك في الآخرة، فملاق ذلك العمل خيراً كان أو شراً في الكتاب الذي فيه بيانه.

وحاصل المعنى[3]: أي أيها الإنسان إنك عامل في هذه الحياة، ومجد في

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

عملك، ومبالغ في إدراك الغاية إلىٰ أن تنتهي حياتك، وإن كنت لا تشعر بجدك، أو تشعر به، وتلهو وكل خطوة في عملك فهي في الحقيقة خطوة إلىٰ أجلك، وهناك لقاء الله تعالى، فالموت يكشف عن الروح غطاء الغفلة، ويجلو لها وجه الحق، فتعرف من الله ما كانت تنكره، ويوم البعث يرتفع الالتباس، ويعرف كل عامل ما جر إليه عمله، والناس حينئذٍ صنفان:

١ - ﴿فَأَمَّا مَنْ﴾ وهو المؤمن السعيد، و﴿مَنْ﴾ موصولة، وهو تفصيل لما أجمل فيما قبله ﴿أُوتِيَ﴾ وأعطي؛ أي: يؤتىٰ، وعبر بالماضي لتحققه. ﴿كِتَـٰبَهُۥ﴾ المكتوب فيه أعماله التي كدح في كسبها ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾؛ لكون كدحه بالسعي فيما يكتبه كاتب اليمين.

والحكمة في الكتابة مع أن الله سبحانه لا يخفىٰ عليه شيء[1]: أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب وتعرض علىٰ رؤوس الأشهاد.. كان أزجر عن المعاصي، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده، واعتمد علىٰ عفوه وستره.. لم يحتشم احتشامه من خدمة المطلعين عليه. ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ﴾ يوم القيامة بعد مدة مقدرة علىٰ ما تقتضيه الحكمة ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾؛ أي: سهلاً لا مناقشة فيه، ولا اعتراض بما يسوءه ويشق عليه، كما يناقش أصحاب الشمال. والحساب: بمعنى المحاسبة، والمراد به: عد أعمال العباد، وإظهارها للمجازاة، وعن الصديقة رضي الله عنها: هو - أي الحساب اليسير - أن يعرف ذنوبه ثم يتجاوز عنه. يعني: أن يعرض عليه أعماله، ويعرف أن الطاعة منها هذه، والمعصية هذه، ثم يثاب علىٰ الطاعة، ويتجاوز عن المعصية، فهذا هو الحساب اليسير؛ لأنه لا شدة علىٰ صاحبه ولا مناقشة، ولا يقال له: لم فعلت هذا؟، ولا يطالب بالعذر ولا بالحجة عليه، فإنه متىٰ طولب بذلك.. لم يجد عذراً ولا حجةً، فيفتضح. قالوا إنَّ عصاة المؤمنين داخلة في هذا القسم، فقوله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ من وصف الكل بوصف البعض؛ أي: فالعصاة[2]، وإن لم يكن لهم حساب يسير بالنسبة إلىٰ المطيعين، لكن حسابهم كالعرض بالنسبة إلىٰ مناقشة أصحاب الشمال، فأصحاب اليمين شاملة لهم، وقد

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

يقال: كتاب عصاة المؤمنين يعطىٰ عند خروجهم من النار، وقيل: يجوز أن يعطوا من الشمال لا من وراء ظهورهم، وفيه أن الإعطاء من الشمال ومن وراء الظهر أمر واحد. وقيل: لم تتعرض الآية للعصاة الذين يدخلهم الله النار، وهو الظاهر، وقوله ﷺ في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً»، وإن دل علىٰ أن للأنبياء كتاباً، لكن الظاهر إرشاد الأمة وتعليمهم، وإلا فهم معصومون داخلون الجنة بلا حساب ولا كتاب.

﴿وَيَنقَلِبُ﴾؛ أي: يرجع المحاسب حساباً يسيراً بعد حسابه؛ أي: ينصرف ويرجع من مقام الحساب اليسير ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ الذين هم في الجنة من عشيرته المؤمنين، أو إلىٰ أهله الذين كانوا له في الدنيا من الزوجات والأولاد، أو إلىٰ من أعده الله له في الجنة من الحور العين والولدان المخلدين، أو إلىٰ جميع هؤلاء، أو إلىٰ أهله الذين هم رفقاؤه في طريق السعادة والكرامة حال كونه ﴿مَسۡرُورٗا﴾؛ أي: مبتهجاً بحاله، وكونه من أهل النجاة مستبشراً بما أوتي من الخير والكرامة، قائلاً: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾. قال صاحب «الروح»: فهذا الانقلاب يكون في المحشر قبل دخول الجنة، لا كما قال في «عين المعاني» من أنه يدل علىٰ أن أهله يدخلون الجنة قبله. انتهىٰ. ودعوة الناس إلىٰ قراءة الكتاب علامة الفرح والنشاط وقوة العزيمة.

وحاصل المعنى(١): أي فأما من عرض عليه سجل أعماله، وتناوله بيمينه، فإنه يحاسب يسير الحساب؛ إذ تعرض عليه أعماله، فيعرف بطاعته وبمعاصيه، ثم يثاب علىٰ ما كان منها طاعة، ويتجاوز له عما كان منها معصية، وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً» قلت: وما الحساب اليسير؟ قال: «ينظر في كتابه، ويتجاوز عن سيئاته، فأما من نوقش.. فقد هلك».

ومن حوسب هذا الحساب اليسير.. يرجع إلىٰ أهله المؤمنين مسروراً مبتهجاً قائلاً: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾.

---

(١) المراغي.

٢ - ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ﴾ وأعطي ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾؛ أي: صحيفة عمله، وتكرير[1] ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ بدون الاكتفاء بالإضمار لتغاير الكتابين، وتخالفهما بالاشتمال والحكم في المآل؛ أي: يؤتىٰ كتاب عمله ﴿وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾؛ أي: خلف ظهره؛ أي: أوتي بشماله وراء ظهره وجانبه، و ﴿وَرَآءَ﴾ ظرف لـ﴿أُوتِيَ﴾ مستعمل في المكان. وقال الكلبي: تغل يمينه، ثم تلوىٰ يده اليسرىٰ من ورائه، فيعطىٰ كتابه بشماله، وهي خلف ظهره، فلا مخالفة حينئذٍ بين ما هنا، وبين ما في الحاقة حيث لم يذكر فيها الظهر، بل اكتفىٰ بالشمال. قال الإمام: ويحتمل أن يكون بعضهم يعطىٰ كتابه بشماله، وبعضهم من وراء ظهره. وقال قتادة ومقاتل: تفك ألوح صدره وعظامه، ثم تدخل يده اليسرىٰ، وتخرج من ظهره، فيأخذ كتابه كذلك. ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟﴾؛ أي: إذا قرأ كتابه ﴿ثُبُورًا﴾؛ أي: هلاكاً، فيقول: يا ثبوراه، يا ويلاه؛ أي: يتمنىٰ[2] لنفسه الثبور، وهو الهلاك، ويدعوه: يا ثبوراه تعال فهذا أوانك، وأنىٰ له ذلك، يعني: لما كان إيتاء الكتاب من غير يمينه علامة كونه من أهل النار.. كان كلامه: واثبوراه، ولا شك أن هذا قول المخذول الكاره لما عرض عليه. قيل: الثبور: مشتق من المثابرة علىٰ الشيء، وهو المواظبة عليه، وسمي هلاك الآخرة ثبوراً؛ لأنه لازم لا يزول، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾؛ أي: يدخلها ويقاسي حرها وعذابها من غير حائل، وهذا يدل علىٰ أن دعاءهم بالثبور قبل الصلي، وبه صرح الإمام، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ فيدل علىٰ أنه بعده، ولا منافاة في الجمع، فإنهم يدعونه أولاً وآخراً بل دائماً علىٰ أن الواو لمطلق الجمع لا للترتيب.

وقرأ قتادة وأبو جعفر وعيسى وطلحة والأعمش وعاصم وأبو عمرو وحمزة[3]: ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ بفتح الياء مبنياً للفاعل، وباقي السبعة وعمر بن عبد العزيز وأبو الشعثاء والحسن والأعرج: بضم الياء، وفتح الصاد، واللام المشددة، وأبو الأشهب وخارجة عن نافع وأبان وعاصم وعيسى أيضاً والعتكي وجماعة عن أبي عمرو: بضم الياء ساكن الصاد مخفف اللام مبنياً للمفعول من المتعدي بالهمزة،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

كما بني ويصلىٰ المشدد للمفعول من المتعدي بالتضعيف.

والمعنى[1]: أي وأما الذين أكثروا من ارتكاب الجرائم، واجتراح المعاصي، فيؤتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم، ومد اليسار إلى الكتاب دليل الكراهة، وأظهر في الدلالة على الكراهة، والنفور: أن يستدبره ويعرض عنه، فيكون من وراء ظهره.

وقصارى ما سلف: أن من عرض عليه كتابه، وقدم إليه ليأخذه، فاندفع إليه بعزيمة صادقة لشعوره بأنه مستودع الصالحات، وسجل البر والكرامات، فشأنه: كذا وكذا، ومن قدم إليه كتابه، وعرض عليه عمله، فخزيت نفسه وخارت عزيمته، فمد إليه يساره، أو أعرض عنه، فولاه ظهره لشعوره بأنه ديوان السيئات، وسجين المخازي، فأمره: كيت وكيت، يرشد إلى ذلك ما ورد من التفصيل في سورة الحاقة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ إلخ.

والخلاصة: أن إيتاء الكتاب باليمين أو باليسار، أو من وراء الظهر تصوير لحال المطلع علىٰ أعماله في ذلك اليوم، فمن الناس من إذا كشف له عمله.. ابتهج واستبشر، وتناول كتابه بيمينه، ومنهم من إذا تكشفت له سوابق أعماله.. عبس وبسر، وأعرض عنها وأدبر، وتمنى لو لم تكشف له، وتناولها باليسار، أو من وراء الظهر، وحينئذٍ يدعو: واثبوراه؛ أي: يا هلاك أقبل، فإني لا أريد أن أبقىٰ حياً، علماً منه بأن ذلك داعٍ إلىٰ طول العذاب، وأنه سيدخل النار ويقاسي سعيرها.

ثم ذكر سبحانه سببين في استحقاقه للعذاب في الآخرة، فقال:

١ - ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: لأن ذلك المعطى كتابه وراء ظهره، فالجملة[2] مستأنفة مسوقة لبيان علة ما قبلها ﴿كَانَ﴾ في حياته الدنيا ﴿فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾؛ أي: فيما بين أهله وعشيرته أو معهم، علىٰ أنهم جميعاً كانوا مسرورين، كما يقال: جاءني فلان في جماعة، أي: معهم ﴿مَسْرُورًا﴾؛ أي: فرحاً بطراً، لا يفكر في أمور الآخرة، ويقدم علىٰ المعاصي ظناً منه أن لذاتها لا توجب الحسرة، ولا تورث التردي في نار

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الجحيم، كديدن الفجار الذين لا يخطر ببالهم أمور الآخرة، ولا يتفكرون في العواقب، كسنّة الصلحاء والمتقين، كما قال تعالىٰ حكاية عنهم؛ ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾، ومن ثمَّ أبدله الله بهذا النعيم الزائل عذاباً لا ينقطع، وآلاماً لا تنفذ.

والحاصل: أنه كان الكافر في الدنيا فارغاً عن همِّ الآخرة، وكان له مزمار في قلبه، فجوزي بالغم الباقي، بخلاف المؤمن، فإنه كان له نائحة في قلبه، فجوزي بالسرور الدائم.

٢ - ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ﴾؛ أي: تيقن، كما في تفسير الفاتحة للفناري، وقال في «فتح الرحمن» الظن هنا علىٰ بابه بمعنىٰ الحسبان، لا الظن الذي بمعنىٰ اليقين، وهو تعليل لسروره في الدنيا؛ أي: إن هذا الكافر ظن في الدنيا. ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة سادة مع ما في حيزها مسد مفعولي ﴿ظَنَّ﴾ أو أحدهما علىٰ الخلاف المشهور؛ أي: ظن أن الشأن والحال ﴿لَّن يَحُورَ﴾ هو؛ أي: لن يرجع إلىٰ ربه بالبعث.

والمعنى[1]: أنه ظن أن لن يرجع إلىٰ ربه، وأنه لن يبعث الخلق لحسابهم علىٰ ما قدموا، ولو علم أن الله يبدل سروره حزناً وغماً.. لأقلع عما هو فيه، ولترك هذا السرور العاجل السريع الفناء، وطلب من السرور ما يبقىٰ ما بقيت الجنة التي لا يفنىٰ نعيمها، ولا يزول سرور أهلها.

وفي الآية[2] إيماء إلىٰ أن المسخرين لشهواتهم، الساعين وراء لذاتهم، ليسوا بظانين فضلاً عن أن يكونوا مستيقنين بأنهم يرجعون إلىٰ ربهم ليحاسبهم، بل الراجح عندهم: أنهم لا يحاسبون، وأن الله سبحانه مخلف وعده، وهذا هو الذي ينسيهم ذكره عند كل جرم يجرمونه، فهم وإن كانوا يزعمون الإيمان بالله، وبوعده ووعيده، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ثم رد عليه ظنه الخاطىء، فقال: ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد ﴿لَّن﴾؛ أي: بلىٰ ليحورن ألبتة، وليس الأمر كما يظن ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ﴾ الذي خلقه ﴿كان به﴾، وبأعماله الموجبة للجزاء، والجار متعلق بقوله: ﴿بَصِيرًا﴾ بحيث لا يخفىٰ منها خافية، فلا بد من رجعه وحسابه وجزائه عليها حتماً؛ إذ لا

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

يجوز في حكمته أن يهمله، فلا يعاقبه علىٰ سوء أعماله، وهذا زجر لجميع المكلفين عن المعاصي كلها. قال الواسطي رحمه الله تعالى: كان بصيراً به، إذ خلقه لماذا خلقه، ولأي شيء أوجده، وما قدر عليه من السعادة أو الشقاوة، وما كتب له أو عليه من أجله ورزقه. انتهىٰ.

وحاصل المعنى[1]: أي بلىٰ ليحورن، وليبعثن، وليرجعن إلىٰ ربه، وليحاسبنه علىٰ عمله حتىٰ علىٰ النقير والقطمير، فيجزىٰ علىٰ الخير خيراً، وعلى الشر شراً، فإن الذي يخلق الإنسان مستعداً لما لا يتناهىٰ من الكمال، وبما وهبه من العقل، لا ينشئه هذه النشأة الرفيعة، لتكون غايته غاية سائر الحيوان، بل تقتضي حكمته أن يجعل له حياة بعد هذه الحياة، ويثمر فيها أعماله، ويوافي فيها كماله.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ كلمة ﴿لا﴾ زائدة للتوكيد، كما مر مراراً، و ﴿الفاء﴾: استئنافية؛ أي: فأقسم لكم أيها العباد ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾، وهي[2] الحمرة التي تشاهد في أفق المغرب بعد الغروب، وبغيبوبتها يخرج وقت المغرب، ويدخل وقت العشاء عند عامة العلماء، أو البياض الذي يعقبها، ولا يدخل وقت العشاء إلا بزواله، سمي به علىٰ كل من المعنيين لرقته، لكن مناسبته لمعنىٰ البياض أكثر، وهو من الشفقة التي هي عبارة عن رقة القلب، ولا شك أن الشمس ـ أعني: ضوءها ـ يأخذ في الرقة والضعف من غيبة الشمس إلىٰ أن يستولي سواد الليل علىٰ الآفاق كلها. وعن عكرمة ومجاهد: الشفق: هو النهار، بناءً علىٰ أن الشفق هو أثر الشمس، وهو كوكب نهاري، وأثره هو النهار، فعلىٰ هذا يقع القسم بالليل والنهار اللذين أحدهما معاش، والآخر سكن، وبهما قوام أمور العالم، وفي «المفردات»: الشفق: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس.

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ قال الراغب: الوسق: جمع المتفرق؛ أي: وأقسم لكم بالليل وبما جمعه وما ضمه وستره بظلمته، فـ ﴿ما﴾ موصولة، يقال: وسقه فاتسق واستوسق، يعني: أن كلاً منهما مطاوع لوسق؛ أي: جمعه فاجتمع.

و﴿ما﴾ عبارة عما يجتمع بالليل، ويأوي إلى مكانه من الدواب والحشرات والهوام والسباع، وذلك أنه إذا أقبل الليل.. أقبل كل شيء إلىٰ مأواه مما كان

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

منتشراً بالنهار، وقيل: يجوز أن يكون المراد بما جمعه الليل: العباد المجتهدين بالليل؛ لأنه تعالىٰ قد مدح المستغفرين بالأسحار، والأول أولىٰ.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: اجتمع وتكامل وتم بدراً ليلة أربع عشرة. قال في «فتح الرحمن»: امتلأ في الليالي البيض. وقال الفراء؛ امتلاؤه، واجتماعه، واستواؤه ليلة ثالث عشر ورابع عشر إلىٰ ست عشرة. أقسم[1] سبحانه بهذه الأشياء؛ لأن في كل منها تحولاً من حال إلى آخر، فناسبت المقسم عليها، يعني: أن الله تعالى أقسم بتغيرات واقعة في الأفلاك والعناصر علىٰ تغير أحوال الخلق، فإن الشفق حالة مخالفة لما قبلها، وهو ضوء النهار، ولما بعدها، وهو ظلمة الليل، وكذا قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ فإنه يدل علىٰ حدوث ظلمة بعد نور، وعلىٰ تغير أحوال الحيوانات من اليقظة إلىٰ النوم، وكذا قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ فإنه يدل علىٰ حصول كمال القمر بعد أن كان ناقصاً، وقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا﴾ مفعول ﴿تركبن﴾ ﴿عَن طَبَقٍ﴾؛ أي: بعد طبق، جواب القسم؛ أي: لتلاقن أيها العباد حالاً بعد حال، كل واحدة منها مطابقة لأختها في الشدة والفظاعة، يقال: ما هذا يطبق هذا؛ أي: لا يطابقه. قال الراغب: المطابقة من الأسماء المتضايقة، وهو أن يجعل الشيء فوق آخر بقدره، ومنه: طابقت النعل بالنعل، ثم يستعمل الطباق في الشيء الذي يكون فوق الآخر تارة، وفيما يوافق غيره أخرى. وقيل: الطبق: جمع طبقة، وهي المرتبة، وهو الأوفق للركوب المنبيء عن الاعتلاء.

والمعنىٰ: لتركبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدة، بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة ودواهيها إلى حين المستقر في إحدى الدارين.

وقرأ عمر وعبد الله وابن عباس ومجاهد والأسود وابن جبير ومسروق والشعبي وأبو العالية وابن وثاب وطلحة وعيسى والأخوان ـ حمزة والكسائي ـ وابن كثير: ﴿لتركبَن﴾ بتاء الخطاب وفتح الباء، فقيل: هو خطاب للرسول الله ﷺ؛ أي: لتركبن يا محمد حالاً بعد حال في معالجة الكفار، فقال ابن عباس: لتركبن يا محمد سماعاً بعد سماع، وقيل: عدة له بالنصر؛ أي: لتركبن أمر العرب قبيلاً بعد

(١) روح البيان.

قبيل، وفتحاً بعد فتح كما كان ووجد بعد ذلك، وقال الزمخشري: وقرىء ﴿لتركبن﴾ علىٰ خطاب الإنسان في: ﴿أيها الإنسان﴾؛ أي: لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من كونك نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم حياً وميتاً وغنياً وفقيراً، وقال ابن مسعود: المعنىٰ: لتركبن السماء في أهوال القيامة حالاً بعد حال تكون كالمهل، وكالدهان، وتنفطر، وتنشق، فالتاء للتأنيث، وهو إخبار عن السماء بما يحدث لها، والضمير والفاعل عائد علىٰ السماء، وقرأ عمر وابن عباس أيضاً: بالياء من أسفل، وفتح الباء علىٰ ذكر الغائب، قال ابن عباس: ليركبن نبيكم ﷺ حالاً بعد حال، وقيل: الضمير الغائب يعود علىٰ القمر؛ لأنه يتغير أحوالاً من إسرار واستهلال وإبدار، وقال الزمخشري: ليركبن الإنسان، وقرأ عمر وابن عباس أيضاً وأبو جعفر والحسن وابن جبير وقتادة والأعمش وباقي السبعة بتاء الخطاب وضم الباء؛ أي: لتركبن أيها الإنسان، وقال الزمخشري: و ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بالضم علىٰ خطاب الجنس؛ لأن النداء للجنس.

والمعنى: لتركبن أيها الناس الشدائد: الموت والبعث والحساب حالاً بعد حال، أو يكون الأحوال من النطفة إلىٰ الهرم، كما تقول: طبقة بعد طبق، وقال نحوه عكرمة، واختار أبو عبيدة وأبو حاتم هذه القراءة، قال: لأن المعنىٰ بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ، وقال مكحول وأبو عبيدة: لتركبن سنن من قبلكم، وقال ابن زيد: المعنىٰ: لتركبن الآخرة الأولىٰ، وقرأ عمر أيضاً: ﴿ليركبن﴾ بياء الغيبة وضم الباء، قيل: أراد به الكفار، أي: يركبون حالاً بعد أخرىٰ من المذلة والهوان في الدنيا والآخرة، وقرأ ابن مسعود وابن عباس: ﴿لتركبن﴾ بكسر التاء، وهي لغة تميم، قيل: والخطاب للرسول الله ﷺ، وقرىء بالتاء وكسر الباء الموحدة علىٰ خطاب النفس. ومحل ﴿عَن طَبَقٍ﴾ النصب على أنه صفة لـ﴿طَبَقًا﴾؛ أي: طبقاً مجاوزاً لطبق، أو علىٰ الحال من ضمير ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾؛ أي: مجاوزين، أو مجاوزاً. وطبق الشيء: مطابقه؛ لأن كل حال مطابقة للأخرىٰ في الشدة، وعن مكحول: كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه.

والمعنى(١): أي أقسم بهذه الأشياء التي إذا تدبر الإنسان أمرها.. استدل

---

(١) المراغي.

بجلالتها وعظمة شأنها علىٰ قدرة مبتدعها ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا﴾؛ أي: لتلاقن أيها الناس أموراً بعد أمور، وأحوالاً بعد أحوال إلى أن تصيروا إلى ربكم، وهناك الخلود في جنة أو نار. ويدخل في هذه الأحوال جميع الأطوار التي مرت به بعد أن كان نطفة في بطن أمه إلى أن صار شخصاً، وما مر به في حياته الأولىٰ من طفولة وشيخوخة، ثم موته، ثم حشره للحساب، ثم مصيره إلىٰ الجنة أو النار.

والخلاصة: لتركبن حالاً بعد حال، والحال الثانية تطابق الأولىٰ؛ أي: لتكونن في حياة أخرى تماثل هذه الحياة التي أنتم فيها، وتطابقها من حيث الحس والإدراك، والألم واللذة، وإن خالفت في بعض شؤونها الحياة الأولىٰ.

وبعد أن ذكر الأدلة القاطعة علىٰ صحة البعث والحساب.. أنكر عليهم استبعادهم له، فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾، والاستفهام للإنكار، والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب علىٰ ما قبلها من أحوال يوم القيامة، أو من غيرها علىٰ الاختلاف السابق، و ﴿ما﴾: مبتدأ، و ﴿لَهُمْ﴾: خبره، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾.

والمعنى[1]: إذا كان حالهم يوم القيامة كما ذكر، وأردت التعجب من حالهم.. فأقول لك؛ أي شيء لكفار مكة، وأيُّ مانع لهم حال كونهم غير مؤمنين بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن، مع وجود موجبات الإيمان بذلك؛ أي: أي شيء يمنعهم من الإيمان مع تعاضد موجباته، وقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ﴾ جملة شرطية، وقوله: ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ جوابها، والجملة الشرطية مع جوابها في محل النصب علىٰ الحال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾ عطفاً علىٰ جملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: أيُّ مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم واستكانتهم عند قراءة النبي ﷺ، أو واحد من أصحابه وأمته القرآن، فإنهم من أهل اللسان، فيجب عليهم أن يجزموا بإعجاز القرآن عند سماعه، وبكونه كلاماً إلهياً، ويعلموا بذلك صدق محمد ﷺ في دعوىٰ النبوة، فيطيعوه في جوامع الأوامر والنواهي، ويجوز أن يراد به نفس السجود عند تلاوة آية السجدة علىٰ أن يكون المراد بالقرآن آية السجدة بخصوصها لا مطلق القرآن، كما روي أنه ﷺ قرأ ذات يوم: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾، فسجد هو ومن معه من

---

(١) روح البيان.

المؤمنين، وقريش تصفق فوق رؤوسهم، وتصفر استهزاء، وبه احتج أبو حنيفة علىٰ وجوب السجدة، فإن الذم علىٰ ترك الشيء يدل علىٰ وجوب ذلك الشيء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سجد فيها، وكذا الخلفاء، وهي الثالثة عشرة من أربع عشرة سجدة تجب عندها السجدة عند الحنفية علىٰ التالي والسامع، سواء قصده أم لا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في المفصل سجدة، وكذا قال الحسن، وهي غير واجبة عند الأئمة الثلاثة، ثم إن الأئمة الثلاثة يسجدون عند قوله: ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾، والإمام مالك: عند آخر السورة.

وحاصل معنى قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾؛ أي: فأي[1] شيء حدث لهم حتىٰ جحدوا قدرة الله، وأنكروا صحة البعث، وكل شيء أمامهم ينادي بباهر قدرته، ويرشد إلىٰ عظيم سلطانه.

وقصارى ذلك: أنه لا شبهة لهم يصح أن يستمسكوا بها علىٰ إنكار البعث والحساب.

ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾؛ أي: وما حدث لهم حتىٰ صاروا إذا قرىء عليهم القرآن لا يعترفون بإعجازه، وبلوغه الغاية التي لا يمكن البشر أن يصلوا إليها، فأمرهم عجب، فهم أهل اللسان وأرباب البلاغة والبراعة، وذا يقتضي أن يعلموا إعجازه، ومتىٰ علموه.. استكانوا وخضعوا له، وأدركوا صحة نبوة الرسول الذي جاء به، ووجبت عليهم طاعته.

ثم بين السبب في عدم إيمانهم به، وانقيادهم له، فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝٢٢﴾ بالقرآن الناطق بما ذكر من أحوال القيامة وأهوالها، مع تحقق موجبات تصديقه، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته، وهذا من[2] وضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر، والإشعار بما هو العلة في عدم خضوعهم للقرآن، وفي بعض التفاسير: إن المراد: التكذيب بالقلب بمعنىٰ عدم التصديق، فيكون الإضراب هنا إضراب ترق، فإنَّ عدم الإيمان يكون بالشك أيضاً، والتكذيب من شدة الكفر، وقوة الإنكار الحاملة علىٰ الإضراب، وقال هنا: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾، وفي سورة

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

البروج: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ لمراعاة فواصل الآي في السورتين، مع صحة اللفظ وجودة المعنىٰ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ مشدداً، والضحاك وابن أبي عبلة مخففاً، وبفتح الياء.

ومعنىٰ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: إن[2] الدلائل الموجبة للإيمان جلية واضحة، لكنهم قوم معاندون مصرون علىٰ التكذيب؛ إما لأنهم يحسدون الرسول ﷺ. على ما أتاه الله من فضله، وإما لخوفهم من فوت المناصب الدينية والرياسات التقليدية، وإما لأنهم يأبون أن يخالفوا ما وجدوا عليه آباءهم من عقائد زائفة وأفعال مستهجنة.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾؛ أي: بما يضمرونه في قلوبهم، ويجمعونه في صدورهم من الكفر والحسد والبغي والبغضاء، فيجازيهم علىٰ ذلك في الدنيا والآخرة، فـ ﴿ما﴾ موصولة، يقال: أوعيت الشيء: إذا جعلته في وعاء؛ أي: ظرف، ثم استعير هو والوعي لمعنى الحفظ، أو بما يجمعونه في صحفهم من أعمال السوء، ويدخرونه لأنفسهم من أنواع العذاب علماً فعلياً تفصيلياً.

وقرأ أبو رجاء: ﴿بما يعون﴾ من وعىٰ يعي.

والمعنى[3]: أي والله سبحانه مطلع علىٰ ما في قلوبهم من أسباب الإصرار علىٰ الشرك، ودواعي العناد، والاستمرار علىٰ ما هم عليه.

﴿فَبَشِّرْهُم﴾؛ أي: فبشر يا محمد الذين كفروا ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: مؤلم غاية الإيلام جزاء استمرارهم علىٰ التكذيب والجحود، وإصرارهم علىٰ سيء العمل، وفاسد الاعتقاد، لأن علمه تعالىٰ بذلك علىٰ الوجه المذكور، موجب لتعذيبهم حتماً، وهو استهزاء بهم وتهكم، كما قال تعالى: ﴿الله يستهزىء بهم﴾؛ لأن البشارة هي الإخبار بالخبر السار، وقد استعملت هنا في الخبر المؤلم.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيماناً صادقاً استثناء منقطع من الضمير المنصوب في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ الراجع إلىٰ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والمستثنىٰ ـ وهم المؤمنون ـ

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) المراغي.

خارج عنهم؛ أي: لكن الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الطاعات المأمور بها ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة عند ربهم ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾؛ أي: غير مقطوع، بل متصل دائم، من: منَّه مناً، بمعنىٰ: قطعه قطعاً، أو غير ممنون به عليهم، فإن المنة تكدر النعمة، من: منَّ عليه منَّة، والأول هو الظاهر[1]، ولعل المراد من الثاني تحقيق الأجر، وأن المأجور استحق الأجر بعمله إطاعة لربه، وإن كان ذلك الاستحقاق من فضل الله، كما أن إعطاء القدرة علىٰ العمل والهداية إليه من فضله أيضاً، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً إن أريد من آمن منهم.

والمعنىٰ: أي لكن الذين آمنوا بالله ورسوله، وخضعوا للقرآن الكريم، وعملوا بما جاء فيه، فأولئك لهم أجر لا ينقطع مدده، ولا ينقص منه، وفي هذا ترغيب في الطاعة، وزجر عن المعصية.

الإعراب

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنى الشرط، أو مجرد منه ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: فاعل بفعل محذوف يفسره المذكور، تقديره: إذا انشقت السماء انشقت، والجملة المحذوفة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿ٱنشَقَّتْ﴾ مفسرة لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف جوازاً، تقديره: إذا انشقت السماء لاقىٰ كل إنسان عمله، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة، وقيل: لا جواب لها؛ لأنها مجردة عن معنىٰ الشرط، فهي منصوبة باذكر مقدراً نصب المفعول به ﴿وَأَذِنَتْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أذنَت﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، معطوفة علىٰ ﴿ٱنشَقَّتْ﴾، ﴿لِرَبِّهَا﴾: متعلق بـ ﴿أذنَت﴾، ﴿وَحُقَّتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿ٱنشَقَّتْ﴾، وفي «الروح»: وحق هذه الجملة أن تكون معترضة مقررة لما قبلها، لا معطوفة عليه، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ معطوف علىٰ قوله: ﴿إِذَا

(١) روح البيان.

ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾﴾، مماثل له في إعرابه، تقديره: وإذا مدت الأرض مدت، ﴿وَأَلۡقَتۡ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾، معطوف على مدت الأرض ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿ألقت﴾ ﴿فِيهَا﴾: متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة؛ أي: وألقت ما استقر فيها من الكنوز والموتىٰ ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾، معطوف علىٰ ﴿ألقت﴾، أي: صارت خالية عما فيها ﴿وَأَذِنَتۡ﴾: معطوف علىٰ ما قبلها ﴿لِرَبِّهَا﴾: متعلق بـ ﴿أذنت﴾، ﴿وَحُقَّتۡ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾، والجملة معطوفة علىٰ ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادىٰ نكرة مقصودة مبني علىٰ الضم، و ﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات ﴿أيُّ﴾ من الإضافة. ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: بدل من ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾: ناصب واسمه وخبره ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: متعلق بـ ﴿كَادِحٌ﴾. ﴿كَدۡحٗا﴾: مفعول مطلق منصوب بـ ﴿كَادِحٌ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ملاقيه﴾: معطوف علىٰ ﴿كَادِحٌ﴾، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: فأنت ملاقيه، فعلىٰ الأول يكون من عطف المفرد علىٰ المفرد، وعلى الثاني يكون من عطف الجمل، ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن كل إنسان كادح إلى ربه فملاق عمله، وأردت بيان تفصيل أحوالهم في ذلك اليوم.. فأقول لك: ﴿أما من أوتي﴾: ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿مَنۡ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿أُوتِيَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَنۡ﴾ الموصولة، ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿أوتى﴾: لأنه بمعنىٰ: أعطي، ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿أُوتِيَ﴾، ﴿فَسَوۡفَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها؛ لأن موضعها موضع ﴿أما﴾ ﴿سوف﴾: حرف استقبال، ﴿يُحَاسَبُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَنۡ﴾ الموصولة، ﴿حِسَابٗا﴾: مفعول مطلق

مبين للنوع ﴿يَسِيرًا﴾: صفة ﴿حِسَابًا﴾، وجملة ﴿يُحَاسَبُ﴾ في محل الرفع خبر لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والجملة من المبتدأ والخبر جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب، ﴿وَيَنقَلِبُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، معطوف على ﴿يُحَاسَبُ﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿يَنقَلِبُ﴾ ﴿مَسْرُورًا﴾: حال من فاعل ﴿يَنقَلِبُ﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أَمَّا﴾: حرف شرط، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿وراء ظهره﴾: ﴿وَرَآءَ﴾ منصوب بنزع الخافض؛ أي: أوتي كتابه بشماله من وراء ظهره، و ﴿ظَهْرِهِۦ﴾: مضاف إليه ﴿فَسَوْفَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾، وجملة ﴿سوف يدعو﴾ خبر ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿ثُبُورًا﴾: مفعول به لـ ﴿يَدْعُوا﴾؛ أي: ينادي هلاكه بقوله: يا ثبوراه، لأن نداء ما لا يعقل يراد به التمني، فالدعاء بمعنىٰ الطلب بالنداء، وجملة ﴿مَنْ﴾ الموصولة جواب ﴿أَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿أما﴾ الأولى، وإن أردت الخوض والبيان في إعراب ﴿أَمَّا﴾ الشرطية، وما يتعلق بها، فراجع شروحنا علىٰ «متن الآجرومية» ﴿وَيَصْلَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿مَنْ﴾ الموصولة معطوف علىٰ ﴿يَدْعُوا﴾ ﴿سَعِيرًا﴾: مفعول به على التوسع لـ﴿يصلى﴾ مثل: سكنت الشام، ودخلت البيت.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿مَسْرُورًا﴾، و ﴿مَسْرُورًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿ظَنَّ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل جملة ﴿إن﴾ الأولىٰ، والظن هنا بمعنىٰ: العلم واليقين. ﴿أن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، ﴿لَن﴾: حرف نصب واستقبال، ﴿يَحُورَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر منصوب بـ ﴿لَن﴾، وجملة ﴿لَّن يَحُورَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة وجملة ﴿أن﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي

﴿ظَنَّ﴾، ﴿بَلَىٰٓ﴾: حرف جواب لإيجاب ما بعد النفي ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ﴾ خبره، و﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿بَصِيرًا﴾ و ﴿بَصِيرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾، وما في حيزها جواب قسم مقدر بعد ﴿بَلَىٰٓ﴾؛ أي: بلىٰ والله إن ربه كان به بصيرا، أو تعليل لما أفادته ﴿بَلَىٰٓ﴾ من إيجاب لما بعد ﴿لَن﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَلَآ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية ﴿لا﴾: زائدة تأكيداً للقسم، ﴿أُقْسِمُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ الله سبحانه، وجملة القسم مستأنفة ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾: متعلق بـ ﴿أُقْسِمُ﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ﴾: معطوف علىٰ ﴿الشفق﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف علىٰ ﴿ٱلَّيْلِ﴾، ﴿وَسَقَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلَّيْلِ﴾، والجملة صلة ﴿مَآ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما وسقه الليل، ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾: معطوف علىٰ ﴿الشفق﴾ أيضاً ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنىٰ الشرط في محل النصب على الظرفية، متعلق بفعل القسم، ﴿ٱتَّسَقَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾. ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ معطوفة على ﴿وَٱلَّيْلِ﴾، والجملة في محل الخفض مضاف إليه لـ﴿إذا﴾؛ أي: وأقسم بالقمر وقت اتساقه وكماله ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿تركبن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والنون نون التوكيد الثقيلة. ﴿طَبَقًا﴾: مفعول به ﴿عَن طَبَقٍ﴾: صفة ﴿طَبَقًا﴾، وعن: بمعنىٰ: بعد؛ أي: لتركبن حالاً كائناً بعد حال، كل واحدة منهما مطابقة لأختها في الشدة، يعني: أهوال يوم القيامة، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر،

تقديره: إذا كان حال يوم القيامة كما ذكر، وأردت التعجب من حالهم.. فأقول لك: أي شيء لكفار مكة، وأيُّ مانع لهم؟ ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿لَهُمْ﴾: خبر، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في محل النصب حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وإذا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط، متعلق بالجواب الآتي ﴿قرئ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق بـ ﴿قرئ﴾ ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾: نائب فاعل لـ ﴿قرئ﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ جواب الشرط لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: وما لهم حال كونهم لا يسجدون وقت قراءة القرآن عليهم ﴿بَلِ﴾ حرف إضراب للإضراب الانتقالي ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ خبر المبتدأ. والجملة الاسمية جملة إضرابية لا محل لها من الإعراب ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿أَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة معطوفة علىٰ الجملة الإضرابية ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ ﴿يُوعُونَ﴾: فعل مضارع وفاعل، مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: بما يوعونه ويضمرونه، ﴿فَبَشِّرْهُم﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع ﴿بشرهم﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف مفرع علىٰ ﴿يُكَذِّبُونَ﴾، ﴿بِعَذَابٍ﴾: متعلق بـ ﴿بشرهم﴾. ﴿أَلِيمٍ﴾: صفة ﴿عذاب﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع بمعنىٰ: لكن، أو متصل، وليس بالقوي، والمستثنى منه ضمير ﴿بشرهم﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الرفع مبتدأ، أو في محل النصب علىٰ الاستثناء، مبني علىٰ الفتح، أو علىٰ الياء، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾ صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف علىٰ ﴿ءَامَنُوا﴾ ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿أَجْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: صفة ﴿أَجْرٌ﴾، والجملة الاسمية خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وجملة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب، أو مستأنفة إن قلنا إن الاستثناء متصل.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾؛ أي: تشققت وتصدعت.

﴿وَأَذِنَتْ﴾؛ أي: استمعت لأمر ربها، يقال: أذنت لك؛ أي: استمعت كلامك، ومن استعمال الإذن في الاستماع قول الشاعر:

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوْا خَيْرَاً ذُكِرْتُ بِهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوْا

وقول الآخر:

إِنْ يَأْذَنُوْا سُبَّةً طَارُوْا بِهَا فَرَحَاً ... مِنِّيْ وَمَا أَذِنُوْا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوْا

وفي «المختار»: أذن له استمع، وبابه: طرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾، ويقال: أذن يأذن أذناً إليه وله: استمع له معجباً، أو عام، ولرائحة الطعام: اشتهاه، وأذن بالشيء كسمع إذناً بالكسر، ويحرك، وأذاناً وأذانة: علم به، ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾؛ أي: كونوا علىٰ علم، وأذنه الأمر وبه: أعلمه، وأذن له في الشيء، كسمع إذناً بالكسر، وأذيناً: أباحه له، واستأذنه: طلب منه الإذن، إلىٰ آخر ما في هذه المادة العجيبة.

﴿وَحُقَّتْ﴾؛ أي: حق لها أن تمتثل ذلك، والفاعل في الأصل هو الله تعالى؛ أي: حق الله تعالى عليها ذلك؛ أي: سمعه وطاعته؛ أي: أوجبه عليها، وألزمها به، واقتضت حكمته وجوده منها، وكلام البيضاوي، يقتضي أن نائب الفاعل هو ضمير السماء المستكن في الفعل من غير تقدير، ونصه: حقت؛ أي جعلت حقيقة بالاستماع والانقياد. اهـ. وقال صاحب «الروح»: فحق هذه الجملة أن تكون اعتراضاً مقررةً لما قبلها، لا معطوفة عليه. اهـ. كما مرَّ.

﴿مُدَّتْ﴾ من مده بمعنىٰ: أمده؛ أي: زاده.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ ووصفت الأرض بذلك؛ أي: بالإلقاء والتخلية توسعاً، وإلا فالتحقيق أن المخرج لما فيها هو الله تعالى. اهـ. «خطيب».

وقوله: ﴿ألقت﴾ فيه إعلال بالحذف، أصله: ألقي بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ولما اتصلت بالفعل تاء التأنيث الساكنة.. التقى ساكنان، فحذفت الألف.

وقوله: ﴿وَتَخَلَّتْ﴾، وفيه أيضاً ما في ألقت من الإعلال، أصله: تخلي بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم اتصلت بالفعل تاء التأنيث الساكنة، فالتقى ساكنان، فحذفت الألف.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾ ليس تكراراً مع مر؛ لأن الأول في السماء، وهذا في الأرض. ا هـ «خطيب». ومعنىٰ حقت، أي: حق لها أن تمتثل ذلك؛ أي: يجدر بها أن تكون كذلك، قال كثير:

فَإِنْ تَكُنِ ٱلْعُتْبَىٰ فَأَهْلاً وَمَرْحَباً ... وَحُقَّتْ لَهَا ٱلْعُتْبَىٰ لَدَيْنَا وَقَلَّتِ

﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾؛ أي: جاهد مجد في عملك، قال شاعرهم:

وَمَضَتْ بَشَاشَةُ كُلِّ عَيْشٍ ... وَبَقِيْتُ أَكْدَحُ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ

والكدح: جهد النفس في العمل والكد فيه، حتىٰ يؤثر فيها، من: كدح جلده إذا خدشه، وفي «المختار»: الكدح: العمل والسعي والكد والكسب، وهو الخدش أيضاً، وباب الكل: قطع. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾؛ أي: ساع. وبوجهه كدوح؛ أي: خدوش، وهو يكدح لعياله، ويكتدح؛ أي: يكتسب. ا هـ.

﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾؛ أي: فملاق لعملك عقب ذلك؛ أي: لجزائه من خير أو شر.

﴿يَنقَلِبُ﴾؛ أي: يرجع ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾؛ أي: عشيرته المؤمنين، أو رفقائه في طريق السعادة والكرامة؛ أي: يرجع بنفسه من غير مزعج برغبة وقبول إلى أهله؛ أي: الذين أهل بهم في الجنة من الحور العين، والآدميات، والذريات، إذا كانوا مؤمنين. ا هـ. «خطيب».

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝﴾، أي: يتمنىٰ هلاكاً وأنىٰ له، ويقول: واثبوراه، أقبل فهذا أوانك، والثبور: الهلاك، قيل: الثبور مشتق من المثابرة علىٰ الشيء، وهو المواظبة عليه، وسمي هلاك الآخرة ثبوراً؛ لأنه لازم لا يزول، كما مر، وفي «المصباح»: ثبر الله الكافر ثبوراً ـ من باب قعد ـ: أهلكه، وثبر هو ثبوراً: هلك، يتعدىٰ، ولا يتعدى.

﴿وَيَصْلَىٰ﴾: أي: يقاسي، أصله: يصلي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً مسعرة متقدة ﴿أَن لَّن يَحُورَ﴾؛ أي: أصله: يحور بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلىٰ الحاء، فسكنت إثر ضم، فصارت حرف مد، فهو نظير: يقول، قال لبيد:

وَمَا ٱلْمَرْءُ إِلَّا كَٱلشِّهَابِ وَضَوْئِهِ   يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

والمراد: أنه ظن أنه لن يرجع إلىٰ الله للمجازاة تكذيباً للمعاد، من: الحور، وهو: الرجوع، والمحار: المرجع والمصير، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري ما معنىٰ ﴿يَحُورَ﴾ حتىٰ سمعت أعرابيةً تقول لبنية لها: حوري حوري؛ أي: ارجعي. وحرْ إلى أهلك؛ أي: ارجع، ومنه الحديث: «نعوذ بالله من الحور بعد الكور»؛ أي: الرجوع عن حالة جميلة، والحواري: القصار؛ لرجعه الثياب إلىٰ البياض، وفي «المختار»: حار: رجع، وبابه: قال ودخل، والمصدر بوزن: قول، ودخول، يقال: حار حوراً وحؤراً ومحاراً ومحارة. هذا وتأتي حار بمعنى: صار، فترفع الاسم وتنصب الخبر.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ هي الحمرة التي تشاهد في أفق المغرب بعد الغروب. وعبارة «القاموس»: الشفق محركة: الحمرة في الأفق من الغروب إلىٰ العشاء الآخرة، أو إلىٰ قربها، أو إلىٰ قريب العتمة، وهذا هو الصحيح، ومنه قول الشاعر:

قُمْ يَا غُلَامُ أَعِنِّي غَيْرَ مُرْتَبِكٍ   عَلَىٰ ٱلزَّمَانِ بِكَأْسٍ حَشْوُهَا شَفَقُ

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: جمع وضم، يقال: وسق فاتسق واستوسق، ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين لثلاثيه: اتسع واستوسع، وفي «القاموس»: وسقه يسقه من باب ضرب: جمعه وحمله، ومنه: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾، ومنه سمي الوسق وسقاً: لجمعه الصيعان.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: اجتمع نوره واستوى ليلة أربع عشرة، وهو افتعل من الوسق، وهو الضم والجمع، كما تقدم، وأمر فلان متسق؛ أي: مجتمع علىٰ ما يسر، وأصله: إوتسق من الوسق، أبدلت الواو فاء الكلمة تاء، لمجيئها قبل تاء الافتعال، ثم أدغمت في تاء الافتعال، وإبل مستوسقة؛ أي: مجتمعة.

قال الشاعر:

إنَّ لَـنَـا قَـلَائِـصَـاً حَـقَـائِـقَـا   مُـسْـتَـوْسِـقَـاتٍ لَـمْ يَـجِـدْنَ سَـائِـقَـا

﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾: لتلاقن، أصله: تركبونن، حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، ثم واو الجماعة لالتقاء الساكنين فصار: تركبن.

﴿طَبَقًا﴾ والطبق: الحال المطابقة لغيرها، قال الأقرع بن حابس:

إِنِّيْ ٱمْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ ٱلدَّهْرَ أَشْطُرَهُ   وَسَاقَنِيْ طَبَقٌ مِنْهُ إِلَىٰ طَبَقِ

والمراد: تركبن أحوالاً بعد أحوال هي: طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: يجمعون في صدورهم من الإعراض والجحود والحسد والبغي، أصله: يوعيون بوزن يفعلون، استثقلت الضمة علىٰ الياء فحذفت، فلما سكنت التقىٰ ساكنان؛ فحذفت الياء، ثم ضمت العين لمناسبة الواو، وحذفت همزة أفعل أيضاً، فوزنه: يفعون يقال: أوعيت الشيء؛ أي: جعلته في وعاء؛ أي: ظرف، ثم استعير هو والوعي لمعنى الحفظ. كما مر.

﴿فَبَشِّرۡهُم﴾: والبشارة: الإخبار بما يسر، واستعملت في العذاب تهكماً.

﴿مَمۡنُونِۭ﴾؛ أي: مقطوع، من قولهم: منَّ فلان الحبل: إذا قطعه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾﴾ فقد شبهت حال السماء في انقيادها لتأثير قدرة الله تعالى، حيث أراد انشقاقها بانقياد المستمع المطواع للأمر، ثم حذف المشبه به، واستعير لفظ الإذن والاستماع المستعمل في غايته.

وقيل: فيه استعارة تمثيلية متفرعة على المجاز المرسل، يعني: إذا أطلق الإذن؛ وهو الاستماع في حق من له حاسة السمع، والاستماع بها يراد بها: الإجابة والانقياد مجازاً، وإذا أطلق في حق نحو السماء مما ليس في شأنه الاستماع والقبول يكون: استعارة تمثيلية.

ومنها: التعرض لعنوان الربوبية في قوله: ﴿لِرَبِّهَا﴾ مع الإضافة إلى ضمير السماء، للإشارة بعلة الحكم.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ فقد شبهت حال الأرض بحال المرأة الحامل، تلقي ما في بطنها عند الشدة والهول، ثم حذف المشبه به، واستعير لفظ الإلقاء.

ومنها: الطباق بين لفظ: ﴿السَّمَاءُ﴾ و ﴿الْأَرْضُ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ لأن الإلقاء والإخراج حقيقةً لله سبحانه وتعالى، لا للأرض.

ومنها: التعبير بالماضي في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾؛ أي: يؤتى إشعاراً بتحقق وقوعه، كما في «الشهاب».

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: تكرير كتابه بدون الاكتفاء بالإضمار، لتغاير الكتابين واختلافهما بالاشتمال والحكم في المآل.

ومنها: فن الالتزام في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ ويقال فيه: لزوم ما لايلزم، ومنهم من يسميه: الإعنات؛ وهو: أن يلتزم الشاعر في شعره، أو الناثر في نثره حرفاً أو حرفين فصاعداً قبل حرف الروي على قدر طاقته مشروطاً بعدم الكلفة، فقد التزم هنا السين قبل القاف في الكلمتين، ولأبي العلاء المعري ديوان التزم فيه ما لا يلزم.

ومنها: الجناس الناقص بين كلمتي: ﴿وَسَقَ﴾ و ﴿اتَّسَقَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾؛ لأنه كنى به عن شدة الأهوال التي يلقاها الإنسان.

ومنها: استعارة عن لـ(بعد) في قوله: ﴿عَنْ طَبَقٍ﴾؛ لأن لفظ (عن) يفيد البعد والمجاوزة، فكان مشابهاً للفظ (بعد) فصح استعمال أحدهما بمعنى الآخر، قال

ابن الشيخ: ﴿عَن﴾ هنا بمعنى: بعد؛ لأن الإنسان إذا صار إلى الشيء مجاوزاً عن شيء آخر، فقد صار إلى الثاني بعد الأول، فصح أنه يستعمل فيه بعد وعن معاً.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ للتسجيل علهيم بالكفر، وللإشعار بما هو العلة في عدم خضوعهم للقرآن؛ أي: للإشعار بأنهم لا يؤمنون، ولا يسجدون عند قراءة القرآن عليهم؛ لأنهم كافرون مكذبون. ا هـ «كرخي».

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ لأن الإيعاء حقيقة في جعل الشيء في وعاء؛ أي: ظرف، ثم استعير لمعنىٰ الحفظ علىٰ طريقة الاستعارة التصرحية التبعية.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، لأن البشارة حقيقة في الإخبار بالخبر السار، وقد استعملت هنا في الخبر المؤلم استهزاءً بهم وتهكماً.

ومنها: توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآي مثل قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾﴾، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾؛ لأنه من المحسنات البديعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على مقصدين:

١ ـ أن الإنسان يلاقي نتائج أعماله يوم القيامة، فيأخذ كتابه بيمينه، أو من وراء ظهره.

٢ ـ أن الناس في الدنيا يتنقلون في أحوالهم طبقة بعد طبقة؛ إما في نعيم مقيم، وإما في عذاب أليم.

وصلى الله سبحانه وتعالى وسلم وبارك علىٰ سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين آمين[١].

* * *

(١) إلى هنا تمت سورة الانشقاق بعون الملك الخلاق، يوم الأربعاء وقت الضحوة، اليوم الحادي عشر من شهر رمضان المبارك من شهور سنة: ١١/ ٩/ ١٤١٦هـ. ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التحية.

سورة البروج

سورة البروج مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة الشمس، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ بمكة. وآياتها: اثنتان وعشرون آية. وكلماتها: مئة وتسع كلمات. وحروفها: أربع مئة وخمسة وستون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها من وجوه:

١ - اشتمالها علىٰ وعد المؤمنين، ووعيد الكافرين، مع التنويه بشأن القرآن وفخامته.

٢ - أنه ذكر في السورة السابقة أنه عليم بما يجمعون للرسول ﷺ والمؤمنين من المكر والخداع، وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذىٰ، كالضرب، والقتل، والإلقاء في حمارة القيظ، وذكر هنا أن هذه شنشنة من تقدمهم من الأمم، فقد عذبوا المؤمنين بالنار، كما فعل أصحاب الأخدود، وفي هذه السورة عظة لقريش، وتثبيت من يعذَّبون من المؤمنين.

ومما ورد في فضائل هذه السورة:

ما أخرجه أحمد بسنده عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ: كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق.

وما أخرجه الطيالسي وابن أبي شيبة في «المصنف» وأحمد والدارمي وأبو داوود والترمذي وحسنه، والنسائي وابن حبان والطبراني والبيهقي في «سننه» عن جابر بن سمرة: أن النبي ﷺ: كان يقرأ في الظهر والعصر بالسماء والطارق، والسماء ذات البروج.

وما روي عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة البروج.. أعطاه الله تعالىٰ بعدد كل يوم جمعة وعرفة تكون في الدنيا عشر حسنات»، ولكنه لا أصل له.

وسميت سورة البروج: لذكر البروج فيها، وكلها محكمة لا ناسخ ولا منسوخ فيها.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤
ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ
إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ
۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ
۝١٦ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم
مُّحِيطُۢ ۝٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والسورة التي قبلها، فبدأ هذه السورة بأنه أقسم فيها بما هو غيب وشهود، وهو السماء ذات البروج، فإن كوكبها مشهود نورها، مرئي ضوؤها معروفة حركتها في طلوعها وغروبها، وكذلك البروج نشاهدها وفيها غيب لا تعرفه الحس، وهو حقيقة الكواكب، وما أودع الله فيها من القوىٰ، وما فيها من عوالم لا نراها ولا ندرك حقيقتها، وأقسم بما هو غيب صرف، وهو اليوم الموعود، وما يكون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب، وأقسم بما هو شهادة صرفة، وهو الشاهد؛ أي: ذو الحسِّ، والمشهود: وهو ما يقع عليه الحس، فأقسم سبحانه بكل ما سلف علىٰ أن من قبلهم من المؤمنين الموحدين ابتلوا ببطش أعدائهم بهم، واشتدادهم في إيذائهم حتىٰ خدوا لهم الأخاديد، وملؤوها بالنيران، وقذفوهم فيها، ولم تأخذهم بهم رأفة، بل كانوا يتشفون برؤية ما يحل بهم، وهم مع ذلك قد صبروا، وانتقم الله تعالىٰ من أعدائهم، وممن أوقع بهم، وأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر.

ولئن صبرتم أيها المؤمنون علىٰ الأذى ليوفينكم أجركم، وليأخذن أعداءكم، ولينزلن بهم ما لا قبَل لهم به، وقد حكىٰ هذا القصص ليكون تثبيتاً لقلوب

المؤمنين، ووعداً لعباده الصالحين، وحملاً لهم علىٰ الصبر والمجاهدة في سبيله، ووعيداً للكافرين، وأنه سيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر قصة أصحاب الأخدود وبيَّن ما فعلوه من الإيذاء والتنكيل بالمؤمنين، وذيل ذلك بما يدل علىٰ أنه لو شاء لمنع بعزته وجبروته أولئك الجبابرة عن هؤلاء المؤمنين، وأنه إنْ أمهل هؤلاء الفجرة عن العقاب في الدنيا.. فهو لم يهملهم، بل أجَّل عقابهم ليوم تشخص فيه الأبصار.. ذكر ما أعد للكفار من العذاب الأليم جزاء ما اجترحت أيديهم من السيئات التي منها إيذاء المؤمنين، وما أعد للمؤمين من جميل الثواب، وعظيم الجزاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالىٰ لما ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووصف ما أعد لهم من الثواب كفاء أعمالهم.. أردف ذلك كله بما يدل علىٰ تمام قدرته علىٰ ذلك؛ ليكون ذلك بمثابة توكيد لما سبق من الوعيد والوعد، فالملك لا يعظم سلطانه وهيبته في النفوس إلا بأمرين:

١ ـ الجود الشامل، والإنعام الكامل، وبذا يرجىٰ خيره.

٢ ـ الجيوش الجرارة، والأساطيل العظيمة التي توقع بأعدائه، وتنكل بهم، وبذلك يهاب جنابه، وإليهما أشار بقوله فيما سلف: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وهنا زاد الأمر إيضاحاً، بقوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ...﴾ إلىٰ آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر قصص أصحاب الأخدود وبين حالهم، ووصف ما كان من إيذائهم للمؤمنين.. أردف ذلك ببيان أن حال الكفار في كل عصر، وشأنهم مع كل نبي وشيعته جارٍ علىٰ هذا النهج، فهم دائماً يؤذون المؤمنين ويعادونهم، ولم يرسل الله نبياً إلا لقي من قومه مثل ما لقي هؤلاء من أقوامهم، والغرض من هذا كله تسلية النبي ﷺ وصحبه، وشد عزائمهم علىٰ التذرع بالصبر، وأن كفار قومه سيصيبهم مثل ما أصاب الجنود فرعون وثمود.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ وهي لغة: كل جرم علوي، فدخل فيه العرش والكرسي، ولكن المراد هنا: ما عداهما من السموات السبع. ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي: صاحبة البروج الاثني عشر، وهي الطرق التي تسير فيها الكواكب السبعة السيارة المجموعة في قول بعضهم:

زُحَلٌ شَرَىٰ مِرِّيْخَهُ مِنْ شَمْسِهِ ... فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدَ ٱلْأَقْمَارُ

وتلك البروج اثنتا عشرة برجاً، وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، وجمعها بعضهم في بيتين:

حَمَلَ ٱلثَّوْرُ جَوْزَةَ ٱلسَّرَطَانِ ... وَرَعَىٰ ٱللَّيْثُ سُنْبُلَةَ ٱلْمِيْزَانِ

وَرَمَىٰ عَقْرَبٌ بِقَوْسٍ لِجَدْيٍ ... نَزَحَ ٱلدَّلْوُ بِرْكَةَ ٱلْحِيْتَانِ

وفي برج الحمل، حيث تم العشرون منه كان مولد النبي ﷺ في منزلة البطين عند طلوع الغفر، والبروج: جمع برج، وهو القصر، ثم إنه شبهت بروج السماء بالقصر التي تنزل فيها الأكابر والأشراف؛ لأنها منازل السيارات، ومقر الثوابت.

والمعنى: أقسم بالسماء ذات المنزل والمحال، والطرق التي تسير فيها الكواكب السبعة السيارة. وفي «البيضاوي»: يعني: البروج الاثني عشر، شبهت بالقصور؛ لأنها تنزلها السيارات، كما أن القصور ينزلها الأكابر والأشراف، سميت تلك الطرق بروجاً لظهورها؛ لأن أصل معنىٰ البرج: الأمر الظاهر، من التبرج، ثم صار حقيقة في العرف للقصر العالي؛ لظهوره، ويقال: لما ارتفع من سور المدينة برج أيضاً، كما في «الشهاب». وقيل: المراد بالبروج: هي النجوم التي هي منازل القمر، وهي ثمانية وعشرون نجماً، ينزل القمر كل ليلةٍ في واحد منها، لا يتخطاها ولا يتقصر عنه، وإذا صار القمر إلىٰ آخر منازله.. دق واستقوس، ويستتر ليلتين، إن كان الشهر ثلاثين يوماً، وإن كان تسعة وعشرين، فليلة واحدة، وإطلاق البروج علىٰ هذه النجوم مبني علىٰ تشبيهها بالقصور من حيث إن القمر ينزل فيها، ولظهورها أيضاً بالنسبة إلىٰ بعض الناس، كالعرب؛ لأن البرج ينبىء عن الظهور مع الاشتمال علىٰ المحاسن، يقال: تبرجت المرأة؛ أي: تشبهت بالبرج في إظهار

المحاسن، وأما البروج الاثنا عشر، فليس لها ظهور؛ حيث لا تدرك حساً؛ لأنها عبارة عن مجموع هذه المنازل الثمانية والعشرين، لأن البروج الاثني عشر منقسمة إلىٰ هذه المنازل الثمانية والعشرين، والشمس تسير في تمام هذه البروج الاثني عشر في كل سنة، والقمر في كل شهر، وقد تعلقت بها منافع العباد ومصالحهم، فأقسم الله تعالىٰ بها إظهاراً لقدرها وشرفها.

تنبيه: واعلم أن البروج الاثني عشر: ستة منها في شمال خط الاستواء، وستة منها في جنوبه، فالتي في شماله ثلاثة ربيعية، وهي: الحمل والثور والجوزاء، وابتداء الحمل من الاعتدال الربيعي، ويصادف اليوم الثالث والعشرين من شهر مارس آذار، وثلاثة صيفية، وهي: السرطان والأسد والسنبلة، وابتداء السرطان من نقطة الانقلاب الصيفي، ويصادف اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيو حزيران.

والستة التي في جنوب خط الاستواء، ثلاثة منها خريفية، وهي الميزان والعقرب والقوس، وابتداء الميزان من الاعتدال الخريفي، ويصادف اليوم الرابع والعشرين من شهر سبتمبر أيلول، وثلاثة شتائية، وهي: الجدي والدلو والحوت، وابتداء الجدي من الانقلاب الشتوي، ويصادف اليوم الثالث والعشرين من شهر كانون أول ديسمبر، فتكون السنة الشمسية ثلاث مئة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، وهي مدة رجوع الشمس إلىٰ النقطة التي فارقتها من تلك البروج، وكل برج ثلاثون درجةً، فمجموعها: (٣٦٠) ثلاث مئة وستون درجة، كل درجة بمقدار أربع دقائق، ومجموعها: أربع وعشرون ساعة، والشمس ـ كما مر ـ تقطع هذه البروج كلها مرة في السنة كل برج في شهر، وبها تتم دورة الفلك، ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوماً وكسور، ومن أراد الخوض في هذا الباب.. فليراجع الكتب المدونة في فن الميقات.

وقد أقسم الله سبحانه بهذه الكواكب لما فيها من عجيب الصنعة، وباهر الحكمة، ولما فيها من مصالح ومنافع للناس في هذه الحياة، تدل علىٰ أن لها صانعاً حكيماً مدبراً إلا أنه يحثنا علىٰ البحث عن هذه العوالم؛ لنستدل بذلك علىٰ عظيم قدرته، وجليل حكمته.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾؛ أي: الموعود به، ففيه الحذف والإيصال، وهو يوم القيامة، قال الواحدي: في قول جميع المفسرين: وهو يوم الفصل والجزاء الذي وعده الله تعالىٰ به علىٰ ألسنة رسله، وهو يوم تفرد فيه ربنا بالملك والحكم، أقسم الله تعالى به تنبيهاً على عظم قدره وشأنه. ﴿وَشَاهِدٖ﴾؛ أي: وأقسم بشاهد؛ أي: بكل حاضر. وشاهد يشهد في ذلك اليوم، الأولين والآخرين، والإنس والجن، والملائكة والأنبياء والمرسلين. ﴿وَمَشۡهُودٖ﴾؛ أي: وبكل ما يشاهد ويرىٰ في ذلك اليوم من العجائب، فالشاهد بمعنىٰ الحاضر من الشهود، بمعنىٰ: الحضور، لا بمعنىٰ الشاهد الذي تثبت به الدعاوىٰ والحقوق، وتنكيرهما للإبهام في الوصف؛ أي: وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما، وإلا فلا يقسم بنكرة؛ لأنه لا يدرىٰ من هي، وكذا إذ لوحظ فيها معنىٰ العموم اندرج فيها المعرفة، فحسن القسم بها. كذا في «البحر».

وقيل: المشهود: يوم الجمعة، والشاهد: من يحضره من المسلمين للصلاة ولذكر الله سبحانه. وفي الحديث: «ما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله فيها خيراً إلا استجاب له، ولا يستعيذ من سوء إلا أعاذه منه». وفيه أيضاً: «أكثروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة»، وقيل: المشهود: يوم عرفة، والشاهد: من يحضره من الحجاج، وحسن القسم بهما مع كونهما نكرةً تعظيماً لأمر الحج وعددهم. وقيل: الشاهد: كل يوم، والمشهود: أهله، فيكون المشهود بمعنىٰ المشهود عليه، والشاهد من الشهادة، كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: ما من يوم إلا وينادي: إني يوم جديد، وإني علىٰ ما يفعل فيَّ شهيد، فاغتنمني، فلو غابت شمس لم تدركني إلى يوم القيامة. وقيل: الشاهد: هو الله تعالى، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾، وقيل: الشاهد: محمد ﷺ، لقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾. قال أبو حيان: وقد اختلف في تفسير الشاهد والمشهود على سبع وعشرين قولاً، ولكل قول مُمْتَسكٌ، والقول الظاهر المناسب لما قبله من تلك الأقوال: ما قلنا أولاً؛ أي: تفسير الشاهد بمن يشهد يوم القيامة، والمشهود بيوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾. وقيل: المعنىٰ: أقسم بجميع ما خلق الله سبحانه في هذا الكون مما يشهده الناس ويرونه رأي العين، فمنهم من يتدبر ويستفيد

من النظر إليه، ومنهم من لا يستفيد من ذلك شيئاً.

وقصارى ذلك: أنه سبحانه وتعالىٰ أقسم بالعوالم كلها ليلفت الناظرين إلىٰ ما فيها من العظم والفخامة، وليعتبروا بما حضر، ويبذلوا جهدهم في درك حقيقة ما استتر.

وقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾؛ أي: لعنوا وأخذوا، ونزل بهم نكال الدنيا، وعذاب الآخرة، جواب القسم، واللام فيه مضمرة؛ أي: أقسمت بهؤلاء المذكورات علىٰ أن أصحاب الأخدود لعنوا وطردوا وأبعدوا من رحمة الله تعالىٰ بسبب ما فعلوه من تعذيب المؤمنين، وهذا هو الظاهر، وبه قال الفراء وغيره، وقيل: أصله: لقد قتل أصحاب الأخدود؛ فحذفت اللام وقد، وعلىٰ هذا تكون الجملة خبرية، والأظهر أن الجملة دعائية دالة علىٰ الجواب، لا خبرية، والجواب محذوف تقديره: أقسم بهذه الأشياء علىٰ أن كفار قريش ملعونون، كما لعن أصحاب الأخدود. وقيل: تقدير الجواب: لتبعثن، واختاره ابن الأنباري.

وإنما احتيج إلىٰ حذف اللام وقد؛ لأن المشهور عند النحاة: أن الماضي المثبت المتصرف إذا وقع جواباً للقسم.. تلزمه اللام، وقد لا يجوز الاقتصار علىٰ أحدهما إلا عند طول الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾، أو في ضرورة. اهـ «شهاب».

وجه الأظهرية: أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على الإيمان، وتصبيرهم علىٰ أذية الكفرة، وتذكيرهم بما جرىٰ علىٰ من تقدمهم من التعذيب علىٰ الإيمان، وصبرهم علىٰ ذلك حتىٰ يأنسوا بهم، ويصبروا علىٰ ما كانوا يلقون من قومهم، ويعلموا أن هؤلاء عند الله بمنزلة أولئك المعذبين، ملعونون مثلهم، أحقاء بأن يقال فيهم ما قد قيل فيهم، فظهر من هذا التقرير أنه ليس دعاء علىٰ أصحاب الأخدود من قبل المقسم، وهو الله تعالى؛ لأنه ليس بعاجز، والأخدود: الخد في الأرض، وهو الشق العظيم المستطيل في الأرض كالنهر، غامض؛ أي: عميق القرار، وأصل ذلك: من خدي الإنسان، وهما ما اكتنفا الأنف علىٰ اليمين والشمال، وفي «عين المعاني»: ومنه الخد لمجاري الدموع عليه، ومنه المخدة؛ لأن الخد يوضع عليها.

وأصحاب الأخدود كانوا ثلاثة[1]، وهم: أنطيانوس الرومي بالشام، وبخت نصر بفارس، ويوسف ذو نواس بنجران، وهو بتقديم النون وتأخير الجيم موضع باليمن، فتح سنة عشر، سمي بنجران بن زيدان بن سبأ، شق كل واحد منهم شقاً عظيماً في الأرض كان طوله أربعين ذراعاً، وعرضه اثني عشر ذراعاً، وهو الأخدود، وملؤوه ناراً، وألقوا فيه من لم يرتد عن دينه من المؤمنين في زمانهم. قالوا: والقرآن إنما نزل في الذين بنجران، يعني أن أصحاب الأخدود هم: ذو نواس الحميري اليهودي، يوسف بن شرحبيل وجنوده، وذلك أن عبداً صالحاً يقال له: عبد الله بن التامر، وقع إلىٰ نجران، وكان على دين عيسىٰ عليه السلام، فدعاهم فأجابوه، فسار إليهم ذو نواس بجنود من حمير، فخيرهم بين النار واليهودية، فأبوا، فحفر الخنادق، وأضرم فيها النيران، فجعل يلقي كل من اتبع ابن التامر حتىٰ أحرق نحواً من اثني عشر ألفاً، أو عشرين ألفاً، أو سبعين ألفاً، وذو نواس اسمه: زرعة بن حسان ملك حمير وما حولها، وكان أيضاً يسمىٰ. يوسف بن شرحبيل في الفترة قبل أن يولد النبي ﷺ بسبعين سنة، وكانت له غدائر من شعر؛ أي: ذوائب تنوس؛ أي: تضطرب، فسمي ذا نواس.

روي: أنه انفلت من أهل نجران رجل اسمه: دوس ذو ثعلبان، ووجد إنجيلاً محترقاً بعضه، فأتىٰ به ملك الحبشة، وكان نصرانياً فقال: إن أهل دينك أوقدت لهم نار فأحرقوا بها وأحرقت كتبهم، وهذا بعضها، فأراه الذي جاء به ففزع لذلك، فكتب إلىٰ صاحب الروم يستمده نجارين يعملون له السفن، فبعث إليه صاحب الروم من عمل له السفن، فركبوا فيها، فخرجوا إلىٰ ساحل اليمن، فخرج إليهم أهل اليمن فلقوهم بتهامة واقتتلوا، فلم يرَ ملك حمير له بهم طاقة، وتخوف أن يأخذوه، فضرب فرسه حتىٰ وقع في الحرب فمات فيه، أو ألقىٰ نفسه في البحر، فاستولى الحبشة على حمير وما حولها، وتملكوا، وبقي الملك لهم إلى وقت مجيء الإسلام.

وروي عن علي رضي الله عنه: أن بعض ملوك المجوس وقع علىٰ أخته وهو سكران، فلما صحا ندم وطلب المخرج، فأمرته أن يخطب الناس فيقول أن قد أحل

---

(١) روح البيان.

نكاح الأخوات، ثم يخطبهم بعد ذلك ويقول: إن الله قد حرمه، فخطب، فلم يقبلوا منه، فقالت له: ابسط فيهم السوط، ففعل، فلم يقبلوا، فأمرته بالأخاديد وإيقاد النار، وطرح من أبىٰ فيها، فهم الذين أرادهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾.

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والنسائي والترمذي والطبراني عن صهيب: أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم، وكان لذلك الملك كاهن يكهن له، فقال له ذلك الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً، أو قال: فطناً لقناً فأعلمه علمي، فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم، ولا يكون فيكم من يعلمه، فقال: فنظروا له علىٰ ما وصف، فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن، وأن يختلف إليه، فجعل الغلام يختلف إليه، وكان علىٰ طريق الغلام راهب في صومعة، فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به، فلم يزل به حتىٰ أخبره فقال: إنما أعبد الله، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب، ويبطىء علىٰ الكاهن، فأرسل الكاهن إلىٰ أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني، فأخبر الغلام الراهب بذلك، فقال له الراهب: إذا قال لك الكاهن: أين كنت؟ فقل: عند أهلي، وإذا قال لك أهلك: أين كنت؟ فأخبرهم أني كنت عند الكاهن، فبينما الغلام علىٰ ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثير، قد حبستهم دابة يقال إنها كانت أسداً، فأخذ الغلام حجراً فقال: اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقاً.. فأسألك أن أقتل هذه الدابة، وإن كان ما يقول الكاهن حقاً.. فأسألك أن لا أقتلها، ثم رمىٰ فقتل الدابة، فقال الناس: من قتلها؟ فقالوا: الغلام، ففزع الناس، وقالوا: قد علم هذا الغلام علماً لا يعلمه أحد، فسمع أعمىٰ فجاءه فقال: إن أنت رددت عليَّ بصري.. فلك كذا وكذا، فقال الغلام لا أريد منك هذا، ولكن أرأيت إن رجع عليك بصرك.. أتؤمن بالذي رده عليك، فقال: نعم، فدعا الله تعالىٰ، فرد عليه بصره، فآمن الأعمىٰ، فبلغ الملك أمرهم، فبعث إليهم، فأتي بهم فقال: لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه، فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى، فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله، وقتل الأخر بقتلة أخرى، ثم أمر بالغلام فقال: انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا، فألقوه من رأسه، فانطلقوا به إلىٰ ذلك الجبل، فلما انتهوا إلىٰ ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه.. جعلوا يتهافتون من

ذلك الجبل، ويتردون حتى لم يبق منهم إلا الغلام، ثم رجع الغلام، فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلىٰ البحر فيلقوه فيه، فانطلقوا به إلىٰ البحر، فغرَّق الله الذين كانوا معه وأنجاه، فقال الغلام للملك: إنك لن تقتلني حتىٰ تصلبني وترميني، وتقول إذا رميتني: بسم الله رب الغلام، فأمر به فصلب ثم رماه، فقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده علىٰ موضع السهم، ثم مات، فقال الناس: لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد، فإنا نؤمن برب هذا الغلام، فقيل للملك؛ أجزعت أن خالفك ثلاثة، فهذا العالم كلهم قد خالفوك، قال: فخد أخدوداً، ثم ألقىٰ فيه الحطب والنار، ثم جمع الناس فقال: من رجع عن دينه تركناه، ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود»، فقال: «يقول الله ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ حتىٰ بلغ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾» فأما الغلام فإنه دفن، ثم أخرج، فيذكر أنه أخرج في زمان عمر بن الخطاب، وأصبعه علىٰ صدغه كما وضعها حين قتل، ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف، وقد رواها مسلم في أواخر «الصحيح» عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ عن صهيب. وأخرجها أحمد عن طريق عفان عن حماد به. وأخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به. وأخرجها الترمذي عن محمود بن غيلان وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ قال: هم الحبشة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: هم ناس من بني إسرائيل، خدوا أخدوداً في الأرض أوقدوا فيه ناراً، ثم أقاموا علىٰ ذلك الأخدود رجالاً ونساءً، فعرضوا عليها. انتهىٰ من «الشوكاني».

﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل[1] اشتمال من الأخدود، لأن الأخدود مشتمل علىٰ النار، وهو بها يكون مهيباً مشتد الهول، والتقدير: النار فيه، أو أقيم أل مقام الضمير علىٰ اختلاف مذهبي أهل البصرة والكوفة. ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ صفة للنار؛ أي: صاحبة الوقود الكثيرة، وهو بفتح الواو: ما يوقد به، وفيه وصف لها بغاية العظم وارتفاع اللهب، وكثرة ما يوجبه من الحطب، وأبدان الناس ما يدل عليه التعريف الاستغراقي، ولو

---

(١) روح البيان.

لم يحمل علىٰ هذا المعنى.. لم يظهر فائدة التوصيف، إذ من المعلوم أن النار لا تخلو من حطب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلنَّارِ﴾ بالجر، وهو بدل اشتمال، أو بدل كل من كل على تقدير محذوف؛ أي: أخدود النار، وقرأ قوم: ﴿النارُ﴾ بالرفع، قيل: علىٰ معنى قتلهم، ويكون أصحاب الأخدود إذ ذاك المؤمنين، وقتل علىٰ حقيقته، وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيوة وعيسى: ﴿الوُقود﴾ بضم الواو، وهو مصدر، والجمهور: بفتحها، وهو ما يوقد به، وقد حكىٰ سيبويه أنه بالفتح أيضاً مصدر كالضم.

والمعنى: أن أصحاب الأخدود هم أصحاب النار التي لها من الحطب الكثير ما يشتد به لهيبها لا جرم يكون حريقها عظيماً، ولهيبها متطايراً.

وقوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾ ظرف[2] لـ ﴿قُتِلَ﴾، والضمير لأصحاب الأخدود، وقعود: جمع قاعد؛ أي: لعنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار قاعدين حولها في مكان مشرف عليها من حافات الأخدود، ولفظ ﴿عَلَىٰ﴾ مشعر بذلك، تقول: مررت عليه، تريد مستعلياً بمكان يقرب منه، وفي بعض التفاسير: علىٰ سرر وكراسي قعود عند النار، ولو قعدوا علىٰ نفس النار لاحترقوا، فالقاتلون كانوا جالسين في مكان مشرف أو نحوه، ويعرضون المؤمنين علىٰ النار، فمن كان يترك دينه تركوه، ومن كان يصر ألقوه في النار وأحرقوه، وكان ﷺ إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ بالله من جهد البلاء، وهو الحالة التي يختار عليها الموت، أو كثرة العيال والفقر.. كما في «القاموس». والجهد بالفتح: المشقة، وجهد عيشه كفرح: نكد واشتد.

والمعنىٰ[3]: أي قتلوا ولعنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار، وهم قاعدون حولها يشرفون عليهم، وهم يعذبون بها ويحرقون فيها، كما أشار إلىٰ ذلك بقوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾ جمع شاهد؛ أي: إن أولئك الجبابرة الذين أمروا بإحراق المؤمنين كانوا حضوراً عند تعذيبهم، يشاهدون ما يفعله بهم أتباعهم، فـ ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنىٰ: مع، والتقدير: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود؛ أي:

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

حضور، وفي هذا إيماء إلىٰ قسوة قلوبهم، وتمكن الكفر منهم إلىٰ ما فيه من إشارة إلىٰ قوة اصطبار المؤمنين، وشدة جلدهم، ورباط جأشهم، واستمساكهم بدينهم. أو المعنى[1]: أي: يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن أحداً منهم لم يقصر فيما أمر به، وفوض إليه من التعذيب بالإحراق من غير ترحم وإشفاق. أو المعنىٰ: أنهم شهود يشهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة، يعني: تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

قال الزجاج: أعلم الله سبحانه قصة قوم بلغت بصيرتهم حقيقة إيمانهم إلىٰ أن صبروا على أن يحرقوا بالنار في الله، هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم، وتنطبق به الروايات المشهورة، وقد ذهب بعضهم إلىٰ أن الجبابرة لما ألقوا المؤمنين في النار، وهم قعود حولها.. علقت بهم النار، وفي رواية: ارتفعت فوقهم أربعين ذراعاً، فوقعت عليهم فأحرقتهم، ونجىٰ الله المؤمنين سالمين، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، وقبض الله أرواحهم قبل أن تمسهم النار، كما فعل ذلك بآسية امرأة فرعون على ما سبق، وعلىٰ ذلك حملوا قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾؛ أي: لهم عذاب جهنم في الآخرة، ولهم عذاب الحريق في الدنيا.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ أي: وما أنكر أولئك الجبابرة علىٰ المؤمنين، وما عابوا عليهم، وما كرهوا منهم ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾؛ أي: إلا إيمانهم وتصديقهم بوحدانية الله سبحانه وعبادتهم له ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب علىٰ كل متكبر عال ﴿الْحَمِيدِ﴾؛ أي: المحمود في كل حال. قال الزجاج: ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم بالله، والاستثناء[2] فيه مفرغ مفصح عن براءتهم مما يعاب وينكر بالكلية، علىٰ منهاج قوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ ضُيُوفَهُمْ ... تُلَامُ بِنِسْيَانِ ٱلأَحِبَّةِ وَٱلْوَطَنْ

وقول الآخر:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، لأن ما أنكره ليس منكراً في الواقع،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وغير حقيق بالإنكار، كما أن ما جعله الشاعر عيباً ليس عيباً، ولا ينبغي أن يعد عيباً، ولا يضر ذلك كون الاستثناء في قول الشاعر مبنياً علىٰ الادعاء بخلاف ما في نظم القرآن، فإنهم أنكروا الإيمان حقيقة، وعبر بلفظ المضارع في قوله: ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ مع أن الإيمان وجد منهم في الماضي؛ لإرادة الاستمرار والدوام عليه، فإنهم ما عذبوهم لإيمانهم في الماضي، بل لدوامهم عليه في الآتي، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا علىٰ ما مضى، فكأنه قيل: إلا أن يستمروا علىٰ إيمانهم، وأما قوله تعالى حكاية عن سحرة فرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ فلأن مجرد إيمان السحرة بموسى عليه السلام كان منكراً واجب الانتقام عندهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَقَمُوا﴾ بفتح القاف، وقرأ زيد بن علي وأبو حيوة وابن أبي عبلة بكسرها، والفصيح: الفتح.

والمعنىٰ[2]: أي إن هؤلاء الكفار لم يعاقبوا المؤمنين إلا علىٰ شيء لا يجوز العقاب عليه، بل ينبغي لكل أحد أن يكون عليه، ويدعو غيره إلىٰ التمسك به، وهو الإيمان بالله تعالى العزيز الغالب الذي يخشى عقابه، وتهاب صولته، المنعم الذي يرجىٰ ثوابه وترتقب نعماؤه.

ثم أكد استحقاقه للعزة والحمد بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لأنه مالك الأمر كله فيهما، فلا مفر لأولئك الظالمين من سلطانه، ومن كان هذا شأنه.. فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحد، ووصفه[3] تعالى بكونه عزيزاً غالباً يخشىٰ عقابه، حميداً منعماً يرجىٰ ثوابه، وتأكيد ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للإشعار بمناط إيمانهم، وأخر هذه الصفة ـ أعني: صفة الملك ـ، لأن الملك التام لا يحصل إلا عند حصول الكمال في القدرة التي دل عليها ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، وفي العلم الذي دل عليه ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾، لأن من لا يكون تام العلم لا يمكن أن يفعل الأفعال الحميدة.

وفي «كشف الأسرار»: وإنما وصف ذاته بهذه الصفات.. ليعلم أنه لم يمهل الكفار لأجل أنه غير قادر، لكنه أراد أن يبلغ بهؤلاء المؤمنين مبلغاً من الثواب لم

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

يكونوا يبلغونه إلا بمثل ذلك الصبر، وأن يعاقب أولئك الكافرين عقاباً لم يكونوا يستوجبونه إلا بمثل ذلك الفعل، وكان قد جرىٰ بذلك قضاؤه علىٰ الفريقين جميعاً في سابق تدبيره وعلمه، وفيه تشنيع علىٰ الكفار بغاية جهلهم، حيث عدوا ما هو منقبة هي سبب المدح منقصةً هي سبب القدح.

ثم وبخهم علىٰ ما صنعوا بالمؤمنين، وأوعدهم بأنهم سيلاقون جزاء ما فعلوا، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أقوال الفريقين وأفعالهم وأحوالهم وشؤون غيرهما ﴿شَهِيدٌ﴾؛ أي: مطلع، فهو عليم بما يكون من خلقه، ومجازيهم عليه، لا تخفىٰ عليه منهم خافية، وفي هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود، ووعد خير لمن عذبوه علىٰ دينه من أولئك المؤمنين، فإن علمه تعالىٰ بجميع الأشياء التي من جملتها أعمال الفريقين يستدعي توفير جزاء كل منهما حتماً. قال الإمام القشيري: الشهيد: العليم، ومنه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: علم الله، والشهيد: الحاضر، وحضوره بمعنىٰ: علمه ورؤيته وقدرته، والشهيد: مبالغة من الشاهد، وإذا علم العبد أن الله تعالىٰ شهيد يعلم أفعاله، ويرىٰ أحواله.. سهل عليه ما يقاسيه لأجله. قالوا: ودلت هذه القصة علىٰ أن المكره علىٰ الكفر بنوع من العذاب، الأولى له أن يصبر علىٰ ما خوف منه، وإن كان إظهار الكفر كالرخصة في ذلك.

حُكي: أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب النبي ﷺ، فقال لأحدهما: تشهد أني رسول الله، فقال: نعم، فتركه، وقال للآخر مثله، فقال: لا بل أنت كذاب، فقتله، فقال النبي ﷺ: «أما الذي تركه فأخذ بالرخصة، فلا تبعة عليه، وأما الذي صبر.. فأخذ بالفضل، فهنيئاً له».

ثم بين سبحانه ما أعد لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بالإحراق وغيره بسبب إيمانهم؛ أي: إن[1] الذين محنوهم في دينهم وآذوهم وعذبوهم بأي عذاب كان ليرجعوا عنه، كأصحاب الأخدود ونحوهم، كما روي أن قريشاً كانوا يعذبون بلالاً وأضرابه، فالموصول للجنس، وإنما لم يدفع البلاء قبل الابتلاء؛ لأن أهل الولاء لا يخلو عن البلاء:

---

(١) روح البيان.

وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ٱلصَّفَاءُ لِعَاشِقٍ   وَجَنَّةُ عَدْنٍ بِٱلْمَكَارِهِ حُفَّتِ

﴿ثُمَّ﴾؛ أي: بعد ما فعلوا ما فعلوا من الفتنة ﴿لَمْ يَتُوبُوا﴾ عن كفرهم وفتنتهم، فإن ما ذكر من الفتنة في الدين لا يتصور من دين الكافر قطعاً، وفي إيراد ﴿ثُمَّ﴾: إشعار بكمال حلمه وكرمه حيث لا يعجل في القهر ويقبل التوبة، وإن طالت مدة الحوبة. قال الإمام: وذلك يدل على أن توبة القاتل عمداً مقبولة. ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة بسبب كفرهم، والفاء لتضمن المبتدأ معنىٰ الشرط، ولا يضر نسخه بإن خلافاً للأخفش.

﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون به أبداً ﴿وَلَهُمْ﴾ بسبب فتنتهم للمؤمنين ﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: عذاب عظيم زائد في الإحراق علىٰ عذاب سائر أهل جهنم، فظهرت المغايرة بين المعطوفين، وإن كان كل منهما حاصلاً في الآخر، ويحتمل[1] أن يكون المراد بعذاب جهنم: بردها وزمهريرها، وبعذاب الحريق: حرها، فيرددون بين برد وحر، علىٰ أن يكون الحر لإحراقهم المؤمنين في الدنيا، والبرد لغيره، كما قالوا الجزاء من جنس العمل، والحريق: اسم بمعنىٰ الاحتراق، كالحرقة.

يقول الفقير: الظاهر: أن الحريق هنا بمعنىٰ: المحرق، كالأليم بمعنىٰ: المؤلم، فيكون إضافة العذاب إلىٰ الحريق، من قبيل إضافة الموصوف إلىٰ صفته، ويستفاد زيادة الإحراق من المقابلة، فإن العطف من باب الترقي بحسب العذاب المترتب علىٰ الترقي من حيث العمل.

والمعنى[2]: أي: إن الذين امتحنوا المؤمنين والمؤمنات بالتعذيب ليردوهم عن دينهم، وثبتوا علىٰ كفرهم، ولم يتوبوا حتىٰ أخذهم الموت، أعد الله لهم عذاباً في جهنم بالحريق وقد كان الضالون من كل أمة يؤذون أهل الحق والدعاة إليه حرصاً على ما ألفوا من الباطل، وتشيعاً لما وجدوا عليه أنفسهم وآباءهم الأقربين علىٰ غير بصيرة، ولا استشارة للعقل السليم، ولا يزال هذا شأنهم إلى يوم الدين، انظر إلىٰ أصحاب الأخدود.. تجدهم قد عرضوا المؤمنين علىٰ النار، وأحرقوهم بها، وإلىٰ كفار قريش.. ترهم قد فتنوا المؤمنين بالكثير من الإيذاء، فعذبوا آل ياسر

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

بفنون من العذاب، وعذبوا بلالاً بما لا يحصىٰ من ضروب الأذى، وفعلوا مثل هذا بكثير من أكابر المؤمنين، حتىٰ لقد آذوا الرسول الأكرم، وألحقوا به كثيراً من العنت والأذىٰ، فرموه بالحجارة حتىٰ أدموه، بل فعلوا معه أكثر من هذا، فخرجوا بخيلهم ورجلهم يقاتلونه وأصحابه، ويتمنون إن تمكنوا منه أن يقتلوه، ولكن الله منعه منهم، ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ إيماء إلىٰ أنهم لو تابوا قبل موتهم.. غفر الله لهم ما قدموا قبل التوبة من ذنب، كما مر.

وبعد أن ذكر ما أعد لأعدائه من النكال والعذاب الأليم.. أرشد إلىٰ ما يكون لأوليائه من النعيم المقيم؛ ليكون ذلك أنكىٰ للأعداء، وأشد في غيظهم، وأبعث للأسىٰ والحزن في نفوسهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على الإطلاق من المفتونين وغيرهم، والمعنىٰ: إن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات ﴿لَهُمۡ﴾ بسبب ما ذكر من الإيمان، والعمل الصالح الذي من جملته الصبر علىٰ أذى الكفار، وإحراقهم. إيراد[1] الفاء أولاً، وتركها ثانياً يدل علىٰ جواز الأمرين. ﴿جَنَّٰتٞ﴾ يجازون بها بمقابلة النار ونحوها ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ الأربعة، يجازون بذلك بمقابلة الاحتراق والحرارة ونحو ذلك. قال في «الإرشاد»: إن[2] أريد بالجنات الأشجار، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها، فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر، وهو الشجر، فإن أشجارها ساترة لساحتها، كما يعرب عنه اسم الجنة. انتهىٰ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور العظيم الشأن، وهو حصول الجنات لهم ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ الذي لا يعدله فوز آخر، وتصغر عنده الدنيا وما فيها من فنون الرغائب بحذافيرها، فالحصر إضافي. قال في «برهان القرآن»: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: خبره، و ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾: صفته، وليس له في القرآن نظير، والفوز النجاة من الشر، والظفر بالخير، فإن أشير بذلك إلىٰ الجنات نفسها، فهو مصدر أطلق علىٰ المفعول مبالغةً، وإلا فهو مصدر علىٰ حاله.

---

(١) روح البيان.

(٢) أبو السعود.

قال الإمام[1]: إنما قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾، ولم يقل: تلك؛ لدقيقة لطيفة، وهي أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلىٰ إخبار الله سبحانه بحصول هذه الجنات، ولو قال: تلك.. لكانت الإشارة إلىٰ نفس الجنات، وإخبار الله تعالىٰ عن ذلك يدل علىٰ كونه راضياً، و﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾: هو رضى الله سبحانه، لا حصول الجنة. يقول الفقير: عندي أن حصول الجنات هو الفوز الكبير، وحصول رضىٰ الله سبحانه هو الفوز الأكبر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، وإنما لم يقل تلك لأن نفس الجنات من حيث هي ليست بفوزه، وإنما الفوز حصولها ودخولها.

ومعنىٰ الآية[2]: أي إن الذين أقروا بوحدانية الله تعالى، وعملوا صالح الأعمال ائتماراً بأوامره، وكفوا عن نواهيه ابتغاء رضوانه، لهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار، وهذا هو الظفر الكبير لهم، كفاء ما قدموا من إيمان وطاعة لربهم.

وجملة قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ مستأنفة لخطاب النبي ﷺ، مبينة لما عند الله تعالى من الجزاء لمن عصاه، والمغفرة لمن أطاعه، إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه، كما ينبيء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلىٰ ضميره ﷺ، والبطش: تناول الشيء بصولة، والأخذ بعنف وشدة، يقال: يد باطشة. وحيث وصف البطش بالشدة فقد تضاعف وتفاقم، وهو بطشه بالجبابرة والظلمة، وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام، وإن كان بعد إمهال، فإنه عن حكمة لا عن عجز؛ أي: إن أخذ ربك للظلمة والجبابرة لشديد، ومثل هذا قوله: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

والمعنى[3]: إن انتقامه من الجبابرة والظلمة، وأخذه إياهم بالعقوبة.. لهو الغاية في الشدة، والنهاية في الأذى والألم، وفي هذا إرهاب لقريش ومن معها، وتعزية لرسول الله ﷺ ولمن تبعه.

وقد زاد سبحانه أمر قدرته توكيداً فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ وحده ﴿يُبْدِئُ﴾، وقرىء ﴿يبدأ﴾ من بدأ ثلاثياً، حكاه أبو زيد؛ أي: يبدأ الخلق، ويخرجهم من العدم إلىٰ

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) المراغي.

الوجود، ثم يميتهم ويعيدهم أحياءً بعد الموت للمجازاة على الخير والشر من غير دخل لأحد في شيء منهما، ففيه مزيد تقدير لشدة بطشه، ومن كان قادراً على الإيجاد والإعادة إذا بطش كان بطشه في غاية الشدة، وبهذا ظهر التعليل بهذه الجملة لما سبق من شدة البطش. ا هـ «شهاب». كذا قال الجمهور. وقيل: يبدىء البطش بالكفرة في الدنيا، ويعيده لهم في الآخرة، واختار هذا ابن جرير، والأول أولىٰ.

والمعنىٰ: أنه يخلق الخلق ابتداءً، ثم يعيدهم بعد أن صيَّرهم تراباً، وإذا كان قادراً علىٰ البدء والإعادة.. فهو قادر على شديد البطش بهم؛ لأنهم تحت قبضته، وخاضعون لسلطانه، فكأنه سبحانه يقول: إن مرجعكم إلىٰ ربكم، فإذا لم يعاقبكم في هذه الحياة علىٰ ما تعملون مع أوليائه، فلا تظنوا أن ذلك إهمال منه أو تقصير في شأنهم، بل أخر ذلك ليوم ترجعون إليه، وهو اليوم الذي سيكون فيه البطش والانتقام منكم. وقيل: المعنىٰ: أنه[1] يبدىء البطش والعذاب في الآخرة، ثم يعيده فيها، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أهل جهنم تأكلهم النار، حتىٰ يصيروا فيها فحماً، ثم يعيدهم خلقاً جديداً، فهو المراد من الآية، أو المعنىٰ: يبدىء من التراب، ويعيده فيه، أو يبدىء من النطفة، ويعيده في الآخرة، يقال: بدأ الله الخلق وأبدأهم، فهو بادئهم ومبدئهم، بمعنىٰ واحد، والمبدىء: المظهر ابتداءً، والمعيد: المنشىء بعد ما عدم، فالإعادة ابتدأ ثانٍ. قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: المبدىء المعيد: معناه: الموجد، لكن الإيجاد إذا لم يكن مسبوقاً بمثله يسمىٰ: إبداءً، وإن كان مسبوقاً بمثله يسمىٰ: إعادةً، والله تعالى بدأ خلق الإنسان، ثم هو الذي يعيدهم؛ أي: يحشرهم، فالأشياء كلها منه بدت، وإليه تعود، وبه بدت وبه تعود. انتهىٰ.

قال الإمام القشيري رحمه الله: إن الله تعالى يبدىء فضله وإحسانه لعبيده، ثم يعيده ويكرره، فإن الكريم من يرب صنائعه، وخاصية الاسم المبدىء: أن يقرأ على بطن الحامل سحراً تسعاً وعشرين مرة، فإن ما في بطنها يثبت ولا يزلق، وخاصية الاسم المعيد: يذكر مراراً لتذكار المحفوظ إذا نسي لا سيما إذا أضيف له الاسم

(١) روح البيان.

المبدىء.

ثم ذكر سبحانه خمسة أوصاف من صفات الرحمة والجلال فقال:

١ - ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: كثير المغفرة لمن تاب عن الكفر وآمن، وكذا لمن تاب عن غيره من المعاصي، ولمن لم يتب أيضاً إن شاء فتجاوز عن سيئاته.

٢ - ﴿ٱلْوَدُودُ﴾؛ أي: المحب لمن أطاع أو تاب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾، فالودود: فعول بمعنىٰ الفاعل ههنا، وهو الذي يقتضيه المقام، وقال سهل رحمه الله تعالى: الودود: المحب إلىٰ عباده بإسباغ النعم عليهم ودوام العافية، فيكون بمعنىٰ المفعول؛ لأنه يحبه عباده الصالحون، ومحبة العبد لله طاعته له، وموافقته لأمره، أو تعظيمه له، وهيبته في قلبه، وخاصية الاسم الودود. حصول محبة الله ومحبة طاعته لذاكره.

٣ - ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: خالق العرش ومالكه، وقيل: المراد بالعرش: الملك مجازاً؛ أي: ذو السلطنة القاهرة على المخلوقات السفلية، والمخلوقات العلوية، وإن لم يكن علىٰ السرير، يقال: ثُلَّ عرش فلان: إذا ذهب سلطانه، ومنه قول الشاعر:

إِنْ يَقْتُلُوْكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوْشَهُمْ بِعُتَيْبَةَ بْنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ شِهَابِ

٤ - ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ بالرفع علىٰ أنه صفة لـ﴿ذُو﴾، وهو الشريف ذاته، الجميل أفعاله، الجزيل عطاؤه، وهو الماجد أيضاً، ولكن دل أحدهما علىٰ المبالغة.

وقرىء بالجر علىٰ أنه صفة لـ﴿ٱلْعَرْشِ﴾، أو صفة لـ﴿ذي﴾، ومجد العرش: علوه في الجهة، وعظم قدره، وحسن صورته وتركيبه، فإنه أحسن الأجسام تركيباً وصورة.

وقرأ الجمهور: ﴿ذُو﴾ بالواو، وابن عامر في رواية: ﴿ذي﴾ بالياء علىٰ أنه صفة لـ ﴿رَبِّكَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ ولا يضر الفصل بينهما؛ لأنها صفات الله سبحانه.

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وابن وثاب والأعمش والمفضل عن عاصم والأخوان حمزة والكسائي: ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ بكسر الدال علىٰ أنه صفة لـ﴿ٱلْعَرْشِ﴾، ومن

قرأ: ﴿ذي العرش﴾ بالياء، جاز في قراءته أن يكون ﴿المجيد﴾ بالخفض صفةً ﴿للذي﴾، واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور: ﴿ذُو﴾ قالا: لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل، والله سبحانه هو المنعوت بذلك، والأحسن جعل هذه المرفوعات أخباراً عن ﴿هُوَ﴾، فيكون ﴿فَعَّالٌ﴾ خبراً عنه أيضاً؛ أي: هو سبحانه.

٥ - ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ من الإبداء والإعادة قال عطاء: لا يعجز عن شيء أراده، ولا يمنع منه شيء طلبه، وإنما قال: ﴿فَعَّالٌ﴾ بصيغة المبالغة؛ لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة من الإحياء والإماتة، والإعزاز والإذلال، والإغناء والإقتار، والشفاء والإمراض، والتقريب والتعبيد، والعمارة والتخريب، والوصل والفرق، والكشف والحجاب، وغير ذلك.

ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال: ﴿هَلْ أَتَنكَ﴾، والجملة مستأنفة مقررة لما تقدم من شدة بطشه سبحانه، وكونه فعالاً لما يريده، وفيه تسلية لرسوله ﷺ، والاستفهام فيه للتقرير؛ أي: قد أتاك وجاءك يا محمد ﴿حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾؛ أي: خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائها، المتجندة عليهم في ماضي الأزمان، ثم بينهم فقال: ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بدل من الجنود، مع أنه غير مطابق ظاهراً للمبدل منه في الجمعية؛ لأن المراد بفرعون هو وقومه، ويحتمل أن يكون على حذف المضاف؛ أي: جنود فرعون ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح، معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: قد أتاك[1] حديث هؤلاء، وعرفت ما فعلوا من التكذيب، وما فعل بهم من التعذيب، فذكر قومك بشؤون الله فيهم، وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك حين كذبوا أنبيائهم، وقد كانوا سمعوا قصة فرعون وجنوده قوم موسىٰ عليه السلام، ورأوا آثار هلاك ثمود قوم صالح عليه السلام؛ لأنها كانت في ممرهم وفي بلادهم، وقصتهم مشهورة قد تكرر في الكتاب العزيز ذكرها في غير موضع، واقتصر علىٰ الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب، وعند مشركي العرب، ألا ترىٰ إلى زهير بن أبي سلمىٰ وقوله:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ تُبَّعاً ... وَأَهْلَكَ لُقْمَانَ بْنَ عَادٍ وَعَادِيَا

---

(١) روح البيان.

وَأَهْلَكَ ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ مِنْ قَبْلِ مَا نَوَىٰ   وَفِرْعَوْنَ جَبَّاراً طَغَىٰ وَٱلنَّجَاشِيَا

وأخَّر ثمود مع تقدمه على فرعون زماناً؛ لرعاية الفواصل، وكان فرعون من المتأخرين في الهلاك، فدل بقصته وقصة ثمود علىٰ أمثالها من قصص الأمم المكذبة وهلاكهم.

ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء المشركين في عصره ﷺ لمن تقدم ذكره، وبين أنهم أشد منهم في الكفر والتكذيب فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قومك ﴿فِى﴾ أشد ﴿تَكْذِيبٍ﴾ لك ولما جئت به، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الأمم المكذبة المهلكة، فهؤلاء أشد منهم في الكفر والطغيان، وتنكير ﴿تَكْذِيبٍ﴾ للتعظيم، كأنه قيل: ليسوا مثلهم في ذلك، بل هم أشد منهم في استحقاق العذاب واستيجاب العقاب، فإنهم مستقرون في تكذيب شديد للقرآن الناطق بذلك، لكن لا أنهم يكذبون بوقوع الحادثة، بل يكذبون كون ما نطق قرآناً من عند الله مع وضوح أمره وظهور حاله بالبينات الباهرة.

وحاصل معنى الآيات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: هل[1] بلغك يا محمد ما صدر من أولئك الجنود من التمادي في الكفر والضلال، وما حل بهم من العذاب والنكال.

والخلاصة: أنه قد أتاك خبرهم، وعرفت ما فعلوا وما جازاهم ربهم به، فذكر قومك بأيام الله، وأنذرهم أنه سيصيبهم ما أصاب أماثلهم من أهل الضلال.

ثم بين من هم أولئك الجنود، فقال: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾، وحديث هذين مشهور متعارف بينهم، فقد كانوا يعرفون من يهود المدينة وغيرهم ما كان من فرعون مع كليم الله موسى عليه السلام من العناد، والإصرار على الكفر، وما كان من عاقبة أمره، وأن الله أغرقه في اليم هو وقومه، وأذاقه الوبال في الآخرة والأولىٰ، كما كانوا يعرفون قصة ثمود مع صالح عليه السلام، وأنهم عقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية، فدمر بلادهم وأهلكهم، ولم يترك لهم من باقية، وهم يمرون علىٰ ديارهم في أسفارهم ويسمعون أخبارهم.

---

(١) المراغي.

وخلاصة ذلك: أن الكفار في كل عصر متشابهون، وأن حالهم مع أنبيائهم لا تتغير ولا تتبدل، فهم في عنادهم واستكبارهم سواسية كأسنان المشط، فقومك أيها الرسول ليسوا ببدع في الأمم، فقد سبقتهم أمم قبلهم، وحل بهم من النكال ما سيحل بقومك إن لم يؤمنوا، فاصبر إن العاقبة للمتقين، وقد أشار إلىٰ أن هذه شنشنتهم في كل عصر ومصر فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩﴾؛ أي: إن الكفار في كل عصر غارقون في شهوة التكذيب حتىٰ لم يدع ذلك لعقلهم مجالاً للنظر، ولا متسعاً للتدبر، ولا يزالون في غمرة حتىٰ يؤخذوا علىٰ غرة فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾؛ أي: من خلفهم ﴿مُّحِيطُۢ﴾ بهم بالقدرة، وهو تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله بعدم فوت المحاط به المحيط إذا سد عليه مسلكه بحيث لا يجد هرباً منه؛ أي: إنه تعالىٰ مقتدر عليهم، وهم في قبضة لا يجدون مهرباً، ولا يستطيعون الفرار إذا أرادوا، فلا تجزع من تكذيبهم، واستمرارهم علىٰ العناد، فلن يفوتوني إذا أردت الانتقام منهم.

ثم رد علىٰ تماديهم في تكذيب القرآن، وادعائهم أنه أساطير الأولين فقال: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١﴾؛ أي: ليس الأمر كما قالوا، بل هذا الذي كذبوا به قرآن شريف عال الطبقة فيما بين الكتب الإلهية في النظم والمعنىٰ، متضمن للمكارم الدنيوية والأخروية، مكتوب ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾ من التحريف ووصول الشياطين إليه، واللوح: كل صحيفة عريضة خشباً، أو عظماً. كما في «القاموس».

قال الراغب: اللوح واحد ألواح السفينة، وما يكتب فيه من الخشب ونحوه، والمراد به هنا ما قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، ينظر الله فيه كل يوم ثلاث مئة وستين مرة، يحيي ويميت، يعز ويذل ويفعل ما يشاء، وفي صدر اللوح: لا إله إلا الله وحده، ودينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن به وصدق وعده واتبع رسله.. أدخله الجنة. وقال بعض المفسرين: اللوح: شيء يلوح للملائكة، فيقرؤونه.

قلت: والمذهب الأسلم: أن يقال: اللوح المحفوظ شيء أخبرنا الله به، وأنه أودعه كتابه، ولكن لم يعرفنا حقيقته، فعلينا أن نؤمن به، وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك مما لم يأتِ به خبر من المعصوم صلوات الله وسلامه عليه.

وقرأ الجمهور: ﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ برفعهما علىٰ أنهما موصوف وصفة، وقرأ ابن سميفع ﴿قرآن مجيد﴾ بالإضافة، قال ابن خالويه: سمعت الأنباري يقول: معناه: بل هو قرآن رب مجيدٍ، ويجوز أن يكون من باب إضافة الموصوف لصفته، فيكون مدلوله ومدلول التنوين ورفع مجيد واحداً، وهذا أولىٰ؛ لتوافق القراءتين.

وقرأ الجمهور: ﴿فِي لَوْحٍ﴾ بفتح اللام ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ بالخفض صفة للوح، واللوح المحفوظ: هو الذي فيه جميع الأشياء، معلَّق بالعرش. كما في القرطبي. وقرأ ابن يعمر وابن السميفع بضم اللام؛ أي: إنه يلوح، وهو ذو نور وعلو وشرف. قال ابن خالويه: اللوح: الهواء، وقال الزمخشري: يعني: اللوح فوق السماء السابعة الذي هو في اللوح المحفوظ من وصول الشياطين إليه، وقرأ الأعرج وزيد بن علي وابن محيصن ونافع بخلاف عنه: ﴿محفوظٌ﴾ بالرفع صفة للقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾؛ أي: هو محفوظ في القلوب لا يلحقه خطأ ولا تبديل.

الإعراب

﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَـٰبُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَالسَّمَآءِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم ﴿السَّمَآءِ﴾: مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم، وجملة القسم مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾: صفة لـ ﴿السَّمَآءِ﴾ مجرور بالكسر، ﴿وَالْيَوْمِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿اليومِ﴾: معطوف علىٰ ﴿السَّمَآءِ﴾، أو: ﴿الواو﴾: حرف قسم ﴿اليومِ﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، فيكون قسماً مستقلاً ﴿الْمَوْعُودِ﴾: صفة لـ ﴿ليوم﴾، ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾ معطوفان أيضاً علىٰ ﴿السَّمَآءِ﴾، ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾: فعل ماضٍ ونائب فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ولكنه محذوف الصدر، تقديره: أقسم بهذه الأشياء لقد قتل أصحاب الأخدود، وإنما احتيج لهذا الحذف؛ لأن المشهور عند النحاة: أن الماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جواباً للقسم.. تلزمه اللام وقد، لا يجوز

الاقتصار علىٰ أحدهما إلا عند طول الكلام كما مر، أو هذه الجملة دالة علىٰ الجواب المحذوف، لا جواب تقديره: أقسم بهذه الأشياء: إن هؤلاء المشركين ملعونون، كما لعن أصحاب الأخدود. ﴿ٱلنَّارِ﴾: بدل اشتمال من الأخدود، مجرور بالكسرة؛ لأن الأخدود مشتمل عليها، ولا بد فيه من رابط تقديره: عند البصريين: النار فيه، وعند الكوفيين: ناره؛ لأن أل في البدل نابت عن الضمير عندهم، فكأنه مذكور ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ مضاف ومضاف إليه ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان متعلق بـ ﴿قُتِلَ﴾؛ أي: لعنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار، قاعدين عليها، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ ﴿قُعُودٌ﴾، و ﴿قُعُودٌ﴾: خبر المبتدأ، وهو جمع: قاعد، والجملة الاسمية في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿شُهُودٌ﴾، وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ ﴿يَفْعَلُونَ﴾، ﴿شُهُودٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة علىٰ الجملة التي قبلها، أو في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿قُعُودٌ﴾، وعلىٰ بمعنىٰ: مع، و ﴿شُهُودٌ﴾ بمعنىٰ: حضور، والمعنىٰ: وهم حضور مع ما يفعلون بالمؤمنين، لا يرقون لهم، ولا يرحمون لقسوة قلوبهم، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية ﴿مَا﴾: نافية، ﴿نَقَمُوا﴾؛ فعل وفاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿نَقَمُوا﴾، والجملة معطوفة علىٰ ما قبلها، أو حال من فاعل ﴿يَفْعَلُونَ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، وجملة ﴿أَن يُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿نَقَمُوا﴾؛ أي: ما عابوا منهم، وما أنكروا منهم إلا الإيمان بالله سبحانه، و ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُؤْمِنُوا﴾ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾: صفتان للجلالة ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة ثالثة له، و ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، والجملة الاسمية صلة الموصول، و ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ ﴿شَهِيدٌ﴾، و ﴿شَهِيدٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مقررة لما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ
(١٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ (١١)
إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ (١٤) ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ (١٥)
فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦)﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿فَتَنُواْ﴾ صلة الموصولة، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَتُوبُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾ والجملة معطوف علىٰ جملة ﴿فَتَنُواْ﴾، ﴿فَلَهُمْ﴾ الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً، وإن كان منسوخاً لشبه المبتدأ بالشرط في العموم ﴿لهم﴾: خبر مقدم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لذكر وعيد المجرمين أولاً، ثم يردفه بذكر ما أعد للمؤمنين، ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة علىٰ ما قبلها علىٰ كونها خبراً، لـ ﴿إِنَّ﴾. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف علىٰ ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿جَنَّٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما أعد للمؤمنين، ولم تعطف علىٰ ما قبلها إيذاناً باستقلالها بالمقصودية، وترك الفاء الرابطة هنا إشعاراً بجواز الأمرين، كما مر ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ متعلق بـ ﴿تَجْرِى﴾، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل ﴿تَجْرِى﴾، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿جَنَّٰتٌ﴾، ولكنها سببية ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان علو درجة ما نالوا، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه ﴿لَشَدِيدٌ﴾: خبره، و ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية النبي ﷺ علىٰ ما يكابده من كفار مكة ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، لا الضمير فصل؛ لفقد الشرط، وجملة ﴿يُبْدِئُ﴾ خبر لـ ﴿هُوَ﴾، والجملة الابتدائية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، وجملة ﴿وَيُعِيدُ﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿يُبْدِئُ﴾، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾: خبر أول له ﴿ٱلْوَدُودُ﴾: خبر ثانٍ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: خبر ثالث ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ ـ بالرفع ـ: خبر رابع، وبالجر: صفة لـ ﴿ٱلْعَرْشِ﴾، ﴿فَعَّالٌ﴾: خبر خامس، والجملة الابتدائية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾، واستدل النحاة بهذه الآيات علىٰ جواز تعدد الخبر لمبتدأ واحد، ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿فَعَّالٌ﴾، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: لما يريده.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن

وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام التقريري ﴿أَتَىٰكَ﴾: فعل ماضٍ ومفعول به ﴿حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب مسوقة لتقرير شدة بطشه تعالىٰ، ﴿فِرْعَوْنَ﴾: بدل من ﴿ٱلْجُنُودِ﴾ بدل كل من كل مجرور بالفتحة؛ لأنه غير منصرف للعلمية والعجمية، ولكنه علىٰ تقدير مضاف؛ أي: قوم فرعون، ﴿وَثَمُودَ﴾: معطوف علىٰ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث المعنوي، كزينب. ﴿بَلِ﴾: حرف عطف وإضراب عن محذوف إضراباً انتقالياً تقديره: ليس هؤلاء مثل من تقدم قبلهم من الأمم، بل هم أشد تكذيباً ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول، ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾: خبر عن الموصول والجملة الاسمية معطوفة علىٰ تلك المحذوفة، ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿الله﴾: مبتدأ، ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾: متعلق بـ ﴿مُّحِيطُۢ﴾، و ﴿مُّحِيطُۢ﴾: خبر عن لفظ الجلالة، والجملة معطوفة علىٰ ما قبلها ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب للإضراب الانتقالي عن بيان شدة كفرهم إلى وصف القرآن بما ذكر، والمعنىٰ: ليس ما كذب هؤلاء مثل ما كذب من قبلهم، بل ما كذبوه ﴿قُرْءَانٌ﴾ موصوف بهذه الصفات العالية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ﴿قُرْءَانٌ﴾: خبر ﴿مَّجِيدٌ﴾: صفة ﴿قُرْءَانٌ﴾، والجملة معطوفة علىٰ تلك الجملة المحذوفة، ﴿فِى لَوْحٍ﴾: صفة ثانية لـ ﴿قُرْءَانٌ﴾، ﴿مَّحْفُوظٍۭ﴾: صفة لـ ﴿لَوْحٍ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ والسماء في اللغة: كل جرم علوي، فدخل فيه السحاب والعرش، واصطلاحاً: الأفلاك السبعة التي هي مركز الكواكب، والنجوم من السبعة السيارة والثوابت.

﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ جمع: برج، وهو في الأصل: الركن والحصن والقصر، وكل بناء مرتفع علىٰ شكل مستدير، أو مربع يكون منفرداً، أو قسماً من بناية عظيمة، والبرج أيضاً: أحد بروج السماء، وهي بحسب تعبير اللغويين اثنا عشر: الحمل والثور إلىٰ آخر ما مر، وأصل هذه المادة للظهور يعني: أن أصل معنى البرج الأمر الظاهر من التبرج، ثم صار حقيقة في العرف للقصر العالي لظهوره، ويقال لما ارتفع من سور المدينة: برج أيضاً.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢)﴾ هو يوم القيامة؛ لأن الله قد وعد به.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣)﴾ والشاهد والمشهود: جميع ما خلق الله تعالىٰ في هذا العالم، فإن كل ما خلقه شاهد علىٰ جليل قدرته، وعظيم حكمته:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ٱلْوَاحِدُ

ومشهود أيضاً لكل ذي عينين.

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ (٤)﴾ الأخدود مفرد، وجمعه: أخاديد، والخد بفتح الخاء: بمعنىٰ الأخدود، وجمعه: خدود، وهو الشق في الأرض، يحفر مستطيلاً، والأخاديد أيضاً: آثار الضرب بالسوط، ومنه: أخاديد الأرشية في البئر، وهي تأثير جرها فيه، ويقال للشيخ: قد تخدد، ويراد: قد تشنج جلده، وأصحاب الأخدود: قوم كافرون ذو بأس وقوةٍ، رأوا قوماً من المؤمنين، فغاظهم إيمانهم، فحملوهم علىٰ الكفر، فأبوا، فشقوا لهم شقاً في الأرض، وحشوه ناراً، وألقوهم فيه، وكان هؤلاء الغلاظ الأكباد علىٰ جوانب الشق يشهدون الإحراق ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾؛ أي: عابوا عليهم الإيمان. وفي «المختار»: نقم الأمر: كرهه، وبابه: ضرب، ونقم من باب فهم لغة. ا هـ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أي: ابتلوهم، وامتحنوهم، وعذبوهم بالنار، يقال: فتنت الشيء: إذا حرقته بالنار، والعرب تقول: فتن فلان الدينار: إذا أدخله الكور لينظر جودته، وفي «المختار»: الفتنة: الاختبار، والامتحان، تقول: فتن الذهب يفتنه بالكسر فتنةً ومفتوناً أيضاً: إذا أدخله النار لينظر جودته، ودينار مفتون، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أي: حرقوهم، ويسمىٰ الصائغ: الفتان، وكذا الشيطان، وقال الخليل: الفتن: الإحراق، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣)﴾. انتهىٰ.

﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: العذاب المحرق، فهو من إضافة الموصوف، إلىٰ الصفة، وهو عذاب جهنم ذكر تفسيراً وبياناً له، وفي «المفردات»: الحريق: النار، وكذا الحرق بالتحريك: النار أو لهبها. كما في «القاموس». وحرق الشيء: إيقاع الحرارة فيه من غير لهب كحرق الثوب بالدق، والإحراق: إيقاع نار ذات لهب في شيء، ومنه استعير أحرقني بلومه: إذا بالغ في أذيته بلوم.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ تسيل الأنهار تحت أسرتها وغرفها، وجميع أماكنها، يتلذذون ببردها في نظير ذلك الحر الذي صبروا عليه في الدنيا، ويزول عنهم برؤية ذلك مع خضرة الجنان جميع المضار والأحزان. ا هـ «خطيب».

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ﴾ البطش: الأخذ بعنف وشدة. وفي «المختار»: البطشة: السطوة، والأخذ بعنف، وقد بطش به ـ من باب ضرب ونصر ـ وباطشه مباطشةً. ا هـ.

﴿وَيُعِيدُ﴾ أصله: يعود بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلىٰ العين، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد، وحذفت منه همزة أفعل، فصار يعيد.

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾؛ أي: الذي يعفو ويستر ذنوب عباده بمغفرته.

﴿ٱلۡوَدُودُ﴾؛ أي: الذي يحب أولياءه، ويتودد إليهم بالعفو عن صغار ذنوبهم.

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ أي: صاحب الملك، والسلطان، والقدرة النافذة.

﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾؛ أي: السامي القدر المتناهي في الكرم والجود، تقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار؛ أي: تناهيا في الاحتراق حتىٰ يقتبس منهما.

﴿حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ الجنود: تطلق تارة علىٰ العسكر، وتطلق أخرىٰ علىٰ الأعوان، والمراد بهم هنا: الجماعات الذين تجندوا علىٰ أنبياء الله تعالى، واجتمعوا علىٰ أذاهم.

﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ هو طاغية مصر صاحب موسى عليه السلام.

﴿وَثَمُودَ﴾ قبيلة بائدة من العرب، لا يعرف من أخبارها إلا ما قصه الله علينا.

﴿مُّحِيطُۢ﴾؛ أي: هم في قبضته تعالىٰ وحوزته، كمن أحيط به فانسدت عليه المسالك.

﴿مَّجِيدٞ﴾، أي: شريف عالي المرتبة من بين الكتب الإلهية في النظم والمعنى، متضمن للمكارم الدنيوية والأخروية.

﴿فِي لَوۡحٖ﴾ قال الراغب: اللوح ـ بفتح اللام ـ: واحد ألواح السفينة، وكل صحيفة عريضة خشباً وعظماً، وهو هنا مخلوق عظيم خلق للبقاء كالعرش، كتب الله فيه الكائنات.

﴿مَّحْفُوظٍ﴾؛ أي: من التحريف والتغيير والتبديل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾؛ لأن البروج حقيقة في القصور التي تنزل فيها الأكابر والأشراف، فاستعيرت لمنازل الكواكب السيارة، ومقر الثوابت منها بجامع العلو في كل منهما.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾.

ومنها: تنكيرهما للإبهام في الوصف؛ أي: وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما.

ومنها: تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ وهو أن يستثنىٰ من صفة ذم منفية صفة مدح، أو أن يثبت لشيء صفة مدح، ويؤتىٰ بعدها بأداة الاستثناء تليها صفة مدح أخرى:

ومن الأول: بيت النابغة في مديح الغسانيين:

وَلَا عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

وقول ابن الرقيات ـ وقد اقتبس لفظ القرآن، ورمق سماء بلاغته ـ:

وَمَا نَقَمُوْا مِنْ أُمَيَّةَ إِلَّا ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُوْنَ إِنْ غَضِبُوْا

ومنه قول ابن نباتة المصري:

وَلَا عَيْبَ فِيْهِ غَيْرَ أَنِّيْ قَصَدْتُهُ ... فَأَنْسَتْنِيَ ٱلأَيَّامُ أَهْلاً وَمَوْطِنَا

وقول المعري:

تُعَدُّ ذُنُوْبِيْ عِنْدَ قَوْمٍ كَثِيْرَةً ... وَلَا ذَنْبَ لِيْ إِلاَّ ٱلْعُلاَ وَٱلْفَضَائِلُ

وأما الثاني: فقليل في الشعر، ومنه قول بعضهم:

مَا فِيْكَ مِنَ ٱلْجَمَالِ سِوَىٰ ... أَنَّكَ مِنْ أَقْبَحِ ٱلْقَبِيْحَاتِ

ومنها: التعبير بلفظ المضارع في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ﴾ مع أن الإيمان قد وجد منهم في الماضي لإرادة الاستمرار والدوام عليه، فإنهم ما عذبوهم لإيمانهم في الماضي، بل لدوامهم عليه في الآتي، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا علىٰ ما مضى، فكأنه قيل: إلا أن يستمروا علىٰ إيمانهم.

ومنها: وصفه تعالىٰ بكونه عزيزاً حميداً، له ملك السموات والأرض في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩﴾ للإشعار بمناط إيمانهم وموجبه.

ومنها: تأخير صفة الملك عن ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ لإفادة أن الملك التام لا يحصل إلا عند حصول الكمال في القدرة التي دل عليها ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾، وفي العلم الذي دل عليه ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ لأن من لم يكن تام القدرة والعلم.. لا يمكنه أن يفعل الأفعال الحميدة.

ومنها: إيراد ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ إشعاراً بكمال حلمه وكرمه؛ حيث لم يعجل في القهر ويقبل التوبة، وإن طالت مدة الحوبة.

ومنها: الطباق بين ﴿يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

ومنها: المقابلة بين مصير المجرمين ومصير المؤمنين في قوله؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الآية، وقوله؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي﴾.

ومنها: تأخير ﴿ثمود﴾ عن ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ مع تقدمهم علىٰ فرعون زماناً في قوله: ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ۝١٨﴾ لرعاية الفواصل.

ومنها: تنكير التكذيب في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩﴾؛ لإفادة التعظيم، كأنه قيل: ليسوا مثلهم في ذلك، بل هم أشد منهم في الكفر والطغيان والتكذيب.

ومنها: المجاز المرسل أيضاً في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩﴾ علاقته الحالية؛ لأن التكذيب معنىً من المعاني، ولا يحل الإنسان فيه، وإنما يحل في مكانه، فاستعمال التكذيب في مكانه مجاز أطلق فيه الحال وأريد المحل، فعلاقته الحالية.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾ حيث مثل عدم نجاتهم من بأس الله بعدم فوت المحاط به عن المحيط الذي سد عليه مسلكه، بحيث لا يمكنه الهرب منه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ إظهار عظمة الله تعالىٰ وباهر قدرته.

٢ ـ بيان وعيد المجرمين الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، ووعد الصابرين علىٰ فتنتهم.

٣ ـ بيان شدة بطشه تعالى للظلمة والجبابرة.

٤ـ بيان بعض صفاته التي تدل على شدة بطشه.

٥ ـ ذكر بعض الظلمة والجبابرة من الأمم المكذبة المهلكة؛ لتكون عبرة لمن حذا حذوها من هذه الأمة.

٦ ـ ذكر تكذيب المشركين لهذا القرآن أشد تكذيب.

٧ ـ ذكر بعض صفات القرآن الكريم[١].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً

* * *

(١) تمت سورة البروج بعون الله الذي إليه الرجوع والعروج، منتصف ليلة الإثنين السادس عشر من شهر رمضان المبارك من شهور سنة ١٦/٩/ ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

سورة الطارق

سورة الطارق مكية بلا خلاف نزلت بعد سورة البلد، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ بمكة. وآياتها: سبع عشرة آية. وكلماتها: اثنتان وسبعون كلمة. وحروفها مئتان وأحد وسبعون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها من أوجه:

١ ـ أنه ابتدأ هذه بالقسم بالسماء كما بدأ السابقة بالحلف بها.

٢ ـ أنه ذكر في السابقة تكذيب الكفار للقرآن، وهنا وصف القرآن بأنه قول فصل وما هو بالهزل، رداً علىٰ أولئك المكذبين.

٣ ـ أنه ذكر في هذه وعيد الكافرين بقوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تسليةً للنبي ﷺ، كما ذكر في السابقة وعيد أصحاب الأخدود.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما قبلها تكذيب الكفار للقرآن.. نبه هنا علىٰ حقارة الإنسان، ثم استطرد منه إلىٰ أن هذا القرآن قول فصل جد لا هزل فيه ولا باطل يأتيه، ثم أمر نبيه بإمهال الكافرين المكذبين، وهي: آية الموادعة منسوخة بآية السيف.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال ابن حزم رحمه الله تعالى: سورة الطارق كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ فهي نزلت موادعة، ثم نسخت بآية السيف.

سبب نزولها: ما روي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً يوماً مع أبي طالب، فانحط نجم، فامتلأت الأرض نوراً، ففزع أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟ فقال: «هذا نجم رمي به، وهو آية من آيات الله تعالى»، فعجب أبو طالب، ونزل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾.

فضلها: ومما ورد في فضلها ما روي عن محارب بن دثار عن جابر قال:

صلى معاذ المغرب بالناس، فقرأ فيها البقرة والنساء، فقال له النبي ﷺ: «أفتَّان أنت يا معاذ؟ كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق والشمس وضحاها».

تسميتها: سميت بالطارق لذكره في أولها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾
فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ
﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾
إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ
رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة والسورة التي قبلها.

واعلم: أن الله سبحانه أقسم في مستهل هذه السورة بالسماء ونجومها الثاقبة، إن النفوس لم تترك سدى، ولم ترسل مهملة، بل قد تكفل بها من يحفظها ويحصي أعمالها، وهو الله سبحانه، وفي هذا وعيد للكافرين، وتسلية للنبي ﷺ وأصحابه، فكأنه يقول لهم: لا تحزنوا لإيذاء قومكم لكم، ولا يضق صدركم لأعمالهم، ولا تظنن أنا نهملهم ونتركهم سدىٰ، بل سنجازيهم علىٰ أعمالهم بما يستحقون، لأنا نحصي عليهم أعمالهم، ونحاسبهم عليها يوم يعرضون علينا. ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ والعد إنما يكون للحساب والجزاء.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين[1] أن الإنسان لم يترك سدىٰ، ولم يخلق عبثاً.. نبهه إلىٰ الدليل الواضح علىٰ صحة معاده، وأنه لا بد أن يرجع إلىٰ ربه ليجازيه علىٰ ما عمل، فذكره بنفسه، ولفت نظره إلىٰ كيفية خلقه ومنشئه، وأنه خلق من الماء الدافق الذي لا تصوير فيه، ولا تقدير للآلات التي يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء وغيرها، ثم أنشأه خلقاً كاملاً مملوءاً بالحياة والعقل والإدراك، قادراً علىٰ القيام بالخلافة في الأرض.

(١) المراغي.

فالذي خلقه علىٰ هذه الأعضاء قادر أن يعيده إلىٰ الحياة في يوم تنكشف فيه المستورات، وتبين الخفايا، فيكون إبداؤها زيناً في وجوه بعض الناس، وشيناً في وجوه بعض آخرين، وليس للمرء حينئذٍ قوة يدفع بها عن نفسه ما يحل به من العذاب، ولا ناصر يعينه على الخلاص من الآلام.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ. . .﴾ إلىٰ آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين قدرته علىٰ إعادة الإنسان بعد الموت، ولفت النظر إلى التدبر إلىٰ برهان هذه القدرة. . شرع يثبت صحة رسالة رسوله الكريم إلىٰ الناس، وصحة ما يأتيهم به من عند الله، وأهم ذلك القرآن الكريم الذي كانوا يقولون عنه إنه أساطير الأولين، فأقسم بالسماء التي تفيض بمائها، والأرض التي تقيم أمور المعاش للناس والحيوان بنباتها، إنه لقول حق لا ريب فيه، ثم بين أنه عليم بأن الذين يدافعون عن تلك الأباطيل التي هم عليها قوم ماكرون لا يريدون بك إلا سوءاً، وسيأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، فلا يحزنك ما ترىٰ منهم، ولا تستبطىء حلول النكال بهم، بل أمهلهم قليلاً وسترىٰ ما سيحل بهم، ولا يخفىٰ ما في هذا من وعيد شديد بأن ما سيصيبهم قريب، سواء كان في الحياة الدنيا، أو فيما بعد الموت، ووعد للنبي ﷺ، ولكل داعٍ إلىٰ الحق بأنهم سيبلغون من النجاح ما يستحقه عملهم، وأن المناوئين لهم هم الخاسرون.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ. . .﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: نزلت في أبي الأشد، كان يقوم علىٰ أديم فيقول: يا معشر قريش، من أزالني عنه فله كذا، ويقول: إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر، فأنا أكفيكم وحدي عشرة، واكفوني أنتم تسعة، فأنزل الله سبحانه هذه السورة.

(١) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

أقسم سبحانه وتعالى في بداية هذه السورة الكريمة بالسماء والطارق فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ والسماء: كل ما علانا، فكأنه تبارك وتعالىٰ أقسم بالعالم العلوي وما فيه، ثم خصص بعض ما في ذلك العالم السماوي، فأقسم بالطارق.

والطارق في الأصل[١]: اسم فاعل من طرق طرقاً وطروقاً إذا جاء ليلاً. قال الماوردي: وأصل الطرق: الدق، ومنه سميت المطرقة؛ لأنه يطرق بها الحديد، وسمي الطريق؛ لأنه يضرب بالرجل، وسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه إلىٰ طرق الباب غالباً؛ حيث إن الأبواب مغلقة في الليل، ثم اتسع في كل ما ظهر بالليل كائناً ما كان، ثم اتسع في التوسع حتىٰ أطلق علىٰ الصور الجالية البادية بالليل، والمراد هنا: الكوكب البادي بالليل.

قال الراغب: عبر عن النجم بالطارق؛ لاختصاص ظهوره بالليل.

قالت هند بنت عتبة يوم أحد:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقِ نَمْشِي عَلَىٰ ٱلنَّمَارِقِ

أي: أبونا كالنجم شرفاً وعلواً. قال الشاعر:

يَا رَاقِدَ ٱللَّيْلِ مَسْرُوْرَاً بِأَوَّلِهِ إِنَّ ٱلْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَارَا
لَا تَفْرَحَنَّ بِلَيْلٍ طَابَ أَوَّلُهُ فَرُبَّ آخِرِ لَيْلٍ أَجَّجَ ٱلنَّارَا

قال سهل رحمه الله: وما طرق علىٰ قلب محمد من زوائد البيان والإنعام. انتهى.

وقد أكثر سبحانه[٢] في القرآن الحلف بالسماء، وبالشمس، وبالقمر، وبالليل، لأن في أحوالها وأشكالها، وسيرها ومطالعها ومغاربها من عجائب وغرائب دلائل لمن يتدبر ويتفكر بأن لها خالقاً مدبراً يقوم بشؤونها، ويحصي أمرها، لا يشركه سواه في هذا الإبداع والصنع.

وقد اختلف في الطارق[٣]، هل هو نجم معين، أو جنس النجم؟ فقيل: هو

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

زحل، وقيل: الثريا، وقيل: هو الذي ترمىٰ به الشياطين، وقيل: هو جنس النجم، قال في «الصحاح»: والطارق: النجم الذي يقال له: كوكب الصبح، ثم بين سبحانه ما هو الطارق تفخيماً لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾؛ أي:[1] أيُّ شيء أعلمك يا محمد بالطارق، فإنه لا يناله إدراك الخلق إلا بالتلقي من الخلاق العليم، كأنه قيل: ما هو؟ فقيل: هو ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾؛ أي: الكوكب المضيء، تقول العرب: وما أدراك ما كذا؟ أي: وأي شيء يعلمك حقيقته وهو أسلوب من كلامهم، يراد به التفخيم والتعظيم، كأنه في فخامة أمره لا يمكن الإحاطة به ولا إدراكه.

قال سفيان: كل ما في القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبره، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لم يخبره.

ثم فسر هذا الطارق بقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾، وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدَّر، كأنه قيل: ما هو؟ فقيل: هو النجم الثاقب، كما مر آنفاً، ولم يقل: والنجم الثاقب مع أنه أخصر وأظهر، فعدل عنه تفخيماً لشأنه، فأقسم أولاً بما يشترك فيه هو وغيره وهو الطارق، ثم سأل عنه بالاستفهام تفخيماً لشأنه ثانياً، ثم فسره بالنجم إزالة لذلك الإبهام الحاصل بالاستفهام.

والمعنى[2]: أي لا أقسم بكل طارق من الكواكب، بل أقسم بطارق معين هو النجم الثاقب؛ أي: الذي يثقب الظلام، ويهتدى به في ظلمات البر والبحر، ويوقف به على أوقات الأمطار وغيرها من أحوال يحتاج إليها الإنسان في معاشه؛ وهو الثريا عند جمهرة العلماء؛ لأن العرب تسميه النجم ويسمى كوكب الصبح، ويرى الحسن أن المراد كل كوكب؛ لأن له ضوءاً ثاقباً لا محالة؛ أي: في نفسه، وإن حصل التفاوت بالنسبة، أو المعهود بالثقب، فهو من باب ركب السلطان، وهو زحل الذي في السماء السابعة لا يسكنها غيره؛ لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات؛ لأنه إذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء.. هبط زحل من السابعة، فكان معها في سمائها، ثم يرجع إلى مكانه من السابعة، فهو طارق حين ينزل وحين يصعد.

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه، فقال: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ والجملة جواب[1] القسم وما بينهما اعتراض جيء به لتأكيد فخامة المقسم به المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها، و ﴿إِنْ﴾ نافية، و ﴿لَـمَّا﴾ بمعنى: إلا. قال الزجاج: استعملت ﴿لما﴾ في موضع ﴿إلا﴾ في موضعين:

أحدهما: بعد إن النافية.

والآخر: في باب القسم، تقول: سألتك لما فعلت بمعنى: إلا فعلت، وعدي الحفظ بـ ﴿على﴾؛ لتضمنه معنى الهيمنة، والمعنى: ما كل نفس من النفوس الطيبة والخبيثة إنسانية أو جنية إلا عليها حافظ مهيمن رقيب؛ وهو الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾.

والخلاصة: أي أحلف[2] بالسماء وبالنجم الثاقب أن للنفوس رقيباً يحفظها ويدبر شؤونها في جميع أطوار وجودها، حتى ينتهي أجلها، وذلك الحافظ والرقيب هو ربها المدبر لشؤونها، المصرف لأمورها في معاشها ومعادها.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿إِنْ﴾: خفيفة، ﴿كُلُّ﴾: رفعاً، ﴿لما﴾ خفيفة فهي عند البصريين: مخففة من الثقيلة، و ﴿كُلُّ﴾؛ مبتدأ، واللام هي الداخلة للفرق بين إنْ النافية وإن المخففة، و ﴿ما﴾: زائدة، و ﴿حَافِظٌ﴾: خبر المبتدأ، و ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق به، والمعنى عليه: إنه أي: إن الشأن والحال كل نفس لعليها حافظ.

وعند الكوفيين: ﴿إن﴾: نافية، و ﴿اللام﴾: بمعنى إلا، و ﴿ما﴾: زائدة، و ﴿كُلُّ﴾ و ﴿حَافِظٌ﴾: مبتدأ وخبر، والمعنى عليه: ما كل نفس إلا عليها حافظ، والترجيح بين المذهبين مذكور في علم النحو.

وقرأ الحسن والأعرج وقتادة وعاصم وابن عامر وحمزة وأبو عمرو ونافع بخلاف عنهما: ﴿لَمَّا﴾ مشددة، وهي بمعنى: إلا، لغة مشهورة في هذيل وغيرهم، تقول العرب: أقسمت عليك لما فعلت كذا، أي: إلا فعلت، قاله الأخفش، فعلى هذه القراءة يتعين أن تكون ﴿إن﴾ نافية، والمعنى: ما كل نفس إلا عليها حافظ،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

وحكى هارون أنه قرىء ﴿إن﴾ بالتشديد ﴿كلَّ﴾ بالنصب، فاللام هي الداخلة في خبر ﴿إن﴾ و ﴿ما﴾ زائدة، و﴿حَافِظٌ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾، والمعنى: إن كل نفس لعليها حافظ، والظاهر[١] عموم كل نفس، وقال ابن سرين وقتادة وغيرهما: إن كل نفس مكلفة عليها حافظ يحصي أعمالها ويعدها للجزاء عليها، فيكون في الآية وعيد وزجر، وما بعد ذلك يدل عليه واختلف في الحافظ: فقيل: الحافظ: هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها، ويحصون ما تكسب من خير وشر، وقيل: الحافظ: هو الله سبحانه، وقيل: هو العقل يرشدهم إلىٰ المصالح، ويكفهم عن المفاسد، والأول أولىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠﴾، وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، وقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ﴾، والحافظ في الحقيقة: هو الله سبحانه وتعالى، كما في قوله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ وحفظ الملائكة من حفظه؛ لأنهم بأمره.

ولما ذكر[٢] أن كل نفس عليها حافظ.. أتبع ذلك بوصية الإنسان بالنظر في أول نشأته الأولىٰ حتىٰ يعلم أن من أنشأه قادر علىٰ إعادته وجزائه، فيعمل لذلك، ولا يملي علىٰ حافظ إلا ما يسره في عاقبته فقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾؛ أي:[٣] ليتفكر الإنسان المركب من الجهل والنسيان، المنكر للنشور والحشر والميزان ﴿مِمَّ﴾؛ أي: من أي شيء، فأصله مما حذفت الألف تخفيفاً كما مرَّ في ﴿عَمَّ﴾؛ أي: من أي شيء ﴿خُلِقَ﴾ حتىٰ يتضح له أن من قدر علىٰ إنشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط، فهو قادر علىٰ إعادته، بل أقدر علىٰ قياس العقل، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ما ينفعه يومئذٍ ويجديه، ولا يملي حافظه ما يرديه. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن كل نفس عليها حافظ، وأردت معرفة قدرة ذلك الحافظ.. فأقول لك: لينظر الإنسان مم خلق؛ أي: لينظر بعقله، ويتدبر بقلبه في مبدأ خلقه، ليتضح له قدرة حافظه الذي وهب له العقل، وأنه إذا قدر علىٰ إنشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط.. فهو علىٰ إعادته أقدر، فليعمل بما به يسر حين الإعادة.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر لمحيط.
(٣) روح البيان.

ثم أجاب عن الاستفهام بقوله: ﴿خُلِقَ﴾ الإنسان ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾؛ أي: مدفوق، وهي قراءة زيد بن علي؛ أي: مصبوب في الرحم، والجملة مستأنفة[1] واقعة في جواب استفهام مقدر، كأنه قيل: مم خلق؟ فقيل: خلق من ماء ذي دفق، وهو صب فيه دفع وسيلان بسرعة، يقال: دفق دفقاً ـ من باب نصر ـ: إذا سال بشدة وسرعة، وإنما أوِّل بالنسبة، نظير تامر ولابن؛ لأن الصب لا يتصور من النطفة، لظهور أنها مصبوبة لا صابة، فتوصيفه بأنه دافق لمجرد نسبة مبدأ الاشتقاق إلىٰ ذات الموصوف به مع قطع النظر عن صدوره منه. وقال بعضهم: دافق؛ أي: مدفوق ومصبوب في الرحم، نحو سر كاتم؛ أي: مكتوم، وعيشة راضية؛ أي: مرضية، فهو فاعل بمعنى: مفعول، والمراد به: الممتزج من الماءين في الرحم، كما ينبىء عنه ما بعده في الآية، وللنظر إلىٰ امتزاجهما عبر عنهما بصيغة الإفراد، أعني قوله: ﴿مِن مَّآءٍ﴾، ووصف الماء الممتزج بالدافق من قبيل توصيف المجموع بوصف بعض أجزائه؛ لأن الدافق هو ماء الرجل فقط.

﴿يَخْرُجُ﴾ ذلك الدافق الممتزج في الرحم ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ للرجل ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ للمرأة، والصلب: الشديد، وباعتباره سمي الظهر صلباً؛ أي: يخرج من بين ظهر الرجل وترائب المرأة، وهي ضلوع صدرها، وعظام نحرها؛ حيث تكون القلادة، وكل عظم من ذلك تريبة.

وعن علي وابن عباس رضي الله عنهم: بين الثديين، وفي «القاموس»: الترائب: عظام الصدر، أو ما ولي الترقوتين منه، أو بين الثديين والترقوتين، أو أربع أضلاع من يمنة الصدر، وأربع من يسرته، أو اليدان والرجلان والعينان، أو موضع القلادة. انتهى.

ومن ذلك يتحمل الوالد مصالح معيشة الولد، وتشتد رقة الوالدة ومحبتها للولد، وإيراد ﴿بَيْنِ﴾[2] إشارة إلىٰ ما يقال: إن النطفة تتكون من جميع أجزاء البدن، ولذلك يشبه الولد والديه غالباً، فيجتمع ماء الرجل في صلبه، ثم يجري منه، ويجتمع ماء المرأة في ترائبها، ثم يجري منها، وفي «قوت القلوب»: أصل المني: هو الدم يتصاعد في خرزات الصلب، وهناك مسكنه، فتنضجه الحرارة، فيستحيل

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

أبيض، فإذا امتلأت منه خرزات الصلب ـ وهو الفقار ـ طلب الخروج من مسلكه، وهو عرقان متصلان إلىٰ الفرج، منهما ينزل المني، وفي «أسئلة الحكم»: بين طريق البول وطريق المني جلد رقيق، يكاد لا يتشخص؛ كيلا يختلط المني بماء البول، فيفسد حرارة جوهره. انتهىٰ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَخْرُجُ﴾ مبنياً للفاعل، وقرأ ابن أبي عبلة وابن مقسم مبنياً للمفعول، وقرأ الجمهور: ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ بضم الصاد وسكون اللام، وقرأ ابن أبي عبلة وابن مقسم وأهل مكة وعيسى: بضم الصاد واللام، وقرأ اليماني: بفتحهما، ويقال: صالب بوزن قالب، ومنه قول العباس بن عبد المطلب في أبياته المشهورة التي مدح بها النبي ﷺ:

تُـنْـقَـلُ مِـنْ صَـالِـبٍ إِلَـىٰ ٱلـرَّحِـمْ

وقد تقدمت اللغات في الصلب في سورة النساء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ كما سيأتي بيانها أيضاً في مبحث التصريف، وقال في «الصحاح»: التريبة واحدة الترائب، وهي عظام الصدر، قال أبو عبيدة: جمع التريبة: ترائب، والمعنىٰ: أي خلق من ماء مدفوق يخرج من الظهر والترائب لكل من الرجل والمرأة، فهو إنما يكون مادة لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة، ووقع في رحم المرأة.

والخلاصة[2]: أن الولد يتكوَّن من مني مدفوق من الرجل، فيه جرثومة حية دقيقة لا ترى إلا بالآلة المكبرة (الميكرسكوب)، ولا تزال تجري حتىٰ تصل إلى جرثومة نظيرتها من جراثيم المرأة، وهي البويضة، ومتى التقت الجرثومتان.. اتحدتا، وكونتا جرثومة الجنين.

والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ للخالق، فإن قوله: ﴿خُلِقَ﴾ يدل عليه؛ أي: إن الخالق الذي خلق الإنسان ابتداء مما ذكر ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾؛ أي: علىٰ إعادته بعد موته ﴿لَقَادِرٌ﴾؛ أي: لبين القدرة، بحيث لا يرىٰ له عجز أصلاً، وتقديم[3] الجار والمجرور علىٰ عامله، وهو ﴿لَقَادِرٌ﴾ للاهتمام به من حيث إن الكلام فيه بخصوصه،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

فهو لا ينافي قادريته علىٰ غيره، والضمير في ﴿رَجْعِهِۦ﴾ عائد على ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، قال بعضهم: خلقه لإظهار قدرته، ثم رزقه لإظهار الكرم، ثم يميته لإظهار الجبروت، ثم يحييه لإظهار الثواب والعقاب.

والمعنىٰ: أي إن الذي قدر علىٰ خلق الإنسان ابتداء من هذه المادة قادر علىٰ أن يرده حياً بعد أن يموت بالبعث، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وأصرح منهما قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وقال مجاهد[1]: علىٰ أن يرد الماء في الإحليل، وقال عكرمة والضحاك: علىٰ أن يرد الماء في الصلب، وقال مقاتل بن حيان: يقول: إن شئت رددته من الكبر إلىٰ الشباب، ومن الشباب إلىٰ الصبا ومن الصبا إلىٰ النطفة، وقال ابن زيد: إنه علىٰ حبس ذلك الماء حتىٰ لا يخرج لقادر، والأول أظهر، ورجحه ابن جرير والثعلبي والقرطبي.

ثم بين وقت الرجع فقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ ظرف لرجعه، ولا يضر الفصل بالأجنبي للتوسع في الظروف، وقيل: العامل في الظرف ﴿لَقَادِرٌ﴾، واعترض عليه بأنه يلزم عليه تخصيص القدرة بهذا اليوم، وقيل: العامل فيه مقدر؛ أي: يرجعه يوم تبلىٰ السرائر، وقيل: العامل فيه مقدر، وهو اذكر، فيكون مفعولاً به. ومعنىٰ ﴿تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾: أي: تعرف وتكشف، والسرائر[2]: جمع سريرة بمعنىٰ السر، وهي التي تكتم وتخفىٰ؛ أي: يوم يتعرف فيه، ويتصفح ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفىٰ من الأعمال، ويميز بين ما طاب منها وما خبث، والإبلاء: هو الابتلاء والاختبار، وإطلاق الإبلاء علىٰ الكشف والتمييز من قبيل إطلاق اسم السبب على المسبب؛ لأن الاختبار يكون للتعريف والتمييز، وابتلاء الله عباده بالأمر والنهي يكون لكشف ما علم منهم في الأزل من الطاعة أو العصيان. وقال بعضهم: المراد بالسرائر: الفرائض، كالصوم والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة، فإنها سر بين العبد وبين ربه، ولو شاء العبد أن يقول: فعلت ذلك، ولم يفعله أمكنه، وإنما تظهر صحة تلك السرائر يوم القيامة. قال ابن عمر

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

رضي الله عنهما: يبدي الله تعالىٰ يوم القيامة كل سر، فيكون زيناً في وجوه، وشيناً في وجوه، يعني: من أدىٰ الأمانات كان وجهه مشرقاً، ومن ضيعها كان وجهه أغبر أسود مظلماً.

والمعنىٰ[1]: أي هو سبحانه قادر على أن يعيد الإنسان إلى الحياة في اليوم الذي تنكشف فيه السرائر، وتتضح الضمائر، ويتميز الطيب من الخبيث، فلا يبقىٰ في سريرة سر، بل تنقلب كل خفية إلىٰ الجهر، ولا يكون جدال ولا حجاج، ولا يبقىٰ لذوي الأعمال إلا انتظار الجزاء علىٰ ما قدموا، فإما حلول في نعيم، وإما مصير إلىٰ عذاب أليم ﴿فَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: فما للإنسان، و ﴿ما﴾ نافية ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ في نفسه يمتنع بها من العذاب الذي حل به ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ من خارج ينتصر به؛ إذ كل نفس يومئذٍ رهينة بما كسبت، مشغولة بجزاء ما جرت عليه خيراً كان أو شراً، فالمراد[2] بالقوة المنفية: هي القوة الثابتة له في نفسه، لا القوة مطلقاً، وإلا لم يبق للعطف فائدة؛ لأن القوة المستفادة من الغير قوة أيضاً، وقد نفيت أولاً، والقوة عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف، وفي «التعريفات»: هي تمكن الحيوان من الأفعال الشاقة، ونصر المظلوم إعانته علىٰ الظالم، وخلاصه منه.

والحاصل: أن القوة التي يدافع بها الإنسان عن نفسه[3]؛ إما من ذاته، وقد نفاها بقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ﴾ وإما من غيره، وقد نفاها بقوله: ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾؛ أي: فلا تكون لأحد قوة علىٰ الإفلات مما قدر له من جزاء عمله إن كان مسيئاً، ولا ناصر ينصره فيحميه مما حتم أن يقع عليه.

والخلاصة[4]: أي فما للإنسان من قوة في نفسه يمتنع بها من عذاب الله، ولا ناصر ينصره مما نزل به. قال عكرمة: هؤلاء الملوك مالهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر، قال سفيان: القوة: العشيرة، والناصر: الحليف، والأول أولىٰ.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١﴾: ﴿ذَاتِ﴾: مؤنث ذو، بمعنى: صاحب، والرجع: المطر، سمي رجعاً. لما أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض، أو أرادوا بذلك التفاؤل ليرجع، ولذلك سموه: أوباً؛ ليؤوب، فيكون الرجع مصدراً من اللازم بمعنىٰ الرجوع، لا من المتعدي. وقال الراغب: سمي المطر رجعاً لرد الهواء ما تناله من الماء. وقال الزجاج: الرجع: المطر؛ لأنه يجيء ويرجع ويتكرر، وفي «كشف الأسرار»: لأنه يرجع كل عام ويتكرر، وقيل: الرجع: الشمس والقمر والنجوم، يرجعن في السماء، تطلع من ناحية، وتغيب في أخرىٰ، قال الجرجاني في كتاب «إعجاز القرآن»، وابن زيد: وقيل: معنىٰ ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾: ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد، وقال بعضهم: معنىٰ ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾: ذات النفع، ووجه تسمية المطر رجعاً: ما قاله القفال: لأنه مأخوذ من ترجيع الصوت، وهو إعادته، وكذا المطر لكونه يعود ويرجع مرة بعد أخرى سمي رجعاً.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾ والصدع: ما تتصدع عنه الأرض، وتنشق من النبات إذ المحاكي للنشور هو تشقق الأرض، وظهور النبات منها لإظهار العيون، فالمراد بالصدع نبات الأرض سمي به؛ لأنه صادع للأرض، والأرض تتصدع به، والصدع في اللغة: الشق.

والحاصل: أن الصدع إذا كان اسماً للنبات، فكأنه قال: والأرض ذات النبات، وإن كان المراد به الشق، فكأنه قال: والأرض ذات الشق الذي يخرج منه النبات ونحوه، كالأموات. وقال مجاهد: والأرض ذات الطرق التي تتصدعها المشاة، وقيل: ذات الحرث؛ لأنه يصدعها، وقيل: ذات الأموات؛ لانصداعها عنهم عند البعث. وفي «المفردات»: الصدع[1]: شق في الأجسام الصلبة، كالزجاج والحديد ونحوها. وفي الآية إشارة إلىٰ أن السماء ذات الرجع كالأب، والأرض ذات الصدع كالأم، وما ينبت من الأرض كالولد.

والحاصل: أن الله سبحانه أقسم أولاً بالسماء مجردة عن التوصيف ـ أعني: أول السورة ـ وثانياً مقيدة بكونها ذات الرجع، وكذا بالأرض ذات الصدع إيماء إلىٰ المنة عليهم بكثرة المنافع، ودلالة علىٰ العلم التام، والقدرة الكاملة فيها.

والمعنىٰ[2]: أي أقسم لكم بالسماء ذات المطر، وهو أنفع شيء ينتظره

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

المخاطبون من السماء، إذ يبدل جدبهم خصباً، ويعيد موات أرضهم حياً، ويصير به لهب صحرائهم هواءً عليلاً، وأقسم بالأرض التي تتصدع بالنبات والشجر والثمار مما به حياتهم، وحياة أنعامهم، وهم في بلاد قفراء جدباء، ونظير هذا قوله: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ الآية.

ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾: أي: إن هذا[1] القرآن الذي من جملته ما تلي من الآيات الناطقة بمبدأ حال الإنسان ومعاده ﴿لَقَوْلٌ﴾؛ أي: لكلام؛ إذ القول كثيراً ما يكون بمعنىٰ المقول ﴿فَصْلٌ﴾؛ أي: فاصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما مبالغ في ذلك كأنه نفس الفصل، كما قيل له فرقان بمعنىٰ: الفارق.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: هو كلام جد، وليس بالهزل، والهزل: اللعب، وفي «فتح الرحمن: الهزل: ما استعمل في غير ما وضع له من غير مناسبة ولا علاقة، والجد: ضده، وهو أن يقصد به المتكلم حقيقة كلامه؛ أي: ليس في شيء من القرآن شائبة هزل، بل كله جد محض لا هزل فيه، فمن حقه أن يهتدي به الغواة، وتخضع له رقاب العتاة، ويظهر من الآية أن من يؤم القرآن بهزل، أو يتفكه بمزاح به يكفر، وفي «هدية المهديين»: إذا أنكر رجل آية من القرآن، أو سخر بها، أو مزح بها، أو استهان بها فقد كفر، ومن قرأ القرآن علىٰ ضرب الدف أو القصبة أو المزمار أو سائر الملاهي.. فقد كفر؛ لأنه استهزأ به وأهانه، فينبغي للمؤمن أن يحترز من هذا كله وأمثاله، ويجتنب عنه. قال أبو حيان: ويجوز[2] أن يعود الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ علىٰ الكلام الذي أخبر فيه ببعث الإنسان يوم القيامة، وابتلاء سرائره؛ أي: إن هذا القول قول جزم مطابق للواقع، لا هزل فيه، بل هو جد كله. انتهىٰ.

والمعنى: أي أقسم لكم أيها المشركون بالسماء والأرض الموصوفين بما ذكر علىٰ أن هذا القول الذي جاءكم به محمد ﷺ لقول حق، لا مجال للريب فيه، وهو جد لا هزل فيه، فمن حقه أن يهتدي به الغواة، وتخضع له رقاب الطغاة.

أخرج الترمذي والدارمي: عن علي كرم الله وجهه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة»، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ فيه الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق علىٰ كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن لمَّا سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾، من قال به.. صدق، ومن حكم به.. عدل، ومن عمل به.. أجر، ومن هدي به.. هدي إلى صراط مستقيم».

ثم بين ما يدبرونه للمؤمنين، وما تحويه صدورهم من غل لهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن أهل مكة ومعاندي قريش ﴿يَكِيدُونَ﴾ في إبطال أمره، وإطفاء نوره ﴿كَيْدًا﴾؛ أي: حسبما في قدرتهم؛ أي: يمكرون في إبطال ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين الحق، قال الزجاج: يخاتلون النبي ﷺ، ويظهرون ما هم علىٰ خلافه. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: أقابلهم[1] بكيد متين لا يمكن رده، وأستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأجازيهم جزاء كيدهم، قيل: هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر.

وكيد المحدث العاجز الضعيف لا يقاوم كيد القديم القادر القوي، فتسمية الاستدراج والانتقام في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بالنار كيداً من باب المشاكلة؛ لوقوعه في مقابلة كسبهم جزاء له، وإلا فالكيد وهو المكر والاحتيال في إيصال المكروه إلىٰ الغير بخفية لا يجوز إسناده إليه تعالىٰ مراداً به معناه الحقيقي، وتسمية جزء الشيء باسم ذلك الشيء علىٰ سبيل المشاكلة، شائع كثير في كلامهم، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ﴾.

والمذهب الأسلم: إثبات الكيد له تعالىٰ كما أثبته لنفسه في هذه الآية وغيرها، ويقال في تفسيره: كيد الله هو صفة ثابتة له تعالىٰ؛ نثبتها ونعتقدها لا نكيفها ولا نمثلها، أثرها انتقامه تعالىٰ ممن كاد برسوله ﷺ. ﴿فَمَهِّلِ﴾ يا محمد؛ أي: أخر وأنظر ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: لا تستعجل بالانتقام منهم، ولا تدع عليهم

(١) روح البيان.

بالهلاك؛ أي: لا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم، وارضَ بما يدبره لك في أمورهم.

وقوله: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ بدل من ﴿مهل﴾، وهما ـ أي: التمهيل والإمهال ـ لغتان بمعنىٰ، مثل: نزل وأنزل، والإمهال: الإنظار، وتمهل في الأمر: اتأد فيه، وكرر الأمر بالإمهال، وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير. ا هـ «نسفي». وانتصاب ﴿رُوَيْدًا﴾ علىٰ أنه مصدر مؤكد لمعنىٰ الفعل المذكور، أو نعت لمصدره المحذوف، أي: أمهلهم إمهالاً رويداً؛ أي: قريباً أو قليلاً يسيراً، فإن كل آتٍ قريب، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ بما فيه من الرمز إلىٰ قرب وقت الانتقام من الأعداء، وفي «كشف الأسرار»: وما كان بين نزول هذه الآية وبين وقعة بدر إلا زمان يسير، يقال: أَرْوَدَ يُرْوِدُ إذا رفق وتأنىٰ، ومنه: بني رويد كما في «المفردات»، وفي «الإرشاد»: هو في الأصل تصغير: رود بالضم، وهو المهل، أو إرواد مصدر أرود بالترخيم، ويأتي اسم فعل نحو: رويد زيداً؛ أي: أمهله، ويأتي حالاً نحو: سار القوم رويداً؛ أي متمهلين، ذكر معنىٰ هذا الجوهري، والبحث عنه مستوفىٰ في كتب النحو.

ولما كرر[1] الأمر بالإمهال توكيداً.. خالف بين اللفظين علىٰ أن الأول مطلق، وهذا الثاني مقيد بقوله: رويداً، وقرأ ابن عباس: ﴿أَمَهلهم﴾ بفتح الميم، وشد الهاء موافقة للفظ الأمر الأول.

والمعنى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾، أي[2]: أنهم يمكرون بالناس بدعوتهم إلىٰ مخالفة القرآن بإلقاء الشبهات كقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، وقولهم: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، أو بالطعن فيه بكون الرسول ساحراً أو مجنوناً أو تبييتهم قتله، كما جاء في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾.

وبعدئذٍ ذكر ما قابلهم ربهم به، وما جازاهم عليه كفاء عملهم فقال: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: وأقابل كيدهم بنصر الرسول، وإعلاء دينه، وجعل كلمته العليا، وكلمة الذين كفروا السفلىٰ، وسمىٰ مجازاتهم كيداً منه للتجانس في اللفظ، كما

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

قال: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، وقال عمرو بن كلثوم:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ ٱلْجَاهِلِيْنَا

ثم أمر رسوله أن يتأنىٰ عليهم ليرى أخذه تعالىٰ لهم، فقال: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: سر في دعوتك، ولا تستعجل عذابهم، فإنا سنمهلهم ليزدادوا إثماً حتىٰ إذا أخذناهم.. لم يبق لهم من راحم، ثم أكد طلب الإمهال وأقّته بوقت قريب فقال: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾؛ أي: إنا سنمهلهم قليلاً، وسترى ما يحل بهم من العذاب والنكال، وفي هذا بعث للطمأنينة إلىٰ قلوب المؤمنين الذين كانوا يخشون صولة الكفار، ويحذرون اعتداءاتهم التي لا حد لها، وتخويف لهم من عاقبة إصرارهم علىٰ ما هم فيه من الكفر والمشاقة لله ورسوله وللمؤمنين، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

فائدة: روي[1] عن همام مولىٰ عثمان رضي الله عنه أنه قال: لما كتبوا المصحف شكوا في ثلاث آيات، فكتبوا في كتف شاة، وأرسلوني إلى أبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهما، فدخلت عليهما، فناولتها أبياً، فقرأها، فإذا هي فيها ﴿لا تبديل للخلق﴾، فكتب ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، وكان فيها: ﴿لم يتسن﴾، فكتب: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، وكان فيها: ﴿فأمهل الكافرين﴾ فمحا الألف، وكتب ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ونظر فيها زيد بن ثابت، فانطلقت بها إليهم، فأثبتوها في المصحف. وفيه إشارة إلىٰ أن الله تعالى حافظ للقرآن من التحريف والتبديل، لأنه أثبته في صدور الحفاظ، وإلى أن المشكلات يرجع فيها إلىٰ أهل الحل.

الإعراب

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بالسماء، وجملة القسم مستأنفة، ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾: قسم آخر أيضاً مماثل لما قبله في إعرابه معطوف

---

(١) روح البيان.

عليه، ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: اعتراضية ﴿مَآ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾ الاستفهامية، والكاف مفعول أول لـ ﴿أدرى﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ ﴿مَآ﴾ الاستفهامية، وجملة الاستفهام جملة معترضة إنشائية لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين القسم وجوابه لتأكيد القسم، ﴿مَآ﴾ اسم استفهام مبتدأ، ﴿ٱلطَّارِقُ﴾: خبر، والجملة الابتدائية في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لـ ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾، ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو النجم، ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: صفة لـ ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾، والجملة الاسمية جملة اعتراضية لاعتراضها بين القسم وجوابه مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كما مر، كأنه قيل: ما هو الطارق؟ فأجاب بقوله: هو النجم الثاقب. ﴿إِن﴾: نافية، ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة تقدم النفي عليه، ﴿لَّمَّا﴾: ـ بالتشديد ـ: حرف بمعنىٰ إلا الحصرية، مبني علىٰ السكون ﴿عَلَيۡهَا﴾: خبر مقدم ﴿حَافِظٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، وجملة المبتدأ الأول مع خبره جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وفي تخفيف ﴿لما﴾ تقول في إعراب الجملة ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة مهملة، وإلى هذا أشار ابن مالك في «خلاصته»:

وَخُفِّفَتْ إِنَّ فَقَلَّ ٱلْعَمَلُ ... وَتَلْزَمُ ٱللَّامُ إِذَا مَا تُهْمَلُ

﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾: مبتدأ، و﴿لما﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، و ﴿مَآ﴾: زائدة ﴿عَلَيۡهَا﴾: خبر مقدم، ﴿حَافِظٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول جواب القسم.

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

﴿فَلۡيَنظُرِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره؛ إذا عرفت أن كل نفس عليها حافظ، وأردت بيان قدرة ذلك الحافظ.. فأقول لك: ﴿لينظر الإنسان﴾، ﴿اللام﴾: حرف جزم وطلب، ﴿ينظر﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾. فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿مِمَّ﴾: ﴿من﴾: حرف جر مبني بسكون علىٰ النون المدغمة في ميم ﴿ما﴾، و ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل

الجر بـ ﴿من﴾ مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ﴿ما﴾ الموصولة، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿خُلِقَ﴾ المذكور بعده، ﴿خُلِقَ﴾ فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب بقوله: ﴿فلينظر﴾ المعلق عنها بالاستفهام، ﴿خُلِقَ﴾ فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾، ﴿مِن مَّآءٍ﴾: متعلق بـ ﴿مَّآءٍ﴾، ﴿دَافِقٍ﴾: صفة لـ ﴿مَّآءٍ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: مم خلق؟ فأجيب بقوله: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾، و جملة ﴿يَخْرُجُ﴾ في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿مَّآءٍ﴾، أو في محل النصب حال منه لتخصصه بالصفة ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَخْرُجُ﴾، ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: معطوف على ﴿ٱلصُّلْبِ﴾.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿قادر﴾، ﴿لَقَادِرٌ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿قادر﴾ خبر ﴿إن﴾، والجملة مستأنفة ﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿رَجْعِهِۦ﴾، ولا يصح تعلقه بـ ﴿قادر﴾؛ لأنه تعالىٰ قادر علىٰ رجعه في كل وقت من الأوقات، ولا تختص قدرته بوقت دون وقت، ﴿تُبْلَى﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: نائب فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿من﴾: زائدة، ﴿قُوَّةٍ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها ﴿نَاصِرٍ﴾ معطوف علىٰ ﴿قُوَّةٍ﴾، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة علىٰ جملة ﴿تُبْلَى﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، والجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بالسماء، وجملة القسم مستأنفة ﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾: صفة لـ﴿السماء﴾ ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢﴾ جملة قسمية مماثلة لما قبلها في إعرابه معطوفة عليه، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿لَقَوْلٌ﴾: ﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿قول﴾: خبر ﴿إن﴾. ﴿فَصْلٌ﴾: صفة ﴿قول﴾، وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿وَمَا هُوَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: حجازية تعمل عمل ليس، ﴿هُوَ﴾: في محل الرفع اسمها ﴿بِٱلْهَزْلِ﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر

زائد، ﴿الهزل﴾: خبر لـ﴿ما﴾ الحجازية، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب اسمه، وجملة ﴿يَكِيدُونَ﴾ خبره، ﴿كَيْدًا﴾: مفعول مطلق، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. واقعة في جواب سؤال نشأ من فحوى الكلام، كأنه قيل: وماذا تسمى مكابرتهم وعنادهم؟ فقيل: إنهم إلخ، ﴿وَأَكِيدُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أكيد﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله سبحانه ﴿كَيْدًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لعامله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿إن﴾، ﴿فَمَهِّلِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت كيدهم لك، وكيدي إياهم، وأردت النصرة عليهم.. فأقول لك: ﴿مهل الكافرين﴾: ﴿مهل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، ﴿الْكَافِرِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾: ﴿أمهل﴾: فعل أمر مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد، و ﴿الهاء﴾: مفعول به، والجملة بدل كل من قوله: ﴿مهل الكافرين﴾، ﴿رُوَيْدًا﴾: مفعول مطلق معنوي لـ ﴿أمهل﴾، والأصل: إرواداً، فصغر تصغير ترخيم بحذف الزوائد؛ أي: أمهلهم إرواداً؛ أي: إمهالاً، فكأنه قال: أرودهم إرواداً؛ أي: أمهلهم إمهالاً، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: أمهلهم إمهالاً رويداً؛ أي: قليلاً يسيراً، كما مر، وإنما قلل الإمهال؛ لأن كل ما هو كائن آت قريب لا محالة، فهو قليل، والمراد به: يوم القيامة، وقيل: يوم بدر، كما مر ذلك كله.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1)﴾ ﴿السَّمَاءِ﴾: كل ما علاك فأظلك، والطارق: هو الذي يجيئك ليلاً، ومنه قول امرىء القيس:

وَمِثْلِكِ حُبْلَىٰ قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ ... فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِيْ تَمَائِمَ مُحْوِلِ

وقوله أيضاً:

أَلَمْ تَرَيَانِيْ كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقَاً ... وَجَدْتُ بِهَا طِيْبَاً وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

وفي «المصباح»: وطرقت الباب طرقاً، من باب قتل، وطرقت الحديدة: مددتها، وطرّقتها بالتشديد: مبالغة، وطرق النجم طروقاً ـ من باب قعد ـ: إذا طلع،

وكل ما أتىٰ ليلاً فقد طرق، وهو طارق، والمطرقة بالكسر ما يطرق به الحديد، أما ابن جني: فقد منع أن يأتي الطروق نهاراً، قال: وأما قول العامة: نعوذ بالله من طوارق الليل.. فغلط، لأن الطروق لا يكون إلا بالليل، والصواب أن يقال: نعوذ بالله من طوارق الليل، وجوارح النهار؛ لأن العرب تقول: طرقه إذا أتاه ليلاً، وجرحه: إذا أتاه نهاراً. وفي «الصحاح»: والطارق: النجم الذي يقال له: كوكب الصبح، وهو الثريا.

﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ هو الذي يثقب ضوءه الظلام، كأن الظلام جلد أسود، والنجم يثقبه، ومعنىٰ الثاقب: المضيء لثقبه الظلام. قال أبو عبيدة: العرب تقول: أثقب نارك؛ أي: أضئها، وقيل: الثاقب: العالي، يقال: ثقب الطائر إذا علا في الهواء، وأسف: إذا دنا من الأرض، ودوم: إذا سكن جناحيه ليستقل. وعبارة «الأساس» و «اللسان»: ثقب الشيء بالمثقب، وثقب القداح عينه ليخرج الماء النازل، وثقب اللآلي والدر ودر مثقب، وعنده در عذارى لم يثقبن، ومن المجاز: كوكب ثاقب ودري شديد الإضاءة والتلألؤ، كأنه يثقب بالظلمة، فينفذ فيها ويدرؤها، ورجل ثاقب الرأي إذا كان جزلاً نظاراً، وثقب الطائر: إذا حلق كأنه يثقب السكاك، وثقب الشيب في اللحية: أخذ في نواصيها، وباب الجميع: دخل، ويقال: ثقب الشيء يثقبه ثقباً وثقوباً: جعل فيه منفذاً ومسلكاً، ونفذ فيه، وثقبت النار ثقوباً: إذ اتقدت واشتعلت، وثقب النجم: أضاء، وشهاب ثاقب: مضيء.

﴿مِن مَّآءٍ﴾ وأصل ماء: موه، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، فصار: ماهاً، فاجتمع حرفان ضعيفان الألف والهاء، فقلبت الهاء همزة ليجاور الضعيف القوي، فصار ماء.

﴿دَافِقٍ﴾؛ أي: مدفوق من الدفق، وهو الصب؛ أي: مصبوب في الرحم، يقال: دفق يدفق دفقاً ـ من باب نصر ـ: إذا صب صباً فيه سيلان بسرعة؛ أي: منصب بدفع وسيلان وسرعة، ولم يقل: من ماءين، مع أن الولد مخلوق من ماء الرجل وماء المرأة؛ لامتزاجهما في الرحم، فصار كالماء الواحد، واتحادهما حين ابتدىء في خلقه. ا هـ «خطيب».

ودافق: من صيغ النسب، كلابن وتامر؛ أي: ذي دفق وصب، وهو صادق

علىٰ الفاعل والمفعول، أو مجاز في الإسناد، فأسند إلىٰ الماء ما لصاحبه مبالغةً، أو استعارة مكنية، أو تخييلية، أو مصرحة بجعله دافقاً؛ لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً؛ أي: يدفعه، كما أشار إليه ابن عطية. ا هـ «شهاب».

﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾ والصلب: الشديد من كل شيء، يقال: هو صلب في دينه، وراع صلب العصا: إذا كان يعنف الإبل، وهو عظم في الظهر ذو فقار يمتد من الكاهل إلى العجب، أو أسفل الظهر، ويجمع علىٰ أصلاب وأصلب وصلبة، وهو المراد هنا، ويقال: هو من صلب فلان، أي: من نسله وولده، وفيه أربع لغات: بضم الصاد، وسكون اللام، والصلب بفتحتين، والصلب بضمتين، وقد قرىء بها جميعاً، وثمة لغة رابعة وهي الصالب، بوزن: قالب.

وقوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾؛ أي: من بين أجزائه، لأن بين إنما تضاف لمتعدد، وفي «القرطبي» ما يقتضي أن لفظ ﴿بين﴾ زائدة، ونصه: والمعنىٰ يخرج من الصلب والترائب، وحكىٰ القرطبي: أن ماء الرجل ينزل من الدماغ إلىٰ الصلب، ثم يجتمع في الأنثيين، وهذا لا يعارضه قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾؛ لأنه ينزل من الدماغ إلى الصلب، ثم يجتمع في الأنثيين. وقال ابن عادل: جاء في الحديث: «إن الولد يخلق من ماء الرجل، يخرج من صلبه العظم والعصب، ومن ماء المرأة، يخرج من ترائبها اللحم والدم».

﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ الترائب: عظام الصدر حيث تكون القلادة، وفي «المختار» والترائب: جمع تريبة، كصحيفة وصحائف. قال امرؤ القيس:

مُهَفْهَفَةٍ بَيْضَاءَ غَيْرِ مُفَاضَةٍ ... تَرَائِبُهَا مَصْقُوْلَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ

يعني: المرأة، يقال في مفرده: تريب بغير هاء، ومنه قول المثقب العبدي:

وَمِنْ ذَهَبٍ يَلُوْحُ عَلَىٰ تَرِيْبٍ ... كَلَوْنِ الْعَاجِ لَيْسَ بِذِيْ غُضُوْنِ

والترائب: جمع تريبة بوزن فعيلة، والهمزة فيه مبدلة من ياء فعيلة لوقوعها حرف مد ثالثاً زائداً في اسم مفرد مؤنث.

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ أصل ﴿تُبۡلَى﴾: تبلي بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ جمع: سريرة بمعنىٰ: السر، وهي التي تكتم وتخفى، والهمزة في السرائر مبدلة من ياء فعيلة؛ لوقوعها حرف مد زائداً ثالثاً في اسم مفرد مؤنث، وفي «المختار»: السر الذي يكتم، وجمعه: أسرار، والسريرة مثله، والجمع: سرائر، والسرائر: كل ما أسر في القلوب من العقائد والنيات، وما أخفي من الأعمال، وبلاؤها: تعرفها وتصفحها، والتمييز بين ما طاب منها وما خبث، وعن الحسن: أنه سمع رجلاً ينشد:

سَيَبْقَى لَهَا فِيْ مُضْمَرِ ٱلْقَلْبِ وَٱلْحَشَا ... سَـرِيْـرَةُ وِدٍّ يَـوْمَ تُـبْـلَـىٰ ٱلـسَّـرَائِـرُ

فقال: ما أغفله عما في السماء والطارق.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ الرجع: المطر؛ لأنه يعود كل حين، كما مر بسط البحث فيه، فالسحاب تحمل الماء من الأمطار، ثم ترجعه إلىٰ الأرض، فالرجع في أصله: إعادة الشي إلىٰ حال أو مكان فيه أولاً، والمرة منه: الرجعة، كرجعة المرأة إلىٰ النكاح.

﴿ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ والصدع: الشق، لأن النبات يصدع الأرض؛ أي: يشقها عند الخروج، فالصدع: الشق الناشىء عن تفرق بعض أجزاء الأرض، وانفصال بعضها من بعض بالنبات.

﴿يَكِيدُونَ﴾ أصله: يكيدون بوزن: يفعلون، وأصل ﴿أكيد﴾ أكيد بوزن أفعل، نقلت حركة الياء في الموضعين إلى الكاف، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد.

﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ والفصل: الحكم الذي ينفصل به الحق من الباطل، ومنه: فصل الخصومات، وهو قطعها بالحكم الجازم، ويقال: هذا قول فصل؛ أي: قاطع للشر والنزاع. اهـ «قرطبي».

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: وما القرآن بالهزل، بل هو جد كله، فيجب أن يكون مهيباً في الصدور، معظماً في القلوب، يترفع به قارئه وسامعه عن أن يلم بهزل، أو يتفكه بمزاح، وأن يلقي ذهنه إلىٰ أن جبار السموات والأرض يخاطبه، فيأمره وينهاه، ويعده ويوعده، حتىٰ إن لم يستفزه الفزع والخوف، ولم تتبالغ فيه الخشية، فأدنىٰ أمره أن يكون جاداً غير هازل، فقد نفىٰ الله تعالىٰ عن المشركين ذلك في قوله: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾. اهـ «خطيب».

وقوله أيضاً: ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾؛ أي: يعملون المكايد في إبطال أمره، وإطفاء نوره.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: أقابلهم بكيدي في إعلاء أمره، وانتشار نوره.

﴿رُوَيْدًا﴾ مصغر رود: بوزن: عود الذي هو مصدر سماعي لأرود الرباعي، أو مصغر إرواد الذي هو مصدر قياسي لأرود الرباعي بحذف زوائده، و «المختار»: فلان يمشي علىٰ رود بوزن عود، أي: علىٰ مهل، وتصغيره: رويد، يقال: أرود في السير إرواداً ومرواداً بضم الميم وفتحها؛ أي: رفق، وتقول: رويدك عَمْراً؛ أي: أمهله، وهو تصغير ترخيم من إرواد مصدر: أرود يرود. ا هـ. ورود بوزن: عود مصدر أرود مصدراً سماعياً، أو اسم مصدر له. ا هـ. وفي «السمين»: واعلم أن رويداً يستعمل مصدراً بدلاً من اللفظ بفعله، فيضاف تارة كقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾، ولا يضاف أخرى نحو: رويداً زيداً، ويقع حالاً نحو: ساروا رويداً؛ أي: متمهلين، ونعتاً لمصدر محذوف، نحو: ساروا رويداً؛ أي: سيراً رويداً. والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: مجاز علىٰ مجاز في قوله: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾؛ لأن الطارق حقيقة فيمن يأتي ليلاً ويطرق الباب، ثم استعمل في كل ما ظهر بالليل كائناً ما كان، ثم استعمل في الكوكب البادي في الليل.

ومنها: الاستفهام للتفخيم والتعظيم في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾، ثم تفسيره بما يخصه تفخيماً لشأنه، حيث قال: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾؛ حيث أسند إلىٰ الماء ما لصاحبه من الدفع مبالغة، وهو من استعمال فاعل بمعنىٰ مفعول، كسر كاتم، وعيشة راضية؛ أي: سر مكتوم، وعيشة مرضية، أو فيه استعارة تصريحية، حيث شبه هذا الماء لتتابع قطراته حتىٰ كأنه يدفق ويدفع بعضه بعضاً، بجامع تتابع السيلان في كل،

فاستعار له اسمه علىٰ طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، فقد طابق بين عظم الظهر وعظم الصدر، وأفرد الأول، وجمع الآخر؛ لأن صدر المرأة تريبتها، فيقال للمرأة: ترائب يعني بها: التريبة، وما حواليها وما أحاط بها، أو يقال: إنه تعالىٰ أراد: يخرج من بين الأصلاب والترائب، فاكتفىٰ بالواحد عن الجماعة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، ولم يقل: والأرضين.

ومنها: الفصل في قوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾، وسياق الكلام يقتضي الوصل؛ لأنه قصد إشراكهما في الحكم، واتفقا فيه، وإنما عدل عنه تفخيماً لشأنه، فأقسم أولاً بما يشترك فيه هو وغيره، وهو الطارق، ثم سأل عنه بالاستفهام تفخيماً لشأنه ثانياً، ثم فسره بالنجم إزالة لذلك الإبهام الحاصل بالاستفهام.

ومنها: فن المماثلة في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾، وهو تماثل ألفاظ الكلام كلها أو بعضها في الزينة دون التقفية، فالطارق والثاقب وحافظ متماثلة في الزينة دون التقفية، وأورد الشيخ عبد الغني النابلسي للقاضي يحيى بن أكثم بيتين في المماثلة:

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا طَعَامْ وَمُدَامٌ وَغُلَامْ
فَإِذَا فَاتَكَ هَذَا فَعَلَىٰ ٱلدُّنْيَا ٱلسَّلَامْ

ومنها: الكناية اللطيفة في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ كنىٰ بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة، وهذا من لطيف الكنايات.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، وبين ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ و ﴿الهزل﴾.

ومنها: تقديم الجار والمجرور علىٰ عامله في قوله: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ للاهتمام به من حيث إن الكلام فيه بخصوصه، فهو لا ينافي قادريته علىٰ غيره.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾.

ومنها: فن المشاكلة في قوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ حيث سمىٰ الاستدراج والانتقام منهم في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بالنار كيداً علىٰ طريقة المشاكلة

لوقوعه في مقابلة كسبهم جزاءً له، وإلا فالكيد الذي هو بمعنىٰ المكر والاحتيال لا يجوز إسناده إليه تعالى مراداً به معناه الحقيقي؛ لأنه من صفات النقص والعجز، وتسمية جزاء الشيء باسم ذلك الشيء علىٰ سبيل المشاكلة شائع كثير، كما مر.

ومنها: الإطناب بتكرير الفعل مبالغة في الوعيد في قوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

* * *

مقاصد هذه السورة

اشتملت على المقاصد التالية:

١ ـ بيان كون حافظٍ علىٰ كل نفس.

٢ ـ إقامة الأدلة علىٰ أن الله قادر علىٰ بعث الخلق كرة أخرىٰ.

٣ ـ بيان أن القرآن منزل من عند الله تعالىٰ فاصل بين الحق والباطل ليس بهزل.

٤ ـ بيان كيدهم بالرسول ﷺ، وجزاء الله تعالى لهم علىٰ كيدهم.

٥ ـ أمر الرسول ﷺ بالإمهال لهم حتىٰ يحل بهم العذاب[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تم تفسير سورة والطارق بعون خالق النجوم والبوارق عصر يوم الجمعة قبيل الغروب، اليوم العشرين من شهر رمضان المبارك من شهور سنة: ٢٠/٩/ ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التحية، وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين آمين.

سورة الأعلى

سورة الأعلىٰ، وتسمىٰ سورة: سبح، مكية في قول الجمهور، نزلت بعد سورة التكوير، وقال الضحاك: هي مدنية، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة سبح اسم ربك الأعلى بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله، وأخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلا يقرآننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتىٰ رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ، قد جاء فيما جاء، حتىٰ قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ في سور مثلها.

وآيها: تسع عشرة آية. **وكلماتها**: اثنتان وسبعون كلمة. **وحروفها**: مئتان وتسعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أنه ذكر في تلك خلق الإنسان، وأشار إلىٰ خلق النبات بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢﴾، وذكر هنا خلق الإنسان في قوله: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، وخلق النبات في قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾، وقصة النبات هنا أوضح وأكثر بسطاً، وقصة خلق الإنسان هناك أكثر تفصيلاً.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر فيما قبلها: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾، كأن قائلاً قال: من خلقه علىٰ هذا المثال؟ فقيل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، وأيضاً لما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾.. قيل: هو ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾؛ أي: ذلك القول الفصل. انتهىٰ.

فضلها: ومما ورد في فضل هذه السورة: ما أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ: كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، و ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾،

وإن وافق يوم جمعة قرأهما جميعاً، وفي لفظ: وربما اجتمعا في يوم واحد، فقرأهما. وفي هذا الباب أحاديث كثيرة.

ومما ورد في فضلها أيضاً: ما أخرجه أحمد والبزار وابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

ومما ورد أيضاً: ما أخرجه مسلم وغيره عن جابر بن سمرة: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

ومنه أيضاً: ما أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

وأخرج أبو داود والترمذي ـ وقال: حديث حسن غريب ـ والنسائي وابن ماجه والحاكم ـ وصححه ـ والبيهقي عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، والمعوذتين.

وبحديث عائشة هذا عمل الشافعي ومالك رحمهما الله تعالى، وأما عند أبي حنيفة وأحمد.. فالمستحب في الثالثة الإخلاص فقط، عملاً بحديث أبي بن كعب السابق.

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾». وسميت سورة الأعلى: لذكره فيها.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال ابن حزم رحمه الله تعالى: سورة الأعلى كلها محكم، فيها ناسخ، وليس فيها منسوخ، فالناسخ قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ
﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾
وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي
يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ
﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾
صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة و التي قبلها قريباً، ثم إنه سبحانه وتعالىٰ بدأ هذه السورة بأمر رسول الله ﷺ أن ينزه اسمه عن كل ما لا يليق به، واسم الله ما يعرف به، والله إنما يعرف بصفاته من كونه عالماً قادراً حكيماً خالقاً، فالله يأمرنا بتسبيح هذا الاسم؛ أي: تنزيهه عن أن نصفه بما لا يليق من شبه المخلوقات، أو ظهوره في واحد منها بعينه، أو اتخاذه شريكاً أو ولداً له، فلا تتجه عقولنا إليه إلا بأنه خالق المخلوقات، وهو الذي أوجدها وسواها، وأنه هو الذي أخرج المرعىٰ، ثم جعله جافاً حتىٰ لفظه السيل بجانب الوادي.

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمر رسوله بتسبيح اسمه، وعلم أمته المأمورة بأمر الله له كيف يمكنها أن تعرف الاسم الذي تسبحه علىٰ نحو ما ذكرنا، ولا يكمل ذلك إلا بقراءة ما أنزل عليه من القرآن، فكان هذا مدعاة إلىٰ شدة حرصه ﷺ على حفظه.. وعده بأنه سيقرئه من كتابه ما فيه تنزيهه، وتبيين ما أوجب أن يعرف من صفاته، وأحكام شرائعه، كما وعده بأن ما يقرئه إياه لا ينساه.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما وعد رسوله ﷺ بذلك الفضل العظيم، وهو حفظ القرآن، وعدم نسيانه.. أمره بتذكير عباده بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وتنبيههم من غفلاتهم،

وتوجيههم إلىٰ ما فيه الخير لهم، وبيَّن أن الذكرىٰ لا تنجع إلا في القلوب الخاشعة التي تخشىٰ الله، وتخاف عقابه، أما القلوب الجاحدة المعاندة.. فلا تجدي فيها الذكرى شيئاً، فهون على نفسك، ولا يحزننك جحدهم وعنادهم، كما أشار إلىٰ ذلك في آية أخرىٰ فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾، ثم ذكر أن أولئك الجحدة العصاة يكونون في قعر جهنم، لا هم يموتون، ولا يسعدون بحياة طيبة.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ...﴾ إلىٰ آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر وعيد الذين أعرضوا عن النظر في الدلائل التي تدل علىٰ وجود الله تعالى، ووحدانيته، وإرسال الرسل، وعلىٰ البعث والحساب.. أتبعه بالوعد لمن زكىٰ نفسه، وطهرها من أدران الشرك والتقليد للآباء والأجداد بالفوز بالفلاح، والظفر بالسعادة في دنياه وآخرته، ثم ذكر أن من طبيعة النفوس حب العاجلة، وتفضيلها علىٰ الآجلة، ولو فكروا قليلاً.. لاستبان لهم أن الخير في تفضيل الثانية علىٰ الأولى، ثم أرشد إلىٰ أن أسس الدعوة الدينية في كل الأديان واحدة، فما في القرآن هو ما في صحف إبراهيم وموسىٰ عليهما السلام.

التفسير وأوجه القراءة

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾؛ أي: قل يا محمد أنت وأمتك: سبحان ربي الأعلى إذا أردتم تسبيحه تعالىٰ، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين، يدل عليه ما روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ: قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾، فقال: «سبحان ربي الأعلى»، ذكره البغوي بإسناد الثعلبي، وقيل: معناه: نزه ربك الأعلىٰ عن كل ما لا يليق به من صفات النقص والحدوث، وقال السدي: معناه: عظم ربك الأعلىٰ بوصفه بالكمالات، وتنزيهه من النقائص، فعلىٰ هذا يكون لفظ الاسم مقحماً لقصد التعظيم، كما في قول لبيد:

إِلَىٰ ٱلْحَوْلِ ثُمَّ ٱسْمُ ٱلسَّلَامِ عَلَيْكُمَا ... وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ ٱعْتَذَرْ

والمعنىٰ: سبح اسم ربك الأعلى عما يقوله الظالمون من اتخاذ صاحبة وولد وشريك. وقال ابن جرير: المعنىٰ: نزه اسم ربك عن أن يسمىٰ به أحد سواه، فعلىٰ هذا لا يكون لفظ ﴿ٱسۡمَ﴾ مقحماً، وقيل: المعنىٰ: نزه تسمية ربك وذكرك إياه عن

أن تذكره إلا وأنت له خاشع معظم، ولذكره محترم. وقال الحسن: معنىٰ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾: صلِّ له، وقيل: المعنىٰ: صل بأسماء الله تعالى، لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية. وقيل: المعنىٰ: ارفع صوتك بذكر ربك الأعلى، ومنه قول جرير:

قَبَّحَ ٱلإِلَـهُ وُجُـوْهَ تَـغْـلِـبَ كُـلَّـمَـا سَبَّـحَ ٱلْـحَـجِـيْـجُ وَكَـبَّـرُوْا تَـكْـبِـيْـرَا

وقال ابن عباس: سبح؛ أي: صلِّ بأمر ربك الأعلى. وعن عقبة بن عامر قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾.. قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.. قال: «اجعلوها في سجودكم». أخرجه أبو داوود. وكانوا يقولون قبل ذلك في الركوع: اللهم لك ركعت. وفي السجود: اللهم لك سجدت. وفي هذا الحديث دلالة علىٰ أن لفظ الاسم مقحم، قاله سعدي المفتي، وعلىٰ أن الامتثال بالأمر يحصل بأن يقول: سبحان ربي العظيم أو الأعلى، بدون قراءة النظم القرآني، ولهذا قرأ علي وابن عمر رضي الله عنهم: سبحان ربي الأعلىٰ، الذي خلق فسوى، فإن قوله: ﴿سَبِّحِ﴾ أمر بالتسبيح، فلا بد أن يذكر ذلك التسبيح، وما هو إلا قول: سبحان ربي الأعلى.

وقيل معنىٰ الآية[1]: نزه اسم ربك عن إطلاقه على غيره تعالى بوجه يشعر بتشاركهما فيه، كأن يسمى الصنم والوثن بالرب والإله، ومنه: تسمية العرب مسيلمة الكذاب برحمان اليمامة، وكذا نزه اسمه عن ذكره، لا علىٰ وجه الإعظام والإجلال، ويدخل فيه أن يذكر اسمه عند التثاؤب، وحال الغائط، وكذا بالغفلة، وعدم الوقوف علىٰ معناه وحقيقته، وكذا بالغلط في لفظه أو في تركيبه، ومنه إكثار القسم بذكر اسمه من غير مبالاة. وقال جرير في الآية: ارفع صوتك بذكر اسم ربك الأعلىٰ، فإن ذكر المدلول إنما هو بذكر الاسم الدال عليه، وقال بعضهم: المعنىٰ: نزه مسمىٰ ربك؛ أي: ذاته عما يدخل في الوهم والخيال؛ لأن الاسم والمسمىٰ هنا واحد، فظهر من هذه التقادير: أن الاسم غير مقحم، وهو الظاهر.

و ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ صفة للرب، وقيل: للاسم، والأول أظهر لما في الوجه الثاني من

---

(١) روح البيان.

التوجيه الآتي في مبحث الإعراب، وهو من العلو الذي هو القهر والغلبة، لا العلو في المكان. ا هـ «عمادي»، ومعنىٰ علوه تعالىٰ: أن يعلو عن أن يحيط به وصف الواصفين، ومعنىٰ أعلويته: أن له الزيادة المطلقة في العلو، قال بعضهم: ليس علوه علو جهة، ولا كبره كبر جثة سبحانه عن ذلك، بل علو استحقاق لنعوت الجلال والكبرياء، فمن عرف علوه وكبرياءه.. تواضع وتذلل بين يديه. وعبارة «الخطيب» هنا: أي: نزه ربك عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه، أما في ذاته.. فأن تعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض، وأما في صفاته.. فأن تعتقد أنها ليست محدثة، ولا متناهية ولا ناقصة، وأما في أفعاله.. فأن تعتقد أنه سبحانه لا اعتراض لأحد عليه في أمر من الأمور، وأما في أسمائه.. فأن لا تذكره سبحانه إلا بالأسماء التي لا توهم نقصاً بوجه من الوجوه، سواء ورد الإذن فيها، أم لم يرد، وأما في أحكامه سبحانه.. فأن تعلم أنه ما كلَّفنا لنفع يعود إليه، بل لمحض المالكية، وحكمته البالغة. انتهىٰ.

والخلاصة: أي نزه اسم ربك عن كل ما لا يليق بجلاله في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه، فلا تذكره إلا علىٰ وجه التعظيم له، ولا تطلق اسمه علىٰ غيره زاعماً أنه يشاركه في صفاته.

ثم وصف ذلك الرب الأعلىٰ بأوصاف، فقال:

١ - ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢)﴾ صفة أخرىٰ للرب علىٰ الوجه الأول الأظهر، ومنصوب علىٰ المدح علىٰ الثاني؛ لئلا يلزم الفصل بين الموصوف وصفته بصفة غيره، إذ يصير التركيب مثل قولك: جاءني غلام هند العاقل الحسنة، وهو ممتنع؛ أي: أنشأ وأوجد كل شيء، فسوى خلقه بأن جعل له ما به يتأتىٰ كماله، ويتسنىٰ معاشه.

والمعنىٰ: أي الذي خلق الكائنات جميعاً، فسوىٰ خلقها، وجعلها متسقة محكمة، ولم يأتِ بها متفاوتة غير ملتئمة دلالة علىٰ أنها صادرة عن عالم حكيم مدبر، أحسن تدبيرها فأحكم أسرها.

وعبارة الخازن: أي الذي خلق كل ذي روح، فسوى اليدين والرجلين والعينين، وقيل: خلق الإنسان مستوياً معتدل القامة. ا هـ.

٢ ـ ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ معطوف على الموصول الأول؛ أي: قدر أجناس الأشياء وأنواعها، وأفرادها ومقاديرها، وصفاتها وأفعالها وآجالها، كما قال ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»؛ أي: جعل أجناس الأشياء، وكذا أشخاص كل نوع بمقدار معلوم، وكذا جعل مقدار كل شخص في جثته وأوضاعه وسائر صفاته، كالحسن والقبح، والسعادة والشقاوة، والهداية والضلالة، والألوان والأشكال، والطعوم والروائح، والأرزاق والآجال، وغير ذلك بمقدار معلوم، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾. ﴿فَهَدَى﴾؛ أي: فوجه كل واحد منها إلى ما يصدر منه، وينبغي له طبعاً أو اختياراً، ويسره لما خلق له بخلقه الميول، والإلهامات، ونصب الدلائل، وإنزال الآيات، ولو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات.. لرأيت في كل منها ما يحار فيه العقول.

وقرأ الجمهور: ﴿قَدَّرَ﴾ بتشديد الدال، فاحتمل أن يكون من القدر والقضاء، واحتمل أن يكون من التقدير والموازنة بين الأشياء، وقال الزمخشري: قدر لكل حيوان ما يصلحه، فهداه إليه، وعرفه وجه الانتفاع به. انتهى. وقرأ الكسائي: ﴿قدر﴾ مخفف الدال من القدرة، أو من التقدير والموازنة، وهدى عام لجميع الهدايات، قال الواحدي[1]: قال المفسرون: قدر خلق الذكر والأنثى من الدواب، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها، وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والسعادة والشقاوة. وروي عنه أيضاً: أنه قال في معنى الآية: قدر السعادة والشقاوة، وهدى للرشد والضلالة، وهدى الأنعام لمراعيها، وقيل: قدر أرزاقهم وأقواتهم، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنساناً، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً، وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له، وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها. وقال السدي: قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر، وأقل وأكثر، ثم هداه للخروج من الرحم، وقال الفراء: أي: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ وأضل، فاكتفى بأحدهما، وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا، والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدر فهدى إلا بدليل يدل عليه. ومع عدم

---

(١) الشوكاني.

الدليل يحمل علىٰ ما يصدق عليه معنىٰ الفعلين؛ إما على البدل، أو الشمول.

والمعنىٰ[1]: أي والذي قدر كل واحد من الكائنات علىٰ ما يستحقه، ويكون به استقرار شأنه، فقدر السموات وما فيها من الكواكب، وقدر الأرض وما فيها من المعادن، وما يظهر علىٰ وجهها من النبات، وما يعيش عليها من الحيوان، ثم هدىٰ كل دابة إلىٰ استعمال ما يصلحها، وما هو أمس بحاجتها بما خلق فيها من الميول والإلهامات لتحصيل ما لها من مقاصد وغايات.

والخلاصة[2]: قدر أجناس الأشياء وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها، فهدىٰ كل واحد منها إلى ما يصدر عنه، وينبغي له، ويسره لما خلق له، وألهمه إلىٰ أمور دينه ودنياه.

٣ ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾ معطوف علىٰ الموصول الأول أيضاً؛ أي: أنبت بكمال قدرته ما ترعاه الدواب غضاً طرياً من بين أخضر وأصفر، وأحمر وأبيض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المرعىٰ: الكلأ الأخضر. ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾؛ أي[3]: فجعل ذلك المرعىٰ والعشب بعد أن كان أخضر غضاً طرياً ﴿غُثَآءً﴾: مفعول ثانٍ لجعل؛ أي: هشيماً جافاً كالغثاء والقمام الذي يحمله السيل ويكون فوقه ﴿أَحْوَىٰ﴾ صفة لـ ﴿غُثَآءً﴾؛ أي: أسود بعد اخضراره، لأن الغثاء إذا قدم وأصابته الأمطار اسود وتعفن، فصار أحوىٰ. وفي «الصحاح»: الرعي ـ بالكسر ـ: الكلأ، وبالفتح: المصدر، والمرعىٰ: الرعي؛ أي: الكلأ، أو المصدر؛ أي: الرعي بالفتح. ا هـ.

والغثاء: الدرين ـ وهو كأمير ـ: يبيس كل حطام حمض أو شجر أو بقل، قال الجوهري: الغثاء ـ بالضم والمد ـ: ما يحمل السيل من القماش، والقمش: جمع الشيء من ههنا وههنا، وذلك الشيء قماش ما علىٰ وجه الأرض من فتات الأشياء حتى يقال لرذالة الناس: قماش، والأحوىٰ: مأخوذ من الحوة، وهي سواد يضرب إلىٰ الخضرة، وفي «الصحاح»: الحوة: حمرة الشفة، وذلك أن الكلأ إذا جف ويبس اسودَّ، سواء كان جفافه واسوداده بتأثير حرارة الشمس أو برودة الهواء،

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

والفاء التعقيبية إشارة إلى قصر مدة الخضرة، ورمز إلىٰ مدة العمر، وسرعة زوال الدنيا ونعيمها، وانتصاب ﴿غُثَآءً﴾ علىٰ أنه مفعول ثانٍ، أو علىٰ الحال، وأحوىٰ: صفة له، وقال الكسائي: هو حال من المرعىٰ؛ أي: أخرج المرعىٰ حال كونه أحوىٰ؛ أي: أسود من شدة خضرته ونضارته لكثرة ريه. وحسن تأخير ﴿أَحْوَىٰ﴾ لأجل الفواصل.

ومعنىٰ الآية: أي والذي أنبت النبات جميعه لترعاه الدواب والنعم، فما من نبت إلا وهو يصلح أن يكون مرعىٰ لحيوان من الأجناس الحية ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾؛ أي: فجعل هذا المرعىٰ بعد أن كان أخضر هشيماً بالياً كالغثاء يميل لونه إلىٰ السواد، فهو سبحانه القادر على إنبات العشب، وعلىٰ تبديل حاله، لا الأصنام التي عبدها الكفرة الفجرة.

وقصارى ما سلف: أنا مأمورون أن نعرف الله جل شأنه بأنه القادر العالم الحكيم الذي شهدت بصفاته آثاره في خلقه، وأن لا ندخل في هذه الصفات ما لا يليق به، كما أدخل الملحدون الذين اتخذوا من دونه شركاء، أو وصفوه بما به يشبه خلقه. وإنما توجه إلينا الأمر بتسبيح الاسم دون الذات ليرشدنا إلىٰ أن مبلغ جهدنا أن نعرف الصفات بما يدل عليها، أما الذات.. فهي أعلىٰ وأرفع من أن تتوجه إليها عقولنا إلا بما نلحظ من هذه الصفات بما يدل عليها.

﴿سَنُقْرِئُكَ﴾؛ أي: سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ ما تقرؤه، وهذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان هدايته تعالىٰ الخاصة برسول الله ﷺ إثر بيان هدايته تعالىٰ العامة لكافة مخلوقاته، وهي هدايته ﷺ لتلقي الوحي، وحفظ القرآن الذي هو هدى للعالمين، وتوفيقه ﷺ لهداية الناس أجمعين. قال الراغب في «المفردات»: وهذا إخبار وضمان من الله تعالىٰ أن يجعله بحيث لا ينسىٰ ما سمعه من الحق. انتهى. والسين؛ إما للتأكيد، وإما لأن المراد إقراء ما أوحى إليه حينئذٍ، وما سيوحىٰ إليه بعد ذلك، فهو وعد كريم باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء.

---

(١) المراغي.

يقال: قرأ القرآن، فهو قارىء، وأقرأه غيره، فهو مقرىء؛ أي: علمه إياه، فهو معلم.

والمعنىٰ: سنقرئك ما نوحي إليك الآن وفيما بعد علىٰ لسان جبريل، فلا تنسىٰ أصلاً من قوة الحفظ والإتقان. وفي «كشف الأسرار»: سنجمع حفظ القرآن في قلبك، وقراءته في لسانك، حتىٰ لا تنسىٰ، كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

قال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي.. لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتىٰ يتكلم النبي ﷺ بأولها مخافة أن ينساها، فنزلت: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل؛ أي: لا تنسىٰ مما تقرأه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه أبداً، بأن نسخت تلاوته، فإن النسخ نوع من الإنساء، وطريق من طرقه، فكأنه بالنسخ محي من الصحف والصدور، فالمراد بالنسيان: هو النسيان الكلي الدائم، بحيث لا يعقبه التذكر بعده، ويجوز أن يراد به النسيان المتعارف الذي يعقبه التذكر بعده، وهو النسيان في الجملة علىٰ القلة والندرة؛ أي: فلا تنسىٰ إلا ما شاء الله نسيانه، ثم لا يبقىٰ المنسي منسياً دائماً، بل يعقبه التذكر كما هو المفهوم من المقام، ويؤيد هذا المعنىٰ: ما روي أنه ﷺ أسقط آيةً في قراءته في الصلاة فحسب أبي رضي الله عنه أنها نسخت، فسأله فقال ﷺ: «نسيتها».

وروي: أن بعض الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم كان يقرأ القرآن في الليل، فقال: ﷺ: «لقد أذكرني آية أنسيتها»، ومن هذا كان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم ارحمني بالقرآن العظيم، واجعله لي إماماً ونوراً وهدىً ورحمة، اللهم ذكرني منه ما نسيت، وعلمني منه ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله حجة لي يا رب العالمين». وكان ﷺ يقول: «إنما أنا بشر أُنسىٰ كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾، ودل الكل علىٰ جواز جريان النسيان عليه، وإن لم يكن سهوه ونسيانه من قبيل سهو الأمة ونسيانهم، فإنه أهل الحضور الدائم.

وقيل[1]: معنى ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾: فلا تترك العمل به إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه، وقيل: المعنى: إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله، وقيل: ﴿لَآ﴾ في قوله: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ للنهي، والألف مزيدة لرعاية الفاصلة، كما في قوله: ﴿فاضلونا السبيلا﴾ يعني: فلا تغفل قراءته وتذكره، وقال الفراء: وهو سبحانه لم يشأ أن ينسي محمداً ﷺ شيئاً، وهو نظير قوله: تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ إلا أنَّ القصد من هذا الاستثناء بيان أنه لو أراد أن يصيره ناسياً.. لقدر علىٰ ذلك، كما جاء في قوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وإنا لنقطع بأنه تعالىٰ ما شاء ذلك.

وقصارىٰ ذلك: أن فائدة هذا الاستثناء بيان أنه تعالىٰ قادر علىٰ أن ينسيه، وأن عدم النسيان فضل من الله تعالىٰ وإحسان، لا من قوته. وقال أبو حيان: ومناسبة قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ لما قبله: أنه لما أمر تعالىٰ بالتسبيح، وكان التسبيح لا يتم إلا بقراءة ما أنزل عليه من القرآن، وكان يتذكر في نفسه مخافة أن ينسى.. أزال عنه ذلك، وبشره بأنه تعالى يقرئه وأنه لا ينسىٰ، واستثنى ما شاء الله أن ينسيه لمصلحة من تلك الوجوه.

والمعنىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾؛ أي[2]: سننزل عليك كتاباً تقرأه، ولا تنسى منه شيئاً بعد نزوله عليك، وقد كان ﷺ إذا نزل عليه القرآن أكثر من تحريك لسانه مخافة أن ينساه، فوعد بأنه لا ينساه.

وخلاصة ذلك: أنا سنشرح صدرك ونقوي ذاكرتك حتىٰ تحفظه بسماعه مرة واحدة، ثم لا تنساه بعدها أبداً.

ولما كان هذا الوعد علىٰ سبيل التأبيد يوهم أن قدرته تعالىٰ لا تسع تغييره.. جاء بالاستثناء فقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فإن أراد أن ينسيك شيئاً لم يعجزه ذلك.

ثم أكد هذا الوعد مع الاستثناء فقال: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، والجملة تعليل لما قبلها[3]؛ أي: يعلم ما ظهر وما بطن، والإعلان والإسرار، وظاهره

---

(١) الشوكاني. (٢) الراغي. (٣) الشوكاني.

العموم، فيندرج تحته ما قيل: إن الجهر ما حفظه رسول الله ﷺ من القرآن، وما يخفىٰ هو ما نسخ من صدره، ويدخل تحته أيضاً ما قيل: من أن الجهر هو إعلان الصدقة، وما يخفىٰ هو إخفاؤها، ويدخل تحته أيضاً ما قيل: إن الجهر جهره ﷺ بالقرآن، مع قراءة جبريل؛ مخافة أن يتفلت عليه، وما يخفىٰ ما في نفسه مما يدعوه إلى الجهر، وعلىٰ هذا يكون[1] المعنىٰ: أي: إنه تعالىٰ عالم بجهرك في القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام، وعالم بالسر الذي في قلبك، وهو أنك تخاف النسيان، فلا تخف، فأنا أكفيك ما تخافه. و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾. موصولة ولا يجوز أن تكون مصدرية لئلا يلزم خلوُّ الفعل من فاعل ولولا ذلك لكان كونها مصدرية أحسن لعطف مصدر مؤول علىٰ مثله صريح.. إلخ، كما في «السمين»، وكلٌّ من الجهر والإخفاء شامل لما كان من قبيل القول والعمل، والإخفاء لما في الضمائر من النسيان.

والمعنىٰ: أي يعلم سبحانه ما ظهر وما بطن من الأمور التي من جملتها ما أوحي إليك، فينسي ما يشاء إنساءه، ويبقي محفوظاً ما يشاء إبقاءه لما نيط بكل منهما من مصالح دينكم.

والحاصل[2]: أي إن الذي وعدك بأنه سيقرئك، وأنه سيجعلك حافظاً لما تقرأ فلا تنساه، عالم بالجهر والسر، فلا يفوته شيء مما في نفسك، وهو مالك قلبك وعقلك، وخافي سرك وجهرك، ففي مقدوره أن يحفظ عليك ما وهبك، وإن كان من خفيات روحك، ولو شاء لسلبه، ولن تستطيع دفعه؛ لأنه ليس في قدرتك أن تخفي عنه شيئاً.

ولما كان في الوعد بالإقراء الوعد بتشريع الأحكام، وفيها ما يصعب علىٰ المخاطبين احتماله.. أردف ذلك الوعد بما يزيده حلاوة في النفوس فقال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ معطوف علىٰ ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، وما بينهما اعتراض؛ أي: ونوفقك للشريعة السمحة التي يسهل علىٰ النفوس قبولها، ولا يصعب علىٰ العقول فهمها، واليسرى[3]: فعلىٰ من اليسر: وهو السهولة، وضمن ﴿نيسرك﴾ معنىٰ التوفيق فعداه بدون اللام، وإلا فالعبارة المعتادة أن يقال: جعل الفعل الفلاني ميسراً لفلان، لا

---

(١) المراح. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

أن يقال: جعل فلان ميسراً للفعل الفلاني، كما في الآية، فإنه قيل: ونيسرك لليسرىٰ، لا ونيسر اليسرىٰ لك، فقد جعلت الآية الإنسان هو الميسر للفعل، وليس الفعل هو الميسر للإنسان من قبل أن الفعل لا يحصل إلا إذا وجدت العزيمة الصادقة، والإرادة النافذة لإيجاده مع التوفيق لسلوك أقوم الطرق التي توصل إليه، كما جاء في الحديث: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، وأتىٰ بنون العظمة لتكون عظمة المعطي دليلاً علىٰ عظمة العطاء. وفي «الإرشاد»: تعليق التيسير به ﷺ مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ للإيذان بقوة تمكنه ﷺ من اليسرىٰ، والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له، كأنه ﷺ جبل عليها، كما في قوله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له». انتهىٰ.

والمعنىٰ[1]: ونوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرىٰ؛ أي: التي هي أيسر وأسهل في كل باب من أبواب الدين والدنيا علماً وتعليماً واهتداءً وهداية، فيندرج فيه تيسير طريق تلقي الوحي، والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة، والنواميس الإلهية، مما يتعلق بتكميل نفسه ﷺ، وتكميل غيره، كما يفصح عنه ﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾؛ أي: فذكر الناس حسبما يسرناك له بما يوحىٰ إليك، واهدهم إلىٰ ما في تضاعيفه من الأحكام الشرعية، كما كنت تفعله إن نفع التذكير والعظة والنصيحة، وتقييد التذكير بنفع الذكرىٰ لما أن رسول الله ﷺ طالما كان يذكرهم، ويستفرغ فيه جهده حرصاً علىٰ إيمانهم، وكان لا يزيد ذلك بعضهم إلا كفراً وعناداً، فأمر ﷺ بأن يخص التذكير بمدار النفع في الجملة، بأن يكون من يذكره كلاً أو بعضاً ممن يرجىٰ منه التذكر، ولا يتعب نفسه في تذكير من لا يزيده التذكير إلا عتواً ونفوراً من المطبوع علىٰ قلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، فحرف الشك راجع إلىٰ النبي ﷺ، لا إلى الله تعالى.

وخلاصة المعنى[2]: أي فذكر الناس بما أوحينا به إليك، واهدهم إلىٰ ما فيه من بيان الأحكام الدينية، فإن أصر المعاندون علىٰ عنادهم، ولم يزدهم وعظك إلا

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

تمادياً في الجحود والإنكار.. فلا تذهب نفسك عليهم حسرات حرصاً علىٰ إيمانهم، وحزناً علىٰ بقائهم علىٰ كفرهم، وادع من تعلم أنه يجيبك ولا يجبهك ولا يؤذيك.

قال الواحدي[1]: المعنىٰ: فذكر إن نفعت الذكرىٰ أو لم تنفع؛ لأن النبي ﷺ بعث مبلغاً للإعذار والإنذار، فعليه التذكير في كل حال، نفع أو لم ينفع، ولم يذكر الحالة الثانية للاكتفاء، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾؛ أي: والبرد، وقال الجرجاني: التذكير واجب، وإن لم ينفع.

والمعنىٰ: إن نفعت الذكرىٰ، أو لم تنفع. قال أبو حيان: والظاهر[2] أن الأمر بالتذكير مشروط بنفع الذكرىٰ، وهذا الشرط إنما يجيء به توبيخاً لقريش؛ أي: إن نفعت الذكرىٰ في هؤلاء الطغاة العتاة، ومعناه: استبعاد انتفاعهم بالذكرىٰ، فهو كما قال الشاعر:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ... وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِيْ

كما تقول: قل لفلان وأعِذْ له إن سمعك، فقوله: إن سمعك، إنما هو توبيخ وإعلام أنه لن يسمع.

وقال الفراء والنحاس والزهراوي والجرجاني: معناه: فذكر وإن لم ينفع، فاقتصر علىٰ القسم الواحد لدلالته علىٰ الثاني، وقيل: ﴿إن﴾ بمعنىٰ: إذ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقيل: بمعنىٰ: قد، ذكره ابن خالويه، وهو بعيد جداً، وعبارة الرازي: واعلم[3] أنه ﷺ كان مبعوثاً إلىٰ الكل، فيجب عليه أن يذكِّرهم سواء نفعتهم الذكرىٰ أم لم تنفعهم، والجواب عن هذا الشرط: أنه تعالىٰ ذكر أشرف الحالتين، ونبه علىٰ الحالة الأخرى، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، والتقدير: فذكر إن نفعت الذكرىٰ أو لم تنفع، وأجيب عنه أيضاً: بأن التذكير العام واجب في أول الأمر، وأما التكرير.. فلعله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود، فلهذا المعنىٰ قيده بهذا الشرط المذكور، والتذكير المأمور به حينئذٍ هل هو محصور في عشر مرات، أو غير محصور؟ والجواب: أن الضابط فيه

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط. (٣) التفسير الكبير للرازي.

العرف. انتهىٰ.

ثم بين سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرىٰ ومن لا تنفعه، فقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾؛ أي: سيتذكر بتذكيرك مَنْ من شأنه أن يخشىٰ الله حق خشيته، أو من يخشىٰ الله في الجملة، فيزداد ذلك بالتذكير، فيتفكر في أمر ما تذكر به، فيقف علىٰ حقيقته، فيؤمن به؛ أي: سيتعظ بوعظك من يخشىٰ الله، فيزداد بالتذكير خشيةً وصلاحاً، وفي «التفسير الكبير» للرازي: واعلم[1] أن الناس في أمر المعاد علىٰ ثلاثة أقسام: منهم من قطع بصحة المعاد ومنهم من جوز وجوده، ولكنه غير قاطع فيه بالنفي ولا بالإثبات، ومنهم من أصر علىٰ إنكاره؛ أي: المعاد، وقطع بأنه لا يكون، فالقسمان الأولان تكون الخشية حاصلة لهما، وأما القسم الثالث.. فلا خشية له ولا خوف، فلما قال الله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ بيَّن أن الذي تنفعه الذكرىٰ ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾، ولما كان الانتفاع بالذكرىٰ مبنياً علىٰ حصول الخشية في القلب، وصفات القلوب لا يطلع عليها إلا الله.. وجب علىٰ الرسول تعميم الدعوة تحصيلاً للمقصود، فإن المقصود تذكير من ينتفع بالتذكير، ولا سبيل إليه إلا بتعميم التذكير، والسين في ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ بمعنىٰ: سوف، وسوف من الله واجب، كقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦﴾. اهـ «رازي».

والمعنى[2]: أي إنما ينتفع بتذكيرك من يخشىٰ الله تعالى، ويخاف عقابه؛ لأنه هو الذي يتأمل في كل ما تذكره له، فيتبين له وجه الصواب، ويظهر له سبيل الحق الذي يجب المعول عليه. وفي التعبير بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ إيماء إلىٰ أن ما جاء به الرسول بلغ حداً من الوضوح لا يحتاج معه إلا إلىٰ التذكير فحسب، وإنما الذي يحول بينهم وبين اتباعه واقتفاء آثاره تقليد الآباء والأجداد، فكأنهم عرفوه واستيقنوا صحته، ثم زالت هذه المعرفة بانتهاجهم خطة آبائهم من قبل، ثم أشار إلىٰ عدم جدواها بالنظر للمعاندين الجاحدين، فقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾؛ أي: يتجنب الذكرىٰ ويبتعد عنها، ولا يسمعها سماع قبول ﴿الْأَشْقَى﴾؛ أي: الزائد في الشقاوة من الكفرة لإصراره علىٰ الكفر، وانهماكه في المعاصي، ولتوغله في عداوة النبي ﷺ، مثل: الوليد بن المغيرة، وأبي جهل، وغيرهما، أو المراد بالأشقىٰ: الكافر مطلقاً؛ لأنه

---

(١) تفسير الرازي.
(٢) المراغي.

أشقىٰ من الفاسق.

روي: أن من يخشى هو عثمان بن عفان رضي الله عنه، والأشقىٰ: رجل من المنافقين، وذلك أن المنافق كانت له نخلة مائلة في دار رجل من الأنصار، فسقط ثمرها في دار الأنصاري، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأرسل إلىٰ المنافق، ولم يكن يعلم بنفاقه، فسأله أن يعطي النخلة للأنصاري علىٰ أن يعطيه الله نخلة في الجنة، فقال: أبيع عاجلاً بآجل؟ لا أفعل، فأعطاه عثمان رضي الله عنه حائط نخل له، فنزلت الآية، كما في «التكملة».

ثم وصف الأشقىٰ فقال: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: يدخل النار العظيمة الفظيعة، وهي: الطبقة السفلىٰ من طبقات النار؛ لأنها أشد حراً من غيرها، فالكبرىٰ: اسم تفضيل؛ لأنه تأنيث الأكبر، والمفضل هو ما في أسفل دركات جهنم من النار التي هي نصيب الكفار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، والمفضل عليه ما في الدركات التي فوقها، فإن لجهنم نيراناً، ودركات متفاضلة، كما أن في الدنيا ذنوباً ومعاصي متفاضلة، فكما أن الكفار أشقىٰ العصاة، كذلك يصلون أعظم النيران، وقيل: الكبرىٰ[1]: نار جهنم، والصغرىٰ: نار الدنيا، يعني أن المفضل: نار الآخرة، والمفضل عليه: نار الدنيا؛ لقوله ﷺ: «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وقد غمست في ماء البحر مرتين ليدنىٰ منها، وينتفع بها، ولولا ذلك ما دنوتم منها». ويقال: إنها تتعوذ بالله من جهنم، وأن ترد إليها. يقول الفقير: الظاهر أن المراد بالنار الكبرىٰ هو العذاب الأكبر في قوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾، وهو عذاب الآخرة، وأما العذاب الأصغر.. فهو عذاب الدنيا، وعذاب البرزخ فإنه يصغر بالنسبة إلىٰ عذاب الآخرة.

والمعنىٰ: أي[2] ويبتعد عن هذه التذكرة المعاند المصر علىٰ الجحود عناداً واستكباراً، وهو الذي يذوق حر النار الكبرىٰ في دركات جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾؛ إذ لا يليق بحكمة الحكيم المتعالي أن يسوي بين من اجترأ عليه وتهاون بأمره وارتكب أشنع الذنوب وأقبحها، ومن كان نقي الصحيفة ميمون النقيبة مطيعاً لأمره مؤدياً فرائضه منتهياً عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وقصارى ما سلف: أن الناس بالنظر إلىٰ دعوة الرسول ﷺ أقسام ثلاثة، كما مر عن الرازي:

١ ـ عارف صحتها، موقن بصدقها، لا يدور بخلده تردد ولا شك، وهذا هو المؤمن الكامل الذي يخشى ربه.

٢ ـ متردد متوقف إلىٰ أن يقوم لديه البرهان، فإذا هو سنح له بادر إلى التصديق بها، وهذا أدنىٰ من سابقه.

٣ ـ شقي معاند لا يلين قلبه للذكرىٰ، ولا تنال الدعوة من نفسه قبولاً، وهو شر الأقسام الثلاثة وأبعدها من الخير.

ثم بيَّن عاقبة هذا الأشقىٰ، ومآل أمره فقال: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ﴾ هذا الأشقىٰ ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في النار الكبرىٰ، فيستريح مما هو فيه من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة طيبة تنفعه كما يقال لمن ابتلي بالبلاء الشديد: لا هو حي ولا هو ميت، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ مَا لِنَفْسٍ تَمُوْتُ فَيَنْقَضِيْ ... عَنَاهَا وَلاَ تَحْيَا حَيَاةً لَهَا طَعْمُ

وأتىٰ[1] بـ ﴿ثُمَّ﴾ المفيدة للتراخي، إيذاناً بتفاوت مراتب الشدة؛ لأن التردد بين الحياة والموت أشد وأفظع من الصلي بالنار.

والمعنىٰ: أي ومن شقي هذا الشقاء، ولقي هذا العذاب بتلك النار يخلد فيها، ولا يقف عذابه عند غاية، ولا يجد لآلامه نهاية، فلا هو يموت فيستريح، ولا يحيا الحياة الطيبة فيسعد بها، ونحو الآية قوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، والعرب تقول لمن هو مبتلىٰ بمرض يقعده: لا هو حي فيرجىٰ، ولا ميت فينعىٰ.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾؛ أي: نجا من المكروه، وظفر بما يرجوه ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: تطهر من الكفر والمعاصي، بتذكره واتعاظه بالذكرىٰ، أو تكثره من التقوىٰ والخشية من الزكاء: وهو النماء، وأتىٰ[2] بكلمة ﴿قَدْ﴾ لما أن عند الإخبار بسوء حال المتجنب عن الذكرى في الآخرة، يتوقع السامع الإخبار بحسن حال المتذكر فيها وينتظره.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ بقلبه ولسانه ﴿فَصَلَّىٰ﴾؛ أي: أقام الصلوات الخمس كقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾؛ أي: كبر تكبيرة الإحرام فصلي، فالمراد بالذكر: تكبيرة الافتتاح أول الصلاة؛ لأنها لا تنعقد إلا بها، وهو قوله: الله أكبر، لكن لا يختص الذكر عند الحنفية بأن يقول: الله أكبر؛ لعموم الذكر، ودلَّ العطف بالفاء التعقيبية علىٰ عدم دخول التكبير في الأركان، كما تقوله الحنفية؛ لأن العطف يقتضي المغايرة بين المعطوفين، وهو حجة ضعيفة.

قال الإمام[1]: مراتب أعمال المكلف ثلاث:

فأولاها: إزالة العقائد الفاسدة عن القلب، وهي المرادة بالتزكي.

والثانية: استحضار معرفة الله بذاته وصفاته وأسمائه، وهي المرادة بالذكر؛ لأن الذكر بالقلب ليس إلا المعرفة.

والثالثة: الاشتغال بالخدمة والطاعة، وهي المرادة بالصلاة؛ فإنها عبارة عن التواضع والخشوع، فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله، لا بد وأن يظهر في جوارحه وأعضائه أثر الخشوع والخضوع. قال بعضهم: خلق الله وجهاً يصلح للسجدة، وعيناً تصلح للعبرة، وبدناً يصلح للخدمة، وقلباً يصلح للمعرفة، وسراً يصلح للمحبة، فاذكروا نعمة الله عليكم حيث زين ألسنتكم بالشهادة، وقلوبكم بالمعرفة، وأبدانكم بالعبادة.

والمعنىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: قد[2] أدرك الفلاح، وظفر بالبغية من طهر نفسه، ونقاها من أوضار الكفر، وأزال عنها أدران الشرك والآثام، ومن هذا تعلم أن تزكية النفوس إنما يكون بالإيمان بالله، ونفي الشركاء، والتصديق بكل ما جاء به رسوله ﷺ مع صالح العمل، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: وأحضر في قلبه صفات ربه من الجلال والكمال، فخضع لجبروته وقهره، فإن المرء متىٰ تذكر ربه العظيم.. وجل قلبه وخاف من سطوته وامتلأت نفسه خشية منه، ورهبة لجلاله، كما قال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

ثم رد سبحانه علىٰ قوم ممن قست قلوبهم، ولم يأخذوا من العبادة إلا

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

بصورها، وظنوا أن ذلك هو غاية ما يطالب الله عباده به بقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ وتختارون أيها الكفرة وأيها الناس مؤمنكم وكافركم ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ القريبة الزوال علىٰ الآخرة الباقية، وهذا إضراب عن كلام مقدر يدل عليه السياق، أي: لا تفعلون ذلك، بل تؤثرون اللذات الفانية في الدنيا.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ بتاء الخطاب للكفار، أو لجميع الناس، ويؤيدها قراءة أبي: ﴿بل أنتم تؤثرون﴾ وقرأ عبد الله وأبو رجاء والحسن والجحدري وأبوحيوة وابن أبي عبلة وأبو عمرو والزعفراني وابن مقسم: بياء الغيبة، قيل: المراد بالآية: الكفرة، والمراد بإيثار الحياة الدنيا: هو الرضا بها، والاطمئنان إليها، والإعراض عن الآخرة بالكلية، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ الآية، وقيل[2]: المراد بالآية: جميع الناس من مؤمن وكافر، والمراد بإيثارها: ما هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا علىٰ الآخرة، والتوجه إلىٰ تحصيل منافعها، والاهتمام بها اهتماماً زائداً علىٰ اهتمامهم بالطاعات، والالتفات علىٰ الأول لتشديد التوبيخ، وعلىٰ الثاني كذلك في حق الكفرة، ولتشديد العتاب في حق المسلمين.

وفي «فتح الرحمن»: فالكافر يؤثرها إيثار كفر يرىٰ أن لا آخرة، والمؤمن يؤثرها إيثار معصية وغلبة نفس، إلا من عصم الله تعالىٰ. وفي «عين المعاني»: خطاب للأمة؛ إذ كل يميل إلىٰ الدنيا إما رغبة فيها، أو ادِّخاراً لثواب الآخرة.

وجملة قوله: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ١٧﴾ في[3] محل النصب علىٰ الحال من فاعل ﴿تُؤْثِرُونَ﴾، مؤكدة للتوبيخ والعتاب؛ أي: تؤثرونها علىٰ الآخرة، والحال أن الآخرة خير في نفعها لما أن نعيمها مع كونه في غاية ما يكون من اللذات خالص عن شائبة الفائتة، أبدي لا انصرام له، وعدم التعرض لبيان تكدر نعيم الدنيا بالمنغِّصات، وانقطاعه عما قليل لغاية ظهوره. قال مالك بن دينار: لو كانت الدينا من ذهب يفنىٰ، والآخرة من خزف يبقى.. لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة من ذهب يبقىٰ، والدنيا من خزف يفنىٰ. وفيه إشارة[4]

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

(٤) روح البيان.

إلىٰ أن ظواهر الأشياء بالنسبة إلىٰ حقائقها، كالقشر بالنسبة إلىٰ اللب، واللب خير من القشر وأبقىٰ؛ لأن لب الحب يحفظ زماناً طويلاً، وقشره إذا سلخ من اللب يطرح في النار، أو يرمىٰ بالمزابل، فيفنى بعد يومين أو أكثر، فأرباب القشر يؤثرون الأمور الظاهرة الخسيسة الدنية الفانية علىٰ الأمور الباطنة المعنوية الشريفة العزيزة الباقية؛ لكونهم محجوبين عن الآخرة، وأرباب اللب يختارون الآخرة، بل الله، كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾.

والمعنىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾؛ أي[1]: أنتم كاذبون فيما زعمتم لأنفسكم من حسن العمل؛ لأنكم لو كنتم صادقين فيما ذهبتم إليه.. لكنتم تفضِّلون الآخرة علىٰ الدنيا، كما يرشد إلىٰ ذلك العقل، ويهدي إليه الشرع، فمتاع الآخرة دائم، ونعيمها لا يزول، ولا تنقيص فيه، ولا منٌّ، ومتاع الدنيا متاع زائل تشوبه الأكدار، وتحوط به الآلام، فمن استعجل هذا النعيم، واستحب زينة الدنيا.. لا يكون مصدقاً بالآخرة ونعيمها، أو يكون إيمانه إيماناً لا يجاوز طرف لسانه، ولا يصل إلىٰ قلبه، فلا يجازى عليه الجزاء الذي وعد به المؤمنون، وقد يقال في معنى الآيات: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: من تاب من الذنوب ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ يعني: إذا سمع الأذان خرج إلىٰ الصلاة ﴿فَصَلَّىٰ﴾ ثم ذم تارك الجماعة لأجل اشتغاله بالدنيا، فقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ يعني: تختارون عمل الدنيا علىٰ عمل الآخرة، وعمل الآخرة خيرٌ وأبقى من عمل الدنيا، والاشتغال بها وبزينتها.

ثم بين أن الأصول العامة التي جاءت في هذه الشريعة هي بعينها التي جاءت في جميع الشرائع السماوية فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلىٰ ما تقدم من فلاح من تزكَّىٰ ومن بعده. وقيل: إنه إشارة إلىٰ جميع السورة ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: لثابت في جميع الصحف السالفة، جمع: صحيفة، وهي: الكتاب.

قال الراغب: الصحيفة: المبسوط من كل شيء، كصحيفة الوجه، والصحيفة التي كان يكتب فيها، والمصحف: ما جعل جامعاً للصحف المكتوبة.

---

(١) المراغي.

والمعنىٰ: لثابت فيها، يعني: أن تطهير النفس عما لا ينبغي، وتكميل الروح بالمعارف، وتكميل الجوارح بالطاعة، والزجر عن الالتفات إلىٰ الدنيا، والترغيب في الآخرة، وفي ثواب الله تعالىٰ في دار كرامته، لا يجوز أن يختلف باختلاف الشرائع ﴿صُحُفِ﴾ جدِّك ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل عليه السلام. ﴿وَ﴾ صحف أخيك ﴿مُوسَىٰ﴾ الكليم عليه السلام، بدل من الصحف الأولى.

والمعنىٰ: أي إن ما أوحى به إلى نبيه ﷺ من أمر ونهي، ووعد ووعيد، هو بعينه ما جاء في صحف إبراهيم وموسى، فدين الله واحد، وإنما تختلف صوره، وتتعدد مظاهره، فإذا كان المخاطبون قد آمنوا بإبراهيم أو بموسى، فعليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لأنه لم يأتِ إلا بما جاء في صحفهم، وإنما هو مذكر أو محي لما مات من شرائعهم.

وقصارى ذلك: أن الرسول ﷺ ما جاء إلا مذكراً بما نسيته الأجيال من شرائع المرسلين، وداعياً إلىٰ وجهها الصحيح الذي أفسده كر الغداة، ومرُّ العشي، كما طمس معالمه اتباع الأهواء واقتفاء سنن الآباء والأجداد.

وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ بضم الحاء في الموضعين. وقرأ الأعمش وهارون وعصمة كلاهما عن أبي عمرو: بسكونها فيهما. وفي كتاب «اللوامح»: قرأ العقيلي عن أبي عمرو: ﴿الصحف﴾ ﴿صحف﴾: بإسكان الحاء فهما لغة تميم.

وقرأ الجمهور: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ بألف وبياء، والهاء مكسورة، وقرأ أبو رجاء: بحذفهما، والهاء مفتوحة، أو مكسورة، وقرأ أبو موسىٰ الأشعري وابن الزبير: ﴿إبراهام﴾ بألفين في كل القرآن، وقرأ مالك بن دينار: ﴿إبراهم﴾ بكسر الهاء، وبغير ياء في جميع القرآن، قال ابن خالويه: وقد جاء إبراهم، يعني: بألف وضم الهاء، وقد تقدم في سورة النجم الكلام علىٰ صحف إبراهيم وموسىٰ عليهما الصلاة والسلام.

الإعراب

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١
الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾.

﴿سَبِّحِ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود علىٰ محمد ﴿اسْمَ رَبِّكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، وجعله الجلال مقحماً علىٰ حد قول لبيد:

إِلَىٰ الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا

ولا داعي لهذا التكلف، فإن التنزيه يقع علىٰ الاسم؛ أي: نزه اسم ربك عن أن يسمىٰ به صنم أو وثن. ﴿الْأَعْلَى﴾: صفة أولى لـ ﴿رَبِّكَ﴾، وأجاز ابن هشام أن يكون صفة لـ ﴿اسْمَ﴾ ﴿الَّذِي﴾: صفة ثانية لـ ﴿الرب﴾، وجملة ﴿خَلَقَ﴾ صلته، ومفعول ﴿خَلَقَ﴾ محذوف؛ أي: كل شيء ﴿فَسَوَّىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿سوى﴾: معطوف علىٰ ﴿خَلَقَ﴾. ﴿وَالَّذِي﴾: معطوف علىٰ الموصول الأول، وجملة ﴿قَدَّرَ﴾ صلته، ﴿فَهَدَىٰ﴾: معطوف على ﴿قَدَّرَ﴾، ﴿وَالَّذِي﴾: معطوف أيضاً علىٰ الموصول الأول، وجملة ﴿أَخْرَجَ﴾ صلته، و﴿الْمَرْعَىٰ﴾: مفعول به لـ ﴿أَخْرَجَ﴾ ﴿فَجَعَلَهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿جعله﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول أول معطوف على ﴿أَخْرَجَ﴾، ﴿غُثَاءً﴾: مفعول ثان لـ ﴿جعل﴾ ﴿أَحْوَىٰ﴾: صفة لـ ﴿غُثَاءً﴾، أو حال من ﴿الْمَرْعَىٰ﴾، وأُخِّر عنه لرعاية الفواصل، وهنا أقوال متلاطمة في إعراب ﴿أَحْوَىٰ﴾ لا تخلو من الاعتراض ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾: ﴿السين﴾: حرف استقبال ﴿نقرئك﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَلَا تَنسَىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿لا﴾: نافية، ﴿تَنسَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ محمد معطوف علىٰ ﴿نقرئك﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم المفاعيل ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تَنسَىٰ﴾، وجملة ﴿شَاءَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾، والعائد محذوف؛ أي: فلا تنسىٰ شيئاً من الأشياء إلا شيئاً شاء الله تعالىٰ نسيانك إياه، ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿الله﴾ ﴿الْجَهْرَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وما﴾: ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف علىٰ ﴿الْجَهْرَ﴾، وجملة ﴿يَخْفَىٰ﴾ صلة الموصول، ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿نيسرك﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ الله، تقديره: نحن، ومفعول به معطوف علىٰ ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾: متعلق بـ ﴿نيسرك﴾: أي:

نيسرك لتبليغ الشريعة الإسلامية السمحة، ﴿فَذَكِّرْ﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب الشرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنك من أرباب الفيوضات الكمالية، والفتوحات الربانية، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول: ﴿ذكر﴾. ﴿ذكر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر يعود علىٰ محمد، ومفعوله محذوف تقديره: فذكر الناس، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية علىٰ كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إِن﴾ محذوف معلوم مما قبلها تقديره: إن نفعت الذكرى.. فذكر، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾: ﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿يذكر﴾: فعل مضارع ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿يَخْشَىٰ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿يتجنبها الأشقى﴾: فعل مضارع، ومفعول به، وفاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة لـ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ ﴿يَصْلَى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿ٱلنَّارَ﴾: مفعول به، ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾: صفة لـ ﴿ٱلنَّارَ﴾، والجملة صلة الموصول..

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَمُوتُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف علىٰ ﴿يَصْلَى﴾، ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ ﴿يَمُوتُ﴾، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يَمُوتُ﴾، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿أَفْلَحَ﴾: فعل ماض، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿تَزَكَّىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف علىٰ ﴿تَزَكَّىٰ﴾ ﴿فَصَلَّىٰ﴾: معطوف علىٰ ﴿ذَكَرَ﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب علىٰ مقدر يدل عليه السياق، والتقدير: أنتم لا تفعلون ما فيه صلاح أمركم، بل تؤثرون، و ﴿تُؤْثِرُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف علىٰ ذلك المحذوف ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾: مفعول به ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾: مبتدأ ﴿خَيْرٌ﴾: خبر ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾: معطوف

علىٰ ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿هَٰذَا﴾: اسمه ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، و ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾: صفة لـ ﴿ٱلصُّحُفِ﴾، ﴿صُحُفِ﴾: بدل من ﴿ٱلصُّحُفِ﴾، ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه، ﴿وَمُوسَىٰ﴾: معطوف علىٰ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾ سبح: أمر من التسبيح، وهو التنزيه.

﴿ٱلْأَعْلَى﴾: فيه إعلال بالقلب، أصله: الأعلي بوزن الأفعل، تحركت الياء، وانفتح ما قبله، فقلبت ألفاً، وأصل هذه الألف الواو؛ لأنه من: علا يعلو علواً.

﴿خَلَقَ﴾؛ أي: أوجد الكائنات.

﴿فَسَوَّىٰ﴾؛ أي: فسواها، ووضع خلقها علىٰ نظام كامل، لا تفاوت فيه ولا اضطراب، وأصله: سوي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾؛ أي: قدر لكل حي ما يصلحه مدة بقاءه.

﴿فَهَدَىٰ﴾؛ أي: هداه، وعرفه وجه الانتفاع بما خلق له.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ④﴾ والمرعىٰ: كل ما تخرجه الأرض من النبات والثمار والزروع المختلفة، وأصله: المرعي، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾. والغثاء: بتخفيف الثاء المثلثة بوزن: غراب، وتشديدها ـ بوزن زنار ـ: ما يقذفه السيل إلىٰ جانب الوادي من الحشيش والنبات والقماش، قال الشاعر:

كَـأَنَّ ظَـمِـيْـئَـاتِ ٱلْـمُـخَـيْـمِرِ غُـدْوَةً   مِـنَ ٱلـسَّـيْـلِ وَٱلْـغُـثَّـاءِ فُـلْـكٌ مُـغَـزَّلُ

وأصله: غثاو؛ لأنه من غثا يغثو، والهمزة فيه مبدلة من الواو لام الكلمة؛ لوقوعها متطرفة إثر ألف زائدة.

﴿أَحْوَىٰ﴾ أصله: أحوي بوزن أفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح من الحوة، وهو سواد يضرب إلىٰ الخضرة، والأحوىٰ: الذي يضرب لونه إلىٰ السواد

قال ذو الرمة:

لَمْيَاءُ فِيْ شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ وَفِيْ اللِّثَاتِ وَفِيْ أَنْيَابِهَا شَنَبُ

وقيل: خضرة عليها سواد، والأحوىٰ: الظبي الذي في ظهره خطان من سواد وبياض، وفي «الصحاح»: الحوة: سمرة، وقال الأعلم: هي لون يضرب إلىٰ السواد، وقال أيضاً: الشديد الخضرة التي تضرب إلىٰ السواد، ويقال: رجل أحوىٰ، وامرأة حواء، وجمعهما: حو، نحو: أحمر وحمراء وحمر.

وفي «القاموس»: الحوة ـ بالضم ـ: سواد إلىٰ الخضرة، أو حمرة إلىٰ السواد، وحوي، كرضي حوىً.

﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾؛ أي: نجعلك قارئاً للقرآن. ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أصله: تنسي بوزن: تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ أصله: يخفي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ اليسرىٰ: فعلىٰ، من اليسر وهو السهولة، ويسرت كذا سهلت وهيأت، وضمن نيسرك معنىٰ: نوفقك، فعداه بدون اللام، كما مر، و﴿اليسرىٰ﴾: أعمال الخير التي تؤدي إلىٰ اليسر.

﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ أصله: سيتذكر، أبدلت تاء التفعل دالاً، ثم أدغمت في الذال فاء الكلمة. ﴿مَن يَخۡشَىٰ﴾ أصله: يخشي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ أصله: الأشقي بوزن الأفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿يَصۡلَى﴾: أصله: يصلي بوزن: يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

وقوله: ﴿يَمُوتُ﴾ أصله: يموت بوزن يفعُل، نقلت حركة الواو إلى الميم، فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد. ﴿يَحۡيَىٰ﴾ أصله: يحيي بوزن يفعل، قلبت الياء الآخرة ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ﴾؛ أي: فاز بالمطلوب، ونجا من المكروه.

﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾، أي: تطهر من دنس الرذائل، ورأسها: جحد الحق، وقسوة القلب، أصله: تزكي بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: ذكر في قلبه صفات ربه من الكبرياء والجلال.

﴿فَصَلَّىٰ﴾ أصله: صلي بوزن: فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ومعنىٰ: صلّىٰ خشع وخضعت نفسه لأوامر بارئه. ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾؛ أي: تفضلون.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أصله: أبقي، تحركت الياء، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً. ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ والصحف: جمع صحيفة، ككتيبة وكتائب، وقذيفة وقذائف.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: حذف المفاعيل ليفيد العموم في قوله: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، وقوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، أي: خلق كل شيء فسواه، وقدر كل شيء فهداه.

ومنها: الإتيان بسين الاستقبال في قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ لتأكيد الكلام.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾.

ومنها: الإتيان فيه بنون العظمة لتكون عظمة المعطي دليلاً علىٰ عظمة العطاء.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿ذَكِّرْ﴾، و ﴿الذِّكْرَىٰ﴾.

ومنها: المقابلة بين ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾، وبين ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ لتشديد التوبيخ في حق الكفرة وتشديد العتاب في حق المسلمين.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾ مبالغة في رد إنكار المنكرين.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

الخاتمة: صحف موسى غير التوراة عشر، وكلها عبر، وكذا صحف إبراهيم عشر، وكلها أيضاً عبر، وروىٰ الآجري من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟، قال «كانت أمثالاً كلها، وفيها: أيها الملك المتسلط المبتلىٰ المغرور، وإني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلىٰ بعض، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها، ولو كانت من فم كافر.

وكان فيها أيضاً: وعلىٰ العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، يفكر في صنع الله عزّ وجلّ له، ويتفكر فيما صنع هو، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب.

وفيها أيضاً: وعلىٰ العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً علىٰ شأنه، حافظاً للسانه، ومن عدَّ كلامه من عمله.. قل كلامه إلا فيما يعنيه».

قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسىٰ؟، قال: «كانت عبراً كلها، وفيها: عجبت لمن رأىٰ الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها.

وفيها أيضاً: عجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل» قال: قلت: فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسىٰ مما أنزل عليك؟ قال: «نعم، إقرأ يا أبا ذر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾» وذكر الحديث إلى هنا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد

اشتملت على المقاصد التالية:

١ ـ أمر النبي ﷺ ـ وأمته تبع له ـ بتسبيح الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به ذاتاً وصفات وأسماء وأفعالاً.

٢ ـ الامتنان علىٰ عباده بخلق الكائنات، وتسويتها، وتقديرها، وهدايتها إلىٰ ما هو من مصالحها، وبإخراج المرعىٰ لهم ولأنعامهم.

٣ ـ الوعد لرسوله ﷺ بإقرائه القرآن وعدم نسيانه.

٤ ـ أمره بتذكير عباده بما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

٥ ـ ذكر وعيد من أعرض عن النظر في الدلائل، ووعد من زكىٰ نفسه وطهرها من أدران الشرك والمعاصي، وبيان أن هذا في الصحف الأولىٰ.

وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين[١].

* * *

(١) تم تفسير سورة الأعلىٰ وقت السحر من ليلة الأربعاء الخامسة والعشرين من شهر رمضان المبارك من شهور سنة: ٢٥/٩/ ١٤١٦هـ. ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة الغاشية

سورة الغاشية مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة الذاريات، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الغاشية بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: ست وعشرون آية. وكلماتها: اثنتان وتسعون كلمة. وحروفها: ثلاث مئة وإحدىٰ وثمانون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أنه أشير في السابقة إلى المؤمن والكافر، والجنة والنار إجمالاً، وبسط الكلام فيها هنا. وعبارة أبي حيان: لما ذكر فيما قبلها ﴿فَذَكِّرْ﴾، وذكر النار والآخرة قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾، فبسط الكلام فيها، وذكر أن الناس في الغاشية فريقان:

فريق في الجنة، وفريق في النار، ثم لفت الأنظار إلىٰ بعض الآثار الكونية، ثم أمر النبي ﷺ بالتذكير مع بيان أن المرجع إلىٰ الله وحده. وقال بعضهم: لما ختم سورة الأعلى بالترغيب في الآخرة حيث قال: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ افتتح سورة الغاشية ببيان أحوال الآخرة التي رغب فيها، وعاد إليها في السورة السابقة، وكأن النبي ﷺ وضع سورة الغاشية بعد سورة الأعلى لشرح بداية هذه لخاتمة تلك.

فضلها: ومما ورد في فضلها: ما أخرجه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ: كان يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، و ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾، وإنْ وافق يوم الجمعة. . قرأهما جميعاً.

وفي لفظ: وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما. وفي الباب أحاديث كثيرة، ومنها: ما روي أنه ﷺ قال: «من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله تعالى حساباً يسيراً»، ولكن لا أصل له.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال ابن حزم رحمه الله تعالى: سورة الغاشية كلها

محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ نسخت بآية السيف، وسميت سورة الغاشية لذكر الغاشية فيها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ قال[1] قطرب ـ من أئمة النحو ـ وغيره من المفسرين: أي: قد جاءك الآن يا محمد حديث الغاشية. قال المولىٰ أبو السعود رحمه الله تعالىٰ في «الإرشاد»: وليس بذاك، بل هو استفهام أريد به التعجيب مما في حيزه، والتشويق إلىٰ استماعه، والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التي حقها أن يتناقلها الرواة، ويتنافس في تلقيها الوعاة من كل حاضر وباد، والغاشية: الداهية الشديدة التي تغشىٰ الناس، وتغطيهم بشدائدها، وتكتنفهم بأهوالها، وهي القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، وقال: ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾، وعليه أكثر المفسرين، وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب: الغاشية: النار تغشىٰ وجوه الكفار، كما في قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، وقيل: الغاشية: أهل النار؛ لأنهم يغشونها ويقتحمونها، والأول أولىٰ، يقال: غشيه يغشاه: أي: غطاه، وكل ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له، قال الكلبي: المعنىٰ: إن لم يكن أتاك حديث الغاشية.. فقد أتاك الآن، وليس هذا الماضي إخباراً عن أمر سبق، بل هو إخبار عما وقع له في الحال انتهىٰ.

---

(١) روح البيان.

وقال المراغي: المعنىٰ: أي هل بلغك يا محمد نبأ يوم القيامة، وعلمت قصصه، فإننا سنعلمك شأنه الخطير، وهذا أسلوب من الكلام لا يراد منه حقيقة الاستفهام، بل يراد منه تعجيب السامع مما سيذكر بعد، وتشويقه إلى استماعه، وتوجيه فكره إلىٰ أنه من الأحاديث التي من حقها أن تتناقلها الرواة، ويحفظها الوعاة.

ثم فصل شأن أهل الموقف في ذلك اليوم، وذكر أن أهله فريقان: فريق الكفرة الفجرة، وفريق المؤمنين البررة، وقد أشار إلىٰ الأولين بقوله:

١ - ﴿وُجُوهٌ﴾؛ أي: وجوه من الكفرة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تغشىٰ الغاشية الناس ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ أي: ذليلة بما يظهر عليها من أنواع الخزي والهوان، وتذوقها من أنواع العذاب، وهذا كلام مستأنف وقع جواباً لسؤال نشأ عن الاستفهام التشويقي، كأنه قيل من جهته ﷺ: ما أتاني حديثها فما هو؟ فقيل: وجوه يومئذٍ إلخ، و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف لما بعده من الأخبار الثلاثة، قال أبو حيان: والتنوين عوض من الجملة، ولم تتقدم جملة تصلح أن يكون التنوين عوضاً عنها، لكن لما تقدم لفظ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وأل موصولة باسم الفاعل، فتنحل للتي غشيت؛ أي: للداهية التي غشيت.. علم أن التنوين عوض عن هذه الجملة التي انحل لفظ الغاشية إليها، وإلى الموصول الذي هو لفظ التي. انتهىٰ.

أي: وجوه من الكفار يوم إذ غشيت تلك الداهية الناس خاشعة؛ أي: ذليلة بأنواع الخزي والهوان، عاملة أعمالاً شاقة في النار، كجر السلاسل، وحمل الأغلال ﴿نَّاصِبَةٌ﴾؛ أي: تعبة بتلك الأعمال الشاقة، فإن الخشوع والخضوع والتطامن والتواضع كلها بمعنىٰ، ويكنىٰ بالجميع عما يعتري الإنسان من الذل والخزي والهوان، فـ ﴿وُجُوهٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء، بالنكرة وقوعها في معرض التفصيل، و ﴿خَٰشِعَةٌ﴾: خبره، قال الشيخ: لعل وجه الابتداء بالنكرة كون تقدير الكلام: أصحاب وجوه بالإضافة، إلا أن الخشوع والذل لما كان يظهر في الوجه.. حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وإنما قلنا: إن الذل يظهر في الوجه؛ لأنه ضد التكبر الذي محله الرأس والدماغ، والمراد بأصحاب الوجوه: هم الكفار بدلالة ما بعده من الأوصاف. ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ بالرفع خبران آخران لـ ﴿وُجُوهٌ﴾، إذ المراد بها أصحابها، كما أشرنا إليه آنفاً، أو خبران لمبتدأ محذوف،

وبالنصب علىٰ الحال، أو علىٰ الذم والناصبة: التعبة من النصب: وهو التعب، يقال: نصب ـ من باب علم ـ: إذا تعب في العمل.

والمعنىٰ: وجوه يومئذٍ تعمل أعمالاً شاقة تتعب فيها؛ لأنها في الدنيا تكبرت عن العمل لله، فأعملها الله سبحانه في الآخرة في أعمال شاقة، وهي جر السلاسل، وحمل الأغلال الثقيلة، كما قال: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾، والخوض في النار: خوض الإبل في الوحل؛ أي: الطين الرقيق، والصعود في تلال النار، والهبوط في وهاده. وقال بعضهم: خشوع الظاهر ونصب الأبدان لا يقربان إلى الله تعالى، بل يقطعان عنه، وإنما يقرب منه سعادة الأزل، وخشوع السر من هيبة الله، وهو الذي يمنع صاحبه من جميع المخالفات، فالرهبانية والفلاسفة وأضرابهم من أهل الكفر والضلال والبدع والخرافات، إنما يضربون حديداً بارداً، ويتعبون أنفسهم في طريق الهوىٰ والسعي فيها. وقال ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة: عاملة في النار، ناصبة تعبة فيها؛ لأنها تكبرت عن العمل في الدنيا، وعملها في النار جرها السلاسل ونحوه، كما مر آنفاً. وقال ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم وابن جبير: عاملة في الدنيا ناصبة فيها؛ لأنها علىٰ غير هدى، فلا ثمرة لها إلا التعب، وخاتمته النار.

وقرأ الجمهور: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ بالرفع فيهما. وقرأ ابن محيصن وعيسى وحميد وابن كثير في رواية عنه: بالنصب فيهما، كما مر بيان توجيهما.

﴿تَصْلَىٰ﴾؛ أي: تدخل تلك الوجوه يومئذٍ ﴿نَارًا﴾ هائلةً ﴿حَامِيَةً﴾؛ أي: مسعرة بالغة نهاية الحرارة، وتذوق ألمها موقدة من ابتداء خلقها، وفي الحديث: «أحمي عليها ألف سنة حتىٰ احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتىٰ ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة». قال السجاوندي: معنى حامية، أي: دائمة الحمي، وإلا فالنار لا تكون إلا حامية يقال: حمي الشمس والنهار حمياً وحمياً وحمواً: اشتد حرهما، والجملة خبر آخر لـ ﴿وُجُوهٌ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿تَصْلَىٰ﴾ بفتح التاء وسكون الصاد مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب وأبو رجاء وابن محيصن: بضمها مبنياً للمفعول، وقرأ خارجة: بضم التاء وفتح الصاد مشدد اللام، وقد حكاها أبو عمرو بن العلاء،

والضمير راجع إلىٰ الوجوه علىٰ جميع هذه القراءات، والمراد: أصحابها كما تقدم، وكذا الضمير في قوله: ﴿تُسْقَىٰ﴾ أي: تسقىٰ تلك الوجوه بعد مدة طويلة من استغاثتهم من غاية العطش ونهاية الاحتراق؛ أي: سقاها الله سبحانه، أو الملائكة بأمره تعالى ﴿مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾؛ أي: من عين ماء قد انتهىٰ حرها غايتها، لتسخينها بتلك النار منذ خلقت، لو وقعت منها قطرة علىٰ جبال الدنيا لذابت، فإذا أدنيت من وجوههم تناثرت لحوم وجوههم، وإذا شربوا قطعت أمعاءهم، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ يقال: أنى الحميم إذا انتهىٰ حرة: فهو آنٍ، والآني: هو الذي قد انتهى حره.

وحاصل معنى قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾؛ أي[1]: إن هؤلاء الكفار كانوا في حياتهم الدنيا يعملون ويجتهدون في أعمالهم، لكن لم يتقبلها ربهم؛ لأنهم لم يقدموا عليها الإيمان بالله ورسوله، وهو الدعامة الأولى في قبول العمل عنده، ولأنهم لم يقصدوا بها وجهه تعالىٰ، ولأنهم كانوا يجتهدون في مشاقة الله ورسوله، ويسعون في الأرض.

والخلاصة: أن هؤلاء الكفار وقع منهم في الدنيا عمل، وأصابهم فيه نصب وتعب، لكنهم لم يستفيدوا منه شيئاً، وآثار الخيبة وحبوط العمل بادية علىٰ وجوههم.

ثم ذكر مكانها في هذا اليوم فقال: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾؛ أي: إن هذه الوجوه تقاسي حر النار، وتعذب بها؛ لأن أعمالها في الدنيا كانت خاسرة غلبها الشر، وجانبها الخير، وهذه النار الحامية لا نعرف كنهها، ولكن علينا أن نؤمن بها، وبأن حلفاء الباطل يصلونها.

وبعد أن ذكر مكانها ذكر شرابها فقال: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾؛ أي: إن أهل النار إذا عطشوا في تلك الدار وطلبوا ما يطفىء غلتهم وعطشهم.. جيء لهم بماء من ينبوع بلغ من الحرارة غايتها، فهو لا يطفىء لهباً، ولا ينقع غلة.

وبعد أن ذكر شرابهم.. أردفه بوصف طعامهم، فقال: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن

---

(١) المراغي.

ضَرِيعٍ ﴿٦﴾، وأورد ضمير العقلاء إشارة إلىٰ أن المراد من الوجوه أصحابها، وإنما أسند إليها ما ذكر من الأحوال لكونها مظهراً يظهر فيه ما في الباطن، مع أنها يكنىٰ بها كثيراً عن الذوات.

والضريع: يبيس الشبرق، كزبرج، وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، وإذا يبس تحامته ولا تقربه، وهو سم قاتل. وفي «المراح»: والشبرق: نبت يكون في طريق مكة إذا كان رطباً تأكل منه الإبل، وإذا يبس صار كأظفار الهرة، وهو سم قاتل. ا هـ.

قال في «فتح الرحمن»: سموا ذلك الشوك ضريعاً؛ لأنه مضعف للبدن ومهزل، يقال: ضرع الرجل ضراعة: ضعف وذل، وعن ابن[1] عباس رضي الله عنهما يرفعه: «الضريع شيء في النار شبه الشوك، أَمَر من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشد حراً من النار» وهذا طعام بعض أهل النار، والزقوم والغسلين لآخرين بحسب جزائهم، وبه يندفع التعارض بين هذه الآية، وبين آية الحاقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ قال سعدي المفتي: ويمكن في قدرة الله تعالىٰ أن يجعل الغسلين إذا انفصل عن أبدان أهل النار علىٰ هيئة الضريع، فيكون طعامهم الغسلين الذي هو الضريع. انتهىٰ. يقول الفقير: ويمكن عندي أن يجعل كل من الضريع والغسلين والزقوم بالنسبة إلىٰ شخص واحد بحسب الأعمال المختلفة، فإن لكل عمل أثراً مخصوصاً، وجزاءً متعيناً، فيصح الحصر.

والمعنىٰ: أي إنهم إذا أحسوا بالجوع، وطلبوا الطعام أُتيَ لهم بالضريع، وهو ذلك المرعىٰ السوء الذي لا تعقد عليه السائمة شحماً ولا لحماً، وإن لم تفارقه إلىٰ غيره ساءت حالها، والمراد بهذه كله: أنه يؤتىٰ لهم برديء الطعام.

ثم وصف هذا الضريع بأنه لا يجدي ولا يفيد، فقال: ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾؛ أي: لا يسمن هذا الضريع آكله؛ أي: لا يحصل له سمناً، والسمن: ضد الهزال، ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾؛ أي: لا يدفع ما به من الجوع؛ أي: ليس من شأنه الإسمان والإشباع، كما هو شأن طعام الدنيا، وإنما هو شيء يضطرون إلىٰ أكله من غير أن يكون له

---

(١) روح البيان.

دفع لضرورتهم، لكن لا علىٰ أن لهم استعداداً للشبع والسمن؛ لأنه لا يفيدهم شيئاً منهما، بل على أنه لا استعداد من جهتهم، ولا إفادة من جهة طعامهم، وتحقيق[١] ذلك: أن جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة من حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة لبدل ما يتحلل من البدن، مشوقة له إلى المطعوم والمشروب، بحيث يتلذذ بهما عند الأكل والشرب، ويستغني بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المعدة، ويستفيد منهما قوةً وسمناً عند انهضامهما، بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النار في أحشائهم إلىٰ إدخال شيء كثيف يملؤها، ويخرج ما فيها من اللهب، وأما أن يكون لهم شوق إلىٰ مطعوم ما أو التلذذ به عند الأكل، والاستغناء به عن الغير، أو استفادة وقوة.. فهيهات.

وكذا عطشهم عبارة عن اضطرارهم عند أكل الضريع، والتهابه في بطونهم إلىٰ شيء مائع بارد يطفئه، من غير أن يكون لهم التلذذ بشربه، أو استفادة قوة به في الجملة، وهو المعني بما روي: أنه تعالىٰ سلَّط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلىٰ أكل الضريع، فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش، فيضطرهم إلىٰ شرب الحميم، فيشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم.

وتنكير الجوع للتحقير[٢]؛ أي: لا يغني من جوع ما، وتأخير نفي الإغناء عنه لمراعاة الفواصل والتوسل به إلىٰ التصريح بنفي كلا الأمرين، إذ لو قدم لما احتيج إلىٰ ذكر نفي الإسْمَانِ ضرورة استلزام نفي الإغناء عن الجوع إياه، بخلاف العكس، ولذا كرر لتأكيد النفي.

وحاصل معنى قوله[٣]: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾؛ أي: إن هذا الطعام لا يدفع جوعاً ولا يفيد سمناً، فليس له فائدة الطعام التي لأجلها يؤكل في الدنيا، وقد سمىٰ الله سبحانه ذلك الطعام بالضريع تشبيهاً له به، وإلا فذلك العالم ليس فيه نمو أبدان، ولا تحلل مواد علىٰ النحو الذي يكون في الدنيا، بل هو عالم خلود

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

وبقاء، واللذائذ فيه لذائذ سعادة، والآلام فيه آلام شقاء، فكل ما في ذلك العالم إنما يقع بينه وبين ما في عالمنا نوع مشابهة، لا اتفاق ولا مجانسة.

وقد جاء في سورة الحاقة في طعام الكافرين[1]: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾، وفي سورة الواقعة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾، وفي سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾، فهذا كله يدل على أن طعام أهل النار شيء يوافق النشأة الآخرة، عبر عنه بعبارة مختلفة ليصور في أذهاننا بشاعته وخبثه لتنفر عنه نفوسنا، و تطلب كل وسيلة للفرار منه، فتبتعد عن العقائد الفاسدة، والأعمال الخاسرة، كما مر ذلك آنفاً. قال[2] المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا تسمن من الضريع، فنزلت: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾، وكذبوا في قولهم هذا، فإن الإبل لا تأكل الضريع ولا تقربه، وقيل: اشتبه عليهم أمره، فظنوه كغيره من النبات النافع.

ثم شرع سبحانه في بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار فقال: ﴿وُجُوهٌ﴾ من المؤمنين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ غشيت الداهية الناس ﴿نَّاعِمَةٌ﴾؛ أي: ناضرة ذات بهجة وحسن وضياء، مثل القمر ليلة البدر، لما شاهدوا من عاقبة أمرهم، وما أعده الله سبحانه لهم من الخبر الذي يفوق الوصف، فـ ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ من نعم الشيء بالضم نعومَةً؛ أي: صار ناعماً ليناً، ويجوز أن يكون بمعنى: متنعمة؛ أي: بالنعم الجسمانية والروحانية، فيكون المراد بها حقيقة النعمة. وإنما لم تعطف[3] على ما قبلها إيذاناً بكمال تباين مضمون الجملتين، وتقديم حكاية أهل النار؛ لأنه أدخل في تهويل الغاشية، وتفخيم حديثها، وفيه إشارة إلى نعيم اللقاء الذي هو ثمرة اللطافة، والتورية التي هي نتيجة التجرد، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ فإن بالنظر إلى الرب جل جلاله يحصل نضرة، أي: نضرة.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

﴿لِسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩﴾؛ أي: لعملها الذي عملته في الدنيا حيث شاهدت ثمرته ورأت عاقبته الحميدة، فاللام متعلقة بـ ﴿رَاضِيَةٞ﴾، والتقدير: راضية سعيها؛ لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها وقرت به عيونها، فلما تقدم المعمول علىٰ العامل الضعيف.. جيء باللام لتقوية العامل، ويجوز أن تكون لام التعليل؛ أي: لأجل سعيها في طاعة الله تعالى راضية جزاءها وثوابها.

وبعد أن وصف أهل الثواب وصَفَ ديارهم بسبعة أوصاف، فقال:

١ - ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠﴾؛ أي: كائنة أو متمكنة في جنة عالية المكان، مرتفعة علىٰ غيرها من الأمكنة، فإن الجنة فوق السموات العلىٰ، كما أن النار تحت الأرضين السبع، ولأن الجنة أيضاً منازل ودرجات بعضها أعلىٰ من بعض، كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض، والدرجة مثل ما بين السماء والأرض، فتكون من العلو في المكان، وفي الحديث: «إن المتحابين في الله في غرف ينظر إليهم أهل الجنة، كما ينظر أهل الدنيا إلىٰ كواكب السماء»، ويجوز أن يكون معنىٰ ﴿عَالِيَةٖ﴾: علية المقدار، فتكون من العلو في القدر والشرف؛ لتكامل ما فيها من النعيم؛ لأن نعيم الجنة بعضه أرفع من بعض، فالنعيم الذي يتمتع به السابقون من الأنبياء والشهداء والصالحين، أعلىٰ منزلة وأرفع قدراً مما يتمتع به الذين اتبعوهم بإحسان.

٢ - ﴿لَّا تَسۡمَعُ﴾ أنت أيها المخاطب، فالخطاب عام لكل من يصلح له، أو لا تسمع أنت يا محمد علىٰ أن الخطاب خاص، أو لا تسمع تلك الوجوه؛ أي: أصحابها، فتكون التاء لتأنيث الفاعل، لا للخطاب. ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنة العالية ﴿لَٰغِيَةٗ﴾؛ أي: لغواً من الكلام، وهو: ما لا يعتد به من الكلام الساقط، فهو مصدر كالعافية والعاقبة؛ أي[(١)]: إنها منزهة عن اللغو؛ إذ أنها منزل جيران الله وأحبائه، وقد نالوها بالجد والعمل، لا باللغو، ومنازل أهل الشرف في الدنيا تكون مبرأة من اللغو والكذب والبهتان، فكيف بأرفع المجالس في جوار رب العالمين، ومالك قلوب الخلق أجمعين! أو: لا تسمع كلمةً ذات لغو علىٰ أنها للنسبة، أو: نفساً تلغو علىٰ أنها اسم فاعل صفة لموصول محذوف هو: نفس.

---

(١) المراغي.

وقال الفراء والأخفش[1]: أي لا تسمع فيها كلمة لغو، قيل: المراد بذلك: الكذب والبهتان والكفر، قاله قتادة، وقال مجاهد: أي: الشتم، وقال الفراء أيضاً: لا تسمع فيها حالفاً يحلف بكذب، وقال الكلبي: لا تسمع في الجنة حالفاً بيمين برة ولا فاجرة، وقال الفراء أيضاً: لا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة تلغىٰ؛ لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة، وحمد الله تعالىٰ علىٰ ما رزقهم من النعيم الدائم، وهذا أرجح الأقوال؛ لأن النكرة في سياق النفي من صيغ العموم، ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص، و ﴿لَٰغِيَةً﴾ إما صفة موصوف محذوف؛ أي: كلمة لاغية، أو نفساً لاغية، أو مصدر؛ أي: لا تسمع فيها لغواً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لا تسمع﴾ بفتح الفوقية ونصب ﴿لَٰغِيَةً﴾؛ أي: لا تسمع أنت أيها المخاطب، أو لا تسمع تلك الوجوه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع ـ بخلاف عنهم ـ، وأهل مكة والمدينة: ﴿لَا تُسْمَعُ﴾ مبنياً للمفعول، ورفع ﴿لاغيةٌ﴾؛ أي: كلمة لاغية، أو جماعة لاغية، أو لغو، فيكون مصدراً كالعاقبة، ثلاثة أقوال، الثالث لأبي عبيدة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو أيضاً وابن محيصن وعيسىٰ: بالتحتية مضموم مبنياً للمفعول، ورفع ﴿لاغية﴾ لمجاز التأنيث. وقرأ الفضل والجحدري: بفتح الياء التحتية مبنياً للفاعل، ونصب ﴿لَٰغِيَةً﴾ بمعنىٰ: لا يسمع أحد فيها لاغيةً؛ أي: لغواً.

٣ ـ ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنة العالية ﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾؛ أي: ينبوع ماء جار، والتنوين فيه للتكثير؛ أي: عيون[3] كثيرة تجري مياهها علىٰ الدوام حيث شاء صاحبها، وهي أشد بياضاً من اللبن، وأحلىٰ من العسل، من شرب منها لا يظمأ بعدها أبداً، ويذهب من قلبه الغل والغش والحسد والعدواة والبغضاء، والمياه الجارية من الينابيع تكون صافية، وفي منظرها مسرة للنفوس، وقرة للعيون، وقد افتخر بمثلها فرعون فقال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط والشوكاني.
(٣) روح البيان.

٤ - ﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾ يجلسون عليها، جمع: سرير هو معروف ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾؛ أي: رقيقة[1] السمك؛ أي: عالية في الهواء علىٰ قوائم طوال، فإن السمك هو الامتداد الآخذ من أسفل الشيء إلى أعلاه، فالمراد برفعة سمكها: شدة علوها في الهواء، فيرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما أعطاه ربه في الجنة من النعيم الكبير، والملك العظيم، ويرىٰ من في الجنة، وفي ذلك من التشريف والتكريم ما لا خفاء فيه، وفي الحديث: «ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمس مئة عام» قيل: إذا جاء ولي الله ليجلس عليها تطامنت له، فإذا استوى عليها ارتفعت، ويجوز أن يكون المعنىٰ: رفيعة المقدار من حيث اشتمالها علىٰ جميع أنواع الحسن والكمال في ذواتها وصفاتها.

٥ - ﴿وَأَكْوَابٌ﴾؛ أي: وفيها أكواب وأقداح يشربون بها، جمع: كوب بالضم، وهو إناء لا عروة له ولا خرطوم، مدَوَّر الرأس ليمسك ويشرب منه من أي طرف أريد، بخلاف الإبريق، وهو مستعمل في بعض بلاد العرب الآن، ولذا وقع به التشويق. ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ على حافات العيون كلما أرادوا أن يشربوا منها وجدوها، أو موضوعة بين أيديهم حاضرة لديهم لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها، وهو لا ينافي أن يكون بعض الأقداح في أيدي الغلمان، كما سبق في سورة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾.

٦ - ﴿وَنَمَارِقُ﴾؛ أي: وسائد يستندون إليها للاستراحة جمع: نمرقة، بفتح النون وضمها، والراء مضمومة فيهما بمعنىٰ: الوسادة ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾؛ أي: مصفوف[2] بعضها إلىٰ جوانب بعض، كما يشاهد في بيوت الأكابر، فإن شاؤوا جلسوا عليها، وإن أرادوا استندوا إليها، وإن أحبوا أن يجلسوا علىٰ بعضها، ويستندوا إلى بعض فعلوا، كلما أراد المؤمن أن يجلس جلس علىٰ واحدة، واستند إلىٰ أخرىٰ، وعلىٰ رأسه وصائف كأنهن الياقوت والمرجان.

٧ - ﴿وَزَرَابِيُّ﴾؛ أي: وفيها بسط فاخرة، جمع: زربي وزربية. قال أبو عبيدة والفراء: الزرابي: الطنافس التي لها خمل رقيق، واحدها: زربية، قال الراغب: هو ضرب من الثياب محبر منسوب إلىٰ موضع على طريق التشبيه والاستعارة ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾؛ أي: مبسوطة علىٰ السرر زينة وتمتعاً، أو مبسوطة تحتهم، وقال الفراء: معنىٰ

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾: كثيرة. وقال الواحدي: ويجوز أن يكون أنها مفرقة في المجالس، والظاهر[1] أن معنىٰ البث: التفرق مع كثرة، ومنه: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، والمعنىٰ: أي: وفيها بسط مبسوطة في المجالس، بحيث يرىٰ في كل مجلس من مجالسهم منها شيء كما يرىٰ في بيوت المترفين وذوي الثراء في الدنيا.

وقد ذكر[2] سبحانه كل ما سلف تصويراً لترف أهل الجنة تصويراً يقربه من عقولهم، ويستطيعون به إدراكه وفهمه، وإلا فإن نعيم الجنة مما يسمو علىٰ الفكر، ويعلو فوق متناول الإدراك، فالأشياء التي عددها سبحانه تتشابه مع نظائرها التي في هذه الحياة بأسمائها، فأما حقائقها وذواتها.. فليست مثلها ولا قريباً منها، كما أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء.

ولما[3] ذكر الله سبحانه وتعالى أمر القيامة، وانقسام أهلها إلىٰ أشقياء وسعداء، وعلم أنه لا سبيل إلىٰ إثبات ذلك إلا بواسطة الصانع الحكيم.. أتبع ذلك بذكر هذه الدلائل، وذكر ما العرب مشاهدوه وملابسوه دائماً، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾﴾، وهي الجمال، فإنه اجتمع فيها ما تفرق في غيرها من المنافع من أكل لحمها، وشرب لبنها، والحمل عليها، والتنقل عليها إلىٰ البلاد الشاسعة، وعيشها بأي نبات أكلته، وصبرها علىٰ العطش، حتىٰ إن فيها ما يرد الماء لعشر، وطواعيتها لمن يقودها، ونهضتها وهي باركة بالأحمال الثقال، وكثرة حنينها، وتأثرها بالصوت الحسن علىٰ غلظ أكبادها، ولا شيء من الحيوان جمع هذه الخصال غيرها، وقد أبان تعالىٰ امتنانه بها عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ...﴾ الآيات، ولكونها أفضل ما عند العرب جعلوها دية القتل، ووهبوا المئة منها من يقصدهم ومن أرادوا إكرامه، وذكرها الشعراء في مدح من وهبها، كقول بعضهم:

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

ٱلْـوَاهِـبُ ٱلْـمِـئَـةَ ٱلْـهِـجَـانَ وَعَـبْـدَهَـا

وقال آخر:

أَعْـطُـوْا هُـنَـيْـدَةَ تَـحَـدُوْهَـا ثَـمَـانِـيَـةٌ

وناسب التنبيه بالنظر إليها وإلى ما حوت من عجائب الصفات ما ذكر معها من السماء والجبال والأرض؛ لانتظام هذه الأشياء في نظر العرب في أوديتهم وبواديهم، وليدل علىٰ الاستدلال علىٰ إثبات الصانع، وأنه ليس مختصاً بنوع، بل هو عام في كل موجوداته، كما قيل:

وَفِـــيْ كُـــلِّ شَـــيْءٍ لَـــهُ آيَـــةٌ تَـــدُلُّ عَـــلَـــىٰ أَنَّـــهُ وَاحِـــدُ

ولم يذكر الفيل مع أنه أعظم خلقة من الإبل؛ لأنه لم يكن بأرض العرب، فلم تعرفه، ولا يحمل عليه عادة، ولا يحلب دره، ولا يؤمن ضره. وقال الحسن: وخص الإبل بالذكر؛ لأنها تأكل النوىٰ والقت، وتخرج اللبن، فقيل له: الفيل أعظم منها في الأعجوبة، قال: العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو خنزير، لا يؤكل لحمه، ولا يركب ظهره، ولا يحلب دره.

والإبل لا واحد له من لفظه، وهو مؤنث، ولذلك إذا صغر دخلته التاء، فقالوا: أُبَيلة، وقالوا في الجمع: آبال.

وقرأ الجمهور[(١)]: ﴿ٱلْإِبِلِ﴾ بكسرتين، وتخفيف اللام، وروى الأصمعي عن ابن عمرو: إسكان الباء، وقرأ علي وابن عباس: بشد اللام بعد كسرتين، ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي، وقالوا: إنها بهذا الضبط: السحاب عن قوم من أهل اللغة، وبالضبطين الأولين: الجمال. والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ للإنكار[(٢)] والتوبيخ، داخلة علىٰ محذوف يقتضيه المقام، والفاء عاطفة علىٰ ذلك المحذوف، وكلمة ﴿كَيْفَ﴾[(٣)] منصوبة بما بعدها معلقة لفعل النظر، والجملة في حيز الجر علىٰ أنها بدل اشتمال من الإبل؛ أي أينكرون ما ذكر من البعث وأحكامه، ويستبعدون وقوعه عن قدرة الله تعالىٰ، فلا ينظرون نظر اعتبار إلى الإبل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

التي هي نصب أعينهم، يستعملونها كل حين، أنها كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلقة سائر أنواع الحيوانات في عظم جثتها، وشدة قوتها، وعجيب هيئتها اللائقة بتأتي ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة، كالنهوض من الأرض بالأوقار الثقيلة، وجر الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة، وفي سيرها علىٰ الجوع والعطش، حتىٰ إن ظمأها ليبلغ العشر فصاعداً واكتفاءها ورعيها بكل ما تيسر من شوك شجر، وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم، وفي انقيادها مع ذلك للإنسان في الحركة والسكون، والبروك والنهوض؛ حيث يستعملها في ذلك كيفما يشاء، ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير، وتبول من خلفها؛ لأن قائدها أمامها، فلا يترشش عليه بولها، وعنقها سلم إليها، وتتأثر من المودة والغرام، وتسكر منها إلى حيث تنقطع عن الأكل والشرب زماناً ممتداً، وتتأثر من الأصوات الحسنة والحداء، وتسير من كمال التأثر إلى حيث تهلك نفسها من سرعة الجري، ويجري الدمع من عينها عشقاً وغراماً، إلى غير ذلك كما مر كثير من ذلك آنفاً.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ التي يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار ﴿كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ فوق الأرض رفعاً سحيق المدىٰ بلا عماد ولا مساك، بحيث لا يناله الفهم، ولا يدركه العقل.

﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ﴾ التي ينزلون في أقطارها، وينتفعون بمياهها وأشجارها ﴿كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ نصباً رصيناً، ووضعت وضعاً ثابتاً لا ميدان فيه ولا اضطراب، فيتسنىٰ ارتقاؤها في كل حين، وتجعل أمارة للسالكين في تلك الفيافي والقفار، وتنزل عليها المياه التي ينتفع بها في سقي النبات وري الحيوان. وقال أبو الليث: كيف وضعت علىٰ الأرض أوتاداً لها. انتهى.

﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ التي يضربون فيها، ويتقلبون عليها ﴿كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ ومهدت وبسطت علىٰ ظهر الماء بسطاً حسبما يقتضيه صلاح أمور ساكنها، وانتفاعهم بما في ظاهرها من المنافع، وما في باطنها من المعادن.

والاستدلال بكونها مسطوحة علىٰ عدم كونها كرة، مجاب بأن الكرة إذا كانت عظيمةً جداً يكون كل قطعة منها كالسطح، فيصح أن يطلق عليها البسط، ففرق بين كرة وكرة، كما أنه فرق بين بيض الحمامة وبيض النعامة.

والمعنىٰ[1]: أفلا ينظرون نظر التدبر والاعتبار إلى كيفية خلق هذه المخلوقات الشاهدة بحقية البعث والنشور؛ لإشعارها بأن خالقها متصف بصفات الكمال من القدرة والقوة والحكمة، منزه عن صفات النقصان من العجز والضعف والجهل حتى يرجعوا عما هم عليه من الإنكار والنفور، ويسمعوا إنذارك، ويستعدوا للقاء الله تعالىٰ بالإيمان والطاعة.

وقصارى ما سلف[2]: أنه لو نظر هؤلاء الجاحدون المعاندون فيما تقع عليه أنظارهم من هذه الأشياء، وفكروا فيها.. لعلموا أنها صنعة لا توجد إلا بموجد عظيم، ولا تحفظ إلا بحافظ قدير، ولأدركوا أن القادر علىٰ خلق هذه المخلوقات وحفظها ووضعها علىٰ قواعد الحكمة، قادر علىٰ أن يرجع الناس في يوم يوفّىٰ فيه كل عامل جزاء عمله، وعلىٰ أن ينشىء النشأة الآخرة من غير أن يعرفوا طريق إنشائها، فلا ينبغي أن يكون جهلهم بكيفية يوم القيامة سبباً في جحده وإنكاره.

وإنما خص هذه[3] المخلوقات بالذكر؛ لأن الناظر منهم يفكر في أقرب الأشياء إليه، فهو يرىٰ بعيره الذي يمتطيه، ثم إذا هو رفع رأسه فوق رأىٰ السماء، ثم إذا التفت يمنة أو يسرة.. رأىٰ ما حواليه من الجبال، فإذا مد ناظريه أمامه أو تحته رأىٰ الأرض، فالعربي يرىٰ ذلك كل يوم، ومن ثم أمره الله تعالى بالتدبر فيها.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿خُلِقَتْ﴾ ﴿رُفِعَتْ﴾ ﴿نُصِبَتْ﴾ ﴿سُطِحَتْ﴾ بتاء التأنيث مبنياً للمفعول، وقرأ علي بن أبي طالب وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن السميفع وأبو العالية: ﴿خلقت﴾ ﴿رفعت﴾ ﴿نصبت﴾ ﴿سطحت﴾ بتاء المتكلم مبنياً للفاعل في جميعها والمفعول محذوف؛ أي: خلقتها، رفعتها، نصبتها، سطحتها، وقرأ الجمهور: ﴿سُطِحَتْ﴾ مبنياً للمفعول مخففة الطاء، وقرأ الحسن وهارون: بشدها.

ولما حَضَّهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ النظر في هذه المخلوقات.. أمر رسوله ﷺ بتذكيرهم، فقال: ﴿فَذَكِّرْ﴾، والفاء لترتيب الأمر بالتذكير علىٰ ما ينبىء عنه الإنكار السابق من عدم النظر، فهي فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

تقديره: إذا دعوتهم إلى الإيمان بالله، وبما جئتهم به من البعث والنشور والحساب، وبالاستدلال عليها بالنظر في هذه المخلوقات المذكورة، ولم يقبلوا، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ذكرهم يا محمد؛ أي: اقتصر علىٰ التذكير، ولا تلح عليهم، ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يتذكرون ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ تعليل للأمر بالتذكير؛ أي: ما أنت إلا مبلغ، وإنما التوفيق والهداية إلينا ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ٢٢﴾؛ أي: لست بمسلط عليهم تجبرهم على ما تريد، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، وهذا منسوخ بآية السيف، كما مر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ بالصاد وكسر الطاء. وابن عامر في رواية ونطيق عن قنبل وزرعان عن حفص وهشام: بالسين، وقرأ خلف وحمزة في رواية: بإشمام الصاد زاياً، وقرأ هارون الأعور: بفتح الطاء اسم مفعول، وهي لغة تميم، وسيطر: متعد عندهم، ويدل عليه فعل المطاوعة، وهو تسطر، وليس في الكلام علىٰ هذا الوزن، إلا مسيطر ومهيمن ومبيطر، وهي أسماء فاعلين من سيطر وهيمن وبيطر، وجاء مجيمر اسم واد، ومديبر، ويمكن أن يكون أصلهما: مدبراً ومجمراً، فصغرا.

والمعنى[2]: فذكر بآياتي، وعظهم بحججي، وبلغهم رسالاتي، وحذرهم أن يتركوا ذلك، ثم بعدئذٍ لا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ إن لم يؤمنوا.

ثم علل الأمر بالتذكير، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾؛ أي: إنما بعثت للتذكير فحسب، وليس من الواجب عليك أن يؤمنوا، فما عليك إلا التبشير والتحذير، فإن آمنوا فقد اهتدوا إلى ما تسوق إليه الفطرة، وإن أعرضوا.. فقد تحكمت فيهم الغفلات، وتغلبت عليهم الشهوات، واستولت علىٰ عقولهم الأهواء والجهالات.

ثم أكد الإنذار وقرره بقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ٢٢﴾؛ أي: لست بمسلط عليهم تجبرهم علىٰ ما تريد، وتتعهد أحوالهم، وتكتب أعمالهم، فلم تؤت قوة الإكراه علىٰ الإيمان، والإلجاء إلىٰ ما تدعوهم إليه، كما قال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن الحق، أو عن الداعي إليه بعد التذكير ﴿وَكَفَرَ﴾ وثبت علىٰ الكفر، أو أظهره.

وفي «فتح الرحمن»: إلا من تولىٰ عن الإيمان، وكفر بالقرآن أو بالنعمة. وفي «التأويلات النجمية»: إلا من تولىٰ عن الحق بالإقبال علىٰ الدنيا، وكفر؛ أي: ستر الحق بالخلق، وهو استثناء منقطع من الهاء في عليهم، و ﴿من﴾ موصولة[1] لا شرطية؛ لمكان الفاء ورفع الفعل؛ أي: لكن من تولى وكفر فإن الله الولاية والقهر، وهو المسيطر عليهم، وقيل: متصل؛ أي: فأنت مصيطر عليه إلا من تولى وكفر، وقيل: متصل من مفعول ﴿فَذَكِّرْ﴾؛ أي: فذكر عبادي إلا من انقطع طمعك من إيمانه، وتولى فاستحق العذاب الأكبر، وما بينهما اعتراض، وفي «الشهاب»: ﴿مَنْ﴾: مبتدأ مضمن معنىٰ الشرط، و ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾: جوابه. ا هـ.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿إِلَّا﴾ حرف استثناء علىٰ الخلاف المذكور فيه، وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وقتادة وزيد بن أسلم: ﴿ألا﴾ حرف تنبيه واستفتاح. ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤)﴾ الذي هو عذاب جهنم، حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها من حديد، وإنما قيد بالأكبر؛ لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر، وقال في «فتح الرحمن»: ﴿الْأَكْبَرَ﴾: عذاب جهنم، والأصغر: ما عذبوا به في الدنيا من الجوع والقحط والقتل ونحوها، ويؤيده ما قال الراغب في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ فيه تنبيه علىٰ أن كل ما ينال الكافر من العذاب قبل ذلك في الدنيا، وفي البرزخ، صغير في جنب عذاب ذلك اليوم. انتهى. وقرأ ابن مسعود[3]: ﴿فإنه يعذب اللّه﴾، ومعنىٰ قوله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) . . .﴾ إلخ، أي: إنك يا محمد، وإن كنت داعياً ليس لك سلطان علىٰ ما في نفوسهم، فالله هو المسيطر عليهم، وصاحب السلطان علىٰ سرائرهم، فمن تولىٰ منهم، وأعرض عن الذكرىٰ، وجحد الحق المعروض عليه، فالله يعذبه العذاب الأكبر في الآخرة، وقد يضم إلىٰ ذلك عذاباً في الدنيا من قتل، أو سبي الذرية، أو غنيمة للأموال إلى نحو أولئك من صنوف البلاء التي ينزلها بهم.

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

ثم أكد تعذيب الله لمن تولىٰ وكفر بقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: رجوعهم بعد الموت، فهو تعليل لتعذيبه تعالىٰ بالعذاب الأكبر؛ أي: إن إلينا رجوعهم بالموت والبعث، لا إلىٰ أحد سوانا، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، كما قال تعالى؛ ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فتقديم[1] الخبر للتخصيص والمبالغة، فإنه يفيد معنىٰ أن يقال: إن إيابهم ليس إلا إلىٰ الجبار المقتدر علىٰ الانتقام، كما أن مبدأهم وصدورهم كان منه، وفيه تخويف شديد، فإن رجوع العبد العاصي المصر إلىٰ مالكه الغضوب في غاية الصعوبة، ونهاية العسرة، وجمع الضمير فيه وفيما بعده باعتبار معنىٰ ﴿من﴾، كما أن إفراده فيما سبق باعتبار لفظها، ويقال: آب يؤب أوباً وإياباً إذا رجع، ومنه قول عبيد بن الأبرص:

وَكُلُّ ذِيْ غَيْبَةٍ يَؤُوبُ وَغَائِبُ ٱلْمَوْتِ لَا يَؤُوبُ

وقرأ الجمهور[2]: ﴿إِيَابَهُمْ﴾ بتخفيف الياء مصدر آب: بمعنىٰ رجع، وقرأ أبو جعفر وشيبة: بتشديدها. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام، وقيل: هما لغتان بمعنىٰ، قال الواحدي: وأما إيابهم بتشديد الياء، فإنه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا﴾ بمقتضىٰ وعيدنا، لا وجوباً، لا علىٰ غيرنا ﴿حِسَابَهُم﴾؛ أي: جزاءهم بعد رجوعهم إلينا بالبعث، فنحن نحاسبهم علىٰ النقير والقطمير من نياتهم وأعمالهم، و ﴿ثُمَّ﴾[3] للتراخي في الرتبة لبعد منزلة الحساب في الشدة عن منزلة الإياب، لا في الزمان، فإن الترتيب الزماني بين إيابهم وحسابهم، لا بين كون إيابهم إليه تعالىٰ، وحسابهم عليه تعالىٰ، فإنهما أمران مستمران، والمعنىٰ: أي: لا مفر للمعرضين، ولا خلاص لهم من الويل الذي أوعدوا به، فإنهم راجعون إلينا، وقد حق القول منا في عقابهم، وسنحاسبهم علىٰ ما كسبت أيديهم. وفي هذا تسلية لقلب رسوله ﷺ، وإزالة أحزانه وآلامه لتكذيبهم إياه، وإصرارهم علىٰ معاندته، وفي «الإرشاد»: وفي تصدير[4] الجملتين بـ ﴿إِنَّ﴾، وتقديم خبرها، وعطف الثانية علىٰ

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) أبو السعود.

الأولى بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ المفيدة لبعد منزلة الحساب في الشدة من الإنباء عن غاية السخط الموجب لشديد العذاب ما لا يخفىٰ.

الإعراب

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾.

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام التعجبي التشويقي إلى استماع حديث الغاشية، وقيل بمعنى: قد. ﴿أَتَىٰكَ﴾: فعل ومفعول به ﴿حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة إنشائية، ﴿وُجُوهٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل والوصف المقدر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، متعلق بـ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، و ﴿خَٰشِعَةٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان حديث الغاشية، ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾: خبران آخران للمبتدأ، وقيل: ﴿خاشعة﴾ عاملة ﴿ناصبة﴾ صفات لـ ﴿وُجُوهٌ﴾، والخبر جملة ﴿تَصْلَىٰ﴾، ﴿تَصْلَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿وُجُوهٌ﴾، ﴿نَارًا﴾: مفعول به ﴿حَامِيَةً﴾: صفة ﴿نَارًا﴾، والجملة خبر رابع لـ ﴿وُجُوهٌ﴾. ﴿تُسْقَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿وُجُوهٌ﴾، والجملة خبر خامس لـ ﴿وُجُوهٌ﴾. ﴿مِنْ عَيْنٍ﴾: متعلق بـ ﴿تُسْقَىٰ﴾ ﴿ءَانِيَةٍ﴾: صفة ﴿عَيْنٍ﴾.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص ﴿لَهُمْ﴾: خبرها مقدم ﴿طَعَامٌ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿لَّيْسَ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر مترتب علىٰ ما سبق، كأنه قيل: وما هو طعامهم بعدما ذكر شرابهم؟، قيل: ليس لهم طعام إلخ، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿مِن ضَرِيعٍ﴾: صفة ﴿طَعَامٌ﴾، أو بدل منه علىٰ القاعدة، ويجوز أن يكون في محل النصب علىٰ الاستثناء ﴿لَّا﴾: نافيه، ﴿يُسْمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿ضَرِيعٍ﴾، والجملة صفة لـ ﴿ضَرِيعٍ﴾، وجملة ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾. ﴿مِن جُوعٍ﴾: متعلق بـ ﴿يُغْنِي﴾. ﴿وُجُوهٌ﴾:

مبتدأ، سوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل. ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، متعلق بـ ﴿نَّاعِمَةٞ﴾، و ﴿نَّاعِمَةٞ﴾: خبر ﴿وُجُوهٞ﴾، والجملة مستأنفة، أو معطوفة بعاطف مقدر علىٰ جملة قوله: وجوه يومئذ خاشعة ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾: متعلق بـ ﴿رَاضِيَةٞ﴾، و ﴿رَاضِيَةٞ﴾: خبر ثانٍ لـ ﴿وُجُوهٞ﴾. ﴿فِي جَنَّةٍ﴾: خبر ثالث لـ ﴿وُجُوهٞ﴾. ﴿عَالِيَةٖ﴾: صفة ﴿جَنَّةٍ﴾: ﴿لَّا﴾: نافية ﴿تَسۡمَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ المخاطب تقديره: أنت ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿تَسۡمَعُ﴾، ﴿لَٰغِيَةٗ﴾: مفعول به؛ لأنه مصدر بمعنىٰ: لغواً، جاء علىٰ وزن فاعلة، كالعاقبة والعافية، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿جَنَّةٍ﴾ ولكنها سببية، ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم. ﴿عَيۡنٞ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿جَارِيَةٞ﴾: صفة لـ ﴿عَيۡنٞ﴾ والجملة الاسمية صفة ثالثة لـ﴿جَنَّةٍ﴾، ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم، ﴿سُرُرٞ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مَّرۡفُوعَةٞ﴾: صفة لـ ﴿سُرُرٞ﴾، والجملة الاسمية صفة رابعة لـ﴿جَنَّةٍ﴾، ﴿وَأَكۡوَابٞ﴾ معطوفة على ﴿سُرُرٞ﴾: ﴿مَّوۡضُوعَةٞ﴾: صفة ﴿أكواب﴾، ﴿وَنَمَارِقُ﴾: معطوفة على ﴿سُرُرٍ﴾، ﴿مَصۡفُوفَةٞ﴾: صفة لـ ﴿نمارق﴾، ﴿وَزَرَابِيُّ﴾: معطوف على ﴿سُرُرٞ﴾، و ﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾: صفة لـ ﴿زرابى﴾.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَفَلَا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة علىٰ محذوف دل عليه السياق، و ﴿الفاء﴾: عاطفة علىٰ ذلك المحذوف ﴿لا﴾: نافية ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَى ٱلۡإِبِلِ﴾: متعلق بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾، و ﴿يَنظُرُونَ﴾: تعدىٰ إلى ﴿الابل﴾ بواسطة ﴿إلىٰ﴾، وتعدىٰ إلى ﴿كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ علىٰ سبيل التعليق، وقد تبدل الجملة وفيها الاستفهام من الاسم الذي قبلها، وإن لم يكن فيه استفهام علىٰ خلاف في ذلك. اهـ «فتوحات». والجملة الفعلية معطوفة علىٰ تلك المحذوفة والتقدير: أينكرون البعث فلا ينظرون، والجملة المحذوفة مستأنفة مسوقة لتقرير ما مضىٰ من حديث الغاشية. ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام عن الحال في محل النصب على الحال بـ ﴿خُلِقَتۡ﴾، ﴿خُلِقَتۡ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلۡإِبِلِ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر بدل من ﴿ٱلۡإِبِلِ﴾ بدل اشتمال، ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور معطوف علىٰ قوله: ﴿إِلَى ٱلۡإِبِلِ﴾، وجملة قوله: ﴿كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ بدل من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ بدل اشتمال، وكذا قوله ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ

سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾: معطوفان على قوله: ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ممثالان له في إعرابه.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَذَكِّرْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا دعوتهم إلىٰ الإيمان بالله، وبما جئت به من البعث والنشور والحساب، وبالاستدلال عليها بالنظر إلىٰ هذه المخلوقات المذكورة، ولم يقبلوا ذلك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ذكرهم. ﴿ذكر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود علىٰ محمد، ومفعوله محذوف تقديره: فذكرهم، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ ﴿مُذَكِّرٌ﴾: خبر، والجملة الاسمية جملة تعليلية مسوقة لتعليل الأمر بالتذكير ﴿لَّسْتَ﴾: فعل ناقص، واسمه ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ ﴿مصيطر﴾، ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ خبر ﴿ليس﴾ و ﴿الباء﴾: زائدة، وجملة ﴿ليس﴾ معطوفة علىٰ ما قبلها بعاطف مقدر علىٰ كونها تعليلية ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء متصل ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من مفعول ﴿ذكر﴾ المحذوفة، أو من الهاء في ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَكَفَرَ﴾: معطوف على ﴿تَوَلَّىٰ﴾، ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية ﴿يعذبه الله﴾: فعل ومفعول به، وفاعل. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول مطلق ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾، والجملة الفعلية جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، وإن شئت قلت: ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع بمعنىٰ لكن. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿تَوَلَّىٰ﴾ صلته، ﴿وَكَفَرَ﴾: معطوف على ﴿تَوَلَّىٰ﴾ ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ؛ لشبه الموصول بأسماء الشرط في العموم، ﴿يعذبه﴾: فعل ومفعول به ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول مطلق مبين للنوع، ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾. صفة لـ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿إِلَيْنَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إن﴾ ﴿إِيَابَهُمْ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، لأنها سيقت لتعليل التعذيب، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب رتبي، كما مر

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿عَلَيْنَا﴾: خبر مقدم لـ ﴿إن﴾. ﴿حِسَابَهُم﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى.

التصريف ومفردات اللغة

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ الغاشية: اسم من أسماء القيامة سميت بذلك؛ لأنها تغشى الناس بشدائدها وأهوالها، يقال: غشية يغشاه؛ أي: غطاه، وكل ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاشٍ له، وفي «المختار»: الغشاء: الغطاء كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ بضم الغين وفتحها وكسرها، وفي «المصباح»: ويقال: إن الغاشية تعطل القوى المحركة، والأوردة الحساسة لضعف القلب بسبب وجع شديد، أو برد، أو جوع مفرط، وقيل: الغشي: هو الإغماء، وقيل: الإغماء: امتلاء بطون الدماغ من بلغم بارد غليظ، وقيل: الإغماء: سهو يلحق الإنسان مع فتور الأعضاء لعلة، وغشيته أغشاه - من باب: تعب -: أتيته، والاسم: الغشيان - بالكسر -.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ والناصبة: التعبة، يقال: نصب - من باب علم -: إذا تعب في العمل، والمعنى. تعمل أعمالاً شاقة.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ من قولهم: صلي النار بالكسر؛ أي: قاسى حرها، وفيه إعلال بالقلب، أصله: تصلي، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿حَامِيَةً﴾؛ أي: متناهية في الحر، من قولهم: حميت النار إذا اشتد حرها.

وقوله: ﴿تُسْقَىٰ﴾ أصله: تسقي، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿نَارًا﴾ ألفه منقلبة عن واو لتصغيره على نويرة.

﴿مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ والعين: ينبوع الماء، والآنية: الشديدة الحر، وفي «القاموس»: وأنى الحميم: انتهى حره، فهو آن، ويلغ هذا أناه ويكسر؛ أي: غايته.

﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ والضريع: شجر ذو شوك لائط بالأرض، فإذا كان رطباً سمي: بالشبرق، وفي «القاموس»: والضريع - كأمير -: الشبرق، أو يبيسه، أو نبات رطبه يسمى: الشبرق، ويابسه: الضريع، لا تقربه دابة لخبثه، والسلاء والعوسج:

الرطب، أو نبات في الماء الآجن له عروق لا تصل إلى الأرض، أو شيء من جهنم أمر من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، ونبات منتن يرمي به البحر، ويبيس كل شجر، والخمر أو رقيقها، والجلد علىٰ العظم تحت اللحم. وفي «الكشاف»: الضريع: يبيس الشبرق، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، فإذا يبس تحامته الإبل، وهو سم قاتل، قال أبو ذؤيب:

رَعَىٰ ٱلشِّبْرِقَ ٱلرَّيَّانَ حَتَّىٰ إِذَا ذَوَىٰ   وَعَادَ ضَرِيعاً بَانَ عَنْهُ ٱلنَّحَائِصُ

﴿نَّاعِمَةٌ﴾؛ أي: ذات بهجة وحسن وجمال، اسم فاعل من نعم الشيء بالضم نعومةً؛ أي: صار ناعماً ليناً.

﴿رَاضِيَةٌ﴾: فيه إعلال بالقلب، أصله: راضوة من الرضوان، قلبت الواو ياءً لتطرفها إثر كسرة.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ فيه إعلال أيضاً، أصله: عالوة من العلو، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة..

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾﴾؛ أي: لغواً وكذباً وبهتاناً؛ لأنه مصدر علىٰ وزن فاعلة، كالعاقبة والعافية، كما مر، وفيه إعلال بالقلب أيضاً، أصله: لاغوة من لغا يلغو، قلبت الواو ياءً لتطرفها إثر كسرة.

﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾ جمع سرير، وهو ما يجلس أو ينام عليه، وأفضله ما كان مرفوعاً عن الأرض. ﴿وَأَكْوَابٌ﴾: جمع: كوب بالضم، وهو ما لا عروة له، ولا خرطوم من الكيزان. ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾؛ أي: معدة ومهيأة للشرب.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ جمع: نمرقة بضم النون وفتحها، والراء مضمومة فيهما لغتان أشهرهما الأول، وهو الوسادة الصغيرة، وفي «القاموس»: والنمرقة مثلثة: الوسادة الصغيرة، أو الميثرة، أو طنفسة فوق الرحل. قال الشاعر:

كُهُوْلٌ وَشُبَّانٌ حِسَانٌ وُجُوْهُهُمْ   عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوْفَةٍ وَنَمَارِقِ

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ جمع: زربي بكسر الزاي، وزربية، وهو البساط، أصله: زرابيي بوزن فعاليل، فأدغمت ياء فعاليل في الياء لام الكلمة، وأصل الزرابي: أنواع النبات إذا احمرت واصفرت وفيها خضرة، ويقال: أزرب النبات إذا صار كذلك،

سموا بها البسط لشبهها به.

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾؛ أي: مفرقة في المجالس بحيث يرىٰ في كل مجلس شيء منها، كما يرى في بيوت ذوي الثراء، وفي «القاموس»: الزرابي: النمارق والبسط، أو كل ما يبسط ويتكأ عليها، الواحدة: زربي بالكسر، ويضم، والطنافس أيضاً: جمع طنفسة بتثليث الطاء والفاء، ففيه تسع لغات، وهي المسماة الآن بالسجادة.

﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ بكسرتين وتسكن الباء، مفرد يقع علىٰ الجمع، وليس بجمع ولا اسم جمع، يجمع علىٰ: آبال، كما في «القاموس»، وقال بعضهم: اسم جمع لا واحد له من لفظه، كنساء وقوم، وإنما واحده بعير وناقة وجمل.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ ورفع السماء: إمساك ما فوقنا من شموس وأقمار ونجوم.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ ونصب الجبال: إقامتها أعلاماً للسائرين، وملجأ للحائرين.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ وسطح الأرض: تمهيدها وتوطئتها للإقامة عليها، والمشي في مناكبها ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أصل ﴿لَّسْتَ﴾: ليس، فلما لحقت به تاء الفاعل المتحركة.. سكن آخر الفعل ـ وهو السين ـ فالتقىٰ ساكنان: الياء والسين، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، فصار: لست بوزن فلت، و﴿مسيطر﴾: اسم فاعل جاء مصغراً ولا مكبر له، كقولهم: رويد والثريا وكميت ومبيقر ومبيطر ومهيمن، وقرىء ﴿بمسيطر﴾ بفتح الطاء، وهذه القراءة غريبة شاذة، فقد قال في «تاج العروس»: سيطر: جاء علىٰ وزن فيعل، فهو مسيطر بكسر الطاء، ولم يستعمل فعله مجهولاً، وننتهي في كلام العرب إلىٰ ما انتهوا إليه، فلا نزيد علىٰ ذلك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التشويقي في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾؛ لدلالته

علىٰ تشويق السامع إلى استماع حديث الغاشية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في لفظ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾؛ لأنه حقيقة في كل ما أحاط بالشيء من جميع جهاته، ككمام الثمار التي أحاطت بلبها مع الإحاطة في كل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، لأن المراد أصحابها، ففيه إطلاق الجزء وإرادة الكل.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾، فقوله: ﴿لَا يُغْنِى﴾ جملة لا يمكن طرحها من الكلام؛ لأنه لما قال: ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾.. ساغ للمتوهم أن يتوهم أن هذا الطعام الذي ليس من جنس طعام البشر انتفت عنه صفة الإسمان، ولكن بقيت له صفة الإغناء، فجاءت جملة: ﴿وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ تتميماً للمعنىٰ المراد، وهو أن هذا الطعام انتفت عنه صفة إفادة السمن والقوة، كما انتفت عنه صفة إماطة الجوع وإزالته.

ومنها: تنكير ﴿جُوعٍ﴾ في هذه الجملة للدلالة علىٰ التحقير أي: لا يغني من جوع ما.

ومنها: تأخير نفي الإغناء عن الإسمان لمراعاة الفواصل، والتوسل به إلىٰ التصريح بنفي كلا الأمرين، إذ لو قدم لما احتيج إلى ذكر نفي الإسمان ضرورة استلزام نفي الإغناء عن الجوع إياه، بخلاف العكس، ولذلك كرر ﴿لَا﴾ لتأكيد النفي.

ومنها: تقديم حكاية أهل النار علىٰ حكاية أهل الجنة؛ لأنه أدْخَلُ في تهويل الغاشية، وتفخيم حديثها.

ومنها: ترك العطف في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ علىٰ ما قبلها إيذاناً بكمال تباين مضمون الجملتين.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ و ﴿مُذَكِّرٌ﴾، وقوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾، و ﴿ٱلْعَذَابَ﴾.

ومنها: المقابلة بين وجوه الأبرار ووجوه الفجار في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾ قابل بينها وبين سابقتها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾.

ومنها: حذف المفعول في قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾؛ أي: الناس؛ لإفادة العموم.

فائدة: واعلم أنه يجوز حذف المفعول به لغرض:

إما لفظي: كتناسب الفواصل؛ أي: رؤوس الآي، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾، والأصل: ﴿وما قلاك﴾، فحذف المفعول ليناسب قوله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾، وكالإيجاز، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ والأصل: فإن لم تفعلوه، ولن تفعلوه؛ أي: الإتيان بسورة من مثله.

وإما معنوي: كاحتقاره، نحو: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾؛ أي: لأغلبن الكافرين، فحذف المفعول زيادة في امتهانه واحتقاره، أو لاستهجانه واستقباح التصريح به، كقول عائشة رضي الله عنها: ما رأى مني، ولا رأيت منه؛ أي: العورة.

ومنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ لإفادة التخصيص والمبالغة في الوعيد، فإنه يفيد معنىٰ أن يقال: إن إيابهم ليس إلا إلىٰ الجبار المقتدر علىٰ الانتقام، كما أن مبدأهم وصدورهم كان منه تعالى.

ومنها: العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة علىٰ التراخي في الرتبة لا في الزمان، لأنه قد يكون مباشرة بعد الإياب، ولكن التفاوت بين الموقفين أمر لا تكتنه أهواله، ولا يدري أحد مداه.

ومنها: مجيء الخبر مؤكداً بـ﴿إن﴾، كأنهم بحاجة إلىٰ تأكيد هذا الأمر الذي أشاحوا عنه، ولم يتدبروه لترددهم فيه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ وصف أهل الجنة، ووصف أهل النار.

٢ ـ ذكر عجائب الصنعة الإلهية.

٣ ـ أمر رسوله ﷺ بالتذكير بما أرسل إليه من الشرائع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تمت سورة الغاشية بعون الله ذي العطايا الفاشية، ليلة الثلاثاء وقت السحر من ليلة عيد الفطر من شهر شوال من شهور سنة: ١/ ١٠/ ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

سورة الفجر

سورة الفجر مكية بلا خلاف[1]، نزلت بعد سورة الليل، وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال: نزلت ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله.

وآياتها[2]: ثلاثون، أو تسع وعشرون آية. وكلماتها: مئة وتسع وثلاثون كلمة. وحروفها: خمس مئة وسبعة وتسعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها من وجوهٍ[3]:

١ ـ أنه ذكر في تلك الوجوه الخاشعة، والوجوه الناعمة، وذكر في هذه طوائف من المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة، وطوائف من الذين وجوههم ناعمة.

٢ ـ أن القسم في أول هذه السورة، كالدليل علىٰ صحة ما تضمنته خاتمة السورة السابقة من الوعد والوعيد.

قال الجلال السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ: لم يظهر لي في وجه ارتباطها سوىٰ أن أولها كالإقسام علىٰ صحة ما ختم به السورة التي قبلها، أو علىٰ ما تضمنته من الوعد والوعيد، هذا مع أن جملة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ مشابهة لجملة: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾. وسورة الفجر نزلت بعد سورة الليل، والفجر يعقب الليل، ويأتي بعده.

وعبارة أبي حيان: المناسبة بين السورتين: أن الله سبحانه لما ذكر فيما[4] قبلها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ و ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾.. أتبعها بذكر الطوائف المتكبرين المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة، وأشار إلىٰ الصنف

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾. وأيضاً لما قال: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣﴾ قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾... تهديداً لمن كفر وتولىٰ.

قال الشيخ موسىٰ جار الله ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: «نظم الدرر في ترتيب السور وتناسبها»: وسورة الفجر فيها تاريخ التمدن بترتيب عجيب، يظهر منه أن تمدن جنوب جزيرة العرب أقدم من تمدن الفراعنة، وظاهر قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨﴾ أن تمدن عاد كان أرقىٰ من كل تمدن كان قبله أو في زمنه، فإن كان أوتاد فرعون في هذه السورة هي أهرام الفراعنة، وهي قبورهم، فلعل ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨﴾ هي شيء أعجب صنعاً، وأنفع للناس، وإن لم تكن أرسىٰ من الأهرام، وأصبر منها على عوادي الطبيعة، وجاءت السورة بعد سورة الغاشية ليرىٰ الترتيب أن غاشية من الغواشي غشيت التي لم يخلق مثلها في البلاد، فهل ترى لها من باقية؟ انتهىٰ.

ومن فضائلها: ما أخرجه النسائي عن جابر قال: صلىٰ معاذ صلاة، فجاء رجل، فصلى معه فطول، فصلىٰ في ناحية المسجد، ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، جئت أصلي، فطول علي، فانصرفت، فصليت في ناحية المسجد فعلفت ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟، أين أنت من ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾، و ﴿ٱلۡفَجۡرِ﴾ و ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾.

ومنها: ما روي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له، ومن قرأها في سائر الأيام، كانت له نوراً يوم القيامة»، ولكن فيه مقال.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة الفجر كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وسميت سورة الفجر لذكر الفجر فيها.

واشتملت هذه السورة على مقصدين:

أولهما: في إهلاك عاد وثمود وقوم فرعون، وذلك من أول السورة إلىٰ قوله:

---

(١) البيضاوي.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

والثاني: بيان أن كثرة النعم علىٰ العبد ليست دالة علىٰ إكرام الله له، وأن كثرة البلاء ليست دالة علىٰ إهانته، بل الإكرام في التوفيق للعمل الصالح، والإهانة في الخذلان بالكفر والمعاصي، وهو من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾...﴾ إلىٰ آخر السورة.

والله أعلم بمراده

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي
حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾
وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا
الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ
رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ
﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ
أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ
وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾
يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا
النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ الآيات، فالمناسبة بينها وبين ما قبلها: أن الله سبحانه وتعالىٰ لما أقسم أنه سيعذب الكافرين جزاء كفرهم وإصرارهم علىٰ مخالفة أوامره.. شرع[1] يذكر بعض قصص الأمم الماضية ممن عاندوا الله ورسوله، ولجوا في طغيانهم، فأوقع بهم شديد العذاب، وأخذهم أخذ العزيز المقتدر الجبار؛ ليكون في ذلك زجر لهؤلاء المكذبين، وتثبيت للمؤمنين الذين اتبعوا الرسول ﷺ وناصروه، وتطمين لقلوبهم بأن أعداءهم سيلقون ما يستحقون من الجزاء.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] أنه لا يفوته من شأن عباده شيء، وأنه يأخذ كل مذنب بذنبه.. أردف ذلك بذكر شأن من شؤون الإنسان، وبين أنه لا يهتم

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

إلا بأمور الدنيا وشهواتها، فإذا أنعم الله عليه وأوسع له في الرزق.. ظن أنه قد اصطفاه ورفعه علىٰ من سواه، وجنبه منازل العقوبة، فيذهب مع هواه ويفعل ما يشتهي، ولا يبالي أكان ما يصنع خيراً أو شراً، فيطغىٰ ويفسد في الأرض، وإذا ضيق عليه الرزق وقد يكون ذلك لتمحيص قلبه بالإخلاص، أو لتظهر قوة صبره، فإن الفقر لا يزيد ذوي العزائم إلا شكراً يقول: ربي قد أهانني، ومن أهانه الله وصغرت قيمته لديه.. لم يكن له عناية بعمله، فكيف يؤاخذه بما يصدر منه من شر، أو يكافئه علىٰ ما يصنع من خير، فلا شكره يكافأ بإحسان، ولا كفره يجازى بعقوبة، فينطلق بكسب عيشه بأي وسيلة عنت له، ولا تحجزه شريعة، ولا يقف أمامه قانون، ويسلك سبيل الجبان، ويبخس الحقوق، ويفسد نظم المجتمع، ولا تزال أحوال الناس هكذا، كما وصف الله تعالى، فأرباب السلطان يظنون أنهم في أمن من عقاب ربهم، ولا يذكرونه إلا بألسنتهم، ولا يعرف له سلطان علىٰ قلوبهم، والفقراء الأذلاء صغرت نفوسهم عند أنفسهم، لا يبالون ماذا يفعلون.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالىٰ لما بين خطأ[1] الإنسان فيما يعتقد إذا بسط له الرزق أو قتر عليه.. أردف ذلك بزجرهم عما يرتكبون من المنكرات، وأبان لهم أنه لو كان غنيهم لم يعمه الطغيان، وفقيرهم لم يطمس بصيرته الهوان، وكانوا علىٰ الحال التي يرتقي إليها الإنسان، لشعرت نفوسهم بما عسىٰ يقع فيه اليتيم من بؤس، فعنوا بإكرامه، فإن الذي يفقد أباه معرض لفساد طبيعته إذا أهملت تربيته، ولم يهتم بما فيه العناية به ورفع منزلته، ولو كانوا علىٰ ما تحدثهم به أنفسهم من الصلاح.. لوجدوا الشفقة تحرك قلوبهم إلىٰ التعاون علىٰ طعام المسكين الذي لا يجد ما يقتات به مع العجز عن تحصيله، إلى أنهم يأكلون المال الذي يتركه من يتوفىٰ منهم، ويشتدون في أكله حتى يحرموا صاحب الحق حقه، ويزداد حبهم للمال إلى غير غاية.

وصفوة القول: أن شرههم في المال، وقرمهم إلىٰ اللذات، وانصرامهم إلى التمتع بها، ثم قسوة قلوبهم إلى أن لا يألموا إلى ما تجر إليه الاستهانة بشؤون

---

(١) المراغي.

اليتامىٰ من فساد أخلاقهم، وتعطيل قواهم، وانتشار العدوىٰ منهم إلى معاشريهم، فينتشر الداء في جسم الأمة دليل علىٰ أن ما يزعمون من اعتقادهم بإله يأمرهم وينهاهم، وأن لهم ديناً يعظهم زعم باطل، وإذا غشوا أنفسهم، وادعوا أنهم يتذكرون الزواجر، ويراعون الأوامر، فذلك مقال تكذبه الفعال.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أنكر عليهم أقوالهم، وادعاءهم أن الغنىٰ إكرام لهم، وأن الفقر إهانة لهم، ونعىٰ عليهم أفعالهم من حرصهم علىٰ الدنيا، واستفراغ الجهد في تحصيلها؛ وتكالبهم علىٰ جمعها من حلال وحرام.. أردفه[1] ببيان أن ما يزعمونه من أنهم لربهم ذاكرون، مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء، وامتلائها بحب المال، والميل إلىٰ الشهوات، زعم لا حقيقة له، وإنما يتذكرون ربهم في ذلك اليوم العظيم حين يشهدون الهول، ويعوزهم الحول، ويظهر لهم مكانهم من النكال والوبال، ولكن هذه الذكرىٰ قد فات أوانها، وانتهىٰ إبانها، فإن الدار دار جزاء، لا دار أعمال، فلا يبقىٰ فيها لأولئك الخاسرين، إلا الحسرة والندامة، وقول قائلهم: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾، ويكون لهم من العذاب ما لا يقدر قدره، ومن الإهانة ما يجل عن التشبيه والتمثيل.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ...﴾ إلخ، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال الإنسان الذي خلي وطبعه فاستولى عليه جشعه وحرصه علىٰ رغباته وشهواته حتىٰ خرجت عن سلطان الحكمة والعقل، ثم ذكر عاقبة أمره في الآخرة.. أعقب هذا بذكر حال الإنسان الذي ارتقىٰ عن ذلك الطبع، وسمت نفسه إلىٰ مراتب الكمال، فاطمأن إلىٰ معرفة خالقه، واستعلىٰ برغائبه إلىٰ المطامح الروحية، ورغب عن اللذات الجسمانية، فكان في الغنى شاكراً لا يتناول إلا حقه، وفي الفقر صابراً لا يمد يده إلى ما لغيره، وبين أنه في ذلك اليوم يكون بجوار ربه، راضياً بعمله في الدنيا، مرضياً عنده، يدخله في زمرة الصالحين المكرمين من عباده.

---

(١) المراغي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾؛ أي: أقسمت بالفجر، وهو: صبح النهار، أقسم الله به لحصول انتشار الناس وسائر الحيوانات به في طلب الرزق، فهو مشاكل لنشور الموتىٰ من قبورهم، وفيه عبرة لمن تأمل، وجواب هذا[1] القسم وما بعده هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ كذا قال ابن الأنباري، وقيل: محذوف لدلالة السياق عليه؛ أي: ليجازين كل أحد بما عمل أو ليعذبن. قال في «كشف الأسرار»: لما كان العرب أكثر خلق الله قسماً في كلامهم.. جاء القرآن علىٰ عادتهم في القسم، والفجر فجران: مستطيل: كذنب السرحان، وهو الكاذب، ولا يتعلق به حكم، ومستطير: وهو الصادق الذي يتعلق به الصوم والصلاة.

أقسم[2] الله سبحانه بالفجر الذي هو أول وقت ظهور ضوء الشمس في جانب المشرق، كما أقسم بالصبح؛ حيث قال: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ لما يحصل به من انقضاء الليل بظهور الضوء، وانتشار الناس وسائر الحيوانات من الطيور والوحوش في طلب الأرزق، وذلك مشاكل لنشور الموتىٰ، وفيه عبرة عظيمة لمن تأمل.

واختلف[3] في الفجر الذي أقسم الله به هنا، فقيل: هو الوقت المعروف من كل يوم، لا فجر يوم مخصوص، وسمي فجراً؛ لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم، وقال قتادة: إنه فجر أول يوم من شهر محرم؛ لأن منه تتفجر السنة، وقال مجاهد: يريد فجر يوم النحر؛ لأنه يوم عظيم يقع فيه الطواف المفروض والحلق والرمي، ويروى: أن يوم النحر يوم الحج الأكبر، وقال الضحاك: فجر عشر ذي الحجة، لأن الله قرن الأيام به، فقال: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾؛ أي: ليال عشر من ذي الحجة، وبه قال السدي والكلبي، وقيل: فجر يوم عرفة؛ لأنه يوم شريف أيضاً، يتوجه فيه الحجاج إلىٰ جبل عرفات، وفي الحديث: «الحج عرفة»، وقيل: المعنى: أقسم بصلاة الفجر، قيل: أقسم برب الفجر، والأول أولىٰ، وهو[4] الظاهر، وقول الجمهور منهم علي وابن عباس وابن الزبير.

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

وقرأ أبو الدينار الأعرابي: ﴿والفجرٍ﴾ و ﴿الوترٍ﴾ و ﴿يسرٍ﴾ بالتنوين في الثلاثة، قال ابن خالويه: هذا كما روي عن بعض العرب أنه وقف علىٰ آخر القوافي بالتنوين، وإن كان فعلاً أو كان فيه ألف ولام، قال الشاعر:

أَقِلِّـي ٱللَّـوْمَ عَـاذِلَ وَٱلْـعِـتَـابَـن وَقُـوْلِـيْ إِنْ أَصَـبْـتُ لَـقَـدْ أَصَـابَـن

انتهىٰ.

وهذا ذكره النحويون في القوافي المطلقة إذا لم يترنم الشاعر، وهو أحد الوجهين اللذين للعرب إذا وقفوا علىٰ الكلم في الكلام لا في الشعر، وهذا الأعرابي أجرىٰ الفواصل مجرىٰ القوافي، وقوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ قسم ثانٍ معطوف علىٰ الأول؛ أي: أقسم بليال عشر من أول شهر ذي الحجة، وهذا ما عليه جمهور المفسرين، وتنكيرها[1] للتعظيم لأنها مخصوصة بفضائل ليست لغيرها، ولذا أقسم الله بها، وذلك كالاشتغال بأعمال الحج، وقال الضحاك: إنها العشر الأواخر من رمضان، ويكفيها شرفاً كون ليلة القدر فيها التي هي خير من ألف شهر، وقيل: العشر الأول من المحرم إلىٰ عاشرها يوم عاشوراء.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَيَالٍ﴾ بالتنوين و ﴿عَشْرٍ﴾ صفة لها، وقرأ ابن عباس: بالإضافة، فضبطه بعضهم ﴿وَلَيَالِ عَشْرٍ ۝٢﴾ بلام دون ياء، وبعضهم: ﴿وليالي عشر﴾ بالياء، يريد: وليالي أيام عشر، وكان حقه علىٰ هذا أن يقال: عشرة؛ لأن المعدود مذكر.. وأجيب عنه: بأنه لما حذف المعدود الموصوف، وهو مذكر.. جاز في عدده حذف التاء.

وقوله: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ قسم ثالث ورابع، معطوف أيضاً علىٰ قوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾؛ أي: أقسم بشفع هذه الليالي العشر ووترها، فهو سبحانه أقسم بالليالي جملة، ثم أقسم بما حوته من زوج وفرد، ولكن الظاهر التعميم؛ لأن الألف واللام للاستغراق.

والمعنىٰ عليه: أي أقسم بالأشياء كلها شفعها ووترها؛ لأن كل شيء لا بد أن يكون شفعاً أو وتراً، وقال قتادة: الشفع والوتر: شفع الصلاة ووترها، منها: شفع

---

(١) روح البيان.

كالرباعية، ومنها: وتر كالثلاثية، وقيل: الشفع يوم عرفة، ويوم النحر، والوتر: ليلة يوم النحر، وقال مجاهد وعطية العوفي: الشفع الخلق، والوتر: الله الواحد الصمد، وبه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة أيضاً، وقال الربيع بن أنس وأبو العالية هما: صلاة المغرب، فيها شفع ركعتان، والوتر: الركعة، وقال الضحاك: الشفع: عشر ذي الحجة، والوتر أيام منىٰ الثلاثة، وبه قال عطاء، وقيل: هما آدم وحواء؛ لأن آدم كان وتراً، فشفع بحواء، وقيل: الشفع درجات الجنة، وهي ثمان، والوتر دركات النار، وهي سبع، وقيل: الشفع: تضاد أوصاف المخلوقين من العز والذل والقدرة والعجز والقوة والضعف والعلم والجهل والحياة والموت والبصر والعمى والسمع والصمم والكلام والخرس، والوتر: انفراد صفات الله سبحانه، وهي عز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، وبصر بلا عمىٰ، وكلام بلا خرس، وسمع بلا صمم، وما وراءها عن «تفسير القرطبي» رحمه الله تعالى، وقيل: الشفع: الحيوان؛ لأنه ذكر وأنثىٰ، والوتر: الجماد، وقيل غير ذلك من الأقوال المتلاطمة، ولا يخفىٰ عليك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين، والضعف الظاهر، والاتكال في التعيين علىٰ مجرد الرأي الزائف، والخاطر الخاطىء.

والذي ينبغي التعويل عليه، ويتعين المصير إليه، ما يدل عليه معنىٰ الشفع والوتر في كلام العرب، وهما معروفان واضحان، فالشفع عند العرب: الزوج، والوتر: الفرد، فالمراد من الآية: إما نفس العدد وما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر، وإذا قام دليل علىٰ تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية.. فإن كان الدليل يدل علىٰ أنه المراد نفسه دون غيره.. فذاك، وإن كان الدليل يدل علىٰ أنه مما تناولته هذه الآية.. لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بأسرار كلامه، وبما هو المراد من كتابه.

وقرأ الجمهور(١): ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ بفتح الواو وسكون التاء، وهي لغة قريش ومن والاها، وقرأ الأغر عن ابن عباس وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن ـ بخلاف عنه ـ والأخوان حمزة والكسائي وخلف: بكسر الواو وسكون

---

(١) البحر المحيط.

التاء، وهي لغة تميم، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه، وحكىٰ الأصمعي فيه اللغتين، وحكىٰ يونس عن أبي عمرو وابن كثير: بفتح الواو وكسر التاء، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة، ويحتمل أنه نقل كسرة الراء إلىٰ التاء إجراءً للوصل مجرىٰ الوقف.

وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ أي: وأقسمت بجنس الليل ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾؛ أي: يمضي ويذهب، قسم خامس معطوف علىٰ ما قبله، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: أقسمت بجنس الليل وقت ذهابه ومضيه بإقبال النهار ومجيئه، والتقييد به لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة، ووفور النعمة، كأن جميع الحيوانات أعيد إليهم الحياة بعد الموت، وتسببوا بذلك لطلب الأرزاق المعدة للحياة الدنيوية التي يتوصل بها إلىٰ سعادة الدارين.

فإن قلت[1]: القسم بـ ﴿الليل إذا يسر﴾ عام يغني عن القسم بـ ﴿ليال عشر﴾، فلم ذكرها أولاً؟.

قلت: المقسم به في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾﴾ هو ﴿الليل﴾ باعتبار سيره ومضيه، وفي قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴿٢﴾﴾ هو الليالي بلا اعتبار مضيها وذهابها، بل باعتبار خصوصية أخرى، فلا يغن أحدهما عن الآخر، وبهذا المعنىٰ قال الجمهور، وقال قتادة وأبو العالية في معنىٰ: ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾: إذا جاء وأقبل، وقيل: معنىٰ ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾: إذا يسري فيه الساري، ويسير فيه السائر، فإسناد السرىٰ إلى الليل مجاز، كما في قولهم: نهاره صائم؛ أي: هو صائم في نهاره، وليله نائم؛ أي: نائم في ليله، كما في قول الشاعر:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِيْ ٱلسُّرَىٰ   وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ ٱلْمَطِيِّ بِنَائِمِ

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وبهذا المعنىٰ قال الأخفش والقتيبي وغيرهما، فالتقييد بذلك؛ لأن المسير في الليل حافظ للسائر من حر الشمس، فإن السفر مع مقاساة حر النهار أشد علىٰ النفس، وقد قال النبي ﷺ: «عليكم بالدلجة، فإن الأرض تطوىٰ في الليل»، وكذا هو حافظ من شر قطاع الطريق غالباً؛ لأنهم مشغولون بالنوم في الليل، وقال عكرمة وغيره: والمراد بالليل

---

(١) روح البيان.

هنا: هي ليلة المزدلفة خاصة؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله تعالى، وقيل: ليلة القدر لسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها، وقيل: إنه سبحانه أراد عموم الليل كله، وهو الظاهر الأظهر، كما مر.

وقرأ الجمهور(١): ﴿يَسْرِ﴾ بحذف الياء وصلاً ووقفاً اتباعاً لرسم المصحف، وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب: بإثباتها وصلاً ووقفاً، وقرأ نافع وأبو عمرو: بحذفها في الوقف وإثباتها في الوصل، قال الخليل: تسقط الياء منها موافقة لرؤوس الآي، قال الزجاج: والحذف أحب إليَّ؛ لأنها فاصلة، والفواصل تحذف منها الياءات، وقال الفراء: قد تحذف العرب الياء، وتكتفي بكسر ما قبلها، وأنشد بعضهم:

كَفَّاكَ كَفٌّ مَا تَلِيقُ دِرْهَمَاً ... جُوْدَاً وَأُخْرَىٰ تُعْطِ بِٱلسَّيْفِ دَمَا

ما تليق؛ أي: ما تمسك.

والحاصل: أن الياء حذفت(٢) هنا اكتفاء بالكسر، ولسقوطها في خط المصحف، ولموافقة رؤوس الآي، وإن كان الأصل إثباتها؛ لأنها لام فعل مضارع مرفوع، والسرىٰ: سير الليل، يقال: سرى يسري سرىٰ ومسرىٰ، إذا سار عامة الليل، والمراد هنا: ذهاب الليل أو إقباله، أو سير الساري فيه.

واعلم: أن نعمة(٣) الله علىٰ عباده بتعاقب الليل والنهار، واختلاف مقاديرها بحسب الأزمنة والفصول مما لا يجحدها إلا مكابر، لا جرم أقسم ربنا بهما تنبيهاً علىٰ أن تعاقبهما بتدبير مدبر حكيم، عالم بما في ذلك من المصلحة لعباده.

انظر إلىٰ ما في إقبال الصبح من عميم النفع، فإنك لترىٰ أنه يفرج كربة الليل، وينبه إلىٰ استقبال العمل، وكذلك تدرك ما في الليالي المقمرة من فائدة، فهي تستميل النفس إلى النقلة، وتيسر للناس النجعة، وبخاصة في أيام الحر الشديد في بلاد كبلاد العرب، وكذا تعرف ما في الظلام من منفعة، فإن فيه تهدأ النفوس، وتسكن الخواطر، وتستقر الجنوب في مضاجعها لتستريح من عناء العمل، وتستعين

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

بالنوم علىٰ إعادة القوىٰ، وتختفي الناس من مطاردة اللصوص، ولله در المتنبي حيث قال:

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

ثم قرر سبحانه فخامة الأشياء التي أقسم بها قبل، وكونها أهلاً لأن تعظم، فقال: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ﴾ إلخ، وهذا تقرير[1] وتحقيق لفخامة شأن المقسم بها، وكونها أموراً جليلةً حقيقةً بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول، وتنبيه علىٰ أن الإقسام بها أمر معتد به، خليق بأن يؤكد به الأخبار علىٰ طريقة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾، كما يقول من ذكر حجة باهرة: هل فيما ذكرته حجة.

والمعنىٰ: هل فيما ذكر من الأشياء المقسم بها، فالإشارة بذلك إلىٰ تلك الأمور، والتذكير فيه بتأويله بالمذكور؛ أي: في ذلك المذكور من الأمور التي أقسمنا بها ﴿قَسَمٌ﴾؛ أي: مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار، وفي «فتح الرحمن»: مقنع ومكتفى ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾؛ أي: لذي عقل ولب منور بنور المعرفة والحقيقة، يراه حقيقاً بأن يقسم به إجلالاً وتعظيماً، والمراد: تحقيق أن الكل كذلك، وإنما أوثرت هذه الطريقة هضماً للخلق، وإيذاناً بظهور الأمر، أو المعنىٰ: هل[2] في الإقسام بتلك الأمور المذكورة إقسام لذي حجر مقبول عنده، يعتد به، ويفعل مثله، ويؤكد به المقسم عليه. والحجر ـ بكسر الحاء وسكون الجيم ـ: العقل: سمي به؛ لأنه يحجر صاحبه؛ أي: يمنعه من التهافت فيما لا ينبغي، كما سمي عقلاً ونهيةً بضم النون؛ لأنه يعقل وينهىٰ، وحصاةً أيضاً من الإحصاء، وهو الضبط، قال الفراء: يقال: إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه، ضابطاً لها، مضيقاً عليه، والتنوين في الحجر للتعظيم، قال بعض الحكماء: العقل للقلب بمنزلة الروح للجسد، فكل قلب لا عقل له، فهو ميت بمنزلة قلب البهائم، والمراد: أن من[3] كان ذا لب وعقل، يفطن إلىٰ أن في القسم بهذه المخلوقات المشتملة علىٰ باهر الحكمة، وعجيب

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

الصنعة، الدالة علىٰ وحدانية صاحبها مقنعاً أيما مقنع، وكفاية أعظم كفاية، وجاء الكلام بصورة الاستفهام لتأكيد المقسم عليه، وتقريره، كما تقول لمن يحاجك في أمر، ثم تقيم له الحجة الناصعة التي تثبت ما تدعِ: هل فيما ذكرت لك كفاية؟ ومرادك: أني قد ذكرت لك أقوى الحجج وأبينها، فلَست تستطيع جحد ما قلت بعد هذا.

وجواب القسم بهذه الأمور الخمسة المذكورة محذوفة كما مر، يدل عليه قوله بعد ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ الآية، ويقدر بنحو قوله: «إن ناصية المكذبين بيدي، ولئن أمهلتهم.. فلن أهملهم، ولآخذنهم أخذ الأمم قبلهم» وقد ترك ذكره لتسترسل نفس القارىء في تأمل ما مضىٰ وما يتبع؛ ليجد الجواب بينها، فيتمكن المعنىٰ لديه فضل تمكن.

ثم ذكر سبحانه علىٰ طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم للرسل تحذيراً للكفار في عصر نبينا ﷺ، وتخويفاً لهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ الهمزة فيه للإنكار، وهو في قوة النفي، ونفي النفي إثبات، فيكون الاستفهام تقريرياً بعد أن كان إنكارياً؛ أي: ألم تعلم يا محمد علماً يقينياً جارياً مجرىٰ الرؤية في الجلاء والوضوح؛ أي: قد علمت بإعلام الله تعالىٰ لك وبالتواتر أيضاً، كيف عذب ربك عاداً ونظائرهم، فسيعذب كفار قومك لاشتراكهم فيما يوجبه من الكفر والمعاصي، والمراد بعاد: أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، قوم هود عليه السلام، سموا باسم أبيهم، كما سمي بنو هاشم هاشماً، وبنو تميم تميماً، فلفظ عاد: اسم للقبيلة المنتسبة إلى عاد، وقد قيل لأوائلهم: عاد الأولىٰ، ولأواخرهم: عاد الأخيرة. قال عماد الدين بن كثير: كل ما ورد في القرآن خبر عاد الأولىٰ إلا ما في سورة الأحقاف. انتهى.

﴿إِرَمَ﴾: عطف[1] بيان لـ ﴿عاد﴾ للإيذان بأنهم عاد الأولىٰ بتقدير مضاف؛ أي: سبط إرم، أو أهل إرم علىٰ ما قيل من أن إرم اسم بلدتهم، أو أرضهم التي كانوا فيها، وكانت منازلهم بين عمان إلىٰ حضرموت، وهي بلاد الرمال والأحقاف،

---

(١) روح البيان.

ويؤيده القراءة بالإضافة، وأياً ما كان، فامتناع صرفها للتعريف والتأنيث. وفي «المفردات»: الآرام: أعلام تبنىٰ من الحجارة، و ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾: إشارة إلىٰ أعلامها المرفوعة المزخرفة علىٰ هيئة المنارة، أو علىٰ هيئة القبور، وفيه أيضاً حذف مضاف بمعنىٰ أهل الأعلام ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ صفة لـ ﴿إِرَمَ﴾، واللام للجنس الشامل للقليل والكثير، والعماد كالعامود، والجمع: عَمَد بفتحتين، وعُمُد ـ بضمتين ـ: أي: ذات القدود الطوال علىٰ تشبيه قاماتهم بالأعمدة، أو ذات الخيام والأعمدة؛ حيث كانوا بدويين أهل عمد يطلبون الكلأ حيث كان، فإذا هاجت الريح ويبس العشب.. رجعوا إلىٰ منازلهم، أو ذات البناء الرفيع، وكانوا ذوي أبنية مرفوعة علىٰ العمد، وكانوا يعالجون الأعمدة، فينصبونها ويبنون فوقها القصور، وكانت قصورهم ترىٰ من أرض بعيدة، أو ذات الأساطين؛ إذ كانت مدينتهم ذات أبنية مرفوعة علىٰ الأسطوانات علىٰ أن إرم اسم بلدتهم.

وقال السهيلي رحمه الله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ وهو جيرون بن سعد بن إرم، وهو الذي بنىٰ مدينة دمشق علىٰ عمد من رخام، ذكر أنه أدخل فيها أربع مئة ألف عمود، وأربعين ألف عماد من رخام، فالمراد: هذه العماد التي كان البناء عليها في هذه المدينة، وكانت تسمىٰ جيرون، وبه تعرف، وسميت دمشق بدمشق بن نمروذ عدو إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان دمشق قد أسلم، وبنىٰ جامع إبراهيم في الشام. انتهى. لعل هذا الرواية أصح، فليتأمل.

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾ صفة أخرى[1] لـ ﴿إِرَمَ﴾، والضمير لها علىٰ أنها اسم القبيلة؛ أي: لم يخلق مثلهم في عظم الأجرام، والقوة في الآفاق والنواحي؛ حيث كان طول الرجل أربع مئة ذراع، وكان يأتي الصخرة العظيمة، فيحملها ويلقيها علىٰ الحي فيهلكهم، ولذا كانوا يقولون: من أشد منا قوة، ونظيرهم في الطيور: الرخ: هو طير في جزائر الصين، يكون جناحه الوحد عشرة آلاف باع، يحمل حجراً في رجله كالبيت العظيم، ويلقيه علىٰ السفينة في البحر. أو المعنى: لم يخلق مثل مدينتهم في جميع بلاد الدنيا، فالضمير لها علىٰ أنها اسم البلدة.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: أي ألم تعلم أيها المخاطب، أو يا محمد، كيف أهلك ربك عاداً الأولىٰ الذين كانوا أشد الناس أجساماً؛ وأطولهم قامة، وأرفعهم مكانةً، والذين لم يخلق في البلاد كلها مدينة كمدينتهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿بِعَادٍ﴾ بالتنوين مصروفاً، وقرؤوا: ﴿إِرَمَ﴾ بكسر الهمزة، وفتح الراء والميم ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية، لأنه اسم للقبيلة، وعاد وإنْ كان اسم القبيلة فقد يلحظ فيه معنىٰ الحي، فيصرف، أو لا يلحظ، فجاء علىٰ لغة من صرف هنداً، و ﴿إِرَمَ﴾: عطف بيان أو بدل منه، وقرأ الحسن وأبو العالية: بإضافة عاد إلى ﴿إرم﴾، وقرأ الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿أرم﴾ بفتح الهمزة والراء، وقرأ ابن الزبير: ﴿بعاد﴾ بالإضافة ﴿أرم﴾ بفتح الهمزة، وكسر الراء، وهي لغة في المدينة، وقرأ الضحاك: ﴿بِعَادٍ﴾ مصروفاً، و ﴿بعاد﴾ غير مصروف أيضاً ﴿أرم﴾ بفتح الهمزة وسكون الراء تخفيف ﴿أرم﴾ بكسر الراء، وعن ابن عباس: ﴿أرم﴾: فعلاً ماضياً. ﴿ذاتَ العمادِ﴾ بنصب التاء علىٰ المفعول به.

والمعنىٰ: جعل الله ذات العماد رميماً، ويكون أرم بدلاً من ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾، يقال: رم العظم إذا بلي، وأرم هو: أي: بلي، وأرمه غيره معدىٰ بالهمزة من: رم الثلاثي، وقرأ أبي: ﴿التي لم يخلق مثلهم في البلاد﴾، وقرأ ابن الزبير: ﴿لم يخلق مثلها﴾ بالبناء للفاعل: أي: لم يخلق الله سبحانه مثل إرم، وقرأ الجمهور: ﴿لَمْ يُخْلَقْ﴾ بالبناء للمفعول، و ﴿مثلُها﴾ بالرفع، وروي عن ابن الزبير: ﴿نخلق﴾ بالنون.

ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة، وهي: ثمود علىٰ قبيلة عاد، فقال: ﴿وَثَمُودَ﴾ عطف علىٰ ﴿عاد﴾ قبيلة مشهورة سموا باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عامر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. وكانوا عرباً من العاربة، يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام كعاد، وهم قوم صالح عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾.

﴿الَّذِينَ جَابُوا﴾؛ أي: خرقوا وقطعوا ﴿الصَّخْرَ﴾؛ أي: الصخور والأحجار الكبار، ونحتوها وبنوها بيوتاً ﴿بِالْوَادِ﴾؛ أي: في وادي القرىٰ بالقرب من المدينة

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

المنورة من جهة الشام، والجوب: القطع، تقول: جبت القميص إذا قطعته، ومنه سمي: الجيب. والصخر: هو الحجر الصلب الشديد، والواد: أصله[1]: الوادي، حذفت ياؤه اكتفاءً بالكسرة، ورعايةً لرؤوس الآي، وأصل الوادي: الموضع الذي يسيل فيه الماء، ومنه سمي المنفرج بين الجبلين وادياً، والمراد هنا: هو وادي أم القرىٰ بالقرب من المدينة الشريفة من جهة الشام، قال أبو نضرة: أتىٰ رسول الله ﷺ في غزوة تبوك علىٰ وادي ثمود، وهو علىٰ فرس أشقر، فقال: «أسرعوا السير، فإنكم في واد ملعون».

والمعنىٰ: قطعوا صخر الجبال وخرقوها، فاتخذوا فيها بيوتاً نحتوها من الصخر، كما قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾، قيل: إنهم أول من نحت الجبال والصخور والرخام، وقد بنوا ألفاً وسبع مئة مدينة، كلها من الحجارة.

وقرأ ابن وثاب[2]: ﴿وثمودٍ﴾ بالتنوين علىٰ أنه اسم لأبي القبيلة، والجمهور: بمنع الصرف علىٰ أنه اسم للقبيلة، وقيل: جابوا واديهم، وجلبوا ماءهم في صخر شقوه، فعل ذي القوة والآمال.

وقرأ الجمهور: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ بحذف الياء وصلاً ووقفاً اتباعاً لرسم المصحف، وقرأ ابن كثير: بإثباتها فيهما، وقرأ قنبل في رواية عنه: بإثباتها في الوصل دون الوقف.

والخلاصة[3]: أي وألم تر يا محمد أو أيها المخاطب، كيف فعل رب بثمود، الذين قطعوا الصخر ونحتوه، وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، وفي هذا دليل علىٰ ما أنعم الله به عليهم من القوة والعقل وحسن التدبير، فإنهم كانوا ينحتون الجبال وينقبونها، ويجعلون تلك الأنقاب بيوتاً يسكنون فيها، وقوله: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ متعلق بـ ﴿جَابُوا۟﴾ أو بمحذوف علىٰ أنه حال من الصخر.

وقوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ معطوف على ﴿عاد﴾ أيضاً؛ أي: وألم تر كيف فعل

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

ربك بفرعون ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾؛ أي: ذي[1] الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد، أو جعل الجنود أنفسهم أوتاداً؛ لأنهم يشدون الملك كما تشهد الأوتاد الخيام، وقيل: كان له أوتاد يعذب الناس بها، ويشدهم إليها، والمراد بفرعون: فرعون موسىٰ عليه السلام، اسمه: الوليد بن مصعب بن ريان بن ثروان أبو العباس القبطي، وإليه تنسب الأقداح العباسية، وفرعون: لقب أفرده تعالىٰ بالذكر لانفراده في التكبر والعلو، حتىٰ ادعى الربوبية والألوهية، والأوتاد: جمع وتد بفتحتين وبكسر التاء أيضاً، وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم، ويربطونها بالأوتاد والأطناب.

ثم وصف من سبق ذكرهم بأقبح الأوصاف، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟﴾، وتجبروا ﴿فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾؛ أي: في بلادهم صفة للمذكورين من الطوائف، وهو أحسن من حيث اللفظ؛ إذ لا حذف فيه، واختار صاحب «الكشاف»: كونه منصوباً علىٰ الذم بتقدير: أذم، لكونه صريحاً في الذم، والمقام مقام الذم، وهو أحسن من حيث المعنىٰ ويجوز جعله خبراً لمبتدأ محذوف، أي: هم الذين طغوا.

والمعنىٰ: طغىٰ كل طائفة منهم في بلادهم، وتجاوزا الحد، يعني: طغىٰ عاد في اليمن، وثمود بأرض الشام، والقبط بمصر، كما أن نمروذ طغىٰ بالسواد، وقس علىٰ هذا سائرهم.

﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا﴾؛ أي: في البلاد ﴿ٱلْفَسَادَ﴾؛ أي: بالكفر وسائر المعاصي، فإن الفساد يتناول جميع أقسام الإثم، كما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر، فمن عمل بغير أمر الله، وحكم في عباده بالظلم، فهو مفسد متجاوز عن الحد الذي حد له، وفيه تخويف شديد لأكثر حكام الزمان ونحوهم. ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ صبُّ الماء: إراقته من أعلىٰ، أي: أنزل ربك عليهم إنزالاً شديداً علىٰ كل طائفة من أولئك الطوائف عقيب ما فعلت من الطغيان والفساد، وأفرغ عليهم ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾؛ أي: أشد عذاب لا تدرك غايته، وهو عبارة عما حل بكل طائفة منهم من فنون العذاب التي شرحت في سائر السور الكريمة، وهي: الريح لعاد، والصيحة لثمود، والغرق للقبط، وتسميته[2] سوطاً: للإشارة إلىٰ أن ذلك بالنسبة إلىٰ ما أعد لهم في

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

الآخرة بمنزلة السوط عند السيف، والسوط: الجلد المضفور، أي: المنسوج المفتول الذي يضرب به، قال أبو حيان: استعير السوط للعذاب؛ لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره، والتعبير[1] عن إنزاله بالصب: للإيذان بكثرته واستمراره وتتابعه، فإنه عبارة عن إراقة شيء مائع أو جار مجراه في السيلان، كالرمل والحبوب، وإفراغه بشدة وكثرة واستمرار، ونسبته إلىٰ السوط مع أنه ليس من ذلك القبيل باعتبار تشبيهه في نزوله المتتابع المتدارك، على المضروب بقطرات الشيء المصبوب.

فإن قلت: أليس أن الله تعالىٰ قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، وهو يقتضي تأخير العذاب إلىٰ الآخرة، فبين الآيتين معارضة، فكيف الجمع بينها؟.

قلت: إنه يقتضي تأخير تمام الجزاء إلىٰ الآخرة، وذلك لا ينافي أن يعجل شيء من ذلك في الدنيا، فإن الواقع في الدنيا شيء من الجزاء ومقدماته، كذا في «حواشي ابن الشيخ».

يقول الفقير: وأوجه من ذلك: أن المفهوم من الآية المؤاخذة لكل الناس، وهو لا ينافي أن يؤاخذ بعضهم في الدنيا بعذاب الاستئصال كبعض الأمم السالفة المكذبة، قال الشاعر:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱلـلَّـهَ أَظْـهَـرَ دِيْـنَـهُ وَصَـبَّ عَـلَـىٰ ٱلْـكُـفَّـارِ سَـوْطَ عَـذَابِ

وحاصل معنى الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾﴾ إلخ؛ أي: إن[2] هؤلاء الذين سلف ذكرهم من عاد وثمود وفرعون قد استعملوا سلطانهم وقوتهم في هضم حقوق الناس، واغتروا بعظيم قدرتهم، فكان سبباً في إفساد البلاد، ذاك أن من اغتر بنفسه، وتهاون بحقوق غيره، واعتدى عليها، وأخذ ما ليس له، ولم يعط الذي عليه.. يكون قد فكك شمل الجماعة، وأفسد في البلاد، فيختل نظام العمران، ويقف دولاب التعامل، ويوجس كل امرىء خيفةً من بني جلدته، ولا شك أن أمماً هذه حالها تكون عاقبتها الخراب والدمار، ومن ثَمَّ ذكر عاقبة أمرها، فقال ﴿فَصَبَّ

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

﴿عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾؛ أي: فأنزل الله تعالى بهم ألواناً من البلاء، وشديد العذاب، وقد شبه سبحانه ما أوقعه بهم من صنوف العذاب، وما صبه عليهم من ضروب الهلاك بالسوط من قبل أن السوط يضرب به في العقوبات والله يوقع العذاب بالأمم عقوبةً لها علىٰ ما يقع منها من أنواع التفريط في أوامر دينه.

ثم ذكر العلة في تعذيبه لهم، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، والجملة[1] تعليل لما قبلها، وفيها إيذان بأن كفار قومه ﷺ سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب، كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلىٰ ضميره ﷺ، والمرصاد[2]: المكان الذي يترقب فيه الراصدون، مفعال من: رصده، كالميقات من وقته، والباء للظرفية؛ أي: إنه لفي المكان الذي تترقب فيه السابلة، ويجوز أن يكون صيغة مبالغة، كالمطعان، والباء تجريدية، وهذا تمثيل لإرصاده تعالىٰ بالعصاة، وأنهم لا يفوتونه، شبه حاله تعالىٰ في كونه حفيظاً لأعمال عباده مجازياً عليها علىٰ النقير والقطمير، ولا محيد للعباد عن أن يكون مصيرهم إلىٰ الله تعالى، بحال من قعد علىٰ طريق السابلة يترصدهم ليظفر بالجاني، أو لأخذ المكس، أو نحو ذلك، ولا مخلص لهم من العبور إلىٰ ذلك الطريق، ثم استعمل هنا ما كان مستعملاً هناك، كما سيأتي في مبحث البلاغة، ويقال: يعني أن ملائكة ربك علىٰ الصراط يترصدون علىٰ جسر جهنم في سبعة مواضع، فيسأل في أولها عن الإيمان، فإن سلم من النفاق والرياء نجا، وإلا تردىٰ في النار، وفي الثاني عن الصلاة، فإن أتم ركوعها وسجودها وسائر أركانها وأقامها في مواقيتها نجا، وإلا تردىٰ في النار، وفي الثالث عن الزكاة، وفي الرابع عن صوم شهر رمضان، وفي الخامس عن الحج والعمرة، وفي السادس عن الوضوء والغسل من الجنابة، وفي السابع عن بر الوالدين وصلة الرحم، فإن خرج منها.. قيل له: انطلق إلىٰ الجنة، وإلا وقع في النار، والله أعلم.

والمعنى[3]: أي إن شأن ربك أن لا يفوته من شؤون عباده نقير ولا قطمير، ولا يهمل أمةً تعدت في أعمالها حدود شرائعه القويمة، بل يأخذها بذنوبها أخذ

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

العزيز المقتدر، كما يأخذ الراصد القائم علىٰ الطريق من يمر به بما يريد من خير أو شر، لا يفرط فيما رصد له.

وقد أجمل الله سبحانه في هذه الآيات ما أوقعه بهذه الأمم من العذاب، وفصله في غير موضع من كتابه الكريم، فقال في سورة الحاقة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ إلىٰ آخر ما هنالك، وقال: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾، والحكمة في تكرار القصص في القرآن الكريم، وفي ذكر بعضها علىٰ طريق الإشارة في بعض المواضع، وبالتفصيل في بعض آخر أنه قد يكون الغرض تارة إقامة الحجة علىٰ قدرته تعالى، وتوحده في ملكه وقهره لعباده حيناً، وترقيق قلوب المخاطبين حيناً آخر، وإنذار عباده، وإعذارهم مرة ثالثة، ولا شك أن كل مقام من الكلام له لون منه من بسط أو إيجاز، لا يكون لغيره، وقد عرفت أن الغرض هنا تطييب خاطر الرسول ﷺ وأصحابه بأن الله تعالى سيمهل الكافرين، ولا يهملهم، وهو تعالى ليس بغافل عنهم، وحينئذٍ تدرك أن الإشارة إلىٰ أن هذه الأمم أخذت وعذبت، ولم تترك سدىٰ، كافية جد الكفاية لمن فكر وتدبر.

ولما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد.. ذكر ما يدل علىٰ اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير، وعند إصابة الشر، وأن مطمح أنظارهم، ومعظم مقاصدهم الدنيا، فقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ﴾، وهو مبتدأ، والخبر جملة ﴿يقول﴾ الآتي، قال السهيلي ـ رحمه الله تعالى ـ: المراد بالإنسان هنا: عتبة بن ربيعة، وكان هو السبب في نزولها فيما ذكر، وإن كانت هذه الصفة تعم، وقيل: أبي بن خلف، وقيل: أمية بن خلف، قاله مقاتل.

والكلام متصل[1] بما قبله من قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ كما أشرنا إليه آنفاً، وكأنه قيل: إنه تعالىٰ بصدد مراقبة أحوال عباده ومجازاتهم بأعمالهم خيراً أو شراً، فأما الإنسان.. فلا يهمه ذلك، وإنما مطمح نظره ومرصاد فكره الدنيا ولذائذها، والفاء: استئنافية، وقيل: فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن ربك لبالمرصاد لأعمال عباده خيراً أو شراً ليجازيهم عليها،

---

(١) روح البيان.

وأردت بيان أحوال الإنسان، هل هو في مراقبة ربه، فيشكر علىٰ نعمه، ويصبر على نقمه، أم لا.. فأقول لك: أما الإنسان ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ ﴿إذا﴾: ظرف مجرد عن معنىٰ الشرط، متعلق بالخبر الآتي، و ﴿مَآ﴾: زائدة؛ أي: إذا عامله ربه معاملة من يبتليه بالغنىٰ واليسار ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بالقوة والجاه، و ﴿الفاء﴾ فيه تفسيرية؛ لأن الإكرام والتنعيم عين الابتداء ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالمال وسعة العيش، والفاء في قوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ واقعة في جوبا ﴿أما﴾ الشرطية، وجملة ﴿يقول﴾: خبر المبتدأ الذي هو الإنسان، والظرف المتوسط علىٰ نية التأخير، وإنما تقديمه للإيذان من أول الأمر بأن الإكرام والتنعيم بطريق الابتلاء؛ ليتضح اختلال قوله المحكي، ﴿فَإِذَآ﴾ لمجرد الظرفية، وإن هذه الفاء لا تمنع أن يعمل ما بعدها فيما قبلها، فكأنه قيل: فأما الإنسان فيقول مفتخراً فرحاً بما نال، ومسروراً بما أعطي ﴿رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ﴾؛ أي: فضلني بما أعطاني من الجاه والمال حسبما كنت أستحقه وقت ابتلائه بالإنعام، ولا يخطر بباله أنه محض تفضل عليه، ليبلوه أيشكر أم يكفر.

والمعنىٰ[1]: أي إن الإنسان إذا أنعم الله عليه، وأوسع له في الرزق.. زعم أن هذا الذي هو فيه من السعة إكرام من الله له، وخيل إليه الوهم أن الله لا يؤاخذه علىٰ ما يفعل، فيطغى ويفسد في الأرض.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾؛ أي: وأما هو إذا ما ابتلاه ربه.. فيكون الواقع بعد ﴿أَمَّا﴾ في الفقرتين اسماً، فتكون الجملتان متعادلتين ﴿فَقَدَرَ﴾؛ أي: ضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ حسبما تقتضيه مشيئته المبنية علىٰ الحكم البالغة، وجعله علىٰ قدر كفايته، وقوت يومه ﴿فَيَقُولُ﴾ متضجراً حزيناً: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾؛ أي: أذلني بالفقر، ولا يخطر بباله أن ذلك ليبلوه أيصبر أم يجزع، مع أنه ليس من الإهانة في شيء، ولذا لم يقل: فأهانه فقدر عليه رزقه في مقابلة: أكرمه ونعمه، بل التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين في حق الفقير الصابر، أما تأديته إلىٰ كرامة الآخرة.. فأمر ظاهر، وأما تأديته إلىٰ كرامة الدنيا، فلأنه قد يسلم به من طمع الأعداء، فيحسن فيه اعتقاد الكبراء من أهل الدنيا، فيراجعونه ويلتمسون منه الدعاء، والتوسعة قد تفضي إلىٰ خسران الدارين بالكفران، فيكون استدراجاً، قال بعضهم: ربما يكون التضييق

---

(١) المراغي.

إكراماً له بأن لا يشغله بالنعمة عن المنعم ويجعل ذلك وسيلةً له في التوجه إلىٰ الحق والسلوك في طريقه لعدم التعلق.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة، ما منهم رجل عليه رداء؛ إما إزار، وإما كساء، قد ربطوه في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ نصف الركبتين، فيجمعه بيده كراهية أن ترىٰ عورته. فتأمل يا أخي هل تكون هذه إهانةً لخواص الله، فالمؤمن إما في مقام الشكر، أو في مقام الصبر، وعنه ﷺ: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر».

والمعنىٰ[1]: أي وإن رأىٰ الإنسان أن رزقه لا يأتي إلا بقدر.. ظن أن ذلك إهانة من الله له، وإذلال لنفسه، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث؛ لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا، والتوسع في متاعها، ولا إهانة عنده إلا فوتها، وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها، وأما المؤمن.. فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته، ويوفقه لعمل الآخرة.

ويحتمل أن يراد بالإنسان العموم كما مر، لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير، وما أصيب به من الشر في الدنيا ليس إلا للاختبار والامتحان، وأن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تعدل جناح بعوضة.. ما سقىٰ الكافر منها شربة ماء.

والحاصل[2]: أن الإنسان في الحالين مخطىء مرتكب أشنع وجوه الغفلة، لأن إسباغ النعمة في الدنيا على أحد لا يدل علىٰ أنه مستحق لذلك، ولو دل علىٰ هذا.. لما رأيت عاصياً موسعاً عليه في الرزق، ولا شاهدت كافراً ينعم بصنوف النعم. ولعل من حكمة الله في بسط الرزق علىٰ بعض الناس، وتضييقه علىٰ بعض آخر: أن وجدان المال سبب للانغماس في الشهوات، وأنه قاطع عن الاتصال بالله، وأن فقدانه وسيلة لتمحيص المرء وابتلائه؛ ليكون من الصابرين الذين وعدوا بالجنة، انظر إلىٰ قول النبي ﷺ فيما كان يدعو به ربه من قوله: «اللهم أحيني مسكيناً،

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين» تدرك سر ذلك إلى أن من يمتحنهم الله تعالىٰ بإسباغ النعمة عليهم يظنون أن الله قد اصطفاهم علىٰ عباده، ورفعهم فوق سائر خلقه، ثم لا يزال بهم شيطان الغواية حتىٰ يذهبوا مع أهوائهم كل مذهب، ويسيروا في طريق شهواتهم المهلكة إلىٰ أبعد غاية، لا يرجعون إلىٰ ربهم، ولا يدركون أن ما عنده خيرٌ وأبقىٰ.

وقرأ ابن كثير في رواية البزي عنه وابن محيصن ويعقوب[1]: ﴿أكرمني﴾ و ﴿أهانني﴾ بإثبات الياء فيهما وصلاً ووقفاً، وقرأ نافع: بإثبات الياء فيهما وصلاً وحذفهما وقفاً، وخير في الوجهين أبو عمرو، وقرأ الباقون: بحذف الياء فيهما وصلاً ووقفاً اتباعاً لرسم المصحف، ولموافقة رؤوس الآي، والأصل: إثباتها لأنها اسم، ومن حذفها في الوقف سكن النون فيه، وقرأ الجمهور: ﴿فَقَدَرَ﴾ بتخفيف الدال، وقرأ أبو جعفر وعيسى وخالد والحسن ـ بخلاف عنه ـ وابن عامر: بتشديدها، وهما لغتان، قال الجمهور: هما بمعنى واحد بمعنىٰ: ضيق، والتضعيف فيه للمبالغة للمتعدي، وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ وأبو عمرو: ﴿رَبِّيَ﴾ بفتح الياء في الموضعين، وأسكنها الباقون.

تتمة: وفي «فتح الرحمن»: إن قلت: كيف ذم من يقول: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ مع أنه صادق فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ ومع أنه متحدِّث بالنعمة، وهو مأمور بالتحدث بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾؟

قلت: المراد أن يقول ذلك مفتخراً به علىٰ غيره، كما أشرنا إليه في حلنا السابق، ومستدلاً به علىٰ علو منزلته في الآخرة، ومعتقداً استحقاق ذلك علىٰ ربه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، وكل ذلك منهي عنه مذموم، وأما إذا قاله علىٰ وجه الشكر، والتحدث بنعمة الله تعالىٰ، فليس بمذموم، بل هو ممدوح.

وقوله: ﴿كَلَّاۖ﴾ ردع للإنسان القائل في الحالتين، وزجر له عن مقالته المحكية، وتكذيب له فيها، فإن الله سبحانه وتعالىٰ قد يوسع الرزق، ويبسط النعم

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) روح البيان.

للإنسان لا لكرامته ـ كما في الكافر والعاصي، ويضيقه عليه، لا لإهانته، كما في المؤمن المطيع ـ بل للاختبار والامتحان. قال الفراء: ﴿كَلَّآ﴾ في هذا الوضع بمعنىٰ: أنه لم يكن للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله تعالىٰ علىٰ الغنىٰ والفقر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنىٰ: لم أبتله بالغنىٰ لكرامته عليَّ، ولم ابتله بالفقر لهوانه عليَّ، بل ذلك لمحض القضاء والقدر، بلا تعليل بالعلل.

ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلىٰ بيان سوء أفعاله، فقال: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه، بالإنفاق عليه والكسوة ونحوهما، واليتيم من بني آدم: هو الذي فقد أباه، وكان غير بالغ، ومن البهائم: هو الذي فقد أمه، وفي الحديث: «أحب البيوت إلىٰ الله بيت فيه يتيم مكرم»، والالتفات فيه إلىٰ الخطاب علىٰ قراءة الجمهور بالتاء الفوقية؛ للإيذان باقتضاء ملاحظة جنايته السابقة لمشافهته بالتوبيخ؛ تشديداً للتقريع، وتأكيداً للتشنيع، والجمع في ﴿تُكْرِمُونَ﴾ وفيما سيأتي من سائر الأفعال باعتبار معنىٰ الإنسان؛ إذ المراد به الجنس؛ أي: بل لكم أحوال أشد شراً مما ذكر، وأدل علىٰ تهالككم علىٰ المال، حيث يكرمكم الله تعالىٰ بكثرة المال، فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالنفقة والكسوة ونحوهما.

قال في «الأشباه»: استخدام اليتيم بلا أجرة حرام ولو لأخيه ومعلمه، إلا لأمه، وفيما إذا أرسله المعلم لإحضار شريكه. انتهى.

وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة والجحدري وأبو عمرو: ﴿يكرمون﴾، و ﴿لا يحضون﴾، و ﴿يأكلون﴾، و ﴿يحبون﴾ بياء الغيبة فيها، وقرأ باقي السبعة: بتاء الخطاب في جميعها.

والمعنىٰ: أنكم تتركون إكرام اليتيم، فتأكلون ماله، وتمنعونه من فضل أموالكم، قال مقاتل: نزلت في قدامة بن مظعون، وكان يتيماً في حجر أمية بن خلف، فيدفعه عن حقه، فنزلت.

والمعنىٰ: ﴿كَلَّآ﴾؛ أي[1]: لم ابتل الإنسان بالغنىٰ لكرامته عندي، ولم ابتله

---

(١) المراغي.

بالفقر لهوانه عليَّ، فالكرامة والإهانة لا يدوران مع المال سعة وقلة، فقد أوسع علىٰ الكافر لا لكرامته، وأضيق علىٰ المؤمن لا لهوانه، وإنما أكرم المرء بطاعته، وأهينه بمعصيته، وقد أوسّع علىٰ المرء بالمال لأختبره أيشكر أم يكفر، وأضيق عليه لأختبره أيصبر أم يضجر، ثم انتقل وترقىٰ من ذمهم بقبيح الأقوال إلىٰ النعي عليهم بقبيح الأفعال، فقال: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾؛ أي: بل لكم أفعال وأحوال شر من أقوالكم، تدل على تهالككم علىٰ المال، فقد يكرمكم الله تعالىٰ بالمال الكثير، فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم وبره، والإحسان إليه، وقد جاء في الحديث الحث علىٰ ذلك، فمنه قوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ بحذف إحدىٰ التاءين من: تتحاضون، والحض: الحث والتحريض، أي: لا يحض[1] بعضكم بعضاً، ولا يحث من أهل وغيره شكراً لإنعام الله تعالىٰ ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾؛ أي: علىٰ إطعام جنس المسكين، وإصلاح شأنه، ومن لا يحض غيره علىٰ إطعامه فأن لا يطعمه بنفسه أولىٰ، فيؤول المعنىٰ إلى أن يقال: ولا تطعمون مسكيناً ولا تأمرون بإطعامه، وفيه ذم بليغ للبخيل.

والخلاصة: وإذا لم تكرموا اليتيم، ولم يوص بعضكم بعضاً بإطعام المسكين، فقد كذبت مزاعمكم في أنكم قوم صالحون، وإنما ذكر التحاض علىٰ الطعام، ولم يكتف بالإطعام، فيقول: ولم تطعموا المسكين، ليبين أن أفراد الأمة متكافلون، وأنه يجب أن يوصي بعضهم بعضاً بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع التزام كل بفعل ما يأمره أو ينهىٰ عنه.

وقرأ أبو جعفر وشيبة والكوفيون وابن مقسم[2]: ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ بفتح التاء وبالألف، أصله: تتحاضون، وهي قراءة الأعمش؛ أي: لا يحض بعضكم بعضاً، وقرأ عبد الله وعلقمة وزيد بن علي وعبد الله بن المبارك والشيزري عن الكسائي كذلك، إلا أنهم ضموا التاء؛ أي: تحاضون أنفسكم؛ أي: يحض بعضكم بعضاً، وتفاعل وفاعل يأتي بمعنىٰ: فعل أيضاً.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وقوله: ﴿عَلَىٰ طَعَامِ﴾ يجوز أن يكون بمعنىٰ إطعام، كالعطاء بمعنىٰ: الإعطاء، والأولىٰ أن يكون علىٰ حذف مضاف؛ أي: علىٰ بذل طعام المسكين، أو علىٰ إعطاء طعام المسكين.

ثم بين أن إهمالهم أمر اليتيم، وخلو قلبهم من الرحمة بالمسكين، لم يكونا زهداً في لذائذ الحياة، وتخلصاً من متاعبها، وعكوفاً على شؤون أنفسهم، بل جاء من محبتهم للمال، فقال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾؛ أي: الميراث، وأصله[1]: وراث قلبت واوه تاء، والميراث: هو المال المنتقل من الميت ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾؛ أي: أكلاً شديداً، واللم: الجمع، يقال: كتيبة ملمومة؛ أي: مجتمعة بعضها إلىٰ بعض.

والمعنىٰ: أكلاً ذا لمٍّ علىٰ حذف المضاف؛ أي: جمع بين الحلال والحرام، فإنهم لا يورثون النساء، ولا الصبيان، ويأكلون أنصباءهم الحرام مجموعةً إلىٰ أنصبائهم الحلال.

والمعنىٰ[2]: أي إنكم تأكلون المال الذي يتركه من يتوفىٰ منكم أكلاً شديداً، فتحولون بينه وبين من يستحق، وتجمعون بين نصيبكم منه، ونصيب غيركم.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: حباً كثيراً مع حرص وشره ومنع حقوق وعدم انتفاع، فإن الجم الكثير يقال: جم الماء في الحوض: إذا اجتمع فيه وكثر، والمقصود: ذمهم ببيان أن حرصهم علىٰ الدنيا فقط، وأنهم عادلون عن أمر الآخرة، وفيه إشارة إلىٰ أن الحب للمال طبيعي، فلا يتخلص منه المرء بالكلية إلا أن يكون من الأقوياء، فكأنه أشار إلىٰ أن حبه إذا لم يشتد لا يكون مذموماً؛ أي: تميلون إلىٰ جمع المال ميلاً شديداً، ميراثاً كان أو غيره.

وخلاصة ذلك: أنكم تؤثرون الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، إذ لو كنتم ممن غلب عليه حب الآخرة.. لانصرفتم عما يترك الموتىٰ ميراثاً لأيتامهم، ولكنكم تشاركونهم فيه، وتأخذون شيئاً لا كسب لكم فيه، ولا مدخل لكم في تحصيله وجمعه، ولو كنتم ممن استحبوا الآخرة.. لما ضربت نفوسكم علىٰ المال تأخذونه من حيث وجدتموه من حلال أو من حرام، فهذه أدلة ترشد إلىٰ أنكم لستم علىٰ ما ادعيتم من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

صلاح وإصلاح، وأنكم علىٰ ملة إبراهيم خليل الرحمن.

ثم كرر سبحانه الردع لهم والزجر، فقال: ﴿كَلَّآ﴾، فهو ردع لهم عما ذكر من الأفعال والتروك، وإنكار عليهم؛ أي: لا ينبغي[1] أن يكون الأمر كذلك في الحرص علىٰ الدنيا، وقصر الهمة علىٰ تحصيلها وجمعها، من حيث تهيأ لهم من حل أو حرام، وترك المواساة منها، وتوهم أن لا حساب ولا جزاء، فإن عاقبة ذلك الحسرة والندامة علىٰ إيثار الحياة الدنيوية الفانية علىٰ الحياة الآخروية، وسيأتي يوم يندمون فيه أشد الندم، ولكن لا تنفعهم الندامة، ويتمنون لو كانوا أفنوا حياتهم في التقرب إلىٰ ربهم بصالح الأعمال.

ثم بين ذلك اليوم، ووصفه بأوصاف ثلاثة، فقال:

١ - ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وزلزلت ﴿دَكًّا دَكًّا﴾؛ أي: دكاً متتابعاً، وزلزلةً متواترة، وضرب بعضها ببعض حتىٰ انكسر وذهب كل ما علىٰ وجهها من جبال وأبنية وقصور، حين زلزلت زلزلةً بعد زلزلة، وحركت تحريكاً بعد تحريك، وصارت هباءً منبثاً، وهو عبارة عما عرض لها عند النفخة الثانية، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها؛ لأنها فعل شرط لها، و ﴿إذا﴾ متعلقة بالجواب الآتي، وهو قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ما فرط فيه في الدنيا. والجملة مستأنفة مسوقة بطريق الوعيد تعليلاً للردع، والدك: الدق، يقال: دككت الشيء أدكه دكاً: إذا ضربته وكسرته حتىٰ سويته بالأرض، وقال الخليل: الدك: كسر الحائط والجبل، وقال المبرد: الدك: حط المرتفع بالبسط؛ أي: بسطت وذهب ارتفاعها، وقال الزجاج: تزلزلت، ودك بعضها بعضاً، وقال ابن قتيبة: دكت جبالها حتىٰ استوت، والمعنىٰ هنا: زلزلت، وحركت تحريكاً بعد تحريك، ودكاً الثاني ليس تأكيداً للأول، بل هو دك آخر سوى الأول، وقال ابن عصفور: وانتصاب ﴿دَكًّا﴾ الأول علىٰ أنه مصدر مؤكد لفعله، و﴿دَكًّا﴾ الثاني: تأكيد للأول، ويجوز أن يكون النصب علىٰ الحال؛ أي: حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة، كما يقال: علمته الحساب باباً باباً، علمته الخط حرفاً حرفاً.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: أنه كرّر الدَّكُّ عليها حتىٰ صارت هباءً منبثاً.

والخلاصة: أنه إذا دكت الأرض دكاً بعد دك، وتتابع عليها ذلك حتىٰ صارت كالصخرة الملساء، وذهب كل ما علىٰ وجهها من جبال وقصور وأبنية.. يتذكر الإنسان ما فرط فيه.

٢ - ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ واعلم[١] أن هذه الآية من آيات الصفات التي سكت عنها وعن مثلها عامة السلف وبعض الخلف، فلم يتكلموا فيه، وأجروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل، وقالوا: يلزمنا الإيمان بها، وإجراؤها علىٰ ظاهرها، فتقول علىٰ مذهبهم: المجيء صفة واجبة لله تعالىٰ، نثبتها ونعتقدها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل، وهذا هو المذهب الأسلم الأعلم، وتأولها بعض المتأخرين وغالب المتكلمين، فقالوا: ثبت بالدليل العقلي أن الحركة علىٰ الله محال، فلا بد من تأويل الآية، فقيل في تأويلها: وجاء أمر ربك بالمحاسبة والجزاء، وقيل: جاء أمر ربك وقضاؤه، وقيل: وجاء دلائل آيات ربك، فجعل مجيئها مجيئاً له تعالىٰ تفخيماً لتلك الآيات، وقال الإمام أحمد: معناه: جاء أمر ربك وقضاؤه، فهو علىٰ حذف مضاف للتهويل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: جاء أمره وقضاؤه، وقال النسفي: وهذا[٢] تمثيل لظهور آيات اقتداره، وتبين آثار قهره وسلطانه، فإن واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه.. ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور وزرائه وسائر خواصه وعساكره. انتهىٰ. بتصرف.

وقال الشوكاني: أي: جاء أمره وقضاؤه، وظهرت آياته، وقيل: المعنىٰ: أنها زالت الشبه في ذلك اليوم، وظهرت المعارف، وصارت ضرورية، كما يزول الشك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه، وقيل: جاء قهر ربك وسلطانه، وانفراده بالأمر، والتدبير من غير أن يجعل ويفوض إلىٰ أحد من عباده شيئاً من ذلك. انتهىٰ.

﴿وَ﴾ جاء ﴿الْمَلَكُ﴾؛ أي: ونزلت ملائكة كل سماء حالة كونهم ﴿صَفًّا صَفًّا﴾

---

(١) البيضاوي. (٢) النسفي.

علىٰ حدة؛ أي: مصطفين صفاً بعد صف، محدقين بالجن والإنس، فيكونون سبع صفوف، وقال الضحاك: أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفاً محيطين بالأرض ومن فيها، ويكونون سبعة صفوف، وقيل: معنىٰ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: وتجلت[1] لأهل الموقف السطوة الإلهية وقهر الربوبية، كما تتجلىٰ أبهة الملك للأعين إذا جاء الملك في جيوشه ومواكبه، ولله المثل الأعلى.

٣ - ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾؛ أي: ويوم إذ كشفت جهنم للناظرين بعد أن كانت غائبة محجوبة عنهم، كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: أظهرت حتىٰ رآها الخلق وعاينوها، وليس المراد أنها نقلت عن مكانها إلى مكان آخر، فالمجيء بها عبارة عن إظهارها حتىٰ يراها الخلق مع ثباتها في مكانها، فإن من المعلوم أنها لا تنفك عن مكانها، و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بـ ﴿جيء﴾، و ﴿بِجَهَنَّمَ﴾: نائب فاعل له والباء للتعدية.

وأخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، يجرونها حتىٰ تنصب عن يسار العرش، لها تغيظ وزفير، فلا يبقىٰ ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا جاء لركبتيه يقول: يا رب نفسي نفسي»، إلا النبي ﷺ فيقول: «أمتي أمتي» فالمجيء[2] بها علىٰ حقيقته، فالجر يدل علىٰ انفكاكها من مكانها، وتأوله الأولون علىٰ التجوز بأن معنىٰ يجرون: يباشرون أسباب ظهورها، وقيل: المراد بمجيء جهنم: مجيء صورتها المثالية، ولا مناقشة فيه، فيكون كمجيء المسجد الأقصىٰ إلى مرأىٰ النبي ﷺ حين سأله قريش عن بعض أوصافه في قصة المعراج.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل[3] من قوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾، والعامل فيهما قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: يوم إذ دكت الأرض دكاً دكاً، وجاء ربك والملك صفاً صفاً، يتذكر الإنسان ما فرَّط وقصر فيه من حقوق ربه، وحقوق الخلق بتفاصيله، بمشاهدة آثاره

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

وأحكامه، أو بمعاينة عينه علىٰ أن الأعمال تتجسم في النشأة الآخرة، فيبرز كل من الحسنات والسيئات بما يناسبها من الصور الحسنة والقبيحة، أو يتعظ؛ أي: يقبل التذكير والإرشاد الذي بلغ إليه في الدنيا، ولم يتعظ ولم يقبله في الدنيا، فيتعظ به في الآخرة، فيقول: يا ليتنا نرد، ولا نكذب بآيات ربنا، وهذا الاتعاظ يستلزم الندم علىٰ تقصيراته، والندم توبة، لكن لا توبة هناك لفوات أوانها.

وقوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؛ أي: ومن أين له العظة، وقد فاته أوانها؟، اعتراض بين البدل والمبدل منه، جيء به لإفادة أنه ليس بتذكر حقيقة؛ لخلوه عن الفائدة بعدم وقوعه في أوانه، و ﴿أَنَّىٰ﴾: خبر مقدم لـ ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾، و ﴿لَهُ﴾: متعلق بما تعلق به الخبر؛ أي: ومن أين يكون له التذكر، والاتعاظ، وقد فات أوانه، وقيل: هو علىٰ حذف مضاف؛ أي: ومن أين له منفعة الذكرىٰ، وبه يرتفع التناقض الواقع بين إثبات التذكر أولاً، ونفيه ثانياً.

وقوله: ﴿يَقُولُ﴾ الإنسان يومئذٍ ﴿يا﴾ أيها الحاضرون ﴿ليتني قدمت لحياتي﴾ بدل اشتمال من ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، أو استئناف وقع عن سؤال نشأ عنه، كأنه قيل: ماذا يقول عند تذكره؟ فقيل: يا ليتني عملت لحياتي هذه ـ يعني: لتحصيل الحياة الأخروية التي هي حياة نافعة دائمة غير منقطعة ـ أعمالاً صالحةً أنتفع بها اليوم، علىٰ أن اللام للتعليل، ويحتمل كون اللام للتوقيت؛ أي: يا ليتني قدمت أعمالاً صالحة تنفعني اليوم وقت حياتي الدنيوية، ويجوز أن يكون المعنىٰ: قدمت عملاً ينجيني من العذاب، فأكون من الأحياء، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

وحاصل معنى قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: يوم إذ حدثت[١] تلك الحوادث والدواهي تذهب الغفلة عن الإنسان، ويتذكر المرء ما كان قد فرط وقصر فيه، وعرف أن ما كان فيه كان ضلالاً، وأنه كان يجب أن يكون علىٰ حال خير مما كان عليها، ثم بين أن هذه الذكرىٰ لا فائدة فيها، فقال: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؛ أي: ومن أين لهذه الذكرى فائدة، أو ترجع إليه بعائدة، وقد فات الأوان، وحمَّ القضاء.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: أنه إذا حدثت الأحداث.. انكشفت عن الإنسان الحجب، ووضح له ما كان عليه، وذهب عنه الغفلة، وإذ ذاك يتمنىٰ أن يعود ليعمل صالحاً، ولكن أنىٰ له ذلك. ثم بين تذكره بقوله: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾؛ أي: يتمنىٰ[1] أن يكون قد عمل صالحاً ينفعه في حياته الأخروية التي هي الحياة الحقيقة. ثم بين مآله وعاقبة أمره، فقال: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾؛ أي: يوم إذ يكون ما ذكر من الأحوال والأقوال.. ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦﴾. قرأ الجمهور: ﴿لَّا يُعَذِّبُ﴾ و ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ مبنيين للفاعل، و ﴿أَحَدٞ﴾ في الموضعين فاعل، و ﴿العذاب﴾ بمعنىٰ: التعذيب، كالسلام بمعنىٰ: التسليم، وكذا الوثاق بمعنىٰ: الإيثاق، كالعطاء بمعنىٰ الإعطاء، وهو الشد بالوثاق، والوثاق: ما يشد به من الحديد والحبل، والضميران في قوله: ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ عائدان إلىٰ الله تعالىٰ، فهما مصدران مضافان إلىٰ الفاعل.

والمعنى: لا يتولىٰ عذاب الله ووثاقه أحد سواه، إذ الأمر كله لله، فلا يلزم أن يكون يوم القيامة معذِّب سوىٰ الله، لكنه لا يعذِّب أحد مثل عذابه، وهو قول ابن عباس والحسن، وفي «عين المعاني»: لا يعذب كعذاب الله ووثاقه في الآخرة أحدٌ في الدنيا. أو عائدان للإنسان، فيكونان مصدرين مضافين إلىٰ المفعول، والمعنىٰ عليه: لا يعذب أحد تعذيباً مثل تعذيب الله هذا الكافر، ولا يوثق أحدٌ إيثاقاً مثل إيثاق الله هذا الكافر بالسلاسل والأغلال.

وقرأ ابن سيرين[2]: وابن أبي إسحاق وسوار القاضي وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو بحرية وسلام والكسائي ويعقوب وسهل وخارجة عن أبي عمرو: بفتح الذال من ﴿يعذَّب﴾ والثاء من ﴿يوثَق﴾ مبنيين للمفعول، والضميران للإنسان، والمصدران مضافان للمفعول؛ أي: لا يعذب أحد مثل عذاب ذلك الإنسان، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال أحد مثل وثاق ذلك الإنسان، وظاهره يقتضي أن يكون عذابه أشد من عذاب إبليس إلا أن يكون المراد أحد من هذا الجنس، كعصاة المؤمنين، فالمراد[3] بالإنسان حينئذٍ: الكافر؛ أي: لا يعذب من ليس بكافر كعذاب

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

الكافر، وقيل: المراد به: إبليس، ولكن يأباه ظاهر قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وقيل: المراد به: أبي بن خلف. قال الفراء: المعنىٰ: إنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد؛ لتناهيه في الكفر والعناد، وقيل: المعنىٰ: لا يعذب مكانه أحد، ولا يوثق مكانه أحد، فلا تؤخذ منه فدية، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الكسائي، قال: وتكون الهاء في الموضعين ضمير الكافر؛ لأنه معلوم أنه لا يعذب كعذاب الله أحد. قال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون الضمير للكافر علىٰ قراءة الجماعة؛ أي: لا يعذب أحدٌ أحداً مثل تعذيب هذا الكافر.

وحاصل المعنى على القراءة الأخيرة ـ أعني قراءة الكسائي ـ: أي[1] فيومئذٍ لا يصاب أحد بعذاب مثل ذلك العذاب الذي يصيب ذلك الإنسان الذي أبطره الغنىٰ، فجحد نعمة الله عليه، أو أفسده الفقر حتىٰ عتا في الأرض فساداً، ولا يوثق أحد من الخلائق وثاقاً مثل هذا الوثاق الذي يوثقه ذلك الإنسان، ولا يخفىٰ ما في ذلك من تقوية الذكر لمن له قلب يذكر ووجدان يشعر.

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع ـ بخلاف عنهم ـ: ﴿وِثاقه﴾ بكسر الواو، والجمهور: بفتحها.

ولما فرغ سبحانه وتعالىٰ من حكاية أحوال الأشقياء.. ذكر بعض أحوال السعداء، فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: ويقال للمؤمن يومئذٍ تكرمةً له: يا أيتها النفس التي قد استيقنت الحق واطمأنت إليه، فلا يخالجها شك، ووقفت عند حدود الشرع، فلا تزعزعها الشهوات، ولا تضطرب بها الرغبات: ارجعي إلىٰ جوار ربك دار الكرامة، والاطمئنان[2]، والسكون بعد الانزعاج، وسكون النفس: إنما هو بالوصول إلىٰ غاية الغايات في اليقين والمعرفة والشهود. وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ تنبيه علىٰ أنه بمعرفته تعالىٰ، والإكثار من عبادته يكتسب اطمئنان النفس، وإذا وصلت إلىٰ مقام الاطمئنان بذكر الله.. صار صاحبها

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

آمناً من الرجوع إلىٰ الشهوات النفسانية. وفي «التعريفات»: النفس المطمئنة: هي التي تنورت بنور القلب حتىٰ تخلت من صفاتها الذميمة، وتحلت بالأخلاق الحميدة، وقيل: المطمئنة[1]: هي الساكنة الموقنة بالإيمان، وتوحيد الله، الواصلة إلىٰ ثلج اليقين، بحيث لا يخالطها شك، ولا يعتريها ريب. وقال الحسن: هي المؤمنة الموقنة، وقال مجاهد: هي الراضية بقضاء الله التي أيقنت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها.

وقال مقاتل: هي الآمنة المطمئنة، وقال ابن كيسان: المطمئنة بذكر الله، وقيل: المطمئنة: هي الآمنة التي لا يلحقها خوف ولا حزن، قال ابن زيد: يقال لها ذلك عند الموت، وخروجها من جسد المؤمن في الدنيا، وقيل: عند البعث، وقيل: عند دخول الجنة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا﴾ بتاء التأنيث، وقرأ زيد بن علي: ﴿يا أيها﴾ بغير تاء، ولا أعلم أحداً ذكر أنها تذكر، وإن كان المنادىٰ مؤنثاً إلا صاحب «البديع»، وهذه القراءة شاهدة بذلك، ولذلك وجه من القياس، وذلك أنه لم يثنَّ ولم يجمع في نداء المثنىٰ والمجموع، فكذلك لم يؤنث في نداء المؤنث.

والمعنى: أي ويقول الله سبحانه وتعالى للمؤمن إكراماً له بلا واسطة، كما كلم موسىٰ عليه السلام، أو علىٰ لسان الملك عند خروج الروح من الجسد، أو عند تمام الحساب. ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾؛ أي: إلىٰ ما وعدك ربك من الكرامة والزلفىٰ، فكونه تعالىٰ منتهىٰ الغاية، إنما هو بهذا الاعتبار، فسقط تمسك المجسمة، واستدل بالرجوع الذي هو العود علىٰ تقدم الروح خلقاً حالة كونك ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أوتيت من النعيم المقيم ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عند الله تعالىٰ؛ أي[3]: ارجعي إلىٰ محل الكرامة بجوار ربك راضية بما عملت في الدنيا، مرضياً عنك عملك الذي عملت فيها، إذ لم تكوني ساخطة لا في الغنىٰ ولا في الفقر، ولم تتجاوزي حدود الشرع فيما لك حق، وما عليك من واجب، وقال عكرمة وعطاء: معنىٰ ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

﴿رَبِّكِ﴾؛ أي: إلى جسدك الذي كنت فيه، واختاره ابن جرير، ويدل علىٰ هذا قراءة ابن عباس ﴿فادخلي في عبدي﴾ بالإفراد، والأول أولىٰ.

ثم ذكر جميل عاقبتها فقال: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩﴾؛ أي: في زمرة عبادي الصالحين، وكوني من جملتهم، وانتظمي في سلكهم ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ ودار كرامتي معهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فالدخول في زمرة الخواص هي السعادة الروحانية، والدخول معهم في الجنات، ودرجاتها هي السعادة الجسمانية. وقيل: المراد بالنفس: الروح.

والمعنىٰ: فادخلي في أجساد عبادي التي فارقت عنها، وادخلي دار ثوابي، ويؤيد هذا المعنىٰ قول من قال: إن الخطاب عند البعث، وذهب بعضهم: إلىٰ أنه عند الموت، كما مر آنفاً، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت هذه الآية، وأبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذا!، فقال: «أما إنه سيقال لك هذا». وقيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وقيل: نزلت في عثمان بن عفان حين وقف بئر رومة، وقيل: نزلت في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة، وجعلوا وجهه إلىٰ المدينة، فقال: اللهم إن كان لي عندك خير.. فحوِّل وجهي إلىٰ قبلتك، فحوَّلَ الله وجهه نحوها، فلم يستطع أحد أن يحوله عنها. والمراد بالآية[1]: كل نفس مطمئنة علىٰ العموم، ولا ينافي ذلك نزولها في نفس معينة، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿عِبَٰدِي﴾ جمعاً، وابن عباس وعكرمة والضحاك ومجاهد وأبو جعفر وأبو صالح والكلبي وأبو شيخ الهنائي واليماني: ﴿في عبدي﴾ على الإفراد، والأظهر أنه أريد به اسم الجنس، فمدلوله ومدلول الجمع واحد. وتعدىٰ ﴿فَٱدۡخُلِي﴾ أولاً بـ ﴿فِي﴾، وثانياً بغير في، وذلك أنه إذا كان المدخول فيه غير ظرف حقيقي.. تعدت إليه بفي، تقول: دخلت في الأمر، ودخلت في غمار الناس، ومنه قوله: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩﴾ وإذا كان المدخول فيه ظرفاً حقيقياً تعدَّت إليه في الغالب بغير وساطة في، ومنه قوله: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾، وقال بعض أهل الإشارة:

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

معنى[1] الآية: يا أيتها النفس المطمئنة إلىٰ الدنيا، ارجعي إلى الله بتركها، وسلوك سبيل الآخرة، فادخلي في عبادي الأخروية، وادخلي جنتي الصورية والمعنوية.
وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إذا توفي العبد المؤمن.. أرسل الله ملكين، وأرسل إليه بتحفة من الجنة، فيقال لها: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلىٰ روح وريحان، ورب عنك راض، فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه، والملك علىٰ أرجاء السماء يقولون: قد جاء من الأرض روح طيبة ونسمة طيبة، فلا تمر بباب إلا فتح، ولا بملك إلا صلىٰ عليها، حتىٰ يؤتىٰ بها إلىٰ الرحمن؛ أي: إلى حضوره، ومقام مخصوص من مقامات كرامته، فتسجد، ثم يقال لميكائيل: اذهب بهذه، فاجعلها مع نفس المؤمنين، ثم يؤمر، فيوسع عليه قبره سبعون ذراعاً عرضه، وسبعون ذراعاً طوله، وينبذ له فيه الريحان، فإن كان معه شيء من القرآن.. كفاه نوره، وإن لم يكن.. جعل له نور مثل نور الشمس في قبره، فيكون مثله مثل العروس، ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله، وإذا توفي الكافر.. أرسل الله إليه ملكين، وأرسل إليه قطعة بجاد ـ بوزن: كتاب: كساء مخطط. ا هـ «قاموس» ـ أنتن من كل منتن، وأخشن من كل خشن، فيقال: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلىٰ جهنم، عذاب أليم، ورب عليك غضبان.

وقال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: مات ابن عباس رضي الله عنهما بالطائف، فشهدت جنازته، فجاء طائر لم ير مثله علىٰ خلقته، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن.. تليت هذه الآية علىٰ شفير القبر، لا يرىٰ من تلاها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾.

وحاصل معنىٰ الآية[2]: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩﴾؛ أي: فادخلي في زمرة عبادي المكرمين، وانتظمي في سلكهم، وكوني في جملتهم، فالنفوس القدسية كالمرايا المتقابلة، يشرق بعضها علىٰ بعض، وكأنها تربىٰ في هذه الدنيا بالآلام، وتزين بالمعارف والعلوم، حتىٰ إذا فارقت الأبدان.. جعلت في أماكن متقاربة، بينها صفاء ومودة، وحسن صلة ومحبة. ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ فتمتعي فيها بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

اللهم اجعلنا من النفوس المطمئنة الراضية المرضية، وأدخلنا في جنتك مع المتقين من الأنبياء والشهداء والصالحين، والحمد لله رب العالمين آمين.

الإعراب

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾.

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم ﴿ٱلْفَجْرِ﴾: مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالفجر، والجملة مستأنفة، ﴿وَلَيَالٍ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱلْفَجْرِ﴾ مجرور بالفتحة الظاهرة علىٰ الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين نيابة عن الكسرة؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف علة واحدة تقوم مقام علتين، وهي: صيغة منتهىٰ الجموع؛ لأنه علىٰ زنة مفاعل، كما ذكره ابن مالك في «الخلاصة»:

وَكُنْ لِجَمْعٍ مُشْبِهٍ مَفَاعِلا أو ٱلْمَفَاعِيلَ بِمَنْعٍ كَافِلاً

وأصله: ليالي، استثقلت الحركة علىٰ الياء فحذفت، ثم حذفت الياء طلباً للتخفيف، وعوض عنه التنوين، فصار: ليال.

﴿عَشْرٍ﴾: صفة ﴿لَيَالٍ﴾، مجرور بالكسرة الظاهرة ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ﴾: معطوفات أيضاً علىٰ ﴿ٱلْفَجْرِ﴾، مجرورات بالكسرة الظاهرة ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنىٰ الشرط في محل النصب علىٰ الظرفية مبني علىٰ السكون، والظرف متعلق بفعل القسم المحذوف تقديره: أقسم بالليل وقت سراه ﴿يَسْرِ﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمة مقدرة علىٰ الياء المحذوفة لرعاية الفاصلة، أو اتباعاً لخط المصحف، منع من ظهورها الثقل؛ لأنه فعل معتل بالياء، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلَّيْلِ﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، وجواب القسم في هذه المذكورات كلها محذوف تقديره: لنجازين كل أحد بما عمل، أو لنعذبن.

﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ

رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿هَلۡ﴾: حرف استفهام للاستفهام التفخيمي والتعظيمي للأمور المقسم بها ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم ﴿قَسَمٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿قَسَمٌ﴾، والجملة جملة إنشائية مسوقة لتقرير ما قبلها وتفخيمه، لا محل لها من الإعراب ﴿أَلَمۡ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري؛ أي: قد رأيت وعلمت علماً ضرورياً ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿تَـرَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، أو علىٰ أي مخاطب مجزوم بـ﴿لـم﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، والجملة جملة استئنافية لا محل لها من الإعراب ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام في محل نصب علىٰ المصدرية بـ ﴿فَعَلَ﴾، والمعنىٰ: قد علمت أيَّ فعل فعل ربك بعاد. ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل ﴿بِعَادٍ﴾: متعلق بـ ﴿فَعَلَ﴾، والجملة الفعلية المعلقة بـ ﴿كَيۡفَ﴾ الاستفهامية سدت مسد مفعولي ﴿تَـرَ﴾، ﴿إِرَمَ﴾: بدل من ﴿عاد﴾ بدل كل من كل، أو عطف بيان له مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للعلمية والتأنيث المعنوي ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾: صفة لـ ﴿إِرَمَ﴾ مجرور بالكسرة ﴿ٱلۡعِمَادِ﴾: مضاف إليه ﴿ٱلَّتِي﴾: صفة ثانية لـ ﴿إِرَمَ﴾، وجملة ﴿لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا﴾ صلة الموصول ﴿يُخۡلَقۡ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿مِثۡلُهَا﴾: نائب فاعل ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾: متعلق بـ ﴿يُخۡلَقۡ﴾، ﴿وَثَمُودَ﴾: معطوف علىٰ ﴿عاد﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: نعت لـ ﴿ثَمُودَ﴾: ﴿جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة الموصول ﴿بِٱلۡوَادِ﴾: متعلق بـ ﴿جَابُواْ﴾، و ﴿الباء﴾ بمعنىٰ في، وحذفت الياء من ﴿الواد﴾؛ لأنها من ياءات الزوائد، ﴿وَفِرۡعَوۡنَ﴾: عطف علىٰ ﴿عاد﴾، ﴿ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ صفة لـ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للمذكورين من عاد وإرم وثمود، أو منصوب على الذم، وجملة ﴿طَغَوۡاْ﴾ صلة الموصول ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾: متعلق بـ ﴿طَغَوۡاْ﴾، ﴿فَصَبَّ﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿صب﴾ فعل ماض ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: متعلق بـ ﴿صب﴾ ﴿رَبُّكَ﴾: فاعل ﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة ﴿طَغَوۡاْ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿بالمرصاد﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ

طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن ربك لبالمرصاد لأعمال عباده خيراً أو شراً ليجازيهم عليها، وأردت بيان أحوال الإنسان، هل هو في مراقبة ربه فيشكر علىٰ نعمه، ويصبر على نقمه، أم لا؟ فأقول لك: أما الإنسان. ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: مبتدأ ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنىٰ الشرط متعلق بـ ﴿يقول﴾ ﴿مَا﴾: زائدة ﴿ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها مجردة عن معنى الشرط، ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أكرمه﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الرب، ومفعول به، والجملة في محل الخفض معطوفة علىٰ جملة ﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾. ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾: معطوف علىٰ ﴿أكرمه﴾ ﴿فَيَقُولُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها، وجملة ﴿يقول﴾ في محل الرفع خبر عن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ولا يمنع تعلق الظرف بـ ﴿يقول﴾ كونه خبر المبتدأ؛ لأن الظرف في نية التأخير، والتقدير: فأما الإنسان.. فقائل ربي أكرمني وقت الابتلاء، والجملة من المبتدأ والخبر جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿رَبِّىٓ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿أَكْرَمَنِ﴾ خبره، وحذفوا الياء من ﴿أَكْرَمَنِ﴾ اجتزاءً بكسر نون الوقاية، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ ﴿يقول﴾ وجملة قوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿فَأَمَّا﴾ الأولىٰ مماثلة لها في إعرابها ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر للإنسان عن قوله المذكور. ﴿بَل﴾: حرف إضراب من قبيح إلى أقبح منه ﴿لَّا﴾: نافية ﴿تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما هو أقبح من قول الإنسان المذكور، ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف علىٰ ﴿تُكْرِمُونَ﴾. ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ متعلق بـ ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾، ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿تُكْرِمُونَ﴾ ﴿أَكْلًا﴾: مفعول مطلق ﴿لَّمًّا﴾: صفة ﴿أَكْلًا﴾، ﴿وَتُحِبُّونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿لا تكرمون﴾ ﴿ٱلْمَالَ﴾: مفعول به ﴿حُبًّا﴾: مفعول مطلق ﴿جَمًّا﴾ صفة ﴿حُبًّا﴾.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ

﴿بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر لهم عن ذلك كله ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط، متعلق بـ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، وجملة ﴿دُكَّتِ﴾ في محل الخفض بإضافة الظرف إليها ﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿دَكًّا دَكًّا﴾: حال مركبة من ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في محل النصب مبني على فتح الجزءين؛ أي: مدكوكةً دكاً بعد دك، بني الجزء الأول لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً؛ بافتقاره إلى الجزء الثاني، وبني الجزء الثاني لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ لتضمنه معنىٰ الحرف، وحركا ليعلم أن لهما أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة فتحة للخفة مع ثقل التركب، وليس الثاني تأكيداً للأول، بل التكرر للدلالة علىٰ الاستيعاب، كقرأت النحو باباً باباً، وعلمته الخط حرفاً حرفاً، وأعرب ابن خالويه ﴿دَكًّا﴾ الأول: مصدراً، والثاني: تأكيداً، وليس بعيداً. ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل، معطوف علىٰ جملة ﴿دُكَّتِ﴾، ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾: معطوف علىٰ ﴿رَبُّكَ﴾. ﴿صَفًّا صَفًّا﴾: حال مركبة من الملك؛ أي: مصطفين، أو ذوي صفوف، نظير ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ والمجوز لمجيء الحال جامدة دلالتها علىٰ الترتيب، وضابطه: أن يأتي التفصيل بعد ذكر المجموع بجزأيه مكرراً، وفي إعراب هذا المكرر خلاف طويل، اقتصرت علىٰ الراجح منها، فراجعه في محله ﴿وَجِاْىٓءَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، متعلق بـ ﴿وَجِاْىٓءَ﴾، و ﴿بِجَهَنَّمَ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿جيء﴾، والجملة في محل الخفض معطوفة علىٰ جملة ﴿دُكَّتِ﴾، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله بدل من ﴿إذا﴾ في قوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ بدل كل من كل، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب؛ أي: يوم إذا دكت الأرض دكاً دكاً، ويوم إذ جاء ربك والملك صفاً صفاً، ويوم إذ جيء بجهنم يتذكر الإنسان تفاصيل أعماله التي عملها في الدنيا، ﴿وَأَنَّىٰ﴾. ﴿الواو﴾: حالية ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل النصب علىٰ الظرفية المكانية، مبني علىٰ السكون؛ لتضمنه معنىٰ حرف الاستفهام، والظرف متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدماً. ﴿لَهُ﴾: متعلق بما تعلق به الظرف، ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾: مبتدأ مؤخر، ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: ومن أين حاصلة له منفعة الذكرىٰ، وإلا فبين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ و﴿﴾ تناف وتناقض، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ الإنسان، والجملة الفعلية بدل اشتمال من جملة قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أو مستأنفة. ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾: ﴿يا﴾: حرف تنبيه، أو حرف نداء، والمنادىٰ محذوف تقديره: يا هؤلاء، وجملة النداء في محل النصب مقول القول لـ ﴿يَقُولُ﴾، ﴿ليت﴾: حرف تمنٍ ونصب، و ﴿النون﴾ للوقاية؛ لأنها تبقي الحرف علىٰ حركة بنائه الأصلي، وياء المتكلم في محل النصب اسمها، وجملة ﴿قَدَّمْتُ﴾، خبرها ﴿لِحَيَاتِي﴾: متعلق بـ ﴿قَدَّمْتُ﴾، وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول القول ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، متعلق بـ ﴿يُعَذِّبُ﴾، ﴿لَّا﴾: نافية ﴿يُعَذِّبُ﴾: فعل مضارع مبني للفاعل، ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾: مفعول مطلق، والضمير فيه عائد إلىٰ الله، فيكون مصدراً مضافاً إلىٰ الفاعل ﴿أَحَدٌ﴾: فاعل، وقرىء ﴿يعذب﴾ بالبناء للمفعول، فيكون ﴿أَحَدٌ﴾ نائب فاعل، والضمير في ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ للإنسان الكافر، فيكون مصدراً مضافاً إلىٰ المفعول، والجملة الفعلية علىٰ كلا القراءتين مستأنفة، وجملة قوله: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ معطوفة علىٰ ما قبلها مماثلة له في إعرابه في كلتا القراءتين. ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أية﴾: منادىٰ نكرة مقصودة مبني علىٰ الضم، و ﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات، أي: من الإضافة ﴿ٱلنَّفْسُ﴾: بدل من ﴿أي﴾ ﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾: صفة لـ ﴿ٱلنَّفْسُ﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: يقول الله سبحانه للمؤمن بلا واسطة، أو بواسطة الملك: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾...﴾ إلخ، وجملة القول المحذوف مستأنفة. ﴿ٱرْجِعِىٓ﴾: فعل أمر مبني علىٰ حذف النون، والياء فاعل ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱرْجِعِىٓ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول للقول المحذوف على كونها جواب النداء ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾: حالان من فاعل ﴿ٱرْجِعِىٓ﴾، ﴿فَٱدْخُلِى﴾: فعل أمر وفاعل، معطوف على ﴿ٱرْجِعِىٓ﴾، ﴿فِى عِبَٰدِى﴾: متعلق بـ ﴿ادخلي﴾، ﴿وَٱدْخُلِى﴾: معطوف أيضاً علىٰ ﴿ٱرْجِعِىٓ﴾، ﴿جَنَّتِى﴾: مفعول به علىٰ التوسع. والله أعلم.

﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾ الفجر: هو الوقت الذي ينشق فيه الضوء، وينفجر فيه النور، وقد أقسم ربنا به؛ لما يحصل فيه من انقضاء الليل، وظهور الضوء، وما يترتب علىٰ ذلك من المنافع، كانتشار الناس وسائر الحيوان من الطير والوحش لطلب الرزق، كما مر.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ جمع: ليلة، وهي الزمن الذي بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر أو طلوع الشمس، وهذه الليالي العشر غير متعينة، بل في كل شهر، وهذه العشر يتشابه حالها مع حال الفجر، فيكون ضوء القمر فيها مطارداً لظلام أول الليل إلى أن تغلبه الظلمة، كما يهزم ضوء الصبح ظلمة الليل حتىٰ سطع النهار، ولا يزال الضوء منتشراً إلىٰ الليل الذي بعده، وضوء الأهلة في عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام، ثم لا يزال الليل يغالبه إلىٰ أن يغلبه، فيسدل على الكون حجبه.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾؛ أي: والزوج والفرد من هذه اليالي، فهو سبحانه أقسم بالليالي جملة، ثم أقسم بما حوته من زوج وفرد، والشفع: الزوج من العدد، يقال: أشفع هو أم وتر؟؛ أي: أزوج هو أم فرد، ويجمع علىٰ أشفاع وشفاع، ومصدر شفع يشفع - من باب فتح - شفعاً الشيء؛ أي: صيره شفعاً؛ أي: زوجاً بأن يضيف إليه مثله، يقال: كان وتراً فشفعه بآخر؛ أي: قرنه به. وفي «القاموس»: والشفع: خلاف الوتر، وهو الزوج، وشفعه كمنعه ﴿وَالْوَتْرِ﴾ وفي «القاموس»: والوتر - بالكسر ويفتح - الفرد، أو ما لم يتشفع من العدد.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ يقال: سرىٰ يسري سُرىٰ ومسرى: إذا سار عامة الليل. وفي «المصباح»: سريت الليل، وسريتُ به سرىٰ، والاسم السراية: إذا قطعته بالسير، وأسريت بالألف لغة حجازية، ويستعملان متعديين بالباء إلىٰ المفعول، ويقال: سريت بزيد، وأسريت به، والسرية - بضم السين وفتحها - أخص، يقال: سرينا سريةً من الليل وسرية، والجمع: السرىٰ مثل: مدية ومدىٰ.

قال أبو زيد: ويكون السري أول الليل وأوسطه وآخره، وقد استعملت العرب سرىٰ في المعاني تشبيهاً لها بالأجسام مجازاً واتساعاً. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾، والمعنى: إذا يمضي. ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ۝٥﴾؛ أي؛ لصاحب

عقل، وسمي العقل بذلك؛ لأنه يحجر صاحبه عما لا يحل ولا ينبغي، كما سمي عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبهُ عن القبائح، وينهاه، وسمي أيضاً نُهْيَةً؛ لأنه ينهىٰ صاحبهُ عما لا يليق ولا يحل.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ وعاد: جيل من العرب البائدة، يقولون: إنه من ولد عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، ويلقب أيضاً: بإرم.

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾؛ أي: سكان الخيام، وكانت منازلهم بالرمال والأحقاف إلى حضرموت، والعماد كالعمود، والجمع: عَمَد وعُمُد بفتحتين وبضمتين.

﴿وَثَمُودَ﴾: قبيلة من العرب البائدة كذلك، وهي من ولد كاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، ومنازلهم بالحجر بين الشام والحجاز.

﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾؛ أي: قطعوه ونحتوه ﴿بِٱلْوَادِ﴾؛ أي: في الوادي الذي كانوا يسكنون فيه، وفي «المختار»: وجاب: خرق وقطع، وبابه: قال، وأصل جابوا: جوبوا، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ففيه إعلال بالقلب.

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ هو حاكم مصر الذي كان في عهد موسى عليه السلام.

﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾؛ أي: ذي المباني العظيمة المشيدة الثابتة جمع: وتد بالتحريك وبكسر التاء أيضاً.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١﴾؛ أي: تجاوزوا الحد في الظلم والعتو، وأصل طغوا: طغيوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لما التقت ساكنة بواو الجماعة.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾؛ أي: أفرغ وأنزل وألقىٰ، وصبُّ الماء: إراقته من أعلىٰ؛ أي: أنزل عليهم إنزالاً شديداً ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾؛ أي: أنواعاً من العقوبات التي أنزلها عليهم جزاء طغيانهم، والسوط في الأصل: الجلد المضفور؛ أي: المنسوج المفتول الذي يضرب به، كما مر.

﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ والمرصاد: هو المكان الذي يقوم فيه الرصد، والرصد: من يرصد الأمور؛ أي: يترقبها ليقف علىٰ ما فيها من الخير والشر، ويطلق أيضاً علىٰ الحارس الذي يحرس ما يخشىٰ عليه، وهو مفعال من رصده، كالميقات من وقته،

ويجوز أن يكون صيغة مبالغة، كالمطعان لكثير الطعن.

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: اختبره ببسط الرزق، أصله: ابتليه بوزن افتعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾؛ أي: صير مكرماً يرفل في بحبوحة النعيم.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾؛ أي: اختبره بتضييق الرزق عليه. ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾؛ أي: صيره فقيراً مقتراً عليه في الرزق، تقول: قدرت عليه الشيء؛ أي: ضيقته عليه، وكأنك جعلته بقدر لا يتجاوزه. ﴿أَهَٰنَنِ﴾ أصله: أهوَيُ، بوزن: أفعل، نقلت حركة الواو إلى الهاء فسكنت، فقلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها الآن.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ أصله: تتحاضضون بوزن: تتفاعلون، حذفت إحدى التاءين للتخفيف، وأدغمت الضاد في الضاد، فصار تحاضون. وقرأ غير الكوفيين: ﴿تحضون﴾ بضم الحاء وأصله: تحضضون بوزن: تفعلون بمعنىٰ: تحاضون المتقدم، نقلت حركة الضاد الأولى إلىٰ الحاء، ثم أدغمت لما سكنت في الضاد الثانية من الحض، وهو الحث والتحريض. ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ التراث: بوزن فعال الميراث، وأصله: وراث كتجاه في وجاه، قلبت واوه تاءً، والميراث: هو المال المنتقل من الميت. ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ واللم: الجمع، يقال؛ كتيبة ملمومة؛ أي: مجتمعة بعضها إلى بعض، وفي «المختار»: ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ فعله من باب رد، يقال: لم الله شعثه؛ أي: أصلح وجمع ما تفرق من أمره، وقال أبو عبيدة: لممت ما علىٰ الخوان: إذا أكلت جميع ما عليه بأسره. ﴿حُبّٗا جَمّٗا﴾ الجم: الكثير، يقال: جم الماء في الحوض إذا اجتمع فيه وكثر. قال الشاعر:

إِنْ تَغْفِرِ ٱللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا ... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١﴾ الدك: الدق، يقال: دككت الشيء أدكه دكاً: إذا ضربته وكسرته حتىٰ سويته بالأرض، وقال الخليل: الدك: كسر الحائط والجبل وتسويته بالأرض، ومنه: اندك سنام البعير: إذا انغرس في ظهره ﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾؛ أي: دكاً بعد دك؛ أي: كرر عليها الدك، وتتابع حتىٰ صارت كالصخرة الملساء. ﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾؛ أي: صفاً بعد صف، بحسب منازلهم ومراتبهم في الفضل.

﴿وَثَاقَهُۥ﴾ في «المصباح»: وثق الشيء بالضم وثاقه: قوي وثبت، فهو وثيق ثابت، وأوثقته: جعلته وثيقاً، والوثاق ـ بفتح الواو وكسرها ـ: القيد والحبل ونحوه، والجمع: وثق، مثل: رباط وربط، ويطلق هنا: علىٰ الشد والربط بالسلاسل والأغلال.

﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ من الاطمئنان: وهو الاستقرار والثبات.

﴿مَّرْضِيَّةً﴾ اسم مفعول من رضي، وأصله: مرضوية بوزن: مفعول اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت في الياء، ثم كسرت الضاد لمناسبة الياء، ولام المادة واو، وعليه فـ ﴿رَاضِيَةً﴾ أصله: راضوة، قلبت الواو ياءً لتطرفها إثر كسرة، كما فعلوا في رضي أصله: رضو من الرضوان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التنكير في قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ للدلالة علىٰ تعظيمها؛ لأنها مخصوصة بفضائل ليست لغيرها، ولذلك أقسم الله بها، وذلك كالاشتغال بأعمال الحج في عشر ذي الحجة.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾.

ومنها: تقييد الليل بالسرى في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ لما فيه من وضوح الدلالة علىٰ كمال القدرة، ووفور النعمة؛ كأن جميع الحيوانات أعيدت إليهم الحياة بعد الموت في الليل، وتسببوا بذلك لطلب الأرزاق المعدة للحياة الدنيوية التي يتوسل بها إلى سعادة الدارين. ذكره في «الروح».

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ لتحقيق فخامة شأن المقسم بها، وكونها أموراً جليلة بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول، وللتنبيه علىٰ أن الإقسام بها أمر معتد به، حقيق بأن يؤكد به الإخبار.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿حِجْرٍ﴾ للدلالة علىٰ تعظيمها، قال بعض الحكماء: العقل للقلب بمنزلة الروح للجسد، فكل قلب لا عقل له، فهو ميت

بمنزلة قلب البهائم.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝﴾؛ لأن الهمزة فيه للإنكار وفي قوة النفي، ونفي النفي إثبات، فصار تقريرياً إثباتياً، أي: قد علمت يا محمد بإعلام الله تعالىٰ، وبالتواتر أيضاً كيف عذب ربك عاداً.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝﴾، فقد استعمل الصب، وهو خاص بالماء لاقتضائه السرعة في النزول علىٰ المضروب. قال الشاعر:

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ مُحْصَرَاتٍ كَأَنَّهَا ... شَآبِيْبُ لَيْسَتْ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَطْرِ

وقال آخر في وصف الخيل:

صَبَبْنَا عَلَيْهِمْ ظَالِمِيْنَ سَيَاطَنَا ... فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلُ

واستعار السوط للعذاب؛ لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝﴾ شبه كونه تعالىٰ حافظاً لأعمال العباد مراقباً عليها، ومجازياً علىٰ ما دق وجل منها، بحيث لا ينجو منه بحال من قعد على الطريق مترصداً لمن يسلكها ليأخذه، فيوقع به ما يريد، ثم أطلق لفظ أحدهما علىٰ الآخر علىٰ طريقة الاستعارة التمثيلية.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ...﴾ إلخ، وبين قوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ...﴾ إلخ، فقد قابل بين توسعة الرزق وإقتاره، وبين الإكرام والإهانة.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قول: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝﴾ للإيذان باقتضاء ملاحظة جنايته السابقة لمشابهته بالتوبيخ تشديداً للتقريع، وتأكيداً للتنشيع، والجمع فيه باعتبار معنىٰ الإنسان، إذا المراد به الجنس، وكان مقتضىٰ السياق أن يقال: بل لا يكرمون اليتيم.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ﴾، وقوله: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ ﴿الذِّكْرَىٰ﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩﴾.

ومنها: إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة، والإخبار عنه مجاز في قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾، وهو نظير قول من رأىٰ موكباً عظيماً، أو جيشاً خضماً، فقال: جاء الملك نفسه، وهو يعلم أنه ما جاء إلا جيشه، فقد جعل في الآية مجيء جلائل آياته مجيئاً له سبحانه وتعالىٰ، فأسند المجيء إليه على سبيل المجاز، كذا قالوا، وهذا إنما يتمشىٰ علىٰ مذهب المؤولين.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد

تشتمل هذه السورة علىٰ مقاصد ستة:

١ - القسم علىٰ أن عذاب الكافرين لا محيص منه.

٢ - ضرب المثل بالأمم البائدة، كعاد وثمود.

٣ - كثرة النعم علىٰ العبد ليست دليلاً على إكرام الله له، ولا البلاء دليلاً علىٰ إهانته وخذلانه.

٤ - وصف يوم القيامة وما فيه من الأهوال.

٥ - تمني الأشقياء العودة إلىٰ الدنيا.

٦ - كرامة النفوس الراضية المرضية، وما تلقاه من النعيم بجوار ربها[1].

شعرٌ

وَإِنِّـي وَإِنْ كُـنْـتُ أَخِـيْـراً زَمَـانُـهُ   لآتٍ بِـمـا لَـمْ تَـسْـتَـطِـعْـهُ ٱلأَوَائِـلُ

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الفجر بعون الله سبحانه ذي المن والقهر، عصر يوم الجمعة قبيل الغروب، اليوم الثاني عشر من شهر شوال المعظم من شهور سنة: ١٢/ ١٠/ ١٤١٦هـ. ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من سني الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة، وأزكىٰ التحية، وصلى الله تعالى وسلم علىٰ سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين يا رب العالمين ألف ألف آمين.

وبتمام تفسير هذه السورة الكريمة تم المجلد الحادي والثلاثين من هذا الكتاب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، ويليه المجلد الثاني والثلاثين، وأوله سورة البلد.

الفهرس

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الثاني والثلاثون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على إفضاله والشكر على نواله، والصلاة والسلام على نبيه وآله، **أما بعد**: فلما فرغتُ من تفسير المجلد الحادي والثلاثين.. تفرغتُ للشروع في المجلد الثاني والثلاثين إن شاء الله تعالى بعونه وتوفيقه، فأقول مستمداً منه الفيض والإمداد والتوفيق لطريق السداد والرشاد، وقولي هذا:

سورة البلد

سورة البلد، ويقال لها: سورة لا أقسم، مكية بلا خلاف[1]، نزلت بعد سورة قٓ، وأخرج ابن الضّريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة لا أقسم بهذا البلد بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: عشرون آية، وكلماتها[2]: اثنتان وثمانون كلمة، وحروفها: ثلاث مئة وعشرون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها:

١ ـ أنه تعالى ذم في السابقة من أحب المال وأكل التراث، ولم يحض على طعام المسكين، وذكر هنا الخصال التي تُطلب من صاحب المال من فك الرقبة والإطعام في يوم المسغبة.

٢ ـ ذكر هناك حال النفس المطمئنة، وذكر هنا ما يكون به الاطمئنان؛ وهو الإيمان والتواصي بالصبر.

وعبارة أبي حيان[3]: ومناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر في السابقة ابتلاءه للإنسان بحالة التنعيم، وحالة التقدير، وذكر من صفاته الذميمة ما ذكر، وما آل إليه حاله وحال المؤمن.. أتبعه في هذه السورة بنوع من ابتلائه، ومن حاله السيىء، وما آل إليه في الآخرة. انتهى. وأيضاً سورة البلد فيها ذكر أحوال الدول

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط.

والأمم المتمدنة والتمدن في دين الإسلام لا يكون إلا باقتحام العقبة التي بينتها آيات سورة البلد، وسميت سورة البلد؛ لذكر لفظ البلد فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة البلد كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: ومن فضائلها: ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة لا أقسم بهذا البلد.. أعطاه الله سبحانه وتعالى الأمانة من غضبه يوم القيامة» وفيه مقال.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها قريباً، وأما قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ . . .﴾ الآيات، فالمناسبة بينها وبين ما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] ذكر أنه لا ينبغي للمفتونين بقوة أبدانهم المغرورين بواسع جاههم أن يتمادَوا في صلفهم وكبريائهم.. شرع يوبخهم على الاغترار بقوتهم الزائلة، ويذكرهم بما أنعم به عليهم من النعم الكثيرة الحسية والعقلية.

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ . . .﴾ الآيات، المناسبة بينها وبين ما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر هؤلاء المرائين الذين ينفقون أموالهم طلباً للشهرة، وحباً في حسن الأحدوثة، وأنّبهم على افتخارهم بما صنعوا مع خلو بواطنهم من حسن النية، وبيّن لهم أن أفضل ما يتمتعون به من البصر والنطق، والعقل المميز بين الخير والشر، والنفع والضر هو منه سبحانه وتعالى، وهو القادر على سلبه منهم.. أردفه ببيان أنه كان عليهم أن يشكروا تلك النعم، ويختاروا طريق الخير، ويرجحوا سبيل السعادة، فيفيضوا على الناس بشيء مما أفاض به عليهم، وأفضل ذلك أن يعينوا على تحرير الأرقاء من البشر، أو يواسوا الأيتام من أقاربهم حين العوز وعزة الطعام، أو يطعموا المساكين الذين لا وسيلة لهم إلى كسب ما يقيمون به أودهم؛

(١) المراغي.

لضعفهم وعجزهم، ثم هم مع ذلك يكونون صحيحي الإيمان صبورين على أذى الناس، وعلى ما يصيبهم من المكاره في سبيل الدعوة إلى الحق، رحماء بعباده، مواسين لهم حين الشدائد، هذه هي الطريق التي كان من حق العقل أن يُرشد إليها، لكن الإنسان قد خدعه غروره، فلم يقتحم هذه العقبة، ولم يسلك هذه السبيل القويمة، ولم يسر فيما يرشد إليه العقل السليم.

أسباب النزول

روي أن قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾ نزل في أبي الأشد أُسيد بن كلدة الجمحي، وكان مغتراً بقوته البدنية، وأن قوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾ نزل في الحارث بن نوفل، وكان يقول: أهلكت مالاً لبداً في الكفارات منذ أطعت محمداً، وسواء أكانت هذه الآيات نزلت في هؤلاء أم في غيرهم، فإن معناها عام بكل من اتصف بما فيها من الاغترارات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾﴾؛ أي: أقسم[1] بالبلد الحرام الذي هو مكة، فكلمة ﴿لَآ﴾ صلة دل عليه أن الله سبحانه أقسم بالبلد الأمين في سورة التين، قال في «كشف الأسرار»: و﴿لَآ﴾: زائدة لتأكيد القسم، كقول العرب: لا والله ما فعلت كذا، لا والله لأفعلن كذا، والبلد: المكان المحدود المتأثر باجتماع قطانه وإقامتهم فيه، وجمعه بلاد وبلدان، ثم إن[2] الله سبحانه وتعالى أقسم بمكة لفضلها؛ فإنه جعلها حرماً آمناً، ومسقط رأس النبي ﷺ، وحرم أبيه إبراهيم عليه السلام، ومنشأ أبيه إسماعيل عليه السلام، وجعل البيت قبلة لأهل الشرق والغرب، وحج البيت كفارة لذنوب العمر، وجعل البيت المعمور في السماء بإزائه، ومن زيادة[3] لا في غير القسم قول الشاعر:

تَـذَكَّـرْتُ لَـيْـلَـىٰ فَـٱعْـتَـرَتْـنِـيْ صَـبَـابَـةٌ   وَكَـادَ صَـمِـيْـمُ ٱلْـقَـلْـبِ لاَ يَـتَـصَـدَّعُ

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

أي: يتصدع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾؛ أي: أن تسجد، وقيل: إن ﴿لَآ﴾ لنفي القسم، والمعنى: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه، وقال مجاهد: إن ﴿لَآ﴾ رد على من أنكر البعث، ثم ابتدأ، فقال: ﴿أُقْسِمُ﴾ والمعنى عليه: ليس الأمر كما تحسبون، والأول أولى، وقال الواحدي: أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام مكة المكرمة، وقال الواسطي: إن المراد بالبلد المدينة المنورة، وهو مع كونه خلاف ما أجمع عليه المفسرون مدفوع بكون السورة مكية لا مدنية، وقرأ الجمهور: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ بـ﴿لا﴾ النافية الزائدة، وقرأ الحسن والأعمش: ﴿لأقسم﴾ من غير ألف، وجملة قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ حال[1] من المقسم به، و﴿لَآ﴾ خطاب للنبي ﷺ، و﴿حِلٌّ﴾؛ بمعنى حال من الحلول؛ وهو النزول؛ أي: والحال أنت يا محمد حالٌّ في مكة نازل بها، قيد إقسامه تعالى بمكة بحلوله ﷺ فيها إظهاراً لمزيد فضلها، فإنها بعد أن كانت شريفة بنفسها.. زاد شرفها بحلول النبي العظيم الشريف، فما لا شرف فيه يحصل له شرف بشرف المكين، وما فيه شرف ذاتي يحصل له بشريف شرف زائد، ومحل قدمي النبي ﷺ، كمكة والمدينة ينبغي أن يحافَظ على حرمته. وفي هذه الجملة تعريض لأهل مكة بأنهم لجهلهم يرون أن يخرجوا منها من به مزيد شرفها ويؤذوه، ويجوز أن تكون الجملة معترضة بين القسم وجوابه؛ لغرض التأكيد.

والمعنى عليه: أقسم بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان في كبد، وقال الواحدي: الحل والحلال والمُحِل معناها واحد، وهو ضد المحرم، يعني: أن مثلك على عظيم حرمته يستحل بهذا البلد ما حُرِّم على غيره، كما يستحل الصيد في غير الحرم، وذلك أن الله سبحانه أحل لنبيه ﷺ مكة يوم الفتح حتى قاتل، وقد قال ﷺ: «لم تحلَّ لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحلَّ لي إلا ساعة من نهار»، قال الواحدي: والمعنى: أن الله لما أقسم بمكة دل ذلك على عُظْم قدرها مع كونها حراماً، فوعد نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها، ويفتحها على يده، وهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حِلاً. انتهى.

فالمعنى: وأنت حل بهذا البلد في المستقبل، كما في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم

---

(١) روح البيان.

مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ قال مجاهد: المعنى: ما صنعت فيه من شيء فأنت حل.

وفي «فتح الرحمٰن»: إن قلت: لِمَ كرر لفظ ﴿ٱلْبَلَدِ﴾؟

قلت: لم يكرره؛ إذ التقدير: لا أقسم بهذا البلد المحرم الذي جبلت العرب على تعظيمه وتحريمه، وأنت حل بهذا البلد؛ أي: أحل لك فيه من حرماته ما لم يحل لأحد قبلك ولا بعدك، من قتل ابن خطل، وقتال المشركين ساعة من نهار، فالمراد بالبلد الأول: الباقي على تحريمه، والثاني: الذي أُحل للنبي ﷺ إكراماً له وتعظيماً لمنزلته، هكذا قاله بعض المفسرين. انتهى. وقوله: ﴿وَوَالِدٍ﴾: معطوف على ﴿هذا البلد﴾. والمراد به إبراهيم عليه السلام، والتنكير فيه للتفخيم، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ه ذلك الوالد وهو إسماعيل عليه السلام، فإنه ولده بلا واسطة، ومحمد ﷺ فإنه ولده بواسطة إسماعيل، فتتضمن السورة القسم بالنبي ﷺ في موضعين.

وإيثار(١) ﴿مَا﴾ على من؛ لمعنى التعجب مما أعطاه الله من الكمال، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾؛ أي: بأي شيء وضعت يعني: موضوعاً عجيب الشأن وهو مريم، أو المراد بـ﴿الوالد﴾ آدم عليه السلام، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ذريته، وهو الأنسب لمضمون الجواب، فالتفخيم المستفاد من كلمة ﴿مَا﴾ لا بد فيه من اعتبار التغليب؛ أي: فهو من باب وصف الكل بوصف البعض، أو للتعجيب من الأمر الذي يشترك فيه الكل كالنطق والبيان والصورة البديعة وغيرها، وقيل المراد: كل والد وكل مولود من الإنسان وغيره، واختار هذا القول ابن جرير.

وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ حال كونه ﴿فِى كَبَدٍ﴾ وتعب ونصب ومشقة في جميع أحواله، جواب للقسم، يقال: كَبِد الرجل كَبَداً إذا وجعت كبده فانتفخت، وأصله: كَبَدَهُ إذا أصاب كَبِدَه، كذكرته إذا قطعت ذكره، ورأيته إذا قطعت رئته، ثم اتسع فيه حتى استُعمل في كل نصب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة بمعنى مقاساة الشدة، و﴿فِى كَبَدٍ﴾ حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ بمعنى مكابداً، وحرف ﴿فِى﴾ واللام متقاربان، تقول: إنما أنت للعناء والنصب، وإنما أنت في العناء والنصب، والإنسان هو هذا النوع الإنساني.

والمعنى(٢): لقد خلقنا الإنسان في تعب ومشقة، فإنه مع كونه أضعف الخلق

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

لا يزال يقاسي فنون الشدائد، مبدؤها ظلمة الرحم ومضيقهُ، ومنتهاها الموت وما بعده، فابن آدم يكابد من البلايا ما لا يكابده غيره، يعني: أن الكبد يتناول شدائد الدنيا من قطع سرته والتفافه بخرقة محبوس الأعضاء، ومكابدة الختان وأوجاعه، ومكابدة المعلم وصولته، والأستاذ وهيبته، ثم مكابدة شغل الزواج وشغل الأولاد والخدم، وشغل المسكن، ثم الكبر والهرم من جملة مصائب كثيرة لا يمكن تعدادها، كالصداع ووجع الأضراس ورمد العين، وهمّ الدَّين ونحو ذلك، ويتناول أيضاً شدائد التكاليف، كالشكر على السراء والصبر على الضراء، والمكابدة في أداء العبادات، كالصوم والصلاة والزكاة والحج والجهاد، ثم بعد ذلك يقاسي شدة الموت وسؤال الملك وظلمة القبر، ثم البعث والعرض على الملك المحاسب إلى أن يصل إلى موضع الاستقرار إما في الجنة وإما في النار، كما قال سبحانه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ فهو مكابد من أول قطع سرته إلى أن يستقر قراره إما في جنته، فتزول عنه المشقات، وإما في نار، فتتضاعف مشقاته وشدائده. كما في «البحر».

قال الإمام(١): ليس في الدنيا لذة ألبتة، بل ذلك الذي يظن أنه لذة فهو خلاص من الألم، فاللذة عند الأكل هي الخلاص من ألم الجوع، وعند اللبس هي الخلاص من ألم الحر والبرد، فليس للإنسان إلا ألم وخلاص من ألم، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ مما كان يكابده من كفار قريش، قال الكلبي: نزلت هذه الآية في رجل من بني جمح يقال له: أبو الأَشُد - بفتح الهمزة وضم الشين - وكان يأخذ الأديم العكاظي، ويجعله تحت رجليه، ويقول: من أزالني عنه.. فله كذا، فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه، وكان من أعداء النبي ﷺ، وفيه نزل: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾؛ لقوته، ويكون معنى ﴿فِي كَبَدٍ﴾ على هذا: في شدة الخلق، وقيل معنى ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أنه جريء القلب غليظ الكبد.

والخلاصة(٢): أي إنه تعالى جعل حياة الإنسان سلسلة متصلة الجهاد، مبتدأة بالمشقة منتهية بها، فهو لا يزال يقاسي من ضروبها ما يقاسي منذ نشأته في بطن أمه إلى أن يصير رجلاً، وكلما كبر ازدادات أتعابه وآلامه، فهو يحتاج إلى تحصيل

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

أرزاقه وتربية أولاده، وإلى مقارعة الخطوب والنوازل ومصابرة النفس على الطاعة والخضوع للواحد المعبود، ثم بعد هذا كله يمرض ويموت ويلاقي في قبره وفي آخرته من المشاق والمتاعب ما لا يقدر عليه إلا بتيسير الله سبحانه.

والسر في ذكر هذه الجملة تسلية رسول الله ﷺ على ما يلاقيه من إذاية الكفار، كما مر آنفاً، وتنبيه المغرورين الذين يشعرون بالقوة في أنفسهم، ويظنون أنهم بها يستطيعون مصارعة الأقران، وكأنه يقول لهم: لا تتمادوا في غروركم ولا تستمروا على صلفكم وكبريائكم، فإن الإنسان لا يخلو من العناء في تصريف شؤونه وشؤون ذويه، ومهما عظمت منزلته وقويت شكيمته فهو لا يستطيع الخلاص من مشاق الحياة.

وقد جمع سبحانه بين البلد المعظم والوالد والولد، يشير إلى أن مكة على ما بها من عمل أهلها ستلد مولوداً عظيماً، يكون إكليلاً لمجد النوع الإنساني وشرفه؛ وهو دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، وأن العناء الذي يلاقيه إنما هو العناء الذي يصيب الوالد في تربية ولده والمولود في بلوغ الغاية في سبيل نموه، إلى ما فيه من الوعد بإتمام نوره ولو كره الكافرون.

والضمير في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ لبعض صناديد قريش، الذين كان ﷺ يكابد منهم أكثر مما يكابد من غيرهم، كالوليد بن المغيرة وأضرابه ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة سادَّةٌ مع اسمها مسد مفعولي الحسبان؛ أي: أيظن[1] الإنسان المعهود الذي هو أبو الأَشُد، أو جنس بني آدم أن الحال الشأن ﴿لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على الانتقام منه ﴿أَحَدٌ﴾ فحسبانه الناشيء عن غلظ الحجاب، ومرض القلب فاسد؛ لأن الله الأحد يقدر عليه، وهو عزيز ذو انتقام، ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان، فقال: ﴿يَقُولُ﴾ ذلك الظان على سبيل الرعونة والخيلاء ﴿أَهْلَكْتُ﴾؛ أي: أنفقت كقول العرب: خسرت عليه كذا إذا أنفق عليه ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾؛ أي: مالاً كثيراً متلبداً مجتمعاً بعضه إلى بعض، من تلبد الشيء إذا اجتمع، يريد كثرة ما أنفقه سمعة ومفاخرة، وكان أهل الجاهلية يسمون مثل ذلك مكارم، ويدعونه معالي ومفاخر.

قال الليث[2]: ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾، لا يُخاف فناؤه لكثرته، قال الكلبي ومقاتل:

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

يقول أهلكت في عداوة محمد مالاً كثيراً، وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أذنب فاستفتى النبي ﷺ، فأمره أن يكفر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد ﷺ، وفي لفظ الإهلاك إشارة إلى أنه ضائع في الحقيقة؛ إذ لا ينتفع به صاحبه في الآخرة، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حق عبد الله بن جدعان: كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «لا ينفعه؛ لأنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، وقرأ الجمهور[1]: ﴿لُبَدًا﴾ - بضم اللام وفتح الباء مخففاً - وقرأ مجاهد وحميد وابن أبي الزناد: ﴿لُبُداً﴾ - بضمهما مخففاً - وقرأ أبو جعفر: بضم اللام وفتح الباء مشدداً، قال أبو عبيدة: لبد - فعل من التلبيد - المال الكثير بعضه على بعض، قال الزجاج: فعل للكثرة، يقال: رجل حطم همر لمز إذا كان كثير الحطم والهمز واللمز، قال الفراء: واحدته: لبدة، والجمع: لبد.

﴿أَيَحْسَبُ﴾؛ أي: أيظن ذلك الأحمق المباهي ﴿أَن﴾؛ أي: أن الشأن ﴿لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ حين كان يُنفق، وأنه تعالى لا يسأله عنه، ولا يجاريه عليه؛ أي: يظن أنه لم يعاينه أحد، والاستفهام للإنكار كسابقه.

قال قتادة: أيظن أن الله سبحانه لم يره ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وأين أنفقه، وقال الكلبي: كان كاذباً لم ينفق ما قال، فقال الله: أيظن أن الله لم ير ذلك منه فعل أو لم يفعل، أنفق أو لم ينفق، يعني أن الله سبحانه رآه واطلع على خبث نيته، وفساد سريرته، وأنه مجازيه عليه، فمثل ذلك الإنفاق وهو ما كان بطريق المباهاة رذيلة، فكيف يعده الجاهل فضيلة، وفي الحديث: «لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين كسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به».

وحاصل معنى الآيات: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾؛ أي: أيظن[2] ذلك المغتر بقوته المفتون بما أنعمنا له عليه أنه مهما عظمت حاله وقوي سلطانه يبلغ منزلة لا يقدر عليه فيها أحد، ما أجهله إذا ظن ذلك، فإن في الوجود قوة فوق جميع القوى المهيمنة على كل قوة، والمسيطرة على كل القدرة، وهي القوة التي

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) المراغي.

أبدعته، والقدرة التي أنشأته، ثم ذكر صنفاً آخر من الأغنياء البخلاء المرائين بقوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾؛ أي: إنهم إذا طُلب إليهم أن يعملوا عملاً من أعمال البر.. قالوا: إننا ننفق الكثير من أموالنا في المفاخر والمكارم، ولم يعلموا أن المكرمة ما عده الله مكرمة، والبر ما اعتبره الله سبحانه براً، فليس من البر إنفاقهم المال في مشاقة الله ورسوله، ولا إنفاقهم الأموال في الصد عن سبيل الله، والكيد للذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾؛ أي: أيظن ذلك المغتر بماله المدعي أنه أنفقه في سبيل الخير أن الله لم يطلع على أفعاله، ولم يعلم ما دعاه إلى الإنفاق، إنه لا ينبغي له أن يظن ذلك، فإن البارىء له مطلع على قرارة نفسه، عالم بخبيثات قلبه، لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، عليم بأنه لم يُنفق شيئاً من ماله في سبيل الخير المشروع والبر المحمود، وإنما أنفق ما أنفق للرياء والسمعة، أو لمشاقة الله ورسوله، أو في وجوه أخرى يظنها خيراً؛ وهي خسران وضلال مبين.

وبعد أن أنكر على هؤلاء اغترارهم بقوتهم وكثرة أموالهم.. شرع يذكر آثار قدرته الغالبة؛ ليبين لهم أن هناك قوة لها من الآثار ما هم يشاهدون، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ فهو إذا أبصر شيئاً فإنما يكون ذلك بما خلقنا له من العينين، فهذه النعمة التي يعتز بها إنما هي من عملنا؛ أي: ألم[1] نخلق له عينين يبصر بهما عالَم الملك من الأرض إلى السماء حتى يشاهد بهما في طرفة عين النجوم العلوية التي بينه وبينها عدة آلاف سنة، ويفرق بهما بين ما يضر وما ينفع، وبهما يحصل شرف النظر إلى وجه العالِم، وإلى المصحف وإلى الشواهد.

قال في «أسئلة الحكم»: العين تحرس البدن من الآفاق، وهي نيرة كالمرآة إذا قابلها شيء ارتسمت صورته فيها مع صغر الناظر، وهو الحدقة التي هي شحمة، وجعل الله سبحانه العين سريعة الحركة، وجعل لها أجفاناً تسترها، وأهداباً من الشعر كجناح الطائر تطرد بانضمامها وبانفتاحها الذباب والهوام عن العين، وجعل العين في الرأس؛ لأن السراج يوضع على رأس المنار، وجعلها ثنتين كالشمس والقمر، فإنهما عينا التعين الدنيوي، وجعل فوقهما حاجبين أسودين، لئلا يتضرر

---

(١) روح البيان.

البصر بالضياء، ولأن الذي ينظر في السواد إلى البياض يكون أحد نظراً، ولذلك جُعلت الحدقة سوداء، وأهداب العين شعراً أسود؛ لأن السواد يقوي البصر.

ولما بنى ذو القرنين الإسكندرية.. رخمها بالرخام الأبيض جدرها وأرضها، فكان لباسهم فيها السواد من نصوع بياض الرخام، فمن ذلك اليوم لبس الرهبان السواد، فإن النظر إلى الأبيض يفرق البصر ويضعفه، ولذا قال ﷺ في الإثمد: «إنه يقوي البصر»، وجعل سبحانه الحدقة محركة في مكانها لتتحرك إلى الجهات يمنة ويسرة، فيبصر بها من غير أن يلوي عنقه، وجعل الناظرين جميعاً على خط مستقيم عرضاً، ولم يقع واحد منهما أعلى ولا أخفض؛ ليجتمع الناظران على شيء واحد؛ لئلا يتراءى له الشخص الواحد شخصين، وجعل العين ثنتين؛ لأن نظر عينين أتم من نظر عين واحدة، وإشارة إلى العين الظاهرة والعين الباطنة، فينبغي أن يحافظ على كلتيهما. ﴿و﴾ ألم نجعل ﴿لساناً﴾ يترجم[1] به عن ضمائره وينطق به، وبه تنعقد المعاملات، وتحصل الشهادات، ويدرك الطعوم من الحلو والمر، ولو لم يكن اللسان لاحتاج الإنسان إلى الإشارة أو الكتابة فتعسر أمره، وإنما تعدد العين والأذن، وتفرد اللسان؛ لأن حاجة الإنسان إلى السمع والبصر أكثر من حاجته إلى الكلام، وفيه تنبيه أيضاً على أن يقل من الكلام إلا في الخير، وأن لا يتكلم فيما لا فائدة فيه، وهو السر في أن الله تعالى جعل اللسان داخل الفم، وجعل دونه الشفتين اللتين لا يمكن الكلام إلا بفتحهما؛ ليستعين العبد بإطباق شفتيه على رد الكلام. ﴿و﴾ ألم نجعل له ﴿شفتين﴾ يستر بهما فاه وثغره إذا أراد السكوت، ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ، قال السجاوندي: خص الشفة، لخروج أكثر الحروف منها، وفي الدعاء: الحمد لله الذي جعلنا ننطق بلحم ونبصر بشحم ونسمع بعظم. قال بعضهم: أسبل الصانع الحكيم أمام الفم ستراً من الشفة ذا طرفين يضمهما عند الحاجة، ويمتص بهما المشروب، وجعل الشارب محيطاً من العليا؛ ليمنع ما على وجه الشراب من القش والقذى أن يدخل حالة الشرب. انتهى.

وفي الحديث: «إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك بطبقتين فأطبق، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك فقد

---

(١) روح البيان.

أعنتك عليه بطبقتين فأطبق، وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق». وفي الخبر: «الفرج أمانة، والأذن أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له» قال الزجاج: والمعنى: ألم نفعل به ما يدل على أن الله قادر على أن يبعثه، والشفة محذوفة اللام، وأصلها: شفهة بدليل تصغيرها على شفيهة.

وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ﴾، أي: هدينا ذلك الإنسان ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾؛ أي: الطريقين طريقي الخير والشر معطوف[1] على ﴿أَلَمْ نَجْعَل﴾؛ لأنه في التقدير مثبت؛ أي: جعلنا له ذلك المذكور، وهديناه طريقي الخير والشر؛ أي: بيناهما له وأوضحناهما له بالدلائل الواضحة القاطعة، قال الزجاج: المعنى: ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر مبينتين كتبيين الطريقين العاليتين، كما قال ﷺ: «النجدان هما الطريقان، نجد الخير ونجد الشر؛ فلا يكن نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير».

وقال عكرمة وسعيد بن المسيب والضحاك: النجدان: الثديان؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه، وتمكين مولود عاجز من رضاع أمه عقيب الولادة قدرة من الله سبحانه ونعمة جلية عليه، والأول أولى. وأصل النجد[2]: المكان المرتفع، وجمعه نجود، ومنه سميت نجداً لارتفاعها عن انخفاض تهامة، فالنجدان الطريقان العاليان، ومنه قول امرىء القيس:

فَرِيْقَانِ مِنْهُمْ قَاطِعٌ بَطْنَ نَخْلَةٍ وَآخَرُ مِنْهُمْ قَاطِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ

فجعل الخير بمنزلة مكان مرتفع واضح بخلاف الشر، فإنه يستلزم الانحطاط عن ذروة الفطرة إلى حضيض الشقاوة، فكان استعمال النجدين هنا بطريق التغليب، أو لأن فعل الشر بالنسبة إلى قوته في الواهمة مصور بصورة المكان المرتفع، وقال ابن الشيخ: لما وضحت الدلالة الدالة على الخير والشر.. صارتا كالطريقين المرتفعين بسبب كونهما واضحين للعقول، كوضوح الطريق العالي للأبصار.

والمعنى[3]: أي وأودعنا في فطرة الإنسان التمييز بين الخير والشر، وجعلنا له

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

من العقل والفكر ما يكون مذكراً ومنبهاً، ونصبنا له الدلائل على حسن الخير، وأرشدناه إلى ما في الشر من هفوات وعيوب، ثم أقدرناه على أن يسلك أي الطريقين شاء بعد أن آتيناه قوة التمييز والقدرة على الاختيار والترجيح، ليسلك الطريق التي أراد منهما، فليكن نجد الخير أحب إلى أحدكم من نجد الشر، فمن نازعته نفسه، واتجهت إلى نجد الشر.. فليقمعها بالنظر في آيات الله، والتدبر في دلائله؛ ليعلم أن ذلك الطريق مظلم معوج يهوي بصاحبه إلى طريق الردى ويوقعه في المهالك، وإنما[1] سماهما الله نجدين للإشارة إلى أنهما واضحان كطريقين عاليين يراهما ذوو الأبصار، وإلى أن في كل منهما وعورة يشق معها السلوك، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها، وفي ذلك إيماء إلى أن طريق الشر ليست بأهون من طريق الخير، بل الغالب أن طريق الشر أصعب وأشق وأحوج إلى بذل الجهد حتى تقطع إلى النهاية والتوصل إلى الغاية.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾؛ أي: فهلا سلك ذلك الإنسان المغرور ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾؛ أي: طريق العقبة التي يشق سلوكها، والسير فيها على أكثر الناس التي هي مجاهدة النفس والشيطان والهوى، وسلوك طريق الخير والهدى؛ ليكون شاكراً لربه على هذه النعمة، وقد ضرب الله سبحانه العقبة مثلاً لهذا الجهاد؛ لأن الإنسان يريد أن يرقى من عالم الحس عالم الأشباح إلى عالم الأنوار والأرواح، وبينه وبين ذلك عقبات من ورائها عقبات، وسبيل الوصول إلى غايته هذه هي فعل الخيرات، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة الحسية ﴿فَلَا﴾ بمعنى: هلا للتحضيض؛ أي: الذي أنفق ماله في عداوة النبي ﷺ. هلا أنفقه لاقتحام العقبة ومجاوزتها، فيأمن من مهالك الدارين، ولكن كون ﴿لا﴾ بمعنى هلاّ لم يُسمع وإن ذكره الجلال.

قال الفراء والزجاج[2]: ذكر سبحانه هنا ﴿لا﴾ مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد ﴿لا﴾ مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يُعيدوها في كلام آخر، كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ وإنما أفردها هنا؛ لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قائماً مقام التكرير، كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن، قال المبرد وأبو علي الفارسي: إن ﴿لا﴾ هنا بمعنى لم؛

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

أي: فلم يقتحم العقبة، وروي نحو ذلك عن مجاهد، فلهذا لم يحتج إلى التكرير، وقيل: هو جار مجرى الدعاء، كقولهم: لا نجا، قال أبو زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام هنا: الاستفهام الذي بمعنى الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة، أو التحضيض تقديره: هلاّ اقتحم العقبة، كما مر آنفاً، ولكنه ضعيف؛ لأنه لم يُسمع في كلام العرب كون ﴿لا﴾ للتحضيض، والاقتحام[1]: الدخول في أمر شديد ومجاوزته في صعوبة، وفي «القاموس»: قحم في الأمر ـ كنصر ـ قحوماً إذا رمى بنفسه فيه فجأة بلا روية، والعقبة: الطريق الوعر في الجبل، والمعنى على النفي؛ أي: فلم يشكر تلك النعم الجليلة بالأعمال الصالحة، وعبر عنها بالعقبة لصعوبة سلوكها، ثم بيّن سبحانه العقبة، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: أي شيء أعلمك يا محمد جواب ما اقتحام العقبة؟ فإن المراد ليس العقبة الصورية، وأبيّن لك بقولي: اقتحام العقبة هو ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾، أي: إعتاق نسمة، وتخليصها من أسر الرق، أو من قتل، أو يد كافر، وكل شيء أطلقته فقد فككته، ومنه فك الرهن، وأصل الفك[2]: الفرق بين الشيئين بإزالة أحدهما عن الآخر، كفك القيد والغل، وفك الرقبة، الفرق بينها وبين صفة الرق بإيجاب الحرية، سمي العتق فكاً؛ لأن الرق كالقيد، وسمي المرقوق رقبةً؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته، والرقبة: اسم للعضو المخصوص، ثم يعبر بها عن الجملة، وجُعل في التعارف اسماً للمماليك، كما عبر بالرأس وبالظهر عن المركوب، فيقال: فلان يربط كذا رأساً وكذا ظهراً.

والمعنى هنا: هو ـ أي اقتحام العقبة ـ إعتاق رقبة، فالفك، ليس تفسيراً وبياناً لنفس العقبة، بل لاقتحامها بتقدير المضاف، وذلك لأن العقبة عين، والفك فعل فلا يكون تفسيراً للآخر.

ثم فك الرقبة[3] قد يكون بأن ينفرد الرجل في عتق الرقبة، وقد يكون بأن يُعطي مكاتبه ما يصرفه إلى جهة فكاك رقبته، وبأن يعين في تخليص نفس من قَوَد أو غُرْم، فهذا كله يعمه الفك دون الإعتاق، ويحتمل أن يكون المراد بفك الرقبة: أن

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

يفك المرء نفسه رقبة نفسه من عذاب الله تعالى، بأن يشتغل بالأعمال الصالحة حتى يصير بها إلى الجنة، ويتخلص من النار، وهي الحرية الوسطى، وأن يفك رقبة القلب من أسر النفس وقيد الهوى، وتعلق السوى، وهي الحرية الكبرى، فيكون قوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ...﴾ إلخ من قبيل التخصيص بعد التعميم إشارة إلى فضل ذلك الخاص بحيث خرج به من أن يتناوله اللفظ السابق مع عمومه.

قال بعضهم: تقديم العتق على الصدقة يدل على أنه أفضل منها، كما هو مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ، وفي الحديث: «من فك رقبة.. فك الله بكل عضو منها عضواً منه من النار».

قال الراغب: فك الإنسان غيره من العذاب إنما يحصل بعد فك نفسه منه، فإن من لم يهتد ليس في قوته أن يهدي، وفك الرقبة من قبيل فك النفس؛ لأنه من الأعمال الصالحة التي لها مدخل عظيم في فكها. وقرأ النحويان[1] أبو عمرو والكسائي وابن كثير: ﴿فَكَّ﴾ فعلاً ماضياً ﴿رقبةً﴾ نصباً على المفعولية، وهكذا قرؤوا: ﴿أَطْعَمَ﴾ فعلاً ماضياً ﴿مِسْكِينًا﴾ وما بعده نصباً على المفعولية، وقرأ باقي السبعة: ﴿فَكُّ﴾ مرفوعاً ﴿رَقَبَةٍ﴾ مجروراً ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ بالرفع معطوفاً على ﴿فَكُّ﴾ على أنهما مصدران، وجر ﴿رَقَبَةٍ﴾ بإضافة المصدر إليها، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلاً من ﴿ٱقْتَحَمَ﴾، كأنه قيل: فلا فك ولا أطعم، وقرأ علي وأبو رجاء كقراءة ابن كثير إلا أنهما قرآ: ﴿ذا مسغبة﴾ بالألف، وقرأ الحسن وأبو رجاء أيضاً: ﴿أو إطعام في يوم ذا﴾ بالألف، ونصب ﴿ذا﴾ على المفعولية؛ أي: إنساناً ذا مسغبة، و﴿يَتِيمًا﴾ بدل منه أو صفة، وقرأ بعض التابعين: ﴿فك رقبة﴾ بالإضافة ﴿أو أطعَمَ﴾ فعلاً ماضياً، ومن قرأ ﴿فَكُّ﴾ بالرفع، فهو تفسير لاقتحام العقبة، والتقدير: وما أدراك ما اقتحام العقبة، ومن قرأها فعلاً ماضياً فلا يحتاج إلى تقدير مضاف، بل يكون التعظيم المفهوم من الاستفهام للعقبة نفسها، ويجيء ﴿فَكَّ﴾ بدلاً من اقتحم. قاله ابن عطية.

والحاصل[2]: أنه سبحانه وتعالى أرشد إلى أن اقتحامها يكون بفعل صنوف من الخير، منها:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

١ ـ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: عتق الرقبة أو الإعانة عليها، وقد ورد في الكتاب الكريم والسنة الترغيب في العتق والحث عليه، منها ما روى البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: «عتق النسمة وفك الرقبة»، قال: يا رسول الله، أوليسا واحداً؟ قال: «لا، عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها».

٢ ـ ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: ذي مجاعة لقحط أو غلاء من سغب إذا جاع، قال الراغب: السغب: الجوع مع التعب، وربما قيل في العطش مع التعب، يقال منه: سغب الرجل سغباً ومسغوباً فهو ساغب وسغبان، والمسغبة بوزن مفعلة مصدر ميمي، وأنشد أبو عبيدة:

فَلَوْ كُنْتَ حُرّاً يَا ٱبْنَ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ   لَمَا بِتَّ شَبْعَانَاً وَجَارُكَ سَاغِبَا

قال النخعي: ﴿فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾؛ أي: عزيز فيه الطعام، وقيد الإطعام[(١)] بيوم المجاعة؛ لأن إخراج المال في ذلك الوقت أثقل على النفس وأوجب للأجر، وقرأ الجمهور[(٢)]: ﴿ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ على أنه صفة لـ﴿يَوْمٍ﴾، و﴿يَتِيمًا﴾ هو مفعول ﴿إِطْعَٰمٌ﴾، وقرأ الحسن: ﴿ذا مسغبة﴾ بالنصب على أنه مفعول إطعام؛ أي: يُطعمون ذا مسغبة، و﴿يَتِيمًا﴾ بدل منه. ﴿يَتِيمًا﴾: مفعول به ﴿لإطعام﴾﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾؛ أي: صاحب قرابة من قرب في النسب قرباً ومقربة، فالمقربة مصدر ميمي أيضاً بمعنى القرابة.

وقال السجاوندي: قرب قرابة أو جوار. انتهى. وقيّد اليتيم بأن يكون بينه وبين المطعم قرابة نسبية؛ لأنه اجتمع فيه جهتا الاستحقاق، اليُتم والقرابة، فإطعامه أفضل؛ لاشتماله على الصدقة وصلة الرحم، واليتيم في الأصل: الضعيف، يقال: يُتم الرجل إذا ضعف، واليتيم عند أهل اللغة: من لا أب له، وقيل: هو من لا أب له ولا أم، ومنه قول قيس بن الملوّح:

إِلَىٰ ٱللَّهِ أَشْكُوْ فَقْدَ لَيْلَىٰ كَمَا شَكَا   إِلَىٰ ٱللَّهِ فَقْدَ ٱلْوَالِدَيْنِ يَتِيْمُ

---

(١) روح البيان.   (٢) الشوكاني.

والمعنى[1]: أو إطعام يتيم من أقاربه في أيام الجوع والعوز، وفي هذا جمع بين حقين: حق اليتم، وحق القرابة.

٣ ـ ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: ذا افتقار لا شيء له، كأنه لصق بالتراب لفقره، وليس له مأوى إلا التراب، مأخوذ من تَرِب ـ بالكسر ـ تَرَباً بفتحتين، ومترباً إذا افتقر، كأنه لصق بالتراب من فقره وضره، فليس فوقه ما يستره، ولا تحته ما يوطئه ويفرشه، وأما قولهم: أترب فمعناه: صار ذا مال، كالتراب في الكثرة، كما يقال: أثرى فلان إذا كثر ماله، وعن النبي ﷺ في قوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ «الذي مأواه المزابل»، وقال مجاهد[2]: هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره، وقال قتادة: هو ذو العيال، وقال عكرمة: هو المديون، وقال أبو سنان: هو ذو الزمانة، وقال ابن جبير: هو الذي ليس له أحد، وقال عكرمة: هو البعيد التربة الغريب عن وطنه، والأول أولى، ومنه قول الهذلي:

وَكُنَّا إِذَا مَا ٱلضَّيْفُ حَلَّ بِأَرْضِنَا سَفَكْنَا دِمَاءَ ٱلْبُدْنِ فِيْ تُرْبَةِ ٱلْحَالِ

وفي الحديث: «الساعي على الأرملة والمسكين كالساعي في سبيل الله، وكالقائم لا يفتر، والصائم لا يفطر» يقول الفقير: خص الفك والإطعام؛ لصعوبة العمل بهما، وجعل الإطعام لليتيم والمسكين؛ لما أن ذلك يثقل على النفس، فقد ينفق المرء الوفاء في هواه كإطعام أهل الهوى وبناء الأبنية الزائدة، ونحو ذلك، ولا يستكثرها، وأما الفقير واليتيم فلا يراهما بصره، لهوانهما عنده، وعلى تقدير الرؤية فيصعب عليه إعطاء درهم أو درهمين، أو إطعام لقمة أو لقمتين.

والخلاصة: أي أو إطعام المسكين الذي لا وسيلة له إلى كسب المال؛ لضعفه وعجزه، وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[3] عطف على المنفي بـ﴿لا﴾، وجاء بـ﴿ثم﴾؛ للدلالة على تراخي رتبة الإيمان عن العتق والصدقة، ورفعة محله على محلهما، لتوقف صحة جميع الأعمال الصالحة على وجوده؛ لكونه أساسها، وإلا فهو في الزمان مقدم على الطاعات.

والمعنى: أن الإنفاق مع الإيمان، والتواصي هو الإنفاق المرضي النافع عند

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

الله تعالى، لا أن يُهلك مالاً لبداً في الرياء والفخار، فيكون مثله كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم، وفي ذكر العقبة إشارة إلى أن عقبة الآخرة لا يجوزها إلا من كان محقاً، أو يكون المعنى: ثم كان في عاقبة أمره من الذين وافوا الموت على الإيمان؛ إذ الموافاة عليه شرط في الانتفاع بالطاعات، والمعنى: أي: ثم كان مع اقتحامه العقبة من الذين صدقوا في إيمانهم ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عطف على ﴿ءَامَنُوا﴾؛ أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله وعن المعاصي وفي المصائب والبلايا إذا أصابتهم ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾: مصدر[1] ميمي بمعنى الرحمة؛ أي: أوصى بعضهم بعضاً بالرحمة على عباد الله، أو بموجبات رحمته تعالى من الخيرات على حذف المضاف، أو على ذكر المسبب وإرادة السبب تنبيهاً على كماله في السببية، والرحمة بهذا المعنى أعم من الرحمة بالمعنى الأول؛ وهي الشفقة لمن يستحقها من العباد يتيماً أو فقيراً، أو نحو ذلك، وفي الحديث: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس».

واعلم[2]: أنه إنما اشترط الإيمان مع فعل هذه المَبَارِّ؛ لأن من فعلها دون أن يكون مؤمناً لم ينتفع بها، ولم يكن له ثواب عليها؛ إذ لا ينفع مع الكفر بر، ثم بيّن مآل فاعل هذه المبرات، فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة.

وفي اسم الإشارة[3] دلالة على حضورهم عند الله في مقام كرامته، وعلوّ رتبتهم، وبعد درجتهم ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾؛ أي: أصحاب اليمين الذين يُعطون كتبهم بأيمانهم، ويُسلَك بهم من طريق اليمين إلى الجنة، أو أصحاب اليمن والخير والسعادة؛ لأن الصلحاء ميامين على أنفسهم بطاعتهم وعلى غيرهم أيضاً، أو أصحاب اليد اليمنى.

والمعنى[4]: أي أولئك الذين اقتحموا العقبة، ففكوا الرقاب، وأطعموا المساكين، وواسوا ذوي القربى في يوم المسغبة هم السعداء المُمَتَّعون بجنات النعيم، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) ...﴾ الآيات.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

ثم ذكر مقابل هؤلاء، وهم الذين صدوا عن سبيل الله، وتواصوا بالإثم وتواصوا بالعدوان ومعصية الرسول، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجحدوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الكونية وآياتنا السمعية التي جاءت على ألسنة الرسل، كالقرآن وغيره من الكتب السماوية ﴿هُمْ﴾ في الإتيان[1] بضمير الغيبة دلالة على سقوطهم عن شرف الحضور، وأنهم أحقاء بالإخفاء ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾؛ أي: هم أصحاب الشمال الذين يُعطون كتبهم بشمائلهم ومن وراء ظهورهم، ويُسلَك بهم شمالاً إلى النار، أو أصحاب الشؤم والشر والشقاوة؛ لأن الفساق مشائيم على أنفسهم بمعصيتهم وعلى غيرهم أيضاً؛ أي: هم أهل الشمال الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾...﴾ الآيات. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ خبر مقدم لقوله: ﴿نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾؛ أي: نار أبوابها مغلقة عليهم، فلا يُفتح لهم باب، فلا يُخرج منها غم، ولا يدخل فيها روح أبد الآباد، إلا أنها جُعلت صفة للنار إشعاراً بإحاطتها بهم، فأصل التركيب مؤصدة الأبواب، فلما تُركت الإضافة عاد التنوين إليها؛ لأنهما يتعاقبان، والمعنى؛ أي: عليهم نار مطبقة مغلقة عليهم، فلا يستطيعون الفكاك منها، ولا الخلاص من عذابها، أعاذنا الله سبحانه وجميع المسلمين منها بمنه وكرمه، وجعلنا من أصحاب الميمنة، يقال: آصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته وأطبقته، ومنه قول الشاعر:

تَحِنُّ إِلَىٰ أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِيْ ... وَمِنْ دُوْنِهَا أَبْوَابُ صَنْعَاءَ مُؤْصَدَهْ

وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفص[2]: ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ بالهمز هنا وفي الهُمزة، فيظهر أنه من أصدت، قيل: ويجوز أن يكون من أوصدت، وهمز على حد من قرأ بـ﴿السؤق﴾ مهموزاً، وقرأ باقي السبعة بغير همز، فيظهر أنه من أوصدت، وقيل: يجوز أن يكون من آصدت، وسهل الهمزة.

وقال الشاعر:

قَوْمَاً تُعَالِجُ قُمَّلاً أَبْنَاؤُهُمْ ... وَسَلَاسِلاً حَلَقَاً وَبَابَاً مُؤْصَدَا

والحاصل: أنه قُرىء بالواو وبالهمزة مكان الواو، وهما لغتان، والمعنى

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

واحد، وقيل: معنى المهموز: المطبقة، ومعنى غير المهموز: المغلقة انتهى/ اهـ «خطيب»، وفي «السمين» والظاهر أن القراءتين من مادتين: الأولى من آصد يؤصد، كأكرم يكرم، والثانية من أوصد يوصد، كأوصل كيوصل. انتهى.

الإعراب

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

﴿لَآ﴾: زائدة. ﴿أُقْسِمُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله سبحانه، والجملة مستأنفة. ﴿بِهَٰذَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُقْسِمُ﴾. ﴿ٱلْبَلَدِ﴾: بدل من اسم الإشارة، ﴿وَأَنتَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، أو اعتراضية. ﴿أنت﴾: مبتدأ. ﴿حِلٌّۢ﴾: خبر ﴿بِهَٰذَا﴾: متعلق بـ﴿حِلٌّۢ﴾ ﴿ٱلْبَلَدِ﴾: بدل من اسم الإشارة، والجملة في محل النصب حال من ﴿هذا البلد﴾ أو معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَوَالِدٍ﴾: الواو: عاطفة، أو حرف قسم. ﴿والد﴾: معطوف على القسم السابق. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿والد﴾. ﴿وَلَدَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿والد﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما ولده ذلك الوالد. ﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿فِى كَبَدٍ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: حال كونه مكابداً للمشاق. ﴿أَيَحْسَبُ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿يحسب﴾: فعل مضارع، وفاعلهُ ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿لَّن﴾: حرف نصب. ﴿يَقْدِرَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لن﴾ ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿يَقْدِرَ﴾. ﴿أَحَدٌ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في محل النصب سادة مسد مفعولي ﴿يحسب﴾، ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، وجملة القول في محل النصب حال من فاعل ﴿يحسب﴾، أو مستأنفة. ﴿أَهْلَكْتُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مَالًا﴾: مفعول

به. ﴿لُّبَدًا﴾: صفة لـ﴿مَالًا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُ﴾.

﴿أَيَحْسَبُ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿يحسب﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَرَهُۥٓ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، و﴿الهاء﴾: مفعول به؛ لأن رأى بصرية. ﴿أَحَدٌ﴾: فاعل ليرى والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في محل النصب سادة مسد مفعولي ﴿يحسب﴾.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿نَجْعَل﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿لَّهُۥ﴾: متعلق بـ﴿نَجْعَل﴾؛ لأنه بمعنى نخلق. ﴿عَيْنَيْنِ﴾: مفعول به، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾: معطوفان على ﴿عَيْنَيْنِ﴾. ﴿وَهَدَيْنَٰهُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة: ﴿هديناه﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾: مفعول ثان له، أو منصوب بنزع الخافض، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل﴾؛ لأن الاستفهام فيه تقريري، فيكون بمعنى: وجعلنا له عينين. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية بمعنى: ما. ﴿ٱقْتَحَمَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ القائل، والجملة معطوفة على ﴿هديناه﴾؛ أي: وهديناه النجدين فما اقتحم العقبة، و﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾: مفعول به، وقيل ﴿لا﴾: دعائية، دعا عليه أن لا يفعل خيراً، وهذا أرجح الأقوال الجارية هنا، وقيل: ﴿لا﴾ تحضيضية، والأصل: فألا اقتحم العقبة، ثم حُذفت الهمزة للتخفيف، وهذا القول ضعيف. وإن كان واضح المعنى كما مر، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية ﴿ما﴾: استفهامية في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾ و﴿الكاف﴾ مفعول أول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن ﴿ما﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية معترضة مقحمة لبيان العقبة، مقررة لمعنى الإبهام والتفسير، فإن قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ عين تلك العقبة؛ لأن المعرف باللام

والألف إذا أعيد كان الثاني عين الأول. ﴿مَا﴾: استفهامية في محل الرفع مبتدأ. ﴿الْعَقَبَةُ﴾: خبر عنها، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لـ﴿أَدْرَاكَ﴾ معلق عنها بالاستفهام. ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو فك رقبة، كأنه قيل: وما هو: اقتحام العقبة، فقيل: هو فك رقبة أو إطعام... إلخ، والجملة مفسرة لاقتحام العقبة لا محل لها من الإعراب. ﴿أَوْ إِطْعَامٌ﴾ معطوف على ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)﴾. ﴿فِي يَوْمٍ﴾: متعلق بـ﴿إِطْعَامٌ﴾. ﴿ذِي مَسْغَبَةٍ﴾: صفة لـ﴿يَوْمٍ﴾. ﴿يَتِيمًا﴾: مفعول به لـ﴿إِطْعَامٌ﴾: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾: صفة لـ﴿يَتِيمًا﴾. ﴿أَوْ مِسْكِينًا﴾: معطوف على ﴿يَتِيمًا﴾. ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: صفة ﴿مِسْكِينًا﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الإنسان المذكور. ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١)﴾؛ أي: فهلا اقتحم العقبة، ثم كان من الذين... إلخ. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَتَوَاصَوْا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿آمَنُوا﴾. ﴿بِالصَّبْرِ﴾: متعلق بـ﴿تواصوا﴾. ﴿وَتَوَاصَوْا﴾: معطوف أيضاً على ﴿آمَنُوا﴾. ﴿بِالْمَرْحَمَةِ﴾: متعلق بـ﴿تواصوا﴾. ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول. ﴿بِآيَاتِنَا﴾: متعلق بـ﴿كَفَرُوا﴾. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ثان، أو ضمير فصل. ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾: خبر عن ﴿هُمْ﴾ ومضاف إليه، والجملة خبر عن ﴿الَّذِينَ﴾، أو ﴿هُمْ﴾ خبر عن ﴿الَّذِينَ﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: خبر مقدم. ﴿نَارٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾: صفة لـ﴿نَارٌ﴾، والجملة خبر ثان عن ﴿هُمْ﴾، أو عن ﴿الَّذِينَ﴾، أو مستأنفة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١)﴾ وفي «القاموس»: البلد والبلدة: مكة شرفها الله تعالى، وكل قطعة من الأرض مستحيزة عامرة أو غامرة، والتراب والبلد أيضاً القبر والمقبرة والدار والأثر.

وذكر له معاني إلى أن قال: وبلد بالمكان بلوداً إذا أقام ولزمه، أو اتخذه بلداً، وفي «روح البيان»: البلد: المكان المحدود المتأثر باجتماع قطانه وإقامتهم فيه، وجمعه بلاد وبلدان. انتهى. كما مر في بحث التفسير.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ﴾ والحل: بمعنى الحال من الحلول؛ وهو النزول، يقال: حل وحلال وحرم وحرام بمعنى واحد، وحل في المكان إذا نزل فيه يحل ـ بضم الحاء ـ حلولاً، فهو حال، والمكان محلول فيه، والمعنى: أي: وأنت حال مقيم فيه.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾؛ أي: وأقسم لك بأي والد وبأي مولود من الإنسان والحيوان والنبات.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾؛ أي: في نصب ومشقة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وفي «المصباح»: والكَبَد ـ بفتحتين ـ المشقة من المكابدة للشيء، وهو يتحمل المشاق في فعله، يقال: كَبِدَ الرجل كبداً ـ من باب طرب ـ إذا وجعت كبده فانتفخت، ويقال: كبده إذا أصاب كبده، كذكرته إذا قطعت ذكره، ورأيته إذا قطعت رئته، ثم اتسع فيه حتى استُعمل في كل نصب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة بمعنى مقاساة الشدة، ومنه قال لبيد يرثي أخاه أربد:

يَا عَيْنُ هَلْ رَأَيْتِ أَرْبَدَ إِذْ ... قُمْنَا وَقَامَ ٱلْخُصُوْمُ فِيْ كَبَدِ

أي: في شدة الأمر وصعوبة الخطب.

﴿مَالًا لُّبَدًا﴾؛ أي: مالاً كثيراً متلبداً من تلبد الشيء إذا اجتمع، وتكدس بعضه على بعض، ولا يخاف فناؤه من كثرته، يريد كثرة ما أنفقه رياء وسمعة وعداوة للنبي ﷺ.

﴿أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أصله: يرأي بوزن يفعل، نقلت حركة الهمزة عين الفعل إلى الراء، ثم حذفت للتخفيف، ثم قُلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لدخول الجازم، فلم يبق من الفعل إلا فاؤه فوزنه يفه.

﴿وَشَفَتَيْنِ﴾: مثنى شفة، فيه إعلال بحذف لامه، وأصله: شفهة، أو شفو لتصغيره على شفيهة، وجمعها على شفاه، حُذفت لامه وعُوّض عنها التاء ونظيره سنة.

﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾: والنجدان: طريقا الخير والشر، والنجد في الأصل الطريق المرتفع وجمعه نجود، ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة، وفي «القاموس» النجد: ما ارتفع من الأرض، وجمعه أنجد وأنجاد ونجاد ونجود ونُجُد، وجمع النجود: أنجدة، والطريق الواضح، وما خالف الغور؛ أي: تهامة، وتضم

جيمه مذكر أعلاه تهامة واليمن، وأسفله العراق والشام، وأوله من جهة الحجاز ذات عرق، وما ينجد به البيت من بسط وفرش ووسادة، والجمع نجود ونجاد، والدليل الماهر، والمكان لا شجر فيه.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ⑪﴾ والاقتحام: الدخول في أمر شديد ومجاوزته بصعوبة، وفي «القاموس»: قحم في الأمر ـ كنصر ـ قحوماً رمى بنفسه فيه فجأة بلا روية، والعقبة: الطريق الوعر.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ⑬﴾ والفك في الأصل: الفرق بين الشيئين بإزالة أحدهما عن الآخر، كفك القيد والغل، وفك الرقبة: الفرق بينها وبين صفة الرق بإيجاب الحرية، والرقبة: العضو المخصوص، ثم يعبر بها عن جملة الذات، كما مر بسطه.

﴿مَسْغَبَةٍ﴾: مصدر ميمي من سَغِب يسغب سغباً ـ من باب فرح ـ إذا جاع، وفي «القاموس»: سغب ـ كفرح ونصر ـ سَغَباً وسغْباً وسغابة وسغوبة ومسغبة جاع، فهو ساغب وسغبان وسَغِب، وهي سغبى، وجمعها سغاب، والسغب أيضاً العطش، وليس بمستعمل.

﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ والمقربة القرابة في النسب تقول: فلان من ذوي قرابتي، ومن أهل مقربتي إذا كان قريبك نسباً فهو مصدر ميمي بمعنى القرابة.

﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ والمتربة: الفقر، تقول: ترب الرجل إذا افتقر، وأترب إذا كثر ماله حتى صار كالتراب، وفي «المختار»: ترب الشيء إذا أصابه التراب، وبابه طرب، ومنه ترب الرجل؛ أي: افتقر كأنه لصق بالتراب، وتربت يداه دعاء عليه لا أصاب خيراً، وتَرَّبَه تتريباً فتَتَرَّب؛ أي: لطخه فتلطخ، وأتربه جعل عليه التراب، وفي الحديث «أتربوا الكتاب فإنه أنجح للحاجة» وأترب الرجل استغنى، كأنه صار له من المال بقدر التراب، والمتربة: المسكنة والفاقة، ومسكين ذو متربة؛ أي: لاصق بالتراب؛ لفقره وضره، فليس فوقه ما يستره، ولا تحته ما يفرشه.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾؛ أي: نصح بعضهم بعضاً به، وأصله تواصَيُوا بوزن: تفاعلوا، قُلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين.

﴿بِالْمَرْحَمَةِ﴾ والمرحمة مصدر ميمي بمعنى الرحمة.

﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ الميمنة: طريق النجاة والسعادة، وهو اسم مكان أو مصدر ميمي.

﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ والمشأمة: طريق الشقاء، وهو أيضاً مصدر ميمي، أو اسم مكان.

﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ۝٢٠﴾؛ أي: مطبقة، من أوصدت الباب إذا أطبقته، كأوعدته فهو حينئذ مثال واوي، أو من آصدته بالمد إذا أطبقته وأغلقته وأحكمته، فهو حينئذ من المهموز مثل آمن، فمن قرأها ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ بالهمز جعلها اسم مفعول من آصدت كآمنت، ومن قرأها ﴿موصدة﴾ بالواو من غير همز جعلها اسم مفعول من أوصدت مثل أوعد فهو مُوعِد، وذاك مُوعَد، ويحتمل على هذه القراءة أن يكون أيضاً من آصد مثل آمن، لكنه قُلبت همزته الساكنة واواً؛ لضم ما قبلها للتخفيف، ففيه لغتان: آصد كآمن، وأوصد كأوعد، كلاهما بمعنى واحد.

وكان أبو بكر بن عياش راوي عاصم يكره الهمزة في هذا الحرف، ويقول: لنا إمام يهمز مؤصدة، فأشتهي أن أصد أذني إذا سمعته، وكأنه لم يحفظه عن شيخه إلا بترك الهمزة، وقد حفظه حفص بالهمزة، وهو أضبط للحروف من أبي بكر على ما نقله القراء، وإن كان أبو بكر أكبر وأتقن وأوثق عند أهل الحديث، والله سبحانه وتعالى أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: زيادة ﴿لا﴾ في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾؛ أي: أقسم بهذا البلد لتأكيد القسم، وهو مستفيض شائع في كلام العرب، كقولهم: لا والله ليس بالأمر كذا؛ أي: والله ليس الأمر كذا، قال امرؤ القيس:

لاَ وَأَبِيكِ ٱبْنَةَ ٱلْعَامِرِيّ

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ إظهاراً لمزيد فضلها بحلوله فيه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ فكل من الوالد والولد مشتق من الولادة.

ومنها: تنكير ﴿والدٍ﴾ إفادة للتفخيم والتعظيم، أو إفادة للعموم.

ومنها: إيثار ﴿ما﴾ على من في قوله: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ إفادة لمعنى التعجب مما أعطاه الله تعالى من الكمال، كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾؛ أي: بأي شيء وضعت يعني: موضوعاً عجيب الشأن، وهو مريم، ويعني هنا: مولوداً عجيب الشأن، وهو إسماعيل، أو محمد عليهما السلام.

ومنها: الاستفهام الإنكاري للتوبيخ في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⁽٥⁾﴾، ومثله قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ⁽٧⁾﴾.

ومنها: الاستفهام التقريري للتذكير بالنعم في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ⁽٨⁾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⁽٩⁾﴾.

ومنها: التعبير بلفظ الإهلاك في قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ إشارة إلى أنه ضائع في الحقيقة؛ إذ لا ينتفع به صاحبه في الآخرة.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ⁽١٠⁾﴾ فقد استعار النجدين للخير والشر، وحذف المشبه؛ وهو الخير والشر، وأبقى المشبه به، فإن قلت: أما تشبيه الخير بالنجد وهو المرتفع من الطريق، فلا غبار عليه؛ لأنه ظاهر بخلاف الشر، فإنه هبوط وارتكاس من ذروة الفطرة إلى حضيض الابتذال.. قلنا: إنه جمع بينهما إما على سبيل التغليب، وإما على توهم المخيلة أن فيه صعوداً وارتكاساً وإسفافاً، وهذا من أبلغ الكلام وأروعه.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية المرشحة في قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ⁽١١⁾﴾ فقد رشح بذكر ما يلائم الاستعارة الأولى أعني النجدين بمعنى الطريقين؛ لأن مبنى الترشيح وهو ذكر ما يلائم المشبه به دون المشبه به على المبالغة، وادعاء اتحاد الطرفين، ولهذا كان الترشيح أبلغ من التجريد؛ وهو ذكر ما يلائم المشبه به؛ لأن فيه اعترافاً بالتشبيه، فأصل العقبة الطريق الوعر في الجبل، واستعيرت هنا للأعمال الصالحة؛ لأنها تصعب وتشق على النفوس، ففيه استعارة تبعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ⁽١٣⁾﴾؛ لأن الفك حقيقة في الفصل بين الشيئين المجتمعين الملتئمين، فاستُعير هنا لتحرير الرقبة وعتقها؛ لما فيه من الفصل بين الرق والرقيق.

ومنها: المجاز المرسل في لفظ ﴿رَقَبَةٍ﴾؛ لما فيه من إطلاق الجزء وإرادة الكل؛ لأن الرقبة في الأصل العضو بين الكتف والرأس.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿مَقْرَبَةٍ﴾ و﴿مَتْرَبَةٍ﴾؛ لاختلاف بعض الحروف.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ وقوله: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾.

ومنها: الإتيان باسم الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ دلالة على حضورهم عند الله تعالى في مقام كرامته، وعلو مرتبتهم عنده.

ومنها: الإتيان بضمير الغيبة في قوله: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ دلالة على سقوطهم عن شرف الحضور، وأنهم أحقاء بالإخفاء، وهذا من ألطف البلاغة، وأبلغها وأعجبها.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على خمسة مقاصد:

١ ـ ما ابتلي به الإنسان في الدنيا من النصب والتعب.

٢ ـ اغترار الإنسان بقوته.

٣ ـ نكران النعم التي أنعم بها عليه من العينين واللسان والعقل والفكر.

٤ ـ سبل النجاة الموصلة إلى السعادة.

٥ ـ كفران الآيات سبيل الشقاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تمت سورة البلد بعون الله الواحد الأحد، منتصف ليلة الثلاثاء الثالثة والعشرين من شهر شوال المحرم من شهور سنة: ١٤١٦هـ. ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الشمس

سورة الشمس مكية باتفاق، كما في «القرطبي»، نزلت بعد سورة القدر، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: خمس عشرة آية. وكلماتها[١]: أربع وخمسون كلمة. وحروفها: مئتان وسبعة وأربعون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها من وجهين[٢]:

١ ـ أنه سبحانه ختم السورة السابقة بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، وأعاد ذكر الفريقين في هذه السورة بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾.

٢ ـ أنه سبحانه وتعالى ختم السورة السابقة بشيء من أحوال الكفار في الآخرة، وختم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا.

وعبارة أبي حيان: مناسبة هذه السورة لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قدم[٣] في السورة السابقة القسم ببعض المواضع الشريفة وما بعدها.. أقسم هنا بشيء من العالم العلوي والعالم السفلي، وبما هو آلة التفكر في ذلك وهو النفس، وكان آخر ما قبلها مختتماً بشيء من أحوال الكفار في الآخرة، فاختتم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا، وفي تلك بمآلهم في الآخرة إلى النار، وفي الدنيا إلى الهلاك المستأصل. انتهى.

ومن فضائلها: ما أخرجه أحمد والترمذي وحسّنه والنسائي عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة العشاء: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾ وأشباهها من

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

السور، وقد تقدم حديث جابر في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾»، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾.

وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمره أن يقرأ في صلاة الصبح بـ﴿الليل إذا يغشى﴾ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾.

وأخرج البيهقي في «الشُّعَب» عن عقبة بن عامر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي ركعتي الضحى بسورتيهما بالشمس وضحاها وبالضحى.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة والشمس وضحاها محكمة كلها ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وسميت سورة الشمس؛ لابتدائها بها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾
وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ
أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾
فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ
فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلشَّمْسِ﴾؛ أي: أقسم لك يا محمد بالشمس ﴿وَضُحَىٰهَا﴾؛ أي: وبضحاها وهو قسم ثان؛ أي: وبضوئها إذا طلعت وقام سلطانها، وانبسط نورها، وهي كوكب نهاري ينسخ ظهوره كواكب الليل، وجواب القسم في هذا وما بعده قوله الآتي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ كما سيأتي بيانه.

وأقسم سبحانه بهذه الأمور المذكورة[1]: لأن له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وقال قوم: إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدم ومما سيأتي هو على حذف مضاف؛ أي: ﴿و﴾ رب ﴿الشمس﴾ ورب القمر، وهكذا سائرها، ولا مُلجِىء إلى هذا ولا موجب له.

واعلم: أنه سبحانه أقسم[2] أولاً بالشمس نفسها غابت أو ظهرت؛ لأنها خلق عظيم يدل على قدرة مبدعها، وأقسم ثانياً بضوئها؛ لأنه مبعث الحياة في كل حي، فلولاها ما أبصرت حياً ولا رأيت نامياً، ولولاها ما وُجد الضياء ولا انتشر النور، وإذا أرسلت خيوطها الذهبية على مكان.. فر منه السقم، وولت جيوش الأمراض هاربة؛ لأنها تفتك بها فتكاً ذريعاً، وقال مجاهد[3]: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾؛ أي: ضوئها وإشراقها، وأضاف الضحى إلى الشمس؛ لأنه إنما يكون عند ارتفاعها، وكذا قال الكلبي، وقال قتادة: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ نهارها كله، وقال الفراء: الضحى هو النهار، وقال

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

المبرد: أصل الضحى الصبح، وهو نور الشمس، قال أبو الهيثم: الضحى نقيض الظل، وهو نور الشمس على وجه الأرض، وأصله: الضحي فاستثقلوا الياء فقلبوها ألفاً، قيل: والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس، وبعيد ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد، قال المبرد: الضحى والضحوة مشتقان من الضح، فأبدلت الواو والألف من الحاء، والضح هو نور الشمس المنبسط على وجه الأرض المضاد للظل، وقيل: الضحى هو حر[1] الشمس؛ لأن حرها ونورها متلازمان، فإذا اشتد نورها.. قوي حرها، وهذا أضعف الأقوال، واختُلف[2] في جواب القسم ماذا هو؟ فقيل: هو قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾، قاله الزجاج وغيره، قال الزجاج: حُذفت اللام، لأن الكلام قد طال، فصار طوله عوضاً، وقيل: الجواب محذوف؛ أي: أقسمت بالشمس وما بعدها لتبعثن، وقيل تقديره: لَيُدَمْدِمَنَّ الله على أهل مكة؛ لتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحاً، وأما ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء، وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف، والمعنى: قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، والشمس وضحاها إلخ، والأول أولى.

﴿و﴾ أقسمت بـ﴿القمر﴾ وهو كوكب ليلي لهو سلطنة في الليل على سائر الكواكب ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾؛ أي: إذا تلا القمر الشمس وتبعها في الإضاءة والنور بأن طلع بعد غروبها آخذاً من نورها، وذلك[3] في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة، وخلفها في النور، وقيل: تلاها في الاستدارة، وذلك حين يكمل ضوءه ويستدير جرمه، وذلك في الليالي البيض، وقيل: ﴿تَلَىٰهَا﴾ تبعها في الطلوع، وذلك في أول ليلة من الشهر إذا غربت الشمس ظهر الهلال، فكأنه تبعها.

والمعنى[4]: أي وأقسمت بالقمر إذا تلا الشمس وتبعها في الليالي البيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة وقت امتلائه، أو قربه من الامتلاء حين يضيء الليل كله من غروب الشمس إلى الفجر، وهذا قسم بالضوء في طور

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.
(٣) الخازن.
(٤) المراغي.

آخر وهو ظهوره، وانتشاره الليل كله، وقد يكون المراد بـ﴿تَلَنهَا﴾؛ أي: تبعها في كل وقت؛ لأن نوره مستمد من نور الشمس، فهو لذلك يتبعها، فهو لها بمنزلة الخليفة، وقد قال بهذا الفراء قديماً، وأثبته علماء الفلك حديثاً.

﴿و﴾ أقسمت بـ﴿النهار﴾ وهو نور الشمس الذي ينسخ ظل الأرض يمحو ظلمة الليل ﴿إِذَا جَلَّنهَا﴾؛ أي: إذا جلى النهار الشمس، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تتجلى تمام الانجلاء، فكأنه جلاها مع أنها التي تبسطه.

يعني(١): لما كان انتشار الأثر، وهو زمان ارتفاع النهار زماناً لانجلاء الشمس، وكان الجلاء واقعاً فيه.. أسند فعل التجلية إليه إسناداً مجازياً مثل نهاره صائم، وقيل: الضمير عائد إلى الظلمة وإن لم يجر لها ذكر؛ لأن المعنى معروف؛ أي: إذا جلى ظلمة الليل وأزالها وكشفها بضوئه، قال الفراء كما تقول: أصبحت باردة؛ أي: أصبحت غداتنا باردة، وقيل: جلّى ما في الأرض من الحيوانات وغيرها بعد أن كانت مستترة في الليل، وقيل: جلى الدنيا، وقيل: جلى الأرض، والأول أولى.

والمعنى: أي وأقسمت بالنهار إذا جلى الشمس وأظهرها، وأتم وضوحها؛ إذ كلما كان النهار أجلى ظهوراً.. كانت الشمس أكمل وضوحاً. وأقسم سبحانه بهذه المخلوقات للإشارة إلى تعظيم أمر الضوء، وإعظام أمر النعمة فيه، وفيه لفت لأذهاننا إلى أنه آية من آيات ربنا الكبرى ونعمة من نعمه العظمى، وفي قوله: ﴿جَلَّنهَا﴾ بيان للحال التي يكشف فيها النهار تلك الحكمة البالغة والآية الباهرة، وبعد أن أقسم بالضياء في أطوار مختلفة أقسم بالليل في حال واحدة، فقال: ﴿و﴾ أقسمت بـ﴿الليل﴾ وهو ظل الأرض الحائلة بين الشمس وبين ما وقع عليه ظلمة الليل ﴿إِذَا يَغْشَنهَا﴾؛ أي: يغشى الليل الشمس، فيغطي ضوءها فتغيب، وتُظلم الآفاق، ولما كان احتجاب الشمس بحيلولة الأرض بيننا وبينها واقعاً في الليل.. صار الليل كأنه حجبها وغطاها، فأسند التغطية والتغشية إلى الليل لذلك، وقيل المعنى: إذا يغشى الليل الآفاق، وقيل: يغشى الأرض وإن لم يجر لهما ذكر؛ لأن ذلك معروف، والأول أولى، ولعل(٢) اختيار صيغة المضارع هنا على الماضي؛

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

للدلالة على أنه لا يجري عليه تعالى زمان، فالمستقبل عنده كالماضي مع مراعاة الفواصل، ولم يجيء غشاها من التغشية؛ لأنه يتعدى إلى المفعولين، وقال الشيخ الطنطاوي: وفي قوله: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ مجاز عقلي؛ لأن الذي يغشى إنما هي الأرض، فأسند ذلك لليل الذي هو من آثار ذلك، ففي هذا بيانان: بيان أن ضوء القمر من الشمس، وأن الليل لم يحدث من الشمس؛ لأنها دائماً مشرقة، وإنما حدث من دوران الأرض، فانظر كيف جعل القمر تالياً والأرض سائرة حتى حدث الليل. انتهى. وحيث كانت الواوات العاطفة نواب الواو الأولى القسمية القائمة مقام الفعل، والباء سادَّة مسدَّها معاً في قولك: أقسم بالله، حق أن يعملن عمل الفعل، والجار جميعاً، كما ضرب زيد عمراً وبكر خالداً، فترفع بالواو وتنصب بها، لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملهما، فاندفع ما يورد هٰهنا من تلك الواو، إن كانت عاطفة يلزم العطف على معمولي عاملين مختلفين، وإن كانت قسمية يلزم تعدد القسم مع وحدة الجواب، وحاصل الدفع اختيار الشق الأول، ومنع لزوم المحذور.

والمعنى[1]: أي وأقسم بالليل إذا يغشى الشمس، فيزيل ضوءها في الليالي الحالكة التي لا أثر لضوء الشمس فيها، لا مباشرة كما في النهار، ولا بالواسطة كضوء القمر المستفاد منها، وهي قليلة، فإنها ليلة أو ليلتان أو بعض ليال في الشهر.

وفي هذا: إيماء إلى أن الليل يطرأ على هذا الكوكب العظيم، فيُذهب ضوءها، ويحيل نور العالم ظلاماً، فهو؛ أي: هذا الكوكب على جليل نفعه، وعظيم فائدته لا يُتخذ إلٰهاً؛ لأن الإلٰه لا يحول ولا يزول، ولا يعتريه تغير ولا أُفول، وفيه ردع وتأنيب للمشركين على تأليهه وعبادته، وبعد أن ذكر الأوصاف الدالة على عظمة هذه الأجرام.. أردفه بذكر صفات تدل على حدوثها، فقال: ﴿و﴾ أقسمت بـ﴿السماء وما بناها﴾؛ أي: ومن بناها وخلقها على غاية العظم والعلو، وهو الله سبحانه وتعالى، فـ﴿ما﴾ موصول اسمي، ورجح[2] هذا القول ابن جرير، وإيثار ﴿ما﴾ على مَن لإرادة الوصفية تعجباً؛ لأن ما يسأل بها عن صفة من

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

يعقل، كأنه قيل: وبالقادر العظيم الشأن الذي بناها، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: والسماء وبنيانها، ورجح هذا القول الفراء والزجاج، ولا وجه لقول من قال: إن جعلها مصدرية مخل بالنظم، وكذا الكلام في ﴿ما﴾ في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾، والمعنى؛ أي: وأقسمت[1] بالسماء ومن قدرها على النحو الذي اقتضته مشيئته وحكمته، وفي ذكر البنيان إشارة إلى ما انطوى عليه رفعها وتسويتها من بارع الحكمة وتمام القدرة، وأن لها صانعاً حكيماً، وقد أحكم وضعها وأجاد تقديرها، فإنه شد هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة، كما تُربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع حتى يتماسك.

ولما كان الخطاب موجهاً إلى قوم لا يعرفون الله بجليل صفاته، وكان القصد منه أن ينظروا في هذا الكون نظرة من يطلب للأثر مؤثراً، فينتقلوا من ذلك إلى معرفته تعالى.. عبر عن نفسه بلفظ ﴿ما﴾ التي هي الغاية في الإبهام.

﴿و﴾ أقسمت بـ﴿الأرض وما طحاها﴾؛ أي: ومن بسطها من كل جانب على الماء كي يعيش أهلها فيها ومهدها للسكنى، وجعل الناس ينتفعون بما على ظهرها من نبات وحيوان، وبما في باطنها من مختلف المعادن، ونحو الآية قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ والطحو كالدحو بمعنى البسط، وإبدال الطاء من الدال جائز، وليس في ذلك دليل على أن الأرض غير كروية، كما يزعم بعض الجاهلين، وإفراد بعض[2] المخلوقات بالذكر وعطف الخالق عليه والإقسام بهما ليس لاستوائهما في استحقاق التعظيم، بل النكتة في الترتيب أن يبين وجود الصانع العالم، وكمال قدرته، ويظفر العقل بإدراك جلال الله وعظمة شأنه حسبما أمكن، فإنه تعالى لما أقسم بالشمس التي هي أعظم المحسوسات شرفاً ونفعاً، ووصفها بأوصافها الأربعة وهي ضوءها، وكونها متبوعة للقمر، ومتجلية عند ارتفاع النهار، ومختفية متغطية بالليل.. أقسم بالسماء التي هي مسير الشمس وأعظم منها، فقد نبه على عظمة شأنها، لما عُلم أن الإقسام بالشيء تعظيم له، ومن المعلوم أنهما لحركاتهما الوضعية وتغير أحوالهما من الأجسام الممكنة المحتاجة إلى صانع مدبر كامل القدرة بالغ الحكمة، فيتوسل العقل بمعرفة أحوالهما وأوصافهما إلى كبرياء

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

صانعهما، فكان الترتيب المذكور كالطريق إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى بقاع عالم الربوبية وبيداء كبريائه الصمدية.

وقصارى ما سلف[1]: أنه تعالى بعد أن أقسم بالضياء والظلمة.. أقسم بالسماء وما فيها من الكواكب وبالذي بناها وجعلها مصدراً للضياء، وبالأرض والذي جعلها لنا فراشاً، ومصدراً للظلمة، فإنها هي التي يحجب بعض أجزائها ضوء الشمس عن بعضها الآخر، فيظهر فيه الظلام.

قال المفسر الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾ ولفظ[2] السماء حين يُذكر يسبق إلى الذهن: هذا الذي نراه فوقنا، كالقبة حيثما اتجهنا تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ومداراتها، فأما حقيقة السماء فلا ندريها، وهذا الذي نراه فوقنا متماسكاً لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه، أما كيف هو مبني، وما الذي يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولاً ولا آخراً، فذلك ما لا ندريه، وكل ما قيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل والإقرار لها والإثبات، إنما نوقن من وراء كل شيء أن يد الله سبحانه هي تمسك هذا البناء ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ﴾ وهذا هو العلم المتيقن الوحيد، اهـ. وقال الطنطاوي في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾؛ أي[3]: ومن بناها، وأيُّ بانٍ هو، إنه لا يضاهيه بَنَّاء فيما يعلم الناس، فأي بَنَّاء يستطيع أن يبني قبة زرقاء مرصعة بمصابيح، تلك المصابيح تجري وهي لا تتصادم إلا في أوقات نادرة، وإذا تصادمت.. أصلحت، وهي في نفس السقف، وعادت جديدة، ثم كيف يتسنى له جمع أجسام عظيمة في بنائه ما بين نارية، وأخرى صلبة، وأخرى لطيفة لطفاً أرق من الهواء، ومن الضياء وهو الأثير.

وكيف يراها الإنسان والحيوان سقفاً ساكناً هادئاً لا حركة فيه، فالشمس ساكنة والقمر ساكن، والنجوم ساكنة لا حركة فيها، وترى هذه العوالم كلها في الليالي المظلمة كأنها تتغنىٰ، وكأنها عروس حُلِّيَت في حِبَر، والكون كله سكون في سكون، مع أنه لا شيء مما يراه ساكن، فالهواء متحرك، والأثير متحرك،

---

(١) المراغي. (٢) ظلال القرآن. (٣) جواهر الطنطاوي.

والكواكب كلها متحركات، والشمس والقمر والنجوم السيارة كلها في حركات، لو اطلع عليها.. لخر صعقاً ولدهش منها، هذا فضلاً عما في تلك العوالم من المزعجات والمهلكات التي تكون فيها على الدوام، فيا ليت شعري أيُّ بانٍ يقدر على ذلك، فيرى الإنسان أن المتحركات سواكن، وأن المخاوف أمان، وأن هذا كله إنما هو ليكون له سقفاً يحميه ونعماً عليه ترضيه، وكأنها ليست مقصودة إلا له ولا هي مبنية إلا لأجله، فيا عجباً لمتحرك ساكن، وعظيم صغير، وقريب بعيد، إن العجب سيأخذنا كل مأخذ، ويدهشنا أن نكون في عالم بديع الإتقان عجيب البنيان حسن الهندام، والحق أحق أن هذه الدنيا بديعة الحسن، ظريفة الصنع، بهيجة المنظر، سارة للمفكرين، كما أنها سجن الغافلين.

كيف نجعل الكواكب التي عدت بمئات الملايين، كأنها درر مرصعة في سقفنا، أليس من العجب أن تكون تلك الكواكب لمآرب في تلك السباسب، ولبديع الصنع وحسن الإتقان، وجمال الوضع، تتراءى لنا أنها صُنعت لأجلنا، وليزين بها سقفنا، وكيف دُبرت هذه الحكمة، فسبحانه من حكيم عليم، قدير على كل شيء، وإليه تُرجعون. انتهى.

ثم أقسم سبحانه بعدما ذكر بالنفس الإنسانية تنبيهاً على ما لها من شرف ومكانة في هذا الوجود، وفي هذه النفس الإنسانية من الأسرار والعجائب والغرائب ما يندهش له ذوو العقول النيرة الكبيرة، وهي سر من أسرار الخلق العظيمة، فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾؛ أي: وأقسمت بنفس إنسانية ومن سواها وأنشأها وأبدعها، وركب فيها قواها الباطنة والظاهرة، لتكون مستعدة لكمالاتها، وحدد لكل منها وظيفة تؤديها، وألف بها الجسم الذي تستخدمه من أعضاء قابلة لاستعمال تلك القوى، والتنكير[1] فيها؛ للتفخيم على أن المراد نفس آدم عليه السلام، أو للتكثير وهو الأنسب للجواب، وقال عطاء: يريد جميع ما خُلق من الجن والإنس، والكلام في ﴿ما﴾ هذه كما تقدم، ومعنى ﴿سَوَّاها﴾ خلقها وأنشأها وسوى أعضاءها.

وذكر سبحانه في تعريف ذات الله تعالى السماء والأرض والنفس[2]؛ لأن الاستدلال على الغائب لا يمكن إلا بالشاهد، والشاهد ليس إلا العالم الجسماني،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وهو إما علوي بسيط كالسماء، وإما سفلي كالأرض، وإما مركب، وهو أقسام: أشرفها ذوات الأنفس، وقد استدل بعطف ما بعدها على ما قبله على عدم جواز تقدير المضاف فيه مثل ورب الشمس، وكذا في غيره إذ المقدر في المعطوف عليه يقدر في المعطوف، فيكون التقدير: ورب ما بناها ورب ما طحاها ورب ما سواها، وبطلانه ظاهر، فإن الظاهر أن تكون في مواضعها موصولة فاعرف.

ثم بيّن أثر هذه التسوية، فقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾؛ أي: فألهم كل نفس وعرفها ﴿فُجُورَهَا﴾؛ أي: طريق فجورها وشرها؛ لتجتنبها ولا تعمل به، والفجور: شق ستر الديانة، وقدَّمه على التقوى؛ لمراعاة الفواصل، أو لشدة الاهتمام بنفسه؛ لأنه إذا انتفى الفجور.. وجدت التقوى، فقدم ما هُمْ بشأنه أَعْنَى: ﴿وَتَقْوَاهَا﴾؛ أي: وأعلم كل نفس طريق تقواها؛ لتعمل به. و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ إن كانت لسببية التسوية، فالأمر ظاهر، وإن كانت لتعقيبها، فلعل المراد منها إتمام ما يتوقف عليه الإلهام من القوى الظاهرة والباطنة، والإلهام: إلقاء الشيء في الروع، إما من جهة الله تعالى، أو من جهة الملأ الأعلى، وأصل إلهام الشيء: ابتلاعه.

والمعنى: أفهم النفس الفجور والتقوى، وعرّفها حالهما من الحسن والقبح، وما يؤدي إليه كل منهما، ومكّنها من اختيار أيهما شاءت، قال بعضهم: الإلهام لا يكون إلا في الخير، فلا يقال في الشر: ألهمني الله كذا، وأما قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧﴾ فالمراد فجورها؛ لتجتنبه لا لتعمل به، وتقواها لتعمل به؛ إذ ليس في كلام الله تناقض أبداً، فالإلهام في قسم الفجور إلهام إعلام، لا إلهام عمل، فإن الله سبحانه لا يأمر بالفحشاء، وكما لا يأمر بالفحشاء لا يلهم بها، فإنه لو ألهم بها ما قامت الحجة لله على العبد، وهذه الآية مثل قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ⑩﴾ أي: بينا له الطريقين وقال بعضهم: لم ينسب سبحانه إلى النفس خاطر المباح ولا إلهامه فيها، وسبب ذلك أن المباح لها ذاتي، فبنفس ما خلق عينها ظهر المباح فهو من صفاتها النفسية التي لا تُعقل النفس إلا بها، فخاطر المباح نعت خاص كالضحك للإنسان.

وفي «التأويلات النجمية»: تدل الآية على كون النفوس كلها حقيقة واحدة متحدة تختلف باختلاف توارد الأحوال والأسماء، فإن حقيقة النفس المطلقة من غير اعتبار حكم معها إذا توجهت إلى الله تعالى توجهاً كلياً.. سميت مطمئنة، وإذا

توجهت إلى الطبيعة توجهاً كلياً.. سميت أمَّارة، وإذا توجهت تارة إلى الحق بالتقوى وتارة أخرى إلى الطبيعة البشرية بالفجور.. سميت لوامة. انتهى.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - كان رسول الله ﷺ يقول عند هذه الآية: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها». قال محمد بن كعب: إذا أراد الله بعبده خيراً.. ألهمه الخير فعمل به، وإذا أراد به الشر.. ألهمه الشر فعمل به، وقال ابن زيد: جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور، واختار هذا القول الزجاج، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان.

قال الواحدي: وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام، فإن التبيين والتعليم والتعريف دون الإلهام، والإلهام: أن يوقع في قلبه ويجعل فيه، وإذا أوقع الله سبحانه في قلب عبده شيئاً.. ألزمه ذلك الشيء، قال: وهذا صريح في أن الله خلق في المؤمن تقواه، وفي الكافر خذلانه.

وخلاصة ذلك[1]: أي فألهم كل نفس الفجور والتقوى، وعرّفها حالهما بحيث تميز الرشد من الغي، ويتبين لها الهدى من الضلال، وجعل ذلك معروفاً، فالأولى البصائر، وبعد أن ذكر أنه ألهم النفوس معرفة الخير والشر.. ذكر ما تلقاه جزاءً على كل منهما، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾؛ أي: ربح وفاز وظفر ﴿مَن زَكَّنهَا﴾؛ أي: من زكى نفسه ونماها، وطهرها حتى بلغت غاية ما هي مستعدة له من الكمال العقلي والعملي حتى تثمر بذلك الثمر الطيب لها ولمن حولها، وهذا جواب القسم، وحذف[2] اللام لطول الكلام، وقال الزجاج: طول الكلام صار عوضاً عن اللام كما مر، وإنما تركه في «الكشاف» وغيره؛ لأنه يوجب الحذف، والحذف لا يجب مع الطول، ولم يجعل ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ جواباً؛ لأن إقسام الله إنما يؤكد به الوعد أو الظفر، وإدراك البغية، وهو إما دنيوي كالظفر بالسعادات التي تطيب بها الحياة الدنيا من الغنى والعز والبقاء مع الصحة ونحوها، أو أخروي وهو بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل، ولذلك قيل: لا عيش إلا عيش الآخرة، وأصل الزكاة: الزيادة والنمو، كما سيأتي بسطه في مبحث اللغة.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى: أقسمت بهذه الأمور العظام المذكورة على أنه قد فاز بكل مطلوب، ونجا من كل مكروه، من أنمى النفس وأعلاها بالتقوى؛ أي: رفعها وأظهرها وشهرها بها، فأهل الصلاح يظهرون أنفسهم ويشهرونها بما سطع من أنوار تقواهم إلى الملأ الأعلى، وبملازمتهم مواضع الطاعات ومحافل الخيرات، بخلاف أهل الفسق، فإنهم يخفون أنفسهم ويدسونها في المواضع الخفية، لا يلوح عليهم سيما سعادة يشتهرون به بين عباد الله المقربين.

وأصل هذا: أن أجواد العرب كانوا ينزلون في أرفع المواضع، ويوقدون النار للطارقين، لتكون أشهر، واللئام ينزلون الأطراف والهضاب؛ لتخفى أماكنهم عن الطالبين، فأخفوا أنفسهم، فالبار أيضاً أظهر نفسه بأعمال البر والفاجر دسها، وتُستعمل التزكية بمعنى التطهير أيضاً، كما قال في «القاموس»: الزكاة: صفوة الشيء، وما أخرجته من مالك؛ لتطهره به، فالمعنى عليه: قد أفلح من طهر نفسه من المخالفات الشرعية عقداً وخلقاً وعملاً وقولاً، فقد أقسم تعالى بسبعة أشياء على فلاح من زكى نفسه ترغيباً في تزكيتها.

وكون أفعال العبد بتقدير الله تعالى[1]، وخلقه لا ينافي إسناد الفعل إلى العبد، فإنه يقال: ضرب زيد عمراً، ولا يقال: ضرب الله عمراً، مع أن الضرب بخلقه، وتقديره، وذلك لأن وضع الفعل بالنسبة إلى الكاسب، قال الراغب: وزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره، وذلك ينسب تارة إلى العبد؛ لاكتسابه ذلك نحو: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾، وتارة إلى الله؛ لكونه فاعلاً خالقاً لذلك في الحقيقة نحو: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ وتارة إلى الشيء؛ لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم نحو: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، وتارة إلى العبادة التي هي آلة في ذلك نحو: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ انتهى.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وخسر معطوف على ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ ﴿مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ أي: أضلها وأغواها، قال أهل اللغة: دساها أصله: دسسها من التدسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء، فمعنى ﴿دَسَّىٰهَا﴾ في الآية: أخفاها وأخملها، ولم يشهرها

---

(١) روح البيان.

بالطاعة والعمل الصالح، وقال ابن الأعرابي: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾؛ أي: دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم، وفي «القاموس» كما سيأتي: خاب يخيب خيبة: حُرِم وخسر، ولم ينل ما طلب، وأصل دس: دسس، كتقضى البازي وتقضض من التدسيس، وهو الإخفاء مبالغة الدس، واجتماع الأمثال لَمَّا أوجب الثقل قلبت السين الآخيرة ياء، وقال الراغب: الدس: إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإكراه، ودساها؛ أي: دسسها في المعاصي. انتهى.

والمعنى[1]: أي وقد خسر نفسه وأوقعها في التهلكة، من نقصها حقها بفعل المعاصي، وأخفاها بالفجور ومجانبة البر والقربات، وبإرسالها في المشتهيات الطبيعية، فإن من سلك سبيل الشر وطاوع داعي الشهوة.. فقد فعل ما تفعل البهائم، وبذلك يكون قد أخفى عمل القوة العاقلة التي اختص بها الإنسان، واندرج في عداد الحيوان، ولا شك أنه لا خيبة أعظم ولا خسران أكبر من هذا المسخ الذي يجلبه الشخص لنفسه بسوء أعماله.

وقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ﴾ المراد به القبيلة، ولذا قال: ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ بضمير المؤنثة الغائبة، ولم يقل: بطغواهم كلام[2] مستأنف وارد لتقرير مضمون. قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ فإن الطغيان أعظم أنواع التدسية، والطغوى ـ بالفتح ـ مصدر بمعنى الطغيان إلا أنه لما كان أشبه برؤوس الآيات.. اختير على لفظ الطغيان وإن كان الطغيان أشهر، وفي «الكشف»: الطغوى من الطغيان، فصلوا بين الاسم والصفة في فعلىٰ من بنات الياء بأن قلبوا الياء واواً في الاسم، وتركوا القلب في الصفة. والباء فيه للسببية، أي: فعلت التكذيب بسبب طغيانها، كما تقول: ظلمني بجراءته على الله تعالى، فالفعل منزل منزلة اللازم، فلا يقدر له مفعول وهو المشهور، أو كذبت ثمود نبيها صالحاً عليه السلام، فحُذف المفعول للعلم به، ويجوز أن يكون صلة للتكذيب؛ أي: كذبت بما أوعدت به من العذاب ذي الطغوى والتجاوز عن الحد، وهو الصيحة، كقوله تعالى: ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾؛ أي: بصيحة ذات طغيان.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ بفتح الطاء، وقرأ الحسن والجحدري ومحمد بن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

كعب وحماد بن سلمة بضم الطاء، فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان، وإنما قُلبت الياء واواً للفرق بين الاسم والصفة، لأنهم يقلبون الياء في الأسماء كثيراً نحو: تقوى وسروى، وعلى القراءة الثانية هو مصدر كالرجعى والحسنى ونحوهما، وكان قياسها الطغيا بالياء كالسقيا، لكنهم شذوا فيه، وقيل: هما لغتان، والمعنى؛ أي: كذبت ثمود نبيَّها صالحاً عليه السلام بسبب طغيانها وبغيها، ثم بيّن أمارة ذلك التكذيب، فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾: منصوب بـ﴿كذبت﴾ أو بـ﴿بالطغوى﴾؛ أي: حين قام أشقى ثمود، وهو قُدار بن سالف امتثالاً لأمر من بعثه إليه، فإن ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾ مطاوع لبعث، يقال: بعثت فلاناً على أمرٍ فانبعث له وامتثل.

قال في «كشف الأسرار»: الانبعاث: الإسراع في الطاعة للباعث، أو حين قام قدار، ومن تصدى معه لعقر الناقة من الأشقياء، فإن أفعل التفضيل إذا أضيف يصلح للواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث، ويدل على[1] الأول قوله تعالى، في سورة القمر: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾، فإنه يدل على أن المباشر واحد معين، وفضل شقاوتهم على من عداهم مباشرتهم العقر مع اشتراك الكل في الرضى به. ﴿فَقَالَ لَهُمۡ﴾؛ أي: لثمود ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ حين علم ما عزموا عليه من العقر، وهو صالح عليه السلام بن عبيد بن جابر بن ثمود بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، فالإضافة فيه للعهد، عبر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته وبياناً لغاية عتوهم وتماديهم في الطغيان ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب[2] على التحذير وإن لم يكن من الصور التي يجب فيها حذف العامل، وأضيفت إليه تعالى للتشريف، كبيت الله؛ أي: ذروا ناقة الله الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته، وعلى نبوتي، واحذروا عقرها ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾؛ أي: شربها، وهو نصيبها من الماء، ولا تطردوها عنه في نوبتها، فإنها كان لها شرب يوم معلوم، ولهم ولمواشيهم شرب يوم آخر، وكانوا يستضرون بذلك في مواشيهم، فهموا بعقرها، قال أبو حيان[3]: وقرأ الجمهور: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ بنصب التاء، وهو منصوب على التحذير مما يجب إضمار عامله، لأنه قد عُطف عليه، فصار حكمه بالعطف حكم المكرر، كقولك: الأسد الأسد؛ لأن العامل في التحذير يضمر وجوباً في ثلاثة مواضع:

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

أحدها: أن يكون المحذر به نفس إياك وبابه.

الثاني: أن يكون عطف.

الثالث: أن يكون هناك تكرار، كقولك: الأسد الأسد اهـ. من «السمين» بتصرف، وما ذكرناه آنفاً نقلاً عن صاحب «الروح» فغير سديد.

والمعنى(١): أي فقال لهم صالح عليه السلام: احذروا ناقة الله التي جعلها آية نبوتي، واحذروا شربها الذي اختصت به في يومها، فلا تؤذوها ولا تتعدَّوْا عليها في شربها ولا في يوم شربها، وكان صالح عليه السلام قد اتفق معهم على أن للناقة شرب يوم، ولهم ولمواشيهم شرب يوم، فكانوا يجدون في أنفسهم حرجاً لذلك ويتضررون منه، فهموا بقتلها، فحذرهم أن يفعلوا ذلك، وخوفهم عذاب الله تعالى وعقابه الذي ينزله بهم إن هم أقدموا على هذا الفعل، لكنهم كذبوه ولم يستمعوا النصيحة، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: فكذبوا رسول الله صالحاً عليه السلام في وعيده لهم بقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ قال أبو حيان: والجمهور على أنهم كانوا كافرين، وروي أنهم كانوا قد أسلموا قبل ذلك، وتابعوا صالحاً بمدة، ثم كذبوا وعقروا، كما قال: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ أي: فعقر الناقة أشقاهم قدار بن سالف، وأسند العقر إلى الجماعة؛ لكونهم راضين به ومتمالئين عليه، قال قتادة: إنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم، قال الفراء: عقرها اثنان، والعرب تقول: هذان أفضل الناس وهذان خير الناس، فلهذا لم يقل أشقَياها؛ أي: عقرها قدار ومن ساعده في رجليها، فأسقطوها، ثم ذبحوها، فتقاسموا لحمها. قال السهيلي(٢): العاقر قدار بن سالف، وأمه قديرة، وصاحبه الذي شاركه في عقر الناقة اسمه مصدع بن وهر أو ابن جهم، والعقر: النحر، وقدم التكذيب على العقر؛ لأنه كان سبب العقر، وفي الحديث أنه ﷺ قال لعلي: «يا علي أتدري من أشقى الأولين؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «عاقر الناقة، قال: أتدري من أشقى الآخِرين؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «قاتلك» رواه أحمد وابن أبي حاتم والحاكم وأبو نعيم وغيرهم عن عمار بن ياسر.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أنهم لم يتورعوا عن تكذيبه، ولم يحجموا عن عقر الناقة، ولم يبالوا بما أنذرهم به من العذاب وأليم العقاب، ثم بيّن عاقبة عملهم، وذكر ما يستحقونه من الجزاء، فقال: ﴿فَدَمْدَمَ﴾؛ أي: أطبق ﴿عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أليم العذاب وشديد العقاب ﴿بـ﴾ سبب ﴿ذنبهم﴾ الشنيع؛ وهو الصيحة الهائلة، وأهلكهم هلاك استئصال، ولم يُبق منهم دَيَّاراً ولا نافخ نار.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَدَمْدَمَ﴾ بميم بعد دالين، وقرأ ابن الزبير: ﴿فدهدم﴾ بهاء بينهما، قال القرطبي: وهما لغتان، كما يقال: امتقع لونه واهتقع لونه؛ أي: أطبق عليهم العذاب مكرراً ذلك عليهم، وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمومة إذا طُليت بالشحم وأحيطت به، بحيث لم يبق منها شيء لم يمسه الشحم، ودم الشيء سدّه بالقبر، ودممت على القبر وغيره إذا أطبقت عليه، ثم كررت الدال؛ للمبالغة في الإحاطة، فالدمدمة من الدم كالكبكبة من الكب. وقوله: ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾؛ أي: بسبب[3] ذنبهم المحكي والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للإنذار بعاقبة الذنب؛ ليعتبر به كل مذنب ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾؛ أي: فسوى القبيلة في العقوبة، ولم يفلت منها أحد، بل أخذ بها كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ فأعاد عليها الضمير بالتأنيث، كما أعاد عليها في قوله: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أو سوى الدمدمة والإهلاك بينهم، فعمهم بها، واستوت على صغيرهم وكبيرهم، وقيل: سوى الأرض عليهم، فجعلهم تحت التراب؛ أي: جعل الأرض فوقهم مستوية كأن لم تُثر ودمر مساكنها على ساكنيها. روي أنهم لما رأوا علامات العذاب.. طلبوا صالحاً عليه السلام أن يقتلوه، فأنجاه الله تعالى، كما قال في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ ﴿الواو﴾[4] للاستئناف، أو للحال من الضمير المستتر في ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ الراجع إلى الله تعالى؛ لأنه أقرب مذكور، والضمير في ﴿عُقْبَٰهَا﴾؛ للدمدمة؛ أي: سوى الله سبحانه وتعالى الدمدمة عليهم حال كونه تعالى غير خائف عاقبة الدمدمة عليهم ولا تبعتها، أو عاقبة هلاك ثمود، كما يخاف سائر المعاقبين

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.

من الملوك والولاة، فيترحم بعض الترحم، وذلك أن الله تعالى لا يفعل إلا بحق، وكل من فعل بحق فإنه لا يخاف عاقبة ما فعل، ولا يبالي بعاقبة ما صنع وإن كان من شأنه الخوف، وقيل: الضمير في ﴿يَخَافُ﴾ إلى العاقر؛ أي: ولا يخاف قدار ولا هم ما يعقب عقرها ويتبعه وما يترتب عليه من أنواع البلاء والمصيبة والعقاب، مع أن صالحاً عليه السلام قد أخبرهم بها، وقال السدي والضحاك والكلبي: إن الضمير يرجع إلى العاقر؛ لأن الكلام فيه لا إلى الله؛ أي: لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع، وقيل الضمير إلى صالح عليه السلام؛ أي: ولا يخاف رسول الله عليه السلام عاقبة إهلاك قومه ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، والأول أولى، وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالواو، وقرأ نافع وابن عامر وأبيٌّ والأعرج: ﴿فلا تخاف﴾ بالتاء، وقرىء: ﴿ولم يخف﴾ وهو مروي عن النبي ﷺ، ذكره في «المراح».

والمعنى: أن الله أهلكهم ولا يخاف عاقبة إهلاكهم[2]؛ لأنه لم يظلمهم فيخيفه الحق، وليس هو بالضعيف حتى يناله منهم مكروه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والمراد أنه بالغ في عذابهم إلى غاية ليس فوقها غاية، فإن من يخاف العاقبة لا يبالغ في الفعل، أما الذي لا يخاف العاقبة ولا تبعة العمل، فإنه يبالغ فيه؛ ليصل إلى ما يريد، وقد علمت أن القصص مسوق لتسلية رسوله ﷺ بأنه سينزل بالمكذبين من قومه مثل ما أنزل بثمود، ولقد صدق الله وعده، فأهلك من أهلك من أهل مكة في وقعة بدر بأيدي المؤمنين، ثم لم يزل يحل بهم الخزي والعذاب بالقتل تارة وبالإبعاد أخرى، حتى لم يبق في جزيرة العرب مكذب، ولو سارت الدعوة سيرتها في عهد الصحابة.. لما بقي في الأرض مكذب، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الإعراب

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾﴾.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿الشمس﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً؛ لكونه مع الواو تقديره: أقسم بالشمس، والجملة القسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَضُحَىٰهَا﴾: معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾. ﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾: معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾ أيضاً. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بفعل القسم المحذوف. ﴿تَلَىٰهَا﴾: فعل ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على ﴿القمر﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾؛ أي: وأقسم بالقمر وقت تلوه وتبعه للشمس فإن قلت: إن فعل القسم إنشاء وزمانه للحال، فلا يعمل في ﴿إِذَا﴾؛ لأنها للاستقبال.

قلت: إنما يكون فعل القسم للحال إذا لم يكن متعلقاً على شرط، فيجوز أن يقال: أقسم بالله إذا طلعت الشمس، فالقسم في الحال والطلوع في المستقبل، ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾ أيضاً ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بفعل القسم المحذوف، وجملة ﴿جَلَّىٰهَا﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾. ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف مجرد متعلق بفعل القسم المحذوف، وجملة ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: اسم موصول بمعنى مَن في محل الجر معطوف على ﴿السماء﴾. ﴿بَنَىٰهَا﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾، ومفعول به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، والمصدر المنسبك منها ومن الفعل معطوف على ﴿السماء﴾؛ أي: وأقسمت بالسماء وبنائها، فالمصدر بمعنى اسم الفاعل؛ أي: أقسمت بالسماء وبانيها، وهو الرب سبحانه. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾، ﴿وَمَا﴾: اسم موصول بمعنى مَن معطوف على ﴿الأرض﴾، وجملة ﴿طَحَىٰهَا﴾ صلة الموصول، ويجوز أن تكون مصدرية أيضاً وإن منعه الزمخشري. ﴿وَنَفۡسٖ﴾: معطوف على ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾. ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿نفس﴾، وجملة ﴿سَوَّىٰهَا﴾ صلة لـ﴿ما﴾ موصولة كانت أو مصدرية؛ أي: أقسمت بنفس ومن سواها. ﴿فَأَلۡهَمَهَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ألهمها﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول معطوف على ﴿سَوَّىٰهَا﴾. ﴿فُجُورَهَا﴾:

مفعول ثان. ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾: معطوف على ﴿فُجُورَهَا﴾. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿أَفْلَحَ﴾: فعل ماض. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، وجملة ﴿زَكَّىٰهَا﴾: صلة الموصول، وجملة ﴿أَفْلَحَ﴾: جواب القسم، وحذفت اللام لطول الكلام، وقيل: الجواب محذوف تقديره: لتبعثن كما مر بسطه. ﴿زَكَّىٰهَا﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ و﴿الهاء﴾: مفعول به، وقيل: الفاعل ضمير يعود على الله، و﴿الهاء﴾: يعود على ﴿مَن﴾ بمعنى النفس؛ أي: من زكاها الله تعالى بالطاعة، وتكون الصلة سببية. ﴿وَقَدْ خَابَ﴾: فعل ماض، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ على كونها جواب القسم، وجملة ﴿دَسَّىٰهَا﴾ صفة لـ﴿من﴾ الموصولة.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾: فعل وفاعل؛ ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾: متعلق بـ﴿كذبت﴾، و﴿الباء﴾: فيه سببية، والجملة الفعلية مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها. ﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿كذبت﴾ أو بـ﴿طغواها﴾. ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾: فعل ماض. ﴿أَشْقَىٰهَا﴾: فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿فَقَالَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قال﴾: فعل ماض ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿قال﴾. ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾. ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على التحذير بفعل محذوف وجوباً تقديره: ذروا ناقة الله. ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾: معطوف على ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قال﴾؛ أي: قال لهم: اتركوا عقرها واحذروا سقياها؛ أي: شربها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿قال﴾. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على كذبوه؛ أي: عقرها قدار ومن ساعده في رجليها، فأوقعوها فذبحوها، وتقاسموا لحمها. ﴿فَدَمْدَمَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿دمدم﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿رَبُّهُم﴾: فاعل. ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾: متعلق

بـ﴿دمدم﴾؛ والجملة معطوفة على ﴿عقروها﴾. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الرب، ومفعول به معطوف على ﴿دمدم﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو حالية، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَخَافُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الرب، ﴿عُقْبَٰهَا﴾: مفعول به، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿سواها﴾، ويجوز أن تكون الواو عاطفة، فتكون الجملة معطوفة على جملة ﴿سواها﴾، وكونها عاطفة يلائم قراءة الفاء، وهي سبعية أيضاً، وممن قال بأنها عاطفة، ابن خالويه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلشَّمْسِ﴾: وهو كوكب نهاري ينسخ وجوده ظلمة الليل. ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ قال القرطبي: الضحىٰ: مؤنثة، يقال: ارتفعت الضحىٰ فوق الضحو، وقد تذكر، فمن أنَّث ذهب إلىٰ أنها جمع ضحوة، ومن ذكَّر إلىٰ أنها اسم علىٰ فعل، نحو: صرد، وقال ابن خالويه: الضحىٰ: مقصور مثل: هدىٰ، والضحىٰ مؤنثة، تصغيره: ضحية، والأجود أن يقال في تصغيرها: ضحي بغير هاء؛ لئلا يشبه تصغيرها تصغير ضحوة، والضحىٰ: وجه النهار.

وفي «القاموس»: والضحو والضحوة والضحية كعشية: ارتفاع النهار، والضحىٰ: فويقه، ويذكر ويصغر ضحياً بلا هاء، والضَّحَاء بالمد: إذا قرب انتصاف النهار، وبالضم والقصر، وأتيتك ضحوة وضحى، وأضحىٰ: صار فيها، وأضحىٰ الشيء: أظهره، وضاحاه: أتاه فيها. انتهىٰ.

ومعنى ﴿وَضُحَىٰهَا﴾؛ أي: وضوئها ونورها المشرق المنبسط علىٰ وجه الأرض المضاد للظل، وفيه إعلال بالقلب، أصله: ضحوها، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، وإنما رسمت ياءً جرياً علىٰ قانون العرب من رسمهم ما كان من ذوات الواو مكسور الأول، أو مضمومه بالياء، وقيل: لأنها ترجع في بعض التصاريف إلى الياء، كقولك في تصغير ضحىٰ: ضحيٌ.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾؛ أي: تبعها من التلو بمعنىٰ التبع. قال الراغب: يقال: تلاه: إذا تبعه متابعة ليس بينهما ما ليس منهما، وذلك يكون تارةً بالجسم، وتارةً بالاقتداء في الحكم، ومصدره: تِلو وتُلو، وتارة بالقرآن وتدبر المعنى، ومصدره:

تلاوة، ثم قال قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ فإنما يراد به ههنا الإتباع على سبيل الابتداء والمرتبة، وذلك أنه فيما قيل: إنه القمر يقتبس النور من الشمس، وهو لها بمنزلة الخليفة، وأصله: تلوها واوي اللام، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾؛ أي: كشف الشمس، وأتم وضوحها، وأصله: جَلَّيَها بوزن فعّل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿يَغْشَىٰهَا﴾ أصله: يَغْشَيَها، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ فيه إعلال بالقلب أيضاً، أصله: بَنَيَها قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

والسماء: كل ما ارتفع فوق رأسك، والمراد به: هذا الكون الذي فوقك، وفيه الشمس والقمر وسائر الكواكب التي تجري في مجاريها.

﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾؛ أي: ومن بناها ورفعها، وجعل كل كوكب من الكواكب بمنزلة لبنة من بناء سقف، أو قبة تحيط بك.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: وهي كل ما أسفل تحت رجلك، والمراد بها: هذا الكون الذي تحتك، وفيها: البحار والأنهار والأشجار والأحجار.

﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾؛ أي: ومن بسطها وجعلها فراشاً ومهاداً لنا؛ لأن ما يظهر للرائي فيها يكون كالبساط، فلا ينافي كرويتها، والطحو كالدحو بمعنى البسط، وإبدال الطاء من الدال جائز، وأصله: طَحَوَها بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، وفي «المختار»: طحاه: بسطه، مثل دحاه، وبابه: عدا، وفي «القاموس»: وطحا يطحو: بعد وهلك، وألقى إنساناً على وجهه.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾؛ أي: ومن سواها؛ أي: ركب فيها القوى الظاهرة والباطنة، وجعل لكل منها وظيفة تؤديها، وأصله: سَوَّيَها بوزن: فعَّل المضعف، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَأَلْهَمَهَا﴾؛ أي: عرفها ومكنها ﴿فُجُورَهَا﴾ والفجور ما يكون سبباً في الخسران والهلكة.

﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ والتقوى: إتيان ما يحفظ النفس من سوء العاقبة، والألف في

التقوى ألف التأنيث، وقد مر ما فيه من التصريف غير ما مرة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾؛ أي: أصاب الفلاح، وهو إدراك المطلوب ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ أي: طهرها من أدناس الذنوب، وأصله: زَكَّيَها بوزن: فعل، وأصل هذه الياء واو، فقلبت ياء لوقوعها رابعة، ثم تحركت بعد فتح، فقلبت ألفاً.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾؛ أي: خسر ﴿مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ أي: أنقصها وأخفاها بالذنوب والمعاصي، قال الشاعر:

وَدَسَّسْتُ عَمْرَاً فِيْ ٱلتُّرَابِ فَأَصْبَحَتْ حَلائِلُهُ مِنْهُ أَرَامِلَ ضُيَّعَا

وأصله: دسسها، قلبت السين الثالثة ياءً لتوالي الأمثال، ثم قلبت ألفاً لتحركها بعد فتح. وفي «القاموس»: خاب يخيب خيبة: حُرِم وخسر وكفر، ولم ينل ما طلب، وأصل دس: دسس، كتقضَّى البازي، وتقضض من التدسيس، وهو الإخفاء مبالغة الدس، واجتماع الأمثال، لَمَّا أوجب الثقل.. قلبت السين الأخيرة ياءً، وقال الراغب: الدسُّ: إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإكراه، ودساها؛ أي: دسسها في المعاصي. انتهى.

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ الطغوى والطغيان: مجاوزة الحد المعتاد، وكلاهما مصدر لطغى، وفي «الكشف»: الطغوىٰ من الطغيان، فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الياء، بأن قلبوا الياء واواً في الاسم، وتركوا القلب في الصفة، فقالوا: امرأة خزيا وصديا من الخزى بالفتح والقصر بمعنى: الاستحياء، ومن الصدى بمعنى: العطش ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ قام ونهض لعقر الناقة.

﴿أَشْقَىٰهَا﴾؛ أي: أشقى ثمود، وهو قُدار بن سالف بوزن غراب، وكان هذا الرجل أشقر أزرق قصيراً، وهو أمير ثمود، وكان فيهم عزيزاً شريفاً نسيباً مطاعاً، ومعنى قدار في الأصل الجزار، كما في «البيضاوي»، ويضرب به المثل، فيقال: أشأم من قدار، وأصل أشقى أَشْقَيَ صيغة التفضيل، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عليه السلام: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ احذروا التعرض لناقة الله ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾؛ أي: شربها الذي خصها به في يومها، والألف في ﴿سقياها﴾ منقلبة عن ياء، والأصل: سُقْيَيَها أعلت الياء الثانية بالقلب؛ لتحركها بعد فتح.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ أي: فنحروها ﴿فَدَمْدَمَ﴾؛ أي: فأطبق عليهم العذاب، يقال: دمدم عليه القبر أطبقه، ويقال: دم الشيء سدّه بالقبر، ودممت على القبر وغيره إذا أطبقت عليه، ثم كررت الدال؛ للمبالغة في الإحاطة، فالدمدمة من الدم كالكبكبة من الكب، تقول العرب: دممت على فلان بالتخفيف، ثم تقول من المبالغة: دممت بالتشديد، ثم تقول من تشديد المبالغة دمدمت، والتركيب يدل على غشيان الشيء بالشيء.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾؛ أي: فسوى القبيلة في العقوبة، فلم يفلت منها أحد، وأصله سَوَّيَها، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح.

﴿وَلَا يَخَافُ﴾ أصله يَخْوَف بوزن يفعل مضارع خَوِف بكسر العين، نقلت حركة الواو إلى الخاء، ثم قلبت ألفاً؛ لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن.

﴿عُقْبَٰهَا﴾؛ أي: عاقبة الدمدمة وتبعتها. وفي «القاموس»: وأعقبه الله بطاعته جازاه، والعقبى: جزاء الأمر، وألفه للتأنيث كالرجعى والذكرى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿الشمس﴾ و﴿القمر﴾ في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ وبين ﴿الليل﴾ و﴿النهار﴾ في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾؛ لأنه لما كان جلاء الشمس واقعاً في النهار.. أسند فعل التجلية إليه إسناداً مجازياً مثل نهاره صائم.

ومنها: اختيار صيغة المضارع على الماضي؛ للدلالة على أنه لا يجري عليه تعالى زمان، فالمستقبل عنده تعالى، كالماضي في التحقيق، وفيه أيضاً مراعاة الفواصل؛ إذ لو أتى به ماضياً.. لكان التركيب إذا غشيها، فتفوت المناسبة اللفظية بين الفواصل والمقاطع .اهـ «خطيب».

ومنها: تنكير نفس في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾؛ للتفخيم على أن المراد

به آدم عليه السلام، أو للتكثير وهو الأنسب للجواب.

ومنها: تقديم الفجور على التقوى مع كونه أخس لمراعاة الفواصل، أو لشدة الاهتمام بنفيه؛ لأنه إذا انتفى الفجور.. وجدت التقوى، فقدم ما هم بشأنه أعنىٰ.

ومنها: الطباق بين الفجور والتقوى في هذه الآية.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.

ومنها: الإضافة للعهد في قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وهو صالح بن عبيد عليه السلام.

ومنها: التعبير فيه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته، وبياناً لغاية عتوهم وتماديهم في الطغيان.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ كبيت الله، أضيفت إليه سبحانه تشريفاً لها؛ لأنها خرجت من حجر أصم معجزة لصالح عليه السلام.

ومنها: التعبير بصيغة التكرير في قوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾ إفادة للتهويل والتفظيع؛ لأن التعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب الواقع بهم وإطباقه عليهم.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ على اعتبار أن الضمير في ﴿يَخَافُ﴾ عائد إلى الله عز وجل وهو الظاهر؛ أي: أنه تعالى لا يخاف عاقبتها، كما تخاف الملوك عاقبة أفعالها، والمقصود من الاستعارة إهانتهم وإذلالهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على مقصدين:

١ ـ الإقسام بالمخلوقات العظيمة على أن من طهر نفسه بالأخلاق الفاضلة.. فقد أفلح وفاز، وأن من أغواها ونقصها حقها بجهالته وفسوقه.. فقد خاب.

٢ ـ ذكر ثمود مثلاً لمن دس نفسه، فاستحق عذاب الله الذي هو له أهل[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تمت سورة الشمس فيما بين العشاءين من ليلة الثلاثاء، ليلة الثلاثين من شهر شوال، من شهور سنة: ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.. آمين.

سورة الليل

سورة الليل مكية عند الجمهور[1]، نزلت بعد سورة الأعلى، وقيل: مدنية، وأخرج ابن الضريس والنحاس والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: إحدى وعشرون آية. وكلماتها: إحدى وسبعون كلمة. وحروفها: ثلاث مئة وعشرون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[2]: أنه سبحانه ذكر هناك فلاح المطهرين لأنفسهم، وخيبة المدسين لها، وهنا ذكر ما يحصل به الفلاح، وما تحصل به الخيبة، ثم حذر النار، وذَكَر مَن يصلاها ومن يجتنبها، فهذه السورة كالتفصيل لسابقتها.

ومن فضائلها: ما أخرجه البيهقي في «سننه» عن جابر بن سمرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الظهر والعصر: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾، ونحوها.

وأخرج الطبراني في «الأوسط» عن أنس أن رسول الله ﷺ صلى بهم الهاجرة، فرفع صوته فقرأ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾، فقال له أبي بن كعب: يا رسول الله أمرت في هذه الصلاة بشيء؟ قال: «لا ولكن أردت أن أوقِّت لكم» وقد تقدم حديث «فهلا صليت بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾» وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إني لأقول: إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾، وسميت سورة الليل؛ لبدايتها بلفظ الليل.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم رحمه الله تعالى سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله أعلم

* * *

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا
مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ
بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ
وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا
الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ
الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين[(١)] أن سعي الناس مختلف في نفسه وعاقبته، وأرشد إلى أن المحسن في عمله يوفقه الله تعالى إلى أعمال البر، وأن المسيء فيه يسهل له الخذلان.. أردفه بأنه قد أعذر إلى عباده تقديم البيان الذي تتكشف معه أعمال الخير والشر جميعاً، ووضح السبيل أمام كل سالك، فإن شاء.. سلك الخير فسلم وسعد، وإن أراد.. ذهب في طريق الشر فتردى في الهاوية.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة من أولها إلى آخرها: ما أخرجه ابن أبي حاتم وغيره من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال، وكان الرجل إذا جاء فدخل الدار، فصعد إلى النخلة ليأخذ منها التمر.. ربما سقطت التمرة، فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من نخلته حتى يأخذ التمرة من أيديهم، وإن وجدها في فم أحدهم.. أدخل أصبعه حتى يخرج التمرة من فمه، فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ، فأخبره بما يلقىٰ من

(١) المراغي.

صاحب النخلة، فقال له النبي ﷺ: «اذهب» ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة، فقال له النبي ﷺ: «أعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان، ولك بها نخلة في الجنة» فقال له الرجل: يعجبني ثمرها وإن لي لنخلاً كثيراً، وما فيها نخلة أعجب إلي ثمرة منها، فذهب الرجل، ثم جاء النبيَّ ﷺ رجل كان سمع كلام رسول الله ﷺ مع صاحب النخلة، فقال: يا رسول الله: أتعطيني ما أعطيت الرجل نخلة في الجنة إن أنا أخذتها؟ قال: «نعم» فذهب الرجل فلقي صاحب النخلة فساومها منه، فقال له: أشعرت أن محمداً أعطاني بها نخلة في الجنة، فقلت له: يعجبني ثمرها، فقال له الرجل: أتريد بيعها؟ فقال: لا إلا أن أُعطى بها ما أريد، ولا أظن أن أُعطى، فقال له: فما مناك فيها؟ قال: أربعون نخلة. قال: لقد جئت بأمر عظيم، ثم سكت عنه، فقال له: أنا أعطيك أربعين نخلة، فقال له: أشهد لي إن كنت صادقاً، فمر ناس فدعاهم، فأشهدهم له على أربعين نخلة، ثم ذهب إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله: إن النخلة صارت في ملكي فهي لك، فذهب رسول الله ﷺ إلى صاحب الدار، فقال: إن النخلة لك ولعيالك، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ . . .﴾ الآيات، وصاحب النخلة رجل خزرجي وكان منافقاً، ومات على نفاقه، والذي اشترى النخلة هو الصحابي الجليل أبو الدحداح ـ رضي الله عنه ـ قال ابن كثير هذا حديث غريب جداً.

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ . . .﴾ الآيات، روي أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وقد كان من أمره أن بلال بن رباح ـ رضي الله عنه ـ وكان مولى لعبد الله بن جدعان جاء إلى الأصنام وسلح عليها، فشكا كفار مكة إلى مولاه فوهبه لهم، ووهب لهم مئة من الإبل ينحرونها لآلهتهم، فجعلوا يعذبونه ويخرجونه إلى الرمضاء، وكان يقول وهم يعذبونه: أحد أحد، وكان رسول الله ﷺ يمر به وهو يعذب فيقول له: «ينجيك أحد»، ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ بما يلقى بلال في الله، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب وابتاعه من المشركين، وأعتقه، فقال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده، فنزل قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ . . .﴾ الآيات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾؛ أي: وأقسم بالليل إذا يغطي[1] بظلمته ما كان مضيئاً، قال الزجاج: يغشى الليل الأفق، وجميع ما بين السماء والأرض، فيُذهب ضوء النهار، وقيل يغشى: النهار، وقيل يغشى: الأرض، والأول أولى، و﴿إِذَا﴾ للحال[2]؛ لكونها بعد القسم، كما مر في السورة السابقة؛ أي: أقسم بالليل حين يغشى الشمس، ويغطيها ويسترها، كقوله: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ فعدم ذكر المفعول للعلم به أو النهار، أو كل ما يواريه بظلامه، فعدم ذكر المفعول للتعميم، والليل عند أهل النجوم: ما بين غروب الشمس وطلوعها، وعند أهل الشرع: ما بين غروبها وطلوع الفجر الصادق، ولعله المراد هنا، والنهار ما يقابله على كلا الضبطين.

قال بعض أهل المحبة:

وَٱللَّيْلُ دَاجٍ وَٱلْعُصَاةُ نِيَامُ　　وَٱلْعَابِدُوْنَ لِذِيْ ٱلْجَلَالِ قِيَامُ

﴿و﴾ أقسم بـ﴿النهار﴾ وضوئه ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛ أي: ظهر وانكشف، ووضح؛ لزوال الظلمة التي كانت في الليل، إن كان المغشي غير الشمس، أو تبين وتكشف بطلوع الشمس، وإن كان المغشي الشمس، واختلاف الفاصلتين بالمضي والاستقبال؛ للدلالة على أنه لا يجري عليه تعالى زمان، فالمستقبل عنده تعالى كالماضي في التحقق ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾؛ أي: وأقسم بالذي خلق وأوجد الذكر والأنثى، فـ﴿ما﴾ موصولة، وعبر عن[3] من بـ﴿ما﴾؛ للدلالة على الوصفية، ولقصد التفخيم، كما في قوله: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾؛ لأنها[4] لتوغلها في الإبهام أفادت أن الوصف الذي استُعملت هي فيه بالغ إلى أقصى درجات القوة والكمال بحيث كان مما لا يكتنه كنهه، وأنه لا سبيل للعقل إلى إدراكه بخصوصه، وإنما الممكن هو إدراكه بأمر عام صادق، واللامان[5] للحقيقة، ويجوز أن تكونا للاستغراق.

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.
(٥) روح البيان.

والمعنى: أي وأقسم بالقادر العظيم القدرة الذي خلق صنفي الذكر والأنثى من كل نوع له توالد، فخرج مثل البغل والبغلة، وقيل: إن الله سبحانه لم يخلق خلقاً من ذوي الأرواح ليس بذكر ولا أنثى، والخنثى وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل معلوم بالذكورة أو الأنوثة، فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه ذكراً ولا أنثى، وقد لقي خنثي مشكلاً.. كان حانثاً؛ لأنه في الحقيقة إما ذكر أو أنثى وإن كان مشكلاً عندنا، كما في «الكشاف»، وقال الكلبي ومقاتل يعني آدم وحواء، فتكون ﴿اللام﴾ للعهد، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾، والظاهر العموم، وقيل: مخصوص ببني آدم؛ لاختصاصهم بولاية الله وطاعته، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: وبخلق الذكر والأنثى.

قرأ الجمهور(١): ﴿تَجَلَّىٰ﴾ فعلاً ماضياً فاعله ضمير ﴿النهار﴾، وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير: ﴿تتجلى﴾ بتائين أعني: الشمس، وقرىء: ﴿تُجْلى﴾ - بضم التاء وسكون الجيم - أي: الشمس، وقرأ الجمهور(٢): ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ③﴾ وقرأ ابن مسعود: ﴿وَالذكرِ والأنثى﴾ بدون ﴿ما خلق﴾ قال علقمة: قدمنا الشام فأتانا أبو الدرداء - رضي الله عنه - فقال: أفيكم من يقرأ قراءة عبد الله بن مسعود؟ فأشاروا إلي، فقلت: نعم أنا، فقال: كيف يقرأ هذه الآية؟ قلت: سمعته يقرأ: ﴿والذكرِ والأنثى﴾ قال: وأنا هكذا، والله سمعت رسول الله يقرؤها، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأها: ﴿وَمَا خَلَقَ﴾ فلا أتابعهم.

وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④﴾ جواب القسم، والمصدر(٣) بمعنى الجمع؛ لما عُرف أن المصدر المضاف من صيغ العموم، ولذلك أخبر عنه بالجمع، و﴿شتى﴾ جمع شتيت كمرضى ومريض، وهو المفترق المتشتت، والمعنى: إن مساعيكم؛ أي: أعمالكم أيها العباد لمختلفة حسب اختلاف الاستعدادات الأزلية، فبعضها حسن نافع خير صالح، وبعضها قبيح ضار شر فاسد، وفي الحديث: «الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها، أو بائع نفسه فموبقها».

وحاصل ما في المقام: أن الله سبحانه أقسم(٤) بما أقسم على أن سعي البشر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

مختلف فأقسم:

١ - بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مستقره، ويسكن عن الاضطراب؛ إذ يغشاه النوم الذي فيه راحة لبدنه وجسمه.

٢ - بالنهار الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم، وفيه تغدو الطير من أوكارها، وتخرج الهوام من أجحارها.

٣ - بالقادر العظيم الذي خلق الذكر والأنثى، وميز بين الصنفين، مع أن المادة التي تَكَوَّنا منها واحدة، والمحل الذي تكونا فيه واحد، وفي ذلك دليل على تمام العلم وعظيم القدرة، كما قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾، فقال ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ أقسم بالليل حين يغشى الأشياء ويواريها في ظلامه، ويكون فيه مستراح للناس من أعمالهم بما يشملهم من النوم والهدوء ﴿و﴾ أقسم بـ﴿النهار إذا تجلى﴾ بزوال ظلمة الليل، فيتحرك الإنسان والحيوان طلباً لمعاشهما، وبهذا يظهر وجه المصلحة في اختلافهما؛ إذ لو كان الدهر كله ليلاً.. لتعذر المعاش على الناس، ولو كان كله نهاراً.. لبطلت المصلحة، فكان في تعاقبهما آية بالغة يُستدل بها على علم الصانع وحكمته.

إقرأ إن شئت قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ ﴿و﴾ أقسم بـ﴿ما خلق الذكر والأنثى﴾؛ أي: بالقادر العظيم الذي خلق الذكر والأنثى من ماء واحد، وفي هذا[1] دليل على أنه عليم جد العلم بدقائق المادة وما فيها؛ إذ لا يُعقل أن يكون هذا التخالف بين الذكر والأنثى في الحيوان بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعور لها بما تفعل، فإن الأجزاء الأصلية في المادة متساوية النسبة فيهما، فحدوث هذا التخالف في الجنين دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل، حكيم فيما يصنع ويضع.

وقصارى ما سلف: أن بعض الماء يكون تارة سبباً للحمل، وأخرى يكون غير مستعد للتلقيح، والأول يكون من بعضه الذكران، ومن بعضه الإناث، سبحانه ما

---

(١) المراغي.

أعظم قدرته وأجل حكمته، لا إله إلا هو الفعال لما يريد، ثم ذكر المحلوف عليه، فقال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾؛ أي: إن أعمالكم أيها الناس لمتباعدة متفرقة، بعضها ضلال وعماية، وبعضها هدى ونور، وبعضها يستحق النعيم، وبعضها يستحق العذاب الأليم، كما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠﴾. وقوله: ﴿فَأَمَّا﴾ بيان وتفصيل لتلك المساعي المختلفة وتبيين لأحكامها، و﴿الفاء﴾ للإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن سعيكم شتى، وأردتم بيانها وتفصيلها لكم.. فأقول لكم: أما ﴿مَنْ أَعْطَىٰ﴾؛ أي: أدى حقوق الله عليه بامتثال المأمورات، وأداء الواجبات، وحقوق الناس عليه بأداء أموالهم عليه، ووفاء البيعة للإمام مثلاً، فإن مطلق الإعطاء يتناول إعطاء حقوق المال وإعطاء حقوق النفس في طاعة الله تعالى، يقال: فلان أعطى الطاعة وأعطى البيعة، وقيل: معنى الإعطاء: إنفاق المال في جميع وجوه الخير من عتق الرقاب، وفك الأسارى، وتقوية المسلمين على عدوهم .اهـ من «الرازي».

﴿وَاتَّقَىٰ﴾؛ أي: اجتنب[1] محارم الله التي نهى عنها، ومن جملتها المن والأذى ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾؛ أي: بالخصلة الحسنى، وهي الإيمان أو الكلمة الحسنى، وهي كلمة التوحيد، أو بالملة الحسنى، وهي ملة الإسلام، أو بالمثوبة الحسنى، وهي الجنة، والحسنى تأنيث الأحسن ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾؛ أي: فسنُهَيِّئُه ونوفقه ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾؛ أي: للخصلة التي تؤدي إلى يسر وراحة، كدخول الجنة ومباديه، والمعنى: فسنيسر له الإنفاق في سبيل الخير والعمل بالطاعة لله تعالى التي تؤديه إلى الجنة.

قال الواحدي[2]: قال المفسرون: نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق، اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم في الله، كما مر؛ أي: نهيئه للحالة التي هي أيسر عليه وأهون، وذلك في الدنيا والآخرة، وفي «الخطيب»: واختُلف في الحسنى، فقال ابن عباس: أي: بـ: لا إله إلا الله؛ أي: مع محمد رسول الله، والمعنى: وصدَّق بالتوحيد والنبوة، وذلك لأنه لا ينفع مع

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

الكفر إعطاء مال ولا اتقاء محارم، وقال مجاهد: بالجنة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وقال زيد بن أسلم: الصلاة والزكاة والصوم. ومعنى التيسير[1]: التهيئة لا ما يقابل التعسير، ومنه قوله: «كل ميسر لما خلق له» فلا حاجة إلى أن يقال: استُعمل التيسير في العسرى على المشاكلة كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ يقال يَسَّر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها، واليسرى تأنيث الأيسر فوصف الخصلة باليسرى مجاز باعتبار كونها مؤدية إلى اليسرى.

فائدة[2]: ذكروا أن ﴿السين﴾ في ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾؛ للتلطيف، قال الشريف الصفوي: مرادهم بالتلطيف ترقيق الكلام بمعنى أن لا يكون نصاً صريحاً في المقصود، بل يكون محتملاً لغير المقصود، فهو كالشيء الرقيق الذي يمكن تغييره ويسهل، ويقابل الكثيف بمعنى أن يكون نصاً في المقصود؛ لأنه لا يمكن تغييره وتبديله، فهو كالشيء الكثيف الذي لا يمكن فيه ذلك، فالمقصود هٰهنا أن التيسير حاصل في الحال، لكن أُتي بالسين الدالة على الاستقبال، والتأخير لتلطيف الكلام وترقيقه باحتمال أن لا يكون التيسير حاصلاً، فكانت تقتضي ذلك.

ومعنى الآيات[3]: أي فأما من أعطى المال وأنفقه في وجوه الخير سواء كان واجباً عليه أم لا كالصدقات والنوافل، كفك الأسارى، وتقوية المسلمين على عدوهم، وابتعد عن كل ما لا ينبغي، فحمى نفسه عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وخاف من إيصال الأذى إلى الناس ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾؛ أي: وصدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب ونحو ذلك مما هو مركوز في طبيعة الإنسان، وهو مصدر الصالحات وأفعال البر والخير، ولا يكون تصديقاً حقاً، ولا ينظر الله إليه إلا إذا أصدر عنه الأثر الذي لا ينفك عنه، وهو بذل المال واتقاء مفاسد الأعمال.

وكثير من الناس يظن نفسه مصدقاً بفضل الخير على الشر، ولكن هذا التصديق يكون سراباً في النفس خَيَّلَه الوهم؛ لأنه لا يصدر منه ما يليق به من الأثر، فتراه قاسي القلب بعيداً عن الحق، بخيلاً في الخير، مسرفاً في الشر، ثم ذكر جزاءه على ذلك، فقال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾؛ أي: فسنهيئه لأيسر الخطتين وأسهلهما في أصل الفطرة، وهو تكميل النفس إلى أن تبلغ المقام الذي تجد فيه

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات. (٣) المراغي.

سعادتها، فالإنسان إنما يمتاز عن غيره من الحيوان بالتفكير في الأعمال ووزنها بنتائجها، فإذا حصل ذلك وظهرت آثاره فيها.. سهل الله له ما هو مسبوق إليه بأصل فطرته، وفاعل الخير للخير يجد أريحية في نفسه ويذوق لذة لا تعدلها لذة، فتزيد فيه رغبته وتشتد لفعله عزيمته، هذا هو التيسير الإلهي، والذي يوفق الله له الصالحين من عباده.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾؛ أي[1]: بماله، فلم يبذله في سبيل الخير، والبخل: إمساك المقتنيات عما لا يليق حبسها عنه، ويقابله الجود ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾؛ أي: زهد فيما عند الله من الأجر والثواب؛ أي: لم يرغب فيه، كأنه مستغن عنه فلم يتق، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة، فلم يتق، فيكون الاستغناء مستتبعاً لعدم الاتقاء الذي هو مقابل الاتقاء في الآية الأولى، وبه يحصل التقابل بينهما ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾﴾؛ أي: ما ذكر من المعاني المتلازمة التي هي الإيمان أو كلمة التوحيد أو ملة الإسلام أو الجنة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: فسنهيئه للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة، كدخول النار ومقدماته؛ لاختياره لها، ونسهلها له حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح، ويضعف عن فعلها، فيؤديه ذلك إلى النار، ولعل تصدير[2] القسمين بالإعطاء والبخل، مع أن كلاً منهما أدنى رتبة مما بعدهما في استتباع التيسير لليسرى والتيسير للعسرى؛ للإيذان بأن كلاً منهما أصيل فيما ذُكر لا تتمة لما بعدهما من التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء.

والظاهر[3]: أن ﴿السين﴾؛ للدلالة على الجزاء الموعود بمقابلة الطاعة والمعصية، وهو يكون في الآخرة التي هي أمر متراخ منتظر، فأُدخلت ﴿السين﴾ وهي حرف التأخير؛ ليدل ذلك على أن الوعد آجل غير حاضر، كذا في بعض التفاسير. وقيل العسرى[4]: الشر، وذلك أن الشر يؤدي إلى العذاب والعسرة في العذاب، والمعنى عليه: سنهيئه للشر بأن نجريه على يده، قال الفراء: سنيسره: سنهيئه، والعرب تقول: قد يَسَّرَت الغنم إذا ولدت، أو تهيأت للولادة.

قال الشاعر:

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

هُـمَـا سَـيِّـدَانِ يَـزْعُـمَـانِ وَإِنَّـمَـا يَـسُـوْدَانِـنَـا إِنْ يَـسَّـرَتْ غَـنَـمَـاهُـمَـا

والمعنى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ⑧﴾؛ أي[1]: وأما من أمسك ماله، أو أنفق في شهواته، ولم ينفقه فيما يقرب من ربه، وخدعته ثروته وجاهه، فظن أنه بذلك لا يحتاج إلى أحد، ولا يحس بأنه واحد من الناس يصيبه ما أصابهم من السوء ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ⑨﴾؛ أي: وكذب بأن الله يخلف على المنفقين في سبيله، فبخل بماله، ولم ينفق إلا فيما يلذ له ويمتعه في حاضره، ولا يبالي بما عدا ذلك، ويدخل في المكذبين بالحسنى، أولئك الذين يتكلمون بها تقليداً لغيرهم، ولا يظهر أثرها في أعمالهم ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ⑩﴾؛ أي: ومن مرنت نفسه على الشر وتعودت الخبث، فيسهل الله له الخطة العسرى، وهي الخطة التي يحط بها قدر نفسه، وينزل بها إلى حضيض الآثام، ويغمسها في أوحال الخطيئة ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾؛ أي[2]: وما يدفع عنه ماله الذي بخل به شيئاً من عذاب الله، فـ﴿ما﴾: نافية، والمفعول محذوف أو؛ أي شيء يدفع عنه ماله الذي بخل به، فـ﴿ما﴾ استفهامية في محل النصب مفعول ﴿يُغْنِى﴾، والاستفهام للإنكار ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾؛ أي: هلك ومات تفعل من الردى؛ للمبالغة والردى، كالفتى وهو الهلاك، قال الراغب: الردى الهلاك، والتردي التعرض للهلاك. انتهى. أو تردى وسقط في الحفرة إذا قُبِر، أو تردى في قعر جهنم، يقال: ردى الرجل في البئر يردى ردى إذا سقط فيها، وتردى إذا هلك، فالمال الذي ينتفع به الإنسان في الآخرة وقت حاجته هو الذي أعطى حقه، وقدمه دون الذي بخل به وتركه لوارثه.

والمعنى[3]: أي وإذا يسرناه للعسرى، فأي شيء يُغني عنه ماله الذي بخل به على الناس، ولم ينفقه في المصالح العامة؟ وفيما يعود نفعه على الجماعة، ولم يصحب منه شيئاً إلى آخرته التي هي موضع حاجته وفقره؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ⑫﴾ استئناف مقرِّر لما قبله؛ أي: إن علينا بموجب قضائنا المبني على الحِكَم البالغة حيث خلقنا الخلق للعبادة أن نبين لهم طريق الهدى وما يؤدي إليه، وطريق الضلال وما يؤدي إليه، وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه، حيث بيّنّا حال من

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

سلك كلا الطريقين ترغيباً وترهيباً، ومن[1] هنا تبين أن الهداية هي الدلالة على ما يوصل إلى البغية، لا الدلالة الموصلة إليها قطعاً، وإن المراد بالوجوب المفهوم من على الوجوب بموجب القضاء ومقتضى الحكمة، فلا تكون الآية بظاهرها دليلاً على وجوب الأصلح عليه تعالى، كما يزعم المعتزلة، قال الفراء: إن علينا للهدى والإضلال، فحذف الإضلال، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وقيل: المعنى: إن علينا ثواب هداه الذي هديناه.

والخلاصة: أي إنّا خلقنا الإنسان وألهمناه التمييز بين الحق والباطل وبين الخير والشر، ثم بعثنا له الكملة من أفراده وهم الأنبياء، وشرعنا لهم الأحكام، وبينا لهم العقائد تعليماً وإرشاداً، ثم هو بعد ذلك يختار أحد السبيلين سبيل الخير والفلاح، والسبيل المعوج، فيتردى في الهاوية.

وقصارى ذلك: أن الإنسان خلق نوعاً ممتازاً من سائر الحيوان بما أوتيه من العقل، وبما وضع له من الشرائع التي تهديه إلى سبيل الرشاد، ثم زاد الأمر توكيداً، فأبان عظم قدرته، فقال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: وإن لنا التصرف الكلي فيهما كيفما نشاء من الأفعال التي من جملتها ما وعدنا من التيسير لليسرى، والتيسير للعسرى، أو المعنى: إن لنا كل ما في الآخرة وكل ما في الدنيا نتصرف فيه كيف نشاء، فمن أرادهما أو إحداهما.. فليطلب ذلك منا، ومن طلبهما من غير مالكهما.. فقد أخطأ، وقيل المعنى: إن لنا ثواب الآخرة وثواب الدنيا.

والخلاصة: أي وإنا لنحن المالكون لكل ما في الدنيا وكل ما في الآخرة، فنهب ما نشاء لمن نريد، ولا يضرنا أن يترك بعض عبادنا الاهتداء بهدينا الذي بيناه لهم، ولا يزيد في ملكنا اهتداء من اهتدى منهم؛ لأن نفع ذلك وضره عائد إليهم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما ربك بظلام للعبيد.

وإذا كان مُلْك الحياتين لله.. كان هديه هو الذي يجب أن اتابعه فيهما؛ لأن المالك لأمر هو العالم بوجوه التصرف فيه، ثم بيّن سبيل الهداية التي أوجبها على

---

(١) روح البيان.

نفسه، فقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾؛ أي: حذرتكم وخوفتكم يا أهل مكة في القرآن ﴿نَارًا﴾ هائلة عظيمة ﴿تَلَظَّىٰ﴾؛ أي: تتوقد وتتوهج، وأصله: تتلظى، فحذفت إحدى التاءين للتخفيف، فإن النار[1] مؤنث وُصفت به، ولو كان ماضياً.. لقيل: تلظت مع أن المراد بوصفها دوام التلظي بالفعل الاستمراري، وفي بعض التفاسير: المراد من ﴿أنذرتكم﴾ إنشاء الإنذار، كقولهم: بعت واشتريت، أو إخبار يراد به الإنذار السابق في مثل قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ فإنها أول سورة نزلت عند الأكثرين، وهذا أشد تخويفاً من أن يقال: خافوا واتقوا ناراً تلظى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَلَظَّىٰ﴾ بتاء واحدة، وقرأ ابن الزبير وزيد بن علي وطلحة بن مصرف وسفيان بن عيينة وعبيد بن عمير: ﴿تتلظى﴾ بتاءين على الأصل، وقرأ البزي بتاء مشددة ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾؛ أي: لا يصلى تلك النار صلياً لازماً، ولا يدخلها دخولاً مؤبداً، أو لا يقاسي صلاها، وهو حرها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾؛ أي: إلا الزائد في الشقاوة، وهو الكافر، فإنه أشقى من الفاسق، وإن صَلِيَها غيره من العصاة، فليس صَلْيُهُ كصَلْيِهِ، فالفاسق لا يصلاها صلياً لازماً، ولا يدخلها دخولاً أبدياً، كما يدل عليه قوله الآتي: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾، وفي «كشف الأسرار» يعني: الشقي، والعرب تسمي الفاعل أفعل في كثير من كلامهم، منه قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾، وقوله: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، ثم وصف الأشقى، فقال: ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالحق الذي جاءت به الرسل ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾؛ أي: أعرض عن الطاعة والإيمان، وليس هذا إلا الكافر.

والمعنى[3]: أي لرحمتنا بكم وعلمنا الكامل بمصالحكم أسدينا إليكم الهدى، فأنذرناكم ناراً تلتهب يعذب فيها من كذب الرسول ﷺ فيما جاء به من الآيات، وأعرض عن اتباع شرائعه، وانصرف عن وجهة الحق، ولم يعد إليها تائباً نادماً. قال الزجاج: هذه الآية هي التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر[4]، ولأهل النار منازل، فمنها أن المنافقين في الدرك

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

الأسفل من النار، والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب، فجدير أن يعذب به، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ فلو كان كل من لم يشرك لا يعذب.. لم يكن في قوله سبحانه: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ فائدة، وقال في «الكشاف»: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقيل: ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾، وجُعل مختصاً بالصلي، كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل: ﴿ٱلۡأَتۡقَى﴾ وجُعل مختصاً بالنجاة، كأن الجنة لم تُخلق إلا له، وقيل: المراد بالأشقى أبو جهل، أو أمية بن خلف، وبالأتقى أبو بكر الصديق ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾؛ أي: ويبعد[1] عن تلك النار بحيث لا يسمع حسيسها، والفاعل المُجَنِّب المبعد هو الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلۡأَتۡقَى﴾؛ أي: المبالغ في الإتقاء عن الكفر والمعاصي، فلا يحوم حولها، فضلاً عن دخولها أو صليها الأبدي، وأما مَن دونه ممن يتقي الكفر دون المعاصي؛ وهو المؤمن الشقي الفاسق الغير التائب، فلا يبعد عنها هذا التبعيد يصلاها، وإن لم يذق شدة حرها، كما ذاق الكافر؛ لكونه في الطبقة الفوقانية من طبقات النار، فلذلك لا يستلزم صليها بالمعنى المذكور، فلا يقدح في الحصر السابق. قال الواحدي: الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين انتهى، والأولى حمل الأشقى والأتقى عن كل متصف بالصفتين المذكورتين.

والحاصل[2]: أن من تمسك من المرجئة بقوله: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥﴾ زاعماً أن الأشقى هو الكافر؛ لأنه الذي كذب وتولى، ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين، فيقال له: فما تقول في قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧﴾ فإنه يدل على أنه لا يجنب عن النار إلا الكامل في التقوى، فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين.. لم يكن ممن يجنب النار، فإن أولت التقوى بوجه من وجوه التأويل.. لزمك مثله في الأشقى، فخذ هذه إليك مع تلك، وكن كما قال الشاعر:

عَلَىٰ أَنَّنِيْ رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الْهَوَىٰ ... وَأُخْرَجَ مِنْهُ لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِيَا

وقيل: أراد بالأشقى والأتقى الشقي والتقي، كما قال طرفة بن العبد:

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

تَـمَـنَّـى أُنَـاسٌ أَنْ أَمُـوْتَ وَإِنْ أَمُـتْ   فَـتِـلْـكَ سَـبِـيْـلٌ لَـسْـتُ فِـيْـهَـا بِـأَوْحَـدِ

أي: بواحد، ولا يخفاك أنه ينافي هذا وصف الأشقى بالتكذيب، فإن ذلك لا يكون، إلا من الكافر، فلا يتم ما أراد قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين، ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى، فقال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾؛ أي[1]: يعطيه ويصرفه في وجوه البر والحسنات حال كونه ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾؛ أي: يطلب أن يكون زاكياً عند الله لا يريد به رياء ولا سمعة، أو متزكياً متطهراً من الذنوب ومن دنس البخل ووسخ الإمساك، فالجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْتِى﴾، ويجوز أن تكون بدلاً من ﴿يُؤْتِى﴾ داخلة في حكم الصلة لا محل لها من الإعراب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ مضارع تزكى، وقرأ علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم -: ﴿يزكىٰ﴾ بإدغام التاء في الزاي.

والمعنى: أي ويبعد عنها المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي الشديد التحرز منهما بحيث لا يخطرهما ببال، ثم وصف الأتقى بأفضل مزاياه، فقال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾؛ أي: إن الأتقى هو الذي يُنفق أمواله في وجوه الخير طالباً بذلك طهارة نفسه وقربها من ربه، لا مريداً بذلك رياء ولا سمعة، ولا طالباً مديح الناس له، فإن ذلك ضرب من النفاق الذي يبطل معه العمل، ولا يكون لصاحبه عليه ثواب مهما أتعب نفسه وأجهدها، فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، وقد أكد هذا بقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ...﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩﴾ استئناف مقرر؛ لكون إيتائه للتزكي خالصاً لوجه الله تعالى؛ أي: وليس لأحد عند ذلك الأتقى نعمة، ومنة من شأنها أن تجزى وتكافأ، فيقصد بإيتائه ما يؤتي من ماله مجازاتها، وإنما[3] قال: ﴿تُجْزَىٰٓ﴾ بصيغة المضارع المبني للمجهول؛ لأجل الفواصل، والأصل: يجزيها إياه، أو يجزيه إياها؛ أي: إنه لا يقصد بإنفاقه المال مكافأة أحد على نعمة كان قد أسلفها، ولا جزاء معروف كان قد تقدم به إليه، ثم أكده مرة ثانية، فقال: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ وطلب رضا ﴿وَجْهِ رَبِّهِ﴾؛ أي: ذات ربه ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الموصوف بالعلو والرفعة على خلقه، وهو استثناء[4]

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.

منقطع من ﴿نِّعْمَةٍ﴾؛ لأن ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ ليس من جنس نعمة تجزى، فالمعنى: لكن فعل ذلك ابتغاء وجه ربه الأعلى؛ أي: لابتغاء ذاته وطلب رضاه، فهو في الحقيقة مفعول له، وما أتى من المال مكافأة على نعمة سالفة، فذلك يجري مجرى أداء الدين، فلا يكون له دخل في استحقاق مزيد الثواب، وإنما يستحق الثواب إذا كان فعله لأجل أن الله سبحانه أمره به وحثه عليه، ومعنى ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الرفيع فوق خلقه بالقهر والغلبة، كما قاله أبو الليث، وقال الفاكهاني: وصف الوجه الذي هو الذات الموجودة مع جميع الصفات بالأعلى؛ لأن الله سبحانه وتعالى بحسب كل اسم وجهاً يتجلى به لمن يدعوه بلسان حاله بذلك الاسم ويعبده باستعداده، والوجه الأعلى: هو الذي له بحسب اسمه الأعلى الشامل لجميع الأسماء، وإن جعلته وصف الرب، فالرب هو ذلك الاسم. انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ بنصب الهمزة، وهو استثناء منقطع؛ لأنه ليس داخلاً في ﴿مِن نِّعْمَةٍ﴾، وقرأ ابن وثاب: بالرفع على البدل من محل ﴿نِّعْمَةٍ﴾؛ لأن محلها الرفع إما على الفاعلية، وإما على الابتداء، و﴿مِن﴾ مزيدة، والرفع لغة تميم؛ لأنهم يجوزون البدل في المنقطع، ويجرونه مجرى المتصل، وقرأ الجمهور أيضاً: ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ بالمد، وقرأ ابن أبي عبلة بالقصر، ثم وعد ذلك الأتقى بالرضا عنه، فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ جواب قسم مقدر؛ أي: وأقسم بالله لسوف يرضى ذلك الأتقى الموصوف بما ذُكر؛ أي: ولسوف يرضيه ربه في الآخرة بثوابه وعظيم جزائه، وقرأ الجمهور: ﴿يَرْضَىٰ﴾ مبنياً للفاعل، وقُرىء مبنياً للمفعول، وهذا وعد كريم[2] بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها؛ إذ به يتحقق الرضى، قال بعضهم: أي: يرضى الله عنه ويرضى هو بما يُعطيه الله في الآخرة من الجنة والكرامة والزلفى جزاء على ما فعل، ولم يُنزل هذا الوعد إلا لرسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ ولأبي بكر - رضي الله عنه - هٰهنا.

وفي قوله: ﴿وَلَسَوْفَ﴾ إيماء[3] إلى أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير، ولا يكفي القليل من المال؛ لأن يبلغ العبد منزلة الرضى الإلٰهي.

وقصارى ما سلف: أن الناس أصناف:

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

١ ـ الأبرار الذين منحهم الله تعالى من قوة العقل وصفاء اليقين ما يجعلهم يبتعدون عن الفواحش، ما ظهر منها وما بطن.

٢ ـ الذين يلون هؤلاء، وهم من تغلبهم الشهوة أحياناً، فيقعون في الذنب، ثم يثوب إليهم رشدهم، فيتوبون ويندمون، وهذان القسمان يدخلان في الأتقى.

٣ ـ من يخلط بين الخير والشر، فيعتقد وحدانية الله تعالى، ويقترف بعض السيئات، ويصر عليها، ولا يتوب منها، فهذا الإصرار منه دليل على أنه غير مصدق حق التصديق بما جاء فيها من الوعيد، يُرشد إلى ذلك قوله ﷺ: «لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» والمراد أن صورة الوعيد تذهب عن ذهن المخالف، وتوجد عنده ضروب أخرى من الصور تقاوم أثر هذه في النفس وتغلب عليها.

٤ ـ الكافرون الجاحدون بالله وبرسله وبما أُنزل عليهم، وهذان القسمان يشملهما الأشقى، وقد أُعدت النار لكل منهما إلا أن الفاسقين لا يخلّدون فيها، ويدخلها الكافرون، وهم فيها خالدون.

الإعراب

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿الليل﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بالليل، وجملة القسم مستأنفة. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بفعل القسم، وجملة ﴿يَغۡشَىٰ﴾ في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾: معطوف على الجملة التي قبله مماثل لها في إعرابها حرفاً بحرف. ﴿وَمَا خَلَقَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾ اسم موصول بمعنى مَن معطوف على ﴿الليل﴾، أو مصدرية على ما تقدم. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾؛ أي: ومن خلق الذكر، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلذَّكَرَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾: معطوف عليه. ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَشَتَّىٰ﴾: خبره، واللام حرف ابتداء، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب؛ أي: أقسم بهذه المذكورات على أن أعمالكم لمختلفة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن سعيكم شتى، وأردتم بيان تفصيلها.. فأقول لكم: ﴿أما من أعطى﴾... إلخ. ﴿أما﴾: حرف شرط. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أَعْطَىٰ﴾ صلته والمفعول محذوف، تقديره: أي أعطى وأدى حقوق الله وحقوق العباد الواجبة عليه. ﴿وَاتَّقَىٰ﴾: معطوف على ﴿أَعْطَىٰ﴾. ﴿وَصَدَّقَ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿بِالْحُسْنَىٰ﴾: متعلق بـ﴿صدق﴾. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها، و﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿نيسره﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به. ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾: متعلق بـ﴿نيسره﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.
﴿وَأَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أمّا﴾: حرف شرط. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿بَخِلَ﴾ صلته. ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾: معطوف على ﴿بَخِلَ﴾. ﴿وَكَذَّبَ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿بِالْحُسْنَىٰ﴾: متعلق بـ﴿كذب﴾: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أمّا﴾، وجملة ﴿نيسره﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ. ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾: متعلق بـ﴿نيسر﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿أمّا﴾، وجملة ﴿أمّا﴾ معطوفة على جملة ﴿أما﴾ السابقة؛ ﴿وَمَا يُغْنِي﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يُغْنِي﴾: فعل مضارع. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق بـ﴿يُغْنِي﴾. ﴿مَالُهُ﴾: فاعل، والمفعول محذوف؛ أي: العذاب، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾. أو ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿يُغْنِي﴾. ﴿يُغْنِي﴾: فعل مضارع. ﴿مَالُهُ﴾: فاعل، والجملة جملة إنشائية مستأنفة، أي: أي شيء يُغني عنه ماله. ﴿إِذَا﴾: ظرف مجرد عن معنى الشرط متعلق بـ﴿يُغْنِي﴾، وجملة ﴿تَرَدَّىٰ﴾ في محل الخفض بإضافة إذا إليها ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿عَلَيْنَا﴾ خبر مقدم لـ﴿إنَّ﴾. ﴿لَلْهُدَىٰ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، والجملة مستأنفة. ﴿وإنَّ﴾:

﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لَنَا﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم. ﴿لَلْآخِرَةَ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿وَٱلْأُولَىٰ﴾ معطوف على ﴿لَلْآخِرَةَ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ التي قبلها. ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿أنذرتكم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿نَارًا﴾ مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة مقدرة، تقديرها: فمن طلب الدنيا والآخرة من غير مالكهما الحقيقي، وهو الله سبحانه.. فقد أخطأ الطريق، وضل سواء السبيل ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ إلخ. أو الجملة مستأنفة. وجملة ﴿تَلَظَّىٰ﴾ صفة لـ﴿نَارًا﴾، وهو مضارع مرفوع؛ لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الأخير منع من ظهورها التعذر. أصله: تتلظى، كما مر في مبحث التفسير.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَا﴾ نافية. ﴿يَصْلَىٰهَآ﴾: فعل مضارع مرفوع ومفعول به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْأَشْقَى﴾: فاعل، والجملة في محل النصب صفة ثانية لـ﴿نَارًا﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة لـ﴿ٱلْأَشْقَى﴾، وجملة ﴿كَذَّبَ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ معطوفة على ﴿كَذَّبَ﴾ داخلة في حيز الصلة. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿يجنبها﴾: فعل مضارع ومفعول به. ﴿ٱلْأَتْقَى﴾: نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة لـ﴿ٱلْأَتْقَى﴾. ﴿يُؤْتِى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿مَالَهُۥ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة إما بدل من ﴿يُؤْتِى﴾ فلا محل لها من الإعراب؛ لأنها داخلة في حيز الصلة، وإما في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْتِى﴾؛ أي: حال كونه متزكياً به عن دنس الذنوب والمعاصي. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية مهملة. ﴿لِأَحَدٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿نِّعْمَةٍ﴾، أو من الضمير المستكن في الخبر الظرفي. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿نِّعْمَةٍ﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿تُجْزَىٰٓ﴾ صفة لـ﴿نِّعْمَةٍ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع بمعنى لكن؛ لأنه من غير الجنس؛ لأن ابتغاء وجه ربه

ليس من جنس النعمة؛ أي: ما لأحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، والأحسن أن يعرب ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعولاً لأجله؛ لأن المعنى: لا يؤتي ماله إلا ابتغاء وجه ربه، لا لمكافأة نعمة. ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مضاف. ﴿وَجْهِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَجْهِ﴾: مضاف. ﴿رَبِّهِ﴾: مضاف إليه، وكثرة الإضافة لا تخرج الكلام عن الفصاحة؛ لورودها في الكتاب والسنة، كما هنا، ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: صفة لـ﴿وَجْهِ﴾ أو لـ﴿رَبِّهِ﴾. ﴿وَلَسَوْفَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس للاستقبال البعيد. ﴿يَرْضَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْأَتْقَى﴾، أو على أبي بكر الصديق الذي كان سبباً لنزول الآية، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾؛ أي: يُغطي كل شيء، فيواريه بظلامه، والليل: ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق، كما مر، وهو ظل الأرض الحائل ما بين الشمس وما عليها، وأصله: يَغْشَيُ بوزن: يفعل، قُلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ والنهار: ما بين طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس؛ أي: انكشف وظهر بظهوره كل شيء، وأصل تجلى تَجَلَّيَ بوزن تفعل، قُلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ والذكر: حيوان له قوة التلقيح، والأنثى حيوان له قوة الإحبال.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ وشتى: جمع شتيت، كمرضى مريض، وهو المفترق المتشتت، وفي «المصباح»: شت شتاً ـ من باب ضرب ـ إذا تفرق، والاسم الشتات، وشيء شتيت وِزان كريم متفرق، وقوم شتى ـ بوزن فعلى ـ متفرقون، وجاؤوا أشتاتاً كذلك، وشتان ما بينهما؛ أي: بعد.

﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ وأصل تردى تَرَدَّيَ بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، يقال: تردى يتردى تردياً، فهو مترد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ يقال: تردى في بئر وفي أهوية وفي هلكة إذا وقع، ويقال: رَدِيَ زيد يَرْدَىٰ رَدًى إذا هلك، وأرداه الله يُردِيه إرداء إذا أهلكه، قال الراغب: الردى

الهلاك، والتردي: التعرض للهلاك انتهى كما مر، يقال: تردى في البئر إذا سقط في حفرتها، وتردى في جهنم إذا سقط في قعرها.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ والحسنى: مؤنث الأحسن، وكذا اليسرى مؤنث الأيسر.

﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ مضارع تلظى، أصله: تَتَلَظَّيُ بوزن تتفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً؛ أي: تتلهب.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ أصله: يَصْلَيُ بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح؛ أي: لا يقاسي حرها.

﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ صيغة التفضيل أصله: الأشقَيُ، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أصله: تولَّيَ بوزن تفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ٱلْأَتْقَى﴾ صيغة التفضيل، أصله: الأتقَيُ، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ أصله: يتزكَّيُ بوزن يتفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿تُجْزَىٰٓ﴾ أصله تجزَيُ، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: ابتغاي، أُبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة.

﴿يَرْضَىٰ﴾ أصله يرضَيُ بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: حذف المفعول للعلم به إن كان المحذوف الشمس؛ أي: حين يغشى الشمس ويغطيها ويسترها، أو للتعميم إن كان المحذوف غيرها؛ أي: يغشى النهار، أو كل ما يواريه بظلامه، فعدم ذكر المفعول للعلم به في الأول، وللتعميم في الثاني، كما مر.

ومنها: اختلاف الفاصلتين في قوله: ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾ وقوله: ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ بالاستقبال في الأول والماضي في الثاني إشعاراً باستواء الماضي والمستقبل عنده تعالى.

ومنها: الطباق بين لفظة: ﴿ٱلْأَشْقَى﴾، ولفظة ﴿ٱلْأَتْقَى﴾، وبين ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ وبين ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾.

ومنها: الاشتقاق في قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾؛ لأن اليسرى هنا من التيسير، لا من اليسار.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿صدق﴾ و﴿كَذَّبَ﴾، وبين ﴿أَعْطَىٰ﴾ و﴿بَخِلَ﴾.

ومنها: تصدير القسمين بالإعطاء والبخل، مع أن كلاً منهما أدنى رتبة مما بعدهما في استتباع التيسير لليسرى، والتيسير للعسرى؛ للإيذان بأن كلاً منهما أصيل فيما ذُكر، لا تتمة لما بعدهما من التصديق والقوة والتكذيب والاستغناء.

ومنها: الإتيان بسين الاستقبال في القسمين؛ للدلالة على أن الجزاء الموعود في مقابلة الطاعة والمعصية آجل غير حاضر يكون في الآخرة التي هي أمر متراخ منتظر.

ومنها: حذف المفعول في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ ...﴾ الآيات إفادة للتعميم؛ ليذهب ذهن السامع مع كل مذهب.

ومنها: الطباق بين ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ و﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ وبين ﴿ٱلذَّكَرَ﴾ و﴿وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾.

ومنها: التعبير بـ﴿ما﴾ التي لغير العاقل بدل من التي للعاقل؛ لأنها لتوغلها في الإبهام أفادت أن الوصف الذي استُعملت هي فيه بلغ إلى أقصى درجات القوة والكمال بحيث كان مما لا يُكتنه كنهه، وأنه لا سبيل للعقل إلى إدراكه بخصوصه، وإنما الممكن هو إدراكه بأمر عام صادق.

ومنها: الاقتصار على الذكر والأنثى في هذه الآية إشعاراً بأن الله لم يخلق خلقاً من ذوي الأرواح ليس بذكر ولا أنثى، والخنثى وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله تعالى غير مشكل معلوم بالذكورة أو بالأنوثة، كما في «الروح».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مقاصد هذه السورة

أولاً: بيان أن الناس في الدنيا فريقان:

١ ـ فريق يهيئه الله سبحانه للخصلة اليسرى، وهم الذين أعطوا الأموال لمن يستحقها، وصدقوا بما وعد الله من الإخلاف على ما أنفقوا.

٢ ـ فريق يهيئه الله للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة، وهم الذين بخلوا في الأموال، واستغنوا بالشهوات، وأنكروا ما وعد الله تعالى به من ثواب الجنة.

ثانياً: الجزاء في الآخرة لكل منهما، وجعله إما جنة ونعيماً، وإما ناراً وعذاباً أليماً[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تمت سورة الليل في منتصف الليلة الثامنة من شهر ذي القعدة من شهور سنة: ١٤١٦ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الضحى

سورة الضحى مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة الفجر، وأخرج[1] ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت والضحى بمكة.

وآياتها: إحدى عشرة آية، وكلماتها[2]: أربعون كلمة، وحروفها: مئة واثنان وأربعون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في السابقة قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾ وكان ﷺ سيد الأتقياء وصفي الأصفياء.. عقَّب ذلك سبحانه بذكر نعمه عز وجل عليه ﷺ. وقال الشيخ موسى جار الله ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «نظم الدرر» سورة الضحى: أن النبي ﷺ وضعها بعد سورة الليل؛ ليتصل رضى النبي الكريم برضى خليفته بعده، وقدم رضى خليفته؛ لأن ابتغاء وجه الله قبل كل شيء.

التسمية: وتسميتها بالضحى: لبدايتها بلفظ الضحى، وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الضحى كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: ومن فضائلها ما تقدم في سورة الشمس من الحديث الصحيح، ومنها[3] ما أخرجه الحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» من طريق أبي الحسن المقرىء قال: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على قسطيْطين، فلما بلغت ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ قال: كَبِّر حتى تختم، وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، فأمره بذلك، وأخبر مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك، وأخبره ابن

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) الشوكاني.

عباس أن أُبيَّ بن كعب أمره بذلك، وأخبر أبي: أن رسول الله ﷺ أمره بذلك، وأبو الحسن المقرىء المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرىء. قال ابن كثير: فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم ابن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات، وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي، وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث، قال ابن كثير: ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته، فقال بعضهم: يكبر من آخر سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾، وقال آخرون من آخر الضحى، وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول: الله أكبر، ويقتصر، ومنهم من يقول: الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر، وذكروا في مناسبة التكبير من أول الضحى: أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ، وفتر تلك المدة، ثم جاء الملك، فأوحى إليه ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ . . .﴾ السورة كبر فرحاً وسروراً، ولم يَرْوُوا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف.

سبب نزولها: اتفق الرواة على أن سبب نزول هذه السورة الكريمة إنما هو حصول فترة انقطاع في توالي نزول الوحي على رسول الله ﷺ، فظن أو توهّم أن الله عز وجل قد تركه وقلاه، فأنزل الله عز وجل هذه السورة؛ ليلقي الطمأنينة في نفسه ﷺ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾﴾.

المناسبة

قد سبق لك قريباً بيان المناسبة بين أول هذه السورة وآخر ما قبلها، وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾...﴾ إلى آخر السورة مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه[1] لما ذكر رضاه عن رسوله، ووَعْدَه له أن يمنحه من المراتب والدرجات ما يرضيه ويثلج قلبه.. أردف ذلك ببيان أن هذا ليس عجباً منه جل شأنه، فقد أنعم عليه بالنعم الجليلة قبل أن يصير رسولاً، فكيف يتركه بعد أن أعده لرسالته، ثم نهاه عن أمرين: قهر اليتيم وزجر السائل؛ لما لهما من أكبر الأثر في التعاطف والتعاون في المجتمع، ولما فيهما من الشفقة بالضعفاء وذوي الحاجة، ثم أمره بشكره على نعمه المتظاهرة عليه باستعمال كلٍ منها في موضعها، وأداء حقها.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة[2]: ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.

وأخرج سعيد بن منصور والفريابي عن جندب قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ، فقال المشركون: قد وُدع محمد، فنزلت هذه السورة.

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال: مكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه جبريل، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك، فأنزل سبحانه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ . . .﴾ الآيات.

وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة في «مسنده» والواحدي وغيرهم بسند فيه من لا يُعرف عن حفص بن صبرة القرشي عن أمه عن أمها خولة، وقد كانت خادمة رسول الله ﷺ: أن جرواً دخل بيت رسول الله ﷺ، فدخل تحت السرير، فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: «يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ جبريل لا يأتيني»، فقلت في نفسي لو هيأت البيت فكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء النبي ﷺ يرعد بجبينه، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة، فأنزل الله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾.

قال الحافظ ابن حجر: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، بل شاذ مردود بما في «الصحيح».

وأخرج[1] ابن جرير عن عبد الله بن شداد أن خديجة قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا قد قلاك، فنزلت، وأخرج أيضاً عن عروة قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ، فجزع جزعاً شديداً، فقالت خديجة: إني أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك، فنزلت، وكلاهما مرسل، ورواتهما ثقات، قال الحافظ ابن حجر: فالذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك، لكن أم جميل قالت شماتة، وخديجة قالته توجعاً.

وأخرج الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرض علي ما هو مفتوح لأمتي بعدي، فسرني»، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾ إسناده حسن، وأخرج الحاكم والبيهقي في «الدلائل»، والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال: عُرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته كَفْراً كَفْراً؛ أي: قرية قرية، فسر به، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾.

---

(١) لباب النقول.

وعبارة «الخازن» هنا: واختلفوا في نزول هذه السورة على ثلاثة أقوال[١]:

القول الأول: ما روىٰ الشيخان عن جندب بن سفيان البجلي قال: اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ متفق عليه.

قيل: إن المرأة المذكورة في هذا الحديث هي: أم جميل امرأة أبي لهب، وأخرجه الترمذي عن جندب قال: كنت مع النبي ﷺ في غار، فدميت أصبعه، فقال:

هَلْ أَنْتِ إلاَّ أُصْبُعٌ دَمِيْتِ وَفِي سَبِيْلِ ٱللَّهِ مَا لَقِيْتِ

قال: فأبطأ عليه جبريل، فقال المشركون: قد وُدِّع محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

والقول الثاني: ما قاله المفسرون: سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الروح وعن ذي القرنين وأصحاب الكهف حين أرسلوا إلى قريش، فأمروهم بسؤاله عن هذه الثلاثة، فسألته قريش، فقال: «سأخبركم غداً»، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس الوحي عليه.

والقول الثالث: ما قاله زيد بن أسلم كان سبب احتباس الوحي وجبريل عنه: أن جرواً كان في بيته، فلما نزل عليه عاتبه رسول الله ﷺ على إبطائه، فقال: إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة.

واختلفوا في مدة احتباس الوحي عنه[٢]، فقيل: اثنا عشر يوماً، وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً، وقيل: أربعون يوماً، فلما نزل جبريل عليه السلام.. قال النبي ﷺ: «يا جبريل ما جئتَ حتى اشتقت إليك»، فقال جبريل: إني كنت إليك أشد اشتياقاً، ولكني عبد مأمور، ونزل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، وأنزل هذه السورة.

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَالضُّحَىٰ ①﴾ أقسم بالضحى؛ أي: بالنهار كله بدليل أنه قابله بالليل كله في قوله: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ②﴾ وقيل: أقسم بوقت الضحى، وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس واعتدال النهار في الحر والبرد في الصيف والشتاء، وعلى القول الأول يكون في الكلام مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل، وقرينته مقابلة بالليل، كما قاله البغوي، وقيل: على تقدير المضاف؛ أي: ورب الضحى، فيكون فيه مجاز بالحذف، قالوا: تخصيصه[1] بالإقسام به؛ لأنها الساعة التي كلم الله فيها موسى عليه السلام، وألقي السحرة فيها سجداً؛ لقوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ فكان له بذلك شرف، ومناسبة لمجال المقسم لأجله ﴿وَالَّيْلِ﴾؛ أي: وأقسم بجنس الليل، قال ابن خالويه هو معطوف على ﴿الضحى﴾، لا قسم مستقل؛ لأنه يصلح أن يقع في موضع ﴿الواو﴾ ثم، أو الفاء بأن يقال: ثم الليل مثلاً، وثم لا تكون للقسم. ﴿إِذَا﴾: هذه لمجرد[2] الظرفية، والعامل فيها فعل القسم المقدر مثل ما تقدم، وورد عليه الإشكال المتقدم في سورة الشمس؛ أي: وأقسم بالليل إذا ﴿سَجَىٰ﴾ وغطى بظلامه على كل شيء، قال ابن عباس: إذا أقبل بظلامه، وعنه إذا ذهب، وقيل معناه: إذا سكن واستقر ظلامه وتناهى، فلا يزداد بعد ذلك يعني: أن سكون ظلامه عبارة عن عدم تغيره بالاشتداد، والتنزل، وذلك حين اشتد ظلامه وكمل، فيستقر زماناً، ثم يشرع في التنزل، فإسناد سكون الظلمة الكائنة فيه إليه مجاز علاقته الحلول والظرفية، فإن الزمان ظرف لما فيه، أو إذا سكن أهله فهو مجاز أيضاً، من إسناد ما للشيء إلى زمانه نحو نهاره صائم، وليله قائم، فمعناه: سكون الناس والأصوات، وجميع ما فيه يقال: سجا البحر ـ من باب سما ـ سجواً إذا سكنت أمواجه، وليلة ساجية: ساكنة الريح، وعن جعفر الصادق: إن المراد بالضحى: هو الضحى الذي كلم الله فيه موسى، وبالليل: ليلة المعراج.

فإن قلت: لم قدم هنا[3] ﴿الضحى﴾ على ﴿الليل﴾ وفي السورة التي قبلها قدم ﴿الليل﴾ على ﴿النهار﴾؟

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات. (٣) الفتوحات.

قلت: لأن لكل منهما أثراً في صلاح العالم، ولليل فضيلة السبق، وللنهار فضيلة النور، فقدم هذا تارة وهذا أخرى، أو يقال: إنه قدم الليل في سورة أبي بكر وهي السابقة؛ لأن أبا بكر سبق له كفر، وقدم الضحى في سورة محمد؛ لأنه نور محض، ولم يتقدمه ذنب، ولم يفصل بين السورتين إشارة إلى أنه لا واسطة بين النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه.

فإن قيل: ما الحكمة في ذكر الضحى وهو ساعة من النهار، وذكر الليل بجملته؟

أجيب: بأن ذلك إشارة إلى أن ساعة من نهار توازي جميع الليل، كما أن محمداً ﷺ يوازي جميع الأنبياء، وأيضاً الضحى وقت السرور، والليل وقت الوحشة، ففيه إشارة إلى أن سرور الدنيا أقل من شرورها، وأن غموم الدنيا أدوم من سرورها، فإن الضحى ساعة، والليل ساعات اهـ «خطيب».

ثم ذكر جواب القسم بقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ يا محمد؛ أي: ما تركك ربك يا محمد منذ اختارك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أي: وما أبغضك منذ أحبك، وإنما قال: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ ولم يقل: وما قلاك، لموافقة رؤوس الآي، وقيل معناه: وما قلى أحداً من أصحابك، ومن هو على دينك إلى يوم القيامة.

وقال أبو حيان: وحذف المفعول اختصاراً في ﴿قَلَىٰ﴾، وفي: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، وفي: ﴿فَهَدَىٰ﴾، وفي: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾؛ إذ يعلم أنه ضمير المخاطب، وهو الرسول ﷺ، وقوله: ﴿وَدَّعَكَ﴾[1] من التوديع، وهو مبالغة في الوداع، وهو الترك؛ لأن من ودعك مفارقاً، فقد بالغ في تركك، والوداع وهو الإعلام بالفراق، وقال الراغب: أصل التوديع من الدعة، وهو: أن يدعو للمسافر أن يتحمل الله عنه كآبة السفر، وأن يبلغه الدعة والخفض، كما أن التسليم دعاء له بالسلامة، فصار ذلك متعارفاً في تشييع المسافر وتركه، وعبر به عن الترك في الآية.

والمعنى: ما قطعك ربك يا محمد قطع المودع، وما تركك بالحط عن درجة الوحي والقرب والكرامة، ففيه استعارة تبعية، وإشارة إلى أن الرب لا يترك المربوب، وقرأ الجمهور[2]: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ بتشديد الدال من التوديع، كما مر، وقرأ

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

ابن عباس وعروة بن الزبير وابنه هشام وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة: بتخفيفها من قولهم: ودعه إذا تركه، واستغنت العرب في فصيح كلامها بترك عن ودع ووذر، وعن اسم فاعلهما بتارك، وعن اسم مفعولهما بمتروك، وعن مصدرهما بالترك، وقد سُمع وَدْع ووَذْر.

قال أبو الأسود:

لَيْتَ شِعْرِيْ عَنْ خَلِيْلِيْ مَا ٱلَّذِيْ غَالَهُ فِيْ ٱلْحُبِّ حَتَّىٰ وَدَعَهْ

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أي: وما أبغضك[1]، والقِلىٰ شدة البغض، يقال: قلا زيداً يقلوه أبغضه من القلو؛ وهو الرمي، كما يقال: قلت الناقة براكبها رمت به، فكان المقلو هو الذي يقذفه القلب من بغضه، فلا يقبله، ولعل عطف ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ على ما قبله من عطف السبب على المسبب؛ لإفادة التعليل.

والحاصل: أن[2] الله سبحانه أقسم لرسوله ﷺ بآيتين عظيمتين من آياته في الكون ضحى النهار وصدره، والليل وظلامه أنه ما تركك وما أبغضك كما يقال لك وكما تتوهم في نفسك، ثم ذكر له ما يثلج صدره وما فيه الطمأنينة والبشرى، فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾؛ لما[3] أنها باقية صافية عن الشوائب على الإطلاق ﴿خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: من الدنيا؛ لما أنها فانية مشوبة بالمضار، وسميت بالأولى؛ لأنها خلقت قبل الآخرة على ما قيل، فالمراد بالآخرة والأولى كرامتهما، و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾: لام الابتداء المؤكدة للجملة، لا لام القسم، كما قاله الشوكاني، وفي «التأويلات النجمية»: يعني أحوال نهايتك أفضل وأكمل من أفعال بدايتك، كما أخبر بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ الآية، لأنه ﷺ لا يزال يطير بجناح الشريعة في سماء القرب والكرامة، وهذا حال ورثته.

والمعنى[4]: أي وإن أحوالك في مستأنف حياتك خير لك مما مضى منها، وإن كل يوم ستزداد عزاً إلى عز، وسيرتفع شأنك كل يوم عما قبله، وسأمنحك كل آنٍ جلالاً فوق جلالك ورفعة فوق رفعتك، وكأنه يقول له: لا تظنن أني كرهتك أو

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

تركتك، بل أنت عندي اليوم أشد تمكيناً وأقرب اتصالاً.

ولقد صدق الله وعده، فما زال يسمو بنبيه ويرفع درجته يوماً بعد يوم، حتى بلغ الغاية التي لم يبلغها أحد قبله، فجعله رسول الرحمة والهداية والنور إلى جميع خلقه، وجعل محبته من محبة الله، واتباعه والاقتداء به سبباً للفوز العظيم، وجعله وأمته شهداء على الناس جميعاً، ونشر دينه وبلغ دعوته إلى أطراف المعمورة، فأي فضل فوق ذلك الفضل، وأي نعمة أصفى من هذه النعمة، وأي إكرام فوق هذا الإكرام؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ثم زاده في البشرى، فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ و﴿اللام﴾[1] فيه للابتداء، دخلت على الخبر؛ لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك ربك؛ لأن لام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة الاسمية، وليست للقسم؛ لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة، وجمعها مع ﴿سوف﴾؛ للدلالة على أن الإعطاء كائن لا محالة وإن تراخى لحكمة يعني: أن لام الابتداء لما تجردت؛ للدلالة على التأكيد، وكانت ﴿سوف﴾ تدل على التأخير والتنفيس.. حصل من اجتماعهما أن العطاء المتأخر لحكمة كائن لا محالة، وكانت اللام لتأكيد الحكم المقترن بالاستقبال، وقيل[2]: ﴿اللام﴾: للقسم، قال أبو علي الفارسي: ليست هذه اللام هي التي في قولك: إن زيداً لقائم، بل هي التي في قولك: لأقومن، ونابت ﴿سوف﴾ عن إحدى نوني التوكيد، فكأنه قال: وليعطينك، قيل: المعنى: ولسوف يعطيك ربك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة فترضى، وقيل: الحوض والشفاعة، وقيل: ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك، كما ورد، وقيل: غير ذلك، والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيري الدنيا والآخرة، وأهم ذلك عنده وأقدمه لديه قبول شفاعته لأمته.

﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ ما تعطاه مما يطمئن به قلبك، وهو معطوف على ما قبله بالفاء، والآية عدة[3] كريمة شاملة لما أعطاه الله سبحانه وتعالى في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين، وظهور الأمر وإعلاء الدين بالفتوحات الواقعة في عصره ﷺ، وفي عصر خلفائه الراشدين، وغيرهم من الملوك الإسلامية، وفشوّ الدعوة

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ولما ادخر له من الكرامات التي لا يعلمها إلا الله تعالى، وقد أنبأ عن سمة منها قوله ﷺ: «لي في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابها المسك».

والمعنى[١]: أي ولسوف يظاهر ربك عليك نعمه ويوالي عليك منته، ومنها توارد الوحي عليك بما فيه إرشادك وإرشاد قومك إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وسيظهر دينك على الأديان كلها، وتعلو كلمتك ويرتفع شأنك على شؤون الناس جميعاً.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ شروع في تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم؛ أي: ألم يجدك يا محمد ربك يتيماً بموت أبويك، والاستفهام فيه للتقرير؛ أي: قد وجدك ربك يتيماً، والوجود بمعنى العلم. و﴿يَتِيمًا﴾: مفعوله الثاني. ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ عطف على ما قبله؛ أي: ألم يَعْلَمْك الله يتيماً بلا أب، فجعل لك مأوى تأوي إليه.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ بألف بعد الهمزة رباعياً من آواه يؤويه إذا جعل له مأوى يأوي إليه، وقرأ أبو الأشهب العقيلي: ﴿فأوى﴾ ثلاثياً بلا مد، وهو إما بمعنى الرباعي، أو من أوى له إذا رحمه، يقال: أوى فلان إلى منزله يأوي أوياً على وزن فعول إذا رجع ولجأ إليه، وآويته أنا إيواء، والمأوى كل مكان يأوي إليه الشيء ليلاً أو نهاراً؛ أي: يرجع إليه وينزل فيه، ويجوز أن يكون الوجود بمعنى[٣] المصادفة، و﴿يَتِيمًا﴾ حال من مفعوله، يعني: على المجاز بأن يُجعل تعلق العلم الوقوعي الحالي مصادفة، وإلا فحقيقة المصادفة لا تمكن في حقه تعالى.

روي[٤]: أن أباه عبد الله مات بعد حمله بشهرين، وقيل: قبل ولادته بشهرين، وقيل: بعد ولادته بشهرين، وقيل: بعد ولادته بسبعة أشهر، وقيل: بعدها بتسعة أشهر، وقيل: بعدها بثمانية وعشرين شهراً، والراجح المشهور الأول، وكانت وفاة أبيه بالمدينة المنورة، ودُفن في دار النابغة، وقيل: دُفن بالأبواء قرية من عمل

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) الفتوحات.

الفُرع، وتوفيت أمه، وهو ابن أربع سنين، وقيل: خمس سنين، وقيل: ست سنين، وقيل: سبع سنين، وقيل: ثمان سنين، وقيل: تسع سنين، وقيل: ثنتي عشرة سنة وشهر وعشرة أيام، وكانت وفاتها بالأبواء، وقيل: بالحجون اهـ، من «المواهب» و«شرحه».

وقال بعضهم[1]: لما وُلد رسول الله ﷺ كان مع جده عبد المطلب ومع أمه آمنة، فهلكت أمه آمنة وهو ابن ست سنين، ثم مات جده بعد أمه بسنتين، ورسول الله ابن ثمان سنين، ولما أشرف جده عبد المطلب على الموت.. أوصى به ﷺ أبا طالب؛ لأن عبد الله وأبا طالب كانا من أم واحدة، فكان أبو طالب هو الذي كفل رسول الله ﷺ إلى أن بعثه الله تعالى نبياً، فقام ينصره مدة مديدة، ثم توفي أبو طالب، فنال المشركون منه ﷺ ما لم ينالوا منه في حياة أبي طالب، أي: آذوه، وكان ﷺ يقول: «كنت يتيماً في الصغر وغريباً في الكبر»، وكان يحب الأيتام ويحسن إليهم، وفي الحديث: «من ضم يتيماً، وكان في نفقته.. كفاه مؤنته، كان له حجاباً من النار، ومن مسح رأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة».

وإنما جعله الله سبحانه يتيماً؛ لئلا يسبق إلى قلب بشر أن الذي نال من العز والشرف والاستيلاء.. كان عن تظاهر نسب أو توارث مال أو نحو ذلك، وعن مجاهد، معنى الآية[2]: ألم يجدك واحداً في شرفك لا نظير لك، فآواك الله سبحانه بأصحاب يحفظونك ويحوطونك، فجعل يتيماً من قولهم: درة يتيمة؛ أي: لا نظير لها، وهذا المعنى بعيد جداً، وقيل المعنى: ألم يجدك وحيداً في قريش عديم النظير، فآواك إليه، وأيدك وشرفك بنبوته، واصطفاك برسالته، والأول أولى.

وخلاصة المعنى: أي ألم تكن يا محمد يتيماً لا أب له يعنى: بتربيتك، ويقوم بشؤونك، ويهتم بتنشئتك، فما زال يحميك ويتعهدك برعايتك، ويجنبك أدناس الجاهلية وأوضارها، حتى رقيت إلى ذروة الكمال الإنساني، وقد عاش النبي ﷺ يتيماً؛ إذ توفي أبوه وهو في بطن أمه، فلما وُلد عطَّف الله عليه قلب جده عبد المطلب، فما زال يكفله خير كفالة حتى توفي، والنبي ﷺ يومئذ في السنة الثامنة، فكفله عمه أبو طالب بوصية من عبد المطلب، فكان به حفياً شديد العناية

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

بأمره، وما زال يتعهده حتى كبر وترعرع حتى أرسله الله رسولاً، فقام يؤازره وينصره ويدفع عنه أذى قريش حتى مات، فاستطاعت قريش أن تنال منه، وتجرأ عليه سفهاؤهم، وسلطوا عليه غلمانهم حتى اضطروه إلى الهجرة، ولو تدبر[1] المنصف في رعاية الله له وحياطته بحفظه وحسن تنشئته.. لوجد من ذلك العجب، فقد كان اليتم وحده مدعاة إلى المضيعة وفساد الخلق؛ لقلة من يحفل باليتيم ويحرص عليه، وكان في خلق أهل مكة وعاداتهم ما فيه الكفاية في إضلاله لو أنه سار سيرتهم، لكن عناية الله تعالى كانت ترعاه، وتمنعه السير على نهجهم، فكان الوفي الذي لا يمين والأمين الذي لا يخون والصادق الذي لا يكذب والطاهر الذي لم يدنس برجس الجاهلية.

وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ معطوف[2] على المضارع المنفي، وقيل: هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الذي قبله كما ذكرنا؛ أي: قد وجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، والضلال هنا بمعنى الغفلة، كما في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، وكما في قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ والمعنى: إنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة فهداك إليه، واختار هذا الزجاج، وقيل: معنى ﴿ضَآلًّا﴾ لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع، فهداك لذلك، وقال الكلبي والسدي والفراء: وجدك في قوم ضلال، فهداهم الله بك، وقيل: وجدك ضالاً، أي: طالباً للقبلة، فهداك إليها، كما في قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ ويكون الضلال بمعنى الطلب، وقيل: وجدك ضائعاً في قومك فهداك إليه، فيكون الضلال بمعنى الضياع، وقيل: وجدك محباً للهداية فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى المحبة، ومنه قول الشاعر:

عَجَباً لِعَزَّةَ فِيْ ٱخْتِيَارِ قَطِيْعَتِيْ ... بَعْدَ ٱلضَّلَالِ فَحَبْلُهَا قَدْ أَخْلَقَا

وقيل: وجدك ضالاً في شعاب مكة فهداك؛ أي: ردك إلى جدك عبد المطلب، وعن ابن عباس[3] - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ ضل في شعاب مكة حال صباه، وكان عبد المطلب يطلبه، ويقول متعلقاً بأستار الكعبة:

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

يَـا رَبِّ فَـارْدُدْ وَلَـدِيْ مُـحَـمَّـدَا   رَدًّا إِلَـيَّ وَاصْـطَـنِـعْ عِـنْـدِيْ يَـدَا

فوجده أبو جهل، فرده إلى عبد المطلب، فمن الله عليه حيث خلصه على يدي عدوه، فكان في ذلك نظير موسى عليه السلام حيث التقط فرعون تابوته، ليكون له عدواً وحزناً، فما زال عبد المطلب يكرر هذا البيت عند الكعبة حتى أتاه أبو جهل على ناقة له ومحمد بين يديه، وهو يقول: لا تدري ماذا ترى من ابنك، فقال عبد المطلب: ولِمَ؟ قال: أنخت الناقة وأركبته من خلفي، فأبت الناقة أن تقوم، فلما أركبته أمامي قامت الناقة، وكانت تقول: يا أحمق هو الإمام، فكيف يقوم خلف المقتدي، وقال سعيد بن المسيّب[1]: خرج رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة، فبينما هو راكب ذات ليلة مظلمة إذ جاء إبليس، فأخذ زمام ناقته، فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل عليه السلام، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى الحبشة، ورد رسول الله ﷺ إلى القافلة، فمنَّ الله عليه بذلك، وقيل: الضلال هنا بمعنى الحيرة، وذلك لأنه ﷺ كان يخلو في غار حراء في طلب ما يتوجه به إلى ربه حتى هداه الله لدينه، وقال الجنيد: ووجدك متحيراً في بيان ما أنزل الله إليك فهداك لبيانه، فهذا ما قيل في تفسير هذه الآية، ولا يُلتفت إلى قول من قال: إنه ﷺ كان قبل النبوة على ملة قومه، فهداه الله سبحانه إلى الإسلام، لأن نبينا ﷺ، وكذلك الأنبياء قبله منذ وُلدوا انتشؤوا على التوحيد والإيمان قبل النبوة وبعدها، وإنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بصفات الله تعالى وتوحيده، ويدل على ذلك أن قريشاً عابوا النبي ﷺ، ورموه بكل عيب سوى الشرك وأمر الجاهلية، فإنهم لم يجدوا لهم عليه سبيلاً؛ إذ لو كان فيه شيء من ذلك لما سكتوا عنه، ولنُقِل ذلك، فبرّأه الله تعالى من جميع ما قالوه فيه وعيَّروه به من السحر والكهانة والجنون والشعر.

ويؤيد هذا[2]: ما روي في قصة بحيرا الراهب حين استحلف النبي ﷺ باللات والعزى، وذلك حين سافر مع عمه أبي طالب إلى الشام، فرأى بحيرا علامة النبوة فيه، وهو صبي، فاختبره بذلك، فقال له النبي ﷺ: «لا تسألني بهما، فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما» ويؤيده شرح صدره ﷺ في حال الصغر، واستخراج العلقة

---

(١) الخازن.   (٢) الخازن.

منه، وقول جبريل: هذا حظ الشيطان منك، وملأه حكمة وإيماناً، وقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾. وقال الزمخشري: ومن قال كان على أمر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلقهم من العلوم السمعية فنعم، وإن أراد أنه كان على دين قومه فمعاذ الله، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة، فما بال الكفر والجهل بالصانع ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ والله أعلم.

والمعنى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾؛ أي: ووجدك حائراً مضطرباً في أمرك مع اعتقادك أن قومك ليسوا على بصيرة من أمرهم، فعبادتهم باطلة ومعتقداتهم فاسدة، وكان يفكر في دين اليهودية، ثم يرى اليهود أنفسهم ليسوا على حال خير من حال قومه؛ إذ بدلوا دينهم وخالفوا ما كان عليه رسولهم، فيبدو عليه الإعراض عنه، ثم يفكر في دين عيسى عليه السلام، فيرى النصارى على حال شر من حال اليهود، فيرجع عن التفكير فيه وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا يعرف ما حوته تلك الأديان من الأحكام والشرائع، وأعظم أنواع حيرته ما كان يراه في العرب أنفسهم من سخف في العقائد، وضعف في البصائر باستيلاء الأوهام عليهم، وفساد أعمالهم وشؤمها في أحوالهم بتفرق الكلمة، وتفانيهم في سفك الدماء، والإشراف على الهلاك باستعباد الغرباء لهم، وتحكمهم فيهم، فالحبشة والفرس من جانب، والرومان من جانب آخر، فما العمل في تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكم العادات فيهم، وأي الطرق ينبغي أن يُسلك في إيقاظهم من سباتهم.

وقصارى ذلك: أنه كان في قرارة نفسه يعتقد أن قومه قد ضلوا سواء السبيل، وبدلوا دين أبيهم إبراهيم، وكانت حال أهل الأديان الأخرى ليست خيراً من حالهم، لكن الإله الحكيم لم يتركه ونفسه، بل أنزل عليه الوحي يبين له أوضح السبل، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾؛ أي: فقيراً لا مال لك، يؤيده ما في مصحف عبد الله بن مسعود ﴿عديماً﴾ يقال: عال يعيل عيلاً وعيلة إذا افتقر ﴿فأغنا﴾ ك بمال خديجة - رضي الله عنها - أو بما أفاء الله عليه من الغنائم، حتى كان ﷺ يهب المئة من الإبل، وفي الحديث: «جعل رزقي تحت ظل رمحي» ولكن في هذا المعنى الأخير نظر؛ لأن السورة مكية.

والحكمة في جعله أولاً فقيراً، ثم إغنائه: أنه لو كان متمولاً من أول الأمر.. لكان يسبق إلى بعض الأوهام أنه إنما وجد العز والغلبة بسبب المال، فلما علا كل العلو على الأغنياء والملوك.. عُلم أنه كان علوه من جهة الحق سبحانه، وقيل معناه: فأغنى قلبك وقنعك بما أعطاك.

قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» ولذا قال الراغب: معنى فأغناك: أي: أزال عنك فقر النفس وجعل لك الغنى الأكبر، وهو المعني بقوله ﷺ: «الغنىٰ غنىٰ النفس» ثم المراد(١) من تعداد هذه النعم ليس الامتنان، بل تقوية قلبه ﷺ للاطمئنان بعد التوديع، وقرأ الجمهور(٢): ﴿عَآئِلًا﴾؛ أي: فقيراً.

قال جرير:

ٱللَّهُ نَزَّلَ فِيْ ٱلْكِتَابِ فَرِيْضَةً ... لابْنِ ٱلسَّبِيْلِ وَلِلْفَقِيْرِ ٱلْعَائِلِ

كرره لاختلاف اللفظ، وقرأ محمد بن السميفع واليماني: ﴿عَيِّلاً﴾ بفتح العين وتشديد الياء المكسورة على وزان سيد، ومنه قول أحيحة بن الجلاح:

وَمَا يَدْرِيْ ٱلْفَقِيْرُ مَتَىٰ غِنَاهُ ... وَمَا يَدْرِيْ ٱلْغَنِيُّ مَتَىٰ يَعِيْلُ

والمعنى(٣): أي إنك كنت فقيراً لم يترك لك والدك من الميراث إلا ناقة وجارية، فأغناك بما أجراه لك من الربح في التجارة، وبما وهبته لك خديجة من مالها.

وخلاصة ما تقدم: أن من آواك في يتمك وهداك من ضلالك، وأغناك من فقرك لا يتركك في مستقبل أمرك، وبعد أن بين نعمه السابقة، أوصاه باليتامى والفقراء شكراً على هذه النعم، وأداء لحقها، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ﴾ منصوب بقوله: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ فالفاء الأولى للإفصاح، والثانية لربط جواب ﴿أما﴾ الشرطية، كما بيَّنَّاهما في شروحنا على الآجرومية؛ أي: إذا عرفت ما بيّنّاه لك من النعم المذكورة، وأردت القيام بشكرها، فأقول لك: لا تقهر اليتيم؛ أي: لا تذلله ولا تغلبه على ماله وحقه بوجه من وجوه القهر كائناً ما كان، قال مجاهد: لا تحرك

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

اليتيم فقد كنت يتيماً وإن له رباً ينصره، وقال الأخفش: لا تسلط عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يتمك، وقال الفراء والزجاج: لا تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في حق اليتامى، تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم، وكان رسول الله ﷺ يُحسن إلى اليتيم ويبره ويوصي به.

وفي الحديث: «إذا بكى اليتيم وقعت دموعه في كف الرحمٰن، فيقول: من أبكى هذا اليتيم الذي واريت والده تحت الثرى، من أسكته ـ أي: أرضاه ـ فله الجنة» وروي أيضاً أنه ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه، ثم قال بأصبعه: أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وهو يشير بأصبعيه، رواه البغوي بسنده.

وقرأ الجمهور(١): ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ بالقاف، وقرأ ابن مسعود وإبراهيم النخعي والشعبي والأشهب العقيلي: ﴿تكهر﴾ بالكاف بدل القاف، وهي لغة بمعنى قراءة الجمهور، والعرب تعاقب بين القاف والكاف، وقال النحاس: إنما يقال: كهره إذا اشتد عليه وغلّظ، وقيل: القهر الغلبة، والكهر الزجر، وقيل: معنى ﴿فلا تكهر﴾ فلا تعبس في وجهه، والمعنى؛ أي: لا تقهر اليتيم ولا تستذله، بل ارفع نفسه بالأدب، وهذّبه بمكارم الأخلاق؛ ليكون عضواً نافعاً في جماعتك، لا جرثومة فساد يتعدى أذاها إلى كل من يخالطها من أمتك، ومن ذاق مرارة الضيق في نفسه، فما أجدر أن يستشعرها في غيره، وقد كان ﷺ يتيماً، فباعد الله عنه ذل اليتم، فآواه، فمن أولى منه بأن يكرم كل يتيم شكراً لله تعالى على نعمته.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ﴾ والمستعطي ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾؛ أي: فلا تزجره، لكن أعطه، أو رده رداً جميلاً، والنهر والانتهار: الزجر بمغالظة؛ أي: لا تزجره، ولا تغلظ له القول، بل رده رداً طيباً، وهذا بمقابلة قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾.

قال الواحدي(٢): قال المفسرون: يريد السائل على الباب يقول: لا تنهره إذا سألك، فقد كنت فقيراً، فإما أن تطعمه، وإما أن ترده رداً ليناً، قال قتادة: معناه رد السائل برحمة ولين، وقيل: المراد بالسائل: الذي يسأل عن الدِّين، فلا تنهره بالغلظة والجفوة، وأجبه برفق ولين، كذا قال سفيان، فيكون في مقابلة ﴿وَوَجَدَكَ

(١) الشوكاني. (٢) الشوكاني.

ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾، و﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ منصوب بـ﴿تنهر﴾ كما أن ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ منصوب بـ﴿تقهر﴾، والتقدير: مهما يكن من شيء، فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل.

والآية بيّنة لجميع الخلق[1]؛ لأن كل واحد من الناس كان فقيراً في الأصل، فإذا أنعم الله سبحانه عليه.. وجب عليه أن يعرف حق الفقراء، وقال بعضهم: الأولى حمل السائل على المعنى الأعم من أن يسأل المال، ويسأل عن العلم، فيكون التفصيل مطابقاً للتعديد، كما مرت الإشارة إليه آنفاً، فيجب إكرام طالب العلم وإنصافه بمطلوبه ولا يعبس في وجهه، ولا يُنهَر، ولا يُتلَقّى بمكروه.

وفي الحديث: «من كتم علمه أُلجِم يوم القيامة بلجام من نار»، وهذا الوعيد يشمل حبس الكتب عمن يطلبها للانتفاع بها.

ولما ذكّره نعمه عليه في هذه السورة من جبر اليتم، والهدى بعد الضلالة، والإغناء بعد العيلة والفقر.. أمره أن يشكره على إنعامه عليه، فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾؛ لأن تحديث العبد، وإخباره بنعمة الله تعالى شكر لها باللسان وتذكير للغير.

وفي الحديث: «التحدث بالنعم شكر» والمراد بتحديثها إظهارها للناس وإشهارها بينهم، والظاهر[2] حمل النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها، أو نوع من أنواعها، وقال مجاهد والكلبي: المراد بالنعمة هنا القرآن، وقال الكلبي: وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يقرأه، قال الفراء: وكان يقرؤه ويحدثه به، وقال مجاهد أيضاً: المراد بالنعمة النبوة التي أعطاه الله، واختار الزجاج هذا القول، فقال: أي: بلّغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله تعالى، وهي أجل النعم، فحينئذ فقد اندرج تحت الأمر هدايته ﷺ لأهل الضلال، وتعليمه للشرائع والأحكام حسبما هداه الله وعلّمه من الكتاب والحكمة، وقال مقاتل: يعني: اشكر ما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة من الهدى بعد الضلال، وجبر اليتيم، والإغناء بعد العيلة، فاشكرها وحدث بها للناس؛ لأن التحدث بنعمة الله شكر وكتمانها كفر.

وهذا الثالث بمقابلة الثاني[3]، وهو قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ أخره

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

لمراعاة الفواصل، ولأن التحلية وهو التحدث بنعمة الله بعد التخلية، وهو ﴿لا تقهر﴾ و﴿لا تنهر﴾، وكرر أما؛ لوقوعها في مقابلة ثلاث آيات.

قال في «الكواشي»: رأى بعض العلماء التحدث بنعمة الله من الطاعات، مع أمن الرياء، وغائلة النفس، وطلب الاقتداء به، وكرهه بعضهم خوف الفتنة، وفي «عين المعاني» أنه ﷺ قال: «التحدث بالنعم شكر وتركه كفر»، وأما الحديث الآخر: «عليكم بكتمان النعم، فإن كل ذي نعمة محسود» يعني: عن الحسود لا غير، وفي «الأشباه»:

(س) أي رجل ينبغي له إخفاء إخراج الزكاة عن بعض دون بعض؟.

(ج) فقيل: المريض إذا خاف من ورثته يخرجها سراً عنهم.

(س) وأي رجل يُستحب له إخفاؤها؟.

(ج) فقيل: الخائف من الظلمة، لا يعلمون كثرة ماله. وقال ابن عطية في الآية: حدِّث به نفسك؛ أي: لا تنس فضله عليك قديماً وحديثاً.

وخلاصة معنى قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾؛ أي: أوسع[1] في البذل على الفقراء بمالك، وأفض من نعمه الأخرى على طالبيها، وليس المراد مجرد ذكر الثروة والإفاضة في حديثها، فإن ذلك ليس من كرم الأخلاق في شيء.

وقد جرت عادة البخلاء أن يكتموا مالهم؛ لتقوم لهم الحجة في قبض أيديهم عن البذل، ولا تجدهم إلا شاكِين من القل، أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل مما آتاهم الله تعالى من فضله، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه، وقد استفاضت الأحاديث بأنه ﷺ كان كثير الإنفاق على الفقراء، عظيم الرأفة بهم، واسع الإحسان إليهم، وكان يتصدق بكل ما يدخل في ملكه ويبيت طاوياً.

نبذة من الأحاديث المناسبة للآية

منها: ما روي عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من أُعطي عطاء فليُجْزِ به إن وجد، فإن لم يجد فليثن عليه، فإن من أثنى عليه فقد

(١) المراغي.

شكره، ومن كتمه فقد كفر، ومن تحلى بما لم يُعط كان كلابس ثوبي زور» أخرجه الترمذي، وله عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله».

وله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزله الصائم الصابر».

وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن النعمان بن بشير قال: قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب».

فائدة: والسنة في قراءة أهل مكة أن يكبر من أول سورة الضحى على رأس كل سورة حتى يختم القرآن، فيقول: الله أكبر، وسبب ذلك أن الوحي لما احتبس عن رسول الله ﷺ. . قال المشركون: هجره شيطانه وودعه، فاغتم النبي ﷺ لذلك، فلما نزلت: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾. . كبر رسول الله ﷺ فرحاً بنزول الوحي، فاتخذوه سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الإعراب

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾.

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿الضحى﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بالضحى، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾: معطوف على ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾، وأجاز ابن هشام أن تكون ﴿الواو﴾ في ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ عاطفة، أو قسمية، قال: والصواب الأول، وإلا لاحتاج كل إلى الجواب. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بفعل القسم، وتقدمت لها نظائر، وجملة ﴿سَجَىٰ﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، وفاعل ﴿سَجَىٰ﴾: ضمير يعود إلى ﴿الليل﴾. ﴿ما﴾: نافية. ﴿وَدَّعَكَ﴾: فعل ماض ومفعول به. ﴿رَبُّكَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿قَلَىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل

مستتر يعود على الرب، والمفعول محذوف لعلمه مما قبله، أي: وما قلاك، والجملة معطوفة على جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء مؤكِّدة لمضمون الجملة. ﴿الآخرة﴾: مبتدأ. ﴿خَيْرٌ﴾: خبره، ﴿لَّكَ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، وكذا ﴿مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾ أيضاً، والجملة معطوفة على جملة القسم، أو على جوابها، أو مستأنفة. ﴿وَلَسَوْفَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء مؤكد لمضمون الجملة. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس للاستقبال البعيد. ﴿يُعْطِيكَ﴾: فعل مضارع ومفعول به أول، والثاني محذوف معلوم من السياق تقديره: سوف يعطيك ما ترضاه. ﴿رَبُّكَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية خبر لمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك ربك، والجملة الابتدائية معطوفة على جملة جواب القسم، وإنما لم تكن ﴿اللام﴾ للقسم؛ لأن لام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد، فتعيَّن أن تكون للابتداء، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة المكونة من المبتدأ والخبر، فتعيَّن تقدير مبتدأ، وأن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير؟

قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة، وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة. ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ترضى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُعْطِيكَ﴾.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم ونفي. ﴿يَجِدْكَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، تقديره: هو، و﴿الكاف﴾: ضمير متصل في محل النصب مفعول أول. ﴿يَتِيمًا﴾: مفعول ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعداد أياديه ونعمه عليه، والغرض من تعدادها كما تقدم تقوية قلبه ﷺ، وتشجيعه على السير في طريقه التي اختارها الله له، وهي طريق محمودة العواقب سليمة المغابِّ. ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿آوى﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾؛ لأنه

في تقدير الإثبات؛ لأن الاستفهام تقريري، والتقدير: ووجدك يتيماً فآواك. ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعولان، معطوف على قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾؛ لأنه في معنى الإثبات، كما مر آنفاً. ﴿فَهَدَىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هدى﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ومفعولان، معطوف على قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾. ﴿فَأَغْنَىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أغنى﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾، والمفعول محذوف كسابقه؛ أي: فأغناك. ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما أنعمنا به عليك من النعم المذكورة، وأردت بيان ما هو اللازم لك في المستقبل.. فأقول لك: ﴿أما اليتيم﴾ ﴿أما﴾: حرف شرط أبداً وتفصيل غالباً، نائبة عن أداة الشرط وفعله، والأصل مهما يكن من شيء، فأقول لك: لا تقهر اليتيم: حرف لا محل لها من الإعراب، مبني على سكون الألف المحذوفة؛ لالتقاء الساكنين ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾: مفعول به مقدم لـ﴿تَقْهَرْ﴾؛ للفصل به بين ﴿أما﴾ وجوابها. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها؛ لأن موضعها موضع ﴿أما﴾؛ لأن أصل التركيب مهما يكن من شيء، فلا تقهر اليتيم، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَقْهَرْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد مجزوم بـ﴿لا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿أما﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أما﴾: حرف شرط. ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾: مفعول مقدم لـ﴿تَنْهَرْ﴾. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَنْهَرْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة الفعلية جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى. ﴿وَأَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل. ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿حدِّث﴾، والفاء غير مانعة؛ لأنها بمثابة الزائدة. ﴿فَحَدِّثْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾، ﴿حدِّث﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة الفعلية جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾

معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾: صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقي أشعتها على هذا الكون، وفي «القاموس»: والضَّحو والضَّحوة والضحية كعشية ارتفاع النهار، والضُّحى فويقه، والضَّحاء بالمد إذا قرب انتصاف النهار، وبالضم والقصر يطلق على الشمس أيضاً اهـ. وأصله: ضَحَوَ بوزن فعل تحرك حرف العلة وفتح ما قبله فقُلبت ألفاً.

﴿إِذَا سَجَىٰ﴾؛ أي: سكن، يقال: سجا البحر يسجو سجواً ـ من باب سما ـ إذا سكنت أمواجه، وليلة ساجية ساكنة الريح، والمراد إذا سكن الأحياء فيه، وانقطعوا عن الحركة، وفيه إعلال بالقلب أصله: سَجَوَ واوي اللام، تحركت الواو وفُتح ما قبلها فقلبت ألفاً.

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾: من التوديع، وهو مبالغة في الوَدْع، وهو الترك؛ أي: ما تركك ضائعاً بتأخير الوحي عنك، وقرىء بالتخفيف من قولهم: ودعه إذا تركه، واختُلف في دع بمعنى الترك هل يتصرف، فيأتي منه الماضي وغيره، أم لا؟ قال الجوهري: أميت ماضيه، وقال غيره: ربما جاء ماضيه في الضرورة، وهو المشهور.

قال الشاعر:

لَيْتَ شِعْرِيْ عَنْ خَلِيْلِيْ مَا ٱلَّذِيْ غَالَهُ فِيْ ٱلْحُبِّ حَتَّىٰ وَدَعَهْ

ومنه قوله تعالى: ﴿ما وَدَعَك ربك﴾ على قراءة التخفيف، وجاء منه المصدر، ومنه الحديث: «ولينتهن أقوام عن وَدْعِهم الجمعات»؛ أي: عن تركهم إياها، وجاء منه اسم المفعول وغيره في الشعر، والأصح القول بقلة الاستعمال، لا بالإماتة.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أي: وما أبغضك، فالمفعول محذوف كما مر، وفي «المصباح»: قليته قلياً، وقلوته قلواً من بابي: ضرب وقتل، وهو الإنضاج في المِقلىٰ، وهي: مِفعَل بالكسر، وقد يقال: مِقلاة بالهاء، واللحم وغيره مَقلي بالياء، ومقلو بالواو، والفاعل: قَلاّء بالتشديد؛ لأنه صنعة كالعطار والنجار، وقليت الرجل أقليه ـ من باب رمى ـ قلى بالكسر والقصر، وقد يمد إذا أبغضته، ومن باب تعب لغة، وقال

بن خالويه يقال: قلاه يقلاه بفتح الماضي والمستقبل، وليس في كلام العرب فعل يفتح فيه الماضي والمستقبل مما ليس فيه حرف من حروف الحلق إلا قلى يقلى، وأبى يأبى مثلاً.

فقوله: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: قَلَوَ أو قَلَيَ بوزن فعل، قلُبت الواو أو الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ أصله: تَرْضَيُ بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ قرأ العامة: ﴿آوى﴾ بألف بعد الهمزة رباعياً، من آواه يؤويه إيواء، وقرأ أبو الأشهب: ﴿فأَوَى﴾ ثلاثياً، وفي «المصباح»: أوى إلى منزله يأوي ـ من باب ضرب ـ أوياً، أقام، وربما عُدِّي بنفسه، فقيل: أوى منزلَه، والمأوى بفتح الواو لكل حيوان مسكنه، وآويت زيداً بالمد، في التعدي، ومنهم من يجعله مما يستعمل لازماً ومتعدياً، فيقول: أويته وزان ضربته، ومنهم من يستعمل الرباعي لازماً أيضاً، ورده جماعة.

وأصل ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أأوى بوزن: أفعل، أُبدلت الهمزة الثانية ألفاً حرف مد مجانساً لحركة الأولى، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أصله: ضالِلاً اسم فاعل، أُدغمت اللام الأولى في الثانية.

﴿فَهَدَىٰ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: هَدَيَ بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾: فيه إعلال بالإبدال، أصله: عايلاً، أبدلت الياء همزةً في الوصف حملاً له على فعله في الإعلال.

﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أصله: أَغْنَيَ بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ٱلسَّآئِلَ﴾: اسم فاعل من سأل الثلاثي بوزن فعل، وقوله: أيضاً ﴿عَآئِلًا﴾ من عال زيد من باب: سار؛ أي: افتقر، وأعال زيد إذا كثرت عياله، وهذه المادة لها أصلان: واوي ويائي، أما الواوي، فقد قال في «القاموس»: فيه عال ـ أي: جار ومال عن الحق، وعال الميزان نقص وجار، أو زاد ـ يعول ويعيل، وعال أمرهم: اشتد وتفاقم، وعال الشيء فلاناً إذا غلبه وثقل عليه وأهمه، وعالت الفريضة في

الحساب: زادت وارتفعت إلى آخر ما ذكره، وأما اليائي، فقد قال صاحب «القاموس»: وعال يعيل عيلاً وعيلة وعيولاً ومعيلاً إذا افتقر، فهو عائل، والجمع عالة وعُيَل وعَيْلَىٰ، كسكرى، والاسم العيلة، والمعيل الأسد والنمر والذئب؛ لأنه يعيل صيداً؛ أي: يلتمس، وعالني الشيء عيلاً ومعيلاً أعوزني، وفي مشيه تمايل واختال وتبختر كتعيّل، إلى آخر ما جاء في هذه المادة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان البديع:

فمنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾؛ أي: سكن أهله، ففيه إسناد الفعل إلى زمانه، كنهاره صائم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾؛ لأن التوديع حقيقة في تشييع المسافر، فاستعمله هنا على طريق الاستعارة التصريحية التبعية بجامع القطع والفرقة في كل.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أي: وما قلاك، وكذا قوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ ﴿فَأَغْنَىٰ﴾، فحذف المفعول لعلمه من المقام.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾؛ لأن المراد بـ﴿الْأُولَىٰ﴾: الدنيا، وهي تطابق ﴿الآخرة﴾.

ومنها: الجمع بين لام الابتداء وحرف التنفيس في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾؛ للدلالة على أن الإعطاء كائن لا محالة، وإن تراخى لحكمة، يعني: أن لام الابتداء لما تجردت للدلالة على التأكيد، وكانت السين تدل على التأخير والتنفيس.. حصل من اجتماعهما أن العطاء المتأخر لحكمة كائن لا محالة، وكانت اللام لتأكيد الحكم المقترن بالاستقبال.

ومنها: حذف المفعول الثاني لأعطى؛ للدلالة على التعميم والتفخيم؛ أي: كل ما ترضى في الدنيا والآخرة.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ شبه

الشريعة بالهدى، وعدم وجودها بالضلال، وحذف المشبه، وأبقى المشبه به وهو الضلال، من ضل في طريقه إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده، والمقصد هنا العلوم النافعة التي تسمو بالعقل والروح معاً.

ومنها: الالتزام، أو لزوم ما لا يلزم في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ فقد لزمت الهاء قبل الراء في هاتين الفاصلتين، وفيه أيضاً الجناس الناقص بين الفاصلتين؛ لاختلاف الحرف الثاني في الكلمتين.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه الرجعى والمآب.

* * *

مقاصد هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على أربعة مقاصد:

١ ـ أن الله ما قَلَىٰ رسوله ولا تركه.

٢ ـ وعد رسوله بأنه سيكون في مستأنَف أمره خيراً من ماضيه.

٣ ـ تذكيره بنعمه عليه فيما مضى، وأنه سيواليها عليه.

٤ ـ طلب الشكر منه على هذه النعم[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تم تفسير سورة الضحى بعون الله وتوفيقه في الليلة الخامسة عشرة ليلة الأربعاء من شهر ذي القعدة من شهور سنة: ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الشرح

سورة الشرح مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة الضحى، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ نزلت بمكة، وزاد بعد الضحى.

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة ألم نشرح بمكة، وآياتها[١]: ثمان، وكلماتها تسع وعشرون كلمة، وحروفها: مئة وثلاثة أحرف.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها: ظاهرة؛ لأنها شديدة الاتصال بما قبلها؛ لكونهما نزلتا في تعداد النعم على الرسول ﷺ، حتى روي[٢] عن طاووس وعمر بن عبد العزيز: أنهما كانا يقولان: هما سورة واحدة، وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة، وما كانا يفصلان بينهما بالبسملة، ولكن المتواتر كونهما سورتين، وإن كانتا متصلتين معنى؛ إذ في كل منهما تعداد النعم وطلب الشكر عليها.

وعبارة «الجمل»: ولما ذكر الله تعالى بعض النعم عليه ﷺ بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ...﴾ إلخ.. أتبعه بما هو كالتتمة له، وهو شرح الصدر المذكور في هذه السورة. انتهى. وسميت الشرح؛ لذكر الشرح في أولها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الشرح كلها محكمة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

ومن فضلها[٣]: ما روي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة ألم نشرح.. فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرج عني» ولكن لا أصل له.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الخازن. (٢) المراغي. (٣) الخازن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم بيان مناسبة هذه السورة لما قبلها آنفاً، وأما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾﴾ إلى آخر السورة، مناسبته لما قبله: أن الله سبحانه وتعالى لما أبان بعض نعمه على رسوله من شرح الصدر ووضع الوزر، ورفع الذكر بعد استحكام الكرب وضيق الأمر.. ذكر أن ذلك قد وقع على ما جرت به سنته في خلقه من إحداث اليسر بعد العسر، وأكد هذا بإعادة القضية نفسها مؤكدة؛ لقصد تقريرها في النفوس، وتمكينها في القلوب.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ ونوسع ﴿لَكَ﴾ يا محمد ﴿صَدْرَكَ﴾ وقلبك لحمل أعباء النبوة وحفظ الوحي؛ أي: قد شرحنا صدرك يا محمد لحفظ الوحي وتبليغ الرسالة، فالهمزة للاستفهام التقريري؛ لأن[1] نفي النفي إثبات؛ أي: عدم شرحنا لك صدرك منفي، بل قد شرحنا لك صدرك ووسَّعناه لأعباء الرسالة حتى اتصف بمَلَكَتَيْ الاستفادة والإفادة، فما صَدَّك الملابسةُ بالعلائق الجسمانية عن اقتباس أنوار الملكات الروحانية، وما عاقك التعلق بمصالح الخلق عن الاستغراق في شؤون الحق؛ أي: لم تحتجب، لا بالحق عن الخلق، ولا بالخلق عن الحق، قال الراغب: الشرح بسط اللحم ونحوه، يقال: شرحت اللحم إذا بسطته، وفصلت بعضه عن بعض، ومنه شرح الصدر بنور إلٰهي وسكينة من جهة الله تعالى، ورَوْح منه، وشرح المشكل من الكلام بسطه وإظهار ما يخفى من معانيه. انتهى.

---

(١) روح البيان.

وفي الحديث: «إذا دخل النور في القلب انشرح»؛ أي: انفسح واحتمل البلاء، وحفظ سر الربوبية، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾؛ أي: وسع قلبي حتى لا يضيق بسفاهة المعاندين ولجاجهم، بل يحتمل أذاهم، والصدر: ما بين النحر والبطن، والمراد هنا القلب، من إطلاق المحل وإرادة الحال، والحكمة في زيادة ﴿لَكَ﴾ الإيذان بأن الشرح من منافعه ومصالحه عليه السلام، كأنه تعالى قال: إنما شرحنا صدرك لأجلك، لا لأجلي، وإنما خص[1] الصدر؛ لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات.

والمراد من الآية: الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره، وتوسيعه حتى قام بما قام به من الدعوة، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة وحفظ الوحي.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى انفساح قلبه بنور النبوة، وحمل همومها بواسطة دعوة الثقلين، وانشراح صدر سره بضياء الرسالة، واحتمال مكاره الكفار وأهل النفاق، وانبساط صدر نوره بأشعة الولاية، وتحققه بالعلوم اللدنية، والحكم الإلٰهية، والمعارف الربانية، والحقائق الرحمانية.

وأما شرح الصدر الصوري، فقد وقع مراراً: مرة وهو ابن خمس، أو ست لإخراج مغمز الشيطان؛ وهو الدم الأسود الذي به يميل القلب إلى المعاصي، ويعرض عن الطاعة، ومرة عند ابتداء الوحي، ومرة ليلة المعراج.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿نَشْرَحْ﴾ بجزم الحاء لدخول الجازم، وقرأ أبو جعفر: بفتحها وخرجه ابن عطية في كتابه على أنه: ألم نشرحن، فأبدل من النون ألفاً، ثم حذفها تخفيفاً، ولهذه القراءة تخريج أحسن من هذا كله، وهو أنه لغة لبعض العرب حكاها اللحياني في «نوادره» وهي الجزم بلن، والنصب بلم، عكس الاستعمال المعروف عند الناس، وأنشد قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أبي عبيد، وهو القائم بثأر الحسين بن علي رضي الله عنهما:

قَدْ كَانَ سَمْكُ ٱلْهُدَىٰ يَنْهَدُّ قَائِمُهُ ... حَتَّىٰ أُتِيحَ لَهُ ٱلْمُخْتَارُ فَٱنْعَمَدَا
فِيْ كُلِّ مَا هَمَّ أَمْضَىٰ رَأْيَهُ قُدُمًا ... وَلَمْ يُشَاوِرَ فِيْ إِقْدَامِهِ أَحَدَا

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

بنصب يشاور، وهذا محتمل للتخريجين، وهو أحسن مما تقدم اهـ من «البحر» بتصرف.

وعلى كل حال، فقراءة هذا الرجل مع شدة جوره ومزيد ظلمه، وكثرة جبروته، وقلة علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها.

ومعنى الآية: أي إنا[1] شرحنا لك صدرك، فأخرجناك من الحَيرة التي كنت تضيق بها ذرعاً بما كنت تلاقي من عناد قومك، واستكبارهم عن اتباع الحق، وكنت تتلمس الطريق لهدايتهم، فهُديت إلى الوسيلة التي تنقذهم بها من التهلكة، وتجنبهم الردى الذي كانوا مشرفين عليه.

وقصارى ذلك: أنا أذهبنا عن نفسك جميع الهموم حتى لا تقلق ولا تضجر، وجعلناك راضي النفس مطمئن الخاطر واثقاً من تأييد الله ونصره، عالماً كل العلم أن الذي أرسلك لا يخذلك ولا يعين عليك عدواً، وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا﴾؛ أي: حططنا وأسقطنا ﴿عَنكَ﴾ يا محمد ﴿وِزْرَكَ﴾؛ أي: حملك الثقيل، معطوف على ما تقدم، لا على لفظه؛ أي: شرحنا لك صدرك ووضعنا عنك وزرك، نظير قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا ... وَأَنْدَىٰ الْعَالَمِيْنَ بُطُوْنَ رَاحِ

أي: أنتم خير من ركب المطايا وأندى الخ، والوزر[2]: الذنب؛ أي: وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية، قال الحسن وقتادة والضحاك ومقاتل: المعنى: حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية، وهذا كقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

وقوله: ﴿عَنكَ﴾ متعلق بـ﴿وضعنا﴾، وتقديمه على المفعول الصريح؛ للقصد إلى تعجيل المسرة، والتشويق إلى المتأخر، وقد يُجعل قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ كناية عن عصمته من الذنوب وتطهيره من الأدناس، عبر عن ذلك بالحط على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك، فيكون كقول القائل: رفعنا عنك مشقة الزيارة لمن لم يصدر عنه زيارة قط، على سبيل المبالغة في انتفاء الزيارة منه له، ثم وصف هذا

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

الوزر، فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ﴾ وأثقل ﴿ظَهْرَكَ﴾، قال الزجاج: أثقله حتى سمع له نقيض؛ أي: صوت، وهذا مثل معناه: أنه لو كان حملاً يحمل لسمع نقيض ظهره؛ أي: صوته، وأهل اللغة يقولون: أنقَضَ الحِمْلُ ظهر الناقة إذا سُمع له صرير؛ أي: صوت، قال قتادة: كان للنبي ﷺ ذنوب قد أثقلته، فغفرها الله له، وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوة التي تُثقل الظهر من القيام بأمرها، سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له، وكذا قال أبو عبيدة وغيره.

وعبارة «الروح» هنا: مُثّل[1] به حاله ﷺ مما كان يثقل عليه، ويغمه من فرطاته قبل النبوة، أو من عدم إحاطته بتفاصيل الأحكام والشرائع، ومن تهالكه على إسلام المعاندين من قومه وتلهفه، ووضعه عنه مغفرته، كما قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وتعليم الشرائع، وتمهيد عذره بعد أن بلَّغ وبالغ اهـ.

وقرأ ابن مسعود[2]: ﴿وحللنا عنك وقرك﴾ ومعنى[3] الآية؛ أي: حططنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى تبلِّغها، فجعلنا التبليغ عليك سهلاً، ونفسك به مطمئنة راضية، ولو قوبلت بالإساءة ممن أرسلت إليهم، كما يرضى الرجل بالعمل لأبنائه ويهتم بهم، فالعبء مهما ثقل عليه يخففه ما يجيش بقلبه من العطف عليهم والحدب على راحتهم، ويتحمل الشدائد وهو راض بما يقاسي في سبيل حياطتهم وتنشئتهم.

ثم ذكر سبحانه منته عليه وكرامته عنده، فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ بعنوان النبوة والرسالة وأحكامها، روى[4] البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: أنه سأل جبريل عن هذه الآية ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ قال: قال الله عز وجل: «إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي»، قال ابن عباس يريد الأذان والإقامة والتشهد والخطبة على المنابر، فلو أن عبداً عَبَدَ الله وصدَّقه في كل شيء، ولم يشهد أن محمداً ﷺ رسول الله.. لم ينتفع من ذلك بشيء وكان كافراً، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) الخازن.

وقال الضحاك: لا تُقبل صلاة إلا به، ولا تجوز خطبة إلا به، وقال مجاهد: يريد التأذين، وقيل: المعنى: ذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك، وأمرناهم بالبشارة بك، وقيل: رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء، وعند المؤمنين في الأرض، والظاهر[1] أن هذا الرفع؛ لذكره الذي امتن الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور، فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر، وكذلك أمره بالصلاة والسلام عليه، وإخباره ﷺ عن الله عز وجل أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشراً، وأمر الله بطاعته، كقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وغير ذلك، وبالجملة فقد ملأ ذكره الجليل السموات والأرضين، وجعل الله له من لسان الصدق والذكر الحسن والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وفيه يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أَغَـرُّ عَـلَـيْـهِ لِـلـنُّـبُـوَّةِ خَـاتَـمٌ مِـنَ ٱلـلَّـهِ مَـشْـهُـوْرٌ يَـلُـوْحُ وَيَـشْـهَـدُ
وَضَـمَّ ٱلإِلٰـهُ ٱسْـمَ ٱلـنَّـبِـيِّ مَـعَ ٱسْـمِـهِ إِذَا قَـالَ فِـيْ ٱلْـخَـمْـسِ ٱلْـمُـؤَذِّنُ أَشْـهَـدُ
وَشَـقَّ لَـهُ مِـنِ اسْـمِـهِ لِـيُـجِـلَّـهُ فَـذُوْ ٱلْـعَـرْشِ مَـحْـمُـوْدٌ وَهَـذَا مُـحَـمَّـدُ

وقيل: رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم الإيمان به، والإقرار بفضله، وقيل: رفع ذكره بأن قرن اسمه باسمه في قوله: محمد رسول الله، وقيل غير ذلك مما جاء في القرآن وغيره من كتب الأنبياء، ثم وعده باليسر والرخاء بعد الشدة والعناء، وذلك أنه ﷺ كان في شدة بمكة، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ والضيق والشدة التي فيها من جهاد المشركين وإيذائهم ﴿يُسْرًا﴾ ورخاء بأن يظهرك عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جئتهم به؛ أي: إن مع الضيقة سعةً ومع الشدة رخاء، ومع الكرب فرحاً، وفي هذا وعد منه سبحانه وتعالى له ﷺ وللمؤمنين بأن كل عسير عليكم يتيسر، وكل شديد يهون، وكل صعب يلين، فاللام فيه للاستغراق، وتقرير لما قبله.

---

(١) الشوكاني.

قال في «الكشاف»: فإن قلت: كيف تعلق قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ بما قبله؟

قلت: كان المشركون يعيرون رسول الله ﷺ والمؤمنين بالفقر والضيقة، حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام؛ لافتقار أهله واحتقارهم، فذكَّره ما أنعم الله به من جلائل النعم، ثم قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ...﴾ إلخ، كأنه قيل: خولناك من جلائل النعم، فكن على ثقة بفضل الله ولطفه، فإن مع العسر يسرا كثيراً. انتهى.

وفي كلمة ﴿مَعَ﴾ إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر، كأنه مقارن للعسر، وإلا فالظاهر ذكر كلمة المعاقبة لا أداة المصاحبة؛ لأن الضدين لا يجتمعان، بل يتعاقبان، وقال بعضهم هي: معية امتزاج لا معية مقارنة ولا تعاقب، ولذلك كررها، فلولا وجود اليسر في العسر.. لم يبق عسر لعموم الهلاك، ولولا وجود العسر في اليسر. لم يبق يسر:

وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ ٱلأَشْيَاءُ

ثم إن العسر يؤول كله إلى اليسر، فقد سبقت الرحمة الغضب، وذلك عناية من الله سبحانه وتعالى، فإن ذلك قد يكون مصقلة وجلاء لقلوب الأكابر، وتوسعة لاستعدادهم، فتتسع لتجلي الأنوار والمعارف، وكما أن حظهم من الملائم أوفر، فكذلك غير الملائم، قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل».

ولذلك قال الله تعالى: ﴿أدعوني أستجب لكم﴾، وقال ﷺ: «إن الله يحب الملحين في الدعاء»، وفي تعريف العسر وتنكير اليسر إشارة لطيفة إلى أن الدنيا دار العسر، فالعسر عند السامع معلوم معهود، واليسر مجهول مبهم.

ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريراً وتأكيداً، فقال مكرراً له بلفظه: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾؛ أي: إن[1] مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر، لما تقرر من أنه إذا أُعيد المعرَّف يكون الثاني غير الأول، سواء كان المراد به الجنس أو العهد، بخلاف المُنكّر إذا أعيد، فإنه يراد بالثاني فرد مغاير لما أريد بالفرد الأول في

(١) الشوكاني.

الغالب، كقولك: كسبت درهماً، فأنفقت درهماً، فالثاني غير الأول، وإذا قلت: كسبت درهماً فأنفقت الدرهم، فالثاني هو الأول، كما قال السيوطي في «عقود الجمان»:

ثُمَّ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُشْتَهَرَهْ إِذَا أَتَتْ نَكِرَةٌ مُكَرَّرَهْ
تَغَايَرَتْ وَإِنْ يُعَرَّفْ ثَانِي تَوَافَقَا كَذَا ٱلْمُعَرَّفَانِ

فالعسر في الآية مكرر بلفظ التعريف، فكان عسراً واحداً، واليسر مكرر بلفظ التنكير، فكانا يسرين، فكأنه سبحانه قال: فإن مع العسر يسراً إن مع ذلك العسر يسراً آخر، قال الحسن: لما نزلت هذه الآية.. قال رسول الله ﷺ: «أبشروا فقد جاءكم اليسر، لن يغلب عسر يسرين»، وقال ابن مسعود: لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه إنه لن يغلب عسر يسرين. وزيف أبو[1] علي الحسن بن يحيى الجرجاني هذا القول، وقال: قد تكلم الناس في قوله: لن يغلب عسر يسرين، فلم يحصل منه غير قولهم: إن العسر معرفة، واليسر نكرة، فواجب أن يكون عسر واحد ويسران، وهذا قول مدخول فيه معترض، فإنه إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفاً إن مع الفارس سيفاً، فهذا لا يوجب أن يكون الفارس واحداً، والسيف اثنين، فمجاز قوله ﷺ: «لن يغلب عسر يسرين» أن الله عز وجل بعث نبيه ﷺ وهو مقل مخف، فكانت قريش تعيِّره بذلك حتى قالوا: إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة، فاغتم النبي ﷺ لذلك، وظن أن قومه إنما كذبوه لفقره، فعددَّ الله سبحانه نعمه عليه في هذه السورة، ووعده الغنى؛ ليسلِّيه بذلك عما خامره من الغم، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾؛ أي: لا يحزنك الذي يقولون، فإن مع العسر الذي في الدنيا يسراً عاجلاً، ثم أنجز ما وعده، وفتح عليه القرى القريبة، ووسَّع ذات يده حتى كان يُعطي المئين من الإبل، ويهب الهبة السنية، ثم ابتدأ فضلاً آخر من أمور الآخرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾، والدليل[2] على ابتدائه تعرِّيه من الفاء والواو، وهذا وعد لجميع المؤمنين.

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

والمعنى: أن مع العسر الذي في الدنيا للمؤمن يسراً في الآخرة، وربما اجتمع له اليسران يسر الدنيا؛ وهو ما ذكره في الآية الأولى، ويسر الآخرة؛ وهو ما ذكره في الآية الثانية، فقوله: «لن يغلب عسر يسرين». أي: إن عسر الدنيا لن يغلب اليسر الذي وعده الله المؤمنين في الدنيا واليسر الذي وعدهم في الآخرة، إنما يغلب أحدهما وهو يسر الدنيا، فأما يُسر الآخرة فدائم أبداً غير زائل؛ أي: لا يجتمعان في الغلبة، فهو كقوله ﷺ: «شهرا عيد لا ينقصان»؛ أي: لا يجتمعان في النقص، قال القشيري: كنت يوماً في البادية بحالة من الغم، فأُلقي في روعي بيت شعر، فقلت:

أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ لِمَنْ أَصْبَحَ ... مَغْمُوْمَاً لَهُ أَرْوَحْ

فلما جن الليل سمعت هاتفاً يهتف في الهواء:

أَلاَ يَا أَيُّهَا ٱلْمَرْءُ ٱلْـ ... ـلَذِيْ ٱلْهَمُّ بِهِ بَرَّحْ

وَقَدْ أَنْشَدْتَ بَيْتَاً لَمْ ... يَزَلْ فِيْ فِكْرِهِ يَسْبَحْ

إِذَا ٱشْتَدَّ بِكَ ٱلْعُسْرُ ... فَفَكِّرْ فِيْ أَلَمْ نَشْرَحْ

فَعُسْرٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ ... إِذَا أَبْصَرْتَهُ فَٱفْرَحْ

قال: فحفظت الأبيات ففرَّج الله عني، وقال إسحاق بن بهلول القاضي:

فَلاَ تَيْأَسْ إِذَا أَعْسَرْتَ يَوْمَاً ... فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِيْ دَهْرٍ طَوِيْلِ

وَلاَ تَظْنُنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سُوْءٍ ... فَإِنَّ ٱللَّهَ أَوْلَىٰ بِٱلْجَمِيْلِ

فَإِنَّ ٱلْعُسْرَ يَتْبَعُهُ يَسَارٌ ... وَقَوْلُ ٱللَّهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيْلِ

وقال أحمد بن سليمان في المعنى:

تَوَقَّعْ لِعُسْرٍ دَهَاكَ سُرُوْرَا ... تَرَىٰ ٱلْعُسْرَ عَنْكَ بِيُسْرٍ تَسَرَّىٰ

فَمَا ٱللَّهُ يُخْلِفُ مِيْعَادَهُ ... وَقَدْ قَالَ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرَا

وقال غيره:

وَكُلُّ ٱلْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ ... يَكُوْنُ وَرَاءَهَا فَرَجٌ قَرِيْبُ

وقرأ الجمهور: بسكون السين في العسر واليسر في الموضعين، وقرأ يحيى بن

وثاب وأبو جعفر وعيسى بضمها في الجميع.

وعبارة «المراغي» هنا: قوله: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾؛ أي: وجعلناك على الشأن رفيع المنزلة عظيم القدر، وأي منزلة أرفع من النبوة التي منحكها الله سبحانه، وأي ذكر أنبه من أن يكون لك في كل طرف من أطراف المعمورة أتباع يمتثلون أوامرك، ويجتنبون نواهيك، ويرون طاعتك مغنماً، ومعصيتك مغرماً؟ وهل من فخار بعد ذكرك في كلمة الإيمان مع العلي الرحمٰن، وأي ذكر أرفع من ذكر من فرض الله على الناس الإقرار بنبوته، وجعل الاعتراف برسالته بعد بلوغ دعوته شرطاً في دخول جنته؟ هذا إلى أنه ﷺ أنقذ أمماً كثيرة من رق الأوهام، وفساد الأحلام، ورجع بهم إلى الفطرة الأولى من حرية العقل، والإرادة والإصابة في معرفة الحق، ومعرفة من يُقصَد بالعبادة، فاتحدت كلمتهم في الاعتقاد بإلٰه واحد، بعد أن كانوا متفرقين طرائق قدداً، عُبَّاد أصنام وأوثان وشموس وأقمار، لا يجدون إلى الهدى سبيلاً، ولا للوصول إلى الحق طريقاً، فأزاح عنهم تلك الغمة، وأنار لهم طريق الهدى والرشاد.

وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥﴾؛ أي: فإن مع الضيق فرجاً، ومع قلة الوسائل إلى إدراك المطلوب مخرجاً إذا تدرع المرء بالصبر، وتوكل على ربه، ولقد كان هذا حال النبي ﷺ، فإنه قد ضاق به الأمر في بادىء أمره قبل النبوة وبعدها؛ إذ تألب عليه قومه، لكن لم يثنه ذلك عن عزمه، ولم يفلل من حده، بل صبر على مكروههم، وألقى بنفسه في غمرات الدعوة متوكلاً على ربه محتسباً نفسه عنده، راضياً بكل ما يجد في هذا السبيل من أذى، ولم تزل هذه حاله حتى قيَّض الله له أنصاراً أُشرِبت قلوبهم حُبَّه، ومُلئت نفوسهم بالرغبة الصادقة في الدفاع عنه وعن دينه، ورأوا أن لا حياة لهم إلا بهدم أركان الشرك والوثنية، فاشتروا ما عند الله تعالى من جزيل الثواب بأرواحهم وأموالهم وأزواجهم، ثم كان منهم من قوَّض دعائم الأكاسرة، وأباد جيوش الأباطرة والقياصرة.

وقصارى ذلك: أنه مهما اشتد العسر وكانت النفس حريصة على الخروج منه، طالبة كشف شدته، مستعملة أجمل وسائل الفكر والنظر في الخلاص منه، معتصمة بالتوكل على ربها، فإنها ولا ريب ستخرج ظافرة مهما أقيم أمامها من عقبات، واعترضها من بلايا ومحن.

وفي هذا: عبرة لرسوله ﷺ بأنه سيبدل حاله من الفقر إلى الغنى، ومن قلة الأعوان إلى كثرة الإخوان، ومن عداوة قومه إلى محبتهم إلى أشباه ذلك، ولما[1] عدد الله سبحانه على نبيه ﷺ نعمه السالفة.. بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة، والنصب فيها، وأن لا يخلّي وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من عبادة، أي عبادة كالصلاة والصوم والدعوة ﴿فَٱنصَبْ﴾؛ أي: فأتعب نفسك بأخرى؛ أي: فأتبعها بعبادة أخرى، واجتهد فيها كالنوافل مما ذكر، والنَصَب ـ محركاً ـ التعب، قال ابن عباس: إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء، وارغب إليه في المسألة يعطك، وقال ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وقيل: إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك، وقيل: إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك، وقيل: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب في الاستغفار لك وللمؤمنين، قال الرازي: وبالجملة فالمراد: أن يواصل بين بعض العبادة وبعض آخر، وأن لا يخلّي وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى اهـ.

وقال عمر بن الخطاب: إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سبهللاً، لا في عمل دنياه، ولا في عمل آخرته، والسبهلل: الذي لا شيء معه، وقيل السبهلل: الباطل، وقال الحسن: إذا كنت صحيحاً فاجعل فراغك في العبادة، كما روي أن شريحاً مر برجلين يتصارعان، وآخر فارغ، فقال: ما أمر بهذا إنما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾، وقعود الرجل فارغاً من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه من سفه الرأي وسخافة العقل واستيلاء الغفلة.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ومالك أمرك وحده ﴿فَٱرْغَب﴾؛ أي: فتضرع وتذلل إليه راغباً في الجنة راهباً من النار، وقيل: اجعل رغبتك إلى الله تعالى في جميع أحوالك، لا إلى أحد سواه.

والمعنى: أنه يرغب إليه تعالى لا إلى غيره كائناً من كان، فلا يطلب حاجاته إلا منه، ولا يعوّل في جميع أموره إلا إليه.

---

(١) الخازن.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَرَغْتَ﴾ بفتح الراء، وأبو السمال بكسرها، وهي لغة، قال الزمخشري: ليست بفصيحة، وقرأ الجمهور: ﴿فَٱنصَبْ﴾ بسكون الباء خفيفة، وقرأ قوم: بشدها مفتوحة، أمر من الانصباب، وقرأ آخرون من الإمامية: ﴿فانصب﴾ بكسر الصاد، بمعنى: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب خليفة، قال في «الكشاف»: ومن البدع ما روي عن بعض الرافضة: أنه قرأ: ﴿فانصب﴾ بكسر الصاد؛ أي: فانصب علياً للإمامة، ولو صح هذا للرافضة.. لصح للناصبي أن يقرأ هكذا، ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بغض علي وعداوته اهـ.

وقال ابن عطية: وهي قراءة شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم. انتهى. وقرأ الجمهور: ﴿فَٱرْغَب﴾ أمراً من رغب ثلاثياً؛ أي: اصرف وجه الرغبات إليه تعالى، لا إلى سواه، وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة: ﴿فرغِّب﴾ أمر من: رغَّب المضعّف بشد الغين؛ أي: فرغِّب الناس إلى الله سبحانه، وشوِّقهم إلى ما عنده من الخير.

والمعنى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾؛ أي: فإذا فرغت من عمل فاتعب في مزاولة عمل آخر، فإنك ستجد في المثابرة لذة تقر بها عينك ويثلج لها صدرك، وفي هذا حث له ﷺ على المواظبة على العمل واستدامته. ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾؛ أي: ولا ترغب في ثواب أعمالك وتثميرها إلا إلى ربك وحده، فإنه هو الحقيق بالتوجه إليه والضراعة له.

الإعراب

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿نَشْرَحْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة مستأنفة. ﴿لَكَ﴾ متعلق بـ﴿نَشْرَحْ﴾. ﴿صَدْرَكَ﴾: مفعول به. ﴿وَوَضَعْنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وضعنا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنكَ﴾: متعلق به. ﴿وِزْرَكَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على

(١) البحر المحيط.

جملة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ باعتبار المعنى؛ أي: شرحنا لك صدرك ووضعنا عنك وزرك، كما مر ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة للوزر. ﴿أَنقَضَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿ظَهْرَكَ﴾: مفعول به. لـ﴿أَنقَضَ﴾، وجملة ﴿أَنقَضَ﴾ صلة الموصول. ﴿وَرَفَعْنَا﴾: ﴿رفعنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ما قبله. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ﴿رفعنا﴾. ﴿ذِكْرَكَ﴾: مفعول به.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: خوّلناك ما خوّلناك، فلا يخامرك البأس، فإن مع العسر يسراً، ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿مَعَ﴾: ظرف بمعنى: بعد متعلق بمحذوف خبر مقدم لـ﴿إن﴾، وفي التعبير بـ﴿مَعَ﴾ إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر، كأنه مقارن للعسر. ﴿مَعَ﴾: مضاف. ﴿ٱلْعُسْرِ﴾: مضاف إليه. ﴿يُسْرًا﴾: اسم ﴿إنَّ﴾ مؤخر، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة عطف علة على معلول. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم. ﴿يُسْرًا﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة، لتقرير أن العسر متبوع بيسر، أو مكررة لتأكيد ما قبلها.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، أو فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما خولناك من النعم الجسام، وأردت بيان ما هو اللازم لك في الشكر.. فأقول لك: إذا فرغت إلخ ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنى الشرط متعلق بالجواب. ﴿فَرَغْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَٱنصَبْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿انصب﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب. ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾: متعلق بـ﴿ارغب﴾، ولا تمنع الفاء من تعلقه به؛ لأنها فاء الربط، فهي كالزائدة. ﴿فَٱرْغَب﴾: ﴿الفاء﴾: زائدة، لتأكيد ربط الجواب، ﴿ارغب﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة معطوفة على جملة الجواب لا محل لها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ قال الراغب: الشرح بسط اللحم ونحوه، يقال: شرحت اللحم وشرحته إذا بسطته، ومنه شرح الصدر بنور إلهي وسكينة من جهة الله تعالى وروح منه، والشرح أيضاً التوسعة، والعرب تطلق الصدر وتريد به القوة وعظيم المنة والمسرة وانبساط النفس، ويفخرون بذلك في مدائحهم من قبل أن سعة الصدر تُعطي الأحشاء فسحة للنمو والراحة، وإذا تم ذلك للمرء كان ذهنه حاضراً لا يضيق ذرعاً بأمر.

﴿وِزْرَكَ﴾ والوزر: الحمل الثقيل أو الذنب.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾؛ أي: أثقله، والظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض، أي: صوت خفي، وفي «القاموس»: أنقض ظهرك أثقله حتى جعله نقضاً؛ أي: مهزولاً، أو أثقله حتى سُمع نقيضه؛ أي: صوته، وفي «المختار»: وأصل الإنقاض: صوت مثل النقر، وقال أبو حيان: وقال أهل اللغة: أنقض الحِمْلُ ظهر الناقة إذا سمعتَ له صريراً من شدة الحمل، وسمعت نقيض المرجل؛ أي: صريره، قال عباس بن مرداس:

وَأَنْـقَـضَ ظَـهْـرِيْ مَـا تَـطَـوَّيْـتُ مِـنْـهُـمُ ... وَكُـنْـتُ عَـلَـيْـهِـمْ مُـشْـفِـقَـاً مُـتَـحَـنِّـنَـا

وقال ابن خالويه: يقال أنقض ينقض إنقاضاً فهو منقض، ومعناه: أثقل ظهره اهـ، والنقض: الجمل المهزول، وجمعه: أنقاض.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ العسر: الفقر والضعف، وجهالة الصديق، وقوة العدو، وإنكار الجميل.

﴿فَٱنصَبْ﴾؛ أي: فأتعب نفسك في العبادة، واجتهد في الدعاء شكراً؛ لما أوليناك من النعم السالفة، ووعدناك من الآلاء الآتية، وبه ارتبطت الآية بما قبلها، ويجوز أن يقال: فإذا فرغت من تلقي الوحي، فانصب واتعب في تبليغه، وفي «المختار»: ونَصِب بمعنى: تعب، وبابه طرب، وفيه أيضاً فرغ من الشغل من باب دخل، وفراغاً أيضاً، وفيه أيضاً رغب فيه، أراده، وبابه: طرب، ورغبة أيضاً، وارتغب فيه مثله، ورغب عنه لم يرده، ويقال: رَغَّبه فيه ترغيباً، وأرغبه فيه أيضاً.

﴿فَٱرۡغَب﴾ أصل الرغبة: السعة في الشيء، يراد بها السعة في الإرادة، فإن قيل: رغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه، وإذا قيل: رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه، والزهد فيه، وفي «القاموس»: رغب فيه ـ كسمع ـ رغباً، ويضم، رغبة أراده، وعنه لم يرده، وإليه رَغَباً ـ محركة ـ ابتهل، أو هو الضراعة والمسألة. والمعنى: فارغب بالسؤال، ولا تسأل غيره، فإنه القادر على إسعافك لا غيره.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التقريري للامتنان والتذكير بنعم الرحمٰن في قوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾ شبّه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل الإنسان، ويعجز عن حمله بطريق الاستعارة التمثيلية، ونقول في تقرير هذه الاستعارة: شبه حاله بحال من آده الحمل، وكلله العرق، وبرح به الجهد، حتى إذا انحط عنه الحمل تنفس الصعداء، وانزاحت عنه الكروب والأهوال بجامع أن كلاً منهما مجهود مكروب مما يحمل يتبرم به ويتذمر منه، ويربو أن ينحط عن كاهله، ثم استعير التركيب الدال على حال المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية والقرينة حالية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿صَدۡرَكَ﴾؛ أي: قلبك فإنه من إطلاق المحل وإرادة الحال، والعلاقة المحلية.

ومنها: زيادة ﴿لَكَ﴾؛ للإيذان بأن الشرح من منافعه ومصالحه ﷺ؛ لأن بالشرح يحصل له الاستفادة والإفادة بالوحي.

ومنها: تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح في قوله: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢﴾ قصداً إلى تعجيل المسرة له، وتشويقاً إلى المؤخر، وكذا يقال في قوله: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾.

ومنها: التنكير للتفخيم والتعظيم في قوله: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ نكر اليسر

للتعظيم، كأنه قال: يسراً عظيماً.

ومنها: الجناس الناقص بين لفظ ﴿اليسر﴾ و﴿ٱلْعُسْرِ﴾.

ومنها: تكرير الجملة في قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾؛ لتقرير معناها في النفوس، وتمكينها في القلوب، ويسمى هذا أيضاً الإطناب.

تتمة: وفي «زاده»: قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ زاد لفظة ﴿لَكَ﴾ في ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾، وفي: ﴿رفعنا لك﴾، وزاد لفظة: ﴿عَنكَ﴾ في: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ﴾، فأي فائدة في تقديم الزيادة على المفاعيل الثلاثة؟ والجواب: أن زيادتها مقدمة عليها تفيد إبهام المشروح والموضوع والمرفوع، ثم توضيحه والإيضاح بعد الإبهام أوقع في الذهن.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد

اشتملت هذه السورة الكريمة على أربعة مقاصد:

١ ـ تعداد ما أنعم به على رسوله من النعم.

٢ ـ وعده له بإزالة ما نزل به من الشدائد والمحن.

٣ ـ أمره بالمداومة على الأعمال الصالحة.

٤ ـ التوكل عليه وحده، والرغبة فيما عنده[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تمت سورة الانشراح بتوفيق الملك الفتّاح أوائل ليلة السبت الليلة الثامنة عشرة من شهر ذي القعدة، من شهور سنة: ١٤١٦هـ: ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة التين

سورة التين مكية في قول الأكثرين، نزلت بعد سورة البروج، وروى القرطبي عن ابن عباس أنها مدنية، ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة التين بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: ثمان، وكلماتها: أربع وثلاثون، وحروفها: مئة وخمسة أحرف.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها: أنه تعالى ذكر في السورة السابقة حال أكمل خلق الله تعالى ﷺ، وذكر هنا حال النوع الإنساني وما ينتهي إليه أمره من ضعف بعد قوة، وشيخوخة بعد شباب وفتوة، وما أعده الله سبحانه وتعالى من تمام نعمته لمن آمن بالله ورسوله، ودوامها واستمرارها، وعدم انقطاعها، وأجر المؤمنين موصول، وكرامتهم عند الله تعالى محفوظة، وهم بإذن الله تعالى لا يخرفون ولا يهرمون، ولا يذهب عقل من كان عالماً عاملاً منهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ومن فضائلها: ما أخرجه البخاري ومسلم، وأهل «السنن» وغيرهم عن البراء بن عازب قال: كان النبي ﷺ في سفر، فصلى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسنَ صوتاً ولا قراءة منه ﷺ.

وأخرج الخطيب عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ المغرب، فقرأ بالتين والزيتون.

ومنها: ما أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، وعبد بن حميد في «مسنده»، والطبراني عن عبد الله بن زيد أن النبي ﷺ قرأ في المغرب: والتين والزيتون.

ومنها: ما أخرجه ابن قانع وابن السكين والشيرازي في «الألقاب» عن زرعة بن خليفة قال: أتيت النبي ﷺ من اليمامة، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، فلما صلينا

الغداة قرأ بالتين والزيتون، وإنا أنزلناه في ليلة القدر، وسميت سورة التين؛ لبدايتها بلفظ التين.

الناسخ والمنسوخ: قال ابن حزم رحمه الله: سورة التين كلهامحكمة إلا آية واحدة، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ نُسخ معناها بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: هم نفر رُدوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ، فسُئل عنهم حين سفهت عقولهم، فأنزل الله سبحانه عذرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾؛ أي: أقسم بالتين، وبالزيتون على خلق الإنسان في أحسن تقويم، هما ثمران معلومان أقسم الله بهما لما فيهما من المنافع الكثيرة، والمصالح للعباد، وخصهما[1] من بين الثمار بالإقسام؛ لاختصاصهما بخواص جليلة، فإن التين فاكهة طيبة لا فضل له، وغذاء لطيف سريع الهضم، ودواء كثير النفع، يليِّن الطبع، ويحلل البلغم، ويطهر الكليتين، ويزيل ما في المثانة من الرمل، ويسمن البدن، ويفتح سدد الكبد والطحال.

وروى أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ أنه أُهدي للنبي ﷺ سل من تين فأكل منه، وقال لأصحابه: «كلوا التين، فإنه يقطع البواسير»، وعن بعضهم: التين يزيل نكهة الفم، ويطول الشعر، وهو أمان من الفالج، وأما كونه دواء، فلأنه سبب لإخراج فضلات البدن، وهو مأكول الظاهر والباطن دون غيره، كالجوز والتمر، والتين في النوم رجل غير جبار، ومن نالها في المنام نال مالاً، ومن أكلها مناماً رزقه الله تعالى أولاداً، وتستر آدم بورق التين حين فارق الجنة.

---

(١) روح البيان.

قال في «خريدة العجائب»: إذا نُثر رماد خشب التين في البساتين. . هلك منه الدود، ودخان التين يهرب منه البق والبعوض. انتهى. وفي «القسطلاني على البخاري»: في تفسير سورة التين ما نصه: التين فاكهة طيبة لا فضل له، وغذاء لطيف سريع الهضم، وفيه دواء كثير النفع؛ لأنه يلين الطبع، ويحلل البلغم، ويطهر الكليتين، ويزيل رمل المثانة، ويفتح سدد الكبد والطحال، ويسمن البدن، ويقطع البواسير، وينفع من النقرس، ويشبه فواكه الجنة، لأنه بلا عجم، ولا يمكث في المعدة، ويخرج بطريق الرشح. انتهى.

قال الشهاب: ورمل المثانة بفتح الراء وسكون الميم، والمثانة مقر البول، ورملها مرض يستولي عليها، فيحجز البول عن الخروج بأجزاء دقيقة كالرمل يعسر معها البول، ويتأذى به الإنسان، فإن زاد صار حصاة انتهى.

وأما الزيتون: فهو فاكهة من وجه، ودواء من وجه، ويستصبح به، ومن رأى ورق الزيتون في المنام استمسك بالعروة الوثقى اهـ. «رازي»، وقال بعضهم: الزيتون فاكهة، وإدام، ودواء، ولو لم يكن سوى اختصاصه بدهن كثير المنافع مع حصوله في بقاع لا دهنية فيها كالجبال. . لكفى به فضلاً، وشجرته هي الشجرة المباركة المشهورة في التنزيل، ومر معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ بشجرة الزيتون، فأخذ منها قضيباً واستاك به، وقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «نعم سواك الزيتون، وهو سواكي وسواك الأنبياء من قبلي»، وشجرة الزيتون تعمر ثلاثة آلاف سنة.

ومن خواصّها(١): أنها تصبر عن الماء طويلاً كالنخل، وإذا لقط ثمرتها جنب فسدت، وألقت حملها وانتثر ورقها، وينبغي أن تُغرس في المدر لكثرة الغبار؛ لأن الغبار كلما علا على زيتونها. . زاد دسمه ونضجه، ورماد ورقها ينفع العين كحلاً، ويقوم مقام التوتيا في نفع العين، وفي الحديث: «عليكم بالزيت، فإنه يكشف المرة، ويذهب البلغم، ويشد العصب، ويمنع الغشي، ويحسن الخلق، ويطيب النفس، ويذهب الهم».

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: التين مسجد نوح عليه السلام الذي بُنِي

(١) روح البيان.

على الجودي، والزيتون مسجد بيت المقدس، وقال الضحاك: ﴿وَالتِّينِ﴾: المسجد الحرام، و﴿وَالزَّيْتُونِ﴾: المسجد الأقصى، وقال ابن زيد: و﴿وَالزَّيْتُونِ﴾: مسجد بيت المقدس، وقال قتادة: ﴿وَالتِّينِ﴾: الجبل الذي عليه دمشق، و﴿وَالزَّيْتُونِ﴾: الجبل الذي عليه بيت المقدس، وقال محمد بن كعب: ﴿وَالتِّينِ﴾ مسجد أصحاب الكهف، و﴿وَالزَّيْتُونِ﴾: إلياء، وقال كعب الأحبار وقتادة أيضاً، وعكرمة وابن زيد أيضاً: ﴿وَالتِّينِ﴾: دمشق، و﴿وَالزَّيْتُونِ﴾: بيت المقدس، وهذا اختيار الطبري، قال الشوكاني[١]: وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية، والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى الحقيقي المبنية على الخيالات التي لا ترجع إلى عقل، ولا إلى نقل؟ وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخِر منها مع طول باعه في علم الرواية والدراية، وقال الفراء: سمعت رجلاً من أهل الشام يقول: ﴿وَالتِّينِ﴾: جبال ما بين حلوان إلى همدان، و﴿وَالزَّيْتُونِ﴾: جبال الشام، وقيل: هما جبلان بالشام، يقال لهما: طور تينا، وطور زيتا بالسريانية، سميا بذلك؛ لأنهما ينبتان بهما اهـ «قرطبي»، وقيل: إنه على حذف مضاف؛ أي: وأقسم بمنابت التين والزيتون، قال النحاس: لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل، ولا من قول من لا يجوز خلافه.

وعبارة «المراغي» هنا: ﴿وَالتِّينِ﴾؛ أي: أقسم[٢] بعصر آدم أبي البشر الأول، وهو العهد الذي طفق فيه آدم وزوجه يخصفان عليهما من ورق الجنة. ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾؛ أي: وأقسم بالزيتون عصر نوح عليه السلام وذريته حينما أهلك الله من أهلك بالطوفان، وبعد أن بلعت الأرض الماء جاءته بعض الطيور حاملة ورقة من هذا الشجر فاستبشر، وعلم أن غضب الله قد سكت، وأذن للأرض أن تبتلع ماءها لتُعمر، ويسكنها الناس، ثم أرسى السفينة ونزل هو وأولاده، وعمروا الأرض.

وقصارى ذلك: أن التين والزيتون يذكران بهذين العصرين عصر آدم أبي البشر الأول، وعصر نوح أبي البشر الثاني. انتهى.

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾؛ أي: وأقسم بجبل طور سينين، وهو[٣] الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربه عز وجل، قال الماوردي: ليس كل جبل يقال له طور

---

(١) فتح القدير. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

إلا أن يكون فيه الأشجار والثمار، وإلا فهو جبل فقط، وسينين وسيناء عَلَمان للموضع الذي هو فيه، ولذلك أضيف إليهما، ومعنى ﴿سِينِينَ﴾: بالسريانية ذو الشجر، أو حسن مبارك بلغة الحبشة، وقال مجاهد والكلبي: ﴿سِينِينَ﴾: كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين، وسيناء بلغة النبط، قال الأخفش: ﴿وَالتِّينِ﴾ جبل، و﴿سِينِينَ﴾: شجر، واحدته: سينينة، وهو غريب جداً غير معروف عند أهل الصرف، قال أبو علي الفارسي: ﴿سِينِينَ﴾: فعليل، فكررت اللام التي هي نون فيه، ولم ينصرف ﴿سِينِينَ﴾ كما لم ينصرف سيناء؛ لأنه جُعل اسماً للبقعة.

وفي «كشف الأسرار»: أصل ﴿سِينِينَ﴾ سيناء بفتح السين وكسرها، وإنما قال هنا: ﴿سينين﴾؛ لأن تاج الآيات النون، كما قال في سورة الصافات: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾، وهو إلياس، فخُرِّج على تاج آيات السورة، وإنما أقسم سبحانه بهذا الجبل؛ لأنه بالشام وهي الأرض المقدسة، كما في قوله: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ وأعظم بركة حلت به ووقعت عليه تكليم الله سبحانه لموسى عليه السلام، وقرأ الجمهور: ﴿سِينِينَ﴾ بكسر السين، وقرأ ابن أبي إسحاق وعمرو بن ميمون وأبو رجاء بفتحها، وهي لغة بكر وتميم، وقال الزمخشري: ونحو سينون بيرون في جواز الإعراب بالواو والياء، والإقرار على الياء وتحريك النون بحركات الإعراب. انتهى.

وقرأ عمر بن الخطاب وابن مسعود والحسن وطلحة: ﴿سيناء﴾ بكسر السين والمد، وعمر أيضاً وزيد بن علي: بفتحها، والمد وهو لفظ سرياني اختلفت بها لغات العرب.

والإقسام[1] به تذكير بما كان عند ذلك الجبل من الآيات الباهرات التي ظهرت لموسى وقومه، وما كان بعد ذلك من إنزال التوراة عليه، وظهور نور التوحيد بعد أن تدنست جوانب الأرض بالوثنية، وما زال الأنبياء بعده يدعون أقوامهم إلى التمسك بهذه الشريعة، ثم عرضت لها البدع، فجاء عيسى مخلصاً لها مما أصابها، ثم أصاب قومه ما أصاب الأمم قبلهم من الاختلاف في الدين حتى منَّ الله على الناس بعهد النور المحمدي، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ

(١) المراغي.

﴿٣﴾؛ أي: وأقسم بهذا البلد الأمين الذي شرّفه الله تعالى بميلاد رسوله محمد ﷺ فيه، وكرَّمه بالبيت الحرام، وهو مكة المكرمة زادها الله تعالى شرفاً، ومعنى ﴿ٱلْأَمِينِ﴾؛ أي: الآمن، فالأمين مبالغة آمن؛ أي: آمن من فيه، ومن دخله، وكل ما فيه من طير وحيوان وشجر جاهلية وإسلاماً، مِن قتلٍ وسبي واصطياد وقطع، كما يحفظ الأمين ما ائتُمن عليه، من أَمُن الرجل بضم الميم أمانة، فهو أمين، ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول؛ أي: بمعنى المأمون فيه على الحذف والإيصال من أمنه؛ لأنه مأمون الغوائل والعاهات، كما وُصف بالأمن في قوله تعالى: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ بمعنى ذي أمن، وفي الحديث: «من مات في أحد الحرمين بُعث يوم القيامة آمناً» وفيه مقال.

وحكمة القسم بهذه الأشياء(١): الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصالحين، فمنبت التين والزيتون: مهاجر إبراهيم ومولد عيسى، ومَنْشَؤُهما عليهما السلام، والطُور: المكان الذي نودي فيه موسى عليه السلام، ومكة مكان البيت الذي هو هدى للعالمين، ومولد رسول الله ﷺ ومبعثه.

وخلاصة ما سلف: أن الله سبحانه أقسم بهذه العهود الأربعة التي كان لها أثر بارز في تاريخ البشر، وفيها أنقذ الناس من الظلمات إلى النور، ثم ذكر المقسم عليه، فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: جنس الإنسان؛ لأن المراد بالإنسان الماهية من حيث هي الشاملة للمؤمن والكافر. ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وتعديل؛ أي: في أحسن صورة(٢)، فجعلناه مديد القامة حسن البزة، يتناول بيده ما يريد، لا كسائر الحيوان يتناول ما يريد بفيه، إلى أنه خصه بالعقل والتمييز والاستعداد لقبول العلوم والمعارف، واستنباط الحيل التي بها يستطيع أن يكون له السلطان على جميع الكائنات، وله من الحول والطول ما يستمد إلى كل شيء. لكن قد غفل عما ميز به وظن نفسه كسائر المخلوقات، وراح يعمل ما لا يبيحه له العقل ولا ترضى عنه الفطرة، وانطلق يتزود من متاع الدنيا والاستمتاع بشهواتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأعرض عن النظر فيما ينفعه في معاده، وما يرضي به ربه، وما يوصله إلى

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

النعيم المقيم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ إلى آخر السورة؛ أي: خلقنا جنس الإنسان حال[1] كونه كائناً في أحسن تقويم وتعديل، وقال الواحدي: قال المفسرون: إن الله خلق كل ذي روح مكباً على وجهه إلا الإنسان خلقه مديد القامة، يتناول مأكوله بيده، ومعنى التقويم: التعديل، يقال: قام إذا انتصب، وقام الأمر اعتدل، كاستقام، وقومته، عدلته، كما في «القاموس»، والتقويم[2]: تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه في التأليف والتعديل، وعن يحيى بن أكثم القاضي أنه فسر التقويم بحسن الصورة، فإنه حَكَىٰ أنَّ مَلِك زمانه خلا بزوجته في ليلة مقمرة، فقال لها: إن لم تكوني أحسن من القمر، فأنت كذا، فأفتى كل العلماء بالحنث إلا يحيى بن أكثم قال: لا يحنث، فقالوا: خالفت شيوخك، فقال: الفتوى بالعلم، ولقد أفتى من هو أعلم منا، وهو الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه، وسيأتي قريباً بسط هذه القصة.

وفي «المفردات»: هو إشارة إلى ما خص به الإنسان من بين الحيوان من العقل والفهم، وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ما في هذا العالم، والمعنى: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: كائناً في أحسن ما يكون من التقويم والتعديل صورة ومعنى، حيث يراه تعالى مستوي القامة، متناسب الأعضاء، حسن الشكل، كما قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾؛ أي: صوركم أحسن تصوير. قال[3] ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حياً عالماً قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً مدبراً حكيماً، وهذه صفات الرب سبحانه، وعليها حمل بعض العلماء قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»؛ أي: على صفاته التي ذكرناها هنا. قلت: وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ وعليه يدور معنى قوله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» فإن الإنسان مظهر الجلال والجمال والكمال.

وحاصل ما في هذا المقام: أنه سبحانه وتعالى أقسم بالأمور الأربعة السابقة

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

على أنه خلق الإنسان، وقوّمه أفضل تقويم، وركبه أحسن تركيب، وجعله في أحسن اعتدال، وأفضل قوام، وفطره أحسن فطرة نفساً وبدناً، وكرمه بالعقل الذي ساد به العوالم الأرضية، وأطلعه به على ما شاء الله سبحانه من العوالم السماوية حتى أوصله بحكمته تعالى وأمره إلى القمر، وجعله يطير في الفضاء، ويحلق في الأجواء، ويغوص في الماء، ويفعل العجائب والغرائب، كل ذلك بفضله تعالى، وفضل هذا العقل الذي ركبه فيه، وهو عجيب من عجائب خلق الله تعالى.

قصة وفتوى

ذكر أنه كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حباً جماً، وقد خرج معها يوماً في ليلة مقمرة، فقال لها: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من هذا القمر، فنهضت المرأة واحتجبت عنه، وقالت: لقد طلقتني، وبات زوجها بليلة كئيبة عظيمة، فلما أصبح غدا إلى الخليفة المنصور، فأخبره الخبر، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طلقت إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، وهو القاضي يحيى بن أكثم، فإنه كان ساكتاً، فقال له المنصور: مالك لا تتكلم؟ فقال: الرجل لم يطلق، ولم يحنث في يمينه، فقيل له خالفت شيوخك، فقال: الفتوى بالعلم، ولقد أفتى من هو أعلم منا وهو الله تعالى، فإنه يقول عز من قائل عليم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ يا أمير المؤمنين، فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه، فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال الرجل، فأقبل على زوجتك، وأرسل إلى زوجة الرجل أن أطيعي زوجك، ولا تعصيه، فما طلقك. ذكرها «القرطبي» و«الرازي» وغيرهما.

وهذا الفهم لهذه الآية مما يدل على أن الإنسان أحسن خلق الله باطناً وظاهراً جمال هيئة وبديع تركيب، قامته منتصبة، وصورته حسنة، وخواص الكائنات فيه مستجمعة، وقواه الباطنة تامة، وحواسه كافية، وأعضاء بطنه وعمله بما يحتاج إليه قائمة، ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالَم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه، وفي هذا الإنسان قال الشاعر:

أَتَحْسَبُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيْرُ ... وَفِيْكَ ٱنْطَوَىٰ ٱلْعَالَمُ ٱلأَكْبَرُ

﴿ثُمَّ﴾ بعدما خلقناه في أحسن تقويم وتعديل، ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾ أي رددنا الإنسان

المذكور وصيرناه وجعلناه ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ أي: أسفل من سفل في خلقه وصورته، وأضعف من ضعف في قوته وحيلته ورأيه؛ أي: جعلناه أضعف الضعفاء في القوة والعقل، فينقص عمله وأجره، بأن رددناه إلى أرذل العمر وأخسه، وهو الهرم والضعف بعد الشباب والقوة حتى يصير كالصبي، فيخرف وينقص عقله، كذا قال جماعة من المفسرين.

قال الواحدي: والسافلون: هم الضعفاء والزمناء والأطفال، والشيخ الكبير يكون أسفل من هؤلاء. وقيل المعنى: ثم رددنا ذلك الإنسان بعد ما خلقناه في أحسن تقويم، وجعلناه بسبب سوء فعاله واعتقاده أسفل سافلين؛ أي: جعلناه من أهل النار الذين هم أقبح من كل قبيح، وأسفل من كل سافل؛ لعدم جريانه على موجب ما خلقناه عليه من الصفات التي لو عمل بمقتضاها.. لكان في أعلى عليين، فالضمير راجع إلى الإنسان بالنظر إلى بعض أفراده على هذا المعنى، ففيه استخدام كما سيأتي في مبحثه.

والحاصل: أنه حُوِّل بسوء حاله من أحسن تقويم إلى أقبح تقويم صورة ومعنى؛ لأن مسخ الظاهر إنما هو من مسخ الباطن، فالمراد بـ ﴿السافلين﴾: عصاة المؤمنين، وأفعل التفضيل هنا يتناول المتعدد المتفاوت، و﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ إما حال من المفعول؛ أي: رددنا ذلك الكافر إلى النار حال كونه أسفل السافلين في دركات النار، أو صفة لمكان محذوف؛ أي: رددناه إلى مكان هو أسفل أمكنة السافلين، والأول أظهر، ثم هذا بحسب بعض الأفراد الإنسانية وهو الكافر؛ لانغماسهم في بحر الشهوات الحيوانية البهيمية، وانهماكهم في ظلمات اللذات الجسمانية الشيطانية والسبعية، وفيه إشارة إلى أن الاعتبار إنما هو بالصورة الباطنة، لا بالصورة الظاهرة، فكم من مصور على أحسن الصور في الظاهر، وهو في الباطن على أقبح الهيئات، ولذا يجيء الناس يوم القيامة أفواجاً، فإن صفاتهم الباطنة تظهر على صورهم الظاهرة، فتتنوع صورهم بحسب صفاتهم على أنواع، وقال مجاهد وأبو العالية والحسن: المعنى: ثم رددنا الكافر إلى النار، وذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض، فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فلا مانع من كون الكفار والمنافقين مجتمعين في ذلك الدرك الأسفل. وقيل في معنى الآية: لما وصف الله الإنسان

بتلك الصفات الجليلة التي ركب الإنسان عليها.. طغى وعلا، حتى قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، واعترض على الخالق عز وجل.

قال الشاعر:

إِذَا طَغَىٰ ٱلْعَقْلُ عَلَىٰ رَبِّهِ ... فَإِنَّمَا ٱلْعَقْلُ هُوَ ٱلْجَهْلُ
يَعْتَرِضُ ٱلْعَقْلُ عَلَىٰ صَانِعٍ ... مِنْ بَعْضِ مَصْنُوعَاتِهِ ٱلْعَقْلُ
إِنْ بَانَ فَضْلُ ٱلْعَقْلِ فِي صُنْعِهِ ... فَصَانِعُ ٱلْعَقْلِ لَهُ ٱلْفَضْلُ

وحين علم الله سبحانه هذا من عبده وهو الغليم بكل شيء، وقضاؤه صادر من عنده.. رده أسفل سافلين بأن جعله مملوءاً حَذراً، مشحوناً نجاسة، وأخرجها على ظاهره إخراجاً منكراً على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغلبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره رجع إلى قدره، ذكره القرطبي في «تفسيره».

وذكر الطنطاوي في «تفسيره»: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾: إما برده إلى أرذل العمر، فتنكَّس خَلْقه، وتقوس ظهره بعد اعتداله، وتبيض شعره بعد اسوداده، وتغير جلده بالانكماش، وسمعه وبصره بالضعف، ويمشي دلفاً وهو ضعيف القوة، خافت الصوت، إما بضعف قواه العقلية بالخرف وقت الهرم، وإما بأن نحول بينه وبين قلبه، فيعتقد اعتقاداً يضر في دنياه وآخرته، فندخله جهنم.

وخلاصة ما ذكر في الآية: أي ثم رددناه بعد ذلك الكمال الجسماني والعقلي أسفل من سفلوا بتشويه صورة أو عقل أو دخول جهنم ذليلاً. انتهى. قال في «عين المعاني»[1]: ولم تدخل لام الجنس في ﴿سَٰفِلِينَ﴾ كما ورد في مصحف عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ؛ لأنه عنى أسفل الخرفين خاصة دون كل الناس من أهل الزمانة، وفي «كشف الأسرار»: السافلون هم الضعفاء من المرضى والزمنى والأطفال، والشيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعاً. انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ مُنَكَّراً، وقرأ عبد الله: ﴿أسفل السافلين﴾ معرَّفاً بالألف واللام، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إيماناً صادقاً ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المأمور بها، والمأجور عليها، استثناء منقطع على المعنى الأول، فالمعنى: لكن

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يخرفون ولا يهرمون، ولا تذهب عقولهم، ووجه كون الاستثناء منقطعاً: أن الهرم والرد إلى أرذل العمر، يصاب به المؤمن، كما يصاب به الكافر، فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى، وعلى المعنى الثاني يكون الاستثناء متصلاً من ضمير ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾، فإنه في معنى الجمع؛ أي: رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال القرطبي: والاستثناء على قول من قال: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ الهرم منقطع، وعلى قول من قال: إنه النار فهو متصل. انتهى.

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير منقوص ولا مقطوع، بل أجرهم موصول، ورزقهم موفور من ربٍّ كريم عظيم يعطي الجزيل؛ أي: فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم، وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق، والقيام بالعبادة على ضعف نهوضهم، ويجوز أن يكون المعنى: غير ممنون عليهم؛ أي: لا يمن به عليهم، ومن كمال صفات الثواب أن يكون موصولاً غير مقطوع، وأن لا يكون منغصاً بالمنة والتعالي بإظهار الفضل على من صدر الفضل إليهم.

فهذه الجملة على المعنى الأول مبينة لكيفية حال المؤمنين(١)، وعلى المعنى الثاني مقررة لما يفيده الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد إلى النار، وقال: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى الجمع، ولو قال: أسفل سافل.. لجاز؛ لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد، وقيل معنى قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ رددناه إلى الضلال، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾؛ أي: إلا هؤلاء، فلا يردون إلى ذلك.

وعبارة «الخازن» هنا: وعلى القول الأول(٢): يكون الاستثناء منقطعاً، والمعنى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾: فزال عقله وانقطع عمله، فلا تُكتب له حسنة، لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولازموا عليها إلى أيام الشيخوخة والهرم والضعف، فإنه يُكتب لهم بعد الهرم والخرف مثل الذي كانوا يعملونه في حالة الشباب والصحة.

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

وقال ابن عباس: هم نفر ردوا إلى أرذل العمر في زمن النبي ﷺ، فأنزل الله عذرهم، وأخبرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم، فعلى هذا القول السبب خاص، وحكمه عام، قال عكرمة: ما يضر هذا الشيخ كِبَرُه إذا ختم الله له عمله بأحسن ما كان يعمل، ورُوي عن ابن عباس: إلا الذين قرؤوا القرآن، وقال: من قرأ القرآن لم يُرد إلى أرذل العمر، وقال أبو الليث: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ يعني: لا يخرف ولا يذهب عقل من كان عالماً عاملاً، وفي الحديث: «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله»، والفاء[1] في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾ في دار الكرامة؛ لأنها المحل، له رابطة على القول الأول؛ لتضمن الموصول معنى الشرط، وتعليلية على القول الثاني؛ أي: لا يغير صورهم في النار؛ لأنهم مثابون في الجنة، وفي «التيسير» عن رسول الله ﷺ: إن العبد إذا مرض أو سافر.. كُتب له مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً، أخرجه البخاري وأحمد وغيرهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وكذا رُوي في الهرم، وفي «تفسير أبي الليث» رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن المؤمن إذا مات صعد الملكان إلى السماء، فيقولان: إن عبدك فلاناً قد مات، فائذن لنا حتى نعبدك على السماء، فيقول الله سبحانه: إن سمواتي مملوءة بملائكتي، ولكن اذهبا إلى قبره واكتبا حسناته إلى يوم القيامة».

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ يا محمد، أو يا أيها الإنسان خطاباً على طريق الالتفات ﴿بَعْدُ﴾؛ أي: بعد هذه الحجة القاطعة، والبرهان الساطع، و﴿بَعْدُ﴾ مبني على الضم؛ لحذف المضاف إليه ونيته، والاستفهام للتقريع والتوبيخ وإلزام الحجة إن كان الخطاب للإنسان، وللتعجب إن كان الخطاب للرسول ﷺ ﴿بِٱلدِّينِ﴾؛ أي: بالحساب والجزاء، والمعنى: على أن الخطاب[2] للإنسان؛ أي: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك أسفل سافلين، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء؛ أي: فما الذي يلجئك[3] إلى هذا الكذب ألا تتفكر في صورتك وشبابك ومبدأ خلقك وهرمك، فتعتبر وتقول: إن الذي فعل ذلك قادر على أن يبعثني ويحاسبني؛ أي: فأي شيء يجعلك أيها الإنسان مكذباً بالدين والجزاء منكراً له بعد هذا الدليل.

---

(١) روح البيان بتصرف. (٢) الشوكاني. (٣) الخازن.

وحاصله: أن خلق الإنسان من نطفة قذرة وتقويمه بشراً سوياً، وتحويله من حال إلى حال كمالاً ونقصاناً، أوضح دليل على قدرة الله تعالى على البعث والجزاء؛ فأي شيء يضطرك بعد هذا الدليل القاطع إلى أن تكون كاذباً بسبب تكذيبه أيها الإنسان، والمعنى: على أن الخطاب لمحمد ﷺ؛ أي: فمن يكذبك أيها الرسول بعد ظهور هذه الدلائل والبراهين على البعث والجزاء؛ أي: فمن ينسبك إلى الكذب بسبب إثباتك الجزاء وإخبارك عن البعث بعد ظهور الأدلة الدالة على كمال القدرة، فإن مَن خلق الإنسان السوي من الماء المهين، وجعل ظاهره وباطنه على أحسن تقويم، ودرجه في مراتب الزيادة إلى أن استكمل واستوى، ثم نكسه إلى أن يبلغ إلى أرذل العمر، لا شك أنه قادر على البعث والجزاء، فكأنه قال: من يقدر على تكذيبك في إثبات الثواب والعقاب بعدما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر، فـ﴿ما﴾ بمعنى: من، كما في «الجمل»، واختار هذا المعنى الآخر ابن جرير، و﴿الدين﴾[1]: الجزاء، ومنه قول الشاعر:

دِنَّا تَمِيْمَاً كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... دَانَتْ أَوَائِلُهُمْ مِنْ سَالِفِ ٱلزَّمَنِ

وقال الآخر:

وَلَمَّا صَرَّحَ ٱلشَّرُّ ... فَأَمْسَىٰ وَهْوَ عُرْيَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَىٰ ٱلْعُدْوَا ... نِ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُوْا

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ﴾ الذي فعل ما فعل مما ذكرنا ﴿بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؛ أي: بأتقن[2] المتقنين صنعاً وتدبيراً في كل ما خلق، حتى تتوهم أيها الإنسان عدم الإعادة والجزاء، وفيه وعيد شديد للكفار، أي: أليس ذلك بأبلغ إتقاناً للأمور من كل متقن لها؛ إذ الحاكم هو المتقن للأمور، ويلزمه كونه تام القدرة كامل العلم، وحيث استحال عدم كونه أحكم الحاكمين، تعين الإعادة والجزاء؛ أي: بل هو سبحانه أتقن المتقنين صنعاً في كل ما خلق؛ لأن الاستفهام تقريري، أو المعنى: أليس الله بأقضى القاضين يحكم بينك وبين من يكذبك بالحق والعدل، يقال: حكم بينهم إذا قضى، والاستفهام فيه تقريري؛ لأن نفي النفي إثبات، كما تقدم في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ

---

(1) الشوكاني.   (2) روح البيان.

لَكَ﴾، والآية وعيد للمكذبين له ﷺ، وأنه يحكم عليهم بما هم أهله؛ أي: بل هو سبحانه أعدل القاضين وأنفذهم وأصحهم قضاء بين خلقه نافذ الحكم ولا بد، بخلاف قضاء غيره من القضاة.

وأخرج[1] الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً: من قرأ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾ فقرأ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعاً: «إذا قرأت ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾، فقرأت ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾، فقل: بلى».

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ قال: سبحانك اللهم فبلى، وظاهر الحديثين وأثر ابن عباس - رضي الله عنهما - يدل على أنه يأتي قارئها بهذه الكلمات، سواء كان في الصلاة أو خارجاً عنها، كما عليه الشافعية خلافاً لمن خصه بخارج الصلاة، كالحنفية.

خاتمة: قال في «فتح الرحمٰن»: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآية، إن فسر[2] بالرد إلى جهنم، فهو سفل حقيقي، والاستثناء بعده متصل، وعليه فقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قائم مقام قوله: فلا نردهم أسفل سافلين، أو بالرد إلى أسفل العمر، فهو تسفل في الرتب والأوصاف بالنسبة إلى رتب الشباب وأوصافه. والاستثناء بعده منقطع، وعليه فقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع بالهرم والضعف.

والمعنى: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حال شبابهم وقوتهم إذا عجزوا بالهرم عن العمل.. كتب لهم ثواب ما كانوا يعملون إلى وقت موتهم. انتهى.

الإعراب

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

---

(١) الشوكاني. (٢) فتح الرحمٰن.

﴿وَٱلتِّينِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿وَٱلتِّينِ﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالتين، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾: معطوف على ﴿وَٱلتِّينِ﴾. ﴿وَطُورِ﴾: معطوف على ﴿وَٱلتِّينِ﴾، وهو الجبل، وهو مضاف. ﴿سِينِينَ﴾: مضاف إليه من إضافة الصفة إلى الموصوف، ومعناه: البقعة المباركة مجرور بالفتحة الظاهرة على النون نيابة عن الكسرة؛ لأنه اسم لا ينصرف بعلتين فرعيتين، وهما العلمية والعُجمة؛ لأنه لفظ سرياني عُرِّب، فهو جار مجرى حين في إعرابه بالحركات الظاهرة، ويجوز أن يعرب إعراب جمع المذكر السالم بالواو رفعاً، وبالياء جراً ونصباً. ﴿وَهَٰذَا﴾: في محل الجر معطوف على ﴿وَٱلتِّينِ﴾. ﴿ٱلْبَلَدِ﴾: بدل من اسم الإشارة. ﴿ٱلْأَمِينِ﴾. صفة لـ﴿ٱلْبَلَدِ﴾. ﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿فِىٓ أَحْسَنِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾. ﴿أَحْسَنِ﴾: مضاف. ﴿تَقْوِيمٍ﴾: مضاف إليه. و﴿أَحْسَنِ﴾: صفة لموصوف محذوف؛ أي: في تقويم أحسن تقويم، ويجوز أن تكون ﴿فِىٓ﴾ زائدة؛ أي: قومناه أحسن تقويم اهـ «سمين». ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ. ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول معطوف على ﴿خَلَقْنَا﴾. ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: مفعول ثان لرد؛ لأنه بمعنى: رجع، فينصب مفعولين، نظير قول الشاعر:

فَرَدَّ شُعُوْرَهُنَّ ٱلسُّوْدَ بِيْضًا ... وَرَدَّ شُعُوْرَهُنَّ ٱلْبِيْضَ سُوْدَا

أو حال من المفعول في ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾، أو صفة لمكان محذوف؛ أي: مكاناً أسفل سافلين، فهو ظرف مكان. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب على الاستثناء المتصل إن فسرنا الرد بالرد إلى جهنم، أو على الاستثناء المنقطع إن فسرنا الرد بالرد إلى الهرم، وعلى هذا تكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، والجملة الابتدائية جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ معطوفة على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ داخلة في حيز الصلة. ﴿فَلَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية على أن الاستثناء متصل، ﴿لهم﴾: خبر مقدم. ﴿أَجْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: صفة لـ﴿أَجْرٌ﴾، والجملة الإسمية جملة تعليلية لا محل لها

من الإعراب مسوقة لتعليل الاستثناء؛ لأن الفاء بعد الاستثناء المتصل؛ للتعليل غالباً، ورابطة الخبر بالمبتدأ على أن الاستثناء منقطع لما في الموصول من معنى الشرط الذي هو الإبهام.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك إلى أسفل سافلين، وأردت بيان ما هو النصيحة لك.. فأقول لك: ما يكذبك؛ أي: ما يحملك على أن تذكب بالبعث والجزاء على أن الخطاب للإنسان. أو إذا عرفت يا محمد ما بينا لك من دلائل قدرتنا على البعث والجزاء، وأردت أن تطمئن قلبك على ما بينا لك.. فأقول لك على أن الخطاب لمحمد ﷺ، ﴿ما﴾: اسم استفهام للاستفهام التقريري المضمَّن للإنكار على أن الخطاب للإنسان، أو للاستفهام التعجبي بمعنى: من، على أن الخطاب للرسول ﷺ في محل الرفع مبتدأ مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً ﴿يُكَذِّبُكَ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدَّرة مستأنفة. ﴿بَعْدُ﴾: في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على الضم؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً؛ لحذف المضاف إليه، ونية معناه؛ أي: بعد هذه العبر والعظات، الظرف متعلق بـ﴿يُكَذِّبُكَ﴾. ﴿بِالدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿يُكَذِّبُكَ﴾ أيضاً. ﴿أَلَيْسَ﴾: ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام التقريري، ﴿ليس﴾: فعل ماض ناقص. ﴿اللَّهُ﴾: اسمها. ﴿بِأَحْكَمِ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة في خبر ﴿ليس﴾. ﴿أحكمِ﴾: خبرها مجرور لفظاً منصوب محلاً. ﴿الْحَاكِمِينَ﴾: مضاف إليه مجرور بالياء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾ والتين ـ بكسر التاء ـ ثمر شجر ورطبه النضيج، أحمد الفاكهة وأكثرها غذاء، وأقلها نفخاً، جاذب محلل، مفتّح سدد الكبد والطحال، مليّن، والإكثار منه مقمل، وجبل بالشام ومسجد بها، وجبل لغطفان واسم دمشق، والتينة بالكسر الدُّبُرُ، والتينان ـ بالكسر ـ جبلان لبني نعامة

والذئب، وتينات فرضة على بحر الشام اهـ من «القاموس».

والزيتون ثمر شجرة مباركة فيه إدام ودهن يؤكل ويستصبح به، وشجرته في أغلب البلاد، ولا يحتاج إلى خدمة وتربية، ويمكث في الأرض ألوفاً من السنين، كما مر.

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ والطور: جبل كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، وهو جبل عظيم فيه عيون وأشجار. إن قلت: كيف ذلك مع قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ المقتضي أنه دك ولم يبق له أثر؟ أجيب: بأنه متسع والذي دك قطعة منه، ومعنى ﴿سِينِينَ﴾: المبارك، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته، ومعناه: الجبل المبارك؛ لكونه مباركاً مشرفاً بتكليم موسى ربه عليه، وسينين يجوز أن يُعرب بالحركات الثلاث على النون، مع لزومه الياء في أحواله كلها، ويكون ممنوعاً من الصرف للعلمية والعجمة؛ لأنه عَلَم على البقعة، أو الأرض، وأن يعرب كجمع المذكر السالم بالواو رفعاً، وبالياء نصباً وجراً.

﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ والبلد والبلدة مكة، شرّفها الله تعالى، وكل قطعة من الأرض معموراً بالسكنى، والبلد أيضاً: القبر والدار، يجمع على بلاد وبلدان.

﴿ٱلْأَمِينِ﴾؛ أي: الآمن فعيل بمعنى: فاعل، يقال: أَمُن الرجل بضم الميم أمانة، فهو أمين، وأمانة مكة أنها تحفظ من دخلها جاهلية وإسلاماً مِن قتلٍ وسبي، كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه، ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول بمعنى: المأمون فيه على الحذف والإيصال من أمنه إذا جعله مأموناً مما يخاف؛ لأنها مأمونة الغوائل والعاهات والحروب.

﴿فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ أي: في أعدل قامة وأحسن صورة، يتناول مأكوله بيده، مزيناً بالعلم والفهم والعقل، والتمييز والنطق والأدب، يقال: قام إذا انتصب، وقام الأمر إذا اعتدل، كاستقام، وقوّمته تقويماً عدلته، كما في «القاموس»، والتقويم: تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه في التأليف والتعديل.

﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ و﴿أَسْفَلَ﴾ هنا: اسم تفضيل، يتناول المتعدد المتفاوت، والسافلون هم إما الصغار والزمنىٰ والأطفال، والشيخ الكبير هو أسفل من هؤلاء؛ لأنه لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً؛ لضعف بدنه وسمعه وبصره وعقله وثقله على

أهله وجيرانه، وعلى هذا المعنى، فالاستثناء الآتي منقطع، والمعنى حينئذ، ثم رددناه أسفل سافلين، فزال عقله، وانقطع عمله، فلا يُكتب له حسنة، لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولازموا عليها إلى أيام الشيخوخة والهرم والضعف، فإنه يكتب له بعد الهرم والخرف مثل الذي كانوا يعملونه في حال الشباب والصحة، وإما عصاة المؤمنين، فيكون الاستثناء على هذا متصلاً، والمعنى: رددناه أسفل ممن سفل خلقاً وتركيباً حساً ومعنىً، وهو أهل النار إلا الذين آمنوا الخ، فيكون بمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع، بل متصل دائم، مِن مَنَّهُ مَنّاً إذا قطعه قطعاً، أو غير ممنون به عليهم، فإن المنة تكدّر النعمة، مِنْ مَنَّ عليه مِنَّة، والأول، هو الظاهر، ولعل المراد من الثاني: تحقيق الأجر وإثباته، وأن المأجور استحق الأجر بعمله إطاعة لربه، وإن كان ذلك الاستحقاق من فضل الله تعالى.

﴿بِٱلدِّينِ﴾ والدين: الجزاء بعد البعث، كما مر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ بإطلاق الحال وإرادة المحل على القول بأنه أراد موضعهما، وهو دمشق وبيت المقدس على ما رجحه ابن جرير.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ من إسناد ما للشيء إلى مكانه؛ لأن الأمن إنما يكون لمن فيه.

ومنها: الطباق بين ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وبين ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

ومنها: الاستخدام في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ﴾ حيث ذكر الإنسان أولاً بمعنى وهو الجنس، ثم أعاد الضمير عليه بمعنى آخر وهو الإنسان بمعنى بعض أفراده، والاستخدام عند البديعيين: ذكر الشيء بمعنى، وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر، كما هنا.

ومنها: الاستفهام التقريعي أو التعجبي في قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ وفيه الالتفات أيضاً من الغيبة في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إلى الخطاب هنا، والنكتة في ذلك الالتفات: تشديد الإنكار على الإنسان بمشافهته بالخطاب، كأنه قيل له: فأي شيء يضطرك إلى أن تكون كاذباً بعد هذه الدلائل بسبب تكذيب الجزاء.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنه دخل على النفي، ونفي النفي تقرير.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على خمسة مقاصد:

١ ـ أقسم الله سبحانه وتعالى بأربعة أشياء على مقسم عليه واحد تعظيماً للمقسم به، وإشعاراً بغرابة المقسم عليه.

٢ ـ بيان شرف الإنسان بكونه خُلق على أحسن تقويم.

٣ ـ استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الذين يردون إلى أرذل العمر.

٤ ـ التقريع والإنكار على المكذبين له ﷺ في إخباره عن البعث والجزاء.

٥ ـ وتطمين قلبه ﷺ بكون الله سبحانه أحكم الحاكمين بينه وبينهم[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تمت سورة التين بعون الملك المعين قُبيل الغروب من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ذي القعدة من شهور سنة: ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة العلق

سورة العلق، وتسمى سورة القلم، وسورة اقرأ: مكية بلا خلاف، وهي أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وأخرج ابن مردويه[1] من طرق عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن الأنباري والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في «الحلية» عن أبي موسى الأشعري قال: أول سورة أنزلت على محمد ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾.

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي وصححه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: إن أول ما نزل من القرآن ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، ويدل على أن هذه السورة أول ما نزل الحديث الطويل الثابت في البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة، وفيه: فجاءه الحق وهو في غار حراء، فقال له: اقرأ الحديث، وفي الباب أحاديث وآثار كثيرة عن جماعة من الصحابة، وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن، وأول ما نزل خمس آيات من أولها إلى قوله: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ وفي هذه الأحاديث رد على من قال: أول ما نزل من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾ كما في حديث جابر المذكور في «صحيح مسلم» وغيره، ويجمع بينه وبين هذه الأحاديث بأن المراد بكون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾ أول ما نزل كونه أول ما نزل بعد فترة الوحي نحو ثلاث سنوات، وآياتها: تسع عشرة آية، وكلماتها[2]: اثنتان وتسعون كلمة، وحروفها: مئتان وثمانون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها[3]: أنه سبحانه وتعالى ذكر في سورة التين: ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾، وذكر في هذه السورة: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾، والمناسبة ظاهرة بين خلقه من علق، وخلقه في أحسن تقويم، ففي البداية من علق، وفي النهاية في أحسن تقويم، ثم أسفل سافلين إلى أنه تعالى ذكر هنا من أحوال

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن. (٣) المراغي.

الآخرة ما هو كالشرح والبيان لما ذكره في السورة السابقة والقرآن الكريم كله كالحلقة المفرغة في قالب واحد يرتبط أوله بآخره، وآخره بأوله، مع إيماءات وإشارات، لا يعلمها إلا من أطلعه الله سبحانه عليها من ذوي المعارف الصمدانية.

وعبارة «أبي حيان»[1] هنا: هذه السورة صدرها أول ما نزل من القرآن، وذلك في غار حراء على ما ثبت في «صحيح البخاري» وغيره، وقول جابر: أول ما نزل المدثر، وقول أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أول ما نزل الفاتحة لا يصح، وقال الزمخشري عن ابن عباس ومجاهد: هي أول سورة نزلت، وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل، ثم سورة القلم. انتهى.

ولما ذكر فيما قبلها خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم ذكر ما عرض له بعد ذلك.. ذكره هنا منبهاً على شيء من أطوارها، وذكر نعمته عليه، ثم ذكر طغيانه بعد ذلك، وما يؤول إليه حاله في الآخرة.

تسميتها: وسميت سورة العلق وسورة القلم؛ لذكرهما فيها.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ سورة العلق كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

المناسبة

تقدم لك آنفاً بيان المناسبة بين أول هذه السورة والتي قبلها، وأما قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾...﴾ إلى آخر السورة. مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] في مطلع السورة دلائل التوحيد الظاهرة، ومظاهر القدرة الباهرة، وعلامات الحكمة البالغة، ودقة صنائعه البديعة، وكان ذلك كله بحيث يبتعد من العاقل أن لا يلتفت إليه.. أتبعه جل شأنه ببيان السبب الحقيقي في طغيان الإنسان وتكبره وتماديه عليه، وهو حبه للدنيا واشتغاله بها، وجعلها أكبر همه، وذلك يعمي قلبه، ويجعله يغفل عن خالقه، وما يجب له في عنقه من إجلال وتعظيم، وقد كان ينبغي أن يكون حين الغنىٰ والميسرة وكثرة الأعوان واتساع الجاه أشد حاجة إلى الله تعالى منه في حال الفقر والمسكنة؛ لأنه في حال فقره، لا يتمنى إلا سلامة نفسه وأعضائه، أما في حال الغنى فيتمنى ذلك ويتمنى سلامة مماليكه وأتباعه وأمواله.

ألا يعلم أنه راجع إلى ربه فمجازيه على ما يعمل، وقد بلغ من حمقه أن يأمر وينهى، وأنه يوجب على غيره طاعته، ثم هو بعد ذلك يعرض عن طاعة ربه.

أما ينبغي له أن يهتدي ويشتغل بأمر نفسه، (فمن كان ذا عقل ورأي وثروة وجاه وأعوان، واختار الهدى، وتخلق بأخلاق المصلحين.. كان ذلك خيراً له

(١) المراغي.

وأجدى)، وإنا لننكلن به نكالاً شديداً في العاجلة، ولَنُهِيْنَهُ يوم العرض والحساب، وليدع أمثاله من المغرورين، فإنهم لن يمنعوه، ولن ينصروه، ثم ختم السورة بأمره بالتوفر على عبادة ربه فعلاً وإبلاغاً للناس مبتغياً بذلك وجه الله سبحانه والقربى.

أسباب النزول

تقدمة تاريخية: جاء في صحيح الأحاديث: أن النبي ﷺ «كان يأتي غار حراء - حراء جبل بمكة - يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي وهو في الغار إذ جاءه الملك، فقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذه ثانياً، فغطه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذه ثالثة فغطه حتى بلغ منه الجهد، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

قال الرواة: فرجع ترجف بوادره حتى دخل على خديجة، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فأخبر خديجة الخبر، ثم قال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتَقْرِي الضيف، وتعين على نوائب الحق». الحديث الطويل رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم.

ومن ذلك تعلم(١) أن صدر هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن الكريم، وأول رحمة رحم الله بها عباده، وأول خطاب وجه إلى رسوله ﷺ، أما بقية السورة فهو متأخر النزول، نزل بعد شيوع بعثته ﷺ، وبعد أن دعا قريشاً إلى الإيمان به وآمن به قوم منهم، وكان جمهرتهم يتحرشون بمن آمن به ويؤذونهم، ويحاولون ردهم عن تصديقه، والإيمان بما جاء به من عند ربه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه(٢) ابن المنذر عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يُعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟، فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته،

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

ولأعفرن وجهه في التراب، فأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦...﴾ الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ سبب نزوله: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي، فجاءه أبو جهل، فنهاه، فأنزل الله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ إلى قوله ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه الترمذي وغيره عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلي، فجاءه أبو جهل، فقال: ألم أنهك عن هذا؟!، فزجره النبي ﷺ، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثرُ مني، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ قال الترمذي حسن صحيح.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱقْرَأْ﴾؛ أي[1]: ما يوحى إليك يا محمد، فإن الأمر بالقراءة يقتضي المقروء قطعاً، وحيث لم يتعين.. وجب أن يكون ذلك ما يتصل بالأمر حتماً سواء كانت السورة أول ما نزل أم لا، فليس فيه تكليف ما لا يطاق، سواء دل الأمر على الفور أم لا، والأقرب أن هذا إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أول ما نزل عليه ﷺ على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، وإنما الخلاف في تمام السورة.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أول ما ابتُدىء به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله به كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصالحة، كان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح؛ أي: كضيائه وإنارته، فلا يشك فيها أحد، كما لا يشك في وضوح ضياء الصبح، وإنما ابتُدىء عليه السلام بالرؤيا؛ لئلا يفجأه الملك الذي هو جبريل بالرسالة، فلا تتحملها القوة البشرية، لأنها لا تحتمل رؤية الملك، وإن لم يكن على صورته الأصلية، ولا على سماع صوته، ولا على ما يخبر به، فكانت الرؤيا تأنيساً له، وكانت مدة الرؤيا ستة أشهر على ما هو أدنى مدة الحمل، ثم جاءه الملك فعبر عن عالم الرؤيا إلى عالم المثال.

---

(١) روح البيان.

فإذا كانت مدة الرؤية ذلك العدد يكون ابتداؤها في شهر ربيع الأول، وهو مولده ﷺ، ثم أوحي إليه في اليقظة في شهر رمضان، وكان ﷺ في تلك المدة إذا خلا يسمع نداء: يا محمد يا محمد، ويرى نوراً؛ أي: يقظة، وكان يخشى أن يكون الذي يناديه تابعاً من الجن، كما ينادي الكهنة، وكان في جبل حراء غار؛ وهو الجبل الذي نادى رسول الله ﷺ بقوله: إلي يا رسول الله لما قال له ثبير وهو على ظهره: اهبط عني يا رسول الله، فإني أخاف أن تُقتل على ظهري، وكان رسول الله ﷺ يتعبد في ذلك الغار ليالي ثلاثاً وسبعاً وشهراً، ويتزود لذلك من الكعك والزيت، وذلك في تلك المدة وقبلها.

وأول من تعبد فيه من قريش جده عبد المطلب، ثم تبعه سائر المتألهين، وهم أبو أمية بن المغيرة، وورقة بن نوفل ونحوهما، وكان ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ابن عم خديجة ـ رضي الله عنها ـ وكان قد قرأ الكتب السالفة، وكتب الكتاب العبري، وكان شيخاً كبيراً قد عمي في آواخر عمره ثم بلغ ﷺ رأس الأربعين، ودخلت ليلة سبع عشرة من شهر رمضان جاءه الملك وهو في الغار، كما قال الإمام الصرصري رحمه الله تعالى:

وَأَتَـتْ عَـلَـيْـهِ أَرْبَـعُـوْنَ فَـأَشْـرَقَـتْ   شَـمْـسُ ٱلـنُّـبُـوَّةِ مِـنْـهُ فِـيْ رَمَـضَـانِ

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: جاءه الملك سحر يوم الإثنين، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطني؛ أي: ضمني وعصرني، ثم أرسلني، فعله ثلاث مرات، ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

وأخذ منه القاضي شريح من التابعين: إن المعلم لا يضرب الصبي على تعليم القرآن أكثر من ثلاث ضربات، فخرج ﷺ من الغار، حتى إذا كان في جانب من الجبل سمع صوتاً يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، ورجع إلى خديجة يرجف فؤاده، فحدثها بما جرى، فقالت له: أبشر يابن عمي واثبت، فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم انطلقت إلى ورقة فأخبرته بذلك، فقال فيه:

فَإِنْ يَكُ حَقّاً يَا خَدِيْجَةُ فَٱعْلَمِيْ   حَدِيْثَكِ إِيَّانَا فَأَحْمَدُ مُرْسَلُ
وَجِبْرِيْلُ يَأْتِيْهِ وَمِيْكَالُ مَعْهُمَا   مِنَ ٱللّٰهِ وَحْيٌ يَشْرَحُ ٱلصَّدْرَ مُنْزَلُ

يَـفُـوْزُ بِـهِ مَـنْ فَـازَ عِـزّاً لِـدِيْـنِـهِ   وَيَشْقَىٰ بِهِ ٱلْغَاوِيْ ٱلشَّقِيُّ ٱلْمُضَلِّلُ
فَـرِيْـقَـانِ مِـنْـهُـمْ فِـرْقَـةٌ فِـيْ جِـنَـانِـهِ   وَأُخْـرَىٰ بِـأَغْـلَالِ ٱلْـجَـحِـيْـمِ تُـغَـلَّـلُ

ومكث ﷺ مدة لا يرى جبريل، وإنما كان كذلك؛ ليذهب عنه ما كان يجده من الرعب، وليحصل له التشوق إلى العود، وكانت مدة الفترة؛ أي: فترة الوحي بين ﴿ٱقْرَأْ﴾ وبين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾، وتوفي ورقة في هذه الفترة، ودُفن بالحجون، وقد آمن به ﷺ وصدّقه قبل الدعوة التي هي الرسالة، ولذا قال ﷺ: «لقد رأيته في الجنة، وعليه ثياب الحرير»، ثم نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ②﴾، فظهر الفرق بين النبوة والرسالة.

والجار والمجرور في قوله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿ٱقْرَأْ﴾، ومفعول ﴿ٱقْرَأْ﴾ محذوف تقديره: اقرأ يا محمد ما يوحى إليك، أو ما نزل عليك، أو ما أُمرت بقراءته حال كونك متلبساً باسم ربك، أو مستعيناً باسم ربك، أو مفتتحاً باسم ربك، أو متبركاً باسم ربك، أو مبتدئاً باسم ربك؛ ليتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء؛ أي: قل: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ثم اقرأ، فعُلِم أن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ نزلت من غير بسملة، وقد صرَّح بذلك الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ أمره بذلك؛ لأن ذكر اسم الله قوة له في القراءة، وأنس بمولاه، فإن الأنس بالاسم يُفضي إلى الأنس بالمسمى، والذكر باللسان يؤدي إلى الذكر بالجنان.

قال في «الكواشي»: دخلت ﴿الباء﴾ في ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾؛ لتدل على الملازمة والتكرير، كأخذت بالخطام، ولو قلت: أخذت الخطام لم يدل على التكرير والدوام، وقيل[1]: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ هو المفعول، وهو المأمور بقراءته، كما تقول: اقرأ الحمد لله، وقيل المعنى: اقرأ في أول كل سورةٍ وقراءةٍ بسم الله الرحمٰن الرحيم، وقال الأخفش: ﴿الباء﴾ بمعنى على؛ أي: اقرأ على اسم الله، كما قالوا في قوله: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: على اسم الله، وقال أبو عبيدة: ﴿الباء﴾: زائدة، والمعنى: اذكر اسم ربك، وقال أيضاً: الاسم صلة، والمعنى: اقرأ بعون ربك وتوفيقه، وجاء بـ﴿اسم ربك﴾ ولم يأت بلفظ الجلالة: لما في لفظ

---

(١) البحر المحيط.

الرب من معنى الذي رباك، ونظر في مصلحتك، وجاء الخطاب؛ ليدل على الاختصاص والتأنيس؛ أي: ليس لك رب غيره.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ بهمزة ساكنة أمراً من القراءة، وقرأ الأعشى عن أبي بكر عن عاصم بحذفها، كأنه على قول من يبدل الهمزة بمناسب حركتها، فيقول: قرأ يقرأ كسعى يسعى، فلما أمر منه قيل: اقْرَ بحذف الألف، كما تقول: اسع، وفي كتاب «شمس المعارف»: أول آية نزلت على وجه الأرض: بسم الله الرحمٰن الرحيم يعني: على آدم الصفي عليه السلام، فقال آدم: الآن علمت أن ذريتي لا تُعذب بالنار ما دامت عليها، ثم أنزلت على إبراهيم عليه السلام في المنجنيق، فأنجاه الله تعالى بها من النار، ثم على موسى عليه السلام فقهر بها فرعون وجنوده، ثم على سليمان عليه السلام، فقالت الملائكة: الآن والله قد تم ملكك. فهي آية الرحمة والأمان لرسله وأممهم، ولما نزلت على رسول الله ﷺ في سورة النمل: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ كانت فتحاً عظيماً، فأمر رسول الله، فكُتبت على رؤوس السور وظهور الدفاتر وأوائل الرسالة، وحلف رب العزة بعزته أن لا يسميه عبد مؤمن على شيء إلا بورك له فيه، وكانت لقائلها حجاباً من النار، وهي تسعة عشر حرفاً تدفع تسع عشرة زبانية، وفي الخبر النبوي: «لو وُضعت السموات والأرضون وما فيهن وما بينهن في كفة، والبسملة في كفة لرجحت عليها» يعني البسملة.

وقال بعضهم: ﴿الباء﴾ في باسم الله بره تعالى على المؤمنين بأنواع الكرامات في الدارين، والسين كونه سميعاً لدعاء الخلق جميعاً، والميم معناه من العرش إلى تحت الثرى مِلكه ومُلكه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ أي: اتصف بالخلق والإيجاد للمخلوقات، أو خلق الخلائق، أو كل شيء وصف الرب به، لتذكير أول النعماء الفائضة عليه منه تعالى، والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة، وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلاً من سائر الكمالات.. قادر على تعليم القراءة للحي العالم المتكلم.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى: أي اقرأ ما يوحى إليك يا محمد متبركاً باسم ربك الذي له الخلق والمستأثر به لا خالق سواه، فيكون ﴿خَلَقَ﴾ مُنَزَّلاً منزلة اللازم، وبه يتم مراد المقام؛ لدلالته على أن كل خلق مختص به، أو المعنى: الذي خلق كل شيء، فيكون من حذف المفعول؛ للدلالة على التعميم.

وقال في «فتح الرحمٰن»: لما ذكر الرب، وكانت العرب في الجاهلية تسمي الأصنام أرباباً، جاء بالصفة التي لا شركة للأصنام فيها، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ومعنى الآية: أي[1]: صر يا محمد قارئاً بقدرة الله الذي خلقك وإرادته بعد أن لم تكن كذلك، فإنه ﷺ لم يكن قارئاً ولا كاتباً، وقد جاءه الأمر الإلٰهي بأن يكون قارئاً وإن لم يكن كاتباً، وسينزل عليه كتاباً يقرؤه وإن كان لا يكتبه.

وقصارى ذلك: أن الذي خلق الكائنات وأوجدها قادر أن يوجد فيها قراءة وإن لم يسبق لك تعلمها.

فائدة: ذكر السيوطي في «إتقانه»: أن أول سورة اقرأ مشتمل على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة الاستهلال؛ لكونها أول ما نزل من القرآن، فإن فيها الأمر بالقراءة، وفيها البداءة باسم الله، وفيها الإشارة إلى علم الأحكام، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، ولهذا قيل: إنها جديرة بأن تسمى عنوان القرآن؛ لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله اهـ «ابن لقيمة على البيضاوي».

فائدة أخرى: قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ظاهره[2] أن هذه الجملة ليست من القرآن؛ لأن الأمر بتحصيل الشيء غير ذلك الشيء، ولكن قام الإجماع على أنها من جملة القرآن خصوصاً مع إثباتها في المصاحف بخطها سلفاً وخلفاً من غير نكير، فعُلم منه أنها من جملة القرآن تأمل.

وفائدة أخرى: بسم الله تُكتب من غير ألف استغناء عنها بباء الإلصاق في اللفظ والخط؛ لكثرة الاستعمال بخلاف قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فإنها لم تُحذف فيه؛ لقلة الاستعمال، واختلفوا في حذفها من الرحمٰن والقاهر، فقال الكسائي وسعيد بن الأخفش: تحذف الألف، وقال يحيى بن وثاب: لا تُحذف إلا

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

مع اسم الله فقط؛ لأن الاستعمال إنما كثر فيه، اهـ من القرطبي في أول «تفسيره».

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: بني آدم تخصيص[1] لخلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات؛ لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير على القول بأن ﴿خَلَقَ﴾ الأول لازم بمعنى اتصف بالخلق واستأثر به، وأما على القول بأن خَلَقَ الأول متعد حُذف مفعوله، فهو تخصيص لخلق الإنسان بالذكر والبيان بعد التعميم تفخيماً لشأنه؛ إذ هو أشرفهم، وعليه نزل التنزيل، وهو المأمور بالقراءة، ويجوز أن يراد بالفعل الأول أيضاً خلق الإنسان، ويقصد بتجريده عن المفعول الإبهام، ثم التفسير روماً لتفخيم شأنه.

﴿مِنْ عَلَقٍ﴾؛ أي: خلق الإنسان من دمٍ جامد جمع علقة، كثمر وثمرة، وهي الدم الجامد، وإذا جرى فهو المسفوح؛ أي: خلقه من دم جامد رطب يعلق بما مر عليه، لبيان كمال قدرته تعالى بإظهار ما بين حالته الأولى والآخرة من التباين البين، وإيراده[2] بلفظ الجمع حيث لم يقل: علقة بناء على أن الإنسان في معنى الجمع؛ لأن الألف فيه للاستغراق أو للجنس، والمعنى: الذي خلق جنس الإنسان من جنس العلق، أو لمراعاة الفواصل، ولعله هو السر في تخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية مع كون النطفة والتراب أدل منه على كمال القدرة؛ لكونهما أبعد منه بالنسبة إلى الإنسانية.

ولما كان خلق الإنسان أول النعم الفائضة عليه منه تعالى، وأقوم الدلائل الدالة على وجوده تعالى، وكمال قدرته وعلمه وحكمته.. وصف ذاته تعالى بذلك أولاً؛ ليستشهد ﷺ به على تمكينه تعالى له من القراءة، وفي «حواشي ابن الشيخ»: إن الحكيم سبحانه وتعالى لو قال له حين أراد أن يبعثه رسولاً إلى المشركين: اقرأ باسم ربك الذي لا شريك له.. لأبوا أن يقبلوا ذلك منه، لكنه تعالى قدم في ذلك مقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به حيث أمر رسوله أن يقول لهم: إنهم هم الذين خُلِقوا من العلقة ولا يمكنهم إنكاره، ثم أن يقول لهم: لا بد للفعل من فاعل، فلا يمكنهم أن يضيفوا ذلك الفعل إلى الوثن؛ لعلمهم بأنهم نحتوه، فبهذا التدريج يقرون بأني أنا المستحق للثناء دون الأوثان؛ لأن الإلٰهية موقوفة على الخالقية، ومن لم

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

يخلق شيئاً كيف يكون إلٰهاً مستحقاً للعبادة.

ومعنى قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾؛ أي: إن[1] الذي خلق الإنسان وهو أشرف المخلوقات كلها من العلق، وآتاه القدرة على التسلط على كل شيء مما في هذا العالم الأرضي، وجعله يسوده بعلمه، ويسخره لخدمته قادر أن يجعل من الإنسان الكامل كالنبي ﷺ، قارئاً وإن لم يسبق له تعلم القراءة.

والخلاصة[2]: أن من كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد إنساناً حياً ناطقاً يسود المخلوقات الأرضية جميعها قادر أن يجعل محمداً ﷺ قارئاً وإن لم يتعلم القراءة والكتابة.

ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير، فقال: ﴿ٱقْرَأْ﴾؛ أي: افعل يا محمد ما أُمرت به من القراءة، وحكمة الأمر بالتكرير؛ لأن القراءة لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ما جرت به العادة، وتكرار الأمر الإلٰهي يقوم مقام تكرير المقروء، وبذلك تصير القراءة ملكة للنبي ﷺ، تدبر قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ وقيل[3]: إنه أمره بالقراءة أولاً لنفسه، ثم أمره بالقراءة ثانياً للتبليغ، فلا يكون من باب التأكيد، والأول أولى، وجملة قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ من المبتدأ والخبر مستأنفة مسوقة لإزاحة ما اعتذر به ﷺ من قوله: ما أنا بقارىء، يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ، وأنا أمي لا أعرف القراءة ولا الكتابة، فقيل له: اقرأ وربك الذي أمرك بالقراءة مبتدئاً باسمه وهو الأكرم؛ أي: الزائد في الكرم على كل كريم، فإنه ينعم بلا غرض، ولا يطلب مدحاً أو ثواباً أو تخلصاً من المذمة، وأيضاً أن كل كريم، إنما أخذ الكرم منه، فكيف يساوي الأصل.

والمعنى[4]: أي وربك يا محمد أكرم من يرتجي منه الإعطاء، فيسيرٌ عليه أن يفيض عليك نعمة القراءة من بحار كرمه من غير تعلُّم كتابة ولا قراءة. وقال ابن الشيخ: ﴿وَرَبُّكَ﴾: مبتدأ، و﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾: صفته، و﴿ٱلَّذِى﴾، مع صلته في قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ خبره؛ أي: علم ما علم بواسطة القلم لا غيره، فكما علم القارىء بواسطة الكتابة والقلم يعلمك بدونهما.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

وفي «الخازن»: وقد يكون[1] ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ بمعنى الكريم، كما جاء الأعز بمعنى العزيز، وغاية الكرم إعطاؤه الشيء من غير طلب العوض، فمن طلب العوض فليس بكريم، وليس المراد أن يكون العوض عيناً بل المدح والثواب عوض، والله سبحانه جل جلاله وتعالى عُلاهُ وشأنه يتعالى عن طلب العوض، ويستحيل ذلك في وصفه؛ لأنه أكرم الأكرمين، وقيل ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾: هو الذي له الابتداء في كل كرم وإحسان، وقيل: هو الحليم عن جهل العباد، فلا يعجل عليهم بالعقوبة، وقيل: يحتمل أن يكون هذا حثاً على القراءة، والمعنى: اقرأ وربك الأكرم؛ لأنه يجزي بكل حرف عشر حسنات.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾؛ أي: علم الخط والكتابة التي بها تُعرف الأمور الغائبة، وفيه تنبيه على فضل الكتابة؛ لما فيها من المنافع العظيمة؛ لأن بالكتابة ضُبطت العلوم، ودونت الحكم، وبها عُرفت أخبار الماضين وأحوالهم وسيرهم ومقالاتهم، ولولا الكتابة ما استقام أمر الدين والدنيا، قال قتادة: القلم نعمة من الله عظيمة، لولا القلم لو يقم دين ولم يصلح عيش، وسئل[2] بعضهم عن الكلام، فقال: ريح لا يبقى، قيل له: فما قيده؟ قال: الكتابة؛ لأن القلم ينوب عن اللسان، ولا ينوب اللسان عنه، كما قال بعضهم:

اَلْعِلْمُ صَيْدٌ وَٱلْكِتَابَةُ قَيْدُهُ قَيِّدْ صُيُوْدَكَ بِٱلْحِبَالِ ٱلْوَاثِقَهْ

وقال الآخر:

وَمَا مِنْ كَاتِبٍ إِلاَّ سَيَبْلَىٰ وَيُبْقِيْ ٱلدَّهْرُ مَا كَتَبَتْ يَدَاهُ
فَلاَ تَكْتُبْ بِكَفِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ يَسُرُّكَ فِيْ ٱلْقِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ

وفيه امتنان على الإنسان بتعليم علم الخط والكتابة بالقلم، وسمي قلماً؛ لأنه يُقَلَّم ويقص ويقطع.

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله: أأكتب ما أسمع منك من الحديث؟ قال: «نعم، فاكتب فإن الله تعالى علم بالقلم».

وعن ابن مسعود قال[3]: قال رسول الله ﷺ: «لا تسكنوا نساءكم الغرف ولا

(١) الخازن. (٢) روح البيان. (٣) المراح.

تعلموهن الكتابة؛ - أي: حذراً من تطلعهن إلى الرجال وحذراً من الفتنة - لأنهن قد يكتبن لمن يهوين».

قال كعب الأحبار[١]: أول من وضع الكتاب العربي والسرياني، والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته ثلاث مئة سنة كتبها في الطين ثم طبخه، فاستخرج إدريس ما كتب آدم وهذا هو الأصح.

وأما أول من كتب خط الرمل فإدريس عليه السلام، وأول من كتب بالفارسية: طهمورت ثالث ملوك الفرس، وأول من اتخذ القراطيس: يوسف عليه السلام، قال السيوطي - رحمه الله تعالى -: أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، وأول ما كتب القلم: أنا التواب أتوب على من تاب.

قال بعضهم: وجه المناسبة بين الخلق من العلق وتعليم القلم أن أدنى مراتب الإنسان كونه علقة، وأعلاها كونه عالماً، فالله تعالى امتن على الإنسان بنقله من أدنى المراتب وهي العلقة إلى أعلاها وهو تعلم العلم، وجملة قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ بدل اشتمال من التي قبلها وتعيين للمفعول؛ أي: علم الإنسان بالقلم وبدونه من الأمور الكلية والجزئية والجلية والخفية ما لم يخطر بباله أصلاً، قيل[٢] المراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هنا: آدم، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ وقيل: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هنا: رسول الله ﷺ، وعلى هذا فالمراد بعلمه المستقبل، فإن هذا من أوائل ما نزل، والأولى حمل ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ على العموم، كما أشرنا إليه في الحال.

وحاصل معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ . . .﴾ الآيات، أي[٣]: الذي جعل القلم واسطة التفاهم بين الناس على بعد الشقة، كما أفهمهم بوساطة اللسان. والقلم آلة جامدة لا حياة فيها، وليس من شأنها الإفهام، فمن جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان، أفيصعب عليه أن يجعل منك قارئاً مبيناً وتالياً معلماً، وأنت إنسان كامل، وقد وصف سبحانه نفسه بأنه خلق الإنسان من علق، وأنه علمه بالقلم، ليبين أحوال هذا الإنسان، وأنه خلق من أحقر الأشياء، وبلغ في كماله الإنساني أن صار عالماً بحقائق الأشياء، فكأنه قيل: تدبر أيها الإنسان تجد

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

أنك قد انتقلت من أدنى المراتب إلى أعلى الدرجات وأرفعها، ولا بد لذلك من مدبر قادر حكيم أحسن كل شيء خلقه، ثم زاد الأمر بياناً بتعداد نعمه، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾؛ أي: إن من صدر أمره بأن يكون رسوله ﷺ قارئاً هو الذي علم الإنسان جميع ما هو متمتع به من العلم، وممتاز به عن غيره من الحيوان، وكان في بدء أمره لا يعلم شيئاً، فهل من عجب أن يعلمك القراءة ويعلمك كثيراً من العلوم سواها، ونفسك مستعدة لقبول ذلك، وفي الآية دليل على فضل القراءة والكتابة والعلم، ولعمرك لولا القلم ما حُفظت العلوم، ولا أحصيت الجيوش، ولضاعت الديانات، ولا عرف الأواخر معارف الأوائل وعلومهم ومخترعاتهم وفنونهم، ولما سجل تاريخ السابقين المسيئين منهم والمحسنين، ولا كان علمهم نبراساً يهتدي به الخلف، ويُبنى عليه ما به ترقى الأمم وتتقدم المخترعات.

كما أن فيها دليلاً على أن الله سبحانه خلق الإنسان الحي الناطق فيما لا حياة فيه ولا نطق ولا شكل ولا صورة، وعلمه أفضل العلوم وهي الكتابة، ووهبه العلم ولم يكن يعلم شيئاً، فما أعجب غفلتك أيها الإنسان.

﴿كَلَّآ﴾ ردع[1] لمن كفر بنعمة الله تعالى عليه بطغيانه وإن لم يسبق ذكره للمبالغة في الزجر فيوقف عليه، وقال السجاوندي: يوقف على ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؛ لأنه بمعنى حقاً، ولذا وضع علامة الوقف عليه. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: إن جنس الإنسان ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾؛ أي: ليتجاوز الحد ويستكبر على ربه، وهذا بيان للمردوع والمردوع عنه إن قلنا: إنها حرف ردع، قيل: إن هذا إلى آخر السورة نزل في أبي جهل وأضرابه بعد زمان من نزول أول السورة، وهو الظاهر. ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ مفعول له؛ أي: يطغى لأن رأى وعلم نفسه مستغنياً أو أبصر غناه، والمراد أنه يريد طغيانه باستغنائه بالعشيرة والأنصار والأعوان والأموال، قال مقاتل: كان أبو جهل إذا أصاب مالاً زاد في ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه، فذلك طغيانه، وكذلك قال الكلبي.

والرؤية هنا[2]: بمعنى العلم، ولو كانت بصرية لامتنع الجمع بين ضميرين لشيء واحد في فعلها؛ لأن ضمير الفاعل في ﴿رَّءَاهُ﴾ وضمير المفعول عائدان على

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ لأن الجمع بين الضميرين المتصلين لشيء واحد من خواص أفعال القلوب، فتقول: رأيتني صديقك، فلا يجوز: زيد ضربه، وهما ضميرا زيد.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ بألف بعد الهمزة، وهي لام الفعل، وقرأ قنبل عن ابن كثير بحذف الألف، وهي رواية ابن مجاهد عنه، قال: وهو غلط لا يجوز، وينبغي أن لا يغلِّطه بل يتطلب له وجهاً، وقد حُذف الألف في نحو من هذا، قال الشاعر:

وَصَّانِيَ ٱلْعَجَّاجُ فِيمَا وَصَّنِيْ

يريد فيما وصاني، فحذف الألف وهي لام الفعل، وقد حذفت في مضارع رأى في قولهم: أصاب الناس جهد ولو تَرَ أهل مكة، وهو حذف لا ينقاس، لكن إذا صحت الرواية به وجب قبوله، والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها.

وقيل معنى ﴿كَلَّآ﴾ حقاً كما مر عن السجاوندي، والمعنى عليه: أي[2] حقاً، إن أمر الإنسان لعجب، فإنه متى أحس من نفسه قدرة وثروة خرج من الحد الذي يجب أن يكون عليه، واستكبر عن الخشوع لربه وتطاول بأذى الناس، وعد نفسه فوقهم جميعاً، وقد كان من حقه أن يكون هو وإياهم أعضاء أسرة واحدة يتعاونون في السراء والضراء، ويحب الخير لهم، كما يحبه لنفسه، وفي «البخاري»: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وروي عن علي في نصيحته لابنه الحسن: أحب الخير لغيرك كما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: منهومان لا يشبعان طالب العلم وطالب الدنيا ولا يستويان، أما طالب العلم فيزداد في رضا الله، وأما طالب الدنيا فيزداد في الطغيان.

وتعليل طغيانه برؤيته لنفسه الاستغناء[3]؛ للإيذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد، روي: أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: أتزعم أن من استغنى طغى؟ فاجعل لنا جبال مكة ذهباً وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك، فنزل جبريل، فقال: إن شئت فعلنا ذلك، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

المائدة، فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاءً عليهم ورحمةً لهم، وأول[1] هذه السورة يدل على مدح العلم وآخرها على مذمة المال، وكفى بذلك مرغباً في العلم والدين، ومنفراً عن المال والدنيا، وكان ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من غِنًى يُطغي وفقر يُنسي» وقد حكم[2] سبحانه على الإنسان بالطغيان بالغنى باعتبار الأعم الأغلب، في أفراده، وإلا فإن الغنى والقوة في أيدي الأتقياء من وسائل الخير وأفضل أسباب السعادة الدنيوية والأخروية؛ لأنهم يستعملونها فيما يُرضي ربهم ويعود عليهم بالنفع في دينهم ودنياهم، ثم حذر من الطغيان وأنذر من عاقبته، وأبان أن ما بيد الطاغي عارية، وليست نفسه بباقية، وأن مرجع الأمر كله لله سبحانه وتعالى، فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾؛ أي: إلى مالك[3] أمرك أيها الإنسان رجوع الكل بالموت والبعث لا إلى غيره استقلالاً واشتراكاً، فسترى حينئذٍ عاقبة طغيانه، والرجعى مصدر بمعنى الرجوع، والألف للتأنيث كالمرجع والرجوع، يقال: رجع إليه مرجعاً ورجوعاً ورجعى، وتقدم الجار والمجرور؛ لإفادة القصر.

والمعنى[4]: أي إن المرجع إلى ربك وحده وهو مالك أمرك وما تملك، وسيتبين لك عظيم غرورك حينما تخرج من هذه الحياة، وتظهر في مظهر الذل، وتحاسب على كل ما اجترحته في حياتك الأولى قل أو كثر عظم أو حقر، كما قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ ثم أعقب ما تقدم بالوعيد والتهديد والتعجيب، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ والاستفهام لتعجيب المخاطب، وهو النبي ﷺ، وكل من يتأتى منه الرؤية، والرؤية هنا بصرية، وهي[5] تتعدى إلى مفعولين؛ لأنها بمعنى: أخبِرْني، فالمفعول الأول: ﴿ٱلَّذِى﴾، والمفعول الثاني: محذوف، وهو جملة استفهامية نظير الجملة الواقعة بعد ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة؛ أي: أخبِرْني يا محمد، أو أيها المخاطَب الناهي من يصلي ألم يعلم أن الله يطلع على أحواله، فيجازيه بها حتى اجترأ على ما فعل؛ أي: أخبرني عن حال هذا الأحمق، فإن أمره لعجب، فقد بلغ به الكبر والتمرد والعناد إلى أن

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.
(٥) المراح.

ينهى عبداً من عباد الله عن صلاته، ويعتقد أنه يجب عليه طاعته وهو ليس بخالق ولا رازق، فكيف يستسيغ ذلك لنفسه ويعرض عن طاعة الخالق الرازق، وقد روي أن علياً ـ رضي الله عنه ـ رأى في المصلى قوماً يصلون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل له ألا تنهاهم، فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾، فلم يصرح بالنهي عن الصلاة احتياطاً.

وتنكير[1] ﴿عَبْدًا﴾ لتفخيمه ﷺ، كأنه قيل ينهى أكمل الخلق في العبودية عن عبادة ربه، والعدول عن ينهاك إلى ﴿يَنْهَىٰ عَبْدًا﴾ دال على أن النهي كان للعبد عن إقامة خدمة مولاه، ولا أقبح منه، قال المفسرون: ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰٓ﴾ أبو جهل، والمراد بالعبد محمد ﷺ، وفيه تقبيح لصنعه وتشنيع لفعله كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية.

روي: أن أبا جهل قال في ملأ من طغاة قريش: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه، وفي «التكملة»: نهى محمداً عن الصلاة، وهمّ أن يُلقي على رأسه حجراً، فرآه في الصلاة، وهي صلاة الظهر، فجاءه ثم نكص على عقبيه، فقالوا: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فنزلت الآية، والمراد أجنحة الملائكة، أبصر اللعين الأجنحة، ولم يبصر أصحابها، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» وكان أبو جهل يكنى في الجاهلية بأبي الحكم لأنهم كانوا يزعمون أنه عالم ذو حكمة، ثم سمي أبا جهل في الإسلام.

وكان ﷺ يدعو ويقول: «اللهم أعز الإسلام بأبي جهل، أو بعمر» فلما أعزه الله بعمر ـ رضي الله عنه ـ دل على أن عمر أسعد قريش، كما أن أبا جهل أشقى قريش؛ إذ الأشياء تتبين بأضدادها.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ والرؤية هنا قلبية، معناه: أخبِرْني ذلك الناهي وهو المفعول الأول، فإن مفعولي[2] ﴿أَرَءَيْتَ﴾ هنا محذوفان،

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

حذف الأول؛ لدلالة المفعول الأول من ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى عليه، وحذف الثاني؛ لدلالة مفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة عليه، و﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ أَمَرَ﴾ بمعنى الواو، والمعنى: أخبِرْني يا محمد ذلك الناهي إن صار على الهدى وأمر بالتقوى، أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله والنهي عن خدمته.

والخلاصة: أما كان الأفضل له أن يهتدي ويهدي غيره إلى خصال البر والخير، وقد كانت هذه حال النبي ﷺ، فعمله كان، إما في إصلاح نفسه بالعبادات من صلاة وصيامٍ وغيرهما، وإما في إصلاح غيره بأمره بالتقوى ودعائه إليها.

كأنه تعالى يقول: تلهف يا مخاطَب عليه، كيف فوَّت على نفسه المراتب العالية، وقنع بالمراتب الدنيئة، وهو رجل عاقل ذو ثروة لا يليق به ذلك، والآية في الحقيقة تهكم بالناهي ضرورة أنه ليس في النهي عن عبادته تعالى، والأمر بعبادة الأصنام على هدىً ألبتة.

﴿أَرَءَيْتَ﴾ والرؤية أيضاً هنا قلبية تتعدى إلى مفعولين؛ أي: أخبِرْني ذلك الناهي ﴿إِن كَذَّبَ﴾ بالحق ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ أي: أعرض عنه ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ ذلك الناهي ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَرَىٰ﴾؛ أي: يراه ويجازيه على تكذيبه وإعراضه، والجملة الاستفهامية في موضع المفعول الثاني ﴿لأرأيت﴾، ومفعولها الأول محذوف، وهو يعود إلى الموصول، أو اسم إشارة يشار به إليه، والمعنى: أخبِرْني يا محمد ذلك الناهي إن كذب بتلك الدلائل الواضحة وأعرض عن خدمة خالقه ألم يعلم بعقله أن الله سبحانه يرى منه هذه الأعمال القبيحة، أفلا ينزجر عنها.

والخلاصة[1]: أي أنبئني عن حال هذا الكافر إن كذب بدلائل التوحيد الظاهرة، وأمارات القدرة الباهرة، وأعرض عن دعوتك والاستماع لهديك، ودعا الناس إلى مثل ذلك، أفلا يخشى أن تحل به قارعة ويصيبه من عذاب الله ما لا قبل له باحتماله، ألا عقل له يرشده إلى أن خالق هذا الكون مطلع على عمله، وأنه حكيم لا يُهمل عقابه، وأنه سيؤاخذه بكل ما اقترف من كل جرم، ولا يخفى ما في هذا من تهديد وتخويف للعصاة والمذنبين، وقال أبو الليث ـ رحمه الله ـ: والآية

---

(١) المراغي.

عظة لجميع الناس، وتهديد لمن يمنع عن الخير وعن الطاعة، وقال ابن الشيخ في «حواشيه»: وهذه[1] الآية وإن نزلت في حق أبي جهل، لكن كل من نهى عن طاعة الله تعالى فهو شريك أبي جهل في هذا الوعيد، ولا يلزم عليه المنع من الصلاة في الدار المغصوبة، والأوقات المكروهة، لأن المنهي عنه غير الصلاة، وهي المعصية التي هي الاستيلاء على حق الغير، وإيقاع الصلاة في الوقت المكروه، فإن عدم مشروعية الوصف المقارن، وكونه مستحقاً؛ لأن ينهى عنه لا ينافي مشروعية أصل الصلاة إلا أنه لشدة الاتصال بينهما بحيث يكون النهي عن الوصف موهماً للنهي عن الأصل احتاط فيه بعض الأكابر، حتى روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه رأى في المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد إلى آخر ما مر.

وفي «البيضاوي»: ومعنى الآيات: أخبِرْني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه، أو أمر بالتقوى فيما يأمره من عبادة الأوثان كما يعتقده، أو إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الصواب، كما يقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ ويطلع على أحواله، من هداه أو ضلاله ليجازيه عليه. انتهى.

وقال الفراء: المعنى: أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى وأمر بالتقوى، والناهي مكذب متول عن الذكر؛ أي: فما أعجب هذا، ألم يعلم أبو جهل بأن الله تعالى يراه ويعلم فعله، فهذا تقرير وتوبيخ انتهى.

وقال التبريزي[2]: المراد بالصلاة هنا صلاة الظهر، قيل: هي أول جماعة أقيمت في الإسلام كان معه أبو بكر وعلي وجماعة من السابقين، فمر به أبو طالب ومعه ابنه جعفر، فقال له: صل جناح ابن عمك وانصرف مسروراً، وأنشأ أبو طالب يقول:

إِنَّ عَلِيّاً وَجَعْفَراً ثِقَتِي ... عِنْدَ مُلِمِّ ٱلزَّمَانِ وَٱلْكُرَبِ
وَٱللَّهِ لاَ أَخْذُلُ ٱلنَّبِيَّ وَلاَ ... يَخْذُلُهُ مَنْ يَكُوْنُ مِنْ حَسَبِي
لاَ تَخْذُلاَ وَٱنْصُرَا ٱبْنَ عَمِّكُمَا ... أَخِيْ لأُمِّيْ مِنْ بَيْنِهِمُ وَأَبِيْ

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

ففرح رسول الله ﷺ بذلك، والخطاب[1] في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الظاهر أنه للرسول ﷺ، وكذا ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثاني والثالث، والتناسق في الضمائر هو الذي يقتضيه النظم، وقيل: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ خطاب للكافر التفت إلى الكافر، فقال: أرأيت يا كافر إن كانت صلاته هدىً ودعاءً إلى الله تعالى، وأمراً بالتقوى أتنهاه مع ذلك، والضمير في ﴿إِن كَانَ﴾، وفي ﴿إِن كَذَّبَ﴾ عائد على الناهي.

﴿كَلَّا﴾ ردع[2] للناهي اللعين عن نهيه عن عبادة الله وأمره بعبادة اللات. ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم المحذوف؛ أي: والله لئن لم ينته هذا الناهي اللعين عما هو عليه، ولم ينزجر ولم يتب ولم يسلم قبل الموت، والأصل: ينتهي بالياء المحذوفة للجازم، يقال: نهاه ينهاه نهياً ضد أمره، فانتهى.

﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾؛ أي: لنجُرَّنَّه بناصيته إلى جهنم، أصله: لنسفعن بنون التوكيد الخفيفة، ونظيره: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ كتب في المصحف بالألف على حكم الوقف، فإنه يوقف على هذه النون بالألف تشبيهاً لها بالتنوين، والسفع: القبض على الشيء وجذبه بعنف وشدة، والناصية: شعر مقدم الرأس، والمعنى: والله لنأخذنه في الآخرة بناصيته، ولنسحبنه بها إلى النار بمعنى: لنأمرن الزبانية ليأخذوا بناصيته، ويجروه إلى النار بالتحقير والإهانة، وكانت العرب تأنف من جر الناصية، وفي «عين المعاني»: الأخذ بالناصية عبارة عن القهر والهوان، والاكتفاء بلام العهد عن الإضافة، لظهور أن المراد ناصية الناهي المذكور، ويحتمل أن يكون المراد من هذا السفع سحبه على وجهه في الدنيا يوم بدر، فيكون بشارة بأن يمكِّن المسلمين من ناصيته حتى يجروه على وجهه إذا عاد إلى النهي، فلما عاد مكنهم الله من ناصيته يوم بدر.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿لَنَسْفَعًا﴾ بالنون الخفيفة، وكتبت بالألف باعتبار الوقف؛ إذ الوقف عليها بإبدالها ألفاً وكثر ذلك حتى صارت روياً، فكتبت ألفاً كقوله:

يَحْسَبُهُ الْجَاهِلُ مَا لَمْ يَعْلَمَا ... شَيْخاً عَلَى كُرْسِيِّهِ مُعَمَّمَا

وقرأ محبوب وهارون كلاهما عن أبي عمرو: ﴿لنسفعن﴾ بالنون الشديدة،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

والفاعل على كلا القراءتين الله سبحانه، وقرأ ابن مسعود: ﴿لأسفعن﴾؛ أي: يقول يا محمد أنا الذي أتولى إهانة أبي جهل اهـ. «مراح».

روي(١): أنه لما نزلت سورة الرحمٰن.. قال ﷺ: «من يقرؤها على رؤساء قريش»، فتثاقلوا فقام ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وقال: أنا. فأجلسه رسول الله، ثم قال ثانياً: «من يقرؤها عليهم» فلم يقم إلا ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ثم ثالثاً، إلى أن أذن له ﷺ، وكان ﷺ يُبقي عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر جثته، ثم إنه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة، فافتتح قراءة السورة، فقام أبو جهل، فلطمه، فشق أذنه وأدماها فانصرف وعينه تدمع، فلما رآه ﷺ رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً، فإذا جبريل جاء ضاحكاً مستبشراً، فقال: «يا جبريل تضحك، ويبكي ابن مسعود»، فقال: سيعلم، فلما ظفر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في الجهاد، فقال له ﷺ: «خذ رمحك والتمس في الجرحى، ومن كان له رمق فاقتله، فإنك تنال ثواب المجاهدين، فأخذ يطالع القتلى، فإذا أبو جهل مصروع يخور، فخاف أن تكون فيه قوة فيؤذيه، فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه، ولعل هذا قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾، ثم لما عرف عجزه لم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه، فارتقى إليه بحيلة، فلما رآه أبو جهل قال له: يا رويعي الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً، فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، فقال له أبو جهل: بلِّغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إلي منه في حال مماتي، فروي أنه عليه السلام لما سمع ذلك قال: فرعوني أشد من فرعون موسى، فإنه قال: آمنت وهو قد زاد عتواً، ثم قال: يابن مسعود اقطع بسيفي هذا؛ لأنه أحد وأَقطع، فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله فشق أذنه وجعل الخيط فيها، وجعل يجره إلى رسول الله ﷺ وجبريل بين يديه يضحك ويقول: يا محمد أذن بأذن لكن الرأس ههنا مع الأذن مقطوع، ولعل الحكيم سبحانه إنما خلقه ضعيفاً حتى لم يقو على الرأس المقطوع لوجوه:

أحدها: أن أبا جهل كلب، والكلب يُجَر ولا يحمل.

والثاني: ليشق الأذن، فيقتص الأذن بالأذن.

---

(١) روح البيان.

والثالث: ليحقق الوعيد المذكور بقوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ فيجر تلك الرأس على مقدمها.

قال ابن الشيخ: الناصية شعر الجبهة[١]، وقد يسمى مكان الشعر ناصية، ثم إنه تعالى كنى بها ههنا عن الوجه والرأس، ولعل السبب في تخصيص السفع بها أن اللعين كان شديد الاهتمام بترجيل الناصية وتطييبها.

وقوله: ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بالجر بدل من ﴿الناصية﴾، وإنما أبدل[٢] النكرة من المعرفة؛ لوصفها بقوله: ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ وهذا على مذهب الكوفيين، فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة إلا بشرط وصفها، وأما على مذهب البصريين فيجوز إبدال النكرة من المعرفة كالعكس بلا شرط وأنشدوا:

فَـلاَ وَأَبِـيْـكَ خَـيْـرٍ مِـنْـكَ إِنِّـيْ   لَـيُـؤْذِيْـنِـيْ ٱلـتَّـحَـمُّـمُ وَٱلـصَّـهِـيْـلُ

ووصف الناصية بالكذب والخطأ على الإسناد المجازي، وهما لصاحبها حقيقة، وفيه من الجزالة ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطىء كأن الكافر بلغ في الكذب قولاً والخطأ فعلاً إلى حيث أن كلاً من الكذب والخطأ، ظهر من ناصيته، وكان أبو جهل كاذباً على الله في أنه لم يرسل محمداً، وكاذباً في أنه ساحر ونحوه، وخاطئاً بما تعرض له ﷺ بأنواع الأذية.

وقرأ الجمهور[٣]: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ بجر الثلاثة على أن ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من المعرفة، وأن ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ صفتان لـ﴿نَاصِيَةٍ﴾، قال الزمخشري: لأنها وُصفت فاستقلت بفائدة. انتهى. وليس شرطاً في إبدال النكرة من المعرفة أن توصف عند البصريين، كما مر آنفاً، خلافاً لمن شرط ذلك من غيرهم، ولا أن يكون من لفظ الأول أيضاً خلافاً لزاعمه، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وزيد بن علي بنصبها على الذم، وقرأ الكسائي: في رواية عنه برفعها على إضمار مبتدأ؛ أي: هي ناصية.

ومعنى الآية[٤]: أي لا يستمرن بهذا الكافر جهله وغروره وطغيانه، أقسم بعزتي وجلالي لئن لم ينته وينزجر عن هذا الطغيان، ويكف عن نهي المصلي عن

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

صلاته لنأخذن بناصيته، ولنذيقنه العذاب الأليم.

أَلاَ إن تلك الناصية لكاذبة لغرورها بقوتها، مع أنها في قبضة خالقها فهي تزعم ما لا حقيقة له، وإنها لخاطئة؛ لأنها طغت وتجاوزت حدها وعتت عن أمر ربها، ونسبة الكذب والخطيئة إلى الناصية، والكاذب والمخطىء صاحبها كما مر من قبل أنها مصدر الغرور والكبرياء، وقد أُمِر هذا الكافر على ضرب من التهكم والتوبيخ بأن يدعو أهل الدفاع من قومه وذوي النجدة والبطش لينقذوه مما سيحل به، فقال: ﴿فَلْيَدْعُ﴾ ذلك الكافر اللعين من الدعوة ﴿نَادِيَهُ﴾؛ أي: أهل[1] ناديه ومجلسه ليعينوه، والنادي هو المجلس الذي ينتدي فيه القوم؛ أي: يجتمعون فيه، وقدر المضاف؛ لأن نفس المجلس والمكان يدعى ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله، ودار الندوة بمكة كانوا يجتمعون فيه للتشاور، والمعنى: فليدع عشيرته فليستنصر بهم، روي أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ وهو يصلي، فقال: ألم ننهك؟ فأغلظ رسول الله ﷺ، فقال: «أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً» يريد كثرة من يعينه، فنزلت: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: الملائكة الغلاظ الشداد، كذا قال الزجاج، وهي ملائكة العذاب ليجروه إلى النار، واحد منهم يغلب على ألف ألف من أمثال أهل ناديه، قال ﷺ: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عِياناً».

وقال الكسائي والأخفش وعيسى بن عمر[2]: ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ واحدهم زابن، وقال أبو عبيدة: زبينة، وقيل: واحدهم[3] زباني، وقيل: اسم جمع لا واحد له من لفظه كأبابيل وعباديد ـ اسم موضع ـ، وأصل الزبن الدفع، والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿سَنَدْعُ﴾ بالنون مبنياً للفاعل وكتبت بغير واو؛ لأنها تسقط عند الوصل لفظاً لالتقاء الساكنين، وسقطت في الكتابة تبعاً للفظ كما سيأتي، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿سيدعىٰ﴾ بالياء مبنياً للمفعول، ورفع ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ على النيابة عن الفاعل؛ أي: سيدعو الله سبحانه الزبانية ليجروه إلى جهنم.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

وقال قتادة: ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[1] في الأصل في كلام العرب: الشُّرَط كصُرَد، وجمع شرطة بالضم، وهم طائفة من أعوان الولاة، سموا بذلك؛ لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها، كما في «القاموس»، والشَرَط بالتحريك العلامة، واحدهم زبنية كعفرية، وعفرية الديك شعرة القفا التي يردها إلى يافوخه عند الهراش من الزَّبْن بالفتح، كالضرب وهو الدفع؛ لأنهم يزبنون الكفار؛ أي: يدفعونهم في جهنم بشدة وبطش، يعني: أن ملائكة العذاب سموا بما سُمي به الشرط تشبيهاً لهم بهم في البطش والقهر والعنف والدفع، وقيل: الواحد زبني، وكأنه نُسب إلى الزبن، ثم غُيِّر إلى زبانية كإنسي بكسر الهمزة، وأصلها زباني، وقيل: زبانية بتعويض التاء عن الياء بعد حذفها للمبالغة في الدفع.

فائدة: اجتمعت المصاحف العثمانية على حذف الواو من ﴿سَنَدْعُ﴾ خطاً، ولا موجب للحذف لفظاً من القواعد العربية، ولعله للمشاكلة مع ﴿فَلْيَدْعُ﴾ أو للتشبيه بالأمر في أن الدعاء أمر لا بد منه.

وقال ابن خالويه: في إعراب الثلاثين آية الأصل سندعو بالواو، غير أن الواو ساكنة فاستثقلتها اللام ساكنة، فسقطت الواو في المصحف من ﴿سَنَدْعُ﴾، و﴿يدع الإنسان﴾ و﴿يمح الله الباطل﴾، وكذلك الياء من ﴿وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، والعلة ما أنبأتك من بنائهم الخط على اللفظ. انتهى.

والمعنى: أي فليجمع[2] أمثاله ممن ينتدي معهم؛ ليمنع المصلين المخلصين ويؤذي أهل الحق الصادقين، فإنه إن فعل ذلك تعرض لسخط ربه عز وجل، واستحق التنكيل به، وسندعو له من جنودنا كل قوي متين لا قبل له بمغالبته في الدنيا أو يرديه في النار في الآخرة، والمراد بهم الملائكة الذين أقامهم الله تعالى على تعذيب العصاة من خلقه، وسُموا ﴿زبانية﴾؛ لأنهم يزبنون الكفار في النار؛ أي: يدفعونهم إليها ثم بالغ في زجر الكافر عن صلفه وكبريائه، ونفي قدرته على ما تهدد به، فقال: ﴿كَلَّا﴾ ردع[3] بعد ردع للناهي المذكور، وزجر له إثر زجر، فهو متصل بما قبله، ولذا جعلوا الوقف عليه وقفاً مطلقاً.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

﴿لَا تُطِعْهُ﴾ يا محمد؛ أي: لا تطع ذلك الكافر الناهي لك عن الصلاة؛ أي: دم على ما أنت عليه من معاصاة ذلك الناهي الكاذب الخاطىء، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ ﴿وَٱسْجُدْ﴾ لربك؛ أي: وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث به ولا مبال له. ﴿وَٱقْتَرِب﴾؛ أي: وتقرب بذلك السجود إلى ربك وابتغ المنزلة عنده.

وقال زيد بن أسلم: واسجد أنت يا محمد واقترب أنت يا أبا جهل من النار، والأول أولى.

وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد، فأكثروا من الدعاء في السجود» وكلمة ما مصدرية، وأقرب مبتدأ حذف خبره، ويكون تامة؛ أي: أقرب وجود العبد من ربه حاصل وقت سجوده، وهذا السجود الظاهر أن المراد به الصلاة، وقيل: سجود التلاوة، ويدل على هذا ما ثبت عنه ﷺ من السجود عند تلاوة هذه الآية كما مر وسيأتي.

وهذه الآية: محل السجود عند الأئمة الثلاثة خلافاً لمالك، فإنه كان يسجد فيها في خاصية نفسه، وهم على أصولهم في قولهم بالوجوب والسنية، وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة عند الشافعي، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءتها يدل عليه ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سجدنا مع رسول الله في: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ أخرجه مسلم.

وللسجدة أقسام: سجدة الصلاة، وسجدة التلاوة، وسجدة السهو؛ وهذه مشهورة، وسجدة التعظيم لجلال الله وكبريائه، وسجدة التضرع إليه خوفاً وطمعاً، وسجدة الشكر له، وسجدة المناجاة، وهذه مستحبة في الأصح صادرة عن الملائكة، وعن رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وقال أبو حنيفة ومالك: سجود الشكر مكروه، فيقتصر على الحمد والشكر باللسان، وقال الإمامان: هي قربة يثاب فاعلها.

الإعراب

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾.

﴿ٱقۡرَأۡ﴾: فعل أمر مبني على السكون، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ أي: حالة كونك مفتتحاً أو متبركاً أو مبتدئاً، وقيل ﴿الباء﴾: زائدة؛ أي: اقرأ اسم ربك واذكره. ﴿ٱلَّذِي﴾: صفة للرب، وجملة ﴿خَلَقَ﴾ صلته لا محل لها من الإعراب، والضمير المستتر فيه يعود على الموصول ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية بدل من الجملة التي قبلها، ويجوز أن تكون توكيداً لفظياً أكد الصلة وحدها. ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾: متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾. ﴿ٱقۡرَأۡ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر مؤكد لـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الأول. ﴿وَرَبُّكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو حالية. ﴿وَرَبُّكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وقال ابن خالويه: ﴿وَرَبُّكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾: صفة، وجملة ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، والأول أولى. ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾: خبر ثان لـ﴿ربك﴾، وأعربه ابن خالويه نعتاً ثانياً لـ﴿ربك﴾، ولسنا نرى هذا الرأي، وجملة ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ صلة الموصول، وفاعل ﴿عَلَّمَ﴾ ضمير مستتر يعود على الله، ومفعولاه محذوفان؛ أي: علم الإنسان الخط بالقلم، و﴿بِٱلۡقَلَمِ﴾: متعلق بـ﴿عَلَّمَ﴾، وفي الحقيقة أنه متعلق بالخط.

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾.

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به أول، والجملة تأكيد لجملة ﴿عَلَّمَ﴾ الأولى، أو بدل، أو خبر كما مر آنفاً. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿عَلَّمَ﴾، وجملة ﴿لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: ما لم يعلمه. ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: اسمها. ﴿لَيَطۡغَىٰٓ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، و﴿يطغى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿أَنۡ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿رَّءَاهُ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ تقديره: هو، والهاء ضمير متصل في محل النصب مفعول أول لـ﴿رأى﴾. ﴿ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مفعول ثان لـ﴿رأى﴾؛ لأنها

علمية نحو: ظننتني صديقك تقديره: أن رأى نفسه مستغنياً، وجملة ﴿رأى﴾ صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، و﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على أنه مفعول لأجله؛ أي: إن الإنسان ليطغى رؤية نفسه مستغنياً؛ أي: لأجل رؤيتها غنية بالمال أو الجاه أو الخدم. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: خبر مقدم لها. ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لمخاطبة الإنسان الطاغي بطريق الالتفات. ﴿أَرَءَيْتَ﴾: فعل وفاعل بمعنى: أخبرني يتعدى إلى مفعولين، والهمزة فيه للاستفهام التعجبي. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿رأيت﴾. ﴿يَنْهَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الموصوف. ﴿عَبْدًا﴾: مفعول به لـ﴿يَنْهَىٰ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط في محل النصب على الظرفية متعلق بـ﴿يَنْهَىٰ﴾، وجملة ﴿صَلَّىٰٓ﴾ في محل الخفض بإضافة إذا إليها، ومفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ محذوف؛ لدلالة مفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة عليه تقديره: أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ألم يعلم بأن الله يراه فيجازيه، وجملة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ مستأنفة مسوقة لتعجيب المخاطَب عن حال هذا الناهي وحمقه وجهله.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

﴿أَرَءَيْتَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام، ﴿رأيت﴾: فعل وفاعل، ومعناه: أخبرني، ومفعولاها محذوفان تقديرهما: أرأيت هذا الناهي ألم يعلم بأن الله يراه ويجازيه، حذف الأول منهما لدلالة المفعول الأول لـ﴿رأيت﴾ الأولى عليه، وحذف الثاني، لدلالة مفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة عليه، وجملة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ مؤكدة لـ﴿أرأيت﴾ الأولى. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير مستتر يعود على العبد المنهي. ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾: خبرها. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف بمعنى الواو. ﴿أَمَرَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿كَانَ﴾، وفاعله ضمير يعود على العبد المنهي. ﴿بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾: متعلق بـ﴿أَمَرَ﴾، وجواب الشرط محذوف دل عليه الجملة الاستفهامية الآتية في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة تقديره: إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى أفلم يعلم ذلك الناهي بأن الله يراه ويجازيه، والجملة الشرطية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿أَرَءَيْتَ﴾: فعل

وفاعل بمعنى: أخبرني، و﴿الهمزة﴾: للاستفهام التعجبي، وجملة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ جملة استفهامية مؤكِّدة للأولى أيضاً، والمفعول الأول لـ﴿رأيت﴾ محذوف دل عليه المفعول الأول لـ﴿رأيت﴾ الأولى، والثاني الجملة الاستفهامية المذكورة بعدها، والتقدير: أرأيت هذا الناهي ألم يعلم بأن الله يرى. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كَذَّبَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الناهي؛ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: معطوف على ﴿كَذَّبَ﴾، وجواب الشرط محذوف دلت عليه الجملة الاستفهامية بعده، تقديره: إن كذب ذلك الناهي وتولى أفلم يعلم بأن الله يراه ويجازيه، وجملة الشرط جملة معترضة لا محل لها من الإعراب، قال الزمخشري: فإن قلت: كيف صح أن يكون ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ جواب الشرط؟ قلت: صح كما صح في قولك: إن أكرمتك أتكرمني، وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه، ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿يَعْلَم﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على الناهي. ﴿بِأَنَّ﴾ ﴿الباء﴾: زائدة، ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ومفعوله محذوف تقديره: بأن الله يراه، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، وجملة ﴿يَرَىٰ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ مع معموليها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿يَعْلَم﴾ تقديره: ألم يعلم ذلك الناهي رؤية الله إياه، وجملة ﴿يَعْلَم﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أَرَءَيْتَ﴾. وقد ذكرت ﴿أَرَءَيْتَ﴾ هنا ثلاث مرات، وقد صرح بعد الثالثة، منها بجملة الاستفهامية فتكون في موضع المفعول الثاني لها، ومفعولها الأول محذوف، وهو ضمير يعود على ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا﴾ الواقع مفعولاً أول لـ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى، وأما ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى فمفعولها الأول ﴿ٱلَّذِى﴾، ومفعولها الثاني محذوف، وهو جملة استفهامية نظير الجملة الواقعة بعد ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثانية، فلم يذكر لها مفعول لا أول، ولا ثان، فحذف الأول لدلالة المفعول الأول لـ﴿رأيت﴾ الأولى عليه، وحذف الثاني لدلالة مفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثالثة عليه، فقد حذف الثاني من ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى، والأول من الثالثة، والاثنان من الثانية، وليس ذلك من باب التنازع؛ لأن التنازع يستدعي إضماراً، والجمل لا تضمر إنما تضمر المفردات، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ

ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر لأبي جهل، ﴿لَئِن﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم؛ لأنها دخلت على أداة الشرط؛ للإيذان بأن الجواب بعدها مبني على القسم قبلها لا على الشرط، ومن ثم سمى اللام المؤذنة الموطئة؛ لأنها وطئت الجواب للقسم؛ أي: مهدته له، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم ونفي وقلب. ﴿يَنتَهِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على الكافر الناهي، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿لَنَسْفَعًا﴾: اللام رابطة لجواب القسم مؤكِّدة للأولى، ﴿نسفعن﴾: فعل مضارع في محل الرفع؛ لتجرده عن الناصب والجازم مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة، ونون التوكيد ـ المكتوبة ألفاً نظراً إلى حالة الوقف عليها؛ لأن الوقف عليها هكذا ـ حرف لا محل لها مبني على الفتح، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على الله تقديره: نحن ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ﴾: متعلق بـ﴿نسفعا﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب جرياً على القاعدة المقررة عندهم من أنه إذا اجتمع شرط وقسم يكون الجواب للمقدم منهما، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة، وجواب الشرط محذوف، دل عليه جواب القسم تقديره: إن لم ينته نسفعن بالناصية، وجملة الشرط معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿نَاصِيَةٍ﴾: بدل من ﴿الناصية﴾، وجاز إبدالها من المعرفة وهي نكرة؛ لأنها وصفت. ﴿كَٰذِبَةٍ﴾: صفة أولى لـ﴿نَاصِيَةٍ﴾. ﴿خَاطِئَةٍ﴾ صفة ثانية لها. ﴿فَلْيَدْعُ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا استمر هذا الملعون الأحمق على مكابرته وعناده، وأردت بيان ما نقول له.. فأقول لك: ﴿ليدع ناديه﴾، و﴿اللام﴾: لام أمر وجزم، ﴿يدع﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهي الواو، وفاعله ضمير مستتر فيه تقديره: هو. ﴿نَادِيَهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿سَنَدْعُ﴾: ﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿ندع﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو المحذوفة لفظاً؛ لالتقاء الساكنين المحذوفة خطاً تبعاً لخط المصحف العثماني، منع من ظهورها الثقل؛ لأنه فعل معتل بالواو، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً يعود على الله،

تقديره: نحن. ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر مؤكِّد للأول. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُطِعْهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ومفعول به مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿وَٱسْجُدْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اسجد﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة معطوفة على جملة النهي. ﴿وَٱقْتَرِب﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اقترب﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱسْجُدْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ العلق: الدم، وهو اسم جنس جمعي، وقيل: جمع علقة كثمر وثمرة، وهي: الدم الجامد، وإذا جرى فهو المسفوح؛ أي: دم جامد رطب يعلق بما مر عليه، أصله: مبني، وفي «الشهاب»: هو اسم جنس جمعي، وقول المفسرين: إنه جمع علقة؛ إما على وجه التسمح، أو جمع لغوي، وفي «المصباح»: العلق: المني فينتقل طوراً بعد طور، فيصير دماً غليظاً متجمداً، ثم ينتقل طوراً آخر فيصير لحماً، وهو المضغة، وعبارة «القاموس»: العلق محركة، الدم عامة، أو الشديد الحمرة، أو الغليظ أو الجامد، والقطعة منه بهاء، وكل ما علق بالشيء، والطين الذي يعلق باليد، والخصومة والمحبة اللازمتان، وذو علق جبل لبني أسد لهم فيه يوم على ربيعة بن مالك، ودويبة في الماء تمتص الدم إلى آخر ما جاء في هذه المادة المطولة.

فائدة: اعلم أن اسم الجنس مطلقاً موضوع للماهية من حيث هي، ثم إن صدق على القليل والكثير كماء وضرب، سمي إفرادياً، وإن دل على أكثر من اثنين، وفرق بينه وبين واحده بالتاء بأن يتفقا في الهيئة والحروف ما عداها كتمر وتمرة، أو بالياء كروم ورومي، سمي جمعياً والفرق بينه وبين مشابهه من الجمع كتخم وتخمة بأن الغالب في ضميره التذكير مراعاة للفظه، وفي الجمع التأنيث، وكونه جمعياً إنما هو بحسب الاستعمال، فلا ينافي في وضعه للماهية من حيث هي، فالحاصل: أن اسم الجنس الجمعي ما دل على أكثر من اثنين، وفرق بينه وبين واحده بالتاء كتمر وتمرة، أو بالياء كروم ورومي، واسم الجنس الإفرادي ما دل على القليل والكثير، كماء وضرب، واسم الجمع ما دل على أكثر من اثنين، ولا واحد له من لفظه كقوم

ورهط وإبل ونساء وطائفة وجماعة، أوله واحد من لفظه مع كونه ليس من أوزان الجموع، كركب وصحب اهـ. من «الخضري على ابن عقيل» مع التصرف.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ وهو الزائد في الكرم على كل كريم، فإنه ينعم بلا غرض ولا يطلب مدحاً.

﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ والقلم ما تكتب به، سمي بالقلم؛ لأنه يقلم ويقص أولاً، ثم يقطع رأسه ثانياً، ويكون من القصب الفارسي بنوعيه ومن شجرة مريم وغيرهما، وهذا بالنظر إلى ما في العصر الأول، ومنه تقليم الأظافر، قال بعض الشعراء المُحْدَثين يصف القلم:

فَكَأَنَّهُ وَٱلْحِبْرُ يَخْضُبُ رَأْسَهُ ... شَيْخٌ لِوَصْلِ خَرِيْدَةٍ يَتَصَنَّعُ

أَلاَّ أُلاَحِظُهُ بِعَيْنِ جَلاَلَةٍ ... وَبِهِ إِلَىٰ ٱللَّهِ ٱلصَّحَائِفُ تُرْفَعُ

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ الرجعى: مصدر لرجع الثلاثي، كالرجوع والمرجع، والألف فيه للتأنيث، نظير ذكرى ورقبى.

﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: يَطْغَيُ بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ رآه أصله: رَأَيَهُ قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وأصل استغنى استَغْنَيَ بوزن استفعل قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾ أصله: يَنْهَيُ بوزن يفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ أصله: صَلَّيَ بوزن فَعَّل، أُعلّ بقلب الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أصله: ينتهي، حذفت منه الياء للجازم، فوزنه: يفتع.

﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أصله: تُطْوِعْه، نقلت حركة الواو إلى الطاء، فسكنت فدخل الجازم عليه، فسُكن آخر الفعل، فالتقى ساكنان، فحذفت الواو، فوزنه: تفله.

﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ السفع: الأخذ والقبض على الشيء وجذبه بشدة، وفي «المختار»: سفع بناصيته؛ أي: أخذ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾، وسفعته النار والسموم إذا لفحته لفحاً يسيراً، فغيرت لون البشرة، وبابهما: قطع، والناصية شعر مقدم

الرأس اهـ. «خازن»، وتطلق على مقدم الرأس، وإن لم يكن فيه شعر.

﴿خَاطِئَةٍ﴾ في فعلها، وفي «المصباح»: والخطأ مهموز بفتحتين ضد الصواب، وهو اسم من أخطأ فهو مخطىء قال أبو عبيدة: خَطِىءَ خطأ من باب علم، وأخطأ بمعنى واحد لمن يذنب على غير عمد، وقال غيره: خطىء في الدين وأخطأ في كل شيء عامداً كان أو غير عامد، وقيل: خطىء إذا تعمد ما نهي عنه فهو خاطىء، وأخطأ، إذا أراد الصواب فصار إلى غيره، فإن أراد إلى غير الصواب وفعله.. قيل: قصده أو تعمده، والخطأ الذنب تسمية بالمصدر اهـ.

﴿نَادِيَهُ﴾ وفي «المصباح»: ندا القوم ندواً ـ من باب غزا ـ اجتمعوا، ومنه اشتُق النادي وهو مجلس القوم للتحدث، وفي «المختار»: ناداه جالسه في النادي، وتنادَوا تجالسوا في النادي، والنَّدِي على وزن فعيل مجلس القوم ومتحدثهم، وكذلك الندوة والنادي والمنتدى، فإن تفرق القوم عنه فليس بندي، ومنه سميت دار الندوة التي بناها قصي بمكة؛ لأنهم كانوا ينتدون فيها؛ أي: يجتمعون للمشاورة اهـ.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾ واحدها: زِبْنِية ـ بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه ـ، وتخفيف الياء من الزَّبْن وهو: الدفع، أو زبني على النسب، وأصله زبَّاني بتشديد الياء، فالتاء عوض عن الياء اهـ. «بيضاوي»، وفي «المختار»: واحد الزبانية، زبان أو زابان اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإطناب بتكرير الفعل في قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٣﴾ لمزيد الاهتمام بشأن القراءة والعلم.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿خَلَقَ﴾ و﴿عَلَقٍ﴾.

ومنها: إيراده بلفظ الجمع، حيث لم يقل علقة بناء على أن الإنسان في معنى الجمع؛ لأن الألف فيه للاستغراق، أو لمراعاة الفواصل، ولعله هو السر في تخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية مع كون النطفة والتراب أدل منه على كمال القدرة؛ لكونهما أبعد منه بالنسبة إلى الإنسانية.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾.

ومنها: تعليل طغيان الإنسان برؤيته لنفسه الاستغناء؛ للإيذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ⑨ عَبْدًا﴾ كنى بالعبد عن رسول الله ﷺ.

ومنها: تنكير عبد لتفخيمه ﷺ، كأنه قيل: ينهى أكمل الخلق في العبودية عن عبادة ربه.

ومنها: العدول عن ينهاك إلى ﴿يَنْهَىٰ عَبْدًا﴾؛ للدلالة على أن النهي للعبد كان عن إقامة خدمة مولاه، ولا أقبح منه.

ومنها: الاستفهام للتعجيب من شأن الناهي في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ⑨﴾ وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ⑪﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ فإن الناصية عبارة عن الشخص نفسه، فهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾، فقد أسند الكذب والخطأ إلى الناصية، وفي الحقيقة أنهما وصف لصاحبها، وفيه من الجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطىء، كأن الكافر بلغ في الكذب قولاً والخطأ فعلاً إلى حيث أن كلاً من الكذب والخطأ ظهر من ناصيته، وكان أبو جهل كاذباً على الله في أنه لم يرسل محمداً، وكاذباً في أنه شاعر كاهن ساحر مثلاً، وخاطئاً بما تعرض له ﷺ بأنواع الأذية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ⑰﴾ والمراد أهل النادي، فالنادي لا يدعى، وإنما يدعى أهله، فأطلق المحل وأريد الحال، فالمجاز مرسل علاقته المحلية، والنادي هو المجلس الذي ينتدي فيه القوم؛ أي: يجتمعون فيه كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف على عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما في هذه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على ثلاثة مقاصد:

١ ـ حكمة الله تعالى في خلق الإنسان، وكيف رقاه من جرثومة صغيرة إلى أن بسط سلطانه على جميع العوالم الأرضية.

٢ ـ إنه لكرمه وعظيم إحسانه عَلَّمه من البيان ما لم يعلم، وأفاض عليه من العلوم ما جعل له القدرة على غيره مما في الأرض.

٣ ـ بيان أن هذه النعم على توافرها قد غفل عنها الإنسان، فإذا رأى نفسه غنياً صلف وتجبر واستكبر(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تمَّ تفسير هذه السورة في عصر يوم الجمعة اليوم الثاني من شهر ذي الحجة من شهور سنة: ١٤١٦: ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

سورة القدر

سورة القدر مكية عند أكثر المفسرين[1]، نزلت بعد سورة عبس، كذا قال الماوردي، وقال الثعلبي: هي مدنية في قول أكثر المفسرين، وذكر الواقدي: أنها أول سورة نزلت بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وابن الزبير وعائشة أنها نزلت بمكة، قال الخازن: والقول بأنها مدنية أصح، وهي خمس آيات وثلاثون كلمة، ومئة واثنا عشر حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[2]: أن في تلك أمر رسول الله ﷺ بأن يقرأ القرآن باسم ربه الذي خلق، واسم الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وفي هذه ذكر القرآن ونزوله وبيان فضله، وأنه من عند ربه ذي العظمة والسلطان العليم بمصالح الناس، وبما يسعدهم في دينهم ودنياهم، وأنه أنزله في ليلة لها من الجلال والكمال ما قصته السورة، قال أبو حيان: فكأنه تعالى قال: اقرأ ما أنزلناه عليك من كلامنا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ انتهى.

فضلها: وروي في فضلها أنه ﷺ قال: «من قرأ سورة القدر أعطي من الأجر كمن صام رمضان، وأحيا ليلة القدر» ذكره البيضاوي، وهو موضوع لا أصل له.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم: سورة القدر كلها محكمة، لا ناسخ فيها ولا منسوخ، وسميت سورة القدر؛ لذكر لفظ القدر فيها.

تسميتها: وسميت ليلة القدر؛ إما لتقدير الأمور وقضائها فيها؛ أي: إظهار تقديرها للملائكة بأن يكتب لهم ما قدره في تلك السنة ويعرفهم إياه، وليس المراد منه: أنه يحدثه في تلك الليلة؛ لأن الله تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض في الأزل، فالقدر بمعنى التقدير، وهو جعل الشيء على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة البالغة، قيل: للحسين بن

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الفضل: أليس قد قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال: نعم، قيل له: فما معنى ليلة القدر؟ قال: سَوْق المقادير إلى المواقيت، وتنفيذ القضاء المقدر.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن الله سبحانه يقدر في ليلة القدر، ويكتب كل ما يكون في تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة وغيرها إلى مثل هذه الليلة من السنة المقبلة، فيسلمه إلى مدبرات الأمور من الملائكة، فيدفع نسخة الأرزاق والنباتات والأمطار إلى ميكائيل، ونسخة الحروب والرياح والزلازل والصواعق والخسف إلى جبريل، ونسخة الأعمال إلى إسرافيل، ونسخة المصائب إلى ملك الموت.

فَكَمْ مِنْ فَتَىٰ يُمْسِيْ وَيُصْبِحُ آمِنَاً ... وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وَهْوَ لاَ يَدْرِيْ
وَكَمْ مِنْ شُيُوْخٍ تَرْتَجِيْ طُوْلَ عُمْرِهِمْ ... وَقَدْ رَهَقَتْ أَجْسَادَهُمْ ظُلْمَةُ ٱلْقَبْرِ
وَكَمْ مِنْ عَرُوْسٍ زَيَّنُوْهَا لِزَوْجِهَا ... وَقَدْ قُبِضَتْ أَرْوَاحُهُمْ لَيْلَةَ ٱلْقَدْرِ

وإما لخطرها وشرفها على سائر الليالي، فالقدر بمعنى المنزلة والشرف إما باعتبار العامل على معنى أن من أتى بالطاعة فيها صار ذا قدر وشرف، وإما باعتبار نفس العمل على معنى أن الطاعة الواقعة في تلك الليلة لها قدر وشرف زائد.

وعن أبي بكر الوراق ـ رحمه الله تعالى ـ سميت ليلة القدر؛ لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر، على رسول ذي قدر، لأمة لها قدر، ولعله تعالى إنما ذكر لفظ القدر في هذه السورة ثلاث مرات لهذا السبب، وقال الخليل ـ رحمه الله تعالى ـ سميت ليلة القدر؛ أي: ليلة الضيق؛ لأن الأرض تضيَّق فيها بالملائكة، فالقدر بمعنى الضيق، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾.

أسباب النزول

سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم والواحدي عن مجاهد أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فأنزله الله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح فيها في سبيل الله.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو في النهار حتى يمسي، فعمل ذلك ألف شهر فأنزل الله: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ عملها ذلك الرجل.

وفي الحديث[2]: «أن أربعة من الأنبياء عبدوا الله ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين أيوب وزكريا وحزقيل ويوشع، فعجب الصحابة من ذلك، فقرأ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ . . .﴾ السورة، فسروا بذلك.

تقدمة: تبين ميقات هذه الليلة المباركة[3]: أشار الكتاب الكريم إلى زمان نزول القرآن على رسول الله ﷺ في أربعة مواضع من كتابه الكريم، والقرآن يفسر بعضه بعضاً:

١ ـ قوله في سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾.

٢ ـ قوله في سورة الدخان: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ

---

(١) لباب النقول. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

﴿مُبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦﴾.

٣ ـ قوله في سورة البقرة: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾.

٤ ـ قوله في سورة الأنفال: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤١﴾.

فآية القدر صريحة في أن إنزال القرآن كان في ليلة القدر، وآية الدخان تؤكد ذلك وتبين أن النزول كان في ليلة مباركة، وآية البقرة ترشد إلى أن نزول القرآن كان في شهر رمضان، وآية الأنفال تدل على أن إنزال القرآن على رسوله ﷺ كان في ليلة اليوم المماثل ليوم التقاء الجمعين في غزوة بدر التي فرق الله سبحانه فيها بين الحق والباطل، ونصر حزب الرحمٰن على حزب الشيطان، ومن ذلك يتضح أن هذه الليلة هي ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّآ﴾ نحن ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلنا هذا القرآن الكريم جملة واحدة. ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ في مكان يقال له: بيت العزة، ثم نزل به جبريل عليه السلام على النبي ﷺ نجوماً متفرقة في مدة ثلاث وعشرين سنة، فكان ينزل بحَسَب الوقائع والحاجة إليه.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ النون(١) فيه للعظمة، أو للدلالة على الذات مع الصفات والأسماء، والضمير للقرآن؛ لأن شهرته تقوم مقام تصريحه باسمه، وإرجاع الضمير إليه، فكأنه حاضر في جميع الأذهان، وعظمه بأن أسند إنزاله إلى جنابه مع أن نزوله إنما يكون بواسطة الملك، وهو جبريل على طريقة القصر بتقديم الفاعل المعنوي، إلا أنه اكتفى بذكر الأصل عن ذكر التبع، قال في بعض التفاسير: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾: مبتدأ وخبر في الأصل بمعنى: نحن أنزلناه، فأدخل ﴿إِنَّ﴾ للتحقيق، فاختير

---

(١) روح البيان.

اتصال الضمير للتخفيف، ومعنى صيغة الماضي أنا حكمنا بإنزاله في ليلة القدر، وقضينا به وقدرناه في الأزل.

ثم إن الإنزال[١] يُستعمل في الدفعي، والقرآن لم ينزل جملة واحدة، بل أُنزل منجماً مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة، وهذه السورة من جملة ما أنزل، وجوابه أن المراد أن جبريل نزل به جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وأملاه على السفرة؛ أي: الملائكة الكاتبين في تلك السماء، ثم كان ينزل على النبي ﷺ منجماً على حَسَب المصالح، وكان ابتداء تنزيله أيضاً في مثل تلك الليلة.

وفيه إشارة[٢] إلى أن بيت العزة أشرف المقامات السماوية بعد اللوح المحفوظ لنزول القرآن منه إليه، ولذلك قيل بفضل السماء الأولى على أخواتها؛ لأنها مقر الوحي الرباني، وقيل: لشرف المكان بالمكين، وكل منهما وجه، فإن السلطان إنما ينزل على أنزه مكان، ولو فرضنا نزوله على مسبخة.. لكفى نزوله هناك شرفاً لها، فالمكان الشريف يزداد شرفاً بالمكين الشريف، كما سبق في سورة البلد.

ففي نزول القرآن بالتدريج إشارة إلى تعظيم الجانب المحمدي، كما تدخل الهدايا شيئاً بعد شيء على أيدي الخدام تعظيماً للمُهدىٰ إليه بعد التسوية بينه وبين موسى عليهما السلام بإنزاله جملة إلى بيت العزة، وفي التدريج أيضاً تسهيل للحفظ وتثبيت لفؤاده، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، وكلام الله المنزل قسمان: القرآن، والخبر القدسي؛ لأن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى، لأن جبريل أداها بالمعنى، ولم تجز القراءة بالمعنى؛ لأن جبريل أداها باللفظ.

والسر في ذلك التعبد بلفظه، والإعجاز به فإنه لا يقدر أحد أن يأتي ببدله بما يشتمل عليه من الإعجاز لفظاً، ومن الأسرار معنى، فكيف يقوم لفظ الغير ومعناه مقام حرف القرآن.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ومعناه: ثم إن اللوح المحفوظ قلب هذا التعين، ولكن قلب الإنسان ألطف منه؛ لأنه زبدته وأشرفه؛ لأن القرآن نزل به الروح الأمين على قلب النبي المختار.

وهنا سؤال: وهو أن الملائكة بأَسْرِهِم صعقوا ليلة نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة، كما ورد فيما وجهه.

والجواب: أن محمداً ﷺ عندهم من أشراط القيامة، والقرآن كتابه، فنزوله دل على قيام الساعة، فصعقوا هيبة منه، وإجلالاً لكلامه ووعده ووعيده، ثم إن القرآن كلامه القديم أنزله في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وهذا هو البيان الأول، ولم ندر نهاراً أنزل فيه أم ليلاً، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهذا هو البيان الثاني، ولم ندر أي ليلة هي، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾، فهذا هو البيان الثالث الذي هو غاية البيان.

فالصحيح أن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، وينسخ فيها أمر السنة وتدبير الأحكام إلى مثلها هي ليلة القدر، ولتقدير الأمور فيها، سميت ليلة القدر؛ أي: ليلة تقدير الأحكام، والأمور السفلية، ويشهد التنزيل لما ذكرنا؛ إذ في أول الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، ثم وصفها فقال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾، والقرآن إنما نزل في ليلة القدر، فكانت هذه الآية بهذا الوصف في هذه الليلة مواطئة لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾، كذا في «قوت القلوب» للشيخ أبي طالب المكي رحمه الله تعالى.

فإن قلت[1]: ما الحكمة في إنزال القرآن ليلاً؟

قلت: لأن أكثر الكرامات ونزول النفحات والأسرار في السموات يكون بالليل، والليل من الجنة؛ لأنها محل الاستراحة، والنهار من النار؛ لأن فيه المعاش والتعب، والنهار حظ اللباس والفراق، والليل حظ الفراش والوصال، وعبادة الليل أفضل من عبادة النهار؛ لأن قلب الإنسان فيه أجمع، والمقصود من

---

(١) روح البيان.

العبادة هو حضور القلب.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾؛ أي: ما مقدار شرفها، وليس المراد: ما حقيقتها؟ فإنها مدة مخصوصة من الزمان، أي: وأي شيء أعلمك يا محمد ما هي؛ أي: إنك لا تعلم كنهها؛ لأن علو قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق، لا يدريها أحد منهم، ولا يدريها إلا علام الغيوب، وهو تعظيم للوقت الذي أنزل فيه، ومن بعض فضائل ذلك الوقت أنه يرتفع سؤال القبر عمن مات فيه، وكذا في سائر الأوقات الفاضلة، ومن ذلك العيد، ثم مقتضى الكرم أن لا يسأل بعده أيضاً.

فصل في فضل ليلة القدر وما وقع فيها من الاختلاف

عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً.. غفر له ما تقدم من ذنبه» متفق عليه.

واختلف العلماء في وقتها[1]، فقال بعضهم: إنها كانت على عهد رسول الله ﷺ، ثم رُفعت لقوله ﷺ حين تلاحى الرجلان: «إني خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرفعت، فعسى أن يكون خيراً لكم» وهذه غلط ممن قال بهذا القول، لأن آخر الحديث يرد عليه، فإنه ﷺ قال في آخره: «فالتمسوها في العشر الأواخر»: في التاسعة والسابعة والخامسة، فلو كان المراد: رفع وجودها لم يأمر بالتماسها، وعامة الصحابة والتابعين فمن بعدهم من العلماء على أنها باقية إلى يوم القيامة.

روي عن عبد الله بن خنيس مولى معاوية قال: قلت لأبي هريرة: زعموا أن ليلة القدر رُفعت، قال: كذب من قال ذلك، قلت: هي في كل شهر رمضان استقبله؟ قال: نعم.

ومن قال ببقائها ووجودها اختلفوا في محلها، فقيل: هي متنقلة تكون في سنة في ليلة، وفي سنة أخرى في ليلة أخرى هكذا أبداً، قالوا: وبهذا يُجمع بين الأحاديث الواردة في أوقاتها المختلفة، وقال مالك والثوري وأحمد وإسحاق وأبو

---

(١) الخازن.

ثور: إنها تنتقل في العشر الأواخر من رمضان، وقيل: بل تنتقل في رمضان كله، وقيل: إنها في ليلة معينة لا تنتقل عنها أبداً في جميع السنين ولا تفارقها، فعلى هذا هي في ليلة من السنة كلها، وهو قول ابن مسعود وأبي حنيفة وصاحبيه.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: من يقم الحول يصبها، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمٰن، أما إنه علم أنها في شهر رمضان، ولكن أراد أن لا يتكل الناس، وقال جمهور العلماء: إنها في شهر رمضان، واختلفوا في تلك الليلة، فقال أبو رزين العقيلي: في أول ليلة من شهر رمضان، وقيل: هي ليلة سبعة عشر، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر، ويحكى هذا عن زيد بن أرقم وابن مسعود أيضاً والحسن، والصحيح الذي عليه الأكثرون: أنها في العشر الأواخر من رمضان. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يجاور العشر الأواخر من رمضان، ويقول: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» متفق عليه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أريت ليلة القدر، ثم أيقظني بعض أهلي فنسيتها، فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان» رواه مسلم.

وذهب الشافعي إلى أنها ليلة إحدى وعشرين.

وعن أبي هريرة أن أبا سعيد قال: اعتكفنا مع رسول الله ﷺ العشر الأواسط، فلما كانت صبيحة عشرين نقلنا متاعنا، فأتانا النبي ﷺ، فقال: «من كان اعتكف فليرجع إلى معتكفه وأنا أريت هذه الليلة ورأيتني أسجد في ماء وطين، فلما رجع إلى معتكفه هاجت السماء فمُطِرنا، فوالذي بعثه بالحق، لقد هاجت السماء من آخر ذلك اليوم وكان المسجد على عريش، ولقد رأيت على أنفه وأرنبته أثر الماء والطين» متفق عليه.

وفي رواية نحوه إلا أنه قال: حتى إذا كانت ليلة إحدى وعشرين، وهي الليلة

التي يخرج من صبيحتها من اعتكافه قال: «من اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر».

وورد في فضل ليلة القدر: اثنان وعشرون حديثاً، عن عبد الله بن أنيس قال: كنت في مجلس لبني سلمة وأنا أصغرهم، فقالوا: من يسأل لنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر؟ وذلك في صبيحة إحدى وعشرين من رمضان فخرجت، فوافيت رسول الله ﷺ فقلت: أرسلني إليك رهط من بني سلمة يسألونك عن ليلة القدر، فقال: كم الليلة؟ فقلت: اثنتان وعشرون، فقال: هي الليلة، ثم رجع، فقال: أو القابلة يريد ثلاثاً وعشرين. أخرجه أبو داود.

وذهب جماعة من الصحابة وغيرهم أن ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين، ومال إليه الشافعي أيضاً، وعن الصنابحي: أنه سأل رجلاً هل سمعت في ليلة القدر شيئاً؟ قال: أخبرني بلال مؤذن رسول الله ﷺ أنها في أول السبع من العشر الأواخر، وهذا اللفظ مختصر عن عبد الله بن أنيس قال: قلت يا رسول الله إن لي بادية أكون فيها، وأنا أصلي فيها بحمد الله، فمرني بليلة أنزلها إلى هذا المسجد، فقال: «انزل ليلة ثلاث وعشرين»، قيل لابنه: كيف كان أبوك يصنع؟ قال: كان يدخل المسجد إذا صلى العصر فلا يخرج إلا لحاجة حتى تصلىٰ الصبح فإذا صلى الصبح وجد دابته على باب المسجد فجلس عليها، ولحق بباديته أخرجه أبو داود، ولمسلم عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أريت ليلة القدر ثم أنسيتها، وأراني أسجد صبيحتها في ماء وطين» قال: فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا رسول الله ﷺ وانصرف، وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه، ويحكى عن بلال وابن عباس والحسن أنها ليلة أربع وعشرين.

وعن ابن عباس قال: التمسوها في أربع وعشرين. أخرجه البخاري. وقيل: هي في ليلة خمس وعشرين، دليله قوله ﷺ: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان» وقيل: هي ليلة سبع وعشرين، ويحكى ذلك عن جماعة من الصحابة منهم: أبي بن كعب، وابن عباس وإليه ذهب أحمد.

وعن زر بن حبيش قال: سمعت أبي بن كعب يقول: وقيل له: إن عبد الله بن مسعود يقول: من قام السنة أصاب ليلة القدر، قال أبيّ: والله الذي لا إلٰه إلا هو

إنها لفي رمضان يحلف ولا يستثني، فوالله إني لأعلم أي ليلة هي: هي الليلة التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، وهي ليلة سبع وعشرين، وأمارتها أن تطلع الشمس من صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها.

وعن معاوية عن النبي ﷺ في ليلة القدر قال: «ليلة سبع وعشرين». أخرجه أبو داود، وقيل: هي ليلة تسع وعشرين، دليله قوله: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» وقيل: هي ليلة آخر الشهر، وعن ابن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر وأنا أسمع، فقال: «هي في كل رمضان» وأخرجه أبو داود قال: ويروى موقوفاً عليه.

ذكر ليال مشتركة

وعن ابن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ في ليلة القدر: «اطلبوها ليلة سبع وعشرين من رمضان، وليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، ثم سكت» أخرجه أبو داود.

وعن عتبة بن عبد الرحمٰن قال: حدثني أبي قال: ذكرت ليلة القدر عند أبي بكرة، فقال: ما أنا بملتمسها بشيء سمعته من رسول الله ﷺ إلا في العشر الأواخر، فإني سمعته يقول: «التمسوها في تسع يبقين»، أو في سبع يبقين، أو في خمس يبقين، أو في ثلاث يبقين، أو آخر الشهر قال: وكان أبو بكرة يصلي في العشرين من رمضان كصلاته في سائر السنة، فإذا دخل العشر الأواخر اجتهد. أخرجه الترمذي.

وعن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبر بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال النبي ﷺ: «إني خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة» أخرجه البخاري.

قوله: «فتلاحى رجلان»؛ أي: تخاصم رجلان، قوله: «فرفعت» لم يرد رفع عينها، وإنما أراد رفع بيان وقتها، ولو كان المراد رفع وجودها لم يأمر بالتماسها.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «هي في العشر

في سبع مضين، أو سبع يبقين» يعني: ليلة القدر أخرجه البخاري، وفي رواية: «في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى» قال أبو عيسى: روي عن النبي ﷺ في ليلة القدر أنها ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وآخر ليلة من رمضان.

قال الشافعي: كان هذا عندي والله أعلم أن النبي ﷺ كان يجيب على نحو ما يُسئل عنه يقال له: ألتمسها في كذا؟ فقال: التمسوها في ليلة كذا، قال الشافعي: وأقوى الروايات عندي فيها ليلة إحدى وعشرين، قال البغوي: وبالجملة أبهم الله تعالى هذه الليلة على الأمة المحمدية ليجتهدوا في العبادة ليالي شهر رمضان طمعاً في إدراكها، كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة، وأخفى الصلاة الوسطى في الصلوات الخمس، واسمه الأعظم في القرآن في أسمائه ورضاه في الطاعات؛ ليرغبوا في جميعها، وسخطه في المعاصي، لينتهوا عن جميعها، وأخفى قيام الساعة؛ ليجتهدوا في الطاعات حذراً من قيامها.

ومن علاماتها

ما روي عن الحسن رفعه «أنها ليلة بلجة؛ أي: مضيئة سمحة، لا حارة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها بيضاء لا شعاع لها»، وعن عائشة قالت: (كان رسول الله إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل وأيقظ أهله وجد وشد المئزر)، متفق عليه. ولمسلم عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيره)، وعنها أن النبي ﷺ: (كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده) متفق عليه.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ: (كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان) متفق عليه.

وعن عائشة قالت: قلت يا رسول الله: إن علمتُ ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قولي: «اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني» أخرجه الترمذي، وقال الحديث حسن صحيح، وأخرجه النسائي وابن ماجه.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾؛ أي: إنا بدأنا تنزيل الكتاب

الكريم في ليلة الشرف، ثم أنزلناه بعد ذلك منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسَب الحوادث التي كانت تدعو إلى نزول شيء منه تبياناً لما أشكل من الفتوى فيها، أو عبرة بما يقتص فيه من قصص وزواجر، ولا شك أن البشر كانوا في حاجة إلى دستور يبين لهم ما التبس عليهم من أمر دينهم ودنياهم، ويوضح لهم أمر النشأة الأولى، وأمر النشأة الآخرة؛ لأنهم كانوا أعجز من أن يفهموا مصالحهم الحقة حتى يستنوا لأنفسهم من النظم ما يغنيهم عن الدين والتدين وحوادث الكون التي نراها رأي العين كفيلة بأن تبين وجه الحق في ذلك، فإن من بدء الخليقة يُبدِئون ويعيدون ويصححون ويراجعون في قوانينهم الوضعية، ثم يستبين لهم بعد قليل من الزمان أنها لا تكفي لهدي المجتمع، والأخذ بيده إلى موضح الرشاد، ومنعه من الوقوع في مهاوي الزلل، ومن ثم قيل: لا غنى للبشر عن دين ولا عن وازع روحي يضع لهم مقاييس الأشياء، وقيمها بعد أن أبان لهم العلم وصفها وخواصها، كما لا غنى له عن الاعتقاد في قوة غيبية يلجأ إليها حين يظلم عليه ليل الشك، وتختلط عليه صروف الحياة وألوان مآسيها.

ثم أشار إلى أن فضلها لا يحيط بها إلا هو، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾؛ أي: ولم تبلغ درايتك وعلمك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها، وفي هذا إيماء إلى أن شرفها مما لا يحيط به علم العلماء، وإنما يعلمه علام الغيوب الذي خلق العوالم، وأنشأها من العدم.

ثم أوضح مقدار فضلها من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول منها قوله: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾؛ أي: قيامها والعبادة فيها. ﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾؛ أي: من صيام ألف شهر وقيامها ليس فيها ليلة القدر حتى لا يلزم تفضيل الشيء على نفسه، فـ﴿خَيۡرٞ﴾ هنا للتفضيل؛ أي: أفضل وأعظم قدراً، وأكثر أجراً من تلك المدة، وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، وتخصيص الألف بالذكر: إما للتكثير؛ لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء كلها، ولا تريد حقيقتها، كما في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، أو لما روي أنه ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل اسمه: شمسون لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فتعجب المؤمنون منه، وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأُعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي، رواه ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: إن الرجل فيما مضى

كان لا يقال له: عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر، فأعطوا ليلة إن أَحْيَوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد، وقيل: رأى النبي ﷺ أعمار الأمم كافة، فاستقصر أعمار أمته، فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر، وجُعلت لنا خيراً من ألف شهر لسائر الأمم. أخرجه مالك في «الموطأ» ممن يثق به من أهل العلم، وقيل غير ذلك.

والمعنى[1]: أي هذه الليلة أعظم قدراً وأكثر أجراً من ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، لأن ليلة يسطع فيها نور الهدى، وتكون فاتحة التشريع الجديد الذي أنزل لخير البشر، ويكون فيها وضع الحجر الأساسي لهذا الدين الذي هو آخر الأديان الصالح لهم في كل زمان ومكان هي خير من ألف شهر من شهورهم التي كانوا يتخبطون فيها في ظلام الشرك وضلال الوثنية حيارى، لا يهتدون إلى غاية، ولا يقفون عند حد. والله تعالى يفضل ما شاء من زمان ومكان لمعنى من المعاني التي تدعو إلى التفضيل، وله الحكمة البالغة، وأي عظمة أعلى من عظمة ليلة يبتدىء فيها نزول هذا النور والهداية للناس بعد أن مضت على قومه ﷺ حقب متتابعة، وهم في ضلال الوثنية؟ وأي شرف أرفع من شرف ليلة سطع فيها بدر المعارف الإلٰهية على قلب رسوله ﷺ بعباده يبشرهم وينذرهم، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، ويجعل منهم أمة تحرر الناس من استعباد القياصرة، وجبروت الأكاسرة، ويجمعهم بعد الفرقة، ويلم شعثهم بعد الشتات؟.

فحق على المسلمين أن يتخذوا هذه الليلة عيداً لهم، إذ فيها بدأ نزول ذلك الدستور السماوي الذي وجّه المسلمين تلك الجهة الصالحة النافعة، ويجددوا العهد أمام ربهم بحياطته بأنفسهم وأموالهم شكراً له على نعمه ورجاء مثوبته.

قال المفسرون: معنى هذه الآية[2]: العمل الصالح في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، وإنما كان كذلك لما يريد الله تعالى في تلك الليلة من المنافع والأرزاق وأنواع الخير والبركة.

ومن المعلوم[3]: أن الطاعة في ألف شهر أشق من الطاعة في ليلة واحدة،

---

(١) المراغي. (٢) الخازن. (٣) المراح.

لكن الفعل الواحد قد يختلف حاله في الحسن والقبح بسبب اختلاف الوجوه، ألا ترى أن صلاة الجماعة تفضل على صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة، مع أن صلاة الجماعة قد تنقص صورة، فإن المسبوق سقطت عنه ركعة واحدة، وأيضاً فأنت إذا قلت لمن يُرجَم بالزنا هذا زان فلا بأس، ولو قلته للنصراني فهو قذف يوجب التعزير، ولو قلته للمحصَن فهو قذف يوجب الحد، ولو قلته في حق عائشة كان ذلك القول كفراً، ثم القائل بقوله: هذا زان قد ظن أن هذه اللفظة سهلة، مع أنها أثقل من الجبال، فثبت بهذا أن الأفعال تختلف آثارها في الثواب والعقاب؛ لاختلاف وجوهها، فلا يبعد أن تكون الطاعة القليلة في الصورة مساوية في الثواب للطاعة الكثيرة.

قال في «الكواشي»: ثم إن[1] نهار ليلة القدر مثل ليلة القدر في الخير، واختلفوا في وقتها كما مر، فأكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها، وإنما جُعلت في العشر الأخير الذي هو مظنة ضعف الصائم وفتوره في العبادة؛ ليتجدد جِده في العبادة رجاء إدراكها وجُعلت في الوتر؛ لأن الله سبحانه وتر يحب الوتر.

والوجه الثاني من فضلها: قوله عز وجل: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الليلة تهبط الملائكة كلهم من كل سماء إلى الأرض، وهو الأظهر؛ لأن الملائكة إذا نزلت في سائر الأيام إلى مجلس الذكر، فلأن ينزلوا في تلك الليلة مع علو شأنها أولى، أو إلى السماء الدنيا قالوا: ينزلون فوجاً فوجاً فمن نازل ومن صاعد كأهل الحج، فإنهم على كثرتهم يدخلون الكعبة، ومواضع النسك بأسرهم، لكن الناس بين داخل وخارج، ولهذا السبب مدت إلى غاية طلوع الفجر، وذكر لفظ ﴿تَنَزَّلُ﴾ المفيد للتدريج، وبه يندفع ما يرد أن الملائكة لهم كثرة عظيمة لا تحتملها الأرض، وكذا السماء الدنيا على أن شأن الأرواح غير شأن الأجسام، والملائكة وإن كان لهم أجسام لطيفة يقال لهم: الأرواح.

وهذه الجملة مستأنفة مبينة لما له فضلت على ألف شهر، والحكمة[2] في نزولهم في تلك الليلة أنهم لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، وظهر أن الأمر

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

بخلاف ما قالوه، وتبين حال المؤمنين، وما هم عليه من الطاعة والعبادة والجد والاجتهاد.. نزلوا إليهم ليسلموا عليهم ويعتذروا مما قالوه، ويستغفروا لهم لما يرون من تقصير قد يقع من بعضهم، وقوله: ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ هو: جبريل عليه السلام، قاله أكثر المفسرين، وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل» ذكره ابن الجوزي.

ووجه ذكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه، وقيل: إن الروح صنف من الملائكة هم أشرافهم لا تراهم الملائكة إلا في تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وقيل: إن الروح ملك عظيم ينزل مع الملائكة تلك الليلة، ومن عظمه أنه لو التقم السموات والأرضين كانت له لقمة واحدة، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَنَزَّلُ﴾ أصله: تتنزل بتاءين، وقرأ طلحة بن مصرف وابن سميفع بضمها على البناء للمفعول، وقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ متعلق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾، أو بمحذوف هو حال من ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: تنزل الملائكة وتهبط في تلك الليلة كلهم، والروح، بإذن ربهم؛ أي: بأمره وإرادته، أو حال كونهم متلبسين بإذن ربهم وإرادته.

وهذا يدل[2] على أنهم كانوا يرغبون إلينا ويشتاقون، فيستأذنون فيؤذن لهم في النزول إلينا، فإن قيل: كيف يرغبون إلينا مع علمهم بكثرة ذنوبنا؟.. قلنا: لا يقفون على تفصيل المعاصي. روي أنهم يطالعون اللوح المحفوظ، فيرون فيه طاعة المكلف مفصلة، فإذا وصلوا إلى معاصيه أُرخي الستر، فلا يرونه فحينئذ يقولون: سبحان من أظهر الجميل وستر القبيح، أو لأنهم يرون في الأرض من أنواع الطاعات أشياء ما رأوها في عالم السموات كإطعام الطعام وأنين العصاة، وفي الحديث القدسي: «لأنين المذنبين أحب إلي من زجل المسبحين» فيقولون: تعالوا نذهب إلى الأرض فنسمع صوتاً هو أحب إلى ربنا من صوت تسبيحنا، وكيف لا يكون أحب، وزجل المسبحين إظهار لكمال حال المطيعين، وأنين المذنبين إظهار

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

لغفارية رب العالمين.

وقوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾ متعلق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾ أيضاً؛ أي: تنزل من أجل كل أمر من الأمور قد قدر وقضي في تلك السنة من خير أو شر؛ أي: لأجل إنفاذ كل أمر قد قدر في تلك السنة، فـ﴿مِّن﴾ للتعليل، فإن قيل[1]: المقدرات لا تُفعل في تلك الليلة، بل في تمام السنة، فلماذا تنزيل الملائكة فيها لأجل تلك الأمور؟.. قيل: لعل تنزلهم؛ لتعين إنفاذ تلك الأمور، وتنزلهم لأجل كل أمر ليس تنزل كل واحد لأجل كل أمر، بل ينزل الجمع لأجل جميع الأمور حتى يكون في الكلام تقسيم العلل على المعلولات، وقيل: إن ﴿مِّنۡ﴾ بمعنى الباء؛ أي: بكل أمر من الخير والبركة كقوله تعالى: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: بأمر الله، قيل: يقسم جبريل عليه السلام تلك الليلة بقية الرحمة في دار الحرب على من علم الله أنه يموت مسلماً، فبتلك الرحمة التي قسمت عليهم ليلة القدر يُسلِمون ويموتون مسلمين.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَمۡرٍ﴾ وهو واحد الأمور، وقرأ علي وابن عباس وعكرمة والكلبي: ﴿من كل امرىء﴾ مذكر امرأة؛ أي: من أجل إنسان، وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل مع الملائكة، فيسلمون على كل إنسان، فـ﴿مِّن﴾ على هذا بمعنى: على، والأول أولى، وقد تم الكلام عند قوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾، وما بعده مستأنفة، والمعنى؛ أي[3]: تنزلت الملائكة من عالمها حتى تمثلت لبصره ﷺ، وتمثل له الروح جبريل مبلغاً للوحي، وهذا التجلي على النفس الكاملة كان بإذن ربهم بعد أن هيأه لقبوله ليبلغ لعباده ما فيه الخير والبركة لهم، ونزول الملائكة إلى الأرض شأن من شؤونه تعالى، لا نبحث عن كيفيته، فنحن نؤمن به دون أن نحاول معرفة تفاصيله وأسراره، فما عرف العالم بعد علمه المادي بشتى وسائله إلا النزر اليسير من الأكوان، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

والخلاصة: أن هذه الليلة عيد المسلمين لنزول القرآن فيها، وليلة شكر على الإحسان والإنعام بذلك تشاركهم الملائكة فيها بما يشعر بعظمتها، ويشعر بفضل الإنسان، وقد استخلفه في الأرض.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) المراغي.

والوجه الثالث قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾؛ أي: ما هي إلا سلامة وخير كلها، لا شر فيها، وتقديم[١] الخبر فيه؛ لإفادة الحصر مثل: تميمي أنا؛ أي: ما تلك الليلة إلا ذات سلامة؛ أي: لا يحدث فيها داء ولا شيء من الشرور والآفات، كالرياح والصواعق ونحو ذلك مما يخاف منه، بل كل ما ينزل في هذه الليلة إنما هو سلامة ونفع وخير، ولا يستطيع الشيطان فيها سوءاً، ولا ينفذ فيها سحر ساحر، والليلة ليست نفس السلامة بل ظرف لها، ومع ذلك وُصفت بالسلامة للمبالغة في اشتمالها عليها، وعُلم منه أنه يُقضى في غير ليلة القدر كل من السلامة والبلاء، يعني: يتعلق قضاء الله تعالى بهما، وقال الشعبي: ما هي إلا ذات تسليم من الملائكة على أهل المساجد وسائر المؤمنين من حين غروب الشمس إلى طلوع الفجر، يمرون على كل مؤمن، ويقولون: السلام عليك أيها المؤمن، ومن أصابته تسليمة من الملائكة غفر له ذنبه، وفي الحديث: «ينزل جبريل كل ليلة القدر في كبكبة من الملائكة؛ ـ أي: جماعة متضامة ـ يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى»، وقيل يعني: سلام الملائكة بعضهم على بعض، قال عطاء: يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾؛ أي: من مبدئها إلى وقت طلوع الفجر فيها، وقدر المضاف؛ لكون الغاية من جنس المغيا؛ أي: إن ذلك السلام أو تلك السلامة تستمر وتدوم في تلك الليلة إلى وقت طلوع الفجر، فتصعد الملائكة عند طلوعه، فيعود الزمن على حاله الأول، فمطلع بفتح اللام مصدر ميمي، ومن قرأ: بكسر اللام جعله اسماً لوقت الطلوع؛ أي: اسم زمان، و﴿حَتَّىٰ﴾ متعلقة بـ﴿تَنَزَّلُ﴾ على أنها غاية لحكم التنزل؛ أي: لمكثهم في تنزلهم، أو لنفس تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر، وقال بعضهم ليلة القدر من غروب الشمس إلى طلوع الفجر سلام؛ أي: يسلم فيها الملائكة على المطيعين إلى وقت طلوع الفجر، ثم يصعدون إلى السماء، فـ﴿حَتَّىٰ﴾ متعلقة بـ﴿سَلَٰمٌ﴾.

قالوا[٢]: علامة ليلة القدر أنها ليلة لا حارة ولا باردة، وتطلع الشمس صبيحتها لا شعاع لها كما مر؛ لأن الملائكة تصعد عند طلوع الشمس إلى السماء،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

فيمنع صعودها انتشار شعاعها لكثرة الملائكة، أو لأنها لا تطلع في هذه الليلة بين قرني الشيطان، فإنها على ما جاء في بعض الأخبار: تطلع كل يوم بين قرني الشيطان، ويزيد الشيطان في بث شعاعها وتزيين طلوعها؛ ليزيد في غرور الكافرين، ويحسِّن في أعين الساجدين لها، ومن علامتها أيضاً على ما قيل: أنه يعذب الماء الملح تلك الليلة، وأما النور الذي يُرى ليلة القدر فهو نور أجنحة الملائكة، أو نور جنة عدن تُفتح أبوابها ليلة القدر، أو نور لواء الحمد الذي ينزل به جبريل عليه السلام.

وقرأ الجمهور(١): ﴿مَطْلَعِ﴾ - بفتح اللام - وقرأ أبو رجاء والأعمش وابن وثّاب وطلحة وابن محيصن والكسائي وأبو عمرو بخلاف عنه بكسرها، فقيل: هما مصدران في لغة بني تميم، وقيل: المصدر بالفتح، وموضع الطلوع بالكسر عند أهل الحجاز.

والمعنى(٢): أي هذه الليلة التي حقها الخير بنزول القرآن، وشهود ملائكة الرحمٰن، ليلة كلها سلامة وأمن، وكلها خير وبركة من مبدئها إلى نهايتها، ففيها فرَّج الله تعالى الكرب عن نبيه ﷺ، وفتح له سبل الهداية والإرشاد.

الإعراب

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾، والكاف في محل النصب مفعول أول لـ﴿أدرىٰ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاستفهامية معطوفة على جملة ﴿إن﴾. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة المعلقة

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

بالاستفهام سدت مسد المفعول الثاني لـ﴿أدرىٰ﴾. ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿خَيۡرٞ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿خَيۡرٞ﴾، والجملة الإسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر تقديره: وما فضائلها. ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلرُّوحُ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾، والجملة مستأنفة واقعة في جواب السؤال المذكور في الجملة التي قبلها. ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾، أو بمحذوف حال من ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: متلبسين. ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾ أيضاً، و﴿مِّنۡ﴾ بمعنى اللام التعليلية؛ أي: من أجل كل أمر قضاه الله تعالى في تلك الليلة. ﴿سَلَٰمٌ﴾: خبر مقدم. ﴿هِيَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة واقعة في جواب السؤال المذكور سابقاً. . ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿سَلَٰمٌ﴾، وفيه إشكال، وهو الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ، والجواب أن الظروف والجار والمجرور يتوسع فيها ما لا يتوسع في غيرها، والأحسن كما قال الخطيب أن يتعلقا بمحذوف قدره الخطيب: يستمرون على التسليم من غروب الشمس حتى مطلع الفجر.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ والقَدْر ـ بسكون الدال ـ إما بمعنى العظمة والشرف من قولهم لفلان: قدر عند فلان؛ أي: منزلة ودرجة وشرف، أو بمعنى التقدير: وهو جعل الشيء على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حَسَبما اقتضت الحكمة والمصلحة، سميت ليلة القدر بمعنى المنزلة والشرف إما باعتبار العامل فيها على معنى أن من أتى بالطاعة فيها صار ذا قدر وشرف، وإما باعتبار نفس العمل على معنى أن الطاعة الواقعة في تلك الليلة لها قدر وشرف زائد، قال أبو بكر الوراق: سميت ليلة القدر؛ لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر على رسول ذي قدر لأمة لها قدر، وسميت ليلة القدر بمعنى التقدير؛ لتقدير الأمور الواقعة في تلك السنة فيها؛ أي: لإظهار تقديرها للملائكة، وإلا فالتقدير نفسه أزلي أو بمعنى الضيق، قال الخليل: سميت ليلة القدر؛ أي: ليلة الضيق؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة، فالقدر بمعنى الضيق،

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾. ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أصله: تتنزل بتائين، حذفت إحداهما للتخفيف على حد قول ابن مالك:

وَمَا بِتَائَيْنِ ٱبْتُدِيْ قَدْ يُقْتَصَرْ فِيْهِ عَلَىٰ تَاءٍ كَتَبْيِيْنِ ٱلْعِبَرْ

والتاء في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لتأنيث الجمع، وإذا حذفت امتنع صرفه لصيغة منتهى الجموع، وبه يلغز فيقال: كلمة إذا حذف من آخرها حرف امتنع صرفها. جمع: ملك، وأصله: ملائك، ووزنه فعال، فالهمزة زائدة، ومادته تدل على المُلك والقوة والسلطنة، وقيل: وزنه مفعل، فالميم زائدة، وقيل: هو مقلوب، وأصله مالك من الألوكة وهي الرسالة، قلب قلباً مكانياً فصار: ملائك، ففي وزنه القولان المتقدمان، وعلى كل فيقال: سقطت الهمزة فصار ملك، والملائكة أجسام نورانية لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، لهم قدرة على التشكلات بالصور غير الخسيسة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ يصح أن يكون ضمير ﴿هِىَ﴾ عائداً على ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، و﴿سَلَٰمٌ﴾ بمعنى التسليم، والمعنى: أن الملائكة يسلمون على المؤمنين، ويصح أن يكون عائداً على ﴿لَيْلَةِ﴾، و﴿سَلَٰمٌ﴾ أيضاً بمعنى التسليم، والمعنى: أن الليلة ذات تسليم من الملائكة على المؤمنين أو من بعضهم على بعض، ويصح على هذا الوجه أن يُجعل ﴿سَلَٰمٌ﴾ بمعنى سلامة؛ أي: ليلة القدر ذات سلامة من كل شر.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ بفتح اللام وكسرها، فهما مصدران في لغة بني تميم، وقيل: المصدر بالفتح، والموضع بالكسر عند أهل الحجاز اهـ «بحر». وعبارة «السمين»: وقرأ الكسائي: ﴿مطلع﴾ بكسر اللام، والباقون بفتحها، والفتح هو القياس، وهل هما مصدران أو المفتوح مصدر والمكسور اسم مكان؟ فيه خلاف اهـ، وعبارة «مناهل الرجال على لامية الأفعال» عند قول ابن مالك:

مَظْلَمَةٌ مَطْلَعُ ٱلْمَجْمَعِ مَحْمَدَةٌ مَذِمَّةٌ مَنْسِكٌ مَضِنَّةُ ٱلْبُخَلاَ

واعلم: أنه قد تقدم لك أن الشاذ في باب مفعل ثلاثة أضرب:

الضرب الأول منها: ما جاء فيه وجهان: الفتح والكسر، وهو اثنتان وعشرون كلمة: الأول منها مظلمة، والثاني منها مطلع، يقال: طلع الكوكب يطلُع ـ من باب نصر ـ طلوعاً ومطلعاً ـ بالفتح ـ على القياس، ومطلِعاً ـ بالكسر ـ على الشذوذ؛ أي:

طلوعاً إذا ظهر، وهذا مطلَع الشمس - بالفتح - على القياس، ومطلع القمر - بالكسر - على الشذوذ؛ أي: مكان طلوعهما أو زمانه. انتهى.

و﴿ٱلْفَجْرِ﴾ الضوء المنتشر في أفق السماء عرضاً عند قرب طلوع الشمس، والفجر إذا أطلق انصرف إلى الفجر الصادق؛ لأنه هو الذي يتعلق به الأحكام الشرعية.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإتيان بـ ﴿إن﴾ المكسورة في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ لتأكيد الحكم والرد على المنكِر أو الشاك والمخاطبون فيهم ذلك، فقد قالوا: من تلقاء نفسه، وقالوا: أساطير الأولين، وقالوا: تنزلت به الشياطين، فرد على جميع ذلك بذكر الإنزال، لا أنه مختلق ولا من أساطير الأولين.

فإن قلت: إن المؤمنين يصدقون خبر المولى بلا توكيد، والكافرون يعاندون ولو تعدد التأكيد.. أجيب عنه بجوابين:

الأول: يمنع أن الكافرين يعاندون مع التأكيد، فإن عاداتهم الانقياد للتأكيدات، فربما حصل لهم هداية بسبب ذلك التأكيد.

الثاني: على تسليم أنهم يعاندون مع التأكيد، فلا نسلِّم حصر معنى إن في التأكيد، بل قد يؤتى بها ترغيباً في تلقي الخير والتنبيه بعظيم قدره وشرف حكمه.

ومنها: الإتيان بضمير المتكلم المعظِّم نفسَه وهو الله تعالى إشعاراً بتعظيم المنزل والمنزل به، ويحتمل أنها للمتكلم ومعه غيره، فإن الله سبحانه أنزله، والملائكة لهم مدخلية في إنزاله، والمعنى: إنا وملائكة قدسنا أنزلناه على حد قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾، والإسناد لله حقيقة إجماعاً، وللملائكة قيل كذلك، وقيل: مجاز، وعليه فلا مانع من الجمع بين الحقيقة والمجاز، يقال: بنى الأميرُ وعَمَلَتُهُ المدينةَ، ولا يعترض بالجمع بين القديم والحادث في ضميره فإنه حاصل في ضمير ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ ونحوه، وأما قوله ﷺ للخطيب: «بئس الخطيب» لما

قال: مَن يُطع الله ورسوله فقد اهتدى، ومن يعصهما فقد غوى، فلأن الخطب محل إطناب.

وقيل: وقف على قوله: ومن يعصهما قبل الجواب اهـ «صاوي».

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ حيث شبه الإيحاء بالإنزال، واستُعير الإنزال للإيحاء، واشتُق من الإنزال بمعنى الإيحاء أنزلنا بمعنى: أوحينا بجامع الإعلام في كلٍّ على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية؛ لأن الإنزال وصف للأجسام، والقرآن عَرَض لا جسم، فكيف يوصف بالإنزال، ويحتمل كون إسناد الإنزال إلى القرآن مجازاً عقلياً، وحقه أن يُسند إلى حامله، فالتجوز إما في الظرف أو الإسناد.

ومنها: التعبير بالإنزال دون التنزيل؛ للدلالة على أن إنزاله في ليلة القدر دفعيٌّ لا تدريجي.

ومنها: الإضمار بلا سبق مرجع في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ لأن ضمير الغيبة للقرآن اكتفاء بشهرته؛ لأن شهرته تقوم مقام تصريحه باسمه، وإرجاع الضمير إليه فكأنه حاضر في جميع الأذهان.

ومنها: الإطناب بذكر ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ ثلاث مرات زيادة في الاعتناء بشأنها وتفخيماً لأمرها.

ومنها: الاستفهام في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾؛ لغرض التفخيم والتعظيم.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ حيث عطف ﴿الروح﴾ الذي هو جبريل مع دخوله في الملائكة إظهاراً لشرفه وجلالة قدره.

ومنها: التعبير بالتنزل دون النزول في قوله: ﴿تَنَزَّلُ﴾ إشارة إلى أنهم ينزلون طائفة بعد طائفة، فينزل فوج ويصعد فوج لضيق الأرض عنهم.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ حيث جعل الليلة عين السلام مبالغة في اشتمالها على السلامة على حد: زيد عدل.

ومنها: تقديم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾؛ لإفادة الحصر مثل

قولهم: تميميٌ أنا؛ أي: ما هي إلا سلامة.

ومنها: توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات مثل ﴿ٱلْقَدْرِ﴾ ﴿شَهْرٍ﴾ ﴿أَمْرٍ﴾ ﴿ٱلْفَجْرِ﴾؛ لأنه من المحسنات البديعية اللفظية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

تتمتان:

الأولى: اختلفت المذاهب في ليلة القدر، فقال مالك: إنها دائرة في العام كله، والغالب كونها في رمضان، والغالب أيضاً كونها في العشر الأواخر منه، وقال أبو حنيفة والشافعي: هي في رمضان لا تتنقل منه، والغالب كونها في العشر الأواخر، واشتهر عن أبي بن كعب وابن عباس وكثير من العلماء: أنها ليلة السابع والعشرين، وأيده بعضهم بطريق الإشارة بأن عدد كلمات السورة ثلاثون كأيام رمضان، واتفق أن كلمة ﴿هِيَ﴾ تمام سبع وعشرين، وطريق آخر في الإشارة: أن حروف ليلة القدر تسعة، وقد ذُكرت في السورة ثلاث مرات، وثلاث في تسعة بسبع وعشرين، ونُقل عن بعضهم: ضبطها بأول الشهر من أيام الأسبوع، وقالوا: إنها تُعلم باليوم الأول من الشهر، فإن كان أوله يوم الأحد أو الأربعاء فهي ليلة تسع وعشرين، أو يوم الاثنين فهي ليلة إحدى وعشرين، أو يوم الثلاثاء أو الجمعة فهي ليلة سبع وعشرين، أو يوم الخميس فهي ليلة خمس وعشرين، أو يوم السبت فهي ليلة ثلاث وعشرين، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: ومنذ ما بلغت سن الرجال ما فاتتني ليلة القدر بهذه القاعدة المذكورة، وقد نظمتها بقولي:

يَا سَائِلِيْ عَنْ لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ٱلَّتِيْ ... فِيْ عَشْرِ رَمْضَانَ ٱلأَخِيْرِ حَلَّتِ

فَإِنَّهَا فِيْ مُفْرَدَاتِ ٱلْعَشْرِ ... تُعْرَفُ مِنْ يَوْمِ ٱبْتِدَاءِ ٱلشَّهْرِ

فَبِٱلأَحَدْ وَٱلأَرْبِعَا فِيْ ٱلتَّاسِعَهْ ... وَجُمْعَةٍ مَعَ ٱلثُّلاَثَا ٱلسَّابِعَهْ

وَإِنْ بَدَا ٱلْخَمِيْسُ فهْيَ الخَامِسَهْ ... وَإِنْ بَدَا بِٱلسَّبْتِ فَهْيَ الثَّالِثَهْ

وَإِنْ بَدَا ٱلإِثْنَيْنِ فَهْيَ ٱلْحَادِيْ ... هَذَا عَنِ ٱلسَّادَاتِ وَٱلزُّهَّادِ

اهـ من «القليوبي على الجلال المحلي على المنهاج النووي».

والثانية: ذكر العلماء لليلة القدر علامات كما مر بعضها منها: قلة نبح

الكلاب ونهيق الحمار وعذوبة الماء الملح، ورُؤية كل مخلوق ساجداً لله تعالى، وسماع كل شيء يذكر الله تعالى بلسان المقال، وكونها ليلة بلجة مضيئة مشرقة بالأنوار، وطلوع الشمس يومها صافياً نقية ليست بين قرني الشيطان كيوم غيرها، وأحسن ما يُدعى به في تلك الليلة العفو والعافية، كما ورد في حديث عائشة: ويكثر من الاستغفار والتسبيح والتحميد والتهليل وأنواع الذكر والصلاة على النبي ﷺ، ويدعو بما أحب لنفسه ولأحبابه أحياءً وأمواتاً، ويتصدق بما تيسر له، ويحفظ جوارحه عن المعاصي، ويكفي في قيامها صلاة العشاء والصبح جماعة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على خمسة مقاصد:

١ ـ بيان إنزال القرآن في ليلة القدر جملة إلى السماء الدنيا.

٢ ـ تفخيم شأن ليلة القدر بالاستفهام عنها.

٣ ـ بيان خيريتها على ألف شهر ليست فيها ليلة القدر.

٤ ـ بيان تنزل الملائكة فيها إظهاراً لشرفها وقدرها.

٥ ـ وصفها بكونها ذات سلامة من كل شر[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تم تفسير سورة القدر بعون من له الخلق والأمر في يوم الاثنين قبيل صلاة الظهر اليوم الخامس من شهر ذي الحجة من شهور سنة: ١٤١٦ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

سورة البيّنة

سورة البينة، وتسمى سورة: لم يكن، مدنية في قول الجمهور، نزلت بعد سورة الطلاق، وقيل: مكية، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت سورة لم يكن بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة: لم يكن بمكة، وهي: ثمان آيات، وأربع وتسعون[١] كلمة، وثلاث مئة وتسعة وتسعون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها[٢]: أن قوله سبحانه في هذه السورة ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾... الخ كالعلة لإنزال القرآن، كأنه قيل: إنا أنزلناه؛ لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفاً مطهرة، ووضعها النبي ﷺ بعد سورة القدر؛ لأن الصحف المطهرة التي كان يتلوها النبي نزلت ليلة القدر.

فضلها: ومن فضائلها[٣]: ما أخرجه أبو نعيم في «المعرفة» عن إسماعيل بن أبي حكيم المزني قال: حدثني الفضل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يستمع قراءة: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيقول: أبشر عبدي وعزتي وجلالي لأمكنن لك في الجنة حتى ترضى» قال ابن كثير: حديث غريب جداً، وأخرجه أبو موسى المدني عن مطر المزني أو المدني بنحوه. وما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، قال: وسماني لك. قال: نعم، فبكى».

وما أخرجه أحمد وابن قانع في «معجم الصحابة» والطبراني وابن مردويه عن أبي حية ـ البدري قال: لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ إلى آخرها.. قال جبريل: يا رسول الله: إن ربك يأمرك أن تُقرِئَها أُبَيّاً، فقال النبي ﷺ

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

لأبي: «إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة، فقال أُبَي: وقد ذُكِرْتُ ثَمَّ يا رسول الله، قال: نعم. فبكى». وسميت سورة ـ البينة؛ لذكر البينة فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم: سورة البينة كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

أسباب النزول

كان اليهود والنصارى[١] من أهل الكتاب في ظلام دامس من الجهل بما يجب الاعتقاد به والسير عليه من شرائع أنبيائهم إلا من عصم الله؛ لأن أسلافهم غيروا وبدلوا في شرائعهم، وأدخلوا فيها ما ليس منها إما لسوء فهمهم لما أُنزل على أنبيائهم، وإما لاستحسانهم ضروباً من البدع تَوَهَّمُوها مؤيدة للدين، وهي هادمة لأركانه، وإما لإفحام خصومهم، والرغبة في الظفر بهم، وقد توالت على ذلك الأزمان، وكلما جاء جيل زاد على ما وضعه مَن قبلَهم حتى خفيت معالم الحق، وطُمست أنوار اليقين، وكان إلى جوار هؤلاء عبدة الأوثان من العرب وغيرهم ممن مرنت نفوسهم على عبادتها، والخنوع لها، وأصبح من العسير تحويلهم عنها زعماً منهم أن هذا دين الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان الجدل ينشب حيناً بين المشركين واليهود، وحيناً آخر بين المشركين والنصارى، وكان اليهود يقولون للمشركين: إن الله سيبعث نبياً من العرب من أهل مكة وينعتونه لهم، ويتوعدونهم بأنه متى جاء نصروه وآزروه واستنصروا به عليهم حتى يبيدهم.

قد كان هذا وذاك، فلما بُعث محمد ﷺ.. قام المشركون يناوِئُونه ويرفعون

---

(١) المراغي.

راية العصيان في وجهه، وألّبوا الناس عليه، وآذوا كل من اتبعه وسلك سبيله ممن أنار الله بصائرهم وشرح صدورهم لمعرفة الحق، كذلك قلب له اليهود ظهر المجن بعد أن كانوا من قبل يستفتحون به؛ إذ وجدوا نعته عندهم في التوراة فزعموا أن ما جاء به من الدين ليس بالبدع الجديد، بل هو معروف في كتبهم التي جاءت على لسان أنبيائهم، فلا ينبغي أن يتركوا ما هم عليه من الحق؛ ليتبعوا رجلاً ما جاء بأفضل مما بين أيديهم بل قد بلغ الأمر بهم أن كانوا عليه مع المشركين الذين كانوا يعاندونهم ويتهددونهم بأنهم يتبعون هذا النبي وينصرونه.

ففي الرد على مزاعم هؤلاء الكافرين الذين يجحدون واضح الحق، ويغمضون أعينهم عن النظر فيه نزلت هذه السورة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: من اليهود والنصارى، وإيراد[1] الصلة فعلاً لما أن كفرهم حادث بعد أنبيائهم؛ أي: حال كونهم من أهل الكتاب، ﴿و﴾ من ﴿المشركين﴾ عبدة الأوثان، و﴿مِنْ﴾ للتبيين، لا للتبعيض حتى يلزم أن لا يكون بعض المشركين كافرين، وذلك أن الكفار كانوا جنسين: أهل الكتاب كفرق اليهود والنصارى، والمشركين وهم الذين لا ينسبون إلى كتاب الله، فذكر الله سبحانه الجنسين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على الإجمال، ثم أردف ذلك الإجمال بالتفصيل والتبيين، وهو قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهو حال من الواو في ﴿كَفَرُوا۟﴾؛ أي: كائنين منهم. ﴿مُنفَكِّينَ﴾ خبر كان؛ أي: لم يكونوا زائلين عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق والإيمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان، والعزم على إنجازه.

وهذا الوعد من أهل الكتاب مما لا ريب فيه حتى إنهم كانوا يستفتحون بالنبي المبعوث، ويقولون: اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان، ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، وإما من ﴿المشركين﴾ فلعله قد وقع من متأخريهم بعدما شاع

---

(١) روح البيان.

ذلك من أهل الكتاب، واعتقدوا صحته بما شاهدوا من نصرتهم على أسلافهم، كما يشهد به أنهم كانوا يسألونهم عن رسول الله هل هو المذكور في كتبهم، وكانوا يُغرونهم بتغيير نعوته، وانفكاك الشيء من الشيء أن يزايله بعد التحامه، كالعظم إذا انفك من مفصله، وفيه إشارة إلى كمال وكادة وعدهم؛ أي: لم يكونوا مفارقين للوعد المذكور، بل كانوا مجمعين عليه عازمين على إنجازه. ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ والحجة الواضحة التي كانوا قد جعلوا إتيانها ميقاتاً لاجتماع الكلمة، والاتفاق على الحق، فلما أتتهم جعلوا إتيانها ميقاتاً للانفكاك والافتراق وإخلاف الوعد فكفروا بها، والتعبير عن إتيانهم بالمضارع باعتبار حال المحكي لا الحكاية. أو المعنى؛ أي: لم يكن الذين جحدوا رسالة محمد ﷺ، وأنكروا نبوته من اليهود والنصارى والمشركين بمفارقين لكفرهم، تاركين لما هم عليه من الغفلة عن الحق، والوقوف عند ما كان عليه آباؤهم، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً حتى يأتيهم الرسول ﷺ، فيحدث مجيئه رجة فيما رسخ من عقائدهم، وتمكن من عاداتهم، ومن ثم أخذوا يحتجون لعنادهم بأن ما جاء به هو ما كان بين أيديهم، وليس بمستحسن أن يُتبع، والبقاء على ما هم عليه أجدر وأجمل، والسير على نهج الآباء أشهىٰ إلى النفس وأسلم.

وعبارة «الخازن» هنا: قوله عز وجل: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: ومن المشركين وهم: عبدة الأوثان، وذلك أن الكفار كانوا جنسين:

أحدهما: أهل كتاب، وسبب كفرهم ما أحدثوه في دينهم، أما اليهود فقولهم: عزير ابن الله وتشبيههم الله سبحانه بخلقه، وأما النصارى فقولهم: المسيح ابن الله وثالث ثلاثة وغير ذلك.

والثاني: المشركون أهل الأوثان الذين لا ينتسبون إلى كتاب الله، فذكر الله جنسين في قوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿مُنفَكِّينَ﴾؛ أي: منتهين عن كفرهم وشركهم، وقيل معناه: زائلين ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ﴾؛ أي: حتى أتتهم، لفظه مضارع ومعناه الماضي ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾؛ أي: الحجة الواضحة يعني: محمداً ﷺ أتاهم بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم وشركهم، وما كانوا عليه من الجاهلية، ودعاهم إلى الإيمان فآمنوا، فأنقذهم الله تعالى من الجهالة والضلالة، ولم يكونوا منفصلين عن كفرهم قبل بعثه إليهم، والآية فيمن آمن من الفريقين.

قال الواحدي في «بسيطه»: وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء، قال الإمام فخر الدين الرازي في «تفسيره»: إنه لم يلخص كيفية الإشكال فيها، وأنا أقول وجه الإشكال أن تقدير الآية: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عما ذا لكنه معلوم؛ إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه، فصار التقدير: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إن كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول، فحينئذٍ يحصل بين الآية الأولى والثانية مناقضة في الظاهر، وهذا منتهى الإشكال في ظني، قال: والجواب عنه من وجوه:

أولها ـ وأحسنها ـ: الوجه الذي لخصه صاحب «الكشاف» وهو: أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأوثان، كانوا يقولون قبل مبعث محمد ﷺ لا ننفك عما نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يُبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، وهو محمد ﷺ، فحكى الله تعالى عنهم ما كانوا يقولونه، ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: إنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق؛ إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول، ونظيره في الكلام ما يقول الفاسق الفقير لمن يعظه: لست بمنفك مما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني الله الغنىٰ فيزداد فسقاً، فيقول واعظه: لم تكن منفكاً عن الفسق حتىٰ توسر، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار، فيذكِّره ما كان يقول أولاً توبيخاً وإلزاماً.

قال الإمام فخر الدين: وحاصل هذا الجواب يرجع إلى حرف واحد، وهو أن قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ مذكور حكاية عنهم، وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إخبار عن الواقع. والمعنى: أن الذي وقع كان بخلاف ما ادعوا ووعدوا.

وثانيها: أن تقدير الآية: لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة، وعلى هذا التقدير يزول الإشكال إلا أن تفسير لفظة ﴿حَتَّىٰ﴾ بهذا ليس من

اللغة في شيء، وذكر وجوهاً أخر، قال: والمختار هو الأول، ثم فسر البينة، فقال: ﴿رَسُولٌ﴾ بدل اشتمال من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، عبر عنه ﷺ بها، للإيذان بغاية ظهور أمره، وكونه ذلك الموعود في الكتابين؛ أي: تلك البينة: رسول كائن ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى متعلق بمحذوف صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية؛ أي: رسول؛ أي: رسول كائن منه تعالى. ﴿يَتْلُوا۟﴾ صفة أخرىٰ لـ﴿رَسُولٌ﴾؛ أي: يقرأ ذلك الرسول ﷺ ﴿صُحُفًا﴾؛ أي: كتباً يريد ما تضمنه المصحف من الآيات المكتوبة فيه، وهو القرآن؛ لأنه ﷺ كان يقرأ عن ظهر قلبه، لا عن كتاب لكونه أمياً، لكنه لما تلا ما في الصحف كان كالتالي لها، وقيل المراد: جبريل، قاله البيضاوي. جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب، ومحله من الأوراق. ﴿مُّطَهَّرَةً﴾؛ أي: منزهة من الباطل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن أن يمسه غير المطهرين، وفي «الروح»: ونسبة التلاوة إلى الصحف، وهي القراطيس مجازية هي مجاز عما فيها بعلاقة الحلول، والمراد أنه لما كان ما يتلوه الذي هو القرآن مصدقاً لصحف الأولين مطابقاً لها في أصول الشرائع والأحكام.. صار متلوه كأنه صحف الأولين وكتبهم، فعبر عنه باسم الصحف مجازاً، وعبارة أبي حيان: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا﴾؛ أي: قراطيس ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ من الباطل، ﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾؛ أي: مكتوبات ﴿قَيِّمَةٌ﴾؛ أي: مستقيمة ناطقة بالحق.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقرأ ابن مسعود ﴿لم يكن المشركين وأهل الكتاب﴾ قال ابن العربي هي قراءة في معرض البيان لا في معرض التلاوة، وقرأ الأعمش والنخعي؛ ﴿والمشركون﴾ - بالرفع - عطفاً على الموصول، وقرأ أبي: ﴿فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون﴾ وقرأ الجمهور: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ برفع ﴿رَسُولٌ﴾ على أنه بدل اشتمال، أو بدل كل من كل مبالغة، قال الزجاج: ﴿رَسُولٌ﴾ رُفع على البدل من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، وقال الفراء: رُفع على أنه خبر مبتدأ مضمر؛ أي: هي رسول، أو هو رسول، وقرأ أبي وابن مسعود: ﴿رسولاً﴾ - بالنصب - على القطع، وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ كما مر، ويجوز تعلقه بنفس ﴿رَسُولٌ﴾.

---

(١) الشوكاني.

وجوز أبو البقاء أن يكون حالاً من ﴿صحف﴾، والتقدير: يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله، وقوله: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يجوز أن تكون صفةً أخرى لـ﴿رَسُولٌ﴾، أو حالاً من متعلق الجار والمجرور قبله، ومعنى ﴿يَتْلُوا۟﴾: يقرأ، يقال: تلا يتلو تلاوة، والصحف جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب، ومعنى ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ أنها منزهة من الزور والضلال، قال قتادة: مطهرة من الباطل، وقيل: مطهرة من الكذب والشبهات والكفر، والمعنى واحد.

والمعنى: أنه يقرأ ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها؛ لأنه ﷺ كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب، كما مر.

وقوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ صفة لـ﴿صُحُفًا﴾، أو حال من ضميرها؛ أي: في تلك الصحف أمور مكتوبة مستقيمة ناطقة بالحق والصواب، والمراد الآيات والأحكام المكتوبة فيها، وفي «المفردات»: فيه إشارة إلى ما فيه من معاني كتب الله، فإن القرآن مجمع ثمرة كتب الله المتقدمة.

والمعنى[1]: أي هذه البينة هي محمد ﷺ يتلو لهم صحف القرآن المطهرة من الخلط والزيغ والتدليس والتي تنبعث منها أشعة الحق، كما قال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وفيها الصحيح القويم من كتب الأنبياء السابقين كموسى وعيسى وإبراهيم، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

وقد يكون المراد بالكتب سور القرآن وآياته، فإن كل سورة منه كتاب قويم، أو الأحكام والشرائع التي تضمنها كلام الله تعالى والتي يتبين بها الحق من الباطل، كما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقُصارى ذلك[2]: أنّ حال الكافرين من اليهود والنصارى والمشركين بعد مجيء الرسول تخالف حالهم قبلها، فقد كانوا قبل مجيئه كفاراً يتيهون في عماية من الأهواء والجهالات، فلما بُعث آمن به قوم منهم، فلم تبق حالهم كما كانت قبل

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

إلى أنهم قبل بعثته ﷺ كانوا جازمين بما هم عليه واثقين بصحته، فلما بُعث إليهم تغيرت حال جميعهم، فمنهم من آمن به واعتقد أن ما كان عليه ضلال وباطل، ومنهم من لم يؤمن ولكنه صار متردداً في صحة ما هو عليه، أو هو واثق بعدم صحته، ولكن يمنعه العناد والتكبر والاقتداء بالآباء من متابعة الرسول ﷺ، ثم سلّى رسوله ﷺ عن تفرق القوم في شأنه، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ عما كانوا عليه من الوعد، وإفراد[1] أهل الكتاب بالذكر هنا بعد الجمع بينهم وبين المشركين أولاً؛ للدلالة على شناعة حالهم، وأنهم لما تفرقوا مع علمهم كان غيرهم بذلك أولى، فخصوا بالذكر؛ لأن جحود العالِم أقبح وأشنع من إنكار الجاهل، وقوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ استثناء مفرَّغ من أعم الأوقات؛ أي: وما تفرقوا في وقت من الأوقات إلا من بعدما جاءتهم الحجة الواضحة الدالة على أن رسول الله ﷺ هو الموعود في كتبهم دلالة جلية واضحة لا ريب فيها، وهي بعثة رسول الله ﷺ بالشريعة الغرّاء والمحجة البيضاء، وقيل: ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

قال المفسرون[2]: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد ﷺ حتى بعثه الله تعالى، فلما بُعث تفرقوا في أمره، واختلفوا فيه فآمن به بعضهم، وكفر به آخرون، وقال القرطبي: قال العلماء: من أول السورة إلى قوله: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين، وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ...﴾ إلخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركين بعد قيام الحجج.

والمعنى[3]: أي لا تبخع نفسك عليهم حسرات، ولا يكونن في صدرك حرج منهم، فإن هذا شأنهم الذي درجوا عليه، وديدنهم وديدن أسلافهم الذين بدلوا وافتروا على أنبيائهم وتفرقوا طرائق قدداً حتى صار أهل كل مذهب يُبطل ما عند غيره بغياً وعدواناً وقولاً بالتشهي والهوى، ولم يكن تفرقهم لقصور حجتك أو خفاء شأنك عليهم، فهم إن جحدوا بينتك فقد جحدوا بينة مَن قبلك، وإن أنكروا نبوتك فقد أنكروا آيات الله بعدما استيقنتها أنفسهم، وإذا كانت هذه حال أهل الكتاب فما

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن. (٣) المراغي.

ظنك بالمشركين، وهم أعرق في الجهالة وأسلس مقادة للهوى، ثم أنبهم ووبخهم على ما صاروا إليه من الأفعال، وعلى ما بلغوه من فساد العقل والضلال، فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ جملة[1] حالية مفيدة لغاية قبح ما فعلوا، ومفيدة لتقريعهم وتوبيخهم على ما ارتكبوا من التفرق بعد مجيء البينة؛ أي: تفرقوا بعد مجيء البينة، والحال أنهم ما أمروا بما أُمروا به في كتبهم لشيء من الأمور، ولمصلحة من المصالح، ولحكمة من الحكم إلا لحكمة أن يعبدوا الله سبحانه ويخضعوا له، ويتذللوا له بامتثال مأموراته واجتناب منهياته التي منها الإيمان بمحمد ﷺ، والاجتناب من تكذيبه، وهذه ﴿اللام﴾ في الحقيقة لام الحكمة والمصلحة، يعني: أن فعله تعالى وإن لم يكن معللاً بالغرض إلا أنه مغياً بالحكم والمصالح، وكثيراً ما تُستعمل لام الغرض في الحكمة المترتبة على الفعل تشبيهاً لها بها في ترتبها على الفعل بحسب الوجود.

والأولى[2] أن تكون ﴿اللام﴾ بمعنى الباء، وأن مضمرة، والمعنى: وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله تعالى، وقال بعضهم الأظهر أن تُجعل ﴿لام﴾ ﴿لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ زائدة، كما تزاد في صلة الإرادة، فيقال: أردتُ لتقوم، لتنزيل الأمر منزلة الإرادة، فيكون المأمور به هذه الأمور من العبادة ونحوها، كما هو ظاهر، نظيره قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ أي: أن يبين لكم، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أن يطفئوا، وفي حصر[3] علة كونهم مأمورين بما في كتبهم من عبادة الله بالإخلاص حيث قيل: وما أمروا بما أمروا إلا لأجل أن يتذلّلوا له ويعظموه غاية التذلل والتعظيم ولا يطلبوا في امتثال ما كلفوا به شيئاً آخر سوى التذلل لربهم ومالكهم، كثواب الجنة والخلاص من النار.. دليل على ما ذهب إليه أهل السنة من أن العبادة ما وجبت؛ لكونها مفضية إلى ثواب الجنة، أو إلى البعد من عذاب النار، بل لأجل أنك عبد وهو رب، ولو لم يحصل في الدين ثواب ولا عقاب ألبتة، وأمرك بالعبادة لمحض العبودية ومقتضى الربوبية والمالكية، وفيه أيضاً إشارة إلى أن مَن عَبَدَ الله للثواب والعقاب، فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب، والحق واسطة، فالمقصود الأصلي من العبادة هو المعبود، وكذا الغاية من العرفان

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات. (٣) روح البيان.

المعروف، فعليك بالعبادة للمعبود، وبالعرفان للمعروف، وإياك أن تلاحظ شيئاً غير الله تعالى.

وقرأ الجمهور: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وقرأ عبد الله: ﴿إلا أن يعبدوا الله﴾ بإبدال اللام بأن، وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ حال من الفاعل في ﴿لِيَعْبُدُوا۟﴾؛ أي: وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله سبحانه حال كونهم جاعلين دينهم وعملهم خالصاً له تعالى، أو جاعلين أنفسهم خالصة له تعالى في الدين والعمل.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ - بكسر اللام - و﴿ٱلدِّينَ﴾ منصوب به، وقرأ الحسن: بفتحها؛ أي: يخلصون هم أنفسهم في نياتهم، وانتصب ﴿ٱلدِّينَ﴾ إما على المصدر من ﴿لِيَعْبُدُوا۟﴾؛ أي: ليَدِينوا الله بالعبادة الدين، وإما على إسقاط الخافض؛ أي: في الدين.

والإخلاص[2]: أن لا يطلع على عملك إلا الله، ولا تطلب منه ثواباً اهـ «كرخي». وقال الشهاب: الإخلاص: عدم الشرك، وأنه ليس بمعنى الإخلاص المتعارف اهـ. وفي «الروح»: الإخلاص[3]: أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل، فالعبادة لجلب المنفعة أو لدفع المضرة ليست من قبيل الإخلاص، فالإخلاص في العبودية تجريد السر عما سوى الله تعالى، وقال بعضهم: الإخلاص: أن لا يطلع على عملك إلا الله، ولا ترى نفسك فيه، وتعلم أن المنة لله عليك في ذلك حيث أهَّلك لعبادته ووفقك لها، ولا تطلب من الله أجراً وعوضاً.

وقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾؛ أي: مائلين من جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام، وهو في المعنى تأكيد للإخلاص؛ إذ هو الميل عن الاعتقاد الفاسد، وأكبره اعتقاد الشركة، وأصل الحَنَف: الميل وانقلاب ظهر القدم حتى يصير بطناً، فالأحنف هو الذي يمشي على ظهر قدميه في شقها الذي يلي خنصرها، ويجيء الحنف بمعنى الاستقامة، فمعنى حنفاء: مستقيمين، فعلى هذا إنما سمي مائل القدم أحنف على سبيل التفاؤل، كقولك للأعمى بصير، وللحبشي كافور، وللطاعون مبارك، وللمهلكة

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات. (٣) روح البيان.

مفازة، وقال ابن جبير: لا يسمى أحد حنيفاً حتى يحج ويختن؛ لأن الله وصف إبراهيم عليه السلام بكونه حنيفاً، وكان من شأنه أنه حج وختن نفسه.

وقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾؛ إما حال من فاعل ﴿يعبدوا﴾ على قول من جوَّز حالين من ذي حال واحد، أو من الضمير المستكن في ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ على قول من لا يجوِّز ذلك، فتكون حالاً متداخلة.

وقوله: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي العمدة في باب العبادة البدنية، معطوف على ﴿يعبدوا﴾، وكذا ما بعده، وإقامتها: أداؤها في أوقاتها بشرائطها وأركانها وهيئاتها ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ التي هي الأساس في العبادات المالية، وإيتاؤها: صرفها إلى مستحقها عند محلها، قال في «الإرشاد[1]»: إن أريد بهما ما في شريعتهم من الصلاة والزكاة، فالأمر ظاهر، وإن أريد ما في شريعتنا، فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أن أمرهم باتباع شريعتنا أمر لهم بجميع أحكامها التي هما من جملتها.

والمعنى: أي إنهم تفرقوا واختلفوا، وهم لم يؤمروا إلا بما يصلح دينهم ودنياهم، وما يجلب لهم سعادة في معاشهم ومعادهم من إخلاص لله في السر والعلن، وتخليص أعمالهم من الشرك به واتباع ملة إبراهيم الذي مال عن وثنية أهل زمانه إلى التوحيد وإخلاص العبادة له، كما قال: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾، وقال: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾، والمراد من إقامة الصلاة: الإتيان بها مع إحضار القلب لهيبة المعبود؛ ليعتاد الخضوع له، وبإيتاء الزكاة: إنفاقها فيما عيَّن لها في الكتاب الكريم من المصارف.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ المذكور من عبادة الله تعالى وإخلاصها وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾؛ أي: دين[2] الملة المستقيمة، قَدَّر الموصوف لئلا يلزم إضافة الشيء إلى صفته، وهي بمنزلة إضافة الشيء إلى نفسه، وصحة إضافة الدين إلى الملة باعتبار التغاير الاعتباري بينهما، فإن الشريعة المبلغة إلى الأمة بتبليغ الرسول إياها من قبل الله تسمى ملة باعتبار أنها تُكتب وتملى، وديناً باعتبار أنها تطاع، فإن الدين الطاعة يقال: دان له إذا أطاعه، وقال الكاشفي: أضاف الدين إلى القيِّمة وهي

---

(١) أبو السعود.
(٢) روح البيان.

نعته؛ لاختلاف اللفظين، والعرب تضيف الشيء إلى نعته كثيراً، ونجد ذلك في القرآن في مواضع منها قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾؛ لأن الدار هي الآخرة، وقال ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾؛ أي: المحرق كالأليم بمعنى المؤلم، وتقول: دخلت مسجد الجامع ومسجد الحرام، وأدخلك الله جنة الفردوس هذا وأمثاله، وقال بعضهم: إضافة الدين إلى القيمة من إضافة العام إلى الخاص، كشجر الأراك، ولا حاجة إلى تقدير الملة، فإن القيمة عبارة عن الملة، كما يشهد له قراءة أُبيّ ـ رضي الله عنه ـ ﴿وذلك الدين القيّم﴾ انتهى.

وأنث ﴿ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[1]؛ لأن الآيات هائية، فرد الدين إلى الملة، كما في «كشف الأسرار» والقيِّمة بمعنى المستقيمة التي لا عوج فيها، وقال الراغب: القيمة هنا اسم الأمة القائمة بالقسط المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾.

قال ابن الشيخ: بعض أهل الأديان بالغوا في باب الأعمال من غير إحكام الأصول، وهم اليهود والنصارى والمجوس، فإنهم ربما أتعبوا أنفسهم في الطاعات، ولكنهم ما حصَّلوا الدين الحق بتحصيل الاعتقاد المطابق، وبعضهم حصلوا الأصول، وأهملوا في الفروع وهم: المرجئة الذين يقولون: لا تضر المعصية مع الإيمان، فالله تعالى خَطَّأ الفريقين في هذه الآية، وبيَّن أنه لا بد من العلم والإخلاص في قوله: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾، ومن العمل في قوله: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ثم قال: وذلك المجموع كله هو دين الملة المستقيمة المعتدلة، فكما أن مجموع الأعضاء بدن واحد، كذلك هذا المجموع دين واحد، وقال محمد[2] بن الأشعب الطالقاني: ﴿ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ هنا: الكتب التي تجري ذكرها، كأنه لما تقدم لفظ قيِّمة نكرة كانت الألف واللام في ﴿ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ للعهد، كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ وقرأ عبد الله: ﴿وذلك الدين القيمة﴾.

فالهاء في هذه القراءة للمبالغة، أو أنَّث على أن عنى بالدين الملة، كقوله: ما هذه الصوت؟ يريد ما هذه الصيحة؟ والمعنى؛ أي[3]: هذا الذي ذُكر من إخلاص العبادة للخالق، والميل عن الشرك مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هو الدين الذي جاء في الكتب القيمة.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

وقصارى ما سلف: أن أهل الكتاب افترقوا في أصول الدين وفروعه، مع أنهم ما أمروا إلا بأن يعبدوا الله ويخلصوا له في عقائدهم وأعمالهم، وأن لا يقلدوا فيها أباً ولا رئيساً، وأن يردوا إلى ربهم وحده كل ما يعرض لهم من خلاف، وهذا ما نعاه الله من حال أهل الكتاب في افتراقهم في دينهم، فما بالنا نحن معشر المسلمين وقد ملأنا ديننا بدعاً ومحدثات، وتفرقنا فيه شيعاً، أفليس ما نحن فيه من ذل وهوان وضعف بين الأمم جزاء من ربنا لما صرنا إليه من انحراف عن منهج الشرع القويم، والسير على الصراط المستقيم.

ثم بيَّن سبحانه حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وهذا[1] شروع في بيان مقر الأشقياء وجزاء السعداء، وحكم على الكفار من الفريقين بأمرين:

أحدهما: الخلود في النار.

والثاني: كونهم شر البرية، وبدأ بأهل الكتاب؛ لأنهم كانوا يطعنون في نبوته ﷺ، فجنايتهم أعظم؛ لأنهم أنكروه مع العلم به، و﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ ظاهره العموم، وقيل: ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ الذين عاصروا الرسول ﷺ؛ إذ لا يبعد أن يكون في كفار الأمم الماضية من هو شر من هؤلاء كفرعون وعاقر ناقة صالح عليه السلام اهـ من «البحر»، وذكر المشركين؛ لئلا يتوهم اختصاص الحكم بأهل الكتاب حَسَب اختصاص مشاهدة شواهد النبوة في الكتاب بهم.

وقوله: ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: مشتركون[2] في نار جهنم؛ أي: في جنس العذاب لا في نوعه، وهذا جواب عن سؤال مقدر تقديره: أن كفر المشركين أشد من كفر أهل الكتاب؛ لأن المشركين ينكرون التوحيد والرسالة والكتاب والبعث وما يترتب عليها، وأهل الكتاب يؤمنون بأكثرها، كإقرارهم بالبعث، ومقتضى الحكمة أن يزاد في عذاب من زاد كفره على عذاب غيره، وقد سوى بينهم في هذه الآية بحسب الظاهر اهـ «شهاب»، و«زاده».

ومعنى كونهم فيها أنهم يصيرون إليها يوم القيامة، وإيراد[3] الجملة الاسمية

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات. (٣) روح البيان.

للإيذان بتحقق مضمونها لا محالة، أو أنهم فيها الآن إما على تنزيل ملابستهم بما يوجبها منزلة ملابستهم لها، وإما على أن ما هم فيه من الكفر والمعاصي عين النار إلا أنها ظهرت في هذه النشأة بصورة عرضية، وستخلعها في النشأة الآخرة وتظهر بصورتها الحقيقية.

وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَآ﴾ حال من المستكن في الخبر، واشتراك الفريقين في دخول دار العذاب بطريق الخلود؛ لأجل كفرهم لا ينافي تفاوت عذابهم في الكيفية، فإن جهنم دركات وعذابها ألوان، فالمشركون كانوا ينكرون الصانع والنبوة والقيامة، وأهل الكتاب نبوة محمد ﷺ فقط، فكان كفرهم أخف من كفر المشركين، لكنهم اشتركوا في أعظم الجنايات التي هي الكفر، فاستحقوا أعظم العقوبات وهو الخلود، ولما كفروا طلباً للرفعة صاروا إلى أسفل السافلين، فإن جهنم نار في موضع عميق مظلم هائر يقال: بئر جِهنَّام إذا كانت بعيدة القعر، واشتراكهم في هذا الجنس من العذاب لا يوجب اشتراكهم في نوعه كما مر آنفاً، ولم يقل هنا أبداً، كما قاله فيما بعد في ثواب أهل الجنة؛ لأن رحمته أزيد من غضبه فلم يتفق الخلودان في الأبدية اهـ. «فتوحات».

والمعنى(١): أي إن هؤلاء الذين دسوا أنفسهم بقبيح الشرك واجتراح المعاصي وإنكار الحق الواضح بعد أن عرفوه، كما يعرفون أبناءهم يجازيهم ربهم بالعقاب الذي لا يخلصون منه أبداً، فيدخلهم ناراً تلظَّى جزاء ما كسبت أيديهم، وجزاء إعراضهم عما دعا إليه الداعي، وهدت إليه الفطرة، والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المذكورون، إلى من تقدم ذكرهم من أهل الكتاب والمشركين المتصفين بالكون في نار جهنم والخلود فيها ﴿هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾؛ أي: شر الخليقة وأخسهم، والبرية جميع الخلق؛ لأن الله سبحانه برأهم؛ أي: أوجدهم بعد العدم، يقال: برأ؛ أي: خلق، والبارىء: الخالق، والبرية: الخليقة(٢)، وقرأ الأعرج وابن عامر ونافع وابن ذكوان: ﴿البرئة﴾ بالهمز في الموضعين، من برأ بمعنى خلق، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ بشد الياء فيهما، فاحتمل أن يكون أصله الهمز، ثم سُهل بالإبدال وأدغم، واحتمل أن يكون من البراء وهو التراب، قال الفراء(٣): إن أُخذت البرية من البراء؛

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) الشوكاني.

هو التراب.. لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ، وإن أخذتها من بريت القلم؛ أي: قَدَّرته، دخلت، وقيل: إن الهمز هو الأصل؛ لأنه يقال: برأ الله الخلق بالهمز؛ أي: ابتدعه واخترعه، ومنه قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ ولكنها خُففت الهمزة، والتزم تخفيفها عند عامة العرب.

والمعنى[1]: أولئك الأشقياء المذكورون شر الخليقة؛ أي: أعمالاً وهو الموافق لما سيأتي في حق المؤمنين، فيكون في حيز التعليل لخلودهم في النار، أو شرهم مقاماً ومصيراً، فيكون تأكيداً لفظاعة حالهم، وتوسيط ضمير الفصل؛ لإفادة الحصر؛ أي: هم شر البرية دون غيرهم كيف لا وهم شر من السراق؛ لأنهم سرقوا وأخفوا من كتاب الله نعوت محمد ﷺ وشر من قطّاع الطريق لأنهم قطعوا الدين الحق على الخلق، وشر من الجهال الأجلاف؛ لأن الكفر مع العلم يكون كفر عناد، فيكون أقبح من كفر الجهال، فقوله: ﴿شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أفعل تفضيل؛ لأنهم أشر من هؤلاء المذكورين، وظهر منه أن وعيد العلماء السوء أعظم من وعيد كل أحد، ومن تاب منهم وأسلم خرج من الوعيد، وقيل: لا يجوز أن يدخل في الآية ما مضى من الكفار؛ لأن فرعون كان شراً منهم كما مر آنفاً، وأما الآية الثانية الدالة على ثواب المؤمنين فعامة فيمن تقدم وتأخر؛ لأنهم أفضل الأمم، والمعنى: هم شر الخليقة على الإطلاق؛ إذ منكِر الحق بعد معرفته وقيام الدليل عليه، منكِر لعقله، جالب لنفسه الدمار والوبال، وبعد أن ذكر جزاء الجاحدين الكافرين.. أردفه جزاء المؤمنين المخبتين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسله وبما بعثوا به ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الأعمال الصالحة؛ أي: جمعوا بين الإيمان والعلم والعمل الصالح، ويُفهم من مقابلة الجمع بالجمع أنه لا يكلَّف الواحد بجميع الصالحات، بل لكل مكلف حظ، فحظ الغني الإعطاء، وحظ الفقير الأخذ والصبر والقناعة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بما هو في الغاية القاصية من الشرف والفضيلة من الإيمان والطاعة ﴿هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ استُدل بالآية على أن البشر أفضل من المَلَك؛ لظهور أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هو البشر، والبرية يشمل المَلَك والجن.

سئل الحسن رحمه الله تعالى عن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أهم خير من

---

(١) روح البيان.

الملائكة؟ قال: ويلك، وأنى تعادل الملائكة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقيل: هؤلاء خير البرية في عصره ﷺ، ولا يبعد أن يكون في مؤمن الأمم السابقة من هو خير منهم.

وقرأ الجمهور: ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ مقابل ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، وقرأ حميد وعامر بن عبد الواحد: ﴿خيار البرية﴾ جمع خَيِّر، كجيّد وجياد. ذكره في «البحر».

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾؛ أي: ثوابهم بمقابلة ما وقع لهم من الإيمان والعمل الصالح، وهو مبتدأ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: عند خالقهم ظرف للجزاء ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: دخول جنات عدن، وهو خبر للمبتدأ، والعدن الإقامة والدوام، وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ﴿عَدْنٍ﴾ بطنان الجنة؛ أي: وسطها، والمراد بـ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أوسط الجنات وأفضلها، يقال: عدن بالمكان يعدن عدناً إذا أقام، ومعدن الشيء مركزه ومستقره ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة: الماء واللبن والخمر والعسل، وفي «الإرشاد»: إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة الأغصان، كما هو الظاهر فجريان الأنهار من تحتها فظاهر وإن أريد بها مجموع الأرض وما عليها، فهو باعتبار الجزء الظاهر وأياً ما كان، فالمراد: جريانها بغير أخدود.

وجمع ﴿جَنَّٰتُ﴾[1] يدل على أن للمكلف جنات، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ فذكر للواحد أربع جنات، والسبب فيه أنه بكى من خوف الله تعالى، وذلك البكاء إنما نزل من أربعة أجفان.

وقيل: إنه تعالى قابل الجمع بالجمع في قوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ﴾ وهو يقتضي مقابلة الفرد بالفرد، فيكون لكل مكلف جنة واحدة، لكن أدنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر مرات كذا روي مرفوعاً، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ والألف واللام في الأنهار للتعريف، فتكون منصرفة إلى الأنهار الأربعة المذكورة في القرآن، وهي نهر الماء ونهر اللبن ونهر العسل ونهر الخمر، وفي

---

(١) روح البيان.

توصيفها بالجري بعدما جعل الجنات الموصوفة جزاء، إشارة إلى مدحهم بالمواظبة على الطاعة، كأنه تعالى يقول: طاعتك كانت جارية ما دمت حياً، على ما قال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ فلذلك كانت أنهار كرمي جارية إلى الأبد ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ متنعمين بفنون النعم الجسمانية والروحانية، لا يخرجون منها ولا يظعنون عنها، بل هم دائمون في نعيمها مستمرون في لذاتها، وهو حال، وذو الحال وعامله كلاهما مضمران يدل عليه جزاؤهم، والتقدير: يجزون بها خالدين فيها، وقوله: ﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان مستقر لما يستقبل من الزمان مؤكد للخلود؛ أي: لا يموتون فيها ولا يخرجون منها كما مر آنفاً، وقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ كلام مستأنف مبين لما يتفضل به عليهم زيادة على ما ذُكر من أجزية أعمالهم؛ أي: استئناف إخبار، كأنه قيل: تُزاد لهم، أو استئناف دعاء من ربهم، فلذا فُصل وقد يُجعل خبراً بعد خبر وحالاً بتقدير قد.

والمعنى: قبل أعمالهم وجازاهم عليها، قال ابن الشيخ: لما كان المكلف مخلوقاً من جسد وروح، وأنه اجتهد بهما في طاعة ربه.. اقتضت الحكمة أن يجزيه بما يتنعم ويستريح به كل واحد منهما، فجنة الجسد هي الجنة الموصوفة، وجنة الروح هي رضا الرب جل جلاله ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ حيث بلغوا من المطالب قاصيتها، وملكوا من المآرب ناصيتها، وأبيح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لا سيما أنهم أُعطوا لقاء الرب الذي هو المقصد الأقصى، والمعنى؛ أي: فرحوا بما أعطاهم من أنواع الكرامة.

وحاصل المعنى[1]: أي هؤلاء يجزيهم ربهم بجنات يقيمون فيها أبداً، وفيها من اللذائذ ما هو أكمل وأوفر من لذات الدنيا، وعلينا أن نؤمن بالجنة، ولا نبحث عن حقيقتها، ولا أين موضعها، فإن علم ذلك عند ربنا لا يعلمه إلا هو، فهو من علم الغيب الذي استأثر بعلمه، ثم ذكر أسباب هذا الجزاء، فقال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾؛ أي: إنهم حازوا رضا الله تعالى بالتزام حدود شريعته، فحمدوا مغبة أعمالهم، ونالوا ما يرضيهم في دنياهم وآخرتهم، قال الراغب: رضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمراً بأمره

---

(١) المراغي.

ومنتهياً عن نهيه اهـ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الجزاء والرضوان، وقال بعضهم[1]: الأظهر أنه إشارة إلى ما ترتب عليه الجزاء والرضوان من الإيمان والعمل الصالح.

وعبارة «السمين»: ذلك المذكور من الاستقرار في الجنة مع الخلود فيها ومن رضا الله عنهم كائن ﴿لِمَنْ خَشِيَ﴾ وخاف ﴿رَبَّهُۥ﴾ بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات؛ أي: ذلك المذكور كائن لمن وقعت منه الخشية لله سبحانه وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التي وقعت له لا مجرد الخشية مع الانهماك في معاصي الله سبحانه، فإنها ليست بخشية على الحقيقة.

والمعنى[2]: أي هذا الجزاء الحسن إنما يكون لمن ملأت قلبه الخشية والخوف من ربه، وفي ذلك تحذير من خشية غير الله، وتنفير من إشراك غيره به في جميع الأعمال، كما أن فيه ترغيباً في تذكر الله ورهبته لدى كل عمل من أعمال البر حتى يكون العمل له خالصاً، إلى أن فيه إيماء إلى أن أداء بعض العبادات كالصلاة والصوم بحركات وسكنات مجردين عن الخشية لا يكفي في نيل ما أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجزاء؛ لأن الخشية لم تحل قلوبهم ولم تهذب نفوسهم، وتلك الخشية التي هي من خصائص العلماء بشؤون الله تعالى مناط لجميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ والتعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية والتربية؛ للإشعار بعلة الخشية والتحذير من الاغترار بالتربية.

الإعراب

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾.

﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَكُنِ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَمْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الموصول، أو من الواو في

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

﴿كَفَرُوا﴾. ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾. ﴿مُنفَكِّينَ﴾: خبر ﴿يَكُنِ﴾ منصوب بالياء، وجملة ﴿يَكُنِ﴾ مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿حَتَّى﴾: حرف جر وغاية. ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾: فعل مضارع ومفعول به منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّى﴾ الجارة. ﴿الْبَيِّنَةُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وَأَنْ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّى﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى إتيان البينة إياهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿مُنفَكِّينَ﴾. ﴿رَسُولٌ﴾: بدل من ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ بدل كل من كل مبالغة، أو بدل اشتمال. ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾: صفة أولى لـ﴿رَسُولٌ﴾. ﴿يَتْلُوا﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿رَسُولٌ﴾. ﴿صُحُفًا﴾: مفعول به. ﴿مُّطَهَّرَةً﴾: صفة لـ﴿صُحُفًا﴾، وجملة ﴿يَتْلُوا﴾ صفة ثانية لـ﴿رَسُولٌ﴾، أو حال منه على حسب القاعدة النحوية.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم. ﴿كُتُبٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿قَيِّمَةٌ﴾: نعت للكتب؛ أي: مستقيمة ناطقة بالحق والعدل، والجملة الاسمية في محل النصب صفة ثانية لـ﴿صُحُفًا﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿تَفَرَّقَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أُوتُوا﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل. ﴿الْكِتَابَ﴾: مفعول ثان لـ﴿أُوتُوا﴾؛ لأنه بمعنى أعطوا، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿مِن بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَفَرَّقَ﴾. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿جَاءَتْهُمُ﴾: فعل ماض ومفعول به مقدم. ﴿الْبَيِّنَةُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، و﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، التقدير: وما تفرقوا إلا من بعد مجيء البينة إياهم. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أُمِرُوا﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَفَرَّقَ﴾ أعني: الموصول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لِيَعْبُدُوا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر زائد، أو بمعنى الباء، ﴿يعبدوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وعلامة نصبه حذف النون. ﴿اللَّهَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض إن قلنا: ﴿اللام﴾: زائدة، تقديره إلا عبادة الله؛ أي: إلا بعبادة الله، أو

مجرور باللام بمعنى الباء، وما أمروا إلا بعبادة الله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أُمِرُوٓاْ﴾. ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حال من الواو في ﴿يعبدوا﴾. ﴿له﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصِينَ﴾. ﴿ٱلدِّينَ﴾: مفعول به لـ﴿مُخْلِصِينَ﴾؛ لأنه اسم فاعل. ﴿حُنَفَآءَ﴾: حال ثانية من فاعل ﴿يعبدوا﴾، أو من الضمير المستكن في ﴿مُخْلِصِينَ﴾ فتكون حالاً متداخلة. ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿يعبدوا﴾. ﴿وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿وَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية. ﴿ذلك دين القيمة﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من المصدر المفهوم من ﴿يعبدوا﴾ و﴿يقيموا﴾ و﴿يؤتوا﴾، والتقدير: أي: وما أمروا إلا بعبادة الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة حال كون ما ذُكر دين الملة القيمة. أو معطوفة على جملة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول. ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾: جار ومجرور حال من الموصول. ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال الفريقين ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ثان، أو ضمير فصل. ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾: خبر ﴿هُمْ﴾، أو خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمْ﴾: ضمير فصل. ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾، أو حال من الضمير في ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾. ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، أو خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: صفة لـ﴿جَنَّٰتُ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

حال، صاحبها وعاملها محذوفان، والتقدير: جنات عدن دخلوها، أو أعطوها خالدين فيها، ولا يجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾؛ لئلا يلزم الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبي. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أيضاً. ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿رَّضِىَ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة للدعاء، أو خبر ثالث لـ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: معطوفة على جملة ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿خَشِىَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿رَبَّهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ﴿يَكُنِ﴾: أصله يكون، دخل عليه الجازم، فسكن آخره فصار لم يكون، فالتقى ساكنان فحذفت الواو، فصار يكن.

﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود والنصارى والمجوس ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عبدة الأوثان والأصنام من العرب وغيرهم ﴿مُنفَكِّينَ﴾ اسم فاعل من انفك من باب انفعل الخماسي، وانفكاك الشيء عن الشيء أن يزايله بعد التحامه به، كالعظم إذا انفك من مفصله، والمعنى: أنهم متعلقون بدينهم لا يتركونه ولا يرومون انفكاكاً عنه، قال الأزهري: وليس هو من باب ما انفك وما برح، وإنما هو من باب انفكاك الشيء عن الشيء؛ أي: انفصاله عنه.

﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة، وزن فيعلة، أدغمت ياء فيعلة في عين الكلمة.

﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة، وهي الأوراق والقراطيس التي يُكتب فيها. ﴿مُّطَهَّرَةً﴾؛ أي: مبرأة من الزور والضلال ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾؛ أي: أمور مكتوبة مستقيمة ناطقة بالحق والصواب التي لا عوج فيها، وأصل ﴿قَيِّمَةٌ﴾: قيومة بوزن فعيلة، اجتمعت الواو والياء وسُبقت إحداهما ساكنة، فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ والعبادة هي: التذلل، ومنه طريق معبد؛ أي: مذلل، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ؛ لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام وما أطاعوهم، ولكن في الشرع صارت اسماً لكل طاعة لله أديت له على وجه التذلل

والخضوع والنهاية في التعظيم والعبادة بهذا المعنى لا يستحقها إلا من كان واحداً في صفاته الذاتية والفعلية.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ والإخلاص: أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل، فالعبادة لجلب المنفعة، أو لدفع المضرة ليست من قبيل الإخلاص، وقال الكرخي: والإخلاص أن لا يطلع على عملك إلا الله، ولا تطلب منه ثواباً اهـ، وقال الشهاب: الإخلاص هنا عدم الشرك، وأنه ليس بمعنى الإخلاص المتعارف اهـ.

والدين: العبادة، وإخلاص الدين لله: تنقيته من أدران الشرك. ﴿حُنَفَآءَ﴾: واحدهم حنيف، كشرفاء جمع شريف، وهو في الأصل المائل المنحرف، والمراد به هنا المنحرف عن الزيغ إلى إسلام الوجه لله تعالى.

﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ صيغة التفضيل وأصله: أشرر بوزن أفعل، نقلت حركة الراء الأولى إلى الشين، ثم أُدغمت في الراء الثانية، ثم لما كثر استعمال هذه الكلمة على ألسنة العرب.. خففوها، فقالوا: شر فاستغنوا بها عن قولهم: أشر، وكذلك فعلوا في كلمة خير.

﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قرىء بالهمزة، فقالوا: ﴿البريئة﴾ وبدونها، فقالوا: ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ فقراءة الهمزة على أن لامه همزة من برأ، ووزنه فعيلة بمعنى مفعولة، ومن قرأ بياء مشددة بدون همزة يحتمل أن يكون تخفيفاً للغة الهمزة بإبدال الهمزة ياء وإدغام ياء فعيل فيها، ويحتمل أن يكون من البري وهو التراب؛ لأنهم خلقوا منه، فأدغمت ياء فعيل في ياء لام الكلمة ومعنى القراءتين شيء واحد، وهو جميع الخلق.

قال ابن خالويه: والعرب على ترك الهمز، قال العجير لنافع بن علقمة:

يَا نَافِعاً يَا أَكْرَمَ ٱلْبَرِيَّهْ ... وَٱللَّهِ لاَ أَكْذِبُكَ ٱلْعَشِيَّهْ
إِنَّا لَقِينَا سَنَةً قَسِيَّهْ ... ثُمَّ مُطِرْنَا مَطْرَةً رَوِيَّهْ
فَنَبَّتَ ٱلْبَقْلُ وَلاَ رَعِيَّهْ ... فَٱنْظُرْ بِنَا ٱلْقَرَابَةَ ٱلْعَلِيَّهْ
وَٱلْعُرْبُ مِمَّا وَلَدَتْ صَفِيَّهْ

فأمر له بألف شاة.

وقال الآخر:

أُمْــرُرْ عَــلَــىٰ جَــدَثِ ٱلْــحُــسَــيْــ ... ــنِ فَــقُــلْ لأَعْــظُــمِــهِ ٱلــزَّكِــيَّــهْ

قَــبْــرٌ تَــضَــمَّــنَ طَــيِّــبَــاً ... آبَــاؤُهُ خَــيْــرُ ٱلْــبَــرِيَّــهْ

آبَــاؤُهُ أَهْــلُ ٱلْــخِــلاَ ... فَــةِ وَٱلــرِّيَــاسَــةِ وَٱلْــعَــطِــيَّــهْ

وفي قوله: بالنصب نظر، فهلا قال: يا نافع بالضم مع التنوين؛ لأن المنادى المفرد إذا نُوِّن للضرورة تُرِك على ضمه، كقول الأحوص:

سَــلاَمُ ٱلــلَّــهِ يَــا مَــطَــرٌ عَــلَــيْــهَــا ... وَلَــيْــسَ عَــلَــيْــكَ يَــا مَــطَــرُ ٱلــسَّــلاَمُ

وقد اهتم النحاة بهذا البيت، فأطلقوا على التنوين فيه تنوين الضرورة، وليس بذاك، وارجع إن شئت إلى كتبهم، والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإجمال بقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ثم التفصيل بقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأن ذكر الشيء مجملاً، ثم ذكره مفصلاً أوقع في النفس.

ومنها: إيراد الصلة فعلاً في قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إشعاراً بأن كفرهم حادث بعد أنبيائهم.

ومنها: التعبير عن إتيان البينة بالمضارع في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ اعتباراً بحال المحكي لا الحكاية.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿رَسُولٌ﴾ للدلالة على التفخيم والتعظيم.

ومنها: وصفه بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تأكيداً لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية؛ أي: رسول؛ أي: رسول كائن من الله تعالى.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾؛ لأن نسبة التلاوة إلى الصحف بمعنى القراطيس مجاز؛ لأن الأوراق لا تتلى، بل المتلو المكتوب، ففيه إسناد ما للحال إلى المحل بعلاقة الحلول، والمراد أنه لما كان ما يتلوه الذي هو

القرآن مصدقاً لصحف الأولين مطابقاً لها في أصول الشرائع وبعض الأحكام.. صار متلوه كأنه صحف الأولين وكتبهم، فعبر عنه باسم الصحف مجازاً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ حيث شبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارة الشيء عن الأنجاس.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ حيث عطفهما على قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اهتماماً بشأن الخاص وإظهاراً لمزيته.

ومنها: إضافة الشيء إلى صفته في قوله: ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾؛ أي: دين الملة القيمة اعتباراً بالتغاير اللفظي بينهما؛ لأن الشريعة المبلغة إلى الأمة باعتبار أنها تملى وتُكتب تسمى ملة، وباعتبار أنها تطاع وتدان تسمى ديناً.

ومنها: ذكر المشركين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لئلا يتوهم اختصاص الحكم بأهل الكتاب باعتبار اختصاص مشاهدة شواهد النبوة في الكتاب بهم.

ومنها: إيراد الجملة الاسمية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ إلخ؛ للإيذان بتحقق مضمونها لا محالة، أو أنهم فيها الآن إما على تنزيل ملابستهم لما يوجبها منزلة ملابستهم بها، وإما على أن ما هم فيه من الكفر والمعاصي عين النار إلا أنها ظهرت عليهم الآن بصورة عرضية وتظهر عليهم في الآخرة بصورة حقيقية.

ومنها: المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ إلخ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ إلخ.

ومنها: الطباق بين ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ و﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

ومنها: توسيط ضمير الفصل في قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ لإفادة الحصر؛ أي: هم شر البرية دون غيرهم، ومثله قوله الآتي: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

ومنها: التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية والتربية؛ للإشعار بعلة الخشية، والتحذير من الاغترار بالتربية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على سبعة مقاصد:

١ ـ عدم انفكاك المشركين وأهل الكتاب عما هم عليه من الكفر والشرك حتى تأتيهم البينة.

٢ ـ تفرقهم عندما جاءتهم البينة.

٣ ـ أمرهم بعبادة الله والصلاة والزكاة مخلصين له الدين حنفاء له.

٤ ـ خلود فريق الفجار في نار جهنم.

٥ ـ دخول فريق الأبرار جنات عدن.

٦ ـ رضا الله سبحانه وتعالى عنهم ورضوانهم عنه.

٧ ـ كون ذلك من نتائج خشيتهم لربهم سبحانه[(١)].

والله سبحانه وتعالى أعلم

****

(١) تم تفسير سورة البينة بعون شارع الملة القيمة قبيل صلاة العصر من يوم الخميس الخامس عشر من شهر ذي الحجة من شهور سنة: ١٤١٦ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيات، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته وأهل بيته وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، آمين.

سورة الزلزلة

سورة الزلزلة مدنية، نزلت بعد سورة النساء في قول ابن عباس وقتادة، ومكية في قول: ابن مسعود وعطاء وجابر. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ بالمدينة، وآياتها: ثمان، وكلماتها[1] خمس وثلاثون كلمة، وحروفها: مئة وتسعة وأربعون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها[2]: أنه تعالى لما ذكر فيما قبلها جزاء المؤمنين والكافرين بيَّن في هذه السورة وقت ذلك الجزاء وعلامته، وعبارة أبي حيان: لما ذكر فيما قبلها كون جزاء الكفار النار، وجزاء المؤمنين جنات عدن، فكأن قائلاً قال: متى ذلك؟ فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾، وسميت سورة الزلزلة؛ لذكر الزلزلة فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الزلزلة محكمة كلها ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: وفضائلها كثيرة ورد بها أحاديث صحيحة:

فمنها: ما أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه والبيهقي في «الشُّعَب» عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى رجل رسولَ الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، قال له: «اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء» فقال له الرجل: كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني، قال: «فاقرأ ثلاثاً من ذوات حم» فقال مثل مقالته الأولى، فقال له: «اقرأ ثلاثاً من المسبحات» فقال مثل مقالته الأولى، فقال الرجل: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحق نبياً لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل أفلح الرويجل» ثم قال عليَّ به، فجاءه فقال له: أمرت بيوم الضحى

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

جعله الله عيداً لهذه الأمة، فقال الرجل: أريت إن لم أجد إلا منيحة أنثى فأضحي بها قال: «لا ولكنك تأخذ من شعرك، وتقلم أظافرك، وتقص شاربك، وتحلق عانتك، فذلك تمام أضحيتك عند الله عز وجل».

ومنها: ما أخرجه الترمذي وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ عدلت له بنصف القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ عدلت بثلث القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ عدلت له بربع القرآن» وقوله: «تعدل بنصف القرآن، وذلك؛ لأن أحكام القرآن تنقسم على قسمين: أحكام الدنيا وأحكام الآخرة، وهذه السورة تشتمل على أحكام الآخرة كلها إجمالاً».

ومنها: ما أخرجه الترمذي وابن الضريس ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وقل ياأيها الكافرون تعدل ربع القرآن» قال الترمذي غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة.

ومنها: ما أخرجه الترمذي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله ولا عندي ما أتزوج به قال: أليس معك قل هو الله أحد؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن، قال: أليس معك إذا جاء نصر الله والفتح؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك قل ياأيها الكافرون؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك إذا زلزلت الأرض؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن تزوج» قال الترمذي هذا حديث حسن.

ومنها: ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ ليلة إذا زلزلت الأرض كان له عدل نصف القرآن» وروي أن جد الفرزدق ابن صعصعة بن ناجية أتاه ﷺ ليستقرئَهُ، فقرأ عليه النبي ﷺ هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾، فقال: حسبي حسبي، وهي أحكم آية في القرآن، ويسمونها الجامعة الفاذة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

أسباب النزول

ذكر في سبب نزولها: أن الكفار كانوا كثيراً ما يسألون عن يوم الحساب، ومتى هو، فيقولون: أيان يوم القيامة؟ ويقولون: متى هذا الوعد وما أشبه ذلك، فذكر لهم الخالق عز وجل في هذه السورة علامات ذلك اليوم فقط؛ ليعلموا أنه لا سبيل إلى تعيين ذلك اليوم الذي يعرض الناس فيه على ربهم؛ ليجازي كلاً بعمله ويعاقب المذنبين ويثيب المحسنين، وأنه تعالى سيجازي على أصغر الأعمال، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ...﴾ الآية، كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، ويقولون: إنما أوعد الله النار على الكبائر، فأنزل الله سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي[2]: حركت تحريكاً عنيفاً شديداً متداركاً، فإن تكرر حروف لفظه ينبيء عن تكرر معنى الزلل، وجواب الشرط قوله الآتي: ﴿تُحَدِّثُ﴾،

---

(١) الباب المنقول.
(٢) روح البيان.

والمراد: تحركها عند قيام الساعة، فإنها تضطرب حتى يتكسر كل شيء عليها، قال مجاهد: وهي النفخة الأولى لقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝﴾ ﴿زِلْزَالَهَا﴾؛ أي: الزلزال المخصوص بها الذي يستحقه ويقتضيه جرمها وعظمها في حكمة الله سبحانه ومشيئته، وهو الزلزال الشديد الذي لا غاية وراءه، وهو معنى ﴿زِلْزَالَهَا﴾ بالإضافة العهدية، وذكر المصدر للتأكيد، فهو مصدر مضاف إلى فاعله.

يقال: زلزله زلزلة وزلزالاً مثلثة الزاي حركه حركة شديدة، كما في «القاموس»، وقال أهل التفسير الزلزال ـ بالكسر ـ مصدر، وبالفتح اسم بمعنى المصدر، وفعلال بالفتح لا يوجد إلا في المضاعف كالصلصال، وقال القرطبي: والزلزال ـ بالفتح ـ مصدر كالوسواس والقلقال والصلصال.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ بكسر الزاي، وقرأ الجحدري وعيسى بفتحها، وهما مصدران بمعنًى، وقال الزمخشري: المكسور مصدر والمفتوح اسم، وليس في الأبنية فعلال بالفتح إلا في المضاعف. انتهى.

أما قوله: والمفتوح اسم فجعله غيره مصدراً جاء على فعلال بالفتح، ثم قيل: قد يجيء بمعنى اسم الفاعل، فتقول: فضفاض بمعنى مفضفض، وصلصل بمعنى مصلصل، وأما قوله: فليس في الأبنية إلخ فقد وُجد فيها فعلال بالفتح من غير المضاعف، قالوا ناقة بها خزعال بفتح الخاء، وليس بمضاعف، والمعنى: إذا تحركت[2] الأرض حركة شديدة واضطربت، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝﴾ وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝﴾.

وفي ذلك إيماء إلى شدة الحال يومئذ، ولفتٌ لأنظار الكفار إلى أن يتدبروا الأمر ويعتبروا، وكان يقال لهم إذا كان الجماد يضطرب لهول ذلك اليوم، فهل لكم أن تستيقظوا من غفلتكم وترجعوا عن عنادكم.

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝﴾؛ أي: ما في جوفها[3] من الأموات والدفائن،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

والأثقال جمع ثِقْل، قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثِقْل لها، وإذا كان فوقها فهو ثِقْل عليها، قال مجاهد: ﴿أَثْقَالَهَا﴾ موتاها تخرجهم في النفخة الثانية، وقيل: للإنس والجن الثقلان، وإظهار ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

وعبارة «الروح» قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ اختيار الواو على الفاء، مع أن الإخراج مسبب عن الزلزال، للتفويض إلى ذهن السامع، وإظهار ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في موضع الإضمار؛ لأن إخراج الأثقال حال بعض أجزائها، والأثقال كنوز الأرض وموتاها، جمع ثِقْل بكسر فسكون، وأما ثَقَل محركة فمتاع المسافر، وحشمه، على ما في «القاموس»، والمعنى: وأخرجت الأرض ما في جوفها من دفائنها وكنوزها، كما عند زلزال النفخة الأولى الذي هو من أشراط الساعة، وكذا من أمواتها عند زلزال النفخة الثانية، وفي الخبر: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوانة من الذهب، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع رحمه، فيقول في هذا: قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطعت يدي، ثم يَدَعونه فلا يأخذون منه شيئاً» أخرجه مسلم في «صحيحه» قوله: أفلاذ كبدها أراد أنها تخرج الكنوز المدفونة فيها وقيئها إخراجها، ويدخل في الأثقال الثقلان، وفيه إشارة إلى أن الجن تُدفن أيضاً.

والمعنى: ولشدة الزلزال والاضطراب تشقق الأرض ويثور باطنها، فتقذف بما في جوفها من الأثقال من كنوز ودفائن وأموات وغير ذلك مما يكون في باطن الأرض وجوفها الملتهب، وهذا مثل ما يقع في بعض مناطق الأرض من زلازل وجبال من نار تنشق لها الأرض وتقذف بالحمم وبما فيها من نيران ومعادن ومياه ونحو ذلك، وقد تبتلع مدينة كبيرة كاملة بسكانها، وتأتي على الأخضر واليابس فتدمره، وتدمر من عليها من الناس، كما حدث ذلك في إيطاليا سنة: (١٩٠٩م) من ثوران جبال نار وابتلاعها مدينة مسينا، ولم تُبق منها دَيَّاراً ولا نافخ نار.

وعند قرب الساعة تكثر في جميع الأرض الزلازل والخسوف، وهي علامة من أشراط الساعة، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي[1]: وقال كل فرد من أفراد الناس لما يغشاهم من الأهوال ويلحق بهم من فرط الدهشة وكمال الحيرة. ﴿مَا لَهَا﴾؛ أي: أي شيء ـ للأرض زلزلت هذه المرة الشديدة من الزلزال وأخرجت ما فيها من الأثقال استعظاماً لما شاهده من الأمر الهائل، وتعجباً لما يرونه من العجائب التي لم تسمع بها الأذان ولا ينطق بها اللسان، لكن المؤمن يقول بعد الإفاقة: هذا ما وعد الرحمٰن وصدق المرسلون، والكافر: مَن بعثنا من مرقدنا.

وقوله: ﴿مَا لَهَا﴾ مبتدأ وخبر، وفيه معنى التعجب؛ أي: أي شيء ثبت لها؟ أو لأي شيء زلزلت، وأخرجت أثقالها؟ والمعنى[2]؛ أي: وقال من يكون من الناس مشاهداً لهذا الزلزال الذي يخالف أمثاله في شدته، ويحار العقل في معرفة أسبابه، ويصيبه الدهش مما يرى ويبصر ما لهذه الأرض وما الذي وقع لها مما لم يعهد له نظير من قبل، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿إِذَا﴾ وقوله: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ عامل فيهما، وهو جواب الشرط كما مر، وهذا على القول[3] بأن العامل في ﴿إِذَا﴾ الشرطية جوابها، و﴿أَخْبَارَهَا﴾ مفعول ثان لـ﴿تُحَدِّثُ﴾ والأول محذوف؛ لعدم تعلق الغرض بذكره؛ إذ الكلام مسوق لبيان تهويل اليوم، وأن الجمادات تنطق فيه، وأما ما ذكر ابن الحاجب من أن حدَّث وأنبأ ونبَّأ لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، فغير مسلم الصحة على ما فُصِّل في محله، والمعنى: يوم إذا زلزلت الأرض وأخرجت أثقالها تحدث الخلق وتخبرهم أخبارها إما بلسان الحال، حيث تدل دلالة ظاهرة على ما لأجله زلزالها، وإخراج أثقالها، وأن هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويخوفون منه، وإما بلسان المقال؛ وهو قول الجمهور حيث ينطقها الله تعالى، فتخبر بما عُمل على ظهرها من خير وشر حتى يود الكافر أنه سيق إلى النار بما يرى من الفضوح.

روي: أن عبد الرحمٰن بن صعصعة كان يتيماً في حجر أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ فقال أبو سعيد: يا بني إذا كنت في البوادي فارفع صوتك بالأذان،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يسمعه جن ولا إنس ولا حجر ولا شجر إلا شهد له».

وروي: أن أبا أمية صلى في المسجد الحرام المكتوبة ثم تقدم فجعل يصلى ههنا وههنا، فلما فرغ. قيل له: يا أبا أمية، ما هذا الذي تصنع؟ قال: قرأت هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ فأردت أن يشهد لي يوم القيامة، فطوبى لمن شهد له المكان بالذكر والتلاوة والصلاة ونحوها، وويل لمن شهد عليه بالزنا والشرب والسرقة والمساوىء. ويقال: إن لله عليك سبعة شهود: المكان؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾، والزمان؛ كما في الخبر: «ينادي كل يوم: أنا يوم جديد، وأنا على ما تعمل فيّ شهيد»، واللسان؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾، والأركان؛ كما قال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾، والملكان؛ كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠﴾، والديوان؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾، والرحمٰن؛ كما قال: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾، فكيف يكون حالك أيها العاصي إذا شهد عليك هؤلاء الشهود؟.

والمعنى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾؛ أي: في[1] ذلك الوقت، وقت الزلزلة تحدثك الأرض أحاديثها.

والمعنى: أي إن حالها وما يقع فيها من الاضطراب والانقلاب وما لم يعهد له نظير من الخراب تُعْلِم السائل وتفهمه أن ما يراه لم يكن بسبب من الأسباب التي وضعت لأمثاله مما نراه حين استقر نظام هذا الكون، ثم بين سبب ما يرى، فقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾؛ أي[2]: تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها وأمره إياها بالتحديث بلسان المقال على ما عليه الجمهور أو بسبب أن أحدث فيها أحوالاً دالة على الإخبار، كما إذا كان التحديث بلسان الحال، و﴿اللام﴾[3] في ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ بمعنى إلى، وإنما أوثرت اللام على إلى مع كون المشهور تعديتها بأل لموافقة الفواصل قال العجاج يصف الأرض:

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

أَوْحَىٰ لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ   وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ

فعداها باللام، والعرب تضع لام الصفة موضع إلى، كذا قال أبو عبيدة..

قال الفراء: تحدث أخبارها بوحي الله وإذنه لها. وقيل: إن ﴿أَوْحَىٰ﴾ يتعدى باللام تارةً وبإلى أخرى. وقيل: إن اللام على بابها مع كونها للعلة. والموحى إليه محذوف، وهو الملائكة، والتقدير: أوحى إلى الملائكة المتصرفين فيها لأجل الأرض؛ أي: لأجل ما يفعلون فيها، والأول أولى، وإذا كان الإيحاء إليها.. احتمل أن يكون وحي إلهام، واحتمل أن يكون برسول من الملائكة.

والمعنى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾؛ أي: إن ما يكون للأرض يومئذٍ إنما هو بأمر إلٰهي خاص، فيقول لها: كوني خراباً، كما قال لها حين بدأ النشأة الأولى: كوني أرضاً، وإنما سمي ذلك وحياً لأنه أتى على خلاف ما عُهد منذ نشأة الأرض. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يقع ما ذكر ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ﴾؛ أي[1]: يرجع الناس من قبورهم إلى موقف الحساب، والظرف إما بدل من ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ قبله، وإما منصوب بـ﴿يَصْدُرُ﴾، وإما باذكر مقدراً. والصَّدْر ـ بسكون الدال ـ: مصدر بمعنى الرجوع والانصراف بعد الورود والمجيء. قال الجمهور: الورود كونهم مدفونين، والصدر قيامهم من قبورهم، والاسم منه: الصَّدَرُ ـ بالتحريك ـ ومنه طواف الصَّدَرِ، وهو طواف الوداع. وقوله: ﴿أَشْتَاتًا﴾ حال من الناس، جمع شت ـ بالفتح ـ أي: متفرق؛ أي: متفرقين في النظام.

وعبارة الخطيب: يوم إذ زلزلت الأرض وأخرجت أثقالها يرجع الناس من قبورهم إلى ربهم الذي كان لهم بالمرصاد؛ ليفصل بينهم، حال كونهم متفرقين بحسب مراتبهم في الذوات والأحوال، من مؤمن وكافر، وآمن وخائف، ومطيع وعاص. وعن ابن عباس: متفرقين على قدر أعمالهم، أهل الإيمان على حدة، وأهل الكفر على حدة، أو متفرقين فآخذ ذات اليمين إلى الجنّة وآخذ ذات الشمال إلى النار، أو متفرقين بيض الوجوه والثياب آمنين، ينادي المنادي بين أيديهم: هؤلاء أولياء الله سبحانه، وسود الوجوه حفاة عراة مع السلاسل والأغلال فزعين،

---

(١) روح البيان.

ينادي المنادي بين أيديهم: هؤلاء أعداء الله تعالى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ يوماً، فقال: يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، وهو يقول: مالي أراك مغموماً - وهو أعلم به -؟ فقال ﷺ: يا جبريل، قد طال تفكري في أمر أمتي يوم القيامة، قال: يا محمد، في أمر أهل الكفر أم في أمر أهل الإسلام؟ قال: يا جبريل، لا بل في أمر أهل لا إله إلا الله، قال: فأخذ بيده حتى أقامه على مقبرة بني سلمة، فضرب بجناحه الأيمن علىٰ قبر ميت فقال: قم بإذن الله، فقام رجل مبيض الوجه وهو يقول: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، الحمد لله ربّ العالمين، فقال له جبريل: عد، فعاد كما كان، ثم ضرب بجناحه الأيسر على قبر ميت، فقال: قم بإذن الله، فخرج رجل مسود الوجه أزرق العين، وهو يقول: واحسرتاه، واندامتاه، واسوأتاه، فقال له جبريل: عد، فعاد كما كان، ثم قال جبريل: هكذا يبعثون يوم القيامة على ما ماتوا عليه» و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ متعلقة بـ﴿يَصۡدُرُ﴾ أي: يومئذٍ يصدر الناس من قبورهم إلى ربهم ﴿لِّيُرَوۡاْ﴾ جزاء ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ خيراً كان أو شراً والكلام على حذف مضاف، وإلا.. فنفس الأعمال لا يتعلق بها الرؤية البصرية؛ إذ الرؤية هنا بصرية لا علمية؛ لأن قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾ إلخ تفصيل ﴿لِّيُرَوۡاْ﴾، والرؤية فيه بصرية لتعديتها إلى مفعول واحد، اللهم إلاّ أن يُجعل لها صور نورانية أو ظلمانية، أو يتعلق الرؤية بكتبها كما سيجيء، فحينئذٍ لا حاجة إلى تقدير مضاف. أي: ليري الله سبحانه المحسن منهم والمسيء بواسطة من يشاء من جنوده أو بغير واسطة، حتى يكلم سبحانه وتعالى كل أحد من غير ترجمان ولا واسطة، كما أخبر ذلك رسوله ﷺ ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فيعلمون جزاءها أو صادرين عن الموقف كل إلى داره ليرى جزاء عمله.

وقرأ الجمهور: ﴿لِّيُرَوۡاْ﴾ بضم الياء مبنياً للمفعول، وهو من رؤية البصر؛ أي: ليريهم الله سبحانه أعمالهم. وقرأ الحسن والأعرج، وقتادة وحمّاد بن سلمة، ونصر بن عاصم، وطلحة بن مصرف، والزهري وأبو حيوة وعيسى، ونافع في رواية بفتحها على البناء للفاعل، والمعنى: ليروا جزاء أعمالهم.

وقصارى ذلك: يوم يقع الخراب العظيم لهذا العالم الأرضي، ويظهر ذلك الكون الجديد، كون الحياة الأخرى.. يصدر الناس متفرقين متمايزين، فلا يكون

محسن في طريق واحد مع مسيء، ولا مطيع مع عاص؛ ليريهم الله جزاء ما قدمت أيديهم، ويجنوا ثمر ما غرسته أيديهم. ثم فصل ذلك بقوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ...﴾ إلخ تفصيل للواو في قوله: ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ كما في «البيضاوي».

﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: وزن نملة صغيرة، وهي أصغر ما يكون من النمل. قال مقاتل: فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرة ﴿خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾؛ أي: يرى ذلك الخير يوم القيامة في كتابه فيفرح به، ﴿و﴾ كذلك ﴿من يعمل﴾ في الدنيا ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾؛ أي، يرى ذلك الشر يوم القيامة في كتابه فيسوءه. ومثل هذه الآية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ والمثقال[1] الوزن، والذرة النملة الصغيرة، وكل مئة منها زنة حبة شعير، وأربع ذرات وزن خردلة. اهـ قسطلاني. وقيل: الذرة جزء من ألف وأربعة وعشرين جزءاً من الشعيرة. اهـ عيني. وفي الخطيب: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا وضعت يدك ـ أي: راحتك ـ على الأرض ثم رفعتها.. فكل واحدة مما لزق من التراب ذرة. وقيل: الذرة ما يرى في شعاع الشمس الداخل من الكوة من الهباء الطائرة. وقال يحيى بن عمار: حبة الشعير أربع أرزات، والأرزة أربع سمسمات، والسمسمة أربع خردلات، والخردلة أربع أوراق نخالة، وورق النخالة ذرة. والأول أولى وفي بعض الأحاديث: أن الذرة لا زنة لها، وهذا مثل ضربه الله سبحانه ليبين أنه لا يغفل عن عمل ابن آدم، صغيراً ولا كبيراً، وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ اهـ خطيب. ومعنى رؤية إما يعادل الذرة من خير أو شر، وإما مشاهدة أجزيته، ﴿فَمَن﴾ الأولى مختصة بالسعداء، والمخصوص قوله: ﴿أَشۡتَاتٗا﴾ أي: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾ من السعداء ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ ومن الثانية بالأشقياء، بقرينه ﴿أَشۡتَاتٗا﴾ أيضاً؛ أي: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ﴾ من الأشقياء ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ وذلك لأن حسنات الكافر محبطة بالكفر وسيئات المؤمن المجتنب عن الكبائر معفوة. وما قيل من أن حسنة الكافر تؤثر في نقص العقاب وقد ورد أن حاتماً الطائي يخفف الله عنه لكرمه وورد مثله في أبي طالب وغيره.. يرده قوله: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ وقوله ﷺ في حق عبد الله بن جدعان: «لا ينفعه» لأنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم

---

(١) روح البيان.

الدين وذلك حين قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ وقوله ﷺ في حق أبي طالب: «ولولا أنا.. كان في الدرك الأسفل من النار» فتلك الشفاعة مختصة به وأما حسنات الكفار: فمقبولة بعد إسلامهم، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه أما المؤمن: فيغفر له سيئاته ويثيبه بحسناته وأما الكافر: فيرد حسناته تحسيراً له). وفي «تفسير البقاعي» الكافر يوقف على ما عمله من خير على أنه جوزي به في الدنيا، أو أنه أحبط لبنائه على غير أساس الإيمان، فهو صورة بلا معنى، ليشتد ندمه ويَقْوَى حزنه وأسفه، والمؤمن يراه ليشتد سروره به، وفي جانب الشر يراه المؤمن ويعلم أنه قد غفر له فيكمل فرحه، والكافر يراه فيشتد حزنه وترحه. وقال محمد بن كعب[1]: (فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله تعالى خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماله ونفسه وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس عليه عند الله شر). والتفسير الأول أولى. قال مقاتل: (نزلت في رجلين، كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يؤتيه التمر والكسرة، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ويقول: إنما أوعد الله النار على الكافرين).

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَـرَهُۥ﴾ في الموضعين بفتح الياء فيهما مبنياً للفاعل؛ أي: يرى جزاءه من ثواب وعقاب، وقرأ ابن عباس وابن عمر، والحسن والحسين ابنا علي، وزيد بن علي وأبو حيوة، وعبد الله بن مسلم والكلبي، وخُليد بن نشيط وأبان عن عاصم، والكسائي في رواية حميد بن الربيع عنه، والجحدري والسلمي وعيسى: ﴿يُره﴾ بضم الياء فيهما على البناء للمفعول، أي: يريه الله إياه. وقرأ عكرمة ﴿يُرَاهُ﴾ على توهم أن ﴿مَن﴾ موصولة، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدرة في آخر الفعل، على لغة حكاها الأخفش. وقرأ الجمهور[3]: ﴿يَـرَهُۥ﴾ في الموضعين بضم الهاء وصلاً وسكونها وقفاً وقرأ هشام بسكونها وصلا ووقفا ونقل أبو حيان عن هشام وأبي بكر سكونها فيهما، وعن أبي عمرو ضمها فيهما، مشبعة

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط. (٣) الشوكاني.

موصولة بواو، وباقي السبعة بإشباع الأولى وسكون الثانية، وفي هذا النقل نظر، والصواب ما ذكرنا. والإسكان في الوصل لغة حكاها الأخفش ولم يحكها سيبويه، وحكاها الكسائي أيضاً عن بني كلاب وبني عقيل. وعبارة أبي حيان: وقرأ عكرمة[1]: ﴿يراه﴾ بالألف في الموضعين، وذلك على لغة من يرى الجزم بحذف الحركة المقدرة في حروف العلة، حكاه الأخفش، أو على توهم أن ﴿مَن﴾ موصولة لا شرطية، كما قيل في ﴿إنه من يتقي ويصبر﴾ في قراءة من أثبت ياء يتقي وجزم يصبر، توهم أن ﴿مَن﴾ شرطية لا موصولة، وجزم ﴿ويصبر﴾ عطفاً على التوهم.

والرؤية هنا رؤية بصر كما مر وقال النقاش: ليست برؤية بصر، وإنما المعنى: يصيبه ويناله، انتهت.

وحاصل المعنى[2]: أي فمن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره. فإنه يجد جزاءه، ومن يعمل الشر ولو قليلاً.. يجد جزاءه، ولا فرق بين المؤمن والكافر، وحسنات الكافرين لا تخلصهم من عذاب الكفر، فهم به خالدون في الشقاء وما نطق من الآيات بحبوط عمل الكافرين وأنها لا تنفعهم.. فالمراد به أنها لا تنجيهم من عذاب الكفر وإن خففت عنهم بعض العذاب الذي كان يرتقبهم من السيئات الأخرى أما عذاب الكفر فلا يخفف عنهم منه شيء، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ صريح في أن المؤمن والكافر في ذلك سواء، وأن كلاً يوفَّى يوم القيامة جزاءه، وقد ورد: أن حاتماً يخفف عنه لكرمه، وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبي ﷺ، هذا تلخيص ما قاله الأستاذ الإمام في تفسير الآية.

وقيل في معنى ﴿يَرَهُۥ﴾؛ أي: يرى جزاء عمله ولا يرى العمل نفسه، لأن ما عمله قد مضىٰ وعُدِم فلا يرى، وأنشدوا:

إِنَّ مَنْ يَعْتَدِي وَيَكْسِبُ إِثْمَاً ... وَزْنَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ سَيَرَاهُ
وَيُجَازَى بِفِعْلِهِ ٱلشَّرَّ شَرَّاً ... وَبِفِعْلِ ٱلْجَمِيلِ أَيْضَاً جَزَاهُ

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

هَـكَـذَا قَـوْلُـهُ تَـبَـارَكَ رَبِّـيْ فِـيْ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ وَجَـلَّ ثَـنَـاه

قال الإمام الرازي في «تفسيره»: لقائل أن يقول: إذا كان الأمر إلى هذا الحد ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ فأين الكرم؟.

والجواب: هذا هو الكرم؛ لأن المعصية وإن قلت ففيها استخفاف والكريم لا يحتمله، وفي الطاعة تعظيم وإن قل فالكريم لا يضيعه، وكأنَّ الله سبحانه يقول: لا تحسب مثقال ذرة من الخير صغيراً؛ فإنك مع لؤمك وضعفك لم تضيع مني الذرة، بل اعتبرتها ونظرت فيها واستدللت بها على ذاتي وصفاتي، واتخذتها مركباً به وصلت إِليَّ، إذا لم تضيع أنت ذرتي.. أفأضيع أنا ذَرَّتك؟ ثم التحقيق: أن المقصود هو النية والقصد فإذا كان العمل قليلاً لكن النية خالصة.. فقد حصل المطلوب وإن كان العمل كثيراً والنية دائرة.. فالمقصود فائت، ومن ذلك ما روى عن كعب: لا تحقروا شيئاً من المعروف؛ فإن رجلاً دخل الجنة بإعارة إبرة في سبيل الله، وإن امرأة أعانت بحبة في بناء بيت المقدس فدخلت الجنة. وعن عائشة رضي الله عنها: كان بين يديها عنب فقدمته إلى نسوة بحضرتها، فجاء سائل، فأمرت له بحبة من ذلك العنب، فضحك بعض من عندها فقالت: إن فيما ترون مثاقيل الذر، وتلت هذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ ولعلها كان غرضها التعليم، وإلا.. فهي كانت في غاية السخاوة. روي: أن ابن الزبير بعث إليها بمئة ألف درهم في غرارتين، فدعت بطبق وجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية، هَلُمِّي فطوري، فجاءت بخبز وزيت، فقيل لها: أما أمسَكْتِ لنا درهماً نشتري به لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لو ذَكَّرْتِني لفعلت ذلك. وفي الحديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» متفق عليه.

الإعراب

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾.

﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط، متعلق بـ﴿تُحَدِّثُ﴾ الآتي؛ لأنه جوابها ﴿زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل

﴿زِلْزَالَهَا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، وهو مصدر مضاف إلى فاعله، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها، وقيل: ﴿إِذَا﴾ لمجرد الظرفية والعامل فيها محذوف، تقديره: يحشرون، وقيل: اذكر، فهي مفعول به، ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿زُلْزِلَتِ﴾ ﴿أَثْقَالَهَا﴾: مفعول به ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿زُلْزِلَتِ﴾ ﴿ما﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجبي، في محل الرفع مبتدأ، ﴿لها﴾ خبر لها، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف مضاف لمثله، في محل النصب على الظرفية على أنه بدل من ﴿إِذَا﴾ والعامل فيه هو العامل في المبدل منه ﴿يوم﴾: مضاف. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل الجر مضاف إليه، مبني بسكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين، والتنوين عوض عن المضاف إليه، تقديره: إذ تزلزل الأرض زلزالها، وتخرج الأرض أثقالها، ويقول الإنسان مالها.. تحدث الأرض أخبارها بسبب إيحاء ربك إليها، فحذفت هذه الجمل الثلاث وناب منابها التنوين، فاجتمع ساكنان وهما الذال والتنوين، فكسرت الذال لالتقاء الساكنين، وليست هذه الكسرة في الذال بكسرة إعراب، وإن كانت ﴿إذ﴾ في موضع جر بإضافة ما قبلها إليها، وإنما الكسرة فيها لالتقاء الساكنين، ويسمى هذا التنوين: تنوين العوض ﴿تُحَدِّثُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ ﴿أَخْبَارَهَا﴾: مفعول به ثان، والأول محذوف تقديره: أي الخلق. والجملة الفعلية جواب ﴿إذ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذ﴾ مع جوابها مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

﴿بِأَنَّ﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب ﴿أنّ﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿رَبَّكَ﴾ اسمها ﴿أَوْحَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿رَبَّكَ﴾. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَوْحَىٰ﴾ و﴿اللام﴾ بمعنى إلى، أو على بابها كما مر، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ تقديره: بأن ربك موحٍ إليها، وجملة ﴿أنّ﴾ مع معموليها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب إيحاء ربك إليها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُحَدِّثُ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف إلى مثله، بدل من ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ قبله، أو متعلق

بـ﴿يَصْدُرُ﴾، أو هو مفعول به لـ اذكر، مقدراً ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾: فعل مضارع وفاعل، ﴿أَشْتَاتًا﴾: حال من ﴿ٱلنَّاسُ﴾. والجملة الفعلية جواب ﴿إذ﴾، أو مستأنفة ﴿لِّيُرَوْاْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل ﴿يروا﴾: فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بأن مضمرة بعد (لام) كي وعلامة نصبه: حذف النون، والواو نائب فاعل، وهو المفعول الأول ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾: مفعول ثان له، والرؤية بصرية ولذلك عديت إلى مفعولين؛ لأن أرى إذا كانت علمية تتعدى إلى ثلاث والجملة الفعلية صلة (أن) المضمرة، و(أن) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإراءة الله سبحانه إياهم جزاء أعمالهم، والجار والمجرور متعلق بـ﴿يَصْدُرُ﴾. ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره إذا عرفت أنهم يصدرون إلى ربهم وأردت تفاصيل أحوالهم.. فأقول لك ﴿من يعمل﴾، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿يَعْمَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَن﴾، تقديره: هو، ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿خَيْرًا﴾: تمييز ذات ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ منصوب به، ﴿يَرَهُۥ﴾: ير فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، وفاعله ضمير مستتر فيه تقديره: هو، يعود على ﴿مَن﴾ و﴿الهاء﴾ في محل النصب مفعول به؛ لأن رأى هنا بصرية كما مر، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، وجملة قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها، مماثلة لها في إعرابها حرفاً بحرف فلا حاجة إلى إعرابها.

التصريف مفردات اللغة

﴿زِلْزَالَهَا﴾ الزلزلة: الحركة الشديدة مع اضطراب، قال الزمخشري: وقرىء بكسر الزاي وفتحها، فالمكسور مصدر، والمفتوح اسم مصدر، وليس في الأبنية فعلال ـ بالفتح ـ إلا في المضاعف. اهـ.

وهذا بالنظر إلى الغالب، وإلا فقد ورد: ناقة خزعال، قال في «القاموس»: وخزعل الضبع عرج وخمع، وخزعل الماشي نفض رجليه، وناقة بها خزعال ظلع،

وليس فعلال من غير المضاعف سواه، وقسطال وخرطال، وفيه أيضاً: وزلزلهُ زلزلةً وزلزالاً مثلثة: حركه.

والزلازل البلايا، وقال ابن عرفة الزلزلة والتلتلة واحد، والزلازل والتلاتل كذلك، وأنشد للراعي:

فَـأَبُـوْكَ سَـيِّـدُهَـا وَأَنْـتَ أَشَـدُّهَـا زَمَـنَ ٱلـزَّلَازِلِ فِـيْ ٱلـتَّـلَاتِـلِ جُـوْلاً

﴿أَثۡقَالَهَا﴾: جمع ثِقْل - بكسر فسكون - كحمل وأحمال كما في «المختار» وعبارة الزمخشري: وجعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها. والثقل في الأصل متاع البيت، كما قال تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ والمراد به هنا: ما في جوف الأرض من الدفائن، كالموتى والكنوز.

﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: الإنسان فيه قولان، أحدهما: أنه اسم جنس يعم المؤمن والكافر، أي: يقول الجميع ذلك لما يبهرهم من الأمر الفظيع كما يقولون ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، والثاني: أنه الكافر خاصة؛ لأنه كان لا يؤمن بالبعث، فأما المؤمن فيقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾ يقال: أوحى له وأوحى إليه، ووحىٰ له ووحى إليه، إذا كَلَّمه خفية أو ألهمه كما جاء في قوله: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ والوحي الإعلام خفية أو الإلهام ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يرجع، فالوارد هو الآتي للماء ليشرب أو يستقي، والصادر هو الراجع عنه ﴿أَشۡتَاتٗا﴾جمع شَتٍّ، يقال: أمر شت وشتات؛ أي: متشتت ومتفرق، وهو وصفٌ بالمصدر، ويقال: جاؤوا أشتاتاً، وجاؤوا شتات شتات؛ أي متفرقين وقال عدي بن زيد:

قَـدْ هَـرَاقَ ٱلـمَـاءَ فِـي أَجْـوَافِـهَـا وَتَـطَـايَـرْنَ بِـأَشْـتَـاتٍ شَـقَـقْ

﴿لِّيُرَوۡاْ﴾ أصله لِيُرْأَيُوا، بوزن يُفعَلوا، نقلت حركة الهمزة إلى الراء ثم حذفت، وقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقاء الساكنين ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: وزنها، وهو مَثَلٌ في الصغر، والذرة النملة الصغيرة أو هي الهَباء الذي يُرى في ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة ﴿يَرَهُۥ﴾: أصله يَرْأَيُهُ بوزن يفعل، نقلت حركة الهمزة إلى الراء ثم حذفت للتخفيف، وقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لَمَّا جُزِم الفعل.

نادرة: قال أبو عبد الله: حدَّثني أبو العيناء عن الأصمعي، قال: قرأ أعرابي: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة شراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ فقدم وأخر فقلت له: قدمت وأخرت فقال:

خُـذَا جَـنْـبَ هَـرْشَـى أَوْ قَـفَـاهَـا فَـإِنَّـهُ   كِـلاَ جَـانِـبَـيْ هَـرْشَـى لَـهُـنَّ طَـرِيْـقُ

وروى هذه النادرة الزمخشري في «كشافه» أيضاً، وأضاف: وهرشى كسكرى، ثنية في طريق (مكة) عند الجحفة؛ أي: اسلكا أمام تلك الثنية أو خلفها، فإنه ـ أي الحال والشأن ـ كلٌّ من جانبيها طريق للإبل التي تطلبانها، وتكرير لفظ هرشى لتقريرها في ذهن السامع خوف غفلته عنها، والمقام كان مقام هداية فحسن فيه ذلك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾.

ومنها: الإضافة للتهويل والتفظيع.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ لأن المخرج حقيقة هو الله سبحانه، نظير قولهم: أنبت الربيع البقل.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ لزيادة التقرير والتوكيد، ولتفخيم هول الساعة.

ومنها: إيثار الواو على الفاء في قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ مع أن الإخراج متسبب عن الزلزال؛ للتفويض إلى ذهن السامع.

ومنها: الاستفهام للتعجيب والاستغراب في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾.

ومنها: إيثار (اللام) على (إلى) في قوله: ﴿بأن ربك أوحي لها﴾؛ لمراعاة الفواصل، ولأن ما يتعدى بـ(إلى) يجوز أن يتعدى بـ(اللام)، ولا عكس.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ وبين قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على مقصدين:

١ ـ اضطراب الأرض يوم القيامة ودهشة الناس حينئذ.

٢ ـ ذهاب الناس لموقف العرض والحساب ثم مجازاتهم على أعمالهم[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تمّ تفسير سورة الزلزلة قبيل الغروب من يوم السبت السابع عشر من شهر ذي الحجة المبارك، من شهور سنة: ١٤١٦ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

سورة العاديات

سورة العاديات مكية، نزلت بعد سورة العصر في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء، ومدنيَّة في قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة العاديات بـ(مكة).

وآياتها: إحدى عشرة آية، وكلماتها: إحدى عشرة آية، وكلماتها: أربعون كلمة، وحروفها: مئة وستة وستون حرفاً.

المناسبة: مناسبة هذه السورة لما قبلها[1]: أن الله سبحانه لما ذكر في السابقة الجزاء على الخير والشر.. أتبعه بتعنيف الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ولا يستعدون لحياتهم الثانية بتعويد أنفسهم فعل الخير، وقد نزلت سورة العاديات بعد سورة العصر ووضعت بعد سورة الزلزلة لبيان أن من ألهاه الفاني العاجل عن الباقي الآجل خاسر هالك يوم الزلزلة. وسميت بالعاديات: لذِكر لفظها فيها، وقال محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة العاديات كلها محكم لا ناسخ ولا منسوخ.

ومن فضائلها[2]: ما أخرجه أبو عبيد في «فضائله» عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ تعدل نصف القرآن، ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ تعدل نصف القرآن» وهو مرسل. وأخرج محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبي رياح عن ابن عباس مرفوعاً مِثله، وزاد: و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ تعدل ربع القرآن».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) المراغي.　　(٢) الشوكاني.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

أسباب النزول

سبب نزول سورة العاديات: ما قاله الكلبي: أن النبي ﷺ بعث سرية إلى أناس من كنانة، فمكث ما شاء الله أن يمكث لا يأتيه منهم خبر، فتخوف عليها، فنزل جبريل عليه السلام بخبر مسيرها، وكأنه سبحانه وتعالى أقسم بخيل تلك السرية المجاهدة في سبيل الله. وذكر أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري في كتابه «أسباب النزول» سبب نزول هذه السورة، فقال: قال مقاتل: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حيٍّ من كنانة، واستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري[1] وكان أحد النقباء، فتأخر خبرهم، فقال المنافقون: قتلوا جميعاً، فأخبر الله تعالى عنها وعن سلامتها وبشرهم بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم العاديات ضبحا؛ يعني تلك الخيل. ثم ذكر الواحدي رواية عن عكرمة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث خيلاً فأسهبت شهراً لم يأته منها خبر، فنزلت: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ ضبحته بمناخرها إلى آخر السورة ومعنى أسهبت أمضت في السهوب، وهي الأرض الواسعة جمع سهب صفحة: (٢٥٨) أسباب النزول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ أي أقسم بالخيول العاديات التي تعدو وتجري بسرعة وتضبح ﴿ضَبْحًا﴾؛ أي: تصوت بأنفاسهن صوتاً شديداً لشدة جريهنَّ وعَدْوهن. والعاديات جمع عادية؛ وهي الجارية بسرعة، من العدو وهو المشي بسرعة، وياؤها مقلوبة عن

(١) أسباب النزول للواحدي.

الواو لكسر ما قبلها، كالغازيات من الغزوة. وقوله: ﴿ضَبْحًا﴾ مصدر منصوب إما بفعله المحذوف الواقع حالاً منها؛ أي: أقسم بالعاديات حالة كونها تضبح ضبحا؛ أي: تَنَفَّسُ نفساً شديداً لشدة جريها. والضبح: صوت يسمع من أفواه الفرس وأجوافها إذا عدون، وهو صوت غير الصهيل والحمحمة، والصهيل: صوت الفرس عند طلب الأكل، والحمحمة: صوت البرذون عند أكل الشعير. أو منصوب بالعاديات، فإن العدو مستلزم للضبح، كأنه قيل: والضابحات ضبحا، أو منصوب على الحال على أنه مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ أي حالة كونها ضابحات؛ أي: رافعاتٍ أنفاسهن لشدة العدو. وقيل: الضبح صوت حوافرها إذا عدت. وقيل: الضبح نوع من السير من العدو، ويقال: ضبح الفرس إذا عدا بشدة فيكون مصدراً معنوياً مؤكداً للعاديات ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾؛ أي: فأُقسم بالخيول اللاتي توري وتوقد ﴿قَدْحًا﴾؛ أي: ناراً؛ أي: تخرج النار بحوافرها من الحجارة التي في طريقها لشدة جريها، ويتطاير منها الشرر أثناء جريها. فالإيراء إخراج النار، والقدح الضرب، فجعل ضرب الخيل بحوافرها الحجارة بعضها ببعض حتى يخرج منها الشرر كالقدح بالزناد. قال الزجاج: إذا عدت الخيل بالليل وأصاب حوافرها الحجارة.. انقدح منها النيران. والكلام في انتصاب ﴿قَدْحًا﴾ كالكلام في انتصاب ﴿ضَبْحًا﴾ في الأوجه الثلاثة؛ أي: تقدح قدحا، فالقادحات قدحاً أو قادحات وعبارة الروح: الإيراء إخراج النار، والقدح الضرب، فإن الخيل يضربن بحوافرهن الحجارة فيخرجن منها ناراً، يقال: قدح الزند فأورى، وقدح فأصلد؛ أي صوَّت ولم يور، فالقدح يتقدم على الإيراء بخلاف الضبح حيث يتأخر ويتسبب عن العدو.

والمعنى: فبالخيول التي تورى النار بحوافرها إذا مشت في الأرض ذات الحجارة ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾؛ أي: فبالخيول التي تعدو وتغير على العدو لتأخذه بغتة ﴿صُبْحًا﴾؛ أي: في وقت الصباح، يقال: أغار على القوم غارة وإغارة دفع عليهم الخيل، وأغار الفرس اشتد عدوه في الغارة وغيرها، أسند الإغارة ـ التي هي مباغتة العدو للنهب والقتل والأسر ـ إلى الخيل، وهي حال أهلها، إيذاناً بأنها العمدة في إغارتهم وقوله: ﴿صُبْحًا﴾ نُصب على الظرفية؛ أي: في وقت الصبح، وخصه بالذكر لأنه المعتاد في الغارات؛ لأنهم يعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو ويهجمون عليهم صباحاً على حين غفلة ليروا ما يأتون وما يذرون، ومنه قولهم عند خوف الغارة: يا

صباحاه؛ أي: يا قوم احذروا من شر توجه إلينا صباحاً.

وقوله: ﴿فَأَثَرْنَ﴾؛ أي: هيجن ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: في وقت الصباح ﴿نَقْعًا﴾؛ أي: غباراً معطوف على الفعل الذي دل عليه اسم الفاعل، إذ المعنى: والخيول اللاتي عدون فأورين فأغرن ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾؛ أي: فهيجن في ذلك الوقت وأصله أَثْوَرْن، من الثور وهو الهيجان، كما سيأتي بسطه في مبحث التصريف، والنقع: الغبار المرتفع، من نقع الصوت إذا ارتفع، سمي الغبار نقعاً لارتفاعه، أو من النقع في الماء، فكأن صاحب الغبار خاض فيه كما يخوض الرجل في الماء. وتخصيص إثارة النقع بالصبح لأنه لا يثور ولا يظهر ثورانه بالليل، وبهذا يظهر أن الإيراء الذي لا يظهر في النهار واقع في الليل، ولله در شأن التنزيل. قال سعدي المفتي: وإثارة النقع لأنهم يكونون حال الإغارة مختلفين يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً، بحَسَب الكر والفر في المجاولة إثر المدبر الهارب، والمصاولة مع المقبل المحارب، فينشأ الغبار الكثير. ويجوز أن يجعل الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ لفعل الإغارة فـ﴿الباء﴾ للسببية أو للملابسة؛ أي: فأثرن بسبب الإغارة، أو حال كونها متلبسات بالإغارة.

والمعنى: فهيجن في وقت الصبح غباراً لشدة عدوهن، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ من الأعداء؛ أي: تواسطن جمعاً من جموع الأعداء ففرقنه وشتتن شمله؛ أي: دخلن في وسطهم في وقت الصباح فوسطن بمعنىٰ توسطن و﴿الباء﴾ في ﴿به﴾ للظرفية، والضمير عائد إلى صبحاً، أو للملابسة، والضمير للنقع؛ أي: توسطن ـ حال كونهن متلبسات بالنقع والغبار ـ جمعاً من الأعداء؛ أي: دخلن بينهم للقتل والأسر والنهب، وقوله: ﴿جَمْعًا﴾ مفعول به، والفاءات[1] في المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل منها على ما قبلها، فإن توسط الجمع مترتب على الإثارة المترتبة على الإغارة المترتبة على الإيراء المترتب على العدو، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ جواب القسم؛ أي: أقسمت بتلك الخيول الموصوفات بالصفات المذكورة على أن جنس الإنسان لشديد الكفران لنعم ربه، حيث خلقه وأنعمه بنعمة الإيجاد والتربية، فجعل له شريكاً. وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَأَثَرْنَ﴾ ﴿فَوَسَطْنَ﴾ بتخفيف الثاء والسين، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة بشدهما، وقرأ علي

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وزيد بن علي وقتادة وابن أبي ليلى بشد السين، وقال الزمخشري: وقرأ أبو حية: ﴿فأثَّرن﴾ بالتشديد، بمعنى: فأظهرن غباراً؛ لأن التأثير فيه معنى الإظهار، أو قلب ثورن إلى وثرن، وقلب الواو همزة. وقرىء: ﴿فوسَّطن﴾ بالتشديد للتعدية، و﴿الباء﴾ مزيدة للتوكيد، كقوله: وأُتُوا به، وهي مبالغة في وسطن، انتهى. أما قوله: أو قلب فتمحُّلٌ بارد. وأما إن التشديد للتعدية.. فقد نقلوا أن وسط مخففاً ومثقلاً بمعنى واحد، وأنهما لغتان.

وعبارة الخازن هنا: قوله عز وجل: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ فيه[1] قولان:

أحدهما: أنها الإبل في الحج، قال علي كرم الله وجهه: (هي الإبل تعدو من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى). وعنه أيضاً قال: (كانت أول غزاة في الإسلام بدراً. وما كان معنا إلا فَرَسان، فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات فيها؟) فعلى هذا القول يكون معنى ضبحها: مد أعناقها في السير، وأصله من حركة النار في العود. ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾؛ يعني: أن أخفاف الإبل ترمي بالحجارة من شدة عدوها، فيضرب بعض الحجارة حجراً آخر فيوري النار. وقيل: هي النيران بجَمْعٍ ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾؛ يعني: الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى، والسُّنَّة أن لا يدفع حتى يصبح. والإغارة: سرعة السير، ومنه قولهم: أشرق ثبير كيما نغير. ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾؛ أي: هيجن بمكان سيرها غباراً، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾؛ أي: وسطن بالنقع جمعاً، وهو مزدلفة، فوجه القسم على هذا القول: أن الله تعالى أقسم بالإبل لما فيها من المنافع الكثيرة، وتعريضه بإبل الحج للترغيب، وفيه تقريع لمن لم يحج بعد الاستطاعة عليه، فإن الكُنود هو الكفر ومن لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك.

والقول الثاني: في تفسير ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ قال ابن عباس وجماعة: هي الخيل العادية في سبيل الله، والضبح: صوت أجوافها إذا عدت، قال ابن عباس: وليس شيء من الحيوانات يضبح سوى الفرس والكلب والثعلب. وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغير حالها من فزع أو تعب، وهو من قول العرب: ضبحته النار، إذا غيرت لونه. ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾؛ يعني: أنها توري النار بحوافرها إذا سارت في

---

(١) الخازن.

الحجارة، وقيل: هي الخيل تهيج الحرب ونار العداوة بين فرسانها، وقال ابن عباس: هي الخيل تغزو في سبيل الله ثم تأوي بالليل فيوري أصحابها ناراً ويصنعون طعامهم. وقيل: هو مكر الرجال في الحرب، والعرب تقول ـ إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه ـ: أما والله لأقدحن لك ثم لأورين لك. ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾؛ يعني: الخيل تغير بفرسانها على العدو عند الصباح؛ لأن الناس في غفلة في ذلك الوقت عن الاستعداد. ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾؛ أي: المكان ﴿نَقْعًا﴾: غباراً. ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾؛ أي: دخلن به؛ أي: بذلك النقع، وهو الغبار. وقيل: صرن بعدوهن وسط جمع العدو، وهم: الكتيبة.

وهذا القول في تفسير هذه الآيات أولى بالصحة وأشبه بالمعنى؛ لأن الضبح من صفة الخيل، وكذا إيراء النار بحوافرها وإثارة الغبار أيضاً. وإنما أقسم الله سبحانه بخيل الغزاة لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية، الأجر والغنيمة، وتنبيهاً على فضلها وفضل رباطها في سبيل الله عز وجل، ويؤيده ما سبق في أسباب النزول من أن رسول الله ﷺ بعث إلى أناس من بني كنانة سرية، واستعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ وكان أحد النقباء، فأبطأ عليه ﷺ خبرها شهراً، فقال المنافقون: إنهم قتلوا، فنزلت السورة إخباراً للنبي ﷺ بسلامتها، وإشارة له بإغارتها على القوم، ونعياً على المرجفين في حقهم ما هم فيه من الكفر والكفران. فـ﴿اللام﴾ في ﴿العاديات﴾ إن كانت للعهد.. كان المقسَمُ به خيلَ تلك السرية، وإن كانت للجنس.. كان ذلك قسماً بكل خيل عدت في سبيل الله تعالى واتصفت بالصفات المذكورة، وعلى التقديرين فهي مستحقة لأن يقسم لاتصافها بتلك الصفات الشريفة. وفي تخصيص خيل الغزاة بالإقسام بها من البراعة ما لا مزيد عليه، كأنه قيل: وخيل الغزاة التي فعلت كيت وكيت، وإذا كان شرف خيل الغزاة بهذه المرتبة حتى أقسم الله بها.. فما ظنك بشرف الغزاة وفضلهم عند الله تعالى؟.

والحاصل: أن الله سبحانه أقسم[1] بالخيل التي لها هذه الصفات والتي تعمل تلك الأعمال ليُعلي من شأنها في نفوس عباده المؤمنين أهل الجد والعمل؛ وليُعْنوا بتربيتها وتعويدها الكر والفر، وليحملهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب

---

(١) المراغي.

الخيل والإغارة بها على العدو؛ ليكون كل امرىء مسلم منهم عاملاً ناصباً إذا جد الجد واضطرت الأمة إلى صد عدو أو بعثها باعث على كسر شوكته، يرشد إلى ذلك قوله في آية آخرى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وفي إقسام الله بها بوصف العاديات المغيرات الموريات إشارة إلى أنه يجب أن تقتنى الخيل لهذه الأغراض والمنافع لا للخيلاء والزينة، وأن الركوب الذي يحمد ما يكون لكبح جماح الأعداء وخضد شوكتهم وصد عدوانهم.

وقصارى ذلك: أن للخيل في عدوها فوائد لا يحصى عدها، فهي تصلح للطلب وتسعف في الهرب، وتساعد جِد المساعدة في النجاء والفر والكر على الأعداء وقطع شاسع المسافة في الزمن القليل. ثم ذكر المحلوف عليه بتلك الأيمان الشريفة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾؛ أي: إن جنس[1] الإنسان طبع على نكران الحق وجحوده، وعدم الإقرار بما لزمه من شكر خالقه والخضوع له، إلا من عصم الله تعالى وهم الذين روَّضوا أنفسهم على فعل الفضائل وترك الرذائل ما ظهر منها وما بطن. وعبارة الرازي: لما ذكر المقسم به، وهو ثلاثة أمور: ذكر المقسم عليه، وهو أمور ثلاثة، أولها: قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾، ثانيها: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ ثالثها: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ. . .﴾ إلخ، شروع في تخويف الإنسان بعد تعديد قبائح أفعاله عليه، فأقسم بثلاثة على ثلاثة اهـ. وروي: أن النبي ﷺ قال: «الكَنود: الذي يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رفده»؛ أي: عطاءه، أي: أنه لا يعطي شيئاً مما أنعم الله به عليه، ولا يرأف بعباده كما رأف به، فهو كافر بنعمته مجانف لما يقتضي به العقل والشرع. وسر الجِبِلَّة: أن الإنسان يحصر همه فيما حضره وينسى ماضيه وما عسى أن يستقبله، فإذا أنعم الله عليه بنعمة. . غرته غفلته، وقسا قلبه، وامتلأ جفوة على عباده. وقال ابن عباس: الكنود: الكفور الجحود لنعمة الله تعالى. وقيل: ﴿الكنود﴾ العاصي، وقيل: هو الذي يعد المصائب وينسى النعم، وقيل: هو قليل الخير، مأخوذ من الأرض الكنود وهي التي لا تنبت شيئاً. وقال الفضيل بن

---

(١) روح البيان.

عياض: ﴿الكنود﴾: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان[1]، وضده الشكور، وهو الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة. يقال: كَنَدَ النعمة كُنوداً كفر بها، فالكُنود ـ بالضم ـ كفران النعمة، وبالفتح الكَفور، ومنه سمي كندة ـ بالكسر ـ وهو لقب ثور بن عفير أبي حي من اليمن؛ لأنه كند أبوه النعمة ففارقه ولحق بأخواله. وقال الكلبي: ﴿الكنود﴾ بلسان كندة: العاصي، وبلسان بني مالك: البخيل، وبلسان مضر وربيعة: الكفور. قيل: كان ثلاثة نفر من العرب في عصر واحد، أحدهم آية في السخاء وهو حاتم الطائي، والثاني آية في البخل وهو أبو حباحب، وبخله أنه كان لا يوقد النار للخير إلا إذا نام الناس، فإذا انتبهوا.. أطفأ ناره؛ لئلا ينتفع بها أحد، والثالث آية في الطمع، وهو أشعب بن جبير مولى مصعب بن الزبير بن العوام، قرأ صبي في المكتب وعنده أشعب جالس: إن أبي يدعوك، فقام ولبس نعليه، فقال الصبي: أنا أقرأ حزبي! وكان إذا رأى إنساناً يحك عنقه.. يظن أنه ينتزع قميصه ليدفعه إليه، وكان إذا رأى دخاناً ارتفع من دار.. ظن أن أهلها تأتي بطعام، وكان إذا رأى عروساً تزف إلى موضع.. جعل يكنس باب داره لكي تدخل داره، قال: ما رأيت أطمع مني إلا كلباً تبعني على مضغ العلك فرسخاً.

وقال الحسن: ﴿لَكَنُودٌ﴾؛ أي: لوام لربه، يذكر المصيبات وينسى النعم. وقال: القاشاني: لكفور لربه باحتجاجه بنعمه عنه ووقوفه معها، وعدم استعماله لها فيما ينبغي ليتوصل بها إليه، وقيل غير ذلك. والمراد بالإنسان: بعض أفراده؛ أي: إنه لنعمة ربه خصوصاً لكفور؛ أي: شديد الكفران. فقوله: ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ متعلق بـ﴿كنود﴾، قدم عليه لإفادة التخصيص ومراعاة الفواصل، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن الإنسان، ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: على كُنوده ﴿لَشَهِيدٌ﴾؛ أي: شاهد يشهد على نفسه بالكنود لظهور أثره عليه، فالشهادة هنا بلسان الحال لا بلسان المقال، ويحتمل أن يجعل من الشهود، بمعنى أنه لكفور مع علمه بكفرانه، والعمل السيء مع العلم به غاية المذمة. والمعنى أي[2]: وإنه مع كنوده ولجاجته في الطغيان وتماديه في الإنكار والبهتان إذا خلى ونفسَه.. رجع إلى الحق وأذعن إلى أنه ما شكر ربه على

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

نعمه إلا أن أعماله كلها جحود لنعم الله تعالى، فهي شهادة منه على كنوده، وشهادة بلسان الحال وهي أفصح من لسان المقال. وقيل: المعنىٰ: وإن الله جل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد، وبه قال الجمهور، وقال بالأول الحسن وقتادة ومحمد بن كعب، وهو أرجح من قول الجمهور؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن الإنسان ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي لحب المال، فإن الضمير راجع إلى الإنسان، والمعنى[1]: وإنه لحب المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾؛ أي: قوي مطيق مجد في طلبه وتحصيله متهالك عليه، والخير المال، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ قال ابن زيد: سمى المال خيراً، وعسى أن يكون شراً بأن كان حراماً، ولكن الناس يجدونه خيراً فسماه خيراً جرياً على عادتهم، كما سمى الجهاد سوءاً فقال: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾؛ أي: قتال، والقتال ليس بسوء، ولكن ذكره سوءاً جرياً على عادتهم. وحب المال: إيثار الدنيا وطلبها، و﴿اللام﴾ في ﴿لِحُبِّ﴾ متعلقة بـ﴿شديد﴾ قدم عليه لمراعاة الفاصلة، يقال: هو شديد لهذا الأمر وقوي له إذا كان مطيقاً له ضابطاً؛ يعني: أنه قوي مجد في طلب المال وتحصيله متهالك عليه، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس. وقيل: الشديد البخيل الممسك؛ يعني: وإنه لأجل حب المال وثقل إنفاقه عليه لبخيل ممسك. والمعنى عليه أي: وإن الإنسان بسبب محبته للمال وشغفه به وتعلقه بجمعه وادخاره لبخيل.. شديد في بخله، حريص متناه في حرصه، ممسك مبالغ في إمساكه متشدد فيه، قال: طرفة:

أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ يَعْتَامُ ٱلْكِرَامَ وَيَصْطَفِيْ عَقِيْلَةَ مَالِ ٱلْفَاحِشِ ٱلْمُتَشَدِّدِ

ولعل وصفه بهذا الوصف القبيح بعد وصفه بالكنود للإيماء إلى أن من جملة الأمور الداعية للمنافقين إلى النفاق حب المال؛ لأنهم بما يظهرون من الإسلام يعصمون أموالهم ويحوزون من الغنائم نصيباً.

ثم هدد الإنسان الذي هذه صفاته وتوعده بقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ ﴿الهمزة﴾[2] فيه للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف يقتضيه المقام، و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيفعل ما يفعل من القبائح، أو ألا يلاحظ فلا يعلم في الدنيا أن الله مجازيه ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ وأخرج ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ من الموتى لمجازاتهم على

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

أعمالهم، فناصب ﴿إِذَا﴾ محذوف كما قدرناه، وهو مفعول يعلم ﴿لا يعلم﴾ لأن الإنسان لا يراد منه العلم في ذلك الوقت، وإنما يراد منه ذلك في الدنيا، أي: لا يعلم أن الله مجازيه وقت إذ بعث وأخرج ما في القبور من الموتى، وإيراد ﴿ما﴾ لكونهم إذ ذاك بمعزل عن مرتبة العقلاء، قال أبو عبيدة: يقال: بعثرت المتاع إذا جعلت أسفله أعلاه، وقد تقدم الكلام على هذا في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾. وقوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ معطوف على ﴿بُعْثِرَ﴾؛ أي: مُيِّز وبُيِّن ما فيها من الخير والشر؛ أي: ميز خير ما في القلوب من الأسرار من شره، للمجازاة على كل منهما بموجبه من الثواب والعقاب، فالتحصيل[1] بمعنى التمييز، ومنه قيل للمنخل: المحصل؛ أي آلة التحصيل وتمييز الدقيق من النخالة، فإنه لا بد من التمييز بين الواجب، والمباح، والمكروه، والمحظور، فإن لكل واحد منها حكماً على حدة، فتمييز البعض من البعض وتخصيص كل واحد منها بحكمه اللاحق هو التحصيل.

وقيل المعنى: أي جُمع في الصحف وأُظهر ما في الصدور من الأسرار الخفية التي من جملتها ما يخفيه المنافقون من الكفر والمعاصي، فضلاً عن الأعمال الجلية؛ أي: أُظهر محصَّلاً مجموعاً، وأصل التحصيل: إخراج المستور بإخراج المغمور فيه وأخذه منه، كإخراج اللب من القشر، وإخراج الذهب من حجر المعدن، والبر من التبن، والدهن من اللبن، ومن الدُّردي، والجمع والإظهار من لوازمه. وتخصيص[2] أعمال الصدور بالذكر لأنه لولا البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح، فالقلب أصل وأعمال الجوارح تابعة له، ولذا قال تعالى: ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ وقال النبي ﷺ: «يبعثون على نياتهم» وعبارة «الجمل» هنا: ﴿وَحُصِّلَ﴾؛ أي: أُخرج وجُمع بغاية السهولة ﴿مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ من خير وشر مما يظن أنه لا يعلمه أحد أصلاً وظهر مكتوباً في صحائف الأعمال، وهذا يدل على أن الإنسان يحاسب بها كما يحاسب على ما يظهر من آثارها، اهـ خطيب.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿بُعْثِرَ﴾ بالعين، مبنياً للمفعول، وقرأ عبد الله ﴿بحثر﴾ بالحاء وقرأ الأسود بن يزيد ﴿بحث﴾ وقرأ نصر بن عاصم: ﴿بحثر﴾ على بنائه

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

للفاعل. وقرأ الجمهور: ﴿وَحُصِّلَ﴾ بضم الحاء وتشديد الصاد مكسوراً مبنياً للمفعول، وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جبير، ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم، ومحمد بن أبي سعدان: ﴿حَصَلَ﴾ بفتح الحاء والصاد مخففاً، مبنياً للفاعل؛ أي: ظهر. وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ بكسر الهمزة، على الاستئناف الإخباري، وبإثبات لام ﴿لَّخَبِيرٌ﴾؛ أي: إن رب المبعوثين كنى عنهم بعداً لإحياء الثاني بضمير العقلاء بعد ما عبر عنهم بما في قوله: ﴿مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ بناء على تفاوتهم في الحالين، فحين كانوا في القبور كانوا كجمادات بلا عقل ولا علم وإن كان لهم نوع حياة فيها، بخلاف وقت الحشر ﴿بِهِمْ﴾؛ أي: بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يكون ما ذكر من بعث ما في القبور. وتحصيل ما الصدور، والعامل في ﴿بِهِمْ﴾ وفي ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿لَّخَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بظواهرهم وبواطنهم علماً موجباً للجزاء متصلاً به، كما ينبيء عنه تقييده بذلك اليوم، وإلا فمطلق علمه تعالى محيط بما كان وما سيكون. وقُدِّما عليه مراعاة للفواصل، واللام غير مانعة لعمله فيهما، لكنه ضَمَّن خبير معنى مجاز لهم في ذلك اليوم، أي: إن رب المبعوثين لخبير بهم يوم إذ بعث ما في القبور وحصل ما في الصدور، لا تخفى عليه منهم خافية، فيجازيهم بالخير خيراً وبالشر شراً، قال الزجاج: الله خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى: أن الله يجازيهم في ذلك اليوم، ومثلُه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ معناه: أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم، انتهى.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ بكسر الهمزة واللام في ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ كما مر آنفاً وقرأ أبو السمال والحجاج بفتح الهمزة وإسقاط اللام، ويظهر في هذه القراءة تسلط ﴿يَعْلَمُ﴾ على ﴿أَنَّ﴾ لكنه لا يمكن إعمال خبير في ﴿إِذَا﴾؛ لكونه في صلة أن المصدرية، لكنه يمكن أن يقدر له عامل فيه من معنى الكلام، فإنه يقال: يجزيهم إذا بعثر.

والمعنى[٢]: أفلا يعلم هذا الإنسان المنكر لنعم الله تعالى عليه الجاحد لفضله وأياديه أنه سبحانه عليم بما تنطوي عليه نفسه، وأنه مجازيه على جحده وإنكاره يوم يحصل ما في الصدور ويبعثر ما في القبور. وقد عبر سبحانه عن مجازاتهم على ما كسبت أيديهم بالخبرة بهم والعلم المحيط لأعمالهم وهذا كثير في الكلام، تقول

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

لشخص في معرض التهديد: سأعرف لك عملك هذا، مع أنك تعرفه الآن قطعاً، وإنما عرفانه الآتي هو ظهور أثر المعرفة، وهو مجازاته بما يستحق، وقد جاء على هذا النسق قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ مع أن كتابة أقوالهم حاصلة فعلاً، فالمراد: سنجازيهم بما قالوا الجزاء الذي هم له أهل، والله أعلم بأسرار كتابه.

الإعراب

﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾.

﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾ ﴿الواو﴾ حرف جر وقسم، ﴿العاديات﴾: مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قَسَم محذوف وجوباً لكون القسم بالواو تقديره: أقسم بالعاديات، والجملة القَسَمية مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿ضَبْحًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف؛ أي: يضبحن ضبحا، والجملة المقدرة حال من العاديات، ويجوز أن يكون ﴿ضَبْحًا﴾ مصدراً وقع موضع الحال من ﴿العاديات﴾؛ أي: أقسم بالعاديات حالة كونها ضابحات، ويجوز أن يكون منصوباً بالعاديات، ﴿فَٱلْمُورِيَـٰتِ﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿الموريات﴾ معطوف على ﴿العاديات﴾، ﴿قَدْحًا﴾ وقد جاء فيه الأوجه الثلاثة التي في ﴿ضَبْحًا﴾. ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿المغيرات﴾: معطوف على ﴿الموريات﴾ لا على ﴿العاديات﴾ كما توهمه بعضهم؛ لأن العطف إذا كان بحرف مرتب فكل معطوف على ما قبله كما بيّناه في «باكورتنا على الأجر ومية» نقلاً عن الشيخ الحامدي، و﴿صُبْحًا﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿المغيرات﴾ أي: اللاتي تغير في وقت الصبح، قال أبو حيان وأجاد: وفي هذا دليل على أن هذه الأوصاف لذات واحدة لعطفها بالفاء التي تقتضي التعقيب، والظاهر، أنها الخيل التي يُجاهَد عليها العدو من الكفار كما مرّ بسطه في مبحث التفسير.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾.

﴿فَأَثَرْنَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أثرن﴾ فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أثرن﴾ و﴿نَقْعًا﴾: مفعول به، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على العدو أو على الصبح، و﴿الباء﴾ حينئذٍ بمعنى (في)، أي: ﴿فَأَثَرْنَ﴾ في وقت الصبح ﴿نَقْعًا﴾: قال أبو حيان: وهذا أحسن

من الأول؛ لأن المرجع مذكور بالصريح، والجملة الفعلية معطوفة على صلة (أل) الداخلة على الصفات المذكورة لأنها موصولة، والتقدير: واللاتي عدون ضبحاً، فأورين قدحاً، فأغرن صبحاً، فأثرن به نقعاً، ﴿فَوَسَطْنَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿وسطن﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أثرن﴾ ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿وسطن﴾ والضمير للصبح، و﴿الباء﴾ بمعنى: (في)، أو على النقع، و﴿الباء﴾ للتعدية، وقيل: ﴿الباء﴾ متعلقة بمحذوف حال من ضمير الفاعل، و﴿الباء﴾ للملابسة، أي: حالة كونهن متلبسات بالغبار ﴿جَمْعًا﴾ مفعول به على الأوجه الثلاثة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: ناصب واسمه ﴿لِرَبِّهِۦ﴾: متعلق بـ﴿كنود﴾، ﴿لَكَنُودٌ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿كنود﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إنه﴾: ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ متعلق بـ﴿شهيد﴾، ﴿لَشَهِيدٌ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿شهيد﴾: خبر إن، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها جواب قسم لا محل لها من الإعراب ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿شديد﴾. ﴿لَشَدِيدٌ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿شديد﴾ خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى، لأن العاطف هنا غير مرتب كما مرت الإشارة إليه.

﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَفَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لا﴾: نافية ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الإنسان، معطوف على ذلك المحذوف ومفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ محذوف تقديره: أيفعل الإنسان ما يفعل من القبائح فلا يعلم أن الله يجازيه إذا بعث ما في القبور؟ والجملة المحذوفة جملة إنشائية مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بمفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ المحذوف لا به كما مرّ بسطه؛ أي: أفلا يعلم أن الله مجازيه وقت بعث ما في القبور؟ ﴿بُعْثِرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل، ﴿فِى ٱلْقُبُورِ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والجملة في محل الخفض بإضافة الظرف إليها، ﴿وَحُصِّلَ﴾: فعل ماض مغير الضيغة ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل

﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والجملة الفعلية في محل الخفض معطوفة على ما قبلها، ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾: ناصب واسمه، ﴿بهم﴾ متعلق بـ﴿خبير﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، متعلق بـ﴿خبير﴾ أيضاً، ﴿بخبير﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿خبير﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل عامل ﴿إِذَا﴾ المحذوف؛ أي: أفلا يعلم أن الله مجازيه وقت ما ذكر لأنه خبير بأحوالهم وأعمالهم بتفاصيلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾: جمع عادية، كغازيات جمع غازية، وهي: الخيل الجارية بسرعة، من العدو، وهو المشي بسرعة، ففيه إعلال بالقلب، أصله: العادوات، فقلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة، يقال: عدا يعدو عدواً، فهو عاد وهي عادية اهـ «سمين». ﴿ضَبْحًا﴾ والضبح صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو، وليس بصهيل، وفي «المختار»: ضبحت الخيل من باب قطع والضبح: صوت أنفاسها إذا عدت اهـ، وفي «القاموس»: ضبحت الخيل ضبحاً وضباحاً أسمعت من أفواهها صوتاً ليس بصهيل ولا حمحمة، قال عنترة:

وَٱلْـخَـيْـلُ تَـكْـدَحُ حِـيْـنَ تَـضْـــ ... ـــبَحُ فِيْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ ضَبْحَا

والكدح: الجد في العدو. وشبه عنترة الموت بالسيل على طريق الاستعارة المكنية، والحياض تخييلُ ذلك.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾: جمع مورية، من الإيراء، وهو إخراج النار من الحجارة، ففيه حذف همزة أفعل من الوصف، يقال: أورى فلان إذا أخرج النار بزند، ونحوه، وفي «المصباح»: وَرَىٰ الزندِ، يَرِيْ، من باب وعد، وفي لغة: ورى ـ بكسرهما ـ وأورى بالألف، وذلك إذا أخرج ناره، وفي «المختار»: وأوراه غيره اهـ، فاستفيد من مجموعها أنه يستعمل ثلاثياً لازماً لا غير، ورباعياً لازماً ومتعدياً، وما في الآية من قبيل المتعدي. ﴿قَدْحًا﴾: والقدح الضرب لإخراج النار، كضرب الزناد بالحجر، وفي «القرطبي»: وأصل القدح الاستخراج، ومنه: قدحت العين إذا أخرجت منها الفاسد، واقتدحت الزند واقتدحت المرق غرفته، والمقدحة ـ بكسر الميم ـ ما تقدح به النار، والقداحة والقدح: الحجر الذي يوري النار اهـ. ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾: فيه إعلال بالنقل، نقلت حركة حرف العلة إلى الغين قبلها فسكن فصار حرف مد،

فأصله المغْيِرات، نقلت حركة الياء إلى الغين، يقال: أغار يغير إغارة، إذا باغت عدوه لنهب أو قتل أو أسر، وفي «المصباح»: وأغار الفرس إغارة، والاسم الغارة، مثل أطاع إطاعة والاسم الطاعة، إذا أسرع في العدو، وأغار القوم إغارة أسرعوا في السير اهـ. وفي «القاموس»: أغار على القوم غارة وإغارة دفع عليهم الخيل، وأغار الفرس اشتد عدوه في الغارة وغيرها اهـ. قال الشاعر:

أَغَارَ عَلَىٰ ٱلْعَدُوِّ بِكُلِّ طَرْفٍ وَسَلْهَبَةٍ تَجُولُ بِلاَ حِزَامِ

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾؛ أي: هيجن في وقت الصبح غباراً، يقال: ثار يثور ثوراً، وثوراناً وثؤوراً، أهاج، ومنه ثارت الفتنة بينهم، وثار الغبار أو الدخان ارتفع، وثار الجراد ظهر، وثارت نفسه جشأت وجاشت، وثار إليه وبه، وثب عليه. وما في الآية من الإثارة وهو التهييج وتحريك الغبار، وأصله: أَثْوَرْن من الثور وهو الهيجان، نقلت حركة الواو إلى الثاء قبلها، وقلبت الواو ألفاً فصار أثارن، فحذفت الألف لاجتماع الساكنين، فبقي أثرن بوزن أفلن. ﴿نَقْعًا﴾: والنقع الغبار؛ والنقع أيضاً: أن يروى الإنسان من شرب الماء، يقال: نقعت غُلِّي بشربة ماء، وقال بشار:

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوْسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَىٰ كَوَاكِبُهْ

﴿فَوَسَطْنَ﴾؛ أي: توسطن، وفي «المصباح»: ويقال: وسطت القوم والمكان أسط وسطاً ـ من باب وعد ـ إذا توسطت بين ذلك، والفاعل واسط، وبه سمي البلد المشهور بالعراق لأنه توسط الإقليم، وفي «المختار»: تقول: جلست وَسْط القوم بالتسكين؛ لأنه ظرف، وجلست وَسَط الدار بالتحريك؛ لأنه اسم لما يكتنفه غيره من جهاته، وكل موضع صلح فيه (بين) فهو وسط بالسكون، وإن لم يصلح فيه (بين) فهو وسط بالتحريك، وربما سكن وليس بالوجه اهـ.

وعبارة «القاموس»: ووَسَطَهُم كوعد، وَسْطاً وسِطَة جلس وسطهم كتوسطهم وهو وسيط فيهم؛ أي: أوسطهم نسباً، وأرفعهم محلاً، والوسيط بين المتخاصمين إلى آخر ما ذكره. ﴿لَكَنُودٌ﴾: وفي «المختار»: كند النعمة كفر بها، وبابه: دخل، فهو كنود وامرأة كنود أيضاً، وقال الحسن في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ قال: الكنود الذي يذكر المصائب وينسى النعم. وقال: النمر بن تولب:

كَـنُـودٌ لاَتَـمُـنُّ ولاَ تُـفَـادِيْ   إِذَا عَـلِـقَـتْ حَـبَـائِـلُـهَـا بِـرَهْـنِ
لَـهَـا مَـا تَـشْـتَـهِـي عَـسَـلٌ مُـصَـفًّـى   إِذَا شَـاءَتْ وَحُـوَّارَىٰ بِـسَـمْـنِ

وقال غيره:

كَنَد النعمةَ كَفَرها ولم يَشْكُرها.

وأنشدوا:

كَـنُـوْدٌ لِـنَـعْـمَـاءِ ٱلـرِّجَـالِ وَمَـنْ يَـكُـنْ   كَـنُـوْداً لِـنَـعْـمَـاءِ ٱلـرِّجَـالِ يُـبَـعَّـدُ

وأصل الكنود: الأرض التي لا تنبت شيئاً، شبه بها الإنسان الذي يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات ومعروفات ﴿لَشَهِيدٌ﴾؛ أي: لشاهد على كنوده وكفره بنعمة ربه ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: لأجل حب الخير ﴿لَشَدِيدٌ﴾؛ أي: لبخيل، والخير المال، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾. ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ البعثرة بالعين، والبحثرة بالحاء: استخراج الشيء واستكشافه كما تقدم في سورة الانفطار عن «المختار».

فإذا قيل: لم قال: ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾، ولم يقل: من في القبور، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾؟ أجيب عن الأول: بأن ما في الأرض غير المكلفين أكثر، فأخرج الكلام على الأغلب، أو أنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل يصيرون كذلك بعد البعث، فلذلك كان الضمير الأول ضمير غير العقلاء، والضمير الثاني ضمير العقلاء. ﴿وَحُصِّلَ﴾؛ أي: أُظهِر محصَّلاً مجموعاً في صحائف الأعمال، قال في «القاموس»: التحصيل تمييز ما يحصل، والحاصل من كل ما يبقى وثبت وذهب ما سواه اهـ. ﴿مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: ما في القلوب من العزائم والنوايا.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المخالفة بين المعطوف والمعطوف عليه بقوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾ إذ عطف الفعل على الاسم الذي هو العاديات وما بعده؛ لأنها أسماء فاعلين تعطي معنى الفعل، ففيها سر بديع، وهو تصوير هذه الأفعال في النفس وتجسيدها أمام

العين، فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف، وهو أبلغ من التصوير والتجسيد بالأسماء المتناسقة.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢﴾؛ حيث شبه الخيول العادية اللاتي تضرب بحوافرها الحجارة بالجماعة الذين يورون الزند، فالقدح استعارة لضرب الحجارة، أو يقال: شبه الحرب بالنار المشتعلة وحذف المشبه وأبقى المشبه به، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣﴾ حيث أسند الإغارة التي هي مباغتة العدو للنهب والقتل والأسر إلى الخيل وهي حال أهلها، إيذاناً بأنها العمدة في إغارتهم.

ومنها: تخصيص إثارة النقع بالصبح؛ لأنه لا يثور، ولا يظهر ثورانه بالليل، وبهذا يظهر أن الإيراء الذي لا يظهر في النهار واقع في الليل، ولله در شأن التنزيل.

ومنها: التأكيد بـ﴿إن﴾ واللام واسمية الجملة في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ لزيادة التقرير والبيان.

ومنها: الجناس المحرف في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ﴾ وهو الذي يكون الضبط فيه فارقاً بين الكلمتين أوبعضهما، وهو أيضاً ما اتفق ركناه في أعداد الحروف واختلفا في الحركات، سواء كانا من اسمين أو فعلين أو اسم وفعل أو من غير ذلك، والغاية فيه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ۝٧٢ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ ولا يقال: إن اللفظين متحدان في المعنى فلا يكون بينهما تجانس؛ لأنا نقول: المراد بالأول: اسم الفاعل، وبالثاني: اسم المفعول، فالاختلاف ظاهر، ومنه قوله ﷺ: «اللهم كما حسنت خَلْقِي فحسن خُلُقي» ومنه قولهم: جُبة البُرد جُنة البرد.

ومنها: الجناس اللاحق في قوله: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ وهو الذي أبدل في إحدى الكلمتين حرف واحد بغيره من غير مخرجه، وسواء كان الإبدال من الأول نحو قوله: تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝١﴾ أو في الوسط كهذه الآية التي نحن بصددها، أو في الآخر كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ﴾ ومن أمثلة الشعر على هذا الترتيب المذكور أيضاً قول أبي فراس:

إِنَّ ٱلْـغَـنِـيَّ هُـوَ ٱلْـغَـنِـيُّ بِـنَـفْـسِـهِ وَلَـوْ أَنَّـهُ عَـارِيْ الْـمُـنَـاكِـبِ حَـافِـيْ
مَـا كُـلُّ مَـا فَـوْقَ ٱلْـبَـسِـيْـطَـةِ كَـافِـيَـاً وَإِذَا قَـنِـعْـتَ فَـكُـلُّ شَـيْءٍ كَـافِـيْ

ومن الثاني قول البحتري:

وَقُـعُـودِيْ عَـنِ ٱلـتَّـقَـلُّـبِ وَالأَرْ ضُ لِـمِـثْـلِـي رَحِـيْـبَـةُ الأَكْـنَـافِ
لَـيْـس عَـنْ ثَـرْوَةٍ بَـلَـغَـتْ مَـدَاهـا غَـيْـرَ أَنِّـي ٱمْـرُؤٌ كَـفَـانِـي كَـفَـافِـيْ

ومن الثالث قول بعضهم:

شَوْقِي لِذَاكَ ٱلْمُحَيَّا ٱلزَّاهِرِ الزَّاهِيْ شَوْقٌ شَدِيْدٌ وَجِسْمِيْ ٱلوَاهِنُ ٱلْوَاهِيْ
أَسْهَرْتُ طَرْفِي وَوَلَّهْتُ ٱلْفُؤَادَ هَوًى فَٱلْقَلْبُ وَٱلطَّرْفُ بَيْنَ ٱلسَّاهِرِ ٱلسَّاهِيْ

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ﴾ لإفادة التهديد والوعيد.

ومنها: التضمين في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ ضمن لفظ ﴿خبير﴾ معنى المجازاة؛ أي: مجازيهم على أعمالهم.

ومنها: إيثار ﴿ما﴾ على (من) في قوله: ﴿مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ لكونهم إذ ذاك بمعزل عن مرتبة العقلاء.

ومنها: تخصيص أعمال القلوب بالذكر في قوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ دون أعمال الجوارح؛ لأنها تابعة لأعمال القلوب فإنه لولا تحقق البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح، اهـ «زاده».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

* * *

(١) إلى هنا تَمَّ تفسير هذه السورة الكريمة في يوم الخميس، وقت ضحوة اليوم الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة، في تاريخ (٢٢/ ١٢/ ١٤١٦): ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيّدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين آمين.

سورة القارعة

سورة القارعة مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة قريش، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة القارعة بمكة.

وآياتها: إحدى عشرة آية، أو عشرة، أو ثمان، كلماتها: ست وثلاثون كلمة، وحروفها: مئة واثنان وخمسون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها[١]: أن آخر السابقة كان في وصف يوم القيامة، من بعثرة ما في القبور وتحصيل ما في الصدور، ومجازاة الناس على ما كسبت أيديهم، وهذه السورة بأسرها في وصف ذلك اليوم الشديد وما يكون فيه من الأهوال، من كون الناس كالفراش المبثوث، وكون الجبال كالعهن المنفوش.

قال الرازي: واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ختم السورة المتقدمة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ فكأنه قيل: وما ذاك اليوم؟ فقيل هي: القارعة، اهـ من «تفسير الكبير».

ومما يدل على فضلها: ما ورد عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة القارعة.. ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة» اهـ «بيضاوي» ولكن فيه مقال.

التسمية: وسميت سورة القارعة لذكر لفظ القارعة فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة القارعة كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) المراغي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ اتفقوا[1] على أن القارعة اسم من أسماء القيامة، كـ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾، ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾، ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾.

وسبب تسميتها بالقارعة: أن القارعة هي الصيحة التي يموت منها الخلائق، وهي الصيحة الأولى التي تموت منها الخلائق سوى إسرافيل، ثم يميته الله تعالى ثم يحييه فينفخ في الصور النفخة الثانية فيقومون. وقيل: القارعة هي التي تفزع الخلائق بالأهوال والأفزاع؛ أي: تؤثر فيهم على وجوه شتى، وذلك في السمٰوات بالانشقاق والانفطار، وفي الشمس والقمر بالتكوير، في الكواكب بالانتثار، وفي الجبال بالدك والنسف، وفي الأرض بالطي والتبديل، وهو قول الكلبي. وقيل: إنها تخوف أعداء الله بالعذاب والخزي، وهو قول مقاتل. قال بعض المحققين: وهذا أولى من قول الكلبي؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ اهـ. وهي مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ على أن ﴿مَا﴾ الاستفهامية مبتدأ والقارعة خبر عنها، أي القارعة؛ أي: شيء هي؟ هي شيء عجيب في الفخامة والفظاعة، فوضع الظاهر موضع المضمر تأكيداً للتهويل من شأنها. والاستفهام هنا للتعجيب، وفيما سيأتي للإنكار، والمراد بالقارعة هنا: النفخة الثانية التي تقرع القلوب؛ أي: تفزعها بفنون الأفزاع والأهوال، وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال كما مر آنفاً. والعرب تقول: قرعتهم القارعة، إذا وقع بهم أمر فظيع، قال الشاعر:

---

(١) الفتوحات.

وَقَـــارِعَـــةٌ مِـــنَ الأَيَّـــامِ لَـــوْلاَ   سَـبِـيْـلُـهُـمُ لَـرَاحَـتْ عَـنْـكَ حِـيْـنَـا

وقال الآخر:

مَـتَـى نَـقْـرَعْ بِـمَـرْأَتِـكُـمْ نَـسُـؤْكُـمْ   وَلَـمْ يُـوْ قَـدْ لَـنَـا فِـي ٱلْـقِـدْرِ نَـارُ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ بالرفع على أنها مبتدأ و﴿مَا﴾ اسم استفهام للاستعظام والتعجيب، في محل الرفع مبتدأ ثان، و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾: خبره والجملة خبر للأول كما تقدم تقريره في ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢﴾ وقال الزجاج: معنى الكلام التحذير، والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب، وأنشد قول الشاعر:

لَـــجَـــدِيْـــرُوْنَ بِـــٱلْـــوَفَـــاءِ إِذَا قَـــا   لَ أَخُـوُ ٱلـنَّـجْـدَةِ ٱلـسِّـلاَحُ ٱلـسِّـلاَحُ

والحمل على معنى التفخيم والتعظيم أولى، ويؤيده وضع الظاهر موضع المضمر، فإنه أدل على هذا المعنى، ويؤيده أيضاً قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ فإنه تأكيد لشدة هولها ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لا تنالها دراية أحد منهم. وقرأ عيسى بنصبها على تقدير: احذروا القارعة، أو اذكروا القارعة و﴿ما﴾ زائدة للتوكيد، و﴿القارعة﴾ تأكيد لفظي للأولى ذكره في «البحر».

والحاصل[2]: أن القارعة من أسماء القيامة، كالحاقة مثلاً، سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بهولها كما تسمى الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعةً، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾؛ أي: حادثة عظيمة تقرعهم وتصك أجسادهم فيألمون لها. ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾؛ أي: أي شيء هي القارعة، وهذا أسلوب يراد به تهويل أمرها، كأنها لشدة ما يكون فيها من الأهوال التي تفزع منه النفوس وتدهش لها العقول يصعب تصورها ويتعذر إدراك حقيقتها، ثم زاد أمرها تعظيماً فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ و﴿ما﴾ للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبرها، ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ مبتدأ وخبر،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

والجملة في محل النصب على أنها مفعول لـ﴿أَدْرَىٰكَ﴾، والمعنى أي: وأي شيء أعلمك يا محمد ـ أو أيها المخاطب ـ ما شأن القارعة؟ فإن عظم شأنها بحيث لا تكاد تناله دراية أحد حتى يدرك بها، ولما كان هذا منبئاً عن وعد الكريم بإعلامها أنجز ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: هي يوم يكون الناس، على أن يوم مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف، وفتحتُه فتحةُ بناء لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعاً على ما هو رأي الكوفيين. أو: اذكر يوم يكون الناس إلخ، فإنه يدريك ما هي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَوْمَ﴾ بالنصب، وتخريجه كما ذكرنا، وقرأ زيد بن علي ﴿يومُ﴾ برفع الميم على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: وقتها يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾: جمع فراشة، وهي التي تطير وتتهافت على السراج فتحترق، والمبثوث: المفرق، وبه شبه فراشة القفل، وهو ما ينشب فيه، ولم يقل: المبثوثة، بل قال: المبثوث؛ لأن الكل جائز، كما في قوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وقوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ كما مر بيان وجه ذلك،

والمعنى: هي ـ أي: القارعة ـ يوم يكون الناس كالفراش المفرق في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، والاضطراب والتطاير إلى الداعي كتطاير الفراش إلى النار، وبه يضرب المثل في الطيش والهوج، ويقال: أطيش من فراشة.

قال الشاعر:

فَرَاشَةُ ٱلْحِلْمِ فِرْعَوْنُ ٱلْعَذَابِ وَإِنْ ... يُطْلَبْ نَدَاهُ فَكَلْبٌ دُوْنَهُ كَلَبُ

وقال الآخر:

وَقَدْ كَانَ أَقْوَامٌ رَدَدْتُ حُلُوْمَهُمْ ... عَلَيْهِمْ وَكَانُوْا كَٱلْفَرَاشِ مِنَ ٱلْجَهْلِ

وقال جرير:

إِنَّ ٱلْفَرَزْدَقَ مَا عَلِمْتَ وَقَوْمَهُ ... مِثْلُ ٱلْفَرَاشِ غَشَيْنَ نَارَ ٱلْمُصْطَلِيْ

وهذا يدل على كثرة الفراش ولو في بعض المواضع، فسقط ما قال سعدي[2]

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

المفتي فيه: إن الفراش لا يعرف بالكثرة بحيث يصلح أن يكون مشبهاً به لأهل المحشر فيها إلا أن يفسر بصغار الجراد. وقال ابن الشيخ: شبه الله سبحانه الخلق وقت البعث في هذه الآية بالفراش المبثوث، وفي الآية الأخرى بالجراد المنتشر فيجمع بينهما بأن وجه التشبه بالجراد هو الكثرة والاضطراب، وبالفراش المبثوث اختلاف جهات حركاتهم، فإنهم إذا بعثوا.. فزعوا، فيذهب كل واحد منهم إلى جهة غير جهة الآخر، كالفراش؛ فإنها إذا طارت لا تتجه إلى جهة واحدة بل تختلف جهاتها، انتهى.

وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾: في محل الخفض معطوف على جملة ﴿يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾، و﴿العهن﴾: الصوف المصبوغ بألوان مختلفة، والنفش: نشر الشعر والصوف والقطن، بالأصبع، وخلخلة الأجزاء وتفريقها عن تراصها، قال السجاوندي: شبه خفتها بعد رزانتها بالصوف، وتلونها بالمصبوغ، ومرها بالمندوف، واختصاص العهن لألوان الجبال، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ والمعنى: ويوم تكون الجبال كالصوف الملون بالألوان المختلفة المندوف في تفرق أجزائها وتطايرها في الحق، وكلا الأمرين من آثار القارعة بعد النفخة الثانية عند حشر الخلائق، يبدل الله الأرض غير الأرض ويغير هيئاتها، ويسيِّر الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئات الهائلة، يشاهدها أهل المحشر، وهي وإن اندكت عند النفخة الأولى ولكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية. والمعنى: إن الناس من هول ذلك اليوم يكونون منتشرين حيارى هائمين على وجوههم، لا يدرون ماذا يفعلون، ولا ماذا يراد بهم، كالفراش الذي يتجه إلى غير جهة واحدة، بل تذهب كل فراشة إلى جهة غير ما تذهب إليها الأخرى. وإن الجبال لتفتتها وتفرق أجزائها لم يبق لها إلا صورة الصوف المنفوش الذي نفش ففرقت شعراته بعضها عن بعض حتى صار على حال يطير مع أضعف ريح، فلا تلبث الجبال أن تذهب وتتطاير، فكيف يكون الإنسان حين حدوث القارعة، وهو ذلك الجسم الضعيف السريع الانحلال؟.

وقد كثر في القرآن ذكر حال الجبال يوم القيامة فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ وقال: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ وقال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ كل ذلك ليبين أن هذه الأجسام العظيمة التي من طبعها الاستقرار

والثبات تؤثر فيها هذه القارعة، فما بالك أيها المخلوق الضعيف الذي لا قوة له؟ فمراتب الجبال ثلاثة: تفتتها أولاً، ثم صيرورتها كالعهن، ثم صيرورتها هباءً منبثاً كما بينه ذو الجلال في سورة النمل، ونص عبارته هناك: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾؛ أي: المطر إذا ضربته الريح، أي: تسير مسيرة حتى تقع على الأرض فتستوي بها مبسوسة، ثم تصير كالعهن، ثم تصير هباءً منثوراً، اهـ. وفي هذا تحذير للإنسان وتخويف له كما لا يخفى. وبعد أن ذكر أوصاف هذا اليوم بما يكون من أحوال بعض الخلائق.. أعقب ذلك بذكر الجزاء على الأعمال، فقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾: جمع الموزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله تعالى، أو جمع ميزان. وثقلها رجحانها؛ لأن الحق ثقيل والباطل خفيف، والجمع للتعظيم، أو لأن لكل مكلف ميزاناً، أو لاختلاف الموزونات وكثرتها.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن ميزانه له لسان وكفتان، لا يوزن فيه إلا الأعمال ليبين الله أمر العباد بما عهدوه فيما بينهم، قالوا: توضع فيه صحف الأعمال إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة، أو تبرز الأعمال العرضية بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح؛ يعني: يؤتىٰ بالأعمال الصالحة على صور حسنة، وبالأعمال السيئة على صور سيئة، فتوضع في الميزان؛ أي: فمن ترجحت حسناته.. ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧﴾؛ أي: عشية طيبة، فهو من قبيل الإسناد إلى السبب؛ لأن العيش سبب الرضى من منَعَّم العيش، وقال بعضهم: معنىٰ راضية؛ أي: راضٍ عنها صاحبها، يقال: ثَقُل ميزان[1] فلان، إذا كان له قدرومنزلة رفيعة، كأنه إذا وضع في ميزان كان له به رجحان، وإنما يكون المقدار والقيمة لأهل الأعمال الصالحة والفضائل الراجحة، فهؤلاء يجزون النعيم المقيم الدائم، ويكونون في عيشة راضية تقر بها أعينهم وتسر بها نفوسهم، ويرى بعض المفسرين: أن الذي يوزن هو الصحف التي تكتب فيها الحسنات والسيئات ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧﴾؛ أي: عيشة طيبة مرضية له وحياة هنيئة يتقلب فيها قال البقاعي: ولعله ألحقها بالهاء الدالة على الوحدة، والمراد: العيش، ليُفهم أنها على حالة واحدة في الصفاء واللذة وليست ذات ألوان كحياة الدنيا؛ لأن أُمه أو مسكنه جنة

---

(١) المراغي.

عالية، ومعنى ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي: ذات رضا، بأن يرضاها صاحبها على أنها للنسب كلابن وتامر.

ولما ذكر نعيم أهل الخير أردفه عقاب أهل الشر، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾ بأن لم يكن له حسنة يعشو بها، أو ترجحت على حسناته، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة.. دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة.. دخل النار ﴿فَأُمُّهُۥ﴾؛ أي: مأواه ﴿هَاوِيَةٌ﴾: هي من أسماء النار، سميت[1] بها لغاية عمقها وبعد مهواها. روي: أن أهل النار يهوون فيها سبعين خريفاً. وعبر عن المأوى بالأم لأن أهلها يأوون إليها كما يأوي الولد إلى أمه، وفيه تهكم به، أو لأنها تحيط به إحاطة رحم الأم بالولد، أو لأن الأم هي الأصل والكافر خلق من النار، وكل شيء يرجع إلى أصله، وهو اللائح. وفي «الكشاف» من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة. هوت أمه؛ لأنه إذا هوى؛ أي: سقط وهلك.. فقد هوت أمه ثكلاً وحزناً، فكأنه قيل: فقد هلك، وعن قتادة: ﴿فَأُمُّهُۥ﴾؛ أي: فأم رأسه ﴿هَاوِيَةٌ﴾؛ أي: ساقطة في جهنم؛ لأنه يطرح فيها منكوساً. وأم الرأس: الدماغ أو الجلدة الرقيقة التي عليها، يقال خف ميزانه؛ أي: سقطت قيمته، فكأنه ليس بشيء حتى لو وضع في كفة ميزان لم يرجح بها على أختها، ومن كان في الدنيا كثير الشر قليل فعل الخير فدس نفسه بالشر واجتراح المعاصي وعاث في الأرض فساداً. لم يكن شيئاً، فلا ترجح له كفة ميزان لو وضع فيها، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾؛ أي: حسناته بسبب ثقل سيئاته.

وبقي قسم ثالث غير مذكور في الآية وهو[2]: من استوت حسناته وسيئاته، وفي «المناوي» فمن رجحت حسناته بسبب زيادتها على السيئات فهو في الجنة بغير حساب، ومن استوت حسناته وسيئاته فيحاسب حساباً يسيراً، ومن رجحت سيئاته على حسناته؛ أي: بسبب زيادتها.. فيشفع فيه أو يعذب اهـ. وعلى الجملة[3]: فعلينا أن نؤمن بما ذكره الله تعالى من الميزان في هذه الآية وفي قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ومن وزن الأعمال وتمييز مقدار لكل عمل، وليس علينا

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات. (٣) المراغي.

أن نبحث وراء ذلك، فلا نسأل كيف يزن ولا كيف يقدر؛ فهو أعلم بغيبه ونحن لا نعلم. أما إن الميزان له لسان وكفتان.. فهذا لم يرد به نص عن المعصوم يلزمنا التصديق به، وكيف يوزن بهذا الميزان الذي تعلمه الإنسان في مهد البداوة الأولىٰ ويترك ما هو أدق منه مما اخترع فيما بعد وهدى إليه الناس؟ علىٰ أن جميع ما عمله البشر فهو ميزان للأثقال الجسمانية لا ميزان للمعاني المقولة كالحسنات والسيئات، فلنفوض أمر ذلك إلى الله تعالى عالم الغيب. و﴿الهاوية﴾: اسم طبقة من طبقات النار السبع وهي آخرها، والمراد من كون أمه هاوية: أن مرجعه الذي يأوي إليه مهواة سحيقة في جهنم يهوي فيها كما يأوي الولد إلى أمه، قال: أمية بن أبي الصلت:

وَٱلأَرْضُ مَعْقِلُنَا وَكَانَتْ أُمَّنَا ... فِيْهَا مَقَابِرُنَا وَفِيْهَا نُوْلَدُ

وقال الآخر:

يَا عَمْرُوْ لَوْ نَالَتْكَ أَرْمَاحُنَا ... كُنْتَ كَمَنْ تَهْوِيْ بِهِ ٱلْهَاوِيَهْ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ بضم الهمزة، وطلحة بكسرها، قال ابن خالويه وحكى ابن دريد: أنها لغة، وأما النحويون.. فإنهم يقولون: لا يجوز كسر الهمزة إلا أن يتقدمها كسرة أو ياء، انتهى. والمهوىٰ والمهواة ما بين الجبلين، وتهاوى القوم في المهواة إذا سقط بعضهم في إثر بعض.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ يا محمد ﴿مَا﴾؛ أي: جواب ما الهاوية وما حقيقتها، فضمير ﴿هي﴾[2] يعود إلى ﴿الهاوية﴾ و﴿الهاء﴾ للسكت والاستراحة والوقف، وإذا وصل القارىء.. حذفها وقيل: حقه أن لا يدرج لئلا يسقطها الإدراج؛ لأنها ثابتة في المصحف، وقد أجيز إثباتها مع الوصل، قال أبو الليث: قرأ حمزة والكسائي بغير هاء في الوصل، وبالهاء عند الوقف، والباقون بإثباتها في الوصل والوقف، وقد سبق مفصلاً في الحاقة. والاستفهام هنا للتهويل والتفظيع ببيان أنها خارجة عن حدود المعهود، فلا يدريها أحد، ثم أعلمها بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾؛ أي: هي نار متناهية نهاية الحرارة، يقال: حمي الشمسُ والنارُ حَمْياً وحُمِيّاً وحموًا، إذا اشتد

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

حرهما، والمعنى أي: وأي شيء يخبرك بما هي تلك الهاوية وأنها أي شيء تكون؟ ثم فسرها بعد إبهامها، فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾؛ أي: هي نار ملتهبة يهوي فيها ليلقىٰ جزاء ما قدم من عمل وما اجترح من سيئات. وفي هذا إيماء إلى أن جميع النيران إذا قيست بها ووزنت حالها بحالها.. لم تكن حامية، وذلك دليل على قوة حرارتها وشدة استعارها، وقانا الله سبحانه شر هذه النار الحامية، وآمننا من سعيرها بمنه وكرمه.

الإعراب

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾: مبتدأ أول، ﴿مَا﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجيبي في محل الرفع مبتدأ ثان، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني مع خبره للأول، والرابط: تكرار لفظ المبتدأ الأول، وجملة الأول مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ما﴾: اسم استفهام للاستفهام التعظيمي في محل الرفع مبتدأ، ﴿أدرى﴾: فعل ماض، و﴿الكاف﴾: في محل النصب مفعول أول لـ﴿أدرىٰ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ وهو الرابط، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن ﴿ما﴾ الاستفهامية والجملة الاستفهامية معطوفة على ما قبلها، ﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ خبرها، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد مفعولَي ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ الثاني والثالث، معلقة عنهما باسم الاستفهام؛ لأن أدرىٰ ينصب ثلاثة مفاعيل؛ لأنه بمعنى أعلم ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، متعلّق بمحذوف دلّ عليه لفظ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾، تقديره تقرع القلوب يوم يكون الناس... إلخ، ولا يجوز أن يكون متعلقاً بالقارعة الأول؛ للفصل بينهما بالخبر، ولا بالثاني والثالث؛ لعدم التئام الظرف معهما من حيث المعنى ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص ﴿ٱلنَّاسُ﴾: اسمها ﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾: خبرها ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ صفة للفراش، وجملة ﴿يَكُونُ﴾ في محل الجر بإضافة الظرف إليها، ويجوز أن تكون ﴿يَكُونُ﴾ تامة و﴿ٱلنَّاسُ﴾: فاعلاً و﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾: حالاً من فاعل

﴿يَكُونُ﴾ التامة؛ أي: يوجدون ويحشرون حال كونهم كالفراش، ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾: خبره، ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾: صفة لـ﴿العهن﴾، والجملة الناقصة في محل الخفض معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿فَأَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك من أحوال الناس في يوم القيامة وأردت بيان مآلهم.. فأقول لك: أما من ثقلت إلخ ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ أول، ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿فَهُوَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها للثقل، ﴿هو﴾ مبتدأ ثان، ﴿فِى عِيشَةٍ﴾: خبره، ﴿رَّاضِيَةٍ﴾: صفة لـ﴿عِيشَةٍ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أما﴾: حرف شرط ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ أول ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ ﴿أمه﴾: مبتدأ ثان ﴿هَاوِيَةٌ﴾: خبره والجملة الثانية في محل الرفع خبر للأول وجملة الأول جواب ﴿أما﴾ الشرطية، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾ ومفعول أول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن ﴿ما﴾ الاستفهامية، والجملة الاستفهامية معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الثانية، ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿هيه﴾ ﴿هي﴾ ضمير للمفرد المؤنثة الغائبة في محل الرفع خبر لـ﴿ما﴾ الاستفهامية، و﴿الهاء﴾ حرف سكت لا محل لها من الإعراب، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد المفعولين الثاني والثالث لـ﴿أدرى﴾ معلقة عنها باسم الاستفهام، ﴿نَارٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي نارٌ ﴿حَامِيَةٌۢ﴾: صفة لـ﴿نَارٌ﴾ والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره مستأنفة استئنافاً

بيانياً لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾: القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها، من القرع وهو الضرب بشدة واعتماد، بحيث يحصل منه صوت شديد، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة والمراد بها ههنا: القيامة كما مر. وفي «المختار»: قرع من باب قطع، والقارعة الشديدة من شدائد الدهر، وهي الداهية، وفي «المصباح»: وقرعت الباب قرعاً، بمعنى طرقته ونقرت عليه. ﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾: وفي «القاموس»: والفراشة ـ بفتح الفاء ـ الطير التي تتهافت في السراج، والجمع فراش، ومن القفل ما ينشب فيه، وكل عظم رقيق، والماء القليل، والرجل الخفيف، وقرية بين بغداد والحلة، وموضع بالبادية، وعلم، ودرب فراشة محلة ببغداد، والفراش كسحاب ما يبس بعد الماء من الطين على الأرض، ومن النبيذ: الحبب الذي يبقى عليه، وعرقان أخضران تحت اللسان، والحديدتان يربط بهما العلوان في اللجام، وبالكسر: ما يفرش، ويجمع على فُرُش، وزوجة الرجل، قيل ومنه: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤﴾ وعش الطائر وموقع اللسان في قعر الفم، وقد خلط صاحب المنجد فمزج الفراشة والفراش في مادة واحدة، وجعل معاني الفراش الرجل الخفيف وإنما هو فراشة. ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾: المتفرق المنتشر، ويقال: بسط فلان خبره وبثه وبقه، إذا وسعه، قال:

وَبَسَطَ ٱلْخَيْرَ لَنَا وَبَقَّهُ   فَٱلنَّاسُ طُرّاً يَأْكُلُونَ رِزْقَهُ

﴿كَٱلْعِهْنِ﴾: العهن الصوف الأحمر، واحدها عهنة، ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾: اسم مفعول من النَّفْش، وهو كما في «القاموس» تشعيث الشيء بأصبعك حتى ينتشر كالتنفيش، والنَّفَش ـ بالتحريك ـ الصوف، وعبارة ابن خالويه: يقال: نفشت الصوف والقطن وسبخته إذا نفشته وخففته كما يفعل النادف. ويقال لقطع القطن وما يتساقط عند الندف: السبيخة، وجمعها سبائخ، ويقال: سبخ الله عنك الحمى؛ أي: خففها وسَلَّها عنك. ومن ذلك: أن النبي ﷺ رأى عائشة تدعو على سارق سرقها، فقال: «لا تُسبِّخي عنهُ بِدُعائِكِ عَلَيْهِ» وعبارة القرطبي: كالصوف الذي ينفش باليد، اهـ. وهي أنسب باللغة؛ فإن النفش يكون باليد من غير آلة، والندف يكون بالآلة.

وفي «القاموس» أيضاً: ندف القطن يندفه ـ من باب ضرب ـ ضربه بالمندف، والمندفة بكسر أولهما؛ أي: بالخشبة التي يطرق بها الوتر ليرق القطن، وهو مندوف ونديف اهـ.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾: وقد اختلف في الموازين هنا، فقيل: جمع موزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله، وبه قال الفراء وغيره. وقيل: هي جمع ميزان وهو الآلة التي توضع فيها صحائف الأعمال، وعبر عنه بلفظ الجمع كما يقال لكل حادثة ميزان، وقيل: المراد بالموازين الحجج والدلائل، كما في قول الشاعر:

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذَا مِرَّةٍ   عِنْدِيْ لِكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيْزَانُهُ

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾؛ أي: في حياة طيبة، وفي «المختار»: العيش: الحياة، وقد عاش يعيش ـ من باب سار ـ عيشاً وعيشة ومعاشاً ـ بالفتح ـ ومعيشاً بوزن مبيت، وأعاشه الله عيشة راضية، والمعيشة جمعها معايش بلا همزة إذا جمعتها على الأصل، وأصلها مَعْيشة، بوزن مَفْعلة، والياء متحركة أصلية، فلا تقلب في الجمع همزة، وإن جمعتها على الفرع.. همزت وشبهت مفعلة بفعلية كما همزت المصائب؛ لأن الياء ساكنة، ومن النحويين من يرىٰ الهمز لحناً. والتعيُّش: تكلف أسباب العيش. وعائشة مهموزة، ولا تقل: عَيْشة. اهـ. ﴿رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: مرضية لصاحبها، فهي فاعلة بمعنىٰ مفعولة. ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾؛ أي: فمأواه هاوية، فهو من قبيل زيد أسد، شبهت النار للعصاة بالأم لكونها تهوي بهم فتضمهم إلى نفسها كما تضم الأم الأولاد إليها، اهـ «زاده».

وعبارة الخطيب: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ أي: نار نازلة سافلة جداً فهو بحيث لا يزال يهوى فيها نازلاً فهو في عيشة ساخطة، فالآية من الاحتباك، ذكر العيشة أولاً دليلاً على حذفها ثانياً وذكر الأم ثانياً دليلاً على حذفها أولاً، والهاوية اسم من أسماء جهنم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ تهويلاً من شأنها وتفخيماً لفظاعتها.

ومنها: الاستفهام التعجيبي في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ لغرض التفخيم.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ تأكيداً للتهويل، والأصل أن يقال: القارعة ما هي؟.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ ففيهما تشبيهان رائعان، وهو تشبيه مرسل مجمل؛ لأن وجه الشبه حذف فيهما، ففي الأول وجوه الشبه كثيرة منها:

١ ـ الطيش الذي لحقهم.

٢ ـ وانتشارهم في الأرض.

٣ ـ وركوب بعضهم بعضاً.

٤ ـ الكثرة لاغناء فيها.

٥ ـ والضعف والتذلل وإجابة الداعي من كل جهة.

٦ ـ والتطاير إلى النار للاحتراق من حيث لا تريد الاحتراق.

وفي تشبيه الجبال بالعهن المنفوش أوجه كثيرة أيضاً، منها:

١ ـ تفتتها وانهيارها.

٢ ـ صيرورتها كالعهن.

٣ ـ ثم صيرورتها كالهباء.

وقد تشبث الشعراء بهذه المعاني، فقال جرير يهجو الفرزدق:

أَبْلِغْ بَنِيْ وَقْبَانَ أَنَّ حُلُوْمَهُمْ ... خَفَّتْ فَمَا يَزِنُوْنَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

أَزْرَىٰ بِحِلْمِكُمُ ٱلْفِيَاشُ فَأَنْتُمُ ... مِثْلُ ٱلْفَرَاشِ غَشِيْنَ نَارَ ٱلْمُصْطَلِيْ

وقال أبو العلاء المعري في رثاء والده:

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَحِقُّ وَقَارُهُ   إِذَا صَارَ أُحْدٌ فِيْ ٱلْقِيَامَةِ كَٱلْعِهْنِ
وَهَلْ يَرِدُ ٱلْحَوْضَ ٱلرَّوِيَّ مُبَادِراً   مَعَ ٱلنَّاسِ أَمْ يَأْبَىٰ ٱلزِّحَامَ فَيَسْتَأْنِيْ

ومنها: جمع الموازين في قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾﴾ للتعظيم، أو لأن لكل مكلف ميزاناً أو لاختلاف الموزونات وكثرتها، كما مر.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ ثم قابلها بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾ وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ففيه إسناد ما للشيء إلى محله؛ لأن الذي يرضى بها الذي يعيش فيها، ففيها إسناد مجازي علاقته المحلية نحو: نهاره صائم وليله قائم.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ وقوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾؛ وهو: أن يحذف من كل من المتقابلين نظير ما أثبته في الآخر، فحذف هنا من الأول: فأمه الجنة، وذكر فيه ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ وحذف من الثاني فهو في عيشة ساخطة، وذكر فيه فأمه هاوية فحذف من كل منهما نظير ما أثبته في الآخر، وهو من المحسنات البديعة.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾، أو لأنها تحيط به إحاطة رحم الأم بالولد، كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة القارعة قبيل العشاء في ليلة الاثنين السادس والعشرين من شهر ذي الحجة من شهور سنة ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم وعلى آله وصحبه ما سُطِرت السطور وشُرِحت الصدور بمعاني كتابه الكريم. آمين.

سورة التكاثر

سورة التكاثر مكية عند الجميع، نزلت بعد سورة الكوثر، وروىٰ البخاري: أنها مدنية، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزل بمكة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ①﴾.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها[1]: أنه في السابقة وصف القيامة وبعض أحوالها، وجزاء الأخيار والأشرار، وأن في هذه ذكر الجحيم وهي: الهاوية التي ذكرت في السورة السابقة، وذكر السؤال عما قدم المرء من الأعمال في الحياة الدنيا، وهذا بعض أحوال الآخرة.

وهي ثمان آيات، وثمان وعشرون كلمة، ومئة وعشرون حرفاً. وسميت بسورة التكاثر لذكر لفظ التكاثر فيها، وقال محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة التكاثر كلها محكمة، لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

فضلها: ومما ورد في فضلها[2]: ما أخرجه الحاكم والبيهقي في «الشُّعَب» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم» قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قال: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ: ألهاكم التكاثر؟» وأخرج الخطيب في «المتفق والمفترق» والديلمي عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ألف آية.. لقي الله وهو ضاحك في وجهه» قيل: يا رسول الله، ومن يقوى على ألف آية؟ فقرأ: «بسم الله الرحمٰن الرحيم: ألهاكم التكاثر... إلى آخرها، ثم قال: والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ألف آية». ومنه ما أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم، عن عبد الله بن الشخير قال: وانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ ألهاكم التكاثر. وفي لفظ: وقد أنزلت عليه ألهاكم التكاثر، فقال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت؟» وأخرجه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة ـ ولم يذكر فيه قراءة هذه السورة ولا نزولها ـ: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاثة:

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

ما أكل فأفنى، وما لبس فأبلى، أو تصدق فأَبقىٰ، وما سوى ذلك.. فهو ذاهب وتاركه للناس». ومنه ما أخرجه الحكيم، والترمذي في «نوادر الأصول»، والبيهقي في «الشعب» وضعفه عن جرير بن عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إني قارىء عليكم سورة ألهاكم التكاثر، فمن بكى.. فله الجنة» فقرأها فمنا من بكى ومنا من لم يبك، فقال الذين لم يبكوا: قد جهدنا يا رسول الله أن نبكي فلم نقدر عليه، فقال: «إني قارئها عليكم الثانية، فمن بكى.. فله الجنة، ومن لم يقدر أن يبكي.. فليتباكَ».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بريدة قال: نزلت ألهاكم التكاثر في قبيلتين من الأنصار؛ وهما: بنو حارثة، وبنو الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: أفيكم مثل فلان وفلان، وقالت الأخرى: مثل ذلك تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول: أفيكم مثل ذلك وتشير إلى القبر ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله تعالى هذه السورة، وقيل غير ذلك.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾؛ أي: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد والتفاخر بكثرتها والتغالب فيها يقال: ألهاه عن كذا، وألهاه إذا شغله، ومنه قول امرىء القيس:

فَمِثْلَكِ حُبْلَىٰ قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ   فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِيْ تَمَائِمَ مُحْوِلِ

يقال[1]: لهوت بكذا، ولهوت عن كذا؛ أي: اشتغلت عنه بلهو، واللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، ويعبر به عن كل ما به استمتاع، ويقال: ألهى عن كذا؛ أي: شغل عما هو أهم، والتكاثر التباري في الكثرة والتباهي بها، وأن يقول هؤلاء: نحن أكثر، وهؤلاء: نحن أكثر، والمعنى: شغلكم عن الآخرة التغالب في الكثرة والتفاخر بها. قال الحسن: معنى ألهاكم: أنساكم ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾؛ أي: حتى أدرككم الموت وأنتم على تلك الحال ولحقتم بالقبور، وقال قتادة: إن

(١) روح البيان.

التكاثر والتفاخر بالقبائل والعشائر، وقال الضحاك: ألهاكم التشاغل بالمعاش، وقال مقاتل وقتادة أيضاً وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا، وقال الكلبي: نزلت في حيين من قريش بني عبد مناف وبني سهم تعادَوا وتكاثروا بالسيادة والأشراف في الإسلام، فقال كل حي منهم: نحن أكثر سيداً، وأعز عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر قائداً، فكثر بنو عبد مناف على بني سهم، ثم تكاثروا بالأموات، فكثرتهم بهم، فنزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ فلم ترضوا ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ مفتخرين بالأموات، وقيل: نزلت في حيين من الأنصار كما مر، والمقابر جمع مقبرة بفتح الباء وضمها.

وفي الآية: دليل[1] على أن الاشتغال بالدنيا والمكاثرة بها والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة، وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ وحذف[2] المُلهىٰ عنه؛ أي: الذي أُلهِيَ عنه وهو ما يعنيهم من أمر الدنيا للتعظيم، والمبالغة، أما الأول فلأن الحذف كالتنكير قد يُجعل ذريعة إلى التعظيم لاشتراكهما في الإبهام، وأما الثاني فلأن تذهب النفس كل مذهب ممكن، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام مثل: ألهاكم التكاثر عن ذكر الله وعن الواجبات، والمندوبات مما يتعلق بالقلب كالعلم والتفكر والاعتبار، أو بالجوارح كأنواع الطاعات، وتعريف التكاثر للعهد. والعهد المذموم هو التكاثر في الأمور الدنيوية الفانية، كالتفاخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء، وأما التفاخر بالأمور الأخروية الباقية، فممدوح، كالتفاخر بالعلم والعمل والأخلاق الكريمة والصحة والقوة والغنى والجمال وحسن الصوت إذا كان بطريق تحديث النعمة، ومنه تفاخر العباس ـ رضي الله عنه ـ بأن السقاية بيده، وتفاخر شيبة بأن مفتاح البيت بيده إلى أن قال علي ـ رضي الله عنه ـ: وأنا قطعت خرطوم الكفر بسيفي، فصار الكفر مثلة، ومعنى ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: مكاثرة اثنين مالاً أو عدداً بأن يقول كل منهما لصاحبه: أنا أكثر منك مالاً وأعظم نفراً، كما كثر بنو عبد مناف على بني سهم، كما سبق آنفاً.

والمعنى: أنكم تكاثرتم بالأحياء حتى زرتم المقابر؛ أي: استوعبتم عددهم وصرتم إلى التفاخر والتكاثر بالأموات، فعبر عن انتقالهم إلى ذكر الموتى بزيارة

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

القبور؛ أي: جُعلت كناية عنه تهكماً بهم. قال الطيبي: إنما كان تهكماً؛ لأن زيارة القبور شُرعت لتذكر الموت ورفض حب الدنيا، وترك المباهاة والمفاخرة، وهؤلاء عكسوا حيث جعلوا زيارة القبور سبباً لمزيد القسوة والاستغراق في حب الدنيا، والتفاخر في الكثرة، وهذا خبر فيه تقريع وتوبيخ، والغاية تدخل تحت[1] المغيَّا في هذا الوجه، وقيل المعنى: ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم مضيِّعين أعماركم في طلب الدنيا معرضين عما يهمكم من السعي لأخراكم، فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت، والتكاثر هو التكاثر بالمال والولد.

وفي الآية: إشارة إلى أنهم يُبعثون، فإن الزائر منصرف لا مقيم، وقرأها عمر بن عبد العزيز، فقال: ما أرى المقابر إلا زيارة، ولا بد لمن زار أن يرجع إلى بيته إما إلى الجنة أو إلى النار، وفيه تحذير عن الدنيا وترغيب في الآخرة والاستعداد للموت.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ على الخبر، وقرأ ابن عباس وعائشة ومعاوية وأبو عمران الجوني وأبو صالح ومالك بن دينار وأبو الجوزاء وجماعة بالمد على الاستفهام، وقد روي كذلك عن الكلبي ويعقوب وعن أبي بكر الصديق وابن عباس أيضاً وأبي العالية وابن أبي عبلة والكسائي في رواية: ﴿أألهاكم﴾ بهمزتين، ومعنى الاستفهام التوبيخ والتقريع على قبح فعلهم.

وحاصل معنى الآية: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ①﴾؛ أي: شغلكم[3] التفاخر والتباهي بكثرة الأنصار والأشياع وصرفكم ذلك عن الجد في العمل، فكنتم في لهو بالقول عن العمل، وفي غرور وإعجاب بالآباء والأعوان وصرفكم ذلك عن توجيه قواكم إلى العمل بما فُرض عليكم من الأعمال لأنفسكم وأهليكم، وما زال ذلك ديدنكم ودأبكم الذي سرتم عليه.

وروى مسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ②﴾؛ أي: حتى هلكتم وصرتم من الموتى، فأضعتم

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

أعماركم فيما لا يُجدي فائدة، ولا يعود عليكم بعائدة، في حياتكم الباقية الخالدة، قال العلماء: إن زيارة القبور من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر بالموت والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها، ومن ثم قال ﷺ: «كنت نهيكتم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تزهد في الدنيا وتذكركم الآخرة».

كما لا خلاف في منع زيارتها إذا حدث في ذلك منكرات وأشياء مما نهى عنه الشرع، كاختلاط الرجال بالنساء وحدوث فتن لا تحمد عقباها، ثم نبههم إلى خطأ ما هم عليه، وزجرهم عن البقاء على تلك الحال التي لها وخيم العاقبة، فقال: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ ﴿كَلَّا﴾ ردع[1] عما هم عليه من التكاثر؛ أي: ليس الأمر كما يتوهم هؤلاء من أن فضل الإنسان وسعادته بكثرة أعوانه وقبائله وأمواله؛ أي: ارتدعوا عن هذا وتنبهوا عن الخطأ به، وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن لا يكون معظم همه مقصوراً على الدنيا، فإن عاقبة ذلك وبال وحسرة ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول المحشر، فالعلم بمعنى المعرفة، ولذا قُدر له مفعول واحد، وهذا إنذار وتخويف ليخافوا وينتبهوا من غفلتهم.

قال الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ: لا يغرنك كثرة من ترىٰ حولك، فإنك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك، والمعنى؛ أي[2]: ازدجروا عن مثل هذا العمل الذي لا تكون عاقبته إلا القطيعة والهجران والضغينة والأحقاد، وَٱلْجَؤوا إلى التناصر على الحق، والتكاتف على أعمال البر، والتضافر على ما فيه حياة الأفراد والجماعات من تقويم الأخلاق وتطهير الأعراق، وإنكم سوف تعلمون عاقبة ما أنتم فيه من التكاثر إذا استمر بكم هذا التفاخر بالباطل بدون عمل صالح نافع لكم في العقبى، ثم أكد هذا وزاد في التهديد، فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ كرر الردع تأكيداً للزجر والإنذار، وفي ﴿ثُمَّ﴾[3] دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول؛ لأن فيه تأكيداً خلا عنه الأول؛ لأن فيه تنزيلاً لبعد المرتبة، مرتبة بعد الزمان، واستعمالاً للفظ ﴿ثُمَّ﴾ في مجرد التدرج في درج الارتقاء، كما تقول للمنصوح:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل، أو الأول عند الموت في وقت ما بشر به المحتضر من جنة أو نار، وفي القبر حين سؤال منكر ونكير: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ والثاني عند النشور حين ينادي المنادي: شقي فلان شقاوة لا سعادة بعدها، وحين يقال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾، فعلى هذا لا تكرار في الآية لحصول التغاير بينهما بتغاير زمانَي العِلْمَين ومتعلقيهما، فإنه يلقى في كل واحد من الزمانين نوعاً آخر من العذاب، و﴿ثُمَّ﴾ على بابها من المهلة لتباعد ما بين الموت والنشور، وكذا ما بين القبور والنشور.

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة إلى قوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾؛ أي: سوف تعلمون في القبر ثم في القيامة. ﴿كَلَّا﴾ تكرير للتنبيه تأكيداً ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾؛ أي: لو تعلمون الأمر الذي أنتم صائرون إليه علماً يقيناً لعلمكم ما هو متيقن عندكم في الدنيا.. لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر، أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير، وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه، و﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع الثالث للزجر والردع كالموضعين الأولين جيء بها للتأكيد، وقال الفراء: هي[1] بمعنى حقاً، وقيل: هي في المواضع الثلاثة بمعنى ألا، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف كما قدرنا للتهويل، فإنه إذا حُذف الجواب يذهب الوهم كل مذهب ممكن، و﴿عِلْمَ﴾ مصدر أضيف إلى مفعوله، و﴿الْيَقِينِ﴾: صفة لذلك المفعول، وهو المتيقَّن به؛ أي: لو تعلمون ما بين أيديكم من الأهوال علم الأمر المتيقن به كمال التيقن حتى كأنه عين اليقين.. لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر، لكنكم ضُلاَّل جهلة، فاليقين بمعنى المتيقن به، وإلا فيلزم إضافة أحد المترادفين إلى الآخر؛ إذ العلم في اللغة بمعنى اليقين، ويمكن أن تكون الإضافة فيه من إضافة العام إلى الخاص بناء على أن اليقين أخص من العلم، فإن العلم قد يعم الظن واليقين، فتكون إضافته كإضافة بلد بغداد، ويدل قولهم: العلم اليقين بالوصف.

والمعنى: أي[2] ارتدعوا عن تغريركم بأنفسكم، فإنكم لو تعلمون عاقبة أمركم لشغلكم ذلك عن التكاثر، وصرفكم إلى صالح الأعمال، وإن ما تدَّعونه علماً ليس

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

في الحقيقة بعلم، وإنما هو وهم وظن. لا يلبث أن يتغير؛ لأنه لا يطابق الواقع، والجدير بأن يسمى علماً هو علم اليقين المطابق للواقع بناء على العيان والحس، أو الدليل الصحيح الذي يؤيده العقل والنقل الصحيح عن المعصوم ﷺ، وإنما ذكر سبحانه هذا زيادة في زجرهم عن تغريرهم بأنفسهم، فقد جرت عادة الغافلين أنهم إذا ذكروا بعواقب حالهم أن يقولوا إنهم يعلمون العواقب وإنهم في منتهى اليقظة وسداد الفكرة، ثم ذكر لهم بعض ما ينتهي إليه هذا اللهو، وهو عذاب الآخرة بعد خزي الدنيا، فقال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ جواب قسم محذوف، أكد به الوعيد حيث إن ما أوعدوا به مما لا مدخل فيه للريب، وشدد به التهديد، وأوضح به ما أنذروه بعد إبهامه تفخيماً، تقديره: والله لترون الجحيم في الآخرة بأبصاركم، ولا يجوز أن يكون جواب ﴿لَوْ﴾: لأن رؤية الجحيم مثبتة محققة الوقوع وليست بمعلقة. قال الرازي: وليس هذا جواب ﴿لَوْ﴾؛ لأن جواب ﴿لَوْ﴾ يكون منفياً وهذا مثبت، ولأنه عطف عليه.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾: وهو مستقبل لا بد من وقوعه، وحذف جواب ﴿لَوْ﴾ كثير، فلو جعل جواب ﴿لَوْ﴾ لكان المعنى: إنكم لا ترونها لكونكم جهالاً، وهو غير صحيح، وقال بعضهم: يصح أن يكون جواباً، فيكون المعنى: سوف تعلمون الجزاء، ثم قال: لو تعلمون الجزاء علم اليقين الآن لترون الجحيم يعني: يكون الجحيم دائماً في نظركم لا يغيب عنكم أصلاً اهـ.

والرؤية هنا بصرية؛ أي: وعزتي، وجلالي: إنكم لترون الجحيم بأبصاركم بعد الموت، فلذلك تعدت إلى مفعول واحد، ثم كرر الوعيد والتهديد للتأكيد، فقال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾؛ أي: ثم لترون الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين، وهي المشاهدة والمعاينة، وقيل: الأولى[1] إذا رأوها من مكان بعيد ببعض خواصها وأحوالها مثل رؤية لهبها ودخانها، والثانية إذا أُوردوها، فإن معاينة نفس الحفرة وما فيها من الحيوانات المؤذية وكيفية السقوط فيها أجلى وأكشف من الرؤية الأولى، فعلى هذا يتنازع الفعلان في عين اليقين، أو المراد بالأولى المعرفة، وبالثانية المشاهدة، والمعاينة.

---

(١) روح البيان.

وقوله: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾؛ أي[1]: الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن علم المشاهدة للمحسوسات أقصى مراتب اليقين، فلا يرد أن أعلى اليقينيات الأوليات وهي ما يحكم فيها العقل من أول وهلة لعدم توقفها على شيء بعد تصدر الطرفين، وتسمى الضروريات كقولهم: السكين قاطع، والسماء فوقنا، والأرض تحتنا اهـ «صبان» بتصرف.

وإنما قيَّد الرؤية بعين اليقين احترازاً عن رؤية فيها غلط الحس، فانتصاب ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ على أنه صفة المصدر ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾، وجعل الرؤية التي هي سبب اليقين نفس اليقين مبالغة.

والمعنى: أي[2] لترونها رؤية هي اليقين إلى أي دين، أو إلى أي شخص كانت نسبتكم، فلتتقوا الله ربكم ولتنتهوا عما يقذف بكم فيها، ولتنظروا إلى ما أنتم فيه من نعمة، ولترعوا حق الله فيها، فاستعملوها فيما أمر أن تُستعمل فيه، ولا تجترحوا السيئات، ولا تقترفوا المنكرات، وإنكم لتمنون أنفسكم بأنكم ممن يعفو الله عنكم ويزحزحكم من النار بمجرد نسبتكم إلى الدين الإسلامي، وتلقيبكم بألقابه مع مخالفتكم أحكام القرآن وعملكم عمل أعداء الإسلام.

وقرأ ابن عامر والكسائي[3]: ﴿لترون﴾ بضم التاء وباقي السبعة بالفتح، وقرأ علي وابن كثير في رواية، وعاصم في رواية بفتحها في: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ وضمها في: ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾ ومجاهد والأشهب وابن أبي عبلة بضمهما، وروي عن الحسن وأبي عمرو بخلاف عنهما أنهما همزا الواوين، استثقلوا الضمة على الواو، فهمزوا كما همزوا في: وقتت، وكان القياس أن لا تهمز؛ لأنها حركة عارضة لالتقاء الساكنين، فلا يعتد بها، لكنها لما تمكنت من الكلمة بحيث لا تزول أشبهت الحركة الأصلية فهمزوا، وقد همزوا من الحركة العارضة ما يزول في الوقت نحو: استرؤوا الصلاة فهمز هذه أولى.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ⑧﴾ قال في «التيسير»: كلمة[4] ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

(٤) روح البيان.

في الإخبار لا في الوجود، فإن السؤال بأنك أشكرت على تلك النعمة أم كفرت يكون في موقف الحساب قبل دخول النار، والمعنى: ثم لتسألن يوم رؤية الجحيم وورودها عن النعيم الذي ألهاكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه، فتعذبون على ترك الشكر، فإن الخطاب في ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ مخصوص بمن عكف همته على استيفاء اللذات ولم يعش إلا ليأكل الطيب ويلبس اللين، يقَطِّعُ أوقاته باللهو والطرب لا يعبأ بالعلم والعمل، ولا يحمِّل على نفسه مشاقهما، فإن من تمتع بنعمة الله وتقوَّى بها على طاعته وكان ناهضاً بالشكر، فهو من ذلك بمعزل بعيد، فدخل في الآية كفار مكة ومن لحق بهم في وصفهم من فسقة المؤمنين، وقيل: الآية مخصوصة بالكفار، وقال بعضهم: المراد بالنعيم هو الصحة والفراغ، وقال أبو حيان: الظاهر العموم في ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ وهو كل ما يلتذ به من مطعم ومشرب ومفرش ومركب، فالمؤمن يُسأل سؤال إكرام وتشريف، والكافر سؤال توبيخ وتقريع، وعن ابن مسعود ومجاهد والشعبي وسفيان: هو الأمن والصحة، وعن ابن عباس: البدن والحواس فيم استعملها، وعن ابن جبير: كل ما يتلذذ به، وفي الحديث: «بيت يكنك وخرقة تواريك، وكسرة تشد قلبك، وما سوى ذلك فهو نعيم» انتهى.

وفي «الشوكاني» قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾؛ أي: نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة، قال قتادة: يعني كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيُسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره وأشركوا به، قال الحسن: لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار، وقال قتادة: إن الله سبحانه سائلٌ كلَّ ذي نعمة عما أنعم عليه، وهذا هو الظاهر كما مر عن أبي حيان، ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد أو نوع من الأفراد؛ لأن تعريفه للجنس أو للاستغراق، ومجرد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التي يُسأل عنها، فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التي أنعم بها عليه فيم صرفها وبم عمل فيها؛ ليعرف تقصيره وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر عليها، وقيل: السؤال عن الأمن والصحة، وقيل: عن الإدراك بالحواس، وقيل: عن ملاذ المأكول والمشروب، وقيل: عن الغداء والعشاء، وقيل: عن بارد الماء وظلال المساكن، وقيل: عن اعتدال الخلق، وقيل: عن لذة النوم، وقيل: عن الصحة والفراغ، والأولى العموم كما ذكرنا، وفي الحديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من

الناس الصحة والفراغ» أخرجه البخاري، وفي هذا الحديث دلالة على عظم محل هاتين النعمتين وجلالة خطرهما، وذلك لأن بهما يستدرك مصالح الدنيا، ويكتسب درجات الآخرة، فإن الصحة تنبىء عن اجتماع القوى الذاتية، والفراغ يدل على انتظام الأسباب الخارجة المنفصلة، ولا قدرة على تمهيد مصلحة من مصالح الدنيا والآخرة إلا بهذين الأمرين، ثم سائر النعم بَعْدُ من توابعهما، وقال معاوية بن قرة: شدة الحساب يوم القيامة على الصحيح الفارغ، يقال: كيف أديت شكرهما؟، وفي «عين المعاني»: يسأل عن النعم الخمس: شبع البطون، وبرد الشراب، ولذة النوم، وظلال المساكن، واعتدال الخَلْق.

والمعنى: أي إن هذا النعيم الذي تتفاخرون به وتعدونه مما يباهي به بعضكم بعضاً ستسألون عنه ماذا صنعتم به، هل أديتم حق الله فيه، وراعيتم حدود أحكامه في التمتع به؟ فإن لم تفعلوا ذلك كان هذا النعيم غاية الشقاء في دار البقاء.

روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: أي نعيم نُسأل عنه يا رسول الله، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا، فقال رسول الله ﷺ: «ظلال المساكن والأشجار، والأخبية التي تقيكم الحر والبرد، والماء البارد في اليوم الحار»، وروي عن الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ قال الزبير: يا رسول الله: وأي نعيم نُسأل عنه، وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: «أما إنه سيكون» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن.

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، وعنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

وروى مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال رسول الله ﷺ: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، فقوما فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا الماء؛ إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ

وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافاً مني قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم شاة، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق وشربوا، فلما شبعوا ورووا.. قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم» وأخرجه الترمذي بأطول من هذا، وقال فيه: «والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة ظل بارد ورطب طيب وماء بارد»، وكنَّى الرجل من الأنصار، فقال أبو الهيثم بن التيهان، واسمه: مالك بن التيهان وذكر قصته.

قال الرازي: قيل السؤال إنما هي عن الزائد على ما لا بد منه من مطعم وملبس ومسكن، والحق أن السؤال يعم المؤمن والكافر، وأنه عن جميع النعم سواء كانت النعم مما لا بد منه أو لا، والسؤال إنما هو في موقف الحساب، و﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الإخباري لا المعنوي؛ لأن السؤال قبل رؤية الجحيم. انتهى.

تتمة: والفرق بين علم اليقين وعين اليقين أن علم اليقين: هو إدراك الشيء من غير مشاهدة، وعين اليقين: الرؤية التي هي العلم به مع المشاهدة، وأما حق اليقين فهو: مع الملاصقة والممازجة، وقد أخبر الله سبحانه هنا بالأولين، وأخبر بالثالث في سورة الواقعة، حيث قال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ...﴾ الآية، والله أعلم.

الإعراب

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾: فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، أو عاطفة. ﴿زُرْتُمُ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بأن مضمرة؛ لأنه ماض في اللفظ مستقبل في المعنى بالنسبة إلى ما قبل ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، تقديره: ألهاكم التكاثر إلى زيارتكم المقابر، أو الجملة معطوفة على جملة ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر عن التشاغل عن الطاعات. ﴿سَوْفَ﴾:

حرف استقبال. ﴿تَعۡلَمُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بثبوت النون، والمفعول محذوف تقديره: ما أمامكم، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿كَلَّا﴾ سبق إعرابه ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾: معطوف على الجملة الأولى، وجعله ابن مالك من باب التوكيد اللفظي مع توسط حرف العطف. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع مكرر للتأكيد. ﴿لَوۡ﴾: حرف شرط. ﴿تَعۡلَمُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف تقديره: لو تعلمون عاقبة التلهي والتفاخر والتكاثر، وجواب ﴿لَوۡ﴾ محذوف تقديره: ما شُغِلتم بالتكاثر والتفاخر، وجملة ﴿لَوۡ﴾ مع جوابها المحذوف مستأنفة. وحذف متعلق العلم في الأفعال الثلاثة؛ لأن الغرض هو الفعل لا متعلقه، والعلم بمعنى المعرفة، فيتعدى إلى مفعول واحد. ﴿عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه مصدر مبين للنوع، وأصله العلم اليقين، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته، ولا يصح أن يكون قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ هو الجواب؛ لأنه محقق الوقوع، فلا يعلق ﴿لَتَرَوُنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة لقسم محذوف، تقديره: والله لترون الجحيم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿ترَوُنَّ﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحركة بالضم لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل. ﴿ٱلۡجَحِيمَ﴾: مفعول به، والرؤية هنا بصرية تتعدى لمفعول واحد، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وأصله: لتَرْأَيُون، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها قُلبت ألفاً، وحُذفت لسكونها وسكون الواو بعدها، ثم ألقيت حركة الهمزة التي هي عين الكلمة على الراء، وحُذفت لثقلها، ثم دخلت نون التوكيد الثقيلة فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، وحُركت الواو بالضم لالتقاء الساكنين، ولم تُحذف؛ لأنها لو حذفت لاختل الفعل بحذف عينه ولامه وواو الضمير.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾ ﴿ترَوُنَّ﴾: فعل مضارع، وفاعل، مرفوع بثبات النون، و﴿الهاء﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾: منصوب على المصدرية؛ لأنه مصدر معنوي لرأى؛ لأن رأى وعاين بمعنى واحد، أو لأنها صفة لمصدر محذوف؛ أي: لترونها رؤية عين اليقين. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ ﴿تسألن﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة

رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الضمير المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع نائب فاعل، و﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله متعلق بـ﴿تسألن﴾، و﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾: متعلق بـ﴿تسألن﴾ أيضاً على أنه في موضع المفعول الثاني.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾؛ أي: شغلكم التفاخر بالأموال والأولاد عن دينكم، واللهو: ما يشغل الإنسان سواء أكان مما يسر أم لا، ثم خص بما يشغل مما فيه سرور، وإذا أُلهي المرء بشيء فهو غافل به عما سواه، والتكاثر: التباهي بالكثرة بأن يقول كل للآخر: أنا أكثر منك مالاً، أنا أكثر منك ولداً، أنا أكثر منك رجال ضرب وحرب.

﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾؛ أي: حتى صرتم من الموتى، قال جرير:

زَارَ ٱلْـقُـبُـوْرَ أَبُـوْ مَـالِـكٍ   فَـأَصْـبَـحَ أَلأَمَ زُوَّارِهَـا

والمقابر: جمع مقبرة بضم الباء وفتحها، وهي مدفن الموتى، والقبور: جمع قبر، قال الشاعر:

أَرَىٰ أَهْـلَ ٱلْـقُـبُـوْرِ إِذَا أُمِـيْـتُـوْا   بَـنَـوْا فَـوْقَ ٱلْـمَـقَـابِـرِ بِـٱلـصُّـخُـوْرِ
أَبَـوْا إِلاَّ مُـبَـاهَـاةً وَفَـخْـرَاً   عَـلَـىٰ ٱلْـفُـقَـرَاءِ حَـتَّـىٰ فِـيْ ٱلْـقُـبُـوْرِ

﴿كَلَّا﴾ وفي «القرطبي»: قيل إن ﴿كَلَّا﴾ في المواضع الثلاثة بمعنى ألا، قاله ابن أبي حاتم، وقال الفراء: هي بمعنى حقاً في المواضع الثلاثة، وقيل: هي للردع والزجر في المواضع الثلاثة اهـ بتصرف.

وقوله: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ أصله: أَلْهَيَكم بوزن أفعَلَ، قُلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وقوله: ﴿زُرۡتُمُ﴾ فيه إعلال بالقلب والحذف، أصله: زَوَرَ قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم أُسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك، فسُكِّن آخره فالتقى ساكنان، فحُذفت الألف، ثم حذفت حركة فاء الفعل، وعُوِّض عنها حركة مناسبة للعين المحذوفة التي هي الواو، والمناسب لها الضمة، فقيل: زرتم بوزن فلتم.

قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ أصله: لتَرْأَيُون بوزن تفعلون، كما مر آنفاً، نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت بعد النقل تخفيفاً، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد

فتح، فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف، ثم دخلت نون التوكيد الثقيلة على الفعل فاجتمع ثلاث نونات، فحذفت نون الرفع فالتقى ساكنان: واو الجماعة ونون التوكيد الثقيلة، فحُركت الواو بالضم، فالفعل مُعْرَب لعدم مباشرة نون التوكيد لآخره؛ لأن المحذوف لعلة كلا محذوف، فنون الرفع المحذوفة لتوالي الأمثال مقدرة، وكذلك يقال: في قوله: ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.

﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾؛ أي: علم الأمر الميقون الموثوق به.

﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ أصله: لتسألون، اتصلت بالفعل نون التوكيد الثقيلة، فاجتمع ثلاث نونات، فحذفت نون الرفع، فصار لتسألون، فالتقى ساكنان فحُذفت الواو.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التذكير والتوبيخ في قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾؛ لأنه قد خرج الخبر فيه عن حقيقته إلى التوبيخ والتذكير.

ومنها: حذف المُلهىٰ عنه؛ أي: الذي أُلهِيَ عنه، وهو ما يعنيهم من أمر الدين في قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾؛ للتعظيم والمبالغة، أما الأول فلأن الحذف كالتنكير قد يُجعل ذريعة إلى التعظيم لاشتراكهما في الإبهام، وأما الثاني فلأن تذهب النفس كل مذهب ممكن، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، مثل ألهاكم التكاثر عن ذكر الله تعالى، أو ألهاكم التكاثرعن الواجبات أو عن المندوبات أو عن المهمات مثلاً.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾؛ لأنه عبر عن انتقالهم إلى ذكر الموتى بزيارة القبور؛ أي: جُعلت الزيارة كناية عنه تهكماً بهم، قال الطيبي: إنما كان تهكماً؛ لأن زيارة القبور شُرعت لتذكر الموت ورفض حب الدنيا وترك المباهاة والتفاخر، وهؤلاء عكسوا حيث جعلوا زيارة القبور سبباً لمزيد القسوة والاستغراق في حب الدنيا والتفاخر بالكثرة.

ومنها: التكرار للتهديد والإنذار في قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾، وعطفه بـ﴿ثُمَّ﴾ للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول، كما يقول

العظيم لعبده: أقول لك، ثم أقول لك: لا تفعل، ولكونه أبلغ نُزِّل منزلة المغايرة، فعُطف بـ﴿ثُمَّ﴾.

ومنها: حذف جواب ﴿لَوْ﴾ للتهويل والتفخيم في قوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ تقديره: لرأيتم ما تشيب له الرؤوس، وتفزع له النفوس من الشدائد والأهوال؛ لأنه إذا حذف الجواب يذهب الوهم كل مذهب ممكن.

ومنها: القسم في قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾؛ لتوكيد الوعيد.

ومنها: تكرار القسم معطوفاً بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ تغليظاً في التهديد، وزيادة في الوعيد.

ومنها: جعل الرؤية ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ وخالصته مبالغة خاصة.

ومنها: حذف متعلق العلم في قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ . . .﴾ إلخ في الأفعال الثلاثة إشعاراً بأن الغرض هو الفعل لا متعلقه، كما في «السمين».

ومنها: الإطناب بتكرار الفعل في قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ لبيان شدة الهول.

ومنها: تكرار القسم معطوفاً في قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ تغليظاً في التهديد وزيادة في الوعيد.

ومنها: التعريف بـ﴿أل﴾ الاستغراقية في قوله: ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ إشعاراً بأن السؤال عن جميع أنواع النعم وأفرادها.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا انتهى تفسير سورة التكاثر ضحوة يوم الجمعة اليوم الثلاثين من شهر ذي الحجة من شهور سنة: ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة العصر

سورة العصر مكية عند الجمهور نزلت بعد سورة الشرح، وقال قتادة: هي مدنية، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة العصر بمكة، وهي ثلاث آيات، وأربع عشرة كلمة، وثمانية وستون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[١]: أنه ذكر في السورة السابقة أنهم اشتغلوا بالتفاخر والتكاثر، وبكل ما من شأنه أن يُلهي عن طاعة الله، وذكر هنا أن طبيعة الإنسان داعية إلى البوار، وموقعة له في الدمار، إلا من عصم الله وأزال عنه شرور نفسه، فكأن هذا تعليل لما سلف. إلى أنه ذكر في السالفة صفة من اتبع نفسه وهواه، وجرى مع شيطانه حتى وقع في التهلكة، وهنا ذكر من تجمل بأجمل الطباع، فآمن بالله وعمل الصالحات، وتواصى مع إخوانه على الاستمساك بعرى الحق، والاصطبار على مكارهه.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها: أنه لما قال فيما قبلها: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ ووقع التهديد بتكرار ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾.. بيَّن هنا حال المؤمن والكافر اهـ. وسميت سورة العصر؛ لذكر لفظ العصر فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة العصر[٢] كلها محكم، وفيها خلاف، فقيل المنسوخ فيها آية واحدة، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ نُسخت بالاستثناء المذكور بعدها، وهو قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ اهـ.

فضلها: ومما ورد في فضلها: ما أخرجه[٣] الطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الشعب» عن أبي مزينة الدارمي، وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر،

---

(١) المراغي. (٢) الناسخ والمنسوخ. (٣) الشوكاني.

ثم يسلم أحدهما على الآخر.

ومنها: ما روي عن النبي ﷺ: من قرأ سورة العصر غفر الله له، وكان ممن تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وروي[1] عن الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم، أو قال: لو لم يُنزَل من القرآن سواها لكفت الناس.

وهذه السورة من أجلّ سور القرآن العظيم وأوجزها لفظاً وأكثرها معنىً وحكمة وبياناً، ولجلالة ما جمعت من المعاني السامية أنه كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، كما مر آنفاً ذلك؛ ليُذكّر كل منهما صاحبه بما يجب أن يكون عليه من امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وفي هذه السورة أعظم دلالة على إعجاز القرآن، ألا ترى أنها مع قلة حروفها تدل على جميع ما يحتاج إليه الناس في الدين علماً وعملاً، وفي وجوب التواصي بالحق والصبر إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البيضاوي.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾؛ أي: أقسم بالعصر، أقسم سبحانه(١) بالعصر وهو الدهر؛ لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار وتعاقب الظلام والضياء، فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل وعلى توحيده، ويقال لليل: عصر، وللنهار: عصر، ومنه قول حميد بن ثور:

وَلَمْ يَنْتَهِ ٱلْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ... إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَا مَا تَمَنَّيَا

ويقال للغداة والعشي عصران، ومنه قال الشاعر:

وَأَمْطُلُهُ ٱلْعَصْرَيْنِ حَتَّىٰ يَمَلَّنِيْ ... وَيَرْضَىٰ بِنِصْفِ ٱلدَّيْنِ وَٱلأَنْفُ رَاغِمُ

وقال قتادة والحسن: المراد به في الآية: العشي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، ومنه قول الشاعر:

يَرُوْحُ بِنَا عَمْرٌو وَقَدْ قَصُرَ ٱلْعَصْرُ ... وَفِيْ ٱلرَّوْحَةِ ٱلأُوْلَىٰ ٱلْغَنِيْمَةُ وَٱلأَجْرُ

وقال ابن عباس: العصر هو الدهر والزمن، قيل: أقسم الله به لما فيه من العبر والعجائب للناظر، وفي «تفسير الرازي»: أقسم(٢) الله تعالى بالدهر لما فيه من الأعاجيب؛ لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، ولأن بقية عمر المرء لا قيمة له، فلو ضيَّعتَ ألف سنة فيما لا يعني، ثم ثبتت السعادة في اللمحة الأخيرة من العمر بقيتَ في الجنة آبد الآباد، فعلمت أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة، فكان الدهر والزمان من جملة أصول النعم، ولأن الزمان أشرف من المكان فأقسم به سبحانه؛ لكونه نعمة خالصة لا عيب فيه إنما الخاسر والمعيب الإنسان.

---

(١) الشوكاني. (٢) الرازي.

وقد ورد في الحديث: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر» رواه مسلم وغيره، وذلك لأنهم كانوا يضيفون النوائب والنوازل إلى الدهر، فأقسم به تنبيهاً على شرفه، وأن الله هو المؤثر فيه فما حصل فيه من النوائب والنوازل كان بقضاء الله تعالى وقدره، وقيل: الكلام على حذف مضاف تقديره: ورب العصر، ورُوي عن قتادة أيضاً أنه: آخر ساعة من ساعات النهار، فالعصر هو الطرف الأخير من النهار، وقد أقسم الله سبحانه به لما في ذلك من الدلالة على قدرة الله تعالى في تصرفه في هذا الكون العظيم ووحدانيته بإدبار النهار وإقبال الليل وذهاب سلطان الشمس، فقد أقسم هنا بالطرف الأخير من النهار، كما أقسم في آية أخرى بالطرف الأول من النهار، حيث قال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾، وهو الطرف الأول من النهار؛ لما فيه من حدوث سلطان الشمس وإقبال النهار، وأيضاً إنه كان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحادثوا ويتذاكروا في شؤونهم، وقد يكون في حديثهم ما لا يليق من خبث الحديث، وما يؤذي به بعضهم بعضاً، فيتوهم الناس أن الوقت مذموم، وأن الدهر مشاكس ملعون، كما يفعل بعض الجهلة في زماننا هذا، فأقسم الله تعالى بالعصر؛ لينبه على أن الزمان في نفسه ليس مما يُذم ويسب ويلعن، كما اعتاد بعض الناس أن يقولوا زمان مشؤوم ووقت نحس ودهر سوء، وما يشبه ذلك، بل الدهر ظرف للحسنات، كما هو ظرف للسيئات، وهو ظرف لشؤون الله العظيمة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع وإحياء وإماتة. فكيف يُذم في ذاته وإنما يُذم ما يقع فيه من الأفاعيل الممقوتة، فالله تعالى يُقسم بالزمان مطلقاً أو بذلك الوقت المخصوص، والزمان الذي هو العصر مملوء بالعبر والعظات مشحون بالحوادث والوقائع.

والزمان هو الأستاذ الأكبر والمعلم الأول الذي يُعلِّم الأفراد والشعوب أن العاقبة للعاملين المخلصين المتقين، وأن الخسران للعاملين الخائنين الظالمين، ومن لم يؤدبه الأبوان أدّبه الزمان؛ لأن الزمان إنما هو مؤدب أكبر ومرشد أعظم، وصروف الدهر وتقلبات الأيام كلها عبر وآيات بينات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ومن أجل ذلك أقسم الله تعالى به إرشاداً إلى علو مرتبته وإلى أنه شاهد صدق على أن الناس جميعاً في خسارة إلا المؤمنين الصالحين.

وقال مقاتل إن المراد به صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى التي أمر الله

سبحانه بالمحافظة عليها، وقيل: هو قسم بعصر النبي ﷺ قال الزجاج: قال بعضهم معناه: ورب العصر، والأول أولى، وقرأ سلاَّم[1]: ﴿والعصِر﴾ بكسر الصاد، و﴿الصبِر﴾ بكسر الباء، قال ابن عطية: وهذا لا يجوز إلا في الوقف على نقل الحركة، وروي عن أبي عمرو: ﴿بالصبِر﴾ بكسر الباء إشماماً، وهذا أيضاً لا يكون إلا في الوقف. انتهى.

وفي «الكامل» للهذلي: ﴿والعصر﴾ و﴿الصبر﴾ ﴿والفجر﴾ ﴿والوتر﴾ بكسر ما قبل الساكن في هذه كلها، وقرأ هارون وابن موسى عن أبي عمرو والباقون بالإسكان كالجماعة. انتهى.

وقال ابن خالويه: ﴿وتواصوا بالصبر﴾ بنقل الحركة عن أبي عمرو، وقال صاحب «اللوامح»: قرأ عيسى البصرة: ﴿بالصبر﴾ بنقل حركة الراء إلى الباء؛ لئلا يحتاج أن يأتي ببعض الحركة في الوقف، ولا إلى أن يسكن فيجتمع ساكنان، وذلك لغة شائعة، وليست شاذة بل مستفيضة، وفي ذلك دلالة على الإعراب وانفصال عن التقاء الساكنين، وتأدية لحقّ الموقوف عليه من السكون. انتهى.

وقد أنشدنا في الدلالة على هذا في شرح «التسهيل» عدة أبيات، كقول الراجز:

أَنَـا جَـرِيْـرٌ كُـنْـيَـتِـيْ أَبُـوْ عُـمِـرْ   أَضْرِبُ بِـٱلـسَّـيْـفِ وَسَعْدٌ فِيْ ٱلْعَصِرْ

يريد أبو عمر والعصر.

وحاصل المعنى: أن الله سبحانه وتعالى أقسم[2] بالدهر؛ لما فيه من أحداث وعبر يُستدل بها على قدرته وبالغ حكمته وواسع علمه، أنظر إلى ما فيه من تعاقب الليل والنهار، وهما آيتان من آيات الله، كما قال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وإلى ما فيه من سراء وضراء، وصحة وسقم، وغنى وفقر، وراحة وتعب، وحزن وفرح إلى نحو ذلك مما يسترشد به حصيف الرأي إلى أن للكون خالقاً ومدبراً، وهو الذي ينبغي أن يوجه إليه بالعبادة، ويُدعى لكشف الضر وجلب الخير إلى أن الكفار كانوا يضيفون أحداث السوء إلى الدهر، فيقولون: هذه نائبة من

(١) البحر المحيط.   (٢) المراغي.

نوائب الدهر، وهذا زمان بلاء، فأرشدهم سبحانه إلى أن الدهر خَلْقٌ من خلقه، وأنه ظرف تقع فيه الحوادث خيرها وشرها، فإن وقعت للمرء مصيبة، فبما كسبت يداه، وليس للدهر فيها من سبب.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ جواب القسم، و﴿أل﴾ في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ استغراقية بدليل ذكر الاستثناء بعدها، فإن صحة الاستثناء من جملة أدلة العموم والاستغراق، وهي: التي يخلفها كل، ويصح الاستثناء من مدخولها؛ أي: إن كل فرد من أفراد الإنسان لفي خسران في مُتاجَره، وغبن في مساعيه، وصرف أعماره في أعمال الدنيا وضلال وخطأ عن الحق، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقيل: إن ﴿أل﴾ فيه عهدية؛ أي: للعهد الحضوري، وهي ما عهد مصحوبها ذهناً؛ أي: إن الإنسان المعهود في ذهنك يا محمد وهم جماعة من صناديد قريش، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأول أولى لما في لفظ الإنسان من العموم ولدلالة الاستثناء عليه، والخسر[1] والخسران: النقصان وذهاب رأس المال وفي حق جنس الإنسان هو نفسه وعمره، والتنكير فيه للتفخيم؛ أي: لفي خسران عظيم، لا يعلم كنهه إلا الله في متاجرهم وصرف أعمارهم في مباغيهم، ويجوز أن يكون التنوين فيه للتنويع؛ أي: نوع من الخسران غير ما يتعارفه الناس، قال الأخفش: ﴿في خسر﴾؛ أي: في هلكة، وقال الفراء: عقوبة، وقال ابن زيد: ﴿لفي شر﴾، وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ بضم الخاء وسكون السين، وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى: ﴿خسر﴾ بضم الخاء والسين، ورويت هذه القراءة عن عاصم، والمعنى: إن جنس الإنسان لفي نقصان؛ لأنه ينقص عمره كل يوم وهو رأس ماله، فإذا ذهب رأس ماله ولم يكتسب به الطاعة يكون على نقصان طول دهره وخسران، إذ لا خسران أعظم من استحقاق العقاب الدائم، وكيف لا يكون الإنسان في خسران ووراءه ذلك المصير المحتوم الذي قد صدر فيه الحكم من رب العزة، وكل نفس ذائقة الموت وإن عاشوا، فإلى أمد قصير وعيش حقير، ثم يتركون لذائذ الدنيا وبهجتها إلى الرمس الضيق الصغير، ثم يواريهم التراب وإن كان ملكاً كبيراً، وكأن لم يكونوا شيئاً مذكورا، فإذا لم يكونوا

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

ممن استثناهم الله تعالى وهم الذين آمنوا الخ، فهم لا شك في خسران عظيم يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا يستعتبون.

والخلاصة: أي إن هذا الجنس من المخلوقات لخاسر في أعماله ضرباً من الخسران إلا من استثناهم الله تعالى، فأعمال الإنسان هي مصدر شقائه، لا الزمان ولا المكان، وهي توقعه في الهلاك، فذنب المرء في حق بارئه ومن يمن عليه بنعمه الجليلة وآلائه الجسيمة جريمة لا تعدلها جريمة أخرى.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصدقوا واعترفوا وأيقنوا بالخالق عز وجل وآمنوا به وبرسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر، وصدقوا بالقدر خيره وشره من الله تعالى، واعتقدوا اعتقاداً صحيحاً أن للعالم كله إلٰهاً خالقاً قادراً يرضى عن المطيع ويغضب على العاصي، وأن هناك فرقاً بين الفضيلة والرذيلة، فدفعهم ذلك إلى عمل البر والخير.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: اكتسبوا الفضائل والخيرات الباقية، فربحوا بزيادة النور الكمالي على النور الاستعدادي الذي هو رأس مالهم، فهم في تجارة لن تبور حيث باعوا الفاني الخسيس، واشتروا الباقي النفيس، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات، فيا لها من صفقة ما أربحها، وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم، واستدل بعض الطوائف بالآية على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار؛ لأنه لم يستثن من الخسران إلا الذين آمنوا إلخ.

والتقصي منه أن غير المستثنى في خسر لا محالة؛ إما بالخلود إن مات كافراً، وإما بالدخول في النار إن مات عاصياً لم يُغفر له، وإما بفوات الدرجات العالية إن غُفر له.

والمعنى: أي جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح، فإنهم في ربح لا في خسر؛ لأنهم عملوا للآخرة ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها، والاستثناء متصل، ومن قال: إن المراد بالإنسان الكافر فقط، فيكون منقطعاً، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة، ولا وجه لما قيل من أن المراد بهم الصحابة أو بعضهم، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾؛ أي: أوصى وأمر بعضهم بعضاً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ويتحاثوا عليه؛ أي: بالأمر الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا زوال في الدارين لمحاسن آثاره،

وهو الخير كله من الإيمان بالله، واتباع كتبه ورسله في كل عقد وعمل؛ أي: وصى بعضهم بعضاً بالحق الذي يحق القيام به، وهو الإيمان بالله والتوحيد والقيام بما شرعه الله تعالى، واجتناب ما نهى عنه، قال قتادة: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالقرآن، وقيل: بالتوحيد، والحمل على العموم أولى.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾؛ أي: أوصى بعضهم بعضاً وتحاثوا ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾؛ أي: عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحكم الجبلة البشرية وعلى الطاعات التي يشق عليها أداؤها، وعلى ما يبلو الله به عباده من البلايا، وتخصيص[1] هذا التواصي بالذكر مع اندراجه تحت التواصي بالحق لإبراز كمال الاعتناء به، أو لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضي به الله تعالى، والثاني عبارة عن رتبة العبودية التي هي الرضا بما فعل الله سبحانه وتعالى، فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تشوق إليه من فعل أو ترك، بل هو تلقي ما ورد منه تعالى بالجميل والرضا به ظاهراً وباطناً، ولعله سبحانه إنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاءً ببيان المقصود، فإن المقصود بيان ما فيه الفوز بالحياة الأبدية، والسعادة السرمدية، وإشعاراً بأن ما عدا ما عُدَّ يؤدي إلى خسر ونقص حظ أو تكرماً، فإن الإبهام في جانب الخسر كرم؛ لأنه ترك تعداد مثالبهم وأعرض عن مواجهتهم به، وكرر التواصي لاختلاف المفعولين، وهما قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، وقوله: ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾، وعبارة «الشوكاني»: هنا: وفي جعل[2] التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وأيضاً التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق، فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ومزيد شرفه عليها وارتفاع طبقته عنها. انتهى.

وخلاصة ما سلف[3]: أن الناس جميعاً في خسران إلا من اتصفوا بأربعة أشياء: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فيعملون الخير ويدعون إلى العمل به، ولا يزحزحهم عن الدعوة إليه ما يلاقونه من مشقة وبلاء،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

والإنسان جميعه خسر مساعيه وضل مناهجه، وصرف عمره في غير مطالبه فهو قد جاء إلى الأرض؛ ليخلص نفسه من الرذائل، ويتحلى بالفضائل، حتى إذا رجع إلى عالم الأرواح كان أقوى جناحاً وأمضى سلاحاً، لكنه حين رجع إلى مقره في عالم السموات لم يجد إلا نقصاً يحيط به، وجهلاً يرديه، فندم إلا طائفة منه عاشوا في الدنيا مفكرين، فآمنوا بأنبيائهم وصدقوا برسلهم، وأحبوا بني جنسهم، وأحسنوا إلى إخوانهم، فساعدوهم بأنفسهم وأموالهم، وصاروا معهم متعاضدين متعاونين، وصبروا على ما نزل بهم من الحدثان، ورُموا به من البهتان، فهؤلاء في الدنيا يفوزون بما يريدون، وفي الآخرة يفرحون بالنعيم المقيم.

أقسام الصبر: والصبر من الخلال الشخصية التي ينبغي للمرء أن يتدرع بها ويروِّض نفسه عليها منذ الحداثة والصغر، على الآباء والأمهات أن يربوا أولادهم على الصبر واحتمال الأذى، والصبر في أصل معناه اللغوي: الحبس، وهو باعتبار متعلَّقه ينقسم ثلاثة أقسام:

١ ـ حبس النفس عن فعل السوء والشر ودواعي الهوى والشهوة، وكل ما يمس كرامة الإنسان ويشوّه سمعته.

٢ ـ الصبر على المكروه والألم وتحمل الرزايا والمصائب، وكل ما يقلق الراحة وينغص العيش، ومثل ذلك الصبر على ما يفوت الإنسان من المآرب والحظوظ الدنيوية.

٣ ـ الصبر في مواطن الخوف والذعر، بل في مواطن الخطر أحياناً دفاعاً عن حق، أو حماية لمصلحة أو وقاية لعرض وشرف، وهذا النوع من الصبر يسمى: الشجاعة والإقدام، والشجاعة ضرب من الصبر، قال تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

قال بعض الحكماء: ليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والتعب؛ لأن هذا تشاركه فيه الدابة، ولكن أن يكون للنفس غَلُوباً، وللخطوب حَمُولاً، ولجأشه عند الحفاظ مرتبطاً؛ أي: مالكاً نفسه عند الغضب، قال لقمان لابنه: الذهب يجرَّب بالنار، والعبد الصالح يجرب بالبلاء،

وقال الفضيل بن عياض: إن الله ليتعهد عبده المؤمن بالبلاء، كما يتعهد الرجل أهله بالخير، ولولا أن في حلول الكوارث ونزول الحوادث تخفيفاً من الأوزار، وحطاً من الذنوب، ومحواً من السيئات ما استطعنا عليهم صبراً، ولولا أن في موافقة اللذات ومقارنة الشهوات أنواعاً من المكاره، وأصنافاً من الشدائد؛ ما وجدنا عنها صبراً، ولكثر إسراعنا، وقل عنها امتناعنا، لا جرم أن جميع خلال الخير وخصال البر وأحوال الطاعة وما يجعل الله في الإنسان من حسن الشيم وكرم الأخلاق وأسباب الديانة ودواعي الإيمان إنما هي كلها مرتبطة بالصبر، وراجعة إلى الصبر، ومحمولة على الصبر، وجارية مع الصبر كيفما تأملتها، وعلى أي حال تدبرتها، فإنه قطب تدور عليه جميع الأفعال المحمودة، لذا أمر الله سبحانه بالتواصي به؛ لأنه جماع صفات الخير، ألا ترى أن الكرم صبر على مفارقة المال وعلى حبه، وأن العدل صبر على إمضاء الحكم وإن شق، وأن الصدق صبر، فربما خالطه شوائب تكره، وإن الحلم جامع لأشتات الصبر، فما منح الله الصبر عبداً من عبيده، وهو يريد به شيئاً سوىٰ الخير، وكل شيء في الوجود يولد صغيراً، ثم يكبر إلا المصائب، فإنها تولد كباراً، ثم تصغر وتضمحل، والصبر محمود الأثر شريف الغاية، ولو لم يكن فيه إلا أنه مظهر من مظاهر الكمال والرجولة اللائقة بكل إنسان.. لكفى، قال الشاعر:

فَلَوْ كَانَ يُغْنِيْ أَنْ يُرَىٰ ٱلْمَرْءُ جَازِعَاً ... لِحَادِثَةٍ أَوْ كَانَ يُغْنِيْ ٱلتَّذَلُّلُ
لَكَانَ ٱلتَّعَزِّيْ عِنْدَ كُلِّ مُصِيْبَةٍ ... وَنَائِبَةٍ بِٱلْحُرِّ أَوْلَىٰ وَأَجْمَلُ

قال بعض الحكماء: الجزع على الفائت آفة، وعلى المتوقع سخافة، فهو لا يخلو عمره من النكد، ولا يستفيق من التعذيب والكمد، وإذا استولى الجزع تضاعف الكرب، واشتد حتى أصبح لا يطاق، كما قال ابن الرومي:

إِنَّ ٱلْبَلَاءَ يُطَاقُ غَيْرَ مُضَاعَفٍ ... فَإِذَا تَضَاعَفَ صَارَ غَيْرَ مُطَاقِ

ومن الحكم المشهورة: من أكثر الشكوى عظمت عليه البلوى، ومن كلام بعض العلماء: من كثر جزعه كثرت زلته وعظمت علته وبعد أمله وحبط عمله، وإذا كان الجزع يحبط الحسنات فإن الصبر يربي الحسنات، وهو من أجل القربات، قال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ

فوجدته قد أثَّر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً، فقلت: يا أمير المؤمنين، إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زاد على أن قال:

اِصْبِرْ عَلَىٰ مَضَضِ ٱلإِدْلاَجِ فِيْ ٱلسَّحَرِ   وَفِيْ ٱلرَّوَاحِ عَلَىٰ ٱلطَّاعَاتِ فِيْ ٱلْبُكَرِ
إِنِّيْ رَأَيْتُ وَفِيْ ٱلأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ   لِلصَّبْرِ عَاقِبَةٌ مَحْمُوْدَةَ ٱلأَثَرِ
وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِيْ شَيْءٍ يُؤَمِّلُهُ   وَٱسْتَشْعَرَ ٱلصَّبْرَ إِلاَّ فَازَ بِٱلظَّفَرِ

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

يَا خَادِمَ ٱلْجِسْمِ كَمْ تَسْعَىٰ لِخِدْمَتِهِ   وَتَطْلُبُ ٱلرِّبْحَ مِمَّا فِيْهِ خُسْرَانُ
عَلَيْكَ بِٱلنَّفْسِ فَٱسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا   فَأَنْتَ بِٱلنَّفْسِ لاَ بِٱلْجِسْمِ إِنْسَانُ

وقد رُكب في طباع الإنسان حب تفضيله على جنسه، فما أحد إلا ويحب أن يكون أعلى درجة من غيره، فإذا وقعت نكبة بإنسان أوجبت نزوله عن مرتبة سواه، فينبغي له أن يتجلد؛ لئلا يُرىٰ بعين النقص، وليتجمل بالصبر، فإنه عدة الرجال الكَمَلة قال الشاعر:

وَتَجَلُّدِيْ لِلشَّامِتِيْنَ أُرِيْهِمُ   أَنِّيْ لِرَيْبِ ٱلدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ
وَإِذَا ٱلْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا   أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيْمَةٍ لاَ تَنْفَعُ

فأهل الكمال يُظهرون التجلد عند المصائب والفقر والبلاء؛ لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء، وإنها على بعض النفوس لأشد من كل نائبة، لذا كان فقيرهم يظهر الغنى، ومريضهم يظهر العافية، وإليكم هذا المثل من الشريعة الغرّاء حين قدم الرسول ﷺ مكة المكرمة أصابتهم الحمى، وقد أراد المسلمون الطواف حول الكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، والمشركون ينظرون إلى المسلمين، فخاف النبي ﷺ أن يشمت بهم الأعداء حين رأوا ضعفهم عن السعي، فقال مخاطباً للمسلمين: «رحم الله من أظهر من نفسه التجلد»، فرملوا، والرمَل شدة السعي، وقد زال ذلك السبب، وبقي الحكم في أعمال الحج ليُتذكَّر السبب فيفهم معناه ومغزاه لهذه الأسباب وغيرها من معاني الصبر وآثاره في حياة الفرد والجماعة، فقد أمر الله سبحانه بالصبر، وأمر بالتواصي بالصبر بين المؤمنين والمؤمنات، فقال: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

الإعراب

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم. ﴿العصر﴾: مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالعصر والدهر، وجملة القسم مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿في خسر﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مستثنى من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في محل النصب على الاستثناء، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلته. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾: فعل ماض وفاعل مبني بفتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والواو فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿تواصوا﴾. ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾: متعلق به.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ قال في «القاموس»: العصر مثلثة العين، وبضمتين الدهر، والجمع أعصار وعصور وأعصر وعُصُر، والعصر اليوم والليلة والعشي إلى احمرار الشمس، ويحرك، والغداة والحبس والرهط والعشيرة، والمطر من المعصرات والمنع والعطية، يقال: عصره يعصره، وبالتحريك الملجأ والمنجاة كالعصر بالضم إلى آخر هذه المادة الطويلة.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ والإنسان هو هذا النوع من المخلوقات، وهو لفظ يقع على الذكر والأنثى من بني آدم، وربما أنثت العرب، فقالوا: إنسان وإنسانة، فقال:

إِنْسَانَةٌ تَسْقِيْكَ مِنْ إِنْسَانِهَا   خَمْرَاً حَلاَلاً مُقْلَتَاهَا عِنَبُهْ

و﴿أل﴾ فيه لاستغراق الجنس، فيشمل المؤمن والكافر بدليل الاستثناء.

﴿لَفِى خُسْرٍ﴾؛ أي: لفي خسران ونقصان، وذلك لأن الإنسان لا ينفك عن خسران، لأن الخسران هو تضييع عمره، وذلك لأن كل ساعة من عمر الإنسان إما

أن تكون تلك الساعة في طاعة أو معصية، فإن كانت في معصية فهو الخسران البين الظاهر، وإن كانت في طاعة فلعل غيرها أفضل وهو قادر على الإتيان به، فكان فعل غير الأفضل تضييعاً وخسراناً، فبان بذلك أنه لا ينفك أحد من خسران اهـ «جمل».

﴿لَفِى خُسْرٍ﴾؛ أي: لفي غبن وخسارة، وفي «المصباح»: خسر في تجارته خسارة ـ بالفتح ـ وخسراً وخسراناً، ويتعدى بالهمزة، فقال: أخسرته فيها، وخسر خسراً وخسراناً أيضاً هلك، والخسر والخسران النقصان وذهاب رأس المال، والمراد به ما ينغمس فيه الإنسان من الآفات المهلكة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، فحكم بالخسران على جميع الناس إلا من كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة، وهي الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فهذه الأمور اشتملت على ما يخص نفسه، وهو الإيمان والعمل الصالح وما يخص غيره، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهما معطوفان على ما قبلهما من عطف الخاص على العام للمبالغة .اهـ. «رازي».

والحاصل: أن كل ما مضى من عمر الإنسان في طاعة الله فهو في صلاح وخير، وما كان بضده فهو في خسر وفساد وهلاك .اهـ. «خازن».

وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ فعل ماض من باب تفاعل مأخوذ من المواصاة، وهي التقديم إلى الغير بما يعمل به مقروناً بوعظ ونصيحة من قولهم: أرض واصية؛ أي: متصلة بالنبات، يقال: واصيت إليه بكذا؛ أي: قدمته إليه إذا أمرته قبل الحاجة إلى الفعل .اهـ. «كرخي» بتصرف.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: وهو كل ما حكم الشرع بصحته، ولا يسوغ إنكاره، وهو الخير كله من توحيد الله تعالى وطاعته واتباع كتبه ورسله، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة .اهـ. «خطيب»، وقيل: الحق هو ما تصدّر من حقيقة ثابتة أرشد إليها دليل قاطع، أو عيان ومشاهدة، أو شريعة صحيحة جاء بها نبي معصوم.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ والصبر: هو قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة في العمل

الطيب، وتهون عليها احتمال المكروه في سبيل الوصول إلى الأعراض الشريفة، والتواصي بالحق أن يوصي بعضهم بما لا سبيل إلى إنكاره وهو كل فضيلة وخير، والتواصي بالصبر أن يوصي بعضهم بعضاً به ويحثه عليه، ولا يكون ذلك نافعاً مقبولاً إلا إذا كمَّل المرء نفسه به، وإلا صدق عليه قول أبي الأسود الدؤلي:

يَا أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ   هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا ٱلتَّعْلِيْمُ
تَصِفُ ٱلدَّوَاءَ لِذِيْ ٱلسِّقَامِ وَذِيْ ٱلضَّنَىٰ   كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيْمُ
لاَ تْنَهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ   عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيْمُ

وأصل ﴿تواصوا﴾: تواصَيُوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قُلبت ألفاً، فالتقى ساكنان وهما الألف والواو، ثم حذفت الألف لبقاء دالِّها، فصار: ﴿تواصوا﴾ بوزن تفاعوا.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: إدخال ﴿أل﴾ الاستغراقية على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ ليعم المؤمن والكافر بدليل الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أو العهدية؛ ليخص الكافر المعهود، كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾؛ ليدل على التفخيم والتعظيم؛ أي: لفي خسر عظيم ودمار شديد، لا يعلم كنهه إلا الله سبحانه.

ومنها: تكرار ﴿تواصوا﴾؛ لاختلاف المفعولين، وهما قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ و﴿بِٱلصَّبْرِ﴾.

ومنها: تخصيص ذكر التواصي بالصبر مع اندراجه تحت التواصي بالحق؛ لإبراز كمال الاعتناء به، أو لأن الأول: عبارة عن رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضي الرب سبحانه، والثاني: عبارة عن العبودية التي هي الرضا بما فعل الرب سبحانه.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام بقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ بعد قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأن الصبر داخل في عموم الحق إلا أنه خصه بالذكر إشارةً بفضيلة الصبر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة العصر قُبيل الغروب من يوم الثلاثاء الرابع من شهر المحرم من شهور سنة ألف وأربع مئة وسبع عشرة: ١٤١٧/١/٤ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة الهمزة

سورة الهمزة مكية، نزلت بعد سورة القيامة، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ نزلت بمكة، وهي: تسع آيات، وثلاثون كلمة، ومئة وثلاثون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر سبحانه في السورة السابقة أن جميع أفراد الإنسان منغمسون في الضلال إلا من عصم الله.. ذكر هنا بعض صفات أهل الضلال.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها أنه لما قال فيما قبلها: إن الإنسان لفي خسر.. بيَّن هنا حال الخاسر.

التسمية: سميت سورة الهمزة؛ لذكر لفظ الهمزة فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ سورة: الهمزة كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۝٩﴾.

أسباب النزول

قال عطاء والكلبي والسدي[1]: نزلت هذه السورة في الأخنس بن شُريق كان يلمز الناس ويغتابهم، وبخاصة رسول الله ﷺ، وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة: كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ويطعن فيه في وجهه، وأخرج ابن جرير عن رجل من أهل الرقة قال: نزلت في جميل بن عامر الجمحي، وأخرج ابن المنذر عن محمد بن إسحاق صاحب السيرة، قال: كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝١﴾... السورة كلها، وأخرج ابن أبي حاتم عن عثمان وابن عمر قالا: ما زلنا نسمع أن: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ نزلت في أبي بن خلف.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك شديد، وهو مبتدأ سوَّغ الابتداء به مع كونه نكرة، كونه دعاء عليهم، خبره قوله: ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾، والمعنى[2]: خزي شديد وعذاب أليم، أو هلاك هائل أو واد في جهنم من قيح ودم كائن لكل همزة لمزة، قال أبو عبيدة والزجاج: الهمزة الذي يغتاب الناس، وعلى هذا فهما بمعنى واحد، وقيل: هما من الهمز، وهو الكسر كالهزم. واللمز، وهو الطعن كاللهز، شاعا في الكسر من أعراض الناس والطعن فيهم، وفي «القاموس»: الهامز والهمزة الغماز، واللمزة: العياب للناس، أو الذي يعيبك في وجهك، والهمزة من يعيبك في الغيب انتهى، وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح: الهمزة الذي يغتاب الرجل

---

(١) لباب المنقول. (٢) روح البيان.

في وجهه، واللمزة الذي يغتابه من خلفه، وقال قتادة: عكس هذا، وروي عن قتادة ومجاهد أيضاً أن الهمزة الذي يغتاب الناس في أنسابهم، وفي «الخازن» قال ابن عباس: هم المَشَّاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبراء العيب، وقيل: معناهما واحد، كما مر آنفاً، وهو العياب المغتاب للناس في بعدهم، قال الشاعر:

إِذَا لَقِيْتُكَ مِنْ كُرْهٍ تُكَاشِرُنِي ... وإِنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتَ ٱلْهَامِزَ ٱللُّمَزَا

وقيل: بل يختلف معناهما، فقيل: الهمزة: الذي يعيبك في الغيب، واللمزة: الذي يعيبك في الوجه، وقيل: هو على ضده، وقيل: الهمزة: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة: الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم، وقيل: هو الذي يهمز بلسانه ويلمز بعينه، وقيل: الهمزة: الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ، واللمزة الذي يرمق بعينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبيه، وقيل: الهمزة: المغتاب للناس، واللمزة: الطعان في أنسابهم.

وحاصل هذه الأقاويل(١): يرجع إلى أصل واحد، وهو الطعن وإظهار العيب، وأصل الهمز: الكسر والقبض على الشيء بالعنف، والمراد منه هنا: الكسرُ من أعراض الناس، والغَضُّ منهم، والطعن فيهم، ويدخل فيه من يحاكي الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم؛ ليضحكوا منه، وهما نعتان للفاعل على وزن فُعَلة نحو سُخَرة وضُحَكة ولُعَنة وهُزَأة للذي يسخر من الناس، ويضحك منهم، ويلعنهم ويهزأ منهم، يقال: رجل هُزَأة لمن يهزأ بالناس.

واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية كما مر، فقيل: نزلت في الأخنس بن شُريق بن وهب، كان يقع في الناس ويغتابهم، وقال محمد بن إسحاق: مازلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أمية بن خلف الجمحي، وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويطعن عليه في وجهه، وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقيل: هي عامة في كل شخص هذه صفته كائناً من كان، وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ والحكم، ومن قال: إنها في إناس معينين قال: إن كون اللفظ عاماً لا ينافي أن يكون المراد منه شخصاً معيناً،

---

(١) الخازن.

وهو تخصيص العام بقرينة العُرف، والأولى أن تُحمل على العموم في كل مَن هذه صفته. انتهى من «الخازن».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ـ بفتح الميم فيهما مع ضم أولهما ـ بوزن فُعَله، وقال في «الروح»: بناء فُعَلة يدل على الاعتياد، فلا يقال: ضحكة ولعنة إلا للمكثر المتعود، وقرأ الباقر والأعرج بسكون الميم فيهما، وقرأ أبو وائل والنخعي والأعمش: ويل للهمزة اللمزة بإدخال أل عليهما، وفي «أدب الكاتب» لابن قتيبة: فُعْلة بسكون العين من صفات المفعول، وفُعَلة بفتح العين من صفات الفاعل، يقال: رجل هُزْأة للذي يُهزأ به، وهُزَأة لمن يَهزأ بالناس، وعلى هذا القياس لعنة ولعنة، ولمزة ولمزة، وهمزة وهمزة وغيرها اهـ.

ومعنى الآية: سخط[2] وعذاب من الله سبحانه لكل طَعَّان في الناس، أَكَّال للحومهم، مؤذ لهم في غيبتهم، أو في حضورهم، ثم ذكر سبب عيبه وطعنه في الناس، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ بدل من كل، كأنه قيل: ويل للذي جمع مالاً، وإنما وصفه الله بهذا الوصف المعنوي؛ لأنه يجري مجرى السبب للهمزة واللمزة، من حيث إنه أعجب بنفسه مما جمع من المال، وظن أن كثرة المال سبب لعزة المرء وفضله، فلذا استنقص غيره، وقيل: في محل النصب على الذم وهذا أرجح؛ لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه في حكم الطرح، وإنما لم يُجعل وصفاً نحوياً لكل؛ لأنه نكرة لا يصح توصيفها بالموصولات، وتنكير مالاً للتفخيم والتكثير الموافق؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾؛ أي: عده مرة بعد أخرى من غير أن يؤدي حق الله منه، ويؤيد أنه من العد وهو الإحصاء، لا من العُدَّة أنه قرىء: ﴿وعدَّده﴾ بفك الإدغام، على أنه فعل ماض بمعنى أحصاه وضبط عدده، وقيل: معنى عدده: جعله عُدَّة وذخيرة لنوائب الدهر، وكان للأخنس المذكور أربعة آلاف دينار، أو عشرة آلاف.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿جَمَعَ﴾ مخففاً، وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي بالتشديد، وقرأ الجمهور: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ بتشديد الدال الأولى؛ أي: أحصاه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط والشوكاني.

وحافظ عليه، وقيل: جعله عدة لحوادث الدهر، وقرأ الحسن والكلبي ونصر بن عاصم وأبو العالية بالتخفيف؛ أي: جمع المال وضبط عدده، وقيل: جمع عدداً من عشيرته وأقاربه، وفي «الشوكاني» والتشديد في الكلمتين يدل على التكثير، وهو جمع الشيء وتعديده مرة بعد أخرى، قال الفراء: معنى ﴿عدَّده﴾ أحصاه، وقال الزجاج: وعدده لنوائب الدهر، يقال: أعددت الشيء وعددته إذا أمسكته، وقال السدي: أحصى عدده، وقال الضحاك: أعد ماله لمن يرثه، وقيل المعنى: فاخر بكثرته وعدده، والمقصود ذمه على جمع المال وإمساكه وعدم إنفاقه في سبيل الخير، وقيل: المعنى على قراءة التخفيف في عدده أنه جمع عشيرته وأقاربه، قال المهدوي: من خفف ﴿وعدده﴾ فهو جعله معطوفاً على المال؛ أي: وجمع عدده.

وخلاصة معنى الآية: أي[1] إن الذي دعاه إلى الحط من أقدار الناس والزراية بهم هو جمعه للمال، وتعديده مرة بعد أخرى شغفاً به وتلذذاً بإحصائه؛ لأنه يرى أن لا عزة إلا به ولا شرف بغيره، فهو كلما نظر إلى كثرة ما عنده ظن أنه بذلك قد ارتفعت مكانته، وهزأ بكل ذي فضل ومزية دونه، ثم هو لا يخشى أن تصيبه قارعة بهمزه ولمزه وتمزيقه أعراض الناس؛ لأن غروره أنساه الموت، وأعمى بصيرته عن النظر في مآله والتأمل في أحواله، ثم بين خطأه في ظنه، فقال: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾.

ويجوز[2] أن تكون هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ما باله يجمع المال ويهتم به، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل جمع، و﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ ماض معناه المضارع؛ أي: يخلده اهـ «سمين».

أي: يظن لجهله أن ماله الذي جمعه وعدده يخلده؛ أي: يوصله إلى رتبة الخلود والدوام في الدنيا، فيصير خالداً فيها، فلا يموت أو يعمل من تشييد البنيان وإيثاقه بالصخر والآجر وغرس الأشجار وجري الأنهار عمل من يظن أنه لا يموت، بل ماله يبقيه حياً ويزيد في عمره، وإظهار[3] المال في موضع الإضمار؛ لزيادة التقريع والتوبيخ، فالحسبان ليس بتحقيقي، بل هو محمول على التمثيل، أو هو تعريض بالعمل الصالح، وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم، فأما المال فما

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

أخلد أحداً فيه، وقال[1] أبو بكر بن طاهر ـ رحمه الله تعالى ـ: يظن أن ماله يوصله إلى مقام الخلد والدوام، وإنما قال: أخلده بصيغة الماضي ولم يقل يخلده بصيغة المضارع؛ لأن المراد أن هذا الإنسان يحسب أن المال قد ضمن له الخلود والبقاء في الدنيا وأعطاه الأمان من الموت، فكأنه حُكم قد فُرغ منه، ولذلك ذكره بلفظ الماضي، قال الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه كالموت. ونعم ما قال.

ومعنى الآية: أي[2] يظن هذا الهماز العياب أن ما عنده من المال قد ضمن له الخلود في الدنيا، وأعطاه الأمان من الموت، فهو لذلك يعمل عمل من يظن أنه باق حياً أبد الدهر، ولا يعود إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيء الأعمال، وبعد أن توعد مَن هذه صفاته بشديد العقاب، وأردفه ذكر السبب الذي حمله على ارتكاب هذه الخصال الممقوتة من ظنه أن ماله يضمن له الأمان من الموت.. أعقبه بتفصيل ما أعد له من هذا العذاب المحتوم، فقال: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾ ﴿كَلَّا﴾: ردع له عن ذلك الحسبان؛ أي: ارتدع أيها الحاسب عما حسبته وظننته من أن هذا المال الذي جمعته وعددته يخلدك في الدنيا، فليس الأمر على ما حسبته؛ أي: لا عن همزه ولمزه، كما توهم؛ لبعده لفظاً ومعنى اهـ «شهاب»، وقيل: ﴿كَلَّا﴾ معناه حقاً اهـ خطيب، و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لَيُنبَذَنَّ﴾ واقعة في جواب قسم محذوف، وجملة القسم مستأنفة مبينة لعلة الردع؛ أي: والله ليطرحن ذلك الذي يحسب وقوع الممتنع بسبب تعاطيه للأفعال المذكورة، وقال بعضهم[3]: ولك أن ترد الضمير إلى كل من الهمزة واللمزة، ويؤيده قراءة: ﴿لينبذانِ﴾ بألف التثنية. ﴿فِي ٱلْحُطَمَةِ﴾؛ أي: في النار التي شأنها أن تحطم وتكسر كل ما يُلقى فيها، كما أن شأنه الكسر بأعراض الناس وجمع المال، قال بعضهم: قولهم: إن فُعَلة بفتح العين للمتكثر المتعود ينتقض بالحطمة، فإنها أُطلقت على النار، وليس الحطم عادتها، بل طبيعتها وجوابه أن كونه طبيعياً، لا ينافي كونه عادة؛ إذ العادة على ما في «القاموس» الديدن والشأن والخاصية، وهو يعم الطبيعي وغيره، ومنه يُعلم أن النبذ في الحطمة كان جزاء وفاقاً لأعمالهم، فإنه لما كان

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

الهمز واللمز عادتهم كان الحطم أيضاً عادة، فقوبل صيغة فعلة بفعلة، وكذا ظنوا أنفسهم أهل الكرامة والكثرة، فعبر عن جزائهم بالنبذ المنبىء عن الاستحقار والاستقلال، يعني: شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً بعددهم بحصيات أخذهن أحد في كفه، فطرحهن في البحر، وفيه إشارة إلى الإسقاط عن مرتبة الفطرة إلى مرتبة الطبيعة الغالبة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ بصيغة المضارع المبني للمجهول المسند إلى ضمير الواحد، وقرأ علي والحسن بخلاف عنه ومحمد بن كعب وابن محيصن وحميد وهارون عن أبي عمرو ومجاهد ونصر بن عاصم: ﴿لينبذانِ﴾ بصيغة المضارع المبني للمجهول المسند إلى ضمير اثنين؛ أي: لينبذن الهمزة وماله، وقرأ الحسن أيضاً ﴿لَيَنْبُذَنَّ﴾ بضم الباء على صيغة المعلوم؛ أي: لينبذن ذلك الجامع مالَهُ في النار، وقرأ الجمهور: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾ وقرأ زيد بن علي: ﴿في الحاطمة وما أدراك ما الحاطمة﴾، وهي النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يُلقى فيها كما مر آنفاً.

وقال الضحاك: ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ الدرك الرابع من النار، وقال الكلبي: الطبقة السادسة من جهنم، وحكى عنه القشيري: أنها الدركة الثانية، وعنه أيضاً: الباب الثاني، وقال الواحدي: باب من أبواب جهنم.

والمعنى: أي[2] ازدجر أيها العياب عما خُيّل إليك من أن المال يخلدك ويبقيك، بل الذي ينفع هو العلم وصالح العمل، فإنك والله مطروح في النار لا محالة، لا يؤبه لك ولا يُنظر إليك، وأُثر عن علي - كرم الله وجهه - من عظة له: يا كميل هلك خزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر. أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، يريد أن خزان الأموال ممقوتون مكروهون عند الناس؛ لأنهم لا ينالون شيئاً، أما العلماء فالثناء عليهم مستمر ما بقي على الأرض إنسان ينتفع بعلمهم، ويغترف من بحار فضلهم، وروي أن الحسن - رحمه الله تعالى - زار موسراً وعاده في مرضه، وقال: ما تقول في ألوف لم أفتد بها من لئيم، ولا تفضلت بها على كريم، قال الحسن: ولكن لماذا جمعت؟ قال الموسر:

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

لنبوة الزمان وجفوة السلطان، ونوائب الدهر، ومخافة الفقر، قال: إذن تدعه لمن لا يحمدك، وتَرِدُ على من لا يعذرك، وما أجاد قول الشاعر:

شَغَلَتْنَا ٱلدُّنْيَا بِهَاكَ وَهَاتِ وَنَسِيْنَا مَصَارِعَ ٱلأَمْوَاتِ
نَحْنُ مَوْتَىٰ وَإِنَّمَا بَيْنَ مَنْ يَمْـ ـضِيْ وَيَبْقَىٰ تَفَاوُتُ ٱلأَوْقَاتِ

فاحذروا أيها المسلمون أن تسقط ورقتكم من شجرة الحياة قبل أن تتوبوا إلى الله تعالى، وتتركوا ما حرم عليكم ربكم، فإن حياتكم والله معلقة بشجرة الحياة، فإذا هبت عليها ريح القدرة تمايلت وتساقطت، فلا تغتروا بالدنيا ولا تحقروا أحداً من الناس ولا تهمزوا ولا تلمزوا، واحذروا وعيد الله، فإنه عز وجل قد أوعد في هذه السورة مَن هذه صفاته بالويل والثبور والهلاك والنكال، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾، ثم أخذ يهول أمر هذه النار ويعظم شأنها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾، والاستفهام[١] فيه للتهويل والتعظيم والتفظيع، حتى كأنها ليست مما تُدركه العقول وتبلغه الأفهام؛ أي: وما أعلمك يا محمد جواب هذا الاستفهام؛ لأنها من الأمور التي تنالها عقول الخلق؛ أي: إن هذه الحطمة مما لا تحيط بها معرفتك على حقيقتها فلا يعلم شأنها، ولا يقف على كنهها إلا من أعدها لمن يستحقها، ثم فسر هذه الحطمة بعد إبهامها، فقال: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾؛ أي: هي: نار الله الموقدة الملتهبة بأمر الله سبحانه وتعالى، وفي إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها، وكذلك في وصفها بالإيقاد، فما أوقد وأُشعل بأمره تعالى لا يقدر أن يُطفئه غيره تعالى، وفيه دلالة على أنها ليست كسائر النيران، وفي الحديث: «أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت، ثم ألف سنة حتى ابيضت، ثم ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة»، وعن علي - رضي الله عنه -: عجباً بمن يعصي الله على وجه الأرض، والنار تُسعر من تحته.

أي: إنها[٢] النار التي لا تُنسب إلا إليه سبحانه؛ إذ هو الذي أنشأها وأعدها لعقاب العصاة والمذنبين، وفي وصفها بالموقدة إيماء إلى أنها لا تُخمد أبداً، بل

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

هي ملتهبة التهاباً لا يدرك حقيقته إلا من أوجدها، ثم وصفها بأوصاف تخالف بها نيران الدنيا؛ ليؤكد مخالفتها لها، فقال:

١ - ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧﴾ ويخلص حرها إلى القلوب، فيعلوها ويغشاها؛ أي: إن تلك النار تعلو أوساط القلوب وتغشاها، فإن الفؤاد وسط القلب ومتصل بالروح، يعنيك أن تلك النار تحطم العظام وتأكل اللحوم، فتدخل في أجواف أهل الشهوات، وتصل إلى صدورهم، وتستولي على أفئدتهم إلا أنها لا تحركها بالكلية؛ إذ لو احترقت لماتت أصحابها، ثم إن الله تعالى يُعيد لحومهم وعظامهم مرة أخرى، وتخصيص الفؤاد بالذكر لما أنها ألطف ما في الجسد وأشدُّ تألماً فأدنىٰ أذى يمسه، أو لأنه محل العقائد الزائغة والنابات الخبيثة ومنشأ الأعمال السيئة، فاطلاعها على الأفئدة التي هي خزانة الجسد ومحل ودائعه يستلزم الاطلاع على جميع الجسد بطريق الأولى.

وقد يكون[1] المراد بالاطلاع المعرفة والعلم، وكأن هذه النار تدرك ما في أفئدة الناس يوم البعث، فتميز العاصي من المطيع، والخبيث من الطيب، وتفرق بين من اجترحوا السيئات في حياتهم الأولى، ومن أحسنوا أعمالهم، يعني: أنها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب، وذلك بأمارات عرَّفها الله بها، وإنا لنكل أمر ذلك إلى علاَّم الغيوب، وفي وصفها بالاطلاع على الأفئدة التي أودعت باطن الإنسان في أخفى مكان منه إشارة إلى أنها إلى غيره أشد وصولاً وأكثر تغلباً.

٢ - ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨﴾؛ أي: أن تلك[2] النار الموصوفة مطبقة أبوابها عليهم تأكيداً؛ ليأسهم من الخروج وتيقنهم بحبس الأبد، من آصدت الباب وأوصدته؛ أي: أطبقته، وقد سبق بيانه في سورة البلد؛ أي: إنها مطبقة مغلقة عليهم لا يخرجون منها، ولا يستطيعون الخروج إذا شاءوا فهم ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

٣ - ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾ جمع عمود، كما في «القاموس»، والعمود كل مستطيل من خشب أو حديد، قاله أبو عبيدة، ومعنى كون العمد ممدودة أنها

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

مطولة، وهي أرسخ من القصيرة، وهو في محل نصب على الحال من ضمير ﴿عَلَيْهِم﴾؛ أي: حال كونهم موثقين في أعمدة مطولة مغلولين عليها بأغلال في أعناقهم، وقيل[1]: هو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم مغلولون بأغلال في أعناقهم في أعمدة طوال في وسط جهنم، والنار ملتهبة من تحتهم، أو صفة لـ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ و﴿فِى﴾ بمعنى الباء، والمعنى: أنها مؤصدة مطبقة مغلقة عليهم أبوابها مشدودة تلك الأبواب بعمد ممددة؛ أي: بأعمدة طوال تعرض عليها وتشد بها، يعني[2]: إن أبواب جهنم أغلقت عليهم ممدودة على أبوابها عمد تشديداً في الإغلاق، كما قاله ابن جزيّ.

وفي «القرطبي»: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ ﴿فِى﴾ بمعنى الباء؛ أي: مؤصدة بعمد ممددة، قاله ابن مسعود وهي قراءته: ﴿بعمد ممدودة﴾ وفي حديث رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «ثم إن الله تعالى يبعث إليهم ملائكة بأطباق من نار، ومسامير من نار، وعمد من نار، فتطبق عليهم بتلك الأطباق، وتشد بتلك المسامير، وتمد بتلك العمد، فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح، ولا يخرج منه غم، وينساهم الرحمٰن على عرشه، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم، ولا يبعثون بعدها، وينقطع الكلام فيكون كلامهم زفيراً وشهيقاً»، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ وقال قتادة: هم في عمد يعذبون، واختار هذا القول ابن جرير الطبري، وقال ابن عباس: إن العمد الممددة أغلال في أعناقهم، وقيل: قيود في أرجلهم، قال: أبو صالح[3]، وقال القشيري: والمعظم على أن العمد أوتاد الأطباق التي تُطبق على أهل النار، تشد تلك الأطباق بالأوتاد التي هي العمد حتى يرجع عليها غمها وحرها، فلا يدخل عليهم روح، وقيل: أبواب النار مطبقة عليهم، وهم في عمد في سلاسل وأغلال مطولة، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة، وقيل: هم في عمد ممددة؛ أي: في عذابها وألمها يضربون بها، وقيل المعنى: في دهر ممدد؛ أي: لا انقطاع له. والله أعلم اهـ.

والمراد بذلك: تصوير شدة إطباق النار على هؤلاء وإحكامها عليهم، والمبالغة في ذلك؛ ليودع في قلوبهم اليأس من الخلاص منها، وعلينا أن نؤمن

---

(١) الشوكاني. (٢) الفتوحات. (٣) الفتوحات.

بذلك، ولا نبحث عن كون العمد من نار أو حديد، ولا في أنها تمتد طولاً أو عرضاً، ولا في أنها مشبهة بعمد الدنيا أم لا، بل نكل أمر ذلك إلى الله تعالى، لأن شؤون الآخرة غير شؤون الدنيا، ولم يأتنا خبر من الرسول ﷺ يبين ذلك، فالكلام فيه قول بلا علم وافتراء على الله بكذب.

وقرأ الأخوان[1] ـ حمزة والكسائي ـ وأبو بكر ﴿في عُمُد﴾ ـ بضمتين ـ جمع عمود كرسول ورسل، وقيل: جمع عماد نحو كتاب وكتب، وقرأ هارون عن أبي عمرو بضم العين وسكون الميم، وهو تخفيف لهذه القراءة، وقرأ الباقون: ﴿عَمَد﴾ بفتحتين، فقيل اسم جمع لعمود، وقيل: بل هو جمع له، وقال الفراء جمع عمود كأديم وأدم، وقال أبو عبيدة: جمع عماد، واختار أبو عبيدة وأبو حاتم قراءة الفتحتين، وقال الجوهري: العمود عمود البيت، وجمع القلة أعمدة، وجمع الكثرة: عَمَد وعُمُد، وقرىء بهما اهـ.

الإعراب

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء عليهم بالهلكة كما مر، وقيل: إنه معرفة؛ لأنه اسم واد في جهنم، ويجوز في غير القرآن نصبه على الدعاء، فيقال: ويلاً لكل همزة؛ أي: الزمه الله ويلاً، قال جرير:

كَسَا ٱلْلُؤْمُ تَيْمَاً خُضْرَةً فِيْ جُلُودِهَا فَوَيْلاً لِتَيْمٍ مِنْ سَرَابِيْلِهَا ٱلْخُضْرِ

بالنصب على الرواية الصحيحة ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ أي: ويل كائن لكل همزة، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿لُّمَزَةٍ﴾: بدل من ﴿هُمَزَةٍ﴾، وقيل: تأكيد لـ﴿هُمَزَةٍ﴾ تأكيداً لفظياً بالمرادف ﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من كل بدل المعرفة من النكرة، أو منصوب على الذم بفعل محذوف، وأعربها ابن خالويه نعتاً ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ وهو غير صواب، لكونه معرفة. ﴿جَمَعَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود إلى الموصول. ﴿مَالًا﴾: مفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿جَمَعَ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾.

﴿يَحْسَبُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿جَمَعَ﴾؛ أي: جمع مالاً حالة كونه حاسباً ظاناً أن المال سيخلده؛ أي: يوصله إلى رتبة الخلود فلا يموت، ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ما باله يجمع المال ويهتم به؟ ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ خبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب سادة مسد مفعولَي ﴿يَحْسَبُ﴾ تقديره: إخلاد ماله إياه. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر له عن حسبانه؛ أي: ارتدع عن حسبانك؛ أي: ليس الأمر كما دار في خَلَده من أن المال يخلده. ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿ينبذن﴾: فعل مضارع مغير الصيغة في محل الرفع؛ لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على الحاسب، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينبذن﴾. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، أو مستأنفة. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماض ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ الاستفهامية، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن ﴿ما﴾ الاستفهامية، وجملة ﴿ما﴾ الاستفهامية معطوفة على جملة القسم، أو مستأنفة. ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ: ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾: خبر، والجملة الاسمية المعلقة بالاستفهام سدت مسد المفعول الثاني لـ﴿أَدْرَىٰكَ﴾. ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي نار الله، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾: صفة لـ﴿النار﴾ ﴿ٱلَّتِى﴾: صفة ثانية لـ﴿النار﴾، وجملة ﴿تَطَّلِعُ﴾ صلة الموصول. ﴿عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾: متعلق بـ﴿تَطَّلِعُ﴾ وفاعل ﴿تَطَّلِعُ﴾ ضمير يعود على النار. ﴿إِنَّهَا﴾: ناصب واسمها. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾، و﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿فِى عَمَدٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾، وإليه ذهب أبو البقاء، فتكون النار داخل العمد، أو حال من ضمير ﴿عَلَيْهِم﴾؛ أي: حال كونهم موثقين في عمد

﴿مُّمَدَّدَةِۭ﴾ صفة لـ﴿عَمَدٍ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَيۡلٞ﴾ والويل: كلمة يدعى بها العذاب، ويُسأل بها على من استحقه، وعلى هذا يكون المعنى: اللهم ألحق الويل وأنزله بكل همزة، فتكون الجملة إنشائية، أو عَلَم لواد في جهنم، فيكون معرفة، وتكون الجملة خبرية، أخبرت بأن هذا الوادي ثابت معد لكل همزة لمزة، وقال بعضهم: الويل كلمة عذاب وهلاك وخزي، وهو لفظ يستعمل في الذم والتقبيح، والمراد به هنا: التنبيه على قبح ما سيذكر بعد من صفاتهم، والويس كلمة أخف، من الويل، والويح كلمة أخف من الويس، والويب كلمة أخف من الويح، يقال: ويل لزيد، ويقال: ويله وويحه وويسه وويبه، فمتى انفرد جاز فيه الرفع والنصب، ومتى أضيف لم يكن إلا منصوباً؛ لأنه يبقى بلا خبر، ومتى انفصل جُعلت اللام خبراً، وقال الحسن: ويح كلمة رحمة، فإن قيل: كيف تَصرَّف الفعل من ويح وويس وويل؟ فقل: ما صرفت العرب منها فعلاً، فأما هذا البيت المعمول:

فَمَا وَالٍ وَمَا وَاحٍ وَمَا وَاسٍ أَبُوْ زَيْدِ

فلا تلتفتن إليه، فإنه مصنوع خبيث.

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٖ﴾ في «المختار»: الهمز كاللمز وزناً ومعنى، وبابه ضرب، وفيه أيضاً واللمزُ العيب، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، وبابه: ضرب ونصر، والتاء فيهما للمبالغة في الوصف، وقد تقدم أن بناء فُعَلة بضم الفاء وفتح العين لمبالغة الفاعل؛ أي: المكثرة لمأخذ الاشتقاق، وبناء فُعْلة بضم الفاء وسكون العين لمبالغة المفعول، يقال: رجل لُعَنة ـ بضم اللام وفتح العين ـ لمن كان يُكثر لعن غيره، ولُعْنة ـ بضم اللام وسكون العين ـ إذا كان ملعوناً للناس يكثرون لعنه.

وعبارة «السمين»: والعامة على فتح ميميهما، على أن المراد الشخص الذي يكثر منه ذلك الفعل، وقرأ الباقون: بالسكون، وهو الذي يهمز ويلمز؛ أي: يأتي بما يهمز به ويلمز، والضُحَكة لمن يكثر ضحكه، والضُحْكة لم يأتي بما يُضحَك منه، وهو مطرد أعني: أن فعلة بفتح العين لمن يكثر منه الفعل، وبسكونها لمن يكثر الفعل بسببه، والهاء في همزة لمزة دخلت للمبالغة في الذم، كقولهم: رجل همزة

لمزة؛ أي: عيَّاب مغتاب، فلما دخلت الهاء لذلك استوى المذكر والمؤنث فيه، فيقال: امرأة همزة ورجل همزة، ولا يُثنّى ولا يُجمع، فيقال: رجال همزة ونساء همزة، والمهمزة عصاً في رأسها حديدة، تكون مع الرائض يهمز بها الدابة، والجمع: مهامز، ويقال: همزه يهمُزه ـ بضم الميم وبكسرها ـ همزاً إذا غمزه وضغطه ونخسه ودفعه وضربه وعضّه، واغتابه في غيبته فهو هماز وهمزة، وهمز الشيطان الإنسان همس في قلبه وسواساً، وهمز به الأرض صرعه، وهمز الفرس نخسه بالمهماز ليعدو.

ويقال: لمزه يلمُزه ـ بضم الميم وبكسرها ـ لمزاً إذا عاب، وأشار إليه بعينه ونحوها مع كلام خفي ودفعه وضربه، ولمزه الشيب ظهر فيه، وقال سعيد بن جبير: الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيّبهم إذا غابوا، ومنه قول حسان ـ رضي الله عنه ـ:

هَمَزْتُكَ فَٱخْتَضَعْتَ بِذُلِّ نَفْسٍ   بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كَٱلشُّوَاظِ

وأصل الهمز الكسر يقال: همز كذا إذا كسره، وأصل اللمز الطعن، يقال: لمزه بالرمح؛ أي: طعنه، ثم شاع استعمالهما فيما ذكرنا، قال زياد الأعجم:

إِذَا لَقِيْتُكَ عَنْ كُرْهٍ تُكَاشِرُنِيْ   وَإِنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتَ ٱلْهَامِزَ ٱللُّمَزَا

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ قُرىء بالتخفيف والتشديد، فمن شدد ميمه نظر للمبالغة والتكثير، ومن خففها جعله محتملاً للتكثير وعدمه، والمعنى: جمعه وضبط عدده وأحصاه.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ قال الشهاب الحلبي المعروف بالسمين: العامة على تثقيل الدال الأولى، وهو أيضاً للمبالغة، وقرأ الحسن والكلبي بتخفيفها كما مر، وقال ابن خالويه: ومن شدد جعله فعلاً ماضياً يقال: عدَّد المال يعدده تعديداً إذا عده مرة بعد أخرى شغفاً به، فهو معدد، و﴿الهاء﴾: مفعول به، ومن خفف جعله مصدراً واسماً؛ أي: جمع مالاً وعرف عدده وأحصاه.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ③﴾؛ أي: سيخلده ويوصله إلى رتبة الخلود، أي: ضمن له الخلود في الدنيا، وفي «المختار»: الخلد بالضم: البقاء، وبابه دخل، وأخلده الله وخلَّده تخليداً إذا أبقاه.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾؛ أي: ليطرحن، والنبذ: الطرح مع الإهانة والتحقير، وعبارة ابن خالويه: ومعنى ﴿ينبذَنَّ﴾ يتركَنَّ في جهنم، قال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ أي: تركوه.

﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾: وهي من أسماء النار من الحطم، وهو الكسر يقال: رجل حطمة إذا كان شديداً لا يُبقي على شيء، وفي أمثالهم: شر الرعاء الحطمة؛ أي: الذي يحطم ماشيته ويكسرها بشد سوقها، قال الشاعر:

قَـدْ لَـفَّـهَـا ٱلـلَّـيْـلُ بِـسَـوَّاقٍ حُـطَـمْ ... لَـيْـسَ بِـرَاعِـيْ إِبِـلٍ وَلاَ غَـنَـمْ
وَلاَ بِـجَـزَّارٍ عَـلَـىٰ ظَـهْـرِ وَضَـمْ

وفي «المختار»: حطمه ـ من باب ضرب ـ أي: كسره فانحطم وتحطم، والتحطيم التكسير، والحطمة من أسماء النار؛ لأنها تحطم ما تلتقم اهـ، والمراد بها هنا النار؛ لأنها تحطم العظام، وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب.

﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ وزنها: مفعلة من أُوقِدت أُوقِد إيقاداً، فأنا مُوقِد، والنار مُوقَدَة، وقد وقدت النار نفسها تَقِدُ وَقْداً ووقوداً بضم الواو، فهي واقدة، قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ يعني حجارة الكبريت، والوَقود ـ بالفتح ـ: الحطب، قال حاتم الطائي:

لَـيْـلُـكَ يَـا مُـوْقِـدُ لَـيْـلٌ قَـرُّ ... وَٱلـرِّيْـحُ مَـعْ ذَلِـكَ رِيْـحٌ صِـرُّ
أَوْقِـدْ يَـرَىٰ نَـارَكَ مَـنْ يَـمُـرُّ ... إِنْ جَـلَـبَـتْ ضَـيْـفَـاً فَـأَنْـتَ حُـرُّ

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ﴾ أصله: تفتعل، أبدلت تاء الافتعال طاء؛ لوقوعها بعد طاء، فأدغمت الطاء في الطاء؛ أي: تعلو أوسط القلوب وتغشاها.

﴿عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ جمع فؤاد، وهو خالص القلب ولبه، وهو للقلب كالقلب للصدر.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾؛ أي: مطبقة من أوصدت الباب إذا أغلقته، قال الشاعر:

تَـحِـنُّ إِلَـىٰ أَجْـبَـالِ مَـكَّـةَ نَـاقَـتِـيْ ... وَمِـنْ دُوْنِـهَـا أَبْـوَابُ صَـنْـعَـاءَ مُـؤْصَـدَهْ

﴿فِى عَمَدٍ﴾: جمع عمود، كأديم وأدَم ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾؛ أي: مطولة، تقدم لك البسط

في هاتين الكلمتين، فلا حاجة إلى تطويل الكلام بهما.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾؛ لأن بناء فُعَلة يدل على التكثير، والمبالغة في الفعل.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مَالًا﴾؛ أي: مالاً كثيراً لا يكاد يحصى؛ ليدل على فخامته وكثرته بدليل قوله: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾؛ لزيادة التقرير والتأكيد، ومقتضى السياق أن يقال: يحسب أنه أخلده.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي دون المضارع في قوله: ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ حيث لم يقل: يخلده؛ لكونه أمراً محققاً عنده؛ لأن هذا الإنسان يحسب أن المال قد ضمن له الخلود، وإعطاء الأمان من الموت، فكأنه حكم قد فُرغ منه.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ حيث شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً بعددهم بحصيات أخذهن أحد في كفه، فطرحهن في البحر، ويمكن أن تكون استعارة تصريحية تبعية، حيث استعار النبذ الذي هو الطرح للترك؛ لأن المعنى هنا: ليُتْرَكَنَّ في جهنم.

ومنها: المقابلة اللفظية الرائعة بين قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ وقوله: ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾؛ لأنه لما وصفه بهذه الصفة بصيغة دلت على أنها راسخة فيه ومتمكنة منه.. أتبع المبالغة المتكررة في الهمزة واللمزة بوعيده بالنار التي سماها بالحطمة؛ لما يكابد فيها من هول ويلقى فيها من عذاب، واختار في تعيينها صيغة مبالغة على وزن الصيغة التي ضمنها ذنب المقترف حتى يحصل التعادل بين الذنب والجزاء.

ومنها: التفخيم والتهويل في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾ تهويلاً لشأن جهنم.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿لُمَزَةٍ﴾ و﴿هُمَزَةٍ﴾ ويسمى الجناس الغير التام.

ومنها: تخصيص ذكر ﴿ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾؛ لما أن الفؤاد ألطف ما في الجسد، وأشده تألماً بأدنى أذى يمسه، أو لأنه محل العقائد الزائغة، كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الهمزة عقيب صلاة العشاء ليلة السبت الثامنة من شهر المحرم من شهور سنة: ١٤١٧ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. آمين.

سورة الفيل

سورة الفيل مكية، نزلت بعد سورة الكافرون، وهي مكية بلا خلاف، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت بمكة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ وهي: خمس آيات، وثلاث وعشرون كلمة، وستة وتسعون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[1]: أنه بيَّن في السورة السابقة أن المال لا يُغني من الله شيئاً، وهنا أقام الدليل على ذلك بقصص أصحاب الفيل.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر فيما قبلها عذاب الكفار في الآخرة.. أخبر هنا بعذاب ناس منهم في الدنيا، وقال بعضهم: مناسبتها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في السورة السابقة ما أعده من العذاب لمن عاب الناس، واغتابهم، وطعن في أعراضهم، وركن إلى الدنيا، وظن أن المال سيخلده، فظلم نفسه، واستحق عذاب الله، ونزل به وعيده وتهديده، وتحطم في الحاطمة المدمرة جهنم وساءت مصيراً.. بيَّن سبحانه هنا ما فعله بأصحاب الفيل، وهم الظالمون المعتدون الذين ظلموا أنفسهم، وأغاروا على حرم الله وبيته في مكة المكرمة، فجعل الله لهم العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، فرجعوا خائبين، وارتدوا منكسرين هالكين بعذاب الله تعالى، ونقمته التي صبها عليهم صباً، وجعل كيدهم في تضليل، ثم جعلهم كعصف مأكول. وسميت سورة الفيل؛ لذكر لفظ الفيل فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الفيل كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: ومن فضائلها ما روي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الفيل عافاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ» ذكره «البيضاوي» ولكن لا أصل له.

---

(١) المراغي. (٢) الصاوي.

إعجاز هذه السورة: وهذه السورة من آيات الله البينات، ومن أعظم المعجزات القاهرات والدلائل الباهرة التي أظهرها الله تعالى في ذلك الزمان، ليدل على وجوب معرفته عز وجل وجليل قدرته وعظيم جبروته، وفيها إرهاص لنبوة نبينا محمد ﷺ، وقد وُلد في ذلك العام الذي فيه أرخ العرب، وقالوا: ولد في عام الفيل.

وما كان لأحد أن ينكر هذا، فإنه ﷺ لما قرأ هذه السورة على أهل مكة لم ينكروا ذلك عليه ﷺ، بل أقروا به وصدقوه فيما قال، مع شدة حرصهم على تكذيبه واعتنائهم بالرد عليه، وكانوا قريب عهد بأصحاب الفيل، ولو لم يكن لذلك عندهم حقيقة واضحة وأصل بيّن.. لأنكروه وجحدوه، وشنعوا على الرسول به وكذبوه، ولكنهم صمتوا ولاذوا بالفرار أمام عظمة القرآن وصدق من أُنزل عليه القرآن سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

وكيف ينبس أحدهم ببنت شفة، وقد أرخوا بعام الفيل، وتناقل خبره الكبير والصغير، كما أرخوا ببناء الكعبة وموت قصي بن كعب وغير ذلك، كما أكثر الشعراء من ذكر عام الفيل، ونظموها في شعرهم، ونقلته الرواة عنهم، من ذلك ما قاله أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة قال:

إِنَّ آيَاتِ رَبِّنَا بَاقِيَاتٌ   مَا يُمَارِيْ فِيْهِنَّ إِلاَّ ٱلْكَفُوْرُ
خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ فَكُلٌّ   مُسْتَبِيْنٌ حِسَابُهُ مَقْدُوْرُ
ثُمَّ يَجْلُوْ ٱلنَّهَارَ رَبٌّ رَحِيْمٌ   بِمَهَاةٍ شُعَاعُهَا مَنْشُوْرُ
حَبسَ ٱلْفِيْلَ بِٱلْمُغَمَّسِ حَتَّىٰ   صَارَ يَحْبُوْ كَأَنَّهُ مَعْقُوْرُ
حَوْلَهُ مِنْ مُلُوْكِ كِنْدَةَ أَبْطَا   لٌ مَلاَوِيْثُ فِيْ ٱلْحُرُوْبِ صُقُوْرُ
كُلُّ دِيْنٍ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِنْدَ ٱلـ   لَّـهِ إِلاَّ دِيْنُ ٱلْحَنِيْفَةِ بُوْرُ

قال عبد الله بن عمرو بن مخزوم:

أَنْتَ ٱلْجَلِيْلُ رَبُّنَا لَمْ تُدْنَسِ   أَنْتَ حَبَسْتَ ٱلفِيْلَ بِٱلْمُغَمَّسِ
مِنْ بَعْدِ مَا هَمَّ بِشَيْءٍ مُبْلِسِ   حَبَسْتَهُ فِيْ هَيْئَةِ ٱلْمُنَكَّسِ

قال الحافظ بن كثير في «تفسيره»: هذه من النعم التي امتن الله سبحانه بها

على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها، فأبادهم الله تعالى، وأرغم آنافهم، وخيّب سعيهم، وأضل أعمالهم، وردهم بشر خيبة. وكانوا قوماً نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن من باب الإرهاص والتوطئة لنبوة محمد ﷺ ومبعثه، فإنه في ذلك العام وُلد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرِّفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام التعجيبي والتقريري؛ لتقرير رؤيته ﷺ بإنكار عدمها، وتعجيبه بما فعله الله تعالى، والخطاب لرسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون لكل من يصلح له، والرؤية[1] علمية لا بصرية؛ لأنه لم يكن وقت الواقعة موجوداً، وحُذفت ألف ﴿تَرَ﴾ للجازم، والمعنى: أقر بأنك علمت قصة أصحاب الفيل. ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ يا محمد و﴿كَيْفَ﴾ معلقة للرؤية منصوبة على المصدرية بالفعل المذكور بعدها، و﴿رَبُّكَ﴾: فاعل، والتقدير[2]: أي فعل فعله ربك، والجملة سدت مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾، ولا يصح نصب ﴿كَيْفَ﴾ على الحال من الفاعل؛ لأنه يلزم وصفه تعالى بالكيفية، وهو غير جائز اهـ «شهاب».

وقرأ السلمي: ﴿ألم ترْ﴾ ـ بسكون الراء ـ وهو جزم بعد جزم، ونُقل عن صاحب «اللوامح»: ﴿ترأ﴾ بهمزة مفتوحة مع سكون الراء على الأصل، وهي لغة لتيم، ذكره في «البحر».

﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾. وهم أبرهة بن الصباح الأشرم الحبشي ملك اليمن وقومه، ومعنى أبرهة بلسان الحبشة: الأبيض الوجه، ولُقّب بالأشرم؛ لأنه قُطع حاجبه وأنفه وعينه وشفته؛ أي: شُقَّت وخدشت كما سيأتي في القصة، وقيل: لأن أباه ضربه بحربة فشرم أنفه وجبينه، والمراد بالفيل: هو الفيل الأعظم الذي اسمه محمود، وكنيته أبو العباس، كما سيجيء، ونسبوا إليه؛ لأنه مقدمهم، وهو الذي برك وضربوه في رأسه فأبى، وكان معه اثنا عشر فيلاً، وقيل ثمانية عشر، وقيل ألف، وأفرده حينئذ موافقة لرؤوس الآي، أو لكونه نسبهم إلى الفيل الأعظم الذي يقال

---

(١) الصاوي.
(٢) الشوكاني.

له: محمود، والفيل: حيوان معروف يُجمع على أفيال وفيول وفيلة، قال ابن السكيت: ولا تقول أفيلة، وصاحبه فيَّال، ومن شأن الفيل المقاتلة، ولذلك كان في مربط ملك الصين ألف فيل أبيض، وهو مع عظم جسمه ضعيف يخاف من السنور ويفزع منه، والمعنى: قد علمت[١] يا محمد أو علم الناس الموجودون في عصرك ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل وما فعل الله بهم، فما لكم لا تؤمنون، وتعليق[٢] الرؤية بكيفية فعله تعالى لا بنفسه بأن يقال: ألم تر ما فعل ربك إلخ؛ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئات عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته، وعزة بيته وشرف رسوله، فإن ذلك من الإرهاصات، والإرهاص أن يتقدم على دعوى النبوة ما يشبه المعجزة تأسيساً لها ومقدمةً، كإظلال الغمام له ﷺ، وتكلم الحجر والمدر معه، قال بعضهم: الإرهاص الترصد؛ سميت الأمور الغريبة التي وقعت للنبي ﷺ إرهاصات؛ لأن كلاً منها مما يترصد بمشاهدته نبوته، فالإرهاص إنما يكون بعد وجود النبي ﷺ وقبل مبعثه، وفي كلام بعضهم: أن الإرهاص يكون قبل وجوده أيضاً قريباً من عهده، كما دل عليه قصة أصحاب الفيل، ورجحوا الأول.

فإن قيل: اتحاد السنة بأن يكون وقوع القصة عام المولد أمر اتفاقي لا يمنع عن كون الواقعة لتعظيم الكعبة، قلنا شرفها أيضاً بشرف مكانه ﷺ، ألا ترى أنه تعالى كيف قيَّد الإقسام بالبلد بحلوله ﷺ فيه، حيث قال ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾.

قال في «فتح الرحمٰن»: كان هذا عام مولد النبي ﷺ، في نصف المحرم، ووُلد ﷺ في شهر ربيع الأول، فبين الفيل ومولده ﷺ خمس وخمسون ليلة، وهي سنة: ستة آلاف ومئة وثلاث وستين من هبوط آدم عليه السلام على حكم التواريخ اليونانية المعتمدة عند المؤرخين، وبين قصة الفيل والهجرة الشريفة النبوية ثلاث وخمسون سنة والتاريخ الآن سبعة آلاف وست مئة وأربع وعشرون من هبوط آدم عليه السلام على ما أرخه اليونانيون هو الأصح. والمقصود من ذكر القصة إما تسلية النبي ﷺ بأنه سيجزي من يظلمه، كما جزى من قصد الكعبة، وإما تهديد الظلمة،

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

وتفصيل القصة سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومعنى الآية: أي ألم تعلم[1] يا محمد الحال العجيبة والكيفية الهائلة الدالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته فيما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا هدم البيت الحرام، فتلك حال قد جاءت على غير ما يُعرف من الأسباب والعلل؛ إذ لم يُعهد أن يجيء طير في جهة، فيقصد قوماً دون قوم، وهم معهم في جهة واحدة، فذلك أمارة على أنه من صنع حكيم مدبر بعثه لإنفاذ مقصد معين.

وإنما عبر عن العلم بالرؤية؛ للإيماء إلى أن الخبر بهذا القصص متواتر مستفيض، فالعلم به مساو في قوة الثبوت مع الوضوح للعلم الناشىء عن الرؤية والمشاهدة.

وخلاصة ذلك: أنك قد علمت ذلك علماً واضحاً لا لبس فيه ولا خفاء، ثم بيَّن الحال التي وقع عليها فعله، فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾ ربك يا محمد: ﴿كَيْدَهُمْ﴾ ومكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة واستباحة أهلها ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ وخيبة وخسران فيما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت، ولا إلى ما أرادوا بكيدهم، والهمزة[2] فيه للاستفهام التقريري، كأنه قال: قد جعل كيدهم في تضليل، والكيد: هو إرادة المضرة بالغير؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشاً بالقتل والسبي، ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم، ويقال: ضلل كيده إذا جعله ضالاً ضائعاً، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وضل الماء في اللبن، إذا ذهب وغاب، وقيل لامرىء القيس: الضليل؛ لأنه ضلل ملك أبيه؛ أي: ضيّعه، والمعنى[3]: قد جعل مكرهم وحيلتهم في تعطيل الكعبة عن الزوار وتخريبها في تضييعٍ وإبطالٍ بأن أهلكهم أشنع إهلاك، وجزاهم بعد إهلاكهم بمثل ما قصدوا حيث خرَّب كنيستهم.

قال في «إنسان العيون»: لما أُهلك صاحب الفيل وقومه.. عزت قريش وهابتهم الناس كلهم، وقالوا: هم أهل الله؛ لأن الله معهم، ومُزقت الحبشة كل ممزق، وخُرّب ما حول تلك الكنيسة التي بناها أبرهة بصنعاء، فلم يعمرها أحد، وكثرت حولها السباع والحيات ومردة الجن، وكل من أراد أن يأخذ منها شيئاً

---

(1) الشوكاني. (2) روح البيان. (3) روح البيان.

أصابته الجن، واستمرت كذلك إلى زمان السفاح الذي هو أول خلفاء بني العباس، فذُكر له أمرها، فبعث إليه عامله الذي باليمن فخربها، وأخذ خشبها المرصع بالذهب والآلات المفضضة التي تساوي قناطير من الذهب، فحصل له منها مال عظيم، وعفا من حينئذ رسمها، وانقطع خبرها، واندرست آثارها.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أصحاب الفيل ﴿طَيْرًا﴾ معطوف[1] على قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾؛ لأن الهمزة فيه للاستفهام التقريري كما سبق، فيكون في معنى الإثبات، والتقدير: فجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً ﴿أَبَابِيلَ﴾ صفة أولى لـ﴿طَيْرًا﴾؛ أي: طيراً أقاطيع؛ أي: جماعات يتبع بعضها بعضاً؛ لأنها كانت أفواجاً، فوجًا بعد فوج، متتابعة، بعضها على إثر بعض، أو من هٰهنا وهٰهنا، جمع أَبَّالة مشددة، وحكي تخفيفه، وهي الحزمة الكبيرة من الحطب، شُبِّهت بها الجماعة من الطير في تضامها، وقيل: ﴿أَبَابِيلَ﴾: مفرد، كعباديد، ومعناه: الفِرَق من الناس الذاهبون في كل وجه، وكشماطيط، ومعناه: القطع المتفرقة، وفيه أنها لو كانت مفردات لأشكل قول النحاة أن هذا الوزن من الجمع يُمنع صرفه؛ لأنه لا يوجد في المفردات.

قال النحاس: وحقيقته أنها جماعات عظام، يقال: فلان تَوَبَّل على فلان؛ أي: تعظم عليه وتكبر، وهو مشتق من الإبل، وهو من الجمع الذي لا واحد له .اهـ، وقال بعضهم: واحدهُ إِبَّوْل، مثل عِجَّول لغة في العجل، وقال بعضهم: أبيل، قال الواحدي: ولم نر أحداً يجعل لها واحداً، قال الفراء: لا واحد له من لفظه، وزعم الرؤاسي، وكان ثقة: أنه سُمع في واحدها: أَبَّالة مشدداً وحكى الفراء أيضاً أبالة بالتخفيف.

قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم ير قبلها ولا بعدها قال قتادة: هي طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجران في رجليه وحجر في منقاره، لا يصيب شيئاً إلا هشمه، وقيل: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع، وقيل: كان لها خراطيم كخراطيم الفيل، وأكف كأكف الكلاب، وأنيابها جاءت من جهة البحر ليست نجدية ولا

---

(١) البحر المحيط.

تهامية ولا حجازية سوداء، وقيل: خضراء على قدر الخطاف، كل طائر منها في منقاره حجر، وفي رجليه حجران، كل حجر فوق حبة العدس، ودون حبة الحمص، مكتوب في كل حجر اسم من يُرمى به، ينزل على رأسه، ويخرج من دبره، ومرض أبرهة فتقطع أنملة أنملة، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، وانفلت أبو مكسوم وزيره وطائره يتبعه حتى وصل إلى النجاشي، وأخبره بما جرى للقوم، فرماه الطائر بحجره، فمات بين يدي الملك، ذكره في «البحر».

وقوله: ﴿تَرۡمِيهِم﴾ صفة أخرى لـ﴿طَيۡرًا﴾، وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَرۡمِيهِم﴾ بالتاء، والطير اسم جمع يؤنث، كما في هذه القراءة، ويذكَّر كما في القراءة الآتية، وقرأ أبو حنيفة وأبو معمر وعيسى وطلحة في رواية عنه وابن يعمر: ﴿يرميهم﴾ بالتحتية؛ لأن اسم الجمع يذكر ويؤنث كما مر آنفاً، وقيل الضمير في ﴿يرميهم﴾ على هذه القراءة عائد على ﴿رَبُّكَ﴾ عز وجل. ﴿بِحِجَارَةٖ﴾: جمع[2] حجر بالتحريك بمعنى الصخرة، ويقال: رمى الشيء ورمى به ألقاه، ﴿مِّن سِجِّيلٖ﴾؛ أي: من طين متحجر، وهو الآجر معرب من سَنْك ِ وكِلْ، وقال بعضهم: متحجر من هذين الجنسين، وهما سنج الذي هو الحجر وجيل الذي هو الطين، أو هو عَلَم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، كما أن سجينا علم للديوان الذي تُكتب فيه أعمالهم، كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون، واشتقاقه من الإسجال، وهو الإرسال.

قال في «الصحاح»: قالوا هي حجارة من طين طُبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم، قال عبد الرحمٰن بن أبزى: ﴿مِّن سِجِّيلٖ﴾ من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط، وقيل: من الجحيم التي هي سجين، ثم أُبدلت النون لاماً، ومنه قول ابن مقبل:

وَرُفْقَةٍ يَضْرِبُوْنَ ٱلْبِيْضَ ضَاحِيَةً ... ضَرْبَاً تَوَاصَتْ بِهِ ٱلأَبْطَالُ سِجِّيْلاَ

وإنما هو سجينا، قال عكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدري، وكان الحجر كالحمصة، وفوق العدسة، وقد

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

قدمنا الكلام في ﴿سِجِّيلٍ﴾ في سورة هود.

والمعنى: أي إنه تعالى[١] أرسل عليهم فرقاً من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش، فابتُلي بمرض الجدري، أو الحصبة حتى هلكوا، وقد يكون هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، أو تكون هذه الحجارة من الطين اليابس المسموم الذي تحمله الرياح، فيعلق بأرجل هذا الطير، فإذا اتصل بجسم دخل في مسامه، فأثار فيه قروحاً تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، ولا شك أن الذباب يحمل كثيراً من جراثيم الأمراض، فوقوع ذبابة واحدة ملوثة بالمكروب على الإنسان كافية في إصابته بالمرض الذي يحمله، ثم هو ينقل هذا المرض إلى الجم الغفير من الناس، فإذا أراد الله أن يُهلك جيشاً كثير العدد ببعوضة واحدة.. لم يكن ذلك بعيداً عن مجرى الإلف والعادة، وهذا أقوى في الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور وغرائب الأمور، وأدل على ضعف الإنسان وذله أمام النهر الإلهي، وكيف لا وهو مخلوق تبيده ذبابة، وتقض مضجعه بعوضة، ويؤذيه هبوب الريح.

قال الإمام: فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة، فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة، وهي نعمة من الله غمر بها أهل حرمه على وثنيتهم حفظاً لبيته حتى يُرسل إليه من يحميه بقوة دينه ﷺ، وإن كانت نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت بدون جرم اجترمه ولا ذنب اقترفه اهـ.

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ معطوف على ﴿أرسل﴾؛ أي: فجعل ربك أولئك الأقوام الذين قصدوا بيته المشرف، يعني: أصحاب الفيل كعصف؛ أي: كزرع مأكول؛ أي: كزرع وقع فيه الأكال، وهو السوس الدود المعروف الذي يأكل الحبوب حتى يصير دقيقاً، والكلام على حذف مضاف؛ أي: كحب[٢] زرع مأكول حبه، وسُمي ورق الزرع بالعصف؛ لأن شأنه أن يُقطع، فتعصفه الرياح؛ أي: تذهب به إلى هنا وهٰهنا، شبههم به في فنائهم وذهابهم بالكلية، أو من حيث إنه حدثت فيهم بسبب رميهم منافذ وشقوق كالزرع الذي أكله الدود، ويجوز أن

---

(١) روح البيان.

يكون المعنى: كورق زرع أُكل حبه، فبقي صفراً منه، فيكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أيضاً، شبههم بزرع أُكل حبه، في ذهاب أرواحهم وبقاء أجسادهم، أو كتبن أكلته الدواب وألقته روثاً فيبس وتفرقت أجزاؤه، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث، وفيه تشويه لحالهم ومبالغة حسنة، وهو أنه لم يكتف بجعلهم أهون شيء في الزرع وهو التبن الذي لا يُجدي طائلاً، حتى جعلهم رجيعاً إلا أنه عبر عن الرجيع بالمأكول، أو أشير إليه بأول حاله على طريق الكناية مراعاةً لحسن الأدب، واستهجاناً لذكر الروث، كما كنى بالأكل في قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ عما يلزم الأكل من التبول والتغوط لذلك، فدأب القرآن هو العدول عن الظاهر في مثل هذا المقام.

قال بعضهم: من كان اعتماده على غير الله أهلكه الله بأضعف خلقه، ألا ترى أصحاب الفيل لما اعتمدوا على الفيل من حيث أنه أقوى خلق الله تعالى بأضعف خلق من خلقه، وهو الطير.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿مَّأْكُولِۭ﴾ بسكون الهمزة وهو الأصل؛ لأنه صيغة مفعول من فعل، وقرأ أبو الدرداء فيما نقل ابن خالويه بفتح الهمزة إتباعاً لحركة الميم وهو شاذ، وهذا كما أتبعوا في قولهم: محموم بفتح الحاء لحركة الميم.

المعنى الإجمالي لهذه السورة: ذكَّر الله[٢] سبحانه نبيه ومَن تبلغه رسالته بعمل عظيم دال على بالغ قدرته، وأن كل قدرة دونها فهي خاضعة لسلطانها، ذاك أن قوماً أرادوا أن يتعززوا بفيلهم ليبلغوا بعض عباده على أمرهم، ويصلوا إليهم بشر وأذى، فأهلكهم الله تعالى ورد كيدهم، وأبطل تدبيرهم بعد أن كانوا في ثقة بعددهم وعددهم، ولم يفدهم ذلك شيئاً.

قصص أصحاب الفيل كما رواه أرباب السير

حادث الفيل معروف متواتر لدى العرب، حتى إنهم جعلوه مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث، فيقولون: وُلد في عام الفيل، وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل، ونحو ذلك، وخلاصة ما أجمع عليه رواتهم كما سيأتي بسطه: أن قائداً

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

حبشياً ممن كانوا قد غلبوا على اليمن أراد أن يعتدي على الكعبة المشرفة ويهدمها؛ ليمنع العرب من الحج إليها، فتوجه بجيش جرار إلى مكة، واستصحب معه فيلاً أو فيلة كثيرة زيادةً في الإرهاب والتخويف، ولم يزل سائراً يغلب من يلاقيه، حتى وصل إلى المغمَّس، وهو موضع بالقرب من مكة، ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم، وإنما جاء لهدم الكعبة، ففزعوا منه وانطلقوا إلى شعف الجبل ينظرون ما هو فاعل، وفي اليوم الثاني فشا في جند الحبشي داء الجدري والحصبة، قال: عكرمة: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب، ففعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط، فذُعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين، وأصيب الحبشي، ولم يزل لحمه يسقط قطعة قطعة، وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء.

فصل

وحاصل تفصيل قصة أصحاب الفيل: أن ملك[1] حمير وما حولها وهو ذو نواس اليهودي لما أحرق المؤمنين بنار الأخدود ذات الوقود على ما سبق في سورة البروج.. هرب رجل منهم إلى ملك الحبشة، وهو أصحمة بن بحر النجاشي ـ بتخفيف الياء ـ جد النجاشي الذي آمن بالنبي ﷺ وأخبره بذلك، وحرّضه على قتال ذي نواس، فبعث أصحمة سبعين ألفاً من الحبشة إلى اليمن، وأمَّر عليها أرياطاً، ومعه في جنده أبرهة بن الصباح الأشرم، فركبوا البحر حتى نزلوا ساحلاً مما يلي أرض اليمن، وهزم أرياط ذا نواس، وقتله في المعركة، أو ألقى هو نفسه في البحر فهلك، واستمر أمر أرياط في أرض اليمن زماناً، وأقام فيها سنين في سلطانه ذلك، ثم نازعه أبرهة في أمر الحبشة، فكان من أمراء الجند، فتفرقت الحبشة فرقتين فرقة مع أرياط وفرقة مع أبرهة، فكان الأمر على ذلك إلى أن سار أحدهما إلى الآخر، فلما تقارب الفرقتان للقتال.. أرسل أبرهة إلى أرياط أنك لا تفعل شيئاً بأن تُغري الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها، فابرز لي وأبرز لك، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده، فأرسل إليه أرياط أن قد أنصفت فاخرج، فخرج

(١) روح البيان.

إليه أبرهة وكنيته أبو يكسون، وكان رجلاً قصير الجثمان لحيماً ذا دين في النصرانية، وخرج إليه أرياط وكان رجلاً طويلاً عظيماً وفي يده حربة، وخلف أبرهة غلام يقال له: عتودة يمنع ظهره، فرفع أرياط الحربة، فضرب أبرهة يريد يافوخه، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفته؛ أي: شقت وقطعت وخدشت، فبذلك سمي أبرهة الأشرم، وحمل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله، وانصرف جند أرياط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة في اليمن بلا منازع، وكان ما صنع أبرهة من غير علم النجاشي، فلما بلغه ذلك غضب غضباً شديداً، فقال: عدا على أميري فقتله بغير أمري، ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته، فلما بلغ هذا الخبر أبرهة حلق رأسه، وملأ جراباً تراباً من تراب اليمن، ثم بعث به إلى النجاشي مع هدايا جليلة كثيرة، وكتب إليه: أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك، فاختلفنا في أمرك، وكل طاعة لك إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط له، وأسْوَس منه، وقد حلقت رأسي حين بلغني حلف الملك، وبعثت إليه بجراب من أرض ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه فيَّ، فلما وصل كتاب أبرهة إلى النجاشي لان ورضي عنه، وكتب إليه أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري، فأقام أبرهة باليمن، ثم إنه رأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله الحرام، فتحرك منه عرق الحسد، فبنى بصنعاء كنيسة من رخام ملون وجواهر مرصع؛ أي: مزين.

وفي «إنسان العيون»: واجتهد في زخرفتها، فجعل فيها الرخام المجذع، والحجارة المنقوشة بالذهب، وكان ينقل ذلك من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام، وجعل فيها صلباناً من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والأبنوس، وسماها القُلَيْس ـ كجميز ـ لارتفاع بنائها وعلوها، ومنها القلانيس؛ لأنها في أعلى الرأس، وأراد أن يصرف إليها الحجاج، وكتب أبرهة إلى النجاشي: أيها الملك إني بنيت لك كنيسة لم يُبْنَ مثلها لملك قبلك، ولست أرضى حتى أصرف إليها حجاج العرب، فلما تحدث العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من بني كنانة يقال له: مالك بن كنانة، فخرج لها ليلاً، فدخل إليها فقعد فيها، ولطخ بالعذرة قبتها، فبلغ ذلك أبرهة، فقال: من اجترأ علي؟ فقيل له: صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت قد سمع بالذي قلت، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن

إلى الكعبة ثم يهدمها، فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك، وسأله أن يبعث إليه بفيله، وكان فيلاً يقال له: محمود، وكان فيلاً لم ير مثله عظماً وجسماً وقوةً، فبعث به إليه، فخرج أبرهة سائراً إلى مكة وخرج معه بالفيل، فسمعت العرب بذلك فعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له: ذو نفر بمن أطاعه من قومه، فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ ذا نفر، فقال لأبرهة: يا أيها الملك استبقني، فإن بقائي خير لك من قتلي، فاستحياه وأوثقه، وكان أبرهة رجلاً حليماً، ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خثعم خرج إليه نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم ومن اجتمع من قبائل اليمن فهزمهم، وأخذ نفيلاً، فقال نفيل: أيها الملك إني دليل بأرض العرب، فاستبقاه وخرج معه يدله؛ إذ مر بالطائف فخرج إليه مسعود بن مغيث في رجال من ثقيف، فقال: أيها الملك نحن عبيدك ليس عندنا خلاف لك، إنما تريد البيت الذي بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا معه أبارغال مولى لهم، وأبو رغال ـ بوزن كتاب ـ وهو رجل من ثمود، فخرج حتى إذا كان بالمغمس مات أبو رغال، وهو الذي يرجم قبره الآن.

وفي «القاموس»: المغمس ـ كمعظم ومحدث ـ موضع بطريق الطائف، فيه قبر أبي رغال، دليل أبرهة، ويُرجم، وبعث أبرهة رجلاً من الحبشة، يقال له: الأسود بن مسعود مقدمة خيله، وأمره بالغارة على نَعَم الناس، فجمع الأسود إليه أموال أصحاب الحرم، وأصاب لعبد المطلب مئتي بعير، ثم إن أبرهة أرسل حناطة الحميري إلى أهل مكة، وقال له: سل عن شريفها، ثم أبلغه ما أرسلك به إليه أخبره أني لم آت لقتال، إنما جئت لإهدام هذا البيت، فانطلق حتى دخل مكة، فلقي عبد المطلب، فقال له: إن الملك أرسلني لأخبرك أنه لم يأت لقتال، ولا أن تقاتلوه، وإنما جاء لهدم هذا البيت، ثم الانصراف عنكم، فقال عبد المطلب: ما له عندنا قتال، ولا لنا يد أن ندفعه عما جاء له، فإن هذا بيت الله الحرام، وبيت إبراهيم خليله عليه السلام، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه، وإن يحل بينه وبين ذلك، فوالله مالنا بدفعه قوة، قال: فانطلق معي إليه، فزعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة كان عليها، وركب معه بعض بنيه حتى قدم العسكر، وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب، فقال: ياذا نفر هل عندك من غناء؟ أي: نفع فيما نزل بنا، قال: أنا رجل أسير، لا آمن أن أُقتل بكرة أو عشية، ولكن سأبعث إلى أنيس سائس الفيل،

فإنه لي صديق، فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ويعظم حظوتك ومنزلتك عنده، قال: فأرسل إلى أُنيس، فأتاه فقال: إن هذا سيد قريش وصاحب عير مكة يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب الملك له مئتي بعير، فإن استطعت أن تنفعه فانفعه، فإنه صديق لي أحب ما وصل إليه من الخير، فدخل أُنيس على أبرهة، فقال: أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يُطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال يستأذن عليك، وأنا أحب أن تأذن له فيكلمك، فقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك، فأذن له وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً، فلما رآه أبرهة عظمه وأكرمه عن أن يجلس تحته، وكره أن تراه الحبشة أن يجلسه معه على سريره، فجلس على بساطه، وأجلس عبد المطلب بجنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له الترجمان ذلك، فقال له عبد المطلب: حاجتي إلى الملك أن يرد إلي مئتي بعير أصابها، فقال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت الآن فيك، قال: لم؟ قال: جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك، وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمه، لم تكلمني فيه وتكلمني في مئتي بعير غصبتها لك، قال عبد المطلب: أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمنعه منك، قال: ما كان ليمنعه مني، قال: فأنت وذاك، فأمر بإبله فرُدَّت عليه، فلما رُدت الإبل على عبد المطلب خرج، فأخبر قريشاً الخبر، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، ويتحرزوا في رؤوس الجبال خوفاً عليهم من معرة الجيش ففعلوا، وأتى عبد المطلب وأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من رجال قريش يدعون الله، ويستنصرون على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لَاهُمَّ إِنَّ ٱلْمَرْءَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَهُ فَٱمْنَعْ حِلَالَكْ
فَٱنْصُرْ عَلَىٰ آلِ ٱلصَّلِيـ ... ـبِ وَعَابِدِيهِ ٱلْيَوْمَ آلَكْ
لاَ يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ... وَمِحَالُهُمْ غَدْوَاً مِحَالَكْ
إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَكَعْـ ... ـبَتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

وقال:

يَا رَبِّ لاَ أَرْجُوْ لَهُمْ سِوَاكَا ... يَا رَبِّ فَٱمْنَعْ مِنْهُمُ حِمَاكَا

إِنَّ عَــدُوَّ ٱلْــبَــيْــتِ مَــنْ عَــادَاكَــا امْـنَـعْـهُـمُ أَنْ يَـخَـرُبُـوَا حِـمَـاكَـا

ولا هم أصله: اللهم، فإن العرب تحذف الألف واللام وتكتفي بما بقي، والحِلال ـ بكسر الحاء المهملة ـ جمع حلة، وهي البيوت المجتمعة، والمحال ـ بكسر الميم ـ الشدة والقوة، والغَدْوُ ـ بالغين المعجمة ـ أصل الغد، وهو اليوم الذي بعد يومك الذي أنت فيه.

فلما فرغ من دعائه توجه في بعض تلك الوجوه مع قومه، وأصبح أبرهة بالمغمَّس قد تهيأ للدخول وهيأ جيشه، وهيأ فيله، وكان فيلاً لم ير مثله في العظم والقوة، ويقال: كانت الأفيال اثني عشر فيلاً، فأقبل أنيس إلى الفيل الأعظم، ثم أخذ بأذنه وقال له: ابرك محموداً وارجع رشيداً، فإنك ببلد الله الحرام، فبرك، فبعثوه فأبى، فضربوه بالمعول في رأسه، فأدخل محاجنه تحت مراقه ومرافقه، ففزعوه ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى قدامه ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى، وخرج أنيس يشتد حتى صعد الجبل، وأرسل الله سبحانه طيراً من البحر مثل الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار، حجران في رجليه وحرج في منقاره، أكبر من العدسة وأقل من الحمصة، فلما غشيت القوم أرسلتها عليهم، فلم تُصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق الذي جاءوا منه، وصرخ القوم وماج بعضهم في بعض يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل منهل، وبعث الله على أبرهة داء في جسده فجعل تتساقط أنامله، كلما سقطت أنملة أتبعها المدة من قيح ودم، فانتهى إلى صنعاء، وهو مثل فرخ الطير، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، ثم هلك وانفلت وزيره أبو يكسوم، وطائره فوق رأسه حتى وقف بين يدي النجاشي، فلما أخبره الخبر سقط عليه الحجر، فمات بين يديه، وأما محمود فيل النجاشي فربض، ولم يشجع على الحرم، فنجا لما وقع منه من الفعل الجميل الذي لم يقع مثله من العقلاء، ولذا قال البوصيري في همزيته:

كَـمْ رَأَيْـنَـا مَـا لَـيْـسَ يَـعْـقِـلُ أُلْـهِـ ـمَ مَـا لَـيْـسَ يُـلْـهَـمُ ٱلْـعُـقَـلَاءُ

إِذْ أَبَى ٱلْفِيلُ مَا أَتَىٰ صَاحِبُ ٱلْفِيـ ـلِ وَلَـمْ يَـنْـفَـعِ ٱلْـحِـجَـا وَٱلـذَّكَـاءُ

وأما الفيلة الأخرى فشجعت على دخول الحرم، فرُميت بالحصباء فهلكت.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، و﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾ وعلامة جزمه حذف حرف العلة وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد ﷺ أو على كل من يصلح للخطاب، والجملة مستأنفة، ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على المصدرية والعامل فيه ما بعده، لأنه في تقدير أيَّ فعلٍ فَعَل ربك، ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب سدت مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾ معلقة عنها، بالاستفهام لأن الرؤية هنا قلبية ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿فَعَلَ﴾. ﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿يَجْعَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَبُّكَ﴾ ﴿كَيْدَهُمْ﴾: مفعول به أول. ﴿فِى تَضْلِيلٍ﴾: في موضع المفعول الثاني، والجملة مستأنفة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَرْسَلَ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾: لأن الاستفهام فيه تقريري، فيكون المعنى: قد جعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم إلخ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أرسل﴾. ﴿طَيْرًا﴾: مفعول به. ﴿أَبَابِيلَ﴾: صفة أولى لـ﴿طَيْرًا﴾؛ لأنه اسم جمع مجرور بالفتحة، لأنه اسم لا ينصرف؛ لكونه على صيغة منتهى الجموع. ﴿تَرْمِيهِم﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على ﴿طَيْرًا﴾ ومفعول به. ﴿بِحِجَارَةٍ﴾: متعلق بـ﴿تَرْمِيهِم﴾، والجملة الفعلية في محل النصب صفة ثانية لـ﴿طَيْرًا﴾. ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾: صفة لـ﴿حجارة﴾. ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿جعلهم﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول أول معطوف على ﴿أرسل﴾. ﴿كَعَصْفٍ﴾: في موضع المفعول الثاني. ﴿مَّأْكُولٍ﴾: صفة لـ﴿عصف﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وأصل ﴿تَرَ﴾: تَرْأَي بوزن تفعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فصارت ألفاً لفظاً، وياءً خطاً، ونقلوا فتحة الهمزة إلى الراء وأسقطوها تخفيفاً؛ لأن

الماضي من ترى رأيت مهموزاً، والمصدر من ذلك الرؤية، تقول: رأيت زيداً بعيني أراه رؤية، فأنا راءٍ ـ بوزن فاعٍ ـ أصله: رائي بوزن فاعل، فاستثقلوا الضمة على الياء المتطرفة، فحذفوها، فالتقى ساكنان الياء والتنوين، فأسقطوا الياء لالتقاء الساكنين، فصار راء بوزن فاع كقاض وراع وباغ، فالهمزة في راء بإزاء الضاد في قاض، فإن شئت أثبته خطاً، فجعلت بعد الألف ياء عوضاً عن الهمزة، وإن شئت كتبته بألفٍ، ولم تثبت الهمزة؛ لأن الهمزة، إذا جاءت بعد الألف تخفى وقفاً، فحذفوها خطاً، وكذلك جاء وشاء وساء ومراء جمع مراءة، كل ذلك أنت مخير فيه في الحذف والإثبات، فإذا أمرت من رأيت قلت: رِ يازيد براء واحدة، فإذا وقفت قلت: ره، وإنما صار الأمر فيه على حرف واحد، والأصل ثلاثة؛ لأن الهمزة سقطت تخفيفاً، والألف سقطت للجزم، فبقي الأمر على حرف واحد، ومثله قوله: عِ كلامي، شِ ثوبك، قِ زيداً، لِ الأمر، فِ الوعدَ، أمراً من وعى ووشى ووقى وولي ووفى، كما هو مبسوط في كتب النحو والصرف.

﴿ٱلْفِيلِ﴾ حيوان من أضخم الحيوانات جسماً، له خرطوم طويل يرفع به العلف والماء إلى فمه ويضرب به، وهو مع عظم جسمه ضعيف يخاف من السنور ويفزع منه، ومعنى بروك الفيل في القصة السابقة: سقوطه على الأرض لما جاءه من أمر الله، أو لزوم موضعه كالذي برك، وإلا فالفيل لا يبرك، كما قال عبد اللطيف البغدادي: الفيلة تحمل سبع سنين، وإذا تم حملها وأرادت الوضع دخلت النهر حتى تضع ولدها؛ لأنها تلد وهي قائمة ولا فواصل لقوائمها، فتلد والذكر عند ذلك يحرسها وولدها من الحيتان. انتهى.

وقال بعضهم: الفيل صنفان صنف لا يبرك وصنف يبرك كالجمل، انتهى، ويُجمع على أفيال وفِيْلة وفيول، ومؤنثه فِيْلة، والفيل أيضاً الخسيس الثقيل، وداء الفيل مرض يحدث منه غلظ كثيف في القدم والساق، تتخلله عجر صغيرة ناتئة، والفيَّال صاحب الفيل، والجمع فيالة، وفال الرأي وفائله وفيله ضعيفه، والفيالة ضعيف الرأي.

﴿كَيْدَهُمْ﴾ والكيد: إرادة وقوع ضرر بغيرك على وجه الخفاء.

﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ والتضليل: التضييع والإبطال، تقول: ضلَّلت كيد فلان إذا جعلته

باطلاً ضائعاً، والمعنى: جعل كيدهم في ضياع وخسار وهلاك، وقيل لامرىء القيس الملك الضليل؛ لأنه ضلل ملك أبيه؛ أي: ضيَّعه، كما مر.

﴿طَيْرًا﴾ والطير: كل ما طار في الهواء صغيراً كان أو كبيراً، وهو اسم جنس يذكر ويؤنث.

﴿أَبَابِيلَ﴾ قال ابن خالويه: وأبابيل نعت للطير؛ أي: جماعات جماعات، جمع إبَّوْلٍ مثل عجَّول وعجاجيل، والعِجَّول - بوزن سكِّيت - لغة في العجل ولد البقرة، وقال أبو جعفر الرؤاسي: واحدتها أبيل، وقال آخرون: أبابيل لا واحد لها، ومثلها أساطير، والإبِّيل في غير هذا الموضع الراهب، والوبيل العصا، يقال: رأيت إبِّيلاً؛ أي: راهباً متكئاً على وبيل يسوق أفيلاً، والأفيل ولد الناقة، قال عدي:

أَبْلِغِ ٱلنُّعْمَانَ عَنِّيْ مَأْلَكاً ... قَوْلَ مَنْ خَافَ ٱظْنَاناً وَٱعْتَذَرْ
إِنَّنِيْ وَٱللَّهِ فَٱقْبَلْ حَلِفِيْ ... بِإِبِيْلٍ كُلَّمَا صَلَّىٰ جَأَرْ

﴿بِحِجَارَةٍ﴾: جمع حجر بالتحريك بمعنى الصخرة.

﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ والسجيل: طين مطبوخ محرق كالآجر، واشتقاقه من الإسجال، وهو الإرسال كما مر؛ لأن العذاب موصوف بذلك.

﴿كَعَصْفٍ﴾ والعصف: ورق الزرع الذي يبقى بعد الحصاد، وتعصفه الرياح فتأكله الماشية.

﴿مَّأْكُولٍ﴾؛ أي: أكلت الدواب بعضه، وتناثر الآخر من بين أسنانها.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التقريري التعجبي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾؛ لتشريف المضاف إليه النبي ﷺ، وفيه التعبير بعنوان الربوبية، إشارة بشأن قدرة الله سبحانه وتعالى.

ومنها: تعليق الرؤية بكيفية فعله تعالى لا بنفسه بأن يقال: ألم تر ما فعل ربك إلخ؛ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئات عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وعزة بيته، وشرف رسوله ﷺ، فإن ذلك من الإرهاصات، كما مر.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾؛ لأن فيه ذكر الأداة، وحذف وجه الشبه حيث شبههم في فنائهم وذهابهم بالكلية بورق الزرع المأكول؛ لأن شأنه أن يقطع فتعصفه الرياح؛ أي: تذهب به إلى هٰهنا وهٰهنا، أو شبههم بزرع أُكِل حَبُّه في ذهاب أرواحهم، وبقاء أجسادهم، فالكلام على حذف مضاف؛ أي: كعصف مأكول الحب، كما مر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(1).

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

(1) إلى هنا تم تفسير الفيل بتوفيقه وتيسيره تعالى عصر يوم الخميس اليوم الثالث عشر من شهر الله المحرم من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، ومن شهور سنة: ٧٦٣٣ سبعة آلاف وست مئة وثلاث وثلاثين من هبوط آدم عليه السلام من الجنة. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

سورة قريش

سورة قريش مكية عند الجمهور، وقال الضحاك والكلبي هي مدنية نزلت بعد سورة التين، ويقال لها: سورة لإيلاف قريش.

وهي أربع آيات، وسبع عشرة كلمة، وثلاثة وسبعون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها[1]: أن كلاً من السورتين تضمن ذكر نعمة من نعم الله تعالى على أهل مكة، فالأولى تضمنت إهلاك عدوهم الذي جاء لهدم بيتهم، وهو أساس مجدهم وعزهم، والثانية ذكرت نعمة أخرى، وهي اجتماع أمرهم والتئام شملهم؛ ليتمكنوا من الارتحال صيفاً وشتاءً في تجارتهم، وجلب الميرة لهم، ولوثيق الصلة بين السورتين كان أبي بن كعب يعتبرهما سورة واحدة، حتى روي عنه أنه لم يفصل بينهما ببسملة، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هاتين إنما هما سورة واحدة فصل بينهما بالبسملة، وقالوا: إن هذه السورة متعلقة بالتي قبلها، وأن ﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١﴾ متعلقة بقوله: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾؛ أي: إنه أرسل الجماعة من الطير على أصحاب الفيل ترميهم بالحجارة حتى أصيبوا وهلكوا ودمروا، وقد فعل ذلك كله فيهم لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف.

ومن قال: إنهما سورة واحدة قال: إن الفصل بالبسملة إنما هو لإظهار العناية بما احتوت عليه كل سورة من السورتين، حتى إن كل جملة مما حوتا يصح أن تقصد لذاتها، وما تضمنته سورة قريش جدير بالعناية؛ لأن الخطاب والتذكير كان لهم، وهم قوم النبي ﷺ والسامعون لدعوته والحاملون لرسالته المبشرون بها، فحق لهم أن يفصل ما يختص بهم عما قبله بفاصل يلتفت الذهن إليه وإن كان مرتبطاً به، والأصح أنهما سورتان منفصلتان.

قال ابن جرير: الصواب أن ﴿اللام﴾ لام التعجب، كأنه يقول: اعجبوا

---

(١) المراغي.

لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك، قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان.

ونقل الإمام الطبري في «تفسيره» قال: قال عمرو بن ميمون الأزدي: صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، وقرأ في الركعة الأولى سورة والتين والزيتون، وفي الثانية ألم تر كيف ولإيلاف قريش، وسميت سورة قريش، لذكر لفظ قريش فيها، وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة قريش كلها محكم لا ناسخ ولا منسوخ فيها.

فضائلها: ومما يدل على فضلها: ما أخرجه[1] البخاري في «تاريخه» والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أم هانىء بنت أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «فضَّل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم، ولا يعطيها أحداً بعدهم: أني فيهم، ـ وفي لفظٍ: النبوةُ فيهم ـ، والخلافة فيهم، والحجابة فيهم، والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل، وعبدوا الله سنين ـ وفي لفظ عشر سنين ـ لم يعبده أحد غيرهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يُذكر فيها أحد غيرهم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾» وفيه إشارة إلى أنهم سبب نزولها، قال ابن كثير هو حديث غريب، ويشهد له ما أخرجه الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل الله قريشاً بسبع خصال: فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قريش، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، وفضلهم بأنها نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم، وهي: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾»، وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والسقاية، وأخرج الخطيب في «تاريخه» عن سعيد بن المسيب مرفوعاً نحوه، وهو مرسل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الشوكاني.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

التفسير وأوجه القراءة

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ متعلقة[1] بقوله تعالى في آخر السورة: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ وهو قول الزجاج، أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم رحلتين، ودخلت ﴿الفاء﴾؛ لما في الكلام من معنى الشرط؛ إذ المعنى: إن نعم الله عليهم غير محصورة، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة التي هي إيلافهم الرحلتين، فإنها أظهر نعمة عليهم؛ أي: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف؛ أي: ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة، فالإيلاف مصدر مضاف إلى مفعوله الأول مطلقاً عن المفعول الثاني الذي هو الرحلة كما قيد به في الإيلاف الثاني، والمعنى[2]: لتأليف الله لهم؛ أي: لتحبيبه لهم الرحلتين؛ أي: لجعلهم آلفين ومحبين لهما مسترزقين بهما؛ لتيسيرهما عليهم فليعبدوه شكراً له.

وقيل[3]: متعلقة بآخر السورة التي قبلها، كأنها قال سبحانه: أهلكت أصحاب الفيل؛ لأجل إيلاف قريش هاتين الرحلتين ولزومهم إياهما؛ أي: أهلكت من قصدهم من الحبشة؛ لأجل أن يألفوا هاتين الرحلتين ويجمعوا بينهما، ويلزموا إياهما ويثبتوا عليهما متصلاً لا منقطعاً، بحيث إذ فرغوا من هذه أخذوا في هذه وبالعكس، وذلك لأن الناس إذا تسامعوا بذلك الإهلاك تهيبوا لهم زيادة تهيب واحترموهم فضل احترام، فلا يجترىء عليهم أحد فينتظم لهم الأمن في رحلتيهم، وكان لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتيهم آمنين؛ لأنهم أهل حرم الله تعالى وولاة بيته العزيز، فلا يتعرض لهم، والناس حولهم بين متخطف ومنهوب، وذلك أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم مخمصة خرج هو وعياله إلى موضع، وضربوا على أنفسهم خباء

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات. (٣) روح البيان.

حتى يموتوا، وكانوا على ذلك إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه، فقام خطيباً في قريش، فقال: إنكم أحدثتم حدثاً تقلون فيه وتذلون، وأنتم أهل حرم الله وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع، قالوا: نحن تبع لك، فليس عليك منا خلاف، فجمع كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام؛ لأن بلاد اليمن حامية حارة، وبلاد الشام مرتفعة باردة؛ ليتجروا فيما بدا لهم من التجارات، فما ربح الغني قسم بينه وبين فقرائهم حتى كان فقيرهم كغنيهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش، وكان هاشم أول من حمل السمراء من الشام، وقيل تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت، وذلك لأنهم كانوا يزدادون كل يوم غياً وانغماساً في عبادة الأوثان، والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم، وينظم أسباب معايشهم، وذلك لا شك أنه في غاية التعجب من عظيم حلم الله وكرمه، وتكون ﴿اللام﴾ للتعجب، أو بمعنى إلى، وقرأ الجمهور[1]: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١﴾ بالياء مهموزاً مصدر آلف الرباعي، ومنه قول الشاعر:

اَلْمُنْعِمِيْنَ إِذَا ٱلنُّجُوْمُ تَغَيَّرَتْ   وَٱلظَّاعِنِيْنَ لِرِحْلَةِ ٱلإِيْلاَفِ

وقرأ ابن عامر: ﴿لإلاف﴾ بدون ياء ـ على وزن فعال ـ كتاب ـ مصدر ألف الثلاثي، يقال: ألف الرجل الأمر إلفاً وإلافاً، وقرأ أبو جعفر ﴿لإلْف﴾ بوزن حِمْل، وقد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر، فقال:

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ   لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلاَفُ

جمع بين مصدري ألف الثلاثي، ولم يختلف القراء السبعة في قراءة ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ مصدراً للرباعي، وقرأ عكرمة: ﴿لَيألف قريش﴾ بفتح اللام على أنها لام الأمر، وكذلك في مصحف ابن مسعود، وفتح لام الأمر لغة معروفة كما سيأتي.

ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين[2]: أن القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الأول في اتفاق المصاحف على إثباتها خطاً، واتفقوا على إثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها منه خطاً، فهو أدل دليل على أن القراء

---

(١) البحر المحيط.   (٢) الفتوحات.

متبعون الأثر والرواية، لا مجرد الخط.

وقرأ عاصم في رواية: ﴿إئلافهم﴾ بهمزتين، الأولى مكسورة والثانية ساكنة وهي شاذة؛ لأنه يجب في مثله إبدال الثانية حرفاً مجانساً كإيمان، وروي عنه أيضاً بهمزتين مكسورتين بعدهما ياء ساكنة، وخُرِّجت على أنه أشبع كسرة الهمزة الثانية، فتولد منها ياء، وهذه أشذ من الأولى، ونقل أبو البقاء أشذ منها، فقال بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهو بعيد، ووجهها: أنه أشبع الكسرة، فنشأت الياء، وقصد بذلك الفصل بين الهمزتين، كالألف في ﴿أأنذرتهم﴾، وعن أبي جعفر وابن كثير: ﴿إلفهم﴾، وعن أبي جعفر أيضاً، وعن ابن عامر: ﴿إلافهم﴾ مثل كتابهم، وعن ابن عامر أيضاً: ﴿ليلاف﴾ بياء ساكنة بعد اللام، وقرأ عكرمة: ﴿ليألف قريش﴾ فعلاً مضارعاً، وعنه أيضاً ﴿ليألف﴾ على الأمر واللام مكسورة، وعنه فتحها مع الأمر، وهي لغة كما مر اهـ «سمين».

و﴿قُرَيْشٍ﴾ مصغراً، هم ولد النضر بن كنانة، فكل من ولده النضر فهو قريش دون من لم يلده النضر، وإن ولده كنانة وهو الصحيح، وقيل: هم، ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، فمن لم يلده فهر فليس بقريش، وإن ولده النضر، فوقع الاتفاق على أن بني فهر قرشيون، وعلى أن بني كنانة الذين لم يلدهم النضر ليسوا بقرشيين، ووقع الخلاف في بني النضر وبني مالك، وفهر هو الجد الحادي عشر من أجداده ﷺ، والنضر هو الثالث عشر، ويسمى فهر قريشاً أيضاً، وذلك لأنه ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، واسمه قريش بن مالك بن النضر بن كنانة إلى آخر النسب الشريف اهـ من «المواهب».

واختُلف في اشتقاقهم على أوجه[1]:

أحدها: أنه من التقريش، وهو التجمع، سموا بذلك لاجتماعهم إلى الحرم بعد افتراقهم، قال الشاعر:

أَبُونَا قُرَيْشٌ كَانَ يُدْعَىٰ مُجَمِّعَاً ... بِهِ جَمَّعَ ٱللهُ ٱلْقَبَائِلَ مِنْ فِهْرِ

---

(١) الفتوحات.

والثاني: أنه من القرش وهو الكسب، وكانت قريش تجاراً، يقال: قرش يقرش؛ أي: اكتسب.

والثالث: أنه من التقريش بمعنى التفتيش، يقال: قرش، يقرش عني؛ أي: فتش، وكانت قريش يفتشون على ذوي الخلات من الحجاج وغيرهم ليسدوا خلتهم، قال الشاعر:

أَيُّهَا ٱلشَّامِتُ ٱلْمُقَرِّشُ عَنَّا ... عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لِذَاكَ بَقَاءُ

وقيل: سموا بتصغير القرش، وهو دابة عظيمة في البحر، تعبث بالسفن وتقلبها وتضربها فتكسرها، ولا تطاق إلا بالنار، فشبهوا بها؛ لأنها تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تُعلى، والتصغير للتعظيم، فكأنه قيل: قريش عظيم، فيكون وجه الشبه وصف الآكلية وعدم المأكولية، ووصف الغلبة وعدم المغلوبية.

قال الزمخشري: سمعت[1] بعض التجار بمكة ونحن قعود عند باب بني شيبه يصف لي القرش، فقال: مدور الخلقة كما بين مقامنا هذا إلى الكعبة، ومن شأنه أن يتعرض للسفن الكبار، فلا يرده شيء إلا أن يأخذ أهلها المشاعل، فيمر على وجهه كالبرق، وكل شيء عنده قليل إلا النار، وبه سميت قريش، قال الشاعر:

وَقُرَيْشٌ هِيَ ٱلَّتِيْ تَسْكُنُ ٱلْبَحْـ ... ـرَ بِهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا

تَأْكُلُ ٱلْغَثَّ وَٱلسَّمِيْنَ وَلاَ تَتْـ ... ـرُكُ فِيْهِ لِذِيْ جَنَاحَيْنِ رِيْشَا

هَكَذَا فِيْ ٱلْبِلاَدِ حَيُّ قُرَيْشٍ ... يَأْكُلُوْنَ ٱلْبِلاَدَ أَكْلاً كَمِيْشَا

وَلَهُمْ آخِرَ ٱلزَّمَانِ نَبِيٌّ ... يُكْثِرُ ٱلْقَتْلَ فِيْهِمُ وَٱلْخُمُوْشَا

الخموش: الخدوش، وأكلاً كميشاً؛ أي: سريعاً، وأجمعوا[2] على صرفه هنا مراداً به الحي، ولو أريد به القبيلة؛ لامتنع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي، قال سيبويه في معد وثقيف وقريش وكنانة: هذه للأحياء أكثر، وإن جعلتها أسماء للقبائل فهو جائز حسن اهـ «سمين».

وقوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾ بدل من ﴿إيلاف قريش﴾ وقيل: إنه تأكيد له، والأول

---

(١) روح البيان.

(٢) الفتوحات.

أولى، ورجحه أبو البقاء، وقوله: ﴿رِحْلَةَ﴾ مفعول[1] به لـ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾، وقيل: منصوب بمصدر مقدر؛ أي: ارتحالهم رحلة، وهي بكسر الراء الارتحال، وبالضم الجهة التي يُرحَل إليها، وأصل الرحلة السير على الراحلة، وهي: الناقة القوية، ثم استعمل في كل سير وارتحال، وإفرادها مع أنه أراد رحلتي الشتاء والصيف؛ لأمن الإلباس مع تناول اسم الجنس للواحد والكثير، وفي إطلاق الإيلاف عن المفعول أولاً، ثم إبدال المقيد منه تفخيم لأمره، وتذكير لعظيم النعمة فيه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿رِحْلَةَ﴾ ـ بكسر الراء ـ وأبو السمال بضمها، فبالكسر مصدر، وبالضم الجهة التي يرحل إليها كما مر آنفاً، والجمهور على أنها رحلتان، فقيل: إلى الشام في التجارة ونيل الأرباح، ومنه قول الشاعر:

سَفَرَيْنِ بَيْنَهُمَا لَهُ وَلِغَيْرِهِ ... سَفَرُ ٱلشِّتَاءِ وَرِحْلَةُ ٱلأَصْيَافِ

وقوله: ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾؛ أي: انتقالهم إلى اليمن والشام، والشتاء والصيف فصلان من فصول السنة الأربعة المجموعة في قول بعضهم:

رَبِيْعُ صَيْفٍ مِنَ ٱلأَزْمَانِ ... خَرِيْفُ شِتَاءٍ فَخُذْ بَيَانِيْ

والمراد بالصيف هنا زمن الحرارة، فيشمل الربيع، وبالشتاء زمن البرودة، فيشمل الخريف.

والحاصل: أنه كان[3] لقريش رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن؛ لأنه أدفأ، وفي الصيف إلى الشام؛ لأنه أبرد، فكانت أشراف أهل مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين، ويأتون لأهل بلدهم ما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب، وإنما كانوا يربحون في أسفارهم؛ لأن ملوك النواحي كانوا يعظمون أهل مكة، ويقولون: هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة، حتى إنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله، فلو تم للحبشة ما عزموا عليه من هدم الكعبة.. لزال عنهم هذا العز، ولبطلت تلك المزايا من التعظيم والاحترام، ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحي يُتخطفون من كل جانب، ويتعرض لهم في نفوسهم وأموالهم، فلما أهلك الله أصحاب الفيل.. ازداد شرف أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم ملوك الأطراف

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) المراح.

لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر حتى كان فقيرهم كغنيهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فلهذا قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ②﴾ ولولا هاتان الرحلتان لم يكن بها مقام، ولولا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التصرف، هذا وتعلق أول هذه السورة بما قبلها من قوله تعالى: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾، أو من قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ⑤﴾ ليس بحجة على أنهما سورة واحدة؛ لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، بل كالآية الواحدة في أنه يصدق بعضه بعضاً، ويبين بعضه معنى بعض، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ①﴾ متعلق بما قبله من ذكر القرآن، وأما قراءة سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة؛ لأن الإمام له أن يقرأ سورتين في ركعة واحدة.

وقيل: إن المراد رحلة الناس إلى أهل مكة، فرحلة الشتاء والصيف عمرة رجب وحج ذي الحجة؛ لأنه كان أحدهما شتاءً والآخر صيفاً، وموسم منافع مكة يكون بهما، ولو كان تم لأصحاب الفيل ما أرادوا لعُطِّلت هذه المنفعة.

قيل: وأول من سن[1] لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف، وكانوا يقسمون ربحهم بين الغني والفقير، حتى كان فقيرهم كغنيهم، واتبع هاشماً على ذلك إخوته، فكان هاشم يؤالف إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بجاه هؤلاء الإخوة؛ أي: بعهودهم التي أخذوها بالأمان لهم من ملك كل ناحية من هذه النواحي اهـ «خطيب».

و﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ واقعة في جواب شرط مقدر، كما في «السمين» تقديره: إن لم يعبدوه لسائر نعمه عليهم فليعبدوا ﴿رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ العتيق؛ لإيلافهم هاتين الرحلتين؛ أي: لتأليف الله وتمكينه لهم من هاتين الرحلتين؛ أي: لتحبيبه لهم الرحلتين؛ أي: لجعله إياهم آلفين ومحبين لهما مسترزقين بهما لتيسيرهما عليهم، وقيل: ﴿الفاء﴾ زائدة، ولذلك جاز تقديم معمول ما بعدها عليها، قاله الشهاب، والأول أصح.

---

(١) روح البيان.

﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم﴾ بسبب تين الرحلتين اللّتين تمكنوا منهما بواسطة كونهم من جيران هذا البيت وسكان حرمه، وقيل: بسبب دعوة إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا﴾ ﴿مِّن جُوعٖ﴾؛ أي: من بعد جوع شديد كانوا فيه قبلهما بحمل المِيرة إليهم من البلاد النائية في البر والبحر بسبب كونهم جيران البيت، وكان الجوع يصيبهم لعدم زرع بمكة إلى أن جمعهم عمرو العلي وهو هاشم المذكور على الرحلتين، قال أبو حيان: ﴿مِّن﴾ هٰهنا للتعليل مع تقدير مضاف؛ أي: أنعم عليهم وأطعمهم لأجل إزالة الجوع عنهم الحاصلة بالرحلتين؛ أي: بالتجارة فيهما وبإزالة الخوف عنهم، وقال سعدي المفتي: الجوع لا يجامع مع الإطعام، والظاهر أنها للبدلية، يقول الفقير: الظاهر أن مآل المعنى: نجاتهم من الجوع بسبب الإطعام والترزيق.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ﴾ عظيم لا يقادر قدره، وهو خوف أصحاب الفيل، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم، وقال صاحب «الكشاف»: الفرق بين عن ومن أن عن يقتضي حصول جوع قد زال بالإطعام، ومن يقتضي المنع من لحاق الجوع، ولذلك اختارها هنا.

والمعنى(١): أطعمهم فلم يلحقهم جوع، وآمنهم فلم يلحقهم خوف، فتكون ﴿مِّن﴾ لابتداء الغاية.

والخلاصة: أطعمهم في بدء جوعهم قبل لحاقه إياهم وآمنهم في بدء خوفهم قبل اللحاق، وقيل في معنى الآية: إنهم لما كذبوا محمداً ﷺ دعا عليهم، فقال: اللهم اجعلها سنيناً كسني يوسف، فاشتد عليهم القحط، وأصابهم الجهد والجوع، فقالوا: يا محمد ادع الله لنا، فإنا مؤمنون، فدعا رسول الله ﷺ وأخصبت البلاد، وأخصب أهل مكة بدل القحط والجهد، فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ ۝٤﴾ لمكان الحرم، وكونهم من أهل مكة، حتى لا يتعرض لهم أحد، قال ابن زيد: كان العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها بعضاً، فآمن قريشاً لمكان الحرم، وقيل: آمنهم من خوف الجذام، فلا ترى بمكة مجذوماً،

---

(١) روح البيان.

قاله ابن عباس والضحاك: والتنكير في ﴿جُوعٍ﴾[1] و﴿خَوْفٍ﴾؛ لشدتهما يعني: أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما وآمنهم من خوف عظيم، خوف أصحاب الفيل وخوف التخطف، كما مر آنفاً.

وقرأ الجمهور: ﴿مِّنْ خَوْفٍ﴾ بإظهار النون عند الخاء، والمسيبي عن نافع بإخفائهما، وكذلك مع العين نحو من علي، وهي لغة حكاها سيبويه.

وخلاصة معنى قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾؛ أي: فلتعبد[2] قريش ربها شكراً له أن جعلهم قوماً تَجْراً ذوي أسفار في بلاد غير ذات زرع ولا ضرع، لهم رحلتان رحلة إلى اليمن شتاء لجلب الأعطار والأفاويه التي تأتي من بلاد الهند والخليج الفارسي إلى تلك البلاد، ورحلة في الصيف إلى بلاد الشام؛ لجلب الحاصلات الزراعية إلى بلادهم المحرومة منها.

وقد كان العرب يحترمونهم في أسفارهم؛ لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة، فيذهبون آمنين ويعودون سالمين لا يمسهم أحد بسوء على كثرة ما كان بين العرب من السلب والنهب والغارات التي لا تنقطع، فكان احترام البيت ضرباً من القوة المعنوية التي تحتمي بها قريش في الأسفار، فلهذا ألفتها نفوسهم وتعلقت بالرحيل استدراراً للرزق، وهذا الإجلال الذي ملك قلوب العرب ونفوسهم من البيت الحرام إنما هو من تسخير رب البيت سبحانه، وقد حفظ حرمته، وزادها في نفوس العرب، رد الحبشة عنه حين أرادوا هدمه وإهلاكهم قبل أن ينقضوا منه حجراً بل قبل أن يدنوا منه، ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب، ونقصت حرمته عندهم، واستطالت الأيدي على سفارهم. لنفروا من تلك الرحلات، فقلَّت وسائل الكسب بينهم؛ لأن أرضهم ليست بذات زرع ولا ضرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة يحتاج إليها الناس فيأتوهم، وهم في عقر ديارهم ليأخذوا منها، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق، وينقطع عنهم ينابيع الخيرات.

﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ الذي حماها من الحبشة وغيرهم، ومكن

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

منزلته في النفوس، وكان من الحق أن يفردوه بالتعظيم والإجلال والعبادة دون الأصنام والأحجار التي يدعونها، ثم وصف رب هذا البيت بقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾؛ أي: إنه هو الذي أوسع لهم الرزق، ومهد لهم سبله، ولولاه لكانوا في جوع وضنك عيش. ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾؛ أي: وآمن طريقهم، وأورثهم القبول عند الناس، ومنع عنهم التعدي والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم، ولولاه لأخذهم الخوف من كل مكان، فعاشوا في ضنك وجهد شديد.

وإذا كانوا يعرفون أن هذا كله بفضل رب هذا البيت، فلم يتوسلون إليه بتعظيم غيره وتوسيط سواه عنده، مع أنه لا فضل لأحد ممن يوسطونه في شيء من النعمة التي هم فيها، نعمة الأمن ونعمة الرزق وكفاية الحاجة، وقال ابن الأسلت يخاطب قريشاً:

فقوموا فصَلُّوا ربكم وتمسحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب

فعندكمُ منه بلاء ومصدق ... غداة أبي يكسوم هادي الكتائب

كتيبتُه بالسهل تمشي ورحلة ... على العادقات في رؤوس المناقب

فلما أتاكم نصر ذي العرش رَدَّهم ... جنود مليء بين ساق وحاجب

فوَلَّوا سراعاً هاربين ولم يَؤُبْ ... إلى أهله مجليش غير عصائب

الإعراب

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾: بدل من ﴿إيلاف﴾ الأول بدل مقيد من مطلق، وهو مصدر مضاف إلى فاعله. ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ﴾: مفعوله؛ ﴿وَٱلصَّيْفِ﴾: معطوف على ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾، أو مضاف إلى مفعوله الأول؛ أي: إيلافنا إياهم رحلة الشتاء والصيف، وتمكيننا إياهم من رحلتين. ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط محذوف تقديره: إن لم يعبدوا الله لسائر نعمه السابغة المترادفة عليهم، فليعبدوه لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، وهي نعمة سابغة أتاحت لهم الإتجار، وضمنت لهم ميسور الرزق،

و﴿اللام﴾: لام الأمر، ﴿يعبدوا﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿رَبَّ﴾: مفعول به وهو مضاف، ﴿هَٰذَا﴾: مضاف إليه، ﴿ٱلْبَيْتِ﴾: بدل من اسم الإشارة، والجملة الفعلية في محل الجزم بالشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف مستأنفة استئنافاً نحوياً، وقيل: الجار والمجرور في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ متعلق بـ﴿جعلهم﴾ في قوله في السورة السابقة: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾؛ لأن السورتين بمنزلة سورة واحدة، وإلى هذا ذهب الأخفش، وعلى هذا القول فـ﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفوا أن الله تعالى جعل أصحاب الفيل كعصف مأكول، وأرادوا بيان ما هو اللازم لهم في شكر هذه النعمة، فأقول لهم: ليعبدوا رب هذا البيت، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، وقيل: متعلق بمحذوف تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش، و﴿الفاء﴾ في ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ فاء الفصيحة أيضاً. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿رب﴾، أو بدل منه. ﴿أَطْعَمَهُم﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿مِّن جُوعٍ﴾: متعلق بـ﴿أطعم﴾. ﴿وَءَامَنَهُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿أَطْعَمَهُم﴾. ﴿مِّنْ خَوْفٍ﴾: متعلق بـ﴿آمن﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ والإيلاف إما مصدر آلف الرباعي بوزن أكرم، تقول: آلف يؤلف إيلافاً، فهو مُؤْلِف، مثل آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن، وعلى هذا يكون أصله: إئلافاً بوزن إفعال كإكرام؛ لأن آلف أصله: أألف، ومصدره: إئلاف بوزن إفعال، فأُبدلت الهمزة الساكنة في المصدر ياء؛ لكسر ما قبلها، فصار: إيلافاً، وهذا على قراءة من قرأ: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ بالياء، وأما على قراءة من قرأ ﴿إِلْفهم﴾، أو ﴿إلافِهِم﴾ بلا ياء، فهو مصدر لأَلِفَ الثلاثي، يقال: ألف يألف إلفاً، كعلم يعلم علماً، فهو عالم، والأمر من الممدود آلف يا زيد، ومن المقصور: إيلف يا زيد، تقول: ألفت الشيء إلفاً وإلافاً من الثلاثي، وآلفته إيلافاً من الرباعي إذا لزمته وعكفت عليه من الأنس به وعدم النفور منه، والإيلاف إيجاب الإلْف بحسن التدبير والتلطف، فالإيلاف نقيض الإيحاش ونظير الإيلاف: الإيناس.

و ﴿قُرَيْشٍ﴾: اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة كما مر، وفي «القاموس»: قرشه يقرُشه ويقرِشه قطعه، وجمعه هٰهنا وهٰهنا، وضم بعضه إلى بعض، ومنه قريش؛ لتجمعهم إلى الحرم، أو لأنهم يتقرشون البيعات فيشترونها، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً، فقالوا: تقرش، أو لأنه جاء إلى قومه، فقالوا: كأنه جمل قريش؛ أي: شديد، والنسبة إليه: قرشي وقريشي. انتهى.

﴿رِحْلَةَ﴾ والرِحلة ـ بالكسر ـ ارتحال القوم؛ أي: شدهم الرحال للمسير، وبالضم الجهة التي يُرتَحَل إليها، وأصل الرحلة السير على الراحلة؛ وهي الناقة القوية، ثم استُعمل في كل سير وارتحال، وإفرادها مع أنه أراد رحلتي الشتاء والصيف؛ لأمن الإلباس مع تناول اسم الجنس للواحد والكثير، كما مر.

﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ والشتاء الفصل المقابل للصيف، وفي «القاموس»: الشتاء: أحد أرباع الأزمنة والموضع المشتي، وفيه إعلال الإبدال أصله: الشتاو من شتا يشتو، أبدلت الواو همزة لوقوعها متطرفة إثر ألف زائدة.

﴿وَٱلصَّيْفِ﴾ والصيف: القيظ، أو بعد الربيع، والقيظ صميم الصيف من طلوع الثريا إلى طلوع سهيل.

﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم﴾؛ أي: وسَّع لهم الرزق، ومهد لهم سبيله.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾؛ أي: جعلهم في أمن من التعدي عليهم، والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ على عامله في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ تذكيراً للنعمة واعتناء ببيانها.

ومنها: تصغير لفظ ﴿قُرَيْشٍ﴾؛ للتعظيم، فكأنه قيل: قريش عظيم على ما قيل، والأوجه أن التصغير على حقيقته ومعناه، كما مر.

ومنها: إطلاق الإيلاف عن المفعول أولاً في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ ثم

إبدال المقيد منه في قوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ﴾ تفخيماً لأمره، وتذكيراً لعظيم النعمة فيه.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ و﴿الصيف﴾ في قوله: ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ وبين الجوع والإطعام في قولهم: ﴿أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ﴾ وبين الأمن والخوف في قوله: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾.

ومنها: الإضافة لتشريف المضاف إليه وتكريمه في قوله: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾.

ومنها: التنكير في لفظة ﴿جُوعٖ﴾ ولفظة ﴿خَوۡفِۭ﴾؛ لبيان شدتهما وعظمهما؛ أي: جوع شديد وخوف عظيم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

فائدة: قال الإمام الرازي في «تفسيره»: اعلم أن الإنعام على قسمين:

أحدهما: دفع ضر، وهو ما ذكره في سورة الفيل.

والثاني: جلب النفع، وهو ما ذكره في هذه السورة، ولما دفع الله سبحانه عنهم الضر وجلب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان.. أمرهم بالعبودية في قوله: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣﴾... الآيات، أداء لشكر هذه النعمة العظيمة[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الإيلاف بتوفيقه سبحانه وقت العشاء من الليلة السابعة من شهر الله المحرم من شهور سنة: ١٤١٧هـ. ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين.

سورة الماعون

سورة الماعون، ويقال لها سورة الدين، وسورة اليتيم، وهي نزلت بعد سورة التكاثر في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس، ومدنية في قول قتادة وآخرين.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة: أريت الذي يكذب بالدين بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وقيل: نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل، والنصف الثاني بالمدينة في عبد الله ابن أبي ابن سلول المنافق.

وآياتها: سبع، وكلماتها: خمس وعشرون، وحروفها: مئة وخمسة وعشرون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[1]: من ثلاث أوجه:

١ ـ أنه قال في السورة السابقة: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾، وذم في هذه من لم يحض على إطعام المسكين.

٢ ـ أنه قال في السورة السابقة: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾، وهنا ذم من سها عن صلاته.

٣ ـ أنه هناك عدد نعمه على قريش، وهم مع ذلك ينكرون البعث ويجحدون الجزاء، وهنا أتبعه بتهديدهم وتخويفهم من عذابه.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الماعون كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وسميت سورة الماعون؛ لذكر الماعون فيها.

فضلها: وروي في فضلها: أنه ﷺ قال: «من قرأ سورة أرأيت غفر الله له إن كان للزكاة مؤدياً»، وفيه مقال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) المراغي.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾.

أسباب النزول

قيل نزلت[1] هذه السورة في أبي جهل، أو الوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل، أو عمر بن عائذ، أو رجل من المنافقين، أو أبي سفيان بن حرب كان ينحر في كل أسبوع جزورين، فأتاه يتيم، فسأله شيئاً، فقرعه بعصاه، أقوال آخرها لابن جريج، وأخرج ابن المنذر[2] عن طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤...﴾ الآية، قال نزلت في المنافقين: كانوا يراؤون المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا، ويمنحونهم العاريَّة.

التفسير وأوجه القراءة

والخطاب في قوله: ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له، والاستفهام لقصد التعجيب من حال من يكذب بالدين، والرؤية بمعنى المعرفة تتعدى لمفعول واحد، وهو: ﴿ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ والدين: الجزاء والحساب في الآخرة، وقيل: بالقرآن، وقال ابن عباس: ﴿بِٱلدِّينِ﴾؛ أي: بحكم الله.

وفي الكلام حذف، والتقدير: هل عرفت يا محمد الذي يكذب بالبعث والجزاء في الآخرة؟ إن طلبت معرفته، فذلك الذي يدع اليتيم إلخ.

قيل: التقدير: أمصيب هو أم مخطىء؟ وأبدى[3] فيه السمين احتمالين آخرين: ونصه: وفي ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ هذه وجهان:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) لباب النقول.

(٣) الفتوحات.

أحدهما: أنها بصرية، فتتعدى لمفعول واحد وهو الموصول، كأنه قال: أبصرت المكذب بالدين.

والثاني: أنها بمعنى أخبرني، فتتعدى لاثنين، فقدره الحوفي: أليس مستحقاً العذاب، وقدره الزمخشري: من هو، ويدل لذلك قراءة عبد الله: أريتك بكاف الخطاب، و﴿الكاف﴾ لا تلحق البصرية اهـ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ بإثبات الهمزة الثانية، وقرأ الكسائي بإسقاطها، قال الزجاج: لا يقال في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ ريت، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفاً.

والمعنى: أي هل عرفت ذلك الذي يكذب بما وراء إدراكه من الأمور الإلٰهية والشؤون الغيبية، بعد أن ظهر له بالدليل القاطع والبرهان الساطع، فإن كنت لا تعرفه بذاته فاعرفه بصفاته، وهي:

١ - ﴿فَذَٰلِكَ﴾ المكذب بالدين هو: ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾؛ أي: يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً، ويزجره زجراً قبيحاً إذا جاء يطلب منه حاجة احتقاراً لشأنه وتكبراً عليه، و﴿الفاء﴾ واقعة في جواب شرط مقدر، و﴿ذلك﴾: مبتدأ، والموصول خبره، والجملة الاسمية جواب لذلك الشرط المقدر، والتقدير: إن طلبت معرفة ذلك المكذب بصفاته، فهو الذي يدع اليتيم، ويزجره زجراً عنيفاً إذا طلب منه حاجةً وهو أبو جهل، كان وصياً ليتيم، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه، فدفعه دفعاً شنيعاً، فأيس الصبي، فقال له أكابر قريش: قل لمحمد يشفع لك، وكان غرضهم الاستهزاء به، وهو ﷺ كان لا يرد محتاجاً، فذهب معه إلى أبي جهل، فقام أبو جهل وبذل المال لليتيم، فعيَّره قريش وقالوا: أصبوت، فقال: لا والله ما صبوت، ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجبه يطعنها فيَّ، فـ﴿ٱلَّذِى﴾ للعهد، ويحتمل الجنس، فيكون عاماً لكل من كان مكذباً بالدين، ومن شأنه أذية الضعيف ودفعه بعنف وخشونة؛ لاستيلاء النفس السبعية عليه، ويجوز أن تكون ﴿الفاء﴾ عاطفة على الذي يكذِّب إما عطف ذات على ذات، أو صفة على صفة، ويكون اسم الإشارة في

---

(١) الشوكاني.

محل نصب لعطفه على الموصول الذي هو في محل نصب، ويصح حمل الحق على الميراث، فقد تقدم في سورة النساء أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان، ويقولون: إنما يحوز المال من يطعن بالسنان ويضرب بالحسام اهـ «قرطبي».

٢ ـ ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾؛ أي: ولا يحث أهله وغيرهم من الموسرين ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ والمحاويج؛ أي: على إطعامه، وإذا كان لا يحث غيره على ذلك ولا يدعو إليه، فهو لا يفعله بالأولى، وفي هذا توجيه[١] لأنظارنا إلى أنَّا إذا لم نستطع مساعدة المسكين.. كان علينا أن نطلب من غيرنا معونته ونحثه على ذلك، كما تفعل جماعات الخير، والجمعيات الخيرية.

وقصارى ما سلف: أن للمكذبين صفتين:

أولاهما: أن يُحقِّر الضعفاء ويتكبر عليهم.

وثانيهما: أن يبخل بماله على الفقراء والمحاويج، أو يبخل لسعيه لدى الأغنياء؛ ليساعدوا أهل الحاجة ممن تحقق عجزهم عن كسب ما ينقذهم من الضرورة، ويقوم لهم بكفاف العيش، وسواء أكان المحتقِر للحقوق البخيل بالمال والسعي لدى غيره، مصلياً أو غير مصل، فهو في صف المكذبين، ولا تخرجه صلاته منهم؛ لأن المصدق بشيء لا تطاوعه نفسه على الخروج مما صدق به، فلو صدق بالدين حقاً.. لصار منكسراً متواضعاً لا يتكبر على الفقراء ولا ينهر المساكين ولا يزجرهم، فمن لم يفعل شيئاً من ذلك فهو مراء في عمله، كاذب في دعواه، ومن ثم قال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤...﴾ إلخ.

والخلاصة[٢]: أنه يمنع المعروف عن المستحق لاستيلاء النفس البهيمية ومحبة المال عليه، واستحكام رذيلة البخل فيه، فإنه إذا ترك حث غيره، فكيف يفعل هو بنفسه، فعُلم أن كلاً من ترك الحث وترك الفعل من أمارات التكذيب، وفي العدول من الإطعام إلى الطعام وإضافته إلى المسكين دلالة على أن للمساكين شركة وحقاً في مال الأغنياء، وأنه إنما منع المسكين مما هو حقه، وذلك نهاية البخل وقساوة البخل وخساسة الطبع.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

فإن قلت: قد لا يحض المرء في كثير من الأحوال، ولا يعد ذلك إثماً، فكيف يذم به؟.

قلت: إما لأن عدم حضه لعدم اعتقاده بالجزاء، وإما لأن ترك الحض كناية عن البخل ومنع المعروف عن المساكين، ولا شبهة في كونه محل الذم والتوبيخ، كما أن منع الغير من الإحسان كذلك.

وقرأ الجمهور[(١)]: ﴿يَدُعُّ﴾ - بضم الدال وشد العين - من دع من باب رد، كما في «المختار» بمعنى دفع، وقرأ علي والحسن وأبو رجاء واليماني بفتح الدال وتخفيف العين من وَدَعَ بمعنى ترك؛ أي: يترك اليتيم بمعنى: لا يحسن إليه، ويجفوه.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ مضارع حض الثلاثي، وقرأ زيد بن علي: ﴿يحاض﴾ مضارع حاضض الرباعي، ولما ذكر أولاً عمود الكفر وهو التكذيب بالدين.. ذكر ما يترتب عليه مما يتعلق بالخالق، وهو عبادته بالصلاة، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ ﴿الفاء﴾[(٢)]: لربط ما بعدها بشرط محذوف، كأنه قيل: إذا كان ما ذُكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين من دلائل التكذيب بالدين وموجبات الذم والتوبيخ.. فويل للمصلين؛ أي: فشدة عذاب، أو هلاك عظيم، أو واد في جهنم كما سبق الخلاف في الويل، كائن للمصلين؛ ﴿فَوَيْلٌ﴾: مبتدأ. ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾: خبره. ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ ومعرضون عنها، سهو ترك لها وقلة التفاتٍ إليها وعدم مبالاةٍ بها، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة من المؤمنين، وهو معنى ﴿عَن﴾ في قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾، ولذا قال أنس - رضي الله عنه -: الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم، وذلك أنه لو قال: في صلاتهم.. لكان المعنى: أن السهو يعتريهم، وهم فيها إما بوسوسة شيطان أو بحديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم، والخلوص منه عسير، ولما نزلت هذه الآية.. قال رسول الله ﷺ: هذه خير لكم من أن يُعطىٰ كلُّ واحد منكم مثلَ جميع الدنيا، ومعنى ﴿سَاهُونَ﴾[(٣)]: غافلون غير مبالين بها، ويجوز أن تكون ﴿الفاء﴾؛ لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذُكر من قبائحهم ووضع المصلين موضع ضميرهم؛ للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخر غير ما ذكر.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

قال الواحدي: نزلت في المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثواباً إن صَلَّوا، ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، وإذا كانوا مع المؤمنين صَلَّوا رياء، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا، وهو معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾؛ أي: يراؤون الناس بصلاتهم إن صلَّوا، أو يراؤون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر؛ ليثنوا عليهم، قال النخعي: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ هو الذي إذا سجد قال: برأسه هكذا وهكذا ملتفتاً، وقال قطرب: هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله، وقرأ ابن مسعود: ﴿الذين هم عن صلاتهم لا هون﴾.

فإن قلت[1]: هل صدر عن النبي ﷺ سهو أم لا؟.

قلت: نعم، كما قال: «شغلونا عن صلاة العصر»؛ ـ أي: يوم الخندق ـ «ملأ الله قلوبهم ناراً» وأيضاً سها عن صلاة الفجر ليلة التعريس، وأيضاً صلى الظهر ركعتين، ثم سلم، فقال له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: صليت ركعتين، فقام وأضاف إليهما ركعتين، وكذلك في قصة ذي اليدين، لكن سهوه ﷺ فيما ذكر، وفي غيره ليس كسهو سائر الناس، وهو في الاستغراق والإنجذاب دائماً، وقد قال: تنام عيني ولا ينام قلبي، وأيضاً سهوه لحكمة تشريع سجود السهو وأحكامه، فعلى العاقل أن لا تفوته الصلاة التي هي من باب المعراج والمناجاة، ولا يعبث فيها باللحية والثياب، ولا يكثر التثاؤب والالتفات ونحوهما ومن المصلين من لا يدري عن كم انصرف، ولا ما قرأ من السورة.

وخلاصة معنى قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾؛ أي: فعذاب[2] شديد لمن يؤدي الصلاة بجسمه ولسانه من غير أن يكون لها أثر في نفسه، ومن غير أن تؤتى ثمرتها التي شُرعت لأجلها؛ لأن قلبه غافل عما يقوله اللسان وتفعله الجوارح، فيركع وهو لاه عن ركوعه، ويسجد وهو لاه عن سجوده، ويكبر وهو لا يعني ما يقول، وإنما هي حركات اعتادها، وكلمات حفظها، ولا تُدرك نفسه معناها، ولا تصل إلى معرفة ثمرتها.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾؛ أي: يُرون الناس أعمالهم؛ ليروهم الثناء عليها؛

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أي: إنهم يفعلون أفعالاً ظاهرة بقدر ما يرى الناس دون أن تستشعر قلوبهم بها، أو تصل إلى معرفة حكمها وأسرارها، وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وطلب المنزلة في قلوب الناس، ويكون فعل ذلك على ضروب:

١ ـ بتحسين السمت مع إرادة الجاه وثناء الناس.

٢ ـ بلبس الثياب القصار، أو الخشنة، ليأخذ بذلك هيبة الزهاد في الدنيا.

٣ ـ بإظهار السخط على الدنيا، وإظهار التأسف على ما يفوته من فعل الخير.

٤ ـ بإظهار الصلاة والصدقة، أو بتحسين الصلاة، لرؤية الناس له، قال في «الكشاف»: والعمل الصالح إن كان فريضة فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها؛ لقوله ﷺ: «ولا غمة في فرائض الله»؛ لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت، فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعاً فحقه أن يخفي؛ لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، وإن أظهره قاصداً للاقتداء فيه كان جميلاً، وإنما الرياء أن يقصد أن تراه الأعين فيثنى عليه بالصلاح، واجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص، ومن ثم قال ﷺ: «الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على المسح الأسود»، والمسح كساء من صوف خشن يلبسه الزهاد، والفرق[1] بين المرائي والمنافق أن المنافق يُبطِن الكفر ويظهر الإيمان، والمرائي يظهر زيادة الخشوع وآثار الصلاح؛ ليعتقد من يراه أنه من أهل الصلاح.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُرَآءُونَ﴾ مضارع راءَى من باب فاعل، وقرأ ابن أبي إسحاق والأشهب: مهموزة مقصورة مشددة الهمزة من باب فعل المضعف، وعن ابن أبي إسحاق بغير شد في الهمزة، فتوجيه الأُولى إلى أنه ضعف الهمزة تعديةً، كما عَدَّوا بالهمزة، فقالوا في رأى أرى، وقالوا: راءى، فجاء المضارع يُرَئِّيْ كيصلي، وجاء الجمع يُرَؤُّون كيصلون، وتوجيه الثانية أنه استثقل التضعيف في الهمزة، فخففها أو حذف الألف من يرأون حذفاً لا لسبب.

﴿وَيَمْنَعُونَ﴾ الناس ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾؛ أي: محقرات الأموال وقلائلها مما يتعاطاه

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

الناس فيما بينهم ويتعاورونه يعتادون التسامح من أثاث البيت وغيره، كالدلو والقدر والإبريق والفأس والسكين والإبرة والخيط والخمير وبقايا الطعام والماء والملح والنار من الأشياء التافهة التي جرى عرف الناس بالتسامح بها فيما بينهم.

أي: يمنعون الناس ما لم تجر العادة بمنعه مما يسأله الغني والفقير، ويُنسب منعه إلى لؤم الطبع وسوء الخلق، وقال الطبري في «تفسيره»: الماعون: هو ما يتعاوره الناس بينهم من الدلو والفأس والقدر، وما لا يُمنع كالماء والملح والنار والخيط والمخيط، نُقل هذا عن ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير، ثم قال: وروى أبو بصير عن أبي عبد الله قال: ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ هو القرض تقرضه، والمعروف تصنعه، ومتاع البيت تعيره، قال: فقلت: إن لنا جيراناً إذا أعرناهم متاعاً كسروه وأفسدوه، أفعلينا جناح أن نمنعهم؟ فقال: لا ليس عليك جناح أن تمنعهم إذا كانوا كذلك، وقال الكلبي: ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ المعروف كله، وقال علي وابن عمر وابن عباس أيضاً: ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ هو الزكاة، ومنه قول الراعي:

أَخَلِيفَةَ ٱلرَّحْمَنِ إِنَّا مَعْشَرٌ حُنُفَاً نُسَجِّدُ بُكْرَةً وَأَصِيْلاَ
عُرْبٌ نَرَىٰ لِلَّـهِ فِيْ أَمْوَالِنَا حَقَّ ٱلزَّكَاةِ مُنَزَّلاً تَنْزِيْلاَ
قَوْمٌ عَلَىٰ ٱلإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوْا مَاعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوْا ٱلتَّهْلِيْلاَ

يعني بالماعون الزكاة، وهذا القول يناسبه ما ذكره قطرب من أن أصله من المعن، وهو الشيء القليل، فسميت الزكاة ماعوناً؛ لأنها قليل من كثير؛ لأنها ربع أو عشر، وقال عبد الله بن عمر منع الماعون هو منع الحق، وقال ابن عباس أيضاً: هو العارية، وقيل الماء والكلأ، قال أبو الليث: الماعون بلغة الحبشة المال، وفي «برهان القرآن» قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾، ثم بعده ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ كرر ولم يقتصر على مرة واحدة؛ لامتناع عطف الفعل على الاسم، ولم يقل: الذين هم يمنعون؛ لأنه فعل، فحسن العطف على الفعل وهذه دقيقة. انتهى.

والمعنى: ويمنعون الزكاة، كما دل عليه ذكره عقيب الصلاة، أو ما يتعاور عادة، فإن عدم المبالاة باليتيم والمسكين حيث كان من عدم الاعتقاد بالجزاء موجب للذم والتوبيخ، فعدم المبالاة بالصلاة التي هي عماد الدين والرياء الذي هو شعبة من الكفر، ومنع الزكاة التي هي قنطرة الإسلام، وسوء المعاملة مع الخلق

أحق بذلك، ولم يُرَ من المتسمين بالإسلام، بل من العلماء منهم من هو على هذه الصفة، فيا مصيبتاه، والمراد بما يتعاوروه عادةً؛ أي: يتداوله الناس بالعارية، ويعين بعضهم بعضاً بإعارته هو مثل الفأس والقدر والدلو والإبرة والقصعة، والغربال والقدوم والمقدحة والنار، والماء والملح، ومن ذلك أن يلتمس جارك أن يخبز في تنورك، أو يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم، وقد يكون منع هذه الأشياء محظوراً في الشريعة إذا استُعيرت عن اضطرار، وقبحاً في المروءة في غير حال الضرورة، وفي هذه الآية زجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة، فإن البخل بها في نهاية البخل، قال العلماء: يستحب أن يستكثر الرجل في بيته مما يحتاج إليه الجيران، فيعيرهم ويتفضل عليهم، ولا يقتصر على الواجب اهـ «صاوي».

قال الإمام: وحاصل معنى هذه السورة؛ أي: فأولئك الذين يصَلُّون ولا يأتون من الأعمال إلا ما يُرى للناس مما لا يكلفهم بذل شيء من مالهم، ولا يخشون منه ضرراً يلحق بأبدانهم، أو نقصاً يلم بجاههم، ثم يمنعون ماعونهم، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سد حاجة المعوزين، وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم، وطمأنينتهم ولا تنفعهم صلاتهم، ولا تخرجهم عن حد المكذبين بالدين، لا فرق بين من وَسَموا أنفسهم بسِمَة الإسلام أو غيره، فإن حكم الله واحد لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة التي لا قيمة لها إلا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع.

فخاصة المصدق بالدين التي تميزه عمن سواه من المكذبين هو العدل والرحمة وبذل المعروف للناس وخاصة المكذب التي يمتاز بها عن المصدقين هي احتقار حقوق الضعفاء، وقلة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة، وحب الأثرة بالمال، والتعزز بالقوة، ومنع المعروف عمن يستحق من الناس.

فهل للمسلمين الذين يزعمون أنهم آمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به أن يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم بما يتلون في هذه السورة الشريفة؛ ليعرفوا هل هم من قسم المصدقين أو المكذبين، وليقلعوا عن الغرور برسم هذه الصلاة التي لا أثر لها إلا في ظواهر أعضائهم، وبهذا الجوع الذي يسمونه صياماً، ولا أثر له إلا في عبوس وجوههم وبذاذة ألسنتهم وضياع أوقاتهم في اللهو والبطالة، ويرجعوا إلى

الحق من دينهم، فيقيموا الصلاة، ويحيوا صورتها بالخشوع للعليّ الأعلى، فلا يخرجوا من الصلاة إلا وهم ذاكرون أنهم عبيد الله يلتمسون رضاه في رعاية حقوقه بما يراه، ويجعلوا من الصوم مؤدِّباً للشهوة ومهذباً للرغبة رادعاً للنفس عن الأثرة فلا يكون في صومهم إلا الخير لأنفسهم ولقومهم، ثم يؤدون الزكاة المفروضة عليهم ولا يبخلون بالمعونة فيما يمنع الخاصة والعامة اهـ. والله أعلم.

الإعراب

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

﴿أَرَءَيْتَ﴾ ﴿الهمزة﴾ فيه للاستفهام التعجبي، ﴿رأيت﴾: فعل وفاعل، والخطاب لمحمد ﷺ، أو عام كما مر، والرؤية هنا إما بصرية تتعدى إلى مفعول، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿رأيت﴾. ﴿يُكَذِّبُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الموصول. ﴿بِٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿يُكَذِّبُ﴾، والمعنى: أبصرت يا محمد المكذب بالدين، وهل عرفته بذاته؟ وإما بمعنى أخبرني فتتعدى لاثنين: الأول: الموصول، والثاني محذوف قدَّره الحوفي بقوله: أليس مستحقاً للعذاب؛ أي: أخبرني يا محمد المكذبَ بالدين أليس مستحقاً العذاب، والجملة الفعلية على كلا التقديرين مستأنفة. ﴿فَذَٰلِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط مقدر تقديره: إن طلبت معرفة ذلك المكذب بصفاته، فهو الذي يدع اليتيم. ﴿ذلك﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: خبره، وجملة ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ صلة الموصول، والجملة الاسمية في محل الجزم بذلك الشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف مستأنفة. ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَحُضُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾. ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَحُضُّ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾. ﴿فَوَيْلٌ﴾ ﴿الفاء﴾: واقعة أيضاً في جواب شرط مقدر تقديره: إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين من دلائل التكذيب بالدين وموجبات الذم والتوبيخ، فويل للمصلين المذكورين؛ لأن السهو عن الصلاة من سمة التكذيب

بالدين، ﴿ويل﴾: مبتدأ. ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بالشرط المقدر، وجملة الشرط المقدر مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الجر صفة لـ﴿المصلين﴾: ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾: متعلق بما بعده. ﴿سَاهُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأول على كونه صفة لـ﴿المصلين﴾. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُرَآءُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية صلة الموصول. ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على جملة ﴿يُرَآءُونَ﴾ داخلة في حيز الصلة، ومفعول ﴿يمنعون﴾ الأول محذوف تقديره: أي: الناس والطالبين، و﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ مفعوله الثاني.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾؛ أي: يدفع بعنف وجفوة، وفي المختار: دَعَّ من باب رد، قال ابن دريد: دعه ودحه بمعنى واحد، وامرأة دعوع ودحوح بمعنى، وأنشد ثعلب عن ابن الأعرابي:

قَدْ أَغْتَدِيْ وَٱللَّيْلُ فِيْ حِرِّيْمِهِ ... مُعَسْكِراً فِيْ ٱلْغُرِّ مِنْ نُجُوْمِهِ
وَٱلصُّبْحُ قَدْ نَسَّمَ فِيْ أَدِيْمِهِ ... يَدُعُّهُ بِضِفَّتَيْ حَيْزُوْمِهِ
دَعَّ ٱلرَّبِيْبِ لِحَيَّتَيْ يَتِيْمِهِ

وأصله: يَدْعُع بوزن يفعُل، نقلت حركة العين الأولى إلى الدال فسكنت فأدغمت في الثانية، وكذلك القول في: ﴿يَحُضُّ﴾ أصله: يَحْضُض بوزن يفعل.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ أصله: المصليين بيائين، الأولى لام الكلمة والثانية ياء الجمع، سكنت لام الكلمة للتخفيف، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء الأولى، فصار المصلين بوزن المفعّين.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ من باب فاعل، كيقاتلون، ومعنى المفاعلة فيه أن المرائي يُري الناس عمله، وهم يُرُونه الثناء عليه، فالمشاركة فيهما واضحة، وأصله: يرائيون كيقاتلون، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فالتقى ساكنان، حذفت الياء لالتقائهما، وضمت الهمزة لمناسبة الواو، فصار ﴿يُرَآءُونَ﴾ بوزن

يفاعون.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ أصله: ساهيون جمع ساه، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت للتخفيف، ثم ضمت الهاء لمناسبة الواو وأصل هذه الياء الواو؛ لأنه من سها يسهو قلبت ياء لتطرفها إثر كسرة.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ منع يتعدى لمفعولين: ثانيهما: قوله ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾، وأولهما محذوف تقديره: الناس، حُذف للعلم به، و﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ فاعول من المعن، وهو الشيء القليل، يقال: مال معن؛ أي: قليل، أو اسم مفعول من أعان يعين، فأصله معوون، دخله القلب المكاني فصار: موعون، تحركت الواو الأولى وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، وفي «المختار»: والماعون اسم جامع لمنافع البيت، كالقدر والفأس ونحوهما اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام الذي يراد به تشويق السامع إلى الخبر، وتعجيبه منه في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾؛ لأنه حذف منه الشرط، تقديره: إن أردت أن تعرف ذلك المكذب بصفاته، فذلك المكذب هو الذي يدع اليتيم.

ومنها: وضع الظاهر، وهو قوله: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ موضع المضمر، وهو لهم؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: فويل لهم؛ لأنهم مع التكذيب وما أضيف إليه ساهون عن الصلاة غير مكترثين بها، وهذا على أن السورة كلها إما مكية أو مدنية، وعلى القول بالتنصيف، فالويل متعلق بالمصلين الموصوفين بكونهم عن صلاتهم ساهين، وما بعده فلا ارتباط له بما قبله، و﴿الفاء﴾ واقعة في جواب شرط مقدر تقديره: إن أردت معرفة جزاء أهل النفاق في الصلاة وغيرها، فويل للمصلين الخ اهـ من «الصاوي».

ومنها: تسميتهم مصلين مع أنهم تاركون لها رأساً؛ لأنها مفروضة عليهم، فكانت جديرة بأن تضاف لهم.

ومنها: التعبير بـ﴿عَن﴾ دون في، في قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ إشعاراً بأن صلاة المؤمن لا تخلو عن السهو فيها، فالمذموم السهو عنها بمعنى تركها والتفريط فيها لا السهو فيها؛ لوقوعه من الأنبياء.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿سَاهُونَ﴾ حيث استعار السهو للترك بجامع الإعراب في كل؛ لأنهم تاركون لها رأساً، أو إن حصلت منهم تكون رياءً وسمعة، فهي كلاصلاة.

ومنها: حذف المفعول الأول لـ﴿يمنعون﴾ في قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾؛ أي: يمنعون الناس، للعلم به.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿يمنعون﴾ و﴿الْمَاعُونَ﴾.

فائدة: السهو خطأ عن غفلة، وذلك ضربان:

أحدهما: أن لا يكون من الإنسان جوالبه ومولداته، كمجنون سب إنساناً.

والثاني: أن يكون منه مولداته كمن شرب خمراً، ثم ظهر منه منكر، لا عن قصد إلى فعله، فالأول معفو عنه، والثاني مأخوذ به، ومنه ما ذم الله سبحانه في الآية، انتهى من «الروح».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

* * *

---

(١) وإلى هنا تم تفسير سورة الماعون أواخر عصر يوم الخميس اليوم العشرين من شهر الله المحرم من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

سورة الكوثر

سورة الكوثر مكية نزلت بعد سورة العاديات في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل، وكذا قاله الجمهور، ومدنية في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة أنها نزلت سورة الكوثر بمكة، وهي ثلاث آيات، وعشر كلمات، واثنان وأربعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها(١): أنه سبحانه وصف في السابقة الذي يكذب بالدين بأمور أربع: البخل، الإعراض عن الصلاة، الرياء، منع المعونة، وهنا وصف ما منحه رسوله ﷺ من الخير والبركة، فذكر أنه أعطاه الكوثر، وهو الخير الكثير، والحرص على الصلاة ودوامها، والإخلاص فيها، والتصدق على الفقراء.

وعبارة أبي حيان هنا: مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر فيما قبلها وصف المنافق بالبخل، وترك الصلاة والرياء، ومنع الزكاة.. قابل في هذه السورة البخل بـ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ①﴾، والسهو في الصلاة بقوله: ﴿فَصَلِّ﴾، والرياء بقوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾، ومنع الزكاة بقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾، أراد به التصدق بلحم الأضاحي، فقابل أربعة بأربع. انتهى. وسميت سورة الكوثر؛ لذكر الكوثر فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الكوثر كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: ومما ورد في فضلها(٢): ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكوثر سقاه الله تعالى من كل نهر له في الجنة، ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر» ولكن فيه مقال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) المراغي.　　(٢) البيضاوي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾.

أسباب النزول

قيل: إن هذه السورة نزلت في العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص بن وائل قالوا: من الذي كنت تتحدث معه؟ قال ذلك الأبتر دعوه، فإنه رجل لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، وكان في تلك الأيام قد توفي عبد الله بن رسول الله ﷺ، (وقيل: ولده إبراهيم)، وهو من خديجة الكبرى، ففرح أعداء رسول الله ﷺ، ومبغضوه، وقالوا: قد بتر محمد، وسينقطع ذكره، ولم يبق له أثر في أولاده من بعده، وكانوا يعدون ذلك عيباً يلمزونه به، وسينفرون الناس من اتِّباعه، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾.

وعن عطاء قال: نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ ذهب أبو لهب إلى المشركين، فقال: بُتِر محمد الليلة، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾ وقال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل.. قالوا: بتر، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا: بُتر محمد، فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت في أبي جهل، وفي رواية أخرى عنه قال: نزلت في كعب بن الأشرف؛ إذ قدم مكة، فقالت له قريش: أنت سيد أهل المدينة وخيرهم، ألا ترى هذا الصابئى المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية، فقال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾.

قال ابن عباس: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ يعني: عدوك، وهذا يعم جميع من اتصف

بذلك ممن ذكروا وغيرهم من أعداء الإسلام، ومبغضي رسول الله ﷺ الذين كانوا يستهزئون به وبدعوته، واستمروا كذلك حتى كفاه الله شرهم، فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾، وقضى الله عليهم، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله على كل شيء قدير.

وحاصل أسباب نزول هذه السورة[1]: أنه كان المشركون من أهل مكة والمنافقون من أهل المدينة يعيبون النبي ﷺ، ويلمزونه بأمور:

١ ـ أنه إنما اتبعه الضعفاء، ولم يتبعه السادة الكبراء، ولو كان ما جاء به من الدين صحيحاً.. لكان أنصاره من ذوي الرأي والمكانة بين عشائرهم، وهم ليسوا ببدع في هذه المقالة، فقد قال قوم نوح له فيما قصه الله علينا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أن يسرع في إجابة دعوة الرسل الضعفاء من قبل أنهم لا يملكون مالاً، فيخافوا في سبيل الدعوة الجديدة ولا جاهاً ولا نفوذاً، فيخافوا أن يضيّعا أمام الجاه الذي منحه صاحب الدعوة، وأن يتخلف عنها السادة الكبراء حتى يدخلوا في دين الله، وهم له كارهون، ومن ثم يظل الجدل بين أولئك الصناديد ورسل الله تعالى، ويأخذون في انتقاصهم وكيل التهم لهم تهمة بعد تهمة، والله ينصر رسله ويؤيدهم ويشد أزرهم، وعلى هذا السنن سار أهل مكة مع النبي ﷺ، فقد تخلف عنه سادتهم وكبراؤهم حسداً له ولقومه الأدنين.

٢ ـ أنهم كانوا إذا رأوا أبناءه يموتون يقولون: انقطع ذكر محمد وصار أبتر، يحسبون ذلك عيباً، فيلمزونه به، ويحاولون تنفير الناس عن اتباعه.

٣ ـ أنهم كانوا إذا شدة نزلت بالمؤمنين.. طاروا بها فرحاً، وانتظروا أن تدول الدولة عليهم، وتذهب ريحهم، فتعود إليهم مكانتهم التي زعزعها الدين الجديد، فجاءت هذه السورة لتؤكد لرسوله أن ما يرجف به المشركون، وهم لا حقيقة له، ولتمحص نفوس الذين لم تصلب قناتهم، ولترد كيد المشركين في نحورهم، ولتعلمهم أن الرسول منتصر لا محالة، وأن أتباعه هم المفلحون.

---

(١) المراغي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّآ﴾: و﴿إن﴾[1]: جار مجرى القسم في تأكيد الجملة. ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ يا محمد، عبر بصيغة الماضي مع أن العطايا الأخروية وأكثر ما يكون في الدنيا لم تحصل بعد إشعاراً بتحقق وقوعها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ بالعين، وقرأ الحسن وطلحة وابن محيصن والزعفراني: ﴿أنطيناك﴾ بالنون، وهي قراءة مروية عن رسول الله ﷺ، قال الترمذي: هي لغة للعرب العاربة من أولي قريش، ومن كلامه ﷺ: «اليد العليا المُنطِية، واليد السفلى المُنطاة» ومن كلامه ﷺ أيضاً: «وأَنْطوا المنيحة»، وقال الأعمش:

جِيَادُكَ خَيْرُ جِيَادِ ٱلْمُلُوكْ   تُصَانُ ٱلْحَلَالَ وَتُنْطِيْ ٱلسَّعِيْرَا

قال أبو الفضل الرازي وأبو زكريا التبريزي: أبدل من العين نوناً، ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾؛ أي: الخير المفرِط في الكثرة من العلم والعمل وشرف الدارين، والكوثر[3] فوعل من الكثرة، وُصِف به للمبالغة في الكثرة، مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر كوثراً، ومنه قول الشاعر:

وَقَدْ ثَارَ نَقْعُ ٱلْمَوْتِ حَتَّىٰ تَكَوْثَرَا

قيل لأعرابية آب ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: بكوثر؛ أي: بالعدد الكثير من الخير، فالمعنى على هذا[4]: إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى الغاية.

وذكر أكثر المفسرين كما حكاه الواحدي: إلى أن ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾. نهر في الجنة، وقيل: هو حوض النبي ﷺ في الموقف، قاله عطاء، وقال عكرمة: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: النبوة، وقال الحسن: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: القرآن، وقال الحسن بن الفضل: هو تفسير القرآن وتخفيف الشرائع، وقال أبو بكر بن عياش: هو كثرة الأصحاب والأمة،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

وقال ابن كيسان هو: الإيثار، وقيل: هو الإسلام، وقيل: رفعة الذكر، وقيل: نور القلب، وقيل: الشفاعة، وقيل: هو المعجزات، وقيل: إجابة الدعوة، وقيل: لا إله إلا الله، وقيل: الفقه في الدين، وقيل: الصلوات الخمس.

وذكر صاحب «التحرير» في الكوثر ستة وعشرين قولاً، والصحيح هو ما فسر به رسول الله ﷺ، فقال: «هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج»، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وعليه جمهور العلماء، كما جاء مبيناً في عدة أحاديث:

منها: ما رواه[1] الشيخان عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: «أنزلت علي آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: فإنه نهر وَعَدَنيه ربي عز وجل خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك» هذا لفظ مسلم، وللبخاري قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بي إلى السماء أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوَّف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه ـ أو طينته ـ مسك أذفر» شك الراوي.

ومنها: ما أخرجه الترمذي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: سُئل رسول الله ﷺ ما الكوثر؟ قال: «ذلك نهر أعطانيه ـ يعني في الجنة ـ أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزور».

قال عمر: إن هذه لناعمة، فقال رسول الله ﷺ: «أَكَلَتُها أنعم منها»، وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

ومنها: ما رواه ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة،

---

(١) الخازن.

حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

ومنها: ما رواه عامر بن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ قال: سألت عائشة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ فقالت: نهر أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه در مجوف، آنيته كعدد نجوم السماء. أخرجه البخاري.

ومنها: ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها لا يظمأ أبداً» زاد في رواية «وزواياه سواء» متفق عليه.

ومنها: ما رواه ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أمامكم حوضي، ما بين جنبيه كما بين جرباء وأذرح» متفق عليه، وقال بعض الرواة هما قريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام، وفي رواية: «فيه أباريق كنجوم السماء، مَن وَرَدَهُ فشرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً».

ومنها: ما رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين ناحيتي» ـ وفي رواية: «لابَتَيْ حوضي، كما بين صنعاء والمدينة» وفي رواية «مثل ما بين المدينة وعمان» وفي رواية قال: «إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء» متفق عليه.

ومنها: ما روي عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفس محمد بيده، لآنِيَتُهُ أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ألا في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثله طوله، ما بين عمَّان إلى أيلة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل» أخرجه مسلم.

وبقي في هذا الباب أحاديث كثيرة لا يسعها هذا المختصر. قال القاضي عياض: وفي بعض هذه الأحاديث ما يقتضي كون الحديث متواتراً، وأما صفة الحوض ومقداره فقد قال في رواية «حوضي مسيرة شهر» وفي رواية: «ما بين جنبيه كما بين جرباء وأذرح» وفي رواية: «كما بين أيلة وصنعاء اليمن» وفي رواية: «مثل

طوله ما بين عمان إلى أيلة» وفي رواية: «إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن»، فهذا الاختلاف في هذه الروايات في قدر الحوض ليس موجباً للاضطراب فيها؛ لأنه لم يأت في حديث واحد، بل في أحاديث مختلفة الرواة عن جماعات من الصحابة سمعوها من النبي ﷺ في مواطن مختلفة، ضربها النبي ﷺ مثلاً لبعد أقطار الحوض وسِعَته، وقرَّب ذلك على أفهام السامعين، لبعد ما بين هذه البلاد المذكورة لا على القدر الموضوع للتحديد، بل لإعلام السامعين عظم بُعد المسافة وسعة الحوض بقدر ما يعرفه كل من السامعين، وليس في ذكر القليل من هذه المسافة منع من الكثير، فإن الكثير ثابت على ظاهره، وصحت الرواية به، والقليل داخل فيه، فلا معارضة ومنافاة بينهما، وكذلك القول في آنية الحوض من أن العدد المذكور في الأحاديث على ظاهره، وأنها أكثر عدداً من نجوم السماء، ولا مانع يمنع من ذلك، إذ قد وردت الأحاديث الصحيحة الثابتة بذلك، وقوله في الأحاديث: «كما بين جرباء وأذرح» جرباء قرية بالشام، وأذرح مدينة في طرف الشام قريبة من الشوبك، وأما عمان بليدة بالبلقاء من أرض الشام، وأيلة مدينة معروفة في طرف الشام على ساحل البحر متوسطة بين دمشق ومصر بينها وبين المدينة، نحو خمس عشرة مرحلة، وهي: آخر الحجاز وأول الشام، وأما صنعاء فهي قاعدة اليمن وأكبر مدنه، وإنما قيدها باليمن في الحديث؛ لأن بدمشق موضعاً يُعرف بصنعاء دمشق.

والمعنى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾؛ أي[1]: إنا أعطيناك من المواهب الشيء الكثير الذي يعجز عن بلوغه العد، ومنحناك من الفضائل ما لا سبيل للوصول إلى حقيقته، وإن استخف به أعداؤك واستقلوه، فإنما ذلك من فساد عقولهم وضعف إدراكهم؛ أي[2]: إنا بجلالنا وعظمة قدرتنا، فالإتيان بـ﴿إن﴾ ونون العظمة؛ للتأكيد ولزيادة تشريفه ﷺ، والمعنى: قضينا به لك، وخصصناك به، وأنجزناه لك في علمنا، وتقديرنا الأزلي، وإن لم تستول عليه، والتصرف فيه إلا في القيامة، فالعطاء ناجز، والتمكن والاستيلاء عليه مستقبل.

إن قلت: إنه عبر هنا بالماضي، وفي الضحى بالمضارع، حيث قال: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ﴾، فكيف الجمع بينهما؟.

---

(١) المراغي. (٢) الصاوي.

قلت: أجيب عنه بأن في الضحى باعتبار التمكن والاستيلاء، وذلك يحصل في المستقبل في يوم القيامة، وما هنا بتقدير التقدير الأزلي.

والصحيح: أن للنبي ﷺ نهرين:

أحدهما: بعد دخول الجنة يسمى كوثراً.

والثاني: قبل الصراط، ويسمى حوضاً، كما يدل عليه مجموع الأحاديث السابقة، واختُلف في الميزان والحوض أيهما قبل الآخر؟ فقيل: الميزان قبل، وقيل: الحوض قبل.

قال الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل، قلت: والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً، فيقدم قبل الصراط والميزان، والله أعلم اهـ من «تذكرة القرطبي».

وبعد أن أكد الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ الخبر بأن الذي أعطاه هو الكوثر الذي لا يُستقل عدده ولا يُنتقص قدره، وأن ما يعدونه كثيراً وعظيماً من خيراتهم ونعيمهم، فهو بالنسبة إليه قليل وحقير، طالبه الله سبحانه بالشكر على ذلك، فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾؛ أي: وانحر له، فحذف اكتفاء بما قبله، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: فصل لنا، فانتقل إلى الاسم الظاهر؛ لأنه يوجب عظمة ومهابة، و﴿الفاء﴾[1] لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن إعطاءه تعالى إياه ﷺ ما ذُكر من العطية التي لم يعطها، ولن يعطيها أحداً من العالمين مستوجب للمأمور به أي استيجاب، والنحر يكون في اللبة كالذبح في الحلق، ويصح أن تكون ﴿الفاء﴾ للإفصاح، والمعنى على الأول: فدم يا محمد على الصلاة لربك الذي أفاض عليك هذه النعمة الجليلة التي لا تضاهيها نعمة خالصاً لوجهه، كما دل عليه اللام الاختصاصية، خلافاً للساهين عنها المرائين فيها أداء لحقوق شكرها، فإن الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر، وهي ثلاثة: الشكر بالقلب؛ وهو أن يعلم أن تلك النعم منه تعالى لا من غيره، والشكر باللسان؛ وهو أن يمدح المنعم ويثني عليه، والشكر بالجوارح، وهو أن يخدمه ويتواضع له، والصلاة جامعة لهذه الأقسام، والمراد الأمر له ﷺ بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة.

---

(١) روح البيان.

﴿وَٱنْحَرْ﴾ البُدن التي هي خيار أموال العرب باسمه تعالى، وتصدق بها على المحاويج، خلافاً لمن يَدُعُّهم ويمنع منهم الماعون، فالسورة كالمقابلة للسورة المتقدمة، وقد فسرت الصلاة بصلاة العيد، والنحر بالتضحية، وهذا يناسب كون السورة مدنية.

وعن عطية هي صلاة الفجر بجَمْع، والنحر[1] بمنى، وقال محمد بن كعب: إن ناساً كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله، فأمر الله نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره له، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: النحر هٰهنا وضع اليدين في الصلاة على النحر، وقال محمد بن كعب: النحر وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر، وقيل: هو، أن يرفع يديه في الصلاة عند التكبير إلى حذاء نحره، وقيل: هو أن يستقبل القبلة بنحره، قاله الفراء والكلبي وأبو الأحوص، وروي عن عطاء أنه قال: أمره أن يستوي بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحره اهـ.

وقال سليمان التيمي: المعنى وارفع يديك بالدعاء إلى نحرك، وظاهر الآية الأمر له ﷺ بمطلق الصلاة ومطلق النحر، وأن يجعلهما لله عز وجل لا لغيره، وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص، فهو في حكم التقييد له، والمعنى؛ أي[2]: اجعل صلاتك لربك وحده، وانحر ذبيحتك وما هو نسك لك لله أيضاً، فإنه هو الذي رباك، وأسبغ عليك نعمه دون سواه، كما قال تعالى آمراً له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ وبعد أن بشر رسوله ﷺ أعظم البشارة وطالبه بشكره على ذلك، وكان من تمام النعمة أن يصبح عدوه مقهوراً ذليلاً.. أعقبه بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾؛ أي: إن مبغضك يا محمد كائناً من كان كأبي جهل وأضرابه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ أي: المنقطع عن كل خير على العموم، المقطوع ذكره في الدنيا والآخرة؛ لبغضه لك؛ لأن[3] نسبة أمر إلى المشتق تفيد علية المأخذ، يقال: شنأه ـ كمنعه وسمعه ـ شنأً إذا أبغضه، والبغض ضد الحب، والبتر يستعمل في قطع الذَّنَب، ثم أجري قطع العقب مجراه، فقيل: فلان أبتر إذا لم يكن له عقب يخلفه، والمعنى: إن مبغضك على العموم هو الذي لا عقب له، حيث لا يبقى له نسل ولا

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

حسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة، ولك في الآخرة ما لا يندرج تحت البيان.

وشانئوه[1] ما كانوا يبغضونه لشخصه؛ لأنه كان محبباً إلى نفوسهم، بل كانوا يمقتون ما جاء به من الهدى والحكمة؛ لأنه سفه إحلامهم وعاب معبوداتهم، ونادى بفراق ما ألفوه ونشؤوا عليه، وقد حقق الله سبحانه في شانئيه من العرب وغيرهم في زمنه ﷺ ما يستحقونه من الخذلان والخسران ولم يبق لهم إلا سوء الذكر. أما النبي ﷺ ومن اهتدى بهديه، فإن الله سبحانه رفع منزلتهم فوق كل منزلة وجعل كلمتهم هي العليا.

قال الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ: عنى المشركون بكونه أبتر أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه، والله سبحانه بيَّن أن خصمه هو الذي يكون كذلك اهـ.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما[2] ـ: نزلت هذه السورة في كعب بن الأشرف وجماعة قريش، وذلك أنه لما قدم كعب بن الأشرف قالت له قريش: نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد أهل المدينة، أفنحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه؟ فقال: أنتم خير منه، فنزلت فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ . . .﴾ الآية، ونزلت في الذين قالوا: إنه أبتر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾؛ أي: المنقطع عن كل خير، وقولهم في النبي ﷺ: هذا الصنبور أرادوا أنه فرد ليس له ولد، فإذا مات انقطع ذكره، شبهوه بالنخلة المنفردة يدق أسفلها، وتسمى الصنبور، وقيل: هي النخلة التي يخرج في أصل أخرى لم تغرس، وقيل: الصنابر سعفات تنبت من جذع النخلة تضر بها، ودواؤها أن تُقطع تلك الصنابر منها، فأراد كفار مكة أن محمداً ﷺ بمنزلة الصنبور ينبت في جذع نخلة، فإذا انقطع استراحت النخلة، فكذا محمد ﷺ إذا مات انقطع ذكره، وقيل: الصنبور الوحيد الضعيف الذي لا ولد له ولا عشيرة ولا ناصر من قريب ولا غريب، فأكذبهم الله تعالى في ذلك، ورد عليهم أشنع رد، فقال: إن شانئك يا محمد هو الأبتر الضعيف الوحيد الحقير، وأنت الأعز الأشرف الأعظم. والله أعلم.

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

وظاهر الآية: العموم وأن هذا شأن كل من يبغض النبي ﷺ، ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل أو غيره، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما مر غير مرة. والله أعلم بمراده.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿شَانِئَكَ﴾ بالألف، وقرأ ابن عباس: ﴿شنيك﴾ بغير ألف، فقيل: هو مقصور من شانىء، كما قالوا: بَرَر وبَر في بارِر وبار، ويجوز أن يكون بناء على فعل، وهو مضاف للمفعول إن كان بمعنى الحال أو الاستقبال، وإن كان بمعنى الماضي فتكون إضافته لا من نصب على مذهب البصريين، وقد قالوا: حذر أموراً، ومزقون عرضي، فلا يستوحش من كونه مضافاً للمفعول، ولفظ ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، والأحسن الأعرف في المعنى أن يكون ضمير فصل؛ أي: هو المنفرد بالبتر المخصوص به لا رسول الله ﷺ، فجميع المؤمنين أولاده، وذكره مرفوع على المنائر والمنابر، ومسرود على لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر، يُبدأ بذكر الله تعالى، ويثَنَّى بذكره ﷺ، وله في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف ﷺ وعلى آله وصحبه وشرَّف وكرَّم صلاة وسلاماً دائمين ما بقي الدهر.

الإعراب

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، و﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: مفعول به ثان؛ ﴿فَصَلِّ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية؛ لكون ما بعدها مرتباً على ما قبلها، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت إعطاءنا إياك الخير الكثير الذي لا يُعد ولا يحصى، وأردت بيان ما يلزمك في شكره، فأقول لك صل لربك، ﴿صل﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد ﷺ، تقديره: أنت. ﴿لِرَبِّكَ﴾: متعلق بـ﴿صل﴾، والجملة الفعلية على القول الأول معطوفة على جملة ﴿إن﴾، وعلى الثاني مقول لجواب إذا

---

(١) البحر المحيط.

المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱنْحَرْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿صل﴾. ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾: ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، أو ضمير فصل. ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾: خبر. ﴿هُوَ﴾، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، أو ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مؤكدة لما قبلها، ولا أدري كيف أجاز أبو البقاء أن يُعرب هو تأكيداً؛ لأن المُظهَر لا يؤكد بالمضمر، وعبارة ابن هشام: ووهم أبو البقاء هنا، فأجاز في ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ التوكيد، ويحتمل أنه أراد أنه توكيد لضمير مستتر في ﴿شَانِئَكَ﴾ لا لنفس ﴿شَانِئَكَ﴾، وذلك لأن شانىء اسم فاعل بمعنى مبغضك.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ في «القاموس»: والكوثر الكثير من كل شيء، والكثير الملتف من الغبار، والإسلام، والنبوة، وقرية بالطائف كان الحجاج معلِّماً بها، والرجل الخير المعطاء، والسيد، والنهر، ونهر في الجنة، وعبارة الزمخشري: والكوثر فوعل من الكثرة، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر، قال الكميت الأسدي:

وَأَنْتَ كَثِيْرٌ يَا بْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ ... وَكَانَ أَبُوْكَ ٱبْنَ ٱلْعَقَائِلِ كَوْثَرَا

والعقائل: خيار النساء، والكوثر بليغ النهاية في الخير، والمراد به هنا النبوة والدين الحق والهدى، وما فيه سعادة الدنيا والآخرة، والكوثر فوعل من الكثرة كنوفل من النفل، وجوهر من الجهر، وفي «المفردات»: وقد يقال للرجل السخي كوثر، ويقال: تكوثر الشيء إذا كثر كثرة متناهية، والواو فيه زائدة مثل كوسج وجوهر ونوفل، وعبارة ابن خالويه: والكوثر نهر في الجنة، حافتاه الذهب وحصباؤه المرجان والدر، وحاله المسك يعني الحمأة، وماؤه أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً.

﴿وَٱنْحَرْ﴾ والنحر في اللبة كالذبح في الحلق.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾؛ أي: مبغضك، وفي «المصباح»: شَنِئَه ـ كسَمِعَه ومَنَعَه ـ شنأً مثل فلس وشَنَآناً ـ بفتح النون وسكونها ـ إذا أبغضه، والفاعل شانئٌ في المذكر، وشانئة في المؤنث، وشنئت بالأمر اعترفت به، وقال ابن خالويه: والشانِىء

المبغض قال الأعمش:

وَمِـنَ شَـانِـىءٍ كَـاسِـفٍ وَجْـهُـهُ   إِذَا مَـا ٱنْـتَـسَـبْـتَ لَـهُ أَنْـكَـرَنْ

﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾: هو الذي لا عقب له، وهو في الأصل الشيء المقطوع من بتره إذا قطعه، وحمار أبتر لا ذنب له، ورجل أُباتر بضم الهمزة؛ أي: قاطع رحمه، قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال الذي لا ولد له، ومن الدواب الذي لا ذنب له، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر، وأصل البتر: القطع، يقال: بترت الشيء بتراً إذا قطعته.

وعبارة ابن خالويه: معناه أن مبغضك يا محمد هو الأبتر؛ أي: لا ولد له، والأبتر الحقير، والأبتر الذليل، والأبتر من الحيات المقطوع الذنب، والأبتر ذنب الفيل، كانت قريش والشانئون لرسول الله ﷺ يقولون: إن محمداً صنبور؛ أي: فرد لا ولد له، فإذا مات انقطع ذكره، فأكذبهم الله تعالى، وأعلمهم أن ذكر محمد مقرون بذكره إلى يوم القيامة، إذا قال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله قال: أشهد أن محمداً رسول الله، والصنبور: النخلة، تبقى مفردة ويدق أسفلها، قال: ولقي رجل رجلاً، فسأله عن نخلِهِ، فقال: صنبرَ أسفله، وعشَشَ أعلاه، والصنبور أيضاً ما في فم الإداوة من حديد أو رصاص، والصنبور الصبي الصغير، قال أوس بن حجر:

مُـخَـلَّـفُـوْنَ وَيَـقْـضِـيْ ٱلـنَّـاسُ أَمْـرَهُـمُ   غِـشَّ ٱلْأَمَـانَـةِ صُـنْـبُـوْرٌ فَـصُـنْـبُـوْرُ

وفي «المختار»: بتره قبل التمام وبابه نصر، والانبتار الانقطاع، والأبتر المقطوع الذنب، وبابه طرب، والأبتر أيضاً لا عقب له، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم في قوله: ﴿إِنَّآ﴾ فإنه بمنزلة أن يقال: إنا نحن والله أعطيناك.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ مع أن العطايا الأخروية وأكثر ما يكون في الدنيا لم تحصل بعد إشعاراً بتحقق وقوعها.

ومنها: صيغة الجمع الدالة على التعظيم في ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ﴾ تفخيماً لشأن المعطى له، حيث لم يقل: أنا أعطيتك.

ومنها: المبالغة في لفظ ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: فصل لنا، فانتقل إلى الاسم الظاهر؛ لأنه يوجب عظمة ومهابة، وفيه أيضاً التفات من التكلم إلى الغَيبة، والأصل: فصل لنا، ولكنه عدل عن ذلك؛ لأن في لفظ الرب حثاً على فعل المأمور به؛ لأن من يربيك يستحق العبادة منك.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾؛ أي: وانحر له، فحذف له اكتفاء بما قبله.

ومنها: الإضافة للتشريف، والتكريم في قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

ومنها: إفادة الحصر في قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾؛ أي: إن مبغضك لا محبك من المؤمنين هو الأبتر عن كل خير.

ومنها: المطابقة بين أول السورة وآخرها يعني بين: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ و﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾، فالكوثر الخير الكثير، والأبتر المنقطع عن كل خير، فهذه السورة مع وجازتها جمعت فنوناً من البلاغة والبيان والبديع، ولولا خوف الإطالة مع كون كتابنا من المختصرات.. لأشبعنا من مباحث بلاغتها ومعانيها أوراقاً وصحائف كثيرة، كالمذهب الكلامي الذي يطول بذكره الكلام.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير هذه السورة الكريمة في اليوم السابع والعشرين من شهر الله المحرم قبيل المغرب من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة الكافرون

سورة الكافرون نزلت بعد سورة الكوثر مكية في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة: ياأيها الكافرون بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: أنزلت سورة ياأيها الكافرون بالمدينة، وآياتها: ست، وكلماتها: ست وعشرون، وحروفها: أربعة وتسعون.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها(١): أنه سبحانه وتعالى في السورة السابقة أمر رسوله ﷺ بعبادته والشكر له على نعمه الكثيرة بإخلاص العبادة، وفي هذه السورة التصريح بما أشير إليه في السالفة، سميت سورة الكافرون، لذكر لفظ (الكافرون) فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الكافرون فيها آية واحدة منسوخة، وهي قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ نُسخت بآية السيف.

فضلها: وقد ورد في فضل هذه السورة أحاديث شريفة تنبه إلى أهمية هذه السورة وعظيم قدرها.

فمنها(٢): ما أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث جابر: أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف.

وفي «صحيح مسلم» أيضاً من حديث أبي هريرة ما أخرجه أحمد والترمذي وحسنه، والنسائي وابن ماجه وابن حبان وابن مردويه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ (قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين أو بضع عشرة مرة. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾).

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

ومنها: ما أخرجه الحاكم وصححه عن أُبيٍّ قال: كان رسول الله ﷺ يوتر بـ﴿سَبِّحِ﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾.

ومنها: ما أخرجه محمد بن نصر والطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ تُعدل ربع القرآن» وكان يقرأ بهما في ركعتي الفجر.

ومنها: ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ كانت له عدلَ ربع القرآن»، ومنها ما أخرجه الطبراني في «الصغير»، والبيهقي في «الشعب» عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن، ومن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن».

ومنها: ما أخرجه أحمد وابن الضريس والبغوي وحميد بن زنجويه في «ترغيبه» عن شيخ أدرك النبي ﷺ قال: خرجت مع النبي ﷺ في سفر، فمر برجل يقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾، فقال: «أما هذا فقد برىء من الشرك، وإذا آخر يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾، فقال النبي ﷺ: بها وجبت له الجنة»، وفي رواية «أما هذا فقد غفر له».

ومنها: ما أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن الأنباري في «المصاحف» والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن فروة بن نوفل بن معاويةَ الأشجعي عن أبيه أنه قال: يا رسول الله علمني ما أقول إذا أويت إلى فراشي قال: «اقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾، ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك» وأخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن مردويه عن عبد الرحمٰن بن نوفلٍ الأشجعي عن أبيه مرفوعاً مثله.

ومنها: ما أخرجه ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لنوفل بن معاوية الأشجعي: «إذا أتيت مضجعك للنوم، فاقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ فإنك إذا قلتها فقد برئت من الشرك».

ومنها: ما أخرجه أحمد والطبراني في «الأوسط» عن الحارث بن جبلة، وقال الطبراني عن جبلة بن حارثة، وهو أخو زيد بن حارثة قال: قلت يا رسول الله

علمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: «إذا أخذت مضجعك من الليل، فاقرأ ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ حتى تمر بآخرها فإنها براءة من الشرك».

ومنها: ما أخرجه البيهقي في «الشعب» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «اقرأ: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ عند منامك، فإنها براءة من الشرك».

ومنها: ما أخرجه أبو يعلى والطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تقرؤون ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ عند منامكم».

ومنها: ما أخرجه البزار والطبراني وابن مردويه عن خباب أن النبي ﷺ قال: «إذا أخذت مضجعك، فاقرأ ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ۝١﴾» وإن النبي ﷺ لم يأت فراشه قط إلا قرأ: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ حتى يختم، وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقي الله بسورتين، فلا حساب عليه ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾».

ومنها: ما أخرجه أبو عبيد في «فضائله»، وابن الضريس عن أبي مسعود الأنصاري قال: من قرأ: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ۝١﴾. و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في ليلة فقد أكثر وأطاب.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ (١) لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٣)
وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ (٦)﴾.

أسباب النزول

ذكر المفسرون رحمهم الله تعالى: أن هذه السورة نزلت في نفر من قريش، منهم الحارث بن العاص السهمي، والعاص بن أبي وائل، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وأمية بن خلف في جماعة آخرين من صناديد قريش وساداتهم أتوا النبي ﷺ، فقالوا: له هلم يا محمد، فاتبع ديننا ونتبع دينك، ونشركك في أمرنا كله، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلٰهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت حظك منه، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، وأنزل الله رداً على هؤلاء هذه السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه ملأ من قريش، فقام على رؤوسهم، ثم قرأ عليهم هذه السورة حتى فرغ منها، فأيسوا منه عند ذلك، وطفقوا يؤذون أصحابه حتى كانت الهجرة، قال ابن عباس: وفيهم نزل أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٥) بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس أن قريشاً قالت: لو استلَمْتَ آلهتنا لعبدنا إلٰهك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ (١)...﴾ السورة كلها.

التفسير وأوجه القراءة

و﴿الألف﴾[1] و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ للجنس، ولكنها لما كانت الآية خطاباً لمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره.. كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك؛ لأن من الكفار عند نزول هذه السورة من أسلم وعبد الله تعالى.

قال المفسرون: في مناداتهم[2] بهذا الوصف الذي يسترذلونه في بلدتهم ومحل عزهم وشوكتهم إيذان بأنه ﷺ محروس منهم، ففيها عَلَم من أعلام النبوة، وفي التعبير بالجمع الصحيح دلالة على قلتهم أو حقارتهم وذلتهم، وهم كفرة مخصوصة كالوليد بن المغيرة وأبي جهل والعاص بن وائل وأضرابهم ممن قد علم الله أنه لا يأتي ولا يتأتى منهم الإيمان أبداً على ما هو مضمون السورة، فالخطاب للرسول ﷺ بالنسبة إلى قوم مخصوصين، فلا يرد أن مقتضى هذا الأمر أن يقول كل مسلم ذلك لكل جماعة من الكفار، مع أن الشرع ليس حاكماً به؛ أي: قل لهم يا محمد يا هؤلاء الكفرة الذين علم الله عدم إيمانهم يعني صناديد قريش المذكورين آنفاً.

﴿لَا أَعْبُدُ﴾ أنا فيما يُستقبل من الزمان ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: الأصنام التي تعبدونها؛ لأن لا، لا تدخل غالباً إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن ما، لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، ألا ترى أن لن تأكيد فيما تنفيه لا، قال الخليل في: لن أصله لا، والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم.

﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾؛ أي: ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلٰهي، والمراد: ولا أنتم عابدون عبادة يعتد بها؛ إذ العبادة مع إشراك الأنداد لا تكون في حيز الاعتداد.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾﴾؛ أي: وما كنت عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه؛ أي: لم يُعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف يرجى مني في الإسلام.

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾؛ أي: وما عبدتم في وقت من الأوقات ما أنا على عبادته وهو الله تعالى، فليس في السورة تكرار.

وقيل: هاتان الجملتان لنفي العبادة حالاً، كما أن الأوليين لنفيها استقبالاً، وإنما لم يقل(١): ما عبدت ليوافق ما عبدتم؛ لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام، وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله ومشتهراً بكونه عابداً لله على سبيل الامتثال لأمره يعني ما يقتضيه جعل العبادة صلة للموصول، ثم عدم الموسومية بشيء لا يقتضي عدم ذلك الشيء، فلا يلزم أن لا يكون ﷺ عابداً لله قبل البعثة، بل يكون ما وقع منه قبلها من قبيل الجري على العادة المستمرة القديمة، وفي «القاموس»: كان ﷺ على دين قومه على ما بقي فيهم من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في حجهم ومناكحهم وبيوعهم وأساليبهم، وأما التوحيد فإنهم كانوا بذلوه والنبي ﷺ لم يكن إلا عليه. انتهى.

وإيثار ﴿مَا﴾ في ﴿أَعْبُدُ﴾ على من؛ لأن المراد هو الوصف، كأنه قيل: ما أعبد من المعبود العظيم الشأن الذي لا يقادر قدر عظمته قال(٢): الأخفش والفراء، المعنى: لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد، قال الزجاج: نفىٰ رسول الله ﷺ بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه في الحال وفيما يستقبل، ونفى عنهم عبادة الله في الحال وفيما يستقبل، وقيل: إن كل واحد من الجملتين يصلح للحال والاستقبال، ولكنا نخص أحدهما بالحال، والثاني بالاستقبال رفعاً للتكرار.

وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف، فإن جعل قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ للاستقبال وإن كان صحيحاً على مقتضى اللغة العربية، ولكنه لا يتم جعل قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ للاستقبال؛ لأن الجملة تفيد الدوام والثبات في كل الأوقات، فدخول النفي عليهما يرفع ما دلت عليه من الدوام والثبات في كل الأوقات، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحاً للزم مثله في قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾، وفي قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال، وكما يندفع هذا يندفع ما

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

قيل من العكس؛ لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل اسمية مصدرة بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة؟ وأما قول من قال: إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال، فهو إقرار منه بالتكرار؛ لأن حمل هذا على معنى، وحمل هذا على معنى آخر مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذي لا يدل عليه دليل.

وإذا تقرر لك هذا[1]: فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب، ومن مذاهبهم التي لا تجحد واستعمالاتهم التي لا تُنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرروا، كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا، وهذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب، وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه؛ لأنه يستدل على ما فيه خفاء، ويبرهن على ما هو متنازع فيه، وأما ما كان من الوضوح والظهور والجلاء بحيث لا يشك فيه شاك ولا يرتاب فيه مرتاب، فهو مستغن عن التطويل غير محتاج إلى تكثير القال والقيل، وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن، وربما يكثر في بعض السور، كما في سورة الرحمٰن وسورة المرسلات، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصر، ومن ذلك قول الشاعر:

يَا لَبَكْرٍ ٱنْشُرُوْا لِيْ كُلَيْبًا ... يَا لَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ ٱلْفِرَارُ

وقول الآخر:

هَلاَّ سَأَلْتِ جُمُوْعَ كِنْـ ... ـدَةَ يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنَا

وقول الآخر:

يَا عَلْقَمَهْ يَا عَلْقَمَهْ يَا عَلْقَمَهْ ... خَيْرَ تَمِيْمٍ كُلِّهَا وَأَكْرَمَهْ

وقول الآخر:

لاَ يَا ٱسْلَمِيْ ثُمَّ ٱسْلَمِيْ ثُمَّ ٱسْلَمِيْ ... ثُلاَثَ تَحِيَّاتٍ وَإِنْ لَمْ تُكَلَّمِ

وقول الآخر:

---

(١) الشوكاني.

يَـا جَـعْـفَـرٌ يَـا جَـعْـفَـرٌ يَـا جَـعْـفَـرُ   إِنْ أَكُ دَحْـدَاحَـاً فَـأَنْـتَ أَقْـصَـرُ

وقول الآخر:

فَـأَيْـنَ إِلَـىٰ أَيْـنَ ٱلـنَّـجَـاةُ بِـبَـغْـلَـتِـي   أَتَاكِ أَتَاكِ ٱللاَّحِقُوْنَ ٱحْبِسِ ٱحْبِسِ

وقد ثبت عن الصادق المصدوق؛ وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات، وإذا عرفت هذا ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوه من عبادة آلهتهم، قلت التأسيس كما قالوا أولى من حمله على التأكيد، لما في التأسيس من أهمية كل جملة بإفادتها لعلم لم تفده الأخرى، كما أشرنا إليه في سورة الرحمٰن والمرسلات، وإنما عبر سبحانه بـ﴿ما﴾ التي لغير العقلاء في المواضع الأربعة؛ لأنه يجوز ذلك، كما في قوله: سبحان ما سخركن لنا ونحوه.

والنكتة في ذلك أن يجري الكلام على نمط واحد ولا يختلف، وقيل: إنه أراد الصفة كما مر، كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق، وقيل: إن ما، في المواضع الأربعة هي المصدرية لا الموصولة؛ أي: لا أعبد عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي، إلخ. انتهى من «الشوكاني».

وعبارة أبي حيان هنا: وللمفسرين في هذه الجمل أقوال[1]:

أحدها: أنها للتأكيد، فقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ توكيد لقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ ثانياً تأكيد لقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ أولاً، والتوكيد في لسان العرب كثير جداً نثراً ونظماً، وفائدة هذا التوكيد: قطع أطماع الكفار، وتحقيق الإخبار بموافاتهم على الكفر، وأنهم لا يسلمون أبداً.

والثاني: أنه ليس للتوكيد، واختلفوا فقال الأخفش: المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد، فزال التوكيد؛ إذ قد تقيَّدت كل جملة بزمان مغاير.

---

(١) البحر المحيط.

وقال أبو مسلم[1]: ﴿مَا﴾ في الأوليين بمعنى الذي، والمقصود المعبود، و﴿مَا﴾ في الأُخريين مصدرية؛ أي: لا أعبد عبادتكم المبنية على الشك وترك النظر، ولا أنتم تعبدون مثل عبادتي المبنية على اليقين، وقال ابن عطية: لما كان قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ محتملاً أن يراد به الآن، ويبقى المستأنُف منتظراً ما يكون فيه جاء البيان بقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ أبداً وما حييت، ثم جاء قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون به أبداً، كالذي كشف الغيب، فهذا كما قيل لنوح عليه السلام: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ ولكن ﴿مَا﴾ هنا في قوم معينين، وقوم نوح عموا بذلك، لهذا معنى الترديد الذي في السورة، وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط، بل فيما ذكرته. انتهى.

وقد ذكر النحاة: أن دخول لا على المضارع يراد به الحال، ودخول ما على المضارع يراد به الاستقبال، وذلك مذكور في المبسوطات من كتب النحو اهـ من «البحر».

وخلاصة معنى السورة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾؛ أي: قل لهم يا محمد[2]: إن الإلٰه الذي تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذي أعبده؛ لأنكم تعبدون من يتخذ الشفعاء أو الولد، أو يحل في شخص، أو يتجلى في صورة معينة، أو نحو ذلك مما تزعمون، وأنا أعبد إلٰهاً لا مثيل له ولا ند، وليس له ولد ولا صاحبة، ولا يحل في جسم، ولا تُدرك كنهه العقول، ولا تحويه الأمكنة، ولا تمر به الأزمنة، ولا يُتقرب إليه بالشفعاء، ولا تقدم إليه الوسائل، وعلى الجملة فبين ما تعبدون وما أعبد فارق عظيم وبون شاسع، فأنتم تصفون معبودكم بصفات لا يجمل بمعبودي أن يتصف بها.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾؛ أي: إنكم لستم بعابدين إلٰهي الذي أدعو إليه لمخالفة صفاته لإلٰهكم، فلا يمكن التوفيق بينهما بحال، وبعد أن نفى الاختلاف في المعبود نفى الاختلاف في العبادة من قبل أنهم كانوا يظنون أن عبادتهم التي يؤدونها أمام شفعائهم، أو في المعابد التي أقاموها لها، أو في خلواتهم، وهم على اعتقادهم بالشفعاء عبادة خالصة لله، وأن النبي ﷺ لا يفضلهم في شيء، فقال:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾﴾؛ أي: ولا أنا بعابد عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي، قاله أبو مسلم الأصفهاني كما مر.

وخلاصة ما سلف: الاختلاف التام في المعبود والاختلاف البين في العبادة، فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة؛ لأن معبودي منزه عن الند والنظير، متعال عن الظهور في شخص معين وعن المحاباة لشعب أو واحد بعينه، والذي تعبدونه أنتم على خلاف ذلك، كما أن عبادتي خالصة لله وحده، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى، فلا تسمى على الحقيقة عبادة، ثم هددهم وتوعدهم، فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾، وهذه الجملة تقرير لقوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾﴾، وأما قوله: ﴿وَلِىَ﴾ - بفتح ياء المتكلم - ﴿دِينِ﴾ - بحذف الياء إذ أصله: ديني - فتقرير لقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾.

والمعنى(١): إن دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم، لا يتجاوزه إلى الحصول لي أيضاً، كما تطمعون، فلا تعلِّقوا به أمانيكم الفارغة، فإن ذلك من المحال، وإن ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضاً، لأنكم علقتموه بالمَحال الذي هو عبادتي لآلهتكم، أو استلامي إياها؛ ولأن ما وعدتموه عين الإشراك، وحيث كان مبنى قولهم: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلٰهك سنة، على شركة الفريقين في كلتا العبادتين.. كان القصر المستفاد من تقديم المسند قصر إفراد حتماً؛ أي: إن رضيتم بدينكم فقد رضيت بديني، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، وقيل: المعنى: لكم جزاؤكم على أعمالكم، ولي جزائي على عملي؛ لأن الدين هو الجزاء، وقال أبو الليث: وفي هذه الآية دليل على أن الرجل إذا رأى منكراً أو سمع قولاً منكراً، فأنكره ولم يقبلوا منه،

لا يجب عليه أكثر من ذلك، وإنما عليه مذهبه وطريقه، وتركهم على مذهبهم وطريقهم اهـ.

وهذه الآية: منسوخة بآية السيف كما مر، وقيل: ليست بمنسوخة؛ لأنها أخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ.

---

(١) روح البيان.

وفي الحديث: «مروا صبيانكم، فليقرؤوا هذه السورة عند المنام، فلا يعرض لهم شيء».

ومن خرج مسافراً فقرأ هذه السور الخمس: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ رجع سالماً غانماً، وقرأ الجمهور[1]: بإسكان الياء من قوله: ﴿وليْ﴾ وقرأ نافع وهشام وحفص والبزي بفتحها، وقرأ الجمهور أيضاً بحذف الياء من ديني وقفاً ووصلاً، وأثبتها نصر بن عاصم وسلام ويعقوب وصلاً ووقفاً، قالوا: لأنها اسم فلا تُحذف، ويجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ وإن كانت اسماً.

الإعراب

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة في محل النصب على المفعولية مبني على الضم، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: بدل من ﴿أي﴾، أو نعت لها، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَعْبُدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنا، يعود على محمد ﷺ. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما تعبدونه، ويجوز أن تكون مصدرية، فتكون مؤولة مع ما بعدها بمصدر مفعول مطلق. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عَٰبِدُونَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها. ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿عَٰبِدُونَ﴾، ووقعت للعقلاء على سبيل التعظيم، وجملة ﴿أَعْبُدُ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما

(١) الشوكاني.

أعبده، ويجوز أن تكون مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر منصوب على أنه مفعول مطلق. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَنَا عَابِدٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿عَابِدٌ﴾، وجملة ﴿عَبَدتُّمْ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ موصولة كانت أو مصدرية. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عَٰبِدُونَ﴾: خبر، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿عَٰبِدُونَ﴾، وجملة ﴿أَعْبُدُ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية. ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿دِينُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ مقرِّرة لما قبلها. ﴿وَلِيَ﴾ خبر مقدم. ﴿دِينِ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بالكسرة، دين مضاف، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل الجر مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت في إعراب السورة: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ...﴾ إلى آخر السورة مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾؛ لأن مرادنا لفظها لا معناها، والمقول منصوب بالقول، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة منع من ظهورها اشتغال المحل بسكون الحكاية، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قُلْ﴾ أمر مقتطع من مضارعه المجزوم، وأصله: لم يقل، حذف الجازم وحرف المضارعة، فصار ﴿قُلْ﴾ بوزن فل، والمحذوف منه عين الكلمة، يقال: قال يقول قولاً إذا تلفظ بكلمة، والقول: لفظ مفرد وضع لمعنى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: جمع سلامة من كفر، مفرده كافر، والكفر بالضم والسكون ضد الإيمان، ويُفتح كالكُفور والكفران بضمهما، يقال: كفر بنعمة الله من باب نصر، والكفر أيضاً جحود النعمة وهو ضد الشكر، وقد كفره من باب دخل كفراً وكفراناً، وفي القاموس: كفر نعمة الله وبها كُفوراً وكفراناً، جحدها وسترها، وكافَرَه حقه جحده، والمكفَّر كمعظَّم المجحود النعمة مع إحسانه، والكافر الجاحد لأنعم الله تعالى، والجمع كفار وكفرة محركة، وكِفار ككتاب، وهي كافرة من

كوافر، ورجل كَفَّار كشدَّاد وكفور جمع كُفُر بضمتين، وكفر عليه يكفر ـ من باب ضرب ـ غطاه، والشيء ستره ككفَّره، والكافر الليل والبحر والوادي العظيم والنهر الكبير والسحاب المظلم والزارع والدرع ومن الأرض ما بعد عن الناس كالكَفْر بالفتح والسكون، والأرض المستوية والغائط الوطيء والنبت وموضع ببلاد هذيل، والظلمة كالكفرة بالفتح والسكون، والداخل في السلاح كالمكفر كمحدِّث، ومنه: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» أو معناه: لا تكفروا الناس، فتكفروا إلى آخر ما في هذه المادة.

فائدة: قالوا: وأول من سن الكفر والإباء والاستكبار إبليس اللعين، وأول من سن النسيان والتوبة آدم عليه السلام، وأول من سن القتل قابيل ولد آدم.

﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ يقال: عبده يعبده ـ من باب نصر ـ إذا تذلل له، وأطاع، والعبد الإنسان حراً كان أو رقيقاً، والعبد أيضاً ضد الحر، والجمع عبيد مثل كلب وكَلِيب، وهو جمع عزيز وأَعبُد وعِباد وعُبْدان بالضم كتمر وتمران، وعبدان بالكسر وتشديد الدال، وعِبْدان بالكسر كجحش وجحشان إلى آخر ما في هذه المادة اهـ «مختار» كما ذكرناه في رسالتنا «سلَّم المعراج على خطبة المنهاج».

﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ و﴿ما﴾ في هذه السورة يجوز فيها وجهان:

أحدهما: أنها بمعنى الذي، فإن كان المراد بها الأصنام، كما في الأولى والثالثة فالأمر واضح؛ لأنهم غير عقلاء، وما أصلها أن تكون لغير العقلاء، وإذا أريد بها الباري سبحانه، كما في الثانية والرابعة، فاستدل به من جوَّز وقوعها على أولي العلم، ومن منع جعلها مصدرية، والتقدير: ولا أنتم عابدون عبادتي؛ أي: مثل عبادتي، وقال أبو مسلم ﴿مَا﴾ في الأوليين بمعنى الذي، والمقصود المعبود، و﴿مَا﴾ في الأخريين مصدرية؛ أي: لا أعبد عبادتكم المبنية على الشك وترك النظر، ولا أنتم تعبدون مثل عبادتي المبنية على اليقين، فتحصَّل من مجموع ذلك ثلاثة أقوال.

والثاني: أنها كلها بمعنى الذي أو مصدرية، أو الأوليان بمعنى الذي، والأخريان مصدريتان، ولقائل أن يقول: لو قيل: بأن الأولى والثالثة والرابعة مصدرية.. لكان حسناً حتى لا يلزم وقوع (ما) على أولي العلم، وهو مقتضى قول

من يمنع وقوعها على أولي العلم، كما تقدم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: خطابهم بهذا الوصف الشنيع الرذيل في محل عزهم وشوكتهم في قوله: ﴿أيها الكافرون﴾ إيذاناً بأنه ﷺ محروس منهم.

ومنها: التعبير فيه بالجمع الصحيح الذي من أوزان جمع القلة دلالة على قلتهم أو حقارتهم وذلتهم، وهم كفرة مخصوصة معينون، كما مر.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾، فالأولى نفي، والثانية إثبات.

ومنها: المقابلة بين كل من الجملتين الأوليين: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾؛ أي: في الحال، والمقابلة بين الجملتين الأخريين: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾؛ أي: في الاستقبال، وفي هذه المقابلة نفي لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾.

ومنها: تقديم المسند على المسند إليه في قوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ إفادةً للقصر، ويكون القصر فيه قصر إفراد؛ لإفادته قصر كل من الفريقين بعبادة إلٰهه.

ومنها: التكرير في هذه السورة؛ لإفادة التأكيد عند من يقول به.

ومنها: إيثار ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ على من إشعاراً بأن المراد منها الوصف، كأنه قيل: ولا أنتم عابدون ما أعبد من المعبود العظيم الشأن الذي لا يقادر قدر عظمته.

ومنها: جناس الاشتقاق بين: ﴿أَعْبُدُ﴾ و﴿عَابِدٌ﴾، وبين ﴿عَبَدتُّمْ﴾ و﴿عَـٰبِدُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الكافرون اليوم التاسع والعشرين من شهر الله المحرم قبيل الغروب من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة النصر

سورة النصر، وتسمى سورة التوديع، مدنية بلا خلاف، نزلت بعد سورة التوبة، وهي ثلاث آيات، وسبع عشرة كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها[1]: أنه لما ذكر في السورة السابقة اختلاف دين الرسول الذي يدعو إليه ودين الكفار الذي يعكفون عليه.. أشار في هذه السورة إلى أن دينهم سيضمحل ويزول، وأن الدين الذي يدعو إليه سيغلب عليه، ويكون هو دين السواد الأعظم من سكان المعمورة.

وقال أبو حيان[2]: مناسبتها لما قبلها: أنه لما كان في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ موادعة جاء في هذه السورة بما يدل على تخويفهم وتهديدهم، وأنه آن مجيء نصر الله وفتح مكة واضمحلال ملة الأصنام، وإظهار دين الله تعالى.

فضلها: ومما ورد في فضلها ما تقدم في تفسير سورة الزلزلة أنها تعدل ربع القرآن، وسورة إذا زلزلت تعدل أيضاً ربع القرآن، ومنه ما روي[3] عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة إذا جاء أُعطي من الأجر كمن شهد مع محمد ﷺ يوم فتح مكة» زادها الله شرفاً، ولكن فيه مقال.

تسميتها: وتسمى هذه السورة سورة التوديع، واختُلف في أنهم من أي وجه علموا ذلك، وليس في ظاهرها نعي، فقيل: لأن التقدير: فسبح بحمد ربك فإنك حينئذٍ لاحق بالله وذائق طعم الموت، كما ذاقه من قبلك جميع الرسل، وعند الكمال يرقب الزوال، كما قال الشاعر:

إِذَا تَمَّ شَيْءٌ بَدَا نَقْصُهُ تَوَقَّعْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمّ

وقيل: لأنه سبحانه أمره بتجديد التوحيد واستدراك الفائت بالاستغفار، وذلك

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) البيضاوي.

مما يلزم عند الانتقال من هذه الدار إلى دار الأبرار، وسميت سورة النصر؛ لذكر النصر فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة النصر كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾.

أسباب النزول

قيل: نزلت منصرَفَهُ ﷺ، من غزوة خيبر، وعاش بعد نزولها سنتين، وقال ابن عمر: نزلت في أوسط أيام التشريق بمنىً في حجة الوداع، وعاش ﷺ بعدها ثمانين يوماً أو نحوها، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أُنزل بالمدينة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي، في «الدلائل» عن ابن عمر قال: هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى، وهو في حجة الوداع ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ حتى ختمها، فعرف رسول الله ﷺ أنها الوداع.

وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ قال رسول الله ﷺ: «نُعيت إلي نفسي وقرب إليَّ أجلي»، وأخرج النسائي وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عنه أيضاً قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ نُعِيَتْ لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أم حبيبة قالت: لما أُنزل ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يبعث نبياً إلا عمر في أمته شطر ما عُمِّر النبي الماضي قبله، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة في بني إسرائيل، وهذه لي وعشرون سنة، وأنا ميت في هذه السنة» فبكت فاطمة، فقال النبي ﷺ: «أنت أول أهلي بي لحوقاً فتبسمت».

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾.. دعا رسول الله ﷺ فاطمة، وقال: «إنه قد نُعيت إلي نفسي»، فبكت ثم

ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نُعيت إليه نفسه، فبكيت، فقال: «اصبري، فإنك أول أهلي لحاقاً بي فضحكت».

وكان الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ، فلحقت به ـ رضي الله عنها ـ بعد ستة أشهر، وقال الزمخشري إنها لما نزلت هذه السورة خطب رسول الله ﷺ، فقال: «إن عبداً خيَّره الله بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله، فعلم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال: فديناك يا رسول الله بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا».

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: إذا حصلت إعانته تعالى وإظهاره إياك على أعدائك، فإن[1] قلت: لا شك أن ما وقع من الفتوح كان بنصرة المؤمنين، فما وجه إضافتها إلى الله؟.. قلت: لأن أفعالهم مستندة إلى دواعي قلوبهم، وهي أمور حادثة لا بد لها من محدث، وهو الله تعالى، فالعبد هو المبدأ الأقرب، والله هو المبدأ الأول والخالق للدواعي وما ينبني عليها من الأفعال، والعامل في إذا، هو ﴿سبح﴾؛ أي: فسبح إذا جاء نصر الله، ولا يمنع الفاء عن العمل على قول الأكثرين، أو فعل الشرط كما سيأتي.

﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾؛ أي: فتح مكة، على أن الإضافة و﴿اللام﴾ للعهد، وهو الفتح الذي تطمح إليه الأبصار، ولذلك سمي فتح الفتوح، ووقع الوعد به في أول سورة الفتح، وقد سبقت قصة الفتح في تلك السورة، وقيل: جنس نصر الله، ومطلق الفتح على أن الإضافة و﴿اللام﴾ للاستغراق، فإن فتح مكة لما كان مفتاح الفتوح ومناطها، كما أن نفسَها أمُ القرى وإمامها جعل مجيئه بمنزلة مجيء سائر الفتوح، وعلَّق به أمره ﷺ، وأنهما على جناح الوصول إليه عن قريب.

يقال: نصره على عدوه ينصره نصراً إذا أعانه عليه، قال الواحدي[2]: قال المفسرون: ﴿إِذَا جَآءَ﴾ك يا محمد ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه على من عاداك، وهم قريش ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾؛ أي: فتح مكة، وقيل المراد: نصره ﷺ على قريش من غير تعيين، وقيل: نصره على من قاتله من الكفار، وقيل: هو فتح سائر البلاد، وقيل: هو ما

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

فتحه الله عليه من العلوم.

وعبر عن حصول النصر والفتح بالمجيء؛ للإيذان بأنهما متوجهان إليه ﷺ، وقيل: ﴿إِذَا﴾ بمعنى قد، وقيل: بمعنى إذ، وقال الرازي: الفرق بين النصر والفتح: أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان مغلقاً، والنصر كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر، وعطف عليه الفتح، أو يقال: النصر: كمال الدين، والفتح: إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة، أو يقال: النصر الظفر، والفتح الجنة. انتهى.

وهذا معنى كلامه، ويقال: الأمر أوضح من هذا وأظهر، فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم، والفتح هو فتح مساكن الأعداء، ودخول منازلهم، فظهر من هذا أن كلاً من النصر والفتح في الآية ينبغي أن يحمل على ما هو المطلق، لكني اقتفيت أثر أهل التفسير في تقديم ما هو المقيد، لكنه قول مرجوح تسامح الله عن قائله.

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي[1]: أبصرتهم أو علمتهم، يعني: العرب، و﴿اللام﴾ للعهد، أو الاستغراق العرفي، جعلوه خطاباً للنبي ﷺ، ويحتمل أن يكون الخطاب عاماً لكل مؤمن، وحينئذ يظهر جواب آخر من أمر النبي ﷺ بالاستغفار، مع أنه لا تقصير له، إذ الخطاب لا يخصه، فالأمر بالاستغفار لمن سواه وإدخاله في الأمر تغليب.

﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في ملة الإسلام التي لا دين يضاف إليه تعالى غيرها، والجملة على تقدير الرؤية بصرية حال من ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وعلى تقديرها علمية مفعول ثان.

وقال بعضهم: ومما يختلج في القلب أن المناسب لقوله: ﴿يَدْخُلُونَ...﴾ إلخ أن يُحمل قوله: ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ على فتح باب الدين عليهم، وقوله: ﴿أَفْوَاجًا﴾ حال من فاعل ﴿يَدْخُلُونَ﴾؛ أي: يدخلون فيه حال كونهم جماعات كثيرة فوجاً بعد فوج، كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب، وكانوا قبل ذلك يدخلون فيه واحداً واحداً أو اثنين اثنين، قال الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة.. قالت

---

(١) روح البيان.

العرب: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً بلا قتال، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام، قال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن، وذلك أنه وفد من اليمن سبع مئة إنسان مؤمنين، قال أبو عمر ابن عبد البر: لم يمت رسول الله ﷺ وفي العرب رجل كافر، بل دخل الكل في الإسلام بعد حُنين منهم من قدم، ومنهم من قدم وافده، وقال ابن عطية: والمراد والله أعلم: العرب عبدة الأوثان، وأما نصارى بني تغلب، فما أسلموا في حياته ﷺ، ولكن أعطوا الجزية.

وفي «عين المعاني» ﴿ٱلنَّاسَ﴾: هم أهل البحر، وقال ﷺ: «الإيمان يماني والحكمة يمانية»، وقال: وجدت نَفَس ربكم من جانب اليمن؛ أي: تنفيسه من الكرب، وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: أنه بكى ذات يوم، فقيل له في ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دخل الناس في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً».

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ جواب الشرط، وهو[1] العامل في ﴿إِذَا﴾، والتقدير: فسبح يا محمد حال كونك متلبساً بحمد ربك وقت حصول نصر الله إياك على أعدائك، وحصول فتح البلاد لك ورؤيتك الناس حال كونهم داخلين في دين الله جماعةً جماعةً، وقال مكي: العامل في ﴿إِذَا﴾ هو ﴿جَآءَ﴾، ورجحه أبو حيان، وضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها.

والتسبيح هنا[2]: مجاز عن التعجب بعلاقة السببية، فإن من رأى أمراً عجيباً يقول: سبحان الله، قال ابن الشيخ: لعل الوجه في إطلاق هذه الكلمة عند التعجب، كما ورد في الأثر: «ولكل أعجوبة سبحان الله» هو أن الإنسان عند مشاهدة الأمر العجيب الخارج عن حد أمثاله يستبعد وقوعه وتنفعل نفسه منه، كأنه استقصر قدرة الله، فلذلك خطر على قلبه أن يقول من قدر عليه وأوجده، ثم إنه في هذا الزعم مخطىء، فقال: سبحان الله تنزيهاً لله عن العجز عن خلق أمر عجيب يُستبعد وقوعه؛ لتيقنه بأن الله على شيء قدير.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

قال السهيلي ـ رحمه الله تعالى ـ: والحكمة في اقتران الحمد بالتسبيح أبداً، نحو قوله: ﴿سبح بحمد ربك﴾، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أن معرفة الله سبحانه تنقسم على قسمين: معرفة ذاته، ومعرفة أسمائه وصفاته، ولا سبيل إلى إثبات أحد القسمين دون الآخر، وإثبات وجود الذات من مقتضى العقل وإثبات الأسماء والصفات من مقتضى الشرع، فبالعقل عُرف المسمى، وبالشرع عُرفت الأسماء، ولا يتصور في العقل إثبات الذات إلا مع نفي سمات الحدوث عنها، وذلك هو التسبيح، ومقتضى العقل مقدم على مقتضى الشرع، وإنما جاء الشرع المنقول بعد حصول النظر والعقول، فنبه العقول على النظر، فعرفت ثم علَّمها ما لم تكن تعلم من الأسماء، فانضاف لها التسبيح والحمد والثناء، فما أمرنا تسبيحه إلا بحمده. انتهى.

وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿سبح﴾؛ أي: فقل يا محمد سبحان الله حال كونك متلبساً بحمد ربك؛ أي: فتعجب لتيسير الله ما لم يكن يخطر ببال أحد من أن يغلب أحد على أهل حرمه المحترم، واحمده على جميع صنعه، وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر والفتح لأم القرى التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة، والأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم: هو مجنون، هو ساحر، هو شاعر، هو كاهن، ونحو ذلك.

وقال بعضهم: والأشبه أن يراد نزهه عن العجز في تأخير ظهور الفتح، واحمده على التأخير وصفه بأن توقيت الأمور من عنده ليس إلا بحِكَم لا يعرفها إلا هو. انتهى. أو المعنى(١): فاذكره مسبحاً حامداً، وزد في عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه عليك، أو فصلِّ له حامداً على نعمه، فالتسبيح مجاز عن الصلاة بعلاقة الجزئية؛ لأنها تشتمل عليه في الأكثر، روي أنه ﷺ لما فتح الكعبة.. صلى صلاة الضحى ثماني ركعات، وحملها بعضهم على صلاة الشكر لا على صلاة الضحى،

(١) روح البيان.

وبعضهم على أن أربعاً منها للشكر وأربعاً للضحى، أو المعنى: فنزهه عما يقول الظلمة حامداً له على أن صدق وعده.

وحاصل معنى ما تقدم: من أول السورة إلى هنا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾؛ أي[1]: إذا رأيت نصر الله لدين الحق وانهزام أهل الشرك وخذلانهم، وفتح الله بينك وبين قومك بجعل الغلبة لك عليهم وإعزاز أمرك وإعلاء كلمتك: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ورأيت الناس يدخلون في دينك وينضوون تحت لوائك جماعات لا أفراداً، كما كان في بدء أمرك: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: إذا تم لك كل ذلك، فنزه ربك وقدسه عن أن يُهمل الحق ويدعه للباطل يتغلب عليه، وعن أن يخلف وعده الذي وعدك به بأن يجعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ويتم نعمته عليك ولو كره الكافرون.

وليكن تنزيهه بحمده على ما أولاك من نعم وشكره على ما منحك من خير والثناء عليه بما هو له أهل، فإنه هو القادر الذي لا يغلبه غالب، والحكيم الذي إذا أهمل الكافرين فلن يضيع أجر العاملين.

ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه ﷺ بالاستغفار، فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾؛ أي: واطلب من ربك المغفرة لذنبك هضماً لنفسك، واستقصاراً لعملك، واستعظاماً لحقوق الله، واستدراكاً لما فَرَط منك من ترك ما هو الأولى. وقد كان ﷺ يرى قصوره عن القيام بحق الله تعالى ويكثر من الاستغفار والتضرع وإن كان قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أو استغفره لذنبك وللمؤمنين، وهو المناسب لما في سورة محمد، وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق، ولك أن تقول: إن في التقديم المذكور تعليم أدب الدعاء، وهو أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسؤول عنه.

وقيل: إن[2] الاستغفار منه ﷺ ومن سائر الأنبياء هو تعبُّد تعبَّدَهم الله به، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم، وقيل: إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيهاً لأمته وتعريضاً بهم، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار، وقيل: إن الله سبحانه أمره

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

بالاستغفار لأمته لا لذنبه؛ أي: واسأل أن يغفر لك ولمن اتبعك من أصحابك ما كان منهم من القلق والضجر والحزن والأسى لتأخر النصر، والتوبة من هذا القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله، وتغليبها على خواطر النفس التي تحدثها الشدائد، وإن كان ذلك مما يشق على نفوس البشر، ولكن الله قد علم أن نفس رسوله قد تبلغ ذلك الكمال، ومن ثم أمره به، وهكذا يحدث في نفوس الكملة أصحابه وأتباعه ما يقارب ذلك، والله يتقبله منهم، ثم علل طلب الاستغفار بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾؛ أي: إنه سبحانه وتعالى كان كثير القبول لتوبة عباده مبالغاً في قبول توبتهم منذ خلق المكلفين، فليكن كل تائب مستغفر متوقعاً للقبول، وذلك لأنه يربي[1] النفوس بالمحن، فإذا وجد الضعف أنهضها إلى طلب القوة، وشدَّ عزيمتها بحسن الوعد، ولا يزال بها حتى تبلغ مرتبة الكمال، وهذه الجملة تعليل لأمره ﷺ بالاستغفار؛ أي: من شأنه التوبة على المستغفرين له يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم.

وفي اختيار[2] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ على غفاراً مع أنه الذي يستدعيه قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ حتى قيل: وتب مضمر بعده، وإلا لقال: غفاراً تنبيه على أن الاستغفار إنما ينفع إذا كان مع التوبة والندم والعزم على عدم العود، ثم إن مَن أضمر: وتب، يحتمل أنه جعل الآية من الاحتباك، حيث دل بالأمر بالاستغفار على التعليل بأنه كان غفاراً، وبالتعليل بأنه كان تواباً على الأمر بالتوبة؛ أي: استغفره وتب.

وذكر البرهان الرشيدي: أن صفات الله تعالى التي على صيغة المبالغة كلها مجاز؛ لأنها موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها؛ لأن المبالغة أن يثبت للشيء أكبر وأكثر مما له وصفاته تعالى منزهة عن ذلك، واستحسنه الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله، وقال الزركشي في «البرهان»: التحقيق أن صيغة المبالغة قسمان:

أحدهما: ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل.

والثاني: بحسب تعدد المفعولات، ولا شك أن تعددها لا يوجب للفعل زيادة، إذ الفعل الواحد قد يقع على جماعة متعددين، وعلى هذا القسم تُنَزَّلُ صفاته

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ويُرفع الإشكال، ولهذا قال بعضهم في حكيم معنى المبالغة فيه تكرار حكمه بالنسبة إلى الشرائع، وقال في «الكشاف»: المبالغة في التوبة؛ للدلالة على كثرة من يتوب عليه، أو لأنه بليغ في قبول التوبة بحيث ينزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة رحمته وكرمه.

وخلاصة ما سلف[1]: إذا حصل الفتح وتحقق النصر، وأقبل الناس على الدين الحق، فقد زال الخوف، فعليك أن تسبح ربك وتشكره وتنزع عما كان من خواطر النفس وقت الشدة، فلن تعود الشدائد تأخذ نفوس المخلصين من عباده ما داموا على تلك الكثرة ينزل بساحتهم الإخلاص وتجمعهم الألفة، وقد فهم النبي ﷺ من هذا أن الأمر قد تم ولم يبق إلا أن يلحق بالرفيق الأعلى، فقال فيما روي عنه: أنه قد نُعيت إليه نفسه، وقال الحسن: أعلم الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمر بالتسبيح والتوبة؛ ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح، فكان يكثر أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، اغفر لي إنك أنت التواب.

قال قتادة ومقاتل: وعاش ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين. وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزلت: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى...﴾ فعاش بعدها ثمانين يوماً، ثم نزلت آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزلت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزلت: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ فعاش بعدها واحداً وعشرين يوماً.

الإعراب

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾.

﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه. ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾: معطوف على ﴿نَصْرُ﴾، والمصدر مضاف إلى فاعله، ومفعوله محذوف تقديره: نصر الله إياك والمؤمنين، والجملة الفعلية في محل

(١) المراغي.

الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق فالجواب الآتي أعني: ﴿فَسَبِّحْ﴾. وقال أبو حيان: ولا يصح إعمال ﴿فَسَبِّحْ﴾ في ﴿إِذَا﴾ لأجل الفاء؛ لأن فاء الجواب لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، بل العامل في ﴿إِذَا﴾ فعل الشرط المذكور بعدها على الصحيح. ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على جملة ﴿جَآءَ﴾ على كونه فعل شرط لـ﴿قُلْ﴾، ويجوز أن تكون الرؤية إما بصرية، فتكون جملة ﴿يَدْخُلُونَ﴾ حالاً من ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وأن تكون علمية، فتكون الجملة مفعولاً ثانياً لـ﴿رأيت﴾، و﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَدْخُلُونَ﴾. ﴿أَفْوَاجًا﴾: حال من فاعل ﴿يَدْخُلُونَ﴾. ﴿فَسَبِّحْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إذا وجوباً، ﴿سبح﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد ﷺ. ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿سبح﴾؛ أي: حال كونك متلبساً بحمد ربك، والجملة الفعلية جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة، و﴿الباء﴾ للمصاحبة، والحمد مصدر مضاف للمفعول. ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿سبح﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ تَوَّابًا﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالاستغفار، و﴿تَوَّابًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ النصر: العون، يقال: نصره على عدوه وينصره نصراً إذا أعانه عليه، والاسم النصرة، ونصر الغيث الأرض إذا أعان على إظهار نباتها، ومنع من قحطها، قال شاعرهم:

إذا دخل الشهر الحرام فجاوزي بلاد تميم وانصري أرض عامر

ويقال: استنصره على عدوه إذا سأله أن ينصره عليه.

﴿وَٱلْفَتْحُ﴾: الفصل بينه وبين أعدائه، وإعزاز دينه وإظهار كلمته.

﴿أَفْوَاجًا﴾ والأفواج: جمع فوج، وهو الجماعة والطائفة، قال الحوفي: وقياس جمعه: أَفْوُج على وزن أفعُل، ولكن استُثقلت الضمة على الواو، فعُدل إلى أفواج، كأنه يعني أنه كان ينبغي أن يكون معتل العين كالصحيح، فكما أن قياس فعل صحيحه أن يُجمع على أفعُل لا على أفعال، فكذلك هذا، والأمر في هذا المعتل

بالعكس، القياس فيه أفعال كحوض وأحواض، وشذ فيه أفعل كثوب وأثوب.

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾؛ أي: اسأله واطلب منه أن يغفر لك ذنوبك ولقومك الذين اتبعوك.

﴿تَوَّابًۢا﴾؛ أي: كثير القبول لتوبة عباده، وهو من صيغ المبالغة، وقد سبق لك عن الرشيدي: أن صيغة المبالغة كلها في صفات الله مجاز؛ لأنها موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها؛ لأن المبالغة أن يُثبت للشيء أكثر مما كان له أصالة، وصفاته تعالى منزهة عن ذلك، واستحسنه التاج السبكي.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حصل نصر الله حيث أطلق اسم المجيء على الحصول، واستعاره له، فاشتق من المجيء بمعنى الحصول جاء بمعنى حصل، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، وإنما تجوَّز عن الحصول بالمجيء؛ للإشعار بأن المقدرات متوجهة من الأزل إلى أوقاتها المعينة لها، فتقرب منها شيئاً فشيئاً، فكأنها سائرة إليها.

ومنها: عطف المسبَّب على السبب في قوله: ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾؛ لأن الفتح مسبَّب عن نصر الله تعالى إياه، وفيه أيضاً إطلاق العام وإرادة الخاص؛ لأن الفتح يشمل جميع الفتوح، ولكن المراد هنا فتح مكة على قول.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ كالإضافة في ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، وبيت الله.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ﴾؛ لأن لفظ الناس عام، ولكن المراد به هنا العرب. ويقال: إن في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ استعارة مكنية تبعية، شَبَّه المقدور وهو النصر والفتح بكائن حي يمشي متوجهاً من الأزل إلى وقته المحتوم، فشبه الحصول بالمجيء وحذف المشبه به، وأخذ شيئاً من خصائصه، وهو المجيء.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ فإن التسبيح فيه مجاز عن التعجب بعلاقة السببية، فإن من رأى أمراً عجيباً يقول: سبحان الله، وقيل: هو مجاز عن الصلاة بعلاقة الجزئية؛ لأن الصلاة تشتمل عليه غالباً.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة النصر أوائل وقت العشاء من ليلة الثلاثاء الليلة الثانية من شهر صفر من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

سورة المسد

سورة المسد، وتسمى سورة تبَّت وسورة أبي لهب، مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة الفتح، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة، قالوا: نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ بمكة.

وهي: خمس آيات، وثلاث وعشرون كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أنه ذكر في السورة السابقة أن ثواب المطيع حصول النصر والاستيلاء له في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، وهنا ذكر أن عاقبة العاصي الخسار في الدنيا، والعقاب في الآخرة.

وعبارة أبي حيان هنا: ولما ذكر فيما قبلها دخول الناس في دين الله تعالى.. أتبع بذكر من لم يدخل في الدين وخسر، ولم يدخل فيما دخل فيه أهل مكة من الإيمان اهـ.

التسمية: وسميت سورة المسد: لذكر لفظ المسد فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة المسد كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة: ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤﴾.. خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف يا صباحاه، ونادى بطون قريش، فاجتمع من جميع القبائل خلق كثير حتى جعل الرجل إذا لم يذهب بنفسه يُرسل رسولاً؛ لينظر ما الخبر، وكان في المجتمعين أبو لهب، فقال رسول الله ﷺ: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر الأيام، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢...﴾ إلى آخر السورة، وفي رواية: إنه قام بنفض يديه، ويقول: تباً لك سائر الأيام ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ...﴾ إلخ، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى فيه هذه السورة؛ ليكون مثلاً يعتبر به من يعادي ما أنزل الله على نبيه مطاوعة لهواه، وإيثاراً لما ألفه من العقائد الزائغة والعوائد الباطلة والأعمال الفاسدة، واغتراراً بما عنده من الأموال الوافرة، وبما له من الصولة والمنزلة الشامخة في قلوب الرجال، وأن النسب الحقيقي إنما هو نسب الدين والعقيدة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿تَبَّتۡ﴾؛ أي: خسرت وهلكت وخابت ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ تثنية يد، واللهب واللهيب اشتعال النار إذا خلص من الدخان، أو لهبها لسانها، ولهيبها حرها، وأبو لهب، وقد تسكَّن هاؤه أحد أعمام النبي ﷺ، واسمه: عبد العزىٰ بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وكان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، وكان

كثير الإيذاء والبغضة لرسول الله ﷺ والازدراء به والتنقيص له ولدينه القويم، وكُني بأبي لهب، لإشراق وجنتيه وتلهبهما ووضاءتهما، وإلا فليس له ابن يسمى باللهب، وخص اليدين بالتباب؛ لأن أكثر العمل يكون بهما، وقيل: المراد باليدين نفسه، وقد يعبر باليد عن النفس، كما في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾؛ أي: نفسك، والعرب تعبر كثيراً ببعض الشيء عن كله، كقولهم: أصابته يدا المنايا، كما في قول الشاعر:

لَمَّا أَكَبَّتْ يَدُ ٱلرَّزَايَا عَلَيْهِ نَادَىٰ أَلاَ مُجِيْرُ

وإيثار التباب على الهلاك وإسناده إلى يديه؛ لما روي: أنه لما نزل قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.. رقى رسول الله ﷺ على الصفا وجمع أقاربه، فأنذرهم، فقال: «يا بني عبد المطلب يا بني فهر إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال عمه أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ وأخذ بيديه حجراً ليرميه ﷺ به، فمنعه الله من ذلك حيث لم يستطع أن يرميه، فلا كناية في ذكر اليدين على هذه الرواية، ووجه وصف يديه بالتباب والهلاك ظاهر؛ لرد ما اعتقده وقصده من إيذاء رسول الله ﷺ ورميه بالحجر.

وذكر في «التأويلات الماتريدية» أنه كان كثير الإحسان إلى رسول الله ﷺ، وكان يقول: إن كان الأمر لمحمد، فيكون لي عنده يد، وإن كان لقريش فلي عندها يد، فأخبر سبحانه أنها خسرت يده التي كانت عند محمد ﷺ بعناده وتكذيبه له، ويده التي عند قريش أيضاً لخسران قريش، وهلاكهم في يد محمد ﷺ.

وهذه الجملة دعاء عليه بهلاك نفسه وتبابه عن كل خير، ولما كانت اليد هي آلة العمل والبطش، فإذا هلكت وانقطعت وخسرت كان الشخص كأنه معدوم هالك أسند الهلاك إليها، فخسرانها كناية عن خسران الشخص نفسه، وهلاكها كناية عن هلاكه، فإذا دُعي عليه بخسران يديه فقد دُعي عليه بخسران نفسه، فكأنه قال: تب وخسر وهلك أبو لهب وضل عمله وسعيه، ولذلك قال بعد الجملة الدعائية: ﴿وَتَبَّ﴾ فـ﴿الواو﴾ فيه للاستئناف؛ أي: وقد تب أبو لهب، وتحقق ذلك التباب الذي دُعي به عليه، وحصل، قال الفراء: الأول دعاء عليه بالتباب، والثاني: إخبار عن تحقق ذلك الدعاء وحصوله، فكأنه قال: أهلكه الله سبحانه وتعالى، وقد أهلك فعلاً، كقولهم: أهلك الله فلاناً وقد هلك، والمعنى: أنه قد وقع ما دعا به عليه،

كما قال أبو حيان: والظاهر أن الأول دعاء، والثاني إخبار بحصول ذلك، كما قال الشاعر:

جَـزَانِـيْ جَـزَاهُ ٱلـلَّـهُ شَـرَّ جَـزَائِـهِ   جَزَاءَ ٱلْكِلَابِ ٱلْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

ويؤيده قراءة ابن مسعود: ﴿وقد تب﴾ فإن كلمة قد لا تدخل على الدعاء، وقيل: كلاهما إخبار، أراد بالأول هلاك عمله، وبالثاني هلاك نفسه، وقيل: كلاهما دعاء عليه، ويكون في هذا شبه مجيء العام بعد الخاص، وإن كانت حقيقة اليدين غير مرادة.

والمراد هنا[1]: بيان استحقاقه، لأن يُدعى عليه بالهلاك، فإن حقيقة الدعاء شأن العاجز، والله منزه عن ذلك، وإنما ذكره سبحانه وتعالى بكنيته، مع أن التكنية من باب التكرمة، وهو لا يستحقها؛ لاشتهاره بكنيته، فليست للتكريم، أو لكراهة ذكر اسمه القبيح؛ إذ فيه الإضافة إلى الصنم؛ لأن اسمه عبد العزى، والعزى من أسماء الصنم، أو للتعريض بكونه جهنمياً؛ لأنه سيصلى ناراً ذات لهب، يعني: أن أبا لهب باعتبار معناه الإضافي يصلح أن يكون كناية عن حاله، وهي كونه جهنمياً؛ لأن معناه باعتبار إضافته مُلابس اللهب، كما أن معنى أبو الخير وأخو الحرب بذلك الاعتبار مُلابس الخير، أو الحرب واللهب الحقيقي لهب جهنم، وهذا المعنى يلزمه أنه جهنمي، ففيه انتقال من الملزوم إلى اللازم، فهي كنية تفيد الذم، فاندفع ما يقال هذا يخالف قولهم، ولا يكنى كافر وفاسق ومبتدع إلا لخوف فتنة أو تعريف؛ لأن ذلك خاص بالكنية التي تفيد المدح، لا التي تفيد الذم، ولم يشتهر بها صاحبها، أو لأن الاسم أشرف من الكنية، فعدل إلى الأنقص، ولذلك ذكر الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم، ولم يكنِ أحداً منهم اهـ من «البحر».

قال في «الإتقان»: ليس في القرآن من الكنى غير أبي لهب، ولم يذكر اسمه وهو عبد العزى؛ أي: الصنم؛ لأنه حرام شرعاً. انتهى.

وفيه أن الحرام وضع ذلك لا استعماله، وفي كلام بعضهم: ما يفيد أن الاستعمال حرام أيضاً إلا أن يشتهر بذلك، كما في الأوصاف المنقِّصة كالأعمش

---

(١) روح البيان.

والأعرج. وكان بعد نزول هذه السورة لا يشك المؤمن أنه من أهل النار بخلاف غيره، ولم يقل في هذه السورة: قل تبت إلخ؛ لئلا يكون مشافهاً؛ لعمه بالشتم والتغليظ، وإن شتمه عمه؛ لأن للعم حرمة كحرمة الأب؛ لأنه مبعوث رحمة للعالمين، وله خلق عظيم، فأجاب الله عنه، وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَهَبٍ﴾ بفتح اللام والهاء، وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محيصن بإسكان الهاء، وقال الزمخشري: وهذا من تغيير الأعلام، كقولهم: شُمْس بن مالك بالضم. انتهى، يعني: سكون الهاء في ﴿لَهَبٍ﴾ وضم الشين في شمس يعني في قول الشاعر:

وَإِنِّي لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِيْ فَقَاصِدٌ بِهِ لابْنِ عَمِّيْ ٱلصِّدْقِ شُمْسِ بْنِ مَالِكِ

فأما في ﴿لَهَبٍ﴾ فالمشهور في كنيته فتح الهاء، وأما شمس بن مالك فلا يتعين أن يكون من تغيير الأعلام، بل يمكن أن يكون مسمى بشمس المنقول من شمس الجمع، كما جاء أذناب خيل شمس، واتفقوا على فتح الهاء في قوله: ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾؛ لأنها فاصلة، والسكون يزيلها على حسن الفاصلة، وروىٰ صاحب الكشاف أنه قرىء: ﴿تبت يدا أبو لهب﴾ بالواو، كما قيل: علي بن أبو طالب، ومعاوية بن أبو سفيان، مع أن القياس الياء؛ لكونه مضافاً إليه، كيلا يغير منه شيء فيشكل على السامع.

والحاصل: أن الكنية بمنزلة العلم، والأعلام لا تتغير في شيء من الأحوال، وكان لبعض أمراء مكة ابنان: أحدهما عبدِ الله بالجر، والآخر عبدَ الله بالفتح.

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على النبوة الصادقة لرسول الله ﷺ وصدق هذا الكتاب الكريم الذي جاء به من عند ربه، فإنه سبحانه وتعالى قد أخبر عن أبي لهب وزوجته أم جميل بالشقاء وعدم الإيمان، وقد تحقق ذلك منهما، ولم يقيض الله لهما أن يؤمنا كلاهما ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً، على بعد الزمان والمسافة بين نزول هذه السورة وانتهاء عصر النبوة الأعز الأيمن، فكانت من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة، وروى الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ عن رجل يقال له: ربيعة بن عباد، وكان جاهلياً

---

(١) البحر المحيط.

فأسلم قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: يأيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، والناس مجتمعون إليه، ووراءه رجل وضيىء الوجه، أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابىء كاذب يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول: إني لمع أبي رجل شاب، انظر إلى رسول الله ﷺ يتتبع القبائل، ووراءه رجل أحول وضيىء الوجه، ذو جمة، يقف رسول الله ﷺ على القبائل، فيقول: يا بني فلان إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن آفيش إلى ما جاء به من البدعة والضلال، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه، فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب.

وهكذا كان يقف هذا العم الخائب العائب لدين الله موقف الخصم المعاند الجاحد، فاستحق غضب الله ومقته وعذابه، وجعله الله عبرة ومثلاً للمخالفين إلى يوم الدين، ولم تنفعه قرابته القريبة؛ إذ لم يؤمن بهذه الرسالة الخالدة الحبيبة، واستحق أن يقال فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[1] ومن ذلك تعلم أن أبا لهب كان يصد عن الحق وينفِّر عن اتباعه، وذاع عنه تكذيبه للرسول ﷺ وتحديه، واتباع خطواته لدحض دعوته، والحط من شأن دينه وما جاء به، ثم ذكر أن ما كان يعتز به في الدنيا من مال وجاه.. لم يغن عنه من الله شيئاً في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ﴾؛ أي: ما دفع عن أبي لهب ما حل به من التباب وما نزل به من عذاب الله ﴿مَالُهُۥ﴾؛ أي: ما جمعه من رؤوس أمواله، ﴿وَمَا كَسَبَ﴾؛ أي: ولا ما كسبه من الأرباح والجاه، أو المراد بقوله: ﴿مَالُهُۥ﴾: ما ورثه من أبيه، وبقوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ الذي كسبه بنفسه، قال مجاهد: وما كسب من ولد، وولد الرجل من كسبه.

والمعنى: أي لم يُفد حينئذ ماله، ولا عمله الذي كان يأتيه في الدنيا من

---

(١) المراغي.

معاداته رسول الله ﷺ طلباً للعلو والظهور، فكما أن ذلك لم يُجْدِهِ شيئاً في الدنيا؛ إذ لم يتغلب على الرسول ﷺ، ولم يقطع ما أراد الله أن يوصل.. لم يفده في الآخرة، بل لحقه البوار والنكال وعذاب النار، أي: لم يُغن[1] عنه ماله حين حل به التباب، ولم ينفعه أصلاً على أن ﴿مَآ﴾ نافية، أو أي شيءٍ أغنى عنه؟ على أنها استفهامية في معنى الإنكار، منصوبة بما بعدها على أنها مفعول به، أو أيَّ إغناء أغنى عنه؟ على أنها مفعول مطلق، أصل ماله وما كسبه به من الأرباح والنتائج والمنافع والوجاهة والأتباع، ولا أحد أكثر مالاً من قارون وما دفع عنه الموت والعذاب، ولا أعظم ملكاً من سليمان عليه السلام وما دفع عنه الموت، والظاهر أن ﴿مَآ﴾ الأولى نافية، والثانية موصولة، أو المراد: ماله الموروث من أبيه والذي كسبه بنفسه كما مر آنفاً، أو عمله الخبيث الذي هو كيده في عداوة النبي ﷺ، أو عمله الذي ظن أنه منه على شيء، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ وقرأ عبد الله[2]: ﴿وما اكتسب﴾ بتاء الافتعال، قال ابن مسعود لما دعا رسول الله ﷺ أقرباءه إلى الله تعالى.. قال أبو لهب: إن كان ما تقول يابن أخي حقاً، فأنا أفتدي نفسي بمالي وولدي، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ وقد خاب رجاه[3]، وما حصل ما تمناه، فافترس ولده عتيبة ـ مصغراً ـ أسد في طريق الشام، وذلك أن عتيبة بن أبي لهب، وكان تحته ابنة رسول الله ﷺ زينب ـ رضي الله عنها ـ أراد الخروج إلى الشام، فقال: لآتين محمداً فلأوذينه، فأتاه فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى، ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ، ورد عليه ابنته وطلقها، فقال النبي ﷺ: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك»، فرجع عتيبة إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير، فقال: إن هذه أرض مسبعة، فقال أبو لهب: أعينوني يا معشر قريش هذه الليلة، فإني أخاف على ابني دعوة محمد، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم، وأحدقوا لعتيبة، فجاء الأسد يتخللهم ويتشمم وجوههم، حتى ضرب عتيبة فقتله، وهلك أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال، والعدسة بثرة تخرج في البدن تشبه العدسة، وهي من جنس

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

الطاعون تقتل غالباً، فاجتنبه أهله مخافة العدوى، وكانت قريش تتقيها كالطاعون، فبقي ثلاثاً حتى أنتن، ثم استأجروا بعض السودان واحتملوه ودفنوه، فكان الأمر كما أخبر به القرآن الكريم.

وفي «إنسان العيون»: لم يحفروا له حفيرة، ولكن أسندوه إلى حائط وقذفوا عليه الحجارة خلف الحائط حتى واروه، وفي رواية: حفروا له، ثم دفعوه بعود في حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه، وقولنا: عُتَيبة ـ بالتصغير ـ، وأما عُتبة ـ مكبَّراً ـ ومعتب فقد أسلما، قال بعضهم في أولاد أبي لهب:

كَرِهْتُ عُتَيْبَةَ إِذْ أَجْرَمَا ... وَأَحْبَبْتُ عُتْبَةَ إِذْ أَسْلَمَا
كَذَا مُعْتِبُ مُسْلِمٌ فَاْحْتَرِزْ ... وَخَفْ أَنْ تَسُبَّ فَتىً مُسْلِمَا

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت إذا مرت بموضعه ذلك غطت وجهها، والقبر الذي يُرجم خارج باب الشبيكة الآن ليس بقبر أبي لهب، وإنما هو قبر رجلين لطخا الكعبة بالعذرة، وذلك في دولة بني العباس، فإن الناس أصبحوا يوماً، فوجدوا الكعبة ملطخة بالعذرة، فرصدوا للفاعل، فأمسكوهما بعد أيام فصلبا في ذلك الموضع فصارا يُرجمان إلى الآن، هذا وما ذُكر من العذاب مآل أمره في النشأة الأولى وفي النشأة الآخرة، ﴿سَيَصْلَىٰ﴾؛ أي: سيدخل لا محالة ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾؛ أي: ناراً عظيمة ذات اشتعال وتوقد، وهي نار جهنم؛ أي: سيذوق حر النار ويعذب بلظاها وليس هذا نصاً في أنه لا يؤمن أبداً حتى يلزم من تكليفه الإيمان بالقرآن أن يكون مكلفاً بأن يؤمن بأنه لا يؤمن أبداً، فيكون مأموراً بالجمع بين النقيضين، كما هو المشهور، فإن صَلْيَ النار غير مختص بالكفار، فيجوز أن يفهم أبو لهب من هذا أن دخوله النار لفسقه ومعاصيه، لا لكفره، فلا اضطرار إلى الجواب المشهور من أن ما كلفه هو الإيمان بجميع ما جاء به النبي ﷺ إجمالاً، لا الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن، حتى يلزم أن يكلف الإيمان بعدم إيمانه المستمر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ ـ بفتح الياء وإسكان الصاد وبتخفيف اللام ـ؛

---

(١) البحر المحيط.

أي: سيصلى هو بنفسه، وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة وابن مقسم والأشهب العقيلي وأبو السمال والأعمش ومحمد بن السميفع: ﴿سيُصَلَّى﴾ - بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام -، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير، والمعنى: سيصليه الله تعالى.

وقوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ معطوف على الضمير[1] المستتر؛ لكون الفصل بالمفعول؛ أي: وستصلى امرأته ناراً ذات لهب، وهي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان صخر بن حرب، عمة معاوية ابن أبي سفيان - رضي الله عنه - واسمها: العوراء بنت حرب، وقيل: اسمها أروى، وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان، فتنشرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ، وكان رسول الله يَطَؤُه كما يطأ الحرير، وفي «تفسير أبي الليث»: حتى كان النبي ﷺ وأصحابه في شدة وعناء اهـ. كذا قال ابن زيد والضحاك والربيع بن أنس ومرة الهمداني.

وقال مجاهد وقتادة والسدي: إنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس والعرب: تقول فلان يحطب على فلان إذا نم به، ومنه قول الشاعر:

إِنَّ بَـنِـيْ ٱلأَرْزَمِ حَـمَّـالُـوْ ٱلْـحَـطَـبْ   هُـمُ ٱلْـوُشَـاةُ فِـيْ ٱلـرِّضَـا وَفِـيْ ٱلْـغَـضَـبْ
عَـلَـيْـهِـمُ ٱلـلَّـعْـنَـةُ تَـتْـرَىٰ وَٱلْـحَـرَبْ

وقال الآخر:

مِنَ ٱلْبِيْضِ لَمْ يَصْطَدْ عَلَىٰ ظَهْرِ لامَةٍ   وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ ٱلْحَيِّ بِٱلْحَطَبِ ٱلرَّطْبِ

وجعل الحطب في هذا البيت رطباً؛ لما فيه من التدخين الذي هو زيادة في الشر، ومن الموافقة للمشي بالنميمة.

وقرئ[2]: ﴿مريئته﴾ و﴿مريته﴾ بالتصغير فيهما وبالهمز وبإبدالها ياء وإدغام ياء التصغير فيها.

وخلاصة ما سلف[3]: أي خسر أبو لهب وضل عمله، وبطل سعيه الذي كان

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

يسعاه للصد عن دين الله، ولم يغن عنه ماله الذي كان يتباهى به، ولا جده ولا اجتهاده في ذلك، فإن الله أعلى كلمة رسوله ونشر دعوته وأذاع ذكره، وأنه سيعذب يوم القيامة بنار ذات شرر ولهب وإحراق شديد، أعدها الله لمثله من الكفار المعاندين فوق تعذيبه في الدنيا بإبطال سعيه ودحض عمله، وسنعذب معه امرأته التي كانت تعاونه على كفره وجحده، وكانت عضده في مشاكسة رسول الله ﷺ وإيذائه، وكانت تمشي بالنميمة للإفساد وإيقاد نار الفتنة والعداوة، كما قال: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾ وستعذب أيضاً بهذه النار امرأته أروى بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب جزاء لها على ما كانت تجترحه من السعي بالنميمة إطفاءً لدعوة رسوله ﷺ، والعرب تقول لمن يسعى في الفتنة ويفسد بين الناس هو يحمل الحطب بينهم، كأنه بعمله يحرق ما بينهم من صلاتٍ، وقيل: إنها كانت تحمل حزم الشوك والحسك والسعدان، وتنثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ لإيذائه.

فإن قلت: إنها كانت من بيت العز والشرف، فكيف يليق بها حمل الحطب؟

قلت: إنها لشدة عداوتها للنبي ﷺ لا تستعين في ذلك بأحد، بل تفعله بنفسها اهـ «صاوي».

وقال سعيد بن جبير معنى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ إنها حمالة الخطايا والذنوب، من قولهم: فلان يحتطب على ظهره، كما في قوله: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ وقيل: المعنى: حمالة الحطب في النار، وقرأ الجمهور[1]: ﴿حمالةُ﴾ بالرفع على الخبرية، على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبي لهب حمالة الحطب، وأما على ما قدمنا من عطف ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ على الضمير في ﴿تصلى﴾ فيكون رفع ﴿حمالة﴾ على النعت ﴿لامرأته﴾، والإضافة حقيقية؛ لأنها بمعنى المضي، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي حمالة، وقرأ عاصم بنصب ﴿حَمَّالَةَ﴾ على الذم، أو الشتم؛ أي: أذم أو أشتم حمالة الحطب، قال الزمخشري: وأنا أستحب هذه القراءة، وقد توسل إلى رسول الله ﷺ بجميلٍ من أحب شتم أم جميل. انتهى، وقيل: على أنه حال من ﴿امرأته﴾ بناء على أن الإضافة غير حقيقية؛ إذ المراد أنها تحمل يوم القيامة حزمة حطب من ضريع وزقوم، وفي جيدها سلاسل النار، كما

(١) الشوكاني.

يعذب كل مجرم بما يناسب حاله في جرمه.

وعن قتادة: أنها مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها، فعيِّرت بالبخل، فالنصب حينئذ على الشتم حتماً، وقيل: كانت تمشي بالنميمة وتفسد بين الناس، تحمل الحطب بينهم؛ أي: توقد بينهم النائرة وتورث الشر، والحطب: ما أعد من الشجر شبوباً، كما في «القاموس»، قيل: الحطب: جمع حاطب كحرس وحارس.

والمعنى: تحمل الجناة على الجنايات، وقرأ أبو قلابة: ﴿حاملة الحطب﴾، وقوله: ﴿فِي جِيدِهَا﴾؛ أي: في عنقها، خبر مقدم ﴿حَبْلٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّن مَّسَدٍ﴾؛ أي: من ليف: صفة لـ﴿مسد﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿امرأته﴾، والجيد ـ بالكسر ـ العنق ومقلده، أو مقدمه، كما في «القاموس»، والمسد: ما يفتل منه الحبال فتلاً شديداً، من ليف كان أو جلد أو غيرهما، يقال: دابة ممسودة: شديدة الأسر والربط، وقال أبو عبيدة: المسد: هو الحبل يكون من صوف، وقال الحسن: هي حبال يتكون من شجر ينبت باليمن، تسمى بالمسد، وقد تكون الحبال من جلود الإبل أو من أوبارها.

والمعنى: في عنقها حبل مما مُسِّد وفتل من الحبال، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها، كما يفعل الحطابون تخسيساً لحالها، وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات من المواهن لتغضب من ذلك، ويشق عليها، ويغضب بعلها أيضاً، وهما في بيت العز والشرف، وفي منصب الثروة والجِدَة.

وقال مجاهد: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾؛ أي: طوق من حديد، قال مرة الهمداني: كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة من حسك، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي ذات ليلة حاملة حزمة أعيت، فقعدت على حجر لتستريح، فجذبها الملك من خلفها، فاختنقت بحبلها حتى هلكت.

وقال الضحاك وغيره: هذا في الدنيا كانت تعيِّر النبي ﷺ بالفقر، وهي تحتطب في حبل تجعله في عنقها، فخنقها الله به، فأهلكها وهو في الآخرة حبل من نار، وقال مجاهد وعروة بن الزبير: هو سلسلة من نار تدخل في فيها، وتخرج من أسفلها، وقال الزمخشري: ويحتمل أن يكون المعنى: أن حالها يكون في نار جهنم

على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك، فلا يزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجر الزقوم أو الضريع، وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار، كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه انتهى.

وفي «ينبوع الحياة»: إنها لما بلغها سورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، جاءت إلى أخيها أبي سفيان في بيته وهي متحرقة غضبى، فقالت له: ويحك يا أحمس؛ أي: يا شجاع، أما تغضب أن هجاني محمد، فقال: سأكفيك إياه، ثم أخذ بسيفه وخرج ثم عاد سريعاً، فقالت له: هل قتلته؟ فقال لها: يا أختي أيسرك أن رأس أخيك في فم ثعبان قالت: لا والله، قال: فقد كاد ذلك يكون الساعة؛ أي: فإنه رأى ثعباناً لو قرب منه ﷺ لالتقم رأسه، ثم كان من أمر أبي سفيان الإسلام، ومن أمر أخته الموت على الكفر، والكل من حكم الله السابق.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو زرعة عن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول:

مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِيْنَهُ قَلَيْنَا
وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر. قال: يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: إنها لن تراني، وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب البيت ما هجاك، فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها، وأخرجه البزار بمعناه، وقال: لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد، وفي قصتها قال البوصيري في همزيته:

يوم جاءت غضبى تقول أفي مثـ ـلِيَ من أحمدَ يقال الهجاءُ
فولت وما رأته ومن أيـ ـن ترى الشمسَ مقلةٌ عمياءُ

ولقد عير بعض الناس الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بحمالة

الحطب، فقال:

مَـاذَا أَرَدْتَ إِلـىٰ شَـتْـمِـيْ وَمَـنْـقَـصَـتِـيْ   أَمْ مَـا تُـعَـيِّـرُ مِـنْ حَـمَّـالَـةِ ٱلْـحَـطَـبِ
غَـرَّاءُ شَـادِخَـةٌ فِـيْ ٱلْـمَـجْـدِ سَـامِـيَـةٌ   كَـانَـتْ سَـلِـيْـلَـةَ شَـيْـخٍ ثَـاقِـبِ ٱلْـحَـسَـبِ

ولما كانت هذه المجرمة تسمي النبي ﷺ هي وبعض أعدائه من الكفار مذمَّماً. . قال النبي ﷺ: صرف الله سبحانه عني، إنهم يسمونني مذمماً وأنا محمد، وروي عن أبي عبد الله الحسين ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا قرأتم ﴿تَبَّتْ﴾ فادعوا على أبي لهب، فإنه كان من المكذبين بالنبي ﷺ وبما جاء به من عند الله والحكمة ما خص الله أبا لهب بهذه السورة من الكتاب العزيز ولو كان ذكره لمجرد عداوته لرسول الله ﷺ لذكر غيره كذلك من خصوم النبي وأعدائه الألداء أمثال عقبة بن أبي معيط والعاص بن وائل وغيرهم من أكابر الأعداء وأئمة الكفر والضلال، ممن كنى عنهم الله سبحانه أحياناً بأوصافهم، ولم يذكرهم بأسمائهم.

وإنما خص أبا لهب بالذكر في سورة مستقلة والتصريح باسمه الكنية؛ لأنه اشتهر بالتكذيب والعداوة، وتعقب النبي ﷺ في حركاته وسكناته، ليحبط مساعيه ويصد الناس عن الإقبال على دعوته ورسالة ربه، حتى أصبح خطراً على الإسلام، وهو عم رسول الله ﷺ، والناس أكثر تسمُّعاً منه من تسمُّعهم من غيره، لذا ضربه الله سبحانه هذه الضربة القاصمة؛ ليجعله عبرة ومثلاً للصاد عن الحق والمنفرة للناس عن دين الله، وفهم ما أنزل على نبيه من الهدى والرشاد، وكل شخص من الناس صنع صنيع أبي لهب، فهو أبو لهب، بل وأشد من أبي لهب؛ إذ أن أبا لهب عم رسول الله وصاحب الغنى والنسب لم يغن عنه ذلك شيئاً، ومن سار سيرته فأولئك هم أبناء لهب، لا تغن عنهم أموالهم ولا أعمالهم شيئاً، وسيُصْلَون ما يصلى أبو لهب من نار ذات لهب، وكل امرأة تنم بين الناس لتفرق كلمتهم وتذهب بهم مذاهب السوء، وتصد عن سبيل الله، وتحارب دعوة الله ودين الله، فهي ممثلة في هذا المثل نازل بها ذلك النكال، وستحشر في نار ذات لهب لا يغني عنها مال ولا نسب.

وآيات القرآن كلها عبر وعظات وبراهين ساطعات على عظمة هذا القرآن، وعلى خلود هذه الشريعة الغراء التي ساوت بين الناس، ولم تجعل التفاضل بينهم

إلا بالتقوى، فلا عم ولا خال ولا ولد ولا مال ولا حسب ولا نسب، الكل عند الله سواء، أكرمهم عند الله أتقاهم، فمن آمن واتقى وصدق بالحسنى فسييسره الله لليسرى، وأما من كذب وتولى فسييسره الله للعسرى، وما يغني عنه ماله إذا تردى.

الإعراب

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

﴿تَبَّتْ﴾ ﴿تب﴾: فعل ماض، والتاء علامة تأنيث الفاعل. ﴿يَدَآ﴾: فاعل مرفوع بالألف؛ لأنه مثنى يد. ﴿يَدَآ﴾: مضاف. ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾: مضاف إليه مجرور بالياء، والجملة الفعلية جملة دعائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَتَبَّ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿وَتَبَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾، والجملة الفعلية جملة مستأنفة مسوقة للإخبار بحصول التباب وتحققه له نظير قوله:

جَـزَانِـيْ جَـزَاهُ ٱلـلَّـهُ شَـرَّ جَـزَائِـهِ   جَزَاءَ ٱلْكِلَابِ ٱلْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

﴿مَآ﴾: نافية، أو استفهامية للاستفهام الإنكاري في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿أغنى﴾. ﴿أَغْنَىٰ﴾: فعل ماض ﴿عَنْهُ﴾ متعلق ﴿أَغْنَىٰ﴾. ﴿مَالُهُۥ﴾: فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَآ﴾: مصدرية بمعنى كسبه، أو موصولة بمعنى الذي في محل الرفع معطوف على ﴿مَالُهُۥ﴾؛ أي: مكسوبه من الأرباح والجاه. ﴿كَسَبَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾، والجملة صلة ﴿مَآ﴾ المصدرية؛ أي: أي شيء أغنى عنه ماله وكسبه، أو صلة ﴿مَآ﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: والذي كسبه ﴿سَيَصْلَىٰ﴾: ﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿يصلى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾. ﴿نَارًا﴾: مفعول به. ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾: صفة لـ﴿نَارًا﴾؛ لأنها مآل كنيته ومثابتها، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾: معطوف على الضمير المستتر في ﴿يصلى﴾، وسوغه الفصل بالمفعول وصفته. ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ - بالنصب - إما منصوب على الذم؛ أي: أذم حمالة الحطب، أو على الحال من ﴿امرأته﴾، وبالرفع إما صفة للمرأة، أو خبر مبتدأ محذوف، أو خبر لـ﴿امرأته﴾ على أنه مبتدأ. ﴿فِي جِيدِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿حَبْلٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّن مَّسَدٍۭ﴾: جار

ومجرور صفة لـ﴿حبل﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿امرأته﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ يقال: تب يتب تباً ـ من باب رد ـ كما في «القاموس»، ومن باب ضرب، كما في «المصباح» وقال الزمخشري: والتباب الهلاك، ومنه قولهم: أشابة أم تابة؛ أي: هالكة من الهرم والتعجيز، والمعنى: هلكت يداه؛ لأنه فيما يروى أخذ حجراً ليرمي به رسول الله ﷺ، وعبارة ابن خالويه ومعناه: خسرت يداه، يقال: تب يتب تباً فهو تاب، والمفعول به متبوب، والأمر: تُبَّ، وإن شئت كسرت، وللمرأة تُبِّي، ويقال: امرأة تابة؛ أي: عجوز قد هلك شبابها، والتباب الهلاك، قال تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾.

قال عدي:

إِذْهَـبِـيْ إِنَّ كُـلَّ دُنْـيَـا ضَـلَاَلٌ ... وَٱلْأَمَـانِـيُّ عَـقْـرُهَـا لِـلـتَّـبَـابْ
لَاَ يَـرُوْقَـنْـكَ صَـائِـرٌ لِـفَـنَـاهُ ... كُـلُّ دُنْـيَـا مَـصِـيْـرُهَـا لِـلـتُّـرَابْ

وقال جرير:

غُـرَادَةُ مِـنَ بَـقِـيَّـةِ قَـوْمِ لُـوْطٍ ... أَلاَ تَـبَّـاً لِـمَـا عَـمِـلُـوْا تَـبَـابَـا

وقال كعب بن مالك يمدح النبي ﷺ:

ٱلْـحَـقُّ مَـنْـطِـقُـهُ وَٱلْـعَـدْلُ سِـيْـرَتُـهُ ... فَـمَـنْ يُـعِـنْـهُ عَـلَـيْـهِ يَـنْـجُ مِـنْ تَـبَـبِ

والتاء الثانية تاء التأنيث؛ لأن اليد مؤنثة، ومعنى تبت يداه؛ أي: تب هو؛ لأن العرب تنسب الشدة والقوة والأفعال إلى اليدين؛ إذ كان بهما يقع كل الأفعال.

﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ واللهب واللهيب اشتعال النار إذا خلص من الدخان، أو لهبها لسانها، ولهيبها حرها، كما مر، تَكَنَّىٰ به عبد العزى بن عبد المطلب لإشراق وجنتيه وتلهبها، وإلا فليس له ابن يسمى باللهب.

﴿سَيَصۡلَىٰ﴾؛ أي: يحترق بها، وصَلِيَ من باب تعب، وعبارة ابن خالويه هنا: جيدة، وهي: ويقال: صليت الشاة إذا شويتها، فأنا صال، والشاة مصلية، ومن ذلك حديث رسول الله ﷺ أنه أهديت إليه شاة مصلية، وأجاز الفراء: مَصْلاة؛

لأنك تقول: أصليتها أيضاً.

﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ والحطب: ما أُعد من الشجر للوقود.

﴿فِي جِيدِهَا﴾ الجيد: العنق، وجمعه أجياد، والجَيَد ـ بفتح الياء ـ طول العنق.

﴿مِّن مَّسَدٍ﴾ المسد ما فُتل من الحبال فتلاً شديداً، من ليف كان أو جلد أو غيرهما، وفي «القاموس»: المَسْد ـ بسكون السين ـ مصدر بمعنى الفتل وبفتحها المحْوَر من الحديد، أو حبل من ليف، أو كل حبل محكم الفتل، والجمع مساد وأمساد، يقال: مسد حبله يمسده مسداً من باب نصر.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ وفي حرف ابن مسعود: ﴿مُرَيْئته﴾ مصغراً، والعرب تقول: هذه مرئتي وامرأتي وزوجي وزوجتي وحنتي وطلتي وشاعتي وإزاري ومحل إزاري وفضلتي وحرثي.

قال الشاعر:

إِذَا أَكَلَ ٱلْجَرَادُ حُرُوْثَ قَوْمٍ فَحَرْثِيْ هَمُّهُ أَكْلُ ٱلْجَرَادِ

وتسمى المرأة بيناً، والعرب تكني عن المرأة باللؤلؤة والبيضة والسرحة والأثلة والنخلة والشاة والبقرة والنعجة والودعة والعيبة والقوارير والربض والفراش والريحانة والظبية والدمية ـ وهي الصورة مع العاج ـ والنعل والغل والقباء والجارة والمزخة والقومدة، وكنى الفرزدق عن المرأة بالجفن، فجعلها جفناً لسلاحه، وكانت ماتت وهي حبلى، فقال:

وَجَفْنَ سِلاَحٍ قَدْ رُزِئْتُ فَلَمْ أَنُحْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ عَلَيْهِ ٱلْبَوَاكِيَا
وَفِيْ جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُوْ حَفِيْظَةٍ لَوَ انَّ ٱلْمَنَايَا أَنْسَأَتْهُ لَيَالِيَا

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ حيث أطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: هلك أبو لهب.

ومنها: الجناس بين ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ وبين ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فالأول كنية، والثاني وصف للنار.

ومنها: الكنية للتصغير والتحقير في قوله: ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ فليس المراد تكريمه، بل تشهيره كأبي جهل.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ إشعاراً بتحقق وقوعه.

ومنها: التهكم والسخرية منها في قوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ فقد صورها تصويراً فيه منتهى الخسة والقماءة، حيث أخبر عنها بأنها تحمل تلك الحزمة وتربطها في جيدها تخسيساً لحالها، وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات من المواهن جمع ماهن، وهي الخدم؛ لتمتعض من ذلك ويمتعض زوجها، وهما في بيت العز والشرف، وفي منصب الثروة والجِدَة، وقد تعلق الشعراء بأذيال هذه السخرية، فعيَّر أحدهم الفضل بن العباس بن عُتبة ابن أبي لهب بحمالة الحطب، فقال:

مَاذَا أَرَدْتَ إِلَىٰ شَتْمِيْ وَمَنْقَصَتِيْ ... أَمْ مَا تُعَيِّرُ مِنْ حَمَّالَةِ ٱلْحَطَبِ
غَرَّاءُ شَادِخَةٌ فِيْ ٱلْمَجْدِ سَامِيَةٌ ... كَانَتْ سَلِيْلَةَ شَيْخٍ ثَاقِبِ ٱلْحَسَبِ

والغراء: البيضاء، والشادخة: المتسعة، وذلك مجازي عن الظهور وارتفاع المقدار، والسليلة مَن سُلَّ من غيره، والمراد بالشيخ أبوها حرب؛ لأنها أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب.

وقيل: حمل الحطب حقيقة، وقيل: مجاز عن إثارة الفتنة؛ لأنها كانت نمامة، وإلى شتمي متعلق بمحذوف، أو بأردت على طريق التضمين؛ أي: أي شيء أردته مائلاً أنت إلى شتمي، أو منضماً هو إلى شتمي؟ أو ما الذي أردته من شتمي؟ أو مع شتمي، هل أردت أنك شريف لا عيب فيك؟ ويجوز أن تكون إلى بمعنى من، كما قال النحاة: ويمكن أنها للمصاحبة، كما قالوا أيضاً في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ

﴿أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ﴾ وتعير أصله تتعير، فحذف منه إحدى التاءين.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بمعاني كتابه

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير سورة المسد وقت الشروق من يوم الخميس اليوم الرابع من شهر الله صفر المبارك من شهور سنة ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة الإخلاص

التسمية: سورة الإخلاص، وتسمى سورة المعرفة، وسورة الجمال، وسورة التوحيد، وسورة النجاة، وسورة النور، وسورة المعوذة، وسورة المانعة؛ لأنها تمنع فتنة القبر ولفحات النار، وسورة البراءة؛ لأنها براءة من الشرك نزلت بعد سورة الناس، وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي.

ولهذه السورة(١) أسماء كثيرة، وزيادة الأسماء تدل على شرف المسمى، أنهاها بعضهم إلى عشرين اسماً: أولها الإخلاص ثانيها التنزيل. ثالثها التجريد؛ لأن من تعلق بها تجرد عن الأغيار. رابعها التوحيد؛ لأنها دالة عليه. خامسها النجاة لنجاة قارئها. سادسها الولاية؛ لأن من تعلق بها أعطاه الله الولاية. سابعها النسبة لقولهم في السؤال: انسب لنا ربك. ثامنها المعرفة؛ لأن من فهمها عرف الله تعالى. تاسعها الجمال؛ لدلالتها على جمال الله تعالى؛ أي: اتصافه بالكمال وتنزيهه عن النقائص. عاشرها: المقشقشة؛ أي: المبرئة من الشرك والنفاق. الحادي عشر المعوِّذة؛ أي: المحصنة لقارئها من فتن الدنيا والآخرة. الثاني عشر الصمد، لذكره فيها. الثالث عشر الأساس؛ لأنها أصل الدين، وفي الحديث: أسست السموات والأرضون السبع على قل هو الله أحد». الرابع عشر المانعة؛ لأنها تمنع فتنة القبر وعذاب النار. الخامس عشر سورة المحتضر؛ لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قُرئت. السادس عشر المنفرة؛ لأن الشياطين تنفَّر عند قراءتها. السابع عشر سورة البراءة؛ لأنها براءة من الشرك. الثامن عشر المذكِّرة؛ لأنها تذكرالعبد خالص التوحيد. التاسع عشر المنورة؛ لأنها تنور القلب. العشرون سورة الإنسان؛ لأنه لا غنى له عنها.

وآياتها أربع، وكلماتها: خمس عشرة كلمة، وحروفها سبعة وأربعون حرفاً.

---

(١) الصاوي.

ومناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر[1] فيما قبلها عداوة أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ؛ وهو عمه أبو لهب، وما كان يقاسي من عباد الأوثان الذين اتخذوا مع الله آلهة.. جاءت هذه السورة مصرحة بالتوحيد رادة على عباد الأوثان والقائلين بالثنوية وبالتثليث وبغير ذلك من المذاهب المخالفة للتوحيد.

وقال بعضهم: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذم فيما قبلها أعداء أهل التوحيد وأعداء الرسول ﷺ.. بيَّن في هذه حقيقة التوحيد الذي هو أساس الدين ومبنى أركانه، وسميت سورة الإخلاص؛ لدلالتها على إخلاص العمل لله وتصفيته من الإشراك به.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الإخلاص كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها[2]: وورد في فضل هذه السورة أحاديث كثيرة صحيحة:

فمنها: ما أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالُّها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»، وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة»، فشق ذلك عليهم، فقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله، فقال: «قل هو الله أحد، الله الصمد، ثلث القرآن».

ومنها: ما أخرجه مسلم عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ جزءاً من القرآن».

ومنها: ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: «أقرأ عليكم ثلث القرآن، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾ حتى ختمها».

ومنها: ما أخرج أبو عبيد في فضائلها وأحمد والنسائي في «اليوم والليلة» وابن منيع ومحمد بن نصر وابن مردويه والضياء في «المختارة» عن أُبيِّ بن كعب

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن»، قال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: معنى كونها تعدل ثلث القرآن أن القرآن على ثلاثة أنحاء قصص وأحكام وصفات الله تعالى، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ متمحضة للصفات، فهي ثلث القرآن، وجزء من ثلاثة أجزاء اهـ.

وقيل معناه: أن ثواب قراءتها مرة يتضاعف بقدر ثواب قراءة ثلث القرآن بغير تضعيف، وقيل غير ذلك.

ولو لم يرد في فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ بعث رجلاً في سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك»؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمٰن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال: «أخبروه أن الله تعالى يحبه» هذا لفظ البخاري في كتاب «التوحيد».

وأخرج البخاري أيضاً في كتاب الصلاة من حديث أنس قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة، فقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها، وتقرأ بأخرى، قال: ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركت، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، فكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة»؟ فقال: إني أحبها، قال: «حبك إياها أدخلك الجنة» وقد روي بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخاري.

تتمة في فضائل هذه السورة: عن سهل[1] بن سعد ـ رضي الله عنه ـ: جاء رجل إلى النبي ﷺ، وشكا إليه الفقر، فقال: «إذا دخلت بيتك فسلم إن كان فيه

---

(١) الصاوي.

أحد، وإن لم يكن فيه أحد فسلم على نفسك، واقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مرة واحدة»، ففعل الرجل ذلك فأدر الله عليه رزقاً حتى أفاض على جيرانه».

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: من قرأ قل هو الله أحد بعد صلاة الفجر، إحدى عشرة مرة لم يلحقه ذنب يومئذ ولو اجتهد الشيطان، وفي الحديث: «أيعجز أحدكم أن يقرأ القرآن في ليلة واحدة»، فقيل: يا رسول الله من يطيق ذلك؟ قال: «أن يقرأ قل هو الله أحد ثلاث مرات».

ومنها: قوله ﷺ: «من قرأ قل هو الله أحد عشر مرة بني له قصر في الجنة، ومن قرأها عشرين مرة بني له قصران في الجنة، ومن قرأها ثلاثين مرة بني له ثلاثة قصور في الجنة».

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ يا رسول الله إذاً تكثر قصورنا، فقال رسول الله ﷺ: «الله أوسع من ذلك».

ومنها: قوله ﷺ: «من قرأ قل هو الله أحد في مرضه الذي يموت فيه لم يفتن في قبره، وأمن من ضغطة القبر، وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة».

ومنها: قوله ﷺ: «من قرأ قل هو الله أحد مرة بورك عليه، ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه، ومن قرأها اثنتي عشرة مرة بنى الله له اثني عشر قصراً في الجنة، فإن قرأها مئة مرة كفَّر الله عنه ذنوب خمسين سنة ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها مئتي مرة كفر الله عنه مئة سنة، ومن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه في الجنة أو يرى له».

ومنها: أن من قرأها مئة ألف فقد اشترى نفسه من الله، ونادى مناد من قبل الله تعالى في سمواته وفي أرضه، ألا إن فلاناً عتيق الله، فمن كان له قبله بضاعة فليأخذها من الله عز وجل، فهي عتاقه من النار، لكن بشرط أن لا يكون عليه حقوق العباد أصلاً أو عليه وهو عاجز عن أدائها، أما من قدر عليه فهو كالمستهزىء بربه؛ لما ورد في الحديث: «يا داود: قل للظلمة لا يذكروني، فإنهم إن ذكروني ذكرتهم وذكري لهم أن ألعنهم»، وفي أسانيد بعضها مقال، ولكن

ذكرناها استئنافاً لفضل السورة والله أعلم.

فوائدها: ومما ورد في فوائدها: ما أخرجه ابن الضريس والبزار والبيهقي في «الشعب» عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ مئتي مرة غُفر له ذنب مئتي سنة».

قال البزار: لا نعلم، رواه عن أنس إلا الحسن ابن أبي جعفر والأغلب بن تميم، وهما يتقاربان في سوء الحفظ.

ومنها: ما أخرجه أحمد والترمذي وابن الضريس والبيهقي في «سننه» عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني أحب هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ فقال رسول الله ﷺ: «حبك إياها أدخلك الجنة».

ومنها: ما أخرجه محمد بن نصر وأبو يعلى عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ خمسين مرة غفر له ذنوب خمسين سنة» وإسناده ضعيف.

ومنها: ما أخرجه الترمذي وابن عدي والبيهقي في «الشعب» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ مئتي مرة كتب الله له ألفاً وخمس مئة حسنة، ومُحي عنه ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين» وفي إسناده حاتم بن ميمون ضعفه البخاري وغيره.

ولفظ الترمذي «من قرأ في يوم مئتي مرة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ مُحي عنه ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين».

وفي إسناده حاتم بن ميمون المذكور.

ومنها: ما أخرجه الترمذي ومحمد بن نصر وأبو يعلى وابن عدي والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينام على فراشه من الليل، فنام على يمينه، ثم قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ مئة مرة، فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب: يا عبدي على يمينك ادخل الجنة»، وفي إسناده أيضاً حاتم بن ميمون المذكور.

قال الترمذي بعد إخراجه غريب من حديث ثابت، وقد روي من غير هذا

الوجه عنه، وعن أبي هريرة قال أقبلت مع رسول الله ﷺ، فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، فقال رسول الله ﷺ: «وجبت» قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب صحيح والله أعلم.

وفي الباب أحاديث كثيرة، منها ما هو صحيح، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف أعرضنا عن ذكرها؛ لئلا يطول الكتاب، وفيما ذكرنا كفاية.

ومن فوائد هذه السورة أيضاً(١): أن الاشتغال بقراءتها يفيد الاشتغال بالله، وملازمة الإعراض عما سوى الله تعالى، وهي متضمنة تنزيه الله تعالى وبراءته عن كل ما لا يليق به؛ لأنها مع قصرها جامعة لصفات الأحدية والصمدانية والفردانية وعدم النظير.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الخازن.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ④﴾.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة[١]: ما روى الضحاك أن المشركين أرسلوا إلى رسول الله ﷺ عامر بن الطفيل، فقال له عنهم: شققت عصانا ـ فرقت كلمتنا ـ، وسببت آلهتنا، وخالفت دين آبائك، فإن كنت فقيراً أغنيناك، وإن كنت مجنوناً داويناك، وإن كنت قد هويت امرأة زوجناكها، فقال رسول الله ﷺ: «لست بفقير ولا مجنون ولا هويت امرأة، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته» فأرسلوه ثانية، وقالوا: قل له بيِّن لنا جنس معبودك، أمن ذهب أم من فضة؟ فأنزل الله سبحانه هذه السورة الكريمة، فقالوا له: ثلاث مئة وستون صنماً تقوم بحوائجنا، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق، فنزلت: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ④﴾ فأرسلوه أخرى، وقالوا: بيِّن لنا أفعاله، فنزل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

وأخرج[٢] أحمد والبخاري في «تاريخه» والترمذي وابن جرير وابن خزيمة وابن أبي عاصم في «السنة» والبغوي في «معجمه» وابن المنذر وأبو الشيخ في «العظة» والحاكم وصححه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبيٍّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③...﴾ إلخ ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث وإن الله لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفواً أحد، قال: لم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء، ورواه الترمذي من طريق أخرى عن أبي العالية مرسلاً، ولم يذكر أبياً، ثم قال: وهذا أصح.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر والطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقي عن جابر قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: انسب لنا ربك، فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ إلى آخر السورة، وحسَّن السيوطي إسناده، وأخرج الطبراني وأبو الشيخ في «العظة» عن ابن مسعود قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس: أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ منهم: كعب بن الأشرف وحُيَيُّ بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ﴾ فيخرج منه الولد ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيخرج من شيء.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن سألك عن صفة ربك ﴿هُوَ﴾؛ أي: ربي الذي سألتموني عن صفته ونسبه ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود المستحق للعبادة من جميع المخلوقات الجامع لصفات الكمال كلها، المنزه عن صفات النقائص كلها هو ﴿أَحَدٌ﴾؛ أي: واحد لا كثرة في ذاته ولا في صفاته، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة، ولا من أصول متعددة غير مادية، فهو الواحد المنزه عن التركيب والتعدد؛ لأن التعدد في الذات مستلزم لافتقار المجموع إلى تلك الأجزاء، والله لا يفتقر إلى شيء، فالضمير في قوله: ﴿قُلْ هُوَ﴾ يحتمل عوده إلى المسؤول عنه؛ أي: الذي سألتم عنه هو الله، فالضمير حينئذ مبتدأ، و﴿ٱللَّهُ﴾ خبره، و﴿أحد﴾ بدل منه، وإبدال النكرة المحضة من المعرفة يجوز عند حصول الفائدة على ما ذهب إليه أبو علي الفارسي؛ لما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ، فقال عامر: إلى من تدعونا يا محمد؟ فقال: إلى الله تعالى، قال: صفه لنا، أمن ذهب أم من فضة أم من حديد أم من خشب؟ فنزلت هذه السورة، وأهلك الله أربد بالصاعقة، وعامر بن الطفيل بالطاعون، وقيل: نزلت بسبب سؤال النصارى، روي عن ابن عباس قال: قدم وفد نجران، فقالوا: صف لنا ربك، أمن

---

(١) الخازن.

زبرجد أو ياقوت أو ذهب أو فضة؟ فقال: إن ربي ليس من شيء؛ لأنه خالق الأشياء، فنزل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ قالوا: هو واحد، وأنت واحد، فقال: ليس كمثله شيء، قالوا: زدنا من الصفة، فقال: الله الصمد، فقالوا: وما الصمد؟ فقال: الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج، فقالوا: زدنا، فنزل ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما ولدت مريم و﴿لم يولد﴾ كما وُلد عيسى، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ④﴾؛ أي: ليس له نظير من خلقه، وقال الضحاك وقتادة ومقاتل: جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك، فإن الله تعالى أنزل صفته في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو، وهل يأكل ويشرب، ومن ورث ومن يرثه؟ فنزلت هذه السورة، ويحتمل عوده إلى الشأن، كقولك: هو زيد منطلق، وارتفاعه بالابتداء، وخبره الجملة، ولا حاجة إلى الرابط، لأنها عين الشأن الذي عبر عنه بالضمير؛ أي: الله أحد هو الشأن هذا، أو هو أن الله أحد، والحكمة في تصدير الجملة بضمير الشأن التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها، مع أن في الإبهام ثم التفسير مزيد تقرير، والله علم دال على الإله الحق دلالة جامعة لمعاني الأسماء الحسنى كلها، والأحد اسم لمن لا يشاركه شيء في ذاته، كما أن الواحد اسم لمن لا يشاركه شيء في صفاته يعني: أن الأحد هو الذات وحدها بلا اعتبار كثرة فيها، فأثبت له الأحدية التي هي الغنى عن كل ما عداه، وذلك من حيث عينه وذاته من غير اعتبار أمر آخر، والواحد هو الذات مع اعتبار كثرة الصفات.

وعبارة الشوكاني هنا قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى ما يفهم من السياق؛ لما قدمنا من بيان سبب النزول، وأن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فيكون مبتدأ، و﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ثان، و﴿أَحَدٌ﴾ خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأول، ويجوز أن يكون ﴿ٱللَّهُ﴾ بدلاً من ﴿هُوَ﴾، والخبر ﴿أَحَدٌ﴾، ويجوز أن يكون ﴿ٱللَّهُ﴾ خبراً أولاً، و﴿أَحَدٌ﴾ خبراً ثانياً، ويجوز أن يكون ﴿أَحَدٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هو أحد، ويجوز أن يكون ﴿هُوَ﴾ ضمير شأن؛ لأنه موضع تعظيم، والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه، والأول أولى.

قال الزجاج: هو كناية عن ذكر الله، والمعنى: إن سألتم تبيين نسبته هو الله، قيل: وهمزة ﴿أَحَدٌ﴾ بدل من الواو، وأصله واحد، وقال أبو البقاء: همزة

﴿أَحَـدٌ﴾ أصل بنفسها غير مقلوبة، وذكر أن ﴿أَحَـدٌ﴾ يفيد العموم دون واحد.

ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى، لا يقال رجل أحد ولا درهم أحد، كما يقال: رجل واحد ودرهم واحد، قيل: والواحد يدخل في الأحد، والأحد لا يدخل فيه، فإذا قلت: لا يقاومه واحد جاز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك: لا يقاومه أحد، وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل في العدد، وأحد لا يدخل فيه، ورد عليه أبو حيان بأنه يقال: أحد وعشرون ونحوه، فقد دخل في العدد، وهذا كما ترى. ومن جملة القائلين بالقلب الخليل.

وقرأ الجمهور: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ بإثبات ﴿قُلْ﴾، وقرأ عبد الله بن مسعود وأبي ﴿هو الله أحد﴾ بدون ﴿قُلْ﴾ وكذا في المعوذتين؛ لأنه توحيد، والأخريان تعوذ، فيناسب أن يدعو بهما وأن يؤمر بتبليغهما، وقال بعضهم: إنما أثبت في المصحف ﴿قُلْ﴾ والتزم في التلاوة مع أنه ليس من دأب المأمور بقل أن يتلفظ في مقام الائتمار إلا بالمقول؛ لأن المأمور ليس المخاطب به فقط، بل كل واحد ابتلي بما ابتلي به المأمور، فأثبت ليبقى على مر الدهور منا على العباد، وقرأ الأعمش: ﴿قل هو الله الواحد﴾ وقرأ الجمهور: بتنوين ﴿أَحَـدٌ﴾ وهو الأصل، وقرأ زيد بن علي وأبان بن عثمان ونصر بن عاصم وابن سيرين والحسن وابن إسحاق وأبو السمال وأبو عمرو في رواية يونس ومحبوب والأصمعي واللؤلؤي وعبيد وهارون عنه: ﴿أحد الله﴾ بحذف التنوين؛ لالتقاء الساكنين لملاقاته مع لام التعريف، فيكون ترك التنوين لأجل الفرار من التقاء الساكنين، ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر، وقيل: حذفه للخفة، كما في قول الشاعر:

عَـمْـرُو ٱلَّـذِيْ هَـشَـمَ ٱلثَّـرِيْـدَ لِـقَـوْمِـهِ   وَرِجَـالُ مَـكَّـةَ مُـسْـلِـتُـوْنَ عِـجَـافُ

بحذف تنوين عمرو للتخفيف ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ ۝٢﴾ الاسم الشريف مبتدأ، و﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ خبره، و﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ هو الذي يصمد إليه في الحاجات؛ أي: يقصد لكونه قادراً على قضائها، فهو فعل بمعنى مفعول، كالقَبَض بمعنى المقبوض؛ لأنه مصمود إليه؛ أي: مقصود إليه، قال الزجاج: الصمد: السند الذي انتهى إليه

السؤدد، فلا سيد فوقه.

قال الشاعر:

أَلاَ بَكَّرَ ٱلنَّاعِيْ بِخَيْرِ بَنِيْ أَسَدْ بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُوْدٍ وَبِٱلسَّيِّدِ ٱلصَّمَدْ

وقيل: معنى الصمد: الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزول، وقيل: معنى الصمد ما ذكره بعده من أنه الذي لم يلد ولم يولد، وقيل: هو المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد، وقيل: هو المقصود في الرغائب، والمستغاث به في المصائب، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول، وقيل: هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقيل: هو الكامل الذي لا عيب فيه، وقال الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله بن بريدة وعطاء وعطية العوفي والسدي: الصمد هو المصمت الذي لا جوف له، كما سيأتي بسطه نقلاً عن «الخازن»، ومنه قول الشاعر:

شِهَابُ حُرُوْبٍ لاَ تَزَالُ جِيَادُهُ عَوَابِسَ يَعْلِكْنَ ٱلشَّكِيْمَ ٱلْمُصَمَّدَا

وهذا لا ينافي القول الأول؛ لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد، ثم استُعمل في السيد المصمود إليه في الحوائج، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير، ومنه قول الشاعر:

عَلَوْتُهُ بِحُسَامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ خُذْهَا حُذَيْفُ فَأَنْتَ ٱلسَّيِّدُ ٱلصَّمَدُ

وقال الزبرقان بن بدر:

سِيْرُوْا جَمِيْعَاً بِنِصْفِ ٱللَّيْلِ وَٱعْتَمِدُوْا وَلاَ رَهِيْنَةَ إلاَّ سَيِّدٌ صَمَدُ

وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك، فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية، وحذف العاطف من هذه الجملة؛ لأنها كالنتيجة للجملة الأولى، وقيل: إن الصمد صفة للاسم الشريف، والخبر هو ما بعده، والأول أولى؛ لأن السياق يقتضي استقلال كل جملة، فمعنى قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾؛ أي[1]: هو الله الذي يقصده العباد ويتوجهون إليه لقضاء ما أهمهم دون واسطة إلى

---

(١) المراغي.

شفيع، وبهذا أبطل عقيدة مشركي العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء، وعقيدة غيرهم من أهل الأديان الأخرى الذين يعتقدون بأن لرؤوسهم منزلة عند ربهم ينالون بها التوسط لغيرهم في نيل مبتغاهم فيلجؤون إليهم أحياء وأمواتاً، ويقومون عند قبورهم خاضعين خاشعين، كما يخشعون لله أو أشد خشية.

وفي «الخازن[(١)]»: قال ابن عباس: الصمد الذي لا جوف له، وبه قال جماعة من المفسرين، ووجه ذلك من حيث اللغة أن الصمد الشيء المصمد الصلب الذي ليس فيه رطوبة ولا رخاوة، ومنه يقال لسداد القارورة: الصماد، فإن فُسر الصمد بهذا كان من صفات الأجسام ويتعالى الله جل وعز عن صفات الجسمية، وقيل: وجه هذا القول أن الصمد الذي ليس بأجوف معناه: هو الذي لا يأكل ولا يشرب، وهو الغني عن كل شيء، فعلى هذا الاعتبار هو صفة كمال، والقصد بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ التنبيه على أنه تعالى بخلاف من أثبتوا له الإلٰهية، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ وقيل: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي ليس بأجوف شيئان أحدهما دون الإنسان وهو سائر الجمادات الصلبة، والثاني أشرف من الإنسان، وأعلى منه وهو الباري جل وعلا. انتهى.

وعبارة «النسفي»: والمعنى هو[(٢)] الله تعرفونه، وتقرون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم، وهو واحد لا شريك له، وهو الذي يصمد إليه، ويقصد كل مخلوق ولا يستغنون عنه، وهو الغني عنهم انتهى.

ثم صرح ببعض أحكام جزئية مندرجة تحت الأحكام السابقة[(٣)]، فقيل: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ تنصيصاً على إبطال زعم المفترين في حق الملائكة والمسيح وعزير، ولذلك ورد النفي على صيغة الماضي حيث قال: لم يلد من غير أن يقال: لن يلد، أو لا يلد؛ أي: لم يصدر منه سبحانه وتعالى ولد؛ لأنه لا يجانسه شيء ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا ولا يفتقر إلى ما يعينه أو

---

(١) الخازن.
(٢) النفي.
(٣) روح البيان.

يخلفه؛ لاستحالة الحاجة والفناء عليه سبحانه.

فإن قلت: لم قال في هذه السورة: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ وفي سورة بني إسرائيل ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾؟.

أجيب: بأن النصارى فريقان: منهم من قال عيسى ولد الله حقيقة، فقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ إشارة إلى الرد عليه، ومنهم من قال: اتخذه تشريفاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً تشريفاً، فقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إشارة إلى الرد عليه.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ أي: لم يصدر[1] عن شيء لاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً أو لاحقاً، وقال بعضهم: الوالدية والمولودية لا تكونان إلا بالمثلية، فإن المولود لا بد أن يكون مثل الوالد، ولا مثلية بين هويته الواجبة وهوياتنا الممكنة. انتهى.

وقال البقلي: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾؛ أو: لم يكن هو محل الحوادث ولاالحوادث محله، والتصريح بأنه لم يولد مع كونهم معترفين بمضمونه، لتقرير ما قبله، وتحقيقه بالإشارة إلى أنهما متلازمان؛ إذ المعهود أن ما يلد يولد ومالا فلا، ومن قضية الاعتراف بأنه لم يولد، الاعتراف بأنه لا يلد، وفي «كشف الأسرار»: قدم ذكر ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ لأن من الكفار من ادعى أن له ولداً، ولم يدع أحد أنه مولود، وقال أبو الليث: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ يعني: لم يكن له ولد يرثه ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ يعني لم يكن له والد يرث ملكه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كُفُوًا﴾؛ أي: مماثلاً في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿أَحَدٌۢ﴾ من المخلوقات، وقوله: ﴿لَّهُۥ﴾ صلة لـ﴿كُفُوًا﴾ قدمت عليه مع أن حقها التأخر عنه للاهتمام بها؛ لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى؛ أي: لم يكافئه ولم يماثله ولم يشاكله، بل هو خالق الأكفاء، ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح نفياً للصاحبة، وأما تأخير اسم كان فلمراعاة الفواصل، وهذه[2] الجملة مقررة لمضمون ما قبلها؛ لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد، ولا يماثله ولا يشاركه في شيء، ولعل ربط هذه الجمل الثلاث بالعاطف؛ لأن المراد منها نفي أقسام الأمثال، فهي جملة واحدة منبه عليها بالجمل؛ أي: فهو[3] تعالى الأول الذي لم

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) الخازن.

يتقدمه والد كان عنه، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه، ومن كان كذلك فهو الذي لم يكن له كفواً أحد؛ أي: ليس له من خلقه مثل ولا نظير ولا شبيه، فنفى عنه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ العديل والنظير والصاحبة والولد، واعلم أن الكفؤ يعم الشبيه والنظير والمثيل، فالمثيل هو المشارك لك في جميع صفاتك، والشبيه هو المشارك في غالبها، والنظير هو المشارك في أقلها، والله منزه عن ذلك كله.

وأخرج البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي، فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كُفُوًا﴾ - بضم الكاف والفاء وتسهيل الهمزة - وقرأ الأعوج وسيبويه ونافع في رواية عنه بإسكان الفاء، وروي ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واواً وصلاً ووقفاً، وقرأ نافع في رواية عنه: ﴿كفأ﴾ بكسر الكاف وفتح الفاء من غير مد، وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس كذلك؛ أي: بكسر الكاف وفتح الفاء، كقول النابغة:

لاَ تَـقْـذِفَـنِّـيْ بِـرُكْـنٍ لاَ كِـفَـاءَ لَـهُ

والخلاصة[2]: أنّ السورة تضمنت نفي الشرك بجميع أنواعه، فقد نفى الله سبحانه عن نفسه أنواع الكثرة بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ونفى عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ ونفى عن نفسه المجانسة والمشابهة لشيء بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ونفى عن نفسه الحدوث والأولية بقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

الإعراب

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ﴾: ضمير الشأن تفسره الجملة المذكورة بعده في محل الرفع مبتدأ أول. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ثان. ﴿أَحَدٌ﴾: خبره، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر الأول، وجملة الأول في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، أو هو ضمير عائد على المسؤول عنه المعلوم من السياق في محل الرفع مبتدأ. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبره، أو خبر ثان له، أو بدل من الجلالة، وإن شئت قلت: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة مقول محكي لـ﴿قل﴾. ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، وترك العطف هنا؛ لأن هذه الجملة مؤكِّدة ومقررة لما قبلها، وكذلك ترك العطف في قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ لأنه مؤكد للصمدية؛ لأن الغني عن كل شيء المحتاج إليه كل ما سواه لا يكون والداً ولا مولوداً. ﴿لَمْ يَلِدْ﴾: جازم وفعل معلوم مجزوم وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ مؤكدة لما قبلها. ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾: جازم وفعل مضارع مجهول مجزوم، ونائب فاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ معطوف على ﴿لَمْ يَلِدْ﴾. ﴿وَلَمْ يَكُن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَمْ يَكُن﴾: جازم وفعل ناقص مجزوم معطوف على ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أيضاً. ﴿لَّهُۥ﴾ متعلق بـ﴿كُفُوًا﴾ أو حال منه، وقدم عليه للاهتمام به؛ إذ فيه ضمير الباري سبحانه. ﴿كُفُوًا﴾: خبر ﴿يَكُن﴾ مقدم على اسمها لمراعاة الفواصل. ﴿أَحَدٌ﴾: اسمها مؤخر عن خبرها، وهناك أقوال متلاطمة في إعراب هذه الجملة لا طائل تحتها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ أي: فرد في ذاته وصفاته لا يتجزأ، وهمزة ﴿أَحَدٌ﴾ بدل من واو؛ لأنه من الوحدة، وإبدال الهمزة من الواو المفتوحة قليل، وتقدم الفرق بين أحد هذا، وأحد المراد به العموم، فإن همزة ذاك أصل بنفسها، ونقل أبو البقاء أن همزة ﴿أَحَدٌ﴾ هنا غير مقلوبة، بل أصل بنفسها، كأحد المراد به العموم والمعروف الأول، وقال مكي: إن أحداً أصله: واحد، فأُبدلت الواو

همزة، فاجتمع ألفان؛ لأن الهمزة تشبه الألف، فحُذفت إحداهما تخفيفاً. فإن قلت: كيف ذُكر ﴿أَحَدٌ﴾ في الإثبات مع أن المشهور أنه يُستعمل بعد النفي، كما أن الواحد لا يُستعمل إلا بعد الإثبات، يقال في الدار واحد، وما في الدار أحد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، وقوله: ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾، وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾.

فالجواب: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إنه لا فرق بينهما في المعنى، واختاره أبو عبيدة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ﴾ وعليه فلا يختص أحدهما بمحل دون آخر، وإن اشتهر أحدهما استعمالاً في النفي، والآخر في الإثبات، ويجوز أن يكون العدول هنا عن المشهور رعاية للفاصلة بعد، فدل بقوله: ﴿اللَّهُ﴾ على صفات الكمال، وبالأحد على صفات الجلال اهـ «كرخي».

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾؛ أي: المصمود المقصود في الحوائج، فهو فَعَل بمعنى مفعول، كالقَبَض بمعنى المقبوض، والنَّقَض بمعنى المنقوض، وإنما عرّفه بإدخال أل عليه دون ﴿أَحَدٌ﴾؛ لعلمهم بصمديته بخلاف أحديته، وتكرير لفظ ﴿الله﴾؛ للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحق الألوهية، وإنما خلت هذه الجملة من العاطف؛ لأنها كالنتيجة للأولى؛ أي: كالدليل عليها اهـ «البيضاوي».

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ من ولد يلد ـ من باب وعد يعد ـ أصله يَوْلِد بفتح الياء وكسر اللام؛ لأنه معلوم فحذفوا الواو؛ لوقوعها بين عدوتيها الياء والكسرة.

﴿كُفُوًا﴾ بوزن فعل، وكفيئاً على وزن فعيل، وكفاء على وزن فعال بمعنى واحد، والكفء المثل والنظير، وقال أبو حيان بضم الكاف وكسرها وفتحها مع سكون الفاء وبضم الكاف مع ضم الفاء، يقال: هذا كفاؤه وكفؤه بمعنى مثله، وكافأ فلاناً إذا ماثل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تصدير الجملة بضمير الشأن في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ للتنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها مع أن في الإبهام ثم التفسير مزيد تقرير لمدلولها.

ومنها: تعريف الطرفين في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾؛ لإفادة التخصيص.

ومنها: الفصل - أي - ترك العطف في جملة قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ إشعاراً بأنها مقرِّرة مؤكدة لما قبلها، وكذلك ترك العطف في قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ لأنه مؤكد لمعنى الصمدية كما مر، وقد أشار صاحب «الجوهر المكنون» إلى مواضع الفصل بقوله:

ٱلْفَصْلُ تَرْكُ عَطْفِ جُمْلَةٍ أَتَتْ ... مِنْ بَعْدِ أُخْرَىٰ عَكْسَ وَصْلٍ قَدْ ثَبَتْ

فَٱفْصِلْ لَدَىٰ ٱلتَّوْكِيْدِ وَٱلإِبْدَالِ ... لِنُكْتَةٍ وَنِيَّةِ ٱلسُّؤَالِ

وَعَدَمِ ٱلتَّشْرِيْكِ فِيْ حُكْمٍ جَرَىٰ ... أَوِ ٱخْتِلَافٍ طَلَباً وَخَبَرَا

وَفَقْدِ جَامِعٍ وَمَعْ إِيْهَامِ ... عَطْفٍ سِوَىٰ ٱلْمَقْصُوْدِ فِيْ ٱلْكَلَامِ

ومنها: الوصل بين الجمل الثلاث الأخيرة أعني قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾؛ لأنها سيقت لغرض، ومعنى واحد وهو نفي المماثلة والمجانسة عنه تعالى بوجه من الوجوه، كما قال الأخضري في الجوهر المكنون:

وَصِلْ لَدَىٰ ٱلتَّشْرِيْكِ فِيْ ٱلإِعْرَابِ ... وَقَصْدِ رَفْعِ ٱللَّبْسِ فِيْ ٱلْجَوَابِ

وَفِيْ ٱتِّفَاقٍ مَعَ ٱلاتِّصَالِ ... فِيْ عَقْلٍ أَوْ فِيْ وَهْمٍ أَوْ خَيَالِ

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾؛ لتغير الشكل وبعض الحروف.

ومنها: تكرير لفظ الجلالة في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحق الألوهية.

ومنها: تقديم صلة ﴿كُفُوًا﴾ أعني الجار والمجرور في قوله: ﴿لَّهُۥ﴾ عليه؛ للاهتمام بها؛ لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى؛ أي: لم يكافئه أحد ولم يماثله ولم يشاكله.

ومنها: تأخير اسم كان عن خبرها في قوله: ﴿كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾؛ لمراعاة الفواصل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

* * *

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الإخلاص بعون الله وتوفيقه أوائل ليلة السبت المبارك الليلة السادسة من شهر الله صفر المبارك من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين. آمين.

سورة الفلق

سورة الفلق نزلت بعد سورة الفيل، وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة، وهذا أصح كما في «الخازن»، ويؤيده سبب النزول، فإنه كان بالمدينة ولم يظهر للقول بأنها مكية وجه اهـ «صاوي».

وهي: خمس آيات، وعشرون كلمة، وأربعة وسبعون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها[1]: أنه تعالى لما بيَّن أمر الألوهية في السورة التي قبلها.. بيَّن هنا ما يُستعاذ منه بالله تعالى؛ لأنه لا ملجأ سواه، وسميت سورة الفلق؛ لذكر الفلق فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله ـ: سورة الفلق كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: وورد في فضل هذه السورة والتي بعدها أحاديث:

منها: قوله ﷺ: «لقد أنزلت علي سورتان ما أنزل مثلهما، وأنه لن يقرأ أحد أحبَّ ولا أرضى عند الله تعالى منهما». يعني المعوذتين، وقوله: «ما أنزل مثلهما»؛ أي: في التحصن، والتعوذ.

ومنها: ما أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت عليَّ الليلةَ آيات لم أر مثلهن قط ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾».

ومنها: ما أخرجه ابن الضريس وابن الأنباري والحاكم وصححه وابن مردويه في «الشعب» عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله أقرئني سورة يوسف وسورة هود، قال: «يا عقبة اقرأ بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ فإنك لن تقرأ سورة

---

(١) الصاوي.

أحب إلى الله وأبلغ منها، فإذا استطعت أن لا تفوتك فافعل».

ومنها: ما أخرجه ابن سعد والنسائي والبغوي والبيهقي عن أبي حابس الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا حابس أخبرك بأفضل ما تعوّذ به المتعوذون» قال: بلى يا رسول الله قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ هما المعوِّذتان».

ومنها: ما أخرجه الترمذي وحسنه وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: (كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين العرب ومن عين الإنس، فلما نزلت سورة المعوذتين أخذ بهما وترك ما سوى ذلك).

ومنها: ما أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ كان يكره عشر خصال ومنها أنه كان يكره الرقىٰ إلا بالمعوذتين.

ومنها: ما أخرجه ابن مردويه عن أم سلمة قالت: قال رسول الله: «مِن أحَبِّ السور إلى الله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾».

ومنها: ما أخرجه النسائي وابن الضريس وابن حبان في «صحيحه» وابن الأنباري وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: أخذ بمنكبي رسولُ الله ﷺ، ثم قال: ««اقرأ» قلت: ما أقرأ بأبي أنت وأمي، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، ثم قال: «اقرأ» قلت: بأبي أنت وأمي ما أقرأ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، ولم تقرأ بمثلهما».

ومنها: ما أخرجه مالك في «الموطأ» عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة (أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتهما)، وأخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من طريق مالك بالإسناد المذكور.

ومنها: ما أخرجه عبد بن حميد في «مسنده» عن زيد بن أرقم قال: سَحَرَ النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود، فاشتكى، فأتاه جبريل، فنزل عليه بالمعوذتين، وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان، فأرسل علياً فجاء، فأمره أن يحل العُقَد ويقرأ آية ويحل حتى قام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال.

وأخرجه ابن مردويه والبيهقي من حديث عائشة مطولاً، وكذلك أخرجه ابن

مردويه من حديث ابن عباس، وقد ورد في فضل المعوذتين وفي قراءة رسول الله لهما في الصلاة أحاديث، وفيما ذكرنا كفاية.

وما روي عن ابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين في المصحف يقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه، إنهما ليستا من كتاب الله، إنما أُمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما، قال البزار: لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قرأ بهما في الصلاة، وقد أثبتتا في المصحف.

وأخرج الطبراني في «الصغير» عن علي بن أبي طالب قال: لدغت النبي ﷺ عقرب وهو يصلي، فلما فرغ قال: «لعن الله العقرب لا تدع مصلياً ولا غيره، ثم دعا بماء وملح، وجعل يمسح عليها ويقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾»، وسميت سورة الفلق لذكر الفلق فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم؛ سورة الفلق كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

أسباب النزول

سبب نزول المعوذتين: ما روي من قصة سحر لبيد بن الأعصم اليهودي رسولَ الله ﷺ قال ابن عباس وعائشة: كان غلام من اليهود يخدم النبي ﷺ، فدبت إليه اليهود، فلم يزالوا به حتى أخذ من مشاطة رأس رسول الله ﷺ وعدة من أسنان مشطه، فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود، فنزلت السورتان فيه.

فإن قلت: كيف يؤثر السحر فيه ﷺ مع أنه معصوم بنص ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؟

أجيب: بأن المعصوم منه ما أدى إلى خبل في عقله أو إلى ضياع شرعه أو إلى موته، وأما ما عدا ذلك فهو من الأعراض البشرية الجائزة في حقه، كما أن جرحه وكسر رباعيته لا يقدح في عصمته.

وأخرج الشيخان عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ: سُحِر حتى كان يخيل إليه أنه يصنع الشيء ولم يصنع، وفي رواية أنه يخيل إليه فعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه، ثم قال: «أشعَرْتِ يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته»؟ قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومَن طَبَّهُ؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق، قال: فيم ذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذروان»، ومن الرواة من قال: في بئر زريق، فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة، فقال: «والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين» قلت: يا رسول الله

فأَخرِجْه، قال: «أما أنا فقد عافاني الله وشفاني وخفت أن أثير على الناس منه شراً»، وفي رواية للبخاري أنه كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن.

قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك، وكانت مدة سحره ﷺ أربعين يوماً، وقيل: ستة أشهر، وقيل: عاماً، قاله ابن حجر وهو المعتمد، وعن زيد بن أرقم قال: سحر رجل من اليهود النبي ﷺ، فاشتكى ذلك أياماً، فأتاه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك وعقد لك عُقَداً في بئر كذا فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها، فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام رسول الله ﷺ كأنما نُشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجه قط أخرجه النسائي، وروي أنه كان تحت صخرة في البئر، فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة، فإذا فيه مشاطة من رأسه ﷺ وأسنان من مشطه، وقيل: كان في وتر عقد عليه إحدى عشرة عقدة، وقيل: كان مغروزاً بالإبر، فأنزل الله هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية، سورة الفلق خمس آيات، وسورة الناس ست آيات، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما نُشط من عقال، وروي أنه لبث ستة أشهر واشتد عليه ذلك ثلاث ليال، فنزلت المعوذتان.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَعُوذُ﴾؛ أي: أستعيذ وألتجىء وأتحصن وأتحفظ ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾؛ أي: بمالك الصبح أو الخلق، أو هو واد في جهنم أو جُبٌّ فيها، وقيل غير ذلك كما سيأتي، والأول أولى؛ أي: قل أستعيذ برب المخلوقات ومبدع الكائنات ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾؛ أي: من كل ضرر وأذى يصيبني من مخلوقاته طراً.

وعبارة «الروح»: والفلق[1]: الصبح؛ لأنه يفلق عنه الليل ويفرق، فهو من باب الحذف والإيصال، فهو فَعَل بمعنى مفعول كالصمد والقَبَض بمعنى المصمود إليه والمقبوض، كما مر، فإن كل واحد من المفلوق والمفلوق عنه مفعول، وذلك

---

(١) روح البيان.

إنما يتحقق بأن يكون الشيء مستوراً ومحجوباً بآخر، ثم يشقق الحجاب الساتر عن وجه المستور، ويزول فيظهر ذلك المستور وينكشف بسبب زواله، وذلك الحجاب المشقق مفلوق، والمحجوب المنكشف عنه بزواله مفلوق عنه، والصبح صار مفلوقاً عنه بإزالة ما عليه من ظلمة الليل، يقال: في المثل هو أبين من فلق الصبح؛ أي: من الصبح المفلوق عنه؛ أي: المشقوق عنه ظلمة الليل؛ أي: المزال عنه.

وخص[1] الفلق بالذكر؛ لأنه وقت دعاء المضطرين وإجابة الملهوفين، فكأنه يقول: قل أعوذ برب الوقت الذي يفرج فيه عن كل مهموم، ولأنه أنموذج من يوم القيامة؛ لأن الخلق كالأموات والدور كالقبور، ثم منهم من يخرج عن داره مفلساً عرياناً، ومنهم من كان مديوناً فيجر إلى الحبس، ومنهم من كان ملكاً مطاعاً فتقدم إليه المراكب ويقوم الناس بين يديه، وكذا في يوم القيامة بعضهم مفلس عن الثواب عار عن لباس التقوى، فيجر إلى الملك الجبار، وبعضهم كان مطيعاً لربه في الدنيا فصار ملكاً مطاعاً في العقبى يقدم إليه البراق.

وقيل الفلق[2]: الخلق؛ لأن الممكنات بأسرها كانت أعياناً ثابتة في علم الله مستورة تحت ظلمة العدم، فالله تعالى فلق تلك الظلمات بنون التكوين والإيجاد، فأظهر ما في علمه من المكونات، فصارت مفلوقاً عنها.

وقيل[3]: الفلق سجن جهنم، أو واد أو جُبٌّ فيها، روي عن بعض الصحابة أنه قدم الشام، فرأى دور أهل الذمة وما هم فيه من خصب العيش، فقال: لا أبالي أليس من ورائهم الفلق؟، فقيل له: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا افتتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، وإنما خصه بالذكر هٰهنا؛ لأنه القادر على مثل هذا التعذيب، وقد ثبت أن رحمته تعالى أعظم من عذابه، فكأنه يقول: يا صاحب العذاب الشديد أعوذ برحمتك التي هي أعظم وأقدم من عذابك، وقيل: اسم شجرة في جهنم، وقيل: هو الجبال والصخور؛ لأنها تفلق بالمياه؛ أي: تشقق، وقيل: هو التفليق بين الجبال؛ لأنها تنشق من خوف الله، قال النحاس: يقال لكل ما اطمأن من الأرض فلق، قال الرازي: وأقرب التأويلات أن الفلق هو كل ما يفلقه الله تعالى، كالأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن الأمطار،

---

(١) المراح. (٢) روح البيان. (٣) المراح.

والأرحام عن الأولاد، والبيض عن الفرخ، والقلوب عن المعارف، وكأنه تعالى قال: قل أعوذ برب جميع الممكنات ويمكوِّن المحدَثات، فيكون التعظيم فيه أعظم، ويكون الصبح وجُبُّ النار وغيرهما أحد الأمور الداخلة في هذا المعنى انتهى. والقول[1] الأول أولى؛ لأن المعنى وإن كان أعم منه وأوسع مما تضمنه، لكنه المتبادر عند الإطلاق، وقد قيل في وجه تخصيص الفلق الإيماء إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة من كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه ويخشاه، وقيل: طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج، فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح، كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح، وقيل غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير.

وفي تعليق[2] العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق المنبىء عن النور عقيب الظلمة والسعة بعد الضيق والفتق بعد الرتق عِدَة كريمة بإعاذة العائذ مما يعوذ منه وإنجائه منه وتقوية لرجائه بتذكير بعض نظائره، ومزيد ترغيب له في الجد، والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه والإعاذة بربه.

قالوا: إذا طلع الصبح تتبدل الثقلة بالخفة والغم بالسرور، روي أن يوسف عليه السلام لما ألقي في الجب وجعت ركبته وجعاً شديداً، فبات ليلته ساهراً، فلما قرب طلوع الصبح نزل جبريل بإذن الله تعالى يسأله ويأمره بأن يدعو ربه، فقال: يا جبريل أدع أنت وأؤمن، فدعا جبريل وأمَّن يوسف عليهما السلام، فكشف الله تعالى ما كان به من الضر، فلما طاب وقت يوسف قال: يا جبريل وأنا أدعو أيضاً وتؤمِّن أنت، فسأل يوسف ربه أن يكشف الضر عن جميع أهل البلاء في ذلك الوقت، فلا جَرَم ما من مريض إلا ويجد نوع خفة في آخر الليل.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ أي: من شر وضرر ما خلقه من الثقلين وغيرهما كائناً ما كان من ذوات الطبائع والاختيار من إنس وجن وسباع وهوام، فيشمل جميع الشرور والمضار بدنية كانت أو غيرها من ضرب وقتل وشتم وعض ولدغ وسحر ونحوها.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

والجار والمجرور متعلق[1] بـ﴿أَعُوذُ﴾؛ أي: أعوذ برب الصبح من شر ما خلقه كائناً ما كان من جميع مخلوقاته فيعم جميع الشرور، وقيل: هو إبليس وذريته، وقيل: جهنم، ولا وجه لهذا التخصيص، كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية، وقد حرَّف بعض المتعصبين من المعتزلة القائلين بأن الله لم يخلق الشر هذه الآية مدافعة عن مذهبه وتقويماً لباطله، فقرؤوا بتنوين ﴿شرٍ﴾ على أن ﴿مَا﴾ نافية، والمعنى: من شر لم يخلقه، ومنهم عمرو بن عبيد وعمرو بن عائذ، وعبارة أبي حيان هنا: وقرأ الجمهور[2]: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ بإضافة ﴿شَرِّ﴾ إلى ﴿مَا﴾ و﴿مَا﴾ عام يدخل فيه جميع من يوجد منه الشر من حيوان مكلف وغير مكلف، وجماد، كالإحراق بالنار والإغراق بالبحر والقتل بالسم، وقرأ عمرو بن عائذ: ﴿من شرٍّ﴾ بالتنوين، وقال ابن عطية وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالى لم يخلق الشر ﴿من شرٍّ﴾ بالتنوين ﴿مَا خَلَقَ﴾ على النفي، وهي قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل، فالله خلق كل شيء، ولهذه القراءة وجه غير النفي، فلا ينبغي أن ترد، وهو أن يكون ﴿مَا خَلَقَ﴾ بدلاً من ﴿شَرِّ﴾ على تقدير محذوف؛ أي: من شر شر ما خلق، فحذف لدلالة شر الأول عليه، أطلق أولاً ثم عمم ثانياً. انتهى.

والخلاصة: أي أعوذ برب الفلق من شر كل ذي شر خَلَقَه الرب من إبليس ومن جهنم، ومن أصناف الحيوانات المؤذيات كالسباع والهوام وغيرهما.

ثم خصص من بعض ما خلق أصنافاً يكثر وقوع الأذى منهم، فطلب إليه التعوذ من شرهم ودفع أذاهم، وهم ما ذكره بقوله:

١ - ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾؛ أي: ومن شر ليل مختلط ظلامه شديدة ظلمته، وتنكيره لعدم شمول الشر لجميع أفراده ولا لكل أجزائه، ﴿إِذَا وَقَبَ﴾؛ أي: إذا دخل ظلامه في كل شيء بغيبوبة الشفق.

وهذا تخصيص[3] لبعض الشرور بالذكر مع اندراجه فيما قبله؛ لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه لكثرة وقوعه، ولأن تعيين المستعاذ أدل على الاعتناء

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

بالاستعاذة، وأدعى إلى الإعاذة؛ أي: من شر ليل مختلط ظلامه مشتد، وذلك بعد غيبوبة الشفق، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: اجتماع ظلمته، وفي «القاموس»: الغَسَق - محركة - أول الليل، وغسق الليل غسقاً، ويحرك اشتدت ظلمته، فالغاسق الليل المظلم، كما في «المفردات»، وأصل الغسق الامتلاء، يقال: غسقت العين إذا امتلأت دمعاً أو السيلان، وغسق العين سيلان دمعها، وإضافة الشر إلى الليل لملابسته له بحدوثه فيه ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ الوقب: النقرة في الشيء كالنقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء، ووقب إذا دخل في وقب، ووقبت الشمس إذا غابت، ووقب الظلام إذا دخل، والمعنى: ومن كل شر واقع في الليل وقت دخول ظلامه وتقييده به؛ لأن حدوث الشر فيه أكثر، والتحرز منه أصعب وأعسر، ولذلك قيل: الليل أخفى للويل، وقيل: أغدر الليل؛ لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر والغوث يقل في الليل، ولذا لو شهر إنسان بالليل سلاحاً فقتله المشهر عليه لا يلزمه قصاص، ولو كان نهاراً يلزمه؛ لأنه يوجد فيه الغوث.

والحاصل: أنه ينبعث أهل الحرب في الليل، وتخرج فيه عفاريت الجن والهوام والسباع وجميع المؤذيات، ونهى رسول الله ﷺ من السير في الليل، وأمر بتغطية الأواني وإغلاق الأبواب وإيكاء الأسقية وضم الصبيان، وكل ذلك للحذر من الشر والبلاء، وقيل: الغاسق القمر إذا امتلأ نوراً، ووقوبه امتلاؤه نوراً أو خسوفه واسوداده؛ لما رواه أحمد والترمذي وابن جرير عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فأشار إلى القمر، فقال: «تعوذي بالله من شر هذا، فإنه الغاسق إذا وقب»، وقال الترمذي حسن صحيح، وشره الذي يتقىٰ منه ما يكون في الأبدان، كالآفات التي تحدث بسببه، ويكون في الأديان كالفتنة التي بها افتتن من عبده وعبد الشمس، وقيل: التعبير عن القمر بالغاسق؛ لأن جرمه مظلم، وإنما يستنير بضوء الشمس، وقيل: وقوبه محاقه في آخر الشهر، والمنجمون يعدونه نحساً، ولذلك[1] لا تشتغل السحرة بالسحر المورث للتمريض إلا في ذلك. قيل: وهو المناسب لسبب النزول، : وقيل: الغاسق الثريا، ووقوبها سقوطها؛ لأنها إذا سقطت كثرت الأمراض والطواعين، وإذا طلعت قلَّت الأمراض والآلام، وقيل: هو

---

(١) روح البيان.

كل شر يعتري الإنسان، ووقوبه هجومه، ويجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات، ووقبه ضربه ولسعه، وفي «القاموس»: الغاسق هو الذكر من الحيات إذا قام، وهو منقول عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ وجماعة، والقول الأول أولى، والمعنى عليه؛ أي: ومن شر الليل إذا دخل وغمر كل شيء بظلامه، والليل إذا كان على تلك الحال كان مخوفاً باعثاً على الرهبة إلى أنه ستار يختفي في ظلامه ذوو الإجرام إذا قصدوك بالأذى إلى أنه عون لأعدائك عليك.

٢ ـ ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾؛ أي: ومن شر النساء أو النفوس السواحر اللاتي ينفثن وينفخن ﴿فِى ٱلْعُقَدِ﴾؛ أي: في عقد الوتر أو الحبال عند القراءة على تلك العقد؛ ليسحرن بها، جمع نفاثة بالتشديد، صيغة مبالغة يراد منها تكرار الفعل والاحتراف به من النفث، وهو شبه النفخ يكون في الرقية ولا ريق معه، فإن كان معه ريق فهو التفل، يقال منه نفث الراقي ينفُث ـ بالضم ـ وينفِث بالكسر إذا نفخ على المريض بعد القراءة عليه، والعُقَد جمع عقدة، وهي ما يعقده الساحر ويربطه ويمسكه على وتر ـ بفتحتين ـ القوس، أو حبل أو شعر، وهو ينفث عليه ويرقي، وأصله من العزيمة، ولذلك يقال: لها عزيمة، كما يقال: لها عقدة، ومنه قيل للساحر معقد.

والمعنى: وأعوذ بالله من شر النفوس، أو النساء السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن في عقدة الخيط حين يرقين عليها، وتعريفها[1] إما للعهد، أو للإيذان بشمول الشر لجميع أفرادهن وتمحضهن فيه، وقيل: المراد بالنفاثات بنات لبيد بن الأعصم اللاتي سحرن النبي ﷺ؛ لما روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعائشة ـ رضي الله عنها ـ أنه كان غلام من اليهود يخدم النبي ﷺ، وكان عنده أسنان من مشطه ﷺ، فأعطاها اليهود فسحروه ﷺ فيها، ولذا ينبغي أن يقطع بعد التقليم، وكذا الشعر إذا أُسقط من اللحية، والرأس نصفين أو أكثر؛ لئلا يسحر به أحد، وتولاه لبيد بن الأعصم اليهودي وبناته وهن النفاثات في العقد، فدفنها في بئر أريس، وفي «عين المعاني»: في بئر لبني زريق تسمى ذروان، فمرض النبي ﷺ، روي أنه لبث فيه ستة أشهر، فنزل جبريل بالمعوِّذتين ـ بكسر الواو ـ كما في

(١) روح البيان.

«القاموس»، وأخبره بموضع السحر وبمن سحره وبم سحره، فأرسل النبي ﷺ علياً والزبير وعماراً ـ رضي الله عنهم ـ فنزحوا ماء البئر، فكأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا راعونة البئر، وهي الصخرة التي توضع في أسفل البئر، فأخرجوا من تحتها الأسنان، ومعها وتر قد عقد فيه أحد عشرة عقدة مغرزة بالإبر، فجاؤوا بها النبي ﷺ، فجعل يقرأ المعوذتين عليها، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد عليه السلام خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين، كأنما نشط من عقال، وجعل جبريل عليه السلام يقول: بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل شيء يؤذيك من عين وحاسد، فلذا جوِّز[1] الاسترقاء بما كان من كلام الله تعالى وكلام رسوله، لا بما كان بالعبرانية أو السريانية والهندية أو التركية أو غير ذلك من صنوف اللغات، فإنه لا يحل اعتقادُه والاسترقاءُ به، فقالوا: يا رسول الله أفلا نقتل الخبيث؟ فقال ﷺ: «أما أنا فقد عافاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً» قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما غضب رسول الله ﷺ قط لنفسه ولا انتقم إلا أن يكون شيئاً هو لله، فيغضب لله وينتقم.

والنفث[2]: النفخ مع ريق قليل، وقيل: إنه النفخ فقط، واختلفوا في جواز النفث في الرُّقىٰ والتعاويذ الشرعية المستحبة، فجوَّزه الجمهور من الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم، ويدل على ذلك حديث عائشة في «الصحيحين» وغيرهما قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات) الحديث، وأنكر جماعة التفل والنفث في الرقى، وأجازوا النفخ بلا ريق، قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد، وقيل: النفث في العقد إنما يكون مذموماً إذا كان سحراً مضراً بالأرواح والأبدان، وإذا كان النفث لإصلاح الأرواح والأبدان.. وجب أن لا يكون مذموماً ولا مكروهاً، بل هو مندوب إليه، ذكره في «الخازن»، وهذا الذي ذكرناه في معنى الآية هو التفسير الصحيح، وقيل: المراد[3] بالنفث في العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تليين العقدة بنفث الريق عليها؛ ليسهل حلها، فالمعنى على هذا أعوذ برب الفلق من شر النساء النفاثات؛ أي: اللاتي شأنهن أن يغلبن على الرجال، ويحولنهم عن آرائهم، ويصرفنهم عنها بأنواع المكر

(١) روح البيان. (٢) الخازن. (٣) روح البيان.

والحيلة، فمعنى الآية إن النساء لاستقرار حبهن في قلوب الرجال يتصرفن فيهم ويحولنهم من رأي إلى رأي، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتعوذ من شرهن.

وقيل المعنى(١): أعوذ برب الفلق من شر النمامات والنمامين الذين يقطعون روابط المحبة، ويبددون شمل المودة، وقد شبه عملهم بالنفث، وشبهت رابطة الوداد بالعقدة، والعرب تسمي الارتباط الوثيق بين شيئين عقدة، كما سمي الارتباط بين الزوجين عقدة النكاح.

فالنميمة تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بالوسائل الخفية التي تشبه أن تكون ضرباً من السحر، ويصعب الاحتياط والتحفظ منها، فالنمام يأتي لك بكلام يشبه الصدق، فيصعب عليك تكذيبه، كما يفعل الساحر المشعوذ إذا أراد أن يحل عقدة المحبة بين المرء وزوجه؛ إذ يقول كلاماً ويعقد عقدة وينفث فيها، ثم يحلها إيهاماً للعامة أن هذا حل للعقدة التي بين الزوجين، وهذا المعنى والذي قبله يخالف ما ورد في سبب نزول السورتين، كما أشرنا إليه آنفاً.

وقرأ الجمهور(٢): ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ - بفتح النون - جمع نفاثة على صيغة المبالغة، وقرأ الحسن بضم النون، وقرأ عيسى بن عمر ويعقوب في رواية، وعبد الرحمٰن بن ساباط وعبد الله بن القاسم والحسن أيضاً ﴿النافثات﴾ جمع نافثة، وقرأ أبو الربيع والحسن أيضاً ﴿النَّفِثات﴾ بغير ألف نحو الحذرات.

فصل

واعلم(٣): أن السحر تخيل لا أصل له عند المعتزلة، وعند الشافعي: تمريض بما يتصل به، كما يخرج من فم المتثائب ويؤثر في المقابل، وعند الحنفية: سرعة الحركة ولطافة الفعل فيما خفي فهمه، وقيل: طلسم يبنى على تأثير خصائص الكواكب، كتأثير الشمس في زئبق عصا سحرة فرعون، والمعتزلة أنكروا صحة رواية الأحاديث المذكورة، وتأثير السحر في النبي ﷺ، وقالوا: كيف يمكن القول بصحتها؟ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، وقال: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾، ولأن تجويزه يفضي إلى القدح في النبوة، ولأن الكفار كانوا

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) البحر المحيط.

يعيرونه بأنه مسحور، فلو وقعت هذه الواقعة.. لكان الكفار صادقين في تلك الدعوى، ولحصل ذكرالعيب في النبي ﷺ، ومعلوم أن ذلك غير جائز، وقال أهل السنة: صحة القصة لا تستلزم صدق الكفرة في قولهم: إنه مسحور، وذلك لأنهم كانوا يريدون بكونه مسحوراً أنه مجنون أزيل عقله بسبب السحر، فلذلك ترك دين آبائه، فأما أن يكون مسحوراً بألم يجده في بدنه، فذلك مما لا ينكره أحد.

وبالجملة: فالله تعالى ما كان يسلط لا شيطاناً ولا إنسياً ولا جنياً يؤذيه فيما يتعلق بنبوته وعقله، وأما الإضرار من حيث بشريته وبدنه فلا بُعد فيه، وتأثير السحر فيه ﷺ لم يكن من حيث إنه نبي، وإنما كان في بدنه من حيث إنه إنسان وبشر، فإنه ﷺ يعرض له من حيث بشريته ما يعرض لسائر البشر من الصحة والمرض والموت والأكل والشرب ودفع الفضلات، وتأثير السحر فيه من حيث بشريته لا يقدح في نبوته، وإنما يكون قادحاً فيها لو وُجد للسحر تأثير في أمر يرجع إلى النبوة، ولم يوجد ذلك، كيف؟! والله تعالى يعصمه من أن يضره أحد فيما يرجع إليها، كما لم يقدح كسر رباعيته يوم أحد فيما ضمن الله له من عصمته في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾. وفي «كشف الأسرار»: فإن قيل: ما الحكمة في نفوذ السحر وغلبته في النبي ﷺ، ولماذا لم يرد الله كيد الكائد إلى نحره بإبطال مكره وسحره؟.

قلنا: الحكمة فيه الدلالة على صدق رسول الله ﷺ وصحة معجزاته، وكذب من نسبه إلى السحر والكهانة؛ لأن سحر الساحر عمل فيه حتى التبس عليه بعض الأمر، واعتراه أنواع من الوجع، ولم يعلم النبي ﷺ بذلك حتى دعا ربه، ثم دعا، فأجابه الله وبين أمره، ولو كان ما يظهر من المعجزات الخارقة للعادات من باب السحر على ما زعم أعداؤه لم يشتبه عليه ما عُمل من السحر فيه، ولتوصل إلى دفعه من عنده، وهذا بحمد الله تعالى من أقوى البراهين على نبوته، وإنما أخبر النبي ﷺ عائشة ـ رضي الله عنها ـ من بين نسائه بما كشف الله تعالى له من أمر السحر؛ لأنه ﷺ كان مأخوذاً من عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهذا السحر على ما روى يحيى بن يعمر قال: حُبس رسول الله ﷺ عن عائشة، فبينما هو نائم أو بين النوم واليقظة إذ أتاه ملكان جلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فهذا يقول للذي عند رأسه ما شكواه؟ قال: السحر، قال: من فعل به؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي، قال: فأين صنع السحر؟ قال: في بئر كذا، قال: فما دواؤه؟ قال: ينبعث إلى تلك البئر،

فينزح ماءها، فإنه ينتهي إلى صخرة رآها، فليقلعها، فإن تحتها كوبة؛ أي: كوزاً سقط عنقها، وفي الكوبة وتر فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر، فيحرقها بالنار فيبرأ إن شاء الله تعالى، فاستيقظ ﷺ وقد فهم ما قالا: فبعث علياً ـ رضي الله تعالى عنه ـ إلى آخر ما تقدم.

٣ ـ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ بالوقف، ثم يكبر؛ لأن الوصل لا يخلو من الإيهام؛ أي: وقل يا محمد أعوذ برب الفلق من شر كل حاسد إذا أظهر ما في نفسه من الحسد، وعمل بمقتضاه ترتيب مقدمات الشر ومبادي الإضرار بالمحسود قولاً أو فعلاً، والتقييد(١) بذلك لما أن ضرر الحسد قبله إنما يحيق ويضر بالحاسد لاغتمامه بنعمة المحسود، قال عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد، ونظم الشاعر هذا المعنى، فقال:

قُلْ لِلْحَسُوْدِ إِذَا تَنَفَّسَ طَعْنَةً ... يَا ظَالِمَاً وَكَأَنَّهُ مَظْلُوْمُ

وفي هذا المعنى قال بعضهم أيضاً:

أَلاَ قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِيْ حَاسِدَاً ... أَتَدْرِيْ عَلَىٰ مَنْ أَسَأْتَ ٱلأَدَبْ
أَسَأْتَ عَلَىٰ ٱللَّهِ فِيْ فِعْلِهِ ... لأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِيْ مَا وَهَبْ
فَكَانَ جَزَاؤُكَ أَنْ خَصَّنِيْ ... وَسَدَّ عَلَيْكَ طَرِيْقَ ٱلطَّلَبْ

وقال بعضهم:

اِصْبِرْ عَلَىٰ حَسَدِ ٱلْحَسُوْدْ ... فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
فَٱلنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ... إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

وفي «الكشاف»: فإن قلت: فلم عرَّف بعض المستعاذ. منه ونكَّر بعضه؟.

قلت: عرَّف النفاثات؛ لأن كل نفاثة شريرة، ونكَّر غاسق؛ لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، ورب حسد محمود وهو الحسد في الخيرات بمعنى الغبطة، والحسد الأسف على الخير عند الغير، وفي «فتح الرحمٰن»: تمني زوال النعمة عن مستحقها سواء كانت نعمة

(١) روح البيان.

دين أو دنيا، وفي الحديث: «المؤمن يَغبِط والمنافق يَحسُد»، وعنه ﷺ: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

وأول ذنب عُصِيَ الله به في السماء حسد إبليس لآدم، فأخرجه من الجنة، فطُرد وصار شيطاناً رجيماً، وفي الأرض قابيل لأخيه هابيل فقتله.

وقد أرشد الله[1] سبحانه وتعالى في هذه السورة رسول الله ﷺ إلى الاستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم، ثم ذكر بعض الشر وعلى الخصوص مع اندراجه تحت العموم لزيادة شره ومزيد ضره؛ وهو الغاسق والنفاثات والحاسد، فكأن هؤلاء - لما فيهم من مزيد الشر - حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر.

قال بعضهم: إن الله تبارك وتعالى جمع في هذه السورة الشرور كلها وختمها بالحسد؛ ليعلم أنه أخس الطبائع وأقبح الصفات المذمومة، وهذه السورة من أنفع أدوية الحسد، فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه من شر حاسد النعمة، وفي كشف ما يلتبس من القرآن كرر قوله: ﴿مِن شَرِّ﴾ أربع مرات؛ لأن شر كل واحد منها غير شر البقية عنها.

فإن قلت: أولها يشمل البقية، فما فائدة إعادتها؟

قلت: فائدتها تعظيم شرها ودفع توهم أنه لا شر لها لخفائه فيها.

ومعنى الآية: أي[2] ونستعيذ بك يا ربنا من شر الحاسد إذا أنفذ حسده بالسعي والجد في إزالة نعمة من يحسده، ويُعمِل الحيلة وينصب شباكه لإيقاع المحسود في الضرر بأدنى الوسائل ولا يمكن إرضاؤه، ولا في الاستطاعة الوقوف على ما يدبره، فهو لا يرضى إلا بزوال النعمة، وليس في الطوق دفع كيده ورد عواديه، فلم يبق إلا أن نستعين عليه بالخالق الأكرم، فهو القادر على رد كيده ودفع أذاه وإحباط سعيه، نسألك اللهم وأنت الوزر والنصير أن تقينا أذى الحاسدين، وتدفع عنا كيد الكائدين، إنك أنت الملجأ والمعين. آمين.

الإعراب

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿أَعُوذُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾. ﴿مِن شَرِّ مَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾ أيضاً، وجملة ﴿خَلَقَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما خلقه، ويجوز أن تكون مصدرية. ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على ما قبله. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بـ﴿شَرِّ﴾. ﴿وَقَبَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿غَاسِقٍ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على ما تقدم أيضاً. ﴿فِى ٱلْعُقَدِ﴾ متعلق بـ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾. ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على ما تقدم أيضاً. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بـ﴿شَرِّ﴾. ﴿حَسَدَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿حَاسِدٍ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ الظرفية.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ الفلق الصبح، قال الزمخشري: الفلق والفَرَق الصبح؛ لأن الليل يفلق عنه ويفرق، وهو فَعَل بمعنى مفعول، كالقَبَض بمعنى المقبوض، وفي المثل هو أبين من فَلَق الصبح، ومن فَرَق الصبح، ومنه قولهم: سطح الفرقان إذا طلع الفجر، وقال الشاعر:

يَا لَيْلَةً لَمْ أَنَمْهَا بِتُّ مُرْتَقِبَا ... أَرْعَىٰ ٱلنُّجُومَ إِلَىٰ أَنْ قُدِّرَ ٱلْفَلَقُ

وقال الآخر يصف الثور الوحشي:

حَتَّىٰ إِذَا مَا ٱنْجَلَىٰ عَنْ وَجْهِهِ فَلَقٌ ... هَادِئَةٌ فِي أُخْرَيَاتِ ٱللَّيْلِ مُنْتَصِبُ

وقيل: الفَلْق شق الشيء وفصل بعضه عن بعض، تقول: فلقت الشيء فانفلق، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ وهناك أقوال أخرى في المراد به يُرجع فيها إلى المطولات، كما ذكرنا أكثرها في مبحث التفسير، ولهذا ضربنا عنها صفحاً،

وتقدم هناك أن الأول أولى.

﴿غَاسِقٍ﴾ الغاسق الليل إذا اعتكر واشتد ظلامه، قال الشاعر:

يَا طَيْفَ هِنْدٍ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِيْ أَرَقَا   إِذْ جِئْتَنَا طَارِقاً وَٱللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا

﴿وَقَبَ﴾ دخل ظلامه في كل شيء يقال: وقبت الشمس إذا غابت، وفي الحديث: «لما رأى الشمس قد وقبت قال هذا حين حلها» يعني صلاة المغرب، وهناك أقوال أخرى ليس هذا موضعها كما مر بعضها هنالك.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾: جمع نفاثة، كعلاَّمة صيغة مبالغة من النفث، وهو النفخ مع ريق يخرج من الفم، وهن السواحر اللاتي تنفث في العُقَد التي تعقدها، كما في «المختار»، وشبيه بالنفخ، وهو أقل من التفل، وقد نفث الراقي من بابي ضرب ونصر.

﴿فِى ٱلْعُقَدِ﴾: جمع عقدة، وهي الربطة التي تُعقد في الخيط والوتر.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ والحسد: أن تتمنى زوال نعمة المحسود عنه مطلقاً دينية كانت أو دنيوية، يقال: حسده يحسده من باب دخل، وقال الأخفش وبعضهم يقول: يحسِد ـ بالكسر ـ حَسَداً ـ بفتحتين ـ وحسادة بالفتح اهـ. «مختار». وفي «المصباح»: حسدته على النعمة، وحسدته النعمة حسداً بفتح السين أكثر من سكونها يتعدى إلى الثاني بنفسه وبالحرف إذا كرهتها عنده وتمنيت زوالها عنه اهـ.

فائدة: قال بعض الحكماء: بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه:

أولها: أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره.

ثانيها: أنه ساخط قسمة ربه كأنه يقول: لم قسمت هذه القسمة.

ثالثها: أنه يعاند فعل الله تعالى.

رابعها: أنه يريد خذلان أولياء الله تعالى.

خامسها: أنه أعان عدو الله إبليس اللعين. انتهى.

وقال بعضهم: الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاً، ولا ينال في الخلوة إلا جزعاً وغماً، ولا ينال في الآخرة إلا حزناً واحتراقاً، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس الناقص بين ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿خَلَقَ﴾.

ومنها: الإطناب بتكرار لفظ ﴿شَرِّ﴾ أربع مرات ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾ تنبيهاً على شناعة هذه الأوصاف.

ومنها: تخصيص بعض الشرور بالذكر في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ...﴾ إلخ، مع اندراجه فيما قبله من قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ فإنه عام يدخل تحته شر الغاسق وشر النفاثات وشر الحاسد؛ لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه لكثرة وقوعه، ولأن تعيين المستعاذ منه أدل على الاعتناء بالاستعاذة منه وأدعى إلى الإعاذة.

ومنها: إضافة الشر إلى الغاسق الذي بمعنى الليل لملابسته له بحدوثه فيه.

ومنها: تنكير ﴿غَاسِقٍ﴾؛ لعدم شمول الشر لجميع أفراده.

ومنها: تعريف ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ إما للعهد، أو للإيذان بشمول الشر لجميع أفرادهن وتمحضهن فيه.

ومنها: جناس الاشتقاق بين: ﴿حَاسِدٍ﴾ و﴿حَسَدَ﴾.

ومنها: توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الفلق بعون الله وتوفيقه وقت المغرب من ليلة الأربعاء السابعة عشر من شهر صفر الخير من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين، آمين.

سورة الناس

سورة الناس نزلت بعد سورة الفلق، وهي مدنية، وقيل: مكية، والأول أصح؛ لأنها نزلت بالمدينة سنة سبع بسبب أنه ﷺ سحرته اليهود.

والخلاف فيها كالخلاف الذي تقدم في سورة الفلق، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزل بمكة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزل بالمدينة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ وقد قدمنا في سورة الفلق ما ورد في سبب نزول هذه السورة وما ورد في فضلها، فارجع إليه، وهي: ست آيات، والتي قبلها: خمس، فتكون الجملة إحدى عشرة آية عدد العقد والإبر الحاصلَين في السحر، وعشرون كلمة وتسعة وسبعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها ظاهرة؛ لاتحادهما في سبب النزول وفي الاستعاذة، وسميت بسورة الناس؛ لذكر لفظ الناس فيها.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: سورة الناس محكمة كلها لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾؛ أي: أتحصن وألتجىء، والأمر فيه[1] للنبي ﷺ، ويتناول غيره من أمته، لأن أوامر القرآن ونواهيه لا تخص فرداً دون آخر غالباً.

وقرأ الجمهور[2]: بالهمزة في ﴿أَعُوذُ﴾، وقرىء بحذفها ونقل حركتها إلى اللام، وعبارة «البيضاوي» هنا: قرأ ورش في السورتين بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى اللام. انتهى.

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: بمالك الناس وخالقهم وموجدهم من العدم، وخصوا[3] بالذكر وإن كان رب جميع المخلوقات تشريفاً من حيث إنه تعالى أخدم لهم ملائكة قدسه، وجعل لهم ما في الأرض جميعاً، وأمدهم بالعقل والعلم، وكلفهم بخدمته، فإن قاموا بتلك الوظيفة كان لهم العز دنيا وأخرى، وإن لم يقوموا بها ردوا لأسفل السافلين، فلم يساووا كلباً ولا خنزيراً، وإذا علمت بذلك أنه رب الناس فهو رب غيرهم بالأولى، وقيل: خصوا بالذكر لمناسبته بالاستعاذة؛ لأنه لما أمر بالاستعاذة من شر الوسواس، فكأنه قال: قل أعوذ من شر الموسوس إلى الناس؛ أي: من شر ما يوسوس في صدورهم بربهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلٰههم وهو معبودهم، فإنه هو الذي يعيذ من شرهم.

والحاصل: أنه أمر رسوله أن يستعيذ بمن يربي الناس بنعمه ويؤدبهم بنقمه، وأصل الناس إما أناس حذفت الهمزة، أو نَوَس مأخوذ من ناس إذا تحرك خُص بالبَشَر، لأنه المتحرك الحركة المتعبد بها الناشئة عن رؤية وتدبر، تحركت الواو

---

(١) الصاوي. (٢) الشوكاني. (٣) الصاوي.

وانفتح ما قبلها قُلبت ألفاً، أو من الأنس ضد الوحشة؛ لأنه يؤنس به أو من النسيان؛ لكونه شأنه وطبعه، كما قال بعضهم:

وَمَا سُمِّيَ ٱلإنْسَانُ إلاَّ لِنَسْيِهِ   وَمَا ٱلْقَلْبُ إلاَّ أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ

يقول الفقير[1]: ففي الالتجاء إلى الله في هذه السورة دلالة على ختم الأمر، فإن الله تعالى هو الأول الآخر، وإليه يرجع الأمر كله، وإن إلى ربك المنتهى، وفيه إشارة إلى نسيان العهد السابق الواقع يوم الميثاق، فإن الإنسان لو لم ينسه لما احتاج إلى العود والرجوع، بل كان في كنف الله تعالى دائماً.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾؛ أي: مالكهم ومدبر أمورهم، وواضع الشرائع والأحكام التي فيها سعادتهم في معاشهم ومعادهم، قرىء هنا بإسقاط الألف باتفاق القراء حذراً من التكرار، فإن أحد معاني اسم الرب في اللسان المالك، ولا ترد الفاتحة، فإن الراجح فيها عند المحققين هو المَلِك بحذف الألف لا المالك اهـ «روح».

بخلاف الذي في الفاتحة، ففيه قراءتان سبعيتان ثبوت الألف وحذفها كما مر هنالك، ومعنى المَلِك: المتصرف فيهم بأنواع التصرفات من إعزاز وإذلال وإغناء وإفقار وغير ذلك، وهو[2] عطف بيان جيء به لبيان أن ربِّيَّته سبحانه ليست كربِّيَّة سائر المُلاَّك لما تحت أيديهم من مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل، والتصرف الشامل، وما ذكروه[3] في ترجيح المالك على المَلِك من أن المالك مالك العبد، وأنه مطلق التصرف فيه، بخلاف الملك، فإنه إنما يملك بقهر وسياسة ومن بعض الوجوه فقياس لا يصح ولا يطرد إلا في المخلوقين لا في الحق سبحانه، فإنه من البيِّن أنه مطلق التصرف، وأنه يملك من جميع الوجوه، فلا يقاس ملكية غيره عليه، ولا تضاف الصفات والأسماء إليه تعالى إلا من حيث أكمل مفهوماته.

﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾؛ أي: معبودهم المستولي على قلوبهم بعظمته، وهم لا يحيطون بكنه سلطانه، بل يخضعون بما يحيط منها بنواحي قلوبهم، ولا يدرون من أي جانب يأتهم ولا كيف يسلط عليهم.

---

(١) روح البيان.   (٢) الشوكاني.   (٣) روح البيان.

وهو عطف[1] بيان أيضاً كالذي قبله؛ لبيان أن ربوبيته وملكه قد انضم إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة، وأيضاً الرب قد يكون مَلِكاً وقد لا يكون ملكاً، كما يقال: رب الدار، ورب المتاع، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فبين أنه ملك الناس، ثم المَلِك قد يكون إلٰهاً وقد لا يكون، فبيَّن أنه إله؛ لأن اسم الإلٰه خاص به تعالى لا يشاركه فيه أحد، وأيضاً بدأ باسم الرب، وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً، فحينئذ عُرف بالدليل أنه عبد مملوك، فذكر أنه ملك الناس، ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه، وأنه عبد مخلوق، وأن خالقه إلٰه معبود.. بيَّن سبحانه أنه إلٰه الناس.

وعبارة «المراغي» هنا: وإنما قدم[2] الربوبية؛ لأنها من أوائل نعم الله تعالى على عباده، ثم ثنى بذكر المالكية؛ لأن العبد إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلاً مفكراً، ثم ثلث بذكر الألوهية؛ لأن المرء بعد أن يدرك ويعقل يعلم أنه هو المستوجب للخضوع والعزة والمستحق للعبادة، وإنما قال: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ وهو رب كل شيء، وإلٰه كل شيء من قِبَل أن الناس هم الذين أخطؤوا في صفاته، وضلوا فيها عن الطريق السوي، فجعلوا لهم أرباباً ينسبون إليهم بعض النعم، ويلجؤون إليهم في دفع النقم، ويلقبونهم بالشفعاء، ويظنون أنهم هم الذين يدبرون حركاتهم ويرسمون لهم حدود أعمالهم، وبحسبك أن تقرأ قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

والخلاصة: أنه سبحانه أراد أن ينبه الناس بأنه هو ربهم وهم أناس مفكرون وملكهم وهم كذلك وإلٰههم وهم هكذا، فباطل ما اخترعوا لأنفسهم من حيث هم بشر.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

وكرر لفظ الناس في ثلاثة مواضع[١]، ولم يكتف بضميرهم مع اتحاد اللفظين في اللفظ والمعنى، وهو معيب كالإيطاء في الشعر لمزيد[٢] الكشف والتقرير بالإضافة، ولإظهار شرف الناس وتعظيمهم والاعتناء بشأنهم، فإن ما لا شرف فيه لا يُعبأ به ولا يعاد ذكره، بل يترك ويهمل، كما قال الشاعر:

أَعِـدْ ذِكْـرَ نُـعْـمَـانَ لَـنَـا إِنَّ ذِكْـرَهُ   هُـوَ ٱلْـمِـسْـكُ مَـا كَـرَّرْتَـهُ يَـتَـضَـوَّعُ

فلولا أن الناس أشرف مخلوقاته.. لما ختم كتابه بذكرهم، وكما أنه حسَّن[٣] التكرار للتلذذ وإظهار فضل المكرر في قول بعضهم:

مُـحَـمَّـدُ سَـادَ ٱلنَّـاسَ كَـهْـلاً وَيَـافِـعَـاً   وَسَـادَ عَـلَـىٰ ٱلأَمْـلاَكِ أَيْـضَـاً مُـحَـمَّـدُ

مُحَمَّدُ كُلُّ ٱلْحُسْنِ مِنْ بَعْضِ حُسْنِهِ   وَمَا حُسْنُ كُلِّ ٱلْحُسْنِ إِلاَّ مُـحَـمَّـدُ

مُـحَـمَّـدُ مَـا أَحْـلَـىٰ شَـمَـائِـلَـهُ وَمَـا   أَلَـذَّ حَـدِيْـثَـاً رَاحَ فِـيْـهِ مُـحَـمَّـدُ

وهذا على تسليم أن المراد بالناس في المواضع الثلاثة شيء واحد، وأما إن أريد بالناس الأول الصغار، وأضيفوا للرب لاحتياجهم إلى التربية أكثر من غيرهم، وبالثاني الشباب، وأضيفوا للملك لأن شأنهم الطغيان والطيش فيهم، فهم محتاجون لملك يسوسهم ويكسر هيجان شبوبيتهم، وبالثالث: الشيوخ، وأُضيفوا للإله لأن شأنهم كثرة العبادة لقرب ارتحالهم وقدومهم على ربهم وفناء شهواتهم، فهم أقرب من غيرهم للتعلق بالإله، فلا اتحاد في المعنى.

وقوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ متعلق بـ ﴿أعوذ﴾؛ أي: من شر الشيطان ذي الوسوسة، وهي الهمس والصوت الخفي، والوَسواس ـ بفتح الواو ـ اسم مصدر بمعنى الحديث، أي: الوسوسة يُطلق على نفس الشيطان الموسوس؛ لكثرة ملازمته للوسوسة، فهو على حد زيد عدل؛ أي: شر الشيطان الموسوس، ويُطلق أيضاً على ما يخطر بالقلب من الشر، فالكلام حينئذ على حذف مضاف؛ أي: من شر الشيطان ذي الوسواس، كما أشرنا إليه أولاً.

والحاصل[٤]: أن الوَسواس ـ بالفتح ـ اسم مصدر بمعنى الوسوسة، وهو:

---

(١) الصاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) الصاوي.
(٤) روح البيان.

الصوت الخفي الذي لا يُحَس فيحترز منه كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر فبالكسر كالزلزال بالكسر أيضاً، وقال الزجاج: الوسواس هو الشيطان؛ أي: ذي الوسواس، ويقال: إن الوسواس ابن لإبليس، والفرق بين المصدر واسم المصدر: أن الحدث إن اعتبر صدوره عن الفاعل ووقوعه على المفعول سمي مصدراً، وإذا لم يُعتبر بهذه الحيثية سمي اسم المصدر، ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس، ويؤكده عند من يلقيه إليه كرر لفظها بإزاء تكرير معناها، والمراد بالوسواس الشيطان؛ لأنه يدعو إلى المعصية بكلام خفيٍّ يفهمه القلب من غير أن يسمع صوته، وذلك بالإغرار بسعة رحمة الله تعالى، أو بتخييل أن له في عمره سعة، وأن وقت التوبة باقٍ بعد، سمي بفعله مبالغة كأنه نفس الوسوسة؛ لدوام وسوسته.

فقد أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخ، ولم يقل: من شر وسوسته؛ لتعم الاستعاذة شره جميعه، وإنما وصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً.

فإن قلت: ما الحكمة في وصف الله تعالى في هذه السورة بنفسه بثلاث أوصاف، وجعل المستعاذ منه شيئاً واحداً، وفي السورة قبلها بعكس ذلك؛ لأنه وصف نفسه بوصف واحد، وجعل المستعاذ منه أربعة أشياء؟.

قلت: بأنه في السورة المتقدمة المستعاذ منه أمور تضر في ظاهر البدن، وهنا وإن كان أمراً واحداً إلا أنه يضر الروح، وما كان يضر الروح يُهتم بالاستعاذة منه.

فإن قلت: إن كان مقتضى الظاهر تقديم ما به الاهتمام؛ وهو الاستعاذة من شر الوسواس؛ إذ سلامة الروح مقدمة على البدن؟.

أجيب: بأن تقديم سلامة البدن وسيلة للمقصود بالذات، وهو: سلامة الروح.

وفي «آكام المرجان»: وينحصر ما يدعو الشيطان إليه ابن آدم في ست مراتب: المرتبة الأولى الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذاك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تبعه، وهذا أول ما يريده من العبد، والمرتبة الثانية البدعة، وهي أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يتاب منها، فتكون كالعدم، والبدعة يظن صاحبها أنها صحيحة فلا يتوب منها، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة

الثالثة، وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الرابعة؛ وهي الصغائر التي إذا اجتمعت أهلكت صاحبها كالنار الموقدة من الحطب الصغار، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الخامسة؛ وهي اشتغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عقابها فوات الثواب الذي عليه باشتغاله بها، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة السادسة، وهي أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه؛ ليفوِّته ثواب العمل الفاضل.

ومن الشيطان شيطان الوضوء، ويقال له الوَلَهان - بفتحتين - وهو شيطان يولع الناس بكثرة استعمال الماء، قال النبي ﷺ: تعوَّذوا بالله من وسوسة الوضوء، ومنهم شيطان يقال له: خنزب، وهو الملبس على المصلي في صلاته وقراءته، قال أبو عمر والبخاري - رحمهما الله تعالى -: أصل الوسوسة ونتيجتها من عشرة أشياء:

أولها: الحرص، فقابله بالتوكل والقناعة.

والثاني: الأمل فاكسره بمفاجأة الأجل.

والثالث: التمتع بشهوات الدنيا، فقابله بزوال النعمة وطول الحساب.

والرابع: الحسد، فاكسره برؤية العدل.

والخامس: البلاء، فاكسره برؤية المنة والعوافي.

والسادس: الكبر فاكسره بالتواضع.

والسابع: الاستخفاف بحرمة المؤمنين، فاكسره بتعظيمهم واحترامهم.

والثامن: حب الدنيا والمحمدة، فاكسره بالإخلاص.

والتاسع: طلب العلو والرفعة، فاكسره بالخشوع والذلة.

والعاشر: المنع والبخل، فاكسره بالجود والسخاء.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ صفة للوسواس؛ لأنه بمعنى الموسوس؛ أي: من شر الشيطان الموسوس الذي عادته أن يخنس؛ أي: يتأخر ويختفي إذا ذكر الإنسان ربه، وهو صيغة مبالغة؛ أي: كثير الخنس؛ وهو التأخر من خنس يخنس - من باب دخل - أي: يتوارى ويختفي بعد ظهوره المرة بعد المرة، قال مجاهد: إذا ذكر الله خنس وانقبض، وإذا لم يُذكر انبسط على القلب، ووُصف بالخناس؛ لأنه كثير الاختفاء،

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥﴾ يعني: النجوم لاختفائها بعد ظهورها كما تقدم، وقيل: ﴿ٱلۡخَنَّاسِ﴾ اسم إبليس، كما تقدم في الوسواس، فالخناس هو الذي إذا ذكر العبد ربه تأخر واختفى وتوارى عنه، وإذا غفل عن ذكر الله بالقلب، ولو كان ذاكراً باللسان رجع إليه، فالذكر له كالقامع الذي يقمع المفسد، فهو شديد النفور منه، ولهذا كان شيطان المؤمن هزيلاً، وعن بعض السلف: إن المؤمن يفني شيطانه، كما يفني الرجل بعيره في السفر، قال قتادة: الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب، وقيل: كخرطوم الخنزير في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبد ربه خنس، وقيل: رأسه كرأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب يمسه ويحدثه، فإذا ذكر الله خنس وتأخر، وإذا غفل رجع، وهل المراد بما ذُكر الحقيقة؟ أو خرطوم الكلب والخنزير كناية عن قبحه وخبثه ونجاسته، ورأس الحية كناية عن شدة الأذية، ووضعه على الفؤاد كناية عن شدة التمكن؟ كل محتمل.

ويجوز أن يدخل الشيطان في الأجسام؛ لأنه جسم لطيف، وهو وإن كان مخلوقاً في الأصل من نار، لكنه ليس بمحرق؛ لأنه لما امتزج النار بالهواء صار تركيبه مزاجاً مخصوصاً كتركيب الإنسان، كما ورد في الحديث الصحيح أنه يجري من ابن آدم مجرى الدم.

والمعنى: أي[1] ألجأ إليك رب الخلق ومالكهم وإلٰههم ومعبودهم أن تنجينا من شر الشيطان الموسوس الكثير الخنوس والاختفاء؛ لإنه يأتي من ناحية الباطل، فلا يستطيع مقاومة الحق إذا صدمه، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوأ مصير إذا انجرَّت مع وسوسته، وانساقت معه إلى تحقيق ما خطر بالبال.

وهذه الأحاديث النفسية إذا سُلِّط عليها نظر العقل خفيت واضمحلت، وسكن الموسوس عند إلقائها، وحديث النفس بالفواحش وضروب الأذى للناس يذهب هباء إذا تنبهت النفس لأوامر الشرع، وهكذا إذا وسوس لك امرؤ، وبعثك على فعل السوء، ثم ذكرته بأوامر الدين يخنس، ويمسك عن القول إلى أن تسنح له فرصة أخرى، وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الوسواس الخناس بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ﴾ ويحدث حديثاً خفياً لا يُسمع له صوت ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: في

(١) المراغي.

قلوب[1] الناس والبشر إذا غفلوا بقلوبهم عن ذكر الله تعالى، ولو ذكروا بألسنتهم، ولذا قال في «التأويلات النجمية» في تفسير الناس؛ أي: الناسي عن ذكر الله بالقلب والروح والسر نظير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ بحذف الياء. انتهى.

وذلك لأن الوسوسة حالة في القلب[2]، فلا يطردها إلا الذكر الحال في القطر، فمن كان من أهل الذكر فلا تسلط للشيطان عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ ولا يترك الإنسان الذكر اللساني إذا وجد الغفلة والوسواس في قلبه، بل يكثر الذكر ويديمه، فلعله يستيقظ قلبه ويتنور، قال بعض أهل المعرفة: الذكر اللساني كقدح الزناد، فإذا تكرر أصاب، قال بعضهم في ذلك:

أُطْلُبْ وَلاَ تَضْجَرَنْ مِنْ مَطْلَبٍ فَآفَةُ ٱلطَّالِبِ أَنْ يَضْجَرَا
أَمَا تَرَىٰ ٱلْحَبْلَ لِتَكْرَارِهِ فِيْ ٱلصَّخْرَةِ ٱلصَّمَّاءِ قَدْ أَثَّرَا

ومحل الموصول الجر على الوصف[3]، أو الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو النصب على الذم، فيحسن الوقف عليه، ذكر سبحانه وتعالى وسوسته أولاً، ثم ذكر محلها؛ وهو صدور الناس، تأمل السر والحكمة في قوله: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: في قلوب الناس، والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات عليه، فتجتمع في الصدر، ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز، وهو بكسر أوله ما بين الباب والدار، ومن القلب تخرج الإرادت والأوامر إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود، فالشيطان يدخل ساحة القلب وبيته، فيُلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب، فهو يوسوس في الصدور، ووسوسته واصلة إلى القلوب، وقال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه سلَّطه الله سبحانه على ذلك، ووسوسته هي الدعاء إلى طاعته بكلام خفي يصل إلى القلب من غير سماع صوت.

وقوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ يدل على أنه لا يوسوس في صدور الجن، قال في «آكام المرجان»: لم يرد دليل على أن الجني يوسوس في صدور الجني، ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي، ويجري منه مجراه من الإنسي .اهـ.

---

(١) روح البيان. (٢) الصاوي. (٣) روح البيان.

ثم بيَّن سبحانه الذي يوسوس بأنه ضربان جني وإنسي، فقال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ والجِنة ـ بالكسر ـ جماعة الجن، و﴿مِن﴾ بيان للشيطان الموسوس على أنه ضربان جني وإنسي، كقوله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ والموسوس إليه نوع واحد، وهو الإنس، فكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى، فشيطان الإنس يكون كذلك، وذلك لأنه يُلقي الأباطيل، ويُري نفسه في سورة الناصح المشفق، فإن زجره السامع يخنس ويترك الوسوسة، وإن قبل السامع كلامه بالغ فيه، و﴿مِن﴾ علىٰ هذا بيانية مشوبة بتبعيض؛ أي: بعض الجنة وبعض الناس.

قال في «الأسئلة المقحمة»: من دعا غيره إلى الباطل، فإن تصوره في قلبه كان ذلك وسوسةً، وقد قال تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ فإذا جاز أن توسوس نفسه جاز أن يوسوسه غيره، فإن حقيقة الوسواس لا تختلف باختلاف الأشخاص.

ويجوز أن تكون ﴿مِن﴾ متعلقة بـ﴿يُوَسْوِسُ﴾ وتكون لابتداء الغاية؛ أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجن أنهم يعلمون الغيب ويضرون وينفعون، ومن جهة الناس كالكهان والمنجمين كذلك، ويجوز أن يكون قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ بياناً للوسواس، و﴿ٱلنَّاسِ﴾ عطف على ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ فلفظ ﴿شَرِّ﴾ مسلط عليه، كأنه قال: من شر الوسواس الذي يوسوس؛ وهو الجنة، ومن شر الناس، وعليه فالناس لا يصدر منهم وسوسة، وقيل: يجوز أن يكون المراد أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، ومن الجنة والناس بتقدير العاطف كأنه استعاذ بربه من ذلك الشيطان الواحد، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس، وقيل: المراد بالناس الناسي، وسقطت الياء كسقوطها في قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ ثم بيَّن بالجنة والناس؛ لأن كل فرد من أفراد الفريقين في الغالب مبتلى بالنسيان، وقيل: إن إبليس يوسوس في صدور الجن، كما يوسوس في صدور الإنس، وواحد الجنة: جني، كما أن واحد الإنس إنسي، وسيأتي بسط الكلام فيه، والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال، وإن كان وسوسة الإنس في صدور الناس لا يكون إلا بالمعنى الذي قد قدمنا، ويكون هذا البيان يذكر الثقلين للإرشاد إلى أن من استعاذ منهما ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة، وفي ختم[1] القرآن بهذه السورة

---

(١) روح البيان.

إشارة حسنة، كأنه قيل: ما أنزلناه كاف، وما فرَّطنا في الكتاب من شيء فلا تطلب بعده شيئاً، بل اقتصر على العمل له واستعذ بالله من الشيطان والحاسد؛ لأن العبد إذا تمت نعمة الله عليه كثرت حساده إنساً وجناً، قال بعضهم: وفي بدء القرآن: بسم الله وختمه بالناس إشارة إلى أن الإنسان آخر المراتب الكونية؛ وذلك لأن ابتداء المراتب الكونية هو العقل الأول، وانتهاؤها هو الإنسان اهـ بتصرف.

قيل: عدد[1] حروف هذه السورة غير المكرر: ثلاث وعشرون حرفاً، وكذلك عدد الفاتحة بعدد السنين التي أُنزل فيها القرآن، وهو سر بديع، وأول القرآن باء البسملة، وآخره سين والناس، كأنه قيل: بس؛ أي: تم وكمل، أو حسب؛ أي: حسبك من الكونين ما أعطيناك بين الحرفين، وفي أسئلة[2] عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ أخبرني يا محمد ما ابتداء القرآن وما ختمه؟ قال: «ابتداؤه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، وختمه: صدق الله العظيم»، قال: صدقت، وفي «خريدة العجائب» يعني: ينبغي أن يقول القارىء ذلك عند الختم، وإلا فختم القرآن سورة الناس، وفي «قوت القلوب» للشيخ أبي طالب المكي ـ رحمه الله تعالى ـ: وليجعل العبد مفتاح درسه أن يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، رب أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون، وليقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ ...﴾ وسورة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وليقل عند فراغه من كل سورة صدق الله تعالى، وبلّغ رسوله ﷺ، اللهم انفعنا وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين، واستغفر الله الحي القيوم.

الإعراب

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر تقديره: أنت يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿أَعُوذُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنا يعود على

---

(١) الصاوي. (٢) روح البيان.

محمد ﷺ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾. ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾: بدلان، أو وصفان، أو عطفا بيانٍ لـ﴿رب الناس﴾، وكرر المضاف إليه إظهاراً لشرفه كما مر. ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾. ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة ثانية لـ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ قال في «الكشاف»: يجوز فيه الحركات الثلاث، فالجر على الصفة والرفع والنصب على الذم. ﴿يُوَسْوِسُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الموصول. ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُوَسْوِسُ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يُوَسْوِسُ﴾. ﴿وَٱلنَّاسِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَعُوذُ﴾ من عاذ إليه يعوذ ـ من باب قال ـ إذا التجأ إليه مما يخافه.

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ الناس أصله إما أناس، فحذفت الهمزة، فصار ناس، أو نَوَس تحركت الواو وانفتح ما قبلها قُلبت ألفاً، مأخوذ إما من ناس إذا تحرك، خص بالبشر؛ لأنه المتحرك الحركة التامة الناشئة عن فكر واختيار، أو من الأنس ضد الوحشة؛ لأنه يؤنس به، أو من النسيان؛ لكونه مطبوعاً عليه.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾: وفي «السمين»: قال الزمخشري: الوسواس اسم مصدر بمعنى الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر، فوسواس بالكسر كزلزال، والمراد به هنا الشيطان، سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه؛ لأنها صنعته وشغله، أو أريد ذو الوسواس اهـ.

وفي «المصباح»: أنه يطلق أيضاً على ما يخطر بالقلب من الشر، وكل ما لا خير فيه، وفي «المختار»: الوسوسة حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواساً ـ بالكسر ـ ووسواساً ـ بالفتح ـ كزلزال وزلزال.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ صيغة مبالغة من خنس يخنس ـ من باب دخل ـ خنساً ـ بالسكون ـ وخَنَساً ـ بالتحريك ـ وخنوساً، والخنس التأخر والتواري والاستتار، يقال: خنس عنه إذا تأخر وأخنسه غيره؛ أي: خلَّفه ومضى عنه، والخناس الشيطان؛ لأنه يخنس

إذا ذكر الله عز وجل، قال في «أساس البلاغة»: وخنس الرجل من بين القوم خنوساً إذا تأخر واختفى وخنسته أنا وأخنسته بأربع، وخنس إبهامه خفض، ومنه الخناس.

﴿مِنَ الجِنَّةِ﴾ الجنة: اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين واحده بالياء، فيقال: جن وجني كزنج وزنجي، وغالباً يفرق بالتاء كتمر وتمرة، وزيدت التاء في الجنة لتأنيث الجماعة، سموا بذلك لاجتنانهم؛ أي: استتارهم عن العيون، وهم أجسام نارية هوائية يتشكلون بالصور الشريفة والخسيسة، وتحكم عليهم الصور، وتقدم ما فيهم اهـ من «الصاوي».

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة لتشريف المضاف إليه وتعظيمه في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وفي الآيتين بعدها.

ومنها: تخصيص الناس بالذكر في المواضع الثلاثة مع كونه رب جميع المخلوقات وملكهم وإلٰههم تكريماً لهم من بين المخلوقات حيث أخدمهم الملائكة، وأمدهم بالعقل والعلم وسائر أنواع الكرامات كما مر.

ومنها: تكرير لفظ الناس ثانياً وثالثاً؛ لإظهار شرف الناس وتعظيمهم، وللاعتناء بشأنهم، ولو قال: ملكهم إلٰههم لما كان لهم هذا الشأن العظيم.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿يُوَسْوِسُ﴾ و﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ و﴿ٱلنَّاسِ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: في قلوبهم لعلاقة المحلية.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب[1]

* * *

(١) اللهم اجعلنا من المخلصين في أعمالنا، وادفع عنا أذى شياطين الإنس والجن، وأبعد عنا شر

الموسوسين، وقنا عذاب الجحيم، ولا تفضحنا يوم العرض والحساب، وصل ربنا وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الذين ذادوا عن دينك بقدر ما غرستَ في قلوبهم من برد اليقين، وأثلجتَ صدورهم بمحبة هذا الدين، وعلى التابعين وتابعيهم إلى يوم الدين، وارض عنا معهم يا رب العالمين بمحض فضلك وجودك وكرمك وإحسانك وعن جميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات يا رب العالمين، آمين آمين، ألف ألفي آمين.

إلى هنا تم تفسير سورة الناس بعون الله وتوفيقه أوائل ليلة الجمعة المباركة التاسعة عشرة من شهر صفر الخير من شهور سنة: ١٤١٧هـ ألف وأربع مئة وسبع عشرة وبتمامه تم الكتاب الميمون، وكان تاريخ ابتدائه في اليوم الثاني من شهر الله المحرم من شهور سنة: ١٤٠٦هـ ألف وأربع مئة وست سنوات، من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وقد مكثت في تسويده مع ما تراكم عليّ من الشواغل والعوائق إحدى عشرة سنة وشهرين إلا ثمانية أيام، ولقد أجاد من قال:

وَقَــلَّ مَــنْ جَــدَّ فِــيْ أَمْــرٍ يُـحَــاوِلُــهُ   وَٱسْـتَـعْـمَـلَ ٱلـصَّـبْـرَ إِلاَّ فَـازَ بِـٱلـظَّـفَـرِ

الخواتيم نسأل الله تعالى حسنها

الأولى: في الآداب التي تُطلب لقارىء القرآن عند قراءته، والتي تتعلق باحترام القرآن وتعظيمه:

فمنها: أن لا يمسه إلا طاهراً قال تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾.

ومنها: أن التالي يتطيب لتلاوته ويستاك لها لقول يزيد بن أبي مالك: إن أفواهكم طريق من طرق القرآن، فطهروها ونظفوها ما استطعتم.

ومنها: أن يستوي له قاعداً ولا يكون متكئاً.

ومنها: أن يلبس ثياب التجمل كما يلبسها للدخول على الملوك؛ لأنه مناج ربه.

ومنها: أن يستقبل القبلة؛ لأنها أشرف الجهات.

ومنها: أنه إذا تثاءب يمسك عن القراءة حتى يذهب تثاؤبه؛ لأنه من الشيطان.

ومنها: أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند ابتداء القراءة وإن لم يكن في أول سورة، ويبسمل إن كان في أول سورة، وإلا فيخيَّر.

ومنها: إذا أخذ في القراءة لم يقطعها لمكالمة أحد من غير ضرورة.

ومنها: أن يقرأه على تؤدة وترتيل وتدبر حتى يعقل ما يخاطب به ربه، فيرغب في الوعد ويرهب عند الوعيد.

ومنها: إذا انتهت قراءته يقول: صدق الله العظيم، وبلَّغ رسوله الكريم، وأنا على ذلك من الشاهدين.

ومنها: أن يقرأ القرآن على الترتيب ولا ينكس.

ومنها: أن يضع المصحف على مكان طاهر مرتفع أو في حجره.

ومنها: أن لا يمحو القرآن من اللوح بالبصاق، ولكن يغسله بالماء، ويشرب الغسالة بقصد الاستشفاء، أو يدفنها في مكان طاهر بعيد عن ممر الأقدام.

ومنها: أن لا يتخذ الصحيفة إذا بليت، بل يمحوها بالماء، ويفعل بها ما تقدم، أو يحرقها ويدفن رمادها في مكان طاهر.

ومنها: أن يُعطي عينيه حقهما من النظر في المصحف، ففي الحديث: أنه ﷺ قال: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة» قالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: «النظر في المصحف والتفكير فيه والاعتبار عند عجائبه»، وقال ﷺ: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن نظراً».

ومنها: أن لا يتأول القرآن بشيء من أمور الدنيا يعرض له، كقول الرجل إذا جاءه أحد: جئتَ على قدر يا موسى، وكقوله لضيوفه مثلاً: كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية.

ومنها: أن لا يقرأ القرآن بألحان الغناء كلحون أهل الفسق.

ومنها: أن يجوف خطه إذا كتبه.

ومنها: أن لا يقرأه في الأسواق، أو في مواطن اللغط ومجمع السفهاء.

ومنها: أن لا يقصد بتلاوته سؤال الخلق.

ومنها: أن لا يحقر المصحف، فإنه ورد النهي عن تحقير المصحف والمسجد.

ومنها: أن لا يكتبه على الأرض ولا على حائط، كما يفعل في المساجد، ففي الحديث: مر رسول الله ﷺ بكتابته في أرض، فقال لشاب من هذيل: «ما هذا؟» قال: من كتاب الله كتبه يهودي، فقال: «لعن الله من فعل هذا، لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه» ورأى عمر بن عبد العزيز ولده يكتب القرآن على حائط فضربه.

ومنها: إذا كتبه وشربه ينوي به الشفاء من كل داء وأذى وبلوغ الآمال من كل خير، فإن الله يؤتيه على قدر نيته.

ومنها: إذا ختم القرآن يقرأ من أوله قدر خمس آيات، فقد ورد في الحديث أنه ﷺ قال لرجل سأله عن أفضل العمل، فقال: «عليك بالحال المرتحل» قال: وما الحال المرتحل؟ قال: «صاحب القرآن يضرب من أوله حتى يبلغ آخره، ثم يضرب في أوله كلما حل ارتحل».

ومنها: إذا ختم القرآن أن يجمع أهله ويدعو بخير الدارين، كما كان السلف

الصالح يفعلونه لإجابة الدعاء عند ختمه، كما هو مذكور في الأحاديث الصحيحة انتهى ملخصاً من «القرطبي».

الثانية: في آداب ختم القرآن:

روي عن ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ أنه كان إذا انتهى في آخر الختمة إلى قل أعوذ برب الناس قرأ سورة الحمد لله رب العالمين وخمس آيات من سورة البقرة على عدد الكوفي، وهو إلى قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ لأن هذا يسمى الحال المرتحل، ومعناه: أنه حل في قراءته آخر الختمة وارتحل إلى ختمة أخرى إرغاماً للشيطان، وصار العمل على هذا في أمصار المسلمين في قراءة ابن كثير وغيرها، وورد النص عن الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ أن من قرأ سورة الناس يدعو عقب ذلك، فلم يستحب الإمام أحمد أن يصل ختمه بقراءة شيء من القرآن، وروي عنه قول آخر بالاستحباب، واستحسن مشايخ العراق قراءة سورة الإخلاص ثلاثاً عند ختم القرآن إلا أن يكون الختم في المكتوبة، فلا يكررها.

وفي الحديث: «من شهد خاتمة القرآن كان كمن شهد المغانم حين تُقسم، ومن شهد فاتحة القرآن كان كمن شهد فتحاً في سبيل الله تعالى»، وعن إبراهيم التيمي قال: من ختم القرآن أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي، ومن ختمه أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح، قال: فكانوا يستحبون أن يختموا أول الليل وأول النهار، وعن الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: عند كل ختمة دعوة مستجابة، وإذا ختم الرجل القرآن قبَّل المَلَك بين عينيه، ومن شك في غفرانه عند الختم فليس له غفران، ونص الإمام أحمد على استحباب الدعاء عند الختم، وكذا جماعة من السلف، فيدعو بما أحب مستقبل القبلة رافعاً يديه خاضعاً لله تعالى موقناً بالإجابة، ولا يتكلف السجع في الدعاء، بل يجتنبه ويثني على الله تعالى قبل الدعاء وبعده، ويصلي على النبي ﷺ ويمسح وجهه بيديه بعد فراغه من الدعاء؛ لأن ذلك أرجى للقبول.

وفي «شرح الجزري» لابن المصنف: ينبغي أن يُلح في الدعاء، وأن يدعو بالأمور المهمة بالكلمات الجامعة، وأن يكون معظم ذلك أو كله في أمور الآخرة وأمور المسلمين وصلاح سلاطينهم وسائر ولاة أمورهم بتوفيقهم للطاعات وعصمتهم

من المخالفات، وتعاونهم على البر والتقوى، وقيامهم بالحق عليه، وظهورهم على أعداء الدين وسائر المخالفين، وقال الشيخ سلطان المزاحي في رسالته «الدر المصون»: ثم بعد ختم القرآن تدعو بما أردت ديناً ودنيا، وأولاه المأثور عن النبي ﷺ.

الثالث: في الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ عند ختم القرآن:

فمنها: ما روي أنه ﷺ أمر علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن يدعو عند ختم القرآن بهذا الدعاء، وهو: اللهم إني أسألك إخبات المخبتين وإخلاص الموقنين ومرافقة الأبرار واستحقاق حقائق الإيمان والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم ووجوب رحمتك وعزائم مغفرتك والفوز بالجنة والخلاص من النار.

ومنها: ما روي أنه ﷺ كان يقول عند ختم القرآن: «اللهم ارحمني بالقرآن العظيم واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة، اللهم ذكرني منه ما نسيت، وعلمني منه ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله حجة لي يا رب العالمين».

ومنها: ما روي عنه ﷺ أنه كان يقول عند ختمه: «اللهم ارحمنا بالقرآن العظيم واجعله لنا إماماً ونوراً وهدى ورحمة، اللهم ذكرنا منه ما نسينا وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله لنا حجة يا رب العالمين، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا أبداً ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا».

وكان أبو القاسم الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ يدعو بهذا الدعاء: اللهم إنا عبيدك وأبناء إمائك، ماضٍ فينا حكمك، عدل فينا قضاؤك، نسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو نزلته في شيء من كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلوبنا، وشفاء صدورنا، وجلاء أحزاننا وهمومنا، وسائقنا وقائدنا إليك وإلى جنتك جنة النعيم،

ودارك دار السلام مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين برحمتك يا أرحم الراحمين.

الرابعة: ترتيب السور على حسب النزول:

السور المكية

(١) اقرأ (٢) ن (٣) المزمل (٤) المدثر (٥) تبت (٦) الشمس (٧) الأعلى (٨) الليل (٩) الفجر (١٠) الضحى (١١) ألم نشرح (١٢) العصر (١٣) العاديات (١٤) الكوثر (١٥) التكاثر (١٦) الماعون (١٧) الكافرون (١٨) الفيل (١٩) الفلق (٢٠) الناس (٢١) الإخلاص (٢٢) النجم (٢٣) عبس (٢٤) القدر (٢٥) الضحى (٢٦) البروج (٢٧) التين (٢٨) قريش (٢٩) القارعة (٣٠) القيامة (٣١) الهمزة (٣٢) المرسلات (٣٣) قٓ (٣٤) البلد (٣٥) الطارق (٣٦) الساعة (٣٧) صٓ، (٣٨) الأعراف (٣٩) الجن (٤٠) يٓس (٤١) الفرقان (٤٢) الملائكة (٤٣) مريم (٤٤) طه (٤٥) الواقعة (٤٦) الشعراء (٤٧) النمل (٤٨) القصص (٤٩) بني إسرائيل (٥٠) يونس (٥١) هود (٥٢) يوسف (٥٣) الحجر (٥٤) الأنعام (٥٥) الصافات (٥٦) لقمان (٥٧) سبأ (٥٨) الزمر (٥٩) المؤمنون (٦٠) السجدة (٦١) الشورى (٦٢) الزخرف (٦٣) الدخان (٦٤) الجاثية (٦٥) الأحقاف (٦٦) الذاريات (٦٧) الغاشية (٦٨) الكهف (٦٩) النحل (٧٠) نوح (٧١) ابراهيم (٧٢) الأنبياء (٧٣) المؤمنون (٧٤) السجدة (٧٥) الطور (٧٦) تبارك (٧٧) الحاقة (٧٨) المعارج (٧٩) النبأ (٨٠) النازعات (٨١) الانفطار (٨٢) الانشقاق (٨٣) الروم (٨٤) العنكبوت (٨٥) المطففين.

السور المدنية

(٨٦) البقرة (٨٧) الأنفال (٨٨) آل عمران (٨٩) الأحزاب (٩٠) الممتحنة (٩١) النساء (٩٢) الزلزلة (٩٣) الحديد (٩٤) القتال (٩٥) الرعد (٩٦) الرحمٰن (٩٧) الإنسان (٩٨) الطلاق (٩٩) البينة (١٠٠) الحشر (١٠١) النصر (١٠٢) النور (١٠٣) الحج (١٠٤) المنافقون (١٠٥) المجادلة (١٠٦) الحجرات (١٠٧) التحريم (١٠٨) الجمعة (١٠٩) التغابن (١١٠) الصف (١١١) الفتح (١١٢) المائدة (١١٣)

براءة. انتهى من «الإتقان» للحافظ السيوطي.

الخامسة: في ذكر الاختلاف الواقع في عدد سور القرآن:

قال ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ جميع سور القرآن مئة واثنتا عشرة سورة، قال الفقيه في «البستان»: إنما قال إنها: مئة واثنتا عشرة سورة؛ لأنه كان لا يعد المعوذتين من القرآن، وكان لا يكتبهما في مصحفه، ويقول: إنهما منزلتان من السماء، وهما من كلام رب العالمين، ولكن النبي ﷺ كان يرقي ويعوذ بهما، فاشتبه عليه أنهما من القرآن، أو ليستا منه فلم يكتبهما في المصحف.

وقال مجاهد: جميع سور القرآن: مئة وثلاث عشرة سورة، وإنما قال ذلك؛ لأنه كان يعد الأنفال والتوبة سورة واحدة، وقال أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: جميع سور القرآن: مئة وست عشرة سورة، وإنما قال ذلك؛ لأنه كان يعد القنوت سورتين إحداهما من قوله: اللهم إنا نستعينك إلى قوله: من يفجرك، والثانية من قوله: اللهم إياك نعبد إلى قوله: ملحق، وقال زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ: جميع سور القرآن: مئة وأربع عشرة سورة، وهذا قول عامة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وهكذا في مصحف الإمام عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، وفي مصاحف أهل الأمصار، فالمعوذتان سورتان من القرآن روى أبو معاوية عن عثمان بن واقد قال: أرسلني أبي إلى محمد بن المنكدر، وسأله عن المعوذتين أهما من كتاب الله؟ قال: من لم يزعم أنهما من كتاب الله، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وفي «نصاب الاحتساب»: لو أنكر آية من القرآن سوى المعوذتين يكفر. انتهى.

وفي «الأكمل» عن سفيان بن سخنان من قال: إن المعوذتين ليستا من القرآن لم يكفر لتأويل ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ كما في «المغرب» للمطرزي، وقال في «هدية المهديين»: وفي إنكار قرآنية المعوذتين اختلاف المشايخ، والصحيح أنه: يكفر. انتهى.

وأما جملة حروف القرآن فهي ألف ألف وسبعة وعشرون ألفاً بإدخال حروف الآيات المنسوخة، ونصفه الأول باعتبارها ينتهي بالنون من قوله: في سورة الكهف ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ والكاف أول النصف الثاني، وأما جملة عدد آياته فهي: ستة

آلاف وخمس مئة آية، نصفها الأول ينتهي بقوله في سورة الشعراء: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ كما بسطنا الكلام على أمثال هذا في المقدمة.

السادسة: في جداول وضعناها على صورة الوفق المربع الذي أضلاعه ستة ووضعنا في الزاوية الأولى: الأرقام، وفي الثانية: أسماء السورة وفي الثالثة: عدد آياتها، وفي الرابعة: عدد كلماتها، وفي الخامسة: عدد حروفها، وفي السادسة: أن السورة مكية أو مدنية، والغرض منها: تسهيل حفظ هذه الأمور المهمة على من أراد حفظها على ظهر قلب، وهي هذه الخطوط المخطوطة في الصفحات الآتية، وهي تُغني عن الفهارس التي اعتادها الناس.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

جداول سور القرآن على ترتيب المصحف العثماني

(الرقم)	(اسم السورة)	(عدد آياتها)	(عدد كلماتها)	(عدد حروفها)	(مكية أو مدنية)
(١)	(الفاتحة)	(٧)	(٢٧)	(١٤٠)	(مكية)
(٢)	(البقرة)	(٢٨٦)	(٦١٢١)	(٢٥٥٠٠)	(مدنية)
(٣)	(آل عمران)	(٢٠٠)	(٣٤٨٠)	(١٤٥٢٥)	(مدنية)
(٤)	(النساء)	(١٧٦)	(٣٠٤٥)	(١٦٠٣٠)	(مدنية)
(٥)	(المائدة[1])	(١٢٠)	( )	( )	(مدنية)
(٦)	(الأنعام)	(١٦٥)	(٣٠٥٢)	(١٢٤٢٢)	(مكية)
(٧)	(الأعراف)	(٢٠٦)	(٣٣٢٥)	(١٤٣١٠)	(مكية)
(٨)	(الأنفال)	(٧٦)	(١١٣٠)	(٥٢٩٤)	(مدنية)
(٩)	(التوبة)	(١٣٠)	(٢٤٩٥)	(١٠٨٨٧)	(مدنية)
(١٠)	(يونس)	(١٠٩)	(١٨٣٢)	(٧٥٦٧)	(مكية)
(١١)	(هود)	(١٢٣)	(١٧٢٥)	(٦٦٠٥)	(مكية)
(١٢)	(يوسف)	(١١١)	(١٩٩٦)	(٧١٧٦)	(مكية)
(١٣)	(الرعد)	(٤٥)	(٨٥٥)	(٣٥٠٦)	(مدنية)
(١٤)	(إبراهيم)	(٥٢)	(٨٣١)	(٣٤٣٤)	(مكية)
(١٥)	(الحجر)	(٩٩)	(٦٥٤)	(٢٧٧٠)	(مكية)
(١٦)	(النحل)	(١٢٨)	(١٨٤١)	(٦٧٠٧)	(مكية)
(١٧)	(الإسراء)	(١١٠)	(١٥٣٣)	(٦٤٦٠)	(مكية)
(١٨)	(الكهف)	(١١١)	(١٥٧٧)	(٦٤٦٠)	(مكية)
(١٩)	(مريم)	(٩٨)	(٩٦٢)	(٣٣٠٢)	(مكية)

(١) سورة المائدة: عدد آياتها وكلماتها يحتاج إلى البحث عنه، ولم أجد من ذكر كلماتها وحروفها.

(٢٠)	(طه)	(١٣٥)	(١٣٤١)	(٥٢٤٢)	(مكية)
(٢١)	(الأنبياء)	(١١٢)	(١١٣٨)	(٤٨٦٠)	(مكية)
(٢٢)	(الحج)	(٧٦)	(١٢٩١)	(٥١٣٥)	(مكية)
(٢٣)	(المؤمنون)	(١١٨)	(١٨٤٠)	(٤٨٠٠)	(مكية)
(٢٤)	(النور)	(٦٤)	(١٣١٦)	(٥٩٨٠)	(مدنية)
(٢٥)	(الفرقان)	(٧٧)	(٨٧٢)	(٨٧٦٣)	(مكية)
(٢٦)	(الشعراء)	(٢٢٧)	(١٢٦٧)	(٥٥٤٢)	(مكية)
(٢٧)	(النمل)	(٩٤)	(١١٤٩)	(٤٧٦٧)	(مكية)
(٢٨)	(القصص)	(٨٨)	(١٤٤١)	(٥٨٠٠)	(مكية)
(٢٩)	(العنكبوت)	(٦٩)	(١٩٨١)	(٥٥٩٥)	(مكية)
(٣٠)	(الروم)	(٦٠)	(٨١٩)	(٣٥٣٤)	(مكية)
(٣١)	(لقمان)	(٣٤)	(٥٤٨)	(٢١١٠)	(مكية)
(٣٢)	(السجدة)	(٢٩)	(٦٨٠)	(١٥١٨)	(مكية)
(٣٣)	(الأحزاب)	(٧٣)	(١٢٨٠)	(٥٩٩٠)	(مدنية)
(٣٤)	(سبأ)	(٥٠)	(٨٨٣)	(١٥١٢)	(مكية)
(٣٥)	(فاطر)	(٤٥)	(١٩٧)	(٣١٣٠)	(مكية)
(٣٦)	(يس)	(٨٣)	(٨٢٩)	(٣٠٠٠)	(مكية)
(٣٧)	(الصافات)	(١٨٢)	(٨٦٠)	(٣٨٢٩)	(مكية)
(٣٨)	(صٓ)	(٨٦)	(٧٣٢)	(٣٠٩٩)	(مكية)
(٣٩)	(الزمر)	(٧٥)	(١١٩٢)	(٤٧٠٨)	(مكية)
(٤٠)	(غافر)	(٨٥)	(١١٩٩)	(٤٩٦٠)	(مكية)
(٤١)	(فصلت)	(٥٤)	(٧٩٩)	(٣٣٥٠)	(مكية)
(٤٢)	(الشورى)	(٥٣)	(٨٨٦)	(٣٥٨٨)	(مكية)
(٤٣)	(الزخرف)	(٨٩)	(٨٣٣)	(٣٤٠٠)	(مكية)
(٤٤)	(الدخان)	(٥٩)	(٣٤٦)	(١٤٣١)	(مكية)

(٤٥)	(الجاثية)	(٣٧)	(٤٨٨)	(٢١٩١)	(مكية)
(٤٦)	(الأحقاف)	(٣٤)	(٦٤٤)	(٢٥٩٥)	(مكية)
(٤٧)	(محمد)	(٣٩)	(٥٣٩)	(٢٣٤٥)	(مدنية)
(٤٨)	(الفتح)	(٢٩)	(٥٦٠)	(٢٤٣٨)	(مدنية)
(٤٩)	(الحجرات)	(١٨)	(٣٤٣)	(١٤٧٦)	(مدنية)
(٥٠)	(قٓ)	(٤٥)	(٣٩٥)	(١٤٩٤)	(مكية)
(٥١)	(الذاريات)	(٦٠)	(٣٦٠)	(١٢٨٩)	(مكية)
(٥٢)	(الطور)	(٤٩)	(٨١٢)	(١٥٠٠)	(مكية)
(٥٣)	(النجم)	(٦٢)	(٣٦٠)	(١٤٠٥)	(مكية)
(٥٤)	(القمر)	(٥٥)	(٣٤٢)	(١٤٢٣)	(مكية)
(٥٥)	(الرحمٰن)	(٧٧)	(٣٥١)	(١٦٣٦)	(مدنية)
(٥٦)	(الواقعة)	(٩٧)	(٣٩٨)	(١٧٠٣)	(مكية)
(٥٧)	(الحديد)	(٢٩)	(٥٤٤)	(٢٤٧٦)	(مدنية)
(٥٨)	(المجادلة)	(٢٢)	(٤٧٣)	(١٧٧٢)	(مدنية)
(٥٩)	(الحشر)	(٢٤)	(٧٤٥)	(٩١٣)	(مدنية)
(٦٠)	(الممتحنة)	(١٣)	(٣٤٨)	(١٥١٠)	(مدنية)
(٦١)	(الصف)	(١٤)	(٢٢١)	(٩٢٦)	(مدنية)
(٦٢)	(الجمعة)	(١١)	(١٨٠)	(٧٤٨)	(مدنية)
(٦٣)	(المنافقون)	(١١)	(١٨٠)	(٧٧٦)	(مدنية)
(٦٤)	(التغابن)	(١٨)	(٢٤١)	(١٠٧٠)	(مدنية)
(٦٥)	(الطلاق)	(١٢)	(٢٤٩)	(١١٧٠)	(مدنية)
(٦٦)	(التحريم)	(١٢)	(٢٤٩)	(١٠٦٠)	(مدنية)
(٦٧)	(الملك)	(٣٠)	(٣٣٥)	(١٣١٣)	(مكية)
(٦٨)	(القلم)	(٥٢)	(٣٠٠)	(١٢٥٦)	(مكية)
(٦٩)	(الحاقة)	(٥٠)	(٢٥٦)	(١٤٨٠)	(مكية)

(٧٠)	(المعارج)	(٤٤)	(٢١٦)	(٨٦٠)	(مكية)
(٧١)	(نوح)	(٢٨)	(٢٢٤)	(٩٢٩)	(مكية)
(٧٢)	(الجن)	(٢٨)	(٢٨٥)	(٨٧٠)	(مكية)
(٧٣)	(المزمل)	(٢٠)	(٢٨٥)	(٨٣٨)	(مكية)
(٧٤)	(المدثر)	(٥٦)	(٢٥٥)	(١٠١٠)	(مكية)
(٧٥)	(القيامة)	(٣٩)	(١٩٧)	(٦٥٢)	(مكية)
(٧٦)	(الإنسان)	(٣١)	(٢٤٠)	(١٠٥٤)	(مدنية)
(٧٧)	(المرسلات)	(٥٠)	(١٨١)	(٨١٦)	(مكية)
(٧٨)	(النبأ)	(٤٠)	(١٧٣)	(٧٧٠)	(مكية)
(٧٩)	(النازعات)	(٤٥)	(١٧٣)	(٩٥٣)	(مكية)
(٨٠)	(عبس)	(٤١)	(١٣٣)	(٥٣٣)	(مكية)
(٨١)	(التكوير)	(٢٩)	(١٠٤)	(٥٣٣)	(مكية)
(٨٢)	(الانفطار)	(١٩)	(٨٠)	(٨٢٧)	(مكية)
(٨٣)	(المطففين)	(٣٦)	(١٩٩)	(٧٨٠)	(مكية)
(٨٤)	(الانشقاق)	(٢٥)	(١٠٩)	(٨٣٠)	(مكية)
(٨٥)	(البروج)	(٢٢)	(١٠٩)	(٤٥٨)	(مكية)
(٨٦)	(الطارق)	(١٧)	(٧٢)	(٤٧١)	(مكية)
(٨٧)	(الأعلى)	(١٩)	(٧٢)	(٢٨٤)	(مكية)
(٨٨)	(الغاشية)	(٢٦)	(٩٢)	(٣٨١)	(مكية)
(٨٩)	(الفجر)	(٢٩)	(١٣٩)	(٥٩٧)	(مكية)
(٩٠)	(البلد)	(٢٠)	(٨٢)	(٣٢٠)	(مكية)
(٩١)	(الشمس)	(١٥)	(٤٥)	(٢٤٧)	(مكية)
(٩٢)	(الليل)	(٢١)	(٧١)	(٣٢٠)	(مكية)
(٩٣)	(الضحى)	(١١)	(٤٠)	(١٧٠)	(مكية)
(٩٤)	(الشرح)	(٨)	(٢٩)	(١٠٣)	(مكية)

(٩٥)	(التين)	(٨)	(٣٤)	(١٥٠)	(مكية)
(٩٦)	(العلق)	(١٩)	(٧٢)	(٢٧٠)	(مكية)
(٩٧)	(القدر)	(٥)	(٣٠)	(١٢١)	(مكية)
(٩٨)	(البيّنة)	(٨)	(٩٤)	(٣٩٠)	(مدنية)
(٩٩)	(الزلزلة)	(٩)	(٣٥)	(١٤٩)	(مدنية)
(١٠٠)	(العاديات)	(١١)	(٤٠)	(١٦٣)	(مكية)
(١٠١)	(القارعة)	(١٠)	(٣٦)	(١٥٢)	(مكية)
(١٠٢)	(التكاثر)	(٨)	(٢٨)	(١٢٠)	(مكية)
(١٠٣)	(العصر)	(٣)	(١٤)	(٦٨)	(مكية)
(١٠٤)	(الهمزة)	(٩)	(٨٤)	(١٦١)	(مكية)
(١٠٥)	(الفيل)	(٥)	(٢٣)	(٩٦)	(مكية)
(١٠٦)	(قريش)	(٤)	(١٧)	(٧٣)	(مكية)
(١٠٧)	(الماعون)	(٧)	(٢٥)	(١٢٣)	(مكية)
(١٠٨)	(الكوثر)	(٣)	(١٠)	(٤٢)	(مكية)
(١٠٩)	(الكافرون)	(٦)	(٢٦)	(٧٤)	(مكية)
(١١٠)	(النصر)	(٣)	(٢٣)	(٧٩)	(مدنية)
(١١١)	(المسد)	(٥)	(٢٣)	(٧٧)	(مكية)
(١١٢)	(الإخلاص)	(٤)	(١٥)	(٤٧)	(مكية)
(١١٣)	(الفلق)	(٥)	(٢٣)	(٧٤)	(مدنية)
(١١٤)	(الناس)	(٦)	(٢٠)	(٩٩)	(مدنية)

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

وهذا آخر ما بشرني الله سبحانه بانتهائه بعدما وفقني بابتدائه، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والشكر له على ما حبانا شكراً يوافي ما أولانا، ويكافىء ما يزاد لنا، وأسأله أن يديم نفعه بين عباده، ويرد عنه جدل منكره وجاحده، ويطمس عنه عين كائده وحاسده، خصوصاً في هذا الزمان الذي بُدل نعيمه بؤساً، وعُدَّ جيِّده منحوساً، قد ملأ الحسد من أهله جميع الجسد، وقادهم الغرور بحبل من مسد، فما أحسن قول من قال:

إنْ يَسْمَعُوْا سُبَّةً طَارُوْا بِهَا فَرَحَاً مِنِّيْ وَمَا سَمِعُوْا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوْا
صُمٌّ إِذَا سَمِعُوْا خَيْرَاً ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوْا

أو من قال:

إنْ يَعْلَمُوْا ٱلْخَيْرَ أَخْفَوْهُ وَإِنْ عَلِمُوْا شَرَّاً أَذَاعُوْا وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوْا كَذَبُوْا

اللهم كما مننت علي بإكمال هذا التفسير المبارك، وأعنتني على تحصيله، وتفضلت علي بالفراغ منه بعد مدة مديدة، فامنن علي بقبوله، واجعله لي ذخيرة خير عندك بمنك وكرمك وجودك، وأجزل لي المثوبة بما لاقيته في جمعه وكتابته من التعب والنصب، وانفع به من تلقاه بالقبول، وقصد الانتفاع منه من عبادك؛ ليدوم لي الانتفاع به بعد موتي، فإن هذا هو المقصد المهم من تأليفه، واجعله خالصاً لوجهك الكريم، وتجاوز عني ما خطر لي من خواطر السوء مما يخالف الإخلاص، واغفر لي ما لا يطابق مرادك من معاني كتابك، فإني لم أقصد في جمع أبحاثي فيه إلا إصابة الحق وموافقة ما ترضاه فإن أخطأت فأنت غافر الخطيات، ومسبل ذيل الستر على الهفوات.

بِٱلذُّلِّ قَدْ وَافَيْتُ بَابَكَ عَالِمَاً إِنَّ ٱلتَّذَلُّلَ عِنْدَ بَابِكَ يَنْفَعُ
اِجْعَلْ لِيَا مِنْ كُلِّ خَطْأٍ مَخْرَجَا وَٱسْمَحْهُ لِيْ يَا مَنْ إِلَيْهِ ٱلْمَفْزَعُ
مَالِيْ سِوَىٰ قَرْعِيْ لِبَابِكَ حِيْلَةٌ وَلَئِنْ رُدِدْتُ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ

والمرجو ممن صرف وجهه إليه بعين الرضا والرغبة لديه أن يصلح خطأه وسقطته، ويزيل زلله وهفوته بعد المراجعة والتأمل والإمعان، لا بمجرد النظر والعِيان؛ لأن الإنسان مركز الجهل والخطأ والنسيان، ولا سيما حليف البله والبلاهة

والتوان؛ ليكون ممن يدفع السيئة بالحسنة، لا ممن يجازي بالسيئة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

وَإِنِّـي وَإِنْ كُنْـتُ أَخِـيْـراً زَمَـانُـهُ ... فَقَدْ جَمَعْتُ فِيْهِ مَا لَمْ يَجْمَعِ ٱلأَوَائِلُ

عَلَّمَنا الله وإياكم علوم السالفين، وجنبنا وإياكم زيوف الخالفين، وما أحسن قول من قال:

وَكُـلُّ خَـيْـرٍ فِـيْ ٱتِّـبَـاعِ مَـنْ سَـلَـفْ ... وَكُـلُّ شَـرٍّ فِـيْ ٱبْـتِـدَاعِ مَـنْ خَـلَـفْ

وأدبنا وإياكم بآداب الأخيار، وأذاقنا وإياكم كؤوس المعارف والأسرار، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وأرحم الراحمين.

وما ألطف قول من قال في نداء ربه تعالى:

يَـا رَبِّ يَـا رَبِّ يَـا مَـنْ لاَ شَـرِيْـكَ لَـهُ ... يَا سَامِعَ ٱلصَّوْت يَا مَنْ جَلَّ عَنْ صَمَمِ

يَـا رَبِّ يَـا رَبِّ يَـاذَا ٱلْـجُـوْدِ يَـا أَمَـلِـيْ ... يَاذَا ٱلْجَلاَلِ وَيَاذَا ٱللُّطْفِ فِيْ ٱلأُمَمِ

اللهم ربنا يا ربنا تقبل منا أعمالنا، وأصلح لنا أقوالنا، وأفعالنا إنك أنت الكافي الحسيب، والقريب المجيب، وأحمدك يا ربي، لا أُحصي حمداً لك، وأشكرك لا أستقصي شكراً لك أنت كما أثنيت على نفسك، وأصلي وأسلم على رسولك وحبيبك محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، آمين آمين يا رب ألف ألف آمين.

حَـمْـداً لِـرَبِّـنَـا عَـلَـىٰ جَـمْـعِـهِ ... ثُـمَّ غُـفْـرَانُـهُ لِـمُـؤَلِّـفِـهِ

وَلِـنَـاشِـرِهِ وَطَـابِـعِـهِ ... وَلِـقَـارِئِـهِ وَسَـامِـعِـهِ

وَلِـوَالِـدَيْـهِ وَكُـلِّ مَـنْ ... إِلَـيْـهِ ٱنْـتَـمَـىٰ مِـنْ ذُرِّيَّـتِـهِ

وَلِـمَـشَـايِـخِـهِ وَكُـلِّ مَـنْ ... أَسْـدَىٰ لَـهُ ٱلإِسْـعَـافَ فِـيْ تَـعَـلُّـمِـهِ

ثُـمَّ صَـلاَةُ ٱلـلَّـهِ عَـلَـىٰ حِـبِّـهِ ... مُـحَـمَّـدٍ وَآلِـهِ وَصَـحْـبِـهِ

آخر

جَزَىٰ ٱللَّهُ خَيْراً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ ... وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ

وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ ... وَفِطْنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخر

يَا قَارِىءَ ٱلْخَطِّ وَٱلْعَيْنَانِ تَنْظُرُهُ   لاَ تَنْسَ صَاحِبَهُ بِٱللَّهِ وَٱذْكُرُهُ
وَهَبْ لَهُ دَعْوَةً لِلَّهِ خَالِصَةً   لَعَلَّهَا فِيْ صُرُوْفِ ٱلدَّهْرِ تَنْفَعُهُ

شعر آخر

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْمَأْمُوْلُ فِيْ كُلِّ حَاجَةٍ   إِلَيْكَ شَكَوْتُ ٱلضُّرَّ فَٱرْحَمْ شِكَايَتِيْ
أَلاَ يَا رَجَائِيْ أَنْتَ كَاشِفُ كُرْبَتِيْ   فَهَبْ لِيْ ذُنُوْبِيْ كُلَّهَا وَٱقْضِ حَاجَتِيْ
فَزَادِيْ قَلِيْلٌ مَا أَرَاهُ مُبَلِّغِيْ   عَلَىٰ ٱلزَّادِ أَبْكِيْ أَمْ لِبُعْدِ مَسَافَتِيْ
أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ رَدِيْئَةٍ   وَمَا فِيْ ٱلْوَرَىٰ خَلْقٌ جَنَىٰ كَجِنَايَتِيْ

* * *

إِلَىٰ هُنَا وَقَفَتِ ٱلْحَدَائِقْ   مُبَشِّرَةً بَفَكِّ الدَّقَائِقْ
يَا لَهَا جَوْهَرَةٌ مَكْنُوْنَةٌ   فِيْ صَدَفِهَا دُرَّةٌ مَصُوْنَةٌ
وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ إِفْضَالِهِ   وَٱلشُّكْرُ لِلْمَوْلَىٰ عَلَىٰ إِكْمَالِهِ

الفهرس